# الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد الثالث والثلاثون

الاجزاء من ٦٣٦ الى ٦٥٦

# اَلْحَاوِي فِي اَلتَّفْسِيرْ

الشيخ عبد الرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝

# بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ ❋

# محتويات الكتاب


| الجزء | الموضوع | الموضوع الفرعي | الصفحة |
|---|---|---|---|
| 636 | سورة سبأ | الآية 34 الى الآية 49 | 2 |
| 637 | = | الآية 50 الى الآية 54 | 244 |
| 638 | سورة فاطر | فصول مهمة | 778 |
| 639 | = | الآية 1 الى الآية 11 | 1008 |
| 640 | = | الآية 12 الى الآية 14 | 1291 |
| 641 | = | الآية 15 الى الآية 35 | 1581 |
| 642 | = | الآية 36 الى الآية 43 | 2207 |
| 643 | = | الآية 44 الى الآية 45 | 2368 |
| 644 | سورة يس | فصول مهمة | 2813 |
| 645 | = | الآية 1 الى الآية 27 | 3146 |
| 646 | = | الآية 28 الى الآية 44 | 3678 |
| 647 | = | الآية 45 الى الآية 59 | 4087 |
| 648 | = | الآية 60 الى الآية 76 | 4472 |
| 649 | = | الآية 77 الى الآية 83 | 4756 |
| 650 | سورة الصافات | فصول مهمة | 5267 |
| 651 | = | الآية 1 الى الآية 49 | 5625 |
| 652 | = | الآية 50 الى الآية 82 | 6042 |
| 653 | = | الآية 83 الى الآية 102 | 6585 |
| 654 | = | الآية 103 الى الآية 113 | 6810 |
| 655 | = | الآية 114 الى الآية 170 | 7031 |
| 656 | = | الآية 171 الى الآية 182 | 7436 |

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والثلاثون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السادس والثلاثون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 34 ﴾ من سورة سبأ

وحتى الآية ﴿ 49 ﴾ من نفس السورة

(4/636)

---

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (36) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (37) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (38) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان في هذا تسلية أخروية ، أتبعه التسلية الدنيوية ، فقال عطفاً على ما تقديره : وما أرسلنا غيرك إلا إرسالاً خاصاً لأمته ، عطفاً على ﴿ ما أرسلناك إلا كافة ﴾ وساقه مؤكداً لأنه مضمونه - لكونه في غاية الغرابة - مما لا يكاد يصدق : ﴿ وما أرسلنا ﴾ أي

بعظمتنا ولما كان المقصود التعميم ، لأنه لم يتقدم قول قريش ليخص التسلية بمن قبلهم ، أسقط القبلية بخلاف ما في سورة الزخرف فقال : ﴿ في قرية ﴾ وأكد النفي بقوله : ﴿ من نذير ﴾ أي ينذرهم وخامة ما أمامهم من عوقب أفعالهم ، ودل بإفراده عن البشارة أن غالب الأمم الماضية من أهل النذارة لتظهر مزية هذه الأمة ، ولعله عبر به إشارة إلى الناسخين للشرائع التي قبلهم دون المجددين من أنبياء بني إسرائيل فإن بعضهم لم يكذب ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ أي العظماء الذين لا شغل لهم إلا التنعم بالفاني حتى أكسبهم البغي والطغيان : ﴿ إنا بما أرسلتم به ﴾ أي أيها المنذرون ﴿ كافرون ﴾ أي وإذا قال المنعمون ذلك تبعهم المستضعفون فإذا وقفوا عندنا تقاولوا بما تقدم ثم لم ينفعهم ذلك ﴿ وقالوا ﴾ مفاخرين ودالين على أنهم فائزون كما قال لك هؤلاء كأنهم تواصلوا به : ﴿ نحن أكثر ﴾ .
ولما كانت الأموال في الأغلب سبباً لكثرة الأولاد بالاستكثار من النساء الحرائر والإماء ، قدمها فقال : ﴿ أموالاً وأولاداً ﴾ أي في هذه الدنيا ، ولو لم يرض منا ما نحن عليه ما رزقنا ذلك ﴿ وما نحن ﴾ أي الآن ﴿ بمعذبين ﴾ أي بثابت عذابنا ، وإنما تعرض لنا أحوال خفيفة من مرض وشدائد هي أخف من أحوالكم ، وحالياً الآن دليل على حالنا فيما يستقبل من الزمان كائناً ما كان ، فإن الحال نموذج المآل ، والأول دليل الآخر ، فإن كان ثَم آخرة كما تقولون فنحن أسعد منكم فيها كما نحن أسعد منكم الآن ، ولم تنفعهم قصة سبأ

في ذلك فإنهم لو تأملوا لكفتهم ، وأنارت أبصار بصائرهم ، وصححت أمراض قلوبهم وشفتهم ، فإنهم كانوا أحسن الناس حالاً ، فصاروا أقبحهم مآلاً .

(5/636)

---

ولما كانت لشبهتهم هذه شعبتان تتعلق إحداهما بالذات والأخرى بالثمرات ، بدأ بالأولى لأنها أهم ، فقال مؤكداً تكذيباً لمن يظن أن سعيه يفيد في الرزق شيئاً لولا السعي ما كان : ﴿ قل ﴾ يا أكرم الخلق على الله ! مؤكداً لأجل إنكارهم لأن يوسع في الدنيا على من لا يرضى فعله : ﴿ إن ربي ﴾ أي المحسن إليّ بالإنعام بالسعادة الباقية ﴿ يبسط الرزق ﴾ أي يجدده في كل وقت أراده بالأموال والأولاد وغيرها ﴿ لمن يشاء ويقدر ﴾ أي يضيق على من يشاء منكم أن يكون جميع الموسع عليهم على ما هو حق عنده ومرضى له ، لاختلافهم في الأصول وتكفير بعضهم لبعض ، فإن الله معذب بعضهم لا محالة ، فبطلت شبهتهم ، وثبت أنه يفعل ما يشاء ابتلاء وامتحاناً ، فلا يدل البسط على الرضى ولا القبض على السخط - على ما عرف من سنته في هذه الدار ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ أي الذين لم يرتفعوا عن حد النوس والاضطراب ﴿ لا يعلمون ﴾ أي ليس لهم علم ليتدبروا به ما ذكرنا من الأمر فيعلموا أنه ليس كل موسع عليه في دنياه سعيداً في عقباه .

ولما هدم ما بالذات ، أتبعه ما بالثمرات ، فقال مؤكداً تكذيباً لدعواهم : ﴿ وما أموالكم ﴾ أي أيها الخلق الذين أنتم من جملتهم وإن كثرت ، وكرر النافي تصريحاً بإبطال كل على حياله فقال : ﴿ ولا أولادكم ﴾ كذلك ، وأثبت الجار تاكيداً للنفي فقال واصفاً الجمع المكسر بما هو حقه من التأنيث : ﴿ بالتي ﴾ أي بالأموال والأولاد التي ﴿ تقربكم عندنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة بتصرفاتكم فيها بما يكسب المعالي ﴿ زلفى ﴾ أي درجة علية وقربة مكينة قال البغوي : قال الأخفش : هي اسم مصدر كأنه قال : تقريباً ، ثم استثنى من ضمير الجمع الذي هو قائم مقام أحد ، فكأنه قيل : لا تقرب أحداً ﴿ إلا من ﴾ أو يكون المعنى على حذف مضاف أي إلا أموال وأولاد من ﴿ آمن ﴾ أي منكم ﴿ وعمل ﴾ تصديقاً لإيمانه على ذلك الأساس ﴿ صالحاً ﴾ أي في ماله بإنفاقه في سبيل الله وفي ولده بتعليمه الخير .

(6/636)

---

ولما منّ على المصلحين من المؤمنين في أموالهم وأولادهم بأن جعلها سبباً لمزيد قربهم ، دل على ذلك بالفاء في قوله : ﴿ فأولئك ﴾ أي العالو الرتبة ﴿ لهم جزاء الضعف ﴾ أي بأن يأخذوا جزاءهم مضاعفاً في نفسه من عشرة أمثال إلى ما لا نهاية له ، ومضاعفاً بالنسبة

إلى جزاء من تقدمهم من الأمم ، والضعف : الزيادة ﴿ بما عملوا ﴾ فإن أعمالهم ثابتة محفوظة بأساس الإيمان ﴿ وهم في الغرفات ﴾ أي العلالي المبنية فوق البيوت في الجنان ، زيادة على ذلك ﴿ آمنون ﴾ أي ثابت أمنهم دائماً ، لا خوف عليهم من شيء من الأشياء أصلاً ، وأما غيرهم وهم المرادون بما بعده فأموالهم وأولادهم وبال عليهم .

ولما كان في سياق الترغيب في الإيمان بعد الإخبار بأنه بشير ونذير قال معبراً بالمضارع بياناً لحال من يبعده ماله وولده من الله : ﴿ والذين يسعون ﴾ أي يجددون السعي من غير توبة بأموالهم وأولادهم ﴿ في آياتنا ﴾ على ما لها من عظمة الانتساب إلينا ﴿ معاجزين ﴾ أي طالبين تعجيزها أي تعجيز الآتين بها عن إنفاذ مراداتهم بها بما يلقونه من الشبه فيضلون غيرهم بما أوسعنا عليهم وأعززناهم به من الأموال والأولاد .

ولما كان سبحانه قد بت الحكم بشقاوتهم ، وأنفذ القضاء بخسارتهم ، أسقط فاء السبب إعراضاً عن أعمالهم وقال : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ في العذاب ﴾ أي المزيل للعدوية ﴿ محضرون ﴾ أي يحضرهم فيه الموكلون بهم من جندنا على أهون وجه وأسهله وهم داخرون ، قال القشيري : إن هؤلاء هم الذين لا يحترمون الأولياء ولا يراعون حق الله في السر ، فهم في عذاب الاعتراض على أولياء الله وعذاب الوقوع بشؤم ذلك في ارتكاب محارم الله ثم في عذاب السقوط من عين الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 186.184 ﴾

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) ﴾

تسلية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم وبيانا ًلأن إيذاء الكفار الأنبياء الأخيار ليس بدعاً ، بل ذلك عادة جرت من قبل وإنما نسب القول إلى المترفين مع أن غيرهم أيضاً قالوا : ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ لأن الأغنياء المترفين هم الأصل في ذلك القول ، ألا ترى أن الله قال عن الذين استضعفوا إنهم قالوا للمستكبرين لولا أنتم لكانوا مؤمنين ، ثم استدلوا على كونهم مصيبين في ذلك بكثرة الأموال والأولاد فقالوا : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أموالا وأولادا ﴾ أي بسبب لزومنا لديننا ، وقوله : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أي في الآخرة كأنهم قالوا حالنا عاجلاً خير من حالكم ، وأما آجلاً فلا نعذب إما إنكاراً منهم للعذاب رأساً أو اعتقاداً لحسن حالهم في الآخرة أيضاً قياساً [ على حسن حالهم في الدنيا ]

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (36)

يعني أن الرزق في الدنيا لا تدل سعته وضيقه على حال المحق والمبطل فكم من موسر شقي

ومعسر تقي ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي أن قلة الرزق وضنك العيش وكثرة المال وخصب العيش بالمشيئة من غير اختصاص بالفاسق والصالح.

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (37)

(8/636)

---

يعني قولكم نحن أكثر أموالاً فنحن أحسن عند الله حالاً ليس استدلالاً صحيحاً ، فإن المال لا يقرب إلى الله ولا اعتبار بالتعزز به ، وإنما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان والذي يدل عليه هو أن المال والولد يشغل عن الله فيبعد عنه فكيف يقرب منه والعمل الصالح إقبال على الله واشتغال بالله ومن توجه إلى الله وصل ومن طلب من الله شيئاً حصل ، وقوله : ﴿ فأولئك لَهُمْ جَزَاءُ الضعف ﴾ أي الحسنة فإن الضعف لا يكون إلا في الحسنة وفي السيئة لا يكون إلا المثل .

ثم زاد وقال : ﴿ وَهُمْ فِى الغرفات ءَامِنُونَ ﴾ إشارة إلى دوام النعيم وتأبيده ، فإن من تنقطع عنه النعمة لا يكون آمناً .

وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (38)

وقد ذكرنا تفسيره، وقوله: ﴿ أولئك في العذاب محضرون ﴾ إشارة إلى الدوام أيضاً كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [السجدة: 20] وكما قال تعالى: ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ [الإنفطار: 16]. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 226. 227 ﴾

*(9/636)*

---

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ قال قتادة: أي أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها وقادة الشر للرسل: ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً ﴾ أي فضّلنا عليكم بالأموال والأولاد، ولو لم يكن ربكم راضياً بما نحن عليه من الدّين والفضل لم يخوّلنا ذلك.

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ لأن من أحسن إليه فلا يعذبه، فرد الله عليهم قولهم وما احتجوا به من الغنى فقال لنبيّه صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ أي يوسعه ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يقتّر، أي إن الله هو الذي يفاضل بين عباده في الأرزاق امتحاناً لهم، فلا يدلّ شيء من ذلك على ما في العواقب، فسَعَة الرزق في الدنيا لا تدلّ على سعادة

الآخرة، فلا تظنوا أموالكم وأولادكم تغني عنكم غداً شيئًا .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ هذا لأنهم لا يتأملون.

ثم قال تأكيداً : ﴿ وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدَكُمْ بالتي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زلفى ﴾ قال مجاهد : أي قُرْبى.

والزُّلْفة القربة.

وقال الأخفش: أي إزلافاً ، وهو اسم المصدر ، فيكون موضع "قُرْبَى" نصباً ، كأنه قال بالتي تقربكم عندنا تقريباً .

وزعم الفراء أن "التي" تكون للأموال والأولاد جميعاً .

وله قول آخر وهو مذهب أبي إسحاق الزجاج، يكون المعنى : وما أموالكم بالتي تقربكم عندنا ، ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ، ثم حذف خبر الأوّل لدلالة الثاني عليه وأنشد الفراء :

نحن بما عندنا وأنت بما . . .

عندك راضٍ والرأي مُختلِفُ

ويجوز في غير القرآن : باللتين وباللاتي وباللواتي وباللَّذَين وبالّذين ؛ للأولاد خاصة ، أي لا تزيدكم الأموال عندنا رفعة ودرجة ، ولا تقرّبكم تقريباً .

﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ قال سعيد بن جبير : المعنى إلا من آمن وعمل صالحاً فلن يضره مالُه وولدُه في الدنيا .

وروى ليث عن طاوس أنه كان يقول : اللهم ارزقني الإيمان والعمل ، وجنّبني المالَ والولد ، فإني سمعت فيما أُوْحيتَ ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بالتي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زلفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ .

قلت : قول طاوس فيه نظر ، والمعنى والله أعلم : جنّبني المال والولد المطْغِيَيْن أو اللذين لا خير فيهما ؛ فأما المال الصالح والولد الصالح للرجل الصالح فنِعم هذا وقد مضى هذا في "آل عمران ومريم ، والفرقان" .

و"مَن" في موضع نصب على الاستثناء المنقطع ، أي لكن من آمن وعمل صالحاً فإيمانه وعمله يقرّبانه مني .

وزعم الزجاج أنه في موضع نصب بالاستثناء على البدل من الكاف والميم التي في "تقرّبكم" .

النحاس : وهذا القول غلط ؛ لأن الكاف والميم للمخاطب فلا يجوز البدل ، ولو جاز هذا لجاز : رأيتك زيداً .

وقول أبي إسحاق هذا هو قول الفراء ، إلا أن الفراء لا يقول بدل لأنه ليس من لفظ الكوفيين

، ولكن قوله يؤول إلى ذلك، وزعم أن مثله

﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: 89] يكون منصوباً عنده ب"ينفع".

وأجاز الفراء أن يكون "مَن" في موضع رفع بمعنى: ما هو إلا من آمن، كذا قال، ولست أحصّل معناه.

﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضعف بِمَا عَمِلُواْ ﴾ يعني قوله: ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام: 160] فالضعف الزيادة، أي لهم جزاء التضعيف، وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول.

وقيل: لهم جزاء الأضعاف، فالضعف في معنى الجمع، وإضافة الضعف إلى الجزاء كإضافة الشيء إلى نفسه، نحو: حق اليقين، وصلاة الأولى.

أي لهم الجزاء المضعّف، للواحد عشرة إلى ما يريد الله من الزيادة.

وبهذه الآية استدلّ من فضّل الغنى على الفقر.



---

وقال محمد بن كعب: إن المؤمن إذا كان غنيًّا تقيًّا آتاه الله أجره مرتين بهذه الآية.

﴿ وَهُمْ فِي الغرفات آمِنُونَ ﴾ قراءة العامة "جَزَاءُ الضِّعْفِ" بالإضافة.

وقرأ الزهري ويعقوب ونصر بن عاصم "جزاءً" منوّناً منصوباً "الضعفُ" رفعاً ؛ أي فأولئك لهم الضعف جزاء ، على التقديم والتأخير .

"وَجَزَاءُ الضِّعْفِ" على أن يجازوا الضعف .

و"جزاءُ الضعفُ" مرفوعان ، الضعفُ بدل من جزاء .

وقرأ الجمهور أيضاً "في الغُرُفَات" على الجمع ، وهو اختيار أبي عبيد ؛ لقوله : ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الجنة غُرَفَاً ﴾ [ العنكبوت : 58 ] .

الزمخشري : وقرئ "فِي الغرفاتِ" بضم الراء وفتحها وسكونها .

وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب وحمزة وخلف "في الغرفة" على التوحيد ؛ لقوله تعالى : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة ﴾ [ الفرقان : 75 ] .

والغرفة قد يراد بها اسم الجمع واسم الجنس .

قال ابن عباس : هي غرف من ياقوت وزبرجد ودُرّ .

وقد مضى بيان ذلك .

﴿ آمِنُونَ ﴾ أي من العذاب والموت والأسقام والأحزان .

﴿ والذين يَسْعَوْنَ في آيَاتِنَا ﴾ في إبطال أدلتنا وحجتنا وكتابنا .

﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ معانِدين ، يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم .

﴿ أولئك فِي العذاب مُحْضَرُونَ ﴾ أي في جهنم تحضرهم الزبانية فيها . انتهى ا .

هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(12/636)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ ﴾ من القُرى ﴿ مّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ تسليةٌ لرّسولِ الله صلى الله عليه وسلم ممَّا مُنِّي به من قومِه من التَّكذيبِ والكُفرِ بما جاء به والمنافسة بكثرةِ الأموالِ والأولادِ والمفاخرة بحظوظِ الدُّنيا وزخارفِها والتَّكبرِ بذلك على المُؤمنين والاستهانةِ بهم من أجلِه وقولهم : ( أي الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ نَدِيّاً ) بأنَّه لم يُرسل قط إلى أهلِ قريةٍ من نذيرٍ إلاَّ قال مُترفوهم مثلَ ما قال مُترفو أهلِ مكَّةَ في حقّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وكادُوا به نحوَ ما كادُوا به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقاسوا أمورَ الآخرةِ الموهومةِ والمفروضةِ عندهم على أمورِ الدُّنيا وزعموا أنَّهم لو لم يَكْرُموا على الله تعالى لَمَا رَزَقهم طيبّاتِ الدُّنيا ولولا أنَّ المؤمنينَ هانُوا عليهِ تعالى لَمَا حرمُهموها وعلى ذلك الرأيِّ الرَّكيكِ بنَوَا أحكامَهم .

(13/636)

﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أموالا وأولادا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ إمّا بناءً على انتفاءِ العذابِ الأُخرويّ رأساً أو على اعتقادِ أنَّه تعالى أكرمَهم في الدُّنيا فلا يُهينهم في الآخرة على تقديرِ وقوعِها ﴿ قُلْ ﴾ ردّاً عليهم وحسماً لمادّةِ طمعِهم الفارغِ وتحقيقاً للحقّ الذي عليه يدورُ أمرُ التّكوين ﴿ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ أنْ يبسطَه له ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ على مَن يشاءُ أنْ يقدرَه عليه من غيرِ أنْ يكونَ لأحدِ الفريقينِ داعٍ إلى ما فُعل به من البسطِ والقَدْرِ فربُّما يُوسّعُ على العاصِي ويُضيّقُ على المطيعِ وربَّما يُعكس الأمرُ وربُّما يُوسّع عليهما معاً وقد يُضيّق عليهما وقد يُوسّع على شخصٍ تارةً ويُضيّق عليه أخرى يفعل كلاًّ من ذلك حسبما تقتضيهِ مشيئته المبنيّة على الحِكَمِ البالغةِ فلا يُقاس على ذلك أمرُ الثّوابِ والعذابِ اللّذينِ مناطُهما الطّاعةُ وعدمُها وقُرِىءَ ويُقدِّر بالتّشديدِ ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فيزعمون أنَّ مدارَ البسطِ هو الشّرفُ والكرامةُ ومدارَ القَدْرِ هو الهوانُ ولا يدرون أنَّ الأوّلَ كثيراً ما يكونُ بطريقِ الاستدراجِ والثّاني بطريقِ الابتلاءِ ورفعِ الدّرجاتِ ﴿ وَمَا أموالكم وَلاَ أولادكم بالتى تُقَرّبُكُمْ عِندَنَا زلفى ﴾ كلام مستأنفٌ من جهته عزَّ وعلا خُوطب به النّاسُ بطريقِ التّلوينِ والالتفاتِ مبالغةً في تحقيقِ الحقّ وتقريرِ ما سبق أي وما جماعةُ أموالِكم وأولادِكم بالجماعةِ التي تُقربكم عندنا قُربةً فإنَّ الجمعَ المكسّرَ عقلاؤُه وغيرُ عقلائه سواءٌ في حكم التأنيث أو بالخصلة التي تقرّبكم. وقُرِىءَ بالذّي أيْ بالشّيءِ

الذي ﴿ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ استثناءٌ من مفعول تقربكم أي وما الأموالُ والأولادُ تقرِّبُ أحداً إلا المؤمنَ الصَّالحَ الذي أنفقَ أموالَه في سبيلِ الله تعالى

(14/636)

---

وعلَّم أولادَه الخيرَ وربَّاهم على الصَّلاحِ ورشَّحهم للطَّاعةِ وقيل : من أموالِكم وأولادِكم على حذفِ المضافِ أي إلاَّ أموالَ من الخ ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى مَن والجمعُ باعتبارِ معناها كما أنَّ الإفرادَ في الفعلينِ باعتبارِ لفظِها ، وما فيه من معنى البُعد مع قُربِ العهد بالمشارِ إليه للإيذانِ بعلوِّ رتبتِهم وبُعد منزلتِهم في الفضلِ أي فأولئكَ المنعوتُون بالإيمانِ والعملِ الصَّالحِ ﴿ لَهُمْ جَزَاء الضعف ﴾ أي ثابتٌ لهم ذلك على أنَّ الجارَّ والمجرورَ خبرٌ لما بعده والجملة خبرٌ لأولئك وفيه تأكيدٌ لتكررِ الإسنادِ أو يثبت لهم ذلك على أنَّ الجارَّ والمجرورَ خبرٌ لأولئك وما بعدَهُ مرتفعٌ على الفاعليةِ وإضافة الجزاءِ إلى الضِّعفِ من إضافة المصدرِ إلى المفعولِ أصله فأولئك لهم أنْ يجازوا الضِّعفَ ثم جزاءَ الضِّعفِ ثمَّ جزاءَ الضِّعفِ ومعناه أنْ تضاعفَ لهم حسناتهم الواحدةُ عشراً فما فوقَها وقُرىء جزاءً الضِّعفُ أي فأولئك لهم الضِّعفُ جزاءً وجزاءٌ الضِّعفَ على أنْ يجازوا الضِّعفَ وجزاءٌ الضِّعفُ بالرفع على أنَّ الضِّعفُ بدلٌ من جزاءٌ ﴿ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ من الصَّالحاتِ ﴿ وَهُمْ فِى الغرفات ﴾

أي غرفات الجنّة ﴿ ءامِنُونَ ﴾ من جميع المكارِه .

وقُرىء بفتح الرّاَءِ وسكونِها . وقُرىء في الغُرفةِ على إرادةِ الجنسِ .

﴿ والذين يَسْعَوْنَ فِى ءاياتنا ﴾ بالردّ والطّعنِ فيها ﴿ معاجزين ﴾ سابقينَ لأنبيائِنا أو زاعمينَ أنَّهم يفوتوننا ﴿ أُوْلَئِكَ فِى العذاب مُحْضَرُونَ ﴾ لا يجديهم ما عوّلوا عليه نَفْعاً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(15/636)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ ﴾

من القرى ﴿ مّن نَّذِيرٍ ﴾ أي نذيراً من النذر ﴿ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ أي المتوسعون في النعم فيها ، والجملة في موضع الحال ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ بزعمكم من التوحيد وغيره ، والجار الثاني متعلق بما عنده والأول متعلق بقوله تعالى : ﴿ كافرون ﴾ وهو خبر إن ، وظاهر الآية أن مترفي كل قرية قالوا لرسولهم ذلك وعليه فالجمع في أرسلتم للتهكم ، وقيل : لتغليب المخاطب على جنس الرسل أو على اتباعه المؤمنين به ، وقال بعض الأجلة .

الكلام من باب مقابلة الجمع بالجمع فقيل الجمع الأول الرسل المدلول عليه بقوله تعالى : ﴿

أُرْسِلْتُمْ ﴾ والثاني ﴿ كافرون ﴾ فقد كفر كل برسوله وخاطبه بمثله فلا تغليب في الخطاب في أرسلتم، وقيل: الجمع الأول ﴿ نَّذِيرٍ ﴾ لأنه يفيد العموم في الحكاية لا المحكي لوقوعه في سياق النفي، وليس كل قوم منكراً لجميع الرسل فحمل على المقابلة، والكلام مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ابتلى به من مخالفة مترفي قومه وعداوتهم لع عليه الصلاة والسلام، وتخصيص المترفين بالتكذيب لأنهم في الأغلب أول المكذبين للرسل عليهم السلام لما شغلوا به من زخرفة الدنيا وما غلب على قلوبهم منها فهم منهمكون في الشهوات والاستهانة بمن لم يحظ منها بخلاف الفقراء فإن قلوبهم لخلوها من ذلك أقبل للخير ولذلك تراهم أكثر إتباع الأنبياء عليهم السلام كما جاء في حديث هرقل.

﴿ وَقَالُواْ ﴾ الضمير للمترفين الذين تقدم ذكرهم، وقيل: لقريش، والظاهر المتبادر هو الأول، والمراد حكاية ما شجعهم على الكفر بما أرسل به المنذرون أي وقال المترفون:

(16/636)

---

﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أموالا وأولادا ﴾ أي أموالنا وأولادنا كثيرة جداً فأفعل للزيادة المطلقة، وجوز بقاؤه على ما هو الأكثر استعمالاً والمفضل عليه محذوف أي نحن أكثر منكم أموالاً وأولاداً ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ بشيء من أنواع العذاب الذي يكدر علينا لذة كثرة

الأموال والأولاد من خوف الملوك وقهر الأعداء وعدم نفوذ الكلمة والكد في تحصيل المقاصد ونحو ذلك ، وإيلاء الضمير حرف النفي للإشارة إلى أن المخاطبين أو المؤمنين ليسوا كذلك ، وحاصل قولهم نحن في نعمة لا يشوبها نقمة وهو دليل كرامتنا على الله عز وجل ورضاه عنا فلو كان ما نحن عليه من الشرك وغيره مما تدعونا إلى تركه مخالفاً لرضاه لما كنا فيما كنا فيه من النعمة ، ويجوز أن يكونوا قد قاسوا أمور الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمور الدنيا وزعموا أن المنعم عليه في الدنيا منعم عليه في الآخرة ، وإلى هذا الوجه ذهب جمع وقالوا : نفى كونهم معذبين إما بناء على انتفاء العذاب الأخروي رأساً وإما بناء على اعتقاد أنه تعالى أكرمهم في الدنيا فلا يهينهم في الآخرة على تقدير وقوعها ، وقال الخفاجي في وجه إيلاء الضمير حرف النفي : إنه إشارة إلى أن المؤمنين معذبون استهانة بهم لظنهم أن المال والولد يدفع العذاب عنهم كما قاله بعض المشركين ، وأنت تعلم أن الأظهر عليه التفريع ، وذهب أبو حيان إلى أن المراد بالعذاب عنهم كما قاله بعض المشركين ، وأنت تعلم أن الأظهر عليه التفريع ، وذهب أبو حيان إلى أن المراد بالعذاب المنفي أعم من العذاب الأخروي والعذاب الدنيوي الذي قد ينذر به الأنبياء عليهم السلام ويتوعدون به قومهم إن لم يؤمنوا بهم ، ولعل ما ذكرناه أولاً أنسب بالمقام فتأمل جداً .

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (36)

﴿ قُلْ ﴾ رداً لما زعموه من أن ذلك دليل الكرامة والرضا ﴿ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ أن يبسطه له ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ على من يشاء أن يقدره عليه فربما يوسع سبحانه على العاصي ويضيق على المطيع وربما يعكس الأمر وربما يوسع عليهما معاً وقد يضيق عليهما معاً وقد يوسع على شخص مطيع أو عاص تارة ويضيق عليه أخرى يفعل كلاً من ذلك حسبما تقتضيه مشيئته عز وجل المبنية على الحكم البالغة فلو كان البسط دليل الإكرام والرضا لاختص به المطيع وكذا لو كان التضييق دليل الإهانة والسخط لاختص به العاصي وليس فليس ، والحاصل كما قيل منع كون ذلك دليلاً على ما زعموا لاستواء المعادي والموالي فيه ، وقال جمع : أريد أنه تعالى يفعل ذلك حسب مشيئته المبنية على الحكم فلا ينقاس عليه أمر الثواب والعقاب اللذين مناطهما الطاعة وعدمها ، وقال ناصر الدين : لو كان ذلك لكرامة أو هوان يوجبانه لم يكن بمشيئته تعالى ، وهو مبني على أن الإيجاب ينافي الاختيار والمشيئة وقد قال به الخفاجي أخذاً من كلام مولانا جلال الدين ورد به على من رد ، ولا يخفى أن دعوى المترفين الإيجاب على الله تعالى فيما هم فيه من بسط الرزق وكذا فيما فيه أعداؤهم من تضييقه غير ظاهرة حتى يرد عليهم بإثبات المشيئة التي لا تجامع الإيجاب ، وقرأ الأعمش ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ مشدد هنا وفيما بعد ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فمنهم من يزعم أن مدار البسط الشرف والكرامة ومدار التضييق الهوان

والحقارة ، ومنهم من تحير واعترض على الله تعالى في البسط على أناس والتضييق على آخرين حتى قال قائلهم :

كم عالم عالم أعيت مذاهبه . . .

وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً

هذا الذي ترى الأفهام حائرة . . .

وصير العالم النحرير زنديقا

وعنى هذا القائل بالعالم النحرير نفسه ، ولعمري أنه بوصف الجاهل البليد أحق منه بهذا الوصف فالعالم النحرير من يقول :

ومن الدليل على القضاء وحكمه . . .

(18/636)

---

بؤس اللبيب وطيب عيشي الأحمق

﴿ وَمَا أموالكم وَلاَ أَولادكم بالتى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زلفى ﴾

كلام مستأنف من جهته عز وجل خوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغة في تحقيق الحق وتقرير ما سبق كذا في "إرشاد العقل السليم" ، وجوز أن يكون ما تقدم لنفي

أن يكون القرب والكرامة مداراً وعلة لكثرة الرزق وهذا النفي أن تكون كثرة الرزق سبباً للقرب والكرامة ويكون الخطاب للكفرة، والتي واقع على الأموال والأولاد، وحيث أن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث وكان المجموع بمعنى جماعة صح الأفراد والتأنيث أي وما جماعة أموالكم وأولادكم بالجماعة التي تقربكم عندنا قربة، ولا حاجة إلى تقدير مضاف في النظم الكريم، وما ذكر تقدير معنى لا إعراب، وعن الزجاج أن في الكلام حذفاً في أوله لدلالة ما في آخره والتقدير وما أموالكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ولا أولادكم بالتي الخ، وأنت تعلم أنه لا حاجة إليه أيضاً، وجوز أن تكون التي صفة لموصوف مفرد مؤنث تقديره بالتقوى أو بالخصلة التي، وجوز الزمخشري أن تكون التي كناية عن التقوى لأن المقرب إلى الله تعالى ليس إلا تلك أي وما أموالكم ولا أولادكم بتلك الموضوعة للتقريب.

وقرأ الحسن ﴿ باللاتي ﴾ جمعاً وهو راجع للأموال والأولاد كالتي على ما سمعت أولاً.

وقرىء ﴿ ءامَنُواْ بالذى ﴾ أي بالشيء الذي يقربكم.

وزلفى مصدر كالقربى وانتصابه على المصدرية من المعنى.

وقرأ الضحاك ﴿ زلفا ﴾ بفتح اللام وتنوين الفاء جمع زلفة وهي القربة ﴿ يَعْلَمُونَ وَمَا أموالكم وَلاَ أولادكم بالتى ﴾ استثناء من مفعول ﴿ تُقَرّبُكُمْ ﴾ على ما ذهب إليه جمع وهو استثناء متصل إذا كان الخطاب عاماً للمؤمنين والكفرة ومنقطع إذا كان خاصاً

بالكفرة فالموصول في محل نصب أو رفع على أنه مبتدأ ما بعده خبره أو خبره مقدر أي لكن من آمن وعمل صالحاً فإيمانه وعمل يقربانه .

(19/636)

---

واستظهر أبو حيان الانقطاع ، وقال في "البحر" إن الزجاج ذهب إلى بدليته من المفعول المذكور وغلطه النحاس بأن ضمير المخاطب لا يجوز الإبدال منه فلا يقال رأيتك زيداً ، ومذاهب الأخفش .

والكوفيين أنه يجوز أن يبدل من ضميري المخاطب والمتكلم لكن البدل في الآية لا يصح ألا ترى أنه لا يصح تفريغ الفعل الواقع صلة لما بعد إلا فلو قلت ما زيد بالذي يضرب إلا خالداً لم يصح اه .

وذكر بعض الأجلة أن جعله استثناء من المفعول لا يصح على جعل التي كناية عن التقوى لأنه يلزم أن تكون الأموال والأولاد تقوى في حق غير من آمن وعمل صالحاً لكنها غير مقربة ، وقيل لا بأس بذلك إذ يصح أن يقال وما أموالكم ولا أولادكم بتقوى إلا المؤمنين ، وحاصله أن المال والولد لا يكونان تقوى ومقربين لأحد إلا للمؤمنين ، وإذا كان الاستثناء منقطعاً صح واتضح ذلك ، وجوز أن يكون استثناء من ﴿ أموالكم وأولادكم ﴾ على حذف

مضاف أي إلا أموال من آمن وعمل صالحاً وأولادهم ، وفي هذا إذا جعل التي كناية عن التقوى مبالغة من حيث أنه جعل مال المؤمن الصالح وولده نفس التقوى .

ثم إن تقريب الأموال المؤمن الصالح بانفاقها فيما يرضى الله تعالى وتقريب الأولاد بتعليمهم الخير وتفقيههم في الدين وترشيحهم للصلاح والطاعة .

﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى من والجمع باعتبار معناها كما أن الأفراد فيما تقدم باعتبار لفظها ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل أي فأولئك المنعوتون بالايمان والعمل الصالح ﴿ لَهُمْ جَزَاءُ الضعف ﴾ أي لهم أن يجازيهم الله تعالى الضعف أي الثواب المضاعف فيجازيهم على الحسنة بعشر أمثالها أو بأكثر إلى سبعمائة فإضافة جزاء إلى الضعف من إضافة المصدر إلى مفعوله .

وقرأ قتادة : ﴿ جَزَاءُ الضعف ﴾ برفعهما فالضعف بدل ، وجوز الزجاج كونه خبر مبتدأ محذوف أي هو الضعف .

(20/636)

---

ويعقوب في رواية بنصب ﴿ جَزَاء ﴾ ورفع ﴿ الضعف ﴾ فجزاء تمييز أو حال من فاعل ﴿ لَهُمْ ﴾ أي يجزون جزاء ، وقرىء ﴿ جَزَاء ﴾ بالرفع والتنوين ﴿ الضعف ﴾

بالنصب على أعمال المصدر ﴿ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ من الصالحات ﴿ وَهُمْ فِى الغرفات ﴾

أي في غرفات الجنة ومنازلها العالية ﴿ ءامِنُونَ ﴾ من جميع المكارم الدنيوية والأخروية .

وقرأ الحسن .

وعاصم بخلاف عنه .

والأعمش .

ومحمد بن كعب ﴿ فِى الغرفات ﴾ بإسكان الراء ، وقرأ بعض القراء بفتحها ، وابن

وثاب .

والأعمش .

وطلحة .

وحمزة وخلف ﴿ فِى الغرفة ﴾ بالتوحيد وإسكان الراء ، وابن وثاب أيضاً بالتوحيد

وضم الراء والتوحيد على إرادة الجنس لأن الكل ليسوا في غرفة واحدة والمفرد أخصر مع

عدم اللبس فيه .

﴿ والذين يَسْعَوْنَ فِى ءاياتنا ﴾ بالرد والطعن فيها ﴿ معاجزين ﴾ أي بحسب زعمهم الباطل الله عز وجل أو الأنبياء عليهم السلام ، وحاصله زاعمين سبقهم وعدم قدرة الله تعالى أو أنبيائه عليهم السلام عليهم ، ومعنى المفاعلة غير مقصود ههنا ﴿ أولئك ﴾ الذي بعدت منزلتهم في الشر ﴿ فِى العذاب مُحْضَرُونَ ﴾ لا يجديهم ما عولوا عليه نفعاً ، وفي ذكر العذاب دون موضعه ما لا يخفى من المبالغة ﴿ قُلْ إِنَّ رَبّى يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ أي يوسعه سبحانه عليه تارة ويضيقه عليه أخرى فلا تخشوا الفقر وأنفقوا في سبيل الله تعالى وتقربوا لديه عز وجل بأموالكم وتعرضوا لنفحاته جل وعلا فمساق الآية للوعظ والتزهيد في الدنيا والحض على التقرب إليه تعالى بالانفاق وهذا بخلاف مساق نظيرها المتقدم فإنه للرد على الكفرة كما سمعت ، وأيضاً ما سبق عام وما هنا خاص في البسط والتضييق لشخص واحد باعتبار وقتين كما يشعر به قوله تعالى هنا ﴿ لَهُ ﴾ وعدم قوله هناك ، والضمير وإن كان في موضع من المبهم إلا أن سبق النظير خالياً عن ذلك وذكر هذا بعده مشتملاً عليه كالقرينة على إرادة ما ذكر فلا تغفل . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

(22/636)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) ﴾

اعتراض للانتقال إلى تسلية النبي صلى الله عليه وسلم مما مُنِيَ به من المشركين من أهل مكة وبخاصة مَا قابله به سادتهم وكبراؤهم من التأليب عليْه بتذكيره أن تلك سنة الرسل من قبله فليس في ذلك غضاضة عليه ، ولذلك قال في الآية في الزخرف ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة ( 23 ) الخ ، أي وكذلك التكذيب الذي كذبك أهل هذه القرية .

والتعريض بقومه الذين عادَوه بتذكيرهم عاقبة أمثالهم من أهل القرى التي كذَّب أهلها برسلهم وأغراهم بذلك زعماؤهم .

والمترَفون : الذين أُعطُوا الترَف ، والترف : النعيم وسعة العيش ، وهو مبني للمفعول بتقدير : إن الله أترفهم كما في قوله تعالى : ﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ﴾ في سورة المؤمنون ( 33 ) .

وفي بنائه للمفعول تعريض بالتذكير بنعمة الله عليهم لعلّهم يشكرونها ويقلعون عن الإشراك به ، وبعض أهل اللغة يقول تقديره : أترفتهم النعمة ، أي أبطرتهم .

وإنا بما أرسلتم ﴾ حكاية للقول بالمعنى : أي قال مترفو كل قرية لرسولهم : إنا بما أرسلتَ به كافرون .

وهذا من مقابلة الجمع بالجمع التي يراد منها التوزيع على آحاد الجمع .

وقولهم : ﴿ أرسلتم به ﴾ تهكم بقرينة قولهم : ﴿ كافرون ﴾ وهو كقوله تعالى : ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ [ الحجر : 6 ] ؛ أو المعنى : إنّا بما ادّعيتم أنكم أرسلتم به .

وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35)

(23/636)

---

قَفّوْا على صريح كفرهم بالقرآن وغيره من الشرائع بكلام كنّوْا به عن إبطال حقية الإِسلام بدليل سفسطائي فجعلوا كثرة أموالهم وأولادهم حجة على أنهم أهل حظ عند الله تعالى ، فضمير ﴿ وقالوا ﴾ عائد إلى ﴿ الذين كفروا ﴾ من قوله : ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ﴾ [ سبأ : 31 ] الخ .

وهذا من تمويه الحقائق بما يحفّ بها من العوارض فجعلوا ما حف بحالهم في كفرهم من وفرة المال والولد حجةً على أنهم مظنة العناية عند الله وأن ما هم عليه هو الحق .

وهذا تعريض منهم بعكس حال المسلمين بأن حال ضعف المسلمين ، وقلة عددهم ، وشظف عيشهم حجة على أنهم غير محظوظين عند الله ، ولم يتفطنوا إلى أن أحوال الدنيا

مسببة على أسباب دنيوية لا علاقة لها بأحوال الأولاد .

وهذا المبدأ الوهمي السفسطائي خطير في العقائد الضالة التي كانت لأهل الجاهلية والمنتشرة عند غير المسلمين ، ولا يخلو المسلمون من قريب منها في تصرفاتهم في الدين ومرجعها إلى قياس الغائب على الشاهد وهو قياس يصادف الصواب تارة ويخطئه تارات .

ومن أكبر أخطاء المسلمين في هذا الباب خطأ اللجأ إلى القضاء والقدر في أعذارهم ، وخطأ التخلق بالتوكل في تقصيرهم وتكاسلهم .

(24/636)

---

فجملة ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً ﴾ عطف على جملة ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ﴾ [ سبأ : 31 ] الخ ، وقولهم : ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ كالنتيجة لقولهم ﴿ نحن أكثر أموالا وأولاداً ﴾ ، وإنما جيء فيه بحرف العطف لترجيح جانب الفائدة المستقلة على جانب الاستنتاج الذي يومىء إليه ما تقدمه وهو قولهم : ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً ﴾ فحصل من هذا النظم استدلال لصحة دينهم ولإِبطال ما جاء به الإِسلام ثم الافتخار بذلك على المسلمين والضعةِ لجانب المسلمين بإِشارة إلى قياس استثنائي بناء

على ملازمة موهومة ، وكأنهم استدلوا بانتفاء التعذيب على أنهم مقرّبون عند الله بناء على قياس مساواة مطوي فكأنهم حصروا وسائل القرب عند الله في وفرة الأموال والأولاد .

ولولا هذا التأويل لخلت كلتا الجملتين عن أهم معنييهما وبه يكون موقع الجواب بـ ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أشدّ اتصالاً بالمعنى ، أي قل لهم : إن بسط الرزق وتقتيره شأن آخر من تصرفات الله المنوطة بما قدره في نظام هذا العالم ، أي فلا ملازمة بينه وبين الرشد والغي ، والهدى والضلال ، ولو تأملتم أسباب الرزق لرأيتموها لا تلاقي أسباب الغي والاهتداء ، فربما وسع الله الرزق على العاصي وضيّقه على المطيع وربما عكس فلا يغرنهم هذا وذاك فإنكم لا تعلمون .

وهذا ما جعل قوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ مصيباً المحزّ ، فأكثر الناس تلتبس عليهم الأمور فيخلطون بينها ولا يضعون في مواضعها زيْنها وشَيْنها .

وقد أفاد هذا أن حالهم غير دالّ على رضَى الله عنهم ولا على عدمه ، وهذا الإبطال هو ما يسمى في علم المناظرة نقضاً إجمالياً .

وبسط الرزق : تيسيره وتكثيره ، استعير له البسط وهو نشر الثوب ونحوِه لأن المبسوط تكثر مساحة انتشاره .

وقَدْر الرزق : عُسر التحصيل عليه وقلة حاصله ؛ استعير له القَدْر ، أي التقدير وهو التحديد لأن الشيء القليل يسهل عدّه وحسابه ولذلك قيل في ضده ﴿ يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ [ البقرة : 212 ] ، ومفعول ﴿ يقدر ﴾ محذوف دل عليه مفعول ﴿ يبسط ﴾ .

وتقدم نظيره في سورة الرعد .

ومفعول ﴿ يعلمون ﴾ محذوف دل عليه الكلام ، أي لا يعلمون أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر باعتبار عموم من يشاء من كونه صالحاً أو طالحاً ، ومن انتفاء علمهم بذلك أنهم توهموا بسط الرزق علامة على القرب عند الله ، وضده علامة على ضد ذلك .

وبهذا أخطأ قول أحمد بن الراوندي:

كم عَاقِلٍ عَاقل أعيتْ مذاهبُه . . .

وجَاهل جَاهل تلقاه مَرزوقا

هذا الذي ترك الأوهام حائرة . . .

وصيَّر العالم النحرير زنديقا

فلو كان عالماً نحريراً لما تحيّر فهمه ، وما تزندق من ضيق عطن فكره .

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا

يجوز أن تكون جملة ﴿ وما أموالكم ﴾ عطفاً على جملة ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق ﴾ [ سبأ : 36 ] الخ فيكون كلاماً موجهاً من جانب الله تعالى إلى الذين قالوا : ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً ﴾ [ سبأ : 35 ] فتكون ضمائر الخطاب موجهة إلى الذين قالوا : ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً ﴾ .

ويجوز أن تكون عطفاً على جملة ﴿ إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ [ سبأ : 36 ] ، فيكون مما أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم ويبلغه عن الله تعالى ، ويكون في ضمير ﴿ عندنا ﴾ التفات ، وضمائر الخطاب تكون عائدة إلى الذين قالوا : ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ [ سبأ : 35 ] وفيها وجه ثالث ننبه عليه قريباً .

وهو ارتقاء من إبطال الملازمة إلى الاستدلال على أنهم ليسوا بمحل الرضى من الله تعالى على طريقة النقض التفصيلي المسمى بالمناقضة أيضاً في علم المناظرة .

*(26/636)*

---

وهو مقام الانتقال من المنع إلى الاستدلال على إبطال دعوى الخصم ، فقد أبطلت الآية أن تكون أموالُهم وأولادهم مقربة عند الله تعالى ، وأنه لا يقرّب إلى الله إلا الإيمان والعمل الصالح .

وجيء بالجملة المنفية في صيغة حصر بتعريف المسند إليه والمسند ، لأن هذه الجملة أريد منها نفي قولهم : ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ أي لا أنتم ، فكان كلامهم في قوة حصر التقريب إلى الله في كثرة الأموال والأولاد فنُفي ذلك بأسره .

وتكرير ﴿ لا ﴾ النافية بعد العاطف في ﴿ ولا أولادكم ﴾ لتأكيد تسلط النفي على كلا المذكورَيْن ليكون كل واحد مقصوداً بنفي كونه مما يقرب إلى الله وملتفتاً إليه .

ولما كانت الأموال والأولاد جمعَيْ تكسير عوملا معاملة المفرد المؤنث فجيء بخبرهما اسم موصول المفرد المؤنث على تأويل جماعة الأموال وجماعة الأولاد ولم يلتفت إلى تغلب الأولاد على الأموال فيخبر عنهما معاً بـ ( الذين ) ونحوه .

وعدل عن أن يقال : بالتي تقربكم إلينا ، إلى ﴿ تقربكم عندنا ﴾ لأن التقريب هنا مجاز في التشريف والكرامة لا تقريب مكان .

والزلفى : اسم للقرب مثل الرُّجعى وهو مفعول مطلق نائب عن المصدر ، أي تقربكم تقريباً ، ونظيره ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ [ نوح : 17 ] .

وقوله : ﴿ إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾ استثناء منقطع .

و﴿ إلا ﴾ بمعنى ( لكنْ ) المخففة النون التي هي للاستدراك وما بعدها كلام مستأنف ، وذلك من استعمالات الاستثناء المنقطع ؛ فإنه إذا كان ما بعد ﴿ إلا ﴾ ليس من جنس المستثنى منه كان الاستثناء منقطعاً ، ثم إن كان ما بعد ﴿ إلا ﴾ مفرداً فإن ﴿ إلا ﴾

تقدّر بمعنى ( لكنّ ) أخت ( إنّ ) عند أهل الحجاز فينصبون ما بعدها على توهم اسم ( لكنّ ) وتقدر بمعنى ( لكنْ ) المخففة العاطفة عند بني تميم فيتبع الاسم الذي بعدها إعراب الاسم الذي قبلها وذلك ما أشار إليه سيبويه في باب يختار فيه النصب من أبواب الاستثناء .

(27/636)

---

فأما إن كان ما بعد ﴿ إلا ﴾ جملة اسمية أو فعلية فإن ﴿ إلا ﴾ تقدر بمعنى ( لكنْ ) المخففة وتجعل الجملة بعدُ استئنافاً ، وذلك في نحو قول العرب : "والله لأفعلن كذا إلا حِلُّ ذلك أن أفعل كذا وكذا" قال سيبويه : "فإن : أَن أفعل كذا ، بمنزلة : إلاّ فِعْل كذا ، وهو مبني على حِلّ ( أي هو خبر له ) .

وحِلّ مبتدأ كأنه قال : ولكنْ حِلُّ ذلك أن أفعل كذا وكذا" اه .

قال ابن مالك في "شرح التسهيل" : وتقرير الإخراج في هذا أن تجعل قولهم : إلا حلُّ ذلك ، بمنزلة : لا أرى لهذا العَقد مبطِلاً إلا فِعْل كذا .

وجعل ابن خروف من هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه اللَّه العذاب الأكبر ﴾ [ الغاشية : 22 24 ] على أن يكون ﴿ مَن ﴾ مبتدأ و

"يعذبه الله" الخبر ودخل الفاء لتضمين المبتدأ معنى الجزاء .

وقال أبو يَسعود : إن ﴿ إلاّ ﴾ في الاستثناء المنقطع يكون ما بعدها كلاماً مستأنفاً ا ه .

وعلى هذا فقوله تعالى هنا : ﴿ إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾ تقديره : لكن من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف ، فيكون ﴿ مَن ﴾ مبتدأ مضمّناً معنى الشرط و ﴿ لهم جزاء الضعف ﴾ جملة خبر عن المبتدأ وزيدت الفاء في الخبر لتضمين المبتدأ معنى الشرط .

وأسهل من هذا أن نجعل ﴿ مَن ﴾ شرطية وجملة ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف ﴾ جواب الشرط ، واقترن بالفاء لأنه جملة اسمية .

وهذا تحقيق لمعنى الاستثناء المنقطع وتفسير للآية بدون تكلف ولا تردد في النظم .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم ﴾ الخ اعتراضاً بين جملة ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ [ سبأ : 36 ] وجملة ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ [ سبأ : 39 ] وتكون ضمائر الخطاب موجهة إلى جميع الناس المخاطبين بالقرآن من مؤمنين وكافرين .

وعليه فيكون قوله : ﴿ إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾ الخ مستثنى من ضمير الخطاب ، أي ما أموالكم بالتي تقربكم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات منكم ، وتكون جملة ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ ثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وجيء باسم الإِشارة في الإِخبار عن ﴿ من آمن ﴾ للتنويه بشأنهم والتنبيه على أنهم جديرون بما يرد بعد اسم الإِشارة من أجل تلك الأوصاف التي تقدمت اسم الإِشارة على ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [ البقرة : 5 ] وغيره .

ووزان هذا المعنى وزان قوله : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ﴾ إلى قوله : ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات ﴾ [ آل عمران : 198 ] الآية .

و ﴿ الضِعف ﴾ المضاعف المكرر فيصدق بالمكرر مرة وأكثر .

وفي الحديث " والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضِعف إلى أضعاف كثيرة " وقد أشار إليه قوله تعالى : ﴿ كمثل حبّة أنبتت سبعَ سنابل في كل سنبلة مائةُ حبة والله يضاعف لمن يشاء ﴾ [ البقرة : 261 ] .

وإضافة ﴿ جزاء ﴾ إلى ﴿ الضعف ﴾ إضافة بيانية ، أي الجزاء الذي هو المضاعفة لأعمالهم ، أي لما تستحقه كما تقدم .

وكنّي عن التقريب بمضاعفة الجزاء لأن ذلك أمارة كرامة المجزي عند الله ، أي أولئك الذين يقربون زلفى فيجزون جزاء الضعف على أعمالهم لا على وفرة أموالهم وأولادهم ،

فالاستدراك ورد على جميع ما أفاده كلام المشركين من الدعوى الباطلة والفخر الكاذب لرفع توهم أن الأموال والأولاد لا تقرب إلى الله بحال ، فإن من أموال المؤمنين صدقات ونفقات ، ومن أولادهم أعوانا على البرّ ومجاهدين وداعين لآبائهم بالمغفرة والرحمة .

(29/636)

---

والباء في قوله : ﴿ بما عملوا ﴾ تحتمل السببية فتكون دليلاً على ما هو المضاعف وهو ما يناسب السبب من الصالحات كقوله تعالى : ﴿ هل جزاء الإِحسان إلا الإِحسان ﴾ [ الرحمن : 60 ] ، وتحتمل العوض فيكون "ما عملوا" هو المجازَى عليه كما تقول : جزيته بألف ، فلا تقدير في قوله : ﴿ جزاء الضعف ﴾ .

و﴿ الغرفات ﴾ جمع غُرفة .

وتقدم في آخر الفرقان وهي البيت المعتلي وهو أجمل منظراً وأشمل مرأى .

و﴿ آمنون ﴾ خبر ثان يعني تلقي في نفوسهم الأمن من انقطاع ذلك النعيم .

وقرأ الجمهور ﴿ في الغرفات ﴾ بصيغة الجمع ، وقرأ حمزة "في الغُرْفة" بالإِفراد .

وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (38)

جرى الكلام على عادة القرآن في تعقيب الترغيب بالترهيب وعكسِه ، فكان هذا بمنزلة

الاعتراض بين الثناء على المؤمنين الصالحين وبين إرشادهم إلى الانتفاع بأموالهم للقرب عند الله تعالى بجملة ﴿ وما أنفقتم من شيء ﴾ [ سبأ : 39 ] الخ.

والذين يسعون في الآيات هم المشركون بصدهم عن سماع القرآن وبالطعن فيه بالباطل واللغو عند سماعه.

والسعي مستعار للاجتهاد في العمل كقوله تعالى: ﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ [ النازعات : 22 ] وإذا عدي بـ ﴿ في ﴾ كان في الغالب مراداً منه الاجتهاد في المضرة فمعنى ﴿ يسعون في آياتنا ﴾ يجتهدون في إبطالها، و ﴿ معاجزين ﴾ مغالبين طالبين العجز.

وقد تقدم نظيره في قوله تعالى: ﴿ والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم ﴾ في سورة الحج ( 51 ).

واسم الإِشارة للتنبيه على أنهم استحقوا الجحيم لأجل ما ذُكر قبل اسم الإِشارة مثل ﴿ أولئك على هدىً من ربهم ﴾ [ البقرة : 5 ] و ﴿ في العذاب ﴾ خبر عن اسم الإِشارة.

(30/636)

---

و ﴿ محضرون ﴾ هنا كناية عن الملازمة فهو ارتقاء في المعنى الذي دلت عليه أداة الظرفية من إحاطة العذاب بهم وهو خبر ثان عن اسم الإِشارة ومتعلقه محذوف دل عليه

الظرف وقد تقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ فأولئك في العذاب محضرون ﴾ في سورة الروم ( 16 ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

(31/636)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ قال : إلى الناس جميعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله ﴿ كافة الناس ﴾ قال : للناس عامة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ قال : أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى العرب ، والعجم ، فأكرمهم على الله أطوعهم له .

وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي . بعثت إلى الناس كافة إلى كل أبيض وأحمر ،

وأطعمت أمتي المغنم لم يطعم أمة قبل أمتي ، ونصرت بالرعب بين يدي من مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، واعطيت الشفاعة فأدخرتها لأمتي يوم القيامة " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي . بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود ، وإنما كان النبي يبعث إلى قومه ، ونصرت بالرعب يرعب مني عدوّي على مسيرة شهر ، وأطعمت المغنم ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة ، فادخرتها لأمتي إلى يوم القيامة ، وهي إن شاء الله نائلة من لا يشرك بالله شيئاً " .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ﴾ قال : هذا قول مشركي العرب كفروا بالقرآن ﴿ ولا بالذي بين يديه ﴾ من الكتب والأنبياء .

(32/636)

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ ولا بالذي بين يديه ﴾ قال : التوراة والإنجيل وفي قوله ﴿ يقول الذين استضعفوا ﴾ قال : هم الاتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ قال : هم

القادة وفي قوله ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ يقول : غركم اختلاف الليل والنهار .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ قال : بل مكركم بما في الليل والنهار .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ قال : بل مكركم بالليل والنهار .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ قال : بل مكركم بما في الليل والنهار يا أيها العظماء ، والرؤساء ، حتى أزلتمونا عن عبادة الله تعالى .

أما قوله تعالى : ﴿ وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ﴾ .

أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال : ما في جهنم دار ، ولا مغار ، ولا غل ، ولا قيد ، ولا سلسلة إلا اسم صاحبها عليها مكتوب . فحدث به أبو سليمان الداراني رضي الله عنه ، فبكى ثم قال : فكيف به لو جمع هذا كله عليه ، فجعل القيد في رجليه ، والغل في يديه ، والسلسلة في عنقه ، ثم أدخل الدار ، وأدخل المغار .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34)

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: "كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى صاحبه يسأله. ما فعل؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم، فترك تجارته وأتى صاحبه فقال له: دلني عليه وكان يقرأ الكتب، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إلامَ تدعو؟ قال "إلى كذا وكذا.. قال: أشهد أنك رسول الله قال: ما علمك بذلك؟ قال: إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم. فنزلت هذه الآيات ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها.. ﴾ الآيات. فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن الله قد أنزل تصديق ما قلت"".

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ قال: هم جبابرتهم، ورؤوسهم، وأشرافهم، وقادتهم في الشر.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ قال: جبابرتها.

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ عندنا زلفى ﴾ قال: قربى.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: لا تعتبروا الناس

بكثرة المال ، والولد ، وإن الكافر يعطى المال ، وربما حبسه عن المؤمن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن طاوس أنه كان يقول : اللهم ارزقني الإيمان والعمل ، وجنبني المال والولد ، فإني سمعت فيما أوحيت ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ﴾ .

وأخرج أحمد ومسلم وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " .

(34/636)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ قال : بالواحد عشراً ، وفي سبيل الله بالواحد سبعمائة .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب رضي الله عنه قال : إذا كان المؤمن غنياً تقياً آتاه الله أجره مرتين . وتلا هذه الآية ﴿ وما أموالكم ﴾ إلى قوله ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف ﴾ قال : تضعيف الحسنة .

أما قوله تعالى : ﴿ وهم في الغرفات آمنون ﴾ .

أخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن في الجنة لغرفاً يرى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها . قالوا : لمن هي ؟ قال : لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل ، والناس نيام " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(35/636)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) ﴾

أي قابلوا رُسُلَنا بالتكذيب ، وصبَر رُسُلنا . . . وماذا على هؤلاء الكفار لو آمنوا بهم ؟ فهم لنجاتهم أُرسلوا ، ولصلاحِهم دعَوا وبلغوا ، ولو وافقوهُم لسعدوا . . . ولكنّ أقساماً سبقت ، وأحكاماً حقت ، والله غالبٌ على أمره .

وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35)

ليس هذا بكثرة الأَموال والأولاد ، وإنما هي بصائرُ مفتوحةٌ لقوم ، وأخرى مسدودةٌ لقوم .

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ

جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (37)

لا تستحقّ الزّلفى عند الله ؛ بالمال والأولاد ، ولكن بالأعمال الصالحة والأَحوال الصافية والأنفاس الزاكية ، بلْ بالعناية السابقة ، وَالهداية اللاحقة ، والرعاية الصادقة ﴿ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ ﴾ : يضاعف على ما كان لِمَنْ تقدمهم من الأُمم ﴿ وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴾ مِنْ تكدُّر الصفوة والإخراج من الجنة .

وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (38)

هم الذين لا يحترمون الأولياء ، ولا يراعون حقّ اللَّهِ في السرِ ، فهم في عذاب الاعتراض على أَولياء الله ، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك في ارتكاب محارم الله ، ثم في عذاب السقوط من عين الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 184 . 185 ﴾

(36/636)

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (41) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ

النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (42) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أبطل شبهتهم بشعبيتها بالنسبة إلى الأشخاص المختلفة ، قرب ذلك بدليل واحد في شخص واحد فقال : ﴿ قل ﴾ يا أشرف الخلق لهؤلاء الجهلة الذين يظنون أن الرزق بحسب حسن السعي وقبحه أو حسن حال الشخص عند الله وقبحها : ﴿ إن ربي ﴾ أي المحسن إليّ بهذا البيان المعجز ﴿ يبسط الرزق ﴾ أي متى شاء ﴿ لمن يشاء من عباده ﴾ أي على سبيل التجدد المستمر من أيّ طائفة كان ﴿ ويقدر له ﴾ أي يضيق عليه نفسه في حالتين متعاقبتين ، وهو بصفة واحدة على عمل واحد ، فلو أن الإكرام والإنعام يوجب الدوام لما تغيرت حاله من السعة إلى الضيق ، ولو أن في يده نفع نفسه لما اختلف حاله .

ولما بين هذا البسط أن فعله بالاختيار بعد أن بين بالأول كذبهم في أنه سبب للسلامة من النار .

دل على أنه الفاعل لا غيره بقوله : ﴿ وما أنفقتم من شيء ﴾ أي أنتم وأخصامكم وغيرهم ﴿ فهو يخلفه ﴾ أي لا غيره بدليل أن المنفق قد يجتهد كل الاجتهاد في الإخلاف فلا ينفق ، فدل ذلك على أنه المختص بالإخلاف ، ولأن هذا هو المعنى لا أنه ضمن الإخلاف لكل من ينفق على أي وجه كان ، قال مجاهد كما نقله الرازي في اللوامع : "إذا كان في يد أحدكم شيء فليقتصد ولا يتأول الآية ، فإن الرزق مقسوم ، وما عال من اقتصد "كما رواه الطبراني عن ابن مسعود .رضى الله عنه. مرفوعاً ، والمعنى أنه قد دل الإخلاف على جميع الأشكال والأضداد على أن الأمر فيه على غير ما ظننتم من الإسعاف به في وقت موجب للإكرام على الدوام ، وأن ذلك إنما هو لضمانه الرزق لكل أحد بحسب ما قسمه له من سبق به عمله وقدرته حكمته ، وتارة يكون إخلافه حساً وبالفعل ، وتارة يكون معنى وبالقوة ، بالترضية بتلك الحالة التي أدت إلى العدم ، قال القشيري : وهو أتم من السرور بالموجود ، ومن ذلك الأنس بالله في الخلوة ، ولا يكون ذلك إلا مع التجريد – انتهى .



---

والمنفق بالاقتصاد داخل أن شاء الله تعالى تحت قول .صلى الله عليه وسلم. فيما رواه الشيخان : البخاري ومسلم عن أبي هريرة .رضى الله عنه. قال الله تعالى : "أنفق أنفق

عليك " وما روى الشيخان وابن حبان في صحيحه أيضاً " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان يقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً " فهو خير الموسعين ﴿ وهو خير الرازقين ﴾ أي الذين تعدونهم هذا العداد ممن يقيمهم هو سبحانه لكم فتضيفون الرزق إليهم ، فإنهم وسائط لا يقدرون إلا على ما قدرهم ، وأما هو سبحانه فهو يوجد المعدوم ، ويرزق من يطيعه ومن يعصيه ، ولا يضيق ترزيقه بأحد ، ولا يشغله فيه أحد عن أحد ، بل يبعث في كل يوم لكل أحد رزقه في آن واحد كما ينشر عليهم نوره بالشمس في آن واحد من غير توقيف لذلك على شيء من الأشياء غير سبق به العلم في الأزل .

ولما أبطل شبهتهم فعلم بذلك أن الأمر كله له ، وأنهم في محل الخطر ، وكان قد بقي من شبههم أنهم يقولون : نحن نعبد الملائكة فهم يشفعون لنا ، وكان الأنبياء عليهم السلام لا ينكرون أن الملائكة مقربون أبطل ما يتعلقون به منهم ، وبين أنه لا أمر لهم وأنهم بريئون منهم ، فقال عاطفاً على ﴿ إذ الظالمون ﴾ : ﴿ ويوم نحشرهم ﴾ أي نجمعهم جمعاً بكره بعد البعث ، وعم التابع والمتبرع بقوله : ﴿ جميعاً ﴾ .

ولما كانت مواقف الحشر طويلة وزلازله مهولة قال : ﴿ ثم نقول للملائكة ﴾ أي توبيخاً للمشركين وإقناطاً مما يرجون منهم من الشفاعة .

ولما كانت العبادة لا تنفع إلا إذا كان المعبود راضياً بها وكانت خالصة ، قال مبكتاً للمشركين وموبخاً ليكون هناك سؤال وجواب فيكون التقريع أشد والخجل به أعظم ، والخوف والهوان أتم وألزم ويكون اقتصاص ذلك عظة للسامعين ، وزجراً للجاهلين ، وتنبيهاً للغافلين ، على طريق ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ [ المائدة : 116 ] الآيات : ﴿ أهؤلاء ﴾ أي الضالون ؛ وأشار إلى أنه لا ينفع من العبادة إلا ما كان خالصاً فقال : ﴿ إياكم ﴾ أي خاصة ﴿ كانوا يعبدون ﴾ بأفعالهم الاختيارية والقسرية ليعلم أنهم عبيد لكم تستحقون عبادتهم ، وفي التعبير بما يدل على الاختصاص تنبيه لقريش على أنه لا يعتد من العبادة إلا بالخالص ﴿ قالوا ﴾ أي الملائكة متبرئين منهم مفتتحين بالتنزيه تخضعاً بين يدي البراءة خوفاً من حلول السطوة ﴿ سبحانك ﴾ أي ننزهك تنزيهاً يليق بجلالك عن أن يستحق أحد غيرك أن يعبد .

ولما كانوا كارهين جداً لعبادتهم ، وكانت فائدة العبادة الوصلة بين العابد والمعبود قالوا : ﴿ أنت ولينا ﴾ أي معبودنا الذي لا وصلة بيننا وبين أحد إلا بأمره ﴿ من دونهم ﴾ أي من أقرب منزلة لك من منازلهم منا ، فأنت أقرب شيء إلينا في كل معاني الولاية من العلم والقدرة وغيرهما ، فكيف نترك الأقرب والأقوى ونتولى الأبعد العاجز ، ليس بيننا وبينهم

من ولاية ، بل عداوة ، وكذا كل من تقرب إلى شخص بمعصية الله يقسي الله قلبه عليه ويبغضه فيه فيجافيه ويعاديه .

(40/636)

---

ولما كان من يعمل لأحد عملاً لم يأمر به ولم يرضه إنما عمل في الحقيقة للذي دعاه إلى ذلك العمل قالوا : ﴿ بل كانوا ﴾ بأفعالهم الاختيارية الموجبة للشرك ﴿ يعبدون الجن ﴾ أي إبليس وذريته الذين زينوا لهم عبادتنا من غير رضانا بذلك ، وكانوا يدخلون في أجواف الأصنام ويخاطبونهم ويستجيرون بهم في الأماكن المخوفة ، ومن هذا تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد القطيفة ؛ ثم استأنفوا قولهم : ﴿ أكثرهم ﴾ أي الإنس ﴿ بهم ﴾ أي الجن ﴿ مؤمنون ﴾ أي راسخون في الإشراك لا يقصدون بعبادتهم غيرهم ، وقليل منهم من يقصد بعبادته بتزيين الجن وغيرهم وهو راض بها ، فهي في الحقيقة لمن زينها لهم من الجن ، وهم مع ذلك يصدقون ما يرد عليهم من إخبارات الجن على ألسنة الكهان وغيرهم مع ما يرون فيها من الكذب في كثير من الأوقات .

ولما بطلت تمسكاتهم ، وتقطعت تعلقاتهم ، تسبب عن ذلك تقريعهم الناشئ عنه تنديمهم بقوله بلسان العظمة : ﴿ فاليوم ﴾ أي يوم مخاطبتهم بهذا التبكيت وهو يوم الحشر ﴿ لا

يملك ﴾ أي شيئاً من الملك ﴿ بعضكم لبعض ﴾ أي من المقربين والمبعدين .

ولما كان المدار على الخلاص والسياق للشفاعة ، قدم النفع فقال : ﴿ نفعاً ﴾ وأكمل الأمر بقوله : ﴿ ولا ضراً ﴾ تحقيقاً لقطع جميع الأسباب التي كانت في دار التكليف من دار الجزاء التي المقصود فيها تمام إظهار العظمة لله وحده على أتم الوجوه .

ولما كان المعنى : فاليوم نسلب الخلائق ما كنا مكناهم منه في الدنيا من التنافع والتضارر .

(41/636)

---

وتلاشى بذلك كل شيء سواه ، أثبت لنفسه المقدس ما ينبغي ، فقال عاطفاً على هذا الذي قدرته : ﴿ ونقول ﴾ أي في ذلك الحال من غير إمهال ولا إهمال ﴿ للذين ظلموا ﴾ أي بوضع العبادة في غير موضعها ولا سيما من ضم إلى ذلك إنكار المعاد عند إدخالنا لهم النار : ﴿ ذوقوا عذاب النار ﴾ ولما لم يتقدم للعذاب وصف بترديد - كما تقدم في السجدة - ولا غيره ، كان المضاف إليه أحق بالوصف لأنه المصوب إليه بالتكذيب فقال : ﴿ التي كنتم ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ بها تذكبون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 187.189 ﴾

(42/636)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾

إشارة إلى أن نعيم الآخرة لا ينافي نعمة الدنيا ، بل الصالحون قد يحصل لهم في الدنيا النعم مع القطع بحصول النعيم لهم في العقبى بناءً على الوعد ، قطعاً لقول من يقول : إذا كانت العاجلة لنا والآجلة لهم فالنقد أولى ، فقال هذا النقد غير مختص بكم فإن كثيراً من الأشقياء مدقعون ، وكثير من الأتقياء ممتعون وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكر هذا المعنى مرتين : مرة لبيان أن كثرة أموالهم وأولادهم غير دالة على حسن أحوالهم واعتقادهم ، ومرة لبيان أنه غير مختص بهم كأنه قال وجود الترف لا يدل على الشرف ، ثم إن سلمنا أنه كذلك لكن المؤمنين سيحصل لهم ذلك ، فإن الله يملكهم دياركم وأموالكم ، والذي يدل عليه هو أن الله تعالى لم يذكر أولاً لمن يشاء من عباده ، بل قال لمن يشاء ، وثانياً قال لمن يشاء من عباده ، والعباد المضافة يراد بها المؤمن ، ثم وعد المؤمن بخلاف ما للكافر ، فإن الكافر دابره مقطوع ، وماله إلى الزوال ، ومآله إلى الوبال .

وأما المؤمن فما ينفقه يخلفه الله ، ومخلف الله خير ، فإن ما في يد الإنسان في معرض البوار

والتلف وهما لا يتطرقان إلى ما عند الله من الخلف ، ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ والله خَيْرُ الرازقين ﴾ [ الجمعة : 11 ] وخيرية الرازق في أمور أحدها : أن لا يؤخر عن وقت الحاجة والثاني : أن لا ينقص عن قدر الحاجة والثالث : أن لا ينكده بالحساب والرابع : أن لا يكدره بطلب الثواب والله تعالى كذلك .

أما الأول : فلأنه عالم وقادر والثاني : فلأنه غني واسع والثالث : فلأنه كريم ، وقد ذكر ذلك بقوله : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ البقرة : 212 ] وما ذكرنا هو المراد ، أي يرزقه حلالاً لا يحاسبه عليه والرابع : فلأنه علي كبير والثواب يطلبه الأدنى من الأعلى ، ألا ترى أن هبة الأعلى من الأدنى لا تقتضي ثواباً .

(43/636)

---

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ يحقق معنى قوله عليه الصلاة والسلام : " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان ، يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم اعط ممسكاً تلفاً " وذلك لأن الله تعالى ملك علي وهو غني ملي ، فإذا قال أنفق وعلى بدله فبحكم الوعد يلزمه ، كما إذا قال قائل : ألق متاعك في البحر وعلى ضمانه ،

فمن أنفق فقد أتى بما هو شرط حصول البدل فيحصل البدل ، ومن لم ينفق فالزوال لازم للمال ولم يأت بما يستحق عليه من البدل فيفوت من غير خلف وهو التلف ، ثم إن من العجب أن التاجر إذا علم أن مالاً من أمواله في معرض الهلاك يبيعه نسيئة ، وإن كان من الفقراء ويقول بأن ذلك أولى من الإمهال إلى الهلاك ، فإن لم يبع حتى يهلك ينسب إلى الخطأ ، ثم إن حصل به كفيل مليء ولا يبيع ينسب إلى قلة العقل ، فإن حصل به رهن وكتب به وثيقة ولا يبيعه ينسب إلى الجنون ، ثم إن كل أحد يفعل هذا ولا يعلم أن ذلك قريب من الجنون ، فإن أموالنا كلها في معرض الزوال المحقق ، والإنفاق على الأهل والولد إقراض ، وقد حصل الضامن المليء وهو الله العلي وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ ثم رهن عند كل واحد إما أرضاً أو بستاناً أو طاحونة أو حماماً أو منفعة ، فإن الإنسان لا بد من أن يكون له صنعة أو جهة يحصل له منها مال وكل ذلك ملك الله وفي يد الإنسان بحكم العارية فكأنه مرهون بما تكفل الله من رزقه ليحصل له الوثوق التام ، ومع هذا لا ينفق ويترك ماله ليتلف لا مأجوراً ولا مشكوراً .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ خَيْرُ الرازقين ﴾ ينبىء عن كثرة في الرازقين ولا رازق إلا الله ، فما الجواب عنه ؟

فنقول عنه جوابان أحدهما : أن يقال الله خير الرازقين الذين تظنونهم رازقين وكذلك في قوله تعالى : وهو ﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ الصافات : 125 ) وثانيهما : هو أن الصفات منها ما حصل لله وللعبد حقيقة ، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة وللعبد بطريق المجاز ، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة ولا يقال للعبد لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز لعدم حصوله للعبد لا حقيقة ولا صورة ، مثال الأول العلم ، فإن الله يعلم أنه واحد والعبد يعلم أنه واحد بطريق الحقيقة ، وكذلك العلم بكون النار حارة ، غاية ما في الباب أن علمه قديم وعلمنا حادث ، مثال الثاني الرازق والخالق ، فإن العبد إذا أعطى غيره شيئاً فإن الله هو المعطي ، ولكن لأجل صورة العطاء منه سمي معطياً ، كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط فرس وإنسان ، مثال الثالث الأزلي والله وغيرهما ، وقد يقال في أشياء في الإطلاق على العبد حقيقة وعلى الله مجازاً كالاستواء والنزول والمعية ويد الله وجنب الله .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40)

(45/636)

لما بين أن حال النبي صلى الله عليه وسلم كحال من تقدمه من الأنبياء ، وحال قومه كحال من تقدم من الكفار ، وبين بطلان استدلالهم بكثرة أموالهم وأولادهم ، بين ما يكون من عاقبة حالهم فقال : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ يعني المكذبين بك وبمن تقدمك ، ثم نقول لمن يدعون أنهم يعبدونهم وهم الملائكة ، فإن غاية ما ترتقي إليه منزلتهم أنهم يقولون نحن نعبد الملائكة والكواكب ، فيسأل الملائكة أهم كانوا يعبدونكم ! إهانة لهم ، فيقول كل منهم سبحانك ننزهك عن أن يكون غيرك معبوداً وأنت معبودنا ومعبود كل خلق ، وقولهم : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ﴾ إشارة إلى معنى لطيف وهو أن مذاهب الناس مختلفة ؛ بعضهم لا يسكن المواضع المعمورة التي يكون فيها سواد عظيم ، لأنه لا يترأس هناك فيرضى الضياع والبلاد الصغيرة ، وبعضهم لا يريد البلاد الصغيرة لعدم اجتماعه فيها بالناس وقلة وصوله فيها إلى الأكياس ، ثم إن الفريقين جميعاً إذا عرض عليهم خدمة السلطان واستخدام الأرذال الذين لا التفات إليهم أصلاً يختار العاقل خدمة السلطان على استخدام من لا يؤبه به ، ولو أن رجلاً سكن جبلاً ووضع بين يديه شيئاً من القاذورات واجتمع عليه الذباب والديدان ، وهو يقول هؤلاء أتباعي وأشياعي ، ولا أدخل المدينة مخافة أن أحتاج إلى خدمة السلطان العظيم والتردد إليه ينسب إلى الجنون ، فكذلك من رضي بأن يترك خدمة الله وعبادته ، ورضي باستتباع الهمج الذين هم أضل من البهائم وأقل من الهوام يكون مجنوناً ، فقالوا : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ﴾ يعني كونك ولينا بالمعبودية أولى ، وأحب إلينا

من كونهم أولياءنا بالعبادة لنا وقالوا : ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجن ﴾ أي كانوا ينقادون لأمر الجن ، فهم في الحقيقة كانوا يعبدون الجن ، ونحن كنا كالقبلة لهم ، لأن العبادة هي الطاعة وقوله تعالى : ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ لو قال قائل جميعهم كانوا تابعين للشياطين

(46/636)

---

، فما وجه قوله : ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ فإنه ينبىء أن بعضهم لم يؤمن بهم ولم يطع لهم ؟ نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن الملائكة احترزوا عن دعوى الإحاطة بهم فقالوا أكثرهم لأن الذين رأوهم واطلعوا على أحوالهم كانوا يعبدون الجن ويؤمنون بهم ولعل في الوجود من لم يطلع الله الملائكة عليه من الكفار الثاني : هو أن العبادة عمل ظاهر والإيمان عمل باطن فقالوا : ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجن ﴾ لاطلاعهم على أعمالهم وقالوا : ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ عند عمل القلب لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على ما في القلوب فإن القلب لا اطلاع عليه إلا لله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [ الأنفال : 43 ] .

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (42)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الخطاب بقوله : ﴿ بَعْضُكُمْ ﴾ مع من ؟ نقول يحتمل أن يكون الملائكة لسبق قوله تعالى : ﴿ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ [ سبأ : 40 ] وعلى هذا يكون ذلك تنكيلاً للكافرين حيث بين لهم أن معبودهم لا ينفع ولا يضر ، ويصحح هذا قوله تعالى : ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ الشفاعة إِلَّا مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ [ مريم : 87 ] وقوله : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارتضى ﴾ [ الأنبياء : 28 ] ولأنه قال بعده : ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا ﴾ فأفردهم ولو كان المخاطب هم الكفار لقال فذوقوا .

(47/636)

---

وعلى هذا يكون الكفار داخلين في الخطاب حتى يصح معنى قوله : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ أي الملائكة للكفار ، والحاضر الواحد يجوز أن يجعل من يشاركه في أمر مخاطباً بسببه ، كما يقول القائل لواحد حاضر له شريك في كلام أنتم قلتم ، على معنى أنت قلت ، وهم قالوا ، ويحتمل أن يكون معهم الجن أي لا يملك بعضكم لبعض أيها الملائكة والجن ، وإذا لم تملكوها لأنفسكم فلا تملكوها لغيركم ويحتمل أن يكون المخاطب هم الكفار لأن ذكر اليوم يدل على

حضورهم، وعلى هذا فقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ إنما ذكره تأكيداً لبيان حالهم في الظلم، وسبب نكالهم من الإثم ولو قال: ﴿فَذُوقُوا عَذَابَ النار﴾ لكان كافياً لكنه، لا يحصل ما ذكرنا من الفائدة، فإنهم كلما كانوا يسمعون ما كانوا عليه من الظلم والعناد والإثم والفساد يتحسرون ويندمون.

المسألة الثانية:

قوله: ﴿نَّفْعاً﴾ مفيد للحسرة، وأما الضر فما الفائدة فيه مع أنهم لو كانوا يملكون الضر لما نفع الكافرين ذلك؟ فنقول لما كانت العبادة تقع لدفع ضر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين أنهم ليس فيهم ذلك الوجه الذي يحسن لأجله عبادتهم.

المسألة الثالثة:



---

قال: ههنا ﴿عَذَابَ النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذّبُونَ﴾ وقال في السجدة: ﴿عَذَابَ النار الذي كُنتُمْ بِهِ﴾ جعل المكذب هنالك العذاب وجعل المكذب ههنا النار وهم كانوا يكذبون بالكل، والفائدة فيها أن هناك لم يكن أول ما رأوا النار بل كانوا هم فيها من زمان بدليل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النار

الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [ السجدة : 20 ] أي العذاب المؤبد الذي أنكرتموه بقولكم :

﴿ لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [ البقرة : 80 ] أي قلتم إن العذاب إن وقع فلا يدوم

فذوقوا الدائم ، وههنا أول ما رأوا النار لأنه مذكور عقيب الحشر والسؤال فقيل لهم : هذه

﴿ النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ

230.227 ﴾

(49/636)

---

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ إنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ

فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ يُخْلِفُهُ ﴾ يَعْنِي يَأْتِي بِثَانٍ بَعْدَ الْأَوَّلِ ، وَمِنْهُ الْخِلْفَةُ فِي النَّبَاتِ .

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِأَبِي بَكْرٍ : يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ .

فَقَالَ : لَا .

بَلْ أَنَا الْخَالِفَةُ بَعْدَهُ .

[ قَالَ ثَعْلَبٌ : يُرِيدُ بِالْقَاعِدِ بَعْدَهُ ] ، وَالْخَالِفَةُ الَّذِي يَسْتَخْلِفُهُ الرَّئِيسُ عَلَى أَهْلِهِ وَمَالِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي مَعْنَى الْخَلَفِ هَاهُنَا أَرْبَعَةُ أَوْجُهٍ : الْأَوَّلُ : يُخْلِفُهُ إذَا رَأَى ذَلِكَ صَلَاحًا ، كَمَا يُجِيبُ الدُّعَاءَ إذَا شَاءَ .

الثَّانِي يُخْلِفُهُ بِالثَّوَابِ .

الثَّالِثُ : مَعْنَى يُخْلِفُهُ ، فَهُوَ أَخْلَفَهُ ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا عِنْدَ الْعَبْدِ مِنْ خَلَفِ اللَّهِ وَرِزْقِهِ .

رَوَى أَشْهَبُ وَابْنُ نَافِعٍ وَابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : يَقُولُ اللَّهُ : يَا ابْنَ آدَمَ ، أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْك ﴾ .

(50/636)

---

وَهَذِهِ إشَارَةٌ إلَى أَنَّ الْخَلَفَ فِي الدُّنْيَا بِمِثْلِ الْمُنْفَقِ بِهَا إذَا كَانَتْ النَّفَقَةُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، وَهُوَ كَالدُّعَاءِ كَمَا تَقَدَّمَ سَوَاءٌ ؛ إمَّا أَنْ تُقْضَى حَاجَتُهُ ، وَكَذَلِكَ فِي النَّفَقَةِ يُعَوَّضُ مِثْلَهُ وَأَزْيَدَ ، وَإِمَّا أَنْ يُعَوَّضَ ، وَالتَّعْوِيضُ هَاهُنَا بِالثَّوَابِ ، وَإِمَّا أَنْ يُدَّخَرَ لَهُ ، وَالِادِّخَارُ هَاهُنَا مِثْلُهُ فِي الْآخِرَةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(51/636)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾

كرر تأكيداً .

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المغترين بالأموال والأولاد إن الله يوسّع على من يشاء ويضيِّق على من يشاء ، فلا تغتروا بالأموال والأولاد بل أنفقوها في طاعة الله ، فإن ما أنفقتم في طاعة الله فهو يخلفه .

وفيه إضمار ، أي فهو يخلفه عليكم ؛ يقال : أخلف له وأخلف عليه ، أي يعطيكم خلفه وبدله ، وذلك البدل إما في الدنيا وإما في الآخرة .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللَّهُمَّ أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً " وفيه أيضاً عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله قال لي أَنفق أنفق عليك . . .

" الحديث .

وهذه إشارة إلى الخلف في الدنيا بمثل المنفق فيها إذا كانت النفقة في طاعة الله .

وقد لا يكون الخلف في الدنيا فيكون كالدعاء كما تقدّم سواء في الإجابة أو التكفير أو

الادخار؛ والادخار هاهنا مثله في الأجر.

مسألة: روى الدَّارَقُطْنِيّ وأبو أحمد بن عَدِيّ عن عبد الحميد الهلالي عن محمد بن المُنْكَدِر عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل معروف صدقة وما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وَقَى به الرجل عرضَه فهو صدقة وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خَلَفُها إلا ما كان من نفقة في بنيان أو معصية" قال عبد الحميد: قلت لابن المنكدر: "ما وَقَى الرجل عرضه؟" قال: يعطي الشاعر وذا اللسان.

عبد الحميد وثّقه ابن معين.

قلت: أما ما أنفق في معصية فلا خلاف أنه غير مثاب عليه ولا مخلوف له.

وأما البنيان فما كان منه ضروريا يكنّ الإنسانَ ويحفظه فذلك مخلوف عليه ومأجور ببنيانه.

*(52/636)*

---

وكذلك كحفظ بنيته وستر عورته، قال صلى الله عليه وسلم: "ليس لآبن آدم حق في سِوى هذه الخصال، بيت يسكنه وثوب يوارِي عورته وجِلْفُ الخبز والماء" وقد مضى

هذا المعنى في "الأعراف" مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرازقين ﴾ لما كان يقال في الإنسان : إنه يرزق عياله ، والأمير جنده ؛ قال : "وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ" والرازق من الخلق يرزق ، لكن ذلك من مال يملك عليهم ثم ينقطع ، والله تعالى يرزق من خزائن لا تفنى ولا تتناهى .

ومن أخرج من عدم إلى الوجود فهو الرازق على الحقيقة ، كما قال : ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرزاق ذُو القوة المتين ﴾ [ الذاريات : 58 ] .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ هذا متصل بقوله : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون مَوْقُوفُونَ ﴾ .

أي لو تراهم في هذه الحالة لرأيت أمراً فظيعاً .

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، والمراد هو وأمته .

ثم قال : ولو تراهم أيضاً "يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً" العابدين والمعبودين ، أي نجمعهم للحساب ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أهؤلاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ .

قال سعيد عن قتادة : هذا استفهام ؛ كقوله عز وجل لعيسى : ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله ﴾ [ المائدة : 116 ] .

قال النحاس : فالمعنى أن الملائكة صلوات الله عليهم إذا كذبتهم كان في ذلك تبكيت لهم ؛ فهو استفهام توبيخ للعابدين .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ أي تنزيهاً لك .

﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ﴾ أي أنت ربنا الذي نتولاه ونطيعه ونعبده ونُخلص في العبادة له .

﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجن ﴾ أي يطيعون إبليس وأعوانه .

وفي التفاسير : أن حيًّا يقال لهم بنو مُلَيح من خزاعة كانوا يعبدون الجن ، ويزعمون أن الجن تتراءى لهم ، وأنهم ملائكة ، وأنهم بنات الله ؛ وهو قوله : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ [ الصافات : 158 ] .

(53/636)

---

قوله تعالى : ﴿ فاليوم لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً ﴾ أي شفاعة ونجاة .

﴿ وَلاَ ضَرّاً ﴾ أي عذاباً وهلاكاً .

وقيل : أي لا تملك الملائكة دفع ضرّ عن عابديهم ؛ فحذف المضاف .

﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ النار التي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ يجوز أن يقول الله لهم أو الملائكة : ذوقوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(54/636)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾

أي يُوسعه عليهَ تارةً ﴿ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ أي يضيقه عليه تارةً أُخرى فلا تخشَوا الفقرَ وأنفقُوا في سبيلِ اللهِ وتعرَّضُوا لنفحاتِه تعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُمْ مّن شَىْء فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ عِوضاً إمَّا عاجلاً وإمَّا آجلاً ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرزقين ﴾ فإنَّ غيرَه واسطةٌ في إيصالِ رزقِه لا حقيقةَ لرازقيتِه ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ أي المستكبرينَ والمستضعفينَ وما كانُوا يعبدونَ من دونِ الله . ويومَ ظرفٌ لمضمرٍ متأخّرٍ سيأتي تقديرُه أو مفعولٌ لمضمرٍ مقدَّمٍ نحو اذكُر ﴿ ثُمَّ يَقُولُ للملائكة أَهَؤُلاء إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ تقريعاً للمشركينَ وتبكيتاً لهم على نهجِ قوله تعالى : ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى وَأُمّىَ إلهين ﴾ الخ وإقناطاً لهم عمَّا علَّقوا به أطماعَهم الفارغةَ من شفاعتِهم ، وتخصيص الملائكةِ لأنَّهم أشرفُ شركائِهم والصَّالحونَ للخطابِ منهم ولأنَّ عبادتَهم مبدأُ الشِّركِ فبظهور قصورِهم عن رتبةِ المعبوديَّةِ وتنزههم عن عبادتِهم يظهر حالُ سائرِ شركائِهم بطريقِ الأولويةِ وقُرِىء الفعلانِ بالنُّونِ .

(55/636)

﴿ قَالُوا ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من حكايةِ سؤالِ الملائكةِ حينئذٍ فقيل يقولون متنزّهين عن ذلك ﴿ سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ﴾ والعدولُ إلى صيغة الماضي للدّلالةِ على التَّحقُّقِ، أي أنت الذي نواليهِ من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم كأنَّهم بيّنوا بذلك براءتَهم من الرِّضا بعبادتهم ثم أضربُوا عن ذلكَ ونفوا أنَّهم عبدُوهم حقيقةً بقولهم: ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجن ﴾ أي الشّياطينَ حيثُ أطاعُوهم في عبادةِ غيرِ الله سبحانه وتعالى وقيل كانُوا يتمثَّلون لهم ويخيّلون لهم أنَّهم الملائكةُ فيعبدونهم وقيل: يدخلونَ أجوافَ الأصنامِ إذا عُبدت فيعبدون بعبادتِها ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ الضَّميرُ الأوّلُ للإنسِ أو للمشركينَ والأكثرُ بمعنى الكلِ والثّاني للجنّ.

(56/636)

---

﴿ فاليوم لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرّاً ﴾ من جملةِ ما يقال للملائكةِ عند جوابهم بالتَّنزه والتَّبرؤ عمَّا نَسب إليهم الكفرةُ يخاطبون بذلك على رؤوس الأشهادِ إظهاراً لعجزهِم وقصورهم عند عَبَدتهم وتنصيصاً على ما يُوجب خيبةَ رجائِهم بالكلّية. والفاءُ ليستْ لترتيب ما بعدها من الحكمِ على جواب الملائكةِ فإنَّه محقَّقٌ أجابُوا بذلك أم لا بل لترتيبِ الإخبار به عليه ونسبة عدمِ النَّفعِ والضُّرّ إلى البعضِ المبهمِ للمبالغةِ فيما هو المقصودُ

الذي هو بيانُ عدمِ نفعِ الملائكةِ للعبدةِ بنظمه في سلكِ عدمِ نفعِ العَبَدةِ لهم كأنَّ نفعَ الملائكةِ لعبدتِهم في الاستحالةِ والانتفاء كنفعِ العبدةِ لهم ، والتعرضِ لعدمِ الضُّرِّ مع أنَّه لا بحث عنه أصلاً إمَّا لتعميمِ العجزِ أو لحملِ عدمِ النَّفعِ على تقديرِ العبادةِ وعدمِ الضُّرِّ على تقديرِ تركِها أو لأنَّ المرادَ دفعُ الضُّرِّ على حذفِ المضاف ، وتقييد هذا الحكمِ بذلك اليوم مع ثبوته على الإطلاقِ لانعقادِ رجائِهم على تحقُّقِ النَّفعِ يومئذٍ . وقولُه عزَّ وجلَّ : ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ عطفٌ على نقول للملائكةِ لا على لا يملكُ كما قيل فإنَّه ممَّا يقالُ يوم القيامةِ خطاباً للملائكةِ مترتباً على جوابِهم المحكيِّ وهذا حكايةٌ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم لما سيقالُ للعبدةِ يومئذٍ إثر حكايةِ ما سيقالُ للملائكةِ أي يومَ نحشرُهم جميعاً ثم نقولُ للملائكةِ كذا وكذا ويقولون كذا وكذا ونقولُ للمشركين ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ يكون من الأهوالِ والأحوالِ ما لا يحيطُ به نطاقُ المقالِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(57/636)

---

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ

يُخْلِفُهُ ﴾

﴿ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِّن شَىْءٍ ﴾ يحتمل أن تكون ما شرطية في موضع نصب بأنفقتم وقوله تعالى : ﴿ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ جواب الشرط ، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي في موضع رفع بالابتداء والجملة بعد خبره ودخلت الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، و ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ تبيين على الاحتمالين ، ومعنى ﴿ يُخْلِفُهُ ﴾ يعطى بدله وما يقوم مقامه عوضاً عنه وذلك إما في الدنيا بالمال كما هو الظاهر أو بالقناعة التي هي كنز لا يفنى كما قيل .

وإما في الآخرة بالثواب الذي كل خلف دونه وخصه بعضهم بالآخرة ، أخرج الفريابي .

وعبد بن حميد .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : إذا كان لأحدكم شيء فليقتصد ولا يتأول هذه الآية ﴿ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ فإن الرزق مقسوم ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه ، وأخرج من عدا الفريابي من المذكورين عنه أنه قال في الآية : أي ما كان من خلف فهو منه تعالى وربما أنفق الإنسان ماله كله في الخير ولم يخلف حتى يموت ، ومثلها ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ [ هود : 6 ] يقول ما آتاها من رزق فمنه تعالى وربما لم يرزقها حتى تموت ، والأول أظهر لأن الآية في الحث على الإنفاق وأن البسط والقدر إذا كانا من عنده عز وجل فلا ينبغي لمن وسع عليه أن يخاف الضيعة بالاتفاق ولا

لمن قدر عليه زيادتها ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرزقين ﴾ تذييل يؤيد ذلك كأنه قيل : فيرزقه من حيث لا يحتسب.

(58/636)

---

وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً " وأخرج البيهقي في "شعب الإيمان" عن جابر بن عبد الله بن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كل ما أنفق العبد نفقة فعلى الله تعالى خلفها ضامناً إلا نفقة في بنيان أو معصية "

وأخرج البخاري.

وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : " قال الله عز وجل أنفق يا ابن آدم أنفق عليك " وأخرج الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" عنه قال : " قال عليه الصلاة والسلام إن المعونة تنزل من السماء على قدر المؤونة " وفي حديث طويل عن الزبير قال الله تبارك وتعالى : " أنفق أنفق عليك وأوسع أوسع عليك ولا تضيق أضيق عليك ولا تصر فأصر عليك ولا تحزن فاخزن عليك إن باب الرزق مفتوح من فوق سبع

سماوات متواصل إلى العرش لا يغلق ليلاً ولا نهاراً ينزل الله تعالى منه الرزق على كل امرئ بقدر نيته وعطيته وصدقته ونفقته فمن أكثر أكثر له ومن أقل أقل له ومن أمسك أمسك عليه يا زبير فكل وأطعم ولا توكي فيوكى عليك ولا تحصى فيحصى عليك ولا تقتر فيقتر عليك ولا تعسر فيعسر عليك "

الحديث ، ومعنى الرازقين الموصلين للزرق والموهبين له فيطلق الرازق حقيقة على الله عز وجل وعلى غيره ويشعر بذلك ﴿ فارزقوهم مّنْهُ ﴾ نعم لا يقال لغيره سبحانه رازق فلا إشكال في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَخَيْرُ الرزقين ﴾ ووجه الأخيرية في غاية الظهور ؛ وقيل إطلاق الرازق على غيره تعالى مجاز باعتبار أنه واسطة في إيصال رزقه تعالى فهو رازق صور فاستشكل أمر التفضيل بأنه لا بد من مشاركة المفضل للمفضل عليه في أصل الفعل حقيقة لا صورة .

وأجاب الآمدي بأن المعنى خير من تسمى بهذا الاسم وأطلق عليه حقيقة أو مجازاً وهو ضرب من عموم المجاز .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ أي المستكبرين والمستضعفين أو الفريقين وما كانوا يعبدون من دون الله عز وجل ، و ﴿ يَوْمٍ ﴾ ظرف لمضمر متقدم أي واذكر يوم أو متأخر أي ويوم نحشرهم جميعاً ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلمَلائكة ﴾ إلى آخر يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به نطاق المقال ، وظاهر العطف بثم يقتضي أن القول للملائكة متراخ عن الحشر وفي الآثار ما يشهد له ، فقد روى أن الخلق بعد أن يحشروا يبقون قياماً في الموقف سبع آلاف سنة لا يكلمون حتى يشفع في فصل القضاء نبينا صلى الله عليه وسلم فلعله عند ذلك يقول سبحانه للملائكة عليهم السلام : ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ تقريعاً للمشركين وتبكيتاً وإقناطاً لهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة من شفاعة الملائكة عليهم السلام لعلمه سبحانه بما تجيب به على نهج قوله تعالى لعيسى عليه السلام ﴿ أأنت قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى وَأُمّىَ إلهين مِن ﴾ [المائدة : 116] وتخصيصهم بالذكر لأنهم أشرف شركاء المشركين الذين لا كتاب لهم والصالحون عادة للخطاب وعبادتهم مبدأ الشرك بناء على ما نقل ابن الوردي في "تاريخه" في أن سبب حدوث عبادة الأصنام في العرب أن عمرو بن لحي مر بقوم بالشام فرآهم يعبدون الأصنام فسألهم فقالوا له هذه أرباب نتخذها على شكل الهياكل العلوي فنستنصر بها ونستسقي فتبعهم وأتى بصنم معه إلى الحجاز وسول للعرب فعبدوه واستمرت عبادة الأصنام فيهم إلى أن جاء الإسلام وحدثت عبادة عيسى عليه السلام بعد ذلك بزمان كثير فبظهور قصورهم عن رتبة المعبودية وتنزههم عن عبادتهم

يظهر حال سائر الشركاء بطريق الأولوية.

و﴿ هَؤُلاء ﴾ مبتدأ و﴿ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ خبره و﴿ إِيَّاكُمْ ﴾ مفعول ﴿ يَعْبُدُونَ ﴾ قدم للفاصلة مع أنه أهم لأمر التقريع واستدل بتقديمه على جواز تقديم خبر كان إذا كان جملة عليها كما ذهب إليه ابن السراج فإن تقديم المعمول مؤذن بجواز تقديم العامل.

(60/636)

---

وتعقبه أبو حيان بأن هذه القاعدة ليست مطردة ثم قال: والأولى منع ذلك إلا أن يدل على جوازه سماع من العرب، وقرأ جمهور القراء ﴿ نَحْشُرُهُمْ ثُمَّ نَقُولُ ﴾ بالنون في الفعلين.

(61/636)

---

﴿ قَالُوا ﴾ استئناف بياني كأنه قيل: فماذا تقول الملائكة حينئذ؟ فقيل تقول منزهين عن ذلك ﴿ سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ﴾ والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على التحقق أي أنت الذي نواليه من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم: ﴿ بَلْ كَانُوا

يَعْبُدُونَ الجن ﴾ أي الشياطين كما روى عن مجاهد حيث كانوا يطيعونهم فيما يسولون لهم من عبادة غير الله تعالى ، وقيل صورت الشياطين لهم صور قوم من الجن وقالوا : هذه صور الملائكة فاعبدوها فعبدوها ، وقيل : كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها ، وقيل أرادوا أنهم عبدوا شيئاً تخيلوه صادقاً على الجن لا صادقاً علينا فهم يعبدون الجن حقيقة دوننا ، وقال ابن عطية : يجوز أن يكون في الأمم الكافرة من عبد الجن وفي القرآن آيات يظهر منها أن الجن عبدت في سورة الأنعام وغيرها ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ الضمير الثاني للجن والأول للمشركين ، والأكثر على ظاهره لأن من المشركين من لم يؤمن بهم وعبدهم اتباعاً لقومه كأبي طالب أو الأكثر بمعنى الكل ، واختار في البحر الأول لأن كونه بمعنى الكل ليس حقيقة وقال : إنهم لم يدعوا الإحاطة إذ يكون في الكفار من لم يطلع الله تعالى الملائكة عليهم السلام عليهم أو أنهم حكموا على الأكثر بإيمانهم بالجن لأن الايمان من أعمال القلب فلم يذكروا الاطلاع على عمل جميع قلوبهم لأن ذلك لله عز وجل ، وجوز أن يكون الضمير الأول للإنس فالأكثر على ظاهره أي غالبهم مصدقون أنهم آلهة ، وقيل مصدقون أنهم بنات الله ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ [ الصافات : 158 ] وقيل مصدقون أنهم ملائكة .

﴿ فاليوم لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلَا ضَرّاً ﴾ من جملة ما يقال للملائكة عليهم السلام عند جوابهم بالتبرىء عما نسب إليهم المشركون يخاطبون بذلك على رؤس الأشهاد إظهاراً لعجزهم وقصورهم عن زاعمي عبادتهم وتنصيصاً على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية ، وقيل للكفار وليس بذاك ، والفاء لترتيب الأخبار بما بعدها على جواب الملائكة عليهم السلام ، ونسبة عدم النفع والضر إلى البعض المبهم للمبالغة فيما هو المقصود الذي هو بيان عدم نفع الملائكة للعبدة بنظمه في سلك عدم نفع العبدة لهم كأن نفع العبدة لهم كأن نفع الملائكة لعبدتهم في استحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم ، والتعرض لعدم الضر مع أنه لا بحث عنه لتعميم العجز أو لحمل عدم النفع على تقدير العبادة وعدم الضر على تقدير تركها ، وقيل لأن المراد دفع الضر على حذف المضاف وفيه بعد ، والمراد باليوم يوم القيامة وتقييد الحكم به مع ثبوته على الإطلاق لانعقاد رجاء المشركين على تحقق النفع يومئذ .

﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ عطف على ﴿ نَّقُولُ للملائكة ﴾ [ سبأ : 40 ] وقيل على لا يملك وتعقب بأنه مما يقال يوم القيامة خطاباً للملائكة مترتباً على جوابهم المحكي وهذا حكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما سيقال للعبدة يومئذ إثر حكاية ما سيقال للملائكة عليهم السلام .

وأجيب بأن ذلك ليس بمانع فتدبر .

(63/636)

---

ووقع الموصول هنا وصفاً للمضاف إليه وفي السجدة في قوله تعالى : ﴿ عَذَابَ النار الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ صفة للمضاف فقال أبو حيان : لأنهم ثمت كانوا ملابسين للعذاب كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [ السجدة : 20 ] فوصف لهم ثمت ما لابسوه وهنا لم يكونوا ملابسين له بل ذلك أول ما رأوا النار عقب الحشر فوصف ما عاينوه لهم ، وكون الموصول هنا نعتاً للمضاف على أن تأنيثه مكتسب لتتحد الآيتان تكلف سمج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

(64/636)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) ﴾

لما قصّ سبحانه حال من تقدّم من الكفار أتبعه بما فيه التسلية لرسوله ، وبيان أن كفر الأمم السابقة بمن أرسل إليهم من الرسل هو كائن مستمرّ في الأعصر الأوّل ، فقال : ﴿ وَمَا

أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ ﴾ من القرى ﴿ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ ينذرهم ، ويحذرهم عقاب الله ﴿ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ أي : رؤساؤها ، وأغنياؤها ، وجبابرتها ، وقادة الشرّ لرسلهم : ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ أي : بما أرسلتم به من التوحيد ، والإيمان ، وجملة : ﴿ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ في محل نصب على الحال .

ثم ذكر ما افتخروا به من الأموال ، والأولاد ، وقاسوا حالهم في الدار الآخرة على حالهم في هذه الدار على تقدير صحة ما أنذرهم به الرسل ، فقال : ﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أموالا وأولادا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ والمعنى : أن الله فضلنا عليكم بالأموال والأولاد في الدنيا ، وذلك يدلّ على : أنه قد رضي ما نحن عليه من الدين ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ في الآخرة بعد إحسانه إلينا في الدنيا ، ورضاه عنا .

(65/636)

---

فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عنهم ، وقال : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء ﴾ أن يبسطه له ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : يضيق على من يشاء أن يضيقه عليه ، فهو سبحانه قد يرزق الكافر ، والعاصي استدراجاً له ، وقد يمتحن المؤمن المطيع بالتقتير توفيراً لأجره ، وليس مجرّد بسط الرزق لمن بسطه له يدل على أنه قد رضي عنه ، ورضي

عمله ، ولا قبضه عمن قبضه عنه يدل على أنه لم يرضه ، ولا رضي عمله ، فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى في مثل هذا من الغلط البين ، أو المغالطة الواضحة ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ هذا ، ومن جملة هؤلاء الأكثر من قاس أمر الآخرة على الأولى ، ثم زاد هذا الجواب تأييداً ، وتأكيداً ﴿ وَمَا أموالكم وَلاَ أولادكم بالتى تُقَرّبُكُمْ عِندَنَا زلفى ﴾ أي : ليسوا بالخصلة التي تقرّبكم عندنا قربى .

قال مجاهد : الزلفى القربى ، والزلفة : القربة .

قال الأخفش : زلفى اسم مصدر كأنه قال بالتي تقربكم عندنا تقريباً ، فتكون زلفى منصوبة المحلّ .

قال الفرّاء : إن التي تكون للأموال والأولاد جميعاً .

وقال الزجاج : إن المعنى : وما أموالكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى ، ولا أولادكم بالشيء يقرّبكم عندنا زلفى ، ثم حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه ، وأنشد :

نحن بما عندنا وأنت بما عن . . . دك راض والرأي مختلف

ويجوز في غير القرآن باللتين ، واللاتي ، وباللواتي ، وبالذي للأولاد خاصة ، أي : لا تزيدكم الأموال عندنا درجة ورفعة ، ولا تقربكم تقريباً ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ هو استثناء منقطع ، فيكون محله النصب ، أي : لكن من آمن ، وعمل صالحاً ، أو في محل جرّ بدلاً من الضمير في تقرّبكم ، كذا قال الزجاج .

قال النحاس : وهذا القول غلط ، لأن الكاف والميم للمخاطب ، فلا يجوز البدل ، ولو جاز هذا لجاز رأيتك زيداً .

(66/636)

---

ويجاب عنه بأن الأخفش والكوفيين يجوّزون ذلك ، وقد قال بمثل قول الزجاج الفراء ، وأجاز الفراء : أن يكون في موضع رفع بمعنى : ما هو إلاّ من آمن ، والإشارة بقوله : ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إلى من ، والجمع باعتبار معناها ، وهو مبتدأ ، وخبره ﴿ لَهُمْ جَزَاء الضعف ﴾ أي : جزاء الزيادة ، وهي المرادة بقوله : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [ الأنعام : 160 ] ، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول ، أي : جزاء التضعيف للحسنات .

وقيل : لهم جزاء الإضعاف ؛ لأن الضعف في معنى الجمع ، والباء في ﴿ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ للسببية ﴿ وَهُمْ فِى الغرفات ءامِنُونَ ﴾ من جميع ما يكرهون ، والمراد غرفات الجنة ، قرأ الجمهور : ﴿ جزاء الضعف ﴾ بالإضافة ، وقرأ الزهري ، ويعقوب ، ونصر بن عاصم ، وقتادة برفعهما على أن الضعف بدل من جزاء .

وروي عن يعقوب : أنه قرأ : ( جزاء ) بالنصب منوناً ، و : ( الضعف ) بالرفع على تقدير :

فأولئك لهم الضعف جزاء ، أي : حال كونه جزاء .

وقرأ الجمهور : ﴿ في الغرفات ﴾ بالجمع ، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله : ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الجنة غُرَفَاً ﴾ [ العنكبوت : 58 ] .

وقرأ الأعمش ، ويحيى بن وثاب ، وحمزة ، وخلف : ( في الغرفة ) بالإفراد لقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الغرفة ﴾ [ الفرقان : 75 ] ولما ذكر سبحانه حال المؤمنين ذكر حال الكافرين ، فقال : ﴿ والذين يَسْعَوْنَ فِى ءاياتنا ﴾ بالردّ لها ، والطعن فيها حال كونهم ﴿ معاجزين ﴾ مسابقين لنا زاعمين أنهم يفوتوننا بأنفسهم ، أو معاندين لنا بكفرهم ﴿ أُوْلَئِكَ فِى العذاب مُحْضَرُونَ ﴾ أي : في عذاب جهنم تحضرهم الزبانية إليها لا يجدون عنها محيصاً .

(67/636)

---

ثم كرّر سبحانه ما تقدّم لقصد التأكيد للحجة ، والدفع لما قاله الكفرة ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبّى يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ أي : يوسعه لمن يشاء ، ويضيقه على من يشاء ، وليس في ذلك دلالة على سعادة ، ولا شقاوة ﴿ وَمَا أَنفَقْتُمْ مّن شَىْء فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أي : يخلفه عليكم ، يقال : أخلف له ، وأخلف عليه : إذا أعطاه عوضه ، وبدله ،

وذلك البدل إما في الدنيا ، وإما في الآخرة ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرزقين ﴾ فإن رزق العباد لبعضهم البعض إنما هو بتيسير الله ، وتقديره ، وليسوا برازقين على الحقيقة بل على طريق المجاز ، كما يقال : في الرجل إنه يرزق عياله ، وفي الأمير إنه يرزق جنده ، والرازق للأمير ، والمأمور ، والكبير ، والصغير هو : الخالق لهم ، ومن أخرج من العباد إلى غيره شيئاً مما رزقه الله ، فهو إنما تصرّف في رزق الله له ، فاستحق بما خرج منه الثواب عليه المضاعف لامتثاله لأمر الله ، وإنفاقه فيما أمره الله .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدّر نحو اذكر ، أو هو متصل بقوله : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون مَوْقُوفُونَ ﴾ [ سبأ : 31 ] أي : ولو تراهم أيضاً يوم نحشرهم جميعاً للحساب العابد ، والمعبود ، والمستكبر ، والمستضعف ، ﴿ ثُمَّ نَقُولُ للملائكة أَهَؤُلاَء إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ تقريعاً للمشركين ، وتوبيخاً لمن عبد غير الله عزّ وجلّ كما في قوله لعيسى :

﴿ ءأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى وَأُمّىَ إلهين مِن دُونِ الله ﴾ [ المائدة : 116 ] ، وإنما خصص الملائكة بالذكر مع أن بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين ، والأصنام ؛ لأنهم أشرف معبودات المشركين .

قال النحاس: والمعنى: أن الملائكة إذا أكذبتهم كان في ذلك تبكيت للمشركين، وجملة ﴿ قَالُواْ سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، أي: تنزيهاً لك أنت الذي نتولاه، ونطيعه، ونعبده من دونهم، ما اتخذناهم عابدين، ولا توليناهم، وليس لنا غيرك ولياً، ثم صرّحوا بما كان المشركون يعبدونه، فقالوا: ﴿ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن ﴾ أي: الشياطين، وهم: إبليس، وجنوده، ويزعمون: أنهم يرونهم، وأنهم ملائكة، وأنهم بنات الله.

وقيل: كانوا يدخلون أجواف الأصنام، ويخاطبونهم منها ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ أي: أكثر المشركين بالجنّ مؤمنون بهم مصدّقون لهم.

قيل: والأكثر في معنى: الكلّ.

﴿ فاليوم لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرّاً ﴾ يعني: العابدين، والمعبودين لا يملك بعضهم، وهم: المعبودون لبعض، وهم: العابدون ﴿ نَّفْعاً ﴾ أي: شفاعة، ونجاة ﴿ وَلاَ ضَرّاً ﴾ أي: عذاباً، وهلاكاً، وإنما قيل لهم: هذا القول إظهاراً لعجزهم، وقصورهم، وتبكيتاً لعابديهم، وقولهم: ﴿ وَلاَ ضَرّاً ﴾ هو على حذف مضاف، أي: لا يملكون لهم دفع ضرّ، وقوله: ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ عطف على قوله: ﴿ نَّقُولُ

للملائكة ﴾ أي : للذين ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا .

(69/636)

---

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن أبي رزين قال : كان رجلان شريكين ، خرج أحدهما إلى الساحل ، وبقي الآخر ، فلما بعث الله النبيّ صلى الله عليه وسلم كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل ؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلاّ رذالة الناس ومساكينهم ، فترك تجارته ، ثم أتى صاحبه ، فقال : دلني عليه ، وكان يقرأ الكتب ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : إلى ما تدعو ؟ قال : إلى كذا ، وكذا ، قال : أشهد أنك رسول الله ، قال : وما علمك بذلك ؟ قال : إنه لم يبعث نبيّ إلاّ اتبعه رذالة الناس ، ومساكينهم ، فنزلت هذه الآيات ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ الآيات ، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله قد أنزل تصديق ما قلت " وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ جَزَاء الضعف ﴾ قال : تضعيف الحسنة .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال : إذا كان الرجل غنياً تقياً آتاه الله أجره مرتين ، وتلا هذه الآية ﴿ وَمَا أموالكم وَلاَ

أولادكم ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضعف ﴾ قال : تضعيف الحسنة .

وأخرج سعيد بن منصور ، والبخاري في الأدب المفرد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ قال : في غير إسراف ، ولا تقتير ، وعن مجاهد مثله .

وعن الحسن مثله .

وأخرج الدارقطني ، والبيهقي في الشعب عن جابر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كلما أنفق العبد من نفقة ، فعلى الله خلفها ضامناً إلاّ نفقة في بيان ، أو معصية" وأخرج نحوه ابن عدي في الكامل ، والبيهقي من وجه آخر عنه مرفوعاً بأطول منه .

(70/636)

---

وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله عزّ وجل : أنفق يا ابن آدم أنفق عليك " وثبت في الصحيح من حديثه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من يوم يصبح العباد فيه إلاّ وملكان ينزلان ؛ فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعطِ ممسكاً تلفاً " وأخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن لكل يوم

نحساً ، فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصدقة " ثم قال : اقرءوا مواضع الخلف ، فإني سمعت رسول الله يقول : " وما أنفقتم من شيء ، فهو يخلفه إذا لم تنفقوا كيف يخلف " وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن المعونة تنزل من السماء على قدر المئونة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(71/636)

---

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بالله وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً ﴾ .

ذكرنا بعض الآيات التي فيها بيان له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا ﴾ [ البقرة : 166 ] وبيّناه في مواضع أخر من هذا الكتاب المبارك .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الأغلال في أَعْنَاقِ الذين كَفَرُواْ ﴾ .

جاء موضحاً في مواضع أخر كقوله تعالى : ﴿ إِذِ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ والسلاسل ﴾ [

غافر : 71 ] وقوله : ﴿ أولئك الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ ﴾ [ الرعد : 5 ] وقوله : ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ [ الحاقة : 32 ] إلى غير ذلك من الآيات .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35)

قد بيّنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا ﴾ [ الأنعام : 123 ] وأوضحنا ذلك في سورة قد أفلح المؤمنون في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ [ المؤمنون : 44 ] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بالتي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زلفى ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [ الكهف : 36 ] .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤلاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ ﴾ [ الفرقان : 1718 ] الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(73/636)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾

أتبع إبطال أن تكون الأموال والأولاد بذاتهما وسيلة قرب لدى الله تعالى ردّاً على مزاعم المشركين بما يشبه معنى الاستدراك على ذلك الإبطال من إثبات انتفاع بالمال للتقرب إلى رضَى الله إن استعمل في طلب مرضاة الله تفضيلاً لما أشير إليه إجمالاً من أن ذلك قد يكون فيه قربة إلى الله بقوله : ﴿ إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾ [ سبأ : 37 ] كما تقدم .

وقوله : ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ تقدم نظيره قريباً

تأكيداً لذلك وليبنَى عليه قوله : ﴿ وما أنفقتم من شيء ﴾ الآية .

فالذي تقدم ردٌّ على المشركين ، والمذكور هنا ترغيب للمؤمنين ، والعبارات واحدة والمقاصد مختلفة .

وهذا من وجوه الإِعجاز أن يكون الكلام الواحد صالحاً لغرضين وأن يتوجه إلى طائفتين .

ولما كان هذا الثاني موجهاً إلى المؤمنين أشير إلى تشريفهم بزيادة قوله : ﴿ من عباده ﴾ أي المؤمنين ، وضمير ﴿ له ﴾ عائد إلى ﴿ من ﴾ ، أي ويقدر لمن يشاء من عباده .

ومفعول ﴿ يقدر ﴾ محذوف دلّ عليه مفعول ﴿ يبسط ﴾ .

وكان ما تقدم حديثاً عن بسط الرزق لغير المؤمنين فلم ينعموا بوصف ﴿ من عباده ﴾ لأن في الإِضافة تشريفاً للمؤمنين ، وفي هذا امتنان على الذين يبسط عليهم الرزق بأن جمع الله لهم فضل الإِيمان وفضل سعة الرزق ، وتسلية للذين قدر عليهم رزقهم بأنهم نالوا فضل الإِيمان وفضل الصبر على ضيق الحياة .

وفي تعليق ﴿ له ﴾ بـ ﴿ يقْدر ﴾ إيماء إلى أن ذلك القَدْر لا يخلو من فائدة للمقدور عليه رزقُه ، وهي فائدة الثواب على الرضى من قسم له والسلامة من الحساب عليه يوم القيامة .

وفي الحديث " ما من مصيبة تصيب المؤمن إلا كُفِّر بها عنه حتى الشوكةُ يُشاكُها " .

ولولا هذا الإِيماء لقيل : ويقدر عليه ، كما قال : ﴿ ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه اللَّه ﴾ [ الطلاق : 7 ] .

وأما حال الكافرين فإنهم ينعم على بعضهم برزق يحاسبون عليه أشد الحساب يوم القيامة إذ لم يشكروا رازقهم ، ويُقدر على بعضهم فلا يناله إلا الشقاء .

وهذا توطئة لقوله : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ حثاً على الإِنفاق .

والمراد الإِنفاق فيما أذن فيه الشرع .

وهذا تعليم للمسلمين بأن نعيم الآخرة لا ينافي نعيم الدنيا ، قال تعالى : ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ [ البقرة : 201 ، 202 ] .

فأما نعيم الدنيا فهو مسبب عن أحوال دنيوية رتبها الله تعالى ويسّرها لمن يسّرها في علمه بغيبه ، وأما نعيم الآخرة فهو مسبب عن أعمال مبينة في الشريعة وكثير من الصالحين يحصل لهم النعيم في الدنيا مع العلم بأنهم منعَّمون في الآخرة كما أنعم على داود وسليمان وعلى كثير من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وكثير من أئمة الدين مثل مالك بن أنس والشافعي والشيخ عبد الله بن أبي زيد وسحنون .

فأما اختيار الله لنبيئه محمد صلى الله عليه وسلم حالة الزهادة في الدنيا فلتحصل له

غايات الكمال من التمحّض لتلقي الوحي وجميل الخصال ومن مساواة جمهور أصحابه في أحوالهم ، وقد بسطناه بياناً في رسالة طعام رسول الله عليه السلام .

وأعقب ذلك بترغيب الأغنياء في الإنفاق في سبيل الله فجعل الوعد بإخلاف ما ينفقه المرء كناية عن الترغيب في الإنفاق لأن وعد الله بإخلافه مع تأكيد الوعد يقتضي أنه يحب ذلك من المنفقين .

وأكد ذلك الوعد بصيغة الشرط وبجعل جملة الجواب اسمية وبتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بقوله : ﴿ فهو يخلفه ﴾ ، ففي هذا الوعد ثلاثة مؤكدات دالة على مزيد العناية بتحقيقه لينتقل من ذلك إلى الكناية عن كونه مرغوبه تعالى .

و﴿ من شيء ﴾ بيان لما في ﴿ ما ﴾ من العموم ، وجملة ﴿ وهو خير الرازقين ﴾ تذييل للترغيب والوعد بزيادة ، لبيان أن ما يخلفه أفضل مما أنفقه المنفق .

(75/636)

---

﴿ خير ﴾ بمعنى أخير لأن الرزق الواصل من غيره تعالى إنما هو من فضله أجراه على يد بعض مخلوقاته فإذا كان تيسيره برضى من الله على المرزوق ووعد به كان ذلك أخلق بالبركة والدوام ، وظاهر الآية أن إخلاف الرزق يقع في الدنيا وفي الآخرة .

والمراد بالإنفاق: الإِنفاق المرغب فيه في الدين كالإِنفاق على الفقراء والإِنفاق في سبيل الله بنصر الدين.

رَوى مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يقول الله تعالى: يا بن آدم أَنفق أُنفق عليك".

قال ابن العربي: قد يعوّض مثله أو أزيد، وقد يعوض ثواباً، وقد يدخر له وهو كالدعاء في وعد الإِجابة" اه.

قلت: وقد يعوّض صحة وقد يعوّض تعميراً.

ولله في خلقه أسرار.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40)

عطف على جملة ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ﴾ [سبأ: 31] الآية استكمالاً لتصوير فظاعة حالهم يوم الوعد الذي أنكروه تبعاً لما وصف من حال مراجعة المستكبرين منهم والمستضعفين؛ فوصف هنا افتضاحهم بتبرؤ الملائكة منهم وشهادتهم عليهم بأنهم يعبدون الجن.

وضمير الغيبة من ﴿ نحشرهم ﴾ عائد إلى ما عاد عليه ضمير ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً ﴾ [سبأ: 35] الذي هو عائد إلى ﴿ الذين كفروا ﴾ من قوله: ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ﴾ [سبأ: 31].

والكلام كله منتظم في أحوال المشركين ، وجميع : فعيل بمعنى مفعول ، أي مجموع وكثر استعماله وصفاً لإفادة شمول أفراد ما أجري هو عليه من ذوات وأحوال ، أي يجمعهم المتكلم ، قال لبيد :

عريت وكان بها الجميعُ فأبكروا
منها وغودر نُؤيها وثُمامها . . .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ في سورة هود ( 55 ) .



---

فلفظ ﴿ جميعاً ﴾ يعم أصناف المشركين على اختلاف نحلهم واعتقادهم في شركهم فقد كان مشركو العرب نِحَلا شتّى يأخذ بعضهم من بعض وما كانوا يحققون مذهباً منتظم العقائد والأقوال غير مخلوط بما ينافي بعضه بعضاً .

والمقصد من هذه الآية إبطال قولهم في الملائكة إنهم بنات الله ، وقولهم : ﴿ لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ كما في سورة الزخرف ( 20 ) .

وكانوا يخلطون بين الملائكة والجن ويجعلون بينهم نسباً ، فكانوا يقولون : الملائكة بنات الله من سَروات الجن .

وقد كان حَيّ من خزاعة يقال لهم : بنو مُليح ، بضم الميم وفتح اللام وسكون التحتية ، يعبدون الجن والملائكة ، والاقتصار على تقرير الملائكة واستشهادهم على المشركين لأن إبطال إلهية الملائكة يفيد إبطال إلهية ما هو دونها ممن أُعبد من دون الله بدلالة الفحوى ، أي بطريق الأولى فإن ذلك التقرير من أهم ما جعل الحشر لأجله .

وتوجيه الخطاب إلى الملائكة بهذا الاستفهام مستعمل في التعريض بالمشركين على طريقة المَثل إياكِ أعنِي واسمَعِي يا جارة .

والإشارة بهؤلاء ﴾ إلى فريق كانوا عبدوا الملائكة والجن ومن شايعهم على أقوالهم من بقية المشركين .

وتقديم المفعول على ﴿ يعبدون ﴾ للاهتمام والرعاية على الفاصلة .

وحكي قول الملائكة بدون عاطف لوقوعه في المحاورة كما تقدم غير مرة ولذلك جيء فيه بصيغة الماضي لأن ذلك هو الغالب في الحكاية .

وجواب الملائكة يتضمن إقراراً مع التنزه عن لفظ كونهم معبودين كما يتنزه من يَحكي كفر أحد فيقول قال : هُو مشرك بالله ، وإنما القائل قال : أنا مشرك بالله .

فمورد التنزيه في قول الملائكة ﴿ سبحانك ﴾ هو أن يكون غير الله مستحقاً أن يعبد ، مع لازم الفائدة وهو أنهم يعلمون ذلك فلا يضرون بأن يكونوا مَعبودين .

والولي : الناصر والحَليف والصديق ، مشتق من الوَلْي مصدر وَلِيَ بوزن عَلِم .

وكلٌّ من فاعل الوَلْي ومفعوله وليّ لأن الوَلاية نسبة تستدعي طرفين ولذلك كان الولي فعيلاً صالحاً لمعنى فاعل ولمعنى مفعول .

فيقع اسم الوِليّ على المُوالِي بكسر اللام وعلى المُوالَى بفتحها وقد ورد بالمعنيين في القرآن وكلام العرب كثيراً .

فمعنى ﴿ أنت ولينا ﴾ لا نوالي غيرك ، أي لا نرضى به وليّاً ، والعبادةُ ولاية بين العابد والمعبود ، ورضَى المعبود بعبادة عابده إياه ولايةٌ بين المعبود وعابده ، فقول الملائكة ﴿ سبحانك ﴾ تبرؤ من الرضى بأن يعبدهم المشركون لأن الملائكة لما جعلوا أنفسهم موالين لله فقد كذبوا المشركين الذين زعموا لهم الإِلهية ، لأن العابد لا يكون معبوداً .

وقد تقدم الكلام على لفظ ( ولي ) عند قوله تعالى : ﴿ قل أغير اللَّه أتخذ ولياً ﴾ في سورة الأنعام ( 14 ) وفي آخر سورة الرعد .

ومِن ﴾ زائدة للتوكيد و ( دون ) اسم لمعنى غير ، أي أنت ولينا وهم ليسوا أولياء لنا ولا نرضى بهم لكفرهم ف ﴿ من دونهم ﴾ تأكيد لما أفادته جملة ﴿ أنت ولينا ﴾ من الحَصر لتعريف الجزأين .

و﴿ بل ﴾ للإِضراب الانتقالي انتقالاً من التبرؤ منهم إلى الشهادة عليهم وعلى الذين سَوّلوا لهم عبادة غير الله تعالى ، وليس إضراب إبطال لأن المشركين المتحدث عنهم كانوا يعبدون الملائكة ، والمعنى : بل كان أكثر هؤلاء يعبدون الجن وكان الجنّ راضين بعبادتهم إياهم .

وحاصل المعنى : أنا منكرون عبادتهم إيانا ولم نأمرهم بها ولكن الجن سوّلت لهم عبادة غير الله فعبدوا الجن وعبدوا الملائكة .

وجملة ﴿ أكثرهم ﴾ للمشركين وضمير ﴿ بهم ﴾ للجن ، والمقام يردّ كل ضمير إلى معاده ولو تماثلت الضمائر كما في قول عباس بن مرداس يوم حنين :

عُدنا ولولا نحن أحدق جمعهم

بالمسلمين وأحرزوا ما جَمَّعوا . . .

أي أحرز جَمْع المشركين ما جَمَّعه المسلمون من مغانم .

وقرأ الجمهور ﴿ نحشرهم ﴾ و ﴿ نقول ﴾ بنون العظمة .

(78/636)

---

وقرأ حفص عن عاصم بياء الغائب فيهما ، والضمير عائد إلى ﴿ ربي ﴾ من قوله : ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ [ سبأ : 39 ] .

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (42)

﴿ بِهِم مُّؤْمِنُونَ * فاليوم لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ ﴾ .

الأظهر أن هذا من خطاب الله تعالى المشركين والجنّ .

والفاء فصيحة ناشئة عن المقاولة السابقة .

وهي كلام موجه من جانب الله تعالى إلى الملائكة والمقصود به : التعريض بضلال الذين عبدوا الملائكة والجن لأن الملائكة يعلمون مضمون هذا الخبر فلا تقصد إفادتهم به .

والمعنى : إذ علمتم أنكم عبدتم الجن فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً .

ويجوز أن يكون من خطاب الملائكة للفريقين بعد أداء الشهادة عليهم توبيخاً لهم وإظهاراً للغضب عليهم تحقيقاً للتبرؤ منهم ، والفاء أيضاً فصيحة وهي ظاهرة .

وقُدم الظرف على عامله لأن النفع والضر يومئذٍ قد اختص صغيرهما وكبيرهما بالله تعالى خلاف ما كان في الدنيا من نفع الجن عُبَّادهم ببعض المنافع الدنيوية ونفع المشركين الجن بخدمة وساوسهم وتنفيذ أغراضهم من الفتنة والإِضلال ، وكذلك الضر في الدنيا أيضاً .

والمِلك هنا بمعنى : القدرة ، أي لا يقدر بعضكم على نصر أو نفع بعض .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قل فمَن يملك من اللَّه شيئاً إن أراد أن يهلك المسيحَ ابن مريم ﴾

في سورة العقود ( 17 ) .

وقدم النفع في حَيز النفي تأييساً لهم لأنهم كانوا يرجون أن يشفعوا لهم يومئذٍ و ﴿ يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [ يونس : 18 ] .

وعطف نفي الضر على نفع النفع للدلالة على سلب مقدرتهم على أي شيء فإن بعض الكائنات يستطيع أن يضر ولا يستطيع أن ينفع كالعقرب .

(79/636)

---

﴿ وَلاَ ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ النار التى كُنتُم ﴾ .

عطف على قوله : ﴿ ثم نقول للملائكة ﴾ [ سبأ : 40 ] .

وقد وقع الإِخبار عن هذا القول بعد الإِخبار عن الحوار الذي يجري بين الملائكة وبين المشركين يومئذٍ إظهاراً لاستحْقاقهم هذا الحكم الشديد ، ولكونه كالمعلول لقوله : ﴿ لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً ﴾ .

والذوق : مجاز لمطلق الإِحساس ، واختياره دون الحقيقة لشهرة استعماله .

ووصف النار بالتي كانوا يكذبون بها لما في صلة الموصول من إيذان بغلطهم وتنديمهم .

وقد علق التكذيب هنا بنفس النار فجيء باسم الموصول المُناسب لها ولم يعلق بالعذاب

كما في آية سورة السجدة ( 20 ) ﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ لأن القول المخبر عنه هنا هو قول الله تعالى وحكمه وقد أذن بهم إلى جهنم وشاهدوها كما قال تعالى آنفاً : ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ [ سبأ : 33 ] فإن الذي يرى هو ما به العذاب ، وأما القول المحكي في سورة السجدة ( 20 ) فهو قول ملائكة العذاب بدليل قوله : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون .

﴾ وتقديم المجرور للاهتمام والرعاية على الفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

*(80/636)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾

مِنَ الخَلَف في الدنيا الرضا بالعَدَمِ والفقد ، وهو أتمّ من السرور بالموجود ؛ ومن ذلك الأُنسُ بالله في الخلوة ؛ ولا يكون ذلك إلا مع التجريد .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40)

قومٌ كانوا يعبدون الملائكة فيختبرهم عنهم؛ فيتبرأون منهم وينزِّهون الله ويسبحونه، فيفتضح هؤلاء – والافتضاحُ عند السؤال من شديد العقوبة، وفي بعض الأخبار: أنّ غداً منْ يسألهم الحقّ فيقعْ عليهم من الخجل ما يجعلهم يقولون: عذّبنا ربنا بما شئت من ألوان العقوبة ولا تعذبنا بهذا السؤال!

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (42)

الإشارة فى هذا أنّ مَن علقَ قلبه بالأغيار؛ وظنّ صلاحَ حاله بالاحتيال؛ والاستعانة بالأمثال والأَشكال ينزعُ اللَّهُ الرحمةَ من قلوبهم؛ ويتركهم، ويشوشُ أحوالهم، فلا لهم من الأَمثال والأشكال معونة، ولا لهم منْ عقولهم في أُمورهم استبصار، ولا إلى الله رجوع، وإنْ رجعوا لا يرحمهم ولا يجيبهم، ويقول لهم: ذوقوا وبالَ ما به استوجبتم هذه العقوبة.

انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 185. 186﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (43) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (45) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر أنهم أبوا الإيمان بالقرآن ، المخبر بالغيب من أمر الرحمن الذي هدت إليه العقول ، وشاهدت آثاره العيون ، في هذا الكلام المعجز ، فتظافرت على ما أخبرت به أدلة السمع والبصر والعقل ، وختم بأنهم آمنوا بالجن غيباً وعبدوهم من دون الله بما لم يدع إليه عقل ولا نقل ، وصدقوهم من الإخبار بما إن صدقوا في شيء منه خلطوا معه أكثر من مائة كذبة ، وسلب أعظم من ادعوا أنهم استندوا إليه النفع والضر ، وأسند تعذيبهم إلى تكذيبهم ، أتبعه الإخبار بأنهم لازموا الإصرار على ذلك الكفر والتكذيب بما كله صدق وحكم فقال : ﴿ وإذا تتلى ﴾ أي في وقت من الأوقات من أيّ تال كان ﴿ عليهم ﴾ أي خاصة لم يشركهم غيرهم ليقولوا : إنه المقصود بالتلاوة ، فلا يلزمهم الاستماع ﴿ آياتنا ﴾ حال كونها ﴿ بينات ﴾ ما قالت شيئاً إلا ظهرت حقيته ﴿ قالوا ﴾ أي على الفور من غير تأمل لما

حملهم على ذلك من حظ النفس .

ولما كان المستكبرون يرون ما للرسالة من الظهور ، وللرسول من القبول ، وأن أتباعهم قد ظهر لهم ذلك ، فمالوا إليه بكلياتهم ، أكده قولهم : ﴿ ما هذا ﴾ أي التالي لها على ما فيه من السمت المعلم بأنه أصدق الخلق وأعلاهم همة وأبينهم نصيحة ﴿ إلا رجل ﴾ أي مع كونه واحداً هو مثل واحد من رجالكم ، وتزيدون عليه أنتم بالكثرة ، ولم يسندوا الفعل إليهم نفياً للغرض عن أنفسهم وإلهاباً للمخاطبين فقالوا : ﴿ يريد أن يصدكم ﴾ أي بهذا الذي يتلوه ﴿ عما كان ﴾ دائماً ﴿ يعبد آباؤكم ﴾ أي لا قصد له إلا ذلك لتكونوا له أتباعاً ، وألهبوا السامعين بتصوير آبائهم بذكر "كان" والفعل المضارع ملازمين للعبادة ليثبتوا على كفرهم بما لا دليل عليه ولا شبهة ولا داع سوى التقليد .

ولما كانت أدلة الكتاب واضحة ، خافوا عاقبتها في قبول الاتباع لها ، فجزموا بأنها كذب ليوقفوهم بذلك ، فحكى ذلك عنهم سبحانه بقوله : ﴿ وقالوا ما هذا ﴾ أي القرآن ﴿ إلا إفك ﴾ أي كذب مصروف عن وجهه ﴿ مفترى ﴾ أي متعمد ما فيه من الصرف .

ولما كان فيه ما لا يشك أحد في حقيته ، لبسوا عليهم بأنه خيال يوشك أن ينكشف إيقافاً لهم إلى وقت ما ، فقال تعالى إخباراً عنهم : ﴿ وقال ﴾ ولما كان الحق قد يخفى ، ولم يقيده بالبيان كما فعل في الآيات ، أظهر موضع الإضمار بياناً للوصف الحامل لهم على ذلك القول وهو التدليس ، فقال : ﴿ الذين كفروا ﴾ أي ستروا ما دلت عليه العقول من حقية القرآن ، ﴿ للحق ﴾ أي الذي لا أثبت منه باعتبار كمال الحقية فيه ﴿ لما جاءهم ﴾ أي من غير أن يمهلوا النظر ولا تدبر ليقال إن الداعي لهم إلى ما قالوا نوه شبهة عرضت لهم ، بل أظهروا بالمسارعة إلى الطعن أنه مما لا يتوقف فيه ، وأكدوا لما تقدم من خوفهم على أتباعهم ليخيلوهم فقالوا : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هذا ﴾ أي الثابت الذي لا يكون شيء أثبت منه ﴿ إلا سحر ﴾ أي خيال لا حقيقة له ﴿ مبين ﴾ أي ظاهر العوار جداً ، فهو ينادي على نفسه بذلك ، فلا تغتروا بما فيه مما تميل النفوس ويؤثر في القلوب ، ولقد انصدّ لعمري بهذا التلبيس – مع أن في نسبتهم له إلى السحر الاعتراف بالعجز – بشر كثير برهة حتى هدى الله بعضهم ، وتمادى بالآخرين الأمر حتى ماتوا على ضلالهم ، مع أنه كان ينبغي لكل من رأى مبادرتهم وتحرقهم أن يعرف أنهم متغرضون ، لم يحملهم على ذلك إلا الحظوظ النفسانية ، والعلق الشهوانية ، قال الطفيل ابن عمرو الدوسي ذو النور ـ رضى الله عنه ـ : لقد اكثروا عليّ في أمره حتى حشوت في أذنيّ الكرسف خوفاً من أن يخلص إلى شيء من كلامه فيفتنني ، ثم أراد الله بي الخير فقلت : واثكل أمي إني والله لبيب عاقل شاعر ، ولي

معرفة بتمييز غث الكلام من سمينه ، فما لي لا أسمع منه ، فإن كان حقاً تبعته ، وإن كان باطلاً كنت منه على بصيرة – أو كما قال ، قال : فقصدت النبي -صلى الله عليه وسلم- فقلت : اعرض عليّ ما جئت به ، فلما عرضه عليّ بأبي هو وأمي ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه فما توقفت في أن أسلمت ، ثم سأل النبي -صلى الله



---

عليه وسلم- أن يدعو الله له أن يعطيه آية تعينه على قومه ، فلما أشرف على حاضر قومه كان له نور في جبهته ، فخشي أن يظنوا أنها مثلة ، فدعا بتحويله ، فتحول في طرف سوطه ، فأعانه الله على قومه فأسلموا .



---

ولما بارزوا بهذا القول من غير أثارة من علم ولا خبر من سمع ، بين ذلك معجباً من شأنهم ، موضحاً لعنادهم ، بقوله مؤكداً إشارة إلى أن ما يجترئون عليه من الأقوال التي لا سند لها إلا التقليد لا يكون إلا عن كتاب أو رسول : ﴿ وما ﴾ أي قالوا ذلك والحال أنا ما

﴿ آتيناهم ﴾ أي هؤلاء العرب أصلاً لأنه لم ينزل عليهم قط قبل القرآن كتاب ، وعبر بمظهر العظمة إشارة إلى أن هذا مقام خطر وموطن وعر جداً لأنه أصل الدين ، فلا يقنع فيه إلا بأمر عظيم ، وأكد هذا المعنى بقوله : ﴿ من كتب ﴾ بصيغة الجمع مع تأكيد النفي بالجار قبل كتابك الجامع ﴿ يدرسونها ﴾ أي يجددون دراستها في كل حين ، فهي متظاهرة الدلالة باجتماعها على معنى واحد متواترة عندهم لا شبهة في أمرها ليكون ذلك سبباً للطعن في القرآن إذا خالف تلك الكتب ﴿ وما أرسلنا ﴾ أي إرسالاً لا شبهة فيه لمناسبته لما لنا من العظمة ﴿ إليهم ﴾ أي خاصة ، بمعنى أن ذلك الرسول مأمور بهم باعيانهم ، فهم مقصودون بالذات ، لا أنهم داخلون في عموم ، أو مصقودون من باب الأمر بالمعروف في جميع الزمان الذي ﴿ قبلك ﴾ أي من قبل رسالتك الجامعة لكل رسالة ليخرج إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فإنهما كانا في بعض الزمان الماضي ، أو أن المراد في الفترة بعد عيسى عليه السلام كما تقدم في السجدة نقله عن ابن عباس ومقاتل ، ويجوز أن يراد بعد إسماعيل عليه السلام لأن عيسى عليه السلام - وإن أرسل إلى العرب رسله - لم يكن مرسلاً إلا إلى قومه ، وإرساله إلى غيرهم إنما هو من باب الأمر بالمعروف ، وشعيب عليه السلام إنما كانت رسالته إلى طائفة أو أثنتين منهم وقد يقال : الذي يدل عليه استغراق جميع الزمان الماضي بالتجريد عن الخافض أن المراد إنما هو نفي الإرسال بهذا الباطل الذي

إدعوه لا مطلق الإرسال ، وأكد النفي بقوله : ﴿ من نذير ﴾ أي ليكون عندهم قول منه يغبر في وجه القرآن ، فيكون حاملاً لهم على الطعن .

(85/636)

---

ولما نفى موجب الطعن ، ذكر المانع الموجب للإذعان فقال : ﴿ وكذب ﴾ أي فعلوا ما فعلوا ، الحال أنه قد كذب ﴿ الذين من قبلهم ﴾ أي من قوم نوح ومن بعدهم بادروا إلى ما بادر إليه هؤلاء ، لأن التكذيب كان في طباعهم لما عندهم من الجلافة والكبر ﴿ وما بلغوا ﴾ أي هؤلاء ﴿ معشار ما آتيناهم ﴾ أي عشراً صغيراً مما آتينا أولئك من القوة في الأبدان والأموال والمكنة في كل شيء من العقول وطول الأعمار والخلو من الشواغل ﴿ فكذبوا ﴾ أي بسبب ما طبعوا عليه من العناد ، وأفرد الضمير كما هو حقه ونصاً على أن النون فيما مضى للعظمة لا للجمع دفعاً لتعنت متعنت فقال : ﴿ رسلي ﴾ .

ولما كان اجترأوهم على الرسل سبب إهلاكهم على أوجه عجيبة ، صارت مثلاً مضروباً باقياً إلى يوم القيامة ولم يغن عنهم في دفع النقم ما بسط لهم من النعم ، كان موضع أن يقال لرائيه أو لسامعه : ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي فيما كان له من الشدة التي هي كالجبلة أي إنكاري على المكذبين لرسلي ، ليكون السؤال تنبيهاً لهذا المسؤول وداعياً له إلى الإذعان

خوفاً من أن يحل به ما حل بهم أن فعل مثل ما فعلهم سواء كان الإنكار في أدنى الوجوه كما أوقعناه سبباً من تعطيل الأسباب ، أو أعلاها كما أنزلنا بقوم نوح عليه السلام ومن شاكلهم وصب العذاب والاستئصال الوحيّ بالمصاب على ما أشارت إليه قراءتا حذف الياء وإثباتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 189 . 192 ﴾

(86/636)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾

إظهار لفساد اعتقادهم واشتداد عنادهم حيث تبين أن أعلى من يعبدونه وهم الملائكة لا يتأهل للعبادة لذواتهم كما قالوا : ﴿ سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ [ سبأ : 41 ] أي لا أهلية لنا إلا لعبادتك من دونهم أي لا أهلية لنا لأن نكون معبودين لهم ولا لنفع أو ضر كما قال تعالى : ﴿ فاليوم لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرّاً ﴾ [ سبأ : 42 ] ثم مع هذا كله إذا قال لهم النبي عليه السلام كلاماً من التوحيد وتلا عليهم آيات الله الدالة عليه ، فإن لله في كل شيء

آيات دالة على وحدانيته أنكروها وقالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم يعني يعارضون البرهان بالتقليد ﴿ وَقَالُواْ مَا هذا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ وهو يحتمل وجوهاً أحدها : أن يكون المراد أن القول بالوحدانية ﴿ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ ويدل عليه هو أن الموحد كان يقول في حق المشرك إنه يأفك كما قال تعالى في حقهم : ﴿ أَءفْكاً ءالِهَةً دُونَ الله تُرِيدُونَ ﴾ [ الصافات : 86 ] وكما قالوا هم للرسول : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلهتنا ﴾ [ الأحقاف : 22 ] وثانيها : أن يكون المراد ﴿ مَا هذا إِلاَّ إِفْكٌ ﴾ أي القرآن إفك وعلى الأول يكون قوله : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقّ لَمَّا جَاءهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ إشارة إلى القرآن وعلى الثاني يكون إشارة إلى ما أتى به من المعجزات وعلى الوجهين فقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ بدلاً عن أن يقول وقالوا للحق هو أن إنكار التوحيد كان مختصاً بالمشركين ، وأما إنكار القرآن والمعجزات [ فقد ] كان متفقاً عليه بين المشركين وأهل الكتاب [ فقال ] تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقّ ﴾ على وجه العموم .

*(87/636)*

---

وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44)

وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير تأكيد لبيان تقليدهم يعني يقولون عندما تتلى عليهم الآيات

البينات هذا رجل كاذب وقولهم : ﴿ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ من غير برهان ولا كتاب أنزل عليهم ولا رسول أرسل إليهم ، فالآيات البينات لا تعارض إلا بالبراهين العقلية ، ولم يأتوا بها أو بالتقلبات وما عندهم كتاب ولا رسول غيرك ، والنقل المعتبر آيات من كتاب الله أو خبر رسول الله ، ثم بين أنهم كالذين من قبلهم كذبوا مثل عاد وثمود ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَا ءاتيناهم ﴾ قال المفسرون معناه : وما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين من القوة والنعمة وطول العمر ، ثم إن الله أخذهم وما نفعتهم قوتهم ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء ، وعندي [ أنه ] يحتمل ذلك وجهاً آخر وهو أن يقال المراد : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَا ءاتيناهم ﴾ أي الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قوم محمد من البيان والبرهان ، وذلك لأن كتاب محمد عليه السلام أكمل من سائر الكتب وأوضح ، ومحمد عليه السلام أفضل من جميع الرسل وأفصح ، وبرهانه أوفى ، وبيانه أشفى ، ثم إن المتقدمين لما كذبوا بما جاءهم من الكتب وبمن أتاهم من الرسل أنكر عليهم وكيف لا ينكر عليهم ، وقد كذبوا بأفصح الرسل ، وأوضح السبل ، يؤيد ما ذكرنا من المعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا ءاتيناهم مّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ يعني غير القرآن ما آتيناهم كتاباً وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ، فلما كان المؤتى في الآية الأولى هو الكتاب ، فحمل الإيتاء في الآية الثانية على إيتاء الكتاب أولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 232.230 ﴾

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) ﴾

هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن فعل قريش وقولها أي هذه يا محمد سيرة الأمم فلا يهمنك أمر قومك ، و" القرية " المدينة ، و" المترف " المنع البطال الغني القليل تعب النفس والجسم فعادتهم المبادرة بالتكذيب ، وقوله ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على المترفين ويكون ذلك من قولهم مع تكذيبهم ، ثم لما كانت قريش مثلهم أمره الله تعالى بأن يقول ﴿ إن ربي ﴾ الآية ، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿ قالوا ﴾ لقريش ويكون كلام المترفين قد تم ، ثم تطرد الآية بعد ، وقولهم ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً ﴾ معناه الاحتجاج أي أن الله لم يعطنا هذا وقدره لنا إلا لرضاء عنا وعن طريقنا ونحن لا نعذب البتة اذ الله الذي تزعم أنت علمه بجميع الأشياء وإحاطته قد قدر علينا النعم ، فهو إذن راض عنا ، وقال بعض المفسرين معنى قولهم ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ أي بالفقر .

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا ليس كالأول في القوة فأمر الله تعالى نبيه أن يقول : إن الأمر ليس كما ظنوا بل بسط الرزق وقدره معلق بالمشيئة في كافر ومؤمن وليس شيء من ذلك دليلاً على رضى الله تعالى والقرب منه لأنه قد يعطي ذلك إملاء واستدراجاً ، وكثير من الناس لا يعلم ذلك كأنتم أيها الكفار ، وقرأت فرقة " ويقدر " ، وقرأت فرقة " ويُقَدّر " بضم الباء وفتح القاف وشد الدال وهي راجعة إلى معنى التضييق الذي هو ضد البسط ، ثم أخبرهم بأن أموالهم وأولادهم ليست بمقربة من الله ﴿ زلفى ﴾ ، والزلفى مصدر بمعنى القرب ، وكأنه قال تقربكم عندنا تقريباً ، وقرأ الضحاك " زَلَفًى " بفتح اللام وتنوين الفاء ، وقوله تعالى : ﴿ إلا من آمن ﴾ استثناء منقطع ، و﴿ من ﴾ في موضع نصب بالاستثناء ، وقال الزجاج ﴿ من ﴾ بدل من الضمير في ﴿ تقربكم ﴾ ، وقال الفراء ﴿ من ﴾ في موضع رفع ، وتقدير الكلام ما هو المقرب إلا من آمن ، وقرأ الجمهور " جزاءُ الضعفِ " بالإضافة ، وقرأ قتادة " جزاءُ الضعفُ " برفعها ، وحكى عنه الداني " جزاءَ " بالنصب " الضعفَ " بنصب الفاء ، و﴿ الضعف ﴾ هنا اسم جنس أي بالتضعيف إذ بعضهم يجازى إلى عشرة وبعضهم أكثر إلى سبعمائة بحسب الأعمال . ومشيئة الله تعالى فيها ، وقرأ جمهور القراء " في الغرفات " بالجمع ، وقرأ حمزة وحده " في الغرفة " على اسم الجنس يراد به الجمع ، ورويت عن الأعمش وهما في القراءة حسنتان ، قال أبو علي : وقد يجيء هذا الجمع بالألف والتاء " الغرفات " ونحوه للتكثير ومنه قول حسان بن ثابت :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى . . . وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فلم يرد إلا كثرة جفان .

قال الفقيه الإمام القاضي : وتأمل نقد الأعشى في هذا البيت ، وقرأ الأعمش والحسن وعاصم بخلاف في " الغرْفات " بسكون الراء .

وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (38)

(90/636)

---

لما ذكر تعالى المؤمنين العاملين الصالحات وذكر ثوابهم عقب بذكر ضدهم وذكر جزائهم ليظهر تباين المنازل ، وقرأت فرقة " معاجزين " ( وقرأت فرقة معجزين ) ، وقد تقدم تفسيرها في صدر السورة ، و﴿ محضرون ﴾ من الإحضار والإعداد ، ثم كرر القول ببسط الرزق وقدره تأكيداً وتبييناً وقصد به ها هنا رزق المؤمنين وليس سوقه على المعنى الأول الذي جلب للكافرين ، بل هذا هنا على جهة الوعظ والتزهيد في الدنيا والحض على النفقة في الطاعات ، ثم وعد بالخلف في ذلك وهو بشرط الاقتصاد والنية في الطاعة ودفع المضرات وعد منجز إما في الدنيا وإما في الآخرة ، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " قال الله لي أنفق أنفق عليك " وفي البخاري أن ملكاً ينادي

كل يوم اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول ملك آخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً ، وقال مجاهد المعنى إن كان خلف فهو موليه وميسره ، وقد لا يكون الخلف ، وأما قوله ﴿ خير الرازقين ﴾ فمن حيث يقال في الإنسان إنه يرزق عياله ، والأمير جنده ، لكن ذلك من مال يملك عليهم والله تعالى من خزائن لا تفنى ومن إخراج من عدم إلى وجود ، وقرأ الأعمش " ويُقدّر " بضم الياء وشد الدال .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40)

*(91/636)*

---

هذه آية وعيد للكفار ، والمعنى واذكر يوم نحشرهم ، وقرأ جمهور القراء " نحشرهم جميعاً ثم نقول " بالنون فيهما ، ورواها أبو بكر عن عاصم ، وقرأ حفص عن عاصم " ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول " بالياء فيهما ، وذكرها أبو حاتم عن أبي عمرو ، والقول للملائكة هو توقيف تقوم منه الحجة على الكفار عبدتهم وهذا نحو قوله تعالى لعيسى عليه السلام ﴿ أأنت قلت للناس ﴾ [ المائدة : 116 ] وإذا قال الله تعالى للملائكة هذه المقالة قالت الملائكة ﴿ سبحانك ﴾ أي تنزيهاً لك عما فعل هؤلاء الكفرة ، ثم برؤوا أنفسهم بقولهم ﴿ أنت ولينا من دونهم ﴾ يريدون البراءة من أن يكون لهم رضى أو علم أو مشاركة في أن

يعبدهم البشر ، ثم قرروا البشر إنما عبدت الجن برضى الجن وبإغوائها للبشر فلم تنف الملائكة عبادة البشر . إياها وإنما قررت أنها لم تكن لها في ذلك مشاركة ، ثم ذنبت الجن ، وعبادة البشر للجن هي فيما نعرفه نحن بطاعتهم إياهم وسماعهم من وسوستهم وإغوائهم ، فهذا نوع من العبادة ، وقد يجوز إن كان في الأمم الكافرة من عبد الجن ، وفي القرآن آيات يظهر منها أن الجن عبدت في سورة الأنعام وغيرها ، ثم قال تعالى : ﴿ فاليوم ﴾ وفي الكلام حذف تقديره فيقال لهم أي من عبد ومن عبد اليوم ﴿ لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ﴾ ، وقوله ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآية أقوال الكفرة وأنواع كلامهم عندما يقرأ عليهم القرآن ويسمعون حكمته وبراهينه البينة ، فقائل طعن على النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يقدح في الأوثان ودين الآباء ، وقائل طعن عليه بأن هذا القرآن مفترى أي مصنوع من قبل محمد صلى الله عليه وسلم ويدعي أنه من عند الله ، وقائل طعن عليه بأن ما عنده من الرقة واستجلاب النفوس واستمالة الأسماع إنما هو سحر به يخلب ويستدعى ، تعالى الله عن أقوالهم وتقدست شريعته عن طعنهم .

(92/636)

وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44)

معنى هذه الآية أنهم يقولون بآرائهم في كتاب الله فيقول بعضهم سحر ، وبعضهم افتراء ، وذلك منهم تسور لا يستندون فيه إلى إثارة علم ولا إلى خبر من يقبل خبره ، فإنا ما آتيناهم كتباً يدرسونها ولا أرسلنا إليهم نذيراً فيمكنهم أن يدعوا أن أقوالهم تستند إلى أمره ، وقرأ جمهور الناس "يدْرسونها" بسكون الدال ، وقرأ أبو حيوة "يدَّرِسونها" بفتح الدال وشدها وكسر الراء - والمعنى وما أرسلنا من نذير يشافههم بشيء ولا يباشر أهل عصرهم ولا من قرب من آبائهم ، وإلا فقد كانت النذارة في العالم وفي العرب مع شعيب وصالح وهود ودعوة الله وتوحيده قائم لم تخل الأرض من داع إليه ، فإنما معنى هذه الآية ﴿ من نذير ﴾ يختص بهؤلاء الذين بعثناك إليهم ، وقد كان عند العرب كثير من نذارة إسماعيل ، والله تعالى يقول : إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيّاً ولكن لم يتجرد للنذارة وقاتل عليها إلا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم مثل لهم بالأمم المكذبة قبلهم ، وقوله ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها أن يعود الضمير في ﴿ بلغوا ﴾ على قريش ، وفي ﴿ آتيناهم ﴾ على الأمم ﴿ الذين من قبلهم ﴾ ، والمعنى من قوة والنعم والظهور في الدنيا ، قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد ، والثاني أن يعود الضمير في ﴿ بلغوا ﴾ على الأمم المتقدمة وفي ﴿ آتيناهم ﴾ على قريش ، والمعنى من الآيات والبينات والنور الذي جئتهم به ، والثالث أن يعود الضميران على الأمم المتقدمة ، والمعنى من شكر

النعمة وجزاء المنة و" المعشار " ، ولم يأت هذا البناء إلا في العشرة والأربعة فقالوا : مرباع ومعشار وقال قوم : المعشار عشر العشر .

(93/636)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا ليس بشيء ، والنكير مصدر كالإنكار في المعنى وكالعديد في الوزن وسقطت الياء منه تخفيفاً لأنها آخر آية ، و﴿ كيف ﴾ تعظيم للأمر وليست استفهاماً مجرداً ، وفي هذا تهديد لقريش أي أنّهم معرضون لنكير مثله . انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(94/636)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ يعني القرآن .

﴿ قَالُواْ مَا هذا إِلاَّ رَجُلٌ ﴾ يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم .

﴿ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُكُمْ ﴾ أي أسلافكم من الآلهة التي كانوا يعبدونها .

﴿ وَقَالُواْ مَا هَاذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ يعنون القرآن ؛ أي ما هو إلا كذب مختلَق .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَاذَآ إِلَّآ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فتارةً قالوا سحر ، وتارةً قالوا إفك .

ويحتمل أن يكون منهم من قال سحر ومنهم من قال إفك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ آتَيْنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ أي لم يقرؤوا في كتاب أُوتُوه بطلانَ ما جئتَ به ، ولا سمعوه من رسول بُعث إليهم ، كما قال : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ [ الزخرف : 21 ] فليس لتكذيبهم وجه يتشبّث به ولا شبهة متعلق كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين : نحن أهل كتاب وشرائع ومستندون إلى رسل من رسل الله ، ثم توعّدهم على تكذيبهم بقوله الحق : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي كذب قبلهم أقوام كانوا أشدّ من هؤلاء بطشاً وأكثرَ أموالاً وأولاداً وأوسع عيشاً ، فأهلكتهم كثمود وعاد .

﴿ وَمَا بَلَغُواْ ﴾ أي ما بلغ أهل مكة ﴿ مِعْشَارَ مَآ آتَيْنَاهُمْ ﴾ تلك الأمم .

والمعشار والعُشر سواء ، لغتان .

وقيل : المعشار عشر العشر .

الجوهري : ومعشار الشيء عشره ، ولا يقولون هذا في شيء سوى العشر .

وقيل : ما بلغ الذين من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم ؛ حكاه النقاش .

وقيل : ما أعطى الله تعالى من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان .

قال ابن عباس : فليس أمة أعلمَ من أمته ، ولا كتاب أبين من كتابه .

وقيل : المعشار هو عشر العشير ، والعشير هو عشر العشر فيكون جزءاً من ألف جزء .

*(95/636)*

---

الماوردي : وهو الأظهر ، لأن المراد به المبالغة في التقليل .

﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي عقابي في الأمم ، وفيه محذوف وتقديره : فأهلكناهم فكيف كان نكيري . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

*(96/636)*

---

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) ﴾

﴿ وما أرسلنا ﴾ الآية : هذه تسلية لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، مما مني به من

قومه قريش ، من الكفر والافتخار بالأموال والأولاد .

وإن ما ذكروا من ذلك هو عادة المترفين مع أنبيائهم ، فلا يهمنك أمرهم .

و﴿ من نذير ﴾ : عام ، أي تنذرهم بعذاب الله إن لم يوحدوه .

و﴿ قال مترفوها ﴾ : جملة حالية ، ونص على المترفين لأنهم أول المكذبين للرسل ، لما شغلوا به من زخرفة الدنيا وما غلب على عقولهم منها ، فقلوبهم أبداً مشغولة منهمكة بخلاف الفقراء .

فإنهم خالون من مستلذات الدنيا ، فقلوبهم أقبل للخير ، ولذلك هم أتباع الأنبياء ، كما جاء في حديث هرقل .

وبما متعلق بكافرون ، وبه متعلق بأرسلتم ، وما عامة في ما جاءت به النذر من طلب الإيمان بالله وإفراده بالعبادة والأخبار بأنهم رسله إليهم ، والبعث والجزاء على الأعمال .

والظاهر أن الضمير في ﴿ وقالوا ﴾ عائد على المترفين ؛ وقيل : عائد على قريش ، ويدل عليه ما بعده من الخطاب في قوله : ﴿ قل ﴾ ، لأن من تقدم من المترفين الهالكين لا يخاطبون ، فلا يقول إلا الموجودون ، وقوله : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم ﴾ ؛ واحتجوا على رضا الله عنهم بإحسانه تعالى إليهم ، فلو لم يتكرم عليهم ما بوسع علينا ، وأما أنتم فلهوانكم عليه حرمكم أيها التابعون للرسل .

ثم نقول : إن يعذبوا نفياً عاماً ، لأن الأنبياء قد ينذرون بعذاب عاجل في الدنيا ، أو آجل في

الآخرة ، فنفوا هم جميع ذلك .

فإما أن يكونوا منكرين للآخرة ، فقد نفوا تعذيبهم فيها ، لأنها إذ لم تكن ، فلا يكون فيها عذاب .

(97/636)

---

وإما أن يكونوا مقرين بها حقيقة ، أو على سبيل الفرض ، فيقولون : كما أنعم علينا في الدنيا ، ينعم علينا في الآخرة على حالة الدنيا قياساً فاسداً ، فأبطل الله ذلك بأن الرزق فضل منه يقسم علينا في الآخرة على حالة الدنيا ، كما شاء .

﴿ لمن يشاء ﴾ ، فقد يوسع على العاصي ويضيق على الطائع ، وقد يوسع عليهما ، والوجود شاهد بذلك ، فلا تقاس التوسعة في الدنيا ، لأن ذلك في الآخرة إنما هو على الأعمال الصالحة .

وقرأ الأعمش : ويقدر في الموضعين مشدداً ؛ والجمهور : مخففاً ، ومعناه : ويضيق مقابل يبسط .

﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ : مثل هؤلاء الكفرة ، ﴿ لا يعلمون ﴾ أن الرزق مصروف بالمشيئة ، وليس دليلاً على الرضا ثم أخبر تعالى أن أموالهم وأولادهم التي افتخروا بها

ليست بمقربة من الله ، وإنما يقرب الإيمان والعمل الصالح .

وقرأ الجمهور : ﴿ بالتي ﴾ ، وجمع التكسير من العقلاء وغيرهم يجوز أن يعامل معاملة الواحدة المؤنثة .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون التي هي التقوى ، وهي المقربة عند الله زلفى وحدها ، أي ليست أموالكم تلك الموضوعة للتقريب . انتهى .

فجعل التي نعتاً لموصوف محذوف وهي التقوى .

انتهى ، ولا حاجة إلى تقدير هذا الموصوف .

والظاهر أن التي راجع إلى الأموال والأولاد ، وقاله الفراء .

وقال أيضاً ، هو والزجاج : حذف من الأول لدلالة الثاني عليه ، والتقدير : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ﴾ . انتهى .

ولا حاجة لتقدير هذا المحذوف ، إذ يصح أن يكون التي لمجموع الأموال والأولاد .

وقرأ الحسن : باللاتي جمعاً ، وهو أيضاً راجع للأموال والأولاد .

وقرى بالذي ، وزلفى مصدر ، كالقربى ، وانتصابه على المصدرية من المعنى ، أي يقربكم .

وقرأ الضحاك : زلفاً بفتح اللام وتنوين الفاء ، جمع زلفة ، وهي القربة .

﴿ إلا من آمن ﴾ : الظاهر أنه استثناء منقطع ، وهو منصوب على الاستثناء ، أي لكن من آمن ؛ ﴿ وعمل صالحاً ﴾ ، فإيمانه وعمله يقربانه .

*(98/636)*

---

وقال الزجاج : هو بدل من الكاف والميم في تقربكم ، وقال النحاس : وهذا غلط لأن الكاف والميم للمخاطب ، فلا يجوز البدل ، ولو جاز هذا لجاز : رأيتك زيداً ؛ وقول أبي إسحاق هذا قول الفراء . انتهى .

ومذهب الأخفش والكوفيين أنه يجوز أن يبدل من ضمير المخاطب والمتكلم ، لكن البدل في الآية لا يصح .

ألا ترى أنه لا يصح تفريغ الفعل الواقع صلة لما بعد إلا ؟ لو قلت : ما زيد بالذي يضرب إلا خالداً ، لم يصح .

وتخيل الزجاج أن الصلة ، وإن كانت من حيث المعنى منفية ، أنه يصح البدل ، وليس بجائز إلا فيما يصح التفريغ له .

وقد اتبعه الزمخشري فقال : إلا من آمن استثناء من كم في تقربكم ، والمعنى : أن الأموال لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله ؛ والأولاد لا تقرب أحداً إلا من

علمهم الخير وفقهم في الدين ورشحهم للصلاح والطاعة .

انتهى ، وهو لا يجوز .

كما ذكرنا ، لا يجوز : ما زيد بالذي يخرج إلا أخوه ، ولا ما زيد بالذي يضرب إلا عمراً ، ولا ما زيد بالذي يمر إلا ببكر .

والتركيب الذي ركبه الزمخشري من قوله : لا يقرب أحداً إلا المؤمن ، غير موافق للقرآن ؛ ففي الذي ركبه يجوز ما قال ، وفي لفظ القرآن لا يجوز .

وأجاز الفراء أن تكون من في موضع رفع ، وتقدير الكلام عنده ما هو المقرب ﴿ إلا من آمن ﴾ . انتهى .

وقوله كلام لا يتحصل منه معنى ، كأنه كان نائماً حين قال ذلك .

وقرأ الجمهور : ﴿ جزاء الضعف ﴾ على الإضافة ، أضيف فيه المصدر إلى المفعول ، وقدره الزمخشري مبنياً للمفعول الذي لم يسم فاعله ، فقال : أن يجازوا الضعف ، والمصدر في كونه يبنى للمفعول الذي لم يسم فاعله فيه خلاف ، والصحيح المنع ، ويقدر هنا أن يجاوز الله بهم الضعف ، أي يضاعف لهم حسناتهم ، الحسنة بعشر أمثالها ، وبأكثر إلى سبعمائة لمن يشاء .

وقرأ قتادة : جزاء الضعف برفعهما ؛ فالضعف بدل ، ويعقوب في رواية بنصب جزاء ورفع الضعف ، وحكى هذه القراءة الداني عن قتادة ، وانتصب جزاء على الحال ، كقولك : في الدار قائماً زيد .

وقرأ الجمهور : ﴿ في الغرفات ﴾ جمعاً مضموم الراء ؛ والحسن ، وعاصم : بخلاف عنه ؛ والأعمش ، ومحمد بن كعب : بإسكانها ؛ وبعض القراء : بفتحها ؛ وابن وثاب ، والأعمش ، وطلحة ، وحمزة : وأطلق في اختياره في الغرفة على التوحيد ساكنة الراء ؛ وابن وثاب أيضاً : بفتحها على التوحيد .

ولما ذكر جزاء من آمن ، ذكر عقاب من كفر ، ليظهر تباين الجزأين ، وتقدم تفسير نظير هذه الكلمة .

ولما كان افتخارهم بكثرة الأموال والأولاد ، أخبروا أن ذلك على ما شاء الله كبر ، وذلك المعنى تأكيد أن ذلك جار على ما شاء الله ، إلا أن ذلك على حسب الاستحقاق ، لا التكرمة ، ولا الهوان .

ومعنى ﴿ فهو يخلفه ﴾ : أي يأتي بالخلف والعوض منه ، وكان لفظ من عباده مشعرة بالمؤمنين ، وكذلك الخطاب في ﴿ وما أنفقتم ﴾ : يقصد هنا رزق المؤمنين ، فليس مساق .

﴿ قل إن ربي يبسط ﴾ : مساق ما قيل للكفار ، بل مساق الوعظ والتزهيد في الدنيا ، والحض على النفقة في طاعة الله ، وإخلاف ما أنفق ، إما منجزاً في الدنيا ، وإما مؤجلاً في الآخرة ، وهو مشروط بقصد وجه الله .

وقال مجاهد : من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد ، وأن الرزق مقسوم ، ولعل ما قسم له قليل ، وهو ينفق نفقة الموسع عليه ، فينفق جميع ما في يده ، ثم يبقى طول عمره في فقر ولا يتأتى .

﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ : في الآخرة ، ومعنى الآية : ما كان من خلف فهو منه .

وجاء ﴿ الرازقين ﴾ جمعاً ، وإن كان الرازق حقيقة هو الله وحده ، لأنه يقال : الرجل يرزق عياله ، والأمير جنده ، والسيد عبده ، والرازقون جمع بهذا الاعتبار ، لكن أولئك يرزقون مما رزقهم الله ، وملكهم فيه التصرف ، والله تعالى يرزق من خزائن لا تفنى ، ومن إخراج من عدم إلى وجود .

﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ﴾ : أي المكذبين ، من تقدم ومن تأخر .

وقرأ الجمهور : نحشرهم ، نقول بالنون فيهما ، وحفص بالياء ، وتقدمت في الأنعام وخطاب الملائكة تقريع للكفار ، وقد علم تعالى أن الملائكة منزهون برآء مما وجه عليهم من السؤال ، وإنما ذلك على طريق توقيف الكفار ، وقد علم سوء ما ارتبكوه من عبادة غير الله ، وأن من عبدوه متبرىء منهم .

و﴿ هؤلاء ﴾ مبتدأ و ، خبره ﴿ كانوا يعبدون ﴾ ، و﴿ إياكم ﴾ مفعول ﴿ يعبدون ﴾ .

ولما تقدم انفصل ، وإنما قدم لأنه أبلغ في الخطاب ، ولكون ﴿ يعبدون ﴾ فاصلة .

فلو أتى بالضمير منفصلاً ، كان التركيب يعبدونكم ، ولم تكن فاصلة .

واستدل بتقديم هذا المعمول على جواز تقديم خبر كان عليها إذا كان جملة ، وهي مسألة خلاف ، أجاز ذلك ابن السراج ، ومنع ذلك قوم من النحويين ، وكذلك منعوا توسطه إذا كان جملة .

وقال ابن السراج : القياس جواز ذلك ، ولم يسمع .

ووجه الدلالة من الآية أن تقديم المعمول مؤذن بتقديم العامل ، فكما جاز تقديم ﴿ إياكم ﴾ ، جاز تقديم ﴿ يعبدون ﴾ ، وهذه القاعدة ليست مطردة ، والأولى منع ذلك إلى أن يدل على جوازه سماع من العرب .

ولما أجابوا الله بدأوا بتنزيهه وبراءته من كل سوء ، كما قال عيسى عليه السلام : ﴿ سبحانك ﴾ ، ثم انتسبوا إلى موالاته دون أولئك الكفرة ، أي ﴿ أنت ولينا ﴾ ، إذ لا موالاة بيننا وبينهم .

وفي قولهم : ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ ، إشعار لهم بما عبدوه ، وإن لم يصرح به .

لكن الإضراب ببل يدل عليه وذلك لأن المعبود إذ لم يكن راضياً بعبادة عابده مريداً لها ، لم يكن ذلك العابد عابداً له حقيقة ، فلذلك قالوا : ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ ، لأن أفعالهم القبيحة من وسوسة الشياطين وإغوائهم ومراداتهم عابدون لهم حقيقة ، فلذلك قالوا : ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ ، إذ الشياطين راضون تلك الأفعال .

وقيل : صورت لهم الشياطين صور قوم من الجن ، وقالوا : هذه صور الملائكة فاعبدوها .

*(101/636)*

---

وقيل : كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت ، فيعبدون بعبادتها .

وقال ابن عطية : لم تنف الملائكة عبادة البشر اياها ، وإنما أقرت أنها لم يكن لها في ذلك مشاركة .

وعبادة البشر الجن هي فيما يقرون بطاعتهم إياهم ، وسماعهم من وسوستهم وإغوائهم ،

فهذا نوع من العبادة .

وقد يجوز أن يكون في الأمم الكافرة من عبد الجن ، وفي القرآن آيات يظهر منها أن الجن عبدت ، في سورة الأنعام وغيرها . انتهى .

وإذا هم قد عبدوا الجن ، فما وجه قولهم : أكثرهم مؤمنون ، ولم يقولوا جميعهم ، وقد أخبروا أنهم كانوا يعبدون الجن ؟ والجواب أنهم لم يدعوا الإحاطة ، إذ قد يكون في الكفار من لم يطلع الملائكة عليهم ، أو أنهم حلموا على الأكثر بإيمانهم بالجن لأن الإيمان من عمل القلب ، فلم يذكروا الاطلاع على جميع أعمال قلوبهم ، لأن ذلك لله تعالى .

ومعنى ﴿ مؤمنون ﴾ : مصدقون أنهم معبودوهم ، وقيل : مصدقون أنهم بنات الله ، وأنهم ملائكة ، ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ وأما من قال بأن الأكثر بمعنى الجميع ، فلا يرد عليه شيء ، لكنه ليس موضوع اللغة .

﴿ فاليوم ﴾ : هو يوم القيامة ، والخطاب في ﴿ بعضكم ﴾ ، قيل : للملائكة ، لأنهم المخاطبون في قوله : ﴿ أهؤلاء إياكم ﴾ ، ويكون ذلك تبكيتاً للكفار حين بين لهم أن من عبدوه لا ينفع ولا يضر ، ويؤيده : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ ولأن بعده : ﴿ ونقول للذين ظلموا ﴾ ، ولو كان الخطاب للكفار ، لكان التركيب فذوقوا .

وقيل : الخطاب للكفار ، لأن ذكر اليوم يدل على حضورهم ، ويكون قوله : ويقول ، تأكيداً لبيان حالهم في الظلم .

وقيل : هو خطاب من الله لمن عبد ومن عبد .

وقوله : ﴿ نفعاً ﴾ ، قيل : بالشفاعة ، ﴿ ولا ضراً ﴾ بالتعذيب .

(102/636)

---

وقيل هنا : ﴿ التي كنتم بها تكذبون ﴾ ، وفي السجدة : ﴿ الذي كنتم به تكذبون ﴾ كل منهما ، أي من العذاب ومن النار ، لأنهم هنا لم يكونوا ملتبسين بالعذاب ، بل ذلك أول ما رأوا النار ، إذ جاء عقيب الحشر ، فوصفت لهم النار بأنها هي التي كنتم تكذبون بها .

وأما الذي في السجدة ، فهم ملابسو العذاب ، متردّدون فيه لقوله : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ فوصف لهم العذاب الذي هم مباشروه ، وهو العذاب المؤبد الذي أنكروه .

والإشارة بقوله : ما ﴿ ما هذا إلا رجل ﴾ ، إلى تالي الآيات ، المفهوم من قوله : ﴿ وإذا تتلى عليه ﴾ ، وهو رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) .

وحكي تعالى مطاعنهم عند تلاوة القرآن عليهم ، فبدأوا أولاً : بالطعن في التالي ، فإنه يقدح في معبودات آلهتكم .

ثانياً فيما جاء به الرسول من القرآن ، بأنه كذب مختلق من عنده ، وليس من عند الله .

وثالثاً : بأن ما جاء به سحر واضح لما اشتمل على ما يوجب الاستمالة وتأثير النفوس له وإجابته .

وطعنوا في الرسول ، وفيما جاء به ، وفي وصفه ، واحتمل أن يكون ذلك صدر من مجموعهم ، واحتمل أن تكون كل جملة منها قالها قوم غير من قال الجملة الأخرى .

وفي قوله : ﴿ لما جاءهم ﴾ دليل على أنه حين جاءهم لم يفكروا فيه ، بل بادروه بالإنكار ونسبته إلى السحر ، ولم يكتفوا بقولهم ، إنه سحر حتى وصفوه بأنه واضح لمن يتأمله .

وقيل : إنكار القرآن والمعجزة كان متفقاً عليه من المشركين وأهل الكتاب ، فقال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا للحق ﴾ ، على وجه العموم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(103/636)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيّنَاتٍ ﴾

بيانٌ لبعضٍ آخرَ من كفرانِهم أي إذا تُتلى عليهم بلسانِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ آياتُنا النَّاطقةُ بحقِّيةِ التَّوحيدِ وبُطلانِ الشِّركِ ﴿ قَالُواْ مَا هذا ﴾ يعنون رسولَ الله صلى الله

عليه وسلم ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءايا تنا بَيّنَاتٍ قَالُواْ مَا هذا إِلاَّ ﴾ فيستتبعكم بما يستدعيه من غيرِ أنْ يكونَ هناك دينٌ إلهيٌّ ، وإضافة الآباءِ إلى المخاطَبين لا إلى أنفسِهم لتحريكِ عرقِ العصبيةِ منهم مبالغةً في تقريرِهم على الشّرك وتنفيرِهم عن التّوحيد ﴿ وَقَالُواْ مَا هذا ﴾ يعنون القرآنَ الكريمَ ﴿ إِلاَّ إِفْكٌ ﴾ أي كلام مصروفٌ عن وجهه لا مصداق له في الواقع ﴿ مُّفْتَرًى ﴾ بإسنادِه إلى الله تعالى ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقّ ﴾ أي لأمرِ النبوّةِ أو الإسلامِ أو القرآن على أنَّ العطفَ لاختلافِ العُنوان بأنْ يُراد بالأول معناهُ وبالثَّاني نظمَه المعجزَ ﴿ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ من غيرِ تدبُّرٍ ولا تأمُّلٍ فيه ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهرٌ سحريّتُه وفي تكريرِ الفعلِ والتَّصريحِ بذكرِ الكفرةِ وما في اللامينِ من الإشارةِ إلى القائلينَ والمقولِ فيهِ وما في لمّا من المسارعةِ إلى البتِّ بهذا القولِ الباطلِ إنكارٌ عظيمٌ له وتعجيبٌ بليغٌ منه .

﴿ وَمَا ءاتيناهم مّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ فيها دليلٌ على صحَّةِ الإشراكِ كما في قولِه تعالى : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سلطانا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ وقولِه تعالى : ﴿ أَمْ ءاتيناهم كتابا مّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ وقُرِىء يدرسُونها ويدَّرسونها بتشديدِ الدَّالِ يفتعلون من الدّرس .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ يدعُوهم إليه وينذرُهم بالعقاب إن لم يُشركوا وقد بان من قبل أَنْ لا وجهَ له بوجهٍ من الوجوهِ فمن أينَ ذهبُوا هذا المذهبَ الزَّائغ ، وهذا غايةُ تجهيلٍ لهم وتسفيهٍ لرأيهم ثمَّ هدَّدهم بقوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأممِ المتقدِّمة والقُرون الخاليةِ كما كذَّبوا . ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا ءاتيناهم ﴾ أي ما بلغَ هؤلاءِ عشرَ ما آتينا أولئكَ من القوَّة وطول العمر وكثرةِ المالِ أو ما بلغ أولئك عشرَ ما آتينا هؤلاءِ من البيِّناتِ والهُدى ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِى ﴾ عطف على كذَّب الذينَ الخ بطريقِ التَّفصيلِ والتَّفسيرِ كقولِه تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ الخ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري لهم بالتَّدميرِ فليحذرْ هؤلاء من مثلِ ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(105/636)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيّنَاتٍ ﴾

بيان لبعض آخر من كفرهم أي إذا تتلى عليهم بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم آياتنا الناطقة بحقية التوحيد وبطلان الشرك ﴿ قَالُواْ مَا هذا ﴾ يعنون رسول الله صلى الله

عليه وسلم التالي للآيات ، والإشارة للتحقير قاتلهم الله تعالى ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيِّنَاتٍ قَالُواْ مَا هذا إِلاَّ ﴾ فيجعلكم من أتباعه من غير أن يكون له دين إلهي ، وإضافة الآباء إلى المخاطبين لا إلى أنفسهم لتحريك عرق العصبية منهم مبالغة في تقريرهم على الشرك وتنفيرهم عن التوحيد ﴿ وَقَالُواْ مَا هذا ﴾ يعنون القرآن المتلو والإشارة كالإشارة السابقة ﴿ إِلاَّ إِفْكٌ ﴾ أي كلام مصروف عن وجهه لا مصداق له في الواقع ﴿ مُّفْتَرًى ﴾ بإسناده إلى الله عز وجل .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقّ ﴾ أي لأمر النبوة التي معها من خوارق العادة ما معها أو للإسلام المفرق بين المرء وزوجه وولده أو القرآن الذي تتأثر به النفوس على أن العطف لاختلاف العنوان بأن يراد بالأول معناه وبالثاني نظمه المعجز ﴿ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ من غير تدبر ولا تأمل فيه ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر سحريته .

وفي ذكر ﴿ قَالَ ﴾ ثانياً والتصريح بذكر الكفرة وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه وما في لما من المسارعة إلى البت بهذا القول الباطل إنكار عظيم له وتعجب بليغ منه ، وجوز أن تكون كل جملة صدرت من قوم من الكفرة .

﴿ وَمَا ءاتيناهم ﴾ أي أهل مكة ﴿ مّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ تقتضي صحة الإشراك ليعذروا فيه فهو كقوله تعالى : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سلطانا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ [ الروم : 35 ] وقوله سبحانه : ﴿ أَمْ ءاتيناهم كتابا مّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ [ الزخرف : 21 ] وإلى هذا ذهب ابن زيد ، وقال السدي : المعنى ما آتيناهم كتباً يدرسونها فيعلموا بدراستها بطلان ما جئت به ، ويرجع إلى الأول ، والمقصود نفي أن يكون لهم دليل على صحة ما هم عليه من الشرك ، ومن صلة ، وجمع الكتب إشارة على ما قيل إلى أنه لشدة بطلانه واستحالة إثباته بدليل سمعي أو عقلي يحتاج إلى تكرر الأدلة وقوتها فكيف يدعى ما تواترت الأدلة النيرة على خلافه .

وقرأ أبو حيوة ﴿ يَدْرُسُونَهَا ﴾ بفتح الدال وشدها وكسر الراء مضارع أدرس افتعل من الدرس ومعناه يتدارسونها ، وعنه أيضاً ﴿ يَدْرُسُونَهَا ﴾ من التدريس وهو تكرير الدرس أو من درس الكتاب مخففاً ودرس الكتب مشدداً التضعيف فيه باعتبار الجمع .

(107/636)

---

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مّن نَّذِيرٍ ﴾ أي وما أرسلنا إليهم قبلك نذيراً يدعوهم إلى الشرك وينذرهم بالعقاب على تركه وقد بان من قبل أن لا وجه له بوجه من الوجوه فمن أين ذهبوا

هذا المذهب الزائغ ، وفيه من التهكم والتجهيل ما لا يخفى ، ويجوز أن يراد أنهم أميون كانوا في فترة لا عذر لهم في الشرك ولا في عدم الاستجابة لك كأهل الكتاب الذين لهم كتب ودين يأبون تركه ويحتجون على عدم المتابعة بأن نبيهم حذرهم ترك دينهم مع أنه بين البطلان لثبوت أمر من قبله باتباعه وتبشير الكتب به ، وذكر ابن عطية أن الأرض لم تخل من داع إلى توحيد الله تعالى فالمراد نفي إرسال نذير يختص بهؤلاء ويشافههم ، وقد كان عند العرب كثير من نذارة إسماعيل عليه السلام والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ [ مريم : 54 ] ولكن لم يتجرد للنذارة وقاتل عليها إلا محمد صلى الله عليه وسلم اه ، ثم إنه تعالى هددهم بقوله سبحانه :

﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم المتقدمة والقرون الخالية بما كذبوا ﴿ وَمَا بَلَغُوا ﴾ أي أهل مكة ﴿ مِعْشَارَ ﴾ أي عشر ﴿ مَا ءاتيناهم ﴾ وقال : قوم المعشار عشر العشر ولم يرتضه ابن عطية ، وقال الماوردي : المراد المبالغة في التقليل أي ما بلغوا أقل قليل مما آتينا أولئك المكذبين من طول الأعمال وقوة الأجسام وكثرة الأموال ﴿ فَكَذَّبُوا ﴾ أي أولئك المكذبون ﴿ رُسُلِي ﴾ الذين أرسلتهم إليهم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري لهم بالتدمير فليحذر هؤلاء من مثل ذلك .

والفاء الأولى سببية و ﴿ كَذَّبَ ﴾ الأول تنزيل منزلة للازم أي فعل الذين من قبلهم التكذيب وأقدموا عليه ، ونظير ذلك أن يقول القائل أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ومن هنا قالوا : إن ﴿ كَذَّبُواْ رُسُلِى ﴾ عطف على ﴿ كَذَّبَ الذين ﴾ عطف المقيد على المطلق وهو تفسير معنى ﴿ وَمَا بَلَغُواْ ﴾ اعتراض والفاء الثانية فصيحة فيكون المعنى فحين كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير فكيف كان نكيري لهم ، وجعل التدمير إنكاراً تنزيلاً للفعل منزلة القول كما في قوله :

ونشتم بالأفعال لا بالتكلم . . .

أو على نحو .

تحية بينهم ضرب وجيع . . .

وجوز بعضهم أن يكون صيغة التفعيل في ﴿ كَذَّبَ الذين ﴾ وفي ﴿ لَّمَّا كَذَّبُواْ ﴾ للتعدية والمكذب فيهما واحد أي أنهم أكثروا الكذب وألفوه فصار سجية لهم حتى اجترؤا على تكذيب الرسل ، وعلى الوجهين لا تكرار ، وجوز أن يكون ﴿ كَذَّبُواْ رُسُلِى ﴾ منعطفاً على ﴿ مَا بَلَغُواْ ﴾ من تتمة الاعتراض والضمير لأهل مكة يعني هؤلاء لم يبلغوا معشار ما آتينا أولئك المكذبين الأولين وفضلوهم في التكذيب لأن تكذيبهم لخاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام تكذيب لجميع الرسل عليهم السلام من وجهين وعليه لا يتوهم تكرار كما لا

يخفى ، وكون جملة ﴿ مَا بَلَغُواْ ﴾ معترضة هو الظاهر وجعل ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ تمهيداً لئلا تكون تلك الجملة كذلك يدفعه ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ لأن معناه للمكذبين الأولين البتة فلا التئام دون القول بكونها معترضة ، وإرجاع ضمير ﴿ بَلَغُواْ ﴾ إلى أهل مكة والضمير المنصوب في ﴿ ءاتيناهم ﴾ إلى ﴿ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وبيان الموصول بما سمعت هو المروي عن ابن عباس وقتادة .

(109/636)

---

وابن زيد ، وقيل الضمير الأول للذين من قبلهم والضمير الثاني لأهل مكة أي وما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى ، وقيل : الضميران للذين من قبلهم ، أي كذبوا وما بلغوا في شكر النعمة ومقابلة المنة عشر ما آتيناهم من النعم والإحسان إليهم ، واستظهر ذلك أبو حيان معللاً له بتناسق الضمائر حيث جعل ضمير ﴿ فذكبوا ﴾ للذين من قبلهم فلا تغفل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

(110/636)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾

انتقال من حكاية كفرهم وغرورهم وازدهائهم بأنفسهم وتكذيبهم بأصول الديانة إلى حكاية تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأتبع ذلك بحكاية تكذيبهم الكتابَ والدين الذي جاء به فكان كالفذلكة لما تقدم من كفرهم .

وجملة ﴿ إذا تتلى ﴾ معطوفة على جملة ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ﴾ [ سبأ : 40 ] عطف القصة على القصة .

وضمير ﴿ عليهم ﴾ عائد إلى ﴿ الذين كفروا ﴾ [ سبأ : 31 ] وهم المشركون من أهل مكة .

وإيراد حكاية تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم مقيدةً بالزمن الذي تتلى عليهم فيه آيات الله البينات تعجيب من وقاحتهم حيث كذبوه في أجدر الأوقات بأن يصدقوه عندها لأنه وقت ظهور حجة صدقه لكل عاقل متبصر .

وللاهتمام بهذا الظرف والتعجيب من متعلقه قُدّم الظرف على عامله والتشوق إلى الخبر الآتي بعده وأنه من قبل البهتان والكفر البواح .

والمراد بالآيات البينات آيات القرآن ، ووصفها بالبيّنات لأجل ظهور أنها من عند الله

لإِعجازها إياهم عن معارضتها ، ولِما اشتملت عليه معانيها من الدلائل الواضحة على صدق ما تدعو إليه ، فهي محفوفة بالبيان بألفاظها ومعَانيها .

وحذف فاعل التلاوة لظهور أنه الرسول صلى الله عليه وسلم إذ هو تالي آيات الله ، فالإِشارة في قولهم : ﴿ ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم ﴾ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم واستحضروه بطريق الإِشارة دون الاسم إفادة لحضوره مجلس التلاوة وذلك من تمام وقاحتهم فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ عليهم القرآن في مجالسهم كما ورد في حديث قراءته على عتبة بن ربيعة سورة فُصلت وقراءِته على عبد الله بن أُبَيّ ابن سَلول للقرآن بالمدينة في القصة التي تشاجر فيها المسلمون والمشركون .



وابتدأوا بالطعن في التالي لأنه الغرض الذي يرمون إليه ، وأثبتوا له إرادة صدّهم عن دين آبائهم قصد أن يثير بعضُهم حميةَ بعض لأنهم يجعلون آباءهم أهل الرأي فيما ارتأوا والتسديد فيما فعلوا فلا يرون إلا حَقّاً ولا يفعلون إلا صواباً وحكمة ، فلا جرم أن يكون مريد الصدّ عنها محاولاً الباطل وكاذباً في قوله لأن الحق مطابق الواقع فإبطال ما هو حق في

زعمهم قولٌ غير مطابق للواقع فهو الكذب .

وفعل ﴿ كان ﴾ في قولهم : ﴿ عمّا كان يعبد آباؤكم ﴾ إشارة إلى أنهم عنوا أن تلك عبادة قديمة ثابتة .

وفي ذلك إلهاب لقلوب قومهم وإيغار لصدورهم ليتألبوا على الرسول صلى الله عليه وسلم ويزدادوا تمسكاً بدينهم وقد قصروا الرسول عليه الصلاة والسلام على صفة إرادة صدهم قصراً إضافياً ، أي إلا رجل صادق فما هو برسول .

وأتبعوا وصف التالي بوصف المتلوّ بأنه كذب مفترىً وإعادة فعل القول للاهتمام بحكاية قولهم لفظاعته وكذلك إعادة فعل القول إعادة ثابتة للاهتمام بكل قول من القولين الغريبين تشنيعاً لهما في نفس السامعين فجملة ﴿ وقالوا ما هذا إلا إفك ﴾ عطف على جملة ﴿ قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم ﴾ ، فالفعلان مشتركان في الظرف .

والإِشارة الثانية إلى القرآن الذي تضمنه ﴿ تتلى ﴾ لتعيُّنه لذلك .

والإِفك : الكذب ، ووصفه بالمفترَى إما أن يتوجّه إلى نسبته إلى الله تعالى أو أريد أنه في ذاته إفك وزادوا فجعلوه مخترعاً من النبي صلى الله عليه وسلم ليس مسبوقاً به .

فكونه إفكاً يرجع إلى جميع ما في القرآن ، وكونه مفترىً يُرجعونه إلى ما فيه من قصص الأولين .

وهذا القول من بهتانهم لأنهم كثيراً ما يقولون : ﴿ أساطير الأولين ﴾ [ الأنعام : 25 ]

فليس ﴿ مفترى ﴾ تأكيداً ل ﴿ إفك ﴾ .

(112/636)

---

ثم حُكي تكذيبهم الذي يعم جميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من وحي يتلى أو دعوة إلى التوحيد وغيره أو استدلال عليه أو معجزة بقولهم : ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ ، فهذا المقال الثالث يشمل ما تقدم وغيره ، فحكاية مقالهم هذا تقوم مقام التذييل .

وأُظهر للقائلين دون إضمار ما تقدم ما يصح أن يكون معاداً للضمير فقيل : ﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ﴾ ولم يَقُل : وقالوا للحق لما جاءهم ، للدلالة على أن الكفر هو باعث قولهم هذا .

وأُظهر المشار إليه قبل اسم الإِشارة في قوله : ﴿ للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ لأنه لا دليل عليه في الكلام السابق ، أي إذ ظهر لهم ما هُو حق من إثبات للتوحيد أو إخبار عن الغيب أو البعث قالوا : ما هذا إلا سحر مبين .

فالمراد من الحق : ما هو أعم من آيات القرآن لأن السحر له أسلوبان : أحدهما شعوذة الأقوال التي لا تفهم مدلولاتها يختلقها السحرة ليوهموا الناس أن فيها مناجاة مع الجن

ليمكنوهم من عمل ما يريدون فيسترهبوهم بذلك ، وثانيهما أفعال لها أسباب خفية مستورة بحِيل وخفة أيدٍ تحركها فيوهمون بها الناس أنها من تمكين الجن إياهم التصرف في الخفيات ، فإذا سمعوا القرآن ألحقوه بالأسلوب الأول ، وإذا رأوا المعجزات ألحقوها بالأسلوب الثاني كما قالت المرأة التي شاهدتْ معجزةَ تكثير الماء في بعض غزوات النبي صلى الله عليه وسلم فقالت لقومها "أتيتُ أسحرَ الناس ، أو هو نبيء كما زعموه" .

ومعنى ﴿ مبين ﴾ أنه يظهر منه أنه سحر فتبيينه كنهه من نفسه ، يعنون أن من سمعه يعلم أنه سحر .

وجملة ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وإذا تتلى ﴾ .

وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44)

(113/636)

---

الواو للحال ، والجملة في موضع الحال من الضمير في قوله : ﴿ قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ [ سبأ : 43 ] الآية ، تحميقاً لجهالتهم وتعجيباً من حالهم في أمرين:

"أحدهما" : أنهم لم يدركوا ما ينالهم من المزية بمجيء الحق إليهم إذ هيأهم الله به لأن يكونوا

في عداد الأمم ذوي الكتاب ، وفي بدء حال يبلغ بهم مبلغ العلم ، إذ هم لم يسبق لهم أن أتاهم كتاب من عند الله أو رسول منه ، فيكون معنى الآية : فكيف رفضوا اتّباع الرسول وتلقي القرآن وكان الأجدرُ بهم الاغتباط بذلك .

وهذا المعنى هو المناسب لقوله : ﴿ يدرسونها ﴾ أي لم يكونوا أهل دراسة فكان الشأن أن يسرهم ما جاءهم من الحق .

"وثانيهما" : أنهم لم يكونوا على هدى ولا دين منسوب إلى الله تعالى حتى يكون تمسكهم به وخشية الوقوع في الضلالة إن فرّطوا فيه يحملهم على التردد في الحق الذي جاءهم وصدقِ الرسول الذي أتاهم به فيكون لهم في الصد عنهما بعض العذر : فيكون المعنى : التعجيب من رفضهم الحق حين لا مانع يصدهم ، فليس معنى جملة ﴿ وما آتيناهم من كتب ﴾ الخ على العطف ولا على الإخبار لأن مضمون ذلك معلوم لا يتعلق الغرض بالإخبار به ، ولكن على الحال لإفادة التعجيب والتحميق ، وعلى هذا المعنى جرى المفسرون .

والدراسة : القراءة بتمهّل وتفهّم ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وبما كنتم تدرسون في آل عمران ( 79 ) .

وإنما لم يقيد إيتاء الكتب بقيد كما قُيِّد الإرسال بقوله : قبلَك ﴾ لأن الإيتاء هو التمكين من الشيء وهم لم يتمكنوا من القرآن بخلاف إرسال النذير فهو حاصل سواء تقبلوه أم أعرضوا عنه .

ومن نحا نحو أن يكون معنى الآية التفرقة بين حالهم وحال أهل الكتاب فذلك منحى واهن لأنه يجرّ إلى معذرة أهل الكتاب في عضهم بالنواجذ على دينهم ، على أنه لم يكن في مدة نزول الوحي بمكة علاقة للدعوة الإسلامية بأهل الكتاب وإنما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وأيضاً لا يكون للتقييد بـ ﴿ قبلك ﴾ فائدة خاصة كما علمت .

وهنالك تفسيرات أخرى أشد بعداً وأبعد عن القصد جداً .

وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (45)

هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد للذين كذّبوه ، فموقع التسلية منه قوله : ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ ، وموقع التهديد بقية الآية ، فالتسلية في أن له أسوة بالرسل السابقين ، والتهديد بتذكيرهم بالأمم السالفة التي كذّبتْ رُسلَها وكيف عاقبهم الله على ذلك وكانوا أشد قوة من قريش وأعظم سطوة منهم وهذا كقوله تعالى : ﴿ فأهلكنا أشدّ منهم بطشاً ﴾ [ الزخرف : 8 ] .

ومفعول ﴿ كذّب ﴾ محذوف دل عليه ما بعده ، أي كذبوا الرسل ، دل عليه قوله : ﴿ فكذبوا رسلي ﴾ .

وضمير ﴿ بلغوا ﴾ عائد إلى ﴿ الذين من قبلهم ﴾ ، والضمير المنصوب في ﴿ آتيناهم ﴾ عائد إلى ﴿ الذين كفروا ﴾ في قوله : ﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا سحر مبين ﴾ [ سبأ : 43 ] .

والمقام يردّ على كل ضمير إلى معاده ، كما تقدم قريباً عند قوله تعالى : ﴿ أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ [ سبأ : 41 ] .

والمِعشار : العشر ، وهو الجزء العاشر مثل المِرباع الذي كان يجعل لقائد الكتيبة من غنائم الجيش في الجاهلية .

وذُكر احتمالان آخران في معاد الضميرين من قوله : ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ لا يستقيم معهما سياق الآية .

(115/636)

---

وجملة ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ معترضة ، والاعتراض بها تمهيد للتهديد وتقريب له بأن عقاب هؤلاء أيسر من عقاب الذين من قبلهم في متعارف الناس مثل قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ [ الروم : 27 ] .

والفاء في قوله : ﴿ فكذبوا رسلي ﴾ للتفريع على قوله : ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾

باعتبار أن المفرع عطف عليه قوله : ﴿ فكيف كان نكير ﴾ ، وبذلك كانت جملة ﴿ فكذبوا رسلي ﴾ تأكيداً لجملة ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ ونظيره قوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا ﴾ في سورة القمر ( 9 ) ، ولكون الفاء الثانية في قوله : فكيف كان نكير ﴾ تأكيداً لفظياً للفاء في قوله : ﴿ فكذبوا رسلي ﴾ .

وقوله : ﴿ فكيف كان نكير ﴾ مفرع على قوله : ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ .

و( كيف ) استفهام عن الحالة وهو مستعمل في التقرير والتفريع كقول الحجاج للعُدَيل ابن الفرخ "فكيف رأيتَ الله أمْكَنَ منك" ، أي أمكنني منك ، في قصة هروبه .

فجملتا ﴿ فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ﴾ في قوة جملة واحدة مفرعة على جملة ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ .

والتقدير : وكذب الذين من قبلهم فكيف كان نكيري على تكذيبهم الرسل ، ولكن لما كانت جملة ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ مقصوداً منها تسلية الرسول ابتداءً جعلت مقصورة على ذلك اهتماماً بذلك الغرض وانتصاراً من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ثم خُصّت عِبرة تسبب التكذيب في العقاب بجملة تخصها تهويلاً للتكذيب وهو من مقامات الإطناب ، فصادف أن كان مضمون الجملتين متحداً اتحاد السبب لمسببين أو العلةِ لمعلولين كعلة السرقة للقطع والغرم .

وبني النظم على هذا الأسلوب الشيق تجنباً لثقل إعادة الجملة إعادةً ساذجة ففرعت الثانية على الأولى وأظهر فيها مفعول ﴿ كذب ﴾ وبني عليه الاستفهام التقريري التفظيعي ، أو فرع للتكذيب الخاص على التكذيب الذي هو سجيتهم العامة على الوجه الثاني في معنى : ﴿ وكذَّب الذين من قبلهم ﴾ كما تقدم ، ونظيره قوله تعالى:

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾ [ القمر : 9 ] .

والنكير : اسم للإِنكار وهو عدّ الشيء منكراً ، أي مكروهاً ، واستعمل هنا كناية عن الغضب وتسليط العقاب على الآتي بذلك المنكر فهي كناية رمزية .

والمعنى : فكيف كان عقابي لهم على ما جاءوا به مما أنكره ، أي كان عقاباً عظيماً على وفق إنكارنا تكذيبهم .

و﴿ نكير ﴾ بكسر الراء وهو مضاف إلى ياء المتكلم ، وحذفت الياء للتخفيف مع التنبيه عليها ببقاء الكسرة على آخر الكلمة وليناسب الفاصلة وأختها .

وكتب في المصحف بدون ياء ويوقف عليه بالسكون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾

أخرج ابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه أنه سأل عن قوله ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ النفقة في سبيل الله قال : لا . ولكن نفقة الرجل على نفسه ، وأهله فالله يخلفه .

وأخرج سعيد بن منصور والبخاري في الأدب المفرد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ قال : في غير إسراف ولا تقتير .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنفقتم على اهليكم في غير إسراف ولا تقتير ، فهو في سبيل الله " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ قال : من غير إسراف ولا تقتير .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه قال : إذا كان لأحدكم شيء فليقتصد ، ولا يتأول هذه الآية ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ فإن الرزق مقسوم يقول : لعل رزقه قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ قال : ما كان من خلف فهو منه ، وربما أنفق الإنسان ماله كله في الخير ، ولم يخلف حتى يموت . ومثلها ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ [ هود : 6 ] يقول : ما آتاها من رزق فمنه ، وربما لم يرزقها حتى تموت .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كل ما أنفق العبد نفقة فعلى الله خلفها ضامناً ، إلا نفقة في بنيان ، أو معصية " .

(118/636)

---

وأخرج ابن عدي في الكامل والبيهقي من وجه آخر عن محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل معروف صدقة ، وما أنفق المرء على نفسه وأهله كتب له به صدقة ، وما وقي به عرضه كتب له به صدقة ، وكل نفقة أنفقها مؤمن فعلى الله خلفها ضامن ، إلا نفقة في معصية ، أو بنيان . قيل لابن المنكدر : وما أراد بما وقي به المرء عرضه كتب له به صدقة ؟ قال : ما أعطى الشاعر ، وذا اللسان المتقي " .

وأخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف عن حذيفة رضي الله عنه قال

: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا إن بعد زمانكم هذا زماناً عضوضاً ، يعض

الموسر على ما في يده حذر الانفاق ، قال الله ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ " .

وأخرج البخاري وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال " قال الله عز وجل : أنفق يا ابن آدم ، أنفق عليك " .

وأخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه سمعت رسول الله صلى الله عليه

وسلم يقول : " إن لكل يوم نحساً ، فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصدقة ، ثم قال : اقرأوا

مواضع الخلف ، فإني سمعت الله يقول ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ إذا لم تنفقوا

كيف يخلف " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : " إن المعونة تنزل من السماء على قدر المؤونة " .

(119/636)

---

وأخرج الحكيم الترمذي عن الزبير بن العوّام رضي الله عنه قال : جئت حتى جلست بين

يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ بطرف عمامتي من ورائي . ثم قال : " يا زبير

إني رسول الله إليك خاصة ، وإلى الناس عامة ، أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال : ربكم حين استوى عل عرشه ، فنظر خلقه : عبادي أنتم خلقي وأنا ربكم أرزاقكم بيدي ، فلا تتعبوا فيما تكفلت لكم ، فاطلبوا مني أرزاقكم أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قال الله تبارك وتعالى : أنفق أنفق عليك ، وأوسع أوسع عليك ، ولا تُضَيِّقَ أُضَيِّقُ عليك ، ولا تُصِرُّ فأُصِرُّ عليك ، ولا تخزن فأخزن عليك ، إن باب الرزق مفتوح من فوق سبع سموات ، متواصل إلى العرش ، لا يغلق ليلاً ولا نهاراً ، ينزل الله منه الرزق على كل امرئ بقدر نيته ، وعطيته ، وصدقته ، ونفقته ، فمن أكثر أكثر له ، ومن أقل أقل له ، ومن أمسك أمسك عليه ، يا زبير فكل ، واطعم ، ولا توك فيوكي عليك ، ولا تحص فيحصى عليك ، ولا تقتر فيقتر عليك ، ولا تعسر فيعسر عليك ، يا زبير إن الله يحب الانفاق ، ويبغض الاقتار ، وإن السخاء من اليقين ، والبخل من الشك ، فلا يدخل النار من أيقن ، ولا يدخل الجنة من شك . يا زبير إن الله يحب السخاوة ولو بفلق تمرة ، والشجاعة ولو بقتل عقرب أو حيه . يا زبير إن الله يحب الصبر عند زلزلة الزلازل ، واليقين النافذ عند مجيء الشهوات ، والعقل الكامل عند نزول الشبهات ، والورع الصادق عند الحرام والخبيثات . يا زبير عظم الإخوان ، وجلل الأبرار ، ووقر الأخيار ، وصل الجار ، ولا تماش الفجار . من فعل ذلك دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب هذه وصية الله إليّ ووصيتي إليك " .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟ ﴾ قال: استفهام كقوله لعيسى عليه السلام ﴿ أأنت قلت للناس ﴾ [المائدة: 116].

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ قال: الشيطان.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها ﴾ قال: لم يكن عندهم كتاب يدرسونه، فيعلمون أن ما جئت به حق أم باطل.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتاده رضي الله عنه في قوله ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها ﴾ أي يقرأونها ﴿ وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ وقال: ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ [فاطر: 24] ولا ينقض هذا هذا، ولكن كلما ذهب نبي فمن بعده في نذارته حتى يخرج النبي الآخر.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ يقول: من القدرة في الدنيا.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ قال : القرون الأولى ﴿ وما بلغوا ﴾ أي الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ معشار ما آتيناهم ﴾ من القوة ، والاجلال ، والدنيا ، والاموال .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ قال : كذب الذين قبل هؤلاء ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ قال : يخبركم أنه اعطى القوم ما لم يعطكم من القوة وغير ذلك ﴿ فكيف كان نكير ﴾ يقول : فقد أهلك الله أولئك وهم أقوى وأخلد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(121/636)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15)

قوله : ﴿ مَسْكَنِهِمْ ﴾ : قرأ حمزةُ وحفصٌ " مَسْكَنِهِم " بفتح الكاف مفرداً ، والكسائيُّ

كذلك، إلاَّ أنه كسرَ الكافَ، والباقون "مَساكِنِهم" جمعاً . فأمَّا الإِفرادُ فلِعَدَمِ اللَّبْسِ؛ لأن المرادَ الجمعُ، كقولِه:

3735 كُلوا في بَعْضِ بَطْنِكُمُ تَعِفُّوا . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . .

والفتحُ هو القياسُ؛ لأنَّ الفعلَ متى ضُمَّتْ عينُ مضارِعه أو فُتِحَتْ جاء المَفْعَلُ منه زماناً ومكاناً ومصدراً بالفتحِ، والكسرُ مَسْموعٌ على غيرِ قياس. وقال أبو الحسن: "كسرُ الكافِ لغةٌ فاشيةٌ، وهي لغةُ الناسِ اليومَ، والكسرُ لغةُ الحجازِ". وهي قليلةٌ. وقال الفراء: "هي لغةٌ يمانِيَّةٌ فصيحة". و"مَسْكَنِهِمْ" يُحْتمل أَنْ يرادَ به المكانُ، وأَنْ يُرادَ به المصدرُ أي: السُّكْنى. ورجَّح بعضُهم الثاني قال: لأنَّ المصدرَ يشملُ الكلَّ فليس فيه وَضْعُ مفردٍ مَوْضِعَ جمعٍ بخلافِ الأول؛ فإنَّ فيه وَضْعَ المفرد مَوْضِعَ الجمعِ كما قَرَّرْتُه، لكنَّ سيبويه يَأْباه إلاَّ ضرورةً كقولِه:

3736 . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

قد عضَّ أَعناقَهم جِلْدُ الجَواميسِ

أي جلود. وأمَّا الجمعُ فهو الظاهرُ؛ لأنَّ لكلِّ واحدٍ مَسْكناً. ورُسِمَ في المصاحفِ دونَ ألفٍ بعد الكافِ: فلذلك احتَمَلَ القراءاتِ المذكورةَ.

قوله : " جنّتان " فيه ثلاثة أوجهٍ : الرفعُ على البدلِ من " آيةٌ " وأبدلَ مثنّى مِنْ مفرد ؛ لأنَّ هذا المفردَ يَصْدُقُ على هذا المثنى . وتقدَّم في قولِه : ﴿ وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ الثاني : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ . وضَعَّفَ ابنُ عطيةَ الأولَ ولم يُبَيِّنْه . ولا يَظْهَرُ ضَعْفُه بل قوتُه ، وكأنه توهَّمَ أنهما مختلفان إفراداً وتثنية ؛ فلذلك ضَعُفَ البدلُ عنده . واللَّهُ أعلمُ . الثالث : - وإليه نحا ابن عطية - أَنْ يكونَ " جَنَّتَان " مبتدأً ، وخبرُه ﴿ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ . وردَّه الشيخُ : بأنه ابتداءُ نكرةٍ مِنْ غيرِ مُسَوِّغٍ . واعتذر عنه : بأنَّه قد يُعْتَقَدُ حَذْفُ صفةٍ أي : جنتان لهم ، أو جنتان عظيمتان [ إنْ ] صَحَّ ما ذهبَ إليه .

وقرأ ابنُ أبي عبلة " جَنَّتَيْن " بالياءِ نصباً على خبرِ كان ، واسمُها " آية " . فإنْ قيل : اسمُ " كان " كالمبتدأ ، / ولا مُسَوِّغَ للابتداء به حتى يُجْعَلَ اسم كان . والجوابُ أنه تخصَّصَ بالحالِ المقدَّمَةِ عليه ، وهي صفتُه في الأصل . ألا ترى أنه لو تأخَّر " لسبأ " لكان صفةً ل " آيةٌ " في هذه القراءةِ .

قوله : " عن يمينٍ " إمَّا صفةٌ ل " جَنَّتان " أو خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هما عن يمين .

قوله : " كُلُوا " على إضمار القولِ أي : قال الله أو المَلَكُ .

قوله : " بَلْدَةٌ " أي : بَلْدَتُكُمْ بَلْدَةٌ ، وربُّكم ربٌّ غفورٌ . وقرأ رُوَيْس بنصب " بَلْدَة ورَب " على المدحِ ، أو اسكنوا واعبدوا . وجعله أبو البقاء مفعولاً به ، والعامِلُ فيه " اشكروا "

وفيه نظرٌ ؛ إذ يَصيرُ التقدير : اشكروا لربّكم ربًّا غفوراً .

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16)

(123/636)

---

قوله : ﴿ سَيْلَ العرم ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه من باب إضافةِ الموصوفِ لصفتِه في الأصلِ ، إذ الأصلُ : السَّيْلُ العَرِمُ . والعَرِمُ : الشديدُ . وأصله مِنَ العَرامَةِ ، وهي الشَّراسَةُ والصعوبةُ . وعَرِمَ فلانٌ فهو عارِمٌ وعَرِمٌ . وعُرامُ الجيش منه . الثاني : أنه من باب حَذْفِ الموصوفِ وإقامة صفتِه مُقامه . تقديرُه : فأَرْسَلْنا عليهم سَيْلَ المطرِ العَرِمِ أو الجُرذِ العرم أي الشديد الكثير . الثالث : أنَّ العَرِمَ اسمٌ للبناءِ الذي يُجْعَلُ سَدّاً . وأُنْشد :

3737 مِنْ سبأَ الحاضرين مَأْرِبَ إذْ . . . يَبْنُون مِنْ دونِ سَيْلِه العَرِما

أي البناء القويَّ . الرابع : أنَّ العَرِمَ اسمٌ للوادي الذي كان فيه الماءُ نفسُه . الخامس : أنه اسمٌ للجُرَذِ وهو الفَأْر . قيل : هو الخُلْدُ . وإنما أُضيفَ إليه لأنه تَسَبَّبَ عنه إذ يُرْوى في التفسيرِ : أنه قَرَضَ السِّكْرَ إلى أن انفتح عليهم فغرقوا به . وعلى هذه الأقوال الثلاثةِ تكون الإِضافةُ إضافةً صحيحةً مُعَرِّفةً نحو : غلام زيد أي : سيل البناء ، أو سيل الوادي الفلاني

، أو سيلُ الجُرَذِ . وهؤلاء هم الذين ضَرَبَتْ بهم العربُ في المثل للفُرْقةِ فقالوا : " تَفَرَّقوا أَيْدِي سبأ وأيادي سبأ " .

قوله " " بجَنَّتَيْهم جَنَّتَيْن " قد تقدَّم في البقرة أن المجرورَ بالباء هو الخارج، والمنصوبَ هو الداخلُ؛ ولهذا غَلِط مَنْ قال من الفقهاء : " فلو أبدل ضادا بظاءٍ بَطَلَتْ صلاتُه " بل الصواب أَنْ يُقال : ظاءً بضادٍ .

(124/636)

---

قوله : " أُكُلٍ خَمْطٍ " قرأ أبو عمرو على إضافة " أُكُل " غير المضاف إلى " خَمْط " .

والباقون بتنوينه غيرَ مضافٍ وقد تقدم في البقرة أنَّ ابنَ عامرٍ وأبا عمرو والكوفيين يضمون كاف " أُكل " غير المضاف لضمير المؤنثة، وأن نافعاً وابن كثير يُسَكِّنونها بتفصيل هناك تقدَّمَ تحريرُه، فيكونُ القرَّاءُ هنا على ثلاثِ مراتبَ، الأولى : لأبي عمروٍ " أُكُلِ خَمْط " بضم كاف " أُكُلِ " مضافاً ل " خَمْطٍ " . الثانية : لنافعٍ وابن كثير تسكينُ كافِه وتنوينِه .

الثالثة : للباقين ضَمُّ كافِه وتنوينه . فَمَنْ أضافَ جَعَلَ " الأُكل " بمعنى الجنى والثمر .

والخَمْطُ قيل : شجرُ الأَراك . وقيل : كلُّ شجرٍ ذي شَوْكٍ . وقيل : كلُّ نَبْتٍ أَخَذَ طعماً مِنْ مرارة . وقيل : شجرةٌ لها ثَمرٌ تشبه الخَشْخاشَ لا يُنْتَفَعُ به .

قوله: ﴿ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ ﴾ معطوفان على "أُكُل" لا على "خَمْط" لأنَّ الخَمْطَ لا أُكُلَ له. وقال مكي: "لَمَّا لم يَجُزْ أَنْ يكونَ الخمط نعتاً للأكل؛ لأنَّ الخَمْطَ اسمُ شجرٍ بعينه، ولا بدلاً لأنه ليس الأولَ ولا بعضَه، وكان الجنى والثمرُ من الشجر، أُضيف على تقدير "مِنْ" كقولِك: هذا ثوبُ خزّ". ومَنْ نَوَّنَ جَعَلَ خَمْطاً وما بعدَه: إمَّا صفةً لأُكُل.

(125/636)

---

قال الزمخشري: "أو وُصِفَ الأُكُلَ بالخَمْط، كأنه قيل: ذواتَيْ أُكُلٍ بَشِعٍ". قال الشيخُ: "والوصفُ بالأسماءِ لا يَطَّرِدُ، وإنْ كان قد جاء منه شيءٌ نحو قولهم: مررْتُ بقاعٍ عَرْفَجٍ كلِّه". الثاني: البدلُ مِنْ "أُكُل" قال أبو البقاء: "وجعل خَمْطاً أُكُلاً لمجاوَرَتِه إياه وكونِه سبباً له". إلاَّ أنَّ الفارسيَّ رَدَّ كونَه بدلاً. قال: "لأنَّ الخَمْطَ ليس بالأُكُلِ نفسِه". وقد تقدَّمَ جوابُ أبي البقاء. وأجاب بعضُهم عنه - وهو مُنْتَزَعٌ مِنْ كلام الزمخشري - أنه على حَذْفِ مضافٍ تقديرُه: ذواتَيْ أُكُلِ أُكُلِ خَمْطٍ. قال: والمحذوفُ هو الأولُ في الحقيقةِ. قلت: وهو حسنٌ في المعنى. الثالث: أنه عطفُ بيانٍ، وجعله أبو عليٍ أحسنَ ما في الباب. قال: "كأنَّه بَيَّنَ أنَّ الأُكُلَ هذه الشجرةُ" إلاَّ أنَّ عَطْفَ البيانِ لا يُجيزه البصريُّون في النكرات إنما يَخُصُّونه بالمعارفِ/.

قوله : " قليلٍ " نعتٌ لـ " سِدْر " . وقيل : نعتٌ لـ " أُكُل " . وقال أبو البقاء : " ويجوز أَنْ يكونَ نعتاً لـ " خَمْطٍ وأَثْلٍ وسِدْرٍ " . وقُرِئ " وأَثْلاً وشَيْئاً " بنصبهما عطفاً على جَنَّتَيْن .

والأَثْلُ : شجرُ الطَّرْفاءِ ، أو ما يُشْبِهها . والسِّدر سِدْران : سِدْرٌ له ثمرةٌ عَفِصَةٌ لا تُؤْكَلُ ولا يُنْتَفَعُ بورقِه في الاغتسال وهو الضالُّ ، وسِدْرٌ له ثمرٌ يُؤْكَلُ وهو النَّبْقُ ، ويُغْتَسلُ بورقِه .

ومراد الآيةِ : الأولُ .

ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17)

(126/636)

---

قوله : ﴿ وَهَلْ نجازي ﴾ : قرأ الأخوان وحفصٌ " نُجازي " بنونِ العظمة وكسرِ الزاي أي : نحن . " إلاَّ الكَفورَ " مفعولٌ به . والباقون بضمِّ الياء وفتح الزاي مبنيًّا للمفعول . " إلاَّ الكفورُ " رَفْعٌ على ما لم يُسَمَّ فاعلُه . ومسلم بن جندب " يُجْزَى " مبنياً للمفعول ، " إلاَّ الكفورُ " رَفْعٌ على ما تقدَّم . وقُرِئ " يَجْزِي " مبنياً للفاعل وهو اللَّهُ تعالى ، " الكفورَ " نصباً على المفعول به .

فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (19)

قوله : ﴿ رَبَّنَا ﴾ : العامَّةُ بالنصبِ على النداء . وابن كثيرٍ وأبو عمروٍ وهشام "بَعِّدْ" بتشديدِ العَيْنِ فعلَ طلبٍ . والباقون "باعِدْ" طلباً أيضاً من المفاعلة بمعنى الثلاثي . وقرأ ابنُ الحنفية وسفيان بن حسين وابن السَّمَيْفع "بَعُدَ" بضم العين فعلاً ماضياً . والفاعلُ المَسِيْرُ أي : بَعُدَ المَسِيْرُ . و "بَيْنَ" ظرفٌ . وسعيد بن أبي الحسن كذلك إلاَّ أنَّه ضَمَّ نونَ "بين" جعله فاعلَ "بَعُدَ" ، فأخرجه عن الظرفية كقراءةِ "تَقَطَّعَ بينكُم" رفعاً . فالمعنى على القراءةِ المتضمِّنةِ للطلبِ يكونُ المعنى : أنهم أَشِرُوا وبَطِرُوا ؛ فلذلك طلبوا بُعْدَ الأسفارِ . وعلى القراءة المتضمِّنة للطلبِ يكونُ المعنى : أنهم أَشِرُوا وبَطِرُوا ؛ فلذلك طلبوا بُعْدَ الأسفارِ . وعلى القراءة المتضمِّنة للخبرِ الماضي يكونُ شكوى مِنْ بُعْدِ الأسفار التي طلبوها أيضاً .

(127/636)

---

وقرأ جماعةٌ كثيرةٌ منهم ابن عباس وابن الحنفية وعمرو بن فائد "ربُّنا" رفعاً على الابتداءِ ، "بَعَّدْ" بتشديد العين فعلاً ماضياً خبرُه . وأبو رجاءٍ والحسنُ ويعقوب كذلك إلاَّ أنه "باعَدَ" بالألف . والمعنى على هذه القراءة : شكوى بُعْدِ أسفارِهم على قُرْبها ودُنُوِّها تَعَنُّتاً منهم .

وقُرِئَ "بُوعِدَ" مبنياً للمفعول . وإذا نصَبْتَ "بينَ" بعد فعلٍ متعدٍّ مِنْ هذه المادةِ في إحدى هذه القراءاتِ سواءً كان أمراً أم ماضياً فجعله الشيخ منصوباً على المفعول به لا ظرفاً .

قال : "ألا ترى إلى قراءةِ مَنْ رفع كيف جَعَلَه اسماً "؟ قلت : إقرارُه على ظرفيَّته أَوْلَى ، ويكون المفعولُ محذوفاً ، تقديره : بَعِّدِ السيرَ بينَ أسفارِنا . ويَدُلُّ على ذلك قراءةُ "بَعُدَ" بضم العين "بينَ" بالنصب ، فكما تُضْمِرُ هنا الفاعلَ وهو ضميرُ السَّيْرِ كذلك تُبْقي هنا "بينَ" على بابِها ، وتَنْوي السيرَ . وكان هذا أَوْلى ؛ لأنَّ حَذْفَ المفعولِ كثيرٌ جداً لا نِزاعَ فيه ، وإخراجُ الظرفِ غيرِ المتصرِّفِ عن ظرفيته فيه نزاعٌ كثيرٌ ، وتحقيقُ هذا والاعتذارُ عن رفعِ "بينكم" مذكورٌ في الأنعام .

وقرأ العامَّةُ "أَسْفارِنا" جمعاً . وابن يعمر "سَفَرِنا" مفرداً .

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (20)

قوله : ﴿ صَدَّقَ ﴾ : قرأ الكوفيون "صَدَّقَ" بتشديد الدال . والباقون بتخفيفها . فأمَّا الأولى ف "ظنَّه" مفعولٌ به . والمعنى : أنَّ ظنَّ إبليس ذهب إلى شيءٍ فوافق ، فصدَّقَ هو ظنَّه على المجاز والاتساعِ . ومثلُه : كذَّبْتُ ظني ونفسي وصَدَّقْتُهما ، وصَدَّقاني وكَذَّباني . وهو مجازٌ سائغ . أي : ظَنَّ شيئاً فوقع . وأصلُه : مِنْ قولِه : "ولأُغْوِيَنَّهم" و "لأُضِلَّنَّهم" وغيرِ ذلك .

وأمَّا الثانيةُ فانتصب " ظنَّه " على ما تقدَّم من المفعول به كقولهم : أَصَبْتُ ظني ، وأَخْطَأْت ظني . أو على المصدر بفعلٍ مقدرٍ أي : يظنُّ ظنَّه ، أو على إسقاطِ الخافضِ أي : في ظنه . وزيدُ بن علي والزهريُّ برفعِ " ظَنُّه " ونصب " إبليس "كقول الشاعر :

3738 فإنْ يَكُ ظَنِّي صادِقاً وهو صادِقي . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

جعل ظنَّه صادقاً فيما ظَنَّه مجازاً واتساعاً . ورُوِي عن أبي عمروٍ برفعِهما وهي واضحةٌ . جعل " ظنَّه " بدلَ اشتمال من إبليس .

والظاهر أنَّ الضميرَ في " عليهم " عائدٌ على أهل سبأ ، و " إلاَّ فريقاً " استثناءٌ من فاعل " اتبعوه " و " من المؤمنين " صفةٌ " فريقاً " . و " مِنْ " للبيان لا للتبعيضِ لئلا يَفْسُدَ/ المعنى ؛ إذ يلزمُ أَنْ يكونَ بعضُ مَنْ آمن اتَّبع إبليسَ .

وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (21)

قوله : { إِلاَّ لِنَعْلَمَ } : استثناءٌ مفرغٌ مِنَ العللِ العامَّةِ ، تقديرُه : ما كان له عليهم استيلاءٌ لشيءٍ من الأشياءِ إلاَّ لهذا ، وهو تمييزُ المُحِقِّ من الشاكِّ .

قوله : " منها " متعلقٌ بمحذوفٍ على معنى البيان أي : أعني منها وبسببها . وقيل : " مِنْ "

بمعنى في . وقيل : هو حالٌ من " شك " . وقوله : " مَنْ يؤمِنُ " يجوز في " مَنْ " وجهان ، أحدهما : أنَّها استفهاميةٌ فتَسُدُّ مَسَدَّ مفعولَيْ العِلْم . كذا ذكره أبو البقاء وليس بظاهرٍ ؛ لأنَّ المعنى : إلاَّ لنُمَيِّزَ ونُظْهِرَ للناس مَنْ يؤمِنُ مِمَّن لا يُؤْمِنُ فعبَّر عن مقابِلِه بقولِه : ﴿ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ ؛ لأنَّه مِنْ نتائجه ولوازِمه . والثاني : أنها موصولةٌ ، وهذا هو الظاهرُ على ما تقدَّم تفسيرُه .

(129/636)

---

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (22)

قوله : ﴿ الذين زَعَمْتُمْ ﴾ : مفعولُه الأولُ محذوفٌ هو عائدُ الموصولِ ، والثاني أيضاً محذوفٌ ، قامَتْ صفتُه مَقامَه . أي : زَعَمْتموهم شركاءَ مِنْ دونِ الله . ولا جائزٌ أَنْ يكونَ " مِنْ دون " هو المفعولَ الثاني ؛ إذ لا يَنْعَقِدُ منه مع ما قبله كلامٌ . لو قلتَ : " هم من دونِ الله " أي : مِنْ غيرِ نيةِ موصوفٍ لم يَجُزْ . ولولا قيامُ الوصفِ مَقامَه أيضاً لم يُحْذَفْ ؛ لأنَّ حَذْفَه اختصاراً قليلٌ . على أنَّ بعضهم مَنَعَه .

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا

الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (23)

قوله: ﴿ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾: فيه أوجهٌ، أحدُها: أنَّ اللامَ متعلقةٌ بنفسِ الشفاعة. قال أبو البقاء: "كما تقول: شَفَعْتُ له". الثاني: أَنْ يتعلَّقَ ب "تَنْفَعُ"، قاله أبو البقاء. وفيه نظرٌ: وهو أنه يَلْزَمُ أحدُ أمرَيْن: إمَّا زيادةُ اللامِ في المفعولِ في غيرِ مَوْضِعها، وإمَّا حَذْفُ مفعولِ "تنفع" وكلاهما خلافُ الأصلِ. الثالث: أنه استثناءٌ مفرَّغٌ مِنْ مفعولِ الشفاعة المقدرِ أي: لا تنفع الشفاعة لأحدٍ إلاَّ لِمَنْ أَذِنَ له.

(130/636)

---

ثم المستثنى منه المقدرُ يجوزُ أن يكون هو المشفوعَ له، وهو الظاهرُ، والشافعُ ليس مذكوراً إنما دَلَّ عليه الفَحْوى. والتقدير: لا تنفعُ الشفاعةُ لأحدٍ من المشفوعِ لهم إلاَّ لِمَنْ أَذن تعالى للشافعين أَنْ يَشْفعوا فيه. ويجوز أَنْ يكونَ هو الشافِعَ، والمشفوعُ له ليس مذكوراً تقديرُه: لا تنفعُ الشفاعةُ إلاَّ لشافعٍ أُذِن له أَنْ يَشْفَعَ. وعلى هذا فاللامُ في "له" لامُ التبليغِ لا لامُ العلةِ. الرابع: أنه استثناءٌ مفرَّغٌ أيضاً، لكنْ من الأحوال العامة. تقديرُه: لا تنفعُ الشفاعةُ إلاَّ كائنةً لِمَنْ أَذِنَ له. وقرَّرَه الزمخشري فقال: "تقول: "الشفاعة لزيدٍ" على معنى: أنه الشافعُ كما تقول: الكَرْمُ لزيدٍ، وعلى معنى أنه المشفوعُ له كما تقول: القيامُ لزيدٍ فاحتمل

قولُه : ﴿ وَلاَ تَنفَعُ الشفاعة عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أَنْ يكونَ على أحدِ هذين الوجهين أي : لا تنفعُ الشفاعةُ إلاَّ كائنةً لِمَنْ أَذِن له من الشافعين ومطلقةً له ، أو لا تنفع الشفاعة إلاَّ كائنةً لِمَنْ أَذِن له أي : لشفيعِه ، أو هي اللامُ الثانية في قولك : " أُذِنَ لزيدٍ لعمروٍ " أي : لأجله فكأنه قيل : إلاَّ لِمَنْ وقع الإِذنُ للشفيع لأجلِه . وهذا وجهٌ لطيفٌ وهو الوجه " . انتهى .

فقولُه : " الكَرْم لزيدٍ " يعني : أنَّها ليسَتْ لامَ العلة بل لامُ الاختصاصِ . وقوله : " القيامُ لزيد " يعني أنها لام العلة كما هي في " القيام لزيد " . وقوله : " أُذن لزيدٍ لعمروٍ " يعني : أنَّ الأُولى للتبليغ ، والثانيةَ لامُ العلَّة .

(131/636)

---

وقرأ الأَخَوان وأبو عمروٍ " أُذِنَ " مبنياً للمفعول ، والقائمُ مَقامَ الفاعلِ الجارُّ والمجرورُ .

والباقون مبنيّاً للفاعل أي : أَذِنَ اللَّهُ وهو المرادُ في القراءة الأخرى . وقد صرَّح به في قولِه : ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ الله ﴾ [ النجم : 26 ] ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ [ النبأ : 38 ] .

قوله : " حتى إذا " هذه غايةٌ لا بُدَّ لها مِنْ مُغَيّا . وفيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه قولُه : ﴿ فاتبعوه ﴾ [ سبأ : 20 ] على أَنْ يكونَ الضميرُ في عليهم من قولِه : ﴿ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ ﴾

[سبأ : 20] وفي " قلوبِهم " عائداً على جميع الكفار ، ويكون التفزيعُ حالةَ مفارقةِ الحياةِ ، أو يُجْعَل اتِّباعُهم إياه مُسْتصحِباً لهم إلى يوم القيامة مجازاً .

والجملةُ مِنْ قوله : " قل ادْعُوا " إلى آخرها معترضةٌ بين الغايةِ والمُغَيَّا . ذكره الشيخ . وهو حسنٌ .

والثاني : أنه محذوفٌ . قال ابن عطية : " كأنه قيل : ولا هم شفعاءُ كما تحبون أنتم ، بل هم عَبَدَةٌ أو مُسْلِمون أي : منقادون . حتى إذا فُزِّع عن قلوبِهم " انتهى . وجعل الضميرَ في " قلوبهم " عائداً على الملائكة . وقرَّر ذلك ، وضَعَّفَ قولَ مَنْ جعله عائداً على الكفار ، أو جميعِ العالم وليس هذا مَوْضِعَ تنقيحه .

وقوله : " قالوا : ماذا " هو جوابُ " إذا " ، وقوله : " قالوا الحقَّ " جوابٌ لقولِه : ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ . و " الحقَّ " منصوبٌ ب " قال " مضمرةً أي : قالوا قال ربُّنا الحقَّ . أي : القولَ الحقَّ . إلاَّ أنَّ الشيخَ رَدَّ هذا فقال : " فما قَدَّره ابنُ عطية لا يَصِحُّ لأنَّ ما بعدَ الغايةِ مخالِفٌ لِما قبلَها ، هم منقادون عَبَدَةٌ دائماً ، لا ينفكُّون عن ذلك لا إذا فُزِّع عن قلوبِهم ، ولا إذا لم يُفَزَّعْ " .

الثالث : أنه قولُه : " زَعَمْتُم " أي : زعمتم الكفر إلى غايةِ التفزيع ثم تركْتُمْ ما زعمتم وقلتم قال الحقَّ . وعلى هذا يكونُ في الكلامِ التفاتٌ مِنْ خطابٍ في قولِه : " زَعَمْتم " إلى الغَيْبة في قوله : " قلوبهم " .

الرابع : أنه ما فُهِم مِنْ سياقِ الكلامِ . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : بأيِّ شيءٍ اتَّصل قولُه : ﴿ حتى إذا فُزِّعَ ﴾ ولأيِّ شيء وقعت " حتى " غايةً؟ قلت : بما فُهِم من هذا الكلامِ مِنْ أنَّ ثَمَّ انتظاراً للإِذْنِ وتوقُّفاً وتمهُّلاً وفَزَعاً مِن الراجين للشفاعةِ والشفعاءِ هل يُؤْذَنُ لهم ، أو لا يُؤْذَن؟ وأنه لا يُطْلَقُ الإِذنُ إلاَّ بَعْد مَلِيٍّ من الزمان وطولٍ من التربُّص . ودلَّ على هذه الحالِ قولُه : [ تعالى ﴿ رَبِّ السماوات ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ﴾ [ النبأ : 37-38 ] فكأنه قيل : يَتَرَبَّصون ويتوقَّفون مَلِيّاً فَزِعينَ وَهِلين ، حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبِهم أي : كُشِفَ الفَزَعُ عن قلوبِ الشافعين والمشفوعِ لهم بكلمةٍ يتكلم بها ربُّ العزةِ في إطلاقِ الإِذن ، تباشروا بذلك ، وسأل بعضُهم بعضاً : ماذا قال ربُّكم قالوا : الحق . أي : القولَ الحقَّ وهو الإِذنُ بالشفاعةِ لمَنْ ارْتَضَى " .

وقرأ ابنُ عامر " فَزَّع " مبنياً للفاعل . فإنْ كان الضميرُ في " قلوبهم " للملائكةِ فالفاعلُ في " فَزَّع " ضميرُ اسمِ الله تعالى لتقدُّم ذِكْره . وإن كان للكفارِ فالفاعلُ ضميرُ مُغْوِيْهم . كذا قال الشيخ . والظاهر أنه يعودُ على الله مطلقاً . وقرأ الباقون مبنيّاً للمفعول . والقائمُ مقامَ الفاعلِ الجارُّ بعده . وفَعَّل بالتشديد معناها السَّلْبُ هنا نحو : قَرَّدْتُ البعيرَ أي : أَزَلْتُ

قُراده، كذا هنا أي: أزالَ الفزَعَ عنها .

وقرأ الحسن "فُزِعَ" مبنياً للمفعول مخففاً كقولِك: ذُهِب بزيدٍ .



---

والحسن أيضاً وقتادة ومجاهد "فَرَّغَ" مبنياً للفاعل من الفراغ . وعن الحسن أيضاً تخفيفُ الراء . وعنه أيضاً وعن ابنِ عُمَر وقتادة مشددَ الراءِ مبنياً للمفعول .

والفَرَاغُ: الفَناء والمعنى: حتى إذا أَفْنى اللَّهُ الوَجَلَ أو انتفى بنفسِه، أو نُفِي الوَجَلُ والخوفُ عن قلوبهم فلمَّا بُني للمفعولِ قام الجارُّ مَقامَه . وقرأ ابن مسعود وابن عمر "افْرُنْقِعَ" من الافْرِنْقاع . وهو التفرُّقُ . قال الزمخشري: "والكلمةُ مركبةٌ مِنْ حروف المفارقة مع زيادة العين، كما رُكِّب "اقْمطَرَّ" من حروفِ القَمْطِ مع زيادة الراء" . قال الشيخ: "فإنْ عَنَى أنَّ العينَ من حروفِ الزيادة، وكذا الراء، وهو ظاهرُ كلامِه فليس بصحيحٍ؛ لأنَّ العين والراءَ ليسا مِنْ حروف الزيادةِ . وإنْ عنى أنَّ الكلمةَ فيها حروفُ ما ذُكِر، وزائداً إلى ذلك العينُ والراءُ، والمادةُ فَرْقَعَ وقَمْطَر فهو صحيحٌ" انتهى . وهذه قراءةٌ مخالِفَةٌ للسَّواد، ومع ذلك هي لفظةٌ غريبةٌ ثقيلةُ اللفظِ، نَصَّ أهلُ البيان عليها ومَثَّلوا بها . وحَكَوْا عن عيسى بنِ عمر أنه غُشِيَ عليه ذاتَ يومٍ فاجتمع عليه النَّظَّارَةُ فلمَّا أفاق قال: "أراكم تَكَأْكَأْتُمْ عليَّ

تَكَأْكُؤكم على ذي جِنَّةٍ افرَنْقِعوا عني " أي : اجتمعتُمْ عليَّ اجتماعَكم على المجنونِ تفرَّقوا عني ، فعابَها الناسُ عليه ، حيث استعمل مثلَ هذه الألفاظِ الثقيلةِ المستغربةِ .

وقرأ ابن أبي عبلة " الحقُّ " بالرفع على أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : قالوا قولُه الحقُّ .

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24)

(134/636)

---

قوله : ﴿ أَوْ إِيَّاكُمْ ﴾ : عطفٌ على اسم إنَّ . وفي الخبرِ أوجهٌ ، أحدها : أنَّ الملفوظَ به الأولُ وحُذِفَ خبرُ الثاني للدلالة عليه . أي : وإنَّا لعَلى هُدىً أو في ضلال ، أو إنكم لعلى هدىً أو في ضلالٍ . والثاني : العكسُ أي : حُذِف الأولُ ، والمَلْفوظُ به خبرُ الثاني . وهو خلافٌ مشهورٌ تقدَّم تحقيقُه عند قولِه : ﴿ واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [ التوبة : 62 ] . وهذان الوجهان لا يَنْبغي أَنْ يُحْمَلا على ظاهرِهما قطعاً ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يَشُكَّ أنه على هدىً ويقينٍ ، وأنَّ الكفارَ على ضلالٍ ، وإنما هذا الكلامُ جارٍ على ما يَتَخاطَبُ به العربُ من استعمالِ الإنصاف في محاوراتِهم على سبيل الفَرَض والتقدير ويُسَمِّيه أهلُ البيانِ الاستدراجِ وهو : أَنْ يَذْكُرَ لمخاطبِه أمراً يُسَلِّمه ، وإنْ كان

بخلافِ ما يَذْكر حتى يُصْغي إلى ما يُلْقيه إليه ، /إذ لو بدأه بما يَكْرَهُ لم يُصْغِ . ونظيرُه قولُهم : أَخْزَى اللَّهُ الكاذبَ مني ومنك . ومثلُه قولُ الشاعر :

3739 فَأَيِّي ما وأَيُّك كان شَرّاً . . . فَقِيْدَ إلى المَقامةِ لا يَراها

وقولُ حسان :

3740 أَتَهْجُوه ولَسْتَ له بكُفْءٍ . . . فَشَرُّكما لخيرِكما الفِداءُ

مع العلم لكلِّ أحدٍ أنه صلَّى الله عليه وسلَّم خيرُ خَلْقِ اللَّهِ كلِّهم .

الثالث : أنه من بابِ اللفِّ والنَّشْرِ . والتقدير : وإنَّا لعلى هُدَىً وإنكم لفي ضلال مبين . ولكن لَفَّ الكلامين وأخرجَهما كذلك لعدمَ اللَّبْسِ ، وهذا لا يتأتَّى إلاَّ أَنْ تكونَ " أو " بمعنى الواوِ وهي مسألةُ خلافٍ . ومِنْ مجيءِ " أو " بمعنى الواو قولُه :

3741 قَوْمٌ إذا سَمِعوا الصَّرِيْخَ رَأَيْتَهُمْ . . . ما بين مُلْجِم مُهْرِه أو سافِعِ

(135/636)

---

وتقدَّم تقريرُ هذا وهذا الذي ذكرْتُه منقولٌ عن أبي عبيدة . الرابع : قال الشيخ : " وأو هنا على موضوعِها لكونِها لأحدِ الشيئَيْن وخبرُ ﴿ إِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ ﴾ هو ﴿ لعلى هُدًى أَوْ في ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ ولا يُحتاج إلى تقديرِ حذفٍ ؛ إذ المعنى : أنَّ أحدَنا لَفي أحدِ هذَيْن كقولِك

: زيدٌ أو عمروٌ في القصر أو في المسجدِ لا يُحتاج إلى تقديرِ حَذْفٍ إذ معناه : أحدُ هذَيْن في أحدِ هذين . وقيل : الخبرُ محذوفٌ ، ثم ذَكَرَ ما قَدَّمْتُ إلى آخره . وهذا الذي ذكره هو تفسيرُ معنًى لا تفسيرُ إعرابٍ ، والناسُ نظروا إلى تفسيرِ الإِعراب فاحتاجوا إلى ما ذكرْتُ .

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26)

قوله : { الفتاح العليم } : صِفتا مبالغةٍ . وقرأ عيسى بن عمر " الفاتحُ " اسمَ فاعلٍ .

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

قوله : { أَرُونِيَ } : فيها وجهان ، أحدهما : أنها عِلْميةٌ متعديةٌ قبل النَّقْلِ إلى اثنين فلمَّا جيْءَ بهمزةِ النقلِ تَعَدَّتْ لثلاثةٍ أوَّلُها : ياءُ المتكلم ، ثانيها : الموصولُ ، ثالثها : " شركاءَ " وعائدُ الموصول محذوفٌ أي : أَلْحَقْتُموهم به . الثاني : أنها بَصَرِيَّةٌ متعديةٌ قبل النقل لواحدٍ وبعده لاثنين ، أوَّلُهما ياءُ المتكلم ، ثانيهما الموصولُ ، و " شركاءَ " نصبٌ على الحالِ مِنْ عائد الموصول أي : بَصِّرُوْني المُلْحقين به حالَ كونِهم شركائي .

قال ابن عطية في هذا الثاني : " ولا غَناء له " أي لا مَنْفعةَ فيه يعني : أنَّ معناه ضعيفٌ .

قال الشيخ : " وقوله : لا غَناء له ليس بجيدٍ ، بل في ذلك تبكيْتٌ لهم وتوبيخٌ ، ولا يريد حقيقةَ الأمرِ بل المعنى : الذين هم شركائي على زَعْمِكم هم مِمَّنْ إنْ أَرَيْتُموهم افْتَضَحْتُمْ ؛ لأنهم خشبٌ وحجرٌ وغيرُ ذلك " .

قوله : " بل هو " في هذا الضميرِ قولان ، أحدُهما : أنه ضميرٌ عائدٌ على الله تعالى أي : ذلك الذي أَلْحَقْتُمْ به شركاءَ هو اللَّهُ . والعزيز الحكيم صفتان . والثاني : أنه ضميرُ الأمرِ والشأنِ . واللَّهُ مبتدأ ، والعزيزُ الحكيمُ خبران . والجملةُ خبر " هو " .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28)

قوله : ﴿ كَآفَّةً ﴾ : فيه أوجه ، أحدها : أنه حالٌ من كاف " أَرْسَلْناك " والمعنى : إلاَّ جامعاً للناس في الإِبلاغ .

والكافَّةُ بمعنى الجامع ، والهاءُ فيه للمبالغة كهي في : عَلاَّمة وراوِية . قاله الزجاج . وهذا بناءً منه على أنه اسمُ فاعلٍ مِنْ كَفَّ يَكُفُّ . وقال الشيخ : " أمَّا قولُ الزجَّاج : إن كافَّة بمعنى جامعاً ، والهاءُ فيه للمبالغة ؛ فإنَّ اللغةَ لا تُساعِدُه على ذلك ؛ لأنَّ كَفَّ ليس معناه محفوظاً بمعنى جَمَعَ " يعني : أن المحفوظَ في معناه مَنَع . يقال : كَفَّ يَكُفُّ أي : مَنَع .

والمعنى : إلاَّ مانعاً لهم من الكفرِ ، وأن يَشُذُّوا مِنْ تَبْليغِك ، ومنه الكفُّ لأنها تمنع خروجَ ما فيه .

الثاني : أنَّ "كافَّة" مصدرٌ جاء على الفاعِلة كالعافِية والعاقِبَة . وعلى هذا فوقوعُها حالاً : إمَّا على المبالغةِ ، وإمَّا على حذف مضافٍ أي : ذا كافَّةٍ للناس .

(137/636)

---

الثالث : أنَّ "كافَّة" صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ تقديرُه : إلاَّ إرْسالةً كافَّةً . قال الزمخشري : " إلاَّ إرْسالةً عامةً لهم محيطةً بهم ؛ لأنها إذا شَمِلَتْهم فقد كَفَتْهُمْ أَنْ يَخْرُجَ منها أحدٌ منهم " .

قال الشيخ : " أمَّا كافَّة بمعنى عامَّة ، فالمنقولُ عن النحويين أنها لا تكونُ إلاَّ حالاً ، ولم يُتَصَرَّفْ فيها بغير ذلك ، فَجَعْلُها صفةً لمصدرٍ محذوفٍ خروجٌ عَمَّا نقلوا ، ولا يُحْفَظُ أيضاً استعمالُها صفةً لموصوفٍ محذوفٍ " . /

الرابع : أنَّ قوله : "كافَّةً" حالٌ من "للناس" أي : للناس كافَّة . إلاَّ أن هذا قد رَدَّه الزمخشريُّ فقال : " ومَن جَعَلَه حالاً من المجرور متقدّماً عليه فقد أخطأ ؛ لأنَّ تَقَدُّمَ حالِ المجرورِ عليه في الإِحالةِ بمنزلةِ تقدُّمِ المجرور على الجارِّ . وكم تَرَى مِمَّنْ يَرْتكبُ مثلَ هذا الخطأ ، ثم لا يَقْنَعُ به حتى يَضُمَّ إليه أن يَجْعَلَ اللامَ بمعنى إلى ، لأنه لا يَسْتوي له الخطأُ الأولُ إلاَّ بالخطأ الثاني ، فلا بُدَّ له أَنْ يرتكبَ الخطأَيْن معاً " . قال الشيخ : " أمَّا قوله كذا فهو مختلَفٌ فيه : ذهب الجمهورُ إلى أنه لا يجوز ، وذهب أبو عليّ وابن كَيْسانَ وابن بَرْهانَ وابن ملكون

إلى جوازه " . قال : " وهو الصحيحُ " . قال : " ومِنْ أمثلةِ أبي عليّ : " زيدٌ خيرَما يكونُ خيرٌ منك " . التقدير : زيدٌ خيرٌ منك خيرَما يكونُ ، فجعل " خيرَما يكون " حالاً من الكاف في " مِنْكَ " وقَدَّمها عليها وأنشد :

3742 إذا المَرْءُ أَعْيَتْه المروءةُ ناشِئاً فمطلَبُها كَهْلاً عليه شديدُ . . . أي : فمطلَبُها عليه كَهْلاً . وأنشد أيضاً :

3743 تَسَلَّيْتُ طُرَّاً عنكمُ بَعْدَ بَيْنِكُمْ . . . بذِكْراكمُ حتى كأنَّكُمُ عندي

أي : عنكم طُرَّاً . وقد جاء تقديمُ الحالِ على صاحبِها المجرور وعلى ما يتعلق به قال :

(138/636)

---

3744 مَشْغُوفَةً بكِ قد شُغِفْتُ وإنَّما . . . حَتَمَ الفراقُ فما إليك سبيلُ

أي : قد شُغِفْتُ بك مَشْغوفةً . وقال آخر :

3745 غافِلاً تَعْرِضُ المنيَّةُ للمَرْ . . . ءِ فيُدْعَى ولاتَ حينَ إباءُ

أي : تَعْرِضُ المنيَّةُ للمَرْءِ غافِلاً " . قال : " وإذا جاز تقديمُها على صاحبها وعلى العاملِ فيه ، فتقديمُها على صاحبِها وحدَه أجوزُ " . قال : " ومِمَّنْ حمله على الحال ابنُ عطيةَ فإنه قال : " قُدِّمَتْ للاهتمام " والمنقولُ عن ابن عباس قولُه : إلى العرب والعجم وسائر

الأمم ، وتقديره إلى الناس كافة . قال : " وقولُ الزمخشريّ : لا يَسْتوي له الخطأ الأول إلخ فشَنيعٌ ؛ لأنّ القائلَ بذلك لا يحتاجُ إلى جَعْلِ اللامِ بمعنى إلى لأنّ أَرْسَلَ يتعدَّى باللام قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ﴾ [ النساء : 79 ] و " أرسل " ممَّا يتعدَّى باللامِ ، وب " إلى " أيضاً . وقد جاءتِ اللامُ بمعنى " إلى " و " إلى " بمعناها " .

قلت : أمَّا ﴿ أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ ﴾ فلا دَلالةَ فيه ؛ لاحتمالِ أَنْ تكونَ اللامُ لامَ العلةِ المجازيَّة . وأمَّا كونُها بمعنى " إلى " والعكسُ فالبصريُّون لا يَتَجوَّزُون في الحروف . و " بشيراً ونذيراً " حالان أيضاً .

قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (30)

(139/636)

---

قوله : ﴿ لَّكُم مِّيعَادُ ﴾ : مبتدأٌ وخبرٌ . والميعادُ يجوز فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه مصدرٌ مضافٌ لظرفِه ، والميعادُ يُطْلق على الوعدِ والوعيدِ . وقد تقدَّم أنّ الوعدَ في الخيرِ ، والوعيدَ في الشرِّ غالباً . الثاني : اسمٌ أُقيم مُقامَ المصدرِ . والظاهرُ الأولُ . قال أبو عبيدة : " الوَعْدُ والوعيدُ والميعاد بمعنىً " . الثالث : أنه هنا ظرفُ زمانٍ . قال الزمخشري : " الميعادُ ظرفُ الوعدِ ، من مكانٍ أو زمانٍ ، وهو هنا ظرفُ زمانٍ . والدليلُ عليه قراءةُ مَنْ

قرأ " ميعادٌ يومٌ " يعني برفعِهما منوَّنَيْن ، فأبدل منه اليوم . وأمّا الإِضافةُ فإضافةُ تبيينٍ ، كقولك : سَحْقُ ثوبٍ وبعيرُ سانِيَةٍ " .

قال الشيخ : " ولا يتعيَّنُ ما قال ؛ لاحتمالِ أَنْ يكونَ التقديرُ : لكم ميعادُ ميعادِ يومٍ ، فلمَّا حُذِفَ المضافُ أُعْرِبَ المضافُ إليه بإعرابه " . قلت : الزمخشريُّ لو فَعَلَ مثلَه لسَمَّع به .

وجوَّزَ الزمخشريُّ في الرفع وجهاً آخرَ : وهو الرفعُ على التعظيمِ ، يعني على إضمارِ مبتدأً ، وهو الذي يُسَمَّى القطعَ . وسيأتي هذا قريباً .

وقرأ ابنُ أبي عبلةَ واليزيديُّ " ميعادٌ يوماً " بتنوينِ الأول ، ونصبِ " يوماً " منوَّنًا . وفيه وجهان ، أحدُهما : أنه منصوبٌ على الظرفِ . والعاملُ فيه مضافٌ مقدرٌ ، تقديرُه : لكم إنجازُ وعدٍ في يومٍ صفتُه كيتَ وكيتَ . الثاني : أن ينتصِبَ بإضمارِ فعلٍ . قال الزمخشريُّ : " وأمّا نصبُ اليوم فعلى التعظيم بإضمارِ فعلٍ ، تقديرُه : أعني يوماً . ويجوز أَنْ يكونَ الرفعُ على هذا ، أعني التعظيمَ " .

وقرأ عيسى بتنوين الأول ، ونصبِ " يوم " مضافاً للجملة بعده . / وفيه الوجهانِ المتقدّمان : النصبُ على التعظيم ، أو الظرفُ .

قوله : ﴿ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ﴾ يجوزُ في هذه الجملةِ أَنْ تكونَ صفةً لـ " مِيْعاد " إنْ عاد الضميرُ في " عنه " عليه ، أو لـ " يوم " إنْ عاد الضميرُ في " عنه " عليه ، فيجوزُ أَنْ يُحْكَمَ على موضعِها بالرفعِ أو الجرِّ . وأمَّا على قراءةِ عيسى فينبغي أَنْ يعودَ الضميرُ في " عنه " على " ميعاد " ليس إلاَّ ؛ لأنهم نَصُّوا على أنَّ الظرفَ إذا أُضيفَ إلى جملةٍ لم يَعُدْ منها إليه ضميرٌ إلاَّ في ضرورةٍ كقوله :

3746 مَضَتْ سَنَةٌ لِعامَ وُلِدْتُ فيه . . . وعَشْرٌ بعد ذاك وحِجَّتان

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31)

قوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىا ﴾ : مفعولُ " ترى " وجوابُ " لو " محذوفان للفهم . أي : لو ترى حالَ الظالمين وقتَ وقوفِهم راجعاً بعضُهم إلى بعض القولَ لرَأَيْتَ حالاً فظيعةً وأمراً مُنْكراً . و " يَرْجِعُ " حالٌ مِنْ ضميرِ " مَوْقوفون " ، والقولُ منصوبٌ بـ " يَرْجِعُ " لأنه يَتَعدَّى . قال تعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ ﴾ [ التوبة : 83 ] . وقولُه : ﴿ يَقُولُ الذين استضعفوا ﴾ إلى آخره تفسيرٌ لقولِه : " يَرْجِعُ " فلا مَحَلَّ له . و " أنتم " بعد " لولا " مبتدأٌ على أَصَحِّ المذاهبِ . وهذا هو الأفصحُ . أعني وقوعَ ضمائرِ الرفعِ بعد " لولا " خلافاً للمبرد ؛ حيث جَعَلَ خلافَ هذا لَحْناً ، وأنه لم يَرِدْ إلاَّ في قولِ يزيدَ :

3747 وكم مَوْطَنٍ لَوْلاي . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

(141/636)

---

البيت . وقد تقدَّم تحقيقُ هذا . والأخفشُ جعَلَ أنه ضميرُ نصبٍ أو جرٍ قامَ مقامَ ضميرِ الرفع . وسيبويهِ جعلَه ضميرَ جرّ .

وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (33)

قوله : ﴿ بَلْ مَكْرُ الليل ﴾ : يجوز رفعُه مِنْ ثلاثةِ أوجه ، أحدها : الفاعلية تقديره : بل صَدَّنا مَكْرُكُمْ في هذين الوقتين . الثاني : أَنْ يكونَ مبتدأً خبرُه محذوفٌ ، أي : مَكْرُ الليلِ صَدَّنا . الثالث : العكسُ أي : سببُ كفرِنا مَكْرُكم . وإضافةُ المَكْرِ إلى الليل والنهار : إمَّا على الإِسنادِ المجازيِّ كقولهم : ليلٌ ماكرٌ ، فيكونُ مصدرا مضافاً لمرفوعِه ، وإمَّا على الاتساعِ في الظرف فجُعِل كالمفعول به ، فيكونُ مضافاً لمنصوبه . وهذان أحسنُ مِنْ قول مَنْ قال : إنَّ الإِضافةَ بمعنى " في " أي : في الليل ؛ لأنَّ ذلك لم يَثْبُتْ في غيرِ مَحَلِّ النّزاع .

وقرأ العامَّةُ " مَكْرُ " خفيفَ الراءِ ساكنَ الكاف مضافاً لما بعده . وابن يعمر وقتادةُ بتنوين " مكرٌ " وانتصابِ الليل والنهار ظرفَيْن . وقرأ أيضاً وسعيد بن جبير وأبو رُزَيْن بفتح الكافِ وتشديدِ الراء مضافاً لما بعده . أي : كُرورُ الليل والنهار واختلافُهما ، مِنْ كَرَّ يَكُرُّ ، إذا جاء وذهب . وقرأ ابن جُبير أيضاً وطلحة وراشد القارئ - وهو الذي كان يصحِّحُ المصاحفَ أيامَ الحَجَّاج بأمرِه - كذلك إلاَّ أنه بنصب الراء . وفيها أوجهٌ ، أظهرُها : ما قاله الزمخشري ، وهو الانتصابُ على المصدرِ قال : " بل تَكُرُّون الإِغواءَ مَكَرّاً دائماً لا تَفْتُرون عنه " . الثاني : النصبُ على الظرفِ بإضمارِ فعلٍ أي : بل صَدَدْتُمونا مَكَرَّ الليلِ والنهارِ أي : دائماً . الثالث : أنه منصوبٌ بتَأْمُرُوننا ، قاله أبو الفضل الرازي ، وهو غلطٌ ؛ لأنَّ ما بعد المضافِ لا يَعْمل فيما قبلَه إلاَّ في مسألةٍ واحدةٍ : وهي " غير " إذا كانَتْ بمعنى " لا " كقوله :

3748 إنَّ أمْرَأً خَصَّني عَمْداً مَوَدَّتَه . . . على التَّنائي لَعِندي غيرُ مَكْفورِ

وتقريرُ هذا تقدَّمَ أواخرَ الفاتحة .

وجاء قولُه : { قَالَ الذين استكبروا } بغيرِ عاطفٍ ؛ لأنَّه جوابٌ لقولِ الضَّعَفَةِ ،

فاسْتُؤْنِفَ، بخلافِ قولِه: ﴿ وَقَالَ الذين استضعفوا ﴾ فإنه لَمَّا لم يكنْ جواباً عُطِف.

والضميرُ في "وأَسَرُّوا الندامةَ" للجميع: للأتباعِ والمتبوعين.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34)

قوله: ﴿ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ ﴾: جملةٌ حاليةٌ مِنْ "قرية" وإنْ كانَتْ نكرةً؛ لأنَّها في سياقِ النفي.

(143/636)

---

قوله: "بما أُرْسِلْتُمْ" متعلقٌ بخبر "إنَّ" و"به" متعلِّقٌ ب "أُرْسِلْتُمْ". والتقدير: إنَّا كافرون بالذي أُرْسِلْتم به، وإنما قُدِّم للاهتمامِ. وحَسَّنَه تواخي الفواصلِ.

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (36)

قوله: ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾: أي: يُضَيِّق بدليل مقابلتِه ل "يَبْسُط". وهذا هو الطباقُ البديعيُّ. وقرأ الأعمش "ويُقَدِّر" بالتشديد/ في الموضعين.

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (37)

قوله: ﴿ بالتي تُقَرِّبُكُمْ ﴾: صفةٌ للأموالِ والأولادِ؛ لأنَّ جمعَ التكسيرِ غيرَ العاقلِ يُعامَلُ

معاملةَ المؤنثةِ الواحدة . وقال الفراء والزجّاج : إنَّه حذف َمن الأولِ لدلالةِ الثاني عليه . قالا : والتقدير وما أموالُكم بالتي تُقَرِّبُكم عندنا زُلْفَى ، ولا أولادُكم بالتي تُقَرِّبُكم . وهذا لا حاجةَ إليه أيضاً . ونُقِل عن الفراء ما تقدَّمَ : مِنْ أنَّ " التي " صفةٌ للأموال والأولادِ معاً . وهو الصحيح . وجعل الزمخشري " التي " صفةً لموصوفٍ محذوفٍ . قال : " ويجوز أَنْ تكون هي التقوى وهي المقرِبَة عند الله زُلْفَى وحدها أي : ليسَتْ أموالُكم وأولادُكم بتلك الموصوفةِ عند الله بالتقريبِ " . وقال الشيخ : " ولا حاجةَ إلى هذا الموصوفِ " قلت : والحاجةُ إليه بالنسبة إلى المعنى الذي ذكره داعيةٌ .

قوله : " زُلْفَى " مصدرٌ مِنْ معنى الأول ، إذ التقدير : تُقَرِّبكم قُرْبى . وقرأ الضحَّاك " زُلُفاً " بفتح اللام وتنوين الكلمة على أنها جمعُ زُلْفَى نحو : قُرْبَة وقُرَب . جُمِع المصدرُ لاختلافِ أنواعِه .

(144/636)

---

قوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه استثناءٌ منقطعٌ فهو منصوبُ المحلِّ . الثاني : أنه في محلِ جَرّ بدلاً من الضمير في " أموالكم " . قاله الزجاج . وغلَّطه النحاس : بأنه بدلٌ من ضمير المخاطب . قال : " ولو جاز هذا لجازَ " رَأَيْتُك زيداً " . وقولُ أبي

إسحاقَ هذا هو قولُ الفراءِ " . انتهى .

قال الشيخُ : " ومذهبُ الأخفش والكوفيين أنه يجوزُ البدلُ مِنْ ضميرِ المخاطبةِ والمتكلم ؛ إلاَّ أنَّ البدلَ في الآيةِ لا يصحُّ ؛ ألا ترى أنه لا يصِحُّ تفريغُ الفعلِ الواقعِ صلةً لما بعد " إلاَّ " لو قلتَ : " ما زيدٌ بالذي يَضْرب إلاَّ خالداً " لم يَجُزْ . وتَخَيَّلَ الزجَّاجُ أنَّ الصلةَ - وإن كانَتْ مِنْ حيث المعنى منفيَّةً - أنه يجوزُ البدلُ ، وليس بجائزٍ ، إلاَّ أَنْ يَصِحَّ التفريغُ له " . قلت : ومَنْعُهُ قولَك : " ما زيدٌ بالذي يَضْرب إلاَّ خالداً " فيه نظرٌ ، لأنَّ النفيَ إذا كان مُنْسَحباً على الجملة أُعْطي حُكْمَ ما لو باشَرَ ذلك الشيءَ . ألا ترى أنَّ النفيَ في قولك " ما ظننتُ أحداً يَفْعلُ ذلك إلاَّ زيدٌ " سَوَّغَ البدلَ في " زيد " مِنْ ضميرِ " يَفْعَل " وإنْ لم يكنِ النفيُ مُتَسَلِّطاً عليه . قالوا : ولكنه لَمَّا كان في حَيِّزِ النفي صَحَّ فيه ذلك ، فهذا مثلُه .

والزمخشريُّ أيضاً تَبعَ الزجَّاجَ والفراءَ في ذلك من حيث المعنى ، إلاَّ أنَّه لم يَجْعَلْه بدلاً بل منصوباً على أصل الاستثناء ، فقال : " إلاَّ مَنْ آمنَ استثناءٌ من " كم " في تقرِّبُكم . والمعنى : أنَّ الأموالَ لا تُقَرِّبُ أحداً إلاَّ المؤمنَ الذي يُنْفقها في سبيلِ الله . والأولاد لا تُقَرِّبُ أحداً إلاَّ مَنْ عَلَّمهم الخيرَ ، وفَقَّهَهم في الدين ، ورَشَّحهم للصلاح " .

ورَدَّ عليه الشيخُ بنحوِ ما تقدَّم فقال : " لا يجوز : ما زيدٌ بالذي يَخْرُج إلاَّ أخوه ، وما زيدٌ بالذي يَضْرب إلاَّ عَمْراً " . والجوابُ عنه ما تقدم ، وأيضاً فالزمخشريُّ لم يجعَلْه بدلاً بل استثناءً صريحاً ، ولا يُشْتَرَط في الاستثناء التفريغُ اللفظيُّ بل الإسنادُ المعنويُّ ، ألا ترى أنك تقول : " قام القومُ إلاَّ زيداً " ولو فَرَّغْتَه لفظاً لامتنع ؛ لأنه مُثْبَتٌ . وهذا الذي ذكره الزمخشريُّ هو الوجهُ الثالثُ في المسألة .

الرابع : أنَّ " مَنْ آمَنَ " في محلِّ رفع على الابتداء . والخبرُ قولُه : ﴿ فأولئك لَهُمْ جَزَآءُ الضعف ﴾ . وقال الفراء : " هو في موضعِ رفعٍ تقديرُه : ما هو المقرَّب إلاَّ مَنْ آمن " وهذا لا طائلَ تحته . وعَجِبْتُ من الفَرَّاءِ كيف يقوله؟

وقرأ العامَّةُ : " جزاءُ الضِّعْفِ " مضافاً على أنه مصدرٌ مضافٌ لمفعولِه ، أي : أَنْ يُجازِيَهم الضِّعْفَ . وقَدَّره الزمخشريُّ مبنيّاً للمفعول أي : يُجْزَوْن الضِّعْفَ . ورَدَّه الشيخ : بأنَّ الصحيحَ مَنْعُه . وقرأ قتادة برفعِهما على إبدالِ الضِّعْفِ مِنْ " جزاء " . وعنه أيضاً وعن يعقوبَ بنصبِ " جزاءً " على الحال . والعاملُ فيها الاستقرار ، وهذه كقولِه : ﴿ فَلَهُ جَزَآءً الحسنى ﴾ [ الكهف : 88 ] فيمَنْ قرأ بنصبِ " جزاء " في الكهف .

قوله: "في الغُرُفاتِ" قرأ حمزةُ "الغُرْفَة" بالتوحيد على إرادةِ الجنس ولعدمِ اللَّبْسِ؛ لأنه مَعْلومٌ أنَّ لكلِّ أحدٍ غرفةً تَخُصُّه. وقد أُجْمِعَ على التوحيدِ في قوله: ﴿يُجْزَوْنَ الغرفة﴾ [الفرقان: 75] ولأنَّ لفظَ الواحدِ أخفُّ فوُضِعَ مَوْضِعَ الجمعِ مع أَمْنِ اللَّبْسِ.

والباقون "الغُرُفات" جمعَ سَلامة. وقد أُجْمِعَ على الجمع في قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الجنة غُرَفاً﴾ [العنكبوت: 58] والرسمُ مُحْتَمِلٌ للقراءتَيْن. وقرأ الحسن بضمِّ راء "غُرُفات" على الإتباع. وبعضُهم يَفْتحها. وقد تقدَّم تحقيقُ ذلك أول البقرة. وقرأ ابنُ وثَّاب "الغُرُفَة" بضمِّ الراء والتوحيد.

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39)

قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُمْ﴾: يجوزُ أَنْ تكونَ/ "ما" موصولةً في محلِّ رَفْعٍ بالابتداء. والخبرُ قولُه: "فهو يُخْلِفُه" ودخلتِ الفاءُ لشَبَهِه بالشرطِ. و "مِنْ شَيْءٍ" بيانٌ، كذا قيل. وفيه نظرٌ لإِبهامِ "شيء" فأيُّ تبيينٍ فيه؟ الثاني: أَنْ تكونَ شرطيةً فتكونَ في محلِّ نصبٍ مفعولاً مقدَّماً، و "فهو يُخْلِفُه" جوابُ الشرطِ.

قوله: "الرازقين" إنما جُمِع من حيث الصورةُ؛ لأنَّ الإِنسانَ يرزق عيالَه مِنْ رزقِ اللَّهِ، والرازقُ في الحقيقة للكلِّ إنما هو الله تعالى.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40)

قوله : ﴿ ويَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ ﴾ : قد تقدَّم أنه يُقرأ بالنونِ والياءِ في الأنعام .

(147/636)

---

قوله : ﴿ أهؤلاء إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ "إيَّاكم" منصوبٌ بخبرِ كان ، قُدِّمَ لأجلِ الفواصلِ والاهتمامِ . واسْتُدِلَّ به على جوازِ تقديمِ خبرِ "كان" عليها إذا كان خبرُها جملةً فإنَّ فيه خلافاً : جَوَّزه ابنُ السَّرَّاج ، ومنعَه غيرُه . وكذلك اختلفوا في : توسُّطه إذا كان جملةً ، قال ابنُ السَّرَّاج : " القياسُ جوازُه ، ولكنْ لم يُسْمَعْ " . قلت : قد تقدَّم في قوله : ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ ﴾ [ الأعراف : 137 ] ونحوه أنه يجوزُ أَنْ يكونَ مِنْ تقديمِ الخبرِ وأَنْ لا يكون . ووجهُ الدلالةِ هنا : أنَّ تقديمَ المعمولِ يُؤْذِنُ بتقديمِ العاملِ . وقد تقدَّم تحقيقُ هذا في هود عند قولِه : ﴿ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً ﴾ [ هود : 8 ] ومَنْعُ هذه القاعدةِ .

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (42)

قوله : ﴿ التي كُنتُم بِهَا ﴾ : صفةُ النارِ ، وفي السجدة وَصْفُ العذاب . قيل : لأنَّ ثَمَّ كانوا مُلْتَبسين بالعذابِ متردِّدين فيه فَوُصِف لهم ما لابسوه ، وهنا لم يُلابسوه بَعْدُ ؛ لأنه عقيبُ

حَشْرِهم .

وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44)

قوله : ﴿ يَدْرُسُونَهَا ﴾ : العامَّةُ على التخفيفِ مضارعَ درس مخففاً أي : حَفِظ . وأبو حيوةَ " يدَّرِسُوْنَها " بفتح الدال مشددةً وكسرِ الراء . والأصلُ يَدْتَرِسُوْنها من الادِّراس على الافتعالِ فأُدْغِم . وعنه أيضاً بضمِّ الياءِ وفتحِ الدالِ وشَدِّ الراءِ من التدريس .

(148/636)

---

قوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ ﴾ أي : إلى هؤلاء المعاصرين لك لم نُرْسِلْ إليهم نذيراً يُشافِهُهم بالنِّذارةِ غيرَك ، فلا تعارُضَ بينه وبينَ قولِه : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [ فاطر : 24 ] إذِ المرادُ هناك آثارُ النَّذيرِ ، ولا شَكَّ أنَّ هذا كان موجوداً ، يَذْهَبُ النبيُّ ، وتَبْقَى شريعتُه .

وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (45)

قوله : ﴿ وَمَا بَلَغُواْ ﴾ الظاهرُ أن الضميرُ في " بَلَغُوا " وفي " آتيناهم " للذين مِنْ قبلهم ليناسِقَ قولَه : " فكذَّبوا رُسُلي " بمعنى : أنهم لم يَبْلُغوا في شُكْرِ النِّعْمَةِ وجزاءِ المِنَّةِ مِعْشارَ ما آتيناهم من النعمِ والإِحسانِ إليهم . وقيل : بل ضميرُ الرفع لقريشٍ والنصبِ للذين مِنْ

قبلهم، وهو قولُ ابنِ عباس على معنى أنهم كانوا أكثرَ أموالاً . وقيل : بالعكس على معنى : إنَّا أَعْطَيْنا قريشاً من الآياتِ والبراهينِ ما لم نُعْطِ مَنْ قبلَهم .

واخْتُلِفَ في المِعْشار فقيل : هو بمعنى العُشْرِ، بنى مِفْعال مِنْ لفظِ العُشْر كالمِرْبَاع، ولا ثالثَ لهما من ألفاظِ العدد لا يقال : مِسْداسَ ولا مِخْماس . وقيل : هو عُشْرُ العُشْرِ . إلاَّ أنَّ ابنَ عطيّةَ أنكره وقال : "ليس بشيء" . وقال الماوردي : "المِعْشارُ هنا : هو عُشْرُ العُشَيْرِ، والعُشَيْرُ هو عُشْرُ العُشْر، فيكون جزءاً من ألفٍ" . قال : "وهو الأظهرُ؛ لأنَّ المرادَ به المبالغةَ في التقليل" .



---

قوله : "فَكَذَّبوا" فيه وجهان، أحدُهما : أنه معطوف على ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ . والثاني : أنه معطوف على "وما بَلَغُوا" وأوضحهما الزمخشريُّ فقال : "فإنْ قُلْتَ : ما معنى "فكذَّبوا رُسُلي" وهو مستغنى عنه بقوله : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؟ قلت : لمَّا كان معنى قولِه : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ : وفَعَلَ الذين مِنْ قبلِهم التكذيبَ، وأَقْدَمُوا عليه جُعِل تكذيبُ الرسلِ مُسَبَّباً عنه . ونظيرُه أنْ يقولَ القائلُ : أقدمَ فلانٌ على الكفر فَكَفَرَ بمحمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم . ويجوز أَنْ يُعْطَفَ على قولِه : "وما بَلَغوا"

كقولك : ما بلغ زيدٌ مِعْشارَ فضل عمروٍ فتَفَضَّلَ عليه " .

و" نَكير" مصدرٌ مضافٌ لفاعِله أي : إنكاري . وتقدَّمَ حَذْفُ يائِه وإثباتُها . انتهى .

اهـ ﴿الدر المصون حـ 9 صـ 169.199﴾

*(150/636)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾

الحكماء ، والأَولياء – الذين هم الأئمة في هذه الطريقة – إذا دلوا الناسَ عَلَى الله . قال بعض إخوان السوء – مثل بعض المتنصحين من أهل الغفلة وأبناء الدنيا لمريدٍ : ما هذا ؟ من الذي يطيق كل هذا ؟ ربما لا تُتَمِّمُ الطريق !

لا بُد من الدنيا ما دُمت تعيش ! . . وأمثال ذلك ، حَتى يميل هذا المسكينُ عند قبول النصح ، وربما كان له هذا من خواطره الدنية . . . فيهلك ويضلّ .

وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44)

الإشارة من هذا إلى أهل الغفلة ؛ يعارضون أصحابَ القلوب فيما يجري من الأمور ، بما تشوّش إليهم نفوسُهم ، ويخطر ببالهم من هواجسهم عن مُقْتَضَى تفرقةِ قلوبهم –على قياس ما يقع لهم – مِنْ غيرِ استنادٍ إلى إلهامٍ ، أو اعتمادٍ على تقديرٍ من الله وإفهام .

وأهلُ الحقائق – الذين هم لسانُ الوقت – إذا قالوا شيئاً أو أطلقوا حديثاً ، فلو طولبوا بإقامة البرهان عليه لم يمكنهم ؛ لأن الذي يتكلم عن الفراسة أو عن الإلهام ، أو كان مُسْتَنْطَقاً فليس يمكن لهؤلاء إقامة الحجة على أقوالهم . وأصحابُ الغفلة ليس لهم إيمان بذلك ، فإذا سمعوا شيئاً منه عارضوهم فيهلكون ، فسبيلُ هؤلاء الأكابر عند ذلك أن يسكتوا ، ثم الأيام تجيب أولئك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 186 187.﴾

(151/636)

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (46) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (47) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (48) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (49) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أبطل شبههم كلها ، ولّين من عريكتهم بالتنبيه على التحذير ، فصاروا جديرين بقبول الوعظ ، وكان مما رموه به – وحاشاه – الجنون وتعمد الكذب ، أمره بالإقبال عليهم به مخففاً له لئلا ينفروا من طوله فقال : ﴿ قل ﴾ وأكده زيادة في استجلابهم إلى الإقبال عليه فقال : ﴿ إنما أعظكم بواحدة ﴾ أي فاسمعوا ولا تنفروا خوفاً من أن أملّكم ؛ ثم استأنف قوله بياناً لها : ﴿ أن تقوموا ﴾ أي توجهوا نفوسكم إلى تعرف الحق ، وعبر بالقيام إشارة إلى الاجتهاد ﴿ لله ﴾ أي الذي لا أعظم منه على وجه الإخلاص واستحضار ما له من العظمة بما له لديكم من الإحسان لا لإرادة المغالبة حال كونكم ﴿ مثنى ﴾ أي اثنين اثنين ، وقدمه إشارة ألى أن أغلب الناس ناقص العقل ﴿ وفرادى ﴾ أي واحداً واحداً ، من وثق بنفسه في رصانه عقله وأصالة رأيه قام وحده ليكون أصفى لسره ، وأعون على خلوص فكره ، ومن خاف عليها ضم إليه آخر ليذكره إن نسي .

ويقومه إن زاغ .

ولما كان هذا القسم أكثر وجوداً في الناس قدمه ولم يذكر غيرهما من الأقسام ، إشارة إلى أنهم إذا كانوا على هاتين الحالتين كان أجدر لهم بأن يعرفوا الحق من غير شائبة حظ مما يكون في الجمع الكثير من الجدال واللفظ المانع من تهذيب الرأي وتثقيف الفكر وتنقية

المعاني.

ولما كان ما طلب منهم هذا لأجله عظيماً جديراً بأن يهتم له هذا الاهتمام، أشار إليه بأداة التراخي فقال: ﴿ ثم تتفكروا ﴾ أي تجتهدوا بعد التأني وطول التروي في الفكر فيما وسمتم به صاحبكم من أمر الجنون.

(152/636)

---

ولما كان بعده -صلى الله عليه وسلم- من هذا آمراً لا يتمارى فيه، استأنف قوله معيناً بالتعبير بالصاحب مؤكداً تكذيباً لهم وتنبيهاً على ظهور مضمون هذا النفي: ﴿ ما بصاحبكم ﴾ أي الذي دعاكم إلى الله وقد بلوتموه صغيراً ويافعاً وشاباً وكهلاً، وأعرق في النفي بقوله: ﴿ من جنة ﴾ وخصها لأنها مما يمكن طروءه، ولم يعرّج على الكذب لأنه مما لا يمكن فيمن عاش بين أناس عمراً طويلاً ودهراً دهيراً يصحبهم ليلاً ونهاراً صباحاً ومساءً سراً وعلناً في السراء والضراء، وهو أعلاهم همة وأوفاهم مروءة، وأزكاهم خلائق وأظهرهم شمائل، وأبعدهم عن الأدناس ساحة في مطلق الكذب، فكيف بما يخالف أهواءهم فكيف بما ينسب إلى الله فكيف وكلامه الذي ينسب فيه إلى الكذب معجز بما فيه من الحكم والأحكام، والبلاغة والمعاني التي أعيت الأفهام.

ولما ثبت بهذا إعلاماً وإفهاماً براءته مما قذفوه به كله ، حصر أمره في النصيحة من الهلاك ، فقال منبهاً على أن هذا الذي أتاهم به لا يدعيه إلا أحد رجلين : إما مجنون أو صادق هو أكمل الرجال ، وقد انتفى الأول فثبت الثاني : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هو ﴾ أي المحدث عنه بعينه ﴿ إلا نذير لكم ﴾ أي خاصاً إنذاره وقصده الخلاص بكم ، وهول أمر العذاب بتصويره صورة من له آلة بطش محيطة بمن تقصده فقال : ﴿ بين يدي ﴾ أي قبل حلول ﴿ عذاب شديد ﴾ قاهر لا خلاص منه ، إن لم ترجعوا إليه حل بكم سريعاً ، روى البخاري عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال :

" صعد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصفا ذات يوم فقال : يا صباحاه ! فاجتمعت إليه قريش فقالوا : ما لك ، فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني ؟ قالوا : بلى ، فقال : إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ " .

(153/636)

---

ولما انتفى عنه بهذا ما خيلوا به ، بقي إمكان أن يكون لغرض أمر دنيوي فنفاه بأمره بقوله : ﴿ قل ﴾ أي للكفرة : ﴿ ما ﴾ أي مهما ﴿ سألتكم من أجر ﴾ أي على دعائي لكم

﴿ فهو لكم ﴾ لا أريد منه شيئاً ، وهو كناية عن أني لا أسألكم على دعائي لكم إلى الله أجراً أصلاً بوجه من الوجوه ، فإذا ثبت أن الدعاء ليس لغرض دنيوي ، وأن الداعي أرجح الناس عقلاً ، ثبت أن الذي حمله على تعريض نفسه لتلك الأخطار العظيمة إنما هو أمر الله الذي له الأمر كله .

ولما كانوا يظنون به في بعض ظنونهم أنه يريد أمراً دنيوياً ، أكد قوله : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ أجري إلا على الله ﴾ أي الذي لا أعظم منه ، فلا ينبغي لذي همة أن يبتغي شيئاً إلا من عنده ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه ﴿ على كل شيء شهيد ﴾ أي بالغ العلم بأحواله ، فهو جدير بأن يهلك الظالم ويعلي كعب المطيع .

ولما لم يبق شيء يخدش في أمر المبلغ ، أتبعه تصحيح النقل جواباً لمن كأنه يقول : برئت ساحتك ، فمن لنا بصحة مضامين ما تخبر ؟ فقال مؤكداً لإنكارهم أن يكون ما يأتي به حق معيداً الأمر بالقول ، إشارة إلى أن كل كلام صدر دليل كاف مستقل بالدلالة على ما سبق له : ﴿ قل ﴾ لمن أنكر التوحيد والرسالة والحشر معبراً بما يقتضي العناية الموجبة لنصره على كل معاند ، ﴿ إن ربي ﴾ أي المحسن إلي بأنواع الإحسان ، المبيض لوجهي عند الامتحان ﴿ يقذف بالحق ﴾ أي يرمي به في إثبات جميع ذلك وغيره مما يريد رمياً وحياً جداً لأنه غني عن تدبر أو ترو أو تفكر في تصحيح المعنى أو إصلاح اللوازم لأنه علام الغيوب ، فيفضح من يريد إطفاء نوره فضيحة شديدة ، ويرهق باطله كما فعل فيما

وسمتموني به وفي التوحيد وغيره لا كما فعلتم أنتم في مبادرتكم إلى نصر الشرك وإلى ما وصفتموني به ووصفتم ما جئت به ، فلزمكم على ذلك أمور شنيعة منها الكذب الصريح ، ولم تقدروا أن تأتوا في أمري ولا في شيء من ذلك بشيء يقبله ذو عقل أصلاً .

(154/636)

---

ولما وصفه بنهاية العلم ، أتبعه بعض آثاره فقال : ﴿ قل جاء الحق ﴾ أي الأمر الثابت الذي لا يقدر شيء أن يزيله ؛ وأكد تكذيباً لهم في ظنهم أنهم يغلبون فقال : ﴿ وما ﴾ أي والحال أنه ما ﴿ يبدئ الباطل ﴾ أي الذي أنتم عليه وغيره في كل حال حصل فيه تفريعه على مر الأيام ﴿ وما يعيد ﴾ بل هو كالجماد لا حركة به أصلاً ، لأنه مهما نطق به صاحبه في أمره بعد هذا البيان افتضح ، فإن لم ترجعوا عنه طوعاً رجعتم وأنتم صغره كرهاً ، والحاصل أن هذا كناية عن هلاكه بما يهز النفس ويرفض الفكر بتمثيله بمن انقطعت حركته ، وذهبت قوته ، حتى لا يرجى بوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 192 . 195 ﴾

(155/636)

---

## فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾

ذكر الأصول الثلاثة في هذه الآية بعد ما سبق منه تقريرها بالدلائل فقوله : ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ ﴾ إشارة إلى التوحيد وقوله : ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ ﴾ إشارة إلى الرسالة وقوله : ﴿ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ إشارة إلى اليوم الآخر وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بواحدة ﴾ يقتضي أن لا يكون إلا بالتوحيد ، والإيمان لا يتم إلا بالاعتراف بالرسالة والحشر ، فكيف يصح الحصر المذكور بقوله : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بواحدة ﴾ فنقول التوحيد هو المقصود ومن وحد الله حق التوحيد يشرح الله صدره ويرفع في الآخرة قدره فالنبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بما يفتح عليهم أبواب العبادات ويهيء لهم أسباب السعادات ، وجواب آخر وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم ما قال إني لا آمركم في جميع عمري إلا بشيء واحد ، وإنما قال أعظكم أولاً بالتوحيد ولا آمركم في أول الأمر بغيره لأنه سابق على الكل ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ فإن التفكر أيضاً صار مأموراً به وموعوظاً .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ بواحدة ﴾ قال المفسرون أنها على أنها صفة خصلة أي أعظكم بخصلة واحدة ، ويحتمل أن يقال المراد حسنة واحدة لأن التوحيد حسنة وإحسان وقد ذكرنا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ﴾ [ النحل : 29 ] أن العدل نفي الإلهية عن غير الله والإحسان إثبات الإلهية له ، وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ [ الرحمن : 60 ] أن المراد هل جزاء الإيمان إلا الجنان ، وكذلك يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مّمَّن دَعَا إِلَى الله ﴾ [ فصلت : 33 ] .

المسألة الثالثة :

(156/636)

---

قوله : ﴿ مثنى وفرادى ﴾ إشارة إلى جميع الأحوال فإن الإنسان إما أن يكون مع غيره أو يكون وحده ، فإذا كان مع غيره دخل في قوله : ﴿ مثنى ﴾ وإذا كان وحده دخل في قوله : ﴿ فرادى ﴾ فكأنه يقول تقوموا لله مجتمعين ومنفردين لا تمنعكم الجمعية من ذكر الله ولا يحوجكم الانفراد إلى معين يعينكم على ذكر الله .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ يعني اعترفوا بما هو الأصل والتوحيد ولا حاجة فيه إلى تفكر

ونظر بعد ما بان وظهر ، ثم تتفكروا فيما أقول بعده من الرسالة والحشر ، فإنه يحتاج إلى تفكر ، وكلمة ثم تفيد ما ذكرنا ، فإنه قال : ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ ثم بين ما يتفكرون فيه وهو أمر النبي عليه السلام فقال : ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ ﴾ .

المسألة الخامسة :

قوله : ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ ﴾ يفيد كونه رسولاً وإن كان لا يلزم في كل من لا يكون به جنة أن يكون رسولاً ، وذلك لأن النبي عليه السلام كان يظهر منه أشياء لا تكون مقدورة للبشر وغير البشر ممن تظهر منه العجائب إما الجن أو الملك ، وإذا لم يكن الصادر من النبي صلى الله عليه وسلم بواسطة الجن يكون بواسطة الملك أو بقدرة الله تعالى من غير واسطة ، وعلى التقديرين فهو رسول الله ، وهذا من أحسن الطرق ، وهو أن يثبت الصفة التي هي أشرف الصفات في البشر بنفي أخس الصفات ، فإنه لو قال أولاً هو رسول الله كانوا يقولون فيه النزاع ، فإذا قال ما هو مجنون لم يسعهم إنكار ذلك لعلمهم بعلو شأنه وحاله في قوة لسانه وبيانه فإذا ساعدوا على ذلك لزمتهم المسألة .

ولهذا قال بعده ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ يعني إما هو به جنة أو هو رسول لكن تبين أنه ليس به جنة فهو نذير .

المسألة السادسة :

قوله : ﴿ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ إشارة إلى قرب العذاب كأنه قال ينذركم بعذاب حاضر يمسكم عن قريب بين يدي العذاب أي سوف يأتي العذاب بعده .

(157/636)

---

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (47)

لما ذكر أنه ما به جنة ليلزم منه كونه نبياً ذكر وجهاً آخر يلزم منه أنه نبي إذا لم يكن مجنوناً لأن من يرتكب العناء الشديد لا لغرض عاجل إذا لم يكن ذلك فيه ثواب أخروي يكون مجنوناً ، فالنبي عليه السلام بدعواه النبوة يجعل نفسه عرضة للهلاك عاجلاً ، فإن كل أحد يقصده ويعاديه ولا يطلب أجراً في الدنيا فهو يفعله للآخرة ، والكاذب في الآخرة معذب لا مثاب ، فلو كان كاذباً لكان مجنوناً لكنه ليس بمجنون فليس بكاذب ، فهو نبي صادق وقوله : ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْء شَهِيدٍ ﴾ تقرير آخر للرسالة وذلك لأن الرسالة لا تثبت إلا بالدعوى والبينة ، بأن يدعي شخص النبوة ويظهر الله له المعجزة فهي بينة شاهدة والتصديق بالفعل يقوم مقام التصديق بالقول في إفادة العلم بدليل أن من قال لقوم إني مرسل من هذا الملك إليكم ألزمكم قبول قولي والملك حاضر ناظر ، ثم قال للملك أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فقل لهم إني رسولك فإذا قال إنه رسولي إليكم لا يبقى فيه شك

كذلك إذا قال يا أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فألبسني قباءك فلو ألبسه قباءه في عقب كلامه يجزم الناس بأنه رسوله ، كذلك حال الرسول إذا قال الأنبياء لقومهم نحن رسل الله ، ثم قالوا يا إلهنا إن كنا رسلك فأنطق هذه الحجارة أو أنشر هذا الميت ففعله حصل الجزم بأنه صدقه .

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (48)



---

وفيه وجهان أحدهما : يقذف بالحق في قلوب المحقين ، وعلى هذا الوجه للآية بما قبلها تعلق ، وذلك من حيث إن الله تعالى لما بين رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ ﴾ وأكده بقوله : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ وكان من عادة المشركين استبعاد تخصيص واحد من بينهم بإنزال الذكر عليه ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا بَلْ ﴾ [ ص : 8 ] ذكر ما يصلح جواباً لهم فقال : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبّى يَقْذِفُ بالحق ﴾ أي في القلوب إشارة إلى أن الأمر بيده يفعل ما يريد ويعطي ما يشاء لمن يشاء .

ثم قال تعالى : ﴿ علام الغيوب ﴾ إشارة إلى جواب سؤال فاسد يذكر عليه وهو أن من يفعل شيئاً كما يريد من غير اختصاص محل الفعل بشيء لا يوجد في غيره لا يكون عالماً وإنما فعل ذلك اتفاقاً ، كما إذا أصاب السهم موضعاً دون غيره مع تسوية المواضع في المحاذاة فقال : ﴿ يَقْذِفُ بالحق ﴾ كيف يشاء وهو عالم بما يفعله وعالم بعواقب ما يفعله فهو يفعل ما يريد لا كما يفعله الهاجم الغافل عن العواقب إذ هو علام الغيوب الوجه الثاني : أن المراد منه هو أنه يقذف بالحق على الباطل كما قال في سورة الأنبياء : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل فَيَدْمَغُهُ ﴾ [ الأنبياء : 18 ] وعلى هذا تعلق الآية بما قبلها أيضاً ظاهر وذلك من حيث إن براهين التوحيد لما ظهرت ودحضت شبههم قال : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بالحق ﴾ أي على باطلكم ، وقوله : ﴿ علام الغيوب ﴾ على هذا الوجه له معنى لطيف وهو أن البرهان الباهر المعقول الظاهر لم يقم إلا على التوحيد والرسالة ، وأما الحشر فعلى وقوعه لا برهان غير إخبار الله تعالى عنه ، وعن أحواله وأهواله ، ولولا بيان الله بالقول لما بان لأحد بخلاف التوحيد والرسالة ، فلما قال : ﴿ يَقْذِفُ بالحق ﴾ أي على الباطل ، إشارة إلى ظهور البراهين على التوحيد والنبوة قال : ﴿ علام الغيوب ﴾ أي ما يخبره عن الغيب وهو قيام الساعة وأحوالها فهو لا خلف فيه فإن الله علام الغيوب ، والآية تحتمل تفسيراً آخر وهو أن يقال : ﴿ ربّى يَقْذِفُ بالحق ﴾ أي ما يقذفه يقذفه بالحق لا بالباطل والباء على

الوجهين الأولين متعلق بالمفعول به أي الحق مقذوف وعلى هذا الباء فيه كالباء في قوله : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق ﴾ [ الزمر : 69 ] وفي قوله : ﴿ فاحكم بَيْنَ الناس بالحق ﴾ [ ص : 26 ] والمعنى على هذا الوجه هو أن الله تعالى قذف ما قذف في قلب الرسل وهو علام الغيوب يعلم ما في قلوبهم وما في قلوبكم .

(160/636)

---

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (49)

لما ذكر الله أنه يقذف بالحق وكان ذلك بصيغة الاستقبال ، ذكر أن ذلك الحق قد جاء وفيه وجوه أحدها : أنه القرآن الثاني : أنه بيان التوحيد والحشر وكل ما ظهر على لسان النبي صلى الله عليه وسلم الثالث : المعجزات الدالة على نبوة محمد عليه السلام ، ويحتمل أن يكون المراد من ﴿ جَاء الحق ﴾ ظهر الحق لأن كل ما جاء فقد ظهر والباطل خلاف الحق ، وقد بينا أن الحق هو الموجود ، ولما كان ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لم يمكن انتفاؤه كالتوحيد والرسالة والحشر ، كان حقاً لا ينتفي ، ولما كان ما يأتون به من الإشراك والتكذيب لا يمكن وجوده كان باطلاً لا يثبت ، وهذا المعنى يفهم من قوله : ﴿ وَمَا يُبْدِىء الباطل ﴾ أي الباطل لا يفيد شيئاً في الأولى ولا في الآخرة فلا إمكان لوجوده أصلاً ، والحق

المأتي به لا عدم له أصلاً ، وقيل المراد لا يبدئ الشيطان ولا يعيد ، وفيه معنى لطيف وهو أن قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بالحق ﴾ لما كان فيه معنى قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل فَيَدْمَغُهُ ﴾ كان يقع لمتوهم أن الباطل كان فورد عليه الحق فأبطله ودمغه ، فقال ههنا ليس للباطل تحقق أولاً وآخراً ، وإنما المراد من قوله : ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ أي فيظهر بطلانه الذي لم يزل كذلك وإليه الإشارة بقوله تعالى في موضع آخر : ﴿ وَزَهَقَ الباطل إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقًا ﴾ [ الإسراء : 81 ] يعني ليس أمراً متجدداً زهوق الباطل ، فقوله : ﴿ وَمَا يُبْدِىء الباطل ﴾ أي لا يثبت في الأول شيئاً خلاف الحق ﴿ وما يُعِيدُ ﴾ أي لا يعيد في الآخرة شيئاً خلاف الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 232 234.﴾

(161/636)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾

تمم الحجة على المشركين ؛ أي قل لهم يا محمد : ﴿ إِنَّمَآ أَعِظُكُمْ ﴾ أي أذكّركم وأحذّركم سوء عاقبة ما أنتم فيه .

﴿ بِوَاحِدَةٍ ﴾ أي بكلمة واحدة مشتملة على جميع الكلام ، تقتضي نفي الشرك وإثبات الإله .

قال مجاهد : هي لا إله إلا الله ؛ وهذا قول ابن عباس والسّدي .

وعن مجاهد أيضاً : بطاعة الله .

وقيل : بالقرآن ؛ لأنه يجمع كل المواعظ .

وقيل : تقديره بخصلة واحدة ، ثم بينها بقوله : ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مثنى وفرادى ﴾ فتكون "أَنْ" في موضع خفض على البدل من "وَاحِدَة" ، أو في موضع رفع على إضمار مبتدأ ، أي هي أن تقوموا .

ومذهب الزجاج أنها في موضع نصب بمعنى لأن تقوموا .

وهذا القيام معناه القيام إلى طلب الحق لا القيام الذي هو ضدّ القعود ، وهو كما يقال : قام فلان بأمر كذا ؛ أي لوجه الله والتقرب إليه .

وكما قال تعالى : ﴿ وَأَن تَقُومُواْ لليتامى بالقسط ﴾ [ النساء : 127 ] .

﴿ مثنى وفرادى ﴾ أي وُحداناً ومجتمعين ؛ قاله السّديّ .

وقيل : منفرداً برأيه ومشاوراً لغيره ، وهذا قول مأثور .

وقال القُتَبِيّ : مناظراً مع غيره ومفكّراً في نفسه ، وكله متقارب .

ويحتمل رابعاً أن المَثْنَى عمل النهار والفرادى عمل الليل ، لأنه في النهار معانٌ وفي الليل

وحيد ، قاله الماوردي .

وقيل : إنما قال : "مَثْنَى وَفُرَادَى" لأن الذهن حجة الله على العباد وهو العقل ، فأوفرهم عقلاً أوفرهم حظاً من الله ، فإذا كانوا فرادى كانت فكرة واحدة ، وإذا كانوا مَثْنَى تقابل الذهنان فتراءى من العلم لهما ما أضعف على الانفراد ؛ والله أعلم .

﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ ﴾ الوقف عند أبي حاتم وابن الأنباري على "ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا" .



---

وقيل : ليس هو بوقف ، لأن المعنى ؛ ثم تتفكروا هل جرّبتم على صاحبكم كذباً ، أو رأيتم فيه جنة ، أو في أحواله من فساد ، أو اختلف إلى أحد ممن يدّعي العلم بالسحر ؛ أو تعلّم الأقاصيص وقرأ الكتب ، أو عرفتموه بالطمع في أموالكم ، أو تقدرون على معارضته في سورة واحدة ؛ فإذا عرفتم بهذا الفكر صدقه فما بال هذه المعاندة .

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وفي صحيح مسلم "عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ "ورَهْطَكَ مِنهمُ المُخْلَصِينَ" خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعِد الصَّفَا فهتف : يا صباحاه؟ فقالوا : من هذا

الذي يهتفا ؟ قالوا : محمد ؛ فاجتمعوا إليه فقال : "يا بني فلان يا بني فلان يا بني عبد مناف يا بني عبد المطلب فاجتمعوا إليه فقال أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِيّ" ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا .

قال : "فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد" .

قال فقال أبو لهب : تبًّا لك ! أمَا جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قال فنزلت هذه السورة ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ "كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ أي جُعْل على تبليغ الرسالة ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أي ذلك الجُعْل لكم إن كنت سألتكموه ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٍ ﴾ أي رقيب وعالم وحاضر لأعمالي وأعمالكم ، لا يخفى عليه شيء فهو يجازي الجميع .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بالحق ﴾ أي يبيّن الحجة ويظهرها .

قال قتادة : بالحق بالوحي .

وعنه : الحق القرآن .

وقال ابن عباس : أي يقذف الباطل بالحق علامُ الغيوبِ .

وقرأ عيسى بن عمر "عَلاّمَ الغيوب" على أنه بدل ، أي قل إن ربي علام الغيوب يقذف بالحق .

قال الزجاج : والرفع من وجهين على الموضع ، لأن الموضع موضع رفع ، أو على البدل مما في يقذف .

النحاس : وفي الرفع وجهان آخران : يكون خبراً بعد خبر ، ويكون على إضمار مبتدأ .

وزعم الفراء أن الرفع في مثل هذا أكثر في كلام العرب إذا أتى بعد خبر "إنّ" ومثله ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ [ ص : 64 ] وقرئ : "الغُيوبُ" بالحركات الثلاث ، فالغُيوب كالبيوت ، والغَيوب كالصبور ، وهو الأمر الذي غاب وخَفِيَ جداًّ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ جَآءَ الحق ﴾ قال سعيد عن قتادة : يريد القرآن .

النحاس : والتقدير جاء صاحب الحق ؛ أي الكتاب الذي فيه البراهين والحجج .

﴿ وَمَا يُبْدِىءُ الباطل ﴾ قال قتادة : الشيطان ؛ أي ما يخلق الشيطان أحداً .

﴿ وَمَا يُعِيدُ ﴾ ف"ما" نَفْيٌ .

ويجوز أن يكون استفهاماً بمعنى أيّ شيء ؛ أي جاء الحق فأيّ شيء بقي للباطل حتى يعيده ويبدئه ؛ أي فلم يبق منه شيء ، كقوله : ﴿ فَهَلْ ترى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [ الحاقة : 8 ] أي لا ترى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بواحدة ﴾

أي ما أُرشدكم وأنصح لكم إلا بخصلة واحدة هي ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ ﴾ على أَنَّه بدلٌ منها أو بيانٌ لها أو خبر مبتدأ محذوفٍ أي هي أن تقومُوا من مجلس رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أو تنتصبُوا للأمرِ خالصاً لوجهِ الله تعالى معرضاً عن المُماراةِ والتَّقليدِ ﴿ مثنى وفرادى ﴾ أي متفرّقين اثنينِ اثنين وواحداً واحداً فإنَّ الازدحامَ يُشوش الأفهامَ ويخلطُ الأفكار بالأوهامِ وفي تقديمِ مَثْنى إيذانٌ بأنَّه أوثقُ وأقربُ إلى الاطمئنانِ ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ في أمرِه عليه الصلاة والسلام وما جاء به لتعلمُوا حقيقتَه وحقّيتَه وقوله تعالى : ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ استئنافٌ مسوقٌ من جهتِه تعالى للتَّنبيه على طريقةِ النَّظر والتَّأملِ بأنَّ مثلَ هذا الأمرِ العظيمِ الذي تحتَه ملك الدُّنيا والآخرةِ لا يتصدَّى لادّعائِه إلا مجنونٌ لا يُبالي بافتضاحِه عند مطالبته بالبُرهان وظهور عجزِه ، أو مؤيَّدٌ من عندِ الله مرشَّح للنُّبوةِ واثق بحجَّتِه وبرهانه وإذ قد علمتُم أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أرجحُ العالمين عقلاً وأصدقهم قولاً وأنزههم نفساً وأفضلُهم علماً وأحسنُهم عملاً وأجمعُهم للكمالاتِ البشريَّةِ وجبَ أَنْ تصدّقوه في دعواهُ فكيف وقد انضمَّ إلى ذلك معجزاتٌ تخرُّ لها صمُّ الجبالِ . ويجوزُ أن يتعلَّق بما قبلَه على معنى ثم تتفكّروا فتعلموا ما بصاحِبكم من جنَّةٍ

وقد جُوّز أن تكون ما استفهاميةً على معنى ثم تتفكَّروا أي شيء به من آثار الجنون ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ هو عذابُ الآخرة فإنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مبعوثٌ في نَسَمِ السَّاعةِ .

(165/636)

---

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ أي أيُّ شيءٍ سألتُكم من أجرٍ على الرِّسالة ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ والمرادُ نفيُ السُّؤالِ رأساً كقولِ مَن قال لمن لم يُعطه شيئاً إنْ أعطيتني شيئاً فخُذه وقيل مَا موصولةٌ أُريد بها ما سألهم بقوله تعالى : ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا المودة فِى القربى ﴾ واتخاذ السَّبيلِ إليه تعالى منفعتهم الكُبرى وقُرباه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قرباهم ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٍ ﴾ مطَّلعٌ يعلمُ صدقي وخلوصَ نيَّتي وقُرىء إن أجريْ بسكونِ الياءِ ﴿ قُلْ إِنَّ رَبّى يَقْذِفُ بالحق ﴾ أي يُلقيه ويُنزله على من يجتبيهِ من عبادِه أو يرمي به الباطلَ فيدمغُه أو يرمي به في أقطارِ الآفاقِ فيكون وعداً بإظهارِ الإسلامِ وإعلاءِ كلمةِ الحقِّ ﴿ علام الغيوب ﴾ صفةٌ محمولةٌ على محلِّ إنَّ واسمِها أو بدلٌ من المستكنِّ في يقذفُ أو خبرٌ ثانٍ لأنَّ أو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ . وقُرىء بالنَّصبِ صفةً لربِّي أو مقدَّراً

بأعنِي وقُرِئ بكسرِ الغَين وبالفتحِ كصبور مبالغةُ غائب ﴿ قُلْ جَاء الحق ﴾ أي الإسلامُ والتَّوحيدُ ﴿ ومَا يُبْدِئ الباطل ومَا يُعيدُ ﴾ أي زهقَ الشِّركُ بحيث لم يبقَ أثرُه أصلاً مأخوذُ من هلاكِ الحيِّ فإنَّه إذا هلكَ لم يبقَ له إبداءٌ ولا إعادةٌ فجُعل مَثَلاً في الهلاكِ بالمرَّة ومنْهُ قولُ عُبيْدٍ :

أَقْفرَ مِن أَهْلِه عُبيد . . . فليسَ يُبدي ولاَ يُعيدُ

وقيل الباطل إبليسُ أو الصَّنَم والمعنى لا يُنشىء خلقاً ولا يُعيد أو لا يُبدىء خيراً لأَهلِه ولا يُعيد وقيل ما استفهاميِّةٌ منصوبةٌ بما بعدَها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(166/636)

---

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بواحدة ﴾

أي ما أرشدكم وأنصح لكم إلا بخصلة واحدة وهي على ما قال قتادة ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ ﴾ على أنه في تأويل مصدر بدل منها أو خبر مبتدأ محذوف أي هي قيامكم أو مفعول لفعل محذوف أي أعني قيامكم ، وجوز الزمخشري كونه عطف بيان

لواحدة .

واعترض بأن ﴿ أَن تَقُومُواْ ﴾ معرفة لتقديره بقيامكم وعطف البيان يشترط فيه عند البصريين أن يكون معرفة من معرفة وهو عند الكوفيين يتبع ما قبله في التعريف والتنكير والتخالف مما لم يذهب إليه ذاهب .

(167/636)

---

والظاهر أن الزمخشري ذاهب إلى جواز التخالف ، وقد صرح ابن مالك في "التسهيل" بنسبة ذلك إليه وهو من مجتهدي علماء العربية ، وجوز أن يكون قد عبر بعطف البيان وأراد البدل لتآخيها وهذا إمام الصناعة سيبويه يسمى التوكيد صفة وعطف البيان صفة ، ثم إن كون المصدر المسبوك معرفة أو مؤولاً بها دائماً غير مسلم ، والقيام مجاز عن الجد والاجتهاد ، وقيل هو على حقيقته والمراد القيام عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بذاك ، وقد روى نفي إرادته عن ابن جريج أي إن تجدوا وتجتهدوا في الأمر بإخلاص لوجه الله تعالى ﴿ مثنى وفرادى ﴾ أي متفرقين اثنين اثنين وواحداً واحداً فإن في الازدحام على الأغلب تهويش الخاطر والمنع من الفكر وتخليط الكلام وقلة الانصاف كما هو مشاهد في الدروس التي يجتمع فيها الجماعة فإنه لا يكاد يوقف فيها على تحقيق

وفي تقديم مثنى إيذان بأنه أوثق وأقرب إلى الاطمئنان ، وفي "البحر" قدم لأن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحدة فإذا انقدح الحق بين الإثنين فكر كل واحد منهما بعد ذلك فيزيد بصيرة وشاع الفتح بين الإثنين ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ في أمره صلى الله عليه وسلم وما جاء به لتعلموا حقيقته ، والوقف عند أبي حاتم هنا ، وقوله تعالى : ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ استئناف مسوق من جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن مثل هذا الأمر العظيم الذي تحته ملك الدنيا والآخرة لا يتصدى لادعائه إلا مجنون لا يبالي بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان وظهور عجزه أو مؤيد من عند الله تعالى مرشح للنبوة واثق بحجته وبرهانه وإذ قد علمتم أنه عليه الصلاة والسلام أرجح الناس عقلاً وأصدقهم قولاً وأذكاهم نفساً وأفضلهم علماً وأحسنهم عملاً وأجمعهم للكمالات البشرية وجب أن تصدقوه في دعواه فكيف وقد انضم إلى ذلك معجزات تخر لها صم الجبال ، والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبكم للإيماء إلى أن حاله صلى الله

(168/636)

---

عليه وسلم مشهور بينهم لأنه نشأ بين أظهرهم معروفاً بما ذكرنا ، وجوز أن يكون متعلقاً بما قبله والوقف على ﴿ جِنَّةٌ ﴾ على أنه مفعول لفعل علم مقدر لدلالة التفكر عليه لكونه

طريق العلم أي ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة أو معمول لتتفكروا على أن التفكر مجاز عن العلم أو معمول له بدون ارتكاب تجوز بناءً على ما ذهب إليه ابن مالك في التسهيل من أن تفكر يعلق حملاً على أفعال القلوب ، وجوز أن يكون هناك تضمين أي ثم تتفكروا عالمين ما بصاحبكم من جنة ، وقال ابن عطية : هو عند سيبويه جواب ما ينزل منزلة القسم لأن تفكر من الأفعال التي تعطي التمييز كتبين وتكون الفكرة على هذا في آيات الله تعالى والإيمان به اه وهو كما ترى ، و﴿ مَا ﴾ مطلقاً نافية والباء بمعنى في ومن صلة ، وقيل : ما للاستفهام الإنكاري ومن بيانية ، وجوز أن تكون صلة أيضاً وفيه تطويل المسافة وطيها أولى ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ هو عذاب الآخرة فإنه صلى الله عليه وسلم مبعوث في نسم الساعة وجاء ﴿ بعثت أنا والساعة كهاتين ﴾ وضم عليه الصلاة والسلام الوسطى والسبابة على المشهور .

(169/636)

---

﴿ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ أي مهما سألتكم من نفع على تبليغ الرسالة ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ والمراد نفي السؤال رأساً كقولك لصاحبك إن أعطيتني شيئاً فخذه وأنت تعلم أنه لم يعطك شيئاً ، فما شرطية مفعول ﴿ سَأَلْتُكُمْ ﴾ وهو المروى عن

قتادة ، وقيل هي موصولة والعائد محذوف ومن للبيان ، ودخلت الفاء في الخبر لتضمنها معنى الشرط أي الذي سألتكموه من الأجر فهو لكم وثمرته تعود إليكم ، وهو على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إشارة إلى المودة في القربى في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا المودة فِى القربى ﴾ [ الشورى : 23 ] وكون ذلك لهم على القول بأن المراد بالقربى قرباهم ظاهر ، وأما على القول بأن المراد بها قرباه عليه الصلاة والسلام فلأن قرباه صلى الله عليه وسلم قرباهم أيضاً أو هو إشارة إلى ذلك وإلى ما تضمنه قوله تعالى : ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [ الفرقان : 57 ] وظاهر أن اتخاذ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى ، وجوز كون ما نافية ومن صلة وقوله سبحانه : ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ جواب شرط مقدر أي فإذا لم أسألكم فهو لكم ، وهو خلاف الظاهر .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى الله ﴾ يؤيد إرادة نفي السؤال رأساً .

وقرىء ﴿ إِنْ أَجْرِىَ ﴾ بسكون الياء ﴿ وَهُوَ على كُلّ شَىْء شَهِيدٍ ﴾ أي مطلع فيعلم سبحانه صدقي وخلوص نيتي .

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالحق ﴾ قال السدي وقتادة : بالوحي ، وفي رواية أخرى عن قتادة بالقرآن والمآل واحد ؛ وأصل القذف الرمي بدفع شديد وهو هنا مجاز عن الإلقاء ، والباء زائدة أي إن ربي يلقي الوحي وينزله على قلب من يجتبيه من عباده سبحانه ، وقيل القذف مضمن معنى الرمي فالباء ليست زائدة ، وجوز أن يراد بالحق مقابل الباطل والباء للملابسة والمقذوف محذوف ، والمعنى إن ربي يلقى ما يلقى إلى أنبيائه عليهم السلام من الوحي بالحق لا بالباطل .

وعن ابن عباس إن المعنى يقذف الباطل بالحق أي يورده عليه حتى يبطله عز وجل ويزيله ، والحق مقابل الباطل والباء مثلها في قولك قتلته بالضرب ، وفي الكلام استعارة مصرحة تبعية والمستعار منه حسي والمستعار له عقلي ، وجوز أن تكون الاستعارة مكنية ، وقيل : المعنى يرمي بالحق إلى أقطار الآفاق على أن ذلك مجاز عن إشاعته فيكون الكلام وعداً بإظهار الإسلام وإفشائه ، وفيه من الاستعارة ما فيه ﴿ علام الغيوب ﴾ خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف أي هو سبحانه علام الغيوب أو صفة محمولة على محل إن مع اسمها كما جوزه الكثير من النحاة وإن منعه سيبويه أو بدل من ضمير ﴿ يَقْذِفُ ﴾ ولا يلزم خلو جملة الخبر من العائد لأن المبدل منه ليس في نية الطرح من كل الوجوه ، وقال الكسائي : هو نعت لذلك الضمير ومذهبه جواز نعت المضمر الغائب .

وقرأ عيسى .

وزيد بن علي.

وابن أبي إسحاق.

وابن أبي عبلة.

وأبو حيوة.

وحرب عن طلحة ﴿ عِلْمَ ﴾ بالنصب فقال الزمخشري: صفة لربي، وقال أبو الفضل الرازي: وابن عطية: بدل، وقال الحوفي: بدل أو صفة، وقيل نصب على المدح.

وقرأ ابن ذكوان.

وأبو بكر.

وحمزة.

والكسائي ﴿ الغيوب ﴾ بالكسر كالبيوت، والباقون بالضم كالعشور وهو فيهما جمع، وقرىء بالفتح كصبور على أنه مفرد للمبالغة.

(171/636)

---

﴿ قُلْ جَاء الحق ﴾ أي الإسلام والتوحيد أو القرآن، وقيل السيف لأن ظهور الحق به وهو كما ترى ﴿ وَمَا يُبْدِىء الباطل ﴾ أي الكفر والشرك ﴿ وَمَا يُعِيدُ ﴾ أي ذهب

واضمحل بحيث لم يبق له أثر مأخوذ من هلاك الحي فإنه إذا هلك لم يبق له إبداء أي فعل أمر ابتداء ولا إعادة أي فعله ثانياً كما يقال لا يأكل ولا يشرب أي ميت فالكلام كناية عما ذكر أو مجاز متفرع على الكناية ، وأنشدوا لعبيد بن الأبرص :

أقفر من أهله عبيد . . .

فاليوم لا يبدىء ولا يعيد

وقال جماعة : الباطل إبليس وإطلاقه عليه لأنه مبدؤه ومنشؤه ، ولا كناية في الكلام عليه ، والمعنى لا ينشىء خلقاً ولا يعيد أو لا يبدىء خيراً لأهله ولا يعيد أي لا ينفعهم في الدنيا والآخرة ، وقيل هو الصنم والمعنى ما سمعت ، وعن أبي سليمان أن المعنى إن الصنم لا يبتدىء من عنده كلاماً فيجاب ولا يرد ما جاء من الحق بحجة .

و﴿ مَا ﴾ على جميع ذلك نافية ، وقيل : هي على ما عدا القول الأول للاستفهام الإنكاري منتصبة بما بعدها أي أي شيء يبدىء الباطل وأي شيء يعيد ومآله النفي ، والكلام جوز أن يكون تكميلاً لما تقدم وأن يكون من باب العكس والطرد وأن يكون تذييلاً مقرراً لذلك فتأمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعاني حـ 22 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾

افتتح بالأمر بالقول هنا وفي الجُمل الأربع بعده للاهتمام بما احتوت عليه .

وهذا استئناف للانتقال من حكاية أحوال كفر المشركين وما تخلل ذلك من النقض والاستدلال والتسلية والتهديد ووصف صدودهم ومكابرتهم إلى دعوتهم للإنصاف في النظر والتأمل في الحقائق ليتضح لهم خطؤهم فيما ارتكبوه من العسف في تلقي دعوة الإسلام وما ألصقوا به وبالداعي إليه ، وأرشدوا إلى كيفية النظر في شأنهم والاختلاء بأنفسهم لمحاسبتها على سلوكها ، استقصاء لهم في الحجة وإعذاراً لهم في المجادلة ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حَيِي عن بينة ﴾ [ الأنفال : 42 ] .

ولذلك اجتلبت صيغة الحصر بـ ﴿ إنما ﴾ ، أي ما أعظكم إلا بواحدة ، طيّاً لبساط المناظرة وإرساء على الخلاصة من المجادلات الماضية ، وتقريباً لشقة الخلاف بيننا وبينكم .

وهو قصر إضافي ، أي لا بغيرها من المواعظ المفصلة ، أي إن استكثرتم الحجج وضجرتم من الردود والمطاعن فأنا أختصر المجادلة في كلمة واحدة فقد كانوا يتذمرون من القرآن لأبي طالب : أمَا ينتهي ابن أخيك عن شتم آلهتنا وآبائنا .

وهذا كما يقول المناظر والجدلي بعد بسط الأدلة فيقول : والخلاصة أو والفذلكة كذا .

وقد ارتكب في هذه الدعوة تقريب مسالك النظر إليهم باختصاره ، فوصف بأنه خصلة واحدة لئلا يتجهّموا الإِقبال على هذا النظر الذي عقدوا نياتهم على رفضه ، فأعلموا بأن ذلك لا يكلفهم جهداً ولا يضيع عليهم زمناً فَلْيتأملوا فيه قليلاً ثم يقضوا قضاءهم ، والكلام على لسان النبي صلى الله عليه وسلم أمره الله أن يخاطبهم به .

والوعظ : كلام فيه تحذير من مكروه وترغيب في ضده .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلاً لكل شيء ﴾ في سورة الأعراف ( 145 ) ، وقوله : ﴿ يعظكم اللَّه ﴾ في سورة النور ( 17 ) .

(173/636)

---

و واحدة صفة لمحذوف يدل عليه المقام ويفرضه السامع نحو : بخصلة ، أو بقضية ، أو بكلمة .

والمقصود من هذا الوصف تقليلها تقريباً للأفهام واختصاراً في الاستدلال وإيجازاً في نظم الكلام واستنزالاً لطائر نفورهم وإعراضهم .

وبنيت هذه الواحدة بقوله : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ﴾ إلى آخره ، فالمصدر المنسبك من ﴿ أن ﴾ والفعل في موضع البدل من "واحدة" ، أو قل عطف بيان فإن عطف البيان

هو البدل المطابق .

وإنما اختلف التعبير عنه عند المتقدِمين فلا تَخُضْ في محاولة الفرق بينهما كالذي خاضوا .

والقيام في قوله : ﴿ أن تقوموا ﴾ مراد به المعنى المجازي وهو التأهب للعمل والاجتهاد فيه كقوله تعالى : ﴿ وأن تقوموا لليتامى بالقسط ﴾ [ النساء : 127 ] .

واللام للتعليل ، أي لأجل الله ولذاته ، أي جاعلين عملكم لله لا لمرضاة صاحب ولا عشيرة ، وهذا عكس قوله تعالى : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون اللَّه أوثاناً مودَّةَ بينكم ﴾ [ العنكبوت : 25 ] ، أو لأجل معرفة الله والتدبر في صفاته .

وكلمة ﴿ مثنى ﴾ معدول بها عن قولهم : اثنين اثنين ، بتكرير كلمة اثنين تكريراً يفيد معنى ترصيف الأشياء المتعددة بجعل كل ما يُعدّ بعدد اثنين منه مرصفاً على نحو عدده .

وكلمة ﴿ فرادى ﴾ معدول بها عن قولهم : فرداً فرداً تكريراً يفيد معنى الترصيف كذلك .

وكذلك سائر أسماء العدد إلى تسع أو عشر ومنه قوله تعالى : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ وتقدم في سورة النساء ( 3 ) .

وانتصب مثنى وفرادى ﴾ على الحال من ضمير ﴿ تقوموا ﴾ ، أي أن تكونوا في القيام على هذين الحالين فيجوز أن يكون المعنى : أن تقوموا لحق الله وإظهاره على أي حال من اجتماع وانفراد ، فيكون ﴿ مثنى ﴾ كناية عن التعدد وهو من استعمال معنى التثنية في التكرر لأن التثنية أول التكرير فجعل التكرر لازماً للتثنية ادعاءً كما في قوله تعالى : ﴿ ثم ارجع البصر كرّتين ينقلبْ إليك البصرُ خاسئاً وهو حسير ﴾ [ الملك : 4 ] فإن البصر لا يرجع خاسئاً من إعادة نظرة واحدة بل المراد منه تكرير النظر ، ومنه قولهم : لبَّيك وسَعديك ، وقولهم : دواليكَ .

ويجوز أن يكون المعنى أن تقوموا لحق الله مستعيناً أحدكم بصاحب له أو منفرداً بنفسه فإن من أهل النظر من ينشط إليه بالمدارسة ما لا ينشطه بالخَلوة .

ومنهم من حاله بعكس هذا ، فلهذا اقتصر على ﴿ مثنى وفرادى ﴾ لأن ما زاد على ذلك لا اضطرار إليه .

وقدم ﴿ مثنى ﴾ لأن الاستعانة أعون على الفهم فيكون المراد دفع عوائق الوصول إلى الحق بالنظر الصحيح الذي لا يُغالِط فيه صاحبُ هوىً ولا شبهةٍ ولا يخشى فيه الناظر تشنيعاً ولا سمعة ، فإن الجماهير إذا اجتمعت لم يخل مجتمعهم من ذي هوى وذي شبهة وذي مكر وذي انتفاع ، وهؤلاء بما يلازم نواياهم من الخبث تصحبهم جُرأة لا تترك فيهم وازعاً عن الباطل ولا صداً عن الاختلاق والتحريف للأقوال بعمد أو خطأٍ ، ولا حياء

يهذبُ من حِدّتهم في الخصام والأذى، ثم يطيرون بالقالة وأعمال أهل السفالة.

فللسلامة من هذه العوائق والتخلص من تلك البوائق الصادة عن طريق الحق قيل هنا ﴿ مثنى وفرادى ﴾ فإن المرء إذا خلا بنفسه عند التأمل لم يرْضَ لها بغير النصح، وإذا خلا ثاني اثنين فهو إنما يختار ثانيه أعلق أصحابه به وأقربهم منه رَأياً فسلم كلاهما من غش صاحبه.

(175/636)

---

وحرف ﴿ ثمّ ﴾ للتراخي في الرتبة لأن التفكر في أحوال النبي صلى الله عليه وسلم أهم في إصلاح حال المخاطبين المعرضين عن دعوته، بخلاف القيام لله فإنهم لا يأبَوْنه.

والتفكر: تكلف الفكر وهو العلم، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ أفلا تتفكرون ﴾ في الأنعام (50).

وقوله: ما بصاحبكم من جنة ﴾ نفي يُعلّق فعلَ ﴿ تتفكروا ﴾ عن العمل لأجل حرف النفي.

والمعنى: ثم تعلَموا نفي الجنون عن صاحبكم، أي تعلموا مضمون هذا.

فجملة ﴿ ما بصاحبكم من جنة ﴾ معمولة ل ﴿ تتفكروا ﴾.

ومن وقف على ﴿ تتفكروا ﴾ لم يتقن التفكر .

والمراد بالصاحب : المخالط مطلقاً بالموافقة وبالمخاصمة ، وهو كناية عن التبصر في خُلقه كقول الحجّاج في خطبته للخوارج "ألستُمْ أصحابي بالأهواز حين رمتم الغدْر واستبطنتم الكفر" يعني فلا تخفى عليّ مقاصدكم .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنّة ﴾ في سورة الأعراف ( 184 ) .

والتعبير بصاحبكم ﴾ إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال : ما بي من جِنّة إذ الكلام جار على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم كما تقدم آنفاً .

وفائدته التنبيه على أن حاله معلوم لديهم لا يلتبس عليهم لشدة مخالطته بهم مخالطة لا تَذَر للجهالة مجالاً فهم عرفوه ونشأ بينهم حتى جاءهم بالحق فهذا كقوله : ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ [ يونس : 16 ] .

والاقتصار في التفكر المطلوب على انتفاء الجِنة عن النبي صلى الله عليه وسلم هو أن أصل الكفر هو الطعن في نبوءته وهم لما طعنوا فيه قالوا : مجنون ، وقالوا : ساحر ، وقالوا : كاذب .

فابتدىء في إرجاعهم إلى الحق بنفي الجِنّة عنه حتى إذا أذعنوا إلى أنه من العقلاء انصرف النظر إلى أن مثل ما جاء به لا يأتي به إلا عاقل وهم إنما ابتدأوا اختلاقهم بأنه مجنون كما

جاء في القرآن، قال تعالى: ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ [القلم: 2] في السورة الثانية نزولاً.

(176/636)

---

وقال: ﴿ وما صاحبكم بمجنون في السورة السابعة ﴾ [التكوير: 22] وذلك هو الذي استمرّوا عليه قال تعالى: ﴿ ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجنون ﴾ [الدخان: 14] إذ دعوى الجنون أروج بين أهل مكة لأن الجنون يطرأ على الإِنسان دفعة فلم يجدوا تعلة أقرب للقبول من دعوى أنه اعتراه جنون كما قالت عاد لهود ﴿ إِن نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ [هود: 54]، وقالت ثمود لصالح ﴿ قد كنت فينا مَرجُوًّا قبل هذا ﴾ [هود: 62].

فبقيت دعواهم أنه ساحر وأنه كاهن وأنه شاعر وأنه كاذب (حاشاه).

فأما السحر والكهانة فسهل نفيهما بنفي خصائصهما؛ فأما انتفاء السحر فبيّن لأنه يحتاج إلى معالجة تعلّم ومزاولة طويلة والنبي صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم لا يَخفى عليهم أمره، وأما الشعر فمسحته منفية عن القرآن كما قال الوليد بن المغيرة، فلم يبق في كنانة مطاعنهم إلا زعمهم أنه كاذب على الله، وهذا يزيفه قوله: ﴿ بصاحبكم ﴾ فإنهم عرفوه

برجاحة العقل والصدق والأمانة في شبيبته وكهولته فكيف يصبح بعد ذلك كاذباً كما قال النضر بن الحارث : فلما رأيتم الشَيْب في صدغيه قلتُم شاعر وقلتم كاهن وقلتم مجنون ، ووالله ما هو بأولئكم .

وإذا كان لا يكذب على الناس فكيف يكذب على الله ، كما قال هرقل لأبي سفيان وقد سأله : هل جربتم عليه كذباً قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان : لا .

قال : فقد علمت أنه لم يكن ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله .

ومن أجل هذا التدرج الذي طُوي تحت جملة ﴿ ما بصاحبكم من جنة ﴾ أعقب ذلك بحصر أمره في النذراة بقرب عذاب واقع ، أي في النذارة والرسالة الصادقة .



---

قال في "الكشاف" : أي مثل هذه الدعوى لا يتصدى لها إلا رجلان : إما مجنون لا يبالي بافتضاحه إذا طولب بالبرهان ، وإما عاقل راجح العقل لا يدعي مثله إلا بعد صحته بالحجة ، وإلا فما يجدي العاقل دعوى شيء لا بينة عليه وقد علمتم أن محمداً صلى الله عليه وسلم ما به من جِنّة بل علمتموه أرجح قريش عقلاً وأرزَنهم حِلماً وأثقبهم ذهناً وآصلهم رأياً وأصدقهم قولاً وأجمعهم لما يُحمد عليه الرجال فكان مظنة لأن تظنّوا به الخير

وترجحوا فيه جانب الصدق على الكذب" اه .

فالقصر المستفاد من ﴿ إن هو إلا نذير لكم ﴾ قصر موصوف على صفة قصراً إضافياً ، أي هو مقصور على صفة النذارة لا تحوم حوله الأوصاف التي لمزتموه بها .

ومعنى ﴿ بين يدي عذاب ﴾ القرب ، أي قرب الحصول فيقتضي القبلية ، أي قبل عذاب ، وقد تقدم آنفاً في هذه السورة ، والمراد عذاب الآخرة .

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (47)

هذا استقصاء لبقايا شبه التكذيب لدحضها سواء منها ما تعلقوا به من نحو قولهم : كاهن وشاعر ومجنون وما لم يدعوه ولكنه قد يخطر ببال واحد منهم أن يزعموا أنه يريد بهذه الدعوة نفعاً لنفسه يكون أجراً له على التعليم والإرشاد .

وهم لما ادّعوا أنه ساحر أو أنه شاعر أو أنه كاهن لزم من دعواهم أنه يتعرض لجائزة الشاعر ، وحُلوان الكاهن ؛ فلما نفيت عنه تلك الخلال لم يبق لهم في الكنانة سهم طعن ، إلا أن يزعموا أنه يطلب أجراً على الإرشاد فقيل لهم : ﴿ ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾ إن كان بكم ظنّ انتفاعي منكم بما دعوتكم إليه ، فما كان لي من أجر عليه فخذوه .

وهذه طريقة بديعة في الكناية التهكمية عن عدم انتفاعه بما يدعوهم إليه بأن يفرض كالواقع ثم يرتب عليه الانكفاف عنه ورد ما فات منه ليفضي بذلك إلى البراءة منه ومن التعرض له ، فهي كناية رمزية وأنهم يعلمون أنه لم يسألهم أجراً ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ [ ص : 86 ، 87 ] أو إن كنت سألتكم أجراً فلا تعطونيه ، وإن كنتم أعطيتم شيئًا فاستردّوه ، فكُنِّي بهذا الشرط المحقّق انتفاؤه عند انتفاء أن يكون طالباً أجراً منهم على حدّ قوله تعالى : ﴿ إن كنت قلته فقد علمته ﴾ [ المائدة : 116 ] .

وهذا ما صرح به عقبه من قوله ﴿ إن أجري إلا على الله ﴾ ، فجيء بالشرط بصيغة الماضي ليدلّ على انتفاء ذلك في الماضي فيكون انتفاؤه في المستقبل أجدر ؛ على أن وقوعه في سياق الشرط يقضي بانتفائه في المستقبل أيضاً .

وهذا جار مجرَى التحدِّي لأنه لو كان لجماعتهم أو آحادهم علم بأنه طلب أجراً منهم لجَارُوا حين هذا التحدّي بمكافحته وطالبوه بردّه عليهم .

وينتقل من هذا إلى تعين أن ما دعاهم إليه لا ينتفع به غيرهم بالنجاة من العذاب ، وقد تكرر في القرآن التبرؤ من أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم يريد منهم أجراً أو يتطلب نفعاً لأن انتفاء ذلك ما يلاقيه من العناء في الدعوة دليل أنه مأمور بذلك من الله لا يريد جزاء منهم .

و﴿ مَا ﴾ يجوز أن تكون شرطية ، و ﴿ من أجر ﴾ بياناً لإِبهام ﴿ ما ﴾ وجملة ﴿

فهو لكم ﴾ جواب الشرط.

ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية.

وتكون ﴿ من ﴾ لتوكيد عموم النكرة في النفي، وتكون الفاء في قوله: ﴿ فهو لكم ﴾ تفريعاً على نفي الأجر، وضمير "هو" عائداً على القرآن المفهوم من المقام ومن تقدم قوله: ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ [سبأ: 43] أي فهذا القرآن لفائدتكم لا لفائدتي لأن قوله: ﴿ ما سألتكم من أجر ﴾ يفيد أن لا فائدة له في هذه الدعوة.



---

ويكون معنى الآية نظيرَ معنى قوله تعالى: ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ [ص: 86، 87].

والأجْر تقدم عنه قوله تعالى: ﴿ ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ في سورة القصص (25).

وجملة إن أجري إلا على الله ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً جواباً لسؤال مقدر أن يسأل السامع: كيف لا يكون له على ما قام به أجر، فأجيب بأن أجره مضمون وَعَده الله به لأنه إنما يقوم بعمل لمرضاته وامتثال أمره فعليه أجره.

وحرف ﴿ على ﴾ يقتضي أنه حق الله وذلك بالنظر إلى وَعده الصادق ، ثم ذّيل ذلك باستشهاد الله تعالى على باطنه ونيته التي هي من جملة الكائنات التي الله شهيد عليها ، وعليم بخفاياها فهو من باب : ﴿ قل كَفى بالله شهيداً بيني وبينكم ﴾ [ الرعد : 43 ]

أي وهو شاهد على ذلك كله .

والأجر : عوض نافع على عمل سواء كان مالاً أو غيره .

وقرأ نافع وأبو عَمرو وابن عامر وحفص ياء ﴿ أجريَ ﴾ مفتوحة .

وقرأها ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي ساكنة ، وهما وجهان من وجوه ياء المتكلم في الإضافة .

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (48)

لا جرم إذ انتهى الاستدلال والمجادلة أن يُنتقل إلى النداء بين ظهرانيهم بظهور الحق فيستغنى عن مجادلتهم .

وأعيد فعل ﴿ قل ﴾ للاهتمام بالمقول كما أشرنا إليه آنفاً .

والتأكيد لتحقيق هذا الخبر .

والتعبير عن اسم الله بلفظ الرب وإضافته إلى ضمير المتكلم للإشارة أن الحق في جانبه وأنه تأييد من ربه فإن الرب ينصر مربوبه ويؤيده .

فالمراد بالربوبية هنا ربوبية الولاء والاختصاص لا مطلق الربوبية لأنها تعمّ الناس كلهم .

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي للدلالة على الاختصاص دون التقوِي لأن تقوّي الجملة حصل بحرف التأكيد .

وهذا الاختصاص باعتبار ما في ﴿ يقذف بالحق ﴾ من معنى : الناصر لي دونَكم فماذا ينفعكم اعتزازكم بأموالكم وأولادكم وقوتكم .

(180/636)

---

والقذف : إلقاء شيء من اليد ، وأطلق على إظهار الحق قذف على سبيل الاستعارة ، شبه إعلان الحق بإلقاء الحجر ونحوه .

والمعنى : أن ربي يقذفكم بالحق .

أو هو إشارة إلى قوله : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل ﴾ [ الأنبياء : 18 ] وعلى كل فهو تعريض بالتهديد والتخويف من نصر الله المؤمنين على المشركين .

وتخصيص وصف ﴿ علام الغيوب ﴾ من بين الأوصاف الإِلهية للإِشارة إلى أنه عالم بالنوايا ، وأن القائِل يعلم ذلك فالذي يعلم هذا لا يجترىء على الله بادعائه باطلاً أنه أرسله إليكم ، فالإِعلام بهذه الصفة هنا يشبه استعمال الخبر في لازم فائدتِه وهو العِلم بالحكم الخبري .

ويجوز أن يكون معنى : ﴿ يقذف بالحق ﴾ يرسل الوحي ، أي على من يشاء من عباده كقوله تعالى : ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ [ غافر : 15 ] ويكون قوله ﴿ علام الغيوب ﴾ إشارة إلى أنه أعلم حيث يجعل رسالاته لأن المشركين كانوا يقولون : لولا أنزلت علينا الملائكة دون محمد .

وارتفع ﴿ علام ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هو علاّم الغيوب ، أو على أنه نعت لاسم ﴿ إنّ ﴾ إما مقطوع ، وإما لمراعاة محل اسم ﴿ إنّ ﴾ حيث إنها استوفت خبرها لأن حكم الصفة حكم عطف النسق عند أكثر النحاة وهو الحق .

وقال الفراء : رفع الاسم في مثل هذا هو غالب كلام العرب .

ومثَّله بالبدل في قوله تعالى : ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ [ ص : 64 ] .

وقرأ الجمهور ﴿ الغيوب ﴾ بضم الغين .

وقرأه أبو بكر وحمزة والكسائي بكسر الغين كما جاء الوجهان في بَاء "بيوت" .

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (49)

أعيد فعل ﴿ قل ﴾ للاهتمام بالمقول كما تقدم آنفاً .

وجملة ﴿ قل جاء الحق ﴾ تأكيد لجملة ﴿ قل إن ربي يقذف بالحق ﴾ [ سبأ : 48 ] فإن الحق قد جاء بنزول القرآن ودعوة الإِسلام .

وعُطف ﴿ وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ على ﴿ جاء الحق ﴾ لأنه إذا جاء الحق انقشع الباطل من الموضع الذي حلّ فيه الحق.

(181/636)

---

و ﴿ يبدىء ﴾ مضارع أبدأَ بهمزة في أوله وهمزة في آخره والهمزة التي في أوله للزيادة مثل همزة: أجاء، وأسرى.

وإسناد الإِبداء والإِعادة إلى الباطل مجاز عقلي أو استعارة.

ومعنى ﴿ ما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ الكناية عن اضمحلاله وزواله وهو ما عبر عنه بالزهوق في قوله تعالى: ﴿ إن الباطل كان زهوقاً ﴾ في سورة الإِسراء (81).

وذلك أن الموجود الذي تكون له آثارُ إمّا أن تكون آثاره مستأنفة أو معادة فإذا لم يكن له إبداء ولا إعادة فهو معدوم وأصله مأخوذ من تصرف الحي فيكون ما يبدىء وما يعيد ﴾ كناية عن الهلاك كما قال عَبيد بن الأبرص:

أفقر من أهله عَبيد

فاليوم لا يُبدي ولا يعيد...

(يعني نفسه).

ويقولون أيضاً : فلان ما يبدىء وما يعيد ، أي ما يتكلم ببادئة ولا عائدة ، أي لا يرتجل كلاماً ولا يجيب عن كلام غيره .

وأكثر ما يستعمل فعل ( أبدأ ) المهموز أوله مع فعل ( أعاد ) مزدوجين في إثبات أو نفي ، وقد تقدم قوله تعالى : ﴿ أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ﴾ في سورة العنكبوت ( 19 ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

(182/636)

---

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ ﴾ الآية .

هذه الآية الكريمة تدل على أنه صلى الله عليه وسلم لا يسأل أمته أجرا على تبليغ ما جاءهم به من خير الدنيا والآخرة .

ونظيرها قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ في سورة الطور والقلم .

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ وقوله:

﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

وعدم طلب الأجرة على التبليغ هو شأن الرسل كلّهم عليهم صلوات الله وسلامه كما قال تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴾ وقال تعالى في سورة الشعراء:

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ في قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام وقال في سورة هود عن نوح: ﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآية.

وقال فيها أيضا عن هود: ﴿ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ الآية.

وقد جاء في آية أخرى ما يوهم خلاف ذلك وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ .

اعلم أولا أن في قوله تعالى: ﴿ إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ أربعة أقوال.



الأول: ورواه الشعبي وغيره عن ابن عباس وبه قال مجاهد وقتادة وعكرمة وأبو مالك والسدي والضحاك وابن زيد وغيرهم كما نقله عنهم ابن جرير وغيره أن معنى الآية ﴿ قُلْ

لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ أي إلا أن تودوني في قرابتي التي بيني وبينكم فتكفوا عني أذاكم وتمنعوني من أذى الناس كما تمنعون كل من بينكم وبينه مثل قرابتي منكم .

وكان صلى الله عليه وسلم له في كل بطن من قريش رحم فهذا الذي سألهم ليس بأجر على التبليغ لأنه مبذول لكل أحد لأن كل أحد يوده أهل قرابته وينتصرون له من أذى الناس وقد فعل له ذلك أبو طالب ولم يكن أجرا على التبليغ لأنه لم يؤمن وإذا كان لا يسأل أجرا إلا هذا الذي ليس بأجر تحقق أنه لا يسأل أجرا كقول النابغة:

بهن فلول من قراع الكتائب

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

ومثل هذا يسميه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم وهذا القول هو الصحيح في الآية واختاره ابن جرير وعليه فلا إشكال .

الثاني: أن معنى الآية ﴿ إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ أي لا تؤذوا قرابتي وعترتي واحفظوني فيهم ويروى هذا القول عن سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب وعلي بن الحسن وعليه فلا إشكال أيضا لأن المودة بين المسلمين واجبة فيما بينهم وأحرى قرابة النبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ وفي الحديث: "مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كالجسد الواحد إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد

بالسهر والحمى" .

وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" .

والأحاديث في مثل هذا كثيرة جدا .

وإذا كان نفس الدين يوجب هذا بين المسلمين تبين أنه غير عوض عن التبليغ وقال بعض العلماء: الاستثناء منقطع على كلا القولين ، وعليه فلا إشكال .



---

فمعناه على القول الأول لا أسألكم عليه أجرا لكن أذكركم قرابتي فيكم وعلى الثاني لكن أذكركم الله في قرابتي فاحفظوني فيهم .

الثالث: وبه قال الحسن: ﴿ إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ أي ألا تتوددوا إلى الله وتتقربوا إليه إلا بالطاعة والعمل الصالح وعليه فلا إشكال لأن التقرب إلى الله ليس أجر على التبليغ .

الرابع: ﴿ إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ أي ألا تتوددوا إلى قراباتكم وتصلوا أرحامكم .

ذكر ابن جرير هذا القول عن عبد الله بن القاسم وعليه فلا إشكال لأن صلة الإنسان رحمه ليست أجرا على التبليغ فقد علمت الصحيح في تفسير الآية وظهر لك رفع الإشكال على جميع الأقوال .

وأما القول بأن قوله تعالى : ﴿ إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ منسوخ بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ فهو ضعيف والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 243.245 ﴾

(185/636)

---

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى وحد )

الوَحْدَةُ : الانْفِرادُ .

والواحِدُ : أَوّلُ العَدَدِ ، والجمع : وُحْدان وأُحْدَان ، ويُرْوَى بالوجهين بيت قُرَيْط بن أُنَيْف العَنْبَرِىّ :

*قَوْمٌ إِذا الشَرُّ أَبْدَى ناجِذَيْه لهم * طارُوا إِليه زُرافاتٍ ووُحْدانا *

مثل شابّ وشُبَّان ، وراعٍ ورُعْيان .

قال الفرّاءُ : أَنتم حَىٌّ واحِدُون ، يقال منه : وَحِدَ يَحِدُ ووُحُودةً ووَحْداً ووُحْدةً وحِدَةً .

وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ أَى بخصلة واحدة ، وهى هذه : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ

مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ ، وقيل : معناه أَعِظُكم بوحْدانيّة الله تعالى ، أَى بأَن تُوحّدِوا الله .

وقولُه تعالى .

﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَآءِ ﴾ ولم يَقُل كواحدة لأَنّ أَحداً نَفْىٌ عامٌّ للمذكّر والمؤنّث ، والواحد والجمع .

ومن صفات الله تعالَى الواحِدُ الأَحَدُ .

قال الأَزهرىّ : الفرقُ بينهما أَنَّ الأَحدَ بُنِىَ لنَفْىِ ما يُذْكَر معه من العَدَد ؛ والواحد مُفْتَتَح العَدَد ، تقول : ما أَتانى منهم [أَحَدٌ] وجاءَنى منهم واحدٌ .

والواحِدُ بُنِى على انْقطاع النَّظِير وعَوَز المِثْل .

وقولهم : رأَيته وَحْدَه منصوبٌ عند أَهلِ الكوفة على الظَّرْف ، وعند أَهل البصرة على المصدر فى كلّ حال ، كأَنك قلت أَوْحَدْتُه برؤيتى إيحاداً ، أَى لم أَرَ غيره ، ثم وَضَعْت وَحْدَه موضع هذا .

وقال أَبو العباس : يحتمل وَجْهاً آخر وهو أَن يكونَ الرجلُ فى نفسه منفرداً كأَنَّك قلتَ رأَيت رجلاً منفرداً ثمّ وضعت وحده موضعه .

وقال بعض البصريِّين هو منصوب على الحال .

قال ابن الأَعرابىّ : يقال جَلَس على وَحْدِه وجَلَسَا على وَحْدِهما ، وجَلَسَا على وَحْدَيْهما كما يقال جَلَس وَحْدَه وجَلَسا وَحْدَهُما .

ورجلٌ وَحَدٌ، ووَحِدٌ، ووَحِيدٌ: مُنفردٌ.

والوَحْدانِيّةُ: الفَرْدانِيّة.

(186/636)

---

ووَحِدَ الرّجلُ - بالكسر - ووَحُد - بالضمّ -، أَى بقى وَحْدَه.

وأَوْحَدْتُه برؤيتى، أَى لم أَر

غَيرَه.

وقال أَبو القاسم الرّاغب: [الواحِد] فى الحقيقة هو الشىء الَّذى لا جُزْءَ له البتَّة، ثمّ يُطْلق على كلِّ موجودٍ، حتَّى إِنَّه ما من عَدَد إِلاَّ ويَصحّ وصفُه به، فيقال: عشرةٌ واحدةٌ، ومائةٌ واحدةٌ.

فالواحد لفظ مُشْتَرَكٌ يُستعمل على سِتَّة أَوجه:

الأَوّل: ما كان واحداً فى الجِنْس أَو فى النَّوْع كقولنا: الإِنسان والفَرَسُ واحدٌ فى الجنس، وزَيْدٌ/ وعَمْرو واحدٌ فى النَّوْع.

الثَّانى: ما كان واحداً بالاَتّصال إِمّا من حَيْثُ الخِلْقَةُ، كقولك: شخصٌ واحدٌ، وإِمّا من حيثُ الصّناعةُ كقولك: حرفةٌ واحدةٌ.

الثالث : ما كان واحداً لِعدَم نظيره ، إمّا فى الخَلْقة كقولك : الشمسُ واحدة ، وإمّا فى دَعْوَى الفضيلة ، كقولك : فلانٌ واحِدُ دَهْرِه ، وكقولك نَسِيجُ وَحْدِه .

الرابعُ : ما كان واحداً لامْتناع التَجزّى فيه إمّا لصِغره كالهَباء ، وإمّا لصَلابَته كالألْماس .

الخامس : للمبدإِ ، إمّا لمَبْدَإ العَدَد كقولك واحدٌ اثْنان ، وإمّا لمبدإ الخَطّ كقولك : النُقطة الواحدةُ ، والوَحْدَة فى كُلّها عارِضَةٌ .

وإذا وُصِف الله عزّ وجلّ بالواحِد فمعناهُ هو الذى لا يصحّ عليه التَجزّى ولا التَكَثُّر ، ولصُعُوبة هذه الوَحْدَة قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ ﴾ الآية .

(187/636)

---

والتَّوحيد الحقيقىّ الّذى هو سببُ النّجاة ومادّة السّعادة فى الدّار الآخرة ما بيّنه الله تعالى وهدانا فى كتابه العزيز بقوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ والقوم دائرون فى تفسيره بين حَكَم وقَضى ، وأَخبَر وأَعْلم ، وبَيّن وعرَف .

والتَّوْحِيدُ تَوْحِيدان : تَوْحِيد الرُّبوبيّة ، وتَوْحيد الإلهيّة ، فصاحبُ توحيدِ الرُّبوبيّة يشهد قَيُّوميّة الربّ فوق عَرْشه يدبّر أَمر عِباده وَحْدَه ، فلا خالِقَ ولا رازق ، ولا مُعْطِىَ ولا

مانعَ ولا مُميت ولا مُحْيِىَ ولا مُدبّر لأَمرِ المملكة ظاهراً وباطناً غيرُهُ ، فام شاءَ كان ، وما لم يشأْ لم يكن ، ولا تتحرّك ذَرّةٌ إلاَّ بإذنه ، ولا يجرى حادثٌ إلاَّ بمشيئته ، ولا تسقُط ورقةٌ إلاَّ بعلْمه ، ولا يَعْزُب عنه مِثْقَال ذرّة فى السَّماوات ولا فى الأَرْض ولا أَصْغَرُ من ذلك ولا أَكْبَر إلاَّ وقد أَحصاها عِلْمُه وأَحاطَتْ بها قُدْرَتُه ، ونَفَذت فيها مشيئتُه ، واقتضتها حِكْمَتُه .

وأَمَّا توحيدُ الإِلهية فهو أَن يجمع هَمَّهُ وقلبَهُ وعَزْمَه وإِرادته وحركاتِه على أَداءِ حقّه والقيام بعُبودِيَّته ، وأَنشد صاحبُ المنازل أَبياتاً ثلاثةً ختم بها كتابه ولا أَدرِى هل هى له أَو لغيره :

*ما وَحَّدَ الواحِدَ مِنْ واحِدِ * إذ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جاحدُ*

*تَوْحيدُ من ينطق عن نعته * عارِيَّةٌ أَبْطَلَها الواحِدُ*

*تَوْحِيدُهُ إِيّاهُ تَوْحِيدُه * ونَعْتُ من يَنْعَتُه لاحِدُ*

(188/636)

---

وظاهر معناه أَنَّ ما وحَّد الله عزَّ وجل أَحدٌ سواهُ ، وكلّ من أَحَّدَه فهو جاحِدٌ لحقيقة تَوْحيده ، فإِنَّ توحيدَه يتضمّن شُهودَ ذاتِ المُوَحّد وفِعْله ، وما قام به من التوحيد وشُهودِ ذات الواحِد وانفرادِه ، وتلك بخلاف تَوْحيده لنَفْسه ، فإِنَّه يكون هو الموحّد والموحَّد ، والتَّوحيد صِفَتُه وكلامُه القائم ، فما ثَمّ غيره فلا اثنينيّة ولا تعدّد .

وأَيضاً فمَنْ وَحَّده من خَلْقه فلا بدّ أَنْ يصفَه بصفة ، وذلك يتضمّن جَحْدَ حَقّه الذى هو عدم انصحارِه تحت الأَوصاف ، فمَنْ وصفَ فقد جَحد إِطلاقَه من قُيود الصّفات .

وقوله :

*توحيد مَنْ ينطق عن نَعْته * عاريّة أَبطلها الواحدُ*

يعنى توحيد الناطقين عنه عاريّة مردودة ، كما تُستردُّ العَوارِى ، إِشارة إِلى أَنَّ توحيدهم ليس مِلْكاً لهم ، بل الحقُّ أَعارهم إِيّاه كما

يُعِير المعيرُ متاعَه لغيره ينتفع به .

وقوله : أَبطلها الواحد ، أَى الواحد / المطلق من كلّ الوجُوه وَحْدَتُه يُبطل هذه العارة .

وقوله :

*تَوْحِيدُه إِيّاه تَوْحِيدُه*

يعنى توحيدُه الحقيقىّ هو تَوْحيدٌ لنَفْسه بنَفْسه من غير أَثَرٍ للسِّوَى بوجه ، بل لا سِوَى هناك .

وقوله :

*ونَعْتُ مَنْ يَنْعَتُه لاحِدُ*

أَى نعتُ الناعِت له إِلْحاد ، أَى عدولٌ عمّا يستحقُّه من كَمال التوحيد ، فإِنَّه أَسند إِلى نزاهة الحَقِّ ما لا يَليق إِسناده .

(189/636)

وحاصل كلامه ، وأَحسن ما يحمل عليه : أَنَّ الفَناءَ فى شُهود الأَزليّة والحُكم يَمْحُو شُهودَ العبدِ لنفسه وصفاته فضلاً عن شهود غيره ، فلا يشهدُ موجوداً فاعلاً على الحقيقة إِلاَّ الله وحده ، وفى هذا الشهود تفنى الرّسوم كلُّها ، فيمحق هذا الشهودُ من القلب كلَّ ما سوى الحقّ ، إِلاَّ أَنَّه يمحقه من الوجود ، وحينئذ يشهد أَنَّ التوحيدَ الحقيقىّ غيرَ المستعارِ و توحيد الربّ تعالى نفسه ، وتوحيد غيره له عاريّة محضة أَعاره إِياها مالك الملوك ، والعوارِىُّ مردودة إِلى من تَرِدّ إِليه الأُمور كلَّها ، ﴿ ثُمَّ رُدُّوا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَاهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ .

قال العارفُ عبد الله بن المعمار :

*السِرُّ أَنْ تُنْظَرَ الأَشياءُ أَجْمَعُها * ويُعْرِفَ الواحدُ النّاشِى به العَددُ*

*فذاكَ تَوْحِيدُه فى واحِدِيّته * وفَوْقَ ذاكَ مقامُ إِسمُه الأَحَدُ* . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 174.169 ﴾

(190/636)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾

يقول : إذا سوَّلَتْ لكم أنفسُكم تكذيبَ الرسولِ فأنعموا النظرَ . . . هل تَرَوْنَ فيه آثار ما رميتوه به ؟ هذا محمد صلى الله عليه وسلم . قُلْتُم إنه ساحر - فأين آثار السحر على أحوله وأفعاله وأقواله ؟ قلتم إنه شاعر - فمن أي قسم من أقسام الشعر كلامه ؟ قلتم إنه مجنون - فأيّ جنونٍ ظهر منه ؟

وإذ قد عجزتم عن ذلك . . . فهلاّ عرفتم أنه صادق ؟ !

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (48)

يقذف بالحقِّ على باطل أهل الغفلة فتزول حِيَلُهم ، ويظهر عَجْزُهم . ويقذف بالحقِ على أحوال أهل الخِلاف فيضمحل اجترَاؤهم ، ويحيق بهم شؤمُ معاصيهم .

ويقذف بالحقِّ -- إذا حضر أصحاب المعاني - على ظُلُماتِ أصحاب الدعاوى فيخمد ثائرتَهم ، ويفضحهم في الحال ، ويُفضح عوارُهم .

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (49)

الباطلُ على مَمَرِّ الأيام لا يزيد إلا زهوقاً ، والحقُّ على مَمَرِّ الأيام لا يزداد إلا قوةً وظهوراً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 187 . 188 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فِى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وِيُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والثلاثون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والثلاثون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 50 ﴾ من سورة سبأ

وحتى الآية ﴿ 54 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/637)

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (50) وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (51) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (52) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (53) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (54) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما لم يبق بعد هذ إلا أن يقولوا عناداً : أنت ضال ، ليس بك جنون ولا كذب ، ولكنك قد عرض لك ما أضلك عن المحجة ، قال : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء المعاندين على سبيل الاستعطاف بما في قولك من الانصاف وتعليم الأدب : ﴿ إن ضللت ﴾ أي عن الطريق

على سبيل الفرض ﴿ فإنما أضل ﴾ ولما كان الله تعالى قد جعل العقل عقالاً يمنع من الخطأ وينهى عن الهوى ، وكان الغلط لا يأتي إلا من شواغل النفس بشهواتها وحظوظها ، فكان التقدير : بما في نفسي من الشواغل العاقلة للعقل ، قال مشيراً إلى ذلك : ﴿ على نفسي ﴾ أي لأن الضلال إذا استعلى على شيء ظهر أمره فيتبين عواره فيلزم عاره ، ويصير صاحبه بحيث لا يدري شيئاً ينفع ولا يعيد ، ولذلك يصير يفزع إلى السفه والمشاتمة كما وقع في مذاهبكم كلها ، لأن الله تعالى جعل العقول الصحيحة معياراً على ذلك ، فمهما ذكرت طرق الحق وحُررت ظهر أمر الباطل وافتضح .

(5/637)

---

ولما كانت النفس منقادة بل مترامية نحو الباطل ، عبر في الضلال بالمجرد ، وفي الهدى بالافتعال إشارة إلى أنه لا بد فيه من هاد وعلاج ، وعبر بأداة الشك استعمالاً للأنصاف فقال : ﴿ وإن اهتديت فبما ﴾ أي فاهتدائي إنما هو بما ﴿ يُوحي إليّ ربي ﴾ أي المحسن إليّ لا بغيره ، فلا يمكن فيه ضلال لأنه لا حظ فيه للنفس أصلاً ، فلا يقدر أحد على شيء من طعن في شيء منه ، وهداي لنفسي ، فالآية ظاهرها التنزل منه وباطنها إرشادهم إلى تسديدهم النظر وتقويمه وتهذيب الفكر وتثقيفه ، وهي من الاحتباك : حذف أولاً كون

الضلال من نفسه بما دل عليه ثانياً من أن الهدى من الوحي وثانياً كون الهدى له بما دل عليه من كون الضلال عليه ثم علل الضلال والهدى بقوله : ﴿إنَّه﴾ أي ربي ﴿سميع قريب﴾ أي لا يغيب عنه شيء من حال من يكذب عليه ، فهو جدير بأنه يفضحه كما فضحكم في جميع ما تدعونه ولا يبعد عليه شيء ليحتاج في إدراكه إلى تأخير لقطع مسافة أو نحوها ، بل هو مدرك لكل ما أراد كلما أراد ، والآية إرشاد من الله تعالى إلى أنه وإن كان خلق للآدمي عقلاً لا يضل ولا يزيغ ، لكنه حفه بقواطع من الشهوات والحظوظ والكسل والفتور فلا يكاد يسلم منها إلا من عصمه الله ، فلما كان كذلك أنزل سبحانه كتباً هي العقل الخالص ، وأرسل رسلاً جردهم من تلك القواطع ، فجعل أخلاقهم شرائعهم ، فعلى كل أحد أن يتبع رسله المتخلفين بكتبه متهماً عقله منابذاً رأيه كما كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، ليكون مؤمناً بالغيب حق الإيمان فيدخل في قوله تعالى في سورة فاطر ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب﴾

[ فاطر : 18 ] ولا يكون متناوشاً بعد كشف الغطاء من مكان بعيد .

ولما أبطل شبههم وختم من صفاته بما يقتضي البطش بمن خالفه، قال عاطفاً على ﴿ ولو ترى إذ الظالمون ﴾ : ﴿ ولو ترى ﴾ أي تكون منك رؤية ﴿ إذ فزعوا ﴾ أي يفزعون بأخذنا في الدنيا والآخرة، ولكنه عبر بالماضي وكذا في الأفعال الآتية بعد هذا لأن ما الله فاعله في المستقبل بمنزلة ما قد كان ووجد لتحققه ﴿ فلا ﴾ أي فتسبب عن ذلك الفزع أنه لا ﴿ فوت ﴾ أي لهم منا لأنهم في قبضتنا، لرأيت أمراً مهولاً وشأناً فظيعاً، وحقر أمرهم بالبناء للمفعول فقال : ﴿ وأخذوا ﴾ أي عند الفزع من كل من نأمره بأخذهم سواء كان قبل الموت أو بعده.



---

ولما كان القرب يسهل أخذ ما يراد أخذه قال : ﴿ من مكان قريب ﴾ أي أخذاً لا شيء أسهل منه فإن الآخذ سبحانه قادر وليس بينه وبين شيء، مسافة، بل هو أقرب إليه منا الإيمان به وأبيناه، والأقرب أن يكون القرآن الذي قالوا إنه إفك مفترى ﴿ وأنّى ﴾ أي وكيف ومن أين ﴿ لهم التناوش ﴾ أي تناول الإيمان أو شيء من ثمراته، وكأنه عبر به لأنه يطلق على الرجوع، فكان المعنى أن ذلك بعد عليهم من جهة أنه لا يمكن إلا برجوعهم إلى الدنيا التي هي دار العمل، وأنى لهم ذلك؟ وهو تمثيل لحالهم – في طلبهم أن ينفعهم إيمانهم

في ذلك الوقت كما نفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا - بحال من يريد أن يتناول شيئاً من علوه كما يتناوله الآخر من قدر ذراع تناولاً سهلاً، لا نصب فيه، ومده أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم لهمزهم إياه فقيل: إن الهمز على الواو المضمونة كما همزت في وجوه ووقتت فيكون لفظه موافقاً لمعناه، والصحيح أنه ليس من هذا، لأن شرط همز الواو المضمونة ضمة لازمةً أن لا ويكون مدغماً فيها إذا كانت وسطاً كالتعود، وأن لا يصح في الفعل نحو تناول وتعاون، وقد حكى عن أبي عمرو أن معناه بالهمز التناول من بعد، من قولهم نأش - بالهمز - إذا أبطل وتأخر، والنيش حركة في إبطاء، والنأش أيضاً: الأخذ، فيكون الهمز أصلياً، وقرأه الباقون بالواو مثل التناول لفظاً ومعنى، فقراءة الواو المحضة تشير إلى أنهم يريدون تناولاً سهلاً مع بعد المتناول في المكان، وقراءة الهمز إلى أن إرادتهم تأخرت وأبطأت حتى فات وقتها، فجمعت إلى بعد المكان بعد الزمان.

*(8/637)*

---

ولما كان البعيد لا يمكن الإنسان تناوله مع بعده قال: ﴿من مكان بعيد﴾ فإنه بعد كشف الغطاء عند مجيء البأس لا ينفع الإيمان ﴿وقد﴾ أي كيف لهم ذلك والحال أنهم قد ﴿كفروا به﴾ أي بالذي طلب منهم أن يؤمنوا به أملاً وجزاءً ﴿من قبل﴾ أي في دار

العمل ﴿ و ﴾ الحال أنهم حين كفرهم ﴿ يقذفون ﴾ في أمر ما دعوا إليه بما يرمون به من الكلام رمياً سريعاً جداً من غير تمهل ولا تدبر ﴿ بالغيب ﴾ أي من مرجمات الظنون ، وهي الشبهة التي تقدم إبطالها في هذه السورة وغيرها من استبعادهم البعث وغيره مما أخبر الله به .

ولما كان الشيء لا يمكن أن يصيب ما يقذفه وهو غائب عنه ولا سيما مع البعد قال معلماً ببعدهم عن علم ما يقولون مع بعده جداً من حال من تكلموا فيه سواء كان القرآن أو النبي - صلى الله عليه وسلم - أو الحشر والجنة والنار : ﴿ من مكان بعيد ﴾ وذلك على الضد من قذف علام الغيوب فإنه من مكان قريب فهو معلوم لازم للحق .

(9/637)

---

ولما أشار إلى بعد الإيمان منهم عند إرادتهم تناوله عند فوات أمره وعلوه عنهم عند طعنهم فيه في دار العمل ، ترجم حالتيهم في ذلك على وجه يعم ثمرات الإيمان من دخول الجنان ورضى الرحمن بقوله : ﴿ وحيل ﴾ معبراً بصيغة المجهول مشيراً إلى أن حصول الحيلولة بأسهل ما يكون ولأن المنكي لهم نفس الحيلولة لا كونها من شخص معين : ﴿ بينهم وبين ما يشتهون ﴾ أي يميلون إليه ميلاً عظيماً من تأثير طعنهم وقبول إيمانهم عند رؤية ، البأس ومن

حصول شيء من ثمراته لهم من حسن الثواب كما يرى الإنسان منهم - وهو في غمرات النار - مقعده في الجنة ، الذي كان يكون له لو آمن ولا يقدر على الوصول إليه بوجه ، وإن خيل إليه الوصول فقصده فمنع منه كان أنكى ﴿كما فعل﴾ أي بأيسر وجه ﴿بأشياعهم﴾ أي الذين كفروا مثلهم ﴿من قبل﴾ أي قبل زمانهم فإن حالهم كان كحالهم في الكفران والإيمان ، والسعادة والخسران ، ولم يختل أمرنا في أمة من الأمم ، بل كان كلما كذبت أمة رسولها أخذناها ، فإن أذقناهم بأسنا أذعنوا وخضعوا ، فلم نقبل منهم ذلك ، ولا نفعهم شيئاً لا بالكف عن إهلاكهم ولا بإدراكهم لشيء من الخير بعد إهلاكهم ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ ق : 37 ] .

(10/637)

---

ثم علل عدم الوصول إلى قصد في كل من الحالتين بقوله مؤكداً لإنكارهم أن يكون عندهم شيء من شك في شيء من أمرهم : ﴿إنهم كانوا﴾ أي في دار القبول كوناً هو كالجبلة لهم ﴿في شك﴾ أي في جميع ما يخبرهم به رسلنا عنا من الجزاء أو غير ذلك ﴿مريب﴾ أي موقع في الريبة ، فهو بليغ في بابه كما يقال : عجب عجيب ، أو هو واقع في الريب كما يقال : شعر شاعر ، أي - ذو شعر ، فكيف يقبلون أو ينفذ طعنهم أو تحصل لهم ثمرة طيبة وهو

على غير بصيرة في شيء من أمرهم بل كانوا يشكون في قدرتنا وعظمتنا ، فاللائق بالحكمة أن نبين لهم العظمة بالعذاب لهم والثواب لأحبابنا الذين عادوهم فينا فتبين أنهم يؤمنون به عند ظهور الحمد أتم الظهور إما في الآخرة أو في مقدماتها ، فظهر سر الإفصاح بقوله " وله الحمد في الآخرة " وأنه حال سبحانه بينهم وبين ما يريدون فتبين أنه مالك كل شيء فصح أن له الحمد في الأولى وفي كل حالة – وقد تعانق آخرها مع أولها ، والتحم مقطعها بموصلها – والله سبحانه وتعالى هو المستعان إليه والمرجع والمآب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر جـ 6 صـ 195.198 ﴾

(11/637)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ﴾

هذا فيه تقرير الرسالة أيضاً وذلك لأن الله تعالى قال على سبيل العموم : ﴿ مَّنِ اهتدى فَلِنَفْسِهِ ﴾ [ الزمر : 41 ] وقال في حق النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِنِ اهتديت فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ يعني ضلالي على نفسي كضلالكم ، وأما اهتدائي فليس بالنظر

والاستدلال كاهتدائكم ، وإنما هو بالوحي المبين ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أي يسمع إذا ناديته واستعديت به عليكم قريب يأتيكم من غير تأخير ، ليس يسمع عن بعد ولا يلحق الداعي .

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (51)

لما قال : ﴿ سَمِيعٌ ﴾ قال هو قريب فإن لم يعذب عاجلاً ولا يعين صاحب الحق في الحال فيوم الفزع آت لا فوت ، وإنما يستعجل من يخاف الفوت .

وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ جوابه محذوف أي ترى عجباً ﴿ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ لا يهربون وإنما الأخذ قبل تمكنهم من الهرب .

وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (52)

أي بعد ظهور الأمر حيث لا ينفع إيمان ، قالوا آمنا ﴿ وأنى لَهُمُ التناوش ﴾ أي كيف يقدرون على الظفر بالمطلوب وذلك لا يكون إلا في الدنيا وهم في الآخرة والدنيا من الآخرة بعيدة ، فإن قيل فكيف قال كثير من المواضع إن الآخرة من الدنيا قريبة ، ولهذا سماها الله الساعة وقال : ﴿ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ [ الشورى : 17 ] نقول الماضي كالأمس الدابر بعد ما يكون إذ لا وصول إليه ، والمستقبل وإن كان بينه وبين الحاضر سنين فإنه آت ، فيوم القيامة الدنيا بعيدة لمضيها وفي الدنيا يوم القيامة قريب لإتيانه والتناوش هو التناول عن قرب .

وقيل عن بعد ، ولما جعل الله الفعل مأخوذاً كالجسم جعل ظرف الفعل وهو الزمان كظرف الجسم وهو المكان فقال : ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ والمراد ما مضى من الدنيا .

(12/637)

---

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (53)

ثم بين الله تعالى أن إيمانهم لا نفع فيه بسبب أنهم كفروا به من قبل ، والإشارة في قوله : ﴿ ءَامَنا بِهِ ﴾ وقوله : ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ إلى شيء واحد ، إما محمد عليه الصلاة والسلام وإما القرآن وإما الحق الذي أتى به محمد عليه السلام وهو أقرب وأولى ، وقوله : ﴿ وَيَقْذِفُونَ بالغيب ﴾ ضد يؤمنون بالغيب لأن الغيب ينزل من الله على لسان الرسول ، فيقذفه الله في القلوب ويقبله المؤمن ، وأما الكافر فهو يقذف بالغيب ، أي يقول ما لا يعلمه ، وقوله : ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه أن مأخذهم بعيد أخذوا الشريك من أنهم لا يقدرون على أعمال كثيرة إلا إذا كانوا أشخاصاً كثيرة ، فكذلك المخلوقات الكثيرة وأخذوا بعد الإعادة من حالهم وعجزهم عن الإحياء ، فإن المريض يداوى فإذا مات لا يمكنهم إعادة الروح إليه ، وقياس الله على المخلوقات بعيد المأخذ ، ويحتمل أن يقال إنهم كانوا يقولون بأن الساعة إذا كانت قائمة فالثواب والنعيم لنا ، كقول

قائلهم : ﴿ وَلَئِن رُّجِّعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِى عِندَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ [ فصلت : 50 ] فكانوا يقولون ذلك فإن كان من قول الرسول فما كان ذلك عندهم حتى يقولوا عن إحساس فإن ما لا يجب عقلاً لا يعلم إلا بالإحساس أو بقول الصادق ، فهم كانوا يقولون عن الغيب من مكان بعيد ، فإن قيل قد ذكرت أن الآخرة قريب فكيف قال من مكان بعيد ؟ نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن ذلك قريب عند من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ومن لم يؤمن لا يمكنه التصديق به فيكون بعيداً عنده الثاني : أن الحكاية يوم القيامة ، فكأنه قال كانوا يقذفون من مكان بعيد وهو الدنيا ، ويحتمل وجهاً آخر وهو أنهم في الآخرة يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صالحا ﴾ [ السجدة : 12 ] وهو قذف بالغيب من مكان بعيد وهو الدنيا .

(13/637)

---

ثم قال تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من العود إلى الدنيا أو بين لذات الدنيا ، فإن قيل : كيف يصح قولك ما يشتهون من العود مع أنه تعالى قال : ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ وما حيل بينهم وبين العود ؟ قلنا لم قلتم إنه ما حيل بينهم ، بل كل من جاءه الملك طلب التأخير ولم يعط وأرادوا أن يؤمنوا عند ظهور اليأس ولم

يقبل ، وقوله : ﴿ مُرِيبٍ ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : ذي ريب والثاني : موقف في الريب ، وسنذكره في موضع آخر إن شاء الله تعالى ، والله أعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآله وصحبه وأزواجه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 235 . 236 ﴾

(14/637)

---

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم إلى عبادة الله والنظر في حقيقة نبوته هو ويعظهم بأمر مقرب للأفهام فقوله ﴿ بواحدة ﴾ معناه بقضية واحدة إيجازاً لكم وتقريباً عليكم ، وقوله ﴿ أن ﴾ مفسرة ، ويجوز أن تكون بدلاً من ﴿ واحدة ﴾ ، وقوله ﴿ تقوموا لله مثنى وفرادى ﴾ يحتمل أن يريد بالطاعة والإخلاص والعبادة فتكون الواحدة التي وعظ بها هذه ، ثم عطف عليها أن يتفكروا في أمره هل هو به جنة أو هو بريء من ذلك والوقف عند أبي حاتم ﴿ ثم تتفكروا ﴾ .

قال الفقيه الإمام القاضي : فيجيء ﴿ ما بصاحبكم ﴾ نفياً مستأنفاً وهو عند سيبويه جواب ما تنزل منزلة القسم لأن تفكر من الأفعال التي تعطي التحقيق كتبين وتكون الفكرة

على هذا في آيات الله والإيمان به ، ويحتمل أن يريد بقيامهم أن يكون لوجه الله في معنى التفكر في محمد صلى الله عليه وسلم فتكون الواحد التي وعظ بها أن يقوموا لمعنى الفكرة – في أمر صاحبهم ، وكأن المعنى أن يفكر الواحد بينه وبين نفسه ويتناظر الاثنان على جهة طلب التحقيق ، هل بمحمد صلى الله عليه وسلم جنة أم لا ؟ وعلى هذا لا يوقف على ﴿ تتفكروا ﴾ وقدم المثنى لأن الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحدة ، فإذا انقدح الحق بين الاثنين فكر كل واحد منهما بعد ذلك فيزيد بصيرة وقد قال الشاعر : [ الطويل ]

إذا اجتمعوا جاءوا بكل غريبة . . . فيزداد بعض القوم من بعضهم علما

وقرأ يعقوب " ثم تفكروا " بتاء واحدة ، وقال مجاهد بواحدة معناه بلا إله إلا الله وقيل غير هذا مما لا تعطيه الآية ، وقوله ﴿ بين يدي ﴾ مرتب على أن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء في الزمن من قبل العذاب الشديد الذي توعدوا به .

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ

أمره الله تعالى في هذه الآية بالتبري من طلب الدنيا وطلب الأجر على الرسالة وتسليم كل دنيا إلى أربابها والتوكل على الله في الأجر وجزاء الجد والإقرار بأنه شهيد على كل شيء من أفعال البشر وأقوالهم وغير ذلك ، وقوله ﴿ يقذف بالحق ﴾ يريد بالوحي وآيات القرآن واستعار له القذف من حيث كان الكفار يرمون بآياته وحكمه ، وقرأ جمهور القراء " علاّمُ " بالرفع أي هو علام ، وقرأ عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق " علاّمَ " بالنصب إما على البدل من اسم ﴿ إن ﴾ وإما على المدح ، وقرأ الأعمش " بالحق هو علام الغيوب " ، وقرأ عاصم " الغِيوب " بكسر الغين ، وقوله ﴿ قل جاء الحق ﴾ يريد الشرع وأمر الله ونهيه ، وقال قوم يعني السيف ، وقوله ﴿ وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ ، قالت فرقة : ﴿ الباطل ﴾ هو غير ﴿ الحق ﴾ من الكذب والكفر ونحوه استعار له الإبداء والإعادة ونفاهما عنه ، كأنه قال وما يصنع الباطل شيئاً ، وقالت فرقة ﴿ الباطل ﴾ الشيطان ، والمعنى ما يفعل الشيطان شيئاً مفيداً أي ليس يخلق ولا يرزق ، وقالت فرقة ﴿ ما ﴾ استفهام كأنهم قال وأي شيء يصنع الباطل ؟ وقرأ جمهور الناس " ضَلَلت " بفتح اللام فإنما إضِل " بكسر الضاد ، وقرأ الحسن وابن وثاب " ضَلِلت " بكسر اللام " أضَل " بفتح الضاد وهي لغة بني تميم ، وقوله ﴿ فيما ﴾ يحتمل أن تكون " ما " بمعنى الذي ، ويحتمل أن تكون مصدرية ، و﴿ قريب ﴾ معناه بإحاطته وإجابته وقدرته ، واختلف المتأولون في قوله تعالى : ﴿ لو ترى ﴾ الآية ، فقال ابن عباس والضحاك : هذا في عذاب الدنيا ،

وروي أن ابن أبزى قال ذلك في جيش يغزو الكعبة فيخسف بهم في بيداء من الأرض ولا ينجو إلا رجل من جهينة فيخبر الناس بما نال الجيش قالوا بسببه قيل " وعند جهينة الخبر اليقين " ، وهذا قول سعيد ، وروي في هذا المعنى حديث مطول عن حذيفة وذكر الطبري أنه ضعيف السند مكذوب فيه على داود بن الجراح ، وقال قتادة : ذلك في الكفار عند الموت ،

(16/637)

---

وقال ابن زيد : ذلك في الكفار في بدر ونحوها ، وقال الحسن بن أبي الحسن : ذلك في الكفار عند خروجهم من القبور في القيامة .

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا أرجح الأقوال عندي ، وأما معنى الآية فهو التعجيب من حالهم إذا فزعوا من أخذ الله إياهم ولم يتمكن لهم أن يفوت منهم أحد ، وقوله ﴿ من مكان قريب ﴾ معناه أنهم للقدرة قريب حيث كانوا قبل من تحت الأقدام ، وهذا يتوجه على بعض الأقوال والذي يعم جميعها أن يقال إن الأخذ يجيئهم من قرب في طمأنينتهم ويعقبها بينا الكافر يؤمل ويظن ويترجى إذ غشيه الأخذ ، ومن غشيه أخذ من قريب ، فلا حيلة له ولا روية ، وقرأ الجمهور " وأخذوا " ، وقرأ طلحة بن مصرف " فلا فوت وأخذ " ، كأنه قال

وجاء لهم أخذ من مكان قريب .

وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (52)

الضمير في ﴿ به ﴾ عائد على الله تعالى ، وقيل على محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه والقرآن ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم وعامة القراء " التناوُش " بضم الواو دون همز ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم أيضاً " التناؤش " بالهمز ، والأولى معناها التناول من قولهم ناش ينوش إذا تناول وتناوش القوم في الحرب إذا تناول بعضهم بعضاً بالسلاح ، ومنه قول الراجز : [ الرجز ]

فهي تنوش الحوض نوشاً من علا . . . نوشاً به تقطع أجواز الفلا

فكأنه قال وأنى لهم تناول مرادهم وقد بعدوا عن مكان إمكان ذلك ، وأما التناؤش بالهمز فيحتمل أن يكون من التناؤش الذي تقدم تفسيره وهمزت الواو لما كانت مضمونة وكانت ضمتها لازمة ، كما قالوا أقتت وغير ذلك ، ويحتمل أن يكون من الطلب ، تقول انتاشت الشيء إذا طلبته من بعد ، وقال ابن عباس تناؤش الشيء رجوعه حكاه عنه ابن الأنباري وأنشد : [ الوافر ]

تمنى أن تؤوب إليك ميّ . . . وليس إلى تناوشها سبيل

فكأنه قال في الآية : وأنى لهم طلب مرادهم وقد بعد ، قال مجاهد المعنى من الآخرة إلى الدنيا ، وقرأ جمهور الناس " وَيَقذِفون " بفتح الياء وكسر الذال على إسناد الفعل إليهم ، أي يرجمون بظنونهم ويرمون بها الرسل وكتاب الله ، وذلك غيب عنهم في قولهم سحر وافتراء وغير ذلك ، قاله مجاهد ، وقال قتادة قذفهم بالغيب هو قولهم لا بعث ولا جنة ولا نار ، وقرأ مجاهد " ويُقذَفون " بضم الياء وفتح الذال على معنى ويرجمهم الوحي بما يكرهون من السماء ، وقوله ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ قال الحسن معناه من الإيمان والتوبة والرجوع إلى الإنابة والعمل الصالح ، وذلك أنهم اشتهوه في وقت لا تنفع فيه التوبة ، وقاله أيضاً قتادة ، وقال مجاهد معناه وحيل بينهم وبين نعيم الدنيا ولذاتها ، وقيل حيل بينهم وبين الجنة ونعيمها ، وهذا يتمكن جداً على القول بأن الأخذ والفزع المذكورين هو في يوم القيامة ، وقوله ﴿ كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ الأشياع الفرق المتشابهة ، فأشياع هؤلاء هم الكفرة من كل أمة ، وهو جمع شيعة ، وشيع ، وقوله ﴿ من قبل ﴾ يصلح على بعض الأقوال المتقدمة تعلقه بفعل ، ويصلح على قوم من قال إن الفزع هو في يوم القيامة تعلقه ﴿ بأشياعهم ﴾ أي بمن اتصف بصفتهم من قبل في الزمن الأول ، لأن ما يفعل بجميعهم إنما هو في وقت واحد . لا يقال فيه ﴿ من قبل ﴾ ، و" الشك المريب " أقوى ما يكون من الشك وأشده إظلاماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ﴾

وذلك أن الكفار قالوا تركتَ دين آبائك فضللت .

فقال له : قل يا محمد إن ضللت كما تزعمون فإنما أضل على نفسي .

وقراءة العامة "ضَللت" بفتح اللام .

وقرأ يحيى بن وَثّاب وغيره : "قُلْ إِنْ ضَلِلت" بكسر اللام وفتح الضاد من "أَضَلُّ" ،

والضلال والضلالة ضدّ الرشاد .

وقد ضلَلت ( بفتح اللام ) أضل ( بكسر الضاد ) ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ﴾ فهذه لغة نجد وهي الفصيحة .

وأهل العالية يقولون "ضَلِلت" بالكسر "أَضَل" ، أي إثم ضلالتي على نفسي .

﴿ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ من الحكمة والبيان ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أي سميع ممن دعاه قريب الإجابة .

وقيل وجه النظم : قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ويبيّن الحجة ، وضلالُ من ضل لا يبطل الحجة

، ولو ضللت لأضررت بنفسي ، لا أنه يبطل حجة الله ، وإذا اهتديت فذلك فضل الله إذ ثبتني على الحجة إنه سميع قريب .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ ﴾ ذكر أحوال الكفار في وقت ما يضطرون فيه إلى معرفة الحق .

والمعنى : لو ترى إذا فزعوا في الدنيا عند نزول الموت أو غيره من بأس الله تعالى بهم ، روي معناه عن ابن عباس .

الحسن : هو فزعهم في القبور من الصيحة .

وعنه أن ذلك الفزع إنما هو إذا خرجوا من قبورهم ؛ وقاله قتادة .

وقال ابن مُغَفَّل : إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة .

السّدّي : هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة فلم يستطيعوا فراراً ولا رجوعاً إلى التوبة .

سعيد بن جُبير : هو الجيش الذي يخسف بهم في البيداء فيبقى منهم رجل فيخبر الناس بما لقي أصحابه فيفزعون ، فهذا هو فزعهم .

﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ فلا نجاة ؛ قاله ابن عباس .

مجاهد : فلا مهرب .

﴿ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أي من القبور .

وقيل : من حيث كانوا ، فهم من الله قريب لا يَعْزُبون عنه ولا يفوتونه .

وقال ابن عباس : نزلت في ثمانين ألفاً يغزون في آخر الزمان الكعبة ليَخْرِبوها ، وكما يدخلون البيداء يخسف بهم ؛ فهو الأخذ من مكان قريب .

قلت : وفي هذا المعنى خبر مرفوع عن حذيفة وقد ذكرناه في كتاب التذكِرة ، قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب : "فبيناهم كذلك إذ خرج عليهم السُّفياني من الوادي اليابس في فورة ذلك حتى ينزل دمشق فيبعث جيشين ، جيشاً إلى المشرق ؛ وجيشاً إلى المدينة ، فيسير الجيش نحو المشرق حتى ينزلوا بأرض بابل في المدينة الملعونة والبقعة الخبيثة يعني مدينة بغداد ، قال فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ويفتضون أكثر من مائة امرأة ويقتلون بها ثلاثمائة كبش من ولد العباس ، ثم يخرجون متوجهين إلى الشام فتخرج راية هدى من الكوفة فتلحق ذلك الجيش منها على ليلتين فيقتلونهم لا يفلِت منهم مخبر ويستنقذون ما في أيديهم من السبّي والغنائم ويَحُلّ جيشه الثاني بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيام ولياليها ثم يخرجون متوجهين إلى مكة حتى إذا كانوا بالبيداء بعث الله جبريل عليه السلام فيقول يا جبريل اذهب فأبِدْهم فيضربها برجله

ضربة يخسف الله بهم ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ فلا يبقى منهم إلا رجلان أحدهما بشير والآخر نذير وهما من جُهينة" " ، ولذلك جاء القول : وعند جهينة الخبر اليقين .

وقيل : "أُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ" أي قبضت أرواحهم في أماكنها فلم يمكنهم الفرار من الموت ، وهذا على قول من يقول : هذا الفزع عند النزع .

ويحتمل أن يكون هذا من الفزع الذي هو بمعنى الإجابة ؛ يقال : فزِع الرجل أي أجاب الصارخ الذي يستغيث به إذا نزل به خوف .

ومنه الخبر إذا قال للأنصار : "إنكم لتَقِلّون عند الطمع وتكثرون عند الفزع" .

*(20/637)*

---

ومن قال : أراد الخسف أو القتل في الدنيا كيوم بدر قال : أخذوا في الدنيا قبل أن يؤخذوا في الآخرة .

ومن قال : هو فزع يوم القيامة قال : أخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها .

وقيل : "أُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ" من جهنم فألقوا فيها .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا آمَنَّا بِهِ ﴾ أي بالقرآن .

وقال مجاهد : بالله عز وجل .

الحسن : بالبعث .

قتادة : بالرسول صلى الله عليه وسلم .

﴿ وأنى لَهُمُ التناوش مِن مّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال ابن عباس والضحاك : التناوش الرجعة ؛ أي يطلبون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا ، وهيهات من ذلك ! ومنه قول الشاعر :

تمَنّى أن تؤوب إليّ مَيٌّ . . .

وليس إلى تناوشها سبيل

وقال السُّدّي : هي التوبة ؛ أي طلبوها وقد بَعُدت ، لأنه إنما تقبل التوبة في الدنيا .

وقيل : التناوش التناول ؛ قال ابن السّكيت : يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذ برأسه ولحيته : ناشه ينوشه نَوْشاً .

وأنشد :

فهي تنوش الحوض نَوْشاً مِن عَلاَ . . .

نَوْشاً به تَقْطع أجواز الفَلا

أي تتناول ماء الحوض من فوق وتشرب شرباً كثيراً ، وتقطع بذلك الشرب فلوات فلا تحتاج إلى ماء آخر .

قال : ومنه المناوشة في القتال ؛ وذلك إذا تدانى الفريقان .

ورجل نَوُوش أي ذو بطش .

والتناوش .

التناول : والانتياش مثله .

قال الراجز :

كانت تنوش العنَق انتياشا . . . .

قوله تعالى : ﴿ وأنى لَهُمُ التناوش مِن مّكَانِ بَعِيدٍ ﴾ يقول : أَنَّى لهم تناول الإيمان في الآخرة

وقد كفروا في الدنيا .

وقرأ أبو عمرو والكسائي والأعمش وحمزة : "وأنى لهم التناؤش" بالهمز .

النحاس : وأبو عبيدة يستبعد هذه القراءة ؛ لأن "التناؤش" بالهمز البعد ، فكيف يكون :

وأنى لهم البعد من مكان بعيد .

قال أبو جعفر : والقراءة جائزة حسنة ، ولها وجهان في كلام العرب ، ولا يتأوّل بها هذا

المتأوّل البعيد ، فأحد الوجهين أن يكون الأصل غير مهموز ، ثم همزت الواو لأن الحركة فيها

خفية ، وذلك كثير في كلام العرب .

وفي المصحف الذي نقلته الجماعة عن الجماعة ﴿ وَإِذَا الرسل أُقِّتَتْ ﴾ [ المرسلات : 11 ] والأصل "وُقّتت" لأنه مشتق من الوقت .

ويقال في جمع دار : أدؤر .

والوجه الآخر ذكره أبو إسحاق قال : يكون مشتقاً من النئيش وهو الحركة في إبطاء ؛ أي من أين لهم الحركة فيما قد بَعُد ، يقال : نأشت الشيء أخذته من بُعْد والنئيش : الشيء البطيء .

قال الجوهري : التناؤش ( بالهمز ) التأخر والتباعد .

وقد نأشت الأمر أنأشه نأشا أخرته ؛ فانتأش .

ويقال : فعله نئيشاً أي أخيراً .

قال الشاعر :

تمنى نئيشاً أن يكون أطاعني . . .

وقد حدثت بعد الأمور أمور

وقال آخر :

قعدت زماناً عن طلابك للعلا . . .

وجئت نئيشاً بعد ما فاتك الخُبْرُ

وقال الفراء : الهمز وترك الهمز في التناؤش متقارب ؛ مثل : ذِمْت الرجلَ وذأَمْته أي عبته .

﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي من الآخرة .

وروى أبو إسحاق عن التميمي عن ابن عباس قال : "وَأَنَّى لهم" قال : الردّ ، سألوه وليس بحين ردّ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ أي بالله عز وجل .

وقيل : بمحمد ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ يعني في الدنيا .

﴿ وَيَقْذِفُونَ بالغيب ﴾ العرب تقول لكل من تكلم بما لا يَحُقّه : هو يقذف ويرجم بالغيب .

﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ على جهة التمثيل لمن يرجم ولا يصيب ، أي يرمون بالظن فيقولون : لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ، رَجْماً منهم بالظن ؛ قاله قتادة .

وقيل : "يقذفون" أي يرمون في القرآن فيقولون : سحر وشعر وأساطير الأولين .

وقيل : في محمد ؛ فيقولون ساحر شاعر كاهن مجنون .

﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي إن الله بعّد لهم أن يعلموا صدق محمد .

وقيل : أراد البعد عن القلب ، أي من مكان بعيد عن قلوبهم .

وقرأ مجاهد "ويُقذفُون بالغيب" غير مسمّى الفاعل ، أي يُرمون به .

وقيل : يقذف به إليهم من يغويهم ويضلهم .

قوله تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ قيل : حيل بينهم وبين النجاة من العذاب .

وقيل : حيل بينهم وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهليهم .

ومذهب قتادة أن المعنى أنهم كانوا يشتهون لما رأوا العذاب أن يقبل منهم أن يطيعوا الله جل وعز وينتهوا إلى ما يأمرهم به الله فحيل بينهم وبين ذلك ؛ لأن ذلك إنما كان في الدنيا وقد زالت في ذلك الوقت .

والأصل "حُوِل" فقلبت حركة الواو على الحاء فانقلبت ياء ثم حذفت حركتها لثقلها .

﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم ﴾ الأشياع جمع شِيَع ، وشِيَع جمعه شيعة .

﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ أي بمن مضى من القرون السالفة الكافرة .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ ﴾ أي من أمر الرسل والبعث والجنة والنار .

وقيل : في الدين والتوحيد ، والمعنى واحد .

﴿ مُّرِيبِ ﴾ أي يستراب به ، يقال : أراب الرجل أي صار ذا ريبة ، فهو مريب .

ومن قال هو من الريب الذي هو الشك والتهمة قال : يقال شكٌّ مريب ؛ كما يقال : عجبٌ عجيب وشعر شاعر ؛ في التأكيد .

ختمت السورة ، والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(23/637)

---

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا آَتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44) ﴾

﴿ وما آتيناهم ﴾ : أهل مكة ، ﴿ من كتب ﴾ ، قال السدي : من عندنا ، فيعلموا بدراستها بطلان ما جئت به .

وقال ابن زيد : فنقضوا أن الشرك جائز ، وهو كقوله : ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴾ وقال قتادة : ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن ، ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد (صلى الله عليه وسلم ) .

والمعنى : من أين كذبوا ، ولم يأتهم كتاب ، ولا نذير بذلك ؟ وقيل : وصفهم بأنهم قومٍ آمنون ، أهل جاهلية ، ولا ملة لهم ، وليس لهم عهد بإنزال الكتاب ولا بعثة رسول .

كما قال : ﴿ أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ﴾ فليس لتكذيبهم وجه مثبت ، ولا شبهة تعلق .

كما يقول أهل الكتاب ، وإن كانوا مبطلين : نحن أهل الكتاب والشرائع ، ومستندون إلى رسل من رسل الله .

وقيل : المعنى أنهم يقولون بآرائهم في كتاب الله ، يقول بعضهم سحر ، وبعضهم افتراء ، ولا يستندون فيه إلى أثارة من علم ، ولا إلى خبر من يقبل خبره .

فإنا آتيناهم كتباً يدرسونها ، ولا أرسلنا إليهم رسولاً ولا نذيراً فيمكنهم أن يدعوا ، إن أقوالهم تستند إلى أمره .

وقرأ الجمهور : ﴿ يدرسونها ﴾ ، مضارع درس مخففاً ؛ أبو حيوة : بفتح الدال وشدها وكسر الراء ، مضارع ادّرس ، افتعل من الدرس ، ومعناه : تتدارسونها .

وعن أبي حيوة أيضاً : يدرسونها ، من التدريس ، وهو تكرير الدرس ، أو من درس الكتاب مخففاً ، ودرّس الكتاب مشدداً التضعيف باعتبار الجمع .

ومعنى ﴿ قبلك ﴾ ، قال ابن عطية : أي وما أرسلنا من نذير يشافههم بشيء ، ولا يباشر أهل عصرهم ، ولا من قرب من آبائهم .

وقد كانت النذارة في العالم ، وفي العرب مع شعيب وصالح وهود .

ودعوة الله وتوحيده قائم لم تخل الأرض من داع إليه ، وإنما المعنى : من نذير يختص بهؤلاء الذين بقيت إليهم ، وقد كان عند العرب كثير من نذارة إسماعيل ، والله تعالى يقول : ﴿ إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً ﴾ ولكن لم يتجرد للنذارة ، وقاتل عليها ، إلا محمد ( صلى الله عليه وسلم ) . انتهى .

﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ : توعد لهم ممن تقدمهم من الأمم ، وما آل إليه أمرهم ، وتسلية لرسوله بأن عادتهم في التكذيب عادة الأمم السابقة ، وسيحل بهم ما حل بأولئك .

وأن الضميرين في : ﴿ بلغوا ﴾ وفي : ﴿ ما آتيناهم ﴾ عائدان على ﴿ الذين من قبلهم ﴾ ، ليتناسقا مع قوله تعالى : ﴿ فكذبوا ﴾ ، أي ما بلغوا في شكر النعمة وجزاء المنة معشار ما آتيناهم من النعم والإحسان إليهم .

وقال ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد : الضمير في ﴿ بلغوا ﴾ لقريش ، وفي ﴿ ما آتيناهم ﴾ للأمم ﴿ الذين من قبلهم ﴾ .

والمعنى : وما بلغ هؤلاء بعض ما آتينا أولئك من طول الأعمار وقوة الأجسام وكثرة الأموال ، وحيث كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال ، ولم يغن عنهم ما كانوا فيه من القوة ، فكيف حال هؤلاء إذا جاءهم العذاب والهلاك ؟ وقيل : الضمير في ﴿ بلغوا ﴾ عائد على ﴿ الذين من قبلهم ﴾ ، وفي ﴿ آتيناهم ﴾ على قريش ، وما بلغ الأمم

المتقدمة معشار ما آتينا قريشاً من الآيات والبينات والنور الذي جئتهم به .

وأورد ابن عطية هذه الأقوال احتمالات ، والزمخشري ذكر الثاني ، وأبو عبد الله الرازي اختار الثالث ، قال : أي ﴿ الذين من قبلهم ﴾ ما بلغوا معشار ما آتينا قوم محمد من البرهان ، وذلك لأن كتاب محمد ، عليه السلام ، أكمل من سائر الكتب وأوضح ، ومحمد ، عليه السلام ، أفضل من جميع الرسل وأفصح ، وبرهانه أوفي ، وبيانه أشفى ، ويؤيد ما ذكرنا ، ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها ﴾ تغني عن القرآن .

(25/637)

---

فلما كان المؤتى في الآية الأولى هو الكتاب ، حمل الإيتاء في الآية الثانية على إيتاء الكتاب ، وكان أولى . انتهى .

وعن ابن عباس : فليس أنه أعلم من أمّته ، ولا كتاب أبين من كتابه .

والمعشار مفعال من العشر ، ولم يبن على هذا الوزن من ألفاظ العدد غيره وغير المرباع ، ومعناهما : العشر والربع .

وقال قوم : المعشار عشر العشر .

قال ابن عطية : وهذا ليس بشيء . انتهى .

وقيل : والعشر في هذا القول عشر المعشرات ، فيكون جزأ من ألف جزء .

قال الماوردي : وهو الأظهر ، لأن المراد به المبالغة في التقليل .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى ﴿ فكذبوا رسلي ﴾ ، وهو مستغنى عنه بقوله ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ ؟ قلت : لما كان معنى قوله : ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ ، وفعل الذين من قبلهم التكذيب ، وأقدموا عليه ، جعل تكذيب الرسل مسبباً عنه ، ونظيره أن يقول القائل : أقدم فلان على الكفر ، فكفر بمحمد ( صلى الله عليه وسلم ) . ويجوز أن ينعطف على قوله : ﴿ ما بلغوا ﴾ ، كقولك : ما بلغ زيد معشار فضل عمرو ، فيفضل عليه .

﴿ فكيف كان نكير ﴾ : للمكذبين الأوّلين ، فليحذروا من مثله . انتهى .

وفكيف : تعظيم للأمر ، وليست استفهاماً مجرداً ، وفيه تهديد لقريش ، أي أنهم معرضون لنكير مثله ، والنكير مصدر كالإنكار ، وهو من المصادر التي جاءت على وزن فعيل ، والفعل على وزن أفعل ، كالنذير والعذير من أنذر وأعذر ، وحذفت إلى من نكير تخفيفاً لأنها أجزأته .

﴿ قل إنما أعظكم بواحدة ﴾ ، قال : هي طاعة الله وتوحيده .

وقال السدي : هي لا إله إلاّ الله .

قال قتادة : هي أن تقوموا .

قال أبو علي : ﴿ أن تقوموا ﴾ في موضع خفض على البدل من واحدة .

وقال الزمخشري : ﴿ بواحدة ﴾ : بخصلة واحدة ، وهو فسرها بقوله : ﴿ أن تقوموا ﴾ على أن عطف بيان لها . انتهى .

وهذا لا يجوز ، لأن بواحدة نكرة ، وأن تقوموا معرفة لتقديره قيامكم لله .

(26/637)

---

وعطف البيان فيه مذهبان : أحدهما : أنه يشترط فيه أن يكون معرفة من معرفة ، وهو مذهب الكوفيين ، وأما التخالف فلم يذهب إليه ذاهب ، وإنما هو وهم من قائله .

وقد ردّ النحويون على الزمخشري في قوله : ﴿ إن مقام إبراهيم ﴾ عطف بيان من قوله : ﴿ آيات بينات ﴾ وذلك لأجل التحالف ، فكذلك هذا .

والظاهر أن القيام هنا هو الانتصاب في الأمر ، والنهوض فيه بالهمة ، لا القيام الذي يراد به المقول على القولين ، ويبعد أن يراد به ما جوزه الزمخشري من القيام عن مجلس رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، وتفرقهم عن مجتمعهم عنده .

والمعنى : إنما أعظكم بواحدة فيها إصابتكم الحق وخلاصكم ، وهي أن تقوموا لوجه الله متفرقين اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ، ثم تتفكروا في أمر محمد وما جاء به .

وإنما قال : ﴿ مثنى وفرادى ﴾ ، لأن الجماعة يكون مع اجتماعهم تشويش الخاطر والمنع من التفكر ، وتخليط الكلام ، والتعصب للمذاهب ، وقلة الإنصاف ، كما هو مشاهد في الدروس التي يجتمع فيها الجماعة ، فلا يوقف فيها على تحقيق .

وأما الاثنان ، إذا نظرا نظر إنصاف ، وعرض كل واحد منهما على صاحبه ما ظهر له ، فلا يكاد الحق أن يعدوهما .

وأما الواحد ، إذا كان جيد الفكر ، صحيح النظر ، عارياً عن التعصب ، طالباً للحق ، فبعيد أن يعدوه .

وانتصب ﴿ مثنى وفرادى ﴾ على الحال ، وقدم مثنى ، لأن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحدة ، إذا انقدح الحق بين الاثنين ، فكر كل واحد منهما بعد ذلك ، فيزيد بصيرة .

قال الشاعر :

إذا اجتمعوا جاءوا بكل غريبة . . .

فيزداد بعض القوم من بعضهم علما

﴿ ثم تتفكروا ﴾ : عطف على ﴿ أن تقوموا ﴾ ، فالفكرة هنا في حال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، وفيما نسبوه إليه .

فإن الفكرة تهدي غالباً إلى الصواب إذا عرى صاحبها عما يشوش النظر ، والوقف عند أبي حاتم عند قوله : ﴿ ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾ ، نفي مستأنف .

(27/637)

---

قال ابن عطية : وهو عند سيبويه جواب ما ينزل منزلة القسم ، لأن تفكر من الأفعال التي تعطي التمييز كتبين ، ويكون على هذا في آيات الله والإيمان به . انتهى .

واحتمل أن يكون تتفكروا معلقاً ، والجملة المنفية في موضع نصب ، وهو محط التفكر ، أي ثم تتفكروا في انتفاء الجنة على محمد ( صلى الله عليه وسلم ) .

فإن إثبات ذلك لا يصح أن يتصف به من كان أرجح قريش عقلاً ، وأثبتهم ذهناً ، وأصدقهم قولاً ، وأنزههم نفساً ، ومن ظهر على يديه هذا القرآن المعجز ، فيعلمون بالفكرة أن نسبته للجنون لا يمكن ، ولا يذهب إلى ذلك عاقل ، وأن من نسبه إلى ذلك فهو مفتر كاذب .

والظاهر أن ما للنفي ، كما شرحنا .

وقيل : ما استفهام ، وهو استفهام لا يراد به حقيقته ، بل يؤول معناه إلى النفي ، التقدير : أي شيء بصاحبكم من الجنون ، أي ليس به شيء من ذلك .

ولما نفى تعالى عنه الجنة أثبت أنه ﴿ نذير ﴾ ، ﴿ بين يدي عذاب شديد ﴾ : أي هو متقدم في الزمان على العذاب الذي توعدوا به ، وبين يدي يشعر بقرب العذاب .

﴿ قل ما سألتكم من أجر ﴾ الآية : في التبري من طلب الدنيا ، وطلب الأجر على النور الذي أتى به ، والتوكل على الله فيه .

واحتملت ما أن تكون موصولة مبتدأ ، والعائد من الصلة محذوف تقديره : سألتكموه ، و﴿ فهو لكم ﴾ الخبر .

ودخلت الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، واحتملت أن تكون شرطية مفعولة بسألتكم ، وفهو لكم جملة هي جواب الشرط .

وقوله : ﴿ ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾ على معنيين : أحدهما : نفي مسألة للأجر ، كما يقول الرجل لصاحبه : إن أعطيتني شيئاً فخذه ، وهو يعلم أنه لم يعطه شيئاً ، ولكنه أراد البت لتعليقه الأخذ بما لم يكن ، ويؤيده ﴿ إن أجري إلا على الله ﴾ .

(28/637)

---

والثاني : أن يريد بالأجر ما في قوله : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ وفي قوله : ﴿ لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى ﴾ لأن اتخاذ

السبيل إلى الله نصيبهم ما فيه نفعهم ، وكذلك المودة في القرابة ، لأن القرابة قد انتظمت وإياهم ، قاله الزمخشري ، وفيه بعض زيادة .

قال ابن عباس : الأجر : المودة في القربى .

وقال قتادة : ﴿ فهو لكم ﴾ ، أي ثمرته وثوابه ، لأني سألتكم صلة الرحم .

وقال مقاتل : تركته لكم .

﴿ وهو على كل شيء شهيد ﴾ : مطلع حافظ ، يعلم أني لا أطلب أجراً على نصحكم ودعائكم إليه إلا منه ، ولا أطمع منكم في شيء .

والقذف : الرمي بدفع واعتماد ، ويستعار لمعنى الإلقاء لقوله : ﴿ فاقذفيه في اليم ﴾ ﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ قال قتادة : ﴿ يقذف بالحق ﴾ : يبين الحجة ويظهرها .

وقال ابن القشيري : يبين الحجة بحيث لا اعتراض عليها ، لأنه ﴿ علام الغيوب ﴾ ، وأنا مستمسك بما يقذف إليّ من الحق .

وأصل القذف : الرمي بالسهم ، أو الحصى والكلام .

وقال ابن عباس : يقذف الباطل بالحق ، والظاهر أن بالحق هو المفعول ، فالحق هو المقذوف محذوفاً ، أي يقذف ، أي يلقي ما يلقي إلى أنبيائه من الوحي والشرع بالحق لا بالباطل ، فتكون الباء إمّا للمصاحبة ، وإمّا للسبب ، ويؤيد هذا الاحتمال كون قذف متعدّياً بنفسه ، فإذا جعلت بالحق هو المفعول ، كانت الباء زائدة في موضع لا تطرد

زيادتها .

وقرأ الجمهور : علام بالرفع ، فالظاهر أنه خبر ثان ، وهو ظاهر قول الزجاج ، قال : هو رفع ، لأن تأويل قل رب علام الغيوب .

وقال الزمخشري : رفع محمول على محل إن واسمها ، أو على المستكن في يقذف ، أو هو خبر مبتدأ محذوف . انتهى .

أمّا الحمل على محل إن واسمها فهو غير مذهب سيبويه ، وليس بصحيح عند أصحابنا على ما قررناه في كتب النحو .

وأمّا قوله على المستكن في يقذف ، فلم يبين وجه حمله ، وكأنه يريد أنه بدل من ضمير يقذف .

(29/637)

---

وقال الكسائي : هو نعت لذلك الضمير ، لأنه مذهبه جواز نعت المضمر الغائب .

وقرأ عيسى ، وابن أبي إسحاق ، وزيد بن علي ، وابن أبي عبلة ، وأبو حيوة ، وحرب عن طلحة : علام بالنصب ؛ فقال الزمخشري : صفة لربي .

وقال أبو الفضل الرازي ، وابن عطية : بدل .

وقال الحوفي : بدل أو صفة ؛ وقيل : نصب على المدح .

وقرىء : الغيوب بالجر ، أمّا الضم فجمع غيب ، وأمّا الكسر فكذلك استثقلوا ضمتين والواو فكسر ، والتناسب الكسر مع الياء والضمة التي على الياء مع الواو ؛ وأمّا الفتح فمفعول للمبالغة ، كالصبور ، وهو الشيء الذي غاب وخفي جداً .

ولما ذكر تعالى أنه يقذف بالحق بصيغة المضارع ، أخبر أن الحق قد جاء ، وهو القرآن والوحي ، وبطل ما سواه من الأديان ، فلم يبق لغير الإسلام ثبات ، لا في بدء ولا في عاقبة ، فلا يخاف على الإسلام ما يبطله ، كما قال : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ وقال قتادة : الباطل : الشيطان ، لا يخلق شيئاً ولا يبعثه .

وقال الضحاك : الأصنام لا تفعل ذلك .

وقال أبو سليمان : لا يبتدىء الصنم من عنده كلاماً فيجاب ، ولا يرد ما جاء من الحق بحجة .

وقيل : الباطل : الذي يضاد الحق ، فالمعنى : ذهب الباطل بمجيء الحق ، فلم يبقى منه بقية ، وذلك أن الجائي إذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة ، فصار قولهم : لا يبدي ولا يعيد ، مثلاً في الهلاك ، ومنه قول الشاعر :

أفقر من أهيله عبيد . . .

فاليوم لا يبدي ولا يعيد

والظاهر أن ما نفي ، وقيل : استفهام ومآله إلى النفي ، كأنه قال : أي شيء يبدىء الباطل ، أي إبليس ، ويعيده ، قاله الزجاج وفرقة معه .

وعن الحسن : لا يبدىء ، أي إبليس ، لأهله خيراً ، ولا يعيده : أي لا ينفعهم في الدنيا والآخرة .

وقيل : الشيطان : الباطل ، لأنه صاحب الباطل ، لأنه هالك ، كما قيل له الشيطان من شاط إذا هلك .

وقيل : الحق : السيف .

(30/637)

---

عن ابن مسعود : دخل رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) مكة ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بعود نبقة ويقول : " ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ، ﴿ جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ " .

وقرأ الجمهور : ﴿ قل إن ضللت ﴾ ، بفتح اللام ، ﴿ فإنما أضل ﴾ ، بكسر الضاد .

وقرأ الحسن ، وابن وثاب ، وعبد الرحمن المقري : بكسر اللام وفتح الضاد ، وهي لغة تميم ، وكسر عبد الرحمن همزة أضل .

وقال الزمخشري : لغتان نحو : ضللت أضل ، وظللت أظل .

﴿ وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربي ﴾ ، وأن تكون مصدرية ، أي فبوحي ربي .

والتقابل اللفظي : وإن اهتديت فإنما أهتدي لها ، كما قال : ﴿ ومن أساء فعليها ﴾

مقابل : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ ﴿ ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ مقابل : ﴿

فمن اهتدى فلنفسه ﴾ أو يقال : فإنما أضل بنفسي .

وأما في الآية فالتقابل معنوي ، لأن النفس كل ما عليها فهو لها ، أي كل وبال عليها فهو بسببها .

﴿ إن النفس لأمّارة بالسوء ﴾ وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه ، وهذا حكم عام لكل مكلف .

وأمر رسوله أن يسنده إلى نفسه ، لأنه إذا دخل تحته مع جلالة محله وسر طريقته كما غيره أولى به .

انتهى ، وهو من كلام الزمخشري .

﴿ إنه سميع قريب ﴾ ، يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله .

والظاهر أن قوله : ﴿ ولو ترى إذ فزعوا ﴾ أنه وقت البعث وقيام الساعة ، وكثيراً جاء :

﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار ﴾ ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ﴾

وكل ذلك في يوم القيامة ؛ وعبر بفزعوا ، وأخذوا ، وقالوا ؛ وحيل بلفظ الماضي لتحقق

وقوعه بالخبر الصادق .

وقال ابن عباس ، والضحاك : هذا في عذاب الدنيا .

وقال الحسن : في الكفار عند خروجهم من القبور .

وقال مجاهد : يوم القيامة .

وقال ابن زيد ، والسدّي : في أهل بدر حين ضربت أعناقهم ، فلم يستطيعوا فراراً من العذاب ، ولا رجوعاً إلى التوبة .



---

وقال ابن جبير ، وابن أبي أبزي : في جيش لغزو الكعبة ، فيخسف بهم في بيداء من الأرض ، ولا ينجو إلا رجل من جهينة ، فيخبر الناس بما ناله ، قالوا ، وله قيل :

وعند جهينة الخبر اليقين . . .

وروى في هذا المعنى حديث مطول عن حذيفة .

وذكر الطبري أنه ضعيف السند ، مكذوب فيه على رواية ابن الجراح .

وقال الزمخشري ، وعن ابن عباس : نزلت في خسف البيداء ، وذلك أن ثمانين ألفاً يغزون الكعبة ليخربوها ، فإذا دخلوا البيداء خسف بهم .

وذكر في حديث حذيفة أنه تكون فتنة بين أهل المشرق والمغرب ، فبينما هم كذلك ، إذ خرج السفياني من الوادي اليابس في فوره ، ذلك حين ينزل دمشق ، فيبعث جيشاً إلى المدينة فينتهبونها ثلاثة أيام ، ثم يخرجون إلى مكة فيأتيهم جبريل ، عليه السلام ، فيضربها ، أي الأرض ، برجله ضربة ، فيخسف الله بهم في بيداء من الأرض ، ولا ينجو إلا رجل من جهينة ، فيخبر الناس بما ناله ، فذلك قوله : ﴿ فلا فوت ﴾ ، ولا يتفلت منهم إلا رجلان من جهينة ، ولذلك جرى المثل : "وعند جهينة الخبر اليقين" ، اسم أحدهما بشير ، يبشر أهل مكة ، والآخر نذير ، ينقلب بخبر السفياني .

وقيل : لا ينقلب إلا رجل واحد يسمى ناجية من جهينة ، ينقلب وجهه إلى قفاه .

ومفعول ترى محذوف ، أي ولو ترى الكفار إذ فزعوا فلا فوت ، أي لا يفوتون الله ، ولا يهرب لهم عنما يريد بهم .

وقال الحسن : فلا فوت من صيحة النشور ، وأخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها . انتهى .

أو من الموقف إلى النار إذا بعثوا ، أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا ، أو من صحراء بدر إلى القليب ، أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم ، وهذه أقوال مبنية على تلك الأقوال السابقة في عود الضمير في فزعوا .

ووصف المكان بالقرب من حيث قدرة الله عليهم ، فحيث ما كانوا هو قريب .

وقرأ الجمهور : ﴿ فلا فوت ﴾ ، مبني على الفتح ، ﴿ وأخذوا ﴾ : فعلاً ماضياً ، والظاهر عطفه على ﴿ فزعوا ﴾ ، وقيل : على ﴿ فلا فوت ﴾ ، لأن معناه فلا يفوتوا وأخذوا .

وقرأ عبد الرحمن مولى بني هاشم عن أبيه ، وطلحة ؛ فلا فوت ، وأخذ مصدرين منونين .

وقرأ أبي : فلا فوت مبنياً ، وأخذ مصدراً منوناً ، ومن رفع وأخذ فخبر مبتدأ ، أي وحالهما أخذ أو مبتدأ ، أي وهناك أخذ .

وقال الزمخشري : وقرىء : وأخذ ، وهو معطوف على محل فلا فوت ، ومعناه : فلا فوت هناك ، وهناك أخذ . انتهى .

كأنه يقول : لا فوت مجموع لا ، والمبني معها في موضع مبتدأ ، وخبره هناك ، فكذلك وأخذ مبتدأ ، وخبره هناك ، فهو من عطف الجمل ، وإن كانت إحداهما تضمنت النفي والأخرى تضمنت الإيجاب .

والضمير في به عائد على الله ، قاله مجاهد ، أي يقولون ذلك عندما يرون العذاب .

وقال الحسن : على البعث .

وقال مقاتل : على القرآن .

وقيل : على العذاب .

وقال الزمخشري وغيره : على الرسول ، لمرور ذكره في قوله : ﴿ ما بصاحبكم من جنة ﴾ .

﴿ وأنى لهم التناوش ﴾ ، قال ابن عباس : التناوش : الرجوع إلى الدنيا ، وأنشد ابن الأنباري :

تمنى أن تؤوب إليّ ميّ . . .

وليس إلى تناوشها سبيل

أي : تتمنى ، وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون ، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت ، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا .

مثل حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من بعد ، كما يتناوله الآخر من قرب .

وقرأ الجمهور : التناوش بالواو .

وقرأ حمزة ، والكسائي .

وأبو عمرو ، وأبو بكر : بالهمز ، ويجوز أن يكونا مادتين ، إحداهما النون والواو والشين ، والأخرى النون والهمزة والشين ، وتقدّم شرحهما في المفردات .

ويجوز أن يكون أصل الهمزة الواو ، على ما قاله الزجاج ، وتبعه الزمخشري وابن عطية والحوفي وأبو البقاء ، وقال الزجاج : كل واو مضمومة ضمة لازمة ، فأنت فيها بالخيار ، إن شئت تثبت همزتها ، وإن شئت تركت همزتها .

تقول : ثلاث أدور بلا همز ، وأدؤر بالهمز .

قال : والمعنى : من أنى لهم تناول ما طلبوه من التوبة بعد فوات وقتها ، لأنها إنما تقبل في الدنيا ، وقد ذهبت الدنيا فصارت على بعد من الآخرة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ من مكان بعيد ﴾ .

وقال الزمخشري : همزت الواو المضمومة كما همزت في أجوه وأدور .

وقال ابن عطية : وأمّا التناؤش بالهمز فيحتمل أن يكون من التناوش ، وهمزت الواو لما كانت مضمومة ضمة لازمة ، كما قالوا : أقتيت .

وقال الحوفي : ومن همز احتمل وجهان : أحدهما : أن يكون من الناش ، وهو الحركة في إبطاء ، ويجوز أن يكون من ناش ينوش ، همزت الواو لانضمامها ، كما همزت اقتيت وأدور .

وقال أبو البقاء : ويقرأ بالهمز من أجل الواو ، وقيل : هي أصل من ناشه . انتهى .

وما ذكروه من أن الواو إذا كانت مضمومة ضمة لازمة يجوز أن تبدل همزة ، ليس على إطلاقه ، بل لا يجوز ذلك في المتوسطة إذا كان مدغمة فيها ، ونحو يعود ويقوم مصدرين ؛

ولا إذا صحت في الفعل نحو : ترهوك ترهوكاً ، وتعاون تعاوناً ، ولم يسمع همزتين من ذلك ، فلا يجوز .

والتناوش مثل التعاون ، فلا يجوز همزه ، لأن واوه قد صحت في الفعل ، إذ يقول : تناوش .

﴿ وقد كفروا به ﴾ : الضمير في به عائد على ما عاد عليه ﴿ آمنا به ﴾ على الأقوال ، والجملة حالية ، و﴿ من قبل ﴾ نزول العذاب .

وقرأ الجمهور : ﴿ ويقذفون ﴾ مبنياً للفاعل ، حكاية حال متقدّمة .

قال الحسن : قولهم لا جنة ولا نار ، وزاد قتادة : ولا بعث ولا نار .

وقال ابن زيد : طاعنين في القرآن بقولهم : ﴿ أساطير الأوّلين ﴾ وقال مجاهد في الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، بقولهم : شاعر وساحر وكاهن .

﴿ من مكان بعيد ﴾ : أي في جهة بعيدة ، لأن نسبته إلى شيء من ذلك من أبعد الأشياء .



---

قال الزمخشري : وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي ، لأنهم لم يشاهدوا منه سحراً ولا شعراً ولا كذباً ، وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله ، لأن أبعد شيء مما جاء به الشعر

والسحر ، وأبعد شيء من عادته التي عرفت بينهم وجربت الكذب والزور . انتهى .

وقيل : هو مستأنف ، أي يتلفظون بكلمة الإيمان حين لا ينفع نفسها إيمانها ، فمثلت حالهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم : آمنا في الآخرة ، وذلك مطلب مستبعد ممن يقذف شيئاً من مكان بعيد لا مجال للنظر في لحوقه ، حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائباً عنه بعيداً .

والغيب : الشيء الغائب .

وقرأ مجاهد ، وأبو حيوة ، ومحبوب عن أبي عمرو : ويقذفون ، مبنياً للمفعول .

قال مجاهد : ويرجمهم بما يكرهون من السماء .

وقال أبو الفضل الرازي : يرمون بالغيب من حيث لا يعلمون ، ومعناه : يجازون بسوء أعمالهم ، ولا علم لهم بما أتاه ، إما في حال تعذر التوبة عند معاينة الموت ، وإما في الآخرة .

وقال الزمخشري : أي يأتيهم به ، يعني بالغيب ، شياطينهم ويلقنونهم إياهم .

وقيل : يرمون في النار ؛ وقيل : هو مثل ، لأن من ينادي من مكان بعيد لا يسمع ، أي هم لا يعقلون ولا يسمعون .

﴿ وحيل بينهم ﴾ ، قال الحوفي : الظرف قائم مقام اسم ما لم يسم فاعله . انتهى .

ولو كان على ما ذكر ، لكان مرفوعاً بينهم ، كقراءة من قرأ : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ في أحد المعنيين ، لا يقال لما أضيف إلى مبني وهو الضمير بنى ، فهو في موضع رفع ، وإن كان

مبنياً .

كما قال بعضهم في قوله : وإذ ما مثلهم ، يشير إلى أنه في موضع رفع لإضافته إلى الضمير ،

وإن كان مفتوحاً ، لأنه قول فاسد .

يجوز أن تقول : مررت بغلامك ، وقام غلامك بالفتح ، وهذا لا يقوله أحد .

والبناء لأجل الإضافة إلى المبني ليس مطلقاً ، بل له مواضع أحكمت في النحو ، وما يقول

قائل ذلك في قول الشاعر :

وقد حيل بين العير والنزوان . . .



---

فإنه نصب بين ، وهي مضافة إلى معرب ، وإنما يخرج ما ورد من نحو هذا على أن القائم مقام

الفاعل هو ضمير المصدر الدال عليه ، وحيل هو ، أي الحول ، ولكونه أضمر لم يكن

مصدراً مؤكداً ، فجاز أن يقام مقام الفاعل ، وعلى ذلك يخرج قول الشاعر :

وقالت متى يبخل عليك ويعتلل . . .

بسوء وإن يكشف غرامك تدرب

أي : ويعتلل هو ، أي الاعتلال .

والذي يشتهون الرجوع إلى الدنيا ، قاله ابن عباس ؛ أو الأهل والمال والولد ، قاله السدي ؛ أو بين الجيش وتخريب الكعبة ، أو بين المؤمنين ، أو بين النجاة من العذاب ، أو بين نعيم الدنيا ولذتها ، قاله مجاهد أيضاً .

﴿ كم فعل بأشياعهم ﴾ ، من كفرة الأمم ، أي حيل بينهم وبين مشتهياتهم .

و ﴿ من قبل ﴾ : يصح أن يكون متعلقاً ﴿ بأشياعهم ﴾ ، أي من اتصف بصفتهم من قبل ، أي في الزمان الأول .

ويترجح بأن ما يفعل بجميعهم إنما هو في وقت واحد ، ويصح أن يكون متعلقاً بفعل إذا كانت الحيلولة في الدنيا .

وقال الضحاك : أشياعهم أصحاب الفيل ، يعني أشياع قريش ، وكأنه أخرجه مخرج التمثيل .

وأما التخصيص ، فلا دليل عليه .

﴿ إنهم كانوا في شك مريب ﴾ : يعني في الدنيا ، ومريب اسم فاعل من أراب الرجل : أتى بريبة ودخل فيها ، وأربت الرجل : أوقعته في ريبة ، ونسبة الارابة إلى الشك مجاز .

قال الزمخشري : إلا أن بينهما فرقاً ، وهو أن المريب من المتعدي منقول ممن يصح أن يكون مريباً من الأعيان إلى المعنى ، ومن اللازم منقول من صاحب الشك إلى الشك ، كما تقول : شعر شاعر .

انتهى ، وفيه بعض تبيين .

قيل : ويجوز أن يكون أردفه على الشك ، وهما بمعنى لتناسق آخر الآية بالتي قبلها من مكان قريب ، كما تقول : عجب عجيب ، وشتاشات ، وليلة ليلاء .

وقال ابن عطية : الشك المريب أقوى ما يكون من الشك وأشده إظلاماً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(36/637)

---

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ ﴾ عن الطَّريقِ الحقّ ﴿ فَإِنَّمَا أَضِلُّ على نَفْسِى ﴾ فإنَّ وبالَ ضلالِي عليها لأنَّه بسببها إذ هي الجاهلةُ بالذَّاتِ والأمَّارةُ بالسُّوءِ وبهذا الاعتبارِ قُوبل الشَّرطيةُ بقولِه تعالى : ﴿ وَإِنِ اهتديت فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبّى ﴾ لأنَّ الاهتداءَ بهدايتِه وتوفيقِه .

وقُرىء ربِّيَ بفتحِ الياءِ ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ يعلم قولَ كلَ من المُهتدي والضَّالِّ وفعلَه وإنْ بالغَ في إخفائِهما .

(37/637)

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا ﴾ عند الموتِ أو البعثِ أو يومَ بدرٍ وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ ثمانين ألفاً يغزُون الكعبةَ ليخرِّبوها فإذا دخلُوا البيداءَ خُسف بهم ، وجوابُ لو محذوفٌ أي لرأيتَ أمراً هائلاً ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ فلا يفوتُون الله عزَّ وجلَّ بهربٍ أو تحصُّنٍ . ﴿ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من ظهرِ الأرضِ أو من الموقفِ إلى النَّارِ أو من صحراء بدرٍ إلى قَليبها أو من تحت أقدامهم إذا خُسف بهم والجملةُ معطوفة على فَزِعوا وقيل على لا فوتَ على معنى إذْ فَزِعُوا فلم يفوتُوا وأُخذوا ويؤيده أنه قرئ وأُخذ بالعطف على محلّه أي فلا فوت هنا وهناك أخذٌ . ﴿ وَقَالُوا ءامَنَّا بِهِ ﴾ أي بمحمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام وقد مرَّ ذكرُه في قوله تعالى ما بصاحِبكم . ﴿ وأنى لَهُمُ التناوش ﴾ التَّناوشُ التَّناولُ السَّهلُ أي ومِن أينَ لهم أنْ يتناولُوا الإيمانَ تناولاً سهلاً ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ فإنَّه في حيِّزِ التكليف وهُم منه بمعزلٍ بعيدٍ وهو تمثيلُ حالِهم في الاستخلاصِ بالإيمانِ بعد ما فاتَ عنهم وبُعد بحالِ مَنْ يُريدُ أنْ يتناولَ الشَّيءَ من غَلْوةٍ تناوله من ذراعٍ في الاستحالة . وقُرِىء بالهمزِ على قلبِ الواوِ لضمِّها وهو من نأشتُ الشَّيءَ إذا طلبتُه ، وعن أبي عمرو : التَّناؤشُ بالهمزِ التَّناولُ من بُعدٍ من قولِهم نأشتُ إذا أبطأتَ وتأخَّرتَ ومنه قولُ مَن قالَ

تمنَّى نَئيشا أنْ يكون أطاعني . . . وقد حدثتْ بعدَ الأمرِ أمورُ

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ ﴾ أي بمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم أو بالعذابِ الشَّديدِ الذي أنذرهم إياه ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبلِ ذلك في أوانِ التَّكليفِ ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالغيبِ ﴾ ويرجمون بالظَّنِّ ويتكلَّمون بما لم يظهر لهم في حقِّ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من المطاعنِ أو في العذابِ المذكورِ من بت القول بنفيه ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ من جهةٍ بعيدةٍ من حاله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حيث ينسبونَه صلى الله عليه وسلم إلى الشِّعرِ والسِّحرِ والكذب وأنَّ أبعدَ شيءٍ ممَّا جاءَ به الشِّعرُ والسِّحرُ وأبعدُ شيءٍ من عادته المعروفة فيما بين الدَّاني والقاصِي الكذبُ، ولعله تمثيلٌ لحالِهم في ذلك بحالِ مَن يرمي شيئاً لا يراه من مكانٍ بعيدٍ لا مجالَ للوهم في لحوقِه. وقُرىء ويُقذفون على أنَّ الشَّيطانَ يلقي إليهم ويلقِّنهم ذلك وهو معطوفٌ على قد كفروا به على حكايةِ الحالِ الماضيةِ أو على قالُوا فيكون تمثيلاً لحالِهم بحالِ القاذفِ في تحصيل ما ضيَّعوه من الإيمانِ في الدُّنيا ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ مع نفعِ الإيمانِ والنَّجاة من النَّارِ. وقُرىء بإشمامِ الضَّمِّ للحاء ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ أي بأشباهِهم من كفرةِ الأُممِ الدَّارجة ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ أي مُوقعٍ في الرِّيبةِ أو ذي ريبةٍ. والأوَّلُ منقولٌ ممَّن يصحُّ أن يكونَ مُريباً من الأعيانِ إلى المعنى والثاني من

صاحبِ الشّكّ إلى الشّكِ كما يُقال شعرٌ شاعرٌ والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(39/637)

---

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ ﴾

عن الحق ﴿ فَإِنَّمَا أَضِلُّ على نَفْسِى ﴾ أي عائداً ضرر ذلك ووباله عليها فإنها الكاسبة للشرور والأمارة بالسوء ﴿ وَإِنِ اهتديت ﴾ إلى الحق ﴿ فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبّى ﴾ فإن الاهتداء بهدايته تعالى وتوفيقه عز وجل ، وما موصولة أو مصدرية ، وكان الظاهر وإن اهتديت فلها كقوله تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ﴾ [ فصلت : 46 ] أو إن ضللت فإنما أضل بنفسي ليظهر التقابل لكنه عدل عن ذلك اكتفاء بالتقابل بحسب المعنى لأن الكلام عليه أجمع فإن كل ضرر فهو من النفس وبسببها وعليها وباله ، وقد دل لفظ على في القرينة الأولى على معنى اللام في الثانية والباء في الثانية على معنى السببية في الأولى فكأنه قيل : قل إن ضللت فإنما أضل بسبب نفسي على نفسي وإن اهتديت فإنما اهتدى لنفسي بهداية الله تعالى وتوفيقه سبحانه ، وعبر عن هذا ﴿ بِمَا

يوحى إِلَيَّ رَبِّي ﴾ لأنه لازمه ، وجعل على للتعليل وإن ظهر عليه التقابل ارتكاب لخلاف الظاهر من غير نكتة .

وجوز أن يكون معنى القرينة الأولى قل إن ضللت فإنما أضل علي لا على غيري ، ولا يظهر عليه أمر التقابل مطلقاً ، والحكم على ما قال الزمخشري عام وإنما أمر صلى الله عليه وسلم أن يسنده إلى نفسه لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به ، وقال الإمام : أي إن ضلال نفسي كضلالكم لأنه صادر من نفسي ووباله عليها وأما اهتدائي فليس كاهتدائكم بالنظر والاستدلال وإنما هو بالوحي المنير فيكون مجموع الحكمين عنده مختصاً به عليه الصلاة والسلام ، وفيما ذكره دلالة على ما قال الطيبي على أن دليل النقل أعلى وأفخم من دليل العقل وفيه بحث .

وقرأ الحسن .

وابن وثاب .

(40/637)

---

وعبد الرحمن المقري ﴿ ضَلَلْتُ ﴾ بكسر اللام و ﴿ أَضَلَّ ﴾ بفتح الضاد وهي لغة تميم ، وكسر عبد الرحمن همزة ﴿ أَضَلَّ ﴾ وقرىء ﴿ رَبِّي ﴾ بفتح الياء ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ

﴾ فلا يخفى عليه سبحانه قول كل من المهتدي والضال وفعله وإن بالغ في إخفائهما فيجازى كلاًّ بما يليق .

﴿ وَلَوْ ترى إِذْ فَزِعُواْ ﴾ أي اعتراهم انقباض ونفار من الأمر المهول المخيف ، والخطاب في ترى للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل من تصح منه الرؤية ، ومفعول ﴿ تَرَى ﴾ محذوف أي الكفار أو فزعهم أو هو ﴿ إِذْ ﴾ على التجوز إذ المراد برؤية الزمان رؤية ما فيه أو هو متروك لتنزيل الفعل منزلة اللازم أي لو تقع منك رؤية وجواب ﴿ لَوْ ﴾ محذوف أي لرأيت أمراً هائلاً ، وهذا الفزع على ما أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد يوم القيامة ، والظاهر عليه أنه فزع البعث وهو مروى عن الحسن .

وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن قتادة أنه في الدنيا عند الموت حين عاينوا الملائكة عليهم السلام .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك أنه يوم بدر فقيل هو فزع الحرب ، وعن السدي .



---

وابن زيد فزع ضرب أعناقهم ومعاينة العذاب ، وقيل في آخر الزمان حين يظهر المهدي ويبعث إلى السفياني جنداً فيهزمهم ثم يسير السفياني إليه حتى إذا كان ببيداء من الأرض

خسف به وبمن معه فلا ينجو منهم إلا المخبر عنهم فالفزع فزع ما يصيبهم يومئذٍ ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ فلا يفوتون الله عز وجل بهرب أو نحوه عما يريد سبحانه بهم ﴿ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من الموقف إلى النار أو من ظهر الأرض إلى بطنها أو من صحراء بدر إلى القليب أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم، والمراد بذكر قرب المكان سرعة نزول العذاب بهم والاستهانة بهم وبهلاكهم وإلا فلا قرب ولا بعد بالنسبة إلى الله عز وجل، والجملة عطف على ﴿ فَزِعُواْ ﴾ على ما ذهب إليه جماعة قال في "الكشف": وكأن فائدة التأخير أن يقدر فلا فوت ثانياً إما تأكيداً وأما أن أحدهما غير الآخر تنبيهاً على أن عدم الفوت سبب للأخذ وأن الأخذ سبب لتحققه وجوداً، وفيه مبالغة حسنة، وقيل على ﴿ لا فَوْتَ ﴾ على معنى فلم يفوتوا وأخذوا، واختاره ابن جني معترضاً على ما تقدم بأنه لا يراد ولو ترى وقت فزعهم وأخذهم وإنما المراد ولو ترى إذ فزعوا ولم يفوتوا وأخذوا، وبما نقل عن الكشف يتحصل الجواب عنه.

وجوز كونها حالاً من فاعل ﴿ فَزِعُواْ ﴾ أو من خبر لا المقدر وهو لهم بتقدير قد أو بدونه، والفاء في ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ قيل إن كانت سببية فهي داخلة على المسبب لأن عدم فوتهم من فزعهم وتحيرهم وإن كانت تعليلية فهي تدخل على السبب لترتب ذكره على ذكر المسبب، وإذا عطف ﴿ أُخِذُواْ ﴾ عليه أو جعل حالاً من الخبر يكون هو المقصود بالتفريع.

وقرأ عبد الرحمن مولى بني هاشم عن أبيه وطلحة ﴿ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا ﴾ مصدرين منونين .

(42/637)

---

وقرأ أبي ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ مبنياً ﴿ وَأَخَذَ ﴾ مصدرا منوناً ، وإذا رفع أخذ كان خبر مبتدأ محذوف أي وحالهم أخذ أو مبتدأ خبره محذوف أي وهناك أخذ وإلى ذلك ذهب أبو حيان ، وقال الزمخشري : قرىء وأخذ بالرفع على أنه معطوف على محل ﴿ لا فَوْتَ ﴾ ومعناه فلا فوت هناك وهناك أخذ .

﴿ وَقَالُواْ ءامَنَّا بِهِ ﴾ أي بالله عز وجل على ما أخرجه جمع عن مجاهد ، وقالت فرقة : أي بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد مر ذكره في قوله سبحانه : ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مّن جِنَّةٍ ﴾ [ سبأ : 46 ] وقيل الضمير للعذاب ، وقيل للبعث ، ورجح رجوعه إلى محمد عليه الصلاة والسلام لأن الإيمان به صلى الله عليه وسلم شامل للإيمان بالله عز وجل وبما ذكر من العذاب والبعث ﴿ وأنى لَهُمُ التناوش ﴾ التناوش التناول كما قال الراغب وروي عن مجاهد .

وقال الزمخشري : هو تناول سهل لشيء قريب يقال ناشه ينوشه وتناوشه القوم وتناوشوا

في الحرب ناش بعضهم بعضاً بالسلاح، وقال الراجز:

فهي تنوش الحوض نوشاً من علا . . .

نوشاً به تقطع أجواز الفلا

وإبقاؤه على عمومه أولى أي من أين لهم أن يتناولوا الإيمان ﴿ مِن مَّكَانِ بَعِيدٍ ﴾ فإنه في حيز التكليف وهم منه بمعزل بعيد؛ ونقل في "البحر" عن ابن عباس تفسير ﴿ التناوش ﴾ بالرجوع أي من أين لهم الرجوع إلى الدنيا، وأنشد ابن الأنباري:

تمنى أن تؤوب إلى مي . . .

وليس إلى تناوشها سبيل

ولا يخفى أنه ليس بنص في ذلك، والمراد تمثيل حالهم في الاستخلاص بالإيمان بعد ما فات عنهم وبعد بحال من يريد أن يتناول الشيء بعد أن بعد عنه وفات في الاستحالة.

وقرأ حمزة.

والكسائي.

وأبو عمرو.

وأبو بكر ﴿ التناؤش ﴾ بالهمز وخرج على قلب الواو همزة، قال الزجاج: كل واو مضمومة ضمة لازمة فأنت بالخيار فيها إن شئت أبقيتها وإن شئت قلبتها همزة فتقول ثلاث أدور بلا همز وثلاث أدؤر بالهمز.

وتعقب ذلك أبو حيان فقال : إنه ليس على إطلاقه بل لا يجوز ذلك في المتوسطة إذا كانت مدغماً فيها نحو تعود وتعوذ مصدرين وقد صرح بذلك في التسهيل ولا إذا صحت في الفعل نحو ترهوك ترهوكاً وتعاون تعاوناً ؛ وعلى هذا لا يصح التخريج المذكور لأن التناوش كالتعاون في أن واوه قد صحت في الفعل إذ تقول تناوش فلا يهمز .

وقال الفراء : هو من نأشت أي تأخرت وأنشد قول نهشل :

تمنى نئيشاً أن يكون أطاعني . . .

وقد حدثت بعد الأمور أمور

أي تمنى أخيراً ، والضمير للمولى في قوله :

ومولى عصاني واستبد برأيه . . .

كما لم يطع فيما أشاء قصير

فالهمزة فيه أصلية واللفظ ورد من مادتين ، وقال بعضهم : هو من نأشت الشيء إذا طلبته ، قال رؤبة :

أقحمني جار أبي الخابوش . . .

إليك نأش القدر النؤش

فالهمزة أصلية أيضاً ، قيل والتناؤش على هذين القولين بمعنى التناول من بعد لأن الأخير يقتضي ذلك والطلب لا يكون للشيء القريب منك الحاضر عندك فيكون من ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ تأكيداً أو يجرد التناوش لمطلق التناول ، وحمل البعد في قيده على البعد الزماني بحث فيه الشهاب بأنه غير صحيح لأن المستعار منه هو في المكان وما ذكر من أحوال المستعار له .

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ ﴾ حال أو معطوف أو مستأنف والأول أقرب ، والضمير المجرور لما عاد عليه الضمير السابق في ﴿ آمنا بِهِ ﴾ ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل ذلك في أوان التكليف .

(44/637)

---

﴿ وَيَقْذِفُونَ بالغيب ﴾ أي كانوا يرجمون بالمظنون ويتكلمون بما لم يظهر لهم ولم ينشأ عن تحقيق في شأن الله عز وجل فينسبون إليه سبحانه الشريك ويقولون الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً أو في شأن الرسول عليه الصلاة والسلام فيقولون فيه وحاشاه : شاعر وساحر وكاهن أو في شأن العذاب أو البعث فيبتون القول بنفيه ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ من جهة بعيدة من أمر من تكلموا في شأنه ، والجملة عطف على ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا ﴾

وكان الظاهر وقذفوا إلا أنه عدل إلى صيغة المضارع حكاية للحال الماضية ، والكلام قيل لعله تمثيل لحالهم من التكلم بما يظهر لهم ولم ينشأ عن تحقيق بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه ، وجوز الزمخشري كونه عطفاً على ﴿ قَالُواْ ءامَنَّا بِهِ ﴾ على أنهم مثلوا في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم آمنا في الآخرة وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئاً من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائباً عنه شاحطاً .

وقرأ مجاهد .

وأبو حيوة .

ومحبوب عن أبي عمرو ﴿ يقذفون ﴾ مبنياً للمفعول ؛ قال مجاهد : أي ويرجمهم الوحي بما يكرهون مما غاب عنهم من السماء ، وكأن الجملة في موضع الحال من ضمير كفروا كأنه قيل : وقد كفروا به من قبل وهم يقذفون بالحق الذي غاب عنهم وخفي عليهم ، والمراد تعظيم أمر كفرهم ، وجوز أن يراد بالغيب ما خفي من معايبهم أي وقد كفروا وهم يقذفهم الوحي من السماء ويرميهم بما خفي من معايبهم .

وقال أبو الفضل الرازي : أي ويرمون بالغيب من حيث لا يعلمون ، ومعناه يجازون بسوء أعمالهم ولا علم لهم بما أتاه إما في حال تعذر التوبة عند معاينة الموت وإما في الآخرة انتهى ، وفي حالية الجملة عليه نوع خفاء .

وقال الزمخشري : أي وتقذفهم الشياطين بالغيب ويلقنونهم إياه وكان الجملة عطف على ﴿ قَدْ كَفَرُوا ﴾ وقيل أي يلقون في النار وهو كما ترى .

(45/637)

---

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾

قال ابن عباس : هو الرجوع إلى الدنيا ، وقال الحسن : هو الإيمان المقبول ، وقال قتادة : طاعة الله تعالى ، وقال السدي : التوبة ، وقال مجاهد : الأهل والمال والولد .

وقيل أي حيل بين الجيش والمؤمنين بالخسف بالجيش أو بينهم وبين تخريب الكعبة أو بينهم وبين النجاة من العذاب أو بينهم وبين نعيم الدنيا ولذتها وروي ذلك عن مجاهد أيضاً و ﴿ حيل ﴾ مبني للمجهول ونائب الفاعل كما قال أبو حيان ضمير المصدر أي وحيل هو أي الحول ؛ وحاصله وقعت الحيلولة ولإضماره لم يكن مصدرا مؤكداً فناب مناب الفاعل ،

وعلى ذلك يخرج قوله :

وقالت متى يبخل عليك ويعتلل . . .

يسؤك وإن يكشف غرامك تدرب

أي يعتلل هو أي الاعتلال ، وقال الحوفي : قام الظرف مقام الفاعل ، وتعقبه في "البحر" بأنه لو

كان كذلك لكان مرفوعاً والإضافة إلى الضمير لا تسوغ البناء وإلا لساغ جاء غلامك بالفتح ولا يقوله أحد ، نعم للبناء للإضافة إلى المبنى مواضع أحكمت في النحو ، وماذا يقول الحوفي في قوله :

وقد حيل بين العير والنزوان . . .

فإنه نصب بين مع إضافتها إلى معرب .

وقرأ ابن عامر .

والكسائي بإشمام الضم للحاء .

﴿ يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشياعهم مّن قَبْلُ ﴾ أي بأشباههم من كفرة الأمم الدارجة ، و ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ متعلق بأشياعهم على أن المراد من اتصف بصفتهم من قبل أي في الزمان الأول ، ويرجحه أن ما يفعل بجميعهم في الآخرة إنما هو في وقت واحد أو متعلق بفعل إذا كانت الحيلولة في الدنيا ، وعن الضحاك أن المراد بأشياعهم أصحاب الفيل ، والظاهر أنه جعل الآية في السفياني ومن معه .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ أي موقع في ريبة على أنه من أرابه أوقعه في ريبة وتهمة أو ذي ريبة من أراب الرجل صار ذا ريبة فإما أن يكون قد شبه الشك بإنسان يصح أن يكون مريباً على وجه الاستعارة المكنية التخييلية أو يكون الإسناد مجازياً أسند فيه ما لصاحب الشك للشك مبالغة كما يقال شعر شاعر ، وكأنه من هنا قال ابن عطية : الشك المريب أقوى ما يكون من الشك ، وضمير الجمع للإشباع وقيل : لأولئك المحدث عنهم والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

(47/637)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾

ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من أنواع كفرهم ، فقال : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ أي : الآيات القرآنية حال كونها ﴿ بينات ﴾ واضحات الدلالات ظاهرات المعاني ﴿ قَالُواْ مَا هذا ﴾ يعنون : التالي لها ، وهو النبي ﴿ إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُم ﴾ أي : أسلافكم من الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿ وَقَالُواْ ﴾ ثانياً ﴿ مَا هذا ﴾

يعنون : القرآن الكريم ﴿ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ أي : كذب مختلق ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ ثالثاً ﴿ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ أي : لأمر الدين الذي جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنْ هذا إِلَّآ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وهذا الإنكار منهم خاص بالتوحيد ، وأما إنكار القرآن ، والمعجزة ، فكان متفقاً عليه بين أهل الكتاب ، والمشركين .

وقيل : أريد بالأوّل ، وهو قولهم : ﴿ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ معناه ، وبالثاني ، وهو قولهم : ﴿ إِنْ هذا إِلَّآ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ نظمه المعجز .

وقيل : إن طائفة منهم قالوا : إنه إفك ، وطائفة قالوا : إنه سحر .

وقيل : إنهم جميعاً قالوا : تارة إنه إفك ، وتارة إنه سحر ، والأوّل أولى .

﴿ وَمَا ءاتيناهم مّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ أي : ما أنزلنا على العرب كتباً سماوية يدرسون فيها ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مّن نَّذِيرٍ ﴾ يدعوهم إلى الحقّ ، وينذرهم بالعذاب ، فليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول وجه ، ولا شبهة يتشبثون بها .

قال قتادة : ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن ، ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

قال الفرّاء ، أي : من أين كذبوك ، ولم يأتهم كتاب ، ولا نذير بهذا الذي فعلوه .

ثم خوّفهم سبحانه، وأخبر عن عاقبتهم، وعاقبة من كان قبلهم، فقال: ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من القرون الخالية ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا ءاتيناهم ﴾ أي: ما بلغ أهل مكة من مشركي قريش، وغيرهم من العرب عشر ما آتينا من قبلهم من القوّة، وكثرة المال، وطول العمر، فأهلكهم الله، كعاد، وثمود، وأمثالهم.

والمعشار: هو: العشر.

قال الجوهري: معشار الشيء عشره.

وقيل المعشار: عشر العشر، والأوّل أولى.

وقيل: إن المعنى: ما بلغ من قبلهم معشار ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى.

وقيل: ما بلغ من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم.

وقيل: ما أعطى الله من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم، والبيان، والحجة، والبرهان، والأوّل أولى.

وقيل: المعشار عشر العشير، والعشير عشر العشر، فيكون جزءاً من ألف جزء.

قال الماوردي: وهو الأظهر؛ لأن المراد به المبالغة في التقليل، قلت: مراعاة المبالغة في التقليل لا يسوغ لأجلها الخروج عن المعنى العربي، وقوله: ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِى ﴾ عطف على ﴿ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ على طريقة التفسير، كقوله: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ

فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا ﴾

[ القمر : 9 ] الآية ، والأولى أن : يكون من عطف الخاص على العام ، لأن التكذيب الأول لما حذف منه المتعلق للتكذيب أفاد العموم ، فمعناه : كذبوا الكتب المنزلة ، والرسل المرسلة ، والمعجزات الواضحة ، وتكذيب الرسل أخص منه ، وإن كان مستلزماً له ، فقد روعيت الدلالة اللفظية لا الدلالة الالتزامية ﴿ فَكَيْفَ كَانَ ﴾ أي : فكيف كان إنكاري لهم بالعذاب ، والعقوبة ، فليحذر هؤلاء من مثل ذلك .

قيل : وفي الكلام حذف .

والتقدير : فأهلكناهم ، فكيف كان نكير ، والنكير اسم بمعنى : الإنكار .

*(49/637)*

---

ثم أمر سبحانه رسوله : أن يقيم عليهم حجة ينقطعون عندها ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بواحدة ﴾ أي : أحذركم ، وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه ، وأوصيكم بخصلة واحدة ، وهي : ﴿ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مثنى وفرادى ﴾ هذا تفسير للخصلة الواحدة ، أو بدل منها ، أي : هي قيامكم وتشميركم في طلب الحقّ بالفكرة الصادقة متفرقين اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ، لأن الاجتماع يشوّش الفكر .

وليس المراد القيام على الرجلين، بل المراد القيام بطلب الحقّ، وإصداق الفكر فيه، كما يقال: قام فلان بأمر كذا ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ في أمر النبيّ، وما جاء به من الكتاب، فإنكم عند ذلك تعلمون أن ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾، وذلك؛ لأنهم كانوا يقولون: إن محمداً مجنون، فقال الله سبحانه: قل لهم: اعتبروا أمري بواحدة، وهي: أن تقوموا لله، وفي ذاته مجتمعين، فيقول الرجل لصاحبه: هلمّ، فلنتصادق، هل رأينا بهذا الرجل من جنة، أي: جنون، أو جرّبنا عليه كذباً، ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه، فيتفكر، وينظر، فإن في ذلك ما يدل على أن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق، وأنه رسول من عند الله، وأنه ليس بكاذب، ولا ساحر، ولا مجنون، وهو معنى قوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ أي: ما هو إلاّ نذير لكم بين يدي الساعة.

وقيل: إن جملة ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ مستأنفة من جهة الله سبحانه مسوقة للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن هذا الأمر العظيم، والدعوى الكبيرة لا يعّرض نفسه له إلاّ مجنون لا يبالي بما يقال فيه، وما ينسب إليه من الكذب، وقد علموا: أنه أرجح الناس عقلاً، فوجب: أن يصدّقوه في دعواه، لا سيما مع انضمام المعجزة الواضحة، وإجماعهم على أنه لم يكن ممن يفتري الكذب، ولا قد جرّبوا عليه كذباً مدّة عمره، وعمرهم.

وقيل: يجوز أن تكون "ما" في ﴿ مَا بصاحبكم ﴾ استفهامية، أي: ثم تتفكروا أيّ شيء به من آثار الجنون.

وقيل: المراد بقوله: ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بواحدة ﴾ هي: "لا إله إلاّ الله" كذا قال مجاهد، والسدّي.

وقيل: القرآن؛ لأنه يجمع المواعظ كلها، والأولى ما ذكرناه أوّلاً.

وقال الزجاج: إن "أن" في قوله: ﴿ أَن تَقُومُوا ﴾ في موضع نصب بمعنى: لأن تقوموا.

وقال السدّي: معنى مثنى وفرادى: منفرداً برأيه، ومشاوراً لغيره.

وقال القتيبي: مناظراً مع عشيرته، ومفكراً في نفسه.

وقيل: المثنى عمل النهار، والفرادى عمل الليل، قاله الماوردي.

وما أبرد هذا القول، وأقلّ جدواه.

واختار أبو حاتم، وابن الأنباري الوقف على قوله: ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾، وعلى هذا تكون جملة: ﴿ مَا بصاحبكم مّن جِنَّةٍ ﴾ مستأنفة كما قدّمنا.

وقيل: ليس بوقف، لأن المعنى: ثم تتفكروا هل جربتم عليه كذباً، أو رأيتم منه جنة، أو في أحواله من فساد.

ثم أمر سبحانه أن يخبرهم: أنه لم يكن له غرض في الدنيا، ولا رغبة فيها حتى تنقطع

عندهم الشكوك، ويرتفع الريب، فقال: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أي: ما طلبت منكم من جعل تجعلونه لي مقابل الرسالة، فهو لكم إن سألتكموه، والمراد نفي السؤال بالكلية، كما يقول القائل: ما أملكه في هذا، فقد وهبته لك، يريد أنه لا ملك له فيه أصلاً، ومثل هذه الآية قوله: ﴿ قُل لَّآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا المودة فِى القربى ﴾ [الشورى: 23]، وقوله: ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبّهِ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: 57].

ثم بين لهم: أن أجره عند الله سبحانه، فقال: ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى الله ﴾ أي: ما أجري إلاّ على الله لا على غيره ﴿ وَهُوَ على كُلّ شَىْء شَهِيدٍ ﴾ أي: مطلع لا يغيب عنه منه شيء.

(51/637)

---

﴿ قُلْ إِنَّ رَبّى يَقْذِفُ بالحق ﴾ القذف الرمي بالسهم، والحصى، والكلام.

قال الكلبي: يرمي على معنى: يأتي به، وقال مقاتل: يتكلم بالحق، وهو: القرآن، والوحي، أي: يلقيه إلى أنبيائه.

وقال قتادة ﴿ بالحق ﴾ أي: بالوحي، والمعنى: أنه يبين الحجة، ويظهرها للناس على

ألسن رسله ، وقيل : يرمي الباطل بالحق ، فيدمغه ﴿ علام الغيوب ﴾ قرأ الجمهور برفع : ﴿ علام ﴾ على أنه خبر ثانٍ لإنّ ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو بدل من الضمير في يقذف ، أو معطوف على محل اسم إن .

قال الزجاج : الرفع من وجهين على الموضع ، لأن الموضع موضع رفع ، أو على البدل .

وقرأ زيد بن علي ، وعيسى بن عمر ، وابن أبي إسحاق بالنصب نعتاً لاسم إنّ ، أو بدلاً منه ، أو على المدح .

قال الفراء : والرفع في مثل هذا أكثر كقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ [ ص : 64 ] ، وقرىء الغيوب بالحركات الثلاث في الغين ، وهو : جمع غيب ، والغيب هو : الأمر الذي غاب وخفي جداًّ .

﴿ قُلْ جَاء الحق ﴾ أي : الإسلام ، والتوحيد .

وقال قتادة : القرآن .

وقال النحاس : التقدير صاحب الحقّ ، أي : الكتاب الذي فيه البراهين ، والحجج .

وأقول : لا وجه لتقدير المضاف ، فإن القرآن قد جاء كما جاء صاحبه .

﴿ وَمَا يُبْدِىء الباطل وَمَا يُعِيدُ ﴾ أي : ذهب الباطل ذهاباً لم يبق منه إقبال ، ولا إدبار ، ولا إبداء ، ولا إعادة .

قال قتادة : الباطل هو : الشيطان ، أي : ما يخلق لشيطان ابتداء ، ولا يبعث ، وبه قال

مقاتل ، والكلبي .

وقيل : يجوز أن تكون ما استفهامية ، أي : أيّ شيء يبديه ، وأيّ شيء يعيده ؟ والأوّل أولى .

(52/637)

---

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ ﴾ عن الطريق الحقة الواضحة ﴿ فَإِنَّمَا أَضِلُّ على نَفْسِى ﴾ أي : إثم ضلالتي يكون على نفسي ، وذلك أن الكفار قالوا له : تركت دين آبائك ، فضللت ، فأمره الله : أن يقول لهم هذا القول : ﴿ وَإِنِ اهتديت فِيمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبّى ﴾ من الحكمة ، والموعظة ، والبيان بالقرآن ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ مني ومنكم يعلم الهدى والضلالة .

قرأ الجمهور : ﴿ ضللت ﴾ بفتح اللام ، وقرأ الحسن ، ويحيى بن وثاب بكسر اللام ، وهي لغة أهل العالية .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَا ءاتيناهم ﴾ يقول : من القوّة في الدنيا .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي في الآية قال : يقوم الرجل مع

الرجل ، أو وحده ، فيفكر ما بصاحبه من جنة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ مَا بصاحبكم مّن جِنَّةٍ ﴾ يقول : إنه ليس بمجنون .

وأخرج هؤلاء عنه أيضاً في قوله : ﴿ مَا سَأَلْتُكُم مّن أَجْرٍ ﴾ أي : من جعل ، فهو لكم ، يقول : لم أسألكم على الإسلام جعلاً ، وفي قوله : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبّى يَقْذِفُ بالحق ﴾ قال : بالوحي ، وفي قوله : ﴿ وَمَا يُبْدِىء الباطل وَمَا يُعِيدُ ﴾ قال : الشيطان لا يبدىء ولا يعيد إذا هلك .

وأخرج هؤلاء أيضاً عنه في قوله : ﴿ وَمَا يُبْدِىء الباطل وَمَا يُعِيدُ ﴾ قال : ما يخلق إبليس شيئاً ، ولا يبعثه .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن عمر بن سعد في قوله : ﴿ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ على نَفْسِى ﴾ قال : إنما أوخذ بجنايتي .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (51) ﴾

ثم ذكر سبحانه حالاً من أحوال الكفار ، فقال : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ فَزِعُواْ ﴾ ، والخطاب لرسول الله ، أو لكل من يصلح له قيل : المراد فزعهم عند نزول الموت بهم .

وقال الحسن : هو : فزعهم في القبور من الصيحة ، وقال قتادة : هو : فزعهم إذا خرجوا من قبورهم .

وقال السدّي : هو : فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة ، فلم يستطيعوا فراراً ولا رجوعاً إلى التوبة .

وقال ابن مغفل : هو : فزعهم إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة .

وقال سعيد بن جبير : هو : الخسف الذي يخسف بهم في البيداء ، فيبقى رجل منهم ، فيخبر الناس بما لقي أصحابه ، فيفزعون .

وجواب لو محذوف ، أي : لرأيت أمراً هائلاً ، ومعنى ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ : فلا يفوتني أحد منهم ، ولا ينجو منهم ناجٍ .

قال مجاهد : فلا مهرب ﴿ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من ظهر الأرض ، أو من القبور ، أو من موقف الحساب .

وقيل : من حيث كانوا ، فهم من الله قريب لا يبعدون عنه ، ولا يفوتونه .

قيل : ويجوز أن يكون هذا الفزع هو الفزع الذي بمعنى : الإجابة ، يقال : فزع الرجل : إذا أجاب الصارخ الذي يستغيث به كفزعهم إلى الحرب يوم بدر .

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ أي : بمحمد ، قاله قتادة ، أو بالقرآن .

وقال مجاهد : بالله عزّ وجلّ .

وقال الحسن : بالبعث ﴿ وأنى لَهُمُ التناوش ﴾ التناوش التناول ، وهو تفاعل من التناوش الذي هو : التناول ، والمعنى : كيف لهم أن يتناولوا الإيمان من بعد ، يعني : في الآخرة ، وقد تركوه في الدنيا ، وهو معنى ﴿ مِن مّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ : وهو تمثيل لحالهم في طلب الخلاص بعد ما فات عنهم .

قال ابن السكيت : يقال : للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذ برأسه ، أو بلحيته ناشه ينوشه نوشاً ، وأنشد :

فهي تنوش الحوض نوشاً من علا . . . نوشاً به تقطع أحواز الفلا

أي : تناول ماء الحوض من فوق ، ومنه المناوشة في القتال ، وقيل : التناوش الرجعة ، أي : وأنى لهم الرجعة إلى الدنيا ؛ ليؤمنوا ، ومنه قول الشاعر :

تمنى أن تئوب إليّ مي . . . وليس إلى تناوشها سبيل



---

وجملة : ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : والحال أن قد كفروا بما آمنوا به الآن من قبل هذا الوقت ، وذلك حال كونهم في الدنيا .

قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، والأعمش: (التناؤش) بالهمز، وقرأ الباقون بالواو، واستبعد أبو عبيد، والنحاس القراءة الأولى، ولا وجه للاستبعاد، فقد ثبت ذلك في لغة العرب، وأشعارها، ومنه قول الشاعر:

قعدت زماناً عن طلابك للعلا . . . وجئت نئيشاً بعد ما فاتك الخير

أي: وجئت أخيراً.

قال الفراء: الهمز، وترك الهمز متقارب ﴿ وَيَقْذِفُونَ بالغيب ﴾ أي: يرمون بالظنّ، فيقولون: لا بعث، ولا نشور، ولا جنة، ولا نار ﴿ مِن مّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي: من جهة بعيدة ليس فيها مستند لظنهم الباطل.

وقيل: المعنى: يقولون في القرآن أقوال باطلة: إنه سحر، وشعر، وأساطير الأوّلين.

وقيل: يقولون في محمد إنه ساحر شاعر كاهن مجنون.

وقرأ أبو حيوة، ومجاهد، ومحبوب عن أبي عمرو: (يقذفون) مبنياً للمفعول، أي: يرجمون بما يسوؤهم من جراء أعمالهم من حيث لا يحتسبون، وفيه تمثيل لحالهم بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم في لحوقه، والجملة إما معطوفة على: ﴿ وقد كفروا به ﴾ على أنها حكاية للحال الماضية، واستحضار لصورتها، أو مستأنفة لبيان تمثيل حالهم.

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من النجاة من العذاب ، ومنعوا من ذلك وقيل : حيل بينهم ، وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم ، وأهليهم ، أو حيل بينهم ، وبين ما يشتهونه من الرجوع إلى الدنيا ﴿ كَمَا فُعِلَ بأشياعهم مّن قَبْلُ ﴾ أي : بأمثالهم ، ونظرائهم من كفار الأمم الماضية ، والأشياع جمع شيع ، وشيع جمع شيعة ، وجملة : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكّ مُّرِيبِ ﴾ تعليل لما قبلها ، أي : في شك موقع في الريبة ، أو ذي ريبة من أمر الرسل ، والبعث ، والجنة ، والنار ، أو في التوحيد ، وما جاءتهم به الرسل من الدين ، يقال : أراب الرجل إذا صار ذا ريبة ، فهو مريب ، وقيل : هو من الريب الذي هو الشك ، فهو كما يقال عجب عجيب ، وشعر شاعر .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَلاَ فَوْتَ ﴾ قال : فلا نجاة . وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ فَزِعُواْ فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ قال : هو جيش السفياني قيل : من أين أخذوا ؟ قال : من تحت أقدامهم .

وقد ثبت في الصحيح : أنه يخسف بجيش في البيداء من حديث حفصة ، وعائشة ، وخارج الصحيح من حديث أمّ سلمة ، وصفية ، وأبي هريرة ، وابن مسعود ، وليس في شيء منها أن ذلك سبب نزول هذه الآية ، ولكنه أخرج ابن جرير من حديث حذيفة بن اليمان قصة الخسف هذه مرفوعة ، وقال في آخرها : فذلك قوله عزّ وجلّ في سورة سبأ :

﴿ وَلَوْ ترى إِذْ فزِعُوا فَلاَ فَوْتَ ﴾ الآية .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأنى لَهُمُ التناوش ﴾ قال : كيف لهم الردّ ؟ ﴿ مِن مّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال : يسألون الردّ ، وليس بحين ردّ .

وأخرج ابن المنذر عن التيمي قال : أتيت ابن عباس قلت : ما التناوش ؟ قال : تناول الشيء ، وليس بحين ذاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(56/637)

---

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُواْ مَا هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُكُمْ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [ الإسراء : 94 ] .

وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44)

قد قدمنا الآيات التي بمعناه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [ الإسراء : 15 ] .

وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (45)

ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أنه أهلك الأمم الماضية لما كذّبت رُسُلَه ، وأنّ الأمم الماضية أقوى ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، وأنّ كفّار مكّة عليهم أن يخافوا من إهلاك الله لهم بسبب تكذيب رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما أهلك الأمم التي هي أقوى منهم ، ولم يؤتوا : أي كفار مكّة معشار ما أتى الله الأمم التي أهلكها من قبل من القوّة ، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ كانوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأرض ﴾ [ غافر : 82 ] وقد قدّمنا بعض الكلام على هذا في سورة الروم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَأَثَارُواْ الأرض وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [ الروم : 9 ] .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة المؤمنون في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَآءَهُمْ بالحق وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [ المؤمنون : 70 ] .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ .

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة هود في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وياقوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله ﴾ [ هود : 29 ] .

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (49)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَآءَ الحق وَزَهَقَ الباطل إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقاً ﴾ [ الإسراء : 81 ] .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ على نَفْسِي وَإِنِ اهتديت فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ .

قد قدمنا الآيات التي بمعناه في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث ﴾ [ الأنبياء : 78 ] في معرض بيان حجج الظاهرية في دعواهم منع الاجتهاد .

وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (52)

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنّ الكفار يوم القيامة يؤمنون بالله ، وأنّ ذلك الإيمان لا ينفعهم لفوات وقت نفعه ، الذي هو مدة دار الدنيا جاء موضحاً في آيات كثيرة .

وقد قدمنا الآيات الدالة عليه في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ﴾ [ الأعراف : 53 ] الآية .

وفي سورة مريم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لكن الظالمون اليوم فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [ مريم : 38 ] ، وفي غير ذلك من المواضع . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وأنى لَهُمُ التناوش مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أنَّى تدل على كمال الاستبعاد هنا ، والتناوش : التناول ، وقال بعضهم : هو خصوص التناول السهل للشيء القريب .

والمعنى : أنه يستبعد كلّ الاستبعاد ويبعد كل البعد ، أن يتناول الكفار الإيمان النافع في الآخرة بعد ما ضيّعوا ذلك وقت إمكانه في دار الدنيا ، وقيل الاستبعاد لردّهم إلى الدنيا مرة أخرى ليؤمنوا ، والأول أظهر ، ويدل عليه قوله قبله : ﴿ وقالوا آمَنَّا بِهِ ﴾ ومن أراد تناول شيء من مكان بعيد لا يمكنه ذلك . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : « قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا . . ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ » .

بعد هذا التهديد الذي أنذر به المشركون من أن يحل بهم ما حل بالظالمين المكذبين قبلهم.

جاءت آيات اللّه تدعوهم إلى ما هو خير لهم ، وتفتح لهم الطريق إلى النجاة والخلاص . .

(60/637)

---

والآية الكريمة ، تكشف عن أسلوب الدعوة الإسلامية ، القائم على مواجهة العقل ، ودعوته بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإعطائه حقه فى طلب الدليل المقنع ، والبرهان الواضح ، ثم الاعتراف له بما يقضى به ، بعد النظر السليم ، المجرد من الهوى ، المبرأ من التحدي والعناد . . ! فهذه هى رسالة الإسلام فى الإنسانية . . إنها تريد أولا وقبل كل شىء ، أن تحرر العقل من العادات الفاسدة ، والمعتقدات الباطلة ، التي استولت عليه ، وشلّت إرادة التفكير فيه . .

فإذا تحرر العقل من هذه الآفات ، وتخلص من تلك القيود ، فقد كسب نصف المعركة فى صراعه مع الباطل ، ثم كان عليه بعد هذا أن يكسب النصف الآخر ، حتى يتلخص من

الضلال ، ويخرج من عالم الظلام إلى عالم الهدى والنور . . وهو أن يدير عقله على هذا الوجود ، وأن ينظر فيه بعقله المتحرر هذا . . فإنه إن فعل ، فلابد أن يهتدى إلى اللّه ، ويتعرف إليه ، ويؤمن به . .

.فقوله تعالى : «قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ» أي إنما أنصح لكم بنصيحة واحدة ، لا شىء غيرها . . إنها مجرد نصح ، لا إلزام فيه ، فإن قبلتم فذلك لكم ، وهو حظكم ، وإن لم تقبلوا فأنتم وشأنكم . .

.والعظة الواحدة ، هى : «أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا» .

والقيام للّه ، هو القصد ، والتوجه إليه ، وذلك بطلب البحث عنه بحثا جادّا . . فإن الإنسان الذي يريد أن يتخذ له معبودا يعبده ، يجب أن يتعرف إليه ، وأن يتحقق من آثاره وأفعاله ، وما له من سلطان فى هذا الوجود . .

ثم لا يقبل المعبود حتى يراه المالك لكل شىء ، المنصرف فى كل شىء ، والقيام للّه مثنى وفرادى ، هو أن يكون التفكير فى اللّه ، حديثا إلى النفس أولا ، بما يقع فيها من خواطر عن اللّه . . ثم مراجعة هذه الخواطر مع شخص آخر ، يراه الإنسان صاحب نظر ورأى ، حتى يستقيم له من تلك

المراجعة ، وتقليب الرأى بينه وبين صاحبه هذا - مفهوم لذات اللّه ، وحتى يجتمع له تصور لعظمته وجلاله وقدرته ، ثم تكون المرحلة الثالثة والأخيرة ، وهى الرجوع إلى نفسه ، وعرض هذا المفهوم وذلك التصور على عقله ، حتى يهتدى إلى الرأى الذي يطمئن إليه ، والتصور الذي يستريح له . .

هذه هى مراحل التفكير ، فى أي أمر ذى شأن بعرض للإنسان . .

ففى المرحلة الأولى تظهر الفكرة فى صورة خاطرة أو وساوسة ، يلوح فى سماء العقل ، ويضطرب فى مخيلته . .

ومثل هذا الخاطر أو الوسواس ، يعيش قلقا مضطربا ، لا يجد له مستقرا فى العقل ، حتى يجد الأرض الصلبة التي يقف عليها . . وهنا تجىء المرحلة الثانية . .

وفى المرحلة الثانية هذه ، يبحث العقل عن عقل آخر يأنس به ، ويقابل ما عنده من خواطر ووساوس بخواطره ووساوسه . .

وفى هذا اللقاء بين العقلين ، يكثر الأخذ والرد ، والقبول والرفض ، ثم ينجلى هذا المخض عن زبدة ، هى الشرارة التي تنقدح من اللقاء بين العقلين ، والتي تضىء بها جوانب النفس ، وينكشف على ضوئها وجه الرأى فى الأمر المتداول بينهما . . وينتهى هذا الحوار ، أو هذا اللقاء بين العقول ، وقد ذهب كل واحد منها بما حصل عليه ، من شك أو يقين . .

وعندئذ يجد العقل أن ما حصل عليه ليس خالصا له ، وإنما هو ـ على صورتى الشك واليقين ـ قسمة بينه وبين العقل الذي جرى معه هذا الشوط للوصول إلى تلك الغاية . .

وهنا تجىء المرحلة الثالثة ، التي يسوى فيها العقل حساب الأمر الذي بين يديه ، على الوجه الذي يراه هو ، مستقلا عن أي عون خارجى . .



---

وفى المرحلة الثالثة هذه ، يخلو العقل بنفسه ، ما شاء له أن يخلو ، فيعيد عرض الأمر فى هدوء ، ويقلب وجوهه فى سعة من الوقت ، وحرية من العمل . .

وقد يظل هكذا زمنا يبلغ عمر الإنسان كله ، دون أن يصل إلى الرأى الذي يطمئن إليه ، وقد تطلع عليه شمس الحقيقة فى لحظة خاطفة ، وعلى غير انتظار ! هذا ، ويلاحظ ـ وهذا إعجاز من إعجاز القرآن الكريم ـ أن الآية الكريمة ، لم تذكر المرحلة الأولى وبدأت بالمرحلة الثانية ، وهى لقاء عقل الإنسان بعقل غيره ، ومقابلة تفكيره بتفكير غيره وذلك ، أن المرحلة الأولى ، هى مرحلة مشتركة فى الناس جميعا ، فإن أي إنسان عاقل ، لا يمكن أبدا أن تخلو نفسه من خواطر ، ووساوس ، عن التفكير فى « الإله » . . أما الذي هو غير واقع فى الناس جميعا ، فهو عرض هذه الخواطر والوساوس على عقول الآخرين . .

فهناك كثير من الناس يعيشون مع ما يطرقهم من خواطر ووساوس ، دون أن يعرضوها على أحد ، بل يمسكون بها فى صدورهم حتى يموتوا بها ، تماما كما يمسك بعض المرضى ، بأمراضهم ، دون أن يطبّوا لها ، وأن يعرضوها على أهل الذكر والمعرفة بأدواء الأجسام وعللها . .

كما يلاحظ ـ وهذا إعجاز من إعجاز القرآن الكريم أيضا ـ أن الآية الكريمة حصرت التفكير فى دائرة الفرد نفسه ، ثم لم تتجاوز به أكثر من فرد وفرد . . وهذا يعنى أن العقل إنما يكون فى أحسن حالاته ، حين يفكر وحده ، أي حين ينفرد بالتفكير فيما تجمّع لديه من حصيلة من الأفكار والآراء ، يردّها إلى نفسه ، ويقلبها بين يديه . . فهذا الذي يحقق للعقل ذاتيته ، ويعطيه وجوده ، ويمكن له من سلطانه . . فإذا كان ولا بد من مشاركة أحد ، فليكن ذلك فى أضيق الحدود ، ومع عقل آخر ، هو أشبه بالمرآة التي يرى فيها الإنسان ذاته . . أما التفكير الجماعى ، وخاصة فى أمر يتصل بالضمير ، كالإيمان باللّه واليوم الآخر ، فإنه يشوش على العقل ،

ويحجب عنه الرؤية الصحيحة لما هو ناظر إليه . .

وقد كشف علم النفس ، عن أن هناك عقلين ، عقلا فرديا ، وعقلا جماعيا ، وأن العقل الجماعى ، قد يقنع الإنسان بما لم يكن محلّ إقناع فى تفكيره الفردى . . وهذا إن صحّ فى الأمور العارضة ، فإنه لا يصحّ فى أمر العقيدة ، التي هى أمر شخصى محض . .

.وقوله تعالى : « ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ » .

هذا هو الحكم الذي يصل إليه العقل ، إذا جرى على هذا الأسلوب الذي دعى إليه ، من التفكير فى هذا الأمر الذي يدعو الرسول إليه ، تفكيرا قائما على البحث الجادّ ، والرغبة الصادقة فى الكشف عن الحقيقة . . إنه لو أخذ الإنسان ـ أي إنسان ـ بتلك العظة التي دعا القرآن إليها ، وهى أن يقوم للّه مفكرا وحده ، أو مع غيره ـ لوصل إلى تلك الحقيقة ، وهى أن هذا الرسول ليس به جنّة ، وأن ما يدعو إليه هو الحقّ . . وأنه رسول اللّه ، ونذير لهم بين يدى عذاب شديد ، هو عذاب يوم القيامة . .

قوله تعالى : «قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ . . إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ . . وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » وهذه مادة من مواد التفكير ، فى سبيل البحث عن الحقيقة التي يدعو إليها الرسول عقل ذوى العقل ، فهذه المادة مما تعين على الكشف عن الحقيقة والتهدّى إليها . .

وتلك المادة هى أن الرسول ـ صلوات اللّه وسلامه عليه . . لم يطلب أجرا من أحد على ما يدعو إليه ، وأنه لم يطلب بذلك

جاها أو سلطانا : « ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ » ! حتى أكون بموضع تهمة ، بأننى إنما أدعو إلى ما أدعو إليه ، ابتغاء كسب مادىّ لذات نفسى . . إنها دعوة بريئة من كل غرض شخصى ، خالصة من كل مؤونة تحملونها من أجلها . .

فماذا يحجزكم عنها ، أو يحملكم على التصدّى لها ، والوقوف فى وجهها ؟

.وقوله تعالى : « فَهُوَ لَكُمْ . . إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ » أي إن يكن هناك أجر وخير فى هذه الدعوة ، فهو لكم . . أمّا أنا ، فإن أجرى على اللّه . .

فأنا أحمل رسالته إليكم خالصة ، ولا آخذ منكم على هذا الحمل أجرا ، وإنما أجرى على الذي حملنى رسالته . .

ويجوز أن يكون الضمير « هو » فى قوله تعالى : « فَهُوَ لَكُمْ » عائدا إلى القرآن الكريم ، الذي يدعوهم الرسول الكريم إلى الاستماع إليه ، والنظر فيه ، ثم الإيمان بما يدعوهم إليه من عقيدة وشريعة . . والقرآن وإن لم يجر له ذكر فى الآية ، فهو - فى الحقيقة - المواجه للقوم ، والمتحدث إليهم . .

وعلى هذا يكون « ما » فى قوله تعالى : « قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ » حرف نفى ، بمعنى

أننى لم أسألكم أجرا على هذا الكتاب الذي أتلوه عليكم ، فهذا الكتاب هو كتابكم ، إنه لكم ، هدى ورحمة من عند اللّه . . فكيف أطلب أجرا منكم على أمر هو لكم . ؟ إنه لا أجر لى عندكم ، إنما أجرى على اللّه . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » ! وقوله سبحانه : « وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » (44 : النحل) . . فالكتاب منزل إلى الناس ، والرسول عليه الصلاة والسلام هو المتلقى لهذا الكتاب من ربه ، وهو الحامل لهذه الأمانة ، المطلوب منه أداؤها إلى أهلها ، وهم الناس جميعا . .

وقوله تعالى : « وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » . . أي قائم على كل شىء ،



---

يراه رؤية شهود ، فيعلم كل شىء علما كاشفا . . يعلم ما أنا عليه من قيامى برسالة ربى إليكم ، ويعلم ما يكون منكم من قبول لهذه الرسالة ، أو ردّها ، وسيجزى كلّا بما عمل . .

قوله تعالى : « قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » .

والمراد بالقذف بالحق : رمى الباطل بالحق ، حتى يصرعه . . فالقذف ، هو الرمي الشديد ، كما يقذف بالحجر أو نحوه ، ليصيب مقتلا من عدوّ . .

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ . . فَإِذا هُوَ زاهِقٌ » (18 : الأنبياء) . .

وقوله تعالى : « عَلَّامُ الْغُيُوبِ » بدل من قوله تعالى : « يَقْذِفُ بِالْحَقِّ » . . أي أنه سبحانه لا يقذف بالحق هكذا خبط عشواء ، تعالى اللّه عن ذلك علوّا كبيرا . . إنه يقذف به عن علم ، فيقع حيث يشاء ، وحيث يصيب الباطل فى مقاتله . .

قوله تعالى : «قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ » هو تعقيب على الآية السابقة ، التي قررت أن اللّه سبحانه وتعالى لا ينزّل إلا ما هو حقّ ، ولا يرمى إلا بما هو حقّ . .

وها هو ذا الحقّ قد جاء فى هذه الدعوة التي يحملها الرسول الكريم فى آيات اللّه المطهرة . . وإنها لحق قذف به هذا الباطل الذي يعيش فى مجتمع الجاهليين . . وليس بعد هذا القذف إلا أن يلقى الباطل مصرعه ، وتختفى أشباح الضلال ، وأشياعه . .

*(66/637)*

---

فقوله تعالى : « وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ » . . إشارة إلى أن الباطل قد أصيب فى مقاتله ، وأنه لن تقوم له بعد اليوم قائمة ، ولن يكون له بعد اليوم صوت يسمع . . فالمراد بنفي البدء والإعادة لازمها ، وهو عدم التأثير ، . أي أنه الباطل يفقد كل آثاره وأفعاله ، بعد أن

يقذف بالحق، كما يقول سبحانه:

«بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ» (18: الأنبياء) قوله تعالى: «قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ»

وهذا الحقّ الذي جاء، إن ضللت عنه، ولم أتبع هديه. فإنما عاقبة هذا الضلال واقعة علىّ.. وإن اهتديت بهذا الهدى، واستقمت على طريقه، ففى هذا النجاة لى، والغنيمة التي أغتنمها منه..

وفى قوله تعالى: «فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي». إشارة إلى أن هدى القرآن هو الهدى، وأنه لا هدى إلا منه، وأن من التمس الهدى فى غيره ضلّ، وخاب وخسر..

وفى هذا إشارة أيضا إلى أن مصدر الهدى، هو اللّه سبحانه وتعالى، وأنه من هذا الهدى الإلهى، يهتدى النبىّ، ويهتدى المهتدون.. فالنبىّ. وهو رسول اللّه. إنما يلتمس الهدى من هذا القرآن، الذي هو حقّ للناس جميعا، ليس للنبىّ فيه، إلا ما للناس جميعا.. ومن هنا، فإنه لا حقّ له. صلوات اللّه وسلامه عليه. فى أن يطلب أجرا على شىء هو مشاع فى الناس، كالنور، والهواء، والماء.. وفى هذا أيضا دعوة إلى من يجدون فى أنفسهم أنفة أو كبرا أن يأخذوا من القرآن حظهم من الهدى إذ كان النبىّ هو الذي يحمله، ويدعو إليه. فى هذا دعوة لهم أن يتخففوا من هذا الشعور، وأن ينظروا إلى القرآن

باعتبار المصدر الذي جاء منه ، وأنه من عند اللّه ، وليس من عند محمد ، وأن محمدا يأخذ حظّه من هدى اللّه هذا ، فليأخذوا هم حظهم كذلك.فى غير حرج ، وليرتووا من هذا النبع العذب ، وألا يهلكوا أنفسهم ، بسبب أن كان القائم على هذا النبع رجلا منهم !

وقوله تعالى : «إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ» أي ليس اللّه سبحانه وتعالى بعيدا عن هذا الهدى الذي يدعوهم إليه رسول اللّه . . إنه قريب منهم ، سميع لهمسات شفاههم ، وخفقات قلوبهم . . إنه سبحانه ، أقرب إليهم ، وإلى هذا الهدى من رسول اللّه ، وأنهم إذا جاءوا إلى هذا الهدى وجدوا اللّه عنده . . فما لهم لا يتلقون الهدى من اللّه ، إن أنفوا أن يتلقوه من رسول اللّه ؟

إن فى هذه الحجة إلزاما لهم ، وقطعا لكل عذر يعتذرون به . . ويبقى للرسول مع هذا مقامه من ربه ، ومكانه من الدعوة إلى اللّه . . . !

قوله تعالى : «وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ» هو سوق لهؤلاء الضالين الذين أمسكوا بضلالهم ، ولم يقبلوا هذا الهدى المعروض عليهم فى شتى صور العرض.هو سوق لهم إلى المصير المشئوم الذي ينتظرهم . .

والصورة التي يراها هؤلاء الضالون لأنفسهم هنا والتي يراها الناس لهم ، هى أنهم فى ساحة المحاكمة ، يوم القيامة ، وقد استولى عليهم الفزع من هذا الهول المحيط بهم ، وهذا البلاء

المشتمل عليهم ، وقد أحيط بهم من كل مكان ، فلا فوت ولا مهرب لهم . .

وجواب الشرط للحرف « لو » محذوف ، للدلالة على أنه لا يحيط به

(68/637)

---

الوصف . . ومن صور الجواب ، التي تقع فى التصور أن الذي يراهم فى تلك الحال ، يرى أهوالا يموج فيها القوم ، لا يستطيع الناظر أن ينظر إليها ، ويملأ عينيه منها . . إنها شىء مخيف . . مفزع . . فظيع ! والمكان القريب الذي أخذوا منه ، هو دنياهم التي كانوا فيها . . وهى ـ أيّا كانوا منها ـ قريبة إلى اللّه ، فكل شىء فى الوجود قبضته يده ! قوله تعالى : « وَقالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ » .

هو معطوف على قوله تعالى : « وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ » . . أي أنهم فى هذه الحال ، يقولون « آمنا به » أي بالقرآن ، أو بالرسول وبما جاء به . .

ـ وقوله تعالى : « وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ » « أنّى » بمعنى كيف . وهو استفهام يراد به الاستبعاد . .

والتناوش : التناول خطفا بأطراف الأصابع ، حيث تقصر اليد عن تناول الشيء ، فتلمسه ، ولا تتمكن منه ، فتكثر لذلك حركة اليد ، قبضا وبسطا . .

والمعنى أنهم إذ يقولون آمنا بالله، وبكتابه، يتعلقون بآمال كاذبة، ويمسكون بخيط من الوهم.. فقد بعدت بينهم وبين مطلبهم الشقة.. إنهم فى عالم غير هذا العالم الذي كان ينفعهم فيه هذا القول.. وإنه لمحال أن يعودوا إلى هذا العالم.. إنه مكان بعيد عنهم.. إنه الدنيا.. وهم فى الآخرة.. وما أبعد المسافة بين الدنيا والآخرة بالنسبة لهم!! وفى التعبير بالتناوش، عن الأمل الذي يراودهم فى هذا الموقف، بإعلان الإيمان. إعجاز من إعجاز القرآن، فى صدق الأداء، وروعته، ودقته.. فالأمل الذي يتعلقون به، لا يمسكون منه بشىء.. إنه لا يكاد يظهر حتى يختفى، ثم يظهر

(69/637)

---

ويختفى، وهم يجرون وراءه حتى تتقطع أنفاسهم دونه، وفى هذا مضاعفة للعذاب الذي هم فيه.. «كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ» (الرعد: 14)..

إنهم يمدون أيديهم وهم فى الآخرة، ليتناولوا هذا الأمل الذي فاتهم فى الدنيا، ويناوشونه مناوشة من بعيد، ولا تمسك أيديهم بشىء منه.

قوله تعالى: «وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ»..

الواو ، واو الحال ، والجملة بعده حال من الكافرين ، الذين قالوا آمنا به . .

أي أنهم قالوا هذا القول عن القرآن فى الآخرة ، وقد كفروا به فى الدنيا ، وقد كانوا يقذفون بالغيب وهو ما يحدثهم به القرآن عن البعث فى الآخرة والحساب ، والجزاء ، وكلها غيب . . فلم يقبلوا هذا ، وقذفوا به ، ورموه ، وهم فى مكان بعيد أي فى الدنيا . . وهم الآن فى الآخرة ، فكيف لهم أن يلحقوا بهذا الذي قذفوه ، ويمسكوا به ؟ .

قوله تعالى : « وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ . . كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ . . إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ » .

حيل بينهم وبين ما يشتهون : أي حجز بينهم وبينه . . فلا سبيل لهم إليه . .

والذي يشتهونه ، هو العودة إلى الدنيا ، وأخذ ما فاتهم ، واسترداد



---

ما ضاع منهم فيها ، من الإيمان باللّه واليوم الآخر . .

والأشياع : هم الأولياء ، والأنصار . . وهم هنا من كان على شاكلة هؤلاء الكافرين من القرون الغابرة ، والأمم الماضية ، أو من جاء بعدهم ممن كانوا على الكفر فى الدنيا . .

والمعنى أنه قد حيل بين هؤلاء المشركين ، وبين ما كانوا يتمنونه ، ويطمعون فيه من العودة إلى

الدنيا ، وإصلاح ما أفسدوا من أمرهم ، كما حيل بين كل كافر وبين هذه الشهوة التي يشتهيها فى الآخرة . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى على لسان أهل الكفر والضلال فى الآخرة : «يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (27 : الأنعام) .

.وقوله تعالى : «إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ» .وصف لما كان عليه أهل الكفر والضلال فى الدنيا ، وأنهم كانوا فى شك مريب من أمر الآخرة أي فى شك يقوم من ورائه شك . فلا يخرج بهم الشك إلا إلى شك ، فلم يكن يقع منهم أبدا الايمان بالله ، ولو ردوا إلى الدنيا .بما هم عليه من طباع.لعادوا إلى ما نهوا عنه . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 11 صـ 837.748 ﴾

*(71/637)*

---

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ﴾

لما جرى ذكر الحق والباطل وكانوا يزعمون من مجموع أقوالهم أن النبي عليه الصلاة والسلام غير صادق في دعوى الرسالة من الله كانت أقوالهم تقتضي زعمهم إياه على ضلال وكان الردّ عليهم قاطعاً بأنه على هدى بقوله : ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾

[ سبأ : 49 ] انتُقل هنا إلى متاركة جِدالهم وتركهم وشأنَهم لقلة جدوى مراجعتهم. وهذا مَحْضَر خاص وطَيّ بساط مجلس واحد، فلا يقتضي أنه يستمر على ترك مجادلتهم لأن الواقع ينافي ذلك فقد نزل القرآن بعد ذلك طويلاً مشتملاً على دعوتهم وتحذيرهم وإنذارهم.

وصيغة القصر التي في قوله: ﴿ فإنما أضل على نفسي ﴾ لقصر الضلال المفروض، أي على نفسي لاَ عليكم لأنهم كانوا يحاولون أن يقلعَ عمَّا دعاهم إليه ولم يقتصروا على صدودهم.

وتعدية ﴿ أَضل ﴾ بحرف ﴿ على ﴾ تتضمن استعارة مكنية إذ شُبه الضلال بجريرة عليه فعدّاه بالحرف الشائع استعماله في الأشياء المكرَه عليها غير الملائمة، عكس اللام، وذكر حرف الاستعلاء تخييل للمكنية ولا يُقال: ضُمِّن ﴿ أَضِلّ ﴾ معنى أَجنِي، لأن ﴿ ضللت ﴾ الذي هو فعل الشرط المفروض غير مضمن معنى فعل آخر.

وأما قوله: ﴿ وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربي ﴾ فكالاحتراس من أن يكون حاله مقتصراً على فرض كونه مظنة الضلال مع ما فيه من الاعتراف لله بنعمته بأن ما يناله من خير فهو بإرشاد الله لا من نفسه لأنه ما كان يصِل لذلك وهو مغمور بأمة جاهلية لولا إرشاد الله إياه كما قال تعالى: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ [ الشورى: 52 ].

واختير في جانب الهدى فعل ﴿ اهتديت ﴾ الذي هو مطاوع ( هَدَى ) لما فيه من الإيماء إلى أن له هادياً ، وبيّنه بقوله : ﴿ فبما يوحي إلي ربي ﴾ ليحصل شكره لله إجمالاً ثم تفصيلاً ، وفي قوله : ﴿ فبما يوحي إلي ربي ﴾ إيماء إلى أنه على هدى لأنه أثبت أن وحياً من الله وارد إليه .

وقد استفيد أن الضلال المفروض إن حصل فسببه من قبل نفسه ، من إسناد فعل ﴿ أَضِلّ ﴾ إلى ضمير المتكلم ثم مما عقبه من قصر الضلال على الحصول من المتكلم ، وهو أغرق في التعلق به ، وليس الغرض من ذلك الكلامِ بيانَ التسبب ولكن عدم مجاوزة الضلال المفروض إليهم إذ هم يتبعوه فيما تلبس به ، ولم يُرتكب مثل هذا في جانب فرض اهتدائه لأن اهتداءه كان هو الحاصل في الواقع وكان شاملاً له ولغيره من الذين اتبعوه لأن اهتداءه ملابس لدعوته الناسَ إلى اتّباعه ، ولأن الغرض من الشرطين مختلف وإن كان يُعلم من المقابلة أن سبب الضلال والاهتداء مختلف من جهة المعنى ولا سيما حين رجّح جانب اهتدائه بقوله : ﴿ فبما يوحي إلي ربي ﴾ .

على أن المقابلة بين الشرطين ينقدح بها في ذهن السامع أن الضلال من تسويل النفس ولو

حصل لكان جناية من النفس عليه وأن الاهتداء من الله وأنه نفع ساقه إليه بوحيه .

وجملة { إنه سميع قريب } تذييل لما أفادته الجملتان المقولتان قبله من الترديد في نسبة الاهتداء والضلال ، أي أن الله يعلم أني على هدى أو ضده ويحصل من ذلك علم مقابله من أحوال خصومه لأنه سميع لما يقوله الفريقان قريب مما يضمرونه فلا يخفى عليه .

والقرب هنا كناية عن العلم والإحاطة فيه قرب مجازي .

وهذا تعريض بالتهديد .

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (51)

(73/637)

---

لما جاءهم التعريض بالتهديد من لازم المتاركة المدلول عليها بقوله : { فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربي } [ سبأ : 50 ] للعلم بأن الضال يستحق العقاب أتبع حالهم حين يحلّ بهم الفزع من مشاهدة ما هدّدوا به .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم تسلية له أو لكل مخاطب .

وحذف جواب { لو } للتهويل .

والتقدير : لرأيت أمراً فظيعاً .

ومفعول ﴿ ترى ﴾ يجوز أن يكون محذوفاً ، أي لو تراهم ، أو ترى عذابهم ويكونَ ﴿ إذ فزعوا ﴾ ظرفاً ل ﴿ ترى ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ إذ ﴾ هو المفعول به وهو مجرد عن الظرفية ، أي لو ترى ذلك الزمان ، أي ترى ما يشتمل عليه .

والفزع : الخوف المفاجىء ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار : " إنكم لَتَكْثُرون عند الفَزَع وتَقِلُّون عند الطمع " .

وهذا الفزع عند البعث يشعر بأنهم كانوا غير مهيِّئِين لهذا الوقت أسبابَ النجاة من هوله .

والأخذ : حقيقته التناول وهو هنا مجاز في الغلب والتمكن بهم كقوله تعالى : ﴿ فأخذهم أخذة رابية ﴾ [ الحاقة : 10 ] .

والمعنى : أُمسِكُوا وقَبض عليهم لملاقاة ما أعد لهم من العقاب .

وجملة ﴿ فلا فوت ﴾ معترضة بين المتعاطفات .

والفوت : التفلت والخلاص من العقاب ، قال رويشد الطائي :

إن تذنبوا ثم تأتيني بقيتكم

مما علي بذنب منكم فوت . . .

أي إذا أذنبتم فجاءت جماعة منكم معتذرين فذلك لا يدفع عنكم جزاءكم على ذنبكم .

وفي "الكشاف" : "ولو ، وإذْ ، والأفعال التي هي فَزِعوا ، وأُخذوا ، وحيل بينهم ، كلها للمضيّ ، والمراد بها الاستقبال لأن ما الله فاعله في المستقبل بمنزلة ما كان ووُجد لتحققه" ا

٥.

ويزداد عليها فعل ﴿ وقالوا ﴾ .

والمكان القريب : المحشر ، أي أخذوا منه إلى النار ، فاستغني بذكر ﴿ مِن ﴾ الابتدائية عن ذكر الغاية لأن كل مبدأ له غاية ، ومعنى قرب المكان أنه قريب إلى جهنم بحيث لا يجدون مهلة لتأخير العذاب .

*(74/637)*

---

وليس بين كلمتي ﴿ قريب ﴾ هنا والذي في قوله : ﴿ إنه سميع قريب ﴾ [ سبأ : 50 ] ما يشبه الإِيطاء في الفواصل لاختلاف الكلمتين بالحقيقة والمجاز فصار في الجمع بينهما محسِّن الجناس التام .

وعطف ﴿ وقالوا ﴾ على ﴿ وأخذوا ﴾ أي يقولون حينئذٍ : آمنّا به .

وضمير ﴿ به ﴾ للوعيد أو ليوم البعث أو للنبيء صلى الله عليه وسلم أو القرآن ، إذا كان الضمير مَحكياً من كلامهم لأن جميع ما يصحّ مَعاداً للضمير مشاهد لهم وللملائكة ، فأُجملوا فيما يراد الإِيمان به لأنهم ضاق عليهم الوقت فاستعجلوه بما يحسبونه مُنجياً لهم من العذاب ، وإن كان الضمير من الحكاية فهو عائد إلى الحق من قوله : ﴿ قل إن ربي يقذف

بالحق ﴾ [ سبأ : 48 ] لأن الحقّ يتضمن ذلك كله .

ثم استطرد الكلام بمناسبة قولهم ﴿ آمنّا به ﴾ إلى إضاعتهم وقت الإيمان بجملة ﴿ وأنى لهم التناوش ﴾ إلى آخرها .

و ﴿ أَنَّى ﴾ استفهام عن المكان وهو مستعمل في الإنكار .

و ﴿ التناوش ﴾ قرأه الجمهور بواو مضمومة بعد الألف وهو التناول السهل أو الخفيف وأكثر وروده في شرب الإبل شرباً خفيفاً من الحوض ونحوه ، قال غَيلان بن حُرَيْث :

باتتْ تنُوش الحوضَ نَوْشاً من عَلا

نَوْشاً به تقطع أجْواز الفَلا . . .

يتحدث عن راحلته ، أي تتناول الماء من أعلاه ولا تغوص مشافرها فيه .

وجملة ﴿ وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ مركب تمثيلي يفيد تشبيه حالهم إذ فرطوا في أسباب النجاة وقت المِكْنَة منها حين كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم ويحرضهم ويحذرهم وقد عمرهم الله ما يتذكر فيه من تذكر ثم جاؤوا يطلبون النجاة بعد فوات وقتها بحالهم كحال من يريد تناوشها وهو في مكان بعيد عن مراده الذي يجب تناوله .

وهذا التمثيل قابل لتفريق أجزائه بأن يشبه السعي بما يحصل بسرعة بالتناوش ويشبه فوات المطلوب بالمكان البعيد كالحوض .

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلفٌ بالهمزة في موقع الواو فقال الزجاج: وهو من إبدال الواو المضمومة همزة لقصد التخفيف في نطق الضمة كقوله تعالى: ﴿ أقتت ﴾ [المرسلات: 11] وقولهم: أَجُوهٌ: جمع وجه.

وبحث فيه أبو حيان، وقال الفراء والزجاج أيضاً: هو من نَأَش بالهمز إذا أبطأ وتأخر في عمل.

ومنه قول نهشل بن حَرِي النهشلي:

تمنّى نَئِيشاً أن يكون أطاعني

وقد حدثت بعد الأمور أمور...

أي تمنّى أخيراً.

وفسر المعري في "رسالة الغفران" نئيشاً بمعنى: بعد ما فات.

وعلى كلا التفسيرين فالمراد بالتناوش وصف قولهم: ﴿ آمنا به ﴾ بأنه إيمان تأخر وقته أو فات وقته.

وفي الجمع بين ﴿ مكان قريب ﴾ و ﴿ مكان بعيد ﴾ محسن الطباق.

وجملة ﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ في موضع الحال ، أي كيف يقولون آمنّا به في وقت الفوات والحال أنهم كفروا به من قبلُ في وقت التمكن فهو كقوله تعالى : ﴿ وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ [ القلم : 43 ] .

﴿ ويقذفون ﴾ عطف على ﴿ كفروا ﴾ فهي حال ثانية .

والتقدير : وكانوا يقذفون بالغيب .

واختيار صيغة المضارع لحكاية الحالة كقوله تعالى : ﴿ ويصنع الفلك ﴾ [ هود : 38 ] .

والقذف : الرمي باليد من بعد .

وهو هنا مستعار للقول بدون تروِّ ولا دليل ، أي يتكلمون فيما غاب عن القياس من أمور الآخرة بما لا علم لهم به إذ أحالوا البعث والجزاء وقالوا لشركائهم : هم شفعاؤنا عند الله .

ولك أن تجعل ﴿ ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ تمثيلاً مثل ما في قوله ﴿ وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ ، شبهوا بحال من يقذف شيئاً وهو غائب عنه لا يراه فهو لا يصيبه البتة .

وحُذف مفعول ﴿ يقذفون ﴾ لدلالة فعل ﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ عليه ، أي يقذفون أشياء من الكفر يرمون بها جزافاً .

والغيب : المغيَّب .

والباء للملابسة ، والمجرور بها في موضع الحال من ضمير ﴿ يقذفون ﴾ ، أي يقذفون وهم غائبون عن المقذوف من مكان بعيد .

(76/637)

---

و ﴿ مكان بعيد ﴾ هنا مستعمل في حقيقته يعني من الدنيا ، وهي مكان بعيد عن الآخرة للاستغناء عن استعارته لِما لا يشاهد منه بقوله : ﴿ بالغيب ﴾ كما علمت فتعين للحقيقة لأنها الأصل ، وبذلك فليس بين لفظ ﴿ بعيد ﴾ المذكور هنا والذي في قوله : ﴿ وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ ما يشبه الإِيطاء لاختلاف الكلمتين بالمجاز والحقيقة .

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (54)

عطف على الجمل الفعلية نظائر هذه وهي جُمل ﴿ فَزِعوا وأُخذوا وقالوا ﴾ [ سبأ : 51 ، 52 ] أي وحَال زجُّهم في النار بينهم وبين ما يأملونه من النجاة بقولهم : ﴿ آمنا به ﴾ [ سبأ : 52 ] .

وما يشتهونه هو النجاة من العذاب أَوْ عودتهم إلى الدنيا ؛ فقد حُكي عنهم في آيات أُخرى أنهم تمنّوه ﴿ فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ [ الأنعام : 27

] ، "ربنا أرجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل" .

والتشبيه في قوله : ﴿ كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ تشبيه للحيلولة بحيلولة أخرى وهي الحيلولة بين بعض الأمم وبين الإِمهال حين حلّ بهم عذاب الدنيا ، مثل فرعون وقومه إذ قال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ [ يونس : 90 ] ، وكذلك قوم نوح حين رأوا الطوفان ، وما من أمة حلّ بها عذاب إلا وتمنّت الإِيمان حينئذٍ فلم ينفعهم إلاّ قوم يونس .

والأشياع : المشابهون في النحلة وإن كانوا سالفين .

وأصل المشايعة المتابعة في العمل والحلف ونحوه ، ثم أطلقت هنا على مطلق المماثلة على سبيل المجاز المرسل بقرينة قوله : ﴿ من قبل ﴾ ، أي كما فعل بأمثالهم في الدنيا من قبل ، وأما يوم الحشر فإنما يحال بينهم وبين ما يشتهون وكذلك أشياعهم في وقت واحد .

*(77/637)*

---

وفائدة هذا التشبيه تذكير الأحياء منهم وهم مشركو أهل مكة بما حل بالأمم من قبلهم ليُوقنوا أن سنة الله واحدة وأنهم لا تنفعهم أصنامهم التي زعموها شفعاء عند الله .

وجملة ﴿ إنهم كانوا في شك مريب ﴾ مسوقة لتعليل الجمل التي قبلها .

وفُعِل بهم جميع ما سمعت لأنهم كانوا في حياتهم في شك من ذلك اليوم وما وُصف لهم من أهواله.

وإنما جعلت حالتهم شكاً لأنهم كانوا في بعض الأمور شاكّين وفي بعضها موقنين، ألا ترى قوله تعالى: ﴿ قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ [الجاثية: 32].

وإذا كان الشك مفضياً إلى تلك العقوبة فاليقين أولى بذلك، ومآل الشك واليقين بالانتفاء واحد إذ ترتب عليهما عدم الإِيمان به وعدم النظر في دليله.

ويجوز أن تكون جملة ﴿ إنهم كانوا في شك مريب ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئة عن سؤال يثيره قولُه: ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ كأن سائلاً سأل هل كانوا طامعين في حصول ما تمنّوه؟ فأجيب بأنهم كانوا يتمنون ذلك ويشكون في استجابته فلما حيل بينهم وبينه غشِيَهم اليأس، واليأس بعد الشك أوقع في الحزن من اليأس المتأصل.

والمريب: المُوقع في الريب.

والريب: الشك، فوصفُ الشك به وصفٌ له بما هو مشتق من مادته لإِفادة المبالغة كقولهم: شِعْر شاعر، وليْل أَليل، أو ليلٌ داج.

ومحاولة غير هذا تعسف. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة ﴾ قال : بطاعة الله ﴿ أن تقوموا لله مثنى وفرادى ﴾ قال : واحداً واثنين .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة ﴾ قال : بلا إله إلا الله .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة ﴾ قال : لا إله إلا الله . وفي قوله ﴿ أن تقوموا لله ﴾ قال : ليس بالقيام على الأرجل كقوله ﴿ كونوا قوامين بالقسط ﴾ [ النساء : 135 ] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه في الآيه قال : يقوم الرجل مع الرجل أو وحده ، فيتفكر ما بصاحبكم من جنة يقول : إنه ليس بمجنون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول " أعطيت ثلاثاً لم يعطهن نبي قبلي ولا فخر . أحلت لي الغنائم ولم تحل لمن كان قبلي ، كانوا

يجمعون غنائمهم فيحرقونها . وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وكان كل نبي يبعث إلى قومه . وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، أتيمم بالصعيد ، وأصلي فيها حيث أدركتني الصلاة قال الله تعالى ﴿ أن تقوموا لله مثنى وفرادى ﴾ . وأعنت بالرعب مسيرة شهر بين يدي " .

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (47)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتاده رضي الله عنه في قوله ﴿ قل ما سألتكم من أجر ﴾ أي من جعل ﴿ فهو لكم ﴾ يقول : لم أسألكم على الإسلام جعلا وفي قوله ﴿ قل إن ربي يقذف بالحق . . . وما يبدئ الباطل ﴾ قال : الشيطان لا يبدئ ولا يعيد إذا هلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ يقذف بالحق ﴾ قال : ينزل بالوحي .

(79/637)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ جاء الحق ﴾ قال : جاء القرآن ﴿ وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴾ قال : ما يخلق إبليس شيئاً ،

ولا يبعثه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عمر بن سعد رضي الله عنه ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي ﴾ قال : أؤخذ بخيانتي .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (51)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ولو ترى إذ فزعوا ﴾ قال : في الدنيا عند الموت حين عاينوا الملائكة ، ورأوا بأس الله ﴿ وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ [ غافر : 84 ] قال : لا سبيل لهم إلى الإيمان كقوله ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وقد كفروا به من قبل ﴾ قال : قد كانوا يدعون إليه وهم في دعة ورخاء ، فلم يؤمنوا به ﴿ ويقذفون بالغيب ﴾ يرجمون بالظن يقولون : إنه لا جنة ، ولا نار ، ولا بعث ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ قال : اشتهوا طاعة الله لو أنهم عملوا فحيل بينهم وبين ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولو ترى إذ فزعوا ﴾ قال : يوم القيامة ﴿ فلا فوت ﴾ فلم يفوتوا ربك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ ولو ترى إذ فزعوا ﴾ قال : في القبور من الصيحة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ ولو ترى إذ فزعوا . . . ﴾ قال

: هذا يوم بدر حين ضربت أعناقهم فعاينوا العذاب فلم يستطيعوا فراراً من العذاب ، ولا رجوعاً إلى التوبة .

وأخرج عبد بن حميد والضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت ﴾ قال : هو يوم بدر .

وأخرج عبد بن حميد عن زيد بن أسلم ، مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت ﴾ قال : هم قتلى المشركين من أهل بدر ، نزلت فيهم هذه الآيه .

(80/637)

---

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ﴾ قال : هو جيش السفياني قال : من أين أخذ ؟ قال : من تحت أقدامهم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية رضي الله عنه في قوله ﴿ ولو ترى إذ فزعوا . . . ﴾ قال : قوم خسف بهم أخذوا من تحت أقدامهم .

وأخرج ابن مردويه عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" يبعث ناس إلى المدينة ، حتى إذا كانوا ببيداء بعث الله عليهم جبريل عليه السلام ، فضربهم برجله ضربة ، فيخسف الله بهم ، فذلك قوله ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فَوْتَ وأُخذوا من مكان قريب ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت ﴾ قال : هم الجيش الذين يخسف بهم بالبيداء ، يبقى منهم رجل يخبر الناس بما لقي أصحابه .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن أبي معقل رضي الله عنه ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت ﴾ قال : أخذوا فلم يفوتوا .

وأخرج أحمد عن نفيرة امرأة القعقاع بن أبي حدرة رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا سمعتم بجيش قد خسف به ، فقد أطلت الساعة " .

وأخرج أحمد ومسلم والحاكم عن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ليؤمنّ هذا البيت جيش يغزونه حتى إذا كانوا بالبيداء خسف أوساطهم ، فينادي أولهم آخرهم ، فيخسف بهم خسفاً ، فلا ينجو إلا الشريد الذي يخبر عنهم " .

وأخرج أحمد عن حفصة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يأتي جيش من قبل المشرق يريدون رجلاً من أهل مكة ، حتى إذا كانوا بالبيداء

خسف بهم ، فيرجع من كان أمامهم لينظر ما فعل القوم ، فيصيبهم ما أصابهم . قلت : يا رسول الله فكيف بمن كان مستكرهاً ؟ قال : يصيبهم كلهم ذلك ثم يبعث الله كل امرئ على نيته " .

*(81/637)*

---

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن صفية أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا ينتهي الناس عن غزو هذا البيت حتى يغزوه جيش ، حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بأولهم وآخرهم ، ولم ينج أوسطهم قلت : يا رسول الله أرأيت المكره ؟ قال : يبعثهم الله على ما في أنفسهم " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه عن أم سلمه رضي الله عنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " يعوذ عائذ بالحرم فيبعث إليه بعث ، فإذا كان ببيداء من الأرض خسف بهم قلت : يا رسول الله فكيف بمن يخرج كارهاً ؟ قال : يخسف به معهم ، ولكنه يبعث على نيته يوم القيامة " .

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني عن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يبايع الرجل من أمتي بين الركن والمقام كعدة أهل بدر ، فيأتيه عصب العراق ، وابدال الشام ، فيأتيهم جيش من الشام حتى إذا كانوا خسف بهم ، ثم يسير إليه رجل من قريش أخواله كلب ، فيهزمهم الله قال : وكان يقال إن الخائب يومئذ من خاب من غنيمة كلب " .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريره رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " المحروم من حرم غنيمة كلب ولو عقالاً ، والذي نفسي بيده لَتُبَاعَنَّ نساؤهم على درج دمشق ، حتى ترد المرأة من كسر بساقها " .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم " لا تنتهي البعوث عن غزو بيت الله حتى يخسف بجيش منهم " .

وأخرج الحاكم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " في ذي القعدة تحارب القبائل ، وعامئذ ينهب الحاج ، فتكون ملحمة بمنى حتى يهرب صاحبهم ، فيبايع بين الركن والمقام وهو كاره ، يبايعه مثل عدة أهل بدر ، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض " .

*(82/637)*

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يخرج رجل يقال له السفياني في عمق دمشق ، وعامة من يتبعه من كلب ، فيقتل حتى يبقر بطون النساء ، ويقتل الصبيان ، فيجمع لهم قيس ، فيقتلها حتى لا يمنع ذنب تلعة ، ويخرج رجل من أهل بيتي فيبلغ السفياني ، فيبعث إليه جنداً من جنده ، فيهزمهم فيسير إليه السفياني بمن معه حتى إذا صار ببيداء من الأرض خسف بهم ، فلا ينجو منهم إلا المخبر عنهم " .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أحذركم سبع فتن : فتنة تقبل من المدينة . وفتنة بمكة . وفتنة من اليمن . وفتنة تقبل من الشام . وفتنة تقبل من المشرق . وفتنة تقبل من الغرب . وفتنه من بطن الشام وهي السفياني . فقال ابن مسعود رضي الله عنه : منكم من يدرك أولها ، ومن هذه الأمة من يدرك آخرها قال الوليد بن عياش رضي الله عنه : فكانت فتنة المدينة من قبل طلحة والزبير ، وفتنة مكة فتنة ابن الزبير ، وفتنة الشام من قبل بني أميه ، وفتنة المشرق من قبل هؤلاء " .

وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (52)

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وقالوا آمنا به ﴾ قال : الله ﴿ وأنى لهم التناوش ﴾ قال :

التناول كذلك ﴿ من مكان بعيد ﴾ قال : ما كان بين الآخرة والدنيا ﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ قال : كفروا بالله في الدنيا ﴿ ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ قال : في الدنيا قولهم : هو ساحر ، بل هو كاهن ، بل هو شاعر ، بل هو كذاب .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وأنى لهم التناوش ﴾ الرد ﴿ من مكان بعيد ﴾ قال : من الآخرة إلى الدنيا .

(83/637)

---

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وأَنى لهم التناوش ﴾ قال : كيف لهم الرد ﴿ من مكان بعيد ﴾ قال : يسألون الرد وليس حين رد .

وأخرج ابن المنذر عن التيمي قال : أتيت ابن عباس قلت ما التناوش ؟ قال : تناول الشيء وليس بحين ذاك .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وأَنى لهم التناوش ﴾ قال : التوبة .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك رضي الله عنه ، مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ " التناؤش "ممدودة مهموزة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ويقذفون بالغيب ﴾ قال : يرجمون بالظن ، إنهم كانوا في الدنيا يكذبون بالآخرة ويقولون : لا بعث ، ولا جنة ، ولا نار .

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (54)

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ قال : حيل بينهم وبين الايمان .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ قال : من مال ، أو ولد ، أو زهرة ، أو أهل ﴿ كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ قال : كما فعل بالكفار من قبلهم .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ قال : التوبة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ قال : كان رجل من بني إسرائيل فاتحاً : أي الله فتح له مالاً ، فورثه ابن له تافه - أي فاسد - فكان يعمل في مال أبيه بمعاصي الله ، فلما رأى ذلك اخوان أبيه ، أتوا الفتى فعذلوه ولاموه ، فضجر الفتى ، فباع عقاره بصامت ثم رحل ، فأتى عيناً ثجاجه ، فسرح فيها ماله وابتنى قصراً .

فبينما هو ذات يوم جالس إذ شملت عليه ريح بامرأة من أحسن الناس وجهاً ، وأطيبهم ريحاً فقالت : من أنت يا عبد الله ؟ قال : أنا امرؤ من بني إسرائيل قالت : فلك هذا القصر وهذا المال ؟ قال : نعم . قالت : فهل لك من زوجة ؟ قال : لا . قالت : فكيف يهنيك العيش ولا زوجة لك ؟ قال : قد كان ذاك ، فهل لكِ من بعل ؟ قالت : لا . قال : فهل لك أن أتزوجك ؟ قالت : إني امرأة منك على مسيرة ميل ، فإذا كان غد فتزود زاد يوم وأئتني ، وإن رأيت في طريقك هولاً قال : نعم . قالت : إنه لا بأس عليك فلا يهولنك .

(85/637)

---

فلما كان من الغد تزود زاد يوم وانطلق إلى قصر ، فقرع بابه ، فخرج إليه شاب من أحسن الناس وجهاً ، وأطيبهم ريحاً فقال : من أنت يا عبد الله ؟ قال : أنا الاسرائيلي قال : فما

حاجتك ؟ قال : دعتني صاحبة هذا القصر إلى نفسها قال : صدقت فهل رأيت في طريقك هولاً ؟ قال : نعم ، ولولا أنها أخبرتني أن لا بأس عليَّ لهالني الذي رأيت ، أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذ أنا بكلبة فاتحة فاها ، ففزعت ، فوثبت فإذا أنا من ورائها ، وإذا جروها ينحر على صدرها قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون آخر الزمان يقاعد الغلام المشيخة فيغلبهم على مجلسهم ، ويأسرهم حديثهم . ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل وإذا بمائة اعنز حفل ، وإذا فيها جدي يمصها ، فإذا أتى عليها فظن أنه لم يترك شيئاً ، فتح فاه يلتمس الزيادة قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ملك يجمع صامت الناس كلهم ، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئاً ، فتح فاه يلتمس الزيادة قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بشجر ، فاعجبني غصن من شجرة منها ناضر ، فأردت برجل معه منجل يحصد ما بلغ وما لم يبلغ قال له : لو حصدت ما بلغ ، وتركت ما لم يبلغ قال له : امض .

. لا تكونن مكلفاً ، سوف يأتيك خبر هذا . قطعه ، فنادتني شجرة أخرى : يا عبد الله مني فخذ . حتى ناداني الشجر : يا عبد الله منا فخذ . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان يقل الرجال ، ويكثر النساء ، حتى إن الرجل ليخطب المرأة فتدعوه العشرة والعشرون إلى أنفسهن .

قال : ثم أقبلت حتى انفرج بي السبيل ، فإذا أنا برجل قائم على عين يغرف لكل انسا ن من الماء ، فإذا تصدعوا عنه صب الماء في جرته ، فلم تعلق جرته من الماء بشيء قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان القاضي يعلم الناس العلم ، ثم يخالفهم إلى معاصي الله ، ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل ، إذا أنا برجل يميح على قليب ، كلما أخرج دلوه صبه في الحوض ، فانساب الماء راجعاً إلى القليب قال : هذا رجل رد الله عليه صالح عمله فلم يقبله . ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل ، إذا أنا برجل يبذر بذراً فيستحصد ، فإذا حنطة طيبة قال : هذا رجل قبل الله صالح عمله وأزكاه له .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل ، إذا أنا بعنز ، وإذا قوم قد أخذوا بقوائمها ، وإذا رجل آخذ بقرنيها ، وإذا رجل آخذ بذنبها ، وإذا رجل قد ركبها ، وإذا رجل يحلبها فقال : أما العنز فهي الدنيا ، والذين أخذوا بقوائمها فهم يتساقطون من عليتها ، وأما الذي قد أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقاً ، وأما الذي قد أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه ، وأما الذي ركبها فقد تركها ، وأما الذي يتحلبها . فبخ . بخ ذهب ذاك بها قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل ، إذا أنا برجل مستلق على قفاه فقال : يا عبد الله أدن مني ، فخذ بيدي واقعدني ، فوالله ما قعدت منذ خلقني الله ، فاخذت بيده فقام يسعى حتى ما أراه فقال له الفتى : هذا عمرك فقد ، وأنا ملك الموت ، وأنا المرأة التي أتيتك ، أمرني الله بقبض

روحك . في هذا المكان ، ثم أصيرك إلى جهنم . قال ففيه نزلت هذه الآيه ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ .

*(87/637)*

---

وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات بسند ضعيف من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لا تهتكوا ستراً فإنه كان رجل في بني إسرائيل ، وكان له امرأة ، وكانت إذا قدمت إليه الطعام ثم قامت على رأسه ثم تقول : هتك الله ستر امرأة تخون زوجها بالغيب ، فبعث إليها يوم بسمكة ، ثم قامت على رأسه فقالت : هتك الله ستر امرأة تخون زوجها بالغيب ، فقهقهت السمكة حتى سقطت من القصعة ، ثم قال لها أعيدي مقالتك ، فعادت .

. . فقهقهت السمكة حتى سقطت من القصعة . فعل ذلك ثلاث مرات ، كل ذلك تقهقه السمكة ، وتضطرب حتى تسقط من الخوان .

فأتى عالم بني إسرائيل فأخبره ، فقال : انطلق فاذكر ربك ، وكل طعامك ، واخسا الشيطان عنك ، فقال له : اخف الناس انطلق إلى ابنه فإنه أعلم منه ، فانطلق فاخبره فقال : ائتني بكل من في دارك ممن لم تر عورته ، فأتاه فنظر في وجوههم ثم قال : اكشف عن هذه

الحبشية ، فكشف عنها ، فإذا مثل ذراع البكر فقال : من هذا أتيت . فمات أبو الفتى العالم ، وهتك بهتكه ذلك الستر ، واحتاج إليه الناس ، فأتاه بنو إسرائيل فقالوا ، ويحك . . ! أنت كنت أعلمنا ، وأميننا . فلما أن أكثروا عليه هرب منهم ، إلى أن بلغ إلى أقصى موضع بني إسرائيل من أرض البلقاء ، فأتيح له امرأة جميلة تستفتيه فقال لها : هل لك أن تمكنيني من نفسك واهب لك مائة دينار ؟ قالت : أو خير من ذلك تجيء إلى أهلي تتزوّجني ، وأكون لك حلالاً أبداً . قال : فأين منزلك فوصفت له ، فطابت عليه تلك الليلة .

(88/637)

---

فمضى فإذا هو بكلبة تنبح ، في بطنها جراؤها قال : ما أعجب هذا ! قيل له : إمضِ . . لا تكونن مكلفاً ، فسوف يأتيك خبر هذا . فمضى فإذا هو برجل يحمل حجارة كلما ثقلت عليه وسقطت منه زاد عليها فقال له : أنت لا تستطيع تحمل هذا تزيد عليه قال : امضِ . . لا تكونن مكلفاً ، سوف يأتيك خبر هذا . فمضى فإذا هو برجل يستقي من بئر ، ويصبه في حوض إلى جنب البئر ، وفي الحوض ثقب ، فالماء يرجع إلى البئر قال له : لو سددت الحجر استمسك لك الماء قال : امض . . لا تكونن مكلفاً ، سوف يأتيك خبر هذا

، فمضى فإذا هو بظبية ، ورجل راكب عليها ، وآخر يحلبها ، وآخر يمسك بقرنيها ، وآخرون يمسكون بقوائمها ، قال : ما أعجب هذا ؟ قال له : امضِ . لا تكونن مكلفاً ، سوف يأتيك خبر هذا . فمضى فإذا هو برجل يبذر بذراً فلا يقع على الأرض حتى ينبت .

فمضى فإذا هو بالقصر الذي وعدته ، وإذا دونه نهر ، وإذا رجل جالس على سرير فقال له : كيف الطريق إلى هذا القصر ؟ ولقد رأيت في ليلتي أعاجيب قال : ما هي ؟ فذكر الكلبة . قال : يأتي على الناس زمان يثب الصغير على الكبير ، والوضيع على الشريف ، والسفيه على الحليم . وذكر له الذي يحمل الحجارة قال : يأتي على الناس زمان يكون عند الرجل الأمانه فلا يقدر يؤديها ، ويزيد عليها . وذكر له الذي يستقي قال : يأتي على الناس زمان يتزوج الرجل المرأة لا يتزوجها لدين ، ولا حسب ، ولا جمال ، إنما يريد مالها ، وتكون لا تلد ، فيكون كل شيء منه يرجع فيها .



---

وذكر له الظبيه قال : هي الدنيا . أما الراكب عليها ، فالملك . وأما الذين يحلبها ، فهو أطيب الناس عيشاً . وأما الذي يمسك بقرنيها ، فمن أبيس الناس عيشاً . واما الذي

يمسك بذنبها ، فالذي لا يأتيه رزقه إلا قوتاً . والذين يمسكون بقوائمها ، فسفلة الناس .

وذكر له البذر قال : يأتي على الناس زمان لا يدري متى يتزوّج الرجل ، ومتى يولد المولود ، ومتى قد بلغ . وذكر له الذي يحصد قال : ذاك ملك الموت يحصد الصغير ، والكبير ، وأنا هو بعثني الله إليك لأقبض روحك على أسوأ أحوالك .

وأخرج ابن أبي شيبة عن إبراهيم رضي الله عنه قال : ما قرأت هذه الآية إلا ذكرت برد الشراب ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنه ؛ أنه شرب ماء بارداً فبكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : ذكرت آية في كتاب الله ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ فعرفت أن أهل النار لا يشتهون إلا الماء البارد وقد قال الله ﴿ أفيضوا علينا من الماء ﴾ [ الأعراف : 50 ] .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ إنهم كانوا في شك مريب ﴾ قال : إياكم والشك والريبة ، فإنه من مات على شك بعث عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (46)

قوله : ﴿ أَن تَقُومُواْ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أنها مجرورةُ المحلِّ بدلاً مِنْ " واحدة " على سبيلِ البيان . قاله الفارسيُّ . الثاني : أنها عطفُ بيانٍ ل " واحدة " / قاله الزمخشريُّ . وهو مردودٌ لتخالُفِهما تعريفاً وتنكيراً . وقد تقدَّم هذا عند قولِه : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [ آل عمران : 97 ] . الثالث : أنها منصوبةٌ بإضمارِ أعني . الرابع : أنها مرفوعةٌ على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ أي : هي أَنْ تقومُوا . ومَثْنى وفُرادى : حال . ومضى تحقيقُ القولِ في " مَثْنى " وبابِه في سورة النساء ، وتقدَّم القولُ في " فُرادى " في سورةِ الأنعام .

قوله : " ثم تتفكَّروا " عَطْفٌ على " أَنْ تَقُوموا " أي : قيامِكم ثم تَفَكُّرِكم .

والوقفُ عند أبي حاتم على هذه الآية ، ثم يَبْتَدِئُ " ما بصاحبِكم " . وفي " ما " هذه قولان ، أحدُهما : أنها نافيةٌ . والثاني : أنها استفهاميةٌ ، لكن لا يُراد به حقيقةُ الاستفهامِ ، فيعودُ إلى النفي . وإذا كانت نافيةً فهل هي مُعَلِّقَةٌ ، أو مستأنفةٌ ، أو جوابُ القسمِ الذي تضمَّنه معنى " تَتَفَكَّروا " لأنه فعل تحقيقٍ كتبيَّن وبابِه ؟ ثلاثةُ أوجه . نقل الثالثَ ابنُ عطية ، وربما

نَسَبه لسيبويه . وإذا كانَتْ استفهاميةً جاز فيها الوجهان الأوَّلان ، دونَ الثالث . و " مِنْ جنَّةٍ " يجوزُ أَنْ يكونَ فاعلاً بالجارِّ لاعتمادِه ، وأَنْ يكونَ مبتدأً . ويجوز في " ما " إذا كانَتْ نافيةً أَنْ تكونَ الحجازيَّةَ ، أو التميميَّةَ .

*(91/637)*

---

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (47)

قوله : ﴿ مَا سَأَلْتُكُم ﴾ : في " ما " وجهان ، أحدُهما : أنَّها شرطيةٌ فتكونُ مفعولاً مقدماً ، و " فهو لكم " جوابُها . الثاني : أنها موصولةٌ في محلِّ رفعٍ بالابتداءِ ، والعائدُ محذوفٌ أي : سَأَلْتُكُموه . والخبر " فهو لكم " . ودخلَتِ [ الفاءُ ] لشَبَهِ الموصولِ بالشرط . والمعنى يحتمل أنَّه لم يَسْأَلْهم أجراً البتة ، كقولك : " إنْ أَعْطَيْتَني شيئاً فَخُذْه " مع عِلْمِك أنه لم يُعْطِك شيئاً . ويُؤَيِّدُه ﴿ إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى الله ﴾ ويُحْتمل أنه سألهم شيئاً نَفْعُه عائدٌ عليهم ، وهو المرادُ بقوله : ﴿ إِلاَّ المودةَ فِي القربى ﴾ [ الشورى : 23 ] .

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (48)

قوله : ﴿ يَقْذِفُ بالحق ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ مفعولُه محذوفاً ؛ لأنَّ القَذْفَ في الأصلِ الرَّمْيُ . وعَبَّر به هنا عن الإِلقاءِ أي : يُلْقِي الوحيَ إلى أنبيائِه بالحقِّ . أي : بسبب الحق ، أو مُلْتَبِساً

بالحقِّ . ويجوز أَنْ يكونَ التقديرُ : يَقْذِفُ الباطِلَ بالحقِّ أي : يَدْفَعُه ويَطْرَحُه به ، كقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل ﴾ [ الأنبياء : 18 ] . ويجوز أَنْ تكونَ الباءُ زائدةً ، أي : يُلقي الحقَّ كقوله : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [ البقرة : 195 ] ، أو يُضَمَّنُ " يقْذِفُ " معنى يَقْضي ويَحْكُمُ .

(92/637)

---

قوله : " عَلاَّمُ الغيوبِ " العامَّةُ على رفعه . وفيه أوجهٌ ، أظهرُها : أنه خبرٌ ثانٍ ل " إنَّ " ، أو خبرُ مبتدأ مُضْمرٍ ، أو بدلٌ من الضميرِ في " يَقْذِفُ " ، أو نعتٌ له على رأي الكسائي ؛ لأنه يُجيز نعتَ الضميرِ الغائبِ ، وقد صرَّح به هنا . وقال الزمخشريُّ : " رَفْعٌ على محلِّ " إنَّ " واسمِها ، أو على المستكنِّ في " يَقْذِفُ " . قلتُ : يعني بقولِه : " محمولٌ على مَحَلِّ إنَّ واسمِها " يعني به النعتَ ، إلاَّ أنَّ ذلك ليس مذهبَ البصريين ، لم يَعْتَبروا المحلَّ إلاَّ في العطفِ بالحرف بشروطٍ عند بعضِهم . ويريدُ بالحَمْل على الضميرِ في " يَقْذِفُ " أنَّه بدلٌ منه ، لا أنه نعتٌ له ؛ لأنَّ ذلك انفرد به الكسائيُّ . وزيد بن علي وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق بالنصب نعتاً لاسم " إنَّ " أو بدلاً منه على قلةِ الإِبدالِ بالمشتق أو منصوبٌ على المدح . وقرئ " الغيوبِ " بالحركاتِ الثلاثِ في الغين . فالكسرُ والضمُّ تقدَّما في " بيوت " وبابِه ،

وأمَّا الفتحُ فصيغةُ مبالغةٍ كالشّكور والصَّبور ، وهو الشيءُ الغائبُ الخفيُّ جداً .

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (49)

قوله : ﴿ وَمَا يُبْدِئُ ﴾ : يجوزُ في " ما " أَنْ يكونَ نفياً ، وأَنْ يكونَ استفهاماً ، ولكنْ يُؤُول معناه إلى النفي ، ولا مفعولَ ل " يُبْدِئُ " ولا ل " يُعِيْد " ؛ إذ المرادُ : لا يُوْقِع هذين الفعلَيْن ، كقوله :

3749 أَقْفَرَ مِنْ أهلِه عبيدُ . . . أصبحَ لا يُبْدِي ولا يُعيدُ

وقيل : مفعولُه محذوفٌ أي : ما يُبْدِئُ لأهلِه خيراً ولا يُعيدُه ، وهو تقديرُ الحسن .

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (50)

(93/637)

---

قوله : ﴿ إِن ضَلَلْتُ ﴾ : العامَّةُ على فتحِ لامه في الماضي وكسرِها في المضارع ، ولكنْ يُنْقَلُ إلى الساكنِ قبلها ، والحسن وابنُ وثَّاب بالعكس ، وهي لغةُ تميمٍ ، وتقدَّم ذلك .

قوله : " فبما يُوْحِي " يجوزُ أَنْ تكونَ مصدريةً أي : بسببِ إيحاءِ ربي إليَّ ، وأَنْ تكونَ موصولةً أي : بسبب الذي يُوْحِيه ، فعائدُه محذوفٌ .

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (51)

قوله: ﴿ فَلاَ فَوْتَ ﴾: العامَّةُ على بنائِه/على الفتح، و "أُخِذُوا" فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول معطوفاً على "فَزِعُوا". وقيل: على معنى فلا فَوْتَ أي: فلم يَفُوْتُوا وأُخِذوا.

وقرأ عبد الرحمن مَوْلى بني هاشم وطلحة "فلا فَوْتٌ" و "أَخْذٌ" مرفوعين منوَّنَيْن، وأُبَيٌّ بفتح "فَوْت" ورفْع "أَخْذ". فرَفْعُ "فَوْت" على الابتداء أو على اسم "لا" اللَّيْسِيَّة. ومَنْ رَفَعَ "وأَخْذٌ" رَفَعَه بالابتداء، والخبرُ محذوفٌ أي: وأَخْذٌ هناك، أو على خبر ابتداءٍ مضمرٍ أي: وحالُهم أَخْذٌ، ويكونُ مِنْ عَطْفِ الجملِ، عَطَفَ مثبتةً على منفيةٍ.

وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (52)

والضميرُ في "آمَنَّا به" لله تعالى، أو للرسول، أو للقرآن، أو للعذاب، أو للبعث.

(94/637)

---

قوله: "التَّناوُشُ" مبتدأ، و "أنَّى" خبرُه أي: كيف لهم التناوشُ. و "لهم" حالٌ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ "لهم" رافعاً للتناوش لاعتمادِه على الاستفهامِ، تقديرُه: كيف استقرَّ لهم التناوش؟ وفيه بُعْدٌ. والتناؤُش مهموزٌ في قراءة الأخوَيْن وأبي عمرو وأبي بكر، وبالواوِ في قراءةِ غيرِهم، فيُحتمل أن تكونا مادتين مستقلَّتين مع اتِّحاد معناهما. وقيل: الهمزةُ عن

الواو لانضمامِها كوُجوه وأُجُوه ، ووُقِّتَتْ وأُقِّتَتْ . وإليه ذهب جماعة كثيرةٌ كالزّجّاج والزمخشري وابن عطية والحوفي وأبي البقاء . قال الزجّاج : "كلُّ واوٍ مضمومةٍ ضمةً لازمةً فأنت فيها بالخِيار " وتابعه الباقون قريباً مِنْ عبارته . وردَّ الشيخ هذا الإِطلاقَ وقَيَّده : بأنَّه لا بُدَّ أَنْ تكونَ الواوُ غيرَ مُدْغَمٍ فيها تحرُّزاً من التعوُّذ ، وأَنْ تكونَ غيرَ مُصَحَّحةٍ في الفعلِ ، فإنها متى صَحَّت في الفعل لم تُبْدَلْ همزةً نحو : تَرَهْوُكَ تَرَهْوُكاً ، وتعاوَنَ تعاوُناً . وبهذا القيدِ الأخيرِ يَبْطُلُ قولُهم ؛ لأنها صَحَّتْ في تَنَاوَشَ يتناوَشُ ، ومتى سُلِّم له هذان القيدان أو الأخيرُ منهما ثَبَتَ رَدُّه .

والتناوُش : الرُّجوع . وأُنْشِدَ :

3750 تَمَنَّى أَنْ تَؤُوْبَ إليَّ مَيٌّ . . . وليس إلى تناوُشِها سبيلُ

أي : إلى رجوعِها . وقيل : هو التناوُلِ يقال : ناشَ كذا أي : تناولَه . ومنه : تناوَشَ القوم بالسِّلاح كقوله :

3751 ظَلَّتْ سُيوفُ بني أَبيه تَنُوْشُه . . . للهِ أرحام هناك تُشَقَّقُ

وقال آخر :

3752 فَهْيَ تَنُوْشُ الحَوْضَ نَوْشاً مِنْ عَلا . . . نَوْشاً به تَقْطَعُ أجوازَ الفَلا

وفَرَّق بعضُهم بين المهموزِ وغيرِه ، فجعله بالهمزِ بمعنى التأخُّر . قال الفراء : "مِنْ نَأَشْتُ أي : تأخَّرْتُ" . وأنشد :

3753 تَمَنَّى نَئِيْشاً أَنْ يكونَ مُطاعِناً . . . وقد حدَثَتْ بعد الأمورِ أمورُ

وقال آخر :

(95/637)

---

3754 قَعَدْتَ زماناً عن طِلابك للعُلا . . . وجِئْتَ نَئِيشاً بعد ما فاتَكَ الخبرُ

وقال الفراء : " أيضاً هما متقاربان . يعني الهمزَ وتركَه مثل : ذِمْتُ الرجلَ ، وذأَمْتُه أي : عِبْتُه " وانتاش انتِياشاً كتَناوَش تناوُشاً . قال :

3755 باتَتْ تَنُوْشُ العَنَقَ انْتِياشا . . . وهذا مصدرٌ على غيرِ الصدرِ . و " مِنْ مكانٍ " متعلِّقٌ بالتَّناوش .

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (53)

قوله : { وَقَدْ كَفَرُواْ } : جملةٌ حالية ، و " مِنْ قبلُ " أي من قبل زوال العذاب . ويجوز أَنْ تكونَ الجملةُ مستأنفةً . والأولُ أظهرُ .

قوله : " ويَقْذِفُونَ " يجوز فيها الاستئناف ، والحال . وفيه بُعْدٌ عكسَ الأولِ لدخول الواو على مضارعٍ مثبتٍ . والضمير في " به " كما تقدَّم فيه بعد " آمنَّا " . وقرأ أبو حيوة ومجاهد ومحبوب عن أبي عمرو و " يُقْذَفون " مبنياً للمفعول أي : يُرْجمون بما يَسُوْءُهم مِنْ جَرَّاءِ

أعمالِهم من حيث لا يَحْتسبون .

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (54)

*(96/637)*

---

قوله : ﴿ وَحِيلَ ﴾ : قد تقدَّمَ فيه الإِشمامُ والكسر أولَ البقرة والقائمُ مقامَ الفاعلِ ضميرُ المصدرِ أي : وحِيْلَ هو أي الحَوْلُ . ولا تُقَدِّره مصدرا مؤكِّدا بل مختصاً حتى يَصِحَّ قيامُه .

وجَعَلَ الحوفيُّ القائمَ مقامَ الفاعلِ " بينهم " واعْتُرِض عليه : بأنه كان ينبغي أن يُرْفَعَ .

وأُجيب عنه بأنه إنما بُني على الفتح لإِضافتِه إلى غير متمكِّنٍ . وردَّه الشيخُ : بأنه لا يُبْنى المضافُ إلى غيرِ متمكنٍ مطلقاً ، فلا يجوز : " قام غلامَك " ولا " مررتُ بغلامَك " بالفتح .

قلت وقد تقدَّم في قولِه : ﴿ لَقَدْ تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [ الأنعام : 94 ] ما يُغْنِيْنا عن إعادتِه هنا/ . ثم قال الشيخ : " وما يقول قائلُ ذلك في قولِ الشاعر :

3756 . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . وقد

حِيْلَ بين العَيْرِ والنَّزَوانِ

فإنه نصب " بين " مضافةً إلى مُعْرب . وخُرِّجَ أيضاً على ذلك قولُ الآخر :

3757 وقالَتْ متى يُبْخَلْ عليك ويُعْتَلَلْ . . . يَسُؤْكَ وإنْ يُكْشَفْ غرامُك تَدْرَبِ

أي : يُعْتَلَلْ هو أي الاعتلال " .

قوله : " مِنْ قبل " متعلِّقٌ ب " فُعِل " أو " بأشياعهم " أي : الذين شايَعوهم قبلَ ذلك الحِين .

(97/637)

---

قوله : " مُريب " قد تقدَّم أنه اسمُ فاعلٍ مِنْ أراب أي : أتى بالرَّيب ، أو دخل فيه ، وأَرَبْتُه أي : أوقعتَه في الرِّيْبَة . ونسبةُ الإِرابةِ إلى الشكِّ مجازٌ . وقال الزمخشري هنا : " إلاَّ أنَّ هَهنا فُرَيْقاً : وهو أنَّ المُريبَ من المتعدِّي منقولٌ مِمَّن يَصِحُّ أَنْ يكونَ مُرِيباً ، من الأعيان ، إلى المعنى ، ومن اللازمِ منقولٌ من صاحبِ الشكِّ إلى الشَّكِّ ، كما تقول : شعرٌ شاعرٌ " وهي عبارةٌ حسنةٌ مفيدةٌ . وأين هذا مِنْ قولِ بعضِهم : " ويجوز أَنْ يكونَ أَرْدَفَه على الشَّكِّ ، ليتناسَقَ آخرُ الآيةِ بالتي قبلَها مِنْ مكانٍ قريبٍ " . وقولُ ابنِ عطية : " المُريبُ أَقْوى ما يكون من الشكِّ وأشدُّه " . وقد تقدَّم تحقيقُ الرَّيْب أولَ البقرة وتشنيعُ الراغب على مَنْ يُفَسِّره بالشَّك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 9 صـ 199. 208﴾

(98/637)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (50) ﴾

إنْ كنتُ مهتدياً فبربِّي لا بجهدي . وإنْ كن عندكم من أهل الضلال فوبالُ ضلالتي عائدٌ عليَّ ، ولن يضرِّكم ذلك . فانظروا أنتم إلى أنفسكم . . . أين وقعتم ؟ وأي ضرر يعود عليكم لو أطعتموني ؟ لا في الحال تخسرون ، ولا في أنفسكم تتعبون ، ولا في جاهكم تنقصون . وما أخبركم به نَقْصِ أصنامكم فبالضرورة أنتم تعلمون ! فما لكم لا تُبْصِرون ؟ ولا لأنفسكم تنظرون ؟

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (51)

أي لو رأيتَ ذلك لرأيتَ فظيعاً ، وأمراً عظيماً ؛ إذا أخذهم بعد الإمهال فليس إلا الاستئصال .

وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (52)

إذا تابوا – وقد أُغلقتْ الأبواب ، وندموا – وقد تقطَّعت الأسباب . . . فليس إلا الحسرات والندم ، ولات حين ندامة !

كذلك من استهان بتفاصيل فترته ، ولم يَسْتَفِقْ من غَفْلَتِه يُتجاوزُ عنه مرةً ، ويَعْفَى عنه كرَّةً ،

فإذا استمكنت منه القسوةُ وتَجَاوَزَ سوءُ الأدبِ حَدَّ الغفلة ، وزاد على مقدار الكثْرة . . . يحصل له من الحقّ رَدٌّ ، ويستقبله حجاب ، وبعد ذلك لا يُسْمَعُ له دعاء ، ولا يُرْحَمُ له بكاء ، كم قيل :

فَخَلِّ سبيلَ العينِ بعدكَ للبُكَا . . . فليس لأيام الصفاءِ رجوعُ

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (54)

(99/637)

---

التوبة يشتهونها في آخر الأمر وقد فات الوقت ، والخَصْمُ يريد إرضاءه فيستحيي أن يذكر في ذلك الوقت ، وينسدُّ لسانه ويعتقل ؛ فلا يمكنه أَن يُفْصِح بما في قلبه ، ويودُّ أَنْ لو كان بينه وبين ما أسلفه بُعْدٌ بعيد ، ويتمنى أن يُطِيعَ فلا تساعده القوةُ ، ويتمنى أن يكون له – قبل خروجه من الدنيا – نَفَسٌ . . . ثم لا يتفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات جـ 3 صـ 189.188 ﴾

(100/637)

---

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السموات والأرض ﴾

يعني : المطر والنبات فإن أجابوك وإلا ﴿ قُلِ الله ﴾ يعني : الله يرزقكم من السموات والأرض ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ ﴾ يعني : قل لهم أحدنا ﴿ لعلى هُدًى ﴾ والأخرى على الضلال .

يعني : إنا على الهدى وأنتم على الضلالة وهذا كرجل يقول لآخر : أحدنا كاذب وهو يعلم أنه أراد به صاحبه .

ويقال : في الآية تقديم يعني : وإنا على الهدى وإياكم ﴿ أَوْ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ .

ثم قال عز وجل : ﴿ قُل لاَّ تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ﴾ يعني : لا تسألون عن جرم أعمالنا ﴿ وَلاَ نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ يعني : لا نسأل عن جرم أعمالكم .

ويقال : لا تأخذون بجرمنا ، ولا نؤخذ بجرمكم .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يعني : يوم القيامة نحن وأنتم ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بالحق ﴾ يعني : بالعدل ﴿ وَهُوَ الفتاح العليم ﴾ القابض العليم بما يقضي ﴿ قُلْ أَرُونِىَ الذين أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ أروني آلهتكم الذين تعبدون من دون الله ، وتزعمون أنها له شركاء .

أي : ماذا خلقوا في السموات والأرض من الخلق ﴿ كَلاَّ ﴾ يعني : ما خلقوا شيئاً ﴿ بَلْ هُوَاللهُ ﴾ خالق كل شيء ﴿ العزيز ﴾ في ملكه ﴿ الحكيم ﴾ في أمره .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي : عامة للناس ﴿ بَشِيراً ﴾ .

وروى خالد الحذاء عن قلابة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أُعْطِيْتُ خَمْساً لَمْ يعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي .

بُعِثْتُ إِلى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أحْمَرَ وَأَسْوَدَ يَدْخُلُ فِي أُمَّتِي إِلاَّ كَانَ مِنْهُمْ

وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ أَمَامِي مَسِيرَةَ شَهْرٍ .

وَجُعِلْتُ فَاتِحاً وَخَاتِماً .



وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً ، أَيْنَمَا أَدْرَكَتْنَا الصَّلاَةَ صَلَّيْنَا ، وَإِنْ لَمْ نَجِدْ مَاءً تَيَمَّمْنَا وَأُطْعِمْنَا غَنَائِمَنَا وَلَمْ يطْعَمْهَا أَحَدٌ كَانَ قَبْلَنَا كَانَتْ قُرْبَانُهُمْ تَأْكُلُهُ النَّارُ " .

ثم قال : ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ يعني : بشيراً بالجنة لمن أطاعه ، ونذيراً بالنار لمن عصاه ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : لا يصدقون بالجنة ولا بالنار ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ يعني : البعث ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ يعني : إن كنت صادقاً .

ويقال: إن كنت رسول الله.

قوله عز وجل: ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ ﴾ يعني: ميقاتاً في العذاب.

ويقال: ميعاداً في البعث والعذاب ﴿ لَّا تَسْتَئْخِرُونَ عَنْهُ ﴾ يعني: عن الميعاد والعذاب ﴿ سَاعَةً ﴾ يعني: قدر ساعة ﴿ وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ قبل الأجل.

ويقال: معناه أنا قادر اليوم على عذابهم، ولكن أؤخرهم في الوعد الذي كتب لهم في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بهذا القرءان وَلَا بالذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من التوراة والإنجيل.

يعني: لا نصدق بذلك كله فحكى الله قولهم ثم ذكر عقوبتهم في الآخرة فقال: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظالمون ﴾ يعني: لو رأيت يا محمد الظالمين يوم القيامة ﴿ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يعني: محبوسين في الآخرة ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ القول ﴾ يعني: يرد بعضهم بعضاً الجواب. ثم أخبر عن قولهم فقال: ﴿ يَقُولُ الذين استضعفوا ﴾ وهم السفلة والأتباع ﴿ لِلَّذِينَ استكبروا ﴾ يعني: القادة والرؤساء ﴿ لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ يعني: لولا دعوتكم وتعريفكم إيانا لكنا مصدقين.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ الذين استكبروا ﴾ يعني: القادة ﴿ لِلَّذِينَ استضعفوا ﴾ وهم الأتباع ﴿ أَنَحْنُ صددناكم عَنِ الهدى ﴾ يعني: أنحن منعناكم عن الإيمان ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴾ به الرسول ﴿ بَلْ كُنتُمْ مُّجْرِمِينَ ﴾ يعني: مشركين.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ الذين استضعفوا ﴾ يعني: ردت الضعفاء عليهم الجواب.

وقالوا: ﴿ لِلَّذِينَ استكبروا بَلْ مَكْرُ الليل والنهار ﴾ يعني: قولكم لنا بالليل والنهار، واحتيالكم بالدعوة إلى الشرك.

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بالله ﴾ يعني: نجحد بوحدانية الله ﴿ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً ﴾ يعني: نقول له شركاء ﴿ وَأَسَرُّواْ الندامة ﴾ يعني: أخفوا الحسرة.

ويقال: أظهروا الندامة والحسرة ﴿ لَمَّا رَأَوُاْ العذاب وَجَعَلْنَا الاغلال ﴾ يعني: نجعل الأغلال يوم القيامة ﴿ فِى أَعْنَاقِ الذين كَفَرُواْ ﴾ من الرؤساء والسفلة ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴾ يعني: هل يثابون في الآخرة ﴿ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا.

قوله عز وجل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مّن نَّذِيرٍ ﴾ يعني: من رسول ﴿ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ يعني: جبابرتها ورؤساؤها للرسل ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ يعني: جاحدون بالتوحيد.

والمترف المتنعم، وإنما أراد به المتكبرين ﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أموالا وأولادا ﴾ في الدنيا ﴿

وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ في الآخرة.

ومعناه: أن الكفار المتقدمين استخفوا بالفقراء، وآذوا الرسل.

كما يفعل بك قومك، وافتخروا بما أعطاهم الله عز وجل من الأموال كما افتخر قومك.

وأمره بأن يأمرهم بأن لا يفتخروا بالمال.

فإن الله تعالى يعطي المال لمن يشاء.

(103/637)

---

وهو قوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء ﴾ أي: يوسع المال لمن يشاء

وهو مكر منه واستدراج ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ يعني: يقتر على من يشاء، وهو نظر له لكي يعطى

في الآخرة من الجنة بما قتر عليه في الدنيا ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن التقتير

والبسط من الله عز وجل.

ويقال: لا يصدقون أن الذين اختاروا الآخرة خير من الذين اختاروا الدنيا ثم أخبر الله

تعالى أن أموالهم لا تنفعهم يوم القيامة فقال عز وجل: ﴿ وَمَا أموالكم وَلاَ أولادكم بالتى

تُقَرّبُكُمْ عِندَنَا زلفى ﴾ يعني: قربة.

ومعناه: وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا ولو كان على سبيل الجمع لقال بالذين

يقربونكم ، لأن الحكم للآدميين إذا اجتمع معهم غيرهم .

ثم قال : ﴿ وَمَا أموالكم ولَا ﴾ يعني : إلا من صدق الله ورسوله ﴿ وَعَمِلَ صالحا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جزَاء الضعف بِمَا عَمِلُواْ ﴾ يعني : للواحد عشرة إلى سبعمائة وإلى ما لا يحصى .

وقال القتبي : أراد بالضعف التضعيف أي : لهم جزاء وزيادة .

قال : ويحتمل ﴿ جزَاء الضعف ﴾ أي : جزاء الأضعاف كقوله : ﴿ قَالَ ادخلوا فى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مّن الجن والإنس فِى النار كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حتى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لاولاهم رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا فَأَتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مّنَ النار قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولكن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ [ الأعراف : 38 ] أي : مضاعفاً .

وروي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : إن الغني إذا كان تقياً ، يضاعف الله له الأجر مرتين ، ثم قرأ هذه الآية .

﴿ وَمَا أموالكم ولَا أولادكم ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جزَاء الضعف ﴾ يعني : أجره مِثْلَيْ ما يكون لغيره .

ويقال : هذا لجميع من عمل صالحاً ﴿ وَهُمْ فِى الغرفات ءامِنُونَ ﴾ قرأ حمزة : ﴿ وَهُمْ فِى الغرفة ﴾ .

وقرأ الباقون : ﴿ وَهُمْ فِى الغرفات ﴾ والغرفة في اللغة كل بناء يكون علواً فوق سفل ، وجمعه غرف وغرفات .

ومعناه : وهم في الجنة آمنون من الموت ، والهرم ، والأمراض ، والعدو وغير ذلك من الآفات .

ثم قال عز وجل : ﴿ والذين يَسْعَوْنَ فِى ءاياتنا معاجزين ﴾ والقراءة قد ذكرناها ﴿ أُوْلَئِكَ فِى العذاب مُحْضَرُونَ ﴾ يعني : في النار معذبون ﴿ قُلْ إِنَّ رَبّى يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ وقد ذكرناه ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مّن شَىْء ﴾ يعني : ما تصدقتم من صدقة ﴿ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ يعني : فإن الله يعطي خلفه في الدنيا وثوابه في الآخرة ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرزقين ﴾ يعني : أقوى المعطين .

وروى أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلا غَرَبَتْ شَمْسٌ إلاَّ بُعِثَ بِجَنْبَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ : اللَّهُمَّ عَجِّلْ لِمُنْفِقٍ مَالَهُ خَلَفاً وَعَجِّلْ لِمُمْسِكٍ مَالَهُ تَلَفاً " .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ يعني : الملائكة عليهم السلام ومن عبدهم .

قرأ بعضهم من أهل البصرة : ﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴾ بالياء يعني : يحشرهم الله عز وجل .

وقراءة العامة بالنون على معنى الحكاية عن نفسه ، ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ يعني : أنتم أمرتم عبادي أن يعبدوكم ، وهذا سؤال توبيخ كقوله لعيسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : 116 ] الآية ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ فنزهت الملائكة ربها عن الشرك وقالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ يعني : تنزيهاً لك ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ ونحن برآء منهم من أن نأمرهم أن يعبدونا ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ يعني : أطاعوا الشياطين في عبادتهم ﴿ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : مصدقين الشياطين مطيعين لها .

يقول الله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا ﴾ يعني : شفاعة ﴿ وَلَا ضَرًّا ﴾ يعني : ولا دفع الضر عنهم ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ يعني : كفروا في الدنيا .

يقال : لهم في الآخرة ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ إنها غير كائنة ثم أخبر عن أفعالهم في الدنيا .

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا تتلى ﴾ يعني: يقرأ وتعرض ﴿ عَلَيْهِمْ ءايا تنا بينات ﴾ بالأمر والنهي والحلال والحرام ﴿ قَالُواْ ﴾ ما نعرف هذا ﴿ مَا هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ ﴾ يعني: يصرفكم ﴿ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءابَاؤُكُمْ ﴾ من عبادة الأصنام ﴿ وَقَالُواْ مَا هذا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ يعني: كذباً مختلقاً ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقّ ﴾ يعني: للقرآن ﴿ لَمَّا جَاءهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني: كذب بيّن.

(106/637)

---

ثم قال عز وجل: ﴿ وَمَا ءاتيناهم ﴾ يعني: ما أعطيناهم ﴿ مّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ يعني: من كتب يقرؤونها وفيها حجة لهم بأن مع الله شريكاً ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مّن نَّذِيرٍ ﴾ يعني: من رسول في زمانهم ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني: من قبل قومك رسلهم كما كذبك قومك ﴿ وَمَا بَلَغُواْ ﴾ أي: ما بلغ قومك ﴿ مِعْشَارَ مَا ءاتيناهم ﴾ يعني: ما بلغ أهل مكة عشر الذي أعطينا الأمم الخالية من الأموال والقوة، فأهلكتهم بالعذاب حين كذبوا رسلي ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ يعني: كيف كان إنكاري وتغييري عليهم وإيش خطر هؤلاء بجنب أولئك فاحذروا مثل عذابهم ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بواحدة ﴾ يعني: بكلمة واحدة ويقال: بخصلة واحدة ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ ﴾

بالحق ﴿ مثنى وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ يعني : أمركم بالإنصاف أن تتأملوا حق التأمل ، وتتفكروا في أنفسكم ، هل لهذا الرجل الذي يدعوكم إلى خالقكم وخالق السموات والأرض هل رأيتم به جنوناً .

ثم قال : ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ يعني : من جنون .

وقال القتبي : تأويله أن المشركين لما قالوا : إنه ساحر ومجنون وكذاب فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم اعتبروا أمري بواحدة أن تنصحوا لأنفسكم ولا يميل بكم هوى فتقوموا لله في دار يخلو فيها الرجل منكم بصاحبه .

فيقول له : هلمّ فلنتصادق .

هل رأينا بهذا الرجل جنة أم جربنا عليه كذباً .

ثم ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه فيتفكر ، وينظر .

فإن ذلك يدل على أنه نذير .

قال : وكل من تحيّر في أمر قد اشتبه عليه واستبهم ، أخرجه من الحيرة أن يسأل ويناظر فيه ثم يتفكر ويعتبر .

ثم قال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ ﴾ أي : ما هو إلا مخوف لكم ﴿ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ أي : بين يدي القيامة .

ثم قال عز وجل: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر كفار مكة أن لا يؤذوا أقربائه فكفوا عن ذلك فنزل ﴿ ذَلِكَ الذى يُبَشِّرُ الله عِبَادَهُ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِى القربى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ الله غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

[ الشورى : 23 ] فكفوا عن ذلك.

ثم سمعوا بذكر آلهتهم فقالوا: لا تنظرون إليه ينهانا عن إيذاء أقربائه.

وسألناه أن لا يؤذينا في آلهتنا فلا يمتنع فنزل ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ إن شئتم آذوهم، وإنْ شئتم امتنعتم.

﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى الله ﴾ فهو الحافظ والناصر ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٍ ﴾ بأني نذير وما بي جنون.

ثم قال عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بالحق ﴾ يعني: يبين الحق من الباطل.

ويقال: يأمر بالحق.

ويقال: يتكلم بالحق.

يعني: بالوحي ﴿ علام الغيوب ﴾ يعني: هو عالم كل غيب.

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ جَاءَ الحق ﴾ يعني: ظهر الإسلام ﴿ وَمَا يُبْدِىءُ الباطل ﴾ يعني:

لا يقدر الشيطان أن يخلق أحداً ﴿ وَمَا يُعِيدُ ﴾ يعني : لا يقدر أن يحييه بعد الموت ، والله تعالى يفعل ذلك .

ويقال : ﴿ الباطل ﴾ أيضاً الصنم .

وروى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بعود في يده ، ويقول " ﴿ جاء الحق ﴾ وزَهَقَ البَاطِلُ .

قُلْ : ﴿ جاء الحق ﴾ ومَا يُبْدِي البَاطِلُ ومَا يُعِيدُ " .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ على نَفْسِى ﴾ يعني : وزور الضلال على نفسي ﴿ وَإِنِ اهتديت ﴾ إلى الحق والهدى ﴿ فَبِمَا يُوحِى إِلَيَّ رَبّى ﴾ يعني : اهتديت بما يوحي إليّ من القرآن ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ ﴾ للدعاء ﴿ قَرِيبٌ ﴾ بالإجابة لمن دعاه .

(108/637)

---

وقيل للنابغة حين أسلم : أصبوت ؟ يعني : آمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم .

قال : بلى .

هو غلبني بثلاث آيات من كتاب الله عز وجل .

فأردت أن أقول ثلاثة أبيات من الشعر على قافيتها .

فلما سمعت هذه الآيات فعييت فيها ولم أطق ، فعلمت أنه ليس من كلام البشر وهي هذه ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بالحق علام الغيوب ﴾ ﴿ قُلْ جَاء الحق وَمَا يُبْدِىء الباطل وَمَا يُعِيدُ ﴾ ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ على نَفْسِى وَإِنِ اهتديت فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبّى إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ فَزِعُواْ ﴾ يعني : خافوا من العذاب ﴿ فَلاَ فَوْتَ ﴾ يعني : فلا نجاة لهم منها ﴿ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ .

روي عن الكلبي أنه قال : نزلت الآية في قوم يقال لهم : السفيانية يخرجون في آخر الزمان ، عددهم ثلاثون ألف رجل إلى أن يبلغوا أرض الحجاز .

فافترقوا فرقتين .

فتقدمت فرقة إلى موضع يقال له : بيداء ، صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة ، فخسف بهم الأرض كلهم إلا واحداً منهم ينجو .

فيحول وجهه إلى خلفه .

فيرجع إلى الفرقة الأخرى ، فيخبرهم بما أصابهم يعني : ولو ترى يا محمد فزعهم حين صاح بهم جبريل عليه السلام ﴿ فَلاَ فَوْتَ ﴾ أي : لا يفوت منهم فايت ﴿ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ يعني : خسف بهم البيداء بقرب مكة .

ويقال : يعني : يوم القيامة .

﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ ﴿ كَانَ مُحَمَّدٌ ﴾ ﴿ إِذْ فَزِعُوا ﴾ حين نزل بهم العذاب يوم القيامة ﴿ فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ كما قال : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ الناس كالفراش المبثوث ﴾ [ النازعات : 36 ] .

وقال الحسن : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ فَزِعُوا ﴾ من قبورهم يوم القيامة وقال الضحاك : يعني : يوم بدر .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَقَالُوا ءامَنَّا بِهِ ﴾ يعني : العذاب حين رأوه ، يقول الله تعالى ﴿ وأنى لَهُمُ التناوش ﴾ يعني : من أين لهم التوبة .



---

ويقال : من أين لهم الرجفة .

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في إحدى الروايتين التناؤش بالهمز .

وقرأ الباقون بغير همز .

فمن قرأ بالهمز فهو من ﴿ التناوش ﴾ وهو الحركة في إبطاء .

والمعنى من أين لهم أن يتحركوا فيما لا حيلة لهم فيه .

ومن قرأ بغير همز فهو من التناول .

ويقال : تناول إذا مدّ يده إلى شيء ليصل إليه ، وتناوش يده إذا مدّ يده إلى شيء لا يصل إليه .

ثم قال : ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يعني : من الآخرة إلى الدنيا .

وروي عن ابن عباس أنه قال : ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال : سألوا الرد حين لا رد .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ يعني : كفروا بالله من قبل الموت .

ويقال به ، يعني : بمحمد صلى الله عليه وسلم ويقال : بالقرآن ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالغيب ﴾ يعني : يتكلمون بالظن في الدنيا ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أنه لا جنة ولا نار ولا بعث .

ثم قال : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ يعني : من الرجفة إلى الدنيا ويقال : من التسوية .

كيف ينالون التسوية في هذا الوقت وقد كفروا به من قبل ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشياعهم مِّن قَبْلُ ﴾ يعني : الأقدمون أهل دينهم ، الأولون من قبل الأشياع جمع الجمع .

يقال : شيعة وشيع وأشياع .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ يعني : هم في شكّ مما نزل بهم مريب .

يعني : إنهم لا يعرفون شكهم .

وقال القتبي في قوله : فلا فوت يعني : لا مهرب ولا ملجأ وهذا مثل قوله : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ

وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [ص : 3 ] أي : نادوا حين لا مهرب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 85.91 ﴾

(110/637)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : أن رزق السموات المطر ورزق الأرض النبات ، قاله الكلبي .

الثاني : أن رزق السموات ما قضاه من أرزاق عباده ، ورزق الأرض ما مكنهم فيه من مباح. ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ وهذا جواب قل من يرزقكم من السموات والأرض ، ويحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون للمشركين حين سئلوا عن ذلك لأنهم لا يجحدون أن الله رازقهم .

الثاني : أن يكون أمراً في أمر الله أي يجابوا به لأنهم لا يجحدونه لتقوم به الحجة عليهم .

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : معناه : إننا نحن لعلى هدى وإنكم أنتم لفي ضلال مبين ، قاله عكرمة وأبو

عبيدة وزياد بن أبي مريم. قال الفراء : أو بمعنى الواو .

الثاني : أن أحدنا لعلى هدى والآخر لفي ضلال مبين ، دفعاً لأنقصهما ، ومنعاً من أرذلهما كقول القائل : إن أحدنا لكاذب ، دفعا للكذب عن نفسه وإضافته إلى صاحبه وإن أحدنا لصادق ، إضافة للصدق إلى نفسه ودفعاً عن صاحبه ، قاله مجاهد .

الثالث : معناه : الله رزقنا وإياكم لعلى هدى كنا أو في ضلال مبين حكاه النقاش .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يعني يوم القيامة .

﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي يقضي بيننا لأنه بالقضاء يفتح وجه الحكم ، وقال السدي هي لغة يمانية .

قوله : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ قال مجاهد : بالعدل .

﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ أي القاضي العليم وفيه ثلاثة أوجه

: أحدها : العليم بما يخفون ، قاله محمد بن إسحاق .

الثاني : العليم بالحكم ، قاله ابن زياد .

الثالث : العليم بخلقه ، قاله مقاتل .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : يعني أنه رسول إلى كافة الناس أي إلى جميعهم ، قال ابن عباس .

الثاني : معناه أنك رسول الله إلى جميع الناس وتضمهم ، ومنه كف الثوب لأنه ضم طرفيه .

الثالث : معناه إنا أرسلناك كافاً للناس أي مانعاً لهم من الشرك وأدخلت الهاء للمبالغة ، قاله ابن بحر .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ يعني كفار العرب ، ﴿ لَن نُّؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْءانِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : التوراة ، والإِنجيل ، قاله السدي .

الثاني : من الأنبياء والكتب ، قاله قتادة .

الثالث : من أمر الآخرة ، قاله ابن عيسى . قال ابن جريج : قائل ذلك أبو جهل ابن هشام .

قوله عز وجل : ﴿ بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : معناه بل غركم اختلاف الليل والنهار ، قاله السدي .

الثاني : بل عملكم من الليل والنهار ، قاله سفيان .

الثالث : بل معصية الليل والنهار ، قاله قتادة .

الرابع : بل مر الليل والنهار ، قاله سعيد بن جبير .

الخامس : بل مكرهم في الليل والنهار ، قاله الحسن .

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أشباهاً ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : شركاء ، قاله أبو مالك .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ يعني من نبي ينذرهم بعذاب الله .

﴿ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ فيهم ثلاثة تأويلات

: أحدها : يعني جبابرتها ، قاله ابن جريج .

الثاني : أغنياؤها ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : ذوو النعم والبطر ، قاله ابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وأَوْلاَداً ﴾ قالوا ذلك للأنبياء والفقراء ويحتمل قولهم ذلك وجهين :

أحدهما : أنهم بالغنى والثروة أحق بالنبوة .

الثاني : أنهم أولى بما أنعم الله عليهم من الغنى أن يكونوا على طاعة .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : أي ما عذبنا بما أنتم فيه من الفقر .

الثاني : أي ما أنعم الله علينا بهذه النعمة وهو يريد عذابنا ، فرد الله تعالى عليهم ما احتجوا من الغنى فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم .

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أي يوسعه . ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : أن يقتر عليه ، قال الحسن يبسط لهذا مكراً به ، ويقدر لهذا نظراً له .

الثاني : بنظره له ، رواه حصين بن أبي الجميل .

الثالث : بخيره له ، رواه حارث بن السائب .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله يوسع على من يشاء ويقتر على من يشاء .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلآ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى ﴾ قال مجاهد : أي قربى والزلفة القربة ، ويحتمل وجهين :

أحدهما : أن أموالكم في الدنيا لا تدفع عنكم عذاب الآخرة .

الثاني : أن إنعامنا بها عليكم في الدنيا لا يقتضي إنعامنا عليكم بالجنة في الآخرة .

﴿ إِلاَّ مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ روى ليث عن طاووس أنه كان يقول اللهم ارزقني الإيمان والعمل ، وجنبني المال والولد ، فإني سمعت فيما أوحيت ﴿ وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ .

﴿ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : أنه أضعاف الحسنة بعشر أمثالها ، وأضعاف الدرهم بسبعمائة ، قاله ابن

زيد .

الثاني : أن المؤمن إذا كان غنياً تقياً آتاه الله أجره مرتين بهذه الآية ، قاله محمد بن كعب .

الثالث : يعني فله جزاء مثل عمله لأن الضعف هو المثل ويقتضي ذلك المضاعفة ، قاله بعض المتأخرين .

﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴾ يعني غرفات الجنة

. ﴿ ءَامِنُونَ ﴾ فيه أربعة أقاويل

: أحدها : آمنون من النار ، قاله يحيى ابن سلام .

الثاني : من انقطاع النعم ، قاله النقاش .

الثالث : من الموت ، قاله مقاتل .

(113/637)

---

الرابع : من الأحزان والأسقام .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : فهو يخلفه إن شاء إذا رأى ذلك صلاحاً كإجابة الدعاء ، قاله ابن عيسى .

الثاني : يخلفه بالأجر في الآخرة إذا أنفقه في طاعة ، قاله السدي .

الثالث : معناه فهو أخلفه لأنه نفقته من خلف الله ورزقه ، قاله سفيان بن الحسين .

ويحتمل رابعاً : فهو يعني عنه .

قوله عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ يعني المشركين ومن عبدوه من الملائكة .

﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ وهذا السؤال للملائكة تقرير وليس باستفهام ، وإن خرج مخرج الاستفهام .

﴿ قَالُواْ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنت الذي توالينا بالطاعة دونهم .

الثاني : أنت ناصرنا دونهم .

﴿ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ يعني أنهم أطاعوا الجن في عبادتنا ، وصاروا بطاعتهم عابدين لهم دوننا .

﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ أي جميعهم بهم مؤمنون ، وهذا خروج عن الظاهر .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ يعني مشركي قريش ما أنزل الله تعالى عليهم كتاباً قط يدرسونه ، فيه وجهان :

أحدهما : فيعلمون بدرسه أن ما جئت به حق أم باطل ، قاله السدي .

الثاني : فيعلمون أن الله تعالى شريكاً على ما زعموه ، قاله ابن زيد .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ أي ما بعثنا إليهم رسولاً غيرك

. قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني من قبل أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَاهُمْ ﴾ فيه أربعة

: أحدها : يعني أنهم ما عملوا معشار ما أمروا به ، قاله الحسن .

(114/637)

---

الثاني : أنه يعني ما أعطى الله سبحانه قريشاً ومن كذب محمداً صلى الله عليه وسلم من أمته معشار ما أعطى من قبلهم من القوة والمال ، قاله ابن زيد .

الثالث : ما بلغ الذين من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم ، حكاه النقاش .

الرابع : ما أعطى الله من قبلهم معشار ما أعطاهم من البيان والحجة والبرهان . قال ابن عباس فليس أمة أعلم من أمته ولا كتاب أبين من كتابه .

وفي المعشار ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه العشر وهما لغتان .

الثاني : أنه عشر العشر وهو العشير .

الثالث : هو عشير العشير ، والعشير عشر العشر ، فيكون جزءاً من ألف جزء ، وهو

الأظهر، لأن المراد به المبالغة في التقليل.

﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي عقابي وفي الكلام إضمار محذوف وتقديره:

فأهلكناهم فكيف كان نذير.

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾ فيه قولان

: أحدهما: يعني بطاعة الله عز وجل، قاله مجاهد.

الثاني: بالا إله إلا الله، قاله السدي.

ويحتمل ثالثاً: بالقرآن لأنه يجمع كل المواعظ.

﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ يعني أن تقوموا لله بالحق، ولم يُرد القيام على الأرجل كما

قال تعالى: ﴿ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ ﴾ [النساء: 127].

وفي قوله: ﴿ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: معناه جماعة وفرادى، قاله السدي.

الثاني: منفرداً برأيه ومشاوراً لغيره، وهذا قول مأثور.

الثالث: مناظراً مع غيره ومفكراً في نفسه، قاله ابن قتيبة.

ويحتمل رابعاً: أن المثنى عمل النهار، والفرادى عمل الليل، لأنه في النهار. مُعانٌ وفي الليل

وحيد.

﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ قال قتادة أي ليس بمحمد جنون . ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ يعني في الآخرة ، قال مقاتل : وسبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل كفار قريش ألا يؤذوه ويمنعوا منه لقرابته منهم حتى يؤدي رسالة ربه ، فسمعوه يذكر اللات والعزى في القرآن فقالوا يسألنا ألا نؤذيه لقرابته منا ويؤذينا بسبب آلهتنا فنزلت هذه الآية .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : من مودة قاله ابن عباس ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم سأل قريشاً أن يكفوا عن أذيته حتى يبلغ رسالة ربه .

الثاني : من جُعْل قاله قتادة ، ويشبه أن يكون في الزكاة .

ويحتمل ثالثاً : أن أجر ما دعوتكم إليه من إجابتي فهو لكم دوني .

﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي ما ثوابي إلا على الله في الآخرة

. ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٍ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : شهيد أن ليس بي جنون .

الثاني : شهيد أني لكم نذير بين يدي عذاب شديد .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : بالوحي ، قاله قتادة .

الثاني : بالقرآن ، رواه معمر .

وفي قوله : ﴿ يَقْذِفُ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : يتكلم .

الثاني : يوحي .

الثالث : يلقي .

﴿ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ قال الضحاك : الخفيات

. قوله عز وجل : ﴿ قُلْ جَآءَ الْحَقُّ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن زيد .

الثاني : القرآن ، قاله قتادة .

الثالث : الجهاد بالسيف ، قاله ابن مسعود .

﴿ وَمَا يُبْدِيءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : أن الباطل الشيطان . رواه معمر .

الثاني : أنه إبليس . رواه خليد .

الثالث : أنه دين الشرك ، قاله ابن بجر .

وفي إبداء الباطل وإعادته ثلاثة أوجه :

أحدها : لا يخلق ولا يبعث ، قاله قتادة .

(116/637)

---

الثاني : لا يحيي ولا يميت ، قاله الضحاك .

الثالث : لا يثبت إذا بدا ، ولا يعود إذا زال ، قاله ابن بحر .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا ﴾ في فزعهم خمسة أقاويل

: أحدها : فزعهم يوم القيامة ، قاله مجاهد .

الثاني : فزعهم في الدنيا حين رأو بأس الله عز وجل : قاله قتادة .

الثالث : هو الجيش الذي يخسف بهم في البيداء فيبقى منهم رجل فيخبر الناس بما لقي

أصحابه فيفزعوا فهذا هو فزعهم ، قاله سعيد بن جبير .

الرابع : هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم فلم يستطيعوا فراراً من العذاب ولا رجوعاً

إلى التوبة ، قاله السدي .

الخامس : هو فزعهم في القبور من الصيحة ، قاله الحسن .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : فلا نجاة ، قاله ابن عباس .

الثاني : فلا مهرب ، وهو معنى قول مجاهد .

الثالث : فلا سبق ، قاله قتادة .

﴿ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ فيه ستة أقاويل

: أحدها : من تحت أقدامهم ، قاله مجاهد .

الثاني : يوم بدر ، قاله زيد بن أسلم .

الثالث : هو جيش السفياني ، قاله ابن عباس .

الرابع : عذاب الدنيا ، قاله الضحاك .

الخامس : حين خرجوا من القبور ، قاله الحسن .

السادس : هو يوم القيامة ، قاله القاسم بن نافع .

ويحتمل سابعاً : في أسرِّ ما كانوا فيه نفوساً ، وأقوى ما كانوا عليه أملاً لأنه أقرب بلاء من نعمه .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني بالله ، قاله مجاهد .

الثاني : بالبعث ، قاله الحسن .

الثالث : بالرسل ، قاله قتادة .

﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ وفي التناوش ثلاثة أقاويل

: أحدها : هو الرجعة ، قاله ابن عباس ومنه قول الشاعر :

تمنى أن تؤوب إليّ ميٌّ . . . وليس إلى تناوشها سبيل

الثاني : هو التوبة ، قاله السدي

(117/637)

---

. الثالث : هو التناول من قولهم نشته أنوشه نوشاً إذا تناوله من قريب ، وقد تناوش القوم

إذا دنا بعضهم من بعض ولم يلتحم القتال بينهم ، قال الشاعر :

فهي تنوش الحوض نوشاً من علا . . . نوشاً به تقطع أجواز الفلا

﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ فيه ثلاثة أقوايل

: أحدها : من الآخرة إلى الدنيا ، قاله مجاهد .

الثاني : ما بين الآخرة والدنيا ، رواه القاسم بن نافع .

الثالث : هو طلبهم الأمر من حيث لا ينال ، قاله الحسن .

ويحتمل قولاً رابعاً : بعيد عليهم لاستحالته عندهم .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم كفروا بالله تعالى ، قاله مجاهد .

الثاني : بالبعث ، قاله الحسن .

الثالث : بالرسول ، قاله قتادة .

﴿ مِن قَبْلُ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : في الدنيا ، قاله مجاهد .

الثاني : من قبل العذاب .

﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : معناه يرجمون بالظن ويقولون في الدنيا لا بعث ولا جنة ولا نار ، قاله الحسن .

الثاني : أنه طعنهم في القرآن ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

الثالث : هو طعنهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر أو ساحر ، قاله مجاهد ، وسماه قذفاً لخروجه عن غير حق .

قوله عز وجل : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ يعني بالموت ، وفيه خمسة تأويلات :

أحدها : حيل بينهم وبين الدنيا ، قاله مجاهد .

الثاني : بينهم وبين الإيمان ، قاله الحسن .

الثالث : بينهم وبين التوبة ، قاله السدي .

الرابع : بينهم وبين طاعة الله تعالى ، قاله خليد .

الخامس : حيل بين المؤمن وبين العمل ، وبين الكافر وبين الإيمان ، قاله يزيد بن أبي يزيد .

﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ فيهم ثلاثة أقاويل

: أحدها : أنهم أوائلهم من الأمم الخالية ، قاله مقاتل .

الثاني : أنه أصحاب الفيل حين أرادوا خراب الكعبة ، قاله الضحاك .

(118/637)

---

الثالث : هم أمثالهم من الكفار الذين لم يقبل الله سبحانه منهم التوبة عند المعاينة .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : لا يعرفون نبيهم ، قاله مقاتل .

الثاني : هو شكهم في وقوع العذاب ، قاله الضحاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(119/637)

---

وقال الثعلبي :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السماوات والأرض قُلِ اللهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ هذا على جهة الإنصاف في الحجاج كما يقول القائل : أحدنا كاذب وهو يعلم أنه صادق وأنّ صاحبه كاذب .

والمعنى : ما نحن وأنتم على أمر واحد ، إنّ أحد الفريقين لمهتد والآخر ضال . فالنبيّ ومن معه على الهدى ومن خالفه في ضلال ، فكذبهم بأحسن من تصريح التكذيب .

وقيل هذا على جهة الاستهزاء بهم وهو غير شاك في دينه ، وهذا كقول الشاعر وهو أبو الأسود :

يقول الأرذلون بنو قُشير : . . . طوالَ الدهر لا تنسى عليّا

بنو عم النبي وأقربوه . . . أحبُّ الناس كلّهمُ إليَّا

فإن يك حبهم رشداً أصبْهُ . . . وليس بمخطئ إن كان غياً

فقاله من غير شك ، وقد أيقن أن حبهم رشد .

وقال بعضهم : ﴿ أَوْ ﴾ بمعنى الواو ، يعني : إنا لعلى هدىً وإنكم إيا كم لفي ضلال مبين ، كقول جرير :

أثعلبة الفوارس أو رياحا . . . عدلت بهم طُهيّة والخشابا

يعني ثعلبة ورياحا .

﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا ﴾ : يقضي بيننا ﴿ بالحق وَهُوَ الفتاح العليم * قُلْ أَرُونِيَ الذين أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَآءَ ﴾ يعني الأصنام هل خلقوا من الأرض شيئاً أم لهم شرك في السماوات : وتفسيرها في سورة ( الملائكة ) و ( الأحقاف ) .

ثم قال تعالى ﴿ كَلاَّ بَلْ هُوَ الله العزيز الحكيم ﴾ ، وهو القاهر القوي الذي يمنع من يشاء ولا يمنعه مانع ، فهو العزيز المنتقم ممن كفر به وخالفه ، الحكيم في تدبيره لخلقه ، فأنّى يكون له شريك في ملكه ؟

(120/637)

---

قوله عز وجل : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً ﴾ عامة ﴿ لِّلنَّاسِ ﴾ كلهم : العرب والعجم وسائر الأُمم . أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمد بن جعفر قال : حدثنا علي بن حرب قال : حدثنا ابن فضيل قال : حدثنا ( يزيد بن أبي زياد عن مجاهد ومقسم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أعطيتُ خمساً ولا أقول فخراً : بُعثت إلى الأحمر والأسود ، وجُعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأُحل لي المغنم ولم يحل لأحد كان قبلي ، ونُصرت بالرعب فهو يسير أمامي مسيرة شهر وأُعطيت الشفاعة فادّخرتها لأُمتي

يوم القيامة ، وهي إن شاء الله نائلة من لم يشرك بالله شيئاً " .

وقيل : معناه كافّ للناس . يكفّهم عما هم عليه من الكفر ، ويدعوهم إلى الإسلام ، والهاء فيه للمبالغة .

﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ * وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ * وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بهذا القرآن وَلاَ بالذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب ، ثم أخبر حالهم في مآلهم ، فقال : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون ﴾ : الكافرون ﴿ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ القول ﴾ يتلاومون ويحاور بعضهم بعضاً ﴿ يَقُولُ الذين استضعفوا لِلَّذِينَ استكبروا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الذين استكبروا لِلَّذِينَ استضعفوا أَنَحْنُ صَدَدنَاكُمْ عَنِ الهدى بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ الذين استضعفوا لِلَّذِينَ استكبروا بَلْ مَكْرُ الليل والنهار ﴾ أي مكركم بنا . فهما كما يُقال : عزم الأمر وفلان نهاره صائم وليله قائم .

قال الشاعر :

ونمت وما ليل المطي بنائم . . . وقيل : مكر الليل والنهار بهم طول السلامة فيهما كقوله : ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد ﴾ ، ونحوه . ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بالله وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّواْ ﴾ : أظهروا ﴿ الندامة ﴾ ، وهو من الأضداد ؛ يكون بمعنى الإخفاء ، والإبداء ﴿ لَمَّا رَأَوُاْ العذاب وَجَعَلْنَا الأغلال ﴾ : الجوامع من النار ﴿ في أَعْنَاقِ الذين كَفَرُوا ﴾ : الأتباع والمتبوعين ، ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا ؟

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ : رسول ﴿ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ ﴾ : رؤساؤها وأغنياؤها ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً ﴾ منكم ، ولو لم يكن راضياً بما نحن عليه من الدين والعمل لم يخوّلنا الأموال والأولاد .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ، وليس يدل ذلك على العواقب والمنقلب ، ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أنها كذلك .

﴿ وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بالتي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زلفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ ﴾ : لكن من آمن ﴿ وَعَمِلَ صَالِحاً فأولئك لَهُمْ جَزَآءُ الضعف بِمَا عَمِلُواْ ﴾ من الثواب بالواحد عشرة ، و ﴿ من ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون محله نصباً بوقوع ﴿ تقرب ﴾ عليه ، والآخر : رفع تقديره : وما هو إلاّ من آمن .

﴿ وَهُمْ فِي الغرفات ﴾ الدرجات ﴿ آمِنُونَ ﴾ .

وقراءة العامة : ﴿ جَزَآءُ الضعف ﴾ بالإضافة ، وقرأ يعقوب : ( جزاءً ) منصوباً منوناً .

الضعف رفع مجازه : فأُولئك لهم الضعف جزاء على التقديم والتأخير ، وقراءة العامة : الغرفات بالجمع ، واختاره أبو عبيد قال : لقوله : ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الجنة غُرَفَاً ﴾ ، وقرأ الأعمش وحمزة : ( في الغرفة ) على الواحدة .

(122/637)

---

﴿ والذين يَسْعَوْنَ ﴾ : يعملون ﴿ في آيَاتِنَا ﴾ بإبطال حججنا وكتابنا ، و ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ معاونين معاندين يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم ويعجزوننا ، ﴿ أولئك فِي العذاب مُحْضَرُونَ ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَآ أَنفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ . قال سعيد بن جبير : ما كان من غير إسراف ولا تقتير فهو يخلفه ، وقال الكلبي : ما تصدقتم من صدقة وأنفقتم في الخير والبر من نفقة فهو يخلفه إما أن يعجله في الدنيا وإما أن يدخر له في الآخرة . أخبرني الحسين بن محمد بن الحسين قال : حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان بن عبد الله قال : حدثنا أبي قال : حدثنا علي بن داوُد القنطري قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنا الليث بن سعد ، عن عمرو بن الحرث عن أبي يونس مولى أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنّ الله عزّ وجل قال لي : أنفق أُنفق عليك " .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا ابن شاذان عن جعونة بن محمد قال: حدثنا صالح ابن محمد عن سُليمان بن عمرو عن ابن حزم عن أنس بن مالك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يُنادي مناد كلّ ليلة: لدوا للموت وينادي مناد: ابنوا للخراب، ويُنادي مُناد: اللهمّ هب للمنفق خلفاً، ويُنادي مناد: اللهم هب للممسك تلفاً، وينادي مناد: ليت الناس لم يخلقوا، وينادي مناد: ليتهم إذ خُلقوا فكروا فيما له خُلقوا".

وأخبرني الحسين بن محمد الحافظ قال: حدثنا موسى بن محمد قال: حدثنا الحسن بن علويه قال: حدثنا إسماعيل بن عيسى قال: حدثنا المسيب، قال: حدثنا محمد بن عمرو عن يحيى بن عبد الرَّحْمن عن أبيه قال: قال عمر لصهيب: إنك رجل لا تمسك شيئاً، قال: إني سمعت الله عز وجل يقول: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾.

(123/637)

---

﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرازقين ﴾، وأخبرني أبو سُفيان الثقفي قال: حدثنا الفضل بن الفضل الكندي قال: حدثنا الحسن بن داوُد الخشاب قال: حدثنا سُويد بن سعيد قال: حدثنا عبد الحميد بن الحسن عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل معروف صدقة وما أنفق الرجل على نفسه وأهله فهو له

صدقة وما وقى به عرضه فهو صدقة ، وما أنفق المؤمن من نفقة فإنّ خلفها على الله ضامن إلاّ ما كان نفقة في بنيان أو معصية " .

قال عبد الحميد : فقلت لمحمد : ما معنى " ما يقي به الرجل عرضه " ؟ قال : يُعطي الشاعر أو ذا اللسان المتّقى .

وقال مجاهد : إذا كان في يد أحدكم شيء فليقتصد ولا يتأول هذه الآية ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ فإنّ الرزق مقسوم ، فلعل رزقه قليل وهو يُنفق نفقة الموسع عليه ، ومعنى الآية ( ما كان من خلف فهو منه ) ، وربما أنفق الإنسان ماله أجمع في الخير ثم لم يزل عائلاً حتى يموت ، ولكن ما كان من خلف فهو منه ، ودليل تأويل مجاهد ما أخبرني أبو سُفيان الحسين بن محمد بن عبد الله قال : حدثنا محمد بن الحسين بن بشير قال : أخبرني أبو بكر بن أبي الخصيب قال : حدثنا معاذ بن المثنى قال : حدثنا عمرو بن الحصين قال : حدثنا ابن علانة وهو محمد عن الأوزاعي عن ابن أبي موسى عن أبي أُمامة قال : إنكم تؤوّلون هذه الآية على غير تأويلها ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ .

وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وإلاّ فصُمتا : " إياكم والسّرف في المال والنفقة ، وعليكم بالاقتصاد ، فما افتقر قوم قط اقتصدوا " .

وقال ( عليه السلام ) : " ما عال من اقتصد " .

وأخبرني ابن فنجويه قال: حدثنا موسى بن محمد بن إبراهيم بن هاشم البغوي قال: حدثنا أحمد بن حنبل قال: حدثنا عاصم بن خالد قال: أخبرني أبو بكر قال: حدثنا حمزة عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من فقه الرجل رفقه في معيشته".

﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرازقين ﴾ وإنما جاز الجمع؛ لأنه يُقال: رزق السلطان الجند، وفلان يرزق عياله، كأنه قال: وهو خير المعطين.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ يعني هؤلاء الكفار ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أهؤلاء إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ في الدُّنيا؟ فتتبرأ منهم الملائكة فتقول: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾: تنزيهاً لك. ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾: ربنا ﴿ مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن ﴾ أي يطيعون إبليس وذريته وأعوانه في معصيتك. ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾: مصدقون.

قال قتادة: هو استفهام تقديره كقوله لعيسى: ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني... ﴾ [المائدة: 116].

﴿ فاليوم لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرّاً ﴾: شفاعة ولا عذاباً، ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ النار التي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدُّنيا فقد وردتموها.

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُواْ مَا هذا ﴾ يعني محمداً (عليه السلام) ﴿ إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هذا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ يعنون القرآن ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَمَآ آتَيْنَاهُمْ ﴾ هؤلاء المشركين ﴿ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ يقرؤونها ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِّن نَّذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم رسلنا وتنزيلنا ﴿ وَمَا بَلَغُواْ ﴾ يعني هؤلاء المشركين ﴿ مِعْشَارَ مَآ آتَيْنَاهُمْ ﴾ يعني مكذبي الأُمم الخالية من القوة والنعمة وطول العمر ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ : إنكاري وتغيري عليهم ، يحذر كفار هذه الأمة عذاب الأُمم الماضية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُمْ ﴾ آمركم وأُوصيكم ﴿ بِوَاحِدَةٍ ﴾ بخصلة واحدة وهي ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ ﴾ لأجل الله و ﴿ أَن ﴾ في محل الخفض على البيان من ﴿ بِوَاحِدَةٍ ﴾ والترجمة عنها ﴿ مثنى ﴾ يعني اثنين اثنين متناظرين ، ﴿ وفرادى ﴾ واحداً واحداً متفكرين ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ جميعاً ، والفكر : طلب المعنى بالقلب ، فتعلموا ، ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ ﴾ محمد ﴿ مِّن جِنَّةٍ ﴾ جنون كما تقولون ، و ﴿ مَآ ﴾ جحْد ونفي . ﴿

إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * قُلْ مَا سَأَلْتُكُم ﴾ على تبليغ الرسالة والنصيحة ﴿ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ﴾ أي ما ثوابي إلاّ على الله ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ ﴾ : يرمي ويأتي ﴿ بالحق ﴾ ينزله من السماء إلى خير الأنبياء ، ﴿ عَلاَّمُ الغيوب ﴾ رفع بخبر ﴿ إنّ ﴾ .

(126/637)

---

﴿ قُلْ جَآءَ الحق ﴾ القرآن والإسلام ، وقال الباقر : يعني السيف . ﴿ وَمَا يُبْدِىءُ الباطل وَمَا يُعِيدُ ﴾ يعني ذهب الباطل وزهق فلم تبقَ له بقية يبدي بها ولا يعيد ، وهذا كقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ .

وقال الحسن : و ﴿ مَا يُبْدِىءُ ﴾ الباطل ، وهو كل معبود من دون الله لأهله خيراً في الدنيا و ﴿ مَا يُعِيدُ ﴾ في الآخرة.

وقال قتادة : الباطل إبليس ، أي ما يخلق إبليس أحداً ولا يبعثه ، وأخبرني الحسين بن محمد بن الحسين عن عبد الله بن إبراهيم بن علي عن محمد بن عمران بن هارون عن سفيان بن وكيع عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها

بعود معه ويقول : ﴿ وَقُلْ جَآءَ الحق وَزَهَقَ الباطل إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقاً ﴾ ﴿ جَآءَ الحق وَمَا يُبْدِىءُ الباطل وَمَا يُعِيدُ ﴾ .

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ على نَفْسِي ﴾ وآخذ بجنايتي ﴿ وَإِنِ اهتديت فَبِمَا يوحي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ .

﴿ وَلَوْ ترى إِذْ فَزِعُواْ فَلاَ فَوْتَ ﴾ يعني من عذاب الدنيا ، فلا نجاة ﴿ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ يعني عذاب الدُّنيا ، وقال الضحاك وزيد بن أسلم : هو يوم بدر . الكلبي : من تحت أقدامهم .

وأخبرنا محمد بن نعيم عن محمد بن يعقوب عن الحسن بن علي بن عفان عن الحسن بن عطية عن يعقوب الأصفهاني عن ابن أبزي : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ ﴾ قال : خسف بالبيداء .

(127/637)

---

أخبرني عقيل بن محمد أنّ المعافى بن زكريا البغدادي أخبرهم قال : أخبرنا محمد بن جرير قال : حدّثني عصام بن رواد بن الجراح قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا سُفيان بن سعيد قال : حدّثنا منصور بن المعتمر عن ربعي بن خراش قال : سمعت حذيفة بن اليمان يقول : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر فتنة تكون بين أهل الشرق والمغرب : " فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم السفياني من الوادي اليابس في فورة ذلك حتى ينزل دمشق ، فيبعث جيشين : جيشاً إلى المشرق ، وجيشاً إلى المدينة حتى ينزلوا بأرض بابل في المدينة الملعونة والبقعة الخبيثة ، فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ، ويبقرون بها أكثر من مئة امرأة ، ويقتلون بها ثلاثمائة كبش من بني العباس ، ثم ينحدرون إلى الكوفة فيخربون ما حولها ، ثم يخرجون متوجهين إلى الشام ، فتخرج راية هدىً من الكوفة ، فتلحق ذلك الجيش منها على ليلتين فيقتلونهم ولا يفلت منهم مخبر ويستنقذون ما في أيديهم من السبي والغنائم ، ويحل جيشه الثاني بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيام ولياليها . ثم يخرجون متوجهين إلى مكة حتى إذا كانوا بالبيداء بعث الله سبحانه جبرائيل ( عليه السلام ) فيقول : يا جبرائيل اذهب فأبدهم . فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم ، فذلك قوله عز وجل في سورة سبأ : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ فلا ينفلت منهم إلاّ رجلان : أحدهما بشير والآخر نذير وهما من جهينة " .

فلذلك جاء القول : " وعند جهينة الخبر اليقين " .

وقال قتادة : ذلك حين يخرجون من قبورهم ، وقال ابن معقل : إذا عاينوا عذاب الله يوم القيامة وأُخذوا من مكان قريب ؛ لأنهم حيث كانوا فهم من الله قريب لا يبعدون عنه ولا يفوتونه .

﴿ وقالوا ﴾ حين عاينوا العذاب في الدنيا والآخرة وقت البأس ﴿ آمَنَّا بِهِ وأنى ﴾ : من أين ﴿ لَهُمُ التناوش ﴾ تناول التوبة ونيل ما يتمنون؟ قال ابن عباس : يسألون الراد وليس يحين الرد ، وقرأ أبو عمرو والأعمش وحمزة والكسائي وخلف : ( التناؤش ) : بالهمز والمد ، وهو الإبطاء والبعد . يُقال : تناشيت الشيء أي أخذته من بعيد ، والنيش الشيء البطيء .

قال الشاعر :

تمنى نئيشاً أن يكون أطاعني . . . وقد حدثت بعد الأُمور أُمور

وقال آخر :

وجئت نئيشاً بعدها فاتك الخبر . . . وقرأ الباقون : بغير همز ، من التناول . يُقال : نشته نوشاً إذا تناولته .

قال الراجز :

فهي تنوش الحوض نوشاً من علا . . . نوشاً به تقطع أجواز الفلا

وتناوش القوم في الحرب إذا تناول بعضهم بعضاً وتدانوا ، واختار أبو عبيد : ترك الهمز ؛ لأنّ

معناه : التناول ، وإذا همز كان معناه البعد . فكيف يقول : أنى لهم البعد ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ : من الآخرة ؟ فكيف يتناولون التوبة ، وإنما يقبل التوبة في الدُّنيا وقد ذهبت الدُّنيا فصارت بعيدة من الآخرة ؟

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ ، أي من قبل نزول العذاب ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالغيب مِن مَّكَانٍ بَعِيد ﴾ ، يعني يرمون محمداً صلى الله عليه وسلم بالظنون لا باليقين ، وهو قولهم : إنه ساحر ، بل شاعر ، بل كاهن ، هذا قول مجاهد ، وقال قتادة : يعني يرجمون بالظن ، يقولون : لا بعث ولا جنّة ولا نار .

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ ، يعني التوبة والإيمان والرجوع إلى الدُّنيا ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم ﴾ أي أهل دينهم وموافقهم من الأُمم الماضية حين لم يقبل منهم الإيمان والتوبة في وقت البأس ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 88 . 96 ﴾

*(129/637)*

---

وقال الزمخشري :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ (24) ﴾

أمره بأن يقررهم بقوله مَنْ يَرْزُقُكُمْ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله : يرزقكم اللّه . وذلك للإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم ، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به ، لأن الذي تمكن في صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته ، ولأنهم إن تفوهوا بأن اللّه رازقهم : لزمهم أن يقال لهم : فما لكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرن عليه من لا يقدر على الرزق ، ألا ترى إلى قوله قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبصار حتى قال : فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ثم قال فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فكأنهم كانوا يقرّون بألسنتهم مرّة ، ومرّة كانوا يتلعثمون عنادا وضرارا وحذارا من إلزام الحجة ، ونحوه قوله عزّ وجل قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا وأمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ومعناه : وإنّ أحد الفريقين من الذين يتوحدون الرازق من السماوات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة ، لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال ، وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك ، وفي درجه بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ : دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين ، ولكن التعريض والتورية أنضل «1» بالمجادل

إلى الغرض ، وأهجم به على الغلبة ، مع قلة شغب الخصم وفلّ شوكته «2» بالهوينا ونحوه قول الرجل لصاحبه : علم اللّه الصادق منى ومنك ، وإن أحدنا لكاذب «3» . ومنه بيت حسان :

---

(1) . قوله «ولكن التعريض والتورية أفضل» في الصحاح «ناضله» : راماه ، يقال : ناضلت فلانا فنضلته إذا غلبته اه ، فالأنضل الأشد رميا ، فلذا عدى بالي . (ع)

(2) . قوله «وفل شوكته» أى كسرها . (ع)

(3) . قال محمود : «لما ألزمهم الحجة في قوله قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وهلم جرا إلى الآية المذكورة - وهذا الإلزام إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه - أمره أن يقول وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ومعناه : أن أحد الفريقين من الموحدين الرازق من السماوات والأرض بالعبادة ، ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة على ذرة : لعلى أحد الأمرين من الهدى أو الضلال ، وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موافق أو مخالف قال للمخاطب به : قد أنصفك صاحبك ، والتعريض أنضل بالمجادل إلى الغرض ، وأهجم به على الغلبة ، مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينا . ونحوه قول الرجل لصاحبه : اللّه يعلم الصادق منى ومنك ، وإن أحدنا لكاذب ومنه قول حسان :

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

قال أحمد : وهذا تفسير مهذب وافتنان مستعذب ، رددته على سمعي فزاد رونقا بالترديد ، واستعاذه الخاطر كأنى بطيء الفهم حين يفيد ، ولا ينبغي أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التي أكثر تعاطيها متأخر والفقهاء في مجادلاتهم ومحاوراتهم ، وذلك قولهم : أحد الأمرين لازم على الإبهام ، فهذا المسلك من هذا الوادي غير بعيد ، فتأمله واللّه الموفق .

(130/637)

---

أتهجوه ولست له بكفء فشر كما لخير كما الفداء «1»

فإن قلت : كيف خولف بين حرفى الجرّ الداخلين على الحق والضلال؟ قلت : لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء ، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدرى أين يتوجه . وفي قراءة أبىّ : وإنا أو إياكم إما على هدى أو في ضلال مبين .

[سورة سبإ (34) : الآيات 25 إلى 26]

قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26)

هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ فيه من الأوّل ، حيث أسند الإجرام إلى المخاطبين والعمل إلى المخاطبين ، وإن أراد بالإجرام : الصغائر والزلات التي لا يخلو منها مؤمن ، وبالعمل : الكفر والمعاصي العظام «2» . وفتح الله بينهم : وهو حكمه وفصله : أنه يدخل هؤلاء الجنة وأولئك النار .

[سورة سبإ (34) : آية 27]

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

فإن قلت : ما معنى قوله أَرُونِيَ وكان يراهم ويعرفهم ؟ قلت : أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله ، وأن يقايس على أعينهم بينه وبين أصنامهم ليطلعهم على إحالة القياس إليه والإشراك به . وكَلَّا ردع لهم عن مذهبهم بعد ما كسده بإبطال المقايسة ، كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ بعد ما حجهم ، وقد نبه على تفاحش

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد ضمن أبيات بالجزء الثاني صفحة 563 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) . قال محمود : «وهذا القول أدخل في الانصاف من الأول ، حيث أسند الاجرام إلى النفس وأراد به الزلات والصغائر التي لا يخلو عنها مؤمن ، وأسند العمل إلى المخاطبين وأراد به الكفر والمعاصي والكبائر» قال أحمد : فعبر عن الهفوات بما يعبر به عن العظائم ،

وعن العظائم بما يعبر به عن الهفوات ، التزاما للانصاف ، وزيادة على ذلك أنه ذكر الاجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الذي يعطى تحقيق المعنى ، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطى ذلك ، واللّه أعلم .

(131/637)

---

غلطهم وإن لم يقدروا اللّه حق قدره بقوله هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ كأنه قال : أين الذين ألحقتم به شركاء من هذه الصفات وهو راجع إلى اللّه وحده . أو ضمير الشأن ، كما في قوله تعالى قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .

[سورة سبإ (34) : آية 28]

وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (28)

إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم ، لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم . وقال الزجاج المعنى أرسلناك جامعا للناس في الإنذار والإبلاغ ، فجعله حالا من الكاف وحق التاء على هذا أن تكون للمبالغة كتاء الراوية والعلامة ، ومن جعله حالا من المجرور متقدّما عليه فقد أخطأ ، لأنّ تقدم حال المجرور عليه في الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار ، وكم ترى ممن يرتكب هذا الخطأ ثم لا يقع به حتى بضم إليه أن يجعل

اللام بمعنى إلى ، لأنه لا يستوي له الخطأ الأوّل إلا بالخطإ الثاني ، فلا بد له من ارتكاب الخطأين .

[سورة سبإ (34) : الآيات 29 إلى 30]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (29) قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (30)

قرئ : ميعاد يوم . وميعاد يوم . وميعاد يوما . والميعاد : ظرف الوعد من مكان أو زمان ، وهو هاهنا الزمان . والدليل عليه قراءة من قرأ : ميعاد يوم فأبدل منه اليوم . فإن قلت : فما تأويل من أضافه إلى يوم ، أو نصب يوما ؟ قلت . أما الإضافة فإضافة تبيين ، كما تقول : سحق ثوب ، وبعير سانية . وأما نصب اليوم فعلى التعظيم بإضمار فعل تقديره : لكم ميعاد ، أعنى يوما أو أريد يوما من صفته كيت وكيت . ويجوز أن يكون الرفع على هذا ، أعنى التعظيم . فإن قلت :

كيف انطبق هذا جوابا على سؤالهم ؟ قلت : ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له إلا تعنتا ، لا استرشادا ، فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقا لمجيء السؤال على سبيل الإنكار والتعنت ، وأنهم مرصدون ليوم يفاجئهم . فلا يستطيعون تأخرا عنه ولا تقدّما عليه .

[سورة سبإ (34) : آية 31]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31)

(132/637)

---

الذي بين يديه : ما نزل قبل القرآن من كتب اللّه : يروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجدون صفة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في كتبهم ، فأغضبهم ذلك وقرنوا إلى القرآن جميع ما تقدّمه من كتب اللّه عز وجل في الكفر . فكفروا بها جميعا . وقيل : الذي بين يديه يوم القيامة . والمعنى : أنهم جحدوا أن يكون القرآن من اللّه تعالى ، وأن يكون لما دلّ عليه من الإعادة للجزاء حقيقة ، ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال لرسوله عليه الصلاة والسلام أو للمخاطب وَلَوْ تَرى في الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم ، لرأيت العجيب «1» ، فحذف الجواب .

والمستضعفون : هم الأتباع ، والمستكبرون : هم الرءوس والمقدّمون .

[سورة سبإ (34) : الآيات 32 إلى 33]

قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ

مُجْرِمِينَ (32) وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (33)

أولى الاسم أعنى نَحْنُ حرف الإنكار ، لأنّ الغرض إنكار أن يكونوا هم الصادين لهم عن الإيمان ، وإثبات أنهم هم الذين صدّوا بأنفسهم عنه ، وأنهم أتوا من قبل اختيارهم ، كأنهم قالوا :

أنحن أجبرناكم وحلنا بينكم وبين كونكم ممكنين مختارين بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بعد أن صممتم على الدخول في الإيمان وصحت نياتكم في اختياره ؟ بل أنتم منعتم أنفسكم حظها وآثرتم الضلال على الهدى وأطعتم آمر الشهوة دون آمر النهى ، فكنتم مجرمين كافرين لاختياركم لا لقولنا وتسويلنا . فإن قلت : إذ وإذا من الظروف اللازمة للظرفية ، فلم وقعت إذ مضافا إليها ؟ قلت : قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره ، فأضيف إليها الزمان ، كما أضيف إلى الجمل في قولك : جئتك بعد إذ جاء زيد ، وحينئذ ، ويومئذ ، وكان ذلك أوان الحجاج أمير ، وحين خرج زيد . لما أنكر المستكبرون بقولهم أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ أن ذلك بكسبهم واختيارهم ، كرّ عليهم المستضعفون بقولهم بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم ، كأنهم قالوا : ما كان الإجرام من جهتنا ، بل من

(1) . قوله «لرأيت العجيب» لعله : العجب ، كعبارة النسفي . (ع)

(133/637)

جهة مكركم لنا دائبا ليلا ونهارا ، وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد . ومعنى مكر الليل والنهار : مكركم في الليل والنهار ، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه . أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازى . وقرئ : بل مكر الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين . وبل مكرّ الليل والنهار بالرفع والنصب . أى تكرّون الإغواء مكرّا دائبا لا تفترون عنه . فإن قلت : ما وجه الرفع والنصب ؟ قلت : هو مبتدأ أو خبر ، على معنى : بل سبب ذلك مكركم أو مكرّكم ، أو مكركم أو مكرّكم سبب ذلك . والنصب على : بل تكرّون الإغواء مكرّ الليل والنهار : فإن قلت : لم قيل : قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ، بغير عاطف ، وقيل وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ؟ قلت : لأن الذين استضعفوا مرّ أولا كلامهم ، فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف ، ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين ، فعطف على كلامهم الأوّل فإن قلت : من صاحب الضمير في وَأَسَرُّوا قلت : الجنس المشتمل على النوعين من المستكبرين والمستضعفين ، وهم الظالمون في قوله إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم ، والمستضعفون

على ضلالهم واتباعهم المضلين فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا أى في أعناقهم، فجاء بالصريح للتنويه بذمهم، وللدلالة على ما استحقوا به الأغلال. وعن قتادة: أسروا الكلام بذلك بينهم. وقيل: أسروا الندامة أظهروها، وهو من الأضداد.

[سورة سبإ (34) : الآيات 34 إلى 35]

وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (34) وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35)

هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما منى «1» به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به، والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد، والمفاخرة «2» وزخارفها، والتكبر بذلك على المؤمنين، والاستهانة بهم من أجله، وقولهم أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة وكادوه بنحو ما كادوه به، وقاسوا أمر الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمر الدنيا، واعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم، ولولا أنّ المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم، فعلى قياسهم ذلك قالوا وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم، نظرا إلى أحوالهم في الدنيا.

---

(1) . قوله «مما منى به من قومه» أى ابتلى به. (ع)

(2) . قوله «والمفاخرة وزخارفها» لعله «والمفاخرة بالدنيا وزخارفها». (ع)

[سورة سبإ (34) : آية 36]

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (36)

وقد أبطل اللّه تعالى حسبانهم بأنّ الرزق فضل من الله يقسمه كما يشاء على حسب ما يراه من المصالح، فربما وسع على العاصي وضيق على المطيع، وربما عكس، وربما وسع عليهما وضيق عليهما، فلا ينقاس عليه أمر الثواب الذي مبناه على الاستحقاق. وقدر الرزق: تضييقه. قال تعالى وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وقرئ يقدّر، بالتشديد والتخفيف.

[سورة سبإ (34) : الآيات 37 إلى 38]

وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (37) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (38)

أراد: وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتي تقربكم، وذلك أنّ الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث، ويجوز أن يكون التي هي التقوى وهي المقربة عند اللّه زلفى وحدها، أى: ليست أموالكم بتلك الموضوعة للتقريب. وقرأ الحسن:

باللاتى تقرّبكم ، لأنها جماعات . وقرئ : بالذي يقرّبكم ، أى : بالشيء الذي يقرّبكم .

والزلفى والزلفة : كالكربى والكربة ، ومحلها النصب ، أى : تقرّبكم قربة ، كقوله تعالى

أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً ، إِلَّا مَنْ آمَنَ استثناء من «كم» في تُقَرِّبُكُمْ ، والمعنى : أنّ الأموال لا

تقرب أحدا إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل اللّه ، والأولاد لا تقرب أحدا إلا من

علمهم الخير وفقههم في الدين ورشحهم للصلاح والطاعة ، جزاء الضِّعْفِ من إضافة

المصدر إلى المفعول ، أصله :

فأولئك لهم أن يجازوا الضعف ، ثم جزاء الضعف ، ثم جزاء الضعف . ومعنى جزاء

الضعف :

أن تضاعف لهم حسناتهم ، الواحدة عشرا . وقرئ : جزاء الضعف ، على : فأولئك لهم

الضعف جزاء وجزاء الضعف على : أن يجازوا الضعف ، وجزاء الضعف مرفوعان :

الضعف بدل من جزاء . قرئ فِي الْغُرُفاتِ بضم الراء وفتحها وسكونها . وفي الغرفة .

[سورة سبإ (34) : آية 39]

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ

خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39)

فَهُوَ يُخْلِفُهُ فهو يعوّضه لا معوّض سواه : إما عاجلا بالمال ، أو بالقناعة التي هي كنز

لا ينفد . وإما آجلا بالثواب الذي كل خلف دونه . وعن مجاهد : من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد ، فإنّ الرزق مقسوم ، ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه ، فينفق جميع ما في يده ثم يبقى طول عمره في فقر ، ولا يتأولن : وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، فإن هذا في الآخرة . ومعنى الآية : وما كان من خلف فهو منه خَيْرُ الرَّازِقِينَ وأعلاهم رب العزة ، بأن كل ما رزق غيره : من سلطان يرزق جنده ، أو سيد يرزق عبده ، أو رجل يرزق عياله : فهو من رزق الله ، أجراه على أيدى هؤلاء ، وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق . وعن بعضهم : الحمد للّه الذي أوجدنى «1» وجعلني ممن يشتهى ، فكم من مشته لا يجد ، وواجد لا يشتهى .

[سورة سبإ (34) : الآيات 40 إلى 41]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ (40) قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (41)

هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار ، وارد على المثل السائر :

إيّاك أعنى واسمعي يا جاره «2»

ونحوه قوله تعالى أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وقد علم سبحانه كون

(1) . قوله «الحمد لله الذي أوجدنى» في الصحاح: وجد مطلوبه وأوجده الله مطلوبه، أى أظفره به وأوجده أى: أغناه. (ع)

(2) يا أخت خير البدو والحضاره كيف ترين في فتى فزاره

أصبح يهوى حرة معطاره إياك اعنى فاسمعي يا جاره

لسهل بن مالك الفزاري، يخاطب أخت حارثة بن لأم، وكان قد سألها على أخيها فلم يجده فأنزلته وأكرمته، فرآها في غاية الجمال والكمال، فأنشد ذلك، فأجابته بقولها:

إنى أقول يا فتى فزاره لا أبتغى الزوج ولا الدعارة

ولا فراق أهل هذى الحاره فارحل إلى أهلك باستحاره

فارتحل، ثم نزل عند أخيها مرة أخرى، وكان حسن الطلعة، فأرسلت إليه خفية أن يخطبها، ففعل، وتزوجها وارتحل بها. والبدو: هو البادية. والحضارة: هي الحاضرة. والمراد أهلهما، وكيف: اسم استفهام نصب على المفعولية بترين. والمعنى: أى حال ترين في فتى هذه القبلة؟ يعنى نفسه. وفيه تعريض ب خطبتها. والمعطارة: كثيرة التعطر، ولحاق تاء التأنيث لمفعال شاذ - إن كانت للفرق بين المذكر والمؤنث كما هنا - ويمكن أنها لزيادة المبالغة، لا للتأنيث. والدعارة: الفسق والخبث والفساد. وهذى: اسم إشارة. وقولها: باستحارة، أى بكمال وعدم نقص. أو بتحير وعدم اهتداء. يقال: استحار الإناء، إذا امتلأ وتكامل. واستحار الرجل: إذا تحر في رأيه.

الملائكة وعيسى منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير ، والغرض أن يقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا ، فيكون تقريعهم أشدّ . وتعييرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم :

وهو أنه ألزم ، ويكون اقتصاص ذلك لطفا لمن سمعه ، وزاجرا لمن اقتص عليه . والموالاة : خلاف المعاداة . ومنها : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه . وهي مفاعلة من الولي وهو القرب ، كما أنّ المعاداة من العدواء وهي البعد ، والولي : يقع على الموالي والموالي جميعا . والمعنى أنت الذي نواليه من دونهم ، إذ لا موالاة بيننا وبينهم ، فبينوا بإثبات موالاة اللّه ومعاداة الكفار : براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم ، لأنّ من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك بَل كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ يريدون الشياطين ، حيث أطاعوهم في عبادة غير اللّه . وقيل :

صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا : هذه صور الملائكة فاعبدوها . وقيل : كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت . فيعبدون بعبادتها . وقرئ : نحشرهم . ونقول ، بالنون والياء .

[سورة سبإ (34) : آية 42]

فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (42)

الأمر في ذلك اليوم للّه وحده، لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرّة لأحد، لأنّ الدار دار ثواب وعقاب، والمثيب والمعاقب هو اللّه، فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار تكليف، والناس فيها مخلى بينهم، يتضارّون ويتنافعون. والمراد: أنه لا ضارّ ولا نافع يومئذ إلا هو وحده، ثم ذكر معاقبته الظالمين بقوله وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا معطوفا على لا يَمْلِكُ.

[سورة سبإ (34) : آية 43]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَقالُوا ما هذا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (43)

الإشارة الأولى: إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم، والثانية إلى القرآن. والثالثة: إلى الحق، والحق أمر النبوّة كله ودين الإسلام كما هو. وفي قوله وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا وفي أن لم يقل وقالوا، وفي قوله لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وفي لما من المبادهة بالكفر: دليل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد، وتعجيب

من أمرهم بليغ ، كأنه قال : وقال أولئك الكفرة المتمرّدون بجراءتهم على اللّه ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النير قبل أن يذوقوه إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ فبتوا القضاء على أنه سحر ، ثم بتوه على

(137/637)

---

أنه بين ظاهر كل عاقل تأمّله سماه سحرا .

[سورة سبإ (34) : الآيات 44 إلى 45]

وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (45)

وما آتيناهم كتبا يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك ، ولا أرسلنا إليهم نذيرا ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا ، كما قال عز وجل أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ أو وصفهم بأنهم قوم أمّيون أهل جاهلية لا ملة لهم وليس لهم عهد بإنزال كتاب ولا بعثة رسول كما قال أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ فليس لتكذيبهم وجه متشبث ، ولا شبهة متعلق ، كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين : نحن أهل كتب وشرائع ، ومستندون إلى رسل من رسل اللّه . ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله وَكَذَّبَ

الَّذِينَ تقدّموهم من الأمم والقرون الخالية كما كذبوا ، وما بلغ هؤلاء بعض ما آتينا أولئك من طول الأعمار وقوّة الأجرام وكثرة الأموال ، فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكارى بالتدمير والاستئصال ، ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم به مستظهرون ، فما بال هؤلاء ؟ وقرئ : يدرّسونها ، من التدريس وهو تكرير الدرس. أو من درّس الكتاب ، ودرّس الكتب : ويدّرسونها ، بتشديد الدال : يفتعلون من الدرس. والمعشار كالمرباع ، وهما : العشر ، والربع. فإن قلت : ما معنى فَكَذَّبُوا رُسُلِي وهو مستغنى عنه بقوله وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ قلت : لما كان معنى قوله وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ : وفعل الذين من قبلهم التكذيب ، وأقدموا عليه : جعل تكذيب الرسل مسببا عنه ونظيره أن يقول القائل : أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد صلى اللّه عليه وسلم ، ويجوز أن ينعطف على قوله : وما بلغوا ، كقولك : ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ «1» أى للمكذبين الأوّلين ، فليحذروا من مثله.

[سورة سبإ (34) : آية 46]

قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (46)

بِواحِدَةٍ بخصلة واحدة ، وقد فسرها بقوله أَنْ تَقُومُوا على أنه عطف بيان لها ، وأراد بقيامهم : إما القيام عن مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وتفرّقهم عن مجتمعهم عنده

وإما القيام الذي لا يراد به المثول على القدمين ، ولكن الانتصاب في الأمر والنهوض فيه بالهمة

(1) . قوله «فكيف كان نكير» وفي النسفي : أن يعقوب قرأ «نكيري» بالياء في الوصل والوقف . (ع)

(138/637)

---

والمعنى : إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم : وهي : أن تقوموا لوجه اللّه خالصا . متفرّقين اثنين اثنين ، وواحدا واحدا ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا في أمر محمد صلى اللّه عليه وسلم وما جاء به ، أمّا الاثنان : فيتفكران ويعرض كلّ واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين متناصفين ، لا يميل بهما اتباع هوى ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه ، وكذلك الفرد : يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقرّ عنده من عادات العقلاء ومجارى أحوالهم ، والذي أوجب تفرّقهم مثنى وفرادى : أنّ الاجتماع مما يشوّش الخواطر ، ويعمى البصائر ، ويمنع من الروية ، ويخلط القول ، ومع ذلك يقل الإنصاف ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب . ولا يسمع إلا نصرة

المذهب ، وأراهم بقوله ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ أن هذا الأمر العظيم الذي تحته ملك الدنيا والآخرة جميعا ، لا يتصدّى لا دعاء مثله إلا رجلان : إمّا مجنون لا يبالى باقتضاحه إذا طولب بالبرهان فعجز ، بل لا يدرى ما الافتضاح وما رقبة العواقب . وإمّا عاقل راجح العقل مرشح للنبوّة ، مختار من أهل الدنيا ، لا يدعيه إلا بعد صحته عنده بحجته وبرهانه ، وإلا فما يجدى على العاقل دعوى شيء لا بينة له عليه ، وقد علمتم أنّ محمدا صلى اللّه عليه وسلم ما به من جنة ، بل علمتموه أرجح قريش عقلا ، وأرزنهم حلما وأثقبهم ذهنا وآصلهم رأيا ، وأصدقهم قولا ، وأنزههم نفسا ، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به ، فكان مظنة لأن تظنوا به الخير ، وترجحوا فيه جانب الصدق على الكذب ، وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية ، فإذا أتى بها تبين أنه نذير مبين . فإن قلت : ما بِصاحِبِكُمْ ثم يتعلق ؟ قلت : يجوز أن يكون كلاما مستأنفا تنبيها من اللّه عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . ويجوز أن يكون المعنى : ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة ، وقد جوّز بعضهم أن تكون ما استفهامية بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ كقوله عليه الصلاة والسلام «1» : «بعثت في نسم الساعة «2»» .

[سورة سبإ (34) : آية 47]

قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (47)

فَهُوَ لَكُمْ جزاء الشرط الذي هو قوله ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ تقديره : أىّ شيء سألتكم

(1) . تقدم في الأنبياء . [. . . . . .]

(2) . قوله «بعثت في نسم الساعة» في الصحاح «نسم الريح» : أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد . ومنه الحديث «بعثت في نسم الساعة» أى : حين ابتدأت وأقبلت أوائلها . والنسم أيضا : جمع نسمة وهي النفس. (ع)

*(139/637)*

---

من أجر فهو لكم ، كقوله تعالى ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ وفيه معنيان ، أحدهما : نفى مسألة الأجر رأسا ، كما يقول الرجل لصاحبه : إن أعطيتنى شيئًا فخذه ، وهو يعلم أنه لم يعطه شيئًا ولكنه يريد به البت ، لتعليقه الأخذ بما لم يكن . والثاني : أن يريد بالأجر ما أراد في قوله تعالى قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا وفي قوله قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى لأنّ اتخاذ السبيل إلى اللّه نصيبهم وما فيه نفعهم ، وكذلك المودّة في القرابة ، لأنّ القرابة قد انتظمته وإياهم عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ حفيظ مهيمن ، يعلم أنى لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه ، ولا أطمع منكم في شيء .

[سورة سبإ (34) : آية 48]

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (48)

القذف والرمي : تزجية «1» السهم ونحوه بدفع واعتماد ، ويستعاران من حقيقتهما لمعنى الإلقاء ومنه قوله تعالى وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ومعنى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ يلقيه وينزله إلى أنبيائه . أو يرمى به الباطل فيدمغه ويزهقه عَلَّامُ الْغُيُوبِ رفع محمول على محل إن واسمها ، أو على المستكن في يقذف ، أو هو خبر مبتدإ محذوف. وقرئ بالنصب صفة لربي ، أو على المدح . وقرئ : الغيوب بالحركات الثلاث ، فالغيوب كالبيوت . والغيوب كالصبور وهو الأمر الذي غاب وخفى جدا .

[سورة سبإ (34) : آية 49]

قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ (49)

والحىّ إمّا أن يبدئ فعلا أو يعيده فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة ، فجعلوا قولهم : لا يبدئ ولا يعيد مثلا في الهلاك . ومنه قول عبيد :

أقفر من أهله عبيد فاليوم لا يبدي ولا يعيد «2»

والمعنى : جاء الحق وهلك الباطل ، كقوله تعالى : جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ وعن ابن مسعود

---

(1) . قوله «القذف والرمي تزجية السهم» في الصحاح : زجيت الشيء تزجية إذا دفعته برفق . (ع)

(2) . لعبيد بن الأبرص . وأقفر : خلا أو هلك عبيد من أهله . والإبداء والاعادة من لوازمهما الحياة ، فنفيهما كناية عن نفيها بالموت . كان المنذر بن ماء السماء يخرج في يوم من كل سنة فينعم على كل من يلقاه ، وفي آخر فيقتل أول من يلقاه ، فصادفه فيه عبيد ، فقيل له : امدحه بشعر لعله يعفو عنك ، فقال : حال الجريض دون القريض ، أى منعت الغصة الشعر ، فضرب ذلك مثلا وقال هذا البيت بعد ذلك تحسرا . وفي مجانى الأدب : أن المنذر قال له : أنشدنى : أقفر من أهله ملحوب ، فقال : أقفر من أهله عبيد . وملحوب : اسم موضع ، استنشده بيتا قديما فعلم أنه يريد هلاكه ، فقال : لا قدرة لي على إبداء شعر جديد ، ولا على إعادة شعر قديم ، ودخل في حشو البيت الزحاف الطى ، ومن العلل القطع ، فصار مستفعلن على وزن مستعل بسكون اللام ، وذلك في قوله «أهله» .



---

رضى اللّه عنه : دخل النبي صلى اللّه عليه وسلم مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل يطعنها بعود نبعة «1» ويقول جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً ، جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ «2» . والحق : القرآن . وقيل : الإسلام . وقيل : السيف . وقيل الباطل : إبليس لعنه اللّه ، أى : ما ينشئ خلقا ولا يعيده ، المنشئ

والباعث: هو اللّه تعالى. وعن الحسن: لا يبدئ لأهله خيرا ولا يعيده، أى: لا ينفعهم في الدنيا والآخرة. وقال الزجاج: أىّ شيء ينشئ إبليس ويعيده، فجعله للاستفهام. وقيل للشيطان: الباطل، لأنه صاحب الباطل، أو لأنه هالك كما قيل له: الشيطان، من شاط إذا هلك.

[سورة سبإ (34) : آية 50]

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (50)

قرئ، ضللت أضلّ، بفتح العين مع كسرها. وضللت أضلّ، بكسرها مع فتحها، وهما لغتان، نحو: ظللت أظلّ، وظللت أظلّ. وقرئ اضلّ: بكسر الهمزة مع فتح العين. فإن قلت: أين التقابل بين قوله فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وقوله فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي، وإنما كان يستقيم أن يقال: فإنما أضل على نفسي، وإن اهتديت فإنما أهتدى لها، كقوله تعالى مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها. أو يقال: فإنما أضل بنفسي. قلت: هما متقابلان من جهة المعنى، لأنّ النفس كل ما عليها فهو بها، أعنى: أن كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بها وبسببها: لأن الأمّارة بالسوء، وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه، وهذا حكم عامّ لكل مكلف، وإنما أمر رسوله صلى اللّه عليه وسلم أن يسنده إلى نفسه، لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالة محله

وسداد طريقته كان غيره أولى به إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ يدرك قول كل ضالّ ومهتد ، وفعله لا يخفى عليه منهما شيء .

[سورة سبإ (34) : آية 51]

وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (51)

وَلَوْ تَرى جوابه محذوف ، يعنى : لرأيت أمرا عظيما وحالا هائلة . و«لو» و«إذ» والأفعال التي هي «فزعوا» و«أخذوا» وحيل بينهم : كلها للمضى . والمراد بها الاستقبال ، لأن ما اللّه فاعله في المستقبل بمنزلة ما قد كان ووجد لتحققه ، ووقت الفزع : وقت البعث وقيام الساعة . وقيل : وقت الموت . وقيل : يوم بدر . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : نزلت

---

(1) . قوله «فجعل يطعنه بعود نبعة» لعله «معه» كعبارة النسفي . (ع)

(2) . متفق عليه وقد تقدم في الاسراء .



---

في خسف البيداء ، وذلك أنّ ثمانين ألفا يغزون الكعبة ليخربوها ، فإذا دخلوا البيداء خسف بهم فَلا فَوْتَ فلا يفوتون اللّه ولا يسبقونه . وقرئ : فلا فوت . والأخذ من مكان قريب : من الموقف إلى النار إذا بعثوا . أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا . أو من

صحراء بدر إلى القليب. أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم. فإن قلت : علام عطف قوله وَأُخِذُوا ؟

قلت : فيه وجهان : العطف على فزعوا ، أى : فزعوا وأخذوا فلا فوت لهم. أو على لا فوت ، على معنى : إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا. وقرئ : وأخذ ، وهو معطوف على محل لا فوت.

ومعناه : فلا فوت هناك ، وهناك أخذ.

[سورة سبإ (34) : الآيات 52 إلى 54]

وَقالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (52) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (53) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (54)

آمَنَّا بِهِ بمحمد صلى الله عليه وسلم لمرور ذكره في قوله ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ : والتناوش والتناول : أخوان إلا أنّ التناوش تناول سهل لشيء قريب ، يقال ناشه ينوشه ، وتناوشه القوم. ويقال : تناوشوا في الحرب : ناش بعضهم بعضا. وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون ، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت ، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا : مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة «1» كما يتناوله الآخر من قيس ذراع تناولا سهلا لا تعب فيه وقرئ التناؤش : همزت الواو المضمومة كما همزت في أجؤه وأدؤر وعن أبى عمرو

التناؤش بالهمز التناول من بعد من قولهم : نأشت إذا أبطأت وتأخرت . ومنه البيت :

تمنى نئيشا أن يكون أطاعنى «2»

---

(1) . قوله «أن يتناول الشيء من غلوة» في الصحاح : غلوت بالسهم غلوا ، إذا رميت به أبعد ما تقدر عليه ، والغلوة : الغاية مقدار رمية ، وفيه : يقال بينهما قيس رمح وقاس رمح ، أى : قدر رمح . (ع)

(2) ومولى عصاني واستبد برأيه كما لم يطع فيما أشار قصير

فلما رأى ما غب أمرى وأمره وناءت بأعجاز الأمور صدور

تمنى نئيشا أن يكون أطاعنى وقد حدثت بعد الأمور أمور

لنهشل بن حرى» واستبد : انفرد واستغنى بأمره . وقصير : علم رجل كان حسن الرأى ، وهو فاعل أشار .

ومفعول «يطع» محذوف لدلالة المذكور عليه . أو لأن الفعل منزل منزلة اللازم ، والأوجه رواية لم يطع مبنيا للمجهول . وقصير : نائب الفاعل ، وضميره فاعل أشار ، وبالعكس على الخلاف في باب التنازع . رغب الأمر :

بلغ فيه بالكسر عاقبته . وناء - بالمد - : أصله نأى ، فقلب : أى بعد ، وشبه الأمر بشيء له صدر وعجز على طريق المكنية وإثباتهما له تخييل ، كأن أوائل الأمور مضت بأواخرها ، فلما مضت الأوائل ظهرت الأواخر بعد خفائها . ويقال : نأش بالهمز إذا تأخر . ونئيشا :

نصب على الظرف ، أى أخيرا ، أى : تمنى في آخر الأمر أن يكون أطاعنى في نصيحتي لما رأى عاقبة أمرى حسنة وعاقبة أمره سيئة ، والحال أنه قد حدثت بعد الأمور السهلة أمور صعبة كانت خفية أوجبت تمنيه ، فهي حال مبينة للمراد من الظرف . أو حدثت بعد الأمور السهلة التي كان يمكنه معها مطاوعتى أمور صعبة تمنعه من التخلص من ربكته ، كما نصحته بذلك أولا فلم يسمع ومضى على رأيه .



---

أى أخيرا وَيَقْذِفُونَ معطوف على قد كفروا ، على حكاية الحال الماضية ، يعنى : وكانوا يتكلمون بِالْغَيْبِ ويأتون به مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ وهو قولهم في رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم شاعر . ساحر . كذاب . وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي ، لأنهم لم يشاهدوا منه سحرا ولا شعرا ولا كذبا ، وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله ، لأن أبعد شيء مما جاء به : الشعر والسحر ، وأبعد شيء من عادته التي عرفت بينهم وجربت : الكذب والزور : وقرئ : ويقذفون بالغيب ، على البناء للمفعول ، أى : يأتيهم به شياطينهم ويلقنونهم إياه ، وإن شئت فعلقه بقوله وَقالُوا آمَنَّا بِهِ على أنه مثلهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم آمنا في الآخرة ، وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئا من مكان بعيد لا

مجال للظن في لحوقه ، حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائبا عنه شاحطا ، والغيب : الشيء الغائب ، ويجوز أن يكون الضمير للعذاب الشديد في قوله بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ وكانوا يقولون : وما نحن بمعذبين ، إن كان الامر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب ، ونحن أكرم على اللّه من أن يعذبنا ، قايسين أمر الآخرة على أمر الدنيا : فهذا كان قذفهم بالغيب ، وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة ، لأن دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف ما يَشْتَهُونَ من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفوز بالجنة . أو من الردّ إلى الدنيا ، كما حكى عنهم فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً . بِأَشْياعِهِمْ بأشباههم من كفرة الأمم ومن كان مذهبه مذهبهم مُرِيبٍ إما من أرابه ، إذا أوقعه في الريبة والتهمة . أو من أراب الرجل ، إذا صار ذا ريبة ودخل فيها ، وكلاهما مجاز إلا أنّ بينهما فريقا : وهو أنّ المريب من الأول منقول ممن يصح أن يكون مريبا من لأعيان إلى المعنى ، والمريب من الثاني منقول من صاحب الشك إلى الشك ، كما تقول :

شعر شاعر .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبىّ إلا كان له يوم القيامة رفيقا ومصافحا «1»» . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 581 . 594 ﴾

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم عن أبى بن كعب .

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل مَنْ يرزُقُكم مِنَ السموات ﴾

يعني المطر ﴿ والأرضِ ﴾ يعني النبات والثمر .

وإِنما أُمر أن يسأل الكفار عن هذا ، احتجاجاً عليهم بأن الذي يرزُق هو المستحِقُّ للعبادة ، وهم لا يُثبتون رازقاً سواه ، ولهذا قيل له : ﴿ قُلِ اللّهُ ﴾ لأنهم لا يُجيبون بغير هذا ؛ وها هنا تم الكلام .

ثم أمره أن يقول لهم : ﴿ وإِنّا أو إِيّاكم لَعَلَى هُدىً أو في ضلال مُبينٍ ﴾ مذهب المفسرين أن "أو" ها هنا بمعنى الواو .

وقال أبو عبيدة : معنى الكلام : وإِنّا لَعَلَى هُدى ، وإِنَّكم لفي ضلال مُبين .

وقال الفراء : معنى : "أو" عند المفسرين معنى الواو ، وكذلك هو في المعنى ، غير أن العربيَّة على غير ذلك ، لا تكون "أو" بمنزلة الواو ، ولكنها تكون في الأمر المفوّض ، كما تقول : إِن شئت فخُذ درهماً أو اثنين ، فله أن يأخذ واحداً أو اثنين ، وليس له أن يأخذ ثلاثة ؛ وإِنما معنى الآية : وإِنّا لضالُّون أو مهتدون ، وإِنكم أيضاً لضالُّون أو مهتدون ، وهو يَعْلَمُ أن

رسوله المهتدي ، وأن غيره الضالُّ ، كما تقول للرجل تكذِّبه : واللّهِ إنّ أحدنا لكاذب - وأنت تعنيه - فكذَّبْتَه تكذيباً غير مكشوف ؛ ويقول الرجل : والله لقد قَدِم فلان ، فيقول له من يَعْلَم كذبه : قل : إِن شاء الله ، فيكذّبه بأحسنَ من تصريح التكذيب ؛ ومن كلام العرب أن يقولوا : قاتله الله ، ثم يستقبحونها ، فيقول : قاتَعَه الله ، ويقول بعضهم : كاتعه الله ؛ ويقولون : جوعاً ، دعاءً على الرجل ، ثم يستقبحونها فيقولون : جوداً ، وبعضهم يقول : جوساً ؛ ومن ذلك قولهم : ويحك وويسك ، وإِنما هي في معنى ﴿ ويلك ﴾ إِلا أنها دونها .

قوله تعالى : ﴿ قل لا تُسألون عمّا أَجرمنا ﴾ أي : لا تؤاخذون به ﴿ ولا نُسأَل عمّا تَعلمون ﴾ من الكفر والتكذيب ؛ والمعنى : إِظهار التبرّي منهم .

وهذه الآية عند أكثر المفسرين منسوخة بآية السيف ، ولا وجه لذلك .



---

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بيننا ربُّنا ﴾ يعني عند البعث في الآخرة ﴿ ثُمّ يَفْتَحُ بيننا ﴾ أي يقضي ﴿ بالحقِّ ﴾ أي : بالعدل ﴿ وهو الفتّاح ﴾ القاضي ﴿ العليمُ ﴾ بما يقضي ﴿ قل ﴾ للكفار ﴿ أروني الذين أَلحقتم به شركاء ﴾ أي : أَعلِموني من أيِّ وجه ألحقتموهم

وهم لا يخلُقون ولا يرزُقون ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وتنبيه؛ والمعنى: ارتدِعوا عن هذا القول، وتنبَّهوا عن ضلالتكم، فليس الأمر على ما أنتم عليه.

قوله تعالى: ﴿ وما أرسلناكَ إلاَّ كافَّةً للنَّاس ﴾ أي: عامَّة لجميع الخلائق.

وفي الكلام تقديم، تقديره: وما أرسلناك إلاَّ للناس كافَّةً.

وقيل: معنى ﴿ كافة للناس ﴾: تكفُّهم عمَّا هُم عليه من الكفر، والهاء فيه للمبالغة.

﴿ ويقولون متى هذا الوَعْدُ ﴾ يعنون العذاب الذي يَعِدُهم به في يوم القيامة؛ وإِنما قالوا هذا، لأنهم يُنْكرون البعث، ﴿ قُلْ لكُم ميعادُ يوم ﴾ وفيه قولان.

أحدهما: أنه يوم الموت عند النَّزْع والسِّياق، قاله الضحاك.

والثاني: يوم القيامة، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿ وقال الذين كَفَروا ﴾ يعني مشركي مكَّة ﴿ لن نؤمِن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ يعنون التوراة والإِنجيل، وذلك أن مؤمني أهل الكتاب قالوا: إِنّ صفة محمد في كتابنا، فكفر أهلُ مكَّة بكتابهم.

ثم أخبر عن حالهم في القيامة فقال : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون ﴾ يعني مشركي مكة ﴿ موقوفون عند ربِّهم ﴾ في الآخرة ﴿ يَرْجِعُ بعضُهم إلى بعض القولَ ﴾ أي : يَرُدُّ بعضُهم على بعض في الجدال واللَّوم ﴿ يقول الذين استُضعفوا ﴾ وهم الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم الأشراف والقادة : ﴿ لولا أنتم لكنَّا مؤمنين ﴾ أي : مصدِّقين بتوحيد الله ؛ والمعنى : أنتم منعتمونا عن الإِيمان ؛ فأجابهم المتبوعون فقالوا : ﴿ أنحن صددناكم عن الهُدى ﴾ أي : منعناكم عن الإِيمان ﴿ بعد إِذ جاءكم ﴾ به الرسول ؟ ﴿ بل كنتم مجرمين ﴾ بترك الإِيمان - وفي هذا تنبيه للكفار على أن طاعة بعضهم لبعض في الدنيا تصير سبباً للعداوة في الآخرة - فردَّ عليهم الأتباع فقالوا : ﴿ بل مَكْرُ الليلِ والنهارِ ﴾ أي : بل مكركم بنا في الليل والنهار .

قال الفراء : وهذا ممَّا تتوسع فيه العرب لوضوح معناه ، كما يقولون : ليله قائم ، ونهاره صائم ، فتضيف الفعل إلى غير الآدميين ، والمعنى لهم .

وقال الأخفش : وهذا كقوله : ﴿ مِنْ قريتك التي أخرجَتْكَ ﴾ [ محمد : 13 ] ، قال جرير :

لقد لُمْتِنا يا أُمَّ غَيْلانَ في السُّرَى . . .

ونِمْتِ وَما لَيْلُ المَطِيِّ بنائمِ

وقرأ سعيد بن جبير ، وأبو الجوزاء ، وعاصم الجحدري : ﴿ بل مَكَرَ ﴾ بفتح الكاف

والراء ﴿ الليلُ والنهارُ ﴾ برفعهما .

وقرأ ابن يعمر : ﴿ بل مَكْرُ ﴾ باسكان الكاف ورفع الراء وتنوينها ﴿ الليلَ والنهارَ ﴾ بنصبهما .

قوله تعالى : ﴿ إِذ تأمُروننا أن نكفُر بالله ﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون لهم : إِنّ دِيننا حقّ ومحمد كذّاب ، ﴿ وأَسرُّوا النَّدَامة ﴾ وقد سبق بيانه في [ يونس : 54 ] .

قوله تعالى : ﴿ وجعَلْنا الأغلالَ في أعناق الذين كَفَروا ﴾ إِذا دخلوا جهنم غُلَّت أيديهم إِلى أعناقهم ، وقالت لهم خَزَنة جهنم : هل تُجزون إِلا ما كنتم تعملون في الدنيا .

*(146/637)*

---

قال أبو عبيدة : مجاز "هل" هاهنا مجاز الإِيجاب ، وليس باستفهام ؛ والمعنى : ما تُجزَون إِلا ما كنتم تعملون .

﴿ وما أرسَلْنا في قرية من نذير ﴾ أي : نبيّ يُنْذِر ﴿ إِلاَّ قال مُتْرَفوها ﴾ وهم أغنياؤها ورؤساؤها .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا نحن أكثرُ أموالاً وأولاداً ﴾ .

في المشار إِليهم قولان .

أحدهما : أنهم المُتْرَفون من كل أُمَّة .

والثاني : مشركو مكة ، فظنوا من جهلهم أن الله خوّلهم المال والولد لكرامتهم عليه ، فقالوا : ﴿ وما نحن بمعذَّبين ﴾ لأن الله أحسن إلينا بما أعطانا فلا يعذّبنا ، فأخبر أنه ﴿ يبسُط الرِّزق لمن يشاء ويَقْدِر ﴾ ؛ والمعنى أنَّ بَسْطَ الرِّزق وتضييقه ابتلاءٌ وامتحان ، لا أنَّ البَسْطَ يدلُّ على رضى الله ، ولا التضييق يدل على سخطه ﴿ ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ذلك .

ثم صرح بهذا المعنى بقوله ﴿ وما أموالُكم ولا أولادكم بالَّتي تقرِّبُكم عندنا زُلْفى ﴾ قال الفراء : يصلُح أن تقع "التي" على الأموال والأولاد جميعاً ، لأن الأموال جمع والأولاد جمع ؛ وإِن شئتَ وجَّهتَ "التي" إِلى الأموال ، واكتفيتَ بها من ذِكْر الأولاد ؛ وأنشد لمرّار الأسدي :

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وأَنْتَ بِمَا . . .

عِنْدَكَ رَاضٍ والرَّأْيُ مُخْتَلِفُ

وقد شرحنا هذا في قوله : ﴿ ولا يُنْفِقونها في سبيل الله ﴾ [ التوبة : 34 ] وقال الزجاج : المعنى : وما أموالكم بالتي تقرّبكم ، ولا أولادكم بالذين يقرّبونكم ، فحُذف اختصاراً .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، والحسن ، وأَبو الجوزاء : ﴿ باللاتي تقرِّبكم ﴾ .

قال الأخفش : و ﴿ زُلفى ﴾ هاهنا اسم مصدر ، كأنه قال : تقرِّبكم عندنا ازْدِلافاً .

وقال ابن قتيبة : ﴿ زُلفى ﴾ أي : قُرْبى ومَنْزِلةً عِندنا .

(147/637)

---

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ ﴾ قال الزجاج : المعنى : ما تقرِّبُ الأموالُ إِلاَّ من آمن وعمل بها في طاعة الله ، ﴿ فأولئك لهم جزاءُ الضِّعف ﴾ والمراد به هاهنا عشر حسنات ، تأويله : لهم جزاءُ الضِّعف الذي قد أعلمتُكم مقداره .

وقال ابن قتيبة : لم يُرِدْ فيما يَرى أهلُ النظر – والله أعلم أنهم يُجازَون بواحدٍ مثله ، ولا اثنين ، ولكنه أراد جزاء التضعيف ، وهو مِثْل يُضَمُّ إِلى مِثْلٍ ما بَلَغ ، وكأنَّ الضِّعفَ الزيادةُ ، فالمعنى : لهم جزاءُ الزيادة .

وقرأ سعيد بن جبير ، وأبو المتوكل ، ورويس ، وزيد عن يعقوب : ﴿ لهم جزاءً ﴾ بالنصب والتنوين وكسر التنوين وصلاً ﴿ الضِّعفُ ﴾ بالرفع .

وقرأ أبو الجوزاء ، وقتادة ، وأبو عمران الجوني : ﴿ لهم جزاءٌ ﴾ بالرفع والتنوين ﴿ الضِّعفُ ﴾ بالرفع .

قوله تعالى : ﴿ وهم في الغُرُفات ﴾ يعني [ في ] غُرَف الجنة ، وهي البيوت فوق الأبنية .

وقرأ حمزة: ﴿ في الغُرْفة ﴾ على التوحيد ؛ أراد اسم الجنس.

وقرأ الحسن، وأبو المتوكل: ﴿ في الغُرْفات ﴾ بضم الغين وسكون الراء مع الألف.

وقرأ أبو الجوزاء، وابن يعمر: بضم الغين وفتح الراء مع الألف ﴿ آمنون ﴾ من الموت والغير.

وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [الحج: 51، الرعد: 26] إِلى قوله: ﴿ وما أَنفقتم من شيء فهو يُخْلِفُه ﴾ أي: يأتي ببدله، يقال: أخلف اللّهُ له وعليه: إِذا أبدل ما ذهب عنه

وفي معنى الكلام أربعة أقوال.

أحدها: ما أنفقتم من غير إِسراف ولا تقتير فهو يُخْلِفُه، قاله سعيد بن جبير.

والثاني: ما أنفقتم في طاعته، فهو يخلفه في الآخرة بالأجر، قاله السدي.

والثالث: ما أنفقتم في الخير والبِرّ فهو يُخْلِفه، إِمّا أن يعجّله في الدنيا، أو يدّخرَه لكم في الآخرة، قاله ابن السائب.

والرابع: أن الإِنسان قد يُنفق ماله في الخير ولا يرى له خَلَفاً أبداً ؛ وإِنما معنى الآية: ما كان من خَلَف فهو منه، ذكره الثعلبي.

قوله تعالى : ﴿ وهو خير الرَّازِقين ﴾ لمَّا دار على الألسن أن السلطان يرزُق الجند ، وفلان يرزق عياله ، أي : يعطيهم ، أخبر أنه خير المُعْطِين .

قوله تعالى : ﴿ ويوم يحشُرُهم جميعاً ﴾ يعني المشركين ؛ وقال مقاتل : يعني الملائكة ومَنْ عَبَدها ﴿ ثُمَّ يقولُ للملائكة أهؤلاء إِيَّاكم كانوا يعبُدونَ ﴾ وهذا استفهام تقرير وتوبيخ للعابدين ؛ فنزَّهت الملائكةُ ربَّها عن الشِّرك ف ﴿ قالوا سبحانك ﴾ أي : تنزيهاً لك مما أضافوه إِليك من الشركاء ﴿ أنت وليُّنا مِنْ دونهم ﴾ أي : نحن نتبرَّأُ إِليك منهم ، ما تولَّينا ولا اتَّخذناهم عابدين ، ولسنا نريد وليّاً غيرك .

﴿ بل كانوا يعبُدون الجِنَّ ﴾ أي : يُطيعون الشياطين في عبادتهم إِيَّانا ﴿ أكثرُهم بهم ﴾ أي : بالشياطين ﴿ مُؤْمِنون ﴾ أي : مصدِّقون لهم فيما يُخبرونهم من الكذب أن الملائكةَ بناتُ الله ، فيقول الله تعالى : ﴿ فاليومَ ﴾ يعني في الآخرة ﴿ لا يملكُ بعضُكم لبعض ﴾ يعني العابدين والمعبودين ﴿ نَفْعاً ﴾ بالشفاعة ﴿ ولا ضَرّاً ﴾ بالتعذيب ﴿ ونقولُ للَّذين ظَلَموا ﴾ فعبدوا غير الله ﴿ ذُوقوا عذاب النَّار . . .

﴾ الآية .

ثم أخبر أنهم يكذِّبون محمداً والقرآن بالآية التي تلي هذه ، وتفسيرها ظاهر .

ثم أخبر أنهم لم يقولوا ذلك عن بيِّنة ، ولم يكذِّبوا محمداً عن يقين ، ولم يأتهم قبله كتاب ولا نبيّ يخبرهم بفساد أمره ، فقال : ﴿ وما آتيناهم من كُتُب يدرُسونها ﴾ قال قتادة : ما أنزل

الله على العرب كتاباً قبل القرآن ولا بعث إليهم نبيّاً قبل محمد ؛ وهذا محمول على الذين أنذرهم نبيُّنا [ محمد ] صلى الله عليه وسلم ؛ وقد كان إسماعيل نذيراً للعرب .

ثم أخبر عن عاقبة المكذِّبين قبلهم مخوِّفاً لهم ، فقال : ﴿ وكذَّب الذين مِنْ قبلهم ﴾ يعني الأمم الكافرة ﴿ وما بَلَغوا معشار ما آتيناهم ﴾ وفيه ثلاثة أقوال .

(149/637)

---

أحدها : ما بلغ كفار مكة معشار ما آتينا الأمم التي كانت قبلهم من القوّة والمال وطول العمر ، قاله الجمهور .

والثاني : ما بلغ الذين من قبلهم معشار ما أعطينا هؤلاء من الحُجَّة والبرهان .

والثالث : ما بلغ الذين من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم ، حكاهما الماوردي .

والمِعشار : العُشر .

والنَّكير : اسم بمعنى الإنكار .

قال الزجاج : والمعنى : فكيف كان نكيري ؛ وإنما حُذفت الياءُ ، لأنَّه آخر آية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إنَّما أَعِظُكم ﴾ أي : آمُركم وأُوصيكم ﴿ بواحدة ﴾ وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها "لا إِله إلا الله" ، رواه ليث عن مجاهد .

والثاني : طاعة الله ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والثالث : أنها قوله : ﴿ أن تَقُوموا لله مثنى وفُرادى ﴾ ، قاله قتادة.

والمعنى : أن التي أَعِظُكم بها ، قيامُكم وتشميركم لطلب الحق ، وليس بالقيام على الأقدام.

والمراد بقوله ﴿ مثنى ﴾ أي : يجتمع اثنان فيتناظران في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والمراد ب ﴿ فُرادى ﴾ : أن يتفكَّر الرجل وحده ، ومعنى الكلام : لِيتفكرِ الإِنسانُ منكم وحده ، ولْيَخْلُ بغيره ، ولْيُناظِر ، ولْيَسْتَشِر ، فَيَسْتَدِلَّ بالمصنوعات على صانعها ، ويُصدِّق الرسول على اتبّاعه ، ولْيَقُل الرجل لُصاحبه : هَلُمَّ فلْنَتَصادق هل رأينا بهذا الرجل جِنّة قَطّ ، أو جرَّبنا عليه كَذِباً قَطّ .

وتم الكلام عند قوله : ﴿ ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنّة ﴾ ، وفيه اختصار تقديره : ثم تتفكَّروا لتعلموا صِحَّة ما أُمرتكم به وأنَّ الرسول ليس بمجنون ، ﴿ إِنْ هو إلاَّ نذير لكم بين يَدَيْ عذاب شديدٍ ﴾ في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ قل ما سألتُكم مِنْ أَجْر ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿ فَهُو لكم ﴾ والمعنى : ما أسألكم شيئاً ؛ ومثله قول القائل : ما لي في هذا فقد وهبتُه لك ، يريد : ليس لي فيه شيء .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بالحقِّ ﴾ أي يُلقي الوحيِ إلى أنبيائه ﴿ عَلاَّمُ الغيُوبِ ﴾

وقرأ أبو رجاء : ﴿ عَلاَّمَ ﴾ بنصب الميم .

﴿ قُلْ جاء الحقُّ ﴾ وهو الإِسلام والقرآن .

وفي المراد بالباطل ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الشيطان ، لا يخلُق أحداً ولا يبعثُه ، قاله قتادة .

والثاني : أنه الأصنام ، لا تُبدئ خَلْقاً ولا تُحيي ، قاله الضحاك .

وقال أبو سليمان : لا يبتدىء الصنم من عنده كلاماً فيُجاب ، ولا يرُدُّ ما جاء من الحق بحُجّة .

والثالث : أنه الباطل الذي يُضادُّ الحق ؛ فالمعنى : ذهب الباطل بمجيء الحقِ ، فلم تَبْقَ منه بقيّة يُقبِل بها أو يُدبِر أو يُبدىء أو يعيد ، ذكره جماعة من المفسرين .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فانما أَضِلُّ على نفسي ﴾ أي : إِثم ضلالتي على نفسي ، وذلك أنَّ كُفَّار مكَّة زعموا أنه قد ضَلَّ حين ترك دين آبائه ، ﴿ وإِن اهتَدَيتُ فَبِما يوحي إِليَّ رِبّي ﴾ من الحكمة والبيان .

قوله تعالى : ﴿ ولو تَرى إِذْ فَزِعوا ﴾ في زمان هذا الفزع قولان .

أحدهما : أنه حين البعث من القبور ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه عند ظهور العذاب في الدنيا ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

وقال سعيد بن جبير : هو الجيش الذي يُخسف به بالبيداء ، يبقى منهم رجل فيخبر الناس بما لقُوا ، وهذا حديث مشروح في التفسير ، وأن هذا الجيش يؤمُّ البيت الحرام لتخريبه ، فيُخسف بهم .

وقال الضحاك وزيد ابن أسلم : هذه الآية فيمن قُتل يوم بدر من المشركين .

قوله تعالى : ﴿ فلا فَوْتَ ﴾ المعنى : فلا فَوْتَ لهم ، أي : لا يُمكنهم أن يفوتونا ﴿ وأُخِذوا من مكان قريب ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : من مكانهم يوم بدر ، قاله زيد بن أسلم .

والثاني : من تحت أقدامهم بالخسف ، قاله مقاتل .

والثالث : من القبور ، قاله ابن قتيبة .

وأين كانوا ، فهُم من الله قريب .

قوله تعالى: ﴿ وقالوا ﴾ أي: حين عاينوا العذاب ﴿ آمَنَّا به ﴾ في هاء الكناية أربعة أقوال.

أحدها: أنها تعود إِلى الله عز وجل، قاله مجاهد.

والثاني: إِلى البعث، قاله الحسن.

والثالث: إِلى الرسول، قاله قتادة.

والرابع: إِلى القرآن، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿ وأَنَّى لهم التَّنَاوُشُ ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿ التَّنَاوُشُ ﴾ غير مهموز.

وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، والمفضل عن عاصم: بالهمز.

قال الفراء: من همز جعله من "نأَشْتُ"، ومن لم يهمز، جعله من "نُشْتُ"، وهما متقاربان؛ والمعنى: تناولتُ الشيء، بمنزلة: ذِمْتُ الشيءَ وذأَمْتُه: إِذا عِبْتَه؛ وقد تناوش القومُ في القتال: إِذا تناول بعضُهم بعضاً بالرِّماح، ولم يتدانَوا كُلَّ التداني، وقد يجوز همز "التَّنَاؤش" وهي من "نُشْتُ" لانضمام الواو، مثل قوله: ﴿ وإِذا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ [المرسلات: 11].

وقال الزجّاج: من همز "التَّنَاؤش" فلأنّ واو التَّنَاوُش مضمومة، وكُلُّ واو مضمونة ضمّتُها لازمة، إِن شئتَ أبدلت منها همزة، وإِن شئتَ لم تبدل، نحو: أدؤر.

وقال ابن قتيبة : معنى الآية : وأَنَّى لهم التَّناوُشُ لِمَا أرادوا بلوغَه وإِدراكُ ما طلبوا من التَّوبة ﴿ من مكانٍ بعيدٍ ﴾ وهو الموضع الذي تُقْبَل فيه التوبةُ .

وكذلك قال المفسرون : أَنَّى لهم بتناول الإِيمان والتوبة وقد تركوا ذلك في الدنيا والدنيا قد ذهبت ؟ !

قوله تعالى : ﴿ وقد كَفَروا به ﴾ في هاء الكناية أربعة أقوال قد تقدَّمت في قوله ﴿ آمنَّا به ﴾ [ سبأ : 52 ] .

ومعنى ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : في الدنيا من قبل معاينة أهوال الآخرة ﴿ ويَقْذِفون بالغيب ﴾ أي : يَرْمُون بالظّنِّ ﴿ مِنْ مكانٍ بعيدٍ ﴾ وهو بُعدهم عن العلم بما يقولون .

وفي المراد بمقالتهم هذه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم يظُنّون أنهم يُردّون إِلى الدنيا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

(152/637)

---

والثاني : أنه قولهم في الدنيا : لا بعث لنا ولا جنة ولا نار ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثالث : أنه قولهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو ساحر ، هو كاهن ، هو شاعر ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ وحِيل بينهم وبين ما يَشتهون ﴾ أي : مُنع هؤلاء الكفار مما يشتهون ، وفيه ستة أقوال .

أحدها : انه الرجوع إلى الدنيا ، قاله ابن عباس .

والثاني : الأهل والمال والولد ، قاله مجاهد .

والثالث : الإيمان ، قاله الحسن .

والرابع : طاعة الله ، قاله قتادة .

والخامس : التوبة ، قاله السدي .

والسادس : حيل بين الجيش الذي خرج لتخريب الكعبة وبين ذلك بأن خُسف بهم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ كما فُعِلَ ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وأُبيُّ بن كعب ، وأبو عمران : ﴿ كما فَعَل ﴾ بفتح الفاء والعين ﴿ بأشياعهم مِنْ قَبْلُ ﴾ قال الزجّاج : أي بمن كان مذهبُه مذهبَهم . قال المفسرون : والمعنى : كما فُعل بنُظَرائهم من الكفار مِنْ قَبْل هؤلاء ، فانهم حِيل بينهم وبين ما يشتهون .

وقال الضحاك : هم أصحاب الفيل حين أرادوا خراب الكعبة ﴿ إِنَّهم كانوا في شَكٍّ ﴾ من البعث ونزول العذاب بهم ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أي : مُوقِعٍ للرِّيبة والتُّهمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 6 صـ 454 . 471 ﴾

وقال الخازن :

قوله ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ﴾ يعني المطر والنبات ﴿ قل الله ﴾ يعني إن لم يقولوا إن رزاقنا هو الله فقل : أنت إن رازقكم هو الله ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ معناه ما نحن وأنتم على أمر واحد بل أحد الفريقين مهتد والآخر ضال ، وهذا ليس على طريق الشك بل جهة الإلزام والإنصاف في الحجاج ، كما يقول القائل أحدنا كاذب ، وهو يعلم أنه صادق وصاحبه كاذب فالنبي ( صلى الله عليه وسلم ) ومن اتبعه على الهدى ومن خالفه في ضلال فكذبهم من غير أن يصرح بالتكذيب ومنه بيت حسان :

أتهجوه ولست له بكفء . . .

فشركما لخيركما الفداء

وقيل أو بمعنى الآية إنا لعلى هدى وإنكم لفي ضلال مبين ﴿ قل لا تسألون عما أجرمنا ﴾ أي تؤاخذون به ﴿ ولا نسأل عما تعملون ﴾ أي من الكفر والتكذيب وقيل أراد بالإجرام الصغائر والزلات التي لا يخلو منها مؤمن وبالعمل الكفر والمعاصي العظام ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثم يفتح ﴾ يعني يقضي ويحكم ﴿ بيننا بالحق ﴾ يعني بالعدل

﴿ وهو الفتاح ﴾ يعني القاضي ﴿ العليم ﴾ يعني بما يقضي ﴿ قل أروني ﴾ أعلموني ﴿ الذين ألحقتم به ﴾ يعني بالله ﴿ شركاء ﴾ يعني الأصنام التي أشركوها معه في العبادة هل يخلقون أو يرزقون وأراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله ﴿ كلا ﴾ كلمة ردع لهم عن مذهبهم والمعنى أرتدعوا فإنهم لا يخلقون ولا يرزقون ﴿ بل هو العزيز ﴾ أي الغالب على أمره ﴿ الحكيم ﴾ أي تدبير خلقه فأنى يكون له شريك في ملكه.

*(154/637)*

---

قوله ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ يعني للناس كلهم عامة أحمرهم وأسودهم عربيهم وعجميهم وقيل الرسالة عامة لهم لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد ( ق ) عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهور، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة " في الحديث بيان الفضائل التي خص الله بها نبينا محمد ( صلى الله عليه وسلم ) دون سائر الأنبياء، وأن هذه الخمسة لم تكن لأحد ممن كان قبله من الأنبياء، وفيه اختصاصه بالرسالة العامة

لكافة الخلق الإنس والجن وكان النبي قبله يبعث إلى قومه أو إلى أهل بلده فعمت رسالة نبينا صلى الله عليه سلم ، جميع الخلق وهذه درجة خص بها دون سائر الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ، وقيل في المعنى كافة أي كافاً تكفهم عما هم عليه من الكفر فتكون الهاء للمبالغة ﴿ بشيراً ﴾ أي لمن آمن بالجنة ﴿ ونذيراً ﴾ أي لمن كفر بالنار ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون ساعة ولا تستقدمون ﴾ معناه لا تتقدمون على يوم القيامة وقيل : عن يوم الموت ولا تتأخرون عنه بأن يزاد في آجالهم أو ينقص منها ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ يعني التوراة والإنجيل ﴿ ولو ترى ﴾ أي يا محمد ﴿ إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ معناه ولو ترى في الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحاورة ويتراجعونها بينهم لرأيت العجب ﴿ يقول الذين استضعفوا ﴾ وهم الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهو القادة والأشراف ﴿ لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ يعني أنتم منعتمونا عن الإيمان بالله ورسوله .

﴿ قال الذين استكبروا ﴾ أي أجاب المتبوعون في الكفر ﴿ للذين استضعفوا أنحن صددناكم ﴾ أي منعناكم ﴿ عن الهدى ﴾ أي عن الإيمان ﴿ بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ﴾ أي بترك الإيمان ﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار ﴾ أي مكركم بنا في الليل والنهار وقيل مكر الليل والنهار هو طول السلام في الدنيا وطول الأمل فيها ﴿ إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ﴾ أي هو قول القادة للأتباع إن ديننا الحق وإن محمد كذاب ساحر وهذا تنبيه للكفار أن تصير طاعة بعضهم لبعض في الدنيا سبب عداوتهم في الآخرة ﴿ وأسروا الندامة ﴾ أي أظهروها وقيل: أخفوها وهو من الأضداد ﴿ لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ﴾ أي في النار الأتباع والمتبوعين جميعاً ﴿ هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ أي من الكفر والمعاصي في الدنيا .



---

قوله ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها ﴾ أي رؤساؤها وأغنياؤها ﴿ إنا بما أرسلتم به كافرون وقالوا ﴾ يعني المترفين والأغنياء للفقراء الذين آمنوا ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً ﴾ يعني لو لم يكن الله راضياً بما نحن عليه من الدين والعمل الصالح لم يخولنا

أموالاً ولا أولاداً ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ أي إن الله قد أحسن إلينا في الدنيا بالمال والولد فلا يعذبنا في الآخرة ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ يعني أنه تعالى يبسط الرزق ابتلاء وامتحاناً ولا يدل البسط على رضا الله تعالى ولا التضييق على سخطه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي إنها كذلك ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ﴾ أي بالتي تقربكم عندنا تقريباً ﴿ إلا ﴾ أي لكن ﴿ من آمن وعمل صالحاً ﴾ قال ابن عباس يريد إيمانه وعلمه يقربه مني ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ أي يضعف الله لهم حسناتهم فيجزي بالحسنة الواحدة عشر إلى سبعمائة ﴿ وهم في الغرفات آمنون والذين يسعون في آياتنا ﴾ أي يعملون في إبطال حججنا ﴿ معاجزين ﴾ أي معاندين يحسبون أنهم يعجزوننا ويفوتنا ﴿ أولئك في العذاب محضرون ﴾ .

قوله تعالى ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ أي يعطي خلفه إذا كان في غير إسراف ولا تقتير فهو يخلفه ويعوضه لا معوض سواه إما عاجلاً بالمال أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفد ، وإما بالثواب في الاخرة الذي كل خلف دونه ، وقيل ما تصدقتم من صدقة وأنفقتم من خير فهو يخلفه على المنفق .

قال مجاهد : من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد ، فإن الرزق مقسوم ولعل ما قسم له قليل ، وهو ينفق نفقة الموسع عليه فينفق جميع ما في يده ثم يبقى طول عمره في فقره ،

ولا يتأولن وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه فإن هذا في الآخرة ومعنى الآية ما كان من خلف فهو منه ( ق ) عن أبي هريرة أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) قال :

(157/637)

---

" قال الله تبارك وتعالى : أنفق ينفق عليك " ولمسلم " يا ابن آدم أنفق أنفق عليك " ( ق ) عنه أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) قال " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً " ( م ) عنه أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) قال : " ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع لله إلا رفعه الله " ﴿ وهو خير الرازقين ﴾ أي خير من يعطي ويرزق لأن ما رزق غيره من سلطان يرزق جنده أو سيد يرزق مملوكه أو رجل يرزق عياله فهو من رزق الله أجراه الله على أيدي هؤلاء وهو الرزاق الحقيقي الذي لا رازق سواه . قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ﴾ يعني هؤلاء الكفار ﴿ ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ أي في الدنيا وهذا استفهام تقريع وتقرير للكفار فتتبرأ الملائكة منهم من ذلك وهو قوله تعالى ﴿ قالوا سبحانك ﴾ أي تنزيها لك ﴿ أنت ولينا من دونهم ﴾ أي نحن نتولاك ولا نتولاهم فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار براءتهم من الرضا

بعبادتهم لهم ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ يعني الشياطين.

فان قلت قد عبدوا الملائكة فكيف وجه قوله بل كانوا يعبدون الجن.

(158/637)

---

قلت أراد أن الشياطين زينوا لهم عبادة الملائكة فأطاعوهم في ذلك فكانت طاعتهم للشياطين عبادة لهم وقيل صوروا لهم صوراً وقالوا لهم هذه صور الملائكة فاعبدها فعبدوها وقيل كانوا يدخلون في أجواف الأصنام فيعبدون بعبادتها ﴿ أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ يعني مصدقون للشياطين قال الله تعالى ﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ﴾ أي شفاعة ﴿ ولا ضراً ﴾ أي بالعذاب يريد أنهم عاجزون ولا نفع عندهم ولا ضر ﴿ ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل ﴾ يعنون محمدا (صلى الله عليه وسلم) ﴿ يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ﴾ يعنون القرآن ﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين وما آتيناهم ﴾ يعني هؤلاء المشركين ﴿ من كتب يدرسونها ﴾ أي يقرؤونها ﴿ وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ أي لم يأت العرب قبلك نبي ولا أنزل إليهم كتاب ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ أي من الأمم السالفة رسلنا ﴿ وما

بلغوا ﴾ يعني هؤلاء المشركين ﴿ معشار ﴾ أي عشر ﴿ ما آتيناهم ﴾ أي أعطينا الأمم الخالية من القوة والنعمة وطول الأعمار ﴿ فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ﴾ أي إنكاري عليهم يحذر بذلك كفار هذه الأمة عذاب الأمم الماضية .

(159/637)

---

قوله ﴿ قل إنما أعظكم ﴾ أي آمركم وأوصيكم ﴿ بواحدة ﴾ أي بخصلة واحدة ثم بين تلك الخصلة فقال تعالى ﴿ أن تقوموا لله ﴾ أي لأجل الله ﴿ مثنى ﴾ أي اثنين ﴿ وفرادى ﴾ أي واحداً واحداً ﴿ ثم تتفكروا ﴾ أي تجتمعوا جميعاً فتنظروا وتتحاوروا وتتفكروا في حال محمد ( صلى الله عليه وسلم ) فتعلموا أن ﴿ ما بصاحبكم من جنة ﴾ ومعنى الآية إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهي أن تقوموا لله وليس المراد به القيام على القدمين ولكن هو الانتصاب في الأمر والنهوض فيه بالهمة فتقوموا لوجه الله خالصاً ثم تتفكروا في أمر محمد ( صلى الله عليه وسلم ) وما جاء به أما الاثنان فيتفكران ، ويعرض كل منهما محصول فكره على صاحبه لينظرا فيه نظر متصادقين متناصفين لا يميل بهما اتباع الهوى وأما الفرد فيفكر في نفسه أيضاً بعدل ونصفة هل رأينا في هذا الرجل جنوناً قط أو جربنا عليه كذباً قط وقد علمتم أن محمداً ( صلى الله عليه

وسلم ) ما به من جنة بل قد علمتم أنه من أرجح قريش عقلاً وأوزنهم حلماً وأحدهم ذهناً وأرصنهم رأياً وأصدقهم قولاً وأزكاهم نفساً ، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحونه به وإذا علمتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بآية وإذا جاء بها تبين أنه نبي نذير مبين صادق فيما جاء به وقيل : تم الكلام عند قوله : تتفكروا أي في السموات والأرض فتعلموا أنه خالقها واحد لا شريك له ثم ابتدأ فقال ما بصاحبكم من جنة ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد قل ما سألتكم ﴾ أي على تبليغ الرسالة ﴿ من أجر ﴾ أي جعل ﴿ فهل لكم ﴾ أي لم أسألكم شيئاً ﴿ إن أجري ﴾ أي ثوابي ﴿ إلا على الله وهو على كل شيء شهيد قل إن ربي يقذف بالحق ﴾ أي يأتي بالوحي من السماء فيقذفه إلى الأنبياء ﴿ علام الغيوب ﴾ أي خفيات الأمور ﴿ قل جاء الحق ﴾ أي القرآن والإسلام ﴿ وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ أي ذهب الباطل وزهق فلم تبق منه بقية تبدىء شيئاً أو تعيده وقيل الباطل هو إبليس



---

والمعنى لا يخلق إبليس أحداً ابتداء ولا يبعثه إذا مات وقيل الباطل الأصنام .

﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي ﴾ وذلك أن كفار مكة كانوا يقولون له إنك قد ضللت حين تركت دين آبائك فقال الله تعالى قل إن ضللت فيما تزعمون أنتم فإنما أضل على نفسي أي إثم ضلالتي على نفسي ﴿ وإن اهتديت فبما يوحي إليَّ ربي ﴾ أي في القرآن والحكمة ﴿ إنه سميع قريب ﴾ قوله ﴿ ولو ترى ﴾ أي يا محمد ﴿ إذ فزعوا ﴾ أي عند البعث أي حين يخرجون من قبورهم وقيل عند الموت ﴿ فلا فوت ﴾ أي لا يفوتوننا ولا نجاة لهم ﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ قيل من تحت أقدامهم ، وقيل أخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها حيثما كانوا فإنهم من الله قريب لا يفوتونه ، ولا يعجزونه وقيل : من مكان قريب يعني عذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر وقيل : هو خسف بالبيداء ومعنى الآية ولو ترى إذ فزعوا لرأيت أمراً تعتبر به ﴿ وقالوا آمنا به ﴾ أي حين عاينوا العذاب قيل هو عند اليأس وقيل هو عند البعث ﴿ وأنى لهم التناوش ﴾ أي التناول والمعنى كيف لهم تناول ما بعد عنهم وهو الإيمان والتوبة وقد كان قريباً منهم في الدنيا فضيعوه وقال ابن عباس يسألون الرد إلى الدنيا فيقال وأنى لهم الرد إلى الدنيا ﴿ من مكان بعيد ﴾ أي من الآخرة إلى الدنيا ﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ أي القرآن وقيل بمحمد ( صلى الله عليه وسلم ) من قبل أن يعاينوا العذاب وأهوال القيامة ﴿ ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ قيل هو الظن لأن علمه غاب عنهم والمكان البعيد بعدهم عن علم ما يقولون ، والمعنى

يرمون محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) بما لا يعلمون من حيث لا يعلمون وهو قولهم إنه شاعر ساحر كاهن لا علم له بذلك وقيل يرجمون بالظن يقولون لا بعث ولا جنة ولا نار ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ أي الإيمان والتوبة والرجوع إلى الدنيا ونعيمها وزهرتها ﴿ كما فعل بأشياعهم ﴾ أي بنظرائهم ومن كان على مثل حالهم من الكفار ﴿ من قبل ﴾ أي لم تقبل منهم التوبة في وقت اليأس ﴿ إنهم كانوا في شك ﴾ أي من البعث ونزول العذاب بهم ﴿ مريب ﴾ أي

موقع الريبة والتهمة ، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 291. 296 ﴾

(162/637)

---

وقال ابن جزى :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ ﴾

سؤال قصد به إقامة الحجة على المشركين ﴿ قُلِ الله ﴾ جواب عن السؤال بما لا يمكن المخالفة فيه ، ولذلك جاء السؤال والجواب من جهة واحدة ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ هذه ملاطفة وتنزل في المجادلة إلى غاية الإنصاف كقولك : الله يعلم أن

أحدنا على حق وأن الآخر على باطل ، ولا تُعين بالتصريح أحدهما ، ولكن تنبه الخصم على النظر حتى يعلم من هو على الحق ومن هو على الباطل ، والمقصود من الآية أن المؤمنين على هدى ، وأن الكفار على ضلال مبين .

﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا ﴾ إخبار يقتضي مسالمة نسخت بالسيف .

﴿ يَفْتَحُ بَيْنَنَا ﴾ أي يحكم ، والفتاح الحاكم .

﴿ قُلْ أَرُونِيَ الذين أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَآءَ ﴾ إقامة حجة على المشركين ، والرؤية هنا رؤية قلب فشركاء مفعول ثالث ، والمعنى أروني بالدليل والحجة من هم له شركاء عندكم ، وكيف وجه الشركة ، وقيل : هي رؤية بصر ، وشركاء حال من المفعول في ﴿ أَلْحَقْتُمْ ﴾ كأنه قال : أين الذين تعبدون من دونه وفي قوله : ﴿ أَرُونِيَ ﴾ تحقير للشركاء وازدراء بهم ، وتعجيز للمشركين ، وفي قوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم عن الإشراك ، وفي وصف الله بالعزيز الحكيم : ردّ عليهم بأن شركاءهم ليسوا كذلك .



---

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ المعنى أن الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ، وهذه إحدى الخصال التي أعطاه الله دون سائر الأنبياء ، وإعراب ﴿ كَآفَّةً

﴾ حال من الناس قدمت للاهتمام ، هكذا قال ابن عطية ، وقال الزمخشري : ذلك خطأ لأن تقدم حال المجرور عليه لا يجوز ، وتقديره عنده : وما أرسلناك إلا رسالة عامة للناس ، فكافة صفة للمصدر المحذوف ، وقال الزجَّاج : المعنى أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار ، والتبشير ، فجعله حالاً من الكاف ، والتاء على هذا للمبالغة كالتاء في راوية وعلاّمة .

﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ ﴾ يعني يوم القيامة ، أو نزول العذاب بهم في الدنيا ، وهو الذي سألوا عنه على وجه الاستخفاف ؛ فقالوا : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ .

﴿ بَلْ مَكْرُ الليل والنهار ﴾ المعنى أن المستضعفين قالوا للمستكبرين : بل مكركم بنا في الليل والنهار سبب كفرنا ، وإعراب ﴿ مَكْرُ ﴾ مبتدأ وخبره محذوف ، أو خبر ابتداء مضمر ، وأضاف مكر إلى الليل والنهار على وجه الاتساع ، ويحتمل أن يكون إضافة إلى المفعول أو إلى الفاعل على وجه المجاز : كقولهم : نهاره صيام وليله قيام أي يصام فيه ويقام ، ودلت الإضافة على كثيرة المكر ودوامه بالليل والنهار ، فإن قيل : لم أثبت الواو في قول ﴿ الذين استضعفوا ﴾ دون قول ﴿ لِلَّذِينَ استكبروا ﴾ فالجواب أنه قد تقدم كلام الذين استضفوا قبل ذلك فعطف عليه كلامهم الثاني ، ولم يتقدم للذين استكبروا كلام آخر فيعطف عليه ﴿ وَأَسَرُّواْ الندامة ﴾ أي أخفوها في نفوسهم ، وقيل : أظهروها فهو من الأضداد ، والضمير لجميع المستضعفين والمستكبرين ﴿ مُتْرَفُوهَآ ﴾ يعني أهل الغنى

والتنعيم في الدنيا ، وهم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء ، والقصد بالآية تسلية النبي صلى الله عليه وسلم على تكذيب أكابر قريش له .

(164/637)

---

﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً ﴾ الضمير لقريش أو للمترفين المتقدمين : قاسوا أمر الدنيا على الآخرة ، وظنوا أن الله كما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا لا يعذبهم في الآخرة .

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ إخبار يتضمن الردّ عليهم بأن بسط الرزق وقبضه في الدنيا معلق بمشيئة الله ، فقد يوسع الله على الكافر وعلى العاصي ، ويضيق على المؤمن والمطيع ، وبالعكس ، فليس في ذلك دليل على أمر الآخرة .

﴿ زلفى ﴾ مصدر بمعنى القرب كأنه قال : تقربكم قربى ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ ﴾ استثناء من المفعول في تقربكم ، والمعنى أن الأموال لا تقرب إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله ، وقيل الاستثناء منقطع ، والأول أحسن ﴿ جَزَآءُ الضعف ﴾ يعني تضعيف الحسنات إلى عشر أمثالها فما فوق ذلك .

﴿ يَبْسُطُ الرزق ﴾ الآية : كررت لاختلاف القصد ، فإن القصد بالأول على الكفار

والقصد هنا ترغيب المؤمنين بالإنفاق ﴿ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ الخلف قد يكون بمال أو بالثواب .

﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ﴾ براءة من أن يكون لهم رضا بعبادة المشركين لهم ، وليس في ذلك نفي لعبادته لهم ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجن ﴾ عبادتهم للجن طاعتهم لهم في الكفر والعصيان ، وقيل : كانوا يدخلون في جوف الأصنام فيعبدون بعبادتها ، ويحتمل أن يكون قوم عبدوا الجن لقوله : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الجن ﴾ [ الأنعام : 100 ] .

*(165/637)*

---

﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ الآية : في معناها وجهين : أحدهما ليس عندهم كتب تدل على صحة أقوالهم ، ولا جاءهم نذير يشهد بما قالوه ؛ فأقوالهم باطلة إذ لا حجة لهم عليها ، فالقصد على هذا ردّ عليهم ، والآخر : أنهم ليس عندهم كتب ولا جاءهم نذير فيهم محتاجون إلى من يعلمهم وينذرهم ولذلك بعث الله إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فالقصد على هذا إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ المعشار العشر ، وقيل عشر العشر ، والأول أصح ، والضمير في بلغوا لكفار قريش ، وفي آتيناهم للكتب المتقدمة : أي إن هؤلاء لم يبلغوا عشر ما أعطى الله للمتقدمين من القوة والأموال ، وقيل : الضمير في بلغوا للمتقدمين ، وفي آتيناهم

لقريش: أي ما بلغ المتقدمون عشر ما أعطى الله هؤلاء من البراهين والأدلة، والأول أصح وهو نظير قوله: كانوا أشد منهم قوة ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري، يعني عقوبة الكفار المتقدمين، وفي ذلك تهديد لقريش.

(166/637)

---

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾ أي بقضية واحدة تقريباً عليكم ﴿ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ ﴾ هذا تفسير القضية الواحدة وأن تقوموا بدل أو عطف بيان أو خبر ابتداء مضمر، ومعناه أن تقوموا للنظر في أمر محمد صلى الله عليه وسلم قياماً خالصاً لله تعالى ليس فيه اتباع هوى ولا ميل، وليس المراد بالقيام هنا القيام على الرجلين؛ وإنما المراد القيام بالأمر والجدّ فيه ﴿ مثنى وفرادى ﴾ حال من الضمير في تقوموا، والمعنى أن تقوموا اثنين اثنين للمناظرة في الأمر وطلب التحقيق وتقوموا واحداً واحداً لإحضار الذهن واستجماع الفكرة، ثم تتفكروا في أمر محمد صلى الله عليه وسلم فتعلموا أن ما به من جنة، لأنه جاء بالحق الواضح، ومع ذلك فإن أقواله وأفعاله تدل على رجاحة عقله ومتانة علمه، وأنه بلغ في الحكمة مبلغاً عظيماً، فيدل ذلك على أنه ليس بمجنون ولا مفتر على الله ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ متصل بما قبله على الأصح: أي تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من

جنة ، وقيل هو استئناف .

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ هذا كما يقول الرجل لصاحبه : إن أعطيتني شيئاً فخذه ، وهو يعلم أنه لم يعطه شيئاً ، ولكنه يريد البراءة من عطائه ، وكذلك معنى هذا ، فهو كقولك : قل ما أسألكم عليه من أجر .

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالحق ﴾ القذف الرمي ويستعار للإلقاء ، فالمعنى يلقي الحق إلى أصفيائه ، أو يرمي الباطل بالحق فيذهبه ﴿ عَلاَّمُ الغيوب ﴾ خبر ابتداء مضمر أو بدل من الضمير في ﴿ يَقْذِفُ ﴾ أو من اسم إن على الموضع .

(167/637)

---

﴿ قُلْ جَآءَ الحق ﴾ يعني الإسلام ﴿ وَمَا يُبْدِىءُ الباطل وَمَا يُعِيدُ ﴾ الباطل الكفر ، ونفى الإبداء والإعادة ، على أنه لا يفعل شيئاً ولا يكون له ظهور أو عبارة عن ذهابه كقوله : ﴿ جَآءَ الحق وَزَهَقَ الباطل ﴾ [ الإسراء : 81 ] وقيل : الباطل الشيطان ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ يعني قربه تعالى بعلمه وإحاطته .

﴿ وَلَوْ ترى إِذْ فَزِعُواْ ﴾ جواب لو محذوف تقديره : لرأيت أمراً عظيماً ، أو معنى ﴿ فَزِعُواْ ﴾ : أسرعوا إلى الهروب ، والفعل ماضي بمعنى الاستقبال ، وكذلك ما بعده من

الأفعال ، ووقت الفزع البعث ، وقيل : الموت ، وقيل : يوم بدر ﴿ فَلاَ فَوْتَ ﴾ أي يفوتون الله إذ هربوا ﴿ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ يعني من الموقف إلى النار إذا بعثوا ، أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا ، أو من أرض بدر إلى القليب ، والمراد على كل قول سرعة أخذهم .

﴿ وقالوا آمَنَّا بِهِ ﴾ أي قالوا ذلك عند أخذهم ، والضمير المجرور لله تعالى أو للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو القرآن أو للإسلام ﴿ وأنى لَهُمُ التناوش مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ التناوش بالواو التناول ، إلا أن التناوش تناول قريب سهل لشيء قريب ، وقرئ بهمز الواو فيحتمل أن يكون المعنى واحداً ، ويكون المهموز بمعنى الطلب ، ومعنى الأية استبعاد وصولهم إلى مرادهم ، والمكان البعيد : عبارة عن تعذر مقصودهم فإنهم يطلبون ما لا يكون ، أو يريدون أن يتناولوا ما لا ينالون وهو رجوعهم إلى الدنيا أو انتفاعهم بالإيمان حينئذ .

(168/637)

---

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِ ﴾ الضمير يعود على ما عاد عليه قولهم ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ ﴿ وَيَقْذِفُونَ بالغيب مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يقذفون فعل ماض في المعنى معطوف على كفروا ، ومعناه أنهم يرمون بظنونهم في الأمور المغيبة فيقولون : لا بعث ولا جنة ولا نار . ويقولون في الرسول

عليه الصلاة والسلام : إنه ساحر أو شاعر . والمكان البعيد هنا عبارة عن بطلان ظنونهم وبعد أقوالهم عن الحق .

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ أي حيل بينهم وبين دخول الجنة ، وقيل : حيل بينهم وبين الانتفاع بالإيمان ، حينئذ ، وقيل حيل بينهم وبين نعيم الدنيا والرجوع إليها ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ يعني الكفار المتقدمين وجعلهم أشياعهم لاتفاقهم في مذاهبهم ، و ﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ يحتمل أن يتعلق بفعل ، أو ﴿ بِأَشْيَاعِهِم ﴾ على حسب معنى ما قبله ﴿ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ هو أقوى الشك واشده إضلالاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 3 صـ 154.150﴾

*(169/637)*

---

وقال النسفي :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السماوات والأرض قُلِ الله ﴾

أمره بأن يقررهم بقوله ﴿ مَن يَرْزُقُكُم ﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله "يرزقكم الله" وذلك للإشعار بأنهم مقرون به بقلوبهم إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به لأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم فما لكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا

يقدر على الرزق ، وأمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ومعناه وإن أحد الفريقين من الموحدين ومن المشركين لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال ، وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موالٍ أو منافٍ قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك .

وفي درجة بعد تقدم ما قدم من التقرير دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين ولكن التعرض أوصل بالمجادل إلى الغرض ، ونحوه قولك للكاذب "إن أحدنا لكاذب" .

وخولف بين حرفي الجر الداخلين على الهدى والضلال لأن صاحب الهدى كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء ، والضال كأنه ينغمس في ظلام لا يرى أين يتوجه .

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ هذا أدخل في الإنصاف من الأول حيث أسند الإجرام إلى المخاطبين وهو مزجور عنه محظور ، والعمل إلى المخاطبين وهو مأمور به مشكور .

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ ﴾ يحكم ﴿ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ بلا جور ولا ميل ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ ﴾ الحاكم ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بالحكم ﴿ قُلْ أَرُونِىَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم ﴾ أي ألحقتموهم ﴿ بِهِ ﴾ بالله ﴿ شُرَكَآءَ ﴾ في العبادة معه .

(170/637)

ومعنى قوله ﴿ أَرُونِىَ ﴾ وكان يراهم أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله وأن يطلعهم على حالة الإشراك به ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وتنبيه أي ارتدعوا عن هذا القول وتنبهوا عن ضلالكم ﴿ بَلْ هُوَ اللهُ العزيز ﴾ الغالب فلا يشاركه أحد وهو ضمير الشأن ﴿ الحكيم ﴾ في تدبيره ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم لأنها إذا شملتهم فقد كفّتهم أن يخرج منها أحد منهم.

وقال الزجاج: معنى الكافة في اللغة الإحاطة، والمعنى أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ، فجعله حالاً من الكاف والتاء على هذا للمبالغة كتاء الراوية والعلاّمة ﴿ بَشِيراً ﴾ بالفضل لمن أقر ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ بالعدل لمن أصر ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فيحملهم جهلهم على مخالفتك.

(171/637)

﴿ ويَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ أي القيامة المشار إليها في قوله ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين قل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ ﴾ الميعاد ظرف الوعد من مكان أو زمان وهو هنا الزمان ويدل عليه قراءة من قرأ ﴿ مِّيعَادُ يَوْمٍ ﴾ فأبدل منه اليوم ، وأما الإضافة فإضافة تبيين كما تقول "بعير سانية" ﴿ لاَّ تَسْتَئَخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أي لا يمكنكم التأخر عنه بالاستمهال ولا التقدم إليه بالاستعجال ، ووجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم أنهم سألوا عن ذلك وهم منكرون له تعنتاً لا استرشاداً فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقاً للسؤال على الإنكار والتعنت وأنهم مرصدون ليوم يفاجئهم فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدماً عليه ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي أبو جهل وذووه ﴿ لَن نُّؤْمِنَ بهذا القرءان ولاَ بالذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي ما نزل قبل القرآن من كتب الله أو القيامة والجنة والنار حتى إنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله ، وأن يكون لما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون مَوْقُوفُونَ ﴾ محبوسون ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ ﴾ يرد ﴿ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ القول ﴾ في الجدال أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو للمخاطب : ولو ترى في الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحاورة ويتراجعونها بينهم لرأيت العجب فحذف الجواب ﴿ يَقُولُ الذين استضعفوا ﴾ أي الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ استكبروا ﴾ أي للرؤوس والمقدمين ﴿ لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ لولا دعاؤكم إيانا إلى الكفر لكنا مؤمنين بالله ورسوله ﴿ قَالَ الذين استكبروا لِلَّذِينَ استضعفوا

﴿ أَنَحْنُ صددناكم عَنِ الهدى ﴾ أولى الاسم أي نحن حرف الانكار لأن المراد إنكار أن يكون هم الصادين لهم عن الإيمان وإثبات أنهم هم الذين صدوا بأنفسهم عنه وأنهم أتوا من قبل اختيارهم ﴿

(172/637)

---

﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴾ إنما وقعت "إذ" مضافاً إليها وإن كانت "إذ" و "إذا" من الظروف اللازمة للظرفية لأنه قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره فأضيف إليها الزمان ﴿ بَلْ كُنْتُمْ مُّجْرِمِينَ ﴾ كافرين لاختياركم وإيثاركم الضلال على الهدى لا بقولنا وتسويلنا .

﴿ وَقَالَ الذين استضعفوا لِلَّذِينَ استكبروا ﴾ لم يأت بالعاطف في ﴿ قَالَ الذين استكبروا ﴾ وأتى به في ﴿ وَقَالَ الذين استضعفوا ﴾ لأن الذين استضعفوا مر أولاً كلامهم فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريق الاستئناف ، ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الأول ﴿ بَلْ مَكْرُ الليل والنهار ﴾ بل مكركم بنا بالليل والنهار فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه ، أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي أي الليل والنهار مكراً بطول السلامة فيهما حتى ظننا أنكم على الحق ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بالله وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً ﴾ أشباهاً .

والمعنى أن المستكبرين لما أنكروا بقولهم ﴿ أَنَحْنُ صددناكم ﴾ أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم ﴿ بَلْ كُنتُمْ مُّجْرِمِينَ ﴾ أن ذلك بكسبهم واختيارهم، كر عليهم المستضعفون بقولهم ﴿ بَلْ مَكْرُ الليل والنهار ﴾ فأبطلوا إضرابهم بأضرابهم كأنهم قالوا : ما كان الإجرام من جهتنا بل من جهة مكركم لنا دائباً ليلاً ونهاراً وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد ﴿ وَأَسَرُّواْ الندامة ﴾ أضمروا أو أظهروا وهو من الأضداد وهم الظالمون في قوله ﴿ إِذِ الظالمون مَوْقُوفُونَ ﴾ يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين ﴿ لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ الجحيم ﴿ وَجَعَلْنَا الأغلال فِى أَعْنَاقِ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي في أعناقهم فجاء بالصريح للدلالة على ما استحقوا به الأغلال ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا .

(173/637)

---

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مّن نَّذِيرٍ ﴾ نبي ﴿ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ متنعموها ورؤساؤها ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم مما مني به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة وافتخروا بكثرة الأموال والأولاد كما قال ﴿

وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أموالا وأولادا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظراً إلى أحوالهم في الدنيا ، وظنوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم الله ، ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم ، فأبطل الله ظنهم بأن الرزق فضل من الله يقسمه كيف يشاء ، فربما وسع على العاصي وضيق على المطيع وربما عكس ، وربما وسع عليهما أو ضيق عليهما فلا ينقاس عليهما أمر الثواب وذلك قوله :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ قدر الرزق تضييقه قال الله تعالى ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [ الطلاق : 7 ] ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ﴿ وَمَا أموالكم وَلاَ أولادكم بالتى تُقَرّبُكُمْ عِندَنَا زلفى ﴾ أي وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتي تقربكم ، وذلك أن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث ، والزلفى والزلفة كالقربى والقربة ومحلها النصب على المصدر أي تقربكم قربة كقوله ﴿ أَنبَتَكُمْ مّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ [ نوح : 17 ] ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ الاستثناء من "كم" في ﴿ تُقَرّبُكُمْ ﴾ يعني أن الأموال لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله ، والأولاد لا تقرب أحداً إلا من علمهم الخير وفقههم في الدين ورشحهم للصلاح والطاعة .

وعن ابن عباس : "إلا" بمعنى "لكن" ومن شرط جوابه ﴿ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضعف ﴾ وهو من إضافة المصدر إلى المفعول أصله فأولئك لهم أن يجازوا الضعف ثم جزاء الضعف ثم جزاء الضعف ، ومعنى جزاء الضعف أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشراً وقرأ يعقوب ﴿ جَزَاءً الضعف ﴾ ، على "فأولئك لهم الضعف جزاء" ﴿ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ بأعمالهم ﴿ وَهُمْ فِى الغرفات ﴾ أي غرف منازل الجنة ﴿ الغرفة ﴾ حمزة ﴿ ءامِنُونَ ﴾ من كل هائل وشاغل .

﴿ والذين يَسْعَوْنَ فِى ءاياتنا ﴾ في إبطالها ﴿ معاجزين أُوْلَئِكَ فِى العذاب مُحْضَرُونَ قُلْ إِنَّ رَبّى يَبْسُطُ الرزق ﴾ يوسع ﴿ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُمْ ﴾ "ما" شرطية في موضع النصب ﴿ مِن شَىْء ﴾ بيانه ﴿ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ يعوضه لا معوض سواه إما عاجلاً بالمال أو آجلاً بالثواب جواب الشرط ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرازقين ﴾ المطعمين لأن كل ما رزق غيره من سلطان أو سيد أو غيرهما فهو من رزق الله أجراه على أيدي هؤلاء ، وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق .

وعن بعضهم : الحمد لله الذي أوجدني وجعلني ممن يشتهي فكم من مشتهٍ لا يجد وواجد لا يشتهي .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ للملائكة أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ وبالياء فيهما :

حفص ويعقوب.

هذا خطاب للملائكة وتقريع للكفار وارد على المثل السائر:

إياك أعني واسمعي يا جاره

(175/637)

---

ونحوه قوله ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني ﴾ [المائدة: 116] الآية ﴿ قَالُوا ﴾ أي الملائكة ﴿ سبحانك ﴾ تنزيهاً لك أن يعبد معك غيرك ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ الموالاة خلاف المعاداة وهي مفاعلة من الولي وهو القرب والولي يقع على الموالي والموالى جميعاً، والمعنى أنت الذي نواليه ﴿ مِن دُونِهِمْ ﴾ إذ لا موالاة بيننا وبينهم فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجن ﴾ أي الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله، أو كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها، أو صورت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا هذه صور الملائكة فاعبدوها ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أكثر الإنس أو الكفار ﴿ بِهِمْ ﴾ بالجن ﴿ مُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ فاليوم لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرّاً ﴾ لأن الأمر في ذلك اليوم لله وحده لا يملك

فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد ، لأن الدار دار ثواب وعقاب والمثيب والمعاقب هو الله .

فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار تكليف والناس فيها مخلى بينهم يتضارون ويتنافعون ، والمراد أنه لا ضار ولا نافع يومئذ إلا هو .

ثم ذكر عاقبة الظالمين بقوله ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ بوضع العبادة في غير موضعها معطوف على ﴿ لاَ يَمْلِكُ ﴾ ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ أي إذا قرىء عليهم القرآن ﴿ بينات ﴾ واضحات ﴿ قَالُواْ ﴾ أي المشركون ﴿ مَا هذا ﴾ أي محمد ﴿ إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءابَاؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هذآ ﴾ أي القرآن ﴿ إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ .



---

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي وقالوا ، والعدول عنه دليل على إنكار عظيم وغضب شديد ﴿ لِلْحَقّ ﴾ للقرآن أو لأمر النبوة كله ﴿ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ وعجزوا عن الإتيان بمثله ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي الحق ﴿ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ بتوه على أنه سحر ثم بتوه على أنه بين ظاهر كل عاقل تأمله سماه سحراً ﴿ وَمَا ءاتيناهم مّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ أي ما أعطينا مشركي مكة كتباً يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾

ولا أرسلنا إليهم نذيراً ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا .

ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي وكذب الذين تقدموهم من الأمم الماضية والقرون الخالية الرسل كما كذبوا ﴿ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَا ءاتيناهم ﴾ أي وما بلغ أهل مكة عشر ما أوتي الأولون من طول الأعمار وقوة الأجرام وكثرة الأموال والأولاد ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ للمكذبين الأولين فليحذروا من مثله .

وبالياء في الوصل والوقف : يعقوب أي فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم مستظهرون ، فما بال هؤلاء ؟ وإنما قال ﴿ فَكَذَّبُواْ ﴾ وهو مستغنى عنه بقوله ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ لأنه لما كان معنى قوله ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وفعل الذين من قبلهم التكذيب وأقدموا عليه جعل تكذيب الرسل مسبباً عنه وهو كقول القائل : "أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم" .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بواحدة ﴾ بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله ﴿ أَن تَقُومُواْ ﴾ على أنه عطف بيان لها وقيل هو بدل ، وعلى هذين الوجهين هو في محل الجر .

وقيل : هو في محل الرفع على تقدير وهي أن تقوموا ، والنصب على تقدير أعني ، وأراد بقيامهم القيام عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقهم عن مجتمعهم عنده ، أو قيام القصد إلى الشيء دون النهوض والانتصاب ، والمعنى إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهي أن تقوموا ﴿ لِلَّهِ ﴾ أي لوجه الله خالصاً لا لحمية ولا عصبية بل لطلب الحق ﴿ مثنى ﴾ اثنين اثنين ﴿ وفرادى ﴾ فرداً فرداً ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف حتى يؤديهما النظر الصحيح إلى الحق ، وكذلك الفرد يتفكر في نفسه بعدل ونصفة ويعرض فكره على عقله .

ومعنى تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويعمي البصائر ويمنع من الروية ويقال الإنصاف فيه ويكثر الاعتساف ويثور عجاج التعصب ولا يسمع إلا نصرة المذهب . و﴿ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ معطوف على ﴿ تَقُومُواْ ﴾ ﴿ مَا بصاحبكم ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ مِّن جِنَّةٍ ﴾ جنون .

والمعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قدام عذاب شديد وهو عذاب الآخرة وهو كقوله عليه السلام " بعثت بين يدي الساعة " ثم بين أنه لا يطلب أجراً على الإنذار بقوله :

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ على إنذاري وتبليغي الرسالة ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ جزاء الشرط تقديره أي شيء سألتكم من أجر كقوله : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ [ فاطر : 2 ] ومعناه نفي مسألة الأجر رأساً نحو ما لي في هذا فهو لك أي ليس فيه شيء ﴿ إِنْ أَجْرِىَ ﴾ مدني وشامي وأبو بكر وحفص ، وبسكون الياء : غيرهم ﴿ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٍ ﴾ فيعلم أني لا أطلب الأجر على نصحيتكم ودعائكم إليه إلا منه .

(178/637)

---

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بالحق ﴾ بالوحي .

والقذف توجيه السهم ونحوه بدفع واعتماد ويستعار لمعنى الإلقاء ومنه ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرعب ﴾ [ الأحزاب : 26 ] ﴿ أَنِ اقذفيه فِى التابوت ﴾ [ طه : 39 ] ومعنى يقذف بالحق يلقيه وينزله إلى أنبيائه أو يرمي به الباطل فيدمغه ويزهقه ﴿ علام الغيوب ﴾ مرفوع على البدل من الضمير في ﴿ يَقْذِفُ ﴾ أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ﴿ قُلْ جَاء الحق ﴾ الإسلام والقرآن ﴿ وَمَا يُبْدِىء الباطل وَمَا يُعِيدُ ﴾ أي زال الباطل وهلك لأن الإبداء والإعادة من صفات الحي فعدمهما عبارة عن الهلاك ، والمعنى جاء الحق وزهق

الباطل كقوله ﴿ جَاء الحق وَزَهَقَ الباطل ﴾ [ الإسراء : 81 ] وعن ابن مسعود رضي الله عنه : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول الكعبة أصنام فجعل يطعنها بعود معه ويقول " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد " وقيل : الباطل الأصنام .

وقيل : إبليس لأنه صاحب الباطل أو لأنه هالك كما قيل له الشيطان من شاط إذا هلك أي لا يخلق الشيطان ولا الصنم أحداً ولا يبعثه فالمنشيء والباعث هو الله .

ولما قالوا : قد ضللت بترك دين آبائك قال الله تعالى ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ ﴾ عن الحق ﴿ فَإِنَّمَا أَضِلُّ على نَفْسِى ﴾ إن ضللت فمني وعليّ ﴿ وَإِنِ اهتديت فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبّى ﴾ أي فتبسديده بالوحي إلي .

وكان قياس التقابل أن يقال وإن اهتديت فإنما أهتدي لها كقوله : ﴿ فَمَنِ اهتدى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [ الزمر : 41 ] .

(179/637)

---

ولكن هما متقابلان معنى ، لأن النفس كل ما عليها وضار لها فهو بها وبسببها لأنها الأمارة بالسوء ، وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه ، وهذا حكم عام لكل مكلف ، وإنما أمر

رسوله أن يسنده إلى نفسه لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لما أقوله لكم ﴿ قَرِيبٌ ﴾ مني ومنكم يجازيني ويجازيكم.

﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ جوابه محذوف أي لرأيت أمراً عظيماً وحالاً هائلة ﴿ إِذْ فَزِعُواْ ﴾ عند البعث أو عند الموت أو يوم بدر ﴿ فَلاَ فَوْتَ ﴾ فلا مهرب أو فلا يفوتون الله ولا يسبونه ﴿ وَأُخِذُواْ ﴾ عطف على ﴿ فَزِعُواْ ﴾ أي فزعوا وأخذوا فلا فوت لهم أو على لا فوت على معنى إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من الموقف إلى النار إذا بعثوا أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا أو من صحراء بدر إلى القليب ﴿ وَقَالُواْ ﴾ حين عاينوا العذاب ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ بمحمد عليه السلام لمرور ذكره في قوله ﴿ مَا بصاحبكم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [ سبأ : 46 ] أو بالله ﴿ وأنى لَهُمُ التناوش مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ التناوش : التناول أي كيف يتناولون التوبة وقد بعدت عنهم ، يريد أن التوبة كانت تقبل منهم في الدنيا وقد ذهبت الدنيا وبعدت من الآخرة.

وقيل : هذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت كما نفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا ، مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة كما يتناول الآخر من قيس ذراع.

﴿ التناؤش ﴾ بالهمزة : أبو عمرو وكوفي غير حفص همزت الواو لأن كل واو مضمومة ضمتها لازمة إن شئت أبدلتها همزة وإن شئت لم تبدل نحو قولك "أدور وتقاوم" ، وإن

شئت قلت "أدؤر وتقاؤم" .

وعن ثعلب : التناؤش بالهمز التناول من بعد ، وبغير همز التناول من قرب .

(180/637)

---

﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل العذاب أو في الدنيا ﴿ وَيَقْذِفُونَ بالغيب ﴾ معطوف على ﴿ قَدْ كَفَرُواْ ﴾ على حكاية الحال الماضية يعني وكانوا يتكلمون بالغيب أو بالشيء الغائب يقولون لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار ﴿ مِن مَّكَانِ بَعِيدٍ ﴾ عن الصدق أو عن الحق والصواب ، أو هو قولهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم شاعر ساحر كذاب وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي لأنهم لم يشاهدوا منه سحراً ولا شعراً ولا كذباً .

وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله لأن أبعد شيء مما جاء به السحر والشعر وأبعد شيء من عاداته التي عرفت بينهم وجربت الكذب ﴿ وَيَقْذِفُونَ بالغيب ﴾ عن أبي عمرو على البناء للمفعول أي تأتيهم به شياطينهم ويلقنونهم إياه وإن شئت فعلقه بقوله ﴿ وَقَالُواْ ءامَنَّا بِهِ ﴾ على أنه مثّلهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم ﴿ آمنا ﴾ في الآخرة وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئاً من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائباً عنه بعيداً .

ويجوز أن يكون الضمير في ﴿ آمنا به ﴾ للعذاب الشديد في قوله : ﴿ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [ سبأ : 46 ] .

(181/637)

---

وكانوا يقولون وما نحن بمعذبين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا قائسين أمر الآخرة على أمر الدنيا ، فهذا كان قذفهم بالغيب وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة لأن دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف ﴿ وَحِيلَ ﴾ وحجز ﴿ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفوز بالجنة أو من الرد إلى الدنيا كما حكي عنهم بقوله ﴿ فارجعنا نَعْمَلْ صالحا ﴾ [ السجدة : 12 ] والأفعال التي هي ﴿ فَزِعُواْ ﴾ ﴿ وَأُخِذُواْ ﴾ ﴿ وَحِيلَ ﴾ كلها للمضي والمراد بها الاستقبال لتحقق وقوعه ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ بأشباههم من الكفرة ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ ﴾ من أمر الرسل والبعث ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موقع في الريبة من أرابه إذا أوقعه في الريبة ، هذا رد على من زعم أن الله لا يعذب على الشك والله أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 332.324 ﴾

(182/637)

وقال البيضاوى :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السموات والأرض ﴾

يريد به تقرير قوله ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ ﴾ ﴿ قُلِ الله ﴾ إذ لا جواب سواه ، وفيه إشعار بأنهم إن سكتوا أو تلعثموا في الجواب مخافة الإلزام فهم مقرون به بقلوبهم . ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ أي وإن أحد الفريقين من الموحدين المتوحد بالرزق والقدرة الذاتية بالعبادة ، والمشركين به الجماد النازل في أدنى المراتب الإمكانية لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال المبينين ، وهو بعد ما تقدم من التقرير البليغ الدال على من هو على الهدى ومن هو في الضلال أبلغ من التصريح لأنه في صورة الانصاف المسكت للخصم المشاغب ، ونظيره قول حسان :

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بكفْءٍ . . . فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ

وقيل إنه على اللف والنشر وفيه نظر ، واختلاف الحرفين لأن الهادي كمن صعد مناراً ينظر الأشياء ويتطلع عليها أو ركب جواداً يركضه حيث يشاء ، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك لا يرى شيئاً أو محبوس في مطمورة لا يستطيع أن يتفصى منها .

﴿ قُل لاَّ تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ في الإخبات حيث أسند الإجرام إلى أنفسهم والعمل إلى المخاطبين .

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يوم القيامة . ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بالحق ﴾ يحكم ويفصل بأن يدخل المحقين الجنة والمبطلين النار . ﴿ وَهُوَ الفتاح ﴾ الحاكم الفاصل في القضايا المتغلقة . ﴿ العليم ﴾ بما ينبغي أن يقضى به .

(183/637)

---

﴿ قُلْ أَرُونِىَ الذين أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ لأرى بأي صفة ألحقتموهم بالله في استحقاق العبادة ، وهو استفسار عن شبههم بعد إلزام الحجة عليهم زيادة في تبكيتهم . ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايسة . ﴿ بَلْ هُوَ الله العزيز الحكيم ﴾ الموصوف بالغلبة وكمال القدرة والحكمة ، وهؤلاء الملحقون به متسمون بالذلة متأبية عن قبول العلم والقدرة رأساً ، والضمير لله أو للشأن .

﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ كَافَّةً لّلنَّاسِ ﴾ إلا إرسالة عامة لهم من الكف فإنها إذا عمتهم قد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم ، أو إلا جامعاً لهم في الإبلاغ فهي حال من الكاف والتاء للمبالغة ، ولا يجوز جعلها حالاً من الناس على المختار . ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فيحملهم جهلهم على مخالفتك .

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ من فرط جهلهم . ﴿ متى هذا الوعد ﴾ يعنون المبشر به والمنذر عنه أو

الموعود بقوله تعالى : ﴿ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ يخاطبون به رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ ﴾ وعد يوم أو زمان وعد ، وإضافته إلى اليوم للتبيين ويؤيده أنه قرىء ﴿ يَوْمٍ ﴾ على البدل ، وقرىء ﴿ يَوْمٍ ﴾ بإضمار أعني . ﴿ لاَّ تَسْتَئْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ إذا فاجأكم وهو جواب تهديد جاء مطابقاً لما قصدوه بسؤالهم من التعنت والإِنكار .

(184/637)

---

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بهذا القرءان وَلاَ بالذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ولا بما تقدمه من الكتب الدالة على النعت . قيل إن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبروهم أنهم يجدون نعته في كتبهم فغضبوا وقالوا ذلك ، وقيل الذي بين يديه يوم القيامة . ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبّهِمْ ﴾ أي في موضع المحاسبة . ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ القول ﴾ يتحاورون ويتراجعون القول . ﴿ يَقُولُ الذين استضعفوا ﴾ يقول الأتباع . ﴿ لِلَّذِينَ استكبروا ﴾ للرؤساء . ﴿ لَوْلاَ أَنتُمْ ﴾ لولا إضلالكم وصدكم إيانا عن الإِيمان . ﴿ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .

﴿ قَالَ الذين استكبروا لِلَّذِينَ استضعفوا أَنَحْنُ صددناكم عَنِ الهدى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُّجْرِمِينَ ﴾ أنكروا أنهم كانوا صادّين لهم عن الإيمان وأثبتوا أنهم هم الذين صدوا أنفسهم حيث أعرضوا عن الهدى وآثروا التقليد عليه ، ولذلك بنوا الإنكار على الإسم .

﴿ وَقَالَ الذين استضعفوا لِلَّذِينَ استكبروا بَلْ مَكْرُ اليل والنهار ﴾ إضراب عن إضرابهم أي : لم يكن إجرامنا الصاد بل مكركم لنا دائباً ليلاً ونهاراً حتى أعورتم علينا رأينا .

(185/637)

---

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بالله وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً ﴾ والعاطف يعطفه على كلامهم الأول وإضافة ال ﴿ مكرَ ﴾ إلى الظرف على الاتساع ، وقرىء ﴿ مَكْرَ اليل ﴾ بالنصب على المصدر و ﴿ مَكْرُ اليل ﴾ بالتنوين ونصب الظرف و ﴿ مَكَرُّ اليل ﴾ من الكرور .

﴿ وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ وأضمر الفريقان الندامة على الضلال والإضلال وأخفاها كل عن صاحبه مخافة التعيير ، أو أظهروها فإنه من الأضداد إذ الهمزة تصلح للإثبات والسلب كما في أشكيته . ﴿ وَجَعَلْنَا الأغلال فِى أَعْنَاقِ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي في أعناقهم فجاء بالظاهر تنويهاً بذمهم وإشعاراً بموجب أغلالهم . ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي لا يفعل بهم ما يفعل إلا جزاء على أعمالهم ، وتعدية يجزي إما لتضمين معنى

يقضي أو بنزع الخافض.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما مني به من قومه، وتخصيص المتنعمين بالتكذيب لأن الداعي المعظم إليه التكبر والمفاخرة بزخارف الدنيا والانهماك في الشهوات والاستهانة بمن لم يحظ منها، ولذلك ضموا التهكم والمفاخرة إلى التكذيب فقالوا: ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ على مقابلة الجمع بالجمع.

﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أموالا وأولادا ﴾ فنحن أولى بما تدعونه إن أمكن. ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ إما لأن العذاب لا يكون، أو لأنه أكرمنا بذلك فلا يهيننا بالعذاب.

﴿ قُلْ ﴾ رداً لحسبانهم. ﴿ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ ولذلك يختلف فيه الأشخاص المتماثلة في الخصائص والصفات، ولو كان ذلك لكرامة وهوان يوجبانه لم يكن بمشيئته. ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة وكثيراً ما يكون للاستدراج كما قال:

﴿ وَمَا أموالكم وَلاَ أولادكم بالتى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زلفى ﴾ قربة والتي إما لأن المراد وما جماعة أموالكم وأولادكم ، أو لأنها صفة محذوف كالتقوى والخصلة . وقرئ "بالذي" أي بالشيء الذي يقربكم . ﴿ إِلاَّ مَنْ ءامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ استثناء من مفعول ﴿ تُقَرِّبُكُمْ ﴾ ، أي الأموال والأولاد لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله ويعلم ولده الخير ويربيه على الصلاح ، أو من ﴿ أموالكم ﴾ و ﴿ أولادكم ﴾ على حذف المضاف . ﴿ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضعف ﴾ أن يجازوا الضعف إلى عشر فما فوقه ، والإِضافة إضافة المصدر إلى المفعول ، وقرئ بالأعمال على الأصل وعن يعقوب رفعهما على إبدال الضعف ، ونصب الجزاء على التمييز أو المصدر لفعله الذي دل عليه لهم . ﴿ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى الغرفات ءامِنُونَ ﴾ من المكاره ، وقرئ بفتح الراء وسكونها ، وقرأ حمزة "في الغرفة" على إرادة الجنس .

﴿ والذين يَسْعَوْنَ فِى ءاياتنا ﴾ بالرد والطعن فيها . ﴿ معاجزين ﴾ مسابقين لأنبيائنا أو ظانين أنهم يفوتوننا . ﴿ أُوْلَئِكَ فِى العذاب مُحْضَرُونَ ﴾ .

﴿ قُلْ إِنَّ رَبّى يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ يوسع عليه تارة ويضيق عليه أخرى ، فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين وما سبق في شخصين فلا تكرير . ﴿ وَمَا أَنفَقْتُمْ مّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ عوضاً إما عاجلاً أو آجلاً . ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرزقين ﴾ فإن غيره وسط في إيصال رزقه لا حقيقة لرازقيته .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ المستكبرين والمستضعفين . ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلمَلائِكَةِ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ تقريعاً للمشركين وتبكيتاً لهم وإقناطاً لهم عما يتوقعون من شفاعتهم ، وتخصيص الملائكة لأنهم أشرف شركائهم والصالحون للخطاب منهم ، ولأن عبادتهم مبدأ الشرك وأصله . وقرأ حفص ويعقوب بالياء فيهما .

(187/637)

---

﴿ قَالُوا سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ﴾ أنت الذي نواليه من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم ، كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم على الحقيقة بقولهم : ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجن ﴾ أي الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله . وقيل كانوا يتمثلون لهم ويخيلون إليهم أنهم الملائكة فيعبدونهم . ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ الضمير الأول للإنس أو للمشركين ، والأكثر بمعنى الكل والثاني ل ﴿ الجن ﴾ .

﴿ فاليوم لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرّاً ﴾ إذ الأمر فيه كله له لأن الدار دار جزاء وهو المجازي وحده . ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ عطف على ﴿ لاَ يَمْلِكُ ﴾ مبين للمقصود من تمهيده .

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيّنَاتٍ قَالُواْ مَا هذا ﴾ يعنون محمداً عليه الصلاة والسلام. ﴿ إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ فيستتبعكم بما يستبدعه. ﴿ وَقَالُواْ مَا هذا ﴾ يعنون القرآن. ﴿ إِلاَّ إِفْكٌ ﴾ لعدم مطابقة ما فيه الواقع. ﴿ مُّفْتَرًى ﴾ بإضافته إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقّ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ لأمر النبوة أو للإسلام أو للقرآن، والأول باعتبار معناه وهذا باعتبار لفظه وإعجازه. ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر سحريته، وفي تكرير الفعل والتصريح بذكر الكفرة وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وما في ﴿ لَمّاً ﴾ من المبادهة إلى البت بهذا القول إنكار عظيم له وتعجيب بليغ منه.

(188/637)

---

﴿ وَمَا ءاتيناهم مّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ فيها دليل على صحة الإشراك. ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مّن نَّذِيرٍ ﴾ يدعوهم إليه وينذرهم على تركه، وقد بان من قبل أن لا وجه له فمن أين وقع لهم هذه الشبهة، وهذا في غاية التجهيل لهم والتسفيه لرأيهم ثم هددهم فقال: ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ كما كذبوا. ﴿ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَا ءاتيناهم ﴾ وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال، أو ما بلغ أولئك عشر ما آتينا

هؤلاء من البينات والهدى . ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ فحين كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير فكيف كان نكيري لهم فليحذر هؤلاء من مثله ، ولا تكرير في كذب لأن الأول للتكثير والثاني للتكذيب ، أو الأول مطلق والثاني مقيد ولذلك عطف عليه بالفاء .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بواحدة ﴾ أرشدكم وأنصح لكم بخصلة واحدة هي ما دل عليه : ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ ﴾ وهو القيام من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو الانتصاب في الأمر خالصاً لوجه الله معرضاً عن المراء والتقليد . ﴿ مثنى وفرادى ﴾ متفرقين اثنين اثنين وواحداً واحداً ، فإن الازدحام يشوش الخاطر ويخلط القول . ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به لتعلموا حقيقته ، ومحله الجر على البدل أو البيان أو الرفع أو النصب بإضمار هو أو أعني .

(189/637)

---

﴿ مَا بصاحبكم مِّن جِنَّةٍ ﴾ فتعلموا ما به من جنون يحمله على ذلك ، أو استئناف منبه لهم على أن ما عرفوا من رجاحة عقله كاف في ترجيح صدقه ، فإنه لا يدعه أن يتصدى لادعاء أمر خطير وخطب عظيم من غير تحقق ووثوق ببرهان ، فيفتضح على رؤوس

الأشهاد ويلقي نفسه إلى الهلاك ، فكيف وقد انضم إليه معجزات كثيرة . وقيل ﴿ مَا ﴾ استفهامية والمعنى : ثم تتفكروا أي شيء به من آثار الجنون : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قدامه لأنه مبعوث في نسيم الساعة .

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ أي شيء سألتكم من أجر على الرسالة . ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ والمراد نفي السؤال عنه ، كأن جعل التنبي مستلزماً لأحد الأمرين إما الجنون وإما توقع نفع دنيوي عليه ، لأنه إما أن يكون لغرض أو لغيره وأياً ما كان يلزم أحدهما ثم نفى كلاً منهما . وقيل ﴿ مَا ﴾ موصولة مراد بها ما سألهم بقوله : ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ وقوله : ﴿ لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ واتخاذ السبيل ينفعهم وقرباه قرباهم . ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٍ ﴾ مطلع يعلم صدقي وخلوص نيتي ، وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي بإسكان الياء .

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بالحق ﴾ يلقيه وينزله على من يجتبيه من عباده ، أو يرمي به الباطل فيدمغه أو يرمي به إلى أقطار الآفاق ، فيكون وعداً بإظهار الإِسلام وإفشائه . وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء . ﴿ علام الغيوب ﴾ صفة محمولة على محل ﴿ إن ﴾ واسمها ، أو بدل من المستكن في ﴿ يَقْذِفُ ﴾ أو خبر ثان أو خبر محذوف . وقرىء بالنصب صفة ل

﴿ رَبِّي ﴾ أو مقدراً بأعني . وقرأ حمزة وأبو بكر "الغيوب" بالكسر كالبيوت وبالضم كالعشور ، وقرىء بالفتح كالصبور على أنه مبالغة غائب .

(190/637)

---

﴿ قُلْ جَاءَ الحق ﴾ أي الإسلام . ﴿ وَمَا يُبْدِىء الباطل وَمَا يُعِيدُ ﴾ وزهق الباطل أي الشرك بحيث لم يبق له أثر مأخوذ من هلاك الحي ، فإنه إذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة قال :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ عبيد . . . فَالْيَوْمَ لاَ يُبْدِي وَلاَ يُعِيد

وقيل الباطل إبليس أو الصنم ، والمعنى لا ينشىء خلقاً ولا يعيده ، أو لا يبدىء خيراً لأهله ولا يعيده . وقيل ﴿ مَا ﴾ استفهامية منتصبة بما بعدها .

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ ﴾ عن الحق . ﴿ فَإِنَّمَا أَضِلُّ على نَفْسِي ﴾ فإن وبال ضلالي عليها لأنه بسببها إذ هي الجاهلة بالذات والأمارة بالسوء ، وبهذا الاعتبار قابل الشرطية بقوله : ﴿ وَإِنِ اهتديت فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبّي ﴾ فإن الاهتداء بهدايته وتوفيقه . ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله وإن أخفاه .

﴿ وَلَوْ ترى إِذْ فَزِعُواْ ﴾ عند الموت أو البعث أو يوم بدر ، وجواب ﴿ لَوْ ﴾ محذوف

تقديره لرأيت أمراً فظيعاً . ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ فلا يفوتون الله بهرب أو تحصن . ﴿ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من ظهر الأرض إلى باطنها ، أو من الموقف إلى النار أو من صحراء بدر إلى القليب ، والعطف على ﴿ فَزِعُواْ ﴾ أو لا فوت ويؤيده أنه قرىء "وأخذ" عطفاً على محله أي : فلا فوت هناك وهناك أخذ .

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِ ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وقد مر ذكره في قوله : ﴿ مَا بصاحبكم ﴾ ﴿ وأنى لَهُمُ التناوش ﴾ ومن أين لهم أن يتناولوا الإِيمان تناولاً سهلاً . ﴿ مِن مَّكَانِ بَعِيدٍ ﴾ فإنه في حيز التكليف وقد بعد عنهم ، وهو تمثيل لحالهم في الاستخلاص بالإِيمان بعدما فات عنهم أوانه وبعد عنهم ، بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة تناوله من ذراع في الاستحالة ، وقرأ أبو عمرو والكوفيون غير حفص بالهمز على قلب الواو لضمتها .

أو أنه من نأشت الشيء إذا طلبته قال رؤبة :



---

أَقْحَمَنِي جَارُ أَبِي الجَامُوش . . . إِلَيْكَ نَأْشَ القَدرِ التَّؤوشَ

أو من نأشت إذا تأخرت ومنه قوله :

تَمَنَّى نَشِيْشاً أَنْ يَكُونَ أَطَاعَنِي . . . وَقَدْ حَدَثَتْ بَعْدَ الأُمُورِ أُمُورُ

فيكون بمعنى التناول من بعد .

﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام أو بالعذاب . ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل ذلك أوان التكليف .

﴿ وَيَقْذِفُونَ بالغيب ﴾ ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم الرسول عليه الصلاة والسلام من المطاعن ، أو في العذاب من البث على نفيه . ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ من جانب بعيد من أمره ، وهو الشبه التي تمحلوها في أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو حال الآخرة كما حكاه من قبل . ولعله تمثيل لحالهم في ذلك بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه ، وقرىء "وَيَقْذِفُونَ" على أن الشيطان يلقي إليهم ويلقنهم ذلك ، والعطف على ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ ﴾ على حكاية الحال الماضية أو على قالوا فيكون تمثيلاً لحالهم بحال القاذف في تحصيل ما ضيعوه من الإيمان في الدنيا .

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من نفع الإيمان والنجاة به من النار ، وقرأ ابن عمر والكسائي بإشمام الضم للحاء . ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْياعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ بأشباههم من كفرة الأمم الدارجة . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ موقع في الريبة ، أو ذي ريبة منقول من المشكك ، أو الشك نعت به الشك للمبالغة .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبي إلا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 400 . 408 ﴾

(192/637)

---

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (22) ﴾

التفسير : لما فرغ من حكاية أهل الشكر وأهل الكفران تمثيلاً عاد إلى مخاطبة كفار قريش وتقريعهم . ومفعولاً زعم محذوف أي زعمتموهم آلهة ، وسبب حذف الأوّل استحقاق عوده إلى الموصول ، وسبب حذف الثاني إقامة الصفة وهي ﴿ من دون الله ﴾ مقام الموصوف . وتفسير الآية مبني على تفصيل وهو أن مذاهب أهل الشرك اربعة : أحدها قولهم إنا نعبد الملائكة والكواكب التي في السماء فهم آلهتنا والله إلههم فالله تعالى قال في إبطال قولهم أنهم لا يملكون في السموات شيئاً كما اعترفتم ، ولا في الأرض على خلاف ما زعمتم أن الأرض والارضيات في حكمهم .

(193/637)

وثانيها قول بعضهم إن السموات من الله على سبيل الاستقلال ، وإن الأرضيات منه ولكن بواسطة الكواكب واتصالاتها وانصرافاتها فأبطل معتمد هؤلاء بقوله ﴿ وما لهم فيهما من شرك ﴾ أي الأرض كالسماء لله لغيره فيها نصيب . وثالثها قول من قال : التركيبات والحوادث كلها من الله لكن فوض ذلك إلى الكواكب وإعانتها فأشار إلى إبطال معتقد هؤلاء بقوله ﴿ وما له منهم من ظهير ﴾ ورابعها مذهب من زعم أنا نعبد الأصنام التي هي صور الملائكة ليشفعوا لنا فبين بطلان مذهبهم بقوله ﴿ ولا تنفع الشفاعة ﴾ قال جار الله : تقول الشفاعة لزيد على أنه الشافع وعلى معنى أنه المشفوع له أي لا تنفع الشفاعة ﴿ إلا ﴾ كائنة ﴿ لمن أذن له ﴾ من الشافعين أو إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله . و " حتى " غاية لمضمون الكلام الدال على انتظار الإذن كأنه قيل : يتربصون ويقفون ملياً فزعين ﴿ حتى إذا فزع ﴾ أي كشف الفزع في القيامة عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضاً ﴿ ماذا قال ربكم قالوا ﴾ قال ﴿ الحق ﴾ أي القول الحق وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى ، يريد هذا التفسير قول ابن عباس عن النبي " فإذا أذن لمن أذن أن يشفع فزعته الشفاعة " والتشديد للسلب والإزالة على نحو " قردته وجلدته " أي أزلت قراده وسلخت جلده . وقيل : إن " حتى " على هذا التفسير متعلق بقوله ﴿ زعمتم ﴾ أي زعمتم الكفر إلى غاية التفزيع ثم تركتم ما

زعمتم وقلتم قال الحق . ومنهم من ذهب إلى أن التفزيع غاية الوحي المستفاد من قل فإنه عند الوحي يفزع من في السموات كما جاء في حديث " إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيه جبرائيل فإذا جاء فزع عن قلوبهم فيقولون : يا جبرائيل ماذا قال ربكم ؟ فيقول الحق " أي يقول الحق الحق . وقيل : أراد بالفزع أنه تعالى لما أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم فزع من



---

في السموات من القيامة لأن إرسال محمد صلى الله عليه وسلم من أشراطها فلما زال عنهم ذلك قالوا : ماذا قال الله ؟ قال جبرائيل وأتباعه : الحق . وقيل : إنه الفزع عند الموت يزيله الله عن القلوب فيعرف كل أحد أن ما قال الله هو الحق فينتفع بتلك المعرفة أهل الإيمان ولا ينتفع بها أهل الكفر . وحين بين بقوله ﴿ قل ادعوا ﴾ أنه لا يدفع الضر إلا هو أشار بقوله ﴿ قل من يرزقكم ﴾ إلى أن جلب النفع لا يكمل إلا به .

وههنا نكتة هي أنه قال في دفع الضر ﴿ قالوا الحق ﴾ وفي طلب النفع قال ﴿ قل الله ﴾ تنبيهاً على أنهم في الضراء مقبلون على الله معترفون به ، وفي السراء معرضون عنه غافلون لا ينتبهون إلا بمسه . وقوله ﴿ وإنا أو إياكم ﴾ من الكلام المنصف الذي يتضمن قلة شغب

الخصم وفلّ شوكته بالهوينا . وفي تخالف حرفي الجر في قوله ﴿ لعلى هدى أو في ضلال ﴾ إشارة إلى أن أهل الحق راكبون مطية الهدى مستعلون على متنها ، وأن أهل الباطل منغمسون في ظلمة الضلال لا يدرون أين يتوجهون . وإنما وصف الضلال بالمبين وأطلق الهدى لأن الحق كالخط المستقيم واحد ، والباطل كالخطوط المنحنية لا حصر لها فبعضها أدخل في الضلالة من بعض وابين .

(195/637)

---

وقوله ﴿ عما أجرمنا ﴾ إلى قوله ﴿ عما تعملون ﴾ أبلغ في سلوك طريقة الإنصاف حيث أسند الإجرام وهو الصغائر والزلات أو هي مع الكبائر إلى أهل الإيمان ، وعبر عن إجرام أهل الكفر بلفظ عام وهو العمل . وفيه إرشاد إلى المناظرات الجارية في العلوم وغيرها ، وإذا قال أحد المناظرين للآخر : أنت مخطئ أغضبه وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر ، وعند اختلاله لا مطمع في الفهم فيفوت الغرض . ومعنى الفتح الحكم والفصل بين الفريقين بإدخال أهل الجنة الجنة وأهل النار النار . وحين حث في الآية الأولى على وجوب النظر من حيث إن كل أحد يؤاخذ بجرمه ولو كان البريء أخذ بالمجرم لم يكن كذلك ، أكد ذلك المعنى بالآية الثانية فإن مجرد الخطأ والضلال واجب الاجتناب فكيف

إذا كان يوم عرض وحساب . وفي قوله ﴿ العليم ﴾ إشارة إلى أن حكمه يكون مع العلم لا كحكم من يحكم بمجرد الغلبة والهوى . ولما بين أن غير الله لا يعبد لدفع الضر ولا لجلب النفع أراد أن يبين أن غير الله لا ينبغي أن يعبد لأجل استحقاق العبادة فإنه لا مستحق للعبادة إلا هو . ومعنى ﴿ اروني ﴾ وكان يعرفهم ويراهم الاستخفاف بهم والتنبيه على الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله أو اراد أعلموني بأي صفة ألحقتموهم بالله وجعلتموهم شركاء ف ﴿ شركاء ﴾ نصب على الحال والعائد محذوف و ﴿ كلا ﴾ ردع لهم عن مذهبهم بعدما كسده بإبطال المقايسة وردّ الإلحاق . ثم زاد في توبيخهم بقوله ﴿ بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ كأنه قال : اين الذين ألحقتم به شركاء من هذه الصفات فإن الإله لا يمكن أن يخلو عن القدرة الكاملة والحكمة الشاملة . وهو يحتمل أن يكون ضمير الشأن . وحين فرغ من التوحيد شرع في الرسالة . ومعنى ﴿ كافة ﴾ عامة لأن الرسالة إذا شملتهم قد منعتهم أن يخرج أحد منهم والكف المنع وكافة صفة لرسالة . وقال الزجاج : التاء للمبالغة كتاء الراوية والعلامة وإنه حال من الكاف أي أرسلناك جامعاً للناس في الإبلاغ والتبشير والإنذار ،

أو مانعاً للناس من الكفر والمعاصي .

(197/637)

---

وبعض النحويين جعله حالاً من الناس وزيف بأن حال المجرور لا يتقدم عليه . ومن هؤلاء من جعل اللام بمعنى " إلى " لأن أرسل يتعدى بإلى فضوعفت تخطئته بأن استعمال اللام بمعنى . " إلى " ضعيف ، ولا يخفى أن ثاني مفعولي ﴿ ارسلنا ﴾ على غير هذا التفسير محذوف والتقدير : وما أرسلناك إلى الناس إلا كافة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وذلك لا لخفائه ولكن لغفلتهم . وحين ذكر الرسالة بين الحشر وذكر أنهم استعجلوه تعنتاً منهم فبين على طريق التهديد أنه لا استعجال فيه كما لا إمهال وهذا شأن كل أمر ذي بال . قال جار الله ﴿ ميعاد يوم ﴾ كقولك " سحق عمامة " في أن الإضافة للتبيين يؤيده قراءة من قرأ ﴿ ميعاد يوم ﴾ بالرفع فيهما فأبدل منه اليوم . وفي إسناد الفعل إليهم بقوله ﴿ لا تستأخرون عنه ﴾ دون أن يقول لا يؤخر عنكم زيادة تأكيد لوقوع اليوم . ولما بين الأصول الثلاثة : التوحيد والرسالة والحشر ، ذكر أنهم كافرون بالكل قائلين ﴿ لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل . يروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجدون صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم فأغضبهم

ذلك وقرنوا إلى القرآن جميع الكتب. وقيل: الذين كفروا عام والذي بين يديه يوم القيامة وما جاء ذكره في القرآن من تفاصيل الحشر وغيرها، وأن أهل الكتاب لو صدّقوا بشيء من ذلك فليس لأجل مجيئه في القرآن ولكن لمجيئه في كتبهم. وحين وقع اليأس من إيمانهم بقولهم ﴿ لن نؤمن ﴾ وعد نبيه بأنه سيراهم على أذل حال موقوفين للسؤال متجاذبين أهداب المراجعة كما يكون حال جماعة أخطأوا في تدبير أمره وجواب "لو" محذوف أي لقضيت العجب. وبدأ بالأتباع لأن المضل أولى بالتوبيخ. وفي قوله ﴿ لولا أنتم ﴾ إشارة إلى أن كفرهم كان لمانع لا لعدم المقتضى فن الرسول قد جاء ولم يقصر في الإبلاغ. ثم ذكر جواب المستكبرين وهم الرؤوس والمتبوعين على طريقة الاستئناف. وفي إيلاء

(198/637)

---

الاسم وهو نحن حرف الإنكار إثبات أنهم هم الذين صدّوا بأنفسهم عن الهدى بكسب منهم واختيار وأن المانع لم يكن راجحاً على المقتضى ولا مساوياً له وأكدوا ذلك بقولهم ﴿ بل كنتم مجرمين ﴾ أي إنكم أنتم الذين أطعتم أمر الشهوة فكنتم كافرين ولم يكن منا إلا التسويل والتزيين.

ثم عطف قولاً آخر للمستضعفين على قولهم الأول. والإضافة في ﴿ مكر الليل والنهار

﴾ من باب الاتساع بإجراء الظرف مجرى المفعول به وأصل الكلام : بل مكرهم في الليل والنهار . أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي ، فالأول اتساع لفظي ، والثاني معنوي .

(199/637)

---

أبطلوا إضرابهم بإضرابهم قائلين : ما كان الإجرام من جهتنا بل من جهة مكركم لنا مستمراً دائماً دائباً ليلاً ونهاراً . وقدم الليل لأنه أخفى للمكر والويل . وقرئ ﴿ مكرّ الليل ﴾ بالتشديد أي سبب ذلك أنكم تكرّون الإغواء مكراً دائباً . والمعنى : ما أنتم بالصارف القطعي والمانع القويّ ولكن انضم إلى ذلك طول المدة فصار قولكم جزء السبب . وفي قوله ﴿ أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ﴾ إشارة إلى أن الشرك وإن كان مثبتاً لله في الظاهر ولكنه نافٍ له على الحقيقة لأنه جعل مساوياً للصنم . ويجوز أن يكون كل منهما قول طائفة فبعضهم كانوا مأمورين بجحد الصانع وبعضهم بالإشراك به . وتفسير قوله ﴿ واسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ مذكور في سورة يونس . والضمير يعود إلى جنس الظالمين الشامل للمستضعفين وللمستكبرين . وقوله ﴿ في أعناق الذين كفروا ﴾ أي في أعناقهم من وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على ما استحقوا به الأغلال وهي محمولة على

الظاهر وإن جاز أن يراد بها العلائق . وفي قوله ﴿ هل تجزون ﴾ إشارة إلى أنهم استحقوها عدلاً . ثم سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن إيذاء الكفار الأنبياء ليس بدعاً وإنما ذلك هجيراهم قدماً . وإنما خص المترفين بالذكر لأنهم أصل في الجحود والإنكار وغيرهم تبع ، ثم استدلوا على كونهم مصيبين في ذلك بكثرة الأموال والأولاد اعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله ما رزقهم ، ثم قاسوا أمر الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمر الدنيا فقالوا ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ فبين الله خطأهم بأن القابض الباسط هو الله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أن ذلك بمجرد المشيئة لا بالكسب والاستحقاق فكم من شقيّ موسر وتقي معسر . ثم زاد في البيان بقوله ﴿ وما أموالكم ﴾ اي وما جماعة أموالكم ﴿ ولا ﴾ جماعة ﴿ أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى ﴾ أي قربى اسم بمعنى القربة وقع موقع المصدر كقوله ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ [ نوح : 17 ] ثم استثنى من

(200/637)

---

ضمير المفعول في تقرّبكم بقوله ﴿ إلا من آمن ﴾ والمراد أن الأموال والأولاد لا تقرّب أحداً إلا المؤمن الصالح ينفق الأموال في سبيل الله ويعلم أولاده الخير والفقه في الدين . ويحتمل أن

يكون الاستثناء من الفاعل والمعنى أن شيئاً من الأشياء لا يقرّب إلا عمل المؤمن الصالح لأن ما سوى ذلك شاغل عن الله ، والعمل الصالح إقبال على العبودية . ومن توجه إلى الله وصل ومن طلب شيئاً من الله حصل . وجزاء الضعف من إضافة المصدر إلى المفعول تقديره : فأولئك لهم أن يجاوزوا الضعف . ومعنى قراءة يعقوب : أولئك لهم الضعف جزاء . والتضعيف يكون إلى العشر وإلى سبعمائة وأكثر كما عرفت . والباقي إلى قوله ﴿ محضرون ﴾ قد سبق . وحين بين أن حصول الترف لا يدل على الشرف ذكر أن بسط الرزق لا يختص بهم ولكنه سبحانه قد يبسط الرزق لمن يشاء من عباده المؤمنين .

ثم رتب وعد الإخلاف على الإنفاق وذلك إما في العاجل بالمال أو بالقنوع ، وإما في الآخرة بالثواب الذي لا خلف فوقه ولا مثله . ومما يؤكد الآية قوله صلى الله عليه وسلم " اللهم أعط منفقاً خلفاً " الحديث . وقول الفقهاء ألق متاعك في البحر وعليّ ضمانه ، وأن التاجر إذا علم أن مالاً من الأموال في معرض الفناء يبيعه نسيئة وإن كان من الفقراء وإلا نسب إلى الخطأ وسخافة الرأي ، ولا ريب أن مال الدنيا في معرض الزوال وأن أغنى الأغنياء قد طلب منا الإقراض ووعد الإضعاف والإخلاف فأي تجارة عند العاقل اربح من هذا ؟ ﴿ وهو خير الرازقين ﴾ لأن سلسلة الأرزاق والرزق تنتهي إليه . وعن بعضهم : الحمد لله الذي أوجدني وجعلني ممن يشتهي فكم من مشته لا يجد وواجد لا يشتهي .

ثم حكى عاقبة حال الكفار بقوله ﴿ ويوم يحشرهم ﴾ وفي خطاب الملائكة تقريع الكفار وتقرير لما يعروهم من الخجل والوجل عند اقتصاص ذلك كما مر في قوله لعيسى ﴿ أءنت قلت للناس ﴾ [المائدة : 116] ﴿ قالوا سبحانك ﴾ ننزهك عن أن نعبد غيرك أنت الذي نواليك ونعادي غيرك في شأن العبادة ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ حيث أطاعوهم في عبادة غيرك فهم كانوا يطيعونهم وكنا نحن كالقبلة ، أو صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا : هذه صور الملائكة فاعبدوها ، أو كانوا يدخلون في أجواب الأصنام فيعبدون بعبادتها . وإنما قالوا ﴿ أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ وما ادّعوا الإحاطة لأن الذين رأوهم وأطلعهم الله على أحوالهم كانوا كذلك ولعل في الوجود من لا يطلع الله الملائكة عليه من الكفار . وأيضاً أن العبادة عمل ظاهر والإيمان عمل باطن ، والاطلاع على عمل القلب كما هو ليس إلا الله وحده فراعوا الأدب الجميل والحكم على الظاهر أكثري . ثم ذكر أن الأمر في ذلك اليوم لله وحده والخطاب في قوله ﴿ لا يملك بعضكم ﴾ للملائكة والكفار وإن كان الكفار غائبين كما تقول لمن حضر عندك ولمن شاركه في أمر بسببه : أنتم قلتم كذا على معنى أنت قلت وهم قالوا . ويحتمل أن يكون الخطاب للكفار لأن ذكر اليوم يدل على حضورهم أو لهم وللملائكة أيضاً بهذا التأويل ، وعلى الأول يكون قوله ﴿ ونقول للذين ظلموا ﴾ إفراداً للكفرة بالذكر ، وعلى الوجه الآخر يكون تأكيداً لبيان حالهم في الظلم

وذكر الضر تأكيد لعدم تملكهم شيئاً وإلا فهو غير متصور في ذلك اليوم . وإنما قال ههنا ﴿ عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ وفي السجدة ﴿ عذاب النار الذي كنتم به ﴾ [ الآية : 20 ] لأنهم هناك قد رأوا النار بدليل قوله ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ [ الآية : 20 ] فقيل لهم ذوقوا العذاب المؤبد الذي كنتم به تكذبون في قولكم ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ [ البقرة : 80 ] وههنا لم يروا النار .

(202/637)

---

وقيل : لأنه مذكور عقيب الحشر والسؤال فناسب التوبيخ على تكذيبهم بالنار . ثم حكى أكاذيبهم بقوله ﴿ وإذا تتلى ﴾ الآية . ولا يخفى ما فيه من المبالغات . ثم بين أن أقوالهم هذه لا تستند إلا إلى محض التقليد فقال ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها ﴾ فالآيات البينات لا تعارض إلا بالبراهين العقلية وما لهم من دليل أو بالنقليات وما عندهم من كتاب ولا رسول غيرك ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ كعاد وثمود ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ والمعشار كالمرباع وهما العشر والربع . قال الأكثرون : معناه وما بلغ هؤلاء المشركون عشر ما آتينا المتقدمين من القوة والنعمة وطول العمر . ثم إن الله أخذهم وما نفعهم محصولهم فكيف حال هؤلاء الضعفاء ؟ . وقال بعضهم : اراد وما بلغ الذين من قبلهم

معشار ما آتينا قوم محمد صلى الله عليه وسلم من البيان والبرهان لأن محمداً صلى الله عليه وسلم أفصح الرسل وكتابه أوضح الكتب. ثم إن المتقدمين أنكر عليهم تكذيبهم فكيف لا ينكر على هؤلاء؟ قال جار الله: قوله ﴿ فكذبوا رسلي ﴾ بعد قوله ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ تخصيص بعد تعميم كأنه قيل: وفعل الذين من قبلهم التكذيب فكذبوا رسلي؟ نظيره قول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم. ويجوز أن ينعطف على قوله ﴿ وما بلغوا معشار ما ﴾ كقولك: ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فيفضل عليه. قلت: فعلى هذا تكون الفاء للسببية، والمعنى أنه إذا لم يبلغ معشار فضله فكيف يفضل عليه؟ وكذا في الآية فيصير المعنى أنهم إذا لم يبلغوا معشار الأقدمين فكيف كذبوا؟ ﴿ فكيف كان نكير ﴾ للمكذبين الأوّلين فليحذروا من مثله. ويجوز عندي أن يكون الثاني تكريراً للأول لأجل ترتب النكير عليه كأنه قيل: فإذ قد صح أنهم فعلوا ما ذكرنا فلا جرم ذاقوا وبال أمرهم نظيره قولك لمن بحضرتك: فعلت كذا وكذا، فإذا فعلت ذلك فتربص.

وبعد تقرير الأصول الثلاثة : التوحيد والرسالة والحشر كررها مجموعة بقوله ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة ﴾ أي بخصلة أو حسنة أو كلمة واحدة وقد فسرها بقوله ﴿ أن تقوموا ﴾ على أنه عطف بيان لها . والقيام إما حقيقة وهو قيامهم عن مجلس النبيِّ متفرقين إلى أوطانهم . وإما مجاز وهو الاهتمام بالأمر والنهوض له بالعزم والجد . فقوله ﴿ مثنى وفرادى ﴾ إشارة إلى جميع الأحوال لأن الإنسان إما أن يكون مع غيره أو لا فكأنه قال : أن تقوموا لله مجتمعين ومنفردين لا تمنعكم الجمعية عن ذكر الله ولا يحوجكم الانفراد إلى معين يعينكم على ذكر الله . وقوله ﴿ ثم تتفكروا ﴾ يعني اعترفوا بما هو الأصل وهو التوحيد ولا حاجة فيه إلى تفكر ونظر بعدما بان وظهر ، ثم تتفكروا فيما اقول بعده ، وهو الرسالة المشار إليها بقوله ﴿ ما بصاحبكم من جنة ﴾ والحشر المشار إليه بقوله ﴿ بين يدي عذاب شديد ﴾ قيل : وفيه إشارة إلى عذاب قريب كأنه قال : ينذركم بعذاب يمسكم قبل الشديد .



---

فمجموع الأمور الثلاثة شيء واحد ، أو المراد أنه لا يأمرهم في أوّل الأمر بغير التوحيد لأنه سابق على الكل لا أنه لا يأمرهم في جميع العمر إلا بشيء واحد . وعند جار الله : الخصلة

الواحدة هي الفكر في أمر محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى : إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها اصبتم الحق وهو أن تقوموا لوجه الله خالصاً متفرقين اثنين اثنين وواحداً واحداً ، فإن ما فوق الاثنين والواحد يوجب التشويش واختلاف الرأي فيعرض كل من الاثنين محصول فكره على صاحبه من غير عصبية ولا اتباع هوى ، وكذلك الفرد يفكر في نفسه بعدل ونصفه حتى يجذب الفكر بصنعه إلى أن هذا الأمر المستتبع لسعادة الدارين لا يتصدّى لادعائه إلا رجلان : مجنون لا يبالي بافتضاحه إذا طولب بالبرهان ، وعاقل اجتباه الله بسوابق الفضل والامتنان لتكميل نوع الإنسان . لكن محمداً صلى الله عليه وسلم بالاتفاق أرجح الناس عقلاً وأصدقهم قولاً وأوفرهم حياء وأمانة ، فما هو إلا النبيّ المنتظر في آخر الزمان المبعوث بين يدي عذاب شديد هو القيامة وأهوالها . وقوله ﴿ ما بصاحبكم ﴾ إما أن يكون كلاماً مستأنفاً فيه تنبيه على كيفية النظر في أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد : ثم تتفكروا فتعلموا ذلك . وجوز بعضهم أن تكون " ما " استفهامية . وحين ذكر أنه ما به جنة ليلزم منه كونه نبياً ذكر وجهاً آخر يلزم منه صحة نبوّته وهو قوله ﴿ ما سألتكم من أجر ﴾ الآية . وتقريره أن العاقل لا يركب العناء الشديد إلا لغرض عاجل وهو غير موجود ههنا بل كل أحد يعاديه ويقصده بالسوء ، أو لغرض آجل ولا يثبت إلا على تقدير الصدق فإن الكاذب معذب في الآخرة لا مثاب . هذا إذا أريد بقوله ﴿ فهو لكم ﴾ نفي سؤال الآخر رأساً كما يقول الرجل لصاحبه : إن أعطيتني شيئاً فخذه وهو لم

يعطه شيئاً . ويحتمل أن يراد بالأجر قوله ﴿ لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى ﴾ [ الشورى : 23 ] وقوله ﴿ ما أسألكم عليه من أجر الا من شاء



---

أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ [ الفرقان : 57 ] لأن المودة في القربى قد انتظمته وإياهم وكذا اتخاذ السبيل إلى الله عز وجل فيه نصيبهم ونفعهم . ﴿ وهو على كل شيء شهيد ﴾ يعلم أني لا أطلب الأجر على نصحكم أو يعلم أن فائدة النصح تعود عليكم . قوله ﴿ يقذف بالحق ﴾ اي في قلوب المحقين وفيه إزالة استبعاد الكفرة تخصيص واحد منهم بإنزال الذكر عليه فإن الأمر بيد الله والفضل له يؤتيه من يشاء وإنه ﴿ علام الغيوب ﴾ يعلم عواقب الأمور ومراتب الاستحقاق فيعطى على حسب ذلك لا كما يفعل الهاجم الغافل ، أو أراد يقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، وذلك أن براهين التوحيد قد ظهرت وشبه المبطلين قد دحضت .

وفي قوله ﴿ علام الغيوب ﴾ إشارة إلى أن البرهان الباهر لم يقم إلا على التوحيد والرسالة ، وأما الحشر فالدليل عليه إخبار علام الغيوب عنه .

وحين ذكر أنه يقذف بالحق وكان ذلك بصيغة الاستقبال أخبر أن ذلك الحق قد جاء وهو القرآن والإسلام وكل ما ظهر على لسان النبي صلى الله عليه وسلم وعلى يده. وقيل: السيف. وقوله ﴿ وما يبدئ الباطل وما يعيده ﴾ مثل في الهلاك لأن الحيّ إما أن يبدئ فعلاً أو يعيده، فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة. والتحقيق فيه أن الحق هو الموجود الثابت. ولما كان ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من بيان التوحيد والرسالة والحشر ثابتاً في نفسه بيناً لمن نظر إليه كان جائياً، وحين كان ما أتوا به من الإصرار والتكذيب مما لا أصل له قيل: إنه لا يبدئ ولا يعيد أي لا يعيد شيئاً لا في الأوّل ولا في الآخر. وقيل: الباطل إبليس لأنه صاحب الباطل ولأنه هالك والمراد أنه لا ينشئ خلقاً ولا يعيد وإنما المنشئ والباعث هو الله. وعن الحسن: لا يبدئ لأهله خيراً ولا يعيده أي لا ينفعهم في الدنيا والآخرة. وقال الزجاج: "ما" استفهامية والمعنى أي شيء ينشئ إبليس ويعيده؟ ثم قرر أمر الرسالة بوجه آخر وهو قوله ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي ﴾ يعني كضلالكم وأما اهتدائي فليس بالنظر والاستدلال كاهتدائكم وإنما هو بالوحي المبين. قال جار الله: هذا حكم عام لكل مكلف، والتقابل مرعي من حيث المعنى والمراد أن كل ما هو وبال على النفس وضارّ لها فهو بها وبسببها لأنها الأمارة بالسوء وما لها ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه. وإنما أمر رسوله أن يسنده إلى نفسه لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالة محله

وسداد طريقته كان غيره أولى به ﴿ إنه سميع قريب ﴾ يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله لا يعزب عنه منهما شيء ، وفيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم إذا دعاه على من يكذبه أجابه ليس كمن يسمع من بعيد ولا يلحق الداعي . ثم عجب نبيه أو كل راءٍ من مآل حال أهل العناد بقوله ﴿ ولو ترى ﴾ وجواب محذوف أي لرأيت أمراً عظيماً . والأفعال الماضية التي هي ﴿ فزعوا ﴾ ﴿ وأخذوا ﴾ ﴿ وقالوا ﴾ ﴿ وحيل

(207/637)

---

﴾ كلها من قبيل ﴿ ونادى ﴾ [ الأعراف : 48 ] ﴿ وسيق ﴾ [ الزمر : 73 ] ووقت الفزع وقت البعث أو الموت أو يوم بدر . وعن ابن عباس : نزلت في خسف البيداء وهم ثمانون ألفاً أرادوا غزو الكعبة وتخريبها فخسف بهم حين دخلوا البيداء ﴿ فلا فوت ﴾ أي فلا يفوتون الله ولا يسبقونه . والأخذ من مكان قريب هو من الموقف إلى النار ، أو من ظهر الأرض إلى بطنها ، أو من صحراء بدر إلى القليب ، أو من تحت أقدامهم إلى الأرض . وجوّز جار الله أن يعطف ﴿ وأخذوا ﴾ على ﴿ لا فوت ﴾ على معنى إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا . ثم بين أنهم سيؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم أو بالقرآن أو بالحق حين لا ينفع الإيمان وذلك قوله ﴿ وأنى لهم التناوش ﴾ وهو تناول سهل لشيء قريب مثلت

حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من بعيد كما يتناوله الآخر من قريب تناولاً سهلاً لا تعب فيه ، أو أراد أن تناولهم التوبة وإيمانهم في الآخرة بعيد عن الدنيا فإن أمس الدابر لا يعود وإن كانت الآخرة قريبة من الدنيا ولهذا سماها الله الساعة وكل ما هو آت قريب .

وعن أبي عمرو : التناؤش بالهمز التناول من بعد من قولهم : نأشت بالهمزة أي أبطأت وتأخرت . والصح أنه من النوش كما مر همزت الواو المضمومة كما همزت فلي أجوه . وقيل : التناوش بلغة اليمن التذكرة قاله أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب في كتاب " المدخل في تفسير القرآن " والضمير في قوله ﴿ وقد كفروا ﴾ عائد إلى ما يعود إليه في قوله ﴿ آمنا به ﴾ .

(208/637)

---

قوله ﴿ ويقذفون بالغيب ﴾ فيه وجوه أحدها : أنه قولهم في رسول الله صلى الله عيله وسلم شاعر ساحر وهذا تكلم بالأمر الخفي وقد أتوا به من جهة بعيدة عن حاله لأنهم قد عرفوا منه الأمانة والصدق لا الكذب والزور . وثانيهاك أخذوا الشريك من حالهم في العجز فإنهم يحتاجون في الأمور العظام إلى التعاون فقاسوا الأمر الإلهي عليه . وثالثها : أنهم قاسوا قدرة الله على قدرتهم عجزوا عن إحياء الموتى فظنوا أن الله لا يقدر على

البعث ، وقياس الخالق على المخلوق بعيد المأخذ . ورابعها : قاسوا أمر الآخرة على الدنيا قائلين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة وحصول الثواب والعقاب فنحن أكرم على الله من أن يعذبنا . وخامسها : قالوا ﴿ ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً ﴾ [ السجدة : 12 ] وهو قذف بالغيب من مكان بعيد وهو الدنيا . ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ من نفع الإيمان في الآخرة أو من الرد إلى الدنيا ﴿ كما فعل بأشياعهم ﴾ أي بأشباههم من كفرة الأمم لم ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأس الله و ﴿ مريب ﴾ موقع في الريب منقول من الأعيان إلى المعنى أو ذو ريبة وذلك باعتبار صاحبه وكلاهما مجاز بوجهين وقد مر في هود . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 495.504 ﴾

*(209/637)*

---

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ مثقال ذرة في السموات ﴾ القلوب ﴿ ولا في الأرض ﴾ النفوس من سعادة أو شقاوة ﴿ قالوا الحق ﴾ يعني ما فهموا من الهيبة كلامه ولكن يعلمون أنه لا يقول إلا الحق ﴿ قل من يرزقكم ﴾ من سموات القلوب وأرض النفوس إذا نزل من سماء القلب ماء الفيض

على أرض الشرعية . ﴿ ألحقتم به شركاء ﴾ من الدنيا والهوى والشيطان كافة للناس من أهل الأولين والآخرين في عالم الأجساد وهو ظاهر ، وفي عالم الأرواح تبشرها بأن لها كمالاً عند الاتصال بالأشباح وتنذرها بالحرمان إن لم تتعلق بالأجسام ، وذلك أن الأرواح علوية نورانية والأشباح سفلية مظلمة لا يحصل بينهما التعلق إلا بالتبشير والإنذار .

فالروح بمثابة البذر والقالب كالأرض ، وشخص الإنسان بمثابة الشجرة ، والتوحيد والمعرفة ثمرتها ، والشريعة كالماء والبشير والنذير كالآكار . وإذا أمعنت النظر وجدت شجرة الموجودات نابتة من بذر روحه صلى الله عليه وسلم وهو ثمرة هذه الشجرة مع جميع الأنبياء والمرسلين ولكن بتبعية محمد صلى الله عليه وسلم ولهذا حصلت له رتبة الشفاعة دونهم . يقولون يعني أرباب الطلب يستعجلون متى نصل إلى الكمال الذي بشرتمونا به . ثم بين أن لثمرة كل شجرة وقتاً معلوماً لا تتجاوزه ﴿ أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ اي أكثر مدعي الإسلام بأهل الأهواء مؤمنون ﴿ ويقذفون بالغيب ﴾ فيه أن معارف الأسرار ومراتب الأحرار لا تصلح لمن هو اسير في أيدي صفات النفس ﴿ وحيل بينهم ﴾ لأن الدين ليس بالتمني والله أعلم بحقائق الأشياء والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 504 ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

ولما سلب تعالى عن شركائهم أن يملكوا شيئاً من الأكوان ، وأثبت جميع الملك له وحده ، وأمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقررهم بما يلزم منه ذلك بقوله تعالى:

﴿ قل من يرزقكم من السموات ﴾ أي : بالمطر ﴿ والأرض ﴾ أي : بالنبات ، وأفرد الأرض لأنهم لا يعلمون غيرها ، ثم أمره تعالى أن يتولى الإجابة بقوله تعالى : ﴿ قل الله ﴾ أي : إن لم يقولوا رازقنا الله تعالى فقل أنت : إن رازقكم الله وذلك للإشعار بأنهم يقرون به بقلوبهم إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به ، لأن الذي تمكن من صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته ؛ ولأنهم إن تفوهوا بأن الله تعالى رازقهم لزمهم أن يقال لهم : فما لكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ (يونس : )

﴿ أم من يملك السمع والأبصار ﴾ (يونس : )

حتى قال : ﴿ فسيقولون الله ﴾ (يونس : )

ثم قال تعالى : ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ (يونس : )

فكأنهم كانوا يقرون بألسنتهم مرة ، ومرة يتلعثمون عناداً وفراراً وحذراً من إلزام الحجة

ونحوه قوله عز وجل ﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله أفتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ﴾ (الرعد : )



---

وأمر بأن يقول لهم بعد لالإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه ﴿ وإنا أو إياكم ﴾ أي : أحد الفريقين من الذين يوحدون الرازق من السموات والأرض بالعبادة ، ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة ﴿ لعلى هدى ﴾ أي : في متابعة ما ينبغي أن يعمل مستعلين عليه ﴿ أو في ضلال ﴾ عن الحق ﴿ مبين ﴾ أي : بين في نفسه داع لكل أحد إلى معرفة أنه ضلال ، وهذا ليس على طريق الشك لأنه صلى الله عليه وسلم لم يشك أنه على هدى ويقين ، وأن الكفار على ضلال مبين وإنما هذا الكلام جار على ما تخاطب به العرب من استعمال الإنصاف في محاوراتهم على سبيل الفرض والتقدير ، ويسميه أهل البيان الاستدراج ، وهو أن يذكر لمخاطبه أمراً يسلمه وإن كان بخلاف ما يذكر حتى يصغي إلى ما يلقيه إليه إذ لو بدأه بما يكره لم يصغ ونظيره قولهم : أخزى الله الكاذب مني ومنك ، ومثله قول حسان رضي الله تعالى عنه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا سفيان:

*أتهجوه ولست له بكفء ** فشر كما لخير كما الفداء*

*فإن أبي ووالدتي وعرضي ** لعرض محمد منكم وقاء*

مع العلم لكل أحد أنه صلى الله عليه وسلم خير خلق الله كلهم .

تنبيه : ذكر تعالى في الهدى كلمة على ، وفي الضلال كلمة في ، لأن المهتدي كأنه مرتفع مطلع فذكر بكلمة التعالي فكأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء ، والضال منغمس في الظلمة غريق فيها فأتى بكلمة في فكأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه قال البغوي : وقال بعضهم : أو بمعنى الواو والألف فيه صلة كأنه يقول : وإنا وإياكم لعلى هدى وفي ضلال مبين يعني : نحن على الهدى وأنتم في الضلال .



---

﴿ قل ﴾ أي : لهم ﴿ لا تسألون ﴾ أي : من سائل ما ﴿ عما أجرمنا ﴾ أي : لا تؤاخذون به ﴿ ولا نسأل ﴾ أي : في وقت من الأوقات من سائل ما ﴿ عما تعملون ﴾ أي : من الكفر والتكذيب وهذا أدخل في الإنصاف وأبلغ في التواضع حيث أسندوا الإجرام إلى أنفسهم والعمل إلى المخاطبين ، وقيل : المراد بالإجرام الصغائر والزلات التي لا يخلو منها مؤمن ، وبالعمل الكفر والمعاصي العظام .

﴿ قل ﴾ أي : لهم ﴿ يجمع بيننا ربنا ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ ثم يفتح ﴾ أي : يحكم ﴿ بيننا بالحق ﴾ أي : الأمر الثابت الذي لا يقدر أحد منا ولا منكم على التخلف عنه وهو العدل والفضل من غير ظلم ولا ميل ، فيدخل المحقين الجنة والمبطلين النار ﴿ وهو الفتاح ﴾ أي : الحاكم الفاصل في القضايا المغلقة البليغ الفتح لما انغلق فلا يقدر أحد على فتحه ﴿ العليم ﴾ أي : البليغ العلم بكل دقيق وجليل فلا تخفى عليه خافية .

﴿ قل ﴾ أي : لهم ﴿ أروني ﴾ أي : أعلموني ﴿ الذين ألحقتم به ﴾ أي : بالله ﴿ شركاء ﴾ أي : في العبادة هل يخلقون وهل يرزقون وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ أي : لا يخلقون ولا يرزقون ردع لهم عن مذهبهم بعد ما كسره بإبطال المقايسة كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾ (الأنبياء : )

بعد ما حجهم وقد نبه على تفاحش غلطهم بقوله تعالى : ﴿ بل هو الله العزيز ﴾ أي : الغالب على أمره الذي لا مثل له وكل شيء يحتاج إليه ﴿ الحكيم ﴾ أي : المحكم لكل ما يفعله فلا يستطيع أحد نقض شيء منه فكيف يكون له شريك ، وأنتم ترون ما ترون له من هاتين الصفتين المنافيتين لذلك .

تنبيه : في هذا الضمير وهو "هو" قولان : أحدهما : أنه عائد إلى الله تعالى أي : ذلك الذي ألحقتم به شركاء هو الله والعزيز الحكيم صفتان . والثاني : أنه ضمير الأمر والشأن والله مبتدأ ، والعزيز الحكيم خبر إن والجملة خبر هو .

فإن قيل : ما معنى قوله ﴿ أروني ﴾ وكان يراهم ويعرفهم أجيب : بأنه أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله تعالى وأن يقاس على أعينهم فيه وبين أصنامهم ليطلعهم على إحالة القياس إليه والإشراك به .

ولما بين تعالى مسألة التوحيد شرع في الرسالة بقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وما أرسلناك ﴾ أي : بعظمتنا ﴿ إلا كافة للناس ﴾ أي : إرسالاً عاماً شاملاً لكل ما شمله إيجادنا فكأنه حال من الناس قدم للاهتمام ، وقول البيضاوي : ولا يجوز جعلها حالاً من الناس أي : لأن تقديم حال المجرور عليه كتقديم المجرور على الجار رده أبو حيان بقوله : هذا ما ذهب إليه الجمهور وذهب أبو علي وابن كيسان وابن برهان وابن ملكون إلى جوازه وهو الصحيح انتهى . وهذا هو الذي ينبغي اعتماده ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم "كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة" ومن أمثلة أبي علي : زيد خير ما يكون خير منك والتقدير : زيد خير منك خير ما يكون وأنشد :

*إذا المرء أعيته المطالب ناشئاً ** فمطلبها كهلاً عليه شديد *

أي : فمطلبها عليه كهلاً وأنشد أيضاً :

*تسليت طراً عنكم بعد بينكم ** بذكراكم حتى كأنكم عندي*

أي : عنكم طراً ، وقيل : أنه حال من كاف أرسلناك والمعنى : إلا جامعاً للناس في الإبلاغ والكافة بمعنى الجامع ، والهاء فيه للمبالغة كهي في علامة ورواية قاله الزجاج .

وقيل : إن كافة صفة لمصدر محذوف تقديره : إلا إرسالة كافة قال الزمخشري : إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم ؛ لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم قال أبو حيان : أما كافة بمعنى عامة فالمنقول عن النحويين أنها لا تكون إلا حالاً ولم يتصرف فيها بغير ذلك فجعلها صفة لمصدر محذوف خروج عما نقلوا ، ولا يحفظ أيضاً استعمالها صفة لموصوف محذوف

قال البقاعي : وأما الجن فحالهم مشهور أي : أنه أرسل إليهم ، وأما الملائكة فالدلائل على الإرسال إليهم في غاية الظهور انتهى .



---

وهذا هو اللائق بعموم رسالته وإن خالف في ذلك الجلال المحلي في "شرحه على جمع الجوامع" ، وفي عموم رسالته صلى الله عليه وسلم فضيلة على جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلئن كان داود عليه السلام فضل بطاعة الجبال له والطير وإلانة الحديد وسليمان

عليه السلام بما ذكر له ، فقد فضل محمد صلى الله عليه وسلم نبينا بإرساله إلى الناس كافة ، والحصا سبح في كفه ، والجبال أمرت بالسير معه ذهباً وفضة ، والحمرة شكت إليه أخذ فراخها أو بيضها ، والضب شهد له بالرسالة والجمل شكا إليه وسجد له ، والأشجار أطاعته والأحجار سلمت عليه وائتمرت بأمره وغير ذلك مما لا يدخل تحت الحصر ، وإنما ذكرت ذلك تبركاً بذكره صلى الله عليه وسلم وأنا أسأل الله تعالى أن يشفع في وفي والدي وجميع أحبابي وبقية المسلمين أجمعين .

ولما كانت البشارة هي الخبر الأول الصدق السار وكان في ذكرها رد لقولهم في الكذب والجنون قال تعالى ﴿ بشيراً ﴾ أي : مبشراً للمؤمنين بالجنة ﴿ ونذيراً ﴾ أي : منذراً للكافرين بالعذاب ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ أي : كفار مكة ﴿ لا يعلمون ﴾ فيحملهم جهلهم على مخالفتك .

ولما سلب عنهم العلم اتبعه دليله كقوله تعالى معبراً بصيغة المضارع الدال على ملازمة التكرير للإعلام بأنه على سبيل الاستهزاء لا الاسترشاد .

﴿ ويقولون ﴾ من فرط جهلهم بعاقبة ما يوعدونه ﴿ متى هذا الوعد ﴾ أي : البشارة والنذارة في يوم الجمع وغيره فسموه وعداً زيادة في الاستهزاء .

ولما كان قول الجماعة أجدر بالقبول وأبعد عن الرد من قول الواحد أشار إلى زيادة جهلهم

بقوله تعالى : ﴿ إن كنتم ﴾ أي : أيها النبي وأتباعه ﴿ صادقين ﴾ أي : متمكنين في الصدق .

(215/637)

---

﴿ قل لكم ﴾ أي : أيها الجاحدون الأجلاف الذين لا يجوزون الممكنات أو لا يتدبرون ما أوضحها من الدلالات ﴿ ميعاد يوم ﴾ أي : لا يحتمل القول وصف عظمه لما يأتي فيه لكم من العقاب سواء كان يوم الموت كما قاله الضحاك أو البعث كما قاله أكثر المفسرين ﴿ لا تستأخرون ﴾ أي : لا يوجب تأخركم ﴿ عنه ساعة ﴾ لأن الآتي به عظيم القدرة محيط العلم ولذلك قال : ﴿ ولا تستقدمون ﴾ أي : لا يوجد تقدمكم لحظة فما دونها ولا تتمكنون من طلب ذلك .

فإن قيل : كيف انطبق هذا جواباً عن سؤالهم ؟

أجيب : بأنهم ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له إلا تعنتاً لا استرشاداً فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقاً لمجيء السؤال على سبيل الإنكار والتعنت ، وأنهم مرصدون بيوم يفاجئهم فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدماً عليه .

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ مؤكدين قطعاً للأطماع عن دعائهم ﴿ لن نؤمن ﴾ أي : نصدق

أبداً وصرحوا بالمنزل عليه صلى الله عليه وسلم بالإشارة فقالوا : ﴿ بهذا القرآن ﴾ أي : وإن جمع جميع الحكم والمقاصد المتضمنة لبقية الكتب ﴿ ولا بالذي بين يديه ﴾ أي : قبله من الكتب التوراة والإنجيل وغيرهما بل نحن قانعون بما وجدنا عليه آباءنا ، وذلك لما روي أن كفار مكة سألوا بعض أهل الكتاب فأخبروهم أن صفة هذا النبي عندهم في كتبهم فأغضبهم ذلك وقرنوا إلى القرآن جميع ما تقدمه من كتب الله في الكفر بها فكفروا بها جميعاً .

وقيل : الذي بين يديه يوم القيامة ، والمعنى أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله ، وأن يكون ما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة .

(216/637)

---

ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أو للمخاطب : ﴿ ولو ﴾ أي : والحال أنك لو ﴿ ترى ﴾ أي : يوجد منك رؤية لحالهم ﴿ إذا الظالمون ﴾ أي : الذين يضعون الأشياء في غير محالها فيصدقون آباءهم لإحسان يسير مكدر من غير دليل ، ولا يصدقون ربهم الذي لا نعمة عندهم ولا عند آبائهم إلا منه ﴿ موقوفون ﴾ أي : بعد البعث بأيدي جنوده أو غيرها بأيسر أمر منه ﴿ عند ربهم ﴾

أي : في موضع المحاسبة ﴿ يرجع بعضهم ﴾ أي : على وجه الخصام عداوة كان سببها موادة في الدنيا بطاعة بعضهم لبعض في معاصي الله تعالى ﴿ إلى بعض القول ﴾ أي : بالملامة والمباكتة والمخاصمة .

تنبيه : مفعول ترى وجواب لو محذوفان للفهم أي : لو ترى حال الظالمين وقت وقوفهم راجعاً بعضهم إلى بعض القول لرأيت حالاً فظيعة وأمراً منكراً ويرجع حال من ضمير موقوفون ، والقول مفعول يرجع ، لأنه يتعدى قال تعالى : ﴿ فإن رجعك الله ﴾ (التوبة : )

وقوله تعالى ﴿ يقول الذين استضعفوا ﴾ أي : وقع استضعافهم ممن هو فوقهم في الدنيا وهم الأتباع في تلك الحال على سبيل اللوم ﴿ للذين استكبروا ﴾ أي : أوجدوا الكبر وطلبوه بما وجدوا من أسبابه التي أدت إلى استضعافهم للأولين وهم الرؤوس المتبوعون ﴿ لولا أنتم ﴾ أي : لولا ضلالكم وصدكم إيانا عن الإيمان ﴿ لكنا مؤمنين ﴾ أي : باتباع الرسول تفسير لقوله تعالى : ﴿ يرجع ﴾ فلا محل له قال ابن عادل : وأنتم بعد لولا مبتدأ على أصح المذاهب وهذا هو الأفصح أعني وقوع ضمائر الرفع بعد لولا أي : وغيره فصيح خلافاً للمبرد حيث جعل خلاف هذا لحناً ، وأنه لم يرد إلا في قول زياد : وكم موطن لولاي وإلا قيس جعل الياء ضمير نصب أو جر قام مقام ضمير الرفع وسيبويه جعله ضمير جر .

ولما لم يتضمن كلامهم سوى قضية واحدة ذكر الجواب عنها بقوله تعالى:

﴿ قال الذين استكبروا ﴾ على طريق الاستئناف ﴿ للذين استضعفوا ﴾ رداً عليهم وإنكاراً لقولهم إنهم هم الذين صدوهم ﴿ أنحن ﴾ خاصة ﴿ صددناكم ﴾ أي : منعناكم ﴿ عن الهدى بعد إذ جاءكم ﴾ أي : على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام لم نفعل ذلك ؛ لأن المانع ينبغي أن يكون أرجح من المقتضى حتى يعمل عمله ، والذي جاء به الرسل هو الهدى والذي صدر من المستكبرين لم يكن شيئاً يوجب الامتناع من قبول ما جاؤوا به فلم يصح تعلقكم بالمانع ، وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بإظهار الذال عند الجيم ، والباقون بالإدغام وأمال الألف بعد الجيم حمزة وابن ذكوان وفتحها الباقون ، وكذا الإظهار والإدغام في ﴿ إذ تأمروننا ﴾ (سبأ : )

وإذا وقف حمزة على ﴿ جاءكم ﴾ سهل الهمزة مع المد والقصر ، وله أيضاً إبدالها ألفاً مع المد والقصر ﴿ بل كنتم ﴾ أي : جبلة وخلقاً ﴿ مجرمين ﴾ أي : كافرين لاختياركم لأقوالنا وتسويلنا .

فإن قيل : إذ وإذا من الظروف الملازمة للظرفية فلم وقعت إذ مضافاً إليها ؟

أجيب : بأنه قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره فأضيف إليها الزمان كما أضيف إلى الجمل في قولك : جئتك بعد إذ جاء زيد وحينئذٍ ويومئذٍ .

ولما أنكر المستكبرون بقولهم : ﴿ أنحن صددناكم ﴾ أن يكونوا هم السبب في كفر

المستضعفين واثبتوا بقولهم ﴿ بل كنتم مجرمين ﴾ أن ذلك بكسبهم واختيارهم كر عليهم المستضعفون كما قال تعالى:

(218/637)

---

﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا ﴾ رداً لإنكارهم صدهم ﴿ بل ﴾ أي: الصاد لنا ﴿ مكر الليل والنهار ﴾ أي: الواقع فيهما من مكركم فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم كأنهم قالوا: ما كان الإجرام من جهتنا بل من جهة مكركم بنا ليلاً ونهاراً ﴿ إذ تأمروننا أن نكفر بالله ﴾ أي: الملك الأعظم بالاستمرار على ما كنا عليه قبل إتيان الرسل ﴿ ونجعل له أنداداً ﴾ أي: شركاء نعبدهم من دونه، فإن قيل: لم قيل ﴿ قال الذين استكبروا ﴾ بغير عطف وقيل ﴿ وقال الذي استضعفوا ﴾ أجيب: بأن الذين استضعفوا مر أولاً كلامهم، فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريق الاستئناف ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الأول.

تنبيه: يجوز رفع مكر من ثلاثة أوجه:

أحدها: الفاعلية تقديره بل صدنا مكركم في هذين الوقتين كما مر.

الثاني: أن يكون مبتدأ خبره محذوف أي: مكر الليل صدنا.

الثالث : العكس أي : سبب كفرنا مكركم وإضافة المكر إلى الليل والنهار إما على الإسناد المجازي كقولهم ليل ماكر والعرب تضيف الفعل إلى الليل والنهار على توسع الكلام كقول الشاعر :

* ** ونمت وما ليل المطي بنائم *

فيكون مصدراً مضافاً لمرفوعه ، وأما على الاتساع في الظرف فجعل كالمفعول به فيكون مصدراً مضافاً لمفعوله قال ابن عادل : وهذا أحسن من قول من قال : إن الإضافة بمعنى في أي : مكر في الليل لأن ذلك لم يثبت في محل النزاع وقيل مكر الليل والنهار طول السلامة وطول الأمل فيهما كقوله تعالى ﴿ فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ (الحديد : )

تنبيه : قوله تعالى أولاً يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول ﴿ الذين استضعفوا ﴾ بلفظ المستقبل ، وقوله تعالى في الآيتين الأخيرتين ﴿ وقال الذين استكبروا ﴾ ﴿ وقال الذين استضعفوا ﴾ بلفظ الماضي مع أن السؤال والمراجعة في القول لم يقع ، أشار به إلى أن ذلك لا بد من وقوعه فإن الأمر الواجب الوقوع كأنه وقع كقوله تعالى : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ (الزمر : )

وأما الاستقبال فعلى الأصل ﴿ وأسروا ﴾ أي : الفريقان ﴿ الندامة ﴾ من المستكبرين والمستضعفين وهم الظالمون في قوله تعالى ﴿ إذا الظالمون موقوفون ﴾ (سبأ : )

يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين ﴿ لما ﴾ أي : حين ﴿ رأوا العذاب ﴾ أي : حين رؤية العذاب أخفاها كل عن رفيقه مخافة التعيير .

وقيل : معنى الإسرار والإظهار وهو من الأضداد أي : أظهروا الندامة قال ابن عادل : ويحتمل أن يقال : إنهم لما تراجعوا في القول رجعوا إلى الله تعالى بقولهم ﴿ أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً ﴾ (السجدة : )

وأجيبوا : بأن لامرد لكم فأسروا ذلك القول وقوله تعالى ﴿ وجعلنا الأغلال ﴾ أي : الجوامع التي تغل اليد إلى العنق ﴿ في أعناق الذين كفروا ﴾ يعم الأتباع والمتبوعين جميعاً ، وكان الأصل في أعناقهم ولكن جاء بالظاهر تنويهاً بذمهم وللدلالة على ما استحقوا به الأغلال وهذه إشارة إلى كيفية عذابهم ﴿ هل يجزون ﴾ أي : بهذه الأغلال ﴿ إلا ما ﴾ أي : إلا جزاء ما ﴿ كانوا يعملون ﴾ أي : على سبيل التجديد والاستمرار .

ولما كان في هذا تسلية أخروية للنبي صلى الله عليه وسلم أتبعه التسلية الدنيوية بقوله تعالى:

﴿ وما أرسلنا ﴾ أي : بعظمتنا ﴿ في قرية ﴾ وأكد النفي بقوله تعالى : ﴿ من نذير إلا قال

مترفوها ﴾ رؤساؤها الذين لا شغل لهم إلا التنعم بالفاني حتى أكسبهم البغي والطغيان ولذلك قالوا لرسلهم : ﴿ إنا بما أرسلتم به ﴾ أي : أيها المنذرون ﴿ كافرون ﴾ أي : وإذا قال المتنعمون ذلك تبعهم المستضعفون .

*(220/637)*

---

﴿ وقالوا ﴾ أي : المترفون أيضاً متفاخرين ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً ﴾ أي : في هذه الدنيا ولو لم يرض منا ما نحن عليه ما رزقنا ذلك ، فاعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم فعلى قياسهم ذلك قالوا : ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ أي : إن الله تعالى قد أحسن إلينا في الدنيا بالمال والولد فلا يعذبنا في الآخرة ، ثم إن الله سبحانه وتعالى بين خطاهم بقوله تعالى : لنبيه صلى الله عليه وسلم

﴿ قل ﴾ أي : لهم ﴿ إن ربي ﴾ أي : المحسن إلي بالإنعام بالسعادة الباقية ﴿ يبسط الرزق ﴾ أي : يوسعه في كل وقت أراده بالأموال والأولاد وغيرها ﴿ لمن يشاء ﴾ امتحاناً ﴿ ويقدر ﴾ أي : يضيقه على من يشاء ابتلاء بدليل مقابلته بيبسط وهذا هو الطباق البديعي ، فالرزق في الدنيا لا تدل سعته على رضا الله تعالى ولا ضيقه على سخطه فربما وسع على العاصي وضيق على المطيع ، ، وربما عكس وربما وسع عليهما وضيق عليهما

، وكم من موسر شقي وكم من معسر تقي ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ أي : كفار مكة ﴿ لا يعلمون ﴾ أي : ليس لهم علم فيتدبروا به ما ذكرنا من الأمر فيعلمون أنه ليس كل موسع عليه في دنياه سعيداً في عقباه ولا كل مضيق عليه في دنياه شقياً .

ثم بين تعالى فساد استدلالهم بقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وما أموالكم ﴾ أي : أيها الخلق الذي أنتم من جملتهم وإن كثرت ، وكرر النافي تصريحاً بإبطال كل على حياله فقال ﴿ ولا أولادكم ﴾ كذلك ﴿ بالتي ﴾ أي : بالأموال والأولاد التي ﴿ تقربكم عندنا ﴾ أي : على مالنا من العظمة ﴿ زلفى ﴾ أي : درجة علية وقربة مكينة .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ بالتي تقربكم ﴾ (سبأ : )

(221/637)

---

صفة للأموال والأولاد كما تقرر لأن جمع التكسير غير العاقل يعامل معاملة المؤنثة الواحدة وقال الفراء والزجاج أنه : حذف من الأول لدلالة الثاني عليه قالا : والتقدير : وما أموالكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ولا أولادكم بالتي تقربكم ولا حاجة إلى هذا ، ونقل عن الفراء ما تقدم من أن التي صفة للأموال والأولاد معاً وهو الصحيح ، وجعل الزمخشري "التي" صفة

لموصوف محذوف قال : ويجوز أن تكون التي هي التقوى وهي المقربة عند الله تعالى زلفى وحدها أي : ليست أموالكم ولا أولادكم بتلك الموصوفة عند الله بالتقريب قال أبو حيان : ولا حاجة إلى هذا الموصوف انتهى . وزلفى : مصدر من معنى الأول إذ التقدير : تقربكم قربى وقال الأخفش : زلفى اسم مصدر كأنه قال : بالتي تقربكم عندنا تقريباً وأمالها حمزة والكسائي محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين ، والباقون بالفتح وقوله تعالى : ﴿ إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾ أي : تصديقاً لإيمانه على ذلك الأساس استثناء من مفعول تقربكم أي : الأموال والأولاد لا تقرب أحد إلا المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله ويعلم ولده الخير ويربيه على الصلاح ، أو من أموالكم وأولادكم على حذف المضاف إلى إلا أموال وأولاد من آمن وعمل صالحاً ﴿ فأولئك ﴾ أي : العالو الرتبة ﴿ لهم جزاء الضعف ﴾ أي : أن يأخذوا جزاءهم مضاعفاً في نفسه من عشرة أمثاله إلى ما لا نهاية له ﴿ بما عملوا ﴾ فإن أعمالهم ثابتة محفوظة بأساس الإيمان ، ثم زاد وقال تعالى ﴿ وهم في الغرفات ﴾ أي : العلالي المبنية فوق البيوت في الجنات زيادة على ذلك ﴿ آمنون ﴾ أي : ثابت أمانهم دائماً لا خوف عليهم من شيء من الأشياء أصلاً ، وأما غيرهم وهم المرادون بما بعده فأموالهم وأولادهم وبال عليهم ، وقرأ حمزة بسكون الراء ولا ألف بعد الفاء على التوحيد على إرادة الجنس ولعدم اللبس لأنه معلوم أن لكل أحد غرفة تخصه ، وقد أجمع على التوحيد في قوله تعالى : ﴿ يجزون الغرفة ﴾ (الفرقان

( :

ولأن لفظ الواحد أخف فوضع موضع الجمع مع أمن اللبس ، والباقون بضم الراء وألف بعد الفاء على الجمع جمع سلامة ، وقد أجمع على الجمع في قوله تعالى ﴿ لنبوأنهم من الجنة غرفاً ﴾ (العنكبوت : )

ثم بين حال المسيء وهو من يبعده ماله وولده من الله تعالى بقوله سبحانه وتعالى:

﴿ والذين يسعون ﴾ أي : يجددون السعي من غير توبة بأموالهم وأولادهم ﴿ في ﴾ إبطال ﴿ آياتنا ﴾ أي : حجتنا على ما لها من عظمة الانتساب إلينا ﴿ معجزين ﴾ أي : طالبين تعجيزها أي : تعجيز الآتين بها عن إنفاذ مرادهم بها بما يلقون من الشبه فيضلون غيرهم بما أوسعنا عليهم وأعززناهم به من الأموال والأولاد ﴿ أولئك ﴾ أي : هؤلاء البعداء البغضاء ﴿ في العذاب ﴾ أي : المزيل للعذوبة ﴿ محضرون ﴾ أي : يحضرهم فيه الموكلون بهم من جندنا على أهون وجه وأسهله .

﴿ قل ﴾ أي : يا أشرف الخلق لجميع الخلق ومنهم هؤلاء ﴿ إن ربي ﴾ أي : المحسن إلي بهذا البيان وغيره ﴿ يبسط الرزق ﴾ أي : يوسعه ﴿ لمن يشاء ﴾ متى شاء ﴿ من

عباده ﴾ امتحاناً ﴿ ويقدر ﴾ أي : يضيقه ﴿ له ﴾ بعد البسط ابتلاء قال البيضاوي : فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين ، وما سبق في شخصين فلا تكرار .



---

ولما بين بهذا البسط أن فعله بالاختيار بعد أن بين بالأول كذبهم في أنه سبب السلامة من النار دل على أنه الفاعل لا غيره بقوله تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ أي : فهو يعوضه لا معوض سواه إما عاجلاً بالمال ، أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفد ، وإما آجلاً بالثواب الذي كل خلف دونه ، وعن سعيد بن جبير ما كان في غير إسراف ولا تقتير فهو يخلفه ، وعن الكلبي ما تصدقتم من صدقة أو أنفقتم في خير من نفقة فهو يخلفه على المنفق ، إما أن يعجل له في الدنيا ، وإما أن يدخر له في الآخرة ، وعن مجاهد من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد ، فإن الرزق مقسوم ، ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه فينفق جميع ما في يده ثم يبقى طول عمره في فقر ولا يتأول ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ (سبأ : )

فإن هذا في الآخرة ومعنى الآية : وما كان من خلف فهو منه فدل ذلك على أنه مختص بالإخلاف لأنه ضمن الإخلاف لكل ما ينفق على أي وجه كان ، وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قال الله تبارك وتعالى أنفق ينفق عليك" ولمسلم : "يا ابن آدم أنفق أنفق عليك" وعن أبي هريرة أيضاً : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان يقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً" وعنه أيضاً : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما نقصت أحد صدقة من مال وما زاد الله رجلاً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل" وعن عبد الحميد بن الحسن الهلالي قال : أنبأنا محمد بن المكندر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كل معروف صدقة" "وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة" "وما وقى الرجل به عرضه كتب له بها صدقة" قلت : ما معنى وقى به عرضه قال : ما أعطى الشاعر وذا اللسان المتقي ، وما أنفق المؤمن من نفقة فعلى الله خلفها ضامناً إلا ما كان من نفقة في بنيان أو معصية الله عز وجل قوله : قلت ما معنى مقول عبد الحميد لمحمد بن المكندر ﴿ وهو خير الرازقين ﴾ فإن قيل : قوله تعالى خير الرازقين ينبئ عن كثرة الرازقين ولا رازق إلا الله تعالى أجيب : بأن الله تعالى هو خير الرازقين الذين يغذونهم هذا الغذاء ممن يقيمهم الله تعالى فيضيفون الرزق إليهم ، لأن كل من

يرزق غيره من سلطان يرزق جنده ، أو سيد يرزق عبده ، أو رجل يرزق عياله فهو واسطة لا يقدر إلا على ما قدره الله ، وأما هو سبحانه فهو يوجد المعدوم ويرزق من يطيعه ومن يعصيه ولا يضيق رزقه بأحد ولا يشغله فيه أحد عن أحد وعن بعضهم الحمد لله الذي أوجدني وجعلني ممن يشتهي فيجد فكم من مشته لا يجد وواجد لا يشتهي ، وقرأ أبو عمر وقالون والكسائي فهو يخلفه بسكون الهاء والباقون



بالضم .

ولما بين تعالى أن حال النبي صلى الله عليه وسلم كحال من تقدمه من الأنبياء وحال قومه كحال من تقدم من الكفار وبين بطلان استدلالهم بكثرة أموالهم وأولادهم ، بين ما يكون عاقبة حالهم بقوله تعالى:

﴿ ويوم يحشرهم ﴾ أي : نجمعهم جمعاً بكره بعد البعث وعم التابع والمتبوع بقوله تعالى : ﴿ جميعاً ﴾ فلم نغادر منهم أحداً ، وقرأ حفص يحشرهم ثم يقول بالياء والباقون بالنون .

ولما كانت مواقف الحشر طويلة وزلازله مهولة قال تعالى : ﴿ ثم نقول للملائكة ﴾ أي : توبيخاً للكافرين وإقناطاً مما يرجون منهم من الشفاعة ﴿ أهؤلاء ﴾ أي : الضالون وأشار

إلى أنه لا ينفع من العبادة إلا ما كان خالصاً بقوله تعالى : ﴿ إياكم ﴾ أي : خاصة ﴿ كانوا يعبدون ﴾ فهذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار وارد على المثل السائر : إياك أعني واسمعي يا جارة ونحوه قوله عز وجل : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ (المائدة : )

وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزهين براء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير والغرض أن يقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا فيكون تقريعهم أشد وتعييرهم أبلغ وخجلهم أعظم ولذلك:

﴿ قالوا ﴾ أي : الملائكة متبرئين منهم مفتتحين بالتنزيه تخضعاً بين يدي البراءة خوفاً ﴿ سبحانك ﴾ أي : تنزهك تنزيهاً يليق بجلالك عن أن يستحق أحد غيرك أن يعبد ﴿ أنت ولينا ﴾ أي : معبودنا الذي لا وصلة بيننا وبين أحد إلا بأمره ﴿ من دونهم ﴾ أي : ليس بيننا وبينهم ولاية بل عداوة ، وكذا كان من تقرب إلى شخص بمعصية الله تعالى فإنه يقسى الله تعالى قلبه عليه ويبغضه فيه فيجافيه ويعاديه .

ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم على الحقيقة بقولهم ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ أي : إبليس وذريته الذين زينوا لهم عبادتنا من غير رضانا بذلك ، وكانوا يدخلون في أجواف الأصنام ويخاطبونهم ويستجيرون بهم في الأماكن المخوفة ، ومن هذا تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد القطيفة .

وقيل : صورت الشياطين لهم صور قوم من الجن وقالوا : هذه صور الجن فاعبدوها ثم استأنفوا قولهم ﴿ أكثرهم ﴾ أي : الإنس ﴿ بهم ﴾ أي : الجن ﴿ مؤمنون ﴾ أي : راسخون في الإشراك لا يقصدون بعبادتهم غيرهم .

وقيل : الضمير الأول للمشركين والأكثر : بمعنى الكل وقيل : منهم من يقصد بعبادته بتزيين الجن غيرهم وهم مع ذلك يصدقون ما يرد عليهم من إخبارات الجن على ألسنة الكهان وغيرهم مع ما يرون فيها من الكذب في كثير من الأوقات .

ولما بطلت تمسكاتهم وانقطعت تعلقاتهم تسبب عن ذلك تقريعهم الناشئ عن تنديمهم بقوله تعالى : بلسان العظمة:

﴿ فاليوم ﴾ أي : يوم مخاطبتهم بهذا التبكيت وهو يوم الحشر ﴿ لا يملك ﴾ أي : شيئاً من الملك ﴿ بعضكم لبعض ﴾ أي : من المقربين والمبعدين ﴿ نفعاً ولا ضراً ﴾ بل تنقطع الأسباب التي كانت في دار التكليف من دار الجزاء التي المقصود فيها تمام إظهار العظمة لله وحده على أتم الوجوه .

فإن قيل : قوله تعالى نفعاً مفيد للحسرة فما فائدة ذكر الضر مع أنهم لو كانوا يملكون الضر لما

نفع الكافرين ذلك أجيب : بأن العبادة لما كانت تقع لدفع ضرر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين أنه ليس فيهم ذلك الوجه الذي تحسن لأجله عبادتهم وقوله تعالى : ﴿ ونقول ﴾ أي : في ذلك الحال من غير إمهال ﴿ للذين ظلموا ﴾ أي : بوضع العبادة في غير موضعها عند إدخالهم النار ﴿ ذوقوا عذاب النار التي كنتم ﴾ أي : جبلة وطبعاً ﴿ بها تكذبون ﴾ عطف على لا يملك فبين المقصود من تمهيده ، فإن قيل : قوله ههنا التي كنتم بها صفة للنار وفي السجدة وصف العذاب فجعل المكذب هنا النار ، وجعل المكذب في السجدة العذاب وهم كانوا يكذبون بالكل فما فائدته أجيب : بأنهم كانوا متلبسين بالعذاب مترددين فيه بدليل قوله تعالى : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ (السجدة : )

*(227/637)*

---

فوصف لهم ما لابسوه وهنا لم يلابسوه بعد لأنه عقب حشرهم وسؤالهم فهو أول ما رأوا النار فقيل لهم ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ .

﴿ وإذا تتلى عليهم ﴾ أي : في وقت من الأوقات من أي تال كان ﴿ آياتنا ﴾ أي : من القرآن حال كونها ﴿ بينات ﴾ أي : واضحات بلسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ قالوا ما هذا ﴾ يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ إلا رجل ﴾ أي : مع كونه واحداً هو مثل واحد من رجالكم وتزيدون أنتم عليه بالكثرة ﴿ يريد أن يصدكم ﴾ بهذا الذي يتلوه ﴿ عما كان يعبد آباؤكم ﴾ من الأصنام أي : لا قصد له إلا ذلك لتكونوا له أتباعاً فعارضوا البرهان بالتقليد ﴿ وقالوا ما هذا ﴾ أي : القرآن وقيل : القول بالوحدانية ﴿ إلا أفك ﴾ أي : كذب مصروف عن وجهه ﴿ مفتري ﴾ بإضافته إلى الله تعالى كقوله تعالى في حقهم ﴿ أئفكاً آلهة دون الله تريدون ﴾ (الصافات : )

وكقولهم للرسول ﴿ أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ﴾ (الأحقاف : )

*(228/637)*

---

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي : ستروا ما دلت عليه العقول من جهة القرآن ﴿ للحق ﴾ أي : الهدى الذي لا أثبت منه باعتبار كمال الحقيقة فيه ﴿ لما جاءهم ﴾ من غير نظر ولا تأمل ﴿ أن ﴾ أي : ما ﴿ هذا ﴾ أي : الثابت الذي لا شيء أثبت منه ﴿ إلا سحر ﴾ أي : خيال لا حقيقة له ﴿ مبين ﴾ أي : ظاهر قال ابن عادل : وهذا إنكار للتوحيد وكان مختصاً بالمشركين ، وأما إنكار القرآن والمعجزة فكان متفقاً عليه بين المشركين وأهل الكتاب فقال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ على العموم انتهى . ولم يحملهم على ذلك إلا

الحظوظ النفسانية والعلق الشهوانية قال الطفيل بن عمرو الدوسي ذو النور : "لقد أكثروا علي في أمره صلى الله عليه وسلم حتى حشوت في أذني ماء الكرفس خوفاً من أن يخلص إلي شيء من كلامهم فيفتنني ، ثم أراد الله تعالى لي الخير فقلت واثكل أمي إني والله للبيب عاقل شاعر ولي معرفة بغث الكلام من سمينه فما لي لا أسمع منه فإن كان حقاً تبعته ، وإن كان باطلاً كنت منه على بصيرة أو كما قال قال : فقصدت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : أعرض على ما جئت به فلما عرضه علي قلت : بأبي وأمي ما سمعت قولاً قط هو أحسن منه ولا أمراً أعدل منه فما توقفت في أن أسلمت ثم سأل النبي صلى الله عليه وسلم في أن يدعو له الله تعالى أن يعطيه آية يعينه بها على قومه ، فلما أشرف على حاضر قومه كان له نور في جبهته فخشي أن يظنوا أنها مثلة فدعا الله تعالى بتحويله فتحول في طرف سوطه فأعانه الله تعالى على قومه فأسلموا" .

تنبيه : في تكرير الفعل وهو قال : والتصريح بذكر الكفرة وما في لامي الذين والحق من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه ، وما في لما من المفاجأة إلى البت بهذا القول إنكار عظيم للقول وتعجيب بليغ منه .

ولما بارزوا بهذا القول من غير أثارة من علم ولا خبر من سمع بين ذلك بقوله تعالى:

﴿ وما ﴾ أي : قالوا ذلك والحال أنا ما ﴿ آتيناهم ﴾ أي : هؤلاء العرب ﴿ من كتب ﴾ أصلاً لأنهم لم ينزل عليهم قط قبل القرآن كتاب ، وأتى بصيغة الجمع مع تأكيد النفي قبل كتابك الجامع ﴿ يدرسونها ﴾ أي : يجددون دراستها كل حين فيها دليل على صحة الإشراك ﴿ وما أرسلنا ﴾ أي : إرسالاً لا شبهة فيه لمناسبته لما لنا من العظمة ﴿ إليهم ﴾ أي : خاصة بمعنى أن ذلك الرسول مأمور بهم بأعيانهم فهم مقصودون بالذات لا أنهم داخلون في عموم أو مقصودون من باب الأمر بالمعروف وفي جميع الزمان الذي ﴿ قبلك ﴾ أي : قبل رسالتك الجامعة لكل رسالة ﴿ من نذير ﴾ أي : ليكون عندهم قول منه يدعوهم إلى الإشراك أو ينذرهم على تركه وهذا في غاية التجهيل لهم والتسفيه لرأيهم ، ثم هددهم بقوله تعالى:

﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ أي : من قوم نوح ومن بعدهم بادروا إلى ما بادر إليه هؤلاء من التكذيب ، لأن التكذيب كان في طباعهم لما عندهم من الجلافة والكبر ﴿ وما بلغوا ﴾ أي : هؤلاء ﴿ معشار ما آتيناهم ﴾ أي : عشراً صغيراً مما آتينا أولئك من القوة في الأبدان والأموال والمكنة في كل شيء من العقول وطول الأعمار والخلو من الشواغل ﴿ فكذبوا ﴾ أي : بسبب ما طبعوا عليه من العناد ﴿ رسلي ﴾ إليهم ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي : إنكاري على المكذبين لرسلي بالعقوبة والإهلاك أي : هو واقع موقعه فليحذر هؤلاء من

مثله ولا تكرير في كذب لأن الأول للتكثير أي : فعلوا التكذيب كثيراً فكان سبباً لتكذيب الرسل والثاني : للتكذيب أو الأول : مطلق والثاني : مقيد ولذلك عطف عليه .



---

﴿ قل إنما أعظكم ﴾ أي : أرشدكم وأنصح لكم ﴿ بواحدة ﴾ أي : بخصلة واحدة هي ﴿ أن تقوموا ﴾ أي : توجهوا نفوسكم إلى تعرف الحق وعبر بالقيام إشارة إلى الاجتهاد ﴿ لله ﴾ أي : الذي لا أعظم منه على وجه الإخلاص واستحضار ما له من العظمة بما له لديكم من الإحسان لا لإرادة المغالبة حال كونكم ﴿ مثنى ﴾ أي : اثنين اثنين قال البقاعي : وقدمه إشارة إلى أن أغلب الناس ناقص العقل ﴿ وفرادى ﴾ أي : واحداً واحداً من وثق بنفسه في رصانة عقله وإصابة رأيه قام وحده ليكون أصفى لسره وأعون على خلوص فكره ، ومن خاف عليها ضم إليه آخر ليذكره إذا نسي ويقومه إذا زاغ ، ولم يذكر غيرهما من الأقسام لأن الازدحام يشوش الخواطر ويخلط القول .

ولما كان ما طلب منهم هذا لأجله عظيماً جديراً بأن يهتم له هذا الاهتمام أشار إليه بأداة التراخي بقوله تعالى : ﴿ ثم تتفكروا ﴾ أي : في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به لتعلموا حقيته ﴿ ما بصاحبكم ﴾ أي : رسولكم الذي أرسل إليكم وهو محمد صلى

الله عليه وسلم ﴿ من جنة ﴾ أي : جنون يحمله على ذلك ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ هو ﴾ أي : المحدث عنه بعينه ﴿ إلا نذير ﴾ أي : خالص إنذاره ﴿ لكم بين يدي ﴾ أي : قبل حلول ﴿ عذاب شديد ﴾ أي : في الآخرة إن عصيتموه ، روى البخاري عن ابن عباس أنه قال : "صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم فقال : يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش فقالوا : مالك فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني قالوا : بلى قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب : تباً لك ألهذا جمعتنا فأنزل الله تعالى ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ (المسد : )

ولما انتفى عنه بهذا ما تخيلوا به بقي إمكان أن يكون لغرض أمر دنيوي فنفاه بقوله تعالى:



---

﴿ قل ﴾ أي : لهم يا أشرف الخلق ﴿ ما ﴾ أي : مهما ﴿ سألتكم من أجر ﴾ أي : على دعائي لكم من الإنذار والتبليغ ﴿ فهو لكم ﴾ أي : لا أريد منه شيئاً وهو كناية عن أني لا أسألكم على دعائي لكم إلى الله تعالى أجراً أصلاً بوجه من الوجوه فإذا ثبت أن الدعاء ليس لغرض دنيوي ، وأن الداعي أرجح الناس عقلاً ثبت أن الذي حمله على تعريض نفسه لتلك الأخطار العظيمة إنما هو أمر الله تعالى الذي له الأمر كله ﴿ إن ﴾ أي : ما

﴿ أجرى ﴾ أي: ثوابي ﴿ إلا على الله ﴾ أي: الذي لا أعظم منه فلا ينبغي لذي همة أن يطلب شيئاً إلا من عنده ﴿ وهو ﴾ أي: والحال أنه ﴿ على كل شيء شهيد ﴾ أي: حفيظ مهيمن بليغ العلم بأحوالي فيعلم صدقي وخلوص نيتي، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص أجرى في الوصل بفتح الياء، والباقون بالسكون.

﴿ قل ﴾ أي: لمن أنكر التوحيد والرسالة والحشر ﴿ إن ربي ﴾ أي: المحسن إليّ بأنواع الإحسان ﴿ يقذف بالحق ﴾ أي: يلقيه إلى أنبيائه أو يرمي به الباطل إلى أقطار الآفاق فيكون وعداً بإظهار الإسلام وإفشائه ﴿ علام الغيوب ﴾ أي: ما غاب عن خلقه في السموات والأرض.

تنبيه: في رفع علام أوجه: أظهرها: أنه خبر ثان لأن، أو خبر مبتدأ مضمر، أو بدل من الضمير في يقذف وقال الزمخشري: رفع محمول على محل أن واسمها أو على المستكن في يقذف يعني بقوله محمول على محل إن واسمها النعت إلا أن ذلك ليس مذهب البصريين لأنهم لم يعتبروا المحل إلا في العطف بالحرف بشروط عند بعضهم، ويريد بالحمل على الضمير في يقذف أنه بدل منه لا أنه نعت له لأن ذلك انفرد به الكسائي، وقرأ حمزة وشعبة بكسر الغين والباقون بالضم.

﴿ قل ﴾ لهؤلاء ﴿ جاء الحق ﴾ أي : الإسلام وقيل : القرآن وقيل : كل ما ظهر على لسان النبي صلى الله عليه وسلم وقيل : المعجزات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : المراد من جاء الحق أي : ظهر الحق لأن كل ما جاء فقد ظهر وأكد تكذيباً لهم في ظنهم أنهم يغلبون بقوله تعالى : ﴿ وما ﴾ أي : والحال أنه ما ﴿ يبدئ الباطل ﴾ أي : الذي أنتم عليه من الكفر ﴿ وما يعيد ﴾ أي : ذهب فلم تبق منه بقية مأخوذ من هلاك الحي فإنه إذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة فجعلوا قولهم لا يبدئ ولا يعيد مثلاً في الهلاك ومنه قول عبيد :

*أقفر من أهيله عبيد ** أصبح لا يبدي ولا يعيد *

والمعنى : جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى ﴿ جاء الحق وزهق الباطل ﴾ (الإسراء : )

وعن ابن مسعود : "دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت ثلثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود ويقول ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ (الإسراء : )

﴿ جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴾ (سبأ : )

وقيل : الباطل إبليس أي : ما ينشئ خلقاً ولا يعيده ، والمنشئ والباعث هو الله تعالى ،

وعن الحسن لا يبدئ لأهله خيراً ولا يعيده أي : لا ينفعهم في الدنيا والآخرة وقال الزجاج : أي : شيء ينشئه إبليس ويعيده فجعله للاستفهام وقيل : للشيطان الباطل لأنه صاحب الباطل ، ولأنه هالك كما قيل له الشيطان من شاط إذا هلك وحينئذ يكون غير منصرف وإن جعلته من شطن كان منصرفاً .

ولما لم يبق بعد هذا إلا أن يقولوا عناداً أنت ضال ليس بك جنون ولا كذب ، ولكنك قد عرض لك ما أضلك عن الجمعة قال تعالى:

(233/637)

---

﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء المعاندين على سبيل الاستعطاف بما في قولك من الإنصاف وتعليم الأدب ﴿ إن ضللت ﴾ أي : عن الطريق على سبيل الفرض ﴿ فإنما أضل على نفسي ﴾ أي : إثم إضلالي عليها ﴿ وإن اهتديت فبما ﴾ أي : فاهتدائي إنما هو بما ﴿ يوحى إلي ربي ﴾ أي : المحسن إلي من القرآن والحكمة لا بغيره فلا يكون فيه ضلال لأنه لا حظ للنفس فيه أصلاً ، فإن قيل : أين التقابل بين قوله تعالى : ﴿ فإنما أضل على نفسي ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فيما يوحي إلى ربي ﴾ وإنما كان يقال : فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فإنما اهتدى لها كقوله تعالى ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ (فصلت : )

وقوله تعالى : ﴿ فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ (الزمر : )

أو يقال فإنما أضل نفسي أجيب : بأنهما متقابلان من جهة المعنى لأن النفس كل ما عليها فهو بسببها لأنها الأمارة بالسوء وما لها مما ينفعها فبهداية ربه وتوفيقه وهذا حكم عام لكل مكلف ، وإنما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسنده إلى نفسه لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلاله محله وسداد طريقه كان غيره أولى به ، وفتح الياء من ربي عند الوصل نافع وأبو عمرو الباقون بالسكون وهم على مراتبهم في المد ، ثم علل الضلال والهداية بقوله تعالى : ﴿ إنه ﴾ أي : ربي ﴿ سميع ﴾ أي : لكل ما يقال ﴿ قريب ﴾ أي : يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله وإن أخفاه .

ولما أبطل تعالى شبههم وختم من صفاته بما يقتضي البطش بمن خالفه عطف على ﴿ ولو ترى إذ الظالمون ﴾ .



---

﴿ ولو ترى ﴾ أي : تبصر يا أشرف الخلق ﴿ إذ فزعوا ﴾ أي : عند الموت أو البعث أو يوم بدر ، وجواب لو محذوف نحو : لرأيت أمراً عظيماً ﴿ فلا ﴾ أي : فتسبب عن ذلك الفزع أنه لا ﴿ فوت ﴾ أي : لهم منا لأنهم في قبضتنا ، ثم حقر أمرهم بالبناء للمفعول بقوله تعالى :

﴿ وأخذوا ﴾ أي : عند الفزع من كل من نأمره بأخذهم سواء أكان قبل الموت أم بعده

﴿ من مكان قريب ﴾ أي : القبور أو من الموقف إلى النار ، أو من صحراء بدر إلى القليب وقال الكلبي : من تحت أقدامهم ، وقيل : أخذوا من ظهر الأرض إلى بطنها وحيثما كانوا فهم من الله تعالى قريب لا يفوتونه ، والعطف على فزعوا أو لا فوت .

﴿ وقالوا ﴾ أي : عند الأخذ ومعاينة الثواب والعقاب ﴿ آمنا به ﴾ أي : القرآن الذي قالوا : إنه أفك مفترى أو محمد صلى الله عليه وسلم الذي قالوا : إنه ساحر ﴿ وأنى ﴾ أي : وكيف ومن أين ﴿ لهم التناوش ﴾ أي : تناول الإيمان تناولاً سهلاً ﴿ من مكان بعيد ﴾ أي : عن محله إذ هم في الآخرة ومحله في الدنيا ، ولا يمكن إلا برجوعهم إلى الدنيا التي هي دار العمل وهذا تمثيل لحالهم في طلبهم أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا بحال من أراد أن يتناول شيئاً من علوه كما يتناوله الآخر من قدر ذراع تناولاً سهلاً لا تعب فيه ، فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ من مكان بعيد ﴾ وقد قال تعالى في كثير من المواضع أن الآخرة من الدنيا قريب ، وسمى الله تعالى الساعة قريبة فقال

﴿ اقتربت الساعة ﴾ (القمر : )

﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ (الأنبياء : )

﴿ لعل الساعة قريب ﴾ (الشورى : )

أجيب : بأن الماضي كالأمس الدابر وهو من أبعد ما يكون إذ لا وصول إليه ، والمستقبل وإن كان بينه وبين الحاضر سنون فإنه آت فيوم القيامة الدنيا بعيدة منه لمضيها ، ويوم القيامة في الدنيا قريب لإتيانه ، وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائي بعد الألف بهمزة مضمومة والباقون بعد الألف بواو مضمومة فمعناه على هذا : كيف لهم تناول ما بعد عنهم وهو الإيمان والتوبة وقد كان قريباً في الدنيا فضيعوه ، وأما من همز فقيل معناه هذا أيضاً .

وقيل : التناؤش بالهمز من التنؤش الذي هو حركة في إبطاء يقال : جاء منئشاً أي : مبطئاً متأخراً والمعنى : من أين لهم الحركة فيما لا حيلة لهم فيه قال ابن عباس : يسألون الرد فيقال : وأنى لهم الرد إلى الدنيا من مكان بعيد أي : من الآخرة إلى الدنيا وأمال أنى محضة حمزة والكسائي ، وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح .

﴿ وقد ﴾ أي : كيف لهم ذلك والحال أنهم قد ﴿ كفروا به ﴾ أي : بالذي طلب منهم أن يؤمنوا به محمد صلى الله عليه وسلم أو القرآن أو البعث ﴿ من قبل ﴾ أي : في دار العمل ﴿ و ﴾ الحال أنهم حال كفرهم ﴿ يقذفون ﴾ أي : يرمون ﴿ بالغيب ﴾ ويتكلمون بما يظهر لهم في الرسول صلى الله عليه وسلم من المطاعن وهو قولهم : ساحر وشاعر وكاهن ، وفي القرآن سحر شعر كهانة وقال قتادة : يعني يرجمون بالظن يقولون لا بعث ولا جنة ولا

نار ﴿ من مكان بعيد ﴾ أي : ما غاب علمه عنهم غيبة بعيدة وهذا تمثيل لحالهم في ذلك بحال من يرمي شيئاً ولا يراه من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه .

(236/637)

---

﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ أي : من نفع الإيمان يومئذ والنجاة من النار والفوز بالجنة ، أو من الرد إلى الدنيا كما حكى عنهم ﴿ أرجعنا نعمل صالحاً ﴾ ، وقرأ ابن عامر والكسائي بضم الحاء وهو المسمى بالإشمام والباقون بكسرها ﴿ كما فعل ﴾ أي : بأيسر وجه ﴿ بأشياعهم ﴾ أي : أشباههم من كفرة الأمم ومن كان مذهبه مذهبهم ﴿ من قبل ﴾ أي : قبل زمانهم فإن حالهم كان كحالهم ، ولم يختل أمرنا في أمة من الأمم بل كان كلما كذب أمة رسولها أخذناها فإذا أذقناهم بأسنا أذعنوا وخضعوا فلم يقبل منهم ذلك ولا نفعهم شيئاً لا بالكف عن إهلاكهم ولا لإدراكهم شيئاً من الخير بعد إهلاكهم ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (ق : )

ثم علل عدم الوصول إلى قصدهم بقوله تعالى : مؤكداً لإنكارهم أن يكون عندهم شيء من شك في شيء من أمرهم ﴿ إنهم كانوا ﴾ أي : في دار القبول ﴿ في شك ﴾ أي : في جميع ما تخبرهم به رسلنا عنا من الجزاء والبعث وغير ذلك ﴿ مريب ﴾ أي : موقع في الريبة فهو

بليغ في بابه كما يقال : عجب عجيب أو هو واقع في الريب كما يقال : شعر شاعر أي : ذو شعر فهو اسم فاعل من أراب أي : أتى بالريب أو دخل فيه أي : أوقعته في الريب ، ونسبة الإرابة إلى الشك مجاز قال الزمخشري : إلا أن بينهما فرقاً وهو أن المريب من المتعدي منقول ممن يصح أن يكون مريباً من الأعيان إلى المعني ، ومن اللازم منقول من صاحب الشك إلى الشك كما تقول شعر شاعر انتهى ، وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة سبأ لم يبق نبي ولا رسول إلا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً" حديث موضوع. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 32 . 51 ﴾

(237/637)

---

وقال القاسمي :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أمر بتبكيت المشركين بحملهم على الإقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما . وقوله :

﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ أي : الذي تعترفون بأنه هو الخالق ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ [ يونس : 31 ] . أي : فحينئذ قامت الحجة

عليهم منهم .

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : وإن أحد الفريقين من الموحدين الرازقَ من السماوات والأرض بالعبادة ، ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة على ذرة ، لعلى أحد الأمرين من الهدى أو الضلال .

قال الزمخشري : وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من مُوالٍ أو منافٍ ، قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك ، وفي دَرْجِهِ بعدَ تقدمةِ ما قدم من التقرير البليغ ، دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ، ومن هو في الضلال المبين ، ولكن التعريض والتورية أفضل بالمجادل إلى الغرض ، وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وقل شوكته بالهوينا ، ونحوه قول الرجل لصاحبه : علم الله الصادق مني ومنك ، وإن أحدنا لكاذب .

ومنه بيت حسان :

أَتَهْجُوْهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

انتهى .

قال الناصر : وهذا تفسير مهذب وافتنان مستعذب ، رددته على سمعي فزاد رونقاً بالترديد ، واستعاده الخاطر ، كأني بطيء الفهم حين يفيد ، ولا ينبغي أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التي أكثر تعاطيها متأخرو الفقهاء في مجادلاتهم ومحاوراتهم ، وذلك قولهم :

أحد الأمرين لازم على الإبهام، فهذا المسلك من هذا الوادي غير بعيد ، فتأمله ، والله الموفق . انتهى .

(238/637)

---

قال الشهاب : وهذا فن من فنون البلاغة يسمى الكلامَ المنصف . وقيل إن الآية على اللف والنشر المرتب . ونظر فيه بأنه لو قصد اللف بأن يكون على هدى راجعاً لقوله : ﴿ وَإِنَّا ﴾ و : ﴿ أَوْ فِي ضَلَالٍ ﴾ راجعاً لـ : ﴿ إِيَّاكُمْ ﴾ كان العطف بالواو لا بأو ، وكونها بمعنى الواو كما في قوله :

سِيَّانِ كَسْرُ رَغِيفِهِ أَوْ كَسْرُ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهْ

بعيد جداً . إلا أنه قيل : لو جعل فيه إيماء لذلك لم يبعد . وإيثار على ، في الهدى ، وفي في مقابله ، للدلالة على استعلاء صاحب الهدى وتمكنه واطلاعه على ما يريد ، كالواقف على مكان عال ، أو الراكب على جواد ، وانغماس الضال في ضلاله حتى كأنه في مهواة مظلمة .

﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : قل لهؤلاء المشركين : لا تُسألون عما أجرمنا من جرم ، وركبنا من إثم ، ولا نُسأل نحن عما تعملون من عمل . قال

ابن كثير : معناه التبري منهم . أي : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده ، ولإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن براء منكم وأنتم براء منا . كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [ يونس : 41 ] . وقوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [ الكافرون : 1 – 3 ] . انتهى .

(239/637)

---

وما ذكره معنى دقيق ، قلَّ من يتفطن له ، أسميه التفسير بالأشباه والنظائر ، وهو حمل آية موجزة أو مجملة على آية تشبهها مطولة أو مبينة ، ولا يدرك هذا إلا الراسخ في فن التأويل ، الولع بتدبر التنزيل ، ومن لطائف الآية ما ذكره الزمخشري والمنتصف [ كذا ] ، من أن هذا القول أدخل في الإنصاف من الأول ، حيث أسند الإجرام إلى النفس ، وأراد به الزلات والصغائر التي لا يخلو عنها مؤمن ، وأسند العمل إلى المخاطبين ، وأراد به الكفر والمعاصي والكبائر . فعبر عن الهفوات بما يعبر به عن العظائم ، وعن العظائم بما يعبر به عن الهفوات ، التزاماً للإنصاف ، وزيادة على ذلك ، أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي

، الذي يعطي تحقيق المعنى ، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطي ذلك . والله أعلم .

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ أي : يوم القيامة في صعيد واحد ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي : يقضي بالعدل ؛ لأن أحد فريقينا على هدى والآخر على ضلال ، فيتبين يومئذ المهتدي منا من الضال ، ويجزى كلّا بعمله ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [ الروم : 14 – 16 ] . ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ أي : الحاكم العادل العليم بالقضاء بين خلقه ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يحتاج إلى شهود تعرّفه المحق من المبطل .

*(240/637)*

---

﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاء ﴾ أي : جعلتموهما لله أندادا ، وصيرتموهما له عدلا ، قال أبو السعود : أريد بأمرهم بإراءة الأصنام ، مع كونها بمرأى منه صلّى الله عليه وسلم . إظهار خطئهم العظيم وإطلاعهم على بطلان رأيهم ؛ أي : أرونيها لأنظر بأي صفة ألحقتموها بالله الذي ليس كمثله شيء في استحقاق العباد ، وفيه مزيد تبكيت لهم بعد

إلزام الحجة عليهم .

وقد جوّز المعربُ في رأى هنا أن تكون علمية متعدية بهمزة النقل ، إلى ثلاثة مفاعيل : ياء المتكلم والموصول وشركاءه . وعائد الموصول محذوف ؛ أي : ألحقتموهم . وأن تكون بصرية تعدت بالنقل لاثنين : ياء المتكلم والموصول ، وشركاء حال . ولا ضعف في هذا كما قاله ابن عطية . بل فيه توبيخ لهم ، إذ لم يرد حقيقته ؛ لأنه كان يراهم ويعلمهم ، فهو مجاز وتمثيل . والمعنى : ما زعمتموه شريكاً إذا برز للعيون ، وهو خشب وحجر ، تمت فضيحتكم . وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ ردع لهم عن المشاركة ، بعد إبطال المقايسة : ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي : الموصوف بالغلبة القاهرة والحكمة الباهرة . فأين شركاؤهم التي هي أخس الأشياء وأذلها ، من هذه الرتبة العالية . والضمير إما لله عز وعلا ، أو لشأن . قاله أبو السعود .

(241/637)

---

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : وما أرسلناك إلا إرسالةً عامة لجميع الخلائق من المكلفين ، تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [

الأعراف : 158 ] ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [ الفرقان : 1 ] .

(242/637)

---

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : فيحملهم جهلهم على ما هم فيه من الغي والضلال كقوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [ يوسف : 103 ] ، ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ الأنعام : 116 ] . قال ابن عباس – فيما رواه ابن أبي حاتم – إن الله تعالى فضّل محمداً صلّى الله عليه وسلم على أهل السماء ، وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس ! فبمَ فضّله الله على الأنبياء ؟ قال رضي الله عنه : إن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [ إبراهيم : 4 ] ، وقال للنبي صلّى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ . فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس . قال ابن كثير : وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما قد ثبت في " الصحيحين " رفعه عن جابر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : < أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسير شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته

الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد من قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة > ، وفي " الصحيح " أيضاً أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : < بعثت إلى الأحمر والأسود > ، قال مجاهد : يعني الجن والإنس . وقال غيره : يعني العرب والعجم . والتحقيق في معنى عموم إرساله وشمول بعثته ، هو مجيئه بشرع ينطبق على مصالح الناس وحاجاتهم أينما كانوا ، وأي زمان وجدوا ، مما لم يتفق في شرع قبله قط ، ولهذا ختمت النبوات بنبوته صلّى الله عليه وسلم ، كما تقرر في موضعه .

(243/637)

---

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ يعنون بالوعد المنذر به استهزاء ، كقوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [ الشورى : 18 ] وقوله : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [ هود : 104 ، 105 ] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ وهو ما نزل قبل القرآن من

كتبه تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ أي : يتجاذبون أطراف المحادثة ، ويتراجعونها بينهم ، ثم أبدل من : ﴿ يَرْجِعُ ﴾ قوله : ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ وهم الأتباع : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم قادتهم وسادتهم : ﴿ لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

(244/637)

---

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ أي : نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة ، والبراهين ، والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي : مكركم فيهما وإغراؤكم وتمنيتكم لنا : ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أي : نظراء وآلهة معه ﴿ وَأَسَرُّوا ﴾ أي : الجميع من السادة والأتباع : ﴿ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم :

﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : بأعمالهم كلٌّ بحسبه ، للقادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم .

(245/637)

---

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أي : زعماً أنه أكرمهم عند الله بذلك في الدنيا ، فلا يعذبهم في الآخرة علة تقدير وقوعها ، وتوهماً بأنهم لو لم يكْرُموا على الله لما رزقهم ، ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرَمهم . وقد أبطل الله تعالى حسبانهم ذلك بقوله :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : يضيق عليه حسب ما اقتضته حكمته ومشيئته في عباده ، ومن يحب ومن لا يحب ، وهو أعلم بمقتضياته وشؤونه ، فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب ، اللذين مناطهما الطاعة وعدمها ، ولذا قال : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك . فيزعمون أن مدار البسط الكرامة ، والتضييق الهوان . ويجهلون أن مناط الفوز والقرب منه تعالى ، إنما هو الكمالات النفسية ، وذلك بصدق الإيمان وحسن الاتباع . كما قال :

(246/637)

﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى ﴾ أي : بالمزية التي تقربكم قربة . ف : ﴿ زُلْفَى ﴾ محلها النصب : ﴿ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ ﴾ أي : الثواب المضاعف : ﴿ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ أي : فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ومن نظائر الآية قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [ المؤمنون : 55 – 56 ] ، وقوله سبحانه : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [ التوبة : 55 ] . وروى الإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : > إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم > .

﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي : بالصد عنها والطعن فيها : ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ أي : قاصدين المعاجزة والمغالبة والقهر : ﴿ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أي : في عذاب جهنم محضرون يوم القيامة .

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أي : يعوضه ، فإن ينابيع خزائنه لا تنضب ، وسحائب أرزاقه سحّاء الليل والنهار : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أي : أعلاهم ؛ لأنه خالق الرزق وخالق الأسباب التي ينتفع بها المرزوق بالرزق ، روى أبو يعلى عن حذيفة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : < ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض ؛ يعض الموسر على ما في يده حذار الإنفاق > . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ وقال مجاهد : لا يتأولنّ أحدكم هذه الآية : ﴿ مَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

(248/637)

---

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ قال الزمخشري : هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار ، واردٌ على المثل السائر : إياك أعني واسمعي يا جارة . ونحوه قوله تعالى : ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ ﴾ [ المائدة : 116 ] ، وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزّهين برآء مما وجه عليهم من السؤال

الوارد على طريق التقرير . والغرض أن يقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا ، فيكون تقريعهم أشد ، وتعييرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم ، وهوانهم ألزم , ويكون اقتصاص ذلك لطفاً لمن سمعه ، وزجراً لمن اقتص عليه . انتهى .



---

وتخصيص الملائكة ، لأنهم أشرف الأنداد عند مشركي العرب ، ولأن عبادتهم مبدأ الشرك وأصله ، لزعمهم أن الأوثان على صور الهياكل العلوية المقربة ، فتكون شفعاء لهم .

وقوله تعالى : ﴿ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ أي : أبإذنكم كان ذلك . كما قال تعالى : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [ الفرقان : 17 ] . وكما يقول تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ [ المائدة : 116 ] ، وهكذا تقول الملائكة : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أي : تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ أي : أنت الذي نواليه من دونهم ، إذ لا موالاة بيننا وبينهم ، فنبرء إليك منهم . بينوا بإثبات موالاة الله , ومعاداة الكفار ، براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم . وقولهم : ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ أي :

الشياطين ، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم . والضمير الأول في قولهم : ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ للإنس أو للمشركين ، والأكثر بمعنى الكل ، والثاني للجن .



---

﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أي : لأن الأمر كله فيه لله ؛ لأن الدار دار جزاء وهو المجازي وحده . قال أبو السعود : وهذا من جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزّه والتبرؤ عما نسب إليهم الكفرة ، يخاطبون بذلك على رؤوس الأشهاد ، إظهاراً لعجزهم ، وقصورهم عند عَبَدَتهم ، وتنصيصاً على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية : ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وهم المشركون : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ثم بين جملة أخرى من كفرانهم بقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا ﴾ يعنون رسول الله صلّى الله عليه وسلم : ﴿ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا ﴾ أي : القرآن الكريم : ﴿ إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ أي : ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد صلّى الله عليه وسلم ، وقد كانوا يودون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا ، فلما مَنّ الله عليهم بذلك كذّبوه ، وجحدوه ، وعاندوه . ثم هددهم سبحانه بقوله :

﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : من الأمم المتقدمة والقرون الخالية كما كذبوا : ﴿ وَمَا بَلَغُوا ﴾ أي : هؤلاء : ﴿ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ يعني أولئك ، من المال ، وبسطة الملك ، والعمران ، والمدينة : ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي : عقابي ، ونكالي ، وانتقامي .



﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ أي : بخصلة واحدة إن فعلتموها أصبتم الحق ، وقد فسرها بقوله : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ أي : قياما خالصاً لله بلا محاباة ، ولا مراءاة ، اثنين اثنين ، وواحداً واحداً : ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ أي : في أمره صلّى الله عليه وسلم وما جاء به من الهدى ، والإصلاح ، وتهذيب الأخلق ، ورفع النفس عن عبادة ما

هو أحط منها من الأوثان ، إلى عبادة فاطر الأرض والسماوات ، واتباع الأحسن ، ونبذ التقاليد ، وإنزال الرؤساء إلى مصاف المرؤوسين رغبة في الإخاء والمساواة ، إلى غير ذلك من محاسن الإسلام ، وخصائصه المعروفة في الكتب المؤلفة في ذلك . وقوله تعالى : ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ أي : جنون . مستأنف منبه لهم على أن ما عرفوه من رجاحة عقله كافٍ في ترجح صدقه ، فإنه لا يدعه أن يتصدى لادعاء أمر خطير ، وخطب عظيم من غير تحقيق وثوق ببرهان . فيفتضح على رؤوس الأشهاد ، ويلقي نفسه إلى الهلاك ، فكيف وقد انضم إليه معجزات كثيرة ؟ وجوز كون الجملة معلقاً عنها ؛ لقول ابن مالك : إن تفكر يعلّق حملاً على أفعال القلوب ، والتعبير عنه صلّى الله عليه وسلم بـ : صاحبهم ؛ للإيماء أن حاله معروف مشهور بينهم ، لأنه نشأ بين أظهرهم معروفاً بقوة العقل ، ورزانة الحلم وسداد القول والفعل ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وهو عذاب الآخرة والمآل .



---

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أي : أي : شيء سألتكم من أجر على الرسالة فهو لكم . والمراد نفي السؤال رأساً ، وإمحاض النصح كناية ، لأن ما يسأله السائل ، يكون له ،

فجعله للمسؤول عنه ؛ كناية عن أنه لا يسأل أصلاً . و " ما " على هذا شرطية . وجوز كونها موصولة مراد بها ما سألهم : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ [ الفرقان : 57 ] . وقوله : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ [ الشورى : 23 ] . واتخاذ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى ، وقرباه عليه السلام قرباهم . وجوز أيضاً كونها نافية . وقوله : ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ جواب شرط مقدر ؛ أي : فإذا لم أسألكم فهو لكم : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴾ أي : يرمي به الباطل فيدمغه ويزهقه ، أو يرمي به في أقطار الآفاق ، فيكون وعداً بإظهار الإسلام وإعلاء كلمة الحق : ﴿ عَلَّامُ الْغُيُوبِ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ أي : ظهر ، وهو الإسلام ومحاسنه : ﴿ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره ، مأخوذ من هلاك الحيّ ، فإنه ما دام موجوداً ، إما أن يبدئ فعلاً أو يعيده ، فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة . ثم شاع في كل ما ذهب ، وإن لم يبق له أثر ، وإن يكن ذا روح . وجوز كون ما استفهامية منتصبة بما بعده ؛ أي : أي : شيء يقدر عليه .

تنبيه :

في " الإكليل " : في الآية استحباب هذا القول عند إزالة المنكر .

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ ﴾ أي : عن الطريق الحق : ﴿ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ﴾ أي : لأن وبال ذلك عائد عليها ، أو على ذاتي ، لا على غيري : ﴿ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ أي : من الرشاد والحق المبين : ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ فإن قيل : مقتضى المقابلة مع الجملة قبلها ، أن يقال : وإن اهتديت فإنما أهتدي لها . فلم عدل عنها إلى ما ذكر ؟ قيل : إن المقابلة تكون باللفظ وتكون بالمعنى . وما هنا من الثاني ، بيانه أن النفس كل ما عليها فهو بها ، أي : كل ما هو وبال عليها ، وضار لها ، فهو بسببها ، ومنها ؛ لأنها الأمارة بالسوء ، وكل ما هو لها مما ينفعها ، فبهداية ربها وتوفيقه إياها .

وهذا حكم عام لكل مكلف ، وإنما أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلم أن يسند ذلك إلى نفسه ؛ لأن الرسول إذا دخل في عمومه ، مع علوّ محله وسداد طريقته ، كان غيره أولى به . أشار لهذا ، الفاضل ابن الأثير في " المثل السائر " .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا ﴾ أي : هؤلاء المكذبون عند الموت أو البعث أو ظهور الحق وسلطانه ، ودخولهم تحت أسره : ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ أي : لهم ، بهرب أو التجاء ؛ إذ لا وزر لهم ولا ملجأ : ﴿ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أي : من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا ، أو من الموقف إلى النار إذا بعثوا ، أو ظفر بهم بسهولة بعد تعذره .

﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ أي : بمحمد صلّى الله عليه وسلم ، أو القرآن : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي : ومن أين لهم تناول الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم ، لأنهم صاروا إلى الدار الآخرة ، وهي دار الجزاء ، لا دار الابتلاء ، أو : لأنهم آمنوا بلسانهم ولم يدخل الإيمان قلوبهم ، أي : على تفسير : ﴿ إِذْ فَزِعُوا ﴾ بظهور الحق عليهم في حياتهم ، منه . قال الزمخشري : التناوش والتناول ، أخوان ، إلا أن التناوش ، تناول سهلٍ لشيءٍ قريب, يقال : ناشه ينوشه ، وتناوشه القوم . ويقال تناوشوا في الحرب . ناش بعضهم بعضاً . وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون ، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت ، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا ، مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة ، كما يتناوله الآخر من قبس ذراع ، تناولاً سهلاً لا تعب فيه . انتهى . أي : ففيه استعارة تمثيلية ؛ شبه إيمانهم حيث لا يقبل ، بمن [ في المطبوع : بمن ] كان عنده شيء يمكن أخذه ، فلما بعد عنه فرسخاً ، مد يده لتناوله . وقوله :

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ حال ، أو معطوف ، أو مستأنف . والأول أقرب ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي : يرجمون بالظن فيتكلمون بما لم ينشأ عن تحقيق من

أقوالهم الباطلة ؛ كقولهم : ساحر ، وشاعر ، ومجنون ، وما نحن بمبعوثين ، ونحو ذلك .

فكله مقذوف من جهة بعيدة ، لا قرب لمصداقها بوجه ما .

(256/637)

---

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ أي : من نفع الإيمان يومئذ ، والنجاة به من النار ، أو من أن يدال لهم الأمر ؛ لأنه جاء نصر الله والفتح : ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ أي : بأشباههم من كفرة الأمم : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ من أرابه ، أوقعه في ريبة وتهمة . فالهمزة للتعدية . أو من : أراب الرجل ، أي : صار ذا ريبة ، وهو مجاز ، إما بتشبيه الشك بإنسان ، على أنه استعارة مكنية وتخييلية ، أو على أنه إسناد مجازي ، أسند فيه ما لصاحب الشك ، للشك ، للمبالغة . أفاده الشهاب .

تنبيه :

في " الإكليل " قال ابن الفرس : احتج بهذه الآية بعض المفسرين ، على أن الشاك كافر . وردّ بها على من زعم أنه ليس بكافر ، وأن الله لا يعذب على الشك . انتهى .

وعن قتادة : إياكم والشك والريبة ؛ فإن من مات على شك بعث عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .

أحيانا الله وبعثنا على اليقين ؛ إنه أرحم الراحمين ، وولي المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 34.21 ﴾

(257/637)

---

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ﴾

يحوي هذا الشوط صوراً من الشكر والبطر ؛ وصوراً من تسخير الله لمن يشاء من عباده قوى وخلقاً لا تسخر عادة للبشر . ولكن قدرة الله ومشيئته لا يقيدهما مألوف البشر . وتتكشف من خلال هذه الصور وتلك حقائق عن الشياطين الذين كان يعبدهم بعض المشركين ، أو يطلبون عندهم علم الغيب وهم عن الغيب محجوبون . وعن أسباب الغواية التي يتسلط بها الشيطان على الإنسان ، وما له عليه من سلطان إلا ما يعطيه من نفسه باختياره . وعن تدبير الله في كشف ما هو مكنون من عمل الناس وبروزه في صورة واقعة لينالوا عليه الجزاء في الآخرة . وبذكر الآخرة ينتهي هذا الشوط كما انتهى الشوط الأول في السورة . .

﴿ ولقد آتينا داود منا فضلاً . يا جبال أوبي معه والطير . وألنا له الحديد أن اعمل

سابغات ، وقدّر في السرد ، واعملوا صالحاً . إني بما تعملون بصير ﴾ . .

وداود عبد منيب ، كالذي ختم بذكره الشوط الأول : ﴿ إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ والسياق يعقب بقصته بعد تلك الإشارة ؛ ويقدم لها بذكر ما آتاه الله له من الفضل . ثم يبين هذا الفضل :

﴿ يا جبال أوبي معه والطير ﴾ . .

وتذكر الروايات أن داود عليه السلام أوتي صوتاً جميلاً خارقاً في الجمال ؛ كان يرتل به مزاميره ، وهي تسابيح دينية ، ورد منها في كتاب " العهد القديم " ما الله أعلم بصحته .

وفي الصحيح " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته . ثم قال صلى الله عليه وسلم لقد أوتي هذا مزماراً من زمامير آل داود " .



---

والآية تصور من فضل الله على داود عليه السلام أنه قد بلغ من الشفافية والتجرد في تسابيحه أن انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات ؛ فاتصلت حقيقتها بحقيقته ، في تسبيح بارئها وبارئه ؛ ورجّعت معه الجبال والطير ، إذ لم يعد بين وجوده ووجودها فاصل ولا

حاجز ، حين اتصلت كلها بالله صلة واحدة مباشرة ؛ تنزاح معها الفوارق بين نوع من خلق الله ونوع ، وبين كائن من خلق الله وكائن ؛ وترتد كلها إلى حقيقتها اللدنية الواحدة ، التي كانت تغشى عليها الفواصل والفوارق ؛ فإذا هي تتجاوب في تسبيحها للخالق ، وتتلاقى في نغمة واحدة ، وهي درجة من الإشراق والصفاء والتجرد لا يبلغها أحد إلا بفضل من الله ، يزيح عنه حجاب كيانه المادي ، ويرده إلى كينونته اللدنية التي يلتقي فيها بهذا الوجود ، وكل ما فيه وكل من فيه بلا حواجز ولا سدود .

وحين انطلق صوت داود عليه السلام يرتل مزاميره ويمجد خالقه ، رجّعت معه الجبال والطير ، وتجاوب الكون بتلك الترانيم السارية في كيانه الواحد ، المتجهة إلى بارئه الواحد .

. وإنها للحظات عجيبة لا يتذوقها إلا من عنده بها خبر ، ومن جرب نوعها ولو في لحظة من حياته !

﴿ وألنا له الحديد ﴾ .

وهو طرف آخر من فضل الله عليه . وفي ظل هذا السياق يبدو أن الأمر كان خارقة ليست من مألوف البشر . فلم يكن الأمر أمر تسخين الحديد حتى يلين ويصبح قابلاً للطرق ، إنما كان والله أعلم معجزة يلين بها الحديد من غير وسيلة اللين المعهودة . وإن كان مجرد الهداية لإلانة الحديد بالتسخين يعد فضلاً من الله يذكر . ولكننا إنما نتأثر جو السياق وظلاله وهو

جو معجزات ، وهي ظلال خوارق خارجة على المألوف .

﴿ أن اعمل سابغات وقدّر في السرد ﴾ .

(259/637)

---

والسابغات الدروع . روي أنها كانت تعمل قبل داود عليه السلام صفائح . الدرع صفيحة واحدة ، فكانت تصلب الجسم وتثقله . فألهم الله داود أن يصنعها رقائق متداخلة متموجة لينة يسهل تشكيلها وتحريكها بحركة الجسم ؛ وأمر بتضييق تداخل هذه الرقائق لتكون محكمة لا تنفذ منها الرماح . وهو التقدير في السرد . وكان الأمر كله إلهاماً وتعليماً من الله .

وخوطب داود وأهله :

﴿ واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير ﴾ . .

لا في الدروع وحدها بل في كل ما تعملون ؛ مراقبين الله الذي يبصر ما تعملون ويجازي عليه ، فلا يفلت منه شيء ، والله به بصير . .

ذلك ما آتاه الله داود عليه السلام فأما سليمان فقد آتاه الله أفضالاً أخرى :

﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من

يعمل بين يديه بإذن ربه . ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب . وقدور راسيات . اعملوا آل داود شكراً . وقليل من عبادي الشكور ﴾ .

وتسخير الريح لسليمان تتكاثر حوله الروايات ، وتبدو ظلال الإسرائيليات واضحة في تلك الروايات وإن تكن كتب اليهود الأصلية لم تذكر شيئاً عنها والتحرج من الخوض في تلك الروايات أولى . والاكتفاء بالنص القرآني أسلم . مع الوقوف به عند ظاهر اللفظ لا نتعداه . ومنه يستفاد أن الله سخر الريح لسليمان ، وجعل غدوها أي توجهها غادية إلى بقعة معينة ( ذكر في سورة الأنبياء أنها الأرض المقدسة ) يستغرق شهراً . ورواحها أي انعكاس اتجاهها في الرواح يستغرق شهراً كذلك . وفق مصلحة تحصل من غدوها ورواحها ، يدركها سليمان عليه السلام ويحققها بأمر الله . . ولا نملك أن نزيد هذا إيضاحاً حتى لا ندخل في أساطير لا ضابط لها ولا تحقيق .

﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾ . .

والقطر النحاس . وسياق الآيات يشير إلى أن هذا كان معجزة خارقة كإلانة الحديد لداود . وقد يكون ذلك بأن فجر الله له عيناً بركانية من النحاس المذاب من الأرض . أو بأن ألهمه الله إذابة النحاس حتى يسيل ويصبح قابلاً للصب والطرق . وهو فضل من الله كبير .

﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ . .

وكذلك سخر له طائفة من الجن يعملون بأمره بإذن ربه . والجن كل مستور لا يراه البشر . وهناك خلق سماهم الله الجن ولا نعرف نحن من أمرهم شيئاً إلا ما ذكره الله عنهم . وهو يذكر هنا أن الله سخر طائفة منهم لنبيه سليمان عليه السلام فمن عصى منهم ناله عذاب الله :

﴿ ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾ . .

ولعل هذا التعقيب قبل الانتهاء من قصة التسخير يذكر على هذا النحو لبيان خضوع الجن لله . وكان بعض المشركين يعبدهم من دون الله . وهم مثلهم معرضون للعقاب عندما يزيغون عن أمر الله .

وهم مسخرون لسليمان عليه السلام :

﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ . .

والمحاريب من أماكن العبادة ، والتماثيل الصور من نحاس وخشب وغيره . والجوابي جمع

جابية وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء . وقد كانت الجن تصنع لسليمان جفاناً كبيرة للطعام تشبه الجوابي ، وتصنع له قدوراً ضخمة للطبخ راسية لضخامتها . . وهذه كلها نماذج مما سخر الله الجن لسليمان لتقوم له به حيث شاء بإذن الله . وكلها أمور خارقة لا سبيل إلى تصورها أو تعليلها إلا بأنها خارقة من صنع الله . وهذا هو تفسيرها الواضح الوحيد .

ويختم هذا بتوجيه الخطاب إلى آل داود :

﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾ . .

سخرنا لكم هذا وذلك في شخص داود وشخص سليمان عليهما السلام فاعملوا يا آل داود شكراً لله . لا للتباهي والتعالي بما سخره الله . والعمل الصالح شكر لله كبير .

﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ . .



---

تعقيب تقريري وتوجيهي من تعقيبات القرآن على القصص . يكشف من جانب عن عظمة فضل الله ونعمته حتى ليقل القادرون على شكرها . ويكشف من جانب آخر عن تقصير البشر في شكر نعمة الله وفضله . وهم مهما بالغوا في الشكر قاصرون عن الوفاء .

فكيف إذا قصروا وغفلوا عن الشكر من الأساس ؟ !

وماذا يملك المخلوق الإنساني المحدود الطاقة من الشكر على آلاء الله وهي غير محدودة ؟ . . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . . وهذه النعم تغمر الإنسان من فوقه ومن تحت قدميه ، وعن أيمانه وعن شمائله ، وتكمن فيه هو ذاته وتفيض منه . وهو ذاته إحدى هذه الآلاء الضخام !

كنا نجلس جماعة نتحدث ونتجاوب أفكارنا وتتجاذب ، وتنطلق ألسنتنا بكل ما يخطر لنا على بال . ذلك حينما جاء قطنا الصغير "سوسو" يدور هنا وهناك من حولنا ، يبحث عن شيء ؛ وكأنما يريد أن يطلب إلينا شيئاً ، ولكنه لا يملك أن يقول ؛ ولا نملك نحن أن ندرك . حتى ألهمنا الله أنه يطلب الماء .

وكان هذا . وكان في شدة العطش . وهو لا يملك أن يقول ولا أن يشير . . وأدركنا في هذه اللحظة شيئاً من نعمة الله علينا بالنطق واللسان ، والإدراك والتدبير . وفاضت نفوسنا بالشكر لحظة . . وأين الشكر من ذلك الفيض الجزيل .

وكنا فترة طويلة محرومين من رؤية الشمس . وكان شعاع منها لا يتجاوز حجمه حجم القرش ينفذ إلينا أحياناً . وإن أحدنا ليقف أمام هذا الشعاع يمرره على وجهه ويديه وصدره وظهره وبطنه وقدميه ما استطاع . ثم يخلي مكانه لأخيه ينال من هذه النعمة ما نال ! ولست أنسى أول يوم بعد ذلك وجدنا فيه الشمس . لست أنسى الفرحة الغامرة

والنشوة الظاهرة على وجه أحدنا ، وفي جوارحه كلها ، وهو يقول في نغمة عميقة مديدة . . الله ! هذه هي الشمس . شمس ربنا وما تزال تطلع . . الحمد لله ! فكم نبعثر في كل يوم من هذه الأشعة المحيية ، ونحن نستحم في الضوء والدفء . ونسبح ونغرق في نعمة الله ؟ وكم نشكر هذا الفيض الغامر المتاح المباح من غير ثمن ولا كد ولا معاناة ؟ !

(262/637)

---

وحين نمضي نستعرض آلاء الله على هذا النحو فإننا ننفق العمر كله ، ونبذل الجهد كله ، ولا نبلغ من هذا شيئاً . فنكتفي إذن بهذه الإشارة الموحية ، على طريقة القرآن في الإشارة والإيماء ، ليتدبرها كل قلب ، ويمضي على إثرها ، قدر ما يوفقه الله لنعمة الشكر ، وهي إحدى آلاء الله ، يوفق إليها من يستحقها بالتوجه والتجرد والإخلاص . .

ثم نمضي مع نصوص القصة القرآنية في المشهد الأخير منها . مشهد وفاة سليمان والجن ماضية تعمل بأمره فيما كلفها عمله ؛ وهي لا تعلم نبأ موته ، حتى يدلهم على ذلك أكل الأرضة لعصاه ، التي كان مرتكزاً عليها ، وسقوطه :

﴿ فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر

تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ . .

وقد روي أنه كان متكئاً على عصاه حين وافاه أجله ؛ والجن تروح وتجيء مسخرة فيما كلفها إياه من عمل شاق شديد ؛ فلم تدرك أنه مات ، حتى جاءت دابة الأرض . قيل إنها الأرضة . التي تتغذى بالأخشاب ، وهي تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشراهة فظيعة ، في الأماكن التي تعيش فيها . وفي صعيد مصر قرى تقيم منازلها دون أن تضع فيها قطعة خشب واحدة خوفاً من هذه الحشرة التي لا تبقي على المادة الخشبية ولا تذر . فلما نخرت عصا سليمان لم تحمله فخرّ على الأرض . وحينئذ فقط علمت الجن موته .

وعندئذ ﴿ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ . .

فهؤلاء هم الجن الذين يعبدهم بعض الناس . هؤلاء هم سخرة لعبد من عباد الله . وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب ؛ وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد !

وفي قصة آل داود تعرض صفحة الإيمان بالله والشكر على أفضاله وحسن التصرف في نعمائه .

والصفحة المقابلة هي صفحة سبأ . وقد مضى في سورة النمل ما كان بين سليمان وبين ملكتهم من قصص . وهنا يجيء نبؤهم بعد قصة سليمان . مما يوحي بأن الأحداث التي تتضمنها وقعت بعد ما كان بينها وبين سليمان من خبر .

يرجح هذا الفرض أن القصة هنا تتحدث عن بطر سبأ بالنعمة وزوالها عنهم وتفرقهم بعد ذلك وتمزقهم كل ممزق . وهم كانوا على عهد الملكة التي جاء نبؤها في سورة النمل مع سليمان في ملك عظيم ، وفي خير عميم . ذلك إذ يقص الهدهد على سليمان : ﴿ إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ﴾ وقد أعقب ذلك إسلام الملكة مع سليمان لله رب العالمين . فالقصة هنا تقع أحداثها بعد إسلام الملكة لله ؛ وتحكي ما حل بهم بعد إعراضهم عن شكره على ما كانوا فيه من نعيم .

وتبدأ القصة بوصف ما كانوا فيه من رزق ورغد ونعيم ، وما طاب إليهم من شكر المنعم بقدر ما يطيقون :

﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال . كلوا من رزق ربكم واشكروا له . بلدة طيبة ورب غفور ﴾ . .

وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبي اليمن ؛ وكانوا في أرض مخصبة ما تزال منها بقية إلى اليوم . وقد ارتقوا في سلم الحضارة حتى تحكموا في مياه الأمطار الغزيرة التي تأتيهم من

البحر في الجنوب والشرق ، فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جبلين ، وجعلوا على فم الوادي بينهما سداً به عيون تفتح وتغلق ، وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء السد ، وتحكموا فيها وفق حاجتهم . فكان لهم من هذا مورد مائي عظيم . وقد عرف باسم " سد مأرب " .

وهذه الجنان عن اليمين والشمال رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل ، ومن ثم كانت آية تذكر بالمنعم الوهاب . وقد أمروا أن يستمتعوا برزق الله شاكرين :

﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له ﴾ . . .

وذكروا بالنعمة . نعمة البلد الطيب وفوقها نعمة الغفران على القصور من الشكر والتجاوز عن السيئات .

﴿ بلدة طيبة ورب غفور ﴾ . .



---

سماحة في الأرض بالنعمة والرخاء . وسماحة في السماء بالعفو والغفران . فماذا يقعدهم عن الحمد والشكران ؟ . ولكنهم لم يشكروا ولم يذكروا :

﴿ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل : خمط وأثل

وشيء من سدر قليل ﴾ . .

أعرضوا عن شكر الله ، وعن العمل الصالح ، والتصرف الحميد فيما أنعم الله عليهم ، فسلبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذي يعيشون فيه ؛ وأرسل السيل الجارف الذي يحمل العرم في طريقه وهي الحجارة لشدة تدفقه ، فحطم السد وانساحت المياه فطغت وأغرقت ؛ ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك فجفت واحترقت .

وتبدلت تلك الجنان الفيح صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة :

﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل : خمط وأثل وشيء من سدر قليل ﴾ . .

والخمط شجر الأراك أو كل شجر ذي شوك . والأثل شجر يشبه الطرفاء . والسدر النبق . وهو أجود ما صار لهم ولم يعد لهم منه إلا قليل !

﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا ﴾ . .

والأرجح أنه كفران النعمة . .

﴿ وهل نجازي إلا الكفور ﴾ . .

وكانوا إلى هذا الوقت ما يزالون في قراهم وبيوتهم . ضيق الله عليهم في الرزق ، وبدلهم من الرفاهية والنعماء خشونة وشدة ؛ ولكنه لم يمزقهم ولم يفرقهم . وكان العمران ما يزال متصلاً بينهم وبين القرى المباركة : مكة في الجزيرة ، وبيت المقدس في الشام . فقد كانت اليمن ما تزال عامرة في شمال بلاد سبأ ومتصلة بالقرى المباركة . والطريق بينهما عامر مطروق

مسلوك مأمون :

﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدّرنا فيها السير . سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين ﴾ . .

وقيل كان المسافر يخرج من قرية فيدخل الأخرى قبل دخول الظلام . فكان السفر فيها محدود المسافات ، مأموناً على المسافرين . كما كانت الراحة موفورة لتقارب المنازل وتقارب المحطات في الطريق .



---

وغلبت الشقوة على سبأ ، فلم ينفعهم النذير الأول ؛ ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله ، لعله يرد عليهم ما ذهب من الرخاء . بل دعوا دعوة الحمق والجهل :

﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ﴾ . .

تطلبوا الأسفار البعيدة المدى ؛ التي لا تقع إلا مرات متباعدة على مدار العام . لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل ، التي لا تشبع لذة الرحلات ! وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس :

﴿ وظلموا أنفسهم ﴾ . .

واستجيبت دعوتهم، ولكن كما ينبغي أن تستجاب دعوة البطر:

﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ . .

شردوا ومزقوا؛ وتفرقوا في أنحاء الجزيرة مبددي الشمل؛ وعادوا أحاديث يرويها الرواة، وقصة على الألسنة والأفواه. بعد أن كانوا أمة ذات وجود في الحياة.

﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ . .

يذكر الصبر إلى جوار الشكر . . الصبر في البأساء. والشكر في النعماء. وفي قصة سبأ آيات لهؤلاء وهؤلاء.

هذا فهم في الآية. وهناك فهم آخر. فقد يكون المقصود بقوله: ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة ﴾ . . أي قرى غالبة ذات سلطان. بينما تحول سبأ إلى قوم فقراء، حياتهم صحراوية جافة. وكثرت أسفارهم وانتقالاتهم وراء المراعي ومواضع الماء. فلم يصبروا على الابتلاء. وقالوا: ﴿ ربنا باعد بين أسفارنا ﴾ . . أي قلل من أسفارنا فقد تعبنا. ولم يصحبوا هذا الدعاء باستجابة وإنابة لله تستحق استجابته لدعائهم. وكانوا قد بطروا النعمة، ولم يصبروا للمحنة. ففعل الله بهم ما فعل، ومزقهم كل ممزق؛ فأصبحوا أثراً بعد عين، وحديثاً يروى وقصة تحكى. . ويكون التعقيب: ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ . . مناسباً لقلة شكرهم على النعمة، وقلة صبرهم على المحنة. . وهو وجه رأيته في الآية والله أعلم بمراده.

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (22) ﴾

إنها جولة قصيرة حول قضية الشرك والتوحيد . ولكنها جولة تطوّف بالقلب البشري في مجال الوجود كله . ظاهره وخافيه . حاضره وغيبه . سمائه وأرضه . دنياه وآخرته . وتقف به مواقف مرهوبة ترجف فيها الأوصال ؛ ويغشاها الذهول من الجلال . كما تقف به أمام رزقه وكسبه ، وحسابه وجزائه . وفي زحمة التجمع والاختلاط ، وفي موقف الفصل والعزل والتميز والانفراد . . كل أولئك في إيقاعات قوية ، وفواصل متلاحقة ، وضربات كأنها المطارق : " قل . . قل . . قل . . قل . . " كل قولة منها تدمغ بالحجة ، وتصدع بالبرهان في قوة وسلطان .

﴿ قل : ادعوا الذين زعمتم من دون الله . لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير ﴾ . .

إنه التحدي في مجال السماوات والأرض على الإطلاق :

﴿ قل : ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ . .

ادعوهم . فليأتوا . وليظهروا . وليقولوا أو لتقولوا أنتم ماذا يملكون من شيء في السماوات أو في الأرض جل أو هان ؟

﴿ لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ﴾ . .

ولا سبيل لأن يدعوا ملكية شيء في السماوات أو في الأرض . فالمالك لشيء يتصرف فيه وفق مشيئته . فماذا يملك أولئك المزعومون من دون الله ؟ وفي أي شيء يتصرفون تصرف المالك في هذا الكون العريض ؟

لا يملكون في السماوات والأرض مثقال ذرة ملكية خالصة ، ولا على سبيل المشاركة :

﴿ وما لهم فيهما من شرك ﴾ . .

والله سبحانه لا يستعين بهم في شيء . فما هو في حاجة إلى معين :

﴿ وما له منهم من ظهير ﴾ . .



---

ويظهر أن الآية هنا تشير إلى نوع خاص من الشركاء المزعومين . وهم الملائكة الذين كانت العرب تدعوهم بنات الله ؛ وتزعم لهم شفاعة عند الله . ولعلهم ممن قالوا عنهم : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ . . ومن ثم نفى شفاعتهم لهم في الآية التالية . وذلك في

مشهد تتفزع له الأوصال في حضرة ذي الجلال :

﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ . .

فالشفاعة مرهونة بإذن الله . والله لا يأذن في الشفاعة في غير المؤمنين به المستحقين لرحمته . فأما الذين يشركون به فليسوا أهلاً لأن يأذن بالشفاعة فيهم ، لا للملائكة ولا لغيرهم من المأذونين بالشفاعة منذ الابتداء !

ثم صور المشهد الذي تقع فيه الشفاعة ؛ وهو مشهد مذهل مرهوب :

﴿ حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلي الكبير ﴾ . .

إنه مشهد في اليوم العصيب . يوم يقف الناس ، وينتظر الشفعاء والمشفوع فيهم أن يتأذن ذو الجلال في عليائه بالشفاعة لمن ينالون هذا المقام . ويطول الانتظار . ويطول التوقع . وتعنو الوجوه . وتسكن الأصوات . وتخشع القلوب في انتظار الإذن من ذي الجلال والإكرام .

ثم تصدر الكلمة الجليلة الرهيبة ، فتنتاب الرهبة الشافعين والمشفوعين لهم .

ويتوقف إدراكهم عن الإدراك .

﴿ حتى إذا فزّع عن قلوبهم ﴾ . . وكشف الفزع الذي أصابهم ، وأفاقوا من الروعة التي غمرتهم فأذهلتهم . ﴿ قالوا : ماذا قال ربكم ؟ ﴾ يقولها بعضهم لبعض . لعل منهم من يكون قد تماسك حتى وعى . ﴿ قالوا : الحق ﴾ . . ولعلهم الملائكة المقربون هم الذين يجيبون بهذه الكلمة المجملة الجامعة : ﴿ قالوا الحق ﴾ . . قال ربكم : الحق . الحق

الكلي . الحق الأزلي . الحق اللدني . فكل قوله الحق . ﴿ وهو العلي الكبير ﴾ . . وصف في المقام الذي يتمثل فيه العلو والكبر للإدراك من قريب . .

وهذه الإجابة المجملة تشي بالروعة الغامرة ، التي لا ينطق فيها إلا بالكلمة الواحدة !

(268/637)

---

فهذا هو موقف الشفاعة المرهوب . وهذه صورة الملائكة فيه بين يدي ربهم . فهل بعد هذا المشهد يملك أحد أن يزعم أنهم شركاء لله ، شفعاء في من يشرك بالله ؟ !

ذلك هو الإيقاع الأول ، في ذلك المشهد الخاشع الواجف المرهوب العسير . . ويليه الإيقاع الثاني عن الرزق الذي يستمتعون به ، ويغفلون عن مصدره ، الدال على وحدة الخالق الرازق . الباسط القابض ، الذي ليس له شريك :

﴿ قل من يرزقكم من السماوات والأرض . . قل : الله . وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ . .

والرزق مسألة واقعة في حياتهم . رزق السماء من مطر وحرارة وضوء ونور . . ذلك فيما كان يعرفه المخاطبون ووراءه كثير من الأصناف والألوان تتكشف آناً بعد آن . . ورزق الأرض من نبات وحيوان وعيون ماء وزيوت ومعادن وكنوز . . وغيرها مما يعرفه القدامى

ويتكشف غيره على مدار الزمان . .

﴿ قل : من يرزقكم من السماوات والأرض ؟ ﴾ . .

﴿ قل : الله ﴾ . .

فما يملكون أن يماروا في هذا ولا أن يدعوا سواه .

قل : الله . ثم كل أمرهم وأمرك إلى الله . فأحد كما لا بد مهتد وأحد كما لا بد ضال . ولا يمكن أن تكون أنت وهم على طريق واحد من هدى أو من ضلال :

﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ . .

وهذه غاية النصفة والاعتدال والأدب في الجدال . أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمشركين : إن أحدنا لا بد أن يكون على هدى ، والآخر لا بد أن يكون على ضلال . ثم يدع تحديد المهتدي منهما والضال . ليثير التدبر والتفكر في هدوء لا تغشى عليه العزة بالإثم ، والرغبة في الجدال والمحال ! فإنما هو هاد ومعلم ، يبتغي هداهم وإرشادهم لا إذلالهم وإفحامهم ، لمجرد الإذلال والإفحام !

الجدل على هذا النحو المهذب الموحي أقرب إلى لمس قلوب المستكبرين المعاندين المتطاولين بالجاه والمقام ، المستكبرين على الإذعان والاستسلام ، وأجدر بأن يثير التدبر الهادئ والاقتناع العميق . وهو نموذج من أدب الجدل ينبغي تدبره من الدعاة . .

ومنه كذلك الإيقاع الثالث ، الذي يقف كل قلب أمام عمله وتبعته ، في أدب كذلك وقصد وإنصاف :

﴿ قل : لا تسألون عما أجرمنا ، ولا نسأل عما تعملون ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (29) ﴾

هذه الجولة تتناول موقف الذين كفروا مما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم وموقف المترفين من كل رسالة ، وهم الذين تغرهم أموالهم وأولادهم ، وما يجدون من أعراض هذه الدنيا في أيديهم ، فيحسبونها دليلاً على اختيارهم وتفضيلهم ؛ ويحسبون أنها مانعتهم من العذاب في الدنيا والآخرة . ومن ثم يعرض عليهم مشاهدهم في الآخرة ، كأنها واقعة ، ليروا إن كان شيء من ذلك نافعاً لهم أو واقياً . وفي هذه المشاهد يتضح كذلك أنه لا الملائكة ولا الجن الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ، ويستعينونهم يملكون لهم في الآخرة شيئاً . . وفي خلال الجدل يوضح القرآن حقيقة القيم التي لها ثقل في ميزان الله ؛ فتنكشف القيم الزائفة التي يعتزون بها في الحياة ؛ ويتقرر أن بسط الرزق وقبضه أمران يجريان وفق إرادة الله ، وليسا دليلاً على رضى أو غضب ولا على قربى أو بعد . إنما ذلك ابتلاء . .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ويقولون : متى

هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل : لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ . .

يجيء هذا البيان بعد الجولة الماضية ، وما فيها من تقرير فردية التبعة ؛ وأنه ليس بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل إلا الدعوة والبيان ، وأمرهم بعد ذلك إلى الله .

ويتبعه هنا بيان وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم وجهلهم بحقيقتها ؛ واستعجالهم له بما يعدهم ويوعدهم من الجزاء ؛ وتقرير أن ذلك موكول إلى موعده المقدور له في غيب الله :

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ . .

(270/637)

---

هذه هي حدود الرسالة العامة للناس جميعاً . . التبشير والإنذار . وعند هذا الحد تنتهي ؛ أما تحقيق هذا التبشير وهذا الإنذار فهو من أمر الله :

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ ﴾ . .

وهذا السؤال يوحي بجهلهم لوظيفة الرسول ؛ وعدم إدراكهم لحدود الرسالة . والقرآن حريص على تجريد عقيدة التوحيد . فما محمد إلا رسول محدد الوظيفة . وهو قائم في حدود وظيفته لا يتخطاها . والله هو صاحب الأمر . هو الذي أرسله ، وهو الذي حدد

له عمله ؛ وليس من عمله أن يتولى ولا حتى أن يعلم تحقيق الوعد والوعيد . . ذلك موكول إلى ربه ، وهو يعرف حدوده . فلا يسأل مجرد سؤال عن شيء لم يطلعه عليه ربه ، ولم يكل إليه أمره . وربه يكلفه أن يرد عليهم رداً معيناً فيقوم به :

﴿ قل : لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ . .

وكل ميعاد يجيء في أجله الذي قدره الله له . لا يستأخر لرغبة أحد ، ولا يستقدم لرجاء أحد . وليس شيء من هذا عبثاً ولا مصادفة . فكل شيء مخلوق بقدر .

وكل أمر متصل بالآخر . وقدر الله يرتب الأحداث والمواعيد والآجال وفق حكمته المستورة التي لا يدركها أحد من عباده إلا بقدر ما يكشف الله له .

والاستعجال بالوعد والوعيد دليل على عدم إدراك هذه الحقيقة الكلية . ومن ثم فإن أكثر الناس لا يعلمون . وعدم العلم يقودهم إلى السؤال والاستعجال .

﴿ وقال الذين كفروا : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ . .

فهو العناد والإصرار ابتداء على رفض الهدى في كل مصادره . لا القرآن ، ولا الكتب التي سبقته ، والتي تدل على صدقه . فلا هذا ولا ذاك هم مستعدون للإيمان به لا اليوم ولا الغد . ومعنى هذا أنهم يصرون على الكفر ، ويجزمون عن قصد بأنهم لن ينظروا في دلائل الهدى كائنة ما كانت . فهو العمد إذن وسبق الإصرار !

عندئذ يجبههم بمشهدهم يوم القيامة ، وفيه جزاء هذا الإصرار :

﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين ! قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى ، بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين ! وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً . . وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ؛ وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ ﴾ . .

ذلك كان قولهم في الدنيا : ﴿ لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ . . فلو ترى قولهم في موقف آخر . لو ترى هؤلاء الظالمين وهم ﴿ موقوفون ﴾ على غير إرادة منهم ولا اختيار ؛ إنما هم مذنبون بالوقوف في انتظار الجزاء ﴿ عند ربهم ﴾ . . ربهم الذي يجزمون بأنهم لن يؤمنوا بقوله وكتبه . ثم ها هم أولاء موقوفون عنده ! لو ترى يومئذ لرأيت هؤلاء الظالمين يلوم بعضهم بعضاً ، ويؤنب بعضهم بعضاً ، ويلقي بعضهم تبعة ما هم فيه على بعض : ﴿ يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ . . فماذا يرجعون من القول ؟

﴿ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ . .

فيلقون على الذين استكبروا تبعة الوقفة المرهوبة المهينة ، وما يتوقعون بعدها من البلاء ! يقولون لهم هذه القولة الجاهرة اليوم ؛ ولم يكونوا في الدنيا بقادرين على مواجهتهم هذه المواجهة . كان يمنعهم الذل والضعف والاستسلام ، وبيع الحرية التي وهبها الله لهم ، والكرامة التي منحها إياهم ، والإدراك الذي أنعم به عليهم . أما اليوم وقد سقطت القيم الزائفة ، وواجهوا العذاب الأليم ، فهم يقولونها غير خائفين ولا مبقين ! ﴿ لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ !

ويضيق الذين استكبروا بالذين استضعفوا . فهم في البلاء سواء . وهؤلاء الضعفاء يريدون أن يحملوهم تبعة الإغواء الذي صار بهم إلى هذا البلاء ! وعندئذ يردون عليهم باستنكار ، ويجبهونهم بالسب الغليظ :

*(272/637)*

---

﴿ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين ﴾ !

فهو التخلي عن التبعة ، والإقرار بالهدى ، وقد كانوا في الدنيا لا يقيمون وزناً للمستضعفين ولا يأخذون منهم رأياً ، ولا يعتبرون لهم وجوداً ، ولا يقبلون منهم مخالفة ولا مناقشة ! أما

اليوم وأمام العذاب فهم يسألونهم في إنكار : ﴿ أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ ﴾ .

﴿ بل كنتم مجرمين ﴾ . . من ذات أنفسكم ، لا تهتدون ، لأنكم مجرمون !

ولو كانوا في الدنيا لقبع المستضعفون لا ينبسون ببنت شفة . ولكنهم في الآخرة حيث تسقط الهالات الكاذبة والقيم الزائفة ؛ وتتفتح العيون المغلقة وتظهر الحقائق المستورة .

ومن ثم لا يسكت المستضعفون ولا يخنعون ، بل يجبهون المستكبرين بمكرهم الذي لم يكن يفتر نهاراً ولا ليلاً للصد عن الهدى ؛ وللتمكين للباطل ، ولتلبيس الحق ، وللأمر بالمنكر ، ولاستخدام النفوذ والسلطان في التضليل والإغواء :

﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار ، إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ﴾ . .

ثم يدرك هؤلاء وهؤلاء أن هذا الحوار البائس لا ينفع هؤلاء ولا هؤلاء ، ولا ينجي المستكبرين ولا المستضعفين . فلكل جريمته وإثمه . المستكبرون عليهم وزرهم ، وعليهم تبعة إضلال الآخرين وإغوائهم . والمستضعفون عليهم وزرهم ، فهم مسؤولون عن اتباعهم للطغاة ، لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين . لقد كرمهم الله بالإدراك والحرية ، فعطلوا الإدراك وباعوا الحرية ؛ ورضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولاً ؛ وقبلوا لأنفسهم أن يكونوا مستذلين . فاستحقوا العذاب جميعاً ؛ وأصابهم الكمد والحسرة وهم يرون العذاب حاضراً لهم مهيأ

:

﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ . .

وهي حالة الكمد الذي يدفن الكلمات في الصدور ، فلا تفوه بها الألسنة ، ولا تتحرك بها الشفاه .

ثم أخذهم العذاب المهين الغليظ الشديد :

﴿ وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ﴾ . .

(273/637)

---

ثم يلتفت السياق يحدث عنهم وهم مسحوبون في الأغلال ، مهملاً خطابهم إلى خطاب المتفرجين !

﴿ هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ ﴾ .

ويسدل الستار على المستكبرين والمستضعفين من الظالمين . وكلاهما ظالم . هذا ظالم بتجبره وطغيانه وبغيه وتضليله . وهذا ظالم بتنازله عن كرامة الإنسان ؛ وإدراك الإنسان ، وحرية الإنسان ، وخنوعه وخضوعه للبغي والطغيان . . وكلهم في العذاب سواء . لا يجزون إلا ما كانوا يعملون . .

يسدل الستار وقد شهد الظالمون أنفسهم في ذلك المشهد الحي الشاخص. شهدوا أنفسهم هناك وهم بعد أحياء في الأرض. وشهدهم غيرهم كأنما يرونهم. وفي الوقت متسع لتلافي ذلك الموقف لمن يشاء!

ذلك الذي قاله المترفون من كبراء قريش قاله قبلهم كل مترف أمام كل رسالة:

﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها: إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾..

فهي قصة معادة، وموقف مكرور، على مدار الدهور. وهو الترف يغلظ القلوب، ويفقدها الحساسية؛ ويفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية؛ فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل، ولا تتفتح للنور.

والمترفون تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل، ويغرهم ما هم فيه من ثراء وقوة، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله؛ ويخالون أنه آية الرضى عنهم، أو أنهم في مكان أعلى من الحساب والجزاء:

﴿ وقالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً، وما نحن بمعذبين ﴾.

.

والقرآن يضع لهم ميزان القيم كما هي عند الله؛ ويبين لهم أن بسط الرزق وقبضه، ليست له علاقة بالقيم الثابتة الأصيلة؛ ولا يدل على رضى ولا غضب من الله؛ ولا يمنع بذاته عذاباً ولا يدفع إلى عذاب. إنما هو أمر منفصل عن الحساب والجزاء، وعن الرضى

والغضب ، يتبع قانوناً آخر من سنن الله :

﴿ قل : إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . .

(274/637)

---

وهذه المسألة . مسألة بسط الرزق وقبضه ؛ وتملك وسائل المتاع والزينة أو الحرمان منها ، مسألة يحيك منها شيء في صدور كثيرة . ذلك حين تتفتح الدنيا أحياناً على أهل الشر والباطل والفساد ، ويحرم من أعراضها أحياناً أهل الخير والحق والصلاح ؛ فيحسب بعض الناس أن الله ما كان ليغدق على أحد إلا وهو عنده ذو مقام . أو يشك بعض الناس في قيمة الخير والحق والصلاح ، وهم يرونها محوطة بالحرمان !

ويفصل القرآن هنا بين أعراض الحياة الدنيا والقيم التي ينظر الله إليها . ويقرر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وأن هذه مسألة ورضاه وغضبه مسألة أخرى ولا علاقة بينهما . وقد يغدق الله الرزق على من هو عليه غاضب كما يغدقه على من هو عليه راض . وقد يضيق الله على أهل الشر كما يضيق على أهل الخير . ولكن العلل والغايات لا تكون واحدة في جميع هذه الحالات .

لقد يغدق الله على أهل الشر استدراجاً لهم ليزدادوا سوءاً وبطراً وإفساداً ، ويتضاعف

رصيدهم من الإثم والجريمة ، ثم يأخذهم في الدنيا أو في الآخرة وفق حكمته وتقديره بهذا الرصيد الأثيم ! وقد يحرمهم فيزدادوا شراً وفسوقاً وجريمة ، وجزعاً وضيقاً ويأساً من رحمة الله ، وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الشر والضلال .

ولقد يغدق الله على أهل الخير ، ليمكنهم من أعمال صالحة كثيرة ما كانوا بالغيها لو لم يبسط لهم في الرزق ، وليشكروا نعمة الله عليهم بالقلب واللسان والفعل الجميل ؛ ويذخروا بهذا كله رصيداً من الحسنات يستحقونه عند الله بصلاحهم وبما يعلمه من الخير في قلوبهم .

وقد يحرمهم فيبلو صبرهم على الحرمان ، وثقتهم بربهم ، ورجاءهم فيه ، واطمئنانهم إلى قدره ، ورضاهم بربهم وحده ، وهو خير وأبقى ؛ وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الخير والرضوان .



---

وأياً ما كانت أسباب بسط الرزق وقبضه من عمل الناس ، ومن حكمة الله ، فهي مسألة منفصلة عن أن تكون دليلاً بذاتها على أن المال والرزق والأبناء والمتاع قيم تقدم أو تؤخر عند الله . ولكنها تتوقف على تصرف المبسوط لهم في الرزق أو المضيق عليهم فيه . فمن وهبه الله مالاً وولداً فأحسن فيهما التصرف فقد يضاعف له الله في الثواب جزاء ما

أحسن في نعمة الله .

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾

هذا الشوط الأخير في السورة يبدأ بالحديث عن المشركين ، ومقولاتهم عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن القرآن الذي جاء به ؛ ويذكرهم بما وقع لأمثالهم ، ويريهم مصرع الغابرين الذين أخذهم النكير في الدنيا ، وهم كانوا أقوى منهم وأعلم وأغنى . .

ويعقب هذا عدة إيقاعات عنيفة كأنما هي مطارق متوالية . يدعوهم في أول إيقاع منها إلى أن يقوموا لله متجردين ثم يتفكروا غير متأثرين بالحواجز التي تمنعهم من الهدى ومن النظر الصحيح . وفي الإيقاع الثاني يدعوهم إلى التفكير في حقيقة البواعث التي تجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يلاحقهم بالدعوة ، وليس له من وراء ذلك نفع ، ولا هو يطلب على ذلك أجراً ، فما لهم يتشككون في دعوته ويعرضون ؟ ثم تتوالى الإيقاعات : قل . قل . قل . وكل منها يهز القلب هزاً ولا يتماسك له قلب به بقية من حياة وشعور !

ويختم الشوط وتختم معه السورة بمشهد من مشاهد القيامة حافل بالحركة العنيفة ، يناسب إيقاعه تلك الإيقاعات السريعة العنيفة .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا : ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم . وقالوا : ما هذا إلا إفك مفترى . وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين . وما آتيناهم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير . وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي ، فكيف كان نكير ؟ ﴾ . .

لقد قابلوا الحق الواضح البين الذي يتلوه عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم برواسب غامضة من آثار الماضي ، وتقاليد لا تقوم على أساس واضح ، وليس لها قوام متماسك . ولقد أحسوا خطورة ما يواجههم به القرآن الكريم من الحق البسيط المستقيم المتماسك . أحسوا خطورته على ذلك الخليط المشوش من العقائد والعادات والتقاليد التي وجدوا عليها آباءهم فقالوا قولتهم تلك :

﴿ ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ . .

ولكن هذا وحده لا يكفي . فإن مجرد أنه يخالف ما كان عليه الآباء ليس مطعناً مقنعاً لجميع العقول والنفوس . ومن ثم اتبعوا الادعاء الأول بادعاء آخر يمس أمانة المبلغ ، ويرد قوله أنه جاء بما جاء به من عند الله :

﴿ وقالوا : ما هذا إلا إفك مفترى ﴾ . .

والإفك هو الكذب والافتراء ؛ ولكنهم يزيدونه توكيداً : ﴿ ما هذا إلا إفك مفترى ﴾ . .

ذلك ليشككوا في قيمته ابتداء ، متى أوقعوا الشك في مصدره الإلهي .

ثم مضوا يصفون القرآن ذاته :

﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين ﴾ . .

فهو كلام مؤثر يزلزل القلوب ، فلا يكفي أن يقولوا : إنه مفترى . فحاولوا إذن أن يعللوا وقعه القاهر في القلوب .

فقالوا : إنه سحر مبين !

(277/637)

---

فهي سلسلة من الاتهامات ، حلقة بعد حلقة ، يواجهون بها الآيات البينات كي يحولوا بينها وبين القلوب . ولا دليل لهم على دعواهم . ولكنها جملة من الأكاذيب لتضليل العامة والجماهير . أما الذين كانوا يقولون هذا القول وهم الكبراء والسادة فقد كانوا على يقين أنه قرآن كريم ، فوق مقدور البشر ، وفوق طاقة المتكلمين ! وقد سبق في الظلال ما حدث به بعض هؤلاء الكبراء بعضاً في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأمر القرآن ؛ وما دبروا بينهم من كيد ليصدوا به الجماهير عن هذا القرآن الذي يغلب القلوب ويأسر النفوس !

وقد كشف القرآن أمرهم ، وهو يقرر أنهم أميون لم يؤتوا من قبل كتاباً يقيسون به الكتب ؛

ويعرفون به الوحي؛ فيفتوا بأن ما جاءهم اليوم ليس كتاباً وليس وحياً ، وليس من عند الله . ولم يرسل إليهم من قبل رسول . فهم يهرفون إذن بما لا علم لهم به ويدعون ما ليس يعلمون :

﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ !

ويلمس قلوبهم بتذكيرهم بمصارع الذين كذبوا من قبل . وهم لم يؤتوا معشار ما أوتي أولئك الغابرون . من علم ، ومن مال ، ومن قوة ، ومن تعمير . . فلما كذبوا الرسل أخذهم النكير . أي الهجوم المدوي المنكر الشديد :

﴿ وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي . فكيف كان نكير ؟ ﴾ . .

ولقد كان النكير عليهم مدمراً مهلكاً . وكانت قريش تعرف مصارع بعضهم في الجزيرة . فهذا التذكير يكفي . وهذا السؤال التهكمي ﴿ فكيف كان نكير ؟ ﴾ سؤال موح يلمس المخاطبين . وهم يعرفون كيف كان ذلك النكير !

وهنا يدعوهم دعوة خالصة إلى منهج البحث عن الحق ، ومعرفة الافتراء من الصدق ، وتقدير الواقع الذي يواجهونه من غير زيف ولا دخل :

﴿ قل : إنما أعظكم بواحدة . . أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا . ما بصاحبكم من جنة . إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ . .

إنها دعوة إلى القيام لله. بعيداً عن الهوى. بعيداً عن المصلحة. بعيداً عن ملابسات الأرض. بعيداً عن الهواتف والدوافع التي تشتجر في القلب، فتبعد به عن الله. بعيداً عن التأثر بالتيارات السائدة في البيئة. والمؤثرات الشائعة في الجماعة.

دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط، لا مع القضايا والدعاوى الرائجة؛ ولا مع العبارات المطاطة، التي تبعد القلب والعقل من مواجهة الحقيقة في بساطتها.

دعوة إلى منطق الفطرة الهادئ الصافي، بعيداً عن الضجيج والخلط واللبس؛ والرؤية المضطربة والغبش الذي يحجب صفاء الحقيقة.

وهي في الوقت ذاته منهج في البحث عن الحقيقة. منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والغواشي والمؤثرات. وعلى مراقبة الله وتقواه.

وهي "واحدة" .. إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق. القيام لله.

. لا لغرض ولا لهوى ولا لمصلحة ولا لنتيجة .. التجرد .. الخلوص .. ثم التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون.

﴿ أن تقوموا لله. مثنى وفرادى ﴾ .. مثنى ليراجع أحدهما الآخر، ويأخذ معه ويعطي

في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ، ولا تتلبث لتتبع الحجة في هدوء . .

وفرادى مع النفس وجهاً لوجه في تمحيص هادئ عميق .

﴿ ثم تتفكروا . ما بصاحبكم من جنة ﴾ . . فما عرفتم عنه إلا العقل والتدبر والرزانة .

وما يقول شيئاً يدعو إلى التظنن بعقله ورشده . إن هو إلا القول المحكم القوي المبين .

﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ . .

لمسة تصور العذاب الشديد وشيكاً أن يقع، وقد سبقه النذير بخطوة . لينقذ من يستمع .

كالهاتف المحذر من حريق في دار يوشك أن يلتهم من لا يفر من الحريق . وهو تصوير فوق أنه

صادق بارع موح مثير . .

(279/637)

---

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم بشير ابن المهاجر، حدثني عبد الله بن بريرة عن أبيه

رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، فنادى ثلاث مرات

: " أيها الناس أتدرون ما مثلي ومثلكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال صلى الله عليه

وسلم : إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم . فبعثوا رجلاً يتراءى لهم، فبينما هو

كذلك أبصر العدو، فأقبل لينذرهم، وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى

بثوبه . أيها الناس أتيتم . أيها الناس أتيتم . أيها الناس أتيتم " .

وروي بهذا الإسناد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بعثت أنا والساعة جميعاً . إن كادت لتسبقني " .

ذلك هو الإيقاع الأول المؤثر الموحي . يتبعه الإيقاع الثاني :

﴿ قل : ما سألتكم من أجر فهو لكم . إن أجري إلا على الله . وهو على كل شيء شهيد ﴾ . .

دعاهم في المرة الأولى إلى التفكر الهادئ البريء . . ما بصاحبكم من جنة . . ويدعوهم هنا أن يفكروا ويسألوا أنفسهم عما يدعوه إلى القيام بإنذارهم بين يدي عذاب شديد . ما مصلحته ؟ ما بواعثه ؟ ماذا يعود عليه ؟ ويأمره أن يلمس منطقهم ويوقظ وجدانهم إلى هذه الحقيقة في صورة موحية :

﴿ قل : ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾ !

خذوا أنتم الأجر الذي طلبته منكم ! وهو أسلوب فيه تهكم . وفيه توجيه . وفيه تنبيه .

﴿ إن أجري إلا على الله ﴾ . .

هو الذي كلفني . وهو الذي يأجرني . وأجره هو الذي أتطلع إليه . ومن يتطلع إلى ما عند الله فكل ما عند الناس هين عنده هزيل زهيد لا يستحق التفكير .

﴿ وهو على كل شيء شهيد ﴾ . .

يعلم ويرى ولا يخفى عليه شيء . وهو عليّ شهيد . فيما أفعل وفيما أنوي وفيما أقول .

ويشتد الإيقاع الثالث وتقصر خطاه :

﴿ قل : إن ربي يقذف بالحق علاّم الغيوب ﴾ .

.

(280/637)

---

وهذا الذي جئتكم به هو الحق . الحق القوي الذي يقذف به الله . فمن ذا يقف للحق الذي يقذف به الله ؟ إنه تعبير مصور مجسم متحرك . وكأنما الحق قذيفة تصدع وتخرق وتنفذ ولا يقف لها أحد في طريق . . يقذف بها الله ﴿ علاّم الغيوب ﴾ فهو يقذف بها عن علم ، ويوجهها على علم ، ولا يخفى عليه هدف ، ولا تغيب عنه غاية ، ولا يقف للحق الذي يقذف به معترض ولا سد يعوق . فالطريق أمامه مكشوف ليس فيه مستور !

ويتلوه الإيقاع الرابع في مثل عنفه وسرعته :

﴿ قل : جاء الحق ، وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴾ . .

جاء هذا الحق في صورة من صوره ، في الرسالة ، وفي قرآنها ، وفي منهجها المستقيم . قل : جاء الحق . أعلن هذا الإعلان . وقرر هذا الحدث . واصدع بهذا النبأ . جاء الحق .

جاء بقوته. جاء بدفعته. جاء باستعلائه وسيطرته ﴿ وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴾ .. فقد انتهى أمره. وما عادت له حياة، وما عاد له مجال، وقد تقرر مصيره وعرف أنه إلى زوال.

إنه الإيقاع المزلزل، الذي يشعر من يسمعه أن القضاء المبرم قد قضى، وأنه لم يعد هناك مجال لشيء آخر يقال.

وإنه لكذلك. فمنذ جاء القرآن استقر منهج الحق واتضح. ولم يعد الباطل إلا مماحكة ومماحلة أمام الحق الواضح الحاسم الجازم. ومهما يقع من غلبة مادية للباطل في بعض الأحوال والظروف، إلا أنها ليست غلبة على الحق. إنما هي غلبة على المنتمين إلى الحق. غلبة الناس لا المبادئ. وهذه موقوتة ثم تزول. أما الحق فواضح بين صريح.

والإيقاع الأخير:

﴿ قل: إن ضللت فإنما أضل على نفسي. وإن اهتديت فبما يوحي إليَّ ربي. إنه سميع قريب ﴾ ..

فلا عليكم إذن إن ضللت. فإنما أضل على نفسي. وإن كنت مهتدياً فإن الله هو الذي هداني بوحيه، لا املك لنفسي منه شيئاً إلا بإذنه. وأنا تحت مشيئته أسير فضله.

﴿ إنه سميع قريب ﴾ ..

وهكذا كانوا يجدون الله . هكذا كانوا يجدون صفاته هذه في نفوسهم . كانوا يجدونها رطبة بالحياة الحقيقية . كانوا يحسون أن الله يسمع لهم وهو قريب منهم . وأنه معنى بأمرهم عناية مباشرة ؛ وأن شكواهم ونجواهم تصل إليه بلا واسطة . وأنه لا يهملها ولا يكلها إلى سواه . ومن ثم كانوا يعيشون في أنس بربهم . في كنفه . في جواره . في عطفه . في رعايته . ويجدون هذا كله في نفوسهم حياً ، واقعاً ، بسيطاً ، وليس معنى ولا فكرة ولا مجرد تمثيل وتقريب .

﴿ إنه سميع قريب ﴾ . .

وأخيراً يجيء الختام في مشهد من مشاهد القيامة حافل بالحركة العنيفة المترددة بين الدنيا والأخرى . كأنما هو مجال واحد ، وهم كرة يتقاذفها السياق في المشهد السريع العنيف :

﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ﴾ .



(ولو ترى) . . فالمشهد معروض للأنظار . (إذ فزعوا) . . من الهول الذي فوجئوا به .

وكأنما أرادوا الإفلات (فلا فوت) ولا إفلات (وأخذوا من مكان قريب) . . ولم يبعدوا في

محاولتهم البائسة وحركتهم المذهولة .

(وقالوا: آمنا به) . . الآن بعد فوات الأوان . . (وأنّى لهم التناوش من مكان بعيد ؟) وكيف يتناولون الإيمان من مكانهم هذا . ومكان الإيمان بعيد عنهم فقد كان ذلك في الدنيا , فضيعوه !

(وقد كفروا به من قبل) . . فانتهى الأمر , ولم يعد لهم أن يحاولوه اليوم !

(ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ) . . ذلك حين أنكروا هذا اليوم , وهو غيب كان , فلم يكن لهم على إنكاره من دليل , إنما كانوا يقذفون بالغيب من مكان بعيد . واليوم يحاولون تناول الإيمان به من مكان كذلك بعيد !

(وحيل بينهم وبين ما يشتهون) . . من الإيمان في غير موعده , والإفلات من العذاب الذي يشهدونه , والنجاة من الخطر الذي يواجهونه . (كما فعل بأشياعهم من قبل) . . ممن أخذهم الله , فطلبوا النجاة بعد نفاذ الأمر , وبعد أن لم يعد منه مفر .

(إنهم كانوا في شك مريب) . . فها هو ذا اليقين بعد الشك المريب !

وهكذا تختم السورة في هذا الإيقاع السريع العنيف الشديد . وتختم بمشهد من مشاهد القيامة ; يثبت القضية التي عليها التركيز والتوكيد في السورة . كما مضى في نهاية كل شوط فيها وفي ثناياها . وقد بدأت السورة بهذه القضية وختمت بها هذا الختام العنيف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2897 . 2917 ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في بعض آيات السورة ما قيل : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا دَاوُودُ مِنَّا فَضْلاً يا جبال جِبَالِ أَوِّبِى مَعَهُ والطير ﴾ أشير بالجبال إلى عالم الملك وبالطير إلى عالم الملكوت ، وقد ذكروا أنه إذا تمكن الذكر سري في جميع أجزاء البدن فيسمع الذاكر كل جزء منه ذاكراً فإذا ترقى حاله يسمع كل ما في عالم الملك كذلك فإذا ترقى يسمع كل ما في الوجود كذلك ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بجمده ﴾ [ الإسراء : 44 ] ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الحديد ﴾ [ سبأ : 10 ] القلب ﴿ أَنِ اعمل سابغات ﴾ وهي الحكم البالغة التي تظهر من القلب على اللسان ﴿ وَقَدّرْ فِى السرد ﴾ [ سبأ : 11 ] أي في سرد الحديث بأن تتكلم بالحكمة على قدر ما يتحمله عقل مخاطبك ، وقد ورد "كلموا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم "

ومن هنا يصعب الجواب عمن تكلم من المتصوفة بما ينكره أكثر من يسمعه من العلماء وبه ضل كثير من الناس ﴿ ولسليمان الريح ﴾ ريح العناية ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ فكان يتصرف بالهمة وقذف الأنوار في قلوب متبعيه من مسافة شهر ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ [ سبأ : 12 ] إشارة إلى قوة باطنه حيث انقاد له من جبل على المخالفة وفعل الشرور ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [ سبأ : 13 ] وهو من شكره بالأحوال أعني التخلق بأخلاق الله تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ﴾ [ سبأ : 14 ] فيه إشارة إلى أن الضعيف قد يفيد القوي علماً ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ وهي مقامات أهل الباطن من العارفين ﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ وهي مقامات أهل الظاهر من الناسكين ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ ﴾ في ليالي البشرية ﴿ فِي مَا ﴾ في أيام الروحانية ﴿ آمِنِينَ ﴾ [ سبأ : 18 ] في خفارة الشريعة.

*(285/637)*

---

وقال بعض الفرقة الجديدة الكشفية : القرى المبارك فيها الأئمة رضي الله تعالى عنهم والقرى الظاهرة الدعاة إليهم والسفراء بينهم وبين شيعتهم ﴿ وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ بميلهم

إلى الدنيا وترك السير لسوء استعدادهم ﴿ حتى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ [ سبأ : 23 ] فيه إشارة إلى أن الهيبة تمنع الفهم ﴿ وَمَا أرسلناك ﴾ أي ما أخرجناك من العدم إلى الوجود ﴿ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ الأولين والآخرين ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ وهذا حاله عليه الصلاة والسلام في عالم الأرواح وفي عالم الأجساد ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [ سبأ : 28 ] إذ لا نور لهم يهتدون به ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيِّنَاتٍ قَالُواْ مَا هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءابَاؤُكُمْ ﴾ [ سبأ : 43 ] هؤلاء قطاع الطريق على عباد الله تعالى ومثلهم المنكرون على أولياء الله تعالى الذين ينفرون الناس عن الاعتقاد بهم واتباعهم ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ على نَفْسِى ﴾ إن النفس لأمارة بالسوء ﴿ وَإِنِ اهتديت فَبِمَا يُوحِى إِلَى رَبّى ﴾ [ سبأ : 50 ] من القرآن وفيه إشارة إلى أنه نور لا يبقى معه ديجور أو مراتب الاهتداء به متفاوتة حسب تفاوت الفهم الناشىء من تفاوت صفاء الباطن وطهارته ، وقد ورد أن للقرآن ظاهراً وباطناً ولا يكاد يصل الشخص إلى باطنه لا بتطهير باطنه كما يرمز إليه قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ [ الواقعة : 79 ] نسأل الله تعالى أن يوفقنا لفهم ظاهره وباطنه إلى ما شاء من البطون فإنه جل وعلا القادر الذي يقول للشيء كن فيكون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة سبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (1) يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (2)

الإعراب :

(للّه) متعلّق بخبر المبتدأ الحمد (الذي) في محلّ جرّ نعت للفظ الجلالة (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ما) ، (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة ما (ما في الأرض) مثل ما في السموات معطوف عليه (له الحمد) مثل له ما في السموات (في الآخرة) متعلّق بالحمد (الخبير) خبر ثان مرفوع . .

وجملة : " له ما في السموات . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " له الحمد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

الجدول ج 22 ، ص : 200

وجملة : " هو الحكيم . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

(2) (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به عامله يعلم (في الأرض) متعلّق بـ (يلج)، (ما) الثاني معطوف على ما الأول (منها) متعلّق بـ (يخرج)، (ما) الثالث معطوف على (ما) الأول (من السماء) متعلّق بـ (ينزل)، (ما) الرابع معطوف على (ما) الأول (فيها) متعلّق بـ (يعرج) . . . .

وجملة: "يعلم . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يلج . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثالث.

وجملة: "يخرج . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الرابع.

وجملة: "ينزل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الخامس.

وجملة: "يعرج . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) السادس.

وجملة: "هو الرحيم . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعلم " 1 " .

[سورة سبإ (34) : الآيات 3 إلى 4]

---

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل يعلم.

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ
ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (3)
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لا) نافية (بلى) حرف جواب لإثبات المنفيّ (الواو) واو القسم (ربّي) مجرور بـ (الواو) متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (اللام) لام القسم (تأتينّكم) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . . و(النون) نون التوكيد و(كم) ضمير مفعول به (عالم) نعت ل (ربّي) مجرور (لا) نافية (عنه) متعلّق بـ (يعزب) ، (في السموات) متعلّق بنعت لـ (ذرة) (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (في الأرض) مثل في السموات معطوف عليه (الواو) عاطفة (لا) مثل الأخيرة (أصغر) معطوف على مثقال مرفوع " 1 " ، وكذلك (لا أكبر) ، (إلّا) للحصر (في كتاب) متعلّق بحال من مثقال أو أصغر أو أكبر .

جملة : " قال الذين كفروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا تأتينا الساعة . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة : " (أقسم) بربيّ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تأتينّكم . . " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " لا يعزب عنه مثقال . . " حال مؤكّدة للضمير في عالم " 2 " .

(4) (اللام) لام التعليل (يجزي) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام . .

والمصدر المؤوّل (أن يجزي) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (تأتينّكم) .

(لهم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ مغفرة (رزق) معطوف على مغفرة . . .

---

(1) أو هو مبتدأ خبره إلّا في كتاب والجملة معطوفة على جملة لا يعزب .

(2) أو في محلّ نصب حال من ربّي .

*(288/637)*

---

وجملة : " يجزي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أولئك لهم مغفرة . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لهم مغفرة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

[سورة سبإ (34) : آية 5]

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (5)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (سعوا) ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين (في آياتنا) متعلّق بـ (سعوا) بحذف مضاف أي في إبطال آياتنا (معاجزين) حال منصوبة من فاعل سعوا (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ عذاب (من رجز) متعلّق بنعت لعذاب.

جملة: "الذين سعوا.." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "سعوا..." لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "أولئك لهم عذاب..." في محلّ رفع خبر المبتدأ الذين.

وجملة: "لهم عذاب..." في محلّ رفع خبر المبتدأ أولئك.

الصرف:

(معاجزين)، جمع معاجز، اسم فاعل من الرباعيّ عاجز، وزنه مفاعل بضمّ الميم وكسر العين.

[سورة سبإ (34): آية 6]

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ

(6)

الإعراب :

(289/637)

---

(الواو) استئنافيّة ، و(الواو) في (أوتوا) نائب الفاعل (الذي) موصول في محلّ نصب مفعول به لفعل الرؤية ، ونائب الفاعل للفعل (أنزل) ضمير مستتر تقديره هو ، وهو العائد (إليك) متعلّق بـ (أنزل) ، وكذلك (من ربّك) ، (هو) ضمير فصل (الحقّ) مفعول به ثان لفعل الرؤية (إلى صراط) متعلّق بـ (يهدي) ، (الحميد) نعت مجرور .

جملة : " يرى الذين . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أوتوا . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أنزل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يهدي . . " في محلّ نصب معطوف على الحقّ .

[سورة سبإ (34) : الآيات 7 إلى 8]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (7) أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ

(8)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (هل) حرف استفهام (على رجل) متعلّق بـ (ندلّكم)، (إذا) ظرف متضمن معنى الشرط " 1 " في محلّ نصب متعلّق بمضمون معنى: في خلق جديد أي تبعثون " 2 "، (كلّ) مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه أضيف إلى المصدر (اللام) المزحلقة للتوكيد (في خلق) متعلّق بخبر إنّ.

جملة: " قال الذين.. " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " كفروا.. " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: " هل ندلّكم.. " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " ينبّئكم.. " في محلّ جرّ نعت لرجل.

وجملة الشرط وفعله وجوابه.. لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: " مزّقتم.. " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " إنّكم لفي خلق.. " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل ينبّئكم.. أو سدّت مسدّ مفعولي الفعل الثاني والثالث، ولولا اللام في

---

(1) أو مجرّد من الشرط متعلّق بمحذوف تقديره: إنّكم تبعثون وتحشرون...

[. . . . . .]

(2) علّق بمحذوف ولم يتعلّق بخلق جديد لأن ما قبل (إنّ) لا يعمل به ما بعدها .

(290/637)

---

الخبر لفتحت همزة إنّ.

(8) - (الهمزة) للاستفهام، واستغني بها عن همزة الوصل (على اللّه) متعلّق بـ (افترى) ، (كذبا) مفعول به منصوب " 1 " ، (أم) حرف عطف (به) متعلّق بخبر مقدّم لمبتدأ جنّة (بل) للإضراب الانتقاليّ (لا) نافية (بالآخرة) متعلّق بـ (يؤمنون) المنفي (في العذاب) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ الذين . .

وجملة: " افترى . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول " 2 " .

وجملة: " به جنّة . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة افترى . .

وجملة: " الذين لا يؤمنون . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لا يؤمنون . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

الصرف:

(ممزّق) ، مصدر ميميّ للرباعيّ مزّق، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين .

البلاغة

الاسناد المجازي: في قوله تعالى " وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ " .

لأن البعيد صفة الضال إذا بعد عن الجادّة، وكلما ازداد عنها بعدا كان أضل .

[سورة سبإ (34) : آية 9]

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (9)

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر .

(2) أو هي مستأنفة إن كانت من قول السامعين المجيبين للكافرين .



---

الإعراب :

(الفاء) للاستفهام التقريعيّ (الفاء) عاطفة (إلى ما) متعلّق بـ (يروا) بمعنى ينظروا (بين) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (الواو) عاطفة (ما خلفهم) معطوف على ما بين ويعرب مثله (من السماء) متعلّق بحال من الموصولين (بهم) متعلّق بـ (نخسف) ، (عليهم) متعلّق بـ (نسقط) ، (من السماء) متعلّق بنعت لـ (كسفا) ، (في ذلك) متعلّق بخبر إنّ (اللام)

للتوكيد - هي لام الابتداء - (لكل) متعلّق بآية - أو بنعت لها - .

جملة: "لم يروا . . ." لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي:

أغفلوا فلم يروا .

وجملة: "إن نشأ . ." لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة: "نخسف . ." لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة: "نسقط . ." لا محلّ لها معطوفة على جملة نخسف .

وجملة: "إنّ في ذلك لآية . ." لا محلّ لها استئنافيّة فيها معنى التعليل .

[سورة سبإ (34) : الآيات 10 إلى 11]

وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10) أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (11)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (منّا) متعلّق بحال من (فضلا) وهو المفعول الثاني (جبال) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (معه) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف حال من الياء في (أوّبي) ، (الواو) واو المعيّة

الجدول ج 22 ، ص: 206

(الطير) مفعول معه منصوب "1" ، (له) متعلّق بـ (ألنّا) .

(11) جملة: "أتينا ... " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر.. وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة النداء: "يا جبال.. " في محلّ نصب مقول القول لفعل محذوف تقديره قلنا.

وجملة: "أوّبي معه ... " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "ألنّا.. " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتينا.

(أن) حرف تفسير " 2 "، (في السرد) متعلّق بـ (قدّر)، (صالحا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته " 3 " (ما) حرف مصدري " 4 ".

والمصدر المؤوّل (ما تعملون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق ببصير.

وجملة: "اعمل ... " لا محلّ لها تفسيريّة.

وجملة: "قدّر ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة اعمل.

وجملة: "اعملوا ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "إنّي.. بصير.. " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "تعملون ... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما).

الصرف:

(سابغات)، جمع سابغة، مؤنّث سابغ بمعنى واسع، وهو اسم فاعل من الثلاثيّ سبغ، وزنه فاعل.

(1) يجوز أن يكون معطوفا على (فضلا) بحذف مضاف أي وتسبيح الطير . . كما يجوز أن يكون مفعولا به لفعل محذوف تقديره سخّرنا الطير أو دعونا الطير تسبّح معه .

(2) يفسّر مقدّرا معنى القول دون حروفه أي أمرنا ، أن اعمل . . ويجوز أن يكون (أن) حرفا مصدريّا ، والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (ألنّا) ، أي : ألنّا له الحديد لعمل سابغات .

(3) أو مفعول به منصوب .

(4) أو اسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف ، والجملة صلة .



---

(السرد) ، مصدر سماعيّ لفعل سرد الثلاثيّ بمعنى نسج الدرع باب نصر وباب ضرب ، وثمّة مصدر آخر للفعل هو سراد زنة فعال بكسر الفاء .

الفوائد

- تابع المنادي :

1 - إذا كان تابع المنادي بدلا أو معطوفا ، عومل معاملة المنادي المستقل ، مثل :

(يا أبا خالد سعيد) (يا خالد وسعيد) (يا عبد اللّه وسعيد) فإن تحلّى المعطوف بـ (ال)

جاز فيه البناء على الضم اتباعا للفظ المعطوف عليه ، والنصب اتباعا للمحل . وذلك كما ورد في الآية التي نحن بصددها يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ يجوز في الطير الضم اتباعا للفظ الجبال ، ويجوز فيها النصب اتباعا لمحل الجبال .

(293/637)

---

2 - أما النعت وعطف البيان والتوكيد ، فيجب نصبها إذا كانت مضافة خالية من (ال)

مثل : (يا أحمد صاحب الدار) (يا عليّ أبا حسن) .

أما إذا كان هذا التابع محلّى بـ (ال) ، أو توكيدا غير مضاف ، فيجوز فيه النصب مراعاة للمحل ، والرفع مراعاة للفظ : (يا أحمد الكريم) (يا سليم سليما أو سليم) .

3 - تابع المنادي المنصوب منصوب دائما : (يا عبد اللّه الكريم) (يا عبد اللّه والنجار) .

[سورة سبإ (34) : الآيات 12 إلى 14]

وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ (12) يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ (13) فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ

مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (14)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (لسليمان) متعلّق بمحذوف تقديره سخّرنا (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (له) متعلّق بـ (أسلنا)، (من الجنّ) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (من) "1"، (بين) ظرف منصوب متعلّق بـ (يعمل) (بإذن) متعلّق بحال من فاعل يعمل (الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط مبتدأ (منهم) متعلّق بحال من فاعل يزغ (عن أمرنا) متعلّق بـ (يزغ)، (من عذاب) متعلّق بـ (نذقه).

جملة: "(سخّرنا) لسليمان..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "غدوّها شهر..." في محلّ نصب حال من الريح.

وجملة: "رواحها شهر..." في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال.

وجملة: "أسلنا..." لا محلّ لها معطوفة على جملة سخّرنا.

وجملة: "من الجنّ من..." لا محلّ لها معطوفة على جملة سخّرنا.

وجملة: "يعمل..." لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "من يزغ..." لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) أو متعلّق بمحذوف تقديره: سخّرنا، فيكون (من) مفعولا به للفعل المقدّر... أي: سخّرنا له من يعمل من الجنّ.

وجملة : " يزغ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " نذقه . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير مقترنة بالفاء .

(13) (له) متعلّق بـ (يعملون) ، (من محاريب) متعلّق بحال من العائد المقدّر للموصول أي : يشاء عمله (كالجواب) نعت لـ (جفان) (آل) منادى مضاف منصوب (شكرا) مفعول مطلق لفعل محذوف " 2 " منصوب (الواو) استئنافيّة (قليل) خبر مقدّم للمبتدأ (الشكور) ، (من عبادي) متعلّق بنعت لقليل .

وجملة : " يعملون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " اعملوا . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر .

وجملة : " قليل . . . الشكور " لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة .

(الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب دلّهم (عليه) متعلّق بـ (قضينا) ، (ما) نافية (على موته) متعلّق بـ (دلّهم) ، (إلّا) للحصر (دابّة) فاعل دلّ (فلمّا) مثل الأول متعلّق بـ (تبيّنت) (أن) مخفّفة من الثقيلة ، واسمها ضمير محذوف أي أنّهم

(لو) حرف شرط غير جازم (ما) نافية (في العذاب) متعلّق بـ (لبثوا) " 3 " .

وجملة : " قضينا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ما دلّهم . . . إلّا دابة . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(2) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر . . أو مصدر في موضع الحال . . أو مفعول لأجله . . . أو مفعول به لأن الشكر بمعنى الطاعة على المجاز .

(3) أو حال من فاعل لبثوا

(295/637)

---

وجملة : " تأكل . . . " في محلّ نصب حال من دابة الأرض .

وجملة : " خرّ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تبيّنت الجنّ . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : "كانوا يعلمون . . . " في محلّ رفع خبر أن .

والمصدر المؤوّل (أن لو كانوا . . . ) في محلّ نصب مفعول به .

وجملة : "يعلمون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

وجملة: " ما لبثوا . . . " لا محلّ لها جواب لو.

الصرف:

(غدوّها) مصدر غدا يغدو باب نصر وزنه فعول بضمتين وأدغمت واو فعول مع لام الكلمة.

(رواحها)، مصدر راح يروح، وزنه فعال بفتح الفاء.

(أسلنا)، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون، حذفت الألف الساكنة لمجيئها قبل اللام الساكنة.

(13) جفان: جمع جفنة اسم للقدر الكبيرة، وزنه فعلة بفتح فسكون، ووزنه جفان فعال بكسر الفاء.

(الجواب)، جمع جابية اسم للحوض الكبير يجمع فيه الماء، وزنه فاعله، ووزن جواب فعال بفتح الفاء.

(قدور) جمع قدر، اسم للماعون المعروف، وزنه فعل بكسر فسكون، ووزن قدور فعول بضمّ الفاء.

(راسيات)، جمع راسية مؤنّث رأس، اسم فاعل من الثلاثيّ رسا وزنه فاع - أعلّت الكلمة بسبب التقاء الساكنين - وزن راسية فاعلة.

(شكرا)، مصدر شكر الثلاثيّ، وزنه فعل بضمّ فسكون.

---

(14) الأرض: قد يراد بها الأرض المعروفة " 1 "، وقد يراد بها مصدر أرض يأرض باب فرح بمعنى أكل من قبل الأرضة وهي حشرات تقرض الخشب، وقد أضيف الدابة إلى المصدر فكأنه قيل دابّة الأكل، ووزن الأرض فعل بفتح فسكون.. والمعنى الأول أولى لأن مصدر الفعل على باب فرح يأتي على فعل بفتحتين ولا يأتي على فعل بفتح فسكون إلّا أن يكون من الباب الأول أو الخامس بمعنى كثر العشب في المكان.

(منسأة)، اسم آلة على وزن مفعلة من الثلاثيّ نسأ بمعنى طرد وزجر، وهو بمعنى العصا لأنها آلة الزجر.

البلاغة

التشبيه: في قوله تعالى "يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ".

حيث شبه القصاع الكبار بالحياض العظام في سعتها وصخامتها، وهذا من تشبيه المحسوس بالمحسوس، فالمشبه والمشبه به كلاهما محسوس.

الفوائد

- هل الجن يعلمون الغيب ؟

ذكر التاريخ أن الجن ، في عهد سليمان صلّى اللّه عليه وسلّم ، كانت تخبر الإنس بأنها تعلم الغيب ، فدعا سليمان (ص) ربه قائلا : اللهم عمّ على الجن موتي ، حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب . وكانت الجن تقول للإنس بأنهم يعلمون ما في غد ، ودخل سليمان (ص) المحراب كعادته ، وقام يصلي متكئا على عصاه ، فمات قائما ، وكان للمحراب كوى ، فكان الجن يعملون تلك الأعمال الشاقة التي كلفهم بها سليمان (ص) ، وينظرون إليه من الكوى ، ويحسبون أنه حي ، ولا ينكرون طول احتباسه عن الخروج إلى الناس ، لعادته في ذلك ، وطول صلاته . فمكثوا بعد موته زمنا

---

(1) انظر الآية (22) من سورة البقرة .



---

طويلا ، حتى أكلت الأرضة عصا سليمان ، فخرّ ميتا ، فعلموا بموته فعند ذلك علمت الجن أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في التعب والشقاء مسخرين لسليمان وهو ميت ويظنونه حيا . ذكر أهل التاريخ أن سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وبقي في الملك مدة أربعين سنة ، وشرع في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه ، وتوفي وهو ابن

ثلاث وخمسين.

[سورة سبإ (34) : الآيات 15 إلى 18]

لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (17) وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ (18)

الإعراب:

(الام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (لسبأ) متعلّق بخبر كان (في مسكنهم) متعلّق بحال من آية (جنتان) بدل من آية مرفوع " 1 " ، (عن يمين) متعلّق بنعت لـ (جنّتان) ، (من رزق) متعلّق بـ (كلوا) ، (له) متعلّق بـ (اشكروا) ، (بلدة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذه - أو هي - وكذلك (ربّ) وتقدير المبتدأ المنعم.

وجملة: "كان لسبأ ... " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر.

وجملة: "كلوا .... " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر.

وجملة: " اشكروا ... " في محلّ نصب معطوفة على جملة كلوا..

---

(1) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي.

وجملة : " (هذه) بلدة . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " (المنعم) ربّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

(16) (الفاء) عاطفة في الموضعين (عليهم) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (بجنّتيهم) متعلّق بـ (بدّلناهم) ، (جنّتين) مفعول به ثان عامله بدّلناهم (خمط) نعت لأكل مجرور مثله (أثل) معطوف على أكل بالواو مجرور وكذلك (شيء) ، (من سدر) متعلّق بنعت لشيء ، (قليل) نعت لسدر مجرور " 1 " .

وجملة : " أعرضوا . . . " معطوفة على جملة القول المقدّر .

وجملة : " أرسلنا . . . " معطوفة على جملة أعرضوا .

وجملة : " بدّلناهم . . . " معطوفة على جملة أعرضوا .

(17) (ذلك) اسم إشارة مفعول به ثان عامله جزيناهم (ما) حرف مصدري (الواو) عاطفة (هل) حرف استفهام فيه معنى النفي (إلّا) للحصر . . .

والمصدر المؤوّل (ما كفروا) في محلّ جرّ متعلّق بـ (جزيناهم) .

وجملة : " جزيناهم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " نجازي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جزيناهم .

(18) (الواو) عاطفة (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف مفعول ثان عامله جعلنا (بين) الثاني معطوف على الأول بحرف العطف (التي) موصول في محلّ جرّ نعت للقرى (فيها) متعلّق بـ (باركنا) ، والثاني متعلّق بـ (قدّرنا) ، والثالث متعلّق بـ (سيروا) ، (ليالي) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (سيروا) ، (آمنين) حال منصوبة على فاعل سيروا .

وجملة : " جعلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جزيناهم .

---

(1) أو نعت لأكل ، أو لأثل . [ . . . . . ]

الجدول ج 22 ، ص : 214

وجملة : " باركنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " قدّرنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلنا .

وجملة : " سيروا . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر .

الصرف :

(15) سبأ : انظر الآية (22) من سورة النمل .

(16) العرم : جمع عرمة زنة كلمة ، اسم لما يمسك الماء من بناء وغيره أي السدّ . . . أو هو اسم الوادي الذي بني فيه السد ، ووزن عرم فعل بفتح فكسر .

(ذواتي) ، مثّنى ذوات ، وهو اسم مفرد فيه إعلال لأن أصله ذوية - بفتح الذال والواو والياء - وهو مؤنّث ذو الذي أصله ذوي ، فلمّا تحرّكت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفا فصار ذوات ، وقد حذفت الواو تخفيفا فأصبح ذات . . . وفي التثنية يصحّ ذاتان - على الحذف - وذواتان على الأصل .

(خمط) ، اسم لكلّ شجر ذي شوك في طعمه مرارة - وقيل هو شجر الأراك - وقد استعمل اللفظ استعمال الصفة فوصف الأكل به ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(أثل) ، اسم لشجر يشبه الطرفاء لكنّه أعظم منها طولا ، فهو اسم جنس ، الواحدة أثلة ، ووزن أثل فعل بفتح فسكون .

(سدر) ، اسم جنس لنبات النبق ، وزنه فعل بكسر فسكون .

(18) السير : مصدر سار يسير باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

1 - المشاكلة : في قوله تعالى "جَنَّتَيْنِ" .

وفن المشاكلة : هو ذكر الشيء بلفظ غيره ، لوقوعه في صحبته .

فقد سمى البدل جنتين للمشاكلة ، وفيه نوع من التهكم بهم .

2 - التذييل : في قوله تعالى " ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ " الآية .

وفن التذييل : قسمان : الأول : ما جرى مجرى المثل ، والثاني : ما لم يخرج مخرج المثل ، وهو أن تكون الجملة الثانية متوقفة على الأولى في إفادة المراد ، أي وهل يجازي ذلك الجزاء المخصوص ، ومضمون الجملة الأولى أن آل سبأ جزاهم اللّه تعالى بكفرهم ، ومضمون الجملة الثانية أن ذلك العقاب المخصوص لا يقع إلا للكفور ، وفرق بين قولنا جزيته بسبب كذا ، وبين قولنا ولا يجزى ذلك الجزاء إلا من كان بذلك السبب ، ولتغايرهما يصح أن يجعل الثاني علة للأول ، ولكن اختلاف مفهومها لا ينافي تأكيد أحدهما بالآخر للزوم معنى .

3 - التنكير : في قوله تعالى " لَيَالِيَ وَأَيَّامًا " .



---

في تنكير ليالي وأياما إلماع إلى قصر أسفارهم ، فقد كانت قصيرة ، لأنهم يرتعون في بحبوحة من العيش ، ورغد منه ، لا يحتاجون إلى مواصلة الكد ، وتجشم عناء الأسفار ، للحصول على ما يرفه عيشهم .

الفوائد

- سبأ وسيل العرم :

عن فروة المرادي قال : لما أنزل في سبأ ما أنزل قال رجل : يا رسول اللّه ، وما سبأ أ أرض أم امرأة ؟ قال : ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب .

فتيامن منهم ستة ، وتشاءم منهم أربعة . فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وغسان وعاملة ، وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار . فقال رجل : يا رسول اللّه ، وما أنمار ؟ قال : الذين منهم خثعم وبجيلة . أخرجه الترمذي ، وقال حديث حسن غريب . وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان .

قال ابن عباس ووهب وغيرهما : كان لهم سدّ بنته بلقيس ، فأمرت بواديهم فسدّ بالصخر والقار بين الجبلين ، وجعلت لهم ثلاثة أبواب ، بعضها فوق بعض ، وبنت دونه بركة ضخمة ، وجعلت فيها اثني عشر مخرجا ، على عدة أنهار يفتحونها إذا احتاجوا للماء ، فإذا جاء المطر ، اجتمع عليهم ماء أودية اليمن ، فاحتبس السيل من وراء السد ، وكانوا يبدءون بالسقاية من الباب الأعلى ، ثم الأوسط ، ثم الأدنى ، فلا ينفد الماء حتى يمتلئ السد من مطر السنة المقبلة . فلما طغوا وكفروا ، غضب اللّه عليهم ، وهيّأ أسبابا أدت إلى انهيار سدهم ، ففاض الماء ، وخربت أرضهم وجنانهم ، وغرقوا ومزقوا كل ممزّق ، حتى صاروا مثلا عند العرب ، يقولون : (ذهبوا أيدي سبأ ، وتفرقوا أيادي سبأ) .

[سورة سبإ (34) : آية 19]

فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (19)

الإعراب:

(301/637)

---

(الفاء) عاطفة (ربّنا) منادى مضاف منصوب (بين) ظرف منصوب متعلّق بـ (باعد)، (أحاديث) مفعول به ثان بحذف مضاف أي:

ذوي أحاديث (كلّ) مفعول مطلق نائب عن المصدر منصوب (في ذلك) متعلّق بمحذوف خبر إنّ (اللام) للتوكيد (آيات) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الكسرة (لكلّ) متعلّق بآيات - أو بنعت لها -.

جملة: "قالوا ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة القول المقدّر "1".

وجملة النداء وجوابه ... في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "باعد ... " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "ظلموا ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا "2".

---

(1) في الآية السابقة (18)

(2) أو معطوفة على مقدّر أي: فبطروا النعمة وظلموا.. أو هي حال بتقدير قد.

*(302/637)*

---

وجملة: "جعلناهم..." لا محلّ لها معطوفة على جملة ظلموا.

وجملة: "مزّقناهم..." لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلناهم.

وجملة: "إنّ في ذلك لآيات..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

[سورة سبإ (34) : الآيات 20 إلى 21]

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (20) وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (21)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (عليهم) متعلّق بـ (صدّق) ، (الفاء) عاطفة (إلّا) للاستثناء (فريقا) مستثنى منصوب (من المؤمنين) متعلّق بنعت لـ (فريقا) .

جملة : " صدّق عليهم إبليس . . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اتّبعوه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صدّق .



---

(21) (الواو) حاليّة - أو عاطفة - (له) متعلّق بخبر كان (عليهم) متعلّق بحال من سلطان (سلطان) اسم كان مجرور لفظا مرفوع محلّا (إلّا) للحصر (لام) للتعليل (نعلم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (بالآخرة) متعلّق بـ (يؤمن) .

والمصدر المؤوّل (أن نعلم) في محلّ جرّ باللام متعلّق بسلطان .

(ممّن) متعلّق بـ (نعلم) بتضمينه معنى نميّز (منها) متعلّق بحال من شك (في شك) متعلّق بخبر المبتدأ هو ، (الواو) استئنافيّة (على كلّ) متعلّق بالخبر حفيظ .

وجملة : " ما كان . . . " في محلّ نصب حال من الضمير الفاعل في (اتبعوه) أو من إبليس " 1 " .

وجملة : " نعلم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الضمر .

وجملة : " يؤمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول .

وجملة: " هو منها في شك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني.

وجملة: " ربّك . . . حفيظ " لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة سبإ (34) : الآيات 22 إلى 23]

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (22) وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (23)

الإعراب:

(من دون) متعلّق بنعت للمفعول الثاني المقدّر لفعل زعمتم أي: زعمتموهم آلهة كائنة من دون الله (في السموات) متعلّق بـ (يملكون) " 2 " وكذلك (في الأرض) فهو معطوف على الأول و(لا) زائدة لتأكيد النفي (الواو) عاطفة (ما) نافية مهملة (لهم) متعلّق بخبر مقدّم (فيهما) متعلّق بحال من شرك " 3 "، (شرك) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (ما له منهم من ظهير) مثل ما لهم فيهما من شرك . . . والضمير في

---

(1) أو لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم.

(2) أو بمحذوف نعت لمثقال ذرة.

(3) أو متعلّق بالاستقرار الذي تعلّق به (لهم).

(له) يعود على اللّه ، وفي (منهم) يعود على الآلهة .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ادعوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " زعمتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا يملكون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - ليست من مقول القول - .

وجملة : " ما لهم . . . من شرك " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يملكون .

وجملة : " ما له . . . من ظهير " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يملكون .

(23) (الواو) عاطفة (لا) نافية (عنده) متعلّق بـ (تنفع) " 1 " ، (إلّا) للحصر (لمن) متعلّق بالشفاعة " 2 " ، (له) متعلّق بـ (أذن) ، (حتّى) حرف ابتداء (عن قلوبهم) نائب الفاعل لفعل فزّع (ما ذا) اسم استفهام في محلّ نصب مفعول به لفعل قال " 3 " ، (الحق) مفعول به لفعل محذوف . . . وهو في الأصل نعت لمنعوت محذوف والتقدير : قالوا قال القول الحق (الواو) استئنافيّة (الكبير) خبر ثان للمبتدأ هو .

---

(1) أو متعلّق بحال من الشفاعة .

(2) أو هو بدل من المستثنى منه – وإلّا أداة استثناء – بإعادة الجار أي لا تنفع الشفاعة لأحد إلا لمن . . . والمستثنى منه المقدّر يجوز أن يكون هو المشفوع له والشافع محذوف يدلّ عليه سياق الكلام أي : لا تنفع الشفاعة لأحد من المشفوع لهم إلّا لمن أذن تعالى للشافعين أن يشفعوا فيه . . ويجوز أن يكون هو الشافع والمشفوع له محذوف أي لا تنفع الشفاعة إلّا لشافع أذن له أن يشفع .

(3) أو (ما) اسم استفهام مبتدأ (ذا) اسم موصول خبر والعائد محذوف أي قاله ربّكم والجملة الاسميّة مقول القول .

*(305/637)*

---

وجملة : " لا تنفع الشفاعة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يملكون .

وجملة : " أذن له . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " فزّع عن قلوبهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة الشرط وفعله وجوابه لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " قال ربّكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة: " قالوا (الثانية) " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " (قال) الحقّ . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " هو العليّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(شرك)، اسم بمعنى المشارك أو الشريك من (شركه يشركه) باب فرح وزنه فعل بكسر الفاء وسكون العين.

[سورة سبإ (34): آية 24]

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (24)

الإعراب:

(من) اسم استفهام مبتدأ (من السموات) متعلّق ب (يرزقكم)، (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع خبره محذوف دلّ عليه الكلام المتقدّم أي: اللّه رازقكم (الواو) عاطفة (أو) حرف عطف للإبهام (إيّاكم) ضمير منفصل في محلّ نصب معطوف على الضمير المتّصل اسم إنّ (اللام) المزحلقة (على هدى) متعلّق بخبر إنّ (في ضلال) مثل على هدى معطوف عليه ب (أو).

جملة: " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

الجدول ج 22 ، ص : 221

وجملة : " من يرزقكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يرزقكم " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " قل (الثانية) . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " اللّه (رازقكم) " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّا . . . لعلى هدى . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة اللّه (رازقكم) .

البلاغة

1 - الاستدراج : في قوله تعالى " وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ " .

(306/637)

---

حيث استدرج الخصم ، واضطره إلى الإذعان والتسليم ، والعزوف عن المكابرة واللجاج فإنه لما ألزمهم الحجة ، خاطبهم بالكلام المنصف ، الذي يقال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك ، ونحوه قول الرجل لصاحبه : قد علم اللّه تعالى الصادق مني ومنك ، وإن أحدنا لكاذب .

2 - المخالفة في الحروف : في قوله تعالى " وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ " في

هذه الآية مخالفة بين حرفي الجر ، فإنه إنما خولف بينهما في الدخول على الحق والباطل ، لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركض به حيث شاء ، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه .

[سورة سبإ (34) : آية 25]

قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25)

الإعراب :

(لا) نافية ، والواو في (تسألون) نائب الفاعل (عمّا) متعلّق بـ (تسألون) ، والثاني متعلّق بـ (نسأل) ، ونائب الفاعل لفعل (نسأل) ضمير مستتر تقديره نحن .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا تسألون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أجرمنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسميّ أو الحرفيّ .

وجملة : " نسأل . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني وهو كالأول .

[سورة سبإ (34) : آية 26]

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26)

الإعراب :

(بيننا) ظرف منصوب متعلّق بـ (يجمع) ، والثاني متعلّق بـ (يفتح) ، (بالحقّ) بـ (يفتح) بتضمينه معنى يحكم (الواو) استئنافيّة (العليم) خبر ثان للمبتدأ هو .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يجمع . . . ربّنا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يفتح . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

*(307/637)*

---

وجملة : " هو الفتّاح . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(الفتّاح) ، صيغة مبالغة من الثلاثيّ فتح وزنه فعّال .

[سورة سبإ (34) : آية 27]

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

الإعراب :

(به) متعلّق بـ (ألحقتم) ، (شركاء) حال من العائد

المحذوف أي ألحقتموهم به شركاء " 1 " ، ممنوع من التنوين لإلحاقه بالاسم الممدود على

وزن فعلاء ، بضمّ ففتح ، (كلّا ) حرف حرف ردع وزجر (بل) للإضراب الانتقاليّ (هو) ضمير الجلالة مبتدأ ، (اللّه) خبر مرفوع (العزيز) نعت للفظ الجلالة مرفوع (الحكيم) نعت ثان مرفوع.

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " أروني . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " ألحقتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " هو اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

البلاغة

المجاز : في قوله تعالى " أَرُونِيَ " :

لم يرد من " أروني " حقيقته ، لأنه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم كان يراهم ويعلمهم ، فهو مجاز وتمثيل.

[سورة سبإ (34) : آية 28]

وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (28)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما ) نافية (إلّا ) للحصر (كافّة) حال من الناس منصوبة " 2 " ، (للناس) متعلّق بفعل أرسلناك ، واللام بمعنى

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا ثالثا لفعل الرؤية، والرؤية علميّة والمفعول الأول ياء المتكلم، والثاني الموصول.

(2) هذا التوجيه ردّه الزمخشري بدعوى عدم جواز مجيء الحال من المجرور المؤخّر عنها ولكنّ بعض النحويين أجازه كابن عطيّة.. وأعربه الزمخشريّ مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر لأنه صفته أي: أرسلناك رسالة كافّة للناس أي: عامّة لهم محيطة بهم... وأجاز الزجاج أن يكون (كافّة) حالا من الكاف في



---

لأجل " 1 "، (بشيرا) حال من ضمير المخاطب منصوبة (الواو) عاطفة (لا) نافية.

جملة: " ما أرسلناك إلّا... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لكنّ أكثر الناس... " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: " لا يعلمون... " في محلّ رفع خبر لكنّ.

فوائد

- تقدّم الحال وتأخّرها:

مرتبة الحال بعد صاحبها وبعد عاملها، تقول (جاء أخوك ضاحكا). ويجوز تقدمها على

أحدهما ، أو عليهما ، فتقول : (جاء ضاحكا أخوك) . أو (ضاحكا جاء أخوك . ولهذا الجواز قيود :

1 - تتأخر عن صاحبها وجوبا إذا كانت محصورة ، كما مر في الآية الكريمة التي نحن بصددها وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ كما تقدم هي وجوبا إذا حصر صاحبها ، مثل (ما جاء ضاحكا إلا أنت) وإذا كان صاحبها مضافا إليه فإنها تتأخر وجوبا ، مثل (أعجبني موقف أخيك معارضا ) ، وإذا كان مجرورا - عند الأكثرين - مثل (مررت بها مسرورة) .

2 - وتتأخر عن عاملها وجوبا إذا لم يكن فعلا متصرفا ، أو كان اسم تفضيل ، مثل : (بئس المرء كاذبا ) (أخوك خيركم كريما ) ، وكذلك إذا كان عاملها مقترنا بما له الصدارة مثل : لام الابتداء أو لام القسم ، مثل (لأنت مصيب موافقا ) (لأبقينّ صابرا ) ، أو كان صلة لـ (ال) أو لحرف مصدري ، أو مصدرا مؤولا ، مثل : (أنت السيد متواضعا )

---

(أرسلناك) ، والتاء للمبالغة أي جامعا للناس ، فهو اسم فاعل من (كفّ) بمعنى جمع . .

ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال على وزن فاعل كالعاقبة ، جاء للمبالغة أو بحذف مضاف أي : ذا كافّة .

(1) أو متعلّق بكافّة إذا أعرب حالا من كاف الخطاب . .

(يعجبني أن تقف محاميا) (يسوءني انقلابك خائنا) .

والحال المؤكدة لعاملها، والجملة المقترنة بواو الحال، لا تتقدمان على عاملهما مثل: (ولّى مدبرا) (جئت والشمس مشرقة) .

[سورة سبإ (34) : آية 29]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (29)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (متى) اسم استفهام في محلّ نصب ظرف زمان متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ هذا (الوعد) بدل من الإشارة - أو عطف بيان - مرفوع (كنتم) فعل ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط . .

جملة: "يقولون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "متى هذا الوعد . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "كنتم صادقين" لا محلّ لها اعتراضيّة بين السؤال والجواب . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي الاستفهام قبله.

[سورة سبإ (34) : آية 30]

قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (30)

الإعراب:

(لكم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ ميعاد (لا) نافية (عنه) متعلّق بـ (تستأخرون) ، (ساعة) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تستأخرون) ، (لا تستقدمون) مثل لا تستأخرون.

جملة: "قل..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لكم ميعاد..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "لا تستأخرون..." في محلّ رفع نعت لميعاد - أو في

الجدول ج 22، ص: 226

محلّ جرّ نعت ليوم.

وجملة: "لا تستقدمون" معطوفة على جملة لا تستأخرون.

[سورة سبإ (34) : آية 31]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة – أو عاطفة – (بهذا) متعلّق بـ (نؤمن) ، (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (بالذي) متعلّق بـ (نؤمن) معطوف على (بهذا) ، (بين) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة الموصول (الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (إذا) ظرف مستعار للزمن المستقبل متعلّق بـ (ترى) لتحقّق الرؤية (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (موقوفون) ، (إلى بعض) متعلّق بـ (يرجع) ، والواو في (استضعفوا) نائب الفاعل (للذين) متعلّق بـ (يقول) ، (لولا) حرف شرط غير جازم (أنتم) ضمير منفصل مبتدأ خبره محذوف وجوبا تقديره موجودون (اللام) رابطة لجواب لولا .

جملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لن نؤمن . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لو ترى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب لو محذوف تقديره لرأيت عجبا . . ومفعول ترى محذوف أي ترى حال الظالمين .

---

(1) أو معطوفة على جملة يقولون في الآية (29) من هذه السورة .

وجملة: "الظالمون موقوفون... " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "يرجع بعضهم... " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (الظالمون) "1".

وجملة: "يقول الذين... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "استضعفوا... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني.

وجملة: "استكبروا... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث.

وجملة: "لولا أنتم... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "كنّا مؤمنين" لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

الصرف:

(موقوفون)، جمع موقوف اسم مفعول من الثلاثيّ وقف، وزنه مفعول.

[سورة سبإ (34): آية 32]

قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (32)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام الإنكاري (عن الهدى) متعلّق بـ (صددناكم)، (بعد) ظرف منصوب متعلّق بفعل صددناكم (بل) للإضراب الانتقاليّ.

جملة: " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " استكبروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

---

(1) أو في محلّ نصب حال من الضمير في (موقوفون). [. . . . . .]

(312/637)

---

وجملة: " استضعفوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني.

وجملة: " نحن صددناكم " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " صددناكم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (نحن).

وجملة: " جاءكم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "كنتم مجرمين " لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة سبإ (34) : آية 33]

وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (33)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة – أو عاطفة – (قال الذين . . . استكبروا) مثل نظيرها المتقدّمة " 1 "

، (بل) للإضراب (مكر) مبتدأ مرفوع والخبر محذوف تقديره صادّ ، " 2 " (إذ) ظرف

للزمن الماضي متعلّق بمكر (أن) حرف مصدري . .

والمصدر المؤوّل (أن نكفر . . . ) في محلّ نصب مفعول به عامله تأمروننا .

(باللّه) متعلّق بـ (نكفر) ، (نجعل) معطوف على (نكفر) منصوب

---

(1) في الآية السابقة (32) .

(2) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره سبب كفرنا . . ويجوز أن يكون فاعلا لفعل

محذوف تقديره صدّنا . .



---

مثله (له) متعلّق بمفعول به ثان (الواو) عاطفة (لمّا) ظرف فيه معنى الشرط في محلّ نصب

متعلّق بالجواب المقدّر (رأوا) ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء

الساكنين . . والواو فاعل (في أعناق) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (هل) حرف استفهام

فيه معنى النفي ، والواو في (يجزون) نائب الفاعل (إلّا) للحصر (ما) حرف مصدريّ " 1 "

. .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا يعملون) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف تقديره بما كانوا . . .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " استضعفوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " استكبروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " مكر الليل . . . (صدّ) " لا محلّ لها استئناف بيانيّ ، ومقول القول محذوف تقديره لم نكن مجرمين بل . . .

وجملة : " تأمروننا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " نكفر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " نجعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نكفر .

وجملة : " أسروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال الذين . . . " 3 " .

وجملة : " رأوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجواب الشرط

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ بحرف الجرّ المحذوف والعائد محذوف .

(2) أو معطوفة على جملة قال الذين في الآية (32) السابقة .

(3) أو في محلّ نصب حال من الذين استضعفوا واستكبروا .

محذوف دلّ عليه ما قبله.

وجملة: "جعلنا ... " في محلّ جرّ معطوفة على جملة رأوا ...

وجملة: "كفروا ... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث.

وجملة: "هل يجزون ... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليل لما سبق - .

وجملة: "كانوا يعملون ... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

وجملة: "يعملون" وفي محلّ نصب خبر كانوا.

الصرف:

(الندامة)، مصدر سماعيّ للثلاثيّ ندم باب فرح، وزنه فعالة بفتح الفاء، وثمّة مصدر آخر للفعل هو ندم بفتحتين.

[سورة سبإ (34): الآيات 34 إلى 35]

وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (34) وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (في قرية) متعلّق بـ (أرسلنا) بتضمينه معنى بعثنا (نذير) مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به (إلّا) للحصر (إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (بما)

متعلّق بـ (كافرون) ، وضمير المخاطب في (أرسلتم) نائب الفاعل (به) متعلّق بـ (أرسلتم) .

جملة : " ما أرسلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قال مترفوها . . " في محلّ نصب حال من قرية " 1 " .

---

(1) الذي سوّغ مجيء الحال من النكرة كونها في سياق النفي .

الجدول ج 22 ، ص : 231

وجملة : " إنّا . . . كافرون " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أرسلتم به " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(35) (الواو) عاطفة (أموالا) تمييز منصوب (ما) نافية عاملة عمل ليس (نحن) اسم ما (معذّبين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما . . وعلامة الجرّ (الياء) .

وجملة : " قالوا . . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة قال مترفوها .

وجملة : " نحن أكثر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما نحن بمعذّبين " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

[سورة سبإ (34) : آية 36]

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (36)

الإعراب :

(لمن) متعلّق بـ (يبسط) ، (الواو) عاطفة في الموضعين (لا) نافية . . .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ ربّي يبسط . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يبسط . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(315/637)

---

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يقدر . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول .

وجملة : " لكنّ أكثر الناس . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " لا يعلمون . . " في محلّ رفع خبر لكنّ .

[سورة سبإ (34) : آية 37]

وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (37)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفيّ

(التي) اسم موصول محله القريب الجرّ ومحلّه البعيد النصب خبر ما (عندنا) ظرف منصوب متعلّق بحال من (زلفى) وهو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مرادفه، منصوب (إلّا) أداة استثناء (من) اسم موصول في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع (صالحا) مفعول مطلق منصوب " 1 " نائب عن المصدر فهو صفته (الفاء) استئنافيّة (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ جزاء (ما) حرف مصدريّ " 2 "، (الواو) عاطفة (في الغرفات) متعلّق بـ (آمنون).

جملة: " ما أموالكم... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " تقرّبكم.. " لا محلّ لها صلة الموصول التي.

وجملة: " آمن... " لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: " عمل... " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمن.

وجملة: " أولئك لهم جزاء... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لهم جزاء... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك).

وجملة: " عملوا... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

والمصدر المؤوّل (ما عملوا...) في محلّ جرّ بـ (الباء) متعلّق بجزاء.

---

(1) أو مفعول به منصوب.

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف، والجملة صلة الموصول.

وجملة : " هم . . . آمنون . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر .

الصرف :

(زلفى) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ زلف باب نصر وزنه فعلى بضمّ فسكون بمعنى القربة ، وثمّة مصدران آخران هما الزلف بفتح فسكون ، والزلف بفتحتين .

البلاغة

الالتفات : في قوله تعالى " وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى " .

التفات من الغيبة إلى الخطاب ، بكلام مستأنف من جهته عز وجل ، خوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات ، مبالغة في تحقيق الحق وتقرير ما سبق .

[سورة سبإ (34) : الآيات 38 إلى 39]

وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (38) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (في آياتنا) متعلّق بـ (يسعون) بحذف مضاف أي في إبطال آياتنا

(معاجزين) حال منصوبة من فاعل يسعون (في العذاب) متعلّق بالخبر محضرون " 1 " .

جملة : " الذين يسعون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يسعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أولئك في العذاب . . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ . الذين .

(قل إنّ ربّي . . . يشاء) مرّ إعرابها " 2 " ، (من عباده) متعلّق بحال من العائد المقدّر أي

:

---

(1) يجوز أن يتعلّق بخبر محذوف ، ومحضرون خبر ثان .

(2) في الآية (36) من هذه السورة .



---

من يشاء رزقه من عباده (له) متعلّق بـ (يقدر) ، (الواو) عاطفة (ما) اسم شرط جازم في

محلّ نصب مفعول به مقدّم (أنفقتم) في محلّ جزم فعل الشرط (من شيء) متعلّق بحال من ما

" 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط و(الواو) حاليّة أو عاطفة .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " إنّ ربّي يبسط " . في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " يبسط . . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: " يقدر . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يبسط.

وجملة: " أنفقتم . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

وجملة: " هو يخلفه . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: " يخلفه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو).

وجملة: " هو خير . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة هو يخلفه " 2 " .

[سورة سبإ (34) : آية 40]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ (40)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (يوم) ظرف مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (جميعا) حال منصوبة من ضمير الغائب في (يحشرهم) ، (للملائكة) متعلّق بـ (يقول) و(الهمزة) للاستفهام (إيّاكم) ضمير منفصل في محلّ نصب مفعول به مقدّم عامله (يعبدون).

جملة: " (اذكر) يوم . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يحشرهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

---

(1) أو تمييز له .

(2) أو في محلّ نصب حال من فاعل يخلفه .

الجدول ج 22 ، ص : 235

وجملة : " يقول . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يحشرهم .

وجملة : " هؤلاء . . . كانوا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كانوا يعبدون . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هؤلاء) .

وجملة : " يعبدون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

[سورة سبإ (34) : الآيات 41 إلى 44]

(318/637)

---

قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (41) فَالْيَوْمَ
لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها
تُكَذِّبُونَ (42) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ
يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَقالُوا ما هذا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ
سِحْرٌ مُبِينٌ (43) وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44)

الإعراب :

(سبحانك) مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب (من دونهم) متعلّق بحال من ضمير المتكلّم في وليّنا " 1 " ، (بل) للإضراب الانتقاليّ (بهم) متعلّق بـ (مؤمنون) .

وجملة : " قالوا . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (نسبّح) سبحانك . . " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " أنت وليّنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كانوا يعبدون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "يعبدون الجنّ . . . " في محلّ نصب خبر كانوا . .

---

(1) المضاف إليه هنا معمول للمضاف فهو مفعوله ، فجاز مجيء الحال منه .



---

وجملة : " أكثرهم بهم مؤمنون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - (42) (الفاء) عاطفة (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يملك) المنفيّ (لا) نافية (لبعض) متعلّق بـ (يملك) بتضمينه معنى يقدّم " 1 " ، (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (للذين) متعلّق بـ (نقول) ، (التي) اسم موصول في محلّ جرّ نعت للنار (بها ) متعلّق بـ (تكذّبون) .

وجملة: "لا يملك بعضكم.." لا محلّ لها معطوفة على جملة كانوا...

وجملة: "نقول..." لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يملك.

وجملة: "ظلموا..." لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "ذوقوا..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "كنتم بها تكذّبون" لا محلّ لها صلة الموصول (التي).

وجملة: "تكذّبون.." في محلّ نصب خبر كنتم.

(43) (الواو) استئنافيّة (عليهم) متعلّق بـ (تتلى)، (آياتنا) نائب الفاعل مرفوع (بيّنات) حال منصوبة من آياتنا (ما) نافية مهملة (إلّا) للحصر (رجل) خبر هذا مرفوع (أن) حرف مصدريّ (عمّا) متعلّق بـ (يصدّكم)، واسم (كان) ضمير مستتر وجوبا يعود على (آباؤكم)، ففي الكلام تنازع.

والمصدر المؤوّل (أن يصدّكم..) في محلّ نصب مفعول به عامله يريد.

(ما هذا إلّا إفك) مثل ما هذا إلّا رجل (مفترى) نعت لإفك مرفوع (للحقّ) متعلّق بـ (قال) بتضمينه معنى فعل يتعدّى باللام "2"، (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب المقدّر (إن) حرف نفي

---

(1) أو متعلّق بحال من (نفعا). [.....]

(2) أو هي بمعنى (في) أي قالوا في الحقّ أي في أمره..

الجدول ج 22 ، ص : 237

(إلّا) للحصر (سحر) خبر هذا مرفوع.

وجملة : " تتلى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " ما هذا إلّا رجل . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يريد . . . " في محلّ رفع نعت لرجل .

وجملة : " يصدّكم . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " كان يعبد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يعبد آباؤكم . . . " في محلّ نصب خبر كان .

وجملة : " قالوا . . . (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا :

(الأولى) .

وجملة : " ما هذا إلا إفك . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قال الذين . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " جاءهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجواب الشرط محذوف أي لمّا جاء الحقّ قال الذين كفروا . . .

وجملة : " إن هذا إلّا سحر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

(44) (الواو) استئنافيّة (ما) نافية (كتب) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به ثان (ما) مثل الأولى (إليهم) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (قبلك) ظرف منصوب متعلّق بـ (أرسلنا) (نذير) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به عامله أرسلنا .

وجملة : " ما آتيناهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يدرسونها . . . " في محلّ جرّ - أو نصب - نعت لكتب .

وجملة : " أرسلنا . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما آتيناهم .

البلاغة

التكرير : في قوله تعالى " وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ " .

ففي تكرير الفعل وهو قولهم ، والتصريح بذكر الكفرة ، وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه ، وما في " لما " من المسارعة إلى البت بهذا القول الباطل ، إنكار عظيم له وتعجيب بليغ منه ، وذلك للدلالة على مدى السخط عليهم ، والزراية بأقدارهم ، والتعجب من ارتكاس عقولهم ، ونبوها عن الحق ، وطمسها لمعالمه .

[سورة سبإ (34) : آية 45]

وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (45)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (من قبلهم) متعلّق بمحذوف صلة الموصول الذين (الواو) حاليّة (ما) نافية ، والثانية اسم موصول في محلّ جرّ مضاف إليه ، والمفعول الثاني لفعل آتيناهم محذوف (الفاء) عاطفة في الموضعين (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب خبر كان (نكير) اسم كان مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم المحذوفة لمراعاة فواصل الآيات ...

جملة : " كذّب الذين من قبلهم .. " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة " 1 " .

وجملة : " ما بلغوا ... " في محلّ نصب حال " 2 " .

وجملة : " آتيناهم ... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " كذّبوا ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّب الذين ...

---

(1) في الآية السابقة (44) .

(2) يجوز أن تكون اعتراضيّة فلا محلّ لها .

وجملة: "كان نكير . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة أي:

لّما كذّبوا رسلي جاءهم إنكاري بالعقوبة فكيف كان نكير . . أي: كان إنكاري في محلّه.

الصرف:

(معشار)، اسم بمعنى العشر أو عشر العشر، وقال بعضهم لفظ يعادل عشر العشير - والعشير هو عشر العشر - وزنه مفعال، لم يبق من ألفاظ العدد على هذا الوزن غيره وغير المرباع.

[سورة سبإ (34) : آية 46]

قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (46)

الإعراب:

(بواحدة) متعلّق بـ (أعظكم) بتضمينه معنى أوصيكم (أن) حرف مصدريّ ونصب (للّه) متعلّق بـ (تقوموا).

والمصدر المؤوّل (أن تقوموا) في محلّ جرّ بدل من واحدة" 1 ".

(مثنى) حال منصوبة من فاعل تقوموا (تتفكّروا) منصوب معطوف على تقوموا (ما) نافية (بصاحبكم) متعلّق بخبر مقدّم (جنّة) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (إن) حرف

نفي (إلّا) للحصر (لكم) متعلّق بالخبر نذير " 2 " ، (بين) ظرف منصوب متعلّق بنذير " 3 "

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّما أعظكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تقوموا . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " تتفكّروا . . . " لا محل لها معطوفة على جملة تقوموا . .

---

(1) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي ، والجملة نعت لواحدة .

(2 ، 3) أو متعلّق بنعت محذوف لنذير .



---

وجملة : " ما بصاحبكم من جنّة . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل التفكّر المعلّق بالنفي .

وجملة : " إن هو إلّا نذير . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

البلاغة

الطباق : في قوله تعالى " مَثْنى وَفُرادى " .

طباق بديع ، أتى به احترازا من القيام جماعة ، لأن في الاجتماع تشويشا للخواطر ، وعمى للبصائر ، دون التأمل والاستغراق في التفكير ، أما قيامهم مثنى وفرادى فيتيح لهم أن

يفكروا ويعملوا الروية ، فإن تبين الحق للاثنين جنح كل فرد إلى إعمال رأيه .

[سورة سبإ (34) : آية 47]

قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (47)

الإعراب :

(ما) اسم شرط جازم في محلّ نصب مفعول به مقدّم ثان (سألتكم) في محلّ جزم فعل الشرط (من أجر) متعلّق بحال من ما " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لكم) متعلّق بخبر المبتدأ هو (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر (على اللّه) متعلّق بخبر المبتدأ أجري (الواو) عاطفة (على كلّ) متعلّق بالخبر شهيد .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما سألتكم من أجر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " هو لكم . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " إن أجري إلّا على اللّه . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول للبيان .

---

(1) أو هو تمييز (ما) .

وجملة: " هو . . . شهيد " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة الأخيرة.

[سورة سبإ (34) : آية 48]

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (48)

الإعراب:

(بالحقّ) متعلّق بـ (يقذف) و(الباء) سببيّة " 1 "، (علّام) خبر ثان مرفوع.

جملة: " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " إنّ ربّي . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " يقذف . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

[سورة سبإ (34) : آية 49]

قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ (49)

الإعراب:

(الواو) عاطفة - أو اعتراضيّة - والثانية عاطفة (ما) نافية في الموضعين، وفاعل (يعيد) يعود على الباطل.

جملة: " قل . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " جاء الحقّ . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " ما يبدئ الباطل . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة جاء الحقّ " 2 ".

وجملة : " ما يعيد . . " معطوفة على جملة ما يبدئ، تأخذ إعرابها .

---

(1) أو متعلّق بحال من مفعول يقذف المقدّر و(الباء) للملابسة . . ويجوز أن تكون (الباء) للاستعانة فيتعلّق بـ (يقذف) أي : يقذف الباطل بالحقّ، أو (الباء) زائدة والفعل مضمّن معنى يلقي أو يرسل كقوله ولا تلقوا بأيديكم . . أو يضمّن الفعل معنى يحكم ويقضي . .

(2) أو اعتراضيّة إذا لم يكن الكلام من مقول القول، أو اسم موصول والعائد محذوف .

الجدول ج 22، ص : 242

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى " وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ " .

أي ذهب واضمحل، بحيث لم يبق له أثر، مأخوذ من هلاك الحي، وأنه إذا هلك لم يبق له إبداء - أي فعل ابتداء - ولا إعادة - أي فعله ثانيا - كما يقال : لا يأكل ولا يشرب، أي ميت . فالكلام كناية عما ذكر، أو مجاز متفرع على الكناية .

[سورة سبإ (34) : آية 50]

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (50)

الإعراب :

(ضللت) في محلّ جزم فعل الشرط (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّما) كافّة ومكفوفة

(على نفسي) متعلّق بـ (أضلّ) ، (اهتديت) مثل ضللت (الفاء) رابطة لجواب الشرط

(ما) حرف مصدريّ (إليّ) متعلّق بـ (يوحي) .

والمصدر المؤوّل (ما يوحي . .) في محلّ جرّ بـ (الباء) متعلّق بمحذوف خبر ، والمبتدأ مقدّر تقديره اهتدائي .

جملة : " قل . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .



---

وجملة : " إن ضللت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّما أضلّ . . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " إن اهتديت . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة ضللت .

وجملة : " يوحي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " (يوحي) ربّي (اهتدائي) " في محلّ جزم جواب الشرط الثاني مقترنة بالفاء .

وجملة : " إنّه سميع . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة -

[سورة سبإ (34) : الآيات 51 إلى 54]

وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (51) وَقالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ

مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (52) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (53) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (54)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (إذ) ظرف أستعير للمستقبل متعلّق بـ (ترى) " 1 " ، ومفعول ترى محذوف تقديره حالهم (الفاء) تعليليّة (لا) نافية للجنس (فوت) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب ، والخبر محذوف أي لا فوت لهم (الواو) عاطفة (من مكان) متعلّق بـ (أخذوا . . .) .

جملة : " ترى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف تقديره لرأيت أمرا عظيما . .

وجملة : " فزعوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لا فوت (لهم) . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " أخذوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة فزعوا .

(52) (به) متعلّق بـ (آمنّا) ، (الواو) اعتراضيّة (أنّى) اسم استفهام في محلّ نصب على الظرفية - وفيه معنى كيف - متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ التناوش (لهم) متعلّق بحال من التناوش ، والعامل فيها الاستقرار .

وجملة : " قالوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة فزعوا . .

(1) لتحقّق الوقوع . .



وجملة : " آمنّا به . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنّى لهم التناوش . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

244

(53) (الواو) حاليّة (قد) حرف تحقيق (به) متعلّق بـ (كفروا) ، (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (كفروا) ، (الواو) عاطفة (بالغيب) متعلّق بـ (يقذفون) بتضمينه معنى يرجمون أو يرمون (من مكان) متعلّق بـ (يقذفون) .

وجملة : "كفروا . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في (به) أو من الفاعل في (قالوا) .

وجملة : "يقذفون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة كفروا . .

(54) (الواو) عاطفة في الموضعين ، ونائب الفاعل لفعل (حيل) ضمير مستتر يعود على مصدر الفعل أي حيل الحول " 1 " (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (حيل) ، (بين) الثاني معطوف على الأول (ما) اسم موصول في محلّ جرّ مضاف إليه ، (ما) الثاني كذلك (بأشياعهم) متعلّق بـ (فعل) ، (كما) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله حيل أي حيل

حولا كالذي فعلناه بأشياعهم (من قبل) مثل الأول، متعلّق بنعت لأشياعهم "2"، (في شكّ) متعلق بخبر كانوا . . .

وجملة: "حيل بينهم . . . "في محلّ جرّ معطوفة على جملة فزعوا . .

وجملة: "يشتهون . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول.

وجملة: "فعل . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني.

وجملة: "إنّهم كانوا . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "كانوا في شكّ . . "في محلّ رفع خبر إنّ.

---

(1) أو نائب الفاعل هو الظرف، وحينئذ يكون مبنيّا على الفتح في محلّ رفع.

(2) أو متعلّق بـ (فعل).

*(326/637)*

---

الصرف:

(فوت)، مصدر سماعيّ لفعل فات يفوت باب نصر، وزنه فعل بفتح فسكون، وثمّة مصدر آخر هو فوات زنة فعال بفتح الفاء.

(52) التناوش: مصدر قياسيّ للخماسيّ تناوش، وزنه تفاعل بفتح التاء وضمّ العين

. . معناه التناول والتطاعن بالرماح وغيرهما . . وقيل بمعنى الرجعة أو التوبة .

(54) حيل : فيه إعلال بالقلب أصله حول بضمّ الحاء وكسر الواو - الألف في حال أصلها واو - ثمّ نقلت حركة الواو إلى الحرف قبلها لثقلها على الواو - إعلال بالتسكين - ثمّ قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .

(أشياعهم) ، جمع شيع زنة فعل بكسر ففتح ، وشيع جمع شيعة . .

انظر الآية (65) من سورة الأنعام ووزن أشياع أفعال . . .

البلاغة

التمثيل : في قوله تعالى " وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ " .

والمراد تمثيل حالهم ، في الاستخلاص بالايمان ، بعد ما فات عنهم وبعد ، بحال من يريد أن يتناول الشيء ، بعد أن بعد عنه وفات ، في الاستحالة .

فوائد

- أوجه مخالفة (لا) النافية للجنس لـ (إنّ) :

تخالف (لا) النافية للجنس (إن) في سبعة أوجه هي :

1 - لا تعمل (لا) إلا في النكرات ، مثل (لا كاذب محبوب) ، بخلاف إن 2 - يكون اسمها مبنيا ، إذا لم يكن مضافا ولا شبيها بالمضاف ، كقوله تعالى :

يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ .

3 – أن ارتفاع خبرها عند إفراد اسمها نحو : (لا رجل قائم) بما كان مرفوعا به قبل دخولها

، لا بها . وهذا القول لسيبويه وخالفه الأخفش والأكثرون ، ولا خلاف بين البصريين في أن

ارتفاعه بها إذا كان اسما عاملا .

الجدول ج 22 ، ص : 246

4 – أن خبرها لا يتقدم على اسمها قبل مضي الخبر وبعده .

5 – أنه يجوز مراعاة محلها مع اسمها ، قبل مضي الخبر وبعده ، فيجوز رفع النعت

والمعطوف عليه ، نحو (لا رجل ظريف فيها ) و(لا رجل وامرأة فيها ) .

6 – يجوز إلغاؤها إذا تكررت ، نحو (لا حول ولا قوة إلا بالله) . ولك فتح الاسمين ورفعهما

والمخالفة بينهما .

*(327/637)*

---

7 – أنه يكثر حذف خبرها ، كما في الآية التي نحن بصددها (وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ)

أي فلا فوت لهم ، وكذلك قوله تعالى قالُوا : لا ضَيْرَ أي لا ضير علينا ، وتميم لا تذكر الخبر

حينئذ . انتهى انتهى . اهـ ﴿الجدول حـ 22 صـ 199 . 246﴾

*(328/637)*

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(34) سورة سبإ

مكيّة وآياتها اربع وخمسون

[سورة سبإ (34) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (1) يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (2) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (3) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (5) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (6)

اللغة :

(يَعْزُبُ : ) في المصباح : " وعزب الشيء من بابي قتل وضرب غاب وخفي " وفي الأساس : " يقال : عزب عنه حلمه وأعزب حلمه كقولك أضل بعيره وأعزب اللّه عقلك وروض

عازب وعزيب ومال عزب وجشر ولا يكون الكلأ العازب إلا بفلاة حيث لا زرع ، وفلان معزاب ومعزابة لمن عزب بإبله ، ويقال عزب ظهر المرأة إذا أغابت ، ومن المستعار قول النابغة :

وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

ولك أن تقول امرأة عزبة والمعزابة الذي طالت عزوبته وتمادت ويقال ليس لفلان امرأة تعذبه أي تذهب بعزوبته " وفي القاموس :

"

(329/637)

---

العزب محركة من لا أهل له كالمعزابة والعزيب ولا تقل أعزب أو قليل جمعه أعزاب وهي عزبة وعزب والاسم العزبة والعزوبة بضمتين والفعل كنصر وتعزّب ترك النكاح والعزوب الغيبة يعزب ويعزب والذهاب " ومن غريب أمر العين والزاي أنهما إذا كانتا فاء وعينا للكلمة دلت على معنى الذهاب والبعد والانفراد والغلبة وفي الحديث : من قرأ القرآن في أربعين ليلة فقد عزّب أي أبعد العهد بأوله . وعز الرجل صار عزيزا أي أبعد عن غيره بصفاته حتى سما عليهم وعز الشيء قلّ فكاد لا يوجد وعز عليّ أن أسوءك أي اشتد

وغلب وتقول للرجل : أتحبني ؟ فيقول لعزّما ولشدّما واستعزّ به المرض أي غلب واشتد .

وتعزز لحم الناقة اشتد وصلب " فعززنا بثالث "

أي قوينا وعزّز بهم أي شدد عليهم ولم يرخّص ومنه حديث عمر رضي اللّه عنه : أن قوما اشتركوا في صيد فقالوا له : أعلى كلّ واحد منا جزاء أم جزاء واحد ؟ فقال : إنه لمعزّز بكم إذن بل عليكم جزاء واحد . وعزف عن الشيء عافه وزهد فيه والعزف صوت الرياح وصوت الدف تقول : فلان ألهاه ضرب المعازف عن ضروب المعازف ، وسلكت مفازة فيها للجن عزيف . وعزله يعزله من باب ضرب عن كذا نحاه عنه وعزل فلانا عن منصبه : نحاه عنه وصرفه وتقول : مالي أراك في معزل عن أصحابك ؟ وأنا بمعزل عن هذا الأمر واعتزلت الباطل وتعزلته قال الأحوص :

يا بيت عاتكة الذي أتعزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل

وأعوذ باللّه من الأعزل على الأعزل أي من الرجل الذي لا سلاح معه على الفرس المعوج العسيب فهو يميل ذنبه إلى شق قال امرؤ القيس :

ضليع إذا استدبرته سدّ فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

واعتزم الفرس في عنانه إذا مرّ جامحا لا ينثني ، قال :

سبوح إذا اعتزمت في العنان مروح ململمة كالحجر

وعزمت على الأمر واعتزمت عليه ولا يكون ذلك إلا عن شدة وغلبة وهو عزهاة عن اللهو والنساء إذا لم يردهنّ وابتعد عنهنّ ، قال :



---

إذا كنت عزهاة عن اللهو والصبا فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا

وعزا الشيء أو فلانا إلى فلان نسبه ورفعه إليه ، وإن فلانا ليعزى إلى الخير ويعتزي اليه وهذا الحديث يعزى إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ورأيتهم حوله عزين أي جماعات . وهذا من أسرار لغتنا الشريفة .

(رِجْزٍ) : بكسر الراء وضمها العذاب أو سيئه والإثم والذنب والقذر .

الاعراب :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) الحمد مبتدأ وللّه خبره والذي نعت وله خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر وفي السموات صلة وما في الأرض عطف على ما في السموات . (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) الواو عاطفة وله خبر مقدم والحمد مبتدأ مؤخر وفي الآخرة حال وهو مبتدأ والحكيم خبر أول والخبير خبر ثان . (يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها ) لك أن تجعلها جملة خبرية فتكون خبرا ثالثا لهو كأنها

تفصيل لبعض ما يحيط به علمه تعالى من الأمور المتعلقة بمصالح العباد الدينية والدنيوية ولك أن تجعلها حالا مؤكدة ولك أن تجعلها مستأنفة مسوقة لتقرير ما تقدم . ويعلم فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره هو يعود على اللّه تعالى وما مفعول به وجملة يلج صلة وفي الأرض متعلقان بيلج وما يخرج عطف على ما يلج في الأرض . (وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ)

(331/637)

---

عطف على ما تقدم وضمن العروج معنى الاستقرار فعدّاه بفي دون إلى . (وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ) الواو استئنافية وقال الذين فعل وفاعل وجملة كفروا صلة ولا نافية وتأتينا الساعة فعل مضارع ومفعول به وفاعل وقل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وبلى حرف جواب لاثبات النفي أي ليس الأمر إلا إتيانها وربي : الواو حرف قسم وجر وربي مجرور بواو القسم ، أكد إيجاب النفي بما هو الغاية في التأكيد والتشديد وهو القسم باللّه عز وجل واللام جواب للقسم وتأتينكم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والكاف مفعول به وهو تأكيد ثالث .

(عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ) عالم صفة لربي أو بدل

ويجوز أن يرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أو مبتدأ وخبره جملة لا يعزب وقد قرئ بهما وجملة لا يعزب إما خبر أو حال وعنه متعلقان بيعزب ومثقال ذرة فاعل وفي السموات حال ولا في الأرض عطف على في السموات. (وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) الواو عاطفة ولا نافية وأصغر من ذلك مبتدأ ومن ذلك خبر ولا أكبر عطف على ولا أصغر وإلا أداة حصر وفي كتاب مبين خبر أصغر ولك أن تنسق الكلام فتعطف ولا أصغر على مثقال ويكون في كتاب في محل نصب على الحال والأول أولى. (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) ليجزي اللام للتعليل ويجزي فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجارّ والمجرور متعلقان بتأتينكم كأنه علة وبيان لما يقتضيه إتيانها أو بقوله لا يعزب فكأنه قال يحصي ذلك ليجزي والذين مفعول به وجملة آمنوا



---

صلة الذين وعملوا الصالحات عطف على آمنوا وأولئك مبتدأ ولهم خبر مقدم ومغفرة مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر أولئك ورزق عطف على مغفرة وكريم صفة.

(وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ) الواو إما عاطفة فيكون الذين منسوقا على ما قبله أي ويجزي الذين سعوا ويجوز أن تكون استئنافية فيكون الذين

مبتدأ وجملة سعوا صلة وفي آياتنا متعلقان بسعوا على تقدير مضاف أي في إبطال آياتنا بالطعن فيها أو وصفها بالسحر والشعر وغير ذلك ومعاجزين حال ، قال الراغب : " أصل معنى العجز التأخر لكون المتأخر خلف عجز السابق أو عنده ثم تعورف فيما هو معروف ظاهرا فالمراد هنا بالمعاجزة التأخر المسبوق بتقدم السابق ومعنى المفاعلة غير مقصود هنا إذ المقصود السبق وعدم قدرة غيرهم عليهم لغلبتهم وذلك كله بناء على مزاعمهم الفاسدة وأهوائهم المتخيلة . وأولئك مبتدأ ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مستأنفة على الوجه الأول أو خبر الذين على الوجه الثاني ومن رجز صفة لعذاب وأليم صفة ثانية . (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ) ويرى في موضع الرفع على أنه مستأنف أو في موضع النصب فهو منسوق على يجزي والذين فاعل يرى وجملة أوتوا العلم صلة والذي مفعول يرى الأول لأنها قلبية وجملة أنزل صلة وإليك متعلقان بأنزل ومن ربك حال أو متعلقان بأنزل أيضا وهو ضمير فصل لا محل له والحق هو المفعول الثاني ليرى .

(وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) ويهدي عطف على الحق وساغ العطف لأن الفعل في تأويل الاسم كأنه قيل وهاديا ولك أن

تجعل الواو حالية والجملة في محل نصب على الحال ويجوز أن تكون مستأنفة وفاعل يهدي ضمير مستتر يعود على الذي أنزل إليك وإلى صراط متعلقان بيهدي والعزيز مضاف إلى

صراط والحميد نعت .

البلاغة :

(333/637)

---

1- في قوله " الحمد للّه " التعبير بالجملة الاسمية يفيد الاستمرار والثبوت ، والحمد لغة الوصف بالجميل الاختياري على قصد التعظيم ، والوصف لا يكون إلا باللسان فيكون مورده خاصا ، وهذا الوصف يجوز أن يكون بإزاء نعمة وغيرها فيكون متعلقه عاما ، والشكر اللغوي على العكس لكونه فعلا ينبىء عن تعظيم المنعم من حيث أنه منعم على الشاكر فيكون مورده اللسان والجنان والأركان ومتعلقه النعمة الواصلة إلى الشاكر فكل منهما أعم وأخص من الآخر بوجه ، ففي الفضائل حمد فقط وفي أفعال القلب والجوارح شكر فقط وفي فعل اللسان بإزاء الانعام حمد وشكر .

2- شكر المنعم واجب أم لا :

قال الأشاعرة : شكر المنعم ليس بواجب أصلا ومثلوها بتمثيل فقالوا : ليس مثله إلا كمثل الفقير حضر مائدة ملك عظيم يملك البلاد شرقا وغربا ، ويعم البلاد وهبا ونهبا ، فتصدق عليه بلقمة خبز فطفق يذكره في المجامع ويشكره عليها بتحريك أنملته دائما لأجله فإنه يعد

استهزاء بالملك فكذا هنا بل اللقمة بالنسبة إلى الملك وما يملكه أكثر مما أنعم اللّه به على العبد بالنسبة إلى اللّه ، وشكر العبد أقل قدرا في جنب اللّه من شكر الفقير بتحريك أصابعه . وقالت المعتزلة : التمثيل

المناسب للحال أن يقال : إذا كان في زاوية الخمول وهاوية الذهول رجل أخرس اللسان مشلول اليدين والرجلين فاقد السمع والبصر بل جميع الحواس الظاهرة والمشاعر الباطنة فأخرجه الملك من تلك الهاوية وتلطف عليه بإطلاق لسانه وإزالة شلل أعضائه ووهب له الحواس لجلب المنافع ودفع المضار ورفع رتبته على كثير من أتباعه وخدمه ثم إن ذلك الرجل بعد وصول تلك النعم الجليلة اليه وفيضان تلك التكريمات عليه طوى عن شكر ذلك الملك كشحا وضرب عنه صفحا ولم يظهر منه ما ينبىء عن الاعتناء بشيء من غير فرق بين وجودها وعدمها فلا ريب أنه مذموم بكل لسان ، مستحق للإهانة والخذلان .



---

[سورة سبإ (34) : الآيات 7 إلى 9]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (7) أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ

(8) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ
أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (9)

الإعراب :

(وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) الواو استئنافية وقال الذين فعل وفاعل وجملة كفروا صلة أي قال بعضهم لبعض وهل حرف استفهام وندلكم فعل مضارع وفاعل



مستتر ومفعول به وعلى رجل متعلقان بندلكم والمراد به محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وسيأتي سر تنكيره في باب البلاغة ، وجملة ينبئكم صفة لرجل وإذا ظرف مستقبل متعلق بمحذوف تقديره تبعثون أو تحشرون خلقا جديدا ولا يجوز تعليقه بينبئكم لأن التنبئة لم تقع ذلك الوقت ولا بمزقتم لأنه مضاف اليه والمضاف إليه لا يعمل في المضاف ، ولا بجديد لأن إن ولام الابتداء يمنعان من ذلك لأن لهما الصدر ، وأيضا فالصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف ولا يسوغ أن يقال قدرها خالية من معنى الشرط فتغني عن جوابها وتكون معمولة لما قبلها وهو قال أو ندلكم أو ينبئكم لأن هذه الأفعال لم تقع وقت التمزيق فلا تكون

إذا ظرفا لها إذ لا يقال لهم بعد تمزيقهم وإنما وقعت حال حياتهم ، وكان الرجل من الكفار يقول لأصحابه استهزاء بالنبي صلى اللّه عليه وسلم : هل أدلكم على رجل . . . إلخ.

ومزقتم فعل ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل وكل ممزق مفعول مطلق لأن كلّا بحسب ما تضاف إليه وقد أضيفت إلى ممزق وهو مصدر ميمي بمعنى تمزيق ، وأجاز الزمخشري أن يكون اسم مكان قال : " فإن قلت قد جعلت الممزق مصدرا كبيت الكتاب :

ألم تعلم مسرحي القوافي فلا عيا بهن ولا اجتلابا

فهل يجوز أن يكون مكانا ؟ قلت نعم ومعناه ما حصل في بطون الطير وما مرت به السيول فذهبت به كل مذهب وما سفته الريح فطرحته في كل مطرح" وعلى هذا يكون كل ظرف مكان. (إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) إن وما بعدها سدت مسد مفعولي ينبئكم وإنما كسرت همزتها لدخول اللام المزحلقة في خبرها وان واسمها واللام المزحلقة



---

المؤكدة وفي خلق خبر إن وجديد صفة خلق وهو فعيل بمعنى فاعل وقيل بمعنى مفعول.

(أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ) الهمزة للاستفهام واستغنى بها عن همزة الوصل في التوصل للنطق بالساكن وعلى الله متعلقان بافترى وكذبا مفعول افترى وأم حرف عطف

معادل لهمزة الاستفهام وبه خبر مقدم وجنة مبتدأ مؤخر أي جنون .

(بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ) بل حرف عطف وإضراب والذين مبتدأ وجملة لا يؤمنون صلة وبالآخرة متعلقان بيؤمنون وفي العذاب خبر المبتدأ والضلال عطف على العذاب والبعيد نعت للضلال وسيأتي معنى هذا النعت في باب البلاغة .

(أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ) كلام مستأنف مسوق لتهويل ما اجترءوا عليه وقالوه والهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء عاطفة على محذوف يقدر بحسب المقام أي أعموا فلم يروا أو أن الهمزة مقدمة على حرف العطف وقد تقدم تقرير هذا ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ويروا فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والى ما متعلقان بيروا والظرف متعلق بمحذوف صلة ما وأيديهم مضاف إليه وما خلفهم عطف على ما بين أيديهم ومن السماء حال والأرض عطف على السماء .

(إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ) إن شرطية ونشأ فعل الشرط ونخسف جوابه وبهم متعلقان بنخسف والأرض مفعول به وأو حرف عطف ونسقط عطف على نخسف وعليهم متعلقان بنسقط وكسفا مفعول به ومن السماء صفة لكسفا .

(إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) إن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام

المزحلقة وآية اسمها المؤخر ولكل عبد صفة لآية ومنيب صفة لعبد .

البلاغة :

(337/637)

---

المجاز العقلي في قوله " والضلال البعيد " لأن البعد وصف الضال إذا بعد عن الجادة المستقيمة وكلما أوغل في البعد عنها أوغل في الضلال .

[سورة سبإ (34) : الآيات 10 إلى 13]

وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10) أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (11) وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ (12) يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ (13)

اللغة :

(أَوِّبِي) : فعل أمر من التأويب والأوب أي رجعي معه التسبيح أو راجعي معه في التسبيح

لأنه إذا رجعه فقد رجع فيه .

(سابِغاتٍ) : دروعا واسعة ضافية .

(وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ) : السرد نسج الدرع قال في الأساس :

" سرد النعل وغيرها خرزها ، قال الشماخ يصف حمرا :

شككنا باحساء الذناب على هوى كما تابعت سرد العنان الخوارز

أي تتابعن على هوى الماء . وثقب الجلد بالمسرد والسّراد وهو الأشفى الذي في طرفه خرق وسرد الدرع إذا شك طرفي كل حلقتين وسمرهما ودرع مسرودة ولبوس مسرّد "

وقال أبو الطيب يصف قميصه :

مفرشي صهوة الحصان ولكن قميصي مسرودة من حديد



---

المسرودة المنسوجة من الحديد وهي الدروع . ومعنى التقدير في السرد أي لا تجعل المسامير دقاقا فتقلق ولا غلاظا فتفصم الحلق والمراد جعل السرد على قدر الحاجة ، وذهب الخطيب في تفسيره مذهبا طريفا قال : " قوله تعالى : وقدر في السرد أي انك غير مأمور به أمر إيجاب وإنما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة وباقي الأيام

والليالي للعبادة فقدر في ذلك العمل ولا تشتغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل فيه القوت فحسب " ولكن سياق الحديث يبعد هذا التأويل لأنه في صدد الحديث عن الدروع ونسجها وأحكامها وتقدير صنعها .

وفي المختار : " سرد الدرع أي نسجها وهو إدخال الحلق بعضها في بعض يقال سرد الدرع سردا من باب نصر " .

(غُدُوُّها) : سيرها غدوة وهي ما بين الفجر وطلوع الشمس ، يقال : غدا يغدو غدوا ذهب غدوة ويستعمل بمعنى صار فيرفع المبتدأ وينصب الخبر .

(رَواحُها) : سيرها في الرواح أي العشي .

(الْقِطْرِ) : بكسر القاف النحاس المذاب وسيأتي سر تسميته بعين القطر في باب البلاغة .

(مَحارِيبَ) : المحاريب : المساكن والابنية الشريفة المصونة عن الابتذال سميت محاريب لأنه يذب عنها ويحارب عليها ثم نقل إلى الطاق التي يقف الامام فيها وهي مما أحدث في المساجد والمفرد محراب .

(تَماثِيلَ) : جمع تمثال وهو الصورة المصوّرة أو هو ما تصنعه وتصوره مشبها بخلق اللّه من ذوات الروح والصورة ، روي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما .

(جِفانٍ) : جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة .

(كَالْجَوَابِ) جمع جابية وهي الحوض الكبير وسمي جابية لأن الماء يجبى فيه أي يجمع، قال الأعشى يمدح المحلق:

نفى الذم عن آل المحلق جفنة كجابية السيح العراقي تفهق

(339/637)

---

الجفنة قصعة الثريد والجابية الحوض يجبي الماء أي يجمعه إلى الحوض والسيح الماء الكثير الجاري وفهق يفهق كفرح يفرح اتسع وامتلأ حتى يتصبب، قيل كان يقعد على الجفنة ألف رجل.

(قُدُورٍ راسِياتٍ): القدور جمع قدر بكسر القاف وهو إناء يطبخ فيه، وراسيات ثابتات لها قوائم لا تتحرك عن أماكنها.

الاعراب:

(وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا) الواو استئنافية واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وآتينا داود فعل ماض وفاعل ومفعول به ومنا متعلقان بآتينا أو بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لفضلا وفضلا مفعول به ثان. (يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) جملة النداء معمول قول محذوف أي وقلنا، وأجاز الزمخشري أن تكون بدلا من

فضلا ويا حرف نداء وجبال منادى نكرة مقصودة وأوّبي فعل أمر مبني على حذف النون والياء فاعل ومعه ظرف مكان متعلق بأوّبي والطير عطف على محل جبال وهو النصب وقرىء بالرفع عطفا على اللفظ وسيأتي حكم المنسوق على المنادى في باب الفوائد ، وألنّا عطف على آتينا وألنّا فعل ماض وفاعل وله

متعلقان بألنّا والحديد مفعول به . (أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ) أن مصدرية مؤولة بما بعدها بمصدر منصوب بنزع الخافض أي لأن أعمل واختار أبو البقاء أن تكون مفسرة وتبعه الجلال وهذا مردود لأن شرط أن المفسرة أن يتقدم عليها ما هو بمعنى القول دون حروفه وقدر بعضهم فعلا فيه معنى القول فقال : التقدير أمرناه أن اعمل ، وسابغات صفة لمفعول به محذوف أي دروعا سابغات ، والسابغات الكوامل الواسعات ، وقدر فعل أمر وفي السرد متعلقان بقدر .

)



---

وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) واعملوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وصالحا مفعول به أو صفة لمفعول مطلق محذوف أي عملوا عملا صالحا وإن واسمها

وبما تعملون متعلقان ببصير وبصير خبر إن. ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾ الواو عاطفة ولسليمان متعلقان بالفعل المحذوف أي وسخرنا لسليمان الريح فالريح مفعول للفعل المحذوف وذلك على قراءة النصب وعلى قراءة الرفع هي مبتدأ مؤخر ولسليمان خبر مقدم وجملة غدوها شهر المؤلفة من المبتدأ والخبر حال من الريح وقيل هي مستأنفة وجملة ورواحها شهر عطف عليها. ﴿وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ عطف على سخرنا المقدرة وأسلنا فعل ماض وفاعل وله متعلقان بأسلنا وعين القطر مفعول به. ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ لك أن تعلق من الجن بفعل مقدر تقديره وسخرنا له فتكون من مفعولا به للفعل المقدر ولك أن تجعل الجار والمجرور خبرا مقدما فتكون مبتدأ مؤخرا وجملة يعمل صلة وبين يديه الظرف متعلق بيعمل وبإذن ربه متعلقان بمحذوف حال. ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ﴾

الواو عاطفة ومن اسم شرط جازم مبتدأ ويزغ فعل الشرط ومنهم حال وعن أمرنا متعلقان بيزغ ونذقه فعل الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر المبتدأ ومن عذاب السعير متعلقان بنذقه.

)

يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ) الجملة بدل من يعمل لتفصيل ما ذكر من عملهم وله متعلقان بيعملون وما مفعول به وجملة يشاء صلة ومن محاريب في موضع الحال من مفعول يشاء المحذوف أي يشاؤه ومنعت محاريب من الصرف لأنها جمع على صيغة منتهى الجموع وتماثيل عطف على محاريب وجفان عطف أيضا وكالجواب صفة لجفان وحذفت ياء الجواب في خط القرآن وقدور راسيات عطف أيضا. (اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ) كلام مستأنف مسوق للمنة على آل داود واعملوا فعل أمر وفاعل وآل داود منادى محذوف منه حرف النداء وشكرا مفعول لأجله أي لأجل الشكر وقيل مصدر من معنى اعملوا كأنه قيل اشكروا شكرا أو على الحال أي شاكرين وأجاز الزمخشري أن ينتصب باعملوا مفعولا به ومعناه إنا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم فاعملوا أنتم شكرا على طريق المشاكلة والواو حالية وقليل خبر مقدم والشكور مبتدأ مؤخر ومن عبادي صفة لقليل.

الفوائد:

لتابع المنادى أقسام أربعة:

1- ما يجب نصبه مراعاة لمحل المنادى وهو ما اجتمع فيه أمران أحدهما أن يكون التابع نعتا أو بيانا أو توكيدا، والثاني أن يكون التابع مضافا مجردا من ال.

2- ما يجب رفعه مراعاة للفظ المنادى وهو تابع أي وتابع اسم الاشارة .

3- ما يجوز رفعه ونصبه وهو نوعان أحدهما النعت المضاف المقرون بأل ، والثاني ما كان مفردا من نعت أو بيان أو توكيد أو كان معطوفا مقرونا بأل ومنه الآية التي نحن بصددها .

4- ما يعطي تابعا ما يستحقه إذا كان منادى مستقلا وهو البدل والمنسوق المجرد من أل فيضم ان كان مفردا وينصب ان كان مضافا .

[سورة سبإ (34) : آية 14]

(342/637)

---

فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ (14)

اللغة :

(مِنْسَأَتَهُ) : المنسأة مفعلة اسم آلة وهي العصا لأنه ينسأ بها أي يطرد ويؤخر كالمكنسة والمكسحة والمقعصة وقرأ نافع وأبو عمرو وجماعة منساته بألف .

الاعراب :

(فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ) الفاء استئنافية

ولما ظرفية حينية أو رابطة متضمنة معنى الشرط وجملة قضينا مضاف إليها الظرف على الوجه الأول ونا فاعل

(343/637)

---

و عليه متعلقان بقضينا والموت مفعول به وما نافية ودلهم فعل ماض ومفعول به وعلى موته متعلقان بدلهم وإلا أداة حصر ودابة الأرض فاعل دلهم والجملة لا محل لها لأنها جواب لما على الوجهين ودابة الأرض هي الدويبة التي يقال لها السرقة فأضيفت إليه يقال أرضت الخشبة أرضا إذا أكلتها الأرضة وجملة تأكل منسأته حال من دابة الأرض . (فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ) الفاء عاطفة ولما تقدم القول فيها قريبا وخرّ فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو يعود على سليمان وجملة تبينت الجن جواب لما لا محل لها وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ولو شرطية وجملة كانوا خبر أن وأن وما في حيزها بدل اشتمال من الجن على حد قولك تبين زيد جهله ، وقدره أبو البقاء بدلا من محذوف أي تبين أمر الجن وهو أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ، وأجاز أيضا أن يكون موضع أن وصلتها النصب أي تبينت الجن جهلها ولا مانع من هذين التقديرين ، وجملة يعلمون الغيب خبر كانوا وجملة ما لبثوا لا محل لها لأنها جواب لو وفي العذاب

متعلقان بلبثوا والمهين صفة للعذاب .

الفوائد :

أفاض المفسرون في الحديث عن قصة وفاة سليمان مما يخرج بنا عن نطاق كتابنا ولكننا نورد بعضا مما قيل في دابة الأرض لعلاقته باللغة ، ويتلخص مما أوردوه أن فيها وجهين :

أظهرهما ما قدمناه في باب البلاغة من أنها الدويبة التي تأكل الخشب وفي القاموس والتاج :

" والدابة ما دبّ من الحيوان وغلب على ما يركب ويقع على المذكر ، ودابة الأرض من أشراط الساعة أو أولها تخرج بمكة من جبل الصفا

*(344/637)*

---

ينصدع لها والناس سائرون إلى منى أو من الطائف أو بثلاثة أمكنة ثلاث مرات معها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام تضرب المؤمن بالعصا وتطبع وجه الكافر بالخاتم فينتقش فيه هذا كافر " والثاني أن الأرض مصدر قولك أرضت الدابة الخشبة تأرضها أرضا بفتح عين المصدر وقد قرأ بها ابن عباس والعباس ابن الفضل وقد تقدم البحث في حركة عين فعل الثلاثي فجدد به عهدا .

[سورة سبإ (34) : الآيات 15 إلى 19]

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (19)

اللغة :

(الْعَرِمِ) : لم نجد كلمة اختلف فيها المفسرون كهذه الكلمة



---

ولذلك ، سنورد ما نختاره من أقوال ثم نعمد إلى الترجيح بينها ونبدأ بما ذكره صاحب القاموس قال في مادة عرام : " عرام الجيش حدتهم وشدتهم وكثرتهم ومن العظم والشجر العراق وما سقط من قشر العوسج ومن الرجل الشراسة والأذى ، عرم كنصر وضرب وكرم وعلم عرامة وعراما بالضم فهو عارم وعرم اشتد والصبي علينا أشر ومرح أو بطر أو

فسد ويوم عارم نهاية في البرد وعرم العظم نزع ما عليه من لحم كتعرّمه والصبي أمه رضعها والإبل الشجر نالت منه وفلانا أصا به بعرام وعرم العظم كفرح فتر والعرم محركة والعرمة بالضم سواد مختلط ببياض في أي شيء كان أو هو تنقيط بهما من غير أن تتسع كل نقطة وبياض بمرمة الشاة وهو أعرم وهي عرماء وبيض القطا عرم والعرماء الحية الرّقشاء والأعرم المتلون والأبرش والقطيع من ضأن ومعزى والأقلف والجمع عرمان وجمع الجمع عرامين والعرمة محركة رائحة الطبيخ والكدس المدوس لم يذرّ ومجتمع الرمل وأرض صلبة تتاخم الدّهناء ويقابلها عارض اليمامة وكفرحه سد يعترض به الوادي والجمع عرم أو هو جمع بلا واحد أو هو الأحباس تبنى في الأودية والجرذ الذكر والمطر الشديد وواد وبكل فسر قوله تعالى : سيل العرم " واختار الجلال أن يكون العرم جمع عرمة وهو ما يمسك الماء من بناء وغيره إلى وقت حاجته وهذا ما نعبر عنه اليوم بالسدود وهو أولى ما تفسر به الآية وقد يحدث تصدع السدود وانهيارها بأسباب مختلفة .

(ذَواتا ) : مثنى ذوات أو ذات ولفظ ذوات مفرد لأن أصله ذوية فالواو عين الكلمة والياء لامها لأنه مؤنث ذو وذو أصله ذوى فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفا فصار ذوات ثم حذفت

الواو تخفيفا فعندما يراد تثنيته يجوز أن ينظر للفظه فيقال ذاتان ويجوز أن ينظر إلى أصله فيقال ذواتان .

هذا وذات مؤنث ذو ومثناها ذواتان والجمع ذوات ويعرب المؤنث والمثنى والجمع إعراب نظيره من الأسماء المفردة والمثناة والمجموعة ، يقال لقيته ذات يوم أو ذات ليلة أو ذات مرة أي يوما ما ومرة ما ، وكان ذلك ذات العويم أي السنة الماضية وجلس ذات اليمين أي عن اليمين ولقيته أول ذات يدين أي بادىء بدء وذات الصدر الفكر أو السر وذات اليمين أي جهتها وذات البين : الحال يقال أصلحوا ذات بينكم أي حالكم التي تجتمعون عليها وذات شفة كلمة يقال : كلمته فما ردّ عليّ ذات شفة وذات اليد ما تملكه يقال : قلّت ذات يده أي ما ملكت يده ويقال ألقت الدجاجة ذات بطنها أي باضت أو سلحت وذات الجنب عند الأطباء : التهاب يحدث في غلاف الرئة فيحدث منه سعال وحمى ونخس في الجنب وذات الرئة وذات الصدر وذات الكبد علل فيها ، والذات أيضا : ما يصلح لأن يعلم ويخبر عنه وذات الشيء : نفسه وعينه وجوهره واسم الذات عند النحاة ما علق على ذات كالرجل والأسد ويقابله اسم المعنى كالعلم والشجاعة ، والذوات عند المولدين : أكابر القوم .

(أُكُلٍ خَمْطٍ) : الأكل بضمتين وبضم فسكون الثمر أو ما يؤكل والخمط المر والحامض يقال

خمر خمطة : حامضة ولبن خامض :

قارص متغير وفي المختار : " الخمط ضرب من الأراك له حمل يؤكل " وعن أبي عبيدة : "كل شجر ذي شوك " وقال الزجاج : "كل نبت أخذ طعما من مرارة حتى لا يمكن أكله " .

(أَثْلٍ) : الأثلة : السمرة وقيل شجر من العضاه طويلة

مستقيمة الخشبة تعمل منها القصاع والأقداح فوقعت مجازا في قولهم :

نحت أثلته إذا تنقّصه ، وفلان لا تنحت أثلته ، قال الأعشى :

ألست منتهيا عن نحت أثلتنا ولست ضائرها ما أطّت الإبل

ولفلان أثلة مال أي أصل مال ثم قالوا أثّلت مالا وتأثلته وشرف مؤثّل وأثيل .

)



---

سِدْرٍ) : السدر : شجر النبق يطيب أكله ولذا يغرس في البساتين وقيل ان السدر صنفان صنف يؤكل ثمره وينتفع بورقه في غسل الأيدي وصنف له ثمرة غضة لا تؤكل أصلا وهو الضال .

الاعراب :

(لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ) اللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وكان فعل ماض ناقص ولسبأ خبرها المقدم وفي مسكنهم حال من سبأ أي حال كونهم في مسكنهم وآية اسم كان المؤخر وقد تقدم القول مفصلا في سبأ في سورة النمل فجدد به عهدا .

(جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ) جنتان بدل من آية أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره الآية جنتان وعن يمين وشمال صفة لجنتان ويبدو أن في بمعنى عند فإن المساكن محفوفة بالجنتين لا مظروفة لهما . (كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) الجملة مقول قول محذوف أي وقيل لهم بلسان الحال أو بلسان المقال وكلوا فعل أمر وفاعل والمراد بهذا الأمر الإباحة ومن رزق ربكم متعلقان بكلوا وبلدة خبر لمبتدأ محذوف يعني هذه البلدة بلدة طيبة وطيبة صفة ورب غفور عطف على ما تقدم أي وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور .

(فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ) الفاء عاطفة وأعرضوا فعل ماض وفاعل ومتعلقه محذوف أي عن شكره فأرسلنا عطف على فأعرضوا وعليهم متعلقان بأرسلنا وسيل العرم مفعول به .

)

(وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ) وبدلناهم الواو عاطفة وبدلناهم فعل ماض وفاعل ومفعول به وبجنتهم متعلقان ببدلناهم وجنتين مفعول به ثان وذواتى صفة وأكل مضاف إليه وخمط صفة كأنه قيل أكل بشع وقرىء بالإضافة وعبارة أبي البقاء: "أكل خمط: يقرأ بالتنوين والتقدير أكل أكل خمط فحذف المضاف لأن الخمط شجر والأكل ثمره وقيل التقدير أكل ذي خمط وقيل هو بدل منه وجعل خمط أكلا لمجاورته إياه وكونه سببا له ويقرأ بالإضافة وهو ظاهر" وأثل عطف على أكل وشيء عطف أيضا ومن سدر صفة لشيء وقليل صفة ثانية. (ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ) ذلك مفعول ثان لجزيناهم مقدم عليه لأنه ينصب مفعولين أي جزيناهم ذلك التبديل وجزيناهم فعل ماض وفاعل ومفعول به أول وبما متعلقان بجزيناهم والباء للسببية وما مصدرية أي بسبب صبرهم وهل حرف استفهام بمنى النفي ونجازي فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره نحن وإلا أداة حصر والكفور مفعول به.

(وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً) الواو عاطفة وجعلنا فعل وفاعل وبينهم الظرف متعلق بمحذوف مفعول به ثان لجعلنا وبين القرى عطف على بينهم والتي صفة للقرى وجملة باركنا فيها صلة للموصول وقرى مفعول به أول وظاهرة نعت والجملة معطوفة على ما قبلها عطف قصة على قصة فقد ذكر أولا ما أسبغ

عليهم من نعمة الجنتين ثم تبديلهما بما سلف ذكره ثم جعل بلادهم متفاصلة متشتتة بعد أن كانت متواصلة ملمومة الشمل . (وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ) وقدرنا الواو عاطفة وقدرنا فعل ماض وفاعل وفيها متعلقان بقدرنا أو بالسير والسير مفعول به وجملة سيروا في محل نصب مقول قول محذوف وفيها متعلقان بسيروا وليالي وأياما ظرفان متعلقان بسيروا أيضا وآمنين حال ولم يتوجه معنا إعراب القرطبي لليالي وأياما فقد قال أنهما منصوبان على الحال وسيأتي سر تنكيرهما في باب البلاغة . (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ) الفاء عاطفة وقالوا فعل وفاعل وربنا منادى مضاف محذوف منه حرف النداء وباعد فعل أمر وبين ظرف متعلق بباعد وأسفارنا مضاف إليه وظلموا عطف على فقالوا وأنفسهم مفعول وذلك لأنهم بطروا وبشموا من طيب العيش وبلهنة الحال فطلبوا الكد والتعب والتنقل في البلاد ، فجعلناهم عطف على ظلموا أنفسهم وأحاديث مفعول به ثان لجعلناهم .

(وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) ومزقناهم عطف أيضا وكل ممزق نائب مفعول مطلق أي فرقناهم تفريقا لا التئام بعده . قال الشعبي " فلحقت الأنصار

بيثرب وغسان بالشام والأزد بعمان وخزاعة بتهامة فكانت العرب تضرب بهم المثل فتقول تفرقوا أيادي سبأ وقد تقدم معنى هذا المثل وإعرابه في النمل فجدد به عهدا . وإن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام المزحلقة وآيات اسمها المؤخر ولكل صبار صفة لآيات وشكور صفة لصبار .

البلاغة :

1- المشاكلة :

في قوله " جنتين " فن المشاكلة وقد تقدم أنه ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته فقد سمى البدل جنتين للمشاكلة وفيه نوع من التهكم بهم ، قال أبو تمام :

والدهر ألأم من شرقت بلؤمه إلا إذا أشرقته بكريم



---

أي اقتصرت عليه بكريم فقال أشرقته مشاكلة .

2- التنكير :

وفي تنكير ليالي وأياما إلماع إلى قصر أسفارهم فقد كانت قصيرة لأنهم يرتعون في بحبوحة من العيش ورغد منه لا يحتاجون إلى مواصلة الكد وتجشم عناء الأسفار للحصول على ما

يرفه عيشهم.

3- التذييل:

وفي قوله: " ذلك جزيناهم " الآية فن التذييل وقد تقدم بحثه أيضا وهو قسمان الأول ما جرى مجرى المثل وقد تقدم بحثه أيضا، والثاني ما لم يخرج مخرج المثل وهو أن تكون الجملة الثانية متوقفة على الأولى في إفادة المراد أي وهل يجازى ذلك الجزاء المخصوص، ومضمون الجملة الأولى أن آل سبأ جزاهم اللّه تعالى بكفرهم ومضمون الثانية أن ذلك العقاب المخصوص لا يقع إلا للكفور وفرق بين قولنا

جزيته بسبب كذا وبين قولنا ولا يجزى ذلك الجزاء إلا من كان بذلك السبب ولتغايرهما يصح أن يجعل الثاني علة للأول ولكن اختلاف مفهومهما لا ينافي تأكيد أحدهما بالآخر للزوم معنى.

[سورة سبإ (34) : الآيات 20 إلى 22]

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (20) وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (21) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (22)

الإعراب :

)

(351/637)

---

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) الواو عاطفة على ما تقدم أو استئنافية واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وصدق فعل ماض وعليهم متعلقان بصدق وإبليس فاعله وظنه مفعوله كأنه ظن فيهم أمرا وواعده نفسه فصدقه وقرىء صدق بالتخفيف على المعنى نفسه فيكون ظنه منصوبا بنزع الخافض ويصح أن يكون مفعولا به أيضا ، وقرىء بنصب إبليس على المفعولية ورفع ظنه على الفاعلية وقرىء برفعهما معا على أن يكون ظنه بدل اشتمال من إبليس ، فاتبعوه الفاء عاطفة واتبعوه فعل ماض وفاعل ومفعول به ،

ويجوز أن يكون الكلام خاصا فالضمير يعود على أهل سبأ وأن يكون عاما فالضمير يعود على بني آدم ، وإلا أداة استثناء وفريقا مستثنى يجوز أن يكون منقطعا ويجوز أن يكون متصلا ومن المؤمنين صفة لفريقا . (وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ) الواو عاطفة وما نافية

وكان فعل ماض ناقص وله خبرها المقدم وعليهم حال لأنه كان في الأصل نعت لسلطان ومن حرف جر زائد وسلطان مجرور لفظا اسم ليس المؤخر محلا .

(352/637)

---

(إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ) إلا أداة حصر واللام للتعليل وقيل للعاقبة والاستثناء مفرغ من أعم العلل فهو في محل نصب مفعول لأجله ونعلم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، ومن يجوز أن تكون استفهامية فتسد مسد مفعولي العلم وتكون في محل رفع مبتدأ وجملة يؤمن بالآخرة خبر ، ويجوز أن تكون موصولة في محل نصب مفعول نعلم وهذا أرجح وجملة يؤمن صلة وبالآخرة متعلقان بيؤمن وممن جار ومجرور متعلقان بنعلم لأنه متضمن معنى تميز وهو مبتدأ ومنها حال لأنه كان في الأصل صفة لشك وفي شك خبر والجملة صلة . (وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) وربك مبتدأ وعلى كل شيء متعلقان بحفيظ وحفيظ خبر ربك . (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) قل فعل أمر مبني على السكون وحرك بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين وجملة ادعوا الذين مقول القول وجملة زعمتم صلة ومن دون الله صفة للمفعول الثاني المحذوف والمفعول الأول محذوف أيضا تقديره زعمتوهم آلهة فحذف الأول لطول الموصول بصلته وحذف الثاني لقيام صفته ،

أعني من دون اللّه مقامه . وهذا من أعجب الكلام وأوكده ونحن ننقل لك عبارة الزمخشري بنصها في هذا



---

الصدد قال : " فإن قلت أين مفعولا زعم ؟ قلت : أحدهما الضمير المحذوف الراجع منه إلى الموصول وأما الثاني فلا يخلو إما أن يكون من دون اللّه أو لا يملكون أو محذوفا فلا يصح الأول لأن قولك هم من دون اللّه لا يلتئم كلاما ولا الثاني لأنهم ما كانوا يزعمون ذلك فكيف يتكلمون بما هو حجة عليهم وبما لو قالوه قالوا ما هو حق وتوحيد فبقي أن يكون محذوفا تقديره : زعمتموهم آلهة من دون اللّه فحذف الراجع إلى الموصول كما حذف في قوله : أهذا الذي بعث اللّه رسولا استخفافا لطول الموصول بصلته وحذف آلهة لأنه موصوف صفته من دون اللّه والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوما فإذن مفعولا زعم محذوفان جميعا بسببين مختلفين " .

(لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ) الجملة حال من الذين زعمتموهم آلهة ولك أن تجعلها مستأنفة مسوقة لبيان حالهم ولا نافية ويملكون فعل مضارع وفاعل ومثقال ذرة مفعول به وفي السموات والأرض متعلقان بيملكون أو بمحذوف حال . (وَما لَهُمْ فِيهِما

(مِنْ شِرْكٍ وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ) الواو عاطفة وما نافية ولهم خبر مقدم وفيهما حال ومن حرف جر زائد وشرك مجرورا لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ مؤخر أو اسم ما على رأي من يجيز تقدم خبرها على اسمها والواو عاطفة أيضا وما نافية وله خبر مقدم ومنهم حال ومن ظهير مبتدأ مؤخر كما تقدم.

[سورة سبإ (34) : الآيات 23 إلى 27]



---

وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (23) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (24) قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

اللغة:

(فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) : بالبناء للمجهول وفزّع عنه بالتشديد أذهب عنه الفزع والفزع بفتحتين: الذعر والمخافة والإغاثة، وفي الأساس:

" وفزع عن قلبه : كشف الفزع عنه " فالتضعيف هنا للسلب كما يقال :

قرّدت البعير أي أزلت قراده .

الاعراب :

(وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) الكلام مستأنف مسوق لبيان المصير الذي لا تنفع فيه شفاعة الشافعين إلا لمن سبق القلم بالإذن له . ولا نافية وتنفع الشفاعة فعل مضارع وفاعل وعنده ظرف متعلق بتنفع أو بمحذوف حال وإلا أداة حصر ولمن متعلقان بالشفاعة إذ يقال شفعت له أو بتنفع ، وللزمخشري بحث لطيف في متعلق هذه اللام نورده بنصه قال :

" تقول الشفاعة لزيد على معنى أنه الشافع كما تقول :

الكرم لزيد وعلى معنى أنه المشفوع له كما تقول : القيام لزيد فاحتمل



---

قوله : ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يكون على أحد هذين الوجهين أي لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له أو لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له أي لشفيعه أو هي اللام الثانية في قولك أذن لزيد لعمرو أي لأجله وكأنه قيل : إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله وهذا وجه لطيف وهو الوجه " وأذن فعل ماض مبني للمعلوم والفاعل

مستتر يعود على اللّه وله متعلقان بأذن وقرىء أذن بالبناء للمجهول .

(حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) حتى حرف غاية وجر والغاية لمحذوف يفهم من سياق الكلام كأنه قيل يتربصون ويتوقفون حائرين مشدوهين وجلين تتفارسهم المخاوف وتتقاذفهم الشكوك أيؤذن لهم أم لا حتى إذا فزع . وفزع بالبناء للمجهول ونائب الفاعل هو الجار والمجرور أي عن قلوبهم وقرىء بالبناء للمعلوم فيتعلق الجار والمجرور به أي فزع اللّه عن قلوبهم . (قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) قالوا جواب إذا وما اسم استفهام وذا اسم موصول خبر والجملة مقول قال مقدم عليه وقال ربكم فعل وفاعل والجملة مقول قالوا الأولى وقالوا فعل وفاعل والحق منصوب بقول مقدر أي قال ربنا القول الحق ولك أن تعرب القول مفعولا مطلقا أو مفعولا به والحق صفة وهو مبتدأ والعلي خبر أول والكبير خبر ثان وهو تتمة كلام الشفعاء . (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ) قل فعل أمر والفاعل مستتر يعود على الرسول تبكيتا للمشركين وإلزاما لهم بالاعتراف بالعجز ومن اسم استفهام مبتدأ وجملة يرزقكم خبر ومن السموات متعلقان بيرزقكم والأرض عطف على السموات وقل فعل أمر واللّه مبتدأ خبره محذوف أي اللّه يرزقنا أو خبر لمبتدأ محذوف أي هو اللّه .

(

وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) الواو عاطفة وان واسمها أو إياكم ضمير منفصل معطوف على اسم إن واللام المزحلقة وعلى هدى خبر إن وأو حرف عطف على بابها عند البصريين وليست للشك وسيأتي المزيد من بحث هذا التركيب في باب البلاغة أو في ضلال عطف على قوله لعلى هدى ومبين صفة. (قُلْ: لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) لا نافية وتسألون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وعما متعلقان بتسألون وما موصولة أو مصدرية وأجرمنا فعل وفاعل ولا نسأل عما تعملون عطف على لا تسألون عما أجرمنا وسيأتي المزيد من بحثه أيضا في باب البلاغة. (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ) جملة يجمع مقول القول وبيننا ظرف متعلق بيجمع وربنا فاعل يجمع ثم يفتح بيننا عطف على ما تقدم وبالحق حال وهو مبتدأ والفتاح خبر أول والعليم خبر ثان.

(قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ) أروني فعل أمر والواو فاعل والنون للوقاية والياء مفعول به أول لأن الرؤية علمية متعدية قبل النقل إلى اثنين فلما جيء بهمزة النقل تعدت لثلاثة، والذين اسم موصول مفعول به ثان لأروني وجملة ألحقتم صلة والعائد محذوف أي ألحقتموهم وهو المفعول الثاني وبه متعلقان بألحقتم وشركاء مفعول به ثالث لأروني ويجوز

أن تكون الرؤية بصرية متعدية قبل النقل إلى واحد فلما جيء بهمزة النقل تعدت لاثنين أولهما ياء المتكلم والثاني الموصول وشركاء نصب على الحال من العائد المحذوف أي بصروني الملحقين به حال كونهم شركاء وسيأتي معنى الأمر هنا في باب البلاغة .

(

كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) كلا حرف ردع وزجر وبل حرف إضراب وهو ضمير الشأن مبتدأ والله مبتدأ ثان والعزيز الحكيم خبراه

(357/637)

---

و الجملة خبر هو ، ولك أن تجعل هو ضميرا عائدا على الله وتعربه مبتدأ خبره الله والعزيز الحكيم صفتان .

البلاغة :

حفلت هذه الآيات بضروب من البلاغة نوجزها فيما يلي :

1- الفرائد :

في قوله " حتى إذا فزع عن قلوبهم " فن طريف يسمى فن الفرائد وهو أن يأتي المتكلم في كلامه بلفظة تتنزل منزلة الفريدة من حب العقد وهي الجوهرة التي لا نظير لها بحيث لو

سقطت من الكلام لم يسدّ غيرها مسدها وقد مرت نماذج منها ، وفي لفظة فزع عن قلوبهم من غرابة الفصاحة ما لا مزيد عليه . ومن شواهد هذا الفن في الشعر قول أبي تمام :

ومعترك للشوق أهدى به الهوى إلى ذي الهوى نجل العيون ربائبا

فالفريدة في لفظة معترك وقد اقتبسها الشيخ عمر بن الفارض فقال :

ما بين معترك الأحداق والمهج أنا القتيل بلا إثم ولا حرج

2- الاستدراج :

في قوله : " وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين " وهو فن يعتبر من البلاغة محورها الذي تدور عليه لأنه يستدرج الخصم ويضطره إلى الإذعان والتسليم والعزوف عن المكابرة واللجاج فإنه لما ألزمهم الحجة خاطبهم بالكلام المنصف الذي يقول من سمعه للمخاطب به قد أنصفك صاحبك ونحوه قول الرجل لصاحبه :

مني ومنك وإن أحدنا لكاذب ، ومنه قول الشاعر حسان بن ثابت :

أتهجوه ولست له بكفء فشر كما لخير كما الفداء

وهو من قصيدة طويلة يهجو بها أبا سفيان قبل إسلامه والهمزة للاستفهام التوبيخي والواو حال أي لا ينبغي ذلك وشر وخير من قبيل أفعل التفضيل واختصا بحذف همزتهما تخفيفا لكثرة استعمالهما لكن المراد بهما هنا أصل الوصف لا الزيادة فيه والشر أبو سفيان والجملة دعائية دعا عليه بأن يكون فداء لرسول اللّه وأبرزه في صورة الإبهام لأجل

الإنصاف في الكلام ولذلك لما سمعه الحاضرون قالوا : هذا أنصف بيت قالته العرب .

3- المخالفة في الحروف :



---

وفي هذه الآية مخالفة بين حرفي الجر فإنه إنما خولف بينهما في الدخول على الحق والباطل لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركض به حيث شاء وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض فيه لا يدري أين يتوجه ، وهذا معنى دقيق قلّما يراعى مثله في الكلام وكثيرا ما سمعنا إذا كان الرجل يلوم أخاه أو يعاتب صديقه على أمر من الأمور فيقول له : أنت على ضلالك القديم كما أعهدك فيأتي بعلى في موضع في ، وإن كان هذا جائزا إلا أن استعمال " في " هنا أولى لما أشرنا إليه والاستعارة التصريحية واضحة وقد تقدمت في غير هذا الموضع .

4- معنى الأمر :

قوله " أروني " أمرهم بإراءته الأصنام مع كونها بمرأى منه إظهار لخطئهم واطلاعهم على بطلان رأيهم .

[سورة سبإ (34) : الآيات 28 إلى 33]

وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (28) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (29) قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (30) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (32)

*(359/637)*

---

وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ (33)

الاعراب :

)

وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) الواو استئنافية وما نافية وأرسلناك فعل وفاعل ومفعول به وإلا أداة حصر وكافة حال من الكاف في أرسلناك

أو من الناس أي للناس كافة على رأي من يجيز تقدم الحال على الجار والمجرور ، أو صفة لمصدر محذوف أي إرسالة كافة للناس وسيأتي المزيد من بحث "كافة" في باب الفوائد وهو بحث ممتع . وللناس صفة لكافة أو بكافة وبشيرا ونذيرا حالان من الكاف ولكن حرف مشبه بالفعل وأكثر الناس اسمها وجملة لا يعلمون خبرها . (وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ)

الواو استئنافية ويقولون فعل مضارع وفاعل ومتى اسم استفهام في محل نصب على الظرفية وهذا الظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وهذا مبتدأ مؤخر والوعد بدل وإن شرطية وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والتاء اسمها وصادقين خبرها وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله . (قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ) لكم خبر مقدم وميعاد يوم مبتدأ مؤخر وهو مصدر مضاف إلى الظرف وجملة لا تستأخرون صفة ليوم أو لميعاد وعنه متعلقان بتستأخرون وساعة ظرف متعلق بتستأخرون أيضا ولا تستقدمون عطف على لا تستأخرون .

(وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) قال الذين فعل وفاعل وجملة كفروا صلة ولن حرف نفي ونصب واستقبال ونؤمن فعل مضارع منصوب بلن والجملة مقول القول وبهذا متعلقان بنؤمن والقرآن بدل ولا بالذي عطف على بهذا القرآن وبين ظرف متعلق بمحذوف صلة للذي ويديه مضاف إلى الظرف والمراد بما بين يدي القرآن ما تقدمه من كتب اللّه عز وجل. (وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ) لو شرطية وترى فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنت وهو فعل الشرط والجواب محذوف أي لرأيت العجب العجاب أو لرأيت حالا مذهلة وإذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بترى والظالمون مبتدأ وموقوفون خبر أي محبوسون جمع موقوف اسم مفعول من وقف الثلاثي المتعدي فقد جاء في المصباح ما يلي: "وقفت الدابة تقف وقفا ووقوفا سكنت ووقفتها أنا يتعدى ولا يتعدى ووقفت الرجل عن الشيء وقفا منعته عنه" وعند ربهم ظرف متعلق بموقوفون وجملة يرجع حال من ضمير موقوفون وبعضهم فاعل والى بعض متعلقان بيرجع والقول مفعول به ليرجع لأنه يتعدى (يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) جملة يقول مفسرة ليرجع فلا محل لها والذين فاعل يقول وجملة استضعفوا صلة وللذين متعلقان بيقول وجملة استكبروا صلة.

(لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) لو لا حرف امتناع لوجود وأنتم مبتدأ محذوف الخبر وجوبا أي

موجودون واللام رابطة لجواب لو لا وجملة كنا مؤمنين لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وكان واسمها ومؤمنين خبرها . (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا) قال



---

الذين فعل وفاعل وجملة استكبروا صلة وللذين متعلقان بقال وجملة استضعفوا صلة وهو بالبناء للمجهول والجملة مستأنفة . (أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري كأنهم أنكروا أن يكونوا هم الذين ارتكبوا جريرة صدهم عن الإيمان . ونحن مبتدأ وجملة صددناكم خبر وعن الهدى متعلقان بصددناكم وبعد ظرف متلعق بمحذوف حال لوقوعه بعد المعرفة وإذ ظرف أضيف إلى مثله توسعا في الظروف وقيل : إذ بمعنى أن المصدرية وهو مفهوم تفسير الزمخشري وجملة جاءكم في محل جر بإضافة الظرف إليها وبل حرف إضراب وعطف وكنتم فعل ماض ناقص والتاء اسمها ومجرمين خبرها . (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) تقدم إعرابها وأثبتت حرف العطف هنا بينما حذفها في الجملة الآنفة لأنه كلام آخر للمستضعفين (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) بل حرف إضراب ومكر الليل مبتدأ خبره محذوف أي مكر الليل والنهار ، صدنا أو خبر لمبتدأ محذوف أي سبب كفرنا مكر الليل والنهار ، وإضافة المكر إلى الليل والنهار

من باب الاسناد المجازي وقد تقدمت له نظائر فهو مصدر مضاف لمرفوعه وقال الزمخشري : " ومعنى مكر الليل والنهار مكركم في الليل والنهار فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر اليه أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي " وأصل المكر في كلام العرب : الخديعة والحيلة.

(إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً) الظرف متعلق بمكر وجملة تأمروننا في محل جر بإضافة الظرف إليها وأن وما في حيزها نصب بنزع الخافض متعلق بتأمروننا ونجعل عطف على نكفر وله حال لأنه كان في الأصل صفة لأندادا وأندادا مفعول به ويجوز

(362/637)

---

أن يكون الجار والمجرور مفعول نجعل الثاني وأندادا مفعول نجعل الأول. (وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ) الواو حالية أو استئنافية وأسروا فعل وفاعل والندامة مفعول به والضمير راجع إلى الفريقين أي أضمر الفريقان الندامة على ما فعلوا من الكفر وأخفوها عن غيرهم أو أخفاها كل منهم عن الآخر مخافة الشماتة ولما ظرفية حينية متعلقة بأسروا وجملة رأوا في محل جر بإضافة الظرف إليها والعذاب مفعول به. (وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا) الواو عاطفة وجعلنا فعل وفاعل والأغلال مفعول جعلنا الأول وفي أعناق الذين

كفروا مفعوله الثاني والكلام من باب القلب والأصل وجعلنا أعناق الذين كفروا في الأغلال . (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ) الجملة حال من الذين كفروا وهل حرف استفهام والاستفهام بمعنى النفي ويجزون فعل مضارع مبني للمجهول ونائب فاعل وإلا أداة حصر وما مفعول يجزون الثاني وجملة كانوا صلة وجملة يعملون خبر كانوا .

الفوائد :

الأصل في الحال أن تتأخر عن صاحبها ، وقد تتقدم عليه جوازا نحو : جاء راكبا علي ،

ومنه قول طرفة بن العبد :

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمي

وقد تتقدم عليه وجوبا في موضعين :

1- أن يكون صاحبها نكرة غير مستوفية للشروط نحو :

لعليّ مهذبا غلام وقول الشاعر :

لمية موحشا طلل يلوح كأنه خلل

وقول الآخر :

وفي الجسم مني بينا لو علمته شحوب وإن تستشهدي العين تشهد

2- أن يكون محصورا فيها نحو : ما جاء ناجحا إلا عليّ وإنما جاء ناجحا علي تقول ذلك

إذا أردت أن تحصر المجيء بحالة النجاح في علي .

وتتأخر عنه وجوبا في ثلاثة مواضع :

(363/637)

---

1- أن تكون هي المحصورة نحو ما جاء خالد إلا ناجحا وإنما جاء خالد ناجحا تقول ذلك إذا أردت أن تحصر مجيء خالد في حالة النجاح ومنه قوله تعالى " وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين " .

2- أن يكون صاحبها مجرورا بالإضافة نحو يعجبني وقوف علي خطيبا ، وسرني عملك مخلصا ، أما المجرور بحرف جر أصلي فقد منع الجمهور تقديم الحال عليه فلا يقال مررت راكبا بعلي وأخذت عاثرا بيد خليل . وأجاز الفارسي وابن كيسان وابن جني وغيرهم التقديم ، قال ابن مالك والتقديم هو الصحيح لوروده في الفصيح كقوله تعالى " وما أرسلناك إلا كافة للناس " فكافة حال من المجرور وهو الناس وقد تقدم على صاحبه المجرور ، ونحو قول الشاعر :

تسليت طرا عنكم بعد بينكم بذكراكم حتى كأنكم عندي

وقال المانعون والحق أن هذا البيت ضرورة أو طرا حال من عنكم محذوفة مدلولا عليها

بعنكم المذكورة وان كافة في الآية حال من الكاف في أرسلناك وأن التاء للمبالغة لا للتأنيث قاله الزجاج وردّه ابن مالك بأن إلحاق التاء للمبالغة مقصور على السماع ولا يتأتى غالبا إلا في أبنية المبالغة كعلاقة ، وكافة خلاف ذلك .

هذا ولزيادة الفائدة نورد أقوالا لبعض الأعلام في صدد إعراب كافة قال الزمخشري " ومن جعله حالا من المجرور متقدما عليه فقد أخطأ لأن تقدم حال المجرور عليه في الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار وكم نرى من يرتكب مثل هذا الخطأ ثم لا يكتفي به حتى يضم اليه أن يجعل اللام بمعنى إلى فيرتكب الخطأين معا " .

وقال أبو علي : " وقد جاء تقديم الحال على صاحبها المجرور وعلى ما يتعلق به وإذا جاز تقديمها على صاحبها وعلى العامل فيه فتقديمها على صاحبها وحده أجوز " .

وقال الفيروز بادي صاحب القاموس : " وجاء الناس كافة أي كلهم ولا يقال جاءت الكافة لأنه لا يدخلها أل ووهم الجوهري ، ولا تضاف " . واستدرك عليه شارحه فقال في تاج العروس ما ملخصه :

" عبارة الجوهري : الكافة الجميع من الناس يقال لقيتهم كافة أي كلهم . وهذا كما ترى لا وهم فيه لأن النكرة ، إذا أريد لفظها جاز تعريفها وما ذكره المصنف هو الذي أطبق عليه الجمهور وأورده

النووي في التهذيب وعاب على الفقهاء استعماله بأل أو الاضافة قال شيخنا : ويدل على أن الجوهري لم يرد ما قصده المصنف أنه إنما مثل بما هو موافق للجمهور على أن قولهم ذلك رده الشهاب في شرح الدرة وصحح انه يقال وإن كان قليلا " هذا وقد أطال الشهاب الخفاجي في تصحيح إدخال أل على كافة وإضافتها وقال شارح اللباب :

انه استعمل مجرورا واستدل له بقول عمر بن الخطاب : " قد جعلت لآل بني كاهلة على كافة بيت المسلمين لكل عام مئتي مثقال ذهبا إبريزا " .

[سورة سبإ (34) : الآيات 34 إلى 37]

وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (34) وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (36) وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (37)

الإعراب :

(وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها) كلام مستأنف مسوق لتسليته صلى اللّه عليه وسلم. وما أرسلنا فعل وفاعل وفي قرية

(365/637)

---

متعلقان بأرسلنا ومن حرف جر زائد ونذير مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به وإلا أداة حصر وجملة قال مترفوها حال من قرية وإن كانت نكرة لوقوعها في سياق النفي ومترفوها فاعل قال أي المتنعمون فيها. (إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ) الجملة مقول قولهم، وإن واسمها وبما متعلقان بكافرون وما موصولة وجملة أرسلتم صلة وأرسلتم بالبناء للمجهول والتاء نائب فاعل وبه متعلقان بأرسلتم وكافرون خبر إن والتقدير إننا كافرون بالذي أرسلتم به. (وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) الواو عاطفة وقالوا فعل وفاعل ونحن مبتدأ وأكثر خبر وأموالا تمييز وأولادا عطف على أموالا وما حجازية ونحن اسمها والباء حرف جر زائد ومعذبين مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما. (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ) إن واسمها وجملة يبسط الرزق خبرها ولمن متعلقان بيبسط وجملة يشاء صلة ويقدر عطف على يبسط ومعناه يضيقه، (وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) الواو حالية ولكن واسمها وجملة لا يعلمون خبرها ومفعول يعلمون

محذوف أي وجه الحكمة في ذلك فهو يبسط الرزق للعاصي بطريق الاستدراج والإملاء ويقدره على المطيع بطريق الاختبار والابتلاء .

(وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى ) الواو عاطفة أو استئنافية وما حجازية وأموالكم اسمها ولا أولادكم عطف على أموالكم والباء حرف جر زائد والتي مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ليس ووصف الأموال والأولاد بالتي لأن جمع التكسير العاقل وغير العاقل يعامل معاملة المؤنثة الواحدة وجملة تقربكم صلة وعندنا ظرف متعلق بمحذوف حال وزلفى مصدر من معنى العامل فهو مفعول



---

مطلق على المعنى أي تقربكم قربة . (إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ) إلا بمعنى لكن فالاستثناء منقطع لأن الخطاب للكفار ومن آمن ليس منتظما في سلكهم ومن مستثنى ويجوز أن يكون متصلا مستثنى من المفعول في يقربكم ويجوز أن يعرب مبتدأ وما بعده الخبر وجملة آمن صلة وعمل عطف على آمن وصالحا مفعول به أو مفعول مطلق أي عملا صالحا . (فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا ) الفاء رابطة لما في الموصول من معنى الشرط وأولئك اسم إشارة مبتدأ والاشارة إلى من والجمع باعتبار معناها كما أن افراد الفعلين باعتبار لفظها ، ولهم

خبر مقدم وجزاء الضعف مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر أولئك ومعنى جزاء الضعف أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشرا ، والإضافة إما من إضافة المصدر إلى مفعوله أو من إضافة الموصوف إلى صفته والمعنى على الأول أن يجازيهم اللّه الضعف وعلى الثاني لهم الجزاء المضاعف وبما متعلقان بجزاء وما موصولة أو مصدرية .

(وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ) الواو عاطفة وهم مبتدأ وفي الغرفات حال أو متعلقان بآمنون وآمنون خبرهم .

البلاغة :

في قوله " وما أموالكم ولا أولادكم الآية " التفات من الغيبة إلى الخطاب والسرّ فيه المبالغة في تحقيق الخبر وأن ذلك الذي تسرون به وتحبرون من كثرة الأولاد والأموال لن يجديكم فتيلا ، ولن يقربكم منّا ما دمتم مصرّين على ما أنتم فيه مسترسلين في تلبية دواعي الغي والضلال ، وفي ذلك إشارة ضمنية إلى إنفاق الأموال في سبيل اللّه وأوجه الخير وتهذيب الأولاد وتأهيلهم لما يصلح دينهم ودنياهم . والزلفى القربى والزلفة القربة .

[سورة سبإ (34) : الآيات 38 إلى 42]

وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (38) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (41) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (42)

الإعراب :

(وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) الواو عاطفة على ما تقدم والذين مبتدأ وجملة يسعون صلة وفي آياتنا متعلقان بيسعون ، والسعي فيها بإبطال أحكامها ، ومعاجزين حال أي مقدرين عجزين وقد تقدمت في مكان آخر وجملة أولئك خبر الذين وأولئك مبتدأ وفي العذاب متعلقان بمحضرون ومحضرون خبر أولئك .

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ) تقدم إعرابها وإنما أعادها لأنها سيقت هنا في شخص واحد بدليل قوله له وما سبق في شخصين فلا تكرار ، وهبه كان تكرارا فهو للتأكيد . (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

يجوز في ما أن تكون شرطية وهو أظهر في محل نصب مفعول مقدم لأنفقتم وأنفقتم فعل الشرط ومن شيء حال والفاء رابطة للجواب ، ويجوز أن تكون موصولة في موضع رفع بالابتداء ودخلت الفاء على الخبر لما في الموصول من رائحة الشرط وهو مبتدأ وجملة يخلفه خبر والجملة الاسمية إما في محل جزم على أنها جواب الشرط وإما في محل رفع على أنها خبر والواو عاطفة وهو مبتدأ وخير الرازقين خبر .

رفع على أنها خبر والواو عاطفة وهو مبتدأ وخير الرازقين خبر .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ) الواو استئنافية ويوم ظرف متعلق باذكر مضمرا وجملة يحشرهم في محل جر بإضافة الظرف إليها وجميعا حال وثم حرف عطف ويقول فعل مضارع مرفوع عطفا على يحشرهم وللملائكة متعلقان بيقول والهمزة للاستفهام التقريعي وهؤلاء مبتدأ وإياكم ضمير منفصل في محل نصب مفعول مقدم ليعبدون وجملة كانوا خبر المبتدأ والواو اسم كانوا وجملة يعبدون خبرها .

(قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ) قالوا فعل ماض وفاعل وسبحانك مفعول مطلق وأنت مبتدأ وولينا خبر ومن دونهم حال .

(بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) بل حرف إضراب وكانوا كان واسمها وجملة يعبدون خبرها والجن مفعول به وأراد بالجن الشياطين التي كانت في اعتقادهم تتقمص

الأصنام التي يعبدونها وأكثرهم مبتدأ وبهم متعلقان بمؤمنون ومؤمنون خبر والجملة بدل من جملة يعبدون الجن. (فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا) الفاء استئنافية واليوم ظرف متعلق بيملك ولا نافية ويملك فعل مضارع مرفوع وبعضكم فاعل ولبعض متعلقان بنفعا ونفعا مفعول

(369/637)

---

به ولا ضرا عطف على نفعا. (وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ) الواو عاطفة ونقول فعل مضارع معطوف على لا يملك وللذين متعلقان بنقول وجملة ظلموا صلة وذوقوا فعل أمر وفاعل والجملة مقول القول وعذاب النار مفعول به والتي صفة للنار وجملة كنتم صلة والتاء اسم كان وبها متعلقان بتكذبون وجملة تكذبون خبر كنتم.

[سورة سبإ (34) : الآيات 43 إلى 45]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَقالُوا ما هذا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (43) وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44) وَكَذَّبَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (45)

اللغة:

(مِعْشارَ): قال في القاموس: "والعشير جزء من عشرة كالمعشار والعشر" وتابعه من نقل عنه كالمنجد وغيره وقال في الكشاف:

"والمعشار كالمرباع وهما العشر والربع" وعبارة البحر: "المعشار مفعال من العشر ولم يبن على هذا الوزن من ألفاظ العدد غيره وغير

المرباع ومعناهما العشر والربع وقال قوم المعشار عشر العشر" وقال الماوردي: "المعشار هنا هو عشر العشير والعشير هو عشر العشر فيكون جزءا من ألف" قال: وهو الأظهر لأن المراد به المبالغة في التقليل.

الاعراب:

)

(370/637)

---

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ)

الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة تتلى في محل جر بإضافة

الظرف إليها وهو مبني للمجهول وعليهم متعلقان بتتلى وآياتنا نائب فاعل وبينات حال من آياتنا والتالي هو النبي صلى اللّه عليه وسلم وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وما نافية وهذا مبتدأ والاشارة إلى التالي وهو النبي وإلا أداة حصر ورجل خبر هذا وجملة يريد صفة لرجل وأن وما في حيزها في محل نصب مفعول يريد وعما متعلقان بيصدكم وجملة كان صلة واسم كان مستتر تقديره هو وجملة يعبد خبرها وآباؤكم فاعل والمسألة من باب التنازع وأعمل الثاني لقربه ولو أعمل الأول لقال يعبدونه. (وَقالُوا ما هذا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً) الواو عاطفة وقالوا فعل وفاعل وما نافية وهذا مبتدأ وإلا أداة حصر وإفك خبر ومفترى صفة وسيأتي سر هذا التكرير في باب البلاغة.

(وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ: إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) الواو عاطفة وقال الذين فعل وفاعل وجملة كفروا صلة وللحق متعلقان

بقال ولما ظرفية حينية أو رابطة وجاءهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به وإن نافية وهذا مبتدأ وإلا أداة حصر وسحر خبر هذا ومبين صفة.

)

وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها) الواو عاطفة ويجوز جعلها حالية كما سيأتي في حلّ المعنى وما نافية وآتيناهم فعل وفاعل ومفعول به ومن حرف جر زائد وكتب مجرور لفظا في محل نصب مفعول ثان لآتيناهم وجملة يدرسونها صفة لكتب. (وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ) عطف على ما تقدم وإعرابها مماثل للجملة قبلها والمعنى: انتفاء العذر عن هؤلاء المشركين لأنهم لم يؤتوا كتبا يدرسونها ولم ترسل إليهم رسل بالنذر بخلاف أهل الكتاب فإنهم قد يتشبثون بما آتاهم وبما هم عاكفون عليه فلا يريدون تركه وان كان تشبثهم باطلا أما هؤلاء فليس لهم أدنى عذر وليس لها أي مبرر في جنوحهم إلى التنطع ولجوئهم إلى التكذيب. (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ) الواو عاطفة وكذب الذين فعل وفاعل ومن قبلهم متعلقان بالصلة والواو حالية وما نافية وبلغوا فعل وفاعل ومعشار مفعول به وما اسم موصول مضاف اليه وجملة آتيناهم صلة.

(فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ) الفاء عاطفة وكذبوا فعل وفاعل ورسلي مفعول به والفاء عاطفة وكيف اسم استفهام خبر مقدم لكان ونكيري اسمها واختار البيضاوي أن تكون جملة فكيف كان نكير معطوفة على محذوف قدره بقوله: "فحين كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير فكيف كان نكيري لهم أي عليهم فليحذر هؤلاء من مثله" ولا مانع من ذلك.

البلاغة:

في هذه الآيات تكرار يدل على الغضب والإنكار ، فقد تكرر الفعل وهو قولهم وصرح باسمهم وهو " الذين كفروا " وجاء باللام المؤذنة بالقوة وصرح بقوله " لما جاءهم " للعجب من مبادهتهم بالكفر وذلك للدلالة على مدى السخط عليهم والزراية بأقدارهم والتعجب من ارتكاس عقولهم ونبوها عن الحق وطمسها لمعالمه ، ثم أضفى على ذلك ما هو أبلغ في الدلالة على رسوخهم في الكفر وتماديهم في الباطل وهو أن من قبلهم من أصحاب الكتاب لم يؤتوا مثلما أوتوا ، بل لم يبلغ ما أوتوه معشار ما أتاهم وهو جزء من عشرة بل من مائة على رأي بعضهم بل جزء من ألف على رأي آخرين . وللتكرار مواضع يحسن فيها ومواضع يقبح فيها فأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني وهو في المعاني دون الألفاظ أقل ، ومما ورد فيه التكرار على جهة الوعيد والتهديد قول الأعشى ليزيد بن مهر الشيباني :

أبا ثابت لا تعلقنك رماحنا أبا ثابت أقصر وعرضك سالم

وذرنا وقوما إن هم عمدوا لنا أبا ثابت واقعد فإنك طاعم

وسيأتي المزيد من بحث التكرار .

[سورة سبإ (34) : الآيات 46 إلى 49]

قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (46) قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (47) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (48) قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ (49)

الإعراب :



---

(قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ) قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وإنما كافة ومكفوفة وأعظم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وبواحدة متعلقان بأعظكم وأن وما في حيزها مصدر مؤول في محل جر عطف بيان لواحدة أو بدل منها أو رفع على تقدير هي أن تقوموا أو نصب على تقدير أعني ، ومثنى وفرادى نصب على الحال وسيأتي السر في تقديم مثنى على فرادى في باب البلاغة .

(ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ) ثم حرف عطف للترتيب والتراخي وسيأتي سر العطف بثم في باب البلاغة ، وتتفكروا معطوف على أن تقوموا وما نافية وبصاحبكم خبر مقدم ومن حرف جر زائد وجنة مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ والجملة مستأنفة

ويجوز أن تتضمن تتفكروا معنى تعلموا فتكون من أفعال القلوب وما استفهامية علقت تعلموا عن العمل فهي مبتدأ خبره بصاحبكم ومن جنة حال أي جنون.

(إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) إن نافية وهو مبتدأ وإلا أداة حصر ونذير خبر هو ولكم متعلقان بنذير وبين ظرف متعلق بمحذوف حال أو صفة لنذير ويدي مضاف اليه وشديد صفة.

)

قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ) ما شرطية في محل نصب مفعول ثان مقدم لسألتكم وسألتكم فعل وفاعل ومفعول به أول وهو في محل جزم فعل الشرط ومن أجر حال والفاء رابطة لجواب الشرط وهو مبتدأ ولكم خبر والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط، هذا ويحتمل أن تكون ما موصولة مبتدأ وجملة سألتكم صلة والفاء رابطة لما في الموصول من معنى الشرط وجملة هو لكم خبر.



---

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) إن نافية وأجري مبتدأ وإلا أداة حصر وعلى الله خبر وهو مبتدأ وعلى كل شيء متعلقان بشهيد وشهيد خبر هو. (قُلْ إِنَّ رَبِّي

يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) إن واسمها وجملة يقذف خبرها وبالحق متعلقان بيقذف وعلام الغيوب خبر ثان لإن أو خبر لمبتدأ محذوف واختار الزمخشري أن يكون مرفوعا على محل إن واسمها أو على المستكن في يقذف على أنه بدل منه ، وقال ابن هشام : " فقدر علام نعتا للضمير المستتر في يقذف " وتعقبه الدسوقي قائلا : " وحمله الجمهور على البدل منه " (قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ) جملة جاء الحق مقول القول والواو عاطفة وما نافية ويبدىء الباطل فعل مضارع وفاعل وما يعيد عطف على ما يبدىء .

البلاغة :

1- الطباق :

في قوله " مثنى وفرادى " طباق بديع أتى به احترازا من القيام جماعة لأن في الاجتماع تشويشا للخواطر ، وحئولا دون التأمل والاستغراق في التفكير ، أما قيامهم مثنى وفرادى فيتيح لهم أن يفكروا ويعملوا الروية فإن تبين الحق للاثنين جنح كل فرد إلى إعمال رأيه ، وكثيرا ما يؤدي التعصب إلى طمس الحقائق وضياع الفوائد إذ يصبح الفرد كالببغاء ينقاد للآخرين على حد قول شوقي :

يا له من ببغاء عقله في أذنيه

2- الكناية :

في قوله " وما يبدىء الباطل وما يعيد " كناية عن هلاكه والتطويح به لأنه إذا هلك لم يعد له

إبداء أو إعادة ، ومنه قول عبيد :

أقفر من أهله عبيد فاليوم لا يبدي ولا يعيد

فقد كان المنذر بن ماء السماء يخرج في يوم من كل سنة فينعم على كل من يلقاه وفي آخر فيقتل أول من يلقاه فصادفه فيه عبيد فقيل له امدحه بشعر لعله يعفو عنك فقال : حال الجريض دون القريض .



فضرب مثلا وقال هذا البيت بعد ذلك تحسرا ، وروي أن المنذر قال له : أنشدني أفقر من أهله ملحوب ، فقال أقفر من أهله عبيد إلخ أي لا قدرة لي على إبداء شعر جديد ولا على إعادة شعر قديم وفي قوله يبدىء ويعيد أيضا طباق .

الفوائد :

قال النحاة : ويعطف على أسماء الأحرف المشبهة بالفعل بالنصب قبل مجيء الخبر وبعده كقول رؤبة :

إن الربيع الجود والخريف يدا أبي العباس والصيوفا

فعطف الخريف بالنصب على الربيع وقبل مجيء الخبر وهو يدا أبي العباس وعطف

الصيوف جمع صيف على الربيع بالنصب بعد مجيء الخبر ، والجود بفتح الجيم وسكون الواو وبالدال المطر الغزير ويروى الجون بالنون بدل الدال والمراد به السحاب الأسود .

والمراد بالربيع والخريف والصيوف أمطارهن والمراد بأبي العباس السفاح أول الخلفاء من بني العباس ، وهذا من عكس التشبيه مبالغة لأن الغرض تشبيه يديه بالأمطار الواقعة في الربيع والخريف والصيف ، ويعطف بالرفع على محل هذه أسماء هذه الأحرف بشرطين : استكمال الخبر وكون العامل إن أو أن أو لكن مما لا يغير معنى الجملة نحو إن اللّه بريء من المشركين ورسوله فعطف رسوله على محل الجلالة بعد استكمال الخبر وهو بريء ، والمحققون على أن الرفع في ذلك ونحوه على أنه مبتدأ حذف خبره لدلالة خبر الناسخ عليه .

قال اللقاني : " قال الرضي : والوصف وعطف البيان كالمنسوق عند الجرمي والزجاج والفراء في جواز الحمل على المحل ولم يذكر غيرهم في ذلك منعا ولا إجازة والأصل الجواز إذ لا فارق ولم يذكروا البدل والقياس كونه كسائر التوابع في جواز الرفع " وفي شرح المفصل لابن الحاجب : " أجاز الزجاج جعل ارتفاع علام الغيوب في

قوله تعالى: قل إن ربي الآية على أنه صفة لربي بالتأويل الذي في العطف قال: ويمكن حمله على غير ما ذكره بأن يكون علام الغيوب فاعلا بيقذف ولا ضمير فيه فاستغنى عن العائد بظاهر موافق للأول في المعنى" وارجع إلى المطولات.

[سورة سبإ (34) : الآيات 50 إلى 54]

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (50) وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (51) وَقالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (52) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (53) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (54)

اللغة:

(التَّناوُشُ) : قال الزمخشري: " والتناوش والتناول اخوان إلا أن التناوش تناول سهل لشيء قريب يقال ناشه ينوشه وتناوشه القوم ويقال تناوشوا في الحرب: ناش بعضهم بعضا " وفي المصباح:

" ناشه نوشا من باب قال تناوله والتناوش التناول يهمز ولا يهمز وتناوشوا بالرماح تطاعنوا بها " وقال ابن السكيت: " يقال للرجل

إذا تناول رجلا ليأخذ برأسه ولحيته ناشه ينوشه نوشا ومنه المناوشة في القتال إذا تدانى

الفريقان" .

الاعراب :

(قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي) إن شرطية وضللت فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والفاء رابطة وإنما كافة ومكفوفة وأضل فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنا وعلى نفسي متعلقان بأضل وهي في قوة بنفسي فيصح مقابلتها مع ما بعدها .

(377/637)

---

(وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ) عطف على ما سبق وما من قوله فيما يوحي إلي ربي يجوز أن تكون مصدرية وأن تكون موصولة فعلى الأول يكون التقدير بسبب إيحاء ربي إليّ وعلى الثاني يكون التقدير : بسبب الذي يوحيه إلي ربي ، وجملة يوحي لا محل لها على كل حال وإلي متعلقان بيوحي وربي فاعل يوحي وان واسمها وسميع خبرها الأول وقريب خبرها الثاني . (وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ) كلام مستأنف مسوق لتقرير حال الكفار عند نزول الموت واضطرارهم إلى الإخلاد للحق والرجوع إليه . ولو شرطية وترى فعل مضارع وفعل مستتر تقديره أنت والخطاب لمحمد صلى اللّه عليه وسلم وإذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بتري وجملة فزعوا بالبناء

للمجهول في محل جر بإضافة الظرف إليها وجواب لو محذوف كما حذف مفعول ترى والتقدير : ولو ترى حالهم وقت فزعهم لرأيت أمرا عظيما مذهلا والفاء عاطفة أو استئنافية ولا نافية للجنس وفوت اسمها المبني على الفتح والخبر محذوف أي لهم والمعنى لا يفوتوننا ولا ينجيهم منا هرب أو ملجأ وقد كثر حذف

خبر لا النافية للجنس أو العاملة عمل ليس ، حتى قيل أنه لا يذكر ، وصيغ الماضي الواردة في إذ ، وأخذوا أريد بها الاستقبال وأخذوا الواو عاطفة وأخذوا فعل ماضي مبني للمجهول والواو نائب فاعل ومعناه الاستقبال أيضا ومن مكان متعلقان بأخذوا وقريب صفة ومعنى من مكان قريب أي من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا .

*(378/637)*

---

(وَقالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ) وقالوا عطف على ما تقدم وجملة آمنا مقول قولهم وبه متعلقان بآمنا وأنى اسم استفهام معناه من أين أو كيف في محل نصب خبر مقدم والتناوش مبتدأ مؤخر ولهم متعلقان بمحذوف حال ومن مكان متعلقان بالتناوش وبعيد صفة أي عن محله وهو الدنيا . (وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ) الواو حالية وقد حرف تحقيق وكفروا فعل وفاعل وبه متعلقان بكفروا ومن قبل

متعلقان بمحذوف حال ويقذفون معطوف على قد كفروا على أنها حكاية حال ماضية أي وكانوا يتكلمون ويرجمون بالظن ومن مكان بعيد متعلقان به والبعد المكاني هنا معناه البعد المعنوي أي وهمهم الفاسد وظنهم الكاذب الذي هو بعيد عن الحقيقة والواقع كل البعد وسيأتي المزيد من هذا المعنى في باب البلاغة . (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ) الواو عاطفة وحيل فعل ماض مبني للمجهول ومعناه الاستقبال أيضا لأن ما يفعله اللّه في المستقبل بمثابة ما قد حصل والظرف نائب فاعل ولم يرفع لأنه أضيف إلى غير متمكن وهو الضمير ، وفعل حال لازم لا يبنى للمجهول إلا مع الظرف أو الجار والمجرور وقيل نائب الفاعل هو ضمير المصدر المفهوم من الفعل كأنه قيل وحيل هو أي الحول والظرف متعلق بحيل ، وبين عطف على الظرف الأول



---

و ما موصولة أو مصدرية والتقدير وبين الذي يشتهونه أو وبين مشتهاهم ، ويشتهون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة لا محل لها على كل حال والكاف نعت لمصدر محذوف أي فعل بهم فعلا كما فعل بأشياعهم أي أتباعهم ، وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره أو أشباههم لأن من أشبه الثاني تبعه ، وبأشياعهم متعلقان بفعل ومن قبل حال .

(إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ) إن واسمها وجملة كانوا خبرها وكان واسمها وفي شك خبرها ومريب صفة.

البلاغة:

في قوله " وأنى لهم التناوش من مكان بعيد " استعارة تمثيلية وقد تقدم تعريف هذه الاستعارة ونقول في إجرائها هنا أنه شبه طلبهم ما لا يكون وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت كما ينفع المؤمنين إيمانهم بالدنيا بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة كما يتناوله الآخر من مقياس ذراع تناولا سهلا لا تعب فيه فقد كانوا يتكلمون بالغيب ويأتون به من مكان بعيد وهو قولهم في رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم شاعر ساحر كذاب، وهذا رجم بالظن، وقذف بالباطل لأنهم لم يشاهدوا منه شعرا ولا سحرا ولا كذبا، ولو أنهم رجعوا إلى قرارة نفوسهم يسألونها عن حقيقة ما يرجفون ويرجمون لكذبتهم وأدانتهم.

الفوائد:

تقدم في موضع آخر من هذا الكتاب أنه ينوب عن الفاعل واحد من أربعة: وهي المفعول به نحو وغيض الماء، والثاني المجرور نحو

ولما سقط في أيديهم، والثالث مصدر متصرف مختص بالصفة نحو فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وقد ينوب عن المصدر ضميره نحو قول طرفة بن العبد:

فيا لك من ذي حاجة حيل دونها وما كل ما يهوى امرؤ هو نائله

(380/637)

---

فيكون المعنى حيل هو أي الحول المعهود وليس النائب الظرف لأنه غير متصرف عند جمهور البصريين ، وعن الأخفش أنه يجوز مع فتحه ، قال أبو علي وتلميذه ابن جني فتحة اعراب ، وقال غيرهما فتحة بناء ، وعلى ذلك توجه الآية التي نحن بصددها ، أما الرابع فهو ظرف مختص نحو صيم رمضان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 8 صـ 60 117.﴾

(381/637)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والثلاثون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾



---

الجزء التاسع والثلاثون بعد الستمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة فاطر)



---

(5/638)

---

" فصل فى فضل السورة الكريمة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فضل السّورة

فيه أَحاديث ضعيفة ، منها : مَن قرأَ سورة الملائكة دعته يوم القيامة ثمانية أُبوابِ الجنَّة : أَنِ ادخل مِن أَىّ باب شئت .

ورُوى : مَنْ قرأَ سورة الملائكة كتب له بكلّ آية قرأَها بكلّ ملك فى السّموات والأَرض عشرُ حسنات ، ورفع له عشرُ درجات .

وله بكلّ آية قرأَها قُصّ من ياقوتة حمراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 389﴾

(6/638)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

هي ختام السور المفتتحة باسم الحمد ، التي تقدم عن الشيخ سعد الدين التفتازاني أنه فصلت فيها النعم الأربع التي هي أمهات النعم المجموعة في الفاتحة ، وهي الإيجاد الأول ، ثم الإبقاء الأول ؛ ثم الإيجاد الثاني المشار إليه بسورة سبأ ، ثم الإبقاء الثاني الذي هو أنهاها وأحكمها ، المفصل أمره فيها في فريقي السعادة المفتتحة بالابتداء الدال عليه بأنهى القدرة وأحكمها ، المفصل أمره فيها في فريقي السعادة والشقاوة تفصيلاً شافياً على أنه استوفى في هذه السورة النعم الأربع كما يأتي بيانه في محالّه ، فمقصودها إثبات القدرة الكاملة لله تعالى اللازم منها تمام القدرة على البعث الذي عنه يكون أتم الإبقاءين الإبقاء بالفعل دائماً أبداً بلا انقطاع ولا زوال ولا اندفاع في دار المقامة التي أذهب عنها الحزن والنصب واللغوب ، ودار الشقاوة الجامعة لجميع الأنكاد والهموم ، ولاسم السورة أتم مناسبة لمقصودها لأنه لا شيء يعدل ما في الجنة من تجدد الخلق فإنه لا يؤكل منها شيء إلا عاد كما كان في الحال ، ولا يراد شيء إلا وجد في أسرع وقت ، فهي دار الإبداع والاختراع بالحقيقة وكذا النار ( كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ) [ النساء : 56 ] ؛ وكذا تسميتها بالملائكة فإنهم يبدعون خلقاً جديداً كل واحد منهم على صورته التي أراد الله المطابقة

لقدرته سبحانه وعز شأنه ، وهم من الكفرة على وجه لا يحاط به { وما يعلم جنود ربك إلا هو } [المدثر : 31] . انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 6 صـ 199﴾

(7/638)

---

فصل

قال الآلوسى :

سورة فاطر

وتسمى سورة الملائكة وهي مكية كما روى عن ابن عباس وقتادة وغيرهما وفي مجمع البيان قال الحسن : مكية إلا آيتين إن الذين يتلون كتاب الله الآية ثم أورثنا الكتاب الآية وآيها ست وأربعون في المدني الأخير والشامي وخمس وأربعون في الباقين والمناسبة على ما في البحر أنه عزوجل لما ذكر في آخر السورة المتقدمة هلاك المشركين أعداء المؤمنين وإنزالهم منازل العذاب تعين على المؤمنين حمده تعالى وشكره كما في قوله تعالى فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين وينضم إلى ذلك تواخي السورتين في الإفتتاح بالحمد وتقاربهما في المقدار وغير ذلك . انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 22 صـ 161﴾

(8/638)

"فصل"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى:

(بصيرة فى.. الحمد لله فاطر السماوات)

السّورة مكّيّة إجماعاً.

عدد آياتها خمس وأربعون عند الأكثرين، وعند الشاميّين ستّ.

وكلماتها سبعمائة وسبعون.

وحروفها ثلاثة آلاف ومائة وثلاثة وثلاثون.

المختلف فيها سبع آيات؛ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ جديد، النور، البصير ﴿مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾، ﴿أَنْ تَزُولَا﴾ تبديلاً.

فواصل آياتها (زاد من بز) لها اسمان: سورة فاطر (لما فى أولها فاطر) السموات وسورة الملائكة؛ لقوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ﴾.

معظم مقصود السّورة: بيان تخليق الملائكة، وفتح أبواب الرّحمة، وتذكير النّعمة، والتحذير من الجنّ، وعداوتهم، وتسلية الرّسول (وإنشاءِ السحاب، وإثارته، وحوالة العزّة إلى الله، وصعود كلمة الشهادة وتحويل الانسان) من حال إلى حال، وذكر عجائب البحر، واستخراج الحِلْية منه، وتخليق اللّيل، والنّهار، وعجز الأصنام عن الرُّبوبيّة،

وصفة الخلائق بالفقر والفاقة، واحتياج الْخَلق فى القيامة، وإقامة البرهان، والحجة، وفضل القرآن، وشرَفَ التلاوة، وأَصناف الْخَلق فى ميراث القرآن، ودخول الجنَّة من أَهل الإِيمان، وخلود النار لأَهل الكفر والطغيان، وأَن عاقبة الكفر الخسران، والمِنَّة على العباد بحفظ السّماءِ والأَرض عن تخلخل الأَركان، وأَنَّ العقوبة عاقبة المكر، والإِخبار بأَنَّه لو عَدَلَ ربُّنَا فى الْخَلْقِ لم يسلم من عذابه أَحد من الإِنس والجانّ.

الناسخ والمنسوخ:

فيها من المنسوخ آية واحدة: ﴿إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ م آية السّيف ن. انتهى انتهى. اهـ

﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 386.387﴾

(9/638)

---

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة:

سورة فاطر

351 - مسألة:

قوله تعالى: (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) وقال

تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ وفى

يس : ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ الآية.

جوابه :

أن المراد بآية فاطر مطلق الأمم كعاد وثمود وقوم نوح وقوم

إبراهيم وفى العرب من ولد إسماعيل، خالد بن سنان،

وحنظلة بن صفوان وفى بنى إسرائيل موسى وهارون

ومن بعدهم.

وقيل : لم يخل بنو آدم من نذير من حين بعث إليهم وإلى

زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – إما نبي أو رسول.

وآية سبأ : المراد بهم قريش خاصة وأهل مكة الموجودون زمن النبي – صلى الله عليه

وسلم – وآباؤهم لم يأتهم نذير خاص بهم قبل النبي – صلى الله عليه وسلم –.

352 – مسألة :

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾

الآية. وفى الأنعام : ﴿خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ ؟.

جوابه :

أن آية الأنعام تقدمها ما هو من سياق النعم عليهم من قوله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ

رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) إلى قوله تعالى : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ) فناسب الخطاب لهم في ذلك بلفظ التعريف الدال على أنهم خلفاؤها المالكون لها ، وفيه من التفخيم لهم ما ليس في آية فاطر ، لأنه ورد في آية فاطر نكرة ، فقال : خلائف فيها ، فليس فيه من التمكن والتصرف ما في قوله تعالى : (خَلَائِفَ الْأَرْضِ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني ص 303.301 ﴾

(10/638)

---

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ﴾ بلفظ الماضى ؛ موافقة الأول السّورة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ ﴾ للماضى لا غير وقد سبق قوله : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ بتقديم (فيه) موافقة لتقدم ﴿ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ ﴾ وقد سبق .

قوله : ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ بِالْكِتَابِ ﴾ بزيادة الباءات قد سبق .

قوله : ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ وبعده ﴿ أَلْوَانُهَا ﴾ ثمّ ﴿ أَلْوَانُهُ ﴾ لأَنَّ الأَوّل يعود إِلى ثمرات ، والثاني يعود إِلى الجبال ؛ وقيل إِلى حُمْر ، والثالث يعود إِلى بعض الدّال عليه (مِن) ؛ لأَنه ذكر

(من) ولم يفسّره كما فسّره فى قوله ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ ﴾ فاختصّ الثالث بالتذكير.

قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ بالتصريح وبزيادة اللاّم، وفى الشُّورى ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾، لأَن الآية المتقدمة فى هذه السّورة لم يكن فيها ذكر الله فصرّح باسمه سبحانه وتعالى، وفى الشورى متّصل بقوله: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ ﴾ فخُصّ بالكناية، ودخل اللام فى الخبر موافقة لقوله ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾.

قوله: ﴿ جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ على الأَصل قد سبق.

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ﴾ سبق.

﴿ عَلَى ظَهْرِهَا ﴾ سبق.

(11/638)

---

قوله: ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ كرّر، وقال فى الفتح: ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ وقال فى سبحان ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ التبديل تغيير الشئ عمّا كان عليه قبلُ مع بقاءِ مادّة الأَصل؛ كقوله تعالى: ﴿ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾، وكذلك ﴿ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾؛ والتحويل: نقل الشئ

من مكان إلى مكان آخر ، وسنة الله لا تبديل ولا تحوّل ، فخص هذا الموضع بالجمع بين الوصفين لمّا وصف الكفار بوصفين ، وذكر لهم عرَضين ، وهو قوله ، ﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً ﴾ وقوله : ﴿ اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ وقيل : هما بدلان من قوله : ﴿ نُفُوراً ﴾ فكما ثنّى الأوّل والثّانى ثَنَّى

الثالث ؛ ليكون الكلام كلُّه على غِرار واحد .

وقال فى الفتح ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ فاقتصر على مرّة واحدة لمّا لم يكن (التكرار موجبًا ) وخصّ سورة سبحان بقوله : ﴿ تَحْوِيلاً ﴾ لأَنَّ قريشًا قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلَّم : "لو كنت نبيًّا لذهبت إلى الشام ؛ فإنَّها أرض المبعث والمحشر ، فهَمّ النبى صلى الله عليه وسلَّم بالذهاب إليها ، فهيّأ أَسباب الرّحيل والتحويل ، فنزل جبرائيل عليه السّلام بهذه الآيات ، وهى : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا ﴾ وختَم الآيات بقوله ﴿ تَحْوِيلاً ﴾ تطبيقا للمعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 387.389 ﴾

(12/638)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة فاطر

414 - قوله جل وعلا والله الذي أرسل الرياح 9 بلفظ الماضي موافقة لأول السورة الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا 1 لأنهما للماضي لا غير وقد سبق

415 - قوله وترى الفلك فيه مواخر 12 بتقديم فيه موافقة لتقدم ومن كل تأكلون 12 وقد سبق

416 - قوله جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب 25 بزيادة الباءات قد سبق

417 - قوله مختلفا ألوانها 27 وبعده ألوانها 27 ثم ألوانه 28 لأن الأول يعود إلى ثمرات 27 والثاني يعود إلى الجبال 27 وقيل يعود إلى الحمر والثالث يعود إلى بعض الدال عليه من لأنه ذكر من ولم يفسره كما فسره في قوله ومن الجبال جدد بيض وحمر 27 فاختص الثالث بالتذكير

418 - قوله إن الله بعباده لخبير بصير 31 بالصريح وبزيادة اللام وفي الشورى إنه بعباده خبير بصير 27 لأن الآية المتقدمة في هذه السورة لم يكن فيها ذكر الله فصرح باسمه سبحانه وفي الشورى متصل بقوله ولو بسط الله الرزق 27 فخص بالكناية

ودخل اللام في الخبر وموافقة لقوله إن ربنا لغفور شكور 34

419 - قوله جعلكم خلائف في الأرض 39 على الأصل قد سبق و أو لم يسيروا 44

سبق و على ظهرها سبق بيانه

420 - قوله فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا 43 كرر وقال في الفتح ولن تجد لسنة الله تبديلا 23 وقال في سبحان ولا تجد لسنتنا تحويلا 77 التبديل تغيير الشيء عما كان عليه قيل مع بقاء مادة الأصل كقوله تعالى بدلناهم جلودا غيرها 4 56 وكذلك تبدل الأرض غير الأرض والسموات 14 48 والتحويل نقل الشيء من مكان إلى مكان آخر وسنة الله سبحانه لا تبدل ولا تحول فخص هذا الموضع بالجمع بين الوصفين لما وصف الكفار بوصفين وذكر لهم غرضين وهو قوله ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا 39 وقوله استكبارا في الأرض ومكر الشيء 23

(13/638)

---

وقيل هما بدلان من نفورا 42 فكما ثنى الأول والثاني ثنى الثالث ليكون الكلام كله على غرار واحد

وقال في الفتح لن تجد لسنة الله تبديلا 23 فاقتصر على مرة واحدة لما لم يكن للتكرار

موجب

وخص سبحان بقوله تحويلا 77 لأن قريشا قالوا لرسول الله صلى الله عليه و سلم لو كنت نبيا لذهبت إلى الشام فإنها أرض المبعث والمحشر فهم النبي صلى الله عليه و سلم بالذهاب إليها فهيأ أسباب الرحيل والتحويل فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها 76 وختم الآيات بقوله تحويلا 77 تطبيقا للمعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 176. 178﴾

(14/638)

---

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة فاطر

سميت " سورة فاطر " في كثير من المصاحف في المشرق والمغرب وفي كثير من التفاسير .

وسميت في " صحيح البخاري " وفي " سنن الترمذي " وفي كثير من المصاحف والتفاسير " سورة الملائكة " لا غير .

وقد ذكر لها كلا الاسمين صاحب " الإتقان " .

فوجه تسميتها " سورة فاطر " أن هذا الوصف وقع في طالعة السورة ولم يقع في أول سورة أخرى .

ووجه تسميته " سورة الملائكة " أنه ذكر في أولها صفة الملائكة ولم يقع في سورة أخرى .

وهي مكية بالاتفاق وحكى الآلوسي عن الطبرسي أن الحسن استثنى آيتين : آية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ [فاطر : 29] الآية ، وآية ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر : 32] الآية ، ولم أر هذا لغيره .

وهذه السورة هي الثالثة والأربعون في ترتيب نزول سورة القرآن .

نزلت بعد سورة الفرقان وقبل سورة مريم .

وقد عدت آيها في عد أهل المدينة والشام ستا وأربعين ، وفي عد أهل مكة والكوفة خمسا وأربعين .

أغراض هذه السورة

اشتملت هذه السورة على إثبات تفرد الله تعالى بالإلهية فافتتحت بما يدل على أنه مستحق الحمد على ما أبدع من الكائنات الدال إبداعها على تفرده تعلى بالإلهية .

وعلى إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به وأنه جاء به الرسل من

قبله .

وإثبات البعث والدار الآخرة .

(15/638)

---

وتذكير الناس بإنعام الله عليهم بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد ، وما يعبد المشركون من دونه لا يغنون عنهم شيئًا وقد عبدهم الذين من قبلهم فلم يغنوا عنهم .

وتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من قومه .

وكشف نواياهم في الإعراض عن إتباع الإسلام لأنهم احتفظوا بعزتهم .

وإنذارهم أن يحل بهم ما حل بالأمم المكذبة قبلهم .

والثناء على الذين تلقوا الإسلام بالتصديق وبضد حال المكذبين .

وتذكيرهم بأنهم كانوا يودون أن يرسل إليهم رسول فلما جاءهم رسول تكبروا واستنكفوا .

وأنهم لا مفر لهم من حلول العذاب عليهم فقد شاهدوا آثار الأمم المكذبين من قبلهم ، وأن لا يغتروا بإمهال الله إياهم فإن الله لا يخلف وعده .

والتحذير من غرور الشيطان والتذكير بعداوته لنوع الإنسان. انتهى انتهى. ا هـ

﴿التحرير والتنوير حـ 22 صـ 108.107﴾

(16/638)

---

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة سورة فاطر

هذه السورة المكّية نسق خاص في موضوعها وفي سياقها . أقرب ما تكون إلى نسق سورة الرعد . فهي تمضي في إيقاعات تتوالى على القلب البشري من بدئها إلى نهايتها . إيقاعات موحية مؤثرة تهزه هزاً , وتوقظه من غفلته ليتأمل عظمة هذا الوجود , وروعة هذا الكون ; وليتدبر آيات الله المبثوثة في تضاعيفه , المتناثرة في صفحاته ; وليتذكر آلاء الله , ويشعر برحمته ورعايته ; وليتصور مصارع الغابرين في الأرض ومشاهدهم يوم القيامة ; وليخشع ويعنو وهو يواجه بدائع صنع الله , وآثار يده في أطواء الكون , وفي أغوار النفس , وفي حياة البشر , وفي أحداث التاريخ . وهو يرى ويلمس في تلك البدائع وهذه الآثار وحدة الحق

ووحدة الناموس , ووحدة اليد الصانعة المبدعة القوية القديرة . . . ذلك كله في أسلوب وفي إيقاع لا يتماسك له قلب يحس ويدرك , ويتأثر تأثر الأحياء .

والسورة وحدة متماسكة متوالية الحلقات متتالية الإيقاعات . يصعب تقسيمها إلى فصول متميزة الموضوعات فهي كلها موضوع واحد . كلها إيقاعات على أوتار القلب البشري , تستمد من ينابيع الكون والنفس والحياة والتاريخ والبعث . فتأخذ على النفس أقطارها وتهتف بالقلب من كل مطلع , إلى الإيمان والخشوع والإذعان .

(17/638)

---

والسمة البارزة الملحوظة في هذه الإيقاعات هي تجميع الخيوط كلها في يد القدرة المبدعة . وإظهار هذه اليد تحرك الخيوط كلها وتجمعها ; وتقبضها وتبسطها , وتشدها وترخيها . بلا معقب ولا شريك ولا ظهير .

ومنذ ابتداء السورة نلمح هذه السمة البارزة , وتطرد إلى ختامها . .

هذا الكون الهائل نلمح اليد القادرة القاهرة تبرزه إلى الوجود وفق ما تريد: (الحمد لله فاطر السماوات والأرض , جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع . يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) . .

وهذه القبضة القوية تنفرج فترسل بالرحمة تتدفق وتفيض , وتنقبض فتغلق ينابيعها وتغيض . بلا معقب ولا شريك:

(ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها , وما يمسك فلا مرسل له من بعده , وهو العزيز الحكيم) . .

والهدى والضلال رحمة تتدفق أو تغيض: (فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء) . .

(إن الله يُسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور . إن أنت إلا نذير) . .

وهذه اليد تصنع الحياة الأولى وتنشر الموتى في الحياة الآخرة: (والله الذي أرسل الرياح , فتثير سحاباً , فسقناه إلى بلد ميت , فأحيينا به الأرض بعد موتها . كذلك النشور) . .

والعزة كلها لله ومنه وحده تستمد: (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) . .

والخلق والتكوين والنسل والأجل خيوطها كلها في تلك اليد لا تند عنها: (والله خلقكم من تراب , ثم من نطفة , ثم جعلكم أزواجاً . وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يعمر من معمر , ولا ينقص من عمره إلا في كتاب . إن ذلك على الله يسير):

وفي تلك القبضة تتجمع مقاليد السماوات والأرض وحركات الكواكب والأفلاك (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل , وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . ذلكم الله ربكم له الملك . والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . .

ويد الله المبدعة تعمل في هذا الكون بطريقتها المعلمة , وتصبغ وتلون في الجماد والنبات والحيوان والإنسان:

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء , فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها , ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود , ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) .

وهذه اليد تنقل خطى البشر , وتورث الجيل الجيل: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) . . (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض) . .

وهي تمسك بهذا الكون الهائل تحفظه من الزوال . (إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا , ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) . .

وهي القابضة على أزمة الأمور لا يعجزها شيء على الإطلاق: (وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض) . .

وهو (على كل شيء قدير) . . وهو (العزيز الحكيم) . . (وإلى الله ترجع الأمور) وهو (عليم بما يصنعون) . . (وله الملك) . . وهو (الغني الحميد) . . (وإلى الله المصير) . . وهو (عزيز غفور) . . وهو (غفور شكور) . . وإنه بعباده (لخبير بصير) . . وهو (عالم غيب السماوات والأرض) . . وهو (عليم بذات الصدور) . . وكان (حليماً غفوراً) .

. وكان (عليماً قديراً) . . وكان (بعباده بصيراً) . .

ومن تلك الآيات وهذه التعقيبات يرتسم جو السورة , والسمة الغالبة عليها , والظل الذي تلقيه في النفس على وجه العموم .

ونظراً لطبيعة السورة فقد اخترنا تقسيمها إلى ستة مقاطع متجانسة المعاني لتيسير تناولها . وإلا فهي شوط واحد متصل الإيقاعات والحلقات من بدئها إلى نهايتها . . انتهى انتهى .

اهـ ﴿الظلال حـ 5 صـ 2918 . 2930﴾

(19/638)

---

وقال الشيخ الصابونى :

سورة فاطر

مكية وآياتها خمس وأربعون آية

بين يدي السورة

* سورة فاطر مكية نزلت قبل هجرة رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، وهي تتناول الغرض العام ، الذي نزلت من أجله الآيات المكية ، وهي قضايا العقيدة الكبرى (الدعوة إلى توحيد الله ، وإقامة البراهين على وجوده ، وهدم قواعد الشرك ، والحث على تطهير

القلوب من الرذائل ، والتحلي بمكارم الأخلاق ) .

* تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الخالق المبدع ، الذي فطر الأكوان ، وخلق الملائكة والإنس والجان ، وأقامت الأدلة والبراهين على البعث والنشور ، في صفحات هذا الكون المنظور ، بالأرض تحيا بعد موتها ، بنزول الغيث ، وبخروج الزروع والفواكه والثمار ، وبتعاقب الليل والنهار ، وفي خلق الإنسان في أطوار ، وفي إيلاج الليل في النهار ، وغير ذلك من دلائل القدرة والوحدانية [ والله الذي أرسل الرياح فتمير سحابا فسقناه إلى بلد ميت . . ] الآيات .

* وتحدثت عن الفارق الكبير بين المؤمن والكافر ، وضربت لهما الأمثال بالأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور [ وما يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور . . ] الآيات .

* ثم تحدثت عن دلائل القدرة في اختلاف أنواع الثمار ، وفي سائر المخلوقات من البشر والدواب والأنعام ، وفي اختلاف أشكال الجبال والأحجار ، ولنوعها ما بين أبيض وأسود وأحمر ، وكلها ناطقة بعظمة الواحد القهار [ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض ، وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود . . ] الآيات .

* وتحدث بعد ذلك عن ميراث هذه الأمة المحمدية لأشرف الرسالات السماوية ، بإنزال هذا الكتاب المجيد الجامع لفضائل كتب الله ، ثم انقسام الأمة إلى ثلاثة أنواع : (المقصر ، والمحسن ، والسابق بالخيرات ) [ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله . . ] الآيات .

* وختمت السورة بتقريع المشركين في عبادتهم للأوثان والأصنام والأحجار [ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ، أروني ماذا خلقوا من الأرض . . ] الآيات إلى آخر السورة الكريمة .

التسمية :

سميت " فاطر " لذكر هذا الاسم الجليل ، والنعت الجميل في طليعتها ، لما في هذا الوصف من الدلالة على الإبداع والاختراع ، والإيجاد لا على مثال سابق ، ولما فيه من التصوير الدقيق ، المشير إلى عظمة ذي الجلال ، وباهر قدرته ، وعجيب صنعه ، فهو الذي خلق الملائكة وأبدع تكوينهم بهذا الخلق العجيب . . انتهى انتهى . اهـ ﴿صفوة التفاسير حـ 2 صـ 564.563﴾

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة فاطر

فطر الشيء : أوجده على غير مثال سابق ، رسلا : أي وسائط بينه وبين أنبيائه يبلغون عنه رسالاته ، مثنى وثلاث ورباع : أي اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة

يفتح : يعطى ، ورحمة : أي نعمة حسية كانت أو معنوية ، كرزق وصحة وأمن وعلم وحكمة ، إلى نحو ذلك مما لا يحاط به .

أنى تؤفكون : أي كيف تصرفون عن توحيد الخالق ، مع الاعتراف بأنه وحده هو الرازق .

وتشركون المنحوت : بمن له الملك والملكوت .

الحسرات : واحدها حسرة ، وهى الغم على ما فات والندم عليه .

أرسل : أي أطلق وأوجد من العدم ، تثير أي تحرك ، ميت وميّت بمعنى قاله محمد بن يزيد وأنشد :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميّت الأحياء

إنما الميت من يعيش كئيبا كاسفا باله قليل الرجاء

ويرى بعضهم أن الميت بالتخفيف هو الذي مات ، والميت بالتشديد ، والمائت هو الذي لم

يمت بعد وأنشد :

ومن يك ذا روح فذلك ميّت وما الميت إلا من إلى القبر يحمل

والمراد أنه لا نبات فيه ، والنشور : إحياء الأموات يقال نشر اللّه الميت وأنشره ، أي أحياه ، العزة : أي الشرف والمنعة من قولهم أرض عزاز : أي صلبة ، والكلم الطيب : هو التوحيد أو الذكر أو قراءة القرآن ، وصعوده إلى اللّه : قبوله ، والعمل الصالح : هو ما كان بإخلاص ، يرفعه : أي يقبله ، يمكرون : أي يعملون على وجه المكر والخديعة ، والسيئات : المكرات السيئات كأن يراءوا المؤمنين في أعمالهم يوهمونهم أنهم في طاعة اللّه ، يبور : أي يفسد من البوار وهو الهلاك ، أزواجا :

أي أصنافا ذكرانا وإناثا ، يعمر من معمر : أي يمدّ في عمر أحد ، فى كتاب :

أي في صحيفة المرء .

(22/638)

---

عذب : أي حلو لذيذ طعمه ، فرات : أي كاسر للعطش مزيل له ، سائغ : أي سهل انحداره لخلوه مما تعافه النفس ، أجاج : أي شديد الملوحة والحرارة ، حلية : أي لؤلؤا ومرجانا ، مواخر : أي شاقات للماء حين جريانها ، يولج : أي يدخل ، والقطمير : لفافة النبواة ، وهى

القشرة البيضاء الرقيقة التي تكون بين التمرة والنواة ، يكفرون بشرككم :

أي يجحدون بإشراككم إياهم وعبادتكم لهم ، ولا ينبئك مثل خبير : أي ولا يخبرك بالأمر مخبر مثل الخبير به .

ولا تزر : أي ولا تحمل ، وازرة : أي نفس آثمة ، وزر أخرى : أي إثم نفس أخرى ، والمثقلة : النفس التي أثقلتها الذنوب والأوزار ، ذا قربى : أي ذا قرابة من الداعي ، بالغيب : أي غائبا عنهم ، وتزكى : أي تطهر من دنس الأوزار والذنوب ، والمصير : المرجع والعاقبة الحرور : السموم إلا أن السموم يكون بالنهار والحرور بالليل والنهار ، خلا :

أي سلف ومضى ، ونذير : أي منذر مخوف وهو النبي ، والبينات : أي المعجزات الدالة على صدقهم فيما يدعون ، والزبر : واحدها زبور وهو الكتاب ، النكير : الإنكار بالعقوبة . .

ألوانها : أي من أحمر إلى أصفر إلى أخضر إلى نحو ذلك ، الجدد : واحدها جدة (بالضم) وهى الطريق المختلفة الألوان في الجبل ونحوه ، والغرابيب : واحدها غربيب وهو شديد السواد يقال أسود غربيب ، وأبيض يقق ، وأصفر فاقع ، وأحمر قان ،

وفي الحديث " إن الله يبغض الشيخ الغربيب "

يعنى الذي يخضب بالسواد ، وقال امرؤ القيس في وصف فرسه :

العين طامحة واليد سابحة والرجل لافحة والوجه غربيب

يتلون : أي يتّبعون من قولهم تلاه إذا تبعه ، لأن التلاوة بلا عمل لا نفع فيها ،

وقد ورد : " ربّ قارئ للقرآن والقرآن يلعنه "

والمراد من التجارة المعاملة مع اللّه لنيل الثواب ، وتبور : أي تكسد .

(23/638)

---

الكتاب : هو القرآن ، مصدقا لما بين يديه : أي لما تقدمه من الكتب السماوية ، خبير بصير : أي محيط ببواطن أمورهم وظواهرها ، مقتصد : أي عامل به تارة ، ومخالف له أخرى ، سابق : أي متقدم إلى ثواب اللّه راج دخول جنته ، بالخيرات :

أي بسبب ما يعمل من الخيرات والأعمال الصالحة ، بإذن اللّه : أي بتوفيقه وتيسيره ، والحزن : هو الخوف من محذور يقع في المستقبل ، دار المقامة : أي دار الإقامة التي لا انتقال عنها أبدا وهى الجنة ، نصب : أي تعب ، ولغوب : أي كلال وفتور .

لا يقضى عليهم : أي لا يحكم عليهم بموت ثان ، يصطرخون : أي يصيحون أشد الصياح للاستغاثة ، نعمركم : أي نمهلكم ، للظالمين : أي للكافرين ، نصير :

أي معين يدفع عنهم العذاب .

ذات الصدور : هى المعتقدات والظنون التي في النفوس ، والخلائف : واحدهم خليفة ،

وهو الذي يقوم بما كان قائما به سلفه ، مقتا : أي بغضا واحتقارا ، خسارا : أي خسارة ، فالعمر كرأس مال إذا اشترى به صاحبه رضا اللّه ربح ، وإذا اشترى به سخطه خسر .

أرأيتم : أي أخبرونى ، شرك : أي شركة ، يمسك : أي يحفظ ، وتزول : أي تضطرب وتنتقل من أماكنها

وأقسموا : أي حلف المشركون ، جهد أيمانهم : أي غاية اجتهادهم فيها ، نذير : أي رسول منذر أهدى من إحدى الأمم : المراد بها اليهود أو النصارى ، نفورا : أي تباعدا عن الحق ، مكر السيّء : أي المكر السيّء الذي فيه خداع وكيد لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ولا يحيق : أي ولا يصيب ولا ينزل ، سنة الأولين : أي سنة اللّه فيهم بتعذيب مكذبيهم ، تبديلا : بوضع الرحمة موضع العذاب ، تحويلا : بأن ينقل عذابه من المكذبين إلى غيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 22 صـ 103.138 ﴾ .

باختصار .

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

تفسير سورة فاطر

مكية وآياتها 45 آية

بسم الله الرحمن الرحيم سورة فاطر وهي مكية 435 - من ذلك قوله جل وعز الحمد لله

فاطر السموات والأرض آية 1 قال ابن عباس ما كنت أدري ما فاطر حتى اختصم إلي

أعرابيان في بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أي ابتدأتها ثم قال جل وعز جاعل الملائكة رسلا

أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع آية 1 الرسل منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت

صلى الله عليهم وقوله تعالى أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع أي

أصحاب أجنحة اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة في كل جانب

3 - ثم قال جل وعز يزيد في الخلق ما يشاء آية 1 أي يزيد في خلق الملائكة ما يشاء وقال

الزهري يزيد في الخلق ما يشاء حسن الصوت والأول أولى 4 - وقوله جل وعز ما يفتح الله

للناس من رحمة فلا ممسك لها آية 2

أي ما يأتي به الله جل وعز من الغيث والرزق فلا يقدر أحد على رده وقال قتادة من رحمة

من خير فلا يقدر أحد على حبسه 5 - وقوله تعالى لا إله إلا هو فأنى تؤفكون آية 3 أي

فمن أين تصرفون عن التوحيد والإيمان بالبعث بعد البراهين والآيات 6 - وقوله جل وعز

فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور آية 5 روى معمر عن قتادة قال الغرور

الشيطان

وروى شعبة عن سماك بن حرب الغرور بضم الغين فقيل إن هذا لا يجوز لأنه إنما يقال غره غرا ولا يكاد يأتي على فعول فيما يعتدى إلا شاذا قال أبو جعفر يجوز أن يكون غرور جمع غار أو جمع غر أو يشبه بقولهم نهكه المرض نهوكا ولزمه لزوما 7 - وقوله جل وعز أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا آية 8 الجواب محذوف لعلم السامع فيجوز أن يكون المعنى أفمن زين له سوء علمه كمن هداه الله جل وعز ويكون يدل على هذا المحذوف فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء

(25/638)

---

ويجوز أن يكون المعنى أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليه ويكون يدل عليه فلا تذهب نفسك عليهم حسرات 8 - وقوله جل وعز من كان يريد العزة فلله العزة جميعا آية 10 روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال من كان يريد العزة بعبادة الأوثان قال الفراء من كان يريد علم العزة ثم قال فلله العزة جميعا أي فالله عز وجل يعز من يشاء بطاعته

وقال قتادة فليتعزز بطاعة الله جل وعز قال أبو جعفر وأولاها الأول لأن الآيات التي قبلها وبخ فيها المشركون بعبادة الأوثان فكان أولى بهذه أن تكون من جنس الحث على فراق

ذلك أيضا 9 – ثم قال جل وعز إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه آية 10 في معناه ثلاثة أقوال أ – من ذلك ما حدثنا بكر بن سهل قال حدثنا أبو صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه قال الكلام الطيب ذكر الله جل وعز والعمل الصالح أداء فرائضه

فمن ذكر الله سبحانه في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله فصعد إلى الله سبحانه ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به قال أبو جعفر وكذلك قال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك قالوا العمل الصالح يرفع الكلام الطيب قال الحسن فإذا كان كلام طيب وعمل سئ رد القول

على العمل فكان عملك أولى بك من قولك

(26/638)

---

ب وقال شهر بن حوشب إليه يصعد الكلم الطيب القرآن والعمل الصالح يرفعه القرآن وروى معمر عن قتادة قال والعمل الصالح يرفعه الله عز وجل قال أبو جعفر قول قتادة ليس ببعيد في المعنى لأن الله عز وجل يرفع الأعمال وقول شهر بن حوشب معناه أن العمل الصالح لا ينفعك إلا مع التوحيد فكأن التوحيد يرفعه إلا أن القول الأول أولاها وأصحها لعلو من

قال به وأنه في العربية أولى لأن القراء على رفع العمل ولو كان المعنى والعمل الصالح يرفعه الله أو والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب لكان الاختيار نصب العمل ولا نعلم أحدا قرأه منصوبا إلا شيئا روي عن عيسى بن عمر أنه قال قرأه أناس والعمل الصالح يرفعه

10 - وقوله جل وعز والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور آية 10 روى معمر عن قتادة يبور قال يفسد قال أبو جعفر وقد بين الله جل وعز هذا المكر في قوله وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك

وروى قيس عن منصور عن مجاهد ومكر أولئك هو يبور قال الرياء 11 - وقوله جل وعز وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب آية 11 في معنى هذه الآية أقوال أ - فمن أحسنها وأشبهها بظاهر التنزيل قول الضحاك

قال من قضيت له أن يعمر حتى يدركه الهرم أو يعمر دون ذلك فكل ذلك بقضاء وكل في كتاب قال أبو جعفر والمعنى على هذا وما يعمر من معمر أي هرم وفلان معمر أي كبير ولا ينقص آخر من عمره من عمر الهرم إلا بقضاء من الله عز وجل ب - وروى عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله جل وعز وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب قال يكتب عمره كذا وكذا سنة وكذا وكذا شهر وكذا وكذا يوما ثم يكتب نقص من عمره يوم ونقص من عمره شهر ونقص من عمره سنة في كتاب آخر إلى أن

يستوفي أجله فيموت

ج – قال سعيد بن جبير فيما مضى من عمره فهو النقصان وما يستقبل فهو الذي يعمر

*(27/638)*

---

د – وروى الزهري عن سعيد بن المسيب عن كعب الأحبار أنه قال لما طعن عمر بن الخطاب لو دعا الله لزاد في أجله فأنكر ذلك عليه المسلمون وقالوا إن الله عز وجل يقول فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فقال وإن الله تعالى يقول وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب

ه – قال الزهري نرى أنه يؤخر ما لم يحضر الأجل فإذا حضر الإجل لم يزد في العمر ولم يقع تأخير قال أبو جعفر وقيل في معنى الآية إنه يكون أن يحكم أن عمر الإنسان مائة سنة إن أطاع وتسعون إن عصى فأيهما بلغ فهو في كتاب إن ذلك على الله يسير أي إحصاء طويل الأعمار وقصيرها لا يتعذر عليه 12 – وقوله جل وعز وما يستوي البحران هذا عذب فرات آية 12 قال أبو عبيدة الفرات أعذب العذوبة والأجاج أملح الملوحة 13 – ثم قال جل وعز ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها آية 12 الحلية اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما

اللؤلؤ والمرجان وإنما يخرج من الملح قال أبو جعفر وهذا كثير في كلام العرب لأن البحرين مختلطان فجاز أن يقال يخرج منهما وإنما يخرج من أحدهما على قول بعض أهل اللغة 14 - ثم قال جل وعز وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله آية 12 قال قتادة أي تجري الفلك مقبلة ومدبرة قال أبو جعفر مخرت السفينة تمخر وتمخر مخرا ومخورا إذا خرقت الماء 15 - وقوله جل وعز والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير آية 13

روى خصيف عن عكرمة عن ابن عباس قال القطمير القشرة التي على النواة أي بينها وبين التمرة و الفتيل الذي في شق النواة قال والنقير الحبة التي في وسط النواة 16 - وقوله جل وعز ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير آية 14 أي يتبرءون منهم ومن عبادتهم إياهم ويوبخونهم على ذلك ثم قال تعالى ولا ينبئك مثل خبير وهو الله جل وعز خبير بما يكون لا يعلمه غيره

(28/638)

---

17 - وقوله جل وعز ولا تزر وازرة وزر أخرى آية 18 روى سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال لا يؤاخذ أحد بذنب أحد 18 - ثم قال جل وعز وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شئ آية 18 قال مجاهد إلى حملها أي إلى الذنوب فقال قال أبو جعفر المعنى وإن

تدع نفس قد أثقلته الذنوب إلى حملها وهو ذنوبها لا يحمل من حملها وهو ذنوبها شئ ولو كان ذا قربى أي ولو كان الذي تدعوه إلى ذلك أبا أو إبنا أو ما أشبههما 19 - وقوله جل وعز وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور آية 20 قال قتادة أي كما لا يستوي الأعمى والبصير لا يستوي المؤمن والكافر وقال غيره المعنى وما يستوي الأعمى عن الحق وهو الكافر ولا البصير بالهدى وهو المؤمن ولا الظلمات وهي الضلالات ولا النور وهو الهدى ثم قال تعالى ولا الظل ولا الحرور

قال أبو عبيدة الحرور في هذا الموضع إنما يكون بالنهار مع الشمس وقيل يعني الجنة والنار وقيل لا يستوي من كان في ظل من الحق ومن كان في الحرور وقال الفراء الحرور الحر الدائم ليلا أو نهارا والسموم بالنهار خاصة وقال رؤبة بن العجاج الحرور بالليل خاصة والسموم بالنهار

قال أبو جعفر وقول أبي عبيدة أشبه لأن الظل إنما يستعمل في اليوم الشمس 20 - ثم قال جل وعز وما يستوي الأحياء ولا الأموات آية 22 أي العقلاء والجهال والمراد بالأحياء الأحياء القلوب بالإيمان والمعرفة والأموات الأموات القلوب بغلبة الكفر عليها حتى صارت لا تعرف الهدى من الضلال 21 - وقوله جل وعز وإن من أمة إلا خلا فيها نذير آية 24 أي سلف فيها نبي

22 - وقوله جل وعز ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانه

وغرابيب سود آية 27 قال الضحاك أي ألوان مختلفة أي أبيض وأحمر وأسود قال والجدد الطرائق قال أبو جعفر قال أبو عبيدة الغريب الشديد السواد 23 - ثم قال جل وعز ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك آية 28 قال الضحاك إي من الناس الأبيض والأحمر والأسود

24 - ثم قال جل وعز إنما يخشى الله من عباده العلماء آية 28 أي العلماء بقدرته على ما يشاء فمن علم ذلك أيقن بمعاقبته على المعصية فخافه كما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس إنما يخشى الله من عباده العلماء قال الذين يعلمون أن الله على كل شئ قدير وفي الحديث كفى بخشية الله علما وبالغرة به جهلا

25 - وقوله جل وعز ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن

الله آية 32 قيل إن الناجي هو المقتصد والسابق وأن قوله تعالى جنات عدن يدخلونها للمقتصد والسابق هذا مذهب ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة روى ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس فمنهم ظالم لنفسه قال كافر

وعن ابن عباس قال الكتاب كل كتاب أنزل وعنه كلهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم من رواية ابن أبي طلحة عنه وهذا أولى ما قيل فيها وروى الثوري عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس في قوله عز وجل ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا إلى آخر الآية قال هذا مثل قوله جل وعز فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون قال فنجت فرقتان قال مجاهد فمنهم ظالم لنفسه أصحاب المشأمة

ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله السابقون من الناس كلهم وقال عكرمة فمنهم ظالم لنفسه كما قال فذوقوا

فما للظالمين من نصير وقال الحسن وقتادة فمنهم ظالم لنفسه المنافق قال قتادة الكتاب شهادة أن لا إله إلا الله وقيل إن الفرق الثلاث ناجية قال ذلك عمر وأبو الدرداء وإبراهيم النخعي وكعب الأحبار



---

وقال عثمان هم أهل باديتنا يعني الظالم لنفسه قال عمر سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له وقال أبو الدرداء السابق يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يحاسب

حسابا يسيرا والظالم لنفسه يؤخذ منه ثم ينجو فذلك قوله جل وعز وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وقال كعب هذه الأمة على ثلاث فرق كلها في الجنة ثم تلا ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه إلى قوله جنات عدن يدخلونها فقال دخلوها ورب الكعبة وبعد هذا للكفار

26 - وهو قوله جل وعز والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا آية 36 قال محمد بن يزيد الرجال أربعة جواد وبخيل

ومسرف ومقتصد فالجواد الذي وجه نصيب آخرته ونصيب دنياه جميعا إلى آخرته والبخيل الذي لا يعطي واحدة منهما حقا والمسرف الذي يجمعهما للدنيا والمقتصد الذي يلحق بكل واحدة نصيبها أي عمله قصد ليس بمجتهد

قال أبو إسحق معنى أذهب عنا الحزن أي الهم بالمعيشة والخوف من العذاب وتوقع الموت وكل ما قاله قد جاء في التفسير فهو عام لجميع الحزن والمقامة والمقام واحد والنصب التعب واللغوب الإعياء واللغوب بفتح اللام ما يلغب منه وقرأ الحسن لا يقضى عليهم فيموتون والمعنى على قراءته لا يقضى عليهم الموت ولا يموتون 460 - وقوله جل وعز أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر

قال أبو هريرة وابن عباس ستين سنة وعنه أيضا أربعين وهذا أشبه لأن في الأربعين تناهي العقل وما قبل ذلك وما بعده منتقص عنه والله جل وعز أعلم وقال الحسن أيضا أربعين

ويقال إن ابن سبع عشرة داخل

فيها ثم قال تعالى وجاءكم النذير آية 37 قال ابن زيد النبي صلى الله عليه وسلم

(31/638)

---

وقيل يعني الشيب والأول أكثر والمعنى على الثاني حتى شبتم وهو قول ابن عباس 28 -

وقوله جل وعز هو الذي جعلكم خلائف في الأرض آية 39 أي تخلفون من كان قبلكم

وتعتبرون بما نزل بهم 29 - ثم قال جل وعز فمن كفر فعليه كفره آية 39 أي جزاء كفره ولا

يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا آية 39 المقت أسد الإبغاض

30 - وقوله جل وعز قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله آية 40 المعنى عند

سيبويه أخبروني عن الذين تدعون من دون الله على التوقيف 31 - ثم قال جل وعز

أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات آية 40

أي أعبدتموهم لأنهم خلقوا من الأرض شيئا أم لهم شركة في خلق السموات أم آتيناهم كتابا

بالشركة فهم على بينة منه أي على بينات منه 32 - وقوله جل وعز إن الله يمسك

السموات والأرض أن تزولا آية 41

المعنى عند البصريين كراهة أن تزولا كما قال سبحانه واسأل القرية 33 - ثم قال جل وعز

ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده آية 41 يجوز أن يكون المعنى لزوالهما يوم القيامة

ويجوز أن يقال هذا وإن لم تزولا وإن بمعنى ما وهو يشبه قوله تعالى ولئن أرسلنا ريحا فرأوه

مصفرا قال أبو جعفر وفي الآية سؤال يقال هذا موضع قدرة

فكيف قال إنه كان حليما غفورا فالجواب أنهم لما قالوا اتخذ الرحمن ولدا كادت الجبال

تزول وكادت السموات ينفطرن وكادت الأرض تخر لعظم ما قالوا فأسكنها الله جل وعز

وأخر عقابهم وحلم عنهم فذلك قوله سبحانه إنه كان حليما غفورا آية 41

34 - وقوله جل وعز لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم آية 42 معنى

أهدى من إحدى الإمم من اليهود والنصارى 35 - وقوله جل وعز استكبارا في الأرض

ومكر السئ ولا يحيق المكر السئ إلا بأهله آية 43 ومكر السئ قيل أي ومكر الكفر

(32/638)

---

ثم قال تعالى ولا يحيق المكر السئ إلا بأهله أي ولا ينزل مكروه المكر السئ إلا بأهله أي

بالذين يمكرونه 36 - ثم قال جل وعز فهل ينظرون إلا سنة الأولين آية 43 أي فهل

ينتظرون إلا سنة الأولين في العذاب حين كفروا 37 - وقوله جل وعز ولو يؤاخذ الله الناس

بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة آية 45 قال أبو عبيدة يعني الناس خاصة وعن عبد

الله بن مسعود ما يدل على أنه يعني الناس وغيرهم

قال كاد الجعل يعذب بذنب بني آدم ثم تلا ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على

ظهرها من دابة الآية قال قتادة قد فعل ذلك في أيام نوح صلى الله عليه وسلم

وقوله تعالى على ظهرها آية 45 قيل قد عرف أن المعنى على ظهر الأرض قال أبو جعفر

والأجود أن يكون الإضمار يعود على ما جرى

ذكره في قوله سبحانه أولم يسيروا في الأرض 38 – وقوله جل وعز فإذا جاء أجلهم فإن الله

كان بعباده بصيرا آية 45 فإذا جاء أجلهم أي أجل عقابهم فإن الله كان بعباده بصيرا أي

بصيرا بما يستحق كل فريق منهم انتهت سورة فاطر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن /

للنحاس حـ 5 صـ 435.468 ﴾

(33/638)

---

وقال الفراء :

سورة ( فاطر )

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ

وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ . . . ﴾

هذا فى الأجنحة التى جعلها لجبريل وميكائيل يعنى بالزيادة فى الأجنحة.

﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ . . . ﴾

ولم يقل: لها ، وقد قال قبل ذلك ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ فكان التأنيث فى (لها) لظهور الرحمة. ولو قال: فلا ممسك له لجاز ، لأن الهاء إنما ترجع على (ما) ولو قيل فى الثانية: فلا مرسل لها لأن الضمير على الرّحمة جاز ، ولكنها لمّا سقطت الرحمة من الثانى ذُكّر على (ما) .

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾

وقوله: ﴿ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ . . . ﴾

وما كان فى القرآن من قوله ﴿ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ فمعناه: احفظوا ، كما تقول: اذكر أيادِىّ عنك أى احفظها .

وقوله: ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ تقرأ ﴿ غيرُ ﴾ و ﴿ غيرِ ﴾ قرأها شقيق بن سَلَمة (غَيْرِ) وهو وجه الكلام. وقرأها عاصم (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ) فمن خفض فى الإعراب جعَل (غيرِ) من نعت الخَالِق. ومن رفع قال: أردت بغير إلاّ، فلمّا كانت ترتفع ما بعد (إلاّ) جعلت رفع ما بعدَ (إلاّ) فى (غيرَ) كما تقول: ما قام من أحدٍ إلاّ أبوك. وكلّ حسَنٌ. ولو نصبت (غَير) إذا أريد بها (إلاّ) كان صَوَاباً.

العرب تقول: ما أتانى أحد غَيْرَك والرفع أكثر، لأنّ (إلا) تصلح فى موضعها.

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً . . . ﴾

يقول: شُبّه عليه عمله، فرأى سّيِّئه حَسَناً. ثم قال ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ فكان الجواب مُتبعاً بقوله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ واكتُفى بإتباع الجواب بالكلمة الثانية؛ لأنها كافية من جواب الأولى: ولو أخرج الجواب كله كان: أفمن زين له سوءُ عَمله ذهبت نفسُك، أو تذهب نفسُك لأن قوله ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ ﴾ نهى يدلّ عَلَى أن مَا نهى عنه قد مَضى فى صدر الكلمة. ومثله فى الكلام: إذا غضبت فلا تقتل، كأنّه كان يقتل على الغضب، فنُهى عن ذلكَ. والقراء مجتمعونَ على ﴿ تَذْهَبْ

نَفْسُكَ ﴾ وقد ذكر بعضهم عن أبي جعفر المَدَنِيّ (فلا تُذْهِبْ نفسَك عليهم) وكلّ صوَاب.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾

(35/638)

---

وقوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً . . . ﴾

فان (العزّة) معناه: من كان يريد عِلْم العزّة ولِمَنْ هى فإنها لله جميعاً، أى كل وجهٍ من العزّة فلله.

وقوله: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ القُرّاء مجتمعونَ على ﴿ الكَلِم ﴾ إلا أبا عبد الرحمن فإنه قرأ (الكلام الطيّب) وكلّ حَسَنٌ، و ﴿ الكَلِم ﴾ أجود، لأنها كلمة وكلم. وقوله ﴿ الكلمات ﴾ فى كثير من القرآن يدل على أن الكلم أجود: والعرب تقول كَلِمة وكَلِم، فأمّا الكلام فمصدر.

وقد قال الشاعر:

مالكِ تَرْغين ولا ترْغُو الخَلِفْ * وتضْجَرين والمطىّ مُعترف

فجمعَ الخَلِفة بطرح الهاء ، كما يقال: شجرة وشجر .

وقوله: ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ أى يرفع الكلمَ الطيّب . يقول: يُتقبّل الكلام الطيّب إذا كان معه عمل صالح . ولو قيل: ﴿ والعَمَلَ الصَّالِحَ ﴾ بالنصب على معنى: يرفع الله العمل الصَّالح ، فيكون المعْنَى: يرفع الله ﴿ الْعَمَلُ الصَّالِحُ ﴾ ويجوز عَلى هذا المعْنى الرفعُ ، كما جاز النصب لمكَان الواو فى أَوّله .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ . . . ﴾

يقول: ما يُطوَّل من عمر ، ولا يُنْقَص من عمره ، يرد آخر غير الأوّل ، ثم كُنى عنه بالهاء كأنه الأوّل .

ومثله فى الكلام: عندى درهم ونصفه يعنى نصف آخر . فجاز أن يكنى عنه بالهاء ؛ لأن لفظ الثانى قد يظهر كلفظ الاول . فكنى عنه ككناية الاوّل .

وفيها قول آخر: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ يقول: إذا أتى عليه الليلُ والنهار نَقَصَا من عمره، والهاء فى هذا المْعنى للأوّل لا لغيره، لأن المعْنى ما يطوّل ولا يذهب منه شىء إلا هو محصىً فى كتاب، وكلّ حسن وكأنّ الأوّل أشبه بالصواب.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَاذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَهَاذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً . . . ﴾

يريد: من البَحرين جميعاً: من المِلْح والعَذْب. ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً ﴾ من المِلح دون العذب.

وقوله: ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ ومَخْرها: خرقها للماء إذا مَرّتْ فيه، واحدها ماخِرة.

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا . . . ﴾

يقول: إن دعت داعية ذات ذُنُوب قد أثقلتها إلى ذنوبها ليُحمل عنها شىء من الذنوب لم تجد ذلكَ. ولو كانَ الذى تدعوه أباً أو ابنًا. فذلك قوله: ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ ولو كانت: ﴿ ذو قربى ﴾ لجَازَ؛ لأنه لم يُذكر فيصيرَ نكرة. فمَن رفع لم يضمر فى (كان) شيئاً، فيصيرُ مثل قوله: (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ) ومن نصب أضمر. وهى فى قراءة أُبَىّ: (وَإِنْ كَانَ ذَا عُسْرَةٍ) على ذلك. وإنما أنّث ﴿ مُثْقَلَةٌ ﴾ يذهب إلى الدابة أو إلى النفس، وهما يعبّران عن الذكر والأنثى، كما قَال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ للذكَر والأنثى.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ... ﴾

فالأعمى ها هنا الكافر، والبصير المؤمنُ.

﴿ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ﴾

وقوله: ﴿ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ... ﴾

الظلمات: الكفر، والنور: الإيمان.

﴿ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ ﴾

وقوله: ﴿ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ... ﴾

الظّل: الجنة، والحَرور: النار.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ . . . ﴾

الأحياء: المؤمنون، والأموات: الكفّار.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾

وقوله: ﴿ جُدَدٌ بِيضٌ . . . ﴾

الخُطَط والطُرُق تكون فى الجبال كالعُروق، بِيض وسُود وحمر، واحدها جُدّة.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ . . . ﴾

(38/638)

---

من صلة الثمرات. واختلاف ألوانها أى من الناس وغيرهم كالأوّل. ثم استأنف فقال:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾

وقوله: ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ . . . ﴾

جواب لقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ ﴿ أولئك يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ فـ ﴿ يَرْجُونَ ﴾ جواب لأوّل الكلام .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾

وقوله: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ . . . ﴾

هذا الكافر ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ فهؤلاء أصحاب اليمين ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ وهذه موافقٌ تفسيرها تفسيرَ التى فى الواقعة . فأَصْحَاب المَيْمنة هم المقتصِدونَ . ويقال: هم الوِلْدان . وأَصحَاب المَشْأَمة الكفّار . والمَشْأَمَة النار . والسَّابقون السَّابقون هؤلاء أهل الدرجات العُلَى أولئك المقرّبونَ فى جناتِ عَدْنٍ .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ . . . ﴾

ومعْنى عَدْنٍ إقامة به . عَدَنَ بالموضع .

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

وقوله: ﴿ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ . . . ﴾

الحَزَن للمعاش وهموم الدنيا . ويقال: الحزن حَزَن الموت . ويقال الحزن بالْجنة والنار لا ندرى إلى أيهما نصير .

(39/638)

---

﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾

وقوله: ﴿ دَارَ الْمُقَامَةِ . . . ﴾

هى الإقامة . والمَقَامة: المجلس الذى يُقام فيه . فالمجلس مفتوح لا غير ؛ كما قال الشاعر:

يومان يوم مُقامات وأندية * ويوم سير إلى الأعداء تأْويب

وقرأ السُّلمىّ (لَغُوب) كأنه جعله ما يُلْغِب ، مثل لَغُوب والكلام لُغُوب بضم اللام ، واللُغوب: والإعياء .

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ . . . ﴾

يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم . وذُكر الشيبُ .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً ﴾

وقوله: ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ . . . ﴾

أى إنهم لم يَخْلُقوا فى الأرض شيئاً . ثم قال: ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ أى فى خَلْقها ، أى أعانوه على خلقها .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾

وقوله: ﴿ وَلَئِن زَالَتَا . . . ﴾

بمنزلة قوله: ولو زالتا ﴿ إِنْ أَمْسَكَهُمَا ﴾ (إنْ) بمعنى (ما) وهو بمنزلة قوله: ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ .



---

وقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ المعنى معنى (لو) وهما متآخيتان يجابان بجواب واحدٍ .

﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

وقوله: ﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ . . . ﴾

أى فعلو ذلك استكبارا ﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ أُضيف المكر إلى السَّىء وهو هو كما قال:

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ وتصديق ذلك فى قراء عبد الله (ومَكْرًا سَيِّئًا ) وقوله

﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ الهمز فى ﴿ السَّيِّئ ﴾ مخفوضة / ب وقد جزمها الأعمش وحمزة لكثرة الحركات ، كما قال ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾ وكما قال الشاعر:

* إذا اعْوَجَجْنَ قُلْتُ صَاحِبْ قَوِّمِ *

يريد صَاحِبِ قَوِّمِ فجزم الباء لكثرة الحركات . قال الفراء : حدثنى الرؤاسى عن أبى عمرو ابن العلاء ﴿ لَا يَحْزُنْهُمْ ﴾ جزْم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء جـ 2 ص 371.366 ﴾

(41/638)

---

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الملائكة

(مثنى وثلاث ورباع) [1] قد [ذكرنا] أنها لتكرر تلك الأعداد ، ولم ينصرف للعدل [والصفة] . [وقال] بعض الطاعنين: إن صاحب الأجنحة الثلاثة لا يطير ، لزوال الاعتدال ، ويكون كالجادف [الذي] أحد جناحيه مقصوص . فأجاب عنه الجاحظ: "إنه قريب معقول في الطيران ، إذا وضع على غير هذا الوضع ، يصير ثلاثة أجنحة وفق تلك الطبيعة . ولو كان [الوطواط] في تركيبه كسائر الطير ، لما طار لا ريش .

وكل إنسان فإنما ركبته في رجله ، وذوات الأربع ركبها في أيديها ، والإنسان وكل سبع فكفه في يده ، والطائر كفه في رجله . ويجوز أن يكون موضع الجناح الثالث بين الجناحين ، فيكون عوناً لهما [فتستوي] [في] [القوى] والحصص . وإذ كان ذلك [ممكناً] في معرفة العبد ، فكيف في قدرة الرب" ، وأيضاً [فإن] هذا البناء لتعدد العدد المسمى به ، ولذلك عدل عن البناء الأول ، فثلاث إذا عبارة عن ثلاث ثلاث ، فتكون ثلاثة أجنحة من جانب ، وثلاثة من جانب ، فيعتدل . (أفمن زين له سوء عمله فرءاه حسنا ) [8] جوابه محذوف ، يجوز أن يكون مثل/: تريد أن تهديه .

ويجوز: فإنه يتحسر عليه . ويجوز: كمن آمن وعمل صالحاً . ويجوز: كمن علم الحسن والقبيح . ويجوز: فإن الله يضله ، إلا أنه وقع (من يشاء) موقع الجميع . وإنما كان أكثر استفهامات القرآن بلا جواب ، لمعنيين ، أحدهما : ليكثر احتمال الجواز ، والثاني: لأنها من عالم لا يستعلم مستفيداً . (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ) [10] قال قتادة: أي:

فليتعزز بطاعة الله . وقال علي : من سره الغنى بلا مال ، والعز بلا سلطان ، والكثرة بلا عشيرة ، فليخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته .

(42/638)

---

وأنشد : 980- من رام ملكاً في الورى من غير سلطان ومال 981- وأراد عزاً لم يؤثله العشائر والموالي 982- فليعتصم بدخوله في عز طاعة ذي الجلال . (إليه يصعد الكلم الطيب) التوحيد . وقيل: الثناء الحسن على الصالحين . (والعمل الصالح يرفعه) أي: يرتفع الكلام الطيب بالعمل الصالح .

(وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره) [11] قال البلخي : أي: من عمر آخر غير الأول ، كما تقول: عندي درهم ونصفه ، أي: نصف آخر ، [بل] لا يمتنع أن يزيد الله في العمر أو [ينقص] ، كما روي: "أن صلة الرحم تزيد في العمر" على أن تكون

الأحوال قبل التغيير وبعده مستقرة في سابق علمه . (ومن الجبال جدد) [27] طرائق . والجدة: الطريقة . (وغرابيب) من شرط التأكيد أن يتقدم الأظهر ، كقولك: أسود حالك ، وأصفر فاقع ، فكذلك ينبغي أن يجيء سود غرابيب ، ولكن تقديم الغرابيب/ ، لأن العرب ترغب عن اسم السواد ، حتى يسمون الأسود من الخيل: الأدهم ، والأسود من الإبل:

الأصفر . قال أبو عبيدة -في بيت الأعشى-: 983- تلك خيلي منهم وتلك ركابي هن

صفر أولادها كالزبيب . فبدأ الله بما هو أحب عندهم ، وأخر ما هو أكره في أسماعهم .

(فمنهم ظالم لنفسه) [32] يحتمل أصحاب الصغائر والكبائر ، فيكون قوله (الذين

اصطفينا من

عبادنا) دليلاً على أن جملة هذه الأمة مصطفاة متخيرة على غيرها ، وإن كان فيها الفسقة

المرقة . والمقتصد : المتوسط في الطاعة . والسابق : أهل الدرجة القصوى منها . (أذهب

عنا الحزن) [34] هموم الدنيا ومعايشها . (وجاءكم النذير) [37] النبي عليه السلام .

وقيل: الشيب ، وفي معناه قيل:

984- وقائلة: تبيض والغواني نوافر عن معاينة القتير 985- ألا إن المشيب نذير ربي

ولست مسوداً وجه النذير . (إلا سنت الأولين) [43] ما لقوة من صنوف العذاب أو

الموت . (على ظهرها من دابة) [45] لأنها خلقت للناس .

[تمت سورة فاطر] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1166. 1173 ﴾

وقال الأخفش :

سورة ( فاطر )

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قال ﴿ أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ﴾ فلم يصرفه لأنه توهم به "الثَلاثَةَ" و"الأَرْبَعَةَ" . وهذا لا يستعمل الا في حال العدد . وقال في مكان آخر ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ وتقول "ادْخُلوا أُحادَ أُحادَ" كما تقول "ثُلاثَ ثُلاثَ" وقال الشاعر : [من الوافر وهو الشاهد الثاني والستون بعد المئة]:

[161 ب] أَحمَّ اللهُ ذَلِكَ مِن لِقاءٍ * أُحادَ أُحادَ في شَهْرٍ حلالِ

﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

وقال ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ فأنث لذكر الرحمة ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ فذكر لأن لفظ ﴿ ما ﴾ يذكّر .

﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾

وقال ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ لأنه خبر.

وقال ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا ﴾ فكأنه قال و"إِنْ تَدْعُ إِنْساناً لا يحمل من ثِقَلِها شَيْئاً ولو كان الانسان ذا قربى.

﴿ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ ﴾

وقال ﴿ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ ﴾ فيشبه ان تكون ﴿ لا ﴾ زائدة لأنك لو قلت: "لا يَسْتَوِى عَمْرُو ولا زَيْدٌ" في هذا المعنى لم يكن الا ان تكون ﴿ لا ﴾ زائدة.

(44/638)

---

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾

وقال ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ ﴾ و"الجُدَدُ" واحدتها "جُدَّةٌ" و"الجُدَدِ" هي الوان الطرائق التي فيها مثل "الغُدَّة" وجماعتها "الغُدَدُ" ولو كانت جماعة "الجَدِيدِ" لكانت "الجُدُد". وانما قرئت ﴿ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ لأن كل صفة مقدمة فهي تجري على الذي قبلها اذا كانت من سببه فالثمرات في موضع نصب.

وقال ﴿ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ فرفع "المُخْتَلِفُ" لأن الذي قبلها مرفوع.

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾

وقال ﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً ﴾ لأن الحق معرفة .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾

وقال ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ وقد قال ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ يقول: "لا يُخَفَّفُ عنهم من العذاب الذي هو هكذا" .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾

وقال ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا [وَلَئِن زَالَتَا] إِنْ أَمْسَكَهُمَا ﴾ فثنى وقد قال ﴿ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ فهذه جماعة وأرى [162] – والله أعلم – انه جعل السماوات صنفا كالواحد .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾

وقال ﴿ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ فجعلها إِحْدَى لأنها أمة .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾

وقال ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ فاضمر الأرض من غير أن يكون ذكرها لأن هذا الكلام قد كثر حتى عرف معناه تقول: "أُخْبِرُكَ ما على ظَهْرِهَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ وما بِهَا أَحَدٌ آثَرُ عِنْدِي مِنْكَ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 485. 487 ﴾

(46/638)

---

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة فاطر

مكية كلها

2 - ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ «1» أي من غيث .

3 - اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أي احفظوها . تقول : اذكر أيادي عندك ، أي احفظها .

وكل ما كان في القرآن - من هذا - فهو مثله .

8 - أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فرآه حَسَناً أي شبه عليه .

9 - النُّشُورُ : الحياة .

10 - وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ أي يبطل .

12 - وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ أي جواري . ومخرها : خرقها للماء .

13 - ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ القطمير : الفوفة التي تكون في النواة .

وفي التفسير : أنه الذي بين قمع الرطبة وبين النواة . وهو من الاستعارة في قلة الشيء وتحقيره .

18 - وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِها : لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ يقول : إن

---

(1) قال الطبري : ما يفتح الله للناس من خير فلا مغلق له ، فإن مفاتيح الخير كلها بيده .

(47/638)

---

دعت نفس ذات ذنوب ، قد أثقلتها ذنوبها ، ليحمل عنها شيء منها ، لم تجد ذلك ، وَلَوْ كانَ من تدعوه ذا قُرْبى .

19 - وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ: مثل للكافر والمؤمن.

20 - وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ

: مثل للكفر والإيمان.

21 - وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ: مثل للجنة والنار «1».

22 - وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ: مثل للعقلاء والجهال.

24 - وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ أي سلف فيها نبي.

27 و28 - وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ، وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها، وَغَرابِيبُ سُودٌ.

و«الجدد» الخطوط والطرائق تكون في الجبال، فبعضها بيض، وبعضها حمر وبعضها غرابيب سود.

وغرابيب جمع غربيب، وهو: الشديد السواد. يقال: أسود غربيب.

وتمام الكلام عند قوله: كَذلِكَ.

يقول: من الجبال مختلف ألوانها، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ أي كأختلاف الثمرات. ثم يبتديء: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ.

31 - مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ أي لما قبله.

35 - دارَ الْمُقامَةِ: ودار المقام واحد، وهما بمعنى الإقامة.

(اللغوب): الإعياء.

37 – وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ يعني محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم.

---

(1) الحرور: الرياح الحارة التي تكون بالنهار من حر الشمس.



---

ويقال: الشيب. ومن ذهب هذا المذهب، فإنه أراد: «أو لم نعمركم حتى شبتم».

43 – فَهَلْ يَنْظُرُونَ أي ينتظرون، إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ أي سنتنا في أمثالهم من الأولين الذين كفروا كفرهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿تأويل مشكل القرآن ص 309. 311﴾



---

وقال الغزنوى:

ومن سورة الملائكة

1 مَثْنى وَثُلاثَ: هذه الأوزان لتكرير تلك الأعداد ولذلك عدل عن البناء الأول «1»، ف ثُلاثَ هي ثلاث ثلاث فتكون ثلاثة أجنحة من جانب ومثله من جانب فيعتدل، فلا يصح قول الطاعن: إنّ صاحب الأجنحة الثلاثة لا يطير ويكون كالجادف. أو يجوز أن

يكون موضع الجناح الثالث بين الجناحين فيكون عونا لهما فتستوي القوى والحصص .

3 هَلْ مِنْ خالِقٍ : لا أحد يطلق له صفة خالق ، أو لا خالق على هذه الصّفة إلّا هو .

5 الْغَرُورُ : الشّيطان «2» . ويقرأ «الغرور» «3» أي : الأباطيل ، جمع «غار» ك «قاعد» و«قعود» «4» .

---

(1) البناء الأول هو اثنان ، ثلاثة ، أربعة . . .

وانظر المعنى الذي ذكره المؤلف في الكشاف : 3/ 298 ، والمحرر الوجيز : (12/ 213 ، 214) ، وتفسير القرطبي : 14/ 319 .

(2) ورد هذا القول في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 22/ 117 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

ونقله ابن عطية في المحرر الوجيز : 12/ 217 ، وابن كثير في تفسيره : 6/ 521 عن ابن عباس أيضا .

وانظر هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 4/ 263 ، وتفسير البغوي : 3/ 565 ، وتفسير القرطبي : 14/ 323 .

(3) بضم الغين المعجمة ، وتنسب هذه القراءة إلى أبي حيوة ، وأبي السّمال العدوي ، ومحمد بن السميفع ، وسماك بن حرب .

انظر إعراب القرآن للنحاس : 3/ 361 ، وتفسير القرطبي : 14/ 323 ، والبحر

المحيط:

7/ 300.

(4) عن معاني القرآن للزجاج: 4/ 263.

(50/638)

---

10 إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ: التوحيد والعمل الصالح يرفعه، أي:

[80/ أ] يرتفع الكلم الطّيّب بالعمل الصالح «1»، أو العمل الصالح يرفعه/ الكلم الطّيّب

«2» إذ لا يقبل العمل إلّا من موحد.

11 وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ: أي: من عمر آخر غير الأول كقولك: عندي

درهم ونصفه «3»، بل لا يمتنع أن يزيد اللّه في العمر أو ينقصه. كما روي «4» أنّ صلة

الرحم تزيد في العمر. على أنّ الأحوال مستقرة في سابق العلم.

13 قِطْمِيرٍ: لفافة النّواة «5»، والنّقير «6»: النقرة التي في ظهرها،

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 22/ 121 عن مجاهد، ونقله الماوردي في

تفسيره:

3/ 370 عن سعيد بن جبير، والضحاك.

وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات: 2/ 168 عن مجاهد.

وأورده البغوي في تفسيره: 3/ 566، وقال: «وهو قول ابن عباس، وسعيد بن جبير والحسن، وعكرمة، وأكثر المفسرين».

(2) ذكره الفراء في معانيه: 2/ 367، والطبري في تفسيره: 22/ 120.

ونقله الماوردي في تفسيره: 3/ 370 عن يحيى بن سلام، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير: 6/ 478، وقال: «وبه قال أبو صالح وشهر بن حوشب».

(3) عن معاني القرآن للفراء: 2/ 368، ونص كلامه: ما يطوّل من عمر، ولا ينقص من عمره، يريد آخر غير الأول، ثم كنى عنه بالهاء كأنه الأول. ومثله في الكلام: عندي درهم ونصفه، يعني نصف آخر، فجاز أن يكنى عنه بالهاء، لأن لفظ الثاني كلفظ الأول، فكنى عنه ككناية الأول».

(4) أخرج الإمام البخاري والإمام مسلم رحمهما اللّه تعالى عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال: إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: «من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه».

صحيح البخاري: 3/ 8، كتاب البيوع، باب «من أحب البسط في الرزق».

صحيح مسلم: 4/ 1982، كتاب البر، باب «صلة الرحم وتحريم قطعها».

(5) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 360، وتفسير الطبري: 22/ 125، ومعاني

الزجاج:

4/ 266، والمفردات للراغب: 408.

قال ابن قتيبة - رحمه الله -: «وهو من الاستعارة في قلة الشيء وتحقيره».

(6) وردت هذه اللفظة مرتين في سورة النساء في قوله تعالى: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً آية: 53.

وفي قوله تعالى: فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً [آية: 124].

وانظر معاني القرآن للزجاج: 4/ 266، والمفردات للراغب: 503. [.....]

*(51/638)*

---

والفتيل «1»: الذي في وسطها.

14 يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ: بعبادتكم إياهم.

27 جُدَدٌ: طرائق، جمع «جدّة» ك «مدة» ومدد «2».

والمقتصد «3»: المتوسط في الطاعة، والسّابق: أهل الدرجة القصوى منها، والظالم: مرتكب الصغيرة «4»، كقوله في الآية الأخرى «5»: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ فكان لهؤلاء الجنّة.

قال عمر - رضي اللّه عنه - «6» : «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له».

45 عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ : لأنّها خلقت للنّاس.

أهـ ﴿معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 683.686﴾

---

(1) من قوله تعالى : بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا [النساء : 49]، ومن قوله تعالى :

قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا [النساء : 77]، وقوله تعالى :

فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا [الإسراء : 17].

وانظر المفردات للراغب : 371.

(2) معاني القرآن للفراء : 2/ 369، وغريب القرآن لليزيدي : 309، وتفسير غريب القرآن :

361، وتفسير الطبري : 22/ 131.

(3) في قوله تعالى : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ [آية : 32].

(4) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 376، وابن الجوزي في زاد المسير : 6/ 489، والقرطبي في تفسيره : 14/ 346، ويكون الضمير في قوله تعالى : يَدْخُلُونَها عائدا على

الأصناف الثلاثة ، ولا يكون الظالم هاهنا كافرا ولا فاسقا .

قال القرطبي رحمه اللّه : «وممن روي عنه هذا القول عمر ، وعثمان ، وأبو الدرداء ، وابن مسعود ، وعقبة بن عمرو وعائشة» .

وذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره : 6/ 533 الاختلاف في هذه الآية ، ثم قال : «و الصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من طرق يشد بعضها بعضا . . . » اه- .

وأورد طائفة من الآثار للدلالة على هذا القول .

(5) سورة فاطر : آية : 36 .

(6) أخرجه البغوي في تفسيره : 3/ 571 عن عمر رضي اللّه تعالى عنه ورفعه .

وأورده الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف : 139 وعزاه إلى البيهقي في «الشعب» من رواية ميمون بن سياه عن عمر رضي اللّه عنه مرفوعا ، وقال الحافظ : «و هذا منقطع ، وأخرجه الثعلبي ، وابن مردويه من وجه آخر عن ميمون بن سياه عن أبي عثمان النهدي عن عمر ، فيه الفضل بن عميرة ، وهو ضعيف . ورواه سعيد بن منصور عن فرج بن فضالة عن أزهر بن عبد اللّه الحرازي عمن سمع عمر ، فذكره موقوفا » اه- .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 25 ، وعزا إخراجه إلى سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، والبيهقي في «البعث» عن عمر رضي اللّه عنه موقوفا .

(52/638)

---

وقال ملا حويش :

تفسير سورة فاطر

عدد 43 - 35

نزلت بمكة بعد سورة الفرقان وهي خمس وأربعون آية ، وتسعمائة وسبعون كلمة ، وثلاثة آلاف ومائة وثلاثون حرفا ، وتسمى سورة الملائكة وقد ذكرنا في أول سورة الفاتحة المارة ما يتعلق بأولها ، ومثلها في عدد الآي سورة ق .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)

قال تعالى "الْحَمْدُ لِلَّهِ" المحمود بكل مكان ، المعبود في كل زمان ، حمد نفسه بنفسه ، جلت عظمة ذاته وقسمه تكريما لقدره ، وتعليما لعباده ، كي يمجّدوا خالقهم ورازقهم ومانحهم نعمه "فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" بفتقها بعضها عن بعض ، لأن الفاطر معناه الشاق وأصل الفطر

الشق طولا ، تقول فطره أي شقه قال تعالى "أَ وَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما" الآية 20 من سورة الأنبياء في ج 2 راجع تفسيرها لأنها من معجزات القرآن والأمور الغيبية .

ثم تجوز فيه لكل شق ، والمعنى أنه موجد خلقهما والعوالم التي فيهما لكونهما من الممكن ، والأصل في كل ممكن العدم ليشير إليه قوله تعالى "كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ" الآية من آخر سورة القصص الآتية ، ونظيرتها الآية 37 من سورة الرحمن في ج 3 من حيث المعنى وقوله صلى اللّه عليه وسلم ما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن ، وقد صرح بذلك فلاسفة الإسلام بقولهم :

الممكن في نفسه ليس وهو عن علته ايس

فذلك الإله الذي ابتدعها على غير مثال سابق ، وشقها بعضها عن بعض ، هو المستحق وحده للحمد .

قال ابن عباس : ما كنت أدري ما معنى فاطر حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما إني فطرتها أي ابتدأتها بالشق يعني هو الذي حفرها أولا وهو أحق بها .

وهو كذلك شرعا إذا كانت الأرض التي فيها غير مملوكة للغير وإلا فلا "جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا" منه إلى أنبيائه يبلغونهم أوامره ونواهيه وغيرها بالوحي والتكليم ، أما الإلهام والرؤيا الصادقة اللذان من جملة أقسام الوحي فليسا بواسطة الرسل - راجع بحث الوحي والإرهاص والفرق بين الوحي والإلهام في المقدمة .

مطلب جواز إضمار الموصول ولا مجال في طلب الرزق :

وقريء فطر وجعل ماضيين ، على إضمار اسم الموصول على مذهب الكوفيين ، وأجازه الأخفش وذهب إليه ابن مالك ، وحجتهم قوله تعالى "آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ" الآية 46 من سورة العنكبوت في ج 2 أي والذي أنزل إليكم وقول حسان :

أمن يهجو رسول اللّه منكم وينصره ويمدحه سواء

أي ومن ينصره ومن يمدحه ، ومثله قول الآخر :

ما الذي دأبه احتياط وعزم وهواه أطاع يستويان

أي الذي هواه أطاع .

ولم يجز البصريون حذف الموصول الاسمي البتة ، وان ابن مالك اشترط لجوازه أن يكون معطوفا على موصول آخر موجود ، كما هو في الآية والبيتين وما نحن فيه ليس كذلك ، لعدم وجود هذا الشرط في هذه الآية ، تدبّر .

ثم وصف اللّه تعالى ملائكته هؤلاء بكونهم "أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى " اثنين اثنين "وَثُلاثَ" ثلاثة

ثلاثة "وَرُباعَ" أربعة أربعة .

واعلم أن العدد هنا ليس للتقييد ، فالآية على حد قوله تعالى فمنهم من يمشي على رجلين الآية 49 من سورة النور في ج 3 لأن من الملائكة من له ستمائة جناح كما روى عن جبريل عليه السلام ، ويوجد في الحيوانات من لها سبع وسبعون رجلا ، ولكن العمدة على أربع .

(54/638)

---

هذا ، واعلم أنه لا يستنبط من هذا أن من الملائكة من له تسع أجنحة ، وإن كان يجوز وجوده ، وعليه فلا يصح الجمع هنا بين الأصناف الثلاثة ويجزم يكون ملكا له تسعة أجنحة على رأي من ضم هذه الأعداد بعضها لبعض في سورة النساء الآية 3 في ح 3 ، إذ لا يصح أن يجمع أحد بين تسع نسوة ، راجع تفسيرها هناك تجد ما يقنعك على أن اللغة العربية تأبى الجمع في مثل هذا ، تأمل قدرة القادر فإنه "يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ" لم يتقيد بعدد ونوع مخصوص أو جنس من أجناس الخلق كله من حسن وقبيح ، وهذه الزيادة تتفاوت في الخلق والخلق والصوت والملاحة في العين والأنف والوجه وخفة الروح وجعودة الشعر وفلج الأسنان وطلاقة الوجه وبشاشته وحلاوة المنطق والطول وأضداد ذلك ، وفي الصنعة من خياطة وصياغة وحياكة وتجارة وحجامة ونجارة وغيرها ، وفي الصفة في الدين والفقر

والغنى والمال والعلم والجهل والعقل ، وغيرها من كل شيء ، لأن الآية عامة تشمل الأوصاف الحسية والمعنوية "إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" 1 وهذا تعليل بطريق التحقيق للحكم المذكور ، أي أن شمول قدرته تعالى بجميع الأشياء مما يوجب قدرته جل شأنه على الزيادة في الخلق كله قال تعالى "ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ" رزق وصحة وولد ومطر وغيره من جميع ما يشمله معنى الرحمة "فَلا مُمْسِكَ لَها" من أحد ما البتة "وَما يُمْسِكْ" من تلك



---

الرحمة الشاملة "فَلا مُرْسِلَ لَهُ" أبدا إذ لا يستطيع أحد إمساك ما يرسل كما لا يقدر أن يرسل ما يمسك "مِنْ بَعْدِهِ" كيف يجرؤ أحد أو يقدر على شيء من ذلك "وَهُوَ الْعَزِيزُ" الغالب على كل أحد وعمله "الْحَكِيمُ" 2 الذي لا يعمل إلا ما تقتضيه حكمته من إعطاء ومنع ووضع ورفع ، روى مسلم عن المغيرة بن شعبة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يقول دبر كل صلاة لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد .
والجد هنا الغنى والبخت أي الحظ ، فلا ينفع الغني والمبخوت حظه وغناه ، لأنها منك ،

وإنما ينفعه الإخلاص والعمل بطاعتك .

أنظر رعاك اللّه ما أدعى هذه الآية إلى الانقطاع إلى اللّه تعالى ، والإعراض عما سواه والإجمال في طلب الرزق اتباعا لأمر الرسول فيه القائل : أجملوا في طلب الدنيا فإن كلا ميسر لما كتب له منها .

فإذا علم هذا وكان من المؤمنين مال إلى إراحة نفسه وسكون باله عن التخيلات الموجبة للتهويش وسهر الليالي .

أخرج ابن المنذر عن عامر ابن عبد قيس قال : أربع آيات من كتاب اللّه إذا قرأتهن فما أبالي ما أصبح عليه وأمسي : هذه الآية ، وقوله تعالى (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ) الآية 108 من سورة يونس ، وقوله تعالى (ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها) الآية 7 من سورة هود في ج 2 ، وقوله تعالى (سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً) الآية 8 من سورة الطلاق في ج 2 .

(56/638)

---

هذا ، وبعد أن بين اللّه تعالى بأنه الموجد للملك والملكوت والمتصرف فيهما على الإطلاق كيفما يشاء أمر أهل مكة قوم نبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم بشكر نعمه التي من جملتها

اختصاصهم به ، فقال "يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ" التي من جملتها تشريفكم

بنبي منكم وجعلكم من أمته

، وأسكنكم حرمه ، وأمنكم بمنع غارات الناس عليكم ، فأنتم محميّون بحمايته ويتخطف

الناس من حولكم فانظروا وتفكروا "هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ"

غيثا ونباتا لكم ولأنعامكم .

وهذا استفهام إنكاري لإنكار التصديق وإنكار الحكم ، وهو جائز كما في المطول

وحواشيه ،

أما قول الرضي بأن هل لا تستعمل للإنكار فإنه يريد الإنكار على مدعي الوقوع كما في قوله

تعالى (أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ) الآية 40 من سورة الإسراء الآتية ، والمعنى هل خالق

مغاير له تعالى موجود لكم أو لغيركم ؟ كلا ، لا خالق سواه البتة "لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ"

3 أي من أين يأتيكم البهت والافتراء والاختلاق بإنكار البعث والتوحيد مع أن اللّه يأمركم

بهما ومع اعترافكم بأنه خالقكم ورازقكم ، فكيف يتوقع منكم التكذيب والإنكار ، وما

سبب صدوره منكم ؟ قال تعالى "وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ" يا سيد الرسل فلا يهمنك شأنهم ولا

يكن تكذيبهم عليك غمّة "فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ" من قبل أقوامهم وفي هذه الآية تعزية

لحضرة الرسول بقومه وتسلية بمن قبله من الأنبياء الكثيرين الذين كذبتهم أقوامهم وأهينوا

وقوتلوا مثله ، فله أسوة بهم ، وفي قوله تعالى "وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ" 4 تهديد للكفار ، لأن اللّه تعالى يقول لا تعبأ بهم فمصيرهم إلينا وإنا سنجازي المكذب منهم بما يستحقه .

*(57/638)*

---

وفيها نعي لكفار قريش بعدم تلقيهم آيات اللّه بالقبول "يا أَيُّهَا النَّاسُ" ثقوا وتيقنوا "إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ" ثابت واقع لا محالة لا يجوز تخلفه ، وهذا الوعد هو الملمع إليه بجملة (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) "فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا" بزخارفها وطول الأمل فيها والصحة في الأبدان وكثرة الأرزاق والأمن "وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ" من حيث أنه غفور رحيم رؤوف كريم عطوف لطيف مما يمليه عليكم "الْغَرُورُ" 5 من النفس والجن والإنس ، فكلها تغركم وكل مبالغ في العزة والأنفة فهو غرور ، وأغر كل غرور هو الشيطان الذي يستولي على قلوبكم بوسوسته ، لغفلتكم عن ذكر اللّه في أعمالكم وأقوالكم ، فاحذروا خداعه ومكره ، ولا تلتفتوا إلى إغوائه وإغرائه ، ولا تركنوا إلى الدنيا التي يزيّنها لكم .

ثم صرح بذلك الغرور فقال "إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ" قديم تأصلت عداوته فيكم ، فلا تكاد تزول حتى يزول هو وليس بزائل إلا عند الأجل الذي ضربه اللّه له ، ولستم بمدركيه لأن موعده النفخة الأولى التي لا يحضرها إلّا شرار الناس ، فاهجروه رحمكم

اللّه وقوا أنفسكم من عذاب اللّه ، وإذا أردتم التغلب عليه "فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا" مبين العداوة واعفوه في كل ما يوسوس به إليكم ، لأنه لا يأمر بخير ، وعليكم بطاعة ربكم الموجه لفوزكم في الدنيا والآخرة ، لأن الشيطان عليه اللعنة "إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ" أشياعه وأنصاره الذين يصغون لوساوسه "لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ" 6 معه جزاء عصيانه وعداوته المتتابعة من لدن أبيكم آدم عليه السلام وهذا تنبيه على أن غاية غرضه من دعوة إتباعه إلى اتباع الهوى والركون إلى ملاذ الدنيا ، لتوريطهم باقتراف المعاصي فيستحقون معه التخليد في العذاب في تلك النار المسعرة ، فالذين يوافقونه ويجيبون دعوته هم "الَّذِينَ كَفَرُوا" باللّه ورسوله وكتابه وهؤلاء "لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ" لا يطيقه البشر ، راجع الآية 33 من سورة لقمان في ج 2 "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" فيخالفون المغرور وأعوانه ويلجئون إلى ربهم ليعصمهم منهم ويحفظهم من دسائسهم فأولئك "لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ" 7 على إيمانهم الصادق وأعمالهم الصالحة ، وقد زادهم اللّه على المغفرة الأجر ، لأنهم زادوا على إيمانهم أعمالا صالحة فهم المؤمنون حقا المستحقون لكرم اللّه وإيفاء وعده بما لهم من الكرامة .

وهو وعد حقّ ثابت .

هذا ما يؤول إليه حال المؤمن ، أما ما يؤول إليه حال الكفرة كأبي جهل وأضرابه الذين هم على شاكلته إلى يوم القيامة ، الذين يستحلون دماء المؤمنين وأموالهم ويهينونهم فهم المعنيون بقوله تعالى "أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا" بسبب التزيين وقد حذف الخبر وهو كمن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان والعمل الصالح (أي ما هما متساويان) لدلالة الكلام عليه واقتضاء النظم إياه ونظير هذه الآية من جهة عدم حذف الخبر قوله تعالى (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ الآية 65 من سورة محمد ونظيرتها الآية 113 من آل عمران ، ومثلها من سورة الرعد في ج 3 ، وقوله تعالى (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ) الآية 123 من سورة الأنعام في ج 2 وغيرها هذا ، وإن شأن هذا الكافر المزين له سوء عمله وهو

أبو جهل على قول بعض المفسرين بأن هذه الآية نزلت فيه ، وهي بعمومها تشمل كل من هو على شاكلته) شأن المغلوب على عقله الحائر في أمره مسلوب التمييز ، الذي يأتمر برشد ولا يطيع المرشد ، وهو أحد الأصناف الثلاثة .

والثاني رجل ترد عليه الأمور فيسدّها برأيه ، والثالث رجل يشاور فيما أشكل عليه

وينزل حيث يأمره أهل الرأي، وكأن أبو نواس أشار إلى الأول بقوله:

اسقني حتى تراني حسنا عند القبيح

وذلك نهاية في الضلال "فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ" حتى يكون كذلك فتحق عليه الكلمة فيدخل فيهم "وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ" فيريه الأمور على حقائقها الحسن حسنا فيتبعه والقبيح قبيحا فيتجنبه فيوفق إلى ما وعده اللّه من المغفرة والأجر فيدخل الجنة.

مطلب أصل الهدى والضلال من اللّه تعالى:

(60/638)

---

واعلم أن هذه الآية تصرح بأن الضلال والهدى من اللّه وحده لا دخل للعبد فيهما، لأنه مقدر عليه في أصل الخلقة يؤيده قوله صلى اللّه عليه وسلم حينما قيل له ما فائدة العمل يا رسول اللّه؟ قال اعملوا فكل مسير لما خلق له.

راجع تفسير أول سورة القلم المارة، وتفسير الآية 17 من سورة الأنعام في ج 2، والآية 41 من سورة الرعد في ج 3، وهذا ما يحله أهل السنة والجماعة خلافا للمعتزلة القائلين بخلافه، إذ لا دخل للاختيار فيما اختاره اللّه، تدبر.

ولهذا البحث تفصيل في الآيتين 77 و78 من سورة النساء في ج 3 فراجعه، أما المصرّون

على ضلالهم فهم هالكون لا محالة "فَلا تَذْهَبْ" بفتح التاء والهاء ، وقرئ بضم التاء وكسر الهاء ، ونصب نفسك على المفعولية وعلى الأول رفعها على الفاعلية تدبر "نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ" فتكثر غمك على كفرهم وإهلاكهم يا سيد الرسل ، دعهم فإنهم خلقوا أشرارا لعدم انتفاعهم بما وهبوا من العقل الذي أعطوه ليميّزوا فيه الخبيث من الطيب ، ويخلصوا أنفسهم من ذلك ولهذا البحث صلة في الآية 12 من سورة الشعراء الآتية ، وكلمة حسرات حال من نفس محمد صلى اللّه عليه وسلم إشارة إلى أنها كأنها صارت كلها حسرات لفرط تحسره عليهم وعليه قول جرير :

شقّ الهواجر لحمهن مع السرى حتى ذهبن كلاكلا وصدورا

الكلكل ما بين الترقوتين أو باطن الزور وهو من المحزم إلى ما يمس الأرض من الحيوان إذا ربض أو من الصدر ، وعليه يكون العطف بيان والهواجر جمع هجر وهو نصف النهار عند الزوال .

والمعنى أن مشي الإبل في ذلك الوقت لم يبق منها إلا كلاكلها وصدورها ، وهذا ما ذهب إليه سيبويه في البيت ، وقال المبرد إن الكلاكل والصدور تمييز محول عن الفاعل ، أي حتى ذهب كلاكلها وصدورها وعليه قوله :

فعلى إثرهم تساقط نفسي حسرات وذكرهم لي مقام

ولكل وجهته، وقال تعالى "إِنَّ اللَّهَ" الذي خلقهم أزلا "عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ" 8 قبل أن يصنعوه وعليم بما يصنعونه بعد وما هم صائرون إليه، وإنما أظهر صنعهم لخالقه ليعرفوه.

وهذا آخر ما نزل في أبي جهل وإخوانه في هذه السورة.

وقال الضحاك إن القسم الأخير منها نزل في عمر رضي اللّه عنه فهو الذي هداه اللّه والحق العموم فيهما وفيمن هو على شاكلتها إلى يوم القيمة، ثم ذكر شيئا من كمال قدرته فقال:

مطلب الفرق بين ميّت وميت وأن العزة من اللّه:

"وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ" بالتشديد وقريء بالتخفيف وهما بمعنى واحد على المشهور.

وقد خصص بعضهم المخفف بالميت حقيقة والمنقل والمائت بالذي لم يمت بعد، الذي على وشك الموت أي يكاد يموت، واستدل بقول القائل:

ومن يك ذا روح فذلك ميّت وما الميت إلا من إلى القبر يحمل

وقول الآخر:

ليس من مات فاستراح بميّت إنما الميّت ميّت الأحياء

إنما الميّت من يعيش كئيبا كاسفا باله قليل الرجاء

والمعوّل على الأول.

والإثارة خاصة بالرياح "فَأَحْيَيْنا بِهِ" أي الغيث الناشئ عن السحاب المثار ، وعبر عن الميّت بقوله "الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها" بالنبات الناشئ عن هطول الغيث عليها "كَذلِكَ" مثل هذا الإحياء للأرض يكون "النُّشُورُ" 9 للأموات من البشر حين يقومون من قبورهم فكيف يجحدون البعث بعد أن شاهدوا ما هو من نوعه ؟ روى ابن الجوزي عن أبي رزين العقيلي قال قلت يا رسول اللّه كيف يحيي اللّه الموتى وما آية ذلك في خلقه ؟ قال هل مررت بواد أهلك محلا ، ثم مررت به يهتزّ خضرا ؟ قلت نعم قال كذلك يحيي اللّه الموتى وتلك آيته في خلقه.

(62/638)

---

قال تعالى "مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ" فليطلبها من اللّه لا من غيره "فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً" فليعتزّ بطاعته من يريدها وليمتنع بمنعته لا بالأصنام التي يبتغي الكافرون الشرف بها ، لأن الآية نزلت فيهم قال تعالى : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا) الآية 91 من سورة مريم الآتية وقال في حق قليلي الإيمان (أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً) الآية 138 من سورة النساء في ج 3 ولا ينافي هذا التأكيد قوله تعالى (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) الآية 9 من سورة المنافقين في ج 3 لأنها للّه بالذات ولرسوله بواسطة قربه منه وللمؤمنين

بواسطة قربهم من حضرة الرسول واتباعهم سنّته ، ولهذه الإشارة (أعيد الجار وكرر)

جاء في مجمع البيان أن أنسا رضي اللّه عنه روى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : إن ربكم يقول كل يوم أنا العزيز فمن أراد عزّ الدارين فليطع العزيز ، ومن قدر فليطلبها من اللّه تعالى ، فإن الطلب منه إنما يكون بالطاعة والانقياد .

وقد تكون بالشجاعة والكرم والعلم ، فهذه الثلاثة هي مصدر العزة ، إلا أنه إذا لم يقصدها بتقوى اللّه فلا خير فيها ، إذ تكون عزّة دنيوية موقتة مصيرها إلى الذلّ الدائم في الآخرة إذا لم تنزع منه في الدنيا .

وجدير بأن ينزعها اللّه منه ، فاذا نزعت يجتمع عليه ذلان ، ولهذا قال تعالى قوله "إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ" بجمع أنواعه صعودا حقيقا سرا كان أو جهرا قولا أو فعلا ، لأن له جل شأنه تجسيد المعاني وكيفية صعوده من

(63/638)

---

المتشابه المفوض تأويله إلى اللّه ، وقدمنا ما يتعلق فيه عند تفسير الآية 30 من سورة ق المارة ، وسنوضحه ونسهب البحث فيه في تفسير الآية 8 من آل عمران ج 3 إن شاء اللّه ، وإن هذا الصعود على تأويل الخلف مجاز مرسل عن قبوله بعلاقة اللزوم ، أو استعارة

تشبيهية أي تشبيه القبول بالصعود ، وعلى طريقة السلف صعود يعلم كيفية هو ، وعلينا الإيمان به "وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ" إليه ويقبله جل شأنه ، وأعاد بعض المفسرين ضمير يرفعه إلى الكلم الطيب ، وضمير النصب الذي هو الهاء إلى العمل الصالح أي يرفع الكلم الطيب العمل الصالح .

ومنهم من أعاد ضمير يرفعه إلى العمل الصالح ، وضمير المفعول منه إلى الكلم الطيب وعليه يكون المعنى والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب وما جرينا عليه أولى .

قال تعالى "وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ" يعملونها قصدا لأن مكر لازم لا يتعدى إلا ضمن معنى القصد أو العمل أو الكسب "لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ" بسبب مكرهم ذلك "وَمَكْرُ أُولَئِكَ" الماكرين "هُوَ يَبُورُ" 10 في الدنيا ، ويبطل مفعوله مهما كان ، وإذا كان كذلك ففي الآخرة فساد محقق ، أما مكر اللّه فيهم فهو ثابت لا يزول ، وقد مكر بهم إذ أخرجهم من مكة بواقعة بدر فأرداهم وطرحهم في قليب بدر وسيعذبهم في الآخرة عذابا عظيما .

(64/638)

---

وأصل البوار فرط الكساد ، قال صلى اللّه عليه وسلم : اللهم إني أعوذ بك من بوار الأيم (كالكيس هي من لا زوج لها بكرا أو ثيبا ومن لا مرأة له كذلك) وما قيل إن هذه الآية نزلت

في الذين اجتمعوا في دار الندوة لتداول المكر به صلى اللّه عليه وسلم من قتل أو حبس أو نفي، لا صحة له، لأنه لم يحن بعد وقت التداول فيها، لأنها وقعت قبل الهجرة في آخر نزول القسم المكي من القرآن كما سنبينه آخر سورة العنكبوت في ج 2 إن شاء اللّه والحق أن هذه الآية عامة في كل ما كر سيء، وسنبيّن تفصيل حادثة الندوة في تفسير الآية 30 من سورة الأنفال في ج 3 إن شاء اللّه إذ ذكر فيها هذه الحادثة صراحة، وقد ألمع إليها قبل وقوعها بثلاث سنين في سورة الإسراء الآتية في الآية 76 كما ستطلع إن شاء اللّه.

ثم ذكر دليلا آخر

على صحة البعث والنشور فقال "وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ" أي خلق أصلكم آدم عليه السلام بدليل قوله "مِنْ تُرابٍ ثُمَّ" خلقكم أنتم يا ذرية آدم "مِنْ نُطْفَةٍ" مكونة من ماءي الرجل والمرأة.

مطلب لكل حظه من خلق آدم وأن العمر يزيد وينقص:



---

وقد شمل ضمير خلقكم في هذه الآية ذرية آدم مع أنهم لم يخلقوا في التراب باعتبار ابتداء الخلق منه في ضمن خلق آدم خلقا إجماليا، لأن كلمتي مستقر ومستودع الواردة بعد قوله (أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ) في الآية 98 من سورة الأنعام في ج 2، والملمع إليها في الآية

189 من سورة الأعراف المارة، تشعر بذلك، وعلى هذا يكون بطريق التسلسل لكل إنسان حظّ من خلق آدم كما سيأتي تفصيله هناك إن شاء اللّه "ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً" ذكرانا وإناثا، وزوج بعضكم بعضا لتوالدوا فتكثروا فيباهي بكم الأمم "وَ" اعلموا أيها الناس أنه "ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ" ما تحمله أو تسقطه قبل تمام أجله "إِلَّا بِعِلْمِهِ وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ" يمد في عمره ويطيله "وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ" من سنين وشهور وأيام وساعات ودقائق وثوان ولحظات "إِلَّا فِي كِتابٍ" مدوّن مثبت عند اللّه في لوحه المحفوظ الحاوي على أعمال العباد وتقلّباتهم في أصغر من الذرة إلى ما شاء اللّه من الكبر "إِنَّ ذلِكَ" الذي تزعمونه أيها الناس من كتابة أعماركم وآجالكم وأحوالكم ومعرفة ما يزيد منها وما ينقص وما يبدل أو يغير منها جدا عليكم صعب، لا تتمكنون من إجرائه ولكنه "عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" 11 سهل لأن الكون بما فيه بمثابة شيء واحد عند اللّه القائل (ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ) الآية 38 من سورة لقمان في ج 2 واعلم أن زيادة العمر ونقصه يكون بالنسبة لأسباب مختلفة لا تعلم إلا عند وقوعها، وهي ثابتة عند اللّه فلا تكون إلا بعلمه وتقديره، مثلا جاء في الحديث الصحيح أن الصدقة تزيد في العمر وأن الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار، وقال كعب لو أن عمر رضي اللّه عنه دعا اللّه تعالى آخر أجله.

أي لزاد له فيه لما يعلم من أنه مجاب الدعوة ، وأن وجوده يعلي شرف الإسلام ، إلا أن هذا لا يلزم منه تغيير التقدير الأزلي ، لأن في تقديره تعالى تعليق أيضا ، وإن كان ما في علمه الأزلي وقضائه المبرم لا يعتريه محو ، فلو شاء لم يوفق المتصدق للتصدق وصلة الرحم وسائر الأعمال التي ورد في الأحاديث أنها تزيد في العمر ، على أن الأجل ينقص شيئًا فشيئًا من حيث لا يحس به ، لأن الإنسان لا يعلم أمده حتى يحسب ما مضى من عمره ، وقيل في المعنى :

حياتك أنفاس تعد فكلما مضى نفس منها انتقصت به جزءا

والعادّ لها هو اللّه وسنوفي هذا البحث في تفسير الآية 39 من سورة الرعد في ج 3 إن شاء اللّه تعالى في بيان ما يمحوه اللّه من أعمال وأعمار العباد وأقوالهم وأرزاقهم وما يثبته ، وأسباب ذلك ومستنداته .

(67/638)

---

قال تعالى "وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ" هنيء مريء يرطب القلب ، ويشرح الصدر ، وتستريح له الجوارح ويصلح للنبات كله "وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ" قريب إلى

المرارة يحرق القلب ، ويقطب الريق ، وتعافه النفس ، وتنفر منه ، عديم الإرواء والإنبات ، ضار غير نافع شربه للخلق والنبات ، وحتى أنه يضر في مواد البناء ، هذا مثل ضربه اللّه إلى المؤمن والكافر ، من أنهما وإن اشتركا في بعض صفات الخلقة فإنهما لا يستويان عند اللّه وكل منهما نسبة ما شبه به "وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا" من أنواع حيواناته غضا جديدا خلقه لكم أيها الناس ، وقد سماه اللّه لحما ، والسمك بالعرف ليس بلحم ولهذا قال الفقهاء من حلف لا يأكل لحما فأكل سمكا لا يحنث لعدم إطلاق اسم اللحم عليه عرفا ، كما لو حلف لا يركب دابة فركب إنسانا لا يحنث مع أن الإنسان داخل في معنى الدواب لغة ، قال تعالى (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ) الآية 13 من سورة الأنفال في ج 3 وقال (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا) الآية 57 منها أيضا إلا أنه لا يسمى دابة عرفا ولا يخفى أن الأيمان مبناها على العرف ، لذلك لا يحنث ، وقد سموه الآن اللحم الأبيض وأدخلوه مع الطيور لخفته ، وقال مالك



---

والنووي الحالف بالأول يحنث لظاهر الآية ، والفتوى على الأول ، لأن الحالف حينما يحلف على عدم أكل اللحم يتصور لحوم الأنعام فقط ، كما أن الحالف في الركوب لا يتصور

ركوب الإنسان بل ما يطلق عليه اسم دابة حقيقة "وَتَسْتَخْرِجُونَ" من البحرين المذكورين كما هو ظاهر العطف "حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا" فمن الملح اللؤلؤ والمرجان واليسر وغيرها ، ومن الحلو الصدف وعظام السمك التي يصنع منها قبضات السيوف والخناجر وأزرة الألبسة وغيرها ، وقد يوجد في بعض الصخور التي في مجاري المياه ماس ، قال تعالى (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) الآية 22 من سورة الرحمن في ج 3 ، ولا يبعد أن يوجد شيء من ذلك في النهر العذب ، لأنه قد يوجد في البحر الملح عيون عذبة تخرج فيه ، فيكون منها اللؤلؤ ، ومن هذا ما هو موجود الآن في البحرين حيث يوجد فمن البحر كما صرح به الشيخ محمد خليفة في تاريخه لجزيرة العرب في ص 240 عدة عيون ماء حلو يذهب إليها بالقوارب ويستقى منها كما ذكرناه في تفسير الآية 52 من سورة الفرقان المارة وقد أخبرني السيد كامل العاص الرجل الصالح الكريم من أهالي جباة الزيت التابعة لقضاء القنيطرة (من أعمال دمشق) إذ كنت فيها ، أنه أثناء وجوده في أمريكا شاهد زمن سيره في البحر ماء حلوا منسابا فيه ويمتاز على ماء البحر بلونه فماء البحر في ذلك المكان يضرب إلى الزرقة بل إلى السواد لشدة عمقه ، والماء الحلو المنساب فيه التابع منه يضرب إلى البياض ، وهو رجل صادق والله لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير .

وقال بعض المفسرين إن الحلية لا تكون إلا من الماء المالح ، وأن ما جاء في آية الرحمن المارة هو على طريق التغليب وإسناد ما للبعض إلى الكل وهو غير وجيه لمخالفة ظاهر الآية وحملها على التأويل دون ضرورة ، ولأنه لو فرض أنه لم يخرج من الماء الحلو إلا الصدف لكفى ، لأنه حلية من وجه داخلة في قوله تعالى تلبسونها "وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ" أي ماءي الحلو والمالح ، كما هو مشاهد ، فلا يقال إنها خاصة بالملح أيضا إلا أن الكبار العظام خاصة في البحر والصغار منها فيه وفي الأنهر "مَواخِرَ" تمخر أي

تشق المياه شقا يجريها فيها مقبلة ومدبرة وذلك "لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ" الربح بالتجارات وتزوروا البلدان النائية والجزر وغيرها ، ولتطلعوا على مصنوعات ربكم فيها "وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" 12 نعمه عليكم في ذلك كله .

واعلموا أن هذا الإله العظيم "يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ" يدخل أحدهما بالآخر حتى يصير أحدهما بقطرنا مزائدا على الآخر أربع ساعات وكسور بصورة تدريجية ، فيبلغ النهار بالصيف أربعة عشرة ساعة ونصف تقريبا ، والليل تسعة ونصف ، وعلى العكس بالشتاء

ثم يتساويان شيئا فشيئا ، وهكذا بعيد الكرة أحدهما على الآخر إلى أن يأذن اللّه لهذا النظام البديع بالانقراض .

وفي بعض الأقطار أكثر من قطرنا وأنقص حتى يبلغ كل منهما اثنين وعشرين ساعة تقريبا "وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ" منهما "يَجْرِي" في محوره المخصوص ومسافته المقدرة له ، وهكذا يستمران بسيرهما "لِأَجَلٍ مُسَمًّى" عند اللّه لا يعلم غيره "ذلِكُمُ" أيها الناس الإله العظيم القادر المبدع "رَبُّكُمْ" الحق لا البشر والملائكة ولا النجوم والحيوان ولا الجماد والأوثان فهو وحده "لَهُ الْمُلْكُ" يتصرف فيه كيف يشاء "وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ" من الآلهة "ما يَمْلِكُونَ" من هذا الملك وما فيه وفوقه وتحته "مِنْ قِطْمِيرٍ" 13 قدر لفافة النواة ولا أقل منه وإنما مثل به لأن كل تافه يقال له قطمير قال الشاعر :

وأبوك يخصف نعله متوركا ما يملك المسكين من قطمير

وهو على حد الذرة والنقير والفتيل وأف وما ضاهاها ونظير صور هذه الآية 29 من سورة لقمان في ج 2 والآية 27 من سورة آل عمران والآية 6 من سورة الحديد والآية 61 من سورة الحج في ج 3 ، وقدمنا في الآية 47 من سورة يس ما يتعلق بزيادة الليل والنهار وقصرهما بصورة مسهبة ، قال تعالى منددا بأوثانهم "إِنْ تَدْعُوهُمْ" أيها المشركون "لا

يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ" لأنها جماد "وَلَوْ سَمِعُوا" على سبيل الفرض والتقدير أو الذين من أهل السمع منهم "مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ" دعاءكم لأنهم عاجزون ومملوكون للّه الذي خلقكم

(71/638)

---

وخلقهم ، فكيف يقدرون على شيء مما في ملكه أو يشاركونه في شيء منه في هذه الدنيا ، كلا لا يقدرون البتة "وَيَوْمَ الْقِيامَةِ" ترونهم "يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ" فيجحدونه ولا يعترضون به حيث يضع اللّه فيها قوة التكلم تبكيتا لعابديها ، فتتبرأ منهم ومن عبادتهم "وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ" 14 يعني نفسه المقدسة جلت وعظمت ، أي لا يخبرك أيها السامع بحقيقة الأمر مثلي ، أنا اللّه الذي لا يخفى عليّ شيء في سمواتي وأرضي ، ومن أصدق من اللّه راجع الآية 56 من سورة الفرقان المارة "يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ" في جميع أموركم الظّاهرة والباطنة وأنتم محتاجون إليه فيها "وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ" عنكم وعن أعمالكم وعن كل ما في كونه "الْحَمِيدُ" 15 المستحق الحمد بإنعامه عليكم ، فاحمدوه واشكروه وحسن ذكر الحميد بعد الغنى لمناسبة ذكره بعد الفقر إذ الغنيّ لا ينفع الفقير إلا إذا كان جوادا منعما ، وهو كالتكميل لما قبله وعليه قول كعب الغنوي :

حليم إذا ما الحلم زيّن أهله مع الحلم في عين العدو مهيب

وذلك الإله الغنى الحميد "إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ" أيها الناس فيفنيكم بلحظة واحدة "وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ" 16 غيركم بلحظة أيضا يعبدونه لا يشركون به شيئا "وَما ذلِكَ" الإذهاب والإتيان "عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ" 17 صعب أو ممتنع بل هين جدا .

(72/638)

---

وفي هذه الآية إشارة إلى أن ما يأتي به من الخلق أبدع مما هو موجود الآن وهو كذلك لأن القادر المبدع لا يعجزه شيء ولا يرد على هذا قول حجة الإسلام (ليس في الإمكان أبدع مما كان) لأن ذلك على فرض وقوعه داخل في حيز ما كان وهو مع هذا العالم كبعض أجزاء هذا العالم مع بعض أو بأن الأبدعية في كلام ذلك الحجة بمعنى آخر تصورة بفكره الثاقب ولم يبيّنه أو لم نقف عليه ولسنا من رجاله لنرد عليه ، وسيأتي توضيح أكثر لتفسير هذه الآية عند تفسير نظيرتها الآية 27 من سورة إبراهيم في ج 2 .

مطلب لا تزر وازرة وزر أخرى :

قال تعالى "وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى" أي لا تحمل كل نفس إلّا وزرها وقد مر تفسيرها في الآية 38 من سورة والنجم المارة ، وهاتان الآيتان لا يتنافيان مع الآية 88 من سورة النمل والآية 14 من سورة العنكبوت في ج 2 وهي (لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ) لأن هذه

في الظالمين المضلين لانهم يحملون إثمهم وإثم من يضلونهم "وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ" بالأوزار في ذلك اليوم الذي يفر فيه الأخ من أخيه والأب من ابنه والزوجة من زوجها "إِلى حِمْلِها" الذي أثقلها ليحملوا منه شيئًا يخففون به عنها مما جنته من الذنوب في الدنيا "لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ" إذ لم يجبها أحد ممن تستنجد به وتستغيث، لان كلا مشغول برزره حائر في أمره "وَلَوْ كانَ" من تدعوه أو ترجوه "ذا قُرْبى" منه، فإنه لا يجيب دعاءه ولا يحمل عنه شيئًا.

قال ابن عباس يعلق الأب والأم بالابن فيقول (كل منها) يا بني احمل عني بعض ذنوبي، فيقول لا أستطيع حسبي ما عليّ.

(73/638)

---

وظاهر الآية نص في الحمل الاختياري فيكون ردا لقول المضلين ولتحمل خطاياكم، يؤيده سبب النزول وهو كما روى عن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين اكفروا بمحمد وعليّ وزركم فنزلت هذه الآية، إلا أن المنفي عام وعمومه ينافي اختصاصه بالاختيار، لأنه يعم أقسام الحمل، جبرا أو اختيارا.

قال تعالى يا أكرم الرسل "إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ" من حيث لم يروه فهم الذين تنفعهم الذكرى بوعظك وإنذارك لاولئك المشركين "وَأَقامُوا الصَّلاةَ" معك ابتغاء مرضات

اللّه فيصلون معك من غير أن أفرضها عليهم اقتداء بك وتأسيا بأفعالك ، وذلك أن الركعتين اللتين فرضهما اللّه على رسوله كانتا خاصتين به يؤديهما في الغداة والعشية ولم يأمر أحدا من أصحابه بفعلها لان اللّه لم يأمره بذلك وكان بعض أصحابه يفعلونها تأسيا بفعله ليس إلا ، وهذا المراد واللّه أعلم من هذه الصلاة لان الصلاة المكتوبة لم تفرض بعد كما نوهنا به غير مرة عند كل ذكر لفظ الصلاة "وَمَنْ تَزَكَّى" من أوزار المعاصي بفعل الطاعات والقربات وصلى معك هذه الصلاة من غير أن تفرض عليه قصد التطهير لنفسه وتزكيتها "فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ" خاصة لأنه هو المنتفع بها .

وقرأ ابن مسعود وطلحة (أزكى) بإدغام التاء في الزاي واجتلاب همزة الوصل في ابتداء ، وهي قراءة شاذة لا عبرة بها لما ذكرنا غير مرة أن كل قراءة فيها زيادة حرف أو نقصه أو تبديله لا قيمة لقول من يقول بها "وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ" 18 لا إلى غيره فيجازى الدنس على رجسه والمتزكي على طهارته ، ثم ضرب اللّه مثالا آخر للجاهل والمؤمن فقال "وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ" 19 وللكافر والمؤمن بقوله "وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ" 20

(74/638)

وللجنة والنار بقوله "وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ" 21 ولمن ينتفع بدعوة الرسل ومن لا ينتفع بها بقوله "وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ"

مطلب في إسماع الموتى :

وختم هذه الآية العظيمة وكل آيات الله عظيمة ، بجملة فعلية تعود لكل من هؤلاء وهي "إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ" إسماعه سماع قبول فيتعظ بما يسمع ويهتدي به ، أما الذين لم يشأ إسماعهم فلا تقدر يا أكمل الرسل على إرشادهم لأنهم في حكم الأموات ولذلك قطع رجاءه منهم بقوله "وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ" 22 فكما أن الموتى لا يجيبون الدعوة فكذلك هؤلاء ، وهذه الجملة ترشيح للمصرين على الكفر .

ولهذا فيكون المعنى لا تحرص يا حبيبي وتجهد نفسك على دعوة قوم مخذولين ، قد سبق لهم الشقاء في علم الله "إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ" 23 لهم ومبلغ لا مجبر ولا مسيطر عليهم ، فمن سمع منك إنذارك سماع قبول انتفع به وأرشد ، ومن أعرض عنه فقد هلك وفسد فاتركه لا تأسف عليه .

ولا يرد على هذه مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم قتلى بدر في القليب ، لأن المراد نفي الإسماع بطريق العادة ، وذلك على طريق المعجزة وهي خارقة للعادة ، وما يدريك أن الله تعالى هو الذي أمره بخطابهم على حجة التبكيت والتوبيخ والتقريع بهم ، وبأمثالهم إذ ذاك ، لأنه لا ينطق عن الهوى ، وما يدريك أن الله أسمعهم كلامه أيضا وأعطاهم قوة الرد

عليه وإسماعه جوابهم وهو على كل شيء قدير "إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ" يا سيد الرسل لهؤلاء وغيرهم "بِالْحَقِّ بَشِيرًا" بالوعد وإنجازه للطائعين "وَنَذِيرًا" بالوعيد

(75/638)

---

و تنفيذه للعاصين "وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ" 24 من نبي أو رسول أو خليفة لهما ، وهذا عموم خص منه العرب ما بين إسماعيل ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، إذ لم يرسل إليهم رسول ولا خليفة رسول ولم يترك لهم كتاب ، كما سنبينه في تفسير الآية الأولى من سورة السجدة والآية 44 من سورة سبأ في ج 2 ، وقد مرّ شيء عنه في تفسير الآية 16 من سورة يس المارة .

مطلب عدم انقطاع آثار الأنبياء وعدم تكفير فاعل الكبيرة :

ولا يقال إن أكثر الأمم بين إبراهيم وموسى ، وموسى وعيسى ، وعيسى ومحمد صلى اللّه عليه وسلم ومن قبلهم لم يسلف فيها نذير وقد خلت من النبوة ، لأن آثار الأنبياء فيهم باقية ، وما وقع من العذاب على الكافرين منهم تناقله الخلق عن السلف ، ولم ينقطع التعبد بصحف إبراهيم وإرشاده إلى زمن موسى ، ولا بالتوراة إلى زمن عيسي ، ولا بالإنجيل إلى زمن محمد بالنسبة لأهل الكتاب ، وكذلك من قبلهم إذ دامت وصايا الأنبياء فيهم بالتناقل

، وعلى هذا لم يخل وجه الأرض من آثار النبوة إذ كلما اندرست تعاليم نبي أعقبه الآخر فيجدد عهده وينشر أوامر ربه فيهم ، وهكذا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فإنه بعث قبل تمام اندراس أحكام التوراة والإنجيل ، فجدد ما اندرس من ذلك شأن الأنبياء قبله وبعد أن آتاه القرآن عمم أحكامه وأمر برفض ما يخالفه ، لأنه الحكم الأخير القاطع الساري على أهل الأرض إلى وقت إبادتهم ، فهو خاتم الكتب السماوية ، كما أنه خاتم الرسل والأنبياء ، وآثار إنذاره وإرشاده الحسي والمعنوي مما جاء به من عند ربه ، وما سنّه لأمته باق بتمامه إلى اليوم وبعده وإلى أن يرث الأرض ومن عليها بارئها ، وقد تعهد اللّه له بحفظ كتابه إلى اندراس هذا الكون وحتى لا يبقى من يقول لا إله إلّا اللّه .

قال عليه الصلاة والسلام : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق – وفي رواية لا يضرهم من خالفهم – حتى يأتي أمر اللّه القائل :

(76/638)

---

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ) الآية 10 من سورة الحجر في ج 2 ، حتى إذا جاء أمره بخراب هذا الكون رفعه بموت أهله وعدم تعلمه ، واكتفى بهذه الآية بذكر النذير عن البشير في آخر الآية بعد ذكرها مقرونين في أولها ، لأن

النذارة مشفوعة بالبشارة فدل ذكرها عليها ، قال بعضهم : إن عموم هذه الآية وقوله تعالى : (وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ) الآية 29 من سورة الانعام في ج 2 ، يفيد أن في البهائم وسائر الحيوانات أنبياء أو علماء ينذرونهم .

وهو قول باطل لا تخفى سماجته على البهائم أمثال هذا القائل .

وما نقل عن الشيخ محي الدين قدّس سره في هذا المعنى لا يكاد يصح ، وإذا كان موجودا في كتبه فهو من جملة ما دس فيها عليه من الجمل التي يبعد أن تصدر عن مثله .

قال محمود الآلوسي في تفسيره رأيت في بعض الكتب أن القول بذلك كفر وأنا أقول إذا لم يكن كفرا فهو قريب منه ، والأولى أن لا يكون كفرا لاحتمال التأويل في ذلك وكل ما احتمل فيه التأويل لا يكفر به ، وعلى فرض أنها كبيرة ففاعلها لا يكفر راجع تفسير الآية 76 من سورة يس والآية 19 من سورة الفرقان المارتين ، قال تعالى "وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ" يا سيد الرسل "فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" أنبياءهم وآذوهم كما فعل بك قومك وقد "جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ" الواضحات مثل ما جئتهم به "وَبِالزُّبُرِ" الصحف المكتوبة على الألواح المنزلة من لدنا على أنبيائهم السابقين "وَبِالْكِتابِ" الذي أنزلناه جملة واحدة كالتوراة والإنجيل والزبور "الْمُنِيرِ" 25 كل منها بأوضح وأفصح الدلائل على توحيدنا ومع ذلك لم يؤمنوا ، فلا تذهب نفسك حسرات عليهم .

وفي هذه الآية تسلية لحضرة الرسول مما يلاقي من نكد قومه ليخفف عنه بعض همه عليهم واهتمامه بهم ، لاستعجال إيمانهم ، وإن شأنه شأن من قبله من الأنبياء مع أقوامهم ، وان له أسوة بهم في عدم قبول الدعوة وتحمل الأذى "ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا" بهم وبكتبهم بعقوبات متنوعة بعد إمهالهم مددا يتذكر فيها من يتذكر "فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ" 26 عليهم وتعذيبي لهم إنه كان شيئا عظيما لم يتصوروه ، ولم يقدر على إنزال مثله غيري أنا الإله المنتقم ممن كفر بي ، وفي هذه الآية تهديد لقريش قوم محمد صلى اللّه عليه وسلم بأنهم إذا لم يؤمنوا يحل بهم ما حلّ بغيرهم من النكال "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها" في الخضرة والحمرة والصفرة

وغيرها مما لا يحصر لونا وجنسا وشكلا ونوعا ، مع أنها تخرج من أرض واحدة وتسقى بماء واحد ، وتتفاوت بالنمو وتختلف بالحجم والطعم ، وتنضج بسبب واحد ، وتختلف بذلك كله ، فسبحان البالغ بالقدرة والصنع "وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ" طرق جمع جادة ، ويأتي بمعنى النهر وطريقه ، وخطط مختلفة اللون أيضا منها "بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها" لأن كل طريق على لون أرضه ، وكل لون يتشعب منه ألوان كثيرة من الزرقة والصّفرة "وَغَرابِيبُ سُودٌ" 27 يقال أسود حالك لشديد السواد تشبيها بالغراب ، كما يقال أبيض ناصع وأحمر قاني ، وما أشبه ذلك ، والغربيب أبعد لون في السواد ، وجاء في الحديث : إن اللّه يبغض

الشيخ الغريب الذي يخضب شعره بالسواد ويتمادى في السّفه أو الذي لا يشيب لسفاهته وعدم اهتمامه بآخرته ، وفي مثله يقول الشاعر :

العين طامحة واليد شامخة والرجل لائحة والوجه غربيب

(78/638)

---

يريد أن شعره أسود حالك وكلمة سود بالآية بدل من غربيب المعطوفة على بيض ، وهي لم تكرر بالقرآن "وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ" أيضا لأنها كلها من الأرض ، والأرض متنوعة فتتبع أصلها "كَذلِكَ" كاختلاف الأثمار والجبال .

وهنا تم الكلام فيما يتعلق بذلك .

مطلب خشية اللّه تعالى :

ثم يبدأ بقوله "إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ" قال ابن عباس : إنما يخافني من علم جبروتي وعزتي وسلطاني .

وقال مقاتل : أشد الناس خشية للّه أعلمهم به .

وقال الربيع بن أنس : من لم يخش اللّه ليس بعالم .

روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت : صنع رسول اللّه شيئا فرخص فيه فتنزه عنه قوم

، فبلغ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فخطب فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال : ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ؟ ! فواللّه إني لأعلمهم به وأشدهم له خشية (ومعنى ترخّص أي لم يشدد فيه ، وتنزه تباعد عنه وكرهه) وروينا عن أنس قال : خطب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط فقال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم

كثيرا ، فغطى أصحاب رسول اللّه وجوههم لهم خنين (بكاء مع غنة) والمراد بالعلماء هنا المخلصون العارفون باللّه العالمون بما يليق به من صفات وأفعال حق العلم والمعرفة ، لا العالمون بالمنطق واللغة والهندسة والرياضيات والكيمياء والسحر وغيرها ، لأن هذه وإن كانت علوما يطلب تعليمها لمصالح الدنيا ، إلا أنها لا تكون مدارا لخشية اللّه المنوه بها في الآية التي كلما ازداد بها العالم معرفة ازداد معرفة باللّه ، وكان أكثر خشية له من غيره .

نعم إن في علم الطب وتشريح الأعضاء والوقوف على كامل خلق اللّه ما يوجب الخشية للّه والرجوع إليه ، وجدير بالكافر أن يؤمن إيمانا كاملا لما يرى من بديع صنع اللّه في خلقه ، ولكن قليل ما هم أولئك الذين يتفكرون في ذلك .

روى الدارمي عن عطاء قال : قال موسى عليه السلام : يا رب أي عبادك أحكم ؟ قال الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه .

قال يا رب أي عبادك أغنى ؟

قال أرضاهم بما قسمت له .

قال يا رب أي عبادك أخشى ؟ قال أعلمهم بي .

وصح عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : أنا أخشاكم للّه وأتقاكم له .

وقرأ بعضهم برفع لفظ الجلالة ونصب العلماء ، وأول يخشى بيعظم ، وليست بشيء لأن يخشى لا يأتي بمعنى يعظم من حيث اللغة فضلا عن انها قراءة بخلاف الظاهر ، ولذلك لا عبرة بها ، وإن كان المعنى صحيحا لما فيها من التكليف دون حاجة ، والتأويل دون مستند ومعناها على الوجه الذي ذكرناه أولى وأليق "إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ" غالب كامل القدرة على الانتقام ممن لا يخشاه "غَفُورٌ" 28 لمن خشيه وأناب إليه .

واعلم أنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة ، ومن كان كذلك فحقه أن يخشى ، قالوا أنزلت هذه الآية في أبي بكر رضي اللّه عنه إذ ظهرت عليه خشية اللّه حتى عرفت فيه ، وهو أحق وأولى أن تنزل فيه الآيات ، إلا أن الآية عامة ، ولا دليل يخصصها بأحد فيدخل فيها أبو بكر دخولا أوليا ، وكل من يخشى اللّه إلى يوم القيامة خشية حقيقية قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ" مع حضرة الرسول قبل أن تفرض عليهم

تأسيا به "وَأَنفَقُوا" تطوعا على الفقراء والمساكين من قراباتهم وغيرهم في سبيل اللّه ابتغاء مرضاته "مِمَّا رَزَقْناهُمْ"

(80/638)

---

من فضلنا مما هو فاضل عن كفايتهم "سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ" بذلك الإنفاق "تِجارَةً" مع اللّه تعالى فقد نيل ثوابه "لَنْ تَبُورَ" 29 تكسد بل تتداول دائما ، وقد تعهد اللّه لمثل هؤلاء على لسان رسوله بقوله واعدا مؤكدا "لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ" كاملة على أعمالهم هذه "وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ" زيادة عظيمة ، وما بالك بزيادة اللّه أيها القارئ فهي وهو أعلم كما قال ابن عباس مما لم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم تخطر على قلب بشر "إِنَّهُ غَفُورٌ" كثير المغفرة لذنوب عباده المنفقين في سبيله "شَكُورٌ" 30 لعملهم هذا

(81/638)

---

"وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ" يا سيد الرسل "مِنَ الْكِتابِ" هو من كلامنا الأزلى ليس بسحر ولا كهانه ولا شعر ، وإنما "هُوَ الْحَقُّ" الذي لا مرية فيه وقد أنزلناه "مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ" من

الكتب المتقدمة لاشتماله عليها وزيادة كثيرة لم تذكر فيها ولم تنزل على أحد قبلك ، لأنه خاتمة الكتب أنك خاتم الرسل وهو ناسخ لكل ما يخالفه مما في الكتب القديمة "إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ" 31 ببواطن الأمور وظواهرها ، يحيط بهم لا يخفى عليه شيء من أمرهم "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ" القرآن المنزل عليك يا سيد الرسل "الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا" أمتك المخلصين الجارين على طريقك ، لأننا اصطفيناهم لك من بعدهم كما اصطفيناك لهم من بعد الرسل ، قال ابن عباس يريد أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم ، لأنه اصطفاهم على سائر الأمم ، واختصّهم بكرامته ، بأن جعلهم اتباع سيد الرسل ، وخصّهم بأفضل الكتب ، وجعلهم خير الأمم ثم قسمهم جل شأنه أقساما ثلاثة فقال "فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ" وهم المرجون لأمر اللّه مثل الآتي ذكرهم في الآية 108 من سورة التوبة في ج 3 فهؤلاء إن شاء عذّبهم بعدله ، وإن شاء عفا عنهم بفضله "وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ" خلط عملا صالحا وآخر سيئا وهؤلاء مقطوع لهم بالنتيجة بأنهم من أهل الجنة ، لقوله تعالى "عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ" الآية 104 من سورة التوبة لأن عسى فيها للتحقيق وهكذا كل عسى بالبينة للّه تعالى "وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ" وهؤلاء يدخلون الجنة بغير

حساب ، المرادون في قوله تعالى (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ) الآية 102 من التوبة أيضا ، كما سنبين هذا كله في محله في تفسير هذه الآيات وآخر سورة الواقعة الآتية إن شاء اللّه تعالى قال عمر رضي الله عنه على المنبر بعد تلاوة هذه الآية ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له ، وجاء أيضا عنه صلى اللّه عليه وسلم : السابق يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة ، وأما الظالم فيحبس حتى يظن أنه لا ينجو ، ثم تناله الرحمة فيدخل الجنة – رواه أبو الدرداء – وقال ابن عباس : السابق المخلص ، والمقتصد المرائي ، والظالم الكافر بالنعمة غير الجاحد لها .

وقال الربيع بن أنس : الظالم صاحب الكبائر ، والمقتصد صاحب الصغائر ، والسابق المجتنب لهما .

فوافق هذا التأويل القرآن والحديث والأثر وقول السلف الصالح ، فتدبر وانظر لنفسك أي الدار تختار .

واعلم أن المتلبس بإحدى هذه الخصال الثلاث ، ما كان تلبسه إلا "بِإِذْنِ اللَّهِ" وأمره وإرادته وتوفيقه وقضائه وقدره "ذلِكَ" إيراث الكتب والاصطفاء لمحمد صلى اللّه عليه وسلم وأمته "هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ" 32 الذي لا أكبر منه ، إذ لم يعطه أحدا قبلهم ، فكل الأمم لم تختص بما خصت به هذه الأمة كما أن رسولها خص بأشياء لم تختص بها الأنبياء قبله ،

راجع تفسير الآية 158 من سورة الأعراف المارة، وأي فضل أعظم من هذا، لأن السابقين منهم يدخلون الجنة فور خروجهم من قبورهم، والمقتصدين بعد الحساب، والظالمين بعد العذاب.

*(83/638)*

---

ثم بين جل بيانه بعض ذلك بقوله "جَنَّاتُ عَدْنٍ" إقامة دائمة "يَدْخُلُونَهَا" بمحض الفضل لا دخل للكسب فيها "يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا" مرصعا فيها، ومن هنا تعلم أهل الدنيا ترصيع الذهب بالأحجار الكريمة "وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ" 23 ناعم زيادة في التنعم والترف، ولما رأى أهل الجنة ما غمرهم به اللّه من فضله شكروه "وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ" الذي كنا نكابده في الدنيا خوف عاقبة هذا اليوم في عدم قبول الأعمال والمؤاخذة على ما صدر منّا.

روى البغوي عن أبي عمر رضي اللّه عنهما قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: ليس على أهل لا إله إلا اللّه وحشة في قبورهم ولا في نشورهم، وكأني بأهل لا إله إلا اللّه ينفضون التراب عن رءوسهم، يقولون الحمد للّه الذي أذهب عنا الحزن "إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ" 34 ومن فضله وكرمه لعباده أنه يغفر الذنب العظيم ويشكر العمل القليل "الَّذِي أَحَلَّنَا دارَ

الْمُقامَةِ" وهي الجنة لأنها دائمة لا يبرح عنها أهلها ولا يفارقونها عطاء "مِنْ فَضْلِهِ" ولطفه وعطفه، لأن العمل مهما كان كثيرا لا يؤهل صاحبه ما ذكره اللّه له هنا.

ومن تمام النعمة أنه "لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ" تعب ولا مشقة "وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ" 35 كلال وملالة ولا فتور وإعياء، ولم تكرر هذه الكلمة إلا في الآية 28 من سورة ق المارة وهذه الأحوال لا تحصل إلا بنتيجة العناء، وهذا من جملة ما من اللّه به على عباده المؤمنين.

هذا أيها الناس حال أهل الجنة جعلنا اللّه من أهلها، أما حال أهل النار فانظروا ماذا يحلّ بهم من المنتقم الجبار واسألوا اللّه العافية.

مطلب نذر الموت ومعنى الغيب:

(84/638)

---

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ" بعذابها "فَيَمُوتُوا" مرة ثانية ويستريحوا منه "وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها" فيها بل يبقى مشتدا عليهم "كَذلِكَ" مثل هذا الجزاء الفظيع الذي لا تقواه القوى "نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ" 36 لآياتنا جحود لنعمنا، مكذب لرسلنا، ثم بين حالهم فيها أجارنا اللّه منها بقوله "وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها" يتصايحون من شدّة الألم ودوامه بأصوات عالية، ولما لم ينفعهم ولما يرد عليهم، يعودون فيستغيثون قائلين "رَبَّنا أَخْرِجْنا"

من هذا العذاب وأعدنا إلى الدنيا "نَعْمَلْ صالِحاً" كما تحب وترضى فنطيع الرسل ، ونصدق الكتب ، ونؤمن باليوم الآخر ، ونعترف لك بالوحدانية الفردة ، ونعمل يا ربنا "غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ" في الدنيا قبلا من التكذيب والجحود والإشراك ، فيوبخهم اللّه تعالى بقوله "أَ وَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ" في الدنيا "ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ" لو أردتم ذلك لأنا أمهلناكم مدة كافية ما بين الخامسة عشرة من أعماركم إلى الستين ، فأكثر وأقل ، ولم يجدر

بكم ذلك الإمهال .

وقيل المراد بهذا العمر هو سن البلوغ الثامنة عشرة سنة فقط ، أو سن الكمال الأربعون سنة ، أو سن الانتهاء الستون فما فوق ، وقد ذكّرناكم على لسان رسلنا وخوفناكم سوء العاقبة فلم تتذكروا ورفضتم كتبي ورسلي وأنكرتم وحدانيتي "وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ" من قبل فأبيتم قبول إرشاده ، ولم تعتبروا بما جرى على من قبلكم ، ولم يؤثر فيكم ما ترون من علامات الموت ، وأصررتم على ظلمكم "فَذُوقُوا" عذاب النار التي كنتم تكذبون بها لأنكم ظلمة "فَما لِلظَّالِمِينَ" اليوم لدينا "مِنْ نَصِيرٍ" 37 يخلصهم مما هم فيه .

هذه الآية جواب من اللّه عز وجل للظالمين وتوبيخ لهم على عدم رجوعهم إلى اللّه في الدنيا مع تمكنهم منه خلال المدة التي عاشوها فيها .

أخرج الإمام أحمد والبخاري عن أبي هريرة والنسائي وغيره عن سهل بن سعد قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أعذر اللّه تعالى إلى امرئ أخر عمره حتى بلغ ستين سنة .

وعنه بإسناد الثعلبي قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين .

والنذير في الآية يطلق على النبي فكل نبي نذير لأمته من بين يدي عذاب أليم ويطلق على القرآن لأن فيه من التحذير والأمر والنهي ما يكفي لمن كان له قلب ، ويطلق على الشيب لأنه نذير الموت فقد جاء في الأثر : ما من شعرة تبيضّ إلا قالت لأختها استعدي للموت .

ويطلق على كلّ واعظ آمر بالمعروف ناه عن المنكر .

ونذر الموت غير الشيب كثيرة ، منها المرض والحمى وموت الأقران والأقارب وبلوغ سن الهرم وقيل فيه :

رأيت الشيب من نذر المنايا لصاحبه وحسبك من نذير

وقائلة تخضّب يا حبيبي وسود شيب شعرك بالعبير

فقلت لها المشيب نذير عمري ولست مسودا وجه النذير

قال تعالى "إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ"

مع خفائه ودقته فعلم كل شيء في العالم داخل في هذا العلم ، لأنه ظاهر بالنسبة لذلك ، لأن

السرّ والعلن عنده سواء ، وهذا الغيب هو بالنسبة للملائكة والجن ، وإلا فلا غيب عليه البتة راجع الآية 26 من سورة الجن المارة "إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُور" 38

(86/638)

---

والذي يعلم خفايا القلوب ، لا يخفى عليه علم غيرها وذات الصدور مضمراتها وهي تأنيث ذي الموضوع لمعنى الصحبة ، أي فمن جملة علمه تعالى يعلم أنهم بعد اعترافهم بهذا العذاب (وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ) من الإنكار والجحود والتكذيب - راجع تفسير الآية 29 من سورة الأنعام في ج 2 قال تعالى "هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ" يخلف بعضكم بعضا "فِي الْأَرْضِ" كلما انقرض جيل خلفه غيره ، فالأحرى أن تعتبروا بمن سلف من الأمم الخالية ، لأن مصيركم سيكون مثلهم ، فمن آمن فله ثواب إيمانه ، وكذلك "فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ" يعاقب بمقتضاه "وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً" بغضا وكرها شديدا في الدنيا ، واحتقارا وذلا وحرمانا من كل خير "وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً" 39 في الآخرة ، وذلك هو الخسران المبين وكرر الجملة تأكيدا وإيذانا بأن مصير الكفر اقتضاءان قبيحان مرّان : المقت في الدنيا والخسارة في الآخرة ، فلو لم يكن الكفر مستوجبا غير هذين

لكفى به شرا ، فكيف إذا كان يستوجب أشياء أخر ؟ "قُلْ" يا سيّد الرسل لهم هذا لعلّهم يرجعون إليّ قبل أن يمتنع عليهم لا يمكنهم الرجوع ، ثم يقول لهم جل قوله تبكينا وتقريعا مما يزيد في أسفهم "أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" من جميع الأوثان النامية والجامدة "أَرُونِي مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ" حتى يكونوا شركاء فيها ، أروني أي جزء من أجزائها خلقوه حتى جعلتموهم شركائي في العبادة و

(87/638)

---

صيّرتموهم آلهة وعبدتموهم : فإذا كانوا لم يخلقوا شيئا منها فأخبروني "أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ" معي وهل خلقوا منها شيئا ، وهل يعلمون ما فيها وما مصيرها ؟ وإذا لم يكن لهم شيء من ذلك أيضا ، فأعلموني "أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا" ذكر فيه أن لهم شيئا من ذلك "فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ" حتى يظنوا بأن لهم علاقة في خلق السموات والأرض أو شركة فيها "بَلْ" ليس لهم شيء فيها أصلا ولا علم لهم بما فيهما ، وان ما اتخذوه من تلقاء أنفسهم جمادا عنادا ، وما انتحلوه من عبادة الملائكة وغيرهم زورا لأنهم ، لا يقدرون على شيء من ذلك ، ولا على حفظ أنفسهم من التعدّي ولكن ما "إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا" من نفع وضرّ وخير وشر وقوة وضعف "إِلَّا غُرُورًا" 40 وخداعا في قولهم بعضهم لبعض إنها

شفعاؤهم عند اللّه ، وغير ذلك .

مطلب الأرض عائمة كالسماء :

"إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا" فيمنعهما من الوقوع بإمساكه إياهما إمساكا قويا لا يقدر عليه الثقلان ، ولا تتصوره العقول ، ولا يكيف كيفيته أحد .

*(88/638)*

---

وهذه الآية الجليلة تدل على أن الأرض كالسماء غير مستقرة على شيء بل هي طائفة عائمة في الفضاء ، وأنه تعالى كما أنه يمنع السماء المبنية على غير عمد أو على عمد غير مرئية كما يأتي في الآية 10 من سورة لقمان ج 2 والآية 2 من سورة الرعد في ج 3 ، من أن تسقط أو تنخفض أو ترتفع بسبب إمساكه إياها ، فكذلك يمنع الأرض من أن تميد أو تتحرك أو تنخفض عن مستواها أو ترتفع عن مستقرها بسبب ذلك الإمساك المحكم أيضا "وَلَئِنْ زالَتا إِنْ" ما "أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ" أي لا يمسكهما أحد سواه البتة ، وتفيد أيضا بأن الأرض كبقية الأجرام السماوية لا عمد تقلها ولا دسار ينظمها كما ثبت أخيرا عند علماء الفلك ، وإن زوال جرم ما من هذه الأجرام من مركزه يفضي إلى تهافتها كلّها وعدم رجوعها إلى مركزها لاستحالة تأثير قوى التجاذب فيها بعد اختلاف موازنتها وفك

ارتباط بعضها عن بعض.

وسيأتي هذا اليوم لا محالة وهو الملمع إليه بقوله تعالى (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) ، الآية 1 من سورة الانفطار (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) ، الآية 1 من سورة التكوير ، (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ) الآية 8 من سورة المعارج ، (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ، وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا) الآيتان من سورة الطور ، وهذه وما قبلها وبعدها من الآيات القاطعات المشعرة بخراب هذا الكون وانقراض أجزائه ، وهذا من الأمور الغيبية التي لم يعلمها في عهد نزول القرآن أحد إلا مكوّنها ، وكم من علوم مكنونة فيه لم يطلع

(89/638)

---

عليها أحد "إِنَّهُ كانَ" ولم يزل "حَلِيماً" لا يعجل العقوبة على عباده علهم يرجعوا إليه رحمة بهم "غَفُوراً" 41 لما سبق منهم إذا تابوا وأنابوا ، وتشير هذه الآية العظيمة إلى أن كفر هؤلاء يكاد تهد السموات وتغور الأرض منه ، لعظمته عند الله لو لا أن قدرته البالغة ممسكة لها قال تعالى (تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا) الآية 82 من سورة مريم الآتية ، أي أن ما هم عليه من الشرك والكفر يكاد يسبب ذلك لو لا عظمة اللّه الحائلة دونه.

هذا ، ولما جاهر مشركو العرب بقولهم لعن اللّه اليهود والنصارى كيف أتتهم رسل اللّه فكذبوهم وحلفوا لو جاءهم رسول لاتبعوه ، فأنزل اللّه "وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ" نبي يرشدهم إلى السداد "لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ" يعني اليهود أو النصارى أو الصابئة لانهم من أهل الكتاب أيضا ثم اختلفوا بعضهم مع بعض في التحليل والتحريم وقولهم هذا كناية عن شدة التمسك بما يدعوهم إليه ذلك النذير الذي تمنوه قال تعالى مكذبا لهم "فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ" وأي نذير كريم أمين خطير منهم معروف لديهم بالصدق ، لأنهم خلقوا قبل مبعثه "ما زادَهُمْ" مجيئه إليهم وهديه لهم وجهده عليهم لإنقاذهم مما هم فيه من الشرك والكفر "إِلَّا نُفُوراً" 42 عنه وتباعدا عن رشده ، وإيذاء له فوق ذلك ، لا لأنه لم يكن نبيا وصادقا في دعواه ، بل كان نفورهم منه "اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ" طلبا للكبرياء فيها فتعاظموا عن قبول الإيمان به عنادا لمرسله وحسدا له على ما خصّه اللّه به من بينهم ، ولامر آخر وهو "وَمَكْرَ السَّيِّئِ" أي عملهم القبيح الذي هو اجتماعهم على الكفر والإشراك باللّه واتفاقهم على تكذيب رسوله وخداعهم له وتحين المكر فيه "وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ" فيونعهم فيه سوء عاقبته .

وجاء في المثل من حفر لأخيه جبّا وقع فيه مكبا ، فيا ترى هل أرادوا بمكرهم هذا أن جحودهم لما جاءهم به من عند ربه خيرا لأنفسهم ؟ كلّا بل شر وأي شر لقوله تعالى "فَهَلْ يَنْظُرُونَ" هؤلاء المخالفون لرسولنا محمدا "إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ" وهي أن كل أمة كذبت



---

رسولها حاق بها عذاب الاستئصال ، ولا محيص لها من الخلاص عنه "فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ" التي أمضاها على خلقه بقضائه وقدره "تَبْدِيلًا" عن مجراها الطبيعي أبدا ولا تغييرا ، وهؤلاء قومك يا سيد الرسل إذا أصرّوا على كفرهم نزل بهم العذاب لا محالة "وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا" 43 عن وقتها المقدر لها في الإهلاك وغيره ، بل تقع حتما فيه وقد نال بعض هؤلاء الكفرة يوم بدر ما نالهم من العذاب قتلا وأسرا ونشريدا ، وهذا عذابهم الأدنى وسينالهم العذاب الأكبر في الآخرة راجع الآية 21 من سورة السجدة في ج 2 قال تعالى "أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" فيعتبروا بأخبارهم وآثارهم وكيفية إهلاكهم وأسباب تدميرهم ؟ وهذه الآية كالاستشهاد والاستدلال على جريان سنة اللّه المبينة في الآية قبلها ، والاستفهام إنكاري ، أي لم يسيروا وينظروا أو يسمعوا بهم ، "وَكانُوا" أولئك المهلكون من الأمم قبلهم "أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً" وأعظم

بأسا وأجساما ، وأكثر أموالا وأولادا ، فلا يغتر قومك يا حبيبي بقوتهم وأموالهم وأولادهم ، فهم دونهم بكثير ، راجع الآية 21 من سورة غافر ، والآية 35 من سورة سبأ في ج 2 ، والآية 70 من سورة التوبة في ج 3 ، ومهما كانت قوتهم فليست عند اللّه بشيء "وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْ ءٍ" مهما كان عظيما مما كان "فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ" لأنهما وما فيهما من خلق اللّه ، ومن خلق شيئا لا يعجزه إبادته ، ولا يصعب عليه كيف يسوقه إلى قبضته "إِنَّهُ كانَ" ولا يزال "عَلِيماً" بذلك كله لا يحتاج الدلالة والاعانة من أحد "قَدِيراً" 44 على خلقه وجميع مكوناته ، لا يفلت أحد من قبضته ، كيف وقد قال جل قوله : (وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)



---

الآية 67 من سورة الزمر في ج 2 ، ومن كان كذلك فلا يعجزه شيء .

قال تعالى "وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا" من الآثام والمعاصي والمخالفات "ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها" أي الأرض التي يوقعون فيها المنهيات كلها من الإنس والجن وغيرهما "مِنْ دَابَّةٍ" تدب عليها بما يشمل الإنسان والحيوان والحوت والطير وغيرها "وَلكِنْ" يحلم عليهم فيمهلهم علهم يتوبوا فيغفر لهم ولذلك "يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى" عنده لا يطلع عليه

غيره "فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ" المحتوم ولم يرجعوا إليه وبقوا مصرين على ما هم عليه ، أوقع بهم عذابه جزاء أعمالهم الخبيثة ، وإذ ذاك "فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ" في ذلك اليوم كما هو الآن وقبل وبعد "بَصِيراً" 45 بمن يستحق العقوبة ممن يستحق الكرامة ، لم تخف عليه حقيقة أحد منهم .

هذا ، ولا يوجد سورة في القرآن مختومة بمثل هذه الكلمة غير هذه والله أعلم ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 2 صـ 107.136 ﴾

(93/638)

---

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة فاطر

مكية

ورباع كاف وكذا ما يشاء قدير تام ممسك لها صالح وكذا من بعده الحكيم تام نعمة الله

عليكم والارض حسن لا اله إلا هو جائز تؤفكون تام من قبلك كاف الامور تام وكذا الغرور

عدوا حسن أصحاب السعير تام ان جعل الذين كفروا مبتدا وخبره عذاب شديد وليس

بوقف ان جعل ذلك بدلا مما قبله بل الوقف على كفروا وهو جائز شديد تام وكذا كبير

فرأوه حسنا جائز ويهدي وان قدر ذهبت نفسك بقرينة فلا تذهب نفسك فجائز

حسرات كاف بما يصنعون تام بعد موتها كاف النشور تام وكذا العزة جميعا الطيب تام عند

بعضهم وقيل الصالح هو التام يرفعه تام اتفاقا شديد حسن يبور تام أزواجا حسن وكذا الا

بعلمه في كتاب كاف يسير حسن البحران صالح أجاج كاف تلبسةنها صالح تشكرون كاف

وكذا في الليل والقمر حسن لاجل مسمى كاف وكذا له الملك من قطمير صالح دعاءكم

صالح بشرككم حسن مثل خبير تام إلى الحميد حسن وكذا جديد وبعزيز وزر أخرى كاف

ذا قربى تام وأقاموا الصلاة حسن لنفسه كاف المصير تام البصر مفهوم وكذا ولا نور ولا

الحرور تام وكذا ولا موات من يشاء صالح من في القبور كاف وكذا الا نذير بشيرا ونذيرا تام

وكذا فيها نذير المنير صالح وكذا الذين كفروا نكير تام ألوانها صالح سود كاف كذلك تام

وكذا العلماء وغفور ولن تبور بجعل لام ليوفيهم لام القسم كما في نظيره من فضله كاف

شكور تام بين يديه كاف وكذا بصير ومن عبادنا فمنهم ظالم لنفسه جائز وكذا ومنهم

مقتصد وباذن الله الفضل الكبير حسن لؤلؤ كاف فيها حرير تام الحزن صالح من فضله جائز

فيها لغوب تام وكذا من عذابها وكل كفور غير الذي كنا نعمل حسن وفي الأصل تام نظر

كاف فذوقوا تام وكذا من نصير والأرض كاف الصدور تام في الأرض صالح كفره كاف وكذا الا مقتا لاخسارا قيل كاف والاجود انه تام آخر قصة بينه منه كاف إلا غرورا تام أن تزولا كاف وكذا من بعده غفورا تام من إحدى الأمم كاف وكذا إلا نفورا ومكر السيئ تام إلا بأهله كاف وكذا الأولين

*(94/638)*

---

وتبديلا وتحويلا وقوة وفي الأرض قديرا حسن من دأبه كاف ولا أحب أن يبتدأ بقوله ولكن في شيء من القرآن إلى أجل مسمى كاف آخر السورة تام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ المقصد صـ 635.630 ﴾

*(95/638)*

---

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني:

سورة الملائكة (فاطر)

مكية كلمها سبعمائة وسبع وتسعون كلمة وحروفها ثلاثة آلاف وثلاثون حرفاً وآيها خمس

أو ست وأربعون آية ولا وقف من أولها إلى ورباع ورباع (كاف) عند أبي حاتم وقال نافع تام على استئناف ما بعده

يزيد في الخلق ما يشاء (كاف)

قدير (تام)

فلاممسك لها حسن ومثله من بعده

الحكيم (تام) للابتداء بيا النداء

نعمت الله عليكم (كاف) للابتداء بالاستفهام ومثله والأرض

لا إله إلا هو (جائز)

تؤفكون (تام)

من قبلك (حسن)

الأمور (تام)

حق (حسن) ومثله الحياة الدنيا للفصل بين الموعظتين

الغرور (كاف)

عدوًّا (حسن)

السعير (تام) إن جعل الذين مبتدأ خبره عذاب شديد وليس بوقف إن جعل في موضع رفع بدلاً من الواو في ليكونوا وكذا إن جعل في موضع نصب نعتاً لحزبه أو في موضع جر نعتاً

لأصحاب السعير

شديد (تام) ومثله كبير قال قتادة أجر كبير الجنة

فرآه حسناً (حسن) إن قدِر جواب الاستفهام كمن هداه الله بقرينة ويهدي ومن قدّر الجواب ذهبت نفسك عليه حسرة بقرينه فلا تذهب نفسك ويكون قوله فلا تذهب نفسك دليل الجواب فلا يوقف على حسناً حتى يأتي بقوله فلا تذهب نفسك وقال الحسين بن الفضل في الآية تقديم وتأخير تقديره أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فلا تذهب وعلى هذا فالوصل أولى للتعقيب فإنه يؤذن بالسلب أي لا تتحسر على من يضل فإنه يضله والأول أولى

حسرات (كاف)

بما يصنعون (تام)

بعد موتها (كاف)

النشور (تام) والكاف في محل رفع أي مثل إخراج النبات يخرجون من قبورهم

العزة (تام) من شرط جوابه مقدر ويختلف تقديره باختلاف التفسير قيل من كان يريد العزة بعبادة الأوثان فيكون تقديره فليطلبها ومن كان يريد العزة بالطريق القويم فيكون تقديره فليطلبها ومن كان يريد علم العزة فيكون تقديره فلينسب ذلك إلى الله ودل على ذلك كله

قوله فالله العزة جميعاً

وجميعاً (كاف) ومثله الكلم الطيب

(96/638)

---

يرفعه (تام) إن كان الرافع للعمل الصالح الله تعالى وإن كان الرافع للعمل الصالح الكلم الطيب وأراد أن الكلم الطيب يرفعه العمل الصالح فلا يحسن الوقف على الطيب في الوجهين وليس الطيب بوقف إن عطف والعمل الصالح على الكلم الطيب ومفهوم الصالح إن الكلم لا يقبل لعدم مقارنته للعمل الصالح إذ في الحديث لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ولا عملاً إلا بنية ولا قولاً ولا عملاً ولا نية إلا بإصابة السنة

شديد (كاف)

يبور (تام)

أزواجاً (حسن) ومثله بعلمه

إلا في كتاب (تام) عند أبي حاتم وحسن عند غيره

يسير (تام)

البحران (جائز) وليس حسناً لأن ما بعده تفسير لهما لأن الجملتين مع ما حذف حال من

البحرين أي وما يستوي البحران مقولاً لهما هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وأجاج (حسن)

تلبسونها (جائز)

مواخر ليس بوقف لأن اللام من قوله لتبتغوا متعلقة بمواخر فلا يفصل بينهما

تشكرون (تام) على استئناف ما بعده

في الليل (جائز)

والقمر (حسن) لأن كل مستأنف مبتدأ

لأجل مسمى (كاف) وكذا له الملك ومثله من قطمير للابتداء بالشرط

دعاءكم (حسن) ومثله ما استجابوا لكم وكذا بشرككم

مثل خبير (تام) للابتداء بيا النداء

إلى الله (كاف) فصلاً بين وصف الخلق ووصف الحق

الحميد (كاف) ومثله جديد

بعزيز (تام)

وزر أخرى (كاف) لاستئناف الشرط ولا يوقف على منه شيء

ذا قربى (كاف) وفي كان ضمير هو اسمها وإنما أراد ولو كان المدعوّ ذا قربى

وأقاموا الصلاة (كاف) ومثله لنفسه

المصير (تام)

والبصير (جائز) وهما المؤمن والكافر ومثله ولا النور وقيل لا وقف من قوله وما يستوي الأعمى إلى الحرور وبه يتم المعطوف والمعطوف عليه

الحرور (كاف)

ولا الأموات (حسن) ومثله من يشاء وتام عند أبي حاتم للعدول عن الإثبات إلى النفي

القبور (كاف) إلا نذيراً (تام) ومثله ونذيراً وكذا نذير

من قبلهم (جائز) لأن جاءتهم يصلح حالاً واستئنافاً

المنير (كاف) على استئناف ما بعده

الذين كفروا (جائز) لاستئناف التوبيخ



---

نكير (تام)

ألوانها الأول (حسن)

وألوانها الثاني ليس بوقف لأن قوله وغرابيب سود معطوف على بيض

وغرابيب سود (كاف) إن رفع مختلف بالابتداء وما قبله خبره وليس بوقف إن عطف

على مختلفاً الأول

كذلك (جائز) إن كان لتشبيه تمام الكلام قبله والمعنى أن فيما خلقنا من الناس والدواب

والأنعام مختلفاً مثل اختلاف الثمرات والجبال وهذا توجيه حسن

العلمواء (كاف) ورسموا العلمواء بواو وألف بعد الميم كما ترى

غفور (تام)

وعلانية ليس بوقف لأن خبر إن لم يأت وهو جملة يرجون

لن تبور (كاف) إن جعلت لام ليوفيهم لام القسم كما يقول أبو حاتم وليس بوقف إن علقت

بلن تبور أي تجارة غيرها هالكة تنفق في طاعة الله ليوفيهم

من فضله (كاف)

شكور (تام)

لما بين يديه (كاف)

بصير (تام) للفصل بين الجملتين تعريضاً للاعتبار

(حسن) ومثله ظالم لنفسه إن فسر الظالم بالكافر كما رواه عمرو بن دينار عن ابن عباس

وجائز إن فسر بالعاصي وهو المشهور

مقتصد (جائز) للفصل بين الأوصاف روي أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه

الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقنا

سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له وفي الجامع السابق والمقتصد يدخلان الجنة بغير حساب والظالم لنفسه يحاسب يسيراً ثم يدخل الجنة عن أبي الدرداء

بإذن الله (كاف)

الكبير (كاف) وليس بتام لأن جنات عدن يدخلونها تفسير للفضل الكبير كأنه قال هو جنات عدن فلا يفصل بينهما واغتفر الفصل من حيث كونه رأس آية وكاف أيضاً لمن رفع جنات مبتدأ والجملة خبر ومثله أيضاً لمن رفع جنات خبر مبتدأ محذوف أي ذلك جنات عدن وكذا لو جعل جنات خبراً ثانياً لاسم الإشارة وليس بوقف إن أعرب بدلاً من الفضل الكبير وليس بوقف أيضاً على قراءة عاصم الجحدري جنات عدن بكسر التاء بدلاً من قوله بالخيرات وعلى قراءته فلا يوقف على بإذن الله ولا على الكبير لأنه لا يفصل بين البدل والمبدل منه بالوقف

*(98/638)*

---

ولؤلؤا (كاف) لمن قرأه بالجر عطفاً على من ذهب وبها قرأ ابن كثير وأهل مكة وحمزة والكسائي وابن عامر وأبو عمرو وقرأ نافع وحفص ولؤلؤاً بالنصب على محل من أساور كأنه قال يحلون أساور من ذهب ولؤلؤاً فعلى قراءتهما يوقف عليه بالألف

حرير (تام)

الحزن (كاف)

شكور (تام) في محل الذي الحركات الثلاث فإن جعل في محل رفع خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي أو جعل في محل نصب بتقدير أعني كان كافياً فيهما وليس بوقف في أربعة أوجه إن جعل الذي في محل خفض نعتاً لاسم الله في قوله الحمد لله أو جعل في محل نصب نعتاً لاسم إن في قوله إنَّ ربنا لغفور شكور أو في محل رفع بدلاً من غفور أو بدلاً من الضمير في شكور

من فضله (جائز) وقال الأخفش لا وقف من قوله الحمد لله إلى لغوب

ولغوب (تام)

جهنم (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده خبراً ثانياً أو حالاً

من عذابها (كاف)

كل كفور (تام)

يصطرخون فيها (جائز) عند نافع على استئناف ما بعده أي يقولون ربنا وخولف في هذا لأن المعنى يصطرخون يقولون فيحتاج إلى ما بعده وكذا إن أضمرت القول لأن ما قبله دل عليه

كنا نعمل (تام)

النذير (كاف) على استئناف ما بعده

فذوقوا (تام) ومثله من نصير

والأرض (حسن)

الصدور (تام)

في الأرض (حسن) ومثله فعليه كفره وكذا إلا مقتاً

خساراً (كاف) وقيل تام لأنه آخر قصة

من دون الله (حسن) لتناهي الاستفهام

في السموات (جائز) لأن أم بمعنى ألف الاستفهام

بينة منه (تام) عند نافع

إلا غروراً (تام)

أن تزولا (كاف) وكذا من بعده

غفوراً (تام)

من إحدى الأمم (حسن) وكذا نفوراً إن نصب استكباراً على المصدر بفعل مضمر كأنه قال يستكبرون استكباراً وليس بوقف إن نصب استكباراً على أنه مفعول من أجله أو جعل حالاً فيكون متعلقاً بنفوراً أو بدلاً من نفوراً

ومكر السيء الأول (حسن) والسيء الثاني ليس بوقف لأن ما بعده حرف الاستثناء إلا بأهله (كاف) ومثله الأولين لتانهي الاستفهام

تبديلاً (حسن) تحويلاً (تام) واتفق علماء الرسم على كتابة سنت الثلاث بالتاء المجرورة

من قبلهم (حسن) ومثله قوة

ولا في الأرض (كاف)

قدير (تام)

من دابة ليس بوقف لتعلق ما بعده بما قبله استدراكاً

إلى أجل مسمى (حسن)

أجلهم ليس بوقف لأن قوله فإن الله جواب إذا

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 630.635 ﴾



" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة فاطر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرا الضحاك : "الْحَمْدُ لِلَّهِ فطرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" 1 .

قال أبو الفتح : هذا على الثناء على الله "سبحانه" ، وذكر النعمة التي استحق بها الحمد . وأفرد ذلك في الجملة التي هي "جعل" بما فيها من الضمير ، فكان أذهب في معنى الثناء ؛ لأنه2 جملة بعد جملة . وكلما زاد الإسهاب في الثناء أو الذم كان أبلغ فيهما ألا ترى إلى قول خِرنق3 :

لا يَبعَدًا قومِي الذين هُمُ سمُّ العُداة وآفَةُ الجُزْرِ

النازِلينَ بِكلِّ مُعْتَرَكٍ والطَّيِّبينَ مَعَاقِدَ الأُزْرِ

ويروى : النازلون والطيبون ، والنازلين والطيبون ، والطيبين والنازلون . والرفع على هُمُ ، والنصب على أعني . فكلما اختلفتِ الجملُ كان الكلام أفانينَ وضروبا ، فكان أبلغ منه إذا أُلزِم شرحًا واحدًا . فقولك : أُثْنِي على الله ، أعطانا فأغنى ، أبلغ من قولك : أُثْنِي على الله ، المعطينا والمغنينا ؛ لأن معك هنا جملة واحدة ، وهناك ثلاث جمل .

ويدلك على صحة هذا المعنى قراءة الحسن : "جَاعِلُ الْمَلائِكَةِ" ، بالرفع ؛ فهذا على قولك : هو جاعل الملائكة ، ويشهد به أيضا قراءة خليد بن نشيط : "جَعَلَ الْمَلائِكَةَ" .

قال أبو عبيدة : إذا طال الكلام خرجوا من الرفع إلى النصب ، ومن النصب إلى الرفع . يريد

ما نحن عليه؛ لتختلف ضروبه، وتتباين تراكيبه.

ومن ذلك قراءة عيسى الثقفي: "سَيْغٌ شَرَابُهُ"4.

---

1 سورة فاطر: 1.

2 في ك: لأنها.

3 شاعرة جاهلية من بني ضبيعة رهط الأعشى، وقيل غير ذلك. والعداة: الأعداء، جمع عاد. والجزر: جمع الجزور، وهي الناقة التي تنحر، وسكنت زاي الجزر للتخفيف. والطيبون معاقد الأزر: كناية عن العفة. وانظر الكتاب: 1: 104، 246، 249، والخزانة: 2: 301 وما بعدها، والدرر اللوامع: 2: 150.

4 سورة فاطر: 12

(101/638)

---

قال أبو الفتح: هو محذوف من سَيِّغ: فَيْعِل، بمنزلة مَيْتٍ من مَيِّتٍ، وهَيْنٍ من هَيِّنٍ. وعينه واو، وأصله سَيْوِغ، كمَيْوِت في الأصل. يدل على كون عينه واوا قولهم: هذا أسوغ من هذا، وقولهم: هي أُخته سَوْغَةً، وسَوَّغَتُهُ، [132و] أي: يَسُوغ لها وتَسُوغ له، أي: يَقْبلها طبعه، ويقبله طبعها.

فأما قول الله تعالى: ﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ 1 فلا دلالة فيه على كون العين واوا 2 وذلك لأنه في الأصل يسوغه، كما أن أصل يقيم يقوم، ويستعين يستعون، وهذا واضح وحكاه أبو حاتم عن عيسى: "سيغ"، وقال فيه: بغير ألف مشددة الياء، وهذا واضح.

ومن ذلك قراءة طلحة بن مصرف: "وَهَذَا مَلِحٌ أُجَاجٌ" 3.

قال أبو الفتح: قد تقدم القول على مثله، وأنه في الأصل مَالِح؛ فحذفت ألفه تخفيفا 4.

ومن ذلك قراءة الزهري: "جَدَدٌ" 5، بفتح الجيم والدال، فيما رواه سهل عن الوقاصي عنه.

قال أبو الفتح: قال أبو حاتم: لا قراءة فيه غير "جُدَدٍ"، وقال قطرب: قراءة الناس كلهم: "جُدَدٌ"، وقراءة الزهري: "جُدُدٌ" فأما "جُدَد" فجمع جُدَّة، وهي الطريقة يخالف لونها لون ما يليها. قال المتلمس:

لَهُ جُدَدٌ سُودٌ كأن أَرَنْدَجًا بِأَكْرُعه وبالذِّرَاعَيْنِ سُنْدُسُ 6

---

1 سورة إبراهيم: 17.

2 أي في ظاهر اللفظ لما دخله من إعلال.

3 سورة فاطر: 12.

4 انظر الصفحة: 171 من الجزء الأول، والصفحة 82 من الجزء الثاني.

5 سورة فاطر: 27.

6 الأرندج: الجلد الأسود تعمل منه الخفاف، والأكرع: جمع الكراع، كغراب. وهو مستدق الساق، ويؤنث.

(102/638)

---

وقال الأعشى:

كأنَّ قُطُوعَها بِعُنَيْبِسَاتٍ تَعَطَّفَهن ذو جُدَدٍ فَرِيدُ 1

وأما "جُدُدٌ" فجمع جَدِيد، أي: آثار جُدُد غير مُخْلِقَة؛ فهو أصح لها، وأوضح للونها.

وأما "جَدَد" فلم يثبته أبو حاتم ولا قطرب. وعلى أن له معنى، وهي الطريق الواضح المسفر فالمعنى نحو من الأول. وقد يجوز في "جُدُد" -وهي جديد- الفتح؛ هربا من التضعيف إلى الفتح. وكذلك جميع ما كان مثله من المضاعف: كسَرِير وسُرُر سُرَر، وجَرِير وجُرُر وجُرَر، وتَلِيل وتُلُل 2 وتُلَل، وبِئْر جَرُور وجُرُر وجُرَر وجَرَائِر أيضا. قال:

كانتْ مِيَاهِي نُزُعًا قَوَاصِرا ولَمْ أكُنْ أُمَارِسُ الْجَرَائِرا 3

وعلى كل حال فللقُرّاء الرواية، وإذا عَضَدَها قياس فحسبك به من إيناس.

ومن ذلك قراءة الزهري أيضا: "والدَّوَاب"، خفيفة.

قال أبو الفتح: قد ذكرنا ذلك مشروحا فيما مضى بشواهده 4.

ومن ذلك قراءة علي عليه السلام : "فِيهَا لَغُوبٌ"5 ، بفتح اللام . وهي قراءة السُّلَمي .

قال أبو الفتح : لك فيه وجهان :

إن شئت حملته على ما جاء من المصادر على الفَعُول ، نحو : الوَضُوء ، والوَلُوغ ، والوَقُود .

---

1 يروى "قتودها" مكان "قطوعها" . والقطوع : جمع قِطع بالكسر ، وهي الطنفسة تكون على كتفي البعير . أما القتود : فخشب الرحل وعيدانه ، جمع قتد . وعنيبسات : موضع ، وفي الأصل : بعنيفسات ، وهو تحريف ، تعطفهن : تعطف بها ، أي لبسها ، والضمير للقطوع . وفي الأصل يقطعهن ، وهو تحريف . والجدد : جمع جدة ، بالضم ، وهي الخطة في ظهر الثور أو الحمار تخالف لونه . يشبه ناقته بالحمار الوحشي ، فيقول كأن قطوعها ليست على ناقة بل حمار وحشي ، وانظر الديوان : 325 ، ومعجم البلدان .

2 الجرير : الزمام ، والتليل : العنق .

3 النزع : جمع النزوع ، وهي البئر التي ينزع منها باليد . والقواصر : جمع قاصر ، والماء القاصر : الذي يكون مرعاه قريبا . والجرائر : جمع الجرور ، وبئر جرور : يستقى منها على بعير . وانظر اللسان "قصر" .

4 في ك : فيما مضى مشروحا . وانظر الصفحة 76 من هذا الجزء .

5 سورة فاطر : 35 .

وإن شئت حملته على أنه صفة لمصدر محذوف، أي: لا يمسنا فيها لُغُوب 1 لَغُوب، على قولهم: هذا شِعْرٌ شَاعِرٌ، وموتٌ مائِتٌ، كأنه يصف "اللُّغوب" بأنه قد لَغَبَ، أي أعيا وتعب، وهذا ضرب من المبالغة، كقول الآخر

إذا ناقةٌ شُدَّتْ برَحْلٍ ونُمرُقٍ إلى حَكَمٍ بَعْدِي فَضَلَّ ضَلَالُها 2

وعليه قالوا: جُنَّ جُنُونه، وخرجَتْ خَوَارِجُه.

ومن طريف ما مر بنا لمولدين في هذا قول شاعرنا 3:

وَجُبْتُ هَجِيرًا يَتْرُكُ الماءَ صَادِيَا

فهذا مع ما فيه من المبالغة حلو وواصل إلى الفكر. وعلى هذا حمل أبو بكر قولهم: توضأتُ وَضُوءًا: أنه وصف لمصدر محذوف، [132ظ] أي: وُضُوءًا وَضُوءًا، كقولك: وُضُوءًا وَضِيئًا، أي: كاملا حَسَنًا.

وحكى أبو زيد: رجل ساكوتٌ بَيِّن الساكُوتَة، فلما قرأت هذا الموضع على أبي علي حمله على قياس قول أبي بكر هذا، فقال: تقديره بَيِّن السكْتَة الساكُوتَة، فجعل الساكوتة صفة لمصدر محذوف، وحسّن ذلك عندي شيئًا أنه من لفظه، فكأن أحدهما صاحبه

البتة .

وحكى الأصمعي : ليس عليك في ذلك تَضُرَّةٌ4 ولا ضَارُورَة ، فَضَارُورَة – على قياس قول أبي بكر – كالسَّاكُوتة ، أي : ضَرَّةٌ ضَارُورَة .

ومن ذلك قراءة الحسن : "لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُون"5 ، وكذلك الثقفي .

---

1 اللغوب : أشد الإعياء .

2 البيت لأوس بن حجر . والنمرق : الطنفسة فوق الرحل ، والطنفسة : البساط . والحكم : الرجل المسن ، وهو أيضا : الحاكم . وانظر اللسان "ضل" .

3 هو المتنبي ، وصدر البيت :

لقيت المروري والشناخيب دونه

والمروري : جمع مروراة ، وهي الفلاة الواسعة . والشناخيب : جمع الشنخوب ، بضم الشين . وهو رأس الجبل . وضمير دونه لكافور الأخشيدي . انظر الديوان : 468 .

4 التضرة : الضرر .

5 سورة فاطر : 36 .

قال أبو الفتح : "يموتون" عطف على "يُقْضَى" ، أي : لا يُقضَى عليهم ، ولا يموتون . والمفعول محذوف ، أي : لا يُقْضَى عليهم الموت . وحسن حذفه هنا لأنه لو قيل : لا يُقْضى عليهم الموت فيموتون ، كان تكريرا يغني من جميعه بعضه ، ولا توكيد أيضا فيه فيحتمل لفظه . وعلى كل حال فقد بينا في كتابنا هذا -وفي غيره- حسن حذف المفعول لدلالة الكلام عليه ، وأنه لا يصدر إلا عن فصاحة عذبة .

وقراءة العامة في هذا أوضح وأشرح ؛ وذلك أن فيه نفي سبب الموت ، وهو القضاء عليهم . وإذا حذف السبب فالمسبب أشد انتفاء ، ومن هذا قولهم : لم يقم زيد أمس ؛ فنفي الماضي بلفظ المستقبل ؛ وذلك أن المستقبل أسبق رتبة في النفس من الماضي ، فإذا نفي الأصل كان الفرع أشد انتفاء ، ونظائره كثيرة ، فتأمله .

ومن ذلك قراءة ابن مسعود : "وَمَكْرًا سَيِّئًا" 1 .

قال أبو الفتح : يشهد لتنكيره تنكير ما قبله من قول الله سبحانه : ﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، وقراءة العامة أقوى معنى ؛ وذلك أن "المكر" فيها معرفة لإضافته إلى معرفة ، أعنى "السَّيِّئ" ، فكأنه قال : والمكرَ السَّيِّئَ الذي هو عالٍ مستكرَه مستنكَر في النفوس . وعليه قال من بعد : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ، وأبدل "استكبارا" وما بعده من النكرة قبله ، وهي هو من قوله : ﴿ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ ، وحسن تنكير الاستكبار لأنه أدنى إلى "نفور" مما بعده . وقد يحسن مع القرب فيه ما لا يحسن مع البعد ، واعتمد

ذلك لقوة معناه بتعريفه ، والإخبار عنه بأن مثله لا يخفى ، لعظمه وشناعته . انتهى .

اهـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 197 . 201﴾

---

1 سورة فاطر : 43 .

(105/638)

---

وقال العلامة الدمياطى :

سورة فاطر

مكية وآيها أربعون وأربع حمصي وخمس حرمي إلا الأخير وست دمشقي ومدني أخير خلافها سبع عذاب شديد بصري وشامي تشركون إلا نذير غير حمصي بخلق جديد غير بصري وحمصي الأعمى والبصير ولا النور بصري في القبور غير دمشقي أن تزولا بصري تبديلا بصري ومدني أخير وشامي القراآت أمال مثنى حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق بخلفه وسهل الثانية كالياء وأبدلها واوا مكسورة ما يشاء ان نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس وأمال الدوري عن أبي عمرو للناس محضة بخلفه والوجهان صحيحان عنه كما في النشر ووقف على نعمت بالهاء ابن كثير وابو عمرو والكسائي ويعقوب

واختلف في ( ) غير الله ( الآية 3 فحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بجر غير نعتا لخالق على اللفظ وافقهم ابن محيصن والأعمش والباقون بالرفع صفة على المحل ومن مزيدة للتأكيد وخالق مبتدأ والخبر عليهما يرزقكم أو يرزقكم صفة أخرى والخبر مقدر أي موجود أو لكم وأمال فإني حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق والدوري عن أبي عمرو قرأ ( ) ترجع الأمور ( ) بضم التاء وفتح الجيم مبنيا للمفعول نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر وقرأ فرآه بإمالة الراء والهمزة معا حمزة وخلف وقللهما الأزرق معا وأمال أبو عمرو الهمزة فقط وذكر الشاطبي رحمه الله الخلاف عن السوسي في إمالة الراء تقدم ما فيه واختلف عن هشام فالجمهور عن الحلواني على فتحهما معا عنه وكذا الصقلي عن الداجوني والأكثرون عن الداجوني عنه على إمالتهما معا والوجهان صحيحان عن هشام واختلف أيضا عن ابن ذكوان على ثلاثة أوجه الأول إمالتهما معا عنه رواية المغاربة وجمهور المصريين الثاني فتحهما عنه رواية جمهور العراقيين الثالث فتح الراء وإمالة الهمزة رواية الجمهور عن الصوري وأما أبو بكر ففتحهما معا عنه العليمي وأمالهما معا يحيى بن آدم والباقون بفتحهما ونظيره فرآه في سواء الجحيم بالصافات

واختلف في ( ) فلا تذهب نفسك ( الآية 8 فأبو جعفر بضم التاء وكسر الهاء

من أذهب و ( نفسك ) بالنصب مفعول وعليهم متعلق بتذهب نحو هلك عليه حبا وافقه

ابن محيصن والشنبوذي والباقون بفتح التاء والهاء مبنيا للفاعل من ذهب ونفسك فاعل

وقرأ ﴿ الريح ﴾ بالتوحيد ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وأبو جعفر بالجمع على

أصله وقرأ ( ميت ) بتشديد الياء نافع وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف ومر

بالبقرة

(107/638)

---

واختلف في ) ولا ينقص ( ) الآية 11 فيعقوب بخلف عن رويس بفتح الياء التحتية وضم

القاف مبنيا للفاعل وهو ضمير المعمر وهي رواية رويس من طريق الحمامي والسعيدي

وأبي العلا كلهم عن النخاس عن التمار عنه وافقه الحسن والمطوعي والباقون بضم الياء

وفتح القاف مبنيا للمفعول والنائب مستتر يعود على المعمر أيضا وعن المطوعي من عمره

بسكون الميم هنا خاصة وأمال وترى الفلك وصلا السوسي بخلفه وعن الحسن والذين

يدعون بالياء من تحت ويوقف لحمزة على ينبئك بالتسهيل كالواو على مذهب سيبويه

وبالإبدال ياء على مذهب الأخفش وهو المختار عند الآخذين بالرسم وأما تسهيلها

كالياء وهو المعضل وإبدالها واوا فكلاهما لا يصح كما في النشر وسهل الثانية كالياء

وأبدلها واوا مكسورة من الفقراء إلى نافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر ورويس ونظيره

العلماء إن وأبدل همز إن يشأ ألفا الأصبهاني وأبو جعفر كوقف حمزة وأمال تزكى و يتزكى

حمزة والكسائي وخلف وقللهما الأزرق بخلفه وقرأ ( رسلهم ) بسكون السين أبو عمرو

وأظهر ذال أخذت ابن كثير وحفص ورويس بخلفه وأثبت الياء في نكير وصلا ورش وفي

الحالين يعقوب و يوقف لحمزة وهشام بخلفه على العلمؤا على رسمه بواو باثني وجها مر

بيانها أول الأنعام في أنبوا ما كانوا وتقدم خلاف الأزرق في ترقيق راء سرا كمستقرا وقرأ (

يدخلونها ) بضم الياء وفتح الخاء بالبناء للمفعول أبو عمرو ومر بالنساء وقرأ ( ولؤلؤا )

بالنصب نافع وعاصم وأبو جعفر والباقون بالجر وأبدل همزته الساكنة أبو عمرو بخلفه وأبو

بكر وابو جعفر ولم يبدله ورش من طريقيه ويوقف عليه لحمزة بإبدال الأولى واوا وأما الثانية

فتبدل واوا ساكنة على القياس وتبدل واوا مكسورة على مذهب الأخفش فإذا سكنت

للوقف اتحد مع ما قبله ويجوز الروم فهما وجهان ويجوز تسهيلها كالياء على مذهب

سيبويه فهي ثلاثة وهشام بخلفه كذلك في الثانية ومر ذلك بالحج

واختلف ) نجزي كل ( ) الآية 36 فأبو عمرو بالياء التحتية مضمومة وفتح الزاي بالبناء

للمفعول و ( كل ) مرفوع على النيابة وافقه الحسن واليزيدي والباقون بنون العظمة مفتوحة

وكسر الزاي بالبناء للفاعل ونصب ( كل ) به وقرأ ( أرأيتم ) بتسهيل

الثانية نافع وأبو جعفر وللأزرق وجه آخر إبدالها ألفا خالصة مع المد المشبع وحذفها

الكسائي

واختلف في ﴿ بينات منه ﴾ الآية 40 فابن كثير وابو عمرو وحفص وحمزة وخلف بلا

ألف على الإفراد وافقهم المطوعي وابن محيصن واليزيدي والباقون بالألف على الجمع

وأمال أهدى حمزة والكسائي خلف وقلله الأزرق بخلفه وكذا حكم إحدى الأمم وقفا

ووافق أبو عمرو والأزرق فيه بوجهيه

واختلف في ) ومكر السيء ( الآية 43 فحمزة بسكون الهمزة وصلا إجراء له مجرى

الوقف لتوالي الحركات تخفيفا كبارئكم لأبي عمرو وافقه الأعمش وقد أكثر الأستاذ أبو

علي في الإستشهاد لها من كلام العرب ثم قال فإذا ساغ ما ذكر في هذه القراءة لم يسغ أن يقال

لحن وقال ابن القشيري ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أنه قرىء به فلا بد من جوازه ولا

يجوز أن يقال لحن انتهى وهي مروية كما في النشر عن أبي عمرو والكسائي قال فيه وناهيك

بإمامي القراءة والنحو أبي عمرو والكسائي وقرأ الباقون بالهمزة المكسورة ووقف عليها

حمزة وهشام بخلفه بإبدالها ياء خالصة وزاد هشام الإشارة إلى الكسرة بالروم بين بين

بخلاف حمزة فإنها ساكنة عنده فلا روم وتقدم حكم همزتي السيء إلا قريبا ووقف على سنت الثلاثة بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب وأما جاء أجلهم فسبق نظيره أول الأعراف جاء أجلهم لا يستأخرون

(109/638)

---

المرسوم في المدني وعن الكوفي ( ولؤلؤا ) الآية 33 بإثبات الألف وقيل بحذفها في الإمام كمصاحف الأمصار وكتب في بعض المصاحف العلمؤا أن بواو وألف بعدها مع حذف التي قبلها واتفقوا على التاء في نعمت الله وسنت في الثلاثة كالأنفال وآخر غافر وعلى بينت منه فيها زائدة ( نكير ) الآية 26 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر ص 464.462 ﴾

(110/638)

---

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة فاطر "

" يشاء إن " عليهم ؛ فتثير ، فسقناه ، إليه ، مواخر كله جلي .

" نعمت الله عليكم " رسمت بالتاء ووقف بالهاء المكي والبصريان والكسائي والباقون بالتاء .

" هل من خالق غير " قرأ الأخوان وخلف وأبو جعفر بخفض راء غير والباقون برفعها ولا يخفى ما فيه من إخفاء النون في الخاء والتنوين في الغين مع الغنة لأبي جعفر .

ترجع الأمور " قرأ الشامي والأخوان ويعقوب وخلف بفتح التاء وكسر الجيم والباقون بضم التاء وفتح الجيم .

" فلا تذهب نفسك " قرأ أبو جعفر بضم التاء وكسر الهاء ونصب السين من نفسك وغيره بفتح التاء والهاء ورفع السين .

" الرياح " قرأ المكي والأخوان وخلف بالإفراد وغيرهم بالجمع .

" ميت " قرأ المدنيان وحفص والأخوان وخلف بالتشديد والباقون بالتخفيف .

" ولا ينقص " قرأ يعقوب بفتح الياء التحتية وضم القاف وغيره بضم الياء وفتح القاف .

" ينبئك " لحمزة في الوقف عليه تسهيل الهمزة بين بين وإبدالها ياء خالصة .

" خبير " آخر الربع .

الممال

" مثنى " معا وفرادى ومسمى لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف

عنه . جنة للكسائي قولا واحدا . جاء لابن ذكوان وخلف وحمزة ، ترى وترى الفلك لدى الوقف على ترى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش . فإن وصل ترى بالفلك فبالإمالة للسوسي بخلاف عنه . الدنيا وأنثى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

وأنى فأنى بالإمالة للأصحاب والتقليل لدوري البصري وورش بخلف عنه . للناس لدوري البصري ، فرآه بتقليل الراء والهمزة لورش مع ثلاثة البدل له ، وبإمالتهما لشعبة والأخوين وخلف وابن ذكوان بخلف عنه . وبإمالة الهمزة فقط للبصري وبفتحهما للباقين . النهار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش .

المدغم

" الكبير " " مرسل له " يرزقكم ، زين له ، العزة جميعا ، خلقكم ، مواخر لتبتغوا ،



---

" الفقراء إلى " يشأ ، ولا تزر وازرة وزر ، تنذر ، المصير ، البصير ، بشيرا ونذيرا ، الصلاة ، سرا ، عزيز غفور صالحا غير ، أرأيتم ، تقدم مثله غير مرة .

" رسلهم " أسكن السين أبو عمرو وضمها غيره .

" نكير " أثبت ورش الياء وصلا فقط ويعقوب في الحالين وحذفها غيرهما مطلقا .

" العلماؤا إن " مثل يشاء إلى ، والهمزة في العلماء مرسومة على واو في بعض المصاحف ومجردة في البعض الآخر وتقدم حكم الوقف على نظائره .

" يدخلونها " قرأ البصري بضم الياء وفتح الخاء وغيره بفتح الياء وضم الخاء .

" ولؤلؤا " قرأ المدنيان وعاصم بنصب الهمزة الأخيرة والباقون بجرها ، وأبدل الهمزة الأولى مطلقا السوسي وشعبة وأبو جعفر وفي الوقف حمزة . ولهشام وحمزة في الوقف إبدال الثانية واوا مع سكونها أو روم حركتها ولهما تسهيلها بين بين مع الروم ، فالأوجه ثلاثة لهشام وحمزة ، ولكن هشاما لا يبدل الأولى بخلاف حمزة .

" نجزي كل " قرأ أبو عمرو بالياء التحتية المضمومة ، وفتح الزاي وألف بعدها ، ورفع لام كل ، والباقون بالنون المفتوحة ، وكسر الزاي وياء ساكنة مدية بعدها ، ونصب لام كل .

" بينت " قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص وحمزة وخلف بغير ألف بعد النون على التوحيد والباقون بالألف على الجميع . ومن قرأ بالجمع وقف بالتاء . وأما من قرأ بالإفراد فمنهم من وقف بالهاء على مذهبه وهما ابن كثير وأبو عمرو . ومنهم من وقف بالتاء على أصل مذهبه كذلك ، وهم: حفص وخلف وحمزة .

" غرورا " آخر الربع .

الممال

أخرى بالإمالة للبصري والأخوين وخلف والتقليل لورش . قربى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . تزكى ويتزكى والأعمى ويخشى لدى الوقف عليه ، ويقضى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . جاءتهم وجاءكم: لابن ذكوان وخلف وحمزة ، الناس لدوري البصري ، الكافرين بالإمالة للبصري والدوري ورويس ، وبالتقليل لورش ، خلا واوي لا إمالة ولا تقليل فيه لأحد .

المدغم

" الصغير " أخذت لغير حفص ورويس والمكي .

(112/638)

---

" الكبير " والله هو ، كان نكير ، والأنعام مختلف ، خلائف في الأرض .

" حليما غفورا " نذير معا ، يسيروا ، قديرا ، يؤاخذ ، يؤخرهم ، جاء أجلهم ، بصيرا ، كله جلي .

" ومكر السيئ" قرأ حمزة بإسكان الهمزة وصلا والباقون بكسرها . فإذا وقف عليه فلحمزة فيه وجه واحد ، وهو إبدال ياء خالصة لسكونها وانكسار ما قبلها . ولهشام ثلاثة أوجه . الأول: كحمزة . والثاني: إبدالها ياء مكسورة مع روم حركتها . والثالث:

تسهيلها بين بين مع الروم ، والباقون يقفون بإسكان الهمزة ، ويجوز لهم روم حركتها .

" السيئ إلا " مثل يشاء إلى لجميع القراء .

" سنت " الثلاثة رسمت بالتاء ، فوقف عليها بالهاء المكي ، والبصريان والكسائي ،

والباقون بالتاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 267 . 270 ﴾

(113/638)

---

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

من سورة فاطر

قوله تعالى ﴿ هل من خالق غير الله ﴾ يقرأ بالرفع والخفض فالحجة لمن رفع أنه أراد هل غير الله من خالق أو يجعله نعتا لخالق قبل دخول من أو يجعل هل بمعنى ما وغيرا بمعنى إلا كقوله ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ والحجة لمن خفض أنه جعله نعتا لخالق أراد هل من خالق غير الله يرزقكم

قوله تعالى ﴿ كذلك نجزي كل كفور ﴾ يقرا بضم الياء وفتح الزاي والرفع وبالنون مفتوحة وكسر الزاي والنصب فالحجة لمن ضم أنه دل بالفعل على بنائه لما لم يسم فاعله فرفع ما أتى

بعده به والحجة لمن قرأه بالنون والفتح أنه أراد حكاية ما أخبر الله عز وجل عن نفسه ونصب قوله ﴿ كل كفور ﴾ بتعدي الفعل إليه

قوله تعالى ﴿ يدخلونها ﴾ يقرا بفتح الياء وضم الخاء وبضم الياء وفتح الخاء فالحجة لمن قرأه بفتح الياء أنه جعل الدخول فعلا لهم والتحلية إلى غيرهم ففرق بين الفعلين لهذا المعنى والحجة لمن قرأه بضم الياء أنه جعله فعل ما لم يسم فاعله وزاوج بذلك بين هذا الفعل وبين قوله يدخلونها ويحلون ليشاكل بذلك بين اللفظين

قوله تعالى ﴿ ولؤلؤا ﴾ يقرأ بالهمز وتركه وبالنصب والخفض وقد ذكر بجميع وجوهه في سورة الحج

قوله تعالى ﴿ فهم على بينة منه ﴾ يقرأ بالتوحيد والجمع فالحجة لمن وحد قوله ﴿ فقد جاءكم بينة من ربكم ﴾ والحجة لمن قرأه بالجمع أنه وجده مكتوبا في السواد بالتاء فأخذ بما وجده في الخط

وفرق بينهما بعض أهل النظر بفرقان مستحسن فقال من وحد أراد الرسول عليه السلام ودليله قوله تعالى ﴿ حتى تأتيهم البينة رسول من الله ﴾ ومن جمع أراد القرآن ودليله قوله تعالى ﴿ وبينات من الهدى والفرقان ﴾

قوله تعالى ﴿ ومكر السيء ﴾ أجمع القراء فيه على كسر الياء وخفض الهمزة إلا ما قرأه

حمزة بوقف الهمزة كالجزم في الفعل وإنما فعل ذلك تخفيفا للحرف لاجتماع الكسرات وتواليها مع الهمزة كما خفف أبو عمرو في قوله ﴿ بارئكم ﴾

*(114/638)*

---

فإن قيل فهلا فعل في الثاني كما فعل في الأول فقل لم تتوال الكسرات في الثاني كما توالت في الأول لأنه لما انضمت الهمزة للرفع زال الاستثقال فأتى به على أصل ما أوجبه الإعراب له من الرفع فاعرف حجته في ذلك فقد نسب إلى الوهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 296. 297 ﴾

*(115/638)*

---

وقال ابن زنجلة :

35 - سورة فاطر

هل من خلق غير الله يرزقكم 3

قرأ حمزة والكسائي هل من خالق غير الله خفضا جعلاه صفة للفظ وذلك حسن لإتباعه

الجر الحر

وقرأ الباقون غير الله بالرفع جعلوه صفة للموضع المعنى هل خالق غير الله لأن من مؤكدة

والله الذي أرسل الريح فتثير سحابا 9

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي والله الذي ارسل الريح بغير ألف وقرأ الباقون بالألف وقد مر الكلام فيها في سورة البقرة

جنت عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا 33

قرأ أبو عمرو جنات عدن يدخلونها بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله قال أبو عمرو لقوله يحلون فيها فكان رد اللفظ على اللفظ أولى من المخالفة

وقرأ الباقون يدخلونها بفتح الياء إخبارا عنهم لأن الدخول فعل لهم

قرأ نافع وعاصم ولؤلؤا بالنصب على معنى يحلون من أساور لأن معنى من أساور كمعنى أساور ثم نعطف عليه لؤلؤا ويجوز على إضمار يحلون لؤلؤا وقرأ الباقون ولؤلؤ على عنى يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ والتفسير على الخفض أكثر على معنى يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ وجاء في التفسير أيضا أن ذلك الذهب في صفاء اللون كما قال قواريرا قوارير من فضة أي هو قوارير ولكن بياضه كبياض الفضة

ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور 36

قرأ أبو عمرو كذلك يجزى بضم الياء وفتح الزاي كل رفع على ما لم يسم فاعله وحجته أن ما

أتى في القرآن من المجازاة أكثره على لفظ ما لم يسم فاعله من ذلك اليوم تجزى كل نفس ويقوي الياء قوله ولا يخفف عنهم من عذابها

وقرأ الباقون نجزي بالنون كل نصب أي نحن نجزي كل كفور ويقوي النون قوله بعدها أو لم نعمركم 37

أم ءاتينهم كتبا فهم على بينت منه 40

قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر والكسائي فهم على بينات منه بالألف وحجتهم أنها مرسومة في المصاحف بالتاء فدل ذلك على الجمع



---

وقرأ الباقون فهم على بينة بغير ألف وحجتهم ذكرها اليزيدي فقال يعني على بصيرة قال وإنما كتبوها بالتاء كما كتبوا بقيت الله بالتاء وفي التنزيل ما يدل عليه وهو قوله أفمن كان على بينة من ربه وقوله قل إني على بينة من ربي

استكبارا في الأرض ومكر السئ 43

قرأ حمزة ومكر السيء ساكنة الهمزة قال الفراء إنما فعل ذلك لكثرة الحركات مع الياء

والهمزة فأسكنه تخفيفا كما فعل أبو عمرو في قوله يأمركم وينصركم وقرأ الباقون ومكر السيء بكسر الهمز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 592.594 ﴾

(117/638)

---

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الملائكة

مكية وقد ذكر نظيرتها في البصري ونظيرتها في المدني الأول والمكي والنازعات وفي الكوفي ق فقط ولا نظير لها في المدني الأخير والشامي

وكلمها سبع مئة وسبع وسبعون كلمة

وحروفها ثلاثة آلاف ومئة وثلاثون حرفا

وهي أربعون وست آيات في المدني الأخير والشامي وخمس في عدد الباقين

اختلافها سبع آيات ( ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ ) وهو الأول عدها البصري والشامي ولم يعدها الباقون ( ﴿ بخلق جديد ﴾ الأعمى والبصير ) ( ﴿ ولا النور ﴾ ) لم يعدهن ثلاثتهن البصري وعدهن الباقون ( ﴿ من في القبور ﴾ ) لم يعدها الشامي وعدها الباقون

( ﴿ أن تزولا ﴾ ) عدها البصري ولم يعدها الباقون ( ﴿ لسنة الله تبديلا ﴾ ) عدها المدني الأخير والبصري والشامي ولم يعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع ثلاثة مواضع ( ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ ) وهو الثاني ( ﴿ جدد بيض ﴾ وجاءكم النذير ) ورؤوس الآي

قدير

1 الحكيم

2 تؤفكون

3 الأمور

4 الغرور

5 السعير

6 كبير

7 يصنعون

8 النشور

9 يبور

10 يسير

11 تشكرون

12 قطمير

13 خبير

14 الحميد

15 جديد

16 بعزيز

17 المصير

18 والبصير

19 النور

20 الحرور

21 القبور

22 نذير

23 نذير

24 المنير

25 نكير

26 سود

27 غفور

28 تبور

29 شكور

30 بصير

31 الكبير

32 حرير

33 شكور

34 لغوب

35 كفور

36 نصير

37 الصدور

38 خسارا

39 غرورا

40 غفورا

41 نفورا

42 تبديلا

* تحويلا

43 قديرا

44 بصيرا

45 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 210 ﴾

*(118/638)*

---

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (فاطر السموات) الإضافة محضة لأنه للماضي لا غير ، فأما (جاعل الملائكة) فكذلك في أجود المذهبين ، وأجاز قوم أن تكون غير محضة على حكاية الحال ، و (رسلا) مفعول ثان ، و (أولى) بدل من رسل أو نعت له ويجوز أن يكون جاعل بمعنى خالق ، فيكون رسلا حالا مقدرة ، و (مثنى) نعت لأجنحة ، وقد ذكر الكلام في هذه الصفات المعدولة في أول النساء ، و (يزيد في الخلق) مستأنف .

قوله تعالى (ما يفتح الله) " ما " شرطية في موضع نصب بيفتح ، و (من رحمة) تبيين لما .

قوله تعالى (من خالق غير الله) يقرأ بالرفع ، وفيه وجهان: أحدهما هو صفة لخالق على الموضع ، وخالق مبتدأ ، والخبر محذوف تقديره لكم أو للأشياء .

والثاني أن يكون فاعل خالق: أي هل يخلق غير الله شيئًا ، ويقرأ بالجر على الصفة لفظا (يرزقكم) يجوز أن يكون مستأنفا ، ويجوز أن يكون صفة لخالق .

قوله تعالى (الذين كفروا ) يجوز أن يكون مبتدأ وما بعده الخبر ، وأن يكون صفة لحزبه أو بدلا منه ، وأن يكون في موضع جر صفة لأصحاب السعير أو بدل منه ، والله أعلم .

قوله تعالى (حسرات) يجوز أن يكون حالا: أي متلهفة ، وأن يكون مفعولا له .

قوله تعالى (يرفعه) الفاعل ضمير العمل والهاء للكلم: أي أي العمل الصالح يرفع الكلم ، وقيل الفاعل اسم الله فتعود الهاء على العمل .

قوله تعالى (ومكر أولئك) مبتدأ ، والخبر (يبور) وهو فصل أو توكيد ، ويجوز أن يكون مبتدأ ويبور الخبر ، والجملة خبر مكر .

قوله تعالى (سائغ شرابه) سائغ على فاعل ، وبه يرتفع شرابه لاعتماده على ما قبله ، ويقرأ " أسيغ " بالتشديد وهو فعيل مثل سيد ، ويقرأ بالتخفيف مثل ميت وقد ذكر .

قوله تعالى (ولو كان ذا قربى) أي لو كان المدعو ذا قربى ، ويجوز أن يكون حالا ، وكان تامة .

قوله تعالى (ولا النور – ولا الحرور) لافيها زائدة ، لأن المعنى الظلمات لاتساوى النور ، وليس المراد أن النور في نفسه لا يستوى ، وكذلك "لا" في (ولا الأموات) .

قوله تعالى (جاءتهم رسلهم) حال ، وقد مقدرة: أي كذب الذين من قبلهم وقد جاءتهم رسلهم.

قوله تعالى (ألوانها ) مرفوع بمختلف ، و (جدد ) بفتح الدال جمع جدة وهى الطريقة ، ويقرأ بضمها وهو جمع جديد (وغرابيب سود) الإصل وسود غرابيب ، لأن الغربيب تابع للأسود ، يقال أسود غربيب كما تقول أسود حالك ، و (كذلك) في موضع نصب: أي اختلافا مثل ذلك ، و (العلماء ) بالرفع وهو الوجه ، ويقرأ برفع اسم الله ونصب العلماء على معنى إنما يعظم الله من عباده العلماء .

قوله تعالى (يرجون تجارة) هو خبر إن ، و (ليوفيهم) تتعلق بيرجون

وهى لام الصيرورة ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف: أي فعلوا ذلك ليوفيهم .

قوله تعالى (هو الحق) يجوز أن يكون هو فصلا ، وأن يكون مبتدأ .

و(مصدقا ) حال مؤكدة .

قوله تعالى (جنات عدن) يجوز أن يكون خبرا ثانيا لذلك ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ والخبر (يدخلونها ) وتمام الآية قد ذكر في الحج .

قوله تعالى (دار المقامة) مفعول أحلنا ، وليس بظرف لأنها محدودة (لا يمسنا ) هو حال من المفعول الأول .

قوله تعالى (فيموتوا ) هو منصوب على جواب النفى ، و (عنهم) يجوز أن يقوم مقام الفاعل ، و (من عذابها ) في موضع نصب ، ويجوز العكس ، ويجوز أن تكون " من " زائدة فيتعين له الرفع ، و (كذلك) في موضع نصب نعتا لمصدر محذوف: أي نجزى جزاء مثل ذلك .

قوله تعالى (صالحا غير الذى) يجوز أن يكونا صفتين لمصدر محذوف ، أو لمفعول محذوف ، ويجوز أن يكون صالحا نعتا للمصدر ، وغير الذى مفعول ، و (ما يتذكر) أي زمن ما يتذكر ، ويجوز أن تكون نكرة موصوفة: أي تعميرا يتذكر فيه .

(120/638)

---

قوله تعالى (أن تزولا) يجوز أن يكون مفعولا له: أي مخافة أن تزولا ، أو عن ويمسك أي يحبس ، و (إن أمسكهما ) أي ما يمسكهما فإن بمعنى ما ، وأمسك بمعنى يمسك ، وفاعل (زادهم) ضمير النذير ، و (استكبارا ) مفعول له ، وكذلك (مكر السيئ) والجمهور على تحريك الهمزة ، وقرئ بإسكانها ، وهو عند الجمهور لحن ، وقيل أجرى الوصل مجرى الوقف ،

وقيل شبه المنفصل بالمتصل لأن الياء والهمزة من كلمة ، ولا كلمة أخرى فأسكن كما سكن إبل ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 199 . 201 ﴾

(121/638)

---

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة فاطر

[سورة فاطر (35) : الآيات 1 الى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2)

"الْحَمْدُ" مبتدأ ومعنى الحمد الثناء والشكر "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام ومتعلقان بخبر محذوف تقديره ثابت "فاطِرِ" صفة لله "السَّماواتِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة

"وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "جاعِلِ" صفة ثانية لله "الْمَلائِكَةِ" مضاف إليه

"رُسُلًا" حال منصوبة "أُولِي" صفة لرسلا "أَجْنِحَةٍ" مضاف إليه "مَثْنى " صفة لأجنحة

مجرورة مثلها بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "وَثُلاثَ وَرُباعَ" معطوف على ما سبق "يَزِيدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مستأنفة "فِي الْخَلْقِ" متعلقان بالفعل قبلهما "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها المنصوب "عَلى كُلِّ" متعلقان بالخبر "شَيْءٍ" مضاف إليه "قَدِيرٌ" خبر إن "ما" اسم شرط جازم في محل نصب مفعول به مقدم "يَفْتَحِ اللَّهُ" مضارع مجزوم فعل الشرط وحرك بالكسر لالتقاء الساكنين ولفظ الجلالة فاعل "لِلنَّاسِ" متعلقان بالفعل قبلهما "مِنْ رَحْمَةٍ" متعلقان بمحذوف حال "فَلا" الفاء رابطة للجواب ولا نافية للجنس "مُمْسِكَ" اسم لا "لَها" متعلقان بخبر محذوف والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَما" الواو عاطفة وما شرطية "يُمْسِكْ" إعرابها مثل إعراب ما يفتح الله في الآية/ 2/ "وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" مبتدأ وخبراه والجملة حالية.



---

[سورة فاطر (35) : الآيات 3 الى 5]

يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

(4) يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5)

"يا أَيُّهَا" يا أداة نداء وأي منادى مبني على الضم في محل نصب والها للتنبيه "النَّاسُ" بدل والجملة استئنافية "اذْكُرُوا نِعْمَتَ" أمر وفاعله ومفعوله "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والكلام مستأنف "عَلَيْكُمْ" متعلقان بمحذوف حال "هَلْ" حرف استفهام "مِنْ" حرف جر زائد "خالِقٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ "غَيْرُ" صفة لخالق على المحل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "يَرْزُقُكُمْ" مضارع والكاف مفعوله وفاعله مستتر والجملة خبر خالق "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بالفعل "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "لا إِلهَ إِلَّا هُوَ" تكرر إعراب هذه الجملة "فَأَنَّى" الفاء استئنافية وأنى اسم استفهام في محل نصب على الحال "تُؤْفَكُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة مستأنفة "وَإِنْ" الواو عاطفة وإن شرطية تجزم فعلين مضارعين الأول فعل الشرط والثاني جواب الشرط "يُكَذِّبُوكَ" مضارع



---

مجزوم لأنه فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله والكاف مفعوله والجملة ابتدائية "فَقَدْ" الفاء رابطة للجواب وحرف تحقيق "كُذِّبَتْ رُسُلٌ" ماض مبني للمجهول

ورسل نائب فاعل والجملة في محل جزم جواب الشرط "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بمحذوف صفة لرسل "وَإِلَى اللَّهِ" الواو عاطفة ولفظ الجلالة مجرور بإلى ومتعلقان بالفعل بعدهما "تُرْجَعُ الْأُمُورُ" مضارع مبني للمجهول والأمور نائب فاعل "يا أَيُّهَا" سبق إعرابها قريبا "النَّاسُ" بدل "إِنَّ وَعْدَ" إن واسمها "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "حَقٌّ" خبر "فَلا" الفاء الفصيحة ولا ناهية "تَغُرَّنَّكُمُ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة في محل جزم بلا الناهية والكاف مفعول به "الْحَياةُ" فاعل "الدُّنْيا" صفة للحياة مرفوعة بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "وَلا يَغُرَّنَّكُمْ" سبق إعرابها "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "الْغَرُورُ" فاعل والغرور هو الشيطان.

[سورة فاطر (35) : الآيات 6 الى 7]

إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ (6)
الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7)



"إِنَّ الشَّيْطانَ" إن واسمها "لَكُمْ" متعلقان بالخبر عدو "عَدُوٌّ" خبر "فَاتَّخِذُوهُ" الفاء الفصيحة وسميت بذلك لأنها تفصح عن شرط مقدر وفعل أمر والواو فاعله والهاء مفعوله

"عَدُوًّا" مفعول به ثان والجملة جواب الشرط لا محل لها "إِنَّما" كافة مكفوفة "يَدْعُوا حِزْبَهُ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل وحزبه مفعول به والهاء مضاف إليه والفاعل مستتر "لِيَكُونُوا" اللام لام التعليل ومضارع ناقص والواو اسمه "مِنْ أَصْحابِ" متعلقان بالخبر المحذوف "السَّعِيرِ" مضاف إليه "الَّذِينَ كَفَرُوا" اسم الموصول مبتدأ وجملة كفروا صلة لا محل لها من الإعراب "لَهُمْ" متعلقان بالخبر المقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر والجملة خبر الذين "شَدِيدٌ" صفة لعذاب "وَالَّذِينَ آمَنُوا" إعرابها كإعراب الذين كفروا "وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" الواو عاطفة وماض وفاعله والصالحات مفعوله المنصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم "لَهُمْ" متعلقان بالخبر المقدم المحذوف "مَغْفِرَةٌ" مبتدأ مؤخر والجملة خبر الذين "وَأَجْرٌ" معطوف على مغفرة "كَبِيرٌ" صفة أجر.

[سورة فاطر (35) : الآيات 8 الى 9]

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (8) وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (9)

"أَفَمَنْ" الهمزة للاستفهام ومن اسم موصول مبتدأ خبره محذوف "زُيِّنَ" ماض مبني للمجهول مبني على الفتح الظاهر على آخره "لَهُ" متعلقان بزين "سُوءُ" نائب فاعل "عَمَلِهِ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه والجملة صلة "فَرَآهُ" الفاء عاطفة ورآه ماض ومفعوله وفاعله مستتر "حَسَنًا" مفعول به ثان لرآه "فَإِنَّ اللَّهَ" الفاء رابطة للجواب وإن ولفظ الجلالة اسمها "يُضِلُّ"

مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "مَنْ" اسم الموصول في محل نصب مفعول به "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ" الجملة معطوفة على ما قبلها "فَلا" الفاء الفصيحة ولا ناهية "تَذْهَبْ نَفْسُكَ" مضارع مجزوم ونفسك فاعله والجملة لا محل لها لأنها وقعت جواب شرط غير جازم "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل قبلهما "حَسَراتٍ" مفعول لأجله أو حال "إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ" إن واسمها وخبرها والجملة مستأنفة "بِما" الباء حرف جر وما موصولية ومتعلقان بيصنعون "يَصْنَعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة لا محل لها "وَاللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "الَّذِي" اسم موصول في محل رفع خبر والجملة مستأنفة "أَرْسَلَ الرِّياحَ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة "فَتُثِيرُ سَحاباً" الفاء عاطفة ومضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة معطوفة "فَسُقْناهُ" الفاء عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "إِلى بَلَدٍ" متعلقان بالفعل قبلهما "مَيِّتٍ" صفة لبلد "فَأَحْيَيْنا" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "بِهِ" متعلقان بأحيينا "الْأَرْضَ"

مفعول به "بَعْدَ" ظرف زمان متعلق بمحذوف حال "مَوْتِها" مضاف إليه "كَذلِكَ" خبر مقدم "النُّشُورُ" مبتدأ مؤخر .

[سورة فاطر (35) : آية 10]

(126/638)

---

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (10)

"مَنْ" شرطية في محل رفع مبتدأ "كانَ" ماض ناقص واسمها محذوف "يُرِيدُ الْعِزَّةَ" مضارع والعزة مفعول به والفاعل مستتر والجملة خبر كان "فَلِلَّهِ" الفاء رابطة لجواب الشرط ولفظ الجلالة مجرور باللام ومتعلقان بالخبر المقدم "الْعِزَّةَ" مبتدأ مؤخر والجملة في محل جزم جواب الشرط "جَمِيعاً" حال منصوبة "إِلَيْهِ" متعلقان بالفعل بعدهما "يَصْعَدُ الْكَلِمُ" مضارع وفاعله والجملة مستأنفة "الطَّيِّبُ" صفة للكلم "وَالْعَمَلُ" الواو استئنافية والعمل مبتدأ "الصَّالِحُ" صفة للعمل "يَرْفَعُهُ" مضارع والهاء مفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر العمل "وَالَّذِينَ" الواو عاطفة واسم الموصول مبتدأ "يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والسيئات صفة لمفعول مطلق والجملة صلة "وَمَكْرُ" مبتدأ "أُولئِكَ"

اسم الإشارة في محل جر مضاف إليه "هُوَ" ضمير فصل "يَبُورُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر المبتدأ .

[سورة فاطر (35) : الآيات 11 الى 12]

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (11) وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12)



---

"وَاللَّهُ" الواو عاطفة ولفظ الجلالة مبتدأ والجملة معطوفة على ما سبق "خَلَقَكُمْ" ماض والكاف مفعوله وفاعله مستتر والجملة خبر المبتدأ "مِنْ تُرابٍ" متعلقان بالفعل قبلهما "ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ" معطوف "ثُمَّ" عاطفة "جَعَلَكُمْ أَزْواجاً" ماض ومفعولاه وفاعله مستتر والجملة معطوفة "وَما" الواو عاطفة وما نافية

"تَحْمِلُ" مضارع مرفوع "مِنْ" حرف جر زائد "أُنْثَى" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل "وَلَا تَضَعُ" معطوف على ما قبله "إِلَّا" أداة حصر "بِعِلْمِهِ" متعلقان بمحذوف حال والهاء مضاف إليه "وَمَا" الواو عاطفة وما نافية "يُعَمَّرُ" مضارع مبني للمجهول "مِنْ" حرف جر زائد "مُعَمَّرٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا نائب فاعل "وَلَا يُنْقَصُ" معطوف على ما قبله "مِن ليه" "إِلَّا" أداة حصر "فِي كِتَابٍ" متعلقان بمحذوف حال "إِنَّ ذَلِكَ" إن واسم الإشارة في محل نصب اسمها "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى ومتعلقان بالخبر بيسير "يَسِيرٌ" خبر إن المرفوع "وَمَا" الواو عاطفة وما نافية "يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ" مضارع وفاعله المرفوع بالألف لأنه مثنى "هذا عَذْبٌ" اسم الإشارة مبتدأ وعذب خبره والجملة حالية "فُرَاتٌ" صفة لعذب "سائِغٌ شَرَابُهُ" سائغ خبر مقدم وشرابه مبتدأ مؤخر والهاء مضاف إليه والجملة صفة ثانية لعذب "وَهذا مِلْحٌ" مبتدأ وخبره والجملة معطوفة "أُجَاجٌ" صفة للملح والأجاج هو شديد الملوحة "وَمِنْ كُلٍّ" متعلقان بالفعل بعدهما "تَأْكُلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "لَحْمًا" مفعول به "طَرِيًّا" صفة والجملة معطوفة "وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً" الواو عاطفة ومضارع وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "تَلْبَسُونَهَا" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة صفة "وَتَرَى الْفُلْكَ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة معطوفة "فِيهِ مَوَاخِرَ" الجار والمجرور متعلقان بالحال مواخر "لِتَبْتَغُوا" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل

وعلامة نصبه حذف النون ولام التعليل وما بعدها في محل جر ومتعلقان بمواخر "مِنْ فَضْلِهِ" متعلقان بتبتغوا والهاء مضاف إليه "وَلَعَلَّكُمْ" لعل واسمها "تَشْكُرُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر لعل والجملة معطوفة.

[سورة فاطر (35) : الآيات 13 الى 14]

(129/638)

---

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14)

"يُولِجُ اللَّيْلَ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر "فِي النَّهارِ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة "وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ" معطوف على ما سبق وإعرابها مثله "وَسَخَّرَ الشَّمْسَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة "وَالْقَمَرَ" معطوف على الشمس "كُلٌّ" مبتدأ "يَجْرِي" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "لِأَجَلٍ" متعلقان بيجري "مُسَمًّى" صفة لأجل مجرورة بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "ذلِكُمُ" ذا اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد

والكاف للخطاب "اللَّهُ" لفظ الجلالة خبر "رَبُّكُمْ" خبر ثان والكاف مضاف إليه "لَهُ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "الْمُلْكُ" مبتدأ مؤخر والجملة خبر ثالث لربكم "وَالَّذِينَ" الواو واو الحال واسم الموصول في محل رفع مبتدأ والجملة حالية "تَدْعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بمحذوف حال والهاء مضاف إليه "ما" نافية "يَمْلِكُونَ"

(130/638)

---

الجملة خبر الذين "مِنْ" حرف جر زائد "قِطْمِيرٍ" اسم مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به "إِنْ" حرف شرط جازم "تَدْعُوهُمْ" مضارع مجزوم بحذف النون، فعل الشرط والواو فاعل والهاء مفعول به والجملة ابتدائية "لا" نافية "يَسْمَعُوا" مضارع مجزوم جواب الشرط والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها لم تتقدمها الفاء الرابطة للجواب "دُعاءَكُمْ" مفعول به والكاف مضاف إليه "وَلَوْ" الواو حالية ولو حرف شرط غير جازم "سَمِعُوا" ماض وفاعل والجملة ابتدائية "مَا" نافية "اسْتَجابُوا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "لَكُمْ" متعلقان بالفعل قبلهما "وَيَوْمَ" ظرف زمان متعلق بالفعل بعده "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "يَكْفُرُونَ" مضارع والواو فاعله "بِشِرْكِكُمْ" متعلقان بالفعل قبلهما والكاف

مضاف إليه "وَلَا" الواو عاطفة ولا نافية "يُنَبِّئُكَ مِثْلُ" مضارع والكاف مفعوله المقدم ومثل فاعله المؤخر والجملة معطوفة "خَبِيرٍ" مضاف إليه مجرور بالكسرة.

[سورة فاطر (35) : الآيات 15 الى 16]

يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16)



---

"يا" أداة نداء "أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب والها للتنبيه والجملة مستأنفة "النَّاسُ" بدل مرفوع "أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ" مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة "إِلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بإلى متعلقان بفقراء "وَاللَّهُ" الواو استئنافية ولفظ الجلالة مبتدأ "هُوَ" ضمير فصل لا محل له "الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ" خبران للمبتدأ "إِنْ" شرطية جازمة "يَشَأْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وفاعله مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها "يُذْهِبْكُمْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والكاف مفعوله وفاعله مستتر يعود على اللّه تعالى والجملة لا محل لها لأنها لم تقترن بالفاء "وَيَأْتِ" مضارع معطوف على يذهبكم وهو مجزوم مثله بحذف حرف العلة وفاعله مستتر "بِخَلْقٍ" متعلقان بيأت "جَدِيدٍ" صفة خلق.

[سورة فاطر (35) : الآيات 17 الى 18]

وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17) وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (18)

(132/638)

---

"وَما" الواو عاطفة وما نافية تعمل عمل ليس "ذلِكَ" اسم الإشارة في محل رفع اسم ما واللام للبعد والكاف للخطاب "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بالخبر بعدهما "بِعَزِيزٍ" الباء حرف جر زائد وعزيز اسم مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما والجملة معطوفة "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "تَزِرُ" مضارع مرفوع "وازِرَةٌ" فاعل مرفوع "وِزْرَ" مفعول به "أُخْرى" مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر والجملة معطوفة والمعنى لا تحمل نفس مذنبة ذنب نفس أخرى "وَإِنْ" الواو عاطفة وإن شرطية جازمة "تَدْعُ مُثْقَلَةٌ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة ومثقلة فاعله والمثقلة أي ذات الذنوب "إِلى حِمْلِها" متعلقان بتدع "لا" نافية "يُحْمَلْ" مضارع مبني للمجهول مجزوم لأنه جواب الشرط والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط لم

يقترن بالفاء ولا إذا الفجائية "مِنْهُ" متعلقان بمحذوف حال "شَيْءٌ" نائب فاعل "وَلَوْ" الواو واو الحال ولو حرف شرط غير جازم "كانَ ذا" كان، وخبرها واسمها محذوف "قُرْبى" مضاف إليه مجرور بالكسرة نيابة عن الفتحة للتعذر والجملة حالية "إِنَّما" كافة مكفوفة "تُنْذِرُ الَّذِينَ" مضارع واسم الموصول مفعوله وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ" مضارع والواو فاعله وربهم مفعوله والهاء مضاف إليه والجملة صلة لا محل لها "بِالْغَيْبِ" متعلقان بمحذوف حال "وَأَقامُوا الصَّلاةَ" الواو عاطفة وماض وفاعله ومفعوله "وَمَنْ" من اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ والجملة اعتراضية "تَزَكَّى" ماض فاعله مستتر والجملة فعل الشرط "فَإِنَّما" الفاء رابطة للجواب وإنما كافة مكفوفة "يَتَزَكَّى" مضارع فاعله هو، جواب الشرط والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط لم يقترن بالفاء "لِنَفْسِهِ" متعلقان بالفعل قبلهما "وَإِلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة في محل جر بإلى ومتعلقان بمحذوف خبر مقدم "الْمَصِيرُ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة.

[سورة فاطر (35) : الآيات 19 الى 24]

وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ (19) وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ (20) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ

(21) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي
الْقُبُورِ (22) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23)
إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24)

(134/638)

---

"وَمَا" الواو استئنافية وما نافية "يَسْتَوِي الْأَعْمَى" مضارع وفاعله المرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "وَالْبَصِيرُ" معطوف على الأعمى والجملة معطوفة "وَلَا" الواو عاطفة ولا زائدة "الظُّلُمَاتُ" معطوف على ما قبله "وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ" معطوف على ما سبق ولا زائدة في كل عطف ومعنى الظلمات الكفر والنور الإيمان ومعنى الظل الجنة والحرور النار "وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ" سبق إعراب مثلها ، والأحياء المؤمنون والأموات الكفار "إِنَّ اللَّهَ" إنّ ولفظ الجلالة اسمها "يُسْمِعُ" مضارع مرفوع والفاعل مستتر يعود على اللّه والجملة خبر إن "مَنْ" اسم موصول مفعول به "يَشَاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَمَا" الواو عاطفة وما نافية تعمل عمل ليس "أَنْتَ" ضمير في محل رفع اسم ما "بِمُسْمِعٍ" الباء حرف جر زائد ومسمع اسم مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما "مَنْ" اسم موصول مفعول به لمسمع "فِي الْقُبُورِ" متعلقان بمحذوف صلة لمن "إِنْ" نافية "أَنْتَ"

مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "نَذِيرٌ" خبر والجملة مستأنفة "إِنَّا" إن واسمها "أَرْسَلْنَاكَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر إنا "بِالْحَقِّ" متعلقان بالفعل قبلهما "بَشِيراً" حال منصوبة "وَنَذِيراً" معطوف "وَإِنْ" الواو عاطفة وإن نافية "مِنْ" زائدة "أُمَّةٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "خَلا" فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر "فِيها" متعلقان بنذير "نَذِيرٌ" فاعل والجملة خبر أمة.

[سورة فاطر (35) : الآيات 25 الى 27]



---

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ (25) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (26) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ (27)



---

"وَإِنْ" الواو استئنافية وإن شرطية جازمة "يُكَذِّبُوكَ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والكاف مفعول به والجملة ابتدائية "فَقَدْ" الفاء رابطة لجواب الشرط وقد حرف تحقيق "كَذَّبَ الَّذِينَ" ماض واسم الموصول فاعله والجملة في محل جزم جواب الشرط "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بصلة الموصول المحذوفة "جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ" ماض وفاعله والهاء مضاف إليه "بِالْبَيِّناتِ" متعلقان بجاءتهم "وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ" معطوف على البينات "الْمُنِيرِ" صفة للكتاب "ثُمَّ" عاطفة "أَخَذْتُ الَّذِينَ" ماض وفاعله واسم الموصول مفعوله والجمل معطوفة "كَفَرُوا" الجملة صلة الموصول "فَكَيْفَ" الفاء استئنافية وكيف اسم استفهام في محل رفع خبر مقدم لكان "كانَ نَكِيرِ" كان واسمها وقد تقدم خبرها "أَلَمْ" الهمزة للاستفهام ولم جازمة "تَرَ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة واسمها وأن واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي تر "أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً" ماض وماء مفعوله وفاعله مستتر والجار والمجرور متعلقان بالفعل أنزل والجملة خبر أن "فَأَخْرَجْنا" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "بِهِ" متعلقان بالفعل قبلهما "ثَمَراتٍ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "مُخْتَلِفاً" صفة لثمرات منصوب مثلها "أَلْوانُها" فاعل لمختلف "وَمِنَ الْجِبالِ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "جُدَدٌ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة "بِيضٌ" صفة لجدد والجدد جمع جدة وهو الطريق في الجبل "وَحُمْرٌ" معطوف على بيض "مُخْتَلِفٌ" صفة ثانية لجدد "أَلْوانُها" فاعل

لمختلف "وَغَرابِيبُ سُودٌ" معطوف على ما قبله وسود بدل من غرابيب وهي الصخور الشديدة السواد .

[سورة فاطر (35) : الآيات 28 الى 29]

(137/638)

---

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (29)

"وَمِنَ النَّاسِ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ" معطوف على الناس "مُخْتَلِفٌ" صفة لمبتدأ محذوف "أَلْوانُهُ" فاعل لمختلف "كَذلِكَ" الكاف حرف جر واسم الإشارة مجرور به ومتعلقان بصفة لمفعول مطلق محذوف واللام للبعد والكاف للخطاب "إِنَّما" كافة مكفوفة "يَخْشَى" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "مِنْ عِبادِهِ" متعلقان بمحذوف حال "الْعُلَماءُ" فاعل مؤخر "إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ" إن ولفظ الجلالة اسمها وعزيز غفور خبراها المرفوعان "إِنَّ الَّذِينَ" إن واسم الموصول في محل نصب اسمها والجملة مستأنفة "يَتْلُونَ" مضارع مرفوع

بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة "كِتَابَ اللَّهِ" مفعول به مضاف إلى لفظ الجلالة "وَأَقَامُوا الصَّلاةَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَأَنفَقُوا" الجملة معطوفة على ما قبلها "مِمَّا" مؤلفة من كلمتين هما من الجارة وما الموصولية وهما متعلقان بالفعل قبلهما "رَزَقْنَاهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة "سِرًّا" حال "وَعَلانِيَةً" معطوف "يَرْجُونَ" مضارع والواو فاعله والجملة خبر إن "تِجَارَةً" مفعول به "لَنْ" حرف ناصب "تَبُورَ" مضارع منصوب بلن وفاعله مستتر والجملة صفة لتجارة.

[سورة فاطر (35) : الآيات 30 الى 32]



---

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32)

"لِيُوَفِّيَهُمْ" اللام لام الصيرورة أو لام التعليل ويوفيهم مضارع منصوب بأن المضمرة واللام وما بعدها متعلقان بتبور والهاء مفعول به أول "أُجُورَهُمْ" مفعول به ثان "وَيَزِيدَهُمْ" معطوف على ما قبله "مِنْ فَضْلِهِ" متعلقان بالفعل قبلهما "إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ" إن واسمها وغفور شكور خبراها "وَالَّذِي" الواو عاطفة واسم الموصول مبتدأ والجملة معطوفة "أَوْحَيْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِلَيْكَ" متعلقان بأوحينا "مِنَ الْكِتابِ" متعلقان بمحذوف حال "هُوَ الْحَقُّ" هو ضمير فصل والحق خبر الذي أو هو الحق مبتدأ وخبر والجملة خبر الذي "مُصَدِّقاً" حال منصوبة "لِما" اللام حرف جر وما موصولية ومتعلقان بمصدقا "بَيْنَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة ما "يَدَيْهِ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه مثنى والهاء مضاف إليه "إِنَّ اللَّهَ" لفظ الجلالة اسم إن "بِعِبادِهِ" متعلقان بخبير والهاء مضاف إليه "لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ" خبران لإن واللام المزحلقة/ "ثُمَّ" عاطفة "أَوْرَثْنَا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "الْكِتابَ" مفعول به "الَّذِينَ" اسم موصول مفعول به ثان "اصْطَفَيْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْ عِبادِنا" متعلقان بمحذوف حال "فَمِنْهُمْ" الفاء للتفريع ومتعلقان بخبر مقدم لظالم "ظالِمٌ" مبتدأ "لِنَفْسِهِ" متعلقان بظالم "وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ" معطوف على فمنهم ظالم السابقة "وَمِنْهُمْ سابِقٌ" معطوفة على ما سبق "بِالْخَيْراتِ" متعلقان بسابق "بِإِذْنِ" متعلقان بمحذوف حال "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "ذلِكَ" اسم الإشارة مبتدأ واللام للبعد

والكاف للخطاب "هُوَ" ضمير فصل "الْفَضْلُ" خبر ذلك "الْكَبِيرُ" صفة لفضل .

[سورة فاطر (35) : الآيات 33 الى 35]



---

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (33) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34) الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (35)

"جَنَّاتُ" مبتدأ "عَدْنٍ" مضاف إليه "يَدْخُلُونَها" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة خبر "يُحَلَّوْنَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل "فِيها" متعلقان بالفعل "مِنْ" حرف جر زائد "أَساوِرَ" مفعول به

ليحلون "مِنْ ذَهَبٍ" متعلقان بمحذوف صفة لأساور "وَلُؤْلُؤاً" معطوف على أساور "وَلِباسُهُمْ" الواو حالية ولباسهم مبتدأ والهاء مضاف إليه "فِيها" متعلقان بمحذوف حال "حَرِيرٌ" خبر والجملة حالية "وَقالُوا" الواو عاطفة والجملة معطوفة "الْحَمْدُ" مبتدأ والجملة مقول القول "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام وهما متعلقان بخبر محذوف "الَّذِي" اسم موصول صفة لله "أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ" ماض والحزن مفعوله وفاعله مستتر وعنا متعلقان بالفعل

قبلهما والجملة صلة "إِنَّ رَبَّنا" إن واسمها ونا مضاف إليه "لَغَفُورٌ شَكُورٌ" اللام المزحلقة وخبران لأن والجملة تعليلية لا محل لها "الَّذِي" بدل من الذي السابقة "أَحَلَّنا دارَ" ماض ومفعولاه والفاعل مستتر والجملة صلة "الْمُقامَةِ" مضاف إليه "مِنْ فَضْلِهِ" متعلقان بأحلنا "لا يَمَسُّنا" لا نافية ومضارع ونا مفعوله والجملة في محل نصب على الحال "فِيها" متعلقان بالفعل قبلهما "نَصَبٌ" فاعل "وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ" عطف على الآية السابقة وإعرابها مثل إعرابها .

[سورة فاطر (35) : الآيات 36 الى 37]



---

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37)

"وَالَّذِينَ" الواو عاطفة واسم الموصول مبتدأ "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "لَهُمْ" متعلقان بالخبر المحذوف "نارُ" مبتدأ مؤخر "جَهَنَّمَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة بدل الكسرة لأنه ممنوع من الصرف وجملة لهم نار خبر الذين "لا" نافية "يُقْضى" مضارع مبني للمجهول مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والفاعل مستتر "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل قبلهما "فَيَمُوتُوا" الفاء فاء السببية ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل "وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ" معطوف على لا يقضى عليهم "مِنْ عَذابِها" من حرف جر زائد وعذابها اسم مجرور لفظا مرفوع محلا نائب فاعل ليخفف "كَذلِكَ" الكاف حرف جر واسم الإشارة في محل جر بالكاف ومتعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق واللام للبعد والكاف للخطاب "نَجْزِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والفاعل مستتر "كُلَّ" مفعول به "كَفُورٍ" مضاف إليه "وَهُمْ" الواو عاطفة وهم مبتدأ والجملة معطوفة "يَصْطَرِخُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر المبتدأ "فِيها" متعلقان بالفعل قبلهما "رَبَّنا" منادى منصوب بأداة نداء محذوفة ونا مضاف إليه والجملة وما بعدها مقول القول لفعل محذوف تقديره يقولون ربنا "أَخْرِجْنا" فعل دعاء ونا في محل نصب مفعول به وفاعله مستتر "نَعْمَلْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وفاعله مستتر "صالِحاً" صفة لمفعول مطلق محذوف وتقديره عملا صالحا "غَيْرَ" مفعول به لنعمل

"الَّذِي" اسم موصول في محل جر مضاف إليه "كُنَّا" كان واسمها والجملة صلة "نَعْمَلُ" مضارع مرفوع وفاعله مستتر والجملة خبر كنا "أَوَلَمْ" الهمزة للاستفهام التوبيخي والواو عاطفة ولم حرف نفي وجزم وقلب "نُعَمِّرْكُمْ" مضارع مجزوم والكاف مفعول به فاعله نحن والجملة معطوفة "ما"

(143/638)

---

ظرف زمان "يَتَذَكَّرُ" مضارع مرفوع "فِيهِ" متعلقان بتذكر "مَنْ" اسم موصول فاعل تذكر والجملة صفة لما "تَذَكَّرَ" فعل ماض فاعله مستتر والجملة صلة "وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ" الواو عاطفة وماض والكاف مفعوله والنذير فاعل والجملة معطوفة "فَذُوقُوا" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعل "فَما" الفاء تعليلية وما نافية تعمل عمل ليس "لِلظَّالِمِينَ" متعلقان بالخبر المقدم "مَنْ" حرف جر زائد "نَصِيرٍ" اسم ما ويجوز إعراب ما نافية وللظالمين متعلقان بالخبر المقدم ونذير مبتدأ .

[سورة فاطر (35) : الآيات 38 الى 40]

إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (38) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلا يَزِيدُ

الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَساراً (39) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما

ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ

الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً (40)

"إِنَّ اللَّهَ"

لفظ الجلالة اسم إن "عالِمُ"

خبر إن والجملة مستأنفة "غَيْبِ"

مضاف إليه "السَّماواتِ"

مضاف إليه "وَالْأَرْضِ"

معطوف على السموات "إِنَّهُ"

إن والهاء اسمها "عَلِيمٌ"

خبر إن "بِذاتِ"

متعلقان بعليم "الصُّدُورِ"

مضاف إليه والجملة مستأنفة "هُوَ" مبتدأ "الَّذِي" اسم الموصول خبر والجملة مستأنفة "جَعَلَكُمْ خَلائِفَ" ماض ومفعولاه وفاعله مستتر "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل قبلهما "فَمَنْ" الفاء الفصيحة ومن اسم شرط جازم مبتدأ "كَفَرَ" ماض والفاعل مستتر وجملتا الشرط خبر من "فَعَلَيْهِ" الفاء رابطة لجواب الشرط ومتعلقان بمحذوف خبر مقدم "كُفْرُهُ" مبتدأ والهاء مضاف إليه والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ" مضارع ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة معطوفة "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف حال "رَبِّهِمْ" مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "مَقْتاً" مفعول به ثان ليزيد "وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً" الجملة معطوفة على ما سبق وإعرابها مثل إعرابها "قُلْ" الجملة مستأنفة "أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ" الهمزة للاستفهام وماض وفاعله ومفعوله الأول "الَّذِينَ" صفة لشركاء في محل نصب "تَدْعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة "مِنْ دُونِ"

متعلقان بمحذوف حال "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "أَرُونِي" أمر والواو فاعله والياء مفعوله والجملة اعتراضية "ما ذا" ما استفهامية مبتدأ وذا خبره والجملة مفعول به ثان لأروني "خَلَقُوا" الجملة صلة "مِنَ الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل قبلهما "أَمْ" عاطفة "لَهُمْ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "شِرْكٌ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة "فِي السَّماواتِ" متعلقان بشرك "أَمْ" عاطفة "آتَيْناهُمْ كِتاباً" ماض وفاعله والهاء مفعوله الأول وكتابا مفعوله الثاني "فَهُمْ"

عاطفة وهم ضمير في محل رفع مبتدأ والجملة معطوفة "عَلى بَيِّنَةٍ" متعلقان بمحذوف خبر "مِنْهُ" متعلقان بمحذوف صفة لبينة "بَلْ" حرف إضراب "إِنْ" حرف نفي "يَعِدُ الظَّالِمُونَ"



---

مضارع وفاعله المرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم "بَعْضُهُمْ" بدل بعض من كل من الظالمون "بَعْضاً" مفعول به "إِلَّا" أداة حصر "غُرُوراً" الغرور هو الباطل وهو عبادتهم وغرورا منصوب بنزع الخافض.

[سورة فاطر (35) : الآيات 41 الى 43]

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (41) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (42) اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (43)

"إِنَّ اللَّهَ" لفظ الجلالة اسم إن والجملة مستأنفة "يُمْسِكُ السَّماواتِ" مضارع ومفعوله المنصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة وفاعله مستتر والجملة خبر "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات "إِنَّ" حرف ناصب "تَزُولا" مضارع منصوب بأن وجملة تزولا في محل نصب مفعول به أو مفعول لأجله أي خشية أن تزولا "وَلَئِنْ" الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وإن حرف شرط جازم "زالَتا" ماض والألف فاعله والجملة ابتدائية "إِنَّ" حرف نفي "أَمْسَكَهُما" ماض والهاء مفعوله "مِنْ" زائدة "أَحَدٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل أمسك "مِنْ بَعْدِهِ" متعلقان بمحذوف حال والجملة جواب القسم لا محل لها "إِنَّهُ" إن والهاء اسمها والجملة تعليلية "كانَ حَلِيماً غَفُوراً" كان وخبراها وأما اسمها فمحذوف والجملة خبر إن "وَأَقْسَمُوا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "بِاللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بالباء ومتعلقان بأقسموا "جَهْدَ" في محل نصب حال "أَيْمانِهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "لَئِنْ" اللام موطئة للقسم وإن شرطية "جاءَهُمْ نَذِيرٌ" ماض ومفعوله وفاعله المؤخر والجملة جواب القسم لا محل لها "لَيَكُونُنَّ" اللام واقعة في جواب القسم المحذوف ويكونن مضارع ناقص مرفوع بثبوت النون المحذوفة لكراهة توالي الأمثال والواو المحذوفة اسمها "أَهْدى" خبر منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر وجملة القسم لا محل لها "مِنْ إِحْدَى" متعلقان بفعل أهدى "الْأُمَمِ" مضاف إليه والمراد بقوله أقسموا هم كفار مكة وقالوا

إن بعث اللّه فيهم نبيا ليكونن أهدى من اليهود والنصارى ولكنهم أعرضوا حينما جاءهم

"فَلَمَّا" الفاء عاطفة ولما ظرف زمان بمعنى حين في محل نصب على الظرفية "جاءَهُمْ نَذِيرٌ"

ماض ونذير فاعله المؤخر والهاء مفعوله المقدم والجملة في محل جر مضاف إليه "ما" نافية

"زادَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر و

(147/638)

---

الجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "إِلَّا" أداة حصر "نُفُوراً" مفعول به ثان

لزادهم "اسْتِكْباراً" مفعول لأجله "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بما قبلهما "وَمَكْرَ" معطوف على

استكبارا وهو منصوب مثله "السَّيِّئِ" مضاف إليه "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "يَحِيقُ

الْمَكْرُ" مضارع وفاعله والجملة معطوفة "السَّيِّئِ" صفة لمكر "إِلَّا" أداة حصر "بِأَهْلِهِ"

متعلقان بفعل يحيق "فَهَلْ" الفاء عاطفة وهل حرف استفهام "يَنْظُرُونَ" الجملة معطوفة

"إِلَّا" أداة حصر "سُنَّتَ"

مفعول به للفعل قبله "الْأَوَّلِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم "وَلَنْ" الواو

عاطفة ولن حرف ناصب "تَجِدَ" مضارع منصوب بلن وفاعله مستتر والجملة معطوفة

"لِسُنَّتِ" متعلقان بتبديلا "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "تَبْدِيلًا" مفعول به لتجد "وَلَنْ تَجِدَ

لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا" إعرابه واضح والجملة معطوفة.

[سورة فاطر (35) : الآيات 44 الى 45]

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً (44) وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً (45)

(148/638)

---

"أَوَلَمْ" الهمزة للاستفهام والواو عاطفة ولم جازمة "يَسِيرُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعله والجملة معطوفة "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بيسيروا "فَيَنْظُرُوا" الجملة معطوفة "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب خبر كان المقدم "كانَ عاقِبَةُ" ماض ناقص وعاقبة اسمها "الَّذِينَ" اسم موصول مضاف إليه "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بصفة محذوفة للذين "وَكانُوا أَشَدَّ" الواو حالية وكان واسمها وخبرها "مِنْهُمْ" متعلقان بأشد "قُوَّةً" تمييز والجملة حالية "وَما" الواو عاطفة وما نافية "كانَ اللَّهُ" كان ولفظ الجلالة اسمها والجملة معطوفة "لِيُعْجِزَهُ" اللام لام الجحود ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد اللام والهاء مفعول به "مِنْ" حرف جر

زائد "شَيْءٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صفة لشيء "وَلا فِي الْأَرْضِ" معطوف على ما قبله "إِنَّهُ" إن والهاء اسمها والجملة تعليلية "كانَ" ماض ناقص واسمها محذوف "عَلِيماً قَدِيراً" خبران لكان والجملة خبر إنه "وَلَوْ" الواو عاطفة ولو حرف شرط غير جازم "يُؤاخِذُ اللَّهُ" مضارع ولفظ الجلالة فاعله "النَّاسَ" مفعول به "بِما" ما موصولية في محل جر بالباء ومتعلقان بالفعل قبلهما "كَسَبُوا" الجملة صلة لا محل لها "ما" نافية "تَرَكَ" ماض فاعله مستتر "عَلى ظَهْرِها" متعلقان بترك "مِنْ" حرف جر زائد "دَابَّةٍ" اسم مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به لترك "وَلكِنْ" الواو عاطفة ولكن حرف استدراك "يُؤَخِّرُهُمْ" مضارع مرفوع والهاء مفعوله والفاعل مستتر "إِلى أَجَلٍ" متعلقان بالفعل قبلهما "مُسَمًّى" صفة لأجل مجرور مثله بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "فَإِذا" الفاء عاطفة وإذا ظرف لما مضى من الزمان يتضمن معنى الشرط "جاءَ أَجَلُهُمْ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "فَإِنَّ" الفاء رابطة لجواب الشرط وإن ولفظ الجلالة

اسمها والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "كانَ" ماض ناقص واسمها مستتر "بِعبادِهِ" متعلقان بالخبر بعدهما "بَصِيراً" خبر كان والجملة خبر إن. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ إعراب القرآن / لدعاس جـ 3 صـ 87.76 ﴾

*(150/638)*

---

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْمَلَائِكَة

ذكر فِيهَا أَرْبَعَة عشر حَدِيثا

1050 - قَوْله

عَن ابْن عَبَّاس مَا كنت أَدْرِي مَا فاطر السَّمَوَات وَالْأَرْض حَتَّى اخْتَصم إِلَيّ أَعْرَابِيَّان فِي بِئْر فَقَالَ أَحدهمَا أَنا فطرتها أَي ابْتَدَأتهَا

قلت تقدم فِي أول الْأَنْعَام

1051 - الحَدِيث الأول

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه رأى جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام لَيْلَة الْمِعْرَاج وَله سِتّمائَة جنَاح

قلت فِي الصَّحِيحَيْنِ من حَدِيث زر بن حُبَيْش عَن ابْن مَسْعُود أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رَأَى جِبْرِيل فِي صورته وَله سِتّمائَة جنَاح انْتهى

وَرَوَاهُ البُخَارِيّ فِي تَفْسِير سُورَة النَّجْم وَمُسلم فِي كتاب الْإِيمَان فِي سِيَاق حَدِيث الْمِعْرَاج

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّالِث من الْقسم الثَّالِث وَلَفظه قَالَ (رَأَيْت جِبْرِيل عِنْد سِدْرَة الْمُنْتَهى وَله سِتّمائَة جنَاح ينتثر من ريشه الدّرّ والياقوت) انْتهى وَهُوَ أصرح

1052 - الحَدِيث الثَّانِي

(151/638)

---

رُوِيَ أَنه عَلَيْهِ السَّلَام سَأَلَ جِبْرِيل أَن يتراءى لَهُ فِي صورته فَقَالَ لَهُ إِنَّك لن تطِيق ذَلِك قَالَ (إِنِّي أحب أَن تفعل) فَخرج رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَى الْمُصَلَّى فِي لَيْلَة مُقْمِرَة فَأَتَاهُ جِبْرِيل علية السَّلَام فِي صورته فغشي عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ثمَّ أَفَاق وَجِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام مُسْنده وَاضِعا إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى صَدره وَالْأُخْرَى بَين كتفيه فَقَالَ (سُبْحَانَ الله مَا كنت أرى أَن شَيْئا من الْخلق هَكَذَا) فَقَالَ لَهُ جِبْرِيل فَكيف لَو رَأَيْت إِسْرَافيل لَهُ اثْنَا عشر جنَاحا جنَاح بالمشرق وَجنَاح بالمغرب وَأَن الْعَرْش عَلَى كَاهِله وَأَنه ليتضاءل الْأَحَايِين لعظمة الله تَعَالَى حَتَّى يعود مثل الْوَصع

قلت رَوَاهُ ابْن الْمُبَارك فِي كتاب الزّهْد أخبرنَا اللَّيْث بن سعد عَن عقيل عَن ابْن شهَاب أَن رَسُول الله صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم َ سَأَلَ جِبْرِيل إِلَى آخِره سَوَاء وَزَاد وَالْوَصْع عُصْفُور صَغِير حَتَّى مَا يحمل عَرْشه إِلَّا عَظمته انْتَهَى وَهُوَ مُرْسل جيد

وَمن جِهَة ابْن مبارك رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره

1053 - الحَدِيث الثَّالِث

رُوِيَ عَن النَّبِي صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم َ أَنه قَالَ فِي قَوْله يزِيد فِي الْخلق مَا يَشَاء قَالَ (هُوَ الْوَجْه الْحسن وَالشعر الْحسن وَالصَّوْت الْحسن)

1054 - الحَدِيث الرَّابِع

سُئِلَ رَسُول الله صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم َ كَيفَ يُحْيِي الله الْمَوْتَى وَمَا آيَة ذَلِك فِي خلقه فَقَالَ (هَل مَرَرْت بوادي أهلك محلا ثمَّ مَرَرْت بِهِ يَهْتَز خضرًا) قَالُوا نعم سُؤال (فَكَذَلِك يُحْيِي الله الْمَوْتَى وَتلك آيَته فِي خلقه)



---

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب الْأَهْوَال من حَدِيث حَمَّاد بن سَلمَة أَنا يعلى بن عَطاء عَن وَكِيع بن عدس عَن عَمه أبي رزين الْعقيلِيّ لَقِيط ابْن عَامر رَضِي اللَّهُ عَنهُ أَنه قَالَ

يَا رَسُول الله أكلنَا يرى ربه يَوْم الْقِيَامَة وَمَا آيَة ذَلِك فِي خلقه فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَلَيْسَ كلكُمْ ينظر الْقَمَر مخليا بِهِ) قَالَ بلَى قَالَ (فَالله أعظم) قَالَ قلت يَا رَسُول الله كَيفَ يحيي الله الْمَوْتَى وَمَا آيَة ذَلِك فِي خلقه قَالَ (أما مَرَرْت بوادي أهلك محلا) قَالَ بلَى قَالَ (ثمَّ مَرَرْت بِهِ يهتز خضرًا) قَالَ قلت بلَى قَالَ (فَكَذَلِك يحيي الله الْمَوْتَى وَذَلِكَ آيَته فِي خلقه) انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الِاعْتِقَاد وَفِي كتاب الْبَعْث والنشور

وَرَوَاهُ أَحْمد وَعبد بن حميد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مسانيدهم

وَمن طَرِيق أَحْمد رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره وَمن طَرِيق عبد بن حميد رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ فِي مسنديهما من حَدِيث شُعْبَة أَنا يعْلى بن عَطاء بِهِ

وَمن طَرِيق ابْن أبي شيبَة رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه

وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ فِي كتاب المؤتلف والمختلف حَمَّاد بن سَلمَة يَقُول وَكِيع ابْن حدس وَغَيره يَقُول وَكِيع بن عدس قَالَ عبد الله بن أَحْمد عَن أَبِيه الأول هُوَ الصَّوَاب انْتَهَى كَلَامه

وَلم يعز الطَّيِّبِيّ الحَدِيث إِلَّا لمُسْند رزين الْعَبدَرِي

ورَوَاهُ ابْن مرْدوَيْه فِي تَفْسِيره أَيْضا ثَنَا سُلَيْمَان بن أَحْمد هُوَ الطَّبَرَانِيّ ثَنَا عَبْدَان بن أَحْمد ثَنَا عبد الله بن حَمَّاد بن نمير ثَنَا عبد الْأَعْلَى عَن برد بن سِنَان عَن سُلَيْمَان بن مُوسَى عَن أبي رزين الْعقيلِيّ فَذكر نَحوه

وَمن طَرِيق الطَّيَالِسِيّ رَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط

وَاعْلَم أَن بعض الحَدِيث فِي سنَن أبي دَاوُد وَابْن ماجة أَخْرجَاهُ فِي كتاب السّنة فَأَبُو دَاوُد فِي بَاب الرُّؤْيَة وَابْن ماجة فِي بَاب مَا أنْكرت الْجَهْمِية

وَوهم ابْن كثير فعزاه فِي تَفْسِيره بِتَمَامِهِ إِلَيْهِمَا وَهُوَ فيهمَا عَن حَمَّاد بن سَلمَة بالسند الْمَذْكُور والمتن إِلَى قَوْله (فَالله أعظم) وَكَأَنَّهُ قلد أَصْحَاب الْأَطْرَاف وَالله أعلم

1055 - الحَدِيث الْخَامِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْله تَعَالَى إِلَيْهِ يصعد الْكَلم الطّيب قَالَ (هُوَ قَول الرجل سُبْحَانَ الله وَالْحَمْد لله وَلَا إِلَه إِلَّا الله وَالله أكبر إِذا قَالَهَا العَبْد عرج بهَا الْملك إِلَى السَّمَاء فَحَيَّا بهَا وَجه الرَّحْمَن فَإِذا لم يكن للْعَبد عمل صَالح لم يقبل مِنْهُ)

قلت لم أَجدهُ هَكَذَا مَرْفُوعا عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَّا عِنْد الثَّعْلَبِيّ فَقَالَ أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحسن بن مُحَمَّد بن عبد الله الدينَوَرِي ثَنَا أَبُو جَعْفَر مُحَمَّد بن مُحَمَّد ابْن أَحْمد الْهَمدَانِي ثَنَا أَبُو الْحسن أَحْمد بن مُحَمَّد بن السكن الْبَصْرِيّ ثَنَا أَحْمد ابْن مُحَمَّد الْمَكِّيّ ثَنَا عَلّي بن عَاصِم عَن سُهَيْل بن أبي صَالح عَن أَبِيه عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله (إِلَيْهِ يصعد الْكَلم الطّيب وَالْعَمَل الصَّالح يرفعهُ) قَالَ (هُوَ قَول الرجل سُبْحَانَ الله) إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه مَوْقُوفا عَلَى ابْن مَسْعُود وَكَذَلِكَ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْأَسْمَاء وَالصِّفَات وَكَذَلِكَ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره كلهم من حَدِيث عبد الرَّحْمَن بن

عبد الله المَسْعُودِيّ عَن عبد الله بن الْمخَارِق عَن أَبِيه بن سليم عَن عبد الله ابْن مَسْعُود قَالَ إِذا حدَّثْنَاكُمْ بِحَدِيث أَتَيْنَاكُم بِتَصْدِيق ذَلِك فِي كتاب الله إِن العَبْد إِذا قَالَ سُبْحَانَ الله وَالْحَمْد لله وَلَا إِلَه إِلَّا الله وَالله أكبر قبض عَلَيْهِنَّ ملك فَضَمَّهُنَّ تَحت جناحه وَصعد بهن لَا يمر بهن عَلَى جمع من الْمَلَائِكَة إِلَّا اسْتَغْفرُوا لقائلهن حَتَّى يحيي بهَا وَجه الرَّحْمَن ثمَّ تَلا عبد الله إِلَيْهِ يصعد الْكَلم الطّيب وَالْعَمَل الصَّالح يرفعهُ انْتَهَى وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

ورواه ابن مردويه في تفسيره أيضا مرفوعا فقال حدثنا محمد بن الحسين ثنا أحمد بن محمد بن الحسين ثنا أحمد بن محمد بن الحسن القرشي البغدادي ثنا أحمد بن محمد بن زياد المعروف بالمكي ثنا علي بن عاصم به سندا ومتنا إلا أنه قال عوض لم يقبل منه لم ترفع

## 1056 - الحديث السادس

في الحديث لا يقبل الله قولا إلا بعمل ولا يقبل قولا وعملا إلا بنية ولا يقبل قولا وعملا ونية إلا بإصابة السنة

قلت روى من حديث أنس ومن حديث أبي هريرة

فحديث أنس رواه الخطيب البغدادي في كتاب الجامع لآداب الراوي والسامع أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحرشي ثنا أبو العباس الأصم ثنا أبو عتبة أحمد ابن الفرج ثنا بقية ثنا إسماعيل بن عبد الله عن أبان بن أبي عياش عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا يقبل الله قولا إلا بعمل ولا يقبل قولا وعملا إلا بنية ولا يقبل قولا عن عملا ونية إلا بإصابة السنة) انتهى

ومن طريق الخطيب رواه ابن الجوزي في كتابه التحقيق في مسألة نية الوضوء وغلط في سنده فقال عن إياس عن أنس

قَالَ ابْن عبد الْهَادِي فِي تَنْقِيح التَّحْقِيق وَهُوَ غلط وَإِنَّمَا هُوَ أبان قَالَ
وَقد حسن ابْن عَسَاكِر هَذَا الحَدِيث وَغلط فَإِن هَذَا الحَدِيث لَا يَصح مَرْفُوعا وَإِنَّمَا يعرف من كَلَام الثَّوْريّ وَأَبُو عتبَة أَحْمد بن الْفرج ضعفه ابْن جوصا وَقَالَ ابْن عدي يكْتب حَدِيثه وَلَا يحْتَج بِهِ وَقَالَ ابْن حبَان كتبنَا عَنهُ وَأَبَان بن أبي عَيَّاش مَتْرُوك انْتهى كَلَامه

(156/638)

---

وَحَدِيث أبي هُرَيْرَة رَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وَابْن حبَان فِي الضُّعَفَاء عَن زَكَرِيَّا عَن خَالِد بِهِ من حَدِيث خَالِد بن عبد الدَّائِم عَن نَافِع بن يُزْبد عَن زهرَة بن معبد عَن سعيد بن الْمسيب عَن أبي هُرَيْرَة أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (قُرْآن فِي صَلَاة خير من قُرْآن فِي غير صَلَاة وَقُرْآن فِي غير صَلَاة خير مِمَّا سواهُ من الذّكر وَالصَّدَقَة خير من الصَّلَاة وَالصِّيَام جنَّة حَصِينَة من النَّار وَلَا قَول إِلَّا بِعَمَل وَلَا قَول وَلَا عمل إِلَّا بنية وَلَا قَول وَعمل وَنِيَّة إِلَّا بإصابة السّنة) ولين خَالِدا وَقَالَ أَرْجُو أَنه لَا بَأْس بِهِ
وَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية من طَرِيق الدَّارَقُطْنِيّ عَن ابْن حبَان هَكَذَا
وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي كتاب الضُّعَفَاء ثَنَا عمر بن مُحَمَّد الْهَمدَانِي ثَنَا زَكَرِيَّا ابْن يَحْيَى الْوَقَّاد ثَنَا خَالِد بن عبد الدَّائِم بِهِ ثمَّ قَالَ وزكريا بن يَحْيَى الْوَقَّاد قَالَ فِيهِ ابْن عدي كَانَ يضع

الحَدِيث وخَالِد بن عبد الدَّائِم قَالَ ابْن حبَان يروي الْمَنَاكِير ويلْزق الْمُتُون الْوَاهِيَة بالْأَسَانِيدِ الْمَشْهُورَة انْتَهَى

وَأما حَدِيث ابْن مَسْعُود فَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي كتاب الضُّعَفَاء من حَدِيث أَحْمد ابْن الْحُسَيْن بن أبان الْمصْرِيّ عَن إِبْرَاهِيم بن يسَار عَن ابْن عُيَيْنَة عَن الزُّهْرِيّ عَن سعيد بن الْمسيب قَالَ قَالَ عبد الله بن مَسْعُود سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (لَا يقبل الله قولا إِلَّا بعَمَل وَلَا يقبل قولا وَعَملا إِلَّا بنية وَلَا يقبل قولا وَعَملا وَنِيَّة إِلَّا بِمَا يُوَافق الْكتاب وَالسّنة) انْتَهَى وَأعله بِأَحْمَد هَذَا وَقَالَ إِنَّه يضع لَا يحل أَن يحْتَج بِهِ

*(157/638)*

---

1057 - الحَدِيث السَّابِع

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِن الصِّلَة وَالصَّدَقَة يعمران الديار ويزيدان فِي الْأَعْمَار)

قلت رَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده لكنه قَالَ عوض الصَّدَقَة حسن الْخلق فَقَالَ حَدثنَا عبد الصَّمد بن عبد الْوَارِث ثَنَا مُحَمَّد بن مهْرَام عَن عبد الرَّحْمَن ابْن الْقَاسِم ثَنَا الْقَاسِم عَن عَائِشَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (صلَة الرَّحِم وَحسن الْخلق وَحسن الْجوَار

يعمرَان الديار ويزدْنَ فِي الْأَعْمَار ) انْتَهى

وَرَوَاهُ أَبُو الْقَاسِم الْأَصْبَهَانِيّ فِي كتاب التَّرْغِيب والترهيب أخبرنَا أَبُو الْحُسَيْن مُحَمَّد بن أَحْمد بن هَارُون ثَنَا أَبُو بكر بن مرْدَوَيْه ثَنَا عبد الحميد بن مُوسَى الفناد الوَاسِطِيّ ثَنَا إِبْرَاهِيم بن عبد السَّلَام الْعَنْبَري ثَنَا أَبُو حصن جميل بن يُونُس الْأَنْصَارِيّ ثَنَا عصمَة ابْن مُحَمَّد الْأَنْصَارِيّ ثَنَا يَحْيَى بن سعيد الْأَنْصَارِيّ عَن عبد الرَّحْمَن بن أبي سعيد الْخُدْرِيّ عَن أَبِيه عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ ( صلَة الرَّحِم وَحسن الْخلق وبر الْوَالِدين يُعَمِّرْنَ الديار ويزدْنَ فِي الْأَعْمَار وَإِن كَانَ الْقَوْم فجار ) انْتَهى

1058 - قَوْله

عَن كَعْب أَنه قَالَ حِين طعن عمر لَو أَن عمر دَعَا الله لأخر فِي أَجله فَقيل أَلَيْسَ قد قَالَ تَعَالَى فَإِذا جَاءَ أَجلهم لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَة وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ قَالَ فقد قَالَ تَعَالَى ( وَمَا يعمر من معمر ) الْآيَة

قلت رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده أخبرنَا عبد الرَّزَّاق حَدثنَا معمر عَن الزُّهْرِيّ عَن سعيد بن الْمسيب قَالَ قَالَ كَعْب وَالله لَو سَأَلَ الله عمر

حِين طعن لأخر فِي أَجله فَقيل لَهُ يَا أَبَا إِسْحَاق أَتَقول هَذَا وَقد قَالَ الله فَإِذا جَاءَ أَجلهم لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَة وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ قَالَ فقد قَالَ تَعَالَى وَمَا يعمر من معمر وَلَا ينقص من عمره إِلَّا فِي كتاب انْتهى ذكره فِي آخر مُسْند ابْن عَبَّاس

1059 - الحَدِيث الثَّامِن

فِي الحَدِيث أعلمكُم بِاللَّه أَشدّكُم لَهُ خشيَة

قلت غَرِيب وَذكره الثَّعْلَبِيّ هَكَذَا

1060 - الحَدِيث التَّاسِع

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنِّي أَرْجُو أَن أكون أَتْقَاكُم لله وَأعْلمكُمْ بِهِ)

قلت رَوَاهُ مَالك فِي موطئِهِ عَن زيد بن أسلم عَن عَطاء بن يسَار أَن رجلا قبل امْرَأَته وَهُوَ صَائِم فَوجدَ من ذَلِك وجدا شَدِيدا فَأرْسل امْرَأَته فَسَأَلت أم سَلمَة عَن ذَلِك فَقَالَت أم سَلمَة رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقبل وَهُوَ صَائِم فَرَجَعت فَأخْبرت زَوجهَا فَقَالَ لسنا مثل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحل لرَسُوله مَا يَشَاء فَبلغ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَضب وَقَالَ (إِنِّي لأرجو أَن أكون أَتْقَاكُم لله وَأعْلمكُمْ بحدوده) انْتهى

وَعَن مَالك رَوَاهُ الشَّافِعِي فِي مُسْنده

وَرَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه فِي الصَّوْم أخبرنَا ابْن جريج عَن زيد بن أسلم بِهِ

1061 - الحَدِيث الْعَاشِر

رَوَى عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (سَابِقنَا سَابق وَمُقْتَصِدنَا نَاجٍ وظَالِمنَا مغْفُور لَهُ)

(159/638)

---

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْبَعْث والنشور من حَدِيث حَفْص بن خَالِد أبي جَابر ثني مَيْمُون بن سياه عَن عمر بن الْخطاب أَنه قَرَأَ عَلَى الْمِنبَر (ثمَّ أَوْرَثنَا الْكتاب الَّذين اصْطَفَيْنَا من عبادنَا) فَقَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (سَابِقنَا سَابق وَمُقْتَصِدنَا نَاجٍ وَظَالِمنَا مغْفُور لَهُ) انْتَهَى ثمَّ قَالَ الْبَيْهَقِيّ فِيهِ إِرْسَال بَين مَيْمُون وَعمر قَالَ وَقد رُوِيَ مَوْقُوفا من وَجه غير قوي ثمَّ أخرجه عَن سعيد بن مَنْصُور ثَنَا فرج بن فضَالة ثَنَا أَزْهَر بن عبد الله الْحرَازِي عَمَّن عمر يَقُول فَذكره مَوْقُوفا لم يرفعهُ

وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي كتاب الضُّعَفَاء وَابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره والواحدي فِي الْوَسِيط عَن الْفضل بن عميرَة الطفاوي عَن مَيْمُون بن سياه الْكرْدِي عَن أبي عُثْمَان النَّهْدِيّ قَالَ سَمِعت عمر بن الْخطاب قَرَأَ عَلَى الْمِنبَر إِلَى آخر لفظ الْبَيْهَقِيّ وأعله بالْفضل بن عُمَيْر وَقَالَ لَا يُتَابع عَلَى إِسْنَاده وَقد رُوِيَ بِإِسْنَاد أصلح من هَذَا انْتَهَى كَلَامه

وَبِسَنَد الْعقيلِيّ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ وَمن طَرِيق الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الْبَغَوِيّ

1062 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه قَالَ (لَيْسَ عَلَى أهل لَا إِلَه إِلَّا الله وَحْشَة فِي قُبُورهم وَلَا فِي مَحْشَرهمْ وَلَا فِي مَسِيرهمْ وكَأَنِّي بِأَهْل لَا إِلَه إِلَّا الله يخرجُون من قُبُورهم يَنْفضون التُّرَاب عَن وُجُوههم وَيَقُولُونَ (الْحَمد لله الَّذِي أذهب عَنَّا الْحزن)

قلت رُوِيَ من حَدِيث ابْن عمر وَمن حَدِيث ابْن عَبَّاس

فَحَدِيث ابْن عمر لَهُ طرق

أَحدهَا عِنْد أبي يعلي الْموصِلِي وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط وَفِي كتاب الدُّعَاء

(160/638)

---

وَالْبَيْهَقِيّ فِي أول شعب الْإِيمَان عَن عبد الرَّحْمَن بن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن ابْن عمر أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (لَيْسَ عَلَى أهل لَا إِلَه إِلَّا الله وَحْشَة فِي قُبُورهم) إِلَى آخِره

وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه وَابْن أبي حَاتِم والثعلبي ثمَّ الْبَغَوِيّ فِي تفاسيرهم

وَعبد الرَّحْمَن ضَعِيف جدا لَكِن تَابعه أَخُوهُ عبد الله كَمَا رَوَاهُ أَبُو الْقَاسِم الْأَصْبَهَانِيّ فِي كتاب التَّرْغِيب والترهيب من حَدِيث عبد الله بن زيد بن أسلم عَن أَبِيه بِهِ

طَرِيق آخر رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْكَبِير حَدثنَا جَعْفَر بن مُحَمَّد الْفرْيَابِيّ ثَنَا يَحْيَى بن مُوسَى الْمروزِي ثَنَا سُلَيْمَان بن عبد الله بن وهب الْكُوفِي عَن عبد الْعَزِيز بن حَكِيم عَن أبن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذكره

طَرِيق آخر رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي الْبَعْث والنشور من حَدِيث بهْلُول بن عبيد عَن سَلمَة بن كهيل عَن نَافِع عَن ابْن عمر مَرْفُوعا

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وأعله ببهلول وَقَالَ إِن أَحَادِيثه لَا يُتَابعه الثِّقَات عَلَيْهَا

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن حبَان فِي الضُّعَفَاء وأعله ببهلول وَقَالَ إِنَّه يسرق الحَدِيث لَا يحْتَج بِهِ

وَحَدِيث ابْن عَبَّاس رَوَاهُ الْخَطِيب فِي تَارِيخ بَغْدَاد فِي تَرْجَمَة مُحَمَّد بن سعيد الطَّائِفِي عَن مُحَمَّد بن سعيد الطَّائِفِي عَن ابْن جريج عَن عَطاء عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَيْسَ عَلَى أهل لَا إِلَه إِلَّا الله) إِلَى آخِره وَلم يذكر الْخَطِيب مُحَمَّد بن سعيد الطَّائِفِي بِجرح وَلَا تَعْدِيل وَهُوَ كَذَلِك فِي فَوَائِد تَمام

(161/638)

---

وأعله ابْن حبَان فِي كتاب الضُّعَفَاء بالطائفي وَقَالَ لَا يحل الِاحْتِجَاج بِهِ

وَهَذَا خبر بَاطِل إِنَّمَا يرْوَى عَن عبد الرَّحْمَن بن زيد بن أسلم بِهِ

وَحَدِيث أنس رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث الْقَاسِم بن مُطيب عَن إِسْحَاق بن عبد الله بن أبي فَرْوَة عَن أنس بن مَالك أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لَيْسَ عَلَى أهل لَا إِلَه إِلَّا الله) إِلَى آخِره

وَلِحَدِيث ابْن عمر طَرِيق آخر عِنْد النَّسَائِيّ فِي كتاب الكنى عَن سُلَيْمَان ابْن عبد الْعَزِيز بن أبي دَاوُد عَن عبد الْعَزِيز بن حَكِيم بِهِ سندا ومتنا

## 1063 - الحَدِيث الثَّانِي عشر

فِي الحَدِيث الَّذِي أعذر الله فِيهِ لِابْنِ آدم سِتُّونَ سنة

قلت رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده ثَنَا هِشَام بن يُونُس ثَنَا عبد الْعَزِيز بن أبي حَازِم عَن أَبِيه عَن سعيد المَقْبُري عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (الْعُمر الَّذِي أعذر الله لِابْنِ آدم سِتُّونَ سنة أَو لم نُعَمِّركُمْ مَا يتَذَكَّر فِيهِ من تذكر انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره ثَنَا أَحْمد بن جَعْفَر بن أَحْمد ثَنَا عبيد بن الْحسن ثَنَا سلمَان بن حَرْب ثَنَا حَمَّاد بن زيد عَن أبي حَازِم عَن سهل بن سعد وَرُبمَا لم يقل عَن سهل قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (الْعُمر الَّذِي أعذر الله فِيهِ لِابْنِ آدم سِتُّونَ سنة) انْتهى

وَهُوَ فِي البُخَارِيّ بِلَفْظ آخر رَوَاهُ فِي . . . من حَدِيث مُحَمَّد بن معن الْغِفَارِيّ عَن سعيد المَقْبُري عَن أبي هُرَيْرَة أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من عمره الله سِتِّينَ سنة فقد أعذر الله إِلَيْهِ فِي الْعُمر انْتهى

(162/638)

وَوهم الْحَاكِم فَرَوَاهُ فِي الْمُسْتَدْرك وَقَالَ عَلَى شَرط البُخَارِيّ وَلم يخرجَاهُ

وَرَوَى التِّرْمِذِيّ وَابْن ماجة فِي الزّهْد من حَدِيث مُحَمَّد بن عَمْرو عَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أَعمار أمتِي مَا بَين السِّتين إِلَى السّبْعين وأقلهمْ من يجوز ذَلِك) قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن غَرِيب لَا نعرفه إِلَّا من هَذَا الْوَجْه انْتَهَى

وَهُوَ عَجِيب من التِّرْمِذِيّ فَإِنَّهُ رَوَاهُ فِي الزّهْد أَيْضا من حَدِيث كَامِل أبي الْعَلَاء عَن أبي صَالح عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا (عمر أمتِي من السِّتين إِلَى السّبْعين سنة) انْتَهَى وَقَالَ حسن غَرِيب وَقد رُوِيَ من غير وَجه عَن أبي هُرَيْرَة انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع السّبْعين من الْقسم الثَّالِث بِسَنَد التِّرْمِذِيّ الأول وَمَتنه

وَكَذَلِكَ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ عَلَى شَرط مُسلم

1064 - قَوْله

وَفِي حَدِيث أبي بكر ذُو بطن خَارجه جَارِيَة

(163/638)

قلت رَوَاهُ مَالك فِي الْمُوَطَّأ عَن ابْن شهَاب الزُّهْرِيّ عَن عُرْوَة عَن عَائِشَة قَالَت إِن أَبَا بكر كَانَ نَحَلَنِي جداد عشْرين وسْقا من مَاله بالْعَالِيَةِ فَلَمَّا حَضرته الْوَفَاة قَالَ مَا من النَّاس أحد أحب إِلَيّ عني بعدِي مِنْك وَلَا أعز عَلّي فقرا مِنْك وَإِنِّي كنت نحلتك جداد عشْرين وسْقا فَلَو كنت حُزْته لَكَانَ لَك وَإِنَّمَا هُوَ الْيَوْم مَال وَارِث وَإِنَّمَا هُوَ أَخَوَاك وأُخْتَاك فَاقْتَسِمُوهُ على كتاب الله قَالَت يَا أَبَت وَالله لَو كَانَ كَذَا وَكَذَا لتركته وَإِنَّمَا هِيَ أَسمَاء فَمن الْأُخْرَى قَالَ ذُو بطن بنت خَارِجَة أَرَاهَا جَارِيَة فولدت جَارِيَة أَخُوهَا عبد الرَّحْمَن وَمُحَمّد وَبنت خَارِجَة هِيَ حَبِيبَة بنت خَارِجَة بن زيد زَوْجَة أبي بكر كَانَت ذَلِك الْوَقْت حَامِلا فولدت أم كُلْثُوم انْتهى

وَعَن مَالك رَوَاهُ مُحَمَّد بن الْحسن فِي موطئِهِ بِسَنَدِهِ وَمَتنه

وَتقدم بعضه فِي سُورَة الْإِسْرَاء

1065 - قَوْله

عَن ابْن عَبَّاس أَنه قَالَ لرجل مقبل من الشَّام من لقِيت بِهِ قَالَ كَعْب قَالَ مَا سمعته يَقُول قَالَ سمعته يَقُول إِن السَّمَوَات تَدور على منْكب ملك قَالَ كذب كَعْب أما ترك يَهُودِيَّته بعد ثمَّ قَرَأَ إِن الله يمسك السَّمَوَات وَالْأَرْض أَن تَزُولَا الْآيَة

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنَا مُحَمَّد بن بشار ثَنَا عبد الرَّحْمَن ثَنَا سُفْيَان عَن الْأَعْمَش عَن أبي وَائِل قَالَ جَاءَ رجل إِلَى ابْن مَسْعُود فَقَالَ من أَيْن جِئْت قَالَ من الشَّام قَالَ من لقِيت قَالَ لقِيت كَعْبًا قَالَ مَا حَدثك كَعْب قَالَ حَدثنِي أَن السَّمَوَات تَدور عَلَى منْكب ملك قَالَ لقد كذب كَعْب إِن الله يَقُول (إِن الله يمسك السَّمَوَات وَالْأَرْض أَن تَزُولَا) الْآيَة وَهَذَا سَنَد صَحِيح وَهُوَ كَمَا ترَاهُ عَن ابْن مَسْعُود لَا عَن ابْن عَبَّاس ولَعَلَّهُ اشْتبهَ عَلَى الْمُصَنّف عبد الله بِعَبْد الله وَقد تقدم لَهُ نَحْو هَذَا وَلَيْسَ فِيهِ أَيْضا قَوْله أما ترك يَهُودِيَّته وَروَى ابْن وهب عَن مَالك أَن السَّمَاء لَا تَدور وَاحْتج بِهَذِهِ الْآيَة وَبِحَدِيث إِن بالمغرب بَابا للتَّوْبَة لَا يزَال مَفْتُوحًا حَتَّى تطلع الشَّمْس مِنْهُ وَهُوَ فِي الصَّحِيح وَالله أعلم

1066 - الحَدِيث الثَّالِث عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (لَا تَمْكُرُوا وَلَا تعينُوا مَاكِرًا فَإِن الله يَقُول وَلَا يَحِيق الْمَكْر السَّيِّئ إِلَّا بأَهْله وَلَا تَبْغُوا وَلَا تعينُوا بَاغِيا فَإِن الله يَقُول إِنَّمَا بَغْيكُمْ عَلَى أَنفسكُم

قلت رَوَاهُ ابْن الْمُبَارك فِي كتاب الزّهْد وَقد تقدم أَوله فِي يُونُس

1067 - قَوْله

عَن ابْن مَسْعُود أَن الْجعل يعذب فِي جُحْره بذنب ابْن آدم

1068 - قَوْله

وَعَن أنس قَالَ إِن الضَّب ليَمُوت هزلا فِي حجره بذنب ابْن آدم

قلت الأول رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك وَقد تقدم فِي النَّحْل

وَالثَّانِي لم أَجِدهُ عَن أنس وَإِنَّمَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان عَن أبي هُرَيْرَة كَمَا عزاهُ الْمُصَنّف فِي سُورَة النَّحْل وَقد تقدم هُنَاكَ

1069 - الحَدِيث الرَّابِع عشر

(165/638)

---

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ سُورَة الْمَلَائِكَة دَعَتْهُ ثَمَانِيَة أَبْوَاب الْجنَّة أَن أَدخل من أَي بَاب شِئْت)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ سُورَة الْمَلَائِكَة دَعَتْهُ يَوْم الْقِيَامَة ثَمَانِيَة أَبْوَاب الْجنَّة) إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسندية فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 145. 158 ﴾

*(166/638)*

---

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة فاطر

قوله تعالى : (وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها ) ، الآية/ 12 .

فيه دليل على أن من حلف لا يلبس الحلي ، حنث بلبس اللؤلؤ .

وقوله تعالى : (وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ) ، الآية/ 37 .

يجوز أن يكون هو النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، ويجوز أن يكون الدلائل على التوحيد ، وصفات اللّه تعالى وصدق الرسل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 353 ﴾

*(167/638)*

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الملائكة» (35)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ» مجازه : اثنين وثلاثة وأربعة فزعم النحويون أنه مما صرف عن وجهه لم ينوّن فيه قال صخر بن عمرو :

ولقد قتلتكم ثناء وموحدا وتركت مرّة مثل أمس المدبر

(137)

«أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ» (8) مجازه مجاز المكفوف عن خبره لتمامه عند السامع فاختصر ثم استأنف فقال «فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ» .

ف «أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ» (9) تثير أي تجمع وتجيء به وتخرجه ومجاز «فسقناه» مجاز فنسوقه والعرب قد تضع «فعلنا» فى موضع «نفعل» قال الشاعر :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا منى وما يسمعوا من صالح دفنوا

«1» [210] فى موضع «يطيروا» و«يدفنوا» .

(1) . - 210 : راجع ص 177 فى الجزء الأول لما ورد من الخلاف فى رواية البيت .

*(168/638)*

---

«النُّشُورُ» (9) مصدر الناشر قال الأعشى :

حتّى يقول الناس ممّا رأوا يا عجبا للميّت الناشر

«1» [744] .

«يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ» (10) يكسبون ويجترحون . .

«هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ» (12) الفرات أعذب العذب والأجاج أملح الملوحة . .

«فِيهِ مَواخِرَ» (12) تقديرها فواعل من «مخرت السفن الماء» والمعنى : شقّت . .

«كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى» (13) مجازه مجاز ما خرج من الحيوان والموات مخرج الآدميّين . .

«ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ» (13) وهو الفوقة التي فيها النّواة «2» .

«وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى» (18) مجازه : ولا تحمل آثمة إثم أخرى ، وزرته أي فعلته أي أثمته هى . «3» «4» «5»

(1) . - 744 : ديوانه ص 105 والطبري 19/ 13 والجمهرة 2/ 349 والقرطبي 23/ 3 واللسان والتاج (نشر) .

(2) . - 9 «قطمير . . . النواة» : روى ابن حجر هذا الكلام مع الشطر التالي فى الحاشية عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 415) .

(3) . - 745 : لعله من كلمة فى الأغانى 2/ 37 والسمط ص 221 .

(4) . - 746 : من معلقته فى شرح العشر ص 31 ديوانه من الستة ص 55 .

(5) . - 747 : هذا الرجز لأبى محمد الفقعسي فانظره فى الاقتضاب ص 309 .



---

«الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ» (21) الحرور بالنهار «1» مع الشمس هاهنا وكان رؤبة يقول :

الحرور بالليل والسموم بالنهار

ونسجت لوامع الحرور برقرقان «2» آلها المسجور

«3» [748] سبائبا كسرق الحرير .

«ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا» (26) أي فعاقبت . .

«فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ» (26) أي تغييرى وعقوبتى . .

«وَغَرابِيبُ سُودٌ» (27) مقدّم ومؤخّر لأنه يقال: أسود غربيب «4» . .

«وَمِنَ النّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ» (28) مجازه: من هؤلاء جميع مختلف ألوانه ومن أولئك جميع، كذاك وقد جاءت الدواب جملة لجميع الناس والحيوان فى آية أخرى قال «وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها» (11/ 6) ثم هذه الآية ملخصة مفرقة فجاءت الدواب ما خلا الناس والإبل «5» .

---

(1) . - 1 - 2 «والحرور . . . بالنهار» : قال ابن السكيت فى إصلاح المنطق (ص 368 : قال أبو عبيدة السموم بالنهار «وقد يكون بالليل وقد يكون بالنهار قال العجاج:

ونسجت . . .

الشطر. وانظر الطبري 22/ 75. [. . . . .]

(2) . - 748 : الأشطار للعجاج (فى ديوانه ص 27) وفى اللسان بعضها فى مادة (حرر) وبعضها فى (رقق) .

(3) . - 3 «زرقران، الذي ورد فى الفروق: لم أقف عليه فى القواميس لعله مصحف من رقرقان كما هو رواية الديوان واللسان، معناه من ترقرق السراب أي أتحرك.

(4) . - 7 «الغربيب . . . غربيب» : رواه القرطبي (14/ 342 - 343) عن أبى عبيدة.

(5) . - 749 : دون الرجز فى الأغانى 4/ 181 والخزانة 3/ 283 .

«وَأَقامُوا الصَّلاةَ» (29) مجازه: ويقيمون الصلاة ومعناه: وأداموا الصلاة لمواقيتها وحدودها . .

«تِجارَةً لَنْ تَبُورَ» (29) أي لن تكسد وتهلك ويقال: نعوذ باللّه من بوار الأيم «1» ويقال: بار الطعام وبارت السوق . .

«مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ» (31) أي لما كان قبله وما مضى . .

«أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ» (34) وهو الحزن مثل البخل والبخل والنّزل والنّزل . .

«لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا» (36) منصوب لأن معناه: «ليموتوا» وليس مجازه مجاز الإخبار لأنهم أحياء لا يموتون فيقضى عليهم. وقال الخليل لم ينصب فعل قط إلا على معنى «أن» وموضعها وإن أضمروها فقيل له قد نصبوا ب «حتى» و«كى» و«لن» و«اللام المكسورة» فقال: العامل فيهن «أن» «2» «3»

---

(1) . - 3 - 4 «لا نعوذ . . . الأيم»: كما فى اللسان (بور) معناه: كسادها وهو أن تبقى المرأة فى بيتها لا يخطبها خاطب.

(2) . – 750 : ديوانه ص 585 .

(3) . – 751 : ديوانه ص 17 وكتاب الخيل لأبى عبيدة ص 163 واللسان (هزج) .

*(171/638)*

---

«أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ» (37) مجاز الألف هاهنا مجاز التقرير وليس باستفهام والواو التي بعدها مفتوحة لأنها ليست بواو «أو» ومجاز «ما» هاهنا مجاز المصدر : أو لم نعمّركم عمرا يتذكر فيه «مَنْ تَذَكَّرَ» (37) أي يتوب ويراجع . .

«إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا» (41) مجازه مجاز قوله «أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما» (21/ 30) ثم جاء .

«وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ» (41) مجازه : لا يمسكهما أحد و«إن» فى موضع آخر معناه معنى «ما» «وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ» (14/ 6) معناه : «ما كان مكرهم لتزول منه الجبال» . .

«وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» (43) مجازه : لا ينزل ولا يجاوز ولا يحيط إلّا بأهله . .

«فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ» (43) مجازه : إلّا دأب الأولين وفعلهم وصنيعهم وله

موضع آخر كقولك : هل ينظرون إلّا أن يلقوا مثل ما لقى الأولون من الموت وصنوف العذاب والتغيير .

«فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ» (43) أي فى خلقه الأولين والآخرين «تبديلا» . .

«وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ» (44) أي ليسبقه ولا يفوته ولا يخفى عليه . .

«وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى» (45) مجاز «يؤاخذ» يعاقب ويكافئ ومجاز دابة هاهنا إنسان و«من» من حروف الزوائد «على ظهرها» أي ظهر الأرض ولم يظهرها وأظهر كنايتها . انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 152. 156 ﴾

*(172/638)*

---

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها الملائكة «1» عليهم السلام

[سورة فاطر (35) : آية 10]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ

يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (10)

قوله سبحانه: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ [10] وهذه استعارة.

وليس المراد أن هناك على الحقيقة شيئا يوصف بالصعود، ويرتقى من سفال إلى علو.

وإنما المراد أن القول الطيب والعمل الصالح متقبلان عند اللّه تعالى، واصلان إليه سبحانه.

بمعنى أنهما يبلغان رضاه، وينالان زلفاه. وأنه تعالى لا يضيعهما ولا يهمل الجزاء عليهما.

وهذا كقول القائل لغيره: قد ترقّى الأمر إلى الأمير. أي بلغه ذلك على وجهه، وعرفه على حقيقته. وليس يريد به الارتقاء الذي هو الارتفاع، وضده الانخفاض.

ووجه آخر: قيل إن معنى ذلك صعود الأقوال والأعمال إلى حيث لا يملك الحكم فيه إلا اللّه سبحانه. كما يقال: ارتفع أمر القوم إلى القاضي. إذا انتهوا إلى أن يحكم بينهم، ويفصل خصامهم. ووجه آخر: قيل إن اللّه سبحانه لما كان موصوفا بالعلو على طريق الجلال والعظمة، لا على طريق المدى والمسافة، فكل ما يتقرب به إليه من قول زكى، وعمل مرضى فالإخبار «2» عنه يقع بلفظ الصعود والارتفاع، على طريق المجاز والاتساع.

[سورة فاطر (35): آية 18]

وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (18)

وقوله سبحانه: وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى [18]

---

(1) هى سورة فاطر. وهى السورة الخامسة والثلاثون من القرآن. وقد ذكرت الملائكة فيها فى قوله تعالى فى أولها: «الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ، يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ، إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

[.....]

(2) فى الأصل «والأخبار» بالواو. والفاء هنا هى الصحيح.



---

وقد مضى نظير هذا الكلام فى الأنعام، وفى بنى إسرائيل، وتركنا الإشارة إليه هناك لما جاءت فى هذا الموضع زيادة حققت الكلام بالاستعارة، فاحتجنا إلى العبارة عنها أسوة بنظائرها «1». فنقول: إن قوله سبحانه:

وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أي لا تحمل حاملة حمل غيرها يوم القيامة. يقال: وزر، يزر وزرا. إذا حمل. والاسم الوزر. ومن ذلك أخذ اسم الوزير، لأنه حامل الثّقل

عن الأمير. والمعنى: ولا يحمل مذنب ذنب غيره، ولا يؤخذ بجرمه وجنايته.

والزيادة فى هذا الموضع قوله تعالى: وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى فشبّه تعالى استغاثة المثقّل من الآثام باستغاثته من الإعياء.

لأن من عادة من تلك حاله أن يطلب من يشاطره الحمل، ويخفف عنه الثّقل. فأما فى ذلك اليوم فلا يهم كلّ امرئ إلا نفسه، ولا يعنيه «2» إلا أمره، ولا يعين أحد أحدا، ولا يخفف مدعوّ من داع ثقلا، ولو كان أولى الناس بأمره، وأقربهم التياطا به، وانتياطا «3» بنسبه.

وإنما قاله سبحانه: مثقلة. ولم يقل: مثقل. لأنه ردّ ذلك إلى النفس، ولم يردده إلى الشخص.

[سورة فاطر (35): آية 43]

اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (43)

وقوله سبحانه: وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ [43] وهذه استعارة.

---

(1) فى الأصل «نظائرها» بدون باء. وهو تحريف من الناسخ.

(2) فى الأصل: «ولا يعينه» من الإعانة. وهو تحريف.

(3) انتاط به: أي تعلق به. ولاحظ هنا الجناس الناقص بين التياط وانتياط. وذلك من براعات الشريف الرضى.

(174/638)

---

والمراد أن اللّه سبحانه يعاقب المشركين على مكرهم بالمؤمنين، فكأنما مكروا بأنفسهم، ووجّهوا الضرر إليهم، لا إلى غيرهم، إذ كان المكر عائدا بالوبال عليهم. ومعنى لا يحيق أي لا يحلّ «1»، ولا ينزل، ولا يحيط إلا بهم.

وهذه الألفاظ كلها بمعنى واحد. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تلخيص البيان ص 269.

271 ﴾

---

(1) فى الأصل: «لا يجعل» وهو تحريف من الناسخ.

(175/638)

---

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى:

## سورة فاطر

سورة فاطر آخر السور المبدوءات بحمد الله . وإسناد الحمد لله من الباقيات الصالحات ، وهو شائع فى أثناء السور وخواتيمها . ومن أولى من الله بالحمد فى الأولى والآخرة ؟ " الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع . . . " . الفاطر الخالق والملائكة أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة ، شأنهم الخير والطاعة والعلم والقدرة على الأعمال الشاقة ، ومسكنهم السموات . هكذا قال صاحب المقاصد . وظاهر أنهم ينفذون مراد الله فى مخلوقاته ، فهناك ملائكة للموت ، وأخرى للحياة والولادة ، وأخرى للإحصاء والرقابة . وقدراتهم التى زودهم الله بها متفاوتة تفاوتا بعيدا . والآية هنا تجعل الأجنحة مثنى وثلاث ورباع . وفى السنة تكون الأجنحة مئات حينا ، وألوفا حينا آخر ! ! " يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير " . وسورة فاطر تشبه سورة النحل فى أنها إحصاء للنعم ، وبيان فضل الله على خلقه فى طورى الإيجاد والإمداد . وقد بدأت بهذا القانون القاطع " ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم " . والبشر أحوج أهل الأرض إلى معرفة هذا القانون ، فهم يحسبون منابع الخيرات تسيل بعيدا عن الله ، وهم يتوهمون قوة فى الأصفار التى لا وجود لها ، وهم يضطربون يمنة ويسرة بمشاعر رعناء ! فما تقول فيمن يخشى حمامة ويجرؤ على الأسد ؟ ! أهذا صاحب

عقل ؟ ولذلك جاءت الآية عقب هذا القانون " يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون " .

(176/638)

---

من غير الله مصدر النعم ؟ من المفضل على عباده بما يثلج صدورهم ؟ فى الحديث الشريف " اللهم ما أصبح بى من نعمة ، أو بأحد من خلقك ، فمنك وحدك لا شريك ، لك فلك الحمد ولك الشكر " . إن الإيمان لا يتم إلا بهذا الشعور الغامر ، الشعور بأن من " وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم " . هو ولى النعم وسائق الخيرات . . . إن شيوع الشرك بين الناس مصدره موت هذه العقيدة مما جعل الناس يهابون الذباب وينسون رب الأرباب . وهل يعربد الجبارون فى الأرض إلا لفراغ الأفئدة من هذا الإيمان ؟ ومن ثم تكرر نداء الناس مرة ثانية ليلتفتوا إلى هذه البديهية " يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور * إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير " . إن الله ألهم محمدا هذا الكتاب ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وهو يتلوه على الناس ليرشدوا فمن استجاب نجا " وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور " وقد رفض المشركون عقيدة التوحيد

والبعث ، ولقى الرسول ! من قومه عنادا وخصومة ، فقيل له مرة أخرى: " وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير * ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير " . لكن هذا الأخذ لا يتم على عجل ، فإن الله يمهل العباد أمدا قد يطول ، حتى يصحى النائم ويعقل الأحمق . " ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا " . يعلم من استفاد من الإمهال فتاب ، ومن اغتر به فهوى . وقد كشفت الآيات قبل ذلك أن هناك من يحسب الإمهال ! إهمالا ، فلا يزيده الصبر إلا عمى عن الطريق: " أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون " .

(177/638)

---

لقد كان النبى شديد الأسى لكفر من كفر إنه يبذل جهده تذكرة وتبصرة ، ولكن لا يهلك على الله إلا هالك كره الحق وآثر الغى . ومن هنا جاء النداء الثالث والأخير فى هذه السورة " يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز " . إن الله لا يعز عليه شىء ، فهو قدير على محو

العالم بما فيه ومن فيه ، والإتيان بعالم آخر أزكى وأتقى . . ! وأمام الناس خيار بين الجور والعدل ، بين الذل والعز ، بين الوفاء لله والغدر بعهده " من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور " . وتمضى السورة تكشف طورى الإيجاد والإمداد ، فالله مرسل الريح تثير السحب ، وهو منشئ البحرين: هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج . " والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا . . . " . ومع ذلك فأعداد من الناس تنطلق فى دروب الحياة كالكلاب الضالة لا تعرف لها ربا ولا تؤدى له حقا ، ولا تزال تائهة حتى يخترمها طلق نارى ينتهى بعده تشردها وتمردها . يكاد الإجماع ينعقد بين الخبراء بالأديان على أن الإسلام قام على الفكر فى الكون والبصر بالحياة ، وأنه دعوة حارة إلى التأمل فى العالم وتدبر آياته وقواه وكشف أسراره وقوانينه . إن التفكر فى ذات الله مستحيل ، فلم يبق سبيل إلى معرفة عظمته إلا من متابعة آياته فى مخلوقاته ، وهى دليل لا يكذب على علمه وقدرته وجلاله وجماله . إنه على مسافة خطوات محدودة من الأرض ترى زروعا مختلفة الطعوم والألوان والروائح تخرج جميعا من طينة واحدة ، فإذا رفعت عينك إلى السماء وجدت شمسا ساطعة وقمرا منيرا ونجوما مبعثرة فى الآفاق على أبعاد سحيقة تدل على عالم ضخم فخم . . وليس هذا كله إلا أثر رب كبير . ومن هذا المنطلق

، تتلو قوله تعالى: " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال



---

جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور " .

وسياق الآية ظاهر فى أن المقصود بالعلماء هنا علماء النبات والحيوان وعلماء طبقات الأرض ، وعلماء الفيزياء والكيمياء ، فضلا عن علماء الطب والهندسة والفلك . لقد تتبعنا أقوال هؤلاء وسمعنا حديثهم عن الله تبارك وتعالى ، فإذا هم يذكرون عظيما أهلا للتحميد والتمجيد ، والإفراد بالعبودية . وفى كل شىء له آية - تدل على أنه الواحد . . . وعلى هذا المحور تدور معانى القرآن . فالإيمان وليد عقل ذكى باحث ، والدين ليس إلا عقلا مؤمنا وقلبا استقرت إلى الله وجهته ! وقد حملت الأمة الإسلامية حقائق الدين فى إطار هذا المعنى ، وطلب منها أن تمثله بين الناس . قال تعالى: " ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير " . وقد سبق العرب غيرهم فى حمل رسالات الله إلى الناس ، وكان بنو

إسرائيل آخر الأجناس التى بلغت الوحى ، ولكن أثرتهم غلبتهم ، فاستغلوا الوحى لخدمة شهواتهم ودعم غرورهم ، فغضب الله عليهم وصرف عنهم الوحى إلى آخر الدهر .

واختار العرب لأداء هذه الأمانة ! ! وقد بينت الآية هنا أن العرب انقسموا ثلاث فرق ، فرقة ظالمة لنفسها بالعصيان والتفريط ، وفرقة مقتصدة تكتفى بما تيسر لها من صالحات وقد تخلطه ببعض السيئات ، وفرقة أسلمت لله وجهها ، وأسرعت فى مرضاته فسبقت سبقا بعيدا . والحق أن قيمة أية أمة والحكم عليها يتبعان الجو السائد ، ويرجعان إلى غلبة إحدى هذه الفرق على صاحبتيها ! ! والأمر خطير إذا كانت كثرة الأمة من الظالمين لأنفسهم أو من المقتصدين . . إن العقاب الإلهى يكون شديدا ، وقد تخسر الأمة كلها العناصر التى رجحت كفتها ، وأورثتها فضل الاختيار ، فهل يعى المسلمون هذا ؟ وهل نستطيع نحن المسلمين تربية أنفسنا وإبلاغ رسالتنا إذا



---

جئنا إلى هذه الآية وما يشبهها فقلنا : " أمة محمد أورثهم الله كل كتاب أنزله ، فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب " ، كما روى عن ابن عباس ! إن شيوع هذه المجازفات

أفسد العوام ! وجعل المسلمين آخر الأمم حضارة وجدوى ! ونحن نستصحب هذا الشعور المرير عندما نقرأ قوله تعالى بعد ذلك " وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا * استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا " . لقد تكرر هذا المعنى ثلاث مرات فى القرآن الكريم ، هنا فى فاطر وفى سورة الأنعام وفى سورة الصافات . والمراد فى المواضع كلها التنديد بعرب الجاهلية الذين ذهبوا بأنفسهم ، وازدروا أهل الكتاب الأولين ، وقالوا لو أن لنا كتابا لكنا أهدى منهم ، فها قد جاءكم كتاب ، فماذا فعلتم به ؟ أشهد أن سلفنا الصالح طوفوا بالوحى الآفاق ، وكانوا بسيرتهم وخلائقهم نماذج تغرى باعتناقه ، لكن العرب سرعان ما غلبتهم طبائعهم النزقة ؟ فانحرفوا عن صراط الله ، واستهانوا بوصايا القرآن وأغرقوا فى طاعة هواهم . ونسمع الآن منهم فخرا بقوميتهم ، ونرى انسلاخا عن الميراث الذى اصطفاهم الله له ، فما يرقبون بعد هذه الردة ؟ إن علاقة الناس بالله أساسها ولاؤهم له أو تمردهم عليه ، ولذلك يقول محذرا " أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا " . ألا ليت العرب يعلمون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 335 . 339 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والثلاثون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الأربعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة فاطر

وحتى الآية ﴿ 11 ﴾ من نفس السورة

(4/639)

---

( فى رياض آيات السورة الكريمة )

(5/639)

---

" فصل "

قال السيوطى :

سورة فاطر

أقول : مناسبة وضعها بعد سبأ تآخيهما في الافتتاح بالحمد ، مع تناسبهما في المقدار وقال

بعضهم: افتتاح سورة فاطر بالحمد مناسب لختام ما قبلها ، من قوله: (وحيل بينَهُم وبينَ ما

يشتهون كما فعلَ بأشياعهم من قبلهم) فهو نظير اتصال أول الأنعام بفصل القضاء المختتم به المائدة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 127﴾

(6/639)

---

قوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي أحاط دائرة قدرته بالممكنات (الرحمن) الذي أتم بالبعث عموم الرحمة (الرحيم) الذي شرف أهل الكرامة بدوام الإقامة في دار المقامة.

(7/639)

ولما أثبت سبحانه في التي قبلها الحشر الذي هو الإيجاد الثاني ، ودل عليه بجزئيات من القدرة على أشياء في الكون ، إلى أن ختم بأخذ الكفار أخذاً اضطرهم إلى الإيمان بظهور الحمد لهم أتم الظهور ، وبالحيلولة بينهم وبين جميع ما يشتهون كما كانوا متعوا في الدنيا بأغلب ما يشتهون من كثرة الأموال والأولاد ، وما مع ذلك من الراحة من أكثر الأنكاد ، وكان الحمد يكون بالمنع والإعدام ، كما يكون بالإعطاء والإنعام ، قال تعالى ما هو نتيجة ذلك :

﴿ الحمد ﴾ أي الإحاطة بأوصاف الكمال إعداماً وإيجاداً ﴿ لله ﴾ أي وحده .

ولما كان الإيجاد من العدم أدل على ذلك ، قال دالاً على استحقاقه للمحامد : ﴿ فاطر ﴾ أي مبتدئ ومبتدع ﴿ السماوات والأرض ﴾ أي المتقدم أن له ما فيهما بأن شق العدم بإخراجهما منه ابتداء على غير مثال سبق كما تشاهدون ولما كانت الملائكة إفراداً وجمعاً مثل الخافقين في أن كلاًّ منهم مبدع من العدم على غير مثال سبق من غير مادة ، وكان قد تقدم أنهم يتبرؤون من عبادة الكفرة يوم القيامة ، وكان لا طريق لعامة الناس إلى معرفتهم إلا الخبر ، أخبر عنهم بعد ما أخبر عما طريقه المشاهدة بما هو الحق من شأنهم ، فقال مبيناً بتفاوتهم في الهيئات تمام قدرته وأنها بالاختيار : ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ أي لما شاء من مراده وإلى ما شاء من عباده ظاهرين للأنبياء منهم ومن لحق بهم وغير ظاهرين ﴿ أولي أجنحة ﴾ أي تهيؤهم لما يراد منهم ؛ ثم وصف فيه إلى أكثر من ذلك ، ولعل ذكره للتنبيه

على أن ذلك أقل ما يكون بمنزلة اليدين .

ولما كان ذلك زوجاً نبه على أنه لا يتقيد بالزوج فقال : ﴿ وثلاث ﴾ أي ثلاثة ثلاثة لآخرين منهم .

ولما كان لو اقتصر على ذلك لظن الحصر فيه ، نبه بذكر زوج الزوج على أن الزيادة لا تنحصر فقال : ﴿ ورباع ﴾ أي أربعة لكل واحد من صنف آخر منهم .

(8/639)

---

ولما ثبت بهذا أنه فاعل بالاختيار دون الطبيعة وغيرها ، وإلا لوجب كون الأشياء غير مختلفة مع اتحاد النسبة إلى الفاعل ، كانت نتيجة ذلك : ﴿ يزيد في الخلق ﴾ أي المخلوقات من أشياء مستقلة ومن هيئات للملائكة وخفة الروح واللطافة والثقالة والكثافة وحسن الصوت والصيت والفصاحة والسذاجة والمكر والسخارة والبخل وعلو الهمة وسفولها - وغير ذلك مما يرجع إلى الكم والكيف مما لا يقدر على الإحاطة به غيره سبحانه ، فبطل قول من قال : أنه فرغ من الخلق في اليوم السابع عند ما أتم خلق آدم فلم يبق هناك زيادة ، كاليهود وغيرهم على أن لهذا المذهب من الضعف والوهي ما لا يخفى غير أنه سبحانه أوضح جميع السبل ولم يدع بشيء منها لبساً : ﴿ ما يشاء ﴾ فلا بدع في أن يوجد داراً

أخرى تكون لدينونة العباد ، ثم علل ذلك كله بقوله مؤكداً لأجل إنكارهم البعث : ﴿ إن الله ﴾ أي الجامع لجميع أوصاف الكمال ﴿ على كل شيء قدير ﴾ فهو قادر على البعث فاعل له لا محالة .

*(9/639)*

---

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما أوضحت سورة سبأ أنه سبحانه مالك السماوات والأرض ، ومستحق الحمد في الدنيا والآخرة ، أوضحت هذه السورة أن ذلك خلقه كما هو ملكه ، وأنه الأهل للحمد والمستحق ، إذ الكل خلقه وملكه ، ولأن السورة الأولى تجردت لتعريف العباد بأن الكل ملكه وخلقه دارت آيها على تعريف عظيم ملكه ، فقد أعطي داود وسليمان عليهما السلام ما هو كالنقطة من البحار الزاخرة ، فلان الحديد وانقادت الرياح والوحوش والطير والجن والإنس مذللة خاضعة ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ﴾ [ سبأ : 22 ] تعالى ربنا عن الظهير والشريك والند ، وتقدس ملكه عن أن تحصره العقول أو تحيط به الأفهام فتجردت سورة سبأ لتعريف العباد بعظيم ملكه سبحانه ، وتجردت هذه الأخرى للتعريف بالاختراع والخلق ، ويشهد لهذا استمرار آي

سورة فاطر على هذا الغرض من التعريف وتنبيهها على الابتداءات كقوله تعالى ﴿ جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى ﴾ الآية ، وقوله ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها هل من خالق غير الله يرزقكم ﴾ وقوله : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ الله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً ﴾ الآية ﴿ والله خلقكم من تراب يولج الّيل في النهار ويولج النهار في الّيل ﴾ ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾ ﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ ﴿ إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ﴾ فهذه عدة آيات معرفة بابتداء الخلق ، والاختراع أو مشيرة ولم يقع من ذلك في سورة سبأ آية واحدة ، ثم إن سورة سبأ جرت آيها على نهج تعريف الملك والتصرف فيه والاستبداد بذلك والإبداد ، وتأمل افتتاحها وقصة داود وسليمان عليهما السلام ، وقوله سبحانه ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثال ذرة ﴾ الآيات يتضح لك ما

(10/639)

---

ذكرناه وما انجرّ في السورتين مما ظاهره الخروج من هاذين الغرضين فملتحم ومستدعى بحكم الانجرار بحسب استدعاء مقاصد الآي - رزقنا الله الفهم عنه بمنه وكرمه -

انتهى.

ولما وصف سبحانه نفسه المقدس بالقدرة الكاملة، دل على ذلك بما يشاهده كل أحد في نفسه من السعة والضيق مع العجز عن دفع شيء من ذلك أو اقتناصه، فقال مستأنفاً أو معللاً مستنتجاً: ﴿ما﴾ أي مهما ﴿يفتح الله﴾ أي الذي لا يكافئه شيء.

ولما كان كل شيء من الوجود لأجل الناس قال: ﴿للناس﴾ ولما كان الإنعام مقصوداً بالذات محبوباً، وكانت رحمته سبحانه قد غلبت غضبه، صرح به فقال مبيناً للشرط في موضع الحال من ضميره أي يفتحه كائناً: ﴿من رحمة﴾ أي من الأرزاق الحسية والمعنوية من اللطائف والمعارف التي لا تدخل تحت حصر دقت أو جلت فيرسلها ﴿فلا ممسك لها﴾ أي الرحمة بعد فتحه كما يعلمه كل أحد في نفسه أنه إذا حصل له خير لا يعدم من يود أنه لم يحصل، ولو قدر على إزالته لأزاله، ولا يقدر على تأثير ما فيه.

ولما كان حبس النعمة مكروهاً لم يصرح به، وترك الشرط على عمومه بعد أن فسر الشرط الأول بالرحمة دلالة على مزيد الاعتناء بها إيذاناً بأن رحمته سبقت غضبه فقال: ﴿وما يمسك﴾ أي من رحمة أو نعمة بإغلاق باب الخلق عنه ﴿فلا مرسل له﴾ أي الذي أمسكه بمثل البرهان الماضي في الرحمة.

ولما كان ربما ادعى فجوراً حال إمساك الرحمة أو النقمة أنه هو الممسك قال: ﴿من بعده﴾ أي بعد إمساكه، فمن كان في يده شيء فليمسك ما أتى به الله حال إيجاده بأن

يعدمه .

ولما كان هذا ظاهراً في العزة في أمر الناس والحكمة في تدبيرهم عمم فقال : ﴿ وهو ﴾ أي هو فاعل ذلك والحال أنه وحده ﴿ العزيز ﴾ أي القادر على الإمساك والإرسال الغالب لكل شيء ولا غالب له ﴿ الحكيم ﴾ الذي يفعل في كل من الإمساك والإرسال وغيرهما ما يقتضيه علمه به ويتقن ما أراد على قوانين الحكمة ، فلا يستطاع نقض شيء منه .

(11/639)

---

ولما بيّن بما يشاهده كل أحد في نفسه أنه المنعم وحده .

أمر بذكر نعمته بالاعتراف أنها منه ، فإن الذكر يقود إلى الشكر ، وهو قيد الموجود وصيد المعدوم المفقود ، فقال : ﴿ يا أيها الناس ﴾ أي الذين فيهم أهلية الاضطراب عامة ﴿ اذكروا ﴾ بالقلب واللسان ﴿ نعمت الله ﴾ أي الذي لا منعم في الحقيقة سواه ، ولما كانت نعمة عامة غامرة من كل جانب قال : ﴿ عليكم ﴾ أي في دفع ما دفع من المحن ، وصنع ما صنع من المنن ، على ما تقدم في الفتح والإمساك لتشكروه ولا تكفروه ، والذي يخص أهل مكة بعد ما شاركوا به الناس - إسكانهم الحرم ، وحفظهم من جميع الأمم ، وتشريفهم بالبيت ، وذلك موجب لأن يكونوا أشكر الناس .

ولما أمر بذكر نعمته ، أكد التعريف بأنها منه وحده على وجه بين عزته وحكمته ، فقال منبهاً لمن غفل ، وموبخاً لمن جحد ، وراداً على أهل القدر الذين ادعوا أنهم يخلقون أفعالهم ، ومنبهاً على نعمة الإيجاد الأول : ﴿ هل ﴾ ولما كان الاستفهام بمعنى النفي أكده ب ﴿ من ﴾ فقال : ﴿ من خالق ﴾ أي للنعم وغيرها ، ولما كانت ﴿ من ﴾ للتأكيد ، فكان ﴿ خالق ﴾ في موضع رفع ، قرأ الجمهور قوله : ﴿ غير الله ﴾ بالرفع ، وجره حمزة والكسائي على اللفظ ، وعبر بالجلالة إشارة إلى أنه المختص بصفات الكمال .

ولما كان الجواب قطعاً : لا ، بل هو الخالق وحده ، قال منبهاً على نعمة الإبقاء الأول : ﴿ يرزقكم ﴾ أي وحده .

ولما كانت كثرة الرزق كما هو مشاهد مع وحدة المنبع أدل على العظمة قال : ﴿ من السماء والأرض ﴾ بالمطر والنبات وغيرهما .

ولما بين أنه الرزاق وحده انقطع أمل كل أحد من غيره حتى من نفسه فحصل الإخلاص فتعين أنه سبحانه الإله وحده فقال : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ فتسبب الإنكار على من عبد غيره ظاهراً أو باطناً فقال : ﴿ فأنى ﴾ أي فمن أيّ وجه وكيف ﴿ تؤفكون ﴾ أي تصرفون وتقلبون عن وجه السداد في التوحيد بهذه الوجوه الظاهرة إلى الشرك الذي لا وجه له .

ولما قررهم على ما تقدم وختم بالتوحيد الذي هو الأصل الأول من أصول الدين ، نبه على أنه المقصود بالذات بذكر ما يعقبه في الأصل الثاني ، وهو الرسالة من تصديق وتكذيب ، فقال ناعياً على قريش سوء تلقيهم لآياته ، وطعنهم في بيناته ، مسلياً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، عاطفاً على ما تقديره : فإن يصدقوك فهم جديرون بالتصديق لما قام على ذلك من الدلائل ، وشهد به من المقاصد والوسائل : ﴿ وإن يكذبوك ﴾ أي عناداً وقلة اكتراث بالعواقب فتأسّ بإخوانك ﴿ فقد ﴾ أي بسبب أنه قد ﴿ كذبت رسل ﴾ أي يا لهم من رسل ! وبني الفعل للمجهول لأن التسلية محطها ، وقوع التكذيب لا تعيين المكذب ، ونفى أن يرسل غيره بعد وجوده بقوله : ﴿ من قبلك ﴾ وأفرد التكذيب بالذكر اهتماماً بالتسلية تنبيهاً على أن الأكثر يكذب ، قال القشيري : وفي هذا إشارة للحكماء وأرباب القلوب مع العوام والأجانب من هذه الطريقة فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل ، وأهل الحقائق أبداً منهم في مقاساة الأذية ، والعوام أقرب إلى هذه الطريقة من القراء المتقشفين .

ولما كان التقدير نفياً للتعجب من التكذيب الجاري على غير قياس صحيح : فمن الله الذي لا أمر لأحد معه تصدر الأمور ، عطف عليه قوله مهدداً لمن خالف أمره : ﴿ وإلى الله ﴾ أي وحده له الأمور كلها ﴿ ترجع الأمور ﴾ أي حساً ومعنى ، فاصبر ورد الأمر

إلينا بترك الأسباب إلا ما نأمرك به كما فعل إخوانك من الرسل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 6 صـ 199 . 204﴾

*(13/639)*

---

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ غيرُ الله ﴾ بالجر : يزيد وحمزة وعليّ . الآخرون : بالرفع حملاً على المحل ﴿ فلا تذهب ﴾ من الإذهاب ﴿ نفسك ﴾ منصوباً : يزيد . الآخرون : بفتح التاء والهاء من الذهاب ﴿ نفسك ﴾ مرفوعاً : ﴿ الريح ﴾ على التوحيد : ابن كثير وحمزة وعلي وخلف ﴿ ولا ينقص ﴾ بفتح الياء وضم القاف : روح وزيد . الباقون : بالعكس . ﴿ من عمره ﴾ باختلاس الضمة : عباس ﴿ والذين يدعون ﴾ على الغيبة : قتيبة .

الوقوف : ﴿ ورباع ﴾ ط ﴿ يشاء ﴾ ط ﴿ قدير ﴾ 5 ﴿ لها ﴾ ج ﴿ بعده ﴾ ط ﴿ الحكيم ﴾ 5 ﴿ عليكم ﴾ ط ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ إلا هو ﴾ ز للاستفهام ولفاء التعقيب وإتحاد المعنى ﴿ تؤفكون ﴾ 5 ﴿ قبلك ﴾ ط ﴿ الأمور ﴾ 5 ﴿ الغرور

﴿ 5 ﴾ عدوّاً ﴿ ط ﴾ السعير ﴿ 5 ط لأن ﴾ الذين ﴿ مبتدأ. ﴾ شديد ﴿ 5
﴾ كبير ﴿ 5 ﴾ حسناً ﴿ ط لحذف الجواب ﴾ حسرات ﴿ ط ﴾ يصنعون ﴿ 5
﴾ موتها ﴿ ط ﴾ النشور ﴿ 5 ﴾ جميعاً ﴿ ط ﴾ يرفعه ﴿ ط ﴾ شديد ﴿ 5
﴾ يبور ﴿ 5 ﴾ أزواجاً ﴿ ط ﴾ بعلمه ﴿ ط ﴾ في كتاب ﴿ ط ﴾ يسير ﴿ 5
﴾ أجاج ﴿ ط ﴾ تلبسونها ﴿ ج لانقطاع النظم مع اتفاق المعنى ﴾ تشكرون ﴿ 5
﴾ مسمى ﴿ ط ﴾ الملك ﴿ ط ﴾ قطمير ﴿ 5 ﴾ دعاءكم ﴿ ج للشرط مع
العطف ﴾ لكم ﴿ ط ﴾ بشرككم ﴿ ط ﴾ خبير ﴿ 5 ﴾ إلى الله ﴿ ط لاتفاق
الجملتين مع حسن الفصل بين وصفي الخالق والمخلوق ﴾ الحميد ﴿ 5 ﴾ جديد ﴿ 5
ج لاحتمال ما بعده الاستئناف والحال ﴾ بعزيز ﴿ 5 ﴾ أخرى ﴿ ط لاستئناف
الشرط ﴾ قربى ﴿ ط ﴾ الصلاة ﴿ ط ﴾ لنفسه ﴿ ط ﴾ المصير ﴿ 5 ﴾
والبصير ﴿ 5 لا ﴾ ولا النور ﴿ 5 لا ﴾ ولا الحرور ﴿ 5 ج للطول والتكرار ﴾
الأموات ﴿ ط ﴾ يشاء ﴿ ج للعطف مع الإثبات إلى النفي مع اتفاق الجملتين ﴾ القبور
﴿ 5 ﴾ إلا نذير ﴿ 5 ﴾ ونذيراً ﴿ ط ﴾ نذير ﴿ 5 ﴾ من قبلهم ﴿ ج لاحتمال ما
بعده الحال والاستئناف ﴾ المنير ﴿ 5 ﴾ نكير ﴿ 5. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب
القرآن حـ 5 صـ 506. 507 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ الحمد للَّهِ فَاطِرِ السموات والأرض جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾

قد ذكرنا فيما تقدم أن الحمد يكون على النعمة في أكثر الأمر ، ونعم الله قسمان : عاجلة وآجلة ، والعاجلة وجود وبقاء ، والآجلة كذلك إيجاد مرة وإبقاء أخرى ، وقوله تعالى :

﴿ الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ السموات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [ الأنعام : 1 ]

إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإيجاد ، واستدللنا عليه بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مّن طِينٍ ثُمَّ قضى أَجَلاً ﴾ [ الأنعام : 2 ] وقوله في الكهف : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾ [ الكهف : 1 ] إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإبقاء ، فإن البقاء والصلاح بالشرع والكتاب ، ولولاه لوقعت المنازعة والمخاصمة بين الناس ولا يفصل بينهم ، فكان يفضي ذلك إلى التقاتل والتفاني ، فإنزال الكتاب نعمة يتعلق بها البقاء العاجل ، وفي قوله في سورة سبأ : ﴿ الحمد للَّهِ الذي لَهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض وَلَهُ الحمد فِى الآخرة ﴾ [ سبأ : 1 ] إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني بالحشر ، واستدللنا عليه بقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِى الأرض ﴾ من الأجسام ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السماء ﴾ من الأرواح ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [ سبأ : 2 ] وقوله عن الكافرين : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ

تَأْتِينَا الساعةُ قُلْ بلى ورَبِّي ﴾ [ سبأ : 3 ] وههنا الحمد إشارة إلى نعمة البقاء في الآخرة ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ أي يجعلهم رسلاً يتلقون عباد الله ، كما قال تعالى : ﴿ وتتلقاهم الملئكة ﴾ [ الأنبياء : 103 ] وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ فَاطِرِ السموات ﴾ يحتمل وجهين الأول : معناه مبدعها كما نقل عن ابن عباس والثاني : ﴿ فَاطِرِ السموات والأرض ﴾ أي شاقهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ فإن في ذلك اليوم تكون الملائكة رسلاً ، وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر

(15/639)

---

ما مضى ، لأن قوله كما فعل بأشياعهم بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب وتيقنه بأن لا قبول لتوبته ولا فائدة لقوله آمنت .

كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُواْ ءَامَنَّا بِهِ وأنى لَهُمُ التناوش ﴾ [ سبأ : 52 ] فلما ذكر حالهم بين حال الموقن وبشره بإرساله الملائكة إليهم مبشرين ، وبين أنه يفتح لهم أبواب الرحمة .

وقوله تعالى : ﴿ أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أقل ما يكون لذي الجناح أن يكون له

جناحان وما بعدهما زيادة ، وقال قوم فيه إن الجناح إشارة إلى الجهة ، وبيانه هو أن الله تعالى ليس فوقه شيء ، وكل شيء فهو تحت قدرته ونعمته ، والملائكة لهم وجه إلى الله يأخذون منه نعمه ويعطون من دونهم مما يأخذوه بإذن الله ، كما قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ ﴾ [ الشعراء : 193 ، 194 ] وقوله : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ﴾ [ النجم : 5 ] وقال تعالى في حقهم : ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ [ النازعات : 5 ] فهما جناحان ، وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة ، وفيهم من يفعله لا بواسطة ، فالفاعل بواسطة فيه ثلاث جهات ، ومنهم من له أربع جهات وأكثر ، والظاهر ما ذكرناه أولاً وهو الذي عليه إطباق المفسرين .

وقوله تعالى : ﴿ يَزِيدُ فِي الخلق مَا يَشَاءُ ﴾ من المفسرين من خصصه وقال المراد الوجه الحسن ، ومنهم من قال الصوت الحسن ، ومنهم من قال كل وصف محمود ، والأولى أن يعمم ، ويقال الله تعالى قادر كامل يفعل ما يشاء فيزيد ما يشاء وينقص ما يشاء .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يقرر قوله : ﴿ يَزِيدُ فِى الخلق مَا يَشَاءُ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ .

لما بين كمال القدرة ذكر بيان نفوذ المشيئة ونفاذ الأمر ، وقال ﴿ ما يفتح الله للناس ﴾ يعني إن رحم فلا مانع له ، وإن لم يرحم فلا باعث له عليها ، وفي الآية دليل على سبق رحمته غضبه من وجوه : أحدها التقديم حيث قدم بيان فتح أبواب الرحمة في الذكر ، وهو وإن كان ضعيفاً لكنه وجه من وجوه الفضل وثانيها : هو أن أنث الكناية في الأول فقال : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ وجاز من حيث العربية أن يقال له ويكون عائداً إلى ما ، ولكن قال تعالى : ﴿ لَهَا ﴾ ليعلم أن المفتوح أبواب الرحمة ولا ممسك لرحمته فهي وصلة إلى من رحمته ، وقال عند الإمساك ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ ﴾ بالتذكير ولم يقل لها فما صرح بأنه لا مرسل للرحمة ، بل ذكره بلفظ يحتمل أن يكون الذي لا يرسل هو غير الرحمة فإن قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُمْسِكْ ﴾ عام من غير بيان وتخصيص بخلاف قوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ فإنه مخصص مبين وثالثها : قوله : ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد الله ، فاستثنى ههنا وقال لا مرسل له إلا الله فنزل له مرسلاً .

وعند الإمساك الإمساك قال لا ممسك لها ، ولم يقل غير الله لأن الرحمة إذا جاءت لا ترتفع فإن من رحمه الله في الآخرة لا يعذبه بعدها هو ولا غيره ، ومن يعذبه الله فقد يرحمه الله بعد العذاب كالفساق من أهل الإيمان .

ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ أي كامل القدرة ﴿ الحكيم ﴾ أي كامل العلم .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها النَّاسُ اذكروا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ لما بين أن الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التي تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمه على سبيل الإجمال فقال : ﴿ اذكروا نِعْمَتَ اللهِ ﴾ وهي مع كثرتها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد ، ونعمة الإبقاء .

فقال تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ خالق غَيْرُ اللهِ ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد في الابتداء .

(17/639)

---

وقال تعالى : ﴿ يَرْزُقُكُم مِّنَ السماء والأرض ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء .

ثم بين أنه ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ نظراً إلى عظمته حيث هو عزيز حكيم قادر على كل شيء قدير نافذ الإرادة في كل شيء ولا مثل لهذا ولا معبود لذاته غير هذا ونظراً إلى نعمته حيث لا خالق غيره ولا رازق إلا هو .

ثم قال تعالى : ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي كيف تصرفون عن هذا الظاهر ، فكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (4)

ثم لما بين الأصل الأول : وهو التوحيد ذكر الأصل الثاني : وهو الرسالة فقال تعالى : ﴿ وَإِن

يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ .

ثم بين من حيث الإجمال أن المكذب في العذاب .

والمكذب له الثواب بقوله تعالى : ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾ ثم بين الأصل الثالث : وهو الحشر . ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 3 . 5 ﴾

(18/639)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ الحمد لِلَّهِ فَاطِرِ السماوات والأرض ﴾

يجوز في "فاطر" ثلاثة أوجه : الخفض على النعت ، والرفع على إضمار مبتدأ ، والنصب على المدح.

وحكى سيبويه : الحمد لله أهل الحمد ( مثله ) وكذا "جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ" .

والفاطر : الخالق .

وقد مضى في "يوسف" وغيرها .

والفَطْر .

الشق عن الشيء ؛ يقال : فطرته فانفطر .

ومنه : فَطَرَ نابُ البعير طلع ، فهو بعير فاطر .

وتفطّر الشيء تشقق .

وسيف فُطار ، أي فيه تشقق .

قال عنترة :

وسيفي كالعقيقة فهو كِمْعِي . . .

سلاحي لا أَفَلّ ولا فُطَارا

والفطر : الابتداء والاختراع .

قال ابن عباس : كنت لا أدري ما "فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ" حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي أنا ابتدأتها .

والفَطْر .

حلب الناقة بالسبابة والإبهام .

والمراد بذكر السموات والأرض العالم كله ، ونبّه بهذا على أن من قدر على الابتداء قادر على الإعادة .

﴿ جَاعِلِ الملائكة ﴾ لا يجوز فيه التنوين ، لأنه لما مضى .

﴿ رُسُلاً ﴾ مفعول ثان ، ويقال على إضمار فعل ؛ لأن "فاعلاً" إذا كان لما مضى لم يعمل

فيه شيئاً ، وإعماله على أنه مستقبل حذف التنوين منه تخفيفاً .

وقرأ الضحاك "الحمد لله فطر السموات والأرض" على الفعل الماضي .

"جاعِلِ الملائِكةِ رسلاً" الرسل منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، صلى الله عليهم أجمعين .

وقرأ الحسن : "جَاعِلُ الملائكة" بالرفع .

وقرأ خُليد بن نشيط "جعل الملائكة" وكله ظاهر .

﴿ أُوْلِي أَجْنِحَةٍ ﴾ نعت ، أي أصحاب أجنحة .

﴿ مثنى وثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ أي اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة .

قال قتادة : بعضهم له جناحان ، وبعضهم ثلاثة ، وبعضهم أربعة ؛ ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون من الأرض إلى السماء ، وهي مسيرة كذا في وقت واحد ، أي جعلهم رسلاً .

قال يحيى بن سلام : إلى الأنبياء .

وقال السدّي : إلى العباد برحمة أو نقمة .

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح.

وعن الزهري أن جبريل عليه السلام قال له : "يا محمد ، لو رأيت إسرافيل إن له لاثني عشر ألف جناح منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب وإن العرش لعلى كاهله وإنه في الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوَصْع والوصع عصفور صغير حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته" .

و"أُولُو" اسم جمع لذو ، كما أن هؤلاء اسم جمع لذا ، ونظيرهما في المتمكنة : المخاض والخَلِفة .

وقد مضى الكلام في "مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ" في "النساء" وأنه غير منصرف .

﴿ يَزِيدُ فِي الخلق مَا يَشَآءُ ﴾ أي في خلق الملائكة ، في قول أكثر المفسرين ؛ ذكره المهدويّ .

وقال الحسن : "يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ" أي في أجنحة الملائكة ما يشاء .

وقال الزهري وابن جريج : يعني حسن الصوت .

وقد مضى القول فيه في مقدّمة الكتاب .

وقال الهيثم الفارسي : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في منامي ، فقال : "أنت الهيثم الذي تُزّين القرآن بصوتك جزاك الله خيراً" .

وقال قتادة : "يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ" الملاحة في العينين والحسن في الأنف والحلاوة في الفم .

وقيل : الخط الحسن .

وقال مهاجر الكَلاعِي قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الخط الحسن يزيد الكلام وضوحاً " وقيل : الوجه الحسن .

وقيل في الخبر في هذه الآية : هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن ؛ ذكره القُشَيري .

النقاش : هو الشعر الجَعْد .

وقيل : العقل والتمييز .

وقيل : العلوم والصنائع .

﴿ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من النقصان والزيادة .

(20/639)

---

الزمخشري : والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق ؛ من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام في الأعضاء ، وقوة في البطش ، وحصافة في العقل ، وجزالة في الرأي ، وجرأة في القلب ،

وسماحة في النفس ، وذلاقة في اللسان ، ولباقة في التكلم ، وحسن تأتٍّ في مزاولة الأمور ؛ وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف .

قوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ وأجاز النحويون في غير القرآن "فلا ممسك له" على لفظ "ما" و"لها" على المعنى .

وأجازوا "وما يُمْسِك فلا مُرْسِلَ لها" .

وأجازوا "ما يفتحُ الله للناس من رحمة" ( بالرفع ) تكون "ما" بمعنى الذي .

أي إن الرسل بُعثوا رحمة للناس فلا يقدر على إرسالهم غير الله .

وقيل : ما يأتيهم به الله من مطر أو رزق فلا يقدر أحد أن يمسكه ، وما يمسك من ذلك فلا يقدر أحد على أن يرسله .

وقيل : هو الدعاء ؛ قاله الضحاك .

ابن عباس : من توبة .

وقيل : من توفيق وهداية .

قلت : ولفظ الرحمة يجمع ذلك ؛ إذ هي منكر للإشاعة والإبهام ، فهي متناولة لكل رحمة على البدل ، فهو عام في جميع ما ذكر .

وفي موطأ مالك : أنه بلغه أن أبا هريرة كان يقول إذا أصبح وقد مُطر الناس : مُطرنا بَنْوء الفتح ، ثم يتلو هذه الآية ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ .

﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ معنى هذا الذكر الشكرُ.

﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ الله يَرْزُقُكُمْ ﴾ يجوز في "غير" الرفع والنصب والخفض، فالرفع من وجهين: أحدهما: بمعنى هل من خالق إلا الله؛ بمعنى ما خالق إلا الله.

والوجه الثاني: أن يكون نعتاً على الموضع؛ لأن المعنى: هل خالق غير الله، و"من" زائدة.

والنصب على الاستثناء.

والخفض على اللفظ.

(21/639)

---

قال حُميد الطويل: قلت للحسن: من خلق الشر؟ فقال سبحان الله! هل من خالق غير الله جل وعز، خلق الخير والشر.

وقرأ حمزة والكسائي: "هَلْ مِنْ خَالِقٍ غيرِ اللَّهِ" بالخفض.

الباقون بالرفع.

﴿ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السمآء ﴾ أي المطر.

﴿ والأرض ﴾ أي النبات .

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ من الأَفْك ( بالفتح ) وهو الصرف ؛ يقال : ما أفكك عن كذا ، أي ما صرفك عنه .

وقيل : من الإفك ( بالكسر ) وهو الكذب ، ويرجع هذا أيضاً إلى ما تقدم ؛ لأنه قول مصروف عن الصدق والصواب ، أي من أين يقع لكم التكذيب بتوحيد الله .

والآية حجة على القدرية لأنه نفى خالقاً غير الله وهم يثبتون معه خالقين ، على ما تقدم في غير موضع .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ يعني كفار قريش .

﴿ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ يعزِّي نبيّه ويسلّيه صلى الله عليه وسلم ؛ وليتأسّى بمن قبله في الصبر .

﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾ قرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حيوة وابن مُحَيْصِن وحميد والأعمش وحمزة ويحيى والكسائيّ وخلف ( بفتح التاء ) على أنه مسمى الفاعل .

واختاره أبو عبيد لقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأمور ﴾ [ الشورى : 53 ] الباقون "تُرْجَعُ" على الفعل المجهول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

( سورة فاطر مكية وهى خمس وأربعون آية )

﴿ بِسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الحمد للَّهِ فَاطِرِ السموات والأرض ﴾ مبدِعهما من غير مثالٍ يحتذيه ولا قانونٍ ينتحيهِ . من الفَطرِ وهو الشّقّ وقيل الشّقّ طولاً كأنَّه شقّ العدمَ بإخراجِهما منه وإضافته محضة لأنَّه بمعنى الماضي فهو نعتٌ للاسمِ الجليلِ ومن جعلها غيرَ محضةٍ جعله بدلاً منه وهو قليلٌ في المشتقّ . ﴿ جَاعِلِ الملائكة ﴾ الكلامُ في إضافتِه وكونِه نعتاً أو بدلاً كما قبلَه وقوله تعالى : ﴿ رُسُلاً ﴾ منصوبٌ به على الوجهِ الثَّاني من الإضافة بالاتّفاقِ وأمّا على الوجهِ الأوّلِ فكذلك عند الكِسائِي وأمّا عند البصريينَ فبمضمرٍ يدلُّ هو عليه لأنّ اسمَ الفاعلِ إذا كان بمعنى الماضي لا يعملُ عندهم إلا معرّفاً باللام وقال أبو سعيدٍ السِّيرافيُّ : اسم الفاعلِ المتعدّي إلى اثنينِ يعملُ في الثَّاني لإنَّ بإضافتَه إلى الأوّلِ تعذرتْ إضافتُه إلى الثَّاني فتعيّن نصبُه له وعلل بعضُهم ذلك بأنَّه بالإضافة أشبه المعرّفِ باللامِ فعمِل عملَه . وقُرِىء جاعلُ بالرّفعِ على المدح وقُرِىء الذى فَطَرَ السموات والأرض وَجَعَلَ الملائكة أي جاعلهم وسائطَ بينه تعالى وبين أنبيائه والصَّالحينَ من عبادِه يبلّغون إليهم رسالاتِه بالوحي والإلهامِ والرُّؤيا الصَّادقةِ أو بينه تعالى وبين خلقِه أيضاً حيثُ يوصِلون إليهم آثارَ قدرتِه وصنعِه هذا

على تقديرِ كونِ الجعلِ تصييريًّا أمّا على تقديرِ كونِه إبداعيًّا فرُسلاً نُصب على الحاليَّةِ وقُرِئ رُسْلاً بسكونِ السِّينِ ﴿ أُوْلِى أَجْنِحَةٍ ﴾ صفةٌ لرُسلاً وأُولو اسمُ جمعٍ لذُو كما أنَّ أُولاء اسمُ جمعٍ لذا . ونظيرُهما في الأسماءِ المتمكّنة المخاضُ والخلفةُ وقولُه تعالى :

(23/639)

---

﴿ مثنى وثلاث ورُبَاعَ ﴾ صفاتٌ لأجنحة أي ذوي أجنحةٍ متعدِّدةٍ مُتفاوتةٍ في العدد حسب تفاوتِ ما لَهُم من المراتب ينزلون بها ويعرجُون أو يسرعون بها والمعنى أنَّ من الملائكة خَلْقاً لكلِّ واحد منهم جناحانِ وخَلْقاً لكلِّ واحد منهم ثلاثة وخَلْقاً آخر لكلِّ منهم أربعة أجنحة . ويُروى أنَّ صنفاً من الملائكة لهم ستة أجنحة بجناحين منها يُلقون أجسادَهم وبآخرينِ منها يطيرون فيما أُمروا به من جهتِه تعالى وجناحانِ منها مرخيَّانِ على وجوههم حياءً من الله عزَّ وجلَّ ( وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه رأى جبريلَ عليه السَّلامُ ليلةَ المعراجِ وله ستمائة جناح ) ورُوي أنَّه سألَه عليهما السَّلامُ أنْ يترآى له في صورتِه فقال إنَّك لن تطيقَ ذلك قال إنِّي أحبُّ أنْ تفعلَ فخرجَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في ليلةٍ مُقمرةٍ فأتاهُ جبريلُ عليهما السَّلامُ في صورتِه فغُشي عليه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ثمَّ أفاقَ وجبريلُ مسندُهُ وإحدى يديهِ على صدرِه والأخرى بين كتفيه فقال : سبحانَ الله ما كنتُ

أرى أنَّ شيئاً من الخلقِ هكذا فقال جبريل عليه السّلامُ فكيف لو رأيتَ إسرافيلَ له اثنا عشرَ جناحاً جناحٌ منها بالمشرقِ وجناحٌ منها بالمغرب وإنَّ العرشَ على كاهِله وإنَّه ليتضاءلُ الأحايينَ لعظمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ حتَّى يعودَ مثلَ الوَصَعِ وهو العصفورُ الصَّغيرُ) .

(24/639)

---

﴿ يَزِيدُ فِى الخلق مَا يَشَاء ﴾ استئنافٌ مقررٌ لما قبله من تفاوتِ أحوال الملائكةِ في عددِ الأجنحةِ ومؤذنٌ بأنَّ ذلك من أحكام مشيئَتِه تعالى لا لأمرٍ راجعٍ إلى ذَواتهم ببيان حكم كلِّي ناطق بأنَّه تعالى يزيدُ في أيِّ خلقٍ كان كلِّ ما يشاءُ أنْ يزيدَه بموجبِ مشيئَتِه ومُقتضى حكمتِه من الأمورِ التي لا يحيطُ بها الوصفُ وما رُوي عن النبي عليه الصَّلاةُ والسلامُ من تخصيص بعض المعاني بالذِّكرِ من الوجهِ الحسنِ والصَّوتِ الحسنِ والشَّعرِ الحسن فبيانٌ لبعضِ الموادِّ المعهودةِ بطريقِ التَّمثيلِ لا بطريقِ الحصرِ فيها . وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّ الله على كُلّ شَىْء قَدِيرٌ ﴾ تعليلٌ بطريقِ التَّحقيق للحُكمِ المذكور فإنَّ شمولَ قُدرته تعالى لجميعِ الأشياءِ ممَّا يوجبُ قدرتَه تعالى على أنْ يزيدَ كلَّ ما يشاؤه إيجاباً بيِّناً .

(25/639)

﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ عبّر عن إرسالها بالفتح إيذاناً بأنَّها أنفسُ الخزائنِ التي يتنافسُ فيها المتنافسون وأعزُّها منالاً . وتنكيرُها للإشاعةِ والإبهام أيْ أيَّ شيءٍ يفتحُ اللَّهُ من خزائنِ رحمتِه أيّة رحمةٍ كانتْ من نعمةٍ وصحّةٍ وأمنٍ وعلمٍ وحكمةٍ إلى غيرِ ذلك ممّا لا يُحاط به ﴿ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ أي لا أحدَ يقدرُ على إمساكِها ﴿ وَمَا يُمْسِكْ ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ يُمسك ﴿ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ ﴾ أي لا أحدَ يقدرُ على إرسالِه واختلافُ الضَّميرين لما أنَّ مرجعَ الأوّلِ مفسَّرٌ بالرَّحمةِ ومرجعَ الثَّاني مطلقٌ يتناولُها وغيرَها كائناً ما كان وفيه إشعارٌ بأنَّ رحمتَه سبقتْ غضبَه ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعدِ إمساكِه ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ الغالبُ على كلِّ ما يشاءُ من الأمورِ التي من جُملتها الفتحُ والإمساكُ ﴿ الحكيم ﴾ الذي يفعلُ كلَّ ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة والجملُة تذييلٌ مقررٌ لما قبلها ومعربٌ عن كونِ كلَ من الفتحِ والإمساكِ بموجبِ الحكمةِ التي عليها يدورُ أمرُ التَّكوينِ وبعد ما بيَّن سبحانَه أنَّه الموجدُ للملك والملكوتِ والمتصرِّفُ فيهما بالقبضِ والبسطِ من غيرِ أنْ يكونَ لأحدٍ في ذلك دخلٌ ما بوجهٍ من الوجوهِ أمرَ النَّاس قاطبةً أو أهلَ مكّةَ خاصّةً بشكرِ نعمِه فقال :

﴿ يا أَيُّهَا الناس اذكروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي إنعامَه عليكم إنْ جُعلت النِّعمةُ مصدراً أو كائنةً عليكم إنْ جُعلت اسماً . أي راعُوها واحفظُوها بمعرفةِ حقِّها والاعترافِ بها ، وتخصيصِ العبادةِ والطَّاعةِ بموليها ولمَّا كانتْ نعمُ اللهِ تعالى مع تشعُّبِ فنونِها منحصرةً في نعمةِ الإيجادِ ونعمةِ الإبقاءِ نَفَى أنْ يكونَ في الوجودِ شيءٌ غيرُه تعالى يصدرُ عنه إحدى النِّعمتينِ بطريقِ الاستفهامِ الإنكاريِّ المُنادِي باستحالةِ أنْ يُجاب عنه بنعَم فقال : ﴿ هَلْ مِنْ خالقٍ غَيْرُ اللهِ ﴾ أي هَلْ خالقٌ مغايرٌ له تعالى موجودٌ على أنَّ خالق مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ زيدتْ عليه كلمةُ مِن لتأكيدِ العُمومِ . وغيرِ اللهِ نعتٌ له باعتبارِ محلِّه كما أنَّه نعتٌ له في قراءةِ الجرِّ باعتبارِ لفظِه وقُرِىء بالنَّصبِ على الاستثناءِ . وقوله تعالى : ﴿ يَرْزُقُكُم مِّنَ السماء والأرض ﴾ أي بالمطرِ والنَّباتِ كلامٌ مبتدأٌ على التَّقاديرِ لا محلَّ له من الإعرابِ داخلٌ في حيِّزِ النَّفيِ والإنكارِ ولا مساغَ لما قيل : من أنَّه صفةٌ أُخرى لخالق مرفوعةُ المحلِّ أو مجرورتُه لأنَّ معناه نفي وجودِ خالقٍ موصوفٍ بوصفَيْ المغايرةِ والرَّازقيَّةِ معاً من غيرِ تعرُّضٍ لنفيِ وجودِ ما اتَّصف بالمغايرةِ فَقَطْ ، ولا لما قيل : من أنَّه الخبرُ للمبتدأِ ولا لما قيل من أنَّه مفسِّرٌ لمضمرٍ ارتفع به قولُه تعالى من خالقٍ على الفاعليةِ عليّه أي هل يرزقكم من خالقٍ الخ . لما أنَّ معناهما نفي رازقيَّةِ خالقٍ مغايرٍ له تعالى من غيرِ تعرُّضٍ لنفيِ وجودِه رأساً مع أنَّه المرادُ حتماً ألا يرى إلى قولِه تعالى : ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ فإنَّه استئنافٌ مسوقٌ لتقريرِ النَّفيِ

المستفادِ منه قصداً وجارٍ مجرى الجوابِ عمّا يوهمه الاستفهامُ صورةً فحيث كان هذا ناطقاً بنفيِ الوجودِ تعيّن أنْ يكونَ ذلك أيضاً كذلك قطعاً . والفاءُ في قوله تعالى : ﴿ فأنى

(27/639)

---

تُؤْفَكُونَ ﴾ لترتيبِ إنكارِ عدولهم عن التّوحيدِ إلى الإشراكِ على ما قبلها كأنّه قيل : وإذا تبيّن تفرُّده تعالى بالأُلوهيةِ والخالقيّةِ والرازقيّةِ فمنْ أيِّ وجهٍ تُصرفون عن التّوحيدِ إلى الشّركِ .

﴿ وَإِن يُكَذّبُوكَ فَقَدْ كُذّبَتْ رُسُلٌ مّن قَبْلِكَ ﴾ تلوينٌ للخطابِ وتوجيهٌ له إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بين خطابي النّاسِ مسارعةً إلى تسليتِه عليه الصّلاةُ والسّلامُ بعمومِ البليّةِ أولاً والإشارةِ إلى الوعدِ والوعيدِ ثانياً أي وإن استمرُّوا على أنْ يكذّبوك فيما بلّغتَ إليهم من الحقّ المُبين بعد ما أقمتَ عليهم الحجّةَ وألقمتَهم الحجرَ فتأسَّ بأولئك الرُّسلِ في المُصابرةَ على ما أصابَهم من قبل قومِهم فوضعَ موضعَه ما ذُكر اكتفاءً بذكرِ السَّببِ عن ذكرِ المسبَّب . وتنكيرُ الرُّسل للتّفخيمِ الموجب لمزيدِ التّسليةِ والتّوجهِ إلى المُصابرة أي رُسلٌ أُولو شأنٍ خطيرٍ وذوُو عددٍ كثيرٍ ﴿ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور ﴾ لا إلى غيرِه فيُجازي كلاًّ منك ومنُهم بما أنتُم عليهِ من الأحوالِ التي من جملتها صبرُك وتكذيبُهم ، وفي الاقتصارِ على ذكرِ

اختصاصِ المرجعِ بالله تعالى مع إبهامِ الجزاءِ ثواباً وعقاباً من المبالغةِ في الوعدِ والوعيدِ ما لا يَخْفى . وقُرِىء تَرْجعُ بفتحِ التَّاءِ من الرُّجوعِ والأَوَّلُ أُدخلُ في التَّهويلِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(28/639)

---

وقال الآلوسى :

﴿ الحمد للَّهِ فَاطِرِ السماوات والأرض ﴾

أي موجدهما من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه ، فالفطر الإبداع ، وقال الراغب : هو إيجاده تعالى الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال .

وأخرج عبد بن حميد .

والبيهقي في "شعب الإيمان .

وغيرهما عن ابن عباس قال : كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها يعني ابتدأتها ؛ وأصل الفطر الشق ، وقال الراغب : الشق طولاً ثم تجوز فيه عما تقدم وشاع فيه حتى صار حقيقة أيضاً ، ووجه المناسبة أن السماوات والأرض والمراد بهما العالم بأسره لكونهما ممكنين والأصل في

الممكن العدم كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [ القصص : 88 ] وقوله عليه الصلاة والسلام : " ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن " وصرح بذلك فلاسفة الإسلام قال رئيسهم : الممكن في نفسه ليس وهو عن علته أيس كان العدم كامن فيهما وبإيجادهما يشقان ويخرج العدم منهما .

*(29/639)*

---

وقيل في ذلك : كأنه تعالى شق العدم بإخراجهما منه ، وقيل : لا مانع من حمله على أصله هنا ويكون إشارة إلى الأمطار والنبات فكأنه قيل : الحمد لله فاطر السموات بالأمطار وفاطر الأرض بالنبات وفيه نظر ستأتي الإشارة إليه قريباً ، وقوله تعالى : ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ على القولين يحتمل أن يكون معناه جاعل الملائكة عليهم السلام وسائط بينه وبين أنبيائه والصالحين من عباده يبلغون إليهم رسالته سبحانه بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة أو جاعلهم وسائط بينه وبين خلقه عز وجل يوصلون إليهم آثار قدرته وصنعه كالأمطار والرياح وغيرهما وهم الملائكة الموكلون بأمور العالم ، وهذا أنسب بالقول الثاني لكن يرد عليه أنه لا معنى لكون الأمطار شاقة للسماوات ، وقال الإمام : إن الحمد يكون على النعم ونعمه تعالى عاجلة وآجلة ، وهو في سورة سبأ إشارة إلى نعمة الإيجاد والحشر

ودليله ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا ينزل مِنَ السماء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [ سبأ : 2 ] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَأْتِينَا الساعة ﴾ [ سبأ : 3 ] والحمد في هذه السورة إشارة إلى نعمة البقاء في الآخرة ودليله جاعل الملائكة رسلاً أي يجعلهم سبحانه رسلاً يتلقون عباد الله تعالى كما قال سبحانه تتلقاهم الملائكة فيجوز أن يكون المعنى الحمد لله شاق السماوات والأرض يوم القيامة لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض وجاعل الملائكة رسلاً في ذلك اليوم يتلقون عباده ، وعليه فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى لأن قوله تعالى : ﴿ كما فعل بأشياعهم ﴾ [ سبأ : 54 ] بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب ، ولما ذكر سبحانه حالهم ذكر حال المؤمنين وبشرهم بإرسال الملائكة إليهم وأنه تعالى يفتح أبواب الرحمة لهم انتهى ، وفيه من البعد ما فيه ، و﴿ فَاطِرَ ﴾ صفة لله وإضافته محضة قال أبو البقاء : لأنه للماضي لا غير ، وقال

(30/639)

---

غيره : هو معرف بالإضافة إذ لم يجر على الفعل بل أريد به الاستمرار والثبات كما يقال زيد مالك العبيد جاء أي زيد الذي من شأنه أن يملك العبيد جاء ، ومن جعل الإضافة غير محضة جعله بدلاً وهو قليل في المشتقات ، وكذا الكلام في ﴿ جَاعِلِ وَرُسُلاً ﴾ على

القول بأن إضافته غير محضة منصوب به بالاتفاق ، وأما على القول الآخر فكذلك عند الكسائي ، وذهب أبو علي إلى أنه منصوب بمضمر يدل هو عليه لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي لا يعمل عنده كسائر البصريين إلا معرفاً باللام ، وقال أبو سعيد السيرافي : اسم الفاعل المتعدي إلى اثنين يعمل بالثاني لأنه بإضافته إلى الأول تعذرت إضافته إلى الثاني فتعين نصبه له .

وعلل بعضهم ذلك بأنه بالإضافة أشبه المعرف باللام فعمل عمله هذا على تقدير كون الجعل تصييرياً أما على تقدير كونه إبداعياً فرسلاً حال مقدرة ، وقرأ الضحاك .

والزهري ﴿ فَطَرَ جَعَلَ ﴾ فعلاً ماضياً ونصب ما بعده قال أبو الفضل الرازي : يحتمل أن يكون ذلك على إضمار الذي نعتاً لله تعالى أو على تقدير قد فتكون الجملة حالاً .

وأنت تعلم أن حذف الموصول الاسمي لا يجوز عند جمهور البصريين ، وذهب الكوفيون .

والأخفش إلى إجازته وتبعهم ابن مالك وشرط في بعض كتبه كونه معطوفاً على موصول آخر ومن حجتهم ﴿ آمنا بالذى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وإلهنا ﴾ [ العنكبوت : 64 ]

وقول حسان :

أمن يهجو رسول الله منكم . . .

وينصره ويمدحه سواء

وقول آخر :

ما الذي دأبه احتياط وحزم . . .

وهواه أطاع يستويان

واختار أبو حيان كون الجملة خبر مبتدأ محذوف أي هو فطر .

وقرأ الحسن ﴿ جَاعِلِ ﴾ بالرفع على المدح وجر ﴿ الملائكة ﴾ وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو ﴿ جَاعِلِ ﴾ بالرفع بلا تنوين ونصب ﴿ الملائكة ﴾ وخرج حذف التنوين على أنه لالتقاء الساكنين ونصب الملائكة إذا كان جاعل للمضي على مذهب الكسائي .

وهشام في جواز أعمال الوصف الماضي النصب .

وقرأ ابن يعمر .

(31/639)

---

وخليد ﴿ جَعَلَ ﴾ فعلاً ماضياً ﴿ الملائكة ﴾ بالنصب وذلك بعد قراءته ﴿ فَاطِرَ ﴾ كالجمهور كقراءة من قرأ ﴿ فَالِقُ الإصباح وَجَعَلَ الليل سَكَناً ﴾ [ الأنعام : 96 ] وفي "الكشاف" قرىء ﴿ فَطَرَ وَجَعَلَ ﴾ كلاهما بلفظ الفعل الماضي .

وقرأ الحسن : وحميد بن قيس ﴿ رُسْلاً ﴾ بسكون السين وهي لغة تميم ، وقوله تعالى : ﴿ أُوْلِى أَجْنِحَةٍ ﴾ صفة لرسلاً وأولوا اسم جمع لذو كما إن أولاه اسم جمع لذا ، ونظير

ذلك من الأسماء المتمكنة المخاض ، قال الجوهري : هي الحوامل من النوق واحدتها خلفة ، و﴿ أَجْنِحَةٍ ﴾ جمع جناح صيغة جمع القلة ومقتضى المقام أن المراد به الكثرة .

وفي "البحر" قياس جمع الكثرة فيه جنح فإن كان لم يسمع كان أجنحة مستعملاً في القليل والكثير ، والظاهر أن الجناح بالمعنى المعروف عند العرب بيد أنا لا نعرف حقيقته وكيفيته ولا نقول إنه من ريش كريش الطائر .

نعم أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أن أجنحة الملائكة عليهم السلام زغبة ، ورأيت في بعض كتب الإمامية أن الملائكة تزدحم في مجالس الأئمة فيقع من ريشها ما يقع وأنهم يلتقطونه ويجعلون منه ثياباً لأولادهم .

وهذا عندي حديث خرافة ، والكشفية منهم يؤولونه بما لا يخرجه عن ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ مثنى وثلاث وَرُبَاعَ ﴾ الظاهر أنه صفة لأجنحة ، والمنع من الصرف على المشهور للصفة والعدل عن اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة .

وقال الزمخشري : إنما لم تنصرف هذه الألفاظ لتكرار العدل فيها وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد من صيغ إلى صيغ آخر كما عدل عمر عن عامر وحزام عن حازمة وعن تكرير إلى غير تكرير ففيها عدلان وأما الوصفية فلا يفترق الحال فيها بين المعدولة والمعدول عنها ألا تراك تقول مررت بنسوة أربع وبرجال ثلاثة فلا يعرج عليها .

وتعقبه أبو حيان بأنه قاس الصفة في هذا المعدول على الصفة في أربع وثلاثة وليس بصحيح لأن مطلق الصفة لم يعدوه علة بل اشترطوا أن تكون الوصفية غير عارضة كما في أربع وأن لا يقبل تاء التأنيث أو تكون فيه كثلاث وثلاثة ، وقال "صاحب الكشف" فيه : إن العدول عن التكرار لا يعتبر فيه للصيغة واعتبر في تحقق العدل ذلك ثم العدول عن الصيغة الأصلية لإفادة التكرر فلا عدولين بوجه ، وبعد تسليم أن المعتبر في الوصف مقارنته لوضع المعدول فلا يضرب عروضه في المعدول عنه لا اتجاه للمنع ولا معول على السند وهو قول سيبويه على ما نقله الجوهري وهو المنصور على ما نبهت إليه انتهى .

وتعقبه أيضاً "صاحب الفرائد" و"صاحب التقريب" بعروض الوصفية في المعدول عنه وعدمه في المعدول ، لكن قال الطيبي : وجدت لبعض المغاربة كلاماً يصلح أن يكون جواباً عنه وهو أن ثلاث مثلاً لا يخلو من أن يكون موضوعاً للصفة من غير اعتبار العدد أو لا يكون فإن كان الأول لم يكن فيه العدد والمقدر خلافه ، وإن كان الثاني كان الوصف عارضاً لثلاث كما كان عارضاً لثلاثة فيمكن أن يقال إن هذه الأعداد غير منصرفة للعدل المكرر كالجمع وألفي التأنيث انتهى ، وفيه ما لا يخفى .

وقال ابن عطية : إن هذه الألفاظ عدلت في حال التنكير فتعرفت بالعدل فهي لا تنصرف للعدل والتعريف وهذا قول غريب ذكر في "البحر" لبعض الكوفيين .

وفي "الكشاف" هي نكرات يعرفن بلام التعريف تقول فلان ينكح المثنى والثلاث والرباع ، وقيل : ﴿ مثنى ﴾ حال من محذوف والعامل فيه محذوف يدل عليه ﴿ بَعْدِهِ رُسُلاً ﴾ أي يرسلون مثنى وثلاث ورباع ، والمعول عليه ما تقدم ، والمراد ذوي أجنحة متعددة متفاوتة في العدد حسب تفاوت ما لهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون أو يسرعون بها حين يؤمرون ، ويجوز أن تكون كلاًّ أو بعضاً لأمور أخر كالزينة فيما بينهم وكالارجاء على الوجه حياء من الله تعالى إلى غير ذلك ، والمعنى أن من الملائكة خلقاً لكل واحد منهم جناحان وخلقاً لكل منهم ثلاثة أجنحة وخلقاً لكل منهم أربعة أجنحة ، ولا دلالة في الآية على نفي الزائد بل قال بعض المحققين : إن ما ذكر من العدد للدلالة على التكثير والتفاوت لا للتعيين ولا لنفي النقصان عن اثنين .

وقد أخرج الشيخان .

والترمذي عن ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رأى مِنْ ءايات رَبّهِ الكبرى ﴾ [ النجم : 18 ] رأى جبريل له ستمائة جناح ، والترمذي عن مسروق عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير جبريل في صورته إلا مرتين مرة عند سدرة المنتهى ومرة في جياد

له ستمائة جناح قد سد الأفق ، وقال الزمخشري : مر بي في بعض الكتب أن صنفاً من الملائكة عليهم السلام لهم ستة أجنحة فجناحان يلفون بهما أجسادهم وجناحان يطيرون بهما في أمر من أمور الله تعالى وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله عز وجل .

والبحث عن كيفية وضع الأجنحة شفعاً كانت أو وتراً فيما أرى مما لا طائل تحته ولم يصح عندي في ذلك شيء ولقياس الغائب على الشاهد ، قال بعضهم : إن المعنى إن في كل جانب لبعض الملائكة عليهم السلام جناحين ولبعضهم ثلاثة ولبعضهم أربعة وإلا فلو كانت ثلاثة لواحد لما اعتدلت ، وهو كما ترى .

(34/639)

---

وقال قوم : إن الجناح إشارة إلى الجهة ، وبيانه أن الله تعالى ليس فوقه شيء وكل شيء سواه فهو تحت قدرته سبحانه كما قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الامين على قَلْبِكَ ﴾ [ الشعراء : 193 ، 194 ] وقال تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ﴾ [ النجم : 5 ] وقال تعالى : ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ [ النازعات : 5 ] وهما جناحان وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة وفيهم من يفعله لا بواسطة فالفاعل بواسطة منهم من له ثلاث جهات ومنهم من له

أربع جهات وأكثر ، وهذا خلاف الظاهر جداً ولا يحتاج إليه السني القائل بأن الملائكة عليهم السلام أجسام لطيفة نورية يقدرون على التشكل بالصور المختلفة وعلى الأفعال الشاقة وإنما يحتاج إليه أو إلى نحوه الفلاسفة وأتباعهم فإن الملائكة عندهم هي العقول المجردة ويسميها أهل الإشراق بالأنوار الظاهرة وبعض المتصوفة بالسرادقات النورية ، وقد ذكر بعض متأخريهم أن لها ذوات حقيقية وذوات إضافية مضافة إلى ما دونها إضافة النفس إلى البدن فأما ذواتها الحقيقية فإنما هي أمرية قضائية قولية وأما ذواتها الإضافية فإنما هي خلقية قدرية تنشأ منها الملائكة اللوحية وأعظمهم إسرافيل عليهم السلام ، وتطلق الملائكة عندهم على غير العقول كالمدبرات العلوية والسفلية من النفوس والطبائع ، وأطالوا الكلام في ذلك وظواهر الآيات والأخبار تكذبهم والله تعالى الموفق للصواب .

﴿ يَزِيدُ فِى الخلق مَا يَشَاء ﴾ استئناف مقرر لما قبله من تفاوت الملائكة عليهم السلام في عدد الأجنحة ومؤذن بأن ذلك من أحكام مشيئته تعالى لا لأمر راجع إلى ذواتهم ببيان حكم كلي ناطق بأنه عز وجل يزيد في أي خلق كان كل ما يشاء أن يزيده بموجب مشيئته سبحانه ومقتضى حكمته من الأمور التي لا يحيط بها الوصف ، وقال الفراء .

والزجاج: هذا في الأجنحة التي للملائكة أي يزيد في خلق الأجنحة للملائكة ما يشاء فيجعل لكل ستة أجنحة أو أكثر وروى ذلك عن الحسن ، وكأن الجملة لدفع توهم عدم الزيادة على الأربعة.

وعن ابن عباس يزيد في خلق الملائكة والأجنحة ما يشاء ، وقيل: ﴿ الخلق ﴾ خلق الإنسان و﴿ مَا يَشَاء ﴾ الخلق الحسن أو الصوت الحسن أو الخط الحسن أو الملاحة في العينين أو في الأنف أو في الوجه أو خفة الروح أو جعودة الشعر وحسنه أو العقل أو العلم أو الصنعة أو العفة في الفقراء أو حلاوة النطق ، وذكروا في بعض ذلك أخباراً مرفوعة والحق أن ذلك من باب التمثيل لا الحصر ، والآية شاملة لجميع ذلك بل شاملة لما يستحسن ظاهراً ولما لا يستحسن وكل شيء من الله عز وجل حسن.

﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَىْء قَدِيرٌ ﴾ تعليل بطريق التحقيق للحكم المذكور فإن شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء مما يوجب قدرته سبحانه على أن يزيد في كل خلق كل ما يشاؤه تعالى إيجاباً بيناً.

﴿ مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ أي ما يطلقها ويرسلها فالفتح مجاز عن الإرسال بعلاقة السببية فإن فتح المغلق سبب لإطلاق ما فيه وإرساله ولذا قوبل بالإمساك والإطلاق كناية عن الإعطاء كما قيل أطلق السلطان للجند أرزاقهم فهو كناية متفرعة على المجاز.

وفي اختيار لفظ الفتح رمز إلى أن الرحمة من أنفس الخزائن وأعزها منالاً ، وتنكيرها

للإشاعة والإبهام أي شيء يفتح الله تعالى من خزائن رحمته أي رحمة كانت من نعمة وصحة وأمن وعلم وحكمة إلى غير ذلك مما لا يحاط به حتى أن عروة كان يقول كما أخرج ابن المنذر عن محمد بن جعفر بن الزبير عنه في ركوب المحمل هي والله رحمة فتحت للناس ثم يقول : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ الخ .

(36/639)

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي الرحمة المطر ، وعن ابن عباس التوبة والمراد التمثيل ، والجار والمجرور في موضع الحال لا في موضع الصفة لأن اسم الشرط لا يوصف ﴿ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ أي فلا أحد يقدر على إمساكها ﴿ وَمَا يُمْسِكْ ﴾ أي أي شيء يمسك ﴿ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ ﴾ أي فلا أحد يقدر على إرساله ، واختلاف الضميرين لما أن مرجع الأول مبين بالرحمة ومرجع الثاني مطلق يتناولها وغيرها ، وفي ذلك مع تقديم أمر فتح الرحمة إشعار بأن رحمته تعالى سبقت غضبه عز وجل كما ورد في الحديث الصحيح ، وقيل المراد وما يمسك من رحمة إلا أنه حذف المبين لدلالة ما قبل عليه ، والتذكير باعتبار اللفظ وعدم ما يقوى اعتبار المعنى في التلفظ .

وأيد بأنه قرىء ﴿ فَلاَ مُرْسِلَ لَهَا ﴾ بتأنيث الضمير ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد إمساكه

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على كل ما يشاء من الأمور التي من جملتها الفتح والإمساك ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، والجملة تذييل مقرر لما قبلها ومعرب عن كون كل من الفتح والإمساك بموجب الحكمة التي يدور عليها أمر التكوين ، وما ادعى هذه الآية إلى الانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عما سواه عز وجل وإراحة البال عن التخيلات الموجبة للتهويش وسهر الليال .

(37/639)

---

وقد أخرج ابن المنذر عن عامر بن عبد قيس : قال أربع آيات من كتاب الله تعالى إذا قرأتهن فما أبالي ما أصبح عليه وأمسى ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ [ فاطر : 2 ] ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [ يونس : 107 ] ﴿ سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [ الطلاق : 7 ] ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ [ هود : 6 ] وبعدما بين سبحانه أنه الموجد للملك والملكوت والمتصرف فيهما على الإطلاق أمر الناس قاطبة أو أهل مكة كما روى عن ابن عباس واختاره الطيبي بشكر نعمه عز وجل فقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾

أي إنعامه تبارك وتعالى عليكم إن جعلت النعمة مصدراً أو كائنة عليكم أن جعلت اسماً أي راعوها واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها وتخصيص العبادة والطاعة بموليها فليس المراد مجرد الذكر باللسان بل هو كناية عما ذكر ، وعن ابن عباس وقد جعل الخطاب لمن سمعت اذكروا نعمة الله عليكم حيث أسكنكم حرمه ومنعكم من جميع العالم والناس يتخطفون من حولكم ، وعنه أيضاً نعمة الله تعالى العافية ، والأولى عدم التخصيص ، ولما كانت نعم الله تعالى مع تشعب فنونها منحصرة في نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء نفى سبحانه أن يكون في الوجود شيء غيره سبحانه يصدر عنه إحدى النعمتين بطريق الاستفهام الذي هو لإنكار التصديق وتكذيب الحكم فقال عز وجل : ﴿ هَلْ مِنْ خالق غَيْرُ الله ﴾ وهل تأتي لذلك كما في "المطول وحواشيه" ، وقول الرضى : إن هل لا تستعمل للإنكار أراد به الإنكار على مدعي الوقوع كما في قوله تعالى : ﴿ أفأصفاكم رَبُّكُم بالبنين ﴾ [ الإسراء : 40 ] ويلزمه النفي والإنكار على من أوقع الشيء كما في قولك أتضرب زيداً وهو أخوك أي هل خالق مغاير له تعالى موجود لكم أو للعالم على أن ﴿ خالق ﴾ مبتدأ محذوف الخبر زيدت عليه ﴿ مِنْ ﴾ لتأكيد العموم و ﴿ غَيْرُ الله ﴾ صفة له باعتبار محله ، وصحت

الوصفية به مع إضافته إلى أعرف المعارف لتوغله في التنكير فلا يكتسب تعريفاً في مثل هذا التركيب ، وجوز أن يكون بدلاً من ﴿ خالق ﴾ بذلك الاعتبار ويعتبر الإنكار في حكم النفي ليكون غير الله هو الخالق المنفي ولأن المعنى على الاستثناء أي لا خالق إلا الله تعالى والبدلية في الاستثناء بغير إنما تكون في الكلام المنفي وبهذا الاعتبار زيدت ﴿ مِنْ ﴾ عند الجمهور وصح الإبتداء بالنكرة ، وكذا جوز أن يكون فاعلاً بخالق لاعتماده على أداة الاستفهام نحو أقائم زيد في أحد وجهيه وهو حينئذ ساد مسد الخبر .



---

وتعقبه أبو حيان بقوله فيه نظر وهو أن اسم الفاعل أو ما يجري مجراه إذا اعتمد على أداة الاستفهام وأجرى مجرى الفعل فرفع ما بعده هل يجوز أن تدخل عليه من التي للاستغراق فيقال هل من قائم الزيدون كما تقول هل قائم الزيدون ، والظاهر أنه لا يجوز ألا ترى أنه إذا أجرى مجرى الفعل لا يكون فيه عموم بخلافه إذا دخلت عليه من ولا أحفظ مثله في لسان العرب ، وينبغي أن لا يقدم على إجازة مثل هذا إلا بسماع من كلامهم ، وفيه أن شرط الزيادة والأعمال موجود ولم يبد مانعاً يعول عليه فالتوقف تعنت من غير توقف .

وفي "الكشف" لا مانع من أن يكون ﴿ غَيْرِ ﴾ خبراً .

ومنعه الشهاب بأن المعنى ليس عليه، وقرأ ابن وثاب.

وشقيق.

وأبو جعفر.

وزيد بن علي.

وحمزة.

والكسائي ﴿ غَيْرِ ﴾ بالخفض صفة لخالق على اللفظ، وهذا متعين في هذه القراءة ولأن توافق القراءتين أولى من تخالفهما كان الأظهر في القراءة الأولى كونه وصفاً لخالق أيضاً، وقرأ الفضل بن إبراهيم النحوي.

﴿ غَيْرِ ﴾ بالنصب على الاستثناء، وقوله تعالى: ﴿ يَرْزُقُكُم مِّنَ السماء والأرض ﴾ بالمطر والنبات كلام مبتدأ لا محل له من الإعراب لا صفة ﴿ خالق ﴾ باعتبار لفظه أو محله، قال في "الكشف": لأن المعنى على التقريع والتذكير بما هم معترفون به فكأنه قيل: هل من خالق لتلك النعم التي أمرتم بذكرها أو مطلقاً وهو أولى وتدخل دخولاً أولياً ﴿ غَيْرُ الله ﴾ ثم تمم ذلك بأنه يرزقكم من السماء والأرض وذلك أيضاً يقتضي اختصاصه تعالى بالعبادة كما أن الخالقية تقتضي ذلك، وفيه أن الخالق لا يكون إلا رازقاً ولو قيل هل من خالق رازق من السماء والأرض غير الله يخرج الكلام عن سننه المقصود.

وجوز أن يكون ﴿ خالق ﴾ فاعلاً لفعل مضمر يفسره المذكور والأصل هل يرزقكم خالق و ﴿ مِنْ ﴾ زائدة في الفاعل ، وتعقب بأن ما في النظم الجليل إن كان من باب هل رجل عرف فقد صرح السكاكي بقبح هذا التركيب لأن هل إنما تدخل على الجملة الخبرية فلا بد من صحتها قبل دخول هل ورجل عرف لا يصح بدون اعتبار التقديم والتأخير لعدم مصحح الإبتدائية سواه وإذا اعتبر التقديم والتأخير كان الكلام مفيداً لحصول التصديق بنفس الفعل فلا يصح دخول هل عليه لأنها لطلب التصديق وما حصل لا يطلق لئلا يلزم تحصيل الحاصل ولاحتمال أن يكون رجل فاعل فعل محذوف قال بالقبح دون الامتناع وإن كان من باب هل زيد عرف فقد صرح العلامة الثاني السعد التفتازاني بأنه قبيح باتفاق النحاة وأن ما ذكره صاحب المفصل من أن نحو هل زيد خرج على تقدير الفعل تصحيح للوجه القبيح البعيد لا أنه شائع حسن غاية ما في الباب أن سبب قبحه ليس ما ذكره في قبح هل زيد عرف عند السكاكي لعدم تأتيه فيه بل السبب أن هل بمعنى قد في الأصل وأصله أهل كقوله :

أهل عرفت الدار بالغرتين . . .

وترك الهمزة قبلها لكثرة وقوعها في الاستفهام فأقيمت هي مقام الهمزة وتطفلت عليها في الاستفهام ، وقد من لوازم الأفعال فكذا ما هي بمعناها ، ولم يقبح دخولها على الجملة

الاسمية التي طرفاها اسمان لأنها إذا لم تر الفعل في حيزها تتسلى عنه ذاهلة وهذا بخلاف ما إذا رأته فإنها حينئذ تتذكر عهوداً بالحمى وتحن إلى الألف والمألوف وتطلق معانقته ولم ترض بافتراق الاسم بينهما ، ويعلم من هذا أنه لا فرق عند النحاة بني هل رجل عرف وهل زيد عرف في القبح لذلك .

*(41/639)*

---

وأجاب بعضهم بأن مجوز هذا الوجه الزمخشري ومتابعوه وهو لا يسلم ما ذكر لأن حرف الشرط كان مثلاً ألزم للفعل من هل لأنه لا يجوز دخوله على الجملة الاسمية التي طرفاها اسمان كما دخلت عليها هل وقد جاز بلا قبح عمل الفعل بعده على شريطة التفسير كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المشركين استجارك ﴾ فيجوز في هل بالطريق الأولى ، وقيل : يجوز أن يكون ﴿ يَرْزُقُكُمْ ﴾ الخ مستأنفاً في جواب سؤال مقدر تقديره أي خالق يسأل عنه ، وأن يكون هو الخبر لخالق ، ولا يخفى على متأمل أن ما نقل عن الكشف قاض برجوحية هذه الأوجه جميعها فتأمل .

*(42/639)*

وفي الآية على ما هو الأولى في تفسيرها وإعرابها رد على المعتزلة في قولهم : العبد خالق لأفعاله ونصرة لأهل السنة في قولهم لا خالق إلا الله تعالى ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ استئناف مقرر للنفي المفهوم مما تقدم قصداً ، ولم يجوز جار الله أن يجعل صفة لخالق كما جعل ﴿ يَرْزُقُكُمْ ﴾ صفة له حيث قال : ولو وصلت جملة ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ كما وصلت ﴿ يَرْزُقُكُمْ ﴾ لم يساعد عليه المعنى لأن قولك هل من خالق آخر سوى الله لا إله إلا ذلك الخالق غير مستقيم لأن قولك هل من خالق سوى الله إثبات لله تعالى فلو ذهبت تقول ذلك كنت مناقضاً بالنفي بعد الإثبات اه ، وبين "صاحب الكشاف" وجه المناقضة على تقدير أن يكون غير الله صفة بأن الكلام مسوق لنفي المشاركة في الصفة المحققة أعني الخلق فقولك هل من خالق آخر سوى الله إثبات لله تعالى ونفى المشارك له فيها ثم وصف الآخر بانحصار الإلهية فيه يكون لنفي خالقيته دون تفرد بالإلهية والتفرد بالإلهية مع مغايرته لله تعالى متناقضان لأن الأول ينفيه تعالى عن ذلك علوا كبيراً والثاني يثبته مع الغير جل عن كل شريك ونقص ، ثم قال : والتحقيق في هذا أن هل لإنكار ما يليها وما تلاه إن كان من تتمته ينسحب عليه حكم الإنكار بالبقية وإلا كان مبقي على حاله نفياً وإثباتاً ، ولما كان الكلام في الخالقية على ما مر لم يكن الوصفان أعني تفرد الآخر بالإلهية ومغايرته للقيوم الحق مصباً له وهما متناقضان في أنفسهما على ما بين فيلزم ما ذكره جار الله لزوماً بيناً اه ، وقد دفع

بتقريره ذلك كثيراً من القاعل والقيل بيد أنه لا يخلو عن بحث ، ويمكن تقرير المناقضة على تقدير الوصفية بوجه أظهر لعله لا يخفى على المتأمل ، ويجوز أن يكون المانع من الوصفية النظم المعجز وحاكمه الذوق السليم والكلام في ذلك طويل فتأمل ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ لترتيب إنكار عدولهم عن التوكيد إلى الإشراك على ما قبلها كأنه



---

قيل : وإذا تبين تفرده تعالى بالألوهية والخالقية والرازقية فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك ، وقوله تعالى :

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ الخ تسلية له عليه الصلاة والسلام بعموم البلية والوعد له صلى الله عليه وسلم والوعيد لأعدائه ، والمعنى وإن استمروا على أن يكذبوك فيما بلغت إليهم من الحق المبين بعد ما أقمت عليهم الحجة وألقمتهم الحجر فتأس بأولئك الرسل في الصبر فقد كذبهم قومهم وصبروا فجملة ﴿ قَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ قائمة مقام جواب الشرط والجواب في الحقيقة تأس ، وأقيمت تلك الجملة مقامه اكتفاء بذكر السبب عن ذكر المسبب ، وجوز أن تجعل هي الجواب من غير تقدير ويكون المترتب على الشرط الإعلام والإخبار كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ ]

النحل : 53 ] وتنكير رسل للتعظيم والتكثير الموجبين لمزيد التسلية والحث على التأسي والصبر على ما أصابه عليه الصلاة والسلام من قومه أي رسل أولو شأن خطير وعدد كثير ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الامور ﴾ لا إلى غيره عز وجل فيجازي سبحانه كلا منك ومنهم بما يليق ، به ، وفي الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع به تعالى مع إبهام الجزاء ثواباً وعقاباً من المبالغة في الوعد والوعيد ما لا يخفى .

وقرىء ﴿ تُرْجَعُ ﴾ بفتح التاء من الرجوع والأول ادخل في التهويل . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

(44/639)

---

وقال صاحب روح البيان :

سورة فاطر

مكية وآيها خمس وأربعون

﴿ الْحَمْدُ ﴾ أي : كل المحامد مختصة بالله تعالى لا تتجاوز منه إلى من سواه وهو وإن كان في الحقيقة حمد الله لذاته بذاته لكنه تعليم للعباد كيف يحمدونه .

واعلم أن الحمد يتعلق بالنعمة والمحنة إذ تحت كل محنة منحة فمن النعمة العطاس وذلك لأنه

سبب لانفتاح المسام أي: ثقب الجسد واندفاع الأبخرة المحتبسة عن الدماغ الذي فيه قوة التذكر والتفكر فهو بحران الرأس كما أن العرق

بحران بدن المريض ولذا أوجب الشارع الحمد للعاطس.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: من سبق العاطس بالحمد وقى وجع الرأس والأضراس ومن المحنة التجشي وفي الحديث: "من عطس أو تجشا فقال: الحمد على كل حال دفع الله بها عنه سبعين داء أهونها الجذام".

(45/639)

---

والتجشي تنفس المعدة وبالفارسية: (بدروغ شدن) وذلك لأن التجشي إنما يتولد من امتلاء المعدة من الطعام فهو من المصائب في الدين خصوصاً إذا وقع حال الصلاة ويدل عليه أنه عليه السلام كان يقول عند كل مصيبة: "الحمد على كل حال" ثم رتب الحمد على نعمة الإيجاد أولاً إذ لا غاية وراءها إذ كل كمال مبني عليها فقال: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ﴾ إضافته محضة لأنه بمعنى الماضي فهو نعت للاسم الجليل ومن جعلها غير محضة جعله بدلاً منه وهو قليل في المشتق والمعنى مبدعهما وخالقهما ابتداء من غير مثال سبق من الفطر بالفتح بمعنى الشق أو الشق طولاً كما ذهب إليه الراغب كأنه شق العدم

بإخراجهما منه والفطر بالكسر ترك الصوم وعن ابن عباس رضي الله عنهما ما كنت أدري ما فاطر السموات حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها أي : ابتدأت حفرها قال المبرد فاطر خالق مبتدىء ، ففيه إشارة إلى أن أول كل شيء تعلقت به القدرة سموات الأرواح وأرض النفوس وأما الملائكة فقد خلقت بعد خلق أرواح الإنسان ويدل عليه تأخير ذكرهم كما قال : ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلا ﴾ إضافته محضة أيضاً على أنه نعت آخر للاسم الجليل ورسلاً منصوب بجاعل واسم الفاعل بمعنى الماضي وإن كان لا يعمل عند البصريين إلا معرفاً باللام إلا أنه بالإضافة أشبه باللام فعمل عمله فالجاعل بمعنى المصير والمراد بالملائكة جبرائيل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل والحفظة ونحوهم .

ويقال : لم ينزل إسرافيل على نبي إلا على محمد صلى الله عليه وسلّم نزل فأخبره بما هو كائن إلى يوم القيامة ثم عرج .

وفي "إنسان العيون" : نزل عليه ستة أشهر قبل نبوته فكان عليه السلام يسمع صوته ولا يرى شخصه .

والرسل جمع رسول بمعنى المرسل والمعنى مصير الملائكة وسائط بينه تعالى وبين أنبيائه والصالحين من عباده يبلغون إليهم رسالاته بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة .

قال بعض الكبار : الإلقاء إما صحيح أو فاسد فالصحيح إلهيّ رباني متعلق بالعلوم والمعارف أو ملكي روحاني وهو الباعث على الطاعة وعلى كل ما فيه صلاح ويسمى إلهاماً والفاسد نفساني وهو ما فيه حظ النفس ويسمى هاجساً أو شيطاني وهو ما يدعو إلى معصية ويسمى وسواساً ﴿ أُوْلِى أَجْنِحَةٍ ﴾ صفة لرسلاً وأولوا بمعنى أصحاب اسم جمع لذو كما أن أولاء اسم جمع لذا وإنما كتبت الواو بعد الألف حالتي الحر والنصب لئلا يلتبس بإلى حرف الجر وإنما كتبوه في الرفع حملاً عليهما .

والأجنحة جمع جناح

﴿ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ صفات لأجنحة فهي في موضع خفض ومعناها اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة أي : ذوي أجنحة متعددة متفاوتة في العدد حسب تفاوت ما لهم من المراتب ينزلون بها من السماء إلى الأرض ويعرجون أو يسرعون بها فإن ما بين السماء والأرض وكذا ما بين السموات مسيرة خمسمائة سنة وهم يقطعونها في بعض الأحيان في وقت واحد ففي تعدد الأجنحة إشارة إلى كمالية استعداد بعض الملائكة على بعض والمعنى أن من الملائكة خلقاً لكل منهم جناحان وخلقاً لكل منهم ثلاثة وخلقاً آخر لكل منهم أربعة .

.وروي.أن صنفاً من الملائكة له ستة أجنحة بجناحين منها يلفون أجسادهم وبآخرين منها

يطيرون فيما أمروا به من جهته تعالى وجناحان منها مرخيان على وجوههم حياء من الله تعالى ويفهم من كلام بعضهم أن الطيران بكل الأجنحة كما قال عرف تعالى إلى العباد بأفعاله وندبهم إلى الاعتبار بها فمنها ما يعلمونه معاينة من السماء والأرض وغيرهما ومنها ما سبيل إثباته الخبر والنقل لا يعلم بالضرورة ولا بدليل العقل فالملاكة منه ولا يتحقق كيفية صورتهم وأجنحتهم وأنهم كيف يطيرون بأجنحتهم الثلاثة والأربعة لكن على الجملة يعلم كمال قدرته وصدق حكمته انتهى .

(47/639)

---

.وروي.عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه رأى جبريل ليلة المعراج وله ستمائة جناح منها اثنان يبلغان من المشرق إلى المغرب ودل هذا وكذا كل ما فيه زيادة على الأربع أنه تعالى لم يرد خصوصية الأعداد ونفي ما زاد عليها .

وذكر السهيلي أن المراد بالأجنحة في حق الملائكة صفة ملكية وقوة روحانية وليست كأجنحة الطير ولا ينافي ذلك وصف كل جناح منها بأنه يسد ما بين المشرق والمغرب هذا كلامه كما في "إنسان العيون" .

يقول الفقير : لا يجوز العدول عن الظاهر مع إمكان الحمل على الحقيقة وقد تظاهرت

الروايات الدالة على إثبات الأجنحة للملائكة وإن لم تكن كأجنحة الطير من حيث إن الله تعالى باين بين صور المخلوقات والملائكة وإن كانوا روحانيين لكن لهم أجسام لطيفة فلا يمنع أن يكون للأجسام أجنحة جسمانية كما لا يمنع أن يكون للأرواح أجنحة روحانية نورانية كما ثبت لجعفر الطيار رضي الله عنه .

والحاصل أن المناسب لحال العلويين أن يكونوا طائرين كما أن المناسب لحال السفليين أن يكونوا سائرين ومن أمعن النظر في خلق الأرض والجو عرف ذلك ويؤيد ما قلنا أن البراق وإن كان في صورة البغل في الجملة لكنه لما كان علوياً أثبت له الجناح نعم أن الأجنحة من قبيل الإشارة إلى القوة الملكية والإشارة لا تنافي العبارة هذا .

(48/639)

---

وفي "كشف الأسرار" وردت في عجائب صور الملائكة أخبار يقال : إن حملة العرش لهم قرون وهم في صورة الأوعال

وفي الخبر "إن في السماء ملائكة نصفهم ثلج ونصفهم نار تسبيحهم يا من يؤلف بين الثلج والنار ألف بين قلوب المؤمنين" وقيل لم يجمع الله في الأرض لشيء من خلقه بين الأجنحة والقرون والخراطيم والقوائم إلا وضعف خلقه وهو البعوض وفيه أيضاً كما قال عليه السلام

: "المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده" فالملائكة وإن طاروا من الأرض إلى السماء في أسرع وقت فأهل الشهود طاروا إلى ما فوق السماء في لمحة بصر فلهم أجنحة من العقول السليمة والألباب الصافية والتوجهات المسرعة والجذبات المعجلة اجتهدوا بقوله عليه السلام : "لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل" :

﴿ يَزِيدُ ﴾ الله تعالى فإن زاد مشترك بين اللازم والمتعدي وليس في اللغة أزاد ﴿ فِى الْخَلْقِ ﴾ في أي : خلق كان من الملائكة وغيرهم فاللام للجنس والخلق بمعنى المخلوق ﴿ مَا يَشَآءُ ﴾ كل ما يشاء أن يزيده بموجب مشيئته ومقتضى حكمته من الأمور التي لا يحيط بها الوصف فليس تفاوت أحوال الملائكة في عدد الأجنحة وكذا تفاوت أحوال غيرهم في بعض الأمور تستدعيه ذواتهم بل ذلك من أحكام المشيئة ومقتضيات الحكم وذلك لأن اختلاف الأصناف بالخواص والفصول بالأنواع إن كان لذواتهم المشتركة لزم تنافي لوازم الأمور المتفقة وهو محال.

والآية متناولة لزيادات الصور والمعاني.

فمن الأولى حسن الصورة خصوصاً الوجه قيل ما بعث الله نبياً إلا حسن الشكل وكان نبينا عليه السلام أملح يعني : (بر يوسف عليه السلام مليحتر وشيرين تر بود) فمن قال كان أسود يقتل كما في "هدية المهديين" إلا أن لا يريد التقبيح بل الوصف بالسمرة والأسود العرب كما أن الأحمر العجم كما قال عليه السلام : "بعثت إلى الأسود والأحمر" .

ومنها ملاحة العينين واعتدال الصورة وسهولة اللسان وطلاقته وقوة البطش والشعر الحسن والصوت الحسن وكان نبينا عليه السلام طيب النغمة وفي الحديث "أشد أذناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب قينة إلى قينته" أي : من استماع مالك جارية مغنية أريد هنا المغنية وفي الحديث "زينوا القرآن بأصواتكم" أي : اظهروا زينته بحسن أصواتكم وإلا فجل كلام الخالق أن يزينه صوت مخلوق ورخص تحصين الصوت والتطريب ما لم يتغير المعنى بزيادة أو نقصان في الحروف .

ومنها حسن الخط وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم "الخط الحسن يزيد الحق وضحاً" وهو بالفتح الضوء والبياض وفي الحديث "عليكم بحسن الخط فإنه من مفاتيح الرزق" .

يقول الفقير : حسن الخط مما يرغب فيه الناس في جميع البلاد فاستكمال صنعة الكتابة من الكمالات البشرية وإن كانت من الزيادات لا من المقاصد وقد يتعيش بعض الفقراء بمنافع قلمه ولا يحتاج إلى الغير فتكون المنة على كل حال :

ومن الثانية كمال العقل وجزالة الرأى وجراءة القلب وسماحة النفس وغير ذلك من الزيادات المحمودة (در حقايق سلمى آورده كه تواضع در اشراف وسخا در اغنيا وتعفف درفقرا وصدق در مؤمنان وشوق در محبان.

(50/639)

---

فالمراد بعلو الهمة التعلق بالمولى لا بالدنيا والعقبى.

ويقال: يزيد في الجمال والكمال والدمامة.

يقول الفقير: هذا المعنى لا يناسب مقام الامتنان كما لا يخفى على أهل الإذعان ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بليغ القدرة على كل شيء ممكن وهو تعليل بطريق التحقيق للحكم المذكور فإن شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء مما يوجب قدرته على أن يزيد كل ما يشاؤه إيجاباً بيناً فقد أبان سبحانه أن قدرته شاملة لكل شيء ومن الأشياء الإنقاذ من الشهوات والإخراج من الغفلات والإدخال في دائرة العلم والشهود الذي هو من باب الزيادات فمن استعجز القدرة الإلهية فقد كفر ألا ترى إلى حال إبراهيم بن أدهم حيث تجلى الله له بجمال اللطف الصوري أولاً وأعطاه الجاه والسلطنة ثم منّ له باللطف المعنوي ثانياً حيث أنقذه من حبس العلاقات وخلصه من أيدي الكدورات وشرفه بالوصول إلى عالم الإطلاق والدخول

في حرم الوفاق .

.حكي .أنه كان سبب خروج إبراهيم بن أدهم عن أهله وماله وجاهه ورياسته وكان من أبناء الملوك أنه خرج يوماً يصطاد فأثار ثعلباً ثم أرنباً فبينما هو في طلبه إذ هتف به هاتف ألهذا خلقت أم بهذا أمرت ثم هتف به من قربوس سرجه والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فنزل عن مركوبه وصادف راعياً لأبيه فأخذ جبة الراعي من صوف فلبسها وأعطاه فرسه وما معه ثم دخل البادية وكان من شأنه ما كان .

(51/639)

---

.وحكي .أن الشيخ أبا الفوارس شاهين بن شجاع الكرماني رضي الله عنه خرج للصيد وهو ملك كرمان فأمعن في الطلب حتى وقع في برية مقفرة وحده فإذا هو بشاب راكب على سبع وحوله سباع فلما رأته ابتدرت نحوه فزجرها الشاب عنه فلما دنا إليه سلم عليه وقال له : يا شاه ما هذه الغفلة عن الله اشتغلت بدنياك عن آخرتك وبلذتك وهواك عن خدمة مولاك إنما أعطاك الله الدنيا لتستعين بها على خدمته فجعلتها ذريعة إلى الاشتغال عنه فبينما الشاب يحدثه إذ خرجت عجوز بيدها شربة ماء فناولتها الشاب فشرب ودفع باقيها إلى الشاه فشربه فقال : ما شربت شيئاً ألذ منه ولا أبرد ولا أعذب ثم غابت العجوز

فقال الشاب : هذه الدنيا وكلها الله إلى خدمتي فما احتجت إلى شيء إلا أحضرته إليّ حين يخطر ببالي أما بلغك أن الله تعالى لما خلق الدنيا قال لها : يا دنيا من خدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه فلما رأى ذلك تاب وكان منه ما كان فهذان الملكان بالكسر صارا ملكين بالفتح بقدرة الله تعالى فجاء في حقهما يزيد في الخلق ما يشاء والله الموفق .

﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾

ما شرطية في محل النصب بيفتح .

والفتح في الأصل إزالة الاغلاق وفي العرف الظفر ولما كان سبباً للإرسال والاطلاق استعير له بقرينة لا مرسل له مكان الفاتح .

(52/639)

---

وفي "الإرشاد" عبر عن إرسالها بالفتح إيذاناً بأنها أنفس الخزائن وأعزها منالاً وتنكيرها للإشاعة والإبهام أي : أي شيء يفتح الله من خزائن رحمته أية رحمة كانت من نعمة وصحة وعلم وحكمة إلى غير ذلك

﴿ فَلا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ أي : لا أحد من المخلوقات يقدر على إمساكها وحبسها فإنه لا مانع لما أعطاه .

قيل: الفتح ضربان: فتح الهي وهو النصرة بالوصول إلى العلوم والهدايات التي هي ذريعة إلى الثواب والمقامات

المحمودة فذلك قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ (الفتح: 1) وقوله: ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ ﴾ (المائدة: 52) والثاني فتح دنيوي وهو النصرة في الوصول إلى اللذات البدنية وذلك قوله: ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ وقوله: ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ (الأعراف: 96) ﴿ وَمَا يُمْسِكْ ﴾ أي: أي شيء يمسكه ويحبسه ويمنعه ﴿ فَلا مُرْسِلَ لَهُ ﴾ أي: لا أحد من الموجودات يقدر على إرساله وإعطائه فإنه لا معطي لما منعه.

واختلاف الضمير بالتذكير والتأنيث لما أن مرجع الأول مفسر بالرحمة ومرجع الثاني مطلق في كل ما يمسكه من رحمته وغضبه.

ففي التفسير الأول وتقييده بالرحمة إيذان بأن رحمته سبقت غضبه أي: في التعلق وإلا فهما صفتا تعالى لا تسبق إحداهما الأخرى في ذاتهما ﴿ مِنا بَعْدِهِ ﴾ على تقدير المضاف أي: من بعد إمساكه ومنعه كقوله: ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ﴾ أي: من بعد هداية الله ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على كل ما يشاء من الأمور التي من جملتها الفتح والإمساك فلا أحد ينازعه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يفعل ما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه كان النبي عليه السلام يقول في دبر الصلاة "لا إله إلا الله وحده لا شريك له وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد" وهو بالفتح الحظ والإقبال في الدنيا أي: لا ينفع الفتى المحظوظ حظه منك أي: بدل طاعتك وإنما ينفع العمل والطاعة.

وعن معاذ رضي الله عنه مرفوعاً "لا تزال يد الله مبسوطة على هذه الأمة ما لم يرفق خيارهم بشرارهم ويعظم برّهم فاجرهم ويعن قراؤهم أمراءهم على معصية الله فإذا فعلوا نزع الله يده عنهم".

فعلى العاقل أن يجتهد حتى يأتي رزقه الصوري والمعنوي بلا جهد ومشقة وتعب.

.روي.عن الشيخ أبي يعقوب البصري رضي الله عنه أنه قال جعت مرة في الحرم عشرة أيام فوجدت ضعفاً فحدثتني نفسي أن أخرج إلى الوادي لعلي أجد شيئاً يسكن به ضعفي فخرجت فوجدت سلجمة مطروحة فأخذتها فإذا برجل جاء فجلس بين يديّ ووضع قمطرة وقال هذه لك فقلت كيف خصصتني بها؟ فقال: اعلم إنا كنا في البحر منذ عشرة أيام فأشرفت السفينة على الغرق فنذر كل واحد منا نذراً إن خلصنا الله أن يتصدق بشيء ونذرت أنا إن خلصني الله أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصري من المجاورين وأنت أول من لقيته قلت: افتحها ففتحها فإذا فيها كعك ممصر ولوز مقشر

وسكر كعاب فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت : ردّ الباقي إلى صبيانك هدية مني إليهم وقد قبلتها ثم قلت في نفسي رزقك يسير إليك منذ عشرة أيام وأنت تطلبه في الوادي .

(54/639)

---

اللهم افتح لنا خير الباب وارزقنا مما رزقت أولى الألباب إنك مفتح الأبواب .

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾

عامة فاللام للجنس أو يا أهل مكة خاصة فاللام للعهد ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ نعمه رسمت بالتاء في أحد عشر موضعاً من القرآن ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب أي : إنعامه عليكم إن جعلت النعمة مصدراً وكائنة عليكم إن جعلت اسماً أي : راعوها واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها وتخصيص العبادة والطاعة بمعطيها سواء كانت نعمة خارجة كالمال والجاه أو نعمة بدنية كالصحة والقوة أو نعمة نفسية كالعقل والفطنة ولما كان ذكر النعمة مؤدياً إلى ذكر المنعم قال بطريق الاستفهام الإنكاري ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ أي : هل خالق مغاير له تعالى موجود أي : لا خالق

سواه على أن خالق مبتدأ محذوف الخبر زيدت عليه من تأكيدا للعموم وغير الله نعت له باعتبار محله كما أنه نعت له في قراءة الجر باعتبار لفظه.

(55/639)

---

قال في "الأسئلة المقحمة": أي: حجة فيها على المعتزلة الجواب أنه تعالى أخبر بأن لا خالق غيره وهم يقولون: نحن نخلق أفعالنا وقوله من صلة وذلك يقتضي غاية النفي والانتفاء ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالارْضِ ﴾ أي: المطر من السماء والنبات من الأرض وهو كلام مبتدأ لا محل له من الإعراب ولا مساغ لكونه صفة أخرى لخالق لأن معناه نفي وجود خالق موصوف بوصفي المغايرة والرازقية معاً من غير تعرق لنفي وجود ما اتصف به المغايرة فقط ولا لكونه خبراً للمبتدأ لأن معناه نفي رازقية خالق مغاير له من غير تعرض لنفي وجوده رأساً مع أنه المراد حتماً وفائدة هذا التعريف أنه إذا عرف أنه لا رازق غيره لم يعلق قلبه بأحد في طلب شيء ولا يتذلل للإنفاق لمخلوق وكما لا يرى رزقه من مخلوق لا يراه من نفسه أيضاً فيتخلص من ظلمات تدبيره واحتياله وتوهم شيء من أمثاله وأشكاله ويستريح بشهود تقديره.

قال شيخي وسندي روّح الله روحه من بعض تعليقاته يا مهموماً بنفسه كنت من كنت لو

ألقيتها إلينا وأسقطت تدبيرها وتركت تدبيرك لها واكتفيت بتدبيرنا لها من غير منازعة في تدبيرنا لها لاسترحت جعلنا الله وإياكم هكذا بفضله آمين ﴿ لا إِلهَ إِلا هُوَ ﴾ وإذا تبين تفرده تعالى بالألوهية والخالقية والرازقية ﴿ فَأَنَّى ﴾ فمن أي : وجه ﴿ تُؤْفَكُونَ ﴾ تصرفون عن التوحيد إلى الشرك وعن عبادته إلى عبادة الأوثان فالفاء لترتيب إنكار عدولهم عن الحق إلى الباطل على ما قبلها .

(56/639)

---

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ أي : وإن استمر المشركون على أن يكذبوك يا محمد فيما بلغت إليهم فلا تحزن واصبر ﴿ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ ﴾ أولوا شأن خطير وذووا عدد كثير ﴿ مِّن قَبْلِكَ ﴾ فصبروا وظفروا ﴿ وَإِلَى اللَّهِ ﴾ لا إلى غيره ﴿ تُرْجَعُ الأمُورُ ﴾ من الرجع وهو الرد أي : ترد إليه عواقبها فيجازي كل صابر على صبره وكل مكذب على تكذيبه .

وفي "التأويلات النجمية" : يشير إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلّم وأولياء أمته وتسهيل الصبر على الأذية إذا علم أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثل ما استقبله وأنهم لما صبروا كفاهم علم أنه يكفيه بسلوك سبيلهم والاقتداء بهم وليعلم أرباب القلوب أن حالهم مع الأجانب من هذه الطريقة كأحوال الأنبياء مع السفهاء من أممهم وأنهم لا يقبلون

منهم إلا القليل من أهل الإرادة وقد كان أهل الحقائق أبداً منهم في مقاساة الأذية ولا يتخلصون إلا بستر حالهم عنهم والعوام أقرب إلى هذه الطريقة من القراء المتقشفين والعلماء الذين هم لهذه الأصول منكرون وإقرار المقرين وإنكار المنكرين ليس يرجع إليهم بل يرجع إلى تقدير عليم حكيم يعلم المبدأ والمعاد ويدبر على وفق إرادته الأحوال.

فعلى العاقل أن يختار طريق العشق والإقرار وإن كان فيه الأذى والملامة ويجتنب عن طريق النفي والإنكار وإن كان فيه الراحة والسلامة فإن ذرة من العشق خير للعاشقين من كثير من أعمال العابدين.

(57/639)

---

وطريق العشق هو التوحيد وإثبات الهوية بالتفريد كما قال: ﴿لا إلهَ إلا هُوَ﴾ وهو كناية عن موجود غائب والغائب عن الحواس الموجود في الأزل هو الله تعالى وهو ذكر كل من المبتدى والمنتهى أما المبتدي ففي حقه غيبة لأنه من أهل الحجاب وأما المنتهى ففي حقه حضور لأنه من أهل الكشف فلا يشاهد إلا الهوية المطلقة وهو مركب في الحس من حرفين وهما: "ه و" وفي العقل من حرفين أيضاً وهما "اى" فكانت حروفه في الحس والعقل أربعة لتدل على الإحاطة التربيعية التي هي إحاطة هو الأول: والآخر والظاهر والباطن ولما

كانت الأولية والآخروية اعتبارين عقليين دل عليهما بالألف والياء ولما كانت الظاهرية والباطنية اعتبارين حسيين دل عليهما بالهاء والواو فألف هو غيب في هائه وياؤه غيب في واوه.

واعلم أن الذكر خير من الجهاد فإن ثواب الغزو والشهادة في سبيل الله حصول الجنة والذاكر جليس الحق تعالى كما قال: "أنا جليس من ذكرني" وشهود الحق أفضل من حصول الجنة ولذلك كانت الرؤية بعد حصول الجنة وشرط الذكر الحضور بالقلب والروح وجميع القوى.

انتهى. اهـ ﴿روح البيان حـ 7 صـ 367. 375﴾

(58/639)

---

وقال ابن عجيبة:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قلت: ﴿ أولي ﴾: اسم جمع، كذُو، وهو بدل من «رسلاً»، أو نعت له، و ﴿ مثْنى وثلاثَ ورُباع ﴾: نعوت لأجنحة، وهو غير منصرف؛ لأنه معدول عن اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وهو باعتبار الأشخاص، أي: منهم مَن له اثنان، ومنهم مَن له ثلاثة، هذا ظاهر

الكشاف .

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ الحمدُ لله ﴾ ، حمد نفسه ؛ تعليماً وتعظيماً ، ﴿ فاطرِ السماواتِ والأرض ﴾ مبديهما ومبدعهما . قال ابن عباس رضي الله عنه : « ما كنت أدري معنى فاطر حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي : ابتدأتها » . قال البيضاوي : من الفطر ، بمعنى الشق ، كأنه شق العدم بإخراجهما منه . قلت : وكأنه شق النور الكثيف من النور اللطيف ، فنور السموات والأرض من نوره الأزلي ، وسره الخفي . ﴿ جاعلِ الملائكةِ رسلاً ﴾ إلى عباده ، أي : وسائط بين الله وبين أنبيائه والصالحين من عباده ، فيُبلغون إليهم رسالاته بالوحي ، والإلهام ، والرؤيا الصادقة . ﴿ أُولي أجنحةٍ ﴾ متعددة ﴿ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاع ﴾ أي : منهم ملائكة لهم اثنان ؛ لكل واحد جناحان ، ومنهم مَن له ثلاثة ، ومنهم مَن له أربعة ، بتفاوت ما لهم من المراتب ، ينزلون بها ، ويعرجون ، أو : يُسرعون نحو ما وكلهم الله عليه ، يتصرفون فيه على ما أمرهم به ، ولعله تعالى لم يرد الحصر ونفى ما زاد عليها ، لِمَا رُوي أنه صلى الله عليه وسلم رأى جبريل ليلة المعراج ، وله ستمائة جناح . وَرُوِيَ أنه طلب منه أن يريه صورته التي خلقه اللهُ عليها ، فلما رآه كذلك خرّ مغشِياً عليه . وقال : ما كنت أرى شيئاً من الخلق هكذا . فقال له : لو رأيت إسرافيل ، إِنَّ له لاثني عشر جناحاً بالمشرق ، واثني عشر جناحاً بالمغرب ، وإنّ العرش لعلى كاهله ، وإنه ليتضاءل لعظمة الله تعالى . أ هـ

﴿ يَزيدُ في الخلق ما يشاء ﴾ أي: يزيد في خَلْق الأجنحة وغيره ما يريد . وقيل: هو الوجه الحسن، والشَعْر الحسن، والصوت الحسن، والحظّ الحسن. والملاحة في العينين. والآية مطلقة تتناول كلّ زيادة في الخلق، من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة العقل، وجزالة في الرأي، وفصاحة في اللسان، وحُسن خلق في المعاشرة، ومحبة في قلوب المؤمنين وغير ذلك. ﴿ إن الله على كل شيءٍ قدير ﴾ فيقدر على ما يشاء، من زيادةٍ في الخلق، ونقصان فيها، على حسب المشيئة السابقة.

الإشارة: الحمدُ في القرآن وقع على أربعة أقسام: حمد مطلق، وهو الواقع على عظمة ذاته، من غير أن يكون في مقابلة شيء، وهو قوله: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ [ النمل: 59 ]، ﴿ الْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [ النحل: 75 ]

وحمدٌ وقع في مقابلة تنزيه ذاته عن النقائص، وهو قوله:

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً . . . ﴾ [الإسراء : 111] الآية. وحمدٌ وقع في مقابلة نعمة الإيجاد ، وهو قوله : ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ . . . ﴾ [ الأنعام : 1 ] ، وحمدٌ وقع في مقابلة نعمة الإمداد الحسي ، كقوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [ الجاثية : 36 ] ، فإن التربية تقتضي وصول ما يحتاج إليه المربّي ، أو الإمداد المعنوي ، وهو إمداد القلوب والأرواح بالهداية ، وهو قوله : ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ [ الكهف : 1 ] ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا . . . ﴾ [ الأعراف : 43 ] فهذه أربعة : حمد مطلق ، أو مقيد بشأن التنزيه ، أو بنعمة الإيجاد ، أو الإمداد ، وما وقع هنا في إظهار تجلياته ، من أرضه وسماواته ، ولطائف ملائكته ، فإن ذلك كله من نور جبروته .

وقوله تعالى : ﴿ يَزِيدُ فِي الخلق ما يشاء ﴾ قال القشيري : يقال : هو الفهم عن الله ، أو السخاء والجود ، أو : الرضا بالتقدير ، أو : علو الهمة ، أو : التواضع في الشرف ، أو : العفة في الفقر ، أو : الظَرفُ أي : الظرافة في الشمائل ، أو : أن يكون مُحبباً في القلوب ، أو : خفة الروح ، أو : تحرُّر القلب عن رِقّ الحرمان أي بالوقوف مع الأكوان أو : ألا يطْلُب لنفسه منزلةً في الدارين أي : بأن يكون عبد الله حقيقة . انتهى . ا هـ ملخصاً .

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾

الحق جلّ جلاله : ﴿ ما يَفْتَحِ اللهُ للناسِ من رحمة ﴾ أي : ما يطلق ويرسل من رحمة ، كنعمة ، ومطر ، وأمن ، وعافية ، ورزق ، وعلم ، ومعرفة ، ونبوة ، وغيرها ، ﴿ فلا مُمسِكَ لها ﴾ فلا أحد يقدر على إمساكها وردها ، واستعير الفتح للإطلاق ؛ لأنه مسبب عنه . ونكّر الرحمة للإشاعة والإبهام ، كأنه قال : من أيّ رحمة كانت ، فتشمل نعمة الدفع والجلب ، كدفع المحن وجلب المنن . والاعترافُ بالمنعم من تمام النعمة ، والأمران مدرجان في الفتح والإمساك ، ﴿ وما يُمْسِكْ ﴾ أي : يمنع ويحبس من ذلك ﴿ فلا مُرسل له ﴾ فلا مُطلق له ﴿ من بعده ﴾ من بعد إمساكه . وأنث الضمير الراجع إلى الاسم المتضمِّن معنى الشرط على معنى الرحمة ، وذكّره ؛ حملاً على لفظ المرجوع إليه ؛ إذ لا تأنيث فيه ؛ لأن الأول فسّر بالرحمة ، فحسن اتباع الضمير التفسير ، ولم يفسر الثاني فتُرك على أصل التذكير .

وعن معاذ رضي الله عنه مرفوعاً : « لا تزال يدُ الله مبسوطة على هذه الأمة ما لم يرفُقْ خيارُهم بشرارهم ، ويُعظِّمْ برَّهُم فاجرَهم ، وتعِنْ قراؤهم أمراءهم على معصية الله . فإذا فعلوا ذلك نزع الله يده عنهم » قال ابن عرفة : يُؤخذ من قوله تعالى : ﴿ وما يُمسك . . . ﴾ أن العدم السابق الإضافي متعلق للقدرة ، وجعله بعض الأصوليين متعلقاً

للإرادة أيضاً ، وذلك لأن المصحح للتعلُّق الإمكان . انتهى انتهى . ا هـ قال الأُبي : لا دليل في الآية ؛ لاحتمال أن يكون التقدير : وما يريد إمساكه ، فيكون من متعلقات الإرادة ، ويحتمل : وما يُمسك عن الإرسال بعد وجوده ، كإمساك الماء عن النزول بعد خلقه في السحاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ وهو العزيزُ ﴾ الغالب ، القادر على الإرسال والإمساك . ﴿ الحكيمُ ﴾ الذي يُرسل ويُمسك ، بما تقتضي الحكمة إرساله ، أو إمساكه .

(62/639)

---

الإشارة : ما يفتح الله لقلوب عباده من نفحات ، وواردات ، وإلهامات ، وعلوم لدنية ، وحِكَم ربانية ، وتعرفات جمالية وجلالية ، فلا ممسك لها ، بل الله يفتح على مَن يشاء ، ويسد الباب في وجه مَن شاء . وسدُّ الباب في وجه العبد عن معرفته الخاصة ، علامته : عدم إيصاله إلى أوليائه . فكل مَن وصله إليهم ، وصَحِبهم ، وعظَّمهم ، وخدمهم ، فقد فتح الله له الباب في وصوله إليه ، وكل مَن نكبه عنهم ، ولم يصحبهم ، كما ذكر ، فقد سُدّ الباب في وجهه عن معرفته العيانية . وفي الحكم : « سبحان مَن لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا مَن أراد أن يوصله إليه » . وما يُمسك من ذلك فلا مرسل له من بعده ، ولو صلّى وصام ألف عام . قال القشيري : ما يلوح لقلوب

العارفين من أنوار التحقيق لا سحاب يستره ، ولا ضباب يقهره . ويقال : ما يلزم قلوبَ أوليائه وأحوالهم من التيسير فلا مُمسك له ، والذي يمنع من أعدائه بسبب ما يُلقيهم فيه من انغلاق الأمور واستصعابها فلا مُيسِّرَ له من دونه . انتهى انتهى . ا هـ وبالله التوفيق .

(63/639)

---

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾

قلت : ﴿ غيرُ الله ﴾ : من رفعه فنعت للمحل ، أي : هل خالق غير الله ، ومن جره : فنعت للفظ . و ﴿ يرزقكم ﴾ : إما استئناف ، أو : صفة ثانية لخالق ، و ﴿ لا إله إلا هو ﴾ : مستأنفة ، لا محل لها .

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمةَ الله عليكم ﴾ باللسان والقلب ، وهي التي تقدمت ، من بسط الأرض كالمهاد ، ورفع السماء بلا عماد ، وإرسال الرسل للهداية والإرشاد ، والزيادة في الخلق ، وفتح أبواب الرزق . ثم نبَّه على أصل النعم ، وهو توحيد المُنْعِم ، فقال : ﴿ هل من خالق غيرُ الله يرزقكم من السماء ﴾ بالمطر ﴿ والأرض ﴾ بالنبات ، بل لا خالق يرزق غيره ، ﴿ لا إله إلا هو فأنى تُؤفكون ﴾ فمن أيِّ وجه تُصرفون عن التوحيد إلى الشرك .

ثم سلَّى نبيه عن صدف قومه عن شكر المُنعم بقوله : ﴿ وإِن يُكذّبوك فقد كُذِّبتْ رسلٌ مِن قبلك ﴾ فلك فيهم أُسوة ، فاصبر كما صبروا . وتنكير « رسل » للتعظيم ، المقتضي لزيادة التسلية ، والحث على المصابرة ، أي : فقد كُذِّبت رسل عظام ، ذوو عدد كثير ، وأولو آيات عديدة ، وأهل أعمار طوال ، وأصحاب صبر وعزم . وتقدير الكلام : وإن يكذبوك فتأسّ بتكذيب الرسل قبلك ؛ لأن الجزاء يعقب الشرط ، ولو أجري على الظاهر ، لكان الجزاء مقدماً على الشرط ؛ لأن تكذيب الرسل سابق ، فَوضعَ ﴿ فقد كُذّبت رسل من قبلك ﴾ موضع فتأسّ ، استغناءً بالسبب عن المسبب . ﴿ وإِلى الله تُرجع الأمورُ ﴾ وهو كلامٌ مشتمل على الوعد والوعيد ، من رجوع الأمور إلى حكمه ، ومجازاة المكذِّب والمكذَّب بكل ما يستحقه في الدنيا والآخرة ، في الدنيا بالنصر والعز لأهل الحق ، وبالذل والإهانة لأهل التكذيب ، وفي الآخرة معلوم ، فالإطلاق أحسن من التقييد بالآخرة . والله تعالى أعلم .

الإشارة : ذكر النعمة هو أن ينظر العبد ، ويتفكر في نفسه ، فيجد نفسه مغروقة في النعم الظاهرة والباطنة . وقد تقدّم تعدادها في لقمان . وليتفكر في حالته الماضية ، فقد كان

جاهلاً ، فعلَّمه الله ، ضالاًّ ، فهداه الله ، غافلاً ، فأيقظه الله ، عاصياً ، فوفقه الله ، إلى غير ذلك من الأحوال السنية . ولينظر أيضاً إلى مَن تحته مِن العباد ، فيجد كثيراً مَن هو أسوأ منه حالاً ومقاماً ، فيحمد الله ويشكره . قال صلى الله عليه وسلم : « انظروا إلى مَن هو تحتكم ولا تنظروا إلى مَن فوقكم فهو أَجْدَرُ ألا تَزْدَرُوا نعمةَ الله عليكم » وحمله المحققون على العموم في الدين والدنيا . ذكره ابن عباد في الرسائل وغيره .

(65/639)

---

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : تذاكروا النعم ؛ فإن ذكرها شكر . انتهى انتهى .

ا هـ وقال القشيري : مَنْ ذَكَرَ نعمَته فصاحبُ عبادةٍ ، ونائِلُ زيادة ، ومَن ذَكَرَ المُنْعِمَ فصاحبُ إرادة ، ونائل زيادة ، ولكنْ فرقٌ بين زيادة وزيادةً ، هذا زيادته في الدارين عطاؤه ، وهذا زيادته لقاؤه ، اليومَ سِرّاً بسِرٍ ، من حيث المشاهدة ، وغداً جَهْراً بِجَهْرٍ ، من حيث المعاينة .

(66/639)

---

ه. قلت: مَن تحقق بغاية الشهود لم يبقَ له فرق بين شهود الدارين؛ إذ المتجلي واحد. ثم قال: والنعمة على قسمين: ما دَفَعَ من المِحَن، وما وضع من المِنَن، فَذِكْرُه لما دَفَعَ عنه يوجب دوامَ العصمة، وذكره لما نَفَعَه به يوجب تمام النعمة، ﴿ هل من خالق غير الله... ﴾؟ فائدة هذا التعريف بوحدانيته، فإذا عَرَفَ أنه لا رازق غيره؛ لم يُعلّق قلبه بأحدٍ في طلب شيءٍ. وتَوَهم شيء من أمثاله وأشكاله، ويستريح لشهود تقديره، ولا محالة يُخْلِصُ في توكله وتفويضه. أهـ

ثم قال في قوله: ﴿ وإن يُكذّبوك... ﴾ الآية: وفي هذا إشارة للحكماء، وأرباب القلوب، مع العوامّ والأجانب عن هذه الطريقة، فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل، وأهل الحقائق منهم أبداً في مقاساة الأذية، إلا بسَتْر حالهم عنهم، والعوام أقرب إلى هذه الطريقة من القُرّاءِ المتعمقين، والعلماء المتجمدين، الذين هم لهذه الأصول منكرون. انتهى.

اهـ ﴿البحر المديد حـ 4 صـ 513.518 ﴾

(67/639)

---

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب:

سورة فاطر

نزولها : مكية عدد آياتها : خمس وأربعون آية . .

عدد كلماتها : سبعمائة وسبعون . .

عدد حروفها : ثلاثة آلاف ومائة وثلاثة وثلاثون .

مناسبتها لما قبلها بدأت سورة « سبأ » السابقة بالحمد للّه ، والثناء عليه ، وإضافة ما فى السموات وما فى الأرض إليه سبحانه وتعالى ، ثم ختمت بعرض الكافرين على جهنّم وما يلقاهم من ضنك وبلاء هناك ، وما يتمنونه من العودة إلى الحياة الدنيا ، وأن ذلك ما لا يكون أبدا ، وأنهم لو ردّوا لما آمنوا ، لأنهم يحملون طباعا لا تتعامل إلا مع الضلال والكفر .

وقد بدئت سورة « فاطر » هذه بحمد اللّه أيضا ، والثناء عليه ، وإضافة الوجود إليه إضافة إيجاد وخلق ، بعد أن أضافته إليه سورة سبأ ، إضافة ملك وتصريف . .

ثم كان هذا الحمد ردّا على كفر الكافرين وشكّهم ، وما جرّهم إليه هذا الكفر والشك من بلاء ونكال ، فهو حمد من المؤمنين إذ عافاهم اللّه سبحانه وتعالى مما يلقى أهل النار من عذاب أليم .

قوله تعالى : «الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .

فاطر السموات والأرض : أي مبدعهما ، وخالقهما ، على أتم نظام وأكمله .

ومنه الفطرة ، وهى ما ركّب اللّه سبحانه وتعالى فى الإنسان من غرائز وميول ، يولد بها الإنسان ، كصفحة بيضاء نقية . .

(69/639)

---

والجعل : إضافة على أصل الخلق ، وهو العمل الوظيفى للمخلوق ، حسب طبيعته . .

كما يقول سبحانه : «جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً» (5 : يونس) . .

وقد شرحنا هذا المعنى فى مواضع أخرى . .

فالحمد للّه ، من ذاته ، ومن المخلوقات لذات الخالق ، حمدا على الخلق والإيجاد ، وعلى ما أمد به ما خلق ، من أسباب البقاء ، وعلى أن جعل الملائكة رسلا إلى الناس ، تحمل إليهم رسالات السماء ، بالهدى والنور ، وتستغفر للمؤمنين باللّه ، وتصلى على رسول اللّه ، صلوات اللّه وسلامه عليه . .

.وقوله تعالى : «مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ» صفة للأجنحة ، وتدل هذه الصيغ على كثره

المعدود ، وأن الملائكة ذوو أجنحة ، وأنهم فى ذلك ثلاثة أصناف ، صنف له جناحان ، وصنف له ثلاثة أجنحة ، وثالث له أربعة أجنحة . . وهذه الأجنحة من نور ، تتشكل من هذه الأنوار اللطيفة كما تتشكل صور الأشياء من عالم المادة . .

وقوله تعالى «يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ» هو ردّ على من يتصور أن ذوات الأجنحة لا تكون إلا بجناحين ، وأن الثلاثة لا يقوم بها نظام الطائر ، كما أن الأربعة هى بمنزلة الجناحين . . وهذا فى تقدير الخلق ، ولكن الخلاق العظيم المبدع ، يخلق ما يشاء ، ويزيد فى الخلق ما يشاء . . «إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فإذا جعل لطائر ، ثلاثة أجنحة ، أو أربعة ، أو ما شاء اللّه من أجنحة ، كان ذلك بتقدير ، وعلم ، وحكمة . . «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» (7 : السجدة) قوله تعالى : «ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» أي إن القدرة كلّها بيد اللّه وحده ، لا يملك أحد شيئا يقدر به على أن



---

يجلب خيرا أو يدفع ضرّا ، إلا بإذن اللّه وتقديره . .

فما يرسله اللّه سبحانه وتعالى إلى الناس ، من رحمة ، أي من خير ورزق ، لا يستطيع أحد

رده ، والحيلولة بينه وبين أن يصل إلى حيث أراد الّله . .

وما يمسك اللّه من شىء ، فلا يستطيع أحد أن يرسله ، ولا أن يزحزحه عن الموضع الذي هو فيه . .

وقد قيّد ما يرسل من الله ـ سبحانه ـ بالرحمة ، إشارة إلى ما للّه سبحانه وتعالى من فضل وإحسان ، وأنه رحيم بعباده ، وأن رحمته وسعت كل شىء وأطلق ما يمسك ، ولم يقيد بالرحمة أو غيرها ، إشارة إلى أن اللّه سبحانه إنما يمسك ما يمسك لاضنّا بما يمسكه ، وإنما لحكمة وتقدير . . « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » الذي عز سلطانه فملك كل شىء ، والذي قام ملكه على الحكمة ، فلا يقع فيه شىء إلا بتقدير الحكيم العليم قوله تعالى : «يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ » وإذا كان اللّه سبحانه وتعالى ، هو مالك الملك وحده ، والمنصرف فيه بلا شريك يشاركه ـ فإن أي مخلوق يتوجه إلى غير خالقه ، ويطلب الرزق منه ، يكون قد ضل ، ولن يبوء إلا بالخيبة والخسران .

ـ وقوله تعالى : « فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ » استفهام إنكارى ، ينكر على الذين يولّون وجوههم إلى غير اللّه ، ويلتمسون الرزق من غيره ـ ينكر عليهم هذا الضلال ، ويتبعهم إلى هذا المتجه الخاطئ الذي يتجهون إليه . . والإفك :

الافتراء والبهتان .

*(71/639)*

---

قوله تعالى : « وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » .

هو عزاء كريم من اللّه سبحانه وتعالى ، للنبى صلوات اللّه وسلامه عليه ، فيما يلقى من قومه من تكذيب ، فهو ليس وحده الذي كذّب من قومه ، فإن إخوانه الأنبياء من قبله ، قد لقوا من أقوامهم مثل ما لقى ، من سفاهة السفهاء ، وتطاول الحمقى ، وتكذيب الضالين والجاهلين . .

.وقوله تعالى : « وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » تهديد لهؤلاء المكذبين ، وبأن أمرهم إلى اللّه ، وأنهم راجعون إليه ، فيقضى فيهم بحكمه ، ويجزى المسيء منهم بما عمل ! . . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 11 صـ 849.853 ﴾

*(72/639)*

---

وقال ابن عاشور :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾

افتتاحها بـ ﴿ الحمد لله ﴾ مؤذن بأن صفات من عظمة الله ستذكر فيها ، وإجراء صفات الأفعال على اسم الجلالة مِن خلقِهِ السماوات والأرض وأفضلِ ما فيها من الملائكة والمرسلين مؤذن بأن السورة جاءت لإثبات التوحيد وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم وإيذان ﴿ الحمد لله ﴾ باستحقاق الله إياه دون غيره تقدم في أول سورة الفاتحة .

والفاطر : فاعل الفَطْر ، وهو الخلق ، وفيه معنى التكون سريعاً لأنه مشتق من الفطر وهو الشق ، ومنه ﴿ تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ﴾ [ الشورى : 5 ] ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ [ الانفطار : 1 ] .

وعن ابن عباس "كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض ( أي لعدم جريان هذا اللفظ بينهم في زمانه ) حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي أنا ابتدأتُها .

وأحسب أن وصف الله بـ ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ مما سبق به القرآن ، وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ في سورة الأنعام ( 14 ) ، وقوله : ﴿ وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض ﴾ في آخر سورة يوسف ( 101 ) فضُمَّه إلى ما هنا .

وأما جاعل ﴾ فيطلق بمعنى مكوِّن ، وبمعنى مُصيِّر ، وعلى الاعتبارين يختلف موقع قوله : ﴿ رسلاً ﴾ بين أن يكون مفعولاً ثانياً لـ ﴿ جاعل ﴾ أي جعل الله من الملائكة ، أي

ليكونوا رسلاً منه تعالى لما يريد أن يفعلوه بقوتهم الذاتية ، ويين أن يكون حالاً من ﴿ الملائكة ﴾ ، أي يجعل من أحوالهم أن يُرسَلوا .

ولصلاحية المعنيين أُوثرت مادة الجعل دون أن يعطف على معمول ﴿ فاطر ﴾ .

وتخصيص ذكر الملائكة من بين مخلوقات السماوات والأرض لشرفهم بأنهم سكان السماوات وعظيم خلقهم .

(73/639)

---

وأجري عليهم صفة أنهم رُسل لمناسبة المقصود من إثبات الرسالة ، أي جاعلهم رسلاً منه إلى المرسلين من البشر للوحي بما يراد تبليغهم إياه للناس .

وقوله ﴿ أولي أجنحة ﴾ يجوز أن يكون حالاً من ﴿ الملائكة ﴾ ، فتكون الأجنحة ذاتيةً لهم من مقومات خلقتهم ، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿ رسلاً ﴾ فيكون خاصة بحالة مَرسوليتهم .

و ﴿ أجنحة ﴾ جمع جَناح بفتح الجيم وهو ما يكون للطائر في موضع اليد للإِنسان فيحتمل أن إثبات الأجنحة للملائكة في هذه الآية وفي بعض الأحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة ، ويحتمل أنه استعارة للقوة التي يخترقون بها الآفاق السماوية صعوداً

ونزولاً لا يعلم كنهها إلا الله تعالى .

و﴿ مثنى ﴾ وأخواتُه كلمات دالّة على معنى التكرير لاسم العدد التي تشتق منه ابتداء من الاثنين بصيغة مَثنى ثم الثلاثة والأربعة بصيغة ثُلاث ورُباع .

والأكثر أنهم لا يتجاوزون بهذه الصيغة مادة الأربعة ، وقيل : يجوز إلى العشرة .

والمعنى : اثنين اثنين الخ .

وتقدم قوله : ﴿ أن تقوموا لله مثنى وفرادى ﴾ في سورة سبأ ( 46 ) .

والكلام على أولي ﴾ تقدم .

والمعنى : أنهم ذوو أجنحة بعضها مصففة جناحين جناحين في الصف ، وبعضها ثلاثةً ثلاثة ، وبعضها أربعةً أربعةً ، وذلك قد تتعدد صفوفه فتبلغ أعداداً كثيرة فلا ينافي هذا ما ورد في الحديث عن عبد الله بن مسعود : "أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح" .

ويجوز أن تكون أعداد الأجنحة متغيرة لكل ملك في أوقات متغيرة على حسب المسافات التي يؤمرون باختراقها من السماوات والأرضين .

والأظهر أن الأجنحة للملائكة من أحوال التشكل الذي يتشكلون به .

وفي رواية الزهري أن جبريل قال للنبيء صلى الله عليه وسلم "لو رأيت إسرافيل إنّ له لاَثنَيْ عشرَ ألفَ جناح وإن العرش لعلى كاهله" .

واعلم أن ماهية الملائكة تتحصل فيما ذكره سعد الدين في كتاب "المقاصد" "إنهم أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكلات بأشكال مختلفة، شأنهم الخير والطاعة، والعلم، والقدرة على الأعمال الشاقة، ومسكنُهم السماوات، وقال: هذا ظاهر الكتاب والسنة وهو قول أكثر الأمة".

اه.

ومعنى الأجسام اللطيفة أنها من قبيل الجوهر لا العرض وأنها جواهر مما يسمى عند الحكماء بالمجردات.

وعندي: أن تعريف صاحب "المقاصد" لحقيقة الملائكة لا يخلو عن تخليطٍ في ترتيب التعريف لأنه خلط في التعريف بين الذاتيات والعرضيات.

والوجه عندي في ترتيب التعريف أن يقال: أجسام لطيفة نورانية أخيار ذوو قوة عظيمة، ومن خصائصهم القدرة على التشكل بأشكال مختلفة، والعلم بما تتوقف عليه أعمالهم، ومقرهم السماوات ما لم يرسلوا إلى جهة من الأرض.

وهذا التشكل انكماش وتقبض في ذرات نورانيتهم وإعطاء صورة من صور الجسمانيات

الكثيفة لذواتهم .

دل على تشكلهم قوله تعالى لهم يوم بدر ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ [ الأنفال : 12 ] ، وثبت تشكل جبريل عليه السلام للنبيء صلى الله عليه وسلم في صورة دِحْيَة الكلبي ، وتشكله له ولعمر بن الخطاب في حديث السؤال عن الإِيمان والإِسلام والإِحسان والساعة في صورة "رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفَر ، ولا يَعرفه منا أحد (أي من أهل المدينة) حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه" الحديث ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن فارقهم الرجل "هل تدرون من السائل ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم "كما في "الصحيحين" عن عمر بن الخطاب .



---

وثبت حلول جبريل في غار حراء في بدء الوحي ، وظهورُه للنبيء صلى الله عليه وسلم على كرسي بين السماء والأرض بصورته التي رآه فيها في غار حراء كما ذلك في حديث نزول سورة المدثر ، ورأى كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ بدر ناساً

لا يعرفونهم على خيل يقاتلون معهم .

وجملة ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن ما ذكر من صفات الملائكة يثير تعجب السامع أن يتساءل عن هذه الصفة العجيبة ، فأجيب بهذا الاستئناف بأن مشيئة الله تعالى لا تنحصر ولا تُوقَّت .

ولكل جنس من أجناس المخلوقات مقوماته وخواصه .

فالمراد بالخلق : المخلوقات كلُّها ، أي يزيد الله في بعضها ما ليس في خَلقٍ آخر .

فيشمل زيادة قوة بعض الملائكة على بعض ، وكل زيادة في شيء بين المخلوقات من المحاسن والفضائل من حصافة عقل وجمال صورة وشجاعة وذلقة لسان ولياقة كلام .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ صفة ثانية للملائكة ، أي أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في خلقهم ما يشاء كأنه قيل : مثنى وثلاث ورباع وأكثر ، فما في بعض الأحاديث من كثرة أجنحة جبريل يبين معنى ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ .

وعليه فالمراد بالخلق ما خُلق عليه الملائكة من أن لبعضهم أجنحة زائدة على من لبعض آخر .

وجملة ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ تعليل لجملة ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ ، وفي هذا تعريض بتسفيه عقول الذين أنكروا الرسالة وقالوا : ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ [ إبراهيم : 10 ] ، فأجيبوا بقول الرسل ﴿ إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على ما

يشاء من عباده ﴾ [إبراهيم: 11].

مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا

هذا من بقية تصدير السورة بـ ﴿ الحمد لله فاطر السماوات والأرض ﴾ [فاطر: 1]، وهو عطف على ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ الخ.

(76/639)

---

والتقدير: وفاتح الرحمة للناس وممسكها عنهم فلا يقدر أحد على إمساك ما فتحه ولا على فتح ما أمسكه.

و﴿ ما ﴾ شرطية، أي اسم فيه معنى الشرط.

وأصلها اسم موصول ضُمِّن معنى الشرط.

فانقلبت صلته إلى جملة شرطية وانقلبت جملة الخبر جواباً واقترنت بالفاء لذلك، فأصل ﴿ ما ﴾ الشرطية هو الموصولة.

ومحل ﴿ ما ﴾ الابتداء وجواب الشرط أغنى عن الخبر.

و﴿ من رحمة ﴾ بيان لإبهام ﴿ ما ﴾ والرابط محذوف لأنه ضمير منصوب.

والفتح: تمثيلية لإعطاء الرحمة إذ هي من النفائس التي تشبه المدخرات المتنافس فيها

فكانت حالة إعطاء الله الرحمة شبيهة بحالة فتح الخزائن للعطاء ، فأشير إلى هذا التمثيل بفعل الفتح ، وبيانُه بقوله : ﴿ من رحمة ﴾ قرينة الاستعارة التمثيلية .

والإِمساك حقيقته : أخذ الشيء باليد مع الشدّ عليه بها لئلا يسقط أو ينفلت ، وهو يتعدّى بنفسه ، أو هو هنا مجاز عن الحبس والمنع ولذلك قوبل به الفتح .

وأما قولهم : أمسك بكذا ، فالباء إمّا لتوكيد لصوق المفعول بفعله كقوله تعالى : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ [ الممتحنة : 10 ] ، وإمّا لتضمينه معنى الاعتصام كقوله تعالى : ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ [ لقمان : 22 ] .

وقد أوهم في "القاموس" و"اللسان" و"التاج" أنه لا يتعدى بنفسه .

فقوله هنا : ﴿ وما يمسك ﴾ حذف مفعوله لدلالة قوله : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة ﴾ عليه .

والتقدير : وما يمسكه من رحمة ، ولم يُذكر له بيان استغناءً ببيانه من فعل .

والإِرسال : ضد الإِمساك ، وتعدية الإِرسال باللام للتقوية لأن العامل هنا فرع في العمل .

و﴿ من بعده ﴾ بمعنى : من دونه كقوله تعالى : ﴿ فمن يهديه من بعد الله ﴾ [ الجاثية : 23 ] ﴿ فبأي حديث بعد الله ﴾ [ الجاثية : 6 ] ، أي فلا مرسل له دون الله ، أي لا يقدر أحد على إبطال ما أراد الله من إعطاء أو منع والله يحكم لا معقب لحكمه .

وتذكير الضمير في قوله : ﴿ فلا مرسل له ﴾ مراعاة للفظ ﴿ ما ﴾ لأنها لا بيان لها ، وتأنيثه في قوله : ﴿ فلا ممسك لها ﴾ لِمراعاة بيان ﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ من رحمة ﴾ لقربه .

وعطف ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ تذييل رجّح فيه جانب الإِخبار فعطف ، وكان مقتضى الظاهر أن يكون مفصولاً لإِفادة أنه يفتح ويمسك لحكمة يعلمها ، وأنه لا يستطيع أحد نقضَ ما أَبْرَمَه في فتح الرحمة وغيره من تصرفاته لأن الله عزيز لا يمكن لغيره أن يغلبه ، فأنّ نقض ما أبرم ضرب من الهوان والمذلّة .

ولذلك كان من شعار صاحب السؤدد أنه يبرم وينقض قال الأعشى :

علقمَ ما أنت إلى عامر

الناقِض الأوتار والواتر . . .

وضمير ﴿ لها ﴾ وضمير ﴿ له ﴾ عائدان إلى ﴿ ما ﴾ من قوله : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة ﴾ ، روعي في تأنيث أحد الضميرين معنى ﴿ ما ﴾ فإنه اسم صادق على ﴿ رحمة ﴾ وقد بُيّن بها ، وروعي في تذكير الضمير الآخر لفظ ﴿ ما ﴾ لأنه لفظ لا علامة تأنيث فيه .

وهما اعتباران كثيران في مثله في فصيح الكلام ، فالمتكلم بالخيار بين أيّ الاعتبارين شاء .

والجمع بينهما في هذه الآية تفنن .

وأوثر بالتأنيث ضمير ﴿ ما ﴾ لأنها مبيّنة بلفظ مؤنث وهو ﴿ من رحمة ﴾ .

﴿ يا أيها الناس اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالق غَيْرُ الله يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السمآء والأرض ﴾ .

لما جرى ذكر رحمة الله التي تعم الناس كلهم أقبل على خطابهم بأن يتذكروا نعمة الله عليهم الخاصة وهي النعمة التي تخص كل واحد بخاصته فيأتلف منها مجموع الرحمة العامة للناس كلهم وما هي إلا بعض رحمة الله بمخلوقاته .

والمقصود من تذكر النعمة شكرها وقدرها قدرها .

ومن أكبر تلك النعم نعمة الرسالة المحمدية التي هي وسيلة فوز الناس الذين يتبعونها بالنعيم الأبدي .

(78/639)

---

فالمراد بالذكر هنا التذكر بالقلب وباللسان فهو من عموم المشترك أو من إرادة القدر المشترك فإن الذكر باللسان والذكر بالقلب يستلزم أحدُهما الآخرَ وإلا لكان الأول هذياناً والثاني كتماناً .

قال عمر بن الخطاب : "أفضل من ذكر الله باللسان ذكرُ الله عند أمره ونهيه" ، أي وفي كليهما فضل .

ووصفت النعمة بـ ﴿ عليكم ﴾ لأن المقصود من التذكر التذكر الذي يترتب عليه الشكر ، وليس المراد مطلق التذكر بمعنى الاعتبار والنظر في بديع فضل الله ، فذلك له مقام آخر ، على أن قوله : ﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم ﴾ قد تضمن الدعوة إلى النظر في دليل الوحدانية والقدرة والفضل .

والاستفهام إنكاري في معنى النفي ولذلك اقتَرن ما بعده بـ ﴿ مِنْ ﴾ التي تُزاد لتأكيد النفي ، واختير الاستفهام بـ ﴿ هل ﴾ دون الهمزة لِما في أصل معنى ﴿ هل ﴾ من الدلالة على التحقيق والتصديق لأنها في الأصْل بمعنى ( قد ) وتفيد تأكيد النفي .

والاهتمام بهذا الاستثناء قُدّم في الذكر قبل ما هو في قوة المستثنى منه .

وجعل صفة لـ ﴿ خالق ﴾ لأن ﴿ غير ﴾ صالحة للاعتبارين ولذلك جرت القراءات المشهورة على اعتبار ﴿ غير ﴾ هنا وصفاً لـ ﴿ خالق ﴾ ، فجمهور القراء قرأوه برفع ﴿ غير ﴾ على اعتبار محلِّ ﴿ خالق ﴾ المجرور بـ ﴿ من ﴾ لأن محله رفع بالابتداء .

وإنما لم يظهر الرفع للاشتغال بحركة حرف الجر الزائد .

وقرأه حمزة والكسائي وأبو جعفر وخَلف بالجر على إتْباع اللفظ دون المحل .

وهما استعمالان فصيحان في مثله اهتم بالتنبيه عليهما سيبويه في "كتابه" .

وجملة ﴿ يرزقكم ﴾ يجوز أن تكون وصفاً ثانياً ل ﴿ خالق ﴾ .

ويجوز أن تكون استئنافاً بيانياً .

(79/639)

---

وجُعل النفي متوجهاً إلى القيد وهو جملة الصفة كما هي سُنّته في الكلام المقيّد لأن المقصود التذكير بنعم الله تعالى ليشكروا ، ويكون ذلك كناية عن الاستدلال على انتفاء وصف الخالقية عن غيره تعالى لأنه لو كان غيره خالقاً لكان رازقاً إذ الخلق بدون رزق قصور في الخالقية لأن المخلوق بدون رزق لا يلبث أن يصير إلى الهلاك والعدم فيكون خلقه عبثاً ينزه عنه الموصوف بالإلهية المقتضية للحكمة فكانت الآية مذكرة بنعمتي الإيجاد والإمداد .

وزيادة ﴿ من السماء والأرض ﴾ تذكير بتعدد مصادر الأرزاق ؛ فإن منها سماوية كالمطر الذي منه شراب ، ومنه طهور ، وسبب نبات أشجار وكَلأٍ ، وكالمَنّ الذي ينزل على شجر خاص من أندية في الجوّ ، وكالضياء من الشمس ، والاهتداء بالنجوم في الليل ، وكذلك أنواع الطير الذي يُصَاد ، كلّ ذلك من السماء .

ومن الأرض أرزاق كثيرة من حبوب وثمار وزيوت وفواكه ومعادن وكلأٍ وكمأة وأسماك البِحار والأنهار .

وفي هذا القيد فائدة أخرى وهي دفع توهم الغفّل أن أرزاقاً تأتيهم من غير الله من أنواع العطايا التي يعطيها بعضهم بعضاً ، والمعاوضات التي يعاوضها بعضهم مع بعض فإنها لكثرة تداولها بينهم قد يلهيهم الشغل بها عن التدبر في أصول منابعها فإن أصول موادها من صنع الله تعالى فآل ما يُعطاه الناس منها إلى أنه من الله على نحو ما عرض للذي حاجَّ إبراهيم في ربه إذ قال له إبراهيم : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ﴾ [ البقرة : 258 ] فهذا رجل محكوم بقتله ها أنا ذا أعفو عنه فقد أحييتُه ، وهذا رجل حيّ ها أنا ذا آمر به فيقتل فأنا أميت .

فانتقل إبراهيم إلى أن قال له : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ [ البقرة : 258 ] .

﴿ السمآء والأرض لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ .

(80/639)

---

هذا نتيجة عقب ذكر الدليل إذ رتّب على انفراده بالخالقية والرازقية انفراده بالإلهية لأن هذين الوصفين هما أظهر دلائل الإلهية عند الناس فجملة ﴿ لا إله إلا هو ﴾ مستأنفة .

وفرع عليه التعجيب من انصرافهم عن النظر في دلائل الوحدانية بجملة ﴿ فأنى تؤفكون

﴾ .

و﴿ أَنَّى ﴾ اسم استفهام يجيء بمعنى استفهام عن الحالة أو عن المكان أو عن الزمان .

والاستفهام عن حالة انصرافهم هو المتعين هنا وهو استفهام مستعمل في التعجيب من انصرافهم عن الاعتراف بالوحدانية تبعاً لمن يصرفهم وهم أولياؤهم وكبراؤهم .

و﴿ تؤفكون ﴾ مبنيّ للمجهول من أَفَكَه من باب ضربه ، إذا صرفه وعدل به ، فالمصروف مأفوك .

وحذف الفاعل هنا لأن آفكيهم أصناف كثيرون ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ في سورة براءة ( 30 ) .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ( 4 )

عطف على جملة ﴿ اذكروا نعمت الله عليكم ﴾ [ فاطر : 3 ] أي وإن استمرّوا على انصرافهم عن قبول دعوتك ولم يشكروا النعمة ببعثك فلا عجب فقد كذب أقوام من قبلهم رسلاً من قبل .

وهو انتقال من خطاب الناس إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لمناسبة جريان خطاب الناس على لسانه فهو مشاهد لخطابهم ، فلا جرم أن يوجه إليه الخطاب بعد توجيهه إليهم إذ المقام واحد كقوله تعالى : ﴿ يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك ﴾ [ يوسف : 29 ] .

وإذ قد أبان لهم الحجة على انفراد الله تعالى بالإِلهية حين خاطبهم بذلك نُقِلَ الإِخبار عن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أنكروا قبوله منه فإنه لما استبان صدقه في ذلك بالحجة ناسب أن يُعرَّض إلى الذين كذبوه بمثل عاقبة الذين كذبوا الرسل من قبله وقد أدمج في خلال ذلك تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على تكذيب قومه إياه بأنه لم يكن مقامه في ذلك دون مقام الرسل السابقين.

(81/639)

---

وجيء في هذا الشرط بحرف ﴿ إِنْ ﴾ الذي أصله أن يعلق به شرط غير مقطوع بوقوعه تنزيلاً لهم بعد ما قدمت إليهم الحجة على وحدانية الله المصدقة لما جاءهم به الرسول عليه الصلاة والسلام فكذبوه فيه، منزلة من أيقن بصدق الرسول فلا يكون فرض استمرارهم على تكذيبه إلا كما يفرض المحال.

وهذا وجه إيثار الشرط هنا بالفعل المضارع الذي في حيّز الشرط يتمخض للاستقبال، أي إن حدث منهم تكذيب بعد ما قرع أسماعهم من البراهين الدامغة.

والمذكور جواباً للشرط إنما هو سبب لجواب محذوف إذ التقدير: وإن يكذبوك فلا يحزنك تكذيبهم إذ قد كذبت رسل من قبلك فاستُغني بالسبب عن المسبب لدلالته عليه.

وإنما لم يعرّف ﴿ رسل ﴾ وجيء به منكّراً لما في التنكير من الدلالة على تعظيم أولئك الرسل زيادة على جانب صفة الرسالة من جانب كثرتهم وتنوع آيات صدقهم ومع ذلك كذبهم أقوامهم .

وعطف على هذه التسلية والتعريض ما هو كالتأكيد لهما والتذكير بعاقبة مضمونها بأن أمر المكذبين قد آل إلى لقائهم جزاء تكذيبهم من لدن الذي ترجع إليه الأمور كلها ، فكان أمر أولئك المكذبين وأمر أولئك الرسل في جملة عموم الأمور التي أرجعت إلى الله تعالى إذ لا تخرج أمورهم من نطاق عموم الأمور .

وقد اكتسبت هذه الجملة معنى التذييل بما فيها من العموم .

و﴿ الأمور ﴾ جمع أمر وهو الشأن والحال ، أي إلى الله ترجع الأحوال كلها يتصرف فيها كيف يشاء ، فتكون الآية تهديداً للمكذبين وإنذاراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

(82/639)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾

أخرج أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت لا أدري ما ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ حتى أتاني اعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها قال: ابتدأتها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ قال: بديع السموات والأرض.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال: كل شيء في القرآن ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ فهو خالق السموات والأرض.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ قال: إلى العباد.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ قال: خالق السموات والأرض ﴿ جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ﴾ قال: بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة أجنحة، وبعضهم له أربعة أجنحة.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ أولي أجنحة مثنى ﴾ قال:

للملائكة الأجنحة من اثنين إلى ثلاثة إلى اثني عشر ، وفي ذلك وتر الثلاثة الأجنحة والخمسة ، والذين على الموازين فطران ، وأصحاب الموازين أجنحتهم عشرة عشرة . وأجنحة الملائكة زغبة ، ولجبريل ستة أجنحة : جناح بالمشرق ، وجناح بالمغرب ، وجناحان . منهم من يقول على ظهره ، ومنهم من يقول متسرولاً بهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ يزيد في أجنحتهم وخلقهم ما يشاء .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ قال : الصوت الحسن .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن الزهري رضي الله عنه في قوله ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ قال : حسن الصوت .

(83/639)

---

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن حذيفة ، أنه سمع أبا التياح يؤذن فقال : من يرد الله أن يجعل رزقه في صوته فعل .

وأخرج البيهقي عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ قال : الملاحة في العينين .

مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ما يفتح الله للناس. . . . ﴾ قال: ما يفتح الله للناس من باب توبة ﴿ فلا مرسل له من بعده ﴾ وهم لا يتوبون.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ يقول ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ [آل عمران: 128].

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة ﴾ أي من خير ﴿ فلا ممسك لها ﴾ قال: فلا يستطيع أحد حبسها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾ قال: المطر.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن وهب قال: سمعت مالكاً يحدث أن أبا هريرة رضي الله عنه كان إذا أصبح في الليلة التي يمطرون فيها وتحدث مع أصحابه قال: مطرنا الليلة بنوء الفتح، ثم يتلو ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾.

وأخرج ابن المنذر عن عامر بن عبد قيس رضي الله عنه قال: أربع آيات من كتاب الله،

إذا قرأتهن فما أبالي ما أصبح عليه وأمسي ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله ﴾ [ الأنعام : 17 ] و ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾ [ الطلاق : 7 ] ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ [ هود : 6 ] .

(84/639)

---

وأخرج ابن المنذر عن محمد بن جعفر بن الزبير قال كان عروة يقول في ركوب المحمل : هي والله رحمة فتحت للناس ، ثم يقول ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ يرزقكم من السماء والأرض ﴾ قال : الرزق من السماء : المطر ، ومن الأرض : النبات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(85/639)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

## سورة فاطر

قوله جل ذكره ( بسم الله الرحمن الرحيم )

" بسم الله " كلمة سماعها يوجب روحا لمن كان يشاهد الإتقان ، ويوجب لوحا لمن كان يوصف البيان ، فالروح من وجود الإحسان ، واللوح من شهود السلطان ، وكل مصيب ، ولكل من الحق نصيب .

قوله جلّ ذكره : ﴿ الْحَمدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُوْلِى أَجْنِحَةٍ ﴾ .

استحق المدحَ والثناءَ على انفراده بالقدرة على خلق السموات والأَرض .

﴿ جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُوْلِى أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاَثُ وَرُبَاعُ يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ : تَعَرَّف إلى العباد بأفعاله ، ونَدَبَهم إلى الاعتبار بها ، فمنها ما نعلم منه ذلك معاينةً كالسموات والأرض وغيرها ، ومنها ما سبيلُ الإيمانِ به الخبرُ والنقلُ – لا بدليل العقل – والملائكةُ مِنْ ذلك ؛ فلا نتحقق كيفيّة صُوَرِهم وأجنحتهم ، وكيف يطيرون بأجنحتهم الثلاثة أو الأربعة ، ولكن على الجملة نعلم كمال قدرته ، وصِدْقَ كلمته .

قوله : ﴿ يَزِيدُ فِى الخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ : قيل الخُلُقُ الحَسَنُ ، وقيل الصوتُ الحَسَنُ ، وقيل الصوتُ الحَسَنُ وقيل مَلاَحَةُ العينين ، وقيل الكياسة في الخِيَرَة ، وقيل الفصاحة في المنطق ، وقيل الفهم عن الله ، ويقال السخاء والجود ، ويقال الرضا بالتقدير ، ويقال علو الهمة ،

ويقال التواضع ، ويقال العفة عند الفقر ، ويقال الظرف في الشمائل ، ويقال أن تكون مُحَبَّباً إلى القلوب ، ويقال خفة الروح ، ويقال سلامة الصدر من الشرور ، ويقال المعرفة بالله بلا تأمُّل برهان ، ويقال الشوق إلى الله ، ويقال التعطُّف على الخَلْق بجملتهم ، ويقال تحرُّر القلوب من رِقّ الحدثان بجملته ، ويقال ألا يطْلُبَ لنفسه منزلةً في الدارين .

(86/639)

---

مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2)

المُوسَّعُ عليه رِزْقُه لا يُضَيِّقُ عليه غيرُ الله ، والمحرومُ لا يُوسعُ عليه غيرُ الله .

ويقال : ما يلج في قلوب العارفين من أنوار التحقيق لا سحابَ يستره ، ولا ضياءَ يقهره .

ويقال : ما يلزم قلوبَ أوليائه من اليقين فلا مُزِيلَ له ، وما يُغْلَق على قلوب الأَعداء من أبواب الذكر فلا فاتحَ له غيره - سبحانه .

ويقال الذي يقرنه بقلوب أوليائه وأحوالهم من التيسير فلا مُمْسِكَ له ، والذي يمنعه عن أعدائه - بما يُلْقيهم فيه من انغلاق الأمور واستصعابها - فلا مُيَسِّرَ له من دونه .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3)

مَنْ ذَكَرَ النّعمة فصاحبُ عبادةٍ، ونائِلُ زيادة، ومَنْ ذَكَرَ المُنْعِمَ فصاحبُ إرادةٍ، ونائِلُ زيادة. . . ولكنْ فرقٌ بين زيادة وزيادة؛ ذل زيادته في الدارين عطاؤه، وهذا زيادته لقاؤه: اليوم سِرًّا بِسِرٍّ من حيث المشاهدة، وغداً جَهْرًا بِجَهْرٍ من حيث المعاينة.

والنعمة على قسمين: ما دَفَعَ عنه من المِحَن، وما نَفَعَ به من المِنَن؛ فَذِكْرُه لما دفع عنه يوجِبُ دوامَ العصمة، وذكره لم نَفَعَه به يوجب تمام النعمة.

﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ. . . ﴾ ؟ وفائدة هذا التعريف أنه إذا عَرَفَ أنه لا رازق غيره لم يُعلِّقْ قلبَه بأحدٍ في طلب شيءٍ، ولم يتذلل في ارتفاقٍ لمخلوقٍ، وكما لا يرى رِزْقَه من مخلوقٍ لا يراه من نفسه أيضاً؛ فيتخلَّصُ من ظلمات تدبيره واحتياله، ومن تَوَهُّم شيءٍ من أمثاله وأشكاله، ويستريح لشهود تقديره، ولا محالةَ يُخْلِصُ في توكله وتفويضه.

(87/639)

---

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (4)

هذه تسليةٌ للرسول صلى الله عليه وسلم، وتسهيلٌ للصبر عليه؛ فإذا عَلِمَ أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثلما استقبله، وأنَّهم صَبَرُوا وأنّ اللَّهَ كفاهم، فهو يسلك سبيلَهم

ويقتدي بهم ، وكما كفاهم عِلمَ أنه أيضاً يكفيه . وفي هذا إشارة للحكماء وأرباب القلوب في موقفهم من العوامِّ والأجانب عن هذه الطريقة ، فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل ، بينما أهل الحقائق أبداً منهم في مقاساة الأذى إلا بستر حالهم عنهم .

والعوامُّ أقرب إلى هذه الطريقة من القُرَّاءِ المتقشفين ، ومن العلماء الذين هم لهذه الأصول ينكرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 190 . 192 ﴾

*(88/639)*

---

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (6) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أشعر هذا الختام باليوم الموعود ، وهو الأصل الثابت قال مهدداً به محذراً منه : ﴿ يا أيها الناس ﴾ أي الذين عندهم أهليه للتحرك إلى النظر .

(89/639)

---

ولما كانوا ينكرون البعث أكد قوله : ﴿ إن وعد الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال وهو منزه عن كل شائبة نقص ، فهو لا يجوز عليه في مجاري العادات للغنى المطلق أن يخلف الميعاد ﴿ حق ﴾ أي بكل ما وعد به من البعث وغيره وقد وعد أنه يردكم إليه في يوم تنقطع فيه الأسباب ، ويعرض عن الأحساب والأنساب ، ليحكم بينكم بالعدل ، ثم سبب عن كونه حقاً قوله على وجه التأكيد لأجل الإنكار أيضاً : ﴿ فلا تغرنكم ﴾ أي بأنواع الخدع من اللهو والزينة غروراً مستمر التجدد ﴿ الحياة الدنيا ﴾ فإنه لا يليق بذي همه عليه اتباع الدنيء ، والرضى بالدون الزائل عن العالي الدائم ﴿ ولا يغرنكم بالله ﴾ أي الذي لا يخلف الميعاد وهو الكبير المتعالي ﴿ الغرور ﴾ أي الذي لا يصدق في شيء وهو الشيطان العدو ، ولذلك استأنف قوله مظهراً في موضع الإضمار للتنفير بمدلول الوصف قبل التذكير بالعداوة ووخامة العاقبة فيما يدعو إليه مؤكداً لأن أفعال المشايعين له بما يمنيهم به من نحو : إن ربكم حليم ، لا يتعاظمه ذنب ، مع الإصرار على المعصية أفعال المتعقدين لمصادقته :

﴿ إن الشيطان ﴾ أي المحترق بالغضب البعيد من الخير ﴿ لكم ﴾ أي خاصة فهو في غاية الفراغ لأذاكم ، فاجتهدوا في الهرب منه ﴿ عدو ﴾ بتصويب مكايده كلها إليكم وبما سبق له مع أبيكم آدم عليه السلام بما وصل أذاه إليكم وأيضاً " من عادى أباك فقد عاداك " .

ولما كانت عداوته تحتاج إلى مجاهدة لأنه يأتي الإنسان من قبل الشهوات ، عبر بصيغة الافتعال فقال : ﴿ فاتخذوا ﴾ اي بغاية جهدكم ﴿ عدواً ﴾ والله لكم ولي فاتخذوه ولياً بأن تتحروا ما يغيظ الشيطان بأن تخالفوه في كل ما يريده ويأمر به ، وتتعمدوا ما يرضاه الرحمن ونهجه لكم وأمركم به فتلتزموه ، قال القشيري : ولا يقوى على عداوته إلا بدوام الاستعانة بالرب فإنه لا يغفل عن عداوتك ، فلا تغفل أنت عن مولاك لحظة .

*(90/639)*

---

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنما يدعو حزبه ﴾ أي الذين يوسوس لهم فيعرضهم لاتباعه والإعراض عن الله ﴿ ليكونوا ﴾ باتباعه كوناً راسخاً ﴿ من أصحاب السعير ﴾ هذا غرضه لا غرض له سواه ، ولكنه يجتهد في تعمية ذلك عنهم بأن يقرر في نفوسهم جانب الرجاء وينسيهم جانب الخوف ، ويريهم أن التوبة في أيديهم ويسوف لهم بها بالفسحة في الأمل ، والإبعاد في الأجل ، للإفساد في العمل ، والرحمن سبحانه إنما يدعو عباده ليكونوا

من أهل النعيم ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ [ يونس : 25 ] .

ولما أنهى البيان في غرض الشيطان إلى منتهاه ، نبه على ما حكم به هو سبحانه في أشياعه بقوله مستأنفاً : ﴿ الذين كفروا ﴾ أي غطوا بالاتباع له بالهوى ما دلتهم عليه عقولهم وكشفه لهم غاية الكشف هذا البيان العزيز ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ أي في الدنيا بفوات غالب ما يؤملون مع تفرقة قلوبهم وانسداد بصائرهم وسفالة هممهم حتى أنهم رضوا أن يكون إلههم حجراً ، وانحجاب المعارف التي لا لذاذة في الحقيقة غيرها عنهم ، وفي الآخرة بالسعير التي دعاهم إلى صحبتها .

ولما ذكر جزاء حزبه ، اتبعه حزب الله الذين عادوا عدوهم فقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا ﴾ أي تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ ولما كان من أعظم مصايد الشيطان ما يعرض للإنسان خطأ وجهلاً من العصيان ، لما له من النقصان ليجره بذلك إلى العمد والعدوان ، قال تعالى داعياً له إلى طاعته وإزالة لخجلته : ﴿ لهم مغفرة ﴾ أي ستر لذنوبهم بحيث لا عقاب ولا عتاب ، وذلك معجل في هذه الدار ، ولولا ذلك لافتضحوا وغداً ، ولولا ذلك لهلكوا .

ولما محاها عيناً وأثراً ، أثبت الإنعام فقال : ﴿ وأجر كبير ﴾ أي يجل عن الوصف بغير هذا الإجمال ، فمنه عاجل بسهولة العبادة ودوام المعرفة وما يرونه في القلوب من وراء اليقين ، وآجل بتحقيق المسؤول من عظيم المنة ، ونيل ما فوق المأمول في الجنة .

ولما أبان هذا الكلام تفاوت الحزبين في المآل بالهلاك والفوز ، وكان لا يقدم على الهلاك أحد في حس ، وكان الكفار يدعون أنهم الفائزون قناعة بالنظر إلى ما هم فيه ، ويدعون أنهم أبصر الناس وأحسنهم أعمالاً وكذا كل عاص ومبتدع ، كان ذلك سبباً في إنكار تساويهما ، فأنكره مبيناً السبب في ضلالهم بما فيه تسلية للمحسنين وندب إلى الشكر وحث على ملازمة الافتقار والذل وسؤال العافية من الزلل والزيغ فقال : ﴿ أفمن ﴾ ولما كان الضار هو التزيين من غير نظر إلى فاعل معين بني للمفعول قوله : ﴿ زين له سوء عمله ﴾ أي قبحه الذي من شأنه أن يسوء صاحبه حالاً أو مآلاً بجمع مال ذاهب أو مذهوب عنه من غير خلة وبيع راحة الجنة المؤبدة بمتابعة شهوة منقية وإيثار مخلوق فإن على ربه الغني الباقي ؛ ثم سبب عنه ما أنهى إليه من الغاية فقال : ﴿ فرآه ﴾ أي السيىء بسبب التزيين ، ﴿ حسناً ﴾ أي فركبه ، بما أشار إليه إضافة العمل إليه ، وطوى المشبه به وهو كمن أبصر الأمور على حقائقها فاتبع الحسن واجتنب السيىء ، لأن المقام يهدي إليه ، وتعجيلاً بكشف ما أشكل على السامع من السبب الحامل على رؤية القبيح ، مُليحا بقوله مؤكداً رداً على من ينسب إلى غير الله فعلاً من خير أو شر : ﴿ فإن ﴾ أي السبب في رؤية

الأشياء على غير ما هي عليه إن ﴿ الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ يضل من يشاء ﴾ فلا يرى شيئاً على ما هو به ، فيقدم على الهلاك البين وهو يراه عين النجاة ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ فلا يشكل عليه أمر ولا يفعل إلا حسناً .

ولما كان المحب من يرضى بفعل حبيبه ، سبب عن ذلك النهي لأكمل خلقه عن الغم بسبب ضلالهم في قوله : ﴿ فلا ﴾ والأحسن أن يقدر المشبه به هنا فيكون المعنى : أفمن غير فعل القبيح فاعتقده حسناً لأن الله أضله بسبب أن الله هو المتصرف في القلوب كمن بصره الله بالحقائق ؟

(92/639)

---

ولما كان الجواب : لا ، ليس هما سواء سبب عنه قولاً : فلا ﴿ تذهب ﴾ أي بالموت أو ما يقرب منه ﴿ نفسك عليهم ﴾ أي بسبب ما هو فيه من العمى عن الجليات ﴿ حسرات ﴾ أي لأجل حسراتك المترادفة لأجل إعراضهم ، جمع حسرة وهي شدة الحزن على ما فات من الأمر .

ولما كان كأنه قيل : إنهم يؤذون أولياءك فيشتد أذاهم ، وكان علم الولي القادر بما يعمل عدوه كافياً في النصرة ، قال : ﴿ إن الله ﴾ أي المحيط بجميع أوصاف الكمال ﴿ عليم ﴾

أي بالغ العلم ، وأكده تنبيهاً على أن المقام صعب ، ومن لم يثبت نفسه بغاية جهده زل لطول إملائه تعالى لهم وحلمه عنهم ﴿ بما يصنعون ﴾ أي مما مرنوا عليه وانطبعوا فيه من ذلك حتى صار لهم خلقاً يبعد كل البعد انفكاكهم عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 204. 206 ﴾

(93/639)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾

أي الشيطان وقد ذكرنا ما فيه من المعنى اللطيف في تفسير سورة لقمان ونعيده ههنا فنقول المكلف قد يكون ضعيف الذهن قليل العقل سخيف الرأي فيغتر بأدنى شيء ، وقد يكون فوق ذلك فلا يغتر به ولكن إذا جاءه غار وزين له ذلك الشيء وهون عليه مفاسده ، وبين له منافع ، يغتر لما فيها من اللذة مع ما ينضم إليه من دعاء ذلك الغار إليه ، وقد يكون قوي الجأش غزير العقل فلا يغتر ولا يغر فقال الله تعالى : ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا ﴾ إشارة إلى الدرجة الأولى ، وقال : ﴿ وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ إشارة إلى الثانية ليكون واقعاً في

الدرجة الثالثة وهي العليا فلا يغر ولا يغتر .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ لما قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ [ فاطر : 5 ] ذكر ما يمنع العاقل من الاغترار ، وقال : ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ ولا تسمعوا قوله ، وقوله : ﴿ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ أي اعملوا ما يسوءه وهو العمل الصالح .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أصحاب السعير ﴾ إشارة إلى معنى لطيف وهو أن من يكون له عدو فله في أمره طريقان : أحدهما : أن يعاديه مجازاة له على معاداته والثاني : أن يذهب عداوته بإرضائه ، فلما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوّاً ﴾ أمرهم بالعداوة وأشار إلى أن الطريق ليس إلا هذا ، وأما الطريق الآخر وهو الإرضاء فلا فائدة فيه لأنكم إذا راضيتموه واتبعتموه فهو لا يؤديكم إلا إلى السعير .

(94/639)

---

واعلم أن من علم أن له عدو لا مهرب له منه وجزم بذلك فإنه يقف عنده ويصبر على قتاله والصبر معه الظفر ، فكذلك الشيطان لا يقدر الإنسان أن يهرب منه فإنه معه ، ولا يزال يتبعه إلا أن يقف له ويهزمه ، فهزيمة الشيطان بعزيمة الإنسان ، فالطريق الثبات على الجادة

والاتكال على العبادة .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7)

ثم بين الله تعالى حال حزبه وحال حزب الله .

فقال :

﴿ الذين كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ فالمعادي للشيطان وإن كان في الحال في عذاب ظاهر وليس بشديد ، والإنسان إذا كان عاقلاً يختار العذاب المنقطع اليسير دفعاً للعذاب الشديد المؤبد ألا ترى أن الإنسان إذ عرض في طريقه شوك ونار ولا يكون له بد من أحدهما يتخطى الشوك ولا يدخل النار ونسبة النار التي في الدنيا إلى النار التي في الآخرة دون نسبة الشوك إلى النار العاجلة .

وقال تعالى : ﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ قد ذكر تفسيره مراراً ، وبين فيه أن الإيمان في مقابلته المغفرة فلا يؤبد مؤمن في النار ، والعمل الصالح في مقابلته الأجر الكبير .

﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾

يعني ليس من عمل سيئاً كالذي عمل صالحاً ، كما قال بعد هذا بآيات ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ﴾ [ فاطر : 19 ] وله تعلق بما قبله وذلك من حيث إنه تعالى لما بين حال المسيء الكافر والمحسن المؤمن ، وما من أحد يعترف بأنه يعمل سيئاً إلا قليل ، فكان الكافر يقول الذي له العذاب الشديد هو الذي يتبع الشيطان وهو محمد وقومه الذين استهوتهم الجن فاتبعوها ، والذي له الأجر العظيم نحن الذين دمنا على ما كان عليه آباؤنا فقال الله تعالى لستم أنتم بذلك فإن المحسن غير ، ومن زين له العمل السيء فرآه حسناً غير ، بل الذين زين لهم السيء دون من أساء وعلم أنه مسيء فإن الجاهل الذي يعلم جهله والمسيء الذي يعمل سوء عمله يرجع ويتوب والذي لا يعلم يصر على الذنوب والمسيء العالم له صفة ذم بالإساءة وصفة مدح بالعلم .

والمسيء الذي يرى الإساءة إحساناً له صفتا ذم الإساءة والجهل ، ثم بين أن الكل بمشيئة الله ، وقال : ﴿ فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ وذلك لأن الناس أشخاصهم متساوية في الحقيقة والإساءة والإحسان ، والسيئة والحسنة يمتاز بعضها عن بعض فإذا عرفها البعض دون البعض لا يكون ذلك باستقلال منهم ، فلا بد من الاستناد إلى إرادة الله .

ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث حزن من إصرارهم بعد إتيانه بكل آية ظاهرة وحجة باهرة فقال : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات ﴾ كما قال تعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ على ءاثارهم ﴾ [ الكهف : 6 ] .

ثم بين أن حزنه إن كان لما بهم من الضلال فالله عالم بهم وبما يصنعون لو أراد إيمانهم وإحسانهم لصدهم عن الضلال وردهم عن الإضلال ، وإن كان لما به منهم من الإيذاء فالله عالم بفعلهم يجازيهم على ما يصنعون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 5 . 7 ﴾

(96/639)

---

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾

(97/639)

---

الألف واللام في ﴿ الحمد ﴾ لاستغراق الجنس على أتم عموم ، لأن ﴿ الحمد ﴾ بالإطلاق على الأفعال الشريفة والكمال هو لله تعالى والشكر مستغرق فيه لأنه فصل من فصوله ، و﴿ فاطر ﴾ معناه خالق لكن يزيد في المعنى الانفراد بالابتداء لخلقها ، ومنه قول

الأعرابي المتخاصم في البئر عند ابن عباس : أنا فرطتها ، أراد بدأت حفرها . قال ابن عباس ما كنت أفهم معنى ﴿ فاطر ﴾ حتى سمعت قول الأعرابي ، وقرأ الجمهور " الحمد لله فطر " ، وقرأ جمهور الناس " جاعلِ " بالخفض ، وقرأت فرقة " جاعلُ " بالرفع على قطع الصفة ، وقرأ خليد بن نشيط " جعل " على صيغة الماضي " الملائكة " نصباً ، فأما على هذه القراءة الأخيرة فنصب قوله ﴿ رسلاً ﴾ على المفعول الثاني ، وأما على القراءتين المتقدمتين فقيل أراد ب " جاعل " الاستقبال لأن القضاء في الأزل وحذف التنوين تخفيفاً وعمل عمل المستقبل في ﴿ رسلاً ﴾ ، وقالت فرقة ﴿ جاعل ﴾ بمعنى المضي و ﴿ رسلاً ﴾ نصب بإضمار فعل ، و ﴿ رسلاً ﴾ معناه بالوحي وغير ذلك من أوامره ، فجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل رسل ، والملائكة المتعاقبون رسل ، والمسددون لحكام العدل رسل وغير ذلك ، وقرأ الحسن " رسْلاً " بسكون السين ، و ﴿ أولي ﴾ جمع واحده ذو ، تقول ذو نهية والقوم أولو نهي ، وروي عن الحسن أنه قال في تفسير قول مريم ﴿ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ [ مريم : 18 ] قال علمت مريم أن التقي ذو نهية ، وقوله ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ ألفاظ معدولة من اثنين وثلاثة وأربعة عدلت في حال التنكير فتعرفت بالعدل ، فهي لا تنصرف للعدل والتعريف ، وقيل للعدل والصفة ، وفائدة العدل الدلالة على التكرار لأن ﴿ مثنى ﴾ بمنزلة قولك اثنين اثنين ، وقال قتادة : إن أنواع الملائكة هي هكذا منها ما له جناحان ، ومنها ما له ثلاثة ، ومنها ما له أربعة ،

ويشذ منها ما له أكثر من ذلك ، وروي أن لجبريل ستمائة جناح منهِا اثنان تبلغ من المشرق إلى المغرب ،

(98/639)

---

وقالت فرقة المعنى أن في كل جانب من الملك جناحين ، ولبعضهم ثلاثة في كل جانب ، ولبعضهم أربعة ، وإلا فلو كانت ثلاثة لكل واحد لما اعتدلت في معتاد ما رأيناه نحن من الأجنحة ، وقيل بل هي ثلاثة لكل واحد كالحوت والله أعلم بذلك ، وقوله تعالى : ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ تقرير لما يقع في النفوس من التعجب والاستغراب عن الخبر بالملائكة أولي الأجنحة ، أي ليس هذا ببدع في قدرة الله تعالى فإنه يزيد في خلقه ما يشاء ، وروي عن الحسن وابن شهاب أنهما قالا المزيد هو حسن لصوت قال الهيثم الفارسي : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال لي : أنت الهيثم الذي تزين القرآن بصوتك جزاك الله خيراً ، وقيل الزيادة الخط الحسن ، وقال النبي عليه السلام :

" الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً " ، وقال قتادة الزيادة ملاحة العينين .

(99/639)

قال القاضي أبو محمد : وقيل غير هذا وهذه الإشارة إنما ذكرها من ذكرها على جهة المثال لا أن المقصود هي فقط ، وإنما مثل بأشياء هي زيادات خارجة عن الغالب الموجود كثيراً وباقي الآية بين ، وقوله ﴿ ما يفتح الله ﴾ ﴿ ما ﴾ شرط ، و﴿ يفتح ﴾ جزم بالشرط ، وقوله ﴿ من رحمة ﴾ عام في كل خير يعطيه الله تعالى للعباد جماعتهم وأفذاذهم ، وقوله ﴿ من بعده ﴾ فيه حذف مضاف أي من بعد إمساكه ، ومن هذه الآية سمت الصوفية ما تعطاه من الأموال والمطاعم وغير ذلك الفتوحات ، ومنها كان أبو هريرة يقول مطرنا بنوء الفتح ، وقرأ الآية ، وقوله ﴿ يا أيها الناس ﴾ خطاب لقريش وهو متجه لكل كافر ، ولا سيما لعباد غير الله ، وذكرهم تعالى بنعمة الله عليهم في خلقهم وإيجادهم ، ثم استفهمهم على جهة التقرير والتوقيف بقوله ﴿ هل من خالق غير الله ﴾ أي فليس إله إلا الخالق لا ما تعبدون أنتم من الأصنام ، وقرأ حمزة والكسائي "غيرِ" بالخفض نعتاً على اللفظ وخبر الابتداء ﴿ يرزقكم ﴾ وهي قراءة أبي جعفر وشقيق وابن وثاب ، وقرأ الباقون غير نافع بالرفع ، وهي قراءة شيبة بن نصاح وعيسى والحسن بن أبي الحسن ، وذلك يحتمل ثلاثة أوجه : أحدها النعت على الموضع والخبر مضمر تقديره في الوجود أو في العالم وأن يكون "غيرُ" خبر الابتداء الذي هو في المجرور والرفع على الاستثناء ، كأنه قال هل خالق إلا الله ، فجرت "غير" مجرى الفاعل بعد ﴿ إلا ﴾ ،

وقوله ﴿ من السماء ﴾ يريد بالمطر ومن ﴿ الأرض ﴾ يريد بالنبات ، وقوله ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ معناه فلأي وجه تصرفون عن الحق ، ثم سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بما سلف من حال الرسل مع الأمم ، و﴿ الأمور ﴾ تعم جميع الموجودات المخلوقات إلى الله مصير جميع ذلك على اختلاف أحوالها ، وفي هذا وعيد للكفار ووعد للنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم وعظ عز وجل جميع العالم وحذرهم غرور الدنيا بنعيمها وزخرفها الشاغلة عن المعاد الذي له يقول الإنسان : ﴿ يا



---

ليتني قدمت لحياتي ﴾ [ الفجر : 24 ] ولا ينفعه ليت يومئذ ، وحذر غرور الشيطان ، وقوله ﴿ إن وعد الله ﴾ عبارة عن جميع خبره عز وجل في خير وتنعم أو عذاب أو عقاب ، وقرأ جمهور الناس " الغَرور " بفتح الغين وهو الشيطان قاله ابن عباس ، وقرأ سماك العبدي وأبو حيوة " الغُرور " بضم الغين وذلك يحتمل أن يكون جمع غار كجالس وجلوس ، ويحتمل أن يكون جمع غر وهو مصدر غره يغره غراً ، ويحتمل أن يكون مصدراً وإن كان شاذاً في الأفعال المتعدية أن يجيء مصدرها على فعول لكنه قد جاء لزمه لزوماً ونهكه المرض نهوكاً فهذا مثله وكذلك هو مصدر في قوله ﴿ فدلاهما بغرور ﴾ [ الأعراف : 22

.[

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (6)

*(101/639)*

---

قوله تعالى : ﴿ إن الشيطان ﴾ الآية ، يقوي قراءة من قرأ " الغَرور " بفتح الغين ، وقوله ﴿ فاتخذوه عدواً ﴾ أي بالمباينة والمقاطعة والمخالفة له باتباع الشرع ، و" الحزب " الحاشية والصاغية ، واللام في قوله ﴿ ليكونوا ﴾ لام الصيرورة لأنه لم يدعهم إلى السعير إنما اتفق أن صار أمرهم عن دعائه إلى ذلك ، و ﴿ السعير ﴾ طبقة من طبقات جهنم وهي سبع طبقات ، وقوله ﴿ الذين كفروا ﴾ في موضع رفع بالابتداء وهذا هو الحسن لعطف ﴿ الذين آمنوا ﴾ عليه بعد ذلك فهي جملتان تعادلتا ، وجوز بعض الناس في ﴿ الذين ﴾ أن يكون بدلاً من الضمير في ﴿ يكونوا ﴾ وجوز غيره أن يكون ﴿ الذين ﴾ في موضع نصب بدلاً من ﴿ حزبه ﴾ وجوز بعضهم أن يكون في موضع خفض بدلاً من ﴿ أصحاب ﴾ وهذا كله محتمل ، غير أن الابتداء أرجح . وقوله تعالى : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ توقيف وجوابه محذوف تقديره عنده الكسائي تذهب نفسك حسرات عليهم ، ويمكن أن يتقدر كمن اهتدى ونحو هذا من التقدير ، وأحسنها ما دل اللفظ بعد عليه ،

وقرأ طلحة " أمن زين " بغير فاء ، وهذه الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن كفر قومه ، ووجب التسليم لله تعالى في إضلال من شاء وهداية من شاء ، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن أمرهم وأن لا يبخع نفسه أسفاً عليهم ، وقرأ جمهور الناس " فلا تذهَبُ " بفتح التاء والهاء " نفسُك " بالرفع ، وقرأ أبو جعفر وقتادة وعيسى والأشهب " تُذهِبَ " بضم التاء وكسر الهاء نفسك بالنصب ، ورويت عن نافع ، و" الحسرة " هم النفس على فوات أمر ، واستشهد ابن زيد لذلك بقوله تعالى : ﴿ يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله ﴾ [ الزمر : 56 ] ثم توعد تعالى الكفرة بقوله ﴿ إن الله عليم بما يصنعون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(102/639)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾

هذا وعظ للمكذبين للرسول بعد إيضاح الدليل على صحة قوله : إن البعث والثواب والعقاب حق .

﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا ﴾ قال سعيد بن جُبير : غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان

بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة، حتى يقول: يا ليتني قدّمت لحياتي.

﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الغرور ﴾ قال ابن السكيت وأبو حاتم: "الغَرور" الشيطان.

وغرور جمع غَرّ، وغَرٌّ مصدر.

ويكون "الغَرور" مصدراً وهو بعيد عند غير أبي إسحاق؛ لأن "غررته" متعدّ، والمصدر المتعدّي إنما هو على فَعْل؛ نحو: ضربته ضرباً، إلا في أشياء يسيرة لا يقاس عليها؛ قالوا: لزِمْته لُزوماً، ونَهَكه المرض نُهوكاً.

فأما معنى الحرف فأحسن ما قيل فيه ما قاله سعيد بن جبير، قال: الغرور بالله أن يكون الإنسان يعمل بالمعاصي ثم يتمنّى على الله المغفرة.

وقراءة العامة "الغَرور" (بفتح الغين) وهو الشيطان؛ أي لا يغرّنّكم بوساوسه في أنه يتجاوز عنكم لفضلكم.

وقرأ أبو حَيْوة وأبو السَّمّال العدويّ ومحمد بن السَّمَيْقَع "الغُرور" (برفع الغين) وهو الباطل ؛ أي لا يغرّنّكم الباطل.

وقال ابن السكيت: والغُرور (بالضم) ما اغترّ به من متاع الدنيا.

قال الزجاج: ويجوز أن يكون الغرور جمع غارّ؛ مثل قاعد وقعود.

النحاس: أو جمع غَرّ، أو يُشبّه بقولهم: نهكه المرض نهوكاً ولزمه لزوماً.

الزمخشريّ: أو مصدر "غره" كاللزوم والنهوك.

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ أي فعادوه ولا تطيعوه.

ويدلكم على عداوته إخراجه أباكم من الجنة، وضمانه إضلالكم في قوله : ﴿ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ [النساء : 119] الآية.

وقوله : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأعراف : 16 17] الآية.

(103/639)

---

فأخبرنا جل وعز أن الشيطان لنا عدوّ مبين، واقتص علينا قصته، وما فعل بأبينا آدم صلى الله عليه وسلم، وكيف انتدب لعداوتنا وغرورنا من قبل وجودنا وبعده، ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا، وكان الفضيل بن عِياض يقول : يا كذاب يا مُفْتَرٍ، اتق الله ولا تَسُبَّ الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر.

وقال ابن السماك : يا عجباً لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ! وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته ! وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" مجوَّداً.

و"عدُوّ" في قوله : "إِنَّ الشَّيطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ" يجوز أن يكون بمعنى معادٍ، فيثنّى ويجمع ويؤنث.

ويكون بمعنى النسب فيكون موحداً بكل حال؛ كما قال جل وعز: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾ [الشعراء: 77].

وفي المؤنث على هذا أيضاً عدوّ.

النحاس: فأما قول بعض النحويين إن الواو خفية فجاؤوا بالهاء فخطأ، بل الواو حرف جلد.

﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ ﴾ كفّت "ما" "إنّ" عن العمل فوقع بعدها الفعل.

﴿ حِزْبَهُ ﴾ أي أشياعه.

﴿ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السعير ﴾ فهذه عداوته.

﴿ الذين كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ يكون "الَّذِينَ" بدلاً "مِنْ أَصْحَابِ" فيكون في موضع خفض، أو يكون بدلاً من "حِزْبَه" فيكون في موضع نصب، أو يكون بدلاً من الواو فيكون في موضع رفع.

وقول رابع وهو أحسنها: يكون في موضع رفع بالابتداء ويكون خبره "لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ"؛ وكأنه سبحانه بيّن حال موافقته ومخالفته، ويكون الكلام قد تَمّ في قوله: ﴿ مِنْ أَصْحَابِ السعير ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿ الذين كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾.

﴿ والذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات ﴾ في موضع رفع بالابتداء أيضاً، وخبره ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ

﴾ أي لذنوبهم .

﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وهو الجنة .

(104/639)

---

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سوء عَمَلِهِ ﴾ "مَن" في موضع رفع بالابتداء ، وخبره محذوف .

قال الكسائي : والذي يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ فالمعنى : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ذهبت نفسك عليهم حسرات .

قال : وهذا كلام عربيّ طريف لا يعرفه إلا قليل .

وذكره الزمخشريّ عن الزجاج .

قال النحاس : والذي قاله الكسائي أحسن ما قيل في الآية ، لما ذكره من الدلالة على المحذوف ، والمعنى أن الله جل وعز نهى نبيّه عن شدة الاغتمام بهم والحزن عليهم ، كما قال جل وعز : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ قال أهل التفسير : قاتل .

قال نصر بن عليّ : سألت الأصمعيّ عن " قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في أهل اليمن : "هم أرقّ قلوباً وأبخع طاعةً" " ما معنى أبخع ؟ فقال : أنصح .

فقلت له : إن أهل التفسير مجاهداً وغيره يقولون في قول الله عز وجل : "لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ"

: معناه قاتِل نفسك .

فقال : هو من ذاك بعينه ، كأنه من شدة النصح لهم قاتل نفسه .

وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير ، مجازه : أفمن زُيّن له سوء عمله فرآه حَسَنا ً ،

فلا تَذْهب نفسُك عليهم حسرات ، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء .

وقيل : الجواب محذوف ؛ المعنى أفمن زين له سوءُ عمله كمن هدى ، ويكون يدل على هذا

المحذوف ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ .

وقرأ يزيد بن القَعْقاع : "فَلاَ تُذْهِبْ نَفْسَكَ" وفي ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ ﴾ أربعة أقوال

، أحدها : أنهم اليهود والنصارى والمجوس ؛ قاله أبو قِلابة .

ويكون "سُوءُ عَمَلِهِ" معاندة الرسول عليه الصلاة والسلام .

الثاني : أنهم الخوارج ؛ رواه عمر بن القاسم .

فيكون "سُوءُ عَمَلِهِ" تحريف التأويل .

الثالث : الشيطان ؛ قاله الحسن .

ويكون "سُوءُ عَمَلِهِ" الإغواء .

الرابع : كفار قريش ؛ قاله الكلبي .

ويكون "سُوءُ عَمَلِهِ" الشرك .

وقال : إنها نزلت في العاص بن وائل السَّهْمِي والأسود بن المطلب .

وقال غيره : نزلت في أبي جهل بن هشام .

﴿ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ أي صواباً ؛ قاله الكلبيّ .

وقيل : جميلاً .

قلت : والقول بأن المراد كفار قريش أظهر الأقوال ؛ لقوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ [ البقرة : 272 ] ، وقوله : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الذين يُسَارِعُونَ فِي الكفر ﴾ [ آل عمران : 176 ] ، وقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً ﴾ [ الكهف : 6 ] ، وقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [ الشعراء : 3 ] ، وقوله في هذه الآية : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ .

وهذا ظاهر بيّن ، أي لا ينفع تأسفك على مقامهم على كفرهم ، فإن الله أضلهم .

وهذه الآية تردّ على القدرية قولهم على ما تقدم ؛ أي أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسناً تريد أن تهديه ، وإنما ذلك إلى الله لا إليك ، والذي إليك هو التبليغ .

وقرأ أبو جعفر وشيبة وابن مُحَيْصن : "فَلَا تُذْهِب" بضم التاء وكسر الهاء "نفسَكَ" نصباً على المفعول ، والمعنيان متقاربان .

"حَسَرَاتٍ" منصوب مفعول من أجله ؛ أي فلا تذهب نفسك للحسرات .

و"عَلَيْهِم" صلة "تذهب" ، كما تقول : هلك عليه حُبًّا ومات عليه حزناً .

وهو بيان للمتحسر عليه .

ولا يجوز أن يتعلق بالحسرات ؛ لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته .

ويجوز أن يكون حالاً كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر ؛ كما قال جرير :

مَشقَ الهواجِرُ لحمَهُنَّ مع السُّرَى . . .

حتى ذَهَبْنَ كَلا كِلاً وَصُدُورا

يريد : رجعن كَلاَ كِلاً وصدوراً ؛ أي لم يبق إلا كلاكلها وصدورها .

ومنه قول الآخر :

فعلى إثرهم تساقط نفسِي . . .

حسرات وذكرهم لي سقام

أو مصدراً .

﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(106/639)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾

هذه السورة مكية .

ولما ذكر تعالى في آخر السورة التي قبلها هلاك المشركين أعداء المؤمنين ، وأنزلهم منازل العذاب ، تعين على المؤمنين حمده تعالى وشكره لنعمائه ووصفه بعظيم آلائه ، كما في قوله : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ وقرأ الضحاك والزهري : فطر ، جعله فعلاً ماضياً ونصب ما بعده .

قال أبو الفضل الرازي : فأما على إضمار الذي فيكون نعتاً لله عز وجل ، وأما بتقدير قد فيما قبله فيكون بمعنى الحال . انتهى .

وحذف الموصول الاسمي لا يجوز عند البصريين ، وأما الحال فيكون حالاً محكية ، والأحسن عندي أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أي هو فطر ، وتقدم شرح ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ ، وأن المعنى خالقها بعد أن لم تكن ، والسموات والأرض عبارة عن العالم .

وقال أبو عبد الله الرازي : الحمد يكون في غالب الأمر على النعمة ، ونعم الله عاجلة ، و﴿ الحمد لله الذين خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ إشارة إلى أن النعمة العاجلة ودليله : ﴿ هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً ﴾ و﴿ الحمد لله

الذين أنزل على عبده الكتاب ﴾ إشارة إليها أيضاً ، وهي الاتقاء ، فإن الاتقاء والصلاح بالشرع والكتاب .

والحمد في سورة سبأ إشارة إلى نعمة الإيجاد والحشر ، ودليله : ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ﴾ منها ، وقوله : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ﴾ وهنا إشارة إلى نعمة البقاء في الآخرة ، ودليله : ﴿ وتتلقاهم الملائكة ﴾ فقاطر السموات والأرض شاقهما لنزول الأرواح من السماء ، وخروج الأجساد من الأرض دليله : ﴿ جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة ﴾ : أي في ذلك اليوم .

فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى ، لأن كما فعل بأشياعهم من قبل بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب .

(107/639)

---

ولما ذكر حالهم ذكر حال المؤمن وبشره بإرسال الملائكة إليهم مبشرين ، وأنه يفتح لهم أبواب الرحمة .

وقرأ الحسن : جاعل بالرفع ، أي هو جاعل ؛ وعبد الوارث عن أبي عمرو : وجاعل رفعاً بغير تنوين ، الملائكة نصباً ، حذف التنوين لالتقاء الساكنين .

وقرأ ابن يعمر ، وخليد بن نشيط : جعل فعلاً ماضياً ، الملائكة نصباً ، وذلك بعد قراءته فاطر بألف ، والجر كقراءة من قرأ : ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً ﴾ وقرأ الحسن ، وحميد بن قيس : رسلاً بإسكان السين ، وهي لغة تميم .

وقال الزمخشري : وقرىء الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة .

فمن قرأ : فطر وجعل ، فينبغي أن تكون هذه الجمل إخباراً من العبد إلى ما أسداه إلينا من النعم ، كما تقول : الفضل لزيد أحسن إلينا بكذا خولنا كذا ، يكون ذلك جهة بيان لفعله الجميل ، كذلك يكون في قوله : فطر ، جعل ، لأن في ذلك نعماً لا تحصى .

ومن قرأ : وجاعل ، فالأظهر أنهما اسما فاعل بمعنى المضي ، فيكونان صفة لله ، ويجيء الخلاف في نصب رسلاً .

فمذهب السيرافي أنه منصوب باسم الفاعل ، وإن كان ماضياً لما لم يمكن إضافته إلى اسمين نصب الثاني .

ومذهب أبي علي أنه منصوب بإضمار فعل ، والترجيح بين المذهبين مذكور في النحو .

وأما من نصب الملائكة فيتخرج على مذهب الكسائي وهشام في جواز إعمال الماضي النصب ، ويكون إذ ذاك إعرابه بدلاً .

وقيل : هو مستقبل تقديره : يجعل الملائكة رسلاً ، ويكون أيضاً إعرابه بدلاً .

ومعنى رسلاً بالوحي وغيره من أوامره ، ولا يريد جميع الملائكة لأنهم ليسوا كلهم رسلاً .

فمن الرسل : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ، والملائكة المتعاقبون ، والملائكة المسددون حكام العدل وغيرهم ، كالملك الذي أرسله الله إلى الأعمى والأبرص والاقرع .

و ﴿ أجنحة ﴾ جمع جناح ، صيغة جمع القلة ، وقياس جمع الكثرة فيه جنح على وزن فعل ، فإن كان لم يسمع كان أجنحة مستعملاً في القليل والكثير .

*(108/639)*

---

وتقدم الكلام على مثنى وثلاث ورباع في أول النساء مشبعاً ، ولكن المفسرون تعرضوا لكلام فيه هنا ، فقال الزمخشري : مثنى وثلاث ورباع صفات الأجنحة ، وإنما لم تنصرف لتكرار العدل فيها ، وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الإعداد من صيغ إلى صيغ أخر ، كما عدل عمر عن عامر ، وحذام عن حاذمة ، وعن تكرير إلى غير تكرير .

وأما بالوصفية ، فلا تقترن الحال فيها بين المعدولة والمعدول عنها .

ألا تراك تقول بنسوة أربع وبرجال ثلاثة فلا يعرج عليها ؟ انتهى .

فجعل المانع للصرف هو تكرار العدل فيها ، والمشهور أنها امتنعت من الصرف للصفة والعدل .

وأما قوله : ألا تراك ، فإنه قاس الصفة في هذا المعدول على الصفة في أفعل وفي ثلاثة ، وليس

بصحيح ، لأن مطلق الصفة لم يعدوه علة ، بل اشترطوا فيه .

فليس الشرط موجوداً في أربع ، لأن شرطه أن لا يقبل تاء التأنيث .

وليس شرطه في ثلاثة موجوداً ، لأنه لم يجعل علة مع التأنيث .

فقياس الزمخشري قياس فاسد ، إذ غفل عن شرط كون الصفة علة .

وقال ابن عطية : عدلت عن حال التنكير ، فتعرفت بالعدل ، فهي لا تنصرف للعدل والتعريف ، وقيل : للعدل والصفة . انتهى .

وهذا الثاني هو المشهور ، والأول قول لبعض الكوفيين .

والظاهر أن الملك الواحد من صنف له جناحان ، وآخر ثلاثة ، وآخر أربعة ، وآخر أكثر من ذلك ، لما روي أن لجبريل ستمائة جناح ، منها اثنان يبلغ بهما المشرق إلى المغرب .

قال قتادة : وأخذ الزمخشري يتكلم على كيفية هذه الأجنحة ، وعلى صورة الثلاثة بما لا يجدي قائلاً : يطالع ذلك في كتابه .

وقالت فرقة : المعنى أن في كل جانب من الملك جناحان ، ولبعضهم ثلاثة ، ولبعضهم أربعة ، وإلا فلو كانت ثلاثة لواحد ، لما اعتدلت في معتاد ما رأينا نحن من الأجنحة .

وقيل : بل هي ثلاثة لواحد ، كما يوجد لبعض الحيوانات .

والظاهر أن المراد من الأجنحة ما وضعت له في اللغة .

وقال أبو عبد الله الرازي : يزيل بحثه في قوله : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ ، وهو الذي حكينا عنه أن قوله : ﴿ جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ﴾ ، أقل ما يكون لذي الجناح ، إشارة إلى الجهة ، وبيانه أن الله ليس شيء فوقه ، وكل شيء تحت قدرته ونعمته ، والملائكة لهم وجه إلى الله يأخذون منه نعمه ويعطون من دونهم مما أخذوه بإذن الله ، كما قال تعالى :

﴿ نزل به الروح الأمين على قبلك ﴾ وقوله : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ وقال تعالى في حقهم : ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ فهما جناحان ، وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة ، وفيهم من يفعله لا بواسطة .

فالفاعل بواسطة فيهم من له ثلاث جهات ، ومنهم من له أربع جهات وأكثر . انتهى .

وبحثه في هذه ، وفي ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ بحث عجيب ، وليس على طريقة فهم العرب من مدلولات الألفاظ التي حملها ما حمل .

والظاهر أن مثنى وما بعده من صفات الأجنحة ، وقيل : ﴿ أولي أجنحة ﴾ معترض ، و﴿ مثنى ﴾ حال ، والعامل فعل محذوف يدل عليه ﴿ رسلاً ﴾ ، أي يرسلون مثنى وثلاث ورباع .

قيل : وإنما جعلهم أولي أجنحة ، لأنه لما جعلهم رسلاً ، جعل لهم أجنحة ليكون أسرع

لنفاد الأمر وسرعة إنفاذ القضاء .

فإن المسافة التي بين السماء والأرض لا تقطع بالأقدام إلا في سنين ، فجعلت لهم الأجنحة حتى ينالوا المكان البعيد في الوقت القريب كالطير .

﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ : تقرير لما يقع في النفوس من التعجب والاستغراب من خبر الملائكة أولي أجنحة ، أي ليس هذا ببدع في قدرة الله ، فإنه يزيد في خلقه ما يشاء ، والظاهر عموم الخلق .

وقال الفراء : هذا في الأجنحة التي للملائكة ، أي يزيد في خلق الملائكة الأجنحة .

*(110/639)*

---

وقالوا : في هذه الزيادة الخلق الحسن ، أو حسن الصوت ، أو حسن الخط ، أو لملاحة في العينين أو الأنف ، أو خفة الروح ، أو الحسن ، أو جعودة الشعر ، أو العقل ، أو العلم ، أو الصنعة ، أو العفة في الفقراء ، والحلاوة في الفم ، وهذه الأقوال على سبيل التمثيل لا الحصر .

والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق ، وقد شرحوا هذه الزيادة بالأشياء المستحسنة ، وما يشاء عام لا يخص مستحسناً دون غيره .

وختم الآية بالقدرة على كل شيء يدل على ذلك ، والفتح والإرسال استعارة للإطلاق ، ﴿ فلا مرسل له ﴾ مكان لا فاتح له ، والمعنى : أي شيء يطلق الله .

﴿ من رحمة ﴾ : أي نعمة ورزق ، أو مطر ، أو صحة ، أو أمن ، أو غير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحاط بعددها .

وما روي عن المفسرين المتقدمين من تفسير رحمة بشيء معين فليس على الحصر منه ، إنما هو مثال .

قال الزمخشري : وتنكير الرحمة للإشاعة والإبهام ، كأنه قال : من أية رحمة كانت سماوية أو أرضية ، فلا يقدر أحد على إمساكها وحبسها ، وأي شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه . انتهى .

والعموم مفهوم من اسم الشرط ومن رحمة لبيان ذلك العام من أي صنف هو ، وهو مما اجتزىء فيه بالنكرة المفردة عن الجمع المعرف المطابق في العموم لاسم الشرط ، وتقديره : من الرحمات ، ومن في موضع الحال ، أي كائناً من الرحمات ، ولا يكون في موضع الصفة ، لأن اسم الشرط لا يوصف .

والظاهر أن قوله : ﴿ وما يمسك ﴾ عام في الرحمة وفي غيرها ، لأنه لم يذكر له تبيين ، فهو باق على العموم في كل ما يمسك .

فإن كان تفسيره ﴿ من رحمة ﴾ ، وحذفت لدلالة الأول عليه ، فيكون تذكير الضمير في

﴿ فلا مرسل له من بعده ﴾ حملاً على لفظ ما ، وأنث في ﴿ ممسك لها ﴾ على معنى ما ، لأن معناها الرحمة .

وقرىء : فلا مرسل لها ، بتأنيث الضمير ، وهو دليل على أن التفسير هو ﴿ من رحمة ﴾ ، وحذف لدلالة ما قبله عليه .

*(111/639)*

---

وعن ابن عباس : ﴿ من رحمة ﴾ : من باب توبة ، ﴿ فلا ممسك لها ﴾ : أي يتوبون إن شاؤوا وإن أبوا ، ﴿ وما يمسك ﴾ : من باب ، ﴿ فلا مرسل له ﴾ من بعده ، فهم لا يتوبون .

وعنه أيضاً : ﴿ من رحمة ﴾ : من هداية .

قال الزمخشري : فإن قلت : فما تقول فيمن فسر الرحمة بالتوبة وعزاه إلى ابن عباس ؟ قلت : أراد بالتوبة : الهداية لها والتوفيق فيها ، وهو الذي أراده ابن عباس ، إن قاله فمقبول ، وإن أراد أنه إن شاء أن يتوب العاصي تاب ، وإن لم يشأ لم يتب فمردود ، لأن الله تعالى يشاء التوبة أبداً ، ولا يجوز عليه أن لا يشاء بها .

انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال .

﴿ من بعده ﴾ : هو على حذف مضاف ، أي من بعد إمساكه ، كقوله : ﴿ فمن يهديه من بعد الله ﴾ أي من بعد إضلال الله إياه ، لأن قبله وأضله الله على علم ، كقوله : ﴿ ومن يضلل الله فلا هادي له ﴾ وقدره الزمخشري من بعد هداية الله ، وهو تقدير فاسد لا يناسب الآية ، جرى فيه على طريقة الاعتزال .

﴿ وهو العزيز ﴾ الغالب القادر على الإرسال والإمساك ، ﴿ الحكيم ﴾ الذي يرسل ويمسك ما اقتضته حكمته .

﴿ يا أيها الناس ﴾ : خطاب لقريش ، وهو متجه لكل مؤمن وكافر ، ولا سيما من عبد غير الله ، وذكرهم بنعمه في إيجادهم .

و ﴿ اذكروا ﴾ : ليس أمراً بذكر اللسان ، ولكن به وبالقلب وبحفظ النعمة من كفرانها وشكرها ، كقولك لمن أنعمت عليه : اذكر أياديّ عندك ، تريد حفظها وشكرها ، والجميع مغمورون في نعمة الله .

فالخطاب عام اللفظ ، وإن كان نزل ذلك بسبب قريش ، ثم استفهم على جهة التقرير .

﴿ هل من خالق غير الله ﴾ : أي فلا إله إلا الخالق ، ما تعبدون أنتم من الأصنام .

وقرأ ابن وثاب ، وشقيق ، وأبو جعفر ، وزيد بن علي ، وحمزة ، والكسائي : غير بالخفض ، نعتاً على اللفظ ، ﴿ ومن خالق ﴾ مبتدأ .

و ﴿ يرزقكم ﴾ : جوزوا أن يكون خبراً للمبتدأ ، وإن يكون صفته ، وأن يكون مستأنفاً ، والخبر على هذين الوجهين محذوف تقديره لكم .



---

وقرأ شيبة ، وعيسى ، والحسن ، وباقي السبعة : ﴿ غير ﴾ بالرفع ، وجوزوا أن يكون نعتاً على الموضع ، كما كان الخبر نعتاً على اللفظ ، وهذا أظهر لتوافق القراءتين ؛ وأن يكون خبراً للمبتدأ ، وأن يكون فاعلاً باسم الفاعل الذي هو خالق ، لأنه قد اعتمد على أداة الاستفهام ، فحسن إعماله ، كقولك : أقائم زيد في أحد وجهيه ؟ وفي هذا نظر ، وهو أن اسم الفاعل ، أو ما جرى مجراه ، إذا اعتمد على أداة الاستفهام وأجرى مجرى الفعل ، فرفع ما بعده ، هل يجوز أن تدخل عليه من التي للاستغراق فتقول : هل من قائم الزيدون ؟ كما تقول : هل قائم الزيدون ؟ والظاهر أنه لا يجوز .

ألا ترى أنه إذا جرى مجرى الفعل ، لا يكون فيه عموم خلافه إذا أدخلت عليه من ، ولا أحفظ مثله في لسان العرب ، وينبغي أن لا يقدم على إجازة مثل هذا إلا بسماع من كلام العرب ؟ وقرأ الفضل بن إبراهيم النحوي : غير بالنصب على الاستثناء ، والخبر إما يرزقكم وإما محذوف ، ويرزقكم مستأنف ؛ وإذا كان يرزقكم مستأنفاً ، كان أولى لانتفاء

صدق خالق على غير الله ، بخلاف كونه صفة ، فإن الصفة تقيد ، فيكون ثم خالق غير الله ، لكنه ليس برازق .

ومعنى ﴿ من السماء ﴾ : بالمطر ، ﴿ والأرض ﴾ : بالنبات ، ﴿ لا إله إلا هو ﴾ : جملة مستقلة لا موضع لها من الإعراب .

﴿ فأنى يؤفكون ﴾ : أي كيف يصرفون على التوحيد إلى الشرك ، وأن يكذبوك إلى الأمور ، تقدم الكلام على ذلك .

﴿ إن وعد الله حق ﴾ : شامل لجميع ما وعد من ثواب وعقاب وغير ذلك .

وقرأ الجمهور : ﴿ الغرور ﴾ بفتح الغين ، وفسره ابن عباس بالشيطان .

وقرأ أبو حيوة ، وأبو السمال : بضمها جمع غار ، أو مصدراً ، كقوله : ﴿ فدلاهما بغرور ﴾ وتقدم الكلام على ذلك في آخر لقمان .

﴿ إن الشيطان لكم عدو ﴾ : عداوته سبقت لأبينا آدم ، وأي عداوة أعظم من أن يقول في بنيه : ﴿ لأغوينهم أجمعين ﴾ ﴿ ولأضلنهم ﴾ ﴿ فاتخذوه عدواً ﴾ : أي بالمقاطعة والمخالفة باتباع الشرع .

ثم بين أن مقصوده في دعاء حزبه إنما هو تعذيبهم في النار ، يشترك هو وهم في العذاب ، فهو حريص على ذلك أشد الحرص حتى يبين صدق قوله في : ﴿ فلاغوينهم ﴾ ، ﴿ ولأضلنهم ﴾ ، لأن الاشتراك فيما يسوء مما قد يتسلى به بخلاف المنفرد بالعذاب .

ثم ذكر الفريقين ، وما أعدّ لهما من العقاب والثواب .

وبدأ بالكفار لمجاورة قوله : ﴿ إنما يدعو حزبه ﴾ ، فاتبع خبر الكافر بحاله في الآخرة .

قال ابن عطية : واللام في ليكون لام الصيرورة ، لأنه لم يدعهم إلى السعير ، إنما اتفق أن صار أمرهم عن دعائه إلى ذلك . انتهى .

ونقول : هو مما عبر فيه عن السبب بما تسبب عنه دعاؤهم إلى الكفر ، وتسبب عنه العذاب .

و ﴿ الذين كفروا ﴾ ، ﴿ والذين آمنوا ﴾ .

مبتدآن ، وجوز بعضهم في ﴿ الذين كفروا ﴾ أن يكون في موضع خفض بدلاً ﴿ من أصحاب السعير ﴾ ، أو صفة ، وفي موضع نصب بدلاً من ﴿ حزبه ﴾ ، وفي موضع رفع بدلاً من ضمير ﴿ ليكونوا ﴾ ، وهذا كله بمعزل من فصاحة التقسيم وجزالة التركيب .

﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ : أي فرأى سوء عمله حسناً ، ومن مبتدأ موصول ، وخبره محذوف .

فالذي يقتضيه النظر أن يكون التقدير : كمن لم يزين له ، كقوله : ﴿ أفمن كان على بينة من

ربه كمن زين له سوء عمله ﴾ ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾
﴿ أَو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ ثم قال : ﴿ كمن مثله في الظلمات ﴾ وقاله الكسائي ،
أي تقديره : تذهب نفسك عليهم حسرات لدلالة : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم ﴾ .
وقيل : التقدير : فرآه حسناً ، فأضله الله كمن هداه الله ، فحذف ذلك لدلالة : ﴿ فإن الله
يضل من يشاء ﴾ ، وذكر هذين الوجهين الزجاج.
وشرح الزمخشري هنا ﴿ يضل من يشاء ﴾ على طريقته في غير موضع من كتابه ، من أن
الإضلال هو خذلانه وتخليته وشأنه ، وأتى بألفاظ كثيرة في هذا المعنى .
وقرأ الجمهور : ﴿ أفمن زين ﴾ مبنياً للمفعول سوء رفع .

*(114/639)*

---

وقرأ عبيد بن عمير : زين له سوء ، مبنياً للفاعل ، ونصب سوء ؛ وعنه أيضاً أسوأ على
وزن أفعل منصوباً ؛ وأسوأ عمله : هو الشرك .
وقراءة طلحة : أمن بغير فاء ، قال صاحب اللوامح : للاستخبار بمعنى العامة للتقرير ،
ويجوز أن يكون بمعنى حرف النداء ، فحذف التمام كما حذف من المشهور الجواب .
انتهى .

ويعني بالجواب : خبر المبتدأ ، وبالتمام : ما يؤدي لأجله ، أي تفكر قومه ، ووجوب إلى الله ، ﴿ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ تسلية للرسول عن كفر قومه ، ووجوب التسليم لله في إضلاله من يشاء وهداية من يشاء .

وقرأ الجمهور : ﴿ فلا تذهب نفسك ﴾ ، مبنياً للفاعل من ذهب ، ونفسك فاعل .

وقرأ أبو جعفر ، وقتادة ، وعيسى ، والأشهب ، وشيبة ، وأبو حيوة ، وحميد والأعمش ، وابن محيصن : تذهب من أذهب ، مسند الضمير المخاطب ، نفسك : نصب ، ورويت عن نافع : والحسرة هم النفس على فوات أمر .

وانتصب ﴿ حسرات ﴾ على أنه مفعول من أجله ، أي فلا تهلك نفسك للحسرات ، وعليهم متعلق بتذهب ، كما تقول : هلك عليه حباً ، ومات عليه حزناً ، أو هو بيان للمتحسر عليه ، ولا يتعلق بحسرات لأنه مصدر ، فلا يتقدّم معموله .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون حالاً ، كأنه كلها صارت حسرات لفرط التحسر ، كما قال جرير :

مشق الهواجر لحمهن مع السرى . . .

حتى ذهبن كلاكلاً وصدرواً

يريد : رجعن كلاكلاً وصدوراً ، أي لم يبق إلا كلاكلها وصدورها ، ومنه قوله :

فعلى إثرهم تساقط نفسي . . .

حسرات وذكرهم لي سقام

انتهى .

وما ذكر من أن كلاكلاً وصدوراً حالان هو مذهب سيبويه .

وقال المبرد : هو تمييز منقول من الفاعل ، أي حتى ذهبت كلاكلها وصدورها .

ثم توعدهم بالعقاب على سوء صنعهم فقال : ﴿ إن الله عليم بما يصنعون ﴾ : أي فيجازيهم عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(115/639)

---

وقال أبو السعود :

﴿ يا أيها الناس ﴾

رجوعٌ إلى خطابِهم وتكريرُ النّداءِ لتأكيدِ العظةِ والتَّذكيرِ ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله ﴾ المشارَ إليه برجعِ الأمورِ إليه تعالى من البعث والجزاء ﴿ حَقّ ﴾ ثابتٌ لا محالةَ من غيرِ خُلفٍ ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا ﴾ بأنْ يُذهلكم التَّمتع بمتاعِها ويُلهيكم التَّلهي بزخارفِها عن تداركِ ما يهمكم يومَ حلولِ الميعادِ . والمرادُ نهيُهم عن الاغترار بها وإنْ توجَّه النَّهيُ صورةً إليها كما في قوله تعالى : ﴿ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى ﴾ ﴿ وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله ﴾ وعفوِه وكرمه تعالى ﴿

الغرور ﴾ أي المبالغُ في الغُرور وهو الشّيطانُ بأنْ يمنيكم المغفرةَ مع الإصرارِ على المعاصِي قائلاً اعملوا ما شئتُم إنَّ اللهَ غفورٌ يغفرُ الذُّنوبَ جميعاً ، فإنَّ ذلكَ وإنْ أمكنَ لكنْ تعاطي الذّنوبِ بهذا التَّوقعِ من قبيلِ تناولِ السُّمّ تعويلاً على دفعِ الطَّبيعةِ . وتكريرُ فعلِ النَّهي للمبالغةِ فيه ولاختلافِ الغرورينِ في الكيفيَّةِ . وقُرِىء الغُرور بالضَّمّ على أنَّه مصدرٌ أو جمعُ غَارٍ كقُعودٍ جمعُ قاعدٍ .



---

﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ عداوةً قديمةً لا تكاد تزولُ . وتقديمُ لكم للاهتمامِ به ﴿ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ بمخالفتِكم له في عقائدِكم وأفعالِكم وكونِكم على حَذَرٍ منه في مجامعِ أحوالِكم . وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أصحاب السعير ﴾ تقريرٌ لعداوتِه وتحذيرٌ من طاعتِه بالتَّنبيهِ على أنَّ غرضَه في دعوةِ شيعتِه إلى اتّباعِ الهَوَى والركونِ إلى ملاذِّ الدّنيا ليس تحصيلَ مطالبِهم ومنافعِهم الدُّنيويَّةِ كما هو مقصد المُتحابّين في الدُّنيا عند سعي بعضِهم في حاجةِ بعضٍ بل هو توريطُهم وإلقاؤُهم في العذابِ المُخلَّد من حيثُ لا يحتسبون ﴿ الذين كَفَرُواْ لَهُمْ ﴾ بسببِ كفرِهم وإجابتِهم لدعوةِ الشّيطانِ واتّباعِهم لخطواتِه ﴿ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لا يُقادرُ قَدرُه مديدٌ لا يُبلغ مداهُ ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ

الصالحاتِ لَهُم ﴾ بسببِ ما ذُكر من الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ الذي من جُملتِه عداوةُ الشّيطانِ ﴿ مَّغْفِرَةٌ ﴾ عظيمةٌ ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ لا غايةَ لهما .

(117/639)

---

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ إمَّا تقريرٌ لما سبقَ من التَّباُينِ البيِّنِ بين عاقبتيْ الفريقينِ ببيانِ تباينِ حالهما المُؤدّيينِ إلى تينِك العاقبتينِ . والفاءُ لإنكارِ ترتيبِ ما بعدها على ما قبلها أي أبعدَ كونِ حاليهما كما ذُكر يكونُ من زُيِّن له الكفرُ من جهةِ الشَّيطانِ فانهمكَ فيه كمنْ استقبحه واجتنبه واختارَ الإيمانَ والعملَ الصَّالحَ حتَّى لا تكونُ عاقبتُهما كما ذُكر فحذفُ ما حُذف لدلالةِ ما سبق عليه وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ ﴾ الخ تقريرٌ له وتحقيقٌ للحقِّ ببيانِ أنَّ الكلَّ بمشيئتِه تعالى أي فإنَّه تعالى يُضلُّ ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ أنْ يضلَّه لاستحسانِه واستحبابِه الضَّلالَ وصرفِ اختيارِه إليه فيردَّه أسفلَ سافلينَ ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ أنْ يهديَه بصرفِ اختيارِه إلى الهُدى فيرفعه إلى أعلى عليين وإمَّا تمهيدٌ لما يعقبه من نهيِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن التَّحسرِ والتَّحزنِ عليهم لعدمِ إسلامِهم ببيانِ أنَّهم لَيسوا بأهلٍ لذلك بل لأنْ يُضربَ عنهم صَفْحاً ولا يُبالي بهم قطعاً ، أي أبعدَ كونِ حالِهم كما ذُكر تتحسَّر عليهم فحُذف لما دلَّ عليه قولُه تعالى : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات

﴾ دلالة بيّنةٌ . وإمّا تمهيدٌ لصرفه عليه الصّلاةُ والسّلامُ عمّا كانَ عليه من الحرصِ الشّديدِ على إسلامِهم والمبالغةِ في دعوتِهم إليه ببيانِ استحالةِ تحويلِهم عن الكفرِ لكونِه في غايةِ الحسنِ عندهم أي أبعدَ ما ذُكر من زُيّن له الكفرُ من قبل الشّيطانِ فرآه حسناً فانهمك فيه يقبلُ الهدايةَ حتّى تطمعَ في إسلامِه وتُتعبَ نفسَك في دعوته فحُذف ما حُذف لدلالةِ ما مرَّ من قولِه تعالى فإنَّ اللهَ يُضلُّ مَن يشاء الخ على أنَّه ممن شاء الله تعالى أنْ يضلَّه فمن يهدي مَن أضلَّ الله وما لهم مِن ناصرين . وقُرِىء فلا تُذهب نفسك وقولُه تعالى :

(118/639)

---

حسراتٍ . إمّا مفعول له أي فلا تهلك نفسك للحسرات والجمعُ للدّلالةِ على تضاعفِ اغتمامِه عليه الصّلاةُ والسّلامُ على أحوالِهم أو على كثرةِ قبائحِ أعمالِهم الموجبةِ للتّأسُّفِ والتّحسرِ وعليهم . صلةُ تذهب كما يقال هَلك عليه حبّاً ومات عليه حُزناً أو هو بيانٌ للمتحسَّر عليه ولا يجوزُ أنْ يتعلّق بحسراتٍ لأنَّ المصدرَ لا تتقدَّمُ عليه صلتُه وإمّا حال كأنّ كلها صارت حسرات وقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ أي من القبائح تعليلٌ لما قبله على الوجوهِ الثلاثةِ مع ما فيه من الوعيد . عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما : أنَّها نزلتْ في أبي جهلٍ ومُشركي مكّةَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ يا أَيُّهَا الناس إِنَّ وَعْدَ الله ﴾

المشار إليه بقوله سبحانه : ﴿ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور ﴾ من البعث والجزاء ﴿ حَقّ ﴾ ثابت لا محالة من غير خلف ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا ﴾ بأن يذهلكم التمتع بمتاعها ويلهيكم التلهي بزخارفها عن تدارك ما ينفعكم يوم حلول الميعاد ، والمراد نهيهم عن الاغترار بها وإن توجه النهي صورة إليها نظير قوله تعالى : ﴿ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى ﴾ [ هود : 89 ] وقولك لا أرينك هنا ﴿ وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله ﴾ حيث أنه جل شأنه عفو كريم رؤوف رحيم ﴿ الغرور ﴾ أي المبالغ في الغرور ، وهو على ما روى عن ابن عباس والحسن .

ومجاهد الشيطان فالتعريف للعهد ، ويجوز التعميم أي لا يغرنكم كل من شأنه المبالغة في الغرور بأن يمنيكم المغفرة مع الإصرار على المعصية قائلاً إن الله يغفر الذنوب جميعاً فإن ذلك وإن أمكن لكن تعاطي الذنوب بهذا التوقع تناول السم تعويلاً على دفع الطبيعة ، وتكرير فعل النهي للمبالغة فيه ولاختلاف الغرورين في الكيفية .

وقرأ أبو حيوة .

وأبو السمال ﴿ الغرور ﴾ بالضم على أنه مصدر غره يغره وإن قل في المتعدي أو جمع غار كقعود وسجود مصدرين وجمعين ، وعلى المصدرية الإسناد مجازي .

﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ عداوة عامة قديمة لا تكاد تزول ، ويشعر بذلك الجملة الاسمية و﴿ لَكُمْ ﴾ وتقديمه للاهتمام ﴿ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ بمخالفتكم إياه في عقائدكم وأفعالكم وكونوا على حذر منه في مجامع أحوالكم ﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أصحاب السعير ﴾ تقرير لعداوته وتحذير من طاعته بالتنبيه على أن غرضه في دعوة شيعته إلى إتباع الهوى والركون إلى ملاذ الدنيا ليس إلا توريطهم وإلقاءهم في العذاب المخلد من حيث لا يشعرون فاللام ليست للعاقبة .

وزعم ابن عطية أنها لها .



---

﴿ الذين كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ بسبب كفرهم وإجابتهم لدعوة الشيطان واتباعهم لخطواته ، ولعل تنكير ﴿ عَذَابٌ ﴾ لتعظيمه بحسب المدة فكأنه قيل : لهم عذاب دائم شديد ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ عظيمة ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ لا

غاية لهما بسبب ما ذكر من الايمان والعمل الصالح ، و﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ لَهُمْ عَذَابَ ﴾ وكذا ﴿ الذين كَفَرُوا وَلَهُمْ مَغْفِرَةِ ﴾ الخ ، وجوز بعضهم كون ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ في موضع خفض بدلاً من ﴿ أصحاب السعير ﴾ أو صفة له أو في موضع نصب بدلاً من ﴿ حِزْبُهُ ﴾ أو صفة له أو في موضع رفع بدلاً من ضمير ﴿ لّيَكُونُواْ ﴾ والكل مفوت لجزالة التركيب كما لا يخفى على الأريب .

(121/639)

---

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ ﴾ أي حسن له عمله السيء ﴿ فَرَءاهُ ﴾ فاعتقده بسبب التزيين ﴿ حَسَنًا ﴾ فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، و﴿ مِنْ ﴾ موصولة في موضع رفع على الابتداء والجملة بعدها صلتها والخبر محذوف والفاء للتفريع والهمزة للإنكار فإن كانت مقدمة من تأخير كما هو رأي سيبويه والجمهور في نظير ذلك فالمراد تفريع إنكار ما بعدها على ما قبلها من الحكمين السابقين أي إذا كانت عاقبة كل من الفريقين ما ذكر فليس الذي زين له الكفر من جهة عدوه الشيطان فاعتقده حسناً وانهمك فيه كمن استقبحه واجتنبه واختار الايمان والعمل الصالح وإن كانت في محلها الأصلي وكان العطف على مقدر تكون هي داخلة إليه كما ذهب إليه جمع فالمراد ما في حيزها ويكون التقدير أهما أي

الذين كفروا والذين آمنوا وعملوا الصالحات متساويان فالذي زين له الكفر من جهة عدوه الشيطان فاعتقده حسناً وانهمك فيه كمن استقبحه واجتنبه واختار الايمان والعمل الصالح أي ما هما متساويان ليكون الذي زين له الكفر كمن استقبحه، وحذف هذا الخبر لدلالة الكلام عليه واقتضاء النظم الجليل إياه، وقد صرح بالجزأين في نظير الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ ﴾ [محمد: 41] وقوله سبحانه: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق كَمَنْ هُوَ أعمى ﴾ [الرعد: 19] وقوله عز وجل: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه وجعلنا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِى الناس كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات ﴾ [الأنعام: 122] وفي التعبير عن الكافر بمن زين له سوء عمله فرآه حسناً إشارة إلى غاية ضلاله حتى كأنه غلب على عقله وسلب تمييزه فشأن المغلوب على عقله ذلك كما يشير إليه قول أبي نواس:

اسقني حتى تراني . . .

حسناً عندي القبيح

وظاهر كلام الزجاج أن من شرطية حيث قال : الجواب على ضربين ، أحدهما : ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ ﴾ الخ ويكون المعنى أفمن زيد له سوء عمله فأضله الله ذهبت نفسك عليهم حسرة ، وثانيهما : ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللهَ ﴾ الخ ويكون المعنى أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله تعالى ، وإلى ذلك ذهب ابن مالك أيضاً .

واعترض ابن هشام على التقدير الثاني بأن الظرف لا يكون جواباً وإن قلنا إنه جملة ، ووجه أن الرضى صرح بأنه لا يكون مستقراً في غير الخبر والصفة والصلة والحال ولم يذكر الجواب لا أن دخل لعدم الفاء ، وتقديرها داخلة على مبتدأ يكون الظرف خبره والجملة بتمامها جزاء غير جائز لما فيه من التكلف كما قيل .

وزعم بعضهم أنه يجوز أن يكون الزجاج قد ذهب إلى أن من موصولة وأطلق على خبرها الجواب لشبهه به في المعنى ألا تراهم يدخلون الفاء في خبر الموصول الذي صلته جملة فعلية كما يدخلونها في جواب الشرط فيقولون الذي يأتيني فله درهم ، وفيه أنه خلاف الظاهر ولا قرينة على إرادته سوى عدم صحة الجزائية ، وضعف التقدير الأول بالفصل بين ما فيه الحذف ودليل المحذوف مع خفاء ربط الجملة بما قبلها عليه ، ولا ينبغي أن تكون من شرطية جوابها فرآه لما في ذلك من الركاكة الصناعية فإن الماضي في الجواب لا يقترن بالفاء بدون قد مع خفاء أمر إنكار رؤية سوء العمل حسناً بعد التزيين وتفريعه على ما قبله من

الحكمين ، وكون الإنكار لما أن المزين هو الشيطان العدو والتفريع على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أصحاب السعير ﴾ [ فاطر : 6 ] لا يخفى حاله فالوجه المعول عليه ما تقدم جعل عليه ، وقوله تعالى :



---

﴿ فَإِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ تعليلاً لسببية التزيين لرؤية القبيح حسناً ، وفيه دفع استبعاد أن يرى الشخص القبيح حسناً بتزيين العدو وإياه ببيان أن ذلك بمشيئة عز وجل التابعة للعلم المتعلق بالأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر وإيذان بأن أولئك الكفرة الذين زين لهم سء عملهم فرأوه حسناً ممن شاء الله تعالى ضلالهم ، وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات ﴾ تفريع عليه أي إذا كان الأمر كذلك فلا تذهب نفسك الخ ، وذكر المولى سعدى جلبي أن الهمزة في ﴿ أَفَمَن ﴾ على التقدير الأول من التقديرين الذين نقلاً عن الزجاج لإنكار ذهاب نفسه صلى الله عليه وسلم عليه عليهم حسرة والفاء في قوله سبحانه : ﴿ فَإِنَّ الله ﴾ الخ تعليل لما يفهمه النظم الجليل من أنه لا جدوى للتحسر ، وفي "الكشاف" أنه تعالى لما ذكر الفريقين الذين كفروا والذين آمنوا قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَفَمَن زُيّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ فَرَءاهُ حَسَناً ﴾ يعني

أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين له فكأن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال لا فقال تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِى مَن يَشَاء فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات ﴾ ويفهم من كلام الطيبي أن فاء ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ ﴾ جزائية وفاء ﴿ فَإِنَّ اللهَ ﴾ للتعليل وأن الجملة مقدمة من تأخير فقد قال : إنه صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على إيمان القوم وأن يسلك الضالين في زمرة المهتدي فقيل له عليه الصلاة والسلام على سبيل الإنكار لذلك : أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين له فلا بد أن يقر صلى الله عليه وسلم بالنفي ويقول لا فحينئذ يقال له فإذ كان كذلك فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فقدم وأخر انتهى وفيه نظر ، وفي الآيات على ما يقتضيه ظاهر كلام الزمخشري لف ونشر وبذلك

*(124/639)*

---

صرح الطيبي قال قال : الأحسن أن تجعل الآيات من الجمع والتقسيم والتفريق فقوله تعالى : ﴿ الامور يا أَيُّهَا الناس إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ جمع الفريقين معاً في حكم نداء الناس وجمع ما لهما من الثواب والعقاب في حكم الوعد وحذرهما معاً عن الغرور بالدنيا والشيطان ، وأما التقسيم فهو قوله تعالى :

﴿ الذين كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [ فاطر : 7 ] وأما التفريق فقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ ﴾ لأنه فرق فيه وبين التفاوت بين الفريقين كما قال الزمخشري أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين له ، وفرع على ذلك ظهور أن الفاء في ﴿ أَفَمَن ﴾ للتعقيب والهمزة الداخلة بين المعطوف والمعطوف عليه لإنكار المساواة وتقرير البون العظيم بين الفريقين وأن المختار من أوجه ذكرها السكاكي في "المفتاح" تقدير كمن هداه الله تعالى فحذف لدلالة ﴿ فَإِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ ولهم في نظم الآيات الكريمة كلام طويل غير ما ذكرناه من أراده فليتبع كتب التفاسير والعربية ، ولعل فيما ذكرناه مقنعاً لمن أوتي ذهناً سليماً وفهماً مستقيماً .

(125/639)

---

والحسرات جمع حسرة وهي الغم على ما فاته والندم عليه كأنه انحسر عنه ما حمله على ما ارتكبه أو انحسر قواه من فرط غم أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه ، وانتصبت على أنها مفعول من أجله أي فلا تهلك نفسك للحسرات ، والجمع مع أن الحسرة في الأصل مصدر صادق على القليل والكثير للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه الصلاة والسلام

على أحوالهم أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجبة للتأسف والتحسر، و ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ صلة ﴿ تَذْهَبْ ﴾ كما يقال هلك عليه حباً ومات عليه حزناً أو هو بيان للمتحسر عليه فيكون ظرفاً مستقراً ومتعلقه مقدر كأنه قيل: على من تذهب؟ فقيل: عليهم، وجوز أن يتعلق بحسرات بناء على أنه يغتفر تقديم معمول المصدر عليه إذا كان ظرفاً وهو الذي اختاره والزمخشري لا يجوز ذلك، وجوز أن يكون حسرات حالاً من ﴿ نَفْسُكَ ﴾ كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر كما قال جرير:

مشق الهواجر لحمهن مع السري...

حتى ذهبن كلاكلا وصدوراً

يريد رجعن كلاكلا وصدوراً أي لم يبق إلا كلاكلها وصدورها، وهو الذي ذهب إليه سيبويه في البيت، وقال المبرد: كلاكلا وصدوراً تمييز محول عن الفاعل أي حتى ذهب كلاكلها وصدورها، ومن هذا قوله:

فعلى أثرهم تساقط نفسي...

حسرات وذكرهم لي سقام

وفيه مبالغات ثلاث، وقرأ عبيد بن عمير ﴿ زُيِّنَ ﴾ مبنياً للفاعل، ونصب ﴿ سوأ ﴾ وعنه أيضاً ﴿ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ﴾ على ومن أفعل وأريد بأسوأ عمله الشرك، وقرأ طلحة ﴿ مِن ﴾ بغير فاء قال صاحب اللوامح: فالهمزة للاستخبار والتقرير ويجوز أن تكون للنداء

وحذف ما نودي لأجله أي تفكر وارجع إلى الله فإن الله الخ ، والظاهر أنها للإنكار كما في قراءة الجمهور ، وقرأ أبو جعفر .

وقتادة .

وعيسى .

والأشهب وشيبة .

وأبو حيوة .

وحميد .

والأعمش .

وابن محيصن ﴿ تَذْهَبْ ﴾ من أذهب مسنداً إلى ضمير المخاطب ﴿ نَفْسَكَ ﴾ بالنصب على المفعولية ورويت عن نافع .



---

﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ في موضع التعليل لما قبله وفيه وعيد للكفرة أي أنه تعالى عليم بما يصنعونه من القبائح فيجازيهم عليه ، والآيات من قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ ﴾ إلى هنا نزلت على ما روي عن ابن عباس في أبي جهل ومشركي مكة ، وأخرج

جويبر عن الضحاك أنها نزلت في عمر رضي الله تعالى عنه .

وأبي جهل حيث هدى الله تعالى عمر وأضل أبا جهل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

(127/639)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾

الفطر : الشقّ عن الشيء ، يقال : فطرته فانفطر ، ومنه : فطر ناب البعير إذا طلع ، فهو بعير فاطر ، وتفطر الشيء : تشقق ، والفطر الابتداء والاختراع ، وهو : المراد هنا ، والمعنى : ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ مبدع ﴿ السموات والأرض ﴾ ، ومخترعهما ، والمقصود من هذا : أن من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم ، فهو قادر على الإعادة .

قرأ الجمهور : ﴿ فاطر ﴾ على صيغة اسم الفاعل ، وقرأ الزهري ، والضحاك : ( فطر ) على صيغة الفعل الماضي ، فعلى القراءة الأولى هو نعت لله ؛ لأن إضافته محضة لكونه بمعنى : الماضي ، وإن كانت غير محضة كان بدلاً ، ومثله : ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ يجوز فيه الوجهان ، وانتصاب رسلاً بفعل مضمر على الوجه الأوّل ، لأن اسم الفاعل إذا

كان بمعنى : الماضي لا يعمل ، وجوّز الكسائي عمله .

وأما على الوجه الثاني ، فهو منصوب بجاعل ، والرسل من الملائكة هم : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل .

وقرأ الحسن : ( جاعل ) بالرفع ، وقرأ خليل بن نشيط ، ويحيى بن يعمر : ( جعل ) على صيغة الماضي .

وقرأ الحسن ، وحميد : ( رسلًا ) بسكون السين ، وهي لغة تميم ﴿ أُوْلِى أَجْنِحَةٍ ﴾ صفة ل ﴿ رسلًا ﴾ ، والأجنحة جمع جناح ﴿ مثنى وثلاث وَرُبَاعَ ﴾ صفة لأجنحة ، وقد تقدّم الكلام في مثنى ، وثلاث ، ورباع في النساء .

قال قتادة : بعضهم له جنحان ، وبعضهم ثلاثة ، وبعضهم أربعة ينزلون بها من السماء إلى الأض ، ويعرجون بها من الأرض إلى السماء .

قال يحيى بن سلام : يرسلهم الله إلى الأنبياء .

وقال السدّي : إلى العباد بنعمه ، أو نقمه ، وجملة ﴿ يَزِيدُ فِى الخلق مَا يَشَاء ﴾ مستأنفة مقرّرة لما قبلها من تفاوت أحوال الملائكة ، والمعنى : أنه يزيد في خلق الملائكة ما يشاء ، وهو : قول أكثر المفسرين ، واختاره الفراء ، والزجاج .

وقيل : إن هذه الزيادة في الخلق غير خاصة بالملائكة ، فقال الزهري ، وابن جريج : إنها حسن الصوت .

وقال قتادة : الملاحة في العينين ، والحسن في الأنف ، والحلاوة في الفم .

وقيل : الوجه الحسن .

وقيل : الخط الحسن .

وقيل : الشعر الجعد .

وقيل : العقل والتمييز .

وقيل : العلوم ، والصنائع ، ولا وجه لقصر ذلك على نوع خاص بل يتناول كل زيادة .

وجملة : ﴿ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل لما قبلها من أنه يزيد في الخلق ما يشاء .

﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ أي : ما يأتيهم الله به من مطر ورزق لا يقدر أحد أن يمسكه ﴿ وَمَا يُمْسِكْ ﴾ من ذلك لا يقدر أحد أن يرسله من بعد إمساكه .

وقيل : المعنى : إن الرسل بعثوا رحمة للناس ، فلا يقدر على إرسالهم غير الله .

وقيل : هو الدعاء .

وقيل : التوبة .

وقيل : التوفيق ، والهداية .

ولا وجه لهذا التخصيص بل المعنى : كل ما يفتحه الله للناس من خزائن رحمته ، فيشمل كل نعمة ينعم الله بها على خلقه ، وهكذا الإمساك يتناول كل شيء يمنعه الله من نعمه ، فهو سبحانه المعطي المانع القابض الباسط لا معطي سواه ، ولا منعم غيره .

ثم أمر الله سبحانه عباده أن يتذكروا نعمه الفائضة عليهم التي لا تعدّ ولا تحصى ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [ إبراهيم : 34 ] ، ومعنى هذا الأمر لهم بالذكر : هو إرشادهم إلى الشكر لاستدامتها ، وطلب المزيد منها ﴿ هَلْ مِنْ خالق غَيْرُ اللهِ ﴾ : " من " زائدة ، وخالق مبتدأ ، وغير الله صفة له .

قال الزجاج : ورفع غير على معنى هل خالق غير الله ؛ لأن "من" زيادة مؤكدة ، ومن خفض غير جعلها صفة على اللفظ .

قرأ الجمهور برفع : " غير " ، وقرأ حمزة ، والكسائي بخفضها ، وقرأ الفضل بن إبراهيم بنصبها على الاستثناء ، وجملة : ﴿ يَرْزُقُكُم مّنَ السماء والأرض ﴾ خبر المبتدأ .

(129/639)

---

أو جملة مستأنفة ، أو صفة أخرى لخالق ، وخبره محذوف ، والرزق من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات ، وغير ذلك ، وجملة : ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ مستأنفة لتقرير النفي

المستفاد من الاستفهام ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ من الأفك بالفتح ، وهو الصرف ، يقال : ما أفكك عن كذا ، أي : ما صرفك ، أي : فكيف تصرفون .

وقيل : هو مأخوذ من الإفك بالكسر ، وهو الكذب ؛ لأنه مصروف عن الصدق .

قال الزجاج ، أي : من أين يقع لكم الإفك والتكذيب بتوحيد الله ، والبعث ، وأنتم مقرّون بأن الله خلقكم ورزقكم .

ثم عزّى الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقال : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ليتأسى بمن قبله من الأنبياء ، ويتسلى عن تكذيب كفار العرب له ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾ لا إلى غيره ، فيجازي كلاً بما يستحقه .

قرأ الحسن ، والأعرج ، ويعقوب ، وابن عامر ، وأبو حيوة ، وابن محيصن ، وحميد ، والأعمش ، ويحيى بن وثاب ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف : ( ترجع ) بفتح الفوقية على البناء للفاعل ، وقرأ الباقون بضمها على البناء للمفعول .

﴿ يا أَيُّهَا الناس إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ أي : وعده بالبعث ، والنشور ، والحساب ، والعقاب ، والجنة ، والنار ، كما أشير إليه بقوله : ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾ .

﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا ﴾ بزخرفها ، ونعيمها .

قال سعيد بن جبير : غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها ، ولذاتها عن عمل

الآخرة حتى يقول : ﴿ يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [ الفجر : 24 ] ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغرور ﴾ قرأ الجمهور بفتح الغين ، أي : المبالغ في الغرور ، وهو : الشيطان .



---

قال ابن السكيت ، وأبو حاتم : الغرور الشيطان ، ويجوز : أن يكون مصدراً ، واستبعده الزجاج ، لأن غرر به متعدي ، ومصدر المتعدي إنما هو على فعل نحو ضربته ضرباً ، إلاّ في أشياء يسيرة معروفة لا يقاس عليها ، ومعنى الآية : لا يغرنكم الشيطان بالله ، فيقول لكم : إن الله يتجاوز عنكم ، ويغفر لكم لفضلكم ، أو لسعة رحمته لكم .

وقرأ أبو حيوة ، وأبو سماك ، ومحمد بن السميفع بضم الغين ، وهو : الباطل .

قال ابن السكيت : والغرور بالضم ما يغرّ من متاع الدنيا .

وقال الزجاج : يجوز : أن يكون الغرور جمع غار ، مثل قاعد ، وقعود .

قيل : ويجوز أن يكون مصدر غرّه كاللزوم ، والنهوك ، وفيه ما تقدّم عن الزجاج من الاستبعاد .

ثم حذر سبحانه عباده من الشيطان ، فقال : ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ أي : فعادوه بطاعة الله ، ولا تطيعوه في معاصي الله .

ثم بيّن لعباده كيفية عداوة الشيطان لهم، فقال: ﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصحاب السعير ﴾ أي: إنما يدعو أشياعه، وأتباعه، والمطيعين له إلى معاصي الله سبحانه لأجل أن يكونوا من أهل النار، ومحل الموصول في قوله: ﴿ الذين كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ الرفع على الابتداء، و ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ خبره، أو الرفع على البدل من فاعل ﴿ يكونوا ﴾، أو النصب على البدل من ﴿ حزبه ﴾، أو النعت له، أو إضمار فعل يدل على الذمّ، والجرّ على البدل من أصحاب، أو النعت له.

والرفع على الابتداء أقوى هذه الوجوه، لأنه سبحانه بعد ذكر عداوة الشيطان ودعائه لحزبه، ذكر حال الفريقين من المطيعين له، والعاصين عليه، فالفريق الأوّل قال: ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾، والفريق الآخر قال فيه: ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أي يغفر الله لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح، ويعطيهم أجراً كبيراً، وهو: الجنة.

(131/639)

---

﴿ أَفَمَن زُيّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ فَرَءاهُ حَسَناً ﴾ هذه الجملة مستأنفة لتقرير ما سبق من ذكر التفاوت بين الفريقين، و"من" في موضع رفع بالابتداء، وخبره محذوف.

قال الكسائي : والتقدير ذهبت نفسك عليهم حسرات .

قال : ويدلّ عليه قوله : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات ﴾ قال : وهذا كلام عربيّ ظريف لا يعرفه إلاّ القليل .

وقال الزجاج : تقديره كمن هداه ، وقدّره غيرهما كمن لم يزين له ، وهذا أولى لموافقته لفظاً ، ومعنى ، وقد وهم صاحب الكشاف ، فحكى عن الزجاج ما قاله الكسائي .

قال النحاس : والذي قاله الكسائي أحسن ما قيل في الآية لما ذكره من الدلالة على المحذوف ، والمعنى : أن الله عزّ وجلّ نهى نبيه صلى الله عليه وسلم عن شدّة الاغتمام بهم ، والحزن عليهم كما قال : ﴿ فَلَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ ﴾ [ الكهف : 6 ] وجملة ﴿ فَإِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ مقرّرة لما قبلها ، أي : يضلّ من يشاء أن يضله ، ويهدي من يشاء أن يهديه ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات ﴾ قرأ الجمهور بفتح الفوقية ، والهاء مسنداً إلى النفس ، فتكون من باب : لا أرينّك ها هنا .

وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، وابن محيصن ، والأشهب بضم التاء ، وكسر الهاء ، ونصب ﴿ نفسك ﴾ ، وانتصاب ﴿ حسرات ﴾ على أنه علة ، أي : للحسرات ، ويجوز : أن ينتصب على الحال كأنها صارت كلها حسرات لفرط التحسر كما روي عن سيبويه .

وقال المبرد : إنها تمييز .

والحسرة شدّة الحزن على ما فات من الأمر ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ لا يخفى عليه من أفعالهم وأقوالهم خافية ، والجملة تعليل لما قبلها مع ما تضمنته من الوعيد الشديد .

(132/639)

---

وقد أخرج أبو عبيد في فضائله ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي عن ابن عباس قال : كنت لا أدري ما ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، يقول : ابتدأتها .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال : ﴿ فَاطِرَ السموات ﴾ بديع السموات .

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله : ﴿ يَزِيدُ فِى الخلق مَا يَشَاء ﴾ قال : الصوت الحسن .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ الآية قال : ما يفتح الله للناس من باب توبة ﴿ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ هم يتوبون إن شاءوا وإن أبوا ، وما أمسك من باب توبة ﴿ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ ، وهم لا يتوبون .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم في الآية قال : يقول : ليس لك من الأمر شيء .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ قال : كل شيء في

القرآن لهم مغفرة ، وأجر كبير ، ورزق كريم ، فهو : الجنة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة ، والحسن في قوله : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ ﴾ قال : الشيطان زين لهم ، هي والله الضلالات ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات ﴾ أي : لا تحزن عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(133/639)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾

أعيد خطاب الناس إعذاراً لهم وإنذاراً بتحقيق أن وعد الله الذي وعده من عقابه المكذبين في يوم البعث هو وعد واقع لا يتخلف وذلك بعد أن قدّم لهم التذكير بدلائل الوحدانية المشتملة عليها ، مع الدلالة على نعم الله عليهم ليعلموا أنه لا يستحق العبادة غيره وأنه لا يتصف بالإلهية الحق غيره .

وبعد أن أشار إليهم بأن ما أنتجته تلك الدلائل هو ما أنبأهم به الرسول صلى الله عليه وسلم فيعلمون صدقه فيما أنبأهم من توحيد الله وهو أكبر ما قرع آذانهم وأحرج شيء لنفوسهم ، فإذا تأيد بالدليل البرهاني تمهد السبيل لتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما

أخبرهم به من وعد الله وهو يوم البعث لأنه لما تبين صدقه في الأولى يعلم صدقه في الثانية بحكم قياس المساواة .

والخطاب للمشركين ، أوْ لهم وللمؤمنين لأن ما تلاه صالح لموعظة الفريقين كل على حسب حاله .

وتأكيد الخبر بـ ﴿ إنَّ ﴾ إمّا لأن الخطاب للمنكرين ، وإمّا لتغليب فريق المنكرين على المؤمنين لأنهم أحوج إلى تقوية الموعظة .

والوعد مصدر ، وهو الإخبار عن فعل المخبِر شيئاً في المستقبل ، والأكثر أن يكون فيما عدا الشر ، ويُخص الشر منه باسم الوعيد ، يعمهما وهو هنا مستعمل في القدر المشترك .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾ الآية في سورة البقرة ( 268 ) .

وإضافته إلى الاسم الأعظم توطئة لكونه حقّاً لأن الله لا يأتي منه الباطل .

والحق هنا مقابل الكذب .

والمعنى : أن وعد الله صادق .

ووصفه بالمصدر مبالغة في حقيته .

والمراد به : الوعد بحلول يوم جزاء بعد انقضاء هذه الحياة كما دل عليه تفريع فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ الآية .

والغُرور بضم الغين ويقال التغرير : إيهام النفع والصلاح فيما هو ضرّ وفساد .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا ﴾ في سورة آل عمران ( 196 )

وعند قوله : ﴿ زخرف القول غروراً ﴾ في سورة الأنعام ( 112 ) .

والمراد بالحياة : ما تشتمل عليه أحوال الحياة الدنيا من لهو وترف ، وانتهائها بالموت والعدم مما يسول للناس أن ليس بعد هذه الحياةِ أخرى .

وإسناد التغرير إلى الحياة ولو مع تقدير المضاف إسناد مجازي لأن الغَارّ للمرء هو نفسه المنخدعة بأحوال الحياة الدنيا فهو من إسناد الفعل إلى سببه والباعث عليه .

والنهي في الظاهر موجه إلى الناس والمنهي عنه من أحوال الحياة الدنيا ، وليست الحياة الدنيا من فعل الناس ، فتعين أن المقصود النهي عن لازم ذلك الإِسناد وهو الاغترار لمظاهر الحياة .

ونظيره كثير في كلام العرب كقولهم : لا أعرفنَّك تفعل كذا ، ولا أرَيَنَّك ههنا ، ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم ﴾ [ المائدة : 2 ] ، وتقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ﴾ آخر آل عمران ( 196 ) .

وكذلك القول في قوله تعالى : ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ .

والغرور بفتح الغين : هو الشديد التغرير .

والمراد به الشيطان ، قال تعالى : ﴿ فدلاهما بغرور ﴾ [ الأعراف : 22 ] .

وهو يغير الناس بتزيين القبائح لهم تمويهاً بما يلوح عليها من محاسن تلائم نفوس الناس .

والباء في قول ﴿ بالله ﴾ للملابسة وهي داخلة على مضاف مقدر أي ، بشأن الله ، أي يتطرق إلى نقض هدى الله فإن فعل غرّ يتعدّى إلى مفعول واحد فإذا أريد تعديته إلى بعض متعلقاته عُدّي إليه بواسطة حرف الجرّ ، فقد يعدّى بالباء وهي باء الملابسة كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ [ الانفطار : 6 ] وقوله في سورة الحديد ( 14 ) : ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ وذلك إذا أريد بيان من الغرور ملابس له على تقدير مضاف ، أي بحال من أحواله .

وتلك ملابسة الفعل للمفعول في الكلام على الإيجاز .

وليست هذه الباء باء السببية .



---

وقد تضمنت الآية غرورين : غروراً يغتَرّه المرء من تلقاء نفسه ويزّين لنفسه من المظاهر الفاتنة التي تلوح له في هذه الدنيا ما يتوهمه خيراً ولا ينظر في عواقبه بحيث تخفى مضارّه في

بادئ الرأي ولا يظنّ أنه من الشيطان .

وغروراً يتلقاه ممن يغرّه وهو الشيطان ، وكذلك الغرور كله في هذا العالم بعضه يمليه المرء على نفسه وبعضه يتلقاه من شياطين الإنس والجن ، فتُرِك تفصيل الغرور الأول الآن اعتناء بالأصل والأهم ، فإن كل غرور يرجع إلى غرور الشيطان .

وسيأتي تفصيله عند قوله تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فللّه العزة جميعاً ﴾ [ فاطر : 10 ] .

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (6)

لما كان في قوله : ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ [ فاطر : 5 ] إبهام مّا في المراد بالغَرور عُقب ذلك ببيانه بأن الغَرور هو الشيطان ليتقررَ المسند إليه بالبيان بعد الإبهام .

فجملة ﴿ إن الشيطان لكم عدو ﴾ تتنزل من جملة ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور منزلة البيان من المبيَّن فلذلك فصلت ولم تعطف ، وهذا من دلالة ترتيب الكلام على إرادة المتكلم إذ يعلم السامع من وقوع وصف الشيطان عقب وصف الغَرور أن الغرور هو الشيطان .

وأُظهر اسم الشيطان في مقام الإضمار للإفصاح عن المراد بالغَرور أنه الشيطان وإثارةُ العداوة بين الناس والشيطان معنى من معاني القرآن تصريحاً وتضمّناً ، وهو هنا صريح كما في قوله تعالى : ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ [ البقرة : 36 ] .

وتلك عداوة مودَعة في جبلَّتِه كعداوة الكلب للهرّ لأن جبلة الشيطان موكولة بإيقاع الناس في الفساد وأسوأ العواقب في قوالب محسَّنة مزينة، وشواهد ذلك تظهر للإنسان في نفسه وفي الحوادث حيثما عثر عليها وقد قال تعالى: ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ [الأعراف: 27].

(136/639)

---

وتأكيد الخبر بحرف التأكيد لقصد تحقيقه لأنهم بغفلتهم عن عداوة الشيطان كحال من ينكر أن الشيطان عدوّ.

وتقديم ﴿ لكم ﴾ على متعلَّقة للاهتمام بهذا المتعلّق فرع عنه أن أمروا باتخاذه عدوّاً لأنهم إذا علموا أنه عدوّ لهم حقّ عليهم اتخاذه عدوّاً وإلا لكانوا في حماقة.

وفيه تنبيه على وجوب عداوتهم الدعاة في الضلالة المستمدين من الشيطان.

والكلام على لفظ عدوّ تقدم عند قوله تعالى: ﴿ فإن كان من قوم عدو لكم ﴾ في سورة النساء (92).

واللام في لكم ﴾ لام الاختصاص وهي التي تضمنها الإضافة فلما قدم ما حقه أن يكون مضافاً إليه صرح باللام ليحصل معنى الإضافة.

وإنما أمر الله باتخاذ العدوّ عدواً ولم يندب إلى العفو عنه والإغضاء عن عداوته كما أمر في قوله : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ [ الشورى : 40 ] ونحو ذلك مما تكرر في القرآن وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم لأن ما ندب إليه من العفو إنما هو فيما بين المسلمين بعضهم مع بعض رجاء صلاح حال العدوّ لأن عداوة المسلم عارضة لأغراض يمكن زوالها ولها حدود لا يخشى معها المضار الفادحة كما قال تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ [ فصلت : 34 ] ولذلك لم يأمر الله تعالى بمثل ذلك مع أعداء الدين فقال : ﴿ لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ [ الممتحنة : 1 ] الآية ، بل لم يأمر الله تعالى بالعفو عن المحاربين من أهل الملّة لأن منا وأتهم غير عارضة بل هي لغرض ابتزاز الأموال ونحو ذلك فقال : ﴿ إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ﴾ [ المائدة : 34 ] فعداوة الشيطان لما كانت جبلّية لا يرجى زوالها مع من يعفو عنه لم يأمر الله إلا باتخاذه عدوّاً لأنه إذا لم يتخذ عدوّاً لم يراقب المسلم مكائده ومخادعته.

ومن لوازم اتخاذه عدوّاً العمل بخلاف ما يدعو إليه لتجنب مكائده ولمقته بالعمل الصالح.

فالإيقاع بالناس في الضرّ لا يسلم منه أولياؤه ولا أعداؤه ولكن أولياءه يضمِر لهم العداوة ويأنس بهم لأنه يقضي بهم وَطَره وأما أعداؤه فهو مع عداوته لهم يشمئزُ وينفر ويغتاظ من مقاومتهم ووساوِسَه إلى أن يبلغ حدّ الفرار من عظماء الأمة فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : ﴿ إيه يا بنَ الخطاب ما رآك الشيطان سالكاً فَجّاً إلا سلك فجّاً غير فَجّك ﴾ وورد في "الصحيح" "إذا أقيمت الصلاة أدبر الشيطان" الحديث .

وورد "أنه ما رِيءَ الشيطانُ أخسأ وأحقر منه في يوم عرفة لما يرى من الرحمة" .

وأعقب الأمر باتخاذ الشيطان عدوّاً بتحذير من قَبُول دعوته وحثَ على وجوب اليقظة لتغريره وتجنب توليه بأنه يسعى في ضرّ أوليائه وحزبه فيدعوهم إلى ما يوقعهم في السعير .

وهذا يؤكد الأمرَ باتخاذه عدوّاً لأن أشدّ الناس تضرراً به هم حزبه وأولياؤه .

وجملة ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ تعليل لجملة ﴿ فاتخذوه عدواً ﴾ .

وجيء بها في صيغة حصر لانحصار دعوته في الغاية المذكورة عقبها بلام العلة كيلا يتوهم أن دعوته تخلو عن تلك الغاية ولو في وقت مّا .

وبهذا العموم الذي يقتضيه الحصر صارت الجملة أيضاً في معنى التذييل لما قبلها كله .

ومقتضى وقوع فعل ﴿ يدعو ﴾ في حيّز القصر أن مفعوله وهو قوله : ﴿ حزبه ﴾ هو المقصود من القصر ، أي أنه يدعو حزبه ولا يدعو غير حزبه ، والشيطان يدعو الناس كلّهم

سواء في ذلك حزبه ومن لم يركن إلى دعوته إلا أن أثر دعوته لا يظهر إلا في الذين يركنون له فيصيرون حزبه قال تعالى له : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [ الحجر : 42 ] .

وحكى الله عن الشيطان بقوله : ﴿ لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ [ الحجر : 39 ، 40 ] فتعين أن في الكلام إيجاز حذف .

والتقدير : إنما يدعو حزبه دعوة بالغة مقصده .

والقرينة هي ما تقدم من التحذير ولو كان لا يدعو إلا حزبه لما كان لتحذير غيرهم فائدة .



---

واللام في قوله : ﴿ ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ يجوز أن تكون لام العلة فإن الشيطان قد يكون ساعياً لغاية إيقاع الآدميين في العذاب نكاية بهم ، وهي علة للدعوة مخفية في خاطره الشيطاني وإن كان لا يجهر بها لأن إخفاءها من جملة كيده وتزيينه ، ويجوز أن تكون اللام لام العاقبة والصيرورة مثل ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ [ القصص : 8 ] قال ابن عطية : لأنه لم يدْعُهم إلى السعير إنما اتفق أن صار أمرهم عن دعائه إلى ذلك .

و﴿ السعير ﴾ : النار الشديدة ، وغلب في لسان الشرع على جنهم .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7)

استئناف ابتدائي يفيد مفاد الفذلكة والاستنتاج مما تقدم .

وهذا الاستئناف يومىء إلى أن الذين كفروا هم حزب الشيطان لأنه لما ذكر أن حزبه من أصحاب السعير وحكم هنا بأن الذين كفروا لهم عذاب شديد علم أن الذين كفروا من أصحاب السعير إذ هو العذاب الشديد فعلم أنهم حزب الشيطان بطريقة قياس مطويّ ، فالذين كفروا هم حزب الشيطان لعكوفهم على متابعته وإن لم يُعلنوا ذلك لاقتناعه منهم بملازمة ما يمليه عليهم .

وأما المؤمنون العصاة فليسوا من حزبه لأنهم يعلمون كيده ولكنهم يتبعون بعض وسوسته بدافع الشهوات وهم مع ذلك يلعنونه ويتبرأون منه .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع " إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي منكم بما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم " .

وذكر ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ تتميم بأن الذين لم يكونوا من حزبه قد فازوا بالخيرات .

وقد أشارت الآية إلى طرفين في الضلال والاهتداء وطوت ما بين ذينك من المراتب ليُعلم أن

ما بين ذلك بينا لهم نصيبهم من أشبه أحوالهم بأحوال أحد الفريقين على عادة القرآن في وضع المسلم بين الخوف والرجاء ، والأمل والرهبة .

(139/639)

---

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (8)

لما جرى تحذير الناس من غرور الشيطان وإيقاظهم إلى عداوته للنوع الإِنساني ، وتقسيم الناس إلى فريقين : فريق انطلت عليه مكائد الشيطان واغتروا بغروره ولم يناصبوه العداء ، وفريق أخذوا حذرهم منه واحترسوا من كيده وتجنبوا السير في مسالكه ، ثم تقسيمُهم إلى كافر معذب ومؤمن صالح مُنعم عليه ، أعقب ذلك بالإِيماء إلى استحقاق حزب الشيطان عذاب السعير ، وبتسلية النبي صلى الله عليه وسلم على من لم يَخلُصوا من حبائل الشيطان من أمة دعوته بأسلوب الملاطفة في التسلية ففُرع على جميع ما تقدم قولُه : { أفمن زين له سوء عمله فراءه حسناً } إلى قوله : { بما يصنعون } فابتداؤه بفاء التفريع ربط له بما تقدم ليعود الذهن إلى ما حكي من أحوالهم ، فالتفريع على قوله : { إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير } [ فاطر : 6 ] ، ثم بإبراز الكلام المفرّع في صورة

الاستفهام الإِنكاري ، واجتلاب الموصول الذي تومىء صلته إلى علة الخَبَر المقصود ، فأشير إلى أن وقوعه في هذه الحالة ناشىء من تزيين الشيطان له سوء عمله ، فالمزيِّن للأعمال السيئة هو الشيطان قال تعالى : ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ [ النمل : 24 ] فرأوا أعمالهم السيئة حسنة فعكفوا عليها ولم يقبلوا فيها نصيحة ناصح ، ولا رسالة مرسَل .

(140/639)

---

و ﴿ مَنْ ﴾ موصولة صادقة على جمع من الناس كما دل عليه قوله في آخر الكلام ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ بل ودل عليه تفريع هذا على قوله ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ [ فاطر : 6 ] و ﴿ مَن ﴾ في موضع رفع الابتداء والخبر عنه محذوف إيجازاً لدلالة ما قبله عليه وهو قوله : ﴿ الذين كفروا لهم عذاب شديد ﴾ [ فاطر : 7 ] عَقِب قوله : ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير .

فتقديره بالنسبة لما استحقه حزب الشيطان من العذاب : أفأنت تَهدي من زيّن له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء .

وتقديره بالنسبة إلى تسلية النبي : لا يحزنك مصيره فإن الله مطلع عليه .

وفرع عليه : فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ .

وفرع على هذا قوله : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ أي فلا تفعل ذلك ، أي لا ينبغي لك ذلك فإنهم أوقعوا أنفسهم في تلك الحالة بتزيين الشيطان لهم ورؤيتهم ذلك حسناً وهو من فعل أنفسهم فلماذا تتحسر عليهم .

وهذا الخبر مما دلت عليه المقابلة في قوله : ﴿ الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ [ فاطر : 7 ] فقد دل ذلك على أن الكفر سوء وأن الإِيمان حسن ، فيكون "من زين له سوء عمله" هو الكافر ، ويكون ضده هو المؤمن ، ونظير هذا التركيب قوله تعالى : ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار ﴾ في سورة الزمر ( 19 ) ، وتقدم عند قوله تعالى:

﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ في سورة الرعد ( 33 ) .

والتزيين : تحسين ما ليس بحسن بعضه أو كله .

وقد صرح هنا بضده في قوله : سوء عمله ﴾ ، أي صورت لهم أعمالهم السيِئة بصورة حسنة لِيُقْدِموا عليها بشرَه وتقدم في أوائل سورة النمل .

وجملة ﴿ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ مفرّعة ، وهي تقرير للتسلية وتأييس من اهتداء من لم يخلق الله فيه أسباب الاهتداء إلى الحق من صحيح النظر وإنصاف المجادلة .

وإسناد الإِضلال والهداية إلى الله إسناد بواسطة أنه خالق أسباب الضلال والاهتداء ، وذلك من تصرفه تعالى بالخلق وهو سر من الحكمة عظيم لا يدرك غوره وله أصول وضوابط سأبينها في "رسالة القضاء والقدر" إن شاء الله تعالى .

وجملة ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ مفرعة على المفرع على جملة ﴿ أفمن زين له سوء عمله ﴾ الخ فتؤول إلى التفريع على الجملتين فيؤول إلى أن يكون النظم هكذا : أفتتحسر على من زُيِّن لهم سوء أعمالهم فرأوها حسناتٍ واختاروا لأنفسهم طريق الضلال فإن الله أضلهم باختيارهم وهو قد تصرف بمشيئته فهو أضلهم وهدى غيرهم بمشيئته وإرادته التي شاء بها إيجاد الموجودات لا بأمره ورضاه الذي دعا به الناس إلى الرشاد ، فلا تذهبْ نفسك عليهم حسرات وإنما حسرتهم على أنفسهم إذ رضوا لها باتباع الشيطان ونبذوا اتباع إرشاد الله كما دلّ على ذلك قوله : ﴿ إن الله عليم بما يصنعون ﴾ تسجيلاً عليهم أنهم ورطوا أنفسهم فيما أوقعوها فيه بصنعهم .

فالله أرشدهم بإرسال رسوله ليهديهم إلى ما يرضيه ، والله أضلهم بتكوين نفوسهم نافرة عن الهدى تكويناً متسلسلاً من كائنات جمّة لا يحيط بها إلا علمه وكلها من مظاهر حكمته

ولو شاء لجعل سلاسل الكائنات على غير هذا النظام فلَهَدَى الناس جميعاً ، وكلّهم ميسّر بتيْسيره إلى ما يعلم منهم فعدل عن النظم المألوف إلى هذا النظم العجيب .

وصيغ بالاستفهام الإنكاري والنهي التثبيتي ، ونظير هذه الآية في هذا الأسلوب قوله تعالى : ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار ﴾ في سورة الزمر ( 19 ) ، فإن أصل نظمها : أفمن حق عليه كلمة العذاب أنت تنقذه من النار ، أفأنت تنقذ الذين في النار .

إلا أن هذه الآية زادت بالاعتراض وكان المفرع الأخير فيها نهياً والأخرى عَريت عن الاعتراض وكان المفرع الأخير فيها استفهاماً إنكارياً .



---

والنهي موجه إلى نفس الرسول أن تذهب حسرات على الضالّين ولم يوجه إليه بأن يقال : فلا تذهب عليهم حسرات ، والرسول ونفسه متحدان فتوجيه النهي إلى نفسه دون أن يقال فلا تذهب عليهم حسرات للإشارة إلى أن الذهاب مستعار إلى التلف والانعدام كما يقال : طارت نفسه شعاعاً ، ومثله في كلامهم كثير كقول الأعرابي من شعراء الحماسة :

أقول للنفس تأْساءٍ وتعْزِية

إحدى يديّ أصابتْني ولم تُرِد . . .

لتحصل فائدة توزيع النهي والخطاب على شيئين في ظاهر الأمر فهو تكرير الخطاب والنهي لكليهما .

وهي طريقة التجريد المعدود في المحسنات ، وفائدة التكرير الموجب تقرير الجملة في النفس .

وقد تقدم قريب من هذا عند قوله تعالى : ﴿ وما يخادعون إلا أنفسهم ﴾ في سورة البقرة ( 9 ) .

والحسرة تقدمت في قوله تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر ﴾ من سورة مريم ( 39 ) .

وانتصب حسرات ﴾ على المفعول لأجله ، أي لا تَتْلِفْ نفسك لأجل الحسرة عليهم ، وهو كقوله : ﴿ لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين ﴾ [ الشعراء : 3 ] ، وقوله : ﴿ وابيضت عيناه من الحزن ﴾ [ يوسف : 84 ] أي من حُزن نفسه لا من حزن العينين .

وجُمعت الحسرات مع أن اسم الجنس صالح للدلالة على تكرار الأفراد قصداً للتنبيه على إرادة أفراد كثيرة من جنس الحسرة لأن تلف النفس يكون عند تعاقب الحسرات الواحدة تلوَ الأخرى لدوام المتحسّر منه فكل تحسر يترك حزازة وكمداً في النفس حتى يبلغ إلى الحد الذي لا تطيقه النفس فينفطر له القلب فإنه قد علم في الطب أن الموت من شدة الألم

كالضرب المبرح وقطع الأعضاء سببه اختلال حركة القلب من توارد الآلام عليه .

وقرأ الجمهور ﴿ فلا تذهب نفسك ﴾ بفتح الفوقية والهاء ورفع ﴿ نفسك ﴾ على أنه نهي لنفسه وهو كناية ظاهرة عن نهيه .

وقرأه أبو جعفر بضم الفوقية وكسر الهاء ونصب ﴿ نفسَك ﴾ على أنه نهي الرسول أن يذهب نفسَه .

(143/639)

---

وقد اشتملت هذه الآية على فاآت أربع كلها للسببية والتفريع وهي التي بلغ بها نظم الآية إلى هذا الإِيجاز البالغ حد الإِعجاز وفي اجتماعها محسن جمع النظائر .

وجملة ﴿ إن الله عليم بما يصنعون ﴾ تصلح لإفادة التصبر والتحلم ، أي أن الله عليم بصنعهم في المخالفة عن أمره فكما أنه لحلمه لم يعجل بمؤاخذتهم فكن أنت مؤتسياً بالله ومتخلقاً بما تستطيعه من صفاته وفي ضمن هذا كناية عن عدم إفلاتهم من العذاب على سوء عملهم ، وليس في هذه الجملة معنى التعليلِ لجملة ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ لأن كَمَد نفس الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن لأجل تأخير عقابهم ولكن لأجل عدم اهتدائهم .

وتأكيد الخبر بـ ﴿ إنَّ ﴾ إما تمثيل لحال الرسول صلى الله عليه وسلم بحال من أغفله التحسر عليهم عن التأمل في إمهال الله إياهم فأكد له الخبر بـ ﴿ إن الله عليم بما يصنعون ﴾ ، وإمّا لجعل التأكيد لمجرد الاهتمام بالخبر لتكون ﴿ إنّ ﴾ مغنية غناء فاء التفريع فتتمخض الجملة لتقرير التسلية والتعريض بالجزاء عن ذلك .

وعبر بـ ﴿ يصنعون ﴾ دون : يعملون ، للإِشارة إلى أنهم يدبرون مكائد للنبيء صلى الله عليه وسلم وللمسلمين فيكون هذا الكلام إيذاناً بوجود باعث آخر على النزع عن الحسرة عليهم .

وعن ابن عباس : أن المراد به أبو جهل وحزبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

(144/639)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5) ﴾

وَعْدُ اللَّهِ حقٌّ في كل ما أخبر به أنه يكون ، فَوعْدُه في القيامة حقٌ ، ووعده لِمَنْ أطاعه

بكفاية الأمور والسلامة حقٌّ ، ووعده للمطيعين في الآخرة بوجود الكرامة حقٌّ ، وللعاصين بالندامة حقٌّ ، فإذا عَلِمَ العبدُ ذلك استعدَّ للموت ، ولم يهتم بالرزق ، فيكفيه اللَّهُ شُغْلَه ، فينشط العبدُ في استكثار الطاعة ثقةً بالوعد ، ولا يُلِمُّ بالمخالفات خوفاً من الوعيد .

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (6)

عدواةُ الشيطان بدوام مخالفته ؛ فإنَّ مِنَ الناس مَنْ يعاونه بالقول ولكن يوافقه بالفعل ، ولن تقوى على عداوته إلا بدوام الاستغاثة بالربِّ ، وتلك الاستغاثة تكون بصدق الاستعانة .

والشيطانُ لا يفتر في عداوتك ، فلا تَغْفَلْ أنت عن مولاك لحظةً فيبرز لك عدوُّك ؛ فإنه أبداً متمكِّنٌ لك .

﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ ﴾ وحِزْبه هم المُعرِضون عن الله ، المشتغلون بغير الله ، والغافلون عن لله . ودليلُ هذا الخطاب : إن الشيطانَ عدوُّكم فأبغضوه واتخذوه عدواً ، وأنا وَلِيُّكم . وحبيبُكم فأَحِبُّوني وارْضَوْا بي حبيباً .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7)

الذين كفروا لهم عذابٌ مُعجَّلٌ وعذابٌ مُؤَجَّلٌ ، فَمُعَجَّلُه تفرقةُ قلوبهم وانسداد بصائرهم ووقاحة هِمَّتِهم حتى أنهم يرضون بأن يكون الصنمُ معبودَهم . وأمَّا عذاب الآخرة فهو ما لا تخفى على مسلم – على الجملة – صعوبتُه .

وأمّا ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ فلهم مغفرةٌ أي سَتْرٌ لذنوبهم اليومَ ، ولولا ذلك لافتضحوا ، ولولا ذلك لَهَلَكُوا .

﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ : والأجرُ الكبيرُ اليومَ سهولةُ العبادةِ ودوامُ المعرفة ، وما يناله في القلب من زوائد اليقين وخصائص الأحوال . وفي الآخرة : تحقيقُ السُّؤْلِ ونَيْلُ ما فوق المأمول .

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا

معنى الآية : أفمن زين له سوءُ عمله فرآه حسناً كمن ليس كذلك ؟ لا يستويان !

ومعنى ﴿ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ أن الكافر يَتَوَهَّمُ أَنَّ عمله حَسَنٌ ، قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [ الكهف : 104 ] .

ثم الراغبُ في الدنيا يجمع حلالَها وحرامَها ، ويحوّش حُطَامها ، ولا يفكر في زوالها ، ولا في ارتحاله عنها قبل كمالها ؛ فلقد زين له سوء عمله . وإن الذي يُؤْثِرُ على ربّه شيئاً من المخلوقات لَهُوَ من جملتهم . والذي يتوهّمُ أنه إذا وَجَدَ نجاتَه ودرجاتِه في الجنة - وأنّ هذا يكفيه . . فقد زُيِّن له سوءُ عمله حيث يتغافل عن حلاوة المناجاة . والذي هو في صحبة حظوظه ولا يُؤْثِرُ حقوق الله فلقد زين له سوء عمله فرآه حسناً .

﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ : يعني إذا عرَفْتَ حقَّ التقدير ، وعَلِمْتَ أنهم سقطوا من عين الله ، ودَعَوْتَهم جَهْراً ، وبَذَلْتَ لهم نُصْحاً ، فاستجابتُهم ليست لك ، فلا

تَجْعَلْ على قلبك من ذلك مشقةً ولا عناءً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 194.193 ﴾

(146/639)

---

قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (9) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (10) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر تعالى أنه لا بد من إيجاد ما وعد به من البعث وغيره ، وحذر كل التحذير من التهاون بأمره ، وأنكر التسوية بين المصدق به والمكذب ، وكان السبب في الضلال المميت للقلوب الهوى الذي يغشى سماء العقل ويعلوه بسحابه المظلم فيحول بينه وبين النفوذ ، وكان

السبب في السحاب المغطي لسماء الأرض المحيي لميت الحبوب الهوى ، وكان الإتيان به في وقت دون آخر دالاً على القدرة بالاختيار ، قال عاطفاً على جملة ﴿ إن وعد الله حق ﴾ المبني على النظر ، وهو الإخراج من العدم مبيناً لقدرته على ما وعد به : ﴿ والله ﴾ أي الذي له صفات الكمال لا شيء غيره من طبيعة ولا غيرها ﴿ الذي ﴾ ولما كان المراد الإيجاد من العدم ، عبر بالماضي مسنداً إليه لأنه الفاعل الحقيقي فقال : ﴿ أرسل الرياح ﴾ أي أوجدها من العدم مضطربة فيها ، أهلية الاضطراب والسير ليصرفها كيف شاء لا ثابتة كالأرض ، وأسكنها ما بين الخافقين لصلاح مكان الأرض .

ولما كانت إثارتها تتجدد كلما أراد أن يسقي أرضاً ، قال مسنداً إلى الرياح لأنها السبب ، معبراً بالمضارع حكاية للحال لتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على تمام القدرة ، وهكذا تفعل العرب فيما فيه غرابة تنبيهاً للسامع على ذلك وحثّاً له على تدبره وتصوره : ﴿ فتثير ﴾ أي بتحريكه لها إذا أراد ﴿ سحاباً ﴾ أي أنه أجرى سبحانه سنته أن تظهر حكمته بالتدريج .

ولما كان المراد الاستدلال على القدرة على البعث ، وكان التعبير بالمضارع يرد التعنت ، عبر بالمضارع .

ولما كان سوق السحاب إلى بلد دون آخر وسقيه لمكان دون مكان من العظمة بمكان ، التفت على الغيبة وجعله في مظهر العظمة فقال : ﴿ فسقناه ﴾ أي السحاب معبراً

بالماضي تنبيهاً على أن كل سوق كان بعد إثارتها في الماضي والمستقبل منه وحده أو بواسطة من أقامة لذلك من جنده من الملائكة أو غيرهم ، لا من غيره ، ودل على أنه فرق بين البعد والقرب بحرف الغاية فقال : ﴿ إلى بلد ميت ﴾ .

(147/639)

---

ولما كان السبب في الحياة هو السحاب بما ينشأ عنه من الماء قال : ﴿ فأحيينا به الأرض ﴾ ولما كان المراد إرشادهم إلى القدرة على البعث الذي هم به مكذبون ، قال رافعاً للمجاز بكل تقدير وموضحاً كل الإيضاح للتصوير : ﴿ بعد موتها ﴾ ولما أوصل الأمر إلى غايته ، زاد في التنبيه على نعمة الإيجاد الثاني بقوله : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل الإحياء لميت النبات ﴿ النشور ﴾ حسّاً للأموات ، ومعنى للقلوب والنبات ، قال القشيري : إذا أراد إحياء قلب يرسل أولاً رياح الرجاء ، ويزعج بها كوامن الإرادة ، ثم ينشىء فيه سحاب الاهتياج ، ولوعة الانزعاج ، ثم يأتي مطر الحق فينبت في القلب أزهار البسط وأنوار الروح ، ويطيب لصاحبه العيش إلى أن تتم لطائف الإنس .

ولما قرر بهذا كله ما أثبته سابقاً من عزته وحكمته وثبت أنه قادر على النشور فثبت أن له العزة في الآخرة كما شوهد ذلك في الدنيا ، وكانت منافسه الناس لا سيما الكفرة في العزة

فوق منافستهم في الحكمة ، ومن نافس في الحكمة فإنما ينافس فيها لاكتساب العزة ، وكان الكفرة إنما عبدوا الأوثان ليعتزوا بها كما قال : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزّاً ﴾ [ مريم : 81 ] قال مستنتجاً من ذلك : ﴿ من كان ﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿ يريد العزة ﴾ أي أن يكون محتاجاً إليه غيره وهو غني عن غيره غالباً غير مغلوب ﴿ فلله ﴾ أي وحده ﴿ العزة جميعاً ﴾ أي فليطلبها منه ولا يطلبها من غيره ، فإنه لا شيء لغيره فيها ومن طلب الشيء من غير صاحب خاب ؛ قال ابن الجوزي : وقد روي عن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : " إن ربكم يقول كل يوم : أنا العزيز فمن أرادة عزة الدارين فليطع العزيز " .

(148/639)

---

ولما رغب في اقتناص العزة بعد أن أخبر أنه لا شيء فيها لغيره ، دل على اختصاصه بها بشمول علمه وقدرته ، وبين أنها إنما تنال بالحكمة فقال : ﴿ إليه ﴾ أي لا إلى غيره ﴿ يصعد الكلم الطيب ﴾ أي الجاري على قوانين الشرع عن نية حسنة وعقيدة صحيحة سواء كان سراً علناً لأنه عين الحكمة ، فيعز صاحبه ويثيبه .

ولما أعلى رتبة القول الحكيم ، بين أن الفعل أعلى منه لأنه المقصود بالذات ، والقول وسيلة

إليه، فقال دالاًّ على علوه بتغيير السياق: ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ هو سبحانه يتولى رفعه ولصاحبه عنده عز منيع ونعيم مقيم، وعمله يفوز، قال الرازي في اللوامع: العلم إنما يتم العمل كما قيل: العلم يهتف بالعمل، فإن أجاب وإلا ارتحل - انتهى، وقد قيل:

لا ترض من رجل حلاوة قوله . . .

حتى يصدق ما يقول فعال

فإذا وزنت مقاله بفعاله . . .

فتوازنا فإخاء ذاك جمال

ولما بين ما يحصل العزة من الحكمة، بين ما يكسب الذلة ويوجب النقمة من رديء الهمة فقال: ﴿ والذين يمكرون ﴾ أي يعملون على وجه الستر المكرات ﴿ السيئات ﴾ أي يسترون قصودهم بها ليوقعوها بغتة ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ كما أرادوا بغيرهم ذلك، ولا يصعد مكرهم إليه بنفسه ولا يرفعه هو، لأنه ليس فيه أهلية ذلك لمنافاته الحكمة.

*(149/639)*

---

ولما كان ما ذكر من مكرهم موجباً لتعرف حاله هل أفادهم شيئاً؟ أخبر أنه أهلكه بعزته ودمره بحكمته فقال: ﴿ ومكر أولئك ﴾ أي البعداء من الفلاح ﴿ هو ﴾ أي وحده دون

مكر من يريد بمكره الخير فإن الله ينفذه ويعلي أمره ويجعل له العاقبة تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ [ الأنفال : 30 ] كما أخرجكم أيها الأولياء من بيوتكم لأجل العير فأخرج الأعداد من بيوتهم فوضعهم في قليب بدر ﴿ يبور ﴾ أي يكسد ويفسد ويهلك ، فدل ذلك على شمول علمه للخير والشر من القول والفعل الخفي والجلي وتمام قدرته ، وذلك معنى العزة ، والآية من الاحتباك : حذف ما لصاحب العمل الصالح ودل عليه بذكر ما لعامل السيىء وحذف وضعه المكر السيىء ودل عليه برفعه للعمل الصالح .

(150/639)

---

ولما ذكر سبحانه ما صيرهم إليه من المفاوتة في الأخلاق ، أتبعه ما كانوا عليه من الوحدة في جنس الأصل ، وأصله التراب المسلول منه الماء بعد تخميره فيه وإن اختلفت أصنافه فقال مبيناً لبعض آيات الأنفس عاطفاً على ما عطف عليه ﴿ والله الذي أرسل الرياح ﴾ الذي هو من آيات الآفاق ، منبهاً على أنه قادر على التمييز بعد شديد المزج وأنه قدر كل شيء من الأرزاق والآجال والمصائب والأفراح ، فلا ثمرة للمكر إلا ما يلحق الماكر من الحرج والعقوبة من الله والضرر : ﴿ والله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ؛ ولما لم يدع حاجة

إلى الحصر قال : ﴿ خلقكم من تراب ﴾ أي مثلي وإن اختلفت أصنافه بتكوين أبيكم منه فمزجه مزجاً لا يمكن لغيره تمييزه ، ثم أحاله عن ذلك الجوهر أصلاً ورأساً ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ ثم ﴾ أي بعد ذلك من الزمان والرتبة خلقكم ﴿ من نطفة ﴾ أي جعلها أصلاً ثانياً مثلياً من ذلك الأصل الترابي أشد امتزاجاً منه ثم بعد إنهاء التدبير زماناً ورتبة إلى النطفة التي لا مناسبة بينها وبين التراب دلالة على كمال القدرة والفعل بالاختيار ﴿ ثم جعلكم أزواجاً ﴾ بين ذكور وإناث ، دلالة هي أظهر مما قبلها على الاختيار وكذب أهل الطبائع ، وعلى البعث بتمييز ما يصلح من التراب للذكورة والأنوثة .

ولما كان الحمل أيضاً مكذباً لأهل الطبائع بأنه لا يكون من كل جماع ، أشار إليه بقوله مؤكداً رداً عليهم إعلاماً بأن ذلك إنما هو بقدرته : ﴿ وما تحمل ﴾ أي في البطن بالحبل ﴿ من أنثى ﴾ دالاً بالجار على كمال الاستغراق .

ولما كان الوضع أيضاً كذلك بأنه لا يتم كلما حمل به قال : ﴿ ولا تضع ﴾ أي حملاً ﴿ إلا ﴾ مصحوباً ﴿ بعلمه ﴾ في وقته ونوعه وشكله وغير ذلك من شأنه مختصاً بذلك كله حتى عن أمه التي هي أقرب إليه ، فلا يكون إلا بقدرته ، فما شاء أتمه ، وما شاء أخرجه .

ولما كان ما بعد الولادة أيضاً دالاً على الاختيار لتفاضلهم في الأعمار مع تماثلهم في الحقيقة ، دل عليه بقوله دالاً بالبناء للمفعول على سهولة الأمر عليه سبحانه ، وأن التعمير والنقص هو المقصود بالإسناد : ﴿ وما يعمر من معمر ﴾ أي يزاد في عمر من طال عمره أي صار إلى طول العمر بالفعل حساً ، قال قتادة : ستين ، أو معنى بزيادة الفاعل المختار زيادة لولاها لكان عمره أقصر مما وصل إليه ﴿ ولا ينقص من عمره ﴾ أي المعمر بالقوة وهو الذي كان قابلاً في العادة لطول العمر فلم يعمر بنقص الفاعل المختار نقصاً لولاه لطال عمره ، فالمعمر المذكور المراد به الفعل ، والذي عاد إليه الضمير المعمر بالقوة فهو من بديع الاستخدام ، ولو كان التعبير بأحد لما صح هذا المعنى ، وقراءة يعقوب بخلاف عن رويس بفتح الياء وضم القاف بالبناء للفاعل تشير إلى أن قصر العمر أكثر .

ولما كان في سياق العلم وكان أضبطه في مجاري عاداتنا ما كتب قال : ﴿ إلا في كتاب ﴾ مكتوب فيه " عمر فلان كذا وعمر فلان كذا وكذا ، عمر فلان كذا إن عمل كذا وعمره كذا أزيد أو أنقص إن لم يعمله " .

ولما كان ذلك أمراً لا يحيط به العد ، ولا يحصره الحد ، فكان في عداد ما ينكره الجهلة ، قال مؤكداً لسهولته : ﴿ إن ذلك ﴾ أي الأمر العظيم من كتب الآجال كلها وتقديرها والإحاطة بها على التفصيل ﴿ على الله ﴾ أي الذي له جميع العزة فهو يغلب كل ما يريده ، خاصة ﴿ يسير ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 206 . 210 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾

هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار وذلك لأن الهواء قد يسكن ، وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين ، وقد يتحرك إلى اليسار ، وفي حركاته المختلفة قد ينشئ السحاب ، وقد لا ينشيء ، فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال تعالى : ﴿ والله الذي أَرْسَلَ ﴾ بلفظ الماضي وقال : ﴿ فَتُثِيرُ سحابا ﴾ بصيغة المستقبل ، وذلك لأنه لما أسند فعل الإرسال إلى الله وما يفعل الله يكون بقوله كن فلا يبقى في العدم لا زماناً ولا جزأً من الزمان ، فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان وكأنه فرغ من كل شيء فهو قدر الإرسال في الأوقات المعلومة إلى المواضع المعينة والتقدير كالإرسال ، ولما أسند فعل الإثارة إلى الريح وهو يؤلف في زمان فقال : ﴿ تُثِيرُ ﴾

أي على هيئتها .

المسألة الثانية :

قال : ﴿ أُرْسِلَ ﴾ إسناداً للفعل إلى الغائب وقال : ﴿ سقناه ﴾ بإسناد الفعل إلى المتكلم وكذلك في قوله : ﴿ فَأَحْيَيْنَا ﴾ وذلك لأنه في الأول عرف نفسه بفعل من الأفعال وهو الإرسال ، ثم لما عرف قال : أنا الذي عرفتني سقت السحاب وأحييت الأرض ففي الأول كان تعريفاً بالفعل العجيب ، وفي الثاني كان تذكيرا بالنعمة فإن كما (ل) نعمة الرياح والسحب بالسوق والإحياء وقوله : ﴿ سقناه . . .

وَأَحْيَيْنَا ﴾ بصيغة الماضي يؤيد ما ذكرناه من الفرق بين قوله : ﴿ أُرْسِلَ ﴾ وبين قوله : ( تُثِيرُ ) .

المسألة الثالثة :

ما وجه التشبيه بقوله : ﴿ كَذَلِكَ النشور ﴾ فيه وجوه : أحدها : أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة وثانيها : كما أن الريح يجمع القطع السحابية كذلك يجمع بين أجزاء الأعضاء وأبعاض الأشياء وثالثها : كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت .

المسألة الرابعة :

ما الحكمة في اختيار هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له في كل شيء آية تدل على أنه واحد ، فنقول لما ذكر الله أنه فاطر السموات والأرض ، وذكر من الأمور السماوية والأرواح وإرسالها بقوله : ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ [ فاطر : 1 ] ذكر من الأمور الأرضية الرياح وإرسالها بقوله : ﴿ والله الذي أَرْسَلَ الرياح ﴾ .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا

لما بين برهان الإيمان إشارة إلى ما كان يمنع الكفار منه وهو العزة الظاهرة التي كانوا يتوهمونها من حيث إنهم ما كانوا في طاعة أحد ولم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم ، فكانوا ينحتون الأصنام وكانوا يقولون إن هذه آلهتنا ، ثم إنهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم وأية عزة فوق المعية مع المعبود فهم كانوا يطلبون العزة وهي عدم التذلل للرسول وترك الأتباع له ، فقال إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة في الحقيقة ، فهي كلها لله ومن يتذلل له فهو العزيز ، ومن يتعزز عليه فهو الذليل وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال في هذه الآية : ﴿ فَلِلَّهِ العزة جَمِيعاً ﴾ وقال في آية أخرى : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ المنافقون : 8 ] فقوله : ﴿ جَمِيعاً ﴾ يدل على أن لا عزة لغيره فنقول قوله :

﴿ فَلِلَّهِ العزة ﴾ أي في الحقيقة وبالذات وقوله : ﴿ وَلِرَسُولِهِ ﴾ أي بواسطة القرب من العزيز وهو الله وللمؤمنين بواسطة قربهم من العزيز بالله وهو الرسول ، وذلك لأن عزة المؤمنين بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم ألا ترى قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ [ آل عمران : 31 ] .

المسألة الثانية :

(154/639)

---

قوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ تقرير لبيان العزة ، وذلك لأن الكفار كانوا يقولون نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده ، لأن البعد من الملك ذلة ، فقال تعالى : إن كنتم لا تصلون إليه ، فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيب فمن قبل كلامه وصعد إليه فهو عزيز ومن رد كلامه في وجهه فهو ذليل ، وأما هذه الأصنام لا يتبين عندها الذليل من العزيز إذ لا علم لها فكل أحد يمسها وكذلك يرى علمكم فمن عمل صالحاً رفعه إليه ، ومن عمل سيئاً رده عليه فالعزيز من الذي عمله لوجهه والذليل من يدفع الذي عمله في وجهه ، وأما هذه الأصنام فلا تعلم شيئاً فلا عزيز يرفع عندها ولا ذليل ، فلا عزة بها بل عليها ذلة ، وذلك لأن ذلة السيد ذلة للعبد ومن كان معبوده وربه وإلهه حجارة أو خشباً ماذا يكون هو ! .

المسألة الثالثة :

في قوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ وجوه : أحدها : كلمة لا إله إلا الله هي الطيبة وثانيها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر طيب ثالثها : هذه الكلمات الأربع وخامسة وهي تبارك الله والمختار أن كل كلام هو ذكر الله أو هو لله كالنصيحة والعلم ، فهو إليه يصعد .

المسألة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ وفي الهاء وجهان أحدهما : هي عائدة إلى الكلم الطيب أي العمل الصالح هو الذي يرفعه الكلم الطيب ورد في الخبر " لا يقبل الله قولاً بلا عمل "

وثانيهما : هي عائدة إلى العمل الصالح وعلى هذا في الفاعل الرافع وجهان : أحدهما : هو الكلم الطيب يرفع العمل الصالح ، وهذا يؤيده قوله تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾ [ النحل : 97 ] وثانيهما : الرافع هو الله تعالى .

المسألة الخامسة :

ما وجه ترجيح الذكر على العمل على الوجه الثاني حيث يصعد الكلم بنفسه ويرفع العمل بغيره ، فنقول الكلام شريف ، فإن امتياز الإنسان عن كل حيوان بالنطق ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ ﴾ [ الإسراء : 70 ] أي بالنفس الناطقة والعمل حركة وسكون يشترك فيه الإنسان وغيره ، والشريف إذا وصل إلى باب الملك لا يمنع ومن دونه لا يجد الطريق إلا عند الطلب ويدل على هذا أن الكافر إذا تكلم بكلمة الشهادة إن كان عن صدق أمن عذاب الدنيا والآخرة ، وإن كان ظاهراً أمن في نفسه ودمه وأهله وحرمه في الدنيا ولا كذلك العمل بالجوارح ، وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [ البقرة : 82 ] ووجه آخر : القلب هو الأصل وقد تقدم ما يدل عليه ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " وما في القلب لا يظهر إلا باللسان وما في اللسان لا يتبين صدقه إلا بالفعل ، فالقول أقرب إلى القلب من الفعل ، ألا ترى أن الإنسان لا يتكلم بكلمة إلا عن قلب ، وأما الفعل قد يكون لا عن قلب كالعبث باللحية ولأن النائم لا يخلو عن فعل من حركة وتقلب وهو في أكثر الأمر لا يتكلم في نومه إلا نادراً ، لما ذكرنا إن الكلام بالقلب ولا كذلك العمل ، فالقول أشرف .

المسألة السادسة :

قال الزمخشري المكر لا يتعدى فبم انتصاب السيئات ؟ وقال بأن معناه الذين يمكرون المكرات السيئات فهو وصف مصدر محذوف ، ويحتمل أن يقال استعمل المكر استعمال العمل فعداه تعديته كما قال تعالى : ﴿ الذين يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ [ العنكبوت : 4 ] وفي قوله : ﴿ الذين يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ يحتمل ما ذكرناه أن يكون السيئات وصفاً لمصدر تقديره الذين يعملون العملات السيئات ، وعلى هذا فيكون هذا في مقابلة قوله : ﴿ والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ إشارة إلى بقائه وارتقائه ﴿ وَمَكْرُ أولئك ﴾ أي العمل السيء ﴿ وَهُوَ يَبُورُ ﴾ إشارة إلى فنائه .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ

قد ذكرنا مراراً أن الدلائل مع كثرتها وعدم دخولها في عدد محصور منحصرة في قسمين دلائل الآفاق ودلائل الأنفس ، كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءاياتنا فِى الأفاق وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [ فصلت : 53 ] فلما ذكر دلائل الآفاق من السموات وما يرسل منها من الملائكة والأرض وما يرسل فيها من الرياح شرع في دلائل الأنفس ، وقد ذكرنا تفسيره مراراً وذكرنا ما قيل من أن قوله : ﴿ مّن تُرَابٍ ﴾ إشارة إلى خلق آدم ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إشارة إلى خلق أولاده ، وبينا أن الكلام غير محتاج إلى هذا التأويل بل ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ خطاب مع الناس وهم أولاد

آدم كلهم من تراب ومن نطفة لأن كلهم من نطفة والنطفة من غذاء ، والغذاء بالآخرة ينتهي إلى الماء والتراب ، فهو من تراب صار نطفة .

(157/639)

---

وقوله : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ ﴾ إشارة إلى كمال العمل ، فإن ما في الأرحام قبل الانخلاق بل بعده ما دام في البطن لا يعلم حاله أحد ، كيف والأم الحاملة لا تعلم منه شيئاً ، فلما ذكر بقوله : ﴿ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ كمال قدرته بين بقوله : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ كمال علمه ثم بين نفوذ إرادته بقوله : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ فبين أنه هو القادر العالم المريد والأصنام لا قدرة لها ولا علم ولا إرادة ، فكيف يستحق شيء منها العبادة ، وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي الخلق من التراب ويحتمل أن يكون المراد التعمير والنقصان على الله يسير ، ويحتمل أن يكون المراد أن العلم بما تحمله الأنثى يسير والكل على الله يسير والأول أشبه فإن اليسير استعماله في الفعل أليق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 10.7 ﴾

(158/639)

وقال ابن العربي :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَصْعَدُ ﴾ ؛ وَالصُّعُودُ هُوَ الْحَرَكَةُ إلَى فَوْقَ ، وَهُوَ الْعُرُوجُ أَيْضًا .

وَلَا يُتَصَوَّرُ ذَلِكَ فِي الْكَلَامِ ؛ لِأَنَّهُ عَرَضٌ ، وَلَكِنْ ضَرَبَ صُعُودَهُ مَثَلًا لِقَبُولِهِ ؛ لِأَنَّ مَوْضِعَ الثَّوَابِ فَوْقَ ، وَمَوْضِعَ الْعَذَابِ أَسْفَلَ .

وَالصُّعُودُ رِفْعَةٌ وَالنُّزُولُ هَوَانٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي الْكَلِمِ الطَّيِّبِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ التَّوْحِيدُ الصَّادِرُ عَنْ عَقِيدَةٍ طَيِّبَةٍ .

الثَّانِي : مَا يَكُونُ مُوَافِقًا لِلسُّنَّةِ .

الثَّالِثُ : مَا لَا يَكُونُ لِلْعَبْدِ فِيهِ حَظٌّ ، وَإِنَّمَا هُوَ حَقٌّ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ﴾ : هُوَ الْمُوَافِقُ لِلسُّنَّةِ الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ : ﴿ يَرْفَعُهُ ﴾ : قِيلَ الْفَاعِلُ فِي يَرْفَعُهُ مُضْمَرٌ يَعُودُ عَلَى اللَّهِ أَيْ هُوَ الَّذِي يَرْفَعُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ ، كَمَا أَنَّهُ إلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ .

وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الَّذِي يُصْعِدُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ ، وَقَدْ قَالَ السَّلَفُ بِالْوَجْهَيْنِ ، وَهُمَا صَحِيحَانِ .

فَالْأَوَّلُ حَقِيقَةٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّافِعُ الْخَافِضُ .

وَالثَّانِي مَجَازٌ ؛ وَلَكِنَّهُ جَائِزٌ سَائِغٌ .

(159/639)

---

وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ كَلَامَ الْمَرْءِ بِذِكْرِ اللَّهِ إنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ لَمْ يَنْفَعْ ؛ لِأَنَّ مَنْ خَالَفَ قَوْلُهُ فِعْلَهُ فَهُوَ وَبَالٌ عَلَيْهِ .

وَتَحْقِيقُ هَذَا أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ إذَا وَقَعَ شَرْطًا فِي الْقَوْلِ أَوْ مُرْتَبِطًا بِهِ فَإِنَّهُ لَا قَبُولَ لَهُ إلَّا بِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَرْطًا فِيهِ وَلَا مُرْتَبِطًا بِهِ فَإِنَّ كَلِمَهُ الطَّيِّبَ يُكْتَبُ لَهُ ، وَعَمَلُهُ الصَّالِحُ يُكْتَبُ عَلَيْهِ ، وَتَقَعُ الْمُوَازَنَةُ بَيْنَهُمَا ، ثُمَّ يُحْكَمُ لَهُ بِالْفَوْزِ وَالرِّبْحِ وَالْخُسْرَانِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ ذَكَرُوا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْكَلْبُ ، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ : { إلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِعُمُومٍ عَلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ فِي الْقَوْلِ بِالْعُمُومِ .

وَقَدْ دَخَلَ هَذَا فِي الصَّلَاةِ بِشُرُوطِهَا ، فَلَا يَقْطَعُهَا عَلَيْهِ شَيْءٌ إلَّا بِثُبُوتِ مَا يُوجِبُ ذَلِكَ مِنْ

مِثْلِ مَا انْعَقَدَتْ بِهِ مِنْ قُرْآنٍ أَوْ سُنَّةٍ .

وَقَدْ تَعَلَّقَ مَنْ رَأَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْمَرْأَةُ وَالْحِمَارُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ وَشَرْحِ الْحَدِيثِ ، وَذَكَرْنَا أَنَّ الْآثَارَ فِي ذَلِكَ بَيِّنَةٌ مُتَعَارِضَةٌ فَتَبْقَى الصَّلَاةُ عَلَى صِحَّتِهَا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(160/639)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واللهُ الذي أَرْسَلَ الرياحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾

مَيِّت ومَيْت واحد ، وكذا مَيِّتة ومَيْتة ؛ هذا قول الحُذّاق من النحويين .

وقال محمد بن يزيد : هذا قول البصريين ، ولم يستثن أحداً ، واستدلّ على ذلك بدلائل قاطعة .

وأنشد :

ليس من مات فاستراح بِمَيْتٍ . . .

إنما الْمَيت مَيِّت الأحياء

إنما المَيْت من يعيش كئيباً . . .

كاسِفاً بالُه قليل الرجاء

قال : فهل ترى بين ميّت ومَيْت فرقا ، وأنشد :

هَيْنون لَيْنون أيسارٌ بنو يَسَر . . .

سُواس مَكْرُمة أبناء أَيْسار

قال : فقد أجمعوا على أن هَيْنون ولَيْنون واحد ، وكذا مَيّت ومَيْت ، وسَيّد وسَيْد .

قال : "فَسُقْنَاهُ" بعد أن قال : "وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ" وهو من باب تلوين الخطاب .

وقال أبو عبيدة : سبيله "فَتَسُوقُه" ، لأنه قال : "فَتُثِيرُ سَحَابًا" .

الزمخشري : فإن قلت : لم جاء "فتثير" على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت : لتحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحابَ ، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية ؛ وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تُستغرب ، أو تهمّ المخاطب أو غير ذلك ؛ كما قال تأبّط شرًّا :

بأني قد لقيت الغول تهوى . . .

بسَهْب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دَهش فخرت . . .

صريعاً لليدين وللجران

لأنه قصد أن يصوّر لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول ، كأنه يُبصرهم إياها ، ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول ، وثباته عند كل شدّة .

وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت ، لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : "فسقنا" و"أحيينا" معدولاً بهما عن لفظة الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه .

وقراءة العامة "الرياح" .

وقرأ ابن مُحَيْصن وابن كثير والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي "الريح" توحيداً .



---

وقد مضى بيان هذه الآية والكلام فيها مستوفى .

﴿ كَذَلِكَ النشور ﴾ أي كذلك تُحيون بعد ما متُّم ؛ من نشر الإنسان نشوراً .

فالكاف في محل الرفع ؛ أي مثل إحياء الموت نشر الأموات .

" وعن أبي رزين العقيلي قال : قلت يا رسول الله ، كيف يحيي الله الموتى ، وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : "أمَا مررتَ بوادي أهلِك مُمْحِلاً ثم مررت به يهتّز خَضِراً" قلت : نعم يا رسول

الله .

قال : "فكذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه" " وقد ذكرنا هذا الخبر في "الأعراف" وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة فَلِلَّهِ العزة جَمِيعاً ﴾ التقدير عند الفراء : من كان يريد علم العزة .

وكذا قال غيره من أهل العلم .

أي من كان يريد علم العزة التي لا ذلة معها ؛ لأن العزة إذا كانت تؤدّي إلى ذلة فإنما هي تعرض للذّلة ، والعزةُ التي لا ذُلّ معها لله عز وجل .

﴿ جَمِيعاً ﴾ منصوب على الحال .

وقدّر الزجاج معناه : من كان يريد بعبادته الله عز وجل العزّةَ والعزة له سبحانه فإن الله عز وجل يُعِزه في الآخرة والدنيا .

قلت : وهذا أحسن ، وروي مرفوعاً على ما يأتي .

﴿ فَلِلَّهِ العزة جَمِيعاً ﴾ ظاهر هذا إيئاس السامعين من عزته ، وتعريفهم أن ما وجب له من ذلك لا مطمع فيه لغيره ؛ فتكون الألف واللام للعهد عند العالِمين به سبحانه وبما وجب له من ذلك ، وهو المفهوم من قوله الحق في سورة يونس : ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العزة للَّهِ ﴾ [ يونس : 65 ] .

ويحتمل أن يريد سبحانه أن ينبه ذوي الأقدار والهمم مِن أين تنال العزة ومن أين تُستحق؛ فتكون الألف واللام للاستغراق، وهو المفهوم من آيات هذه السورة.

فمن طلب العزة من الله وصدقه في طلبها بافتقار وذل، وسكون وخضوع، وجدها عنده إن شاء الله غير ممنوعة ولا محجوبة عنه؛ قال صلى الله عليه وسلم: "من تواضع لله رفعه الله" ومن طلبها من غيره وكَلَه إلى من طلبها عنده.

(162/639)

---

وقد ذكر قوماً طلبوا العزة عند من سواه فقال: ﴿ الذين يَتَّخِذُونَ الكافرين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ المؤمنين أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العزة فَإِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ [النساء: 139].

فأنبأك صريحاً لا إشكال فيه أن العزة له يُعِزّ بها من يشاء ويُذِل من يشاء.

وقال صلى الله عليه وسلم مفسّرا لقوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة فَلِلَّهِ العزة جَمِيعاً ﴾: "من أراد عز الدارين فليطع العزيز" وهذا معنى قول الزجاج.

ولقد أحسن من قال:

وإذا تذلّلت الرقاب تواضعاً . . .

منا إليك فعزّها في ذلها

فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر ، ويدخل دار العزة ولله العزة فليقصِد بالعزة الله سبحانه والاعتزازَ به ؛ فإنه من اعتز بالعبد أذله الله ، ومن اعتز بالله أعزه الله .

قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ وتم الكلام .

ثم تبتدىء ﴿ والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ على معنى : يرفعه الله ، أو يرفع صاحبه .

ويجوز أن يكون المعنى : والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب ؛ فيكون الكلام متصلاً على ما يأتي بيانه .

والصعود هو الحركة إلى فوق ، وهو العروج أيضاً .

ولا يتصوّر ذلك في الكلام لأنه عَرَض ، لكن ضرب صعوده مثلاً لقبوله ؛ لأن موضع الثواب فوق ، وموضع العذاب أسفل .

وقال الزجاج : يقال ارتفع الأمر إلى القاضي أي علمه ؛ فهو بمعنى العلم .

وخص الكلام والطيب بالذكر لبيان الثواب عليه .

وقوله : "إِلَيْهِ" أي إلى الله يصعد .

وقيل : يصعد إلى سمائه والمحل الذي لا يجري فيه لأحد غيرِه حكم .

وقيل : أي يحمل الكتاب الذي كتب فيه طاعات العبد إلى السماء .

و"الْكَلِمُ الطَّيِّبُ" هو التوحيد الصادر عن عقيدة طيّبة .

وقيل : هو التحميد والتمجيد ، وذكر الله ونحوه .

وأنشدوا :

لا ترض من رجل حلاوةَ قوله . . .

حتى يُزيِّن ما يقول فَعَالُ

(163/639)

---

فإذا وزنت فَعاله بمقاله . . .

فتوَازَنًا فإخاء ذاك جَمَالُ

وقال ابن المُقَفّع : قول بلا عمل ، كثرِيد بلا دسم ، وسحابٍ بلا مطر ، وقوسٍ بلا وتر .

وفيه قيل :

لا يكون المقال إلا بفعلٍ . . .

كلُّ قولٍ بلا فعالٍ هَبَاءُ

إنّ قولاً بلا فعالٍ جمِيل . . .

ونِكاحاً بلا وَلِيّ سواء

وقرأ الضحاك "يُصعد" بضم الياء .

وقرأ جمهور الناس "الكَلِم" جمع كلمة .

وقرأ أبو عبد الرحمن "الكلام" .

قلت : فالكلام على هذا قد يطلق بمعنى الكَلِم وبالعكس ؛ وعليه يخرج قول أبي القاسم : أقسام الكلام ثلاثة ؛ فوضع الكلام موضع الكلم ، والله أعلم .

﴿ والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : المعنى والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب .

وفي الحديث " لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ، ولا يقبل قولاً وعملاً إلا بنيّة ، ولا يقبل قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة " قال ابن عباس : فإذا ذكر العبدُ الله وقال كلاماً طيّباً وأدّى فرائضه ، ارتفع قوله مع عمله ، وإذا قال ولم يؤدّ فرائضه ردّ قوله على عمله .

قال ابن عطية : وهذا قول يردّه معتقد أهل السنة ولا يصح عن ابن عباس .

والحق أن العاصي التارك للفرائض إذا ذكر الله وقال كلاماً طيباً فإنه مكتوب له متقبَّل منه ، وله حسناته وعليه سيئاته ، والله تعالى يتقبل من كل من اتقى الشرك .

وأيضاً فإن الكلام الطيب عمل صالح ، وإنما يستقيم قول من يقول : إن العمل هو الرافع للكلم ، بأن يتأوّل أنه يزيده في رفعه وحسن موقعه إذا تعاضد معه .

كما أن صاحب الأعمال من صلاة وصيام وغير ذلك ، إذا تخلل أعماله كَلِمٌ طيّب وذكر الله تعالى كانت الأعمال أشرف ؛ فيكون قوله : ﴿ والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ موعظة

وتذكرة وحَضًّا على الأعمال .

وأما الأقوال التي هي أعمال في نفوسها ؛ كالتوحيد والتسبيح فمقبولة .

قال ابن العربيّ : "إن كلام المرء بذكر الله إن لم يقترن به عمل صالح لم ينفع ؛ لأن من خالف قوله فعله فهو وبال عليه .

(164/639)

---

وتحقيق هذا : أن العمل إذا وقع شرطاً في قبول القول أو مرتبطاً ، فإنه لا قبول له إلا به ، وإن لم يكن شرطاً فيه فإن كلمه الطيب يكتب له ، وعمله السّيىء يكتب عليه ، وتقع الموازنة بينهما ، ثم يحكم الله بالفوز والربح والخسران" .

قلت : ما قاله ابن العربيّ تحقيق .

والظاهر أن العمل الصالح شرط في قبول القول الطيّب .

وقد جاء في الآثار أن العبد إذا قال : لا إله إلا الله بنية صادقة نظرت الملائكة إلى عمله ، فإن كان العمل موافقاً لقوله صعدا جميعاً ، وإن كان عمله مخالفاً وقف قوله حتى يتوب من عمله .

فعلى هذا العملُ الصالح يرفع الكلم الطيّب إلى الله .

والكناية في "يرفعه" ترجع إلى الكلم الطيب .

وهذا قول ابن عباس وشَهْر بن حَوْشَب وسعيد بن جُبير ومجاهد وقتادة وأبي العالية والضحاك .

وعلى أن "الكلِم الطيب" هو التوحيد ، فهو الرافع للعمل الصالح ؛ لأنه لا يقبل العمل الصالح إلا مع الإيمان والتوحيد .

أي والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب ؛ فالكناية تعود على العمل الصالح .

وروي هذا القول عن شَهْر بن حَوْشَب قال : "الكلم الطيب" القرآن "والعمل الصالح يرفعه" القرآن .

وقيل : تعود على الله جل وعز ؛ أي أن العمل الصالح يرفعه الله على الكَلِم الطيّب ؛ لأن العمل تحقيق الكلِم ، والعامل أكثر تعباً من القائل ، وهذا هو حقيقة الكلام ؛ لأن الله هو الرافع الخافض .

والثاني والأوّل مجاز ، ولكنه سائغ جائز .

قال النحاس : القول الأوّل أولاها وأصحها لعلوّ من قال به ، وأنه في العربية أولى ؛ لأن القرّاء على رفع العمل .

ولو كان المعنى : والعمل الصالح يرفعه الله ، أو العمل الصالح يرفعه الكلم الطيّب ، لكان الاختيار نصف العمل .

ولا نعلم أحداً قرأه منصوباً إلا شيئاً رُوي عن عيسى بن عمر أنه قال : قرأه أناس "والعملَ الصالحَ يرفعه الله" .

وقيل : والعمل الصالح يرفع صاحبه ، وهو الذي أراد العزة وعلم أنها تُطلب من الله تعالى ؛ ذكره القشيريّ .

(165/639)

---

الثانية : ذكروا عند ابن عباس أن الكلب يقطع الصلاة ، فقرأ هذه الآية : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ .

وهذا استدلال بعموم على مذهب السلف في القول بالعموم ، وقد دخل في الصلاة بشروطها ، فلا يقطعها عليه شيء إلا بثبوت ما يوجب ذلك ؛ من مثل ما انعقدت به من قرآن أو سنة أو إجماع .

وقد تعلق من رأى ذلك بقوله عليه السلام : " "يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود"فقلت : ما بال الكلب الأسود من الكلب الأبيض من الكلب الأحمر ؟ فقال : "إن الأسود شيطان" " خرجه مسلم .

وقد جاء ما يعارض هذا ، وهو ما خرّجه البخاري عن ابن أخي ابن شهاب أنه سأل عمه

عن الصلاة يقطعها شيء ؟ فقال : لا يقطعها شيء ، أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم فيصلي من الليل ، وإني لمعترضة بينه وبين القبلة على فراش أهله .

قوله تعالى : ﴿ والذين يَمْكُرُونَ السيئات ﴾ ذكر الطبري في ( كتاب آداب النفوس ) : حدثني يونس بن عبد الأعلى قال حدثنا سفيان عن لَيْث بن أبي سليم عن شَهْر بن حَوْشَب الأشعري في قوله عز وجل : ﴿ والذين يَمْكُرُونَ السيئات لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ قال : هم أصحاب الرياء ؛ وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة.

وقال أبو العالية : هم الذين مكروا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم لما اجتمعوا في دار الندوة .

وقال الكلبي : يعني الذين يعملون السيئات في الدنيا .

مقاتل : يعني الشرك ، فتكون "السّيّئات" مفعولة .

ويقال : بار يبور إذا هلك وبطل .

وبارت السوق أي كسدت ، ومنه : نعوذ بالله من بوار الأيِم وقوله : ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ [ الفتح : 12 ] أي هلكى .

والمكر : ما عمل على سبيل احتيال وخديعة .

وقد مضى في "سبأ" .

قوله تعالى : ﴿ واللهُ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ قال سعيد عن قتادة قال : يعني آدم عليه السلام ، والتقدير على هذا : خلق أصلكم من تراب .

﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ قال : أي التي أخرجها من ظهور آبائكم .

﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ قال : أي زوّج بعضكم بعضاً ، فالذكر زوج الأنثى ليتم البقاء في الدنيا إلى انقضاء مدّتها .

﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ أي جعلكم أزواجاً فيتزوّج الذكر بالأنثى فيتناسلان بعلم الله ، فلا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به ، فلا يخرج شيء عن تدبيره .

﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ سماه معمّراً بما هو صائر إليه .

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : "وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ" إلا كتب عمره ، كم هو سنة كم هو شهراً كم هو يوماً كم هو ساعة ؛ ثم يكتب في كتاب آخر : نقص من عمره يوم ، نقص شهر ، نقص سنة ، حتى يستوفى أجله .

وقاله سعيد بن جبير أيضاً ، قال : فما مضى من أجله فهو النقصان ، وما يستقبل فهو الذي يعمره ؛ فالهاء على هذا للمعمر .

وعن سعيد أيضاً : يكتب عمره كذا وكذا سنة ، ثم يكتب في أسفل ذلك : ذهب يوم ، ذهب يومان ، حتى يأتي على آخره .

وعن قتادة: المعمّر من بلغ ستين سنة، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة.

ومذهب الفرّاء في معنى "وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ" أي ما يكون من عمره "وَلَا يُنْقَصُ من عمرِه" بمعنى معمر آخر، أي ولا ينقص الآخر من عمره إلا في كتاب.

فالكناية في "عمره" ترجع إلى آخر غير الأوّل.

وكنّى عنه بالهاء كأنه الأوّل، ومثله قولك: عندي درهم ونصفه، أي نصف آخر.

وقيل: إن الله كتب عمر الإنسان مائة سنة إن أطاع، وتسعين إن عصى، فأيهما بلغ فهو في كتاب.

(167/639)

---

وهذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام: "من أحبّ أن يُبْسَط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصِلْ رحمه" أي أنه يكتب في اللوح المحفوظ: عمر فلان كذا سنة، فإن وصل رحمه زيد في عمره كذا سنة.

فبيّن ذلك في موضع آخر من اللوح المحفوظ، إنه سيصل رحمه فمن اطلع على الأوّل دون الثاني ظن أنه زيادة أو نقصان.

وقد مضى هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد: 39]

والكناية على هذا ترجع إلى العمر .

وقيل : المعنى وما يعمَّر من معمَّر أي هرم ، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا في كتاب ؛ أي بقضاء من الله جل وعز .

روي معناه عن الضحاك واختاره النحاس ، قال : وهو أشبهها بظاهر التنزيل .

وروي نحوه عن ابن عباس .

فالهاء على هذا يجوز أن تكون للمعمّر ، ويجوز أن تكون لغير المعمر .

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي كتابة الأعمال والآجال غير متعذر عليه .

وقراءة العامة "يُنْقَص" بضم الياء وفتح القاف .

وقرأت فرقة منهم يعقوب "يَنقُص" بفتح الياء وضم القاف ، أي لا ينقص من عمره شيء .

يقال : نقص الشيءُ بنفسه ونقصه غيرُه ، وزاد بنفسه وزاده غيره ، متعدّ ولازم .

وقرأ الأعرج والزهري "مِن عُمْره" بتخفيف الميم .

وضمها الباقون .

وهما لغتان مثل السُّحْق والسُّحُق .

و"يَسِيرٌ" أي إحصاء طويل الأعمار وقصيرها لا يتعذر عليه شيء منها ولا يعزب .

والفعل منه : يَسُر .

ولو سميت به إنسانا ً انصرف ؛ لأنه فعيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(168/639)

---

وقال أبو السعود :

﴿ والله الذى أَرْسَلَ الرياح ﴾

مبتدأٌ وخبرٌ . وقُرىء الرِّيحَ وصيغتُه المضارعِ في قوله تعالى : ﴿ فَتُثِيرُ سحابا ﴾ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ استحضاراً لتلكَ الصُّورةِ البديعةِ الدَّالَّةِ على كمالِ القدرةِ والحكمةِ ولأنَّ المرادَ بيانُ إحداثِها لتلك الخاصيَّةِ ولذلك أُسند إليها أو للدِّلالةِ على استمرارِ الإثارةِ ﴿ فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيّتٍ ﴾ وقُرىء بالتَّخفيفِ ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرض ﴾ أي بالمطرِ النَّازلِ منه المدلولِ عليه بالسَّحابِ فإنَّ بينهما تلازماً في الذِّهنِ كما في الخارجِ أو بالسَّحابِ فإنَّه سببُ السَّببِ ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي يُبسها . وإيرادُ الفعلينِ على صيغةِ الماضِي للدِّلالةِ على التَّحقيقِ . وإسنادُها إلى نونِ العظمةِ المنبيءِ عن اختصاصِهما به تعالى لما فيهما من مزيدِ الصُّنعِ ولتكميلِ المُماثلةِ بين إحياءِ الأرضِ وبين البعثِ الذي شُبِّه به بقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ النشور ﴾ في كمالِ الاختصاصِ بالقُدرةِ الرَّبانيةِ . والكافُ في حيِّزِ الرَّفعِ على

الخبرية أي مثل ذلك الإحياءِ الذي تشاهدونه إحياءُ الأمواتِ في صحّةَ المقدوريّةِ وسهولةِ التأتّي من غيرِ تفاوتٍ بينهما أصلاً سوى الألفِ في الأوّلِ دُونَ الثّاني وقيل في كيفيّةِ الإحياءِ يُرسل الله تعالى من تحت العرشِ ماءً فينبتُ منه أجسادُ الخلقِ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة ﴾ هم المشركونَ الذينَ كانُوا يتعزّزون بعبادةِ الأصنامِ كقولِه تعالى : ﴿ واتخذوا مِن دُونِ الله ءالِهَةً لّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً ﴾ والذين كانوا يتعزّزون بهم من الذينَ آمنُوا بألسنتِهم كما في قوله تعالى : ﴿ الذين يَتَّخِذُونَ الكافرين أَوْلِيَاء مِن دُونِ المؤمنين أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العزة ﴾ والجمعُ بين كانَ ويريدُ للدّلالةِ على دَوامِ الإرادةِ واستمرارِها .

(169/639)

---

﴿ فَلِلَّهِ العزة جَمِيعاً ﴾ أي له تعالى وحدَهُ لا لغيرِه عزّةُ الدّنيا وعزّةُ الآخرةِ أي فليطلبها منْهُ لا من غيرِه فاستُغني عن ذكره بذكرِ دليلِه إيذاناً بأنّ اختصاصَ العزّة تعالى موجبٌ لتخصيصِ طلبِها به تعالى . وقوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ بيانٌ لما يُطلب به العزّةُ وهو التّوحيدُ والعملُ الصَّالحُ . وصعودُهما إليه مجازٌ عن قبولِه تعالى إيّاهُما أو صعودُ الكَتَبةِ بصحيفتهما . وتقديمُ الجارّ والمجرور عبارةٌ عن كمالِ الاعتدادِ به كقولِه تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصدقات ﴾ أي إليه

يصلُ الكلمُ الطَّيبُ الذي به يُطلب العزَّةَ لا إلى الملائكةِ الموكَّلين بأعمال العبادِ فَقط وهو يعزُّ صاحبَهُ ويُعطي طِلْبتَه بالذَّاتِ . والمستكنُّ في يرفعه للكلم فإنَّ مدارَ قبولِ العملِ هو التَّوحيدُ ويُؤيده القراءةُ بنصبِ العملِ أو للعملِ فإنَّه يحققُ الإيمانَ ويقويه ولا يُنال الدَّرجاتُ العاليةُ إلا به . وقُرىء يُصعد من الإصعادِ على البناءين والمُصعدُ هو الله سبحانَه أو المتكلّم به أو الملكُ وقيل الكلمُ الطَّيبُ يتناول الذكّرَ والدُّعاءَ والاستغفارَ وقراءةَ القُرآن . وعنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه سبحانَ الله والحمدُ لله ولا إلهَ إلا الله والله أكبرُ إذا قالَها العبدُ عرجَ بها الملكُ إلى السَّماءِ فحيا بها وجهَ الرحمن فإذا لم يكنْ عملٌ صالحٌ لم تُقبل ، وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه

" ما من عبدٍ مسلمٍ يقولُ خمسَ كلماتٍ سبحانَ الله والحمدُ لله ولا إلهَ إلاَّ الله والله أكبرُ وتبارك الله إلا أخذهنَّ ملكٌ فجعلهنَّ تحتَ جناحِه ثم صعدَ بهنَّ فما يمرُّ بهنَّ على جمعٍ من الملائكةِ إلا استغفروا لقائلهنَّ حتَّى يحيى بهنَّ وجهَ ربِّ العالمين "

ومصداقُه قوله عزَّ وجلَّ ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلمُ الطيب ﴾ الخ .

﴿ والذين يَمْكُرُونَ السيئات ﴾ بيانٌ لحال الكَلِمِ الخَبيثِ والعمل السَّيِّىء وأهلِهما بعد بيانِ حالِ الكَلمِ الطَّيب والعملِ الصَّالِح. وانتِّصابُ السَّيِّئاتِ على أنَّها صفةٌ للمصدرِ المحذوفِ أي يمكرون المكَرَاتِ السَّيِّئاتِ وهي مكَراتُ قُرَيشٍ بالنبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في دارِ النَّدوةِ وتداورِهم الرَّأيَ في إحدى الثَّلاثِ التي هي الإثباتُ والقتلُ والإخراجُ ﴿ لَهُمْ ﴾ بسببَ مكراتِهم ﴿ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لا يُقادرُ قَدرُه ولا يُؤبه عندَهُ لمَا يمكرون ﴿ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ ﴾ وضعَ اسمُ الإشارةِ موضعَ ضميرِهم للإيذانِ بكمالِ تميُّزهم بما هُم فيه من الشَّرِّ والفسادِ عن سائرِ المُفسدينَ واشتهارِهم بذلك. وما فيه من معنى البُعد للتنبيه على تَرامي أمرهِم في الطُّغيانِ وبُعد منزلتهم في العُدوانِ. أي ومكرُ أولئكَ المُفسدين الذينَ أرادُوا أنْ يمكرُوا به عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ هُوَ يَبُورُ ﴾ أي هو يهلكُ ويفسدُ خاصَّةً لا مَن مكرُوا بهِ ولقد أبارَهُم الله تعالى بعد إبارةِ مكراتِهم حيثُ أخرجَهم من مكَّةَ وقتلَهم وأثبتَهم في قَليبِ بدرٍ فجمعَ عليهم مكراتِهم الثَّلاثَ التي اكتفَوا في حقِّه عليه الصَّلاةُ والصَّلامُ بواحدةٍ منهن.

﴿ واللهُ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ دليلٌ آخرُ على صحّةِ البعثِ والنُّشورِ أي خلقكم ابتداءً منه في ضمنِ خلقِ آدمَ عليه السَّلامُ خلقاً إجماليًّا كما مرَّ تحقيقُه مراراً ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي ثم خلقكم منها خلقاً تفصيلياً ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ أي أصنافاً أو ذُكراناً وإناثاً. وعن قَتادةَ جعل بعضكم زَوْجاً لبعضٍ ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ إلا ملتبسةً بعلمِه تابعةً لمشيئتِه ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾ أي من أحدٍ وإنما سُمّي معمَّرا باعتبارِ مصيرِه أي وما يُمدُّ في عمرِ أحدٍ ﴿ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ أي من عمرِ أحدٍ على طريقةِ قولِهم لا يُثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحقٍ لكنْ لا عَلى معنى لا يُنقص عمره بعد كونِه زائداً على معنى لا يُجعل من الابتداءِ ناقصاً. وقيل الزّيادةُ والنّقصُ في عمرٍ واحدٍ باعتبارِ أسبابٍ مختلفةٍ أُثبتتْ في اللّوحِ مثلِ أنْ يكتبَ فيه إنْ حجَّ فلانٌ فعمرُه ستُّونَ وإلا فأربعونَ وإليه أشارَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بقولِه: " الصَّدقة والصِّلةُ تُعمِّرانِ الدِّيارَ وتزيدانِ في الأعمارِ " وقيلَ: المرادُ بالنّقصِ ما يمرُّ من عمرِه وينقصُ فإنَّه يكتب في الصَّحيفةِ عمرُه كذا وكذا سنة ثم يُكتب تحتَ ذلك ذهبَ يومٌ ذهبَ يومانِ وهكذا حتَّى يأتي على آخرِه، وقُرِىء ولا يَنقُصُ على البناءِ للفاعلِ ومن عُمْره بسكونِ الميمِ ﴿ إِلاَّ فِى كِتَابٍ ﴾ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه اللّوحُ وقيل: عِلمُ اللهِ عزَّ وجلَّ. وقيل: صحيفةُ كلِّ إنسانٍ ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ أي ما ذُكر من الخلقِ وما بعدَه مع كونِه محاراً للعقولِ والأفهامِ ﴿ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾

﴿ لاستغنائِه عن الأسبابِ فكذلك البعثُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(172/639)

---

وقال الآلوسى :

﴿ والله الذى أَرْسَلَ الرياح ﴾

مبتدأ وخبر ، وقرأ حمزة .

والكسائي .

وابن كثير ﴿ الريح ﴾ وصيغة المضارع في قوله تعالى : ﴿ أَقَلَّتْ سَحَابًا ﴾ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة وكثيراً ما يفعلون ذلك بفعل فيه نوع تميز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك ،

ومنه قول تأبط شرا :

ألا من مبلغ فتيان فهم . . .

بما لاقيت عند رحى بطان

بأني قد رأيت الغول تهوى . . .

بسهب كالصحيفة صحصحان

فقلت لها كلانا نضو أرض . . .

أخو سفر فخلى لي مكاني

فشدت شدة نحوي فأهوت . . .

لها كفي بمصقول يماني

فأضربها بلا دهش فخرت . . .

صريعاً لليدين وللجران

ولأن الإثارة خاصية للرياح وأثر لا ينفك في الغالب عنها فلا يوجد إلا بعد إيجادها فيكون مستقبلاً بالنسبة إلى الإرسال ، وعلى هذا يكون استعمال المضارع على ظاهره وحقيقته من غير تأويل لأن المعتبر زمان الحكم لا زمان التكلم ، والفاء دالة على عدم تراخي ذلك وهو شيء آخر وجوز أن يكون الإتيان بما يدل على الماضي ثم بما يدل على المستقبل إشارة إلى استمرار الأمر وأنه لا يختص بزمان دون زمان إذ لا يصح المضي والاستقبال في شيء واحد إلا إذا قصد ذلك ، وقال الإمام : اختلاف الفعلين لأنه لما أسند فعل الإرسال إلى الله تعالى وما يفعل سبحانه يكون بقوله عز وجل : ﴿ كُنّ ﴾ فلا يبقى في العدم زماناً ولا جزء زمان جيء بلفظ الماضي دون المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان ولأنه تعالى فرغ من كل شيء فهو سبحانه قدر الإرسال في الأوقات المعلومة وإلى المواضع

المعينة والتقدير كالإرسال ولما أسند فعل الإثارة إلى الرياح وهي تؤلف في زمان قال سبحانه : ﴿ تُثِيرُ ﴾ بلفظ المستقبل اه .

(173/639)

---

وأورد عليه قوله تعالى : في سورة الروم [ الروم : 48 ] ﴿ الله الذى يُرْسِلُ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً ﴾ وفي سورة الأعراف [ الأعراف : 57 ] ﴿ وَهُوَ الذى يُرْسِلُ الرياح بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ حيث جيء في الإرسال فيها بالمضارع فتأمل .

﴿ فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيّتٍ ﴾ قطعة من الأرض لا نبات فيها .

وقرىء ﴿ مَّيّتٍ ﴾ بالتخفيف وهما بمعنى واحد في المشهور .

وفي كليات أبي البقاء الكفوي الميت بالتخفيف هو الذي مات والميت بالتشديد والمائت هو الذي لم يمت بعد ، وأنشد :

ومن يك ذا روح فذلك ميت . . .

وما الميت إلا من إلى القبر يحمل

والمعول عليه هو المشهور ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرض ﴾ أي بالمطر النازل منه المدلول عليه بالسحاب فإن بينهما تلازماً في الذهن كما في الخارج أو بالسحاب فإنه سبب السبب

وإحياء الأرض إنبات الشجر والكلأ فيها ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ بيبسها وخلوها عن ذلك ، وإيراد الفعلين بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق ، وإسنادهما إلى نون العظمة المنبىء عن الاختصاص به تعالى لما فيهما من مزيد الصنع ولتكميل المماثلة بين إحياء الأرض وبين البعث الذي شبه به بقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ النشور ﴾ في كمال الاختصاص بالقدرة الربانية ، وقال الإمام عليه الرحمة : أسند ﴿ أَرْسِلَ ﴾ إلى الغائب وساق ﴿ وأحيى ﴾ إلى المتكلم لأنه في الأول عرف سبحانه نفسه بفعل من الأفعال وهو الإرسال ثم لما عرف قال تعالى : أنا الذي عرفتني سقت السحاب وأحييت الأرض ففي الأول كان تعريفاً بالفعل العجيب وفي الثاني كان تذكيرا بالنعمة فإن كمال نعمتي الرياح والسحب بالسوق والإحياء ، وهو كما ترى .

(174/639)

---

وقال سبحانه : فأحيينا به الأرض دون فأحييناه أي البلد الميت به تعليقاً للإحياء بالجنس المعلوم عند كل أحد وهو الأرض ولأن ذلك أوفق بأمر البعث ، وقال تعالى : ﴿ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ مع أن الأحياء مؤذن بذلك لما فيه من الإشارة إلى أن الموت للأرض الذي تعلق بها الإحياء معلوم لهم وبذلك يقوى أمر التشبيه فليتأمل .

والنشور على ما في "البحر" مصدر نشر الميت إذا حي قال الأعشى :

حتى يقول الناس مما رأوا . . .

يا عجباً للميت الناشر

وفي نهاية ابن الأثير يقال نشر الميت ينشر نشوراً إذا عاش بعد الموت وأنشره الله تعالى أحياه ، وقال الراغب : قيل نشر الله تعالى الميت وأنشره بمعنى والحقيقة أن نشر الله تعالى الميت مستعار من نشر الثوب أي بسطه كما قال الشاعر :

طوتك خطوب دهرك بعد نشر . . .

كذاك خطوبه طياً ونشراً

والمراد بالنشور هنا إحياء الأموات في يوم الحساب وهو مبتدأ والجار والمجرور قبله في موضع الخبر وقيل الكاف في حيز الرفع على الخبرية أي مثل ذلك الإحياء الذي تشاهدونه إحياء الأموات يوم القيامة في صحة المقدورية وسهولة التأتي من غير تفاوت بينهما أصلاً سوى الألف في الأول دون الثاني ، وقال أبو حيان : وقع التشبيه بجهات لما قبلت الأرض الميتة الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة أو كما أن الريح تجمع قطع السحاب كذلك يجمع الله تعالى أجزاء الأعضاء وأبعاض الموتى أو كما يسوق سبحانه السحاب إلى البلد الميت يسوق عز وجل الروح والحياة إلى البدن ، وقال بعضهم : التشبيه باعتبار

الكيفية.

فقد أخرج ابن جرير.

(175/639)

---

وغيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: يقوم ملك بالصور بين السماء والأرض فينفخ فيه فلا يبقى خلق لله في السماوات والأرض إلا من شاء الله تعالى إلا مات ثم يرسل الله تعالى من تحت العرش ماء كمني الرجال فتنبت أجسامهم من ذلك الماء وقرأ الآية ثم يقوم ملك فينفخ فيه فتنطلق كل نفس إلى جسدها، وفي حديث مسلم مرفوعاً ينزل الله تعالى مطراً كأنه الطل فينبت أجساد الناس.

ونبات الأجساد من عجب الذنب على ما ورد في الآثار وقد جاء أنه لا يبلى وهو العظم الذي في أسفل الصلب عند العجز، وقال أبو زيد الوقواقي: هو جوهر فرد يبقى من هذه النشأة لا يتغير، ولا حاجة إلى التزام أنه جوهر فرد، ووراء ذلك أقوال عجيبة في هذا العجب فقيل هو العقل الهيولاني، وقيل بل الهيولى، وعن الغزالي إنما هو النفس وعليها تنشأ النشأة الآخرة، وعن الشيخ الأكبر أنه العين الثابت من الإنسان، وعن بعض المتكلمين أنه الأجزاء الأصلية، وقال الملا صدرا الشيرازي في أسفاره: هو عندنا القوة الخيالية لأنها

آخر الأكوان الحاصلة في الإنسان من القوى الطبيعية والحيوانية والنباتية المتعاقبة في الحدوث للمادة الإنسانية في هذا العالم وهي أول الأكوان الحاصلة في النشأة الآخرة ثم بين ذلك بما بين وأنه لأضعف من بيت العنكبوت وأوهن .

والمعول عليه ما يوافق فهم أهل اللسان ، وأي حاجة إلى التأويل بعد التصديق بقدرة الملك الديان جل شأنه وعظم سلطانه .

(176/639)

---

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة ﴾ الشرف والمنعة من قولهم أرض عزاز أي صلبة وتعريفها للجنس ، والآية في الكافرين كانوا يتعززون بالأصنام كما قال تعالى : ﴿ واتخذوا مِن دُونِ الله ءالِهَةً لّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً ﴾ [ مريم : 81 ] والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين كما قال سبحانه : ﴿ الذين يَتَّخِذُونَ الكافرين أَوْلِيَاء مِن دُونِ المؤمنين أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العزة ﴾ [ النساء : 139 ] ومن اسم شرط وما بعده فعل الشرط ، والجمع بين كان ويريد للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها ، وقوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ العزة جَمِيعاً ﴾ دليل الجواب ولا يصح جعله جواباً من حيث الصناعة لخلوه عن ضمير يعود على من ، وقد قالوا : لا بد أن يكون في جملة الجواب ضمير يعود على اسم الشرط إذا لم

يكن ظرفاً ، والتقدير من كان يريد العزة فليطلبها من الله تعالى فلله وحده لا لغيره العزة فهو سبحانه يتصرف فيها كما يريد فوضع السبب موضع المسبب لأن الطلب ممن هي له وفي ملكه جميعها مسبب عنه ، وتعريف العزة للاستغراق بقرينة ﴿ جَمِيعاً ﴾ وانتصابه على الحال ، والمراد عزة الدنيا والآخرة ، وتقديم الخبز على المبتدأ للاختصاص كما أشرنا إليه .

(177/639)

---

ولا ينافي ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ المنافقون : 8 ] لأن ما لله تعالى وحده العزة بالذات وما للرسول صلى الله عليه وسلم العزة بواسطة قربه من الله تعالى وما للمؤمنين العزة بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكأنه للإشارة إلى ذلك أعيد الجار ، وقدر بعضهم الجواب فليطع الله تعالى ، وأيد بما رواه أنس كما في "مجمع البيان" عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن ربكم يقول كل يوم أنا العزيز فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز" ومن قدر فليطلبها من الله تعالى قال : إن الطلب منه تعالى إنما يكون بالطاعة والانقياد ، وعن الفراء المعنى من كان يريد علم العزة أي القدرة على القهر لمن هي فلينسبها إلى الله تعالى فهي له تعالى وحده ، وقيل : المعنى من كان يريد العزة أي الغلبة فهو مغلوب لأن الغلبة لله تعالى وحده ولا تتم إلا به عز وجل ونسب هذا إلى مجاهد ، وقيل : تعريف العزة

الأولى للاستغراق أيضاً أو للعهد والمراد الفرد الكامل ، والمعنى من كان يريد العزة جميعها أو الفرد الكامل منها وهي العزة التي لا يشوبها ذلة من وجه فهو لا ينالها فإنها لله تعالى وحده ، وهذا القول أحسن من القولين قبله ، وأظهر الأقوال عندي الأول وهو منسوب إلى قتادة ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ إلى آخره كالبيان لطريق تحصيل العزة وسلوك السبيل إلى نيلها وهو الطاعة القولية والفعلية ، وقيل : بيان لكون العزة كلها لله تعالى وبيده سبحانه لأنها بالطاعة وهي لا يعتد بها ما لم تقبل ، وقيل : استئناف كلام ، وعلى الأول المعول .

*(178/639)*

---

و ﴿ الكلم ﴾ اسم جنس جمعي عند جمع واحده كلمة ، والمراد بالكلم الطيب على ما في "الكشاف" و"البحر" عن ابن عباس لا إله إلا الله ، ومعنى كونه طيباً على ما قيل أن العقل السليم يستطيبه ويستلذه لما فيه من الدلالة على التوحيد الذي هو مدار النجاة والوسيلة إلى النعيم المقيم أو يستلذه الشرع أو الملائكة عليهم السلام ، وقيل : إنه حسن يقبله العقل ولا يرده ، وإطلاق الكلم على ذلك إن كان واحده الكلمة بالمعنى الحقيقي ظاهر لتضمنه عدة كلمات لكن في وصفه بالطيب بالنظر إلى غير الاسم الجليل خفاء ؛

ولعل ذلك باعتبار خصوصية التركيب ، وإن كان واحده هنا الكلمة بالمعنى المجازي كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ [ الأنعام : 115 ] ؛ و ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ [ المؤمنون : 100 ] وقوله عليه الصلاة والسلام : "أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد" وقولهم لا إله إلا الله كلمة التوحيد إلى ما لا يحصى كثرة فإطلاق الكلم على ذلك لتعدده بتعدد القائل .

وكأن القرينة على إرادة المعنى المجازي للكلمة الصادق على الكلام الوصف بالطيب بناءً على أن ما يستطيب ويستلذ هو الكلام دون الكلمة العرية عن إفادة حكم تنبسط منه النفس أو تنقبض .

أو يقال : إن كثرة إطلاق الكلمة على الكلام وشيوعه فيما بينهم حتى قال بعضهم كما نقل الحمصي في حواشي التصريح عن بعض شراح الآجرومية أنه حقيقية لغوية تغني عن القرينة ، وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والبيهقي في الأسماء والصفات عن الحبر أنه فسر الكلم الطيب بذكر الله تعالى ، وقيل : هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وهو ظاهر أثر أخرجه ابن مردويه .

والديلمي عن أبي هريرة .

وقيل : هو سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وتبارك الله ، وهو ظاهر أثر أخرجه جماعة عن ابن مسعود ، وأخرجه ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب أنه القرآن ، وقيل : هو الثناء بالخير على صالحي المؤمنين ، وقيل : هو الدعاء الذي لا ظلم فيه ، وقال الإمام وبه اقتدى : المختار أنه كل كلام هو ذكر الله تعالى أو هو لله سبحانه كالنصيحة والعلم ، وأما ما أفاده كلام الملأ صدرا في أسفاره من أنه النوس الطاهرة الزكية فإنه تطلق الكلمة على النفس إذا كانت كذلك كما قال تعالى في عيسى عليه السلام : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ [ النساء : 171 ] فلا ينبغي أن يعد في عداد أقوال المفسرين كما لا يخفى ؛ وصعود الكلم إليه تعالى مجاز مرسل عن قبوله بعلاقة اللزوم أو استعارة بتشبيه القبول بالصعود ، وجوز أن يجعل الكلم مجازاً عما كتب فيه بعلاقة الحلول أو يقدر مضاف أي إليه يصعد صحيفة الكلم الطيب أو يشبه وجوده الخارجي هنا ثم الكتابي في السماء بالصعود ثم يطلق المشبه به على المشبه ويشتق منه الفعل على ما هو المعروف في الاستعارة التبعية ، وقيل : لا مانع من اعتبار حقيقة الصعود للكلم فلله تعالى تجسيد المعاني ، وكون الصعود إليه عز وجل من المتشابه والكلام فيه شهير ، والكلام بعد ذلك

كناية عن قبوله والاعتناء بشأن صاحبه، وتقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه.

وابن مسعود رضي الله تعالى عنه.

والسلمي.

(180/639)

---

وإبراهيم ﴿ يَصْعَدُ ﴾ من أصعد الكلام الطيب بالنصب، وقال ابن عطية: وقرأ الضحاك ﴿ يَصْعَدُ ﴾ بضم الياء ولم يذكر مبنياً للفاعل ولا مبنياً للمفعول ولا إعراب ما بعده، وفي "الكشاف" وقرىء ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ على البناء للمفعول و ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ من أصعد والمصعد هو الرجل أي يصعد إلى الله عز وجل الكلم الطيب، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ﴾ من صعد الكلام بالرفع.

﴿ والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ مبتدأ وخبر على المشهور، واختلف في فاعل ﴿ يَرْفَعُ ﴾ فقيل ضمير يعود على العمل الصالح وضمير النصب يعود على ﴿ الكلم ﴾ أي والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب وروي ذلك عن ابن عباس.

والحسن .

وابن جبير .

ومجاهد .

والضحاك .

وشهر بن حوشب على ما أخرجه عنه سعيد بن منصور وغيره .

وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه فسر العمل الصالح بأداء الفرائض ثم قال : فمن ذكر الله تعالى وأدى فرائضه حمل عمله ذكر الله تعالى فصعد به إلى الله تعالى ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله وكان عمله أولى به ، وتعقب ذلك ابن عطية فقال : هذا قول يرد معتقد أهل السنة ولا يصح عن ابن عباس ، والحق أن العاصي بترك فرائضه إذا ذكر الله تعالى وقال كلاماً طيباً كتب له ذلك وتقبل منه وعليه وزر ترك الفرائض ، والله تعالى يتقبل من كل من اتقى الشرك انتهى .

ولعل المراد برفع العمل الصالح الكلم الطيب رفع قدره وجعله بحيث يترتب عليه من الثواب ما لم يترتب عليه إذا كان بلا عمل ، وحديث " لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ولا يقبل قولاً وعملاً إلا بنية ولا يقبل قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة " المذكور في "الكشاف" لا أظن صحته ، وقيل : إنه لو سلم صحته فالمراد نفي القبول التام ؛ ويجوز أن يكون المراد برفعه إياه تحقيقه وتقويته وذلك باعتبار أن الكلام الطيب هو الإيمان فإنه لا شك أن العمل الصالح يثبت الإيمان ويحققه بإظهار آثاره إذ به يعلم التصديق القلبي ، وقيل : الفاعل ضمير يعود على الكلم الطيب وضمير النصب يعود على العمل الصالح أي يرفع الكلم الطيب العمل الصالح .

ونسب أبو حيان هذا القول إلى أبي صالح .

وشهر بن حوشب ، وأيد بقراءة عيسى .

وابن أبي عبلة ﴿ والعمل الصالح ﴾ بالنصب على الاشتغال ، وفيه بحث لعدم تعين ضمير ﴿ الكلم ﴾ للفاعلية عليها ، ومعنى رفع الكلم الطيب العمل الصالح قيل أن يزيده بهجة وحسناً .

ومن فسر الكلم الطيب بالتوحيد قال : معنى ذلك جعله مقبولاً فإن العمل لا يقبل إلا بالتوحيد ، وقيل : الفاعل ضميره تعالى وضمير النصب يعود على العمل ، وأخرج ذلك ابن المبارك عن قتادة أي والعمل الصالح يرفعه الله تعالى ويقبله .

قال ابن عطية : هذا أرجح الأقوال عندي ، وقيل : ضمير الفاعل يعود على العمل وكذا الضمير المنصوب والكلام على حذف مضاف أي والعمل الصالح يرفع عامله ويشرفه ، ونسب ذلك أبو حيان إلى ابن عباس ثم قال : ويجوز عندي أن يكون ﴿ العمل ﴾ معطوفاً على ﴿ يَصْعَدُ الكلم ﴾ و﴿ يَرْفَعُهُ ﴾ استئناف أخبار أي يرفعهما الله تعالى ، ووحد الضمير لاشتراكهما في الصعود والضمير قد يجري مجرى اسم الإشارة فيكون لفظه مفرداً والمراد به التثنية فكأنه قيل : ليس صعودهما من ذاتهما بل ذلك برفع الله تعالى إياهما اه ، وهو خلاف الظاهر جداً ، ومثله ما نسبه إلى ابن عباس وأنا لا أظن صحة نسبته إليه ، وعلى التسليم يحتمل أنه رضي الله تعالى عنه أراد بقوله العمل الصالح يرفع عامله ويشرفه بيان ما تشير إليه الآية في الجملة .

والذي يتبادر إلى ذهني من الآية ما روي عن قتادة واختاره ابن عطية ، وتخصيص العمل الصالح برفع الله تعالى إياه على ذلك قيل لما فيه من الكلفة والمشقة إذ هو الجهاد الأكبر ، وظاهر هذا أن العمل أشرف من الكلام ولا كلام في ذلك إذا أريد بالعمل الصالح ما يشمل العمل القلبي كالتصديق ، ولعل الكلام عليه نظير قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاء موسى لميقاتنا ﴾ [ الأعراف : 143 ] وقوله سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ [ الإسراء : 1 ] وكلام الإمام صريح في أن الكلم الطيب المفسر بالذكر أشرف من العمل حيث جعل صعود الكلم بنفسه دليل ترجيحه على العمل الذي يرفعه غيره ، وقال في وجه ذلك : الكلام شريف فإن امتياز الإنسان عن كل حيوان بالنطق والعمل حركة وسكون يشترك فيه الإنسان وغيره والشريف إذا وصل إلى باب الملك لا يمنع ومن دونه لا يجد الطريق إلا عند الطلب ، ويدل على هذا أن الكافر إذا تكلم بكلمة الشهادة أمن من عذاب الدارين إن كان ذلك عن صدق وأمن في نفسه ودمه وحرمه في الدنيا إن كان ظاهراً ولا كذلك العمل بالجوارح ، وأيضاً أن القلب هو الأصل وما فيه لا يظهر إلا باللسان وما في اللسان لا يبين صدقه إلا بالفعل فالقول أقرب إلى القلب من الفعل فيكون أشرف منه ، اه وفي القلب منه شيء فتدبر .

﴿ والذين يَمْكُرُونَ السيئات ﴾ أي المكرات السيآت أو أصناف المكرات السيآت على أن ﴿ السيآت ﴾ صفة لمحذوف وليس مفعولاً به ليمكرون لأن مكر لازم ، وجوز أن

يكون مفعولاً على تضمين يقصدون أو يكسبون وعلى الأول فيه مبالغة للوعيد الشديد على قصد المكر أو هو إشارة إلى عدم تأثير مكرهم ، والموصول مبتدأ وجملة قوله تعالى : ﴿ والكافرون لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ خبره أي لهم بسبب مكرهم عذاب شديد لا يقادر قدره ولا يعبأ بالنسبة إليه بما يمكرون .

(184/639)

---

والآية على ما روي عن أبي العالية في الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الندوة كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [ الأنفال : 30 ] والمضارع لحكاية الحال الماضية ، ووضع اسم الإشارة موضع ضميرهم في قوله سبحانه : ﴿ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ ﴾ للإيذان بكمال تميزهم بما هم عليه من الشر والفساد عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك ، وما فيه من معنى البعد للتنبيه على ترامي أمرهم في الطغيان وبعد منزلتهم في العدوان أي ومكر أولئك المفسدين المشهورين ﴿ هُوَ يَبُورُ ﴾ أي يفسد ، وأصل البوار فرط الكساد أو الهلاك فاستعير هنا للفساد عدم التأثير لأن فرط الكساد يؤدي إلى الفساد كما قيل كسد حتى فسد أو لأن الكاسد يكسد في الغالب لفساده ولأن الهالك فاسد لا أثر له ، و ﴿ مَكَرَ ﴾ مبتدأ خبره جملة ﴿ هُوَ يَبُورُ ﴾

﴾ وتقديم الضمير للتقوى أو الاختصاص أي مكرهم هو يفسد خاصة لا مكرنا بهم ،

وأجاز الحوفي .

وأبو البقاء كون الخبر جملة ﴿ يَبُورُ ﴾ و﴿ هُوَ ﴾ ضمير فصل .

وتعقبه في "البحر" بأن ضمير الفصل لا يكون ما بعده فعلاً ولم يذهب إلى ذلك أحد فيما علمنا إلا عبد القاهر الجرجاني في شرح الإيضاح له فإنه أجاز في كان زيد هو يقوم أن يكون هو فصلاً .

ورد ذلك عليه .

(185/639)

---

وجوز أبو البقاء أيضاً كون ﴿ هُوَ ﴾ تأكيداً للمبتدأ ، والظاهر ما قدمناه ، وقد أبار الله تعالى أولئك الماكرين بعد إبارة مكرهم حيث أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر فجمع عليهم مكراتهم الثلاث التي اكتفوا في حقه عليه الصلاة والسلام بواحدة منهن وحقق عز وجل فيهم قوله سبحانه : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ الله والله خَيْرُ الماكرين ﴾ [ آل عمران : 54 ] وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [ فاطر : 43 ]

ووجه ارتباط الآية بما قبلها على ما ذكره شيخ الإسلام أنها بيان لحال الكلم الخبيث والعمل

السيء وأهلهما بعد بيان حال الكلم الطيب والعمل الصالح.

وقال في "الكشف": كأنه لما حصر سبحانه العزة وخصها به تعالى يعطيها من يشاء وأرشد إلى نيل ما به ينال ذلك المطلوب ذكر على سبيل الاستطراد حال من أراد العزة من عند غيره عز وجل وأخذ في إهانة من أعزه الله تعالى فوق السماكين قدراً وما رجع إليهم من وبال ذلك كالاستشهاد لتلك الدعوى وهو خلاصة ما ذكره الطيبي في وجه الانتظام،

وروي عن مجاهد.

وسعيد بن جبير.

وشهر بن حوشب أن الآية في أصحاب الرياء وهي متصلة بما عندها على ما روي عن شهر حيث قال: ﴿ والذين يَمْكُرُونَ ﴾ أي يراؤن ﴿ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ هم أصحاب الرياء عملهم لا يصعد، وقال الطيبي: إن الجملة على هذه الرواية عطف على جملة الشرط والجزاء أعني قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة ﴾ الخ فيجب حينئذٍ مراعاة التطابق بين القرينتين والتقابل بين الفقرتين بحسب الإمكان بأن يقدر في كل منهما ما يحصل به التقابل بدلالة المذكور في الأولى على المتروك في الأخرى وبالعكس اه ولا يخفى بعده، وأياً ما كان فالمضارع للاستمرار التجددي.

﴿ والله خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ دليل آخر على صحة البعث والنشور أي خلقكم ابتداءً منه في ضمن خلق آدم عليه السلام خلقاً إجمالياً ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي ثم خلقكم منها خلقاً تفصيلياً ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجا ﴾ أي أصنافاً ذكراناً وإناثاً كما قال سبحانه: ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وإناثا ﴾ [الشورى: 50] وأخرجه ابن أبي حاتم عن السدي، وأخرج هو وغيره عن قتادة أنه قال قدر بينكم الزوجية وزوج بعضكم بعضاً ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ حال من الفاعل ومن زائدة أي إلا ملتبسة بعلمه تعالى ومعلومية الفاعل راجعة إلى معلومية أحواله مفصلة ومنها حال ما حملته الأنثى ووضعته فجعله من ذلك أبلغ معنى وأحسن لفظاً من جعله من المفعول أعني المحمول والموضوع لأن المفعول محذوف متروك كما صرح به الزمخشري في حم السجدة، وجعله حالاً من الحمل والوضع أنفسهما خلاف الظاهر ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾ أي من أحد أي وما يمد في عمر أحد وسمي معمراً باعتبار الأول نحو ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ [يوسف: 36] ومن قتل قتيلاً على ما ذكر غير واحد وهذا لئلا يلزم تحصيل الحاصل، وجوز أن يقال لأن ﴿ يُعَمَّرُ ﴾ مضارع فيقتضي أن لا يكون معمراً بعد ولا ضرورة للحمل على الماضي ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ الضمير عائد على معمر آخر نظير ما قال ابن مالك في عندي درهم ونصفه أي نصف درهم آخر، ولا يضر في ذلك احتمال أن يكون المراد مثل نصفه لأنه مثال

وهو استخدام أو شبيه به وإلى ذلك ذهب الفراء وبعض النحويين ولعله الأظهر ، وفسروا المعمر بالمزاد عمره بدليل ما يقابله من قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُنقَصُ ﴾ الخ وهو الذي دعاهم إلى إرجاع الضمير إلى نظير المذكور دون عينه ضرورة أنه لا يكون المزيد في عمره منقوصاً من عمره ، وقيل : عليه هب أن مرجع الضمير معمر آخر أليس قد نسب النقص في العمر إلى معمر وقد

(187/639)

---

قلتم إنه المزاد عمره .

أجيب بأن الأصل وما يعمر من أحد فسمي معمراً باعتبار ما يؤول إليه وعاد الضمير باعتبار الأصل المحول عنه فمآل ذلك ولا ينقص من عمر أحد أي ولا يجعل من ابتداء الأمر ناقصاً فهو نظير قولهم ضيق فم الركية ، وقال آخرون : الضمير عائد على المعمر الأول بعينه والمعمر هو الذي جعل الله تعالى له عمراً طال أو قصر ؛ ولا مانع أن يكون المعمر ومن ينقص من عمره شخصاً واحداً والمراد بنقص عمره ما يمر منه وينقضي مثلاً يكتب عمره مائة سنة ثم يكتب تحته مضى يوم مضى يومان وهكذا حتى يأتي الخ وروي هذا عن ابن عباس .

وابن جبير .

وأبي مالك وحسان بن عطية .

والسدي ، وقيل بمعناه :

حياتك أنفاس تعد فكلما . . .

مضى نفس منها انتقصت به جزأ

وقيل الزيادة والنقص في عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت في اللوح كما ورد في الخبر الصدقة تزيد في العمر فيجوز أن يكون أحد معمراً أي مزاداً في عمره إذا عمل عملاً وينقص من عمره إذا لم يعمله ، وهذا لا يلزم منه تغيير التقدير لأنه في تقديره تعالى معلق أيضاً وإن كان ما في علمه تعالى الأزلي وقضائه المبرم لا يعتريه محو على ما عرف عن السلف ولذا جاز الدعاء بطول العمر .

وقال كعب : لو أن عمر رضي الله تعالى عنه دعا الله تعالى أخر أجله ، ويعلم من هذا أن قول ابن عطية : هذا قول ضعيف مردود يقتضي القول بالأجلين كما ذهبت إليه المعتزلة ليس بشيء ، ومن العجيب قول ابن كمال : النظر الدقيق يحكم بصحة أن المعمر أي الذي قدر له عمر طويل يجوز أن يبلغ ذلك العمر وأن لا يبلغ فيزيد عمره على الأول وينقص على الثاني ومع ذلك لا يلزم التغيير في التقدير لأن المقدر في كل شخص هو الأنفاس المعدودة لا الأيام المحدودة والأعوام الممدودة ثم قال : فافهم هذا السر العجيب وكتب في الهامش

حتى ينكشف لك سر اختيار حبس النفس ويتضح وجه صحة قوله عليه الصلاة والسلام : " إن الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار " اه .

*(188/639)*

---

وتعقبه الشهاب الخفاجي بأنه مما لا يعول عليه عاقل ولم يقل به أحد غير بعض جهلة الهنود مع أنه مخالف لما ورد في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم .

والنسائي .

وابن أبي شيبة .

وأبو الشيخ عن عبد الله بن مسعود من قول النبي صلى الله عليه وسلم لأم حبيبة وقد قالت : اللهم امتعني بزوجي النبي صلى الله عليه وسلم وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية ، سألت الله تعالى لآجال مضروبة وأيام معدودة الحديث وأطال الجلبي في رده وهو غني عنه اه .

وقال بعضهم : يجوز أن لا يبلغ من قدر له عمر طويل ما قدر له بأن يغير ما قدر أولاً بتقدير آخر ولا حجر على الله تعالى ، ويشير إلى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث التراويح " خشيت أن تفرض عليكم " وقوله صلى الله عليه وسلم في دعاء القنوت " وقنى شر ما قضيت " وخوفه عليه من الله تعالى الآف الآف صلاة وسلام من قيام الساعة إذا

اشتدت الريح مع إخباره بأن بين يديها خروج المهدي والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها إلى غير ذلك مما لم يحدث بعد ، وغاية ما يلزم من ذلك تغير المعلوم ولا يلزم منه تغير العلم على ما بين في موضعه وعلى هذا لا إشكال في خبر



---

" الصدقة تزيد في العمر " ويتضح أمر فائدة الدعاء ، وما يحكي عن بعضهم من نفي القضاء المبرم يرجع إليه ، وقد رأيت كراسة لبعض الأفاضل أطال الكلام فيها لتشييد هذا القول وتثبيت أركانه ، والحق عندي أن ما في العلم الأزلي المتعلق بالأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر لا يتغير ويجب أن يقع كما علم وإلا يلزم الانقلاب ، وما يتبادر منه خلاف ذلك إذا صح مؤول ، وخبر " الصدقة تزيد في العمر " قيل إنه خبر آحاد فلا يعارض القطعيات ، وقيل المراد أن الصدقة وكذا غيرها من الطاعات تزيد فيما هو المقصود الأهم من العمر وهو اكتساب الخير والكمال والبركة التي بها بها تستكمل النفوس الإنسانية فتفوز بالسعادة الأبدية ، والدعاء حكمه حكم سائر الأسباب من الأكل والشرب والتحفظ من شدة الحر والبرد مثلاً ففائدته كفائدتها ، وقيل هو لمجرد إظهار الاحتياج والعبودية فليتدبر .

وقيل الضمير للمعمر والنقص لغيره أي ولا ينقص من عمر المعمر لغيره بأن يعطى له عمر

ناقص من عمره ، وقيل الضمير للمنقوص من عمره وهو وإن لم يصرح به في حكم المذكور كما قيل :

وبضدها تتبين الأشياء . . .

فيكون عائداً على ما علم من السياق أي ولا ينقص من عمر المنقوص من عمره بجعله ناقصاً .

وقرأ الحسن .

وابن سيرين .

وعيسى ﴿ وَلاَ يُنقَصُ ﴾ بالبناء للفاعل وفاعله ضمير المعمر أو ﴿ عُمُرِهِ ﴾ و ﴿ مِنْ ﴾ زائدة في الفاعل وإن كان متعدياً جاز كونه ضمير الله تعالى .

وقرأ الأعرج ﴿ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ بسكون الميم ﴿ إِلاَّ فِى كتاب ﴾ عن ابن عباس هو اللوح المحفوظ ، وجوز أن يراد به صحيفة الإنسان فقد أخرج ابن المنذر .



---

وابن أبي حاتم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو بخمس وأربعين ليلة فيقول يا

رب أشقي أم سعيد أذكر أم أنثى فيقول الله تعالى ويكتب ثم يكتب عمله ورزقه وأجله وأثره ومصيبته ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد فيها ولا ينقص منها ، وجوز أيضاً أن يراد به علم الله عز وجل ، وذكر في ربط الآيات إن قوله تعالى : ﴿ والله خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ الخ مساق للدلالة على القدرة الكاملة وقوله سبحانه : ﴿ مَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى ﴾ الخ للعلم الشامل وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾ الخ لإثبات القضاء والقدر ، والمعنى وما يعمر منكم خطاباً لأفراد النوع الإنساني وأيد بذلك الوجه الأول من أوجه ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ ﴾ الخ ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ أي ما ذكر من الخلق وما بعده مع كونه محاراً للعقول والأفهام ﴿ عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ لاستغنائه تعالى عن الأسباب فكذلك البعث والنشور . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

(191/639)

---

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الله سبحانه وتعالى ، يبعث رسله بالرحمة إلى عباده ،

فيقبلها قوم ، ويأباها آخرون . فهى أشبه بالغيث ، ينزل من السماء ، فتحيا بها أماكن منها ، وتخرج الحبّ والثمر ، على حين يتحول به بعضها إلى أحراش ، تؤوي الهوام والحشرات .

وقوله تعالى : « وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ ، فَتُثِيرُ سَحاباً » هو معطوف.

(192/639)

---

على الجملة الابتدائية فى قوله تعالى : « فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ » وذلك مثل قوله تعالى : « أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ » . .

والتقدير : إن اللّه يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، وهو سبحانه الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً » واختلاف النظم فى « يَهْدِي » (بالفعل المتجدد ) « وأَرْسَلَ » (بالفعل الماضي) . . إشارة إلى أن الإرسال يسبق الآثار المترتبة عليه ، وهى الإهداء ، أو الإضلال ، والإحياء أو الإماتة . . فالإرسال سابق ، ولهذا عبّر عنه بالفعل الماضي . . والآثار المترتبة عليه ، مستمرة ، لا تنقطع ، ولهذا عبر عنه بفعل المستقبل « يهدى » .

وفى قوله تعالى « كَذلِكَ النُّشُورُ » . . إشارة إلى قضية البعث ، التي هى مبعث ارتياب المشركين ، وتكذيبهم للرسول فى كل ما يدعوهم إليه . .

وفى هذه الإشارة دليل مادىّ محسوس يشهد لإمكانية البعث ، وأنه إذا كانت الأرض

الميتة المجدبة ، ينزل عليها الماء ، فتلد هذه المواليد العجيبة ، من النبات ، والزهر ، والثمر ، فإن هذه الأرض التي أودع فى ترابها الناس ، ليس ببعيد أن ينفخ اللّه فيها نفخة الحياة ، فتخرج ما فى بطنها من آدميين ! . .

قوله تعالى : « مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً . . إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ » .

أي أن هؤلاء المشركين إنما يتخذون هذه الآلهة التي يعبدونها من دون اللّه ، ليكونوا لهم شفعاء عند اللّه ، ولينالوا بهم عزا وجاها ، كما يقول سبحانه



---

« وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا » (81 : مريم) ولقد أخطأ هؤلاء المشركون الطريق إلى العزة . . إن العزة للّه جميعا ، لا يملك أحد منها شيئا ، فمن أراد العزة ولم يلتمسها من اللّه ، فلن ينال منها شيئا . .

.وقوله تعالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ » . . إشارة إلى أن اللّه طيب لا يقبل إلا طيبا ، ولا يرد موارد عزّته إلا الطيبون . . والمشركون نجس ، وإذن فلا طريق لهم إلى اللّه ، ولا شىء لهم من العزة التي هى ملك يمينه . .

وأنهم إذا أرادوا أن يأخذوا طريقهم إلى اللّه ، وإلى العزة التي بين يديه ، فليتطهروا من شركهم ، وليؤمنوا باللّه ، وبغير الإيمان باللّه لن يكون لهم طريق إلى اللّه . . فالكلم الطيب هو كلمة التوحيد : « لا إله إلا اللّه » وقوله تعالى : « وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » .إشارة إلى الإيمان باللّه يقيم صاحبه على أول الطريق إلى اللّه ، ثم تكون الأعمال الصالحة التي تقوم وراء الإيمان هى التي ترفع صاحبها إلى اللّه ، وتدنيه منه . . فإن الإيمان .مجرد الإيمان .دون عمل صالح ، هو خير معطل ، أشبه بالنبتة الصالحة فى الأرض الطيبة ، لا يصيبها ماء ! فإذا أصابها الماء اهتزت لها الأرض وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . .

« فالعمل الصالح » يزكى الإيمان ، وينميه ، ويثبت دعائمه ، ويرفع بنيانه وقوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ » . .

مكر السيئات : تدبيرها ، والاحتيال فى التمكين لها .

وفى هذا تهديد للمشركين الذي يغرسون فى مغارس السوء ، ويعملون فى مجال الضلال ، إنهم لا يجنون من غرسهم هذا إلا أنكد الثمر وأخبثه . . إنه العذاب الشديد فى الآخرة ، والحسرة والوبال فى الدنيا . .

وفى قوله تعالى « وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ » حكم قاطع على هذا المكر السيّء الذي يمكره المشركون بالنبي وبدعوته ، بأنه إلى بوار وضياع ، لا ينالون به من الذين يمكرون به ، وهو هذا الدين الذين يدعون إليه ـ لا ينالون منه منالا ، بل سيبطل اللّه مكرهم به ، ويكتب لهذا الدين الغلب والنصر ، ولأهله العزة والتمكين . .

قوله تعالى : «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» هو عرض لبعض سلطان اللّه ، وقدرته ، وأن له سبحانه العزة جميعا . .

فهو ـ سبحانه ـ بقدرته ، خلق الناس من هذا التراب الهامد . فهذا التراب هو الأصل الذي تخلقت منه النطف ، التي تخلّق منها الأجنة فى بطون الأمهات ، ومن الأجنّة كانت المواليد ، وكان الناس . .

وهذا التراب ، الذي يبدو أنه أصل أول فى خلق الإنسان ، هو فى حقيقته ، قد مرّ فى أطوار كثيرة ، حتى صار هذا التراب . . تماما كما مر الإنسان فى أطوار الخلق ، من النطفة إلى العلقة ، إلى المضغة . . إلى آخر ما هنا لك من صور وأطوار فى الخلق .

ـ وفى قوله تعالى : « ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً » إشارة إلى تنويع خلق الإنسان ، فكان منه الذكر والأنثى . . كما يقول سبحانه وتعالى : « أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى » (37 ـ 39 : القيامة)

.وفى قوله تعالى : « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ . . إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » .إشارة إلى أن قدرة اللّه سبحانه وتعالى ، ليست واقفة عند هذا الحد من خلق هذا الإنسان من تراب ، بل إن تلك القدرة قائمة على كل مخلوق ، قبل خلقه ، وبعد خلقه ، وفى كل لحظة من لحظات وجوده وقبل وجوده . . فما تحمل من أنثى من حمل ، ولا تضع من مولود ، إلا وعلم اللّه قائم عليه ، محيط به ، ومقدر له العمر الذي يلبسه فى هذه الحياة ، من طول أو قصر . . فهذا كله فى كتاب مبين ، كتبه اللّه بعلمه ، وأودعه فى كتاب مبين ، هو اللوح المحفوظ . .

والنقص من العمر ، ليس نقصا فى العمر المقدّر فى كتاب اللّه للكائن الحي ، وإنما هو نقص بالإضافة إلى من طال عمره . . فالذى قدر له أن يعيش أياما ، أو شهورا ، أو بضع سنين ، إنما يعيش هذا العمر المقدر له فى علم اللّه ، والمسطور فى كتابه ، وهذا العمر ، هو عمر يبدو ناقصا بالنسبة لمن يعيش عشرات السنين . . أما عمره فلم ينقص منه شىء . .

وذلك كله يسير على اللّه ، الذي لا يئوده حفظ هذا الوجود ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿

التفسير القرآنى للقرآن حـ 11 صـ 857 . 861 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾

لما قدم في أول السورة الاستدلال بأن الله فطر السماوات والأرض وما في السماوات من أهلها وذلك أعظم دليل على تفرده بالإلهية ثنّي هنا بالاستدلال بتصريف الأحوال بين السماء والأرض وذلك بإرسال الرياح وتكوين السحاب وإنزال المطر ، فهذا عطف على قوله : ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ [ فاطر : 1 ] .

وإظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار دون أن يقول وهو الذي أرسل الرياح فيعود الضمير إلى اسم الله من قوله : ﴿ إن الله عليم بما يصنعون ﴾ [ فاطر : 8 ] .

واختير من دلائل الوحدانية دلالة تجمع أسباب المطر ليفضي من ذلك إلى تنظير إحياء الأموات بعد أحوال الفناء بآثار ذلك الصنع العجيب وأن الذي خلق وسائل إحياء الأرض قادر على خلق وسائل إحياء الذين ضمنتهم الأرض على سبيل الإدماج .

وإذ قد كان القصد من الاستدلال هو وقوع الإحياء وتقرر وقوعه جيء بفعل الماضي في قوله : ﴿ أرسل ﴾ .

وأما تغييره إلى المضارع في قوله : ﴿ فتثير سحاباً ﴾ فلحكاية الحال العجيبة التي تقع فيها إثارة الرياح السحابَ وهي طريقة للبلغاء في الفعل الذي فيه خصوصية بحال تستغرب وتهم السامع .

وهو نظير قول تأبط شرًّا:

بأني قد لَقيت الغول تهوي . . .

بسَهب كالصحيفة صَحْصَحان

فأَضربُها بلا دهش فخرت . . .

صريعاً لليدين وللجِرَان

فابتدأ بـ ( لقيت ) لإِفادة وقوع ذلك ثم ثنى بـ ( أضربها ) لاستحضار تلك الصورة العجيبة من إقدامه وثباته حتى كأنهم يبصرونه في تلك الحالة .

ولم يؤت بفعل الإِرسال في هذه الآية بصيغة المضارع بخلاف قوله في سورة الروم ( 48 ) ﴿ الله الذي يرسل الرياح ﴾ الآية لأن القصد هنا استدلال بما هو واقع إظهاراً لإِمكان نظيره وأما آية سورة الروم فالمقصود منها الاستدلال على تجديد صنع الله ونعمه .

والقول في الرياح والسحاب تقدم غير مرة أولاها في سورة البقرة .

وفي قوله: فسقناه ﴾ بعد قوله: ﴿ الله الذي أرسل الرياح ﴾ التفاوت من الغيبة إلى التكلم.

وقوله: ﴿ كذلك النشور ﴾ سبيله سبيل قوله: ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق ﴾ [ فاطر: 5 ] الآيات من إثبات البعث مع تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عنه، إلا أن ما قبله كان مأخوذاً من فحوى الدلالة لما ظهرت في برهان صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به من توحيد أخذ من طريق دلالة التقريب لوقوع البعث إذ عسر على عقولهم تصديق إمكان الإعادة بعد الفناء ليحصل من بارقة صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وبارقة الإمكان ما يسوق أذهانهم إلى استقامة التصديق بوقوع البعث.

والإشارة في قوله: ﴿ كذلك النشور ﴾ إلى المذكور من قوله: ﴿ فأحيينا به الأرض ﴾.

والأظهر أن تكون الإشارة إلى مجموع الحالة المصورة، أي مثل ذلك الصنع المحكم المتقن نصنع صنعاً يكون به النشور بأن يهيىء الله حوادث سماوية أو أرضية أو مجموعة منهما حتى إذا استقامت آثارها وتهيأت أجسام لقبول أرواحها أمر الله بالنفخة الأولى والثانية فإذا الأجساد قائمة ماثلة نظير أمر الله بنفخ الأرواح في الأجنة عند استكمال تهيئها لقبول

الأرواح.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم تقريب ذلك بمثل هذا مما رواه أحمد وابن أبي شيبة وقريب منه في "صحيح مسلم" عن عروة بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم " قيل لرسول الله: كيف يُحْيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ فقال: هل مررتَ بوادٍ أُهِلْك مَمحلاً ثم مررتَ به يهتزُ خَضِراً؟ قيل: نعم.

قال: فكذلك يَحيِي الله الموتى وتلك آيته في خلقه".

وفي بعض الروايات عن أبي رزين العقيلي أن السائل أبو رزين.

وقرأ الجمهور ﴿ الرياح ﴾ بصيغة الجمع.

وقرأ حمزة والكسائي "الريح" بالإفراد، والمعرّف بلام الجنس يستوي فيه المفرد والجمع.

*(198/639)*

---

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ

مضى ذكر غرورين إجمالاً في قوله تعالى: ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ [فاطر: 5]، ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ [فاطر: 5] فأُخذ في تفصيل الغرور الثاني من قوله تعالى: ﴿ إن الشيطان لكم عدو ﴾ [فاطر: 6] وما استتبعه من التنبيه على أَحجار كيده

وانبعاث سموم مكره والحذرِ من مَصارع متابعته وإبداء الفرق بين الواقِعين في حبائله والمعافَيْن من أدوائه ، بدارا بتفصيل الأهم والأصلِ ، وأبقى تفصيل الغرور الأول إلى هنا .

وإذ قد كان أعظم غرور المشركين في شركهم ناشئاً عن قبول تعاليم كبرائهم وسادتهم وكان أعظم دواعي القادة إلى تضليل دهمائهم وصنائعهم ، هو ما يجدونه من العزة والافتنان بحب الرئاسة فالقادة يجلبون العزة لأنفسهم والأتباعُ يعتزُّون بقوة قادتهم ، لا جرم كانت إرادة العزّة مِلاكَ تكاتف المشركين بعضهم مع بعض ، وتألبهم على مناوأة الإِسلام ، فوُجّه الخطاب إليهم لكشففِ اغترارهم بطلبهم العزة في الدنيا ، فكل مستمسك بحبل الشرك معرضٌ عن التأمل في دعوة الإِسلام ، لا يُمَسّكه بذلك إلا إرادة العزة ، فلذلك نادى عليهم القرآن بأن من كان ذلك صارفَه عن الدين الحق فليعلم بأن العزة الحق في اتباع الإِسلام وأن ما هم فيه من العزة كالعدم .

و﴿ مَن ﴾ شرطية ، وجعل جوابها ﴿ فلله العزة جميعاً ﴾ ، وليس ثبوت العزة لله بمرتب في الوجود على حصول هذا الشرط فتعين أن ما بعد فاء الجزاء هو علة الجواب أقيمت مُقامه واستُغني بها عن ذكره إيجازاً ، وليحصل من استخراجه من مطاوي الكلام تقرُّره في ذهن السامع ، والتقديرُ : من كان يريد العذاب فليستجبْ إلى دعوة الإِسلام ففيها العزة لأن العزة كلها لله تعالى ، فأما العزة التي يتشبثون بها فهي كخيط العنكبوت لأنها واهية بالية .

وهذا أسلوب متبع في المقام الذي يراد فيه تنبيه المخاطب على خطأ في زعمه كما في قول الربيع بن زياد العبسي في مقتل مالك بن زهير العبسي:

من كان مسروراً بمقتل مالك . . .

فليأتِ نسوتنا بوجه نهار

يجد النساء حواسراً يندُبْنَه . . .

بالليل قبل تبلُّج الإسفار

أراد أن من سَرَّه مقتل مالك فلا يتمتع بسروره ولا يحسب أنه نال مبتغاه لأنه إن أتى ساحة نسوتنا انقلب سروره غمّاً وحزناً إذ يجد دلائل أخذ الثأر من قاتِله بادية له ، لأن العادة أن القتيل لا يندبه النساء إلا إذا أُخذ ثأره .

هذا ما فسره المرزوقي وهو الذي تلقيتُه عن شيخنا الوزير وفي البيتين تفسير آخر .

وقد يكون بالعكس وهو تثبيت المخاطب على علمه كقوله تعالى : ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآتٍ ﴾ [ العنكبوت : 5 ] .

وقريب من هذا الاستعمال ما يقصد به إظهار الفرق بين من اتصف بمضمون الشرط ومن

اتصف بمضمون الجزاء كقول النابغة:

فمن يكن قد قضى من خُلّةٍ وطراً . . .

فإني منككِ ما قضَّيْتُ أوطاري

وقول ضابىء بن الحارث:

ومن يك أمسى بالمدينة رَحله . . .

فإني وَقَيَّار بها لغريب

وقول الكلابي:

فمن يُكلَم يَغْرَضْ فإني ونَاقتي . . .

بحَجْرٍ إلى أهل الحِمى غَرِضَان

فتقديم المجرور يفيد قصراً وهو قصر ادعائي ، لعدم الاعتداد بما للمشركين من عزة ضئيلة ، أي فالعزة لله لا لهم .

ومنه ما يكون فيه ترتيب الجواب على الشرط في الوقوع ، وهو الأصل كقوله تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء ﴾ [ الإسراء : 18 ] الآية ، وقوله : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ﴾ [ هود : 15 ] .

و﴿ جميعاً ﴾ أفادت الإحاطة فكانت بمنزلة التأكيد للقصر الادعائي فحصلت ثلاثة مؤكدات ؛ فالقصر بمنزلة تأكيدين و ﴿ جميعاً ﴾ بمنزلة تأكيد .

وهذا قريب من قوله ﴿ أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ [ النساء : 139 ] فإن فيه تأكيدين : تأكيداً بـ ( إنّ ) وتأكيداً بـ ﴿ جميعاً ﴾ لأن تلك الآية نزَلت في وقت قوة الإِسلام فلم يحتج فيها إلى تقوية التأكيد .

وتقدم الكلام على ﴿ جميعاً ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ﴾ في سورة سبأ ( 40 ) .

وانتصب جميعاً ﴾ على الحال من ﴿ العزة ﴾ وكأنه فعيل بمعنى مفعول ، أي العزة كلها لله لا يَشذ شيء منها فيثبتُ لغيره ، لأن العزة المتعارفة بين الناس كالعدم إذ لا يخلو صاحبها من احتياج ووهن والعزة الحق لله .

وتعريف ﴿ العزة ﴾ تعريف الجنس .

والعزة : الشرف والحصانة من أن ينال بسوء .

فالمعنى : من كان يريد العزة فانصرف عن دعوة الله إبقاء على ما يخاله لنفسه من عزة فهو مخطىء إذ لا عزة له فهو كمن أراق ماء للمع سراب .

والعزة الحق لله الذي دعاهم على لسان رسوله .

وعزة المولى ينال حِزبَه وأولياءَه حظ منها فلو اتبعوا أمر الله فالتحقوا بحزبه صارت لهم عزة الله وهي العزة الدائمة ؛ فإن عزة المشركين يعقبها ذلّ الانهزام والقتل والأسر في الدنيا وذلّ الخزي والعذاب في الآخرة ، وعزة المؤمنين في تزايد الدنيا ولها درجات كمال في الآخرة .

﴿ العزة جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل ﴾ .

كما أتبع تفصيل غرور الشيطان بعواقبه في الآخرة بقوله : ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ [ فاطر : 6 ] الآية ، وبذكر مقابل عواقبه من حال المؤمنين ، كذلك أتبع تفصيل غرور الأنفس أهلها بعواقبه وبذكر مقابله أيضاً ليلتقيَ مآلُ الغرورين ومقابلهما في ملْتقىً واحدٍ ، ولكن قدم في الأول عاقبة أهل الغرور بالشيطان ثم ذُكرت عاقبة أضدادهم ، وعكس في ما هنا لجريان ذكر عزة الله فقدم ما هو المناسب لآثار عزة الله في حزبه وجنده .

وجملة ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً بمناسبة تفصيل الغرور الذي يوقع فيه .

والمقصود أن أعمال المؤمنين هي التي تنفع ليعلم الناس أن أعمال المشركين سعي باطل .

والقربات كلُّها ترجع إلى أقوال وأعمال ، فالأقوال ما كان ثناء على الله تعالى واستغفاراً ودعاء ، ودعاء الناس إلى الأعمال الصالحة .

وتقدم ذكرها عند قوله تعالى : ﴿ وقولوا قولاً سديداً ﴾ في سورة الأحزاب ( 70 ) .

والأعمال فيها قربات كثيرة .

وكان المشركون يتقربون إلى أصنامهم بالثناء والتمجيد كما قال أبو سفيان يوم أحد : اعْلُ هُبَل ، وكانوا يتحنثون بأعمال من طواف وحج وإغاثة ملهوف وكان ذلك كله مشوباً بالإِشراك لأُنهم ينوون بها التقرب إلى الآلهة فلذلك نصبوا أصناماً في الكعبة وجعلوا هُبَل وهو كبيرهم على سطح الكعبة ، وجعلوا إِسافاً ونائلة فوق الصفا والمروة ، لتكون مناسكهم لله مخلوطة بعبادة الآلهة تحقيقاً لمعنى الإِشراك في جميع أعمالهم .

فلما قدم المجرور من قوله : إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ أفيد أن كل ما يقدم من الكلم الطيب إلى غير الله لا طائل تحته .

وأما قوله : ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ ف ﴿ العمل ﴾ مقابل ﴿ الكلم ﴾ ، أي الأفعال التي ليست من الكلام ، وضمير الرفع عائد إلى معاد الضمير المجرور في قوله : ﴿ إليه ﴾ وهو اسم الجلالة من قوله ﴿ فلله العزة جميعاً ﴾ .

والضمير المنصوب من ﴿ يرفعه ﴾ عائد إلى ﴿ العمل الصالح ﴾ أي الله يرفع العمل

الصالح.

والصعود: الإِذهاب في مكان عال.

والرفع: نقل الشيء من مكان إلى مكان أعلى منه، فالصعود مستعار للبلوغ إلى عظيم القدر وهو كناية عن القبول لديه.

والرفع: حقيقته نقل الجسم من مقرّه إلى أعلى منه وهو هنا كناية للقبول عند عظيم، لأن العظيم تتخيله التصورات رفيع المكان.

فيكون كلٌّ من (يَصعد) و (يرفعُ) تبعتيْن قرينتي مكنية بأَن شُبه جانب القبول عند الله تعالى بمكان مرتفع لا يصله إلا ما يصعد إليه.

(202/639)

---

فقوله: ﴿ العمل ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ يرفعه ﴾، وفي بناء المسند الفعلي على المسند إليه ما يفيد تخصيص المسند إليه بالمسند، فإذا انضم إليه سياق جملته عقب سياق جملة القصر المشعرُ بسريان حكم القصر إليه بالقرينة لاتحاد المقام إذ لا يتوهم أن يقصر صعود الكلم الطيب على الجانب الإِلهي ثم يجعل لغيره شركة معه في رفع العمل الصالح، تعين معنى التخصيص، فصار المعنى: الله الذي يقبل من المؤمنين أقوالهم وأعمالهم الصالحة.

وإنما جيء في جانب العمل الصالح بالإخبار عنه بجملة ﴿ يرفعه ﴾ ولم يعطف على ﴿ الكلم الطيب ﴾ في حكم الصعود إلى الله مع تساوي الخبرين لفائدتين:

أولاهما : الإيماء إلى أن نوع العمل الصالح أهم من نوع الكلم الطيب على الجملة لأن معظم العمل الصالح أوسع نفعاً من معظم الكلم الطيب ( عدا كلمة الشهادتين وما ورد تفضيله من الأقوال في السنة مثل دعاء يوم عرفة ) فلذلك أسند إلى الله رفعه بنفسه كقول النبي صلى الله عليه وسلم " من تصدّق بصدقة من كسب طيّب ولا يقبل الله إلا طيباً تلقّاها الرحمان بيمينه ، وكلتا يديه يمين ، فيربيها له كما يربّي أحدكم فُلُوَّه حتى تصير مثل الجبل " .

وثانيهما : أن الكلم الطيب يتكيف في الهواء فإسناد الصعود إليه مناسب لماهيته ، وأما العمل الصالح فهو كيفيات عارضة لذوات فاعلة ومفعولة فلا يناسبه إسناد الصعود إليه وإنما يحسن أن يجعل متعلقاً لرفع يقع عليه ويسخره إلى الارتفاع .

﴿ الصالح يَرْفَعُهُ والذين يَمْكُرُونَ السيئات لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أولئك ﴾ .

هذا فريق من الذين يريدون العزة من المشركين وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ [ الأنفال : 30 ] الآية قاله أبو العالية فعطفهم على ﴿ من كان يريد العزة ﴾ تخصيص لهم بالذكر لما اختصوا به من تدبير المكر .

وهو من عطف الخاص على العام للاهتمام بذكره .

والمكر : تدبيرُ إلحاقِ الضر بالغير في خفية لئلا يأخذ حذره ، وفعله قاصر .

وهو يتعلق بالمضرور بواسطة الباء التي للملابسة ، يقال : مكر بفلان ، ويتعلق بوسيلة المكر بباء السببية يقال : مكر بفلان بقتله ؛ فانتصاب ﴿ السيئات ﴾ هنا على أنه وصف لمصدر المكر نائباً مناب المفعول المطلق المبيِّن لنوع الفعل فكأنه قيل والذين يمكرون المكر السيِّىء .

وكان حقّ وصف المصدر أن يكون مفرداً كقوله تعالى : ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ [ فاطر : 43 ] فلما أريد هنا التنبيه على أن أولياء الشيطان لهم أنواع من المكر عُدل عن الإِفراد إلى الجمع وأتي به جمع مؤنث للدلالة على معنى الفَعَلاَت من المكر ، فكل واحدة من مكرهم هي سيئة ، كما جاء ذلك في لفظ ( صالحة ) كقول جرير :

كيف الهجاء وما تنفك صالحة . . .

من آل لأم بظهر الغيب تأتيني

أي صالحات كثيرة ، وأنواع مكراتهم هي ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ [ الأنفال : 30 ] .

والتعريف في ﴿ السيئات ﴾ تعريف الجنس .

وجيء باسم الموصول للإِيماء إلى أن مضمون الصلة علّة فيما يرد بعدها من الحكم ، أي لهم عذاب شديد جزاء مكرهم .

وعبر بالمضارع في الصلة للدلالة على تجدد مكرهم واستمراره وأنه دَأْبهم وهِجّيراهم .

ولما توعدهم الله بالعذاب الشديد على مكرهم أنبأهم أن مكرهم لا يروج ولا ينفِق وأن الله سيبطله فلا ينتفعون منه في الدنيا ، ويضرون بسببه في الآخرة فقال ﴿ ومكر أولئك هو يبور ﴾ .

وعبر عنهم باسم الإِشارة دون الضمير الذي هو مقتضى الظاهر لتمييزهم أكمل تمييز ، فيكنى بذلك عن تمييز المكر المضاف إليهم ووضوحه في علم الله وعلم رسوله صلى الله عليه وسلم بما أعلمه الله به منه ، فكأنما أشير إليهم وإلى مكرهم باسم إشارة واحد على سبيل الإِيجاز .

والضمير المتوسط بين ﴿ مكر أولئك ﴾ وبين ﴿ يبور ﴾ ضمير فصل إذ لا يحتمل غيره .

ومثله قوله تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ [ التوبة : 104 ] .

والراجح من أقوال النحاة قول المازني : إن ضمير الفصل يليه الفعل المضارع ، وحجته قوله : ﴿ ومكر أولئك هو يبور ﴾ دون غير المضارع ، ووافقه عبد القاهر الجرجاني في "شرح الإِيضاح" لأبي على الفارسي ، وخالفهما أبو حيان وقال : لم يذهب أحد إلى ذلك فيما علمنا .

وأقول : إن وجه وقوع الفعل المضارع بعد ضمير الفصل أن المضارع يدل على التجدد فإذا اقتضى المقام إرادة إفادة التجدد في حصول الفعل من إرادة الثبات والدوام في حصول النسبة الحكمية لم يكن إلى البليغ سبيل للجمع بين القصدين إلا أن يأتي بضمير الفصل ليفيد الثبات والتقوية لتعذر إفادة ذلك بالجملة الإسلامية .

وقد تقدم القول في ذلك عند قوله : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ [ البقرة : 5 ] ، فالفصل هنا يفيد القصر ، أي مكرهم يبور دون غيره ، ومعلوم أن غيره هنا تعريض بأن الله يمكر بهم مكراً يصيب المحزّ منهم على حد قوله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ [ آل عمران : 54 ] .

والبوار حقيقته : كساد التجارة وعدم نَفاق السلعة ، واستعير هنا لخيبة العمل بوجه الشبه بين ما دبروه من المكر مع حرصهم على إصابة النبي صلى الله عليه وسلم بضرّ وبين ما ينمّقه التاجر وما يخرجه من عيابه ويرصفه على مِبْنَاتِه وسط اللَّطِيمة مع السلع لاجتلاب

شَرَه المشترين .

ثم لا يُقبِل عليه أحد من أهل السوق فيرجع من لطيمته لطيمَ كف الخيبة ، فارغ الكف والعيبة .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا

هذا عود إلى سوق دلائل الوحدانية بدلالة عليها من أنفس الناس بعد أن قدم لهم ما هو من دلالة الآفاق بقوله : ﴿ والله الذي أرسل الرياح ﴾ [ فاطر : 9 ] .

*(205/639)*

---

فهذا كقوله : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ [ فصلت : 53 ] وقوله : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [ الذاريات : 21 ] فابتدأهم بتذكيرهم بأصل التكوين الأول من تراب وهو ما تقرر علمُه لدى جميع البشر من أن أصلهم وهو البشر الأول ، خلق من طين فصار ذلك حقيقة مقررة في علم البشر وهي مما يعبر عنه في المنطق "بالأصول الموضوعة" القائمة مقام المحسوسات .

ثم استدرجهم إلى التكوين الثاني بدلالة خلق النسل من نطفة وذلك علم مستقر في النفوس بمشاهدة الحاضر وقياس الغائب على المشاهد ، فكما يجزم المرء بأن نسله خلق من نطفته

يجزم بأنه خلق من نطفة أبوية ، وهكذا يصعد إلى تخلق أبناء آدم وحواء .

والنطفة تقدمت عند قوله تعالى : ﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ﴾ في سورة الكهف ( 37 ) .

وقوله : ثم جعلكم أزواجاً ﴾ يشير إلى حالة في التكوين الثاني وهو شرطه من الازدواج.

ف ﴿ ثم ﴾ عاطفة الجملةَ فهي دالة على الترتيب الرتبي الذي هو أهمّ في الغرض أعني دلالة التكوين على بديع صنع الخالق سبحانه فذلك موزع على مضمون قوله : ﴿ ثم من نطفة ﴾ .

والمعنى : ثم من نطفة وقد جعلكم أزواجاً لتركيب تلك النطفة ، فالاستدلال بدقة صنع النوع الإِنساني من أعظم الدلائل على وحدانية الصانع .

وفيها غُنية عن النظر في تأمل صنع بقية الحيوان .

والأزواج : جمع زوج وهو الذي يصير بانضمام الفرد إليه زوجاً ، أي شفعاً ، وقد شاع إطلاقه على صنف الذكور مع صنف الإِناث لاحتياج الفرد الذكر من كل صنف إلى أنثاه من صنفه والعكس .

﴿ جَعَلَكُمْ أزواجا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى وَلاَ تَضَعُ ﴾ .

بعد الاستدلال بما في بدء التكوين الثاني من التلاقح بين النطفتين استدل بما ينشأ عن ذلك من الأطوار العارضة للنطفة في الرحم وهو أطوار الحمل من أوله إلى الوضع .

وأدمج في ذلك دليل التنبيه على إحاطة علم الله بالكائنات الخفية والظاهرة، ولكون العلم بالخفيّات أعلى قُدّم ذكر الحمل على ذكر الوضع، والمقصود من عطف الوضع أن يدفع توهم وقوف العلم عند الخفيّات التي هي من الغيب دون الظواهر بأن يشتغل عنها بتدبير خفيّاتها كما هو شأن عظماء العلماء من الخلق، لظهور استحالة توجه إرادة الخلق نحو مجهول عند مُريده.

والاستثناء مفرغ من عموم الأحوال.

والباء للملابسة.

والمجرور في موضع الحال.

﴿ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى ﴾.

لا جرم أن الحديث عن التكوين يستتبع ذكر الموت المكتوب على كل بشر فجاء بذكر علمه الآجال والأعمار للتنبيه على سعة العلم الإلهي.

والتعمير: جعل الإنسان عامراً، أي باقياً في الحياة، فإن العَمر هو مدة الحياة يقال: عَمِر فلان كفرح ونصر وضرب، إذا بقي زماناً، فمعْنى عمّره بالتضعيف: جعله باقياً مدة

زائدة على المدة المتعارفة في أعمار الأجيال ، ولذلك قوبل بالنقص من العمر ، ولذلك لا يوصف بالتعمير صاحبه إلا بالمبني للمجهول فيقال : عُمِّر فلان فهو معمَّر .

وقد غلب في هذه الأجيال أن يكون الموت بين الستين والسبعين فما بينهما ، فهو عُمر متعارف ، والمعمّر الذي يزيد عمره على السبعين ، والمنقوص عمره الذي يموت دون الستين .

ولذلك كان أرجح الأقوال في تعمير المفقود عند فقهاء المالكية هو الإبلاغ به سبعين سنة من تاريخ ولادته ووقع القضاء في تونس بأنه ما تجاوز ثمانين سنة ، قالوا : لأن الذين يعيشون إلى ثمانين سنة غير قليل فلا ينبغي الحكم باعتبار المفقود ميتاً إلا بعد ذلك لأنه يترتب عليه الميراث ولا ميراث بشك ، ولأنه بعد الحكم باعتباره ميتاً تزوج امرأته ، وشرط صحة التزوج أن تكون المرأة خلية من عصمة ، ولا يصح إعمال الشرط مع الشك فيه .

وهو تخريج فيه نظر .

(207/639)

---

وضمير ﴿ من عمره ﴾ عائداً إلى ﴿ معمر ﴾ على تأويل ﴿ معمَّر ﴾ بـ ( أحد ) كأنه قيل : وما يُعَمَّر من أحد ولا ينقص من عمره ، أي عمر أحد وآخر .

وهذا كلام جار على التسامح في مثله في الاستعمال واعتماداً على أن السامعين يفهمون المراد كقوله تعالى : ﴿ وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصي بها أو دين ﴾ [ النساء : 12 ] لظهور أنه لا ينقلب الميت وارثاً لمن قد ورثه ولا وارث ميتاً موروثاً لوارثه .

والكتاب كناية عن علم الله تعالى الذي لا يغيب عنه معلوم كما أن الشيء المكتوب لا يزاد فيه ولا ينقص ، ويجوز أن يجعل الله موجودات هي كالكتب تسطر فيها الآجال مفصلة وذلك يسير في مخلوقات الله تعالى .

ولذلك قال : ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ أي لا يلحقه من هذا الضبط عُسر ولا كدّ .

وقد ورد هنا الإشكال العام الناشىء عن التعارض بين أدلة جريان كل شيء على ما هو سابق في علم الله في الأزل ، وبين إضافة الأشياء إلى أسباب وطلب اكتساب المرغوب من تلك الأسباب واجتناب المكروه منها فكيف يثبت في هذه الآية للأعمار زيادة ونقص مع كونها في كتاب وعلم لا يقبل التغيير ، وكيف يرغَّب في الصدقة مثلاً بأنها تزيد في العمر ، وأن صلة الرحم تزيد في العمر .

والمَخْلص من هذا ونحوه هو القاعدة الأصلية الفارقة بين كون الشيء معلوماً لله تعالى وبين كونه مراداً ، فإن العلم يتعلق بالأشياء الموجودة والمعدومة ، والإرادة تتعلق بإيجاد الأشياء على وفق العلم بأنها توجد ، فالناس مخاطبون بالسعي لما تتعلق به الإِرادة فإذا تعلقت الإِرادة بالشيء علمنا أن الله علم وقوعه ، وما تصرفات الناس ومساعيهم إلا أمارات على ما علمه الله لهم ، فصدقة المتصدق أمارة على أن الله علم تعميره ، والله تعالى يظهر معلوماته في مظاهر تكريم أو تحقير ليتم النظام الذي أسس الله عليه هذا العالم ويلتئم جميع ما أراده الله من هذا التكوين على وجوه لا يخلّ بعضها ببعض وكل ذلك مقتضى الحكمة العالية .

ولا مَخلص من هذا الإِشكال إلا هذا الجواب وجميع ما سواه وإن أقنعَ ابتداءً فمآله إلى حيث ابتدأ الإِشكال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 ص ﴾

(209/639)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلا فِي كِتَابٍ ﴾

الضمير في قوله: ﴿ عُمُرِهِ ﴾ يظهر رجوعه إلى المعمَّر فيشكل معنى الآية لأن المعمَّر والمنقوص من عمره ضدان فيظهر تنافي الضمير ومفسره .

الجواب: أن المراد بالعمَّر هنا جنس المعمَّر الذي هو مطلق الشخص فيصدق بالذي لم ينقص من عمره وبالذي نقص من عمره فصار المعنى: لا يزاد في عمر شخص ولا ينقص من عمر شخص إلا في كتاب الله وهذه المسألة هي المعروفة عند العلماء العربية بمسألة عندي درهم ونصفه أي نصف درهم آخر .

قال ابن كثير في تفسيره: "الضمير عائد على الجنس لا على العين لأن طويل العمر في الكتاب وفي علم الله لا ينقص من عمره إنما عاد الضمير على الجنس" .

انتهى منه . انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 246 ﴾

*(210/639)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ )

أجرى سُنَّتَه بأنه يُظْهِرُ فَضْلَه في إحياء الأرض بالتدريج ؛ فأولاً يرسل الرياح ثم يأتي بالسحاب ، ثم يوجّه ذلك السحاب إلى الموضع الذي له تخصيصاً كيف يشاء ، ويُمْطِرُ هناك كيف يشاء . كذلك إذا أراد إحياءَ قلبِ عبدٍ بما يسقيه وينزل عليه من أَمطار عنايته ، فيُرْسِلُ أولاً رياحَ الرجاء ، ويزعج بها كوامنَ الإرادة ، ثم ينشىء فيها سُحُبَ الاهتياج ، ولوعةَ الانزعاج ، ثم يجود بمطرٍ يُنْبِتُ في القلب أزهارَ البَسْطِ ، وأَنوارَ الرَّوْح ، فيطيب لصاحِبه العَيْشُ إلى أن تَمَّ لطائفُ الأُنْسِ .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا

مَنْ كان يريد العزة بنفسه فَلْيَعْلَمْ أَنَّ العزةَ بجملتها لله ، فليس للمخلوق شيءٌ من العِزَّة .

ويقال مَنْ كان يريد العزةَ لنفسه فلله العِزَّةُ جميعاً ، أي فليطلبها من الله ، وفي آية أخرى أثبت العزةَ للهِ ولرسوله وللمؤمنين ، وقال ها هنا ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ ؛ وَوَجْهُ الجميع بينها أن عِزَّ الربوبية لله وَصْفاً ، وعزَّ الرسول ، وعزّ المؤمنين لهم فضلاً من الله ولطفاً ؛ فإذاً العِزَّةُ لله جميعاً . وعزُّه سبحانه – قُدْرتُه . أو ويقال العزيز هو القاهر الذي لا يُقْهَرُ ؛ فيكون من صفات فعله على أول القولين . . ومن صفات ذاته على القول الآخر . ويقال العزيز هو الذي لا يُوصَلُ إليه مِنْ قولِهم : أرضٌ عَزازٌ إذا لم تستقر عليها الأقدام ، فيرجع معناه إلى جلال سلطانه .

ويقال العزيز الذي لا مِثْلَ له ؛ من قولهم : عَزَّ الطعام في اليد . فيرجع إلى استحقاقه لصفات المجد والعلو .

(211/639)

---

قوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ : الكلم الطيب هو الصادر عن عقيدةٍ طيبةٍ - يعني الشهادتين - عن إخلاص . وأراد به صعودَ قَبُولٍ ، لأَنَّ حقيقةَ الصعود في اللغة بمعنى الخروج - ولا يجوز في صفة الكلام .

﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ : أي يقبله . ويقال العملُ الصالحُ يرفع الكَلِمَ الطيب . ويقال الكَلِمُ الطيبُ ما يكون موافقاً للسُّنَّة ، ويقال هو ما يشهد بصِحَّتِه الإذنُ والتوقيف . ويقال هو نُطْقُ القلب بالثناء على ما يستوجبه الربُّ . ويقال هو ما يكون دُعاءً للمسلمين . ويقال ما يتجرد حقاً للحقِّ ولا يكون فيه حَظٌّ للعبد . ويقال ما هو مُسْتَخْرَجٌ من العبد وهو فيه مفقود . ويقال هو بيانُ التنصُّل وكلمة الاستغفار .

ويقال العمل الصالح ما يصلح للقبول ، ويقال الذي ليس فيه آفة ولا يُطْلَبُ عليه عِوَضٌ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ .

أي يَقْلِبُ عليهم مَكْرَهم فيما يتوهمونه من خيرٍ لهم يَقْلِبُه محنةً عليهم . ويقال : تَخْلِيَتُه إياهم

ومَكْرَهم – مع قدرته على عصمتهم ، وكَوْنُه لا يعصمهم هي عذابهم الشديد .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (11)

ذَكَّرَهم نسْبَتَهم لئلا يُعْجَبوا بحالتهم ، ثم إن ما يُتَّخَذُ من الطين سريعُ التغيُّر ، قليلُ القوة في المُكث ، لكنه يَقْبَلُ الانجبار بالماء إذ تنجبر به طينته ؛ فإذا جاد الحقُّ عليه بماء الجودِ أعاده بعد انكساره بالذنوب .

(212/639)

---

وإذا كان لا يَخْفى عليه – سبحانه – شيءٌ من أحوالهم في ابتداء خَلْقِهم ، فَمَنْ يُبالِ أَنْ يَخْلُقَ مَنْ يعلم أنه يَعْصي فلا يبالي أَنْ يغفِرَ لمَنْ رآه يعصي . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 194. 197﴾

(213/639)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الأربعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الأربعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 12 ﴾ من سورة فاطر

وحتى الآية ﴿ 14 ﴾ من نفس السورة

(4/640)

---

قوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر سبحانه أحد أصليهم : التراب المختلف الأصناف ، ذكر الأصل الآخر : الماء الذي هو أشد امتزاجاً من التراب ، ذاكراً اختلاف صنفية اللذين يتفرعان إلى أصناف

كثيرة ، منبهاً على فعله بالاختيار ومنكراً على من سوى بينه سبحانه وبين شيء حتى أشركه به مع المباعدة التي لا شيء بعدها والحال أنه يفرق بين هذه الأشياء المحسوسة لمباعدة ما فقال : ﴿ وما يستوي البحران ﴾ ولما كانت الألف واللام للعهد ، بيّنه بقوله مشيراً إلى الحلو : ﴿ هذا عذب ﴾ أي طيب حلو لذيذ ملائم للطبع ﴿ فرات ﴾ أي بالغ العذوبة ﴿ سائغ شرابه ﴾ أي هنيء مريء بحيث إذا شرب جاز في الحلق ولم يتوقف بل يسهل إدخاله فيه وابتلاعه لما له من اللذة والملاءمة للطبع ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ أي جمع إلى الملوحة المرارة ، فلا يسوغ شرابه ، بل لو شرب لآلم الحلق وأجج في البطن ما هو كالنار ، والمراد أمه ميزهما سبحانه بعد جمعهما في ظاهر الأرض وباطنها ، ولم يدع أحدهما يبغي على الآخر ، بل إذا حفر عل جانب البحر الملح ظهر الماء عذباً فراتاً على مقدار صلاح الأرض وفسادها .

(5/640)

---

ولما كان الملح متعذراً على الآدمي شربه ، ذكر أنه خلق فيه ما حياته به مساوياً في ذلك للعذب فقال : ﴿ ومن كل ﴾ أي من الملح والعذب ﴿ تأكلون ﴾ من السمك المنوع إلى أنواع تفوت الحصر وغير السمك ﴿ لحماً طرياً ﴾ أي شهي المطعم ، ولم يضر ما بالملح ما تعرفون

من أصله ولا زلد في لذة ما بالحلو ملاءمته لكم .

ولما ذكر من متاعه ما هو غاية في اللين ، أتبعه من ذلك ما هو غاية في الصلابة فقال :

﴿ وتستخرجون ﴾ أي تطلبون أن تخرجوا من الملح دون العذب وتوجدون ذلك للإخراج ، قال البغوي : وقيل : نسب اللؤلؤ إليهما لأنه قد يكون في البحر الملح عيون عذبة تمتزج به فيكون اللؤلؤ من ذلك .

﴿ حلية تلبسونها ﴾ أي نساؤكم من الجواهر : الدر والمرجان وغيرهما ، فما قضى برخاوة ذلك وصلابة هذا مع تولدهما منه إلا الفاعل المختار .

ولما كان الأكل والاستخراج من المنافع العامة عم بالخطاب ، ولما كان استقرار شيء في البحر دون غرق أمراً غريباً ، لكنه صار لشدة إلفه لا يقوم بإدراك أنه من أكبر الايات دلالة على القادر المختار إلا أهل البصائر ، خص بالخطاب فقال : ﴿ وترى الفلك ﴾ أي السفن تسمى فلكاً لدورانه وسفينة لقشره الماء ، وقدم الظرف لأنه أشد دلالة على ذلك فقال :

﴿ فيه ﴾ أي كل منهما غاطسة إلا قليلاً منها .

ولما تم الكلام ، ذكر حالها المعلل بالابتغاء فقال : ﴿ مواخر ﴾ أي جواري مستدبرة الريح شاقة للماء خارقة للهواء بصدرها هذه مقبلة وهذه مدبرة وجهها إلى ظهر هذه بريح واحدة ؛ قال البخاري في باب التجارة في البحر : وقال مجاهد : تمخر السفن الريح ، ولا تمخر الريح من السفن إلا الفلك العظام ؛ وقال صاحب القاموس : مخرت السفينة كمنع مخراً ومخوراً : جرت أو استقبلت الريح في جريتها ، والفلك المواخر التي يسمع صوت جريها أو تشق الماء بجآجئها أو المقبلة والمدبرة بريح واحدة ، وفي الحديث : إذ أراد أحدكم البول فليتمخر الريح ، وفي لفظ : استمخروا الريح ، أي اجعلوا ظهوركم إلى الريح فإنه إذا ولاها شقها بظهره فأخذت عن يمينه ويساره ، وقد يكون استقبالها تمخراً غير أنه في الحديث استدبار – انتهى كلام القاموس .

ثم علق بالمخر معللاً قوله : ﴿ لتبتغوا ﴾ أي تطلبوا طلباً شديداً .

ولما تقدم الاسم الأعظم في الآية قبلها ، أعاد الضمير عليه ليعلم شدة ارتباط هذه الآية بالتي قبلها فقال : ﴿ من فضله ﴾ أي الله بالتوصل بذلك إلى البلاد الشاسعة للمتاجر وغيرها ولو جعلها ساكنة لم يترتب عليها ذلك ، وفي سورة الجاثية ما ينفع هنا ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي ولتكون حالكم بهذه النعم الدالة على عظيم قدرة الله ولطفه حال من يرجى شكره .

ولما ذكر سبحانه اختلاف الذوات الدال على بديع صنعه ، أتبعه تغييره المعاني آية على

بليغ قدرته ، فقال في موضع الحال من فاعل " خلقكم " إشارة إلى أن الله تعالى صور آدم حين خلق الأرض قبل أن يكون ليل أو نهار ثم نفخ فيه الروح آخر يوم الجمعة بعد أن خلق النور يوم الأربعاء ، فلم يأت على الإنسان حين من الدهر وهو مقدار حركة الفلك إلا وهو شيء مذكور : ﴿ يولج ﴾ أي يدخل على سبيل الجولان ﴿ الّيل في النهار ﴾ فيصير الظلام ضياء .

(7/640)

---

ولما كان هذا الفعل في غاية الإعجاب ، وكان لكثرة تكراره قد صار مألوفاً فغفل عما فيه من الدلالة على تمام القدرة : نبه عليه بإعادة الفعل فقال : ﴿ ويولج النهار في الّيل ﴾ فيصير ما كان ضياء ظلاماً ، وتارة يكون التوالج بقصر هذا وطول هذا ، فدل كل ذلك على أنه تعالى فاعل بالاختيار .

ولما ذكر الملوين ذكر ما ينشأ عنهما فقال : ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ ثم استأنف قوله : ﴿ كل ﴾ أي منهم ﴿ يجري ﴾ ولما كان مقصود السورة تمام القدرة ، والسياق هنا لقسر المتنافرات على ما يزيد ، ولذلك ختم الآية بالملك الناظر إلى القسر والقهر لم يصلح لهذا الموضع حرف الغاية فقال : ﴿ لأجل ﴾ أي لأجل أجل ﴿ مسمى ﴾ مضروب له لا يقدر

أن يتعداه ، فإذا جاء ذلك الأجل غرب ، هكذا كل يوم إلى أن يأتي الأجل الأعظم ، فيختل جميع هذا النظام بأمر الملك العلام ، ويقيم الناس ليوم الزحام ، وتكون الأمور العظام .

(8/640)

---

ولما دل سبحانه على أنه الفاعل المختار القادر على كل ما يريد بما يشاهده كل أحد في نفسه وفي غيره ، وختم بما تتكرر مشاهدته في كل يوم مرتين ، أنتج ذلك قطعاً قوله معظماً بأداة البعد وميم الجمع : ﴿ ذلكم ﴾ أي العالي المقدار الذي فعل هذه الأفعال كلها ﴿ الله ﴾ أي الذي له صفة كمال ؛ ثم نبههم على أنه لا مدبر لهو سواه بخبر آخر بقوله : ﴿ ربكم ﴾ أي الموجد لكم من العدم المربي بجميع النعم لا رب لكم سواه ؛ ثم استأنف قوله : ﴿ له ﴾ أي وحده ﴿ الملك ﴾ أي كله وهو مالك كل شيء ﴿ والذين تدعون ﴾ أي دعاء عبادة ، ثم بيّن منزلتهم بقوله : ﴿ من دونه ﴾ أي من الأصنام وغيرها وكل شيء فهو دونه سبحانه ﴿ ما يملكون ﴾ أي في هذا الحال الذي تدعونهم فيه وكل حال يصح أن يقال فيه لكم هذا الكلام ؛ وأغرق في النفي فقال : ﴿ من قطمير ﴾ وهو كما روي عن ابن عباس -رضى الله عنهما - : لفافة النواة ، وهي القشرة الرقيقة الملتفة عليها ، كناية عن أدنى الأشياء ، فكيف بما فوقه وليس لهم شيء من الملك ، فالآية من الاحتباك : ذكر الملك أولاً

دليلاً على حذفه ثانياً ، والملك ثانياً دليلاً على حذفه أولاً ؛ ثم بين ذلك بقوله : ﴿ إن تدعوهم ﴾ أي المعبودات من دونه دعاء عبادة او استغاثة ﴿ لا يسمعوا ﴾ أي بحس السمع في وقت من الأوقات ﴿ دعاءكم ﴾ لأنهم جماد ﴿ ولو سمعوا ﴾ في المستقبل ﴿ ما استجابوا لكم ﴾ لأنهم إذ ذاك يعلمون أن إجابتكم لا ترضي الله ، وهم مما أبى أن يحمل الأمانة ويخون فيها بالعمل بغير ما يرضي الله سبحانه ، أو يكون المعنى : ولو فرض أنه يوجد لهم سمع ، أو ولو كانوا سامعين - ليدخل فيه من عبد من الأحياء - ما لزم من السماع إجابة ، لأنه لا ملازمة بين السمع والنطق ، ولا بين السمع والنطق مع القدرة على ما يراد من السامع ، فإن البهائم تسمع وتجيب ، والمجيبون غيره يجيبون ولا قدرة لهم على أكثر ما يطلب منهم .

(9/640)

---

ولما ذكر ما هو على سبيل الفرض ، ذكر ما يصير إليه بينهم وبينهم الأمر فقال : ﴿ ويوم القيامة ﴾ أي حين ينطقهم الله ﴿ يكفرون بشرككم ﴾ أي ينكرونه ويتبرؤون منه .

ولما كان التقدير : قد أنبأكم بذلك الخبير ، وكانوا لا يقرون بذلك ولا يفهمونه حق فهمه ولا يعملون به ، صرف الخطاب عنهم إلى من له الفهم التام والطاعة الكاملة ، فقال عاطفاً على

هذا الذي هدى إلى تقديره السياق : ﴿ ولا ينبئك ﴾ أي إنباء بليغاً عظيماً على هذا الوجه بشيء من الأشياء ، ﴿ مثل خبير ﴾ أي بالغ الخبر ، فلا يمكن الطعن في شيء مما أخبر به ، وأما غيره فلا يخبر خبراً إلا يوجه إليه نقص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 210.213 ﴾

(10/640)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ ﴾

قال أكثر المفسرين : إن المراد من الآية ضرب المثل في حق الكفر والإيمان أو الكافر والمؤمن ، فالإيمان لا يشتبه بالكفر في الحسن والنفع كما لا يشتبه البحران العذب الفرات والملح الأجاج .

ثم على هذا ، فقوله : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ لبيان أن حال الكافر والمؤمن أو الكفر والإيمان دون حال البحرين لأن الأجاج يشارك الفرات في خير ونفع إذا اللحم الطري يوجد فيهما والحلية توجد منهما والفلك تجري فيهما ، ولا نفع في الكفر والكافر ، وهذا

على نسق قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَالأَنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [ الأعراف : 179 ] وقوله :

﴿ كالحجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار ﴾ [ البقرة : 74 ]

والأظهر أن المراد منه ذكر دليل آخر على قدرة الله وذلك من حيث إن البحرين يستويان في الصورة ويختلفان في الماء ، فإن أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج ، ولو كان ذلك بإيجاب لما اختلف المستويان ، ثم إنهما بعد اختلافهما يوجد منهما أمور متشابهة ، فإن اللحم الطري يوجد فيهما ، واللحية تؤخذ منهما ، ومن يوجد في المتشابهين اختلافاً ومن المختلفين اشتباهاً لا يكون إلا قادراً مختاراً .

وقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى البحران ﴾ إشارة إلى أن عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ إرادته وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال أهل اللغة لا يقال في ماء البحر إذا كان فيه ملوحة مالح ، وإنما يقال له ملح ، وقد يذكر في بعض كتب الفقه يصير بها ماء البحر مالحاً ، ويؤاخذ قائله به .

وهو أصح مما يذهب إليه القوم وذلك لأن الماء العذب إذا ألقى فيه ملح حتى ملح لا يقال له إلا مالح ، وماء ملح يقال للماء الذي صار من أصل خلقته كذلك ، لأن المالح شيء فيه ملح ظاهر في الذوق ، والماء الملح ليس ماء وملحاً بخلاف الطعام المالح فالماء العذب الملقى فيه الملح ماء فيه ملح ظاهر في الذوق ، بخلاف ما هو من أصل خلقته كذلك ، فلما قال الفقيه الملح أجزاء أرضية سبخة يصير بها ماء البحر مالحاً راعى فيه الأصل فإنه جعله ماء جاوره ملح ، وأهل اللغة حيث قالوا في البحر ماؤه ملح جعلوه كذلك من أصل الخلقة ، والأجاج المر ، وقوله : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ من الطير والسمك ﴿ وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ من اللؤلؤ والمرجان ﴿ وَتَرَى الفلك فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ أي ماخرات تمخر البحر بالجريان أي تشق ، وقوله : ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ يدل على ما ذكرناه من أن المراد من الآية الاستدلال بالبحرين وما فيهما على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته .

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى

استدلال آخر باختلاف الأزمنة وقد ذكرناه مراراً ، وذكرنا أن قوله تعالى بعده : ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ جواب لسؤال يذكره المشركون وهو أنهم قالوا اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف القسي الواقعة فوق الأرض وتحتها ، فإن في الصيف تمر الشمس على سمت الرؤوس في بعض البلاد المائلة في الآفاق ، وحركة الشمس هناك حمائلية فتقع تحت

الأرض أقل من نصف دائرة زمان مكثها تحت الأرض فيقصر الليل وفي الشتاء بالضد فيقصر النهار فقال الله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ يعني سبب الاختلاف وإن كان ما ذكرتم ، لكن سير الشمس والقمر بإرادة الله وقدرته فهو الذي فعل ذلك .

(12/640)

---

ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ الملك والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ .

أي ذلك الذي فعل هذه الأشياء من فطر السموات والأرض وإرسال الأرواح وإرسال الرياح وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك له الملك كله فلا معبود إلا هو لذاته الكامل ولكونه ملكاً والملك مخدوم بقدر ملكه ، فإذا كان له الملك كله فله العبادة كلها ، ثم بين ما ينافي صفة الإلهية ، وهو قوله : ﴿ والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ ، وههنا لطيفة : وهي أن الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الأوصاف أحدهما : أن الخلق بالقدرة الإرادة والثاني : الملك واستدل بهما على أنه إله معبود كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبّ الناس * مَلِكِ الناس * إله الناس ﴾ [ الناس : 1-3 ] ذكر الرب والملك ورتب عليهما كونه إلهاً أي معبوداً ، وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة وهو عدم الملك

بقوله : ﴿ والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين أحدهما : أن كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله وإنما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الأرض والأرضيات إلى الكواكب التي الأصنام على صورتها وطوالعها فقال : لا ملك لهم ولا ملكهم الله شيئاً ولا ملكوا شيئاً وثانيهما : أنه يلزم من عدم الملك عدم الخلق لأنه لو خلق شيئاً لملكه فإذا لم يملك قطميراً ما خلق قليلاً ولا كثيراً .

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ

(13/640)

---

إبطالاً لما كانوا يقولون إن في عبادة الأصنام عزة من حيث القرب منها والنظر إليها وعرض الحوائج عليها ، والله لا يرى ولا يصل إليه أحد فقال هؤلاء لا يسمعون دعاءكم والله يصعد إليه الكلم الطيب ، ليسمع ويقبل ثم نزل عن تلك الدرجة ، وقال هب أنهم يسمعون كما يظنون فإنهم كانوا يقولون بأن الأصنام تسمع وتعلم ولكن ما كان يمكنهم أن يقولوا إنهم يجيبون لأن ذلك إنكار للمحس به وعدم سماعهم إنكار للمعقول والنزاع وإن كان يقع في المعقول فلا يمكن وقوعه في المحس به ، ثم إنه تعالى قال : ﴿ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ لما بين عدم النفع فيهم في الدنيا بين عدم النفع منهم في الآخرة بل أشار إلى وجود

الضرر منهم في الآخرة بقوله : ﴿ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أي بإشراككم بالله شيئاً ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [ لقمان : 13 ] أي الإشراك وقوله : ﴿ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون ذلك خطاباً مع النبي صلى الله عليه وسلم ووجهه هو أن الله تعالى لما أخبر أن الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده وذلك أمر لا يعلم بالعقل المجرد لولا إخبار الله تعالى عنه أنهم يكفرون بهم يوم القيامة ، وهذا القول مع كون الخبر عنه أمراً عجيباً هو كما قال ، لأن المخبر عنه خبير وثانيهما : هو أن يكون ذلك خطاباً غير مختص بأحد ، أي هذا الذي ذكر هو كما قال : ﴿ وَلاَ يُنَبِّئُكَ ﴾ أيها السامع كائناً من كنت ﴿ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 12.10 ﴾

*(14/640)*

---

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾

هذه آية احتجاج على الكفرة في إنكار البعث من القبور ، فدلهم تعالى على المثال الذي يعاينونه وهو سواء مع إحياء الموتى ، و" البلد الميت " هو الذي لا نبت فيه قد اغبر من

القحط فإذا أصابه الماء من السحاب اخضر وأنبت فتلك حياته، و﴿ النشور ﴾ مصدر نشر الميت إذا حيي، ومنه قول الأعشى:

يا عجبا للميت الناشر . . . وقوله تعالى: ﴿ من كان يريد العزة ﴾ يحتمل ثلاثة معان: أحدها أن يريد ﴿ من كان يريد العزة ﴾ بمغالبة ﴿ فلله العزة ﴾ أي ليست لغيره ولا تتم إلا له وهذا المغالب مغلوب ونحا إليه مجاهد، وقال ﴿ من كان يريد العزة ﴾ بعبادة الأوثان.

(15/640)

---

قال القاضي أبو محمد: وهذا تمسك بقوله تعالى: ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً ﴾ [مريم: 81] والمعنى الثاني ﴿ من كان يريد العزة ﴾ وطريقها القويم ويحب نيلها على وجهها ﴿ فلله العزة ﴾ أي به وعن أوامره لا تنال عزته إلا بطاعته، ونحا إليه قتادة. والمعنى الثالث وقاله الفراء ﴿ من كان يريد ﴾ علم ﴿ العزة فلله العزة ﴾ أي هو المتصف بها، و﴿ جميعاً ﴾ حال، وقوله تعالى: ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ أي التوحيد والتمجيد وذكر الله ونحوه، وقرأ الضحاك "إليه يُصعد" بضم الياء، وقرأ جمهور الناس "الكلم" وهو جمع كلمة، وقرأ أبو عبد الرحمن "الكلام"، و﴿ الطيب ﴾ الذي

يستحسن سماعه الاستحسان الشرعي ، وقال كعب الأحبار : إن لسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لدوياً حول العرش كدوي النحل تذكر بصاحبها ، وقوله تعالى : ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ اختلف الناس في الضمير في ﴿ يرفعه ﴾ على من يعود ، فقالت فرقة يعود على ﴿ العمل ﴾ ، واختلفت هذه الفرقة فقال قوم الفاعل ب " يرفع " هو ﴿ الكلم ﴾ أي والعمل يرفعه الكلم وهو قول لا إله إلا الله لأنه لا يرتفع عمل إلا بتوحيد ، وقال بعضهم الفعل مسند إلى الله تعالى أي " والعمل الصالح يرفعه هو " .

قال القاضي أبو محمد : وهذا أرجح الأقوال ، وقال ابن عباس وشهر بن حوشب ومجاهد وقتادة الضمير في ﴿ يرفعه ﴾ عائد على ﴿ الكلم ﴾ أي أن العمل الصالح هو يرفع الكلم .

قال القاضي أبو محمد : واختلفت عبارات أهل هذه المقالة فقال بعضها وروي عن ابن عباس أن العبد إذا ذكر الله وقال كلاماً طيباً وأدى فرائضه ارتفع قوله مع عمله ، وإذا قال ولم يؤد فرائضه رد قوله على عمله ، وقيل عمله أولى به .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول يرده معتقد أهل الحق والسنة ولا يصح عن ابن عباس ، والحق أن العاصي التارك للفرائض إذا ذكر الله تعالى وقال كلاماً طيباً فإنه مكتوب له متقبل منه وله حسناته وعليه سيئاته ، والله تعالى يتقبل من كل من اتقى الشرك ، وأيضاً فإن ﴿ الكلم الطيب ﴾ عمل صالح وإنما يستقيم قول من يقول إن العمل هو الرافع ل ﴿ الكلم ﴾ بأن يتأول أنه يزيد في رفعه وحسن موقعه إذا تعاضد معه ، كما أن صاحب الأعمال من صلاة وصيام وغير ذلك إذا تخلل أعماله كلم طيب وذكر لله كانت الأعمال أشرف .

قال القاضي أبو محمد : فيكون قوله ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ موعظة وتذكرة وحضاً على الأعمال ، وذكر الثعلبي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ولا عمل إلا بنية " ، ومعناه قولاً يتضمن أن قائله عمل عملاً أو يعمله في الأنف ، وأما الأقوال التي هي أعمال في نفوسها كالتوحيد والتسبيح فمقبولة على ما قدمناه ، وقرأت فرقة " والعملَ " بالنصب " الصالحَ " على النعت وعلى هذه القراءة ف ﴿ يرفعه ﴾ مستند إما إلى الله تعالى وإما إلى ﴿ الكلم ﴾ ، والضمير في ﴿ يرفعه ﴾ عائد على ﴿ العمل ﴾ لا غير ، وقوله ﴿ يمكرون السيئات ﴾ إما أنه عدى ﴿ يمكرون ﴾ لما أحله محل يكسبون ، وإما أنه حذف المفعول وأقام صفته مقامه تقديره يمكرون المكرات السيئات ، و ﴿ يمكرون ﴾ معناه يتخابثون ويخدعون وهم يظهرون أنهم لا يفعلون ، و ﴿ يبور ﴾ معناه يفسد ويبقى لا نفع فيه ، وقال بعض المفسرين يدخل في الآية أهل الربا .

قال القاضي أبو محمد : ونزول الآية أولاً في المشركين .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا

(17/640)

---

هذه آية تذكير بصفات الله تعالى على نحو ما تقدم ، وهذه المحاورة إنما هي في أمر الأصنام وفي بعث الأجساد من القبور ، وقال تعالى : ﴿ خلقكم من تراب ﴾ من حيث خلق آدم أبانا منه ، وقوله ﴿ ثم من نطفة ﴾ أي بالتناسل من مني الرجال ، و﴿ أزواجاً ﴾ قيل معناه أنواعاً ، وقيل أراد تزويج الرجال النساء ، وقوله تعالى : ﴿ ومن يعمر من معمر ولا ينقص من عمره ﴾ اختلف الناس في عود الضمير في قوله ﴿ من عمره ﴾ ، فقال ابن عباس وغيره ما مقتضاه أنه عائد على ﴿ معمر ﴾ الذي هو اسم جنس والمراد غير الذي يعمر ، أي أن القول يتضمن شخصين يعمر أحدهما مائة سنة أو نحوها وينقص من عمر الآخر بأن يكون عاماً واحداً أو نحوه ، وهذا قول الضحاك وابن زيد لكنه أعاد ضميراً إيجازاً واختصاراً ، والبيان التام أن تقول ولا ينقص من عمر معمر لأن لفظة ﴿ معمر ﴾ هي بمنزلة ذي عمر .

قال القاضي أبو محمد : كأنه قال " ولا يعمر من ذي عمر ولا ينقص من عمر ذي عمر " ،

وقال ابن عباس أيضاً وأبو مالك وابن جبير المراد شخص واحد وعليه الضمير أي ما يعمر إنسان ولا ينقص من عمره بأن يحصي ما مضى منه إذا مر حول كتب ذلك ، ثم حول ، ثم حول ، فهذا هو النقص ، قال ابن جبير ما مضى من عمره فهو النقص وما يستقبل فهو الذي يعمر ، وروي عن كعب الأحبار أنه قال المعنى ﴿ ولا ينقص من عمره ﴾ أي لا يخرم بسبب قدرة الله ، ولو شاء لأخر ذلك السبب .

(18/640)

---

قال القاضي أبو محمد : وروي أنه قال : حين طعن عمر لو دعا الله تعالى لزاد في أجله ، فأنكر عليه المسلمون ذلك وقالوا : إن الله تعالى يقول ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ﴾ [ الأعراف : 34 ، النحل : 61 ] فاحتج بهذه الآية وهو قول ضعيف مردود يقتضي القول بالأجلين ، وبنحوه تمسكت المعتزلة ، وقرأ الحسن والأعرج وابن سيرين " ينقِصُ " على بناء الفعل للفاعل أي ينقص الله ، وقرأ " من عمْره " بسكون الميم الحسن وداود ، و" الكتاب " المذكور في الآية اللوح المحفوظ ، وقوله ﴿ إن ذلك ﴾ إشارة إلى تحصيل هذه الأعمال وإحصاء دقائقها وساعاتها .

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ

هذه آية أخرى يستدل بها كل عاقل ويقطع أنها مما لا مدخل لصنم فيه ، و﴿ البحران ﴾ يريد بهما جميع الماء الملح وجميع الماء العذب حيث كان ، فهو يعني به جملة هذا وجملة هذا ، و" الفرات " الشديد العذوبة ، و" الأجاج " الشديد الملوحة الذي يميل إلى المرارة من ملوحته ، قال الرماني هو من أججت النار كأنه يحرق من حرارته ، وقرأ عيسى الثقفي " سيّغ شرابه " بغير ألف وبشد الياء ، وقرأ طلحة " مَلِح " بفتح الميم وكسر اللام ، و" اللحم الطري " الحوت وهو موجود في البحرين ، وكذلك ﴿ الفلك ﴾ تجري في البحرين ، وبقيت " الحلية " وهي اللؤلؤ والمرجان ، فقال الزجاج وغيره هذه عبارة تقتضي أن الحلية تخرج منهما ، وهي إنما تخرج من الملح وذلك تجوز كما قال في آية أخرى ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ [ الرحمن : 22 ] ، وكما قال ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ [ الأنعام : 128 ] ، والرسل إنما هي من الإنس ، وقال بعض الناس بل الحلية تخرج من البحرين ، وذلك أن صدف اللؤلؤ إنما يلحقه فيما يزعمون ماء النيسان ، فمنه ما يخرج ويوجد الجوهر فيه ، ومنه ما ينشق في البحر عند موته وتقطعه ، فيخرج جوهرة بالعطش وغير ذلك من الحيل ، فهذا هو من الماء الفرات ، فنسب إليه الإخراج لما كان من الحلية

بسبب ، وأيضاً فإن المرجان يزعم طلابه في البحر أنه إنما يوجد وينبت في موضع بإزائها انصباب ماء أنهار في البحر وأيضاً فإن البحر الفرات كل ينصب في البحر الأجاج فيجيء الإخراج منهما جميعاً .

قال القاضي أبو محمد : وقد خطىء أبو ذؤيب في قوله في صفة الجوهر : [ الطويل ]

فجاء بها ما شئت من لطمية . . . وجهها ماء الفرات يموج

(20/640)

---

وليس ذلك بخطإ على ما ذكرنا من تأويل هذه الفرقة ، و ﴿ الفلك ﴾ في هذا الموضع جمع بدليل صفته بجمع ، و ﴿ مواخر ﴾ جمع ماخرة وهي التي تمخر الماء أي تشقه ، وقيل الماخرة التي تشق الريح ، وحينئذ يحدث الصوت ، والمخر الصوت الذي يحدث من جري السفينة بالريح ، وعبر المفسرون عن هذا بعبارات لا تختص باللفظة ، فقال بعضهم " المواخر " التي تجيء وتذهب بريح واحدة ، وقال مجاهد الريح تمخر السفن ولا تمخر الريح من السفن إلا الفلك العظام .

قال القاضي أبو محمد : هكذا وقع لفظه في البخاري ، والصواب أن تكون ﴿ الفلك ﴾ هي الماخرة لا الممخورة وقوله تعالى : ﴿ لتبتغوا ﴾ يريد بالتجارات والحج والغزو وكل

سفر له وجه شرعي .

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى

(21/640)

---

﴿ يولج ﴾ معناه يدخل ، وهذه عبارة عن أن ما نقص من ﴿ الليل ﴾ زاد ﴿ في النهار ﴾ ، فكأنه دخل فيه ، وكذلك ما نقص من ﴿ النهار ﴾ يدخل ﴿ في الليل ﴾ والألف واللام في ﴿ الشمس والقمر ﴾ هي للعهد ، وقيل هي زائدة لا معنى لها ولا تعريف وهذا أصوب ، و" الأجل المسمى " هو قيام الساعة ، وقيل آماد الليل وآماد النهار ، ف" أجل " على هذا اسم جنس ، وقرأ جمهور الناس " تدعون " بالتاء ، وقرأ الحسن ويعقوب " يدعون " بالياء من تحت ، و" القطمير " القشرة الرقيقة التي على نوى التمرة هذا قول الناس الحجة ، وقال جويبر عن رجاله " القطمير " القمع الذي في رأس التمرة ، وقاله الضحاك والأول أشهر وأصوب ، ثم بين تعالى أمر الأصنام بثلاثة أشياء كلها تعطي بطلانها ، : أولها أنها لا تسمع إن دعيت ، والثاني أنها لا تجيب أن لو سمعت وإنما جاء بهذه لأن لقائل متعسف أن يقول عساها تسمع ، والثالث أنها تتبرأ يوم القيامة من الكفار ، ويكفرون بشركهم أي بأن جعلوهم شركاء لله فأضاف الشرك إليهم من حيث هم قرروه ، فهو مصدر

مضاف إلى الفاعل ، وقوله ﴿ يكفرون ﴾ يحتمل ان يكون بكلام ، وعبارة يقدر الله الأصنام عليها ويخلق لها إدراكاً يقتضيها ، ويحتمل أن يكون بما يظهر هناك من جمودها وبطولها عند حركة كل ناطق ومدافعة كل محتج فيجيء هذا على طريق التجوز كما قال ذو الرمة : [ الطويل ]

وقفت على ربع لمية ناطق . . . يخاطبني آثاره وأخاطبه

وأسقيه حتى كاد مما أبثه . . . تكلمني أحجاره وملاعبه

(22/640)

---

وهذا كثير ، وقوله ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ قال المفسرون قتادة وغيره " الخبير " هنا أراد به تعالى نفسه فهو الخبير الصادق الخبر نبأ بهذا فلا شك في وقوعه ، ويحتمل أن يكون قوله ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ من تمام ذكر الأصنام ، كأنه قال : ولا يخبرك مثل من يخبر عن نفسه أي لا أصدق في تبريها من شرككم منها فيريد بالخبير على هذا المثل له ، كأنه قال ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ عن نفسه وهي قد أخبرت عن نفسها بالكفر بهؤلاء . انتهى

انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(23/640)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي البحران هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قال ابن عباس : "فُراتٌ" حلو ، و"أُجَاجٌ" مرّ .

وقرأ طلحة : "هذا مَلِح أجاج" بفتح الميم وكسر اللام بغير ألف .

وأما المالح فهو الذي يجعل فيه الملح .

وقرأ عيسى وابن أبي إسحاق "سيغ شرابه" مثل سيد وميت .

﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ لا اختلاف في أنه منهما جميعاً .

وقد مضى في "النحل" الكلام فيه .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ مذهب أبي إسحاق أن الحلية إنما تستخرج من الملح ، فقيل منهما لأنهما مختلطان .

وقال غيره : إنما تستخرج الأصداف التي فيها الحلية من الدرّ وغيره من المواضع التي فيها العذب والملح نحو العيون ، فهو مأخوذ منهما ؛ لأن في البحر عيوناً عذبة ، وبينهما يخرج اللؤلؤ عند التمازج .

وقيل : من مطر السماء .

وقال محمد بن يزيد قولاً رابعاً ، قال : إنما تستخرج الحلية من الملح خاصة .

النحاس : وهذا أحسنها وليس هذا عنده ، لأنهما مختلطان ، ولكن جمعا ثم أخبر عن أحدهما كما قال جل وعز : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [ القصص : 73 ] .

وكما تقول : لو رأيت الحسن والحجاج لرأيت خيراً وشرًّا .

وكما تقول : لو رأيت الأصمعي وسيبويه لملأت يدك لغة ونحواً .

فقد عرف معنى هذا ، وهو كلام فصيح كثير ، فكذا : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ فاجتمعا في الأوّل وانفرد الملح بالثاني .

الثالثة : وفي قوله : ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ دليل على أن لباس كل شيء بحسبه ؛ فالخاتم يجعل في الإصبع ، والسوار في الذراع ، والقلادة في العنق ، والخلخال في الرجل .

وفي البخاري والنسائي عن ابن سِيرين قال قلت لعبيدة : افتراش الحرير كلبسه ؟ قال نعم .



---

وفي الصحاح عن أنس "فقمت على حصير لنا قد اسودّ من طول ما لبس" .

الحديث .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الفلك فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ قال النحاس : أي ماء الملح خاصة ، ولولا ذلك لقال فيهما .

وقد مَخَرت السفينة تَمْخُر إذا شقت الماء .

وقد مضى هذا في "النحل" .

﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ قال مجاهد : التجارة في الفُلك إلى البلدان البعيدة في مدّة قريبة ؛ كما تقدّم في "البقرة" .

وقيل : ما يستخرج من حليته ويصاد من حيتانه .

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ على ما آتاكم من فضله .

وقيل : على ما أنجاكم من هَوْله .

قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل ﴾ تقدّم في "آل عمران" وغيرها .

﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ تقدّم في "لقمان" بيانه .

﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ الملك ﴾ أي هذا الذي من صنعه ما تقرّر هو الخالق المدبر ، والقادر المقتدر ؛ فهو الذي يعبد .

﴿ والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ يعني الأصنام .

﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ أي لا يقدرون عليه ولا على خلقه .

والقِطمير : القشرة الرقيقة البيضاء التي بين الثمرة والنواة ؛ قاله أكثر المفسرين .

وقال ابن عباس : هو شق النواة ؛ وهو اختيار المبَرّد ، وقاله قتادة .

وعن قتادة أيضاً : القِطمير القِمْع الذي على رأس النواة .

الجوهري : ويقال هي النكتة البيضاء التي في ظهر النواة ، تنبت منها النخلة .

قوله تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ ﴾ أي إن تستغيثوا بهم في النوائب لا يسمعوا دعاءكم ؛ لأنها جمادات لا تبصر ولا تسمع .

﴿ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ إذ ليس كل سامع ناطقاً .

وقال قتادة : المعنى لو سمعوا لم ينفعوكم .

وقيل : أي لو جعلنا لهم عقولاً وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم ، ولما استجابوا لكم على الكفر .

(25/640)

---

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أي يجحدون أنكم عبدتموهم ، ويتبرءون منكم .

ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين مما يعقل ؛ كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين ؛ أي يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقاً ، وأنهم أمروكم بعبادتهم ؛ كما أخبر عن عيسى بقوله :

﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة: 116].

ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضاً، أي يحييها الله حتى تخبر أنها ليست أهلاً للعبادة.

﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ هو الله جل وعز؛ أي لا أحد أخبر بخلق الله من الله، فلا ينبئك مثله في عمله. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(26/640)

---

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة:

وقال أبو حيان:

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾

القمطير: المشهور أنه القشرة الرقيقة التي على نوى التمرة، ويأتي ما قال المفسرون.

الجدد: جمع جدة، وهي الطريقة تكون من الأرض والجبل، كالقطعة العظيمة المتصلة طولاً.

وقال الزمخشري: والجدد: الخطط والطرائق.

وقال لبيد: أو مذهب جدد على الواحد، ويقال: جدة الحمار للخطة السوداء التي على

ظهره ، وقد يكون للظبي جد تا ن مسكيتا ن تفصلان بين لوني ظهره وبطنه . انتهى .

وقال الشاعر :

كأن مبرات وجدة ظهره . . .

كنائن يجري بينهن دليص

الجدة : الخط الذي في وسط ظهره ، يصف حمار وحش .

الغربيب : الشديد السواد .

لغب يلغب لغوباً : أعيا .

﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ، من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ، والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ، وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلسبونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين

تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ .

(27/640)

---

لما ذكر أشياء من الأمور السماوية وإرسال الملائكة ، ذكر أشياء من الأمور الأرضية : الرياح وإسالها ، وفي هذا احتجاج على منكري البعث .

دلهم على المثال الذي يعاينونه ، وهو وإحياء الموتى سيان .

وفي الحديث : " أنه قيل لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : كيف يحيي الله الموتى ، وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال : هل مررت بوادي أهلك محلاً ، ثم مررت به يهتز خضراً ؟ فقالوا : نعم ، فقال : فكذلك يحيي الله الموتى ، وتلك آيته في خلقه "

قيل : ﴿ أرسل ﴾ في معنى يرسل ، ولذلك عطف عليه ﴿ فتثير ﴾ .

وقيل : جيء بالمضارع حكاية حال يقع فيها إثارة الرياح السحاب ، ويستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية ، ومنه فتصبح الأرض مخضرة .

قال الزمخشري : وكذا يفعلون بكل فعل فيه نوع تمييز خصوصية بحال يستغرب ، أو يتهم المخاطب ، أو غير ذلك ، كما قال تأبط شراً :

بأني قد لقيت الغول تهوي . . .

بشهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلاد هش فخرت . . .

صريعاً لليدين وللجران

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي يشجع فيها ابن عمه على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها ، مشاهدة للتعجب من جراءته على كل هول ، وثباته عند كل شدّة .

وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها .

لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة وقيل : فسقنا وأحيينا ، معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه . انتهى .

وقال أبو عبد الله الرازي ما ملخصه : أي أرسل بلفظ الماضي .

لما أسند إلى الله وما يفعله تعالى بقوله : كن ، لا يبقى زماناً ولا جزء زمان ، فلم يأت بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه ، ولأنه فرغ من كل شيء ، فهو قدر الإرسال في الأوقات المعلومة وإلى المواضع المعينة .

ولما أسند الإثارة إلى الريح ، وهي تؤلف في زمان ، قال : ﴿ فتثير ﴾ ، وأسند ﴿ أرسل ﴾ إلى الغائب ، وفي ﴿ فسقناه ﴾ ، و﴿ فأحيينا ﴾ إلى المتكلم ، لأنه في الأول عرف نفسه بفعل من الأفعال وهو الإرسال ، ثم لما عرف قال : أنا الذي عرفتني سقت السحاب فأحييت الأرض .

ففي الأول تعريف بالفعل العجيب ، وفي الثاني تذكير بالبعث .

وفسقناه وفأحيينا بصيغة الماضي يؤيد ما ذكرنا من الفرق بين فتثير وأرسل . انتهى .

وهذا الذي ذكر من الفرق بين أرسل وفتثير لا يظهر .

ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة الروم : ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ﴾ وفي الأعراف ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته ﴾ كيف جاء في الإرسال بالمضارع ؟ وإنما هذا من التفنن في الكلام والتصرف في البلاغة .

وأما الخروج من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه فهو من باب الالتفات ، وكذلك ما في الأعراف ﴿ سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾

وأما قوله : وما يفعله تعالى إلى آخره ، وكل فعل ، وإن كان أسند إلى غيره مجازاً ، فهو فعله حقيقة ، فلا فرق بين ما يسنده إلى ذاته ، وبين ما يسند إلى غيره ، لأن جميع ذلك هو إيجاده وخلقه .

والنشور ، مصدر نشر : الميت إذا حيي ، قال الأعشى :

حتى يقول الناس مما رأوا . . .

يا عجباً للميت الناشر

والنشور : مبتدأ ، والجار والمجرور قبله في موضع الجر ، والتشبيه وقع لجهات لما قلبت الأرض الميتة الحياة اللائقة بها ، كذلك الأعضاء تقبل الحياة .

أو كما أن الريح يجمع قطع السحاب ، كذلك تجمع أجزاء الأعضاء وأبعاض الأشياء ؛ أو كما يسوق الرياح والسحاب إلى البلد الميت ، يسوق الروح والحياة إلى البدن .

﴿ من كان يريد العزة ﴾ : أي المغالبة ، ﴿ فالله العزة ﴾ : أي ليست لغيره ، ولا تتم إلا به ، والمغالب مغلوب .



---

ونحا إليه مجاهد وقال : ﴿ من كان يريد العزة ﴾ بعبادة الأوثان ، وهذا تمثيل لقوله : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً ﴾ وقال قتادة : ﴿ من كان يريد العزة ﴾ وطريقها القويم ويحب نيلها ، ﴿ فالله العزة ﴾ : أي به وعن أمره ، لا تنال عزته إلا بطاعته .

وقال الفراء : من كان يريد علم العزة ، ﴿ فالله العزة ﴾ : أي هو المتصف بها .

وقيل : ﴿ من كان يريد العزة ﴾ : أي لا يعقبها ذلة ، ويصار بها للذلة .

وقال الزمخشري : كان الكافرون يتعززون بالأصنام ، كما قال عز وجل : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً ﴾ والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين ، كما قال : ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم فإن العزة لله جميعاً ﴾ فبين أن لا عزة إلا لله ولأوليائه وقال : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ انتهى .

ولا تنافي بين قوله : ﴿ فإن العزة لله جميعاً ﴾ وإن كان الظاهر أنها له لا لغيره ، وبين قوله ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ وإن كان يقتضى الاشتراك ، لأن العزة في الحقيقة لله بالذات ، وللرسول بواسطة قربه من الله ، وللمؤمنين بواسطة الرسول .

فالمحكوم عليه أولاً غير المحكوم عليه ثانياً .

ومن اسم شرط ، وجملة الجواب لا بد أن يكون فيها ضمير يعود على اسم الشرط إذا لم يكن ظرفاً ، والجواب محذوف تقديره على حسب تلك الأقوال السابقة .

فعلى قول مجاهد : فهو مغلوب ، وعلى قول قتادة : فيطلبها من الله ، وعلى قول الفراء : فلينسب ذلك إلى الله ، وعلى القول الرابع : فهو لا ينالها ؛ وحذف الجواب استغناء عنه بقوله : ﴿ فللَّه العزة جميعاً ﴾ ، لدلالته عليه .

والظاهر من هذه الأقوال قول قتادة : فليطلبها من العزة له يتصرف فيها كما يريد ، كما قال تعالى : ﴿ وتعز من تشاء وتذل من تشاء ﴾ وانتصب جميعاً على المراد ، والمراد عزة الدنيا وعزة الآخرة .

(30/640)

---

و ﴿ الكلم الطيب ﴾ : التوحيد والتحميد وذكر الله ونحو ذلك .

وقال ابن عباس : شهادة أن لا إله إلا الله .

وقيل : ثناء بالخير على صالحي المؤمنين .

وقال كعب : إن لسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر لدوياً حول العرش كدوي النحل بذكر صاحبها .

وقرأ الجمهور : ﴿ يصعد ﴾ ، مبنياً للفاعل من صعد ؛ ﴿ الكلم الطيب ﴾ : مرفوعاً ، فالكلم جمع كلمة .

وقرأ علي ، وابن مسعود ، والسلمي ، وإبراهيم : يصعد من أصعد ، الكلام الطيب على البناء للمفعول . انتهى .

وقرأ زيد بن علي : يصعد من صعد الكلام : رقي ، وصعود الكلام إليه تعالى مجاز في

الفاعل وفي المسمى إليه ، لأنه تعالى ليس في جهة ، ولأن الكلم ألفاظ لا توصف بالصعود ، لأن الصعود من الاجرام يكون ، وإنما ذلك كناية عن القبول ، ووصفه بالكمال.

كما يقال : علا كعبة وارتفاع شأنه ، ومنه ترافعوا إلى الحاكم ، ورفع الأمر إليه ، وليس هناك علو في الجهة.

وقرأ الجمهور : والعمل الصالح يرفعهما .

فالعمل مبتدأ ، ويرفعه الخبر ، وفاعل يرفعه ضمير يعود على العمل الصالح ، وضمير النصب يعود على الكلم ، أي يرفع الكلم الطيب ، قاله ابن عباس والحسن وابن جبير ومجاهد والضحاك.

وقال الحسن : يعرض القول على الفعل ، فإن وافق القول الفعل قبل ، وإن خالف رد .

وعن ابن عباس نحوه ، قال : إذ اذكر الله العبد وقال كلاماً طيباً وأدّى فرائضه ، ارتفع قوله مع عمله ؛ وإذا قال ولم يؤدّ فرائضه ، رد قوله على عمله ؛ وقيل : عمله أولى به .

قال ابن عطية : وهذا قول يرده معتقد أهل السنة ، ولا يصح عن ابن عباس .

والحق أن القاضي لفرائضه إذ ذكر الله وقال كلاماً طيباً ، فإنه مكتوب له متقبل ، وله حسناته وعليه سيئآته ، والله يتقبل من كل من اتقى الشرك .

وقال أبو صالح ، وشهر بن حوشب عكس هذا القول : ضمير الفاعل يعود على الكلم ، وضمير النصب على العمل الصالح ، أي يرفعه الكلم الطيب .

وقال قتادة : إن الفاعل هو ضمير يعود على الله ، والهاء للعمل الصالح ، أي يرفعه الله إليه ، أي يقبله .

وقال ابن عطية : هذا أرجح الأقوال .

وعن ابن عباس : والعمل الصالح يرفع عامله ويشرفه ، فجعله على حذف مضاف .

ويجوز عندي أن يكون العمل معطوفاً على الكلم الطيب ، أي يصعدان إلى الله ، ويرفعه استئناف إخبار ، أي يرفعهما الله ، ووحد الضمير لاشتراكهما في الصعود ، والضمير قد يجري مجرى اسم الإشارة ، فيكون لفظه مفرداً ، والمراد به التثنية ، فكأنه قيل : ليس صعودهما من ذاتهما ، بل ذلك برفع الله إياهما .

وقرأ عيس ، وابن أبي عبلة : والعمل الصالح ، بنصبهما على الاشتغال ، فالفاعل ضمير الكلم أو ضمير الله ، ومكر لازم ، والسيئات نعت لمصدر محذوف ، أي المكرات السيئات ، أو المضاف إلى المصدر ، أي أضاف المكر إلى السيئات ، أو ضمن يمكرون معنى ، يكتسبون ، فنصب السيئات مفعولاً به .

وإذا كانت السيئات نعتاً لمصدر ، أو لمضاف لمصدر ، فالظاهر أنه عنى به مكرات قريش

في دار الندوة، إذ تذاكروا إحدى ثلاث مكرات، وهي المذكورة في الأنفال: إثباته، أو قتله، أو إخراجه؛ و﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الذين مكروا تلك المكرات.

﴿ يبور ﴾: أي يفسد ويهلك دون مكر الله بهم، إذ أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر، فجمع عليهم مكراتهم جميعاً وحقق فيهم قوله: ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ وقوله: ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ وهو مبتدأ، أو يبور خبره، والجملة خبر عن قوله: ﴿ ومكر أولئك ﴾.

وأجاز الحوفي وأبو البقاء أن يكون هو فاصلة، ويبور خبر، ومكر أولئك والفاصلة لا يكون ما يكون ما بعدها فعلاً، ولم يذهب إلى ذلك أحد فيما علمناه إلا عبد القاهر الجرجاني في شرح الإيضاح له، فإنه أجاز في كان زيد هو يقوم أن يكون هو فصلاً وردّ ذلك عليه.

﴿ والله خقلكم من تراب ﴾: من حيث خلق أبينا آدم.

﴿ ثم من نطفة ﴾: أي بالتناسل.

(32/640)

---

﴿ ثم جعلكم أزواجاً ﴾: أي أصنافاً ذكراناً وإناثاً، كما قال: ﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ وقال قتادة: قدّر بينكم الزوجية، وزوّج بعضكم بعضاً، ومن في ﴿ من معمر

﴾ زائدة ، وسماه بما يؤول إليه ، وهو الطويل العمر .

والظاهر أن الضمير في ﴿ من عمره ﴾ عائد على معمر لفظاً ومعنى .

وقال ابن عباس وغيره : يعود على معمر الذي هو اسم جنس ، والمراد غير الذي يعمر ، فالقول تضمن شخصين : يعمر أحدهما مائة سنة ، وينقص من الآخر .

وقال ابن عباس أيضاً ، وابن جبير ، وأبو مالك : المراد شخص واحد ، أي يحصي ما مضى منه إذ مر حول كتب ذلك ثم حول ، فهذا هو النقص ، وقال الشاعر :

حياتك أنفاس تعدّ فكلما . . .

مضى نفس منك انتقصت به جزءا

وقال كعب الاحبار : معنى ﴿ ولا ينقص من عمره ﴾ : لا يخترم بسببه قدره الله ، ولو شاء لأخر ذلك السبب .

وروي أنه قال ، لما طعن عمر رضي الله عنه : لو دعا الله لزاد في أجله ، فأنكر المسامون عليه ذلك وقالوا : إن الله تعالى يقول : ﴿ فإذا جاء أجهلم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ فاحتج بهذه الآية .

قال ابن عطية : وهو قول ضعيف مردود يقتضي القول بالأجلين ، وبنحوه تمسك المعتزلة .

وقرأ الجمهور : ولا ينقص ، مبنياً للمفعول .

وقرأ يعقوب ، وسلام ، وعبد الوارث ، وهارون ، كلاهما عن أبي عمرو : ولا ينقص ، مبنياً

للفاعل .

وقرأ الحسن : ﴿ من عمر إلا في كتاب ﴾ .

قال ابن عباس : هو اللوح المحفوظ .

وقال الزمخشري : يجوز أن يراد كتاب الله علم الله ، أو صحيفة الإنسان . انتهى .

﴿ وما يستوي البحران ﴾ : هذه آية أخرى يستدل بها على كل عاقل أنه مما لا مدخل لصنم فيه .

وتقدم شرح : ﴿ هذا عذب فرات ﴾ وشرح : ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ في سورة الفرقان .

وهنا بين القسمين صفة للعرب ، وبين قوله : ﴿ سائغ شرابه ﴾ .

وقرأ الجمهور : سائغ ، اسم فاعل من ساغ .

وقرأ عيسى : سيغ على وزن فيعل ، كميت ؛ وجاء كذلك عن أبي عمرو وعاصم .



---

وقرأ عيسى أيضاً : سيغ مخففاً من المشدد ، كميت مخفف ميت .

وقرأ الجمهور : ملح ، وأبو نهيك وطلحة : بفتح الميم وكسر اللام ، وقال أبو الفضل الرازي :

وهي لغة شاذة ، ويجوز أن يكون مقصوراً من مالح ، فحذف الألف تخفيفاً .

وقد يقال : ماء ملح في الشذوذ ، وفي المستعمل : مملوح .

وقال الزمخشري : ضرب البحرين ، العذب والملح ، مثلين للمؤمن والكافر .

ثم قال على صفة الاستطراد في صفة البحرين وما علق بها : من نعمته وعطائه .

﴿ ومن كل ﴾ ، من شرح الزمخشري : ألفاظاً من الآية تكررت في سورة النحل .

ثم قال : ويحتمل غير طريقة الاستطراد ، وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين ، ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر ، بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك واللؤلؤ ، وجرى الفلك فيه .

وللكافر خلو من النفع ، فهو في طريقة قوله تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ الآية . انتهى .

﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ : يريد التجارات والحج والغزو ، أو كل سفر له وجه شرعي .

﴿ يولج الليل في النهار ﴾ : تقدم شرح هذه الجمل .

ولما ذكر أشياء كثيرة تدل على قدرته الباهرة ، من إرسال الرياح ، والإيجاد من تراب وما عطف عليه ، وإيلاج الليل في النهار ، وتسخير الشمس والقمر ؛ أشار إلى أن المتصف بهذه الأفعال الغريبة هو الله فقال : ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك ﴾ ، وهي أخبار مترادفة ؛ والمبتدأ ﴿ ذلكم ﴾ ، و﴿ الله ربكم ﴾ خبران ، و﴿ له الملك ﴾ جملة مبتدأ في قران

قوله : ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ .

قال الزمخشري : ويجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم الله صفة لاسم الإشارة وعطف بيان ، وربكم خبر ، لولا أن المعنى يأباه . انتهى .

أما كونه صفة ، فلا يجوز ، لأن الله علم ، والعلم لا يوصف به ، وليس اسم جنس كالرجل ، فتتخيل فيه الصفة .

(34/640)

---

وأما قوله : لولا أن المعنى يأباه ، فلا يظهر أن المعنى يأباه ، لأنه يكون قد أخبر بأن المشار إليه بتلك الصفات والأفعال المذكورة ربكم ، أي مالكم ، أو مصلحكم ، وهذا معنى لائق سائغ ، والذين يدعون من دونه هي الأوثان .

وقرأ الجمهور : تدعون ، بتاء الخطاب ، وعيسى ، وسلام ، ويعقوب : بياء الغيبة .

وقال صاحب الكامل أبو القاسم بن جبارة : يدعون بالياء ، اللؤلؤي عن أبي عمرو وسلام ، والنهاوندي عن قتيبة ، وابن الجلاء عن نصير ، وابن حبيب وابن يونس عن الكسائي ، وأبو عمارة عن حفص .

والقطمير ، تقدم شرحه .

وقال جويبر عن رجاله ، والضحاك : هو القمع الذي في رأس التمرة .

وقال مجاهد : لفافة النواة ؛ وقيل : الذي بين قمع التمرة والنواة ؛ وقيل : قشر الثوم ؛ وأياً ما كان ، فهو تمثيل للقليل ، وقال الشاعر :

وأبوك يخفف نعله متوركاً . . .

ما يملك المسكين من قطمير

﴿ لا يسمعوا دعاءكم ﴾ ، لأنهم جماد ؛ ﴿ ولو سمعوا ﴾ ، هذا على سبيل الفرض ؛ ﴿ ما استجابوا لكم ﴾ ، لأنهم لا يدعون لهم من الإلهية ، يتبرؤون منها .

وقيل : ما نفعوكم ، وأضاف المصدر : في شرككم ، أي بإشراككم لهم مع الله في عبادتكم إياهم كقوله : ﴿ ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ فهي إضافة إلى الفاعل .

وقوله : ﴿ يكفرون ﴾ ، يحتمل أن يكون بما يظهر هنالك من جمودها وبطئها عند حركة ناطق ، ومدافعة كل محتج ، فيجيء هذا على طريق التجوز ، كقول ذي الرمة :

وقفت على ربع لمية ناطق . . .

تخاطبني آثاره وأخاطبه

وأسقيه حتى كاد مما أبثه . . .

تكلمني أحجاره وملاعبه

﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ ، قال قتادة وغيره من المفسرين : الخبير هنا أراد به تعالى نفسه ، فهو الخبير الصادق الخبر ، نبأ بهذا ، فلا شك في وقوعه .

(35/640)

---

قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ من تمام ذكر الأصنام ، كأنه قال : فلا يخبرك مثل من يخبرك عن نفسه ، أي لا يصدق في تبريها من شرككم منها ، فيريد بالخبير على هذا المثل لهما ، كأنه قال : ولا ينبئك مثل خبير عن نفسه ، وهي قد أخبرت عن نفسها بالكفر بهؤلاء .

وقال الزمخشري : لا يخبرك بالأمر مخبر ، هو مثل خبير عالم به ، يريد أن الخبير بالأمر هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به .

والمعنى : أن هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق ، لأني خبير بما أخبر به .

وقال في التجريد : يحتمل وجهين : أن يكون ذلك خطاباً للرسول لما أخبر بأن الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده ، وهو أمر لا يعلم بالعقل المجرد لولا إخبار الله عنه ، قال تعالى : ﴿ إنهم بربهم يكفرون ﴾ ، أي يكفرون بهم يوم القيامة ، وهذا القول مع كون المخبر عنه أمراً عجيباً هو كما قال ، لأن المخبر عنه خبير .

والثاني : أن يكون خطاباً ليس مختصاً بأحد ، أي هذا الذي ذكر هو كما ذكر ، لا ينبئك أيها السامع كائناً من كنت مثل خبير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(36/640)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا يَسْتَوِى البحران هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾

(37/640)

---

مَثلٌ ضُرب للمؤمنِ والكافرِ . والفُراتُ : للذي يكسرُ العطشَ والسَّائغُ الذي يَسهلُ انحدارُه لعذوبتِه . والأُجاجُ الذي يحرقُ بملوحتِه . وقُرىء سيِّغ كسيِّد وسَيْغٌ بالتَّخفيفِ . ومَلِح ككَتِفٍ . وقوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلٍّ ﴾ أي من كلِّ واحدٍ منهما ﴿ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ ﴾ أي من المالحِ خاصَّةً ﴿ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ إمَّا استطرادٌ في صفةِ البحرينِ وما فيهما من النِّعمِ والمنافعِ ، وإمَّا تكملةٌ للتَّمثيلِ . والمعنى كما أنَّهما وإن اشتركا في بعضِ الفوائدِ لا يتساويانِ من حيثُ أنَّهما متفاوتانِ فيما هو المقصودُ بالذَّاتِ من الماءِ لمَّا

خالطَ أحدهما ما أفسدَه وغيّرَه عن كمال فطرته لا يساوي الكافرُ المؤمنَ وإنْ شاركه في بعض الصِّفاتِ كالشَّجاعةِ والسَّخاوةِ ونحوهما لتباينهما فيما هو الخاصيَّةُ العُظمى لبقاء أحدهما على فطرته الأصليَّةِ وحيازته لكماله اللائقِ دون الآخر أو تفضيلٌ للأُجاجِ على الكافرِ من حيثُ أنَّه يشاركُ العذبَ في منافعَ كثيرةٍ والكافرُ خِلْوٌ من المنافعِ بالكُلِّية على طريقةِ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ والمرادُ بالحليةِ اللؤلؤُ والمرجانُ ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ ﴾ أي في كلٍ منهما . وإفرادُ ضميرِ الخطابِ مع جمعِه فيما سبقَ وما لحقَ لأنَّ الخطابَ لكلِّ أحدٍ تتأتَّى منه الرُّؤيةُ دونَ المنتفعينَ بالبحرينِ فقطْ ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ شواقَّ للماءِ بجريها مقبلةً ومدبرةً بريحٍ واحدةٍ ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ من فضلِ الله تعالى بالنقلة فيها واللام متعلِّقةٌ بمواخرَ وقد جُوِّزَ تعلُّقها بما يدلُّ عليه الأفعالُ المذكورةُ أي فعلَ



---

ذلك لتبتغُوا من فضلِه ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي ولتشكُروا على ذلك . وحرفُ التَّرجِّي للإيذانِ بكونه مرضياً عند الله تعالى . ﴿ يُولِجُ الليل فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى

الليل ﴾ بزيادةِ أحدِهما ونقصِ الآخرِ بإضافةِ بعضِ أجزاءِ كلٍ منهما إلى الآخرِ ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ عطفٌ على يُولج. واختلافُهما صيغةً لما أنَّ إيلاجَ أحدِ المَلَوين في الآخر متجددٌ حيناً فحيناً، وأمَّا تسخيرُ النيرين فأمرٌ لا تعدُّدَ فيه وإنَّما المتعددُ والمتجددُ آثارُه. وقد أُشير إليه بقوله تعالى: ﴿ كُلٌّ يَجْرِى ﴾ أي بحسب حركتِه الخاصَّةِ وحركتِه القسريةِ على المداراتِ اليوميَّةِ المُتعدّدةِ حسب تعدُّدِ أيَّامِ السَّنةِ جرياناً مستمرّاً ﴿ لِأجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قدَّره الله تعالى لجريانهما وهو يومُ القيامةِ كما رُوي عن الحسنِ رحمه الله وقيل: جريانُهما عبارةٌ عن حركتيهما الخاصَّتينِ بهما في فلكيهما، والأجلُ المُسمَّى هو منتهى دورتيهما، ومدَّةُ الجريانِ للشَّمسِ سنةٌ وللقمرِ شهرٌ وقد مرَّ تفصيلُه في سُورةِ لقمانَ ﴿ ذلكم ﴾ إشارةٌ إلى فاعلِ الأفاعيلِ المذكورةِ، وما فيه من معنى البُعدِ للإيذانِ بغايةِ العظمةِ وهو مبتدأٌ وما بعدَه أخبارٌ مترادفةٌ أي ذلكُم العظيمُ الشَّأنِ الذي أبدعَ هذه الصَّنائعَ البديعةَ ﴿ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الملك ﴾ وفيه من الدّلالةِ على أنَّ إبداعَه تعالى لتلك البدائعِ ممَّا يُوجبُ ثبوتَ تلك الأخبارِ له ما لا يخفى، ويجوزُ أنْ يكونَ الأخيرُ كلاماً مُبتدأً في مقابلةِ قولِه تعالى: ﴿ والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ للدّلالةِ على تفرُّدِه تعالى بالأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ. وقُرىء يدعُون بالياءِ التحتانيةِ. والقطميرُ لفافةُ النَّواةِ وهو مَثَلٌ في القلَّةِ والحقارةِ.

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَاءَكُمْ ﴾

(39/640)

---

استئنافٌ مقرر لمضمون ما قبله كاشفٌ عن جليةِ حالِ ما يدعونه بأنَّه جمادٌ ليس من شأنِه السَّماعُ ﴿ وَلَوْ سَمِعُواْ ﴾ على الفرضِ والتَّقديرِ ﴿ مَا استجابوا لَكُمْ ﴾ لعجزِهم عن الأفعالِ بالمرَّةِ لا لما قيلَ من أنَّهم متبرِّئون منكم وممَّا تدعُون لهم فإنَّ ذلك ممَّا لا يُتصور منهم في الدُّنيا ﴿ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أي يجحدونَ بإشراكِكم لهم وعبادتِكم إيَّاهم بقولِهم ما كنتُم إيَّانا تعبدونَ ﴿ وَلاَ يُنَبّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أي لا يخبرك بالأمرِ مخبرٌ مثلُ خبيرٍ أخبرَك به وهو الحقُّ سبحانَه فإنَّه الخبيرُ بكُنهِ الأمورِ دُونَ سائرِ المخبرين. والمرادُ تحقيقُ ما أخبر به من حالِ آلهتِهم ونفيُ ما يدَّعُون لهم من الإلهيةِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(40/640)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا يَسْتَوِى البحران هذا عَذْبٌ ﴾

طيب ﴿ فُرَاتٌ ﴾ كاسر العطش ومزيله .

وقال الراغب : الفرات الماء العذب يقال للواحد والجمع ، ولعل الوصف على هذا على طرز أسود حالك وأصفر فاقع ﴿ سَآئِغٌ شَرَابُهُ ﴾ سهل انحداره لخلوه مما تعافه النفس .

وقرأ عيسى ﴿ سيغ ﴾ كميت بالتشديد ، وجاء كذلك عن أبي عمرو .
وعاصم ، وقرأ عيسى أيضاً ﴿ سيغ ﴾ كميت بالتخفيف ﴿ فُرَاتٌ وهذا مِلْحٌ ﴾ متغير طعمه التغير المعروف ، وقرأ أبو نهيك .

وطلحة ﴿ مِلْحٌ ﴾ بفتح الميم وكسر اللام ، قال أبو الفتح الرازي : وهي لغة شاذة ، وجوز أن يكون مقصوراً من مالح للتخفيف ، وهو مبني على ورود مالح والحق وروده بقلة وليس بلغة رديئة كما قيل .

وفرق الإمام بين الملح والمالح بأن الملح الماء الذي فيه الطعم المعروف من أصل الخلقة كماء البحر والمالح الماء الذي وضع فيه ملح فتغير طعمه ولا يقال فيه إلا مالح ولم أره لغيره ، وقال بعضهم : لم يرد مالح أصلاً وهو قول ليس بالمليح ﴿ أُجَاجٌ ﴾ شديد الملوحة والحرارة من قولهم أجيج النار وأجتها ، ومن هنا قيل هو الذي يحرق بملوحته ، وهذا مثل ضرب للمؤمن والكافر ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلّ ﴾ أي من كل واحد منهما ﴿ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ أي غضا جديداً وهو السمك على ما روي عن السدى ، وقيل الطير والسمك واختار كثير الأول ، والتعلير عن السمك باللحم مع كونه حيواناً قيل للتلويح بانحصار الانتفاع به في

الأكل ، ووصفه بالطراوة للاشعار بلطافته والتنبيه على المسارعة إلى أكله لئلا يتسارع إليه الفساد كما ينبىء عنه جعل كل من البحرين مبدأ أكله .

واستدل مالك .

(41/640)

---

والثوري بالآية حيث سمي فيها السمك لحما على حنث من حلف لا يأكل لحماً وأكل سمكاً ، وقال غيرهما : لا يحنث لأن مبني الأيمان على العرف وهو فيه لا يسمى لحما ولذلك لا يحنث من حلف لا يركب دابة فركب كافراً مع أن الله تعالى سماه دابة في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدوابِ عِندَ الله الذين كَفَرُواْ ﴾ [ الأنفال : 55 ] ولا يبعد عندي أن يراد بلحماً لحم السمك ودعوى التلويح بانحصار الانتفاع بالسمك في الأكل لا أظنها تامّة ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ ﴾ ظاهره ومن كل تستخرجون ﴿ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ والحلية التي تستخرج من البحر الملح اللؤلؤ والمرجان ويابس ذلك الرجال والنساء وإن اختلفت كيفية اللبس ، أو يقال عبر عن لبس نسائهم بلبسهم لكونهن منهم أو لكون لبسهن لأجلهم ، ولا نعلم حلية تستخرج من البحر العذب ، ولا يظهر هنا اعتبار إسناد ما للبعض إلى الكل كما اعتبر ذلك في قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [ الرحمن : 22 ] وكون

بعض الضخور التي في مجاري السيول قد تكسر فيوجد فيها ماس وهو حلية تلبس إن صح لا ينفع اعتباره هنا إذ ليس فيه استخراج الحلية من البحر العذب ظاهراً ، وقيل : لا يبعد أن تكون الحلية المستخرجة من ذلك عظام السمك التي يصنع منها قبضات للسيوف والخناجر مثلاً فتحمل ويتحلى بها ، وفيه ما فيه لا سيما إذا كانت الحلية كالحلى ما يتزين به من مصنوع المعدنيات أو الحجارة ، وقال الخفاجي : لا مانع من أن يخرج اللؤلؤ من المياه العذبة وإن لم نره ، ولا يخفى ما فيه من العبد .

وذهب بعض الأجلة للخلاص من القيل والقال أن المراد وتستخرجون من البحر الملح خاصة حلية تلبسونها ويشعر به كلام السدى يحتمل ثلاثة أوجه ، الأول أنه استطراد في صفة البحرين وما فيهما من النعم والمنافع .



---

والثاني أنه تتميم وتكميل للتمثيل لتفضيل المشبه به على المشبه وليس من ترشيح الاستعارة كما زعم الطيبي في شيء بل إنما هو استدارك لدعوى الاشتراك بين المشبه والمشبه به يلزم منه أن يكون المشبه أقوى وهذا الاستدراك مخصوص بالملح ، وإيضاحه أنه شبه المؤمن والكافر بالبحرين ثم فضل الأجاج على الكافر بأنه قد شارك الفرات في منافع

والكافر خلو من النفع فهو على طريقة قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذلك فَهِيَ كالحجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [ البقرة : 74 ] ثم قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [ البقرة : 74 ] والثالث أنه من تتمة التمثيل على معنى أن البحرين وإن اشتركا في بعض الفوائد تفاوتاً فيما هو المقصود بالذات لأن أحدهما خالطه ما لم يبقه على صفاء فطرته كذلك المؤمن والكافر وان اتفق اتفاقهما في بعض المكارم كالشجاعة والسخاوة متفاوتان فيما هو الأصل لبقاء أحدهما على الفطرة الأصلية دون الآخر فجملة ﴿ وَمِن كُلٍّ ﴾ الخ حالية ، وعندي خير الأوجه الثلاثة أوسطها ، وعلى كل يحصل الجواب عما قيل كيف يناسب ذكر منافع البحر الملح وقد شبه به الكافر ؟ وقال أبو حيان : إن قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى البحران ﴾ الخ لبيان ما يستدل به كل عاقل على أنه مما لا مدخل لصنم فيه .

(43/640)

---

وقال الإمام : الأظهر أنه دليل لكمال قدرة الله عز وجل ، وما ذكرنا أولاً من أنه تمثيل للمؤمن والكافر هو المشهور رواية ودراية وفيه من محاسن البلاغة ما فيه ﴿ وَتَرَى الفلك ﴾ السفن ﴿ فِيهِ ﴾ أي في كل منعما وانظر هل يحسن رجوع الضمير للحبر الملح لانسياق

الذهن إليه من قوله سبحانه : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ بناء على أن المعروف استخراجها منه خاصة وأمر الفلك فيه أعظم من أمرها في البحر العذب ولذا اقتصر على رؤية الفلك فيه على الحال التي ذكر الله تعالى ، وأفرد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق لأن الخطاب لكل أحد تتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ شواق للماء يجريها مقبلة ومدبرة بريح واحدة فالمخر الشق .

قال الراغب : يقال مخرت السفينة مخراً ومخوراً إذا شقت الماء بجوجئها ، وفي الكشاف يقال : مخرت السفينة الماء ويقال للسحاب بنات مخر لأنها تمخر الهواء ، والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره ، وقيل المخر صوت جرى الفلك وجاء في سورة النحل ﴿ وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ بتقديم ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ وتأخير ﴿ فِيهِ ﴾ وعكس ههنا فقيل في وجه لأنه علق ﴿ فِيهِ ﴾ هنا بترى وثمت بمواخر ، ولا يحسم مادة السؤال .

(44/640)

---

والذي يظهر لي في ذلك أن آية النحل سيقت لتعداد النعم كما يؤذن بذاك سوابقها ولواحقها وتعقيب الآيات بقوله سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [ إبراهيم : 34 ]

فكان الأهم هناك تقديم ما هو نعمة وهو مخر الفلك للماء بخلاف ما هنا فإنه إنما سيق استطراداً أو تتمة للتمثيل كما علمت آنفاً فقدم فيه ﴿ فِيهِ ﴾ إيذاناً بأنه ليس المقصود بالذات ذلك ، وكأن الاهتمام بما هن اقتضى أن يقال في تلك الآية ﴿ وَلِتَبْتَغُوا ﴾ بالواو ، ومخالفة ما هنا لذلك اقتضت ترك الواو في قوله سبحانه : ﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ أي من فضل الله تعالى بالنقلة فيها وهو سبحانه وإن لم يجر له ذكر في الآية فقد جرى له تاعلى ذكر فيما قبلها ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه عز شأنه .

واللام متعلقة بمواخر ، وجوز تعلقها بمحذوف دل عليه الأفعال المذكرة كسخر البحرين وهيأهما أو فعل ذلك ﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تعرفون حقوقه تعالى فتقومون بطاعته عز وجل وتوحيده سبحانه .

ولعل للتعليل على ما عليه جمع من الأجلة وقد قدمنا ذلك ، وقال كثير : هي للترجي ولما كان محالاً عليه تعالى كان المراد اقتضاء ما ذكر من النعم للشكر حتى كأن كل أحد يترجاه من المنعم عليه بها فهو تمثيل يؤل إلى أمره تاعلى بالشكر للمخاطبين .

﴿ يُولِجُ اللَّيلَ فِى النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيلِ ﴾

بزيادة أحدهما ونقص الآخر بإضافة بعض أجزاء كل منهما إلى الآخر ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ عطف على ﴿ يُولِجُ ﴾ واختلافهما صيغة لما أن إيلاج أحد الملوين في الآخر متجدد حينا فحينا وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه وإنما المتعدد والمتجدد آثاره، وقد أشير إليه بقوله تعالى: ﴿ كُلٌّ ﴾ من الشمس والقمر ﴿ يَجْرِى ﴾ أي بحسب حركته على المدارات اليومية المتعددة حسب تعدد أيام السنة أو بحسب حركتيه الخاصة وهي من المغرب إلى المشرق والقسرية التي هي من المشرق إلى المغرب جريانا مستمراً ﴿ لِاجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قدره الله تعالى لجريانهما وهو يوم القيامة كما روي عن الحسن.

وقيل جريانهما عبارة عن حركتيهما الخاصتين بهما والأجل المسمى عبارة عن مجموع مدة دورتيهما أو منتهاها وهي للشمس سنة وللقمر شهر وقد تقدم الكلام في ذلك مفصلاً ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى فاعل الأفاعيل المذكورة، وما فيه من معنى البعد للإيذان بغاية العظمة وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة أي ذلكم العظيم الشأن الذي أبدع هذه الصنائع البديعة ﴿ الله رَبُّكُمْ لَهُ الملك ﴾ وفيه من الدلالة على أن إبداعه تعالى لتلك البدائع مما يوجب ثبوت تلك الأخبار له تعالى، وفي الكشاف ويجوز في حكم الأعراب إيقاع اسم الله تعالى صفة لاسم الإشارة أو عطف بيان و ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ خبراً لولا أن المعنى يأباه اه.

قال في الكشف: فيه نظر لأن الاسم الجليل جار مجرى العلم فلا يجوز أن يقع وصفاً لاسم الإشارة البتة لا لفظاً ولا معنى، وكأنه فرض على تقدير عدم الغلبة، أما إباء المعنى على

تقدير تجويز الوصف فقد قيل: إن المقصود أنه تعالى المنفرد بالإلهية لا أن المنفرد بالالهية هو ربكم لأن المشركين ما كانوا معترفين بالمنفرد على الاطلاق.

(46/640)

---

وأما عطف البيان فقيل لأنه يوهم تخييل الشرك ألا ترى أنك إذا قلت ذلك الرجل سيدك عندي ففيه نوع شركة لأن ذا اسم مبهم، وكأنه أراد أن البيان حيث يذهب الوهم إلى غيره ويحتمل الشركة مناسب لا في مثل هذا المقام، وأفاد الطيبي أن ذلك يشار به إلى ما سبق للدلالة على جدارة ما بعده بسبب الأوصاف السابقة ولو كان وصفاً أو بياناً لكان المشاء إليه ما بعده، وهذا في الأول حسن دون الثاني اللهم إلا أن يكون قوله: أو عطف بيان إشارة إلى المذهب الذي يجعل الجنس الجاري على المبهم غير وصف فيكون حكمه حكم الوصف إذ ذاك، وبعد أن تبين أن المقام للإشارة إلى السابق فاسم الإشارة قد يجاء به لأغراض آخراه.

وأبو حيان: منع صحة الوصفية للعلمية ثم قال لا يظهر إباء المعنى ذلك، ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿ لَهُ الملك ﴾ جملة مبتدأة واقعة في مقابلة قوله تعالى: ﴿ والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ ويكون ذلك مقرراً لما قبله من التفرد بالالهية والربوبية

واستدلالاً عليه إذ حاصله جميع الملك والتصرف في المبدأ والمنتهى له تعالى وليس لغيره سبحانه منه شيء ، ولذا قيل إن فيه قياساً منطقياً مطوياً .

وجوز أن يكون مقرراً لقوله تعالى : ﴿ والله خَلَقَكُمْ ﴾ [ فاطر : 11 ] الخ وقوله تعالى : ﴿ يُولِجُ ﴾ الخ فجملة ﴿ الذين تَدْعُونَ ﴾ الخ عليه إما استئنافية أيضاً وهي معطوفة على جملة "له الملك" وإما حال من الضمير المستقر في الظرف أعني له ، وعلى الوجه الأول هي معطوفة على جملة "ذلكم الله" الخ أو حال أيضاً ، والقطمير على ما أخرج ابن جرير .

وغيره عن مجاهد لفافة النواة وهي القشر الأبيض الرقيق الذي يكون بين التمر والنواة وهو المعنى المشهور .

وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر أنه القمع الذي هو على رأس التمرة ، وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه القشرة على رأس النواة وهو ما بين القمع والنواة ، وقال الراغب .



---

إنه الأثر على ظهر النواة ، وقيل هو قشر الثوم ، وأياً ما كان فهو مثل للشيء الدنيء الطفيف ، قال الشاعر :

وأبوك يخصف نعله متوركا . . .

ما يملك المسكين من قطمير

وقرأ عيسى .

وسلام .

ويعقوب .

يدعون بالياء التحتانية .

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ ﴾ استئناف مقرر لما قبله كاشف عن جلية حال ما يدعونه بأنه جماد ليس من شأنه السماع ، هذا إذا كان الكلام مع عبدة الأصنام ويحتمل أن يكون مع عبدتها وعبدة الملائكة .

وعيسى وغيرهم من المقربين ، وعدم السماع حينئذ إما لأن المعبود ليس من شأنه ذلك كالأصنام وإما لأنه في شغل شاغل وبعد بعيد عن عابده كعيسى عليه السلام ، وروي هذا عن البلخي أو لأن الله عز وجل حفظ سمعه من أن يصل إليه مثل هذا الدعاء لغاية قبحه وثقله على سمع من هو في غاية العبودية لله سبحانه ، فلا يرد أن الملائكة عليهم السلام يسمعون وهم في السماء كما ورد في بعض الآثار دعاء المؤمنين ربهم سبحانه ؛ وفي نظم ذي النفوس القدسية في سلك الملائكة عليهم السلام من حيثية السماع وهم في مقار نعيمهم توقف عندي بل في سماع كل من الملائكة عليهم السلام وهم في السماء وذوي النفوس

القدسية وهم في مقار نعيمهم نداء من ناداهم غير معتقد فيهم الآلهية توقف عندي أيضاً إذ لم أظفر بدليل سمعي على ذلك والعقل يجوزه لكن لا يكتفي بمجرد تجويزه في القول به .

(48/640)

---

﴿ وَلَوْ سَمِعُواْ ﴾ على سبيل الفرض والتقدير ﴿ مَا استجابوا لَكُمْ ﴾ لأنهم لم يرزقوا قوة التكلم والسماع لا يستلزم ذلك فالمراد باللاستجابة الاستجابة بالقول ، ويجوز أن يراد بها الاستجابة بالفعل أي ولو سمعوا ما نفعوكم لعجزهم عن الأفعال بالمرة ، هذا إذا كان المدعون الأصنام وأما إذا كانوا الملائكة عليهم السلام أو نحوهم من المقربين فعدم الاستجابة القوللية لأن دعاءهم من حيث زعم أنهم آلهة وهم بمعزل عن الإلهية فكيف يجيبون زاعم ذلك فيهم وفيه من التهمة ما فيه ، وعدم الاستجابة الفعلية يحتمل أن يكون لهذا أيضاً ويحتمل أن يكون لأن نفع من دعاهم ليس من وظائفهم ، وقيل لأنهم يرون ذلك نقصاً في العبودية والخضوع لله عز وجل .

ويجوز أن يكون هذا تعليلاً للأول أيضاً فتأمل ﴿ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ فضلاً عن أن يستجيبوا لكم إذا دعوتموهم ، وشرك مصدر مضاف إلى الفاعل أي ويوم القيامة يجحدون إشراككم إياهم وعبادتكم إياهم وذلك بأن يقدر الله تعالى الأصنام على الكلام

فيقولون لهم ما كنتم إيانا تعبدون أو يظهر من حالها ظهور نار القرى ليلا على علم ما يدل على ذلك ولسان الحال أفصح من لسان المقال ، ومن هذا القبيل قول ذي الرمة :

وقفت على ربع لمية ناطق . . .

يخاطبني أثاره وأخاطبه وأسقيه حتى كاد مما أبثه

تكلمني أحجاره وملاعبه . . .

وإن كان المدعوون الملائكة ونحوهم فأمر التكلم ظاهر ، وقد حكى الله تعالى قول الملائكة للمشركين في السورة السابقة بقوله سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلملائكة أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجن أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [ سبأ : 40 ، 41 ] ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أي لا يخبرك بالأمر مخبر مثل مخبر خبيراً خبرك به يعني به تعالى نفسه كما روي عن قتادة .

(49/640)

---

وغيره فإنه سبحانه الخبير بكنه الأمور ، وهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويجوز أن يكون غير مختص أي لا يخبرك أيها السامع كائناً من كنت مخبر هو مثل الخبير العالم الذي لا

تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، والمراد تحقيق ما أخبر سبحانه به من حال آلهتهم ونفى ما يدعون لهم من الإلهية .

وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون ذلك من تمام ذكر الأصنام كأنه قيل : ولا يخبرك مخبر مثل من يخبرك عن نفسه وهي قد أخبرت عن أنفسهما بأنها ليست بآلهة ، وفيه من البعد ما فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

(50/640)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (9) ﴾

ثم أخبر سبحانه عن نوع من أنواع بديع صنعه ، وعظيم قدرته ، ليتفكروا في ذلك ، وليعتبروا به ، فقال : ﴿ والله الذى أَرْسَلَ الرياح ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ الرياح ﴾ ، وقرأ ابن كثير ، وابن محيصن ، والأعمش ، ويحيى بن وثاب ، وحمزة ، والكسائي ( الريح ) بالإفراد ﴿ فَتُثِيرُ سحابا ﴾ جاء بالمضارع بعد الماضي استحضاراً للصورة ، لأن ذلك أدخل في اعتبار المعتبرين ، ومعنى كونها : تثير السحاب أنها تزعجه من حيث هو ﴿ فَسُقْنَاهُ إلى

بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ قال أبو عبيدة : سبيله ، فتسوقه ، لأنه قال : ﴿ فتثير سحاباً ﴾ .

قيل : النكتة في التعبير بالماضيين بعد المضارع : الدلالة على التحقق .

قال المبرد : ميت وميّت واحد ، وقال : هذا قول البصريين ، وأنشد :

ليس من مات فاستراح بميت . . . إنما الميت ميت الأحياء

﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرض ﴾ أي : أحيينا بالمطر الأرض بإنبات ما ينبت فيها ، وإن لم يتقدّم ذكر المطر ، فالسحاب يدل عليه ، أو أحيينا بالسحاب ، لأنه سبب المطر ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي : بعد يبسها ، استعار الإحياء للنبات ، والموت لليبس ﴿ كَذَلِكَ النشور ﴾ أي : كذلك يحيي الله العباد بعد موتهم كما أحيا الأرض بعد موتها ، والنشور : البعث ، من نشر الإنسان نشوراً ، والكاف في محل رفع على الخبرية ، أي : مثل إحياء موات الأرض إحياء الأموات ، فكيف تنكرونه ، وقد شاهدتم غير مرّة ما هو مثله وشبيه به ؟

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة ﴾ قال الفرّاء : معناه : من كان علم العزة لمن هي ؟ فإنها لله جميعاً .



---

وقال قتادة : من كان يريد العزّة ، فليتعزز بطاعة الله ، فجعل معنى فللّه العزّة : الدعاء إلى طاعة من له العزّة ، كما يقال : من أراد المال ، فالمال لفلان ، أي : فليطلبه من عنده .

وقال الزجاج : تقديره من كان يريد بعبادة الله العزّة ، والعزّة له سبحانه ، فإن الله عزّ وجلّ يعزّه في الدنيا والآخرة .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة ﴾ المشركون ، فإنهم كانوا يتعزّزون بعبادة الأصنام : كقوله : ﴿ واتخذوا مِن دُونِ الله ءالِهَةً لّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً ﴾ [ مريم : 81 ] .

وقيل المراد : الذين كانوا يتعزّزون بهم من الذين آمنوا بألسنتهم ﴿ الذين يَتَّخِذُونَ الكافرين أَوْلِيَاء مِن دُونِ المؤمنين أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العزة ﴾ [ النساء : 139 ] الآية .

﴿ فَلِلَّهِ العزة جَمِيعاً ﴾ أي : فليطلبها منه لا من غيره ، والظاهر في معنى الآية : أن من كان يريد العزّة ، ويطلبها ، فليطلبها من الله عزّ وجلّ : فللّه العزّة جميعاً ، ليس لغيره منها شيء ، فتشمل الآية كل من طلب العزّة ، ويكون المقصود بها التنبيه لذوي الأقدار ، وألهمم من أين تنال العزّة ، ومن أيّ جهة تطلب ؟

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ أي : إلى الله يصعد لا إلى غيره ، ومعنى صعوده إليه : قبوله له ، أو صعود الكتبة من الملائكة بما يكتبونه من الصحف ، وخصّ الكلم الطيب بالذكر لبيان الثواب عليه ، وهو يتناول كل كلام يتصف بكونه طيباً من ذكر لله ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وتلاوة ، وغير ذلك ، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد ، أو بالتحميد ، والتمجيد .

وقيل : المراد بصعوده صعوده إلى سماء الدنيا .

وقيل : المراد بصعوده علم الله به ، ومعنى ﴿ والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب ، كما قال الحسن ، وشهر بن حوشب ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو العالية ، والضحاك ، ووجهه : أنه لا يقبل الكلم الطيب إلاّ مع العمل الصالح .

وقيل : إن فاعل ﴿ يرفعه ﴾ هو ﴿ الكلم الطيب ﴾ ، ومفعوله ﴿ العمل الصالح ﴾ ، ووجهه : أن العمل الصالح لا يقبل إلاّ مع التوحيد ، والإيمان .

وقيل : إن فاعل ﴿ يرفعه ﴾ ضمير يعود إلى الله عزّ وجلّ .

والمعنى : أن الله يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب ، لأن العمل يحقق الكلام .

وقيل : والعمل الصالح يرفع صاحبه ، وهو الذي أراد العزّة .

وقال قتادة : المعنى : أن الله يرفع العمل الصالح لصاحبه ، أي : يقبله ، فيكون قوله : ﴿ والعمل الصالح ﴾ على هذا مبتدأ خبره يرفعه ، وكذا على قول من قال يرفع صاحبه .

قرأ الجمهور : ﴿ يصعد ﴾ من صعد الثلاثي .

و﴿ الكلم الطيب ﴾ بالرفع على الفاعلية .

وقرأ علي ، وابن مسعود : ( يصعد ) بضم حرف المضارعة من أصعد ، و ( الكلم الطيب

) بالنصب على المفعولية ، وقرأ الضحاك على البناء للمفعول ، وقرأ الجمهور : ﴿ الكلم ﴾ ، وقرأ أبو عبد الرحمن : ( الكلام ) ، وقرأ الجمهور : ﴿ والعمل الصالح ﴾ بالرفع على العطف ، أو على الابتداء .

وقرأ ابن أبي عبلة ، وعيسى بن عمر بالنصب على الاشتغال .

﴿ والذين يَمْكُرُونَ السيئات لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ انتصاب ﴿ السيئات ﴾ على أنها صفة لمصدر محذوف : أي : يمكرون المكرات السيئات ، وذلك لأن "مكر" لازم ، ويجوز : أن يضمن يمكرون معنى : يكسبون ، فتكون السيئات مفعولاً به .

قال مجاهد ، وقتادة : هم : أهل الرياء .

وقال أبو العالية : هم الذين مكروا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم لما اجتمعوا في دار الندوة .

وقال الكلبي : هم الذين يعملون السيئات في الدنيا .



---

وقال مقاتل : هم : المشركون ، ومعنى ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ : لهم عذاب بالغ الغاية في الشدّة ﴿ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ أي : يبطل ، ويهلك ، ومنه ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ [ الفتح : 12 ] .

والمكر في الأصل: الخديعة، والاحتيال، والإشارة بقوله: ﴿ أولئك ﴾ إلى الذين مكروا السيئات على اختلاف الأقوال في تفسير مكرهم، وجملة: ﴿ يَبُورُ ﴾ خبر مكر أولئك.

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على البعث، والنشور، فقال: ﴿ والله خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ أي: خلقكم ابتداء في ضمن خلق أبيكم آدم من تراب.

وقال قتادة: يعني: آدم، والتقدير على هذا: خلق أباكم الأوّل، وأصلكم الذي ترجعون إليه من تراب ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أخرجها من ظهر آبائكم ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أزواجا ﴾ أي: زوّج بعضكم ببعض، فالذكر زوج الأنثى، أو جعلكم أصنافاً ذكراناً وإناثاً ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ أي: لا يكون حمل، ولا وضع إلاّ والله عالم به، فلا يخرج شيء عن علمه وتدبيره ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِى كتاب ﴾ أي: ما يطول عمر أحد، ولا ينقص من عمره إلاّ في كتاب، أي: في اللوح المحفوظ.

قال الفرّاء: يريد آخر غير الأوّل، فكنى عنه بالضمير كأنه الأوّل: لأن لفظ الثاني لو ظهر كان كالأوّل كأنه قال: ولا ينقص من عمر معمر، فالكناية في عمره ترجع إلى آخر غير الأوّل، ومثله قولك: عندي درهم ونصفه، أي: نصف آخر.

قيل: إنما سمي معمراً باعتبار مصيره إليه.

والمعنى: وما يمدّ في عمر أحد، ولا ينقص من عمر أحد، لكن لا على معنى: لا ينقص من عمره بعد كونه زائداً، بل على معنى: أنه لا يجعل من الابتداء ناقصاً إلاّ وهو في كتاب.

قال سعيد بن جبير : وما يعمر من معمر إلاّ كتب عمره : كم هو سنة ، كم هو شهراً ، كم هو يوماً ، كم هو ساعة ، ثم يكتب في كتاب آخر نقص من عمره ساعة ، نقص من عمره يوم ، نقص من عمره شهر ، نقص من عمره سنة حتى يستوفي أجله ، فما مضى من أجله ، فهو : النقصان ، وما يستقبل ، فهو : الذي يعمره .

وقال قتادة : المعمر من بلغ ستين سنة ، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة .

وقيل : المعنى : إن الله كتب عمر الإنسان كذا إن أطاع ، ودونه إن عصى ، فأيهما بلغ ، فهو في كتاب ، والضمير على هذا يرجع إلى معمر .

وقيل : المعنى : وما يعمر من معمر إلى الهرم ، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلاّ في كتاب ، أي : بقضاء الله قاله الضحاك ، واختاره النحاس .

قال : وهو أشبهها بظاهر التنزيل ، والأولى أن يقال : ظاهر النظم القرآني أن تطويل العمر وتقصيره : هما بقضاء الله ، وقدره لأسباب تقتضي التطويل ، وأسباب تقتضي التقصير .

فمن أسباب التطويل : ما ورد في صلة الرّحم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ونحو ذلك .

ومن أسباب التقصير الاستكثار من معاصي الله عزّ وجلّ ، فإذا كان العمر المضروب

للرجل مثلاً سبعين سنة ، فقد يزيد الله له عليها إذا فعل أسباب الزيادة ، وقد ينقصه منها إذا فعل أسباب النقصان ، والكل في كتاب مبين ، فلا تخالف بين هذه الآية ، وبين قوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [ الأعراف : 34 ] ، ويؤيد هذا قوله سبحانه : ﴿ يَمْحُوا الله مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ [ الرعد : 39 ] ، وقد قدّمنا في تفسيرها ما يزيد ما ذكرنا هنا وضوحاً وبياناً .

قرأ الجمهور : ﴿ ينقص ﴾ مبنياً للمفعول .

وقرأ يعقوب ، وسلام ، وروي عن أبي عمرو : ( ينقص ) مبنياً للفاعل .

وقرأ الجمهور : ﴿ من عمره ﴾ بضمّ الميم .

(55/640)

---

وقرأ الحسن ، والأعرج ، والزهري بسكونها ، والإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ إلى ما سبق من الخلق ، وما بعده ﴿ عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ لا يصعب عليه منه شيء ، ولا يعزب عنه كثير ، ولا قليل ، ولا كبير ، ولا صغير .

ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من بديع صنعه ، وعجيب قدرته ، فقال ﴿ وَمَا يَسْتَوِى البحران هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ فالمراد ب ﴿ البحران ﴾ العذب ،

والمالح ، فالعذب الفرات الحلو ، والأجاج المرّ ، والمراد ب ﴿ سَآئِغٌ شَرَابُهُ ﴾ : الذي يسهل انحداره في الحلق لعذوبته .

وقرأ عيسى بن عمر : ( سيغ ) بتشديد الياء ، وروي تسكينها عنه .

وقرأ طلحة ، وأبو نهيك : ( ملح ) بفتح الميم ﴿ وَمِن كُلٍّ ﴾ منهما ﴿ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ ، وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التي تؤكل ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ الظاهر أن المعنى : وتستخرجون منهما حلية تلبسونها .

وقال المبرّد : إنما تستخرج الحلية من المالح ، وروي عن الزجاج : أنه قال : إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا ، لا من كل واحد منهما على انفراده ، ورجح النحاس قول المبرّد .

ومعنى ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ : تلبسون كل شيء منها بحسبه ، كالخاتم في الأصبع ، والسوار في الذراع ، والقلادة في العنق ، والخلخال في الرجل ، ومما يلبس حلية السلاح الذي يحمل كالسيف ، والدرع ، ونحوهما ﴿ وَتَرَى الفلك فِيهِ ﴾ أي : في كل واحد من البحرين .

وقال النحاس : الضمير يعود إلى الماء المالح خاصة ، ولولا ذلك لقال : فيهما ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ يقال : مخرت السفينة تمخر : إذا شقت الماء .

فالمعنى : وترى السفن في البحرين شواقّ للماء بعضها مقبلة ، وبعضها مدبرة بريح واحدة ، وقد تقدّم الكلام على هذا في سورة النحل ، واللام في ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ متعلقة بما يدل عليه الكلام السابق : أي : فعل ذلك : لتبتغوا ، أو بمواخر .

قال مجاهد : ابتغاء الفضل هو التجارة في البحر إلى البلدان البعيدة في مدّة قريبة كما تقدّم في البقرة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله على ما أنعم عليكم به من ذلك .

قال أكثر المفسرين : إن المراد من الآية ضرب المثل في حقّ المؤمن والكافر ، والكفر والإيمان ، فكما لا يستوي البحران كذلك لا يستوي المؤمن والكافر ، ولا الكفر والإيمان .

﴿ يُولِجُ اليل فِى النهار ويُولِجُ النهار فِى اليل ﴾ أي : يضيف بعض أجزائهما إلى بعض ، فيزيد في أحدهما ، بالنقص في الآخر ، وقد تقدّم تفسيره في آل عمران ، وفي مواضع من الكتاب العزيز ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قدّره الله لجريانهما ، وهو : يوم القيامة .

وقيل : هو المدّة التي يقطعان في مثلها الفلك ، وهو سنة للشمس ، وشهر للقمر .

وقيل : المراد به جري الشمس في اليوم ، والقمر في الليلة .

وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى في سورة لقمان ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ إلى الفاعل لهذه الأفعال ، وهو : الله سبحانه ، واسم الإشارة مبتدأ ، وخبره : ﴿ الله رَبُّكُمْ لَهُ الملك ﴾ أي : هذا الذي من صنعته ما تقدّم : هو : الخالق المقدّر ، والقادر المقتدر المالك للعالم ،

والمتصرّف فيه ، ويجوز : أن يكون قوله : له الملك جملة مستقلة في مقابلة قوله : ﴿ والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ أي : لا يقدرون عليه ، ولا على خلقه ، والقطمير : القشرة الرّقيقة التي تكون بين التمرة والنواة ، وتصير على النواة كاللفافة لها .

وقال المبرّد : هو : شقّ النواة .

وقال قتادة : هو : القمع الذي على رأس النواة .

قال الجوهري : ويقال : هي : النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت منها النخلة .

(57/640)

---

ثم بيّن سبحانه حال هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله بأنهم لا ينفعون ولا يضرّون ، فقال : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَاءكُمْ ﴾ أي : إن تستغيثوا بهم في النوائب لا يسمعوا دعاءكم ، لكونها جمادات لا تدرك شيئاً من المدركات ﴿ وَلَوْ سَمِعُواْ ﴾ على طريقة الفرض ، والتقدير ﴿ مَا استجابوا لَكُمْ ﴾ لعجزهم عن ذلك .

قال قتادة : المعنى ولو سمعوا لم ينفعوكم .

وقيل المعنى : لو جعلنا لهم سماعاً وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم ، ولم يستجيبوا لكم إلى ما دعوتموهم إليه من الكفر ﴿ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أي :

يتبرّءون من عبادتكم لهم، ويقولون ﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ [ يونس : 28 ] ويجوز : أن يرجع : ﴿ والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ [ الأعراف : 197 ] وما بعده إلى من يعقل ممن عبدهم الكفار، وهم : الملائكة، والجنّ، والشياطين .

والمعنى : أنهم يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقاً، وينكرون : أنهم أمروكم بعبادتهم ﴿ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أي : لا يخبرك مثل من هو خبير بالأشياء عالم بها، وهو : الله سبحانه، فإنه لا أحد أخبر بخلقه، وأقوالهم، وأفعالهم منه سبحانه، وهو الخبير بكنه الأمور، وحقائقها .

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : يقوم ملك بالصور بين السماء والأرض، فينفخ فيه، فلا يبقى خلق لله في السماوات والأرض إلاّ من شاء الله إلاّ مات، ثم يرسل الله من تحت العرش منياً كمني الرجال، فتنبت أجسامهم ولحومهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الثرى، ثم قرأ عبد الله ﴿ الله الذى أَرْسَلَ الرياح ﴾ الآية .

وأخرج أبو داود ، والطيالسي ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي رزين العقيلي قال : "قلت : يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ قال : " أما مررت بأرض مجدبة ، ثم مررت بها مخصبة تهتزّ خضراء ؟ قلت : بلى ، قال : كذلك يحيي الله الموتى ، وكذلك النشور " وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود قال : إذا حدّثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله ، إن العبد المسلم إذا قال : سبحان الله ، وبحمده ، والحمد لله ، ولا إله إلاّ الله ، والله أكبر ، وتبارك الله ، قبض عليهنّ ملك يضمهنّ تحت جناحه ، ثم يصعد بهنّ إلى السماء ، فلا يمرّ بهنّ على جمع من الملائكة إلاّ استغفر لقائلهنّ حتى يجيء بهنّ وجه الرحمن ، ثم قرأ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ قال : أداء الفرائض ، فمن ذكر الله في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله ، فصعد به إلى الله ، ومن ذكر الله ، ولم يؤدّ فرائضه ردّ كلامه على عمله ، وكان عمله أولى به .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾ الآية قال : يقول ليس أحد قضيت له طول العمر ، والحياة إلاّ وهو بالغ ما قدّرت له من العمر وقد قضيت له ذلك ، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدّرت له لا يزاد عليه ، وليس أحد قضيت

له أنه قصير العمر ، والحياة ببالغ العمر ، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتب له ، فذلك قوله :

﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَابٍ ﴾ يقول : كل ذلك في كتاب عنده .

(59/640)

---

وأخرج أحمد ، ومسلم ، وأبو عوانة ، وابن حبان ، والطبراني ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقرّ في الرحم بأربعين ، أو بخمسة وأربعين ليلة ، فيقول : أيّ ربّ أشقي أم سعيد ؟ أذكر أم أنثى ؟ فيقول الله ، ويكتبان ، ثم يكتب عمله ، ورزقه ، وأجله ، وأثره ، ومصيبته ، ثم تطوى الصحيفة ، فلا يزاد فيها ، ولا ينقص " وأخرج ابن أبي شيبة ، ومسلم ، والنسائي ، وأبو الشيخ عن عبد الله بن مسعود قال : قالت أمّ حبيبة : اللهمّ أمتعني بزوجي النبيّ ، وبأبي أبي سفيان ، وبأخي معاوية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنك سألت الله لآجال مضروبة ، وأيام معدودة ، وأرزاق مقسومة ، ولن يعجل الله شيئاً قبل حله ، أو يؤخر شيئاً ، ولو كنت سألت الله : أن يعيذك من عذاب في النار ، أو عذاب في القبر كان خيراً وأفضل " وهذه الأحاديث مخصصة بما ورد من قبول الدعاء ، وأنه يعتلج هو والقضاء ، وبما ورد في صلة الرحم أنها تزيد في العمر ، فلا معارضة بين الأدلة كما

قدّمنا .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ قال : القطمير القشر ، وفي لفظ : الجلد الذي يكون على ظهر النواة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(60/640)

---

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ الحمد للَّهِ فَاطِرِ السماوات والأرض جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً أولي أَجْنِحَةٍ مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ﴾ الآية .

الألف واللام في قوله : الحمد لله للاستغراق : أي جميع المحامد ثابت لله جل وعلا ، وقد أثنى جل وعلا على نفسه بهذا الحمد العظيم ، معلماً خلقه في كتابه : ان يثنوا عليه بذلك ، مقترناً بكونه فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلاً ، وذلك يدل على أنّ خلقه للسماوات والأرض ، وما ذكر معه يدلّ على عظمته ، وكمال قدرته ، واستحقاقه للحمد لذاته لعظمته وجلاله وكمال قدرته مع ما في خلق السماوات والأرض ، من النعم على بني آدم فهو بخلقهما مستحق للحمد للذاته ، ولإنعامه على الخلق بهما ، وكون خلقهما جامعاً

بين استحقاق الحمدين المذكورين ، جاءت آيات من كتاب الله تدل عليه أمّا كون ذلك يستوجب حمد الله لعظمته وكماله ، واستحقاقه لكلّ ثناء جميل فقد جاء في آيات من كتاب الله تعالى كقوله تعالى في أول سورة الأنعام : ﴿ الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [ الأنعام : 1 ] الآية . وقوله في أول سورة سبأ ﴿ الحمد للَّهِ الذي لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ [ سبأ : 1 ] الآية . وقوله تعالى في أول سورة الفاتحة : ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [ الفاتحة : 2 ] وقد قدّمنا أن قوله : ربّ العالمين بيّنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العالمين قَالَ رَبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ [ الشعراء : 2324 ] . وكقوله تعالى : ﴿ وَسَلاَمٌ على المرسلين والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [ الصافات : 181182 ] وقوله : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحق وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [ الزمر : 75 ] .

(61/640)

---

وأما استحقاقه للحمد على خلقه بخلق السماوات والأرض ، لما في ذلك من إنعامه على بني آدم فقد جاء في آيات عن كتاب الله ، فقد بيّن تعالى أنه أنعم على خلقه ، بأن سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض في آيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي

السماوات وَمَا فِي الأرض جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ [ الجاثية : 13 ] وقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشمس والقمر دَآئِبَينَ ﴾ [ إبراهيم : 33 ] الآية . وقوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين ﴾ [ الأعراف : 54 ] وقد قدمنا الآيات الموضحة لمعنى تسخير ما في السماوات لأهل الأرض في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ الآية [ الحجر : 17 ] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ الله يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس ﴾ [ الحج : 75 ] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَاطِرِ السماوات والأرض ﴾ أي خالق السماوات والأرض ، ومبدعهما على غير مثال سابق .

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة : قال سفيان الثوري ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض : حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما لصاحبه : أنا فطرتها أي بدأتها .

قوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ الآية .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن ما يفتحه للناس من رحمته وإنعامه عليهم بجميع أنواع النعم ، لا يقدر أحد كائناً من كان أن يمسكه عنهم ، وما يمسكه عنهم من رحمته وإنعامه لا يقدر أحد كائناً من كان أن يرسله إليهم ، وهذا معلوم بالضرورة من الدِّين ، والرحمة المذكورة في الآية عامّة في كل ما يرحم الله به خلقه من الإنعام الدنيوي والأخروي ، كفتحه لهم رحمة المطر ، كما قال تعالى : ﴿ فانظر إلى آثَارِ رَحْمَةِ الله كَيْفَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [ الروم : 50 ] .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْرىً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [ الأعراف : 57 ] .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ [ الشورى : 28 ] الآية ، ومن رحمته إرسال الرسل ، وإنزال الكتب كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ ترجوا أَن يلقى إِلَيْكَ الكتاب إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [ القصص : 86 ] كما تقدّم إيضاحه في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ [ الكهف : 65 ] الآية .

وما تضمّنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الغفور الرحيم ﴾ [ يونس : 107 ] . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [ الفتح : 11 ] الآية . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن ذَا الذي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ [ الأحزاب : 17 ] الآية إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدّمنا بعض الكلام على هذا في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ ﴾ [ الأنعام : 17 ] و ( ما ) في قوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ ﴾ وقوله : ( ومَا يُمْسِكْ ) شرطيّة ، وفتح الشيء التمكين منه وإزالة الحواجز دونه والإمساك بخلاف ذلك .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السمآء والأرض ﴾ .

الاستفهام في قوله : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ ﴾ إنكاري فهو مضمن معنى النفي .

والمعنى : لا خالق إلا الله وحده ، والخالق هو المستحق للعبادة وحده .

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ ﴾ [ الرعد : 16 ] وفي سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى :

﴿ واتخذوا مِن دُونِه آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [ الفرقان : 3 ] وفي غير ذلك من المواضع .

*(64/640)*

---

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السمآء والأرض ﴾ يدّل على أنه تعالى هو الرازق وحده ، وأن الخلق في غاية الاضطرار إليه تعالى .

والآيات الدالة على ذلك كثيرة كقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هذا الذي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ [ الملك : 21 ] وقوله : ﴿ فابتغوا عِندَ الله الرزق ﴾ [ العنكبوت : 17 ] .

وقد قدّمنا كثيراً من الآيات الدالة على ذلك في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [ الإسراء : 9 ] .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (4)

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من تسليته صلى الله عليه وسلم ، بأنّ ما لاقاه من قومه من التكذيب لاقاه الرسل الكرام من قومهم قبله صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ على مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حتى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [ الأنعام : 34 ] وقوله تعالى : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ

قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [ فصلت : 43 ] والآيات بمثل ذلك كثيرة معروفة.

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ .

قد قدمنا الآيات التي بمعناه في مواضع من هذا الكتاب المبارك كقوله تعالى في الكهف : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ [ الكهف : 50 ] الآية.

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السعير ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج الكلام على قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إلى عَذَابِ السعير ﴾ [ الحج : 4 ].

*(65/640)*

---

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (8)

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ ﴾ [ الأنعام : 33 ] وفي الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ ﴾ [ الكهف : 6 ] الآية . وغير ذلك من المواضع .

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (9)

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن إحياءه تعالى الأرض بعد موتها المشاهد في دار الدنيا برهان قاطع على قدرته على البعث ، قد تقدّم إيضاحه بالآيات القرآنية في مواضع كثيرة في سورة البقرة والنحل والأنبياء وغير ذلك ، وقد تقدّمت الإحالة عليه مراراً .

قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة فَلِلَّهِ العزة جَمِيعاً ﴾ .

بيّن جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة : أنّ من كان يريد العزّة فإنها جميعها لله وحده ، فليطلبها منه وليتسبب لنيلها بطاعته جل وعلا ، فإنّ من أطاعة أعطاه العزّة في الدنيا والآخرة ، أما الذين يعبدون الأصنام لينالوا العزّة بعبادتها ، والذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، يبتغون عندهم العزّة ، فإنهم في ضلال وعمى عن الحق ، لأنهم يطلبون العزّة من محلّ الذل .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات من كتاب الله تعالى كقوله تعالى : ﴿ واتخذوا مِن دُونِ الله آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ [ مريم : 8182 ] وقوله تعالى : ﴿ الذين يَتَّخِذُونَ الكافرين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ المؤمنين أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العزة فَإِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ [ النساء : 139 ] وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً هُوَ السميع العليم ﴾ [ يونس : 65 ] . وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ ﴾ [ المنافقون : 8 ] الآية وقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [ الصافات : 180 ] والعزّة : الغلبة والقوة ، ومنه قول الخنساء :

كأن لم يكونوا حمى يختشى . . . إذ الناس إذ ذاك من عزيزا

أي من غلب استلب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَعَزَّنِي فِي الخطاب ﴾ [ ص : 23 ] أي غلبني وقوي عليّ في الخصومة .

وقول من قال من أهل العلم : إن معنى الآية : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة ﴾ أي يريد أن يعلم لمن العزة ، أصوب منه ما ذكرنا . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ والذين يَمْكُرُونَ السيئات لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ الآية .

قد تقدّم بعض الكلام عليه في سورة النحل مع إعراب السيئات .

وقد قدمنا في مواضع أخر أن من مكرهم السيئات كفرهم بالله وأمرهم أتباعهم به، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الذين استضعفوا لِلَّذِينَ استكبروا بَلْ مَكْرُ الليل والنهار إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بالله وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً ﴾ [ سبأ: 33 ] وكقوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ [ نوح: 2223 ] العلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ والله خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾.

قد تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ [ الحج: 5 ] الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿ الله يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أنثى وَمَا تَغِيضُ الأرحام وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [ الرعد: 8 ] مع بيان الأحكام المتعلقة بالآية.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾

قد قدمنا بعض الكلام عليه في آخر سورة الأحزاب، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [ الأحزاب: 72 ] وفي سورة الفرقان في الكلام

على قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ [الفرقان: 61].

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي البحران هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾.

تقدم إيضاحه في سورة الفرقان في الكلام على قول تعالى: ﴿ وَهُوَ الذي مَرَجَ البحرين هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [الفرقان: 53].

(68/640)

---

قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾.

قد تقدم الكلام عليه مع بسط أحكام فقهية تتعلق بذلك في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [النحل: 14].

وتقدّم في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَامَعْشَرَ الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنعام: 130].

أن قوله في آية فاطر هذه ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ دليل قرآني واضح على بطلان دعوى من ادّعى من العلماء أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلاّ من البحر الملح خاصة.

قوله تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا استجابوا لَكُمْ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ الآية .

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [ مريم : 82 ] وفي غيره من المواضع . انتهى انتهى . اهـ

﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(69/640)

---

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » ومن دلائل قدرة اللّه ، وكمال عزته ، أنه جمع بين البحرين ، وفرق بينهما فى آن . . فهما فى واقع الحياة كائن واحد ، يتشكل من مادة واحدة هى الماء .

ومع هذا فهما طبيعتان متغايرتان . . « هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ » أي ماء حلو :

« سائغ شرابه » أي تستبغ النفس شرابه ، ويلذ لها طعمه . . « وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ »

(70/640)

أي كثير الملوحة ثم إنهما مع هذا الاختلاف، يثمران للإنسان ثمرا، يجنبه منهما على سواء، فمن الماء العذب والماء الملح، يأكل لحما طريا، هو ما يستخرج منهما من أنواع السمك.. كما يستخرج منهما حلىّ تلبس للزينة، كاللؤلؤ، والمرجان، وأنواع الصدف، وغيرها.. وعلى كلا البحرين ـ العذب والملح ـ تجرى السفن محملة بالبضائع والأمتعة، والناس وفى الآية الكريمة أكثر من إشارة.

فأولا: الناس، وأصلهم من ماء، كهذا الماء. هم هذه النطفة، وقد فرقت القدرة الإلهية بينهم، كما فرقت بين العذب والملح فهناك المؤمنون والكافرون، وهما غير متساويين، كما أن الماء العذب والماء الملح غير متساويين.

وثانيا: الماء العذب، يقابله المؤمن، والماء الملح، يقابله الكافر. والمؤمن طيب، مقبول فى الحياة الإنسانية.. إنّه الحياة التي تمسك بوجودها على الصحة والسلامة، كالماء العذب، فهو الذي يمسك حياة الأحياء، ويقيم وجودها..

وثالثا: الماء الملح، وهو على ما به من ملوحة لا تقبلها النفس، يشارك الماء العذب، فى استكمال حياة الناس، وفى جلب كثير من المصالح لهم. وكذلك الكافر، إنه ـ على ما به ـ يشارك فى بناء الحياة الإنسانية، ويمثّل جانبا مهمّا منها. إنه الكفة الأخرى التي يعتدل بها ميزان الحياة.. وإنه لولا الكافر، ما استبان وجه المؤمن، ولا عرف فضله، ومقامه..

ورابعا : الماء الملح ، هو الكثرة الغالبة فيما على الأرض من ماء ، وكذلك الكفر ، هو الوجه العريض فى دنيا الناس ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَما أَكْثَرُ النَّاسِ.وَلَوْ حَرَصْتَ. بِمُؤْمِنِينَ » (103 : يوسف) وخامسا : أنه برسالات السماء ، وهدى الرسل ، يخرج المؤمنون من أحشاء

(71/640)

---

هذا الكفر ، وذلك بعد صراع ومعاناة . . تماما كما يخرج الماء العذب من صدر المحيطات ، بفعل الرياح التي تثير أمواجها ، وتخرج بخارها ، وتعلو به فى طبقات الجو ، ثم تشكّله سحابا ، تدفع به إلى حيث أراد اللّه ، وإلى حيث قدر لهذا السحاب أن ينزل من ماء . . وهناك صور كثيرة لا تنتهى ، يمكن أن يراها الناظرون فى الآية الكريمة ، وفى النظر إلى الناس على ضوئها . .

قوله تعالى : « يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ » ومن قدرة اللّه ، وبسطة سلطانه ، وكمال عزته . . أنه.سبحانه.« يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ » أي أنه سبحانه يدخل الليل ، بظلامه الكثيف ، فى أحشاء النهار ، فيشتمل عليه النهار ،

ويستولى بسلطانه المشرق، على ظلماته المتراكمة . .

فإذا الدنيا وقد خلعت هذا الرداء الأسود، ولبست ذلك الثوب النورانى، كما تلبس العروس ثوب زفافها . . وأنه سبحانه. بقدرته. «يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ» فيدخل هذا النور الساطع فى أحشاء الظلام، فيستولى الظلام بسلطانه على هذا النور . . وهكذا الحياة . . نور وظلام، وخير وشر، وعذب فرات وملح أجاج، ومؤمن وكافر . .

.وقوله تعالى: «وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ . . كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى» أي ومن قدرته سبحانه، أنه سخر الشمس والقمر لسلطانه، وأجراهما بقدرته، كيف شاء، وأقامهما على هذا النظام المحكم الذي لا يدخل عليه أي اضطراب أو خلل:

(72/640)

---

«لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (40 : يس) .قوله تعالى: «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ . . لَهُ الْمُلْكُ» أي ذلك الذي أقام الوجود على هذا النظام، واستولى بسلطانه على كل شىء فيه. هو الرب، الخالق الذي لا رب سواه ولا خالق غيره . . فمن ابتغى ربّا غيره فقد ضل، ومن عبد معبودا سواه فقد هلك . . ذلك هو ربّ العالمين. له الملك، وله الخلق والأمر . .

.قوله تعالى : « وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ » القطمير : هو القشرة الرقيقة التي تكون غلافا للنواة فى داخل الثمرة . .

أمّا الذين يعبدهم المشركون من أرباب ، فإنهم لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض . . ما يملكون جميعا قشرة من نواة . . فما أضلّ من يلتمس العزّة ، ويرجو الخير ممن لا يملك شيئا . .

قوله تعالى : « إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

أي أن هؤلاء المعبودين الذين اتخذهم المشركون أربابا لهم من دون اللّه ، إن يدعهم عابدوهم إلى أي أمر ، ولأية حاجة ـ لا يسمعوا دعاءهم . . لأنهم أحجار صمّاء ، ودمى خرساء . . « وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ » أي لو قدّر لهم أن يسمعوا ـ فرضا ـ أو كان فيهم من يسمع ـ فعلا ـ كالملائكة والجنّ ، وغيرهم ممن يعبدهم المشركون ـ ما استجابوا لهم ، وما أسعفوهم بما يطلبون منهم . . إنهم يطلبون شيئا ممن لا يملك شيئا . . وفاقد الشيء لا يعطيه . .

وقوله تعالى : « وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ » . . وأكثر من هذا

فإن هؤلاء المعبودين يلقون عابديهم يوم القيامة على عداوة لهم ، وكفر بعبادتهم إياهم ، وبراءة من تلك التهمة التي أرادوا أن يلصقوها بهم . .

وقوله تعالى : « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » إشارة إلى أن ما تحدّث به الآية من تلك الحقائق ، هو الحق المطلق الذي لا شك فيه ، لأنه من عند اللّه ، العليم الخبير . . وهذا ما يقضى بالتصديق بهذه الأخبار ، والعمل بها ، وأخذ العبرة منها ، لأنها ممن يعلم الغيب فى السموات والأرض ، وكلّ علم يخالف هذا العلم ، باطل ، وضلال . . انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 11 صـ 861. 865 ﴾

(74/640)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ ﴾

انتقال من الاستدلال بالأحوال في الأجواء بين السماء والأرض على تفرد الله تعالى بالإلهية إلى الاستدلال بما على الأرض من بحار وأنهار وما في صفاتها من دلالة زائدة على دلالة وجود أعيانها ، على عظيم مخلوقات الله تعالى ، فصيغ هذا الاستدلال على أسلوب بديع

إذ اقتصر فيه على التنبيه على الحكمة الربانية في المخلوقات وهي ناموس تمايزها بخصائص مختلفة واتحاد أنواعها في خصائص متماثلة استدلالاً على دقيق صنع الله تعالى كقوله : ﴿ تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ [ الرعد : 4 ] ويتضمن ذلك الاستدلال بخلق البحرين أنفسهما لأن ذكر اختلاف مذاقهما يستلزم تذكر تكوينهما .

فالتقدير : وخلق البحرين العذب والأُجاج على صورة واحدة وخالف بين أعراضهما ، ففي الكلام إيجاز حذف ، وإنما قدم من هذا الكلام تفاوت البحرين في المذاق واقتصر عليه لأنه المقصود من الاستدلال بأفانين الدلائل على دقيق صنع الله تعالى .

وفي "الكشاف" : ضرب البحرين العذب والمالح مثلاً للمؤمن والكافر ، ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه ﴿ ومن كل تأكلون لحماً طرياً ﴾ .

والبحر في كلام العرب : اسم للماء الكثير القار في سعة ، فالفرات والدجلة بَحْران عذْبان وبحر خليج العجم ملح .

وتقدم ذكر البحرين عند قوله تعالى : ﴿ وهو الذي مرج البحرين ﴾ في سورة الفرقان ( 53 ) وقد اتحدا في إخراج الحيتان والحلية ، أي اللؤلؤ والمرجان ، وهما يوجد أجودُهما في بحر العجم حيث مصبّ النهرين ، ولماء النهرين العذب واختلاطه بماء البحر الملح أثر في

جودة اللؤلؤ كما بيّناه فيما تقدم في سورة النحل ، فقوله : ومن كل تأكلون لحماً طرياً ﴿ كُلِّيّةٌ ، وقوله : ﴿ وتستخرجون حلية ﴾ كلٌّ لا كَلية لأن من مجموعها تستخرجون حلية .

(75/640)

---

وكلمة ﴿ كل ﴾ صالحة للمعنيين ، فعطف ﴿ وتستخرجون ﴾ من استعمال المشترك في معنييه .

فالاختلاف بين البحرين بالعذوبة والملوحة دليل على دقيق صنع الله .

والتخالف في بعض مستخرجاتهما والتماثل في بعضها دليل آخر على دقيق الصنع وهذا من أفانين الاستدلال .

والعذب : الحلو حلاوة مقبولة في الذوق .

والملح بكسر الميم وسكون اللام : الشيء الموصوف بالملوحة بذاته لا بإلقاء ملح فيه ، فأما الشيء الذي يلقى فيه الملح حتى يكتسب ملوحة فإنما يقال له : مَالِح ، ولا يقال : ملح .

ومَعنى : ﴿ سائغ شرابه ﴾ أن شربه لا يكلف النفس كراهة ، وهو مشتق من الإِساغة وهي استطاعة ابتلاع المشروب دون غصة ولا كره .

قال عبد الله بن يَعرب :

فساغ لي الشراب وكنت قبْلاً

أكاد أغُصّ بالماء الحميم . . .

والأجاج : الشديد الملوحة ، وتقدم ذكر البحر في قوله تعالى : ﴿ ويعلم ما في البر والبحر ﴾ في سورة الأنعام ( 59 ) ، وبقية الآية تقدم نظيره في أول سورة النحل .

وتقديم الظرف في قوله : فيه مواخر ﴾ على عكس آية سورة النحل ، لأن هذه الآية مسوقة مساق الاستدلال على دقيق صنع الله تعالى في المخلوقات وأُدمج فيه الامتنان بقوله : ﴿ تأكلون . . . . وتستخرجون حلية ﴾ وقوله : ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ فكان المقصد الأول من سياقها الاستدلال على عظيم الصنع فهو الأهم هنا .

ولما كان طُفُو الفلك على الماء حتى لا يَغْرِق فيه أظهرَ في الاستدلال على عظيم الصنع من الذي ذكر من النعمة والامتنان قدم ما يدل عليه وهو الظرفية في البحر .

والمخر في البحر آية صنع الله أيضاً بخلق وسائل ذلك والإلهام له ، إلاّ أن خطور السفر من ذلك الوصف أو ما يتبادر إلى الفهم فأخر هنا لأنه من مستتبعات الغرض لا من مقصده فهو يستتبع نعمة تيسير الأسفار لقطع المسافات التي لو قطعت بسير القوافل لطالت مدة الأسفار .

ومن هنا يلمعُ بارقُ الفرقِ بين هذه الآية وآية سورة النحل في كون فعل ﴿ لتبتغوا ﴾ غير معطوف بالواو هنا ومعطوفاً نظيره في آية النحل لأن الابتغاء علق هنا بـ ﴿ مواخر ﴾ إيقافاً على الغرض من تقديم الظرف ، وفي آية النحل ذكر المخر في عداد الامتنان لأنه به تيسيرَ الأسفار ، ثم فصل بين ﴿ مواخر ﴾ وعلته بظرف ﴿ فيه ﴾ ، فصار ما يؤمىء إليه الظرفُ فصلاً بغرض أُدمج إدماجاً وهو الاستدلال على عظيم الصنع بطُفُوّ الفلك على الماء ، فلما أريد الانتقال منه إلى غرض آخر وهو العود إلى الامتنان بالمخر لنعمة التجارة في البحر عطف المغاير في الغرض .

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى

استدلال عليهم بما في مظاهر السماوات من الدلائل على بديع صنع الله في أعظم المخلوقات ليتذكروا بذلك أنه الإله الواحد .

وتقدم الكلام على نظير هذه الآية في سورة لقمان ، سوى أن هذه الآية جاء فيها ﴿ كل يجري لأجل ﴾ فعدي فعل ﴿ يجري ﴾ باللام وجيء في آية سورة لقمان تعدية فعل ﴿ يجري ﴾ بحرف ( إلى ) ، فقيل اللام تكون بمعنى ( إلى ) في الدلالة على الانتهاء ، فالمخالفة بين الآيتين تفنن في النظم .

وهذا أباه الزمخشري في سورة لقمان وردّه أغلظ ردّ فقال : ليس ذلك من تعاقب الحرفين

ولا يَسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العَطن ولكن المعنيين أعني الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض لأن قولك : يجري إلى أجل مسمى معناه يبلغه ، وقوله : ﴿ يجري لأجل ﴾ تريد لإِدراك أجل ا ه .

(77/640)

---

وجعل اللام للاختصاص أي ويجري لأجْل أَجَل ، أي لبلوغه واستيفائه ، والانتهاء والاختصاص كل منهما ملائم للغرض ، أي فمآل المعنيين واحد وإن كان طريقه مختلفاً ، يعني فلا يعد الانتهاء معنى للام كما فعل ابن مالك وابن هشام ، وهو وإن كان يرمي إلى تحقيق الفرق بين معاني الحروف وهو مما نميل إليه إلا أننا لا نستطيع أن ننكر كثرة ورود اللام في مقام معنى الانتهاء كثرة جعلت استعارة حرف التخصيص لمعنى الانتهاء من الكثرة إلى مساويه للحقيقة ، اللهم إلا أن يكون الزمخشري يريد أن الأجل هنا هو أجل كل إنسان ، أي عمره وأن الأجل في سورة لقمان هو أجل بقاء هذا العالم .

وهو على الاعتبارين إدماج للتذكير في خلال الاستدلال ففي هذه الآية ذكّرهم بأن لأعمارهم نهاية تذكيرا مراداً به الإِنذار والوعيد على نحو قوله تعالى في سورة الأنعام ( 60 ) ﴿ ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ﴾ واقتلاعُ الطغيان والكبرياء من نفوسهم .

ويريد ذلك أن معظم الخطاب في هذه الآية موجه إلى المشركين ، ألا ترى إلى قوله بعدها :
والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ وفي سورة لقمان الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو عامّ لكل مخاطب من مؤمن وكافر فكان إدماج التذكير فيه بأن لهذا العالم انتهاء أنسب بالجميع ليستعدّ له الذين آمنوا وليرغم الذين كفروا على العلم بوجود البعث لأنّ نهاية هذا العالم ابتداء لعالم آخر .

﴿ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الملك والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ ﴾ .

استئناف موقعه موقع النتيجة من الأدلة بعد تفصيلها .

واسم الإشارة موجه إلى من جرت عليه الصفات والأخبار السابقة من قوله : ﴿ والله الذي أرسل الرياح مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا استجابوا لَكُمْ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾



---

[ فاطر : 9 ] الآيات فكان اسمه حريّاً بالإشارة إليه بعد إجراء تلك الصفات إذ بذكرها يتميز عند السامعين أكمل تمييز حتى كأنه مشاهد لأبصارهم مع ما في اسم الإشارة من البعد المستعمل كناية عن تعظيم المشار إليه ، ومع ما يقتضيه إيراد اسم الإشارة عقب

أوصاف كثيرة من التنبيه على أنه حقيق بما سيرد بعد الإشارة من أجل تلك الصفات فأخبر عنه بأنه صاحب الاسم المختص به الذي لا يجهلونه ، وأخبر عنه بأنه رب الخلائق بعد أن سجل عليهم ما لا قبل لهم بإنكاره من أنه الذي خلقهم خلقاً من بعد خلق ، وأن خلقهم من تراب ، وقدر آجالهم وأوجد ما هو أعظم منهم من الأحوال السماوية والأرضية مما يدل على أنه لا يعجزه شيء فهو الرب دون غيره وهو الذي الملكُ والسلطان له لا لغيره أفاد ذلك كله قوله تعالى : ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك ﴾ ، فانتهض الدليل .

وعطف عليه التصريح بأن أصنامهم لا يملكون من الملك شيئاً ولو حقيراً وهو الممَّثل بالقطمير .

والقطمير : القشرة التي في شَقّ النواة كالخيط الدقيق .

فالمعنى : لا يملكون شيئاً ولو حقيراً ، فكونهم لا يملكون أعظَم من القطمير معلوم بفحوى الخطاب ، وذلك حاصل بالمشاهدة فإن أصنامهم حجارة جاثمة لا تملك شيئاً بتكسب ولا تحوزه بهبة ، فإذا انتفى أنها تملك شيئاً انتفى عنها وصف الإلهية بطريق الأوْلى ، فنُفي ما كانوا يزعمونه من أنها تشفع لهم .

وجملة ﴿ إن تدعوهم ﴾ خبر ثان عن ﴿ الذين تدعون من دونه ﴾ [ فاطر : 13 ] .

والمقصد منها تنبيه المشركين إلى عجز أصنامهم بأنها لا تسمع ، وليس ذلك استدلالاً فإنهم كانوا يزعمون أن الأصنام تسمع منهم فلذلك كانوا يكلمونها ويوجهون إليها محامدهم ومدائحهم ، ولكنه تمهيد للجملة المعطوفة على الخبر وهي جملة ﴿ ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ فإنها معطوفة على جملة ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ﴾ ، وليست الواو اعتراضية ، أي ولو سمعوا على سبيل الفرض والتقدير ومجاراة مزاعمكم حين تدعونها فإنها لا تستجيب لدعوتكم ، أي لا ترد عليكم بقبول ، وهذا استدلال سنده المشاهدة ، فطالما دَعُوا الأصنام فلم يسمعوا منها جواباً وطالما دَعَوْها فلم يحصل ما دعوها لتحصيله مع أنها حاضرة بمرأى منهم غير محجوبة ، فعدم إجابتها دليل على أنها لا تسمع ، لأن شأن العظيم أن يستجيب لأوليائه الذين يسعون في مرضاته ، فقد لزمهم إمّا عجزُها وإما أنها لا تفقه إذ ليس في أوليائها مغمز بأنهم غير مُرْضِينَ لها .

وهذا من أبدع الاستدلال الموطّأ بمقدمة متفق عليها .

وقوله : ﴿ ما استجابوا ﴾ يجوز أن يكون بمعنى إجابة المنادي بكلمات الجواب .

ويجوز أن يكون بمعنى إجابة السائل بتنويله ما سأله .

وهذا من استعمال المشترك في معنييه .

ولما كشف حال الأصنام في الدنيا بما فيه تأييس من انتفاعهم بها فيها كمّل كشف أمرها في

الآخرة بأن تلك الأصنام ينطقها الله فتتبرأ من شركهم، أي تتبرأ من أن تكون دعت له أو رضيت به.

والكفر: جحد في كراهة.

والشرك أضيف إلى فاعله، أي بشرككم إياهم في الإِلهية مع الله تعالى.

وأجري على الأصنام موصول العاقل وضمائرَ العقلاء ﴿ والذين تدعون ﴾ [فاطر: 13] إلى قوله: ﴿ يكفرون بشرككم ﴾ على تنزيل الأصنام منزلة العقلاء مجاراة للمردود عليهم على طريقة التهكم.

وقوله: ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ تذييل لتحقيق هذه الأخبار بأن المخبِر بها هو الخبير بها وبغيرها ولا يخبرك أحد مثل ما يخبرك هو.



---

وعُبّر بفعل الإِنباء لأن النبأ هو الخبر عن حدث خطير مهمّ.

والخطاب في قوله: ﴿ ينبئك ﴾ لكل من يصح منه سماع هذا الكلام لأن هذه الجملة أرسلت مُرسَل الأمثال فلا ينبغي تخصيص مضمونها بمخاطَب معين.

و﴿ خبير ﴾ صفة مشبهة مشتقة من خَبُر، بضم الباء، فلان الأمرَ، إذا علمه علماً لا

شك فيه .

والمراد بـ ﴿ خبير ﴾ جنس الخبير ، فلما أرسل هذا القول مثلاً وكان شأن الأمثال أن تكون موجزة صيغ على أسلوب الإِيجاز فحذف منه متعلِّق فعل ( يُنَبِّىء ) ومتعلِّق وصف ﴿ خبير ﴾ ، ولم يذكر وجه المماثلة لعلمه من المقام .

وجعل ﴿ خبير ﴾ نكرة مع أن المراد به خبير معيَّن وهو المتكلم فكان حقه التعريف ، فعدل إلى تنكيره لقصد التعميم في سياق النفي لأن إضافة كلمة ﴿ مثل ﴾ إلى خبير لا تفيده تعريفاً .

وجعل نفي فعل الإِنباء كناية عن نفي المنبىء .

ولعل التركيب : ولا يوجد أحد ينبئك بهذا الخبر يماثل هذا الخبير الذي أنبأك به ، فإذا أردف مُخبر خبره بهذا المثل كان ذلك كناية عن كون المخبِر بالخبر المخصوص يريد بـ ﴿ خبير ﴾ نفسَه للتلازم بين معنى هذا المثل وبين تمثل المتكلم منه .

فالمعنى : ولا ينبئك بهذا الخبر مثلي لأني خَبَرتُه ، فهذا تأويل هذا التركيب وقد أغفل المفسّرون بيان هذا التركيب .

والمِثل بكسر الميم وسكون المثلثة : المساوي ؛ إما في قدر فيكون بمعنى ضِعف ، وإما المساوي في صفة فيكون بمعنى شبيه وهو بوزن فِعل بمعنى فاعل وهو قليل .

ومنه قولهم : شِبْه ، ونِدّ ، وخِدْن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : الغرة في الحياة الدنيا أن يغتر بها ، وتشغله عن الآخرة ؛ أن يمهد لها ، ويعمل لها كقول العبد إذا أفضى إلى الآخرة ﴿ يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ [ الفجر : 24 ] والغرة بالله : أن يكون العبد في معصية الله ، ويتمنى على الله المغفرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدواً ﴾ قال : عادوه فإنه يحق على كل مسلم عداوته ، وعداوته أن يعاديه بطاعة الله . وفي قوله ﴿ إنما يدعو حزبه ﴾ قال : أولياءه ﴿ ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ أي ليسوقهم إلى النار ، فهذه عداوته .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ إنما يدعو حزبه . . . ﴾ الآية . قال يدعو حزبه إلى معاصي الله ، وأصحاب معاصي الله أصحاب

السعير ، وهؤلاء حزبه من الإنس ألا تراه يقول : ﴿ أولئك حزب الشيطان ﴾ [ المجادلة : 19 ] قال : والحزب ولاية الذين يتولاهم ويتولونه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ قال : كل شيء في القرآن ﴿ لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ ورزق كريم فهو الجنة .

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآَهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (8)

(82/640)

---

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي قلابة أنه سئل عن هذه الآية ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ أهم عمالنا هؤلاء الذين يصنعون ؟ قال : ليس هم . إن هؤلاء ليس أحدهم يأتي شيئاً مما لا يحل له إلا قد عرف أن ذلك حرام عليه . إن أتى الزنا فهو حرام ، أو قتل النفس فهو حرام ، إنما أولئك أهل الملل . اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، وأظن الخوارج منهم ، لأن الخارجي يخرج بسيفه على جميع أهل البصرة ، وقد عرف أنه ليس ينال حاجته منهم ، وأنهم سوف يقتلونه ، ولولا أنه من دينه ما فعل ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة والحسن في قوله ﴿ أفمن زين له

سوء عمله ﴾ قال: الشيطان زين لهم - والله - الضلالات ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ أي لا تحزن عليهم.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ قال: هذا المشرك ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ كقوله ﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ [ الكهف: 6 ].

وأخرج ابن جرير من طريق جويبر عن الضحاك رضي الله عنه قال: أنزلت هذه الآية ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم أعِزَّ دينَكَ بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل بن هشام، فهدى الله عمر رضي الله عنه، وأضل أبا جهل. ففيهما أنزلت".

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (9)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ قال: أحيا الله هذه الأرض الميتة بهذا الماء، كذلك يبعث الناس يوم القيامة.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : يقوم ملك بالصور بين السماء والأرض ، فينفخ فيه ، فلا يبقى خلق لله في السموات والأرض ﴿ إلا ما شاء الله . . . ﴾ [ الأعلى : 7 ] ، ثم يرسل الله من تحت العرش منياً كمني الرجال ، فتنبت أجسامهم ولحمانهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الثرى ، ثم قرأ عبد الله رضي الله عنه " الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور " ويكون بين النفختين ما شاء الله ، ثم يقوم ملك فينفخ فيه ، فتنطلق كل نفس إلى جسدها .

وأخرج الطيالسي وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله كيف يحيى الله الموتى ؟ قال : أما مررت بأرض مجدبة ، ثم مررت بها مخضبة تهتز خضراء ؟ قال : بلى . قال : كذلك يحيي الله الموتى وكذلك النشور .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ من كان يريد العزة ﴾ قال : بعبادة الأوثان ﴿ فلله العزة جميعاً ﴾ قال : فليتعزز بطاعة الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود قال : إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله . إن العبد المسلم إذا قال سبحان الله وبحمده ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وتبارك الله ، قبض عليهن ملك يضمهن تحت جناحه ، ثم يصعد بهن إلى السماء ، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بهن وجه الرحمن ، ثم قرأ ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ .

(84/640)

---

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ قال : ذكر الله ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ قال : أداء الفرائض فمن ذكر الله في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله فصعد به إلى الله ، ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه وكلامه على عمله ، وكان عمله أولى به .

وأخرج آدم بن أبي أياس والبغوي والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ قال : هو الذي يرفع الكلام الطيب .

وأخرج الفريابي عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ، مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب رضي الله عنه في قوله ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ قال : القرآن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مطر رضي الله عنه في قوله ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ قال : الدعاء .

وأخرج ابن المبارك وعبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ إليه يصعد الكَلِمُ الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ قال : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب إلى الله ، ويعرض القول على العمل ، فإن وافقه رفع وإلا رد .

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ قال : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن شهر بن حوشب في الآية قال : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب .

وأخرج ابن المنذر عن مالك بن سعد قال : إن الرجل ليعمل الفريضة الواحدة من فرائض الله وقد أضاع ما سواها ، فما زال الشيطان يمنيه فيها ، ويزين له حتى ما يرى شيئاً دون الجنة ، فقبل أن تعملوا أعمالكم فانظروا ما تريدون بها ، فإن كانت خالصة لله فامضوها ، وإن كانت لغير الله فلا تشقوا على أنفسكم ، ولا شيء لكم فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً ، فإنه قال تبارك وتعالى ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ قال : لا يقبل قول إلا بعمل . وقال الحسن : بالعمل قبل الله .

وأخرج ابن المبارك عن قتادة رضي الله عنه ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ قال : يرفع الله العمل الصالح لصاحبه .

وأخرج عبد بن حميد والبيهقي عن الحسن رضي الله عنه قال : ليس الإيمان بالتمني ولا بالتخلي ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال . من قال حسناً ، وعمل غير صالح ، رده الله على قوله . ومن قال حسناً ، وعمل صالحاً ، رفعه العمل ذلك ، لأن الله قال ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي في سننه عن ابن عباس أنه سئل : أتقطع المرأة ، والكلب ، والحمار ، الصلاة ؟ فقال ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ فما يقطع هذا ، ولكنه مكروه .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد في قوله ﴿ والذين يمكرون السيئات ﴾ قال : هم أصحاب الرياء وفي قوله ﴿ ومكر أولئك هو يبور ﴾ قال : الرياء .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن شهر بن حوشب في قوله ﴿ والذين يمكرون السيئات ﴾ قال : يراؤون ﴿ ومكر أولئك هو يبور ﴾ قال : هم أصحاب الرياء لا يصعد عملهم .

*(86/640)*

---

وأخرج عن ابن زيد في قوله ﴿ والذين يمكرون السيئات ﴾ قال : هم المشركون ﴿ ومكر أولئك هو يبور ﴾ قال : بار فلم ينفعهم ، ولم ينتفعوا به وضرهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ والذين يمكرون السيئات ﴾ قال : يعملون السيئات ﴿ ومكر أولئك هو يبور ﴾ قال : يفسد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ ومكر أولئك هو يبور ﴾ قال : يهلك فليس له ثواب في الآخرة .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ والله خلقكم من تراب ﴾ يعني خلق آدم من تراب ﴿ ثم من نطفة ﴾ يعني ذريته ، ﴿ أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ [ الشورى : 50 ] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وما يعمر من معمر . . . ﴾ الآية . يقول : ليس أحد قضيت له طول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر ، وقد قضيت له ذلك ، فإنما ينتهي له الكتاب الذي قدرت له لا يزاد عليه ، وليس أحد قضيت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتب له . فذلك قوله ﴿ ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ يقول : كل ذلك في كتاب عنده .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره ﴾ يقول : لم يخلق الناس كلهم على عمر واحد . لهذا عمر ، ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، كل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره ﴾ قال : ما من يوم يعمر في الدنيا إلا ينقص من أجله .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي

مالك في قوله ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره ﴾ قال : ليس يوم يسلبه من عمره إلا في كتاب كل يوم في نقصان .

(87/640)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره ﴾ إلا في كتاب ، قال : مكتوب في أوّل الصحيفة عمره كذا وكذا ، ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان حتى يأتي على آخر عمره .

وأخرج ابن أبي حاتم عن حسان بن عطية في قوله ﴿ ولا ينقص من عمره ﴾ قال : كل ما ذهب من يوم وليلة ، فهو نقصان من عمره .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج عن مجاهد في قوله ﴿ وما يعمر من معمر ﴾ إلا كتب الله له أجله في بطن أمه ﴿ ولا ينقص من عمره ﴾ يوم تضعه أمه بالغاً ما بلغ يقول : لم يخلق الناس كلهم على عمر واحد . لذا عمر ، ولذا عمر هو أنقص من عمر هذا ، وكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغاً ما بلغ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال : ألا ترى الناس يعيش الإِنسان مائة

سنة . وآخر يموت حين يولد ، فهو هذا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : ليس من مخلوق إلا كتب الله له عمره جملة ، فكل يوم يمر به أو ليلة يكتب : نقص من عمر فلان كذا وكذا . . . حتى يستكمل بالنقصان عدة ما كان له من أجل مكتوب ، فعمره جميعاً في كتاب ، ونقصانه في كتاب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء بن أبي مسلم الخراساني في الآية قال : لا يذهب من عمر إنسان يوم ، ولا شهر ، ولا ساعة ، إلا ذلك مكتوب ، محفوظ ، معلوم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : أما العمر فمن بلغ ستين سنة . وأما الذي ينقص من عمره ، فالذي يموت قبل أن يبلغ ستين سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وما يعمر من معمر ﴾ قال : في بطن أمه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ ولا ينقص من عمره ﴾ قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام .



وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو بخمس

وأربعين ليلة فيقول : أي رب أشقي ، أم سعيد ؟ أذكر ، أم أنثى ؟ فيقول الله . . . ويكتبان ، ثم يكتب عمله ، ورزقه ، وأجله ، وأثره ، ومصيبته ، ثم تنطوي الصحيفة فلا يزاد فيها ، ولا ينقص منها " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم والنسائي وأبو الشيخ عن عبد الله بن مسعود قال : قالت أم حبيبة : اللهم أمتعني بزوجي النبي صلى الله عليه وسلم ، وبأبي أبي سفيان ، وبأخي معاوية . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " فإنك سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة ، وأرزاق مقسومة ، ولن يعجل شيئًا قبل حله ، أو يؤخر شيئًا عن حله ، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب النار ، أو عذاب القبر ، كان خيرًا وأفضل " .



---

وأخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كان في بني إسرائيل اخوان ملكان على مدينتين ، وكان أحدهما بارًا برحمه ، عادلاً على رعيته . وكان الآخر عاقًا برحمه ، جائرًا على رعيته . وكان في عصرهما نبي ، فأوحى الله إلى ذلك النبي أنه قد بقي من عمر هذا البار ثلاث سنين ، وبقي من عمر هذا العاق ثلاثون سنة ، فأخبر النبي رعية هذا ، ورعية هذا ، فأحزن ذلك رعية العادل ، وأفرح ذلك رعية

الجائر ، ففرقوا بين الأمهات والأطفال ، وتركوا الطعام والشراب ، وخرجوا إلى الصحراء يدعون الله تعالى أن يمتعهم بالعادل ، ويزيل عنهم ، الجائر ، فأقاموا ثلاثاً ، فأوحى الله إلى ذلك النبي : أن أخبر عبادي أني قد رحمتهم ، وأجبت دعاءهم ، فجعلت ما بقي من عمر هذا البار لذلك الجائر ، وما بقي من عمر الجائر لهذا البار ، فرجعوا إلى بيوتهم ومات العاق لتمام ثلاث سنين ، وبقي العادل فيهم ثلاثين سنة . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ " .

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ

أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي جعفر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا شرب الماء قال : " الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته ، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا " .

(90/640)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وما يستوي البحران هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ﴾ قال : الأجاج المر ﴿ ومن كل تأكلون لحماً طرياً ﴾ أي منهما جميعاً ﴿ وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ هذا اللؤلؤ ﴿

وترى الفلك فيه مواخر ﴾ قال : السفن مقبلة ومدبرة تجري بريح واحدة ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ قال : نقصان الليل في زيادة النهار ، ونقصان النهار في زيادة الليل ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى ﴾ قال : أجل معلوم ، وحد لا يتعداه ولا يقصر دونه ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ يقول : هو الذي سخر لكم هذا .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي حاتم عن سنان بن سلمة أنه سأل ابن عباس عن ماء البحر فقال : بحران لا يضرك من أيهما توضأت . ماء البحر ، وماء الفرات .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ ومن كل تأكلون لحماً طرياً ﴾ قال : السمك ﴿ وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ قال : اللؤلؤ من البحر الأجاج .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ما يملكون من قطمير ﴾ قال : القطمير القشر ، وفي لفظ الجلد الذي يكون على ظهر النواة .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ من قطمير ﴾ قال : الجلدة البيضاء التي على النواة قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت أمية بن أبي الصلت وهو يقول :

لم أنل منهم بسطاً ولا زبداً . . . ولا فوفة ولا قطميرا

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء قال : القطمير الذي بين النواة والتمرة ، القشر الأبيض .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ قطمير ﴾ قال: لفافة النواة كسحاة البصلة.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك في قوله ﴿ من قطمير ﴾ قال: رأس التمرة يعني القمع.

(91/640)

---

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ أي ما قبلوا ذلك منكم ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ قال: لا يرضون، ولا يقرون به ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ والله هو الخبير أنه سيكون هذا من أمرهم يوم القيامة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ﴾ قال: هي الآلهة. لا تسمع دعاء من دعاها وعبدها من دون الله تعالى ﴿ ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ قال: ولو سمعت الآلهة دعاءكم ما استجابوا لكم بشيء من الخير ﴿ ويوم القيامة

يكفرون بشرككم ﴾ قال : بعبادتكم إياهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(92/640)

---

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى الاستواء )

وقد ورد فى النّص على ستّة أَوجه :

الأَوّل : بمعنى القَصْد إِلى الشئ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ ﴾ أَى قصد إِلى خَلْقها .

الثانى : بمعنى التمكُّن والاستقرار : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيّ ﴾ أَى استقرّت .

الثالث : بمعنى الرّكوب ، والاستعلاء : ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ ﴾ أَى ركِبتم واستعليتم .

الرّابع : بمعنى الشدّة والقوّة : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ﴾ أَى قوى واشتدّ .

الخامس : بمعنى المعارضة والمقابلة : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ ﴾ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ أَى يقابل هذا ذاك .

السّادس: بمعنى القهر والقدرة: ﴿ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ﴿ الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ أى أقبل على أمره، واستولى على مِلكه، وقدر عليه بالقهر والغلبة.

وهو أعظم المخلوقات، وأكبر الموجودات.

فإذا قهره وقدر عليه، فكيف ما دونه لديه.

قال أبو القاسم الأصبهانى: استوى يقال على وجهين.

أحدهما يُسند إلى فاعلَين فصاعداً، نحو استوى زيد وعمرو فى كذا، أى تساويَا.

الثانى: أن يقال لاعتدال الشئ فى ذاته، نحو قوله تعالى ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾، ومتى عدّى بعلى اقتضى معنى الاستيلاء، نحو ﴿ الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾.

وقيل معناه: استوى له ما فى السّماوات، وما فى الأرض بتسويته تعالى إيّاه؛ كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّاهُنَّ ﴾.

وقيل: معناه استوى كلّ شيءٍ فى النسبة إليه، فلا شئ أقربُ إليه من شيءٍ؛ إذ كان تعالى ليس كالأجسام الحالّة فى مكان دون مكان.

وإذا عُدّى بإلى اقتضى معنى الانتهاءِ إليها إمّا بالذّات، أو بالتّدبير.

والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز جـ 2 صـ 107.106 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾

لا تستوي الحالتان : هذه إقبالٌ على الله ، واشتغالٌ بطاعته ، واستقلال بمعرفته . . . وهذه إعْراضٌ عن الله ، وانقباضٌ عن عبادته ، واعتراض – على الله – في قسمته وقبضته . هذه سبب وصاله ، وهذه سببُ هَجْرِه وانفصاله ، وفي كلِّ واحدةٍ من الحالتين يعيش أهلها ، ويُزْجِي أصحابُها وقتَها . ولا يستوي الوقتان : هذا بَسطٌ وصاحبُه في رَوْح ، وهذا قبضٌ وصاحبه في نَوْح . هذا خوفٌ وصاحبه في اجتايح ، وهذا رجاءٌ وصاحبه في ارتياح . هذا فَرْقٌ وصاحبُه بوصف العبودية ، وهذا جَمْعٌ وصاحبُه في شهود الربوبية .

﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ : كذلك كُلٌّ يتقرَّبُ في حالته لربِّه ، ويتزَيَّنُ على بابه ، وهو حِلْيَتُه التي بها يتحلّى من طَرَبٍ أو حَرَبٍ ، من شَرَفٍ أو تَلْفٍ .

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

تغلب النَّفْسُ مرةً على القلب ، ويغلب القلبُ مرةً على النَّفْس . وكذلك القبضُ والبسط فقد يستويان ، ومرةً يغلب القبضُ على البسطَ ، ومرةً يغلب البسطُ على القبض ، وكذلك

الصحو والسُّكْرُ ، وكذلك الفناء والبقاء .

وسَخَّرَ شموسَ التوحيد وأقمارَ المعرفة على ما يريد من إظهاره على القلوب .

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ : فأروني شظيةً من النفي أو الإثبات لما تدعونه من دونه !

وإذْ لم يُمْكِنْكم ذلك . . فهلاَّ أقررْتُم ، وفي عبادته أخلصتم ، وعن الأصنام تبرَّأْتُم ؟ .

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14)



---

إنْ استعنْتُم بأصنامكم لا يُعينوكم ، وإنْ دَعَوْتُموهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سَمِعُوا على جهة ضَرْبَ المَثَلِ لا يستجيبون لكم ؛ لأنهم لا يَمْلِكُون نَفْعَ أنفسِهم . فكيف يَمْلِكون نَفْعَ غيرهم ؟ !

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ : لا يؤمنون إلا في ذلك الوقت ، ولكن لا ينفعهم الإيمانُ بعد زوال التكليف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 197 . 198 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ الحمد للَّهِ فَاطِرِ السموات والأرض ﴾

يعني : خالق السموات والأرض .

يقال : فطر الشيء إذا بدأه .

قال ابن عباس رضي الله عنه : ما كنت أعرف فاطر حتى اختصما لي أعرابيان في بئر .

فقال أحدهما : أنا فطرتها يعني : بدأتها .

ثم قال : ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ يعني : مرسل الملائكة بالرسالة جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت والكرام الكاتبين عليهم السلام ﴿ أُوْلِى أَجْنِحَةٍ ﴾ يعني : ذوي أجنحة ، ولفظ أولي يستعمل في الجماعة ، ولا يستعمل في الواحد وواحدها ذو .

ثم قال : ﴿ مثنى وثلاث وَرُبَاعَ ﴾ يعني : من الملائكة من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة أجنحة ، ومنهم من له أربعة .

ومنهم كذا .

ويقال : ﴿ ثلاث ﴾ معدول من ثلاثة .

يعني : ثلاثة ثلاثة .

﴿ وَرُبَاعَ ﴾ معدول من أربعة يعني : أربعة أربعة .

ثم قال : ﴿ يَزِيدُ فِى الخلق مَا يَشَاء ﴾ يعني : يزيد في خلق الأجنحة ما يشاء .

وروي عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عليه السلام أن يتراءى له في صورته .

فقال له جبريل : إنك لا تطيق ذلك .

فقال : "إِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَفْعَلَ" .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المصلى في ليلة مقمرة ، فأتاه جبريل في صورته فغشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه .

ثم أفاق وجبريل عليه السلام يسنده ، واضع إحدى يديه على صدره ، والأخرى بين كتفيه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سُبْحَانَ اللهِ مَا كُنْتُ أُرَى شَيْئاً مِنَ الخَلْقِ هَكَذا"

فقال جبريل : فكيف لو رأيت إسرافيل ؟ إن له اثني عشر جناحاً ، منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب ، وأن العرش لعلى كاهله ، وإنه ليتضائل بالأحايين لعظمة الله ، حتى يعود مثل الوضع يعني : عصفوراً .

حتى لا يحمل عرشه إلا عظمته .

فذلك قوله تعالى : ﴿ يَزِيدُ فِى الخلق مَا يَشَاء ﴾ يعني : في خلق الملائكة .

ويقال: ﴿ يَزِيدُ فِى الخلق مَا يَشَاء ﴾ يعني: الشعر الحسن، والصوت الحسن، والخد الحسن.

ويقال: ﴿ يَزِيدُ فِى الخلق مَا يَشَاء ﴾ يعني: في الجمال والكمال والدمامة.

ثم قال: ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من الزيادة والنقصان وغيره.

ثم قال عز وجل: ﴿ مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ يعني: ما يرسل الله للناس من رزق كقوله: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابتغاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴾ [ الإسراء: 28 ] ويقال: الغيث.

ويقال: ﴿ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ يعني: من كل خير ﴿ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ يعني: لا يقدر أحد على حبسها ﴿ وَمَا يُمْسِكْ ﴾ يعني: ما يحبس من رزق ﴿ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ يعني: فلا معطي أحد بعد الله عز وجل.

قال في أول الكلام: ﴿ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ بلفظ التأنيث، لأنه انصرف إلى اللفظ وهو الرحمة.

ثم قال: ﴿ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ ﴾ بلفظ التذكير، لأنه ينصرف إلى المعنى وهو المطر والرزق،

ولو كان كلاهما بلفظ التذكير أو كلاهما بلفظ التأنيث لجاز في اللغة .

فذكر الأول بلفظ التأنيث لأن الرحمة كانت أقرب إليه ، وفي الثاني كان أبعد وقد ذكر بلفظ التذكير مجاز حذف ما ثم قال : ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ فيما أمسك ﴿ الحكيم ﴾ فيما أرسل .

قوله عز وجل : ﴿ يا أَيُّهَا الناس اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ يعني : احفظوا نعمة الله .

ثم ذكر النعمة فقال : ﴿ هَلْ مِنْ خالق غَيْرُ الله يَرْزُقُكُمْ مّنَ السماء والأرض ﴾ يعني : النبات والمطر .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ غَيْرُ الله ﴾ بكسر الراء .

وقرأ الباقون بالضم مثل ما في سورة الأعراف .

والاستثناء إذا كان بحرف إلا .

فإن الإعراب يكون على ما بعده .

وإذا كان الاستثناء بحرف غير ، فإن الإعراب يقع على نفس الغير .

فمن قرأ بالكسر ، صار كسراً على البدل .

ومن قرأ بالرفع فمعناه : هل خالق غير الله ، لأن من موكدة .

ولفظ الآية لفظ الاستفهام .

والمراد به النفس يعني : أنتم تعلمون أنه لا يخلق أحد سواه ، ولا يرزقكم أحد سواه .

ثم وحّد نفسه فقال : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ يفعل بكم ذلك ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ يعني : من أين تكذبون ، وأنتم تعلمون أنه لا يخلق أحد سواه .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ كما كذبك قومك ، وهذا تعزية يعزي بها نبيه صلى الله عليه وسلم ليصبر على أذاهم ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الامور ﴾ يعني : إليه ترجع عواقب الأمور بالبعث .

ثم قال عز وجل : ﴿ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس ﴾ يعني : يا أهل مكة ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ يعني : البعث بعد الموت حق كائن ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا ﴾ يعني : حياتكم في الدنيا ، والدنيا في الأصل هي القربى .

سميت بهذا لأن حياتهم هذه أقرب إليهم .

ويقال : هي فعلى من الأدون يعني : حياة الأدون ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ يعني : الباطل وهو الشيطان .

قال : حدّثنا أبو الليث رحمه الله .

قال : حدّثني أبي .

قال : حدّثنا أبو الحسن الفراء الفقيه السمرقندي .

قال : حدّثنا أبو بكر الجرجاني الإمام بسمرقند ذكر بإسناده عن العلاء بن زيادة .

قال : رأيت الدنيا في النوم امرأة قبيحة عمشاء ، ضعيفة ، عليها من كل زينة فقلت : من أنت .

أعوذ بالله منك ؟ فقالت : أنا الدّنيا .

فإن يسرك أن يعيذك الله مني ، فأبغض الدراهم يعني : لا تمسكها عن النفقة في موضع الحق .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ يعني : حين يأمركم بالكفر ، ومن عداوته مع أبيكم ترك طاعة الله ﴿ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ يعني : فعادوه بطاعة الله .

(98/640)

---

ومعناه : أطيعوا الله عز وجل لأنك إذا أطعت الله فقد عاديت الشيطان ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ ﴾ يعني : شيعته إلى الكفر ﴿ لِيَكُونُواْ مِنْ أصحاب السعير ﴾ يعني : من أهل النار .

ثم بيّن مصير من أطاع الشيطان ، ومصير من عصاه فقال ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني :

جحدوا بوحدانية الله عز وجل: ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ في الآخرة ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله، وعملوا الطاعات، واتخذوا الشيطان عدواً ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ في الدنيا لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ يعني: ثواباً حسناً في الجنة.

قوله عز وجل: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ ﴾ يعني: قبيح عمله كمن لم يزين له ذلك ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ ﴾ يعني: فظنه حقاً.

والجواب فيه مضمر فمن زيّن له سوء عمله كمن لم يزين له ذلك.

وقال الزجاج: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ ﴾ يعني: أبا جهل وأصحابه، وأضله الله كمن لم يزين له ذلك وهداه الله تعالى.

ثم قال: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء ﴾ عن دينه ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ لدينه ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات ﴾ قال القتبي: هذا من الإضمار.

يعني: ذهبت نفسك حسرة عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات بتركهم الإيمان.

وقرئ في الشاذ: ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ ﴾ بضم التاء وكسر الهاء ﴿ نَفْسَكَ ﴾ بنصب السين.

من أذهب يذهب يعني: لا تقتل نفسك وقراءة العامة ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ ﴾ بنصب

التاء والهاء وضم السين أي : لا تحزن نفسك ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ من الخير والشر .

(99/640)

---

ثم قال عز وجل : ﴿ واللهُ الذى أَرْسَلَ الرياحَ فَتُثِيرُ سحابا ﴾ أي : ترفعه وتهيجه ﴿ فَسُقْنَاهُ ﴾ يعني : نسوقه ﴿ إلى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يعني : بعد يبسها ﴿ كَذَلِكَ النشور ﴾ يعني : هكذا تحيون بعد الموت يوم القيامة وروي عن سفيان ، عن سلمة بن كهيل ، عن ابن الزبعرى ، عن عبد الله بن مسعود أنه قال : تقوم الساعة على شرار الناس .

ثم يقوم ملك بالصور .

فينفخ فيه ، فلا يبقى خلق في السموات والأرض إلا مات إلا ما شاء الله ، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله ، فيرسل الله الوباء من السماء من تحت العرش ، كمني الرجال فتنبت لحومهم من ذلك الماء ، كما تنبت الأرض من الندا .

ثم قرأ : ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النشور ﴾ ثم ينفخ في الصور .

قوله عز وجل : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة فَلِلَّهِ العزة جَمِيعاً ﴾ يعني : من طلب العزة بعبادة

الأوثان ، فليتعزز بطاعة الله عز وجل .

فإن العزة لله جميعاً .

يقول : من يتعزز بإذن الله .

ويقال : معناه من كان يريد أن يعلم لمن تكون العزة ، فليعلم بأن العزة لله جميعاً .

ويقال : من كان يطلب لنفسه العزة ، فإن العزة لله جميعاً .

ثم قال : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ قال مقاتل : يصعد إلى السماء كلمة التوحيد ﴿ والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ يقول : التوحيد يرفع العمل الصالح إلى الله تعالى في السماء ، فيها تقديم .

وقال الحسن البصري : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب إلى الله عز وجل .

فإذا كان الكلام الطيب عملاً غير صالح ، يرد القول إلى العمل لأنه أحق من القول .

وقال قتادة ﴿ والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ قال : الله يرفعه .

ويقال : العمل الصالح يرفعه لصاحبه .

ويقال : ﴿ يَرْفَعُهُ ﴾ يعني : يعظمه .

ويقال : العمل الصالح يرفعه أي : يقبل الأعمال بالإخلاص .

معناه : العمل الخالص الذي يقبله .

ثم قال: ﴿ والذين يَمْكُرُونَ السيئات ﴾ أي: يعملون بالشرك، ويقال: يعملون بالرياء لا يقبل منهم ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ في الآخرة ﴿ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ يعني: شرك أولئك، وفسقهم، وصنيعهم، يهلك صاحبه في الآخرة.

يقال: بارت السلعة إذا كسدت لأنها إذا كسدت فقد تعرضت للهلاك.

ثم قال عز وجل: ﴿ والله خَلَقَكُمْ مّن تُرَابٍ ﴾ يعني: آدم عليه السلام وهو أصل الخلق ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ يعني: خلقكم من نطفة ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أزواجا ﴾ يعني: أصنافاً ذكراً وأنثى.

ويقال: أصنافاً، أحمر وأبيض أسود.

يعني: فاذكروني ووحدوني ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى ﴾ ومن صلة في الكلام ﴿ وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ يعني: بمشيئته ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾ فيطول عمره ﴿ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِى كتاب ﴾ يعني: إلا وكل ذلك في كتاب الله.

أي: قد بيّن في اللوح المحفوظ.

وروي عن ابن عمر أنه قرأ ﴿ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ بجزم الميم وهما لغتان مثل نكر ونكر ﴿ إِنَّ ذلك عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ يعني: حفظه على الله هيِّن بغير كتابة.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى البحران ﴾ العذب والمالح ﴿ هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ يعني

: طيّب هيّن شربه .

ويقال : سلس في حلقه ، حلو في شرابه ﴿ سَائِغٌ ﴾ يعني : شهياً .

ويقال : يسوغه الشراب ﴿ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ يعني : الشديد الذي شيب بضرب إلى المرارة ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ يعني : السمك ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ ﴾ من المالح ﴿ حِلْيَةً ﴾ وهي اللؤلؤ ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ يعني : تستعملونها ، وتلبسون نساءكم .

وهذا المثل لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مع الكفار يعني : وما يستوي الذين صدقوا والذين كذبوا .

ومن كل يظهر شيء من الصلاح يعني : يلد الكافر المسلم مثل ما أولد الوليد بن المغيرة خالد بن الوليد ، وأبو جهل عكرمة بن أبي جهل .



---

قوله : ﴿ وَتَرَى الفلك ﴾ يعني : السفن ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ يعني : تذهب وتجيء ﴿ فِيهِ ﴾ يعني : في البحر ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ يعني : من رزقه ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ يعني : لكي تشكروا رب هذه النعمة .

يقال في اللغة مخر يمخر إذا شقّ الماء .

يعني : أن السفينة تشق الماء في حال جريها .

يقال : مخرت السفينة إذا جرت وشقت الماء في جريها .

ثم قال عز وجل : ﴿ يُولِجُ الليل فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى الليل ﴾ وقد ذكرناه ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ يعني : ذلّل الشمس والقمر لبني آدم .

﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِاجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني : إلى أقصى منازلها في الغروب ، لأنها تغرب كل ليلة في موضع .

وهو قوله عز وجل : ﴿ إِلاَّ على أزواجهم أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [ المعارج : 30 ] ويقال : ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني : يجريان دائماً إلى يوم القيامة ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ ﴾ يعني : هذا الذي فعل لكم هذا الفعل هو ربكم وخالقكم ﴿ لَهُ الملك ﴾ فاعرفوا توحيده ، وادعوه ولا تدعوا غيره ﴿ والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ يعني : من دون الله الأوثان وما يعبدونهم من دون الله ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ يعني : لا يقدرون أن يعطوكم ولا ينفعوكم بمقدار القطمير .

والقطمير قشر النواة الأبيض الذي يكون بين النوى والتمر .

وقال مجاهد : القطمير لفاف النوى .

ثم قال : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا استجابوا لَكُمْ ﴾ يعني : ولو كانوا بحال يسمعون أيضاً فلا يجيبونكم ، ولا يكشفون عنكم شيئاً ﴿ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ

بِشِرْكِكُمْ ﴾ يعني : يتبرؤون من عبادتكم .

ويقولون : ما كنتم إيانا تعبدون .

يقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ يعني : لا يخبرك من عمل الآخرة مثل الرب تبارك وتعالى .

ويقال : لا يخبرك أحد مثل الرب بأن هذا الذي ذكر عن الأصنام أنهم يتبرؤون عن عبادتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 92.97 ﴾

(102/640)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ ﴾

والفطر الشق عن الشيء بإظهاره للحسن يقال فطر ناب الناقة إذا طلع ، وفطر دمه إذا أخرجه . قال ابن عباس : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها أي ابتدأتها .

وفي تأويله ههنا وجهان :

أحدهما : خالق السموات والأرض ، قاله قتادة ، والكلبي ، ومقاتل .

الثاني : أنه شقها لما ينزل منها وما يعرج فيها .

﴿ جَاعِلِ الْمَلَآئِكَةِ رُسُلاً ﴾ فيه قولان

: أحدهما : إلى الأنبياء ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : إلى العباد رحمة أو نقمة ، قاله السدي .

﴿ أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ﴾ قال قتادة : بعضهم له جناحان ، وبعضهم ثلاثة ، وبعضهم أربعة . والمثنى والثلاث والرباع ما تكرر فيه الاثنان والثلاثة والأربعة .

﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : أنه حسن الصوت ، قاله الزهري وابن جريج .

الثاني : أنه الشعر الجعد ، حكاه النقاش .

الثالث : يزيد في أجنحة الملائكة ما يشاء ، قاله الحسن .

ويحتمل رابعاً : أنه العقل والتمييز .

ويحتمل خامساً : أنه العلوم والصنائع . ويكون معناه على هذين التأويلين : كما يزيد في الخلق ما يشاء كذلك يزيد في أجنحة الملائكة ما يشاء .

قوله عز وجل : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ فيه سبعة تأويلات :

أحدها : من خير ، قاله قتادة .

الثاني : من مطر ، قاله السدي .

الثالث : من توبة ، قاله ابن عباس .

الرابع : من وحي ، قاله الحسن .

الخامس : من رزق وهو مأثور .

السادس : من عافية ، قاله الكلبي .

السابع : من دعاء ، قاله الضحاك .

ويحتمل ثامناً : من توفيق وهداية .

قوله عز وجل : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَناً ﴾ فيه أربعة أقاويل

(103/640)

---

: أحدها : أنهم اليهود والنصارى والمجوس ، قاله أبو قلابة ، ويكون سوء عمله معاندة الرسول .

الثاني : أنهم الخوارج ، رواه عمرو بن القاسم ، ويكون سوء عمله تحريف التأويل .

الثالث : الشيطان ، قاله الحسن ويكون سوء عمله الإغواء .

الرابع : كفار قريش ، قاله الكلبي ، ويكون سوء عملهم الشرك .

وقيل إنها نزلت في العاص بن وائل السهمي والأسود بن المطلب ، وقال غيره نزلت في أبي

جهل بن هشام .

في قوله : ﴿ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ وجهان :

أحدهما : صواباً ، قاله الكلبي .

الثاني : جميلاً .

وفي الكلام محذوف اختلف فيه على ثلاثة أوجه :

أحدها : أن المحذوف منه : فإنه يتحسر عليه يوم القيامة ، قاله ابن عيسى .

الثاني : أن المحذوف منه : كمن آمن وعمل صالحاً لا يستويان ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : أن المحذوف منه : كمن عمل الحسن والقبح .

قوله عز وجل : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ فيه قولان

: أحدهما : يعني بالعزة المنعة فيتعزز بطاعة الله تعالى ، قاله قتادة .

الثاني : علم العزة لمن هي ، فلله العزة جميعاً .

وقيل إن سبب نزول هذه الآية ما رواه الحسن أن المشركين عبدوا الأوثان لتعزهم كما وصف الله تعالى عنهم في قوله : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴾ فأنزل الله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ .

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أنه التوحيد ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : الثناء على من في الأرض من صالح المؤمنين يصعد به الملائكة المقربون ، حكاه النقاش .

﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أنه أداء الفرائض .

الثاني : أنه فعل القرب كلها .

وفي قوله : ﴿ يَرْفَعُهُ ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن العمل الصالح يرفعه الكلام الطيب ، قاله الحسن ، ويحيى بن سلام .

(104/640)

---

الثاني : أن العمل الصالح يرفع الكلام الطيب ، قاله الضحاك وسعيد بن جبير .

الثالث : أن العمل يرفعه الله بصاحبه ، قاله قتادة ، السدي .

﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ يعني يشركون في الدنيا

. ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ يعني في الآخرة

. ﴿ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : يفسد عند الله تعالى ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : يبطل ، قاله قتادة .

الثالث : يهلك ، والبوار الهلاك ، قاله قطرب .

وفي المراد : ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ قولان :

أحدهما : أهل الشرك .

الثاني : أصحاب الربا ، قاله مجاهد .

قوله عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ يعني آدم .

﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ يعني نسله

. ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أصنافاً ، قاله الكلبي .

الثاني : ذكراناً وإناثاً ، والواحد الذي معه آخر من شكله زوج والاثنان زوجان ، قال الله تعالى : ﴿ وأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ والأُنثَى ﴾ [ النجم : 45 ] وتأول قتادة قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ أي زوّج بعضكم لبعض .

﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ يعني بأمره

. ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ . . ﴾ الآية . فيه قولان

: أحدهما : ما نمد في عمر معمر حتى يصير هرماً . ولا ينقص من عمر أحد حتى يموت طفلاً إلا في كتاب .

الثاني : ما يعمر من معمر قدر الله تعالى مدة أجله إلا كان ما نقص منه بالأيام الماضية عليه في كتاب عند الله .

قال سعيد بن جبير : هي صحيفة كتب الله تعالى في أولها أجله ، ثم كتب في أسفلها ذهب يوم كذا ويوم كذا حتى يأتي على أجله ، وبمثله قال أبو مالك ، والشعبي .

وفي عمر المعمر ثلاثة أقاويل :

أحدها : ستون سنة ، قاله الحسن .

الثاني : أربعون سنة .

الثالث : ثماني عشرة سنة ، قاله أبو غالب .

﴿ . . . إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي هين

(105/640)

---

. ويحتمل وجهين :

أحدهما : أن إثبات ذلك على الله يسير .

الثاني : أن زيادة عمر المعمر ونقصان عمر الآخر عند الله تعالى يسير .

وللكلبي فيه ثالث : أن حفظ ذلك بغير كتاب على الله يسير .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : ما يستويان في أنفسهما .

الثاني : في منافع الناس بهما .

﴿ هذا عَذْبٌ فُراتٌ ﴾ والفرات هو العذب وذكره تأكيداً لاختلاف اللفظين كما يقال

هذا حسن جميل .

﴿ سَآئِغٌ شَرَابُهُ ﴾ أي ماؤه

. ﴿ وَهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي مُرٌّ مأخوذ من أجة النار كأنه يحرق من شدة المرارة ، قال

الشاعر :

دُرَّةٌ في اليمين أخرجها الغا . . . ئص من قعر بحر ملح أجاج

﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ يعني لحم الحيتان مأكول من كلا البحرين

. ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ اللؤلؤ والمرجان يستخرج من الملح ، ويكون المراد

أحدهما وإن عطف بالكلام عليهما .

وقيل : بل هو مأخوذ منهما لأن في البحر عيوناً عذبة ، وما بينهما يخرج اللؤلؤ عند التمازج

وقيل من مطر السماء .

ثم قال : ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ وإن لبسها النساء دون الرجال لأن جمالها عائد عليهم جميعاً .

﴿ وَتَرى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ فيه خمسة أوجه

: أحدها : مقبلة ومدبرة وريح واحدة ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : مواقر ، قاله الحسن . قال الشاعر :

تراها إذا راحت ثقالاً كأنها . . . مواخر فلك أو نعام حوافل

الثالث : معترضة ، قاله أبو وائل

. الرابع : جواري ، قاله ابن قتيبة .

الخامس : تمخر الماء أي تشقه في جريها شقاً ، قاله علي بن عيسى .

﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ قال مجاهد : التجاة في الفلك

. ويحتمل وجهاً آخر ما يستخرج من حليته ويصاد من حيتان .

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [ فيه وجهان ] :

أحدهما : على ما آتاكم من نعمه .

الثاني : على ما آتاكم من فضله .

ويحتمل ثالثاً : على ما أنجاكم من هوله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

وقال الثعلبي :

قوله عز وجل : ﴿ الحمد للَّهِ فَاطِرِ السماوات والأرض جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً أولي أَجْنِحَةٍ مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الخلق مَا يَشَآءُ ﴾

يعني في أجنحة الملائكة .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : حدّثنا ابن شاذان قال : حدّثنا جعونة بن محمد قال : حدّثنا صالح بن محمد قال : حد ثنا مسلم بن اياس عن عبد الله بن المبارك عن ليث بن سعد عن عقيل عن ابن شهاب " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبرائيل ( عليه السلام ) : أن يتراءى لهُ في صورته ، فقال له جبرائيل ( عليه السلام ) . " إنك لن تطيق ذلك " . قال : " إني أُحبُّ أن تفعل " .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المصلّى في ليلة مقمرة ، فأتاه جبرائيل ( عليه السلام ) في صورته ، فغشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه ، فلما أفاق وجبرائيل ( عليه السلام ) مسنده واضعاً إحدى يديه على صدره والأُخرى بين كتفيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله ما كنت أرى أنّ شيئاً من الخلق هكذا " . فقال جبرائيل عليه السلام : " فكيف لو رأيت إسرافيل عليه السلام ؟ إنّ له لاثني عشر جناحاً ؛ جناح منها بالمشرق وجناح بالمغرب ، وإنّ العرش على كاهله وإنه ليتضاءل الأحايين لعظمة الله عز وجل حتى يعود هذا الوصع والوصع عصفور صغير حتى ما يحمل

عرشه إلاّ عظمته " .

وأخبرني أبو الحسن الساماني قال : أخبرني أبو حامد البلالي عن العباس بن محمد الدوري قال : أخبرني أبو عاصم النبيل عن صالح التاجي عن ابن جريج عن ابن شهاب في قول الله عز وجل : ﴿ يَزِيدُ فِي الخلق مَا يَشَآءُ ﴾ قال : حسن الصورة .

وأخبرني الحسين بن محمد عن أحمد بن جعفر بن حمدان عن عبد الله بن محمد بن سنان عن سلمة بن حبان عن صالح التاجي عن الهيثم القارئ قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال : أنت الهيثم الذي تزين القرآن بصوتك ؟ جزاك الله خيراً ، وقيل : الخطّ الحسن .

(107/640)

---

أخبرنا ابن فنجويه عن ابن شيبة عن ابن زنجويه عن سلمة عن يحيى بن أحمد الفزار ويحيى ابن أكثم قالا : أخبرنا أبو اليمان عن عاصم بن مهاجر الكلاعي عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الخط الحسن يزيد الحق وضحاً " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عبد الله بن يوسف قال : حدّثني الحسن بن علي بن يزيد الوشاء عن علي بن سهل الرملي قال : أخبرني الوليد بن مسلم عن خليد بن دعلج عن

قتادة في قول الله عز وجل : ﴿ يَزِيدُ فِي الخلق مَا يَشَآءُ ﴾ قال : الملاحة في العينين .

﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من الزيادة والنقصان .

﴿ مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ نعمة ، ﴿ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ : لا يستطيع أحد حبسها ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ العزيز ﴾ فيما أمسك ﴿ الحكيم ﴾ فيما أرسل .

﴿ يا أيها الناس اذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ الله ﴾ . قرأ سفيان بن سلمة وأبو جعفر وحمزة والأعمش والكسائي : ﴿ غَيْرُ ﴾ بالخفض وهو اختيار أبي عبيد .

الياقوت : بالرفع .

وهذه الآية حجة على القدرية ؛ لأنه نفى خالقاً غيره وهم يثبتون معه خالقين كثيرين .

(108/640)

---

﴿ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السمآء والأرض لا إله إِلاَّ هُوَ فأنى تُؤْفَكُونَ * وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ فعزى نبيه ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، ﴿ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور * يا أيها الناس إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ ، قراءة العامة بفتح الغين ، وهو الشيطان ، وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حبيش قال :

حدّثنا أبو القاسم بن الفضل قال: حدّثنا أبي قال: حدّثنا أحمد بن يزيد المقري عن محمد بن المصفى عن أبي حياة، قرأ: ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بالله الغرور ﴾ برفع الغين، وهي قراءة ابن السماك العدوي يدل عليه وما حدثنا.

قال: أخبرنا عبد الله بن حامد محمد بن خالد قال: أخبرنا داوُد بن سليمان قال: أخبرنا عبد بن حميد عن يحيى بن عبد الحميد عن ابن المبارك عن عبد الله بن عقبة عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير: ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بالله الغرور ﴾ قال: أن يعمل المعصية ويتمنّى العفو.

﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾: فعادوه ولا تطيعوه ﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ ﴾: أشياعه وأولياءه ﴿ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السعير ﴾ ليسوقهم إلى النار، فهذه عداوته ثم بيّن حال موافقيه ومخالفيه فقال عزّ من قائل: ﴿ الذين كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾.

(109/640)

---

قوله: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ ﴾ أي شُبّة وموّه وحُسّنَ له ﴿ سواء ﴾: قبح عمله وفعله ﴿ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ زين ذلك الشيطان بالوسواس ونفسه تميله إلى الشبهة وترك النظر في الحجة

المؤدية إلى الحق ، والله سبحانه وتعالى يخلقه ذلك في قلبه ، وجوابه محذوف مجازه : أفمن زين له سُوء عمله كمن لم يزين له سوء عمله ورأى الحق حقاً والباطل باطلاً ؟ نظيره قوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [ الرعد : 33 ] ، وقوله ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ﴾ [ الزمر : 9 ] ونحوها .

وقيل : معناه : أفمن زين له سوء عمله فأضلّه الله كمن هداه ؟ دليله قوله : ﴿ فَإِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ .

وقيل : معناه تحت قوله : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ ، فيكون معناه : أفمن زُين له سوء عمله فأضله الله ذهبت نفسك عليه حسرة ، أي تتحسف عليه ؟ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير ، مجازه : أفمن زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فإنّ الله يُضلّ من يشاء ويهدي من يشاء ، والحسرة : شدة الحزن على ما فات من الأمر .

وقراءة العامة : ( تذهَبَ نفسُك ) : بفتح الباء والهاء وضم السين ، وقرأ أبو جعفر بضم التاء وكسر الهاء وفتح السين ، ومعنى الآية : لا تغتم بكفرهم وهلاكهم إذ لم يؤمنوا ، نظيره ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ [ الكهف : 6 ] [ الشعراء : 3 ] .

﴿ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

﴿ والله الذي أَرْسَلَ الرياح فَتُثِيرُ سَحَابا ً فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النشور ﴾ من القبور .

(110/640)

---

أخبرنا عبد الله بن حامد عن محمد بن خالد عن داوُد بن سليمان عن عبد بن حميد عن المؤمل بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن عمه أبي رزين قال : قلت يا رسول الله : كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " " هل مررت بواد أهلك محلاً ثم مررت به يهتز خضرا ؟ " قلت : نعم . قال : " فكذلك يحيي الله الموتى ، وتلك آيته في خلقه " " .

قوله عز وجل ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة ﴾ ، يعني عِلم العزة لمن هي ، ﴿ فَلِلَّهِ العزة جَمِيعاً ﴾ ، وذلك أنّ الكفار عبدوا الأصنام وطلبوا بها التعزز كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ الذين يَتَّخِذُونَ الكافرين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ المؤمنين أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العزة فَإِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ [ النساء : 139 ] ، وقال سبحانه : ﴿ واتخذوا مِن دُونِ الله آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً ﴾ [ مريم : 81 ] ، كلاّ ، وردّ الله عليهم : من آراد أن يعلم لمن العزّة الحقيقية فآية العزّة لله ، ومن أراد أن يكون في الدارين عزيزاً فليطع الله فإنّ العزّة لله جميعاً .

﴿ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى الله ، ومعناه : إلى محل القبول وإلى حيث لا يملك فيه الحكم إلاّ الله عز وجل ، وهو كما يُقال : ارتفع أمرهم إلى القاضي .

(111/640)

---

﴿ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ يعني : " لا إله إلاّ الله " وكل ذكر مرضي لله تعالى ، وقرأ أبو عبد الرَّحْمن : ( الكلام الطيب ) ، وأخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الله الدينوري قال : حدثنا أبو جعفر محمد بن محمد بن أحمد الهمداني قال : أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد المسكين البصري عن أحمد بن محمد المكي عن علي بن عاصم عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ قال : " هو قول الرجل : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ، إذا قالها العبد عرج بها ملك إلى السماء فحيا بها وجه الرَّحْمن عزّ وجل ، فإذا لم يكن عمل صالح لم يقبل منه " .

واختلف العلماء في حكم هذه الكناية ومعنى الآية ، فقال أكثر المفسرين : الهاء في قوله : ﴿ يَرْفَعُهُ ﴾ راجعة إلى ﴿ الكلم الطيب ﴾ ، يعني أنّ العمل الصالح يرفع الكلم فلا يقبل القول إلاّ بالعمل ، وهذا اختيار نحاة البصرة ، وقال الحسن وقتادة : ﴿ الكلم الطيب ﴾ :

ذكر الله ﴿ والعمل الصالح ﴾ أداء فرائضه . فمن ذكر الله ولم يؤدِّ فرائضه زاد كلامه على عمله ، وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال .

فمن قال حسناً وعمل غير صالح ردّ الله عليه قوله ، ومن قال حسناً وعمل صالحاً رفعه العمل ذلك ؛ فإن الله يقول : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ .

ودليل هذا التأويل قوله ( عليه السلام ) : " لا يقبل الله قولاً إلاّ بعمل ، ولا يقبل قولاً وعملاً إلاّ بنية ( ولا يقبل قولاً ونية إلاّ باصابة السنة ) " .

وجاء في الخبر : " الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب " .

وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

لا ترضَ من رجل حلاوة قوله . . . حتى يزيّنُ ما يقول فعالُ

فإذا وزنت فعالَهُ بمقالِه . . . فتوازنا فإخاءُ ذاك جمال



---

قال ابن المقفع : قول بلا عمل كثريد بلا دسم ، وسحاب بلا مطر ، وقوس بلا وتر ، وفيه قيل :

لا يكونُ المقال إلاّ بفعل . . . إنما القول زينة في الفعالِ

كل قول يكون لا فعلَ فيه . . . مثلَ ماء يُصبُّ في غربالِ

وأنشدني أبو القاسم الحبيشي لنفسه :

لا يكون المقال إلاّ بفعل . . . وكلُّ قول بلا فعال هباء

إنّ قولاً بلا فعال جميل . . . ونكاحاً بلا ولي سواء

وقال بعض أهل المعاني على هذا القول : معنى ﴿ يَرْفَعُهُ ﴾ ، أي يجعله رفيعاً ذا وزن وقيمة ، كما يُقال : طود رفيع ومرتفع ، وقيل : العمل الصالح هو الخالص ، يعني أنّ الإخلاص سبب قبول الخيرات من الأقوال والأعمال ، دليله قوله : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ﴾ [ الكهف : 110 ] أي خالصاً ثم قال : ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً ﴾ [ الكهف : 110 ] ، فجعل نقيض الصالح الشرك والرياء ، وقال قوم : هذه الكناية راجعة إلى العمل ، يعني أنّ الكلم الطيب يرفع العمل ؛ فلا يرفع ولا يقبل عمل إلاّ أن يكون صادراً عن التوحيد وعائد الذكر يرفع وينصب ، وهذا التأويل اختيار نُحاة الكوفة وقال آخرون : الهاء كناية عن العمل ، والرفع من صفة الله سبحانه ، أي يرفعه الله .

﴿ والذين يَمْكُرُونَ السيئات ﴾ أي يعملون ، قال مقاتل : يعني الشرك ، وقال أبو العالية : يعني الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الندوة ، وقال الكلبي : ﴿ الذين يَمْكُرُونَ ﴾ يعني يعملون السيئات في الدُّنيا ، وقال ابن عباس ومجاهد وشهر بن حوشب :

هم أصحاب الرياء . ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ أي يكسد ويفسد ويضل ويضمحل في الآخرة .

(113/640)

---

﴿ والله خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ قراءة العامة : ( يُنقص ) بضم الياء ، وقرأ الحسن وابن سيرين وعيسى ( ينقُص ) بفتح الياء وضم القاف ، وقرأ الأعرج : ﴿ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ بالتخفيف .

قال سعيد بن جبير : مكتوب في أول الكتاب عمره كذا وكذا سنة ، ثم يكتب أسفل من ذلك ذهب يوم ذهب يومان ذهب ثلاثة أيام حتى ينقطع عمره .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي البحران هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ : طيب ﴿ سَآئِغٌ ﴾ : جائز هني شرابه . وقرأ عيسى : ( سيّغ ) مثل : ميّت وسيّد . ﴿ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ شديد الملوحة ، عن : ابن عباس ، وقال الضحاك : هو المرّ مزاجه كأنه يحرق من شدة المرارة والملوحة . ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ : طعاماً شهياً ، يعني : السمك من العذب والملح ، ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ ﴾ منه : من الملح دون العذب ﴿ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ يعني اللؤلؤ ، وقيل :

فيه عيون عذبة ، ومما بينهما يخرج اللؤلؤ .

﴿ وَتَرَى الفلك فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ : جواري ، وقال مقاتل : هو أنْ يرى سفينتين إحداهما مقبلة والأُخرى مدبرة ، وهذه تستقبل تلك وتلك تستدبر هذه ، يجريان بريح واحدة ، ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله على نعمه .

(114/640)

---

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان قال : أخبرنا ابن شاذان قال : حدثنا جيفويه بن محمد قال : حدثنا صالح بن محد عن القاسم بن عبد الله عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كلم الله البحرين فقيل للبحر الذي بالشام : يا بحر إني قد خلقتك وأكثرت فيك من الماء ، وإني حامل فيك عباداً يسبحوني ويحمدوني ويهللوني ويكبروني فما أنت صانع بهم ؟ قال : أُغرقهم . قال الله عز وجل : فإني أحملهم على ظهرك وأجعل بأسك في نواحيك [ وحاملهم على يدي ] .

وقال للبحر الذي باليمن : إني قد خلقتك وأكثرت فيك من الماء وإني حامل فيك عباداً لي يسبحوني ويحمدوني ويهللوني ويكبروني فما أنت صانع بهم ؟ قال : أُسبحك وأحمدك وأُهللك وأُكبرك معهم ، وأحملهم على [ ظهري ] بطني . قال الله سبحانه : فإني أُفضلك

على البحر الآخر بالحلية والطري " .

قوله : ﴿ يُولِجُ الليلَ فِي النهار ويُولِجُ النهارَ فِي الليل وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ الملك والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ وهي القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة ، عن أكثر المفسرين . وقال ابن عباس : هو شق النواة ، وقال السدي : هو ما ينقطع به القمع .

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا استجابوا لَكُمْ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ : يتبرؤون منكم ومن عبادتكم إياها ، ﴿ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ يعني نفسه تعالى . انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 97. 103 ﴾

(115/640)

---

وقال الزمخشري :

سورة الملائكة

مكية ، وهي خمس وأربعون آية [نزلت بعد الفرقان] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة فاطر (35) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1)

فاطِرِ السَّماواتِ مبتدئها ومبتدعها. وعن مجاهد عن ابن عباس رضى اللّه عنهما: ما كنت أدرى ما فاطر السماوات والأرض، حتى اختصم إلىّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها «1»، أى ابتدأتها. وقرئ: الذي فطر السماوات والأرض وجعل الملائكة. وقرئ: جاعل الملائكة، بالرفع على المدح رُسُلًا بضم السين وسكونها أُولِي أَجْنِحَةٍ أصحاب أجنحة، وأولو:

اسم جمع لذو، كما أن أولاء اسم جمع لذا، ونظيرهما في المتمكنة: المخاض والخلفة مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ صفات لأجنحة، وإنما لم تنصرف لتكرر العدل فيها. ذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أخر، كما عدل عمر عن عامر. وحذام عن حاذمة، وعن تكرير إلى غير تكرير. وأما الوصفية فلا يفترق الحال فيما بين المعدولة والمعدول عنها. ألا تراك تقول: مررت بنسوة أربع، وبرجال ثلاثة، فلا يعرج عليها، والمعنى: أن الملائكة «2» خلقا أجنحتهم اثنان اثنان، أى: لكل واحد منهم جناحان، وخلقا أجنحتهم ثلاثة ثلاثة، وخلقا أجنحتهم أربعة أربعة يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ أى: يزيد في خلق الأجنحة، وفي غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته. والأصل الجناحان، لأنهما بمنزلة اليدين، ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل، وذلك أقوى للطيران وأعون عليه. فإن قلت

: قياس الشفع من الأجنحة أن يكون في كل شق نصفه ، فما صورة الثلاثة ؟ قلت : لعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدّهما بقوة . أو لعله لغير الطيران ، فقد مرّبي في بعض الكتب أن صنفا من الملائكة لهم ستة أجنحة فجناحان يلفون بها أجسادهم ، وجناحان يطيرون بهما في الأمر من أمور اللّه ، وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من اللّه . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «أنه رأى جبريل عليه السلام

---

(1) . تقدم في أول الأنعام

(2) . قوله «أن الملائكة خلقا» لعله : متنوعة خلقا . . . الخ . (ع)

*(116/640)*

---

ليلة المعراج وله ستمائة جناح «1» ، وروى أنه سأل جبريل عليه السلام أن يتراءى له في صورته فقال : إنك لن تطيق ذلك . قال : «إنى أحب أن تفعل «2» فخرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في ليلة مقمرة ، فأتاه جبريل في صورته فغشى على النبي صلى اللّه عليه وسلم ، ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه ، فقال : سبحان اللّه ! ما كنت أرى أن شيئا من الخلق هكذا ، فقال جبريل : فكيف لو رأيت إسرافيل : له اثنا عشر جناحا :

جناح منها بالمشرق ، وجناح بالمغرب . وإن العرش على كاهله ، وإنه ليتضاءل الأحايين لعظمة اللّه حتى يعود مثل الوصع «3» وهو العصفور الصغير . وروى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في قوله تعالى يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ : «هو الوجه الحسن ، والصوت الحسن ، والشعر الحسن» وقيل «الخط الحسن» وعن قتادة : الملاحة في العينين ، والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق : من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام في الأعضاء ، وقوة في البطش ، وحصافة في العقل «4» ، وجزالة في الرأى ، وجراءة في القلب ، وسماحة في النفس ، وذلاقة»

في اللسان ولباقة في التكلم «6» ، وحسن تأنّ في مزاولة الأمور ، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف .

[سورة فاطر (35) : آية 2]

ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2)

استعير الفتح للإطلاق والإرسال . ألا ترى إلى قوله فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ مكان : لا فاتح له ، يعنى : أى شيء يطلق اللّه من رحمة أى من نعمة رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو غير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحاط بعددها . وتنكير الرحمة للإشاعة والإبهام ، كأنه قال : من أية رحمة كانت سماوية أو أرضية ، فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها ، وأىّ

شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه . فإن قلت : لم أنث الضمير أوّلا ، ثم ذكر آخرا ؟ وهو راجع في الحالين إلى الاسم المتضمن معنى الشرط ؟ قلت : هما لغتان : الحمل على المعنى وعلى اللفظ ، والمتكلم على الخيرة

---

(1) . متفق عليه من حديث ابن مسعود «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح» ولفظ ابن حبان «رأيت جبريل عند سدرة المنتهى وله ستمائة جناح ينتشر في ريشه الدر والياقوت»

(2) . أخرجه ابن المبارك في الزهد . والثعلبي من طريقه أخبرنا الليث عن عقيل عن الزهري بهذا . وزاد «والوصع عصفور صغير حتى ما يحمل عرشه إلا عظمته» الوصع بفتح الصاد المهملة بعدها مهملة أيضا

(3) . قوله «مثل الوصع وهو العصفور» في الصحاح «الوصع» : طائر أصغر من العصفور . (ع)

(4) . قوله «وحصافة» أى : إحكام . أفاده الصحاح . (ع) [ . . . . . ]

(5) . قوله «وذلاقة» أى : حدة وطلاقة ، أفاده الصحاح . (ع)

(6) . قوله «ولباقة في التكلم» أى حذق . أفاده الصحاح . (ع)

فيهما ، فأنث على معنى الرحمة ، وذكر على أن لفظ المرجوع إليه لا تأنيث فيه ، ولأنّ الأوّل فسر بالرحمة ، فحسن اتباع الضمير التفسير ، ولم يفسر الثاني فترك على أصل التذكير وقرئ فلا مرسل لها .

فإن قلت : لا بد للثاني من تفسير ، فما تفسيره ؟ قلت : يحتمل أن يكون تفسيره مثل تفسير الأوّل ، ولكنه ترك لدلالته عليه ، وأن يكون مطلقا في كل ما يمسكه من غضبه ورحمته ، وإنما فسر الأوّل دون الثاني للدلالة على أن رحمته سبقت غضبه . فإن قلت : فما تقول فيمن فسر الرحمة بالتوبة وعزاه إلى ابن عباس رضى اللّه عنهما ؟ قلت : إن أراد بالتوبة الهداية لها والتوفيق فيها - وهو الذي أراده ابن عباس رضى اللّه عنهما إن قاله - فمقبول ، وإن أراد أنه إن شاء أن يتوب العاصي تاب ، وإن لم يشأ لم يتب ، فمردود لأنّ اللّه تعالى يشاء التوبة أبدا «1» ، ولا يجوز عليه أن لا يشاؤها مِنْ بَعْدِهِ من بعد إمساكه ، كقوله تعالى فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ أى من بعد هدايته وبعد آياته وَهُوَ الْعَزِيزُ الغالب القادر على الإرسال والإمساك الْحَكِيمُ الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمة إرساله وإمساكه .

[سورة فاطر (35) : آية 3]

يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3)

ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط ، ولكن به وبالقلب ، وحفظها من الكفران والغمط «2» وشكرها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليها . ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه : اذكر أيادىّ عندك . يريد حفظها وشكرها والعمل على موجبها ، والخطاب عام للجميع لأنّ جميعهم مغمورون في نعمة اللّه . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : يريد : يا أهل مكة اذكروا نعمة اللّه عليكم ، حيث أسكنكم حرمه ومنعكم من جميع العالم ، والناس يتخطفون من حولكم . وعنه : نعمة اللّه العافية . وقرئ : غير اللّه ، بالحركات الثلاث فالجرّ والرفع على الوصف لفظا ومحلا ، والنصب على الاستثناء . فإن قلت : ما محل يَرْزُقُكُمْ ؟ قلت : يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعته صفة لخالق «3» وأن لا يكون له محل إذا رفعت محل من خالق ، بإضمار يرزقكم ، وأوقعت يرزقكم تفسيرا له ، أو جعلته كلاما مبتدأ بعد قوله هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ .

---

(1) . قوله «يشاء التوبة أبدا» هذا وما بعده على مذهب المعتزلة ، من أنه تعالى يجب عليه الصلاح للعبد .

وعند أهل السنة : لا يجب عليه شيء ، فالكلام على ظاهره ، ورده مردود . (ع)

(2) . قوله «وحفظها من الكفران والغمط» أى : الاحتقار . أفاده الصحاح . (ع)

(3) . قال محمود : «إن قلت : ما محل يرزقكم ؟ قلت : يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعته

صفة لخالق ، وأن لا يكون له محل إذا جعلته تفسيرا وجعلت من خالق مرفوع المحل بفعل يدل عليه هذا ، كأنه قيل : هل يرزقكم خالق غير اللّه ، أو جعلت يرزقكم كلاما مبتدأ»

قال أحمد : والوجه المؤخر أوجهها

(118/640)

---

فإن قلت : هل فيه دليل على أنّ الخالق لا يطلق على غير اللّه تعالى «1» ؟ قلت نعم إن جعلت يَرْزُقُكُمْ كلاما مبتدأ وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة. وأمّا على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير. فقد يقيد فيهما بالرزق من السماء والأرض ، وخرج من الإطلاق ، فكيف يستشهد به على اختصاصه ، بالإطلاق ، والرزق من السماء المطر ، ومن الأرض النبات لا إِلهَ إِلَّا هُوَ جملة مفصولة لا محل لها ، مثل : يرزقكم في الوجه الثالث ، ولو وصلتها كما وصلت يرزقكم لم يساعد عليه المعنى ، لأنّ قولك : هل من خالق آخر سوى اللّه لا إله إلا ذلك الخالق : غير مستقيم ، لأن قولك : هل من خالق سوى اللّه إثبات لله ، فلو ذهبت تقول ذلك : كنت مناقضا بالنفي بعد الإثبات فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فمن أى وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك ؟

[سورة فاطر (35) : آية 4]

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (4)

نعى به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله ، ولتكذيبهم بها ، وسلى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن له في الأنبياء قبله أسوة حسنة ، ثم جاء بما يشتمل على الوعد والوعيد : من رجوع الأمور إلى حكمه ومجازاة المكذب والمكذب بما يستحقانه . وقرئ : ترجع ، بضم التاء وفتحها . فإن قلت : ما وجه صحة جزاء الشرط؟ ومن حق الجزاء أن يتعقب الشرط وهذا سابق له . قلت : معناه : وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك ، فوضع فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ موضع : فتأس ، استغناء بالسبب عن المسبب : أعنى بالتكذيب عن التأسى . فإن قلت : ما معنى التنكير في رسل؟ قلت :

معناه فقد كذبت رسل ، أى رسل ذو وعدد كثير . وأولو آيات ونذر ، وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم ، وما أشبه ذلك . وهذا أسلى له ، وأحث على المصابرة .

---

(1) . عاد كلامه . قال : فان قلت : هل فيه دليل على أن الخالق لا يطلق على غير الله تعالى؟ قلت : نعم إن جعلت يرزقكم كلاما مبتدأ ، وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة . وأما على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير فقد تقيد فيهما بالرزق من السماوات والأرض ، وخرج من الإطلاق ، فكيف يستشهد به على نفيه مطلقا .

قال أحمد : القدرية إذا قرعت هذه الآية أسماعهم قالوا بجرأة على الله تعالى : نعم ثم خالق غير الله ، لأن كل أحد عندهم يخلق فعل نفسه ، فلهذا رأيت الزمخشري وسع الدائرة ،

وجلب الوجوه الشاردة النافرة، وجعل الوجهين يطابقان معتقده في إثبات خالق غير اللّه، ووجهها هو الحق والظاهر، وأخره في الذكر تأسيا له، والذي يحقق الوجه الثالث وأنه هو المراد: أن الآية خوطب بها قوم على أنهم مشركون، إذا سئلوا عن رازقهم من السماوات والأرض، قالوا: اللّه، فقرروا بذلك وقرعوا به، إقامة للحجة عليهم بإقرارهم، ولو كان على غير هذا الوجه قيد، لكان مفهومه إثبات خالق غير اللّه، لكنه لا يرزق وهؤلاء الكفرة قد تبرؤا عن ذلك، فلا وجه لتقريعهم بما يلائم قولهم هذا ترجيح الوجه الثالث من حيث مقصود سياق الآية. وأما من حيث النظم اللفظي، فلأن الجملتين اللتين هما قوله يَرْزُقُكُمْ وقوله لا إِلهَ إِلَّا هُوَ سقتا سياقا واحدا. والثانية مفصولة اتفاقا مما تقدم، فكذلك وَزِينَتَها.

(119/640)

---

[سورة فاطر (35) : الآيات 5 إلى 7]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5) إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ (6) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7)

وعد اللّه الجزاء بالثواب والعقاب فَلا تَغُرَّنَّكُمُ فلا تخدعنكم الدُّنْيا ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عند اللّه وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ لا يقولن لكم اعملوا ما شئتم فإن اللّه غفور يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة «1». والغرور الشيطان لأن ذلك ديدنه. وقرئ بالضم وهو مصدر غره كاللزوم والنهوك أو جمع غارّ كقاعد وقعود أخبرنا اللّه عز وجل أن الشيطان لنا عدوّ مبين، واقتص علينا قصته وما فعل بأبينا آدم عليه السلام، وكيف انتدب لعداوة جنسنا من قبل وجوده وبعده، ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا، فوعظنا عز وجل بأنه كما علمتم عدوّكم الذي لا عدوّ أعرق في العداوة منه، وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا في عقائدكم وأفعالكم، ولا يوجدن منكم إلا ما يدل على معاداته ومناصبته في سركم وجهركم. ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه بأنّ غرضه الذي يؤمه في دعوة شيعته ومتبعي خطواته: هو أن يوردهم مورد الشقوة والهلاك، وأن يكونوا من أصحاب السعير. ثم كشف الغطاء وقشر اللحاء «2»، ليقطع الأطماع الفارغة والأماني الكاذبة، فبنى الأمر كله على الإيمان والعمل وتركهما.

[سورة فاطر (35): آية 8]

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (8)

لما ذكر الفريقين الذين كفروا والذين آمنوا ، قال لنبيه أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً

يعنى : أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين ، كمن لم يزين له ، فكأن رسول اللّه صلى

---

(1) . قال محمود : «معناه : ولا يقولن لكم الشيطان : اعملوا ما شئتم فان اللّه غفور ، يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة» قال أحمد : هو يعرض بأهل السنة في اعتقادهم جواز مغفرة الكبائر للموحد ، وإن لم يكن توبة .

وهذا لا يناقض صدق وعده تعالى ، لأن اللّه تعالى حيث توعد على الكبائر قرن الوعد بالمشيئة في مثل قوله لهم إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ فهم إذا مصدقون بوعد اللّه تعالى ، موقنون به على حسب ما ورد .

(2) . قوله «و قشر اللحاء» في الصحاح : اللحاء - ممدود - : قشر الشجر . (ع)

(120/640)

---

اللّه عليه وسلم قال «لا» فقال فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ ومعنى تزيين العمل والإضلال : واحد ، وهو أن يكون العاصي على صفة لا تجدى عليه المصالح ، حتى يستوجب بذلك خذلان اللّه تعالى وتخليته وشأنه ، فعند ذلك يهيم في الضلال ويطلق آمر النهى ، ويعتنق طاعة الهوى ، حتى يرى القبيح حسنا

والحسن قبيحا ، كأنما غلب على عقله وسلب تمييزه ، ويقعد تحت قول أبى نواس :

اسقني حتّى تراني حسنا عندي القبيح «1»

وإذا خذل اللّه المصممين على الكفر وخلاهم وشأنهم ، فإنّ على الرسول أن لا يهتم بأمرهم ولا يلقى بالا إلى ذكرهم ، ولا يحزن ولا يتحسر عليهم : اقتداء بسنة اللّه تعالى في خذلانهم وتخليتهم . وذكر الزجاج أنّ المعنى : أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم حسرة ، فحذف الجواب لدلالة فلا تذهب نفسك عليه : أو أفمن زين له سوء عمله كمن هداه اللّه ، فحذف لدلالة فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ عليه . حسرات : مفعول له يعنى : فلا تهلك نفسك للحسرات .

وعليهم صلة تذهب ، كما تقول : هلك عليه حبا ، ومات عليه حزنا . أو هو بيان للمتحسر عليه .

ولا يجوز أن يتعلق بحسرات ، لأنّ المصدر لا يتقدم عليه صلته . ويجوز أن يكون حالا ، كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر ، كما قال جرير :

مشق الهواجر لحمهنّ مع السرى حتّي ذهبن كلاكلا وصدورا «2»

يريد : رجعن كلاكلا وصدورا ، أى : لم يبق إلا كلاكلها وصدورها . ومنه قوله :

فعلى إثرهم تساقط نفسي حسرات وذكرهم لي سقام «3»

وقرئ : فلا تذهب نفسك إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ وعيد لهم بالعقاب على سوء

صنيعهم .

---

(1) نحن نخفيها فتأتى طيب ريح فتفوح

اسقني حتى تراني حسنا عندي القبيح

لأبى نواس . ونخفيها ، أي : الخمر ، فتفوح : أي رائحتها ، ثم قال لساقى الخمر : اسقني حتى أسكر ، فيحسن عندي القبيح ، وحسنا : المفعول الثاني ، والقبيح مرفوع به ، واستحسانه : كناية عن اشتداد السكر .

(2) . لجرير يصف نوقا بالهزال . يقال : فرس ممشوق ، أي : طويل مهزول . وجارية ممشوقة : رقيقة القوام .

والهاجرة : شدة الحر . والسرى - بالضم - : سير الليل . والكلكل والكلكال : الصدر ، وعطف الصدور على الكلاكل للتفسير ، أي : صرن من شدة الحر والسير كأنهم عظام فقط لا لحم عليهن .

(3) . لما أصابه الحزن بعد ذهاب الأحباب وتمكن من نفسه ، تخيل أنها تتناثر وتنزل من جسمه حال كونها حسرات متتابعة ، وجعل النفس حسرات لامتزاجها بها ، فكأنها هي . أو تتساقط بعدهم لأجل الحسرات والأحزان وهو أوجه . وذكرهم : أي تذكرهم سقام لي ، وهو بالفتح مصدر كالسقم .

[سورة فاطر (35) : آية 9]

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (9)

وقرئ: أرسل الريح. فإن قلت: لم جاء فَتُثِيرُ على المضارعة دون ما قبله، وما بعده؟

قلت:

ليحكى الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية، بحال تستغرب، أو تهمّ المخاطب، أو غير ذلك، كما قال تأبط شرا:

بأنى قد لقيت الغول تهوى بسهب كالصّحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرّت صريعا لليدين وللجران «1»

لأنه قصد أن يصوّر لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها، مشاهدة للتعجيب من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدّة. وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها: لما كانا

من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : فسقنا ، وأحيينا ، معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدلّ عليه . والكاف في كَذٰلِكَ في محلّ الرفع ، أى : مثل إحياء الموات نشور الأموات وروى أنه قيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : كيف يحيى اللّه الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟

فقال «هل مررت بوادي أهلك محلا ثم مررت به يهزّ «2» خضرا» قال : نعم . قال :

«فكذلك يحيى

---

(1) فمن ينكر وجود الغول إنى أخبر عن يقين بل عيان

بأنى لقد لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرت صريعا لليدين وللجران

لتأبط شرا . والغول : أنثى الشياطين . والعيان : المشاهدة بالعين . والهوى : الهبوط . والمراد : سرعة العدو .

والسهب - بالفتح - : الفضاء المستوى البعيد الأطراف . والصحيفة : الكتاب . والصحصحان والصعصعان - بالفتح - :

المستوى من الأرض . والجران - ككتاب - : مقدم عظم العنق من الحلق إلى اللبة ، وجمعه جرنة ككتبة ، وأجرنة كأفئدة . يقول : فمن ينكر وجود الغول فقد كذب ، فإنى أخبر عن يقين . ويجوز أن المعنى : فيا من تنكر وجود الغول ، إنى أخبر إخبارا ناشئا عن يقين ، وهو

ما كان بدليل قاطع بل عيان ومشاهدة بالعين ، بأنى قد لقيتها تسرع في مكان متسع مستو ، وكرر الوصف بذلك توكيدا ، وأظهر موضع الإضمار لزيادة تمكين الغول في ذهن السامع وللتهويل ، وكان الظاهر أن يقول : فضربتها ، لكن عدل إلى المضارع ليحكى الحال الماضية كأنها موجودة الآن مشاهدة فيتعجب منها ، وتعلم شجاعته ، أى : فجعلت أضربها بلا خوف فسقطت مطروحة على يديها وعنقها . وفعيل : يوصف به المذكر والمؤنث كما هنا .

(2) . قوله «ثم مررت به يهز خضرا» في الخازن : «يهتز» . (ع)

(122/640)

---

اللّه الموتى وتلك آيته في خلقه «1» وقيل يحيى اللّه الخلق» بماء يرسله من تحت العرش كمنى الرجال ، تنبت منه أجساد الخلق .

[سورة فاطر (35) : آية 10]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (10)

كان الكافرون يتعززون بالأصنام ، كما قال عز وجل وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ

عِزّاً والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم : كانوا يتعززون بالمشركين ، كما قال تعالى الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً فبين أن لا عزة إلا للّه ولأوليائه . وقال وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمعنى فليطلبها عند اللّه ، فوضع قوله فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً موضعه ، استغناء به عنه لدلالته عليه ، لأن الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه ومالكه . ونظيره قولك : من أراد النصيحة فهي عند الأبرار ، تريد :

فليطلبها عندهم ، إلا أنك أقمت ما يدل عليه مقامه . ومعنى فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً أنّ العزة كلها مختصة باللّه : عزة الدنيا وعزة الآخرة . ثم عرف أن ما تطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ والكلم الطيب : لا إله إلا اللّه . عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : يعنى أنّ هذه الكلم لا تقبل . ولا تصعد إلى السماء فتكتب حيث تكتب الأعمال المقبولة ، كما قال عز وجل إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ إلا إذا اقترن بها العمل الصالح الذي يحققها ويصدقها فرفعها وأصعدها . وقيل : الرافع الكلم ، والمرفوع العمل ، لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد . وقيل : الرافع هو اللّه تعالى ، والمرفوع العمل . وقيل : الكلم الطيب : كل ذكر من تكبير وتسبيح وتهليل وقراءة قرآن ودعاء واستغفار وغير ذلك . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «هو قول الرجل سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيا بها وجه

الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم يقبل «2» منه» وفي الحديث «لا يقبل

---

(1) . أخرجه أحمد وإسحاق وابن أبى شيبة والحاكم والبيهقي في البعث كلهم من طريق حماد بن سلمة عن يعلى ابن عطاء عن وكيع بن عدى عن عمه أبى رزين العقيلي أنه قال «يا رسول اللّه أكلنا يرى ربه يوم القيامة . وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : أليس كلكم ينظر إلى القمر مختليا به ؟ قالوا بلى . قال : فاللّه أعظم . قال : قلت : يا رسول اللّه ، كيف يحيى اللّه الموتى . وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : أما مررت بوادي أهلك ممحلا ؟ قال : بلى . قال ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قال : قلت : بلى . قال : فكذلك يحيى اللّه الموتى . وذلك آية في خلقه» وأوله في سنن أبى داود وابن ماجة دون مقصود الكتاب .

[. . . . . .]

(2) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية على بن عاصم عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة مرفوعا ، ورواه الحاكم والبيهقي في الأسماء والطبري مرفوعا عن ابن مسعود رضى اللّه عنه .

اللّه قولا إلا بعمل ، ولا يقبل قولا ولا عملا إلا بنية ، ولا يقبل قولا وعملا ونية إلا بإصابة السنة «1»» وعن ابن المقفع : قول بلا عمل كثريد بلا دسم ، وسحاب بلا مطر ، وقوس بلا وتر .

وقرئ : إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ على البناء للمفعول . وإِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ على تسمية الفاعل ، من أصعد . والمصعد : هو الرجل أى يصعد إلى اللّه عز وجل الكلم الطيب ، وإليه يصعد الكلام الطيب . وقرئ : وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، بنصب العمل والرافع الكلم أو اللّه عز وجل . فإن قلت : مكر : فعل غير متعدّ . لا يقال : مكر فلان عمله فبم نصب السَّيِّئاتِ ؟

قلت : هذه صفة للمصدر ، أو لما في حكمه ، كقوله تعالى وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ أصله والذين مكروا المكرات السيئات . أو أصناف المكر السيئات ، وعنى بهن مكرات قريش حين اجتمعوا في دار الندوة وتداوروا الرأى في إحدى ثلاث مكرات يمكرونها برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إما إثباته ، أو قتله ، أو إخراجه كما حكى اللّه سبحانه عنهم وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ . وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ يعنى : ومكر أولئك الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة يبور ، أى : يكسد ويفسد ، دون مكر اللّه بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر ، فجمع عليهم مكراتهم جميعا وحقق فيهم قوله وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ وقوله . ولا يحيق

المكر السيئ إلا بأهله.

[سورة فاطر (35) : آية 11]

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (11)

أَزْواجاً أصنافا، أو ذكرانا وإناثا، كقوله تعالى أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وعن قتادة رضى الله عنه: زوج بعضهم بعضا بِعِلْمِهِ في موضع الحال، أى: إلا معلومة له.

فإن قلت: ما معنى قوله. وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ؟ قلت: معناه وما يعمر من أحد. وإنما سماه معمرا بما هو صائر إليه. فإن قلت: الإنسان إما معمر، أى طويل العمر: أو منقوص العمر، أى قصيره. فأما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال، فكيف صح قوله وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ

---

(1). أخرجه الخطيب في الجامع من رواية بقية بن إسماعيل بن عبد الله عن أبان عن أنس بهذا مرفوعا. وأبان متروك. وله طريق أخرى عن أبى هريرة مرفوعا أخرجه ابن عدى وابن حبان، كلاهما في الضعفاء عن خالد بن عبد الدائم عن نافع بن يزيد عن زهرة بن معبد عن سعيد بن المسيب عنه، بلفظ «قرآن في صلاة خير من قرآن في غير صلاة- الحديث. وفيه: ولا قول إلا بعمل إلى آخره. ورواه ابن حبان أيضا من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب عن ابن مسعود. وفيه أحمد بن الحسن المصري. وهو كذاب.

؟ قلت : هذا من الكلام المتسامح فيه ، ثقة في تأويله بأفهام السامعين ، واتكالا على تسديدهم معناه بعقولهم ، وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد . وعليه كلام الناس المستفيض . يقولون : لا يثيب اللّه عبدا ولا يعاقبه إلا بحق .

وما تنعمت بلدا ولا اجتويته إلا قل فيه ثوائى «1» . وفيه تأويل آخر : هو أنه لا يطول عمر إنسان ولا يقصر إلا في كتاب ، وصورته : أن يكتب في اللوح : إن حج فلان أو غزا فعمره أربعون سنة ، وإن حج وغزا فعمره ستون سنة ، فإذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عمر . وإذا أفرد أحدهما فلم يتجاوز به الأربعون ، فقد نقص من عمره الذي هو الغاية وهو الستون . وإليه أشار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في قوله «إن الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار «2»» وعن كعب أنه قال حين طعن عمر رضى اللّه عنه : لو أن عمر دعا اللّه لأخر في أجله ، «3» فقيل لكعب : أليس قد قال اللّه إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ قال :

فقد قال اللّه وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وقد استفاض على الألسنة : أطال اللّه بقاءك ، وفسخ في مدتك وما أشبهه . وعن سعيد بن جبير رضى اللّه عنه : يكتب في الصحيفة عمره كذا

وكذا سنة ، ثم يكتب في أسفل ذلك : ذهب يوم ، ذهب يومان ، حتى يأتى على آخره .

وعن قتادة رضى اللّه عنه : المعمر من بلغ ستين سنة ، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة ، والكتاب :

اللوح. عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : ويجوز أن يراد بكتاب اللّه : علم اللّه ، أو صحيفة الإنسان .

وقرئ : ولا ينقص ، على تسمية الفاعل من عمره بالتخفيف .

[سورة فاطر (35) : آية 12]

وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12)

ضرب البحرين : العذب والمالح مثلين للمؤمن والكافر ، ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه وَمِنْ كُلٍّ أى : ومن كل واحد منهما تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وهو السمك وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً وهي اللؤلؤ والمرجان وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ

---

(1) . قوله «ولا اجتويته إلا قل فيه ثوائي» أى : كرهت المقام به ، كذا في الصحاح. (ع)

(2) . أخرجه أحمد من طريق القاسم عن عائشة ، لكن قال «وحسن الخلق» بدل «الصدقة» ورواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه كذلك ، وزاد وحسن الجوار» وله

طريق أخرى عند الأصبهانى عن أبى سعيد بلفظ «صلة الرحم وحسن الخلق وبر الوالدين» وزاد «وإن كان القوم فجارا»

(3) . أخرجه إسحاق في آخر مسند ابن عباس رضى اللّه عنهما ، أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن سعيد .

(125/640)

---

في كل مَواخِرَ شواق للماء بجريها ، يقال : مخرت السفينة الماء . ويقال للسحاب : بنات مخر ، لأنها تمخر الهواء والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر ، لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره مِنْ فَضْلِهِ من فضل اللّه ، ولم يجر له ذكر في الآية ، ولكن فيما قبلها ، ولو لم يجر لم يشكل ، لدلالة المعنى عليه . وحرف الرجاء مستعار لمعنى الإرادة ، ألا ترى كيف سلك به مسلك لام التعليل ، كأنما قيل : لتبتغوا ، ولتشكروا . والفرات : الذي يكسر العطش . والسائغ : المريء السهل الانحدار لعذوبته . وقرئ : سيغ ، بوزن سيد : وسيغ بالتخفيف . وملح : على فعل .

والأجاج : الذي يحرق بملوحته . ويحتمل غير طريقة الاستطراد : وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين ، ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر ، بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك

واللؤلؤ : وجرى الفلك فيه والكافر خلو من النفع ، فهو في طريقة قوله تعالى ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ثم قال وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ .

[سورة فاطر (35) : آية 13]

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13)

ذلِكُمُ مبتدأ . واللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ أخبار مترادفة . أو اللَّهُ رَبُّكُمْ خبران . وله الملك : جملة مبتدأة واقعة في قران قوله وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ويجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم الله صفة لاسم الإشارة . أو عطف بيان . وربكم خبرا . لولا أن المعنى يأباه . والقطمير : لفافة النواة ، وهي القشرة الرقيقة الملتفة عليها .

[سورة فاطر (35) : آية 14]

إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14)

إن تدعوا الأوثان لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ لأنهم جماد وَلَوْ سَمِعُوا على سبيل الفرض والتمثيل لَمَا اسْتَجابُوا لَكُمْ لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلهية ، ويتبرءون منها .

وقيل : ما نفعوكم يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ «1» وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ولا يخبرك بالأمر مخبر هو

(1) . قوله «يكفرون بشرككم» كأن تفسيره قد سقط ، وفي النسفي : يكفرون بشرككم : باشراككم لهم وعبادتكم إياهم ، ويقولون : ما كنتم إيانا تعبدون ، ولا ينبئك . . . الخ .

(ع)

(126/640)

---

مثل خبير عالم به . ويريد : أن الخبير بالأمر وحده ، هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به . والمعنى : أنّ هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق ، لأنى خبير بما أخبرت به .

وقرئ : يدعون ، بالياء والتاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 3 صـ 595 . 606﴾

(127/640)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ الحمدُ لله فاطِرِ السَّموات والأرض ﴾

أي : خالِقُهما مبتدئاً على غيرِ مِثال .

قال ابن عباس : ما كنت أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى اختصم أعرابيّان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتُها ، أي : ابتدأتُها .

قوله تعالى : ﴿ جاعِلِ الملائكةِ ﴾ وروى الحلبي والقزّاز عن عبد الوارث : ﴿ جاعِلٌ ﴾ بالرفع والتنوين ﴿ الملائكةَ ﴾ بالنصب ﴿ رُسُلاً ﴾ يرسلهم إلى الأنبياء وإلى ما شاء من الأمور ﴿ أُولي أجنحة ﴾ أي : أصحاب أجنحة ، ﴿ مَثنى وثُلاثَ ورُباعَ ﴾ فبعضُهم له جناحان ، وبعضُهم [ له ] ثلاثة ، وبعضهم له أربعة ، و ﴿ يزيدُ في الخَلْق ما يشاء ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : أنه زاد في خَلْق الملائكة الأجنحة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : يَزيد في الأجنحة ما يشاء ، رواه عبّاد بن منصور عن الحسن ، وبه قال مقاتل .

والثالث : أنه الخلق الحسن ، رواه عوف عن الحسن .

والرابع : أنه حُسن الصوت ، قاله الزهري ، وابن جريج .

والخامس : المَلاحة في العينين ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ ما يَفْتَحِ اللّهُ للنّاس مِنْ رحمةٍ ﴾ أي : من خير ورزق ، وقيل : أراد بها المطر ﴿ فلا مُمْسِكَ لها ﴾ وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وابن أبي عبلة : ﴿ فلا مُمْسِكَ له ﴾ .

وفي الآية تنبيه على أنه لا إله إلا هو ، إذ لا يستطيع أحدٌ إمساك ما فتَحَ وفَتْح ما أمسك .

قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّها النَّاس اذكُروا نعمة الله عليكم ﴾ قال المفسرون : الخطاب لأهل مكة ، و ﴿ اذكُروا ﴾ بمعنى : "احفظوا" ، ونعمة الله عليهم : إِسكانهم الحَرَم ومنع الغارات عنهم .

﴿ هل مِنْ خالقٍ غيرُ الله ﴾ وقرأ حمزة والكسائي : ﴿ غيرِ الله ﴾ بخفض الراء ؛ قال أبو علي : جعلاه صفة على اللفظ ، وذلك حَسَنٌ لإِتباع الجرِّ .

وهذا استفهام تقرير وتوبيخ ؛ والمعنى : لا خالق سواه ﴿ يرزُقُكم من السماء ﴾ المطر ( و ) من ﴿ الأرض ﴾ النبات .

(128/640)

---

وما بعد هذا قد سبق بيانه [ الأنعام : 95 ، آل عمران : 184 ، البقرة : 210 ، لقمان : 33 ] إِلى قوله : ﴿ إِنَّ الشيطان لكم عَدُوٌّ ﴾ أي : إِنه يريد هلاككم ﴿ فاتَّخِذوه عَدُوّاً ﴾ أي : أنزِلوه من أنفُسكم منزلة الأعداء ، وتجنَّبوا طاعته ﴿ إِنَّما يدعو حِزبه ﴾ أي : شيعته إِلى الكفر ﴿ لِيكونوا من أصحاب السَّعير ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ له سُوءُ عمله ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في أبي جهل ومشركي مكة ، قاله ابن عباس .

والثاني : في أصحاب الأهواء والمِلل التي خالفت الهُدى ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : أنهم اليهود والنصارى والمجوس ، قاله أبو قلابة .

فإن قيل : أين جواب ﴿ أفَمَنْ زُيِّن له ﴾ ؟ .

فالجواب : من وجهين ذكرهما الزجاج .

أحدهما : أن الجواب محذوف ؛ والمعنى : أفَمَنْ زُيِّن له سُوء عمله كمن هداه الله ؟ ! ويدُلُّ على هذا قوله : ﴿ فانَّ الله يُضِلُّ من يشاء ويَهدي من يشاء ﴾ .

والثاني : أن المعنى : أفَمَنْ زُيِّن له سوء عمله فأضلَّه اللّهُ ذهبتْ نفسُك عليهم حسرات ؟ ! ويدلُّ على هذا قوله : ﴿ فلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عليهم حَسَراتٍ ﴾ .

وقرأ أبو جعفر ﴿ فلا تُذْهِبْ ﴾ بضم التاء وكسر الهاء ﴿ نَفْسَكَ ﴾ بنصب السين .

وقال ابن عباس : لا تغتمَّ ولا تُهْلِكْ نَفْسَكَ حَسْرة على تركهم الإِيمان .

قوله تعالى : ﴿ فتُثيرُ سحاباً ﴾ أي : تُزعجه من مكانه ؛ وقال أبو عبيدة : تجمعُه وتجيء به ، و ﴿ سُقْناه ﴾ بمعنى : "نسوقه" ؛ والعرب قد تضع "فَعَلْنَا" في موضع "نَفْعَلُ" ،

وأنشدوا :

إنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طاروا بها فَرَحاً . . .

مِنّي ومَا سَمعوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

المعنى : يَطيروا ويَدفِنوا .

قوله تعالى : ﴿ كذلك النُّشور ﴾ وهو الحياة .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : كما أحيا اللّهُ الأرض بعد موتها يُحيي الموتى يوم البعث .

(129/640)

---

روى أبو رزين العقيلي ، " قال : قلت : يا رسول الله : كيف يُحيي اللّهُ الموتى ؟ وما آيةُ ذلك في خَلْقه ؟ فقال : "هل مررتَ بوادي أهلك مَحْلاً ؟ ثم مررتَ به يهتزُّ خَضِراً ؟" قلت : نعم ، قال : "فكذلك يُحيي اللّهُ الموتى ، وتلك آيتُه في خَلْقه" " .

والثاني : كما أحيا اللّهُ الأرض الميتة بالماء ، كذلك يُحيي الله الموتى بالماء .

قال ابن مسعود : يرسِلُ اللّهُ تعالى ماءً من تحت العرش كمنِيِّ الرجال ، قال : فتنبت لُحْمانهم وجُسْمانهم من ذلك الماء ، كما تنبت الأرض من الثرى ، ثم قرأ هذه الآية .

وقد ذكرنا في [ الأعراف : 57 ] نحو هذا الشرح .

قوله تعالى : ﴿ من كان يُريد العِزَّة ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : من كان يريد العزَّة بعبادة الأوثان ﴿ فللّه العِزَّةُ جميعاً ﴾ ، قاله مجاهد .

والثاني : من كان يريد العزَّة فليتعزَّز بطاعة الله ، قاله قتادة .

وقد روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إِنَّ رَبَّكم يقول كل يوم : أنا العزيز ، فمن أراد عِزَّ الدَّارَيْن فلْيُطِع العزيز"

والثالث : من كان يريد عِلْم العزَّةِ لمن هي ، فانها لله جميعاً ، قاله الفراء .

قوله تعالى : ﴿ إِليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والنخعي ، والجحدري ، والشيزري عن الكسائي : ﴿ يُصْعَدُ الكلامُ الطَّيِّبُ ﴾ وهو توحيده وذِكْره ﴿ والعملُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ قال علي بن المديني : الكَلِم الطَّيِّب : لا إِله إلا الله ، والعمل الصالح : أداء الفرائض واجتناب المحارم .

وفي هاء الكناية في قوله "يرفعه" ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها ترجع إِلى الكَلِم الطَّيِّب ؛ فالمعنى : والعمل الصالح يرفع الكَلِم الطَّيِّب ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، والضحاك .

وكان الحسن يقول : يُعْرَض القولُ على الفعل ، فإن وافق القولَ الفعلُ قُبِل ، وإِن خالف رُدَّ .



---

والثاني : أنها ترجع إِلى العمل الصالح ، فالمعنى : والعمل الصالح يرفعُه الكَلِم الطَّيِّب ، فهو عكس القول الأول ، وبه قال أبو صالح ، وشهر بن حوشب .

فإذا قلنا : إِن الكَلِم الطَّيِّب هو التوحيد ، كانت فائدة هذا القول أنه لا يُقْبَل عملٌ صالحٌ إِلا من مُوحِّد .

والثالث : أنها ترجع إِلى الله عز وجل ؛ فالمعنى : والعمل الصالح يرفعُه اللّهُ إِليه ، أي : يَقْبَلُه ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ والذين يمكُرون السَّيِّئات ﴾ قال أبو عبيدة : يمكرون : بمعنى : يكتسِبون ويجترِحون .

ثم في المشار إِليهم أربعة أقوال .

أحدها : أنهم الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الندوة ، قاله أبو العالية .

والثاني : أنهم أصحاب الرِّياءَ ، قاله مجاهد ، وشهر بن حوشب .

والثالث : أنهم الذين يعملون السَّيِّئات ، قاله قتادة ، وابن السائب .

والرابع : أنهم قائلو الشِّرك ، قاله مقاتل .

وفي معنى ﴿ يَبُورُ ﴾ قولان .

أحدهما : يَبْطُلُ ، قاله ابن قتيبة .

والثاني : يَفْسُدُ قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ واللّهُ خَلَقكم من تراب ﴾ يعني آدم ﴿ ثُمَّ من نُطفة ﴾ يعني نسله ﴿ ثم

جَعَلكم أزواجاً ﴾ أي : أصنافاً ، ذكوراً وإناثاً ؛ قال قتادة : زوَّج بعضهم ببعض .

قوله تعالى : ﴿ وما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ ﴾ أي : ما يطُول عمر أحد ﴿ ولا يُنْقَصُ ﴾ وقرأ الحسن ، ويعقوب : ﴿ يَنْقُصُ ﴾ بفتح الياء وضم القاف ﴿ مِنْ عُمُره ﴾ في هذه الهاء قولان .

أحدهما : أنها كناية عن آخر ، فالمعنى : ولا يُنْقَص من عمر آخر ؛ وهذا المعنى في رواية العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد في آخرين .

قال الفراء : وإِنما كني عنه كأنه الأول ، لأن لفظ الثاني لو ظهر كان كالأول ، كأنه قال : ولا يُنْقَصُ من عمر مُعَمَّر ، ومثله في الكلام : عندي درهم ونصفه ؛ والمعنى : ونصف آخر .

(131/640)

---

والثاني : أنها ترجع إِلى المُعَمَّر المذكور ؛ فالمعنى : ما يذهب من عمر هذا المُعَمَّر يومٌ أو ليلة إِلاَّ وذلك مكتوب ؛ قال سعيد بن جبير : مكتوب في أول الكتاب : عمره كذا وكذا سنة ، ثم يُكتب أسفل من ذلك : ذهب يوم ، ذهب يومان ، ذهبت ثلاثة ، إِلى أن ينقطع عُمُره ؛ وهذا المعنى في رواية ابن جبير عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة وأبو مالك في آخرين .

فأما الكتاب ، فهو اللوح المحفوظ .

وفي قوله ﴿ إِنَّ ذلك على الله يسيرٌ ﴾ قولان.

أحدهما: أنه يرجع إلى كتابة الآجال.

والثاني: إلى زيادة العُمُر ونقصانه.

قوله تعالى: ﴿ وما يستوي البحران ﴾ يعني العذب والمِلْح؛ وهذه الآية وما بعدها قد سبق بيانه [ الفرقان: 53، النحل: 14، آل عمران: 27، الرعد: 2 ] إلى قوله: ﴿ ما يَمْلِكون من قِطْمير ﴾ قال ابن عباس: هو القِشْر الذي يكون على ظهر النَّواة.

قوله تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهم لا يَسْمَعوا دُعاءَكم ﴾ لأنهم جماد ﴿ ولو سَمِعُوا ﴾ بأن يخلق الله لهم أسماعاً ﴿ ما استجابوا لكم ﴾ أي: لم يكن عندهم إِجابة ﴿ ويومَ القيامة يكفُرون بشِرككم ﴾ أي: يتبرَّؤون من عبادتكم ﴿ ولا يُنَبِّئُكَ ﴾ يا محمد ﴿ مِثْلُ خبير ﴾ أي: عالِم بالأشياء، يعني نفسه عز وجل؛ والمعنى أنه لا أَخْبَرَ منه عز وجل بما أَخبر أَنَّه سيكون. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ 472.481 ﴾

(132/640)

---

وقال الخازن:

قوله ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال

سبق ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ أي إلى الأنبياء ﴿ أولي أجنحة ﴾ أي ذوي أجنحة ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أي بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة أجنحة وبعضهم له أربعة ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ أي يزيد في خلق الأجنحة ما يشاء .

قال عبد الله بن مسعود في قوله ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ قال رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح ، وقيل في قوله ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ هو حسن الصوت وقيل حسن الخلق وتمامه وقيل هو الملاحة في العينين وقيل هو العقل والتمييز ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ أي مما يريد أن يخلقه .

قوله تعالى ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة ﴾ قيل المطر وقيل من خير ورزق ﴿ فلا ممسك لها ﴾ أي لا يستطيع أحد حبسها ﴿ وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ أي لا يقدر أحد على فتح ما أمسك ﴿ وهو العزيز ﴾ يعني فيما أمسك ﴿ الحكيم ﴾ أي فيما أرسل (م) عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يقول في دبر كل صلاة " لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد " والجد الغنى والبخت أي لا ينفع المبخوت والغني حظه وغناه لأنهما منك إنما ينفعه الإخلاص والعمل بطاعتك .

قوله : ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ قيل الخطاب لأهل مكة ونعمة الله عليهم إسكانهم الحرم ومنع الغارات عنهم ﴿ هل من خالق غير الله ﴾ أي لا خالق إلا الله وهو استفهام تقرير وتوبيخ ﴿ يرزقكم من السماء ﴾ أي المطر ﴿ والأرض ﴾ أي النبات ﴿ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ أي من أين يقع لكم الإفك والتكذيب بتوحيد الله وإنكار البعث وأنتم مقرون بأن الله خالقكم ورازقكم ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ يعزي نبيه (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي فجزي المكذب من الكفار بتكذيبه .

قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق ﴾ أي وعد القيامة ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ أي لا تخد عنكم بلذاتها وما فيها عن عمل الآخرة وطلب ما عند الله ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ أي لا يقل لكم اعملوا ما شئتم فان الله يغفر كل ذنب وخطيئة ثم بين الغرور من هو فقال تعالى ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ أي عادوه بطاعة الله ولا تطيعوه فيما يأمركم به من الكفر والمعاصي ﴿ إنما يدعوا حزبه ﴾ أي أشياعه وأولياءه ﴿ ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ ثم بين حال موافقيه ومخالفته فقال تعالى ﴿ الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ .

قوله ﴿ أفمن زين له سوء عمله ﴾ قال ابن عباس نزلت في أبي جهل ومشركي مكة وقيل نزلت في أصحاب الأهواء والبدع ومنه الخوارج الذي يستحلون دماء المسلمين وأموالهم وليس أصحاب الكبائر من الذنوب منهم لأنهم لا يستحلونها ويعتقدون تحريمها مع ارتكابهم إياها ومعنى زين له شبه له وموه عليه قبيح عمله ﴿ فرآه حسناً ﴾ وفي الآية حذف مجازه أفمن زين له سوء عمله فرأي الباطل حقاً كمن هداه الله فرأى الحق حقاً والباطل باطلاً ﴿ فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ وقيل مجاز الآية أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء والحسرة شدة الحزن على ما فات والمعنى لا تغتم بكفرهم وهلاكهم إن لم تؤمنوا ﴿ إن الله عليم بما يصنعون ﴾ فيه وعيد العقاب على سوء صنيعهم ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً ﴾ أي تزعجه من مكانه وقيل تجمعه وتجيء به ﴿ فسقناه ﴾ أي فنسوقه ﴿ إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ أي مثل إحياء الموات نشور الأموات روى ابن الجوزي في تفسيره عن أبي رزين العقيلي قال : قلت يا رسول الله

كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه فقال " هل مررت بواد أهلك محلا ثم مررت به يهتز خضراً قلت نعم قال كذلك يحيي الله الموتى وتلك آية في خلقه "

(135/640)

---

قوله تعالى ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ قيل معناه من كان يريد أن يعلم لمن العزة فلله العزة جميعاً وقيل معناه من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله هو دعاء إلى طاعة من له العزة أي فليطلب العزة من عند الله بطاعته ، وذلك أن الكفار عبدوا الأصنام وطلبوا بها التعزز ، فبين الله أن لا عزة إلا لله ولرسوله ولأوليائه المؤمنين ﴿ إليه ﴾ يعني إلى الله ﴿ يصعد الكلم الطيب ﴾ قيل هو لا إله إلا الله وقيل هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر روى البغوي باسناده عن ابن مسعود قال " إذا حدثتكم حديثاً أنبأتكم بمصداقه من كتاب الله ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وتبارك الله ، إلا أخذهن ملك تحت جناحه ثم يصعد بهن فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بها وجه رب العالمين ، ومصداقه من كتاب الله قوله : إليه يصعد الكلم الطيب " هذا حديث موقوف على ابن مسعود وفي إسناد الحجاج بن نصير ضعيف ، وقيل الكلم الطيب ذكر الله تعالى وقيل معنى إليه يصعد أي

يقبل الكلم الطيب ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ قال ابن عباس أي يرفع العمل الصالح الكلم الطيب ، وقيل الكلم الطيب ذكر الله والعمل الصالح أداء الفرائض فمن ذكر الله ، ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله وليس الإيمان بالتمني وليس بالتحلي ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال فمن قال حسناً وعمل غير صالح رد الله عليه قوله ومن قال حسناً وعمل صالحاً يرفعه العمل ذلك بأن الله يقول إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وجاء في الحديث " لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ولا عملاً إلا بنية " وقيل الهاء في يرفعه راجعة إلى العمل الصالح أي الكلم الطيب يرفع العمل الصالح فلا يقبل عملا إلا أن يكون صادراً عن توحيد وقيل معناه العمل الصالح يرفعه الله وقيل العمل الصالح هو الخالص ، وذلك أن الإخلاص سبب قبول

*(136/640)*

---

الخيرات من الأقوال والأفعال ﴿ والذين يمكرون السيئات ﴾ أي يعملون السيئات أي الشرك وقيل يعني الذين مكروا برسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) في دار الندوة وقيل هم أصحاب الرياء ﴿ لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾ أي يبطل ويهلك في الآخرة .

قوله : ﴿ والله خلقكم من تراب ﴾ يعني آدم ﴿ ثم من نطفة ﴾ يعني ذريته ﴿ ثم جعلكم أزواجاً ﴾ يعني أصنافا ذكرانا وانا ثاً وقيل زوج بعضكم بعضاً ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ﴾ يعني لا يطول عمر أحد ﴿ ولا ينقص من عمره ﴾ يعني عمر آخر ، وقيل ينصرف إلى الأول قال سعيد بن جبير ، مكتوب في أم الكتاب عمر فلان كذا وكذا سنة ، ثم يكتب أسفل من ذلك ذهب يوم ذهب يومان ، ذهب ثلاثة أيام حتى ينقطع عمره ، وقيل معناه لا يطول عمر إنسان ولا يقصر إلا في كتاب قال كعب الأحبار حين حضرت عمر الوفاة والله لو دعا عمر به أن يؤخر أجله لأخر ، فقيل له إن الله تعالى يقول ﴿ فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ قال : هذا إذا حضر الأجل فأما قبل ذلك فيجوز أن يزاد ذلك وقرأ هذه الآية ﴿ إلا في كتاب ﴾ يعني اللوح المحفوظ ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ أي كتابة الآجال والأعمال على الله هين .



---

قوله تعالى ﴿ وما يستوي البحران ﴾ يعني العذب والمالح ثم وصفهما فقال ﴿ هذا عذب فرات ﴾ أي طيب يكسر العطش ﴿ سائغ شرابه ﴾ أي سهل في الحلق هنيء مريءٍ ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ أي شديد الملوحة يحرق الحلق بملوحته وقيل هو المر ﴿ ومن كل ﴾

يعني من البحرين ﴿ تأكلون لحماً طرياً ﴾ يعني السمك ﴿ وتستخرجون ﴾ يعني من الملح دون العذب ﴿ حلية تلبسونها ﴾ يعني اللؤلؤ والمرجان وقيل نسب اللؤلؤ إليهما لأنه يكون في البحر المالح عيون عذبة فتمتزج بالملح فيكون اللؤلؤ منهما ﴿ وترى الفلك فيه مواخر ﴾ يعني جواري مقبلة ومدبرة بريح واحدة ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ يعني بالتجارة ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ يعني تشكرون الله على نعمه ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ﴾ يعني الأصنام ﴿ ما يملكون من قطمير ﴾ هو لفافة النواة وهي القشرة الرقيقة التي تكون على النواة ﴿ إن تدعوهم ﴾ يعني الأصنام ﴿ لا يسمعوا دعاءكم ﴾ يعني أنهم جماد ﴿ ولو سمعوا ﴾ أي على سبيل الفرض والتمثيل ﴿ ما استجابوا لكم ﴾ أي ما أجابوكم وقيل ما نفعوكم ﴿ يوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ أي يتبرؤون منكم ومن عبادتكم إياها ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ يعني نفسه أي لا ينبئك أحد مثلي لأني عالم بالأشياء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن جـ 5 صـ 296 . 300 ﴾

(138/640)

وقال ابن جزي :

﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾

أي وسائط بين الله وبين الأنبياء متصرفين في أمر الله ﴿ مثنى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ صفات للأجنحة ولم ينصرف للعدل والوصف ، والمعنى أن الملائكة منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة أجنحة ، ومنهم من له أربعة أجنحة ﴿ يَزِيدُ فِي الخلق مَا يَشَآءُ ﴾ قيل : يعني حسن الصوت ، وقيل : حسن الوجه ، وقيل : حسن الخط ، والأظهر أنه يرجع إلى أجنحة الملائكة ، أو يكون على الاطلاق في كل زيادة في المخلوقين .

﴿ مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ الفتح عبارة عن العطاء والإمساك عبارة عن المنع ، والإرسال الإطلاق بعد المنع والرحمة كمل ما يمنّ الله به على عباده من خيريّ الدنيا والآخرة فمعنى الآية : لا مانع لما أعطى الله ولا مُعطي لما منع الله ، فإن قيل : لم أنث الضمير في قوله ﴿ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ وذكَّره في قوله : ﴿ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ ﴾ وكلاهما يعود على ما الشرطية ، فالجواب : أنه لما فسر ﴿ مِن ﴾ الأولى بقوله ﴿ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ أنثه لتأنيث الرحمة ، وترك الآخرة على الأصل من التذكير ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد إمساكه .

﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ الله ﴾ رفع غير على الصفة لخالق على الموضع ، وخفضه صفة على الرفع ، ورزق السماء المطر ، ورزق الأرض النبات ، والمعنى تذكيرهم بنعم الله

وإقامة حجة على المشركين ، ولذلك أعقبه بقوله : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ الآية : تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم على تكذيب قومه كأنه يقول : إن يكذبوك فلا تحزن لذلك فإن الله سينصرك عليهم ، كما كذبت رسل من قبلك فنصرهم الله .

﴿ الغرور ﴾ الشيطان ، وقيل : التسويف .

(139/640)

---

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سوءُ عَمَلِهِ ﴾ توقيف وجوابه محذوف تقديره : أفمن زين له سوء عمله كمن لم يزين له ؟ ثم بنى على ذلك ما بعده ، فالذي زين له سوء عمله هو الذي أضله الله ، ومن لم يزين له سوء عمله هو الذي هداه الله ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن حزنه لعدم إيمانهم ، لأن ذلك بيد الله .

﴿ كَذَلِكَ النشور ﴾ اي الحشر ، والمعنى : كما يحيي الله الأرض بالنبات كذلك يحيي الموتى .

(140/640)

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة فَلِلَّهِ العزة ﴾ الآية تحتمل ثلاثة معان : أحدها وهو الأظهر من كان يريد نيل العزة فليطلبها من عند الله ، فإن العزة كلها لله ، والثاني من كان يريد العزة بمغالبة الإسلام فللَّه العزة جميعاً ، فالمغالب له مغلوب ، والثالث من كان يريد أن يعلم لمن العزة فليعلم أن العزة لله جميعاً ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ قيل : يعني لا إله إلا الله ، واللفظ يعم ذلك وغيره من الذكر ، والدعاء ، وتلاوة القرآن ، وتعليم العلم : فالعموم أولى ﴿ والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ فيه ثلاثة أقوال أحدها أن ضمير الفاعل في يرفعه : الله وضمير المفعول للعمل الصالح ، فالمعنى على هذا أن الله يرفع العمل الصالح : أي يتقبله ويثيب عليه ، والثاني أن ضيمر الفاعل للكلام الطيب ، وضمير المفعول للعمل الصالح ، والمعنى على هذا : لا يقبل عمل صالح إلا ممن له كلام طيب ، وهذا يصح إن قلنا : إن الكلم الطيب لا إله إلا الله ، لأنه لا يقبل العمل إلا من موحد ، والثالث أن ضمير الفاعل للعمل الصالح ، وضمير المفعول للكلم الطيب ، والمعنى على هذا أن العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم الطيب فلا يقبل الكلم إلا ممن له عمل صالح ، وروي هذا المعنى عن ابن عباس ، واستبعده ابن عطية وقال : لم يصح عنه ؛ لأن اعتقاد أهل السنة أن الله يتقبل من كل مسلم . قال وقد يستقيم بأن يتأول أن الله يزيد في رفعه وحسن موقعه ﴿ يَمْكُرُونَ السيئات ﴾ لا يتعدى مكر فتأويله يمركون المكرات السيئات ، فتكون السيئات مصدراً أو تضمن يمكرون معنى

يكتسبون فتكون السيئات مفعولاً ، والإشارة هنا إلى مكر قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ حين اجتمعوا في دار الندوة ؛ وأرادوا أن يقتلوه أو يحبسوه أو يخرجوه ﴿ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ البوار الهلاك أو الكساد ، ومعناه هنا أن مكرهم يبطل ولا ينفعهم .

(141/640)

---

﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ أي أصنافاً وقيل : ذُكراناً وإناثاً وهذا أظهر ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ التعمير : طول العمر والنقص : قصره والكتاب : اللوح المحفوظ فإن قيل : إن التعمير والنقص لا يجتمعان لشخص واحد فكيف أعاد الضمير في قوله : ﴿ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ على الشخص المعمر ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه الأول وهو الصحيح أن المعنى ما يعمر من أحد ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ، فوضع من معمر موضع من أحد ، وليس المراد شخصاً واحداً ، وإنما ذلك كقولك لا يعاقب الله عبداً ولا يثيبه إلا بحق ، والثاني أن المعنى لا يزاد في عمر إنسان ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ، وذلك أن يكتب في اللوح المحفوظ أن فلاناً إن تصدق فعمره ستون سنة وإن لم يتصدق فعمره أربعون ، وهذا ظاهر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلة

الرحم تزيد في العمر ، إلا أن ذلك مذهب المعتزلة القائلين بالأجلين وليس مذهب الأشعرية ، وقد قال كعب حين طُعن عمر : لو دعا الله لزاد في أجله ، فأنكر الناس عليه فاحتج بهذه الآية . والثالث أن التعمير هو كَتْبُ ما يستقبل من العمر والنقص هو : كَتْبُ ما مضى منه في اللوح المحفوظ وذلك حق كل شخص .

(142/640)

---

﴿ وَمَا يَسْتَوِي البحران ﴾ قد فسرنا البحرين الفرات والأجاج في [ الفرقان : 53 ] وسائغ في [ النحل : 66 ] ، والقصد بالآية التنبيه على قدرة الله ووحدانيته وإنعامه على عباده ، وقال الزمخشري : إن المعنى أن الله ضرب للبحرين الملح والعذب مثلين للمؤمن والكافر وهذا بعيد ﴿ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ يعني الحوت [ السمك ] ﴿ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ يعني الجوهر والمرجان ، فإن قيل : إن الحلية لا تخرج إلا من البحر الملح دون العذب ، فكيف قال : ﴿ وَمِن كُلٍّ ﴾ أي من كل واحد منهما ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه : الأول أن ذلك تجوّز في العبارة كما قال : ﴿ يَامَعْشَرَ الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [ الأنعام : 130 ] والرسل إنما هي من الإنس . الثاني أن المرجان إنما يوجد في البحر الملح حيث تنصب أنهار الماء العذب ، أو ينزل المطر فلما كانت الأنهار والمطر وهي البحر العذب تنصب في

البحر الملح كان الإخراج منهما جميعاً . الثالث زعم قومٌ أنه يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح والعذب ، وهذا قول يبطله الحس أي الواقع ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ ذكر في [ النحل : 14 ] .

﴿ يُولِجُ ﴾ ذُكر في [ لقمان : 29 ] ﴿ قِطْمِيرٍ ﴾ هو القشر الرقيق الأبيض الذي على نوى التمر ، والمعنى أن الأصنام لا يملكون أقل الأشياء فكيف أكثرها .

﴿ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أي بإشراككم ، فالمصدر مضاف للفاعل ، وكفر الأصنام بالشرك يحتمل أن يكون بكلام يخلقه الله عندها ، أو بقرينة الحال ﴿ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أي لا يخبرك بالأمر مخبر مثل مخبر عالم به ، يعني نفسه تعالى في إخباره أن الأصنام يكفرون يوم القيامة بمن عبدهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 3 صـ 154 . 156﴾

(143/640)

---

وقال النسفى :

﴿ الحمد للَّهِ ﴾ حمد ذاته تعليماً وتعظيماً ﴿ فَاطِرِ السماوات ﴾ مبتدئها ومبتدعها .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما كنت أدري معنى الفاطر حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها .

أي ابتدأتها ﴿ والأرض جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ إلى عباده ﴿ أُوْلِى ﴾ ذوي اسم جمع لذو وهو بدل من ﴿ رُسُلاً ﴾ أو نعت له ﴿ أَجْنِحَةٍ ﴾ جمع جناح ﴿ مثنى وثلاث وَرُبَاعَ ﴾ صفات لأجنحة ، وإنما لم تنصرف لتكرر العدل فيها وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أخر كما عدل عمر عن عامر وعن تكرير إلى غير تكرير .

وقيل : للعدل والوصف والتعويل عليه ، والمعنى أن الملائكة طائفة أجنحتهم اثنان اثنان أي لكل واحد منهم جناحان ، وطائفة أجنحتهم ثلاثة ثلاثة ، ولعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدهما بقوة ، وطائفة أجنحتهم أربعة أربعة ﴿ يَزِيدُ فِى الخلق ﴾ أي يزيد في خلق الأجنحة وغيره ﴿ مَا يَشَآءُ ﴾ وقيل : هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن والخط الحسن والملاحة في العينين ، والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق من طول قامة واعتدال صورة وتمام في الأعضاء وقوة في البطش وحصافة في العقل وجزالة في الرأي وذلاقة في اللسان ومحبة في قلوب المؤمنين وما أشبه ذلك ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قادر .

﴿ مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ نكرت الرحمة للإشاعة والإبهام كأنه قال من أية رحمة رزق أو مطر أو صحة أو غير ذلك ﴿ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ فلا أحد يقدر على إمساكها

وحبسها ، واستعير الفتح للإطلاق والإرسال ألا ترى إلى قوله ﴿ وَمَا يُمْسِكُ ﴾ يمنع ويحبس ﴿ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ ﴾ مطلق له ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ من بعد إمساكه .

(144/640)

---

وأنث الضمير الراجع إلى الاسم المتضمن معنى الشرط على معنى الرحمة ، ثم ذكره حملاً على اللفظ المرجع إليه إذ لا تأنيث فيه لأن الأول فسر بالرحمة فحسن اتباع الضمير التفسير ، ولم يفسر الثاني فترك على أصل التذكير .

وعن معاذ مرفوعاً "لا تزال يد الله مبسوطة على هذه الأمة ما لم يرفق خيارهم بشرارهم ويعظم برهم فاجرهم وتعن قراؤهم أمراءهم على معصية الله فإذا فعلوا ذلك نزع الله يده عنهم" .

﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ الغالب القادر على الإرسال والإمساك ﴿ الحكيم ﴾ الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمة إرساله وإمساكه .

﴿ يأَيُّهَا الناس اذكروا ﴾ باللسان والقلب ﴿ نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ وهي التي تقدمت من بسط الأرض كالمهاد ، ورفع السماء بلا عماد ، وإرسال الرسل لبيان السبيل دعوة إليه وزلفة لديه ، والزيادة في الخلق وفتح أبواب الرزق .

ثم نبه على رأس النعم وهو اتحاد المنعم بقوله ﴿ هَلْ مِنْ خالق غَيْرُ اللهِ ﴾ برفع ﴿ غَيْرُ ﴾ على الوصف لأن ﴿ خالق ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي لكم.

وبالجر: علي وحمزة على الوصف لفظاً ﴿ يَرْزُقُكُمْ ﴾ يجوز أن يكون مستأنفاً ويجوز أن يكون صفة ل ﴿ خالق ﴾ ﴿ مِّنَ السمآءِ ﴾ بالمطر ﴿ والأرض ﴾ بأنواع النبات ﴿ لآ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ جملة مفصولة لا محل لها ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ فبأي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ نعى به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله وتكذيبهم بها، وسلى رسوله بأن له في الأنبياء قبله أسوة ولهذا نكر ﴿ رُسُلٌ ﴾ أي رسل ذوو عدد كبير وأولو آيات ونذر وأهل أعمال طوال وأصحاب صبر وعزم لأنه أسلى له، وتقدير الكلام وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك لأن الجزاء يتعقب الشرط، ولو أجرى على الظاهر يكون سابقاً عليه.



---

ووضع ﴿ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ موضع "فتأس" استغناء بالسبب عن المسبب أي بالتذكيب عن التأسي ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾ كلام يشتمل على الوعد والوعيد

من رجوع الأمور إلى حكمه ومجازاة المكذّب والمكذّب بما يستحقانه ، ﴿ ترجع ﴾ بفتح التاء : شامي وحمزة وعلي ويعقوب وخلف وسهل .

﴿ يأَيُّهَا الناس إِنَّ وَعْدَ الله ﴾ بالبعث والجزاء ﴿ حَقٌّ ﴾ كائن ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا ﴾ فلا تخدعنكم الدنيا ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله ﴿ وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ أي الشيطان فإنه يمنّيكم الأمانيّ الكاذبة ويقول إن الله غني عن عبادتك وعن تكذيبك .

﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ ظاهر العداوة فعل بأبيكم ما فعل وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بأحواله ﴿ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ في عقائدكم وأفعالكم ولا يوجدنّ منكم إلا ما يدل على معاداته في سركم وجهركم .

ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه بأن غرضه الذي يؤمه في دعوة شيعته هو أن يوردهم مورد الهلاك بقوله ﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أصحاب السعير ﴾ .

ثم كشف الغطاء فبنى الأمر كله على الإيمان وتركه فقال ﴿ الذين كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أي فمن أجابه حين دعاه فله عذاب شديد لأنه صار من حزبه أي أتباعه ﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ ولم يجيبوه ولم يصيروا من حزبه بل عادوه ﴿ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ لكبر جهادهم .

ولما ذكر الفريقين قال لنبيه عليه السلام ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ بتزيين الشيطان كمن لم يزين له فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ، فقال ﴿ فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات ﴾ وذكر الزجاج أن المعنى : أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليه حسرة ، فحذف الجواب لدلالة ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ ﴾ عليه ، أو أفمن له سوء عمله كمن هداه الله فحذف لدلالة ﴿ فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء ﴾ عليه .

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ ﴾ : يزيد أي لا تهلكها ﴿ حسرات ﴾ مفعول له يعني فلا تهلك نفسك للحسرات و ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ صلة ﴿ تَذْهَبْ ﴾ كما تقول : هلك عليه حباً ومات عليه حزناً .

ولا يجوز أن يتعلق ب ﴿ حسرات ﴾ لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم ﴿ والله الذى أَرْسَلَ الرياح ﴾ ﴿ الريح ﴾ : مكي وحمزة وعلي ﴿ فَتُثِيرُ سحابا فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ بالتشديد : مدني وحمزة وعلي وحفص ، وبالتخفيف : غيرهم .

﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾ بالمطر لتقدم ذكره ضمناً ﴿ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يبسها .

وإنما قيل ﴿ فَتُثِيرُ ﴾ لتحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك

الصورة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بجال تستغرب ، وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها .

لما كان من الدليل على القدرة الباهرة قيل فسقنا وأحيينا معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه ﴿ كَذَلِكَ النشور ﴾ الكاف في محل الرفع أي مثل إحياء الموت نشور الأموات قيل يحيي الله الخلق بما يرسله من تحت العرش كمني الرجال تنبت منه أجساد الخلق .



---

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة فَلِلَّهِ العزة جَمِيعاً ﴾ أي العزة كلها مختصة ، بالله عزة الدنيا وعزة الآخرة وكان الكافرون يتعززون بالأصنام كما قال : ﴿ واتخذوا مِن دُونِ الله ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً ﴾ [ مريم : 81 ] .

والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين كما قال : ﴿ الذين يَتَّخِذُونَ الكافرين أَوْلِيَاء مِن دُونِ المؤمنين أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العزة فَإِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ [ النساء : 139 ] .

فبين أن لا عزة إلا بالله .

والمعنى فليطلبها عند الله فوضع قوله ﴿ لِلَّهِ العزة جَمِيعاً ﴾ موضعه استغناء عنه به لدلالته عليه لأن الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه وماله ونظير قولك : "من أراد النصيحة فهي عند الأبرار" .

تريد فليطلبها عندهم إلا أنك أقمت مايدل عليه مقامه ، وفي الحديث " إن ربكم يقول كل يوم أنا العزيز فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز " ثم عرف أن ما يطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ ومعنى قوله ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى محل القبول والرضا وكل ما اتصف بالقبول وصف بالرفعة والصعود ، أو إلى حيث لا ينفذ فيه إلا حكمه والكلم الطيب كلمات التوحيد أي لا إله إلا الله .

وكان القياس الطيبة ولكن كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا التاء يذكر ويؤنث .

والعمل الصالح العبادة الخالصة يعني والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب فالرافع الكلم والمرفوع العمل لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد .

وقيل : الرافع الله والمرفوع العمل أي العمل الصالح يرفعه الله ، وفيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع والكلم الطيب يصعد بنفسه .

وقيل : العمل الصالح يرفع العامل ويشرفه أي من أراد العزة فليعمل عملاً صالحاً فإنه هو الذي يرفع العبد ﴿ والذين يَمْكُرُونَ السيئات ﴾ هي صفة لمصدر محذوف أي المكرات السيئات لأن مكر فعل غير متعدٍ ، لا يقال مكر فلان عمله .

والمراد مكر قريش به عليه السلام حين اجتمعوا في دار الندوة كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ [ الأنفال : 130 ] الآية ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ في الآخرة ﴿ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ ﴾ مبتدأ ﴿ هُوَ ﴾ فصل ﴿ يَبُورُ ﴾ خبر أي ومكر أولئك الذين مكروا هو خاصة يبور أي يفسد ويبطل دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر فجمع عليهم مكراتهم جميعاً حقق بهم .

قوله تعالى ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الماكرين ﴾ [ الأنفال : 30 ] وقوله ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [ فاطر : 43 ] .

﴿ والله خَلَقَكُمْ ﴾ أي أباكم ﴿ مّن تُرَابٍ ثُمَّ ﴾ أنشأكم ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أزواجا ﴾ أصنافاً أو ذكراناً وإناثاً ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ هو في موضع الحال أي معلومة له ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾ أي وما يعمر من أحد .

وإنما سماه معمراً بما هو صائر إليه ﴿ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِى كتاب ﴾ يعني اللوح أو صحيفة الإنسان ولا ينقص زيد .

فإن قلت : الإنسان إما معمر أي طويل العمر أو منقوص العمر أي قصيره ، فأما أن يتعاقب

عليه التعمير وخلافه فمحال فكيف صح قوله ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ قلت : هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بأفهام السامعين واتكالاً على تسديدهم معناه بعقولهم وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد وعليه كلام الناس يقولون : لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق .

(149/640)

---

أو تأويل الآية أنه يكتب في الصحيفة عمره كذا كذا سنة ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان حتى يأتي على آخره فذلك نقصان عمره .

وعن قتادة : المعمر من يبلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ أي إحصاءه أو زيادة العمر ونقصانه ﴿ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ سهل .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى البحران هذا ﴾ أي أحدهما ﴿ عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ شديد العذوبة .

وقيل : هو الذي يكسر العطش ﴿ سَآئِغٌ شَرَابُهُ ﴾ مريء سهل الانحدار لعذوبته وبه ينتفع شرّابه ﴿ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ شديد الملوحة .

وقيل : هو الذي يحرق بملوحته ﴿ وَمِن كُلٍّ ﴾ ومن كل واحد منهما ﴿ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ وهو السمك ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ وهي اللؤلؤ والمرجان ﴿ وَتَرَى

الفلك فِيهِ ﴾ في كل ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ شواقّ للماء بجريها .

يقال : مخرت السفينة الماء أي شقته وهي جمع ماخرة ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ من فضل الله ولم يجر له ذكر في الآية ولكن فيما قبلها ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله على ما أتاكم من فضله .

ضرب البحرين العذب والملح مثلين للمؤمن والكافر .

ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علّق بهما من نعمته وعطائه ، ويحتمل غير طريق الاستطراد وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين ثم يفضّل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك واللؤلؤ وجري الفلك فيه .

والكافر خلو من النفع فهو في طريقة قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّن بَعْدِ ذلك فَهِىَ كالحجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ ثم قال ﴿ وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خشية الله ﴾ [ البقرة : 74 ] .

(150/640)

---

﴿ يُولِجُ الليل فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى الليل ﴾ يدخل من ساعات أحدهما في الآخر حتى يصير الزائد منهما خمس عشرة ساعة والناقص تسعاً ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر

﴿ أي ذلل أضواء صوره لاستواء سيره ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي يوم القيامة ينقطع جريهما ﴿ ذلكم ﴾ مبتدأ ﴿ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الملك ﴾ أخبار مترادفة أو ﴿ الله رَبُّكُمْ ﴾ خبران و ﴿ لَهُ الملك ﴾ جملة مبتدأة واقعة في قران قوله ﴿ والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ يعني الأصنام التي تعبدونها من دون الله يدعون قتيبة ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ هي القشرة الرقيقة الملتفة على النواة ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ ﴾ أي الأصنام ﴿ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ لأنهم جماد ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا ﴾ على سبيل الفرض ﴿ مَا استجابوا لَكُمْ ﴾ لأنهم لا يدّعون ما تدّعون لهم من الإلهية ويتبرءون منها ﴿ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ بإشراككم لهم وعبادتكم إياهم ويقولون ما كنتم إيانا تعبدون ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ ولا ينبئك أيها المفتون بأسباب الغرور كما ينبئك الله الخبير بخبايا الأمور ، وتحقيقه ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به يريد أن الخبير بالأمر وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به ، والمعنى أن هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق لأني خبير بما أخبرت به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 332. 337 ﴾

وقال البيضاوى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ الحمد للَّهِ فَاطِرِ السموات والأرض ﴾ مبدعهما من الفطر بمعنى الشق كأنه شق العدم بإخراجهما منه ، والإضافة محضة لأنه بمعنى الماضي . ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ وسائط بين الله وبين أنبيائه والصالحين من عباده ، يبلغون إليهم رسالاته بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة ، أو بينه وبين خلقه يوصلون إليهم آثار صنعه . ﴿ أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مثنى وثلاث ورباع ﴾ ذوي أجنحة متعددة متفاوتة بتفاوت ما لهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون ، أو يسرعون بها نحو ما وكلهم الله عليه فيتصرفون فيه على أمرهم به ، ولعله لم يرد به خصوصية الإعداد ونفي ما زال عليها ، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل ليلة المعراج وله ستمائة جناح ﴿ يَزِيدُ فِى الخلق مَا يَشَاءُ ﴾ استئناف للدلالة على أن تفاوتهم في ذلك بمقتضى مشيئته ومؤدى حكمته لا أمر تستدعيه ذواتهم ، لأن اختلاف الأصناف ، والأنواع بالخواص والفصول إن كان لذواتهم المشتركة لزم تنافي لوازم الأمور المتفقة وهو محال ، والآية متناولة زيادات الصور والمعاني كملاحة الوجه وحسن الصوت وحصافة العقل وسماحة النفس . ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وتخصيص بعض الأشياء بالتحصيل دون بعض ، إنما هو من جهة الإرادة .

﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ ﴾ ما يطلق لهم ويرسل وهو من تجوز السبب للمسبب . ﴿ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ كنعمة وأمن وصحة وعلم ونبوة . ﴿ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ يحبسها . ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ ﴾ يطلقه ، واختلاف الضميرين لأن الموصول الأول مفسر بالرحمة والثاني مطلق بتناولها والغضب ، وفي ذلك إشعار بأن رحمته سبقت غضبه . ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ من بعد إمساكه . ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ الغالب على ما يشاء ليس لأحد أن ينازعه فيه . ﴿ الحكيم ﴾ لا يفعل إلا بعلم وإتقان . ثم لما بين أنه الموجد للملك والملكوت والمتصرف فيهما على الإِطلاق أمر الناس بشكر إنعامه فقال :

﴿ يا أيها الناس اذكروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ احفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليها ، ثم أنكر أن يكون لغيره في ذلك مدخل فيستحق أن يشرك به بقوله : ﴿ هَلْ مِنْ خالق غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مّنَ السماء والأرض لاَ إله إِلاَّ هُوَ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى إشراك غيره به ، ورفع ﴿ غَيْر ﴾ للحمل على محل ﴿ مِنْ خالق ﴾ بأنه وصف أو بدل ، فإن الاستفهام بمعنى النفي ، أو لأنه فاعل ﴿ خالق ﴾ وجره حمزة والكسائي حملاً على لفظه ، وقد نصب على الاستثناء ، و﴿ يَرْزُقُكُمْ ﴾ صفة لـ ﴿ خالق ﴾ أو استئناف مفسر له أو كلام مبتدأ ، وعلى الأخير يكون إطلاق ﴿ هَلْ مِنْ خالق ﴾ مانعاً من إطلاقه على غير الله .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أي فتأس بهم في الصبر على تكذيبهم، فوضع ﴿ فَقَدْ كُذِّبَتْ ﴾ موضعه استغناء بالسبب عن المسبب، وتنكير رسل للتعظيم المقتضي زيادة التسلية والحث على المصابرة.

﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾ فيجازيك وإياهم على الصبر والتكذيب.

(153/640)

---

﴿ يا أيها الناس إِنَّ وَعْدَ اللهِ ﴾ بالحشر والجزاء. ﴿ حَقٌّ ﴾ لا خلف فيه. ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا ﴾ فيذهلكم التمتع بها عن طلب الآخرة والسعي لها. ﴿ وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ الشيطان بأن يمنيكم المغفرة مع الإِصرار على المعصية، فإنها وإن أمكنت لكن الذنب بهذا التوقع كتناول السم اعتماداً على دفع الطبيعة. وقرىء بالضم وهو مصدر أو جمع كقعود.

﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ عداوة عامة قديمة. ﴿ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ في عقائدكم وأفعالكم وكونوا على حذر منه في مجامع أحوالكم. ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أصحاب السعير ﴾ تقرير لعداوته وبيان لغرضه في دعوة شيعته إلى اتباع الهوى والركون إلى الدنيا.

﴿ الذين كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وعيد لمن أجاب دعاءه ووعد لمن خالفه وقطع للأماني الفارغة، وبناء للأمر كله على الإيمان والعمل الصالح وقوله:

(154/640)

---

﴿ أَفَمَن زُيّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءاهُ حَسَنًا ﴾ تقرير له أي أفمن زين له سوء عمله بأن غلب وهمه وهواه على عقله حتى انتكس رأيه فرأى الباطل حقاً والقبيح حسناً، كمن لم يزين له بل وفق حتى عرف الحق واستحسن الأعمال واستقبحها على ما هي عليه، فحذف الجواب لدلالة: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ وقيل تقديره أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم حسرة، فحذف الجواب لدلالة: ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات ﴾ عليه ومعناه فلا تهلك نفسك عليهم للحسرات على غيهم وإصرارهم على التكذيب، والفاءات الثلاث للسببية غير أن الأوليين دخلتا على السبب والثالثة دخلت على المسبب، وجمع الحسرات للدلالة على تضاعف اغتمامه على أحوالهم أو كثرة مساوي أفعالهم المقتضية للتأسف، وعليهم ليس صلة لها لأن صلة المصدر لا

تتقدمه بل صلة تذهب أو بيان للمتحسر عليه . ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ فيجازيهم عليه .

(155/640)

---

﴿ والله الذى أَرْسَلَ الرياح ﴾ وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي الريح . ﴿ فَتُثِيرُ سحابا ﴾ على حكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة ، ولأن المراد بيان أحداثها بهذه الخاصية ولذلك أسنده إليها ، ويجوز أن يكون اختلاف الأفعال للدلالة على استمرار الأمر . ﴿ فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيّتٍ ﴾ وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص بالتشديد . ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرض ﴾ بالمطر النازل منه وذكر السحاب كذكره ، أو بالسحاب فإنه سبب السبب أو الصائر مطراً . ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ بعد يبسها والعدول فيهما من الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص لما فيهما من مزيد الصنع . ﴿ كَذَلِكَ النشور ﴾ أي مثل إحياء الموات نشور الأموات في صحة المقدورية ، إذ ليس بينهما إلا احتمال اختلاف المادة في المقيس عليه وذلك لا مدخل له فيها . وقيل في كيفية الإحياء فإنه تعالى يرسل ماء من تحت العرش تنبت منه أجساد الخلق .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة ﴾ الشرف والمنعة . ﴿ فَلِلَّهِ العزة جَمِيعاً ﴾ أي فليطلبها من عنده

فإن له كلها ، فاستغنى بالدليل عن المدلول . ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ بيان لما يطلب به العزة وهو التوحيد والعمل الصالح ، وصعودهما إليه مجاز عن قبوله إياهما ، أو صعود الكتبة بصحيفتهما ، والمستكن في ﴿ يَرْفَعُهُ ﴾ ل ﴿ الكلم ﴾ فإن العمل لا يقبل إلا بالتوحيد ويؤيده أنه نصب ﴿ العمل ﴾ ، أو ل ﴿ العمل ﴾ فإنه يحقق الإيمان ويقويه ، أو لله وتخصيص العمل بهذا الشرف لما فيه من الكلفة . وقرىء ﴿ يَصْعَدُ ﴾ على البناءين والمصعد هو الله تعالى أو المتكلم به أو الملك .

(156/640)

---

وقيل ﴿ الكلم الطيب ﴾ يتناول الذكر والدعاء وقراءة القرآن . وعنه عليه الصلاة والسلام " هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، فإذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيا بها وجه الرحمن ، فإذا لم يكن عمل صالح لم تقبل " . ﴿ والذين يَمْكُرُونَ ﴾ المكرات السيئات يعني مكرات قريش للنبي عليه الصلاة والسلام في دار الندوة وتداورهم الرأي في إحدى ثلاث حبسه وقتله وإجلائه . ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لا يؤبه دونه بما يمكرون به . ﴿ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ يفسد ولا ينفذ لأن الأمور مقدرة لا تتغير به كما دل عليه بقوله :

﴿ والله خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ بخلق آدم عليه السلام منه . ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ بخلق ذريته منها . ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أزواجا ﴾ ذكرانا وإناثاً . ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ إلاَّ معلومة له . ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾ وما يمد في عمر من مصيره إلى الكبر . ﴿ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ من عمر المعمر لغيره بأن يعطى له عمر ناقص من عمره ، أو لا ينقص من عمر المنقوص عمره بجعله ناقصاً ، والضمير له وإن لم يذكر لدلالة مقابله عليه أو للعمر على التسامح فيه ثقة بفهم السامع كقولهم : لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق . وقيل الزيادة والنقصان في عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت في اللوح مثل : أن يكون فيه إن حج عمرو فعمره ستون سنة وإلا فأربعون . وقيل المراد بالنقصان ما يمر من عمره وينقضي فإنه يكتب في صحيفة عمره يوما فيوماً ، وعن يعقوب "وَلاَ يَنقُصُ" على البناء للفاعل . ﴿ إِلاَّ فِى كِتَابٍ ﴾ هو علم الله تعالى أو اللوح المحفوظ أو الصحيفة . ﴿ إِنَّ ذلك عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ إشارة إلى الحفظ أو الزيادة أو النقص .



---

﴿ وَمَا يَسْتَوِى البحران هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ضرب مثل للمؤمن والكافر ، والفرات الذي يكسر العطش والسائغ الذي يسهل انحداره ، والأجاج

الذي يحرق بملوحته. وقرئ "سيغ" بالتشديد و"سيغ" بالتخفيف و﴿ مِلْحٌ ﴾ على فعل. ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ استطراد في صفة البحرين وما فيهما من النعم، أو تمام التمثيل والمعنى: كما أنهما وإن اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان من حيث إنهما لا يتساويان فيما هو المقصود بالذات من الماء، فإنه خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته، لا يتساوى المؤمن والكافر وإن اتفق اشتراكهما في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة لاختلافهما فيما هو الخاصية العظمى وهي بقاء أحدهما على الفطرة الأصلية دون الآخر، أو تفضيل للأجاج على الكافر بما يشارك فيه العذب من المنافع. والمراد ب ﴿ الحلية ﴾ اللآلئ واليواقيت. ﴿ وَتَرَى الفلك فِيهِ ﴾ في كل. ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ تشق الماء بجريها. ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ من فضل الله بالنقلة فيها، واللام متعلقة ب ﴿ مَوَاخِرَ ﴾، ويجوز أن تتعلق بما دل عليه الأفعال المذكورة. ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ على ذلك وحرف الترجي باعتبار ما يقتضيه ظاهر الحال.

﴿ يُولِجُ اليل فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى اليل وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هي مدة دوره أو منتهاه أو يوم القيامة. ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ الملك ﴾ الإشارة إلى الفاعل لهذه الأشياء. وفيها إشعار بأن فاعليته لها موجبة لثبوت الأخبار المترادفة،

ويحتمل أن يكون ﴿ لَهُ الملك ﴾ كلاماً مبتدأ في قرآن . ﴿ والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ للدلالة على تفرده بالألوهية والربوبية ، والقطمير لفافة النواة .



---

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَاءَكُمْ ﴾ لأنهم جماد ﴿ وَلَوْ سَمِعُواْ ﴾ على سبيل الفرض . ﴿ مَا استجابوا لَكُمْ ﴾ لعدم قدرتهم على الإِنفاع ، أو لتبرئهم منكم مما تدعون لهم . ﴿ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ بإشراككم لهم يقرون ببطلانه أو يقولون ﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ وَلاَ يُنَبّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ ولا يخبرك بالأمر مخبر ﴿ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ به أخبرك وهو الله سبحانه وتعالى ، فإنه الخبير به على الحقيقة دون سائر المخبرين . والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ونفي ما يدعون لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 409 . 415 ﴾



---

وقال الخطيب الشربينى :

سورة فاطر

مكية هي ست وأربعون آية ، ومائة وسبعة وتسعون كلمة ، وثلاثة آلاف ومائة وثلاثون حرفاً

وهي ختام السور المفتتحة باسم الحمد التي فصلت فيها النعم الأربع التي هي أمهات النعم المجموعة في الفاتحة وهي : الإيجاد الأول ، ثم الإبقاء الأول ، ثم الإيجاد الثاني المشار إليه بسورة سبأ ، ثم الإبقاء الثاني الذي هو أنهاها وأحكمها وهو الختام المشار إليه بهذه السورة المفتتحة بالابتداء الدال عليه بإنهاء القدرة وأحكمها المفصل أمره فيها في فريقي السعادة والشقاوة تفصيلاً شافياً على أنه استوفى في هذه السورة النعم الأربع كما يأتي بيانه في محله .

﴿ بسم الله ﴾ الذي أحاطت دائرة قدرته بالممكنات ﴿ الرحمن ﴾ الذي عم الخلق بعموم الرحمة ﴿ الرحيم ﴾ الذي شرف أهل الكرامة بدوام المراقبة .

ولما أثبت سبحانه في التي قبلها الحشر الذي هو الإيجاد الثاني ، وكان الحمد يكون بالمنع والإعدام كما يكون بالإعطاء والإنعام قال تعالى ما هو نتيجة ذلك:

﴿ الحمد ﴾ أي : الإحاطة بأوصاف الكمال إعداماً وإيجاداً ﴿ لله ﴾ أي : وحده .

ولما كان الإيجاد من العدم أدل دليل على ذلك قال تعالى دالاً على استحقاقه للمحامد

﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أي : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق قاله ابن عباس ، أو شاقهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض ، وعن مجاهد عن ابن عباس ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها أي : ابتدأتها .

تنبيه : إن جعلت إضافة فاطر محضة كان نعتاً ، وإن جعلتها غير محضة كان بدلاً وهو قليل من حيث إنه مشتق .

(160/640)

---

ولما كانت الملائكة عليهم السلام مثل الخافقين في أن كلا منهم مبدع من العدم على غير مثال سبق من غير مادة وكان لا طريق لعامة الناس إلى معرفتهم إلا الخبر أخبر عنهم بعدما أخبر عما طريقه المشاهدة بقوله تعالى : ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ أي : وسائط بين الله وبين أنبيائه والصالحين من عباده يبلغون رسالته بالوحي والإلهام والرؤية الصادقة ، أو بينه وبين خلقه يوصلون إليهم آثار صنعه ﴿ أولي ﴾ أي : أصحاب ﴿ أجنحة ﴾ يهيئهم لما يراد منهم ، ثم وصفها بقوله تعالى : ﴿ مثنى ﴾ أي : جناحين لكل واحد من صنف منهم ﴿ وثلاث ﴾ أي : ثلاثة ثلاثة لصنف آخر منهم ﴿ ورباع ﴾ أي : أربعة أربعة لصنف آخر

منهم ، فهم متفاوتون بتفاوت ما لهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون ويسرعون بها نحو ما وكلهم الله تعالى عليه فيتصرفون فيه على ما أمرهم به ، وإنما لم تصرف هذه الصفات لتكرر العدل فيها ، وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد من صيغ إلى صيغ آخر كما عدل عمر عن عامر ، وحذام عن حاذمة .

﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ أي : يزيد في خلق الأجنحة وفي غيره ما تقتضيه مشيئته ، والأصل : الجناحان ؛ لأنهما بمنزلة اليدين ، ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل وذلك أقوى للطيران وأعون عليه ، فإن قيل : قياس الشفع من الأجنحة أن يكون في كل شق نصفه فما صورة الثلاثة ؟

أجيب : بأن الثالث لعله يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدّهما بقوة . أو لعله لغير الطيران ، قال الزمخشري : فقد مرّ بي في بعض الكتب أن صنفاً من الملائكة لهم ستة أجنحة فجناحان يلفون بهما أجسادهم ، وجناحان يطيرون بهما في الأمر من أمور الله تعالى ، وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله تعالى انتهى .

وروى ابن ماجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "رأيت جبريل عند سدرة المنتهى وله ستمائة جناح ينثر من رأسه الدر والياقوت" ، وروي أنه عليه السلام : "سأل جبريل أن يتراءى في صورته فقال : إنك لن تطيق ذلك فقال : إني أحب أن تفعل فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مقمرة فأتاه جبريل في صورته فغشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده ، وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه فقال : سبحان الله ما كنت أرى أن شيئاً من الخلق هكذا فقال جبريل : فكيف لو رأيت إسرافيل عليه السلام له اثنا عشر ألف جناح جناح منها بالمشرق ، وجناح بالمغرب وإن العرش على كاهله وإنه ليتضاءل الأحايين لعظمة الله تعالى حتى يعود مثل الوصع ، وهو العصفور الصغير" .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ وهو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن ، وقيل : هو الخط الحسن ، وعن قتادة : الملاحة في العينين ، والآية كما قال الزمخشري : مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق من طول قامة واعتدال صورة وتمام في الأعضاء وقوة في البطش ، ومتانة في العقل وجزالة في الرأي وجراءة في القلب وسماحة في النفس ، وذلاقة في اللسان ، ولباقة في التكلم وحسن تأنَ في مزاولة الأمور وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف .

ثم علّل تعالى ذلك كله بقوله مؤكداً لأجل إنكارهم البعث ﴿ إن الله ﴾ أي : الجامع لجميع

أوصاف الكمال ﴿ على كل شيء قدير ﴾ وتخصيص بعض الأشياء دون بعض إنما هو من جهة الإرادة ، قال أبو جعفر بن الزبير : لما أوضحت سورة سبأ أنه سبحانه مالك السموات والأرض ومستحق الحمد في الدنيا والآخرة أوضحت هذه السورة أن ذلك خلقه كما هو ملكه ، وأنه الأهل للحمد والمستحق إذ الكل خلقه وملكه ، وتجردت سورة سبأ لتعريف العباد بعظيم ملكه سبحانه وتجردت هذه للتعريف بالاختراع والخلق .

(162/640)

---

ولما وصف سبحانه نفسه المقدسة بالقدرة الكاملة دلّ على ذلك بما يشاهده كل أحد في نفسه من السعة والضيق مع العجز عن دفع شيء من ذلك أو اقتناصه ، وقال مستأنفاً أو معللاً مستنتجاً :

﴿ ما ﴾ أي : مهما فهي شرطية ﴿ يفتح الله ﴾ أي : الذي لا يكافئه شيء ﴿ للناس ﴾ لأن كل ما في الوجود لأجلهم ﴿ من رحمة ﴾ أي : من الأرزاق الحسية والمعنوية ، من اللطائف والمعارف التي لا تدخل تحت حصر قلّت أو كثرت فيرسلها ﴿ فلا ممسك لها ﴾ أي : الرحمة بعد فتحه كما يعلمه كل أحد من نفسه من أنه إذا حصل له خير لا يعدمه من يود أنه لم يحصل ، ولو قدر على إزالته لأزاله ولا يقدر على تأثير ما فيه ﴿ وما يمسك فلا مرسل

له ﴾ يطلقه ، واختلاف الضميرين ، لأن الموصول الأول مفسر بالرحمة ، والثاني مطلق يتناولها والغضب وفي ذلك إشعار بأن رحمته سبقت غضبه .

ولما كان ربما ادعى أحد فجوراً حال إمساك الرحمة أو النعمة أنه هو الممسك قال تعالى ﴿ من بعده ﴾ أي : إمساكه وإرساله ﴿ وهو ﴾ أي : هو فاعل ذلك ، والحال أنه هو وحده ﴿ العزيز ﴾ أي : القادر على الإمساك والإرسال الغالب على كل شيء ، ولا غالب له ﴿ الحكيم ﴾ أي : الذي يفعل في كل من الإمساك والإرسال وغيرهما ما يقتضيه علمه به ويتقن ما أراده على قوانين الحكمة فلا يستطاع نقض شيء منه .

ولما بيَّن بما يشاهده كل أحد في نفسه أنه المنعم وحده أمر بذكر نعمته بالاعتراف أنها منه ، فإن الذكر يعود إلى الشكر وهو قيد الموجود وصيد المعدوم المفقود قال:

﴿ يا أيها الناس ﴾ أي : الجميع ؛ لأن جميعهم مغمورون في نعمة الله تعالى ، وعن ابن عباس يريد يا أهل مكة ﴿ اذكروا ﴾ بالقلب واللسان ﴿ نعمت الله ﴾ أي : الذي لا منعم في الحقيقة سواه ﴿ عليكم ﴾ أي : في دفع ما دفع عنكم من المحن وصنع ما صنع لكم من المنن لتشكروه ولا تكفروه .

تنبيه : ﴿ نعمت ﴾ هنا مجرورة في الرسم وقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالهاء ، والباقون بالتاء ، وإذا وقف الكسائي أمال الهاء .

ولما أمر بذكر نعمته أكد التعريف بأنها منه وحده على وجه بين عزته وحكمته بقوله تعالى منبهاً لمن غفل موبخاً لمن جحد وراداً على أهل القدر الذين يدعون أنهم يخلقون أفعالهم ومنبهاً على نعمة الإيجاد الأول ﴿ هل من خالق ﴾ أي : للنعم وغيرها ﴿ غير الله ﴾ أي : فليس لغيره في ذلك مدخل يستحق أن يشرك به ، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الراء نعتاً لخالق على اللفظ ومن خالق مبتدأ مزاد فيه من ، والباقون بالرفع وفيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه خبر المبتدأ ، والثاني : أنه صفة لخالق على الموضع والخبر إما محذوف وإما يرزقكم . والثالث : أنه مرفوع باسم الفاعل على جهة الفاعلية ؛ لأن اسم الفاعل قد اعتمد على أداة الاستفهام .

ولما كان جواب الاستفهام قطعاً لا بل هو الخالق وحده قال منبهاً على نعمة الإبقاء الأول بقوله تعالى : ﴿ يرزقكم ﴾ أي : وحده فنعمة الله تعالى مع كثرتها منحصرة في قسمين : نعمة الإيجاد ، ونعمة الإبقاء .

ولما كانت كثرة الرزق كما هو مشاهد مع وحدة المنبع أدل على العظمة قال ﴿ من السماء ﴾ أي : بالمطر وغيره ﴿ والأرض ﴾ أي : بالنبات وغيره .

ولما بين تعالى أنه الرازق وحده قال ﴿ لا إله إلا هو فأنى تُؤفكون ﴾ أي : من أين تصرفون عن توحيده مع إقراركم بأنه الخالق الرازق وتشركون المنحوت بمن له الملكوت .

ولما بين تعالى الأصل الأول وهو التوحيد ذكر الأصل الثاني وهو الرسالة بقوله تعالى:

﴿ وإن يكذبوك ﴾ أي: يا أشرف الخلق في مجيئك بالتوحيد والبعث والحساب والعقاب وغير ذلك ﴿ فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ في ذلك، فإن قيل: فما وجه صحة جزاء الشرط ومن حق الجزاء أن يعقب الشرط وهذا سابق له؟

أجيب: بأن معناه وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك فوضع ﴿ فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ موضع "فتأس" استغناء بالسبب عن المسبب أعني بالتكذيب عن التأسي، فإن قيل: ما معنى التنكير في رسل؟



---

أجيب: بأن معناه فقد كذبت رسل أي: رسل ذوو عدد كثير وأولو آيات ونذر وأهل أعمار طوال، وأصحاب صبر وعزم وما أشبه ذلك، وهذا أسلى له وأحث على المصابرة.

قال القشيري: وفي هذا إشارة للحكماء وأرباب القلوب مع العوام والأجانب من هذه الطريقة فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل، وأهل الحقائق أبداً منهم في مقاساة الأذية، والعوام أقرب إلى هذه الطريقة من القراء المتعنتين.

ثم بين من حيث الإجمال أن المكذّب في العذاب، وأن المكذَّب له الثواب بقوله تعالى:

﴿ وإلى الله ﴾ أي: وحده؛ لأن له الأمور كلها ﴿ ترجع الأمور ﴾ أي: في الآخرة فيجازيكم وإياهم على الصبر والتكذيب.

ثم بين تعالى الأصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى:

﴿ يا أيها الناس ﴾ ولما كانوا ينكرون البعث أكد قوله تعالى ﴿ إن وعد الله ﴾ أي: الذي له صفات الكمال بكل ما وعد به من البعث وغيره ﴿ حق ﴾ أي: ثابت لا خلف فيه، وقد وعد أنه يردكم إليه في يوم تنقطع فيه الأسباب ويعرض عن الأحساب و الأنساب ﴿ فلا تغرنكم ﴾ أي: بأنواع الخداع من اللهو والزينة ﴿ الحياة الدنيا ﴾ فإنه لا يليق بذي همة علية اتباع الدنيء والرضا بالدون الزائل عن العالي الدائم ﴿ ولا يغرنكم بالله ﴾ أي: الذي لا يخلف الميعاد وهو الكبير المتعال ﴿ الغرور ﴾ أي: الذي لا يصدق في شيء وهو الشيطان العدو، ولذلك استأنف قوله تعالى مظهراً في موضع الإضمار:



---

﴿ إن الشيطان ﴾ أي: المحترق بالغضب البعيد عن الخير ﴿ لكم ﴾ أي: خاصة ﴿ عدو ﴾ فهو في غاية الفراغ لأذاكم بتصويب مكايده كلها إليكم، وبما سبق له مع أبيكم

آدم عليه السلام بما وصل أذاه إليكم ، وأيضاً من عادى أباك فقد عاداك فاجتهدوا في الهرب منه ولا توالوه كما قال تعالى ﴿ فاتخذوه ﴾ أي : بغاية جهدكم ﴿ عدواً ﴾ أي : في عقائدكم وأفعالكم ولا يوجدنَّ منكم إلا ما يدل على معاداته ومناصبته في سركم وجهركم . قال القشيري : ولا تقوى على عداوته إلا بدوام الاستعانة بالرب ، فإنه لا يغفل عن عداوتك فلا تغفل أنت عن مولاك لحظة .

ثم علل عداوته بقوله ﴿ إنما يدعو حزبه ﴾ أي : الذين يوسوس لهم فيعرضهم لاتباعه والإعراض عن الله تعالى ﴿ ليكونوا ﴾ باتباعه كوناً راسخاً ﴿ من أصحاب السعير ﴾ وهذا غرضه لا غرض له سواه ولكنه يجتهد في تعمية ذلك عنهم بأن يقرر في نفوسهم جانب الرجاء وينسيهم جانب الخوف ، ويريهم أن التوبة في أيديهم ويسّوف لهم بها بالفسحة في الأمل والإبعاد في الأجل للإفساد في العمل ، والرحمن إنما يدعو عباده ليكونوا من أهل النعيم كما قال تعالى ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ (يونس : )

.

ثم بين تعالى ما حال حزب الشيطان بقوله تعالى:

﴿ الذين كفروا لهم عذاب شديد ﴾ أي : في الدنيا بفوات ما يأملونه مع تفرقة قلوبهم وانسداد بصائرهم وسفالة هممهم حتى أنهم رضوا أن يكون إلههم حجراً ، وفي الآخرة بالسعير التي دعاهم إلى صحبتها ، ثم بين حزبه تعالى بقوله سبحانه ﴿ والذين آمنوا

وعملوا ﴾ أي : تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ من صلاة وزكاة وصوم وغير ذلك من المأمورات ﴿ لهم مغفرة ﴾ أي : ستر لذنوبهم في الدنيا ولولا ذلك لافتضحوا ، وفي الآخرة بحيث لا عتاب ولا عقاب ولولا ذلك لهلكوا ﴿ أجر كبير ﴾ هو الجنة والنظر إلى وجهه الكريم ، فالمغفرة في مقابلة الإيمان فلا يؤبد مؤمن في النار ، والأجر الكبير في مقابلة العمل الصالح ، ونزل كما قال ابن عباس في أبي جهل ومشركي العرب:



---

﴿ أفمن زين له سوء عمله ﴾ أي : قبحه الذي من شأنه أن يسوء صاحبه حالاً أو مآلاً بأن غلب وهمه وهواه على عقله ﴿ فرآه ﴾ أي : السيء بسبب التزيين ﴿ حسناً ﴾ أي : عملاً صالحاً ﴿ فإن ﴾ أي : السبب في رؤية الأشياء على غير ما هي عليه أن ﴿ الله ﴾ أي : الذي له الأمر كله ﴿ يضل من يشاء ﴾ فلا يرى شيئاً على ما هو به فيقدم على الهلاك البيِّن وهو يراه عين النجاة ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ فلا يشكل عليه أمر ولا يفعل إلا حسناً .

تنبيه : من موصول مبتدأ وما بعده صلته ، والخبر محذوف ، واختلف في تقديره فقدره الكسائي : تذهب نفسك عليهم حسرات لدلالة قوله تعالى تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم حيث حزن على إصرارهم بعد إتيانه بكل آية ظاهرة وحجة قاهرة ﴿ فلا تذهب

نفسك عليهم ﴾ أي : المزّين لهم ﴿ حسرات ﴾ أي : لأجل حسراتك المترادفة لأجل إعراضهم ، جمع حسرة وهي شدة الحزن على ما فات من الأمر ، وقدره الزجاج وأضله الله كمن هداه ، وقدره غيرهما كمن لم يزين له ، وهو أحسن لموافقته لفظاً ومعنى ، ونظيره ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ (هود : )

أي : كمن هو أعمى ﴿ أفمن يعلم إنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ (الرعد : )

وقال سعيد بن جبير : نزلت هذه الآية في أصحاب الأهواء والبدع قال قتادة : منهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم ، فأما أهل الكتاب فليسوا منهم ؛ لأنهم لا يستحلون الكبائر ﴿ إن الله ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ عليم ﴾ أي : بالغ العلم ﴿ بما يصنعون ﴾ فيجازيهم عليه .

ثم عاد تعالى إلى البيان بقوله سبحانه:



---

﴿ والله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال لا شيء غيره من طبيعة ولا غيرها ﴿ الذي أرسل الرياح ﴾ أي : أوجدها من العدم فهبوبها دليل على الفاعل المختار ، لأن الهواء قد يسكن وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين وقد يتحرك إلى الشمال ، وفي

حركاته المختلفة قد ينشئ السحاب وقد لا ينشئ فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر مؤثر مقدر وقوله تعالى ﴿ فتثير سحاباً ﴾ عطف على أرسل ؛ لأن أرسل بمعنى المستقبل فلذلك عطف عليه وأتى بأرسل لتحقيق وقوعه وب "تثير" لتصور الحال واستحضار الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة كقوله تعالى ﴿ أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ﴾ (الحج : )

ولما أسند فعل الإرسال إليه تعالى وما يفعله يكون بقوله تعالى : ﴿ كن ﴾ فلا يبقى في العدم لا زماناً ولا جزءاً من الزمان فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة تكوينه فكأنه كان ، ولأنه فرغ عن كل شيء فهو قدر الإرسال في الأوقات المعلومة إلى المواضع المعينة .

ولما أسند فعل الإثارة إلى الريح وهي تؤلف في زمان فقال ﴿ تثير ﴾ أي : على هيئتها ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالتوحيد ، والباقون بالجمع وقوله تعالى ﴿ فسقناه ﴾ فيه التفاف عن الغيبة ﴿ إلى بلد ميت ﴾ أي : لا نبات بها ، وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي بتشديد الياء ، والباقون بالتخفيف ﴿ فأحيينا به ﴾ أي : بالمطر النازل منه ، وذِكْر السحاب كذكر المطر حيث أقيم مقامه أو بالسحاب فإنه سبب السبب أو الصائر مطراً ﴿ الأرض ﴾ بالنبات والكلأ ﴿ بعد موتها ﴾ أي : يَبَسِها .

تنبيه : العدول في : "سقنا" و"أحيينا" من الغيبة في قوله تعالى ﴿ والله الذي أرسل الرياح ﴾ إلى ما هو أدخل في الاختصاص وهو التكلم فيهما لما فيهما من مزيد الصنع ، والكاف في قوله تعالى ﴿ كذلك ﴾ في محل رفع أي : مثل إحياء الموات ﴿ النشور ﴾ للأموات وجه الشبه من وجوه : أولها : أن الأرض الميتة قبلت الحياة كذلك الأعضاء تقبل الحياة. ثانيها : كما أن الريح يجمع السحاب المقطع كذلك تجمع الأعضاء المتفرقة. ثالثها : كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت كذلك نسوق الروح إلى الجسد الميت .

فإن قيل : ما الحكمة في اختيار هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له في كل شيء آية تدل على أنه واحد ؟

أجيب : بأنه تعالى لما ذكر كونه فاطر السموات والأرض وذكر من الأمور السماوية الأرواح وإرسالها بقوله تعالى : ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ (فاطر : )

ذكر من الأمور الأرضية الرياح ، وروي أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم "كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال : هل مررت بواد أهلك محلاً ثم مررت به يهتز ؟ فقال : نعم فقال : فكذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه" وقيل : يحيي الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش كمني الرجال تنبت منه أجساد الخلق .

ولما كان الكافرون يتعززون بالأصنام كما قال تعالى ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا

لهم عزاً ﴾ (مريم : )

والذين آمنوا بألسنتهم غير مواطئة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين كما قال تعالى ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ (النساء : )

بين تعالى أن لا عزة إلا لله بقوله سبحانه:

(169/640)

---

﴿ من كان ﴾ أي : في وقت من الأوقات ﴿ يريد العزة ﴾ أي : الشرف والمنعة ﴿ فلله العزة جميعاً ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ، والمعنى : فليطلبها عند الله ، فوضع قوله تعالى ﴿ فلله العزة جميعاً ﴾ موضعه استغناء به عنه لدلالته عليه ، لأن الشيء لا يطلب إلا من عند صاحبه ومالكه ، ونظيره قوله : من أراد النصيحة فهي عند الأبرار ، يريد فليطلبها عندهم إلا أنك أقمت ما يدل عليه مقامه ، وقال قتادة : من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله تعالى ومعناه : الدعاء إلى الطاعة من له العزة أي : فليطلب العزة من عند الله بطاعته ، كما يقال من كان يريد المال فالمال لفلان أي : فليطلبه من عنده .

ثم عرف أن ما تطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله تعالى : ﴿ إليه ﴾ أي : لا إلى

غيره ﴿ يصعد الكلم الطيب ﴾ قال المفسرون : هو قول لا إله إلا الله ، وقيل : هو قول الرجل سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وعن ابن مسعود قال : إذا حدثتكم حديثاً أنبأتكم بمصداقه من كتاب الله عز وجل : "ما من عبد مسلم يقول : خمس كلمات سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وتبارك الله إلا أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صعد بهن فلا يمر على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يحيي بها وجه رب العالمين" ومصداقه من كتاب الله عز وجل قوله تعالى ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ وقيل : الكلم الطيب ذكر الله ، وعن قتادة إليه يصعد الكلم الطيب أي : يقبل الله الكلم الطيب ، وقيل : الكلم الطيب يتناول الذكر والدعاء وقراءة القرآن ، وعن الحاكم موقوفاً وعن الثعلبي مرفوعاً أنه صلى الله عليه وسلم قال : "هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيا بها وجه الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم تقبل" .

*(170/640)*

---

﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ أي : يقبله فصعود الكلم الطيب والعمل الصالح مجاز عن قبوله تعالى إياهما ، أو صعود الكتبة بصحفهما ، أو المستكن في يرفعه لله تعالى ، وتخصيص

العمل بهذا الشرف لما فيه من الكلفة وقال سفيان بن عيينة : العمل الصالح هو الخالص يعني الإخلاص سبب قبول الخيرات من الأقوال والأفعال لقوله تعالى ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ (الكهف : )

فجعل نقيض الصالح الشرك والرياء .

تنبيه : صعود الكلم الطيب والعمل الصالح مجاز عن قبوله تعالى إياهما ، أو صعود الكتبة بصحفهما والمستكن في ﴿ يرفعه ﴾ لله تعالى ، وتخصيص العمل بهذا الشرف لما فيه من الكلفة أو للكلم ، فإن العمل لا يقبل إلا بالتوحيد أو للعمل فإنه يحقق الإيمان ويقويه ، قال الرازي في "اللوامع" : "العلم لا يتم إلا بالعمل كما قيل : العلم يهتف بالعمل فإن أجاب وإلا ارتحل" انتهى . وقد قيل:

*لا ترض من رجل حلاوة قوله ** حتى يصدق ما يقول فعاله*

*فإذا وزنت مقاله بفعاله ** فتوازنا فإخاء ذاك جماله*

وقال الحسن : الكلم الطيب ذكر الله تعالى ، والعمل الصالح أداء فرائضه فمن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه ردّ كلامه على عمله ، وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلوب وصدّقته الأعمال ، فمن قال حسناً وعمل غير صالح ردّ الله تعالى عليه قوله ، ومن قال حسناً وعمل صالحاً رفعه الله .

ولما بيّن ما يحصل العزة من عليّ الهمة بين ما يكسب المذلة ويوجب النقمة من رديء الهمة بقوله تعالى : ﴿ والذين يمكرون ﴾ أي : يعملون على وجه المكر أي : الستر ، المكرات : ﴿ السيئات ﴾ أي : مكرات قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار الندوة وتداورهم الرأي في إحدى ثلاث : حبسه وقتله وإجلاؤه كما قال تعالى ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك ﴾ الآية (الأنفال : ) ، وقال الكلبي : معناه يعملون السيئات وقال مقاتل : يعني الشرك ، وقال مجاهد : هم أصحاب الرياء ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ أي : لا توبة دونه بما يمكرون ﴿ ومَكْرُ أولئك ﴾ أي : البعداء من الفلاح ﴿ هو ﴾ أي : وحده دون مكر من يريد بمكره الخير فإن الله ينفذه ويعلي أمره ﴿ يبور ﴾ أي : يفسد ولا ينفذ إذ الأمور مقدرة فلا تتغير بسبب مكرهم كما دل عليه بقوله تعالى:

﴿ والله خلقكم من تراب ﴾ أي : بتكوين أبيكم آدم منه فمزجه مزجاً لا يمكن لغيره تمييزه ، ثم أحاله عن ذلك الجوهر أصلاً ورأساً ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ ثم ﴾ أي : بعد ذلك في الزمان والرتبة خلقكم ﴿ من نطفة ﴾ أي : جعلها أصلاً ثانياً من ذلك الأصل الترابي أشد امتزاجاً منه ﴿ ثم ﴾ بعد أن أنهى التدبير زماناً ورتبة إلى النطفة التي لا مناسبة بينها وبين التراب دلالة على كمال القدرة والفعل بالاختيار ﴿ جعلكم أزواجاً ﴾ أي : بين ذكور وإناث دلالة هي أظهر مما قبلها على الاختيار ، وعن قتادة : زوج بعضكم

بعضاً .

تنبيه : يصح أن يقال كما قال ابن عادل : خلقكم خطاب مع الناس وهم أولاد آدم عليه السلام وكلهم من تراب ومن نطفة ؛ لأن كلهم من نطفة ، والنطفة من غذاء ، والغذاء ينتهي بالآخرة إلى الماء والتراب فهم من تراب صار نطفة .

(172/640)

---

ولما بين تعالى بقوله سبحانه : ﴿ خلقكم من تراب ﴾ كمال قدرته بين بقوله سبحانه ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع ﴾ أي : حملاً ﴿ إلا ﴾ أي : مصحوباً ﴿ بعلمه ﴾ أي : في وقته ونوعه وشكله وغير ذلك من شأنه مختصاً بذلك كله حتى عن أمّه التي هي أقرب إليه فلا يكون إلا بقدرته فما شاء أتمه وما شاء أخرجه كمال علمه .

ثم بين نفوذ إرادته بقوله تعالى : ﴿ وما يعمر من معمر ﴾ أي : وما يمد في عمره من مصغره إلى كبر ، وإنما سماه معمراً بما هو صائر إليه فمعناه : وما يعمر من أحد ، وفي عود ضمير قوله تعالى ﴿ ولا ينقص من عمره ﴾ قولان : أحدهما : أنه يعود على معمر آخر ؛ لأن المراد بقوله تعالى : ﴿ من معمر ﴾ الجنس فهو يعود عليه لفظاً لا معنى ؛ لأنه بعد أن فرض كونه معمراً استحال أن ينقص من عمره نفسه كما يقال : لفلان عندي درهم ونصفه أي : نصف

درهم آخر .

والثاني : أنه يعود على المعمر نفسه لفظاً ومعنى ، والمعنى : أنه إذا ذهب من عمره حول أحصى وكتب ثم حول آخر كذلك فهذا هو النقص ، وإليه ذهب ابن عباس وابن جبير وأبو مالك ومنه قول الشاعر :

*حياتك أنفاس تعد فكلما ** مضى نفس منك انتقصت به جزأ*

وقال الزمخشري : هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بأفهام السامعين واتكالاً على تسديدهم معناه بعقولهم ، وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد ، وعليه كلام الناس المستفيض يقولون : لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق قال : وفيه تأويل آخر وهو : أنه لا يطول عمر إنسان ولا يقصر إلا في كتاب ، وصورته : أن يكتب في اللوح : إن حج فلان أو غزا فعمره أربعون سنة ، وإن حج وغزا فعمره ستون سنة فإذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عمر ، وإذا أفرد أحدهما فلم يتجاوز به الأربعون فقد نقص عن عمره الذي هو الغاية وهو الستون ، وإليه أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : "إن الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار" .

وعن كعب أنه قال حين طعن عمر رضي الله تعالى عنه : لو أن عمر دعا الله لأخر في أجله فقيل لكعب : أليس قد قال الله تعالى ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ (الأعراف : )

فقال : هذا إذا حضر الأجل فأما قبل ذلك فيجوز أن يزاد وينقص ، وقرأ هذه الآية وقد استفاض على الألسنة : أطال الله تعالى بقاءك ، وفسح في مدتك وما أشبهه .

وعن سعيد بن جبير : يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة ، ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان ذهب ثلاثة أيام حتى يأتي على آخره ، وعن قتادة المعمر من بلغ ستين سنة ، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة ، والكتاب في قوله تعالى ﴿ إلا في كتاب ﴾ أي : مكتوب فيه عمر فلان كذا وكذا ، وعمر فلان كذا إن عمل كذا وعمره كذا إن لم يعمل كذا هو اللوح المحفوظ قاله ابن عباس ، قال الزمخشري : ويجوز أن يراد بكتاب الله علم الله تعالى أو صحيفة الإنسان .

ولما كان ذلك أمراً لا يحيط به العد ولا يحصره الحد فكان في عداد ما ينكره الجهلة قال تعالى مؤكداً لسهولته ﴿ إن ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم من كتب الآجال كلها وتقديرها ﴿ على الله ﴾ أي : الذي له جميع العزة ﴿ يسير ﴾ أي : هين . وقوله تعالى:

﴿ وما يستوي البحران هذا عذب ﴾ أي : طيب حلو لذيذ ملائم طبعه ﴿ فرات ﴾ أي : بالغ العذوبة ﴿ سائغ شرابه ﴾ أي : شربه مرئ سهل انحداره لما له من اللذة والملايمة للطبع ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ أي : جمع إلى الملوحة المرارة فلا يسوغ شرابه بل لو شرب لآلم الحلق وأجج في البطن ما هو كالنار ضرب مثلاً للمؤمن والكافر ، وقوله تعالى : ﴿ ومن كل ﴾ أي : الملح والعذب ﴿ تأكلون ﴾ أي : من السمك المنّوع إلى أنواع تفوت الحصر ﴿ لحماً طرياً ﴾ أي : شهي المطعم ﴿ وتستخرجون ﴾ أي : من الملح دون العذب ﴿ حلية تلبسونها ﴾ أي : نساؤكم من الجواهر الدر والمرجان وغيرهما ، ذكر استطراداً في صفة البحرين وما فيهما من النعم وتمام التمثيل ، والمعنى : كما أنهما وإن اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان من حيث إنهما لا يتساويان فيما هو مقصود بالذات من الماء فإنه خالط أحدهما ما أفسده ، وغيره عن كمال فطرته فلا يتساوى المؤمن والكافر وإن اتفق اشتراكهما في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة لاختلافهما فيما هو الخاصة العظمة وهي بقاء أحدهما على الفطرة الأصلية دون الآخر .

وقيل : تخرج الحلية منهما كما هو ظاهر قوله تعالى ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ (الرحمن : )

قال البغوي : لأنه قد يكون في البحر الأجاج عيون عذبة تمتزج بالملح فيكون اللؤلؤ من ذلك

انتهى.

فائدة: عاب المبرد وغيره قول الشافعي رضي الله تعالى عنه: كل ماء من بحر عذب أو مالح فالتطهر به جائز وقالوا: إنه لحن وإنما يقال: ملح كما قال تعالى ﴿وهذا ملح أجاج﴾ وهم مخطئون في ذلك كما قيل:

*وكم من عائب قولاً صحيحاً ** وآفته من الفهم السقيم*

*ولكن تأخذ الآذان منه ** على قدر القريحة والفهوم*

قال النووي: وأجاب أصحابنا بأجوبة: أصحها أن فيه أربع لغات: ملح ومالح ومليح وملاح بضم الميم وتخفيف اللام قال عمر بن أبي ربيعة:

*ولو تفلت في البحر والبحر مالح ** لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا*

وقال آخر:



*وللرزق أسباب تروح وتغتدي ** وإني منها غير غاد ورائح*

*قنعت بثوب العدم من حلة الغنى ** ومن بارد عذب زلال بمالح*

وقال محمد بن حازم:

*تلونت ألواناً علي كثيرة ** وخالط عذباً من إخائك مالح*

وقال خالد بن يزيد بن معاوية في رملة بنت الزبير:

*ولو وردت ماء وكانت قبيله ** مليحاً شربنا ماءه بارداً عذباً*

وقال الخطابي : يقال : ماء ملاح كما يقال : أجاج وزعاق وزلال قال : وإنما نزل الشافعي من اللغة العالية إلى التي هي أدنى للإيضاح وحسماً للإشكال والالتباس ؛ لئلا يتوهم متوهم أنه أراد بالملح المذاب فيظن أن الطهارة به جائزة .

وثاني الأجوبة : أن الشافعي إمام في اللغة فقوله فيها حجة .

وثالثها : أن هذه اللفظة ليست من كلام الشافعي ولم يذكرها بل من كلام المزني وهذا ليس بشيء ، وكيف ينسب الخطأ إلى المزني وعنه مندوحة ، وقولهم : لم يذكرها الشافعي غير صحيح وقد أنكره البيهقي وقال : بل سمى الشافعي البحر مالحاً في كتابين "أمالي الحج" و"المناسك الكبير" .

فائدة أخرى : وهي أن ابن عمر قال في البحر : التيمم أحب إلينا منه وقال : بحركم هذا نار وتحت النار بحر حتى عد سبعة أبحر وسبعة أنوار ، ولكن روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من لم يطهره البحر فلا طهره الله" ويؤول كلام ابن عمر بأنه سيصير يوم القيامة ناراً أو بأنه مهلكة يهلك كما تهلك النار ، ولما كان الأكل والاستخراج من المنافع العامة عمَّ الخطاب .

ولما كان استقرار شيء في البحر دون غرق أمراً غريباً لكنه صار لشدة ألفه لا يقوم بأنه من أكبر الآيات دلالة على القادر المختار إلا أهل البصائر خص بالخطاب فقال ﴿ وترى الفلك ﴾ أي : السفن سمى فلكاً لدورانه وسفينة لقشره الماء ، وقدم الظرف في قوله تعالى ﴿ فيه ﴾ لأنه أشد دلالة على ذلك ﴿ مواخر ﴾ أي : جواري مستدبرة الريح شاقة للماء بجريها هذه مقبلة وهذه مدبرة وجهها إلى ظهر هذه بريح واحدة يقال : مخرت السفينة الماء ويقال للسحاب : بنات مخر ؛ لأنها تمخر الهواء ، والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر ؛ لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره ثم علق بالمخر معللاً قوله تعالى ﴿ لتبتغوا ﴾ أي : تطلبوا طلباً شديداً ﴿ من فضله ﴾ أي : الله بالتوصل بذلك إلى البلاد الشاسعة للمتاجر وغيرها ، ولو جعلها ساكنة لم يترتب عليها ذلك ولم يجر به ذكر في الآية ولكن فيما قبلها ، ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي : وليكون حالكم بهذه الدالة على عظيم قدرة الله تعالى ولطفه حال من يرجى شكره .

تنبيه : حرف الرجاء مستعار لمعنى الإرادة ألا ترى كيف سلك به مسلك لام التعليل ؟ كأنما قيل : لتبتغوا ولتشكروا .

ولما ذكر تعالى اختلاف الذوات الدالة على بديع صنعه أتبعه اختلاف الأزمنة الدالة على بديع قدرته بقوله تعالى:

﴿ يولج ﴾ أي: يدخل الله ﴿ الليل في النهار ﴾ فيصير الظلام ضياء.

ولما كان هذا الفعل في غاية الإعجاب وكان لكثرة تكراره قد صار مألوفاً فغفل عما فيه من الدلالة على تمام القدرة نبه عليه بإعادة الفعل بقوله تعالى: ﴿ ويولج النهار في الليل ﴾ فيصير ما كان ضياء ظلاماً، وتارة يكون التوالج بقصر هذا وطول هذا فدل كل ذلك على أنه تعالى فاعل بالاختيار.

(177/640)

---

ولما ذكر الليل والنهار ذكر ما ينشأ عنهما بقوله تعالى: ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ ثم استأنف قوله تعالى ﴿ كل ﴾ أي: منهما ﴿ يجري ﴾ أي: في فلكه ﴿ لأجل ﴾ أي: لأجْلِ أجَلٍ ﴿ مسمى ﴾ مضروب له لا يقدر أن يتعداه، فإذا جاء ذلك الأجل غرب هكذا كل يوم إلى أن يأتي الأجل الأعظم فيختل هذا النظام بإذن الملك العلام، وتقوم الناس ليوم الزحام وتكون الأمور العظام.

ولما ذكر سبحانه أنه الفاعل المختار القادر على ما يريد بما يشاهده كل أحد في نفسه وفي

غيره وختم بما تكرر مشاهدته في كل يوم مرتين أنتج ذلك قطعاً قوله تعالى معظماً بأداة البعد وميم الجمع ﴿ ذلكم ﴾ أي : العالي المقدار الذي فعل هذه الأفعال كلها ﴿ الله ﴾ الذي له صفة كل كمال ، ثم نبههم على أنه لا مدبر لهم سواه بخبر آخر بقوله تعالى : ﴿ ربكم ﴾ أي : الموجد لكم من العدم المربّي بجميع النعم لا رب لكم سواه ، ثم استأنف قوله تعالى :

﴿ له ﴾ أي : وحده ﴿ الملك ﴾ أي : كله وهو مالك كل شيء ﴿ والذين تدعون ﴾ أي : تعبدون ﴿ من دونه ﴾ أي : غيره وهم الأصنام وغيرها وكل شيء دونه ﴿ ما يملكون ﴾ في حال من الأحوال وأعرق في النفي بقوله تعالى : ﴿ من قطمير ﴾ وهو كما روي عن ابن عباس : لفافة النواة وهي القشرة الرقيقة الملتفة عليها ، كناية عن أدنى الأشياء فكيف بما فوقه ؟ فليس لهم شيء من الملك ، والآية من الاحتباك ذكر الملك أولاً دليلاً على حذفه ثانياً والملك ثانياً دليلاً على حذفه أولاً .

وقيل : القطمير هو القمع وقيل : ما بين القمع والنواة ، ففي النواة على الأول أربعة أشياء يضرب بها المثل : في القلة الفتيل : وهو ما في شق النواة ، والقطمير : وهو اللفافة والنقير : وهو ما في ظهر النواة والرقروق : وهو ما بين القمع والنواة ثم بين ذلك بقوله تعالى:

﴿ إن تدعوهم ﴾ أي: المعبودات من دونه دعاء عبادة أو استعانة ﴿ لا يسمعوا دعاءكم ﴾ أي: لأنهم جماد ﴿ ولو سمعوا ﴾ أي: على سبيل الفرض والتقدير ﴿ ما استجابوا لكم ﴾ أي: لعدم قدرتهم على الانتفاع.

ولما بين عدم النفع فيهم في الدنيا بين عدم النفع منهم في الآخرة ووجود الضرر منهم في الآخرة بقوله سبحانه ﴿ ويوم القيامة ﴾ أي: حين ينطقهم الله تعالى ﴿ يكفرون بشرككم ﴾ أي: بإشراككم فينكرونه ويتبرؤن منه بقولهم ﴿ ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ (يونس : ) كما حكى الله تعالى ذلك عنهم في آية أخرى ﴿ ولا ينبئك ﴾ أي: يخبرك أي: السامع بالأمر مخبر هو ﴿ مثل خبير ﴾ أي: عالم به أي: أن الخبير بالأمر وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به؛ لأنه لا يمكن الطعن في شيء مما أخبر به بخلاف غيره والمعنى: أن هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق؛ لأني خبير بما أخبرت به. انتهى انتهى. اهـ ﴿السراج المنير حـ 6 صـ 52.67﴾

(179/640)

---

وقال القاسمى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أي : مبتدئها ومبدعها من غير سبق مثل ومادة : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ أي : ذوي أجنحة متعددة متفاوتة في العدد ، حسب تفاوت ما لهم من المراتب ، ينزلون بها ، ويعرجون ، أو يسرعون بها . وفي الصحيح : < أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام ليلة أسري به ، وله ستمائة جناح > .

ولهذا قال سبحانه : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ أي : يزيد في خلق الأجنحة وغيره ما يشاء ، مما تقتضيه حكمته : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ أي : نعمة سماوية كانت أو أرضية : ﴿ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ أي : لا أحد يقدر على إمساكها : ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي : من بعد إمساكه : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على كل ما يشاء : ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ أي : في أمره وصنعه .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : لتستدلوا بها على وحدته في ألوهيته ؛ لأنه المنفرد بإرسالها وحده ، ولا يصح لمن انفرد بالإنعام أن يشرك معه غيره ؛ لأنه كفران له موجب لغضبه . وهذا ما أشار له بقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : المطر والنبات : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي : تصرفون عن التوحيد الواجب – لأنه مقتضى شكر النعم – إلى الشرك والكفر .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فيجازي المكذب وشيعته بالخزي وظهور الحق عليه .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي : ما وعد به من جزائه بالثواب إن صدقتم في الاتباع ، وبالعقاب ، إن عصيتم : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أي : بأن يذهلكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها ، عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله : ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ أي : الشيطان ، وقرئ بالضم .

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي : باتباع الهوى والركون إلى الدنيا .

(181/640)

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ أي : مثل إحياء الموات ، إحياء الأموات ، وكثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، ليعتبر المرتاب في هذا ، فإنه من أظهر الآيات وأوضحها .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ ﴾ أي : الشرف والرفعة : ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ أي : فليطلبها من عنده ، باتباع شريعته ، وموالاة أنبيائه ورسله ، والتأسي بهم في الصلاح والإصلاح ، والصبر والثبات ، واطّراح كل ملامة رغبة في الحق وعملاً بالصدق . وهذا كآية : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً ﴾ [ النساء : 139 ] . وكآية : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ المنافقون : 8 ] ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ وهو الداعي إلى الحق والإصلاح ، والمنبه على سبل الضلال والفساد : ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ أي : يرفع الكلمُ العملَ الصالح ، على أن يكون المستكن للكلم ، إشارة إلى أن العمل لا يقبل إلا بالكلم المؤثر في إبلاغ دعوة الخير . والضمير المستتر للعمل ، والبارز للكلم ؛ أي : يكون العمل الصالح موجباً لرفعها وقبولها لأنه يحققها ويصدقها ، كما قال تعالى عن شعيب عليه السلام : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ [ هود : 88 ] ، ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي : الأعمال السيئة المفسدة لصلاح الأمة وقيام عمرانها : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ أي : يضمحل ؛ لأن الحق يعلو ولا يُعلى عليه .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ أي: ذكراناً وإناثاً، لطفاً منه ورحمة: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾ أي: من أحد، وإنما سمي معمراً لما يؤول إليه؛ أي: وما يمدّ في عمر أحد: ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ وهو علمه تعالى الذي سبق، ببلوغ أصله إليه: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي: الحفظ والزيادة أو النقص سهل؛ لشمول علمه وعموم قدرته.

لطيفة:

الضمير في: عمره، للمعمر قبله. باعتبار الأصل المحوّل عنه؛ لأن الأصل: وما يعمر من أحد كما ذكرنا، أو هو على التسامح المعروف فيه، ثقة في تأويله بأفهام السامعين، كقولهم: له علي درهم ونصفه؛ أي: نصف درهم آخر. أو للمنقوص من عمره لا للمعمر، كما في الوجه السابق، وهو وإن لم يصرح به في حكم المذكور، كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء. فيعود الضمير على ما علم من السياق. وقد أطال بعضهم الكلام في ذلك، ومحصله، كما ذكره الشهاب، أنه اختلف في معنى: ﴿ مُّعَمَّرٍ ﴾ فقيل: المزاد عمره؛ بدليل ما يقابله من قوله: ﴿ يُنقَصُ ﴾ الخ. وقيل: من يجعل له عمر. وهل هو واحد أو شخصان؟

فعلى الثاني هو شخص واحد . قالوا مثلاً : يكتب عمره مائة ثم يكتب تحته مضى يوم ، مضى يومان ، وهكذا . فكتابة الأصل هي التعمير ، والكتابة بعد ذلك هو النقص . كما قيل :

~حَيَاتُكَ أَنْفَاسٌ تُعَدُّ فَكُلَّمَا مَضَى نَفَسٌ مِنْهَا انْتَقَصْتَ بِهِ جُزْءاً

(184/640)

---

والضمير في : عمره ، حينئذ راجع إلى المذكور ، والمعمر هو الذي جعل الله له عمراً طال أو قصر ، وعلى القول الأول هو شخصان . والمعمر الذي يزيد في عمره . والضمير حينئذ راجع إلى معمر آخر ؛ إذ لا يكون المزيد من عمره منقوصاً من عمره . وهذا قول الفرّاء ، وبعض النحويين ، وهو استخدام ، أو شبيه به . انتهى .

ثم أشار تعالى لآيات أخرى من آيات قدرته ووحدانيته ، بقوله :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ أي : شديد العذوبة : ﴿ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي : قوي الملوحة : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ يعني السمك : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ أي : زينة تتحلّون بها . كما قال تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [ الرحمن : 22 ] ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ أي : تمخر

الماء وتشقه بجريها : ﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ أي : بالتنقل فيها : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

(185/640)

---

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني مدة دوره ، أو منتهاه ، أو يوم القيامة : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ أي : فأنّى يستأهلون العبادة . والقطمير : لفافة النواة ، وهو مثل في القلة والحقارة .

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ ﴾ لأنهم جماد : ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا ﴾ أي : على الفرض : ﴿ مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ أي : لعدم قدرتهم على النفع : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أي : يقرون ببطلانه ، وأن لا أمر لهم فيه : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أي : لا يخبرك بالأمر مخبر ، مثل خبير عظيم أخبرك به ، وهو الحق سبحانه ؛ فإنه الخبير بكنه الأمور دون سائر المخبرين . والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ، ونفي ما يدعون لهم من الإلهية . انتهى انتهى . اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 14 صـ 36 . 41﴾

(186/640)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾

تبدأ السورة بتقديم الحمد لله . فهي سورة قوامها توجيه القلب إلى الله ، وإيقاظه لرؤية آلائه ، واستشعار رحمته وفضله ، وتملي بدائع صنعه في خلقه ، وامتلاء الحس بهذه البدائع ، وفيضه بالتسبيح والحمد والابتهال :

﴿ الحمد لله ﴾ . .

ويتلو حمد الله ذكر صفته الدالة على الخلق والإبداع :

﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ . .

فهو منشئ هذه الخلائق الهائلة التي نرى بعضها من فوقنا ومن تحتنا حيث كنا ، والتي لا نعرف إلا القليل عن أصغرها وأقربها إلينا . . أمنا الأرض . . والتي ينتظمها ناموس واحد يحفظها في تناسق وتوافق ، على ما بينها من أبعاد هائلة لا يتصورها خيالنا البشري إلا بمشقة عظيمة ؛ والتي تحوي – مع ضخامتها وتباعد أفلاكها ومداراتها – من أسرار التناسب فيما بينها ما لو اختلت فيه نسبة صغيرة لتحطمت كلها وتناثرت بدداً .

وإننا لنمر على مثل هذه الإشارة في القرآن الكريم إلى خلق السماوات والأرض ، دون أن نقف أمامها طويلاً لتدبر مدلولها الهائل ؛ كما نمر على مشاهد السماوات والأرض ذاتها

بمثل هذه البلادة ، لا نقف أمامها إلا قليلاً .

ذلك أن حسنا قد تبلد ، فلم تعد تلك المشاهد توقع على أوتاره تلك الإيقاعات الموقظة الموحية ، التي توقعها على القلوب الموصولة بذكر الله ، المتيقظة لآثار يده المبدعة في هذا الوجود . وذلك أن الألفة قد أفقدتنا الوهلة والروعة التي يحسها القلب وهو ينظر إلى مثل هذه البدائع للمرة الأولى .

(187/640)

---

ولا يحتاج القلب المفتوح الواعي الموصول بالله إلى علم دقيق بمواقع النجوم في السماء ، وأحجامها ونسبها ، ونسب الفضاء حولها ، وطرق سيرها في مداراتها ، وعلاقة بعضها ببعض في أحجامها وأوضاعها وحركاتها . . لا يحتاج القلب المفتوح الواعي الموصول بالله إلى علم دقيق بهذا كله ليستشعر الروعة والرهبة أمام هذا الخلق الهائل الجميل العجيب . فحسبه إيقاع هذه المشاهد بذاتها على أوتاره . حسبه مشهد النجوم المتناثرة في الليلة الظلماء . حسبه مشهد النور الفائض في الليلة القمراء . حسبه الفجر المشقشق بالنور الموحي بالتنفس والانطلاق . حسبه الغروب الزاحف بالظلام الموحي بالوداع والانتهاء . . بل حسبه هذه الأرض وما فيها من مشاهد لا تنتهي ولا يستقصيها سائح يقضي عمره في

السياحة والتطلع والتملي . . بل حسبه زهرة واحدة لا ينتهي التأمل في ألوانها وأصباغها وتشكيلها وتنسيقها . .

والقرآن يشير إشاراته الموحية لتدبُّر هذه الخلائق . . . الجليل منها والدقيق . . . وحسب القلب واحدة منها لإدراك عظمة فاطرها ، والتوجه إليه بالتسبيح والحمد والابتهال . .

﴿ الحمد لله فاطر السماوات والأرض ﴾ . . ﴿ جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ﴾ .

والحديث في هذه السورة يتردد حول الرسل وما أنزل الله من الحق . . والملائكة هم رسل الله بالوحي إلى من يختاره من عباده في الأرض . وهذه الرسالة هي أعظم شيء وأجله . ومن ثم يذكر الله الملائكة بصفتهم رسلاً عقب ذكره لخلق السماوات والأرض . وهم صلة ما بين السماء والأرض . وهم يقومون بين فاطر السماوات والأرض ، وأنبيائه ورسله إلى الخلق بأعظم وظيفة وأجلها .



---

ولأول مرة فيما مر بنا من القرآن في هذه الظلال نجد وصفاً للملائكة يختص بهيئتهم . وقد ورد وصفهم من قبل من ناحية طبيعتهم ووظيفتهم ، مثل قوله تعالى : ﴿ ومن عنده لا

يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ وقوله : ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾ أما هنا فنجد شيئاً يختص بتكوينهم الخلقي : ﴿ أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ﴾ . . وهو وصف لا يمثلهم للتصور . لأننا لا نعرف كيف هم ولا كيف أجنحتهم هذه . ولا نملك إلا الوقوف عند هذا الوصف ، دون تصور معين له . فكل تصور قد يخطئ . ولم يرد إلينا وصف محدد للشكل والهيئة من طريق معتمد . والذي ورد في القرآن هو هذا ؛ وهو قوله تعالى في وصف جهنم : ﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ وهو كذلك لا يحدد شكلاً ولا هيئة . والذي ورد في الأثر :

" أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل في صورته مرتين وفي رواية : له ستمائة جناح " . وهو كذلك لا يعين شكلاً ولا هيئة . فالأمر إذن مطلق . والعلم لله وحده في هذه الغيبيات .

وبمناسبة ذكر الأجنحة مثنى وثلاث ورباع . حيث لا يعرف الإنسان إلا شكل الجناحين للطائر . يذكر أن الله ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ . . فيقرر طلاقة المشيئة ، وعدم تقيدها بشكل من أشكال الخلق . . وفيما نشهده نحن ونعلمه أشكال لا تحصى من الخلق . ووراء ما نعلم أكثر وأكثر . . ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ . . وهذا التعقيب أوسع من سابقه وأشمل . فلا تبقى وراءه صورة لا يتناولها مدلوله ، من صور

الخلق والإنشاء والتغيير والتبديل .

﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم ﴾ . .

(189/640)

---

في هذه الآية الثانية من السورة صورة من صور قدرة الله التي ختم بها الآية الأولى . وحين تستقر هذه الصورة في قلب بشري يتم فيه تحول كامل في تصوراته ومشاعره واتجاهاته وموازينه وقيمه في هذه الحياة جميعاً .

إنها تقطعه عن شبهة كل قوة في السماوات والأرض وتصله بقوة الله . وتيئسه من مظنة كل رحمة في السماوات والأرض وتصله برحمة الله . وتوصد أمامه كل باب في السماوات والأرض وتفتح أمامه باب الله . وتغلق في وجهه كل طريق في السماوات والأرض وتشرع له طريقه إلى الله .

ورحمة الله تتمثل في مظاهر لا يحصيها العد ؛ ويعجز الإنسان عن مجرد ملاحقتها وتسجيلها في ذات نفسه وتكوينه ، وتكريمه بما كرمه ؛ وفيما سخر له من حوله ومن فوقه ومن تحته ؛ وفيما أنعم به عليه مما يعلمه ومما لا يعلمه وهو كثير .

ورحمة الله تتمثل في الممنوع تمثلها في الممنوح. ويجدها من يفتحها الله له في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حال، وفي كل مكان.. يجدها في نفسه، وفي مشاعره؛ ويجدها فيما حوله، وحيثما كان، وكيفما كان. ولو فقد كل شيء مما يعد الناس فقده هو الحرمان.. ويفتقدها من يمسكها الله عنه في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حالة، وفي كل مكان. ولو وجد كل شيء مما يعده الناس علامة الوجدان والرضوان!

وما من نعمة يمسك الله معها رحمته حتى تنقلب هي بذاتها نقمة. وما من محنة تحفها رحمة الله حتى تكون هي بذاتها نعمة.. ينام الإنسان على الشوك مع رحمة الله فإذا هو مهاد. وينام على الحرير -وقد أمسكت عنه فإذا هو شوك القتاد. ويعالج أعسر الأمور برحمة الله فإذا هي هوادة ويسر. ويعالج أيسر الأمور وقد تخلت رحمة الله فإذا هي مشقة وعسر. ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام. ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار!



---

ولا ضيق مع رحمة الله. إنما الضيق في إمساكها دون سواه. لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن، أو في جحيم العذاب أو في شعاب الهلاك. ولا وسعة مع إمساكها ولو

تقلب الإنسان في أعطاف النعيم ، وفي مراتع الرخاء . فمن داخل النفس برحمة الله تتفجَّر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة . ومن داخل النفس مع إمساكها تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة !

هذا الباب وحده يفتح وتغلق جميع الأبواب ، وتوصد جميع النوافذ ، وتسد جميع المسالك . . فلا عليك . فهو الفرج والفسحة واليسر والرخاء . . وهذا الباب وحده يغلق وتفتح جميع الأبواب والنوافذ والمسالك فما هو بنافع . وهو الضيق والكرب والشدة والقلق والعناء !

هذا الفيض يفتح ، ثم يضيق الرزق . ويضيق السكن . ويضيق العيش ، وتخشن الحياة ، ويشوك المضجع . . فلا عليك . فهو الرخاء والراحة والطمأنينة والسعادة . وهذا الفيض يمسك . ثم يفيض الرزق ويقبل كل شيء . فلا جدوى . وإنما هو الضنك والحرج والشقاوة والبلاء !

المال والولد ، والصحة والقوة ، والجاه والسلطان . . تصبح مصادر قلق وتعب ونكد وجهد إذا أمسكت عنها رحمة الله . فإذا فتح الله أبواب رحمته كان فيها السكن والراحة والسعادة والاطمئنان .

يبسط الله الرزق مع رحمته فإذا هو متاع طيب ورخاء ؛ وإذا هو رغد في الدنيا وزاد إلى الآخرة . ويمسك رحمته ، فإذا هو مثار قلق وخوف ، وإذا هو مثار حسد وبغض ، وقد

يكون معه الحرمان ببخل أو مرض ، وقد يكون معه التلف بإفراط أو استهتار .

ويمنح الله الذرية مع رحمته فإذا هي زينة في الحياة ومصدر فرح واستمتاع ، ومضاعفة للأجر في الآخرة بالخلف الصالح الذي يذكر الله . ويمسك رحمته فإذا الذرية بلاء ونكد وعنت وشقاء ، وسهر بالليل وتعب بالنهار !

(191/640)

---

ويهب الله الصحة والقوة مع رحمته فإذا هي نعمة وحياة طيبة ، والتذاذ بالحياة . ويمسك نعمته فإذا الصحة والقوة بلاء يسلطه الله على الصحيح القوي ، فينفق الصحة والقوة فيما يحطم الجسم ويفسد الروح ، ويدخر السوء ليوم الحساب !

ويعطي الله السلطان والجاه مع رحمته فإذا هي أداة إصلاح ، ومصدر أمن ، ووسيلة لادخار الطيب الصالح من العمل والأثر . ويمسك الله رحمته فإذا الجاه والسلطان مصدر قلق على فوتهما ، ومصدر طغيان وبغي بهما ، ومثار حقد وموجدة على صاحبهما لا يقر له معهما قرار ، ولا يستمتع بجاه ولا سلطان ، ويدخر بهما للآخرة رصيداً ضخماً من النار !

والعلم الغزير . والعمر الطويل . والمقام الطيب . كلها تتغير وتتبدل من حال إلى حال . . مع

الإمساك ومع الإرسال . . وقليل من المعرفة يثمر وينفع ، وقليل من العمر يبارك الله فيه .

وزهيد من المتاع يجعل الله فيه السعادة .

والجماعات كالآحاد . والأمم كالأفراد .

في كل أمر وفي كل وضع ، وفي كل حال . . ولا يصعب القياس على هذه الأمثال !

(192/640)

---

ومن رحمة الله أن تحس برحمة الله ! فرحمة الله تضمك وتغمرك وتفيض عليك . ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة . ورجاؤك فيها وتطلعك إليها هو الرحمة . وثقتك بها وتوقعها في كل أمر هو الرحمة . والعذاب هو العذاب في احتجابك عنها أو يأسك منها أو شكك فيها . وهو عذاب لا يصبه الله على مؤمن أبداً : ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . ﴾ ورحمة الله لا تعز على طالب في أي مكان ولا في أي حال . وجدها إبراهيم عليه السلام في النار . ووجدها يوسف عليه السلام في الجب كما وجدها في السجن . ووجدها يونس عليه السلام في بطن الحوت في ظلمات ثلاث . ووجدها موسى عليه السلام في اليم وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة ، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له متربص به ويبحث عنه . ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين

افتقدوها في القصور والدور . فقال بعضهم لبعض : ﴿ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ ووجدها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه في الغار والقوم يتعقبونهما ويقصون الآثار . . ووجدها كل من آوى إليها يأساً من كل ما سواها . منقطعاً عن كل شبهة في قوة ، وعن كل مظنة في رحمة ، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب .

ثم إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها . ومتى أمسكها فلا مرسل لها . ومن ثم فلا مخافة من أحد . ولا رجاء في أحد . ولا مخافة من شيء ، ولا رجاء في شيء . ولا خوف من فوت وسيلة ، ولا رجاء مع الوسيلة . إنما هي مشيئة الله . ما يفتح الله فلا ممسك . وما يمسك الله فلا مرسل . والأمر مباشرة إلى الله . . ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ . . يقدر بلا معقب على الإرسال والإمساك . ويرسل ويمسك وفق حكمة تكمن وراء الإرسال والإمساك .

﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾ . .

وما بين الناس ورحمة الله إلا أن يطلبوها مباشرة منه ، بلا وساطة وبلا وسيلة إلا التوجه إليه في طاعة وفي رجاء وفي ثقة وفي استسلام .

﴿ وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ .

فلا رجاء في أحد من خلقه ، ولا خوف لأحد من خلقه . فما أحد بمرسل من رحمة الله ما أمسكه الله .

أية طمأنينة ؟ وأي قرار ؟ وأي وضوح في التصورات والمشاعر والقيم والموازين تقره هذه الآية في الضمير ؟ !

آية واحدة ترسم للحياة صورة جديدة ؛ وتنشئ في الشعور قيماً لهذه الحياة ثابتة ؛ وموازين لا تهتز ولا تتأرجح ولا تتأثر بالمؤثرات كلها . ذهبت أم جاءت . كبرت أم صغرت . جلت أم هانت . كان مصدرها الناس أو الأحداث أو الأشياء !

صورة واحدة لو استقرت في قلب إنسان لصمد كالطود للأحداث والأشياء والأشخاص والقوى والقيم والاعتبارات .

ولو تضافر عليها الإنس والجن . وهم لا يفتحون رحمة الله حين يمسكها ، ولا يمسكونها حين يفتحها . . ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ . .

وهكذا أنشأ القرآن بمثل هذه الآية وهذه الصورة تلك الفئة العجيبة من البشر في صدر الإسلام . الفئة التي صنعت على عين الله بقرآنه هذا لتكون أداة من أدوات القدرة ، تنشئ في الأرض ما شاء الله أن ينشئ من عقيدة وتصور ، وقيم وموازين ، ونظم وأوضاع . وتقر في الأرض ما شاء الله أن يقر من نماذج الحياة الواقعة التي تبدو لنا اليوم كالأساطير

والأحلام . الفئة التي كانت قدراً من قدر الله يسلطه على من يشاء في الأرض فيمحو ويثبت في واقع الحياة والناس ما شاء الله من محو ومن إثبات . ذلك أنها لم تكن تتعامل مع ألفاظ هذا القرآن ، ولا مع المعاني الجميلة التي تصورها . . وكفى . . ولكنها كانت تتعامل مع الحقيقة التي تمثلها آيات القرآن ، وتعيش في واقعها بها ، ولها . .

وما يزال هذا القرآن بين أيدي الناس ، قادراً على أن ينشئ بآياته تلك أفراداً وفئات تمحو وتثبت في الأرض بإذن الله ما يشاء الله . . ذلك حين تستقر هذه الصور في القلوب ، فتأخذها جداً ، وتتمثلها حقاً . حقاً تحسه ، كأنها تلمسه بالأيدي وتراه بالأبصار . .

ويبقى أن أتوجه أنا بالحمد لله على رحمة منه خاصة عرفتها منه في هذه الآية . .



---

لقد واجهتني هذه الآية في هذه اللحظة وأنا في عسر وجهد وضيق ومشقة . واجهتني في لحظة جفاف روحي ، وشقاء نفسي ، وضيق بضائقة ، وعسر من مشقة . . واجهتني في ذات اللحظة . ويسر الله لي أن أطلع منها على حقيقتها . وأن تسكب حقيقتها في روحي ؛ كأنما هي رحيق أرشفه وأحس سريانه ودبيبه في كياني . حقيقة أذوقها لا معنى أدركه . فكانت رحمة بذاتها . تقدم نفسها لي تفسيراً واقعياً لحقيقة الآية التي تفتحت لي تفتحها

هذا . وقد قرأتها من قبل كثيراً . ومررت بها من قبل كثيراً . ولكنها اللحظة تسكب رحيقها وتحقق معناها ، وتنزل بحقيقتها المجردة ، وتقول : هاأنذا . . نموذجاً من رحمة الله حين يفتحها . فانظر كيف تكون !

إنه لم يتغير شيء مما حولي . ولكن لقد تغير كل شيء في حسي ! إنها نعمة ضخمة أن يتفتح القلب لحقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود ، كالحقيقة الكبرى التي تتضمنها هذه الآية . نعمة يتذوقها الإنسان ويعيشها ؛ ولكنه قلما يقدر على تصويرها ، أو نقلها للآخرين عن طريق الكتابة . وقد عشتها وتذوقتها وعرفتها . وتم هذا كله في أشد لحظات الضيق والجفاف التي مرت بي في حياتي . وهاأنذا أجد الفرج والفرح والري والاسترواح والانطلاق من كل قيد ومن كل كرب ومن كل ضيق . وأنا في مكاني ! إنها رحمة الله يفتح الله بابها ويسكب فيضها في آية من آياته .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (4)

انتهى المقطع الأول من السورة بتلك الإيقاعات الثلاثة العميقة ، بتلك الحقائق الكبيرة الأصيلة : حقيقة وحدانية الخالق المبدع . وحقيقة الاختصاص بالرحمة . وحقيقة الانفراد بالرزق .

وفي المقطع الثاني يتجه أولاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتسلية والتسرية عن تكذيبهم له ، ويرجع الأمر كله إلى الله . ويتجه ثانياً إلى الناس يهتف بهم : إن وعد الله حق ، ويحذرهم لعب الشيطان بهم ليخدعهم عن تلك الحقائق الكبرى ، ويذهب بهم إلى السعير وهو عدوهم الأصيل ويكشف لهم عن جزاء المؤمنين وجزاء المخدوعين بالعدو الأصيل ! ويتجه أخيراً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ألا يأسى عليهم وتذهب نفسه حسرات فإن الهدى والضلال بيد الله . والله عليم بما يصنعون .

يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ، وإلى الله ترجع الأمور ﴾ . .

تلك هي الحقائق الكبرى واضحة بارزة ؛ فإن يكذبوك فلا عليك من التكذيب ، فلست بدعاً من الرسل : ﴿ فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ والأمر كله لله ، وإليه ترجع الأمور ، وما التبليغ والتكذيب إلا وسائل وأسباب . والعواقب متروكة لله وحده ، يدبر أمرها كيف يريد .

ويهتف بالناس :

﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق . فلا تغرنكم الحياة الدنيا . ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً . إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ . .

إن وعد الله حق . . إنه آت لا ريب فيه . إنه واقع لا يتخلف . إنه حق والحق لا بد أن يقع ، والحق لا يضيع ولا يبطل ولا يتبدد ولا يحيد . ولكن الحياة الدنيا تغر وتخدع . ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ . ولكن الشيطان يغر ويخدع فلا تمكنوه من أنفسكم ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ . . والشيطان قد أعلن عداءه لكم وإصراره على عدائكم ﴿ فاتخذوه عدواً ﴾ لا تركنوا إليه ، ولا تتخذوه ناصحاً لكم ، ولا تتبعوا خطاه ، فالعدو لا يتبع خطى عدوه وهو يعقل ! وهو لا يدعوكم إلى خير ، ولا ينتهي بكم إلى نجاة : ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ ! فهل من عاقل يجيب دعوة الداعي إلى عذاب السعير ؟ !

(196/640)

---

إنها لمسة وجدانية صادقة . فحين يستحضر الإنسان صورة المعركة الخالدة بينه وبين عدوه الشيطان ، فإنه يتحفز بكل قواه يقظته وبغريزة الدفاع عن النفس وحماية الذات . يتحفز لدفع الغواية والإغراء ؛ ويستيقظ لمداخل الشيطان إلى نفسه ، ويتوجس من كل هاجسة ، ويسرع ليعرضها على ميزان الله الذي أقامه له ليتبين ، فلعلها خدعة مستترة من عدوه القديم !

وهذه هي الحالة الوجدانية التي يريد القرآن أن ينشئها في الضمير. حالة التوفز والتحفز لدفع وسوسة الشيطان بالغواية؛ كما يتوفز الإنسان ويتحفز لكل بادرة من عدوه وكل حركة خفية! حالة التعبئة الشعورية ضد الشر ودواعيه، وضد هواتفه المستسرة في النفس، وأسبابه الظاهرة للعيان.

حالة الاستعداد الدائم للمعركة التي لا تهدأ لحظة ولا تضع أوزارها في هذه الأرض أبداً.

ثم يدعم هذه التعبئة وهذا الحذر وهذا التوفز ببيان عاقبة الكافرين الذين لبوا دعوة الشيطان، وحالة المؤمنين الذين طاردوه:

﴿ الذين كفروا لهم عذاب شديد. والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير ﴾..

ويعقب على هذا بتصوير طبيعة الغواية، وحقيقة عمل الشيطان، والباب الذي يفتح فيجيء منه الشر كله؛ ويمتد منه طريق الضلال الذي لا يرجع منه سالك متى أبعدت فيه خطاه:

﴿ أمن زين له سوء عمله فرآه حسناً... ؟ ﴾..

هذا هو مفتاح الشر كله.. أن يزين الشيطان للإنسان سوء عمله فيراه حسناً. أن يعجب بنفسه وبكل ما يصدر عنها. ألا يفتش في عمله ليرى مواضع الخطأ والنقص فيه، لأنه واثق من أنه لا يخطئ! متأكد أنه دائماً على صواب! معجب بكل ما يصدر منه! مفتون بكل ما

يتعلق بذاته. لا يخطر على باله أن يراجع نفسه في شيء، ولا أن يحاسبها على أمر. وبطبيعة الحال لا يطيق أن يراجعه أحد في عمل يعمله أو في رأي يراه. لأنه حسن في عين نفسه. مزين لنفسه وحسه. لا مجال فيه للنقد، ولا موضع فيه للنقصان!

(197/640)

---

هذا هو البلاء الذي يصبه الشيطان على إنسان؛ وهذا هو المقود الذي يقوده منه إلى الضلال. فإلى البوار!

إن الذي يكتب الله له الهدى والخير يضع في قلبه الحساسية والحذر والتلفت والحساب. فلا يأمن مكر الله. ولا يأمن تقلب القلب. ولا يأمن الخطأ والزلل. ولا يأمن النقص والعجز. فهو دائم التفتيش في عمله. دائم الحساب لنفسه. دائم الحذر من الشيطان، دائم التطلع لعون الله.

وهذا هو مفرق الطريق بين الهدى والضلال، وبين الفلاح والبوار.

إنها حقيقة نفسية دقيقة عميقة يصورها القرآن في ألفاظ معدودة:

﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ ..

إنه نموذج الضال الهالك البائر الصائر إلى شر مصير. ومفتاح هذا كله هو هذا التزيين. هو

هذا الغرور . هو هذا الستار الذي يعمي قلبه وعينه فلا يرى مخاطر الطريق . ولا يحسن عملاً لأنه مطمئن إلى حسن عمله وهو سوء . ولا يصلح خطأ لأنه واثق أنه لا يخطئ ! ولا يصلح فاسداً لأنه مستيقن أنه لا يفسد ! ولا يقف عند حد لأنه يحسب أن كل خطوة من خطواته إصلاح !

إنه باب الشر . ونافذة السوء . ومفتاح الضلال الأخير . .

ويدع السؤال بلا جواب . . ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ؟ ﴾ . . ليشمل كل جواب . كأن يقال : أفهذا يرجى له صلاح ومتاب ؟ أفهذا كمن يحاسب نفسه ويراقب الله ؟ أفهذا يستوي مع المتواضعين الأتقياء ؟ . . إلى آخر صور الإجابة على مثل هذا السؤال .

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (9)

هذا المقطع الثالث جولات متتابعة في المجال الكوني الذي يعرض فيه القرآن دلائل الإيمان ؛ ويتخذ من مشاهده المعروضة للبصائر والأبصار أدلته وبراهينه .

وهذه الجولات المتتابعة تجيء في السورة عقب الحديث عن الهدى والضلال، وعن تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن إعراض المعرضين. وتفويض هذا الأمر لصاحبه العليم بما يصنعون.. فمن شاء أن يؤمن فهذه أدلة الإيمان معروضة في صفحة الكون حيث لا خفاء فيها ولا غموض. ومن شاء أن يضل فهو يضل عن بينة وقد أخذته الحجة من كل جانب.

وفي مشهد الحياة النابضة بعد الموات حجة. وفيه دليل على البعث والنشور. وفي خلق الإنسان من تراب، ثم صيرورته إلى هذا الخلق الراقي حجة. وكل مرحلة من مراحل خلقه وحياته تمضي وفق قدر مرسوم في كتاب مبين.

وفي مشهد البحرين المتميزين وتنويعهما حجة. وفيهما من نعم الله على الناس ما يقتضي الشكر والعرفان.

وفي مشهد الليل والنهار يتداخلان ويطولان ويقصران حجة. وفيهما على التقدير والتدبير دليل. وكذلك مشهد الشمس والقمر مسخرين بهذا النظام الدقيق العجيب.

هذه كلها حجج ودلائل معروضة في المجال الكوني الفسيح. وهذا هو الله خالقها ومالكها. والذين يدعون من دون الله ما يملكون من قطمير. ولا يسمعون ولا يستجيبون. ويوم القيامة يتبرأون من عبادهم الضلاّل. فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

﴿ والله الذي أرسل الرياح، فتثير سحاباً ، فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها . كذلك النشور ﴾ . .

(199/640)

---

وهذا المشهد يتردد في معرض دلائل الإيمان الكونية في القرآن . مشهد الرياح، تثير السحب ؛ تثيرها من البحار ، فالرياح الساخنة هي المثيرة للبخار ؛ والرياح الباردة هي المكثفة له حتى يصير سحاباً ؛ ثم يسوق الله هذا السحاب بالتيارات الهوائية في طبقات الجو المختلفة ، فتذهب يميناً وشمالاً إلى حيث يريد الله لها أن تذهب ، وإلى حيث يسخرها ويسخر مثيراتها من الرياح والتيارات ، حتى تصل إلى حيث يريد لها أن تصل . . إلى بلد ميت . . مقدر في علم الله أن تدب فيه الحياة بهذا السحاب . والماء حياة كل شيء في هذه الأرض . ﴿ فأحيينا به الأرض بعد موتها ﴾ . . وتتم الخارقة التي تحدث في كل لحظة والناس في غفلة عن العجب العاجب فيها . وهم مع وقوع هذه الخارقة في كل لحظة يستبعدون النشور في الآخرة . وهو يقع بين أيديهم في الدنيا . . ﴿ كذلك النشور ﴾ . . في بساطة ويسر ، وبلا تعقيد ولا جدل بعيد !

هذا المشهد يتردد في معرض دلائل الإيمان الكونية في القرآن لأنه دليل واقعي ملموس ، لا

سبيل إلى المكابرة فيه . ولأنه من جانب آخر يهز القلوب حقاً حين تتملاه وهي يقظى ؛ ويلمس المشاعر لمساً موحياً حين تتجه إلى تأمله .

وهو مشهد بهيج جميل مثير . وبخاصة في الصحراء حيث يمر عليها الإنسان اليوم وهي محل جدب جرداء . ثم يمر عليها غداً وهي ممرعة خضراء من آثار الماء . والقرآن يتخذ موحياته من مألوف البشر المتاح لهم ، مما يمرون عليه غافلين . وهو معجز معجب حين تتملاه البصائر والعيون .

ومن مشهد الحياة النابضة في الموات ينتقل نقلة عجيبة شيئاً إلى معنى نفسي ومطلب شعوري .

ينتقل إلى معنى العزة والرفعة والمنعة والاستعلاء . ويربط هذا المعنى بالقول الطيب الذي يصعد إلى الله والعمل الصالح الذي يرفعه الله . كما يعرض الصفحة المقابلة . صفحة التدبير السيّئ والمكر الخبيث ، وهو يهلك ويبور :



---

﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور ﴾ . .

ولعل الرابط الذي يصل بين الحياة النامية في الموات ، والكلمة الطيبة والعمل الصالح ، هو الحياة الطيبة في هذه وفي تلك ؛ وما بينهما من صلة في طبيعة الكون والحياة . وهي الصلة التي سبقت الإشارة إليها في سورة إبراهيم . ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ وهو شبه حقيقي في طبيعة الكلمة وطبيعة الشجرة ؛ وما فيهما من حياة ونماء . والكلمة تنمو وتمتد وتثمر كما تنمو الشجرة وتمتد وتثمر سواء بسواء !

وقد كان المشركون يشركون استبقاء لمكانتهم الدينية في مكة . وما يقوم عليها من سيادة لقريش على القبائل بحكم العقيدة ، وما تحققه هذه السيادة من مغانم متعددة الألوان . العزة والمنعة في أولها بطبيعة الحال . مما جعلهم يقولون : ﴿ إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ فالله يقول لهم :

﴿ من كان يريد العزة فلله العزّة جميعاً ﴾

وهذه الحقيقة كفيلة حين تستقر في القلوب أن تبدل المعايير كلها ، وتبدل الوسائل والخطط أيضاً !

إن العزة كلها لله . وليس شيء منها عند أحد سواه . فمن كان يريد العزة فليطلبها من

مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره . ليطلبها عند الله . فهو واجدها هناك وليس بواجدها عند أحد ، ولا في أي كنف ، ولا بأي سبب ﴿ فلله العزّة جميعاً ﴾ . .



---

إن الناس الذين كانت قريش تبتغي العزة عندهم بعقيدتها الوثنية المهلهلة ؛ وتخشى اتباع الهدى وهي تعترف أنه الهدى خشية أن تصاب مكانتها بينهم بأذى . إن الناس هؤلاء ، القبائل والعشائر وما إليها ، إن هؤلاء ليسوا مصدراً للعزة ، ولا يملكون أن يعطوها أو يمنعوها ﴿ فلله العزّة جميعاً ﴾ . . وإذا كانت لهم قوة فمصدرها الأول هو الله . وإذا كانت لهم منعة فواهبها هو الله . وإذن فمن كان يريد العزة والمنعة فليذهب إلى المصدر الأول ، لا إلى الآخذ المستمد من هذا المصدر .

ليأخذ من الأصل الذي يملك وحده كل العزة ، ولا يذهب يطلب قمامة الناس وفضلاتهم . وهم مثله طلاب محاويج ضعاف !

إنها حقيقة أساسية من حقائق العقيدة الإسلامية . وهي حقيقة كفيلة بتعديل القيم والموازين ، وتعديل الحكم والتقدير ، وتعديل النهج والسلوك ، وتعديل الوسائل والأسباب ! ويكفي أن تستقر هذه الحقيقة وحدها في أي قلب لتقف به أمام الدنيا كلها عزيزاً كريماً ثابتاً

في وقفته غير مزعزع، عارفاً طريقه إلى العزة، طريقه الذي ليس هنالك سواه!

إنه لن يحني رأسه لمخلوق متجبر. ولا لعاصفة طاغية. ولا لحدث جلل. ولا لوضع ولا لحكم. ولا لدولة ولا لمصلحة، ولا لقوة من قوى الأرض جيمعاً. وعلام؟ والعزة لله جميعاً. وليس لأحد منها شيء إلا برضاه؟

ومن هنا يذكر الكلم الطيب والعمل الصالح:

﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ . .

ولهذا التعقيب المباشر بعد ذكر الحقيقة الضخمة مغزاه وإيحاؤه. فهو إشارة إلى أسباب العزة ووسائلها لمن يطلبها عند الله. القول الطيب والعمل الصالح. القول الطيب الذي يصعد إلى الله في علاه؛ والعمل الصالح الذي يرفعه الله إليه ويكرمه بهذا الارتفاع. ومن ثم يكرم صاحبه ويمنحه العزة والاستعلاء.

(202/640)

---

والعزة الصحيحة حقيقة تستقر في القلب قبل أن يكون لها مظهر في دنيا الناس. حقيقة تستقر في القلب فيستعلي بها على كل أسباب الذلة والانحناء لغير الله. حقيقة يستعلي بها على نفسه أول ما يستعلي. يستعلي بها على شهواته المذلة، ورغائبه القاهرة،

ومخاوفه ومطامعه من الناس وغير الناس . ومتى استعلى على هذه فلن يملك أحد وسيلة لإذلاله وإخضاعه . فإنما تذل الناس شهواتهم ورغباتهم . ومخاوفهم ومطامعهم . ومن استعلى عليها فقد استعلى على كل وضع وعلى كل شيء وعلى كل إنسان . . وهذه هي العزة الحقيقية ذات القوة والاستعلاء والسلطان !

إن العزة ليست عناداً جامحاً يستكبر على الحق ويتشامخ بالباطل . وليست طغياناً فاجراً يضرب في عتو وتجبر وإصرار . وليست اندفاعاً باغياً يخضع للنزوة ويذل للشهوة . وليست قوة عمياء تبطش بلا حق ولا عدل ولا صلاح . . كلا ! إنما العزة استعلاء على شهوة النفس ، واستعلاء على القيد والذل ، واستعلاء على الخضوع الخانع لغير الله . ثم هي خضوع لله وخشوع ؛ وخشية لله وتقوى ، ومراقبة لله في السراء والضراء . . ومن هذا الخضوع لله ترتفع الجباه . ومن هذه الخشية لله تصمد لكل ما يأباه . ومن هذه المراقبة لله لا تعنى إلا برضاه .

هذا مكان الكلم الطيب والعمل الصالح من الحديث عن العزة ، وهذه هي الصلة بين هذا المعنى وذاك في السياق . ثم تكمل بالصفحة المقابلة :

﴿ والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾ .

ويمكرون هنا مضمنة معنى يدبرون . ولكنه عبر بها لغلبة استعمالها في السوء . فهؤلاء لهم عذاب شديد .

فوق أن مكرهم وتدبيرهم يبور . فلا يحيا ولا يثمر . من البوار ومن البوران سواء . وذلك تنسيقاً مع إحياء الأرض وإثمارها في الآية السابقة .

(203/640)

---

والذين يمكرون السيئات يمكرونها طلباً للعزة الكاذبة ، والغلبة الموهومة . وقد يبدو في الظاهر أنهم أعلياء ، وأنهم أعزاء ، وأنهم أقوياء . ولكن القول الطيب هو الذي يصعد إلى الله ، والعمل الصالح هو الذي يرفعه إليه . وبهما تكون العزة في معناها الواسع الشامل . فأما المكر السيئ قولاً وعملاً فليس سبيلاً إلى العزة ولو حقق القوة الطاغية الباغية في بعض الأحيان . إلا أن نهايته إلى البوار وإلى العذاب الشديد . وعد الله ، لا يخلف الله وعده . وإن أمهل الماكرين بالسوء حتى يحين الأجل المحتوم في تدبير الله المرسوم .

ثم يجيء مشهد النشأة الأولى للإنسان بعد الكلام عن نشاة الحياة كلها بالماء . ويذكر ما يلابس تلك النشأة من حمل في البطون ؛ ومن عمر طويل وعمر قصير . وكله في علم الله المكنون .

﴿ والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجاً . وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب . إن ذلك على الله يسير

﴾ . .

والإشارة إلى النشأة الأولى من التراب تتردد كثيراً في القرآن ؛ وكذلك الإشارة إلى أول مراحل الحمل : النطفة . . والتراب عنصر لا حياة فيه ، والنطفة عنصر فيه الحياة .

والمعجزة الأولى هي معجزة هذه الحياة التي لا يعلم أحد كيف جاءت ، ولا كيف تلبست بالعنصر الأول . وما يزال هذا سراً مغلقاً على البشر ؛ وهو حقيقة قائمة مشهودة ، لا مفر من مواجهتها والاعتراف بها . ودلالتها على الخالق المحيي القدير دلالة لا يمكن دفعها ولا المماحكة فيها .

هذا والنقلة من غير الحي إلى الحي نقلة بعيدة بعيدة أكبر وأضخم من كل أبعاد الزمان والمكان . وتأمل هذه النقلة لا ينتهي ولا يمله القلب الحي الذي يتدبر أسرار هذا الوجود العجيبة . وكل سر منها أضخم من الآخر وأعجب صنعاً .

(204/640)

---

والنقلة بعد ذلك من النطفة التي تمثل مرحلة الخلية الواحدة إلى الخلقة الكاملة السوية للجنين ، حين يتميز الذكر من الأنثى ، وتتحقق الصورة التي يشير إليها القرآن في هذه الآية : ﴿ ثم جعلكم أزواجاً ﴾ . . سواء كان المقصود جعلكم ذكر وأنثى وأنتم أجنة ، أو كان

المقصود جعلكم أزواجاً بعد ولادتكم وتزاوج الذكر والأنثى . . هذه النقلة من النطفة إلى هذين النوعين المتميزين نقلة بعيدة كذلك بعيدة ! فأين الخلية الواحدة في النطفة من ذلك الكائن الشديد التركيب والتعقيد ، الكثير الأجهزة المتعدد الوظائف ؟ وأين تلك الخلية المبهمة من ذلك الخلق الحافل بالخصائص المتميزة ؟

إن تتبع هذه الخلية الساذجة وهي تنقسم وتتوالد ؛ وتتركب كل مجموعة خاصة من الخلايا المتولدة منها لتكوين عضو خاص له وظيفة معينة وطبيعة معينة . ثم تعاون هذه الأعضاء وتناسقها وتجمعها لتكون مخلوقاً واحداً على هذا النحو العجيب ؛ ومخلوقاً متميزاً من سائر المخلوقات الأخرى من جنسه ، بل من أقرب الناس إليه ، بحيث لا يتماثل أبداً مخلوقان اثنان .

. وكلهم من نطفة لا تميز فيها يمكن إدراكه ! . . ثم تتبع هذه الخلايا حتى تصير أزواجاً ، قادرة على إعادة النشأة بنطف جديدة ، تسير في ذات المراحل ، دون انحراف . . إن هذا كله لعجب لا ينقضي منه العجب . ومن ثم هذه الإشارة التي تتردد في القرآن كثيراً عن تلك الخارقة المجهولة السر ؛ بل تلك الخوارق المجهولة الأسرار ! لعل الناس يشغلون قلوبهم بتدبرها ، ولعل أرواحهم تستيقظ على الإيقاع المتكرر عليها !

وإلى جوار هذه الإشارة هنا يعرض صور كونية لعلم الله ( كالصور التي جاء ذكرها في هذا

الجزء في سورة سبأ ) صورة علم الله المحيط بكل حمل تحمله أنثى في هذه الأرض جميعاً :

﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ .

(205/640)

---

والنص يتجاوز إناث الإنسان إلى إناث الحيوان والطير والأسماك والزواحف والحشرات .

وسواها مما نعلمه ومما لا نعلمه وكلها تحمل وتضع حتى ما يبيض منها ، فالبيضة حمل من نوع

خاص . جنين لا يتم نموه في داخل جسم الأم ؛ بل ينزل بيضة ، ثم يتابع نموه خارج جسم الأم

بحضانتها هي أو بحضانة صناعية حتى يصبح جنيناً كاملاً ثم يفقس ويتابع نموه العادي .

وعلم الله على كل حمل وعلى كل وضع في هذا الكون المترامي الأطراف ! ! !

وتصوير علم الله المطلق على هذا النحو العجيب ليس من طبيعة الذهن البشري أن يتجه

إليه لا في التصور ولا في التعبير كما قلنا في سورة سبأ فهو بذاته دليل على أن الله هو منزل

هذا القرآن . وهذه إحدى السمات الدالة على مصدره الإلهي المتفرد .

ومثلها الحديث عن العمر في الآية ذاتها :

﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب . إن ذلك على الله يسير ﴾ .

فإن الخيال إذا مضى يتدبر ويتتبع جميع الأحياء في هذا الكون من شجر وطير وحيوان

وإنسان وسواه على اختلاف في الأحجام والأشكال والأنواع والأجناس والمواطن والأزمنة؛ ثم يتصور أن كل فرد من أفراد هذا الحشد الذي لا يمكن حصره، ولا يعلم إلا خالقه عدده يعمر فيطول عمره، أو ينقص من عمره فيقصر وفق قدر مقدور، ووفق علم متعلق بهذا الفرد، متابع له، عمر أم لم يعمر.

بل متعلق بكل جزء من كل فرد. يعمر أو ينقص من عمره. فهذه الورقة من تلك الشجرة يطول عمرها أو تذبل أو تسقط عن قريب. وهذه الريشة من ذلك الطائر يطول مكثها أو تذهب مع الريح. وهذا القرن من ذلك الحيوان يبقى طويلاً أو يتحطم في صراع. وهذه العين في ذلك الإنسان أو هذه الشعرة تبقى وتسقط وفق تقدير معلوم.

كل ذلك ﴿ في كتاب ﴾ .. من علم الله الشامل الدقيق. وأن ذلك لا يكلف جهداً ولا عسراً: ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ ..



---

إذا مضى الخيال يتدبر هذا ويتتبعه؛ ثم يتصور ما وراءه.. إنه لأمر عجيب جد عجيب.. وإنه لاتجاه إلى حقيقة لا يتجه إليها التفكير البشري على هذا النحو. واتجاه إلى تصور هذه الحقيقة وتصويرها على غير مألوف البشر كذلك. وإنما هو التوجيه الإلهي

الخاص إلى هذا الأمر العجيب .

والتعمير يكون بطول الأجل وعد الأعوام ؛ كما يكون بالبركة في العمر ، والتوفيق إلى إنفاقه إنفاقاً مثمراً ، واحتشاده بالمشاعر والحركات والأعمال والآثار . وكذلك يكون نقص العمر بقصره في عد السنين ؛ أو نزع البركة منه وإنفاقه في اللهو والعبث والكسل والفراغ .

ورب ساعة تعدل عمراً بما يحتشد فيها من أفكار ومشاعر ، وبما يتم فيها من أعمال وآثار . ورب عام يمر خاوياً فارغاً لا حساب له في ميزان الحياة ، ولا وزن له عند الله !

وكل ذلك في كتاب . . كل ذلك من كل كائن في هذا الكون الذي لا يعرف حدوده إلا الله . . والجماعات كالآحاد . والأمم كالأفراد . . كل منها يعمر أو ينقص من عمره . والنص يشمله .

بل إن الأشياء لكالأحياء . وإني لأتصور الصخرة المعمرة ، والكهف المعمر ، والنهر المعمر ، والصخرة التي ينتهي أجلها أو يقصر فإذا هي فتات ؛ والكهف الذي ينتهي أجله أو يقصر فإذا هو محطم أو مسدود ؛ والنهر الذي ينتهي أجله أو يقصر فإذا هو غائض أو مبدد !

ومن الأشياء ما تصنع يد الإنسان . البناء المعمر أو القصير العمر . والجهاز المعمر أو قصير العمر . والثوب المعمر أو قصير العمر . . وكلها ذات آجال وأعمار في كتاب الله كالإنسان . وكلها من أمر الله العليم الخبير . .

وإن تصور الأمر على هذا النحو ليوقظ القلب إلى تدبر هذا الكون بحس جديد ، وأسلوب

جديد . وإن القلب الذي يستشعر يد الله وعينه على كل شيء بمثل هذه الدقة ليصعب أن ينسى أو يغفل أو يضل . وهو حيثما تلفت وجد يد الله . ووجد عين الله . ووجد عناية الله ، ووجد قدرة الله ، متمثلة ومتعلقة بكل شيء في هذا الوجود .

وهكذا يصنع القرآن القلوب !

*(207/640)*

---

ويمضي السياق إلى لفتة أخرى في هذه الجولة الكونية المتعددة اللفتات . يمضي إلى مشهد الماء في هذه الأرض من زاوية معينة . زاوية تنويع الماء . فهذا عذب سائغ ، وهذا ملح مر . وكلاهما يفترقان ويلتقيان بتسخير الله في خدمة الإنسان .

﴿ وما يستوي البحران . . هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج . . ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها . وترى الفلك فيه مواخر . لتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون ﴾ . .

إن إرادة التنويع في خلق الماء واضحة ؛ ووراءها حكمة فيما نعلم ظاهرة ، فأما الجانب العذب السائغ اليسير التناول فنحن نعرف جانباً من حكمة الله فيما نستخدمه وننتفع به ؛ وهو قوام الحياة لكل حي .

وأما الجانب الملح المر وهو البحار والمحيطات فيقول أحد العلماء في بيان التقدير العجيب في تصميم هذا الكون الضخم :

" وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور ومعظمها سام فإن الهواء باق دون تلويث في الواقع ، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان . وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء أي المحيط الذي استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل ، والنباتات . وأخيراً الإنسان نفسه . . " .

وهذا بعض ما تكشف لنا من حكمة الخلق والتنويع ، واضح فيه القصد والتدبير ، ومنظور فيه إلى تناسقات وموازنات يقوم بعضها على بعض في حياة هذا الكون ونظامه . ولا يصنع هذا إلا الله خالق هذا الكون وما فيه ومن فيه . فإن هذا التنسيق الدقيق لا يجيء مصادفة واتفاقاً بحال من الأحوال . والإشارة إلى اختلاف البحرين توحي بمعنى القصد في هذه التفرقة وفي كل تفرقة أخرى . وستأتي في السورة إشارات إلى نماذج منها في عالم المشاعر والاتجاهات والقيم والموازين .

ثم يلتقي البحران المختلفان في تسخيرهما للإنسان :

﴿ ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر ﴾ . .

واللحم الطري هو الأسماك والحيوانات البحرية على اختلافها . والحلية من اللؤلؤ والمرجان . واللؤلؤ يوجد في أنواع القواقع يتكون في أجسامها نتيجة دخول جسم غريب كحبة رمل أو نقطة ماء ، فيفرز جسم القوقعة داخل الصدفة إفرازاً خاصاً يحيط به هذا الجسم الغريب ، كي لا يؤذي جسم القوقعة الرخو . وبعد زمن معين يتصلب هذا الإفراز ، ويتحول إلى لؤلؤة ! والمرجان نبات حيواني يعيش ويكون شعاباً مرجانية تمتد في البحر أحياناً عدة أميال ، وتتكاثر حتى تصبح خطراً على الملاحة في بعض الأحيان ؛ وخطراً على كل حي يقع في براثنها ! وهو يقطع بطرق خاصة وتتخذ منه الحلى !

والفلك تمخر البحار والأنهار أي تشقها بما أودع الله الأشياء في هذا الكون من خصائص . ولكثافة الماء وكثافة الأجسام التي تتكون منها السفن دخل في إمكان طفو السفن على سطح الماء وسيرها فيه . وللرياح كذلك . وللقوى التي سخرها الله للإنسان وعرفه كيف يستخدمه كقوة البخار وقوة الكهرباء وغيرهما من القوى . وكلها من تسخير الله للإنسان .

﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ . . بالسفر والتجارة ، والانتفاع باللحم الطري والحلى واستخدام الماء والسفن في البحار والأنهار .

﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ . . وقد يسر الله لكم أسباب الشكر ، وجعلها حاضرة بين أيديكم . ليعينكم على الأداء .

ويختم هذا المقطع بجولة كونية في مشهد الليل والنهار . ثم في تسخير الشمس والقمر وفق النظام المرسوم لجريانهما إلى الأجل المعلوم :

﴿ يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل .

وسخر الشمس والقمر ، كل يجري لأجل مسمى ﴾ . .

(209/640)

---

وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل قد يعني ذينك المشهدين الرائعين . مشهد دخول الليل في النهار ، والضياء يغيب قليلاً قليلاً ، والظلام يدخل قليلاً قليلاً حتى يكون الغروب وما يليه من العتمة البطيئة الدبيب . ومشهد دخول النهار في الليل حينما يتنفس الصبح ، وينتشر الضياء رويداً رويداً ، ويتلاشى الظلام رويداً رويداً ، حتى تشرق الشمس ويعم الضياء . . كذلك قد يعني طول الليل وهو يأكل من النهار وكأنما يدخل فيه . وطول النهار وهو يأكل من الليل وكأنما يدخل فيه . . وقد يعنيهما معاً بتعبير واحد . وكلها مشاهد تطوّف بالقلب في سكون ، وتغمره بشعور من الروعة والتقوى ؛ وهو يرى يد الله تمد هذا الخط ، وتطوي ذاك الخط ، وتشد هذا الخيط وترخي ذاك الخيط . في نظام دقيق مطرد لا يتخلف مرة ولا يضطرب . ولا يختل يوماً أو عاماً على توالي القرون . .

وتسخير الشمس والقمر وجريانهما للأجل المرسوم لهما ، والذي لا يعلمه إلا خالقهما . . هو الآخر ظاهرة يراها كل إنسان ، سواء كان يعلم أحجام هذين الجرمين ، ونوعهما من النجوم والكواكب ومدارهما ودورتهما ومداها . . أم لا يعلم من هذا كله شيئاً . . فهما بذاتهما يظهران ويختفيان أمام كل إنسان ، ويصعدان وينحدران أمام كل بصر . وهذه الحركة الدائبة التي لا تفتر ولا تختل حركة مشهودة لا يحتاج تدبرها إلى علم وحساب ! ومن ثم فهي آية معروضة في صفحة الكون لجميع العقول وجميع الأجيال على السواء . وقد ندرك نحن اليوم علمها الظاهر أكثر مما كان يدرك المخاطبون بهذا القرآن لأول مرة . وليس هذا هو المهم . إنما المهم أن توحي إلينا ما كانت توحيه إليهم ، وأن تهز قلوبنا كما كانت تهز قلوبهم ، وأن تثير فينا من التدبر ورؤية يد الله المبدعة وهي تعمل في هذا الكون العجيب ما كانت تثير فيهم . . والحياة حياة القلوب . .



---

وفي ظل تلك المشاهد المتنوعة العميقة الدلالة القوية السلطان يعقب بتقرير حقيقة الربوبية ، وبطلان كل ادعاء بالشرك ، وخسران عاقبته يوم القيامة :

﴿ ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا

يسمعوا دعاءكم . ولو سمعوا ما استجابوا لكم . ويوم القيامة يكفرون بشرككم . ولا ينبئك مثل خبير ﴾ . .

ذلكم . الذي أرسل الرياح بالسحاب ، والذي أحيا الأرض بعد موتها ، والذي خلقكم من تراب ، والذي جعلكم أزواجاً ، والذي يعلم ما تحمل كل أنثى وما تضع ، والذي يعلم ما يعمر وما ينقص من عمره ، والذي خلق البحرين ، والذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . . ذلكم هو ﴿ الله ربكم ﴾ . . ﴿ له الملك ﴾ . . ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ . . والقطمير غلاف النواة ! وحتى هذا الغلاف الزهيد لا يملكه أولئك الذين يدعونهم من دون الله !

ثم يمعن في الكشف عن حقيقة أمرهم .

«إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ» . .

(211/640)

---

فهم أصنام أو أوثان أو أشجار ، أو نجوم أو كواكب ، أو ملائكة أو جن . . وكلهم لا يملكون بالفعل قطميرا . وكلهم لا يسمعون لعبادهم الضالين . سواء كانوا لا يسمعون أصلا ، أو لا يسمعون لكلام البشر . .

«وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ» . .

كالجن والملائكة . فالجن لا يملكون الاستجابة . والملائكة لا يستجيبون للضالين .

هذه في الحياة الدنيا . فأما يوم القيامة فيبرأون من الضلال والضالين :

«وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ» . .

يحدث بهذا الخبير بكل شيء ، وبكل أمر ، وبالدنيا والآخرة :

«وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» . .

وبهذا ينتهي هذا المقطع ، وتختم هذه الجولات والمشاهد في تلك العوالم ويعود القلب البشري منها بزاد يكفيه حياته كلها لو ينتفع بالزاد . وإنه لحسب القلب البشري مقطع واحد من سورة واحدة لو كان الذي يريد هو الهدى ، ولو كان الذي يطلب هو البرهان ! .

انتهى انتهى . اهـ ﴿الظلال حـ 5 صـ 2930 . 2936﴾

(212/640)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وَيُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والأربعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾



---

الجزء الحادى والأربعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 15 ﴾ من سورة فاطر

وحتى الآية ﴿ 35 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما اختص سبحانه بالملك ونفى عن شركائهم النفع ، أنتج ذلك قوله : ﴿ يا أيها الناس ﴾ أي كافة ﴿ أنتم ﴾ أي خاصة ﴿ الفقراء ﴾ أي لأنكم لاتساع معارفكم وسريان أفكاركم وانتشار عقولكم تكثر نوازغكم وتتفرق دواعيكم فيعظم احتياجكم لشدة ضعفكم وعجزكم عظماً يعد معه احتياج غيركم عدماً ، ولو نكر الخبر لم يفد هذا المعنى ﴿ إلى الله ﴾ أي الذي له جميع الملك ؛ قال القشيري : والفقر على ضربين : فقر خلقة ، وفقر صفة ، فالأول عام فكل حادث مفتقر إلى خالقه في أول حال وجوده ليبديه وينشيه ، وفي ثانية ليديمه ويبقيه ، وأما فقر الصفة فهو التجرد ، ففقر العوام التجرد من المال ، وفقر الخواص التجرد من الإعلال ، فحقيقة الفقر المحمود تجرد السر عن المعلولات .

ولما ذكر العبد بوصفه الحقيقي ، أتبعه ذكر الخالق باسمه الأعظم على قرب العهد بذكر الإشارة إلى الجهة التي بها وصف بما يذكر ، وهي الإحاطة بأوصاف الكمال فقال : ﴿ والله هو ﴾ أي وحده ﴿ الغني ﴾ أي الذي لا يتصور أن يحتاج لا إليكم ولا إلى عبادتكم ولا إلى شيء أصلاً .

ولما كان الغنى من الخلق لا يسع غناه من يقصده ، وإن وسعهم لم يسعهم عطاؤه لخوف الفقر أو لغير ذلك من العوارض ، ولا يمكنه عموم النعمة في شيء من الأشياء فلا ينفعك من نوع ذم ، وكان الحمد كما قال الحرالي في شرح الأسماء : حسن الكلية بانتهاء كل أمر وجزء ، وبعض منها إلى غاية تمامه ، فمتى نقص جزء من كل عن غاية تمامه لم يكن ذلك الكل محموداً ، ولم يكن قائمه حميداً ، وكان الله قد خلق كل شيء كما ينبغي ، لم يعجل شيئاً عن إناه وقدره ، وكان الذم استنقاصاً يلحق بعض الأجزاء عند من لم يرها في كلها ولا رأى كلها ، فكان الذم لذلك لا يقع إلا متقيداً متى أخذ مقتطعاً من كل ، والحمد لا يقع إلا في كل لم يخرج عنه شيء فلا حمد في بعض ولا ذم في كل ولا حمد إلا في كل ، ولذلك قال الغزالي : الحميد من العباد من حمدت عوائده وأخلاقه وأعماله كلها من غير مثنوية .

وكان سبحانه قد أفاض نعمه على خلقه ، وأسبغها ظاهرة وباطنة ، وجعل لهم قدرة على تناولها .

لا يعوق عنه إلا قدرته ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ وكان لا ينقص ما عنده ، كان إعطاؤه حمداً ومنعه حمداً ، لأنه لا يكون مانعاً لغرض بل لحكمة تدق عن الأفكار فقال : ﴿ الحميد ﴾ أي كل شيء بنعمته عنده والمستحق للحمد بذاته ، فأنتج ذلك قطعاً تهديداً لمن عصاه وتحذيراً شديداً : ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ أي جميعاً ﴿ ويأت بخلق جديد ﴾ أي غيركم لأنه على كل شيء قدير ﴿ وما ذلك ﴾ أي الأمر العظيم من الإذهاب والإتيان ﴿ على الله ﴾ المحيط بجميع صفات الكمال خاصة ﴿ بعزيز ﴾ أي بممتنع ولا شاق ، وهو محمود عند الإعدام كما هو محمود عند الإيجاد .

ولما أنهى سبحانه بيان الحق بالدلائل القاطعة والبراهين الساطعة بالتهديد بالأخذ ، وكان الأخذ على وجه التهديد عقاباً ، وكان العقاب لا يكون حكمه إلا عند الذنب ، قال دالاً على أنه لا ينفك أحد عما يستحق به العقاب : ﴿ ولا ﴾ أي يذهبكم عقوبة لكم بأوزاركم وقدرة عليكم والحال أنه لا ﴿ تزر ﴾ أي تحمل يوم القيامة أو عند الإذهاب ، ولما لم تكن نفس متأهلة للحمل تخلو من وزر تحمله ، والمعصوم من عصم الله ، قال : ﴿ وازرة ﴾ دون نفس ، أي لا تحمل حاملة من جهة الإثم ﴿ وزر ﴾ أي حمل وثقل ﴿ أخرى ﴾ لتعذب به ، بل كان واحد منكم له مما كسبت يداه ما تقوم به عليه الحجة في الأخذ مباشرة وتسبباً مع

تفاوتكم في الوزر ، ولا يحمل أحد إلا ما اقترفه هو ، لا تؤخذ نفس بذنب أخرى الذي يخصها كما تفعل جبابرة الدنيا .

(6/641)

---

ولما أثبت أنه لا يؤخذ أحد إلا بوزر ، ونفى أن يحمل أحد وزر غيره ، وكان ربما أوهم أن ذلك خاص ببعض الأحوال أو الأشخاص ، وكان عظم الوزر يوجب عظم الأخذ ، نفى ذلك الإيهام ودل القدرة على المفاوتة بينهم في الأجر وإن كان أخذهم في آن واحد بقوله : ﴿ وإن تدع ﴾ أي نفس ﴿ مثقلة ﴾ أي بالذنوب سواء كانت كفراً أو غيره ، أحداً ﴿ إلى حملها ﴾ أي الخاص بها من الذنوب التي ليست على غيرها بمباشرة ولا تسبب ليخفف عنها فيخفف العذاب بسبب خفته ﴿ لا يحمل ﴾ أي من حامل ما ﴿ منه شيء ﴾ أي لا طواعية ولا كرهاً .

بل لكل امرئ شأن يغنيه أصلاً وتسبباً ﴿ ولو كان ﴾ ذلك الداعي أو المدعو للحمل ﴿ ذا قربى ﴾ لمن دعاه ، وحاصل الأولى أنه لا يهلك أحد بذنب غيره بل بذنب نفسه ، والثانية أنه لا يحط عن أحد ذنبه ليسلم .

ولما كان هذا أمراً - مع كونه جلياً - خالعاً للقلوب ، فكان بحيث يشتد تعجب السامع ممن

يسمعه ولا يخشى ، فقال مزيلاً لهذا العجب على سبيل النتيجة : ﴿ إنما تنذر ﴾ أي إنذاراً يفيد الرجوع عن الغيّ ، فلاختصاصهم بالنفع كانوا كأنهم مختصون بالإنذار ، وهو كما قال القشيري : الإعلام بموضع المخافة .

﴿ الذين يخشون ﴾ أي يوقعون هذا الفعل في الحال ويواظبون عليه في الاستقبال .

ولما كان أعقل الناس من خاف المحسن لان أقل عقابة قطع إحسانه قال : ﴿ ربهم ﴾ .

ولما كان أوفى الناس عقلاً وأعلاهم همة وأكرمهم عنصراً من كانت غيبته مثل حضوره ، وكان لا يحتاج – مع قول الداعي وما يظهر له من سمته وحسن قوله وفعله – إلى آية يظهرها ولا خارقة يبرزها ، وإنما إيمانه تصديقاً للداعي في إخباره بالأمر المغيب من غير كشف غطاء قال : ﴿ بالغيب ﴾ أي حال كونهم غائبين عما دعوا إليه وخوفوا به ، أو حال كونه غائباً عنهم أو غائبين عمن يمكن مراءاته ، فهم مخلصون في خشيتهم سواء بحيث لا يطلع عليهم إلا الله ، ولا نعلم أحداً وازى خديجة والصديق -رضى الله عنهما- في ذلك .

(7/641)

---

ولما كانت الصلاة جامعة لخضوع الظاهر والباطن ، فكانت أشرف العبادات ، وكانت إقامتها بمعنى حفظ جميع حدودها في كل حال أدل الطاعات على الإخلاص ، قال معبراً

بالماضي لأن مواقيت الصلاة مضبوطة : ﴿ وأقاموا ﴾ أي دليلاً على خشيتهم ﴿ الصلاة ﴾ في أوقاتها الخمسة وما يتبع ذلك من السنن .

ولما كان التقدير : فمن كان على غير ذلك تدسى ، ومن كان على هذا فقد تزكى ، ومن تدسى فإنما يتدسى على نفسه ، عطف عليه قوله ، مشيراً بأداة التفعل إلى أن النفس أميل شيء إلى الدنس ، فلا تنقاد إلى أحسن تقويم إلا باجتهاد عظيم .

﴿ ومن تزكّى ﴾ أي تطهر وتكثر بهذه المحاسن .

ولما كان الإنسان ليفيده بالأسباب القريبة قد يغفل عن أن هذا نفع له وخاص به أكده فقال :

﴿ فإنما يتزكّى لنفسه ﴾ فإنه لا يضر ولا ينفع في الحقيقة غيرها ﴿ وإلى الله ﴾ الذي يكشف عن جميع صفاته أتم كشف تحتمله العقول يوم البعث لا إلى غيره ﴿ المصير ﴾ كما كان منه المبدأ فيجازي كلاًّ على فعله فينصف بينك وبين من خشي ربه بإنذارك ومن أعرض عن ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 213.216 ﴾

(8/641)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾

لما كثر الدعاء من النبي صلى الله عليه وسلم والإصرار من الكفار وقالوا إن الله لعله يحتاج إلى عبادتنا حتى يأمرنا بها أمراً بالغاً ويهددنا على تركها مبالغاً فقال تعالى : ﴿ أَنْتُمُ الفقراء إِلَى الله والله هُوَ الغني ﴾ فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم وإنما هو لإشفاقه عليكم ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

التعريف في الخبر قليل والأكثر أن يكون الخبر نكرة والمبتدأ معرفة وهو معقول وذلك لأن المخبر لا يخبر في الأكثر إلا بأمر لا يكون عند المخبر به علم أو في ظن المتكلم أن السامع لا علم له به ، ثم أن يكون معلوماً عند السامع حتى يقول له أيها السامع الأمر الذي تعرفه أنت فيه المعنى الفلاني كقول القائل زيد قائم أو قام أي زيد الذي تعرفه ثبت له قيام لا علم عندك به ، فإن كان الخبر معلوماً عند السامع والمبتدأ كذلك ويقع الخبر تنبيهاً لا تفهيماً يحسن تعريف الخبر غاية الحسن ، كقول القائل : الله ربنا ومحمد نبينا ، حيث عرف كون الله رباً ، وكون محمد نبياً ، وههنا لما كان كون الناس فقراء أمراً ظاهراً لا يخفى على أحد قال : ﴿ أَنْتُمُ الفقراء ﴾ .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ إلى الله ﴾ إعلام بأنه لا افتقار إلا إليه ولا اتكال إلا عليه وهذا يوجب عبادته

لكونه مفتقراً إليه وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار إلى غيره ، ثم قال : ﴿ والله هُوَ الغني ﴾ أي هو مع استغنائه يدعوكم كل الدعاء وأنتم من احتياجكم لا تجيبونه ولا تدعونه فيجيبكم .

المسألة الثالثة :

(9/641)

---

في قوله : ﴿ الحميد ﴾ لما زاد في الخبر الأول وهو قوله : ﴿ أَنتُمُ الفقراء ﴾ زيادة وهو قوله : ﴿ إِلَى الله ﴾ إشارة لوجوب حصر العبادة في عبادته زاد في وصفه بالغني زيادة وهو كونه حميداً إشارة إلى كونكم فقراء وفي مقابلته الله غني وفقركم إليه في مقابلة نعمه عليكم لكونه حميداً واجب الشكر ، فلستم أنتم فقراء والله مثلكم في الفقر بل هو غني على الإطلاق ولستم أنتم لما افتقرتم إليه ترككم غير مقضي الحاجات بل قضى في الدنيا حوائجكم ، وإن آمنتم يقضي في الآخرة حوائجكم فهو حميد .

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16)

بياناً لغناه وفيه بلاغة كاملة وبيانها أنه تعالى قال : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ أي ليس إذهابكم موقوفاً إلا على مشيئته بخلاف الشيء المحتاج إليه ، فإن المحتاج لا يقول فيه إن يشأ فلان

هدم داره وأعدم عقاره ، وإنما يقول لولا حاجة السكنى إلى الدار لبعتها أو لولا الافتقار إلى العقار لتركتها ، ثم إنه تعالى زاد بيان الاستغناء بقوله : ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ يعني إن كان يتوهم متوهم أن هذا الملك له كمال وعظمة فلو أذهبه لزال ملكه وعظمته فهو قادر بأن يخلق خلقاً جديداً أحسن من هذا وأجمل وأتم وأكمل .

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17)

(10/641)

---

أي الإذهاب والإتيان وههنا مسألة : وهي أن لفظ العزيز استعمله الله تعالى تارة في القائم بنفسه حيث قال في حق نفسه : ﴿ وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾ [ الأحزاب : 25 ] وقال في هذه السورة : ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [ فاطر : 28 ] واستعمله في القائم بغيره حيث قال : ﴿ وَمَا ذلك عَلَى الله بِعَزِيزٍ ﴾ وقال : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ [ التوبة : 128 ] فهل هما بمعنى واحد أم بمعنيين ؟ فنقول العزيز هو الغالب في اللغة يقال من عزيز أي من غلب سلب ، فالله عزيز أي غالب والفعل إذا كان لا يطيقه شخص يقال هو مغلوب بالنسبة إلى ذلك الفعل فقوله : ﴿ وَمَا ذلك عَلَى الله بِعَزِيزٍ ﴾ أي لا يغلب الله ذلك الفعل بل هو هين على الله وقوله : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي يحزنه ويؤذيه كالشغل الغالب .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ متعلق بما قبله ، وذلك من حيث إنه تعالى لما بين الحق بالدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة ذكر ما يدعوهم إلى النظر فيه فقال : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ أي لا تحمل نفس ذنب نفس فالنبي صلى الله عليه وسلم لو كان كاذباً في دعائه لكان مذنباً وهو معتقد بأن ذنبه لا تحملونه أنتم فهو يتوقى ويحترز ، والله تعالى غير فقير إلى عبادتكم فتفكروا واعلموا أنكم إن ضللتم فلا يحمل أحد عنكم وزركم وليس كما يقول : أكابركم ﴿ اتبعوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خطاياكم ﴾ [ العنكبوت : 12 ] وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(11/641)

---

قوله : ﴿ وازرة ﴾ أي نفس وازرة ولم يقل ولا تزر نفس وزر أخرى ولا جمع بين الموصوف والصفة فلم يقل ولا تزر نفس وازرة وزرة أخرى لفائدة أما الأول : فلأنه لو قال ولا تزر نفس وزر أخرى ، لما علم أن كل نفس وازرة مهمومة بهم وزرها متحيرة في أمرها ووجه آخر : وهو أن قول القائل ولا تزر نفس وزر أخرى ، قد يجتمع معها أن لا تزر وزراً أصلاً كالمعصوم

لا يزر وزر غيره ومع ذلك لا يزر وزرا رأساً فقوله: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴾ بين أنها تزر وزرها ولا تزر وزر الغير وأما ترك ذكر الموصوف فلظهور الصفة ولزومها للموصوف.

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ ﴾ إشارة إلى أن أحداً لا يحمل عن أحد شيئاً مبتدئاً ولا بعد السؤال، فإن المحتاج قد يصبر وتقضى حاجته من غير سؤاله، فإذا انتهى الافتقار إلى حد الكمال يحوجه إلى السؤال.

المسألة الثانية:

في قوله: ﴿ مُثْقَلَةٌ ﴾ زيادة بيان لما تقدم من حيث إنه قال أولاً: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ فيظن أن أحداً لا يحمل عن أحد لكون ذلك الواحد قادراً على حمله، كما أن القوي إذا أخذ بيده رمانة أو سفرجلة لا تحمل عنه، وأما إذا كان الحمل ثقيلاً قد يرحم الحامل فيحمل عنه فقال: ﴿ مُثْقَلَةٌ ﴾ يعني ليس عدم الوزر لعدم كونه محلاً للرحمة بالثقل بل لكون النفس مثقلة ولا يحمل منها شيء.

المسألة الثالثة:

زاد في ذلك بقوله : ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ أي المدعو لو كان ذا قربى لا يحمله وفي الأول كان يمكن أن يقال لا يحمله لعدم تعلقه به كالعدو الذي يرى عدوه تحت ثقل ، أو الأجنبي الذي يرى أجنبياً تحت حمل لا يحمل عنه فقال : ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ أي يحصل جميع المعاني الداعية إلى الحمل من كون النفس وازرة قوية تحتمل وكون الأخرى مثقلة لا يقال كونها قوية قادرة ليس عليها حمل وكونه سائلة داعية فإن السؤال مظنة الرحمة ، لو كان المسؤول قريباً فإذن لا يكون التخلف إلا لمانع وهو كون كل نفس تحت حمل ثقيل .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ إشارة إلى أن لا إرشاد فوق ما أتيت به ، ولم يفدهم ، فلا تنذر إنذاراً مفيداً إلا الذين تمتلىء قلوبهم خشية وتتحلى ظواهرهم بالعبادة كقوله : ﴿ الذين آمنواْ ﴾ إشارة إلى عمل القلب ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ إشارة إلى عمل الظواهر فقوله : ﴿ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ في ذلك المعنى ، ثم لما بين ﴿ أَن لا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ﴾ بين أن الحسنة تنفع المحسنين .

فقال : ﴿ وَمَن تزكى فَإِنَّمَا يتزكى لِنَفْسِهِ ﴾ أي فتزكيته لنفسه .

ثم قال تعالى : ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي المتزكي إن لم تظهر فائدته عاجلاً فالمصير إلى الله يظهر عنده في يوم اللقاء في دار البقاء ، والوازر إن لم تظهر تبعة وزره في الدنيا فهي تظهر في الآخرة إذ المصير إلى الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 12 . 15 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس أَنْتُمُ الفقرآء إِلَى الله ﴾

أي المحتاجون إليه في بقائكم وكل أحوالكم .

الزمخشرِيّ : "فإن قلت لِم عرّف الفقراء ؟ قلت : قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدّة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرِهم ؛ لأن الفقر مما يتبع الضعف ، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر ؛ وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف في قوله : ﴿ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً ﴾ ، وقال : ﴿ الله الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ﴾ [ الروم : 54 ] ولو نكّر لكان المعنى : أنتم بعض الفقراء .

فإن قلت : قد قوبل "الفقراء" ب"الغنيّ" فما فائدة "الحميد" ؟ قلت : لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم ، وليس كل غنيّ نافعاً بغناه إلا إذا كان الغنيّ جواداً منعماً ، وإذا جاد وأنعم حمده المنعَم عليهم واستحق عليهم الحمد ذكر "الحميد" ليدلّ به على أنه الغنيّ النافع بغناه خلقه ، الجواد المنعم عليهم ، المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه" .

وتخفيف الهمزة الثانية أجود الوجوه عند الخليل ، ويجوز تخفيف الأولى وحدها وتخفيفهما

وتحقيقهما جميعاً .

﴿ واللهُ هُوَ الغني الحميد ﴾ تكون "هو" زائدة ، فلا يكون لها موضع من الإعراب ، وتكون مبتدأة فيكون موضعها رفعاً .

قوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ فيه حذف ؛ المعنى إن يشأ أن يذهبكم يذهبكم ؛ أي يفنيكم .

﴿ ويَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي أطوع منكم وأزكى .

﴿ ومَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي ممتنع عسير متعذر .

وقد مضى هذا في "إبراهيم" .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (18)

(14/641)

---

تقدم الكلام فيه ، وهو مقطوع مما قبله .

والأصل "تَوْزَر" حذفت الواو اتباعاً ليزر .

﴿ وَازِرَةٌ ﴾ نعت لمحذوف، أي نفس وازرة.

وكذا ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا ﴾ قال الفرّاء: أي نفس مثقلة أو دابة.

قال: وهذا يقع للمذكر والمؤنث.

قال الأخفش: أي وإن تدع مثقلة إنساناً إلى حملها وهو ذنوبها.

والحملْ ما كان على الظهر، والحمَلْ حمل المرأة وحملة النخلة؛ حكاهما الكسائيّ بالفتح لا غير.

وحكى ابن السِّكيت أن حمل النخلة يفتح ويكسر.

﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ التقدير على قول الأخفش: ولو كان الإنسان المدعوّ ذا قربى.

وأجاز الفرّاء ولو كان ذو قربى.

وهذا جائز عند سيبويه، ومثله ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ [البقرة: 280] فتكون "كان" بمعنى وقع، أو يكون الخبر محذوفاً؛ أي وإن كان فيمن تطالبون ذو عسرة.

وحكى سيبويه: الناس مجزيون بأعمالهم إن خير فخير؛ على هذا.

وخيراً فخير؛ على الأوّل.

وروي عن عكرمة أنه قال: بلغني أن اليهودي والنصرانيّ يرى الرجل المسلم يوم القيامة فيقول له: ألم أكن قد أسديت إليك يداً؛ ألم أكن قد أحسنت إليك؟ فيقول بلى.

فيقول : انفعني ؛ فلا يزال المسلم يسأل الله تعالى حتى ينقص من عذابه .

وأن الرجل ليأتي إلى أبيه يوم القيامة فيقول : ألم أكن بك بارا ً، وعليك مشفقاً ، وإليك محسناً ، وأنت ترى ما أنا فيه ، فهب لي حسنة من حسناتك ، أو احمل عني سيئة ؛ فيقول : إن الذي سألتني يسير ؛ ولكني أخاف مثل ما تخاف .

وأن الأب ليقول لابنه مثل ذلك فيرد عليه نحواً من هذا .

وأن الرجل ليقول لزوجته : ألم أكن أحسن العِشرة لك ، فاحملي عني خطيئة لعلي أنجو ؛ فتقول : إن ذلك ليسير ولكني أخاف مما تخاف منه .

ثم تلا عكرمة : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ .

(15/641)

---

وقال الفُضيل بن عياض : هي المرأة تلقى ولدها فتقول : يا ولدي ، ألم يكن بطني لك وعاء ، ألم يكن ثديي لك سقاء ، ألم يكن حجري لك وطاء ؛ فيقول : بلى يا أماه ؛ فتقول : يا بنيّ ، قد أثقلتني ذنوبي فاحمل عني منها ذنباً واحداً ؛ فيقول : إليكِ عني يا أماه ، فإني بذنبي عنكِ مشغول .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب ﴾ أي إنما يقبل إنذارك من يخشى

عقاب الله تعالى .

وهو كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر وَخشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ [ ياس : 11 ] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن تزكى فَإِنَّمَا يتزكى لِنَفْسِهِ ﴾ أي من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه .

وقرىء : "ومن ازكّى فإنما يَزّكّى لنفسِهِ" .

﴿ وَإِلَى الله المصير ﴾ أي إليه مرجع جميع الخلق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(16/641)

---

وقال أبو السعود :

﴿ يا أيها الناس أَنتُمُ الفقراء إِلَى الله ﴾ في أنفسِكم وفيما يعنُّ لكم من أمرٍ مهمَ أو خطبٍ ملمَ . وتعريفُ الفقراءِ للمبالغةِ في فقرِهم كأنَّهم لكثرةِ افتقارِهم وشدَّةِ احتياجِهم هم الفقراءُ فحسب وأنَّ افتقارَ سائرِ الخلائقِ بالنسبةِ إلى فقرِهم بمنزلةِ العدمِ ولذلك قال تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً ﴾ ﴿ والله هُوَ الغنى الْحَمِيدُ ﴾ أي المستغنِي على الإطلاقِ المنعمُ على سائرِ الموجوداتِ المستوجبُ للحمدِ ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ليسُوا على صفتِكم بل مستمرُّون على الطَّاعةِ أو بعالمٍ آخرَ غيرِ ما تعرفونَه ﴿ وَمَا

ذلك ﴾ أي ما ذُكر من الإذهابِ بهم والإتيانِ بآخرينَ ﴿ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ﴾ بمتعذرٍ ولا متعسرٍ.

(17/641)

---

﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴾ أي لا تحملُ نفسٌ آثمةٌ ﴿ وِزْرَ أخرى ﴾ إثمَ نفسٍ أُخرى بل إنَّما تحملُ كلٌّ منهما وزرَها. وأمَّا ما في قولِه تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ من حملِ المضلِّين أثقالاً غيرَ أثقالِهم فهو حملُ أثقالِ إضلالِهم مع أثقالِ ضلالِهم وكلاهما أوزارُهم ليس فيها من أوزارِ غيرِهم شيء ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ ﴾ أي نفسٌ أثقلَها الأوزارُ ﴿ إلى حِمْلِهَا ﴾ لحملِ بعضِ أوزارِها ﴿ لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ لم تُجبْ بحملِ شيءٍ منه ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ أي المدعوُ المفهومُ من الدَّعوةِ ﴿ ذَا قربى ﴾ ذا قرابةٍ من الدَّاعي. وقُرِىء ذُو قُربى. وهذا نفيٌ للحملِ اختياراً والأوَّلُ نفيٌ له إجباراً ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ استئنافٌ مسوق لبيانِ من يتَّعظُ بما ذُكر أي إنَّما تنذر بهذه الإنذاراتِ ﴿ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغيب ﴾ أي يخشَونَه تعالى غائبينَ عن عذابِه أو عن النَّاسِ في خلواتِهم أو يخشَون عذابَه وهو غائبٌ عنهم ﴿ وَأَقَامُوا الصلاة ﴾ أي راعَوها كما ينبغي وجعلوها مَنَاراً منصوباً وعَلَماً مرفوعاً أي إنما ينفعُ إنذارُك وتحذيرُك هؤلاءِ من قومِك دُون مَن عداهُم من أهلِ التَّمردِ والعنادِ ﴿

وَمَن تزكى ﴾ أي تطهرَ من أوضار الأوزارِ والمعاصِي بالتَّأثرِ من هذهِ الإنذاراتِ ﴿ فَإِنَّمَا يتزكى لِنَفْسِهِ ﴾ لاقتصارِ نفعِه عليها كما أنَّ مَن تدنس بها لا يتدنَّس إلا عليها . وقُرِىء من ازكَّى فإنَّما يزكَّى ، وهو اعتراضٌ مقررٌ لخشيتهم وإقامتهم الصَّلاةَ لأَّنها من معظمِ مبادِي التزكِّي ﴿ وإلى الله المصير ﴾ لا إلى أحدٍ غيرِه استقلالاً أو اشتراكاً فيجازيهم على تزكِّيهم أحسنَ الجزاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(18/641)

---

وقال الآلوسى :

﴿ يا أيها الناس أَنتُمُ الفقراء إِلَى الله ﴾

في أنفسكم وفيما يعن لكم من أمر معهم أو خطب ملم ، وتعريف ﴿ الفقراء ﴾ للجنس أو للاستغراق إذ لا عهد ، وعرف كذلك للمبالغة في فقرهم كأنهم لكثرة افتقارهم وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب وأن افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم وذلك قال تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً ﴾ [ النساء : 28 ] ولا يرد الجن إذ هم لا يحتاجون في المطعم والملبس وغيرهما كما يحتاج الإنسان وضعفهم ليس كضعفه فلا حاجة إلى إدخالهم في الناس تغليباً على أنه قيل لا يضر ذلك إذ الكلام مع من يظهر القوة والعناد من

الناس ، والقول أن القصر إضافي بالنسبة إليه تعالى لا يخفى ما فيه ، وقال صاحب الفرائد : الوجه أن يقال والله تعالى أعلم المراد الناس وغيرهم وهو على طريقة تغليب الحاضر على الغائب وأولى العلم على غيرهم ، وهو بعيد جداً .

وقال العلامة الطيبي : الذي يقتضيه النظم الجليل أن يحمل التعريف في الناس على العهد وفي الفقراء على الجنس لأن المخاطبين هم الذين خوطبوا في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الملك ﴾ [ فاطر : 13 ] الآية أي ذلكم المعبود هو الذي وصف بصفات الجلال لا الذين تدعون من دونه وأنتم أشد الخلائق احتياجا إليه عز وجل ولا يخلو عن حسن ﴿ واللهُ هُوَ الغنى ﴾ عن كل شيء لا غيره ﴿ الحميد ﴾ المنعم على جميع الموجودات المستحق بانعامه سبحانه للحمد ، وأصله المحمود وأريد به ذلك على طريق الكناية ليناسب ذكره بعد فقرهم إذ الغني لا ينفع الفقير إلا إذا كان جواداً منعماً ومثله مستحق للحمد ، وهذا كالتكميل لما قبله كما في قول كعب الغنوي :

حليم إذا ما الحلم زين أهله . . .

مع الحلم في عين العدو مهيب

ويدخل في عموم المستغنى عنه المخاطبون وعبادتهم ، وفي كلام الطيبي رائحة التخصيص حيث قال ما سمعت نقله وهو سبحانه غني عنكم وعن عبادتكم لأنه تعالى حميد له عباد يحمدونه وإن لم تحمدوه أنتم والأولى التعميم .

وما روي في سبب النزول من أنه لما كثر من النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء وكثر الاصرار من الكفار قالوا لعل الله تعالى محتاج لعبادتنا فنزلت لا يقتضي شيئاً من التخصيص في الآية كما لا يخفى .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ أي إن يشأ سبحانه إذهابكم أيها الناس والاتيان بخلق جديد يذهبكم ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ بعالم غير الناس لا تعرفونه هذا إذا كان الخطاب عاما أو إن يشأ يذهبكم أيها المشركون أو العرب ويأت بخلق جديد ليسوا على صفتكم بل مستمرون على طاعته وتوحيده ، وهذا إذا كان الخطاب خاصاً ، وتفسير الجديد بما سمعت مروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وياً ما كان فالجلمة تقرير لاستغنائه عز وجل .

﴿ وَمَا ذلك ﴾ أي ما ذكر من إهابهم والاتبيان بخلق جديد ﴿ عَلَى الله بِعَزِيزٍ ﴾ أي يصعب فإن أمره تعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

وإن كان في الناس تغليب الحاضر على الغائب وأولى العلم على غيرهم وكان الخطاب هنا على ذلك الطرز وقلنا إن الآية تشعر بأن ما يأتي به سبحانه من العالم أبدع أشكل بحسب

الظاهر قول حجة الإسلام ليس في الإمكان أبدع مما كان .

وأجيب بأن ذلك على فرض وقوعه داخل في حيز ما كان وهو مع هذا العالم كبعض أجزاء هذا العالم مع بعض أو بأن الأبدعية المشعور بها بمعنى والأبدعية في كلام حجة الإسلام بمعنى آخر فتدبر .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴾ أي لا تحمل نفس آثمة ﴿ وِزْرَ أُخرى ﴾ أي اثم نفس أخرى بل تحمل كل نفس وزرها .

(20/641)

---

ولا منافاة بين هذا وقوله تعالى في سورة العنكبوت ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [ العنكبوت : 13 ] فإنه في الضالين المضلين وهم يحملون اثم اضلالهم مع اثم ضلالهم وكل ذلك آثامهم ليس فيها شيء من آثام غيرهم ، ولا ينافيه قوله سبحانه ﴿ مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ لأن المراد بأثقالهم ما كان بمباشرتهم وبما معها ما كان بسوقهم وتسببهم فهو للمضلين من وجه وللآخرين من آخر ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ ﴾ أي نفس أثقلتها الاوزار ﴿ إلى حِمْلِهَا ﴾ لالذي أثقلها ووزرها الذي بهضها ليحمل شيء منه ويخفف عنها ، وقيل : أي إلى حمل حملها ﴿ لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ ﴾ لم تجب بحمل شيء منه ، والظاهر أن ﴿ وَلَا تَزِرُ ﴾ الخ

نفى للحمل الاختياري تكرماً من نفس الحامل رداً لقول المضلين ﴿ وَلْنَحْمِلْ خطاياكم ﴾ [ العنكبوت : 12 ] ويؤيده سبب النزول فقد روي أن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين اكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وعلى وزركم فنزلت .

(21/641)

---

وهذا نفى للحمل بعد الطلب من الوازرة أعم من أن يكون اختيارا ًأو جبراً وإذا لم يجبر أحد على الحمل بعد الطلب والاستعانة علم عدم الجبر بدونه بالطريق الأولى فيعم النفي أقسام الحمل كلها ، وكذا الحامل أعم من أن يكون وازرا ًأم لا ، وجاء العموم من عدم ذكر المدعو ظاهراً ، وقد يقال مع ذلك : إن في الأولى نفي حمل جميع الوزر بحيث يتعرى منه المحمول عنه ، وفي الثاني نفي التخفيف فلا اتحاد بين مضموني الجملتين كما لا يخفى ، وقيل في الفرق بينهما : إن أول نفي الحمل إجباراً والثاني نفي له اختياراً ، وتعقب بأن المناسب على هذا ولا يوزر على وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها أحداً لا يحمل منه شيئاً ، وأيضاً حق نفي الاجبار أن يتعرض له بعد نفي الاختيار ، وقيل : أن الجملة الأولى كما دلت على أن المثقل بالذنوب لا يحمل أحد من ذنوبه شيئاً دلت على عدله تعالى الكامل ، والجملة الثانية دلت على أنه لا مستغاث من هول ذلك اليوم أيضاً وهما المقصودان من الآيتين فالفرق

باعتبار ذلك ، ولعل ما ذكرناه أولا أولى ، وذكر بعض الأفاضل في الجملة الأولى ثلاثة أسئلة قال في الأخيرين منها : لم أر من تفطن لهما وقد أجاب عن كل ، الأول أن عدم حمل الغير على الغير عام في النفس الآثمة وغير الآثمة فلم خص بالآثمة مع أن التصريح بالعموم أتم في العدل وأبلغ في البشارة وأخصر في اللفظ وذلك بأن يقال : ولا تحمل نفس حمل أخرى ، وجوابه أن الكلام في أرباب الأوزار المعذبين لبيان أن عذابهم إنما هو بما اقترفوه من الأوزار لا بما اقترفه غيرهم ، الثاني أن معنى وزر حمل الوزر لا مطلق الحلم على ما في النهاية الأثيرية حيث قال : يقال وزر يزر فهو وازر إذا حمل ما يثقل ظهره من الأشياء المثقلة ومن الذنوب فكيف صح ذكر وزر مع يزر وجوابه أنه من باب التجريد ، الثالث أن ﴿ وازرة ﴾ يفهم من تزر كما يفهم ضارب من يضرب مثلا فأي فائدة في ذكره ؟ وجوابه أنه إذا قيل ضرب ضارب

(22/641)

---

زيداً فالذي يستفاد من ضرب إنما هو ذات قام بها ضرب حدث من تعلق هذا الفعل بتلك الذات ولما عبر عن شيء بما فيه معنى الوصفية وعلق به معنى مصدري في صيغة فعل أو غيرها فهم منه في عرف اللغة أن ذلك الشيء موصوف بتلك الصفة حال تعلق ذلك المعنى

به لا بسببه كما حققه بعض أجلة شراح الكشاف فيجب أن يكون معنى ضارب في المثال متصفاً بضرب سابق على تعلق ضرب به وكذا يقال في ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴾ وهذه فائدة جليلة ويزيدها جلالة استفادة العموم إذا أورد اسم الفاعل نكرة في حيز نفي ، وبذلك يسقط قول العلامة التفتازاني إن ذكر فاعل الفعل بلفظ اسم فاعله نكرة قليل الجدوى جداً انتهى .

وأنت تعلم أنه من مجموع الجملتين يستفاد ما ذكره في السؤال الأول من العموم ، وفي خصوص هاتين الجملتين وذكرهما معاً ما لا يخفى من الفائدة ، وفي القاموس وزره كوعده وزرا بالكسر حمله ، وفي الكشاف وزر الشيء إذا حمله ، ونحوه في البحر ، وعلى ذلك لا حاجة إلى التجريد فلا تغفل ، وأصل الحمل ما كان على الظهر من ثقيل فاستعير للمعاني من الذنوب والآثام ، وقرأ أبو السمال عن طلحة .

وإبراهيم عن الكسائي ﴿ لَا تَحْمِلُ ﴾ بفتح التاء المثناة من فوق وكسر الميم وتقتضي هذه القراءة نصب شيء على أنه مفعول به لتحمل وفاعله ضمير عائد على مفعول تدعو المحذوف أي وإن تدع مثقلة نفساً إلى حملها لم تحمل منه شيئاً ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ أي المدعو المفهوم من الدعوة ﴿ ذَا قربى ﴾ ذا قرابة من الداعي ، وقال ابن عطية : اسم كان ضمير الداعي أي ولو كان الداعي ذا قرابة من المدعو ، والأول أحسن لأن الداعي هو المثقلة بعينه فيكون الظاهر عود الضمير عليه وتأنيثه .

وقول أبي حيان ذكر الضمير حملا على المعنى لأن قوله تعالى : ﴿ مُثْقَلَةٌ ﴾ لا يراد بها مؤنث المعنى فقط بل كل شخص فكأنه قيل وإن يدع شخص مثقل لا يخفى ما فيه .

(23/641)

---

وقرىء ولو كان ﴿ ذُو قربى ﴾ بالرفع ، وخرج على أن ﴿ كَانَ ﴾ ناقصة أيضاً و ﴿ ذُو قربى ﴾ اسمها والخبر محذوف أي ولو كان ذو قربى مدعوا ، وجوز أن تكون تامة . وتعقب بأنه لا يلتئم معها النظم الجليل لأن الجملة الشرطية كالتتميم والمبالغة في أن لا غياث أصلا فيقتضي أن يكون المعنى أن المثقلة إن دعت أحداً إلى حملها لا يجيبها إلى ما دعته إليه ولو كان ذو القربى مدعوا ، ولو قلنا إن المثقلة إن دعت أحداً إلى حلمها لا يحمل مدعوها شيئاً ولو حضر ذو قربى لم يحسن ذلك الحسن ، وملاحظة كون ذي القربى مدعوا بقرينة السياق أو تقدير فدعته كما فعل أبو حيان خلاف الظاهر فيخفى عليه أمر الانتظام ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ الخ استئناف مسوق لبيان من يتعظ بما ذكر أي إنما تنذر بهذه الإنذارات ونحوها ﴿ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغيب ﴾ أي يخشونه تعالى غائبين عن عذابه سبحانه أو عن الناس في خلواتهم أو يخشون عذاب ربهم غائباً عنهم فالجار والمجرور في موضع الحال من الفاعل أو من المفعول ﴿ والذين يُمَسّكُونَ ﴾ أي راعوها كما ينبغي وجعلوها مناراً

منصوباً وعلماف مرفوعاً أي إنما ينفع إنذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون من عداهم من أهل التمرد والعناد ، ونكتة اختلاف الفعلين تعلم مما مر في قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذى أَرْسَلَ الرياح فَتُثِيرُ سحابا ﴾ [ فاطر : 9 ] فتذكر ما في العهد من قدم .

﴿ وَمَن تزكى ﴾ تطهر من أدناس الأوزار والمعاصي بالتأثر من هذا الإنذارات ﴿ فَإِنَّمَا يتزكى لِنَفْسِهِ ﴾ لاقتصار نفعه عليها كما أن من تدنس بها لا يتدنس إلا عليها ، والتزكي شامل للخشية وإقامة الصلاة فهذا تقرير وحث عليهما .

وقرأ العباس عن أبي عمرو ﴿ وَمن يزكى فَإِنَّمَا يزكى ﴾ بالياء من تحت وشد الزاي فيهما وهما مضارعان أصلهما ومن يتزكى فإنما يتزكى فادغمت التاء في الزاي كما أدغمت في ﴿ يذكرون ﴾ ، وقرى ابن مسعود .

(24/641)

---

وطلحة ﴿ وَمن أزكى ﴾ بادغام التاء في الزاي واجتلاب همزة الوصل في الابتداء ، وطلحة أيضاً ﴿ فَإِنَّمَا تزكى ﴾ بادغام التاء في الزاي ﴿ وإلى الله المصير ﴾ لا إلى أحد غيره استقلالاً أو اشتراكاً فيجازيهم على تزكيهم أحسن الجزاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

وقال صاحب روح البيان :

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾

الفقراء جمع فقير كالفقائر جمع فقيرة والفقير المكسور الفقار والفقر ذكره في "تاج المصادر" في باب ضرب وجعله في "القاموس" من حد كرم .

وقال الراغب في "المفردات" : يقال افتقر فهو مفتقر وفقير ولا يكاد يقال فقر وإن كان القياس يقتضيه انتهى .

وفهم من هذا أن الفقير صيغة مبالغة كالمفتقر بمعنى ذي الاحتياج الكثير والشديد والفقر وجود الحاجة الضرورية وفقد ما يحتاج إليه وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم فإنهم لكثرة افتقارهم وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب وأن افتقار سائر الأخلاق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم .

والمعنى يا أيها الناس أنتم المحتاجون إلى الله تعالى بالاحتياج الكثير الشديد في أنفسكم وفيما يعرض لكم من أمر مهم أو خطب ملم فإن كل حادث مفتقر إلى خالقه ليبديه وينشئه أولاً ويديمه ويبقيه ثانياً ثم الإنسان محتاج إلى الرزق ونحوه من المنافع في الدنيا مع دفع المكاره

والعوارض وإلى المغفرة ونحوها في العقبى فهو محتاج في ذاته وصفاته وأفعاله إلى كرم الله وفضله .

قال بعض الكبار : إن الله تعالى ما شرّف شيئاً من المخلوقات بتشريف خطاب أنتم الفقراء إلى الله حتى الملائكة المقربين سوى الإنسان وذلك أن افتقار المخلوقات إلى أفعال الله تعالى من حيث الخلق ونحوه وافتقار الإنسان إلى ذات الله وصفاته فجميع المخلوقات وإن كانت محتاجة إلى الله تعالى لكن الاحتياج الحقيقي إلى ذات الله وصفاته مختص بالإنسان من بينها كمثل سلطان له رعية وهو صاحب جمال فيكون افتقار جميع رعاياه إلى خزائنه وممالكه ويكون افتقار عشاقه إلى عين ذاته وصفاته فيكون غنى كل مفتقر بما يفتقر إليه فغنى الرعية يكون بالمال والملك وغنى العاشق يكون بمعشوقه .

(26/641)

---

ومن الكمالات الإنسانية الاحتياج إلى الاسم الأعظم من جميع وجوه الأسماء الإلهية بحسب مظهريته الكاملة وأما غيره من الموجودات فاحتياجهم إنما هو بقدر استعدادهم فهو احتياج بوجه دون وجه ولذا ورد "الفقر فخري وبه افتخر" وهذا صحيح بمعناه وإن اختلف في لفظه كما قال عليه السلام : "اللهم أغنني بالافتقار إليك ولا تفقرني بالاستغناء

عنك" .

قال في "كشف الأسرار" (صحابه را فقرا نام نهاد) حيث قال : ﴿لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ (الحشر : 8) وقال : ﴿لِلْفُقَرَآءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (البقرة : 273)

(27/641)

---

﴿وَاللَّهُ هُوَ﴾ وحده ﴿الْغَنِىُّ﴾ المستغني على الإطلاق فكل أحد يحتاج إليه لأن أحداً لا يقدر أن يصلح أمره إلا بالأعوان لأن الأمير ما لم يكن له خدم وأعوان لا يقدر على الأمارة وكذا التاجر يحتاج إلى المكارين والله الغنيّ عن الأعوان وغيرها .

وفي "الأسئلة المقحمة" معناه الغنيّ عن خلقه فلو لم يخلقهم لجاز ولو أدام حياتهم لابتلاهم كلفهم أو لم يكلفهم فالكل عنده بمثابة واحدة لأنه غني عنهم خلافاً للمعتزلة حيث قالوا : لو لم يكلفهم معرفته وشكره لم يكن حكيماً وهذا غاية الخزي ويفضي إلى القول بأن خلقهم لنفع أو دفع وهو قول المجوس بعينه حيث زعموا وقالوا : خلق الله الملائكة ليدفع بهم عن نفسه أذى الشيطان انتهى ﴿الْحَمِيدُ﴾ المنعم على جميع الموجودات حتى استحق عليهم الحمد على نعمته العامة وفضله الشامل فالله الغنيّ المغني .

(28/641)

﴿ إِن يَشَأْ ﴾ أي : الله تعالى ﴿ يُذْهِبْكُمْ ﴾ عن وجه الأرض ويعدمكم كما قدر على إيجادكم وبقائكم ﴿ وَيَأْتِ ﴾ ﴿ بِخَلْقٍ ﴾ مخلوق ﴿ جَدِيدٍ ﴾ مكانكم وبدلكم ليسوا على صفتكم بل مستمرون على الطاعة فيكون الخلق الجديد من جنسهم وهو الآدمي أو يأتي بعالم آخر غير ما تعرفونه فيكون من غير جنسهم وعلى كلا التقديرين فيه إظهار الغضب للناس الناسين وتخويف لهم على سرفهم ومعاصيهم وفيه إيضاً من طريق الإشارة تهديد لمدعي محبته وطلبه أي : إن لم تطلبوه حق الطلب يفنكم ويأت بخلق جديد في المحبة والطلب .

﴿ وَمَا ذَلِكَ ﴾ أي : ما ذكر من الإذهاب بهم والإتيان بآخرين ﴿ عَلَى اللَّهِ ﴾ متعلق بقوله : ﴿ بِعَزِيزٍ ﴾ بمعتذر ولا صعب ومتعسر بل هو هين عليه يسير لشمول قدرته على كل مقدور ولذلك يقدر على الشيء وضده فإذا قال لشيء كن كان من غير توقف ولا امتناع وقد أهلك القرون الماضية واستخلف الآخرين إلى أن جاء نوبة قريش فناداهم بقوله يا أيها الناس وبين أنهم محتاجون إليه احتياجاً كلياً وهو غني عنهم وعن عبادتهم ومع ذلك دعاهم إلى ما فيه سعادتهم وفوزهم وهو الإيمان والطاعة وهم مع احتياجهم لا يجيبونه فاستحقوا الهلاك ولم يبق إلا المشيئة ثم إنه تعالى شاء هلاكهم لإصرارهم فهلك بعضهم في بدر وبعضهم في غيره من المعارك وخلق مكانهم من يطيعونه تعالى فيما أمرهم به ونهاهم عنه ويستحقون

بذلك فضله ورحمته واستمر الإفناء والإيجاد إلى يومنا هذا لكن لا على الاستعجال بل على الإمهال فإنه تعالى صبور لا يؤاخذ العصاة على العجلة ويؤخر العقوبة ليرجع التائب ويقلع المصر .

ففي الآية وعظ وزجر لجميع الأصناف من الملوك ومن دونهم فمن أهمل أمر الجهاد لم يجد المهرب من بطش رب العباد ومن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد جعل نفسه عرضة للهلاك والخطر وعلى هذا فقس .

(29/641)

---

فينبغي للعاقل المكلف أن يعبد الله ويخافه ولا يجترىء على ما يخالف رضاه ولا يكون أسوأ من الجمادات مع أن الإنسان أشرف المخلوقات .

قال جعفر الطيار رضي الله عنه : كنت مع النبي عليه السلام وكان حذاءنا جبل فقال عليه السلام : "بلّغ منّي السلام إلى هذا الجبل وقل له يسقيك إن كان فيه ماء" قال : فذهبت إليه وقلت : السلام عليك أيها الجبل فقال الجبل بنطق : لبيك يا رسول رسول الله فعرضت القصة فقال : بلّغ سلامي إلى رسول الله وقل له منذ سمعت قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى

وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: 24] بكيت لخوف أن أكون من الحجارة التي هي وقود النار بحيث لم يبق فيّ ماء.

(30/641)

---

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾

يقال وزر يزر من الثاني وزراً بالفتح والكسر ووزر يوزر من الرابع حمل.

والوزر الإثم والثقل والوازرة صفة للنفس المحذوفة وكذا أخرى والمعنى لا تحمل نفس آثمة يوم القيامة إثم نفس أخرى بحيث تتعرى منه المحمول عنها بل إنما تحمل كل منهما وزرها الذي اكتسبته بخلاف الحال في الدنيا فإن الجبابرة يأخذون الولي بالولي والجار بالجار وأما في قوله تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: 13] من حمل المضلين أثقالهم وأثقالاً غير أثقالهم فهو حمل أثقال ضلالهم مع أثقال إضلالهم وكلاهما أوزارهم ليس فيها شيء من أوزار غيرهم ألا يرى كيف كذبهم في قولهم: ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ [العنكبوت: 12] بقوله: ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [العنكبوت: 12] ومنه يعلم وجه تحميل معاصي المظلومين يوم القيامة على الظالمين فإن المحمول في الحقيقة جزاء الظلم وإن كان يحصل في الظاهر تخفيف حمل المظلوم ولا يجري إلا

في الذنب المتعدي كما ذكرناه في أواخر الأنعام.

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى في خلق كل واحد من الخلق سراً مخصوصاً به وله مع كل واحد شأن آخر فكل مطالب بما حمل كما أن كل بذر ينبت بنبات قد أودع فيه ولا يطالب بنبات بذر آخر لأنه لا يحمل إلا ما حمل عليه كما في "التأويلات النجمية"،

﴿وَإِن تَدْعُ﴾ صيغة غائبة أي: ولو دعت، وبالفارسية: (واكر بخواند) ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفس أثقلتها الأوزار والمفعول محذوف أي: أحداً.

قال الراغب: الثقل والخفة متقابلان وكل ما يترجح عما يوزن به أو يقدّر به يقال هو ثقيل وأصله في الأجسام ثم يقال في المعاني أثقله الغرم والوزر انتهى.

(31/641)

---

فالثقل الإثم سمي به لأنه يثقل صاحبه يوم القيامة ويثبطه عن الثواب في الدنيا ﴿إِلَى حِمْلِهَا﴾ الذي عليها من الذنوب ليحمل بعضها.

قيل في الأثقال المحمولة في الظاهر كالشيء المحمول على الظهر حمل بالكسر وفي الأثقال المحمولة في الباطن كالولد في البطن حمل بالفتح كما في "المفردات" ﴿لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾ لم تجب لحمل شيء منه ﴿وَلَوْ﴾ للوصل ﴿كَانَ﴾ أي: المدعو المفهوم من الدعوة وترك

ذكره ليشمل كل مدعو ﴿ ذَا قُرْبَى ﴾ ذا قرابة من الداعي كالأب والأم والولد والأخ ونحو ذلك إذ لكل واحد منهم يومئذٍ شأن يغنيه وحمل يعجزه .

ففي هذا دليل أنه تعالى لا يؤاخذ بالذنب إلا جانيه وأن الاستغاثة بالأقربين غير نافعة لغير المتقين عن ابن عباس رضي الله عنهما يلقى الأب والأم ابنه فيقول يا بني احمل عني بعض ذنوبي فيقول : لا أستطيع حسبي ما عليّ وكذا يتعلق الرجل بزوجته فيقول لها : إني كنت لك زوجاً في الدنيا

فيثني عليها خيراً فيقول قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترين فتقول ما أيسر ما طلبت ولكن لا أطيق إني أخاف مثل ما تخوفت

(32/641)

---

قال في "الإرشاد" : هذه الآية نفي للتحمل اختياراً والأولى نفي له إجباراً .

والإشارة أن الطاعة نور والعصيان ظلمة فإذا اتصف جوهر الإنسان بصفة النور أو بصفة الظلمة لا تنقل تلك الصفة من جوهره إلى جوهر إنسان آخر أياً ما كان ألا ترى أن كل أحد عند الصراط يمشي في نوره لا يتجاوز منه إلى غيره شيء وكذا من غيره إليه ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ يا محمد بهذه الإنذارات .

والإنذار الإبلاغ مع التخويف ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ يخافون ﴿رَبَّهُمْ﴾ حال كونهم ﴿بِالْغَيْبِ﴾ غائبين عن عذابه وأحكام الآخرة أو عن الناس في خلواتهم يعني : (در خلوتها أثر خشيت برايشان ظاهرت نه در صحبتها ) فهو حال من الفاعل أو حال كون ذلك العذاب غائباً عنهم فهو حال من المفعول ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي : راعوها كما ينبغي وجعلوها مناراً منصوباً وعلماً مرفوعاً .

قال في "كشف الأسرار" وغاير بين اللفظين لأن أوقات الخشية دائمة وأوقات الصلاة معينة منقضية .

والمعنى إنما ينفع إنذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون من عداهم من أهل التمرد والفساد وإن كنت نذيراً للخلق كلهم وخص الخشية والصلاة بالذكر لأنهما أصلا الأعمال الحسنة الظاهرية والباطنية .

أما الصلاة فإنها عماد الدين .

(33/641)

---

وأما الخشية فإنها شعار اليقين وإنما يخشى المرء بقدر علمه بالله كما قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالانْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ (فاطر : 28) فقلب لم يكن عالماً خاشياً يكون

ميتاً لا يؤثر فيه الإنذار كما قال تعالى : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ (يس : 70) ومع هذا جعل تأثير الإنذار مشروطاً بشرط آخر وهو إقامة الصلاة وامارة خشية قلبه بالغيب محافظة الصلاة في الشهادة وفي الحديث "إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة" ﴿ وَمَن تَزَكَّى ﴾ تطهر من أوضار الأوزار والمعاصي بالتأثر من هذه الإنذارات وأصلح حاله بفعل الطاعات ﴿ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ﴾ لاقتصار نفعه عليها كما أن من تدنس بها لا يتدنس إلا عليها ويقال : من يعطي الزكاة فإنما ثوابه لنفسه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي : الرجوع لا إلى غيره استقلالاً واشتراكاً فيجازيهم على تزكيهم أحسن الجزاء .

واعلم أن ثواب التزكي عن المعاصي هو الجنة ودرجاتها وثواب التزكي عن التعلق بما سوى الله تعالى هو جماله تعالى كما أشار إليه بقوله : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ فمن رجع إلى الله بالاختيار لم يبق له بما دونه قرار ،

والأصل هو العناية .

وعن إبراهيم المهلب السائح رضي الله عنه قال : بينا أنا أطوف وإذا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول بحبك لي ألا رددت عليّ قلبي فقلت : يا جارية من أين تعلمين أنه يحبك قالت بالعناية القديمة جيش في طلبي الجيوش وأنفق الأموال حتى أخرجني من بلاد الشرك وأدخلني في التوحيد وعرفني نفسي بعد جهلي إياها فهل هذا يا إبراهيم إلا لعناية أو محبة ؟

قلت : وكيف حبك له ؟ قالت : أعظم شيء وأجله قلت : وكيف هو ؟ قالت : هو أرق من الشراب وأحلى من الجلاب .

(34/641)

---

وإنما تتولد معرفة الله من معرفة النفس بعد تزكيتها كما أشار إليه : "من عرف نفسه فقد عرف ربه" ففي هذا أن الولد يكون أعظم في القدر من الوالد فافهم رحمك الله وإياي بعنايته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 7 صـ 392.397 ﴾

(35/641)

---

وقال ابن عجيبة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراءُ إِلى الله ﴾ في دقائق الأمور وجليلها ، في كل لحظة لا يستغني أحد عنه طرفة عين ، ولا أقل من ذلك ؛ إذ لا قيام للعبد إلا به ، فهو مفتقر إلى الله ، إيجاداً وإمداداً . قال البيضاوي : وتعريف الفقراء ؛ للمبالغة في فقرهم ،

كأنهم لشدة افتقارهم، وكثرة احتياجهم، هم الفقراء دون غيرهم، وأن افتقار سائر الخلق بالإضافة إلى فقرهم غير مُعتد به، ولذلك قال: ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ [النساء: 28] قلت: ويمكن أن يكون الحصر باعتبار الحق تعالى، أي: أنتم فقراء دون خالقكم، بدليل وصله بقوله: ﴿ والله هو الغنيُّ الحميدُ ﴾.

وقال ذو النون رضي الله عنه: الخلقُ محتاجون إليه في كل نَفَسٍ، وطرفة، ولحظة، وكيف لا ووجودهم به، وبقاؤهم به؟ ﴿ والله هو الغنيُّ ﴾ عن الأشياء كلها، ﴿ الحميدُ ﴾ أي: المحمود بكل لسان. ولم يَسمِّهم بالفقر للتحقير، بل للتعظيم؛ لأن العبد إذا أظهر فقره لسيده الغني؛ أغناه عن أشكاله وأمثاله. وذكر «الحيمد» ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خَلْقه، والجواد المنعم عليهم؛ إذ ليس كل غنيّ نافعاً بغناه، إلا إذا كان الغنيُّ جواداً منعماً، وإذا جاد وأنعم، حمده المُنعَم عليهم.



---

ولَمَّا ذكر افتقارم إلى نعمة الإيجاد، ذكر افتقارهم إلى نعمة الإمداد، بقوله: ﴿ إن يشأ يُذهبكم ﴾ أي: إن يشأ يُفنيكم كلكم، ويردكم إلى العدم؛ فإنَّ غناه بذاته، لا بكم، ﴿ ويأتِ بخلقٍ جديدٍ ﴾ يكون أطوع منكم، أو بعالَم آخر غير ما تعرفون. ﴿ وما ذلك ﴾

أي : الإفناء والإنشاء ﴿ على الله بعزيز ﴾ بممتنع . وعن ابن عباس : يخلق بعدكم مَن يعبده ، لا يشرك به شيئاً . قال القشيري : فقر الخِلْقَة عام لكلّ أحدٍ ، في أول حال وجوده ؛ ليُبديه ويُنْشيه ، وفي ثاني حال بقائه ؛ ليُديمَه ويُبقيَه . انتهى انتهى . ا هـ قلت : وإليه أشار في الحِكَم بقوله : « نعمتان ما خلا موجود عنهما ، ولا بد لكل موجود منهما : نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، أنعم أولاً بالإيجاد ، وثانياً بتوالي الإمداد » .

الإشارة : الفقر على أربعة أقسام : فقر من الدين ، وفقر من اليقين ، وفقر من المال ، وفقر مما سوى الله . فالأولان مذمومان ، وصاحبهما موسوم بالإفلاس والهلع ، ومنهما وقع التعوُّذ في الحديث . والثالث : إن صحبه الرضا فممدوح ، وفيه وردت الأحاديث النبوية ، وإلاَّ فمذموم ، ويشمله التعوُّذ في الحديث . الرابع : هو مطلب القاصدين والعارفين ، وهو الغيبة عما سوى الله ، والغنى بالله ، كما قال الشيخ أبو الحسن : « أسألك الفقر عما سواك ، والغنى بك ، حتى لا نشهد إلا إياك » وهو ينشأ عن التحقُّق بالفقر ظاهراً وباطناً ؛ لأن الفقر من وصف العبد ، والغنى من وصف الرب ، فمَن تحقق بوصفه أمدّه الله بوصفه ، « تحقق بوصفك يُمدك بوصفه ، تحقق بفقرك يمدك بغناه ، تحقق بذلك يمدك بعزه » .

وقال القشيري : بعد كلام : والفقراءُ على أقسام : فقير إلى الله ، وفقير إلى شيء هو من الله ؛ معلومٍ ومرسوم . ومَن افتقر إلى شيءٍ استغنى بوجود ذلك الشيء ، فالفقير إلى الله هو الغني بالله ، فالافتقار إلى الله لا يخلو من الاستغناء بالله . فالفقير إليه مُسْتَغْنٍ به ، والمستغنى به فقيرٌ إليه . ومن شرف الفقر اقترانه بالتواضع والخشوع ، ومن آفات الغنى امتزاجُه بالتكبُّر . وشَرَفُ العبد وعزه في فقره ، وذُلُّه وصغاره في توهمه الغنى ، وأنشدوا :

وإذا تذلّلَت الرقابُ تَقَرُّباً . . . منّا إليكَ فعِزُّها في ذُلِّها

ومن شرط الفقير : ألا يملك شيئاً ، ولا يملكه شيء . ومن آداب الفقير الصادق : إظهارُ التكثُّر عند وجود التقتُّر ، والشكر على البلوى ، والبُعد عن الشكوى . ويقال : الفقر المحمود : العيش مع الله براحة الفراغ على سَرْمَدِ الوقت ، من غير استكراه شيء منه بكلّ وجْهٍ . انتهى انتهى . ا هـ ملخصاً .

قال الورتجبي : فطرة الإنسانية وقعت من الغيب مضطربة متحركة إلى الأزل ، بنعت الافتقار إليه ، كانجذاب الحديد إلى المغناطيس ؛ لأنها وقعت بنعت العشق ، والعاشق مفتقر إلى معشوقه ، انفعالاً ، فمَن عرفه بالأزلية والأبدية يفتقر إليه افتقاراً قطعيًّا ؛ لأن بقاءه لا يكون إلا به . وإذا كان كذلك صار غنيًّا بالله ، متصفاً بغناه ، غنيًّا به عن غيره ، مفتقراً إليه . فإذا كان في محل الصحو يكون مفتقراً إليه ، وإذا كان في محل السكر بقي في رؤية غناه عنه ، فصار محجوباً عنه ، ولا يدري . أ هـ

وقال سهل رضي الله عنه : لَمَّا خلق الله الخلقَ حَكَمَ لنفسه بالغِنى ، ولهم بالفقر ، فمَن ادّعى الغِنى ، حُجب عن الله ، ومَن أظهر فقره أوصله فَقْرُه إليه . فينبغي للعبد أن يكون مفتقراً بالسرّ إليه ، ومنقطعاً عن الغير إليه ، حتى يكون عبوديّته لله محضة ، فالعبودية هي الذل والخضوع . أهـ

(38/641)

---

وقال الواسطي : مَن استغنى بالله لا يفتقر ، ومَن يتعزّز بالله لا يَذل . وقال يحيى بن معاذ : الفقرُ خير للعبد من الغِنى ؛ لأن الذلة في الفقر ، والكبر في الغِنى ، والرجوع إلى الله بالتواضع والذلة خير من الرجوع إليه بكثرة الأعمال . وقيل : صفة الأولياء ثلاثة : الثقة بالله في كل شيء ، والفقر إليه في كل شيء ، والرجوع إليه من كل شيء .

(39/641)

---

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾

قلت : « وازرة » : صفة لمحذوف ، أي : نفس آثمة . و « إن تدع » : شرط ، و « لا يُحمل

» : جواب ، و « لا » النافية لا تمنع الجواب من الجزم .

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ ولا تَزِرُ وازرة وِزرَ أُخرى ﴾ أي : ولا تحمل نفس آثمة إثمَ نَفْسٍ أخرى ، والوزر والوِقر أخوان ، ووَزر الشيء : حمله . والمعنى : أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته ، فلا تؤخذ نفس بذنب نفس أخرى ، كما تأخذ جبابرةُ الدنيا الظلمةُ الجارَ بجريمة الجار ، والقريبَ بالقريب ، فذلك ظلم محض . وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [ العنكبوت : 13 ] ففي الضالّين المضلّين ، فإنهم يحملون أثقال إضلالهم وأثقال ضلالهم ، وكل ذلك أوزارهم ، ليس فيها شيء من أوزار غيرهم . ألا ترى كيف كذّبهم الله تعالى في قوله : ﴿ اتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [ العنكبوت : 12 ] .

(40/641)

---

قال ابن عطية : مَن تطرق من الحكام إلى أخذ قريب بقريبه في جريمة كفعل زياد ونحوه ، فإن ذلك ، لأن المأخوذ ربما أعان المجرم بمؤازرة ، أو مواصلة ، أو اطلاع على حاله ، أو تقرير له ، فهذا قد أخذ من الجُرم بنصيب . وهذا هو المعنى بقوله تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم . . . ﴾ الآية ؛ لأنهم أغروهم ، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « مَن سنّ سُنّة

حسنة . . » الحديث ، فراجعه . قلت : لا يجوز الإقدام على ظلم أحد بمجرد الظن ، فالصواب حسم هذا الباب ، والتصريح بتحريمه ؛ لكثرة جوز الحُكام .

ثم قال تعالى : ﴿ وإن تَدْعُ ﴾ نفس ﴿ مثقلةٌ ﴾ بالذنب أحداً ﴿ إلى حِمْلِها ﴾ أي : إلى حمل ثقل ذنوبها ، ليتحمل عنها بعض ذلك ، ﴿ لا يُحْمَل منه شيءٌ ولو كان ﴾ المدعو ، المفهوم من قوله : ﴿ وإن تدع ﴾ ، ﴿ ذا قُربى ﴾ ذا قرابة قريبة ، كأب ، وولد ، وأخ .

والفرق بين معنى قوله : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وبين قوله : ﴿ إن تدع مثقلة إلى حِمْلها لا يُحمل منه شيء ﴾ أنّ الأول دالّ على عدل الله في حكمه ، وأنه لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها ، والثاني : في بيان أنه لا غياث يومئذ لمَن استغاث ، فمَن أثقلته ذنوبه ثم استغاث بأحد لم يُغثه ، وهذا غاية الإنذار .

ثم بيّن مَن ينتفع به بقوله : ﴿ إنما تُنذِرُ الذين يخشون ربهم ﴾ أي : إنما ينتفع بإنذارك مَن خشي ربه ﴿ بالغيب ﴾ أي : يخشون ربهم غائبين عنه ، أو : يخشون عذابه غائباً عنهم ، فهو حال ، إما من الفاعل أو المفعول المحذوف . أو : يخشون ربهم في حال الغيب ، حيث لا اطلاع للغير عليهم ، فيتقون الله في السر ، كما يتقون في العلانية . ﴿ وأقاموا الصلاةَ ﴾ أتقنوها في مواقيتها ، ﴿ ومَن تزكّى ﴾ أي : تطهّر بفعل الطاعات ، وترك المنهيات ، ﴿ فإنما يتزكّى لنفسه ﴾ إذ نفعه يعود لها ، وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم ، وإقامتهم الصلاة ؛ لأنها من جملة التزكي .

(41/641)

---

﴿ وإِلى اللهِ المصيرُ ﴾ المرجع ، فيجازيهم على تزكيتهم ، وهو وعد للمتزكِّين بالثواب .

الإشارة : وبال الوزر خاص بصاحبه ، إلا إذا كان مقتدى به ، فإنَّ عيبه أو نقصه يسري في أصحابه ، حتى يطهر منه ؛ أن الصحبة صيرت الجسدين واحداً . وراجع ما تقدّم عند قوله : ﴿ واتَّقُوا فِتْنَةً . . . ﴾ [ الأنفال : 25 ] الآية . قال القشيري : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ كلٌّ مُطَالَبٌ بعمله ، ومحاسبٌ عن ديوانه . ولكلٍّ معه شأن ، وله مع كلِّ أحدٍ شأن ، ومن العبادات ما تجري فيها النيابة ، ولكن في المعارف لا تجري النيابة ؛ ولو أن عبداً عاصياً منهمكاً في غوايته فاتته صلاةٌ مفروضةٌ ، فلو قضى عنه ألف وليٍّ ، وألف صَفِيٍّ ، تلك الصلاة الواحدة ، عن كل ركعةٍ ألف ركعةٍ لم تُقْبَلْ . انتهى انتهى . ا هـ وقال في قوله تعالى : ﴿ إِنما تُنذر . . . ﴾ الخ : الإنذار هو الإعلام بموضع المخافة . والخشيةُ هي المخافة ، فمعنى الآية : لا ينتفع بالتخويف إلا صاحِبُ الخوف طيرُ السماء على الإفها تقع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 4 صـ 529.532 ﴾

(42/641)

---

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ »

كشفت الآيات السابقة عن وجه الأرباب التي يتعبد لها المشركون ، وأنها لا تسمع دعاء ، ولو سمعت ما استجابت لداعيها ، لأنها لا تملك شيئا . .

.وفى قوله تعالى : « يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ » دعوة للناس أن يتجهوا بحاجاتهم إلى من يملك كل شىء ، ومن بيده الخير كله . . والناس جميعا فى حاجة دائمة إلى من يعينهم ، ويقضى حوائجهم ، وهم يتوسلون إلى هذا بكثير من الوسائل ، ومنها عبادة الأصنام ، والملائكة والجنّ ، والملوك وأصحاب الجاه والسلطان ، يبغون بذلك الخير منهم . . وكلهم إنما يتناولون ما بين أيديهم من جاه ، أو سلطان ، أو مال .من عطاء اللّه . . إنهم فقراء إلى اللّه . .

إن حبس عنهم العطاء ، كانوا أفقر الفقراء ، وأضعف الضعفاء . . وإذن فالناس جميعا . غنيّهم وفقيرهم .فقير إلى اللّه . . « كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً » (20 : الإسراء) وقوله تعالى : « وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » حثّ للناس على الطلب من اللّه ، والرغب إليه فيما عنده . . فإنه سبحانه غنىّ ، لا تنفذ خزائنه ، ولا تنقص بالعطاء أبدا . . « وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ » (32 : النساء) فهو سبحانه يستجيب لمن سأله ، ويعطيه ما شاء من فضله . . وهو سبحانه « حميد » أي يحمد

لعباده ما يلقون به عطاءه، من حمد وشكر، أيا كان هذا العطاء، قليلا أو كثيرا . .

إنه فضل من فضل وإحسان من إحسانه . . وإن من لا يشكر على القليل لا يشكر على الكثير . .

قوله تعالى : «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ» أي إن من فقركم إلى اللّه، أيها الناس، هو احتياجكم إليه فى حفظ حياتكم . .

(43/641)

---

فهو سبحانه الذي أوجدكم، وهو سبحانه الذي يحفظ عليكم وجودكم، كما يحفظ وجود الموجودات كلها : «إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ» (41 : فاطر) وفى الآيتين تهديد للناس، إذا هم لم يؤمنوا باللّه، ويحمدوا له ما هم فيه من فضله وإحسانه . . واللّه سبحانه وتعالى يقول : «وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ» (56.58 الذاريات) . . فإذا لم يؤدّ الناس واجب الشكر للّه، ولم يقوموا على الوظيفة التي خلقهم اللّه لها، لم يكونوا أهلا ليشغلوا هذا المكان، وكان أولى أن يشغله غيرهم، ممن يعرف لهذا المكان قدره، ويؤدى المطلوب منه فيه . . وفى هذا

يقول اللّه تعالى : « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ » (38 : محمد) « وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ » أي ليس عسيرا على اللّه أن يستبدل خلقا بخلق ، وعالما بعالم ، وكيف وهو الخالق لكل شىء ؟

قوله تعالى : « وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ . . وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ » جاءت هذه الآية تعقيبا على الآيتين السابقتين اللتين حملتا تهديدا للناس بإفنائهم جميعا ، إذا هم لم يوفوا حق اللّه عليهم ، من إيمان به وشكر له . .

وفى هذه الآية تفرقة بين الناس ، الذين وضعتهم الآيتان السابقتان وضعا واحدا فى مقام التهديد . .

فالناس ، وإن كانوا مجتمعا واحدا ، هم أشبه بالجسد الواحد ، يتأثر ، ويشقى



بالأعضاء الضعيفة ، أو الفاسدة فيه ، إلا أنهم من جهة أخرى أفراد متميزون . .

كلّ منهم له وجوده الذاتي ، وحياته الخاصة به ، وحسابه الذي يقوم عليه ميزانه فى مقام الخير والشر على السواء . . فإذا نظر إلى الإنسان من خلال المجتمع ، كان عليه أن يكون

عضوا صالحا فيه ، ثم كان عليه أيضا أن يعمل على إصلاح ما يظهر من فساد فى مجتمعه . . ففى ذلك حماية له من عدوى الفساد ، ومن ريحه الخبيثة ، أن تفسد عليه حياته . .

ثم إذا نظر إليه من خلال ذاته . صالحا كان أو فاسدا . كان التعامل معه فى مقام الحساب والجزاء على أساس شخصى . . فله إحسانه كله ، وعليه إساءته كلها . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : . « وَلَا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى » والوزر : الإثم والذنب .

والوازرة . حاملة الوزر ، والمراد بها ذات الإنسان . .

والمعنى ، أنه لا يحمل إنسان ذنب غيره ، ولا يعينه فى حمله ، وإن كان حمله خفيفا ، وحمل غيره ثقيلا ، ولو كان حامل هذا الحمل الثقيل قريبا ، كأب ، أو ابن ، أو زوج ، أو أخ لمن يدعوه إلى حمل بعض ما حمل . . كما يقول سبحانه بعد هذا :

. « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى » هذا هو ميزان الحساب للناس . . لكل إنسان عند اللّه ، جزاء ما عمل . .

قوله تعالى : . « إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ » أي إنما ينفع هذا البيان ، وذلك النذير ، من يخشى اللّه بالغيب ، ويعرف

جلاله وبأسه ، من غير أن يراه ، وإنما يرى آثاره ويشهد جلال قدرته ، وعلمه ، وحكمته فيما أبدع وصور فى هذا الوجود . . وهذه الخشية إنما تكون عن استعداد فطرى ، يقبل التعامل مع العالم غير المحسوس ، عالم الغيب . . فهناك كثير من الطبائع قد تأثرت بالعالم المادي ، وتشكلت ملكاتها على قوالبه ، فلا تقبل التعامل إلا مع الماديات . . أما ما وراء المادة فإنها ترفض التسليم به ، وتأبى التعامل معه .

وفى قصر الإنذار على الذين يخشون ربهم بالغيب ، مع أن الرسول نذير وبشير للناس جميعا .فى هذا إشارة إلى أن الذين ينتفعون بهذا النذير ، هم الناس ، وهم أهل للخطاب ، وأما غيرهم ، فلا حساب لهم ولا وزن فى هذا المقام . .

.قوله تعالى : « وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ » معطوف على قوله تعالى : « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » وكان النظم يقضى بالتوافق فى وحدة الزمن بين الفعلين المتعاطفين ، فيكونان مضارعين أو ماضيين ، . . ولكن جاء الحديث عن الخشية بالفعل المضارع ، الذي يحمل زمنا متجددا ، على حين جاء الحديث عن إقامة الصلاة بالفعل الماضي ، الذي يقطع الفعل عن المستقبل ، وهذا لا يكون فى القرآن الكريم إلا عن حكمة ، وتقدير . .

والذي يبدو لنا من هذا .والله أعلم.أن الخشية لله بالغيب ، لا تكون إلا عن طبيعة تتقبل التعامل بما وراء المادة ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، أما الطبيعة التي تلبست بها المادة ، وسيطرت عليها ، فلا يكون منها نظر إلى ما وراء المادة ، ولا تقع منها خشية لله ، لأنها لا

ترى اللّه ، ولا تشهد جلاله ، وسلطانه . . فالإنذار لا يفيد ، ولا يؤثر ، إلا إذا صادف طبيعة من شأنها أن تتقبل الإيمان بما وراء المادة ، وعن هذه الطبيعة تصدر الخشية من اللّه ، فى كل حال ، وفى كل موقف يقفه صاحب هذه الطبيعة ، فيشهد فى أي حال

(46/641)

---

من أحواله ، وفى كل موقف من مواقفه . جلال اللّه ، وسلطان اللّه ، فيخشاه ويتّقى حرماته ، ولا يجد الجرأة على تعدّى حدوده . .

ومن جهة أخرى ، فإن هذه الطبيعة التي من شأنها أن تخشى اللّه بالغيب ، وتتوقّى الوقوع فى الإثم . هذه الطبيعة لا يقيمها على الطريق القويم ، ولا يجلو بصيرتها جلاء ترى على ضوئه ما للّه . سبحانه . من كمال ، وجلال ، وسلطان . إلا الصلاة ، وإقامتها على وجهها الصحيح . . فهى التي تعطى الخشية مضمونا ذا قيمة مؤثرة فى سلوك الإنسان ، كما أن الخشية هى التي تعطى الصلاة قدرا وأثرا . . فالصلاة من غير خشية لا ثمرة لها ، ولا خير منها . . والخشية التي لا تغذّيها الصلاة وتنميها ، هى زرع حبس عنه الماء ، فلا يلبث أن يذوى ، ويذبل ، ثم يجفّ ويموت فمن الخشية للّه ، أن تقام الصلاة ، فمن لا يخشى اللّه لا يقيمها ، ومن أقامها على غير خشية ، فلا نفع له منها . .

فخشية اللّه ، هى أساس الإيمان ، وملاك كل عمل يعمله المؤمن باللّه . .

فإذا خلا قلب الإنسان من خشية اللّه ، لم يكن ثمة إيمان ، ولم يكن ثمة عمل يقوم فى ظل هذا الإيمان . .

وفى الحديث الشريف : « لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر شاربها وهو مؤمن » . . فالمراد بنفي الإيمان هنا ، هو نفى الخشية من اللّه ، عند ارتكاب هذه المنكرات . . فلو كان الإنسان المواجه لهذه المنكرات على خشية من اللّه ما أقدم على اقتراف واحدة منها . .

فالخشية المطلوبة من المؤمن ، خشية دائمة ، متجددة . . ومن هنا كان التعبير عنها بفعل الاستمرار والتجدد . .

(47/641)

---

أما إقامة الصلاة . . فهى عمل من أعمال المؤمن ، لا يقوم إلا فى ظل من خشية اللّه ، ولا يثمر ثمرة طيبة إلا إذا كان عن فيض منها ، . ومن هنا ارتبطت إقامة الصلاة بها ، وكانت حالا من أحوالها ، أو أحوال أهلها . .

واختصت الصلاة بالذكر لأنها عمود الدين ، فمن أقامها فقد أقام الدين . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ » (11 : يس) وقوله سبحانه : « ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ » . . (3.2 : البقرة) قوله تعالى : « وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ » . .

التزكى : التطهر ، من الشرك ، والكفر ، ومن الآثام والمنكرات . .

أي ومن تطهر من الشرك والكفر ، وجنّب نفسه التلوث بأقذار الآثام والمنكرات ، فإنما يتطهر لنفسه ، حيث تظهر آثار ذلك عليه ، وتكون عائدة هذا التطهر راجعة إليه ، يوم يعرض على ربه نقيا ، طاهرا ، فيدخل فى رضوان اللّه مع الطيبين الطاهرين . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 11 صـ 671.865 ﴾

*(48/641)*

---

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾

لما أشبع المقام أدلّة ، ومواعظَ ، وتذكيراتٍ ، مما فيه مقنع لمن نصب نفسه منصب الانتفاع والاقتناع ، ولم يظهر مع ذلك كله من أحوال القوم ما يتوسم منه نزعهم عن ضلالهم وربما

أحدث ذلك في نفوس أهل العزّة منهم إعجاباً بأنفسهم واغتراراً بأنهم مرغوب في انضمامهم إلى جماعة المسلمين فيزيدهم ذلك الغرورُ قبولاً لتسويل مكائد الشيطان لهم أن يعتصموا بشركهم، ناسب أن ينبئهم الله بأنه غني عنهم وأن دينه لا يعْتزّ بأمثالهم وأنه مُصيّرهم إلى الفناء وآت بناس يعتز بهم الإِسلام.

فالمراد بـ ﴿ يا أيها الناس ﴾ هم المشركون كما هو غالب اصطلاح القرآن، وهم المخاطبون بقوله آنفاً ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك ﴾ [ فاطر : 13 ] الآيات.

وقبل أن يوجه إليهم الإِعلام بأن الله غنيّ عنهم وجه إليهم إعلام بأنهم الفقراء إلى الله لأن ذلك أدخل للذلة على عظمتهم من الشعور بأن الله غنيّ عنهم فإنهم يوقنون بأنهم فقراء إلى الله ولكنهم لا يُوقنون بالمقصد الذي يفضي إليه علمهم بذلك، فأريد إبلاغ ذلك إليهم لا على وجه الاستدلال ولكن على وجه قرع أسماعهم بما لم تكن تقرع به من قبل عسى أن يستفيقوا من غفلتهم ويتكعكعوا عن غرور أنفسهم، على أنهم لا يخلو جمعهم من أصحاب عقول صالحة للوصول إلى حقائق الحق فأولئك إذا قرعت أسماعَهم بما لم يكونوا يسمعونه من قبل ازدادوا يقيناً بمشاهدة ما كان محجوباً عن بصائرهم بأستار الاشتغال بفتنة ضلالهم عسى أن يؤمن من هيّأه الله بفطرته للإِيمان، فمن بقي على كفره كان بقاؤه مشوباً بحيرة ومرَّ طعْمُ الحياة عنده، فأَينَ ما كانت تتلقاه مسامعهم من قبل تمجيدهم وتمجيد آبائهم وتمجيد

آلهتهم ، ألا ترى أنهم لما عاتبوا النبي صلى الله عليه وسلم في بعض مراجعتهم عَدُّوا عليه شتم آبائهم ، فحصل بهذه الآية فائدتان .

(49/641)

---

وجملة ﴿ أنتم الفقراء ﴾ تفيد القصر لتعريف جزأيها ، أي قصر صفة الفقر على الناس المخاطبين قصراً إضافياً بالنسبة إلى الله ، أي أنتم المفتقرون إليه وليس هو بمفتقر إليكم وهذا في معنى قوله تعالى : ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ﴾ [ الزمر : 7 ] المشعر بأنهم يحسبون أنهم يغيظون النبي صلى الله عليه وسلم بعدم قبول دعوته .

فالوجه حمل القصر المستفاد من جملة ﴿ أنتم الفقراء ﴾ على القصر الإِضافي ، وهو قصر قلب ، وأما حمل القصر الحقيقي ثم تكلف أنه ادعائي فلا داعي إليه .

وإتباع صفة ﴿ الغني ﴾ بـ ﴿ الحميد ﴾ تكميل ، فهو احتراس لدفع توهمهم أنه لما كان غنياً عن استجابتهم وعبادتهم فهم معذورون في أن لا يعبدوه ، فنبه على أنه موصوف بالحمد لمن عبده واستجاب لدعوته كما أتبع الآية الآخرى ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ﴾ [ الزمر : 7 ] بقوله : ﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ [ الزمر : 7 ] .

ومن المحسنات وقوع ﴿ الحميد ﴾ في مقابلة قوله : ﴿ إلى الله ﴾ كما وقع ﴿ الغني ﴾

في مقابلة قوله : ﴿ الفقراء ﴾ لأنه لما قيد فقرهم بالكون إلى الله قيدّ غنى الله تعالى بوصف ﴿ الحميد ﴾ لإفادة أن غناه تعالى مقترن بجوده فهو يحمد من يتوجه إليه .

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16)

واقع موقع البيان لما تضمنته جملة ﴿ وهو الغني الحميد ﴾ [ فاطر : 15 ] من معنى قلة الأكثراث بإعراضهم عن الإسلام ، ومن معنى رضاه على من يعبده فهو تعالى لغناه عنهم وغضبه عليهم لو شاء لأبادهم وأتى بخلق آخرين يعبدونه فخلص العالَم من عصاة أمر الله وذلك في قدرته ولكنه أمهلهم إعمالاً لصفة الحلم .

فالمشيئة هنا المشيئة الناشئة عن الاستحقاق ، أي أنهم استحقوا أن يشاء الله إهلاكهم ولكنه أمهلهم ، لا أصل المشيئة التي هي كونه مختاراً في فعله لا مُكره له لأنها لا يحتاج إلى الإعلام بها .

(50/641)

---

والإذهاب مستعمل في الإهلاك ، أي الإعدام من هذا العالم ، أي إن يشأ يسلط عليهم موتاً يعمهم فكأنه أذهبهم من مكان إلى مكان لأنه يأتي بهم إلى الدار الآخرة .

والإتيان بخلق جديد مستعمل في إحداث ناس لم يكونوا موجودين ولا مترقباً وجودهم ، أي

يوجد خلقاً من الناس يؤمنون بالله .

فالخلق هنا بمعنى المخلوق مثل قوله تعالى : ﴿ هذا خلقُ اللَّه فأروني ماذا خلَق الذين من دونه ﴾ [ لقمان : 11 ] .

وهذا في معنى قوله : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالَكم ﴾ [ محمد : 38 ] .

وليس المعنى : أنه إن يشأ يعجلْ بموتهم فيأتي جيل أبنائهم مؤمنين لأن قوله : ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ ينبُو عنه .

وعطف عليه الإعلام بأن ذلك لو شاء لكان هيّناً عليه وما هو عليه بعزيز .

والعزيز : الممتنع الغالِب ، وهذا زيادة في الإرهاب والتهديد ليكونوا متوقعين حلول هذا بهم .

ومفعول فعل المشيئة محذوف استغناء بما دل عليه جواب الشرط وهو ﴿ يذهبكم ﴾ أي إن يشأ إذهابكم ، ومثل هذا الحذف لمفعول المشيئة كثير في الكلام .

والإشارة في قوله : ﴿ وما ذلك ﴾ عائدة إلى الإذهاب المدلول عليه بـ ﴿ يذهبكم ﴾ أو إلى ما تقدم بتأويل المذكور .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى

لما كان ما قبل هذه الآية مسوقاً في غرض التهديد وكان الخطاب للناس أريدت طمْأنة

المسلمين من عواقب التهديد ، فعقب بأن من لم يأت وزراً لا يناله جزاء الوَازر في الآخرة قال تعالى : ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ [ مريم : 72 ] .

*(51/641)*

---

وقد يكون وعداً بالإِنجاء من عذاب الدنيا إذا نزل بالمهدّدين الإِذهابُ والإِهلاكُ مثلما أهلك فريقَ الكفار يوم بدر وأنجى فريق المؤمنين ، فيكون هذا وعداً خاصاً لا يعارضه قوله تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [ الأنفال : 25 ] وما ورد في حديث أمّ سلمة قالت : "يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : نعم إذا كثر الخُبْث " .

فموقع قوله : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ كموقع قوله تعالى : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فننجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ [ يوسف : 110 ] .

ولهذا فالظاهر أن هذا تأمين للمسلمين من الاستئصال كقوله تعالى : ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ [ الأنفال : 33 ] بقرينة قوله عقبه ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ وهو تأمين من تعميم العقاب في الآخرة بطريق الأولى ويجوز أن يكون المراد

: ولا تزر وازرة وزر أخرى يوم القيامة ، أي إن يشأ يذهبكم جميعاً ولا يعذب المؤمنين في الآخرة ، وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم " ثم يحشرون على نياتهم " .

والوجه الأول أعم وأحسن .

وأيّاً مَّا كان فإن قضية ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ كلية عامة فكيف وقد قال الله تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ في سورة العنكبوت ( 13 ) ، فالجمع بين الآيتين أن هذه الآية نفَت أن يحمل أحد وزر آخر لا مشاركة له للحامل على اقتراف الوزر ، وأما آية سورة العنكبوت فموردها في زعماء المشركين الذين موّهوا الضلالة وثبتوا عليها ، فإن أول تلك الآية ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتّبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ﴾ [ العنكبوت : 12 ] ، وكانوا يقولون ذلك لكل من يستروحون منه الإقبال على الإيمان بالأحرى .

وأصل الوِزر بكسر الواو : هو الوِقْر بوزنه ومعناه .

وهو الحِمل بكسر الحاء ، أي ما يحمل ، ويقال : وَزَر إذا حمل .

فالمعنى : ولا تحمل حاملة حِمل أخرى ، أي لا يحمل الله نفساً حملاً جعله لنفس أخرى عدلاً منه تعالى لأن الله يحب العدل وقد نفى عن شأنه الظلم وإن كان تصرفه إنما هو في مخلوقاته .

وجرى وصف الوازرة على التأنيث لأنه أريد به النفس .

ووجه اختيار الإسناد إلى المؤنث بتأويل النفس دون أن يجري الإضمار على التذكير بتأويل الشخص ، لأن معنى النفس هو المتبادر للأذهان عند ذكر الاكتساب كما في قوله تعالى :

﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ﴾

في سورة الأنعام ( 164 ) ، وقوله : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ في سورة المدثر ( 38 ) ، وغير ذلك من الآيات .

ثم نبّه على أن هذا الحكم العادل مطرد مستمر حتى لو استغاثت نفس مثقلة بالأوزار مَن ينتدب لحمل أوزارها أو بعضها لم تجد من يحمل عنها شيئاً ، لئلا يقيس الناس الذين في الدنيا أحوال الآخرة على ما تعارفوه ، فإن العرب تعارفوا النجدة إذا استنجدوا ولو كان لأمر يُضر بالمنجد .

ومن أمثالهم لو دُعي الكريم إلى حتفه لأجاب ، وقال ودّاك بن ثُمَيْل المازني :

إذا استُنْجدوا لم يَسألوا من دَعاهُم

لأَيَة حرب أم بأي مكان . . .

ولذلك سمي طلب الحمل هنا دعاء لأن في الدعاء معنى الاستغاثة .

وحذف مفعول تدع ﴾ لقصْد العموم .

والتقدير : وإن تدع مثقلة أيَّ مدعوّ .

وقوله : ﴿ إلى حملها ﴾ متعلق بـ ﴿ تدع ﴾ ، وجعل الدعاء إلى الحمل لأن الحمل سبب الدعاء وعلته .

فالتقدير : وإن تدع مثقلة أحداً إليها لأجل أن يَحمل عنها حملها ، فحذف أحدُ متعلقي الفعل المجرور باللام لدلالة الفعل ومتعلقه المذكور على المحذوف .

وهذا إشارة إلى ما سيكون في الآخرة ، أي لو استصرخت نفس مَن يحمل عنها شيئاً من أوزارها ، كما كانوا يزعمون أن أصنامهم تشفع لهم أو غيرهم ، لا تجد من يجيبها لذلك .

وقوله : ﴿ ولو كان ذا قربى ﴾ في موضع الحال من ﴿ مثقلة ﴾ .

(53/641)

---

و ﴿ لو ﴾ وصلية كالتي في قوله تعالى : ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ في سورة آل عمران ( 91 ) .

والضمير المستتر في كان ﴾ عائد إلى مفعول ﴾ تدع ﴾ المحذوف ، إذ تقديره : وإن تدع

مثقلة أحداً إلى حِملها كما ذكرنا .

فيصير التقدير : ولو كان المدعوّ ذا قربى ، فإن العموم الشمولي الذي اقتضته النكرة في سياق الشرط يصير في سياق الإِثبات عموماً بَدَليًّا .

ووجه ما اقتضته المبالغة من ﴿ لو ﴾ الوصلية أن ذا القربى أرق وأشفق على قريبه ، فقد يُظن أنه يغني عنه في الآخرة بأن يقاسمه الثقل الذي يؤدي به إلى العذاب فيخف عنه العذاب بالاقتسام .

والإِطلاق في القربى يشمل قريب القرابة كالأبوين والزوجين كما قال تعالى : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ﴾ [ عبس : 34 ، 35 ] .

وهذا إبطال لاعتقاد الغَناء الذاتي بالتضامن والتحامل فقد كان المشركون يقيسون أمور الآخرة على أمور الدنيا فيعلّلون أنفسهم إذا هُدّدوا بالبعث بأنه إن صح فإن لهم يومئذٍ شفعاء وأنصاراً ، فهذا سياق توجيه هذا إلى المشركين ثم هو بعمومه ينسحب حكمُه على جميع أهل المحشر ، فلا يحمل أحد عن أحد إثمه .

وهذا لا ينافي الشفاعة الواردة في الحديث ، كما تقدم في سورة سبأ ، فإنها إنما تكون بإذن الله تعالى إظهاراً لكرامة نبيئه محمد صلى الله عليه وسلم ولا ينافي ما جعله الله للمؤمنين من مكفّرات للذنوب كما ورد أن أفراط المؤمنين يشفعون لأمهاتهم ، فتلك شفاعة جعلية جعلها الله كرامة للأمهات المصابة من المؤمنات .

﴿ ذَا قربى إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب وَأَقَامُواْ الصلاة وَمَن تزكى فَإِنَّمَا يتزكى لِنَفْسِهِ وَإِلَى ﴾ .

استئناف بياني لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يخطر في نفسه التعجب من عدم تأثر أكثر المشركين بإنذاره فأجيب بإن إنذاره ينتفع به المؤمنون ومن تهيّأوا للإيمان .

(54/641)

---

وإيراد هذه الآية عقب التي قبلها يؤكد أن المقصد الأول من التي قبلها موعظة المشركين وتخويفهم ، وإبلاغ الحقيقة إليهم لاقتلاع مزاعمهم وأوهامهم في أمر البعث والحساب والجزاء .

فأقبل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بالخطاب ليشعر بأن تلك المواعظ لم تُجْدِ فيهم وأنها إنما ينتفع بها المسلمون ، وهو أيضاً يؤكد ما في الآية الأولى من التعريض بتأمين المسلمين بما اقتضاه عموم الإِنذار والوعيد .

وأطلق الإِنذار هنا على حصول أثره ، وهو الانكفاف أو التصديق به ، وليس المراد حقيقة الإِنذار ، وهو الإِخبار عن توقع مكروه لأن القرينة صادقة عن المعنى الحقيقي وهي قرينة تكرر الإِنذار للمشركين الفيْنَة بعد الفيْنة وما هو ببعيد عن هذه الآية ، فإن النبي صلى الله

عليه وسلم أنذر المشركين طول مدة دعوته ، فتعين أن تعلق الفعل المقصور عليه بـ ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ تعلّقٌ على معنى حصول أثر الفعل .

فالمقصود من القصر أنه قصر قلب لأن المقصود التنبيه على أن لا يظُنّ النبي صلى الله عليه وسلم انتفاع الذين لا يؤمنون بنذارته ، وإن كانت صيغة القصر صالحةِ لمعنى القصر الحقيقي لكن اعتبار المقام يعين اعتبار القصر الإِضافي .

ونظير هذه الآية قوله في سورة يس ( 11 ) ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ﴾ وقوله : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ في سورة ق ( 45 ) ، مع أن التذكير بالقرآن يعم الناس كلهم .

والغيب : ما غاب عنك ، أي الذين يخشون ربهم في خلواتهم وعند غيبتهم عن العيان ، أي الذين آمنوا حقاً غير مرائين أحداً .

وأقاموا الصلاة ﴾ أي لم يفرطوا في صلاة كما يؤذن به فعل الإِقامة كما تقدم في أول سورة البقرة .

ولما كانت هاتان الصفتان من خصائص المسلمين صار المعنى : إنما تنذر المؤمنين ، فعُدل عن استحضارهم بأشهر ألقابهم مع ما فيه من الإِيجاز إلى استحضارهم بصلتين مع ما فيهما من الإِطناب ، تذرعاً بذكر هاتين الصّلتين إلى الثناء عليهم بإخلاص الإِيمان في الاعتقاد والعمل .

وجملة ﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ﴾ تذييل جار مجرى المثل .

وذكر التذييل عقب المذيل يؤذن بأن ما تضمنه المذيَّل داخل في التذييل بادىء ذي بدء مثل دخول سبب العام في عمومه من أول وهلة دون أن يُخص العام به ، فالمعنى : أن الذين خَشُوا ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة هم ممّن تزكى فانتفعوا بتزكيتهم ، فالمعنى : إنما ينتفع بالنذارة الذين يخشون ربهم بالغيب فأولئك تزكوا بها ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه .

والمقصود من القصر في قوله : ﴿ فإنما يتزكى لنفسه ﴾ أن قبولهم النذارة كان لفائدة أنفسهم ، ففيه تعريض بأن الذين لم يعبأوا بنذارته تركوا تزكية أنفسهم بها فكان تركهم ضراً على أنفسهم .

وجملة ﴿ وإلى الله المصير ﴾ تكميل للتذييل ، والتعريف في ﴿ المصير ﴾ للجنس ، أي المصير كله إلى الله سواء فيه مصير المتزّكي ومصير غير المتزكي ، أي وكل يُجازَى بما يناسبه .

وتقديم المجرور في قوله : ﴿ وإلى الله المصير ﴾ للاهتمام للتنبيه على أنه مصير إلى من

اقتضى اسمه الجليل الصفات المناسبة لإِقامة العدل وإفاضة الفضل مع الرعاية على الفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

(56/641)

---

فائدة

قال التسترى :

قوله : ﴿ يا أيها الناس أَنْتُمُ الفقرآء إِلَى الله ﴾ [ 15 ]

قال : يعني أنتم إليه في أنفسكم ، فإن الله تعالى لما خلق الخلق حكم لعباده بالفقر إليه ، وهو الغني ، فمن ادعى الغنى حجب عن الله عزّ وجلّ ، ومن أظهر فقره إليه أوصل الله فقره بغناه ، فينبغي للعبد أن يكون مفتقراً إليه في السر ، منقطعاً عن غيره ، حتى تكون عبوديته محضة ، إذ العبودية المحضة هي الذل والخضوع .

فقيل له : وكيف يفتقر إليه ؟ قال : إظهار الفقر في ثلاث : فقرهم القديم ، وفقرهم في حالهم ، وفقرهم في موت أنفسهم من تدبيرهم ؛ ومن لم يكن كذلك فهو مدّعٍ في فقره .

وقال : الفقير الصادق الذي لا يسأل ولا يرد ولا يحبس .

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : صفة أولياء الله عزّ وجلّ ثلاثة أشياء : الثقة بالله

تعالى في كل شيء ، والفقر إليه في كل شيء ، والرجوع إليه من كل شيء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير التسترى صـ 129 ﴾

(57/641)

---

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾

بين سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم كما أن كونه غنيا حميدا ذاتي له فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان بل هو ذاتي للفقير فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجب غناه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية

والفقر لي وصف ذات لازم أبدا . . . كما الغنى أبدا وصف له ذاتي فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لا بعلة وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك إذا ما بالذات لا يعلل فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته فما يذكر من

إمكان وحدوث واحتياج فهي أدلة على الفقر لا أسباب له ولهذا كان الصواب في مسألة علة احتياج العالم إلى الرب سبحانه غير القولين اللذين يذكرهما الفلاسفة والمتكلمون فإن الفلاسفة قالوا علة الحاجة الإمكان والمتكلمون قالوا علة الحاجة الحدوث والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان وكلاهما دليل الحاجة والافتقار وفقر العالم إلى الله سبحانه أمر ذاتي لا يعلل فهو فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته ثم يستدل بإمكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلة على هذا الفقر والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه غني حميد فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيرا ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنيا كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبدا والرب إلا ربا



---

إذا عرف هذا فالفقر فقران فقر اضطراري وهو فقر عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه وهذا الفقر لا يقتضي مدحا ولا ذما ولا ثوابا ولا عقابا بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقا ومصنوعا

والفقر الثاني فقر اختياري هو نتيجة علمين شريفين أحدهما معرفة العبد بربه والثاني معرفته بنفسه فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقرا هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام



---

ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئا ولا يقدر على شيء ولا يملك شيئا ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كماله أمرا مشهودا محسوسا لكل أحد ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته وما بالذات دائم بدوامها وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية والغنى بل لم يزل عبدا فقيرا بذاته إلى بارئه وفاطره فلما أسبغ عليه نعمته وأفاض عليه رحمته وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهرا وباطنا وخلع عليه ملابس إنعامه وجعل له السمع والبصر والفؤاد وعلمه وأقدره وصرفه وحركه ومكنه من استخدام بني جنسه وسخر له الخيل والإبل

وسلطه على دواب الماء واستنزال الطير من الهواء وقهر الوحش العادية وحفر الأنهار وغرس الأشجار وشق الأرض وتعلية البناء والتحليل على مصالحه والتحرز والتحفظ لما يؤذيه ظن المسكين أن له نصيبا من الملك وادعى لنفسه ملكا مع الله سبحانه ورأى نفسه بغير تلك العين الأولى ونسي ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج بل كأن ذلك شخصا آخر غيره كما روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بسر بن جحاش القرشي أن رسول الله بصق يوما في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال قال الله تعالى يا ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة ومن ههنا خذل من



---

خذل ووفق من وفق فحجب المخذول عن حقيقته ونسي نفسه فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه فطغى وعتا فحقت عليه الشقوة قال تعالى كلا إن الأنسان ليطغى أن رءاه استغنى وقال فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم

شهودا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين ولهذا كان من دعائه أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك وكان يدعو يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك يعلم

أن قلبه بيد الرحمن عز وجل لا يملك منه شيئًا وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء كيف وهو يتلو قوله تعالى ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلا فضرورته إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به وحسب قربه منه ومنزلته عنده وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الوعاء ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة وأعظمهم عنده جاها وأرفعهم عنده منزلة لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه وكان يقول لهم أيها الناس ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي إنما أنا عبد وكان يقول لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله

وذكره الله سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته مقام الإسراء ومقام الدعوة ومقام التحدي فقال سبحان الذي أسرى بعبده ليلا وقال وأنه لما قام عبد الله يدعوه وقال وإن كنتم في ريب مما

نزلنا على عبدنا وفي حديث الشفاعة إن المسيح يقول لهم اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فنال ذلك المقام بكمال عبوديته لله وبكماله مغفرة الله له فتأمل قوله تعالى في الآية أنتم الفقراء إلى الله باسم الله دون اسم الربوبية ليؤذن بنوعي الفقر فإنه كما تقدم نوعان فقر إلى ربوبيته وهو فقر المخلوقات بأسرها وفقر إلى ألوهيته وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين وهذا هو الفقر النافع والذي يشير إليه القوم ويتكلمون عليه ويشيرون إليه هو الفقر الخاص لا العام وقد اختلفت عباراتهم عنه ووصفهم له وكل أخبر عنه بقدر ذوقه وقدرته على التعبير

قال شيخ الإسلام الأنصاري الفقر اسم للبراءة من رؤية الملكة وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى فقر الزهاد وهو نفض اليدين من الدنيا ضبطا أو طلبا وإسكات اللسان عنها ذما أو مدحا والسلامة منها

طلبا أو تركا وهذا هو الفقر الذي تكلموا في شرفه الدرجة الثانية الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال ويقطع شهود الأحوال ويمحص من أدناس مطالعة المقامات والدرجة الثالثة صحة الاضطرار والوقوع في يد التقطع الوحداني والاحتباس في بيداء قيد التجريد وهذا فقر الصوفية

فقوله الفقر اسم للبراءة من رؤية الملكة يعني أن الفقير هو الذي يجرد رؤية الملك لمالكه الحق فيرى نفسه مملوكة لله لا يرى نفسه مالكا بوجه من الوجوه ويرى أعماله مستحقة عليه بمقتضى كونه مملوكا عبدا مستعملا فيما أمره به سيده فنفسه مملوكة وأعماله مستحقة بموجب العبودية فليس مالكا لنفسه ولا لشيء من ذراته ولا لشيء من أعماله بل كل ذلك مملوك عليه مستحق عليه كرجل اشترى عبدا بخالص ماله ثم علمه بعض الصنائع فلما تعلمها قال له إعمل وأد إلي فليس لك في نفسك ولا في كسبك شيء فلو حصل بيد هذا العبد من الأموال والأسباب ما حصل لم ير له فيها شيئا بل يراه كالوديعة في يده وأنها أموال أستاذه وخزائنه ونعمه بيد عبده مستودعا متصرفا فيها لسيده لا لنفسه كما قال عبد الله ورسوله وخيرته من خلقه والله إني لا أعطي أحدا ولا أمنع أحدا وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت فهو متصرف في تلك الخزائن بالأمر المحض تصرف

العبد المحض الذي وظيفته تنفيذ أوامر سيده فالله هو المالك الحق وكل ما بيد خلقه هو من أمواله وأملاكه وخزائنه أفاضها عليهم ليمتحنهم في البذل والإمساك

وهل يكون ذلك منهم على شاهد العبودية لله عز وجل فيبذل أحدهم الشيء رغبة في ثواب الله ورهبة من عقابه وتقربا إليه وطلبا لمرضاته أم يكون البذل والإمساك منهم صادرا عن مراد النفس وغلبة الهوى وموجب الطبع ! فيعطي لهواه ويمنع لهواه فيكون متصرفا تصرف المالك لا المملوك فيكون مصدر تصرفه الهوى ومراد النفس وغايته الرغبة فيما عند الخلق من جاه أو رفعة أو منزلة أو مدح أو حظ من الحظوظ أو الرهبة من فوت شيء من هذه الأشياء وإذا كان مصدر تصرفه وغايته هو هذه الرغبة والرهبة رأى نفسه لا محالة مالكا فادعى الملك وخرج عن حد العبودية ونسي فقره ولو عرف نفسه حق المعرفة لعلم أنما هو مملوك ممتحن في صورة ملك متصرف كما قال تعالى ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون وحقيق بهذا الممتحن أن يوكل إلى ما ادكعته نفسه من الإحالات والملكات مع المالك الحق سبحانه فإن من ادعى لنفسه حالة مع الله سبحانه وكل إليها ومن كل إلى شيء غير الله فقد فتح له باب الهلاك والعطب وأغلق عنه باب الفوز والسعادة فإن كل شيء ما سوى الله باطل ومن وكل إلى الباطل بطل عمله وضل سعيه ولم يحصل إلا على الحرمان فكل من تعلق بغير الله انقطع به أحوج ما كان إليه كما قال تعالى إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب فالأسباب التي تقطعت بهم هي العلائق التي بغير الله ولغير الله تقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها وذلك لأن تلك الغايات لما اضمحلت وبطلت اضمحلت أسبابها وبطلت فإن الأسباب تبطل

ببطلان غاياتها وتضمحل باضمحلالها وكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه وكل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه وكل سعي لغيره باطل ومضمحل وهذا كما يشاهده الناس في الدنيا من اضمحلال السعي والعمل والكد والخدمة التي يفعلها العبد لمتول أو أمير أو صاحب منصب أو مال فإذا زال ذلك الذي عمل له عدم ذلك العمل وبطل ذلك السعي ولم يبق في يده سوى الحرمان ولهذا يقول الله



---

تعالى يوم القيامة أليس عدلا مني أني أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في الدنيا فيتولى عباد الأصنام والأوثان أصنامهم وأوثانهم فتتساقط بهم في النار ويتولى عابدو الشمس والقمر والنجوم آلهتهم فإذا كورت الشمس وانتثرت النجوم اضمحلت تلك العبادة وبطلت وصارت حسرة عليهم كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ولهذا كان المشرك من أخسر الناس صفقة وأغبنهم يوم معاده فإنه يحال على مفلس كل الإفلاس بل على عدم والموحد حوالته على المليء الكريم فيا بعد ما بين الحوالتين

وقوله البراءة من رؤية الملكة ولم يقل من الملكة لأن الإنسان قد يكون فقيرا لا ملكة له في الظاهر وهو عري عن التحقق بنعت الفقر الممدوح أهله الذين لا يرون ملكة إلا لمالكها الحق ذي الملك والملكوت وقد يكون العبد قد فوض إليه من ذلك شيء وجعل كالخازن فيه كما كان سليمان بن داود أوتي ملكا لا ينبغي لأحد من بعده وكذلك الخليل وشعيب والأغنياء من الأنبياء وكذلك أغنياء الصحابة فهؤلاء لم يكونوا بريئين من الملكة في الظاهر وهم بريئون من رؤية الملكة لنفوسهم فلا يرون لها ملكا حقيقيا بل يرون ما في أيديهم لله عارية ووديعة في أيديهم ابتلاهم به لينظر هل يتصرفون فيه تصرف العبد أو تصرف الملاك الذين يعطون لهواهم ويمنعون لهواهم فوجود المال في يد الفقير لا يقدح في فقره إنما يقدح في فقره رؤيته لملكته فمن عوفي من رؤية الملكة لم يتلوث باطنه بأوساخ المال وتعبه وتدبيره واختياره وكان كالخازن لسيده الذي ينفذ أوامره في ماله فهذا لو كان بيده من المال أمثال جبال الدنيا لم يضره ومن لم يعاف من ذلك ادعت نفسه الملكة وتعلقت به النفس تعلقها بالشيء المحبوب المعشوق فهو أكبر همه ومبلغ علمه إن أعطي رضي وإن منع سخط فهو عبد الدينار والدرهم يصبح مهموما ويمسي كذلك يبيت مضاجعا له تفرح نفسه إذا ازداد وتحزن وتأسف إذا فات منه شيء بل يكاد يتلف إذا توهمت نفسه الفقر وقد يؤثر الموت على الفقر والأول مستغن بمولاه المالك الحق الذي بيده خزائن السموات والأرض وإذا

أصاب المال الذي في يده نائبة رأى أن المالك الحق هو الذي أصاب مال نفسه فما للعبد وما للجزع والهلع وإنما تصرف مالك المال في ملكه الذي هو وديعة في يد مملوكه فله الحكم في ماله إن شاء أبقاه وإن شاء ذهب به وأفناه فلا يتهم مولاه في تصرفه في ملكه ويرى تدبيره هو موجب الحكمة فليس لقلبه بالمال تعلق ولا له به اكتراث لصعوده عنه وارتفاع همته إلى المالك الحق فهو غني به وبحبه ومعرفته وقربه منه عن

(66/641)

---

كل ما سواه وهو فقير إليه دون ما سواه فهذا هو البريء عن رؤية الملكة الموجبة للطغيان كما قال تعالى كلا إن الإنسان ليطغى أن رءاه استغنى ولم يقل إن استغنى بل جعل الطغيان ناشئًا عن رؤيته غنى نفسه ولم يذكر هذه الرؤية في سورة الليل بل قال وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وهذا والله أعلم لأنه ذكر موجب طغيانه وهو رؤية غنى نفسه وذكر في سورة الليل موجب هلاكه وعدم تيسيره لليسرى وهو استغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته فإنه لو افتقر إليه لتقرب إليه بما أمره من طاعته فعل المملوك الذي لا غنى له عن مولاه طرفة عين ولا يجد بدا من امتثال أوامره ولذلك ذكر معه بخله وهو تركه أعطاء ما وجب عليه من الأقوال والأعمال وأداء المال وجمع إلى ذلك تكذيبه بالحسنى

وهي التي وعد بها أهل الإحسان بقوله للذين

أحسنوا الحسنى وزيادة ومن فسرها بشهادة أن لا إله إلا الله فلأنها أصل الإحسان وبها تنال الحسنى ومن فسرها بالخلف في الإنفاق فقد هضم المعنى حقه وهو أكبر من ذلك وإن كان الخلف جزءا من أجزاء الحسنى والمقصود أن الاستغناء عن الله سبب هلاك العبد وتيسيره لك عسرى ورؤيته غنى نفسه سبب طغيانه وكلاهما مناف للفقر والعبودية قوله الدرجة الأولى فقر الزهاد وهو نفض اليدين من الدنيا ضبطا أو طلبا وإسكات اللسان عنها ذما أو مدحا والسلامة منها طلبا أو تركا وهذا هو الفقر الذي تكلموا في شرفه فحاصل هذه الدرجة فراغ اليد والقلب من الدنيا والذهول عن الفقر منها والزهد فيها وعلامة فراغ اليد نفض اليدين من الدنيا ضبطا أو طلبا فهو لا يضبط يده مع وجودها شحا وضنا بها ولا يطلبها مع فقدها سؤالا وإلحافا وحرصا فهذا الإعراض والنفض دال على سقوط منزلتها من القلب إذ لو كان لها في القلب منزلة لكان الأمر بضد ذلك وكان يكون حاله الضبط مع الوجود لغناه بها ولكان يطلبها مع فقدها لفقره إليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ طريق الهجرتين صـ 15.8 ﴾

(67/641)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) ﴾

الفقر على ضربين : فقر الخِلْقة وفقر الصفة ؛ فأمّا فقر الخِلْقَة فهو عامٌّ لكلِّ أحدٍ ؛ فكلُّ مخلوقٍ مفتقرٌ إلى خالقه ، فهو قد حَصَلَ من العَدَمَ ، فهو مفتقر إليه ليبديه وينْشيه ، ثم بعد ذلك مفتقرٌ - في حال بقائه إليه - لِيُديمه ويقيه . فاللَّهُ - سبحانه - غنيٌّ ، والعبدُ فقير ؛ العبدُ فقيرٌ بعينه واللَّهُ غنيٌّ بعينه .

وأمّا فقر الصفة فهو التجرُّد ، ففقرُ العوامِ التجرُّدُ من المال ، وفقر الخواص التجرد من الأعلال لِيَسْلَمَ لهم الفقر .

والفقر على أقسام : فقر إلى الله ، وفقر إلى شيء هو من الله ، معلوم أو مرسوم وغير ذلك .

ومَنْ افتقر إلى شيءٍ استغنى بوجود ذلك الشيء ؛ فالفقيرُ إلى اللَّه هو الغنيُّ بالله ، والافتقار إلى الله لا يخلو من الاستغناء بالله ، فالمفتقر إلى الله مُسْتَغْنٍ بالله ، والمستغني بالله مفتَقِرٌ إلى الله .

ومن شرف الفقر اقترانه بالتواضع والخضوع ، ومن آفات الغنى امتزاجُه بالتكُّبر ، وشَرَفُ العبد في فقره ، وكذلك ذُلُّه في توهمه أنه غنيٌّ : -

وإِذا تذلَّلتْ الرِّقابُ تَقَرُّباً . . . مِنَّا إليكَ فعزُّها في ذلِّها

ومن الفقر المذموم، أن يَسْتُرَ الحقُّ على صاحبه مواضعَ فقره إلى ربّه، ومن الفقر المحمود أن يُشْهِدَه الحقُّ مواضعَ فَقْرِه إليه.

ومن شرط الفقير المخلص ألا يملكَ شيئاً ويملك كلَّ شيءٍ.

ويقال: الفقير الصادق الذي لا يملكه شيء.

ومن آداب الفقير الصادق إظهارُ التَّشكُّرِ عند كمالِ التكسُّر. ومن آداب الفقر كمال المعنى وزوال الدعوى. ويقال الشكر على البلوى والبعد عن الشكوى.

وحقيقة الفقر المحمود تجرُّد السِّرِ عن المعلولات وإفراد القلب بالله.

(68/641)

---

ويقال: الفقر المحمود العَيْشُ مع الله براحة الفراغ على سَرْمَدِ الوقتِ من غير استكراه شيءٍ منه بكلِّ وجْهٍ.

قوله: ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾: الإشارة منه أن يُعْطِي حتى يُحْمَد.

ويقال الغنيُّ إذا أظهر غِناه لأحدٍ فإمَّا للمفاخرة أو للمكاثرة - وجَلَّ قَدْرُ الحقِّ عن ذلك- وإمّا ليجود ويتفضَّل على أحدٍ.

ويقال: لا يقول لنا أَنتم الفقراءُ للإزرار بنا - فإنّ كَرَمَه يتقدّسُ عن ذلك - وإنما المقصود أنه

إذا قال: والله الغني، وأنتم الفقراء أنه يجود علينا.

ويقال إذا لم تَدَّعِ ما هو صفته - من استحقاق الغِنَى - أولاك ما يُغْنِيك، وأعطاكَ فوق ما يكفيك.

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17)

عَرَّفَكَ أنه غنيٌّ عنك، وأشهدك موضع فقرك إليه، وأنه لا بُدَّ لك منه، فما القصد من هذا لا إرادته لإكرامك وإيوائك في كَنَفِ إنعامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾.

كُلٌّ مُطَالَبٌ بعمله، وكلٌّ محاسَبٌ عن ديوانه، ولكلٍّ معه شأن، وله مع كلِّ أحدٍ شأن. ومن العبادات ما تجري فيه النيابة ولكن في المعارف لا تجري النيابة؛ فلو أن عبداً عاصياً منهمكاً في غوايته فاتته صلاةٌ مفروضة، فلو قضى عنه ألفُ وليٍّ وألفُ صَفِيٍّ تلك الصلاة الواحدة عن كل ركعةٍ ألفَ ركعةٍ لم تُقْبَلْ منه إلاَّ أنْ يجيءَ هو: معاذ الله أن نأخذ إلا مِمَّن وجدنا متاعنا عنده! فعتابُك لا يجري مع غيرِك والخطابُ الذي معك لا يسمعه غيرُك:

فَسِرْ أو أَقِمْ وَقْفٌ عليكَ محبتي ... مكانُكَ من قلبي عليكَ مصونُ

قوله جلّ ذكره: ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾.

الإنذار هو الإعلام بموضع المخافة ، والخشيةُ هي المخافة ؛ فمعنى الآية ، لا ينفع التخويف إلاَّ لمن صَاحبَ الخوفَ – وطيرُ السماءِ على أشكالها تقعُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 198 . 201 ﴾

*(70/641)*

---

قوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (20) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (21) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (25) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (26) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التقدير : فما يستوي في الطبع والعقل المتدسي الذي هو أعمى بعصيانه في الظلمات ولا المتزكي الذي هو بطاعاته بصير في النور وإن استويا في الإنسانية ، عطف

عليه ما يصلح أمثلة للمتدسي والمتزكي وما يكون به التدسية والتزكية ، دلالة على تمام قدرته الذي السياق له من أول السورة ، وتقريراً لأن الخشية والقسوة بيده إبطالاً لقول من يسند الأمور إلى الطبائع قوله : ﴿ وما يستوي ﴾ أي في حالة من الأحوال .

ولما كان المقام لوعظ المشركين ، وكان المتدسي قبل المتزكي على ما قرر قبله ، ناسب أن ينظم على هذا الترتيب قوله مثالاً للكافر والمؤمن والجاهل والعالم ، وقدم مثال الجاهل لأن الأصل عن الإرسال الجهل : ﴿ الأعمى والبصير ﴾ أي لا الصنفان ولا أفرادهما ولا أفراد صنف منهما ، وأغنى عن إعادة النافي ظهور المفاوتة بين أفراد كل صنف من الصنفين ، فالمعنى أن الناس غير مستوين في العمى والبصر بل بعضهم أعمى وبعضهم بصير ، لأن افتعل هنا لمعنى تفاعل ، ولعله عبر به دلالة على النفي ولو وقع اجتهاد في أن لا يقع ، أو دلالة على أن المنفي إنما هو التساوي من كل جهة ، لا في أصل المعنى ولو كان ذلك مستنداً إلى الطبع لكانوا على منهاج واحد بل وأفراد كل متفاوتون فتجد بعض العمى يمشي بلا قائد في الأزقة المشكلة ، وآخر لا يقدر على المشي في بيته إلا بقائد ، وآخر يدرك من الكتاب إذا جسه كم مسطرته من سطر ، وهل خطه حسن أو لا ، وآخر يدرك الدرهم الزيف من غيره ، ويميز ضرب كل بلد من غيره ، وربما نازعه أحد مغالطة فلا يقبل التشكيك ، وآخر في غاية البعد عن ذلك ، وأما البصراء فالأمر فيهم واضح في المفاوتة في أبصارهم وبصائرهم ، وكل

ذلك دليل واضح على أن الفاعل قادر مختار يزيد في الخلق ما يشاء ، وإلا لتساوت الأفراد فكانوا على منهاج واحد .

(71/641)

---

ولما كان هذا من أغرب الأمور وإن غفل عنه لكثرة إلفه ، نبه على غرابته ومزيد ظهور القدرة فيه بتكرير النافي في أشباهه وعلى أن الصبر لا ينفذ إلا في الظلمة ، تنبيهاً على أن المعاصي تظلم قلب المؤمن وإن كان بصيراً ، وقدم الظلمة لأنها أشد إظهاراً لتفاوت البصر مع المناسبة للسياق على ما قرر ، فقال في عطف الزوج على الزوج وعطف الفرد على الفرد جامعاً تنبيهاً على أن طرق الضلال يتعذر حصرها : ﴿ ولا الظلمات ﴾ التي هي مثال للأباطيل ؛ وأكد بتكرير النافي كالذي قبله لأن المفاوتة بين أفراد الظلمة وأفراد النور خفية ، فقال منبهاً على أن طريق الحق واحدة تكذيباً لمن قال من الزنادقة : الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق : ﴿ ولا النور ﴾ الذي هو مثال للحق ، فما أبدعهما على هذا التضاد إلا الله تعالى الفاعل المختار ، وفاوت بين أفراد النور وأفراد الظلمة ، فما يشبه نور الشمس نور القمر ولا شيء منهما نور غيرهما من النجوم ولا شيء من ذلك نور السراج - إلى غير ذلك من الأنوار ، وإذا اعتبرت أفراد الظلمات وجدتها كذلك ، فإن الظلمات إنما

هي ظلال ، وبعض الظلال أكثف من بعض .

ولما كان الظلام ينشأ عن الظلال ، وهو نسخ النور ، قدمه فقال مقدماً مثال الخير لأن الرحمة سبقت الغضب : ﴿ ولا الظل ﴾ أي بيرده الذي هو مرجع المؤمن في الآخرة ﴿ ولا الحرور ﴾ أي بوهجها ، وهي مرجع الكافر ، قال البغوي : قال ابن عباس-رضى الله عنهما-: هي الريح الحارة بالليل ، وكذا قال في القاموس وزاد : وقد يكون بالنهار وحر الشمس والحر الدائم والنار ، فانتفى حكم الطبائع قطعاً .

(72/641)

---

ولما كان المظهر لذلك كله الحياة ، قدمها فقال مثالاً آخر للمؤمنين ، ولذلك أعاد الفعل وهو فوق التمثيل بالأعمى والبصير ، لأن الأعمى يشارك البصير في بعض الإدراكات ، وصار للمؤمن والكافر مثالان ليفيد الأول نفي استواء الجنس بالجنس مع القبول للحكم على الأفراد ، والثاني بالعكس وهو للنفي في الأفراد مع القبول للجنس : ﴿ وما يستوي الأحياء ﴾ أي لأنه منهم الناطق والأعجم ، والذكي والغبي ، والسهل والصعب ، فلا يكاد يتساوى حيان في جميع الخلال ﴿ ولا الأموات ﴾ أي الذين هم مثال للكافرين في صعوبة الموت وسهولته والبلى وغيره مما يخفى ولا يقر به الكفار من الشقاوة والسعادة .

ولما كان ما ذكر على هذا الوجه - من وضوح الدلالة على الفعل بالاختيار وعلى ضلال من أشرك به شيئاً لأنه لا يشابهه شيء - بمكان ليس معه خفاء ، ومن الإحكام بحيث لا يدانيه كلام يعجب السامع ممن يأباه ، فقال مزيلاً عجبه مقرراً أن الخشية والقسوة إنما هما بيده ، وأن الإنذار إنما هو لمن قضى بانتفاعه ، مسلياً لنبيه . صلى الله عليه وسلم . ، مؤكداً رداً على من يرى لغيره سبحانه فعلاً من خير أو شر : ﴿ إن الله ﴾ أي القادر على المفاوتة بين هذه الأشياء وعلى كل شيء بما له من الإحاطة بصفات الكمال ، وعبر بالفعل إشارة إلى القدرة على ذلك في كل وقت أراده سبحانه فقال : ﴿ يسمع من يشاء ﴾ أي فيهديه ولو لم يكن له قابلية في العادة كالجمادات ، ويصم ومن يشاء فيعميه وينكسه ويرديه من أحياء القلوب والأرواح ، وأموات المعاني والأشباح ، والمعنى أن إسماعهم لو كان مستنداً إلى الطبائع لاستووا إما بالإجابة أو الإعراض لأن نسبة الدعوة وإظهار المعجزة إليهم على حد سواء ، فالآية تقرير آية ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ .

(73/641)

---

ولما كان المعرض قد ساوى الميت في حاله التي هي عدم الانتفاع بما يرى ويسمع من الخوارق ، فكان كأنه ميت ، قال معبراً بالأسمية تنبيهاً على عدم إثبات ذلك له . صلى الله عليه

وسلم ـ: ﴿ وما أنت ﴾ أي بنفسك من غير إقدار الله لك، وأعرق في النفي فقال:

﴿ بمسمع ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ من في القبور ﴾ أي الحسية والمعنوية، إسماعاً ينفعهم بل الله يسمعهم إن شاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، والآية دليل على البعث.

ولما كان هذا خاصة الإله، أشار إلى نفيه عنه مقتصراً على وصف النذارة، إشارة إلى أن أغلب الخلق موتى القلوب، فقال مؤكداً للرد على من يظن أن النذير يقدر على هداية أو غيرها إلا بإقداره ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ أنت إلا نذير ﴾ أي تنبه القلوب الميتة بقوارع الإنذار، ولست بوكيل يقهرهم على الإيمان.

ولما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبي الرحمة، وكان الاقتصار على هذا الوصف ربما أوهم غير ذلك، أتبعه قوله بياناً لعظمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالالتفات إلى مظهر العظمة لأن عظمة الرسول من عظمة المرسل فنذارته رحمة: ﴿ إنا ﴾ أي بما لنا من العظمة

﴿ أرسلناك ﴾ أي إلى هذه الأمة إرسالاً مصحوباً ﴿ بالحق ﴾ أي الأمر الكامل في الثبات الذي يطابقه الواقع، فإن من نظر إلى كثرة ما أوتيته من الدلائل علم مطابقة الواقع لما تأمر به، والتقدير بالمصدر يفهم أن الرسالة حق، وكلاً من المرسل والرسول محق ﴿ بشيراً ﴾ أي لمن أطاع ﴿ ونذيراً ﴾ أي لمن عصى، والعطف بالواو للدلالة على العراقة في كل من الصفتين.

ولما كان مما يسهل القياد ويضعف الجماح التأسية ، قال مؤكداً دفعاً لاستبعاد الإرسال إلى جميع الأمم : ﴿ وإن ﴾ أي والحال أنه ما ﴿ من أمة ﴾ من الأمم الماضية ﴿ إلا خلا فيها نذير ﴾ أرسلناه إليهم بشيراً ونذيراً إما بنفسه وإما بما أبقى في أعقابهم من شرائعه من أقواله وأفعاله ورسومه مع ما لهم من العقول الشاهدة بذلك ، والنذارة دالة على البشارة ، واقتصر عليها لأنها هي التي تقع بها التسلية لما فيها من المشقة ، ولأن من الأنبياء الماضين عليهم السلام من تمحضت دعوته للنذارة لأنه لم ينتفع أحد ببشارته لعدم اتباع أحد منهم له .

ولما كان . صلى الله عليه وسلم . شديد الأسف على إبائهم رحمة لهم وخوفاً من أن يكون ذلك لتقصير في حاله ، وكان التقدير : فإن يصدقوك فهو حظهم في الدنيا والآخرة ، عطف عليه تأسية له وتسلية قوله : ﴿ وإن يكذبوك فقد ﴾ أي فتسل لأنه قد ﴿ كذب الذين ﴾ ولما كان المكذبون بعض الناس ، فلزم لذلك أن يكونوا في بعض الزمان ، دل على ذلك بالجار فقال : ﴿ من قبلهم ﴾ أي ما أتتهم به رسلهم عن الله .

ولما كان قبول الرسل لما جاءهم عن الله ونفى التقصير في الإبلاغ عنهم دالاً على علو شأنهم وسفول أمر المكذبين من الأمم ، وكل ذلك دالاً على تمام قدرة الله تعالى في المفاوتة بين الخلق ، قال دالاً على أمري العلو والسفول استئنافاً جواباً لمن كأنه قال : هل كان تكذيبهم عناداً

او لنقص في البيان : ﴿ جاءتهم ﴾ أي الأمم الخالية ﴿ رسلهم بالبينات ﴾ أي الآيات الواضحات في الدلالة على صحة الرسالة .

(75/641)

---

ولما كان التصديق بالكتاب لازماً لكل من بلغه أمره ، وكانت نسبة التكذيب إلى جميع الأمم أمراً معجباً ، كان الأمر حرياً بالتأكيد لئلا يظن أنهم ما كذبوا إلا لعدم الكتاب ، فأكد بإعادة الجار فقال : ﴿ وبالزبر ﴾ أي الأمور المكتوبة من الصحف ونحوها من السنن والأسرار ﴿ وبالكتاب ﴾ أي جنس الكتاب كالتوراة والإنجيل ﴿ المنير ﴾ أي الواضح في نفسه الموضح لطريق الخير والشر كما أنك أتيت قومك بمثل ذلك وإن كان طريقك أوضح وأظهر ، وكتابك أنور وأبهر وأظهر وأشهر .

ولما سلاه ، هدد من خالفه وعصاه بما فعل في تلك الأمم فقال ، صارفاً القول إلى الإفراد دفعاً لكل لبس ، مشيراً بأداة التراخي إلى أن طول الإمهال ينبغي أن يكون سبباً للإنابة لا للاغترار بظن الإهمال : ﴿ ثم أخذت ﴾ أي بأنواع الأخذ ﴿ الذين كفروا ﴾ أي ستروا تلك الآيات المنيرة بعد طول صبر الرسل عليهم ودعائهم لهم .

ولما كان أخذ من قص أخباره منهم عند العرب شهيراً ، وكان على وجوه من النكال

معجبة ، سبب عنه السؤال بقوله : ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي إنكاري عليهم ، أي أنه إنكار يجب السؤال عن كيفية لهوله وعظمه ، كما قال القشيري : ولئن أصروا على سنتهم في الغي فلن تجد لسنتنا تبديلاً في الانتقام والخزي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 216.220 ﴾

(76/641)

---

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير * وَلاَ الظلمات وَلاَ النور * وَلاَ الظل وَلاَ الحرور * وَمَا يَسْتَوِي الأحياء وَلاَ الأموات ﴾ .

لما بين الهدى والضلالة ولم يهتد الكافر ، وهدى الله المؤمن ضرب لهم مثلاً بالبصير والأعمى ، فالمؤمن بصير حيث أبصر الطريق الواضح والكافر أعمى ، وفي تفسير الآية مسائل :

المسألة الأولى :

ما الفائدة في تكثير الأمثلة ههنا حيث ذكر الأعمى والبصير ، والظلمة والنور ، والظل

والحرور ، والأحياء والأموات ؟ فنقول الأول مثل المؤمن والكافر فالمؤمن بصير والكافر أعمى ، ثم إن البصير وإن كان حديد البصر ولكن لا يبصر شيئاً إن لم يكن في ضوء فذكر للإيمان والكفر مثلاً ، وقال الإيمان نور والمؤمن بصير والبصير لا يخفى عليه النور ، والكفر ظلمة والكافر أعمى فله صاد فوق صاد ، ثم ذكر لمآلهما ومرجعهما مثلاً وهو الظل والحرور ، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة والكافر بكفره في حر وتعب ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأحياء وَلاَ الأموات ﴾ مثلاً آخر في حق المؤمن والكافر كأنه قال تعالى حال المؤمن والكافر فوق حال الأعمى والبصير ، فإن الأعمى يشارك البصير في إدراك ما . والكافر غير مدرك إدراكاً نافعاً فهو كالميت ويدل على ما ذكرنا أنه تعالى أعاد الفعل حيث قال أولاً : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾ وعطف الظلمات والنور والظل والحرور ، ثم أعاد الفعل ، وقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأحياء وَلاَ الأموات ﴾ كأنه جعل هذا مقابلاً لذلك .

المسألة الثانية :



---

كرر كلمة النفي بين الظلمات والنور والظل والحرور والأحياء الأموات ، ولم يكرر بين الأعمى والبصير ، وذلك لأن التكرير للتأكيد والمنافاة بين الظلمة والنور والظل والحرور

مضادة ، فالظلمة تنافي النور وتضاده والعمى والبصر كذلك ، أما الأعمى والبصير ليس كذلك بل الشخص الواحد قد يكون بصيراً وهو بعينه يصير أعمى ، فالأعمى والبصير لا منافاة بينهما إلا من حيث الوصف ، والظل والحرور والمنافاة بينهما ذاتية لأن المراد من الظل عدم الحر والبرد فلما كانت المنافاة هناك أتم ، أكد بالتكرار ، وأما الأحياء والأموات ، وإن كانوا كالأعمى والبصير من حيث إن الجسم الواحد يكون حياً محلاً للحياة فيصير ميتاً محلاً للموت ولكن المنافاة بين الحي والميت أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير ، كما بينا أن الأعمى والبصير يشتركان في إدراك أشياء ، ولا كذلك الحي والميت ، كيف والميت يخالف الحي في الحقيقة لا في الوصف على ما تبين في الحكمة الإلهية .

المسألة الثالثة :



---

قدم الأشرف في مثلين وهو الظل والحرور ، وأخره في مثلين وهو البصر والنور ، وفي مثل هذا يقول المفسرون إنه لتواخي أواخر الآي ، وهو ضعيف لأن تواخي الأواخر راجع إلى السجع ، ومعجزة القرآن في المعنى لا في مجرد اللفظ ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع فيكون اللفظ حاملاً له على تغيير المعنى ، وأما القرآن فحكمة بالغة والمعنى فيه صحيح واللفظ

فصيح فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى ، فنقول الكفار قبل النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في ضلالة فكانوا كالعمى وطريقهم كالظلمة ثم لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم وبين الحق ، واهتدى به منهم قوم فصاروا بصيرين وطريقتهم كالنور فقال وما يستوي من كان قبل البعث على الكفر ومن اهتدى بعده إلى الإيمان ، فلما كان الكفر قبل الإيمان في زمان محمد صلى الله عليه وسلم ، والكافر قبل المؤمن قدم المقدم ، ثم لما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب لقوله في الإلهيات سبقت رحمتي غضبي ، ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى وشابه الأموات في عدم إدراك الحق من جميع الوجوه فقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأحياء ﴾ أي المؤمنون الذين آمنوا بما أنزل الله والأموات الذين تليت عليهم الآيات البينات ، ولم ينتفعوا بها وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن فأخرهم عن المؤمنين لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافرين المعاندين ، وقدم الأعمى على البصير لوجود الكفار الضالين قبل البعثة على المؤمنين المهتدين بعدها .

المسألة الرابعة :

فإن قلت قابل الأعمى بالبصير بلفظ المفرد وكذلك الظل بالحرور وقابل الأحياء بالأموات بلفظ الجمع ، وقابل الظلمات بالنور بلفظ الجمع في أحدهما والواحد في الآخر ، فهل تعرف فيه حكمة ؟ قلت : نعم بفضل الله وهدايته ، أما في الأعمى والبصير والظل والحرور ، فلأنه قابل الجنس بالجنس ، ولم يذكر الأفراد لأن في العميان وأولى الأبصار قد يوجد فرد من أحد الجنسين يساوي فرداً من الجنس الآخر كالبصير الغريب في موضع والأعمى الذي هو تربية ذلك المكان ، وقد يقدر الأعمى على الوصول إلى مقصد ولا يقدر البصير عليه ، أو يكون الأعمى عنده من الذكاء ما يساوي به البليد البصير ، فالتفاوت بينهما في الجنسين مقطوع به فإن جنس البصير خير من جنس الأعمى ، وأما الأحياء والأموات فالتفاوت بينهما أكثر ، إذ ما من ميت يساوي في الإدراك حياً من الأحياء ، فذكر أن الأحياء لا يساوون الأموات سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد ، وأما الظلمات والنور فالحق واحد وهو التوحيد والباطل كثير وهو طرق الإشراك على ما بينا أن بعضهم يعبدون الكواكب وبعضهم النار وبعضهم الأصنام التي هي على صورة الملائكة ، وإلى غير ذلك والتفاوت بين كل فرد من تلك الأفراد وبين هذا الواحد بين ، فقال الظلمات كلها إذا اعتبرتها لا تجد فيها ما يساوي النور ، وقد ذكرنا في تفسير قوله : ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [ الأنعام : 1 ] السبب في توحيد النور وجمع الظلمات ، ومن جملة ذلك أن النور لا يكون إلا بوجود منور ومحل قابل للاستنارة وعدم الحائل بين النور والمستنير .

مثاله الشمس إذا طلعت وكان هناك موضع قابل للاستنارة وهو الذي يمسك الشعاع ، فإن البيت الذي فيه كوة يدخل منها الشعاع إذا كان في مقابلة الكوة منفذ يخرج منه الشعاع ويدخل بيتاً آخر ويبسط الشعاع على أرضه يرى البيت الثاني مضيئاً والأول مظلماً ، وإن لم يكن هناك حائل كالبيت الذي لا كوة له فإنه لا يضيء ، فإذا حصلت الأمور الثلاثة يستنير البيت وإلا فلا تتحقق الظلمة بفقد أي أمر كان من الأمور الثلاثة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القبور ﴾ وفيه احتمال معنيين الأول : أن يكون المراد بيان كون الكفار بالنسبة إلى سماعهم كلام النبي والوحي النازل عليه دون حال الموتى فإن الله يسمع الموتى والنبي لا يسمع من مات وقبر ، فالموتى سامعون من الله والكفار كالموتى لا يسمعون من النبي والثاني : أن يكون المراد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لما بين له أنه لا ينفعهم ولا يسمعهم قال له هؤلاء لا يسمعهم إلا الله ، فإنه يسمع من يشاء ولو كان صخرة صماء ، وأما أنت فلا تسمع من في القبور ، فما عليك من حسابهم من شيء .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾ بياناً للتسلية .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا أرسلناك بالحق بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ لما قال : ﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾ بين أنه ليس نذيراً من تلقاء نفسه إنما هو نذير بإذن الله وإرساله .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ تقريراً لأمرين أحدهما : لتسلية قلبه حيث يعلم أن غيره كان مثله محتملاً لتأذي القوم وثانيهما : إلزام القوم قبوله فإنه ليس بدعاً من الرسل وإنما هو مثل غيره يدعى ما ادعاه الرسل ويقرره .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (25)

(81/641)

---

يعني أنت جئتهم بالبينة والكتاب فكذبوك وآذوك وغيرك أيضاً أتاهم بمثل ذلك وفعلوا بهم ما فعلوا بك وصبروا على ما كذبوا فكذلك نلزمهم بأن من تقدم من الرسل لم يعلم كونهم رسلاً إلا بالمعجزات البينات وقد آتيناها محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ وبالزبر وبالكتاب المنير ﴾ والكل آتيناها محمداً ، فهو رسول مثل الرسل يلزمهم قبوله كما لزم قبول موسى وعيسى عليهم السلام أجمعين ، وهذا يكون تقريراً مع أهل الكتاب ، واعلم أنه تعالى ذكر أموراً ثلاثة أولها البينات ، وذلك لأن كل رسول فلا بد له من معجزة وهي أدنى

الدرجات ، ثم قد ينزل عليه كتاب يكون فيه مواعظ وتنبيهات وإن لم يكن فيه نسخ وأحكام مشروعة شرعاً ناسخاً ، ومن ينزل عليه مثله أعلى مرتبة ممن لا ينزل عليه ذلك وقد تنسخ شريعته الشرائع وينزل عليه كتاب فيه أحكام على وفق الحكمة الإلهية ، ومن يكون كذلك فهو من أولي العزم فقال الرسل تبين رسالتهم بالبينات وإن كانوا أعلى مرتبة فبالزبر ، وإن كانوا أعلى فبالكتاب والنبي آتيناه الكل فهو رسول أشرف من الكل لكون كتابه أتم وأكمل من كل كتاب .

ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (26)

أي من كذب بالكتاب المنزل من قبل وبالرسول المرسل أخذه الله تعالى فكذلك من يكذب بالنبي عليه السلام ، وقوله : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ سؤال للتقرير فإنهم علموا شدة إنكار الله عليهم وإتيانه بالأمر المنكر من الاستئصال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 18.15 ﴾

(82/641)

---

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) ﴾

هذه آية موعظة وتذكير ، والإنسان فقير إلى الله تعالى في دقائق الأمور وجلائلها لا يستغني عنه طرفة عين ، وهو به مستغن عن كل واحد ، والله تعالى غني عن الناس وعن كل شيء من مخلوقاته غني على الإطلاق ، و﴿ الحميد ﴾ المحمود بالإطلاق ، وقوله تعالى ﴿ بعزيز ﴾ أي بممتنع ، و﴿ تزر ﴾ معناه تحمل ، والوزر الثقل ، وهذه الآية في الذنوب والآثام والجرائم ، قاله قتادة وابن عباس ومجاهد ، وسببها أن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين اكفروا بمحمد وعلي وزركم ، فحكم الله تعالى بأنه لا يحملها أحد عن أحد ، ومن تطرق من الحكام إلى أخذ قريب بقريبه في جريمة كفعل زيادة ونحوه فإنما ذلك لأن المأخوذ ربما أعان المجرم بمؤازرة ومواصلة أو اطلاع على حاله وتقرير لها ، فهو قد أخذ من الجرم بنصيب ، وهذا هو المعنى في قوله تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ [ العنكبوت : 13 ] لأنهم أغووهم ، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم " من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة بعده ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها بعده " وأنث ﴿ وازرة ﴾ لأنه ذهب بها مذهب النفس وعلى ذلك أجريت ﴿ مثقلة ﴾ ، و" الحمل " ما كان على الظهر في الأجرام ، ويستعار للمعاني

كالذنوب ونحوها ، فيجعل كل محمول متصلاً بالظهر ، كما يجعل كل اكتساب منسوباً إلى اليد ، واسم ﴿ كان ﴾ مضمر تقديره ولو كان الداعي ، ثم أخبر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أنه إنما ينذر أهل الخشية وهم الذي يمنحون العلم ، أي إنما ينتفع بالإنذار هم وإلا فلنذارة جميع العالم بعثه ، وقوله ﴿ بالغيب ﴾ أي وهو بحال غيبة عنهم إنما هي رسالة ، ثم خصص من الأعمال إقامة الصلاة تنبيهاً عليها وتشريفاً لها ، ثم حض على التزكي بأن رجى عليه غاية الترجية ، وقرأ طلحة "ومن أزكى فإنما يزكي" ، ثم توعد بعد ذلك بقوله ﴿ وإلى الله المصير ﴾ .

*(84/641)*

---

قال القاضي أبو محمد : وكل عبارة مقصرة عن تبيين فصاحة هذه الآية ، وكذلك كتاب الله كله ، ولكن يظهر الأمر لنا نحن في مواضع أكثر منه في مواضع بحسب تقصيرنا .

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19)

مضمن هذه الآية طعن على الكفرة وتمثيل لهم بالعمى والظلمات وتمثيل المؤمنين بآرائهم بالبصراء والأنوار ، وقوله ﴿ ولا النور ﴾ ودخول ﴿ لا ﴾ فيها وفيما بعدها إنما هو على نية التكرار كأنه قال ﴿ ولا الظلمات ﴾ والنور ، ﴿ ولا النور ﴾ ولا الظلمات ،

فاستغنى بذكر الأوائل عن الثواني ودل مذكور الآية على متروكه ، و ﴿ الحرور ﴾ شدة حر الشمس ، وقال رؤبة بن العجاج ﴿ الحرور ﴾ بالليل والسموم بالنهار ، وليس كما قال وإنما الأمر كما حكى الفراء وغيره أن السموم يختص بالنهار و ﴿ الحرور ﴾ يقال في حر الليل وفي حر النهار ، وتأول قوم ﴿ الظل ﴾ في هذه الآية الجنة ، و ﴿ الحرور ﴾ جهنم ، وشبه المؤمنين ب ﴿ الأحياء ﴾ والكفرة ب ﴿ الأموات ﴾ من حيث لا يفهمون الذكر ولا يقبلون عليه ، ثم رد الأمر إلى مشيئة الله تعالى بقوله ﴿ إن الله يسمع من يشاء ﴾ ، وقوله ﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ تمثيل بما يحسه البشر ويعهده جميعنا من أن الميت الذي في القبر لا يسمع ، وأما الأرواح فلا نقول إنها في القبر بل تتضمن الأحاديث أن أرواح المؤمنين في شجر عند العرش وفي قناديل وغير ذلك ، وأن أرواح الكفرة في سجين ويجوز في بعض الأحيان أن تكون الأرواح عند القبور فربما سمعت وكذلك أهل قليب بدر إنما سمعت أرواحهم ، وكذلك سماع الميت خفق النعال إنما هو برد روحه عليه عند لقاء الملكين .

قال القاضي أبو محمد : فهذه الآية لا تعارض حديث القليب لأن الله تعالى رد على أولئك أرواحهم في القليب ليوبخهم ، وهذا على قول عمر وابنه عبد الله وهو الصحيح إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " ما أنتم بأسمع منهم " ، وأما عائشة فمذهبها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسمعهم وأنه إنما قصد توبيخ الأحياء من الكفرة ، وجعلت هذه الآية أصلاً واحتجت بها ، فمثل الله تعالى في هذه الآية الكفرة بالأشخاص التي في القبور ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " بمسمع من " على الإضافة ، ثم سلاه بقوله ﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ أي ليس عليك غير ذلك ، والهداية والإضلال إلى الله تعالى و ﴿ بشيراً ﴾ معناه بالنعيم الدائم لمن آمن ، ﴿ ونذيراً ﴾ معناه بالعذاب الأليم لمن كفر ، وقوله تعالى : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ معناه ان دعوة الله تعالى قد عمت جميع الخلق ، وإن كان فيهم من لم تباشره النذارة فهو ممن بلغته لأن آدم بعث إلى بنيه ثم لم تنقطع النذارة إلى وقت محمد صلى الله عليه وسلم ، والآيات التي تتضمن أن قريشاً لم يأتهم نذير ، معناه نذير مباشر ، وما ذكره المتكلمون من فرض أصحاب الفترات ونحوهم فإنما ذلك بالفرض لا أنه توجد أمة لم تعلم أن في الأرض دعوة إلى عبادة الله ، ثم سلى نبيه بما سلف من الأمم لأنبيائهم ، و ﴿ البينات والزبر والكتاب المنير ﴾ شيء واحد ، لكنه أكد أوصافه بعضها ببعض وذكره بجهاته و ﴿ الزبر ﴾ من زبرت الكتاب إذا كتبته ، ثم توعد قريشاً بذكره أخذ الأمم الكافرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾

أي الكافر والمؤمن والجاهل والعالم .

مثل : ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الخبيث والطيب ﴾ [ المائدة : 100 ] .

﴿ وَلاَ الظلمات وَلاَ النور ﴾ قال الأخفش سعيد : "لا" زائدة ؛ والمعنى ولا الظلمات والنور ، ولا الظل والحرور .

قال الأخفش : والحرور لا يكون إلا مع شمس النهار ، والسَّموم يكون بالليل ، وقيل بالعكس .

وقال رُؤْبة بن العجاج : الحرور تكون بالنهار خاصة ، والسموم يكون بالليل خاصة ، حكاه المهدوِيّ .

وقال الفرّاء : السموم لا يكون إلا بالنهار ، والحرور يكون فيهما .

النحاس : وهذا أصح ؛ لأن الحرور فعول من الحرّ ، وفيه معنى التكثير ، أي الحرّ المؤذي .

قلت : وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قالت

النار ربِّ أكل بعضي بعضاً فأذَنْ لي أتنفس فأذِن لها بنَفَسين نَفَسٍ في الشتاء ونفس في الصيف فما وجدتم من برد أو زمهرير فمن نَفَس جهنم وما وجدتم من حر أو حرور فمن نفس جهنم " وروي من حديث الزهريّ عن سعيد عن أبي هريرة : " فما تجدون من الحرّ فمن سمومها وشدّة ما تجدون من البرد فمن زمهريرها " وهذا يجمع تلك الأقوال ، وأن السموم والحرور يكون بالليل والنهار ؛ فتأمله .

وقيل : المراد بالظل والحرور الجنة والنار ؛ فالجنة ذات ظل دائم ، كما قال تعالى : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا ﴾ [ الرعد : 35 ] والنار ذات حرور ، وقال معناه السُّدّي .

وقال ابن عباس : أي ظل الليل ، وحرّ السموم بالنهار .

قُطرُب : الحرور الحر ، والظل البرد .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأحيآء وَلاَ الأموات ﴾ قال ابن قُتيبة : الأحياء العقلاء ، والأموات الجهال .

قال قتادة : هذه كلها أمثال ؛ أي كما لا تستوي هذه الأشياء كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن .

﴿ إِنَّ الله يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي يُسمع أولياءه الذين خلقهم لجنته .

﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القبور ﴾ أي الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم ؛ أي كما لا تُسمع من مات ، كذلك لا تُسمع من مات قلبه .

وقرأ الحسن وعيسى الثقفيّ وعمرو بن ميمون : "بِمُسْمِعِ مَن فِي القبورِ" بحذف التنوين تخفيفاً ؛ أي هم بمنزلة ( أهل ) القبور في أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه .

إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23)

أي رسول منذِر ؛ فليس عليك إلا التبليغ ، ليس لك من الهدى شيء إنما الهدى بيد الله تبارك وتعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بالحق بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ أي بشيراً بالجنة أهل طاعته ، ونذيراً بالنار أهل معصيته .

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أي سلف فيها نبيّ .

قال ابن جريج : إلا العرب .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ يعني كفار قريش .

﴿ فَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أنبياءهم ، يسلّي رسوله صلى الله عليه وسلم .

﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ أي بالمعجزات الظاهرات والشرائع الواضحات .

﴿ وبالزبر ﴾ أي الكتب المكتوبة .

﴿ وبالكتاب المنير ﴾ أي الواضح .

وكرر الزبر والكتاب وهما واحد لاختلاف اللفظين .

وقيل : يرجع البينات والزبر والكتاب إلى معنى واحد ، وهو ما أنزل على الأنبياء من الكتب .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الذين كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي كيف كانت عقوبتي لهم .

وأثبت وَرْش عن نافع وشيبة الياء في "نكيري" حيث وقعت في الوصل دون الوقف .

وأثبتها يعقوب في الحالين ، وحذفها الباقون في الحالين .

وقد مضى هذا كله ، والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(88/641)

---

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) ﴾

هذه آية موعظة وتذكير ، وأن جميع الناس محتاجون إلى إحسان الله تعالى وإنعامه في جميع أحوالهم ، لا يستغنى أحد عنه طرفة عين ، وهو الغني عن العالم على الإطلاق .

وعرّف الفقراء ليريهم شديد افتقارهم إليه ، إذ هم جنس الفقراء ، وإن كان العالم بأسره

مفتقر إليه ، فلضعفهم جعلوا كأنهم جميع هذا الجنس ؛ ولو نكر لكان المعنى : أنتم ، يعني الفقراء ، وقوبل الفقراء بالغني ، ووصف بالحميد دلالة على أنه جواد منعم ، فهو محمود على ما يسديه من النعم ، مستحق للحمد .

ولما ذكر أنه الغني على الإطلاق ، ذكر ما يدل على استغنائه عن العالم ، وأنه ليس بمحتاج إليهم فقال : ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ : أي إن يشأ إذهابكم يذهبكم ، وفي هذا وعيد بإهلاكهم .

﴿ وما ذلك ﴾ : أي إذهابكم ، والإتيان بخلق جديد ﴿ بعزيز ﴾ ، أي بممتنع عليه ، إذ هو المتصف بالقدرة التامة ، فلا يمتنع عليه شيء مما يريده .

ومعنى : ﴿ بخلق جديد ﴾ : بدلكم لقوله : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ وعن ابن عباس : يخلق بعدكم من يعبده ، لا يشرك به شيئاً .

وقد جاء هذا المعنى من ذكر الإذهاب بعد وصفه تعالى بالغني في قوله تعالى : ﴿ وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ﴾ وجاء أيضاً تعليق الإذهاب مختوماً آخر الآية بذكر القدرة الدالة على ذلك في قوله : ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً ﴾ روي أن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين : اكفروا بمحمد وعليّ وزركم ، فنزلت .

وأخبر تعالى ، لا يحمله أحد عن أحد .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : هذه الآية في الذنوب والجرائم .

(89/641)

---

ويقال : وزر الشيء : حمله ، ووازرة : صفة لمحذوف ، أي نفس وازرة : حاملة ، وذكر الصفة ولم يذكر الموصوف مقتصراً عليه ، لأن المعنى : أن كل نفس لا ترى إلا حامله وزرها ، لا وزر غيرها ، فلا يؤاخذ نفساً بذنب نفس ، كما يأخذ جبابرة الدنيا الجار بالجار ، والصديق بالصديق ، والقريب بالقريب .

وقال ابن عطية : ومن تطرف من الحكام إلى أخذ قريب بقريبه في جريمه ، كفعل زياد ونحوه ، فإنما ذلك ظلم ، لأن المأخوذ ربما أعان المجرم بموازرة ومواصلة ، أو اطلاع على حاله وتقرير لها ، فهو قد أخذ من الجرم بنصيب . انتهى .

وكأن ابن عطية تأول أفعال زياد وما فعل في الإسلام ، وكانت سيرته قريبة من سيرة الحجاج ، ولا منافاة بين هذه الآية في العنكبوت ، لأن تلك في الضالين المضلين يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم ، فكل ذلك أثقالهم ، ما فيها من ثقل غيرهم شيء .

ألا ترى : { وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء } { وإن تدع مثقلة } : أي نفس

مثقلة بحملها ، ﴿ إلى حملها لا يحمل منه شيء ﴾ : أي لا غياث يومئذ لمن استغاث ، ولا إعانة حتى أن نفساً قد أثقلتها الأوزار لو دعت إلى أن يخفف بعض وزرها لم تجب وإن كان المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ فالآية قبلها في الدلالة على عدل الله في حكمه وأنه لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها وهذه في نفي الإعانة والحمل ما كان على الظهر في الأجرام فاستعير للمعاني كالذنوب ونحوها فيجعل كل محمول متصلاً بالظهر كقوله :

﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ كما جعل كل اكتساب منسوباً إلى اليد .

وقرأ الجمهور : يحمل بالياء ، مبنياً للمفعول ؛ وأبو السمال عن طلحة ، وإبراهيم بن زادان عن الكسائي : بفتح التاء من فوق وكسر الميم ، وتقتضي هذه القراءة نصب شيء ، كما اقتضت قراءة الجمهور رفعه ، والفاعل بيحمل ضمير عائد على مفعول تدع المحذوف ، أي وإن تدع مثقلة نفساً أخرى إلى حملها ، لم تحمل منه شيئاً .

(90/641)

---

واسم كان ضمير يعود على المدعو المفهوم من قوله : ﴿ وإن تدع ﴾ ، هذا معنى قول الزمخشري ، قال : وترك المدعو ليعم ويشمل كل مدعو .

قال : فإن قلت : فكيف استفهام إضمار ، ولا يصح أن يكون العام ذا قربى للمثقل ؟ قلت :

هو من العموم الكائن على طريق البلد . انتهى .

وقال ابن عطية : واسم كان مضمر تقديره ولو كان .

انتهى ، أي ولو كان الداعي ذا قربى من المدعو ، فإن المدعو لا يحمل منه شيئاً .

وذكر الضمير حملاً على المعنى ، لأن قوله : ﴿ مثقلة ﴾ ، لا يريد به مؤنث المعنى فقط ، بل كل شخص ، فكأنه قيل : وإن تدع شخصاً مثقلاً .

وقرىء : ولو كان ذو قربى ، على أن كان تامة ، أي ولو حضر إذا ذاك ذو قربى ودعته ، لم يحمل منه شيئاً .

وقالت العرب : قد كان لبن ، أي حضر وحدث .

وقال الزمخشري : نظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة ، لأن المعنى : على أن المثقلة إذا دعت أحداً إلى حملها لا يحمل منه ، وإن كان مدعوها ذا قربى ، وهو معنى صحيح ملتئم .

ولو قلت : ولو وجد ذو قربى ، لتفكك وخرج عن اتساقه والتئامه . انتهى .

وهو نسق ملتئم على التقدير الذي ذكرناه ، وتفسيره كان ، وهو مبني للفاعل ، يؤخذ المبني للمفعول تفسير معنى ، وليس مرادفاً ومرادفه ، حدث أو حضر أو وقع ، هكذا فسره النحاة .

ولما سبق ما تضمن الوعيد وبعض أهوال القيامة ، كان ذلك إنذاراً ، فذكر أن الإنذار إنما

يجدي وينفع من يخشى الله .

﴿ بالغيب ﴾ : حال من الفاعل أو المفعول ، أي يخشون ربهم غافلين عن عذابه ، أو يخشون عذابه غائباً عنهم .

وقيل : بالغيب في السر ، وقيل : بالغيب ، أي وهو بحال غيبه عنهم إنما هي رسالة .

وقرأ الجمهور : ﴿ ومن تزكى ﴾ ، فعلاً ماضياً ، ﴿ فإنما يتزكى ﴾ : فعلاً ، مضارع تزكى ، أي ومن تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصي ، فإنما ثمرة ذلك عائدة عليه ، وهو إنما زكاته لنفسه لا لغيره ، والتزكي شامل للخشية وإقامة الصلاة .

*(91/641)*

---

وقرأ العباس عن أبي عمرو : ومن يزكى فإنما يزكى ، بالياء من تحت وشدّ الزاي فيهما ، وهما مضارعان أصلهما ومن يتزكى ، أدغمت التاء في الزاي ، كما أدغمت في الذال في قوله : ﴿ يذكرون ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وطلحة : ومن ازكى ، بإدغام التاء في الزاي واجتلاب همزة الوصل في الابتداء ؛ وطلحة أيضاً : فإنما يزكى ، بإدغام التاء في الزاي .

﴿ وإلى الله المصير ﴾ : وعد لمن يزكى بالثواب .

﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ﴾ الآية : هي طعن على الكفرة وتمثيل .

فالأعمى الكافر ، والبصير المؤمن ، أو الأعمى الصنم ، والبصير الله عز وجل وعلا ، أي لا يستوي معبودهم ومعبود المؤمنين .

والظلمات والنور ، والظل والحرور : تمثيل للحق والباطل وما يؤديان إليه من الثواب والعقاب .

والأحياء والأموات ، تمثيل لمن دخل في الإسلام ومن لم يدخل فيه .

والحرور : شدّة حر الشمس .

وقال الزمخشري : والحرور : السموم ، إلا أن السموم تكون بالنهار ، والحرور بالليل والنهار ؛ وقيل : بالليل . انتهى .

وقال ابن عطية : قال رؤبة : الحرور بالليل ، والسموم بالنهار ، وليس كما قال ، وإنما الأمر كما حكى الفراء وغيره : أن السموم يختص بالنهار .

ويقال : الحرور في حر الليل ، وفي حر النهار . انتهى .

ولا يرد على رؤبة ، لأنه منه تؤخذ اللغة ، فأخبر عن لغة قومه .

وقال قوم : الظل هنا : الجنة ، والحرور : جهنم ، ويستوي من الأفعال التي لا تكتفي بفاعل واحد .

فدخول لا في النفي لتأكيد معناه لقوله : ﴿ ولا تستوي الحسنة والسيئة ﴾ وقال ابن عطية : دخول لا إنما هو على هيئة التكرار ، كأنه قال : ولا الظلمات والنور ولا النور والظلمات ،

فاستغنى بذكر الأوائل عن الثواني ، ودل مذكور الكلام على متروكه . انتهى .

وما ذكر غير محتاج إلى تقديره ، لأنه إذا نفى استواء الظلمات والنور ، فأي فائدة في تقدير نفي استوائهما ثانياً وادعاء محذوفين ؟ وأنت تقول : ما قام زيد ولا عمرو ، فتؤكد بلا معنى النفي ، فكذلك هذا .

(92/641)

---

وقرأ زادان عن الكسائي : وما تستوي الأحياء ، بتاء التأنيث ؛ والجمهور : بالياء ، وترتيب هذه المنفي عنها الاستواء في غاية الفصاحة .

وذكر الأعمى والبصير مثلاً للمؤمن والكافر ، ثم البصير .

ولو كان حديد النظر لا يبصر إلا في ضوء ، فذكر ما هو فيه الكافر من ظلمة الكفر ، وما هو فيه المؤمن من نور الإيمان .

ثم ذكر مآلهما ، وهو الظل ، وهو أن المؤمن بإيمانه في ظل وراحة ، والكافر بكفره في حر وتعب .

ثم ذكر مثلاً آخر في حق المؤمن والكافر فوق حال الأعمى والبصير ، إذ الأعمى قد يشارك البصير في إدراك مّا ، والكافر غير مدرك إدراكاً نافعاً ، فهو كالميت ، ولذلك أعاد الفعل

فقال : ﴿ وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ ، كأنه جعل مقام سؤال ، وكرر لا فيما ذكر لتأكيد المنافاة .

فالظلمات تنافي النور وتضاده ، والظل والحرور كذلك ، والأعمى والبصير ليس كذلك ، لأن الشخص الواحد قد يكون بصيراً .

ثم يعرض له العمى ، فلا منافاة إلا من حيث الوصف .

والمنافاة بين الظل والحرور دائمة ، لأن المراد من الظل عدم الحر والبرد ؛ فلما كانت المنافاة أتم ، أكد بالتكرار .

وأما الأحياء والأموات من حيث أن الجسم الواحد يكون محلاً للحياة ، فيصير محلاً للموت .

فالمنافاة بينهما أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير ، لأن هذين قد يشتركان في إدراك مّا ، ولا كذلك الحي .

والميت يخالف الحي في الحقيقة ، لا في الوصف ، على ما بين في الحكمة الإلهية .

وقدّم الأشرف في مثلين ، وهو الظل والحر ؛ وآخر في مثلين ، وهما البصير والنور ، ولا يقال لأجل السجع ، لأن معجزة القرآن ليست في مجرد اللفظ ، بل فيه .

وفي المعنى : والشاعر قد يقدّم ويؤخر لأجل السجع والقرآن .

المعنى صحيح ، واللفظ فصيح ، وكانوا قبل المبعث في ضلالة ، فكانوا كالعمي ، وطريقهم الظلمة .

(93/641)

---

فلما جاء الرسول ، واهتدى به قوم ، صاروا بصيرين ، وطريقهم النور ، وقدّم ما كان متقدّماً من المتصف بالكفر ، وطريقته على ما كان متأخراً من المتصف بالإيمان وطريقته .

ثم لما ذكر المآل والمرجع ، قدّم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب ، كما جاء : سبقت رحمتي غضبي ، فقدّم الظل على الحرور .

ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى ، وشابه الأموات في عدم إدراك الحق فقال : ﴿ وما يستوي الأحياء ﴾ : الذين آمنوا بما أنزل الله ، ﴿ ولا الأموات ﴾ : الذين تليت عليهم الآيات البينات ، ولم ينتفعوا بها .

وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن ، فأخرهم لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافر .

وأفرد الأعمى والبصير ، لأنه قابل الجنس بالجنس ، إذ قد يوجد في أفراد العميان ما يساوي به بعض أفراد البصراء ، كأعمى عنده من الذكاء ما يساوي به البصير البليد .

فالتفاوت بين الجنسين مقطوع به ، لا بين الأفراد .

وجمعت الظلمات ، لأن طرق الكفر متعدّدة ؛ وأفرد النور ، لأن التوحيد والحق واحد ، والتفاوت بين كل فرد من تلك الأفراد وبين هذا الواحد فقال : الظلمات لا تجد فيها ما يساوي هذا النور .

وأما الأحياء والأموات ، فالتفاوت بينهما أكثر ، إذ ما من ميت يساوي في الإدراك حياً ، فذكر أن الأحياء لا يساوون الأموات ، سواء قابلت الجنس بالجنس ، أم قابلت الفرد بالفرد . انتهى .

من كلام أبي عبد الله الرازي ، وفيه بعض تلخيص .

ثم سلى رسوله بقوله : ﴿ إن الله يسمع من يشاء ﴾ : أي إسماع هؤلاء منوط بمشيئتنا ، وكنى بالإسماع عن الذي تكون عنه الإجابة للإيمان .

ولما ذكر أنه ﴿ ما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ ، قال : ﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ : أي هؤلاء ، من عدم إصغائهم إلى سمع الحق ، بمنزلة من هم قد ماتوا فأقاموا في قبورهم .

فكما أن من مات لا يمكن أن يقبل منك قول الحق ، فكذلك هؤلاء ، لأنهم أموات القلوب .

وقرأ الأشهب ، والحسن بمسمع من ، على الإضافة ؛ والجمهور : بالتنوين .

﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ : أي ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر .

فإن كان المنذر ممن أراد الله هدايته سمع واهتدى ، وإن كان ممن أراد الله ضلاله فما عليك ، لأنه تعالى هو الذي يهدي ويضل .

و﴿ بالحق ﴾ : حال من الفاعل ، أي محق .

أو من المفعول ، أي محقاً ، أو صفة لمصدر محذوف ، أي إرسالاً بالحق ، أي مصحوباً .

قال الزمخشري : أو صلة بشير ونذير ، فنذير على بشير بالوعد الحق ؛ ونذير بالوعيد . انتهى .

ولا يمكن أن يتعلق بالحق هذا بشير ونذير معاً ، بل ينبغي أن يتأول كلامه على أنه أراد أن ثم محذوفاً ، والتقدير : بالوعد الحق بشيراً ، وبالوعيد الحق نذيراً ، فحذف المقابل لدلالة مقابله عليه .

﴿ وإن من أمّة إلا خلا فيها نذير ﴾ ، الأمة : الجماعة الكثيرة ، والمعنى : أن الدعاء إلى الله لم ينقطع عن كل أمة .

أما بمباشرة من أنبيائهم وما ينقل إلى وقت بعثة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ، والآيات التي تدل على أن قريشاً ما جاءهم نذير معناه لم يباشرهم ولا آباؤهم القريبين ، وأما أن النذارة انقطعت فلا .

ولما شرعت آثار النذراة تندرس ، بعث الله محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) .

وما ذكره أهل علم الكلام من حال أهل الفترات ، فإن ذلك على حسب العرض لأنه واقع ،

ولا توجد أمة على وجه الأرض إلا وقد علمت الدعوة إلى الله وعبارته .

واكتفى بذكر نذير عن بشير ، لأنها مشفوعة بها في قوله : ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ ، فدل ذلك

على أنه مراد ، وحذف للدلالة عليه .

﴿ وإن يكذبوك ﴾ : مسلاة للرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، وتقدّم الكلام على نظير

هذه الجمل في أواخر آل عمران .

قوله : ﴿ فكيف كان نكير ﴾ ، توعد لقريش بما جرى لمكذبي رسلهم . انتهى ا .

هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(95/641)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأعمى والبصير ﴾

أي الكافرُ والمؤمنُ ﴿ وَلاَ الظلمات وَلاَ النور ﴾ أي ولا الباطلُ ولا الحقُّ وجمع الظلمات مع

أفرادِ النّورِ لتعدُّدِ فنونِ الباطلِ واتّحادِ الحقِّ ﴿ وَلاَ الظل وَلاَ الحرور ﴾ أي ولا الثَّوابُ ولا

العقابُ. وإدخالُ لا على المتقابلينِ لتذكيرِ نفيِ الاستواءِ وتوسيطُها بينهُما للتَّأكيدِ.

والحَرَورُ فَعولٌ من الحرِّ غلب على السَّمومِ وقيل: السَّمومُ ما يهبُّ نهاراً والحَرورُ ما يهبُّ ليلاً ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الاحياء وَلَا الاموات ﴾ تمثيلٌ آخرُ للمؤمنينَ والكافرينَ أبلغُ من الأَوَّلِ ولذلك كُرِّرَ الفعلُ وأُوثر صيغةُ الجمعِ في الطَّرفينِ تحقيقاً للتَّباينَ بين أفرادِ الفريقينِ وقيل: تمثيلٌ للعُلماءِ والجَهَلةِ ﴿ إِنَّ الله يُسْمِعُ مَن يَشَاء ﴾ أنْ يُسمعه ويوفِّقه لفهمِ آياتِه والاتِّعاظِ بعظاتِه ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى القبور ﴾ ترشيحٌ لتمثيل المصرِّينَ على الكُفرِ بالأمواتِ وإشباعٌ في إقناطِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من إيمانِهم.

(96/641)

---

﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾ ما عليكَ إلا الإنذارُ وأمَّا الإسماعُ ألبتةَ فليس من وظائِفك ولا حيلةَ لك إليه في المطبوعِ على قلوبهم ﴿ إِنَّا أرسلناك بالحق ﴾ أي محقِّين أو محقّاً أنتَ أو إرسالاً مصحُوباً بالحقِّ ويجوزُ أنْ يتعلَّق بقوله ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ أي بشيراً بالوعدِ الحقِّ ونذيراً بالوعيدِ الحقِّ ﴿ وَإِن مّنْ أُمَّةٍ ﴾ أي ما من أمةٍ من الأممِ الدَّارجةِ في الأزمنةِ الماضيةِ ﴿ إِلاَّ خَلاَ ﴾ أي مَضَى ﴿ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ من نبيَ أو عالمٍ يُنذرهم. والاكتفاءُ بذكرِه للعلمِ بأنَّ النِّذارةَ قرينةُ البشارةِ لا سيِّما وقد اقترنا آنفاً ولأنَّ الإنذارَ هو الأنسبُ بالمقامِ ﴿ وَإِن

يُكَذِّبُوكَ ﴾ أي تموا على تكذيبك فلا تبالِ بهم وبتكذيبهم ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأممِ العاتيةِ ﴿ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ أي المعجزاتِ الظَّاهرةِ الدَّالَّةِ على نبوَّتهم ﴿ وبالزبر ﴾ كصُحفِ إبراهيمَ ﴿ وبالكتاب المنير ﴾ كالتَّوارةِ والإنجيلِ والزَّبورِ على إرادةِ التَّفصيلِ دُون الجمعِ ويجوزُ أنْ يُرادَ بهما واحدٌ والعطفُ لتغايرِ العُنوانينِ ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الذين كَفَرُواْ ﴾ وضعَ الموصولَ موضعَ ضميرِهم لذمِّهم بما في حيِّزِ الصِّلَةِ والإشعارِ بعلَّةِ الأخذِ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكارِي بالعقوبةِ وفيه مزيدُ تشديدٍ وتهويلٍ لها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(97/641)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19) ﴾

عطف على قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى البحران ﴾ [ فاطر : 12 ] والأعمى والبصير مثلان للكافر والمؤمن كما قال قتادة .

والسدى .

وغيرهما .

وقيل : هما مثلان للصنم عز وجل فهو من تتمة قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الملك ﴾

[ فاطر : 13 ] والمعنى لا يستوي الله تعالى مع ما عبدتم .

﴿ وَلاَ الظلمات وَلاَ النور ﴾ أي ولا الباطل ولا الحق .

﴿ وَلاَ الظل وَلاَ الحرور ﴾ ولا الثواب ولا العقاب ، وقيل : ولا الجنة ولا النار ، والحرور فعول من الحر وأطلق كما حكى عن الفراء على شدة الحر ليلاً أو نهاراً ، وقال أبو البقاء : هو شدة حر الشمس ، وفي الكشاف الحرور السموم إلا أن السموم يكون بالنهار والحرور بالليل والنهار ، وقيل : بالليل .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾

تمثيل آخر للمؤمنين الذين دخلوا في الدين بعد البعثة والكافرين الذين أصروا واستكبروا فالتعريف كما قال الطيبي للعهد ، وقيل : للعلماء والجهلاء .

والثعالبي جعل الأعمى والبصير مثلين لهما وليس بذاك ﴿ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء ﴾ أي يسمعه ويجعله مدركاً للأصوات ، وقال الخفاجي : وغيره : ولعل في الآية ما يقتضي أن المراد يسمع من يشاء سماع تدبر وقبول لآياته عز وجل : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى القبور ﴾ ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات واشباع في إقناطه عليه الصلاة والسلام من إيمانهم ، والباء مزيدة للتأكيد أي وما أنت مسمع ، والمراد بالسماع هنا ما أريد به في سابقه ، ولا يأبى إرادة السماع المعروف ما ورد في حديث القليب لأن المراد نفي الإسماع

بطريق العادة وما في الحديث من باب ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى ﴾ [ الأنفال : 17 ] وإلى هذا ذهب البعض ، وقد مر الكلام في ذلك فلا تغفل .

*(98/641)*

---

وما ألطف نظم هذه التمثيلات فقد شبه المؤمن والكافر أولا بالبحرين وفضل البحر الأجاج على الكافر لخلوه من النفع ثم بالأعمى والبصير مستتبعاً بالظلمات والنور والظل والحرور فلم يكتف بفقدان نور البصر حتى ضم إليه فقدان ما يمده من النور الخارجي وقرن إليه نتيجة ذلك العمى والفقدان فكان فيه ترق من التشبيه الأول إليه ثم بالأحياء والأموات ترقياً ثانياً وأردف قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى القبور ﴾ [ فاطر : 22 ] .

وذكر الطيبي أن إخلاء الثاني من لا المؤكدة لأنه كالتهيد لقوله تعالى : ﴿ وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ [ فاطر : 22 ] ولهذا كرر ( وما يستوي ) وأما ذكرها في التمثيلين بعده فلأنهما مقصودان في أنفسهما إذ ما فيهما مثلان للحق والباطل وما يؤديان إليه من الثواب والعقاب دون المؤمن والكافر كما في غيرهما ، وإنما حملت على أنها زائدة للتأكيد إذ ليس المراد أن الظلمات في نفسها لا تستوي بل تتفاوت فمن ظلمة هي أشد من أخرى مثلاً

وكذا يقال فيما بعد بل المراد أن الظلمات لا تساوي النور والظل لا يساوي الحرور والأحياء لا تساوي الأموات .

وزعم ابن عطية أن دخول لا على نية التكرار كأنه قيل : ولا الظلمات والنور ولا النور والظلمات وهكذا فاستغنى بذكر الأوائل عن الثواني ودل مذكور الكلام على متروكه ، والقول بأنها مزيد لتأكيد النفي يغني عن اعتبار هذا الحذف الذي لا فائدة فيه .

وقال الإمام : كررت لا فيما كررت لتأكيد المنافاة فالظلمات تنافي النور وتضاده والظل والحرور كذلك لأن المراد من الظل عدم الحر والبرد بخلاف الأعمى والبصير فإن الشخص الواحد قد يكون بصيراً .



---

ثم يعرض له العمى فلا منافاة إلا من حيث الوصف ، وأما الأحياء والأموات فيهما وإن كانا كالأعمى والبصير من حيث أن الجسم الواحد قد يكون حياً ثم يعرض له الموت لكن المنافاة بين الحي والميت أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير فإنهما قد يشتركان في إدراك أشياء ولا كذلك الحي والميت كيف والميت مخالف الحي في الحقيقة على ما تبين في الحكمة الإلهية ، وقيل لم تكرر قبل وكررت بعد لأن المخاطب في أول الكلام لا يقصر في فهم المراد ، وقيل

كررت فيما عدا الأخير لأنه لو قيل وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور مثلاً لتوهم نفي الاستواء بين مجموع الأعمى والبصير ومجموع الظلمات والنور ، وفي الأخير للاعتناء وإدخال ﴿ لا ﴾ على المتقابلين لتذكير نفي الاستواء ، وقدم الأعمى على البصير مع أن البصير أشرف لأنه إشارة إلى الكافر وهو موجود قبل البعثة والدعوة إلى الإيمان ، ولنحو هذا قدم الظلمات على النور فإن الباطل كان موجوداً فدمغه الحق ببعثته عليه الصلاة والسلام ، ولم يقدم الحرور على الظل ليكون على طرز ما سبق من تقديم غير الأشرف بل قدم الظل رعاية لمناسبته للعمى والظلمة من وجه أو لسبق الرحمة مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة .

وقدم الأحياء على الأموات ولم يعكس الأمر ليوافق الأولين في تقديم غير الأشرف لأن الأحياء إشارة إلى المؤمنين بعد الدعوة والأموات إشارة إلى المصرين على الكفر بعدها ولذا قيل بعد ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴾ الخ ووجود المصرين بوصف الأصرار بعد وجود المؤمنين ، وقيل قدم ما قدم فيما عدا الأخير لأنه عدم وله مرتبة السبق وفي الأخير لأن المراد بالأموات .

فاقدو الحياة بعد الاتصاف بها كما يشعر به إرداف ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ ﴾ فيكون للحياة مع أنها وجودّية رتبة السبق أيضاً ، وقيل إن تقديم غير الأشرف مع انفهام أنه غير أشرف على الأشرف للإشارة إلى أن التقديم صورة لا يخل بشرف الأشرف .

فالنار يعلوها الدخان وربما . . .

يعلو الغبار عمائم الفرسان

وجمع الظلمات مع إفراد النور لتعدد فنون الباطل واتحاد الحق ، وقيل لأن الظلمة قد تتعدد فتكون في محال قد تخلل بينهما نور والنور في هذا العالم وإن تعدد إلا أنه يتحد وراء محل تعدده ، وجمع الأحياء والأموات على بابه لتعدد المشبه بهما ولم يجمع الأعمى والبصير لذلك لأن القصد إلى الجنس والمفرد أظهر فيه مع أن في البصراء ترك رعاية الفاصلة وهو على الذوق السليم دون البصير ، فتدبر جميع ذلك والله تعالى أعلم بأسرار كتابه وهو العليم الخبير .

وقرأ الأشهب .

والحسن ﴿ بِمُسْمِعٍ مَّن ﴾ بالإضافة

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أي ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر فإن كان المنذر ممن أراد الله تعالى هدايته سمع واهتدى وإن كان ممن أراد سبحانه ضلاله وطبع على قلبه فما عليك منه

تبعة .

﴿ إِنَّا أرسلناك بالحق ﴾ أي محقين على أنه حال من الفاعل أو محقاً على أنه حال من المفعول أو إرسالاً مصحوباً بالحق على أنه صفة لمصدر محذوف ، وجوز الزمخشري تعلقه بقوله سبحانه : ﴿ بَشِيراً ﴾ ومتعلق قوله تعالى : ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ محذوف لدلالة المقابل على مقابله أي بشيراً بالوعد الحق ونذيرا بالوعيد الحق .

(101/641)

---

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ ﴾ أي ما من جماعة كثيرة أهل عصر وأمة من الأمم الدارجة في الأزمنة الماضية ﴿ إِلاَّ خلاَ ﴾ مضى ﴿ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ من نبي أو عالم ينذرها ، والاكتفاء بذكره للعلم بأن النذارة قريبة البشارة لا سيما وقد اقترنا آنفاً مع أن الإنذار أنسب بالمقام ، وقيل خص النذير بالذكر لأن البشارة لا تكون إلا بالسمع فهو من خصائص الأنبياء عليهم السلام فالبشير نبي أو ناقل عنه بخلاف النذارة فإنها تكون سمعاً وعقلاً فلذا وجه النذير في كل أمة ، وفيه بحث .

واستدل بعض الناس بهذه الآية مع قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أمثالكم ﴾ [ الأنعام : 38 ] على في البهائم وسائر الحيوانات أنبياء أو

علماء ينذرون ، والاستدلال بذلك باطل لا يكاد ينفي بطلانه على أحد حتى على البهائم ، ولم نسمع القول بنبوة فرد من البهائم ونحوها إلا عن الشيخ محيي الدين ومن تابعه قدس الله سره ، ورأيت في بعض الكتب أن القول بذلك كفر والعياذ بالله تعالى .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم العاتية فلا تحزن من تكذيب هؤلاء إياك .

﴿ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم ﴾ في موضع الحال على ما قال أبو البقاء إما بدون تقدير قد أو بتقديرها أي كذب الذين من قبلهم وقد جاءتهم رسلهم ﴿ بالبينات ﴾ أي بالمعجزات الظاهرة الدالة على صدقهم فيما يدعون ﴿ وبالزبر ﴾ كصحف إبراهيم عليه السلام ﴿ وبالكتاب المنير ﴾ كالتوراة والإنجيل على إرادة التفصيل يعني أن بعضهم جاء بهذا وبعضهم جاء بهذا لا على إرادة الجمع وأن كل رسول جاء بجميع ما ذكر حتى يلزم أن يكون لكل رسول كتاب وعدد الرسل أكثر بكثير من عدد الكتب كما هو معروف ، ومآل هذا إلى منع الخلو ، ويجوز أن يراد بالزبر والكتاب واحد والعطف لتغاير العنوانين لكن فيه بعد .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الذين كَفَرُواْ ﴾ وضع الظاهر موضع ضميرهم لذمهم بما حيز الصلة والإشعار بعلة الأخذ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري عليهم بالعقوبة ، وفيه مزيد تشديد وتهويل وقد تقدم الكلام في نظير هذا في سبأ ( 45 ) فتذكر .

وفي الآية من تسليته صلى الله عليه وسلم ما فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

(103/641)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) ﴾

ثم ذكر سبحانه افتقار خلقه إليه ، ومزيد حاجتهم إلى فضله ، فقال : ﴿ يا أَيُّهَا الناس أَنتُمُ الفقراء إِلَى الله ﴾ أي : المحتاجون إليه في جميع أمور الدين والدنيا ، فهم الفقراء إليه على الإطلاق ، و ﴿ هُوَ الغنى ﴾ على الإطلاق ﴿ الحميد ﴾ أي : المستحقّ للحمد من عباده بإحسانه إليهم .

ثم ذكر سبحانه نوعاً من الأنواع التي يتحقق عندها افتقارهم إليه ، واستغناؤه عنهم ، فقال : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي : إن يشأ يفنكم ، ويأت بدلكم بخلق

جديد يطيعونه، ولا يعصونه، أو يأت بنوع من أنواع الخلق، وعالم من العالم غير ما تعرفون ﴿ وَمَا ذلك ﴾ إلاّ ذهاب لكم، والإتيان بآخرين ﴿ عَلَى الله بِعَزِيزٍ ﴾ أي: بممتنع، ولا متعسر، وقد مضى تفسير هذا في سورة إبراهيم ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ أي: نفس وازرة، فحذف الموصوف للعلم به، ومعنى تزر: تحمل.

والمعنى: لا تحمل نفس حمل نفس أخرى، أي: إنّما بل كل نفس تحمل وزرها، ولا تخالف هذه الآية قوله: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: 13]؛ لأنهم إنما حملوا أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم، والكلّ من أوزارهم، لا من أوزار غيرهم، ومثل هذا حديث: " من سنّ سنة سيئة، فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " فإن الذين سنّ السنة السيئة إنما حمل وزر سنته السيئة، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية مستوفى.

﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِهَا ﴾ قال الفرّاء: أي: نفس مثقلة، قال: وهذا يقع للمذكر، والمؤنث.

قال الأخفش : أي وإن تدع مثقلة إنساناً إلى حملها ، وهو : ذنوبها ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ ﴾ أي : من حملها ﴿ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ أي : ولو كان الذي تدعوه ذا قرابة لها ، لم يحمل من حملها شيئاً .

ومعنى الآية : وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفساً أخرى إلى حمل شيء من ذنوبها معها لم تحمل تلك المدعوّة من تلك الذنوب شيئاً ، ولو كانت قريبة لها في النسب ، فكيف بغيرها مما لا قرابة بينها ، وبين الداعية لها ؟ وقرئ : ( ذو قربى ) على أن كان تامة ، كقوله : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ [ البقرة : 280 ] .

وجملة ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان من يتعظ بالإنذار ، ومعنى ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغيب ﴾ : أنه يخشونه حال كونهم غائبين عن عذابه ، أو يخشون عذابه ، وهو غائب عنهم ، أو يخشونه في الخلوات عن الناس .

قال الزجاج : تأويله أن إنذارك إنما ينفع الذين يخشون ربهم ، فكأنك تنذرهم دون غيرهم ممن لا ينفعهم الإنذار ، كقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يخشاها ﴾ [ النازعات : 45 ] وقوله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر وَخشِىَ الرحمن بالغيب ﴾ [ يس : 11 ] .

ومعنى ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ : أنهم احتفلوا بأمرها ، ولم يشتغلوا عنها بشيء مما يلهيهم .

﴿ وَمَن تزكى فَإِنَّمَا يتزكى لِنَفْسِهِ ﴾ التزكي : التطهر من أدناس الشرك ، والفواحش ، والمعنى : أن من تطهر بترك المعاصي ، واستكثر من العمل الصالح ، فإنما يتطهر لنفسه ، لأن

نفع ذلك مختصّ به كما أن وزر من تدنس لا يكون إلاّ عليه لا على غيره .

قرأ الجمهور : ﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى ﴾ وقرأ أبو عمرو : "فإنما يزكى" بإدغام التاء في الزاي ، وقرأ ابن مسعود ، وطلحة : ( ومن أزكى فإنما يزكى ) .

(105/641)

---

﴿ وإلى الله المصير ﴾ لا إلى غيره ، ذكر سبحانه أوّلاً : أنه لا يحمل أحد ذنب أحد ، ثم ذكر ثانياً : أن المذنب إن دعا غيره ، ولو كان من قرابته إلى حمل شيء من ذنوبه لا يحمله ، ثم ذكر ثالثاً : أن ثواب الطاعة مختصّ بفاعلها ليس لغيره منه شيء .

ثم ضرب مثلاً للمؤمن ، والكافر ، فقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأعمى ﴾ أي : المسلوب حاسة البصر ﴿ والبصير ﴾ الذي له ملكة البصر ، فشبه الكافر بالأعمى ، وشبه المؤمن بالبصير ﴿ وَلاَ الظلمات وَلاَ النور ﴾ أي : ولا تستوي الظلمات ولا النور ، فشبه الباطل بالظلمات ، وشبه الحقّ بالنور .

قال الأخفش : و "لا" في قوله : ﴿ ولا النور ﴾ ، ﴿ ولا الحرور ﴾ زائدة ، والتقدير وما يستوي الظلمات والنور ، ولا الظلّ والحرور ، والحرور شدّة حرّ الشمس .

قال الأخفش : والحرور لا يكون إلاّ مع شمس النهار ، والسموم يكون بالليل .

وقيل : عكسه .

وقال رؤبة بن العجاج : الحرور يكون بالليل خاصة ، والسموم يكون بالنهار خاصة .

وقال الفراء : السموم لا يكون إلاّ بالنهار ، والحرور يكون فيهما .

قال النحاس : وهذا أصح .

وقال قطرب : الحرور الحرّ ، والظلّ البرد ، والمعنى : أنه لا يستوي الظلّ الذي لا حرّ فيه ، ولا أذى ، والحرّ الذي يؤذي .

قيل : أراد الثواب والعقاب ، وسمي الحرّ حروراً مبالغة في شدّة الحرّ ، لأن زيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى .

وقال الكلبي : أراد بالظلّ الجنة ، وبالحرور النار .

وقال عطاء : يعني : ظل الليل ، وشمس النهار .

قيل : وإنما جمع الظلمات ، وأفرد النور لتعدّد فنون الباطل ، واتحاد الحقّ .

ثم ذكر سبحانه تمثيلاً آخر للمؤمن ، والكافر ، فقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأحياء وَلاَ الأموات ﴾ ، فشبه المؤمنين بالأحياء ، وشبه الكافرين بالأموات .

وقيل : أراد تمثيل العلماء ، والجهلة .

وقال ابن قتيبة : الأحياء العقلاء ، والأموات الجهال .

قال قتادة : هذه كلها أمثال ، أي : كما لا تستوي هذه الأشياء كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن ﴿ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴾ أن يسمعه من أوليائه الذين خلقهم لجنته ، ووفقهم لطاعته ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القبور ﴾ يعني : الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم ، أي : كما لا تسمع من مات كذلك لا تسمع من مات قلبه ، قرأ الجمهور بتنوين : ﴿ مسمع ﴾ وقطعه عن الإضافة .

وقرأ الحسن ، وعيسى الثقفي ، وعمرو بن ميمون بإضافته ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أي : ما أنت إلاّ رسول منذر ليس عليك إلاّ الإنذار ، والتبليغ ، والهدى ، والضلالة بيد الله عزّ وجلّ .

﴿ إِنَّا أرسلناك بالحق ﴾ يجوز : أن يكون ﴿ بالحقّ ﴾ في محل نصب على الحال من الفاعل ، أي : محقين ، أو من المفعول ، أي : محقاً ، أو نعت لمصدر محذوف ، أي : إرسالاً ملتبساً بالحقّ ، أو هو متعلق ب ﴿ بشيراً ﴾ ، أي : بشيراً بالوعد الحقّ ، ونذيراً بالوعد الحقّ ، والأولى : أن يكون نعتاً للمصدر المحذوف ، ويكون معنى بشيراً : بشيراً لأهل الطاعة ، ونذيراً لأهل المعصية ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أي : ما من أمة من الأمم الماضية إلاّ مضى فيها نذير من الأنبياء ينذرها ، واقتصر على ذكر النذير دون البشير ، لأنه ألصق بالمقام .

ثم سلى نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعزّاه ، فقال : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : كذب من قبلهم من الأمم الماضية أنبياءهم ﴿ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ أي : بالمعجزات الواضحة ، والدلالات الظاهرة ﴿ وبالزبر ﴾ أي : الكتب المكتوبة كصحف إبراهيم ﴿ وبالكتاب المنير ﴾ كالتوراة ، والإنجيل ، قيل : الكتاب المنير داخل تحت الزبر ، وتحت البينات ، والعطف لتغاير المفهومات ، وإن كانت متحدة في الصدق ، والأولى تخصيص البينات بالمعجزات ، والزبر بالكتب التي فيها مواعظ ، والكتاب بما فيه شرائع ، وأحكام ، ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الذين كَفَرُواْ ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير يفيد التصريح بذمهم بما في حيز الصلة ، ويشعر بعلة الأخذ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي : فكيف كان نكيري عليهم ، وعقوبتي لهم ، وقرأ ورش عن نافع وشيبة بإثبات الياء في : ﴿ نكير ﴾ وصلاً ولا وقفاً ، وقد مضى بيان معنى هذا قريباً .

وقد أخرج أحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع : " ألا لا يجني جانٍ إلاّ على نفسه ، لا يجني والد على ولده ، ولا مولود على والده " وأخرج سعيد بن منصور ، وأبو داود ،

والترمذي، والنسائي، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أبي رمثة قال: انطلقت مع أبي نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأيته قال لأبي: ابنك هذا؟ قال: أي، وربّ الكعبة، قال: أما أنه لا يجني عليك، ولا تجني عليه، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ قال: يكون عليه وزر لا يجد أحداً يحمل عنه من وزره شيئًا. انتهى انتهى. اهـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(108/641)

---

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب:

[الإيحاء النفسي.. وأسلوب الدعوة]

قوله تعالى: «وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ.. إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ»

..

فى هذه الآيات عرض لما بين الأشياء ونقيضها من تفاوت بعيد ، واختلاف شديد . .

وأن الشيء ونقيضه لا يستويان أبدا . .

(109/641)

---

فالأعمى . . والبصير . . لا يستويان . . هذا أعمى ، وذاك مبصر . .

والظلمات . . والنور . لا يستويان كذلك . هذه ظلمات ، وذاك نور . .

والظل . . والحرور . . لا يستويان أيضا . . هذا ظل بارد ، وذاك سموم حار . .

والأحياء . . والأموات . . على رفى نقيض . . هؤلاء أحياء ، وأولئك أموات هامدون . .

ويلاحظ هنا أمران :

أولهما : جمع الظلمات ، وإفراد النور . .

وذلك لأن الظلمات هى ظلال أشباح ، داخلة إلى عالم النور ، إذ كان العالم كله نورا من نور اللّه ، كما يقول سبحانه : « اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ » فالعالم كيان واحد من نور ، وهذا الظلام الذي يرى فى العالم ، إنما هو من ظلال تلك الأشباح الكثيفة الداخلة عليه . .

ومن جهة أخرى ، فإن الذي يعيش فى النور ، إنما يأخذ طريقا واحدا فيه إلى غايته ، أما

الذي يعيش فى الظلمات ، فإنه لا يعرف له طريقا . . بل يتحرك مضطربا على طرق شتى . .

وثانيهما : تقديم الظل على الحرور ، والأحياء على الأموات . . وكان النظم يقضى بتقديم الحرور على الظل ، والأموات ، على الأحياء ، لتتسق ألوان الصورة كلها ، فيكون الأسود المعتم (الأعمى ، والظلمات ، والحرور ، والأموات) ـ فى جانب ، والأبيض المشرق (البصير ، والنور ، والأحياء ، والظل) ـ فى جانب آخر ! فما حكمة هذا ؟ .

نقول ـ والله أعلم ـ إن الجواب على هذا من وجهين :



---

أولا : أن الظل هو نعمة ، فى مقابلة الحرور ، وكذلك الحياة نعمة ، فى مقابلة الموت . .

فقدمت هنا نعمتان ، على حين قدمت قبلهما آفتان ، هما العمى والظلمات . .

وفى هذا التوزيع توازن لألوان الصورة ، حيث جاءت هكذا :

آفتان تقابلان نعمتين . . العمى والبصر ، والظلام والنور . .

ونعمتان تقابلان آفتين . . الظل والحرور ، والحياة والموت .

وثانيا : أن الأصل فى نفى الاستواء ـ وهو التوازن بين الشيئين ـ أن يقع أولا على الناقص

منهما ، فيقدّم المفضول على الفاضل ، كما فى قوله تعالى : « لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ » . .

(29 : الحشر) وقوله سبحانه : « لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » . . (95 : النساء) هذا هو الاستعمال فى أصل اللغة ، فإذا خرج الاستعمال عن هذا الأصل ، كان ذلك لغاية يراد لها . . كما فى قوله تعالى : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ » (9 : الزمر) وذلك حين لا يكون المراد هو تقرير حكم فى المفاضلة بين أمرين ، وإنما المراد هو الإلفات إلى أن الأمور ليست على وجه واحد ، وإنما لكل أمر وجهان . . وجه ، وضدّ لهذا الوجه.

مثل الوجود والعدم ، والحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والنور والظلام ، والظل والحر ، والعذب والملح . . وهكذا . . والمطلوب من الخصم أن يعترف به هنا ، هو أن الشيء الذي يمسك به ، ليس هو كل الشيء ، وإنما يقابله نقيضه ، الذي يجب أن ينظر فيه ، ويقابل الوجه الذي معه ، على الوجه الآخر ، الذي لهذا الشيء . .

فإذا كان المشركون يمسكون بالشرك ، ولا يرون أن هناك معتقدا غيره.

فيلعلموا أن هناك وجها ، آخر لا بد أن يقابل هذا الشرك ، دون التفات إلى أيهما الفاضل وأيهما المفضول . . إن الأمور لا تكون إلا على هذا الازدواج . . الشيء وضده . . وليس الشرك الذي بين أيديهم بدعا من الأشياء . . فليبحثوا عن الوجه الآخر المقابل له . . فإذا فعلوا ، كانت المرحلة الثانية من مراحل النظر ، وهى أن يوازنوا بين ما معهم من شرك ، وبين الوجه الآخر المقابل له ، وهو الإيمان . . وقد جاء الأمران الأولان على الأصل ، فقدّم فيهما المفضول على الفاضل ، على حين جاء الأمران الآخران على غير الأصل ، فقدم فيهما الفاضل على المفضول . . وبهذا أخذ كل من الفاضل والمفضول مكانه فى الصورة على قدم المساواة . . لأن الأمر ـ كما قلنا ـ لم يكن يراد منه المفاضلة ، وإنما المراد هو إثبات تلك الحقيقة التي لا خلاف عليها ، وهى الازدواج فى الأشياء ، والتقابل بين الشيء وضده . .

وفى مجىء المقطع الأول من الصورة ، على أصل الوضع فى اللغة ، الذي يتفق مع مجرى التفكير ، وذلك بتقديم المفضول على الفاضل ، فى مقام الموازنة والمفاضلة بينهما ـ فى هذا التقاء مع المشركين على أمر لا خلاف عليه ، بين مؤمن وغير مؤمن . . وهذا من شأنه ألّا يصدم تفكيرهم ، ولا يخرج بهم عن مألوفهم ، الأمر الذي يدعوهم إلى الاستماع إلى هذا الذي يعرض عليهم ، وإلى النظر فيه . .

فإذا وقع مقطع هذا الحديث من أنفسهم هذا الموقع ، واجههم المقطع الآخر من الصورة ،

وهو مقطع قد انقلب فيه الوضع ، وانعكست فيه مواقع الأمور ، فقدّم ما حقه التأخير ، وأخّر ما حقه التقديم ، وفى هذا إشارة إلى أمرين :

(112/641)

---

أولهما : أن المشركين قد انعكست فى أنفسهم حقائق الأشياء ، وأنهم إنما ينظرون إلى الأمور ، وهم فى وضع منكوس ، وأنهم لو اعتدلوا فى وضعهم لرأوا هذا المقطع من الصورة على حقيقته . . إنهم يعيشون فى الحرور ويحسبونه الظلّ ، وهم أموات ، ويحسبون أنهم أحياء . . هذا هو وضعهم ، فإذا شكّوا فى هذا فلينظروا فى هذا المقطع من الصورة التي بين أيديهم ، وسيرون أن الحرور أفضل من الظل ، وأن الميت أكثر حياة من الحىّ . . وبهذا ينكشف لهم الوضع المقلوب ، الذي ينظرون فيه إلى الأشياء . .

وثانيهما : أنهم لو أرادوا أن يقيموا الصورة كلها على وضع سليم ، لكان عليهم أن يغيّروا بأيديهم هذا الوضع الذي أخذه المقطع الثاني من الصورة ، وأن يجعلوه موافقا للوضع الأول ، فيقدموا الحرور على الظل ، والأموات على الأحياء ، وبهذا يكون الحكم على المطلوب صادرا منهم ، فتجىء الصورة العامة هكذا :

« وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الحرور ولا الظل ولا الأموات

ولا الأحياء » . . إنها عملية تدعو إلى تحريك العقل ، وإلى أن يعمل عملا جادّا على تسوية هذه المتناقضات . . فإذا اتجهت عقولهم إلى هذا الاتجاه ، كان من طبيعة الأمور ألّا ترضى عقولهم بهذه المتناقضات ، التي تقوم فى كيانهم ، حيث يؤثرون الضلال على الهدى ، والكفر على الإيمان . . وهكذا تجىء آيات اللّه ، بهذه الإيحاءات النفسية ، التي تدخل العقل فى رفق ولطف ، إلى مواطن الهدى ، ومواقع الخير . .

.وفى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ » . . إشارة إلى أن الناس فريقان : فريق يسمع آيات اللّه ويستجيب لها ، وفريق لا يسمع ولا يستجيب . .

(113/641)

---

هذه بديهة تنطق بها الحقيقة المنتزعة من المقدمة السابقة ، التي عرضت فيها هذه الأمور الأربعة . .

وفى إسناد الإسماع إلى اللّه تعالى ، إشارة إلى أن هذا الأمر كلّه بيد اللّه ، وكل شىء معلق بمشيئته : « مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » (الأنعام : 39) :

وقوله تعالى : « وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ » تيئيس للمشركين الذين استولى عليهم الشرك ، أن يكونوا فى السامعين ، وإراحة للرسول من بذل الجهد فى سبيل إسماعهم . .

إنهم أموات . . وليس من عمل الرسول أن يسمع الأموات . . «إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» . (80 : النمل) «إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ» . . فهذا هو عمل الرسول . . إنه نذير ، ينذر هؤلاء الضالّين ، ويخوفهم عذاب اللّه ، وليس من شأنه أن يفتح آذانهم التي أصمها اللّه عن أن تسمع كلماته . . وقد اقتصر هنا على جانب من رسالة الرسول ، وهو الإنذار ، لأن الخطاب فى مواجهة المشركين ، الذين لن يؤمنوا أبدا ، والذين ليس لهم إلا ما تحمل إليهم النذر من عذاب ، وبلاء . .

*(114/641)*

---

قوله تعالى : «إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ» وليس الرسول . . صلوات اللّه وسلامه عليه . . نذيرا وحسب ، وإنما هو نذير وبشير . . نذير للضالين المكذبين ، وبشير للمؤمنين المهتدين . .

وفى قوله تعالى : «وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ» إشارة إلى أن اللّه سبحانه قد بعث فى كل أمة رسولا ، ينذر ، ويبشر . . كما يقول سبحانه .

«رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» (165 : النساء) .

واقتصر هنا فى رسالة الرسل، على الإنذار، لأن المقام ـ كما قلنا ـ مقام تهديد للمشركين وأهل الضّلال، ولأن أبرز جانب فى حياة الرسل، هو الجانب الإنذارى، حيث كانت حياتهم جهادا متصلا لأهل الكفر والضلال..

قوله تعالى: «وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ»



---

البينات: المعجزات المادية، البينة الإعجاز..

والزبر: جمع زبور، مثل عمود، وعمد..

والزّبور، الشيء المقطوع من أصل.. والمراد بالزّبر هنا، ما كان ينزل على الأنبياء من آيات اللّه، تحمل عظات وعبرا، وبشريات، ونذرا..

والكتاب المنير: هو التوراة.. كما يقول سبحانه: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ» (44: المائدة) والآية مواساة للنبىّ، وعزاء كريم له من ربه، فيما يلقى من قومه من تكذيب.. فهو ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ ليس أول رسول يلقى من قومه ما لقى، من اتهام وتكذيب، وإنما ذلك شأن الرسل قبله مع أقوامهم، جاءوهم بمعجزات مادية

محسوسة، وجاءوهم بآيات اللّه وكلماته، وجاءوهم بكتاب منير من عند اللّه، يحمل دستورا متكاملا، للحياة الدنيا والآخرة. جاءوهم بكلّ هذا، فما وجدوا منهم إلا البهت والتكذيب، وإلا التهديد والأذى..

«فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ.. كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ» (35: الأحقاف) وقوله تعالى: «ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ» تلك عاقبة المكذبين برسل اللّه.. لقد أخذهم اللّه بذنوبهم، وصبّ عليهم البلاء، صبا: «فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا.. وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (40: العنكبوت). وقوله تعالى: «فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ» إلفات إلى بأس اللّه، وما أخذ به الظالمين، الذي أتوا المنكرات، فأنكر اللّه عليهم ما أتوه، وليس بعد إنكار اللّه



---

إلا النقمة والبلاء.. فكيف تجد هذا البلاء وتلك النقمة فى أصحاب المنكر؟ انظر.. إنه شىء مهول.. نعوذ باللّه منه.. انتهى انتهى. ا هـ ﴿التفسير القرآنى للقرآن حـ 11 صـ 871.879﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19) ﴾

أربعة أمثال للمؤمنين والكافرين ، وللإيمان والكفر ، شبه الكافر بالأعمى ، والكُفر بالظلمات ، والحرور والكافر بالميّت ، وشبه المؤمن بالبصير وشبه الإيمان بالنور والظل ، وشبه المؤمن بالحي تشبيه المعقول بالمحسوس .

فبعد أن بيّن قلة نفع النذارة للكافرين وأنها لا ينتفع بها غير المؤمنين ضرب للفريقين أمثالاً كاشفة عن اختلاف حاليهما ، وروعي في هذه الأشباه توزيعها على صفة الكافر والمؤمن ، وعلى حالة الكفر والإيمان ، وعلى أثر الإيمان وأثر الكفر .

وقدم تشبيه حال الكافر وكفره على تشبيه حال المؤمن وإيمانه ابتداء لأن الغرض الأهم من هذا التشبيه هو تفظيع حال الكافر ثم الانتقال إلى حسن حال ضده لأن هذا التشبيه جاء لإيضاح ما أفاده القصر في قوله : ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ [ فاطر : 18 ] كما تقدم آنفاً من أنه قصر إضافي قصرَ قلب ، فالكافر شبيه بالأعمى في اختلاط أمره بين عقل وجهالة ، كاختلاط أمر الأعمى بين إدراك وعدمه .

والمقصود : أن الكافر وإن كان ذا عقل يدرك به الأمور فإن عقله تمحض لإدراك أحوال الحياة الدنيا وكان كالعدم في أحوال الآخرة كقوله تعالى : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ [ الروم : 7 ] ، فحاله المقسم بين انتفاع بالعقل وعدمه يشبه حال الأعمى في إدراكه أشياء وعدم إدراكه .

والعمى يعبر به عن الضلال ، قال ابن رواحة :

أرانا الهدى بعد العَمَى فقلوبنا

به موقنات أن ما قال واقع . . .

ثم شبه الكفر بالظلمات في أنه يجعل الذي أحاط هو به غير متبيّن للأشياء ، فإن من خصائص الظلمة إخفاء الأشياء ، والكافر خفيت عنه الحقائق الاعتقادية ، وكلما بينها له القرآن لم ينتقل إلى أجلى ، كما لو وصفت الطريق للسائر في الظلام .

وجي في ﴿ الظلمات ﴾ بلفظ الجمع لأنه الغالب في الاستعمال فهم لا يذكرون الظلمة إلا بصيغة الجمع .

وقد تقدم في قوله : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ في الأنعام ( 1 ) .

وضُرِب الظِلّ مَثَلاً لأثر الإيمان ، وضدُّه وهو الحرور مثلاً لأثر الكفر ؛ فالظل مكان نعيم في عرف السامعين الأولين ، وهم العرب أهل البلاد الحارة التي تتطلب الظل للنعيم غالباً إلا في بعض فصل الشتاء ، وقوبل بالحَرور لأنه مُؤْلِم ومعذّب في عرفهم كما علمت ، وفي مقابلته بالحرور إيذان بأن المراد تشبيهه بالظل في حالة استطابته .

والحرور ﴾ حر الشمس ، ويطلق أيضاً على الريح الحارة وهي السموم ، أو الحَرور : الريح الحارة التي تهب بليل والسموم تهب بالنهار .

وقدم في هذه الفقرة ما هو من حال المؤمنين على عكس الفقرات الثلاث التي قبلها لأجل الرعاية على الفاصلة بكلمة ﴿ الحرور ﴾ .

وفواصل القرآن من متممات فصاحته ، فلها حظ من الإعجاز .

فحال المؤمن يشبه حال الظل تطمئن فيه المشاعر ، وتصدر فيه الأعمال عن تبصر وتريّث وإتقان .

وحال الكافر يشبه الحَرور تضطرب فيه النفوس ولا تتمكن معه العقول من التأمل والتبصر وتصدر فيها الآراء والمساعي معجَّلة متفككة .

وأعلم أن تركيب الآية عجيب فقد احتوت على واوات عطْف وأدوات نفي ؛ فكلّ من الواوين اللذين في قوله : ﴿ ولا الظلمات ﴾ الخ ، وقوله : ﴿ الظل ﴾ الخ عاطف جملة

على جملة وعاطف تشبيهات ثلاثة بل تشبيه منها يجمع الفريقين .

والتقدير : ولا تستوي الظلمات والنور ولا يستوي الظِّل والحرور ، وقد صرح بالمقدر أخيراً في قوله : ﴿ وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ .

وأما الواوات الثلاثة في قوله : ﴿ والبصير ﴾ ﴿ ولا النور ﴾ ﴿ ولا الحرور ﴾ فكل واو عاطف مفرداً على مفرد ، فهي ستة تشبيهات موزعة على كل فريق ؛ ف ﴿ البصير ﴾ عطف على ﴿ الأعمى ﴾ ، و ﴿ النور ﴾ عطف على ﴿ الظلمات ﴾ ، و ﴿ الحرور ﴾ عطف على ﴿ الظل ﴾ ، ولذلك أعيد حرف النفي .

(119/641)

---

وأما أدوات النفي فاثنان منها مؤكدان للتغلب الموجه إلى الجملتين المعطوفتين المحذوف فعلاهما ﴿ ولا الظلمات ولا الظل ﴾ ، واثنان مؤكدان لتوجه النفي إلى المفردين المعطوفين على مفردين في سياق نفي التسوية بينهما وبين ما عطفا عليهما وهما واو ﴿ ولا النور ﴾ ، وواو ﴿ ولا الحرور ﴾ ، والتوكيد بعضه بالمثل وهو حرف ﴿ لا ﴾ وبعضه بالمرادف وهو حرف ﴿ ما ﴾ ولم يؤت بأداة نفي في نفي الاستواء الأول لأنه الذي ابتدىء به نفي الاستواء المؤكد من بعد فهو كله تأييس .

وهو استعمال قرآني بديع في عطف المنفيات من المفردات والجمل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ في سورة فصّلت ( 34 ) .

وجملة وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ أظهر في هذه الجملة الفعل الذي قدّر في الجملتين اللتين قبلها وهو فعل ﴿ يستوي ﴾ لأن التمثيل هنا عاد إلى تشبيه حال المسلمين والكافرين إذ شبه حال المسلم بحال الأحياء وحال الكافرين بحال الأموات ، فهذا ارتقاء في تشبيه الحالين من تشبيه المؤمن بالبصير والكافر بالأعمى إلى تشبيه المؤمن بالحي والكافر بالميّت ، ونظيره في إعادة فعل الاستواء قوله تعالى في سورة الرعد ( 16 ) : ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور .

﴾ فلما كانت الحياة هي مبعث المدارك والمساعي كلها وكان الموت قاطعاً للمدارك والمساعي شبه الإيمان بالحياة في انبعاث خير الدنيا والآخرة منه وفي تلقي ذلك وفهمه ، وشبه الكفر بالموت في الانقطاع عن الأعمال والمدركات النافعة كلها وفي عدم تلقي ما يلقى إلى صاحبه فصار المؤمن شبيهاً بالحي مشابهة كاملة لمَّا خرج من الكفر إلى الإيمان ، فكأنه بالإيمان نفخت فيه الحياة بعد الموت كما أشار إليه قوله تعالى في سورة الأنعام ( 122 ) ﴿ أو من كان ميّتاً فأحييناه ﴾ وكان الكافر شبيهاً بالميت ما دام على كفره .

واكتُفي بتشبيه الكافر والمؤمن في موضعين عن تشبيه الكفر والإيمان وبالعكس لتلازمهما ،

وأوتي تشبيه الكافر والمؤمن في موضعين لكون وجه الشبه في الكافر والمؤمن أوضح ،

وعُكس ذلك في موضعين لأن وجه الشبه أوضح في الموضعين الآخرين .

وَلَا الأموات إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى القبور * إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ .

لما كان أعظم حرمان نشأ عن الكفر هو حرمان الانتفاع بأبلغ كلام وأصدقه وهو القرآن كان حال الكافر الشبيهُ بالموت أوضح شبهاً به في عدم انتفاعه بالقرآن وإعراضه عن سماعه ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والْغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ [ فصلت : 26 ] ، وكان حال المؤمنين بعكس ذلك إذ تَلَقّوا القرآن ودرسوه وتفقهوا فيه ﴿ الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه أولئك الذين هداهم اللَّه ﴾ [ الزمر : 18 ] ، وأعقب تمثيل حال المؤمنين والكافرين بحال الأحياء والأموات بتوجيه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم معذرة له في التبليغ للفريقين ، وفي عدم قبول تبليغه لدى أحد الفريقين ، وتسلية له عن ضياع وابل نصحه في سباخ قلوب الكافرين فقيل له : إن قبول الذين قبلوا الهدى واستمعوا إليه كان بتهيئة الله تعالى نفوسَهم لقبول الذكر والعلم ، وإن عدم انتفاع المعرضين بذلك هو بسبب موت قلوبهم فكأنهم الأموات في القبور وأنت لا تستطيع أن تُسمع الأموات ، فجاء قوله : ﴿ إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ على مقابلة قوله : ﴿ وما

يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ مقابلة اللفِّ بالنشر المرتب .

فجملة ﴿ إن الله يسمع من يشاء ﴾ تعليل لجملة ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ [ فاطر : 18 ] ، لأن معنى القصر ينحلّ إلى إثبات ونفي فكان مفيداً فريقين : فريقاً انتفع بالإِنذار ، وفريقاً لم ينتفع ، فعلل ذلك بـ ﴿ إن الله يسمع من يشاء ﴾ .

(121/641)

---

وقوله : ﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ إشارة إلى الذين لم يشأ الله أن يسمعهم إنذارك .

واستعير ﴿ من في القبور ﴾ للذين لم تنفع فيهم النذر ، وعبر عن الأموات بـ ﴿ من في القبور ﴾ لأن من في القبور أعرق في الابتعاد عن بلوغ الأصوات لأن بينهم وبين المنادي حاجز الأرض .

فهذا إطناب أفاد معنى لا يفيده الإِيجاز بأن يقال : وما أنت بمسمع الموتى .

وجيء بصيغة الجمع ﴿ الأحياء ﴾ و ﴿ الأموات ﴾ تفنناً في الكلام بعد أن أورد الأعمى والبصير بالإِفراد لأن المفرد والجمع في المعرف بلام الجنس سواء إذا كان اسماً له أفراد بخلاف النور والظل والحرور ، وأما جمع ﴿ الظلمات ﴾ فقد علمت وجهه آنفاً .

وجملة ﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ أفادت قصراً إضافياً بالنسبة إلى معالجة تسميعهم الحقَ ، أي أنت نذير للمشابهين مَن في القبور ولسْت بمُدْخِل الإيمان في قلوبهم ، وهذا مسوق مساق المعذرة للنبيء صلى الله عليه وسلم وتسليته إذ كان مهتمًّا من عدم إيمانهم .

والنذير : المنبىء عن توقع حدوث مكروه أو مؤلم .

والاقتصار على وصفه بالنذير لأن مساق الكلام على المصمّمين على الكفر .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24)

استئناف ثناء على النبي صلى الله عليه وسلم وتنويه به وبالإسلام .

وفيه دفع توهم أن يكون قصره على النذارة قصراً حقيقاً لتبيّن أن قصره على النذارة بالنسبة للمشركين الذين شابَه حالُهم حالَ أصحاب القبور ، أي أن رسالتك تجمع بشارة ونذارة ؛ فالبشارة لمن قَبِل الهدى ، والنذارة لمن أعرض عنه ، وكل ذلك حقّ لأن الجزاء على حسب القبول ، فهي رسالة ملابسة للحق ووضع الأشياء مواضعها .

فقوله : ﴿ بالحق ﴾ إما حال من ضمير المتكلم في ﴿ أرسلناك ﴾ أي مُحقّين غير لاَعبين ، أو من كاف الخطاب ، أي مُحِقّاً أنتَ غير كاذب ، أو صفةٌ لمصدر محذوف ، أي إرسالاً ملابساً بالحق لا يشوبه شيء من الباطل .

وتقدم نظير هذه الجملة في سورة البقرة .

وقوله : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ إبطال لاستبعاد المشركين أن يرسل الله إلى الناس بشراً منهم ، فإن تلك الشبهة كانت من أعظم ما صدّهم عن التصديق به ، فلذلك أُتبعت دلائل الرسالة بإبطال الشبهة الحاجبة على حدّ قوله تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ [ الأحقاف : 9 ] .

وأيضاً في ذلك تسفيه لأحلامهم إذ رضُوا أن يكونوا دون غيرهم من الأمم التي شُرّفت بالرسالة .

ووجه الاقتصار على وصف النذير هنا دون الجمع بينه وبين وصف البشير هو مراعاة العموم الذي في قوله : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ ، فإن من الأمم من لم تحصل لها بشارة لأنها لم يؤمن منها أحد ، ففي الحديث : " عُرضت عليّ الأمم فجعَل النبي يمرّ معه الرهط ، والنبي يمرّ معه الرجل الواحد ، والنبي يمرّ وحده " الحديث ، فإن الأنبياء الذين مرّوا وحدهم هم الأنبياء الذين لم يستجب لهم أحد من قومهم ، وقد يكون عدم ذكر وصف البشارة للاكتفاء بذكر قرينة اكتفاء بدلالة ما قبله عليه ، وأُوثر وصف النذير بالذكر لأنه أشد مناسبة لمقام خطاب المكذبين .

ومعنى الأمة هنا : الجذم العظيم من أهل نسب ينتهي إلى جدّ واحد جامع لقبائل كثيرة لها

مواطن متجاورة مثل أمة الفُرس وأمة الروم وأمة الصين وأمة الهند وأمة اليونان وأمة إسرائيل وأمة العرب وأمة البرْبر ؛ فما من أمة من هؤلاء إلا وقد سبق فيها نذير ، أي رسول أو نبيء يُنذرهم بالمهلكات وعذاب الآخرة .

فمن المنذِرين من علمناهم ، ومنهم من أنذروا وانقرضوا ولم يبق خبرهم قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصُصْ عليك ﴾ [ غافر : 78 ] .

والحكمة في الإِنذار أن لا يبقى الضلال رائجاً وأن يتخول الله عباده بالدعوة إلى الحق سواء عملوا بها أو لم يعملوا فإنها لا تخلو من أثر صالح فيهم .

(123/641)

---

وإنما لم يسم القرآن إلا الأنبياء والرسل الذين كانوا في الأمم الساميّة القاطنة في بلاد العرب وما جاورها لأن القرآن حين نزوله ابتدأ بخطاب العرب ولهم علم بهؤلاء الأقوام فقد علموا أخبارهم وشهدوا آثارهم فكان الاعتبار بهم أوقع ، ولو ذكرت لهم رسل أمم لا يعرفونهم لكان إخبارهم عنهم مجرد حكاية ولم يكن فيه استدلال واعتبار .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ

(25)

أعقب الثناء على النبي صلى الله عليه وسلم بتسليته على تكذيب قومه وتأنيسه بأن تلك سنة الرسل مع أممهم .

وإذ قد كان سياق الحديث في شأن الأمم جعلت التسلية في هذه الآية بحال الأمم مع رسلهم عكس ما في آية آل عمران ( 184 ) : ﴿ فإن كذبوك فقد كذّب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ لأن سياق آية آل عمران كان في ردّ محاولة أهل الكتاب إفحام الرسول لأن قبلها ﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ [آل عمران : 183 ] .

وقد خولف أيضاً في هذه الآية أسلوب آية آل عمران إذ قرن كل من "الزبر والكتاب المنير" هنا بالباء ، وجُرِّدا منها في آية آل عمران وذلك لأن آية آل عمران جرت في سياق زعم اليهود أن لا تقبل معجزة رسول إلا معجزة قُربان تأكله النار ، فقيل في التفرد ببهتانهم : قد كُذِّبت الرسل الذين جاء الواحد منهم بأصناف المعجزات مثل عيسى عليه السلام ومن معجزاتهم قرابين تأكلها النار فكذبتموهم ، فترك إعادة الباء هنالك إشارة إلى أن الرُسل جاءوا بالأنواع الثلاثة .

ولما كان المقام هنا لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ناسب أن يذكر ابتلاء الرسل بتكذيب أممهم على اختلاف أحوال الرسل ؛ فمنهم الذين أَتوا بآيات ، أي خوارق عادات فقط مثل صالح وهود ولوط ، ومنهم من أتوا بالزبر وهي المواعظ التي يؤمر بكتابتها وزَبرها ، أي تخطيطها لتكون محفوظة وتردد على الألسن كزبور داود وكتب أصحاب الكتب من أنبياء بني إسرائيل مثل أرمياء وإيلياء ، ومنهم من جاءوا بالكتاب المنير ، يعني كتاب الشرائع مثل إبراهيم وموسى وعيسى ، فذكر الباء مشير إلى توزيع أصناف المعجزات على أصناف الرسل .

فزبور إبراهيم صُحُفه المذكورة في قوله تعالى : ﴿ صحف إبراهيم وموسى ﴾ [ الأعلى : 19 ] .

وزبور موسى كلامه في المواعظ الذي ليس فيه تبليغ عن الله مثل دعائه الذي دعا به في قادش المذكور في الإِصحاح التاسع من سفر التثنية ، ووصيته في عَبر الأردن التي في الإِصحاح السابع والعشرين من السفر المذكور ، ومثل نشيده الوعظي الذي نطق به وأمر بني إسرائيل بحفظه والترّنم به في الإِصحاح الثاني والثلاثين منه ، ومثل الدعاء الذي بارك به أسباط إسرائيل في عَربات مُؤاب في آخر حياته في الإِصحاح الثالث والثلاثين منه .

وزبور عيسى أقواله المأثورة في الأناجيل مما لم يكن منسوباً إلى الوحي .

فالضمير في "جاءوا" للرسل وهو على التوزيع ، أي جاء مجموعهم بهذه الأصناف من الآيات ، ولا يلزم أن يجيء كل فرد منهم بجميعها كما يقال بنو فلان قتلوا فلاناً .

وجواب ﴿ إن يكذبوك ﴾ محذوف دلت عليه علته وهي قوله : ﴿ فقد كذبت رسل من قبلك ﴾

[ فاطر : 4 ] .

والتقدير : إن يكذبوك فلا تحزن ، ولا تحسبهم مفلِتين من العقاب على ذلك إذ قد كذب الأقوام الذين جاءتهم رسل من قبل هؤلاء وقد عاقبناهم على تكذيبهم .

فالفاء في قوله : ﴿ فقد كذب الذين من قبلهم ﴾ فاء فصيحة أو تفريع على المحذوف .



---

وجملة ﴿ جاءتهم ﴾ صلة ﴿ الذين ﴾ ، و ﴿ من قبلهم ﴾ في موضع الحال من اسم الموصول مقدّم عليه أو متعلق بـ ﴿ جاءتهم ﴾ .

و﴿ ثمّ ﴾ عاطفة جملة ﴿ أخذت ﴾ على جملة ﴿ جاءتهم ﴾ أي ثمّ أخذتهم ، وأُظهر ﴿ الذين كفروا ﴾ في موضع ضمير الغيبة للإِيماء إلى أن أخذهم لأجل ما تضمنته صلة الموصول من أنهم كفروا .

والأخذ مستعار للاستئصال والإفناء ؛ شبه إهلاكهم جزاءً على تكذيبهم بإتلاف المغيرين على عدوّهم يقتلونهم ويغنمون أموالهم فتبقى ديارهم بَلْقَعاً كأنهم أخذوا منها .

و ( كيف ) استفهام مستعمل في التعجيب من حالهم وهو مفرع بالفاء على ﴿ أخذت الذين كفروا ﴾ ، والمعنى : أخذتهم أخذاً عجيباً كيف ترون أعجوبته .

وأصل ( كيف ) أن يستفهم به عن الحال فلما استعمل في التعجيب من حال أخذهم لزم أن يكون حالهم معروفاً ، أي يعرفه النبي صلى الله عليه وسلم وكلّ من بلغتْه أخبارهم فعلى تلك المعرفة المشهورة بني التعجيب .

والنّكير : اسم لشدة الإِنكار ، وهو هنا كناية عن شدة العقاب لأن الإِنكار يستلزم الجزاء على الفعل المنكر بالعقاب .

وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً ولرعاية الفواصل في الوقف لأن الفواصل يعتبر فيها الوقت ، وتقدم في سبأ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

*(126/641)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19) ﴾

كما لا يستوي الأعمى والبصير لا تستوي الظلمات والنور ، ولا يستوي الظلُّ والحرور ، ولا الأحياء والأموات . . وكذلك لا يستوي الموصول بنا والمشغول عنَّا ، والمجذوبُ إلينا ، والمحجوبُ عنَّا ، ولا يستوي مَنْ اصطفيناه في الأزل ومن أشقيناه بحكم الأزل ، ولا يستوي من أشهدناه حقَّنا ومن أغفلنا قلبه عن ذِكْرِنا :

أحبابنا شتان : وافٍ وناقِضُ . . . ولا يستوي قطُّ مُحِبٌّ وباغِضُ

إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23)

أي وما من أمةٍ ممن كانوا من قبلك إلاَّ بعثنا فيهم نذيراً ، وفي وقتك أرسلناك إلى جميع الأمم كافةً بالحقِّ .

﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ : تضمنت الآية بيانَ أنه لم يُخلِ زماناً ولا قوماً مِنْ شَرْعٍ . وفي وقته صلى الله عليه وسلم أَفرده بأَنْ أرسله إلى كافة الخلائق ، ثم قال على جهة التسلية والتعزية له .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (25)

أي لو قابلوك بالتكذيب فتلك سُنّتهم مع كلِّ نبيٍّ ؛ وأن أَصرُّوا على سُنَّتِهم في الغيِّ فلن تَجِدَ

ِلسُنَّةِ الله تبدِيلاً في الانتقام والخزي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 202.201 ﴾

(127/641)

---

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾

التفسير : لما بين في آخر السورة المتقدمة انقطاع رجاء الشاك وعدم قبول توبته في الآخرة ذكر في أوّل هذه السورة حال الموفق المؤمن وبشر بإرسال الملائكة إليهم مبشرين ، وبين أنه يفتح لهم أبواب الرحمة . و ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ مبدعهما أو شاقهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض يؤيد التفسير الثاني قوله ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ وقوله ﴿ وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ [ الأنبياء : 103 ] و ﴿ أولي أجنحة ﴾ اي أصحاب أجنحة أراد أن طائفة منهم أجنحة كل منهم اثنان اثنان ، وبعضهم أجنحة ثلاثة ثلاثة لعل الثالث منها في وسط الظهر بين

الجناحين يمدهما بقوة أو لعله لغير الطيران فلقد رأيت في بعض الكتب أن صنفاً من الملائكة لهم ستة أجنحة ، فجناحان يلفون بهما أجسادهم ، وجناحان يطيرون بهما في الأمر من أمور الله عز وجل ، وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله عز وجل . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جبرائيل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح .

(128/641)

---

وروي أن إسرافيل له اثنا عشر جناحاً ، جناح منها بالمشرق ، وجناح بالمغرب ، وإن العرش على كاهله وإنه ليتضاءل لعظمة الله سبحانه وتعالى حتى يعود مثل الوصع وهو العصفور الصغير . ويجوز أن يخالف حال الملائكة حال الطيور في الطيران كالحيوان الذي يدب بأرجل كثيرة ، ويجوز أن يكون البعض للزينة ، ويجوز أن يكون كل جناح ذا شعب . قال الحكيم : الجناحان إشارة إلى جهتين : جهة الأخذ من الله ، وجهة الإعطاء لمن دونهم بإذن الله كقوله ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾ [ الشعراء : 193 194 ] ﴿ علمه شديد القوى ﴾ [ النجم : 5 ] ﴿ فالمدبرات أمرا ﴾ [ النازعات : 5 ] ومنهم من يفعل بواسطة فلهم ثلاث جهات أو أكثر على حسب الوسائط . ثم بين كمال قدرته بقوله

﴿ ويزيد في الخلق ما يشاء ﴾ والظاهر أنه عام يتناول كل زيادة في كل أمر يعتبر في الصورة كحسن الوجه والخط والصوت ونحوهما ، أو في المعنى كحصافة العقل وجزالة الرأي وسماحة النفس وذلاقة اللسان وغير ذلك من الأخلاق الفاضلة . ثم أكد نفاذ أمره وجريان الأمور على وفق مشيئته بقوله ﴿ وما يفتح الله للناس ﴾ الآية . وفيها دلالة على أن رحمته سبقت غضبه من جهة تقديم الرحمة ومن جهة بيان الضمير في القرينة الأولى بقوله ﴿ من رحمة ﴾ والإطلاق في قوله ﴿ وما يمسك ﴾ فيشمل إمساك الغضب وإمساك الرحمة . ومن جهة قوله ﴿ من بعده ﴾ أي من بعد إمساكه فيفيد أن الرحمة إذ جاءته لم يكن لها انقطاع وإن ضدّها قد ينقطع وإن كان لا يقطعه إلا الله ولهذا لا يخرج أهل الجنة من الجنة وقد يخرج أهل النار من النار ﴿ وهو العزيز ﴾ الغالب على إرسال الرحمة وإمساكها ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يمسك ولا يرسل إلا عن علم كامل وصلاح شامل . وحيث بين أن الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة المستدعية للحمد على التفصيل أمر المكلفين بتذكر العمة على الإجمال لساناً وقلباً وعملاً ، ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه : اذكر أياديّ عندك يريد حفظها وشكرها والعمل

بموجبها . وعن ابن عباس : أن الناس أهل مكة أسكنهم حرمه ويتخطف الناس من حولهم . وعنه أيضاً أنه اراد بالنعمة العافية ، والظاهر تعميم النعمة والمنعم عليهم . ثم اشار إلى نعمة الإيجاد بقوله ﴿ هل من خالق غير الله ﴾ وإلى نعمة الإبقاء بقوله ﴿ يرزقكم ﴾ وهو نعت خالق أو مستأنف أو تفسير لمضمر والتقدير : هل يرزقكم خالق يرزقكم ؟ قال جار الله : إن جعلت ﴿ يرزقكم ﴾ كلاماً مستأنفاً ففيه دليل على أن الخالق لا يطلق إلا على الله عز وجل . وأما على الوجهين الآخرين فلا ، إذ لا يلزم منننفي خالق رازق غيره نفي خالق غيره مطلقاً . وقوله ﴿ لا إله إلا هو ﴾ جملة مفصولة لا محل لها مثل ﴿ يرزقكم ﴾ في غير وجه الوصف إذ لو جعلت وصفاً لزم التناقض لأن قولك " هل من خالق آخر سوى الله " إثبات الله ، ولو جعلت المنفية وصفاً صار تقدير الكلام : هل من خالق آخر سوى لا إله إلا ذلك الخالق فلزم نقض الإثبات المذكور مع أن الكلام في نفسه يكون غير مستقيم .

(130/641)

---

﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي وكيف تصرفون عن هذا الظاهر فتشركون المنعوت بمالك الملك والملكوت . وحين بيّن الاصل الأول وهو التوحيد ذكر الأصل الثاني وهو الرسالة بقوله ﴿

وإن يكذبوك ﴾ الآية . والمراد إن يكذبوك فتسل بهذا المعنى . ثم بينت الأصل الثالث وهو الحشر بقوله ﴿ يا أيها الناس ﴾ وقد مرّ مثل الآية في آخر سورة لقمان . وقد يسبق إلى الظن ههنا أن الغرور وهو الشيطان لأنه عقبه بقوله ﴿ إن الشيطان لكم عدّو فاتخذوه عدّواً ﴾ لأن الحازم لا يقبل قول العدوّ ولا يعتمد عليه . ثم صرح بوجه اتخاذه وبعاقبة دعوته فقال ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير ﴾ ثم فصل مال حال حزبه وحزب الله بقوله ﴿ الذين كفروا ﴾ إلى قوله ﴿ وأجر كبير ﴾ عرض على العقول أنه لا سواء بين الحزبين والمعنى ﴿ أفمن زين له سوء عمله ﴾ من الفريقين كمن لم يزين له . ولا ريب أن المزين لهم عملهم هم أهل الأهواء والبدع الذين لا مستند لهم في مأخذهم سوى التقليد واتباع الهوى . ثم أنتج من ذلك قوله ﴿ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ وذلك أن الناس متساوية الأقدام في الإنسانية ومتفاوتة الأحوال في الأعمال ، فتبين أنه لا استقلال ، وأن أفعال العباد مستندة إلى إزادة مصرف القلوب والأحوال . ثم رتب على عدم الاستقلال قوله ﴿ فلا تذهب ﴾ أي فلا تهلك ﴿ نفسك ﴾ و ﴿ عليهم ﴾ صلة تذهب كما تقول هذك عليه حباً أو هو بيان للمتحسر عليه ولا يتعلق ب ﴿ حسرات ﴾ المفعول لأجله لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته . وجوّز جار الله أن يكون حالاً كأن كل نفسه صارت حسرات لفرط التحسر . وعن الزجاج أن تقدير الآية : أمفن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم فحذف لدلالة المذكور وهو فلا تذهب عليه ، أو أفمن زين له

سوء عمله كمن هداه الله ، فحذف لأن قوله ﴿ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ يدل عليه . ثم بين أن حزنه إن كان لما بهم من الضلال فالله عالم بهم وبما يصنعون لو أراد منهم الإيمان لآمنوا وإن كان لما



---

بهم منا الإيذاء فالله عليم بفعلهم فيجازيهم بذلك .

ثم أكد كونه فاعلاً مختاراً قادراً قهاراً مبدئاً معيداً بقوله ﴿ والله الذي أرسل ﴾ وهو من الالتفات الموجب للتهويل والتعظيم . وقوله ﴿ فتثير ﴾ بلفظ المستقبل تصوير لتلك الحالة العجيبة الشأن ، عرف نفسه بفعل الإرسال ثم قال ﴿ فسقناه ﴾ كأنه قال : أنا الذي عرفتني بمثل هذه السياقة والصناعة وأنعمت عليك بهذه النعمة الشاملة . ثم شبه البعث والنشور بالصنع المذكور ووجهه ظاهر .



---

وحين يبن برهان الإيمان أشار إلى ما كان يمنع الكفار منه وهو العزة الظاهرة التي كانوا يتوهمونها من حيث إن معبوديهم كانت تحت تسخيرهم والرسول كان يدعوهم إلى الإيمان لطاعة الله وطاعة أنبيائه فكنه قال : إن كنتم تطلبون حقيقة العزة ﴿ فلله العزة ﴾ خاصة كلها فلتطلبها من عنده ومن عند أوليائه نظيره قولك " من أراد النصيحة فهي عند الأبرار " يريد فليطلبها عندهم فاعتبر في هذه الآية حرف النهاية . وأما في قوله ﴿ لله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ [ المنافقون : 8 ] فاعتبر الوسائط فالعزة للمؤمنين بواسطة الرسول وله من رب العزة . ثم إن الكفار كأنهم قالوا : نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده فإن البعد من الملك ذلة فقال ﴿ إليه يصعد ﴾ أي إن كنتم لا تصلون إليه فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيب منها وذلك آية العزة ، وأما هذه الأصنام فلا يتبين عندها الذليل من العزيز إذ لا حياة لها ولا شعور وهكذا العمل الصالح لا تراه هذه الأصنام فلا يمكن لها مجازاة الأنام . وفاعل قوله ﴿ يرفعه ﴾ إن كان هو الله فظاهر ، وإن كان الكلم أعني قوله " لا إله إلا الله " فمعناه أنه لا يقبل عمل إلا من موحد وإن كان هو العمل فالمعنى : أن الكلم وهو كل كلام فيه ذكر الله أو رضاه يريد الصعود إلى الله إلا أنه لا يستطيع الصعود ولا يقع موقع القبول إلا إذا كان مقروناً بالعمل الصالح . عن النبي صلى الله عليه وسلم " الكلم الطيب هو قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيا بها وجه الرحمن فإذا لم يكن له عمل صالح لم يقبل منه " وعن ابن المقفع : قول بلا عمل كثريد بلا دسم ،

وسحاب بلا مطر ، وقوس بلا وتر . ولا تخفى أن القول هو الأصل والعمل مؤكده فلهذا قدم القول . وحين بيّن حال العمل الصالح ذكر أن المكرات السيئات بائرة كاسدة لا حقيقة لها ، ولعله أشار بها إلى مكرات قريش المذكورات في قوله ﴿ وإذ يمكر بك



---

الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ [ الأنفال : 30 ] جمع الله مكراتهم فقلبها عليهم حين أوقعهم في قليب بدر . ولما ذكر دليل الآفاق أكده بدليل الأنفس قائلاً ﴿ والل خلقكم من تراب ﴾ وفيه إشارة إلى خلق آدم ﴿ ثم من نطفة ﴾ وفيه إشارة إلى خلق أولاده . ومعنى ﴿ أزواجاً ﴾ أصنافاً أو ذكراناً وإناثاً . ثم أشار إلى كمال علمه بقوله ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ ثم بين نفوذ إرادته بقوله ﴿ وما يعمر من معمر ﴾ قال جار الله : معناه من أحد ولكنه سماه معمراً باعتبار ما يؤل إليه . وليس المراد تعاقب التعمير وخلافه على شخص واحد وإنما المراد تعاقبهما على شخصين فتسومح في اللفظ تعويلاً على فهم السامع كقول القائل : ما تنعمت بكذا ولا اجتويته إلا قل فيه ثوائي .

وتأويل آخر وهو أن يراد لا يطول عمر إنسان ولا ينقص من عمر ذلك الإنسان بعينه ﴿ إلا في كتاب ﴾ وصورته أن يكتب في اللوح إن حج أو وصل الرحم فعمره أربعون سنة ، وإن جمع بين الأمرين فعمره ستون ، فإذا جمع بينهما فعمر ستين كان الغاية ، وإذا أفرد فعمر أربعين فقد نقص منتلك الغاية . وبهذا التأويل يستبين معنى ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " إن الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار " ويصح ما استفاض على الألسن " أطال الله بقاءك " . وعن سعيد بن جبير يكتب في الصحيفة أن عمره كذا سنة ، ثم يكتب بعد ذلك في آخرها ذهب يوم ذهب يومان حتى تنقضي المدّة . وعن قتادة : المعمر من بلغ ستين ، والمنقوص من عمره من يموت قبل الستين . وذلك في علم الله . ﴿ إن ذلك ﴾ الذي ذكر من خلق الإنسان من المادة المذكورة أو الزيادة في الأعمار أو النقصان منها ﴿ على الله يسير ﴾ . ثم ضرب مثلاً للمؤمن والكافر وذكر ليلاً آخر على عظم قدرته فقال ﴿ وما يستوي البحران ﴾ الآية . على الأوّل يكون قوله ﴿ ومن كل تأكلون ﴾ غلى آخر الآية تقريراً للنعمة على سبيل اللاستطراد ، أو هو من تمام التشبيه كأنه شبه الجنسين بالبحرين . ثم فضل البحر الأجاج على الكافر لأنه شارك العذب في استخراج السمك واللؤلؤ وجرى الفلك فيه ، وأما الكافر فلا نفع فيه ألبتة فيكون كقوله في البقرة ﴿ ثم قست قلوبكم ﴾ [ البقرة : 74 ] إلى آخر قوله و ﴿ إن منهما لما يهبط من

خشية الله ﴾ [ الآية : 74 ] والأشبه أن الآية تقرير دليل مستأنف كما مرّ في أوّل " النحل " يؤيده تعقيبه بدليل آخر وهو قوله ﴿ يولج الليل ﴾ إلى قوله ﴿ أجل مسمى ﴾ قد مرّ في آخر " لقمان " مثله ، وفيه ردّ على عبدة الكواكب الذين ينسبون حوادث هذا العالم إلى الكواكب بالذات لا إلى تسخير مبدعها . قوله ﴿ ذلكم الله ﴾ أي الذي فعل الأشياء المذكورة من فطر السموات والأرض وإرسال الرياح وخلق الإنسان من التراب وغير ذلك هو

(135/641)

---

المعبود الحق . وقوله ﴿ ربكم له الملك ﴾ خبران آخران ، ويجوز أن يكون ﴿ الله ربكم ﴾ خبرين و ﴿ له الملك ﴾ جملة مبتدأه واقعة في طبقات . قوله ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ وذلك أن المشركين كانوا معترفين بأن الصنام ليسوا خالقين وإنما كانوا يقولون إنه تعالى فوض أمور الأرضيات إلى الكواكب التي هذه الأصنام صورها وطوالعها ، فأخبر الله تعالى أنهم لا يملكون قطميراً وهو القشرة الرقيقة للنواة فضلاً عما فوقها . قال جار الله : يجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم الله تعالى صفة لاسم الإشارة أو

عطف بيان و ﴿ ربكم ﴾ خبراً لولا أن المعنى يأباه فقيل : لأن ذلك إشارة إلى معلوم سبق ذكره .

(136/641)

---

وكونه صفة أو عطف بيان يقتضي أن يكون فيما سبق ضرب إبهام . قلت : وفيه نظر ، أما أولاً فلأن اسم الله من قبيل الأعلام لا من قبيل أسماء الأجناس فكيف يجوز جعله صفة ؟ وأما ثانياً فلأنه على تقدير التجويز يكون صفة مدح فلا ينافي كون المشار إليه معلوماً . والوجه الصحيح في إباء المعنى هو أن الوصف إذا كان معرفة كان أمراً متحققاً في الخارج مسلماً عند السامع . مثلاً إذا قلت : الرجل الكاتب جاءني . تريد الرجل الذي تعرفه أيها السامع أنه كاتب جاءني لكن الخطاب ههنا مع الكفار وهم يجحدون المعبود الحق ، أو يجحدون أن العبادة لا تصلح إلا له ، ن فلا يصح إيقاع اسم الله وصفاً لذلكم والخطاب معهم . ثم زاد في توبيخ الكفرة بقوله ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ﴾ لأنهم جماد ولو فرض سماعهم ﴿ ما استجابوا لكم ﴾ لما مرّ من أنهم لا يملكون شيئاً ﴿ ويوم القيامة ﴾ ايضاً ﴿ يكفرون بشرككم ﴾ قائلين ما كنتم إيانا تعبدون ﴿ ولا ينبئك ﴾ أي لا يطلعك على حقيقة الحال أيها النبيّ أو أيها السامع ﴿ مثل خبير ﴾ ببواطن الأمور . والمعنى أن

هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق لأني خبير بما أخبرت به ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل عالم به . وفيه أنه الخبير بالأمر وحده ، وفيه ن هذا الخبر مما لا يعرف بمجرد المعقول لولا إخبار الله سبحانه .

(137/641)

---

ثم بين أن نفع العبادة إنما يعود على المكلفين فقال ﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء ﴾ ومعنى تعريف الخبر القصد إلى أنهم جنس الفقراء مبالغة ، وذلك أن افتقار الإنسان إلى الله عاجلاً لأمور المعاش وآجلاً لنعيم الآخرة أبين من افتقار سائر المخلوقين إليه . وقيل : إن كون الناس فقراء أمر ظاهر لا يخفى على أحد فلهذا عرف كقول القائل : الله ربنا ومحمد نبينا . ثم بين أن فقرهم ليس إلا إلى الله فقابل الفقراء بقوله ﴿ والله هو الغنيّ ﴾ وقابل قوله ﴿ إلى الله ﴾ بقوله ﴿ الحميد ﴾ لأنه إذا أنعم عليهم استحق الحمد منهم . ثم ذكر أنه غني عن وجودهم أيضاً لا يفتقر في ظهور أثر قدرته إليهم فقال ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ وقد مرّ في " النساء " وفي " إبراهيم " . وحين بين الحق بالدلائل الباهرة أراد أن يذكر ما يدعوهم إلى النظر فيه فقال ﴿ ولا تزر وازرة ﴾ يعني أن النفوس الوازرات لا ترى واحدة منهن إلا حاملة وزرها لا وزر غيرها . ولا ينافي في هذا قوله ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم

﴾ [العنكبوت : 13 ] لأن وزر الإضلال هو وزر النفس الوزارة أيضاً ، وفيه أن كل نفس وازرة مهمومة بهمّ وزرها متحيرة في أمرها .

(138/641)

---

ثم زاد في التهويل بقوله ﴿ وإن تدع مثقلة ﴾ أي نفس ذات حمل ﴿ لا يحمل منه شيء ﴾ فإن عدم قضاء الحاجة بعد السؤال أفظع . ثم زاد التأكيد بقوله ﴿ ولو كان ﴾ أي المدعوّ ﴿ ذا قربى ﴾ فإن عدم القضاء بعد السؤال من القريب من أب وولد أدل على شدّة الأمر فيعلم منه أن لا غياث يومئذ أصلاً . ثم بين أن هذه الإنذارات إنما تفيد أهل الخشية والطاعة حال كونهم غائبين عن العذاب أو حال كون العذاب غائباً عنهم . ثم لما بيّن أن الوزر لا يتعدى إلى الغير بيّن أن التطهر عن الذنوب لا يفيد إلا نفس المتزكي ﴿ وإلى الله المصير ﴾ لكل فيجزيهم على حسب ذلك . ثم ضرب للكافر والمؤمن مثلاً فقال ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ﴾ وقيل : إنه مثل للصنم وللمعبود الحق . ثم ذكر للكفر والإيمان مثلاً قائلاً ﴿ ولا الظلمات ولا النور ﴾ وإذا كان الإيمان نوراً والمؤمن بصيراً فلا يخفى عليه النور ، وإذا كان الكفر ظلمة والكافر أعمى فله صادّ فوق صادّ . ثم بيّن لمآلهما ومرجعهما مثلاً وهو الظل والحرور . قال أهل اللغة : السموم يكون بالنهار والحرور أعم . وقال بعضهم

: الحرور يكون بالليل فالمؤمن بإيمانه كمن هو في ظل وراحة ، والكافر في كفره كمن هو حرّ وتعب .

(139/641)

---

وههنا مسائل . الأولى : ضرب أوّلاً مثلاً للكافر والمؤمن ثم أعاد مثلهما بقوله ﴿ وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ وهذا أبلغ لأن الأعمى والبصير قد يشتركان في إدراك أشياء ولا كذلك الحي والميت ولمكان هذه المبالغة أعاد الفعل . الثانية : كرر " لا " النافية في الأمثال الأخيرة دون الأوّل ، لأن المنافاة بين العمى والبصر ليست ذاتية كما في سائرهما وقد يكون شخص واحد بصيراً بإحدى العينين أعمى بالأخرى . الثالثة : قدم الأشرف في مثلين وهو الظل والحيّ ، وأخره في الآخرين فهم أهل الظاهر أن ذلك لرعاية الفواصل . والمحققون قالوا : إنهم كانوا قبل البعث في ظلمة الضلال فصاروا إلى نور الإيمان في زمان محمد صلى الله عليه وسلم ، فلهذا الترتيب قدّم مثل الكافر وكفره على مثل المؤمن وإيمانه . ولما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب لأن رحمته سبقت غضبه . ثم إن الكافر المصرّ بعد البعثة صار أضلّ من الأعمى وشابه الأموات في عدم إدراك الحق فقال ﴿ وما يستوي الأحياء ﴾ أي المؤمن الذي آمن بما أنزل الله .

والأموات الذين تليت عليهم الآيات ولم تنجع فيهم البينات فأخرهم عن المؤمنين لوجود حياتهم قبل ممات الكافرين المعاندين . الرابعة : إنما وحد الأعمى والبصير لأن المراد أن أحد الجنسين لا يساوي جنس الآخر من جهة العمى والبصر ، ولعل فرداً من أحدهما قد يساوي الفرد الآخر من جهة أخرى وكذا الكلام في إفراد الظل والحرور .

*(140/641)*

---

وإنما جمع الظلمات ووحّد النور لما مرّ في أوّل " الأنعام " من تحقيق أن الحق واحد والشبهات كثيرة . وإنما جمع الأحياء والأموات لأن المراد أن أحد الصنفين لا يساوي الآخر سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد . الخامسة : لا يخفى أن هذه الواوات بعضها ضمت شفعاً إلى شفع وبعضها ضمت وتراً إلى وتر . ثم سلى ورسوله بقوله ﴿ إن الله يسمع ﴾ الآية . فقد مرّ نظيره في قوله ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ [ النمل : 80 ] وإنما اقتصر على قوله ﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ وكذا في قوله ﴿ إلا خلا فيها نذير ﴾ لأن الكلام في معرض التهديد مع أن ذكر البشير يدل عليه بل ذكر النذير يدل على مقابله . والمراد بالنذارة آثارها لثبوت زمان الفترة . ثم زاد في التسلية بقوله ﴿ وإن يكذبوك ﴾ وقد مر مثله في آخر " آل عمران " . وإنما حذف الفاعل هناك لبناء الكلام هنالك على الاقتصار

دليله أنه قال ﴿ وإن يكذبوك فقد كذب ﴾ فاقتصر على لفظ المضيّ ولم يسم الفاعل ، ويحتمل أن يكون لفظ الماضي إشارة إلى وقوع التكذيب منهم فإن تلك السورة مدنية والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 5 صـ 507.513 ﴾

*(141/641)*

---

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان من من أغرب الأشياء الدالة على تمام القدرة الدال على الوحدانية أن يكون شيء واحد سبباً لسعادة قوم وهداهم ، وشقاوة قوم وضلالهم وعماهم وكان ذلك ، امراً دقيقاً وخطباً جليلاً ، لا يفهمه حق فهمه إلا أعلى الخلائق ، ذكر المخاطب بهذا الذكر ما يشاهد من آيته ، فقال على طريق الإستخبار لوصول المخاطب إلى رتبة أولي الفهم بما ساق من

ذلك سبحانه على طريق الإخبار في قوله : ﴿ الله الذي أرسل الرياح ﴾ ولفت القول إلى الاسم الأعظم دلالة على عظمة ما في حيزه : ﴿ ألم تر أن الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ أنزل من السماء ﴾ أي التي لا يصعد إليها الماء ولا يستمسك عن الهبوط منها في غير أوقاته إلا بقدرة باهرة لا يعجزها شيء ﴿ ماء ﴾ أي لا شيء يشابهه في مماثلة بعضه لبعض ، فلا قدرة لغيره سبحانه على تمييز شيء منه إلى ما يصلح لشيء دون آخر .

(142/641)

---

ولما كان أمراً فائتاً لقوى العقول ، نبه عليه بالالتفات إلى مظهر العظمة فقال :

﴿ فأخرجنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ به ﴾ أي الماء من الأرض ﴿ ثمرات ﴾ أي متعددة الأنواع ﴿ مختلفاً ألوانها ﴾ أي ألوان أنواعها وأصنافها وهيئاتها وطبائعها ، فالذي قدر على المفاوتة بينها وهي من ماء واحد لا يستبعد عليه أن يجعل الدلائل بالكتاب وغيره نوراً لشخص وعمى لآخر .

ولما ذكر تنوع ما عن الماء وقدمه لأنه الأصل في التلوين كما أنه الأصل في التكوين ، أتبعه التلوين عن التراب الذي هو أيضاً شيء واحد ، فقال ذاكراً ما هو أصلب الأرض وأبعدها عن قابلية التأثر وقطعه عن الأول لأن الماء لا تأثير له فيه : ﴿ ومن ﴾ أي ومما خلقنا من

﴿ الجبال جدد ﴾ أي طرائق وعلامات وخطوط متقاطعة ﴿ بيض وحمر ﴾ ولعله عبر عنها بذلك دون طرق إشارة إلى أن من غرابتها أنها لا تخلق ولا تضمحل ألوانها على طول الأزمان كما هو العادة في غالب ما يتقادم عهده ، والجد بالفتح ، والجدة بالكسر ، والجدد بالتحريك : وجه الأرض ، وجمعه جدد بالكسر ، والجدة بالضم : الطريقة والعلامة والخط في ظهر الحمار يخالف لونه وجمعه جدد كغدة وغدد وعدة وعدد ومدة ومدد والجدد محركة : ما أشرف من الرمل وشبه السلعة بعنق البعير والأرض الغليظة المستوية ، والجدجد بالفتح : الأرض المستوية .

ولما كان أبلغ من ذلك أن تلك الطرق في أنفسها غير متساوية المواضع في ذلك اللون الذي تلونت به ، قال تعالى دالاً على أن كلاً من هذين اللونين لم يبلغ الغاية في الخلوص : ﴿ مختلف ألوانها ﴾ وهي من الأرض وهي واحدة .

ولما قدم ما كان مستغرباً في ألوان الأرض لأنه على غير لونها الأصلي أتبعه ما هو أقرب إلى الغبرة التي هي أصل لونها .

ولما كانت مادة ﴿ غرب ﴾ تدور على الخفاء الذي يلزمه الغموض أخذاً من غروب الشمس ، ويلزم منه السواد ، ولذلك يؤكد الأسود بغريبيب مبالغة الغرب كفرح أي الأسود للمبالغة في سواده ، وكان المقصود الوصف بغاية السواد مخالفة لغيره ، قال تعالى عاطفاً على بيض : ﴿ وغرابيب ﴾ أي من الجدد أيضاً ﴿ سود ﴾ فقدم التأكيد لدلالة السياق على أن أصل العبارة " وسود غرابيب سود " فأضمر الأول ليتقدم على المؤكد لأنه تابع ، ودل عليه بالثاني ليكون مبالغاً في تأكيده غاية المبالغة بالإظهار بعد الإضمار ، وهو معنى قول ابن عباس . رضى الله عنهما . : أشد سواد الغرابيب – رواه عنه البخاري ، لأن السواد الخالص في الأرض ، مستغرب ، ومنه ما يصبغ به الثياب ليس معه غيره ، فتصير في غاية السواد ، وذلك في مدينة فوة ومسير وغيرهما مما داناهما من بلاد مصر .

ولما أكد هذا بما دل على خلوصه ، قدم ذكر الاختلاف عليه ، ولما ذكر تعالى ما الأغلب فيه الماء مما استحال إلى آخر بعيد من الماء ، وأتبعه التراب الصرف ، ختم بما الأغلب فيه التراب مما استحال إلى ما هو في غاية البعد من التراب فقال : ﴿ ومن الناس ﴾ أي المتحركين بالفعل والاختيار ﴿ والدواب ﴾ ولما كانت الدابة في الأصل لما دب على الأرض ، ثم غلب إطلاقه على ما يركب قال : ﴿ والأنعام ﴾ ليعم الكل صريحاً ﴿ مختلف ألوانه ﴾ أي ألوان ذلك البعض الذي أفهمته " من " ﴿ كذلك ﴾ أي مثل الثمار والأراضي

فمنه ما هو ذو لون واحد ، ومنه ما هو ذو ألوان مع أن كل ما ذكر فهو من الأراضي متجانس الأعيان مختلف الأوصاف ، ونسبته إليها وإلى السماء واحدة فأين حكم الطبائع .

(144/641)

---

ولما ثبت بهذا البرهان أنه سبحانه فاعل بالاختيار ، فهو يفعل فيما يشاء ومن يشاء ، ما يشاء فيجعل الشيء الواحد لقوم نوراً ولقوم عمى ، وكان ذلك مرغباً في خدمته مرهباً من سطوته سبحانه وتعالى وتقدس لكل ذي لب ، وكان السياق لإنذار من يخشى بالغيب ، فثبت أن الإنذار بهذا القرآن يكون لقوم أراد الله خشيتهم خشية ، ولقوم أراد الله قسوتهم قسوة ، التفت النفس إلى طلب قانون يعرف به من يخشى ومن لا يخشى ، فقال على سبيل الاستنتاج من ذلك ، دفعاً لظن من يحسب أنه يمكن أن يكون ولي جاهلاً : ﴿ إنما يخشى الله ﴾ أي الذي له جميع الكمال ، ولا كمال لغيره إلا منه ، ودل على أن كل من سواه في قبضته وتحت قهره بقوله : ﴿ من عباده ﴾ ثم ذكر محط الفائدة وهو من ينفع إنذاره فقال : ﴿ العلماء ﴾ أي لا سواهم وإن كانوا عباداً وإن بلغت عبادتهم ما عسى أن تبلغ ، لأنه لا يخشى أحد أحداً إلا مع معرفته ، ولا يعرفه جاهل ، فصار المعنى كأنه قيل : إنما ينفع الإنذار أهل الخشية ، وإنما يخشى العلماء ، والعالم هو الفقيه العامل بعلمه ، قال

السهروردي في الباب الثالث من عوارفه : فينتفي العلم عمن لا يخشى الله ، كما إذا قال : إنما يدخل الدار بغدادي ، فينتفي دخول البغدادي الدار هذا معنى القراءة المشهورة.

ولما كان سبب الخشية التعظيم والإجلال ، وكان كل أحد لا يجل إلا من أجله ، وكان قد ثبت أن العلماء يجلون الله ، وكان سبب إجلالهم له إجلاله لهم ، كان هذا معنى القراءة الأخرى ، فكان كأنه قيل : إنما ينفع الإنذار من يجهل الله فالله يجله لعلمه ، وسئل شيخنا محقق زمانه قاضي الشافعية بمصر محمد بن علي القاياتي عن توجيه هذه القراءة فأطرق يسيراً ثم رفع رأسه فقال :

أهابك إجلالاً وما بك قدرة . . .

عليّ ولكن مليء عين حبيبها

(145/641)

---

ولما ثبت بهذا السياق أنه سبحانه فاعل هذه الأشياء المتضادة ، علل ذلك ليفيد أن قدرته على كل ما يريد كقدرته عليه بقوله على سبيل التأكيد تنبيهاً على أنه سبحانه لا يعسر عليه شيء وأنه أهل لأن يخشى ولذلك أظهر الاسم الأعظم : ﴿ إن الله ﴾ أي المحيط بالجلال والإكرام ﴿ عزيز ﴾ أي غالب على جميع أمره .

ولما كان هذا مرهباً من سطوته موجباً لخشيته لإفهامه أنه يمنع الذين لا يخشون من رحمته ، رغبهم بقوله : ﴿ غفور ﴾ في أنه يمحو ذنوب من يريد منهم فيقبل بقلبه إليه وهو أيضاً من معاني العزة. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 220.222 ﴾

(146/641)

---

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ يدخلونها ﴾ مجهولاً : ابو عمرو و ﴿ يجزي ﴾ مجهولاً غائباً كل بالرفع : أبو عمرو . الباقون : بالنون مبيناً للفاعل كل بالنصب و ﴿ مكر السيء ﴾ بهمزة ساكنة : حمزة استثقالاً للحركات ، وحمله النحويون على الاختلاس ، وإذا وقف يبدل من الهمزة ياء ساكنة .

الوقوف : ﴿ ماء ﴾ ج للعدول ﴿ ألوانها ﴾ الأولى ج ﴿ سود ﴾ 5 ﴿ كذلك ﴾ ط ﴿ العلماء ﴾ ط ﴿ غفور ﴾ 5 ﴿ لن تبور ﴾ 5 ﴿ فضله ﴾ ط ﴿ شكور ﴾ 5 ﴿ يديه ﴾ ط ﴿ بصير ﴾ 5 ﴿ عبادنا ﴾ ج ﴿ لنفسه ﴾ ج ﴿ مقتصد ﴾ ج تفصيلاً بين الجمل مع النسق ﴿ بإذن الله ﴾ ط ﴿ الكبير ﴾ 5 ط لأن ما بعده مبتدأ لا

بدل ﴿ ولؤلؤاً ﴾ج لاختلاف الجملتين ﴿ حرير ﴾ 5 ﴿ الحزن ﴾ ط ﴿ شكور ﴾

5 ﴿ فضله ﴾ج لاحتمال الاستئناف والحال ﴿ لغوب ﴾ 5 ﴿ جهنم ﴾ج لمثل ما

قلنا ﴿ عذابها ﴾ ط ﴿ كفور ﴾ 5ج لاحتمال الواو الحال ﴿ فيها ﴾ج للقول

المحذوف ﴿كنا نعمل ﴾ ط ﴿ النذير ﴾ 5 ﴿ نصير ﴾ 5 ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿

الصدور ﴾ 5 ﴿ في الأرض ﴾ ط ﴿ كفره ﴾ ط ﴿ مقتاً ﴾ج وان اتفقت الجملتان

ولكن لتكرار الفعل وتصريح الفاعل والمفعول في الثانية ﴿ خساراً ﴾ 5 ﴿ دون الله ﴾

ط ﴿ السموات ﴾ج لاحتمال أن "أم" منقطعة ﴿ منه ﴾ج ﴿ غروراً ﴾ 5 ﴿

تزولا ﴾ج لابتداء ما في معنى القسم مع الواو ﴿ من بعده ﴾ ط ﴿ غفوراً ﴾ 5 ﴿

الأمم ﴾ج ﴿ نفوراً ﴾ 5لا ﴿ ومكر السيء ﴾ ط ﴿ بأهله ﴾ ط ﴿ الأولين ﴾ج

لانتهاء الاستفهام مع اتصال الفاء ﴿ تبديلاً ﴾ 5ج ﴿ تحويلاً ﴾ 5 ﴿ قوة ﴾ ط ﴿

في الأرض ﴾ ط ﴿ قديراً ﴾ 5 ﴿ مسمى ﴾ج ﴿ بصيراً ﴾ 5. انتهى انتهى. اهـ

﴿غرائب القرآن حـ 5 صـ 514.515﴾

*(147/641)*

---

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السماء مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ .

وهذا استدلال بدليل آخر على وحدانية الله وقدرته وفي تفسيرها مسائل :

المسألة الأولى :

ذكر هذا الدليل على طريقة الاستخبار ، وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ وذكر الدليل المتقدم على طريقة الإخبار وقال : ﴿ والله الذي أَرْسَلَ الرياح ﴾ [ فاطر : 9 ] وفيه وجهان الأول : أن انزال الماء أقرب إلى النفع والمنفعة فيه أظهر فإنه لا يخفى على أحد في الرؤية أن الماء منه حياة الأرض فعظم دلالته بالاستفهام لأن الاستفهام الذي للتقرير لا يقال إلا في الشيء الظاهر جداً كما أن من أبصر الهلال وهو خفي جداً ، فقال له غيره أين هو ، فإنه يقول له في الموضع الفلاني ، فإن لم يره ، يقول له الحق معك إنه خفي وأنت معذور ، وإذا كان بارزاً يقول له أما تراه هذا هو ظاهراً والثاني : وهو أنه ذكره بعدما قرر المسألة بدليل آخر وظهر بما تقدم للمدعو بصارة بوجوه الدلالات ، فقال له أنت صرت بصيراً بما ذكرناه ولم يبق لك عذر ، ألا ترى هذه الآية .

المسألة الثانية :

المخاطب من هو يحتمل وجهين أحدهما : النبي صلى الله عليه وسلم وفيه حكمة وهي أن

الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تنفعهم قطع الكلام معهم والتفت إلى غيرهم ، كما أن السيد إذا نصح بعض العبيد ومنعهم من الفساد ولا ينفعهم الإرشاد ، يقول لغيره اسمع ولا تكن مثل هذا ويكرر معه ما ذكره مع الأول ويكون فيه إشعار بأن الأول فيه نقيصة لا يستأهل للخطاب فيتنبه له ويدفع عن نفسه تلك النقيصة والآخر : أن لا يخرج إلى كلام أجنبي عن الأول ، بل يأتي بما يقاربه لئلا يسمع الأول كلاماً آخر فيترك التفكر فيما كان فيه من النصيحة .

المسألة الثالثة :

هذا استدلال على قدرة الله واختياره حيث أخرج من الماء الواحد ثمرات مختلفة وفيه لطائف الأولى : قال أنزل وقال أخرجنا .

(148/641)

---

وقد ذكرنا فائدته ونعيدها فنقول : قال الله تعالى : ﴿ الم تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ ﴾ فإن كان جاهلاً يقول نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له ، فالإخراج لا يمكنك أن تقول فيه إنه بالطبع فهو بإرادة الله ، فلما كان ذلك أظهر أسنده إلى المتكلم ووجه آخر : هو أن الله تعالى لما قال : ﴿ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ ﴾ علم الله بدليل ، وقرب المتفكر فيه إلى الله تعالى فصار من الحاضرين ، فقال له

أخرجنا لقربه ووجه ثالث : الإخراج أتم نعمة من الإنزال ، لأن الإنزال لفائدة الإخراج فأسند الأتم إلى نفسه بصيغة المتكلم وما دونه بصيغة الغائب .

اللطيفة الثانية : قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ ألوانها وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ الناس والدواب والأنعام مُخْتَلِفٌ ألوانه كَذَلِكَ ﴾ .

كأن قائلاً قال اختلاف الثمرات لاختلاف البقاع .

ألا ترى أن بعض النباتات لا تنبت ببعض البلاد كالزعفران وغيره ، فقال تعالى اختلاف البقاع ليس إلا بإرادة الله وإلا فلم صار بعض الجبال فيه مواضع حمر ومواضع بيض ، والجدد جمع جدة وهي الخطة أو الطريقة ، فإن قيل الواو في : ﴿ وَمِنَ الجبال ﴾ ما تقديرها ؟ نقول هي تحتمل وجهين أحدهما : أن تكون للاستئناف كأنه قال تعالى وأخرجنا بالماء ثمرات مختلفة الألوان ، وفي الأشياء الكائنات من الجبال جدد بيض دالة على القدرة ، رادة على من ينكر الإرادة في اختلاف ألوان الثمار ثانيهما : أن تكون للعطف تقديرها وخلق من الجبال .

قال الزمخشري : أراد ذو جدد واللطيفة الثالثة : ذكر الجبال ولم يذكر الأرض كما قال في موضع آخر : ﴿ وَفِي الأرض قِطَعٌ متجاورات ﴾ [ الرعد : 4 ] مع أن هذا الدليل مثل ذلك ، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر في الأول : ﴿ أَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ ﴾ كان نفس إخراج الثمار دليلاً على القدرة ثم زاد عليه بياناً ، وقال مختلفاً كذلك في الجبال في نفسها دليل للقدرة والإرادة ، لأن كون الجبال في بعض نواحي الأرض دون بعضها والاختلاف الذي في هيئة الجبل فإن بعضها يكون أخفض وبعضها أرفع دليل القدرة والاختيار ، ثم زاده بياناً وقال ﴿ جدد بيض ﴾ ، أي مع دلالتها بنفسها هي دالة باختلاف ألوانها ، كما أن إخراج الثمرات في نفسها دلائل واختلاف ألوانها دلائل .

المسألة الرابعة :

﴿ مختلف ألوانها ﴾ ، الظاهر أن الاختلاف راجع إلى كل لون أي بيض مختلف ألوانها وحمر مختلف ألوانها ، لأن الأبيض قد يكون على لون الجص ، وقد يكون على لون التراب الأبيض دون بياض الجص ، وكذلك الأحمر ، ولو كان المراد أن البيض والحمر مختلف الألوان لكان مجرد تأكيد والأول أولى ، وعلى هذا فنقول لم يذكر مختلف ألوانها بعد البيض والحمر والسود ، بل ذكره بعد البيض والحمر وأخر السود الغرابيب ، لأن الأسود لما ذكره مع المؤكد وهو الغرابيب يكون بالغاً غاية السواد فلا يكون فيه اختلاف .

المسألة الخامسة :

قيل بأن الغربيب مؤكد للأسود ، يقال أسود غربيب والمؤكد لا يجيء إلا متأخراً فكيف جاء غرابيب سود ؟ نقول قال الزمخشري : غرابيب مؤكد لذي لون مقدر في الكلام كأنه تعالى قال سواد غرابيب ، ثم أعاد السود مرة أخرى وفيه فائدة وهي زيادة التأكيد لأنه تعالى ذكره مضمراً ومظهراً ، ومنهم من قال هو على التقديم والتأخير ، ثم قال تعالى :

﴿ وَمِنَ الناس والدواب والأنعام ﴾ استدلالاً آخر على قدرته وإرادته ، وكأن الله تعالى قسم دلائل الخلق في العالم الذي نحن فيه وهو عالم المركبات قسمين : حيوان وغير حيوان ، وغير الحيوان إما نبات وإما معدن ، والنبات أشرف ، وأشار إليه بقوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ ﴾ ثم ذكر المعدن بقوله : ﴿ وَمِنَ الجبال ﴾ ثم ذكر الحيوان وبدأ بالأشرف منها وهو الإنسان فقال : ﴿ وَمِنَ الناس ﴾ ثم ذكر الدواب ، لأن منافعها في حياتها والأنعام منفعتها في الأكل منها ، أو لأن الدابة في العرف تطلق على الفرس وهو بعد الإنسان أشرف من غيره ، وقوله : ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ القول فيه كما أنها في أنفسها دلائل ، كذلك في اختلافها دلائل .

وأما قوله ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ فذكر لكون الإنسان من جملة المذكورين ، وكون التذكير

أعلى وأولى .

ثم قال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ .

الخشية بقدر معرفة المخشي ، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه .

وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد ، لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أتقاكم ﴾ [ الحجرات : 13 ] فبين أن الكرامة بقدر التقوى ، والتقوى بقدر العلم .

فالكرامة بقدر العلم لا بقدر العمل ، نعم العالم إذا ترك العمل قدح ذلك في علمه ، فإن من يراه يقول : لو علم لعمل .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الله عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ ذكر ما يوجب الخوف والرجاء ، فكونه عزيزاً ذا انتقام يوجب الخوف التام ، وكونه غفوراً لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ .

وقراءة من قرأ بنصب العلماء ورفع الله ، معناها إنما يعظم ويبجل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 20.18 ﴾

(151/641)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنَزَلَ مِنَ السماء مَاءً ﴾

هذه الرؤية رؤية القلب والعلم ؛ أي ألم ينته علمك ورأيت بقلبك أن الله أنزل ؛ ف"أنّ"

واسمها وخبرها سدّت مسدّ مفعولي الرؤية .

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ ﴾ هو من باب تلوين الخطاب .

﴿ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ نصبت "مُخْتَلِفاً" نعتاً ل"ثَمَرَاتٍ" .

﴿ أَلْوَانُهَا ﴾ رفع بمختلف ، وصلح أن يكون نعتاً ل"ثَمَرَات" لما عاد عليه من ذكره .

ويجوز في غير القرآن رفعه ؛ ومثله رأيت رجلاً خارجاً أبوه .

﴿ بِهِ ﴾ أي بالماء وهو واحد ، والثمرات مختلفة .

﴿ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ الجدد جمع جُدّة ، وهي الطرائق

المختلفة الألوان ، وإن كان الجميع حجراً أو تراباً .

قال الأخفش : ولو كان جمع جديد لقال : جُدُد ( بضم الجيم والدال ) نحو سرير وسرر

وقال زهير :

كأنه أسفع الخدّين ذو جُدُد . . .

طاوٍ ويرتع بعد الصيف عُريانا

وقيل : إن الجدد القِطع ، مأخوذ من جددت الشيء إذا قطعته ؛ حكاه ابن بحر .

قال الجوهريّ : والجُدّة الخُطّة التي في ظهر الحمار تخالف لونه .

والجُدّة الطريقة ، والجمع جدد ؛ قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ

أَلْوَانُهَا ﴾ أي طرائق تخالف لون الجبل .

ومنه قولهم : ركب فلان جُدَّةً من الأمر ؛ إذا رأى فيه رأياً .

وكساء مجدّد : فيه خطوط مختلفة .

الزمخشري : وقرأ الزهريّ "جدد" بالضم جمع جديدة ، وهي الجدّة ؛ يقال : جديدة وجُدُد وجدائد ؛ كسفينة وسفن وسفائن .

وقد فسّر بها قول أبي ذُؤيب :

جَوْن السَّراة له جدائد أربعُ . . .

وروي عنه "جَدَد" بفتحتين ، وهو الطريق الواضح المسفر ، وضعه موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ ﴾ وقرِىء : "والدواب" مخففاً .



---

ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ : "وَلَا الضَّاْلِّين" لأن كل واحد منهما فرّ من التقاء الساكنين ، فحرّك ذلك أوّلهما ، وحذف هذا آخرهما ؛ قاله الزمخشريّ .

﴿ وَالأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ أي فيهم الأحمر والأبيض والأسود وغير ذلك ، وكل ذلك

دليل على صانع مختار .

وقال : "مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ" فذكّر الضمير مراعاة ل"من" ؛ قاله المؤرِّج .

وقال أبو بكر بن عياش : إنما ذكر الكناية لأجل أنها مردودة إلى "ما" مضمرة ؛ مجازه : ومن الناس ومن الدواب ومن الأنعام ما هو مختلف ألوانه ، أي أبيض وأحمر وأسود .

﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ قال أبو عبيدة : الغِربيب الشديد السواد ؛ ففي الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : ومن الجبال سود غرابيب .

والعرب تقول للشديد السواد الذي لونه كلون الغراب : أسود غربيب .

قال الجوهري : وتقول هذا أسود غربيب ؛ أي شديد السواد .

وإذا قلت : غرابيب سود ، تجعل السود بدلاً من غرابيب لأن توكيد الألوان لا يتقدم .

وفي الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله يبغض الشيخ الغربيب" يعني الذي يخضِب بالسواد .

قال امرؤ القيس :

العين طامحة واليد سابحة . . .

والرِّجْل لافحة والوجه غربيب

وقال آخر يصف كَرْماً :

ومن تعاجيب خلق الله غاطيةٌ . . .

يُعصَر منها مُلاحِيٌّ وغِربيب

﴿ كَذَلِكَ ﴾ هنا تمام الكلام؛ أي كذلك تختلف أحوال العباد في الخشية، ثم استأنف فقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ يعني بالعلماء الذين يخافون قدرته؛ فمن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية، كما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" قال: الذين علموا أن الله على كل شيء قدير.

وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله تعالى فليس بعالِم.

وقال مجاهد: إنما العالِم من خشي الله عز وجل.



وعن ابن مسعود: كفى بخشية الله تعالى علماً وبالاغترار جهلاً.

وقيل لسعد بن إبراهيم: مَن أفقه أهل المدينة؟ قال أتقاهم لربه عز وجل.

وعن مجاهد قال: إنما الفقيه من يخاف الله عز وجل.

وعن علي رضي الله عنه قال: إن الفقيه حقّ الفقيه من لم يُقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله تعالى، ولم يؤمّنهم من عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى

غيره ؛ إنه لا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا علم لا فقه فيه ، ولا قراءة لا تدبر فيها .

وأسند الدارميّ أبو محمد عن مكحول قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فضل العالِم على العابد كفضلي على أدناكم ثم تلا هذه الآية ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ .

إن الله وملائكته وأهلَ سمواته وأهل أرضيه والنونَ في البحر يُصلون على الذين يعلّمون الناس الخير " الخبر مرسل .

قال الدارمي : وحدثني أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن يزيد بن حازم قال حدثني عمي جرير بن زيد أنه سمع تُبَيْعاً يحدّث عن كعب قال : إني لأجد نعت قوم يتعلمون لغير العمل ، ويتفقهون لغير العبادة ، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، ويلبسون جلود الضأن ، قلوبهم أمرُّ من الصبر ؛ فبي يغترّون ، وإياي يخادعون ، فبي حلفت لأتيحنَّ لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران .

خرّجه الترمذيّ مرفوعاً من حديث أبي الدرداء وقد كتبناه في مقدّمة الكتاب .

الزمخشريّ : فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ" بالرفع "مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ" بالنصب ، وهو عمر بن عبد العزيز ، وتُحكى عن أبي حنيفة .

قلت : الخشية في هذه القراءة استعارة ، والمعنى : إنما يجلّهم ويعظمهم كما يُجَلّ المهيب المخشيُّ من الرجال بين الناس من بين جميع عباده .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ تعليل لوجوب الخشية ، لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم ، وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم .

والمعاقِب والمثيب حقّه أن يخشى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

*(154/641)*

---

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾

استئنافٌ مسوق لتقريرِ ما قبله من اختلافِ أحوالِ النَّاسِ ببيانِ أنَّ الاختلافَ والتَّفاوتَ أمرٌ مطَّردٌ في جميعِ المخلوقات من النَّباتِ والجمادِ والحيوانِ . والرُّؤيةُ قلبيةٌ أي ألم تعلمَ ﴿ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ بذلك الماءِ . والالتفاتُ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بالفعلِ لما فيه من الصُّنعِ البديعِ المنبىءِ عن كمالِ القُدرةِ والحكمةِ ﴿ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ أي أجناسُها أو أصنافُها على أنَّ كلاًّ منها ذُو أصنافٍ مختلفةٍ . أو هيئاتُها وأشكالُها أو ألوانُها من الصُّفرةِ والخُضرةِ والحُمرةِ وغيرِها وهو الأوفقُ لما في قوله تعالى : ﴿ مّنَ الجبال جُدَدٌ ﴾ أي ذو جديد أي خططٍ وطرائقَ ويقال جُدة الحمارِ للخطةِ السَّوداءِ على ظهره وقُرىء جُدُد بالضَّمِّ جمع جديدةٍ بمعنى الجدة وجَدَد بفتحتينِ وهو الطَّريقُ الواضحُ ﴿ بِيضٌ وَحُمْرٌ

مُّخْتَلِفٌ أَلوانها ﴾ بالشّدةِ والضّعفِ ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ عطفٌ على بيضٌ أو على جدُدُ كأنَّه قيل : ومن الجبالِ مُخطّطٌ ذو جُددٍ ومنها ما هو على لونٍ واحدٍ غرابيبَ وهو تأكيد لمضمرٍ يفسّره ما بعده فإنَّ الغربيبَ. تأكيدٌ للأسودِ كالفاقعِ للأصفرِ والقانِي للأحمرِ ومن حقِّ التَّأكيدِ أنْ يتبعَ المؤكَّدَ ، ونظيرُه في الصّفةِ قولُ النّابغةِ :

والمؤمنِ العائذاتِ الطَّيرَ يمسحُها . . . وفي مثلِه مزيدُ تأكيدٍ لما فيه التّكرارِ باعتبارِ الإضمارِ والإظهارِ .

(155/641)

---

﴿ وَمِنَ النَاسِ وَالدوابِ وَالأنعامِ مُخْتَلِفٌ أَلوانه ﴾ أي ومنهم بعضٌ مختلفٌ ألوانُه أو وبعضُهم مختلفٌ ألوانُه على ما مرَّ في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَاسِ مَن يَقُولُ ءامَنَّا بِاللهِ ﴾ وإيراد الجملتينِ اسميتينِ مع مشاركتِهما لما قبلَهُما من الجملةِ الفعليةِ في الاستشهادِ بمضمونِهما على تباينِ النّاسِ في الأحوالِ الباطنةِ لما أنَّ اختلافَ الجبالِ والنّاسِ والدّوابّ والأنعامِ فيما ذُكر من الألوانِ أمرٌ مستمرٌ فعبَّر عنه بما يدلُّ على الاستمرارِ . وأمّا إخراجُ الثَّمراتِ المختلفةِ فحيثُ كان أمراً حادثاً عبَّر عنه بما يدلُّ على الحدوثِ ثم لمّا كان فيه نوعُ خفاءً علَّق به الرُّؤية بطريقِ الاستفهامِ التقريريِّ المُنبىءِ عن الحمل عليها والتَّرغيبِ فيها بخلافِ

أحوالِ الجبالِ والنَّاسِ وغيرِهما فإنَّها مُشاهدةٌ غنيَّةٌ عن التأمُّلِ فلذلك جُرِّدتْ عن التَّعليقِ بالرُّؤيةِ فتدبَّرْ. وقوله ﴿ كذلك ﴾ مصدرٌ تشبيهيٌّ لقوله تعالى مختلفٌ أي صفةٌ لمصدره المؤكّد تقديرُه مختلفٌ اختلافاً كائناً كذلك أي كاختلافِ الثّمارِ والجبال وقرىء ألواناً وقُرِىء والدَّوابَ بالتَّخفيفِ مبالغةً في الهربِ من التقاءِ السَّاكنينِ وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ تكملةٌ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب ﴾ بتعيينِ من يخشاه عزَّ وجلَّ من النَّاس بعد بيانِ اختلافِ طبقاتِهم وتباينِ مراتبهم، أمَّا في الأوصافِ المعنويَّةِ فبطريقِ التَّمثيلِ وأما في الأوصافِ الصُّوريةِ فبطريقِ التَّصريحِ توفيةً لكلِّ واحدةٍ منهما حقَّها اللائقَ بها من البيانِ أي إنَّما يخشاه تعالى بالغيب العالمون به عزَّ وجلَّ وبما يليق به من صفاتِه الجليلةِ وأفعالِه الجميلةِ لما أنَّ مدارَ الخشية معرفةُ المخشيِّ والعلمُ بشؤونه فمن كان أعلم به تعالى كانَ أخشى منه عزَّ وجلَّ كما قال عليه الصَّلاةُ

(156/641)

---

والسَّلامُ: "أنا أخشاكُم للهِ وأتقاكُم له" ولذلك عقَّب بذكرِ أفعالِه الدَّالَّةِ على كمالِ قُدرتِه وحيث كان الكَفَرةُ بمعزلٍ من هذه المعرفةِ امتنع إنذارُهم بالكلِّية. وتقديمُ المفعولِ لأنَّ المقصودَ حصرُ الفاعليَّةِ ولو أُخِّرَ انعكسَ الأمرُ وقُرىء برفعِ الاسمِ الجليلِ ونصبِ العلماءِ

على أنَّ الخشية مستعارةٌ للتَّعظيمِ فإنَّ المعظَّم يكونُ مهيباً ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ تعليل لوجوبِ الخشيةِ لدلالتهِ على أَنَّه معاقبٌ للمصرّ على طغيانِه غفورٌ للتّائب عن عصيانِه.

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(157/641)

---

وقال الآلوسي :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ الخ

استئناف مسوق على ما يخطر بالبال لتقرير ما أشعر به قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الذين كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [ فاطر : 26 ] من عظيم قدرته عز وجل .

وقال شيخ الإسلام : هو لتقرير ما قبله من اختلاف الناس ببيان أن الاختلاف والتفاوت أمر مطرد في جميع المخلوقات من النبات والجماد والحيوان .

وقال أبو حيان : تقرير لوحدانيته تعالى بأدلة سماوية وأرضية أثر تقريرها بأمثال ضربها جل شأنه ، وهذا كما ترى ، والاستفهام للتقرير والرؤية قلبية لأن إنزال المطر وإن كان مدركاً بالبصر لكن إنزال الله تعالى إياه ليس كذلك ، والخطاب عام أي ألم تعلم أن الله تعالى أنزل من جهة العلو ماء ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ أي بذلك الماء على أنه سبب عادي للإخراج ،

وقيل أي أخرجنا عنده ، والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبىء عن كمال القدرة والحكمة ﴿ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ أي أنواعها من التفاح والرمان والعنب والتين وغيرها مما لا يحصر ، وهذا كما يقال فلان أتى بألوان من الأحاديث وقدم كذا لوناً من الطعام ، واختلاف كل نوع بتعدد أصنافه كما في التفاح فإن له أصنافاً متغايرة لذة وهيئة وكذا في سائر الثمرات ولا يكاد يوجد نوع منها إلا وهو ذو أصناف متغايرة ، ويجوز أن يراد اختلاف كل نوع باختلاف أفراده .

وأخرج عبد بن حميد .

وابن جرير عن قتادة أنه حمل الألوان على معناها المعروف واختلافها بالصفرة والحمرة والخضرة وغيرها ، وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً وهو الأوفق لما في قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ ﴾ وهو إما عطف على ما قبله بحسب المعنى أو حال وكونه استئنافاً مع ارتباطه بما قبله غير ظاهر ، و﴿ جُدَدٌ ﴾ جمع جدة بالضم وهي الطريقة من جده إذا قطعه .

وقال أبو الفضل : هي من الطرائق ما يخالف لونه لون ما يليه ومنه جدة الحمار للخط الذي في وسط ظهره يخالف لونه ، وسأل ابن الأزرق ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن الجدد فقال طرائق طريقة بيضاء وطريقة خضراء ، وأنشد قول الشاعر :

قد غادر السبع في صفحاتها جددا . . .

كأنها طرق لاحت على أكم

والكلام على تقدير مضاف إن لم تقصد المبالغة لأن الجبال ليست نفس الطرائق أي ذو جدد .

وقرأ الزهري ﴿ جُدُدٌ ﴾ بضمتين جمع جديدة كسفينة وسفن وهي بمعنى جدة .

وقال صاحب اللوامح هو جمع جديد بمعنى آثار جديدة واضحة الألوان .

وقال أبو عبيدة : لا مدخل لمعنى الجديدة في هذه الآية .

ولعل من يقول بتجدد حدوث الجبال وتكونها من مياه تنبع من الأرض وتتحجر أولاً فأولاً ثم تنبع من موضع قريب مما تحجر فتتحجر أيضاً وهكذا حتى يحصل جبل لا يأبى حمل الآية على هذه القراءة على ما ذكر ، والظاهر من الآيات والأخبار أن الجبال أحدثها الله تعالى بعيد خلق الأرض لئلا تميد بسكانها ، والفلاسفة يزعمون أنها كانت طيناً في بحار انحسرت ثم تحجرت ، وقد أطال الإمام الكلام على ذلك في كتابه المباحث المشرقية واستدل على ذلك بوجود أشياء بحرية كالصدف بين أجزائها ، وهذا عند تدقيق النظر

هباء وأكثر الأدلة مثله ، ومن أراد الاطلاع على ما قالوا فليرجع إلى كتبهم .

وروي عنه أيضاً أنه قرأ ﴿ جُدَدٌ ﴾ بفتحتين ولم يجز ذلك أبو حاتم وقال : إن هذه القراءة لا تصح من حيث المعنى وصححها غيره وقال : الجدد الطريق الواضح المبين إلا أنه وضع المفرد موضع الجمع ولذا وصف بالجمع ، وقيل هو من باب نطفة أمشاج وثوب أخلاق لاشتمال الطريق على قطع .



---

وتعب بأنه غير ظاهر ولا مناسب لجمع الجبال ﴿ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ أي أصنافها بالشدة والضعف لأنها مقولة بالتشكيك فمختلف صفة بيض وحمر ، و﴿ أَلْوَانُهَا ﴾ فاعل له وليس بمبتدأ ، و﴿ مُّخْتَلِفٍ ﴾ خبره لوجوب مختلفة حينئذٍ ، وجوز أن يكون صفة ﴿ جُدَدٌ ﴾ ﴿ وَغَرَابِيبُ ﴾ عطف على ﴿ بِيْضٌ ﴾ فهو من تفاصيل الجدد والصفات القائمة بها أي ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر ، وغرابيب والغربيب هو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه ومنه الغراب ، وكثر في كلامهم اتباعه للأسود على أنه صفة له أو تأكيد لفظي فقالوا أسود غربيب كما قالوا أبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قاني .

وظاهر كلام الزمخشري أن ﴿ غرابيب ﴾ هنا تأكيد لمحذوف والأصل وسود غرابيب

أي شديدة السواد .

وتعقب بأنه لا يصح إلا على مذهب من يجوز حذف المؤكد ومن النحاة من منع ذلك وهو اختيار ابن مالك لأن التأكيد يقتضي الاعتناء والتقوية وقصد التطويل والحذف يقتضي خلافه .

ورده الصفار كما في شرح التسهيل لأن المحذوف لدليل كالمذكور فلا ينافي تأكيده ، وفي بعض شروح المفصل أنه صفة لذلك المحذوف أقيم مقامه بعد حذفه ، وقوله تعالى : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ بدل منه أو عطف بيان له وهو مفسر للمحذوف ، ونظير ذلك قول النابغة :

والمؤمن العائذات الطير يمسحها . . .

ركبان مكة بين الغيل والسند

وفيه التفسير بعد الإبهام ومزيد الاعتناء بوصف السواد حيث دل عليه من طريق الإضمار والإظهار .

ويجوز أن يكون العطف على ﴿ جُدَدٌ ﴾ على معنى ومن الجبال ذو جدد مختلف اللون ومنها غرابيب متحدة اللون كما يؤذن به المقابلة وإخراج التركيب على الأسلوب الذي سمعته ، وكأنه لما اعتنى بأمر السواد بإفادة أنه في غاية الشدة لم يذكر بعده الاختلاف بالشدة والضعف .

وقال الفراء : الكلام على التقديم والتأخير أي سود غرابيب ، وقيل ليس هناك مؤكد ولا موصوف محذوف وإنما ﴿ غرابيب ﴾ معطوف على ﴿ الجبال جُدَدٌ ﴾ أو على بيض من أول الأمر و﴿ سُودٌ ﴾ بدل منه ، قال في "البحر" : وهذا حسن ويحسنه كون غربيب لم يلزم فيه أن يستعمل تأكيداً ، ومنه ما جاء في الحديث إن الله تعالى يبغض الشيخ الغربيب وهو الذي يخضب بالسواد ، وفسره ابن الأثير بالذي لا يشيب أي لسفاهته أو لعدم اهتمامه بأمر آخرته ، وحكي ما في "البحر" بصيغة قيل ، وقول الشاعر :

العين طامحة واليد شامخة . . .

والرجل لائحة والوجه غربيب

﴿ وَمِنَ الناس والدواب والأنعام مُخْتَلِفٌ ألوانه ﴾ أي ومنهم بعض مختلف ألوانه أو بعضهم مختلف ألوانه على ما ذكروا في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَقُولُ ءامَنَّا بالله ﴾ [ البقرة : 8 ] والجملة عطف على الجملة التي قبلها وحكمها حكمها .

وفي إرشاد العقل السليم أن إيراد الجملتين اسميتين مع مشاركتهما لما قبلهما من الجملة الفعلية في الاستشهاد بمضمونها على تباين الناس في الأحوال الباطنة لما أن اختلاف الجبال

والناس والدواب والأنعام فيما ذكر من الألوان أمر مستمر فعبر عنه بما يدل على الاستمرار وأما إخراج الثمرات المختلفة فحيث كان أمراً حادثاً عبر عنه بما يدل على الحدوث ثم لما كان فيه نوع خفاء علق به الرؤية بطريق الاستفهام التقريري المنبىء عن الحمل عليها والترغيب فيها بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما فإنها مشاهدة غنية عن التأمل فلذلك جردت عن التعليق بالرؤية فتدبر اه ، وما ذكره من أمر تعليق الرؤية مخالف لما في "البحر" حيث قال : وهذا استفهام تقرير ولا يكون إلا في الشيء الظاهر جداً فتأمل .

وقرأ الزهري ﴿ والدواب ﴾ بتخفيف الباء مبالغة في الهرب من التقاء الساكنين كما همز بعضهم ﴿ وَلاَ الضالين ﴾ لذلك .



---

وقرأ ابن السميقع ﴿ أَلْوَانُهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ في محل نصب صفة لمصدر مختلف المؤكد والتقدير مختلف اختلافاً كائناً كذلك أي كاختلاف الثمرات والجبال فهو من تمام الكلام قبله والوقف عليه حسن بإجماع أهل الأداء وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ تكملة لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب ﴾ [ فاطر : 18 ] بتعيين من يخشاه عز وجل من الناس بعد الإيماء إلى بيان شرف الخشية

ورداءة ضدها وتوعد المتصفين به وتقرير قدرته عز وجل المستدعي للخشية على ما نقول أو بعد بيان اختلاف طبقات الناس وتباين مراتبهم أما في الأوصاف المعنوية فبطريق التمثيل وأما في الأوصاف الصورية فبطريق التصريح توفية لكل واحدة منهما حقها اللائق بها من البيان، وقيل ﴿ كذلك ﴾ في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك أي كما بين ولخص ثم قيل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهُ ﴾ الخ وسلك به مسلك الكناية من باب العرب لا تخفر الذمم دلالة على أن العلم يقتضي الخشية ويناسبها وهو تخلص إلى ذكر أوليائه تعالى مع إفادة أنهم الذين نفع فيهم الإنذار وأن لك بهم غنية عن هؤلاء المصرين، قال صاحب الكشف: والرفع أظهر ليكون من فصل الخطاب.

وقال ابن عطية يحتمل أن يكون ﴿ كذلك ﴾ متعلقاً بما بعده خارجاً مخرج السبب أي كذلك الاعتبار والنظر في مخلوقات الله تعالى واختلاف ألوانها يخشى الله العلماء، ورده السمين بأن إنما لا يعمل ما بعده فيما قبلها وبأن الوقف على كذلك عند أهل الأداء جميعاً، وارتضاه الخفاجي وقال: وبه ظهر ضعف ما قيل إن المعنى الأمر كذلك أي كما بين ولخص على أنه تخلص لذكر أولياء الله تعالى، وفيه أنه ليس في هذا المعنى عمل ما بعد إنما فيما قبلها وإجماع أهل الأداء على الوقف على ﴿ كذلك ﴾ إن سلم لا يظهر به ضعف ذلك، وفي بعض التفاسير المأثورة عن السلف ما يشعر بتعلق ﴿ كذلك ﴾ بما بعده.

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال في الآية كما اختلفت هذه الأنعام تختلف الناس في خشية الله تعالى كذلك وهذا عندي ضعيف واوظهر ما عليه الجمهور وما قيل أدق وألطف ، والمراد بالعلماء العالمون بالله عز وجل وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الحميدة وسائر شؤونه الجميلة لا العارفون بالنحو والصرف مثلاً فمدار الخشية ذلك العلم لا هذه المعرفة فكل من كان أعلم به تعالى كان أخشى .

روى الدارمي عن عطاء قال : قال موسى عليه السلام يا رب أي عبادك أحكم ؟ قال الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه قال : يا رب أي عبادك أغنى ؟ قال : أرضاهم بما قسمت له قال : يا رب أي عبادك أخشى ؟ قال : أعلمهم بي .

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أنا أخشاكم لله وأتقاكم له " ولكونه المدار ذكرت الخشية بعدما يدل على كمال القدرة ، ولهذه المناسبة فسر ابن عباس كما أخرج عنه ابن المنذر .

وابن جرير ﴿ العلماء ﴾ في الآية بالذين يعلمون أن الله تعالى على كل شيء قدير ، وتقديم المفعول لأن المقصود بيان الخاشين والإخبار بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم ولو أخر لكان المقصود بيان المخشي والإخبار بأنه الله تعالى دون غيره كما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللهَ ﴾ [ الأحزاب : 39 ] والمقام لا يقتضيه بل يقتضي الأول ليكون

تعريضاً بالمنذرين المصرين على الكفر والعناد وأنهم جهلاء بالله تعالى وبصفاته ولذلك لا يخشون الله تعالى ولا يخافونه عقابه.

وأنكر بعضهم إفادة ﴿ إِنَّمَا ﴾ هنا للحصر وليس بشيء، وروي عن عمر بن عبد العزيز.

(163/641)

---

وأبي حنيفة رضي الله تعالى عنهما أنهما قرءا ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ ﴾ بالرفع ﴿ العلماء ﴾ بالنصب وطعن صاحب النشر في هذه القراءة، وقال أبو حيان: لعلها لا تصح عنهما، وقد رأينا كتباً في الشواذ ولم يذكروا هذه القراءة وإنما ذكرها الزمخشري وذكرها عن أبي حيوة أبو القاسم يوسف بن علي بن جنادة في كتابه الكامل وخرجت على أن الخشية مجاز عن التعظيم بعلاقة اللزوم فإن المعظم يكون مهيباً، وقيل الخشية ترد بمعنى الاختيار كقوله:

خشيت بني عمي فلم أر مثلهم...

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ تعليل لوجوب الخشية لأن العزة دالة على كمال القدرة على الانتقام ولا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة، وقيل ذكر ﴿ غَفُورٌ ﴾ من باب التكميل نظير ما في بيت الغنوي المذكور آنفاً.

والآية على ما في بعض الآثار نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقد ظهرت عليه الخشية حتى عرفت فيه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

(164/641)

---

وقال ابن عجيبة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾

قلت : ﴿ مختلفاً ﴾ : نعت ﴿ ثمرات ﴾ . و ﴿ مختلف ألوانه ﴾ : صفة لمحذوف ، أي : صنف مختلف.

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ ألم تَرَ أن الله أنزلَ من السماء ماءً فأخرجنا به ﴾ بالماء ﴿ ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها ﴾ أي : أجناسها ، كالرمان ، والتفاح ، والتين ، والعنب ، وغيرها مما لا يُحصى ، أو : ألوانها : هيئاتها من الحُمرة والصفرة ونحوهما . ﴿ ومن الجبال جُدَدَ ﴾ طُرق مختلفة اللون. جمع : جُدَّة ، كمُدَّةٍ ومُدَدٍ . والجُدة : الطريقة والخطة ، تكون في الجبل ، تخالف لون ما يليها . وكل طريقة من سواد أو بياض فهي جُدة. قاله الهروي. وهي مبتدأ وخبر ، أي : وطرق ﴿ بِيض وحُمْرٌ ﴾ كائنة من الجبال.

﴿ وغرابيبُ سود ﴾ أي : ومنها غرابيب سود ، أي : ومن الطرق سود غرابيب ؛ جمع :

غربيب، وهي الذي أبعد في السواد وأغرب، ومنه: الغراب. قال الهروي: هي الجواد ذوات الصخور السود، والغربيب: شديد السواد. انتهى انتهى. اهـ وفي الصحاح: تقول هذا أَسود غربيب، أي: شديد السواد، وإذا قلت: غرابيب سود؛ تجعل السود بدلاً من غرابيب؛ لأن توكيد الألوان لا يتقدم. انتهى انتهى. اهـ تقول: أصفر فاقع، وأسود حالك، ولا يتقدم الوصف، ونقل الكواشي عن أبي عبيد: أن في الآية تقديماً وتأخيراً، تقديره: وسود غرابيب. وفائدته: أن يكون المؤكد مضمراً، والمظهر تفسيراً له، فيدل على الاعتناء به، لكونهما معاً يدلان على معنىً واحد. انتهى انتهى. اهـ ولا بد من تقدير حذف مضاعف في قوله: ﴿ ومن الجبال جُدَدَ ﴾ أي: من الجبال ذو جدد بيض، وحمر، وسود غرابيب؛ حتى يؤول إلى قولك: ومن الجبال مختلف ألوانه، كما قال: ﴿ ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾.

(165/641)

---

﴿ ومن الناس والدوابِّ والأنعام مختلفٌ ألوانه ﴾ أي: ومنهم صنفٌ مختلف ألوانه بالحمرة والصفرة والبياض والسواد. ﴿ كذلك ﴾ أي: كاختلاف الثمرات والجبال. قال القشيري: تخصيص الفعل بهيئته وألوانه من أدلة قصد الفاعل وبرهانه. فإتقان الفعل

وإحكامه شواهد الصنع وإعلامه . وكذلك أيضاً الناس والدواب والأنعام ، بل جميع المخلوقات ، متجانس الأعيان ، مختلف الصفات ، وهو دليل ثبوت منشئها بنعت الجلال ه.

الإشارة : ألم تر أن الله أنزل من سماء الغيوب ماء الواردات الإلهية ، فأخرجنا به ثمرات ، وهي العلوم والأذواق والوجدان ، مختلف ألوانها ، فمنها علوم الشرائع ، وتحقيق مسائلها ، ومنها علم العقائد ، وتشييد أدلتها وبراهينها ، ومنها علوم اللسان بإتقان قواعدها ، ومنها علم القلوب وتصفيتها من العيوب ، وهو علم الطريقة ، ومنها علم الأسرار ، وهي أسرار الذات والصفات ، وهو علم الحقيقة . ومن جبال العقل طُرق بيض ، وحمر ، وسود ، فالبيض : طرق الكشف والبيان ، وحلاوة الذوق والوجدان ، والحُمر : طُرق الدليل والبرهان ؛ لأنها قد تظهر وتخفى ، والسود الغرابيب : عقول الفلاسفة والطبائعيين ، أهل الحدس والتخمين ، إذا لم يقتدوا بالكتاب المبين ، وشرعِ النبي الأمين .



---

أولئك هم الضالون المضلُّون .

ولمّا كان النظر في هذه المصنوعات إنما يكون بالعلم ، ذكر أهله ، فقال :

﴿ . . . إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ إنما يخشى اللهَ ﴾ أي : يخافه ﴿ من عباده العلماءُ ﴾ لأنهم هم الذين يتفكرون في عجائب مصنوعاته ، ودلائل قدرته ، فيعرفون عظمته وكبرياءه ، وجلاله وجماله ، ويتفكرون فيما أعد اللهُ لمَن عصاه من العذاب ومناقشة الحساب ، وفيما أعد لمَن خافه وأطاعه من الثواب ، وحسن المآب ، فيزدادون خشية ، ورهبة ، ومحبة ، ورغبة في طاعته ، وموجب رضوانه ، دون مَن عداهم من الجهّال . وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

« أعلمكم بالله أشدكم له خشية » وقال صلى الله عليه وسلم : « رأس الحكمة مخافة الله » .

وقال الربيع بن أنس : مَن لم يَخشَ اللهَ فليس بعالم ، وقال ابن عباس في تفسير الآية : كفى بالزهد عِلماً ، وقال ابن مسعود : كفى بخشية الله عِلماً ، وبالاعتذار جهلاً . وفي الحِكَم : « خيرُ علم ما كانت الخشية معه » . وقال في التنوير : اعلم أن العلم حيثما تكرر في الكتاب والسُنَّة ؛ فإنما المراد به العلم النافع ، الذي تقّارنه الخشية ، وتكتنفه المخافة . قال تعالى : ﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ﴾ بيّن سبحانه أن الخشية تلازم العلم ، وفهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية . أهـ

وقال الشيخ ابن عباد رضي الله عنه : واعلم أن العلم النافع ، المتفق عليه فيما سلف

وخلف ، إنما هو العلم الذي يؤدي بصاحبه إلى الخوف والخشية ، وملازمة التواضع والذلة ، والتخلُّق بأخلاق الإيمان ، إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها ، وإيثار الآخرة عليها ، ولزوم الأدب بين يدي الله تعالى ، إلى غير ذلك من الصفات العلية ، والمناحي السنية . أ هـ

*(167/641)*

---

وقال في لطائف المنن : شاهد العلم ، الذي هو مطلب الله تعالى : الخشية ، وشاهد الخشية : موافقة الأمر ، فأما علم تكون معه الرغبة في الدنيا ، والتملُّق لأربابها ، وصرف الهمة لاكتسابها ، والجمع ، والادخار ، والمباهاة ، والاستكثار ، وطول الأمل ، ونسيان الآخرة ، فما أبعد مَنْ هذا نعته مِنْ أن يكون من ورثة الأنبياء ! وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التي كان بها عند الموروث عنه . ومثل مَنْ هذه الأوصاف أوصافه من العلماء كالشمعة ، تُضيء على غيرها ، وهي تحرق نفسها . جعل الله العلم الذي علمه من هذا وصفه حجة عليه ، وسبباً في تكثير العقوبة لديه . أ هـ

وتقديم اسم الله تعالى ، وتأخير العلماء ، يُؤذِن أن معناه : إن الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم . ولو عكس ، بأن قال : إنما يخشى العلماءُ الله ، لكان المعنى : أنهم لا

يخشون إلا الله .

وقرأ أبو حنيفة وعمر بن عبد العزيز : بنصف « العلماء » ورفع « الله » .

(168/641)

---

والخشية في هذه القراءة بمعنى التعظيم . والمعنى : إنما يعظم اللهُ من عباده العلماءَ . وعنه صلى الله عليه وسلم : « يقول الله للعلماء يوم القيامة إذا قَعَدَ على كُرسيِّه ، يفصل قضاء عباده : إني لم أجعل عِلْمي وحِلْمي فِيكُمْ ؛ إلا وأنا أُريدُ أن أغفرَ لكم ، على ما كان فيكم ، ولا أبالي » قال المنذري : انظر إلى قوله : « علمي وحلمي » يتضح لك بإضافته إليه أنه لم يرد به علم أكثر أهل الزمان المجرّد عن العلم به والإخلاص . وفي رواية : « لم أجعل حكمتي فيكم إلا لخير أُريده بكم ، ادخلوا الجنة بما فيكم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « يُوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء ، فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء » .

﴿ إِن الله عزيزٌ غفور ﴾ هو تعليل لوجوب الخشية ؛ لدلالته على عقوبة العصاة ؛ لعزته وغلبته ، وإثابة أهل الطاعة ، والعفو عنهم ؛ لعظيم غفرانه ، والمعاقب والمثيب حقه أن يُخشى .

الإشارة : العلماء على قسمين : علماء بأحكام الله ، وعلماء بالله ، العلماء بالأحكام

يخشون غضبه وعقابه ، والعلماء بالله يخشون إبعاده واحتجابه ، العلماء بالأحكام يتقون مواطن الآثام ، والعلماء بالله يتقون سوء الأدب في حضرة الملك العلاّم . فخشية العلماء بالله أرق وأشد . العلماء بالله أخذوا علمهم من الله ، والعلماء بالأحكام أخذوا علمهم عن الأموات . قال الشيخ أبو يزيد رضي الله عنه : في علماء أهل الرواية : مساكين أخذوا علمهم ميت عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت . أ هـ

(169/641)

---

والفرق بين الخوف والرهبة والخشية : أن الخوف من العقاب ، والرهبة من العتاب ، والخشية من الإبعاد . قال القشيري : والفرق بين الخشية والرهبة : أنَّ الرهبة : خوفٌ يُوجِبُ هَرَبَ صاحبه ، فيجري في تفرقته . والخشية إذا حصلت كَبَحَت صاحبها ، فيبقى مع الله . فقدمت الخشية على الرهبة في الجملة ، والخوف قضية الإيمان ، قال تعالى : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : 175 ] . والخشية قضية العلم والهيبة. انتهى انتهى . ا هـ ثم قال : العالم يخاف تقصيره في حقّ ربه ، والعارف يخشى من سوء أدبه وترْك احترامٍ ، وانبساط في غير وقت ، بإطلاق لَفْظٍ ، أو ترَخِيص بِترْكِ الأَوْلى . أ هـ

قال الورتجبي : الخوف عموم ، والخشية خصوص . وقد قرن سبحانه الخشية بالعلم ، أي :

العلم بالله وجلاله وقدره وربوبيته وعبوديته له . وحقيقة الخشية : وقوع إجلال الحق في قلوب العارفين ، ممزوجاً بسنا التعظيم ، ورؤية الكبرياء والعظمة ، ولا يحصل ذلك إلا لَمن شاهد القدم ، والأزل ، والبقاء ، والأبد ، فمَن زاد علمه بالله زاد خشية ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « أنا أعرفكم بالله وأخشاكم منه » ه . وفي الحديث : قيل يا رسول الله : أي الأعمال أفضل ؟ قال : « العلم » قيل : أيُّ العلم ؟ قال : « العلم بالله سبحانه » وقال صلى الله عليه وسلم : « ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعُه ؟ والله إني لأعلمُكم بالله ، وأشدُّكم له خشيةً » .



---

ثم قال : عن جعفر الصادق : العلم أمْرُ تركِ الحرمة في العبادات ، وترك الحرمة في الحياء من الحق ، وترك الحرمة في متابعة الرسول ، وترك الحرمة في خدمة الأولياء الصدّيقين . انتهى انتهى . ا هـ ومعنى كلامه : أن العلم الحقيقي هو الذي يأمن صاحِبُه من انتهاك حرمة العبادات ، ومِن هتْك حرمة الاحتشام من الله ورسوله وأوليائه . ومَن أراد من العلماء السلامة من الاغترار بالعلم فليطالع شرح ابن عباد ، في قول الحِكَم : « العلم إن قارنته

الخشية فلك ، وإلا ، فعليك » . وبالله التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المديد حـ 4 صـ 539.536﴾

(171/641)

---

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ . . إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ » الجدد : القطع ، واحدتها جدّة . . ومنه « جدّة » البلد المعروف على ساحل البحر الأحمر من الجزيرة العربية ، لأنها جدّت أي قطعت من الآكام والهضاب القائمة فى هذا الموقع . .

ومنه أيضا قول الشاعر . .

أبى حبّى سليمى أن يبدأ وأمسى حبها خلقا جديدا

أي أمسى حبها قديما ، قد تقطع أديمه . .

والغرابيب : جمع غربيب ، مثل قنديل وقناديل ، وهو الشيء الحالك السواد ، ومنه سمى الغراب غرابا . .

والآية معرض من معارض الخلق والإبداع ، لقدرة اللّه سبحانه وتعالى . .

وفيها إلفات إلى هؤلاء السادرين فى غيهم ، الهائمين فى ظلمات جهلهم وضلالهم ، أن يقيموا وجوههم على هذا الوجود ، وأن يفتحوا أبصارهم على صحفه ، وأن يقرءوا ما خط على هذه الصحف من سطور ، تحدث عن قدرة الخالق ، وإبداعه ، وعلمه ، وسلطانه . .

.وفى قوله تعالى : «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها »

خطاب للنبىّ ولكلّ من هو أهل لهذا الخطاب ، من كل ذى عين ، وعقل . .

(172/641)

---

فهذا سطر من صحيفة الوجود ، يرى فيه الناظرون ما أبدعت قدرة اللّه ، وما أخرجت من هذه الأرض الهامدة ومن ترابها الأسود ، من ثمرات مختلفة ألوانها وطعومها .

فمن هذا التراب الأسود ، اكتست الأرض العارية الجديب ، بحلة قشيبة ، من الزهر ، والثمر ، المختلف الألوان ، بين أحمر ، وأصفر ، وأبيض . . إلى غير ذلك مما لا حصر له من ألوان . .

فمن أبدع هذا ، وصوره على تلك الصور الرائعة المذهلة ؟

«أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها . . أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ» (النمل : 60) قوله تعالى : «وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ» سطور أخرى من صفحة الوجود . . يرى فيها الناظرون بألبابهم ، قدرة اللّه وإبداعه فى هذا الجماد الجامد ، وفى الجبال الثابتة الراسخة بالذات. إنها ليست أكوانا متضخمة بلا وزن ولا حساب ، بل إن يد القدرة ممسكة بكل ذرة فيها ، وإن الناظر ليرى فى ألوانها المختلفة من أبيض وأحمر ، وأسود وما بين الأبيض والأحمر ، والأسود .أن يدا قادرة ، مدبرة ، قد أقامتها بحساب دقيق وتدبير محكم ، حيث أن وراء هذه الألوان صفات أخرى لتلك الجبال ، فاللون الأبيض وراءه أحجار جيرية ، على حين أن اللون الأحمر يضم أحجارا صلدة جامدة ، أما اللون الأسود ، ففى كيانه أحجار أشد صلابة ، وأكثر احتمالا . .

ففى هذه الألوان علم ينفذ منه العقل إلى حقائق ، ومعطيات ، فيها خير كثير ،

ورزق موفور . . وفى هذا دعوة إلى الدراسة والبحث والتعمق إلى ما وراء ظوهر الطبيعة . . فهذه الظواهر قشور ، تخفى وراءها جواهر كريمة ومعادن نفيسة . . فمن وقف عند هذه القشور ، لم يقع ليده إلا التافه المتساقط من لحاء شجرة الطبيعة ، وأما من تجاوز هذه القشرة ، فإنه خليق بأن يملأ يديه من كل خير ، ويطعم من كل ثمر . . فإذا امتد نظر الناظر إلى عالم الإنسان ، والدواب ، والأنعام ، وجد فى كل عالم صورا وأشكالا لا حصر لها . .

فالعالم الإنسانى مثلا . . كل إنسان عالم بذاته . . فى صورته ، ولونه ، ولسانه ، وفى مشاعره ، وتفكيره ، وتصوراته ، وخواطره ، بحيث لا يكاد يتفق إنسان وإنسان . . والدواب . . والأنعام كذلك . . كل حى منها ، وإن بدا أنه قريب الشبه بغيره ، فإن لكل حىّ منها صفات ظاهرة وباطنة ، تميزه من غيره .

ولكن من الذي يرى هذا ، ويدرك الفروق الظاهرة ، أو الخفية بين هذه المخلوقات ؟ إنه لا يرى هذا إلا أهل العلم ، وأصحاب النظر ، الذين ينظرون بعقولهم لا بعيونهم وحدها . . ولهذا جاء قوله تعالى ، تعقيبا على هذه الدعوة الداعية إلى النظر فى تلك الموجودات : « إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ » فإن هذه الخشية لله ، التي تقع فى القلوب ، وتستولى على المشاعر ، لا تجىء إلا عن علم بما لله من جلال ، وقدرة ، وعلم ، وحكمة . . وهذا العلم لا يحصّل إلا بالبحث الجادّ ، والنظر المتأمل ، والعقل الدارس المفكر ، فى خلق

السموات والأرض ، وما فى السموات والأرض . .

فمعرفة اللّه أولا ، ثم الخشية له ثانيا . .

(174/641)

---

وإنه لا خشية إلا عن معرفة الذّات التي تخشى ، ويخشى سلطانها ، ويخاف بأسها .

وإنه لا معرفة إلا عن نظر ، وتفكر ، وتدبر . .

فمن كان أكثر معرفة للّه ، وعلما بما له من صفات الكمال والجلال . كان أكثر خشية للّه ، وتوقّيا لحرماته . .

وقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ » أي أنه مع ما للّه من عزة وقوة وسلطان ، فإنه سبحانه ، غفور ، يلقى أهل الإساءة بالمغفرة ، إذا سألوا هم مغفرته ، وطلبوا عفوه ، والتمسوا رضاه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن ـ 11 ص 879.882 ﴾

(175/641)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾

استئناف فيه إيضاح ما سبقه من اختلاف أحوال الناس في قبول الهدى ورفضه بسبب ما تهيأت خِلقة النفوس إليه ليظهر به أن الاختلاف بين أفراد الأصناف والأنواع ناموس جِبِلّي فَطر الله عليه مخلوقات هذا العالم الأرضي .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم ليدفع عنه اغتمامه من مشاهدة عدم انتفاع المشركين بالقرآن .

وضُرب اختلاف الظواهر في أفراد الصنف الواحد مثلاً لاختلاف البواطن تقريباً للأفهام ، فكان هذا الاستئناف من الاستئناف البياني لأن مثل هذا التقريب مما تشرئبّ إليه الأفهام عند سماع قوله : ﴿ إن الله يسمع من يشاء ﴾ [ فاطر : 22 ] .

والرؤية بصرية ، والاستفهام تقريري ، وجاء التقرير على النفي على ما هو المستعمل كما بيناه عند قوله تعالى : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ﴾ في سورة الأعراف ( 148 ) وفي آيات أخرى .

وضمير فأخرجنا ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم .

والألوان : جمع لون وهو عَرَض ، أي كيفية تعرض لسطوح الأجسام يكيِّفه النورُ كيفيات مختلفة على اختلاف ما يحصل منها عند انعكاسها إلى عدسات الأعين من شبه الظلمة

وهو لون السواد وشِبه الصبح هو لون البياض ، فهما الأصلان للألوان ، وتنشق منها ألوان كثيرة وضعت لها أسماء اصطلاحية وتشبيهية .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ﴾ في سورة البقرة ( 69 ) ، وتقدم في سورة النحل .

والمقصود من الاعتبار هو اختلاف ألوان الأصناف من النوع الواحد كاختلاف ألوان التفاح مع ألوان السفرجل ، وألوان العنب مع ألوان التين ، واختلاف ألوان الأفراد من الصنف الواحد تارات كاختلاف ألوان التمور والزيتون والأعناب والتفاح والرمان .

*(176/641)*

---

وذكر إنزال الماء من السماء إدماج في الغرض للاعتبار بقدرة الله مع ما فيه من اتحاد أصل نشأة الأصناف والأنواع كقوله تعالى : ﴿ تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ [ الرعد : 4 ] وذلك أرعى للاعتبار .

وجيء بالجملتين الفعليتين في ﴿ أنزل ﴾ و "أخرجنا" لأن إنزال الماء وإخراج الثمرات متجدد آنا فآنا .

والالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله : ﴿ أنزل ﴾ وقوله : "أخرجنا" لأن الاسم الظاهر

أنسب بمقام الاستدلال على القدرة لأنه الاسم الجامع لمعاني الصفات .

وضمير التكلم أنسب بِما فيه امتنان .

وقدم الاعتبار باختلاف أحوال الثمرات لأن في اختلافها سعة تشبه سعة اختلاف الناس في المنافع والمدارك والعقائد .

وفي الحديث : " مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمْرة طعمُها طيّب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحُها طيّب وطعمها مُرّ ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مرّ ولا ريح لها " .

وجرد ﴿ مختلفاً ﴾ من علامة التأنيث مع أن فاعله جمع وشأنُ النعت السَبَبي أن يوافق مرفوعه في التذكر وضده والإفراد وضده ، ولا يوافق في ذلك منعوته ، لأنه لما كان الفاعل جمعاً لما لا يعقل وهو الألوان كان حذف التاء في مثله جائزاً في الاستعمال ، وآثره القرآن إيثاراً للإيجاز .

والمراد بالثمرات : ثمرات النخيل والأعناب وغيرها ، فثمرات النخيل أكثر الثمرات ألواناً ، فإن ألوانها تختلف باختلاف أطوارها ، فمنها الأخضر والأصفر والأحمر والأسود .

﴿ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ ألوانها ﴾ .

عطف على جملة ﴿ ألم تر أن الله ﴾ فهي مثلها مستأنفة ، وعطفها عليها للمناسبة

الظاهرة .

و﴿ جدد ﴾ مبتدأ ﴿ ومن الجبال ﴾ خبره .

وتقديم الخبر للاهتمام وللتشويق لذكر المبتدأ حثّاً على التأمل والنظر .

(177/641)

---

و ﴿ من ﴾ تبعيضية على معنى : وبعض تراب الجبال جُدَد ، ففي الجبل الواحد توجد جُدد مختلفة ، وقد يكون بعض الجُدَد بعضها في بعض الجبال وبعض آخر في بعض آخر .

و﴿ جُدَد ﴾ : جمع جُدّة بضم الجيم ، وهي الطريقة والخطة في الشيء تكون واضحة فيه .

يقال للخطة السوداء التي على ظهر الحمار جُدّة ، وللظبي جدّتان مسكيّتا اللون تفصلان بين لوني ظهره وبطنه ، والجدد البيض التي في الجبال هي ما كانت صخوراً بيضاء مثل المروة ، أو كانت تقرب من البياض فإن من التراب ما يصير في لون الأصهب فيقال : تراب أبيض ، ولا يعنون أنه أبيض كالجير والجص بل يعنون أنه مخالف لغالب ألوان التراب ، والجُدَد الحُمر هي ذات الحجارة الحمراء في الجبال .

و﴿ غرابيبُ ﴾ جمع غربيب ، والغربيبُ : اسم للشيء الأسود الحالك سواده ، ولا

تعرف له مادة مشتق هو منها ، وأحسب أنه مأخوذ من الجامد ، وهو الغراب لشهرة الغراب بالسواد .

﴿ وسود ﴾ جمع أسود وهو الذي لونه السواد .

فالغربيب يدل على أشد من معنى أسود ، فكان مقتضى الظاهر أن يكون ﴿ غرابيب ﴾ متأخراً عن ﴿ سود ﴾ لأن الغالب أنهم يقولون : أسود غربيب ، كما يقولون : أبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قان ، ولا يقولون : غربيب أسود وإنما خولف ذلك للرعاية على الفواصل المبنية على الواو والياء الساكنتين ابتداءً من قوله : ﴿ واللَّه هو الغني الحميد ﴾ [ فاطر : 15 ] ، على أن في دعوى أن يكون غربيبا تابعاً لأسود نظراً والآية تؤيد هذا النظر ، ودعوى كون ﴿ غرابيب ﴾ صفة لمحذوف يدل عليه ﴿ سود ﴾ تكلف واضح ، وكذلك دعوى الفراء : أن الكلام على التقديم والتأخير ، وغرض التوكيد حاصل على كل حال .

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)

موقعه كموقع قوله : ﴿ ومن الجبال جدد ﴾ [ فاطر : 27 ] ، ولا يلزم أن يكون مسوغ الابتداء بالنكرة غير مفيد معنى آخر فإن تقديم الخبر هنا سوغ الابتداء بالنكرة .

واختلاف ألوان الناس منه اختلاف عام وهو ألوان أصناف البشر وهي الأبيض والأسود والأصفر والأحمر حسب الاصطلاح الجغرافي .

وللعرب في كلامهم تقسيم آخر لألوان أصناف البشر ، وقد تقدم عند قوله : ﴿ واختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴾ في سورة الروم ( 22 ) .

ومن ﴾ تبعيضية .

والمعنى : أن المختلف ألوانه بعض من الناس ، ومجموع المختلفات كله هو الناس كلهم وكذلك الدواب والأنعام ، وهو نظم دقيق دعا إليه الإيجاز .

وجيء في جملة ﴿ ومن الجبال جدد ﴾ [ فاطر : 27 ] و ﴿ من الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه ﴾ بالاسمية دون الفعلية كما في الجملة السابقة لأن اختلاف ألوان الجبال والحيوان الدال على اختلاف أحوال الإيجاد اختلافاً دائماً لا يتغير وإنما يحصل مرة واحدة عند الخلق وعند تولد النسل .

﴿ مُخْتَلِفٌ ألوانه كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء إِنَّ اللهَ ﴾ .

الأظهر عندي أن ﴿ كذلك ﴾ ابتداء كلام يتنزل منزلة الإخبار بالنتيجة عقب ذكر الدليل .

والمعنى : كذلك أمر الاختلاف في ظواهر الأشياء المشاهد في اختلاف ألوانها وهو توطئة لما يرد بعده من تفصيل الاستنتاج بقوله : ﴿ إنما يخشى الله من عباده ﴾ أي إنما يخشى الله من البشر المختلفة ألوانهم العلماء منهم ، فجملة ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ مستأنفة عن جملة ﴿ كذلك ﴾ .

وإذا علم ذلك دل بالالتزام على أن غير العلماء لا تتأتّى منهم خشية الله فدلّ على أن البشر في أحوال قلوبهم ومداركهم مختلفون .

وهذا مثل قوله : ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ [ فاطر : 18 ] .

وأوثر هذا الأسلوب في الدلالة تخلصاً للتنويه بأهل العلم والإيمان لينتقل إلى تفصيل ذلك بقوله : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾ [ فاطر : 29 ] الآية . . .

*(179/641)*

---

فقوله : ﴿ كذلك ﴾ خبر لمبتدأ محذوف دل عليه المقام .

والتقدير : كذلك الاختلاف ، أو كذلك الأمر على نحو قوله تعالى في سورة الكهف ( 91 ) : ﴿ كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً ﴾ وهو من فصل الخطاب كما علمت هنالك ولذلك يحسن الوقف على ما قبله ويستأنف ما بعده .

وأما جعل كذلك ﴿ من توابع الكلام السابق فلا يناسب نظم القرآن لضعفه .

والقصر المستفاد من ﴿ إنما ﴾ قصر إضافي ، أي لا يخشاه الجهال ، وهم أهل الشرك فإن من أخص أوصافهم أنهم أهل الجاهلية ، أي عدم العلم ؛ فالمؤمنون يومئذٍ هم العلماء ، والمشركون جاهلون نفيت عنهم خشية الله .

ثم إن العلماء في مراتب الخشية متفاوتون في الدرجات تفاوتاً كثيراً .

وتقديم مفعول ﴿ يخشى ﴾ على فاعله لأن المحصور فيهم خشية الله هم العلماء فوجب تأخيره على سنة تأخير المحصور فيه .

والمراد بالعلماء : العلماء بالله وبالشريعة ، وعلى حسب مقدار العلم في ذلك تقْوَى الخشية ؛ فأما العلماء بعلوم لا تتعلق بمعرفة الله وثوابه وعقابه معرفة على وجهها فليست علومهم بمقربة لهم من خشية الله ، ذلك لأن العالم بالشريعة لا تلتبس عليه حقائق الأسماء الشرعية فهو يفهم مواقعها حق الفهم ويرعاها في مواقعها ويعلم عواقبها من خير أو شر ، فهو يأتي ويدع من الأعمال ما فيه مراد الله ومقصدُ شرعه ، فإنْ هو خالف ما دعت إليه الشريعة في بعض الأحوال أو في بعض الأوقات لداعي شهوة أو هوى أو تعجل نفع دنيوي كان في حال المخالفة موقناً أنه مورَّط فيما لا تحمد عقباه ، فذلك الإيقان لا يلبث أن ينصرف به عن الاسترسال في المخالفة بالإقلاع أو الإقلال .

وغير العالم إن اهتدى بالعلماء فسعيه مثل سعي العلماء وخشيته متولدة عن خشية

العلماء .

قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد "والعلم دليل على الخيرات وقائد إليها ، وأقرب العلماء إلى الله أولاهم به وأكثرهم له خشية وفيما عنده رغبة" .



---

وجملة ﴿ إن الله عزيز غفور ﴾ تكميل للدلالة على استغناء الله تعالى عن إيمان المشركين ولكنه يريد لهم الخير .

ولما كان في هذا الوصف ضرب من الإعراض عنهم مما قد يحدث يأساً في نفوس المقاربين منهم ، أُلِفَتْ قلوبهم بإتباع وصف ﴿ عزيز ﴾ ، بوصف ﴿ غفور ﴾ أي فهو يقبل التوبة منهم إن تابوا إلى ما دعاهم الله إليه على أن في صفة ﴿ غفور ﴾ حظاً عظيماً لأحد طرفي القصر وهم العلماء ، أي غفور لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾



---

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾

أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة عن عمرو بن الأحوص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "في حجة الوداع ألا لا يجني جان إلا على نفسه . لا يجني والد على ولده ، ولا مولود على والده" .

وأخرج سعيد بن منصور وأبو داود والترمذي والنسائي وابن مردويه عن أبي رمثة قال : انطلقت مع أبي نحو النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رأيته قال لأبي : "ابنك هذا ؟ قال : أي ورب الكعبة قال : أما أنه لا يجني عليك ولا تجني عليه . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾" .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني في قوله ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها ﴾ قال : إن تدع نفس مثقلة من الخطايا ذا قرابة أو غير ذي قرابة ﴿ لا يحمل ﴾ عنها من خطاياها شيء .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ﴾ يكون عليه وزر لا يجد أحداً يحمل عنه من وزره شيئاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ﴾ كنحو ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

*(182/641)*

---

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : إن الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول : يا رب سل هذا لم كان يغلق بابه دوني ، وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن ، يوم القيامة فيقول له : يا مؤمن إن لي عندك يداً قد عرفت كيف كنت في الدنيا ، وقد احتجت إليك اليوم فلا يزال المؤمن يشفع له إلى ربه حتى يرده إلى منزلة دون منزلة وهو في النار . وأن الوالد يتعلق بولده يوم القيامة فيقول : يا بني أي والد كنت لك ؟ فيثني خيراً فيقول : يا بني إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى ، فيقول له ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ؟ ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً ، أتخوّف مثل الذي تخوّفت ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً . ثم يتعلق بزوجته فيقول : يا فلانة أي زوج كنت لك ؟ فتثني خيراً فيقول لها : فإني أطلب إليك حسنة واحدة تهبيها لي لعلي أنجو مما ترين . قالت : ما أيسر ما طلبت ! ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً ، أتخوّف مثل الذي تخوّفت . يقول الله ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها . . . . ﴾ . ويقول الله ﴿ يوم لا يجزي والد عن ولده ﴾ [ لقمان : 133 ] و

﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه . . . ﴾ [ عبس : 34 ] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها ﴾ أي إلى ذنوبها ﴿ لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ قال : قرابة قريبة لا يحمل من ذنوبه شيئاً ، ويحمل عليها غيرها من ذنوبها شيئاً ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ أي يخشون النار ، والحساب .

وفي قوله ﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ﴾ أي من عمل عملاً صالحاً فإنما يعمل لنفسه .

وفي قوله ﴿ وما يستوي . . . ﴾ . قال : خلق فضل بعضه على بعض ، فأما المؤمن فعبد حي الأثر ، حي البصر ، حي النية ، حي العمل . والكافر عبد ميت الأثر ، ميت البصر ، ميت القلب ، ميت العمل .

*(183/641)*

---

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير . . . . ﴾ قال : هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن يقول : كما لا يستوي هذا وهذا ، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وما يستوي الأعمى

والبصير. . . ﴾ قال: الكافر والمؤمن ﴿ ولا الظلمات ﴾ قال: الكفر ﴿ ولا النور ﴾ قال: الايمان ﴿ ولا الظل ﴾ قال: الجنة ﴿ ولا الحرور ﴾ قال: النار ﴿ وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ قال: المؤمن والكافر ﴿ إن الله يسمع من يشاء ﴾ قال: يهدي من يشاء.

وأخرج أبو سهل السري بن سهل الجنديسابوري الخامس من حديثه من طريق عبد القدوس عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فإنك لا تسمع الموتى ﴾ [الروم: 52] ﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقف على القتلى يوم بدر ويقول: "هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً يا فلان ابن فلان. ألم تكفر بربك؟ ألم تكذب نبيك؟ ألم تقطع رحمك؟ فقالوا: يا رسول الله أيسمعون ما نقول؟ قال: ما أنتم بأسمع منهم لما أقول. فأنزل الله ﴿ فإنك لا تسمع الموتى ﴾ ﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ ومثل ضربة الله للكفار أنهم لا يسمعون لقوله".

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ فكذلك الكافر لا يسمع ولا ينتفع بما يسمع. وفي قوله ﴿ وإن من أمةٍ إلا خلا فيها نذير ﴾ يقول كل أمة قد كان لها رسول جاءها من الله. وفي قوله ﴿ وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم ﴾ قال: يعزي نبيه ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر والكتاب المنير، ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير ﴾ قال: شديد والله لقد عجل لهم عقوبة

الدنيا ثم صيرهم إلى النار .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا



---

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾ قال : أحمر وأصفر ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ﴾ أي جبال حمر ﴿ وغرابيب سود ﴾ والغرابيب السود يعني لونه كما اختلفت ألوان هذه الجبال ، وألوان الناس والدواب والأنعام كذلك ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ قال : كان يقال كفى بالرهبة علماً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾ قال : الأبيض ، والأحمر ، والأسود وفي قوله ﴿ ومن الجبال جدد بيض ﴾ قال : طرائق بيض يعني الألوان .

وأخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أيصبغ ربك ؟ قال " نعم . صبغاً لا ينقض . أحمر . وأصفر . وأبيض " " .

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن

قوله ﴿ جدد ﴾ قال: طرائق. طريقة بيضاء، وطريقة خضراء. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت الشاعر وهو يقول:

قد غادر السبع في صفحاتها جدداً . . . كأنها طرق لاحت على أكم

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن الجبال جدد بيض ﴾ قال: طرائق بيض ﴿ وغرابيب سود ﴾ قال: جبال سود.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ﴿ الغرابيب الأسود ﴾ الشديد السواد.

وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله ﴿ مختلفاً ألوانها ﴾ قال: منها الأحمر والأبيض والأخضر والأسود، وكذلك ألوان الناس منهم الأحمر والأسود والأبيض، وكذلك الدواب، والأنعام.



---

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن الجبال جدد ﴾ قال: طرائق تكون في الجبل بيض وحمر، فتلك الجدد ﴿ وغرابيب سود ﴾ قال: جبال سود ﴿ ومن الناس والدواب والأنعام . . . ﴾. قال: كذلك اختلاف الناس والدواب والأنعام، كاختلاف الجبال. ثم قال ﴿ إنما يخشى الله

من عباده العلماء ﴾ فلا فضل لما قبلها .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ ومن الجبال جدد بيض ﴾ قال : طرائق مختلفة ، كذلك اختلاف ما ذكر من اختلاف ألوان الناس والدواب والأنعام ، كذلك كما اختلفت هذه الأنعام تختلف الناس في خشية الله كذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : الخشية والايمان والطاعة والتشتت في الألوان .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ قال : العلماء بالله الذين يخافونه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ قال : الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عدي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ليس العلم من كثرة الحديث ، ولكن العلم من الخشية .

وأخرج ابن المنذر عن يحيى بن أبي كثير قال : العالم من خشي الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن صالح أبي الخليل رضي الله عنه في قوله ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ قال : أعلمهم بالله أشدهم له خشية .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سفيان عن أبي حيان التيمي عن رجل قال : كان يقال العلماء ثلاثة . عالم بالله ، وعالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله . فالعالم بالله وبأمر الله : الذي يخشى الله ، ويعلم الحدود والفرائض . والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله : الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض ، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله : الذي يعلم الحدود والفرائض ، ولا يخشى الله .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عدي عن مالك بن أنس رضي الله عنه قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، إنما العلم نور يقذفه الله في القلب .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال : الإيمان من خشي الله بالغيب ، ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما أسخط الله . ثم تلا ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن مسروق قال : كفى بالمرء علماً أن يخشى الله ، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وعبد بن حميد والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كفى بخشية الله علماً ، وكفى باغترار المرء جهلاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه قال : الفقيه من يخاف

الله .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن العباس العمي قال : بلغني أن داود عليه السلام قال : سبحانك ! تعاليت فوق عرشك ، وجعلت خشيتك على من في السموات والأرض ، فأقرب خلقك إليك أشدهم لك خشية ، وما علم من لم يخشك ، وما حكمة من لم يطع أمرك .

وأخرج أحمد في الزهد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ليس العلم بكثرة الرواية ، ولكن العلم الخشية .

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي والحاكم عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " العلم علمان : علم في القلب ، فذاك العلم النافع . وعلم على اللسان ، فتلك حجة الله على خلقه " .



---

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة قال : بحسب المرء من العلم أن يخشى الله .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس يفطرون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون ،

وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخلطون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون ، وينبغي لحامل القرآن أن لا يكون صخاباً ، ولا صياحاً ، ولا حديداً .

وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن وهب بن منبه قال : أقبلت مع عكرمة أقود ابن عباس رضي الله عنهما بعدما ذهب بصره حتى دخل المسجد الحرام ، فإذا قوم يمترون في حلقة لهم عند باب بني شيبة فقال : أمل بي إلى حلقة المراء ، فانطلقت به حتى أتاهم ، فسلم عليهم ، فارادوه على الجلوس ، فأبى عليهم وقال : انتسبوا إليّ أعرفكم فانتسبوا إليه فقال : أما علمتم أن لله عباداً أسكتتهم خشيته من غير عي ولا بكم ، إنهم لهم الفصحاء ، النطقاء ، النبلاء ، العلماء بأيام الله ، غير أنهم إذا ذكروا عظمة الله طاشت عقولهم من ذلك ، وانكسرت قلوبهم ، وانقطعت ألسنتهم ، حتى إذا استقاموا من ذلك سارعوا إلى الله بالأعمال الزاكية ، فأين أنتم منهم ؟ ثم تولى عنهم ، فلم ير بعد ذلك رجلان .

*(188/641)*

---

وأخرج الخطيب فيه أيضاً عن سعيد بن المسيب قال : وضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس ثماني عشرة كلمة حكم كلها قال : ما عاقبت من عصى الله فيك مثل أن تطيع الله فيه ، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك منه ما يغلبك ، ولا تظنن بكلمة

خرجت من مسلم شراً أنت تجد لها في الخير محملاً ، ومن عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء الظن به . من كتم سره كانت الخيرة في يده ، وعليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم فإنهم زينة في الرخاء ، عدة في البلاء ، وعليك بالصدق وإن قتلك ، ولا تعرض فيما لا يعني ، ولا تسأل عما لم يكن ، فإن فيما كان شغلاً عما لم يكن ، ولا تطلب حاجتك إلى من لا يحب نجاحها لك ، ولا تهاون بالحلف الكاذب فيهلكك الله ، ولا تصحب الفجار لتعلم من فجورهم ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشي الله ، وتخشع عند القبور ، وذل عند الطاعة ، واستعصم عند المعصية ، واستشر الذين يخشون الله ، فإن الله تعالى يقول ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن مكحول قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العالم والعابد فقال : " فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم . ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ثم قال إن الله وملائكته ، وأهل السماء ، وأهل الأرض ، والنون في البحر ، ليصلون ، على معلمي الخير " . انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى الأبيض )

(هو) ضِدّ الأَسود : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ ﴾ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ ؛ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ .

وبِيْض (أَصله بُيْض) بالضمّ أَبدلوه بالكسر ؛ ليصحّ الياءُ .

والأَبيض : السّيف .

والأَبيض : الفضّة .

والأَبيض : الرجل النقىّ العِرض .

والأَبيض : كوكب فى حاشية المَجَرّة ، وقَصْر للأَكاسرة ، نقضه المكتفى ، وبنى بشرفاته أَساس التّاج ، وبأَساسه شرفاته .

والأَبيضان : اللّبن والماءُ ، أَو الشحم والشباب ، أَو الخبز والماءُ ، أَو الحنطة والماءُ .

والموت الأَبيض الفجاءَة .

وابيضّ وابياضّ ضدّ اسودّ واسوادّ .

والبَيَاض : لونُ الأَبيض ، واسم للّبن .

وفى كلامهم : إِذا قلّ البَيَاض كثر السّواد وإِذا كثر قلّ .

ولمّا كان البياض أفضل لونٍ عندهم – كما قيل : البياض أَفضل ، والسّواد أَهول ، والحمرة أَجمل ، والصّفرة أَشكل – عُبّر عن الفضل والكرم بالبياض ، حتى قيل لمن لم يتدنَّس بمعاب : هو أَبيض الوجه .

وسمّيت البَيْض ؛ لبياضه ، الواحدة بَيْضَة .

وكُنى عن المرأَة بالبَيْضة ؛ تشبيهاً بها باللَّون ، وفى كونها مَصُونة تحت الجناح .

(190/641)

---

( بصيرة فى الأَسود )

السّواد مضادّ البياض .

وقد اسودّ واسوادّ : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ فابيضاض الوجوه عبارة عن المَسَرّة ، واسودادها عن المَسَاءَة .

وحمل بعضهم (الابيضاض والاسوداد) على المحسوس .

والأَول أَولى ؛ كقوله تعالى فى البياض ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ ، وفى السّواد ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ الَّيْلِ مُظْلِماً ﴾ وعلى هذا النّحو ما روى : أَنَّ المؤمنين يحشرون يوم القيامة غُرّاً محجّلين من آثار الوضوءِ .

ويعبّر بالسّواد عن الشخص المترائى من بعيد ، وعن سواد العين : قال بعضهم : لا يفارق سوادى سواده ، أَى عينى شخصه .

ويعبّر به عن الجماعة الكثيرة .

والأَسود من أَسماءِ الرّجال ، ومن أَسماءِ الحَيّة .

والأَسودان : التَّمر ، والماءُ ، والليل والحَرّة .

(والسيد : المتولّى للسواد أَى الجماعة الكثيرة) ؛ ولما كان من شرط المتولّى للجماعة أَن يكون مهذَّب النَّفس قيل لكلّ مَنْ كان فاضلاً عن نفسه : سيّد .

وعلى ذلك قوله : ﴿ وَسَيِّداً وَحَصُوراً ﴾ وسمّى الزّوج سيّداً لسياسته زوجته : وقوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا ﴾ أَى وُلاتنا سائسينا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 133 . 134 ﴾

(191/641)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهِ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَراتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا

وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ .

بيّن في هذه الآية وأمثالها أن تخصيصَ الفعل بهيئاته وألوانه من أدلة قصد الفاعل وبرهانه ، وفي إتقانِ الفعلِ وإحكامه شهادة على عِلْمِ الصانع وأعلامِه .

وكذلك ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالْأَنْعَامِ ﴾ : بل جميع المخلوقات متجانس الأعيان مختلف ، وهو دليل ثبوت مُنْشِيها بنعت الجلال .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَآؤُاْ ﴾ .

" إنما " كلمة تحقيق تجري من وجهٍ مجرى التحديد أي التخصيص والقَصْر ، فَمَنْ فَقَدَ العِلْمَ بالله فلا خشيةَ له من الله .

والفرق بين الخشية والرهبة أنّ الرهبةَ خوفٌ يوجِبُ هَرَبَ صاحبه فيجري في هربه ، والخشية إذا حصلت كَبَحَت جماحَ صاحبها فيبقى مع الله ، فقدمت الخشية على الرهبة في الجملة .

والخوف قضية الإيمان ، قال تعالى : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [ آل عمران : 175 ] فالخشية قضية العلم ، والهيبة توجب المعرفة .

ويقال خشية العلماء من تقصيرهم في أداء حقّه . ويقال من استيحائهم من اطلاع الحق .

ويقال حَذَراً من أن يحصلِ لهم سوءُ أدبٍ وتَرْكُ احترامٍ ، وانبساطٌ في غير وقته بإطلاق لَفْظٍ

، أو تَرَخُّصٍ بتَرْكِ الأَوْلى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 202 .

203 ﴾

(192/641)

---

بحث قيم بعنوان :

المتفيقهون

أ . د . محمد حسن هيتو

مقدمة

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

أكرمتنا بنور العلم ، وزينتنا بحلية الفهم ، ومننت علينا بكتابك الكريم ، وهديتنا إلى صراطك المستقيم ، وشرفتنا بإتباع خليلك ومصطفاك ، وحبيبك ومجتباك ، فكان لنا إلى الحق هادياً وقائداً ، ومرشداً ناصحاً ورائداً ، فصلِّ اللهم عليه كلما ذكرك الذاكرون ، وغفل عن ذكرك الغافلون ، أفضل وأزكى وأشمل ما صليت على أحد من خلقك .

وبعد :

فهذه شذرات من خواطر الوجدان ، أملاها الواقع الأليم الذي تعيش فيه اليوم أمة الإسلام ، بعد أن تفرقت كلمتها ، وتشتت جمعها ، وضعفت شوكتها ، حتى استأسد البغات في أرضها ، وصارت بعد العز إلى هوان ، وبعد القوة والغلبة إلى ضعف وخذلان .

فنحي الإسلام عن الحكم ، ثم نحيت العلوم الإسلامية عن التدريس ، وحلت محلها الثقافة الغربية ، بماديتها البعيدة ليس عن الإسلام فقط ، بل عن الفكر الديني بشكل عام .

ونتيجة لهذا المخطط الإلحادي الماكر ، تراجعت العلوم الإسلامية ، وتناقص العلماء ، وانحسر ظل الإسلام الذي غطى كل جوانب الكون والحياة ، في قانونه المتكامل المعصوم ، حتى صار مقصوراً في أذهان كثير من الناس على بعض جوانب العبادة ، وفشي الجهل في أبناء المسلمين ، حتى وصل لدرجة جهلت فيها بديهيات الإسلام ، والأمور المعلومة بالضرورة منه ؟

ودرجت أمتنا على هذا وهو ليس باليسير ، وهي في جزر متواصل لا مد معه .

(1/1)

ودار الزمان دورته ، ودب شيء من يقظة الفكر الإسلامي في صف كثير من أبناء الأمة ، شيباً وشباناً ، رجالاً ونساءً ، وتعالت الهتافات تدعو إلى عودة الإسلام لقيادة الأمة ، بعد أن عصفت بها أعاصير التيارات المادية الملحدة في مهاوي الضياع إذ ظهر لكل عين عوار كل ما نودي به من المبادئ ، والأفكار ، والنظم ، ولكن هذه اليقظة التي دبت في أبناء الأمة كانت متأخرة شيئًا ما ، فقدت الأمة فيه كثيراً من أساطين دعوتها ، ودعامة دينها ، من العلماء ورثة الأنبياء ، الذين كان من المفترض أن يتزعموا هذه اليقظة ، ليقودوا الأمة بما ورثوه من العلم ، وشرفوا به من الفضل .

وما تبقى من آثار النبوة في العلماء العاملين كان غير كاف لهذه الزعامة والقيادة ، مما جعل كثيراً ممن لا صلة له بعلوم الشرع _ أو كانت صلته بها سطحية غير كافية للخوض في العلوم الشرعية _ يتبوأ مناصب القيادة في الجيل الناشئ ، ويخوض في دين الله على غير بصيرة ، فيحل الحرام ويحرم الحلال زعما منه أن منصب القيادة الذي وصل إليه يصيره في منصب العالم المجتهد . . ؟ !

وبدأت الفتاوى الآثمة المضللة تنتشر في أوساط الأمة بهذا الطريق ، ومن ثم بدأت تضطرب وتتناقض ، لأنها لم تستند إلى قاعدة العلم ، وإنما كانت من إيحاءات الجهل ، مما أوقع الأمة في تناقض مهين ، واضطراب خطير ، زاد في ضياعها ، بدلاً من أن يكون عاملاً من عوامل يقظتها ونهضتها .

وبهذا تحقق عَلَمٌ من أعلام النبوة ، إذ قال صلى الله عليه وآله وسلم : (( إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العلماء ، وإنما يقبض العلماء ، فبقبضهم يقبض العلم ، حتى إذا لم يَبْقِ عالما اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغيرِ علم ، فضلوا وأضلوا )) .

وانقلب هذا الواقع الخطير إلى تيار ومنهج ، وانقلبت معه الدعوة لإعادة تحكيم الإسلام – عند أرباب هذا المنهج – إلى دعوة للثورة على ما تبقى من آثار الإسلام .

(2/1)



---

فكانت الدعوة إلى الاجتهاد بمعناه المنحرف ، الذي ينتج عنه العبث بنصوص الشرع ، إذ دعي إليه العالم والجاهل على السواء ، لا بمعناه الصحيح الذي رسم العلماء قواعده ، وضبطوا أوصافه ، بناءً على تعاليم الشرع(1) .

ثم تطورت هذه الدعوة إلى نبذ الفقه الإسلامي الذي تظاهر عليه عشرات الآلاف من كبار علماء الأمة ، ليبنوا به نظام الإسلام الذي حكم العالم الإسلامي أربعة عشر قرنا ، في أعظم ، وأرقى ، وأدق أساليب الاستنباط والتدوين .

فكانت الدعوة إلى هدم هذا الصرح العظيم ، القائم على أعظم دعامات العلم ، لبناء

هيكل رث يقوم على دعائم الجهل والغرور .

ثم تطورت هذه الدعوة ثانية إلى هجوم على أعلام السلف ، من الأئمة المجتهدين ، ورميهم بما تنبو عنه أبسط قواعد الخلق في الإسلام ، وملء قلوب الصغار بالأحقاد عليهم . حتى نحى كثير ممن لا خَلاقَ له إلى تصويرهم بالخارجين على نصوص الشرع النابذين لها . . . . . ؟ !

وقيسوا بالأحبار والرهبان الذين غيروا وحرفوا ، وبدلوا وزيفوا ، كما قيس المقلدون لهم بأتباع الأحبار والرهبان ، حتى إن كثيراً من الغلاة الجهلة كان يخطب الناس ويدعوهم إلى عدم إتباع أعلام الأمة من السلف ، بل يجب إتباع سنة رسول لله ، وكأن سلف الأمة في أعلام كانوا أعداء لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويستدل فيما يزعم . بقوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ﴿ التوبة / 31 ﴾ كبُرت كلمة تخرج من أفواههم . . وهل نصر سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أسلاف هذه الأمة وأئمتها الأعلام فيها ، وهل كنا نعرف هذه السنة لولا أنهم نقلوها بحرصهم وأمانتهم إلينا ، وحفظوها علينا إلا أنها : ﴿ لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ ﴿ الحج / 46 ﴾ وغلا بعضهم فسمي أعلام الهدى في هذه الأمة بـ " الطواغيت " ؟

---

(1) انظر كتابي : المعجزة القرآنية

(3/1)

*(195/641)*

---

ولا أريد التعليق على هذا ، فموضوعات الكتاب تدور حوله ، وحسب المسلم أنه يسمع مثل قالة السوء هذه ليعرف بأبسط ما لديه من آداب الإسلام التي توجب علينا احترام العلم والعلماء - حسبه أن يسمع هذه المقالة ليعرف من هو المتكلم . . .

ونظرت في مثل هذه الكلمة ، فإذا بها تحقق عَلَماً آخر من أَعْلام النبوة ، إذ قال صلى الله عليه وآله وسلم : (( لنْ تقومَ الساعةُ حتى يَلْعَنَ آخرُ هذِهِ الأمةِ أوّلَها )) مما افتتح به الإمام ابن عساكر كتابه (( تبيين كذب المفتري )) .

ثم تطورت المناهج المنحرفة في هذه الأمة إلى طور أهم وأخطر من الأطوار السابقة ، إذ صارت إلى التكفير ، والطرد من رحمة الرب ، تعيد بذلك دور الكنيسة في عصور طغيانها واستبدادها ، مما دعا كل عاقل إلى الثورة عليها .

فصار الواحد منهم يكفر الناس أفراداً وجماعات ، ولأبسط الأمور التي كان السلف رضوان الله عليهم يتورعون عن وصفها بالحرام . . . علاوةً عن وصفها بالكفر والإلحاد

. . . بل ربما كُفِّرَ بعض الناس اليوم بالمباحات . . . ؟

وصار الإنسان يرمى الشرك . . ويصنف مع الفرق الضالة ، ويُعَرَّفُ مكانه من الجحيم ، لأنه خالف هوى جاهل من أولئك الجهلة " إذ صار الواجب على كل مسلم أن ينظر من خلال جهل أولئك الناس " وإلاَّ وصف بما ذكرت ، كما كانت الكنيسة تفرض على الناس أن ينظروا إلى الأمور من خلال عقل القَسِّ أو الراهب وإلاَّ حلت عليهم اللعنة ، وطردوا من الرحمة . . . ؟

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم (( من قال هَلَكَ الناسُ فهو أَهْلَكُهُمْ )) وفي رواية : (( فهو أَهْلَكَهُم )) .

(196/641)

---

وما ظَنُّ الناسِ برجلٍ يقول : إن البخاريَّ – صاحبَ صحيح – ضالٌّ ، لا تعرف عقيدته ، ولا يجوز أخذ العقيدةِ منه ، وأن الرواية عنه كالرواية عن أصحاب البدع والأهواء بشروطها . . ؟ ! لأنه أوّلَ الوجه في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ ﴿ القصص / 88 ﴾

(4/1)

وما ظن الناس بأناس يقولون : إن الإمام الطَبَريّ ، والبيهقي ، وابن عساكر ، وابن الصلاح ، والعراقي ، والمِزّيّ ، وابن حجر والسيوطي ، والنووي ، والعز بن عبد السلام ، والغزالي ن وإمام الحرمين الجويني ، والسبكي وأولاده ، وأولاد الأثير ، والإمام الرازي ، والآمدي ، والبيضاوي ، وجل عظماء أمة الإسلام دون الإسهاب بتعدادهم – يقولون : إنهم من الفرق الضالة وأهل جهنم لأنهم يجيزون التأويل . . . ؟

إن سَمْعَ كل عاقل لينبوا عن سماع مثل هذا الضلال والانحراف ، ولولا أنه واقع لظن الناس أنه من خيال الشعراء ، ومبالغة الأدباء .

وليت الأمر وقف عند هذا فقط ، إذاً لقلنا إنها سحابة صيف وتنقشع ، ونزوة عاطفة ستخبو وترتدع ، لبعدها عن المنهج القويم ، والصراط السوي المستقيم ، ولا سيما بإقبال كثير من أولئك الناس على قراءة علوم الشرع ، مما سيرفع من ثقافتهم ، ويوسع أفقهم ، ويجعلهم هم أنفسهم يسخرون من أنفسهم عندما كانوا يقولون مثل هذا الكلام الذي لا يصدر إلاَّ عن معين الجهل ، كما وقع لكثير منهم عندما خالط العلماء ، وتلقى المعرفة من مصادرها الحقيقية بصدق نية وصفاء .

ولكن الأمر تجاوز كل هذا إذ انقلب إلى ثورة صريحة على كل العلوم ، والقوانين ، والضوابط ، والمصطلحات الإسلامية ، والى تهكم علني – لا حياء معه – بإرث النبوة من علماء الأمة ، قديمها وحديثها ، فقامت دعوة تطالب بالثورة على كتب الفقه الصفراء ، وتطالب

بفقه جديد .

وقامت دعوة تطالب بالثورة على أصول الفقه الإسلامي ، وتدعوه إلى تدوين أصول جديدة للفقه .

(197/641)

---

وقامت دعوة تدعو إلى الثورة على كتب التوحيد ، وتعلن صراحة أن الإيمان لا يحتاج إلى دليل وبرهان ، والله أكبر من أن يقام على وجوده الدليل ، فمتى غاب حتى يحتاج إلى الإظهار . . . ؟

(5/1)

وقامت دعوة تدعو إلى تأصيل جديد لعلوم الحديث ، يكون مبنياً على قاعدة العقل ، لا على ما اعتمدته أمة الإسلام خلال تاريخها الطويل في ضبط حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعرفة صحيحه من ضعيفه ، ومقبوله من مردوده .

وانبنت عليها دعوة أخرى تدعو إلى تطهير صحيح البخاري ومسلم ، وإعادة النظر فيهما بناء على قواعد الحديث الجديدة التي تتلاءم مع العقل المادي المعاصر ، لإبعاد ما يوجد فيهما مما يخالف العقل في زعمهم .

وإذا امتدت يد العبث إلى البخاري ومسلم ، وهما الصحيحان اللذان أجمعت الأمة على صحة ما فيهما ، وتلقتهما بالقبول كما تلقت كتاب الله ، فأن تمتد إلى غيرهما من دواوين السنة من باب أولى .

ولذلك قامت دعوة صريحة إلى إيجاد ديوان جديد للسنة ، بناءً على قانون العقل الذي ذكرناه . . . ؟

بل نادي بعضهم صراحة بوجوب التخلي عن كتب السنة التي بين أيدينا والاكتفاء بالقرآن ، لأنه متواتر ، والسنة أحادية ، قد امتدت إليها يد العبث – فيما زعم القائل – ؟

وتجرأ أحدهم على أعظم أصل وأقوى حصن من حصون الإسلام وهو الإجماع ، فهدمه ، ولم يكتفِ بهذا . . . ، بل زعم أن الإجماع بدعة ابتدعت في الإسلام . . . (2)

فاتهم كل أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بمفسريها ، ومحدثيها ، وفقهائها ، وأصولييها ، ولغوييها ، من السلف والخلف بالابتداع ، لأن الكل يقول بالإجماع الأصولي ، ويبنى عليه ، ويعتبره من أعظم حصون التشريع وقلاعه .

وآخر ما وصل إليه الميل والانحراف ، والغلو والإجحاف ، أن صرح أحد أقواس صغيره ((بأن الفقهاء لم يفهموا دينهم ، وأن العلماء عقبة في طريق الدعوة ))(3) .

وأقول : نعم ، إنهم عقبة في طريق دعوته التي ملأ بها الضلال روعه ، ونفثها الشيطان على لسانه ، ولذلك يحق له أن يثور عليهم ، ويتذمر منهم ، وهذا هو دأب المنحرفين مع الدعاة المصلحين ، على مرّ التاريخ .

(6/1)

وأما دعوة الحق التي نزل بها الوحي من السماء ، وتلقتها أمة الإسلام عن خاتم الرسل والأنبياء ، فالعلماء هم حفظتها ونقلتها ، وهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورّاثها ، إذ خصهم بهذا الشرف الجليل ومنحهم ذاك الوسام النبيل ، وما كان لبشر أن يضع من رفعه الله ، ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ ﴿ المجادلة / 11 ﴾

ولا أريد أن أستطرد في ذكر مثل هذه الدعوات الهدامة ، لأنها قد كثرت ، وتمادى خطرها وصارت وراءها مؤسسات تحميها ، وتروج لها ، وتهول من شأنها ، لتجعل كل مصلح من مصلحي هذه الأمة ، وكل محافظ على شرعها وعلومها ، في حيرة من أمره ، يتمثل قول الشاعر :

اتسع الخرقُ على الراقِعِ

ولكن هذه الدعوات رغم كثرتها ، وتعدد مناهجها ، وكثافة الدعاية لها وانسياق الكثير من أبناء الأمة ، - بسبب ما فرض عليهم من الجهل بدينهم - وراءها ، رغم هذا كله هي

أوهى من بيت العنكبوت ، سرعان ما تتهادى وتسقط مع أول خيط من خيوط النور التي تنبعث من مشكاة العلم .

وإننا لعلى يقين بأن الله تعالى سوف يحبط كل مخططاتها ، ويكشف زيفها وعوارها ، صوناً لدينه ، وإمضاءً لوعده : ]إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[ ]الحجر / 9[ .

ولكن هذا لن يكون بالأمانيّ والأحلام ، وإنما يكون بالعمل ، بضابط من الجد والنظام ، عن طريق نشر العلوم الشرعية واللغوية ، من مصادرها الأصيلة ، على أيدي وُرّاثِ النبوة ، العاملين بتعاليمها ، المتفانين من أجل نشرها وصيانتها ، وتبليغها .

(7 / 1)

(199/641)

---

وهذه المقالات التي بين أيدينا ، ليست علاجاً لهذه المشكلة ، فالعلاج كما ذكرت يكون عن طريق نشر العلوم الشرعية واللغوية بين المسلمين ، وإنما هي مجموعة من المقالات الإنشائية التي أملاها الواقع الذي يعيش به كثير من الناس ، ولا سيما أولئك الذين يدعون الاجتهاد ، ولكنهم لم يعرفوا مبادئ العلوم بعد فالعلم عندهم شيء ، والإجهاد شيء آخر ، فهم كما أقول فيهم : لا يدعون العلم وإنما يدعون الاجتهاد ، وكلما زاد جهل الواحد منهم كلما

احلولكت ظلمات الجهل حول عقله إلى أن يتفجر بالفظائع والعجائب .

هذا وسيتوهم بعض من يصيبهم هذا الكلام أنه موجه للرد عليهم ، أو الخوض معهم ، وهذه أوهام وأحلام يمليها عليهم الغرور الناتج عن الجهل المركب .

إننا حينما نتكلم في مسائل العلم ، إنما نبتغي وجه الله ، في بيان الحق وإزهاق الباطل ، وهتك براقع الزيف والضلال .

فأهل العلم حينما يردون أو يناظرون ، إنما يردون على أمثالهم من أهل العلم ، ويناظرونهم ، (( فلا يعرفُ الفضلَ لأهل الفضل إلاّ أهلُ الفضل )) .

والرد في هذه الحالة يكون لإظهار الحق وبيانه ، لا للمجاراة والمماراة ، فليس هذا من دأبِ أهل العلم وورثةِ النبوة .

(8/1)



---

وأما الجهلة والمتفيهقون فيترفع العلماء عن نقاشهم ، والخوض معهم ، لأن الخوض معهم لا يفضي إلى نتيجة ، إذ لا توجد بين الاثنين قاعدة مشتركة يرجعان إليها ، فالعالم يرجع إلى العلم والقواعد التي تملي عليه ما يقول ، وأما الجاهل فيرجع إلى العصبية ، والهوى ، ولذلك

لا يلتقيان ، وغالباً ما تكون الغلبة للجاهل ، إذ يجمع عليه جهله ما يتنزه عنه العلماء ، ولذلك قال الإمام الشافعي : (( ما ناظرت عالماً إلاَّ وغلبته ، وما ناظرني جاهل إلاَّ وغلبني )) ، ولذلك يعرض العالم عن الجاهل امتثالاً لقول الله : ] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا [ ]الفرقان / 63[ فهم يقولون ما يعتقدونه من الحق ، قبله أولئك المتفيهقون أو رفضوه ، لأنه لا يؤبه لهم ، كما قال الشاعر :

عذرت البُزْل إذ هي خاطرتني . . . . فما بالي وبال ابني لبون

أو كما قال الآخر :

وابن اللبون إذا ما لزَّ في قَرَن . . . . لم يستطع صولة البزل القناعيسِ

لقد هجا بشار بن بُرْد جريراً ، طمعاً في أن يرد عليه جرير ، ويدخل حلبة الصراع مع الفحول الثلاثة ، جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، فيشتهر شهرتهم ، لكن جريراً لم يأبه له ، ولم يرد عليه ، لأنه وجده دون هذه المنزلة ، فبكى بشار ، فقيل له : ما يبكيك يا أبا معاذ ؟ فقال عدم هجاء جرير لي ، فإنه لو هجاني لصيرني أشعر الناس .

ولمثل هؤلاء قال صريع الغواني مسلم بن الوليد :

أمّا الهجاءُ فَدَقَّ عرضُكَ دونه . . . . والمدْحُ عنك كما علمتَ جليلُ

وأخيراً . . إن واجباً عظيماً يتوجب على أهل العلم القيام به في هذا العصر ، الذي

ارتفعت فيه رايات الجهل بعلوم الشريعة ، ونكست أعلام العلم ، حتى صار كالأطلال .

(9/1)



---

إن واجباً عظيماً يتوجب عليهم جميعاً ، ألا وهو بذل كل ما في وسعهم وطاقتهم من أجل نشر العلوم الشرعية واللغوية بكل فروعها في أوساط أبناء الأمة ، وبكل الوسائل المتاحة في المساجد ، والمدارس ، والبيوت ، وكل مكان يحصل فيه اجتماع ، ليحي هذا الدين بعلومه ، ولتمتد ظلال الوحي والنبوة على الأجيال القادمة . . . ، فما الوحي إلاَّ هذه العلوم ، وإن امتدادها امتداد له وللنبوة ، فالعلماء ورثة الأنبياء ، وبقدر ما يتحقق به الإنسان من العلم ينال من إرث النبوة ، وبقدر ما ينشر من العلوم ينشر آثار النبوة .

فإذا ما استضاء الناس بنور العلم تبددت من حولهم الظلمات ، وزالت الشبهات ، فإن رفع أعلام العلم تنكيس لرايات الجهل ، وإن مجيء الحق إزهاق للباطل . .

سددنا الله بتوفيقه لنصرة دينه ، وإحياء شرعه ، وأرشدنا إلى الصواب في القول والعمل ، وجنبنا بهديه مواطن الزيغ ، والزلل ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الكويت 5 ذو الحجة 1410 هـ الدكتور محمد حسن هيتو

27 حزيران 1990 م

----------------------------------

(1) انظر كلامنا على هذا الموضوع في مقدمتنا لكتاب الإجهاد وطبقات مجتهدي الشافعية .

(2) انظر مجلة كلية الشريعة بجامعة الكويت العدد السابع ص 345 .

(3) انظر مجلة المجتمع الكويتية .

(10/1)

(202/641)

---

أثر الجهل في الأمة والمجتمع

إن كثيراً من الناس يؤتى من قبل جهله ، فيما يخيل إليه من أن هذا الجهل علم يتيه به على رؤوس البشر .

وهكذا يفعل الجهل بصاحبه ، يخيل له الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، ويزخرف له الخطأ حتى يظهره في عينيه في أعلى درجات اليقين والصواب .

ولذلك تجد الجاهل حينما يتكلم يتكلم بغرور وأبهة واستعلاء ، يتيه على كل من يتكلم معه

، لما يوحيه إليه جهله ، مع أنه ربما كان في أصغر من يسمع منه من يربو عليه آلاف المرات في العلم والمعرفة .

كما يخيل إليه جهله أن الناس عالمهم وجاهلهم ينظر إليه نِظْرة الإعجاب لما يرى من دهشتهم التي بدت على وجوههم ، ولكن ليس إعجاباً بما يقول ، وإنما تعجباً منه كيف يهذي بما يقول .

وهكذا سارت الحياة قديماً وحديثاً ، وقد قال المتنبي :

وإني رأيت الضر أسهل منظراً وأهون من مرأى صغير به كبر

بينما تجد العالم كلما ازداد في العلم ثباتاً ، كلما ازداد بين الناس تواضعاً ، وكلما ازداد بينهم تواضعاً ، ازداد في أعينهم رفعة وبينهم وقاراً .

فيأبى الجهل إلاّ أن يضع صاحبه بين الناس وإن ترفع بجهله عليهم ، واستسلمنا له ، وأخذنا نطبع أنفسنا لنحملها على قبوله والرضوخ له ، وكأننا نريد تكريسه في أمتنا .

فصرنا شيعاً وأحزاباً ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وضربت الأنانية أطنابها في مجتمعنا – الذي كان يعتبر أعظم المجتمعات الإنسانية في حضارته الاجتماعية وتكافله وتضامنه – وصار كل واحد منا لا يلوي إلاّ على نفسه ، ولا يبحث إلا عن مصلحته .

وامتلأت قلوبنا بالأحقاد ، حتى صار الواحد منا يحمل من الحقد على الآخرين من أبناء دينه وعقيدته مالا يحمله على أعداء أمته من اليهود والصليبيين ، لخلاف فكري ، أو اتجاه

حزبي ، أو رغبة في الزعامة والقيادة .

وصرنا بدلاً من أن نلقن الناس مبادئ الحق التي سمونا وسنسمو بها ، صرنا نلقنُهم كيف يحترسون من زيد ، ويحقدون على عمرو ، ويتجنبون فلاناً ، ويطعنون بفلان .

(11/1)

وانقلبنا من أمة قائمة في الليل عابدة ، صائمة في النهار مجاهدة ، إلى أمة نائمة بالليل غافلة ، وعابثة في النهار هازلة ، نمضي ليلنا في النقاش هناك كلام ساقط وهو" والجدل ، وفي أمور ربما فرغت أمتنا منها منذ قرون ، بما نضيفه إليها من غيبة ونميمة ووقيعة في الآخرين . . . وننام عن صلاة الفجر التي تعتبر الفيصل بين النفاق والإيمان ، ثم نزعم أننا كنا نجاهد من أجل الدعوة .

(203/641)

---

إنه لشيء محزن أن نسمع عن بعض المساجد أنها لا تقام فيها صلاة الفجر لولا وجود المؤذن والإمام ، وعن معظم المساجد أنها لا يكتمل فيها صف واحد من الذين كانت تغص بهم في صلاة المغرب وهم يستعدون لقضاء سهرة الجهاد من أجل الدعوة . . .

وإذا كانت هذه حال من يرتاد المسجد في بعض الأوقات ، فما هي حال من لا يرتاده أبداً

. . . أو لا يصلي . . . أو لا يعرف الصلاة . . . ؟

وزاد الأمر على هذا حينما أخذ يكفر بعضنا بعضاً ، ويفسق بعضنا بعضاً ، ويطرد بعضن ، بعضنا الآخر من رحمة الله التي وسعت كل شيء إلاَّ أنها ضاقت عند أصحاب الجباه الضيقة عن أن تسع من خالف جهلهم . . .

وأما الطامة الكبرى فهي أننا عزفنا عن الدين الذي ندعو إليه ، ونقاتل من أجله ، بعزوفنا عن علومه ومعارفه . . . حتى صرنا متدينين ولكننا نجهل الدين الذي نتدين به ، ودعاة ولكننا لا نعرف الدعوة التي ندعو إليها ، وزاد الأمر على هذا فتجرأنا على الفتوى من غير علم وتخبطنا فيها حتى أحللنا كثيراً مما حرم الله وأحل ، ولم يسعنا هذا فانطلق بعض الناس كالذئاب الجائعة . . . ولكن لا لينهش أعداء أمته ، بل لينهش عظماءها الذين شَرُفَت بهم الأرض ، وانتشر بجهودهم الدين ، فكنا أكبر معاول الهدم لما تبقى من آثار هذه الأمة العظيمة . . . فكفينا أعداءنا ما سعوا له من غاية وتسابقوا إليه من هدف .

وهكذا ينقلب الإنسان بجهله إلى أداة تدمير وإفساد ، بدلاً من أن يحقق الغاية التي من أجلها استخلف في الأرض وهي البناء والإرشاد .

***

(12/1)

تورع سلف الأمة عن الفتوى

لقد سئل الإمام مالك بن أنس عن أربعين مسألة في دين الله ، فقال في ست وثلاثين منها : لا أدري ، قال له السائل : ماذا أقول لقومي إذا رجعت إليهم ، وكأنه استكبر هذا القول من مالك . . . !

فقال له مالك : قل لهم : إن مالك بن أنس يقول : لا أدري . . .

(204/641)

---

وتوقف الإمام محمد بن إدريس الشافعي – وهو ناصر الحديث ، وواضع علم الأصول ، والجامع بين طريقتي أهل الرأي والأثر – توقف في سبع عشرة مسألة في الفقه ، فلم يرجح فيها شيئًا ، لتزاحم الأدلة ، وتوارد الإحتمالات ، وقد عُد هذا من ورعه وتقواه ، فيما عُد من مناقبه .

ونهى الإمام الأجل أحمد بن حنبل – وهو أمير المؤمنين في الحديث ، يحفظ ألف ألف منه – نهى تلاميذه عن تدوين فقهه ، حتى لا يلزمهم رأيه فعسى أن يوجد فيهم من هو أفقه منه يستنبط كما استنبط ، ويفهم كما فهم .

وكانت المسألة تعرض على جمع من العلماء ، وكل منهم يحيلها على صاحبه حتى ترجع إلى الأول منهم ، يشفق كل واحد منهم من أن يتكلم بالفتوى في دين الله وهناك من هو أولى منه

بها ، وخشية الخطأ فيها ، على أنهم جميعاً كانوا حفاظاً للحديث ، أرباباً للفكر ، أئمة في علوم الشرع .

بل كانوا سراً من أسرار الله في هذا الدين العظيم ، بذلوا من أجله حياتهم ، واستنفدوا في سبيله طاقتهم ، فحفظه الله بهم ، تحقيقاً لوعده ، وإمضاءً لأمره ، ولولاهم لكنا اليوم في جهل كامل بديننا .

فجزاهم الله عنا أحسن الجزاء ، وأحسن إليهم ، إذ نقلوا إلينا هذا الدين أصولاً وفروعاً ، نصوصاً واستنباطاً ، دون أن يكون لهم من أجر سوى ما أمّلوه من رحمة ربهم ، ونعم الأجر والثواب .

***

(13/1)



---

انقلاب الموازين العلمية

ودالت دولة الفقه والفقهاء ، وزالت معالم العلم والعلماء ، وأقصي شرع الله عن واقع الحياة ، وغيرت مناهج التعليم في الأمة ، حتى صار الطالب يتخرج من الجامعة وهو لا يلم بلغة

دينه وقومه ، ولا يعرف عن تاريخ أمته جزءاً مما يعرفه عن تاريخ عدوه ، وصار يعرف الكثير عن مشاهير الغرب والشرق ، ولكنه لا يعرف القليل عن مشاهير المسلمين ، الذين شرف الوجود بهم ، وتعدت علومهم وآثارهم لكل أمم الأرض علاوة عن أمتهم حتى صاروا كالأساطير في أحاديث البشر ، وكانوا للعالم عبرة من العبر ، وهكذا قلت المعرفة ، وفشا الجهل ، وظهر الغرور ، واتبع الهوى .

فغيرت المعايير ، وبدلت الموازين ، فَأُتمن الخائن ، وخُوِّنَ الأمين ، وسُئِلَ الجاهل ، وتُرِكَ العالم ، يفتي الفقيه فلا تقبل فتواه ، ويتنطع الجاهل فيتسابق أمثاله في هواه . . . يَضِل ويُضِل .

***

ضابط المحدث والفقيه بين الأمس واليوم

لقد صار الإنسان يسمى محدث الديار ، وعالم الأمة ، وإمام الأئمة ، ومجدد الدين ، والفقيه الملهم ، إذا حفظ على الناس بضعة أحاديث من أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، يموه بها على الناس ، فيكسو الحقَّ ثوب الباطل ، والباطل ثوب الحق .

بينما كان الإنسان في عصور العلم الذهبية لا يسمى محدثاً – مع أنه قرأ البخاري ، ومسلماً ، وسنن أبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، ومسند أحمد ، البيهقي – إلاَّ إذا ولج الجمل في سم الخياط ، كما قاله الإمام تاج الدين السبكي في كتابه " معيد النعم ومبيد

النقم " .

(14/1)

(206/641)

---

قال : وإنما المحدث من عرف الأسانيد والعلل ، وأسماء الرجال ، والعالي والنازل ، وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون ، وسمع الكتب الستة ، ومسند أحمد ، والبيهقي ، ومعجم الطبراني ، وضم إلى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية ، هذا أقل درجاته فإذا سمع ما ذكرناه ، وكتب الطباق ، ودار على الشيوخ ، وتكلم في العلل ، والوفيات ، والمسانيد ، كان في أول درجات المحدثين ، ثم يزيد الله من يشاء ما شاء . ا هـ

.

فإذا كان هذا حدَّ المحدث عند المتقدمين ، فما هو حد الحجة ، أو أمير المؤمنين في الحديث ، وماذا يقول أدعياء العصر حينما يجعلون من أنفسهم حكماً " على " و " بين " أولئك العظماء وضابط الفقيه كضابط المحدث إن لم يكن أشدّ .

فما كان الناس في الماضي يطلقون كلمة الفقيه على كل عارف لمسائل الفقه ، حافظٍ لمتونه ، قادرٍ على البحث عن الفتوى ، وإنما كانوا يطلقون الفقيه على من عرف طرق الاستنباط ،

وتمرس بها ، وعرف كيف يستعمل الأدلة ويرجح بينها ، وعرف الأشباه والنظائر والفروق والموانع ، وأتقن الفقه وقواعده وأصوله وعرف مواطن الخلاف والوفاق ، وتمرس بلغة العرب شعرِها ونثرها .

فإذا بلغ الإنسان هذا فإنه يكون قد وصل إلى أول درجات الفقه ، ثم يزيد الله بعد ذلك من يشاء ما يشاء .

وإذا كان هذا ضابط الفقيه ، فما هو ضابط مجتهد الفتوى ، أو مجتهد المذهب ، أو المجتهد المطلق (1) .

إنه للأمر الذي خفي عن الأذهان ، وغاب عن الواقع ، والذي يجب أن يعرفه أهل العصر للتمييز بين العالم والجاهل ، والحق والباطل .

ومن أراد فهم هذا فليسمع قول أمير المؤمنين في الحديث الإمام أحمد بن حنبل : (( كانت أقضيتنا بأيدي أصحاب أبي حنيفة ما تنزع ، حتى جاء الشافعي فنزعناها منهم )) ، وقوله : (( لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث )) .

(1/ 15)

وقد لامه بعض أصحابه في تتبع مجالس الشافعي ، وتركه لمجلس شيخه ابن عيينة ، فقال له : إنك إن فاتك حديث بإسناد عالي أدركته بإسناد نازل ، ولكن إن فاتك عقل هذا أخشى أن لا تدرك عقلاً كعقله .

وأنا لا أريد بهذا الكلام أن أتكلم عن مناقب الإمام الشافعي ، فهو واحد من مجهدي هذه الأمة رضوان الله عليهم أجمعين ، وإنما أريد أن يفهم بعض من دقَّ عليه الفهم الفرقَ بين المحدث والعالم الفقيه .

لقد نادى إمام الحرمين الجويني – رحمه الله – تلميذه حجة الإسلام الغَزاليَّ في يوم من الأيام حينما كان في طلبه للعلم عند إمام الحرمين ، ناداه بقوله : يا فقيه ، فتمعَّر وجه الغزالي ، وبدا عليه عدم الرضا ، كأنه تقالَّ هذه الكلمة عليه ، وأدرك أستاذه هذا وأراد أن يعرفه بالواقع أنه ما زال دون هذا اللقب ، وأنه إنما خلعه عليه تفاؤلاً منه لطالبه ، لما كان يرى فيه من أمارات النجابة ، وعلامات النبوغ ، فأخذ بيده ، وقاده إلى غرفة كبيرة ، وأمره بفتح بابها ، وإذا بها مملوءة بآلاف المجلدات ، فقال له : ما قيل لي يا فقيه حتى حفظت هذا كله .

أما اليوم ، فقد تبدلت المعايير وتغيرت المفاهيم ، وصار الإنسان – كما ذكرت – يسمى محدث الديار ، وربما زيد له في الألقاب ، وهو من أسوأ الناس حفظاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، مع جهل مطبق بأبسط قواعد الاجتهاد والاستنباط .

***

نهاية ما وصل إليه أمر الجهل والتفيهق

لم يقف أمر التفيهق في التبديل والتغيير، والتحريف والتزوير عندما ذكرته مع الصور، ولو وقف عند هذا لهان، فإن من أسرار هذا الدين أن يفضح كل دَعِيّ فيه . . .

إلا أن الأمر تجاوز هذا، إذا أصبحنا نرى أناساً لا يجيدون القراءة ولا الكتابة، يخوضون في أحكام الشرع، ويأتون بالعجائب، محرفين لشرع الله، وهادمين لأسسه وقاعدته .

(208/641)

---

وليت الأمر وقف عند هذا أيضاً، إلاَّ أنه تجاوزه إلى تجهيل السلف، والطعن عليهم وقذفهم بما لا يليق، مما لا يقبله أقران السوء بعضهم في بعض .

(16/1)

تجد احدهم يفتي بما يخالف به كل الأمة، دون أن يشير إليها، وكأنه يترفع عن أن يذكر اسمه معها وقد ملأ الغرور يقينه بأن كل من في الأرض مِنْ حي أو ميت لا يسعه إلاَّ إتباعُه .

ولو أنه ذكر اسمهم معه، وقال: قالت الأمة كذا، وأقول أنا كذا، لشكرنا صنيعه، لأنه رضي لنفسه أن ينزل إلى صف أولئك الأئمة إلاَّ أنه لا يفعل، لأن سحاب الجهل قد غطى على عقله، فلمع منه برق الغرور، وهطل وابل الهوى، فخيل إليه أنه لا وزن إلاَّ لما يقول،

فهو المصيب والأمة بأسرها مخطئة ولا داعي – فما يسول له جهله – لذكر خطأ الأمة بأسرها مع صوابه .

وأخيراً صار العلماء عقبة في طريق الدعوة كما ذكرت في المقدمة .

ولا ندري ماذا تحمل لنا الأيام القادمة في جعبتها إذا ما استمر الأمر على هذه الحالة من الفوضى العلمية في دين الله .

ولا يسعنا إلاَّ أن نقول ما أوصانا به الله عند نزول المصائب : " إنا لله وإنا إليه راجعون " .

روى البخاري ، ومسلم ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (( يكون بين يدي الساعة أيام ، يرفع فيها العلم ، وينزل فيها الجهل ، ويكثر فيها الهرج ، والهرج القتل )) .

وقد افتتح الإمام أبو القاسم بن عساكر كتابه (( تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري )) افتتحه بقول صلى الله عليه وآله وسلم : (( لن تقوم الساعة حتى يلعن آخر هذه الأمة أولها )) .

وإن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : "إذا لم تستح فاصنع ما شئت " .

(17/1)

هم رجال ونحن رجال

في كثير من الحالات تفقد العبارات معانيها ، وعند ذلك يصير الكلام يسمع ولا يفهم ، وفقدان المعنى ، قد يكون بسبب السامع ، كمن ينشد شعراً بليغاً أمام عامي جاهل ، فإنه لا يطرب له ، ولا ينفعل معه ، ومن ثم يعرض عنه ، وربما كان الكلام الغث عنده أفضل من الكلام البليغ المعجز ، أو الموزون المقفى ، وفي هذه الحالة يفقد الكلام معناه ، وقد يكون فقدان المعنى بسبب المتكلم ، كمن يستشهد بشعر عنترة أو عمرو في الملاحم ، ليدلل به على شجاعته وفروسيته ، وهو عند الناس ممن ترتعد فرائصه ، وتخور قواه ، لأدنى هزة ، وأبسط سبب .

فليست العبرة أن يقول الإنسان الكلمة ، ولكن العبرة أن تقع الكلمة موقعها من المتكلم والسامع ، وإلاَّ فهي كما قال المتنبي :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلي مضر كوضع السيف في موضع الندى

لقد كان الإمام الشافعي – رحمه الله – من كبار أئمة المسلمين في جميع جوانب العلوم الإسلامية ، دون مدافع أو منازع ، ولقد سما به علمه ، حتى فاق أقرانه وأساتذته ومعاصريه والمتقدمين عليه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فلم يكن كغيره من العلماء عالماً لغة العرب على نحو ما يعلمه الناس من اللغة ، بل كان حجة فيها ، فكان علماء العربية يجلسون إليه ويتنافسون في نقل كلامه ، حتى قال عبد الملك بن

هشام صاحب المغازي، وإمام أهل عصره في اللغة والنحو : " الشافعي حجة في اللغة "

وكان إذا شك شيء من اللغة بعث إلى الشافعي فسأله عنه .

وقال الإمام أبو عبيد : " الشافعي ممن تؤخذ عنه اللغة " .

وقال المازني : " الشافعي عندنا حجة في النحو " .

وكان الأصمعي على جلالة قدره، وعلو منزلته في لغة العرب يقول : " صححت أشعار الهذليين على شاب من قريش بمكة، يقال له : محمد بن إدريس " .

وقال الجاحظ : " عجبت لهذا المطلبي كأن فاه ينظم دراً إلى در " .

وقال صاحب القاموس في مادة " نذر " والنذارة النذير، في لغة الشافعي .

(18/1)



---

وإلى جانب اللغة، كان إمام المحدثين في عصره وناصرهم، ولذلك لقب في بغداد بـ " ناصر الحديث " .

وحتى قال محمد بن الحسن – رحمه الله – إذا تكلم أصحاب الحديث فبلسان الشافعي .

وقال الزعفراني : كان أصحاب الحديث رقوداً، فأيقظهم الشافعي .

وقال احمد بن حنبل : ما أحد مس بيده محبرة ولا قلماً ، إلاّ وللشافعي في رقبته منة .

وقال : ما أعلم أحدا أعظم منة على الإسلام في زمن الشافعي من الشافعي .

وقال : ما كان أصحاب الحديث يعرفون فقه الحديث حتى جاء الشافعي .

وقال لابنه : يا بني . . . الشافعي كالشمس للدنيا ، والعافية للناس ، فانظر ، هل ترى لهذين من سبيل ؟ !

وأما بالنسبة لجمعه للسنة فتكفيه شهادة إمام الأئمة ابن خزيمة إذ قال : " ما أعلم سنة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ وضمنها الشافعي كتابه الحجة " .

وأما الفقه ، فهو فيه إمام الدنيا وعالمها ، أفتى في عصر أستاذه مالك وبإذنه ، وفي عصر أستاذه مسلم بن خالد الزنجي وبإذنه ، وناظر العلماء ، وأفحمهم ، ونشر فقهه في كل مكان ذهب إليه وأملاه ودونه .

وأما علم الأصول ، فهو واضعه ومدونه ، وكل من كتب في أصول الفقه في الإسلام فهو عالة على الشافعي فيه ، وحسبه هذا من المناقب .

ولذلك لما قرأ ابن مهدي إمام المحدثين في عصره أن لما قرأ " رسالة الشافعي " في الأصول التزم بالدعاء له دبر كل صلاة حتى مات ، لشدة إعجابه بها ، وكثرة إفادته منها ، ودقة صنع الإمام فيها .

ولا أريد أن أستطرد في الكلام على علوم الشافعي ، فإني لم أسق هذا الكلام لبيان علومه ،

فقد صنفت في ذلك المصنفات ، وإنما سقته ليعلم القارئ نبذة عن علوم الإمام الذي قال يوماً ما – وقد ناقش موضوع الاحتجاج بقول الصحابي وفتواه – قال : " نحن رجال وهم رجال ، كيف آخذ بقول من لو حاججته لحججته" .

(19/1)

(211/641)

---

نعم . . . لقد قال الشافعي هذه الكلمة ، وهو الشافعي ، فلم يحتج بقول الصحابي على تفصيل وضوابط في هذه المسألة ، قال الشافعي هذه الكلمة وهو أهل لأن يقولها ، ولذلك ضج بها علماء عصره ، وهبوا لمناصرته فيها ، وكثير منهم من تبناها ، وصارت إلى يومنا هذا قاعدة عامة من قواعد الشافعي في مذهبه ، والشافعية من بعده .

لقد قال الشافعي هذه الكلمة فحملت معناها كاملاً ، ولكنها ومع الأسف قد ابتذلت في عصرنا هذا حتى فقدت معناها . . . حينما أصبحت شعاراً يردده الصبية والجهلة يريدون به أن يضعوا أنفسهم في مصاف أئمة المسلمين . . . والواحد منهم لا يعرف كيف يقرأ القرآن ، أو يفهم الحديث ، وأما علم اللغة أو الفقه أو الأصول فهذا شيء ما خطر له على بال ، فالفاعل عنده منصوب ، والمفعول به مرفوع ، والفعل مجرور ، وأصول الفقه

بدعة ، والفقه ما يفهمه هو بهذه العقلية القاحلة ، فهو رجل والأئمة المجتهدون رضي الله عنهم رجال . . . ؟ !

ليس العجيب في أن يتجرأ أحد الجهلة على مثل هذه الكلمة فالتاريخ مليء بمثل هذا ، ولكن العجيب أن يصير الجهل شعاراً يتفاخر به الناس . . . ؟ ! ولذلك قال علي كرم الله وجهه ورضي عنه للخوارج حينما قالوا : لا حكم إلاَّ لله ، قال لهم : ((كلمة حق أريد بها باطل )) :

على أنها الأيام قد صرن كلها عجائب ، حتى ليس فيها عجائب

***

________________________________

(1) أنظر كتابنا الاجتهاد وطبقات مجتهدي الشافعية

(1/ 20)

خطر تلقي العلم عن الكتاب دون معلِّم

إن من أعظم آفات الجهل أنه يوحي إلى صاحبه أنه عالم ، بل يوحي إليه أنه من أكبر عباقرة الكون ، فيتخيل أنه يتكلم بكلام العلماء ، وأنه يلحن لحنهم وأن ما يقوله هو الحكمة ، وما يسطره هو القانون فيتكلم ويسكت العلماء عنه . . . خشية من أن يصيبهم رُشاشُ جهله .

وهنا يعمل الغرور عنده عمله ، فيجتمع عليه الجهل مع الغرور ، ويوحيان إليه أنهم ما سكتوا عنه إلاَّ لإفحامه إياهم ، وأنه الآن سلطانهم وموجههم ولا سلطان عليه ، إذا شب عقله عن الطوق .

فيهذي بما يظنه علماً وحكمةَ ، ولا يزال يهذي ، حتى تفوح رائحة جهله ، ويضطرب أمره ، بما يكشفه الله من عواره ، ويفضحه من أباطيله ، وإذا به أمام مرآة الحقيقة عارياً ، يستغفر الله _ إن عاد إليه عقله _ مما كان يظنه تسبيحاً .

وإني لأذكر غرور من ذكرت ، ممن وصفت ، فأذكر قصة "كفر الذبابة" التي صاغها أدب معجزة الأدب العربي ، مصطفى صادق الرافعي ، في كتابه " وحي القلم " وأتساءل ما الذي يغير العلماء من سفه الجهلاء ، فيجيبني " سقط الزند " على لسان حكيم المعرة :

إذا وصف الطائي بالبخل ما در وعيّرَ قِسّاً بالفهاهة باقل

وقال السها للشمس : أنت ضئيلة وقال الدجى : يا صبح لونك حائل

وفاخرت الأرض السماء سفاهة وطاولت النجم الحصى والجنادل

فيا موت زرْ ، إن الحياة ذميمة ويا نفس جدي ، إن دهرك هازل

لقد أخبرني شيخي أثناء طلبي للعلم في الأزهر ، أنه قرأ يوماً أثناء طلبه للعلم في كتاب المعاملات من الفقه ما نصه : " ويحرم بيع برَمْبَلولٍ ببرَمْبلول " .

قال : فاستعصى علي فهم هذه الكلمة ، فنظرت في الشروح فلم أجد أحداً من العلماء قد شرحها أو علق عليها ، ونظرت في الحواشي ، فلم أجد من بيَّنها أو أوضحها ، وكدت أتهم المتون ، والشروح ، والحواشي والتقريرات ، بالعجز والقصور ، لأنها ضاقت عن أن تشرح هذه العبارة ، أو أتهم المؤلف بالخطأ .

ثم رأيت أن أتهم عقلي قبل اتهامها ، لأنه لو كان الخطأ في العبارة من المؤلف لتنبه له واحد على الأقل من العشرات الذين شرحوا الكتاب أو علقوا عليه ، فمن المحال أن يكون الجميع قد اتفقوا على هذا الخطأ ، ولا بد أن الخطأ في عقلي وفهمي .

(21 / 1)



---

قال فرجعت إلى شيخي أسأله عنها ، فقال لي : يا بني . ما أخذ أحد العلم من الكتاب – دون معلم – إلاَّ ضل ، فلابد من المعلم ، ليشرح الغامض ، ويقيد المطلق ، ويفصل المجمل ، ويبين المراد من الاصطلاح ، ولو كان الكتاب وحده ينفع ، دون احتياج لمعلم يشرح ، لما

أرسل الله مع كل كتاب رسولاً يشرحه ، ويبينه ، ويبلغه ، ولَمَا أخذ الله العهد من الذين أوتوا الكتاب أن يبينوه للناس ، ولَمَا ألجمَ الله كاتم العلم بلجام من نار ، وكتب العلم متوفرة للقاصي والداني .

ثم قال لي : يا بني . . . إن الصواب العبارة " ويحرُم بيع بُرُّمَبْلول ببُرّ مبلول " .

والأمر لا يحتاج لمعاجم وقواميس ، وشروح وحواشي وإنما يحتاج لتواضع كتواضعك إذ سألتني .

قال لي شيخي ، فوا لله يا بني ما نسيت منذ ذلك اليوم حكمة الشيخ ، وذكرت قول الشافعي (( ما ضُحِكَ من خطأ امرئ قط إلاَّ وثبت صوابه في قلبه )) .

ولقد عرفت أن مراد شيخي فيما قص علي منى هذه القصة الواقعية – عرفتُ أنه – إنما أراد أن يعلمني كيف يجب أن يكون سلوكي في تلقي العلوم لأصل بالصواب إلى غايتها . . .

(1 / 22)



---

ولقد ابتلي المسلمون اليوم ، زيادة عما هم فيه من البلاء ، وفي هذا العصر الذي قبض فيه العلم بقبض العلماء ، وفشا فيه الجهل ، ابتُلوا بصنف من الناس ، أخذوا بعض العلم من

الكتب ، دون الرجوع إلى المعلم والمرشد ، ففهموا النصوص خطأ ، وأولوها على هواهم جهلاً ، وليتهم سألوا إذ لم يعلموا ، فإنما شفاء العِيِّ السؤال ، ولكنهم أوغلوا في أوهامهم ، وجعلوا بلبلة العقول أكبر همهم ، بما أتوا به من عظائم الأمور التي أوحى بها جهلهم ، زاعمين أنها هي الشرع الذي لا يجوز العدول عنه ، ولا الابتعاد منه ، رغم أنها الباطل ، لمخالفتها لسيرة هذه الأمة منذ أن بعث الله نبينا محمد إلى يومها هذا ، وستبقى كذلك إن شاء الله ، لا تغير مسيرتها الأهوال ، ولا توقف مدها الأوهام ، إذ ضَمِنَ الله بقاءها ، وأخبر رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام باستمرارها ، لا يضرها من خذلها حتى يأتي أمر الله .

صور من التصحيف بسبب تلقي العلم عن الكتاب دون معلم

لقد كان الناس في الماضي يتندرون بما وقع من تصحيف ، وتحريف ، وسوء فهم لمن أخذ العلم من الكتاب ، دون وجود المعلم أو المرشد ، مما صار حكاية أو طرفة يُتَنَدَّرُ بها في مجالس العلم ، وفي نفس الوقت تكون حكمة ، يُتَوخى بها التأكيد على التلقي السليم للعلم ، بالطرق السليمة .

ولقد دون أصحاب الحواشي الكثير من هذه النوادر في حواشيهم على الكتب ، لما ذكرنا من الحكمة ، وللترفيه عن طالب العلم إذا دقت المسألة ، واحتدم حولها النقاش ، واشتد النزاع .

فطالما قرأنا وسمعنا عن الذي حَرَّف قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (( المؤمن كيِّسٌ فَطِنٌ

)) ونقله بقوله: ((المؤمنُ كيسُ قُطن))

(23/1)

(215/641)

---

وقرأ بعضهم قول الفقهاء عن صفة القبر، وأنه يستحب أن يسوىَّ اللَّبِنُ تحته، فلما حضر دفن أحد الموتى، أحضر معه قدر لبنٍ وأراقه في القبر، فلما قيل له في هذا، قال: لقد قرأت هذا في الكتاب، وأنه يندب أن يسوى اللَّبَنُ في القبر قبل الدفن ... وليبرهن على صدق كلامه، أحضر الكتاب، فكان البرهان على سوء فهمه.

وقرأ بعضهم قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((إذا سمعتم النداء إلى الصلاة، فلا تأتوها وأنتم تَسْعَون، ولكن ائتوها بِسَكِيْنَةٍ ووقار)).

والكتابة في الماضي لم تكن منقطة كالكتابة في الوقت الحاضر، ولم يكن قد تلقى الحديث عن الشيوخ، وإنما بفهمه وهمته، فقرأه: ((ولكن ائتوها بِسَكِّيْنَةٍ وفار)) فوضع في جيبه سكينة وفأراً وذهب بهما إلى المسجد ...

والنوادر من هذا القبيل كثيرة جداً، يمكن أن يصنف فيها كتاب كامل، يكون حافلاً بعجائب مما يمكن للجهل أن يظهره ويفعله، وللعقل أن يقف عليه ويتأمله، ليرى من خلاله أثر

نعمة الله على عباده بنعمة العقل ، ونعمة الهداية بتثقيفه بالطريق السليم للعلم والثقافة .

وأنا لا أريد الاستطراد بضرب الأمثلة من هذا النوع ، فحسبي ما ذكرت للوصول إلى ما أريد أن أقوله ، أو أردت .

ولكني قبل أن أقول ما أريد قوله أحب أن أستدرك على ما قلت مما يمكن أن يقال : من أن التصحيف ، والتحريف ، وسوء الفهم كما يقع للجاهل ، يمن أن يقع للعالم ، ولا يكون سبباً للذم .

تصحيف العالِم والفرق بينه وبين تصحيف الجاهل

فها هو الجاحظ شيخ شيوخ العربية وآدابها ، وإمام أئمتها وإمامها ، يقرأ قول مالك بن أسماءَ بن خارجة :

وحديثٍ أَلَذُّه وهو مما . . . ينعَتُ الناعتون يوزنُ وزنا

منطقٌ صائبٌ وتلحنُ أحياناً . . . وخيرُ الحديثِ ما كان لحنا

ويفسرُ اللحن بأنه الخطأ في الإعراب ، وإن من جملة محاسن المرأة أن تلحن في منطقها لحن الخلل بقواعد العربية ، إذ ذهب في البيتين على أنهما سيقا لمدحها بهذا .

(24 / 1)

وتنوقل عنه هذا الفهمُ والشرحُ ثم استدرك على نفس ، وانكشف له خطؤه فيما ذهب إليه من المعنى بزوال الغشاوة التي غطت على عقله في ذلك الوقت ، لتبرهن له على الفرق بين المخلوق الذي له طاقات محدودة ، يحيط بها العجز ، ويتطرق إليها الخطأ ، ويعتريها النسيان ، وما شابه هذا من العيوب ، والخالقِ الذي لا يتطرق الخلل ، في أبسط مادة من مواده ، إلى كلامه ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وبهذا يعرف حقيقته ، حتى لا يُغرَّبها ، ويذهب بها مذهباً لا يليق بها ، من تصور الإلهام والعصمة لها ، وليفهم من جديد معنى قوله تعالى : ]وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا [ ]النساء / 82[

وذلك أن مراد الشاعر باللحن في شعره هو اللحن الذي يراد به الكلام الإشاري ، كالتورية عند علماء البلاغة ، يقول الإنسان كلاماً له معنى ظاهرٌ ، إلاَّ أن المتكلم يريد له معنى آخر غير هذا الظاهر ، فيقال : لحن بقوله ، إذا فعل مثل هذا ، ومنه قوله تعالى : ]فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ [محمد / 30[

ومعنى ما قاله الشاعر : أن هذه المرأة تتكلم في بعض الأحيان كلاماً له معنى يختلف عن معناه الظاهر ، لا يفهمه عنها إلاَّ من فطِن لمرادها ممن له صلة بها ، فهي تلحن في منطقها لحن الإشارة والتعريض ، لا لحن الإعراب ، وخير الحديث في مثل هذه الحالة ما كان لحناً ، لأنها

تشير إلى ما تريد من مخاطبها بما لا يفهمه عنها أحد سواه .

فقيل للجاحظ : هلا تداركت هذا يا أبا عمرو . . فقال أنى وقد سارت به الركبان . . . (1)

وأقول : نعم ، قد يقع مثل هذا لكثير من العظماء والكبار ، إلاَّ أن الفرق بين وقوعه من مفكر ، عبقري ، عظيم ، أو إمام متقن جليل ، وبين وقوعه من جاهل ، أن وقوعه من الأول نادر ، لا يتصور منه ، ولذلك يصير نادرة ومثلاً ، بينما وقوعه من الثاني ، بل لا يتصور منه غيره .

(25/1)

(217/641)

---

وأن الأول إذا اجتهد فأخطأ ، فله أجر واحد على الاجتهاد ، لأنه أهل له ، والثاني ، إذا اجتهد فأصاب ، فإنه يعاقب ، لأنه ليس من أهل الاجتهاد ، وإصابته خطأ من أخطائه ، ورب رمية من غير رام .

وأن الأول يمتدح من هذا الخطأ :

فمن ذا الذي تحمد سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

وأما الثاني فإنه يذم بذاك الخطأ ، ويقال له :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وقد ذكر الأدباء هذا المثال عن الجاحظ للدلالة على علو قدره، بأنه ما يفوته شيء من كلام العرب . فكيف فاته هذا ، وللدلالة على تواضعه، وذلك أنه أدرك خطأه، وندم عليه، ونبّه الناس له

بينما يسوقون ما يصدر عن الجهال لبيان مدى ما يمكن للجهل أن يفعله بصاحبه فهم لا يذمون الجاهل على أنه أخطأ ، فالخطأ منة طبيعته، بل من طبائع البشر ، وإنما يذمونه على إصراره على جهله، وتصويره له على أنه الحق الذي يجب أن يتبع، كما يذمونه على الخوض فيما ليس هو أهلاً له، إذ من خاض في فن غير فنه أتى بالعجائب .

تصحيف طلاب العلم

وكما أن الخطأ قد يقع من العالم، فيغتفر له، ولا يعاب عليه، بل ربما قيل فيه : "كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه" لأن الخطأ من لوازم البشر ، كذلك قد يقع الخطأ من طالب العلم، فيصحف، ويحرف، ويصحح له الأستاذ ، أو المرشد ، ولا يعيب عليه أيضاً ، فشيء طبيعي في الطالب أن يقع في مثل هذا أثناء الطلب، وهو حينما جاء إلى الأستاذ أو المرشد ، إنما جاء ليتعلم، ويخرجَ عما قد يقع فيه من مثل تلك الأخطاء ، وإنما كان المعلم معلماً لأنه يعلمُ ويرشدُ ويدل على الصواب والخطأ .

لقد كان أحد الطلاب العلم يقرأ عندي الفقه، وكان يقرأ في مباحث الصلاة، فوصل إلى قول المؤلف: " ويندب سَدّ فُرْجَة في الصفّ " أي يندب للمصلي إذا وجد فرجة أي مكاناً خالياً في الصف أمامه أن يسدها، حتى يكون الصف متكاملاً متراصاً، إلا أن كلمة الفرجة كانت بدون نقط فوق التاء المربوطة، فتصحفت الكلمة عليه، وقرأها: " ويندب سَدّ فَرْجِهِ في الصف ".

فقلت له لأتأكد من سمعي لما سمعت: وما المراد بسد الفرج؟

قال: أن يسد فرجه

قلت: وبم يسده ؟

قال: بشيء من الورق أو القطن.

قلت: ولم يسده ؟

قال: حتى يتأكد من الطهارة، وعدم نزول شيء من البول في ثيابه.

فضحك كل من في المجلس لهذا التصحيف القبيح، إلا أنه رغم هذا لا يعاب على الطالب أن يقع في مثل هذا ـ كما ذكرت ـ لأنه مقر بالخطأ، راغب في تصحيحه، وقد سلك إلى ذلك

الطريق السليم بالتلقي عن الأستاذ والمرشد ، فلا حرج عليه ، فيما قد يقع منه ، لأن أستاذه سيصححه له .

فلما صححت للطالب العبارة ، وعرف الحقيقة ، استرجع واستغفر ، وزاد حرصاً على طلب العلم ، حتى لا يقع ثانية في مثل هذا الخطأ .

ولكن الأمر المعيب في الجاهل ، أن يأخذ العلم من الكتاب ، دون وجود المعلم ، ويفهَمَهُ كما يزينه له جهله ، وفوق هذا كله يريد أن يجعله دستور الحياة ، والفهم القويم للدين ، من تبعه رشد ، ومن أعرض عنه غوى ، وهنا تكون الطامة ، ويكون ما يأتي به من التصحيف ، والتحريف ، والفهم الخطأ فاكهة المجالس ، وأقل ما يناله ممن عرف الحقيقة من أهل العلم الذم ، وهنا يقال فيه : من خاض في فن غير فنه أتى بالعجائب .

***

(27 / 1)

آثار الجرأة على الفتوى والاجتهاد بغير علم

إن كلمة الاجتهاد كلمة براقة ، تستهوي العقول ، وتستمل النفوس ، وما من امرئ إلا ويتمنى الوصول إليها ، والتحلي بها ، فهي ذروة ما يصل إليه الإنسان في علوم الشرع من الكمال ، ونهاية ما يبدع به العقل من الإتقان .

ولقد قدر سلفنا رضوان الله عليهم هذه الكلمة حق قدرها ، فوضعوا لها الحدود ، ورسموا لها الضوابط ، وفهموا معناها الحقيقي الذي يستفاد منها ، فما كان يدعيها إلا من هو أهل لها ، إذا كانوا يدركون معنى اقتحام لجج الفتوى ، وخطر في غمارها ، بإدراكهم أن الجرأة على الفتوى جرأة علي النار .

فحرصوا علي الإتباع ، دون الابتداع ، والنَّصَفَةِ من النفس والهوى ، إلاَّ أن هذه الكلمة برقت في عصرنا بريقاً لم تبرقه في يوم من الأيام ، ولكنها في نفس الوقت ، فقدت معناها فقداناً لم تفقده في يوم من الأيام ، على قلة ما عندنا من العلم ، وكثرة ما كان عند سلفنا منه ، وهكذا يستسيغ الجاهل الكلام .

لأنه إن أخذ الكلمة بمعناها الحقيقي ثقلت في سمعه ، ومن ثم ثقلت في عقله ، ومن ثم لَفْظِها ، لأن أخلاط فكره لم تستطع التفاعل معها ، كما يأبى الجسد المريض شربة العسل .

نعم . . . . لقد برقت هذه الكلمة في عصرنا ، وصار يدعيها كل غِرٍّ جاهل ، وكل مغالط مخادع .

حتى وصل الأمر في دعواها إلى أن ادعاها من لا صلة له بعلوم الشرع من قريب أو بعيد ، بل ربما ادعاها بعض من لا خلاق له .

ونحن لا ننكر على من لم يدرس علوم الشرع أن يصير مجتهداً بعد أن يتعلم ، فالعلم بالتعلم ،

وفضل الله واسع يؤتيه من يشاء ، ولكننا ننكر عليه أن يكون مجتهداً قبل أن يصل إلى رتبة الاجتهاد في العلم

فمن تطبب بغير طب فقد برئت منه ذمة الإسلام ، ومن قال في الدين برأيه وبما لا يعلم فقد أعظم الفرية علي دين الله ، فليتبوأ مقعده من النار .

إننا لا ندعي غلق باب الاجتهاد ، ولا نريد أن نمنع الناس منه ، ولكننا نريد أن نقول للناس : قبل أن تجتهدوا تعلموا .

فليس الاجتهاد بالتحلي ، ولا بالتمني ، ولكنه ببلوغ درجة معينة من العلم يستطيع المرء بواسطتها أن يستنبط الأحكام الشرعية من أدلتها .

(28 / 1)



---

ولقد كان العلماء في الماضي يبلغون الدرجة العليا في حفظ القرآن ، والسنة ، ولغة العرب ، ويتقنون الفقه وأصوله ، وما كان الواحد منهم يدعي الاجتهاد .

فلو درسنا سيرة حفاظ الأمة جميعاً ، لوجدناهم متمذهبين بمذاهب الأئمة المتقدمين من أصحاب السنن ، إلى الدارمي ، والدارقطني ، والحاكم ، والبيهقي ، وابن عساكر ، وابن

الصلاح ، والعز بن عبد السلام ، والنووي ، والذهبي ، والمزي ، والعراقي ، وابن حجر ، والسيوطي ، وغيرهم ممن لا سبيل إلى حصرهم .

فما بال المغمورين الذين يدعون هذه المنزلة العالية الرفيعة ، وماذا نقول إذ ما قرناهم بمن ذكرنا ومن لم نذكر ، ممن كان الوجود يتشرفُ بهم .

إن الناظر في الساحة وفيما يتردد فيها ممن يدعون الاجتهاد وهم لما يصلوا بعد إلى أولى درجات طالب العلم يجد أمراً عجباً ، لولا أن الإنسان يسمعه بإذنه ، ويراه بعينه ، لأنكر نقله ، لأنه مما لا يصدق .

ومن سلك هذا المسلك يكون أحد رجلين :

الأول :

رجل يريد أن يتعلم ، إلا أنه لم يجد المعلم ، فنظر في الكتب ، وأخذ منها ما توصل إليه بفهمه ، ووقع منه ما ذكرنا من التصحيف ، والفهم الخاطئ ، إلا أنه معترف بعجزه ، مقر بأنه لم يفهم الفهم السليم ، يبحث عن المعلم ليتلقى عنه ، كمن يسلم في ديار الغرب اليوم ، أو في البلاد التي شح فيها العلماء أو انقرضوا ، وهذا أيضا يغتفر له ما يصدر منه ، أو يقع فيه ، مما ذكرنا ريثما يصل إلى المعلم .

أما الثاني :

فهو رجل يعيش في ديار المسلمين ، بين ظهراني العلماء ، ولكنه مع هذا أعرض عنهم ،

وأخذ يعبث بنصوص الشريعة ، يزعم أنه يجتهد فيها ، فيحل حرام الله ، ويحرم حلاله ، وأخذ يجهل زيداً ، ويفسق عمرا ، ويكفر بكراً ، ويعيث في الأرض الفساد .

ويزيد فوق هذا كلّه أنه يجعل هذا الباطل الذي هو عليه منهجاً ، يدعو إليه ، ويحث عليه ، وهو لا أقول : إنه لم يصل لدرجة الاجتهاد ، بل أقول : إنه لم يصل لدرجة إتقان القراءة للنصوص قراءة صحيحة .

(1 / 29)

(221/641)

---

فهو يجوز لمثل هذا أن يعبث بنصوص الشريعة بدعوى الاجتهاد ؟

اللهم - وبلسان كل عالم من علماء المسلمين - أقول : لا .

وإلاَّ فما الفرق بين العالم والجاهل . ولم قال تعالى : ]وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ [ ]النساء / 83[ ولم قال الله تعالى : ]فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ [ ]النحل / 43[

ولم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " العلماءُ ورثة الأنبياء " .

وإذا كان يجوز لكل أحد أن يجتهد فلماذا دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على

الذين أمروا صاحبهم بالاغتسال وهو جريح ، فاغتسل ، فمات ، لماذا دعا عليهم وقال : " قتلوه قتلهم الله ، هلا سألوا إذ لم يعلموا ، فإنما شفاء العِيِّ السؤال" .

ولماذا كان سلف الأمة رضوان الله عليهم وخلفها يضربون أكباد الإبل ، ويسيحون في مشارق الأرض ومغاربها بحثاً عن العلماء ؟

ولماذا كان خلف الأمة تبعاً لسلفها يحثون على الحيطة في تلقي العلم ، ويحذرون من التلقي عن كل أحد إلاَّ من كان موثوقاً بعلمه . . . ؟

إنه من أجل أن يستمر المنهج السليم في التلقين والتلقي ، خشية من الانحراف والخلل ، والتصحيف والزلل ، فالخطأ في الدين ليس كالخطأ في غيره ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم : " أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار" .

وجعل العلم مختصاً بأهله ، ممن هو قادر على فهمه وصيانته فقال صلى الله عليه وآله وسلم : " يحمل هذا العلم من كلِّ خَلَفٍ عدوله ، ينفون عنه تحريف الضالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين " .

التحذير من الجرأة على الفتوى بغير علم

إن مما يترتب على الخطأ في الفتوى بغير علم أن يحمل المفتي وزر خطئه ، ووزر من عمل به إلى يوم القيامة .

وقد حذر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من هذه الظاهرة ، مما يكون آخر الزمان ، من انقراض العلم ، وانتشار الجهل ، والفتوى بغير علم فقال عليه الصلاة والسلام " إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور العلماء ، ولكن يقبض العلماء ، فبقبضهم يقبض العلم ، حتى إذا لم يبق عالماً ، اتخذ الناس رؤساء جهالاً ، فأفتوا بغير علم ، فضلُّوا وأضلُّوا "

***

عجائب الفتوى

وإني سأذكر هنا بعض هذه الفتاوى ، مما افترى به المتفيهقون في هذا العصر ، لنرى مدى ما أودت إليه الدعوة العامة إلى الاجتهاد ، سواء أكان الإنسان عالماً أم جاهلاً ، بلغ رتبة الاجتهاد أم لم يبلغها ، مما جعل الناس شيعاً وأحزاباً ، يضلل بعضهم بعضاً ، ويفسق بعضهم بعضاً ، بل يكفر بعضهم بعضاً ، بجهل ما رأى بصيص العلم ، وحمق ما لمسته يد الرشاد .

وقد غلا بعضهم في دعوته هذه فقال لمن تبق منهم : إنه يستطيع أن يجعلهم مجتهدين بجلسة واحدة ، وبنصف ساعة . . . . . .

فقلت : هذا تفاعل كيماوي ، وليس ببرنامج علمي ، لأنه لا العقل القديم ، ولا العقل

الحديث يؤمن بهذا ، إلاَّ إن كان القائل قد أوتي المعجزة ، وأصبحت كفُّه ككفِّ عيسى عليه السلام تبرئ الأكمة والأبرص ، وتحيي الموتى بإذن الله .

ولعل إحياء الموتى أقرب في مجوَّزات العقول من أن يصبح الإنسان عالماً مجتهداً بثلاثين دقيقة ، لأن العقل البشري يفكر في إحياء الموتى ، ويهجم عليه ، ولكنه ما فكر بعد في أن يجعل الإنسان عالماً بدقائق .

وقال آخر : إن الإنسان يكفيه ليصير مجتهداً أن يحوز سنن أبي داود في الحديث ، ومختار الصِّحاح في اللغة .

(1 / 31)



---

وأنا أريد أن أرشده إلى كتاب أقرب إلى الغاية من مختار الصحاح ، ألا وهو المصباح المنير للفيومي ، أو الزاهر للأزهري ، فإنهما معجمان فقهيان ، ولعلهما أمس بالمقصود من المختار ، ولا يكبرانه حجماً ، ولا أريد أن أرشده إلى القاموس ، أو الصحاح ، أو تهذيب اللغة ، أو المحكم ، أو العباب ، أو لسان العرب ، أو تاج العروس ، أو ما شابه هذه الكتب الواسعة ، لأن الإحاطة بهذه الكتب يحتاج لأكثر من نصف ساعة ؟ !

ومما بنوه على هذه القواعد الأصولية المحكمة عندهم أن وصل بعضهم باجتهاده المتقن إلى أن قال :

1 - إن أكل السكر حرام ، ولذلك فهو يشرب الشاي بدون سكر ، أو بسكر نبات .

2 - وقال بعضهم إن الدراسة في المدارس والجامعات حرام ، لا لشيء ، وإنما لأنه يوجد فيها جرس ، ومدرس حليق .

3 - وقال بعضهم إن القول بأن الأرض تدور يتنافى مع العقيدة ، وأن قائل هذا القول كافر ، وقد كُفِّرت يوما ما بعد أن ألقيت محاضرة عامة في أحد المساجد ، تعرضتُ فيها للكواكب وحركاتها وحركة الأرض ، فقام أحد الأطفال المجتهدين وحكم بكفري ، ولكنني لم أدر هل قرأ مختار الصحاح قبل أن يكفر أم لا . . . ؟ !

4-وقال بعضهم : إن صلاة المغرب تقصر في السفر ، ولعل السامع يظن أني أغالي في أقوالي هذه ، إلاَّ أنها الحقيقة ، وقد قصروا صلاة المغرب حقيقة فصلاها بعضهم ركعتين ، فلما روجع في هذا ، قال : إنه مسافر ، فقصر الصلاة .

5-وقد رأيت أحدهم يصلي العشاء بعد المغرب بساعة واحدة ، صيفا شتاء ، وقال لي : إنه على هذا منذ عدة سنوات ، منذ أن وقف على الدليل ، فقلت له : وما الدليل ؟ فقال : " إنه قرأ في فقه اللغة " للثعالبي أن العرب قسمت اليوم إلى أربع وعشرين ساعة ، وعدت منها ساعة المغرب وساعة العشاء ، فاجتهد فيما قرأ ، فتوصل إلى أن الزمن بين

المغرب والعشاء ساعة واحدة ، ولذلك فهو يصلي العشاء بعد المغرب بساعة .

(32/1)

(224/641)

---

6- وقال بعضهم : إن حلق شعر الرأس ، وإن كان عاماً لجميع الرأس حرام ، لأنه تغيير لخلق الله ، ما لم يكن في حج أو عمرة . . . ؟ !

7- وقال بعضهم : إن رفع اليدين في الدعاء حرام . . علماً بأنه قد ثبت في الصحيحين أنه رفع يديه في الدعاء . . . ؟

8- وقال بعضهم إن صلاة التراويح عشرين ركعة بدعة ، وحرام ، علماً بأنها مما أجمعت عليه الأمة قولاً وفعلاً ، منذ عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب إلى يومنا هذا ، وصرح به كل من كتب في الفقه الإسلامي ، مما لا داعي للإطناب فيه وقد صار من بديهيات الدين ، وشعائره المعلومة منه بالضرورة .

9- ثم تمادى الأمر ببعضهم فقال : إن صلاة التراويح في المسجد وراء الإمام بدعة ، ولا تجوز .

ولذلك امتنع بعضهم عن صلاتها في المساجد . . . ؟

10-قال بعضهم : إذا قال القارئ وراء قراءته صدق الله العظيم ، فإن هذا القول بدعة وحرام .

وليته ذكر قوله تعالى : ]قُلْ صَدَقَ اللّهُ[ ]آل عمران / 95[ .

وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للرجل الذي أمره أن يسقي ابن أخيه عسلا وقد استطلقت بطنه : " صدق الله ، وكذب بطن ابن أخيك " .

11- وقال بعضهم : إن أصول الفقه بدعة .

12- وقال بعضهم : إن التجويد بدعة .

13- وقال بعضهم : إن علم التوحيد بدعة .

14 - وقال بعضهم : إن الأذان الأول في الفجر بدعة وحرام .

15 - وقال بعضهم : إن قول المؤذن في صلاة الفجر " الصلاة خير من النوم " بدعة وحرام .

16- وقال بعضهم : إن التكبير الجماعي في المسجد يوم العيد حرام ، حتى إنه أصبح مما يلغز به بين الشباب " ما أصول الشيء الذي إذا فعله الإنسان منفرداً دخل الجنة ، وإذا فعله مع الجماعة استوجب النار . . ؟ " .

17- وقال بعضهم وهو ما لا يكاد يصدق : إن لعن الشيطان لا يجوز ، ولما لعن أحد الحاضرين الشيطان أمامه ، قال له : لا تلعنه ، فإن لعنه غير جائز ، وعلل ذلك بأن الشيطان

إذا لعن افتخر وسر ، ولذلك فإنه لا يجوز لعنه ، لأن لعنه يؤدي إلى سروره .

(33/1)

*(225/641)*

---

18- وإن من أعجب ما رأيت في أمور الإجهاد المعاصر ، هو أنني رأيت في ألمانيا أحد المسلمين الجدد ، فتحدثت معه عن الإسلام وعما قد قرأه منه وعنه ، وعما قد قرأه من التشريع الإسلامي في كتبه ومصادره ، فأخبرني بما لا أريد أن أعلق عليه وهو لا يعرف اللغة العربية بعد ، أخبرني بأنه ليس بحاجة إلى دراسة الإسلام في مصادره الفقهية ، لأنه مجتهد . . . ؟ !

أمورٌ تضحكُ السفهاءُ منها ويبكي من عواقِبها الحليمُ

وآخر ما أريد ذكره مجملاً ، من غير تعليق عليه ، من هذه العظائم ، في جرأة الجهلة على الفتوى ، مما أدى إلى تحريف الشرع أن صلَّى أحد الأئمة الظهر وقت المطر ، فجمع بين الظهر والعصر ، وهذا لا إشكال فيه – رغم ما يقع في هذا الجمع من أخطاء لم يقل بها عالم – إلا أن المفاجأة أنه لم يجمع فقط ، بل جمع وقصر فصلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين . . . ؟

وبعد انتهاء الصلاة قام إليه المصلون وقالوا له : نحن لسنا مسافرين حتى تقصر لنا الصلاة ،

فتنبه لخطئه ، إلاَّ أنه بدلا من أن يصححه بإعادة الصلاة ، بدلا من هذا زاد خطأه ضلالا وانحرافا ، وأتى بما لم يأت به موحد ، مما لو فعله الإنسان عالما عامداً لكفر . . فقال للمصلين :

نلصق ركعتي العصر إلى ركعتي الظهر . فيصير المجموع أربع ركعات ، ونجعلها ظهراً . . . ؟

ثم صلىَّ بهم العصر أربعاً . . . ؟

فنقل إلي بعض المصلين هذه الصورة ، وبينت له أن هذا غير جائز ، وأنه يجب عليه وعلى المصلين إعادة الظهر والعصر ، فلما بلغ الإمامَ المجتهدَ ما قلتُه ، احتد وانفعل وكتب هذه الفتوى التي سأنقل هنا صورتها بخط يده ، وأحذف منها فقط توقيعه . . . فإن من وقائع الجهل المعاصر اليوم ما لا يكاد يصدق لولا أنه واقع . . .

***

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وبه نستعين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(34/1)

وبعد : أيها الأخ الكريم : في أحدى الأيام كانت السماء ممطرة ، فسألني أحد المصلين الجمع بين الظهر والعصر : فأجبته لذلك وصليت الظهر مع العصر جمع تقديم غير أنني سهوت فقصرت الظهر إلى ركعتين والعصر أيضا ركعتين فتقدم أحد المصلين فقال لما قصرت الصلاة الرباعية فقلت سهوت فاجعلوا ظهر : أي ركعتي الظهر وركعتي العصر ثم أقام المؤذن وصلينا العصر أربع وفعلت هذا استناداً إلى ما صح من هديه عليه الصلاة والسلام في مختصر زاد المعاد لابن الجوزي رحمه الله وما حققه زهير الشاويش في ص 30 - 31 ما نصه : وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني وكان سهوه من تمام النعمة على أمته وإكمال دينه ليقتدوا به فقام من اثنتين في الرباعية فلما قضى صلاته سجد قبل السلام فأخذ منه أن من ترك شيئًا من أجزاء الصلاة التي ليست بأركان سجد له قبل السلام وأخذ من بعض طرقه أنه إذا ترك ذلك وشرع في ركن لم يرجع . وسلم من ركعتين في إحدى صلاتي العشاء ثم تكلم ثم أتمها ثم سلم ثم سجد ثم سلم ، وصلى وسلم وانصرف وقد بقي من الصلاة ركعة فقال له طلحة نسيت ركعة فرجع فدخل المسجد فأمر بلالاً فأقام فصلى للناس ركعة ذكره احمد ، وصلى الظهر خمساً فقالوا صليت خمسا فسجد بعد ما سلم وصلى العصر ثلاثاً ثم دخل منزله فذكّره الناس فخرج فصلى بهم ركعة ثم سلم ثم سجد ثم سلم هذا مجموع ما حفظ عنه وهي

خمسة مواضيع .

وأنا أقول فوق كل ذي علم عليم : ومن أجتهد فأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر .

وأما ما بلغني من الأخ الناقل المسألة من قبلكم أن الصلاة باطلة أرجو إفادتي بذلك وجزاكم الله عنا خيرا

إمام مسجد المهنا بالنقرة

نحو جديد

(( وهو قوله تعالى ))

(35/1)

(227/641)

---

إن من حقائق الجهل التي لا يمترى فيها أن الجاهل يفهم الأمور معكوسة كعقله المعكوس ، فيتراءى له الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، والصواب خطأً ، والخطأ صواباً ، ولا تكون الحقائق عنده إلاَّ ما يرى ، ولذلك فلا لقاء بينه وبين كل من يرى على بصيرة ، بل لا لقاء بينه وبين الحقائق .

وما الحمق الذي يأنف الناس منه ، ويتنزهون عنه ، ويعيبون صاحبه – ما الحمق في كل

معانيه إلاَّ صفة من صفات الجهل في بعض معانيه .

والجهل وإن كان ذماً للمرء ، وإزراء به ، ونقصاً له ، إلاَّ أنه لا يكون عيباً لصاحبه إذا كان صاحبه يعرف جهله ، ويستخزي به ، ويحاول التخلص منه ، بالتواضع للعلماء ، ومجالستهم ، والتقرب إليهم ، وملازمة مجالسهم ، ليمسح بعلمهم جهله ، ويكمل بفضلهم نقصه ، ويسمو بإرشاداتهم إلى صفهم ، بل ربما فاقهم ، وهو كلما ازداد علماً ازداد توضعاً وأدباً وحياء ، ولكن قاصمة الظهر عند الجاهل الذي لا يعلم أنه جاهل ، بل يظن بجهله أنه أعلم علماء الأرض ، ولذلك تجده يترفع على العلماء لأنه يرى نفسه أعلم منهم ، فيحرمُ علمهم ، ويمنعُ إرشادهم وفضلهم ، ويسقطُ في حمأة الجهل ليصطبغ به ، وتفوحَ منه رائحته ، حتى ينفر منهم كل من عرفه .

ولذلك قال الشاعر :

وإن عَناءً أن تُعلمَ جاهلاً ويحسَبُ جهلاً أنه منك أعلمُ

كم قال أبو تمام :

إذا محاسِنِيَ اللاّتي أُدِلُّ بها كانت ذنوبي ، فقل لي كيف أَعتذرُ

عليَّ نحتُ القوافي من معادِنِها وما عليَّ لهم أن يفهم البقرُ

لقد لقيت يوماً أحد الجهلة المتعالمين ممن وصفت قد جلس إليه أحد نظرائه وأشباهه في خُلُقِه لا في الخلق ، فكانا في تقابلهما ونظر أحدهما إلى الآخر كمن ينظر في المرآة ، ولكن لا

ليرى خَلْقه، بل ليرى خُلُقَه.

(36/1)

(228/641)

---

فقال أحدهما للآخر: "لقد مررت الآن بعبدَ الرحمن" بفتح الدال، وهنا انتفخ صاحبه وقال له: لقد لحنت، وكان يجب أن تقول: بعبدِ الرحمن، بالكسر، لأن حرف الجر يعمل في الأسماء الجرَّ، ثم قال له: إني أهتم بحروف الجر جداً، ولذلك قرأت الآجرومية من أولُها إلى أخرُها (بضم اللام والراء) ولم أحفظ إلاّ حرف الجر. فذهل صاحبه من فصاحته وعوذه وبرك عليه.

لا أريد التعليق على هذه القصة التي سمعتها بأذني لأني لم أكن فيها أكثر من سامع سمع، فتعجبَ فانصرفَ، خشيةً من أن ألْحَنَ إن نطقت أو أُجهَل أن تكلمت، ولا معرفة لي بأحد المتكلمين.

ولكني أريد أن أذكر حكاية أعجب من هذه وأغرب كنتُ أحدَ عناصرها، كنت ألقي في كلية الشريعة محاضرة من محاضرتي في أصول الفقه، والطلاب الذين أمامي بعضهم جاء ليتعلم، فهم يعرفون حقيقتهم، ويقدرون مدرسهم لأنه يعلمهم، ويحرصون على كل فائدة،

ويستفسرون عن كل خفية ، وهؤلاء الذين يستفيدون منا ، ويحملون عنا ما حملناه عن أساتذتنا وأسلافنا .

وهؤلاء هم الذين يُسَرُّ بهم المدرس ، وهم الذين يحركون المحاضرة ويبثون فيها الحركة والحياة ، ولذلك تجد المدرس بغير إرادة منه يقبل عليهم ويهتم بهم ، ويحيطهم بعنايته ، لما يرى فيهم من مظاهر الأدب ، وأمارات النجابة .

وبعض الطلاب عندنا في كلية الشريعة فقط يأتي إلى الكلية وهو إمام مجتهد ، قد بلغ الذروة العليا في علوم الشرع ، بحيث لم يعد يقيم وزناً لأحد لا من السلف ولا من الخلف ، وإن ذكر أمامه أحد من أئمة المسلمين كمالك أو الشافعي أو أحمد أو أبي حنيفة قال : هم رجال ونحن رجال ، ومن ثم أعرض عنهم مستهزئاً أو كالمستهزئ بهم .

(37/1)



---

ومن كان هذا شأنه مع الأئمة فكيف يكون حاله معنا وما نحن إلاَّ جهلة بالنسبة لهم ، وما مثلنا ومثلهم إلاَّ كقزم أمام عملاق كبير ، إنه بالبداهة لا يقيم لنا وزناً ، ولا يعترف لنا بفضل ، وإذا فرض عليه نظام الجامعة أن يجلس على الكرسي أمامنا ، فإنه يجلس مستعلياً منتفخاً

، لا يكاد يحمله كرسي ولا غرفة صفه ، وهو لم يجلس ليتعلم وإنما جلس ليراقب المدرس ماذا سيقول . . . . . ؟

وقد قلت عندنا في كلية الشريعة ، لأن هذه الظاهرة لا ترى إلاَّ في بعض طلاب علوم الشريعة فقط لما ساد من فوضى دينية بفقد علوم الشرع ، والابتعاد عنها ، وقلة العلماء بها ، وبفتنة الدعوة إلى نبذ آراء الأئمة ودعوة كل إنسان إلى الاجتهاد وهو لما يعرف القراءة بعد ، ولما يتعلم تلاوة كتاب الله. وأما طلاب العلوم في الكليات الأخرى فإن الطالب يذهب ليتعلم ولذلك فإنه بحاجة إلى مدرسه ليعلمه ، ولذلك يستحيل أن ترى في كلية الطب أو العلوم أو الهندسة طالباً يذهب إليها وهو يزعم أنه مجتهد بها ، وأنه يقول عن عباقرتها والنابغين فيها من أساتذته وغيرهم هم رجال ونحن رجال . . . . .

لقد كنت ألقي محاضرة في أصول الفقه ، وكان أمامي أحد المتعالمين المجتهدين ممن وصفت حالهم ، فطلب منه أن يقرأ أحد النصوص فقرأ ، حتى وصل في وسط السطر الأول يقرأ منه إلى قول المؤلف " وهو قولُهُ تعالى " فقرأها بالكسر ، " وهو قولِهِ تعالى " فقلت له يا بني هذه مرفوعة وليست مجرورة قل " وهو قولُه تعالى " .

فما كان من ذلك الطالب. عفواً. الإمام المجتهد بزعمه إلا أن احمرت عيناه ، وانتفخت أوداجه ، وارتعدت فرائصه ، وكأنه يستعد لمعركة أعطاه الله ألف عهد على أنه الرابح فيها حسبما سول له جهله ، ونظر إلى مستعلياً وقال لي : لماذا لا يجوز أن تكون مجرورة ؟ ألا

يصح أن تكون بدلاً . . . ؟

(38/1)

(230/641)

---

وكانت كلمته هذه صدمة عنيفة لتفكيري ، لأني ما كنت أظن أنه يمكن أن يوجد فيمن ينطق بلغة العرب من عامتها من يصل إلى هذا المستوى من الجهل علاوة عن أن أظنه فيمن يزعمون أنهم من المجتهدين أو من طلاب العلم ، وجال فكري في كلمة البدل التي أراد أن يجر بها المرفوع ، فما وجدت لها مخرجاً في لغة العرب إلاّ أن تكون بدلاً من جهل جره غرور نيابة عن الحمق .

وهنا رأيت الصمت خيراً من الكلام ، لأن في الطلاب بقيةً ممن ذاق طعم لغة العرب وعرف بعض مسالكها .

الكلب الأعور وصيغة جمعه

إن أهم ما يجب أن يقدم على علوم الشرع ، مما يتوقف فهمها عليه . هو علوم اللغة العربية من النحو ، والصرف ، والبلاغة ، ومتن اللغة ، والأدب ، وغير ذلك .

ولذلك سميت هذه العلوم ، مع علم المنطق ، وآداب البحث والمناظرة . سميت بعلوم الآلة .

وكانت الجامعات الإسلامية وغيرها من مواطن التدريس تهتم بهذه العلوم وتوليها العناية البالغة ، لأن فهم الدين متوقف عليها ، إذ تعبدنا الله بفهم كتابه وسنة نبيه بناء على قوانين وقواعد لغة العرب التي أنزل بها القرآن الكريم ، وبأساليبها نطق نبينا العظيم ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

فمن لم يعرف لغة العرب لا يعرف الدين ، ومن لم يفهمها ويتذوقها في قواعدها لن يفهم ولن يتذوق القرآن والسنَّة حتى يلج الجمل في سم الخياط .

وقد حدثنا أشياخنا عن طريقة التدريس في الأزهر قبل أن يطور ويدمر ، أن الطالب كان لا يدخله إلاَّ وهو حافظ للقرآن في الكتاتيب ، فإذا دخله قرأ في السنة الأولى من كتب النحو الآجرومية بأربعة شروح لها .

وفي السنة الثانية يقرأ قطر الندى .

وفي السنة الثالثة يقرأ شذور الذهب .

وفي السنة الرابعة يقرأ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ويحفظها كما يحفظ الفاتحة .

وفي السنة الخامسة والسادسة يقرأ شرح الأشموني على الألفية .

فإذا نجح في هذا ، وانتهى منه شرع في السنة السابعة والثامنة بدراسة المطول على السعد في البلاغة .

وهكذا كان يدرس ويتدرج في الكتب في شتى العلوم .

وهذا يعني أن الطالب الذي قرأ هذه السلسلة المتتابعة ، من الآجرومية إلى الأشموني . لا شك في أنه قد درس من قواعد لغة العرب ما يجعله في مصاف الأئمة الكبار فيها ، ولا سيما أنه كان يتلقى هذه العلوم في الصغر في دراسته الابتدائية والثانوية .

ولذلك فقد وجدت في جيل الأساتذة الأزهريين الذين أدركوا تلك المرحلة الأزهرية من أساتذتي . وجدت فيهم أئمة في اللغة ولم أجد فيهم أساتذة كما يعرفُ الطلابُ اليوم في أساتذة الجامعات .

وهكذا كان يدرس الفقه ، فكان الطالب يدرس أولاً حاشية الباجوري على ابن قاسم في الفقه الشافعي ، ثم يدرس حاشية الشرقاوي على التحرير ، ثم يدرس المنهج وشرحه لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري ، ثم يدرس المنهاج للإمام النووي بشرح الإمام جلال الدين المحلي الذي يعتبر الذروة في الدقة والإتقان والإحكام في الفقه .

وهذا كله في الدراسة الابتدائية والثانوية ، فإذا ارتقى إلى الدراسة العالية ، بدأ بدراسة الفقه الخلافي والأدلة ومناقشتها .

ولذلك كان يصل الطالب إلى الدراسة العالية بعد الثانوية وهو إمام في المذهب ، لا يقل عن كبار أئمته المبرزين فيه .

ولقد درست الفقه على عدد من الأساتذة الذين كانوا يملون علينا منهاج النووي مع شرح المحلي إملاء عن ظهر قلب وهو يقع في أربعة مجلدات ، مع التمكن التام في كل العلوم على ما ذكرت من النحو والفقه .

فأين نحن وأساتذة اليوم من هذا . . . . . ؟

لا أريد التعليق ، لأني لم أسق هذه المقدمة لهذا الغرض ، والنتيجة هي التعليق .

لقد حوربت لغة العرب من قبل أعداء الدين كما حورب الدين ، وهم يدركون تماماً التلازم بين علوم الشرع واللغة .

وما زالت علوم الشرع تتردى ، وتتردى معها علوم اللغة ، إلى أن صار الأمر لدرجة أن الطالب يتخرج لا أقول من الثانوية ، بل من الجامعة ، وهو لا يستطيع أن يقرأ سطراً واحداً من لغة العرب قراءة صحيحة ، لا لحن فيها .

(40/1)

وهذا ليس ظاهرة شاذة ، بل هو الظاهرة العامة التي تكاد تكون مطردة ، في كل طالب ، ولو غلا المرء فقال : إنني لم أجد طالباً يعرف قواعد لغة العرب إلا من رحم ربك. كَتَحِلَّةِ القسم ، لما أخطأ ، لأنه هو الواقع .

بل الأمر أدهى من هذا وأمَر ، فكثير من الطلاب لا يستطيع أن يقرأ القرآن قراءة صحيحة ، علماً بأنه مشكل في كل حرف من حروفه .

بل صار الأمر في بعض الحالات إلى أن يُخَطأَ المدرسُ ويُلحَنَ في كثير مما ينطق به من الصواب ، لأن الطالب لم يألفه .

بل زاد الأمر على هذا . . . . فقد تكلمت يوماً ما في الجامعة أمام طلاب الشريعة على جمع القلة والكثرة ، وأن الأصوليين قد اختلفوا في أقل الجمع فيهما ، فاختلفوا فيما ينبني عليهما ، ولما كان الزمن لا يتسع لشرح صيغ جموع القلة والكثرة ، لأنه بحث صرفي أو نحوي محض من المفترض أن يكون قد درس قبل دراسة أصول الفقه ، وتتميماً للفائدة طلبت من الطلاب أن يرجعوا لابن عقيل في شرحه على ألفية ابن مالك ليقفوا على صيغ جموع القلة والكثرة .

وفي اليوم الثاني جاءني أحد الأئمة المجتهدين من طلابنا ، وقد ذكرت قبل هذا أن بعض طلابنا من الأئمة المجتهدين وإن كان لا علم عنده ، ولم يُجِدِ القراءة بعد ، فالعلم شيء في موازنتهم والإمامة والاجتهاد شيء آخر ، جاءني وهو يتذمر ويتضجر من ابن عقيل ، ( ولا

أدري إن كان قد اتهم ابن عقيل بالشرك أم لا ) ، وقال لي بصوت مرتفع أمام الطلاب يريد إفحامي ، وربما إفحام ابن عقيل ، بل سيبويه ، قال : لقد ذكر ابن عقيل أن (( كلب ، صحيح العين ، يجمع على أكلب )) .

قلت له : وما يضيرك من هذا الجمع ؟ قال : لم يذكر ابن عقيل كيف يجمع الكلب الأعور ، فما هو جمعه . . . ؟

فأفحمني ـ والله ـ فما كنت أدري ، ولم أدر بعد علام يجمع الكلب الأعور ، ولو كان سيبويه حياً لأفحمه ، فما يفحم أولئك الأئمة إلا مثل هؤلاء الأئمة .

(41 / 1)

*(233/641)*

---

وعندها فهمت معنى قول الشافعي : " ما جادلت عالماً إلا وغلبته ، ولا جادلت جاهلاً إلا وغلبني " .

وأدركت السر الذي به ارتقى به مجتهدو العصر إلى درجة الاجتهاد والإمامة في دين الله .

وكما يسبح الناس حينما يدهشهم اختراع عظيم ، أو تنظيم وتصميم بديع ، أو صورة جمالية بارعة ، سبحت الله على قدرته في خلق العقول المتباينة في العلم والجهل تباين

النقيضين ، وغبت عن عالم الحس ، في تفكير عميق ، كيف استطاعت هذه العبقرية الاجتهادية المعاصرة أن تصوغ مثل هذا السؤال . . . ؟ ؟ !

***

من احتكر فهو خاطئ وتخطئة الشافعي

إنني ما زلت أتكلم علي إيحاءات الجهل حينما يستبد بالإنسان ، وكيف يصور لصاحبه الأمور حتى يورده موارد الهلاك .

وما مثل الجاهل في تصوره للأمور إلاَّ كمثل الطفل الصغير في تصوره لها والحكم عليها .

إلاَّ أن الصغير يكبر ، ومن ثم يكبر عقله معه باطراد ، وينقلب بالعلم إلى عبقري ومفكر ، وما يزال يترقى في درجات العلم حتى يصير وارثاً للنبوة فالعلماء ورثة الأنبياء .

وأما الجاهل فالعلاقة بين عمره وعقله عكسية ، فكلما كبرت سنه كلما صغر عقله ، وما يزال يتردى في حمأة الجهل بكبر سنه حتى يرد إلى أرذل العمر .

والطفل الصغير حينما يتطلع إلى العلوم يتمنى أن يكون عالماً ، فيسارع إلى العلم وإلى العلماء ، وما يزال يغشى مجالسهم ، ويتلطف بالقرب منهم ، ويزاحمهم بالركب حتى يتحقق مناه ويصير منهم .

إلاَّ أن الجاهل المغرور يرى نفسه فوقهم ، وأنهم يجب عليهم أن يرجعوا إليه ، وليس هو الذي

يرجع إليهم ، وما تزال الهوة تتسع بينه وبينهم حتى تغشاه ظلل الشيطان فيستفزه عليهم .

(42/ 1)



---

لقد علم بعض من وصفت أنني أتفقه على مذهب الإمام الشافعي ، وأنني أَدْرِسُه وأُدَرِّسُه ، فأراد ـ فيما زعم وخيل له جهله ـ أن يفسد على رأيي ، ويظهر ضعف مذهب الشافعي أمام ناظري ، وكان قد سمع في حياته قاعدة من قواعد العلم من أحد العلماء تقول : إن " مَنْ " صيغة من صيغ العموم ، فأراد أن يبرهن لي من خلال هذه القاعدة خطأ الشافعي في جزئية من الجزئيات ، ليبني خطأ مذهب الشافعي كله ، ومن ثم ليطالب الناس بالتنبه لمن يتفقهون عليه ويتعلمون منه ، مما أكبر أن أذكر من سقط القول .

فتربع على عرش جهله ، مترفعاً عمن حوله ، متظاهراً بالعلم والحلم ، يقول إنه يريد النصح . . . ! وخيل إليه غروره أن أبا حنيفة ، والأوزاعي ، ومالكاً ، والشافعي ، وأحمد والسفيانين ، وأبا ثور ، وثلة من كبار علماء الأمة قد التفوا حوله في حلقته مصغين لما سيلقيه إليهم ، مما أوتيه من الحكمة .

فقال : إن الشافعي يزعم أن الاحتكار لا يكون إلاّ في الأطعمة ، وأما ما سواها من الأمور

فلا

يكون فيه احتكار مستدلا بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : " من احتكر على المسلمين طعامهم فهو خاطئ " .

ثم قال : وهذا الحديث حجة على الشافعي وليس حجة له ، فالاحتكار يكون في كل شئ ، وليس في الأطعمة فقط ، لهذا الحديث نفسه ، فقد فات الشافعي أن لفظة " من " التي صدر بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديثه تفيد العموم ، فهي تقتضي أن يكون الاحتكار عاما في كل شيء ، لا في الأطعمة فقط ، كما زعمه الشافعي .

ونظر حوله وقد أخذ منه الزهو كل مأخذ بما أحرزه من نصر في ميدان القواعد العلمية التي أتقنها وأفحم الشافعي بها ، وأخذ يتلمظ وقد استشرى جهله كما يتلمظ الجائع بحضرة طعام شهي وقد سال لعابه توهمًا منه أنه قد أكله ، وفي الحقيقة هو ممنوع منه . . .

*(235/641)*

---

وهلل له كل من كان حوله من الجهلة الذين كانوا فوقه في الجهل ودونه في الجرأة على الحق فقد نطق أمامهم بقواعد العلم ، وطبقها على الأحكام ، وأفحم المخاصمين . .

(43/1)

وهذه هي حالة وصفت مِمَّن ذكرت ، ولا عجب . . فقد أخبر الشارع أن من أمارات الساعة أن يصدق الجاهل ويكذب العالم ، كما يؤتمن الخائن ويخون الأمين .

فقلت له – وقد دهشني ما قال ، والإنسان يدهش بظلمة الباطل كما يبهر بضياء الحق :

قلت له : إن ما ذكرت لا يدل على خطأ الشافعي ، لا لأن الشافعي فوق الخطأ يصيب ولا يخطئ فالشافعي ككل البشر يصيب كما يصيب البشر ويخطئ كما يخطئون ، ولكن لأنك دون الصواب ، وما ذكرت لا يعدو ما يدل على جهلك المركب ، وهو أن يجهل الإنسان ويجهل أنه يجهل ، ومن ثم يكون جهله بجهله حاجبًا له عن إدراك أدنى درجات الحق والعلم في الوقت الذي وصل العلماء فيه إلى ذروتيهما

إن ما قلته من أن " مَنْ " صيغة من صيغ العموم حق لا يمترى فيه ، ولكن الباطل ما بنيته عليه من أنها عامة في كل محتكر ، مما رددت به على الشافعي وغيره من أعلام الأمة .

وذلك أن من عامة في المحتَكِر لا في المحتَكَر ، وأما المحتَكَرُ فهو خاص بالطعام كما بينه الحديث .

ومعنى الحديث أن كل محتكر خاطئ ، ولكن ليس في كل أنواع الاحتكار بل في الأطعمة خاصة ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال : " من احتكر على المسلمين طعامهم " فالشافعي ومن تابعه ما أخطئوا ، بل نطقوا بما أملته القواعد والشافعي أول من دونها ونشرها ، ولكن

الخطأ كان في فهمك السقيم وعقلك العقيم .

وكم من عائب قولًا صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

(236/641)

---

وإني لأتمنى لأولئك الذين ينصبون أنفسهم حكاماً على علماء الأمة وأئمتها وهم خواء من أبسط مبادئ المعرفة ، إني لأتمنى لو أنهم كفوا أنفسهم مشقة الهدم في كيان هذه الأمة وأمجادها مما قد يقحمهم لجج النار ببناء أنفسهم وتثقيف عقولهم ، فمنصب الحَكَمِ على العلماء أو بينهم يحتاج في أبسط مبادئ المنطق أن يكون الحكم في علومه ومعارفه بدرجتهم ، وأنى لأولئك المتفيهقين بها إنه لأمر دونه خرط القتاد . . . .

***

(44/1)

---

---

(1) تهذيب الأغاني لابن منظور 10 / 308 ، والعقد الفريد 2 / 480 ، وأنظر أمالي المرتضى

الهجوم على علماء الأصول ورميهم بالباطل وعناوين أخرى

ورميهم بالباطل

إن نماذج الجهل التي أشرت إليها في موضوعي السابق ليست محصورة في مكان معين ، أو قطر معين ، بل هي منتشرة اليوم في كل قطر من أقطار الإسلام ، بعد أن فرغت الساحة أو كادت من العلماء ، الذين كانوا يردون الشبه ، ويزيلون الإشكالات ، ويبينون الحقائق ، ويعيشون فيما حولهم هالةَ من العلم والمعرفة يفيد منها كل من تلقى عنهم ، أو اتصل بهم ، وبِخُلُوِّ الساحة منهم ، انقرض العلم ، وفشا الجهل ، وانتشر الزيغ والضلال ، واتخذ الناس رؤساء جهالاً فأفتوا بغير ما أنزل الله ، فضلوا وأضلوا ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم .

لقد كنت في زيارة لإحدى الجامعات الإسلامية ، لإلقاء بعض المحاضرات في الفقه والأصول ، وكان الطلاب يتهافتون علي للسؤال ، وكان همهم أن يعرفوا الجواب ، ويقنعوا به ، وينصرفوا ، ككل سائل منصف يريد الوصول إلى الحق ، واستجلاء الصواب .

وجاءني أحد الطلاب ، وقد بدت عليه أمارات الزهو ، إذ كان مشفوعاً بالثناء عليه ممن قدمه ، فطلب منه أن يطرح مسألته ، ككل طالب سبقه ، إلاَّ أنه في الواقع لم يكن باحثاً عن جواب لما أشكل عليه من سؤال ، وإنما كان يريد أن يحاضر ، فهو لم يأت مسترشداً ، بل أتى مرشداً ، وإلى هنا لا نكارة في الموضوع إذ أن كثيراً من الناس ممن يسأل يسوق السؤال بمحاضرة طويلة جوابه بكلمتين ، كما أنه يمكن أن يختصر بكلمتين ، اللهم إلا أن يقال : إنه يضيع الوقت على زملائه ممن يريد أن يستوضح ويسأل .

ولكن الغرابة أنه بدأ محاضرته بالهجوم الكاسح على علماء الأمْة ، من السلف ، وخص منهم الأصوليين ، لكوني أحاضر في الأصول فقال :

(45/1)

إن علماء الأصول يدورون في حلقة مفرغة ، فلا هم قادرين على الخروج منها ، ولا هم قادرين على الاستقرار فيها ، وأنهم يخوضون في مباحث فلسفية محضة لا طائل تحتها ، ولا ثمرة لها ، وأنهم ، وأراد أن يستمر في الإزراء عليهم ، وتعداد ما يزعمه من عيوبهم ، وهنا تصديت له حتى لا تتراكم الاتهامات ، فلا يستطيع هو أن يتذكرها ، لأنه كان يتكلم بعاطفته المشحونة لا بعقله المتزن ، ولا أنا أستطيع أن أجيب عليها .

ولذلك قلت له : أرجو أن نمشي خطوة خطوة ، وأن لا نشرع في موضوع حتى نتم الموضوع الذي قبله ، فاحفظ ما تريد أن تقول لي ، ودعنا نتكلم فيما قلت ، حتى نكون أقدر على

استجماع الذهن ، وأحكم في بلوغ المراد .

فاستجاب . . . .

فقلت له : إنك زعمت أن علماء الأصول يخوضون في مباحث فلسفية محضة ، لا طائل ولا ثمرة لها ، فقال : نعم .

فقلت له : ما هو مثالها ؟

فقال : الأمثلة كثيرة . . . . .

*(238/641)*

---

فقلت له : أرجو منك أن تذكر لي مثالاً واحد من هذه الأمثلة الكثيرة ، حتى نكون على تعيين مما ذكرت ، ولا نقذف علماء الأمة في أعظم علومهم الشرعية ، بما ينفر منهم ، ويدعو إلى الابتعاد عنهم ، وإلاَّ فكلامك كلام عاطفي غير صحيح ، لأنك تتكلم في زعمك عن أمر واقع ، فلا بد له من مثال واقع ، وإلاَّ قلت لك : إن كلامك خاطئ ، وكلامهم صواب ، وليست تخطئتك لهم بأولى من تصويبي لهم ، إذ كل منا يتكلم عن عاطفة وانفعال لا عن حقيقة ودافع .

فقال : مثال ذلك قاعدة من قواعدهم الأصولية ، في مباحث الأمر ، وهي أن الأمر بالأمر

بالشيء ، هل هو أمر بذلك الشيء أم لا . . . . ؟

وهذه قاعدة فلسفية لا فائدة منها ، فذكرها في كتب الأصول تضيع للوقت ، وإقحام لنا في مباحث فلسفية نحن بغنى عنها .

(46/1)

فقلت له : أولاً ؛ وقبل كل شيء يجب على السائل إن كان يريد أن يسأل ليتعلم أن يكون أديباً في سؤاله ، بعيداً عن الهجوم والتجريح قبل أن يتبين له وجه الحق من الباطل ، والخطأ من الصواب ، حتى يجعل المسئول قادراً على الإجابة وهو مشروح الصدر ، مطمئن القلب ، وإلا فإنك بمثل هذا الهجوم الذي ينم عن التضجر والتذمر ، بل الحقد أحياناً ، إنك بمثل هذا تفرض على من تسأله أن يقف منك موقف الند المخاصم ، لا موقف المعلم المجيب ، وشتان بين الموقفين ، مما يعكس أكبر الضرر على طبيعة الجواب .

وإن مما تعلمناه من أدب السؤال أن يطرح السائل سؤاله برفق ، وفي ظرف يناسب الأستاذ ، وأن يظهر الرغبة في معرفة الجواب ، كما يظهر التواضع والاحترام والتوقير لمن يسأله ، " فليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا ، ويعطي عالمنا حقه " .

وثانياً : أرجو منك ومن غيرك حينما يطرح السؤال ، أو الموضوع للبحث أن لا يفترض مسبقاً صحة ما يذهب إليه ، وبطلان ما يخالفه ، وإلاَّ لم يعد في هذه الحالة سائلاً ، ولا

باحثاً ، وإنما صار في هذه الحالة مقرراً ومحاضراً ، ولم يعد في هذه الحالة بحاجة إلى جواب

.

*(239/641)*

---

وإنما يجب عليه أن يطرح السؤال بعيداً عن هذا الفرض ، فربما كان عند المسئول ما يخالفه أو يرده ويبطله ، بما يأتي به من وجه صواب ، وقول محكم ، وبهذا يسلم للسائل ماء وجهه ، وقد استفاد ما لم يكن يعلم ، وتبين له خطأ ما كان يعرف ويعتقد .

وثالثاً : يجب علينا أن نضع في أذهاننا أن أسلافنا رضوان الله عليهم كانوا غيورين على هذا الدين . في أسوأ الاحتمالات . كغيرتنا عليه ، وفي أكثر الاحتمالات كانت غيرتهم أكبر من غيرتنا بمئات بل بآلاف المرات ، فلماذا هذا الظن السيئ بهم ، ونحن لما نعرف بعد الحق من الباطل .

أيهما أفضل ما دمنا لم نصل بعد إلى أدنى درجات العلم ، أن نهاجم أولئك السلف بما ظننا أنه خطأ في وهمنا ، أم أن نلتمس لهم العذر ، فلعلهم أدركوا فائدة لما قالوه مما لم ندركه نحن اليوم . . . . . ؟

(47/1)

لا أشك ولا أظن أن أحداً يشك في ترجيح الاحتمال الثاني ، فهم لم يقولوا ما قالوه ، إلاَّ لما ترجح عندهم من الفائدة له ، ولا سيما إذا كان كل من أتى من بعدهم قد سار على طريقتهم .

وأما رابعاً : فإليك ما يدلك على خطأ ظنك ، وبطلان زعمك ، وأنك كنت مفترياً على العلماء فيما كنت تزعم وتَهِمُ .

وذلك أن هذه المسألة من مسائل الأمر المهمة لما ترتب عليها من الآثار الفقهية التي سأذكرها ولم تطلع عليها .

فمن ذلك قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : " مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر" .

قال الأصوليين : هذا ليس أمراً للصبيان ، وإنما هم أمر للآباء أن يأمروا الصبيان ، والأمر بالأمر بشيء ليس أمراً بذلك الشيء ، وذلك لأن الصبيان ليسوا محلاً للتكليف ، إذ التكليف منوط بالبلوغ ، فما لم يكن الإنسان بالغاً مكلفاً ، لا تتعلق به الأحكام الشرعية ، فلا يتعلق به أمر ولا نهي ، ولذلك أمر رسول الله الآباء ، ولم يأمر الأبناء ، وأمره للآباء أن يأمروا أولادهم ليس أمراً للأولاد لما ذكرنا .

ومن هذا أيضاً قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعمر حينما طلق ابنه عبد الله زوجته ، قال لعمر : " مر عبد الله أن يراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسكها وإن شاء طلقها " .

ولذلك لم يوجب جمهور الفقهاء الرجعة فيمن طلق امرأته وهى حائض ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يأمر عبد الله في هذا الحديث ، وإنما أمر أباه أن يأمره ، والأمر بالأمر بالشيء ليس أمراً بذلك الشيء .

وهناك فروع أخرى كثيرة لهذه القاعدة الأصولية المهمة ، فهي إذن ليست قاعدة فلسفية لا فائدة منها ،

وإنما هي قاعدة شرعية كل الفائدة فيها ، فإذا كنت يا هذا غير عارف بآثارها ، فليس معنى هذا أنها لا آثار لها ، فليس إذا كان الإنسان أعمى لا يرى الألوان ، ليس معنى هذا أنه ليس في الكون ألوان ، بل معنى هذا أنه عاجز عن رؤية وإدراك الألوان .

(48/1)

ولذلك يجب عليك وعلى أمثالك ممن كان في بداية الطلب للعلم أو في نهايته ، أن يكون على طلب الفائدة في التعلم أحرص منه على وأدها بالهجوم عليها والتشهير بها ، لظن خاطئ ، ووهم باطل ، وإلاَّ كانت النتيجة دوماً كما سمعت ورأيت .

***

قضاء الصلاة المتروكة عمداً

إنني لا زلت في سياق الكلام على المتفيهقين ، وعجائب ما تتفتق عنه أذهانهم من الأوهام زاعمين أنها ذروة ما توصل إليه العقل من العلم والمعرفة .

لقد سألني بعضهم عن حكم الصلاة التي يتركها الإنسان عمدا ، من حيث القضاء وعدمه ؟

فقلت له : يجب قضاء هذه الصلاة ، باتفاق الأئمة الأربعة ، أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، وأتباعهم في كل العصور .

فقال لي : إن هذا يخالف الحديث الصحيح ، الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والذي لا يوجب قضاء الصلاة إلا على من تركها بسبب النوم أو النسيان ، وأما من تركها عمدا ، فلا قضاء عليه .

فقلت له : وما هو هذا الحديث ؟ والحديث معروف إلا أنني أردت أن أتثبت من أنه يريده بنطقه له .

فقال : ما رواه البخاري ، ومسلم ، " أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : من نام عن صلاة أو نسيها ، فليصلها إذا ذكرها " .

فنص الحديث على وجوب القضاء على الناسي والنائم فقط ، أي فلا يجب القضاء على من سواهما ، لأنه سكت عنه .

فقلت له : إن مرادك الاستدلال بمنطوق الحديث على وجوب القضاء على النائم والناسي ، وبمفهومه على عدم وجوبها على من سواهما ، استدلالاً بالمنطوق والمفهوم . فقال : نعم ، هو ما أردت

فقلت له : يا هذا . . . لا تقل إن علماء الأمة مع من تقدمهم من الأئمة الأربعة قد خالفوا حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم يعرفونه ويحفظونه ، وهم الذين نقلوه إلينا ولولاهم لما عرفناه . فإن في الأمة من هو أحرص مني ومنك على دين الله ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وإن فيهم لمن عرف به تاريخ هذه الأمة .

والفقه الإسلامي الذي دونه الأئمة وأتباعهم ، ما دونوه إلا استنباطا من كتاب الله وسنة رسول الله .

(1 / 49)

ولكن قل لي بأدب المتعلم : كيف فهم أولئك السلف من عظماء الأمة حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لتصل إلى المراد من فهم الحديث ، وتفوز بشرف الأدب الذي

يجب أن يتحلى به طالب العلم ، وعندها يمكن لي أن أجيب .

وأنا لا أريد أن أخوض في هذه المسألة وأدلتها ، وفقد فرغت منها أمتنا منذ أربعة عشر قرناً .

وأتفق الأئمة الأربعة وأتباعهم على وجوب القضاء للصلاة التي تترك عمداً .

(242/641)

---

ونحن حينما نقول اتفق الأئمة الأربعة وأتباعهم لا نعني بذلك عدة رجال ، وإنما نعني به الآلاف المؤلفة من عظماء أمتنا ، من المفسرين ، والمحدثين ، والفقهاء ، والأصوليين والمناطقة ، واللغويين ، وغيرهم ، ممن ملأت تراجم مئآت المجلدات من كتب التاريخ ، وإنما أريد فيما أقوله أن أبين لك خطأ استدلالك بهذا الحديث ، على ما ذهبت إليه من الفهم ، من أن القضاء يجب على من ترك الصلاة سهوا أو نسيانا ، لا على من تركها عمدا ، لأبين لك أن الخطأ ليس في فهم الفقهاء ، إنما هو في فهمك الخاطئ لهذا الحديث .

يا هذا لقد استدللت بمنطوق الحديث على وجوب القضاء على النائم والناسي ، وهذا لا غبار عليه .

واستدللت بمفهومه على عدم وجوب القضاء على من سواهما ، وهذا هو الخطأ الذي

وقعت فيه .

وذلك لما يلي :

إن الاستدلال بمفهوم المخالفة استدلال مهزوز ضعيف ، وقع فيه نزاع كبير بين الأصوليين .

فقد أنكره الحنفية ، والقاضي أبو بكر الباقلاني من المالكية ، والقفال ، والقاضي أبو حامد المروزي ، والغزالي في كتابه " المستصفى " دون " المنخول " والآمدي ، والإمام الرازي في كتابيه " المنتخب " و" المحصول " من أصحابنا الشافعيين ، والقاضي عبد الجبار وأبو الحسين البصري من المعتزلة .

والقائلون بالمفهوم لم يقولوا به في كل مفهوم ، إذ اتفقوا تقريبا على عدم الاحتجاج بمفهوم اللقب .

(50/1)

وأما بقية المفاهيم من مفهوم الصفة ، والشرط ، والغاية ، والعدد ، والحال ، والزمان ، والمكان ، وغيرها فقد وقع فيها خلاف ، ولبعضهم فيها شروط وقيود وضوابط ، لا أريد الاستطراد في شرحها ، فليس هذا مكانها ، وإنما يرجع إليها في كتب الأصول .

كما اتفق القائلون بمفهوم المخالفة على أنه لا يحتج بمفهوم المخالفة إلا إذا توفرت فيه ستة شروط ، فإذا انتفى واحد من هذه الشروط الستة فإنهم يعطلون العمل بمفهوم المخالفة .

ولذلك اتفقوا على عدم العمل بمفهوم هذا الحديث ، لأنه لم يتخلف فيه شرط واحد من شروط العمل بمفهوم المخالفة ، وإنما تخلف فيه ثلاثة شروط من شروطه ، ولذلك لم يعملوا به اتفاقا .

وهذه الشروط هي :

أن لا يكون المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق به ، وذلك كقوله تعالى : فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴿ الإسراء / 23 ﴾ فإنه لا يفهم منه جواز الضرب لأن الضرب المسكوت عنه أولى بالحرمة من التأفيف المنطوق به .

أن لا يكون المسكوت عنه ترك لخوف ، فإن كان كذلك ، لم يعمل بالمفهوم ، وذلك كقول رجل حديث عهد بالإسلام ، لوكيله ، بحضور المسلمين : تصدق بهذا المال على المسلمين ، وهو يريد المسلمين وغيرهم من المحتاجين ، إلا أنه سكت عنهم خوفا من أن يتهم بالنفاق . فإذا قامت القرينة على أنه إنما سكت عن المعنى المفهوم خوفا ، عُطل العمل به .

أن لا يكون المسكوت عنه ترك للجهل به ، كمن قال : النفقة واجبة للأصول والفروع ، وهو يجهل حكم النفقة على الأطراف ، فإنه لا يعمل بالمفهوم هنا ، فلا يحكم بأن النفقة للأطراف ليست واجبة . لأنه يجهل حكمها ، فسكوته عنها ، لا لأن النفقة غير واجبة ، وإنما لعدم علمه بها ، ولذلك تعطل العمل بالمفهوم .

(51/1)

أن لا يكون المنطوق خرج مخرج الغالب ، فإن كان كذلك ، تعطل العمل به ، وذلك كقوله تعالى : وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم ﴿ النساء / 23 ﴾ فإن مفهوم هذا النص أن الربيبة إذا لم تكن في حجر زوج الأم ، جاز نكاحها ، إلا أن هذا المفهوم غير مراد ، والعمل به معطل ، لأن الحكم خرج مخرج الغالب ، إذ غالبا ما تكون الربيبة في حجر الزوج مع أمها ، ولذلك قيد بها ، وليس المراد نفي الحكم عن الربيبة التي لا تكون في الحجر .

(244/641)

---

وكذلك لم يعملوا بمفهوم قوله تعالى : لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً ﴿ آل عمران / 130 ﴾ لأن ذكر الضعف خرج مخرج الغالب ، أو العادة الجارية التي كانت متعارفا عليها ، لا من أجل نفي الحرمة عن الربا اليسير ، وإن كان مفهوما من الكلام لكل عاقل .

أن لا يكون المذكور بالحكم خرج جوابا لحادثة أو واقعة معينة وذلك كنهيه صلى الله عليه وآله وسلم عن بيع الرطب بالتمر ، فمفهومه أنه يجوز أن يباع الرطب بالرطب ، ولكن هذا المفهوم غير مراد ، لأن الكلام خرج جوابا لحادثة وسؤال معين ، فهو يدور مع السؤال في عمومه وخصوصه ، ولا يراد منه أبدا نفي الحكم عما سوى المذكور .

أن لا يكون المذكور خرج مخرج الواقع ، فإن كان كذلك لم يعمل بالمفهوم ، وذلك كقوله تعالى :

"لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ" ﴿آل عمران / 28﴾ فإن مفهوم هذه الآية أنه تجوز موالاة الكافرين مع المؤمنين ، وإنما النهي عن موالاتهم منفردين دون المؤمنين .

إلا أن هذا المفهوم غير مراد والآية لم تنزل لبيان هذا المفهوم ، وإنما نزلت في واقعة معينة ، في قوم وَالَوْا الكافرين دون المؤمنين ، فنهوا عن ذلك ، فالحكم أريد به بيان الواقع ، لا نفي الحكم عن غيره .

وأنا لا أريد أن أستطرد في ذكر الأمثلة ، فكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلممليئان بها ، وإنما ذكرت ما ذكرت تمهيداً لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

" من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها "

(52/1)

فقد قال العلماء فيه ما قيل في الأمثلة التي ذكرتها وعطل فيها العمل بالمفهوم ، فقالوا : هذا الحديث يعطل العمل بمفهومه ، لأن المسكوت عنه ، وهو ترك الصلاة عمداً ، أولى من المنطوق به وهو ترك الصلاة سهواً أو نسياناً .

فإذا كان القضاء قد وجب على تارك الصلاة بعذر النوم أو النسيان ، وقد رفع عنه القلم ، وسقط عنه التكليف ، فأن يجب على من تركها بغير عذر من باب أولى .

وثانيا : لأن هذا الحكم خرج مخرج الغالب ، إذ الغالب من حال المؤمن أنه لا يترك الصلاة إلا بسبب من نوم أو نسيان ، وليس معناه أنه إذا تركها في غير هاتين الحالتين لا قضاء عليه .

ولا ضرورة للتنصيص على كل حالة ، إذ الشارع يكتفي بالتنصيص على بعض الصور ، ويقاس عليها ما في معناها من الصور الأخرى التي لم ينص عليها ، وإلا ، فما هو القياس الذي يعتبر أوسع مصادر التشريع على الإطلاق ؟

وثالثا : قد ورد هذا الحديث في واقعة معينة حدثت مع رسول الله وأصحابه ، إذ ناموا عن صلاة الصبح حتى ضربتهم الشمس ، وبعد أن استيقظوا ، أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخروج من الوادي الذي كانوا فيه ، وأمر بلالاً أن يؤذن ويقيم ، وصلى بالناس قضاء ، ثم قال للناس وقد بدا عليهم التأثر لم بدر منهم وصاروا يتلاومون ، قال لهم : " من نام عن صلاة أو نسيها ، فليصلها إذا ذكرها " ومراده بيان حكم الواقعة التي وقعت ، وليس مراده نفي الحكم عما سواها من الوقائع .

ورابعا : لقد علل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلموجوب قضاء الحج عن الميت بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : " أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيه ؟ قال : نعم ، قال

: فدينُ الله أحق بالقضاء " .

وهذا عام فيما كان بعذر ، أو بغير عذر ، وعام في الحج وغيره ، والعمل بمنطوق هذا الحديث ، أولى من العمل بمفهوم ذاك إذا تعارضنا .

فما بالنا إذا لم يتعارضا ، إذ تعطل مفهوم ذاك ، ووجب العمل بمفهوم هذا . . . ؟ !

(53/1)



---

يا هذا من أجل ما ذكرته لك هنا في تعطيل العمل بمفهوم هذا الحديث ، أعرض فقهاء المسلمين من الحنفية ، والمالكية ، والشافعية ، والحنابلة ، عن العمل بمفهومه ، لما ذكرت ، لا إعراضا عن قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلموإلاَّ فهم أحرص على دين الله ، وحديث رسوله من كثير من المتفيهقين في عصرنا هذا ، إن جاز لنا أن نفاضل بينهم ، متجاهلين قول الشاعر :

ألم تر أن السيف ينقصُ قدره إذا قيل : هذا السيفُ خيرٌ من العصا

ومرة ثانية : أنا لا أريد الاستدلال على هذه المسألة ، فقد فرغت منها أمتنا منذ أربعة عشر قرنا ، وإنما أريد أن أبين وجه خطأ من أخطأ بجهله وتفيهقه .

يا هذا نحن لا نريد أن نحجر على الناس الفتوى والاجتهاد ، فما كان لنا أن نغلق باباً فتحه الشرع .

ولكننا نريد أن نقول للناس : تَعَلَّموا قبل أن تفتوا وتجتهدوا .

يا هذا من تطبب بغير طب فقد برئت منه ذمة الإسلام ، ومن أفتى بغير علم فقد ضل وأضل .

وقد روي في الحديث : " إن أبغضكم إليَّ الثرثارون المتفيهقون " .

***

نقض الوضوء بلمس المرأة

لقد جرى علماء أمتنا على مدى تاريخنا العلمي الطويل ، الذي ملأ مكتبات العالم بفنون العلم ، وضروب المعرفة ، لقد جرى علماء أمتنا في منهجهم العلمي على مبدأ الاستقامة والأمانة العلمية ، في عَزْوِ الفائدة العلمية إلى قائلها ، وعدم سرقتها أو ادعائها ، سواء في ذلك الكتب التي ترجموها ، أو دَوَّنوها .

وإذا كانت المسألة العلمية من المسائل الخلافية ، فإنهم كانوا يذكرون كل ما يؤثر فيها من قول أو معرفة ، ويعزونه إلى قائله ، فإن كان حقا رجحوه ، وإن كان باطلا ردوا عليه .

فما عرفوا العصبية في العلم ، بل ضربوا أروع الأمثلة الدالة على رحابة الصدر ، وسعة

الأفق ، والتسامح ، فكانوا يذكرون آراء مخالفيهم إلى جانب آرائهم ، وبكل أدب واحترام .

(54/1)

(247/641)

---

وربما كانت المسألة شرعية ، لا عبرة فيها بخلاف غير المسلمين لهم فيها ، إلاَّ أنهم رغم هذا كانوا يذكرون في بعض المواطن بعض الخلاف ، لمن خالفهم في المعتقد ، ويبينوا بطلانه .

فقد ذكروا أثناء كلامهم على إفادة الخبر المتواتر للعلم — ذكروا السُّمَّنية والبراهمة فيه مع أنهم ليسوا من المسلمين .

وعند الكلام على النسخ في القرآن والسنة ذكروا خلاف اليهود ، بل ذكروا ما قالته بعض فرقهم فيه .

ولا داعي للاستطراد بذكر الأمثلة ، فالأمثلة كثيرة .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ثقة الإنسان بعلمه ، وحكمه الذي توصل إليه ، وقدرته على الدفاع عنه وتثبيته ، ولذلك فإنه لا يضيره أن يذكر رأي مخالفه إلى جانب رأيه .

وهو في نفس الوقت لا يخاف من تأثر القارئ أو السامع بالرأي المخالف ، فللسامع أو

القارئ، أن يختار من الآراء ما يترجح عنده صحته، إن كان من أهل العلم، وذا إمكانية على الترجيح، وليست لأحد وصاية على عقول البشر، كما أنه ليست لأحد وصاية على شرع الله، بحيث يجب على الناس جميعا أن يفهموه كما فهمه، وكذلك لا وصاية لأحد على علم من العلوم، يأخذ بزمامها، ويوجه دفتها، دون أن يكون لأحد الحق في مشاركته فيها، حسب الآداب التي أدبنا بها الإسلام في الخلاف والجدل، والنقاش والنظر.

وعلى هذا المنهج سار أسلافنا رضوان الله عليهم، يقولون ما يعتقدون، ويدافعون عنه وينافحون، وهمهم توصيل المعرفة إلى الناس، لا إكراه الناس على اعتناق أقوالهم، والسير وراء معارفهم وعلى أقدامهم، ولذلك كانوا يذكرون في المسألة أرائهم، وعشرات الآراء المخالفة لهم.

بل ذهب أسلافنا إلى أبعد من هذا في التجرد العلمي، فكان حرصهم على إظهار الحقيقة ولو على يد خصومهم أكثر من حرصهم على الشهرة بها، إذ كانوا يبتغون فيما يعملون وجه الله وثناءه، لا مديح البشر وإطراءه.

(55/1)

ولذلك قال الإمام الشافعي رحمه الله : (( ما جادلت أحدا إلا وأحببت أن يظهر الله الحق على لسانه ))

وهذه ذروة العفة والكمال في العلم ، وأدب البحث والمناظرة ، وهذا الإيثار ، والسمو ، هما اللذان جعلا علماء أمتنا في الماضي كالجسد الواحد ، كل منهم يثني على صاحبه ، ويجلُّه ، ويحترمه ، مع مخالفته له في الرأي ، ومباعدته له في المنهج .

ودارت الأيام دورتها ، وتلاشت آثار هذه العظمة العلمية ، بذهاب العلماء الأثبات ، وفُشُوِّ الجهل ، وانتشار الأنانية ، وحب الظهور والاستعلاء ، وتكلُّمِ العامةِ والمتفيهقين ، بكلامِ العلماء .

وصار الواحد منهم إذا تكلم لا يتكلم لإظهار الحق ، بقدر ما يتكلم ليقول للناس : أيها الناس إنني أتكلم ، وعليكم السمع والطاعة .

لا يتكلم لتوصيل العلم ونشره ، وإنما يتكلم لإرواء غريزته في الأنانية ، ونشر جهله على البشر ، وهو في غالب الأحيان لا يدري أنه جاهل ، ورغم هذا لا يجوز لأحد أن يخالفه أو ينظر في كلامه .

وبهذا سادت الأنانية ، وانتشرت الأحقاد ، وظهر في صف الأمة التدابر ، والتقاطع ، والتحاسد ، وصار العلم سبباً للقطيعة بدلاً من أن يكون سر التواصل والتراحم ، على ما

كان عليه سلفنا العظيم ، إذ كانوا يقولون : العلم رحمٌ بين أهله .

لقد دخلت أحد المجالس ، فوجدت شاباً حدثاً قد تصدر المجلس ، وحوله عدد من الشباب يصغون إليه في شغف وذهول ، وكان يحدثهم في مسألة فرعية حسمت مادتها بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ أجمعوا على جواز الخلاف فيها ، وهي مسألة نقض الوضوء بلمس الرجل امرأة من غير حائل .

(249/641)

---

وقال : إنه يرى أن اللمس ليس بناقض ، وإلى هنا لا غبار على كلامه ، على افتراض أنه من أهل العلم ، فليس لنا أن نمنعه من اعتقاد هذا ، وظننت أنه سيذكر بقية آراء العلماء الذين يقولون : إن اللمس ناقض على التفصيلات والضوابط المعروفة عندهم ، كمالك والشافعي ، وأحمد ، والظاهرية وغيرهم ، إلى جانب رأيه ، إلا أنه ضرب صفحاً عن الجميع ، وكأنهم لا وجود لهم .

(56/1)

وأضاف إلى هذا أنه قذف الجميع ـ لا بما يسوءهم ، بل بما يظهر جهله وحمقه ـ قذف الجميع بالابتداع ، وأنهم حينما قالوا بأن اللمس ناقض خالفوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

، وأصحابه ، فقال : لم يثبت عن رسول الله ولا عن أحد من الصحابة أنه قال : إن لمس الرجل للمرأة ناقض للوضوء .

وهنا رأيت أن التدخل واجب شرعاً ، لبيان الحق ، والدفاع عن سلف الأمة رضوان الله عليهم .

فقلت له : يا هذا ، يقول علماء المنطق ، إن القضية السالبة الكلية تنقض بموجبة جزئية .

على معنى أن من قال : لا يوجد في الدار أحد ، يكفينا لنقض كلامه أن نثبت أن فيه ولو طفلاً صغيراً .

فقال : نعم

فقلت له : أن لا أريد أن أثبت رأي الجمهور في أن اللمس ناقض . على تفصيل لهم وضوابط فيه . وإنما أريد أن أبين بطلان كلامك الذي ذكرت ، من أنه لم يثبت مثل هذا عن أحد من الصحابة .

وذلك أن روينا في الموطأ عن الإمام مالك بن أنس ، عن ابن شهاب الزهري ، عن سالم بن عبد الله ، عن عبد الله بن عمر ، عن أبيه عمر بن الخطاب أنه قال : " قبلةُ الرجل امرأَتَه وجَسُّها بيده من الملامسة ، فمن قبَّلَ امرأَتَه أو جَسَّها بيده فليتوضأ " .

وهذا من أصح الأسانيد على وجه الأرض ، فأين تعميمك الذي ادعيت . . . ؟

أليس هذا من الكذب على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والافتراء على علماء الأمة . . . . ؟

(250/641)

---

إننا لا نريد أن نمنع الإنسان من الانتصار لرأيه ، فكل امرئ يرغب في الانتصار لرأيه إن كان حقاً .على الأقل فيما يعتقد . ، ولكننا نمنع الإنسان من الانتصار لرأيه بالكذب ، والافتراء ، والتدليس ، كما أننا نمنعه في نفس الوقت من الإزراء بمناصب علماء الأمة وسلفها ، لأنهم خالفوا رأيه ، فكل من تكلم في دين الله منهم إنما تكلم ليبين الحق فيما يعتقد ، ولكل مجتهد نصيب ، وهذا على أحسن أحواله ، وأسوأ أحوالهم .

وإلاَّ فمنطق العلم السليم يأبى أن يضع رأى جاهل ، لم يتمكن بعد من تمييز الحق عن الباطل ، مع رأي أحمد بن حنبل الذي كان يحفظ مليوناً من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(57/1)

***

العقيدة وخبر الواحد

إن الذي أريد أن أتكلم عنه الآن هو خبر الواحد ، وحُجيَّته في العمل والاعتقاد ، على ما جرى عليه سلف الأمة وخلفها .

وإن الذي دفعني لهذا مع أنه من المسلمات ، هو خوض الجهلة ، وأنصاف المتعلمين فيه ، بما يؤدي تشويه الحقيقة العلمية الناصعة التي قالها العلماء فيه ، ومن ثم يؤدي إلى الطعن في أئمة المسلمين وهذه هي النتيجة الحتمية للفهم الخاطئ ، الناتج عن الجهل بمرامي الكلام ومدلولاته واصطلاحات أهل العلم .

فالواجب على كل من أراد الخوض في أي علم من العلوم أن يعرف قبل الخوض فيه اصطلاحاته ، وإلاَّ بأن فهم الإصلاح حسب مدلوله اللغوي ، لا على المعنى الاصطلاحي الذي وضعه له صاحبه ، فإنه سيأتي بالعجائب .

لقد صنف الإمام النووي كتابه : " المنهاج " في الفقه الشافعي ، وجعل له في مقدمته اصطلاحات ميزت بين أقوال الإمام الشافعي في المسألة وأقوال أصحابه المجتهدين في مذهبه ، فرمز لأقوال الإمام الشافعي بـ " الأظهر " فإن كان للشافعي قولان في مسألة ، وكان أحد القولين راجحاً على الآخر ، فإنه يعبِّر عنه بالأظهر ، وهذا يشير إلى ظهور مقابله على الجملة .

وقد وقع من قبيل المصادفة أن جاء أحد الطلاب المجتهدين فيما يزعم ، ونحن نتناقش في بعض المسائل الفقهية ، فقال فيها قولاً عجباً ، يتناقض مع أبسط مبادئ العلم ، علاوة عن تناقضه مع مرتبة الاجتهاد التي يزعمها ، وأراد الله أن يظهر حقيقة دعواه ، فمر معنا اصطلاح النووي في أقوال الشافعي ، فقلت له : ما المراد بالأظهر والظاهر في هذه المسألة . . . ؟

فقال : الأظهر والظاهر متقابلان ، وهما المسجدان المعروفان ، فالظاهر هو الذي بناه الظاهر بيبرس ، والأزهر هو المسجد المعمور المعروف الذي يقع في مقابله ، ولكن المصريين يفخمون الزاي فيقولون : الأظهر . . . ؟ قال : ومعنى الكلام : إن هذه المسألة هكذا تدرس في الأزهر . . . ؟ الذي يلفظه المصريون بـ " الأظهر " .

(58/1)

وأنا لم أعلق على هذه المسألة حينها بغير الصمت . . . لأن كل من سمع هذا الكلام من الطلاب أدرك أن هذا المتكلم لا يدعي الاجتهاد فقط . . ، بل يدعي العقل . . . إذ يبعد على العقلاء أن يأتوا بمثل ما أتى . . .

وهذا هو حال كل من يخوض في فن غير فنه ، أو في فن دون أن يدرك مصطلحاته .

إن مما لا مراء فيه ولا جدال أن خبر الواحد حجة يجب العمل به في كل ما ورد فيه ن في كل

جانب من جوانب الشرع ، وهذا أصل من أصول عقيدتنا وشريعتنا .

ولقد بذل إمامنا الشافعي – رضي الله عنه وأرضاه – كما بذل غيره من الأئمة – أكبر الجهد في نصرة خبر الواحد ، والاحتجاج به ، حتى لقب في بغداد بـ " "ناصر الحديث " فصنف فيه بحوثا طويلة مستجادة ، تناقلها من بعده الأجيال .

وعلى هذا سار كل من ألف من أئمة المسلمين ، من المفسرين ، والمحدثين ، والفقهاء ، والأصوليين ، والمتكلمين ، سلفا وخلفا ، قديما وحديثا ، وكثرت فيه المصنفات ، وهذا من البديهيات التي لا تحتاج اليوم إلى إعادة نظر ، أو تصنيف جديد .



---

ولكن العجب كل العجب أن نجد بعض المتفيهقين من أهل العصر ينقلون هذا الكلام عن الأئمة ، ومن مصنفاتهم ، ثم بعد ذلك يصولون ويجولون ويتشدقون أمام العامة بأنهم نصروا خبرا الواحد ، وكأن الأمة كانت ضده على عادتهم في كل ما يأتون به من علوم الأقدمين .

..

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، إذاً لهان ، ولقلنا ، إنهم في مثل هذا كالأطفال عندما يتعلمون مسألة من العلم يرددونها أمام العامة والخاصة ، ظناً منهم بأنه لا يعرفها أحد

سواهم لضيق أفقهم ، وسذاجة تفكيرهم .

(59/1)

لكن الأمر تجاوز هذا عندما وجدناهم قد فهموا كلام أولئك الأئمة العظماء على غير مرادهم ، وعلى غير مراد القواعد العلمية ، والاصطلاحات الفنية ، ومن ثم خرجوا على العامة بالعجائب ، فاتهموا سلف هذه الأمة ، وعلمائها ، بأنهم يردون خبر الواحد في العقيدة ، وهذا يتنافى مع وجوب العمل بخبر الواحد ، في كل ما ورد به من شرائع الإسلام وعقائده .

وتلقف العامة كلامهم بالتسليم ، لما فيه من التمويه والتدليس ، والإيهام ، وقد يُلْبَسُ الحقُ ثوب الباطل ، فيظهر للناس على أنه باطل ، ويلبس الباطل ثوب الحق ، فيظهر للناس ، على أنه حق ، كما قال الشاعر :

في زُخْرُفِ القولِ تَزْيِينٌ لباطِله والحَقُّ قد يَعْتَرِيهِ بعضُ تزوير

تقول هذا مُجاجُ النَّحلِ تمدحُهُ وإنْ ذَمَمْتَ تقلْ قَيْءُ الزنابير

وهذا ما سيكون قرب قيام الساعة ، من تصديق الكاذب ، وتكذيب الصادق ، وائتمان الخائن وتخوين الأمين . . .

وليس الأمر في الحقيقة إلا الجهل بمراد العلماء ومصطلحاتهم ، نعم ، لقد قال جمهور علماء الأمة من السلف والخلف : إن خبر الواحد لا تثبت به العقيدة . . .

ولكن ما مراد أولئك الأئمة من هذا القول الذي زلت به أقدام أولئك المتفيهقين من جهلة العصر ؟

وللجواب على هذا أقول :

لقد انقسم الناس في تحديد معنى العقيدة إلى قسمين :

الأول :



---

ذهب إلى أن المراد بالعقيدة ما يجب اعتقاده ، مما يميز الكفر عن الإيمان ، فمعتقده يكون مؤمناً ، وجاحده يكون كافراً ، وما كان كذلك لا يمكن أن يكون إلا عن علم ، وهو الإدراك ، الجازم ، المطابق للواقع ، عن دليل .

وهذا لا يتوفر إلا في الخبر المقطوع به ، كالقرآن ، والخبر المتواتر ، فإذا ما جاء الخبر المقطوع به ، ثبوتاً ودلالةً ، أثبتنا به العقيدة ، وكفرنا منكره ، ومنكر ما ثبت به ، لأنه منكر لمعلوم ، ثبت بالدليل القطعي .

(1/ 60)

وأما أخبار الآحاد فلا تفيد إلا الظن عند الجماهير ، وبناءً على ذلك لا يمكننا أن نثبت بها

العقيدة على الاصطلاح المتقدم ، لأنها لا تفيد العلم والقطع ، ولا يكفر جاحدها باتفاق ، ونحن خصصنا العقيدة بما يكفر جاحده من القطعيات لا الظنيات .

ولكن هل معنى هذا أن من جرى على هذا الاصطلاح والمعنى للعقيدة يرد أخبار الآحاد ، ولا يعتقد مضمونها ، كما يتبادر إلى الأذهان من ظاهر هذا الكلام . . ؟

الجواب : لا .

إن ما ورد من أخبار الآحاد في شأن العقيدة ، كعذاب القبر ، ونعيمه ، وسؤال الملكين ، والقيامة الصغرى ، وأشراط الساعة ، وخروج المهدي ، والحوض ، والصراط ، وأوصاف جهنم ، والشفاعة ودخول الموحدين الجنة ، وما أعد لهم فيها من أفراد النعيم ، مما لم يذكر في القرآن ، وغير ذلك من الأمور الكثيرة التي شحنت بها كتب العقيدة عند الأشاعرة وغيرهم من أهل السنة ، إن ما ورد من هذه الأخبار ، يجب الإيمان به ، ويفسق جاحده ، لأنه خبر واحد يجب العمل بمقتضاه ، والإيمان بمضمونه ، إلا أننا لا نسميه عقيدة ، ولا نحكم بكفر جاحده أو مؤوله ، لأنه لم ينكر شيئاً من العقيدة الثابتة بالقواطع بل نحكم عليه بالإثم والفسوق والعصيان .

وبناءً على ذلك لم يُكَفَّر المعتزلة في إنكارهم لكثير من المغيبات وتأويلها ، مما ثبت بدليل ظني ، وإنما حُكِم عليهم بالفسق والعصيان .

ومن هذا يظهر لنا أنهم عندما يقولون : هذا خبر واحد لا يعمل به في العقيدة ، ليس مرادهم إبطال العمل به ، ونفي الإيمان بمضمونه ، وإنما مرادهم أنه لا تثبت به العقيدة التي يكفر جاحدها ، والتي تتطلب القواطع ، لا الظنون .

ولا أظن أن أحداً يخالف في هذا ، حتى الذين ذهبوا إلى أن خبر الواحد يفيد العلم ، وإلاّ لحكموا على مخالفيهم بالكفر ، فيما ثبت بأخبار الآحاد ، وهذا شيء لم يقل به أحد .

(1 / 61)

وهذا نظير لما ذهب إليه الأصوليون من الحنفية ، إذ فرَّقوا بين الفرض والواجب ، فقالوا : الفرض ما ثبت بدليل قطعي ، ويكفر جاحده ، والواجب ما ثبت بدليل ظني ، ولا يكفر جاحده ، بل يأثم ويفسق ، مع وجوب العمل بمقتضى الفرض الواجب ، والمعصية بترك العمل بمقتضاهما .

وكأنهم قالوا : الفرض لا يثبت بخبر الواحد المفيد للظن ، أو أن هذا الخبر خبر واحد لا يثبت به الفرض ، لأن الفرض يكفر جاحده ، وما كان هذا شأنه ، لا يثبت بخبر الواحد .

إلاّ أنهم يوجبون العمل بمقتضاه ، ويثبتون به الواجب ، ويفسقون جاحده .

فما الفرق بين قول علماء الأصول هذا ، وبين قول علماء التوحيد ذاك . . . ؟

لا فرق بينهما البتة ، وهذه اصطلاحات جرت عليها أمتنا سلفاً وخلفاً دون تشنيع أو

نكير .

وهذا هو المذهب الأول ، وهو مذهب الأكثرين في تحديد المراد بالعقيدة وضبطه .

وأما الفريق الثاني من العلماء فقد جعلوا العقيدة هي كل ما يجب اعتقاده ، سواء أكان يكفر جاحده أم لا ، وسواءً أكان ثابتاً بدليل قطعي يفيد العلم ، أم دليل ظني يفيد الظن .

وبناءً على ذلك فهم لا يميزون بين خبر الواحد ، وغيره من الأخبار المفيدة للقطع ، كالقرآن والحديث المتواتر ، ويقبلون الجميع في العقيدة ، لهذا الاصطلاح الخاص بهم أيضاً .

(255/641)

---

إلا أنهم يميزون ما يجب اعتقاده ، فبعض ما يجب اعتقاده يكفر جاحده ، وهو ما ثبت بدليل قطعي في ثبوته ودلالته ، وبعض ما يجب اعتقاده لا يكفر جاحده ، وإنما يأثم ويعصي ويفسق ، وهو ما ثبت بدليل ظني في ثبوته أو دلالته .

وهذا نظير لما ذهب إليه جمهور علماء الأصول ، من عدم التمييز بين الفرض والواجب ، إذ قالوا : هما سواء ، وهما ما يثاب فاعله ويعاقب تاركه عمداً ، سواء أثبتا بدليل قطعي أو ظني .

إلا أنهم ميزوا بين الواجب الذي ثبت بدليل قطعي ، فحكموا بكفر جاحده ، والواجب

الذي ثبت بدليل ظني فحكموا بفسق جاحده وعصيانه ، دون كفره .

(62/1)

فالخلاف خلاف لفظي ، وليس خلافاً حقيقياً ، ولا مشاحة في الاصطلاحات ، فالنتيجة واحدة يقيناً .

وخلاصة الكلام أن الأمة قد اتفقت سلفاً وخلفاً ، على أن خبر الواحد يجب العمل به ، كما يجب اعتقاد مضمونه .

إلاّ أن الخلاف فيما يسمى عقيدة ، فمن ذهب إلى أن العقيدة هي ما يكفر جاحده ، قال : هذا لا يثبت إلاَّ بما يفيد القطع ، وأما ما ثبت بما يفيد الظن ، فلا يسمى عقيدة ، ولكن يجب الإيمان بمضمونه ، على أنه من قبيل العمل ، ويعصي جاحده ، ويستحق العقاب ، ويحكم عليه بالفسق إلاّ أنه لا يكفر .

ومن ذهب إلى أن العقيدة هي ما يجب اعتقاده ، سواءً أثبت بخبر الواحد المظنون ، أم بالخبر المتواتر المفيد للعلم ، قال :

إن خبر الواحد تثبت به العقيدة كالمتواتر ، إلاّ أن بعض هذه المعتقدات يكفر جاحدها ، وهي ما ثبت بدليل قطعي ، وبعضها يعصي جاحده ، ولكن لا يكفر ، وهي التي ثبتت بدليل ظني .

وبناءً على هذا فجميع علماء التوحيد يتفقون على أن ما ثبت بدليل قطعي يكفر جاحده

، وأنه يسمى عقيدة ، وأن ما ثبت بدليل ظني ، لا يكفر جاحده ، ولكنه يعصي ويفسق ، إذ يجب العمل بمضمون خبر الواحد ، ولكن هل يسمى عقيدة أم لا ؟

فالخلاف في التسمية وليس في الحقيقة والجوهر ، والنتيجة واحدة .

(256/641)

---

وعلى هذا جرت أمتنا الإسلامية على مر العصور ، وكر الدهور ، إذ كان الجميع يعرفون أن الخلاف لفظي لا حقيقي .

أوَبعد هذا يقال : إن بعض أهل العلم يردون خبر الواحد في العقيدة . . . . ؟

إني لا أظن أن قائل مثل هذا إلا رجلا قرأ عبارة العلماء ، فلم يفهمها على مرادهم ومراد القواعد العلمية ، وإنما فهمها على مراد عقله القاصر ، ثم راح يذم العلماء ، لا لأنهم أخطئوا ، وإنما لأنه لم يفهم كلامهم .

(63/1)

وما مثل من يفعل هذا إلا كمثل الأعمش ، ينظر وجهه في المرآة ، فلا يراه وسيماً مضيئاً ، وإنما يراه مشوهاً قبيحاً ، فيرجع بالشتم واللعن على المرآة ، ولو عقل وأنصف لأصلح عينيه ، فهو بعمشه يظن أن العيب في المرآة وكل من حوله ممن ينظر إليه وإليها يرى أن العيب

فيه .

إن من أعجب العجب أن يكتب أحدهم في هذا الموضوع بخصوصه ، على النحو الذي ذكرت من الفهم الخاطئ لمراد العلماء ، ثم يرجع عليهم بالإزراء واللوم ، وكل من عرف مراد العلماء واصطلاحهم يرى أن اللوم عائد عليه ، وراجع إليه ، وفوق ذلك يمثل في خاتمة مقاله بمثال يبين فيه كيف يرد بعض الفقهاء حديث الآحاد في العقيدة ، فيزعم أن الحنفية قد ردوا خبر الواحد في الأمر بقراءة الفاتحة في الصلاة .

وليته عقل أولا وعلم انه لا علاقة لهذا الموضوع بموضوع العقيدة وخبر الواحد ، لأن القراءة وعدمها من العمل ، لا من العقيدة .

وثانيا : ليته رحم نفسه ونظر في أي كتاب من كتب أصول الفقه ، عند الحنفية والجمهور قبل أن يتكلم إذا لوجد نفسه مفتريا على الحنفية ، بجهله وسوء فهمه .

وذلك أن الحنفية ذهبوا إلى التمييز بين الفرض والواجب ، على ما بيناه قبل قليل ، فمثلوا للفرض الذي يكفر جاحده بمطلق القراءة في الصلاة ، ومثلوا للواجب الذي يعصي تاركه ولا يكفر بقراءة الفاتحة بخصوصها في الصلاة .

فالفاتحة عند الحنفية واجبة في الصلاة ، يثاب فاعلها ، ويعاقب تاركها ، لما ورد فيها من الأحاديث الصحيحة ، ولكنه لا يحكم بكفر تاركها ، لأنه لم تثبت بدليل قاطع ، على ما بيناه في الإصلاح .

فأين إنكار الحنفية لخبر الواحد في قراءة الفاتحة في الصلاة ؟

أليس هذا تجنيا على الحنفية وافتراءً وكذباً . . . ؟

بلى . . . ولكنه الجهل . . . ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج / 46

(64/1)

إن آفة العلم اليوم هي أنصاف المتعلمين الذين يقرئون الكلام فيفهمونه معكوسا كعقولهم المعكوسة ، ومن ثم يذهبون للطعن في العلماء والعظماء .

ولقد قال كليلة لدمنة وهو يعظه :

وأعلم يا دمنةُ أن العقلاء ما زالوا قديماً وحديثاً يكلون الأمور لأربابها ، فلكل مقام مقال ، ولكل فن رجال ، وأن من خاض في فن غير فنه أتى بالعجائب ، وذلك أن العقل إذا فرغ من قاعدة الاستنتاج والاستنباط ، وقصر عن رتبة الفهم والإدراك ، ثم أقحم نفسه فيما لا يحسن ، خرج بجهل مركب من جهلين ، وما مثل هذا إلا كمثل الأرنب الخرقاء مع العلماء .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن الأرنب الخرقاء دَبَّتْ إلى مجالس الكون والفلك ، فسمعتهم يتحدثون عن السُدُم والمذنبات في السماء ، وأنهم يقولون : لو أن واحدا من هذه المذنبات ضرب الأرض بذنبه لجعلها هباءً منثوراً بين السماء والأرض .

ففهمت من كلامهم أنهم يتهكمون بذوات الأذناب ، وأنهم جهلة ، لا دراية لهم بحقيقتها ، فتظاهرت بزي العلماء ، وتجملت بمنطقهم ، ثم قالت لهم : ما أجهلكم أيها العلماء ، إنكم تزعمون أن ذوات الأذناب في عداء مع الأرض ، وأنها تريد دمارها ، والحقيقة على خلاف ما توهمتم ، وذلك أن الأرض ما زالت تعيش مع ذوات الأذناب بخير منذ ملايين السنين .

ولتدلل على صدق كلامهم ، وخطأ كلامهم ، أخرجت لهم ذنبها . . . ؟ !

(258/641)

---

لقد سمعت السيدة عائشة أبا سلمة بن عبد الرحمن يتكلم في مسألة من مسائل العلم .

فقالت له : إنك كالفروج يسمع الديكة تصرخ فيصرخ معها . تريد أنه لم يبلغ مبلغ الكلام في العلم .

وقال الإمام الشافعي : وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه ، لكان الإمساك أولى به ، وأقرب من السلامة إن شاء الله .

فلو أن أولئك المتفيهقين اقتصر على النظر في فهارس الحديث ، دون الاستنباط منها ، والكلام عليها ، لاستفاد وأفاد ، وكان خيراً له من الخوض فيما دونه خرط القتاد .

***

(1/65)

عمر بن عبد العزيز فيلسوف روماني . ؟ !

إن كلمة دعوى توحي بظاهرها أن صاحبها ليس على الحق ، وأنه ليس إلاّ مدعيًا فيما يقول ، ينقص قوله الحجةُ والبرهان .

وذلك ككلمة " زعم " إذ قالوا فيها : "زعموا ، مطية الكذب " .

فمجرد كلمة " دعوى " أو " مدع " يلفت النظر إلى وجود أمر غير مسلم ، لم يستطع صاحبه أن يبرهن عليه ، وتزداد هذه الكلمة قوة في معناها ، كلما ازداد الأمر المدعى غرابة وبعداً .

وما تزال تنتقل في أطوار الغرابة إلى أن تصيْر في نهاية الأمر أضحوكة ، ويصير صاحبها هزءاً .

يتكلم ، فيضحك الناس ، ولكن ليس إعجاباً بحقه ، ولكن سخرية من باطله .

وإن منطق العلم – قديماً وحديثاً – يقول : إن من العسير أن يقول المرء إنه أحاط بعلم واحد من جميع جوانبه ، بحيث لا يمكن أن يستدرك عليه فيه علاوة عن أن يقول أنه أحاط

بكل علم ، وإن من يزعم أنه أحاط بكل علم في الكون ، يكون قد أعطى نفسه من الوصف

، ما لم يعطه الله لأنبيائه ورسله ومن زعم مثل هذا من الناس لا يُصيِّره زعمه عالماً بكل

شيء ، بل يجعله أضحوكة لكل أحد ، إلاّ أنه رغم هذه الحقيقة ، نجد بعض المتفيهقين

الجهلة من يدعي مثل هذا .

وهكذا يفعل الجهل بصاحبه ، ما يزال ينحط به في مهاوي الضياع إلى أن يصيره عبرة تضرب

به الأمثال .

(259/641)

---

وفي بعض الحالات نجد بعض المتفيهقين أوتي شيئًا من المنطق ، وبراعة في التمويه والتعبير ،

فيخيل للسامع أن ما يقوله الحق . . على الأقل إلى أن تكشف حقيقته ، ويظهر للناس

عواره .

وذلك كالرجل الذي جلس في مجلس الإمام الأعظم أبي حنيفة ، وكان ذا هيئة حسنة في

مظهره ، يظن من رآه أنه من أهل العلم ، وأهل ذلك المجلس ، وأبو حنيفة ماد رجله ليستريح

، فلما رآه قبض رجله حياء من وقار ذلك الرجل وهيئته .

(66/1)

ثم شرع يتكلم على حكم صلاة الفجر بعد أن تطلع الشمس ، وأنها تصير قضاء ، وهنا ثار جهل الرجل ونفث على لسانه ما يزعم أنه سيفحم به أبا حنيفة فيما توهم أن أبا حنيفة قد أخطأ فيه .

فقال له مناظراً لا مستفهما : هب أن الشمس طلعت قبل الفجر ، فما العمل . . . ؟

وأجابه أبو حنيفة بما يلائم حاله ، فبسط رجليه ، وقال : آن لأبي حنفية أن يبسط رجله .

لقد حدث هذا يوماً ما ، فخلده التاريخ الأدبي للعلم أسطورة من أساطير الجهل والحمق ، إلا أنه لم يكن فيه كذب .

وإني محدثكم الآن عن بعض متفيهقي العصر سوف تنكر عقولكم منه وتقبل ، جمع فيه بطلُه إلى جانب الجهل والحمق كذباً ، وإني سوف لا أتزيد فيه أو أنقص منه إلاّ مما يكون مما تفرضه الصياغة الأدبية .

لقد دعيت يوماً ما لمقابلة الطلاب الذين رشحوا للدراسة في معهد المعلمين ، والطلاب في كل زمان ومكان فيهم الغث والسمين ، ولكن لا يوجد فيهم من سأذكره لكم .

لقد جاءنا أحد الطلاب ، وكان متخرجا من معهد ديني ، أي يحمل ثانوية شرعية ، ومن خلال كلامنا معه زعم أنه يحيط معرفة بكثير من العلوم ، وأما في علوم الشرع فقد وصل فيها لدرجة الإجتهاد ، فهو لا يقلد أحدا ، فأثار الطالب دهشتنا ، ولفت نظرنا ، لجرأته وغرابة دعواه .

إلاّ أننا لم نجد معالم هذه الدعوى ، لا في مظهره ، ولا في مخبره ، إذ كان يلحن بلحن العامة ، لا بلحن العلماء ، ولا بلحن طلاب العلم .

(260/641)

---

ومن خلال نقاشنا معه تبين أنه دون مستوى من يوصف بالجهل ، علاوة عن أنه يوصف بالعلم .

إذ بعض من يوصف بالجهل يكون على جانب من العلم ، وإنما يوصف بالجهل إذا ما قورن بغيره من عباقرة العلماء ، ويكون جهله في هذه الحالة نسبيا .

فلما رأيت الطالب على هذه الحالة التي وصفت ، بدأت معه بالمغالطات العلمية ، أريد أن أختبر مدى ما هو فيه من الجهل ، فوجدته يقبل عليها إقبال النهم ، ويجيب عليها على أنها من بديهيات الحقائق العلمية فيما يوحيه إليه جهله .

(67 / 1)

فلما رأيته هكذا ، وأنه لا يفرق بين حق وباطل ، قلت في نفسي : أسأله سؤالا أهز به كيانه ، فإن كان فيه شيء من الإحساس العلمي ، أو الكرامة العلمية ، انفجر .

فقلت له : هل تعرف رجلا يسمى عمر بن عبد العزيز . . ؟

فقال : نعم أعرفه .

فقلت له : هل هو فقيه أو فيلسوف . . ؟

فقال : إنه فيلسوف .

فقلت له : هل هو من فلاسفة اليونان ، أم من فلاسفة الرومان ؟

فقال : إنه من فلاسفة الرومان . . ؟ ؟ !

فقلت له : هل تحفظ شيئًا من فلسفته . . ؟ !

فقال : نعم . . إنني كنت أحفظ بعضها ، إلا أنني نسيته . . ؟

وهنا فهمت لماذا يقول الناس "سبحان الله" في حالتي الإعجاب والتعجب ! !

إذ لم يكتف الرجل بما كنا ننكره على من يدعى الدعوى الباطلة ، وبما أتى به من المضحكات . . . بل أضاف إليها كذبا ، وتبين لي فعلا أن الرجل مجتهد ، وأنه يستحق أن يكون في مصاف مجتهدي الأمة ، من أمثال أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ليكون عبرة من عبر الحياة يخلدها التاريخ الأدبي للجهل ، فهو كما يزعم رجل وهم رجال .

***

إخضاع نصوص الشرع للعقل

وإنكار المعجزات

لم يقف أمر التفيهق في هذا العصر عند حد الاجتهادات الخاطئة في نصوص الشريعة ، بالجهل المطبق بقواعد الاجتهاد والاستنباط ، على نحو ما ذكرنا ، وإنما تعداها إلى حد آخر ، يعتبر أشد خطراً ، وأكبر أثراً ، وأعظم ضرراً ، ألا وهو إخضاع نصوص الشريعة لحكم العقل ، دون اعتبار لقوانين الشريعة وقواعدها .

ما رضيه العقل ، وقنع به ، وأقره ، صار معتبراً مقبولاً ، وما رفضه لعدم القناعة به ، صار مردوداً مرفوضاً ، واتخذا هذا المنهج من التفيهق اسم التجديد .

(68/1)

ويلزم من هذا أن الحاكم أولاً وأخيرا هو العقل ، وليس الشرعَ ، فيجب عرض الشرع على العقل ، فما أقره العقل ، قُبل ، وما رفضه ، رُفضَ ، ورفضه يكون بأمرين ، إما برده إن كان لرده مجال ، كأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، مهما بلغت من الصحة ، وإما بالعبث في معناه حتى يصير على مراد العقل ، ولو مؤقتا ، ريثما يحين الوقت لرده عن طريق التشكيك فيه ، على ما جرت عليه الخطط المرسومة من قبل المتربصين بهذا الدين منذ حين ، وذلك كبعض آيات القرآن الكريم .

وبناء على هذا عبث بالكثير من نصوص الشريعة ، من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم لعدم إمكانية هضمها في عقل من ردها وأدى هذا الأمر إلى إنكار

المعجزات ، لأنها من أصعب وأبعد ما يمكن للعقل الذي طمْ يشاهدها أن يؤمن بها .

وهذا هو الطريق الأمثل لإنكار الوحي ، لأنه من أبلغ المعجزات ، وأبعدها عن تصورات العقل المادي الذي لم يؤمن بالله .

وإني سأعرض لنماذج من عبث أدعياء التجديد ، يتبين من خلالها مدى ما صارت إليه الفوضى العلمية في دين الله ، بسبب غياب الضوابط السليمة ، والقواعد الصحيحة ، التي كانت تحكم اجتهادات العلماء ، عند نظرهم في نصوص الشرع ، واستنباطهم منها .

(262/641)

---

وأبدأ بما لم يتمكنوا من رده لقطعية ثبوته ، ككتاب الله ، فعمدوا إلى العبث في معناه حتى يتلاءم مع عقولهم القاصرة ، أو منهاجهم العلمية المادية التي تأثروا فيها بمناهج الغرب المادية التي لا تؤمن بالله .

فزعم أحدهم أن قوله تعالى : وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴿ البقرة / 60 ﴾ زعم أنه ليس في هذا معجزة خارقة للعادة ، وإنما هو أمر جار على قوانين الطبيعة والمادة ، وأن موسى عليه السلام كان يملك آلة حفر الآبار ، وأن قوله تعالى : اضْرِب بِّعَصَاكَ الحجر ﴿ البقرة /

60 ﴾ . أي احفر بآلتك الأرض ، فالعصا كناية عن آلة الحفر ، والحجر كناية عن الأرض

.

(1/ 69)

فما عمله موسى لم يكن سوى عملية حفر لبئر في الأرض ، يشرب منها أسباط بني

إسرائيل .

وهكذا عمل في كل معجزة من معجزات الأنبياء المادية ، وشحن بمثل هذه الأباطيل

تفسيره .

وزعم آخر قوله تعالى : وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿ 3 ﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ

﴿ 4 ﴾ زعم أن الطيور عبارة عن الميكروبات حملت إليهم الطاعون ، أو البعوض حمل

إليهم الحُمّيات الخبيثة ، أو ميكروبات الجُدَري ، واستدل على ذلك بجيش نابليون الأول ،

لما حاصر عكا ، ولبث أمامها أشهراً ، حتى أصاب جيشَهُ الطاعونُ ، فرجع عنها .

والأمثلة على هذا كثيرة في هذا العصر ، وكلها تنزع من معين واحد ، ألا وهو مجارات العقل

المادي الذي لا يؤمن بالغيب .

وكأنهم بعملهم هذا يستكبرون على الله إجراء المعجزات ، مما يتنافى مع أبسط مبادئ

الإيمان بالله ، ومما يُلزمُ الضلالَ والانحراف إن لم نقل الكفرَ والإلحاد .

وأما بالنسبة للسنَّة فأمرها أهون عندهم من أمر القرآن ، وذلك بردها مباشرة ، مما يغنيهم عن الخوض في معانيها على نحو ما خاضوا به في القرآن .



---

فأنكر بعضهم حديث الذبابة ، وكل حديث ورد فيه ذكر الشياطين ، مع وجودها في الصحيحين

وأنكر بعضهم حديث لعق الأصابع .

وأنكر بعضهم الأحاديث المعلقة بالمعاملات ، واستدل على ذلك بقوله عليه السلام : (( وأنتم أعلم بأمور دنياكم )) .

وأنكر بعضهم الأحاديث المتعلقة بالحجاب .

وأنكر بعضهم الأحاديث المتعلقة بولاية المرأة ، وزاد على الإنكار الهزء بها .

وأنكر بعضهم الأحاديث المتعلقة بالموسيقى .

وقد وصل الغلو ببعضهم إلى أن طالب بهجر كل ما أعتمده علماء الأمة منذ فجر الإسلام إلى اليوم من قواعد علمية لقبول أو رد ما يروى من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وطالب بإيجاد قانون جديد يحكمه العقل ، يكون هو الفيصل في قبول أو رد

الأحاديث ، كما طالب بإيجاد صحيح جديد غير صحيحي البخاري ومسلم بناء على قانونه العقلي .

(70/1)

ومن خلال هذه الصور التي ذكرناها ، مما يردده أدعياء التجديد في دين الله يتبين لنا أن المراد هو القضاء على الدين القائم على الوحي ، وإيجاد دين جديد قائم على العقل .

وقد صرح أحدهم بهذا فقال :

لقد توسع القرآن الكريم في معنى الوحي ، فلم يقصره على النبيين ، بل أطلقه على أدنى درجات الانسياق الطبيعي الحيواني ، فقال تعالى : وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿ النحل / 68 ﴾ قال : وإذا صح إطلاق الوحي على هذا الانسياق الفطري . الحيواني ، صح من باب أولى إطلاقه على نتاج العقل الإنساني ، لأن الله خالق كل شيء ، والباعث على كل شيء ، فيكون لا تنافي بين قول مشرعي أوروبا إن الشرائع أصلها العقل ، وبين قول الدينيين إن أصلها الوحي .

ثم قال : وإذا لم يقل الدينيون هذا الحل الموافق للكتاب والعلم فقد تعرضوا لشبه لا مخلص لهم منها ثم ساق الشبه ، هذا كلامه بحروفه (1) .

وهو غني عن التعليق لأنه محض الكفر ، وهذا هو نتاج الخوض في دين الله بغير علم .

وهذا يوجب علينا أن نتكلم على العقل والدين والغيب ، وقد عرضنا لذلك بالتفصيل في كتابنا " العقل والغيب "(2) ، فليراجع .

العلماء والسفهاء

في كثير من الأحيان يجد الإنسان نفسه مضطراً للصمت ، إما أمام مخاصم فاجر ، أو مجادل معاند أو متنطع جاهل .

وهو لا يصمت ، على أن الصمت أبلغ في الجواب ، لأن هذا إنما يكون عند عاقل مسه طائف من الشيطان فجهل ، أو عالم سها فزل ، فإن العاقل المنصف لا يسعه في مثل هذا المقام إلاَّ الصمت ، ويكون صمته أبلغ في التعبير من نطقه ، وهذا هو المأمور به في الشرع ، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : (( أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم )) .

إلا أنه عندما يكون المخاصم فاجراً ، أو مجادلاً معانداً ، أو سفيهاً جاهلاً ، فإن العاقل لا يمكنه إلا السكوت أيضاً ، ولكن ليس سكوتَ إقالةِ الكريم عثرته ، وإنما هو سكوت الدهشة ، والإبقاء على المروءة .

(1 / 71)

فالنقاش والكلام يفيدان عندما تكون هناك قواعد مشتركة ، ومبادئ ثابتة ، يرجع المتناقشان إليها ، ويعولان عليها ، وتكون بينهما الحكم والفيصل ، وأما إذا عدمت مثل

هذه القواعد ، بأن كان أحد الرجلين أو كلاهما ، لا يعرفان عنها شيئًا ، فإن النقاش في هذه الحالة ينقلب إلى سفسطة ثم إلى عناد ، تكون الغلبة فيه لأكثرهما فجوراً ، ولن يلتقيا في حال من الأحوال ، وفي كثير من الحالات يكون الصمت هو الجواب .

ولقد قال إمامنا الشافعي رحمه الله في مثل هذه الحالة : ما جادلت عالماً إلا وغلبته ، وما جادلت جاهلاً إلا وغلبني ، وهذه حقيقة يقرها الجهلة ويعرفها العلماء .

فقد حكي أبو حاتم البستي أنه دخل مسجداً ، فقام بعد الصلاة شابٌ ، فقال : حدثنا أبو خليفة ، حدثنا أبو الوليد ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن أنس ، وذكر حديثاً .

(265/641)

---

قال أبو حاتم : فلما فرغ دعوتُه ، قلت : رأيتَ أبا خليفة ؟ قال : لا ، قلتُ : كيف تروى عنه ولم تره ؟ فقال : إن المناقشة معنا من قلة المروءة : أنا أحفظ هذا الإسناد ، فكلما سمعت حديثاً ضممته إلى هذا الإسناد .

(72/1)

وروى ابن الجوزي بإسناده إلى أبي جعفر بن محمد الطيالسي قال : صلَّى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين في مسجد الرصافة ، فقام بين أيديهم قاصٌ ، فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ،

ويحيى بن معين ، قالا : حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من قال لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة طيراً ، منقاره من ذهب ، وريشه من مرجان ! ! وأخذ في قصةٍ نحواً من عشرين ورقة ، فجعل أحمد بن حنبل ينظر إلى يحيى بن معين وجعل يحيى بن معين ينظر إلى أحمد ، فقال له حدثته بهذا ؟ ! فيقول : والله ما سمعت هذا إلاّ الساعة ، فلما فرغ من قصصه وأخذ العطيات ، ثم قعد ينتظر بقيتها ، قال له يحيى بن معين بيده : تعالَ ، فجاء ، متوهماً لنوال ، فقال له يحي : من حدثك بهذا الحديث ؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، فقال : أنا يحيى بن معين ، وهذا أحمد بن حنبل ، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق ما تحققتُ هذا إلا الساعة ! كأن ليس فيها يحيى بن معين واحمدُ بن حنبل سواكما ن قد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ؟ ؟ فوضع أحمد كمه على وجهه ، وقال : دعه يقم ، فقام كالمستهزئ بهما .

وذلك أن النقاش معه ومع أمثاله بهذا الجهل الفاضح ، والحمق الواضح ، والفجور الظاهر مسقط لمروءة أحمد ويحيى ، فإنهما لا يتوقعان من مناقشته إلا تجهيلهما والإزراء بهما ، فصانا نفسيهما بالإعراض عنه والابتعاد منه .

(73/1)

ومما يروى عن الإمام أبي حنيفة النعمان – رضي الله عنه – أن كان خارج بغداد ، فلقيه سفيه من السفهاء الذين لا يعرفونه ، ولئن عرفوه ، فلن ينزلوه منزلته ، لأنه كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (( لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل )) ، فلا يقدر منزلة العالم إلا العالم ، ونحن وإن كنا نجد العامة في مجتمعنا الإسلامي يقدرون العلماء ويجلونهم ، فليس هذا لأنهم أدركوا منزلتهم العلمية وعرفوا حقيقة علومهم ، فإنه لا سبيل إلى هذا ، وإنما هو لأنهم عرفوا على الجملة أنهم علماء ، وأنهم بحاجة إليهم ليستمدوا منهم الفتوى ، وأنهم امتداد للنبوة في الأرض بعد أن انقطع الوحي من السماء ، وأن دينهم أمرهم باحترامهم بقوله عليه الصلاة والسلام : (( ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا ويعطي عالمنا حقه )) فتأدبُ العامة بآداب الإسلام العامة هو الذي جعلهم يحترمون علماءهم ، ولو كان الأمر منوطاً بعلم العلماء فقط ، لما كان الأمر هكذا .

لقد لقي السفيه أبا حنيفة رضي الله عنه خارج بغداد وهو لا يعرفه ، فتعرض له ، ثم شتمه ، وتمادى في شتمه إلى أن وصلا إلى سور بغداد فالتفت أبو حنيفة إلى ذلك السفيه وقال له : أعندك شتائم أخرى تريد أن تفرغها من إهابتك ، فإن كانت فقلها . . ! فاستغرب

السفيه هذا الموقف ، مع عدم رد أبي حنيفة عليه بكلمة واحدة . . ! وقال له : لم تأمرني بهذا . . ؟ !

فقال له أبو حنيفة : لما كنا خارج بغداد لم يكن معنا أحد ، وأنا سامحتك فيما قلت وكأنك لم تقله وكأني لم أسمعه ، ولكني أخشى إن دخلت بغداد ، وسمعك الناس تشتمني . . . أخشى أن يضربوك . . . فأنا أبو حنيفة النعمان . . .

***

الدعوة والعصبية

(74 / 1)

*(267/641)*

---

لقد كنت أتكلم في موضوع علمي مهم ، يتعلق بالعقيدة فبحثته من جميع جوانبه ، وبينت أقوال العلماء فيه ، ثم عرضت لرأي ابن القيم في الموضوع ، وكان مما انفرد به عن عامة المسلمين ، وبينت خطأه فيه ، ووجهت ذلك بالدليل والبرهان ، لكي لا يكون في الأمر لبس ولا شبهة ، وإن كان لا يحتاج إلى دليل ، لأنه مما يكاد يكون معلوما من الدين بالضرورة .

رسالة على المكتب

وفوجئت بعد يومين برسالة على مكتبي من أحد الطلبة . يشكر فيها اهتمامي بالمحاضرات ، وأثرى في الطلاب ، ويثني ، ويؤكد الثناء بالثناء ، ثم قال : بلغني ، أنك تعرضت في المحاضرة الماضية لابن القيم ، وبينت خطأه في الموضوع الفلاني ، وليتك لم تفعل ، لأن أحد الطلبة ، ممن يكن لك المحبة والاحترام ، قد آلمه ما ذكرت عن ابن القيم ، لأنه يحبه ، ونشأ على كتبه ، ومن ثم قال : إنك سقطت من عينه ، إذ أبنت خطأ من يحب ، طويت الرسالة ، ولم يكن ما وجدته فيها مفاجأة ، لأني عهدت من قبل مثل هذا الخلق في بعض من ينتسب إلى الدعوة .

المنهج الوسط في النقد

ثم دخلت قاعة الدرس ، وافتتحت المحاضرة بما يمس هذا الموضوع ، مما يجب أن يعلمه كل داعية مسلم ، ويتنبه له ، فقلت : إننا نحن المسلمين من علماء ودعاة ومفكرين عندما نثني على إنسان ما ، في موضوع ما ، لا نعني أن هذا الإنسان معصوم عن الخطأ ، ومصيب في كل ما أتاه من عمل ، وإنما نريد الثناء عليه ، فيما عرضنا له من موضوع الساعة ، أو على مجمل خلقه وسيرته .

وعندما ننتقد إنساناً ما ، في موضوع ما ، لا نعني أننا نريد انتقاص هذا الإنسان ، ونفي صفة العلم عنه إذا كان عالماً ، أو صفة الدعوة إذا كان داعية ، ولا نريد الحط من منزلته ، وإنما نريد أن نبين أنه أخطأ في المسألة الفلانية ، مع المحافظة على ما له من مكانة في العلم ،

وتضحية في الدعوة ، وأثر في الفكر ، إذ النقاش ، والنقد حول فكرة معينة ، لا حول الرجل وفكره ودعوته .

العصمة لمن عصمه الله

(1/ 75)

*(268/641)*

---

ونحن المسلمين لا يوجد عندنا إنسان معصوم عن الخطأ ، أيا كان هذا الإنسان ، صحابياً أم تابعياً ، أم إماماً مجتهداً . أم من عامة الناس ، سوى من عصمه الله تعالى من نبي أو رسول ، ومن سواهم ، يؤخذ منه ويرد عليه . كما قال الإمام مالك – رضي الله عنه : (( كل رجل يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر ، وأشار إلى قبره )) .

يستوي في ذلك عندنا كل إنسان من المسلمين كبر شأنه أو صغر ، علت منزلته أو نزلت ، لأننا جميعا خاضعون لشرع الله ، وهو الحاكم علينا ، إذ الشرع حاكم ، وليس محكوماً عليه ، ونحن نعرف الرجال بالحق ، ولا نعرف الحق بالرجال ونزن الإنسان بميزان الشرع ، ولا نزن الشرع بميزان الناس .

والدين عندنا غير منوط برجل ، لا يؤخذ إلا منه ، ولا يروى إلاَّ عنه ، ولا يعرف إلا به ، لأن

ديننا جاء ليوجه الناس ، لا ليوجه من قبل الناس .

فما قاله أي إنسان في الدنيا نعرضه على مصادر التشريع فما وافقها : أخذنا به ، وما خالفها : أعرضنا عنه . ولا يغير هذه القاعدة مكانة الرجل ولا منزلته .

وإنما يعرف الحق بالرجال عند غيرنا من الوثنيين ، الذين اتخذوا من الرجال أرباباً لهم من دون الله ، فما رضوا عنه فهو الحق ، وما سخطوا عليه فهو الباطل ، وما قالوه لا يعدو الصواب وإن كان في الواقع خطأ ، فأنزلوا الناس منزلة الله ، ولا كذلك نحن المسلمين ، وليس عندنا من يقال فيه : لا يسأل عما يفعل إلاَّ الله ، أو من أوجب الله على الناس طاعته من نبي أو رسول .

(76/1)



---

وإن مما يخل بمكانة الرجل ، وينزل بمرتبته ، أن يوضع في منزلة غير منزلته ، فمن زعم أن زيداً من الناس معصوم لا يخطئ ، فقد وضعه في منزلة غير منزلته ، ألا وهي منزلة الله ، أو الرسول ، وهذا هبوط بالإنسان ، إذ الهبوط بالمرء عند العقلاء أن يوضع في غير موضعه . علا الموضع أو نزل . لقد جاء الإسلام ليخرج بالناس من عصبية الجاهلية المنتنة ، إلى

سماحة الدين الغضة ، ومن التحيز لقبيلة أو جنس أو لون إلى العدالة والمساواة بين جميع الخلق .

النقد للإصلاح

ولقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ينقد بعضنا بعضاً من أجل الإصلاح ، فجعل المرء مرآة لأخيه ، وأمرنا أن نقبل النقد ، لأن كل بني آدم خطاء .

ولقد علمنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون - بسلوكهم العملي ، كيف يرضى الإنسان المسلم بما يوجه إليه من نقد ، ويستغفر الله مما كان قد وقع به من خطأ .

أسلوب الصحابة

لقد رد عبد الله بن عباس ، وهو من أصغر الصحابة سناً ، على أمير المؤمنين ، الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في كثير من مسائل العلم ، ولم يقل أحد من الناس إن ابن عباس أخطأ ، لأنه رد على عمر ولم يفهم أحد من الناس أن ابن عباس كان ينتقص عمر أو يحط من شأنه ، بل ردت عليه امرأة ، وأبانت عن وجه خطئه ، وقبل .

واستدركت عائشة رضي الله عنها على العشرات من كبار أصحاب رسول الله ، ولم يفهم أحد منهم أنها أساءت ، لأنها بينت خطأ أو وهم من أخطأ أو وهم ، ولم يفهم أحد من الناس أنها كانت تنتقصهم ، أو تحط من شأنهم .

بين الشافعي ومالك

ورد الشافعي على مالك، في كتاب كامل ((كتاب الوضع على مالك)) ولم يقل أحد أن الشافعي أساء، أو انتقص مالكاً، كيف وهو القائل فيه: إذا ذكر العلماء فمالك النجم، وكان تلميذاً له، تفقه عليه، وروى عنه.

لأن الأمر ليس أمر شخص، وذات، وهوى، وإنما هو أمر دين يستوي فيه قدم الجميع، والحق أحق أن يتبع.

(270/641)

---

بين القاضي والشافعي

(1 / 77)

لقد كان القاضي عبد الجبار من أشد الناس تمسكا بأصول الشافعي، شديد الدفاع عنها، ولما وصل إلى مسألة نسخ الكتاب بالسنَّة، ونسخ السنة بالكتاب — والشافعي يقول: لا ينسخ الكتاب بالسنَّة، ولا السنَّة بالكتاب، في مذهب خاص له، انفرد به عن جمهور الأصوليين، وعلى تفصيل فيه، ليس هذا مكانه — عندما وصل القاضي إلى هذه المسألة قال: الشافعي كبير، والحق أكبر منه، إلا أن القرآن ينسخ السنَّة، والسنَّة تنسخ القرآن،

ولم يقل أحد من الناس إنه أساء ، وإنما قالوا ، ولازالوا يقولون ، إن القاضي من أشد الناس تمسكا بأصول الشافعي ، إلا أن القاضي أنزل الشافعي منزلته البشرية ، ورد عليه فيما يعتقد أنه خطأ .

ومن قرأ كتب فقهاء هذه الأمة وجد أمراً عجباً ، من حرية الرأي – ضمن الضوابط والقواعد العلمية – وحرية النقد والاختيار ، ما لم يكن هوى .

بين الأمس واليوم

وكان هذا دأب سلف هذه الأمة ، وخلفها من العلماء ، والدعاة ، إلى أن وصلنا إلى ما نحن فيه الآن من عصبية ، كادت وللأسف تذهب برواء كثير ممن يتكلمون في هذا الدين ، ويدعون إليه .

فوصل بعض الشباب إلى مرحلة ، إذا تقلد فيها رأياً عمى عما سواه ، وأصم أذنه عند سماعه ، وكأنه أوحي إليه أن الله قد جمع الحق في هذا الذي أشرب قلبه بمحبته ، فهو ليس بمستعد لسماع أي نقد ، أو أي نصح ، أو أي اعتراض ، ومن ثم فهو ليس على استعداد لأن يعتقد أن هذا الذي أعتقد رأيه قابل للخطأ .

بعض الشباب قرأ لسيد قطب . رحمه الله ، وأسكنه فسيح جنته . وتعشق كتبه وأفكاره ، وإلي هنا نعتبر هذه فضيلة ، ونقبلها ، إلا أنه وصل الأمر ببعضهم إلي ما ذكرت ، مما وصفت

من العصبية المفرطة لكل ما قال ، وهذا لا نقبله .

(78/1)

*(271/641)*

---

وبعضهم قرأ لأبي الأعلى المودودي- رحمه الله ، وأسكنه فسيح جنته- وصار أيضاً أمره لما ذكرت ، نحن لا ننكر أن سيداً ، وأبا الأعلى ، وغيرهما ، قد أثروا المكتبة الإسلامية بتراث فكري كان ينقصها ، وسدوا ثغرة من ثغر العلم ، وجهروا بمبادئ الحق ، وزيفوا أباطيل الخصوم ، وجزاهم الله عن كل ما قرأ لهم واستفاد منهم خيراً .

إلا أن هذا لا يعني أنهم معصومون ، بل هم من بني آدم الذين قال فيهم رسول الله : "كل بني آدم خطّاء "

وربما جاء من بعدهم من يساويهم ، بل يفوقهم ، وفضل الله واسع ، يؤتيه من يشاء ، ولكل مجتهد نصيب ، ولا يخل ذلك بمرتبتهم ومقالهم .

فإذا ما سمعنا اعتراضا على أحدهم ، ممن ألفنا وأحببنا ، لا يجوز أن نرد الدعوى والاعتراض ، لأن قائل الكلام فلان ، فلا اعتراض عليه ، ولا يخطئ ، بل نسمع الاعتراض ، ونناقشه ، فإما أن نقتنع ، وإما أن نقنع .

والجدال يجب أن يدور حول الفكرة المعترض عليها ، لا حول قائلها ، لأن قائلها لم يقل هذه الكلمة فقط حتى يصبح رهيناً لها ، ولن ينقصه أن يثار حول بعض آرائه الجدل ، لما ذكرت من سلوك سلف هذه الأمة وخلفها ، وكفى المرء نبلاً أن تُعَدّ معايبُه .

وعلى العكس من ذلك نجد إنساناً آخر ، يغالي في النقد ، ويفرط فيه ، فيأتي إلى كلمة جرت على لسان أحد الأشخاص ويجعل منها شخصية الرجل الكامل ، ومن ثم يفجرها فيه ، ليذهب بكل فضل له من أجلها .

ومن هذا القبيل ما يكون من بعض الدعاة الذين يتخذون الدعوة وسيلة لتثبيت مواقفهم ، وتدعيم آرائهم وإن كانت مواقفهم وآراؤهم خاطئة .

(79/1)

(272/641)

---

يختصم اثنان حول فكرة ما ، أو حول أمر معين ، فما يكون من أحدهما إلا أن يذهب إلى أصحابه ، الذين يؤمنون بفكره ، ويقول لهم : إن فلانا اعترض علي ، أو علينا ، وما يكون منهم إلا أن يقاطعوه ، بل يذموه ، دون أن يعرفوا وجه اعتراضه ، ودون أن يناقشوا رأيه ، أو يسمعوا كلامه ، بل لمجرد سخط فلان عليه ، أو لمجرد . اعتراضه ، فجعلوا من أنفسهم إمعة

يأباها الإسلام ، ويأباهم الخلق الإسلامي الكريم ، ولقد حفظوا جميعا أن الله عاتب نبيه داود إذ تسرع بالحكم في مسألة النعاج ، دون أن يسمع من الخصم وعرفوا جميعاً أن هذه عصبية يمقت الإسلام عليها .

وأدركوا جميعاً أننا يجب علينا أن نبني آرائنا في الرجال على قواعد العقل والدين ، لا على قواعد العاطفة والهوى .

وإن هذا الميزان يقول : لا يمكن أن ينقلب الرجل ، وبلحظة واحدة ، من صديق إلى عدو ، دون أن يحدث أي تغير في فكره أو دينه ، بل لمجرد أنه رأى رأيا يخالف رأي من يحب ، أو اعترض عليه .

وتزداد الشقة ، ويتسع الخلاف ، وينقض العدو فيفتك بالفريقين ، بعد أن تفرقا ، ففشلا ، فذهبت ريحهما .

ولولا أن الظروف لا تسمح لي بالكلام التفصيلي ; لسردت من الوقائع والأرقام ما يشيب له رأس الداعية مما يعانيه إخوتنا المسلمون في الدعوة اليوم .

الإنصاف . . الإنصاف

ولذلك يجب علينا جميعاً أن نتحلى بفضائل الإنصاف ، وأن نعلم أن الأشخاص ذاهبون ، وأن الدين باق ، وأن الأشخاص محكومون ، وأن الشرع حاكم ، وأن كل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب الدعوة عليه السلام ، ولا يجوز بحال من الأحوال أن يكون المرء إمعة

، إن أحسن الناس أحسن ، وإن أساءوا أساء ، فما جاء الإسلام إلا لينقذنا من العصبية

ويبعدنا عن الهوى والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد

***

النساء والحلي

(1 / 80)

(273/641)

---

إن مما أدركه خلفنا – بعلمائه وعامته – من سلفنا بعلمائه وعامته ، ومما هو معلوم بالبديهة

من ديننا ، ومما لا يخفى على البعيدين عن الشرع علاوة عن القريبين منه ، أن الشارع الحكيم

أباح لإناثنا حلية الذهب والفضة وحرَّمها على ذكورنا ، بالتفاصيل المعروفة ، والضوابط

المحدودة .

على هذا دلَّت الأحاديث النبوية القولية والفعلية وعليه دلَّ ما أثر عن السلف الصالح

وعليه اتفقت الأمة الإسلامية .

روى أبو داود في سننه عن عائشة رضي الله عنها قالت : قدمت على النبي صلى الله

عليه وآله وسلم حلية من عند النجاشي ، أهداها له ، فيها خاتم من ذهب ، فيه فص

حبشي ، قالت : فأخذه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعود معرضاً عنه ، أو ببعض أصابعه ، ثم دعا أمامه بنت أبي العاص بنت ابنته زينب ، فقال : " تحلي بهذا يا بنية" .

وفي " المطالب العالية " وعزاه لمسند أبي بكر ، عن زينب بنت نبيط ، عن جاب ، قالت : " أوصى أبو أمامه أسعد بن زرارة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأمي وخالتي ، فأتاه حلي فيه ذهب ولؤلؤ ، يقال له : الرعاث ، فحلاهن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من تلك الرعاث ، فأدركت ذلك الحلي الرعاث ، فحلاهن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من تلك الرعاث فأدركت ذلك الحلي عند أهلي " . قال الهيثمي في " مجمع الزوائد " ورواه الطبراني في عدة أسانيد ، ومن ثم حسن أحدها .

والرعاث : واحدتها رعثة ، وهي : القرط من حلي الأذن .

وروى الترمذي ، والنسائي عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ((حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي وأحل لنسائها )) . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

وروى أبو داود والنسائي ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذ حريراً فجعله في يمينه ، وذهبا فجعله في شماله ، ثم قال إن هذين حرام على ذكور أمتي .

ففي هذه الأحاديث من وضوح الدلالة ، وظهور النص ما يكفي للقول بحل الذهب والفضة للنساء مطلقاً ، دون حاجة إلى بيان وتفصيل ، أو شرح وتحليل ، (( لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ))

(1 / 81)

وروى أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والدار قطني ، واللفظ لأبي داود ، عن عمرو بن شعيب رضي الله عنه ، عن أبيه ، عن جده ، أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعها ابنة لها ، وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب ، فقال لها : (( أتعطين زكاة هذا ؟ )) قالت : لا ، قال : أيسرّك أن يسورك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار ، قال : فحذفتهما ، فألقتهما إلى النبي وقالت : هما لله ولرسوله .

ولفظ الترمذي والدار قطني ، أن امرأتين أتتا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي أيديهما سواران من ذهب ، فقال لهما : " أتؤديان زكاته ؟ )) قالتا : لا ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " أتحبان أن يسوركما الله بسوارين من نار ؟ " قالتا : لا ، قال : " فأديا زكاته " .

وأخرج أبو داود : والدا رقطني عن عائشة زوج النبي – قالت : دخل علي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرأى في يدي فتختان من وَرِق ، فقال : صلى الله عليه وآله وسلم " ما هذا يا عائشة ؟" فقلت : صنعتهن أتزين لك يا رسول الله ، قال : أتؤدين زكاتهن ؟ قلت : لا ، أو ما شاء الله ، قال : "هي حسبك من النار" .

والفتخة : حلقة لا فص لها : تجعلها المرأة في أصابع رجليها ، وربما وضعتها في يدها .

وروى أحمد بإسناد حسن عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت : دخلت أنا وخالتي على النبي ، وعلينا أسورة من ذهب ، فقال لنا : "أتعطيان زكاته ؟" قالت : فقلنا : لا ، فقال : ((أما تخافان أن يسوركما الله أسورة من نار ، أديا زكاته )) .

وروى البخاري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال للنساء في موعظته إياهن : " تصدقن ولو من حليكن " .

*(275/641)*

---

وفي هذه الأحاديث أيضا ، ما يدل دلالة واضحة على أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقر النساء على اتخاذ الحلي من الذهب والفضة زينة يتزين به ، سواء أكان سوارا ، أم خاتما ، أم قرطا ، أم طوقا ، وأمرهن أن يتصدقن منه ببعضه ، ولو كان حراما لنهاهن عنه

مطلقا ، وإنما حرم عليهن اتخاذه مع عدم دفع زكاته ، ولم يأمرهن بتركه وتجنبه . ويزيد هذا وضوحا .

(82/1)

ما رواه أبو داود بإسناد حسن عن أم سلمة قالت : كنت ألبس أوضاحاً من ذهب ، فقلت : يا رسول الله ، أكنز هو ؟ فقال : " ما بلغ أن يؤدي زكاته فزكي ، فليس بكنز " ولم ينهها عليه الصلاة والسلام عن لبسه ، ولم يحرمه عليها ، بل أباحه لها إن زكته إذا بلغ ما تجب فيه الزكاة .

روى مالك في الموطأ ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تحلي بنات أخيها ، يتامى في حجرها ، لهن الحلي ، فلا تخرج منه الزكاة .

وهذا إسناد صحيح عن عائشة .

وروى الدار قطني بإسناده عن أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنها – أنها كانت تحلي بناتها الذهب ولا تزكيه نحواً من خمسين ألفاً .

وقد اختلف السلف من الصحابة ، والتابعين والأئمة المجتهدين ، في وجوب الزكاة على الحلي المباح ، بعد أن اتفقوا على جواز اتخاذه واستعماله للنساء دون الرجال ، وهم على كثرتهم لم ينقل عن واحد منهم تحريمه بل الذين نقلت عنهم الإباحة وهم :

عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمرو بن

العاص ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وعبد الله بن شداد ، وميمون بن مهران ، وابن سيرين ، ومجاهد ، وجابر بن زيد ، والزهري ، وسفيان الثوري ، وأبو حنيفة ، وابن المنذر ، وعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وأسماء ابنة أبي بكر ، وعائشة ، والشعبي ، والقاسم بن محمد ، ومالك ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق ، والإمام الشافعي رضي الله عنهم .

*(276/641)*

---

ولم ينقل إلينا عن أحد من أئمة المسلمين أنه قال بحرمة الذهب والفضة حلياً على النساء ، ولا نعرف خلافا في جواز استعمالهن له .

(83/1)

قال الإمام النووي في " المجموع " 6 / 36 : (( أجمع المسلمون على أنه يجوز للنساء لبس أنواع الحلي من الفضة ، والذهب جميعاً ، كالطوق ، والعقد ، والخاتم ، والسوار ، والخلخال ، والتعاويذ ، والدماج ، والقلائد ، والمخانق ، وكل ما يتخذ في العنق وغيره ، وكل ما يعتد لبسه ، ولا خلاف في شيء من هذا )) .

وقال ابن قدامة الحنبلي في " المغني " 2 / 609 : " ويباح للنساء من حلي الذهب والفضة

والجواهر كل ما جرت عادتهن بلبسه ، مثل السوار ، والخلخال ، والقرط ، والخاتم ، وما يلبسنه على وجوهن ، وفي أعناقهن ، وأيديهن ، وأرجلهن ، وآذانهن ، وغيره " .

وقال الإمام ابن تيمية في " فتاواه " 25 / 64 : " وأما باب اللباس ، فإن لباس الذهب والفضة يباح للنساء بالاتفاق " .

بل ذهب ابن تيمية إلى التسامح في يسير الذهب التابع لغيره في حق الرجال ، إذا كان الذهب مقطعاً كالطرز وغيره ، وعزاه لأصح القولين في مذهب أحمد .

ولا أظن أننا بعد هذا الذي ذكرناه من الحديث ، والأثر ، وإجماع الأمة بحاجة إلي دليل آخر على جواز استعمال الذهب والفضة بكافة طرق لاستعمال وأنواعه في حق النساء دون الرجال .

ولكن العجب كل العجب من رجل يضرب عن كل هذه الأحاديث والآثار ، وعن إجماع الأمة ، ويذهب مذهباً لم يوافقه أحداً من سلف الأمة ولا خلفها عليه ، فيذهب إلى حرمة التحلي بالذهب على النساء ألا وهو الأستاذ محمد ناصر الدين الألباني في كتابه " آداب الزفاف " ص 132 الطبعة الثالثة ، حيث يقول فيه :

" واعلم أن النساء يشتركن مع الرجال في تحريم خاتم الذهب عليهن ومثله السوار ، والطوق من الذهب " ثم ذهب يستدل على ما ذهب إليه بما لا دلالة فيه مما سنبينه بعد قليل ، وذيل

كلامه بحثاً مستقلاً ، نبين فيه حقيقة الإجماع ، ومرتبته في مصادر التشريع .

(84/1)

*(277/641)*

---

وأظن أن شهوة الإتيان بالجديد ولو كان مخالفاً للحق والواقع ، قد جمحت ببعض الناس إلى ركوب الصعب ، واقتحام المشاق ، ولو رحموا أنفسهم وأخلصوا لله نيتهم ، وأنصفوا ، وتواضعوا ، لأراحوا أنفسهم من عناء التخبط في دين الله مما قد يؤدي بهم إلى المهالك .

فإن ما استشهد به من زعم حرمة الذهب على النساء مما روى عن رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم من أحاديث لا دلالة فيه كما سنبينه .

فقد روى أبو داود والنسائي بإسناد جيد عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها .أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : " أيما امرأة تقلدت قلادة من ذهب قلدت في عنقها مثلها من النار يوم القيامة ، وأيما امرأة جعلت في أذنها خرصاً من ذهب جعل في أذنها مثله من النار يوم القيامة " .

وروى أبو داود وغيره عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (( من أحب أن يحلق حبيبه حلقة من نار فليحلقه حلقة من ذهب ، ومن

أحب أن يطوق حبيبه طوقاً من نار فليطوقه طوقاً من ذهب ، ولكن عليكم بالفضة فالعبوا بها )) .

وروى النسائي عن عقبة بن عامر أن رسول الله كان يمنع أهله الحلية والحرير ويقول : (( إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها ، فلا تلبسوها في الدنيا )) .

(85/1)

(278/641)

---

وروى النسائي عن ثوبان رضي الله عنه قال : جاءت هند بنت هبيرة رضي الله عنها إلى رسول الله في يدها فتخ من ذهب – أي خواتيم ضخام – فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يضرب يدها ، فدخلت على فاطمة رضي الله عنها – تشكو إليها الذي صنع بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فانتزعت فاطمة سلسلة في عنقها من ذهب ، قالت : هذه أهداها أبو حسن ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : (( يا فاطمة ، أيغرك أن يقول الناس ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي يدك سلسلة من نار )) ثم خرج ولم يقعد ، فأرسلت فاطمة – رضي الله عنها – بالسلسلة إلى السوق ، فباعتها ، واشترت بثمنها غلاما ، وقال مُرَّةً عبداً ، وذكر كلمة معناها ، فأعتقته ، فحدث

بذلك النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ((الحمد لله الذي أنجي فاطمة من النار)) . وروى النسائي عن معاوية أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن لبس الذهب إلا مقطعاً .

فهذه الأحاديث وما شابهها من الأحاديث التي تدل بظاهرها على تحريم الحلي على النساء ، معارضة بالأحاديث الصحيحة التي ذكرناها آنفاً ، والتي اعتضدت بإجماع الأئمة من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ، ولذلك وجب تأويل هذه الأحاديث التي تدل بظاهرها على التحريم ، للتوفيق بينها وبين الأحاديث التي تعارضها والتي هي أقوى منها لاعتضادها بإجماع الأمة الذي يعد المصدر الثالث من مصادر التشريع بعد القرآن والسنة .

ولذلك قال الإمام الحافظ المنذري في كتابه ((الترغيب والترهيب)) : وهذه الأحاديث التي ورد فيها الوعيد على تحلي النساء بالذهب تحتمل وجوهاً من التأويل :

أحدها :

أن ذلك منسوخ ، فإنه قد ثبت تحلي النساء بالذهب .

الثاني :

أن هذا في حق من لا يؤدي زكاته ، دون من أداها ، ويدل على هذا حديث عمرو بن شعيب ، وعائشة ، وأسماء أي الأحاديث 5 ، 6 ، 7 ، التي ذكرناها آنفاً .

الثالث :

(86/1)

(279/641)

---

أنه في حق من تزينت به وأظهرته ، ويدل لهذا ما رواه النسائي ، وأبو داود ، عن ربعي بن خراش ، عن امرأته ، عن أخت لحذيفة ، أن رسول الله قال : (( يا معشر النساء ، ما لكن في الفضة ما تحلين به ، أما إنه ليس منكن امرأة تتحلى ذهباً وتظهره إلا عذبت به )) وأخت حذيفة اسمها فاطمة .

وقال النسائي : باب الكراهة للنساء في إظهار حلي الذهب .

الرابع :

أنه إنما منع منه في حديث الأسورة والفتخات لما رأى من غلظه ، فإنه مظنة الفخر والخيلاء ، وبقية الأحاديث محمولة على هذا . اهـ .

وقال الإمام جلال الدين السيوطي في كتابه " زهر الربي على المجتبى " شرح سنن النسائي ، عند الكلام على أحاديث الباب الذي فيه حرمة الذهب على النساء مما رويناه قبل قليل : هذا منسوخ بحديث (( إن هذين حرام على ذكور أمتي حل لإناثها )) ، قال ابن شاهين في "

ناسخه " : كان في أول الأمر يلبس الرجال خواتيم الذهب وغير ذلك ، وكان الحظر قد وقع على الناس كلهم ، ثم أباحه رسول الله للنساء دون الرجال ، فصار ما كان على النساء من الحظر مباحاً لهن ، فنسخت الإباحة الحظر .

وحكي النووي في شرح مسلم " إجماع المسلمين على ذلك " .ا هـ .

قلت : وممن نقل الإجماع أيضاً ابن تيمية في "الفتاوى "كما أسلفنا ، والبيهقي في السنن ، وابن حجر في الفتح .

وقال السندي في حاشيته على النسائي : (( ولولا الإجماع لكان الظاهر أن يقال : أولاً كان الذهب حلالاً للكل ، ثم أبيح للنساء دون الرجال ، ثم حرم على النساء أيضاً )) . أهـ .

(87/1)



---

فانظر إلى دقة هذا الإمام ، وانظر إلى علمه ، فالإجماع من مصادر التشريع التي لا يجوز الخروج عنها ولو لم يقترن بدليل شرعي ، كما هو مقرر عند علماء الأصول ، فكيف به إذا اقترنت به عشرات الأحاديث الصحيحة الدالة على ما دل عليه ولكنها العصبية المفرطة ولا يسعنا نحن في خضم التيارات العنيفة التي تجتاح مجتمعنا الإسلامي وقد درس العلم ،

وفشا الجهل ، ورأينا الشح المطاع ، والهوى المتبع ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه إلا أن نقول ما أمرنا الله به عند نزول المصائب : " إنا لله وإنا إليه راجعون " .

وفي ختام هذا البحث نعود فنقول :

إن التحلي بالذهب والفضة جائز للنساء مطلقا ، لا فرق بين المقطع منه والمتصل ، فالأحاديث الواردة في حله عامة ، لم تخص نوعا دون نوع ، وما ورد منها في جواز المقطع فقط يحمل على المحامل التي ذكرناها عن المنذري والسيوطي آنفاً .

وسواء في الحلي ما كان من الحلي في اليد ، أم العنق ، أم الأذن ، أم غير ذلك إلا أننا نقول إن الإسراف في استعمال الحلي حرام ، لا لأنه ذهب أو فضة ، وإنما لأنه سرف وتبذير ، وقد قال تعالى : ]إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ[ ﴿ الإسراء / 27 ﴾ والسرف ليس له ضابط في الشرع ولا في اللغة ، ولذلك يرجع فيه إلى العرف كما هو مقرر في القواعد الفقهية العامة .

وأخيراً إليك ما قاله إمام السلفية وحامل لوائهم ، ابن تيمية في " الفتاوى " 25 / 64 :

" وباب اللباس أوسع من باب الآنية ، فإن آنية الذهب والفضة تحرم على الرجال والنساء ، وأما باب اللباس : فإن لباس الذهب والفضة يباح للنساء بالاتفاق ، يباح للرجل ما يحتاج إليه من ذلك ، ويباح يسير الفضة للزينة ، وكذلك يسير الذهب التابع لغيره ، كالطرز ونحوه في أصح القولين في مذهب أحمد وغيره ، فإن النبي نهى عن الذهب إلا مقطعاً . ا هـ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

***

(88/1)

(281/641)

---

---

---

(1) دائرة معارف القرن العشرين 6/210

(2) صدر عن دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، في 1994 م .

المتفيهقون والسنة النبوية

لم يقف التفيهق عند حد الجرأة على الفتوى في واقعة معينة ، أو الكلام على حكم معين ، أو التهكم ببعض اجتهادات الأئمة ، على ما بيناه في الفقرات السابقة .

وإنما تعداه إلى أصول الإسلام الأصلية ، فتجرأ بعض الزنادقة على كتاب الله ، ونادوا بحذف بعض الكلمات من القرآن .

وعمد بعضهم الآخر إلى تفسيره تفسيراً باطنياً ، حسبما تمليه الشهوة ، ويبعث عليه الهوى

، سواء أكان في بعض آياته ، أم في كل الآيات ، وعمد فريق ثالث إلى محاولة التسلل لكتاب الله عن طريق ظاهرة باطلة زعمها في كتاب الله ، بهرت كثيراً من الناس في بدايتها ، أراد من خلالها الوصول إلى إثبات مذهب البهائية الباطل ، كمحمد رشاد خليفة في أكذوبة الإعجاز العددي في رقم 19 ، والتي فتن بها كثيراً من الناس ، وأراد من خلالها تحريف القرآن الكريم لصالح كفره وإلحاده في مذهبه البهائي .

وكنت ولله الحمد من أوائل من تنبه لهذه الأكذوبة ، وبينت بطلانها (1) .

وتجرأ بعض المتفيهقين على سنَّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأخذوا يطعنون بها ، بكل ما لديهم من وسائل ، وما عندهم من إمكانيات ، فتكلموا على تدوينها ، وعلى دواوينها ، وعلى رواتها ، وعلى أسانيدها ، وعلى متونها ، حيث لو جمع ما قيل فيها لظهر من خلاله أنه لا يجوز العمل بالسنة ، وهو المراد من كل تلك الطعون التي وجهت إليها .

وهذا من دهاء الأعداء ، لأنهم لو دونوا كل طعونهم ، ووجهوها دفعة واحدة إلى السنة ، على لسان إنسان واحد ، لأدى إلى ثورة العامة والخاصة عليها وعلى كاتبها ، ولباءت المحاولة بالفشل .

ولكنهم جزئوا هجومهم وطعونهم على الزمان ، والمكان ، والأشخاص ، إما بالعمالة المباشرة ، وإما بالإيحاءات الباطلة ، والتلقين المنحرف .

(89/1)

وهكذا أصبحنا نسمع كل يوم عن شبهة جديدة في سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تدعو إلى ترك العمل بها ، أو على الأقل تدعو إلى تقليصها وقصرها على بعض جوانب الحياة .

وهذه الشبهة وإن كانت أو هي من بيت العنكبوت إلا أنها قد تجد قلباً فارغاً ، وعقلاً ساذجاً فتستقر فيه ، ولذلك وجب ردها وإبطالها ، وبيان ما فيها من الزيف والضلال .

وهذا المقالة رد على نموذج من نماذج الجرأة على سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، نفثها قلم متفيهق مغمور ، خلاصتها دعوة إلى إخضاع سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جميع مصادرها ، حتى ولو كانت في الصحيحين – للعقل البشري ، على ما سنراه في الدعاوى التي قدم بها مقالته (2) .

لقد زعم تحت عنوان – الموقف اليوم – أمورا هي :

أن أكثر المؤلفات في علم الحديث والتي تعدو الآلاف قد جعلت مهمة الباحث جد عسيرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد قال في مجال المعاملات أقوالاً باجتهاده الخاص وأنها تحتمل الخطأ .

أن مثل قوله عليه السلام " احفوا الشارب وأعفوا اللحى " إنما كان من قبيل الرأي والإرشاد لا من قبيل التشريع .

أن فقهاء الحنفية والمالكية والشافعية قد خالفوا الأحاديث ، المتفق على صحتها في مئات المسائل ولم يعتبر أحد منهم مخالفا لأصل الدين .

أن جمهور العلماء يكتفي بالصحيحين البخاري ومسلم علماً بأنهما لا يحويان كل الصحيح .

أشار إلى انتقاد بعض العلماء للصحيحين وقدم لهذا بأنهما ليسا معصومين هما ورواتهما من الخطأ ، إشارة إلى أخطائهما .

زعم أن بعض الأحاديث التي حكم لها المسلمون بالصحة ، ورواها أئمة الحديث في صحاحهم ليست من أقواله عليه السلام ، وأنها تسيء للإسلام وعدد بعضها مع أنه في الصحيحين .



---

طالب بوضع صحيح عصري يجمع كل الأحاديث الصحيحة التي لم ترد في الصحيحين على أن يجنب تلك الأحاديث التي وردت في الصحيحين ، والتي تسئ إلى الإسلام .

ونحن لا يسعنا إزاء هذه المزاعم الباطلة إلاَّ أن نرد عليه رداً موضوعياً نبين من خلاله خطأه ونعيد به الحق إلى نصابه .

(90/1)

1 – لقد عاب أكثر المؤلفات في علم الحديث فقال : إلا أن أكثر هذه المؤلفات التي تعدو الآلاف قد جعلت مهمة الباحث جد عسيرة ، ويزيد الأمر صعوبة أن من الأحاديث ما صحت متونه ولم تصح أسانيده .

ونقول : إن صعوبة البحث في كتب الحديث ليس راجعاً إلى ذات الكتب بدليل أن علماء المسلمين على مر العصور والدهور منذ أكثر من ألف عام حتى الآن وهم يرجعون إلى هذه الكتب ، ويبحثون فيها ويستنبطون منها ، ولم نجد واحدا منهم زعم أنها كانت عقبة في سبيل بحثه ، أو ما نعاً له من الوصول إلى غايته ، لأنهم كانوا قد درسوها وفهموها وطبقوها في واقع حياتهم ، ومن ثم حفظوها حتى أصبحت في ذاكرتهم ببداهة الفاتحة في ذاكرتنا ، وهذا شأن الباحث في علم يريد معرفته والإحاطة به .

وإنما ترجع الصعوبة في أيامنا هذه إلى بعدنا عن كتب الحديث ومذاكراتها وحفظها ، وإتقانها ، ولا يجوز لنا والأمر هذا أن نعيب كتب الحديث ونصفها بأنها جعلت مهمة الباحث جد عسيرة بل الإنصاف أن نعيب أنفسنا ونصفها بالعجز والقصور ، مما أدى إلى قصورنا عن إدراك أمانينا ، فأنا إذا ما أردت أن أبحث عن مسألة في علم الطب في أحد كتبه مثلاً ، ثم بطأت بي همتي عن الوصول إلى مسألتي لا يجوز لي أن أقول : إن كتب الطب جعلت مهمة الباحث فيه جد عسيرة ، بل يجب أن أقول : إنني لا أعرف كيفية البحث فيه لأني لم أسلك سبيله ولم أرد موارده ولذلك يلزمني أن أسأل طبيباً عليماً عنها وفي هذه الحالة سيطلعني على المسألة بكل ما فيها ، وهو مغمض العينين مطمئن القلب واثق من الوصول إليها والعثور عليها ، ثقة المحدثين عندما يبحثون عن حديث أو بحث في كتاب من كتبه ومصنف من مصنفاته فإنهم يصلون إليه دون جهد أو عناء وبكل بساطة ويسر .

(91/1)

وأما قوله : ويزيد الأمر صعوبة أن من الأحاديث ما صحت متونه ولم تصح أسانيده كما أن منها ما أشكلت متونه وإن سلمت من الطعن روايته — فهذا كلام لا أشم منه إلا رائحة التشكيك فيما لدينا من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكأن المراد به أنه ليس ثم ضابط يرجع إليه في معرفة الصحيح من غيره وهيهات . . . فإنا لا نعرف علماً

عني به العلماء كعلم الحديث ، ولا نعرف علماً وضعت له الضوابط والموازين الدقيقة كالعلم الذي نبحث فيه عن صحيح أقوال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسقيمها



---

وما أشار إليه من الأحاديث التي صحت متونها ولم تصح أسانيدها كلام لا يلتفت إليه ، فهي على قلة عددها وندرة وجودها لم يتركها العلماء تبعاً لأهواء الباحث وإمكانياته ، وإنما تكلموا عليها بإسهاب وإطناب ، لم يتركوا لها مجالاً لتعقيد أو تشكيك ، فبينوا العلة التي من أجلها ارتقت هذه الأحاديث إلى الصحة من قرينة توجب ذلك ، كتلقي الأمة لها بالقبول خلفا عن سلف ، أو غير ذلك من الأمور مما يطول شرحه ، ومما فاضت به كتب الحديث ومصطلحه ، ومما يرجع إلى قواعد مضبوطة مطردة ، وكيف علمنا أن هناك أحاديث صحت متونها رغم ضعف أسانيدها لولا تنبيه العلماء عليها وذكرهم لها ، وإذا كان الأمر كذلك فما هو وجه الصعوبة ، والتعقيد فيها . . ؟ ؟

وكل ما يقال في هذا يقال في نظيره من الأحاديث التي صحت أسانيدها وأشكلت متونها وهي أقل من الأولى على قلة أحاديثها .

فأين الصعوبة وأين ما يزيد الأمر صعوبة ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

كفلق الصبح قد بذل العلماء فيها من الجهد الجهيد في التحقيق والضبط ، والتدقيق ، والتنقيح ما جعلنا ننظر إليها وكأنها تخرج من فم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دون ريبة أو شك . . وهذا ما يشهد به أعداء المسلمين قبل أن يشهد له المسلمون .

وما الصعوبة إذاً إلا في ذهن من قدَّرَ الله له أن يكون عاجزاً عن بلوغ الغاية التي يستطيع بواسطتها البحث والتنقيب .

(92/1)

2 – زعم كاتب المقال أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول أشياء في مجال المعاملات من قبيل الإجهاد الخاص الذي يحتمل الخطأ ، فقال تتمة لكلامه السابق : كما أنه في مجال المعاملات ما زال يختلط الأمر بين ما قاله الرسول اجتهاداً خاصاً يحتمل الخطأ كالنهي عن تأبير النخل وبين ما قال رأياً وإرشاداً لا للتشريع ، وبين ما قاله تشريعاً ملزماً وهو الكثير .

*(286/641)*

---

والذي يهمنا هنا هو الفقرة الأولى ، وأما الثانية فسأتكلم عليها في الفقرة الثالثة : وقبل الخوض فيها أقدم لها بمقدمة حول إجهاده عليه السلام ، فأقول :

ذهب جمهور المسلمين من الفقهاء والأصوليين إلى أنه عليه السلام كان يجوز له الإجهاد في الحوادث كسائر الأنبياء ، وهو مذهب الشافعي وأكثر أصحابه ، وأحمد ، والقاضي أبي يوسف من الأحناف ، والقاضي عبد الجبار وأبي الحسين البصري من المعتزلة ، وأختاره الآمدي في الإحكام (4 / 134 ) ، وابن الحاجب في المنتهى والمختصر ، والبيضاوي تبعا للرازي كما في الإبهاج ( 3 / 169 ) وهو اختيار الإمام الشيرازي كما في التبصرة ، واللمع (ص 76 ) . ومن الناس من جوزه في أمور الحرب دون غيرها كالأحكام الشرعية ، كما في الإحكام (4 / 143 ) .

وفصل الأحناف فقالوا : لا يجوز له الإجهاد ما دام راجياً للوحي اذ هو مأمور بانتظاره ، كما في تيسير التحرير ( 4 / 183 ) .

وذهب قوم إلى منعه مطلقاً ، وبه قال بعض المعتزلة كأبي علي الجبائي وابنه أبي هاشم ، كما في الإحكام (4 / 143 ) .

والجمهور القائلون بالجواز قد اختلفوا هل وقع منه اجتهاد أم لا ؟

فذهب أكثرهم إلى أنه قد وقع ومنهم الشيرازي والآمدي وابن الحاجب . ومنهم من أنكر وقوعه ، وتوقف المحققون كما قال ابن السبكي في الإبهاج (3 / 169 ) .

والقائلون بالوقوع قد اختلفوا ، هل كان الخطأ جائزاً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في إجهاده أم لا ؟ ؟

(93/1)

فذهب بعضهم إلى أنه لا يجوز عليه الخطأ فيما اجتهد به من الأحكام ، واليه ذهب الإمام الرازي وتبعه البيضاوي واختاره ابن السبكي وأطنب في نصرته ، وشنع على من قال بخلافه وقال في الإبهاج (3 / 172 ) بعد أن صوب القول بأنه لا يخطئ : وأنا أطهر كتابي أن أحكي فيه قولاً سوى هذا القول ، بل لا نحفل به ولا نعبأ .

(287/641)

---

وذهب بعضهم إلى أنه كان يجوز عليه الخطأ في اجتهاده ، إلاَّ أنهم اتفقوا على أنه لا يقر عليه ، بل ينزل الوحي ويرشده إليه ، ويبين الصواب فيه ، وهو اختيار الشيرازي في كتابيه التبصرة واللمع ، وحكاه الآمدي عن أكثر أصحابه والحنابلة وأصحاب الحديث وجماعة من المعتزلة ، ومن ثم اختاره هو وابن الحاجب وانظر الاحكام (4 / 187 ) ، والمنتهى (ص 162 ) واللمع (ص 76 ) ، والتبصرة (ق / 139 / ب) مصور في خزانتنا الخاصة عن نسخة الأزهر ، والمستصفي (2 / 255 ) .

ومن خلال هذه المقدمة الوجيزة نرى أن علماء الأمة قد انقسموا بين محيل للخطأ عليه وبين مجيز له إلاّ أنه يقول بانه لا يقر عليه ، ولم نر واحدا من علماء الامة قال : إن الرسولصلى الله

عليه وآله وسلم كان يجتهد في المعاملات ، وكأن اجتهاده محتملا للخطأ وكان يقر عليه ولا ينبه إليه ، إذا لأصبح الأمر فوضى والتبس الحق بالباطل ولأصبح المسلم لا يدري هل أصاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما قال أو أخطأ ، وهذا لا يقول به مسلم قد خالطت بشاشة الإيمان قلبه وإن كل ما قاله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يجب أن تلتزم به الأمة سواء أكان على طريق الوجوب ، أم الندب ، أم الإباحة ، أم الكراهة ، أم التحريم وأن حادثة التأبير حادثة واحدة قد نبه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عليها ولا يجوز لنا أن نقيس بها غيرها من الأمور التى تتعلق بالمعاملات ، ولو أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عاد فى السنة الثانية ونهى الناس عن تأبير النخل لوجب عليهم أن يلتزموا أمره وأن يمتنعوا عن تأبيره وإلا سيكونون ممن أعرض عن إتباع شرعه ، وكفر برسالته .

(94/1)



---

وأما قوله عليه السلام : "أنتم أعلم بأمور دنياكم" ، فليس المراد منه أن نخالف الأحكام التي يأتينا بها فيما يتعلق بأمور دنيانا وإنما هو إخبار عن حادثة قد وقعت تبين فيها أن الصواب

كان في عدم نهيهم عن تأبير النخل كما هو الظاهر في الحديث ، وإن كانت لنا في هذا الحديث كلمات لم نخصص هذا المقال من اجلها ، آمل من الله تعالى إن أمكن في القريب العاجل منها لبيان الحق فيها .

وإلا فلو كان مراده عليه السلام أن يترك لنا الخيار في أمور دنيانا مما نراه مخالفاً لما جاءنا به ومن اجتهاد خاص له فما معنى إلزامنا بما أمرنا به عليه السلام من أمور المعاملات التي تتعلق بدنيانا ؟ . .

أوليست المعاملات الحالية كالبيع والشراء والإجارة والرهن والهبة ، والسلم ، والمزارعة ، والمخابرة ، وإحياء الموات ، والقراض ، والكفالة ، والضمان وغير ذلك من أمور المعاملات مما هو متعلق بأمور دنيانا ومما جاءنا به عليه السلام إما اجتهاداً وإما عن طريق الوحي غير المتلو .

أفيجوز لمسلم أن يقول في هذه المعاملات ، هذه معاملات تتعلق بأمور دنيانا ولم ترد في القران وإنما قالها عليه السلام اجتهاداً خاصاً منه يحتمل الخطأ ولذلك سوف لا نأخذ بها ولا نعول عليها ؟

لقد أجمعت الأمة وأصبح مما هو معلوم من الدين بالضرورة أن من يقول بهذا إنما هو كافر خارج عن ربقة الإسلام .

فكل ما جاءنا عن رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وسلم يجب علينا قبوله والتسليم به والإذعان له ، مهما وجدنا فى نفوسنا ، وأبصرنا بأعيننا ، وسمعنا بآذاننا ، إن الحق بخلافه ، لأن الذي يرسم لنا طريق الحق والباطل ويبين لنا الصواب من الخطأ فى مثل هذه الأمور هو الشرع وليس أهواؤنا وعقولنا ، وما يتراءى لنا أنه الحق إنما هو فى الحقيقة باطل ما دام الشرع بخلافه ، لان الشرع لا يخالف الحق بحال واني لاذكر قول الله تعالي : ]فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا[ ﴿ النساء / 65 ﴾ سواء كان ما نرفعه إليه ليحكم لنا فيه من أمور ديننا أم دنيانا وهذه الآية نزلت في أمر من أمور دنيانا ؟

ولا داعي إذا لما قاله كاتب المقال من أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يجتهد في المعاملات اجتهاداً خاصاً يحتمل الخطأ .

وإن حادثة كحادثة التأبير أو أسرى بدر ، أو الصلاة على المنافقين مما بين الوحي أن الصواب كان بخلافه إنما هي حوادث معدودة ، واضحة بينة قد نبه عليها عليه الصلاة والسلام كما أشار إليها القرآن ولم تعد تلتبس بغيرها من الأمور كما يفهم من كاتب المقال ،

وإن كان للمحققين من العلماء أيضاً مواقف من هذه المسائل لا تحتملها هذه العجالة ولسنا بحاجة بعد هذا البيان إلى التشكيك في صحة ما يصدر عنه عليه السلام ووجوب العمل به .

وأعود فأقول : إنا إن جوَّزْنا الخطأ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإنما نجوِّزُه بشرط أن لا يُقَرَّ عليه ، حتى لا تلتبس الأحكام على المسلمين ويصير الأمر فوضى لا ضابط له وعلى هذا إجماع المسلمين .

(1/96)



---

وإن ما لدينا من أحاديث تتعلق بالمعاملات وتخصنا في أمور دنيانا يجب علينا أن نتبعها وأن نعتقد بأنها هي الحق الذي يجب أن يحتكم إليه ويعول عليه ، سواء كانت من قبيل الإجهاد أم الوحي غير المتلو ما لم يبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلافها كما بين في حادثة تأيير النخل وأسرى بدر وغير ذلك .

وإن من يقول بأن اجتهاداته عليه السلام كانت تحتمل الخطأ في المعاملات مما يتعلق بأمور دنيانا إنما هو إنسان ما قدر النبوة حق قدرها ، ولا أعطى الشريعة حقها .

وأنه لا فرق في وجوب لزوم أوامره عليه الصلاة والسلام بين ما كان من قبيل العبادة ، أو العادة ، أو المعاملة أو القضاء أو الأحوال الشخصية أو غير ذلك ، فالكل في وجوب إتباعه وحرمة الإعراض عنه سواء .

والأحاديث في هذا المعني متظاهرة مستفيضة لا تخفى على مسلم ويكفينا منها قوله عليه السلام في حادثة الرهط الذين حرموا على أنفسهم أشياء أبيحت لهم : فمن رغب عن سنتى فليس منى" وقوله عليه السلام : لا أُلْفَيَنَّ أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول : لا أدري ما وجدناه في كتاب الله اتبعناه" .

قال البغوي في شرح السنَّة (1 / 201) : وفى الحديث دليل على أنه لا حاجة بالحديث إلى أن يعرض على الكتاب ، وأنه ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان حجة بنفسه ، فإذا كان هذا شأن الحديث مع الكتاب فكيف يكون حاله فيما نراه نحن البشر . . ؟

قال كاتب المقال : "كما أنه في مجال المعاملات لا زال الأمر مختلطاً بين ما قاله الرسول إجهادا خاصاً يحتمل الخطأ . . . وبين ما قاله رأياً وإرشاداً لا للتشريع ، كحديث : "احفوا الشارب وأعفوا اللحى" .

وأقول :

(1 /97)

إني لا زلت أتعجب منذ أن قرأت المقال إلى أن كتبت هذه الكلمات من تفريق الكاتب بين ما قاله رأياً وإرشاداً ، وبين ما قاله تشريعاً ، فإن الذي علمته وقرأته وسمعته من أهل العلم المتخصصين به ، الممارسين له ، أن الإرشاد الذي يرشد به النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته هو عين التشريع ، ولم أعلم أن أحدا فرق بين أقواله عليه السلام ، وقال إن هذا القول يراد به الإرشاد لا التشريع ؟ ! .

إن الذي علمناه من دين الله أن الأوامر الشرعية — سواء صدرت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو عن الله تعالي — قد ترد للوجوب ، أو الندب ، أو الإباحة ، أو الإرشاد ، وذكر العلماء ما يزيد عن عشرين معنى ترد له صيغة الأمر ، والإرشاد أحد معانيه ، فالذي يقابل الإرشاد هو الوجوب والندب وغيرهما ، لا التشريع كما قال صاحب المقال ، فما ورد منه عليه السلام على سبيل الإرشاد هو جزء من التشريع ، ويجب على الأمة أن تعمل به حسبما ورد له ، وليس لها أن تقول : هذا وارد على سبيل الإرشاد لا على سبيل التشريع ولا نريد أن نعمل به :

]وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ

[ ﴾ الأحزاب / 36 ﴿

]مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ [ ﴾ النساء / 80 ﴿

]قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ [ ﴾ آل عمران / 31 ﴿

وليعلم أيضا أن ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأيا هو أيضا تشريع ، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ما ينطق عن الهوى :

]وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى [ ﴾ 3 ﴿ ]إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى [ ﴾ النجم / 3 ، 4 ﴿

كما بينا ذلك في الفقرة السابقة في اجتهاده عليه السلام ، وإذا لم يكن رأيه وإرشاده عليه الصلاة والسلام تشريعاً ، فما الذي يكون تشريعاً . . ؟

ثانياً :



---

مثَّل الكاتب للرأي الذي ليس للتشريع بقوله عليه السلام : "احفوا الشوارب وأعفوا اللحى" إلاَّ أنه قد فاته صدر الحديث الذي رواه البخاري ومسلم : "خالفوا المشركين ، وفروا اللحى واحفوا الشوارب" .

(1/ 98)

وفاته ما رواه احمد ، والنسائي ، والترمذي – وقال : حديث صحيح – عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : "من لم يأخذ من شاربه فليس منا" .

وفاته أيضاً ما رواه ابن جرير الطبري في قصة إرسال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رسوله إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام ، وفيه أن عامل كسرى على اليمن أرسل رجلين إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فدخلا عليه وقد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما ، فكره النظر إليهما ، وقال : "ويلكما من أمركما بهذا ؟" قال : أمر ربنا – يعنيان كسرى – فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : "ولكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي" [3] ، انظر تاريخ الطبري (2 / 655) .

فاته من العلم أن علماء الأمة سلفاً وخلفاً قد تابعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما أمر ، وأجمعوا على أن الأخذ من الشارب ، وترك اللحية مما شرعه لنا صلى الله عليه وآله وسلم ، وإن كانوا قد اختلفوا في ذلك ، هل هو على سبيل الوجوب ، يأثم تاركه ويفسق ، وهو رأي الأكثر ، أم هو على سبيل الندب وهو رأي الأقل .

ولو اطلع على هذا لما مثل برأي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإرشاده الذي ليس للتشريع – بزعمه – بما مثل ، ولعل عذره في ذلك صعوبة البحث والتمييز في كتب القوم . . والله اعلم . . ! !

زعم كاتب المقال أن فقهاء المذاهب يخالفون الأحاديث المتفق علي صحتها فقال : "وإننا

نجد في كتب الفقه في المذاهب المختلفة لا سيما كتب الحنفية والمالكية فالشافعية مئات من المسائل المخالفة للأحاديث المتفق على صحتها ، ولا يعد أحدهم منهم مخالفاً لأصل الدين" .

وأقول للكاتب :

(293/641)

---

بم عمل الفقهاء حينما أعرضوا عن تلك الأحاديث المتفق على صحتها حين هجروها وأعرضوا عنها فإن قال : بأهوائهم ، فقد ألزمهم الكفر أو الفسق وهم من هذا براء رحمهم الله ورضي عنهم وأرضاهم ، وإن قال : عملوا بأدلة شرعية أخرى قامت عندهم ، قلنا له : إذا لم تعد تلك الأحاديث الصحيحة مهجورة ، وإنما أصبح الواجب على الفقيه في هذه الحالة أن يعمل بالدليل الشرعي الراجح دون المرجوح ، وهذا شأن كل دليلين متعارضين ، لا يجوز العمل بالمرجوح منهما .

(1 / 99)

وأقول أيضاً : إن الحديث إذا صح ، ولم يعارض ، وجب على كل رجل من المسلمين العمل به ، والجري على مقتضاه .

ولا أظن أحداً يجهل قول الإمام الشافعي رضي الله عنه : إذا صح الحديث فهو مذهبي ، وإذا تعارض كلامي مع الحديث الصحيح فاضربوا بكلامي عرض الحائط .

وهذه العبارة قد أثرت عن معظم الفقهاء والمتقدمين لفظاً أو معنى ، وهي عقيدة كل رجل مسلم .

وإذا كان الدكتور الفنجرى يعلم حكماً شرعياً واحداً خالف فيه أئمة الحديث لغير ما ذكرنا من سبب فليوجدانه ، ولن يجد إلى هذا سبيلاً ما دام يبحث في كتب قوم مسلمين .

ونزيد القارئ الكريم فائدة وهي أن فقهاء الحنفية مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة تقديم الحديث الضعيف على الرأي كما نقله عنهم ابن حزم في كتابه (ملخص ابطال القياس) (ص86) ، والحافظ الذهبي عنه في مناقب أبي حنيفة (ص21) ، والمحدث على القارئ في (المرقاة) (1 / 3) ، وابن حجر الهيتمي في الخيرات الحسان (ص78) ، وابن حزم في الاحكام (7 / 54) أيضا .

بل ذهب بعض الحنفية إلى تقديم أقوال الصحابة عند تعارضها مع القياس ، كما نقله فخر الإسلام البزدوي ، وانظر : نور الأنوار (ص216) ، والتوضيح (2 / 17) .

وقال الإمام الشافعي في الأم (7 / 246) : "ما كان الكتاب والسنة موجودين فالعذر عمن سمعهما مقطوع إلا باتباعهما ، فإذا لم يكن ، صرنا إلى أقاويل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو واحد منهم ، ثم كان قول أئمة أبي بكر أو عمر أو عثمان إذا صرنا فيه إلى التقليد أحب إلينا ، وذلك إذا لم نجد دلالة في الاختلاف تدل على أقرب الاختلاف من الكتاب والسنة ، فنتبع القول الذي معه الدلالة ، فإذا لم يوجد عن الأئمة ، فأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الذين في موضع أخذنا بقولهم ، وكان اتباعهم أولى بنا من اتباع من بعدهم" .

وهذا ما نص عليه مالك وأحمد رضي الله عنهما ، وقدم أحمد أيضاً الحديث الضعيف على آراء الرجال .

فأين بعد هذا مخالفة كتب الشافعية ، والمالكية ، والحنفية ، بمئات المسائل للأحاديث المتفق على صحتها . . ؟ !

(1 / 100)

أليست هذه دعوى كاذبة تدعو إلى العجب ، وتثير القلق ، وتجعل القارئ يتهم كاتب المقالة بأنه لا يريد من كلامه إلا التشكيك والتبهيت . . ؟ اللّهم بلى . .

زعم صاحب المقالة أن جمهور الفقهاء يكتفي بالصحيحين مع أنهم لم يجمعا كل الصحيح ، فقال : "كما انه في مجال الوقوف على السنة يشير جمهور العلماء بالاكتفاء بالصحيحين

(صحيح البخاري وصحيح مسلم) ولكن إن من المتفق عليه أن الصحيحين لا يحويان كل الأحاديث الصحيحة ، فإن من دواوين السنة العديدة الكثير من الصحاح التي لم ترد بصحيح البخاري أو مسلم" . اهـ .

وأقول :

*(295/641)*

---

إنَّ من البديهي عند كل من شم شذا من رائحة العلم أن البخاري ومسلماً لما يجمعا كل الصحيح ، ولا أكثره ، بل ما فاتهما من الصحيح أكثر مما جمعاه ، وهذا شيء ذكر في متون الكتب الصغيرة علاوة عن الشروح والكتب الكبيرة ، فهو مما لا يفوت طالب العلم مهما صغر شأنه ، وأظن أن الذي أوقع الدكتور الفنجرى بهذا الادعاء هو عدم فهمه لمراد جمهور العلماء الذين أشار إليهم ، فهم يقولون : إذا ورد الحديث في الصحيحين – وقد أجمعت الأمة على صحة ما فيهما – فلا داعي للإشارة إلى من خرجه من أصحاب الكتب الأخرى ، لاسيما إذا كان الباحث فقيهاً ، فغاية مراد الفقيه الوقوف على الصحة في الحديث ، وهذا تحصل بالوقوف عليه في الصحيحين ، فلا حاجة لسرد أسماء من أخرجه من أصحاب الكتب الأخرى ، وليس مرادهم أبداً أن الباحث منهم يكتفي

بالبحث في الصحيحين فقط ، دون غيرهما ، فإن عثر على الحديث عمل بمقتضاه ، وإلاّ توقف أو عدل إلى أدلة الشرع الأخرى .

وإن مما هو معلوم لدى الكبير والصغير من أهل العلم أن العالم لا يجوز له أن يعدل إلى دليل غير القرآن والسنة إلا بعد أن يفرغ جهده في البحث والتنقيب فيهما ، فيبحث عن الحديث في الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث مهما وصل إلى سمعه وعلمه كتاب صنف فيه ؟

فان لم يجد فعند ذلك يجتهد . .

(1 / 101)

واليك ما قاله الإمام العراقي في كتابه : تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد (1 / 81) ، قال : "ولفظ الحديث الذي أورده في هذا المختصر هو لمن ذكر الإسناد إليه من الموطأ ومسند احمد" .

فإن كان الحديث في الصحيحين لم أعزه لأحد ، وكان ذلك علامة كونه متفقا عليه .

وإن كان في أحدهما اقتصرت على عزوه إليه .

وان لم يكن في واحد من الصحيحين إلى من خرجه من أصحاب السنن الأربعة وغيرهم" .

أهـ . كلام العراقي .

فهو لم يرد قط من الأكتفاء بالغزو إلى الصحيحين الأكتفاء بهما دون الالتفات إلى غيرهما ، كما أنه لم يعن هذا عالم من علماء المسلمين قط علاوة عن جمهورهم .

يقول كاتب المقال تتميماً لكلامه السابق ومنتقلاً للكلام على صحيحي البخاري ومسلم :

" هذا إلى انه من المعروف أن صحيحي البخاري ومسلم وان كانا فيما أورداه هما أصح كتاب بعد كتاب الله ، إلا أنهما ليسا معصومين هما ورواتهما من الخطأ ، ولقد انتقد بعض علماء الحديث كالدار قطني بعض أحاديث الصحيحين ، وجرحوا بعض رواتهما ، والأحاديث المنتقدة في البخاري نحو (110) مائة وعشرة منها ما انفرد به ، ومنهما ما أخرجه مسلم أيضاً ، وما أنتقد من إفراد مسلم أكثر مما انتقد من إفراد البخاري " .

وأقول : إن مثل قائل هذا الكلام ، كمثل من يقرأ قوله تعالى : ]فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ[ ﴿ الماعون / 4 ﴾ ، ويسكت .

لقد كان من الواجب تجاه الحقيقة والعلم والإنصاف أن يذكر صاحب المقالة تتمة الكلام الذي قاله كل من تكلم في علم الحديث وصنف فيه من الأئمة الذين لا يقلون عن الدار قطني إن لم يفضلوه والذين دافعوا عن الصحيحين ونفوا عنهما ما وجه إليهما وما انتقد عليهما ، وإذا كان لا يستطيع ذلك لمشقة الخوض فيه فقد كان بإمكانه أن يشير إليه بقول السيوطي :

وانتقدوا عليهما يسيراً وكم ترى نحوهما نصيراً

(102/1)

أو بقول غيره من أصحاب المتون المختصرة . . ؟ اللهم إلا إذا كان صاحب المقالة يريد الطعن في الصحيحين والتشكيك بهما ، لا الدفاع عنهما ، وعند ذلك سنضطر للإجابة فنقول :

إن الجرح كما يكون بسبب حقيقي واقعي ، يكون بسبب وهمي خيالي ، وكما يصدر من اجل النصح ، والإصلاح ، يصدر من أجل الضغائن والأحقاد ، ولذلك قال العلماء : لا يقبل الجرحُ إلا إذا بين السبب ، لاحتمال أن يجرح الرجل من بعض المتشددين بما لا داعي للتجريح به في نظر العدول المنصفين ، وقالوا : لا يقبل كلام الأقران بعضهم في بعض ، لما يكون بينهم من التحاسد والتدابر . .

(297/641)

---

قال السيوطي في التدريب (1 / 306) : وقد عقد الخطيب لذلك باباً خاصاً ، روى فيه عن محمد بن جعفر المدائني قال : قيل لشعبة : لِمَ تركت حديث فلان ؟ قال : رأيته يركض على برذون فتركت حديثه .

وروي عن مسلم بن إبراهيم أنه سئل عن صالح المري ، فقال : وما تصنع بصالح . . ؟

ذكروه يوماً عند حماد بن مسلمة فامتخط . أهـ . إلى آخر ما هنالك من الأمور التي عدها بعض المتشددين جرحاً ولا جرح فيها . .

والجرح لم يسلم منه أحد ، فقد جرح أناسٌ قام هذا الدين على جهودهم وجهادهم ، حتى إن بعض الناس طعن في الإمام أحمد بن حنبل ، وعندي رسالة مخطوطة للإمام الذهبي منقولة من نسخة نقلت من خطه اسمها ( جزء فيمن تكلم فيه وهو موثق ) ذكر فيها أسماء أناس جرحوا ، وتكلم فيهم ، وهم عدول سالمون مما وجه إليهم ، بل ربما كان بعضهم من أساطين الفن ، وأرباب هذا العلم ، قال في مقدمتها : " وهؤلاء الرجال الذين سأذكرهم إن لم يصل حديثهم إلى أعلى درجات الصحة فهو لا ينزل عن رتبة الحسن " . أهـ .

وعد منهم الإمام الأجل أمير المؤمنين في الحديث أحمد بن حنبل ، وقال بعد ذكر اسمه وما وجه إليه " وإذا لم يسلم أحمد فمن يسلم . . ؟ ! إذا فليس كل جرح يقبل ، وليس كل نقد ينقل .

(1/ 103)

وقد طعن بعض زنادقة هذا العصر في الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو أكثر رواة الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم رواية ، وتكلموا عليه كيداً لدين الله وحقدا وحسداً بما يتنزه الإنسان المؤمن عن ذكره وترداده ، كل ذلك من أجل الطعن في دين الله تعالى ، فهل نقبل ما قيل فيه ، أم نرده على أصحابه منوطاً بكل لعنة وسخط في الأرض

. . . ؟ ! اللهم إنا نرده . وقد قيض الله لأولئك من يرد عليهم ويدفع كيدهم .

وكما طعن فيمن ذكرت طعن في بعض أحاديث صحيح البخاري التي ذكرها كاتب المقالة . وكان سيد الطاعنين هو الإمام الأجل الدار قطني رضي الله عنه وأرضاه .

(298/641)

---

إلا أن طعونه كانت من وجهة نظر خاصة به ، لم ترق إلى درجة القدح في الصحيحين عند جمهور العلماء المدققين ، ولذلك جزم كل من أتى من بعدهما بصحة ما فيهما ، وتلقتها الأمة بالقبول ، وأصبحا من أصح الكتب بعد القرآن الكريم .

(1 / 104)

وما من إمام تصدى للكلام على الصحيحين بشرح أو تعليق إلا ودافع عنهما ، وأبان وجه الضعف فيما وجه إليهما ، ومنهم من صنف في ذلك رسائل خاصة ، وقد عقد الإمام ابن الحجر العسقلاني في كتابه ( هدي الساري ) مقدمة شرحه لصحيح البخاري فصلين مطولين من ( ص 246 إلى 465 ) ، أفاد فيهما وأجاد ، خصص الأول للكلام على الأحاديث انتقدها الدار قطني عليه ، والجواب عليهما ، والثاني للكلام على الرجال الذين انتقدوا عليه ، والجواب عليه ، وقد بين فيها أن ما وجه إلى الصحيحين لا يرقى إلى درجة

الطعن فيهما ، وإنما هي أشياء لا وجه لها ، وقد بين ذلك أوضح بيان وأكمله ، فليرجع إليه من شاء ، وقال في مقدمة الفصل الثامن : " والجواب عنه على سبيل الإجمال أن تقول : لا ريب في تقديم البخاري ثم مسلم على أهل عصرهما ، ومن بعده من أئمة هذا الفن في معرفة الصحيح والمعلل ، فإنهم لا يختلفون في أن علي بن المديني كان أعلم أقرانه بعلل الحديث وعنه أخذ البخاري ذلك ، حتى كان يقول : ما استصغرت نفسي عند أحد إلا عند ابن المديني ، ومع ذلك فكان علي بن المديني إذا بلغه ذلك عن البخاري يقول : دعوا قوله ، فإنه ما رأى مثل نفسه .

وكان محمد بن يحيى الذهلي أعلم أهل عصره بعلل حديث الزهري وقد استفاد منه الشيخان جميعاً

وروى الفربري عن البخاري قال : ما أدخلت في الصحيح حديثاً إلا بعد أن استخرت الله تعالى وتيقنت صحته .

وقال مكي بن عبد الله سمعت مسلم بن الحجاج يقول : عرضت كتابي هذا على أبي زرعه الرازي ، فكل ما أشار أن له علة تركته .

فإذا عرف وتقرر أنهما لا يخرجان من الحديث إلا ما لا علة له ، أو له علة إلا أنها غير مؤثرة عندهما ، فبتقدير توجيه كلام من انتقد عليهما يكون قوله معارضاً لتصحيحهما ، ولا ريب في تقديمهما في ذلك على غيرهما ، فيندفع الاعتراض من حيث الجملة " . أ هـ .

ثم ذكر دفع الاعتراض من حيث التفصيل ، ثم أجاب عن كل حديث بانفراد .

(105/1)

وذكر في مقدمة الفصل التاسع قريباً من هذا الكلام مع ما يناسبه من الكلام على الرجال .

وقال : " وكان الشيخ أبو الحسن المقدسي يقول في الرجل الذي يخرج عنه في الصحيحين : هذا جاوز القنطرة ، يعني بذلك أنه لا يلتفت إلى ما قيل فيه . قال الشيخ أبو الفتح القشيري في مختصره : وهكذا نعتقد ، وبه نقول ، ولا نخرج عنه إلا بحجة ظاهرة ، وبيان شاف يزيد في غلبة الظن على المعنى الذي قدمناه ، من اتفاق الناس بعد الشيخين على تسمية كتابيهما بالصحيحين ، ومن لوازم ذلك تعديل رواتهما ، قلت : فلا يقبل الطعن في أحد منهم إلا بقادح واضح ، لأن أسباب الجرح مختلفة " . أ هـ .

ولذلك تلقت الأمة كتابيهما بالقبول ، وأجمعت على صحة ما فيهما ، بل قال جمهور كبير من الفقهاء والمحدثين بأن ما فيهما فيما عدا ما انتقد قطعي الثبوت ، يحصل به العلم الاستدلالي النظري ، لتلقي الأمة المعصومة عن الخطأ لها بالقبول .

وأنا لا أريد أن أطنب في هذا الموضوع الذي يحتاج وحده إلى رسالة جامعية ، لا مقاله صحفية ، ولقد كتبت مجلة العربي يوماً مقالة بعنوان : ليس كل ما في البخاري صحيحاً ، ورد عليها في حينه بمقال في الوعي الإسلامي عنوانه " لا بل كل ما في البخاري صحيح " ومن ثم نشرته جمعية الإصلاح الاجتماعي بالكويت في كتيب خاص ، والموضوع قد يطرح أكثر من مرةَ على بساط البحث ، فلا داعي للإطالة فيه . وما مثل البخاري ومسلم في صحيحيهما ، وما يثار حولهما من تشكيك مبتذل إلا كما قال الرافعي : " لو انقلب جميع الناس في الأرض إلى زبالين ، وأثاروا الغبار على السماء ليغبروها ، فستبقى السماء هي السماء صافية ضاحكة متلألئة ولا يرجع الغبار إلاَّ على رؤوس الذين أثاروه " أ هـ بمعناه .

(106/1)

7 – 8 طالب صاحب المقالة بإيجاد صحيح عصري تستبعد منه بعض الأحاديث التي لا يتصور صدورها عن النبي صلى الله عليه وسلم والتي تسيء للإسلام ، ولو كانت كانت موجودة في الصحيحين . . ؟ فقال : " وبعبارة واضحة إننا نحتاج اليوم إلى صحيح عصري يجمع كافة الأحاديث الصحيحة مما لم ترد بالصحيحين ، ويتجنب بعض ما ورد

بالصحيحين مما لم يسلم بصدوره عن الرسول بأن طعن فيه من حيث الإسناد أو من حيث المتن ، وهو غالباً من أمور العادات التي ليست من أصول الإسلام ، أو فروعه ، ولكنها

تسيء إليه كحديث سحر الرسول ، وحديث لعق الأصابع ، وحديث الذبابة ، وحديث الشياطين " .

وأقول :



إن الحكم بصحة الحديث وضعفه ، لا يرجع إلى ما تشتهيه النفس وترغبه الأهواء ، وكذلك لا يخضع إلى إمكانيات العقول في إدراك ما فيه من مصلحة أو غيرها ، كما أنه لا يخضع لما يمليه البشر من شرقيين وغربيين من آراء ويطلعون علينا من نظريات ، وإنما يخضع لضوابط دقيقة محكمة لا تخفى على ذوي العلم والمعرفة ، مما أشرنا إلى طرف منه ، في الفقرة الأولى ، فإن صح الحديث بالضوابط التي ذكرها علماء الحديث عملنا به ، وقبلناه ، وافق عقولنا أو لم يوافقها ، وافق عليه أرباب الحضارة المادية السائدة هذه الأيام أو لم يوافقوا ، أدركنا الحكمة منه أو لم ندركها ، والذي يهمنا أن نطيع الله ورسوله فيما أمر ونهى ، وبعد ذلك لتفعل العقول البشرية ما تريد أن تفعل من موافقة أو إنكار .

إن ديننا قائم على الإيمان بالغيب ، وهو في مجمله شيء لا تدرك العقول حقيقته ، وقد سلمت به لأنه من أخبار الله تعالى الذي آمنت به . أو من أخبار رسوله الذي شهدت

بصدقه وعصمته . فما صح عنهما قبلناه ، وما لا فلا .

ونحن نؤمن بأن العلم مهما سما وتقدم فلن يأتي يوم من الأيام يتعارض فيه العلم مع الدين ، ولكن العلم في نهاية مطافه سنجده خاضعا للدين ، مستسلما له ، يقر له بكل ما ورد فيه . (107/1)

ولذلك لن نتبع كل ناعق وناهق في الشرق أو الغرب ، ونأتي لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصحيحة فنبطلها لأنها لم توافق نظرية من النظريات الحديثة ، كما يفعله أصحاب الحضارات المتهورة أمام الحضارات القاهرة ، يحاولون أن يسايروها بكل ما تأتي به من حق أو باطل ، أما نحن المسلمون فقد أقمنا علومنا على مبادئ ثابتة ، وأسس قويمة ، لا تتغير ولا تتبدل مهما تبدلت ظروف الحياة وتغيرت .

*(302/641)*

---

ولعل كاتب المقال قد قال ما قال مما ذكرناه في الفقرة الأولى ، من أن بعض الأحاديث قد صحت متونها ولم تصح أسانيدها ، وإن بعضها الآخر قد ضعفت متونه وإن صحت أسانيده ، للوصول إلى مأربه فيما قال هنا من استبعاد بعض الأحاديث التي صحت أسانيدها والتي لم يوافق عليها . . ؟ بل زعم أنها تسِئ للدين .

ولكني أريد أن الفت نظر الكاتب إلى أن العلم الحديث قد خر ساجداً لله تعالى أمام هذا الحديث الذي يعتبر من معجزاته عليه السلام في الإخبار عن الغيب ، بعد أن أكتشف أن في أحد جناحي الذبابة جرثوماً ، وفي الجناح الآخر مضاداً حيوياً لهذا الجرثوم يقضي عليه بمجرد اجتماعه به بعد لمسه للإناء .

وأزيده علماً بأن مجلة العربي قد نشرت منذ ما يقارب تسع سنوات كلاما حول موضوع حديث الذباب ، ورمته بالضعف ، علماً بأنه في الصحيحين وغيرهما ، ووردت عليه الوعي الإسلامي في حينه في العدد السابع لسنة 1385هـ - 1966م ، كما رد عليه الدكتور حسن هويدي في مجلة حضارة الإسلام ، وبينوا في هذه الردود ومن الناحية العلمية أن هذا الحديث من معجزاته عليه السلام ومن مفاخر الإسلام . . ؟ !

وكل ما يقال في هذا الحديث يقال في غيره من الأحاديث التي ذكرها الكاتب والتي لا داعي للإطالة بذكرها ، لأنها هي أيضاً تحتاج لأبحاث خاصة مستقلة .

والمهم أن ما دعي إليه الكاتب شيء يخالف ما عقدنا عليه إيماننا ، وهي دعوة من يريد أن يخضع الدين لهواه ، لا من يريد أن يخضع هواه لله .

(108/1)

ونسأل الله تعالى الهداية والتوفيق ، والحمد لله رب العالمين .

---

(2) وقد نشرت هذه المقالة في مجلة العربي في عددها الممتاز 144 ص - 58 - 62 في شهر ذي الحجة 1394 كانون الثاني 1975 ، بعنوان " السنة النبوية تدوينها في شتى العهود الإسلامية وما احتواها من دراسات وتحقيقات " ، للدكتور محمد شوقي الفنجري .

(303/641)

---

[3] ونحن لا نسوق هذا الحديث للاستشهاد به على حكم اللحية فقد ثبت حكمها فى الاحاديث المتفق علي صحتها ، وانما سقناه للاستئناس بمعناه الواضح فى مصدر الامر ، فلا يضر ما فيه من ضعف ، ولا سيما اذا كان صحيح الحديث يظاهره وصريح القرآن يؤيده .

(1 / 109)

المحتوى :

مقدمة

أثر الجهل فى المجتمع

تورع سلف الأمة عن الفتوى

انقلاب الموازين العلمية . . .

خطر تلقِّي العلم عن كتاب دون معلم ، وعناوين أخرى . . . .

الهجوم على علماؤ الأصول ورميهم بالباطل وعناوين أخرى

إخضاع نصوص الشرع للعقل وإنكار المعجزات وعناوين أخرى . انتهى ﴾

المتفيهقون / للدكتور . محمد حسن هيتو ﴾



---

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تقرر هذا ، تشوف السامع إلى معرفة العلماء فكان كأنه قيل : هم الذين يحافظون على كتاب الله علماً وعملاً ، فقيل : فما لهم ؟ فقال مؤكداً تكذيباً لمن يظن من الكفار وغيرهم

من العصاة أنهم من الخاسرين بما ضيعوا من عاجل دنياهم : ﴿ إن الذين يتلون ﴾ أي يجددون التلاوة كل وقت مستمرين على ذلك محافظين عليه كلما نزل من القرآن شيء وبعد كمال نزوله حتى يكون ذلك ديدنهم وشأنهم بفهم وبغير فهم ﴿ كتاب الله ﴾ أي الذي لا ينبغي لعاقل أن يقبل على غيره لما له من صفات الجمال والجلال ، ولما ذكر السبب الذي لا سبب يعادله ، ذكر أحسن ما يربط به ، فقال دالاً على المداومة بالتعبير بالإقامة وعلى تحقيق الفعل بالتعبير بالماضي : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ أي وهي الناهية عن الفحشاء والمنكر فناجوا الله فيها بكلامه .

(305/641)

---

ولما ذكر الوصلة بينهم وبين الخالق ، ذكر إحسانهم إلى الخلائق ، فقال دالاً على إيقاع الفعل بالتعبير بالماضي ، وعلى الدوام بالسر والعلن لافتاً القول إلى مظهر العظمة تنبيهاً على أن الرزق منه وحده ، لا بحول أحد غيره ولا غيره : ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ أي بحولنا وقوتنا لا بشيء من أمرهم في جميع ما يرضينا ، ودل على مواظبتهم على الإنفاق وإن أدى إلى نفاد المال بقوله : ﴿ سراً وعلانية ﴾ وعبر في الأول بالمضارع لأن إنزالها كان قبل التمام وتصريحاً بتكرار التلاوة تعبداً ودراسة لأن القرأن كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

" أشد تفلتا من الإبل في عقلها " أخرجه مسلم عن أبي موسى الأشعري ـ رضى الله عنه ـ ،

وفي الثاني والثالث بالماضي حثاً على المبادرة إلى الفعل ، وقد تحصل من هذا أنه جعل لفعل القلب الذي هو الخشية دليلاً باللسان وآخر بالأركان وثالثاً بالأموال .

ولما أحلهم بالمحل الأعلى معرفاً أنهم أهل العلم الذي يخشون الله ، وكان العبد لا يجب له على سيده شيء ، قال منبهاً على نعمة الإبقاء الثاني التي هي أم النعم والنتيجة العظمى المقصودة بالذات : ﴿ يرجون ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿ تجارة ﴾ أي بما عملوا ﴿ لن تبور ﴾ أي تكسد وتهلك بل هي باقية ، لأنها دفعت إلى من لا تضيع لديه الودائع وهي رائجة رابحة ، لكونه تام القدرة شامل العلم له الغنى المطلق .

ولما كان المراد بعدم هلاكها حفظها وبقاءها إلى يوم لقائه ، علله بقوله ، مقتصراً على الضمير لأن السياق للمؤمنين ، ولذا لفته إلى ضمير الغيبة لأن إيمانهم بالغيب ﴿ ليوفيهم ﴾ : أي لنفاقها عنده سبحانه في الدنيا إن أراد أو في الآخرة أو فيهما ﴿ اجورهم ﴾ أي على تلك الأعمال ﴿ ويزيدهم ﴾ أي على ما جعله بمنه ويمنه حقاً لهم عليها ﴿ من فضله ﴾ أي زيادة ليس لهم فيها تسبب أصلاً ، بل سيء بعد ما منّ عليهم بما قابل أعمالهم به مما يعرفون أنه جزاءها مضاعفاً للواحد عشرة إلى ما فوق .

ولما كانت أعمالهم لا تنفك عن شائبة ما ، وإن خلصت فلم يكن ثوابها لأنها منّ منه سبحانه مستحقاً ، علل توفيتهم لها بقوله مؤكداً إعلاماً بأنه لا يسع الناس إلا عفوه لأنه لن يقدر الله أحد حق قدره وإن اجتهد ، ولو واخذ أعبد العباد بما يقع من تقصيره أهلكه ﴿ إنه غفور ﴾ أي يمحو النقص عن العمل ﴿ شكور ﴾ أي يقبله ويزيد عليه .

ولما كانت ترجمة الآية أن العلماء هم حملة الكتاب ، وبدأ سبحانه بأدنى درجاتهم ، وكان ذلك مما يرغب في الكتاب ، أتبعه ترغيباً هو أعلى منه ، فقال عاطفاً على قوله في تقرير الأصل الثاني الذي هو الرسالة ﴿ إنا أرسلناك بالحق ﴾ [ البقرة : 119 ] وأكده دفعاً لتكذيب المكذبين به : ﴿ والذي أوحينا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ إليك ﴾ وبين قدره بمظهر العظمة وقال مبيناً للوحي : ﴿ من الكتاب ﴾ أي الجامع لخيري الدارين .

ولما كان الكتاب لا يطرقه نوع من أنواع التغير لأنه صفة من لا يتغير قال : ﴿ هو الحق ﴾ أي الكامل في الثبات ومطابقة الواقع له لا غيره من الكلام ؛ وأكد حقيته بقوله : ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي من الكتب الماضية الآتي لها الرسل الداعون إلى الله المؤيدون بالبراهين الساطعة والأدلة القاطعة .

ولما دل سبحانه على أن العلم هو الحقيقة الثابتة ، وما عداه فهو محو وباطل ، ودل على أن التالين لكتابه الذي هو العلم هم العلماء ، وغيرهم وإن كانوا موجودين فهم بالمعدومين أشبه ، ودل على أن الكتب الماضية وإن كانت حقاً لكنها ليست في كمال القرآن ، لأن الأمر ما دام لم يختم فالزيادة متوقعة فيه بخلاف ما إذا وقع الختم فإنه لا يكون بعده زيادة ترتقب ، وكان ربما تراءى لأحد في بعض المتصفين بذلك غير ذلك ، قال تعالى إعلاماً بأن العبرة بما عنده لا بما يظهر للعباد ، وأكده تنبيهاً على أن هذا المعنى مما تعقد عليه الخناصر وإن تراءى لأكثر الناس خلافه ، أظهر الاسم الأعظم لحاجة المخبرين هنا إليه لأنهم البر والفاجر : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال .

ولما كان الإنسان أعلم بمن يربيه ولا سيما إن كان مالكاً له قال : ﴿ بعباده لخبير ﴾ أي عالم أدق العلم وأتقنه ببواطن أحوالهم ﴿ بصير ﴾ أي بظواهر أمورهم وبواطنها أي فهو يسكن الخشية والعلم القلوب على ما أوتوا من الكتاب في علمه وتلاوته وإن تراءى لهم خلاف ذلك ، فأنت أحقهم بالكمال لأنك أخشاهم وأتقاهم ، فلذلك آتيناك هذا الكتاب ، فأخشاهم بعدك أحقهم بعلمه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 222 ـ 225 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ كتاب الله ﴾ .

لما بين العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه .

وقوله : ﴿ يَتْلُونَ كتاب الله ﴾ إشارة إلى الذكر .

وقوله تعالى : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ إشارة إلى العمل البدني .

وقوله : ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ إشارة إلى العمل المالي ، وفي الآيتين حكمة بالغة ، فقوله : إنما يخشى الله إشارة إلى عمل القلب ، وقوله : ﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ ﴾ إشارة إلى عمل اللسان .

وقوله : ﴿ وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ إشارة إلى عمل الجوارح ، ثم إن هذه الأشياء الثلاثة متعلقة بجانب تعظيم الله والشفقة على خلقه ، لأنا بينا أن من يعظم ملكاً إذا رأى عبداً من عباده في حاجة يلزمه قضاء حاجته وإن تهاون فيه يخل بالتعظيم ، وإلى هذا أشار بقوله : عبدي مرضت فما عدتني ، فيقول العبد : كيف تمرض وأنت رب العالمين ، فيقول الله مرض عبدي فلان وما زرته ولو زرته لوجدتني عنده ، يعني التعظيم

متعلق بالشفقة فحيث لا شفقة على خلق الله لا تعظيم لجانب الله .

وقوله تعالى : ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ حث على الإنفاق كيفما يتهيأ ، فإن تهيأ سراً فذاك ونعم وإلا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء ، فإن ترك الخير مخافة أن يقال فيه إنه مراء عين الرياء ويمكن أن يكون المراد بقوله : ﴿ سِرًّا ﴾ أي صدقة ﴿ وَعَلَانِيَةً ﴾ أي زكاة ، فإن الإعلان بالزكاة كالإعلان بالفرض وهو مستحب .

وقوله تعالى : ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ إشارة إلى الإخلاص ، أي ينفقون لا ليقال إنه كريم ولا لشيء من الأشياء غير وجه الله ، فإن غير الله بائر والتاجر فيه تجارته بائرة .

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30)

(309/641)

---

وقوله تعالى : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي ما يتوقعونه ولو كان أمراً بالغ الغاية ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴾ أي يعطيهم ما لم يخطر ببالهم عند العمل ، ويحتمل أن يكون يزيدهم النظر إليه كما جاء في تفسير الزيادة ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ عند إعطاء الأجور ﴿ شَكُورٌ ﴾ عند إعطاء الزيادة .

ثم قال تعالى : ﴿ والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكتاب هُوَ الحق ﴾ .

لما بين الأصل الأول وهو وجود الله الواحد بأنواع الدلائل من قوله : ﴿ والله الذي أَرْسَلَ الرياح﴾ [ فاطر : 9 ] وقوله : ﴿ والله خَلَقَكُمْ ﴾ [ فاطر : 11 ] وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ ﴾ [ فاطر : 27 ] ذكر الأصل الثاني وهو الرسالة ، فقال : ﴿ والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكتاب هُوَ الحق ﴾ وأيضاً كأنه قد ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم الله فقال : ﴿ والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكتاب هُوَ الحق ﴾ تقريراً لما بين من الأجر والثواب في تلاوة كتاب الله فإنه حق وصدق فتاليه محق ومحقق وفي تفسيرها مسائل :

المسألة الأولى : قوله : ﴿ مِّنَ الكتاب ﴾ يحتمل أن يكون لابتداء الغاية كما يقال أرسل إلى كتاب من الأمير أو الوالي وعلى هذا فالكتاب يمكن أن يكون المراد منه اللوح المحفوظ يعني الذي أوحينا من اللوح المحفوظ إليك حق ، ويمكن أن يكون المراد هو القرآن يعني الإرشاد والتبيين الذي أوحينا إليك من القرآن ويحتمل أن يكون للبيان كما يقال أرسل إلى فلان من الثياب والقماش جملة .



المسألة الثانية : قوله : ﴿ هُوَ الحق ﴾ آكد من قول القائل الذي أوحينا إليك حق من وجهين أحدهما أن تعريف الخبر يدل على أن الأمر في غاية الظهور لأن الخبر في الأكثر يكن نكرة ،

لأن الإخبار في الغالب يكون إعلاماً بثبوت أمر لا معرفة للسامع به لأمر يعرفه السامع كقولنا زيد قام فإن السامع ينبغي أن يكون عارفاً بزيد ولا يعلم قيامه فيخبر به ، فإذا كان الخبر أيضاً معلوماً فيكون الإخبار للتنبيه فيعرفان باللام كقولنا زيد العالم في هذه المدينة إذا كان علمه مشهوراً .

المسألة الثالثة : قوله : ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ حال مؤكدة لكونه حقاً لأن الحق إذا كان لا خلاف بينه وبين كتب الله يكون خالياً عن احتمال البطلان وفي قوله ﴿ مصدقاً ﴾ تقرير لكونه وحياً لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما لم يكن قارئاً كاتباً وأتى ببيان ما في كتب الله لا يكون ذلك إلا من الله تعالى وجواب عن سؤال الكفار وهو أنهم كانوا يقولون بأن التوراة ورد فيها كذا والإنجيل ذكر فيه كذا وكانوا يفترون من التثليث وغيره وكانوا يقولون بأن القرآن فيه خلاف ذلك فقال التوراة والإنجيل لم يبق بهما وثوق بسبب تغييركم فهذا القرآن ما ورد فيه إن كان في التوراة فهو حق وباق على ما نزل ، وإن لم يكن فيه ويكون فيه خلاف فهو ليس من التوراة ، فالقرآن مصدق للتوراة وفيه وجه آخر : وهو أن يقال إن هذا الوحي مصدق لما تقدم لأن الوحي لو لم يكن وجوده لكذب موسى وعيسى عليهما السلام في إنزال التوراة والإنجيل فإذا وجد الوحي ونزل على محمد صلى الله عليه وسلم علم جوازه وصدق به ما تقدم ، وعلى هذا ففيه لطيفة : وهي أنه تعالى جعل القرآن مصدقاً لما مضى مع أن ما مضى أيضاً مصدق له لأن الوحي إذا نزل على واحد جاز أن ينزل على غيره وهو

محمد صلى الله عليه وسلم ولم يجعل ما تقدم مصدقاً للقرآن كونه معجزة يكفي في تصديقه بأنه وحي ، وأما ما تقدم فلا بد معه من معجزة تصدقه .

(311/641)

---

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ فيه وجهان : أحدهما أنه تقرير لكونه هو الحق لأنه وحي من الله والله خبير عالم بالبواطن بصير عالم بالظواهر ، فلا يكون باطلاً في وحيه لا في الباطن ولا في الظاهر وثانيهما : أن يكون جواباً لما كانوا يقولونه إنه لم ينزل على رجل عظيم ؟ فيقال إن الله بعباده لخبير يعلم بواطنهم وبصير يرى ظواهرهم فاختار محمداً عليه السلام ولم يختر غيره فهو أصلح من الكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 20 . 22 ﴾

(312/641)

---

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾

الرؤية في قوله ﴿ ألم تر ﴾ رؤية القلب ، وكل توقيف في القرآن على رؤية فهي رؤية القلب ، لأن الحجة بها تقوم ، لكن رؤية القلب لا تتركب البتة إلا على حاسة ، فأحياناً تكون الحاسة البصر وقد تكون غيره ، وهذا يعرف بحسب الشيء المتكلم فيه ، و﴿ إن ﴾ سادت مسد المفعولين الذين للرؤية ، هذا مذهب سيبويه لأن ﴿ أن ﴾ جملة مع ما دخلت عليه ، ولا يلزم ذلك في قولك رأيت وظننت ذلك ، لأن قولك ذلك ليس بجملة كما هي ﴿ أن ﴾ ومذهب الزجاج أن المفعول الثاني محذوف تقديره ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ﴾ حقاً ، ورجع من خطاب بذكر الغائب إلى المتكلم بنون العظمة لأنها أهيب في العبارة ، وقوله ﴿ ألوانها ﴾ يحتمل أن يريد الحمرة والصفرة والبياض والسواد وغير ذلك ، ويؤيد هذا اطراد ذكر هذه الألوان فيما بعد ، ويحتمل أن يريد بالألوان الأنواع ، والمعتبر فيه على هذا التأويل أكثر عدداً ، و﴿ جدد ﴾ جمع جدة ، وهي الطريقة تكون من الأرض والجبل كالقطعة العظيمة المتصلة طولاً ، ومنه قول امرىء القيس : [ الطويل ]

كأنّ سراته وجدّة متنه . . . كنائن يحوي فوقهن دليص

وحكى أبو عبيدة في بعض كتبه أنه يقال ﴿ جدد ﴾ في جمع جديد ، ولا مدخل لمعنى الجديد في هذه الآية ، وقرأ الزهري "جَدد" بفتح الجيم ، وقوله ﴿ وغرابيب سود ﴾ لفظان لمعنى واحد ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن الله يبغض الشيخ الغربيب" ، يعني الذي يخضب بالسواد ، وقدم الوصف الأبلغ ، وكان حقه أن يتأخر وكذلك هو في المعنى ، لكن كلام العرب الفصيح يأتي كثيراً على هذا النحو ، وقوله ﴿ مختلف ألوانه ﴾ قبله محذوف إليه يعود الضمير تقديره ﴿ والأنعام ﴾ خلق ﴿ مختلف ألوانه ﴾ ، ﴿ والدواب ﴾ يعم الناس والأنعام لكن ذكرا تنبيهاً منهما ، وقوله ﴿ كذلك ﴾ يحتمل أن يكون من الكلام الأول فيجيء الوقف عليه حسناً ، وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين ، ويحتمل أن يكون من الكلام الثاني يخرج مخرج السبب كأنه قال كما جاءت القدرة في هذا كله ، ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ أي المحصلون لهذه العبرة الناظرون فيها .

قال القاضي أبو محمد : وقال بعض المفسرين الخشية رأس العلم ، وهذه عبارة وعظية لا تثبت عند النقد ، بل الصحيح المطرد أن يقال العلم رأس الخشية ، وسببها والذي ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "خشية الله رأس كل حكمة" ، وقال صلى الله عليه وسلم : "رأس الحكمة مخافة الله" ، فهذا هو الكلام المنير ، وقال ابن عباس في تفسير هذه

الآية كفى بالزهد علماً ، وقال مسروق وكفى بالمرء علماً أن يخشى الله ، وقال تعالى : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ [ الأعلى : 1 ] وقال النبي صلى الله عليه وسلم :

(314/641)

---

" أعلمكم بالله أشدكم له خشية " ، وقال الربيع بن أنس : من لم يخش الله فليس بعالم ، ويقال إن فاتحة الزبور رأس الحكمة خشية الله . وقال ابن مسعود : كفى بخشية الله علماً وبالاغترار ، به جهلاً ، وقال مجاهد والشعبي : إنما العالم من يخشى الله ، وإنما في هذه الآية تخصيص ﴿ العلماء ﴾ لا للحصر ، وهي لفظة تصلح للحصر وتأتي أيضاً دونه ، وإنما يعلم ذلك بحسب المعنى الذي جاءت فيه ، فإذا قلت إنما الشجاع عنترة ، وإذا قلت إنما الله إله واحد ، بان لك فتأمله ، وهذه الآية بجملتها دليل على الوحدانية والقدرة والقصد بها إقامة الحجة على كفار قريش .

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

(315/641)

---

قال مطرف بن عبد الله بن الشخير هذه آية القراء وهذا على أن ﴿ يتلون ﴾ بمعنى يقرؤون وإن جعلناها بمعنى يتبعون صح معنى الآية ، وكانت في القراء وغيرهم ممن اتصف بأوصاف الآية ، و﴿ كتاب الله ﴾ هو القرآن ، وإقامة الصلاة إقامتها بجميع شروطها ، والنفقة هي في الصدقات ووجوه البر ، فالسر من ذلك هو التطوع والعلانية هو المفروض ، و﴿ يرجون ﴾ جملة في موضع خبر ﴿ إن ﴾ ، و﴿ تبور ﴾ معناه تكسد ويتعذر ربحها ، ويقال تعوذوا بالله من بوار الأيم ، واللام في قوله ﴿ ليوفيهم ﴾ متعلقة بفعل مضمر يقتضيه لفظ الآية تقديره وعدهم بأن لا تبور ، أو فعلوا ذلك كله ، أو أطاعوه ونحو هذا من التقديرات ، وقوله ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ قالت فرقة : هو تضعيف الحسنات من العشر إلى السبعمائة ، وتوفية الأجور على هذا هي المجازاة مقابلة ، وقالت فرقة : إن التضعيف داخل في توفيه الأجور ، وأما الزيادة من فضله إما النظر إلى وجهه تعالى ، وإما أن يجعلهم شافعين في غيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [ يونس : 26 ] و﴿ غفور ﴾ معناه متجاوز عن الذنوب ساتر لها ، و﴿ شكور ﴾ معناه مجاز عن اليسير من الطاعات مقرب لعبده ، ثم ثبت تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب ﴾ الآية ، و﴿ مصدقاً ﴾ حال مؤكدة ، والذي بين يدي القرآن هو التوراة والإنجيل ، وقوله تعالى : ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ ، وعيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَأَقَامُواْ الصلاة وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً ﴾

هذه آية القراء العاملين العالمين الذين يقيمون الصلاة الفرض والنفل ، وكذا في الإنفاق .

وقد مضى في مقدّمة الكتاب ما ينبغي أن يَتخلّق به قارىء القرآن .

﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ قال أحمد بن يحيى : خبر "إن" "يرجون" .

﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ قيل : الزيادة الشفاعة في الآخرة .

وهذا مِثل الآية الأخرى : ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله إلى قوله وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴾ [ النور : 37 38 ] ، وقوله في آخر النساء : ﴿ فَأَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴾ [ النساء : 173 ] وهناك بيناه .

﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ للذنوب .

﴿ شَكُورٌ ﴾ يقبل القليل من العمل الخالص ، ويثيب عليه الجزيل من الثواب .

قوله تعالى : ﴿ والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾ يعني القرآن .

﴿ هُوَ الحق مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب .

﴿ إِنَّ الله بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(317/641)

---

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ كتاب الله ﴾

أي يداومُون على قراءته أو متابعةِ ما فيه حتَّى صارتْ سمةً لهم وعُنواناً . والمرادُ بكتابِ الله تعالى القرآنُ . وقيلَ : جنسُ كتبِ الله فيكون ثناءً على المصدِّقين من الأممِ بعد اقتصاصِ حالِ المكذِّبين منهم وليسَ بذاك فإنَّ صيغةَ المضارعِ منادية باستمرارِ مشروعيةِ تلاوتِه والعملِ بما فيه واستتباعِهما لما سيأتي من توفيةِ الأجورِ وزيادةِ الفضلِ . وحملُها على حكايةِ الحالِ الماضيةِ مع كونِه تعسُّفاً ظاهراً ممَّا لا سبيلَ إليه كيفَ لا والمقصودُ التَّرغيبُ في دينِ الإسلامِ والعملِ بالقُرآنِ النَّاسخِ لما بين يديهِ من الكتبِ فالتَّعرضُ لبيانِ حقِّيتها قبل انتساخِها والإشباعُ في ذكرِ استتباعها لما ذُكر من الفوائدِ العظيمةِ ممَّا يُورث الرَّغبةَ في تلاوتِها والإقبالِ على العملِ بها .

وتخصيصُ التِّلاوةِ بما لم ينسخ منها باطلٌ قطعاً لما أنَّ الباقي مشروعاً ليس إلا حكمها لكنْ لا

من حيث أنّه حكمها بل من حيث حكم القرآن وأما تلاوتها فبمعزلٍ من المشروعيّة واستتباع الأجر بالمرّة فتدبر ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً ﴾ كيفما اتّفق من غيرِ قصدٍ إليهما وقيل : السرّ في المسنونة والعلانية في المفروضة ﴿ يَرْجُونَ تجارة ﴾ تحصيل ثوابٍ بالطّاعة وهو خبرُ إنّ . وقوله تعالى ﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ أي لن تكسدَ ولن تهلكَ بالخسران أصلاً صفةٌ لتجارة جيء بها للدّلالة على أنّها ليستْ كسائر التّجارات الدّائرة بين الرّبح والخُسران لأنّه اشتراءُ باقٍ بفانٍ . والإخبارُ برجائهم من أكرمِ الأكرمين عِدةٌ قطعيةٌ بحصولِ مرجوّهم .

(318/641)

---

وقوله تعالى : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ متعلقٌ بلَنْ تبور على معنى أنّه ينتفي عنها الكسادُ وتنفُق عند الله تعالى ليوفيهم أجورَ أعمالِهم ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ على ذلك من خزائنِ رحمتِه ما يشاءُ وقيل : بمضمرٍ دلَّ عليه ما عُدّ من أفعالهم المرضيّة أي فعلُوا ذلك ليوفيَهم إلخ وقيل يرجُون على أنّ اللام للعاقبة ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ تعليلٌ لما قبلَه من التّوفية والزِّيادة أي غفورٌ لفرطاتِهم شكورٌ لطاعاتِهم أي مجازيهم عليها ، وقيل : هُو خبرُ إنّ الذين ويرجُون حالٌ من واوِ أنفقُوا .

﴿ والذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾ وهو القرآنُ ومن للتَّبيين أو الجنسِ ومن للتَّبعيضِ وقيل : اللَّوحَ ومِن للابتداءِ ﴿ هُوَ الحق مُصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي أحقه مصدّقاً لما تقدَّمه من الكتبِ السَّماويةِ حالٌ مؤكّدة ، لأنَّ حقّيتَه تستلزمُ موافقتَه إيَّاهُ في العقائدِ وأصولِ الأحكامِ ﴿ إِنَّ الله بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ محيطٌ ببواطنِ أمورِهم وظواهرِها فلو كانَ في أحوالِك ما ينافي النُّبوة لم يُوحِ إليك مثلُ هذا الحقَّ المعجزِ الذي هو عيارٌ على سائرِ الكتبِ . وتقديمُ الخبيرِ للتَّنبيه على أنَّ العمدةَ هي الأمورُ الرُّوحانيَّةُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(319/641)

---

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ كتاب الله ﴾

أي يداومون على قراءته حتى صارت سمة لهم وعنواناً كما يشعر به صيغة المضارع ووقوعه صلة واختلاف الفعلين والمراد بكتاب الله القرآن فقد قال مطرف بن عبد الله بن الشخير : هذه آية القراء .

وأخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس أنها نزلت في حصين بن الحرث

بن عبد المطلب القرشي ، ثم إن العبرة بعموم اللفظ فلذا قال السدي في التالين : هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال عطاء : هم المؤمنون أي عامة وهو الأرجح ويدخل الأصحاب دخولاً أولياً ، وقيل معنى يتلون كتاب الله يتبعونه فيعملون بما فيه ، وكأنه جعل يتلو من تلاه إذا تبعه أو حمل التلاوة المعروفة على العمل لأنها ليس فيها كثير نفع دونه ، وقد ورد "رب قارىء للقرآن والقرآن يلعنه" ويشعر كلام بعضهم باختيار المعنى المتبادر حيث قال : إنه تعالى لما ذكر الخشية وهي عمل القلب ذكر بعدها عمل اللسان والجوارح والعبادة المالية ، وجوز أن يراد بكتاب الله تعالى جنس كتبه عز وجل الصادق على التوراة والإنجيل وغيرهما فيكون ثناء على المصدقين من الأمم بعد اقتصاص حال المكذبين بقوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ [ فاطر : 25 ] الخ والمضارع لحكاية الحال الماضية ، والمقصود من الثناء عليهم وبيان ما لهم حث هذه الأمة على اتباعهم وأن يفعلوا نحو ما فعلوا ، والوجه الأول أوجه كما لا يخفى وعليه الجمهور .



---

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ أي مسرين ومعلنين وفي سر وعلانية ، والمراد ينفقون كيفما اتفق من غير قصد إليهما ، وقيل السر في الإنفاق المسنون

والعلانية في الإنفاق المفروض ، وفي كون الإنفاق مما رزقوا إشارة إلى أنهم لم يسرفوا ولم يبسطوا أيديهم كل البسط ، ومقام التمدح مشعر بأنهم تحروا الحلال الطيب ؛ وقيل جيء بمن لذلك ، والمعتزلة يخصون الرزق بالحلال وهو أنسب بإسناد الفعل إلى ضمير العظمة ، ومن لا يخصه بالحلال يقول هو التعظيم والحث على الإنفاق ﴿ يَرْجُونَ ﴾ بما آتوا من الطاعات ﴿ تجارة ﴾ أي معاملة مع الله تعالى لنيل ربح الثواب على أن التجارة مجاز عما ذكر ﴿ والقرينة ﴾ حالية كما قال بعض الأجلة ، وقوله تعالى : ﴿ تجارة لَّن تَبُورَ ﴾ أي لن تكسد ، وقيل لن تهلك بالخسران صفة تجارة وترشيخ للمجاز ، وجملة ﴿ يَرْجُونَ ﴾ الخ على ما قال الفراء .

وأبو البقاء خبر إن ، وفي إخباره تعالى عنهم بذلك إشارة إلى أنهم لا يقطعون بنفاق تجارتهم بل يأتون ما آتوا من الطاعات وقلوبهم وجلة أن لا يقبل منهم ، وجعل بعضهم التجارة مجازاً عن تحصيل الثواب بالطاعة وأمر الترشيح على حاله وإليه ذهب أبو السعود ثم قال :

والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين عدة قطعية بحصول مرجوهم .

وظاهر ما روي عن قتادة من تفسيره التجارة بالجنة أنها مجاز عن الربح وفسر ﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ بلن تبيد وهو كما ترى ، وقوله تعالى :

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ متعلق عند بعض بما دل عليه ﴿ لن ﴾ [ الطور : 29 ] تعلق ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ بما دل علي ما لا بالحرف إذ لا يتعلق الجار به على المشهور أي ينتفي الكساد عنها وتنفق عند الله تعالى ليوفيهم أجور أعمالهم ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ على ذلك من خزائن رحمته ما يشاء وعن أبي وائل زيادته تعالى إياهم بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم .

وقال الضحاك : بتفسيح القلوب ، وفي الحديث بتضعيف حسناتهم ، وقيل بالنظر إلى وجهه تعالى الكريم .

والظاهر أن ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ راجع لما عنده ففيه إشارة إلى أن توفية أجورهم كالواجب لكونه جزاء لهم بوعده سبحانه ويجوز أن يكون راجعاً إليهما أو متعلق بمقدر يدل عليه ما قبله وهو ما عد من أفعالهم المرضية أي فعلوا ذلك ليوفيهم أجورهم الخ ، وجوز تعلقه بما قبله على التنازع وصنيع أبي البقاء يشعر باختيار تعلقه يرجون وجعل اللام عليه لام الصيرورة .

ويعقب بأنه لا مانع من جعلها لام العلة كما هو الشائع الكثير ولا يظهر للعدول عنه وجه .

ووجه ذلك الطيبي بأن غرضهم فيما فعلوا لم يكن سوى تجارة غير كاسدة لأن صلة الموصول هنا علة وإيذان بتحقق الخبر ولما أدى ذلك إلى أن وفاهم الله تعالى أجورهم أتى باللام ، وإنما لم يذهب إليه بعض الأجلة كالزمخشري لأن هذه اللام لا توجد إلا فيما يترتب الثاني الذي هو مدخولها على الأول ولا يكون مطلوباً نحو تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [ القصص : 8 ] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ تعليل لما قبله من التوفية والزيادة عند الكثير أي غفور لفرطات المطيعين شكور لطاعاتهم أي مجازيهم عليها أكمل الجزاء فيوفى هؤلاء أجورهم ويزيدهم من فضله ، وجوز أن يكون خبراً بعد خبر والعائد محذوف أي لهم ، وجوز أن يكون هو الخبر بتقدير العائد وجملة ﴿ يَرْجُونَ ﴾ حال من ضمير ﴿ أَنفَقُواْ ﴾ بناءً على أن القيد المتعقب لأمور متعددة يختص بالأخير كما هو مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه أو على أن رجاء التجارة النافقة أوفق بالإنفاق أو من مقدر أي فعلوا جميع ذلك راجين .

واستظهره الطيبي ، والجملة عليه معترضة فلا يرد أن فيه الفصل بين المبتدأ أو خبره بأجنبي ، وجوز أن يكون حالاً من ضمير ﴿ الذين ﴾ على سبيل التنازع ، ولم يشتهر التنازع في الحال وأنا لا أرى فيه بأساً ، واستظهر بعض المعاصرين جعل الجملة المذكورة حالاً من ضمير ﴿ أَنفَقُواْ ﴾ لقربه وشدة الملاءمة بين الإنفاق ورجاء تجارة لها نفاق ولا يبعد أن

يكون قد حذف فيما تقدم نظيرها لدلالتها عليه وجعل ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ ﴾ متنازعاً فيه للأفعال الثلاثة المتعاطفة أو جعل الجملة حالاً من مقدر كما سمعت آنفاً و ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ ﴾ متعلقاً بيرجون وجملة ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ خبر المبتدأ والرابط محذوف وفي جملة ﴿ يَرْجُونَ ﴾ الخ احتمال الاستعارة التمثيلية ولو على بعد ولم أر من أشار إليه فتدبر .

(323/641)

---

﴿ والذى أَوْحَيْنَا عِلْمٌ مّنَ الكتاب ﴾ وهو القرآن ، و ﴿ مِنْ ﴾ للتبيين إذ القرآن أخص من الذي أوحينا مفهوماً وإن اتحدا ذاتاً أو جنس الكتاب ومن للتبعيض إذ المراد من ﴿ الذى أَوْحَيْنَا ﴾ هو القرآن وهو بعض جنس الكتاب ، وقيل هو اللوح ومن للابتداء ﴿ هُوَ الحق ﴾ إذا كان المراد الحصر فهو من قصر المسند إليه على المسند لا العكس لعدم استقامة المعنى إلا أن يقصد المبالغة قاله الخفاجي والمتبادر الشائع في أمثاله قصر المسند على المسند إليه وهو ههنا إن لم تقصد المبالغة قصر إضافي بالنسبة إلى ما يفتريه أهل الكتاب وينسبونه إلى الله تعالى .

﴿ مُصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي لما تقدمه من الكتب السماوية ونصب ﴿ مُصَدّقاً ﴾ على الحالية والعامل فيه مقدر يفهم من مضمون الجملة قبله أي أحققه مصدقاً وهو حال

مؤكدة لأن حقيته تستلزم موافقته الكتب الإلهية المتقدمة عليه بالزمان في العقائد وأصول الأحكام ، واللام للتقوية ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ محيط ببواطن أمورهم وظواهرها فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوة لم يوح إليك مثل هذا الحق المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب ، وتقديم ﴿ الخبير ﴾ للتنبيه على أن العمدة هي الأمور الروحانية ، وإلى ذلك أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : " إن الله لا ينظر إلى أعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

(324/641)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾

استئناف لبيان جملة ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [ فاطر : 28 ] الآية ، فالذين يتلون كتاب الله هم المراد بالعلماء ، وقد تخلّص إلى بيان فوز المؤمنين الذين اتّبعوا الذكر وخشوا الرحمان بالغيب فإن حالهم مضادّ لحال الذين لم يسمعوا القرآن وكانوا عند تذكيرهم به كحال أهل القبور لا يسمعون شيئاً .

فبعد أن أثنى عليهم ثناء إجماليا بقوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ،

وأجمل حسن جزائهم بذكر صفة ﴿ غفور ﴾ [ فاطر : 28 ] ولذلك ختمت هذه الآية بقوله : ﴿ إنه غفور شكور ﴾ فُصِّل ذلك الثناء وذكرت آثاره ومنافعه .

فالمراد بـ ﴿ الذين يتلون كتاب الله ﴾ المؤمنون به لأنهم اشتهروا بذلك وعُرفوا به وهم المراد بالعلماء .

قال تعالى : ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ [ العنكبوت : 49 ] .

وهو أيضاً كناية عن إيمانهم لأنه لا يتلو الكتاب إلا من صدّق به وتلقاه باعتناء .

وتضمن هذا أنهم يكتسبون من العلم الشرعي من العقائد والأخلاق والتكاليف ، فقد أشعر الفعل المضارع بتجدد تلاوتهم فإن نزول القرآن متجدد فكلما نزل منه مقدار تلقوه وتدارسوه .

وكتاب الله القرآن وعدل عن اسمه العلم إلى اسم الجنس المضاف لاسم الجلالة لما في إضافته إليه من تعظيم شأنه .

وأتبع ما هو علامة قبول الإيمان والعلم به بعلامة أخرى وهي إقامة الصلاة كما تقدم في سورة البقرة ( 2 ) ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ﴾ فإنها أعظم الأعمال البدنية ، ثم أتبعت بعمل عظيم من الأعمال في المال وهي الإنفاق ، والمراد بالإنفاق حيثما أطلق في القرآن هو الصدقات واجبها ومستحبها وما ورد الإنفاق في السور المكية إلا والمراد به

الصدقات المستحبة إذ لم تكن الزكاة قد فرضت أيامئذ ؛ على أنه قد تكون الصدقة مفروضة دون نُصب ولا تَحديد ثم حدِّدت بالنصب والمقادير .

(325/641)

---

وجيء في جانب إقامة الصلاة والإِنفاق بفعل المضي لأن فرض الصلاة والصدقة قد تقرر وعملوا به فلا تجدد فيه ، وامتثال الذي كلفوا به يقتضي أنهم مداومون عليه .

وقوله : مما رزقناهم ﴾ إدماج للامتنان وإيماء إلى أنه إنفاق شكر على نعمة الله عليهم بالرزق فهم يعطون منه أهل الحاجة .

ووقع الالتفات من الغيبة من قوله : ﴿ كتاب الله ﴾ إلى التكلم في قوله : ﴿ مما رزقناهم ﴾ لأنه المناسب للامتنان .

وانتصب ﴿ سراً وعلانية ﴾ على الصفة لمصدر ﴿ أنفقوا ﴾ محذوفٍ ، أي إنفاق سر وإنفاق علانية والمصدر مبين للنوع .

والمعنى : أنهم لا يريدون من الإِنفاق إلا مرضاة الله تعالى لا يراءون به ، فهم ينفقون حيث لا يراهم أحد وينفقون بمرأى من الناس فلا يصدهم مشاهدة الناس عن الإِنفاق .

وفي تقديم السر إشارة إلى أنه أفضل لانقطاع شائبة الرياء منه ، وذكر العلانية للإِشارة إلى

أنهم لا يصدهم مرأى المشركين عن الإِنفاق فهم قد أعلنوا بالإِيمان وشرائعه حبّ من حبّ أو كره من كره.

و﴿ يرجون تجارة ﴾ هو خبر ﴿ إن ﴾.

والخبر مستعمل في إنشاء التبشير كأنه قيل: لِيرجُوا تجارة، وزاده التعليل بقوله: ﴿ ليوفيهم أجورهم ﴾ قرينةً على إرادة التبشير.

والتجارة مستعارة لأعمالهم من تلاوة وصلاة وإنفاق.

ووجه الشبه مشابهة ترتب الثواب على أعمالهم بترتب الربح على التجارة.

والمعنى: ليرجوا أن تكون أعمالهم كتجارة رابحة.

والبوار: الهلاك.

وهلاك التجارة: خسارة التاجر.

فمعنى ﴿ لن تبور ﴾ أنها رابحة.

و﴿ لن تبور ﴾ صفة ﴿ تجارة ﴾.

والمعنى: أنهم يرجون عدم بوار التجارة.

فالصفة مناط التبشير والرجاء لا أصل التجارة لأن مشابهة العمل الفظيع لعمل التاجر شيء معلوم.

و ﴿ ليوفيهم ﴾ متعلق بـ ﴿ يرجون ﴾ ، أي بشرناهم بذلك وقدّرناه لهم لنوفيهم أجورهم .



ووقع الالتفات من التكلم في قوله : ﴿ مما رزقناهم ﴾ إلى الغيبة رجوعاً إلى سياق الغيبة من قوله : ﴿ يتلون كتاب الله ﴾ أي ليوفي الله الذين يتلون كتابه .

والتوفية : جعل الشيء وافِيا ً، أي تامّاً لا نقيصة فيه ولا غبن .

وأسْجَلَ عليهم الفضل بأنه يزيدهم على ما تستحقه أعمالهم ثواباً من فضله ، أي كرمه ، وهو مضاعفة الحسنات الواردة في قوله تعالى : ﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ﴾ [ البقرة : 261 ] الآية .

وذيل هذا الوعد بما يحققه وهو أن الغفران والشكران من شأنه ، فإنّ من صفاته الغفور الشكور ، أي الكثير المغفرة والشديد الشكر .

فالمغفرة تأتي على تقصير العباد المطيعين ، فإن طاعة الله الحقّ التي هي بالقلب والعمل والخواطر لا يبلغ حق الوفاء بها إلا المعصوم ولكن الله تجاوز عن الأمة فيما حدّثت به أنفسها ، وفيما همت به ولم تفعله ، وفي اللمم ، وفي محو الذنوب الماضية بالتوبة ، والشكر

كناية عن مضاعفة الحسنات على أعمالهم فهو شكر بالعمل لأن الذي يجازي على عمل المجزيّ بجزاء وافر يدل جزاؤه على أنه حمد للفاعل فعله .

وأكد هذا الخبر بحرف التأكيد زيادة في تحقيقه ، ولما في التأكيد من الإِيذان بكون ذلك علة لتوفية الأجور والزيادة فيها .

وفي الآية ما يشمل ثواب قُرَّاء القرآن ، فإنهم يصدق عنهم أنهم من الذين يتلون كتاب الله ويقيمون الصلاة ولو لم يصاحبهم التدبر في القرآن فإن للتلاوة حظها من الثواب والتنوّر بأنوار كلام الله .

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31)

لما كان المبدأ به من أسباب ثواب المؤمنين هو تلاوتهم كتاب الله أعقب التنويه بهم بالتنويه بالقرآن للتذكير بذلك ، ولأن في التذكير بجلال القرآن وشرفه إيماء إلى علة استحقاق الذين يتلونه ما استحقوا .

وابتدىء التنويه به بأنه وحي من الله إلى رسوله ، وناهيك بهذه الصلة تنويهاً بالكتاب ، وهو يتضمن تنويهاً بشأن الذي أنزل عليه من قوله : ﴿ والذي أوحينا إليك ﴾ ، ففي هذا مسرة للنبيء صلى الله عليه وسلم وبشارة له بأنه أفضل الرسل وأن كتابه أفضل الكتب .

وهذه نكتة تعريف المسند إليه باسم الموصول لما في الصلة من الإِيماء إلى وجه كونه الحق الكامل ، دون الإِضمار الذي هو مقتضى الظاهر بأن يقال : وهو الكتاب الحق .

فالتعريف في ﴿ الكتاب ﴾ تعريف العهد .

و﴿ مِن ﴾ بيانية لما في الموصول من الإِبهام ، والتقدير : والكتاب الذي أوحينا إليك هو الحقّ .

فقدم الموصول الذي حقه أن يَقع صفة للكتاب تقديماً للتشويق بالإِبهام ليقع بعده التفصيل فيتمكن من الذهن فضْلَ تمكن .

فجملة ﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب ﴾ معطوفة على جملة ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾ [ فاطر : 29 ] فهي مثلها في حكم الاستئناف .

وضمير ﴿ هو ﴾ ضمير فصل ، وهو تأكيد لما أفاده تعريفَ المسند من القصر .

والتعريف في ﴿ الحق ﴾ تعريف الجنس .

وأفاد تعريفُ الجزأين قصر المسند على المسند إليه ، أي قصر جنس الحق على ﴿ الذي أوحينا إليك ﴾ ، وهو قصر ادعائي للمبالغة لعدم الاعتداد بحقيّة ما عداه من الكتب .

فأما الكتب غير الإِلهية مثل ( الزند فسْتَا ) كتاب ( زرادشت ) ومثل كتب الصابئة فلأنَّ ما فيها من قليل الحق قد غمر بالباطل والأوهام .

وأما الكتب الإِلهية كالتوراة والإِنجيل وما تضمنته كتب الأنبياء كالزبور وكتاب أرميا من الوحي الإِلهي ، فما شهد القرآن بحقيته فقد دخل في شهادة قوله : ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ ، وما جاء نسخُه بالقرآن فقد بين النسخ تحديد صلاحيته في القرآن .

وذلك أيضاً تصديق لها لأنه يدفع موهم بطلانها عند من يجد خلافها في القرآن وما عسى أن يكون قد نقل على تحريف أو تأويل فقد دخل فيما أخرجه القصر .

(328/641)

---

وقد بين القرآن معظمهُ وكشف عن مواقعه كقوله : ﴿ وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ [ البقرة : 85 ] .

j

ومعنى "ما بين يديه" ما سبقه لأن السابق يجيء متقدِّماً على المسبوق فكأنه يمشي بين يديه كقوله تعالى : ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ [ سبأ : 46 ] .

والمراد بما بين يديه ما قبله من الشرائع ، وأهمها شريعة موسى وشريعة عيسى عليهما

السلام .

وانتصب ﴿ مصدقاً ﴾ على الحال من ﴿ الكتاب ﴾ والعامل في الحال فعل ﴿ أوحينا ﴾ ليفيد أنه مع كونه حقّاً بالغاً في الحقيَّة فهو مصدق للكتب الحقّة ، ومقرر لما اشتملت عليه من الحق .

﴿ بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ ﴾ .

تذييل جامع لما تضمنته الآيات قبله من تفضيل بعض عباد الله على بعض ومن انطواء ضمائرهم على الخشية وعدمها ، وإقبال بعضهم على الطاعات وإعراض بعض ، ومن تفضيل بعض كتب الله على بعض المقتضي أيضاً تفضيل بعض المرسلين بها على بعض ، فموقع قوله : ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ موقع إقناع السامعين بأن الله عليم بعباده وهو يعاملهم بحسب ما يعلم منهم ، ويصطفي منهم من علم أنه خلقه كفئاً لاصطفائه ، فأُلْقِمَ بهذا الذين قالوا : ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ [ ص : 8 ] حجراً ، وكأولئك أيضاً الذين ينكرون القرآن من أهل الكتاب بعلة أنه جاء مبطلاً لكتابهم .

والخبير : العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة والظاهرة والخفية .

والبصير : العالم بالأمور المبصرة .

وتقديم الخبير على البصير لأنه أشمل .

وذكر البصير عقبه للعناية بالأعمال التي هي من المبصرات وهي غالب شرائع الإِسلام ،

وقد تكرر إرداف الخبير بالبصير في مواضع كثيرة من القرآن .

والتأكيد بـ ﴿ إنَّ ﴾ واللام للاهتمام بالمقصود من هذا الخبر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

(329/641)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾

الذين يستغرق جميعَ أوقاتِهم قيامُهم بذكر الله وبحقِّه ، وإتيانُهم بأنواع العبادات وصنوف القُرَبِ فلَهم القَدْرُ الأَجَلُّ من التقريب ، والنصيبُ الأوفر من الترحيب . وأما الذين أحوالهم بالضدّ فمَنَالُهم على العكس . أُولئك هم الأَولياءُ الأعِزَّةُ ، وهؤلاء هم الأعداءُ الأذِلَّة .

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31)

ما عَرَّفْنَاك - من اختارنا لك وتخصيصنا إياك ، وتقديمنا لك على الكافة - فعلى ما أخبرناك ، وأنشدوا :

لا أبتغي بَدَلاً سواكِ خليلةً . . . فَثِقي بقولي والكِرَامُ ثِقَاتُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 203 ﴾

(330/641)

---

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان معنى الوصفين : فنحن نيسر لتلاوة كتابنا من يكون قابلاً للعلم الذي هو عمود الخشية بما تعلمه منه بخبرنا وبصرنا ، وكان الذي ضم إلى التلاوة الفهم في الذروة العليا من العلم ، قال عطفاً على هذا الذي أرشد السياق إلى تقديره مشيراً بأداة العبد إلى علو رتبة أهل هذا القسم ، وهم هذه الأمة الأمية على اختلاف مراتب إرثهم مع تراخي إرثهم عمن

قبلهم ، صارفاً القول إلى مظهر العظمة لاقتضاء الحال لها في نزع شيء من قوم وإثباته لآخرين : ﴿ ثم أورثنا ﴾ أي ملكنا بعظمتنا ملكاً تاماً وأعطينا عطاء لا رجوع فيه ، وعبر في غير هذه الأمة ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ [ الأعراف : 169 ] فانظر فوق ما بين العبارتين تعرف الفرق بين المقامين ، ويجوز أن يكون التقدير بعد ما أوحينا إليك : وأورثناكه ثم أورثناه ، ولكنه أظهر دلالة على الوصف تنبيهاً على تناهي جمعه للكتب الماضية وإعلاماً بأن " من " في ﴿ أوحينا إليك من ﴾ للبيان فقال : ﴿ الكتاب ﴾ أي القرآن باتفاق المفسرين ، قال الأصفهاني - الجامع لكل كتاب أنزلنا ، فهو أم لكل خير ، وقال ابن عباس كما نقله ابن الجوزي : إن الله أورث أمة محمد كل كتاب أنزله ﴿ الذين اصطفينا ﴾ أي فعلنا في اختيارهم فعل من يجتهد في ذلك ﴿ من عبادنا ﴾ أي أخلصناهم لنا وهم بنو إسماعيل ومن تبعهم ، يعني أمة محمد . صلى الله عليه وسلم . - نقله البغوي عن ابن عباس . رضى الله عنهما . ، ونقل عن ابن جرير أنه قال : الإرث : انتقال شيء من قوم إلى قوم ، فثم هنا للترتيب ، لأن إيتاء هذه الأمة متراخ عن إيتاء الأمم ونقله إليهم بعد إبطال تلك الأديان ، ونسخ تلك الكتب إلا ما وافق القرآن فمعنى الإيراث أنه نزع تلك الكتب من الأمم السالفة وأعطاها لهذه الأمة على الوجه الذي رضيه لها وهذا الإيراث للمجموع لا يقتضي الاختصاص بمن يحفظ جميع القرآن بل يشمل من يحفظ منه جزءاً ولو أنه الفاتحة فقط ، فإن الصحابة رضوان الله تعالى أجمعين لم يكن كل واحد منهم

يحفظ جميع القرآن ونحن على القطع بأنهم مصطفون .

ولما كان أكثر الناس لا ينفك عن تقصير كثير لما جبل الإنسان عليه من النقصان ، فكان من فيه ذلك يخرج نفسه من هذا القسم ، قال معرفاً له بمقداره مؤنساً له بما فتح له من أنواره مستجلباً له إلى حضرة قدسه ومعدن أسراره مقسماً أهل هذا القسم وهم أهل الفهم إلى ثلاثة أقسام مقدماً الأدنى لأنهم الأكثر ولئلا يحصل اليأس ، ويصدع القلوب خوف البأس :

﴿ فمنهم ﴾ أي فتسبب عن إيراثنا لهم أن كان منهم كما هو مشاهد ﴿ ظالم لنفسه ﴾ أي بالتفريط والتهاون في توفية الحق لما يقتضيه حاله من العمل غير متوق للكبائر ، وهذا القسم هم أكثر الوارث وهم المرجئون لأمر الله .

ولما كان ترك الإنسان للظلم في غاية الصعوبة ، نبه على ذلك بصيغة الافتعال فقال :

﴿ ومنهم مقتصد ﴾ أي متوسط في العمل غير باذل لجميع الجهد إلا أنه مجتنب للكبائر فهو مكفر عنه الصغائر ، وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴿ ومنهم سابق بالخيرات ﴾ أي العبادات وجميع أنواع القربات ، موف للمقام الذي أقيم به حقه كلما ازداد قرباً ازداد عملاً ، لا يكون سابقاً إلا وهو هكذا ، وهم السابقون الأولون من المهاجرون

والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، ويؤيد هذا قول الحسن : السابق من رجحت حسناته ، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته ، والظالم من رجحت سيئاته .

(332/641)

---

وختم بالسابقين لأنهم الخلاصة وليكونوا أقرب إلى الجنات كما قدم الصوامع في سورة الحج لتكون أقرب إلى الهدم وآخر المساجد لتقارب الذكر وقدم في التوبة السابقين عقيب أهل القربات من الإعراب وأخر المرجئين وعقبهم بأهل مسجد الضرار ، وقدم سبحانه في الأحزاب المسلمين ورقى الخطاب درجة درجة إلى الذاكرين الله كثيراً ، فهو سبحانه تارة يبدأ بالأدنى وتارة بالأعلى بحسب ما يقتضيه الحال كما هو مذكور في هذا الكتاب في محاله ، وهذا على تقدير عود الضمير في ﴿ منهم ﴾ على ﴿ الذين ﴾ لا على ﴿ العباد ﴾ وهو مع تأيده بالمشاهدة وإن السياق لأن أهل العلم هو التالون لكتاب الله مؤيد بأحاديث لا تقصر – وإن كانت ضعيفة – عن الصلاحية لتقوية ذلك ، فمنها ما رواه البغوي بسنده عن ابن الخطاب .رضى الله عنه. أنه قرأ هذه الآية على المنبر وقال : قال رسول الله .صلى الله عليه وسلم. : " سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له " وبسنده عن أبي الدرداء .رضى الله عنه. ان رسول الله .صلى الله عليه وسلم. قرأ هذه الآية وقال : " أما

السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً ، وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام حتى يدخله الهم ثم يدخل الجنة" – ثم قرأ ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ .

وروي بغير إسناد عن أسامة بن زيد ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : "كلهم من هذه الأمة" وقال ابن الجوزي بعد أن ذكر حديث عمر ـ رضى الله عنه ـ بغير سند : وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذه الآية قال : "كلهم في الجنة"

وروى حديث أبي الدرداء ـ رضى الله عنه ـ الحافظ ابن عساكر في الكنى من تأريخ دمشق في ترجمة أخي زياد أو أبي زياد .



---

وأما على عود الضمير على العباد فقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : السابق المؤمن المخلص ، والمقتصد المرائي ، والظالم الكافر نعمة الله غير الجاحد لها ، وقال قتادة : الظالم أصحاب المشأمة ، والمقتصد أصحاب الميمنة ، والسابقون المقربون .

ولما كان هذا ليس في قوة العبد في مجاري العادات ، ولا يؤخذ بالكسب والاجتهادات ،

أشار إلى عظمته بقوله : ﴿ بإذن الله ﴾ أي بتمكين من له القدرة التامة والعظمة العامة والفعل بالاختيار وجميع صفات الكمال وتسهيله وتيسره لئلا يأمن أحد مكره تعالى ، قال الرازي في اللوامع : ثم من السابقين من يبلغ محل القربة فيستغرق في وحدانيته ، وهو الفرد الذي اهتز في ذكره - انتهى .

ثم زاد عظمة هذا الأمر بياناً ، فقال مؤكداً تكذيباً لظنون الجاهلين لأن السابق كلما علا مقامه في السبق قل حظه من الدنيا ، فرأى الجاهلون أنه مضيع لنفسه : ﴿ ذلك ﴾ أي السبق أو إيراث الكتاب ﴿ هو ﴾ مشيراً بأداة البعد مخصصاً بضمير الفصل ﴿ الفضل الكبير ﴾ .

ولما ذكر تعالى أحوالهم ، بين جزاءهم ومآلهم ، فقال مستأنفاً جواباً لمن سأل عن ذلك : ﴿ جنات ﴾ أي هي مسببة عن سبب السبق الذي هو الفضل ، ويصح كونها بدلاً من الفضل لأنه سببها ، فكان كأنه هو الثواب ﴿ عدن ﴾ أي إقامة بلا رحيل لأنه لا سبب للرحيل عنها ﴿ يدخلونها ﴾ أي الثلاثة أصناف ، ومن دخلها لم يخرج منها لأنه لا شيء يخرجه ولا هو يريد الخروج على أن الضمير ل " الذين " ومن قال ل " عبادنا " خص الدخول بالمقتصد والسابق - هذا على قراءة الجماعة بفتح الياء وضم الخاء ، وعلى قراءة أبي عمرو بالبناء للمفعول يكون الضمير للسابق فقط ، لأنهم يكونون في وقت الحساب على

كثبان المسك ومنابر النور فيستطيبون مكانهم ، فإذا دعوا إلى الجنة أبطؤوا فيساقون إليها كما في آخر الزمر .

(334/641)

---

ولما كان الداخل إلى مكان أول ما ينظر إلى ما فيه من النفائس قال : ﴿ يحلّون فيها ﴾ أي يلبسون على سبيل التزين والتحلي ﴿ من أساور ﴾ ولما كان للإبهام ثم البيان مزيد روعة النفس ، وكان مقصود السورة إثبات القدرة الكاملة لإثبات اتم الإبقاءين ، شوق إلى الطاعة الموصلة إليه بأفضل ما نعرف من الحلية ، فقال مبيناً لنوع الأساور : ﴿ من ذهب ولؤلؤاً ﴾ ولما كانت لا تليق إلى على اللباس الفاخر ، قال معرفاً أنهم حين الدخول يكونون لابسين : ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ .

ولما كان المقتصد والسابق يحزنون لكمالهم وشدة شفقتهم على الظالم إذا قوصص ، جمع فقال معبراً بالماضي تحقيقاً له : ﴿ وقالوا ﴾ أي عند دخولهم : ﴿ الحمد ﴾ أي الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ لله ﴾ أي الذي لم تمام القدرة ﴿ الذي أذهب ﴾ أي بدخولنا هذا ﴿ عنا الحزن ﴾ أي هذا النوع بكماله ، فلا نحزن على شيء كان فاتنا ، ولا يكون لنا حزن أبداً لأنا صرنا في دار لا يفوت فيها شيء أصلاً ولا ينفى .

ولما كانوا عالمين بما اجترحوه من الزلات أو الهفوات أو الغفلات التي لولا الكرم لأدتهم إلى النار ، عللوا ما صاروا إليه معها بقولهم ، مؤكدين إعلاماً بما عندهم من السرور بالعفو عن ذنوبهم ، وأن ما أكدوه حقيق بأن يتغالى في تأكيده لما رأوا من صحته وجنوا من حلو ثمرته : ﴿ إن ربنا ﴾ أي المحسن إلينا مع إساءتنا ﴿ لغفور ﴾ أي محاء للذنوب عيناً وأثراً للصنفين الأولين ﴿ شكور ﴾ أي على ما وهبه للعبد من حسن طاعته ووفقه له من الأعمال الحسنة فجعله به سابقاً ، ثم وصفوه بما هو شكر له فقالوا : ﴿ الذي أحلنا دار المقامة ﴾ أي الإقامة ومكانها وزمانها التي لا يريد النازل بها على كثرة النازلين بها - ارتحالاً منها ، ولا يراد به ذلك ، ولا شيء فيها يزول فيؤسف عليه .

(335/641)

---

وكان المالك المطلق لا يجب عليه شيء ولا استحقاق لمملوكه عليه بوجه قال : ﴿ من فضله ﴾ أي بلا عمل منا فإن حسناتنا إنما كانت مناً منه سبحانه ، لو لم يبعثنا عليها وييسرها لنا لما كانت .

ولما تذكروا ما شاهدوه في عرصات القيامة من تلك الكروب والأهوال ، والأنكاد والأثقال ، التي أشار إليها قوله تعالى : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها ﴾ الآية ، استأنفوا قولهم في

وصف دار القرار : ﴿ لا يمسنا ﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿ فيها نصيب ﴾ أي نصب بدن ولا وجع ولا شيء ﴿ ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ أي كلال وتعب وإعياء وفتور نفس من شيء من الأشياء ، قال أبو حيان : هو لازم من تعب البدن .

فهي الجديرة لعمري بأن يقال فيها :

علياء لا تنزل الأحزان ساحتها . . .

لو مسها حجر مسته سراء . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 6 صـ 225 . 229 ﴾

(336/641)

---

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات بِإِذْنِ الله ﴾

(337/641)

---

اتفق أكثر المفسرين على أن المراد من الكتاب القرآن وعلى هذا فالذين اصطفينا هم الذين أخذوا بالكتاب وهم المؤمنون والظالم والمقتصد والسابق كلهم منهم ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ جنات عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [ الرعد : 23 ] أخبر بدخولهم الجنة وكلمة ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ﴾ أيضاً تدل عليه لأن الإيراث إذا كان بعد الإيحاء ولا كتاب بعد القرآن فهو الموروث والإيراث المراد منه الإعطاء بعد ذهاب من كان بيده المعطى ، ويحتمل أن يقال المراد من الكتاب هو جنس الكتاب كما في قوله تعالى : ﴿ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ﴾ [ فاطر : 25 ] والمعنى على هذا : إنا أعطينا الكتاب الذين اصطفينا وهم الأنبياء ويدل عليه أن لفظ المصطفى على الأنبياء إطلاقه كثير ولا كذلك على غيرهم لأن قوله : ﴿ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ دل على أن العباد أكابر مكرمون بالإضافة إليه ، ثم إن المصطفين منهم أشرف منهم ولا يليق بمن يكون أشرف من الشرفاء أن يكون ظالماً مع أن لفظ الظالم أطلقه الله في كثير من المواضع على الكافر وسمي الشرك ظلماً ، وعلى الوجه الأول الظاهر يين معناه آتينا القرآن لمن آمن بمحمد وأخذوه منه وافترقوا ﴿ فَمِنْهُمْ ظالم ﴾ وهو المسيء ﴿ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات ﴾ وهو الذي أخلص العمل لله وجرده عن السيئات ، فإن قال قائل كيف قال في حق من ذكر في حقه أنه من عباده وأنه مصطفى إنه ظالم ؟ مع أن الظالم يطلق على الكافر في كثير من المواضع ، فنقول المؤمن عند المعصية يضع نفسه في غير موضعها فهو ظالم لنفسه حال

المعصية وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن " ويصحح هذا قول عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ظالمنا مغفور له " وقال آدم عليه السلام مع كونه مصطفى : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ [ الأعراف : 23 ] وأما الكافر

*(338/641)*

---

فيضع قلبه الذي به اعتبار الجسد في غير موضعه فهو ظالم على الإطلاق ، وأما قلب المؤمن فمطمئن بالإيمان لا يضعه في غير التفكر في آلاء الله ولا يضع فيه غير محبة الله ، وفي المراتب الثلاث أقوال كثيرة : أحدها : الظالم هو الراجح السيئات والمقتصد هو الذي تساوت سيئاته وحسناته والسابق هو الذي ترجحت حسناته ثانيها : الظالم هو الذي ظاهره خير من باطنه ، والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه ، والسابق من باطنه خير ثالثها : الظالم هو الموحد بلسانه الذي تخالفه جوارحه ، والمقتصد هو الموحد الذي يمنع جوارحه من المخالفة بالتكليف ، والسابق هو الموحد الذي ينسيه التوحيد عن التوحيد ورابعها : الظالم صاحب الكبيرة ، والمقتصد صاحب الصغيرة ، والسابق المعصوم خامسها : الظالم التالي للقرآن غير العالم به والعامل بموجبه ، والمقتصد التالي العالم ، والسابق التالي العالم

العامل سادسها : الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم سابعها : الظالم أصحاب المشأمة ، والمقتصد أصحاب الميمنة ، والسابق السابقون المقربون ثامنها : الظالم الذي يحاسب فيدخل النار ، والمقتصد الذي يحاسب فيدخل الجنة ، والسابق الذي يدخل الجنة من غير حساب تاسعها : الظالم المصر على المعصية ، والمقتصد هو النادم والتائب ، والسابق هو المقبول التوبة عاشرها : الظالم الذين أخذ القرآن ولم يعمل به والمقتصد الذي عمل به ، والسابق الذي أخذه وعمل به وبين للناس العمل به فعملوا به بقوله فهو كامل ومكمل ، والمقتصد كامل والظالم ناقص ، والمختار هو أن الظالم من خالف فترك أوامر الله وارتكب مناهيه فإنه واضع للشيء في غير موضعه ، والمقتصد هو المجتهد في ترك المخالفة وإن لم يوفق لذلك وندر منه ذنب وصدر عنه إثم فإنه اقتصد واجتهد وقصد الحق والسابق هو الذي لم يخالف بتوفيق الله ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي اجتهد ووفق لما اجتهد فيه وفيما اجتهد فهو سابق بالخير يقع في قلبه



---

فيسبق إليه قبل تسويل النفس والمقتصد يقع في قلبه فتردده النفس ، والظالم تغلبه النفس ، ونقول بعبارة أخرى من غلبته النفس الأمارة وأمرته فأطاعها ظالم ومن جاهد نفسه فغلب

تارة وغلب أخرى فهو المقصد ومن قهر نفسه فهو السابق وقوله : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفضل الكبير ﴾ يحتمل وجوهاً أحدها : التوفيق المدلول عليه بقوله : ﴿ بِإِذْنِ الله ذَلِكَ هُوَ الفضل الكبير ﴾ ، ثانيها : السبق بالخيرات هو الفضل الكبير ثالثها : الإيراث فضل كبير هذا على الوجه المشهور من التفسير ، أما الوجه الآخر وهو أن يقال : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب ﴾ أي جنس الكتاب ، كما قال تعالى :

﴿ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ﴾ [ فاطر : 25 ] يرد عليه أسئلة أحدهما : ثم للتراخي وإيتاء الكتاب بعد الإيحاء إلى محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن فما المراد بكلمة ثم ؟ نقول معناه إن الله خبير بصير خبرهم وأبصرهم ثم أورثهم الكتاب كأنه تعالى قال إنا علمنا البواطن وأبصرنا الظواهر فاصطفينا عباداً ثم أورثنا الكتاب ، ثانيها : كيف يكون من الأنبياء ظالم لنفسه ؟ نقول منهم غير راجع إلى الأنبياء المصطفين ، بل المعنى إن الذي أوحينا إليك هو الحق وأنت المصطفى كما اصطفينا رسلاً وآتيناهم كتباً ، ومنهم أي من قومك ظالم كفر بك وبما أنزل إليك ومقتصد آمن بك ولم يأت بجميع ما أمرته به وسابق آمن وعمل صالحاً وثالثها : قوله : ﴿ جنات عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [ الرعد : 23 ] الداخلون هم المذكورون وعلى ما ذكرتم لا يكون الظالم داخلاً ، نقول الداخلون هم السابقون ، وأما المقتصد فأمره موقوف أو هو يدخل النار أولا ثم يدخل الجنة والبيان لأول

الأمر لا لما بعده ، ويدل عليه قوله : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ [ الكهف : 31 ] وقوله : ﴿ أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ [ فاطر : 34 ]

*(340/641)*

---

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33)

وفي الداخلين وجوه أحدها : الأقسام الثلاثة وهي على قولنا أن الظالم والمقتصد والسابق أقسام المؤمنين والثاني : الذين يتلون كتاب الله والثالث : هم السابقون وهو أقوى لقرب ذكرهم ولأنه ذكر إكرامهم بقوله : ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ فالمكرم هو السابق وعلى هذا فيه أبحاث :

*(341/641)*

---

الأول : تقديم الفاعل على الفعل وتأخير المفعول عنه موافق لترتيب المعنى إذا كان المفعول حقيقياً كقولنا : الله خلق السموات ، وقول القائل : زيد بنى الجدار فإن الله موجود قبل كل شيء ، ثم له فعل هو الخلق ، ثم حصل به المفعول وهو السموات ، وكذلك زيد قبل البناء ثم الجدار من بنائه ، وإذا لم يكن المفعول حقيقياً كقولنا زيد دخل الدار وضرب عمراً فإن

الدار في الحقيقة ليس مفعولاً للداخل وإنما فعل من أفعال تحقق بالنسبة إلى الدار ، وكذلك عمرو فعل من أفعال زيد تعلق به فسمي مفعولاً لا يحصل هذا الترتيب ، ولكن الأصل تقديم الفاعل على المفعول ولهذا يعاد المفعول المقدم بالضمير تقول عمراً ضربه زيد فتوقعه بعد الفعل بالهاء العائدة إليه وحينئذ يطول الكلام فلا يختاره الحكيم إلا لفائدة ، فما الفائدة في تقديم الجنات على الفعل الذي هو الدخول وإعادة ذكر بالهاء في يدخلونها ، وما الفرق بين هذا وبين قول القائل يدخلونها جنات عدن ؟ نقول السامع إذا علم أن له مدخلاً من المداخل وله دخول ولم يعلم عين المدخل فإذا قيل له أنت تدخل فإلى أن يسمع الدار أو السوق يبقى متعلق القلب بأنه في أي المداخل يكون ، فإذا قيل له دار زيد تدخلها فبذكر الدار ، يعلم مدخله وبما عنده من العلم السابق بأن له دخولاً يعلم الدخول فلا يبقى له توقف ولا سيما الجنة والنار ، فإن بين المدخلين بوناً بعيداً الثاني : قوله : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ إشارة إلى سرعة الدخول فإن التحلية لو وقعت خارجاً لكان فيه تأخير الدخول فقال : ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ وفيها تقع تحليتهم الثالث : قوله : ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ بجمع الجمع فإنه جمع أسورة وهي جمع سوار ، وقوله : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ليس كذلك لأن الإكثار من اللباس يدل على حاجة من دفع برد أو غيره والإكثار من الزينة لا يدل إلا على الغنى الرابع : ذكر الأساور من بين سائر الحلي في كثير من المواضع منها قوله تعالى : ﴿ وَحُلُّوا

أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: 21] وذلك لأن التحلي بمعنيين أحدهما: إظهار كون المتحلي غير مبتذل في الأشغال لأن التحلي لا يكون حالة الطبخ والغسل وثانيهما: إظهار الاستغناء عن الأشياء وإظهار القدرة على الأشياء وذلك لأن التحلي إما باللآلىء والجواهر وإما بالذهب والفضة والتحلي بالجواهر واللآلىء يدل على أن المتحلي لا يعجز عن الوصول إلى الأشياء الكبيرة عند الحاجة حيث يعجز عن الوصول إلى الأشياء القليلة الوجود لا لحاجة، والتحلي بالذهب والفضة يدل على أنه غير محتاج حاجة أصلية وإلا لصرف الذهب والفضة إلى دفع الحاجة، إذا عرفت هذا فنقول الأساور محلها الأيدي وأكثر الأعمال باليد فإنها للبطش، فإذا حليت بالأساور علم الفراغ والذهب واللؤلؤ إشارة إلى النوعين اللذين منهما الحلي.

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34)

في الحزن أقوال كثيرة والأولى أن يقال المراد إذهاب كل حزن والألف واللام للجنس واستغراقه وإذهاب الحزن بحصول كل ما ينبغي وبقائه دائماً فإن شيئاً منه لو لم يحصل لكان الحزن موجوداً بسببه وإن حصل ولم يدم لكان الحزن غير ذاهب بعد بسبب زواله وخوف فواته، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ذكر الله عنهم أموراً كلها تفيد الكرامة من الله الأول: الحمد فإن الحامد مثاب الثاني: قولهم (ربنا) فإن الله لم يناد بهذا اللفظ إلا

واستجاب لهم ، اللهم إلا أن يكون المنادي قد ضيع الوقت الواجب أو طلب ما لا يجوز كالرد إلى الدنيا من الآخرة الثالث : قولهم : ( غَفُورٌ ) ، الرابع : قولهم : ﴿ شَكُورٌ ﴾ والغفور إشارة إلى ما غفر لهم في الآخرة بما وجد لهم من الحمد في الدنيا ، والشكور إشارة إلى ما يعطيهم ويزيد لهم بسبب ما وجد لهم في الآخرة من الحمد .

(343/641)

---

ثم قال تعالى : ﴿ الذي أَحَلَّنَا دَارَ المقامة مِن فَضْلِهِ ﴾ أي دار الإقامة ، لما ذكر الله سرورهم وكرامتهم بتحليتهم وإدخالهم الجنات بين سرورهم ببقائهم فيها وأعلمهم بدوامها حيث قالوا : ﴿ الذي أَحَلَّنَا دَارَ المقامة ﴾ أي الإقامة والمفعول ربما يجيء للمصدر من كل باب يقال ما له معقول أي عقل ، وقال تعالى : ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ [ الإسراء : 80 ] وقال تعالى : ﴿ ومزقناهم كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ [ سبأ : 19 ] وكذلك مستخرج للاستخراج وذلك لأن المصدر هو المفعول في الحقيقة ، فإنه هو الذي فعل فجاز إقامة المفعول مقامه وفي قوله : ﴿ دَارَ المقامة ﴾ إشارة إلى أن الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل عنها إلى منزلة القبور ومنها إلى منزلة العرصة التي فيها الجمع ومنها التفريق .

وقد تكون النار لبعضهم منزلة أخرى والجنة دار المقامة ، وكذلك النار لأهلها وقولهم ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي بحكم وعده لا بإيجاب من عنده .

(344/641)

---

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ اللغوب الإعياء والنصب هو السبب للإعياء فإن قال قائل إذا بين أنه لايمسهم فيها نصب علم أنه لا يمسهم فيها لغوب ولا ينفي المتكلم الحكيم السبب ، ثم ينفي مسببه بحرف العطف فلا يقول القائل لا أكلت ولا شبعت أو لا قمت ولا مشيت والعكس كثير فإنه يقال لا شبعت ولا أكلت لما أن نفي الشبع لا يلزمه إنتفاء الأكل وسياق ما تقرر أن يقال لا يمسنا فيها إعياء ولا مشقة ، فنقول ما قاله الله في غاية الجلالة وكلام الله أجل وبيانه أجمل ، ووجهه هو أنه تعالى بين مخالفة الجنة لدار الدنيا فإن الدنيا أماكنها على قسمين : أحدهما : موضع نمس فيه المشاق والمتاعب كالبراري والصحاري والطرقات والأراضي والآخر : موضع يظهر فيه الإعياء كالبيوت والمنازل التي في الأسفار من الخانات فإن من يكون في مباشرة شغل لا يظهر عليه الإعياء إلا بعدما يستريح فقال تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ أي ليست الجنة كالمواضع التي في الدنيا مظان المتاعب بل هي أفضل من المواضع التي هي مواضع مرجع العي ، فقال : ﴿ وَلَا

يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أي ، لا نخرج منها إلى مواضع نتعب ونرجع إليها فيمسنا فيها الإعياء وقرئ ﴿ لَغُوبٌ ﴾ بفتح اللام والترتيب على هذه القراءة ظاهر كأنه قال لا نتعب ولا يمسنا ما يصلح لذلك ، وهذا لأن القوي السوي إذا قال ما تعبت اليوم لا يفهم من كلامه أنه ما عمل شيئاً لجواز أنه عمل عملاً لم يكن بالنسبة إليه متعباً لوقته ، فإذا قال ما مسني ما يصلح أن يكون متعباً يفهم أنه لم يعمل شيئاً لأن نفس العمل قد يصلح أن يكون متعباً لضعيف أو متعباً بسبب كثرته ، واللغوب هو ما يغلب منه وقيل النصب التعب المرض ، وعلى هذا فحسن الترتيب ظاهر كأنه قال لا يمسنا مرض ولا دون ذلك وهو الذي يعيا منه مباشرة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 22. 26 ﴾

(345/641)

---

وقال القرطبى :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : هذه الآية مشكلة ؛ لأنه قال جل وعز : ﴿ اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ثم قال : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ وقد تكلم العلماء فيها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

قال النحاس : فمن أصح ما روي في ذلك ما روي عن ابن عباس "فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ" قال : الكافر ؛ رواه ابن عُيَيْنة عن عمرو ابن دينار عن عطاء عن ابن عباس أيضاً .

وعن ابن عباس أيضاً "فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ" قال : نجت فرقتان ، ويكون التقدير في العربية : فمنهم من عبادنا ظالم لنفسه ؛ أي كافر .

وقال الحسن : أي فاسق .

ويكون الضمير الذي في "يَدْخُلُونَهَا" يعود على المقتصِد والسابق لا على الظالم .

وعن عكرمة وقتادة والضحاك والفرّاء أن المقتصد المؤمن العاصي ، والسابق التّقي على الإطلاق .

قالوا : وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة الواقعة : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً ﴾ الآية .

قالوا وبعيد أن يكون ممن يصطفى ظالم .

ورواه مجاهد عن ابن عباس .

قال مجاهد : "فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ" أصحاب المشأمة ، "وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ" أصحاب الميمنة ، "وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ" السابقون من الناس كلهم .

وقيل : الضمير في "يَدْخُلُونَهَا" يعود على الثلاثة الأصناف ، على ألا يكون الظالم هاهنا كافراً ولا فاسقاً .

وممن روي عنه هذا القول عمر وعثمان وأبو الدرداء ، وابن مسعود وعقبة بن عمرو

وعائشة ، والتقدير على هذا القول : أن يكون الظالم لنفسه الذي عمل الصغائر و ( المقتصد ) قال محمد بن يزيد : هو الذي يعطي الدنيا حقها والآخرة حقها ؛ فيكون "جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا" عائداً على الجميع على هذا الشرح والتبيين ؛ وروي عن أبي سعيد الخدري .



---

وقال كعب الأحبار : استوت مناكبهم وربّ الكعبة وتفاضلوا بأعمالهم .

وقال أبو إسحاق السَّبِيعي : أما الذي سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناجٍ .

وروى أسامة بن زيد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال : "كلهم في الجنة" وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سابِقُنا سابق ومُقْتَصِدُنا ناجٍ وظالمنا مغفور له" فعلى هذا القول يقدّر مفعول الاصطفاء من قوله : ﴿ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ مضافا حُذف كما حذف المضاف في ﴿ واسأل القرية ﴾ [ يوسف : 82 ] أي اصطفينا دينهم ، فبقي اصطفيناهم ؛ فحذف العائد إلى الموصول كما حذف في قوله : ﴿ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تزدري أَعْيُنُكُمْ ﴾ [ هود : 31 ] أي تزدريهم ، فالاصطفاء إذاً موجه إلى دينهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الله اصطفى لَكُمُ الدين ﴾ [ البقرة : 132 ] .

قال النحاس : وقول ثالث : يكون الظالم صاحبَ الكبائر ، والمقتصد الذي لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته ؛ فيكون : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ للذين سبقوا بالخيرات لا غير .

وهذا قول جماعة من أهل النظر ؛ لأن الضمير في حقيقة النظر لما يليه أولى .

قلت : القول الوسط أوْلاها وأصحها إن شاء الله ؛ لأن الكافر والمنافق لم يصطفَوا بحمد الله ، ولا اصطفى دينهم .

وهذا قول ستة من الصحابة ، وحسْبُك .

وسنزيده بياناً وإيضاحاً في باقي الآية .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ أَوْرَثْنَا الكتاب ﴾ أي أعطينا .

والميراث عطاء حقيقةً أو مجازاً ؛ فإنه يقال فيما صار للإنسان بعد موت آخر .

و"الكتابَ" ها هنا يريد به معاني الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده ، وكأن الله تعالى لما أعطى أمة محمد صلى الله عليه وسلم القرآن ، وهو قد تضمن معاني الكتب المنزلة ، فكأنه ورّث أمة محمد عليه السلام الكتاب الذي كان في الأمم قبلنا .

﴿ اصطفينا ﴾ أي اخترنا .

واشتقاقه من الصفو، وهو الخلوص من شوائب الكدر.

وأصله اصتفَوْنا، فأبدلت التاء طاء والواو ياء.

﴿ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ قيل المراد أمة محمد صلى الله عليه وسلم، قاله ابن عباس وغيره.

وكان اللفظ يحتمل جميع المؤمنين من كل أمة، إلا أن عبارة توريث الكتاب لم تكن إلا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، والأُوَل لم يرثوه.

وقيل: المصطفَوْن الأنبياء، توارثوا الكتاب بمعنى أنه انتقل عن بعضهم إلى آخر، قال الله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [النمل: 16]، وقال: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم: 6] فإذا جاز أن تكون النبوّة موروثة فكذلك الكتاب.

﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ من وقع في صغيرة.

قال ابن عطية: وهذا قول مردود من غير ما وجه.

قال الضحاك: معنى ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ أي من ذرّيّتهم ظالم لنفسه وهو المشرك.

الحسن: من أممهم، على ما تقدّم ذكره من الخلاف في الظالم.

والآية في أمّة محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد اختلفت عبارات أرباب القلوب في الظالم والمقتصد والسابق، فقال سهل بن عبد الله: السابق العالم، والمقتصد المتعلم، والظالم الجاهل.

وقال ذو النون المصري : الظالم الذاكر الله بلسانه فقط ، والمقتصد الذاكر بقلبه ، والسابق الذي لا ينساه .

وقال الأنطاكي : الظالم صاحب الأقوال ، والمقتصد صاحب الأفعال ، والسابق صاحب الأحوال .

وقال ابن عطاء : الظالم الذي يحب الله من أجل الدنيا ، والمقتصد الذي يحبه من أجل العقبى ، والسابق الذي أسقط مراده بمراد الحق .

وقيل : الظالم الذي يعبد الله خوفاً من النار ، والمقتصد الذي يعبد الله طمعاً في الجنة ، والسابق الذي يعبد الله لوجهه لا لسبب .

وقيل : الظالم الزاهد في الدنيا ، لأنه ظلم نفسه فترك لها حظاً وهي المعرفة والمحبة ، والمقتصد العارف ، والسابق المحب .



---

وقيل : الظالم الذي يجزع عند البلاء ، والمقتصد الصابر على البلاء ، والسابق المتلذذ بالبلاء .

وقيل : الظالم الذي يعبد الله على الغفلة والعادة ، والمقتصد الذي يعبده على الرغبة

والرهبة ، والسابق الذي يعبده على الهيبة .

وقيل : الظالم الذي أُعْطِيَ فمنَع ، والمقتصد الذي أُعْطِيَ فبذَل ، والسابق الذي مُنع فشكر وآثر .

يروى أن عابدَيْن التقيا فقال : كيف حال إخوانكم بالبصرة ؟ قال : بخير ، إن أُعطوا شكروا وإن مُنعوا صبروا .

فقال : هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ ! عُبَّادنا إن مُنعوا شكروا وإن أُعطوا آثروا .

وقيل : الظالم من استغنى بماله ، والمقتصد من استغنى بدينه ، والسابق من استغنى بربه .

وقيل : الظالم التالي للقرآن ولا يعمل به ، والمقتصد التالي للقرآن ويعمل به ، والسابق القارىء للقرآن العامل به والعالِم به .

وقيل : السابق الذي يدخل المسجد قبل تأذين المؤذن ، والمقتصد الذي يدخل المسجد وقد أذّن ، والظالم الذي يدخل المسجد وقد أقيمت الصلاة ؛ لأنه ظلم نفسه الأجر فلم يحصِّل لها ما حصَّله غيره .

وقال بعض أهل العلم في هذا : بل السابق الذي يدرك الوقت والجماعة فيدرك الفضيلتين ، والمقتصد الذي إن فاتته الجماعة لم يفرط في الوقت ، والظالم الغافل عن الصلاة حتى يفوت الوقت والجماعة ، فهو أولى بالظلم .

وقيل : الظالم الذي يحب نفسه ، والمقتصد الذي يحب دينه ، والسابق الذي يحب ربه .

وقيل : الظالم الذي ينتصف ولا يُنصف ، والمقتصد الذي ينتصف ويُنصف ، والسابق الذي يُنصف ولا ينتصف .

وقالت عائشة رضي الله عنها : السابق الذي أسلم قبل الهجرة ، والمقتصد من أسلم بعد الهجرة ، والظالم من لم يسلم إلا بالسيف ؛ وهم كلهم مغفور لهم .

قلت : ذكر هذا الأقوال وزيادةً عليها الثعلبيّ في تفسيره .

وبالجملة فهم طرفان وواسطة ، وهو المقتصد الملازم للقصد وهو ترك الميل ؛ ومنه قول جابر بن حُنَيّ التَّغْلَبيّ :

نعاطي الملوكَ السّلم ما قصدوا لنا . . .

(349/641)

---

وليس علينا قتلُهم بمحرّم

أي نعاطيهم الصلح ما ركبوا بنا القصد ، أي ما لم يجوروا ، وليس قتلهم بمحرّم علينا إن جاروا ؛ فلذلك كان المقتصد منزلة بين المنزلتين ، فهو فوق الظالم لنفسه ودون السابق بالخيرات .

﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الفضل الكبير ﴾ يعني إتياننا الكتاب لهم .

وقيل : ذلك الاصطفاء مع علمنا بعيوبهم هو الفضل الكبير .

وقيل : وعدُ الجنة لهؤلاء الثلاثة فضل كبير .

الثالثة : وتكلم الناس في تقديم الظالم على المقتصد والسابق فقيل : التقديم في الذكر لا يقتضي تشريفاً ؛ كقوله تعالى : ﴿ لاَ يستوي أَصْحَابُ النار وأَصْحَابُ الجنة ﴾ [ الحشر : 20 ] .

وقيل : قدم الظالم لكثرة الفاسقين منهم وغلبتهم ، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم ، والسابقين أقل من القليل ؛ ذكره الزمخشري ولم يذكره غيره .

وقيل : قدّم الظالم لتأكيد الرجاء في حقه ، إذ ليس له شيء يتكل عليه إلا رحمة ربه . واتكل المقتصد على حسن ظنه ، والسابق على طاعته .

وقيل : قدّم الظالم لئلا ييئس من رحمة الله ، وأخّر السابق لئلا يعجب بعمله .

وقال جعفر بن محمد بن علي الصادق رضي الله عنه : قدّم الظالم ليخبر أنه لا يتقرّب إليه إلا بصرف رحمته وكرمه ، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفائية إذا كانت ثَمّ عناية ، ثم ثنّى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء ، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكر الله ، وكلهم في الجنة بحرمة كلمة الإخلاص : "لا إله إلا الله محمد رسول الله" .

وقال محمد بن علي الترمذي : جمعهم في الاصطفاء إزالةً للعلل عن العطاء ؛ لأن الاصطفاء يوجب الإرث ، لا الإِرث يوجب الاصطفاء ، ولذلك قيل في الحكمة : صحح النسبة ثم

ادّع في الميراث.

وقيل: أخّر السابق ليكون أقرب إلى الجنات والثواب، كما قدّم الصوامع والبيع في "سورة الحج" على المساجد، لتكون الصوامع أقربَ إلى الهدم والخراب، وتكون المساجد أقرب إلى ذكر الله.

(350/641)

---

وقيل: إن الملوك إذا أرادوا الجمع بين الأشياء بالذكر قدّموا الأدنى؛ كقوله تعالى: ﴿ لَسَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف: 167]، وقوله: ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور ﴾ [الشورى: 49]، وقوله: ﴿ لاَ يستوي أَصْحَابُ النار وَأَصْحَابُ الجنة ﴾ [الحشر: 20].

قلت: ولقد أحسن من قال:

وغاية هذا الجود أنت وإنما . . .

يوافي إلى الغايات في آخر الأمر

الرابعة: قوله: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ جمعهم في الدخول لأنه ميراث، والعاق والبارّ في الميراث سواء إذا كانوا معترفين بالنسب؛ فالعاصي والمطيع مقرّون بالرب.

وقرىء : "جَنَّةُ عَدْنٍ" على الإِفراد ، كأنها جنة مختصة بالسابقين لقلتهم ؛ على ما تقدّم .

و"جَنَّاتِ عَدْنٍ" بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر ؛ أي يدخلون جنات عدن يدخلونها .

وهذا للجميع ، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى .

وقرأ أبو عمرو "يُدخَلونها" بضم الياء وفتح الخاء .

قال : لقوله : "يُحَلَّوْنَ" .

وقد مضى في "الحج" الكلام في قوله تعالى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [ الحج : 23 ] .

﴿ وَقَالُواْ الحمد لِلَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ قال أبو ثابت : دخل رجل المسجد فقال اللهم ارحم غُربتي وآنس وحدتي ويسر لي جليساً صالحاً .

(351/641)

---

فقال أبو الدرداء : لئن كنت صادقاً فلأنا أسعد بذلك منك ، سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات ﴾ قال فيجيء هذا السابق فيدخل الجنة بغير حساب ،

وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً ، وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام ويوبخ ويقرّع ثم يدخل الجنة فهم الذين قالوا : ﴿ الحمد للَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ " وفي لفظ آخر : " وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين يتلقاهم الله برحمته فهم الذين يقولون ﴿ الحمد للهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ إلى قوله ﴿ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ " وقيل : هو الذي يؤخذ منه في مقامه ؛ يعني يكفَّر عنه بما يصيبه من الهمّ والحزن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَن يَعْمَلْ سواءا يُجْزَ بِهِ ﴾ [ النساء : 123 ] يعني في الدنيا .

قال الثعلبيّ : وهذا التأويل أشبه بالظاهر ؛ لأنه قال : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ ، ولقوله : ﴿ الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ والكافر والمنافق لم يصطفَوْا .

قلت : وهذا هو الصحيح ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " ومَثَل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ، ريحها طيب وطعمها مر " فأخبر أن المنافق يقرؤه ، وأخبر الحق سبحانه وتعالى أن المنافق في الدرك الأسفل من النار ، وكثير من الكفار واليهود والنصارى يقرؤونه في زماننا هذا .

وقال مالك : قد يقرأ القرآن من لا خير فيه .

والنَّصَب : التعب .

واللُّغوب : الإعياء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾

لما قرر تعالى وحدانيته بأدلة قربها وأمثال ضربها ، أتبعها بأدلة سماوية وأرضية فقال : ﴿ ألم تر ﴾ ، وهذا الاستفهام تقريري ، ولا يكون إلا في الشيء الظاهر جداً .

والخطاب للسامع ، وتر من رؤية القلب ، لأن إسناد إنزاله تعالى لا يستدل عليه إلا بالعقل الموافق للنقل ، وإن كان إنزال المطر مشاهداً بالعين ، لكن رؤية القلب قد تكون مسندة لرؤية البصر ولغيرها .

وخرج من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم في قوله : ﴿ فأخرجنا ﴾ ، لما في ذلك من الفخامة ، إذ هو مسند للمعظم المتكلم .

ولأن نعمة الإخراج أتم من نعمة الإنزال لفائدة الإخراج ، فأسند الأتم إلى ذاته بضمير المتكلم ، وما دونه بضمير الغائب .

والظاهر أن الألوان ، إن أريد بها ما يتبادر إليه الذهن من الحمرة والصفرة والخضرة والسواد وغير ذلك ، والألوان بهذا المعنى أوسع وأكثر من الألوان بمعنى الأصباغ .

وقرأ الجمهور : ﴿ مختلفاً ألوانها ﴾ ، على حد اختلف ألوانها .

وقرأ زيد بن علي : مختلفة ألوانها ، على حد اختلفت ألوانها ، وجمع التكسير يجوز فيه أن تلحق التاء ، وأن لا تلحق .

وقرأ الجمهور : ﴿ جُدَد ﴾ ، بضم الجيم وفتح الدال ، جمع جدة .

قال ابن بحر : قطع من قولك : جددت الشيء : قطعته .

وقرأ الزهري : كقراءة الجمهور .

قال صاحب اللوامح : جمع جدة ، وهي ما تخالف من الطريق في الجبال لون ما يليها .

وعنه أيضاً ، بضم الجيم والدال : جمع جديدة وجدد وجدائد ، كما يقال في الاسم : سفينة وسفن وسفائن .

قال أبو ذؤيب :

جون السراة أم جدائد أربع . . .

_@_وعنه أيضاً : بفتح الجيم والدال ، ولم يجزه أبو حاتم في المعنى ، ولا صححه أثراً .

وقال غيره : هو الطريق الواضح المبين ، وضعه موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض .

وقال أبو عبيدة : يقال جدد في جمع جديد ، ولا مدخل لمعنى الجديد في هذه الآية .

وقال صاحب اللوامح : جدد جمع جديد بمعنى : آثار جديدة واضحة الألوان . انتهى .

وقال : مختلف ألوانها ، لأن البياض والحمرة تتفاوت بالشدة والضعف ، فأبيض لا يشبه أبيض ، وأحمر لا يشبه أحمر ، وإن اشتركا في القدر المشترك ، لكنه مشكل .

والظاهر عطف ﴿ وغرابيب ﴾ على ﴿ حمر ﴾ ، عطف ذي لون على ذي لون .

وقال الزمخشري : معطوف على ﴿ بيض ﴾ أو على ﴿ جدد ﴾ ، كأنه قيل : ومن الجبال مخطط ذو جدد ، ومنها ما هو على لون واحد .

وقال بعد ذلك : ولا بد من تقدير حذف المضاف في قوله : ﴿ ومن الجبال جدد ﴾ ، بمعنى : ذو جدد بيض وحمر وسود ، حتى تؤول إلى قولك : ومن الجبال مختلف ألوانه ، كما قال : ﴿ ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾ .

﴿ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانها ﴾ يعني : ومنهم بعض مختلف ألوانه .

وقرأ ابن السميفع : ألوانها . انتهى .

والظاهر أنه لما ذكر الغرابيب ، وهو الشديد السواد ، لم يذكر فيه مختلف ألوانه ، لأنه من حيث جعله شديد السواد ، وهو المبالغ في غاية السواد ، لم يكن له ألوان ، بل هذا لون واحد ، بخلاف البيض والحمر ، فإنها مختلفة .

والظاهر أن قوله : ﴿ بيض حمر ﴾ ليسا مجموعين بجدة واحدة ، بل المعنى : جدد بيض ، وجدد حمر ، وجدد غرابيب .

ويقال : أسود حلكوك ، وأسود غربيب ، ومن حق الواضح الغاية في ذلك اللون أن يكون تابعاً .

فقال ابن عطية : قدم الوصف الأبلغ ، وكان حقه أن يتأخر ، وكذلك هو في المعنى ، لكن كلام العرب الفصيح يأتي كثيراً على هذا .

وقال الزمخشري : الغربيب تأكيد للاسود ، ومن حق التوكيد أن يتبع المؤكد ، كقولك : أصفر فاقع ، وأبيض يقق ، وما أشبه ذلك ؛ ووجهه أن يظهر المؤكد قبله ، فيكون الذي بعده تفسيراً لما أضمر ، كقول النابغة _@_ :

والمؤمن العائذات الطير . . .



---

وإنما يفعل لزيادة التوكيد ، حيث يدل على المعنى الواحد من طريق الإظهار والإضمار جميعاً . انتهى .

وهذا لا يصح إلا على مذهب من يجيز حذف المؤكد .

ومن النحاة من منع ذلك ، وهو اختيار ابن مالك .

وقيل : هو على التقديم والتأخير ، أي سود غرابيب .

وقيل : سود بدل من غرابيب ، وهذا أحسن ، ويحسنه كون غرابيب لم يلزم فيه أن يستعمل تأكيداً ، ومنه ما جاء في الحديث : " أن الله يبغض الشيخ الغربيب " ، يعني الذي يخضب بالسواد ، وقال الشاعر :

العين طامحة واليد سابحة . . .

والرجل لائحة والوجه غربيب

وقال آخر :

ومن تعاجيب خلق الله غالية . . .

البعض منها ملاحيّ وغربيب

وقرأ الجمهور : ﴿ الدواب ﴾ ، مشدد الباء ؛ والزهري : بتخفيفها ، كراهية التضعيف ، إذ فيه التقاء الساكنين .

كما همز بعضهم ﴿ ولا الظالين ﴾ ، فراراً من التقاء الساكنين ، فحذف هنا آخر المضعفين وحرك أول الساكنين .

ومختلفة ، صفة لمحذوف ، أي خلق مختلف ألوانه كذلك ، أي كاختلاف الثمرات والجبال ؛ فهذا التشبيه من تمام الكلام قبله ، والوقف عليه حسن .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون من الكلام الثاني يخرج مخرج السبب ، كأنه قال : كما جاءت القدرة في هذا كله .

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ : أي المخلصون لهذه العبر ، الناظرون فيها . انتهى .

وهذا الاحتمال لا يصح ، لأن ما بعد إنما لا يمكن أن يتعلق بهذا المجرور قبلها ، ولو خرج مخرج السبب ، لكان التركيب : كذلك يخشى الله من عباده ، أي لذلك الاعتبار ، والنظر في مخلوقات الله واختلاف ألوانها يخشى الله .

ولكن التركيب جاء بإنما ، وهي تقطع هذا المجرور عما بعدها ، والعلماء هم الذين علموه بصفاته وتوحيده وما يجوز عليه وما يجب له وما يستحيل عليه ، فعظموه وقدروه حق قدره ، وخشوه حق خشيته ، ومن ازداد به علماً ازداد منه خوفاً ، ومن كان علمه به أقل كان آمن ، وقد وردت أحاديث وآثار في الخشية .



---

وقيل : نزلت في أبي بكر الصديق ، وقد ظهرت عليه الخشية حتى عرفت فيه .

ومن ادعى أن إنما للحصر قال : المعنى ما يخشى الله إلا العلماء ، فغيرهم لا يخشاه ، وهو

قول الزمخشري .

وقال ابن عطية : وإنما في هذه الآية تخصيص العلماء لا الحصر ، وهي لفظة تصلح للحصر وتأتي أيضاً دونه ، وإنما ذلك بحسب المعنى الذي جاءت فيه . انتهى .

وجاءت هذه الجملة بعد قوله : ﴿ ألم تر ﴾ ، إذ ظاهره خطاب للرسول ، حيث عدد آياته وأعلام قدرته وآثار صنعته ، وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس ، وما يستدل به عليه وعلى صفاته ، فكأنه قال : إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك ممن عرفه حق معرفته .

وقرأ الجمهور : بنصب الجلالة ورفع العلماء .

وروي عن عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة عكس ذلك ، وتؤولت هذه القراءة على أن الخشية استعارة للتعظيم ، لأن من خشي وها به أجل وعظم من خشيه وهاب ، ولعل ذلك لا يصح عنهما .

وقد رأينا كتباً في الشواذ ، ولم يذكروا هذه القراءة ، وإنما ذكرها الزمخشري ، وذكرها عن أبي حيوة أبو القاسم يوسف بن جبارة في كتابه الكامل .

﴿ إن الله عزيز غفور ﴾ : تعليل للخشية ، إذ العزة تدل على عقوبة العصاة وقهرهم ، والمغفرة على إنابة الطائعين والعفو عنهم .

﴿ إن الذين يتلون ﴾ : ظاهره يقرأون ، ﴿ كتاب الله ﴾ : أي يداومون تلاوته .

وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : هذه آية القراء ، ويتبعون كتاب الله ، فيعملون بما فيه ؛ وعن الكلبي : يأخذون بما فيه .

وقال السدي : هم أصحاب الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، ورضي عنهم وقال : "عطاء هم المؤمنون" .

ولما ذكر تعالى وصفهم بالخشية ، وهي عمل القلب ، ذكر أنهم يتلون كتاب الله ، وهو عمل اللسان .

﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ : وهو عمل الجوارح ، وينفقون : وهو العمل المالي .

وإقامة الصلاة والإنفاق : يقصدون بذلك وجه الله ، لا للرياء والسمعة .

﴿ تجارة لن تبور ﴾ : لن تكسد ، ولا يتعذر الربح فيها ، بل ينفق عند الله .



---

﴿ ليوفهم ﴾ : متعلق بيرجون ، أو بلن تبور ، أو بمضمر تقديره : فعلوا ذلك ، أقوال .

وقال الزمخشري : وإن شئت فقلت : يرجون في موضع الحال على وأنفقوا راجين ليوفيهم ، أي فعلو جميع ذلك لهذا الغرض .

وخبر إن قوله : ﴿ إنه غفور شكور ﴾ لأعمالهم ، والشكر مجاز عن الإثابة . انتهى .

وأجورهم هي التي رتبها تعالى على أعمالهم ، وزيادته من فضله .

قال أبو وائل : بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم .

وقال الضحاك : بتفسيح القلوب ، وفي الحديث : " بتضعيف حسناتهم " وقيل : بالنظر إلى وجهه .

والكتاب : هو القرآن ، ومن : للتبين أو الجنس أو التبعيض ، تخريجات للزمخشري .

﴿ ومصدقاً ﴾ : حال مؤكدة لما ﴿ بين يديه ﴾ من الكتب الإلهية : التوراة والانجيل والزبور وغيره ، وفيه إشارة إلى كونه وحياً ، لأنه عليه السلام لم يكن قارئاً كاتباً ، وأتى ببيان ما في كتب الله ، ولا يكون ذلك إلا من الله تعالى .

﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ : عالم بدقائق الأشياء وبواطنها ، بصير بما ظهر منها ، وحيث أهلك لوحيه ، واختارك برسالته وكتابه ، الله أعلم حيث يجعل رسالاته .

﴿ ثم أورثنا الكتاب ﴾ ، وثم قيل : بمعنى الواو ، وقيل : للمهلة ، إما في الزمان ، وإما في الإخبار على ما يأتي بيانه .

والكتاب فيه قولان ، أحدهما : أن المعنى : أنزلنا الكتب الإلهية ، والكتاب على هذا اسم جنس .

والمصطفون ، على ما يأتي بيانه أن المعنى : الأنبياء وأتباعهم ، قاله الحسن .

وقال ابن عباس : هم هذه الأمة ، أورثت أمة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ، كل كتاب أنزله الله .



---

وقال ابن جرير : أورثهم الإيمان ، فالكتب تأمر باتباع القرآن ، فهم مؤمنون بها عاملون بمقتضاها ، يدل عليه : ﴿ والذين أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ﴾ ، ثم أتبعه بقوله : ﴿ ثم أورثنا الكتاب ﴾ ، فعلمنا أنهم أمة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ، إذ كان معنى الميراث : انتقال شيء من قوم إلى قوم ، ولم تكن أمة انتقل إليها كتاب من قوم كانوا قبلهم غير أمته .

فإذا قلنا : هم الأنبياء وأتباعهم ، كان المعنى : أورثنا كل كتاب أنزل على نبي ، ذلك النبي وأتباعه .

والقول الثاني : أن الكتاب هو القرآن ، والمصطفون أمة الرسول ، ومعنى أورثنا ، قال مجاهد : أعطينا ، لأن الميراث عطاء .

ثم قسم الوارثين إلى هذه الأقسام الثلاثة ، قال مكي : فقيل هم المذكورون في الواقعة .

فالسابق بالخيرات هو المقرب ، والمقتصد أصحاب الميمنة ، والظالم لنفسه أصحاب

المشأمة ، وهو قول يروى معناه عن عكرمة والحسن وقتادة ، قالوا : الضمير في منهم عائد على العباد .

فالظالم لنفسه الكافر والمنافق ، والمقتصد المؤمن العاصي ، والسابق التقي على الإطلاق ، وقالوا : هو نظير ما في الواقعة .

والأكثرون على أن هؤلاء الثلاثة هم في أمة الرسول ، ومن كان من أصحاب المشأمة مكذباً ضالاً لا يورث الكتاب ولا اصطفاه الله ، وإنما الذي في الواقعة أصناف الخلق من الأولين والآخرين .

قال عثمان ابن عفان : سابقنا أهل جهاد ، ومقتصدنا أهل حضرنا ، وظالمنا أهل بدونا ، لا يشهدون جمعة ولا جماعة .

وقال معاذ : الظالم لنفسه : الذي مات على كبيرة لم يتب منها ، والمقتصد : من مات على صغيرة ولم يصب كبيرة لم يتب منها ، والسابق : من مات تائباً عن كبيرة أو صغيرة أو لم يصب ذلك .

وقيل : الظالم لنفسه : العاصي المسرف ، والمقتصد : متقي الكبائر ، والسابق : المتقي على الإطلاق .

وقال الحسن : الظالم : من خفت حسناته ، والمقتصد : من استوت ، والسابق : من رجحت .

وقال الزمخشري : قسمهم إلى ظالم مجرم ، وهو المرجأ لأمر الله ، ومقتصد ، وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ؛ وسابق ، من السابقين . انتهى .

وذكر في التجريد ثلاثة وأربعين قولاً في هؤلاء الأصناف الثلاثة .

وقرأ أبو عمران الجوفي ، وعمر ابن أبي شجاع ، ويعقوب في رواية ، والقرآءة عن أبي عمرو : سباق ؛ والجمهور .

سابق ، قيل : وقدم الظالم لأنه لا يتكل إلا على رحمة الله .

وقال الزمخشري : للإيذان بكثرة الفاسقين منهم وغلبتهم ، وأن المقتصد قليل بالإضافة إليهم ، والسابقون أقل من القليل . انتهى .

﴿ بإذن الله ﴾ : بتيسيره وتمكنه ، أي أن سبقه ليس من جهة ذاته ، بل ذلك منه تعالى .

والظاهر أن الإشارة بذلك الى إيراث الكتاب واصطفاء هذه الأمة .

﴿ وجنات ﴾ على هذا مبتدأ ، و﴿ يدخلونها ﴾ الخبر .

وجنات ، قرأءة الجمهور جمعاً بالرفع ، ويكون ذلك إخبارا بمقدار أولئك المصطفين .

وقال الزمخشري ، وابن عطية : ﴿ جنات ﴾ بدل من ﴿ الفضل ﴾ .

قال الزمخشري : فإن قلت : فكيف جعلت ﴿ جنات عدن ﴾ بدلاً من ﴿ الفضل الكبير ﴾ الذي هو السبق بالخيرات المشار إليه بذلك ؟ قلت : لما كان السبب في نيل الثواب نزل منزلة المسبب كأنه هو الثواب ، فأبدلت عنه جنات عدن . انتهى .

ويدل على أنه مبتدأ قراءة الجحدري وهارون ، عن عاصم .

جنات ، منصوباً على الاشتغال ، أي يدخلون جنات عدن يدخلونها .

وقرأ رزين ، وحبيش ، والزهري : جنة على الأفراد .

وقرأ أبو عمرو : ويدخلونها مبنياً للمفعول ، ورويت عن ابن كثير والجمهور مبنياً للفاعل .

والظاهر أن الضمير المرفوع في يدخلونها عائداً على الأصناف الثلاثة ، وهو يقول عبد الله بن مسعود ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وأبي الدرداء ، وعقبة بن عامر ، وأبي سعيد ، وعائشة ، ومحمد بن الحنيفة ، وجعفر الصادق ، وأبي إسحاق السبيعي ، وكعب الأحبار .



---

وقرأ عمر هذه الآية ، ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له " ومن جعل ثلاثة الأصناف هي التي في الواقعة ، لأن

الضمير في يدخلونها عائد عنده على المقتصد والسابق .

وقال الزمخشري : هو عائد على السابق فقط ، ولذلك جعل ذلك إشارة إلى السبق بعد التقسيم ، فذكر ثوابهم .

والسكوت عن الآخرين ما فيه من وجوب الحذر ، فليحذر المقتصد ، وليهلك الظالم لنفسه حذراً ، وعليهما بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله ، ولا يغتر بما رواه عمر رضي الله عنه عن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : " سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له " ، فإن شرط ذلك صحة التوبة ، عسى الله أن يتوب عليهم .

وقوله : إما يعذبهم ، وإما يتوب عليهم ، ولقد نطق القرآن بذلك في مواضع من استقرأها اطلع على حقيقة الأمر ولم يعلل نفسه بالخداع .

انتهى ، وهو على طريق المعتزلة .

وقرأ الجمهور : ﴿ يحلون ﴾ بضم الياء وفتح الحاء وشد اللام ، مبنياً للمفعول .

وقرىء : بفتح الياء وسكون الحاء وتخفيف اللام ، من حليت المرأة فهي حال ، إذا لبست الحلى .

ويقال : جيد حال ، إذا كان فيه الحلى ، وتقدم في سورة الحج الكلام على ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ .

وقرأ الجمهور : ﴿ الحزن ﴾ بفتحتين ؛ وقرىء : بضم الحاء وسكون الزاي ، ذكره جناح

بن حبيش ، والحزن يعم جميع الأحزان ، وقد خص المفسرون هنا وأكثروا ، وينبغي أن يحمل ذلك على التمثيل لا على التعيين ، فقال أبو الدرداء : حزن : أهوال يوم القيامة ، وما يصيب هنالك من ظلم نفسه من الغم والحزن .

وقال سمرة بن جندب : معيشة الدنيا الخبز ونحوه .

وقال قتادة : حزن الدنيا في الحوفة أن لا يتقبل أعمالهم .

وقال مقاتل : حزن الانتقال ، يقولونها إذا استقروا فيها .

وقال الكلبي : خوف الشيطان .



---

وقال ابن زيد : حزن : تظالم الآخرة ، والوقوف عن قبول الطاعات وردها ، وطول المكث على الصراط.

وقال القاسم بن محمد : حزن : زوال الغم وتقلب القلب وخوف العاقبة ، وقد أكثروا حتى قال بعضهم : كراء الدار ، ومعناه أنه يعم كل حزن من أحزان الدين والدنيا حتى هذا .

﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾ ، لغفور : فيه إشارة إلى دخول الظالم لنفسه الجنة ، وشكور : فيه إلى السابق وأنه كثير الحسنات .

والمقامة : هي أي الجنة ، لأنها دار إقامة دائماً لا يرحل عنها .

﴿ من فضله ﴾ : من عطائه .

﴿ لا يسمنا فيها نصب ﴾ : أي تعب بدن ، ﴿ ولا يسمنا فيها لغوب ﴾ : أي تعب نفس ، وهو لازم عن تعب البدن .

وقال قتادة : اللغوب : الوضع .

وقال الزمخشري : النصب : التعب والمشقة التي تصيب المنتصب المزاول له ، وأما اللغوب : فما يلحقه من الفتور بسبب النصب .

فالنصب نفس المشقة والكلفة ، واللغوب نتيجته ، وما يحدث منه من الكلال والفترة .

انتهى .

فإن قلت : إذا انتفى السبب انتفى مسببه ، فما حكمه إذا نفي السبب وانتفى مسببه ؟ وأنت تقول : ما شبعت ولا أكلت ، ولا يحسن ما أكلت ولا شبعت ، لأنه يلزم من انتفاء الأكل انتفاء الشبع ، ولا ينعكس ، فلو جاء على هذا الأسلوب لكان التركيب لا يمسنا فيها إعياء ولا مشقة ؟ فالجواب : أنه تعالى بين مخالفة الجنة لدار الدنيا ، فإن أماكنها على قسمين : موضع يمس فيه المشاق والمتاعب كالبراري والصحاري ، وموضع يمس فيه الأعياء كالبيوت والمنازل التي فيها الصغار ، فقال : ﴿ لا يمسنا في نصب ﴾ ، لأنها ليست مظان المتاعب لدار الدنيا ؛ ﴿ ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ : أي ولا نخرج منها إلى

موضع نصب ونرجع إليها فيمسنا فيها الإعياء .

وقرأ الجمهور : لغوب ، بضم اللام ، وعلي بن أبي طالب والسلمي : بفتحها .

قال الفراء : هو ما يلغب به ، كالفطور والسحور ، وجاز أن يكون صفة للمصدر المحذوف ، كأنه لغوب ، كقولهم : موت مائت .

(361/641)

---

وقال صاحب اللوامح : يجوز أن يكون مصدراً كالقبول ، وإن شئت جعلته صفة لمضمر ، أي أمر لغوب ، واللغوب أيضاً في غير هذا للأحمق .

قال أعرابي أن فلاناً لغوب جاءت كتابي فاحتقرها ، أي أحمق ، فقيل له : لم أنثته ؟ فقال : أليس صحيفة ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(362/641)

---

وقال أبو السعود :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب ﴾

أي قضينا بتوريثِهِ منك أو نورّثه . والتَّعبيرُ عنه بالماضِي لتقرره وتحققه وقيل : أورثناهُ من الأممِ السَّالفةِ أي أخّرناه عنهم وأعطيناهُ ﴿ الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وهم علماءُ الأمةِ من الصَّحابةِ ومن بعدهم ممّن يسيرُ سيرتَهم أو الأمة بأسرهم فإنَّ اللهَ تعالى اصطفاهم على سائرِ الأممِ وجعلهم أمةً وسطاً ليكونُوا شهداءَ على النّاسِ واختصَّهم بكرامةِ الانتماءِ إلى أفضلِ رسلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وليس من ضرورةِ وراثةِ الكتاب مراعاتُه حقَّ رعايتِه لقوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الكتاب ﴾ الآيَةَ ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لّنَفْسِهِ ﴾ بالتَّقصيرِ في العلمِ به وهو المرجأُ لأمرِ الله ﴿ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ يعملُ به في أغلبِ الأوقاتِ ولا يخلُو من خلط السَّيءِ ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات بِإِذُنِ الله ﴾ قيل هم السّابقونَ الأوَّلون من المهاجرينَ والأنصارِ وقيل : هم المُداومون على إقامةِ مواجبِه علماً وعملاً وتعليماً وفي قوله تعالى بإذنِ اللهِ أي بتيسيره وتوفيقِه تنبيهٌ على عزَّةِ منالِ هذه الرُّتبةِ وصعوبةِ مأخذِها وقيل : الظَّالمُ الجاهلُ والمقتصدُ المتعلّم والسَّابقُ العالمُ وقيل الظالمُ المجرمُ والمقتصدُ الذي خلطَ الصَّالحَ بالسَّيءِ والسَّابقُ الذي ترجّحتْ حسناتُه بحيثُ صارتْ سيّئاتُه مكفَّرةً . وهو معنى قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " وَأَمَّا الذين سَبَقُوا فَأُوْلَئِك

يَدْخُلونَ الجنةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَأَمَّا المقتصد فأولئك يحاسبون حسابًا يسيرًا وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون فى طول المحشر ثم يتلقاهم الله تعالى برحمته" وقد رُوي أنَّ عمرَ رضي الله عنه قال وهو على المنبرِ قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " سابقُنا سابقٌ ومقتصدُنا ناجٍ وظالمُنا مغفورٌ له" ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى السَّبقِ بالخيراتِ وما فيه من

(364/641)

---

معنى البُعدِ مع قُربِ العهد بالمشارِ إليه للإشعارِ بعلوِّ رتبتِه وبُعد منزلتِه في الشَّرفِ ﴿ هُوَ الفضل الكبير ﴾ من الله عزَّ وجلَّ لا يُنال إلا بتوفيقِه تعالى

﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ إمَّا بدلٌ من الفضلُ الكبيرُ بتنزيلِ السَّببِ منزلةَ المسَّببِ أو مبتدأٌ خبرُه ﴿ يَدْخُلونَهَا ﴾ وعلى الأوَّلِ هو مستأنفٌ وجمعُ الضميرِ لأنَّ المرادَ بالسَّابقِ الجنسُ وتخصيصُ حالِ السَّابقينَ ومآلِهم بالذِّكرِ والسُّكوتُ عن الفريقينِ الآخرينِ وإنْ لم يدلَّ على حرمانِهما من دخولِ الجنةِ مُطلقًا لكنَّ فيه تحذيرًا لهما من التَّقصيرِ وتحريضًا على السَّعيِ في إدراكِ شأوِ السَّابقينَ. وقُرىء جنَّاتِ عدنٍ وجَنَّةَ عدنٍ على النَّصبِ بفعلٍ يفسِّره الظَّاهرُ. وقُرىء يُدخَلونها على البناءِ للمفعولِ ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ خبرٌ ثانٍ، أو حالٌ

مقدرةٌ. وقُرِئ يحلون من حَلِيتْ المرأةُ فهي حاليةٌ ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ هي جمعُ أسورةٍ جمع سوارٍ ﴿ مّن ذَهَبٍ ﴾ مِن الأُولى تبعيضيّةٌ، والثّانيةُ بيانيّةٌ أي يُحلّون بعضَ أساورَ من ذهبٍ كأنَّه أفضلُ من سائرِ أفرادِها ﴿ وَلُؤْلُؤاً ﴾ بالنّصبِ عطفاً على محلِّ من أساورَ وقُرِئ بالجرِّ عطفاً على ذهبٍ أي من ذهبٍ مرصعٍ باللُّؤلؤِ أو من ذهبٍ في صفاءِ اللُّؤلؤِ ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ وتغييرُ الأسلوبِ قد مرَّ سرُّه في سورةِ الحجِّ.

(365/641)

---

﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي يقولون وصيغةَ الماضي للدّلالةِ على التّحقُّقِ ﴿ الحمد للَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ وهو ما أهمَّهم من خوفِ سوءِ العاقبةِ وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: حزنُ الأعراضِ والآفاتُ، وعنه حزنُ الموتِ وعن الضّحّاكِ: حزنُ وسوسةِ إبليسَ. وقيل: همُّ المعاشِ، وقيل: حزنُ زوالِ النّعمِ. والظّاهرُ أنَّه الجنسُ المنتظمُ لجميعِ أحزانِ الدّينِ والدُّنيا. وقُرِئ الحُزْنَ وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم: "ليس على أهلِ لا إله إلا الله وحشةٌ في قبورِهم ولا في محشرِهم، ولا في مسيرِهم وكأنّي بأهلِ لا إله إلا الله يخرجُون من قبورِهم ينفضُون التُّرابَ عن وجوهِهم ويقولون الحمدُ لله الذي أذهبَ عنّا الحَزَنَ" ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ ﴾ أي للمذنبينَ ﴿ شَكُورٌ ﴾ للمطيعين.

﴿ الذى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ ﴾ أي دارَ الإقامةِ التي لا انتقالَ عنها أبداً ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ من إنعامِه وتفضُّلِه من غيرِ أنْ يوجبَه شيءٌ من قبلنا ﴿ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ تعب ﴿ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ كلالٌ والفرقُ بينهما أنَّ النَّصبَ المشقَّة والكُلفة واللُّغوب ما يحدثُ منه من الفتورِ ، والتَّصريحُ بنفي الثَّاني مع استلزامِ نفي الأوَّلِ له وتكريرُ الفعلِ المنفي للمبالغةِ في بيانِ انتفاءِ كلَ منهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(366/641)

---

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب ﴾

أي القرآن كما عليه الجمهور ، والعطف قيل على ﴿ الذى أَوْحَيْنَا ﴾ [ فاطر : 31 ] وقيل على ﴿ أَوْحَيْنَا ﴾ بإقامة الظاهر مقام الضمير العائد على الموصول ، واستظهر ذلك بالقرب وتوافق الجملتين أي ثم أعطيناه من غير كد وتعب في طلبه ﴿ الذين عَبْدًا مّنْ عِبَادِنَا ﴾ وهم كما قال ابن عباس .

وغيره أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس وخصهم بالانتماء إلى أكرم رسله وأفضلهم عليهم

الصلاة والسلام، و﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي الرتبي فإن إيحاء الكتاب إليه صلى الله عليه وسلم أشرف من الإيراث المذكور كأنه كالعلة له وبه تحققت نبوته عليه الصلاة والسلام التي هي منبع كل خير وليست للتراخي الزماني إذ زمان إيحائه إليه عليه الصلاة والسلام هو زمان إيراثه، وإعطائه أمته بمعنى تخصيصه بهم وجعله كتابهم الذي إليه يرجعون وبالعمل بما فيه ينتفعون، وإذا أريد بإيراثه إياهم إيراثه منه صلى الله عليه وسلم وجعلهم منتفعين به فاهمين ما فيه بالذات كالعلماء أو بالواسطة كغيرهم بعده عليه الصلاة والسلام فهي للتراخي الزماني، والتعبير عن ذلك بالماضي لتحققه، وجوز أن يكون معنى ﴿ أَوْرَثْنَا الكتاب ﴾ حكمنا بإيراثه وقدرناه على أنه مجاز من إطلاق السبب على المسبب فتكون ثم للتراخي الرتبي وإلا فزمان الحكم سابق على زمان الإيحاء.

ووجه التعبير بالماضي عليه ظاهر.

وفي شرح الرضي أن ثم قد تجيء في عطف الجمل خاصة لاستبعاد مضمون ما بعدها عن مضمون ما قبلها وعدم مناسبته له كما في قوله تعالى: ﴿ استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ [ هود: 3 ] فإن بين توبة العباد وهي انقطاع العبد إليه تعالى بالكلية وبين طلب المغفرة بوناً بعيداً وهذا المعنى فرع التراخي ومجازه.

وابن الشيخ جعل ما هنا كما في هذه الآية ، وجوز أن يكون ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ﴾ الخ متصلاً بما سبق من قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أرسلناك بالحق بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [ فاطر : 24 ] والمراد ثم أورثنا الكتاب من الأمم السالفة وأعطيناه بعدهم الذين اصطفيناهم من الأمة المحمدية ، والكتاب القرآن كما قيل ﴿ وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الاولين ﴾ [ الشعراء : 196 ] وقيل لا يحتاج إلى اعتبار ذلك ويجعل المعنى ثم أخرنا القرآن عن الأمم السالفة وأعطيناه هذه الأمة ، ووجه النظم أنه تعالى قدم إرساله في كل أمة رسولاً وعقبه بما ينبىء أن تلك الأمم تفرقت حزبين حزب كذبوا الرسل وما أنزل معهم وهم المشار إليهم بقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ﴾ [ فاطر : 25 ] وحزب صدقوهم وتلوا كتاب الله تعالى وعملوا بمقتضاه وهم المشار إليهم بقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ كتاب الله وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ [ فاطر : 29 ] الخ وبعد أن أثنى سبحانه على التالين لكتبه العاملين بشرائعه من بين المكذبين بها من سائر الأمم جاء بما يختص برسوله صلى الله عليه وسلم من قوله سبحانه : ﴿ والذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾ [ فاطر : 31 ] الخ استطراداً معترضاً ثم أخبر سبحانه بإيراثه هذا الكتاب الكريم هذه الأمة بعد إعطاء تلك الأمم الزبر والكتاب المنير ، وعلى هذا يكون المعنى في ﴿ أَوْرَثْنَا

﴾ على ظاهره ، وثم للتراخي في الأخبار أو للتراخي في الرتبة إيذاناً بفضل هذا الكتاب على سائر الكتب وفضل هذه الأمة على سائر الأمم ، وفي هذا الوجه حمل الكتاب في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ كتاب الله ﴾ [ فاطر : 29 ] على الجنس وجعل الآية ثناء على الأمم المصدقين بعد اقتصاص حال المكذبين منهم ، فإن دفع ما فيه فهو من الحسن بمكان .

(368/641)

---

وجوز أن يكون عذفاً على ﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ كتاب الله ﴾ وإذا كان إيراث الكتاب سابقاً على تلاوته فالمعنى على ظاهره وثم للتفاوت التربي أو للتراخي في الأخبار ﴿ والذى أَوْحَيْنَا ﴾ الخ اعتراض لبيان كيفية الإيراث لأنه إذا صدقها بمطابقته لها في العقائد والأصول كان كأنه هي وكأنه انتقل إليهم ممن سلف ، وهو كما ترى ، وجوز على هذا وما قبله أن يراد بالكتاب الجنس ؛ ولا يخفى أن إرادة القرآن هو الظاهر ، وقيل المراد بالمصطفين علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم ممن يسير بسيرتهم وإيراثهم القرآن جعلهم فاهمين معناه واقفين على حقائقه ودقائقه أمناء على أسراره .

وروى الإمامية عن الصادق والباقر رضي الله تعالى عنهما أنهما قالا : هي لنا خاصة

وإيانا عني أرادا أن أهل البيت أو الأئمة منهم هم المصطفون الذين أورثوا الكتاب ، واختار هذا الطبرسي الإمامي قال في تفسيره "مجمع البيان" : وهذا أقرب الأقوال لأنهم أحق الناس بوصف الاصطفاء والاجتباء وإيراث علم الأنبياء عليهم السلام .

(369/641)

---

وربما يستأنس له بقوله عليه الصلاة والسلام : "إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله تعالى وعترتي لن يفترقا حتى يردا على الحوض" وحملهم على علماء الأمة أولى من هذا التخصيص ويدخل فيهم علماء أهل البيت دخولاً أولياً ففي بيتهم نزل الكتاب ولن يفترقا حتى يردا الحوض يوم الحساب ، وإذا كانت الإضافة في ﴿ عِبَادِنَا ﴾ للتشريف واختص العباد بمؤمني هذه الأمة وكانت من للتبعيض كأن حمل المصطفين على العلماء كالمتعين ، وعن الجبائي أنهم الأنبياء عليهم السلام اختارهم الله تعالى وحباهم برسالته وكتبه ، وعليه يكون تعريف الكتاب للجنس والعطف على قوله تعالى : ﴿ والذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكتاب هُوَ الحق ﴾ [ فاطر : 31 ] وثم للتراخي في الأخبار ، أخبر سبحانه أولاً عما أوتيه نبينا صلى الله عليه وسلم وهو متضمن للاخبار بإيتائه عليه الصلاة والسلام الكتاب على أكمل وجه ثم أخبر سبحانه بتوريث إخوانه الأنبياء عليهم السلام وإيتائهم الكتب ،

ومما يرد عليه أن إيتاء الأنبياء عليهم السلام الكتب قد علم قبل من قوله تعالى:

﴿ فَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ جاءتهُمْ رُسُلُهُم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ﴾ [ فاطر: 25 ].

وعن أبي مسلم أنهم المصطفون المذكورون في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الله اصطفى آدَمَ وَنُوحًا وَءالَ إبراهيم وَءالَ عمران عَلَى العالمين ﴾ [ آل عمران: 33 ] وهو دون ما قبله، وأياً ما كان فالموصول مفعول أول لأورثنا، و﴿ الكتاب ﴾ مفعول ثان له قدم لشرفه والاعتناء به وعدم اللبس، ومن للبيان أو للتبعيض ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لّنَفْسِهِ ﴾ الفاء للتفصيل لا للتعليل كما قيل؛ وضمير الجمع على ما سمعت أولاً في تفسير الموصول للموصول، والظالم لنفسه من قصر في العمل بالكتاب وأسرف على نفسه وهو صادق على من ظلم غيره لأنه بذلك ظالم لنفسه والمشهور مقابلته بالظلم لغيره، واللام للتقوية.

(370/641)

---

﴿ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ يتردد بين العمل به ومخالفته فيعمل تارة ويخالف أخرى، وأصل معنى الاقتصاد التوسط في الأمر ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ ﴾ متقدم إلى ثواب الله تعالى وجنته ﴿ بالخيرات ﴾ أي بسبب الخيرات أي الأعمال الصالحة، وقيل: سابق على الظالم لنفسه

والمقتصد في الدرجات بسبب الخيرات ، وقيل : أي محرز الفضل بسببها ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي بتيسيره تعالى وتوفيقه عز وجل ؛ وفيه تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها ، وفسر بمن غلبت طاعته معاصيه وكثر عمله بكتاب الله تعالى ، وما ذكر في تفسير الثلاثة مما يشير إليه كلام الحسن فقد روى عنه أنه قال : الظالم من خفت حسناته والمقتصد من استوت والسابق من رجحت ، ووراء ذلك أقوال كثيرة فقال معاذ : الظالم لنفسه الذي مات على كبيرة لم يتب منها والمقتصد من مات على صغيرة ولم يصب كبيرة لم يتب منها والسابق من مات تائباً من كبيرة أو صغيرة أو لم يصب ذلك ، وقيل الظالم لنفسه العاصي المسرف والمقتصد متقي الكبائر والسابق المتقي على الإطلاق ، وقيل الأول المقصر في العمل والثاني العامل بالكتاب في أغلب الأوقات ولم يخل عن تخليط والثالث السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار .



---

وقيل الأولان كما ذكر والثالث المداوم على إقامة مواجب الكتاب علماً وعملاً وتعليماً ، وقيل : الأول من أسلم بعد الفتح والثاني من أسلم قبله والثالث من أسلم قبل الهجرة ، وقيل : هم من لا يبالي من أين ينال ومن قوته من الحلال ومن يكتفي من الدنيا بالبلاغ ، وقيل : من

همه الدنيا ومن همه العقبى ومن همه المولى ، وقيل : طالب النجاة وطالب الدرجات وطالب مناجاة ، وقيل : تارك الزلة وتارك الغفلة وتاركة العلاقة ، وقيل : من شغله معاشه عن معاده ومن شغله بهما ومن شغله معاده عن معاشه وقيل : من يأتي بالفرائض خوفاً من النار ومن يأتي بها خوفاً منها ورضاً واحتساباً ومن يأتي بها رضاً واحتساباً فقط ، وقيل : الغافل عن الوقت والجماعة والمحافظ على الوقت دون الجماعة والمحافظ عليهما ، وقيل : من غلبت شهوته عقله ومن تساويا ومن غلب عقله شهوته ، وقيل : من لا ينهى عن المنكر ويأتيه ومن ينهى عن المنكر ويأتيه ومن يأمر بالمعروف ويأتيه ، وقيل : دو الجور وذو العدل وذو الفضل ، وقيل : ساكن البادية والحاضرة والمجاهد ، وقيل : من كان ظاهره خيراً من باطنه ومن استوى باطنه وظاهره ومن باطنه خير من ظاهره .

وقيل : التالي للقرآن غير العالم به ولا العامل بموجبه والتالي العالم غير العامل والتالي العالم العامل ، وقيل : الجاهل والمتعلم والعالم ، وقيل : من خالف الأوامر وارتكب المناهي ومن اجتهد في أداء التكاليف وإن لم يوفق لذلك ومن لم يخالف تكاليف الله تعالى .

وروى بعض الإمامية عن ميسر بن عبد العزيز عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه الظالم لنفسه منا من لا يعرف حق الإمام والمقتصد العارف بحق الإمام والسابق هو الإمام ، وعن زياد بن المنذر عن أبي جعفر رضي الله تعالى عنه الظالم لنفسه منا من عمل صالحاً وآخر سيئاً والمقتصد المتعبد المجتهد والسابق بالخيرات علي .

والحسن.

والحسين رضي الله تعالى عنهم.

(372/641)

---

ومن قتل من آل محمد شهيداً، وقيل: هم الموحد بلسانه الذي تخالف جوارحه والموحد الذي يمنع جوارحه بالتكليف والموحد الذي ينسيه التوحيد غير التوحيد، وقيل: من يدخل الجنة بالشفاعة ومن يدخلها بفضل الله تعالى ومن يدخلها بغير حساب، وقيل: من أوتي كتابه من وراء ظهره ومن أوتي كتابه بشماله ومن أوتي كتابه بيمينه، وقيل: الكافر مطلقاً والفاسق والمؤمن التقي، وفي معناه ما جاء في رواية عن ابن عباس.

وقتادة.

وعكرمة الظالم لنفسه أصحاب المشأمة والمقتصد أصحاب الميمنة والسابق بالخيرات السابقون المقربون، والظاهر أن هؤلاء ومن قال نحو قولهم يجعلون ضمير ﴿ مِنْهُمْ ﴾ للعباد لا للموصول ولا شك أن منهم الكافر وغيره وكون العباد المضاف إلى الله تعالى مخصوصاً بالمؤمنين ليس بمطرد وإنما يكون كذلك إذا قصد بالإضافة التشريف، والقول برجوع الضمير للموصول والتزام كون الاصطفاء بحسب الفطرة تعسف كما لا يخفى، وقيل

: في تفسير الثلاثة غير ما ذكر ، وذكر في التحرير ثلاثة وأربعين قولاً في ذلك ، ومن تتبع التفاسير وجدها أكثر من ذلك لكن لا يجد في أكثرها كثير تفاوت ، والذي يعضده معظم الروايات والآثار أن الأصناف الثلاثة من أجل الجنة فلا ينبغي أن يلتفت إلى تفسير الظالم بالكافر إلا بتأويل كافر النعمة وإرادة العاصي منه .

أخرج الإمام أحمد .

والطيالسي .

وعبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه .

والبيهقي .

والترمذي وحسنه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب إلى الخَيْرَاتِ ﴾ هؤلاء بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة ، وقوله عليه الصلاة والسلام وكلهم الخ عطف تفسيري .

وأخرج الطبراني .

وابن مردويه في البعث عن أسامة بن زيد أنه قال في الآية : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم من هذه الأمة وكلهم في الجنة" وأخرج ابن النجار عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له " وأخرج العقيلي .

وابن مردويه .

والبيهقي عن عمر بن الخطاب مرفوعاً نحوه .

وأخرج الإمام أحمد .

وعبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والطبراني .

والحاكم .

وابن مردويه .

والبيهقي عن أبي الدرداء قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين يتلقاهم الله تعالى برحمته فهم الذين يقولون ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾ [ فاطر : 34 ] " الآية قال البيهقي : إذا كثرت الروايات في حديث ظهر أن للحديث أصلاً ، والاخبار في هذا الباب كثيرة وفيما ذكر كفاية ، وقدم الظالم لنفسه لكثرة الظالمين لأنفسهم وعقب بالمقتصد لقلة المقتصدين بالنسبة إليهم وأخر السابق لأن السابقين أهل من القليل قاله الزمخشري ، وحكى الطبرسي أن هذا الترتيب على مقامات الناس فإن أحوال العباد ثلاث معصية ثم توبة ثم قربة فإذا عصى العبد فهو ظالم فإذا تاب فهو مقتصد فإذا صحت توبته وكثرت مجاهدته فهو سابق ، وقيل : قدم الظالم لئلا ييأس من رحمة الله تعالى وأخر السابق لئلا يعجب بعمله فتعين توسيط المقتصد ، وقال قطب الدين : النكتة في تقديم الظالم أنه أقرب

الثلاثة إلى بداية حال العبد قبل اصطفائه بإيراث الكتاب فإذا باشره الاصطفاء فمن العباد من يتأثر قليلاً وهو الظالم لنفسه ومنهم من يتأثر تأثراً وسطاً وهو المقتصد ومنهم من يتأثر تأثراً تاماً وهو السابق ، وقريب منه ما قيل : إن الاصطفاء مشكك تتفاوت مراتبه وأولها ما يكون للمؤمن الظالم لنفسه وفوقه ما يكون للمقتصد وفوق الفوق ما يكون للسابق بالخيرات فجاء الترتيب كالترقي في المراتب ، وقيل : أخل السابق لتعدد ما يتعلق به فلو قدم أو وسط لبعد في الجملة ما بين الأقسام المتعاطفة ولما كان الاقتصاد كالنسبة بين الظلم والسبق اقتضى ذلك تقديم الظالم وتأخير المقتصد ليكون



---

المقتصد بين الظالم والسابق لفظاً كما هو بينهما معنى ، وقد يقال : رتب هذه الثلاثة هذا الترتيب ليوافق حالهم في الذكر بالنسبة إلى ما وعدوا به من الجنات في قوله سبحانه : ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ الآية حالهم في الحشر عند تحقق الوعد فأخر السابق الداخل في الجنان أولاً ليتصل ذكره بذكر الجنات الموعود بها وذكر قبله المقتصد وجعل السابق فاصلاً بينه وبين الجنات لأنه إنما يدخلها بعده فيكون فاصلاً بينه وبينها في الدخول وذكر قبلهما الظالم لنفسه لأنه إنما يدخلها ويتصل بها بعد دخولهما فتأخير السابق في المعنى تقديم وتقديم

الظالم في المعنى تأخير، ويحتمل ذلك أوجهاً أخرى تظهر بالتأمل فتأمل، وقرأ أبو عمران الجوني.

وعمر بن أبي شجاع.

ويعقوب في رواية.

والقزاز عن أبي عمرو ﴿ سَابِقٌ ﴾ بصيغة المبالغة ﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم من الإيراث والاصطفاء ﴿ هُوَ الفضل الكبير ﴾ من الله عز وجل لا دخل للكسب فيه.

﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ ويؤيده قراءة الجحدري وهرون عن عاصم ﴿ جنات ﴾ بالنصب على الاشتغال أي يدخلون جنات عدن يدخلونها واحتمال جره بدلاً من ﴿ الخيرات ﴾ بعيد وفيه الفصل بين البدل والمبدل منه بأجنبي فلا يلتفت إليه.

وضمير الجمع للذين اصطفينا أو للثلاثة.



---

وقال الزمخشري: ذلك إشارة إلى السبق بالخيرات ﴿ وجنات عَدْنٍ ﴾ بدل من الفضل الذي هو السبق ولما كان السبق بالخيرات سبباً لنيل الثواب جعل نفس الثواب إقامة

للسبب مقام المسبب ثم أبدل منه وضمير الجمع للسابق لأن القصد إلى الجنس ، فخص الوعد بالقسم الأخير مراعاة لمذهب الاعتزال وهو على ما سمعت للأقسام الثلاثة وذلك هو الأظهر في النظم الجليل ليطابقه قوله تعالى بعد : ﴿ والذين كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ [ فاطر : 36 ] وليناسب حديث التعظيم والاختصاص المدمج في قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب ﴾ [ فاطر : 32 ] وإلا فأي تعظيم في ذلك بعد أن لز أكثر المصطفين في قرن الكافرين وليناسب ذكر الغفور بعد حال الظالم والمقصد والشكور حال السابق ولتعسف ما ذكره من الإعراب وبعده عن الذوق وكيف لا يكون الأظهر وقد فسره كذلك أفضل الرسل ومن أنزل عليه هذا الكتاب المبين على ما مر آنفاً وإليه ذهب الكثير من أصحابه الفخام ونجوم الهداية بين الأنام رضي الله تعالى عنهم وعد منهم في الحبر عمر .

وعثمان .

وابن مسعود .

وأبا الدرداء .

وأبا سعيد .

وعائشة رضي الله تعالى عنهم ، وقد أخرج سعيد بن منصور .

والبيهقي في البعث عن البراء بن عازب أنه قال بعد أن قرأ الآية : أشهد على الله تعالى أنه يدخلهم الجنة جميعاً ، وأخرج غير واحد عن كعب أنه قرأ الآية إلى ﴿ لُغُوبٌ ﴾ فقال

دخلوها ورب الكعبة ، وفي كلهم في الجنة ألا ترى على أثره ﴿ والذين كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جهنم ﴾ [ فاطر : 36 ] نعم أن أريد بالظالم لنفسه الكافر يتعذر رجوع الضمير إلى ما ذكر ويتعين رجوعه إلى السابق وإليه وإلى المقتصد لأن المراد بهما الجنس لكن لا ينبغي أن يراد بعد هاتيك الأخبار ، وقرأ زر بن حبيش .

(377/641)

---

والزهري ﴿ جَنَّةُ عَدْنٍ ﴾ بالإفراد والرفع وقرأ أبو عمرو ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ بالناء للمفعول ورويت عن ابن كثير ، وقوله تعالى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ خبر ثان لجنات أو حال مقدرة ، وقيل : إنها لقرب الوقوع بعد الدخول تعد مقارنة وقرىء ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ بفتح الياء وسكون الحاء وتخفيف اللام من حليت المرأة فهي حالية إذ لبست الحلى ويقال جيد حال إذا كان عليه الحلي ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ جمع سوار على ما في "الإرشاد" ، وفي "القاموس" السوار ككتاب وغراب القلب كالأسوار بالضم جمعه إسورة وأساور وأساورة وسور وسؤور اه ، وإطلاق الجمع على جمع الجمع كثير فلا مخالفة ، وسوار المرأة معرب كما قال الراغب وأصله دستواره ، ومن للتبعيض أي يحلون بعض أساور كأنه بعض له امتياز وتفوق على سائر الإبعاض ، وجوز أن تكون للبيان لما أن ذكر التحلية مما ينبىء عن الحلي المبهم ، وقيل

: زائدة بناء على ما يرى الأخفش من جواز زيادتها في الإثبات ، وقيل : نعت لمفعول محذوف ليحلون وأنه بمعنى يلبسون ﴿ وَمِنْ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ مِّن ذَهَبٍ ﴾ بيانية ﴿ وَلُؤْلُؤاً ﴾ عطف على محل ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ أي ويحلون فيها لؤلؤاً .

أخرج الترمذي .

والحاكم .

وصححه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا الآية فقال : إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب ، وقيل : عطف على المفعول المحذوف أو منصوب بفعل مضمر يدل عليه ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ أي ويؤتون لؤلؤاً .

وقرأ جمع من السبعة ﴿ ولؤلؤ ﴾ بالجر عطفاً على ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ﴾ أي يحلون فيها بعض أساور من مجموع ذهب ولؤلؤ بأن تنظم حبات ذهب مع حبات لؤلؤ ويتخذ من ذلك سوار كما هو معهود اليوم في بلادنا أو بأن يرصع الذهب باللؤلؤ كما يرضع ببعض الأحجار ، وقيل : أي من ذهب في صفاء اللؤلؤ ، وفيه ما فيه من الكدر .

ولعل من يقول بأنه لا اشتراك بين ذهب الدنيا ولؤلؤها وذهب الآخرة ولؤلؤها إلا بالاسم لا يلتزم النظم ولا الترصيع كما لا يخفى، وقرء ﴿ لُؤْلُوًا ﴾ بتخفيف الهمزة الأولى ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ أي إبريسم محض كما في "مجمع البيان"، وقال الراغب: ما رق من الثياب.

وتغيير الأسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريراً قيل للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غني عن البيان إذ لا يمكن عراؤهم عنه وإنما المحتاج إلى البيان إن لباسهم ماذا بخلاف الأساور واللؤلؤ فإنها ليست من اللوازم الضرورية ولذا لا يلزم العدل بين الزوجات فيها فجعل بيان تحليتهم مقصوراً بالذات، ولعل هذا هو الباعث على تقديم التحلية على بيان حال اللباس، وقيل: إن ذلك للدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة مع المحافظة على هيئة الفواصل وليس بذاك.

﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي ويقولون.

وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿ الحمد للَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ حزن تقلب القلب وخوف العاقبة على ما روى عن القاسم بن محمد، وقال أبو الدرداء: حزن أهوال القيامة وما يصيب من ظلم نفسه هنالك.

وأخرج الحاكم وصححه: وابن أبي حاتم وغيرهما عن ابن عباس حزن النار.

وقال الضحاك حزن الموت يقولون ذلك إذا ذبح الموت ، وقال مقاتل : حزن الانتقال يقولون ذلك إذا استقروا فيها ، وقال قتادة : حزن أن لا تتقبل أعمالهم ، وقال الكلبي : خوف الشيطان ، وقال سمرة بن جندب : حزن معيشة الدنيا الخبز ونحوه ، وعن ابن عباس حزن الآفات والأعراض وقيل : حزن كراء الدار والأولى أن يراد جنس الحزن المنتظم لجميع أحزان الدين والدنيا والآخرة ، وكل ما سمعت من باب التمثيل وقد تقدم في الحديث "إن الذين ظلموا أنفسهم هم الذين يقولون" أي بعد أن يتلقاهم الله تعالى برحمته ﴿ الحمد للَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ الخ فلا تغفل وقرىء الحزن بضم الحاء وسكون الزاي ذكره جناح بن حبيش ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ ﴾ للمذنبين ﴿ شَكُورٍ ﴾ للمطيعين .

وأخرج ابن المنذر : وغيره عن ابن عباس أنه قال في ذلك .

غفر لنا العظيم من ذنوبنا وشكر لنا القليل من أعمالنا ، وفي "الكشاف" ذكر السكور دليل على أن القوم كثير والحسنات ، وكان عليه أن يقول : وذكر الغفور دليل على أنهم كثير والفرطات فينطبق على الفرق ولا ينفك النظم ولكن منعه المذهب .

﴿ الذى أَحَلَّنَا دَارَ المقامة ﴾ أي دار الإقامة التي لا انتقال عنها أبداً وهي الجنة ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ من إنعامه سبحانه وتفضله وكرمه فإن العمل وإن كان سبباً لدخول الجنة في الجملة لكن سببيته بفضل الله عز وجل أيضاً إذ ليس هناك استحقاق ذاتي ، ومن علم أن العمل متناه زائل وثواب الجنة دائم لا يزول لم يشك في أن الله تعالى ما أحل من أحل دار الإقامة إلا من محض فضله سبحانه وقال الزمخشري : أي من إعطائه تعالى وإفضاله من قولهم لفلان فضول على قومه وفواضل وليس من الفضل الذي هو التفضل لأن الثواب بمنزلة الأجر المستحق والتفضل كالتبرع وفيه من الاعتزال ما فيه ﴿ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ أي تعب ﴿ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ كلال وفتور وهو نتيجة النصب ، وضمه إليه وتكرير الفعل المنفي للمبالغة في بيان انتفاء كل منهما كذا قال جمع من الأجلة ، وقال بعضهم : النصب التعب الجسماني واللغوب التعب النفساني .

وأخرج ابن جرير عن قتادة أنه فسر النصب بالوجع والكلام من باب :

لا ترى الضب بها ينجحر . . .

والجملة حال من أحد مفعولي أحل .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

والسلمي ﴿ لُغُوبٌ ﴾ بفتح اللام ، قال الفراء : هو ما يغب به كالفطور والسحور ، وجاز أن يكون صفة لمصدر محذوف أي لا يمسنا فيها لغوب لغوب نحو شعر شاعر كأنه وصف

اللغوب بأنه قد لغب أي أعيى وتعب .

وقال "صاحب اللوامح" يجوز أن يكون مصدراً كالقبور وإن شئت جعلته صفة لمضمر أي أمر لغوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

(381/641)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾

ثم ذكر سبحانه نوعاً من أنواع قدرته الباهرة ، وخلقاً من مخلوقاته البديعة ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو لكلّ من يصلح له ﴿ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ وهذه الرؤية هي : القلبية ، أي ألم تعلم ، وأن واسمها وخبرها سدّت مسدّ المفعولين ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ أي : بالماء ، والنكتة في هذا الالتفات إظهار كمال العناية بالفعل لما فيه من الصنع البديع ، وانتصاب ﴿ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ على الوصف لثمرات ، والمراد بالألوان الأجناس ، والأصناف ، أي : بعضها أبيض ، وبعضها أحمر ، وبعضها أصفر ، وبعضها أخضر ، وبعضها أسود ﴿ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ ﴾ الجدد جمع جدة ، وهي : الطريق .

قال الأخفش : ولو كان جمع جديد لقال جدد بضم الجيم والدال ، نحو سرير وسرر .

قال زهير :

كأنه أسفع الخدين ذو جدد . . . طاوٍ ويرتع بعد الصيف أحياناً

وقيل : الجدد القطع ، مأخوذ من جددت الشيء إذا قطعته ، حكاه ابن بحر .

قال الجوهري : الجدة : الخطة التي في ظهر الحمار تخالف لونه ، والجدة الطريقة ، والجمع جدد ، وجدائد ، ومن ذلك قول أبي ذؤيب :

جون السراة له جدائد أربع . . . قال المبرد : جدد : طرائق وخطوط .

قال الواحدي : ونحو هذا قال المفسرون في تفسير الجدد .

وقال الفراء : هي : الطرق تكون في الجبال كالعروق بيض ، وسود ، وحمر ، واحدها جدة .

والمعنى : أن الله سبحانه أخبر عن جدد الجبال ، وهي : طرائقها ، أو الخطوط التي فيها بأن لون بعضها البياض ، ولون بعضها الحمرة ، وهو معنى قوله : ﴿ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوانُها ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ جدد ﴾ بضم الجيم ، وفتح الدال .

وقرأ الزهري بضمهما جمع جديدة ، وروي عنه : أنه قرأ بفتحهما ، وردّها أبو حاتم وصححها غيره ، وقال : الجدد الطريق الواضح البين ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ الغربيب الشديد السواد الذي يشبه لونه لون الغراب .

قال الجوهري : تقول هذا أسود غربيب ، أي : شديد السواد ، وإذا قلت غرابيب سود جعلت السود بدلاً من غرابيب .

قال الفراء : في الكلام تقديم وتأخير تقديره : وسود غرابيب ، لأنه يقال : أسود غربيب ، وقلّ ما يقال : غربيب أسود ، وقوله : ﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ صفة لجدد ، وقوله : ﴿ وَغَرَابِيبُ ﴾ معطوف على جدد على معنى : ومن الجبال جدد بيض ، وحمر ، ومن الجبال غرابيب على لون واحد ، وهو : السواد ، أو على حمر على معنى ، ومن الجبال جدد بيض ، وحمر ، وسود .

وقيل : معطوف على بيض ، ولا بدّ من تقدير مضاف محذوف قبل جدد ، أي : ومن الجبال ذو جدد ، لأن الجدد إنما هي في ألوان بعضها .

﴿ وَمِنَ النّاس والدواب والأنعام مُخْتَلِفٌ ألوانه ﴾ قوله : ﴿ مختلف ﴾ صفة لموصوف محذوف ، أي : ومنهم صنف ، أو نوع ، أو بعض مختلف ألوانه بالحمرة ، والسواد ، والبياض ، والخضرة ، والصفرة .

قال الفراء ، أي : خلق مختلف ألوانه كاختلاف الثمرات ، والجبال ، وإنما ذكر سبحانه

اختلاف الألوان في هذه الأشياء ، لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله ، وبديع صنعه ، ومعنى ﴿ كذلك ﴾ أي : مختلفاً مثل ذلك الاختلاف ، وهو صفة لمصدر محذوف ، والتقدير مختلف ألوانه اختلافاً كائناً كذلك ، أي : كاختلاف الجبال ، والثمار .

وقرأ الزهري : "والدواب" بتخفيف الباء .

وقرأ ابن السميفع : "ألوانها" .

وقيل : إن قوله : ﴿ كذلك ﴾ متعلق بما بعده ، أي : مثل ذلك المطر ، والاعتبار في مخلوقات الله ، واختلاف ألوانها يخشي الله من عباده العلماء ، وهذا اختاره ابن عطية ، وهو مردود بأن ما بعد إنما لا يعمل فيما قبلها .

والراجح الوجه الأوّل ، والوقف على : ﴿ كذلك ﴾ تامّ .



---

ثم استؤنف الكلام ، وأخبر سبحانه بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ أو هو من تتمة قوله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب ﴾ [ فاطر : 18 ] على معنى إنما يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به ، وبما يليق به من صفاته الجليلة ، وأفعاله الجميلة ، وعلى كل تقدير ، فهو : سبحانه قد عين في هذه الآية أهل خشيته ، وهم : العلماء به ،

وتعظيم قدرته.

قال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عزّ وجلّ.

وقال مسروق: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار جهلاً، فمن كان أعلم بالله كان أخشاهم له.

قال الربيع بن أنس: من لم يخش الله، فليس بعالم.

وقال الشعبي: العالم من خاف الله، ووجه تقديم المفعول أن المقام مقام حصر الفاعلية، ولو أخر انعكس الأمر.

وقرأ عمر بن عبد العزيز برفع الاسم الشريف، ونصب العلماء، ورويت هذه القراءة عن أبي حنيفة قال في الكشاف: الخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: أنه يجلهم، ويعظمهم كما يجل المهيب المخشي من الرجال بين الناس، وجملة: ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالته على أنه معاقب على معصيته غافر لمن تاب من عباده.

﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ كتاب الله ﴾ أي: يستمرّون على تلاوته، ويداومونها.

والكتاب هو: القرآن الكريم، ولا وجه لما قيل: إن المراد به جنس كتب الله ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ أي: فعلوها في أوقاتها مع كمال أركانها، وأذكارها ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً ﴾ فيه حثّ على الإنفاق كيف ما تهيأ، فإن تهيأ سرّاً، فهو أفضل، وإلاّ

فعلانية ، ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء ، ويمكن أن يراد بالسرّ صدقة النفل ، وبالعلانية صدقة الفرض ، وجملة .

(384/641)

---

﴿ يَرْجُونَ تجارة لَّن تَبُورَ ﴾ في محل رفع على خبرية إنّ كما قال ثعلب ، وغيره ، والمراد بالتجارة ثواب الطاعة ومعنى ﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ : لن تكسد ، ولن تهلك ، وهي صفة للتجارة ، والإخبار برجائهم لثواب ما عملوا بمنزلة الوعد بحصول مرجوهم .

واللام في : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ متعلق بلن تبور ، على معنى : أنها لن تكسد لأجل أن يوفيهم أجور أعمالهم الصالحة ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مّن فَضْلِهِ ﴾ [ النساء : 173 ] .

وقيل : إن اللام متعلقة بمحذوف دلّ عليه السياق : أي : فعلوا ذلك ليوفيهم ، ومعنى ﴿ وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ ﴾ أنّه يتفضل عليهم بزيادة على أجورهم التي هي جزاء أعمالهم ، وجملة ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ تعليل لما ذكر من التوفية والزيادة : أي : غفور لذنوبهم شكور لطاعتهم ، وقيل : إن هذه الجملة هي : خبر إنّ ، وتكون جملة يرجون في محل نصب

على الحال ، والأوّل أولى .

﴿ والذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾ يعني : القرآن .

(385/641)

---

وقيل : اللوح المحفوظ على أن من تبعيضية ، أو ابتدائية ، وجملة : ﴿ هُوَ الحق ﴾ خبر الموصول و ﴿ مُصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ منتصب على الحال ، أي : موافقاً لما تقدّمه من الكتب ﴿ إِنَّ الله بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ أي : محيط بجميع أمورهم ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ المفعول الأوّل لأورثنا الموصول ، والمفعول الثاني الكتاب ، وإنما قدّم المفعول الثاني لقصد التشريف ، والتعظيم للكتاب ، والمعنى : ثم أورثنا الذين اصطفيناهم من عبادنا الكتاب ، وهو : القرآن ، أي : قضينا ، وقدّرنا بأن نورث العلماء من أمتك يا محمد هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك ، ومعنى اصطفائهم : اختيارهم ، واستخلاصهم ، ولا شك أن علماء هذه الأمة من الصحابة ، فمن بعدهم قد شرفهم الله على سائر العباد ، وجعلهم أمة وسطاً ؛ ليكونوا شهداء على الناس ، وأكرمهم بكونهم أمة خير الأنبياء ، وسيد ولد آدم .

قال مقاتل : يعني : قرآن محمد جعلناه ينتهي إلى الذين اصطفينا من عبادنا .

وقيل : إن المعنى : أورثناه من الأمم السالفة ، أي : أخرناه عنهم ، وأعطيناه الذين اصطفينا ، والأوّل أولى .

ثم قسم سبحانه هؤلاء الذي أورثهم كتابه ، واصطفاهم من عباده إلى ثلاثة أقسام ، فقال : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ قد استشكل كثير من أهل العلم معنى هذه الآية ، لأنه سبحانه جعل هذا القسم الظالم لنفسه من ذلك المقسم ، وهو من اصطفاهم من العباد ، فكيف يكون من اصطفاه الله ظالماً لنفسه ؟ فقيل : إن التقسيم هو راجع إلى العباد ، أي : فمن عبادنا ظالم لنفسه ، وهو : الكافر ، ويكون ضمير ﴿ يدخلونها ﴾ عائداً إلى المقتصد والسابق .

(386/641)

---

وقيل : المراد بالظالم لنفسه هو : المقصر في العمل به ، وهو : المرجأ لأمر الله ، وليس من ضرورة ورثة الكتاب مراعاته حقّ رعايته ، لقوله : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الكتاب ﴾ [ الأعراف : 169 ] ، وهذا فيه نظر ، لأن ظلم النفس لا يناسب الاصطفاء .

وقيل : الظالم لنفسه : هو : الذي عمل الصغائر ، وقد روي هذا القول عن عمر ، وعثمان ،

وابن مسعود ، وأبي الدرداء ، وعائشة ، وهذا هو الراجح ، لأن عمل الصغائر لا ينافي الاصطفاء ، ولا يمنع من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة يحلون فيها من أساور من ذهب إلى آخر ما سيأتي .

ووجه كونه ظالماً لنفسه أنه نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له ، فإنه لو عمل مكان تلك الصغائر طاعات لكان لنفسه فيها من الثواب حظاً عظيماً .

وقيل : الظالم لنفسه هو : صاحب الكبائر .

وقد اختلف السلف في تفسير السابق ، والمقتصد ، فقال عكرمة ، وقتادة ، والضحاك : إن المقتصد المؤمن العاصي ، والسابق التقيّ على الإطلاق ، وبه قال الفراء ، وقال مجاهد في تفسير الآية : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ أصحاب المشأمة ﴿ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ : أصحاب الميمنة ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات ﴾ : السابقون من الناس كلهم .

وقال المبرد : إن المقتصد هو الذي يعطي الدنيا حقها ، والآخرة حقها .

وقال الحسن : الظالم الذي ترجح سيآته على حسناته ، والمقتصد الذي استوت حسناته ، وسيآته ، والسابق من رجحت حسناته على سيآته .

وقال مقاتل : الظالم لنفسه أصحاب الكبائر من أهل التوحيد ، والمقتصد الذي لم يصب كبيرة ، والسابق الذي سبق إلى الأعمال الصالحة .

وحكى النحاس : أن الظالم صاحب الكبائر ، والمقتصد الذي لم يستحق الجنة بزيادة

حسناته على سيآته ، فتكون جنات عدن يدخلونها للذين سبقوا بالخيرات لا غير ، قال : وهذا قول جماعة من أهل النظر ، لأن الضمير في حقيقة النظر لما يليه أولى .

وقال الضحاك .



---

فيهم ظالم لنفسه ، أي : من ذرّيتهم ظالم لنفسه .

وقال سهل بن عبد الله : السابق العالم ، والمقتصد المتعلم ، والظالم لنفسه الجاهل .

وقال ذو النون المصري : الظالم لنفسه الذاكر لله بلسانه فقط ، والمقتصد الذاكر بقلبه ، والسابق الذي لا ينساه .

وقال الأنطاكي : الظالم صاحب الأقوال ، والمقتصد صاحب الأفعال ، والسابق صاحب الأحوال .

وقال ابن عطاء : الظالم الذي يحب الله من أجل الدنيا ، والمقتصد الذي يحب الله من أجل العقبى ، والسابق الذي أسقط مراده بمراد الحقّ .

وقيل : الظالم الذي يعبد الله خوفاً من النار ، والمقتصد الذي يعبده طمعاً في الجنة ، والسابق الذي يعبده لا لسبب .

وقيل : الظالم الذي يحبّ نفسه ، والمقتصد الذي يحبّ دينه ، والسابق الذي يحبّ ربه .

وقيل : الظالم الذي ينتصف ولا ينصف ، والمقتصد الذي ينتصف ، وينصف ، والسابق الذي ينصف ولا ينتصف وقد ذكر الثعلبي ، وغيره أقوالاً كثيرة ، ولا شك أن المعاني اللغوية للظالم ، والمقتصد ، والسابق معروفة ، وهو يصدق على الظلم للنفس بمجرّد إحرامها للحظ ، وتفويت ما هو خير لها ، فتارك الاستكثار من الطاعات قد ظلم نفسه باعتبار ما فوّتها من الثواب ، وإن كان قائماً بما أوجب الله عليه تاركاً لما نهاه الله عنه ، فهو من هذه الحيثية من اصطفاه الله ، ومن أهل الجنة ، فلا إشكال في الآية ، ومن هذا قول آدم : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ [ الأعراف : 23 ] ، وقول يونس : ﴿ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [ الأنبياء : 87 ] ، ومعنى المقتصد : هو من يتوسط في أمر الدين ، ولا يميل إلى جانب الإفراط ، ولا إلى جانب التفريط ، وهذا من أهل الجنة ، وأما السابق ، فهو : الذي سبق غيره في أمور الدين ، وهو خير الثلاثة .

وقد استشكل تقديم الظالم على المقتصد ، وتقديمهما على السابق مع كون المقتصد أفضل من الظالم لنفسه ، والسابق أفضل منهما ، فقيل : إن التقديم لا يقتضي التشريف كما في قوله :

﴿ لَا يَسْتَوِي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ [ الحشر : 20 ] ، ونحوها من الآيات القرآنية التي فيها تقديم أهل الشرّ على أهل الخير ، وتقديم المفضولين على الفاضلين .

وقيل : وجه التقديم هنا : أن المقتصدين بالنسبة إلى أهل المعاصي قليل ، والسابقين بالنسبة إلى الفريقين أقلّ قليل ، فقدّم الأكثر على الأقلّ ، والأوّل أولى ، فإن الكثرة بمجرّدها لا تقتضي تقديم الذكر .

وقد قيل : في وجه التقديم غير ما ذكرنا مما لا حاجة إلى التطويل به .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى توريث الكتاب ، والاصطفاء .

وقيل : إلى السبق بالخيرات ، والأوّل أولى ، وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ هُوَ الفضل الكبير ﴾ أي : الفضل الذي لا يقادر قدره .

(389/641)

وارتفاع ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ على أنها مبتدأ ، وما بعدها خبرها ، أو على البدل من الفضل ، لأنه لما كان هو السبب في نيل الثواب نزل منزلة المسبب ، وعلى هذا ، فتكون جملة : ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ مستأنفة ، وقد قدّمنا : أن الضمير في يدخلونها يعود إلى

الأصناف الثلاثة، فلا وجه لقصره على الصنف الأخير، وقرأ زرّ بن حبيش، والترمذي : (جنة) بالإفراد، وقرأ الجحدري : (جنات) بالنصب على الاشتغال، وجوّز أبو البقاء : أن تكون جنات خبراً ثانياً لاسم الإشارة، وقرأ أبو عمرو : (يدخلونها) على البناء للمفعول، وقوله : ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ خبر ثان لجنات عدن، أو حال مقدّرة، وهو من حليت المرأة، فهي : حال، وفيه إشارة إلى سرعة الدخول، فإن في تحليتهم خارج الجنة تأخيراً للدخول، فلما قال : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ أشار أن دخولهم على وجه السرعة ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ "من" الأولى تبعيضية، والثانية بيانية، أي : يحلون بعض أساور كائنة من ذهب، والأساور جمع أسورة جمع سوار، وانتصاب ﴿ لُؤْلُؤاً ﴾ بالعطف على محل ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ وقرىء بالجرّ عطفاً على ذهب ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ قد تقدّم تفسير الآية مستوفى في سورة الحج.

﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ الحزن ﴾ بفتحتين.

وقرأ جناح بن حبيش بضمّ الحاء، وسكون الزاي.

والمعنى : أنهم يقولون هذه المقالة إذا دخلوا الجنة.

قال قتادة : حزن الموت.

وقال عكرمة : حزن السيئات والذنوب، وخوف ردّ الطاعات.

وقال القاسم : حزن زوال النعم، وخوف العاقبة.

وقيل : حزن أهوال يوم القيامة .

وقال الكلبي : ما كان يحزنهم في الدنيا من أمر يوم القيامة .

وقال سعيد بن جبير : همّ الخبز في الدنيا .

وقيل : همّ المعيشة .

وقال الزجاج : أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاش ، أو معاد .



---

وهذا أرجح الأقوال ، فإن الدنيا ، وإن بلغ نعيمها أيّ بلغ لا تخلو من شوائب ونوائب تكثر لأجلها الأحزان ، وخصوصاً أهل الإيمان ، فإنهم لا يزالون وجلين من عذاب الله خائفين من عقابه ، مضطربي القلوب في كل حين ، هل تقبل أعمالهم أو تردّ ؟ حذرين من عاقبة السوء ، وخاتمة الشرّ ، ثم لا تزال همومهم وأحزانهم حتى يدخلوا الجنة .

وأما أهل العصيان : فهم ، وإن نفس عن خناقهم قليلاً في حياة الدنيا التي هي دار الغرور ، وتناسوا دار القرار يوماً من دهرهم ، فلا بدّ أن يشتدّ وجلهم ، وتعظم مصيبتهم ، وتغلي مراجل أحزانهم إذا شارفوا الموت ، وقربوا من منازل الآخرة ، ثم إذا قبضت أرواحهم ، ولاح لهم ما يسؤوهم من جزاء أعمالهم ازدادوا غماً ، وحزناً ، فإن تفضل الله عليهم

بالمغفرة، وأدخلهم الجنة، فقد أذهب عنهم أحزانهم، وأزال غمومهم، وهمومهم ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أي: غفور لمن عصاه، شكور لمن أطاعه.

﴿ الذى أَحَلَّنَا دَارَ المقامة مِن فَضْلِهِ ﴾ أي: دار الإقامة التي يقام فيها أبداً، ولا ينتقل عنها تفضلاً منه ورحمة.

﴿ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ أي: لا يصيبنا في الجنة عناء، ولا تعب، ولا مشقة ﴿ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾، وهو: الإعياء من التعب، والكلال من النصب.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ قال: الأبيض، والأحمر، والأسود، وفي قوله: ﴿ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ ﴾ قال: طرائق ﴿ بِيْضٌ ﴾ يعني: الألوان.

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: الغربيب الأسود الشديد السواد.



---

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ ﴾ قال: طرائق تكون في الجبل بيض ﴿ وَحُمْرٌ ﴾ فتلك الجدد ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ قال: جبال سود ﴿ وَمِنَ الناس والدواب والأنعام ﴾ قال: ﴿

كذلك ﴾ اختلاف الناس، والدوابّ، والأنعام كاختلاف الجبال، ثم قال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ قال: فصل لما قبلها.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ قال: العلماء بالله الذين يخافونه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن عدّي عن ابن مسعود قال: ليس العلم من كثرة الحديث، ولكن العلم من الخشية.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، والطبراني عنه قال: كفى بخشية الله علماً، وكفى باغترار بالله جهلاً.

وأخرج أحمد في الزهد عنه أيضاً قال: ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية.

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة قال: بحسب المؤمن من العلم أن يخشى الله.

وأخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس: أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف نزلت فيه ﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ كتاب الله وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن ابن

عباس في قوله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ قال: هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ورثهم الله كل كتاب أنزل، فظالمهم مغفور له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب.

(392/641)

---

وأخرج الطيالسي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري، عن النبيّ أنه قال في هذه الآية: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظالم لّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات ﴾ قال: "هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم يدخلون الجنة" وفي إسناده رجلان مجهولان.

قال الإمام أحمد في مسنده قال: حدّثنا شعبة عن الوليد بن العيزار: أنه سمع رجلاً من ثقيف يحدّث عن رجل من كنانة عن أبي سعيد.

وأخرج الفريابي، وأحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا

مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخيرات بِإِذْنِ الله ﴾ فأما الذين سبقوا ، فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب .

وأما الذين اقتصدوا ، فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً .

وأما الذين ظلموا أنفسهم ، فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته ، فهم الذين يقولون : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ "إلى آخر الآية .

قال البيهقي : إذا كثرت روايات في حديث ظهر أن للحديث أصلاً .

ا .

ه ، وفي إسناد أحمد محمد بن إسحاق ، وفي إسناد ابن أبي حاتم رجل مجهول ، لأنه رواه من طريق الأعمش ، عن رجل ، عن أبي ثابت ، عن أبي الدرداء ، ورواه ابن جرير ، عن الأعمش قال : ذكر أبو ثابت .



---

وأخرج ابن أبي حاتم ، والطبراني عن عوف بن مالك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أمتي ثلاثة أثلاث : فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً

يسيراً ، ثم يدخلون الجنة ، وثلث يمحصون ، ويكشفون ، ثم تأتي الملائكة ، فيقولون وجدناهم يقولون : لا إله إلاّ الله وحده ، فيقول الله : أدخلوهم الجنة بقولهم لا إله إلاّ الله وحده ، واحملوا خطاياهم على أهل التكذيب ، وهي : التي قال الله : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [ العنكبوت : 13 ] ، وتصديقها في التي ذكر في الملائكة .

قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ فجعلهم ثلاثة أفواج .

فمنهم ظالم لنفسه ، فهذا الذي يكشف ، ويمحص ، ومنهم مقتصد ، وهو الذي يحاسب حساباً يسيراً .

ومنهم سابق بالخيرات ، فهو الذي يلج الجنة بغير حساب ولا عذاب ، بإذن الله يدخلونها جميعاً "

قال ابن كثير بعد ذكر هذا الحديث : غريب جدًّا اه .

وهذه الأحاديث يقوّي بعضها بعضاً ، ويجب المصير إليها ، ويدفع بها قول من حمل الظالم لنفسه على الكافر ، ويؤيدها ما أخرجه الطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن أسامة بن زيد : ﴿ فَمِنْهُمْ ظالم لِّنَفْسِهِ ﴾ الآية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كلهم من هذه الأمة ، وكلهم في الجنة " وما أخرجه الطيالسي ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، والحاكم ، وابن مردويه عن عقبة بن صهبان قال : قلت لعائشة : أرأيت قول الله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب ﴾ الآية ، قالت : أما السابق ، فمن مضى

في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشهد له بالجنة .

وأما المقتصد ، فمن تبع آثارهم ، فعمل بمثل عملهم حتى لحق بهم .

وأما الظالم لنفسه ، فمثلي ، ومثلك ، ومن اتبعنا ، وكلّ في الجنة .

(394/641)

---

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ، وثلث يجيئون بذنوب عظام إلاّ أنهم لم يشركوا ، فيقول الربّ : أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي ، ثم قرأ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب ﴾ الآية .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، والبيهقي في البعث عن عمر بن الخطاب : أنه كان إذا نزع بهذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب ﴾ قال : ألا إن سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له .

وأخرجه العقيلي ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث من وجه آخر عنه مرفوعاً .

وأخرجه ابن النجار من حديث أنس مرفوعاً .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ،

والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه ، وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن عثمان بن عفان : أنه نزع بهذه الآية ، ثم قال : ألا إن سابقنا أهل جهادنا ، ألا وإن مقتصدنا أهل حضرنا ، ألا وإن ظالمنا أهل بدونا .

وأخرج سعيد بن منصور ، والبيهقي في البعث عن البراء بن عازب في قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ الآية قال : أشهد على الله أنه يدخلهم جميعاً الجنة .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وابن مردويه عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ قال : كلهم ناج ، وهي هذه الأمة .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، عن ابن عباس في الآية قال : هي مثل التي في الواقعة ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ ، و ﴿ أصحاب المشأمة ﴾ .

و ﴿ السابقون ﴾ : صنفان ناجيان ، وصنف هالك .

وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي عنه في قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ قال : هو الكافر ، والمقتصد أصحاب اليمين .

وهذا المرويّ عنه رضي الله عنه لا يطابق ما هو الظاهر من النظم القرآني ، ولا يوافق ما قدّمنا من الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن جماعة من الصحابة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن عبد الله بن الحارث : أن ابن عباس سأل كعباً عن هذه الآية ، فقال : نجوا كلهم ، ثم قال : تحاكت مناكبهم ، وربّ الكعبة ، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم ، وقد قدّمنا عن ابن عباس ما يفيد أن الظالم لنفسه من الناجين ، فتعارضت الأقوال عنه .

وأخرج الترمذي ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري : أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله : ﴿ جنات عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ ، فقال : إن عليهم التيجان ، إن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَقَالُواْ الحمد لِلَّهِ ﴾ الآية قال : هم قوم في الدنيا يخافون الله ، ويجتهدون له في العبادة سرًّا ، وعلانية ، وفي قلوبهم حزن من ذنوب قد سلفت منهم ، فهم خائفون أن لا يتقبل منهم هذا الاجتهاد من الذنوب التي سلفت ، فعندها ﴿ قَالُواْ الحمد لِلَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن إِنَّ

رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ غفر لنا العظيم ، وشكر لنا القليل من أعمالنا .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عنه في الآية قال :

حزن النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(396/641)

---

وقال صاحب روح البيان :

﴿ ثُمَّ ﴾ للترتيب والتأخير أي : بعد ما أوحينا إليك أو بعد كتب الأولين كما دل ما قبله على كل منهما .

وسئل الثوري على ماذا عطف بقوله ثم قال على إرادة الأزل والأمر المقضي أي : بعد ما أردنا في الأزل ﴿ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ ﴾ أي : ملكنا بعظمتنا ملكاً تاماً وأعطينا هذا القرآن عطاء لا رجوع فيه .

قال الراغب الوراثة انتقال قينة إليك عن غيرك من غير عقد ولا ما يجري مجرى العقد وسمي بذلك المنتقل عن الميت ويقال لكل من حصل له شيء من غير تعب قد ورث كذا انتهى وسيأتي بيانه ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الموصول مع صلته مفعول ثان لأورثنا .

والاصطفاء في الأصل تناول صفو الشيء بالفارسية : (بركزيدن وعباد اينجا بموضع كرامت است اكره كه نسبت عبوديت آدمرا حقيقت است) كما في "كشف الأسرار" أمتى ورب الكعبة والله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم كما اصطفى رسولهم على جميع الرسل وكتابهم على كل الكتب وهذا الإيراث للمجموع لا يقتضي الاختصاص بمن يحفظ جميع القرآن بل يشمل من يحفظ منه جزء ولو أنه الفاتحة فإن الصحابة رضي الله عنهم لم يكن واحد منهم يحفظ جميع القرآن ونحن على القطع بأنهم مصطفون كما في "المناسبات" .

(397/641)

---

وفي "التأويلات النجمية" : إنما ذكر بلفظ الميراث لأن الميراث يقتضي صحة النسب أو صحة السبب على وجه مخصوص فمن لا سبب له ولا نسب له فلا ميراث له فالسبب ههنا طاعة العبد والنسب فضل الرب فأهل الطاعة هم أهل الجنة كما قال تعالى : ﴿أولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ (المؤمنون : 10.11) فهم ورثوا الجنة بسبب الطاعة وأصل وراثتهم بالسببية المبايعة التي جرت بينهم وبين الله بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (التوبة : 111) فهؤلاء أطاعوا الله بأنفسهم وأموالهم فأدخلهم الله الجنة جزاء بما كانوا يعملون وأهل الفضل هم أهل الله

وفضله معهم بأن أورثهم المحبة والمعرفة والقربة كما قال : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (المائدة : 54) الآية .

(398/641)

---

ولما كانت الوراثة بالسبب والنسب وكان السبب جنساً واحداً كالزوجية وهما صاحبا الفرض وكان النسب من جنسين الأصول كالآباء والأمهات والفروع كل ما يتولد من الأصول كالأولاد والأخوة والأخوات وأولادهم والأعمام وأولادهم وهم صاحب فرض وعصبة فصار مجموع الورثة ثلاثة أصناف : صاحب الفرض بالسبب وصنف صاحب الفرض بالنسب وصنف صاحب الباقي وهم العصبة كذلك الورثة ههنا ثلاثة أصناف كما قال تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي : من الذين اصطفينا من عبادنا ﴿ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ في العمل بالكتاب وهو المرجأ لأمر الله أي : الموقوف أمره لأمر الله إما يعذبه وإما يتوب عليه وذلك لأنه ليس من ضرورة وراثة الكتاب مراعاته حق رعايته لقوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَاذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ (الأعراف : 169) الآية ولا من ضرورة الاصطفاء المنع عن الوصف بالظلم هذا آدم عليه السلام اصطفاه الله كما قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءَادَمَ ﴾ (آل عمران : 33) وهو القائل :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ (الأعراف : 23) الآية .

سئل أبو يزيد البسطامي قدس سره : أيعصي العارف الذي هو من أهل الكشف ؟ فقال : نعم ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ يعني إن كان الحق قدر عليه في سابق علمه شيئاً فلا بد من وقوعه .

واعلم أن الظلم ثلاثة : ظلم بين الإنسان وبين الله وأعظمه الكفر والشرك والنفاق ، وظلم بينه وبين الناس ، وظلم بينه وبين نفسه وهو المراد بما في الآية كما في "المفردات" .

وتقديم الظلم بالذكر لا يدل على تقديمه في الدرجة لقوله تعالى : ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ كما في "الأسئلة المقحمة" .

وقال بعضهم : قدم الظالم لكثرة الفاسقين ولأن الظلم بمعنى الجهل والركون إلى الهوى مقتضى الجبلة والاقتصاد والسبق عارضان .

*(399/641)*

---

وقال أبو الليث الحكمة في تقديم الظالم وتأخير السابق كي لا يعجب السابق بنفسه ولا ييأس الظالم من رحمة الله

وقال القشيري في الإرث يبدأ بصاحب الفرض وإن قل نصيبه فكذا ههنا بدأ بالظالم ونصيبه أقل من نصيب الآخرين

(400/641)

---

﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ يعمل بالكتاب في أغلب الأوقات ولا يخلو من خلط الشيء ، وإنما قال مقتصد بصيغة الافتعال لأن ترك الإنسان للظلم في غاية الصعوبة ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ ﴾ أصل السبق التقدم في السير ويستعار لاحراز الفضل فالمعنى متقدم إلى ثواب الله وجنته ورحمته ﴿ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ بالأعمال الصالحة بضم التعليم والإرشاد إلى العلم والعمل والخير ما يرغب فيه الكل كالعقل والعدل والفضل والشيء النافع وضده الشر .

قال بعض الكبار : وهذه الخيرات على قسمين : قسم من كسب العبد بتقديم الخيرات ، وقسم من فضل الرب بتواتر الجذبات إلى أن يسبق على الظالم لنفسه وعلي المقتصد بالسير بالله في الله وإن كان مسبوقاً بالذكر في الأخير كما كان حال النبي عليه السلام مسبوقاً بالخروج في آخر الزمان للرسالة سابقاً بالرجوع إلى الحضرة ليلة المعراج على جميع الأنبياء والرسل كما أخبر عن حال نفسه وحال سابقي أمته بقوله : "نحن الآخرون السابقون" أي : الآخرون خروجاً في عالم الصورة السابقون وصولاً إلى عالم الحقيقة .

وعن جعفر الصادق رضي الله عنه بدأ بالظالمين إخباراً أنه لا يتقرب إليه إلا بكرمه وإن الظلم لا يؤثر في الاصطفاء ثم ثنى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره وكلهم في الجنة بحرمة كلمة الإخلاص .

وقد روي أن عمر رضي الله عنه قال على المنبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم "سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له" .

وقال أبو بكر بن الوراق رتبهم هذا الترتيب على مقامات الناس لأن أحوال العبد ثلاث : معصية وغفلة ثم توبة ثم قربة فإذا عصى دخل في حيز الظالمين وإذا تاب دخل في جملة المقتصدين وإذا صحت التوبة وكثرت العبادة والمجاهدة دخل في عداد السابقين .



---

والسابق على ضربين سابق ولد سابقاً وعاش سابقاً ومات سابقاً وسابق ولد سابقاً وعاش ظالماً ومات سابقاً فاسم الظالم عليهم عارية إذا ولدوا سابقين

وماتوا سابقين ولا عبرة بالظلم العارض بل العبرة بالأزل والأبد لا بالبرزخ بينهما فأما من ولد ظالماً وعاش ظالماً ومات ظالماً من هذه الأمة فهو من أهل الكبائر الذين قال النبي عليه السلام فيهم : "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي" .

فعلى هذا المقتصد من مات على التوبة والسابق من عاش في الطاعة ومات في الطاعة .

أو السابق هو الذي ترجحت حسناته بحيث صارت سيآته مكفرة وهو معنى قوله عليه السلام : "أما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب" .

وأما المقتصد فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً .

وأما الذين ظلموا فأولئك يحبسون في طول المحشر ثم يتلقاهم الله برحمته .



---

وههنا مقالات أخر كثيرة ذكرنا بعضاً منها على ترتيب الآية وهو أن المراد بالطوائف الثلاث التالي للقرآن تلاوة مجردة والقارىء له العامل به والقارىء العامل بما فيه والمعلم له .

أو من استغنى بماله ومن استغنى بدينه ومن استغنى بربه .

أو الذي يدخل المسجد وقد أقيمت الصلاة والذي يدخله وقد أذن والذي يدخله قبل تأذين المؤذن وإنما كان الأول ظالماً لأنه نقص نفس الأجر فلم يحصل لها ما حصل لغيرها .

أو الذي يعبد الله على الغفلة والعادة والذي يعبده على الرغبة والرهبة والذي يعبده على الهيبة .

أو الذي شغله معاشه عن معاده والذي اشتغل بالمعاش والمعاد جميعاً والذي شغله معاده

عن معاشه .

أو من يرتكب المعاصي غير مستحل لها ولا جاحد تحريمها ومن لا يزيد من الطاعات على الفرائض والواجبات ومن يكثر الطاعات ويبلغ النهاية فيها مع اجتناب المعاصي .

أو من هو معذب ناج ومن هو معاتب ناج ومن هو مقرب ناج .

أو الذي ترك الحرام والذي ترك الشبهة والذي ترك الفضل في الجملة .

أو الذي رجحت سيآته والذي ساوت حسناته سيآته والذي رجحت حسناته .

أو من ظاهره خير من باطنه ومن استوى ظاهره وباطنه ومن باطنه خير من ظاهره .

أو من أسلم بعد فتح مكة ومن أسلم بعد الهجرة قبل الفتح ومن أسلم قبل الهجرة .

أو أهل البدو ، وأهل الحضر أي : الأمصار وهم أصحاب الجماعات والجمعات وأهل الجهاد في سبيل الله .

أو من لا يبالي من أين أخذ من الحلال أو الحرام ومن أخذ من الحلال ومن ترك الدنيا لما أنه في حلالها حساب وفي حرامها عذاب .

أو الذي يطلب فوق القوت والكفاف والذي يطلب القوت لا الزيادة عليه والذي يتوكل على الله ويجعل جميع جهده في طاعته .

أو الذي يدخل الجنة بشفاعة الشافعين والذي يدخلها برحمة الله وفضله والذي ينجو بنفسه وينجو غيره بشفاعته .

أو الذي يضيع العمر في الشهوة والمعصية والذي يحارب فيهما والذي يجتهد في الزلات لأن محاربة الصديقين في الزلات ومحاربة الزاهدين في الشهوات ومحاربة التائبين في الموبقات .

أو من يطلب الدنيا تمتعاً ومن يطلبها تلذذاً ومن يتركها تزاهداً .

أو الذي يطلب ما لم يؤمر بطلبه وهو الرزق والذي يطلب ما أمر به وما لم يؤمر به والذي يطلب مرضاة الله ومحبته .

أو أصحاب الكبائر وأرباب الصغائر والمجتنب عنهما جميعاً فهذا القائل إنما حمل الأمر على أشده .

أو من يشتغل بعيب غيره ولا يصلح عيب نفسه ومن يطلب عيب نفسه ويطمع في عيب غيره أيضاً أو من يشتغل بعيب نفسه ولا يطلب عيب غيره أصلاً .

أو الجاهل والمتعلم والعالم

أو الزاهد لأنه ظلم نفسه بترك حظه من الدنيا والعارف والمحب .

أو الذي يجزع عند البلاء والصابر على البلاء والمتلذذ بالبلاء .

أو من ركن إلى الدنيا ومن ركن إلى العقبى ومن ركن إلى المولى .

أو من جاد بنفسه ومن جاد بقلبه ومن جاد بروحه .

أو من له علم اليقين ومن له عين اليقين ومن له حق اليقين .

أو الذي يحب الله لنفسه والذي يحبه الله والذي أسقط عنه مراده لمراد الحق لم ير لنفسه طلباً ولا مراداً لغلبة سلطان الحق عليه .

أو من يراه في الآخرة بمقدار أيام الدنيا في كل جمعة مرة ومن يراه في كل يوم مرة ومن هو غير محجوب عنه ولو ساعة .

أو من هو في ميدان العلم ومن هو في ميدان المعرفة ومن هو في ميدان الوجد .



---

أو السالك والمجذوب والمجذوب السالك فالسالك هو المتقرب والمجذوب هو المقرب والمجذوب السالك هو المستهلك في كمالات القرب الفاني عن نفسه الباقي بربه .

أو من هو مضروب بسوط الأمل مقتول بسيف الحرص مضطجع عل باب الرجاء ومن هو مضروب بسوط الحسرة مقتول بسيف الندامة مضطجع على باب الكرم ومن هو مضروب بسوط المحبة مقتول بسيف الشوق مضطجع على باب الهيبة .

فالظالم على هذه الأقاويل كلها هو المؤمن .

وأما قول من قال : الظالم لنفسه آدم عليه السلام والمقتصد إبراهيم عليه السلام والسابق محمد عليه السلام ففيه أن الآية في حق هذه الأمة إلا أن يعاد الضمير في قوله منهم إلى العباد مطلقاً .

فإن قلت هل يقال إن آدم ظلم نفسه ؟ قلت : هو قد اعترف بالظلم لنفسه في قوله : "ربنا ظلمنا أنفسنا" وإن كان الأدب الإمساك عن مثل هذا المقال في حقه وإن كان له وجه في الجملة كما قال الراغب الظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة ويقال فيما يقل ويكثر من التجاوز ولهذا يستعمل في الذنب الكبير والصغير ولذلك قيل لآدم ظالم في تعديه ولإبليس ظالم وإن كان بين الظلمين بون بعيد انتهى ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ جعله في "كشف الأسرار" متعلقاً بالأصناف الثلاثة على معنى ظلم الظالم وقصد المقتصد وسبق السابق بعلم الله وإرادته .

والظاهر تعلقه بالسابق كما ذهب إليه أجلاء المفسرين على معنى بتيسيره وتوفيقه وتمكينه من فعل الخير لا باستقلاله .

وفيه تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها .

قال القشيري قدس سره: كأنه قال يا ظالم ارفع رأسك فإنك وإن ظلمت فما ظلمت إلا نفسك ويا سابق اخفض رأسك فإنك وإن سبقت فما سبقت إلا بتوفيقي ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ السبق بالخيرات ﴿ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ من الله الكبير لا ينال إلا بتوفيقه أو ذلك الإيراث والاختيار فيكون بالنظر إلى جمع المؤمنين من الأمة وكونه فضلاً لأن القرآن أفضل الكتب الإلهية وهذ الأمة المرحومة أفضل جميع الأمم السابقة.

وفي "التأويلات النجمية": أي: الذي ذكر من العالم مع السابق في الإيراث واصطفاء ودخول الجنة ومن دقائق حكمته أنه تعالى ما قال في هذا المعرض الفضل العظيم لأن الفضل العظيم في حق الظالم أن يجمعه مع السابق في الفضل والمقام كما جمعه معه في الذكر.

(406/641)

---

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾

يقال عدن بمكان كذا إذا استقر ومنه المعدن لمستقر الجواهر كما في "المفردات" أي: بساتين استقرار وثبات وإقامة بلا رحيل لأنه لا سبب للرحيل عنها وهو إما بدل من الفضل الكبير بتنزيل السبب منزلة المسبب أو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ جمع الضمير لأن المراد بالسابق الجنس وتخصيص حال السابقين وما لهم بالذكر والسكوت عن الفريقين

الآخرين وإن لم يدل على حرمانهما من دخول الجنة مطلقاً لكن فيه تحذير لهما من التقصير وتحريض على السعي في إدراك شؤون السابقين.

وقال بعضهم: المراد بالأصناف الثلاثة الكافر والمنافق والمؤمن أو أصحاب المشأمة وأصحاب الميمنة ومن أريد بقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (الواقعة: 10) أو المنافقون والمتابعون بالإحسان وأصحاب النبي عليه السلام أو من يعطي كتابه وراء ظهره ومن يعطي كتابه بشماله ومن يعطي كتابه بيمينه.

فعلى هذه الأقوال لا يدخل الظالم في الجنات لكونه غير مؤمن وحمل هذا القائل الاصطفاء على الاصطفاء في الخلقة وإرسال الرسول إليهم وإنزال الكتاب والأول هو الأصح وعليه عامة أهل العلم كما في "كشف الأسرار".

قال أبو الليث في تفسير أول الآية وآخرها دليل على أن الأصناف الثلاثة كلهم مؤمنون.

فأما أول الآية فقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ فأخبر أنه أعطى الكتاب لهؤلاء الثلاثة.



---

وأما آخر الآية فقوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ إذ لم يقل يدخلانها.

.وروي.عن كعب الأحبار أنه قيل له ما منعك أن تسلم على يدي رسول الله عليه السلام قال: كان أبي مكتني من جميع التوراة إلا ورقات منعني أن أنظر فيها فخرج أبي يوماً لحاجة فنظرت فيها فوجدت فيها نعت أمة محمد وأن يجعلهم الله يوم القيامة ثلاثة أثلاث يدخلون الجنة بغير حساب وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ويدخلون الجنة وثلث تشفع لهم الملائكة والنبيون فأسلمت وقلت لعلي أكون من الصنف الأول وإن لم أكن من الصنف الثاني أو من الصنف الثالث فلما قرأت القرآن وجدتها في القرآن وهو قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ .

(408/641)

---

وفي "التأويلات النجمية" لما ذكرهم أصنافاً ثلاثة رتبها ولما ذكر حديث الجنة والتنعم والتزين فيها ذكرهم على الجمع ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ الآية نبه على أن دخولهم الجنة لا باستحقاق بل بفضله وليس في الفضل تميز فيما يتعلق بالنعمة دون ما يتعلق بالمنعم لأن في الخبر "إن من أهل الجنة من يرى الله سبحانه في كل جمعة بمقدار أيام الدنيا مرة ومنهم من يراه في كل يوم مرة ومنهم من هو غير محجوب عنه لحظة" كما سبق ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ أي: يلبسون على سبيل التزين والتحلي نساء ورجالاً خبر ثان أو حال مقدرة ﴿ فِيهَا ﴾ أي: في تلك

الجنات ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ من الأولى تبعيضية والثانية بيانية.

وأساور جمع أسورة وهو جمع سوار مثل كتاب وغراب معرب "دستواره" والمعنى يحلون بعض أساور من ذهب لأنه أفضل من سائر أفرادها أي: بعضاً سابقاً لسائر الأبعاض كما سبق المسورون به غيرهم وقال في سورة هل أتى ﴿وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ (الإنسان: 21) قيل يجمع لهم الذهب والفضة جميعاً وهو أجمل أو بعضهم يحلون بالذهب وهم المقربون وبعضهم يحلون بالفضة وهم الأبرار ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب عطفاً على محل من أساور.

واللؤلؤ الدر سمي بذلك لتلألئه ولمعانه والمعنى ويحلون لؤلؤاً.

وقرىء بالجر عطفاً على ذهب أي: من ذهب مرصع باللؤلؤ ومن ذهب في صفاء اللؤلؤ وذلك لأنه لم يعهد الأسورة من نفس اللؤلؤ إلا أن تكون بطريق النظم في السلك.

وقال في "بحر العلوم": عطف على ذهب فإنهم يسورون بالجنسين أساور من ذهب ومن لؤلؤ وذلك على الله يسير وكم من أمر من أمور الآخرة يخالف أمور الدنيا وهذا منها

﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ لا كحرير الدنيا فإنه لا يوجد من معناه في الدنيا إلا الاسم واللباس اسم ما يلبس وبالفارسية : (جامه ووشش) والحرير من الثياب ما رق كما في "المفردات" وثوب يكون سداه ولحمته ابريسما وإن كان في الأصل الابريسم المطبوخ كما في القهستاني .

ويحرم لبسه على الرجال دون النساء إلا في الحرب ولكن لا يصلي فيه إلا أن يخاف العدو أو لضرورة كحكة أو جرب في جسده أو لدفع القمل ولا يلبسه وإن لم يتصل بجلده وهو الصحيح وجاز أن يكون عروة القميص وزره حريراً كالعلم في الثوب ولا بأس أن يشد خماراً أسود من الحرير على العين الرامدة والناظرة إلى الثلج وأن تكون التكة حريراً ورخص قدر أربع أصابع كما هي .

وقيل مضمومة ولا يجمع المتفرق من الحرير .

ويجوز عند الإمام أن يجعل الحرير تحت رأسه وجنبه ويكره عندهما وبه أخذ أكثر المشايخ .

وعلى هذا الخلاف تعليق الحرير على الجدر ولا بأس بالجلوس على بساط الحرير والصلاة على السجادة منه ويوضع ملاءة الحرير على مهد الصبي .

ويلبس الرجل في الحرب وغيره بلا كراهة إجماعاً ما سداه ابريسم ولحمته وغيره سواء كان مغلوباً أو غالباً أو مساوياً للحرير وهو الصحيح .

ويلبس عكسه أي: ما لحمته ابريسم وسداه غيره في حرب فقط.

وكره إلباس الصبي ذهباً أو حريراً لئلا يعتاده والإثم على الملبس لأن الفعل مضاف إليه.

وكذا يكره كل لباس خلاف السنة والمستحب أن يكون من القطن والكتان أو الصوف.

وأحب الألوان البياض.

ولبس الأخضر سنة.

*(410/641)*

---

ولبس الأسود مستحب ولا بأس بالثوب الأحمر كما في الزاهدي الكل من القهستاني وقد سبق باقي البيان في سورة الحج وغيرها ﴿وَقَالُوا﴾ أي: ويقولون عند دخول الجنة حمداً لربهم على ما صنع بهم وصيغة الماضي للدلالة على التحقق وبالفارسية: (وكويند اين جمع ون ازحفره دوزخ برهند وبروضه بهشت برسند) ﴿الْحَمْدُ﴾ أي: الإحاطة بأوصاف الكمال لمن له تمام القدرة ﴿الَّذِى أَذْهَبَ﴾ أزال ﴿عَنَّا﴾ بدخولنا الجنة ﴿الْحَزَنَ﴾ الحزن بفتحتين والحزن بالضم والسكون واحد وهو خشونة الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيه من الغم ويضاده الفرح.

وفي "التأويلات النجمية": سمي الحزن حزناً لحزونة الوقت على صاحبه وليس في الجنة

وهي جوار الحضرة حزونة وإنما هي رضى واستبشار انتهى .

والمراد جنس الجزن سواء كان حزن الدنيا أو حزن الآخرة من هم المعاش وحزن زوال النعم والجوع والعطش وقوت من الحلال وخوف السلطان ودغدغة التحاسد والتباغض وحزن الأعراض والآفات ووسوسة إبليس والسيآت

ورد الطاعات وسوء العاقبة والموت وأهوال يوم القيامة والنار والمرور على الصراط وخوف الفراق وتدبير الأحوال وغير ذلك وفي الحديث "ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في محشرهم ولا في منشرهم وكأني بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم ينفضون التراب عن وجوههم ويقولون الحمد الذي أذهب عنا الحزن" .

قال أبو سعيد الخراز قدس سره : أهل المعرفة في الدنيا كأهل الجنة في الآخرة فتركوا الدنيا في الدنيا فتنعموا وعاشوا عيش الجنانيين بالحمد والشكر بلا خوف ولا حزن .

(411/641)

---

﴿ إِنَّ رَبَّنَا ﴾ المحسن إلينا مع إساءتنا ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ للمذنبين فيبالغ في ستر ذنوبهم الفائتة للحصر ﴿ شَكُورٌ ﴾ للمطيعين فيبالغ في إثابتهم فإن الشكر من الله الإثابة والجزاء والوفاق .

وفي "التأويلات" : غفور للظالم لنفسه شكور للمقتصد والسابق وإنما قدم ما للظالم رفقاً بهم لضعف أحوالهم انتهى .

ثم وصفوا الله بوصف آخر هو شكر له فقالوا :

﴿ الَّذِى أَحَلَّنَا ﴾ أنزلنا يقال حلت نزلت من حل الأحمال عند النزول ثم جرد استعماله للنزول فقيل : حل حلولاً وأحله غيره والمحلة مكان النزول كما في "المفردات" ﴿ دَارَ الْمُقَامَةِ ﴾ مفعول ثانٍ لأحل وليست بظرف لأنها محدودة .

والمقامة بالضم مصدر تقول أقام يقيم إقامة ومقامة أي : دار الإقامة التي لا انتقال عنها أبداً فلا يريد النازل بها ارتحالاً منها ولا يراد به ذلك ﴿ مِّن فَضْلِهِ ﴾ أي : من أنعامه وتفضله من غير أن يوجبه شيء من قبلنا من الأعمال فإن الحسنات فضل منه أيضاً فلا واجب عليه .

وذلك أن دخول الجنة بالفضل والرحمة واقتسام الدرجات بالأعمال والحسنات هذا مخلوق تحت رق مخلوق مثله لا يستحق على سيده عوضاً لخدمته فكيف الظن بمن له الملك على الإطلاق أيستحق من يعبده عوضاً عن عبادته تعالى الله عما يقول المعتزلة من الإيجاب .

وفي "التأويلات" وبقوله : ﴿ الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ ﴾ من فضله كشف القناع عن وجه الأحوال كلها فدخل كل واحد من الظالم والمقتصد والسابق في مقام أحله الله فيه من فضله لا بجهده وعمله وأن الذي أدخله الله الجنة جزاء بعمله فتوفيقه للعمل الصالح أيضاً من فضل الله وهذا حقيقة قوله عليه السلام : "قبل من قبل لا لعلة ورد من رد لا لعلة" ﴿ لا يَمَسُّنَا ﴾ المس كاللمس وقد يقال في كل ما ينال الإنسان من أذى ﴿ فِيهَا ﴾ أي : في دار الإقامة في وقت من الأوقات ﴿ نَصَبٌ ﴾ تعب بدن ولا وجع كما في الدنيا ﴿ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ كلال وفتور إذ لا تكليف فيها ولا كدّ ، وإذا أرادوا أن يروه لا يحتاجون إلى قطع مسافة وانتظار وقت بل هم في غرفهم يلقون فيها تحية وسلاماً وإذا رأوه لا يحتاجون إلى تحديق مقلة في جهة يرونه كما هم بلا كيفية كل صفة لهم أرادت الرؤية لقوله تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفُسُ وَتَلَذُّ الأعْيُنُ ﴾ (الزخرف : 71) والفرق بين النصب واللغوب أن النصب نفس المشقة والكلفة واللغوب ما يحدث منه من الفتور للجوارح.

قال أبو حيان هو لازم من تعب البدن فهي الجديرة لعمري بأن يقال فيها :

علياء لا تنزل الأحزان ساحتها

لو مسها حجر مسته سراء

والتصريح بنفي الثاني مع استلزام نفي الأول له وتكرير الفعل المنفي للمبالغة في بيان انتفاء كل منهما .

(413/641)

.روي.عن الضحاك رحمه الله قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة استقبلهم الولدان والخدم كأنهم اللؤلؤ المكنون فبعث الله من الملائكة من معه هدية من رب العالمين وكسوة من كسوة الجنة فيلبسه فيريد أن يدخل الجنة فيقول الملك كما أنت ويقف ومعه عشرة خواتيم من خواتيم الجنة هدية من رب العالمين فيضعها في أصابعه مكتوب في أول خاتم منها ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (الزمر : 73) وفي الثاني مكتوب ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ (ق : 34) وفي الثالث مكتوب "رفعت عنكم الأحزان والهموم" وفي الرابع مكتوب "زوجناكم الحور العين" وفي الخامس مكتوب ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴾ (الحجر : 46) وفي السادس مكتوب ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ (المؤمنون : 111) وفي السابع مكتوب ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (المؤمنون : 111) وفي الثامن مكتوب "صرتم آمنين لا تخافوا أبداً" وفي التاسع مكتوب "رافقتم النبيين والصديقين والشهداء" وفي العاشر مكتوب "في جوار من لا يؤذي الجيران" ثم يقول الملك ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 7 صـ 416.407 ﴾

(414/641)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ » . .

الكتاب هنا ، هو القرآن الكريم . .

والذين أورثهم اللّه هذا الكتاب هم المؤمنون به ، فى كل زمن ، ومن كل أمة . . فهم الوارثون لهذا الكتاب ، المنتفعون بما فيه من خير ، انتفاع الوارث بما يرث . . والآية الكريمة تنويه بهذه الأمة الإسلامية ، ورفع لقدرها ، وحسبها أن تكون المصطفاة من عباد اللّه ، لتلقّى هذا الكتاب ، وجعله ميراثا دائما ، يأخذه الأبناء عن الآباء إلى يوم الدين . .

ففى العطف بحرف « ثم » إشارة إلى أن ما أوحى إلى النبي حتى نزول هذه الآية ، لم يكن إلا بعضا من الكتاب . . وأن ميراث المسلمين لهذا الكتاب لم يأت بعد ، لأن الكتاب لم يتم نزوله ، وسيتم ذلك بعد بضع سنوات . ولهذا جاء العطف بثم ليفيد هذا التراخي فى الزمن ، بين نزول هذه الآية وبين تمام نزول القرآن :

- وفى قوله تعالى : « أَوْرَثْنَا » - إشارة أخرى إلى أن هذا الكتاب ، هو ميراث المسلمين على مرّ الأزمان ، وأنه لهم خالصة من دون الناس ، إذ كانوا هم الذين ينتفعون به ، ويجنون الثمر الطيب منه . . وسمّى القرآن ميراثا ، لأنه فضل من فضل اللّه سبحانه وتعالى ، لم يحصله

المسلمون بكدّهم وسعيهم ، وإنما وضعه اللّه بين أيديهم ، إحسانا وفضلا .

.وفى قوله تعالى : « اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا » إشارة ثالثة إلى أن هؤلاء المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب ، هم المصطفون من عباد اللّه جميعا ، لأنهم هم المؤمنون .

وهذا يعنى أن الذين لا يؤمنون بهذا الكتاب ، ليسوا على الإيمان ، . بل هم كافرون ، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ » وهذا يعنى من جبهة رابعة أن المسلمين جميعا هم الفريق المصطفى والمتخير من فريقى الناس . . إذ الناس فى الدنيا فريقان :

مؤمن ، وكافر ، كما يقول اللّه تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ » (2 : التغابن) . . وهم فى الآخرة فريقان كذلك . كما يقول اللّه تعالى



---

« فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » (7 : الشورى) .وقوله تعالى : « فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ » أي أن هؤلاء المسلمين ، الذين أورثهم اللّه الكتاب ، واصطفاهم من بين عباده للإيمان به .هؤلاء ليسوا على درجة واحدة ، فى إيمانهم باللّه ، وفى منزلتهم عنده ، بل هم درجات عند اللّه ، وإن كانوا جميعا فى مقام

الاصطفاء . .

إنهم فى مجموعهم ، ثلاث طوائف : طائفة آمنت بالله ، ولكنها لم تعمل بهدى هذا الإيمان ، ولم ترتفع بأعمالها إلى مستواه ، فظلمت نفسها بالوقوف عند أول درجة من درجات الكمال ، وقد فتح أمامها الطريق إليه ، وأقيمت لها على جوانبه معالم الهدى . . وإنه لا عذر لها فى التوقف عن السير فى هذا الطريق الآمن المطمئن ، لتجنى ما وعدت به على طريقه من خيرات ومسرات . .

وهذه الطائفة هى طائفة العصاة من المؤمنين ، أصحاب الكبائر . . وطائفة أخرى . . آمنت به كذلك ، ولكنها لم تقف عند أول منزلة من منازل الإيمان ، بل خطت خطوات بطيئة متمهلة . . تسير حينا ، وتتوقف حينا . .

ومع هذا فهى على الطريق سائرة.

وهؤلاء هم المؤمنون ، الذي خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا . . فأحسنوا وأساءوا ، وأطاعوا وعصوا . . وهؤلاء هم وسط بين الذين ظلموا أنفسهم ، والذين سبقوا بالخيرات . وهم الطائفة الثالثة من طوائف المؤمنين . . أما الطائفة الثالثة فهى طائفة أولئك الذين ساروا سيرا حثيثا على طريق الإيمان ، فلم يقفوا عند إثم ، ولم يسكنوا إلى كنف معصية ، فسبقوا بالخيرات ، وبلغوا الغاية التي يبلغها المؤمنون بإيمانهم . . وهؤلاء هم

الأتقياء ، والصالحون ، والأبرار ، وهم الذين أنعم اللّه عليهم ، ومنحهم التوفيق ، وحفظهم من الزلل على الطريق . .

(416/641)

---

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ » . . فهذا السبق الذي كان لهم ، هو بتوفيق اللّه ، وبفضله عليهم ، وإلى هذا يشير اللّه سبحانه بقوله : « ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ » . . ويجوز أن تكون الإشارة هنا إلى الميراث ، أو الاصطفاء فى قوله تعالى : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا » . فهذا وذاك فضل كبير من اللّه رب العالمين .

ونخلص من هذا إلى تقرير حقيقتين نراهما على ضوء هذه الآية الكريمة :

الحقيقة الأولى ، هى أن المسلمين ، الذين أورثهم اللّه القرآن الكريم ، هم جميعا ـ المستقيم منهم والمعوج ، والمطيع والعاصي ـ هم الفريق المصطفى المتخير من اللّه من بين عباد اللّه . . فالمسلمون فريق . . والناس جميعا فريق . .

الحقيقة الثانية ، وهى أن أهل هذه الملة جميعا ناجون ، وأن أهل المعصية منهم إذا حبسوا على النار قليلا أو كثيرا ، فإنهم من أهل الجنة . وهذا ما بشير إليه الحديث الشريف : «

من قال لا إله إلا اللّه مؤمنا بها قلبه دخل الجنة » وفى الحديث أيضا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له » وينبنى على هاتين الحقيقتين أمور :

أولها : أن على المسلم أن ينظر إلى نفسه ، فى هذا المقام الكريم الذي وضعه اللّه سبحانه وتعالى فيه ، وجعله من أهل اصطفائه ، وهذا يقتضيه أن يحرص الحرص كله على أن يحتفظ بمكانه هذا ، وأن يطلب منزلة أعلى ، فى منازل الإيمان التي لا حدود لها ، وألا يسفّ ويتدلى ، فتزلّ قدمه بعد ثبوتها . .

وثانيها : أن المسلمين إنما أورثهم اللّه القرآن الكريم ، بعد أن تخيرهم له من بين الناس . . فهم أهله ، وأولى الناس به . . ولن يكونوا أهله وأولياءه إلا إذا



---

حفظوه ، وعملوا بأحكامه ، وتأدبوا بآدابه . . إنه ميراثهم من فضل اللّه ، فإذا لم يحسنوا القيام عليه ، والرعاية له ، أفلت من أيديهم هذا الميراث ، كما يفلت الميراث من يد الوارث السفيه . . كما يقول سبحانه : « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ » (38 : محمد) وثالثها : أن كل مسلم له نصيبه فى هذا الميراث ، وهو ميراث يسع المسلمين

جميعا ، فردا فردا ، وجماعة جماعة . . وجيلا جيلا . . يسلمه السّلف إلى الخلف . .

فهو أمانة فى عنق كل إنسان ، وهو أمانة فى أعناق المسلمين جميعا . . وعلى هذا فإن هذا الميراث لن يضيع أبدا . . إذ لو بقي فرد واحد من المسلمين ، لكان هذا الكتاب ميراثا له ولكان أمانة فى عنقه ، ولكان مطالبا بحمل الأمانة ، مطالبا بأدائها . .

وقدم الظالم لنفسه ، لأن الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصي هم الكثرة فى المسلمين ، ثم جاء بعدهم المقتصدون ، وهم أقل منهم عددا ، ثم جاء السابقون بالخيرات بإذن ربهم ، لأنهم قلة فى المسلمين ، وصفوة صفوتهم . . وقيل إن هذا الترتيب منظور فيه إلى الأحوال التي تعترى الناس فى هذا المقام ، وهى ثلاث : معصية ، ثم توبة ، ثم قربة . . فإذا عصى العبد فهو ظالم ، فإذا تاب ، فهو مقتصد ، فإذا صحت توبته وكثرت مجاهدته ، فهو سابق . .

وقيل قدم الظالم ، لئلا ييأس من رحمة اللّه ، وأخر السابق لئلا يعجب بعمله ، فتعيّن توسط المقتصد .

وقوله تعالى : « جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ » « جَنَّاتُ عَدْنٍ » بدل من قوله تعالى : « الْفَضْلُ الْكَبِيرُ » . . فالفضل

الكبير الذي يتلقاه المؤمنون من ربهم ، هو « جنات عدن » أي جنات خلود ، لا يخرجون منها أبدا . .

وقوله تعالى : « يَدْخُلُونَهَا » خبر لجنات أي جنات عدن يدخلها المؤمنون .

وقوله تعالى : « يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ » .

هو حال من الفاعل فى قوله تعالى : « يَدْخُلُونَهَا » وهذه الحلىّ التي يلبسها المؤمنون فى جنات عدن ، هى من بعض ما كانوا يشتهون فى دنياهم ، أو مما كانوا يتمتعون به ، ويجدون المسرّة منه . . فيكون من تمام النعمة عليهم أن ينالوا كلّ شىء كان مشتهى لهم فى دنياهم ، وقصرت عنه أيديهم ، أو كان متعة من متعهم فى هذه الدنيا . .

وليس هذا كل نعيم أهل الجنة ، بل هو شىء لا يكاد يذكر إلى ما هناك من نعيم لم تره عين ، ولم تسمعه أذن ، ولم يخطر على قلب بشر . . ولكنه من شهوات النفس فى دنياها ، فلا نحرم منه إذا هى نزلت منزل الإحسان المطلق ، والنعيم الشامل . . تماما كما يجىء إنسان من أقاصى الريف إلى مدينة كالقاهرة . .

إن كل ما فى نفسه أن ينال شيئا مما كان يراود خياله ، ويطرق أمله ، كأن يدخل « السينما » أو يجلس فى مطعم فيأكل حتى يشبع ، أو يلبس بدلة ! ! أو نحو هذا . .

إن آماله وهو فى عيشه الضيق الضنك ، لا تتسع لأكثر من هذا . .

ولك فى هذا مثل تجده فى طوارق الأحلام . . إن كل إنسان يقع له فى أحلامه ، ما يشتهيه

فى يقظته ، وتقصر عنه يده . .

وفى عالم الأحلام متسع لكل شىء . . ومع هذا فإن المحروم من الشيء لا يكاد يحلم إلّا به ، وإن كان عند غيره تافها لا يلتفت إليه فى يقظة أو منام . . وفى المثل :

« الجوعان يحلم بالرغيف ! » فمخطىء أولئك الذين يتهمون الإسلام من هذا الجانب ، ويحقرون



---

الجنة التي وعد اللّه المتقين بها ، ويقولون إنها جنّة حسيّة ، تستجيب لشهوات الجسد ، أكثر من استجابتها لمطالب الروح . . ثم إنها من جهة أخرى جنّة تافهة ، لا تستحق أنه يعمل لها الإنسان فى دنياه هذا العمل الشاق الطويل ، كى يلبس حريرا ، أو يحلّى بذهب أو لؤلؤ ، أو يشرب من نهر خمر ، أو لبن ، أو عسل ، أو ينال من لحم طير أو نحوه . . إن ذلك كله موجود فى الدنيا ، بل هو أقلّ ما يوجد فيها . . هكذا . . يقولون ! ويردّ على هذا من وجوه . .

فأولا : ليس هذا هو كلّ نعيم الجنة التي وعد به المتقون ، وإنما هو ـ كما قلنا ـ شىء قليل قليل إلى كثير كثير ، لا حصر له ، مما لم تره عين فى هذه الدنيا ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر

على قلب بشر . .

وثانيا : أن هذا الذي يساق إلى أهل الجنة من نعيم الدنيا ، ليس فرضا عليهم ، وإلزاما لهم ، بل هو استجابة لمطلب كان لهم فى الدنيا ، وعزّ عليهم الحصول عليه . . وأنه لكى تتم سعادتهم ، ولكى يدركوا أن ما فاتهم فى دنياهم لم يكن إلا شيئا تافها إلى هذا النعيم الذي أعدّه اللّه لهم. كان وضع هذا المتاع الدنيوي بين أيديهم ، إزاء ما فى الجنة من نعيم .

وثالثا : ليس هذا النعيم جسديّا ، بل إن الرّوح لتجد راحتها وسعادتها فى حصولها على ما حرمت منه ، ولو كان أمرا ماديا فى ذاته . . كما يقع ذلك للروح فى عالم الأحلام . . إن ما يقع فى الأحلام من أمور تستجيب لرغبة الإنسان ، هى مما يسعد نفسه ، ويرضى مشاعره . .

قوله تعالى : « وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ »



---

بهذا الحمد الخالص المطلق ، يستقبل أهل الجنة هذا النعيم الذي هم فيه . .

فهم يحمدون اللّه مع كل نعمة تطلع عليهم من نعيم الجنة التي لا ينقطع نعيمها لحظة . . لقد أذهب اللّه عنهم فى هذا المقام الكريم « الحزن » الذي كان قد وقع فى نفوسهم لما فاتهم من

متاع الدنيا ، ولما ابتلوا به فيها من مصائب وفتن . . ولقد غفر اللّه لهم ما كان منهم من ذنب ، وما فعلوه من منكر ، وستره عنهم ، فلم يروه ، حتى لا يسوءهم وجهه ، وهم فى رضوان اللّه ، وفى رحاب فضله وإحسانه ، وشكر لهم اللّه القليل من صالح أعمالهم فجزاهم عليه هذا الجزاء العظيم .

قوله تعالى : « الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ » . .

النّصب : التّعب من العمل والجهد . . واللغوب : الإعياء والفتور . .

أي وإنهم ليحمدون اللّه سبحانه ، أن أنزلهم هذه الدار الكريمة الطيبة من فضله ، والتي لا يتحولون عنها أبدا ، والتي لا يمسهم فيها تعب أبدا ، ولا ينالهم أدنى عناء أو مشقة . . لأنهم ينالون ما شاءوا من نعيم . وينعمون بما اشتهوا من طيبات ، دون أن يبذلوا لذلك جهدا ، أو يعملوا له عملا . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 11 ص 892.885 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾

﴿ ثمّ ﴾ للترتيب الرتبي كما هو شأنها في عطفها الجمل فهي هنا لعطف الجمل عطفاً ذكرياً ، فالمتعاطفات بها بمنزلة المستأنفات ، فهذه الجملة كالمستأنفة ، و ﴿ ثم ﴾ للترقي في الاستئناف .

وهذا ارتقاء في التنويه بالقرآن المتضمن التنويه بالرسول صلى الله عليه وسلم وعروج في مسرّته وتبشيره ، فبعد أن ذُكِر بفضيلة كتابه وهو أمر قد تقرر لديه زيد تبشيراً بدوام كتابه وإيتائه أمة هم المصطَفون من عباد الله تعالى ، وتبشيره بأنهم يعملون به ولا يتركونه كما ترك أمم من قبله كتبهم ورسلهم ، لقوله : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ الآية ، فهذه البشارة أهم عند النبي صلى الله عليه وسلم من الإخبار بأن القرآن حق مصدق لما بين يديه ، لأن هذه البشارة لم تكن معلومة عنده فوقعها أهمّ .

وحمل الزمخشري ﴿ ثم ﴾ هنا على التراخي الزمني فاحتاج إلى تكلف في إقامة المعنى .

والمراد بـ ﴿ الكتاب ﴾ الكتاب المعهود وهو الذي سبق ذكره في قوله : ﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب ﴾ [ فاطر : 31 ] أي القرآن .

و ﴿ أورثنا ﴾ جعلنا وارثين .

يقال : ورث ، إذا صار إليه مال ميت قريب .

ويستعمل بمعنى الكسب عن غير اكتساب ولا عوض ، فيكون معناه : جعلناهم آخذين الكتاب منا ، أو نَجعَل الإِيراث مستعملاً في الأمر بالتلقي ، أي أمرنا المسلمين بأن يرثوا القرآن ، أي يتلقوه من الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى الاحتمالين ففي الإِيراث معنى الإِعطاء فيكون فعل ﴿ أورثنا ﴾ حقيقاً بأن ينصب مفعولين .

وكان مقتضى الظاهر أن يكون أحد المفعولين الذي هو الآخذُ في المعنى هو المفعولَ الأول والآخر ثانياً ، وإنما خولف هنا فقدِّم المفعول الثاني لأمْنِ اللبس قصداً للاهتمام بالكتاب المعطى .

وأما التنويه بآخذي الكتاب فقد حصل من الصلة .



---

والمراد بالذين اصطفاهم الله : المؤمنون كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ﴾ إلى قوله : ﴿ هو اجتباكم ﴾ [الحج : 77 ، 78 ] .

وقد اختار الله للإِيمان والإِسلام أفضل أمة من الناس ، وقد رويت أحاديث كثيرة تؤيد هذا المعنى في مسند أحمد بن حنبل وغيره ذكرها ابن كثير في "تفسيره" .

ولما أريد تعميم البشارة مع بيان أنهم مراتب فيما بُشروا به جيء بالتفريع في قوله : ﴿

فمنهم ظالم لنفسه ﴾ إلى آخره ، فهو تفصيل لمراتب المصطفَيْن لتشمل البشارة جميع أصنافهم ولا يظن أن الظالم لنفسه محروم منها ، فمناط الاصطفاء هو الإيمان والإسلام وهو الانقياد بالقول والاستسلام .

وقدم في التفصيل ذكر الظالم لنفسه لدفع توهم حرمانه من الجنة وتعجيلاً لمسرّته .

والفاء في قوله : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ الخ تفصيل لأحوال الذين أورثوا الكتاب أي أعطوا القرآن .

وضمير "منهم" الأظهر أنه عائد إلى ﴿ الذين اصطفينا ﴾ ، وذلك قول الحسن وعليه فالظالم لنفسه من المصطفَيْن .

وقيل هو عائد إلى ﴿ عبادنا ﴾ أي ومن عبادنا علمه والإطلاق .

وهو قول ابن عباس وعكرمة وقتادة والضحاك ، وعليه فالظالم لنفسه هو الكافر .

ويسري أثر هذا الخلاف في محْمل ضمير ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ [ فاطر : 33 ] ولذلك يكون قول الحسن جارياً على وفاق ما روي عن عمر وعثمان وابن مسعود وأبي الدرداء وعقبة بن عمرو وما هو مروي عن عائشة وهو الراجح .

والظالمون لأنفسهم هم الذين يجرُّون أنفسهم إلى ارتكاب المعصية فإن معصية المرء ربّه ظلم لنفسه لأنه يورطها في العقوبة المعينة للمعاصي على تفصيلها وذلك ظلم للنفس لأنه اعتداء

عليها إذ قصر بها عن شيء من الخيرات قليل أو كثير، وورطها فيما تجد جزاء ذميماً عليه.

(423/641)

---

قال تعالى حكاية عن آدم وحواء حين خالفا ما نُهِيا عنه من أكل الشجرة ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ [الأعراف: 23] وقال: ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ [النساء: 110] وقال: ﴿ إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم ﴾ في سورة النمل (11)، وقال: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ في سورة الزمر (53).

واللام في لنفسه ﴾ لام التقوية لأن العامل فرع في العمل إذ هو اسم فاعل.

والمقتصد: هو غير الظالم نفسه كما تقتضيه المقابلة، فهم الذين اتقوا الكبار ولم يحرموا أنفسهم من الخيرات المأمور بها وقد يلمون باللمم المعفو عنه من الله، ولم يأتوا بمنتهى القربات الرافعة للدرجات، فالاقتصاد افتعال من القصد وهو ارتكاب القصد وهو الوسط بين طرفين يبينه المقام، فلما ذكر هنا في مقابلة الظالم والسابق عُلم أنه مرتكب حالة بين تينك الحالتين فهو ليس بظالم لنفسه وليس بسابق.

والسابق أصله: الواصل إلى غاية معينة قبلَ غيره من الماشين إليها.

وهو هنا مجاز لِإحراز الفضل لأن السابق يحرز السَبَق (بفتح الباء)، أو مجاز في بذل العناية لنوال رضى الله، وعلى الاعتبارين في المجاز فهو مكنّى عن الإِكثار من الخير لأن السبْق يستلزم إسراع الخطوات، والإِسراع إكثار.

وفي هذا السبق تفاوت أيضاً كخيل الحلبة.

والخيرات: جمع خير على غير قياس، والخير: النافع.

والمراد بها هنا الطاعات لأنها أعمال صالحة نافعة لعاملها وللناس بآثارها.

والباء للظرفية، أي في الخيرات كقوله: ﴿ يسارعون في الإِثم والعدوان ﴾ [المائدة: 62].

(424/641)

---

وفي ذكر الخيرات في القسم الآخر دلالة على أنها مرادة في القسمين الأولين فيؤول إلى معنى ظالم لنفسه في الخيرات ومقتصد في الخيرات أيضاً، ولك أن تجعل معنى ﴿ ظالم لنفسه ﴾ أنه ناقصها من الخيرات كقوله: ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً أي لم تنقص عن معتادها في الإِثمار ﴾ في سورة الكهف (33).

والإِذن مستعمل في التيسير على سبيل المجاز ، والباء للسببية متعلقة بسابق ﴾ ، وليس المراد به الأمر لأن الله أمر الناس كلهم بفعل الخير سواء منهم من أتى به ومن قصّر به .

ولك أن تجعل الباء للملابسة وتجعلها ظرفاً مستقراً في موضع الحال من ﴿ سابق ﴾ أي متلبساً بإذن الله ويكون الإِذن مصدراً بمعنى المفعول ، أي سابق ملابس لما أذن الله به ، أي لم يخالفه .

وعلى الوجه الأول هو تنويه بالسابقين بأن سبقهم كان بعون من الله وتيسير منه .

وفيما رأيتَ من تفسير هذه المراتب الثلاث في الآية المأخوذِ من كلام الأيمة ، مع ضميمةٍ لا بد منها .

تستغني عن التيه في مهامه أقوال كثيرة في تفسيرها تجاوزت الأربعين قولاً .

والإِشارة في قوله : ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ إلى الاصطفاء المفهوم من ﴿ اصطفينا ﴾ أو إلى المذكور من الاصطفاء وإيراث الكتاب .

و﴿ الفضل ﴾ : الزيادة في الخير ، و﴿ الكبيرُ ﴾ مراد به ذو العظم المعنوي وهو الشرف وهو فضل الخروج من الكفر إلى الإِيمان والإِسلام .

وهذا الفضل مراتب في الشرف كما أشار إليه تقسيم أصحابه إلى : ظالم ، ومقتصد ، وسابق .

وضمير الفصل لتأكيد القصر الحاصل من تعريف الجزأين ، وهو حقيقي لأن الفضل الكبير منحصر في المشار إليه بذلك لأن كل فضل هو غير كبير إلا ذلك الفضل .

(425/641)

---

ووجه هذا الانحصار أن هذا الاصطفاء وإيراث الكتاب جمع فضيلة الدنيا وفضل الآخرة قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [ النحل : 97 ] ، وقال : ﴿ وعد اللَّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ﴾ [ النور : 55 ] .

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33)

الأظهر أنه بدل اشتمال من قوله : ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ [ فاطر : 32 ] فإن مما يشتمل عليه الفضل دخولهم الجنة كما علمت وتخصيص هذا الفضل من بين أصنافه لأنه أعظم الفضل لأنه أمارة على رضوان الله عنهم حين إدخالهم الجنة ، ﴿ ورضوانٌ من الله أكبر ﴾ [ التوبة : 72 ] .

ويجوز أن يكون استئنافاً بيانياً لبيان الفضل الكبير وقد بيّن بأعظم أصنافه .

والمعنى واحد .

وضمير الجماعة في ﴿ يدخلونها ﴾ راجع إلى ﴿ الذين اصطفينا ﴾ [ فاطر : 32 ] المقسم إلى ثلاثة أقسام : ظالم ٍ ، ومقتصد ٍ ، وسابق ٍ ، أي هؤلاء كلهم يدخلون الجنة لأن المؤمنين كلهم مآلهم الجنة كما دلت عليه الأخبار التي تكاثرت .

وقد روى الترمذي بسند فيه مجهولان عن أبي سعيد الخدري "أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ [ فاطر : 32 ] قال : " هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة " .

قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

*(426/641)*

---

قال أبو بكر بن العربي في "العارضة" : من الناس من قال : إن هذه الأصناف الثلاثة هم الذين في سورة الواقعة ( 108 ) : ﴿ أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون ﴾ وهذا فاسد لأن أصحاب المشأمة في النار الحامية ، وأصحاب سورة فاطر في جنة عالية لأن الله ذكرهم بين فاتحة وخاتمة فأما الفاتحة فهي قوله : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين

اصطفينا من عبادنا ﴾ [ فاطر : 32 ] فجعلهم مصطفَيْن .

ثم قال في آخرهم ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ [ فاطر : 33 ] ولا يصطفَى إلا من يدخل الجنة ، ولكن أهل الجنة ظالم لنفسه فقال : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ [ فاطر : 32 ] وهو العاصي والظالم المطلق هو الكافر ، وقيل عنه : الظالم لنفسه رفقاً به ، وقيل للآخر : السابق بإذن الله إنباء أن ذلك بنعمة الله وفضله لا من حال العبد ا ه .

وفي الإِخبار بالمسند الفعلي عن المسنْد إليه إفادة تقوي الحكم وصوَغ الفعل بصيغة المضارع لأنه مستقبل ، وكذلك صوغ ﴿ يحلون ﴾ وهو خبر ثانٍ عن ﴿ جنات عدن ﴾ .

وتقدم نظيرها في سورة الحج فانظره .

وقرأ نافع وعاصم وأبو جعفر ﴿ ولؤلؤاً ﴾ بالنصب عطفاً على محل ﴿ أساور ﴾ لأنه لما جر بحرف الجر الزائد كان في موضع نصب على المفعول الثاني لفعل ﴿ يحلون ﴾ فجاز في المعطوف أن ينصب على مراعاة محل المعطوف عليه .

وقرأه الباقون بالجر على مراعاة اللفظ ، وهما وجهان .

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34)

الأظهر أن جملة ﴿ وقالوا ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ يحلون ﴾ [ فاطر : 33 ] لئلا يلزم تأويل الماضي بتحقيق الوقوع مع أنه لم يقصد في قوله : ﴿ يدخلونها ﴾ [ فاطر : 33

.]

وتلك المقالة مقارنة للتحلية واللباس ، وهو كلام يجري بينهم ساعتئذ لإِنشاء الثناء على الله على ما خوّلهم من دخول الجنة ، ولما فيه من الكرامة .

وإذهاب الحزن مجاز في الإِنجاء منه فتصدق بإزالته بعد حصوله ويصدق بعدم حصوله .

(427/641)

---

و ﴿ الحزن ﴾ الأسف .

والمراد : أنهم لمّا أعطوا ما أعطوه زال عنهم ما كانوا فيه قبلُ من هول الموقف ومن خشية العقاب بالنسبة للسابقين والمقتصدين ومما كانوا فيه من عقاب بالنسبة لظالمي أنفسهم .

وجملة ﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾ استئنافُ ثناء على الله شكروا به نعمة السلامة أثنوا عليه بالمغفرة لما تجاوز عما اقترفوه من اللمم وحديثِ الأنفس ونحو ذلك مما تجاوز الله عنه بالنسبة للمقتصدين والسابقين ، ولما تجاوز عنه من تطويل العذاب وقبول الشفاعة بالنسبة لمختلف أحوال الظالمين أنفسهم وأثنوا على الله بأنه شكور لما رأوا من إفاضته الخيرات عليهم ومُضاعفة الحسنات مما هو أكثر من صالحات أعمالهم .

وهذا على نحو ما تقدم في قوله : ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور

﴾ [فاطر: 30].

و﴿ المُقَامة ﴾ مصدر ميمي من أقام بالمكان إذا قطنه.

والمراد: دار الخلود.

وانتصب ﴿ دار المقامة ﴾ على المفعول الثاني ل ﴿ أحلنا ﴾ أي أسكننا.

و﴿ مِن ﴾ في قوله: ﴿ من فضله ﴾ ابتدائية في موضع الحال من ﴿ دار المقامة ﴾.

والفضل: العطاء، وهو أخُو التفضل في أنه عطاء منّة وكرم.

ومن فضل الله أن جعل لهم الجنة جزاء على الأعمال الصالحة لأنه لو شاء لما جعل للصالحات عطاء ولكان جزاؤها مجرد السلامة من العقاب، وكان أمر مَن لم يستحق الخلود في النار كفافاً، أي لا عقاب ولا ثواب فيبقى كالسوائم، وإنما أرادوا من هذا تمام الشكر والمبالغة في التأدب.

وجملة ﴿ لا يمسنا فيها نصب ﴾ حال ثانية.

والمسّ: الإصابة في ابتداء أمرها، والنصب: التعب من نحو شدّة حر وشدة برد.

واللغوب: الإِعياء من جراء عمل أو جري.

وإعادة الفعل المنفي في قوله: ﴿ ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ لتأكيد انتفاء المسّ. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله : ﴿ فَاطِرِ السماوات ﴾ : إنْ جَعَلْتَ إضافتَه مَحْضَةً كان نعتاً لله ، وإنْ جَعَلْتَها غيرَ محضةٍ كان بدلاً . وهو قليلٌ من حيث إنه مشتقٌّ . وهذه قراءةُ العامَّةِ : " فاطر " اسمَ فاعلٍ . والزهريُّ والضحَّاك " فَطَرَ " فعلاً ماضياً . وفيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه صلةٌ لموصولٍ محذوفٍ أي : الذي فَطَر ، كذا قَدَّره أبو الفضل . ولا يَليق بمذهب البصريين ؛ لأنَّ حَذْفَ الموصولِ الاسميِّ لا يجوزُ . وقد تقدَّمَ هذا الخلافُ مُسْتَوْفَى في البقرة . الثاني : أنه حال على إضمار " قد " قاله أبو الفضل أيضاً . الثالث : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هو فَطَرَ . وقد حكى الزمخشري قراءةً تؤيِّد ما ذَهَبَ إليه الرازيُّ فقال : " وقُرِئَ الذي فَطَرَ وجعل " فصَرَّح بالموصول .

قوله : " جاعل " العامَّةُ أيضاً على جرِّه نعتاً أو بدلاً . والحسن بالرفعِ والإِضافةِ ، وروي عن أبي عمروٍ كذلك ، إلاَّ أنَّه لم يُنَوِّنْ ، ونَصَبَ " الملائكة " ، وذلك على حَذْفِ التنوينِ لالتقاء الساكنين ، كقولِه :

3758 . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ولا ذاكرَ اللَّهَ إلاَّ

قليلاً

(429/641)

---

وابن يعمر وخليد بن مشيط " جَعَلَ " فعلاً ماضياً بعد قراءة " فاطر " بالجر ، وهذه كقراءةِ ﴿ فَالِقُ الإصباح ، وَجَعَلَ الليل ﴾ [ الأنعام : 96 ] . والحسن وحميد " رُسْلاً " بسكونِ السين ، وهي لغةُ تميم . وجاعل يجوز أَنْ يكونَ بمعنى مُصَيِّر أو بمعنى خالق . فعلى الأول يجري الخلاف : هل نَصْبُ الثاني باسم الفاعل ، أو بإضمار فعلٍ ، هذا إن اعْتُقِد أنَّ جاعلاً غيرُ ماضٍ ، أمَّا إذا كان ماضياً تَعَيَّن أن ينتصبَ بإضمار فعلٍ . وقد حُقِّق ذلك في الأنعام . وعلى الثاني ينتصِبُ على الحالِ . و ﴿ مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ﴾ صفةٌ لِ " أجنحة " . و " أُوْلِي " صفة لِ " رُسُلاً " . وقد تقدَّم تحقيقُ الكلامِ في " مَثْنى " وأختيها في سورة النساء مستوفى . قال الشيخ : " وقيل : " أُوْلِي أجنحة " معترضٌ و " مَثْنَى " حالٌ ، والعامل فعلٌ محذوفٌ يَدُلُّ عليه " رسلاً " أي : يُرْسَلون مَثْنى وثلاثَ ورباع " وهذا لا يُسَمَّى اعتراضاً لوجهين ، أحدهما : أنَّ " أُولي " صفةٌ لِ " رُسُلاً " ، والصفةُ لا يُقال فيها معترضةٌ . والثاني : أنها لَيسَتْ حالاً من " رُسُلاً " بل من محذوفٍ فكيف يكون ما قبله

معترضاً ؟ ولو جعله حالاً من الضمير في " رسلاً " لأنه مشتقٌ لسَهُل ذلك بعضَ شيءٍ ، ويكون الاعتراضُ بالصفةِ مَجازاً ، مِنْ حيث إنه فاصلٌ في السورة .

قوله : " يزيدُ " مستأنفٌ . وما " يَشاء " هو المفعولُ الثاني للزيادة ، والأول لم يُقْصَدْ ، فهو محذوفٌ اقتصاراً ، لأنَّ ذِكْرَ قوله : " في الخَلْق " يُغْني عنه .

مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2)

(430/641)

---

قوله : ﴿ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ : تبيينٌ أو حالٌ مِنْ اسمِ الشرطِ ، ولا يكون صفةً ل " ما " ؛ لأنَّ اسمَ الشرط لا يُوْصَفُ . قال الزمخشري : " وتنكيرُ الرحمة للإِشاعةِ والإِبهامِ ، كأنه قيل : أيَّ رحمةٍ كانت سماويةً أو أرضيَّةً " . قال الشيخ : " والعمومُ مفهومٌ من اسمِ الشرطِ و " مِنْ رحمة " بيانٌ لذلك العامِّ من أي صنف هو ، وهو مِمَّا اجْتُزِئَ فيه بالنكرة المفردة عن الجمعِ المعرَّفِ المطابِقِ في العمومِ لاسمِ الشرطِ ، وتقديرُه : مِنَ الرَّحمات . و " من " في موضع الحال " . انتهى .

قوله : " وما يُمْسِكْ " يجوز أَنْ يكونَ على عمومه ، أي : أيَّ شيءٍ أَمْسَكه ، مِنْ رحمةٍ أو

غيرِها . فعلى هذا التذكيرُ في قوله : / "له" ظاهرٌ ؛ لأنه عائدٌ على ما يُمْسِك . ويجوزُ أَنْ يكونَ قد حُذِفَ المبيَّن من الثاني لدلالةِ الأولِ عليه تقديرُه : وما يُمْسِكْ مِنْ رحمةٍ . فعلى هذا التذكيرُ في قولِه : "له" على لفظِ "ما" وفي قولِه أولاً ﴿ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ التأنيثُ فيه حُمِل على معنى "ما" ، لأنَّ المرادَ به الرحمة فحُمِل أولاً على المعنى ، وفي الثاني على اللفظِ . والفتحُ والإِمساكُ استعارةٌ حسنةٌ .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3)

(431/641)

---

قوله : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ ﴾ : قرأ الأخَوان "غيرِ" بالجر نعتاً ل "خالقٍ" على اللفظِ . و "مِنْ خالق" مبتدأٌ مُزادٌ فيه "مِنْ" . وفي خبرِه قولان ، أحدُهما : هو الجملةُ مِنْ قوله : "يَرْزُقُكم" . والثاني : أنه محذوفٌ تقديرُه : لكم ونحوُه ، وفي "يَرْزُقكم" على هذا وجهان ، أحدهما : أنَّه صفةٌ أيضاً ل "خالق" فيجوزُ أَنْ يُحْكَمَ على موضعِه بالجرِّ اعتباراً باللفظ ، وبالرفعِ اعتباراً بالموضع . والثاني : أنه مستأنفٌ .

وقرأ الباقون بالرفع . وفيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه خبرُ المبتدأ . والثاني : أنه صفةٌ ل "

خالق " على الموضعِ . والخبرُ : إمَّا محذوفٌ ، وإمَّا "يَرْزُقُكم " . والثالث : أنه مرفوعٌ باسم الفاعل على جهةِ الفاعليةِ ؛ لأنَّ اسمَ الفاعلِ قد اعْتَمَدَ على أداةِ الاستفهام . إلاَّ أنَّ الشيخَ تَوَقَّفَ في مثلِ هذا ؛ من حيث إنَّ اسم الفاعل وإن اعتمدَ ، إلاَّ أنه لم تُحْفَظْ فيه زيادةُ "مِنْ " قال : " فيُحتاج مثلُه إلى سَماعٍ " ولا يَظهرُ التوقُّف ؛ فإنَّ شروط الزيادةِ والعملِ موجودةٌ . وعلى هذا الوجهِ ف "يَرْزُقُكم " : إمَّا صفةٌ أو مستأنَفٌ . وجعَل الشيخُ استئنافَه أَوْلَى قال : "لانتفاءِ صِدْقِ " خالق " على " غير الله " بخلافِ كونِه صفةً فإنَّ الصفةَ تُقَيِّد ، فيكون ثَمَّ خالقٌ غيرُ اللَّهِ لكنه ليس برازق " .

وقرأ الفضل بن إبراهيم النَّحْويُّ " غيرَ " بالنصبِ على الاستثناء . والخبر "يرزُقكم " أو محذوفٌ و "يرْزُقكم " مستأنفٌ ، أو صفةٌ . وقوله : ﴿ لا إله إلاَّ هُوَ ﴾ مستأنفٌ .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5)



---

قوله : ﴿ الغرور ﴾ : العامَّةُ بالفتح ، وهو صفةُ مبالغةٍ كالصَّبور والشَّكور . وأبو السَّمَّال وأبو حيوةَ بضمِّها : إمَّا جمع غارّ كقاعِد وقُعود ، وإمَّا مصدرٌ كالجُلوس .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7)

قوله : ﴿ الذين كَفَرُوا ﴾ : يجوز رَفْعُه ونصبُه وجَرُّه . فرفعُه مِنْ وجهين ، أقواهما : أَنْ يكونَ مبتدأً . والجملةُ بعده خبرُه . والأحسنُ أَنْ يكونَ " لهم " هو الخبرَ ، و " عذابٌ " فاعلَه . الثاني : أنه بدلٌ مِنْ واوِ " ليكونوا " . ونصبُه مِنْ أوجهٍ : البدلِ مِنْ " حزبَه " ، أو النعتِ له ، وإضمارِ فعلِ " أَذُمُّ " ونحوه .

وجرُّه مِنْ وجهَين : النعتِ أو البدليةِ من " أصحابِ " . وأحسنُ الوجوهِ : الأولُ لمطابقةِ التقسيم . واللامُ في " ليكونوا " : إمَّا للعلَّةِ على المجازِ ، مِنْ إقامةِ المُسَبَّبِ مُقامَ السببِ ، وإمَّا للصيرورة .

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (8)

قوله : ﴿ أَفَمَن ﴾ : موصولٌ مبتدأٌ . وما بعدَه صلتُه ، والخبرُ محذوفٌ . فقدَّره الكسائيُّ ﴿ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ لدلالةِ " فلا تَذْهَبْ " عليه . وقَدَّره الزجَّاجُ وأضلَّه اللَّهُ كمَنْ هداه . وقدَّره غيرُهما : كمن لم يُزَيَّن له ، وهو أحسنُ لموافقتِه لفظاً ومعنىً . ونظيرُه : ﴿ أفمَن كانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [ هود : 17 ] ، ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق كَمَنْ هُوَ أعمى ﴾ [ الرعد : 19 ] .

والعامَّةُ على " زُيِّن " مبنياً للمفعولِ " سوءُ " رُفِعَ به . وعبيد بن عمير " زَيَّنَ " مبنياً للفاعلِ وهو اللَّهُ تعالى ، " سُوْءَ " نُصِبَ به . وعنه " أَسْوَأُ " بصيغةِ التفضيلِ منصوباً . وطلحة " أمَنْ " بغيرِ فاءٍ .

قال أبو الفضل : " الهمزةُ للاستخبارِ بمعنى العامَّةِ ، للتقرير . ويجوزُ أَنْ يكونَ بمعنى حرفِ النداء ، فَحَذَفَ التمامَ كما حَذَفَ مِن المشهورِ الجوابَ . يعني أنه يجوزُ في هذه القراءةِ أَنْ تكونَ الهمزةُ للنداء ، وحُذِف التمامُ ، أي : ما نُوْدِي لأَجْلِه ، كأنه قيل : يا مَنْ زُيِّن له سوءُ عملِه ارْجِعْ إلى الله وتُبْ إليه . وقوله : "كما حُذِفَ الجوابُ " يعني به خبرَ المبتدأ الذي تقدَّم تقريرُه .

قوله : " فلا تَذْهَبْ " العامَّة على فتح التاءِ والهاءِ مُسْنداً ل " نفسُك " مِنْ بابِ " لا أُرَيَنَّك ههنا " أي : لا تَتَعاطَ أسبابَ ذلك . وقرأ أبو جعفر وقتادة والأشهبُ بضمِّ التاء وكسرِ الهاء مُسْنَداً لضميرِ المخاطب " نَفْسَك " مفعولٌ به .

قوله : " حَسَراتٍ " / فيه وجهان ، أحدُهما : أنه مفعولٌ مِنْ أجلِه أي : لأجلِ الحَسَرات . والثاني : أنه في موضعِ الحالِ على المبالغةِ ، كأنَّ كلَّها صارَتْ حَسَراتٍ لفَرْطِ التحسُّرِ ، كما قال :

3759 مَشَقَ الهَواجِرُ لَحْمَهُنَّ مع السُّرى . . . حتى ذَهَبْنَ كَلاكِلاً وصُدُورا

يريد : رَجَعْنَ كَلاكِلاً وصدوراً ، أي : لم تبْقَ إلاّ كلاكلُها وصدورها كقولِه :

3760 فعلى إثْرِهِمْ تَساقَطُ نفْسي . . . حَسَراتٍ وذِكْرُهُمْ لي سَقامُ

وكَوْنُ كلاكِل وصدور حالاً قولُ سيبويه ، وجَعَلهما المبردُ تمييزَيْن منقولَيْن من الفاعلية .

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (9)

(434/641)

---

قوله : ﴿ فَتُثِيرُ ﴾ : عَطْفٌ على " أَرْسَلَ " ؛ لأنَّ أَرْسَلَ بمعنى المستقبل ، فلذلك عَطَفَ عليه ، وأتى بأَرْسَلَ لتحقُّقِ وقوعِه و " تُثير " لتصوُّرِ الحالِ واستحضارِ الصورةِ البديعةِ كقوله : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً ﴾ [ الحج : 63 ] كقول تأبَّط شرّاً :

3761 ألا مَنْ مُبْلِغٌ فِتْيانَ فَهْمٍ . . . بما لاقَيْتُ عند رَحا بِطانِ

بأنِّي قد لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِيْ . . . بسَهْبٍ كالصحيفةِ صَحْصَحانِ

فقلت لها : كِلانا نِضْوُ أرضٍ . . . أخو سَفَرٍ فَخَلِّي لي مكاني

فشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوي فأَهْوَتْ . . . لها كَفِّي بمَصْقولٍ يَمانِ

فأَضْرِبُها بلا دَهَشٍ فَخَرَّتْ . . . صَرِيعاً لليَدْيْنِ وللجِران

حيث قال : فَأَضْرِبُها ليصوِّرَ لقومِه حالَه وشجاعتَه وجرأتَه .

وقوله : " فَسُقْناه " و " أَحْيَيْنا " مَعْدولاً بهما عن لفظِ الغيبة إلى ما هو أَدْخَلُ في الاختصاصِ وأَدَلُّ عليه .

قوله : "كذلك النُّشورُ " مبتدأٌ ، وخبرُه مقدَّمٌ عليه ، والإِشارةُ إلى إحياءِ الأرضِ بالمطرِ ، والتشبيهُ واضحٌ بليغٌ .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (10)

(435/641)

---

قوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ﴾ : شرطٌ جوابُه مقدرٌ ، ويختلف تقديرُه باختلافِ التفسيرِ في قوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة ﴾ فقال مجاهد : " معناه مَنْ كان يريد العِزَّةَ بعبادةِ الأوثان ، فيكونُ تقديرُه : فَلْيَطْلُبها " . وقال قتادة : " مَنْ كان يريد العزَّة وطريقه القويم ويحب نَيْلَها على وجهها ، فيكون تقديره على هذا : فليطلبها " . وقال الفراء : " من كان يريد عِلْمَ العزة ، فيكون التقدير : فلِيَنْسُبْ ذلك إلى الله تعالى " . وقيل : مَنْ كان يريد العزة التي لا

تَعْقُبها ذِلَّةٌ ، فيكونُ التقديرُ : فهو لا ينالُها . ودلَّ على هذه الأجوبةِ قولُه : " فَلِلَّهِ العِزَّةُ " وإنما قيل : إن الجوابَ محذوفٌ ، وليس هو هذه الجملةَ لوجهين ، أحدهما : أنَّ العزَّةَ لله مطلقاً ، مِنْ غيرِ ترتُّبها على شرطِ إرادةِ أحدٍ . الثاني : أنَّه لا بُدَّ في الجواب مِنْ ضميرٍ يعودُ على اسم الشرط ، إذا كان غيرَ ظرف ، ولم يُوْجَدْ هنا ضميرٌ . و " جميعاً " حالٌ ، والعاملُ فيها الاستقرارُ .

قوله : " إليه يَصْعَدُ " العامَّةُ على بنائِه للفاعل مِنْ " صَعِد " ثلاثياً ، " الكَلِمُ الطيِّبُ " برفعِهما فاعِلاً ونعتاً . وعلي وابن مسعود " يُصْعِدُ " مِنْ أَصْعَدَ ، " الكلمَ الطيبَ " منصوبان على المفعولِ والنعت . وقُرِئ " يُصْعَدُ " مبنيَّاً للمفعول . وقال ابنُ عطية : " قرأ الضحَّاك " يُصْعد " بضم الياء " لكنه لم يُبَيِّن كونَه مبنيَّاً للفاعلِ أو للمفعول .

*(436/641)*

---

قوله : " والعملُ الصالحُ " العامَّةُ على الرفعِ . وفيه وجهان ، أحدهما : أنَّه معطوفٌ على " الكلمُ الطيبُ " فيكون صاعداً أيضاً . و " يَرْفَعُه " على هذا استئنافُ إخبارٍ من اللَّهِ تعالى بأنه يرفعُهما ، وإنَّما وُحِّد الضميرُ ، وإنْ كان المرادُ الكَلِمَ والعملَ ذهاباً بالضميرِ مَذْهَبَ اسمِ الإِشارة ، كقوله : { عَوَانٌ بَيْنَ ذلك } [ البقرة : 68 ] . وقيل :

لاشتراكِهما في صفةٍ واحدةٍ، وهي الصعودُ. والثاني: أنه مبتدأٌ، و "يرفَعُه" الخبرُ، ولكن اختلفوا في فاعل "يَرْفَعُه" على ثلاثةِ أوجهٍ، أحدُها: أنه ضميرُ اللَّهِ تعالى أي: والعملُ الصالحُ يرفعه اللَّهُ إليه. والثاني: أنه ضميرُ العملِ الصالحِ. وضميرُ النصبِ على هذا فيه وجهان، أحدُهما: أنه يعودُ على صاحب العمل، أي يَرْفَعُ صاحبَه. والثاني: أنه ضميرُ الكلمِ الطيبِ أي: العمل الصالح يرفع الكلمَ الطيبَ. ونُقِلَ عن ابن عباس. إلاَّ أنَّ ابنَ عطية منع هذا عن ابن عباس، وقال: "لا يَصِحُّ؛ لأنَّ مَذْهَبَ أهلِ السنَّة أنَّ الكلمَ الطيبَ مقبولٌ، وإنْ كان صاحبُه عاصياً". والثالث: أنَّ ضميرَ الرفعِ للكَلِمِ، والنصبِ للعملِ، أي: الكَلِمُ يَرْفَعُ العملَ.

وقرأ ابن أبي عبلة وعيسى بنصبِ "العمل الصالح" على الاشتغالِ، والضميرُ المرفوعُ للكلم أو للَّهِ تعالى، والمنصوبُ للعملِ.

قوله: "يَمْكُرون السَّيِّئات" يمكرون أصلُه قاصِرٌ فعلى هذا ينتصِبُ "السيِّئاتِ" على نعتِ مصدرٍ محذوفٍ أي: المَكَراتِ/ السيئاتِ، أو نعتٍ لمضافٍ إلى المصدر أي: أصناف المَكَراتِ السيئاتِ. ويجوز أَنْ يكونَ "يَمْكُرون" مضمَّناً معنى يَكْسِبُون" فينتصِبُ "السيئاتِ" مفعولاً به.

قوله: " هو يَبُوْرُ " " هو " مبتدأٌ و " يبورُ " خبرُه . والجملةُ خبرُ قوِله : " ومَكْرُ أولئك " .

وجوَّزَ الحوفيُّ وأبو البقاء أَنْ يكونَ " هو " فَصْلاً بين المبتدأ وخبرِه . وهذا مردودٌ : بأنَّ الفَصْلَ لا يقعُ قبل الخبرِ إذا كان فعلاً ، إلاَّ أن الجرجاني جوَّز ذلك . وجوَّز أبو البقاء أيضاً أَنْ يكونَ " هو " تأكيداً . وهذا مَرْدودٌ بأنَّ المضمرَ لا يُؤَكِّدُ الظاهرَ .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (11)

قوله : ﴿ مِنْ أنثى ﴾ : " مِنْ " مزيدةٌ في " أُنْثى " وكذلك في " مِنْ مُعَمَّر " إلاَّ أنَّ الأولَ فاعلٌ ، وهذا مفعولٌ قام مَقامَه و " إلاَّ بعِلْمِه " حالٌ . أي : إلاَّ ملتبسةً بعلمه .

قوله : " مِنْ عُمُره " في هذا الضميرِ قولان ، أحدهما : أنه يعودُ على مُعَمَّرٍ آخرَ ؛ لأنَّ المرادَ بقوله : " مِنْ مُعَمَّر " الجنسُ فهو يعودُ عليه لفظاً ، لا معنى ، لأنه بعدَ أَنْ فَرَضَ كونَه معمَّراً ، استحال أَنْ يَنْقُصَ مِنْ عمره نفسِه ، كقول الشاعر :

3762 وكلُّ أُناسٍ قارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهم . . . ونحن خَلَعْنا قيدَه فهو ساربُ

ومنه " عندي درهمٌ ونصفُه " أي : ونصفُ درهمٍ آخرَ . الثاني : أنه يعودُ على " مُعَمَّر " لفظاً . ومعنى ذلك : أنه إذا مضى مِنْ عُمُره حَوْلٌ أُحْصِيَ وكُتِبَ ، ثم حَوْلٌ آخرُ كذلك ،

فهذا هو النَّقْصُ . وإليه ذهب ابنُ عباس وابن جبير وأبو مالك . ومنه قولُ الشاعرِ :

3763 حياتُك أَنفاسٌ تُعَدُّ فكلَّما . . . مضى نَفَسٌ منكَ انْتَقَصْتَ به جُزْءا

(438/641)

---

وقرأ يعقوبُ وسلام - وتُرْوى عن أبي عمروٍ - " ولا يَنْقُصُ " مبنياً للفاعلِ . وقرأ الحسن " مِنْ عُمْره " بسكون الميم .

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12)

قوله : ﴿ سَآئِغٌ شَرَابُهُ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونا مبتدأً وخبراً . والجملةُ خبرٌ ثانٍ ، وأَنْ يكونَ " سائغٌ " خبراً ، وشرابُه فاعلاً به ، لأنه اعتمد . وقرأ عيسى - وتُرْوى عن أبي عمروٍ وعاصمٍ - " سَيِّغٌ " مثل سَيِّد ومَيِّت . وعن عيسى بتخفيف يائِه ، كما يُخَفَّف هَيْن ومَيْت .

وقرأ طلحةُ وأبو نهيك " مَلِحٌ " بفتح الميمِ وكسرِ اللام . فقيل : هو مقصورٌ مِنْ مالِح ، ومالِحٌ لُغَيَّةٌ شاذةٌ . وقيل : " مَلِحٌ " بالفتحِ والكسرِ لغةٌ في " مِلْحٌ " بالكسرِ والسكون .

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13)

قوله : ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ﴾ : " ذلكمْ " مبتدأٌ و " اللَّهُ " خبرُه ، و " ربُّكم " خبرٌ ثانٍ أو نعتٌ لله . وقال الزمخشري : " ويجوز في حكم الإِعرابِ إيقاعُ اسمِ الله صفةً لاسمِ الإِشارةِ ، أو عطفَ بيانٍ ، و " ربُّكم " خبرٌ ، لولا أنَّ المعنى يَأْباه " . وردَّه الشيخُ : بأنَّ اللَّهَ عَلَمٌ لا جنس فلا يُوْصَفُ به . وردَّ قولَه : " إن المعنى يَأْباه " قال : " لأنه يكونُ قد أَخْبر عن المشارِ إليه بتلك الصفاتِ والأفعالِ أنَّه مالِكُكُمْ ومُصْلِحُكم " .



---

قوله : " والذين تَدْعُوْنَ " العامَّةُ على الخطاب في " تَدْعُون " لقوله : " ربُّكم " . وعيسى وسلام ويعقوب - وتُرْوى عن أبي عمرو - بياءِ الغَيْبة : إمَّا على الالتفاتِ ، وإمَّا على الانتقال إلى الإِخبارِ . والفرقُ بينهما : أنه في الالتفاتِ يكون المرادُ بالضميرَيْن واحداً بخلافِ الثاني ؛ فإنهما غَيْران . و " ما يَمْلِكون " هو خبرُ الموصولِ . و " مِنْ قِطْمير " مفعولٌ به ، و " مِنْ " فيه مزيدةٌ .

والقِطْميرُ : المشهورُ فيه أنَّه لُفافَةُ النَّواة . وهو مَثَلٌ في القِلَّة ، كقوله :

3764 وأبوكَ يَخْصِفُ نَعْلَه مُتَوَرِّكاً . . . ما يَمْلكُ المِسْكينُ مِنْ قِطْميرِ

وقيل: هو القُمْعُ. وقيل: ما بين القُمْعِ والنَّواةِ. وقد تقدَّم أنَّ في النَّواةِ أربعةَ أشياءَ يُضْرَبُ بها المَثَلُ في القِلَّة: الفَتِيلُ، وهو ما في شِقِّ النَّواة، والقِطْميرُ: وهو اللُّفافَةُ، والنَّقِيْرُ، وهو ما في ظهرها، والثُّفْروقُ، وهو ما بين القُمْعِ والنَّواة.

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14)

قوله: ﴿ بِشِرْكِكُمْ ﴾: مصدرٌ مضافٌ لفاعِله.

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (18)

قوله: ﴿ وَازِرَةٌ ﴾: أي: نفسٌ وازرةٌ، فحذف الموصوفَ للعِلْم [به]. ومعنى تَزِرُ: تَحْمِلُ أي: لا تحمل نَفْسٌ حامِلَةٌ حِمْلَ نفسٍ أخرى.

قوله : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ ﴾ أي : نفسٌ مُثْقَلَةٌ بالذنوب نفساً إلى حِمْلِها . فحذف المفعولَ به للعِلْم به . والعامَّةَ "لا يُحْمَلُ" مبنياً للمفعولِ و "شيءٌ" قائمٌ مَقامَ فاعِله . وأبو السَّمَّال وطلحة - وتُرْوى عن الكسائي - بفتح التاءِ مِنْ فوق وكسرِ الميم . أَسْنَدَ الفعلَ إلى ضميرِ النفسِ المحذوفةِ التي جعلها مفعولةً ل "تَدْعُ" أي : لا تَحْمِل تلكَ النفسُ المدعوَّةُ . "شيئاً" مفعولٌ ب "لا تَحْمِل" .

قوله : ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ [ أي : ] ولو كان المَدْعُوُّ ذا قُرْبى . وقيل : التقديرُ : ولو كان الداعِي ذا قُرْبى . والمعنيان حسنان . وقُرِئ "ذو" بالرفعِ ، على أنها التامَّةُ أي : ولو حَضَرَ / ذو قُرْبى نحو : "قد كان مِنْ مطْر" ، ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ [ البقرة : 280 ] . قال الزمخشري : "ونَظْمُ الكلامِ أحسن ملاءَمةً للناقصةِ ؛ لأنَّ المعنى : على أنَّ المُثْقَلَةَ إذا دَعَتْ أحداً إلى حِمْلِها لا يُحْمَلُ منه شيءٌ ، ولو كان مَدْعُوُّها ذا قُرْبى ، وهو مُلْتَئِمٌ . ولو قلت : ولو وُجِد ذو قُرْبى لخَرَجَ عن التئامِه" . قال الشيخ : "وهو ملْتَئِمٌ على المعنى الذي ذكَرْناه" . قلت : والذي قاله هو "أي : ولو حضَرَ إذ ذاك ذُو قربى" ثم قال : "وتفسيرُ الزمخشريِّ "كان" - وهو مبنيٌّ للفاعل "يُوْجَدُ" وهو مبنيٌّ للمفعول - تفسيرُ معنى ، والذي يفسِّر النحويُّ به "كان" التامَّةَ هو حَدَثَ وحَضَر ووقَعَ" .

قوله : بالغَيْب "حالٌ من الفاعل أي : يَخْشَوْنه غائبين عنه ، أو من المفعول أي : غائباً عنهم .

(441/641)

---

قوله: "ومَنْ تَزَكَّى" قرأ العامّةُ "تَزَكَّى" تَفَعَّل، "فإنما يَتَزَكَّى" يتفعَّل. وعن أبي عمروٍ "ومَنْ يَزَّكَّى" "فإنما يَزَّكَّى" والأصلُ فيهما: يَتَزَكَّى فأُدْغِمَتْ التاءُ في الزاي كما أُدْغِمت في الذال نحو: "يَذَّكَّرون" في "يتذكَّرون" وابنُ مَسْعود وطلحة "ومَنْ ازَّكَّى" والأصلُ: تَزَكَّى فأُدْغِمَ باجتلابِ همزةِ الوصلِ، "فإنما يَزَّكَّى" أصلُه يَتَزَكَّى فأُدْغِمَ، كأبي عمروٍ في غيرِ المشهور عنه.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (20) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (21) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22)

قوله: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾: استوى من الأفعال التي لا يُكْتَفَى فيها بواحدٍ لو قلت: "استوى زيدٌ" لم يَصِحَّ، فمِنْ ثَمَّ لَزِمَ العطفُ على الفاعلِ أو تعدُّدُه.

(442/641)

---

و " لا " في قوله : " ولا الظلماتُ " إلى آخره مكررةٌ لتأكيدِ النفيِ . وقال ابنُ عطية : " دخولُ " لا " إنما هو على نيةِ التَّكْرارِ ، كأنه قال : ولا الظلماتُ والنورُ ، ولا النورُ والظلماتُ ، فاسْتُغْني بذِكْرِ الأوائلِ عن الثواني ، ودَلَّ مذكورُ الكلامِ على مَتْروكِه " . قال الشيخ : " وهذا غيرُ مُحْتاجٍ إليه ؛ لأنه إذا نُفِي اسْتواؤُهما أولاً فأيُّ فائدةٍ في نَفْيِ اسْتوائِهما ثانياً " وهو كلامٌ حَسَنٌ إلاَّ أنَّ الشيخَ هنا قال : " فدخولُ " لا " في النفيِ لتأكيدِ معناه ، كقوله : ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الحسنة وَلاَ السيئة ﴾ [ فصلت : 34 ] . قلت : وللناسِ في هذه الآيةِ قولان ، أحدهما : ما ذُكِر . الثاني : أنها غيرُ مؤكِّدة ؛ إذ يُراد بالحسنةِ الجنسُ ، وكذلك " السيئة " فكلُّ واحدٍ منهما متفاوتٌ في جنسِه ؛ لأنَّ الحسناتِ درجاتٌ متفاوتةٌ ، وكذلك السَّيِّئاتُ ، وسيأتي لك تحقيقُ هذا إنْ شاء اللَّهُ تعالى . فعلى هذا يمكنُ أَنْ يُقالَ بهذا هنا : وهو أنَّ المرادَ نَفْيُ استواءِ الظلماتِ ونَفْيُ استواءِ جنسِ النورِ ، إلاَّ أنَّ هذا غيرُ مُرادٍ هنا في الظاهرِ ، إذ المرادُ مقابَلَةُ هذه الأجناسِ بعضِها ببعضٍ لا مقابلةُ بعضِ أفرادِ كلِّ جنسٍ على حِدَتِه . ويُرَجِّح هذا الظاهرَ التصريحُ بهذا في قوله أولاً : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾ حيث لم يُكرِّرْها . وهذا من المواضعِ الحسنةِ المفيدة .

والحَرُوْرُ : شدةُ حَرِّ الشمس . وقال الزمخشري : " الحَرورُ السَّموم ، إلاَّ أنَّ السَّمومَ بالنهار ، والحَرورَ فيه وفي الليل " . قلت : وهذا مذهبُ الفراءِ وغيرِه . وقيل : السَّمومُ بالنهار ، والحَرورُ بالليل خاصةً ، نقله ابنُ عطيةَ عَن رؤبةَ . وقال : " ليس بصحيحٍ ، بل الصحيحُ ما قاله الفراءُ " . وهذا عجيبٌ منه كيف يَرُدُّ على أصحاب اللسانِ بقولِ مَنْ يأخذُ عنهم ؟

وقرأ الكسائي في روايةِ زاذانَ عنه " وَمَا تَسْتَوِي الأحياءَ " بالتأنيث على معنى الجماعة .

وهذه الأشياءُ جيْءَ بها على سبيلِ الاستعارةِ والتمثيل ، فالأعمى والبصيرُ ، الكافرُ والمؤمنُ ، والظلماتُ والنورُ ، الكفرُ والإيمان ، والظلُّ والحَرورُ ، الحقُّ والباطلُ ، والأحياء والأمواتُ ، لمَنْ دَخَل في الإسلامِ لَمَّا ضَرَبَ الأعمى والبصيرَ مَثَلَيْن للكافرِ والمؤمنِ عَقَّبَه بما كلٌّ منها فيه ، فالكافرُ في ظلمةٍ ، والمؤمنُ في نورٍ ؛ لأنَّ البصيرَ وإن كان حديدَ النظرِ لا بُدَّ له مِنْ ضوءٍ يُبْصِرُ به ، وقدَّمَ الأعمى لأنَّ البصيرَ فاصلةٌ فحَسُنَ تأخيره ، ولَمَّا تقدَّمَ الأعمى في الذكر ناسَبَ تقديمَ ما هو فيه ، فلذلك قُدِّمَتِ الظلمةُ على النور ، ولأنَّ النورَ فاصلةٌ ، ثم ذَكَرَ ما لكلٍّ منهما فللمؤمنِ الظلُّ وللكافرِ الحَرورُ ، وأخّر الحرورَ لأجلِ الفاصلةِ كما تقدَّم .

وقولي "لأجلِ الفاصلةِ" هنا وفي غيرِه من الأماكنِ أحسنُ مِنْ قولِ بَعْضِهم لأجلِ السَّجْع؛ لأنَّ القرآنَ يُنَزَّه عن ذلِك . وقد منع الجمهورُ/ أنْ يُقال في القرآن سَجْعٌ، وإنما كَرَّر الفعل في قوله: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ ﴾ مبالغةً في ذلك؛ لأنَّ المنافاةَ بين الحياةِ والموتِ أتمُّ من المنافاةِ المتقدمةِ، وقدَّم الإحياءَ لشرفِ الحياةِ ولم يُعِدْ "لا" تأكيداً في قولِه: "الأَعمى والبصير" وكرَّرها في غيره؛ لأنَّ منافاةَ ما بعدَه أتمُّ، فإن الشخصَ الواحدَ قد يكونُ بصيراً ثم يصيرُ أَعْمى، فلا منافاةَ إلاَّ من حيث الوصفُ بخلافِ الظلِّ والحرورِ، والظلماتِ والنور، فإنها متنافيةٌ أبداً، لا يَجْتمع اثنان منها في محلّ، فالمنافاةُ بين الظلِّ والحرورِ وبين الظلمةِ والنورِ دائمةٌ .

فإنْ قيل: الحياةُ والموتُ بمنزلةِ العمى والبصرِ، فإنَّ الجسمَ قد يكون مُتَّصفاً بالحياةِ ثم يتصفُ بالموت . فالجواب: أنَّ المنافاةَ بينهما أتمُّ من المنافاةِ بين الأعمى والبصيرِ؛ لأنَّ الأعمى والبصيرَ يشتركان في إدراكات كثيرةٍ، ولا كذلكَ الحيُّ والميت، فالمنافاةُ بينهما أتمُّ، وأفردَ الأعمى والبصيرَ لأنَّه قابلَ الجنسَ بالجنسِ، إذ قد يُوجد في أفراد العُمْيان ما يُساوي بعضَ أفرادِ البُصَراءِ كأعمى ذكي له بصيرةٌ يُساوي بصيراً بليداً، فالتفاوتُ بين الجنسين مقطوعٌ به لا بين الأفراد .

وجَمَعَ الظلماتِ لأنها عبارةٌ عن الكفرِ والضلالِ ، وطرقُهما كثيرةٌ متشعبةٌ ، ووحَّد النورَ لأنه عبارةٌ عن التوحيدِ وهو واحدٌ ، فالتفاوتُ بين كلِّ فردٍ مِنْ أفرادِ الظلمة ، وبين هذا الفردِ الواحد . والمعنى : الظلماتُ كلُّها لا تجدُ فيها ما يساوي هذا الواحدَ كذا قيل .

وعندي أنه ينبغي أَنْ يُقال : إن هذا الجمعَ لا يُساوي هذا الواحدَ فيُعْلَمُ انتفاءُ مساواةِ فردٍ منه لهذا الواحدِ بطريقِ الأَوْلى ، وإنما جَمَعَ الأحياءَ والأمواتَ لأنَّ التفاوتَ بينهما أكثرُ ؛ إذ ما من ميتٍ يُساوي في الإِدراك حيَّاً ، فذكَرَ أنَّ الأحياءَ لا يُساوون الأمواتَ سواءً قابَلْتَ الجنسَ بالجنسِ ، أم الفردَ بالفرد .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24)

قوله : ﴿ بالحق ﴾ : يجوزُ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه حالٌ من الفاعلِ أي : أَرْسلناك مُحِقِّين ، أو من المفعولِ أي : مُحِقَّاً ، أو نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ أي : إرسالاً مُلْتَبِساً بالحق ، أو متعلقٌ ب بشير ونذير . قال الزمخشري : " على : بشيراً بالوعدِ الحقِّ ، ونذيراً بالوعيد الحق " قال الشيخ : " ولا يمكن أَنْ يتعلَّقَ " بالحق " هذا ب " بشير ونذير " معاً ، بل ينبغي أَنْ يُتَأَوَّل كلامُه على أنه أراد أنَّ ثَمَّ محذوفاً . والتقدير : بشيراً بالوعد الحق ، ونذيراً بالوعيد الحق " . قلت : وقد صرَّحَ الرجلُ بهذا .

قوله : ﴿ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ خبر " مِنْ أمةٍ " وحَذَفَ مِنْ هذا ما أثبته في الأول ؛ إذ

التقديرُ : إلاَّ خلا فيها نذيرٌ وبشير .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27)



---

قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ : هذا التفاتٌ من الغَيْبةِ إلى التكلم . وإنما كان ذلك لأنَّ المِنَّةَ بالإِخراج أبلغ من إنزال الماءِ . و " مختلفاً " نعتٌ ل " ثمرات " ، و " ألوانُها " فاعلٌ به ، ولولا ذلك لأَنَّث " مختلفاً " ، ولكنه لَمَّا أُسْند إلى جمع تكسيرٍ غيرِ عاقلٍ جاز تذكيرُه ، ولو أَنَّث فقيل : مختلفة ، كما تقول : اختلفَتْ ألوانُها لجاز ، وبه قرأ زيد بن علي .

قوله : ﴿ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ ﴾ العامَّةُ على ضمّ الجيمِ وفتح الدالِ ، جمعَ " جُدَّة " وهي الطريقةُ . قال ابن بحر : " قِطَعٌ ، مِنْ قولك : جَدَدْت الشيءَ قَطَعْتُه " . وقال أبو الفضل : " هي ما تخالَفَ من الطرائق لونُ ما يليها ، ومنه جُدَّة الحِمارِ للخطِّ الذي في ظهرِه . وقرأ الزهري " جُدُد " بضم الجيم والدال جمع جَدِيْدَة ، يقال : جديدة وجُدُد وجدائد . قال أبو ذُؤيب :

3765 . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . جَوْنُ السَّراةِ له

جَدائدُ أربعُ

نحو: سفينة وسُفُن وسفائِن . وقال أبو الفضل: "جمع جديد بمعنى آثار جديدة واضحة الألوان" . وعنه أيضاً جَدَد بفتحهما . وقد رَدَّ أبو حاتمٍ هذه القراءةَ من حيثُ الأثرُ والمعنى، وقد صَحَّحهما غيرُه . وقال: الجَدَدُ: الطريق الواضح البيِّن، إلاَّ أنه وضع المفرَد موضعَ الجمعِ؛ إذ المرادُ الطرائقُ والخطوطُ .

(447/641)

---

قوله: "مختِلفٌ ألوانُها" "مختلف" صفةٌ ل "جُدَد" أيضاً . و "ألوانُها" فاعلٌ به كما تقدَّمَ في نظيره . ولا جائزٌ أَنْ يكونَ "مختلفٌ" خبراً مقدماً، و "ألوانُها" مبتدأٌ مؤخرٌ، والجملةُ صفةٌ؛ إذ كان يجبُ أَنْ يُقال: مختلفةٌ لتحمُّلِها ضميرَ المبتدأ . وقوله: / "ألوانُها" يحتمل معنيين، أحدهما: أنَّ البياضَ والحمرةَ يتفاوتان بالشدة والضعفِ فرُبَّ أبيضَ أشدُّ من أبيضَ، وأحمرَ أشدُّ مِنْ أحمرَ، فنفسُ البياضِ مختلفٌ، وكذلك الحمرةُ، فلذلك جَمَعَ "ألوانها" فيكونُ من باب المُشَكَّل . الثاني: أن الجُدَدَ كلَّها على لونين: بياضٍ وحُمْرَةٍ، فالبياضُ والحُمْرَةُ وإنْ كانا لونَيْن إلاَّ أنهما جُمِعا باعتبارِ مَحالِّهما .

وقوله: "وغَرابيبُ سُوْدٌ" فيه ثلاثةُ أوجهٍ، أحدها: أنه معطوفٌ على "حمرٌ" عَطْفَ ذي

لون على ذي لون . الثاني : أنه معطوفٌ على " بِيضٌ " . الثالث : أنه معطوفٌ على " جُدَدٌ " . قال الزمخشري : " معطوف على " بيض " أو على " جُدَد " ، كأنه قيل : ومن الجبالِ مخطط ذو جُدَد ، ومنها ما هو على لونٍ واحد " ثم قال : " ولا بُدَّ من تقديرِ حذفِ المضافِ في قوله : ﴿ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ ﴾ بمعنى : ومن الجبالِ ذو جُدَدٍ بيضٍ وحمرٍ وسُوْدٍ ، حتى يَؤُول إلى قولِك : ومن الجبالِ مختلفٌ ألوانها ، كما قال : ﴿ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ .

ولم يذكُرْ بعد " غرابيب سود " " مختلفٌ ألوانُها " كما ذكر ذلك لك بعد بيض وحُمْر ؛ لأنَّ الغِرْبيبَ هو المبالِغُ في السوادِ ، فصار لوناً واحداً غيرَ متفاوتٍ بخلافِ ما تقدَّم " .

وغرابيب : جمعُ غِرْبيب وهو الأسودُ المتناهِي في السوادِ فهو تابعٌ للأسودِ كقانٍ وناصعٍ وناضِرٍ ويَقَق ، فمِنْ ثَمَّ زعَم بعضُهم أنه في نيةِ التأخير ، ومِنْ مذهبِ هؤلاءِ يجوز تقديمُ الصفةِ على موصوفِها ، وأنشدوا :

(448/641)

---

3766 والمُؤْمِن العائذاتِ الطير . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

يريد : والمؤمنِ الطيرَ العائذات ، وقولَ الآخر :

3767 وبالطويلِ العُمْرِ عُمْراً حَيْدَراً . . . يريد : وبالعمر الطويل . والبصريُّون لا يَرَوْن ذلك ويُخَرِّجُون هذا وأمثاله على أنَّ الثاني بدلٌ من الأول ف سود والطير والعمر أبدالٌ مِمَّا قبلها . وخَرَّجه الزمخشريُّ وغيرُه على أنه حَذَفَ الموصوفَ وقامَتْ صفتُه مقامَه ، وأن المذكورَ بعد الوصفِ دالٌّ على الموصوفِ . قال الزمخشري : "الغِرْبيبُ : تأكيدٌ للأَسْوَدِ ، ومِنْ حَقِّ التوكيدِ أَنْ يَتْبَعَ المؤكِّد كقولك : أصفرُ فاقِعٌ وأبيضُ يَقَقٌ . ووجهه : أَنْ يُضْمَرَ المؤَكَّدُ قبلَه ، فيكون الذي بعده تفسيراً لِما أُضْمِر كقوله :

*(449/641)*

---

والمؤمِنِ العائذاتِ الطيرِ . . . . . . . . . . . . . . . . . وإنما يُفْعَل ذلك لزيادةِ التوكيدِ حيث يدلُّ على المعنى الواحد من طريقَيْ الإِظهار والإِضمار " يعني فيكونُ الأصلُ : وسودٌ غرابيبُ سودٌ ، والمؤمنُ الطيرَ العائذاتِ الطيرَ . قال الشيخ : " وهذا لا يَصِحُّ إلاَّ على مذهب مَنْ يُجَوِّز حَذْفَ المؤكَّد . ومن النحويين مَنْ مَنَعَه وهو اختيارُ ابنِ مالك " .

قلت : ليس هذا هو التوكيدَ المختلفَ في حَذْفِ مؤكَّدِه ؛ لأنَّ هذا من باب الصفة والموصوف . ومعنى تسميةِ الزمخشريِّ لها تأكيداً من حيث إنها لا تفيد معنًى زائداً ، إنما

تفيدُ المبالغةَ والتوكيدَ في ذلك اللونِ ، والنَّحْويون قد سَمَّوا الوصفَ إذا لم يُفِدْ غيرَ الأولِ تأكيداً فقالوا : وقد يجيْءُ لمجرِد التوكيد نحو : نعجةٌ واحدةٌ ، وإلهين اثنين ، والتوكيدُ المختلفُ في حَذْف مؤكَّده ، وإنما هو من باب التوكيدِ الصناعي ، ومذهب سيبويه جوازُه ، أجاز " مررت بأخويك أنفسُهما ( أنفسَهما ) " بالنصب أو الرفع ، على تقدير : أَعْنيهما أنفسَهما ، أو هما أنفسُهما فأين هذا من ذاك ؟ إلاَّ أنه يُشْكِلُ على الزمخشري هذا المذكورُ بعد " غَرابيب " ونحوِه بالنسبة إلى أنه جعله مُفَسِّراً لذلك المحذوفِ ، وهذا إنما عُهِد في الجملِ ، لا في المفرداتِ ، إلاَّ في باب البدل وعَطف البيانِ فبأيِّ شيءٍ يُسَمِّيه ؟ والأَوْلى فيه أن يُسَمَّى توكيداً لفظياً ؛ إذ الأصلُ : سود غرابيب سود .

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)

قوله : ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ : مختلفٌ نعتٌ لمنعوتٍ محذوف هو مبتدأ ، والجارُّ قبلَه خبرُه ، أي : من الناس صِنْفٌ أو نوعٌ مختلفٌ ؛ وكذلك عملُ اسمِ الفاعلِ كقولِ الشاعر :

3768- كناطِحٍ صَخْرَةً يوماً لِيَفْلِقَها . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

. . . .

وقرأ ابن السَّميفع "ألوانُها" وهو ظاهرٌ. وقرأ الزهري "والدوابُ" خفيفةَ الباءِ فِراراً مِنْ التقاء الساكنين، كما حُرِّك أولُهما في "الضأَلِّين" و"جأَنّ".

قوله: "كذلك" فيه وجهان، أظهرهما: أنه متعلِّقٌ بما قبله أي: مختلفٌ اختلافاً مثلَ الاختلافِ في الثمرات والجُدَدِ. والوقفُ على "كذلك". والثاني: أنه متعلِّقٌ بما بعده، والمعنى: مثلَ ذلك/ المطرِ والاعتبارِ في مخلوقات الله تعالى واختلافِ ألوانِها يَخْشَى اللَّهَ العلماءُ. وإلى هذا نحا ابن عطية وهو فاسدٌ من حيث إنَّ ما بعد "إنَّما" مانعٌ من العمل فيما قبلها، وقد نَصَّ أبو عُمر الداني على أنَّ الوقفَ على "كذلك" تامٌّ، ولم يَحْكِ فيه خِلافاً.

قوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ ﴾ العامَّةُ على نصب الجلالة ورفع "العلماءُ" وهي واضحةٌ. وقرأ عمرُ بن عبد العزيز وأبو حنيفةَ فيما نَقَل الزمخشريُّ وأبو حيوةَ - فيما نَقَلَ الهذليُّ في كامله - بالعكس، وتُؤُوِّلت على معنى التعظيم، أي: إنما يُعَظِّمُ اللَّهُ مِنْ عبادِه العلماءَ. وهذه القراءة شبيهةٌ بقراءة ﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ ﴾ [البقرة: 124] برفع "إبراهيم" ونصب "ربَّه" وقد تقدَّمَتْ.

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (29)

(451/641)

---

قوله : ﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ ﴾ : في خبر " إنَّ " وجهان ، أحدهما : الجملةُ مِنْ قولِه " يَرْجُون " أي : إنَّ التالِين يَرْجُون و " لن تبورَ " صفةٌ " تجارةً " و " لِيُوَفِّيَهُمْ " متعلقٌ ب " يَرْجُون " أو ب " تَبُور " أو بمحذوفٍ أي : فعلوا ذلك ليوفِّيهم ، وعلى الوجهين الأوَّلَيْن يجوزُ أَنْ تكونَ لام العاقبة . الثاني : أن الخبرَ ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ جوَّزه الزمخشري على حَذْفِ العائدِ أي : غفورٌ لهم . وعلى هذا ف " يَرْجُون " حالٌ مِنْ " أَنْفَقُوا " أي : أَنْفَقوا ذلك راجين .

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31)

قوله : ﴿ مِنَ الكتاب ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ " مِنْ " للبيان ، وأن تكونَ للجنسِ ، وأَنْ تكونَ للتبعيض ، و " هو " فصلٌ أو مبتدأٌ و " مُصَدِّقاً " حالٌ مؤكدة .

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32)

قوله : ﴿ الكتاب الذين اصطفينا ﴾ : مفعولا " أَوْرَثْنا " . و " الكتابَ " هو الثاني قُدِّمَ لشَرفِه ، إذ لا لَبْسَ .

قوله : " من عبادِنا " يجوز أَنْ تكونَ للبيانِ على معنى : أنَّ المصطفَيْن هم عبادُنا ، وأن تكونَ للتبعيضِ ، أي : إن المصطفَيْن بعضُ عبادِنا لا كلُّهم . وقرأ أبو عمران الجوني ويعقوبُ وأبو عمروٍ في روايةٍ " سَبَّاق " مثالَ مبالغةٍ .

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33)

(452/641)

---

قوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ مبتدأً ، والجملةُ بعدها الخبرُ ، وأن يكونَ بدلاً مِن " الفضلُ " قاله الزمخشري وابنُ عطية . إلاَّ أنَّ الزمخشريَّ اعترض وأجاب فقال : " فإن قلتَ : كيف جَعَلْتَ قوله : " جنات عدنٍ " بدلاً من " الفضل " الذي هو السَّبْقُ بالخيرات المشارُ إليه ب " ذلك " ؟ قلت : لَمَّا كان السببَ في نيل الثواب نُزِّل منزلةَ المُسَبَّب ، كأنه هو الثواب ، فأَبْدَلَ عنه " جناتُ عدنٍ " .

وقرأ رزين والزهري " جَنَّةُ " مفرداً . والجحدري " جناتِ " بالنصب على الاشتغال ، وهي تؤيِّدُ رَفْعَها بالابتداء . وجوَّزَ أبو البقاء أن يكونَ " جناتُ " بالرفع خبراً ثانياً لاسم

الإِشارة، وأن يكون خبرَ مبتدأ محذوفٍ . وتقدَّمت قراءةُ "يَدْخُلونها " مبنياً للفاعل أو المفعول وباقي الآية في الحج .

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34)

قوله : ﴿ الحزن ﴾ : العامَّةُ بفتحتَيْن . وجناح ابن حبيش بضم وسكون . وتقدَّم معنى ذلك أولَ القصص .

الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (35)

قوله : ﴿ دَارَ المقامة ﴾ : مفعولٌ ثانٍ ل " أَحَلَّنا " ولا يكونُ ظرفاً لأنه مختصٌّ فلو كان ظرفاً لتعدَّى إليه الفعلُ ب في . والمُقامة : الإِقامة . " من فضلِه " متعلقٌ ب " أحَلَّنا " و " مِنْ " : إمَّا للعلةِ، وإمَّا لابتداءِ الغاية .



---

قوله : " لا يَمَسُّنا " حالٌ مِنْ مفعول " أَحَلَّنا " الأول أو الثاني؛ لأن الجملةَ مشتملةٌ على ضميرِ كل منهما، وإن كان الحالُ من الأول أظهرَ . والنَّصَبُ : التعبُ والمشقةُ . واللُّغوبُ : الفتورُ الناشئُ عنه، وعلى هذا فيقال : إذا انتفى السببُ نُفِي المُسَبَّب يقال : " لم آكُلْ " فيُعلمُ انتفاءُ الشِّبع، فلا حاجةَ إلى قولِه ثانياً : " فلم أشبَعْ " بخلاف العكسِ، ألا ترى أنه

يجوز : لم أشبع ولم آكل ، والآية الكريمة على ما قررتُ مِن نفي السبب ثم نفي المسبب فأي فائدة في ذلك ؟ وقد أجيب بأنه بيّن مخالفةَ الجنة لدار الدنيا ؛ فإنَّ أماكنها على قسمين : موضعٍ تَمَسُّ فيه المشاق كالبراري ، وموضعٍ يَمَسُّ فيه الإعياءُ كالبيوتِ والمنازل التي فيها الأسفارُ . فَقيل : لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ لأنها ليست مَظانَّ المتاعب كدارِ الدنيا ، ولا يَمَسُّنا فيها لُغوبٌ أي : ولا نَخْرُج منها إلى مواضعَ نَتْعَبُ ونَرْجِعُ إليها فيمسُّنا فيها الإعياء . وهذا الجوابُ ليس بذلك ، والذي يقال : إن النَّصَب هو تعبُ البدنِ واللُّغوبُ تعبُ النفسِ . وقيل : اللغوبُ الوجَعُ وعلى هذين فلا يَرِدُ السؤالُ المتقدِّمُ .

وقرأ عليٌّ والسُّلميُّ بفتح لام " لَغُوْب " وفيه أوجه ، أحدها : أَنَّه مصدرٌ على فَعُوْل كالقَبول . / والثاني : أنه اسمٌ لما يُلْغَبُ به كالفَطور والسَّحور . قاله الفراء . الثالث : أنه صفةٌ لمصدرٍ مقدرٍ أي : لا يَمَسُّنا لُغوبٌ لَغوبٌ نحو : شعرٌ شاعرٌ ومَوْتٌ مائتٌ . وقيل : صفةٌ لشيءٍ غيرِ مصدرٍ أي : أمرٌ لَغوبٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 209 . 234 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾

﴿ أَوْرَثْنَا ﴾ : أي أعطينا الكتاب - أي القرآن - الذين اصطفينا من عبادنا ، وذكر الإعطاءَ بلفظِ الإرثِ توسُّعاً .

﴿ اصْطَفَيْنَا ﴾ : أي اخترنا . ثم ذكر أقسامَهم ، وفي الخبر أنه لمَّا نزلت هذه الآية قال عليه السلام : " أمتي وربِّ الكعبة " ثلاث مرات .

وفي الآية وجوهٌ من الإشارة : فمنها أنه لمَّا ذكر هذا بلفظ الميراثِ فالميراثُ يقتضى صحة النَّسَبِ على وجهٍ مخصوص ، فَمَنْ لا سببَ له فلا نَسَبَ له ، ولا ميراثَ له .

ومحلُّ النَّسبِ ها هنا المعرفة ، ومحلُّ السبب الطاعة . وإن قيل محلُّ النَّسب فَضْلُه ، ومحل السبب فِعْلُك ؛ فهو وَجْهٌ . ويصحُّ أن يقال محلُّ النسبِ اختياره لك بدءاً ومحلُّ السببِ إحسانُه لك تالياً .

ويقال أهلُ النسب على أقسام : - الأقوى ، والأدنى كذلك في الاستحقاق .

ويقال جميع وجوه التملُّك لا بُدَّ فيها من فِعْل للعبد كالبيع ، أَمَّا ما يُمْلَكُ بالهِبَة فلا يحصل إلا بالقبول والقسمة ، ولا يحصل الاستحقاق إلا بالحضور والمجاهدة وغير ذلك . والوصية لا تُسْتَحقُّ إلا بالقبول ، وفي الزكاة لا بُدَّ من قبول أهل السُّهْمَانِ ، والميراث لا يكون فيه شيء

من جهة الوارث وفعله ، والنّسبُ ليس من جملة أفعاله .

ويقال الميراث يُسْتَحقّ بوجهين : بالفرض والتعصيب ، والتعصيبُ أقوى من الفرض ؛ لأنه قد يستحق به جميع المال ، ثم الميراث يبدأ بذوي الفروض ثم ما يتبقى فللعَصَبَة .

﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ : تكلموا في الظالم ، فمنهم من قال هو الأفضل ، وأرادوا به من ظَلَمَ نَفْسَه لكثرة ما حَمَّلَها من الطاعة .

(455/641)

---

والأكثرون : إنَّ السابقَ هو الأفضل ، وقالوا : التقديم في الذكر لا يقتضي التقديم في الرتبة ، ولهذا نظائر كثيرة .

ويقال قَرَنَ باسم الظالم قرينةً وهي قوله : " لنفس " ، وقرن باسم السابق قرينةً وهي قوله : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ؛ فالظالم كانت له زلّة ، والسابق كانت له صولة ، فالظالم رَفَعَ زلّته بقوله : لنفسه ، والسابق كَسَرَ صولته بقوله : بإذن الله .

كأنه قال : يا ظالمُ ارفعْ رأسَك ، ظَلَمْتَ ولكن على نفسك ، ويا سابقُ اخفض رأسَك ؛ سَبَقْتَ - ولكن بإذن الله .

ويقال إنّ العزيزَ إذا رأى ظالماً قصمَه ، والكريمَ إذا رأى مظلوماً أَخَذَ بيده ، كأنه قال : يا

ظالم ، إنْ كان كونُكَ ظالماً يوجِبُ قَهْرَك ، فكوْنُكَ مظلوماً يوجِبُ الأخذَ بيدك .

ويقال الظالمُ مَنْ غَلَبَتْ زَلاَّتُه ، والمقتصدُ مَنْ استوت حالاته ، والسابقُ مَنْ زادت حسناته .

ويقال الظالمُ مَنْ زهد في دنياه ، والمقتصدُ مَن رغب في عقباه ، والسابقُ مَنْ آثر على الدارين مولاه .

ويقال الظالمُ مَنْ نَجَمَ كوكبُ عقله ، والمقتصدُ مَنْ طَلَعَ بَدْرُ عِلْمه ، والسابقُ من ذَرَّتَ شمسُ معرفته .

ويقال الظالمُ مَنْ طَلَبَه ، والمقتصدُ مَنْ وَجَدَه ، والسابق مَنْ بقي معه .

ويقال الظالِمُ مَنْ تَرَكَ المعصية ، والمقتصد مَنْ تَرَكَ الغفلة ، والسابق مَنْ تَرَكَ العلاقة .

ويقال الظالمُ مَنْ جاد بمالِه ، والمقتصد مَنْ لم يبخلْ بنفْسِه ، والسابق مَنْ جاد بروحه .

ويقال الظالمُ مَنْ له علم اليقين ، والمقتصد مَنْ له عين اليقين ، والسابق مَنْ له حق اليقين .

ويقال الظلم صاحب المودة ، والمقتصد الخلّة ، والسابق صاحب المحبة .

ويقال الظالم يترك الحرام ، والمقتصد يترك الشُّبهة ، والسابق يترك الفضل في الجملة .

ويقال الظالمُ صاحبُ سخاء ، والمقتصد صاحب جود ، والسابق صاحب إيثار .

ويقال الظالم صاحب رجاء ، والمقتصدُ صاحبُ بَسْط ، والسابق صاحب أُنْس .

ويقال الظالم صاحب خوف ، والمقتصد صاحب خشية ، والسابق صاحب هيبة .

ويقال الظلم له المغفرة ، والمقتصد له الرحمة والرضوان ، والسابق له القربة والمحبة .

ويقال الظالم صاحب الدنيا ، والمقتصد طالب العُقْبى ، والسابق طالب المولى .

ويقال الظالم طالب النجاة ، والمقتصد طالب الدرجات ، والسابق صاحب المناجاة .

ويقال الظالم أَمِنَ من العقوبة ، والمقتصد فاز بالمثوبة ، والسابق متحقق بالقربة .

ويقال الظالم مضروبٌ بسَوْطِ الحِرْصِ ، مقتولٌ بسيف الرغبة ، مضطجع على باب الحسرة .

والمقتصدُ مضروبٌ بسوط الندامة ، مقتولٌ بسيف الأسف ، مضطجع على باب الجود .

والسابقُ مضروبٌ بسوط التواجد ، مقتول بسيف المحبة ، مُضْطَجِعٌ على باب الاشتياق .

ويقال الظالم صاحب التوكل ، والمقتصد صاحب التسليم ، والسابق صاحب التفويض .

ويقال الظالم صاحب تواجد ، والمقتصد صاحب وَجْد ، والسابق صاحب وجود .

ويقال الظالم صاحبُ المحاضرة ، والمقتصد صاحب المكاشفة ، والسابق صاحب المشاهدة .

ويقال الظالم يراه في الآخرة بمقدار أيام الدنيا في كل جمعة مرةَ ، والمقتصد يراه في كل يوم مرةً ، والسابق غير محجوب عنه ألبتةَ .

ويقال الظالم مجذوبٌ إلى فِعْلِه الذي هو فضله ، والمقتصد مكاشَفٌ بوصفه الذي هو عِزُّه ،

والسابقُ المستهلَكُ في حقه الذي هو وُجُودُه.

قوله: ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ لأنه ذكر الظالم مع السابق.

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33)

نَبَّهَ على أن دخولهم الجنة لا باستحقاقٍ بل بفضله، وليس في الفضل تمييز.

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34)

تحققوا بحقائق الرضا، والحَزَنُ سُمِّي حَزَنًا لحُزُونةِ الوقتِ على صاحبه وليس في الجنة حزونة وإنما هو رضاً واستبشار.

(457/641)

---

ويقال ذلك الحزن حزن خوف العاقبة. ويقال هو دوام المراعاة خشية أن يحصل سوءُ الأدب. ويقال هو سياسة النفس.

﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ ﴾ للعصاة، ﴿ شَكُورٌ ﴾ للمطيعين. قَدَّمَ ما للعاصين رفقاً بهم لضعف أحوالهم.

الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (35)

﴿ دَارَ الْمُقَامَةِ ﴾: أي دار الإقامة، لا يبغون عنها حولا، ولا يتمنون منها خروجاً.

﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ : إذا أرادوا أن يَرَوْا مولاهم لا يحتاجون إلى قَطْعِ مسافةٍ ، بل غُرَفِهم يلقون فيها تحيةً وسلاماً ، فإذا رأوه لم يحتاجوا إلى تقليب حدقةٍ أَو تحديق مقلة في جهة ؛ يَرَوْنَه كما هُمْ بلا كيفية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 203 . 207﴾

*(458/641)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والأربعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/642)

---

الجزء الثانى والأربعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 36 ﴾ من سورة فاطر

وحتى الآية ﴿ 43 ﴾ من نفس السورة

(4/642)

---

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بيّن ما هم فيه من النعمة ، بيّن ما لأعدائهم من النقمة ، زيادة في سرورهم بما قاسوه في الدنيا من تكبرهم عليهم وفجورهم فقال : ﴿ والذين كفروا ﴾ أي ستروا ما دلت عليه عقولهم من شموس الآيات وأنوار الدلالات ﴿ لهم نار جهنم ﴾ أي بما تجهموا أولياء الله الدعاء إليهم .

ولما كانت عادة النار إهلاك من دخلها بسرعة ، بيّن أن حالها على غير ذلك زيادة في نكالهم وسوء مآلهم فقال مستأنفاً : ﴿ لا يقضى ﴾ أي لا يحكم وينفذ ويثبت من حاكم ما ﴿ عليهم ﴾ أي بموت ﴿ فيموتوا ﴾ أي فيتسبب عن القضاء موتهم ، وإذا راجعت ما مضى في سورة سبحان من قوله ﴿ فلا يملكون كشف الضر عنكم ﴾ [ الإسراء : 56 ] وما يأتي إن شاء الله تعالى في المرسلات من قوله : ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ [ المرسلات : 36 ] علمت سر وجوب النصب هنا لأنه لو رفع لكان المعنى أن موتهم ينبغي إن قضي عليهم أو لم يقض وذلك محال .

ولما كانت الشدائد في الدنيا تنفرج وإن طال أمدها قال : ﴿ ولا يخفف عنهم ﴾ وأعرق في النفي بقوله : ﴿ من عذابها ﴾ أي جهنم .

ولما كان ربما توهم متوهم أن هذا العذاب خاص بالذين كانوا في عصره ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الكفار قال : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الجزاء العظيم ﴿ نجزي ﴾ أي بما لنا من

العظمة - على قراءة الجماعة بالنون ﴿ كل كفور ﴾ أي به . صلى الله عليه وسلم . أو بغيره من الأنبياء عليهم السلام وإن لم نره لأن ثبوت المعجزة يستوي فيها المسع والبصر ، وبنى أبو عمرو الفعل للمفعول إشارة إلى سهولته وتيسره ورفع ﴿ كل ﴾ .

ولما بيّن عذابهم بين اكتئابهم فقال : ﴿ وهم ﴾ أي فعل ذلك بهم والحال أنهم ﴿ يصطرخون فيها ﴾ أي يوجدون الصراخ فيها بغاية ما يقدرون عليه من الجهد في الصياح بالبكاء والنواح .

(5/642)

---

ولما بيّن ذلك بيّن قولهم في اصطراخهم بقوله : ﴿ ربنا ﴾ أي يقولون : أيها المحسن إلينا ﴿ أخرجنا ﴾ أي من النار ﴿ نعمل صالحاً ﴾ ثم أكدوه وفسروه وبينوه بقولهم على سبيل التحسر والاعتراف بالخطأ أو لأنهم كانوا يظنون عملهم صالحاً ﴿ غير الذي كنا ﴾ أي بغاية جهدنا ﴿ نعمل ﴾ فتركوا الترقق والعمل على حسبه في وقت نفعه واستعملوه عند فواته فلم ينفعهم ، بل قيل في جوابهم تقريراً لهم وتوبيخاً وتقريعاً : ﴿ أو لم ﴾ أي ألم تكونوا في دار العمل متمكنين من ذلك بالعقول والقوى ؟ أو لم ﴿ نعمركم ﴾ أي نطل أعماركم مع إعطائنا لكم العقول ولم نعاجلكم بالأخذ ﴿ ما ﴾ أي زماناً ﴿ يتذكر فيه ﴾ وما يشمل كل

عمر يتمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه غير أن التوبيخ في الطويل أعظم ، وأشار بمظهر العظمة إلى أنه لا مطمع بغيره سبحانه في مد العمر .

ولما كان التفكر بعد البعث غير نافع لأنه بعد كشف الغطاء ، عبر بالماضي فقال : ﴿ من تذكر ﴾ إعلاماً بأنه قد ختم على ديوان المتذكرين ، فلا يزاد فيهم أحد ، والزمان المشار إليه قيل : إنه ستون سنة – قاله ابن عباس .رضى الله عنه .م ، وبوّب له البخاري في أوائل الرقاق من غير عزو إلى أحد ، وروى أحمد بن منيع عن أبي هريرة .رضى الله عنه .أن النبي .صلى الله عليه وسلم .قال : " من عمره الله ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر " وروى الترمذي وابن ماجه وأبو يعلى عن أبي هريرة أيضاً .رضى الله عنه .عن النبي .صلى الله عليه وسلم .أنه قال : " أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين .

وأقلهم من يجوز ذلك " .

ولما أشار إلى دليل العقل ابتداء ودواماً ، أشار إلى أدلة النقل المنبه على ما قصر عنه العقل ، فقال معبراً بالماضي تصريحاً بالمقصود عطفاً على معنى : أو لم نعمركم الذي هو قد عمرناكم : ﴿ وجاءكم النذير ﴾ أي عنى من الرسل والكتب تأييداً للعقول بالدليل المعقول .

ولما تسبب عن ذلك أن عذابهم لا ينفك قال : ﴿ فذقوا ﴾ أي ما أعددناه لكم من العذاب دائماً أبداً ، ولما كانت العادة جارية بأن من أيس من خصمه فزع إلى الاستغاثة عليه ، تسبب عن ذلك قوله : ﴿ فما ﴾ وكان الأصل : لكم ، ولكنه أظهر تعليقاً للحكم بالوصف للتعميم فقال : ﴿ للظالمين ﴾ أي الواضعين الأشياء في غير مواضعها ﴿ من نصير ﴾ أي يعينهم ويقوي أيديهم ، فلا براح لكم عن هذا الذواق ، وهذا عام في كل ظالم ، فإن من ثبت له نصر عليه لأن ظلمه في كل يوم يضعف ويهن والحق في كل حين يقوى ويضخم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 229 . 231 ﴾

*(7/642)*

---

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ عطف على قوله : ﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ كتاب الله ﴾ [ فاطر : 29 ]

وما بينهما كلام يتعلق بالذين يتلون كتاب الله على ما بينا وقوله : ﴿ جنات عَدْنٍ

يَدْخُلُونَهَا ﴾ [ فاطر : 33 ] قد ذكرنا أنه على بعض الأقوال راجع إلى ﴿ الذين يَتْلُونَ كتاب الله ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ ﴾ أي لا يستريحون بالموت بل العذاب دائم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أي النار وفيه لطائف : الأولى : أن العذاب في الدنيا إن دام كثيراً يقتل فإن لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجاً فاسداً متمكناً لا يحس به المعذب ، فقال عذاب نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا ، إما أن يفنى وإما أن يألفه البدن بل هو في كل زمان شديد والمعذب فيه دائم الثانية : راعى الترتيب على أحسن وجه وذلك لأن الترتيب أن لا ينقطع العذاب ، ولا يفتر فقال لا ينقطع ولا بأقوى الأسباب وهو الموت حتى يتمنون الموت ولا يجابون كما قال تعالى : ﴿ وَنَادَوْاْ يا مالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [ الزخرف : 77 ] أي بالموت الثالثة : في المعذبين اكتفى بأنه لا ينقص عذابهم ، ولم يقل نزيدهم عذاباً .

وفي المثابين ذكر الزيادة بقوله : ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [ النساء : 173 ] ثم لما بين أن عذابهم لا يخفف .

قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أي لا يخفف وإن اصطرخوا واضطربوا لا يخفف الله من عنده إنعاماً إلى أن يطلبوه بل يطلبون ولا يجدون والاصطراخ من الصراخ والصراخ صوت المعذب .

(8/642)

---

وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا ﴾ أي صراخهم بهذا أي يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا ﴾ لأن صراخهم كلام وفيه إشارة إلى أن إيلامهم تعذيب لا تأديب ، وذلك لأن المؤدب إذا قال لمؤدبه : لا أرجع إلى ما فعلت وبئسما فعلت يتركه ، وأما المعذب فلا وترتيبه حسن وذلك لأنه لما بين أنه لا يخفف عنهم بالكلية ولا يعفو عنهم بين أنه لا يقبل منهم وعداً وهذا لأن المحبوس يصبر لعله يخرج من غير سؤال فإذا طال لبثه تطلب الإخراج من غير قطيعة على نفسه فإن لم يفده يقطع على نفسه قطيعة ويقول أخرجني أفعل كذا وكذا .

واعلم أن الله تعالى قد بين أن من يكون في الدنيا ضالاً فهو في الآخرة ضال كما قال تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هذه أعمى فَهُوَ فِي الآخرة أعمى ﴾ [ الإسراء : 72 ] ثم إنهم لم يعلموا أن العود إلى الدنيا بعيد محال بحكم الإخبار .

وعلى هذا قالوا : ﴿ نَعْمَلْ صالحا ﴾ جازمين من غير استعانة بالله ولا مثنوية فيه ، ولم يقولوا إن الأمر بيد الله ، فقال الله لهم إذا كان اعتمادكم على أنفسكم فقد عمرناكم مقداراً يمكن التذكر فيه والإتيان بالإيمان والإقبال على الأعمال .

(9/642)

وقولهم: ﴿غَيْرَ الذى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ إشارة إلى ظهور فساد عملهم لهم، وكأن الله تعالى كما لم يهدهم في الدنيا لم يهدهم في الآخرة، فما قالوا ربنا زدت للمحسنين حسنات بفضلك لا بعلمهم ونحن أحوج إلى تخفيف العذاب منهم إلى تضعيف الثواب فافعل بنا ما أنت أهله نظراً إلى فضلك ولا تفعل بنا ما نحن أهله نظراً إلى عدلك وانظر إلى مغفرتك الهاطلة ولا تنظر إلى معذرتنا الباطلة، وكما هدى الله المؤمن في الدنيا هداه في العقبى حتى دعاه بأقرب دعاء إلى الإجابة وأثنى عليه بأطيب ثناء عند الإنابة فقالوا الحمد لله وقالوا ربنا غفور اعترافاً بتقصيرهم شكور إقراراً بوصول ما لم يخطر ببالهم إليهم وقالوا: ﴿أَحَلَّنَا دَارَ المقامة مِن فَضْلِهِ﴾ [فاطر: 35] أي لا عمل لنا بالنسبة إلى نعم الله وهم قالوا: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صالحا﴾ إغماضاً في حق تعظيمه وإعراضاً عن الاعتراف بعجزهم عن الإتيان بما يناسب عظمته، ثم إنه تعالى يبن أنه آتاهم ما يتعلق بقبول المحل من العمر الطويل وما يتعلق بالفاعل في المحل، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كفاعل الخير فيهم ومظهر السعادات.

فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النذير﴾.

فإن المانع إما أن يكون فيهم حيث لم يتمكنوا من النظر فيما أنزل الله، وإما أن يكون في مرشدهم حيث لم يتل عليهم ما يرشدهم.

ثم قال تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ فَمَا للظالمين مِن نَّصِيرٍ ﴾ وقوله : ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ إشارة إلى الدوام وهو أمر إهانة ، فما للظالمين الذين وضعوا أعمالهم وأقوالهم في غير موضعها وأتوا بالمعذرة في غير وقتها من نصير في وقت الحاجة ينصرهم ، قال بعض الحكماء قوله : ﴿ فَمَا للظالمين مِن نَّصِيرٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَا للظالمين مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [ البقرة : 270 ] يحتمل أن يكون المراد من الظالم الجاهل جهلاً مركباً ، وهو الذي يعتقد الباطل حقاً في الدنيا وما له من نصير أي من علم ينفعه في الآخرة ، والذي يدل عليه هو أن الله تعالى سمى البرهان سلطاناً ، كما قال تعالى : ﴿ فَأْتُونَا بسلطان ﴾ [ ابراهيم : 10 ] والسلطان أقوى ناصر إذ هو القوة أو الولاية وكلاهما ينصر والحق التعميم ، لأن الله لا ينصره وليس غيره نصيراً فما لهم من نصير أصلاً ، ويمكن أن يقال إن الله تعالى قال في آل عمران ﴿ وَمَا للظالمين مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [ آل عمران : 192 ] وقال : ﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ الله وَمَا لَهُمْ مّن ناصرين ﴾ [ الروم : 29 ] وقال ههنا : ﴿ فَمَا للظالمين مِن نّصِيرٍ ﴾ أي هذا وقت كونهم واقعين في النار ، فقد أيس كل منهم من كثير ممن كانوا يتوقعون منهم النصرة ولم يبق إلا توقعهم من الله فقال : ما لكم من نصير

أصلاً ، وهناك كان الأمر محكياً في الدنيا أو في أوائل الحشر ، فنفى ما كانوا يتوقعون منهم النصرة وهم آلهتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 26. 28 ﴾

(11/642)

---

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾

(12/642)

---

﴿ أورثنا ﴾ معناه أعطيناه فرقة بعد موت فرق ، والميراث حقيقة أو مجازاً إنما يقال فيما صار لإنسان بعد موت آخر ، و﴿ الكتاب ﴾ هنا يريد به معاني الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده ، فكأن الله تعالى لما أعطى أمة محمد صلى الله عليه وسلم القرآن وهو قد تضمن لمعاني الكتب المنزلة ، قبله ، فكأنه ورث أمة محمد الكتاب الذي كان في الأمم قبلها ، و﴿ الذين اصطفينا ﴾ يريد بهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم قاله ابن عباس وغيره ، وكأن اللفظ يحتمل أن يريد به جميع المؤمنين من كل أمة إلا أن عبارة توريث الكتاب لم

تكن إلا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، والأول لم يورثوه، و ﴿ اصطفينا ﴾ معناه اخترنا وفضلنا، و" العباد " عام في جميع العالم، مؤمنهم وكافرهم، واختلف الناس في عود الضمير من قوله ﴿ فمنهم ﴾ فقال ابن عباس وابن مسعود ما مقتضاه إن الضمير عائد على ﴿ الذين ﴾ والأصناف الثلاثة هي كلها في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ف " الظالم لنفسه " العاصي المسرف، و" المقتصد " متقي الكبائر والجمهور من الأمة، و" السابق " المتقي على الإطلاق، وقالت هذه الفرقة والأصناف الثلاثة في الجنة وقاله أبو سعيد الخدري، والضمير في ﴿ يدخلونها ﴾ عائد على الأصناف الثلاثة، قالت عائشة: دخلوا الجنة كلهم، وقال كعب الأحبار: استوت مناكبهم ورب الكعبة وتفاضلوا بأعمالهم، وفي رواية تحاكت مناكبهم، وقال أبو إسحاق السبيعي: أما الذي سمعت مذ ستين سنة فكلهم ناج، وقال عبد الله بن مسعود: هذه الأمة يوم القيامة أثلاث، ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، ثم يدخلون الجنة، وثلث يجيئون بذنوب عظام فيقول الله ما هؤلاء وهو أعلم بهم فتقول الملائكة: هم مذنبون إلا أنهم لم يشركوا فيقول الله عز وجل: أدخلوهم في سعة رحمتي، وقالت عائشة في كتاب الثعلبي: " السابق " من أسلم قبل الهجرة، و" المقتصد " من أسلم بعدها، و" الظالم " نحن، وقال

الحسن : " السابق " من رجحت حسناته ، و" المقتصد " من استوت سيئاته و" الظالم " من خفت موازينه ، وقال سهل بن عبد الله : " السابق " العالم ، و" المقتصد " المتعلم ، و" الظالم " الجاهل ، وقال ذو النون المصري ، " الظالم " الذاكر لله بلسانه فقط و" المقتصد " الذاكر بقلبه و" السابق " الذي لا ينساه ، وقال الأنطاكي : " الظالم " صاحب الأقوال ، و" المقتصد " صاحب الأفعال ، و" السابق " صاحب الأحوال ، وروى أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال :

"كلهم في الجنة " ، وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له " ، وقال صلى الله عليه وسلم : " أنا سابق العرب وسلمان سابق فارس وصهيب سابق الروم وبلال سابق الحبشة " .

(14/642)

قال القاضي أبو محمد : أراد صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء رؤوس السابقين ، وقال عثمان بن عفان : سابقنا أهل جهادنا ومقتصدنا أهل حضرنا وظالمنا أهل بدونا ، لا يشهدون جماعة ولا جمعة ، وقال عكرمة والحسن وقتادة ما مقتضاه أن الضمير في

منهم ﴾ عائد على العباد و" الظالم لنفسه " الكافر والمنافق و" المقتصد " المؤمن العاصي و" السابق " التقي على الإطلاق ، وقالوا وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة الواقعة ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم ﴾ [ الواقعة : 12 ] والضمير في قوله ﴿ يدخلونها ﴾ على هذا القول خاص على الفريقين المقتصد والسابق الفرقة الظالمة في النار قالوا وبعيد أن يكون ممن يصطفى ظالم كما يقتضي التأويل الأول ، وروي هذا القول عن ابن عباس ، وقال بعض العلماء قدم الظالم لأنه لا يتكل إلا على رحمة الله والمقتصد هو المعتدل في أموره لا يسرف في جهة من الجهات بل يلزم الوسط ، وقال صلى الله عليه وسلم : " خير الأمور أوساطها " ، وقالت فرقة لا معنى لقولها إن قوله تعالى : ﴿ الذين اصطفينا هم ﴾ الأنبياء والظالم منهم لنفسه من وقع في صغيرة .

(15/642)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول مردود من غير ما وجه ، وقرأ جمهور الناس " سابق بالخيرات " ، وقرأ أبو عمرو الجوني " سباق بالخيرات " ، و﴿ بإذن الله ﴾ معناه بأمره ومشيئته فيمن أحب من عباده ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ إشارة إلى

الاصطفاء وما يكون عنه من الرحمة ، وقال الطبري : السبق بالخيرات هو ﴿ الفضل الكبير ﴾ ، قال في كتاب الثعلبي جمعهم في دخول الجنة لأنه ميراث ، والبار والعاق سواء في الميراث مع صحة النسب ، فكذلك هؤلاء مع صحة الإيمان ، وقرأ جمهور الناس " جناتُ " بالرفع على البدل من ﴿ الفضل ﴾ وقرأ الجحدري " جناتِ " بالنصب بفعل مضمر يفسره ﴿ يدخلونها ﴾ وقرأ زر بن حبيش " جنة عدن " على الإفراد ، وقرأ أبو عمرو وحده "يُدخَلونها " بضم الياء وفتح الخاء ، ورويت عن ابن كثير ، وقرأ الباقون "يَدخُلونها " بفتح الياء وضم الخاء ، و﴿ أساور ﴾ جمع أسورة ، وأسورة جمع سوار ، ويقال سُوار بضم السين ، وفي حرف أبي أساوير ، وهو جمع أسوار وقد يقال ذلك في الحلي ، ومشهور أسوار أنه الجيد الرمي من جند الفرس ، ويحلون معناه رجلاً ونساء ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ونافع " ولؤلؤاً " بالنصب عطفاً على ﴿ أساور ﴾ ، وكان عاصم في رواية أبي بكر يقرأ و" لوْلؤاً " بسكون الواو الأولى دون همز ، وبهمز الثانية ، وروي عنه ضد هذا همز الأولى ، ولا يهمز الثانية ، وقرأ الباقون " لؤلؤٍ " بالهمز وبالخفض عطفاً على ﴿ أساور ﴾ ، و﴿ الحزن ﴾ في هذه الآية عام في جميع أنواع الأحزان ، وخصص المفسرون في هذا الموضع فقال أبو الدرداء : حزن أهوال القيامة وما يصيب هناك من ظلم نفسه من الغم والحزن ، وقال ابن عباس : حزن جهنم ، وقال عطية : حزن الموت ، وقال شهر : حزن معيشة الدنيا الخبز ونحوه ، وقال قتادة : حزن الدنيا في الخوف أن تتقبل أعمالهم ، وقيل غير

هذا مما هو جزء من الحزن. قال القاضي أبو محمد : ولا معنى لتخصيص شيء من هذه الأحزان،

(16/642)

---

لأن الحزن أجمع قد ذهب عنهم، وقولهم ﴿ لغفور شكور ﴾ وصفوه تعالى بأنه يغفر الذنوب ويجازي على القليل من الأعمال الصالحة بالكثير من الثواب، وهذا هو شكره لا رب سواه.

الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (35)

(17/642)

---

﴿ المقامة ﴾ الإقامة، وهو من أقام، و" المَقامة " بفتح الميم القيام وهو من قام، و﴿ دار المقامة ﴾ الجنة، و" النصب " تعب البدن، و" اللغوب " تعب النفس اللازم عن تعب البدن، وقال قتادة " اللغوب " الوجع، وقرأ الجمهور " لُغوب " بضم اللام، وقرأ علي بن أبي طالب والسلمي " لَغوب " بفتح اللام أي شيء يعيينا ، ويحتمل أن يكون مصدراً كالولوع

والوضوء ، ثم أخبر عن حال ﴿ الذين كفروا ﴾ معادلاً بذلك الإخبار قبل عن الذين اصطفى ، وهذا يؤيد تأويل من قبل إن الأصناف الثلاثة هي كلها في الجنة لأن ذكر الكافرين إنما جاء ها هنا ، وقوله ﴿ لا يقضى ﴾ معناه لا يجهز لأنهم لو ماتوا لبطلت حواسهم فاستراحوا ، وقرأ الحسن البصري والثقفي "فيموتون" ووجهها العطف على ﴿ يقضى ﴾ وهي قراءة ضعيفة ، وقوله ﴿ لا يخفف عنهم من عذابها ﴾ لا يعارضه قوله ﴿ كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ [ الإسراء : 97 ] لأن المعنى لا يخفف عنهم نوع عذابهم والنوع في نفسه يدخله أن يخبو أو يسعر ونحو ذلك ، وقرأ جمهور القراء ، "نجزي" بنصب "كلَّ" وبالنون في "نجزي" ، وقرأ أبو عمرو ونافع "يُجزى" بضم الياء على بناء الفعل للمفعول "كلُّ كفور" برفع "كلُّ" ، و﴿ يصطرخون ﴾ يفتعلون من الصراخ أصله يصترخون فأبدلت التاء طاء لقرب مخرج الطاء من الصاد ، وفي الكلام محذوف تقديره يقولون ﴿ ربنا ﴾ وطلبوا الرجوع إلى الدنيا في مقالتهم هذه فالتقدير فيقال لهم ﴿ أو لم نعمركم ﴾ على جهة التوقيف والتوبيخ ، و﴿ ما ﴾ في قوله ﴿ ما يتذكر ﴾ ظرفية ، واختلف الناس في المدة التي هي حد للتذكير ، فقال الحسن بن أبي الحسن : البلوغ ، يريد أنه أول حال التذكير ، وقال قتادة : ثمان عشرة سنة ، وقالت فرقة : عشرون سنة ، وحكى الزجاج : سبع عشرة سنة ، وقال ابن عباس : أربعون سنة ، وهذا قول حسن ، ورويت فيه آثار ، وروي أن العبد إذا بلغ أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان على وجهه وقال بابي وجه لا يفلح

، وقال مسروق بن الأجدع : من بلغ أربعين سنة فليأخذ حذره من الله ومنه قول الشاعر :

[ الطويل ]

إذا المرء وفّى الأربعين ولم يكنْ . . . له دون ما يأتي حياءٌ ولا ستر

فدعه ولا تنفس عليه الذي ارتأى . . . وإن جر أسْباب الحياة له العمر

وقد قال قوم : الحد خمسون سنة وقد قال الشاعر : [ الوافر ]

أخو الخمسين مجتمع أشدي . . . ونجدني مداومة الشؤون

وقال الآخر : [ الطويل ]

وإن امرأً قد سار خمسين حجة . . . إلى منهل من ورده لقريب

وقال ابن عباس أيضاً وغيره : الحد في ذلك ستون وهي من الأعذار ، وهذا أيضاً قول حسن متجه ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إذا كان يوم القيامة نودي أين أبناء الستين " وهو العمر الذي قال الله فيه ما يتذكر فيه من تذكر ، وقال صلى الله عليه وسلم : " عمره الله ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر " ، وقرأ جمهور الناس " ما يتذكر فيه من تذكر " ، وقرأ الأعمش " ما يذكر فيه من أذكر " ، و ﴿

النذير ﴾ في قول الجمهور الأنبياء وكل نبي نذير أمته ومعاصره ، ومحمد صلى الله عليه وسلم نذير العالم في غابر الزمان ، وقال الطبري وقيل ﴿ النذير ﴾ الشيب وهذا قول حسن ، إلا أن الحجة إنما تقوم بالنذارة الشرعية وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(19/642)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾

لما ذكر أهل الجنة وأحوالهم ومقالتهم ، ذكر أهل النار وأحوالهم ومقالتهم .

﴿ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ ﴾ مثل : ﴿ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ [ اطه : 74 ] .

﴿ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ مثل : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب ﴾ [ النساء : 56 ] .

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أي كافر بالله ورسوله .

وقرأ الحسن "فيموتون" بالنون ، ولا يكون للنفي حينئذٍ جواب ، ويكون "فيموتون" عطفاً على "يُقْضَى" تقديره لا يقضى عليهم ولا يموتون ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ

﴾ .

قال الكسائي : ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ بالنون في المصحف لأنه رأس آية و ﴿ لَا يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ لأنه ليس رأس آية .

ويجوز في كل واحد منهما ما جاز في صاحبه .

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أي يستغيثون في النار بالصوت العالي .

والصراخ الصوت العالي ، والصارخ المستغيث ، والمصرِخ المغيث .

قال :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزِعٌ . . .

كان الصراخ له قرعَ الظُّنابيب

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا ﴾ أي يقولون ربنا أخرجنا من جهنم وردّنا إلى الدنيا .

﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ قال ابن عباس : نقل : لا إله إلا الله .

وهو معنى قولهم : ﴿ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أي من الشرك ؛ أي نؤمن بدل الكفر ، ونطيع بدل المعصية ، ونمتثل أمر الرسل .

﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تذكَّرَ ﴾ هذا جواب دعائهم ؛ أي فيقال لهم ، فالقول مضمر .

وترجم البخاري : ( باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر لقوله عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النذير ﴾ يعني الشيب ) حدّثنا عبد السلام بن مُطَهَّر قال حدّثنا عمر بن علي قال حدّثنا مَعْن بن محمد الغِفاري عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُريّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أعذر الله إلى امرىء أخّر أجله حتى بلغه ستين سنة " قال الخَطّابي : "أعذر إليه" أي بلغ به أقصى العذر ، ومنه قولهم : قد أعذر من أنذر ؛ أي أقام عذر نفسه في تقديم نذارته .

والمعنى : أن من عمره الله ستين سنة لم يبق له عذر ؛ لأن الستين قريب من معترك المنايا ، وهو سنُّ الإنابة والخشوع وترقُّب المنية ولقاء الله تعالى ؛ ففيه إعذار بعد إعذار ، الأوّل بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، والمَوْتانُ في الأربعين والستين .

قال عليّ وابن عباس وأبو هريرة في تأويل قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ : إنه ستون سنة .

وقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال في موعظته : " ولقد أبلغ في الإعذار من تقدّم في الإنذار وإنه لينادي منادٍ من قِبل الله تعالى أبناء الستين "أولم نعمركم ما يتذكّر فِيهِ من تذكّر وجاءكم النذِير" "

وذكر الترمذي الحكيم من حديث عطاء بن أبي رَباح عن ابن عباس قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة نودي أبناء الستين وهو العمر الذي قال الله ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ " وعن ابن عباس أيضاً أنه أربعون سنة .

وعن الحسن البصري ومسروق مثله .

ولهذا القول أيضاً وجه ، وهو الصحيح ؛ والحجة له قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [ الأحقاف : 15 ] الآية .

ففي الأربعين تناهي العقل ، وما قبل ذلك وما بعده منتقص عنه ، والله أعلم .

(21/642)

---

وقال مالك : أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلم ويخالطون الناس ، حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة ، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيهم الموت .

وقد مضى هذا المعنى في سورة "الأعراف" .

وخرّج ابن ماجه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أعمار أمّتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من تجاوز ذلك" .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءكُمُ النذير ﴾ وقرىء "وجاءتكم النُّذرُ" واختلف فيه ؛ فقيل

القرآن .

وقيل الرسول ؛ قاله زيد بن علي وابن زيد .

وقال ابن عباس وعكرمة وسفيان ووكيع والحسين بن الفضل والفرّاء والطبري : هو الشيب .

وقيل : النذيرُ الحُمَّى .

وقيل : موت الأهل والأقارب .

وقيل : كمال العقل .

والنذير بمعنى الإنذار .

قلت : فالشيب والحُمَّى وموتُ الأهل كلُّه إنذار بالموت ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " الحُمَّى رائدُ الموت " قال الأزهري : معناه أن الحمى رسول الموت ، أي كأنها تُشعر بقدومه وتُنْذِرُ بمجيئه .

والشيب نذير أيضاً ؛ لأنه يأتي في سنّ الاكتهال ، وهو علامة لمفارقة سنّ الصِّبَا الذي هو سِنُّ اللهو واللعب .

قال :

رأيت الشيب من نُذُرِ المنايا . . .

لصاحبه وحسْبُك مِن نذير

وقال آخر :

فقلت لها المشيبُ نذيرُ عمري . . .

ولست مسودا وجه النذير

وأما موت الأهل والأقارب والأصحاب والإخوان فإنذار بالرحيل في كل وقت وأوان ،

وحين وزمان .

قال :

وأراك تحملهم ولستَ تردّهم . . .

فكأنني بك قد حُمِلت فلم تُردَّ

وقال آخر :

الموت في كل حين ينشر الكَفَنَا . . .

ونحن في غفلة عمّا يُرادُ بنا

وأما كمال العقل فبِه تُعرف حقائق الأمور ويفصل بين الحسنات والسيئات ؛ فالعاقل يعمل

لآخرته ويرغب فيما عند ربه ؛ فهو نذير .

وأما محمد صلى الله عليه وسلم فبعثه الله بشيراً ونذيراً إلى عباده قطعاً لحججهم؛ قال الله تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء: 165]، وقال: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: 15].

قوله تعالى: ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ يريد عذاب جهنم؛ لأنكم ما اعتبرتم ولا اتّعظتم.

﴿ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أي مانع من عذاب الله. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبي حـ 14 صـ ﴾

(23/642)

---

وقال أبو السعود:

﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ ﴾

لا يُحكم عليهم بموتٍ ثانٍ ﴿ فَيَمُوتُواْ ﴾ ويستريحُوا. ونصبُه بإضمارِ أنْ وقُرِىء فيموتونَ عطفاً على يقضي كقوله تعالى: ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ ﴿ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مّنْ عَذَابِهَا ﴾ بل كلَّما خبتْ زيد إسعارُها ﴿ كذلك ﴾ أي مثلَ ذلكَ الجزاءِ الفظيعِ ﴿ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾ مبالغٍ في الكفرِ أو الكفرانِ لا جزاء أخف وأدنى منه. وقُرِىء يُجزى على البناءِ للمفعولِ وإسناده إلى الكلِّ وقرىء يجازى.

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ يستغيثون . والاصطراخ افتعالٌ من الصُّراخِ استُعمل في الاستغاثةِ لجهد المستغيثِ صوتَه ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صالحا غَيْرَ الذى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ بإضمارِ القولِ وتقييدِ العملِ الصَّالحِ بالوصفِ المذكورِ للتَّحسرِ على ما عملوه من غيرِ الصَّالحِ والاعترافِ به والإشعارِ بأنَّ استخراجَهم لتلافيهِ وأنَّهم كانُوا يحسبونه صالحاً والآنَ تبيَّن خلافُه . وقولُه تعالى ﴿ أَوَلَمْ نُعَمّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ جوابٌ من جهتِه تعالى وتوبيخٌ لهم . والهمزةُ للإنكارِ والنَّفيِ والواوُ للعطفِ على مقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ . ومَا نكرةٌ موصوفةٌ أي ألم نُمهلْكُم أو ألم نؤخرْكم ولم نعمرْكُم عمراً يتذكَّرُ فيه من تذكَّر أي يتمكَّنُ فيه المتذكرُ من التَّذكُّرِ والتَّفكُّرِ . قيل هو أربعون سنةً وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما ستُّون سنة ورُوي ذلك عن : عليَ رضيَ الله عنه وهو العُمر الذي أعذرَ اللهُ فيه إلى ابنِ آدمَ قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " أعذرَ اللهُ إلى امرىءٍ أخَّرَ أجلَه حتَّى بلغَ ستِّين سنة " . وقولُه تعالى : ﴿ وَجَاءكُمُ النذير ﴾ عطفٌ على الجملةِ الاستفهاميةِ لأنَّها في معنى قد عمَّرناكم كما في قوله تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا ﴾ الخ لأنَّه في معنى قد شرحنا الخ والمرادُ بالنَّذيرِ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أو ما معه من القرآنِ وقيل : العقلُ وقيل :

الشَّيبُ وقيل : موتُ الأقاربِ . والاقتصارُ على ذكرِ النّذيرِ لأنَّه الذي يقتضيهِ المقامُ . والفاءُ في قوله تعالى : ﴿ فذوقُوا ﴾ لترتيبِ الأمرِ بالذَّوقِ على ما قبلها التَّعميرِ ومجيءِ النَّذيرِ . وفي قوله تعالى : ﴿ فمَا للظالمين مِن نَّصِيرٍ ﴾ للتَّعليلِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(25/642)

---

وقال الآلوسى :

﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ ﴾

أي لا يحكم عليهم بموت ثان ﴿ فَيَمُوتُواْ ﴾ ليستريحوا بذلك من عذابها بالكلية وإنما فسر لا يقضي بما ذكر دون لا يموتون لئلا يلغوا فيموتوا ويحتاج إلى تأويله بيستريحوا .

ونصب يموتوا في جواب النفي بإضمار أن والمراد انتفاء المسبب لانتفاء السبب أي ما يكون حكم بالموت فكيف يكون الموت .

وقرأ عيسى .

والحسن ﴿ فيموتون ﴾ بالنون عطفاً كما قال أبو عثمان المازني على ﴿ والله يَقْضِى ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [ المرسلات : 36 ] أي لا يقضي عليهم ولا

يموتون ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ المعهود لهم بل كلما خبت زيد إسعارها ، والمراد دوام العذاب فلا ينافي تعذيبهم بالزمهرير ونحوه ، ونائب فاعل يخفف ﴿ عَنْهُمْ ﴾ ومن عذابها في موضع نصب ويجوز العكس ، وجوز أن تكون من زائدة فيتعين رفع مجرورها على أنه النائب عن الفاعل على ما قال أبو البقاء .

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ ﴾ بإسكان الفاء شبه المنفصل بالمتصل كقوله :

فاليوم أشرب غير مستحقب . . .

﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾ مبالغ في الكفر أو الكفران لا جزاء أخف وأدنى منه .

وقرأ أبو عمرو .

وأبو حاتم عن نافع ﴿ يَجْزِى ﴾ بالياء مبنياً للمفعول و﴿ كُلُّ ﴾ بالرفع على النيابة عن الفاعل وقرىء ﴿ نجازي ﴾ بنون مضمومة وألف بعد الجيم .

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ افتعال من الصراخ وهو شدة الصياح والأصل يصترخون فأبدلت التاء طاء ويستعمل كثيراً في الاستغاثة لأن المستغيث يصيح غالباً ، وبه فسره هنا قتادة فقال : يستغيثون فيها ، واسغاثتهم بالله عز وجل بدليل ما بعده وقيل ببعضهم لحيرتهم وليس بذاك .

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صالحا غَيْرَ الذى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ بإضمار القول أي ويقولون بالعطف أو يقولون بدونه على أنه تفسير لما قبله أو قائلين على أنه حال من ضميرهم ، وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه فهو وصف مؤكد ولأنهم كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فكأنهم قالوا : نعمل صالحاً غير الذي كنا نحسبه صالحاً فنعمله فالوصف مقيد .

وذكر أبو البقاء ﴿ أَنَّ صالحا وَغَيْرُ الذى ﴾ يجوز أن يكونا صفتين لمصدر محذوف أو لمفعول محذوف وأن يكون ﴿ صالحا ﴾ نعتاً لمصدر و ﴿ غَيْرَ الذى ﴾ مفعول ﴿ نَعْمَلْ ﴾ وأياً ما كان فالمراد أخرجنا من النار وردنا إلى الدنيا نعمل صالحاً وكأنهم أرادوا بالعمل الصالح التوحيد وامتثال أمر الرسول عليه الصلاة والسلام والانقياد له ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : ﴿ نَعْمَلْ صالحا ﴾ نقل لا إله إلا الله ﴿ أَوَلَمْ نُعَمّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ جواب من جهته تعالى وتوبيخ لهم في الآخرة حين يقولون ﴿ رَبَّنَا ﴾ الخ فهو بتقدير فنقول لهم أو فيقال لهم ﴿ أَوَلَمْ نُعَمّرْكُمْ ﴾ الخ ، وفي بعض الآثار أنهم يجابون بذلك بعد مقدار الدنيا ، والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وما

موصولة أو موصوفة أي ألم نمهلكم ونعمركم الذي أي العمر الذي أو عمراً يتذكر فيه من تذكر أي يتمكن فيه من أراد التذكر وتحققت منه تلك الإرادة من التذكر والتفكر .

وقال أبو حيان : ما مصدرية ظرفية أي ألم نعمركم في مدة تذكر ، وتعقب بأن ضمير ﴿ فِيهِ ﴾ يأباه لأنها لا يعود عليها ضمير إلا على نظر الأخفش فإنه يرى اسميتها وهو ضعيف ، ولعله يجعل الضمير للعمر المفهوم من ﴿ نعمر ﴾ وفيه بعد .

(27/642)

---

وجعل ما نافية لا يصح كما قال ابن الحاجب لفظاً ومعنى ، وهذا العمر على ما روى عن علي كرم الله تعالى وجهه وأخرجه جماعة وصححه الحاكم عن ابن عباس ستون سنة ، وقد أخرج الإمام أحمد .

والبخاري .

والنسائي .

وغيرهم عن سهل بن سعد قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اعذر الله تعالى إلى امرىء أخر عمره حتى بلغ ستين سنة ؛ وقيل : هو خمسون سنة" وفي رواية عن ابن عباس أنه ست وأربعون سنة ، وأخرج عبد بن حميد .

وابن حاتم عن الحسن أنه أربعون سنة ، وفي رواية أخرى عنه أنه سن البلوغ ، وقيل : سبع عشرة سنة ، وعن قتادة ثمان عشرة سنة ، وعن عمر بن عبد العزيز عشرون سنة ، وعن مجاهد ما بين العشرين إلى الستين ، وقرأ الأعمش ﴿ مَا يُذْكَرُ فِيهَا مِنْ اذكر ﴾ بالإدغام واجتلاب همزة الوصل ملفوظاً بها في الدرج ﴿ وَجَاءكُمُ النذير ﴾ عطف على معنى الجملة الاستفهامية فكأنه قيل : عمرناكم وجاءكم النذير فليس من عطف الخبر على الإنشاء كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ [ الشرح : 1 ، 2 ] وجوز أن يكون عطفاً على ﴿ نُعَمّرْكُمْ ﴾ ودخول الهمزة عليهما فلا تغفل .

والمراد بالنذير على ما روى عن السدي .

وابن زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : ما معه من القرآن ، وقال أبو حيان : المراد جنس النذير وهم الأنبياء عليهم السلام فكل نبي نذير أمته ، ويؤيده أنه قرىء ﴿ النذر ﴾ جمعاً ، وعن ابن عباس .

وعكرمة .

وسفيان بن عيينة .

ووكيع .

والحسين بن الفضل .

والفراء .

والطبرسي هو الشيب ، وفي الأثر ما من شعرة تبيض إلا قالت لأختها استعدى فقد قرب الموت ، ومن هنا قيل :

رأيت الشيب من نذر المنايا . . .

لصاحبه وحسبك من نذير

وقائلة تخضب يا حبيبي . . .

وسود شعر شيبك بالعبير

فقلت لها المشيب نذير عمري . . .

ولست مسوداً وجه النذير

(28/642)

---

وقيل : الحمى ، وقيل : موت الأهل والأقارب ، وقيل : كمال العقل ، والاقتصار على النذير لأنه الذي يقتضيه المقام ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجيء النذير ، وفي قوله سبحانه : ﴿ فَمَا للظالمين مِن نَّصِيرٍ ﴾ للتعليل ، والمراد بالظلم هنا الكفر ، قيل كان الظاهر فما لكم لكن عدل إلى المظهر لتقريعهم ،

والمراد استمرار نفي أن يكون لهم نصير يدفع عنهم العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 22 صـ ﴾

(29/642)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾

مقابلة الأقسام الثلاثة للذين أُورثوا الكتاب بذكر الكافرين يزيدنا يقيناً بأن تلك الأقسام أقسام المؤمنين ، ومقابلة جزاء الكافرين بنار جهنم يوضح أن الجنة دار للأقسام الثلاثة على تفاوت في الزمان والمكان .

وفي قوله تعالى في الكفار : ﴿ ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ إيماء إلى أن نار عقاب المؤمنين خفيفة عن نار المشركين .

فجملة ﴿ والذين كفروا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ [ فاطر : 33 ] .

ووقع الإِخبار عن نار جهنم بأنها ﴿ لهم ﴾ بلام الاستحقاق للدلالة على أنها أعدت لجزاء أعمالهم كقوله تعالى : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين

﴿ في سورة البقرة ( 24 ) وقوله : ﴿ واتقوا النار التي أعدت للكافرين ﴾ في سورة آل عمران ( 131 ) ، فنار عقاب عصاة المؤمنين نار مخالفة أو أنها أعدت للكافرين .

وإنما دخل فيها من أدخل من المؤمنين الذين ظلموا أنفسهم لاقترافهم الأعمال السيئة التي شأنها أن تكون للكافرين .

وقدم المجرور في لهم نار جهنم ﴾ على المسند إليه للتشويق إلى ذكر المسند إليه حتى إذا سمعه السامعون تمكن من نفوسهم تمام التمكن .

وجملة ﴿ لا يقضى عليهم ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ لهم نار جهنم ﴾ ، والقضاء : حقيقته الحكم ، ومنه قضاء الله حكمه وما أوجده في مخلوقاته .

وقد يستعمل بمعنى أماته كقوله تعالى : ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ [ القصص : 15 ] .

وهو هنا محتمل للحقيقة ، أي لا يقدرُ الله موتهم ، فقوله : ﴿ فيموتوا ﴾ مسبب على القضاء .

والمعنى : لا يقضى عليهم بالموت فيموتوا ، ومحتمل للمجاز وهو الموت .

وتفريع ﴿ فيموتوا ﴾ على هذا الوجه أنهم لا يموتون إلا الإماتة التي يتسبب عليها الموت الحقيقي الذي يزول عنده الإحساس ، فيفيد أنهم يُماتون مَوتاً ليس فيه من الموت إلا آلامه دون راحته ، قال تعالى : ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾ [ الزخرف : 77 ] وقال تعالى : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ [ النساء : 56 ] .

وضمير ﴿ عذابها ﴾ عائد إلى جهنم ليشمل ما ورد من أن المعذبين يعذبون بالنار ويعذبون بالزمهرير وهو شدة البرد وكل ذلك من عذاب جهنم .

ووقع ﴿ كذلك ﴾ موقع المفعول المطلق لقوله : ﴿ نجزي ﴾ أي نجزيهم جزاء كذلك الجزاء ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ في سورة البقرة ( 143 ) .

وجملة كذلك نجزي كل كفور ﴾ تذييل .

والكفور : الشديد الكفر ، وهو المشرك .

وقرأ الجمهور ﴿ نجزي ﴾ بنون العظمة ونصب ﴿ كل ﴾ .

وقرأه أبو عمرو وحده ﴿ يُجزَى ﴾ بياء الغائب والبناء للنائب ورفع ﴿ كل ﴾ .

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ

الضمير إلى ﴿ الذين كفروا ﴾ [ فاطر : 36 ] والجملة عطف على جملة ﴿ لهم نار

جهنم ﴾ [ فاطر : 36 ] ولا تجعل حالاً لأن التذييل آذنَ بانتهاء الكلام وباستقبال كلام جديد .

و ﴿ يصطرخون ﴾ مبالغة في ( يصرخون ) لأنه افتعال من الصراخ وهو الصياح بشدة وجهد ، فالاصطراخ مبالغة فيه ، أي يصيحون من شدة ما نابهم .

وجملة ﴿ ربنا أخرجنا ﴾ بيان لجملة ﴿ يصطرخون ﴾ ، يحسبون أن رفع الأصوات أقرب إلى علم الله بندائهم ولإظهار عدم إطاقة ما هم فيه .

وقولهم : ﴿ نعمل صالحاً ﴾ وعدٌ بالتدارك لما فاتهم من الأعمال الصالحة ولكنها إنابة بعد إبانها .

ولإرادة الوعد جُزم ﴿ نعمل صالحاً ﴾ في جواب الدعاء .

والتقدير : إن تخرجنا نعملْ صالحاً .

(31/642)

---

و ﴿ غير الذي كنا نعمل ﴾ نعت ل ﴿ صالحاً ﴾ ، أي عملاً مغايراً لما كنا نعمله في الدنيا وهذا ندامة على ما كانوا يعملونه لأنهم أيقنوا بفساد عملهم وضره فإن ذلك العالَم عالم الحقائق .

﴿ كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النذير فَذُوقُواْ فَمَا للظالمين ﴾ .

الواو عاطفة فعل قول محذوفاً لعلمه من السياق بحسب الضمير في ﴿ نعمركم ﴾ معطوفاً على جملة ﴿ وهم يصطرخون فيها ﴾ فإن صراخهم كلام منهم ، والتقدير : يقولون ربنا أخرجنا ونقول ألم نعمركم .

والاستفهام تقريع للتوبيخ ، وجُعل التقرير على النفي توطئة ليُنكره المقرَّر حتى إذا قال : بلى علم أنه لم يسعه الإِنكار حتى مع تمهيد وطاء الإِنكار إليه .

والتعمير : تطويل العمر .

وقد تقدم غير مرة ، منها عند قوله تعالى : ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ في سورة البقرة ( 96 ) ، وقوله : ﴿ وما يعمر من معمر ﴾ في هذه السورة ( 11 ) .

وما ﴾ ظرفية مصدرية ، أي زمان تعمير مُعَمَّر .

وجملة ﴿ يتذكر فيه من تذكر ﴾ صفة ل ﴿ ما ﴾ ، أي زماناً كافياً بامتداده للتذّكر والتبصير .

و﴿ النذير ﴾ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم

وجملة ﴿ وجاءكم النذير ﴾ عطف على جملة "ألم نعمركم" لأن معناها الخبر فعطف عليها الخبر ، على أن عطف الخبر على الإِنشاء جائز على التحقيق وهو هنا حسن .

ووصف الرسول بالنذير لأن الأهم من شأنه بالنسبة إليهم هو النذارة .

والفاء في ﴿ فذوقوا ﴾ للتفريع.

وحذف مفعول "ذوقوا" لدلالة المقام عليه، أي ذوقوا العذاب.

والأمر في قوله ﴿ فذوقوا ﴾ مستعمل في معنى الدوام وهو كناية عن عدم الخلاص من العذاب.

وقوله: ﴿ فما للظالمين من نصير ﴾ تفريع على ما سبق من الحكاية.

فيجوز أن يكون من جملة الكلام الذي وبخهم الله به فهو تذييل له وتفريع عليه لتأييسهم من الخلاص يعني: فأين الذين زعمتم أنهم أولياؤكم ونصراؤكم فما لكم من نصير.

(32/642)

---

وعدل عن ضمير الخطاب أن يقال: فما لكم من نصير، إلى الاسم الظاهر بوصف "الظالمين" لإفادة سبب انتفاء النصير عنهم؛ ففي الكلام إيجاز، أي لأنكم ظالمون وما للظالمين من نصير، فالمقصود ابتداء نفي النصير عنهم ويتبعه التعميم بنفي النصير عن كل من كان مثلهم من المشركين.

ويجوز أن يكون كلاماً مستقلاً مفرعاً على القصة ذُيِّلت به للسامعين من قوله: ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم ﴾ [فاطر: 36]، فليس فيه عدول عن الإضمار إلى الإظهار لأن

المقصود إفادة شمول هذا الحكم لكل ظالم فيدخل الذين كفروا المتحدث عنهم في العموم .

والظلم : هو الاعتداء على حق صاحب حق ، وأعظمه الشرك لأنه اعتداء على الله بإنكار صفته النفيسة وهي الوحدانية ، واعتداء المشرك على نفسه إذْ أقحمها في العذاب قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [ لقمان : 13 ] .

وتعميم "الظالمين" وتعميم "النصير" يقتضي أن نصر الظالم تجاوزٌ للحق ، لأن الحق أن لا يكون للظالم نصير ، إذ واجب الحكمة والحقِّ أن يأخذ المقتدر على يد كل ظالم لأن الأمة مكلفة بدفع الفساد عن جماعتها .

وفي هذا إبطال لخُلُق أهل الجاهلية القائلين في أمثالهم " انصُرْ أخاك ظالماً أو مظلوماً " .

وقد ألقى النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه إبطال ذلك فساق لهم هذا المثَل حتى سألوا عنه ثم أصلح معناه مع بقاء لفظه فقال : " إذا كان ظالماً تنصره على نفسه فتكفه عن ظلمه" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

(33/642)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) ﴾

لا حياة يَتَمَتَّعُون بها ، ولا موت يستريحون به ، وهم مقيمون في العذاب والحجاب ، لا يفتر عنهم العذاب ، وتُرْفَعُ عنهم العقوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 208 ﴾

*(34/642)*

---

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (38) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (39) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان سبحانه عالماً بما نفى وما أثبت ، علل ذلك مقرراً سبب دوام عذابهم وأنه بقدر

كفرانهم كما قال تعالى ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [ الشورى : 40 ] بقوله مؤكداً إشارة إلى أنه لا يجب تمرين النفس عليه لما له من الصعوبة لوقوف النفس مع المحسوسات : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ عالم غيب ﴾ ولما كانت جهة العلو أعرق في الغيب قال : ﴿ السماوات والأرض ﴾ فأنتج ذلك قوله مؤكداً لأنه من أعجب الغيب لأنه كثيراً ما يخفى على الإنسان ما في نفسه والله تعالى عالم به ، أو هو تعليل لما قبله : ﴿ إنه عليم ﴾ أي بالغ العلم ﴿ بذات الصدور ﴾ أي قبل أن يعلمها أربابها حين تكون غيباً محضاً ، فهو يعلم أنكم لو مدت أعماركم لم ترجعوا عن الكفر أبداً ، ولو رددتم لعدتم لما نهيتم عنه وأنه لا مطمع في صلاحكم ، ولذلك يأمر الملك أن يكتب عند نفخ الروح في الولد أنه ما شقي أو سعيد قبل أن يكون له خاطر أصلاً ، وربما كان في غاية ما يكون من الإقبال على الخير فعلاً ونية ، ثم يختم له بشر ، وربما كان على خلاف ذلك في غاية الفساد ، لا يدع شركاً ولا غيره من المعاصي حتى يرتكبها وهو عند الله سعيد لما يعلم من نيته بعد ذلك حين يقبل بقلبه عليه فيختم له بخير فيكون من أهل الجنة ، وأما الخواطر بعد وجودها في القلوب فقد يطلع عليها الملك والشيطان .

ولما كان من أنشأ شيئاً كان أعلم به ، وإتقان صنعه يدل على تمام قدرة صانعه ، وتمام قدرته ملزوم لتمام علمه ، قال : ﴿ هو ﴾ أي وحده لا شركاؤكم ولا غيرهم ﴿ الذي جعلكم ﴾ أي أيها الناس ﴿ خلائف ﴾ جمع خليفة ، وهو الذي يقوم بعد الإنسان بما كان

قائماً به ، والخلفاء جمع خليف - قال الأصبهاني ، وقال القشيري : أهل كل عصر خليفة عمن تقدمهم ، فمن قوم هم لسلفهم جمال ، ومن قوم هم أراذل وأندال ، الأفاضل زمانهم لهم محنة ، والأراذل هم لزمانهم محنة .

(35/642)

---

ولما كان المراد توهية أمر شركائهم ، وكانت تحصل بسلب قدرتهم على ما مكن فيه سبحانه العابدين من الأرض ، أدخل الجار دلالة على أنهم على كثرتهم وامتداد أزمنتهم لا يملؤون مسكنهم بتدبيره لإماتة كل قرن واستخلاف من بعدهم عنهم ، ولو لم يمتهم لم تسعهم الأرض مع التوالد على طول الزمان ، وهم في الأصل قطعة يسيرة من ترابها فقال : ﴿ في الأرض ﴾ أي فيما أنتم فيه منها لا غيره تتصرفون فيه بما قدرتم عليه ، ولو شاء لم يصرفكم فيه ، فمن حقه أن تشكروه ولا تكفروه .

ولما ثبت أن ذلك نعمة منه ، عمرهم فيه مدة يتذكر فيه من تذكر ، تسبب عنه قوله :

﴿ فمن كفر ﴾ أي بعد علمه بأن الله هو الذي مكنه لا غيره ، واحتقر هذه النعمة السنية ﴿ فعليه ﴾ أي خاصة ﴿ كفره ﴾ أي ضرره .

ولما كان كون الشيء على الشيء محتملاً لأمور ، بيّن حاله بقوله مؤكداً لأجل من يتوهم أن

بسط الدنيا على الفاجر ربح وإكرام من الله له ﴿ ولا ﴾ أي والحال لأنه لا ﴿ يزيد الكافرين ﴾ أي المغطين للحق ﴿ كفرهم ﴾ أي الذي هم متلبسون به ظانون أنه يسعدهم وهو راسخون فيه غير متمكنين عنه ، ولذا لم يقل : لا يزيد من كفر قد يكون كفره غير راسخ فيسلم ﴿ عند ربهم ﴾ أي المحسن إليهم ﴿ إلا مقتاً ﴾ أي لأنه يعاملهم معاملة من يبغض ويحتقر أشد بغض واحتقار .

ولما كان المراد من هذه الصفات في حق الله تعالى غاياتها ، وكان ذكرها إنما هو تصوير له بأفظع صورها لزيادة التنفير من أسبابها ، وكانوا ينكحون نساء الآباء مع أنهم يسمونه نكاح المقت ، نبه على أنهم لا يبالون بالتمقت إلى المحسن ، فقال ذاكراً للغاية مبيناً أن محط نظرهم الخسارة المالية تسفيلاً لهممهم زيادة في توبيخهم : ﴿ ولا يزيد الكافرين ﴾ أي العريقين في صفة التغطية للحق ﴿ كفرهم إلا خساراً ﴾ أي في الدنيا والآخرة في المال والنفس وهو نهاية ما يفعله الماقت بالممقوت .

(36/642)

---

ولما بيّن أنه سبحانه هو الذي استخلفهم ، أكد بيان ذلك عندهم بأمره. صلى الله عليه وسلم. بما يضطرهم إلى الإعتراف به فقال : ﴿ قل أرءيتم ﴾ أي أخبروني

﴿ شركاءكم ﴾ أضافهم إليهم لأنهم وإن كانوا جعلوهم شركاءه لم ينالوا شيئاً من شركته لأنهم ما نقصوه شيئاً من ملكه، وإنما شاركوا العابدين في أموالهم بالشوائب وغيرها وفي أعمالهم فهم شركاؤهم بالحقيقة لا شركاؤه، ثم بين المراد من عدهم لهم شركاء بقوله: ﴿ الذين تدعون ﴾ أي تدعونهم شركاء ﴿ من دون الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال.

ولما كان التقدير: بأي شيء جعلتموهم شركاء في العبادة، ألهم شرك في الأرض، بنى عليه قوله مكرراً لإشهادهم عجز شركائهم ونقص من عبدوه من دونه: ﴿ أروني ماذا ﴾ أي الذي أو أيّ شيء ﴿ خلقوا من الأرض ﴾ أي لتصح لكم دعوى الشركة فيهم، وإلا فادعاؤكم ذلك فيهم كذب محض وأنتم تدعون أنكم أبعد الناس منه في الأمور الهينة فكيف بمثل هذا، ولعل استفهامهم عن رؤية شركائهم تنبيه على أنهم من الامتهان والحقارة بحيث يراهم كل من يقصد رؤيتهم ويعلم أنه لا خلق لهم، والله تعالى، بخلاف ذلك في كل من الأمرين، متردٍ برداء الكبر محتجب بحجاب الجلال والعز، وكل أحد يعلم أنه خالق لكل مخلوق، فكيف يكون من لا يخلق كمن يخلق.

ولما نبههم بهذا الأمر الذي ساقه المعلم بأنه لا ينبغي لعاقل أن يدعي شركة لشيء حتى يعلم الشركة وإن جهل عين المشارك فيه، قال مؤكداً لذلك موسعاً لهم في المحال، زيادة في تبكيتهم على ما هم فيه من الضلال: ﴿ أم لهم شرك ﴾ أي وإن كان قليلاً ﴿ في

السماوات ﴾ أي أروني ما خلقوا في السماوات ، فالآية من الاحتباك : حذف أولاً الاستفهام عن الشركة في الأرض لدلالة مثله في السماء ثانياً عليه ، وحذف الأمر بالإراءة ثانياً مثله أولاً عليه .

*(37/642)*

---

ولما أتم التبكيت بالاستفهام عن المرئي ، أتبعه التوبيخ بالاستفهام عن المسموع ، مؤذناً بالالتفات إلى التكلم بمظهر العظمة بشديد الغضب فقال : ﴿ أم آتيناهم ﴾ أي الشركاء أو المشركين بهم بما لنا من العظمة ﴿ كتاباً ﴾ أي دالاً على انه من عندنا بإعجازه أو غير ذلك من البراهين القاطعة ثبتت لهم شركة ﴿ فهم ﴾ أي المشركون ﴿ على بينة ﴾ أي حجة ظاهرة ، وبينات - على القراءة الأخرى ، أي دلائل واضحات بما في ذلك الكتاب من ضروب البيان ﴿ منه ﴾ أي ذلك الكتاب على أنا أشركناهم في الأمر حتى يشهدوا لهم هذه الشهادة التي لا يسوغون مثلها في إثبات الشركة لعبد من عبيدهم في أحقر الأشياء فكيف يسوغونها في انتقاص الملك الذي لا خير عندهم إلا منه غير هائبين له ولا مستحين منه .

ولما كان التقدير : لم يكن شيء من ذلك فليسوا على بيان ، بل على غرور ، قال منبهاً لهم

على ذميم أحوالهم وسفه آرائهم وخسة هممهم ونقصان عقولهم مخبراً أنهم لا يقدرون على الإتيان بشيء مما به يطالبون وأنه ليس لهم جواب عما عنه يسألون ، وأكده لأجل ظنهم أن أمورهم في غاية الإحكام ، ﴿ بل أن ﴾ أي ما ﴿ يعد الظالمون ﴾ أي الواضعون للأشياء في غير مواضعها ﴿ بعضهم بعضاً ﴾ أي الأتباع للمتبوعين بأن شركاءهم تقربهم إلى الله زلفى وأنها تشفع وتضر ولا تنفع ﴿ إلا غروراً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 233.231 ﴾

(38/642)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

تقريراً لدوامهم في العذاب ، وذلك من حيث إن الله تعالى لما قال : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [ الشورى : 40 ] ولا يزاد عليها ، فلو قال قائل : الكافر ما كفر بالله إلا أياماً معدودة ، فكان ينبغي أن لا يعذب إلى مثل تلك الأيام ، فقال تعالى إن الله لا يخفى عليه غيب السموات فلا يخفى عليه ما في الصدور ، وكان يعلم من الكافر أن في قلبه تمكن

الكفر بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله ولا عبده .

وفي قوله تعالى : ﴿ بِذَاتِ الصدور ﴾ مسألة قد ذكرناها مرة ونعيدها أخرى ، وهي أن لقائل أن يقول الصدور هي ذات اعتقادات وظنون ، فكيف سمى الله الاعتقادات بذات الصدور ؟ ويقرر السؤال قولهم أرض ذات أشجار وذات جنى إذا كان فيها ذلك ، فكذلك الصدر فيه اعتقاد فهو ذو اعتقاد ، فيقال له لما كان اعتبار الصدر بما فيه صار ما فيه كالساكن المالك حيث لا يقال الدار ذات زيد ، ويصح أن يقال زيد ذو دار ومال وإن كان هو فيها .

ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَكُمْ خلائف فِي الأرض ﴾ .

(39/642)

---

تقريراً لقطع حجتهم فإنهم لما قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صالحا ﴾ [ فاطر : 37 ] وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ ﴾ [ فاطر : 37 ] إشارة إلى أن التمكين والإمهال مدة يمكن فيها المعرفة قد حصل وما آمنتم وزاد عليه بقوله : ﴿ وَجَاءكُمُ النذير ﴾ [ فاطر : 37 ] أي آتيناكم عقولاً ، وأرسلنا إليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول زاد على ذلك بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَكُمْ خلائف فِي الأرض ﴾ أي نبهكم بمن مضى وحال من

انقضى فإنكم لو لم يحصل لكم علم بأن من كذب الرسل أهلك لكان عنادكم أخفى وفسادكم أخف ، لكن أمهلتم وعمرتم وأمرتم على لسان الرسل بما أمرتم وجعلتم خلائف في الأرض ، أي خليفة بعد خليفة تعلمون حال الماضين وتصبحون بحالهم راضين ﴿ فَمَن كَفَرَ ﴾ بعد هذا كله ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً ﴾ لأن الكافر السابق كان ممقوتاً كالعبد الذي لا يخدم سيده واللاحق الذي أنذره الرسول ولم ينتبه أمقت كالعبد الذي ينصحه الناصح ويأمره بخدمة سيده ويعده ويوعده ولا ينفعه النصح ولا يسعده والتالي لهم الذي رأى عذاب من تقدم ولم يخش عذابه أمقت الكل .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً ﴾ أي الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيد إلا المقت ، ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يفيدهم إلا الخسارة ، فإن العمر كالرأس مال من اشترى به رضا الله ربح ، ومن اشترى به سخطه خسر .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

(40/642)

---

تقريراً للتوحيد وإبطالاً للإشراك ، وقوله : ﴿ أَرَءيْتُمْ ﴾ المراد منه أخبروني ، لأن الاستفهام يستدعي جواباً ، يقول القائل أرأيت ماذا فعل زيد ؟ فيقول السامع باع أو اشترى

، ولولا تضمنه معنى أخبرني وإلا لما كان الجواب إلا قوله لا أو نعم ، وقوله : ﴿ شُرَكَاءَكُمُ ﴾

إنما أضاف الشركاء إليهم من حيث إن الأصنام في الحقيقة لم تكن شركاء لله ، وإنما هم

جعلوها شركاء ، فقال شركاءكم ، أي الشركاء بجعلكم ويحتمل أن يقال شركاءكم ، أي

شركاءكم في النار لقوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [ الأنبياء :

98 ] وهو قريب ، ويحتمل أن يقال هو بعيد لاتفاق المفسرين على الأول وقوله :

﴿ أَرُونِيَ ﴾ بدل عن ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ لأن كليهما يفيد معنى أخبروني ، ويحتمل أن يقال قوله

: ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ استفهام حقيقي و ﴿ أَرُونِيَ ﴾ أمر تعجيز للتبين ، فلما قال : ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾

يعني أعلمتم هذه التي تدعونها كما هي وعلى ما هي عليه من العجز أو تتوهمون فيها قدرة

، فإن كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها ؟ وإن كان وقع لكم أن لها قدرة فأروني

قدرتها في أي شيء هي ، أهي في الأرض ، كما قال بعضهم : إن الله إله السماء وهؤلاء آلهة

الأرض ، وهم الذين قالوا أمور الأرض من الكواكب والأصنام صورها ؟ أم هي في

السموات ، كما قال بعضهم : إن السماء خلقت باستعانة الملائكة والملائكة شركاء في

خلق السموات ، وهذه الأصنام صورها ؟ أم قدرتها في الشفاعة لكم ، كما قال بعضهم إن

الملائكة ما خلقوا شيئاً ولكنهم مقربون عند الله فنعبدها ليشفعوا لنا ، فهل معهم كتاب من

الله فيه إذنه لهم بالشفاعة ؟ وقوله : ﴿ أم آتيناهم كتاباً ﴾ في العائد إليه الضمير وجهان

أحدهما : أنه عائد إلى الشركاء ، أي هل أتينا الشركاء كتاباً وثانيهما : أنه عائد إلى

المشركين ، أي هل آتينا المشركين كتاباً وعلى الأول فمعناه ما ذكرنا ، أي هل مع ما جعل شريكاً كتاب من الله فيه أن له

(41/642)

---

شفاعة عند الله ، فإن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه ، وعلى الثاني معناه أن عبادة هؤلاء إما بالعقل ولا عقل لمن يعبد من لم يخلق من الأرض جزءاً من الأجزاء ولا في السماء شيئاً من الأشياء ، وإما بالنقل ونحن ما آتينا المشركين كتاباً فيه أمرنا بالسجود لهؤلاء ولو أمرنا لجاز كما أمرنا بالسجود لآدم وإلى جهة الكعبة ، فهذه العبادة لا عقلية ولا نقلية فوعد بعضهم بعضاً ليس إلا غروراً غرهم الشيطان وزين لهم عبادة الأصنام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 28 . 29 ﴾

(42/642)

---

وقال القرطبى :

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (38)

تقدم معناه في غير موضع .

والمعنى : علم أنه لو ردّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً ، كما قال : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ [ الأنعام : 28 ] .

و ﴿ عَالِمُ ﴾ إذا كان بغير تنوين صلح أن يكون للماضي والمستقبل ، وإذا كان منوّناً لم يجز أن يكون للماضي .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْض ﴾ قال قتادة : خَلَفاً بعد خَلَف ؛ قَرْناً بعد قرن .

والخلف هو التالي للمتقدّم ، ولذلك قيل لأبي بكر : يا خليفة الله ؛ فقال : لست بخليفة الله ، ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا راض بذلك .

﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي جزاء كفره وهو العقاب والعذاب .

﴿ وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً ﴾ أي بُغضاً وغضباً .

﴿ وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ أي هلاكاً وضلالاً .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الذين تَدْعُونَ ﴾ "شركاءكم" منصوب بالرؤية ، ولا يجوز رفعه ، وقد يجوز الرفع عند سيبويه في قولهم : قد علمت زيداً أبو من هو؟ لأن زيداً في المعنى مستفهم عنه .

ولو قلت : أرأيت زيداً أبو من هو؟ لم يجز الرفع .

والفرق بينهما أن معنى هذا أخبرني عنه ، وكذا معنى هذا أخبروني عن شركائكم الذين تدعون من دون الله ، أعبدتموهم لأن لهم شركة في خلق السموات ، أم خلقوا من الأرض شيئا ! ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً ﴾ أي أم عندهم كتاب أنزلناه إليهم بالشركة .

وكان في هذا رَدٌّ على من عبد غير الله عز وجل ؛ لأنهم لا يجدون في كتاب من الكتب أن الله عز وجل أمر أن يُعْبَد غيره .

﴿ فَهُمْ على بَيِّنَةٍ مِّنْهُ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم "على بيّنةٍ" بالتوحيد ، وجمع الباقون .

(43/642)

---

والمعنيان متقاربان إلا أن قراءة الجمع أولى ؛ لأنه لا يخلو من قرأه "على بينةٍ" من أن يكون خالف السواد الأعظم ، أو يكون جاء به على لغة من قال : جاءني طلحت ، فوقف بالتاء ، وهذه لغة شاذة قليلة ؛ قاله النحاس .

وقال أبو حاتم وأبو عبيد : الجمع أولى لموافقته الخط ، لأنها في مصحف عثمان "بينات" بالألف والتاء .

﴿ بَلْ إِن يَعِدُ الظالمون بَعْضُهُم بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً ﴾ أي أباطيل تغرّ ، وهو قول السادة للسّفْلة

: إن هذه الآلهة تنفعكم وتقرّبكم .

وقيل : إن الشيطان يَعِد المشركين ذلك .

وقيل : وعدهم بأنهم ينصرون عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ

﴾

(44/642)

---

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الله عالم غَيْبِ السموات والأرض ﴾

بالإضافةِ . وقُرِىء بالتَّنوينِ ونصبِ غيبَ على المفعوليةِ أي لا يخفى عليه خافيةٌ فيهما فلا تخفى عليه أحوالُهم ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ قيل : إنَّه تعليلٌ لما قبله لأنَّه إذا علمَ مضمراتِ الصُّدورِ وهي أخفى ما يكونُ كان أعلمَ بغيرِها .

﴿ هُوَ الذى جَعَلَكُمْ خلائف فِى الأرض ﴾ يقال للمستخلَفِ خليفة وخليفٌ والأول يُجمع خلائفَ والثَّانِي خلفاءَ والمعنى أنَّه تعالى جعلكم خلفاءَه في إرضه وألقى إليكم مقاليدَ التَّصرفِ فيها وسلَّطكم على ما فيها وأباحَ لكم منافعها أو جعلكم خلفاءَ ممَّن قبلكم من الأممِ وأورثكم ما بأيديهم من متاعِ الدُّنيا لتشكُروه بالتَّوحيدِ والطَّاعةِ ﴿ فَمَن كَفَرَ ﴾

منكم مثل هذه النّعمةِ السّنيةِ وغمطَها ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي وبال كُفره لا يتعداهُ إلى غيرِه.

وقولُه تعالى ﴿ وَلَا يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ بيانٌ لوبالِ الكفرِ وغائلتِه وهو مقتُ الله تعالى إيّاهم أي بغضه الشّديد الذي ليس وراءَهُ خزيٌّ وصغارٌ وخسارُ الأخرة الذي ما بعدَهُ شرٌّ وخسارٌ، والتَّكريرُ لزيادةِ التَّقريرِ والتَّنبيهِ على أن اقتضاءِ الكُفرِ لكلِّ واحدٍ من الأمرين الهائلينِ القبيحينِ بطريقِ الاستقلالِ والأصالةِ.

(45/642)

---

﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم ﴿ أَرَءيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ أي آلهتكم والإضافةُ إليهم لأنَّهم جعلوهم شركاءَ لله تعالى من غيرِ أنْ يكونَ له أصلٌ ما أصلاً وقيل: جعلُوهم شركاءَ لأنفسِهم فيما يملكونَهُ ويأباه سباقُ النّظمِ الكريمِ وسياقُه ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ بدلُ اشتمالٍ من أرأيتُم كأنَّه قيل أخبِرُوني عن شركائِكم أرُوني أيَّ جزءٍ خلقُوا من الأرضِ ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السموات ﴾ أي أم لهم شركةٌ مع الله سبحانه في خلقِ السَّمواتِ ليستحقُّوا بذلك شركةً في الألوهيَّةِ ذاتيَّةً ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً ﴾ ينطقُ بأنَّا اتخذنَّاهُم شركاءَ ﴿ فَهُمْ على بَيّنَةٍ مّنْهُ ﴾ أي حجّةٍ ظاهرةٍ من ذلكَ الكتابِ بأنَّ لهم

شركةً جعليةً ويجوزُ أنْ يكونَ ضميرُ آتيناهُم للمشركينَ كما في قولِه تعالى : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سلطانا ﴾ الخ وقُرِىء على بيّناتٍ وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الشّركَ أمرٌ خطيرٌ لا بُدَّ في إثباتِه من تعاضدِ الدّلائلِ ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ الظالمون بَعْضُهُم بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً ﴾ لمّا نَفَى أنواعَ الحُججِ في ذلك أضربَ عنه بذكرِ ما حملَهم عليه وهو تغريرُ الأسلافِ للأخلافِ وإضلالُ الرُّؤساءِ للأتباعِ بأنَّهم شفعاءُ عند الله يشفعُون لهم بالتّقريبِ إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

*(46/642)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الله عالم غَيْبِ السموات والأرض ﴾

أي كل غيب فيهما أي لا يخفى عليه سبحانه خافية فيهما فلا تخفى عليه جل شأن أحوالهم التي اقتضت الحكمة أن يعاملوا بهذا هذه المعاملة ولا يخرجوا من النار ، وقرأ جناح بن حبيش ﴿ عالم ﴾ بالتنوين ﴿ غَيْبُ ﴾ بالنصب على المفعولية لعالم ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ قيل إنه تعليل لما قبله لأنه تعالى إذا علم مضمرات الصدور وهي أخفى ما يكون كان عز وجل أعلم بغيرها ، وفيه نوع خفاء ، وقال الإمام : إن قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ ﴾ الخ تقرير لدوامهم في العذاب مع أنهم ما كفروا إلا أياماً معدودة فكأن سائلاً يسأل عن وجه ذلك فقيل : إن الله تعالى لا يخفى عليه غيب السماوات والأرض فلا يخفى عليه ما في الصدور فكان يعلم سبحانه من الكافر أن الكفر قد تمكن في قلبه بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله تعالى ولا عبده انتهى ، وظاهره أن الجملة الأولى تعليل للثانية على عكس ما قيل ، ويمكن أن يقال : قوله تعالى : ﴿ فَمَا للظالمين مِن نَّصِيرٍ ﴾ [ فاطر : 37 ] متضمن نفي أن يكون لهم نصير على سبيل الاستمرار ومستدع خلودهم في العذاب فكان مظنة أن يقال كيف ينفي ذلك على سبيل الاستمرار والعادة في الشاهد قاضية بوجود نصير لمن تطول أيام عذابه فأجيب بأن الله عالم غيب السماوات والأرض على معنى أنه تعالى محيط بالأشياء علماً فلو كان لهم نصير في وقت من الأوقات لعلمه ولما نفى ذلك على سبيل الاستمرار ، وكذا مظنة أن يقال : كيف يخلدون في العذاب وهم قد ظلموا في أيام معدودة ؟ فأجيب بأنه عليم بذات الصدور على معنى أنه تعالى يعلم ما انطوت عليه ضمائرهم فيعلم أنهم صمموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد فكل من الجملتين مستأنف استئنافاً بيانياً فتأمل .

﴿ هُوَ الذى جَعَلَكُمْ خلائف فِى الأرض ﴾ ملقى إليكم مقاليد التصرف وانتفاع بما فيها أو جعلكم خلفاء ممن قبلكم من الأمم وأورثكم ما بأيديكم من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة أو جعلكم بدل من كان قبلكم من الأمم الذين كذبوا الرسل فهلكوا فلم تتعظوا بحالهم وما حل بهم من الهلاكح ، والخطاب قيل عام ، واستظهره في البحر ، وقيل : لأهل مكة ، والخلائف جمع خليفة وقد اطرد جمع فعيلة على فعائل وأما الخلفاء فجمع خليف ككريم وكرماء ، وجوز الواحدي كونه جمع خليفة أيضاً وهو خلاف المشهور ﴿ فَمَن كَفَرَ ﴾ منكم مثل هذه النعمة السنية وغمطها أو فمن استمر على الكفر وترك الايمان بعد أن لطف به وجعل له ما ينبهه على ما يترتب على ذلك ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي وبال كفره وجزاؤه لا على غيره .

﴿ وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً ﴾ أشد الاحتقار والبغض والغضب .

﴿ وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ في الآخرة ، وجملة ﴿ وَلاَ يَزِيدُ ﴾ الخ بيان وتفسير لقوله سبحانه : ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ ولزيادة تفصيله نزل منزلة المغاير له ولولا ذلك لفصل عنه ، والتكرير لزيادة التقرير والتنبيه على أن اقتضاء الكفر لكل واحد واحد من الأمرين الأمرين المقت والخسارة مستقل باقتضاء قبحه ووجود التجنب عنه بمعنى أنه لو لم يكن الكفر مستوجباً لشيء سوى مقت الله تعالى لكفى ذلك في قبحه وكذا لو لم يستوجب شيئاً سوى الخسار لكفى .

﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم ﴿ قُلْ أَرَءيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ ﴾ أي آلهتكم، والإضافة إليهم لأدنى ملابسة حيث أنهم هم الذين جعلوهم شركاء الله تعالى واعتقدوهم كذلك من غير أن يكون له أصل ما أصلاً.

(48/642)

---

وقيل: الإضافة حقيقية من حيث أنهم جعلوهم شركاء لأنفسهم فيما يملكونه أوجعلهم الله تعالى شركاء لهم في النار كما قال سبحانه ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: 89] والصفة عليهما مقيدة لا مؤكدة، وسياق النظم الكريم وسباقه ظاهران فيما تقدم ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ بدل اشتمال من ﴿ أَرَءيْتُمْ ﴾ لأنه بمعنى أخبروني كأنه قيل: أخبروني عن شركائكم أروني أي جزء خلقوا من الأرض حتى يستحقوا الإلهية والشركة.

وجوز أن يكون بدل كل، وقال أبو حيان: لا تجوز البدلية لأنه إذا بدل مما دخل عليه الاستفهام فلا بد من دخول الاداة على البدل، وأيضاً إبدال الجملة من الجملة لم يعهد في لسانهم ثم البدل على نية تكرار العامل ولا يتأتى ذلك ههنا لأنه لا عامل لا رأيتم ثم قال: والذي أذهب إليه أن ﴿ أَرَءيْتُمْ ﴾ بمعنى أخبروني وهي تطلب مفعولين أحدهما

منصوب والآخر مشتمل على الاستفهام كقول العرب أرأيت زيداً ما صنع فالأول هنا ﴿ شُرَكَاؤُكُمُ ﴾ والثاني ﴿ مَاذَا خَلَقُواْ ﴾ و﴿ أَرُونِى ﴾ جملة اعتراضية فيها تأكيد للكلام وتسديد ، ويحتمل أن يكون ذلك أيضاً من باب الأعمال لأنه توارد على ﴿ مَاذَا خَلَقُواْ ﴾ أرأيتم .

وأروني لأن أروني قد تعلق عن مفعولها الثاني كما علقت رأي التي لم تدخل عليها همزة النقل عن مفعولها في قولهم .

أما ترى أي برق ههنا ويكون قد اعمل الثاني على المختار عند البصريين انتهى ، وما ذكره احتمال في الآية الكريمة كما أن ما ذكر أولاً احتمال وما قاله في رده ليس بشيء ، أما الأول فلأن لزوم دخول الاداة على البدل فيما إذا كان الاستفهام باق على معناه أما إذا نسخ عنه كام هنا فليس ذلك بلازم ، وأما الثاني فلأن أهل العربية والمعاني نصوا على خلافه وقد ورد في كلام العرب كقوله :

أقول له ارحل لا تقيمن عندنا . . .

وإلا فكن في السر والجهر مسلماً

وأما الثالث فلأن كون البدل على نية تكرار العامل إنما هو كما نقل الخفاجي عنهم في بدل المفردات.

وليس لك أن تقول العامل هنا موجود وهو ﴿ قُلْ ﴾ لأن العبرة بالمقول ولا عامل فيه إذ يقال وهو ظاهر ، وجوز أن لا يكون ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ بمعنى أخبروني بل المراد حقيقة الاستفهام عن الرؤية وأروني أمر تعجزي للتبيين أي أعلمتم هذه التي تدعونها ما هي وعلى ما هي عليه من العجز أو تتوهمون فيها قدرة فإن كنتم تتعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها أو كنتم توهمتم فيها قدرة فأروني أثرها ، وما تقدم أظهر ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السموات ﴾ أي بل ألهم شركة مع الله عز وجل في خلق السماوات حتى يستحقوا ما زعمتم فيهم ، وقال بعضهم : الأولى أن لا يقدر مضاف على أن المعنى أم لهم شركة معه سبحانه في السماوات خلقاً وإبقاء وتصرفاً لأن المقصود نفي آيات الإلهية عن الشركاء وليست محصورة في الخلق والتقدير أوفق بما قبله ، والكلام قيل من باب التدرج من الاستقلال إلى إلى الشركة ثم منها إلى حجة وبينة مكتوبة بالشركة كأنه قيل : أخبروني عن الذين تدعون من دون الله هل استبدوا بخلق شيء من الأرض حتى يكونوا معبودين مثل الله تعالى بل ألهم شركة معه سبحانه في خلق السماوات ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ ﴾ أي بل آتيناهم كتاباً ينطق بأنا اتخذناهم شركاء ﴿ فَهُمْ على بينات مِنْهُ ﴾ أي حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بأن لهم

شركة معنا .

وقال في الكشف .

(50/642)

---

الظاهر أن الكلام مبني على الترقي في إثبات الشركة لأن الاستبداد بخلق جزء من الأرض شركة ما معه عز وجل والاشتراك معه سبحانه في خلق السماوات أدل على إثباتها ثم إيتاء كتاب منه تعالى على أنهم شركاؤه أدل وأدل ، وقيل : هم في ﴿ ءاتيناهم ﴾ للمشركين وكذا في فنهم كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سلطانا ﴾ [ الروم : 35 ] الخ ففي الكلام التفات من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة إعراضا عن المشركين وتنزيلاً لهم منزلة الغيب .

والمعنى أن عبادة هؤلاء إما بالعقل ولا عقل يحكم بصحة عبادة من لا يخلق جزأ ما من الأرض دلالة شرك في السماء وإما بالنقل ولم نؤت المشركين كتاباً فيه الأمر بعبادة هؤلاء ، وفيه تفكيك للضمائر ، وقال بعضهم : ضمير ﴿ ءاتيناهم ﴾ للشركاء كالضمائر السابقة وضمير ﴿ فَهُمْ على بَيّنَةٍ ﴾ للمشركين و"أم" منقطعة للاضراب عن الكلام السابق وزعم أن لا التفات حينئذ ولا تفكيك فتأمل .

وقرأ نافع .

وابن عامر .

ويعقوب .

وأبو بكر ﴿ على بينات ﴾ بالجمع فيكون إيماء إلى أن الشرك خطير لا بد فيه من تعاضد الدلائل وهو ضرب من التهكم ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ الظالمون بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً ﴾ لما نفى سبحانه ما نفى من الحجج في ذلك أضرب عز وجل عنه بذكر ما حملهم على الشرك وهو تقرير الأسلاف للاخلاف وإضلال الرؤساء للأتباع بأنهم شفعاء عند الله تعالى يشفعون لهم بالتقرب إليهم ، والآية عند الكثير في عبدة الأصنام وحكمها عام ؛ وقيل : في عبدة غير الله عز وجل صنماً كان أو ملكاً أو غيرهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

*(51/642)*

---

وقال ابن عاشور :

جملة ﴿ إن الله عالم غيب السماوات والأرض ﴾ استئناف واصل بين جملة ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ [ فاطر : 31 ] وبين جملة ﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ [ فاطر : 40 ] الآية ، فتسلسلت معانيه فعاد

إلى فذلكة الغرض السالف المنتقل عنه من قوله : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم ﴾ إلى قوله : ﴿ إن اللَّه بعباده لخبير بصير ﴾ [ فاطر : 25 31 ] ، فكانت جملة ﴿ إن الله عالم غيب السماوات والأرض ﴾ كالتذييل لجملة ﴿ إن اللَّه بعباده لخبير بصير ﴾ .

وفي هذا إيماء إلى أن الله يجازي كل ذي نية على حسب ما أضمره ليزداد النبي صلى الله عليه وسلم يقيناً بأن الله غير عالم بما يكنه المشركون .

وجملة ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ مستأنفة هي كالنتيجة لِجملة ﴿ إن الله عالم غيب السماوات والأرض ﴾ لأن ما في الصدور من الأمور المغيبة فيلزم من علم الله بغيب السموات والأرض علمه بما في صدور الناس .

و"ذات الصدور" ضمائر الناس ونِيَّاتهم ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ في سورة الأنفال ( 43 ) .

وجيء في الإِخبار بعلم الله بالغيب بصيغة اسم الفاعل ، وفي الإِخبار بعلمه بذات الصدور بصيغة المبالغة لأن المقصود من إخبار المخاطبين تنبيههم على أنه كناية عن انتفاء أن يفوت علمَه تعالى شيءٌ .

وذلك كناية عن الجزاء عليه فهي كناية رمزية .

وجملة هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ معترضة بين جملة ﴿ إن الله عالم غيب السماوات والأرض ﴾ الآية وبين جملة ﴿ فمن كفر فعليه كفره ﴾ .

(52/642)

---

والخلائف : جمع خليفة ، وهو الذي يخلف غيره في أمرٍ كانَ لذلك الغير ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ني جاعل في الأرض خليفة ﴾ في سورة البقرة ( 30 ) ، فيجوز أن يكون ون بعدَ أمم مضت كما في قوله : ﴿ ثم جعلنا كم خلائف في الأرض من بعدهم ﴾ في سورة يونس ( 14 ) فيكون هذا بياناً لقوله : إن الله عالم غيب السماوات والأرض ﴾ أي هو الذي أوجدكم في الأرض فكيف لا يعلم ما غاب في قلوبكم كما قال تعالى : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [ الملك : 14 ] ويكون مَا صْدَف ضمير جماعة المخاطبين شاملاً للمؤمنين وغيرهم من الناس .

ويجوز أن يكون المعنى : هو الذي جعلكم متصرفين في الأرض ، كقوله تعالى : ﴿ ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ [ الأعراف : 129 ] ، فيكون الكلام بشارة للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن الله قدّر أن يَكون المسلمون أهل سلطان في الأرض بعد أمم تداولت سيادة العالم ويُظهر بذلك دين الإِسلام على الدين كله .

والجملة الاسمية مفيدة تقوّي الحكم الذي هو جعل الله المخاطبين خلائف في الأرض .

وقد تفرّع على قوله : ﴿ عليم بذات الصدور ﴾ قولُه : ﴿ فمن كفر فعليه كفره ﴾ وهو شرط مستعمل كناية عن عدم الاهتمام بأمر دَوامهم على الكفر .

وجملة ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ﴾ بيان لجملة ﴿ فمن كفر فعليه كفره ﴾ وكان مقتضى ظاهر هذا المعنى أن لا تعطف عليها لأن البيان لا يعطف على المبيَّن ، وإنما خولف ذلك للدلالة على الاهتمام بهذا البيان فجعل مستقلاًّ بالقصد إلى الإِخبار به فعطفت على الجملة المبيَّنة بمضمونها تنبيهاً على ذلك الاستقلال ، وهذا مقصد يفوت لو ترك العطف ، أما ما تفيده مِن البيان فهو أمر لا يفوت لأنه تقتضيه نسبة معنى الجملة الثانية من معنى الجملة الأولى .

(53/642)

---

والمقت : البغض مع خزي وصغار ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ إنه كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً ﴾ في سورة النساء ( 22 ) ، أي يزيدهم مقتَ الله إياهم ، ومقت الله مجاز عن لازمه وهو إمساك لطفه عنهم وجزاؤهم بأشد العقاب .

وتركيب جملة ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ﴾ تركيب عجيب لأن ظاهره

يقتضي أن الكافرين كانوا قبل الكفر ممقوتين عند الله فلما كفروا زادهم كفرهم مقتاً عنده ، في حال أن الكفر هو سبب مقت الله إياهم ، ولو لم يكفروا لما مقتهم الله .

فتأويل الآية : أنهم لمَّا وصفوا بالكفر ابتداءً ثم أخبر بأن كفرهم يزيدهم مقتاً عُلم أن المراد بكفرهم الثاني الدوام على الكفر يوماً بعد يوم ، وقد كان المشركون يتكبّرون على المسلمين ويُشاقونهم ويؤيسونهم من الطماعية في أن يقبَلوا الإسلام بأنهم أعظم من أن يتبعوهم وأنهم لا يفارقون دين آبائهم ، ويحسبون ذلك مقتاً منهم للمسلمين فجازاهم الله بزيادة المقت على استمرار الكفر ، قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ينادون لمقت اللَّه أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ﴾ [ غافر : 10 ] ، يعني : ينادَون في المحشر ، وكذلك القول في معنى قوله : ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً ﴾ .

والخَسار : مصدر خسر مثل الخسارة ، وهو : نقصان التجارة .

واستعير لخيبة العمل ؛ شبه عملهم في الكفر بعمل التاجر والخاسر ، أي الذي بارت سلعته فباع بأقل مما اشتراها به فأصابه الخسار فكلما زاد بيعاً زادت خسارته حتى تفضي به إلى الإفلاس ، وقد تقدم ذلك في آيات كثيرة منها ما في سورة البقرة .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ

لم يزل الكلام موجهاً لخطاب النبي صلى الله عليه وسلم

ولما جرى ذكر المشركين وتعنتهم وحسبان أنهم مقتوا المسلمين عاد إلى الاحتجاج عليهم في بطلان إلهية آلهتهم بحجة أنها لا يوجد في الأرض شيء يدَّعي أنها خلقته ، ولا في السماوات شيء لها فيه شرك مع الله فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحاجهم ويوجه الخطاب إليهم بانتفاء صفة الإِلهية عن أصنامهم ، وذلك بعد أن نفى استحقاقها لعبادتهم بأنها لا ترزقهم كما في أول السورة ، وبعد أن أثبت الله التصرف في مظاهر الأحداث الجوية والأرضية واختلاف أحوالها من قوله : ﴿ واللَّه الذي أرسل الرياح ﴾ [ فاطر : 9 ] ، وذكرهم بخلقهم وخلق أصلهم وقال عقب ذلك ﴿ ذلكم اللَّه ربكم له الملك ﴾ [ فاطر : 13 ] الآية عاد إلى بطلان إلهية الأصنام .

وبنيت الحجة على مقدمة مُشاهدة انتفاء خصائص الإِلهية عن الأصنام ، وهي خصوصية خلق الموجودات وانتفاء الحجة النقلية بطريقة الاستفهام التقريري في قوله : ﴿ أرأيتم شركاءكم ﴾ يعني : إن كنتم رأيتموهم فلا سبيل لكم إلا الإِقرار بأنهم لم يخلقوا شيئاً .

والمستفهم عن رؤيته في مثل هذا التركيب في الاستعمال هو أحوال المرئي وإناطة البصر بها ، أي أن أمر المستفهم عنه واضح بادٍ لكل من يراهُ كقوله : ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ [ الماعون : 1 ، 2 ] وقوله : ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت علي

لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته ﴾ [الإسراء : 62] الخ.

.

(55/642)

---

والأكثر أن يكون ذلك توطئة لكلام يأتي بعده يكون هو كالدليل عليه أو الإِيضاح له أو نحو ذلك، فيؤول معناه بما يتصل به من كلام بعده، ففي قوله هنا : ﴿ أرأيتم شركاءكم ﴾ تمهيد لأن يطلب منهم الإِخبار عن شيء خلقه شركاؤهم فصار المراد من ﴿ أرأيتم شركاءكم ﴾ انظروا ما تخبروني به من أحوال خلقهم شيئاً من الأرض، فحصل في قوله : ﴿ أرأيتم شركاءكم ﴾ إجمال فصّله قوله : ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ فتكون جملة ﴿ أروني ماذا خلقوا ﴾ بدلاً من جملة ﴿ أرأيتم شركاءكم ﴾ بدل اشتمال أو بدل مفصل من مجمل.

والمراد بالشركاء من زعموهم شركاء الله في الإِلهية فلذلك أضيف الشركاء إلى ضمير المخاطبين، أي الشركاء عندكم، لظهور أن ليس المراد أن الأصنام شركاء مع المخاطبين بشيء فتمحضت الإِضافة لمعنى مُدَّعَيْكُم شركاء لله.

والموصول والصلة في قوله : ﴿ الذين تدعون من دون الله ﴾ للتنبيه على الخطأ في تلك

الدعوة كقول عبدة بن الطبيب :

إن الذين ترونهم إخوانكم

يشفي غليل صدورهم أن تُصرعَوا . . .

وقرينة التخطئة تعقيبه بقوله : ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ ، فإنه أمر للتعجيز إذ لا يستطيعون أن يُرُوه شيئاً خلقته الأصنام ، فيكون الأمر التعجيزي في قوة نفي أن خلقوا شيئاً مّا ، كما كان الخبر في بيْت عبدة الوارد بعد الصلة قرينة على كون الصلة للتنبيه على خطأ المخاطبين .

وفعل الرؤية قلبي بمعنى الإِعلام والإِنباء ، أي أنبِئُوني شيئاً مخلوقاً للذين تدْعُون من دون الله في الأرض .

و﴿ ماذا ﴾ كلمة مركبة من ( ما ) الاستفهامية و ( ذا ) التي بمعنى الذي حين تقع بعد اسم استفهام ، وفعل الإِراءة معلَّق عن العمل في المفعول الثاني والثالث بالاستفهام .

والتقدير : أروني شيئاً خلقوه مما على الأرض .

و﴿ مِن ﴾ ابتدائية ، أي شيئاً ناشئاً من الأرض ، أو تبعيضية على أن المراد بالأرض ما عليها كإطلاق القرية على سكانها في قوله : ﴿ واسأل القرية ﴾ [ يوسف : 82 ] .

و ﴿ أم ﴾ منقطعة للإِضراب الانتقالي ، وهي تؤذن باستفهام بعدها .

والمعنى : بل ألهم شرك في السماوات .

والشرك بكسر الشين : اسم للنصيب المشترك به في ملك شيء .

والمعنى : ألهم شرك مع الله في ملك السموات وتصريف أحوالها كسير الكواكب وتعاقب الليل والنهار وتسخير الرياح وإنزال المطر .

ولما كان مقرُّ الأصنام في الأرض كان من الراجح أن تتخيَّل لهم الأوهام تصرفاً كاملاً في الأرض فكأنهم آلهة أرضية ، وقد كانت مزاعم العرب واعتقاداتهم أفانين شتى مختلطة من اعتقاد الصابئة ومن اعتقاد الفُرس واعتقاد الروم فكانوا أشباها لهم فلذلك قيل لأشباههم في الإِشراك ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ ، أي فكان تصرفهم في ذلك تصرف الخالقية ، فأما السماوات فقلما يخطر ببال المشركين أن للأصنام تصرفاً في شؤونها ، ولعلهم لم يدّعوا ذلك ولكن جاء قوله : ﴿ أم لهم شرك في السماوات ﴾ مَجيء تكملة الدليل على الفرض والاحتمال ، كما يقال في آداب البحث "فإن قلتَ" .

وقد كانوا ينسبون للأصنام بنوة لله تعالى قال تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ [ النجم : 19 23 ] .

فمِن أجل ذلك جيء في جانب الاستدلال على انتفاء تأثير الأصنام في العوالم السماوية بإبطال أن يكون لها شرك في السماوات لأنهم لا يدَّعُون لها في مزاعمهم أكثر من ذلك.

ولما قضي حق البرهان العقلي على انتفاء إلهية الذين يدعون من دون الله انتقل إلى انتفاء الحجة السمعية من الله تعالى المثبتة آلهة دونه لأن الله أعلم بشركائه وأنداده لو كانوا، فقال تعالى: ﴿ أم آتيناهم كتاباً فهم على بينات منه ﴾ المعنى: بل آتيناهم كتاباً فهم يتمكنون من حجة فيه تصرح بإلهية هذه الآلهة المزعومة.

وقرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿ على بينات ﴾ بصيغة الجمع.

(57/642)

---

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب ﴿ على بَينة ﴾ بصيغة الإفراد.

فأما قراءة الجمع فوجهها أن شأن الكتاب أن يشتمل على أحكام عديدة ومواعظ مكررة ليتقرر المراد من إيتاء الكتب من الدلالة القاطعة بحيث لا تحتمل تأويلاً ولا مبالغة ولا نحوها على حدّ قول علماء الأصول في دلالة الأخبار المتواترة دلالة قطعية، وأما قراءة الإفراد فالمراد منها جنس البينة الصادق بأفراد كثيرة.

ووصف البينات أو البينة بـ ﴿ منه ﴾ للدلالة على أن المراد كون الكتاب المفروض إيتاؤه إياهم مشتملاً على حجة لهم تثبت إلهية الأصنام .

وليس مطلق كتاب يُؤتَوْنه أمارة من الله على أنه راضٍ منهم بما هم عليه كدلالة المعجزات على صدق الرسول ، وليست الخوارق ناطقة بأنه صادق فأريد : آآتيناهم كتاباً ناطقاً مثل ما آتينا المسلمين القرآن .

ثم كرّ على ذلك كله الإبطال بواسطة ﴿ بل ﴾ ، بأن ذلك كله منتف وأنهم لا باعث لهم على مزاعمهم الباطلة إلا وعد بعضهم بعضاً مواعيد كاذبة يغرّ بعضهم بها بعضاً .

والمراد بالذين يَعِدُونهم رؤساء المشركين وقادتهم بالموعودين عامتهم ودهماؤهم ، أو أريد أن كلا الفريقين واعد وموعود في الرؤساء وأيمة الكفر يَعِدُون العامة نفعَ الأصنام وشفاعتها وتقريبها إلى الله ونصرها غروراً بالعامة والعامة تَعِدُ رؤساءها التصميم على الشرك قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ [ الفرقان : 42 ] .

و﴿ إن ﴾ نافية ، والاستثناء مفرّغ عن جنس الوعد محذوفاً .

وانتصب ﴿ غروراً ﴾ على أنه صفة للمستثنى المحذوف .

والتقدير : إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً وعداً إلا وعداً غروراً .

والغرور تقدم معناه عند قوله تعالى : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ﴾ في آل عمران ( 196 ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 ص ﴾

(58/642)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾

أخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس ؛ أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي ، نزلت فيه ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة . . . ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ قال : الجنة ﴿ لن تبور ﴾ لا تبيد ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ قال : هو كقوله ﴿ ولدينا مزيد ﴾ [ ق : 35 ] ﴿ إنه غفور ﴾ قال : لذنوبهم ﴿ شكور ﴾ لحسناتهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ قال : لن تهلك .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة . . . ﴾ . قال كان مطرف بن عبد الله يقول : هذه آية القراء .

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ قال : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم . ورثهم الله كل كتاب أنزل ، فظالمهم مغفور له ، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وأخرج الطيالسي وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه " عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : في هذه الآية ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ﴾ قال : هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم في الجنة " .

وأخرج الفريابي وأحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن أبي الدرداء : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " قال الله تعالى ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ، بإذن الله ﴾ فأما الذين سبقوا ، فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب . وأما الذين اقتصدوا ، فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً ، وأما الذين ظلموا أنفسهم ، فأولئك يحبسون في طول المحشر ، ثم هم الذين تلقاهم الله برحمة ، فهم الذين يقولون ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ قال البيهقي : إن أكثر الروايات في حديث ظهر أن للحديث أصلاً " .

وأخرج الطيالسي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم وابن مردويه عن عقبة بن صهبان قلت لعائشة : أرأيت قول الله ﴿ ثم أورثنا الكتاب . . . ﴾ . قالت : أما السابق ، فقد مضى في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشهد له بالجنة . وأما المقتصد ، فمن اتبع أمرهم ، فعمل بمثل أعمالهم حتى يلحق بهم . وأما الظالم لنفسه ، فمثلي ومثلك ، ومن اتبعنا . وكل في الجنة .

وأخرج الطبراني والبيهقي في البعث عن أسامة بن زيد رضي الله عنه ﴿ فمنهم ظالم

لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كلهم من هذه الأمة، وكلهم في الجنة".

(60/642)

---

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن عوف بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أمتي ثلاثة أثلاث: فثلث يدخلون الجنة بغير حساب. وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، ثم يدخلون الجنة. وثلث يمحصون ويكسفون، ثم تأتي الملائكة فيقولون: وجدناهم يقولون: لا إله إلا الله وحده فيقول الله: "أدخلوهم الجنة بقولهم لا إله إلا الله وحده، واحملوا خطاياهم على أهل التكذيب" وهي التي قال الله ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ وتصديقاً في التي ذكر الملائكة قال الله تعالى ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ فجعلهم ثلاثة أنواع ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ فهذا الذي يكسف ويمحص ﴿ ومنهم مقتصد ﴾ وهو الذي يحاسب حساباً يسيراً ﴿ ومنهم سابق بالخيرات ﴾ فهو الذي يلج الجنة بغير حساب ولا عذاب باذن الله. يدخلونها جميعاً لم يفرق بينهم ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ إلى قوله ﴿ لغوب ﴾ ".

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: هذه الآية ثلاثة أثلاث يوم القيامة. ثلث يدخلون

الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ، وثلث يحبسون بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا . فيقول الرب " أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي " ثم قرأ ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا . . . ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر والبيهقي في البعث عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا نزع بهذه الآية قال : الا أن سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له .

وأخرج العقيلي وابن لال وابن مردويه والبيهقي من وجه آخر عن عمر بن الخطاب . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له " ، وقرأ عمر ﴿ فمنهم ظالم لنفسه . . . ﴾ .

وأخرج ابن النجار عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له " .

(61/642)

---

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب .

والمقتصد برحمة الله ، والظالم لنفسه ، وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد

صلى الله عليه وسلم .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان : أنه نزع بهذه الآية قال : إن سابقنا أهل جهاد . ألا وأن مقتصدنا ناج أهل حضرنا ، ألا وأن ظالمنا أهل بدونا .

وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي في البعث عن البراء بن عازب في قوله ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ قال : أشهد على الله أنه يدخلهم الجنة جميعاً .

وأخرج الفريابي وابن مردويه عن البراء قال : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ قال : كلهم ناج وهي هذه الأمة " .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن ابن عباس في قوله ﴿ ثم أورثنا الكتاب . . . ﴾ . قال : هي مثل الذي في الواقعة ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ ﴿ والسابقون ﴾ صنفان ناجيان ، وصنف هالك .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله ﴿ فمنهم ظالم لنفسه . . . ﴾ . قال ﴿ الظالم لنفسه ﴾ هو الكافر ﴿ والمقتصد ﴾ أصحاب اليمين .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي عن كعب الأحبار أنه تلا

هذه الآية ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ إلى قوله ﴿ لغوب ﴾ قال : دخلوها ورب الكعبة ، وفي لفظ قال : كلهم في الجنة .

ألا ترى على أثره ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم ﴾ فهؤلاء أهل النار فذكر ذلك للحسن فقال : أبت ذلك عليهم الواقعة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الجنة فقال " مسوّرون بالذهب والفضة ، مكللة بالدر وعليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة ، وعليهم تاج كتاج الملوك ، جرد ، مرد ، مكحلون " .

(62/642)

---

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن حذيفة ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يبعث الله الناس على ثلاثة أصناف ، وذلك في قوله ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ فالسابق بالخيرات يدخل الجنة بلا حساب ، والمقتصد يحاسب حساباً يسيراً ، والظالم لنفسه يدخل الجنة برحمة الله " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ ثم أورثنا الكتاب ﴾ قال : جعل الله أهل الإيمان على ثلاثة منازل كقوله ﴿ أصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ [

الواقعة : 41 ] ، ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾ [ الواقعة : 27 ] ، ﴿ والسابقون السابقون ﴾ [ الواقعة : 10 ] ، ﴿ أولئك المقربون ﴾ [ الواقعة : 11 ] فهم على هذا المثال .

وأخرج ابن مردويه عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ قال : الكافر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ قال : هذا المنافق ﴿ ومنهم مقتصد ﴾ قال : هذا صاحب اليمين ﴿ ومنهم سابق بالخيرات ﴾ قال : هذا المقرب قال قتادة : كان الناس ثلاث منازل عند الموت ، وثلاث منازل في الدنيا ، وثلاث منازل في الآخرة . فأما الدنيا فكانوا : مؤمن ، ومنافق ، ومشرك . وأما عند الموت فإن الله قال : ﴿ فأما إن كان من المقربين . . . ﴾ [ الواقعة : 88 ] ﴿ وأما إن كان من أصحاب اليمين . . . ﴾ [ الواقعة : 90 ] ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين ﴾ [ الواقعة : 92 ] . وأما الآخرة فكانوا أزواجاً ثلاثة ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد والبيهقي عن الحسن ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ قال : هو المنافق سقط والمقتصد والسابق بالخيرات في الجنة .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبيهقي عن عبيد بن عمير في الآية قال : كلهم صالح .

(63/642)

---

وأخرج عبد بن حميد عن صالح أبي الخليل قال : قال كعب يلومني أحبار بني إسرائيل إني دخلت في أمة فرقهم الله ثم جمعهم ، ثم أدخلهم الجنة ، ثم تلا هذه الآية ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ حتى بلغ ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ قال : قال فادخلهم الله الجنة جميعاً .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال : العلماء ثلاثة : منهم عالم لنفسه ولغيره ، فذلك أفضلهم وخيرهم . ومنهم عالم لنفسه محسن . ومنهم عالم لا لنفسه ولا لغيره ، فذلك شرهم .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مسلم الخولاني قال : قرأت في كتاب الله أن هذه الأمة تصنف يوم القيامة على ثلاثة أصناف : صنف منهم يدخلون الجنة بغير حساب . وصنف يحاسبهم الله حساباً يسيراً ويدخلون الجنة . وصنف يوقفون ويؤخذ منهم ما شاء الله ، ثم يدركهم عفو الله وتجاوزه .

وأخرج عبد بن حميد عن كعب في قوله ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ قال: دخلوها ورب الكعبة، فأخبر الحسن بذلك فقال: أبت والله ذلك عليهم الواقعة.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن الحارث أن ابن عباس سأل كعباً عن قوله ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا . . . ﴾ . نجوا كلهم، ثم قال: تحاكت مناكبهم ورب الكعبة، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن الحنفية قال: أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تعطها أمة كانت قبلها ﴿ منهم ظالم لنفسه ﴾ مغفور له ﴿ ومنهم مقتصد ﴾ في الجنان ﴿ ومنهم سابق ﴾ بالمكان الأعلى.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ﴾ قال: هم أصحاب المشئمة ﴿ ومنهم مقتصد ﴾ قال: هم أصحاب الميمنة ﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ قال: هم السابقون من الناس كلهم.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ قال: ذاك من نعمة الله.

وأخرج الترمذي والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري " أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله ﴿ جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ ﴾ فقال : " إن عليهم التيجان . ان أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب " " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله أهل الجنة حين دخلوا الجنة ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ قال : هم قوم كانوا في الدنيا يخافون الله ، ويجتهدون له في العبادة سراً وعلانية ، وفي قلوبهم حزن من ذنوب قد سلفت منهم ، فهم خائفون أن لا يتقبل منهم هذا الاجتهاد من الذنوب التي سلفت . فعندها ﴿ قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾ غفر لنا العظيم ، وشكر لنا القليل من أعمالنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ قال : حزن النار .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ الذي أذهب عنا الحزن ﴾ قال : ما كانوا يعملون .

وأخرج الحاكم وأبو نعيم وابن مردويه عن صهيب رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى

الله عليه وسلم يقول : " المهاجرون هم السابقون الْمُدِلُّون على ربهم ، والذي نفس محمد بيده انهم ليأتون يوم القيامة على عواتقهم السلاح ، فيقرعون باب الجنة ، فتقول لهم الخزنة ، من أنتم ؟ فيقولون : نحن المهاجرون فتقول لهم الخزنة : هل حوسبتم ؟ فيجثون على ركبهم ويرفعون أيديهم إلى السماء فيقولون : أي رب أبهذه نحاسب ؟ ! قد خرجنا وتركنا الأهل والمال والولد ، فيمثل الله لهم أجنحة من ذهب ، مخوّصة بالزبرجد والياقوت ، فيطيرون حتى يدخلوا الجنة فذلك قوله ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ إلى قوله ﴿ ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلهم بمنازلهم في الجنة أعرف منهم بمنازلهم في الدنيا " .

(65/642)

---

وأخرج ابن المنذر عن شمر بن عطية رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " حيث دخلوا الجنة ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ قال : حزنهم هو الحزن " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن شمر بن عطية رضي الله عنه في قوله ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ قال : الجوع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي رضي الله عنه في قوله ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ قال : طلب الخبز في الدنيا ، فلا نهتم له كاهتمامنا له في الدنيا طلب الغداء والعشاء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي رضي الله عنه قال : ينبغي لمن يحزن أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة ، لأنهم قالوا ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ وينبغي لمن يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة ، لأنهم ﴿ قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ﴾ [ الطور : 26 ] .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن شمر بن عطية رضي الله عنه في قوله ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ قال : حزن الطعام ﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾ قال : غفر لهم الذنوب التي عملوها ، وشكر لهم الخير الذي دلهم عليه ، فعملوا به ، فأثابهم عليه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي رافع رضي الله عنه قال : يأتي يوم القيامة العبد بدواوين ثلاثة : بديوان فيه النعم . وديوان فيه ذنوبه . وديوان فيه حسناته . فيقال لأصغر نعمة عليه : قومي فاستوفي ثمنك من حسناته ، فتقوم فتستوهب تلك النعمة حسناته كلها ، وتبقى بقية النعم عليه وذنوبه كاملة . فمن ثم يقول العبد إذا أدخله الله الجنة ﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾ يقول ﴿ غفور ﴾ لذنوبهم ﴿ شكور ﴾ لحسناتهم ﴿ الذي أحلنا دار المقامة من فضله ﴾ قال : أقاموا فلا يتحوّلون ولا يحوّلون ﴿ لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ قال : قد كان القوم ينصبون في الدنيا في طاعة الله ، وهم قوم جهدهم الله قليلاً ، ثم أراحهم كثيراً فهنيئاً لهم .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله إن النوم مما يُقِرُّ الله به أعيننا في الدنيا ، فهل في الجنة من نوم ؟ قال : "لا إن النوم شريك الموت ، وليس في الجنة موت قال : يا رسول الله فما راحتهم ؟ فأعظم ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ليس فيها لغوب ، كل أمرهم راحة فنزلت ﴿ لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ " .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ لا يمسنا فيها نصب ﴾ أي وجع .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لغوب ﴾ قال : إعياء .

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وهم يصطرخون فيها ﴾ قال: يستغيثون فيها.

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ قال: ستين سنة.

(67/642)

---

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والبيهقي في سننه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا كان يوم القيامة قيل: أين أبناء الستين؟ وهو العمر الذي قال الله ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾".

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري والنسائي والبزار وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أعذر الله إلى امرئ أخر عمره حتى بلغ ستين سنة".

وأخرج عبد بن حميد والطبراني والروياني في الأمثال والحاكم وابن مردويه عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا بلغ العبد ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر " .

وأخرج ابن جرير عن علي رضي الله عنه في الآية قال : العمر الذي عمرهم الله به . ستون سنة .

وأخرج الرامهرمزي في الأمثال عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من عمره الله ستين سنة أعذر إليه في العمر . يريد ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ " .

وأخرج الترمذي وابن المنذر والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك " .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه قال : العمر ستون سنة .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ قال : هو ست وأربعون سنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ قال : أربعين سنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : اعلموا أن طول العمر حجة ، فنعوذ بالله أن نعيَّر بطول العمر . قال : نزلت وإن فيهم لابن ثمانِ عشرة سنة .

وفي قوله ﴿ وجاءكم النذير ﴾ قال : احتج عليهم بالعمر والرسل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وجاءكم النذير ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ وجاءكم النذير ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ، وقرأ ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ [ النجم : 56 ] .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ وجاءكم النذير ﴾ قال : الشيب .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وجاءكم النذير ﴾ قال : الشيب .

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (39)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ هو

الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ قال: أمة بعد أمة.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ قال: أمة بعد أمة، وقرناً بعد قرن. وفي قوله ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ قال: لا شيء والله خلقوا منها. وفي قوله ﴿ أم لهم شرك في السماوات ﴾ قال: لا والله ما لهم فيهما من شرك ﴿ أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ﴾ يقول: أم آتيناهم كتاباً فهو يأمرهم أن لا يشركوا بي. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(69/642)

---

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أي عالِم بإخلاص المخلصين، وصدق الصادقين، ونفاق المنافقين، وجَحْدِ الكافرين.

عالِمٌ بمَنْ يريد بالناس السوءَ وبمَنْ يُحْسِنُ باللَّهِ الظنَّ.

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (39)

أهل كلّ عصرٍ خليفٌ عمّن تقدمهم ؛ فمِنْ قومٍ هم لِسَلَفِهم جمَال ، ومِنْ قوم أراذل وأنذال ؛ فالأفاضل زمانهم لهم محنة ، والأراذل هم لزمانهم محنة . وقد قالوا :

يومٌ وحَسْبُ الدهر من أجْلِه . . . حيَّا غدٌ والْتفتَ الأمسُ

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

كرَّرَ إشهادَهم عجْزَ أصنامهم ، ونَقْصَ مَنْ اتخذوهم آلهة من أوثانهم ؛ ليُسَفِّهَ بذلك آراءَهم ، وليُنَبِّهَهُم إلى ذميم أحوالِهم وأفعالِهم ، وخِسَّةِ هِمَمِهم ، ونُقْصانِ عقولهم .

ثم أخبر أنهم لا يأتون بشيءٍ مما به يُطَالَبُونَ ، وليس لهم صواب عمّا يُسْأَلُون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 208 . 209 ﴾

(70/642)

---

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (41) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (42) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (43) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين حقارة الأصنام وكل ما أشركوا به النسبة إلى جلال عظمته ، وكانوا لا يقدرون على ادعاء الشركة في الخلق في شيء من ذلك ، وكان ربما أقدم على ادعائه معاند منهم أو من غيرهم ، وكان الناس قد توصلوا إلى معرفة شيء من التغيرات الفلكية كالشروق والغروب والخسوف ، وكانوا لا علم لهم بشيء من الزلازل والزوال ، قال مبيناً عظمته سبحانه بعد تحقير أمر شركائهم معجزاً مهدداً لهم على إقدامهم على هذا الافتراء العظيم مبيناً للنعمة بعدم المعاجلة بالهلاك ، وأكده لأن من الناس المكذوب به وهم المعطلة ، ومنهم من عمله - وإن كان مقراً - عمل المكذب وهو من ينكر شيئاً من قدرته كالبعث : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ يمسك السماوات ﴾ أي على كبرها وعلوها

﴿ والأرض ﴾ أي على سعتها وبعدها عن التماسك على ما يشاهدون إمساكاً مانعاً من ﴿ أن تزولا ﴾ أي بوجه عظيمة وزلزلة كبيرة ، أو زوالاً لا تماسك معه لأن ثباتهما على ما هما عليه على غير القياس لولا شامخ قدرته وباهر عزته وعظمته ، فإن ادعيتم عناداً أن شركاءكم لا يقدرون على الخلق لعلة من العلل فادعوهم لإزالة ما خلق سبحانه .

ولما كان هذا دليل على أنهما حادثتان زائلتان ، أتبعه ما هو أبين منه ، فقال معبراً بأداة الإمكان : ﴿ ولئن زالتا ﴾ أي بزلزلة أو خراب ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ أمسكهما ﴾ وأكد استغراق النفي بقوله : ﴿ من أحد ﴾ ولما كان المراد أن غيره سبحانه لا يقدر على إمساكهما في زمن من الأزمان وإن قل ، أثبت الجار فقال : ﴿ من بعده ﴾ أي بعد إزالته لهما ، بل وإذا زلزلت الأرض اضطرب كل شيء عليها والأصنام من جملته ، فدل ذلك قطعاً على أن الشركاء مفعولة لا فاعلة .

ولما كان السياق إلى الترغيب في الإقبال عليه وحده أميل منه إلى الترهيب ، وكان كأنه قيل : هو جدير بأن يزيلهما لعظيم ما يرتكبه أهلهما من الآثام وشديد الإجرام ، قال جواباً لذلك وأكده لأن الحكم عما يركبه المبطلون على عظمه وكثرتهم مما لا تسعه العقول : ﴿ إنه كان ﴾ أي أزلاً وأبداً ﴿ حليماً ﴾ أي ليس من شأنه المعاجلة بالعقوبة للعصاة لأنه لا يستعجل إلا من يخاف الفوت فينتهز الفرص ، ورغب في الإقلاع مشيراً إلى أنه ليس عنده ما عند حلماء البشر من الضيق الحامل لهم على أنهم إذا غضبوا بعد طول الأناة لا يغفرون بقوله : ﴿ غفوراً ﴾ أي محاء لذنوب من رجع إليه ، وأقبل بالاعتراف عليه ، فلا يعاقبه ولا يعاتبه .

ولما كان التقدير : فقالوا : إنا لا ندعي أنهم خلقوا شيئاً من السماوات ولا من الأرض ونحن مقرون بأنه لا يمسك السماوات والأرض إلا الله ، وإنما نعبدهم لقربونا إلى الله زلفى ، كما كان يفعل آباؤنا ، ولولا أنه لهم على ذلك دليلاً ما فعلوه ، عطف عليه قوله مبيناً ضلالهم في تكذيبهم الرسل بعد ما ظهر من ضلالهم في إشراكهم بالمرسل وهو يمهلهم ويرزقهم دليلاً على حلمه مع علمه : ﴿ وأقسموا ﴾ أي كفار مكة ﴿ بالله ﴾ أي الذي لا عظيم غيره ﴿ جهد أيمانهم ﴾ أي بغاية ما يقدرون عليه من الأيمان ، قال البغوي : لما بلغهم – يعني كفار مكة – أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا : لعن الله اليهود والنصارى ! أتتهم رسلهم فكذبوهم ، لو أتانا رسول لنكونن أهدى ديناً منهم .

ولما أخبر عن قسمهم ، حكى معنى ما أقسموا عليه دون لفظه بقوله : ﴿ لئن جاءهم ﴾ وعبر بالسبب الأعظم للرسالة فقال : ﴿ نذير ﴾ أي من عند الله ﴿ ليكونن ﴾ أي الكفار ﴿ أهدى ﴾ أي أعظم في الهدى ﴿ من إحدى ﴾ أي واحدة من ﴿ الأمم ﴾ أي السالفة أو من الأمة التي لم تكن في الأمم التي جاءتها النذر أهدى منها ، قال أبو حيان : كما قالوا هو أحد الأحدين ، وهي إحدى الأحد ، يريدون التفضيل في الدهاء والعقل .

لأنهم أحد أذهاناً وأقوم لساناً وأعظم عقولاً ، وألزم لما يدعو إليه العقل ، وأطلب لما يشهد بالفضل ، وأكدوا بالقسم لأن الناظر لتكذيب أهل العلم بالكتاب يكذبهم في دعوى التصديق قياساً أخروياً ، ودل على إسراعهم في الكذب بالفاء فقال : ﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ أي على ما شرطوا وزيادة ، وهو محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي كانوا يشهدون أنه خيرهم مع كونه خيرهم نفساً وأشرفهم نسباً وأكرمهم في كل خلق أماً وأباً ، وأمتنهم في كل مأثرة سبباً ﴿ ما زادهم ﴾ أي مجيئه شيئاً مما هم عليه من الأحوال ﴿ إلا نفوراً ﴾ أي لأنه كان سبباً في زيادتهم في الكفر كالإبل التي كانت نفرت من ربها فضلت عن الطريق فدعاها فازدادت بسبب دعائه نفرة فأعرقت في الضلال فصارت بحيث يتعذر أو يتعسر ردها فتبين أنه لا عهد لهم مع ادعائهم أنهم أوفى الناس ، ولا صدق عندهم مع جزمهم بأنهم أصدق الخلق .

ولما كانوا قد جبلوا على الضلال ، وكان النفور قد يكون لأمر محمود أو مباح ، علله بقوله : ﴿ استكباراً ﴾ أي طلباً لإيجاد الكبر لأنفسهم ﴿ في الأرض ﴾ أي التي من شأنها السفول والتواضع والخمول ﴿ ومكر السيىء ﴾ أي ولأجل مكرهم المكر الذي من شأنه أن يسوء

صاحبه وغيره ، وهو إرادتهم لإيهان أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإطفاء نور الله ، وقراءة عبد الله ﴿ ومكراً سيئاً ﴾ يدل على أنه من إضافة الشيء إلى صفته ، وقراءة حمزة بإسكان الهمزة بنية الوقف إشارة إلى تدقيقهم المكر وإتقانه وإخفائه جهدهم ﴿ ولا ﴾ أي والحال أنه لا ﴿ يحيق ﴾ أي يحيط إحاطة لازمة ضارة ﴿ المكر السيىء ﴾ أي الذي هو عريق في السوء ﴿ إلا بأهله ﴾ وإن آذى غير أهله ، لكنه لا يحيط بذلك الغير ، وعن الزهري أنه قال : بلغنا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

(74/642)

---

" لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً فإن الله يقول هذه الآية ، ولا تبغوا ولا تعينوا باغياً يقول الله ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ ولا تنكثوا ولا تعينوا ناكثاً قال الله : ﴿ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ " .

ولما كان هذا سنة الله التي لا تبديل لها ، قال مسبباً عن ذلك : ﴿ فهل ينظرون ﴾ أي ينتظرون ، ولعله جرد الفعل إشارة إلى سرعة الانتقام من الماكر المتكبر ، ويمكن أن يكون من النظر بالعين لأنه شبه العلم بالانتقام من الأولين مع العلم بأن عادته مستمرة ، لأنه لا مانع له منها لعظيم تحققه وشدة استيقانه وقوة استحضاره بشيء محسوس حاضر لا ينظر شيء

غيره في ماض ولا آت لأن غيره بالنسبة إليه عدم .

ولما جعل استقبالهم لذلك انتظاراً منهم له ، وكان الاستفهام إنكاريا ، فكان بمعنى النفي قال : ﴿ إلا سنت الأولين ﴾ أي طريقتهم في سرعة أخذ الله لهم وإنزال العذاب بهم .

ولما كان هذا النظر يحتاج إلى صفاء في اللب وذكاء في النفس ، عدل عن ضميرهم إلى خطاب أعلى الخلق ، تنبيهاً على أن هذا مقام لا يذوقه حق ذوقه غيره ، فسبب عن حصر النظر أو الانتظار في ذلك قوله ، مؤكداً لأجل اعتقاد الكفرة الجازم بأنهم لا يتغيرون عن حالهم وأن المؤمنين لا يظهرون عليهم : ﴿ فلن تجد ﴾ أي أصلاً في وقت من الأوقات ﴿ لسنت الله ﴾ أي طريقة الملك الأعظم التي شرعها وحكم بها ، وهي إهلاك العاصين وإنجاء الطائعين ﴿ تبديلاً ﴾ أي من أحد يأتي بسنة أخرى غيرها تكون بدلاً لها لأنه لا مكافئ له ﴿ ولن تجد لسنت الله ﴾ أي الذي لا أمر لأحد معه ﴿ تحويلاً ﴾ أي من حالة إلى أخفى منها لأنه لا مرد لقضائه ، لأنه لا كفوء له ، وفي الآية أن أكثر حديث النفس الكذب ، فلا ينبغي لأحد أن يظن بنفسه خيراً ولا أن يقضي على غائب إلا أن يعلقه بالمشيئة تبرؤاً من الحول والقوة لعل الله يسلمه في عاقبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 236.233 ﴾

(75/642)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾

ويحتمل أن يقال لما بين شركهم قال مقتضى شركهم زوال السموات والأرض كما قال تعالى :

﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً * أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً ﴾ [ مريم : 90 ، 91 ] ويدل على هذا قوله تعالى في آخر الآية : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ كان حليماً ما ترك تعذيبهم إلا حلماً منه وإلا كانوا يستحقون إسقاط السماء وانطباق الأرض عليهم وإنما أخر إزالة السموات إلى قيام الساعة حلماً ، وتحتمل الآية وجهاً ثالثاً : وهو أن يكون ذلك من باب التسليم وإثبات المطلوب على تقدير التسليم أيضاً كأنه تعالى قال شركاؤكم ما خلقوا من الأرض شيئاً ولا في السماء جزءاً ولا قدروا على الشفاعة ، فلا عبادة لهم .

وهب أنهم فعلوا شيئاً من الأشياء فهل يقدرون على إمساك السموات والأرض ؟ ولا يمكنهم القول بأنهم يقدرون لأنهم ما كانوا يقولون به ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [ لقمان : 25 ] ويؤيد هذا قوله : ﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ فإذا تبين أن لا معبود إلا الله من حيث إن غيره لم يخلق من

الأشياء وإن قال الكافر بأن غيره خلق فما خلق مثل ما خلق فلا شريك له إنه كان حليماً غفوراً ، حليماً حيث لم يعجل في إهلاكهم بعد إصرارهم على إشراكهم وغفوراً يغفر لمن تاب ويرحمه وإن استحق العقاب .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ

(76/642)

---

لما بين إنكارهم للتوحيد ذكر تكذيبهم للرسول ومبالغتهم فيه حيث إنهم كانوا يقسمون على أنهم لا يكذبون الرسل إذا تبين لهم كونهم رسلاً وقالوا : إنما نكذب بمحمد صلى الله عليه وسلم لكونه كاذباً ، ولو تبين لنا كونه رسولاً لآمنا كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ [ الأنعام : 109 ] وهذا مبالغة منهم في التكذيب ، كما أن من ينكر دين إنسان قد يقول والله لو علمت أن له شيئاً علي لقضيته وزدت له ، إظهاراً لكونه مطالباً بالباطل ، فكذلك ههنا عاندوا وقالوا والله لو جاءنا رسول لكنا أهدى الأمم فلما جاءهم نذير أي محمد صلى الله عليه وسلم جاءهم أي صح مجيؤه لهم بالبينة ما زادهم إلا نفوراً ، فإنهم قبل الرسالة كانوا كافرين بالله وبعدها صاروا كافرين بالله ورسوله ولأنهم قبل الرسالة ما كانوا معذبين كما صاروا ، بعد الرسالة وقال

بعض المفسرين : إن أهل مكة كانوا يلعنون اليهود والنصارى على أنهم كذبوا برسلهم لما جاءوهم وقالوا لو جاءنا رسول لأطعناه واتبعناه ، وهذا فيه إشكال من حيث إن المشركين كانوا منكرين للرسالة والحشر مطلقاً ، فكيف كانوا يعترفون بالرسل ، فمن أين عرفوا أن اليهود كذبوا وما جاءهم كتاب ولولا كتاب الله وبيان رسوله من أين كان يعلم المشركون أنهم صدقوا شيئاً وكذبوا في شيء ؟ بل المراد ما ذكرنا أنهم كانوا يقولون نحن لو جاءنا رسول لا ننكره وإنما ننكر كون محمد رسولاً من حيث إنه كاذب ولو صح كونه رسولاً لآمنا وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ أي فلما صح لهم مجيؤه بالمعجزة ، وفي قوله : ﴿ أهدى ﴾ وجهان أحدهما : أن يكون المراد أهدى مما نحن عليه وعلى هذا فقوله : ﴿ مِنْ إِحْدَى الأمم ﴾ للتبيين كما يقول القائل زيد من المسلمين ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ أي صاروا أضل مما كانوا وكانوا يقولون نكون أهدى

(77/642)

---

وثانيهما : أن يكون المراد أن نكون أهدى من إحدى الأمم كما يقول القائل زيد أولى من عمرو ، وفي الأمم وجهان أحدهما : أن يكون المراد العموم أي أهدى من أي إحدى الأمم وفيه تعريض وثانيهما : أن يكون المراد تعريف العهد أي أمة محمد وموسى وعيسى ومن

كان في زمانهم.

ثم قال تعالى: ﴿ استكبارا فِي الأرض ﴾ ونصبه يحتمل ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون حالاً أي مستكبرين في الأرض وثانيها: أن يكون مفعولاً له أي للاستكبار وثالثها: أن يكون بدلاً عن النفور وقوله: ﴿ وَمَكْرَ السَّيِّىء ﴾ إضافة الجنس إلى نوعه كما يقال علم الفقه وحرفة الحدادة وتحقيقه أن يقال معناه ومكروا مكراً سيئاً ثم عرف لظهور مكرهم، ثم ترك التعريف باللام وأضيف إلى السيء لكون السوء فيه أبين الأمور، ويحتمل أن يقال بأن المكر يستعمل استعمال العمل كما ذكرنا في قوله تعالى:

(78/642)

---

﴿ والذين يَمْكُرُونَ السيئات ﴾ [ فاطر: 10 ] أي يعملون السيئات، ومكرهم السيء، وهو جميع ما كان يصدر منهم من القصد إلى الإيذاء ومنع الناس من الدخول في الإيمان وإظهار الإنكار، ثم قال: ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ أي لا يحيط إلا بفاعله وفي قوله: ﴿ وَلاَ يَحِيقُ ﴾ وقوله: ﴿ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ فوائد، أما في قوله: ﴿ يَحِيقُ ﴾ فهي أنها تنبىء عن الإحاطة التي هي فوق اللحوق وفيه من التحذير ما ليس في قوله ولا يلحق أو ولا يصل، وأما في قوله: ﴿ بِأَهْلِهِ ﴾ ففيه ما ليس في قول القائل ولا يحيق المكر السيء إلا

بالماكر ، كي لا يأمن المسيء فإن من أساء ومكره سيء آخر قد يلحقه جزاء على سيئه ، وأما إذا لم يكن سيئاً فلا يكون أهلاً فيأمن المكر السيء ، وأما في النفي والإثبات ففائدته الحصر بخلاف ما يقول القائل المكر السيء يحيق بأهله ، فلا ينبىء عن عدم الحيق بغير أهله ، فإن قال قائل : كثيراً ما نرى أن الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك ، فنقول الجواب عنه من وجوه أحدها : أن المكر المذكور في الآية هو المكر الذي مكروه مع النبي صلى الله عليه وسلم من العزم على القتل والإخراج ولم يحق إلا بهم ، حيث قتلوا يوم بدر وغيره وثانيها : هو أن نقول المكر السيء عام وهو الأصح فإن النبي عليه السلام نهى عن المكر وأخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً فإن الله يقول ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله" وعلى هذا فذلك الرجل الممكور به (لا) يكون أهلاً فلا يرد نقضاً وثالثها : أن الأمور بعواقبها ، ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلاً في الظاهر ففي الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك وذلك مثل راحة الكافر ومشقة المسلم في الدنيا ، ويبين هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ يعني إذا كان لمكرهم في الحال رواج فالعاقبة

للتقوى والأمور بخواتيمها ، فيهلكون كما هلك الأولون.

وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي ليس لهم بعد هذا إلا انتظار الإهلاك وهو سنة الأولين وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الإهلاك ليس سنة الأولين إنما هو سنة الله بالأولين ، فنقول الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن المصدر الذي هو المفعول المطلق يضاف إلى الفاعل والمفعول لتعلقه بهما من وجه دون وجه فيقال فيما إذا ضرب زيد عمراً عجبت من ضرب عمرو كيف ضرب مع ماله من العزم والقوة وعجبت من ضرب زيد كيف ضرب مع ماله من العلم والحكمة فكذلك سنة الله بهم أضافها إليهم لأنها سنة سنت بهم وأضافها إلى نفسه بعدها بقوله :

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ لأنها سنة من سنن الله ، إذا علمت هذا فنقول أضافها في الأول إليهم حيث قال : ﴿ سنة الأولين ﴾ لأن سنة الله الإهلاك بالإشراك والإكرام على الإسلام فلا يعلم أنهم ينتظرون أيهما فإذا قال سنة الأولين تميزت وفي الثاني أضافها إلى الله ، لأنها لما علمت فالإضافة إلى الله تعظمها وتبين أنها أمر واقع ليس لها من دافع وثانيهما : أن المراد من سنة الأولين استمرارهم على الإنكار واستكبارهم عن الإقرار ، وسنة الله استئصالهم بإصرارهم فكأنه قال : أنتم تريدون الإتيان بسنة الأولين والله يأتي بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها .

المسألة الثانية :

التبديل تحويل فما الحكمة في التكرار ؟ نقول بقوله : ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ حصل العلم بأن العذاب لا تبديل له بغيره ، وبقوله : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ حصل العلم بأن العذاب مع أنه لا تبديل له بالثواب لا يتحول عن مستحقه إلى غيره فيتم تهديد المسيء .

المسألة الثالثة :



---

المخاطب بقوله : ﴿ فَلَن تَجِدَ ﴾ يحتمل وجهين وقد تقدم مراراً أحدهما : أن يكون عاماً كأنه قال فلن تجد أيها السامع لسنة الله تبديلاً والثاني : أن يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا فكأنه قال : سنة الله أنه لا يهلك ما بقي في القوم من كتب الله إيمانه ، فإذا آمن من في علم الله أنه يؤمن يهلك الباقين كما قال نوح : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ ﴾ [ نوح : 27 ] أي تمهل الأمر وجاء وقت سنتك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 29 . 32 ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(82/642)

---

هذا ابتداء تذكير بالله تعالى ودلالة على وحدانيته وصفاته التي لا تنبغي الألوهية إلا معها ، و" الغيب " ، ما غاب عن البشر و﴿ ذات الصدور ﴾ ما فيها من المعتقدات والمعاني ومنه قول أبي بكر : ذو بطن بنت خارجة ، ومنه قول العرب : الذيب مغبوط بذي بطنه ، أي بالنفخ الذي فيه فمن يراه يظنه شابعاً قريب عهد بأكل ، و﴿ خلائف ﴾ جمع خليفة كسفينة وسفائن ومدينة ومدائن ، وقوله ﴿ فعليه كفره ﴾ فيه حذف مضاف تقديره " فعليه وبال كفره وضرر كفره " ، و" المقت " احتقارك الإنسان من أجل معصيته أو ذنبه الذي يأتيه فإذا احتقرت تعسفاً منك فلا يسمى ذلك مقتاً ، و" الخسار " مصدر من خسر يخسر أي خسروا آخرتهم ومعادهم بأن صاروا إلى النار والعذاب ، وقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم شركاءكم ﴾ الآية احتجاج على الكفار في بطلان أمر أصنامهم ، ووقفهم النبي صلى الله عليه وسلم بأمر ربه على أصنامهم وطلب منهم أن يعرضوا عليه الشيء الذي خلقته

آلهتهم لتقوم حجتهم التي يزعمونها ، ثم وقفهم مع اتضاح عجزهم عن خلق شيء على السماوات هل لهم فيها شرك وظاهر أيضاً ، بعد هذا ثم وقفهم هل عندهم كتاب من الله تعالى ليبين لهم فيه ما قالوه ، أي ليس ذلك كله عندهم ، ثم أضرب بعد هذا الجحد المقدر فقال : بل إنما يعدون أنفسهم غروراً ، و﴿ أرأيتم ﴾ يتنزل عند سيبويه منزلة أخبروني ، ولذلك لا تحتاج إلى مفعولين ، وأضاف الشركاء إليهم من حيث جعلوهم شركاء لله ، أي ليس للأصنام شركة بوجه إلا بقولكم فالواجب أضافتها إليكم ، و﴿ تدعون ﴾ معناه تعبدون ، والرؤية في قوله ﴿ أروني ﴾ رؤية بصر ، و" الشرك " الشركة مصدر أيضاً ، وقرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم " بينات " بالجمع ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والأعمش وابن وثاب ونافع بخلاف عنه " بينة " بالإفراد والمراد به الجمع ، ويحتمل أن يراد به الإفراد كما تقول : أنا من هذا الأمر على واضحة أو على جلية ، و" الغرور " الذي كانوا

(83/642)

---

يتعاطونه قولهم إن الأصنام تقرب من الله زلفى ونحوه مما يغبطهم ، ولما ذكر تعالى ما يبين فساد أمر الأصنام وقف على الحجة على بطلانها عقب ذلك بذكر عظمته وقدرته ليبين

الشيء بضده ، وتتأكد حقارة الأصنام بذكر عظمة الله تعالى ، فأخبر عن إمساكه السماوات والأرض بالقدرة ، وقوله ﴿ أن تزولا ﴾ معناه كراهة ﴿ أن تزولا ﴾ ، ومعنى الزوال هنا التنقل من مكانها والسقوط من علوها ، وقال بعض المفسرين معناه ﴿ أن تزولا ﴾ عن الدوران ، ويظهر من قول عبد الله بن مسعود أن السماء لا تدور وإنما تجري فيها الكواكب وذلك أن الطبري أسند أن جندباً الجبلي رحل إلى كعب الأحباري ثم رجع فقال له عبد الله بن مسعود : حدثنا ما حدثك ، فقال : حدثني أن السماء في قطب كقطب الرحا ، والقطب عمود على منكب ملك ، فقال له عبد الله بن مسعود : لوددت أنك افتديت رحلته بمثل راحلتك ورحلك ، ثم قال : ما تمكنت اليهودية في قلب عبد فكادت أن تفارقه ، ثم قال : ﴿ إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ﴾ وكفى بها زوالاً أن تدور ، ولو دارت لكانت قد زالت ، وقوله ﴿ ولئن زالتا ﴾ قيل أراد يوم القيامة عند طي السماء ونسف الجبال ، فكأنه قال ولئن جاء وقت زوالهما ، وقيل بل ذلك على جهة التوهم والفرض ، ولئن فرضنا زوالهما فكأنه قال ولو زالتا ، وقال بعضهم ﴿ لئن ﴾ في هذا الموضع بمعنى لو .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قريب من الذي قبله ، وقرأ ابن أبي عبلة " ولو زالتا " وقوله ﴿ من بعده ﴾ فيه حذف مضاف تقديره من بعد تركه الإمساك ، وقالت فرقة : اتصافه بالحلم والغفران في هذه الآية إنما هو إشارة إلى أن السماء كادت تزول والأرض كذلك

لإشراك الكفرة فيمسكهما الله حلماً منه عن المشركين وتربصاً ليغفر لمن آمن منهم ، كما قال في آية أخرى ﴿ تكاد السماوات يتفطرن ﴾ [ مريم : 90 ] [ الشورى : 5 ] .

(84/642)

---

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ

الضمير في قوله ﴿ أقسموا ﴾ لكفار قريش ، وذلك أنه روي أن كفار قريش كانت قبل الإسلام تأخذ على اليهود والنصارى في تكذيب بعضهم بعضاً وتقول لو جاءنا نحن رسول لكنا أهدى من هؤلاء وهؤلاء ، و﴿ جهد أيمانهم ﴾ منصوب على المصدر ، أي بغاية اجتهادهم ، و﴿ إحدى الأمم ﴾ يريد اليهود والنصارى ، و" النفور " البعد عن الشيء والفزع منه والاستبشاع له ، و﴿ استكباراً ﴾ قيل فيه بدل من النفور ، وقيل مفعول من أجله ، أي نفروا من أجل الاستكبار ، وأضاف " المكر " إلى ﴿ السَّيِّىء ﴾ وهو صفة كما قيل دار الآخرة ، ومسجد الجامع ، وجانب الغربي ، وقرأ الجمهور بكسر الهمزة من " السَّيِّىء " وقرأ حمزة وحده " السَّيِّىء " بسكون الهمزة وهو في الثانية برفع الهمزة كالجماعة ، ولحن هذه القراءة الزجاج ووجهها أبو علي الفارسي بوجوه منها أن يكون أسكن لتوالي الحركات كما قال : " قلت صاحب قوم " على أن المبرد روى هذا قلت صاح ، وكما امرؤ

القيس : [ السريع ]

اليوم أشربْ غير مستحقب . . . إثماً من الله ولا واغل

على أن المبرد قد رواه فاشرب وكما قال جرير : [ البسيط ]

سيروا بني العم فالأهواز منزلكم . . . ونهر تيرى ولن تعرفْكم العَرب

(85/642)

---

وقرأ ابن مسعود " ومكراً سيئاً " ، قال أبو الفتح : يعضده تنكير ما قبله من قوله ﴿ استكباراً ﴾ ، و﴿ يحيق ﴾ معناه يحيط ويحل وينزل ولا يستعمل إلا في المكروه ، وقوله ﴿ إلا بأهله ﴾ ، أي أنه لا بد أن يحيق بهم إما في الدنيا وإلا ففي الآخرة فعاقبته الفاسدة لهم ، وإن حاق في الدنيا بغيرهم أحياناً فعاقبة ذلك على أهله ، وقال كعب لابن عباس : إن في التوراة " من حفر حفرة لأخيه وقع فيها " ، فقال ابن عباس : أنا أوجدك هذا في كتاب الله تعالى : ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ ، و﴿ ينظرون ﴾ معناه ينتظرون ، و" السنة " الطريقة والعادة ، وقوله ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي لتعذيبه الكفرة المكذبين ، وفي هذا توعد بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(86/642)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾

لما بيّن أن آلهتهم لا تقدر على خلق شيء من السموات والأرض بيّن أن خالقهما وممسكهما هو الله ، فلا يوجد حادث إلا بإيجاده ، ولا يبقى إلا ببقائه .

و"أن" في موضع نصب بمعنى كراهة أن تزولاً ، أو لئلا تزولا ، أو يحمل على المعنى ؛ لأن المعنى أن الله يمنع السموات والأرض أن تزولا ، فلا حاجة على هذا إلى إضمار ، وهذا قول الزجاج.

﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ قال الفرّاء : أي ولو زالتا ما أمسكهما من أحد .

و"إن" بمعنى ما .

قال : وهو مثل قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [الروم : 51 ].

وقيل : المراد زوالهما يوم القيامة .

وعن إبراهيم قال : دخل رجل من أصحاب ابن مسعود إلى كعب الأحبار يتعلم منه العلم ، فلما رجع قال له ابن مسعود : ما الذي أصبت من كعب ؟ قال : سمعت كعباً يقول : إن

السماء تدور على قُطْب مثل قطب الرّحَى ، في عمود على مِنكب مَلَك ؛ فقال له عبد الله ؛ وددتُ أنك انقلبت براحلتك ورحلها ، كذب كعب ، ما ترك يهوديّته ! إن الله تعالى يقول : "إن الله يُمسِك السمواتِ والأرضَ أن تزولا" إن السموات لا تدور ، ولو كانت تدور لكانت قد زالت .

وعن ابن عباس نحوه ، وأنه قال لرجل مقبل من الشام : من لِقيت به ؟ قال كعباً .

قال : وما سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : إن السموات على منكب مَلَك .

(87/642)

---

قال : كذب كعب ، أما ترك يهوديّته بعدُ ! إن الله تعالى يقول : "إن الله يُمسِك السموات والأرض أن تزولا" والسموات سبع والأرضون سبع ، ولكن لما ذكّرهما أجراهما مجرى شيئين ، فعادت الكناية إليهما ، وهو كقوله تعالى : ﴿ أَنَّ السماوات والأرض كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ [ الأنبياء : 30 ] ثم ختم الآية بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ لأن المعنى فيما ذكره بعض أهل التأويل : أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا من كفر الكافرين ، وقولِهم اتخذ الله ولداً .

قال الكلبي : لما قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، كادت

السموات والأرض أن تزولا عن أمكنتهما ، فمنعهما الله ، وأنزل هذه الآية فيه ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ [ مريم : 89 90 ] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، حين بلغهم أن أهل الكتاب كذّبوا رسلهم ، فلَعنوا مَن كذّب نبيّه منهم ، وأقسموا بالله جلّ اسمه ﴿ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ أي نبيّ ﴿ لَّيَكُونُنَّ أَهدى مِنْ إِحْدَى الأمم ﴾ يعني ممن كذّب الرسل من أهل الكتاب .

وكانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كانت الرسل من بني إسرائيل ، فلما جاءهم ما تمنَّوْه وهو النذير من أنفسهم ، نفروا عنه ولم يؤمنوا به .

﴿ استكبارا ﴾ أي عُتُوّاً عن الإيمان ﴿ وَمَكْرَ السيىء ﴾ أي مكر العمل السيىء وهو الكفر وخَدْع الضعفاء ، وصدّهم عن الإيمان ليكثر أتباعهم .

وأنّث "مِن إحدى الأمم" لتأنيث أُمّة ؛ قاله الأخفش .

وقرأ حمزة والأخفش "ومكر السَّيِّىء وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ" فحذف الإعراب من الأوّل وأثبته في الثاني .

قال الزجاج : وهو لحن ؛ وإنما صار لحناً لأنه حذف الإعراب منه .

وزعم المبرِّد أنه لا يجوز في كلام ولا في شعر ؛ لأن حركات الإعراب لا يجوز حذفها ، لأنها دخلت للفرق بين المعاني .

وقد أعظم بعض النحويين أن يكون الأعمش على جلالته ومحله يقرأ بهذا ، قال : إنما كان يقف عليه ، فغلط من أدّى عنه ، قال : والدليل على هذا أنه تمام الكلام ، وأن الثاني لما لم يكن تمام الكلام أعرب باتفاق ، والحركة في الثاني أثقل منها في الأوّل لأنها ضمة بين كسرتين .

وقد احتج بعض النحويين لحمزة في هذا بقول سيبويه ، وأنه أنشد هو وغيره :

إذا اعوججن قلتُ صاحِبْ قَوِّمِ . . .

وقال الآخر :

فاليوم أشْرَبْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ . . .

إثماً مِن الله ولا واغلِ

وهذا لا حجة فيه ؛ لأن سيبويه لم يجزه ، وإنما حكاه عن بعض النحويين ، والحديث إذا قيل فيه عن بعض العلماء لم يكن فيه حجة ، فكيف وإنما جاء به على وجه الشذوذ ولضرورة الشعر وقد خولف فيه .

وزعم الزجاج أن أبا العباس أنشده :

إذا اعوججن قلت صاح قوّم . . .

وأنه أنشد :

فاليوم اشرب غير مستحِقبٍ . . .

بوصل الألف على الأمر ؛ ذكر جميعه النحاس .

الزمخشريّ : وقرأ حمزة "ومكر السَّيِّىءْ" بسكون الهمزة ، وذلك لاستثقاله الحركات ، ولعله اختلس فظن سكوناً ، أو وقف وقفة خفيفة ثم ابتدأ "ولا يحِيق" .

وقرأ ابن مسعود "ومَكْراً سيئاً" .

وقال المهدويّ : ومن سكّن الهمزة من قوله : ﴿ وَمَكْرَ السيىء ﴾ فهو على تقدير الوقف عليه ، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ، أو على أنه أسكن الهمزة لتوالي الكسرات والياءات ، كما قال :

فاليوم اشرب غير مستحقب . . .

قال القشيريّ : وقرأ حمزة "ومكر السيىءْ" بسكون الهمزة ، وخطّأه أقوام .

وقال قوم : لعله وقف عليه لأنه تمام الكلام ، فغلط الراوي وروي ذلك عنه في الإدراج ، وقد سبق الكلام في أمثال هذا ، وقلنا : ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأه فلا بدّ من جوازه ، ولا يجوز أن يقال : إنه لحن ، ولعل مراد من صار إلى التخطئة أن غيره أفصح منه ، وإن كان هو فصيحاً .

﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ أي لا ينزل عاقبة الشرك إلا بمن أشرك .

وقيل : هذا إشارة إلى قتلهم ببدر .

وقال الشاعر :

وقد دفعوا المنية فاستقلت . . .

ذراعاً بعد ما كانت تحيق

أي تنزل ، وهذا قول قُطْرُب .

وقال الكلبيّ : "يَحِيق" بمعنى يُحيط .

والحَوْق الإحاطة ، يقال : حاق به كذا أي أحاط به .

وعن ابن عباس أن كعباً قال له : إني أجد في التوارة "من حفَر لأخيه حُفرةً وقع فيها ؟" فقال ابن عباس : فإني أوجدُك في القرآن ذلك .

قال : وأين ؟ قال : فاقرأ "ولا يَحِيق المكر السيىء إلا بأهلِهِ" .

وفي أمثال العرب "من حفَر لأخيه جُبًّا وَقع فيه مُنْكَبّاً" وروى الزُّهريّ أن النبيّ صلى الله

عليه وسلم قال : " لا تمكر ولا تُعِن ماكراً " فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَا يَحِيقُ المكر السيىء إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ، ولا تَبْغِ ولا تعُنْ باغياً فإن الله تعالى يقول ؛ ﴿ فَمَن نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسِهِ ﴾ [ الفتح : 10 ] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ [ يونس : 23 ] وقال بعض الحكماء :

يأيها الظالم في فعله . . .

والظلم مردود على من ظلم

إلى متى أنت وحتى متى . . .

تُحصي المصائب وتَنسى النِّعم

*(90/642)*

---

وفي الحديث : " المكر والخديعة في النار " فقوله : "في النار" يعني في الآخرة تدخل أصحابها في النار ؛ لأنها من أخلاق الكفار لا من أخلاق المؤمنين الأخيار ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في سياق هذا الحديث : " وليس من أخلاق المؤمن المكر والخديعة والخيانة " وفي هذا أبلغ تحذير عن التخلق بهذه الأخلاق الذميمة ، والخروج عن أخلاق الإيمان الكريمة .

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي إنما ينتظرون العذاب الذي نزل بالكفار

الأولين .

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ أي أجرى الله العذاب على الكفار ، ويجعل ذلك سُنة فيهم ، فهو يعذب بمثله من استحقه ، لا يقدر أحد أن يبدّل ذلك ، ولا أن يحوّل العذاب عن نفسه إلى غيره .

والسُّنَّة الطريقة ، والجمع سُنَن .

وقد مضى في "آل عمران" وأضافها إلى الله عز وجل .

وقال في موضع آخر : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ [ الإسراء : 77 ]

فأضاف إلى القوم لتعلّق الأمر بالجانبين ؛ وهو كالأجل ، تارة يضاف إلى الله ، وتارة إلى القوم ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾ [ العنكبوت : 5 ] وقال : "فإذا جاء أجلهم" .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

*(91/642)*

---

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾

لما ذكر حال المؤمنين ومقرهم ، ذكر حال الكافرين ، وهذا يدل على أن أولئك الثلاثة هم في

الجنة ، ﴿ والذين كفروا ﴾ هم مقابلوهم ، ﴿ لا يقضي عليهم ﴾ : أي لا يجهز عليهم فيموتوا ، لأنهم إذا ماتوا بطلت حواسهم فاستراحوا .

وقرأ الجمهور : ﴿ فيموتوا ﴾ ، بحذف النون منصوباً في جواب النفي ، وهو على أحد معنيي النصب ؛ فالمعنى انتفى القضاء عليهم ، فانتفى مسببه ، أي لا يقضى عليهم ولا يموتون ، كقولك : ما تأتينا فتحدثنا ، أي ما يكون حديث ، انتفى الإتيان ، فانتفى الحديث .

ولا يصح أن يكون على المعنى الثاني من معنى النصب ، لأن المعنى : ما تأتينا محدثاً ، إنما تأتي ولا تحدث ، وليس المعنى هنا : لا يقضى عليهم ميتين ، إنما يقضى عليهم ولا يموتون .

وقرأ عيسى ، والحسن : فيموتون ، بالنون ، وجهها أن تكون معطوفة على لا يقضى .

وقال ابن عطية : وهي قراءة ضعيفة . انتهى .

وقال أبو عثمان المازني : هو عطف ، أي فلا يموتون ، لقوله : ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ أي فلا يعتذرون ولا يخفف عنهم نوع عذابهم .

والنوع في نفسه يدخله أن يحيوا ويسعدوا .

قال ابن عطية : وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو : ولا يخفف بإسكان الفاء شبه المنفصل بالمتصل ، كقوله _@_ :

فاليوم أشرب غير مستحقب . . .

وقرأ الجمهور : ﴿ نجزي كل ﴾ ، مبنياً للفاعل ، ونصب كل ؛ وأبو عمرو ، وأبو حاتم عن نافع : بالياء مبنياً للمفعول ، كل بالرفع .

﴿ وهم يصطرخون ﴾ : بني من الصرخ يفتعل ، وأبدلت من التاء طاء ، وأصله يصرخون ، والصراخ : شدة الصياح ، قال الشاعر :

صرخت حبلى أسلمتها قبيلها . . .

_@_واستعمل في الاستغاثة لجهة المستغيث صوته ، قال الشاعر :

وطول اصطراخ المرء في بعد قعرها . . .

وجهد شقي طال في النار ما عوى

(92/642)

---

﴿ ربنا أخرجنا ﴾ : أي قائلين ربنا أخرجنا منها ، أي من النار ، وردنا إلى الدنيا .

﴿ نعمل صالحاً ﴾ قال ابن عباس : نقل : لا إله إلا الله ، ﴿ غير الذين كنا نعمل ﴾ ، أي من الشرك ، ونمتثل أمر الرسل ، فنؤمن بدل الكفر ، ونطيع بدل المعصية .

وقال الزمخشري : هل اكتفى بصالحاً ، كما اكتفى به في ﴿ ارجعنا نعمل صالحاً ﴾ وما فائدة زيادة ﴿ غير الذي كنا نعمل ﴾ على أنه يوهم أنهم يعملون صالحاً آخر غير الصالح

الذي عملوه؟ قالت: فائدته زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به، وأما الوهم فزائل بظهور حالهم في الكفر وركوب المعاصي، ولأنهم كانوا يحسنون صنعاً فقالوا: أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نحسبه صالحاً فنعمله. انتهى.

روي أنهم يجابون بعد مقدار الدنيا: ﴿ أولم نعمركم ﴾، وهو استفهام توبيخ وتوقيف وتقرير، وما مصدرية ظرفية، أي مدة يذكر.

وقرأ الجمهور: ﴿ ما يتذكر فيه من تذكر ﴾.

وقرأ الأعمش: ما يذكر فيه، من اذكر، بالادغام واجتلاب همزة الوصل ملفوظاً بها في الدرج.

وهذه المدة، قال الحسن: البلوغ، يريد أنه أول حال التذكر، وقيل: سبع عشرة سنة.

وقال قتادة: ثمان عشرة سنة.

وقال عمر بن عبد العزيز: عشرون.

وقال ابن عباس: أربعون؛ وقيل: خمسون.

وقال علي: ستون، وروي ذلك عن ابن عباس.

﴿ وجاءكم ﴾ معطوف على ﴿ أولم نعمركم ﴾، لأن معناه: قد عمرناكم، كقوله: ﴿ ألم نربّك فينا وليداً ﴾ وقوله: ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ ثم قال: ﴿ ولبثت فينا ﴾ وقال ﴿ ووضعنا ﴾ لأن المعنى قد ربيناك وشرحنا.

والنذير جنس ، وهم الأنبياء ، كل نبي نذير أمته .

وقرىء : النذر جمعاً ، وقيل : النذير : الشيب ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وسفيان ، ووكيع ، والحسن بن الفضل ، والفراء ، والطبري .

وقيل : موت الأهل والأقارب ؛ وقيل : كمال السفل .

﴿ فذوقوا ﴾ : أي عذاب جهنم .

وقرأ جناح بن حبيش : عالم منوناً ، غيب نصباً ؛ والجمهور : على الإضافة .

(93/642)

---

ومجيء هذه الجملة عقيب ما قبلها هو أنه تعالى ذكر أن الكافرين يعذبون دائماً مدة كفرهم . كانت مدة يسيرة منقطعة ، فأخبر أنه تعالى ، ﴿ عالم غيب السموات والأرض ﴾ ، فلا يخفى عليه ما تنطوي عليه الصدور من المضمرات .

وكان يعلم من الكافر أنه تمكن الكفر في قلبه ، بحيث لو دام إلى الأبد ما آمن بالله ولا عبده .

وخلائف : جمع خليفة ، وخلفاء : جمع خليف ويقال للمستخلف : خليفة وخليف ، وفي هذا تنبيه على أنه تعالى استخلفهم بدل من كان قبلهم ، فلم يتعظوا بحال من تقدمهم من مكذبي الرسل وما حل بهم من الهلاك ، ولا اعتبروا بمن كفر ، ولم يتعظوا بمن تقدم .

﴿ فعليه كفره ﴾ : أي عقاب كفره ، والظاهر أنه خطاب عام ؛ وقيل : لأهل مكة .

والمقت : أشد الاحتقار والبغض والغضب ، والخسار : خسار العمر .

كان العمر رأس مال ، فإن انقضى في غير طاعة الله ، فقد خسره واستعاض به بدل الربح بما يفعل من الطاعات سخط الله وغضبه ، بحيث صاروا إلى النار .

﴿ قل أرأيتم شركاءكم ﴾ ، قال الحوفي : ألف الاستفهام ذلك للتقرير ، وفي التحرير : أرأيتم : المراد منه أخبروني ، لأن الاستفهام يستدعي ذلك .

يقول القائل : أرأيت ماذا فعل زيد ؟ فيقول السامع : باع واشترى ، ولولا تضمنه معنى أخبروني لكان الجواب نعم أو لا .

وقال ابن عطية : أرأيتم ينزل عند سيبويه منزلة أخبروني .

وقال الزمخشري : أروني بدل من أرأيتم لأن معنى أرأيتم أخبروني ، كأنه قال : أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعن ما استحقوا به الإلهية والشركة ، أروني أي جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله ، أم لهم مع الله شركة في خلق السموات ؟ أم معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه ؟ فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب ، أو يكون الضمير في ﴿ آتيناهم ﴾ للمشركين لقوله : ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾ ﴿ أم آتيناهم كتاباً من قبله ﴾

﴿ بل إن يعد الظالمون بعضهم ﴾ : وهم الرؤساء ، ﴿ بعضاً ﴾ : وهم الأتباع ، ﴿ إلا غروراً ﴾ وهو قولهم : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ انتهى .

أما قوله ﴿ أروني ﴾ بدل من ﴿ أرأيتم ﴾ فلا يصح ، لأنه إذا أبدل مما دخل عليه الاستفهام فلا بد من دخول الأداة على البدل ، وأيضاً فإبدال الجملة من الجملة لم يعهد في لسانهم ، ثم البدل على نية تكرار العامل ، ولا يتأتى ذلك هنا ، لأنه لا عامل في أرأيتم فيتخيل دخوله على أروني .

وقد تكلمنا في الأنعام على أرأيتم كلاماً شافياً .

والذي أذهب إليه أن أرأيتم بمعنى أخبرني ، وهي تطلب مفعولين : أحدهما منصوب ، والآخر مشتمل على استفهام .

تقول العرب : أرأيت زيداً ما صنع ؟ فالأول هنا هو ﴿ شركاءكم ﴾ ، والثاني ﴿ ماذا خلقوا ﴾ ، وأروني جملة اعتراضية فيها تأكيد للكلام وتسديد .

ويحتمل أن يكون ذلك أيضاً من باب الإعمال ، لأنه توارد على ماذا خلقوا ، أرأيتم وأروني ، لأن أروني قد تعلق على مفعولها في قولهم : أما ترى ، أي ترى ها هنا ، ويكون قد أعمل الثاني على المختار عند البصريين .

وقيل : يحتمل أن يكون أرأيتم استفهاماً حقيقياً ، وأروني أمر تعجيز للتبيين ، أي أعلمتم

هذه التي تدعونها كما هي وعلى ما هي عليه من العجز ، أو تتوهمون فيها قدرة ؟ فإن كنتم تعلمونها عاجزة ، فكيف تعبدونها ؟ أو توهمتم لها قدرة ، فأروني قدرتها في أي شيء هي ، أهي في الأرض ؟ كما قال بعضهم : إن الله إله في السماء ، وهؤلاء آلهة في الأرض . قالوا : وفيها من الكواكب والأصنام صورها ، أم في السموات ؟ كما قال بعضهم : إن السماء خلقت باستعانة الملائكة ، فالملائكة شركاء في خلقها ، وهذه الأصنام صورها ، أم قدرتها في الشفاعة لكم ؟ كما قال بعضهم : إن الملائكة ما خلقوا شيئاً ، ولكنهم مقربون عند الله ، فنعبدهم لتشفع لنا ، فهل معهم من الله كتاب فيه إذنه لهم بالشفاعة ؟ انتهى .

(95/642)

---

وأضاف الشركاء إليهم من حيث هم جعلوهم شركاء الله ، أي ليس للأصنام شركة بوجه إلا بقولهم وجعلهم ، قيل : ويحتمل شركاءكم في النار لقوله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ والظاهر أن الضمير في ﴿ آتيناهم ﴾ عائد على الشركاء ، لتناسب الضمائر ، أي هل مع ما جعل شركاء لله كتاب من الله فيه إن له شفاعة عنده ؟ فإنه لا يشفع عنده إلا بإذنه .

وقيل : عائد على المشركين ، ويكون التفاتاً خرج من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة

إعراضاً عنهم وتنزيلاً لهم منزلة الغائب الذي لا يحصل للخطاب ، ومعناه : أن عبادة هؤلاء أما بالعقل ، ولا عقل لمن يعبد ما لا يخلق من الأرض جزءاً من الأجزاء ولا له شرك في السماء ؛ وأما بالنقل ، ولم نؤت المشركين كتاباً فيه أمر بعبادة هؤلاء ، فهذه عبادة لا عقلية ولا نقلية . انتهى .

وقرأ ابن وثاب ، والأعمش ، وحمزة ، وأبو عمرو ، وابن كثير ، وحفص ، وأبان عن عاصم : ﴿ على بينة ﴾ ، بالإفراد ؛ وباقي السبعة : بالجمع .

ولما بين تعالى فساد أمر الأصنام ووقف الحجة على بطلانها ، عقبة بذكر عظمته وقدرته ليتبين الشيء بضده ، وتتأكد حقارة الأصنام بذكر عظمة الله فقال : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ : والظاهر أن معناه أن تنتقلا عن أماكنهما وتسقط السموات عن علوها .

وقيل : معناه أن تزولا عن الدوران . انتهى .

ولا يصح أن الأرض لا تدور .

ويظهر من قول ابن مسعود : أن السماء لا تدور ، وإنما تجري فيها الكواكب .

وقال : كفى بها زوالاً أن تدور ، ولو دارت لكانت قد زالت .

وأن تزولا في موضع المفعول له ، وقدر لئلا تزولا ، وكراهة أن تزولا .

وقال الزجاج : يمسك : يمنع من أن تزولا ، فيكون مفعولاً ثانياً على إسقاط حرف الجر ، ويجوز أن يكون بدلاً ، أي يمنع زوال السموات والأرض ، بدل اشتمال .

(96/642)

---

﴿ ولئن زالتا ﴾ : إن تدخل غالباً على الممكن ، فإن قدرنا دخولها على الممكن ، فيكون ذلك باعتبار يوم القيامة عند طي السماء ونسف الجبال ، فإن ذلك ممكن ، ثم واقع بالخبر الصادق ، أي ولئن جاء وقت زوالهما .

ويجوز أن يكون ذلك على سبيل الفرض ، أي ولئن فرضنا زوالهما ، فيكون مثل لو في المعنى .

وقد قرأ ابن أبي عبلة : ولو زالتا ، وإن نافية ، وأمسكهما في معنى المضارع جواب للقسم المقدّر قبل لام التوطئة في لئن ، وإنما هو في معنى المضارع لدخول إن الشرطية ، كقوله : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ﴾ أي ما يتبعون ، وكقوله : ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا ﴾ أي ليظلوا ، فيقدّر هذا كله مضارعاً لأجل إن الشرطية ، وجواب إن في هذه المواضع محذوف لدلالة جواب القسم عليه .

قال الزمخشري : و﴿ إن أمسكها ﴾ جواب القسم في ﴿ ولئن زالتا ﴾ ، سدّ مسدّ

الجوابين .

انتهى ، يعني أنه دل على الجواب المحذوف ، وإن أخذ كلامه على ظاهره لم يصح ، لأنه لو سدّ مسدّهما لكان له موضع من الإعراب باعتبار جواب الشرط ، ولا موضع له من الإعراب باعتبار جواب القسم .

والشيء الواحد لا يكون معمولاً غير معمول .

ومن في ﴿ من أحد ﴾ لتأكيد الاستغراق ، ومن في ﴿ من بعده ﴾ لابتداء الغاية ، أي من بعد ترك إمساكه .

وسأل ابن عباس رجلاً أقبل من الشام : من لقيت ؟ قال كعباً ، قال : وما سمعته يقول ؟ قال : إن السموات على منكب ملك ، قال : كذب كعب ، أما ترك يهوديته بعد ؟ ثم قرأ هذه الآية .

وقال ابن مسعود لجندب البجلي ، وكان رجل : أي كعب الأحبار في كلام آخره ما تمكنت اليهودية في قلب وكادت أن تفارقه .

وقالت طائفة : اتصافه بالحلم والغفران في هذه الآية إنما هو إشارة إلى أن السماء كادت تزول ، والأرض كذلك ، لإشراك الكفرة ، فيمسكها حكماً منه عن المشركين وتربصاً ليغفر لمن آمن منهم ، كما قال في آخر آية أخرى : ﴿ تكاد السماء يتفطرن منه ﴾ الآية .

وقال الزمخشري : ﴿ حليماً غفوراً ﴾ ، غير معاجل بالعقوبة ، حيث يمسكها ، وكانتا جديرتين بأن تهدهد العظم كلمة الشرك ، كما قال ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(98/642)

---

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السموات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾

استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ غايةِ قُبحِ الشّركِ وهوله أنْ يمسكهما كراهةَ زوالِهما أو يمنعهما أنْ تزولا لأنَّ الإمساك منع ﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا ﴾ أي ما أمسكهما ﴿ مِنْ أَحَدٍ مّن بَعْدِهِ ﴾ من بعدِ إمساكِه تعالى أو من بعدِ الزّوال . والجملةُ سادّةٌ مسدَّ الجوابينِ ومن الأُولى مزيدةٌ لتأكيدِ العُمومِ والثَّانيةُ للابتداءِ ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ غيرَ معاجلٍ بالعقوبةِ التي تستوجبُها جناياتُهم حيثُ أمسكهما وكانتا جديرتينِ بأنْ تهدّا هداً حسبما قال تعالى :

﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض ﴾ وقُرىء ولو زالَتَا .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ ﴾ بلغ قُريشاً قبل مبعثِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّ أهلَ الكتاب كذَّبوا رسلَهم فقالوا لعنَ اللهُ اليَّهودَ والنَّصارَى أتتهم الرُّسلُ فكذَّبوهم فواللهِ لئن أتانا رسولٌ لنكوننَّ أهدى من إحدى الأممِ اليَّهودِ والنَّصارَى وغيرِهم أو من الأمَّةِ التي يُقال لها إحدى الأممِ تفضيلاً لها على غيرِها في الهُدَى والاستقامةِ. ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ ﴾ وأيُّ نذيرٍ أشرفُ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ مَّا زَادَهُمْ ﴾ أي النَّذيرُ أو مجيئُهُ ﴿ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ تُباعداً عن الحقِ ﴿ استكبارا فِى الأرض ﴾ بدلٌ من نُفوراً أي مفعولٌ له ﴿ وَمَكْرَ السيىء ﴾ أصلُه وإنْ مكرُوا السَّيِّءَ أي المكرَ السَّيِّءَ ثم ومكراً السَّيِّءَ ثم ومكرَ السيِّءِ وقرىء بسكونِ الهمزةِ في الوصلِ ولعلَّه اختلاسٌ ظُنَّ سُكوتاً أو وقفةٌ خفيفةٌ وقرىء مكراً سيِّئاً ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ ﴾ أي ما ينتظرونَ ﴿ إِلاَّ سُنَّةَ الاْوَّلِينَ ﴾ أي سُنَّةَ اللهِ فيهم بتعذيبِ مكذِّبيهم ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ بأنْ يضعَ موضعَ العذابِ غيرَ العذابِ ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ بأنْ ينقلَه من المكذِّبين إلى غيرِهم. والفاءُ لتعليلِ ما يُفيدُه الحكمُ بانتظارِهم العذابَ من مجيئِه ونفيُ وجدانِ التَّبديلِ والتَّحويلِ عبارةٌ عن نفيِ

وجودِها بالطَّريقِ البُرهانِّي وتخصيص ُكلَ منُهما بنفيٍ مستقلَ لتأكيدِ انتفائِهما . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(100/642)

---

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السموات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾

استئناف مقرر لغاية قبح الشرك وهوله أي إن الله تعالى يحفظ السماوات والأرض كراهة زوالهما أو لا تزولا وتضمحلا فإن الممكن كما يحتاج إلى الواجب سبحانه حال إيجاده يحتاج إليه حال بقائه ، وقال الزجاج : ﴿ يُمْسِكُ ﴾ بمعنى يمنع و"أن تزولا" مفعوله على الحذف والإيصال لأنه يتعدى بمن أي يمنعهما من أن تزولا ، وفي البحر يجوز أن يكون أن تزولا بدل اشتمال من السماوات والأرض أي يمنع سبحانه زوال السماوات والأرض ، وفسر بعضهم الزوال بالانتقال عن المكان أي أن الله تعالى يمنع السماوات من أن تنتقل عن مكانها فترتفع أو تنخفض ويمنع الأرض أيضاً من أن تنتقل كذلك ، وفي أثر أخرجه عبد بن حميد . وجماعة عن ابن عباس ما يقتضيه ، وقيل : زوالهما دورانهما فهما ساكنتان والدائرة بالنجوم أفلاكها وهي غير السماوات ، فقد أخرج سعيد بن منصور .

وابن جرير .

وابن المنذر .

(101/642)

---

وعبد بن حميد عن شقيق قال : قيل لابن مسعود إن كعباً يقول : إن السماء تدور في قطبة مثل قطبة الرحى في عمود على منكب ملك فقال : كذب كعب إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ وكفى بها زوالاً أن تدور ، والمنصور عند السلف أن السماوات لا تدور وانها غير الافلاك ، وكثير من الإسلاميين ذهبوا إلى أنها تدور وأنها ليست غير الأفلاك ، وأما الأرض فلا خلاف بين المسلمين في سكونها والفلاسفة مختلفون والمعظم على السكون ، ومنهم من ذهب إلى أنها متحركة وأن الطلوع والغروب بحركتها ورد ذلك في موضعه ، والأولى في تفسير الآية ما سمعت أولا وكذا كونها مسوقة لما ذكرنا ، وقيل إنه تعالى لما بين فساد أمر الشركاء ووقف على الحجة في بطلانها عقب بذلك عظمته عز وجل وقدرته سبحانه ليتبين الشيء بضده وتتأكد حقارة الأصنام بذكر عظمة الله عز وجل ﴿ وَلَئِن زَالَتَا ﴾ أي ان أشرفتا على الزوال على سبيل الفرض والتقدير ، ويؤيده قراءة ابن أبي عبلة ﴿ وَلَوْ زَالَتَا ﴾ وقيل إن ذلك إشارة إلى ما يقع يوم

القيامة من طي السماوات ونسف الجبال .

﴿ إِنْ أَمْسَكَهُمَا ﴾ أي ما أمسكهما ﴿ مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد إمساكه تعالى أو من بعد الزوال ، والجملة جواب القسم المقدر قبل لام التوطئة في "لَئِن" وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه ، وأمسك بمعنى يمسك كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الذين أُوتُواْ الكتاب بِكُلِّ ءايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ﴾ [ البقرة : 145 ] ومن الأول مزيدة لتأكيد العموم والثانية للابتداء ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ فلذا حلم على المشركين وغفر لمن تاب منهم مع عظم جرمهم المقتضى لتعجيل العقوبة وعدم إمساك السماوات والأرض وتخريب العالم الذي هم فيه فلا يتوهم أن المقام يقتضي ذكر القدرة لا الحلم والمغفرة .

(102/642)

---

﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أيمانهم ﴾ أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم ﴿ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أهدى مِنْ إِحْدَى الامم ﴾ الضمائر لقريش ، وذلك أنهم بلغهم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم أن طائفة من أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا : لعن الله تعالى اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن جاءنا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم فكان منهم بعد ما كان فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ وَلَئِن

جَاءهُمْ ﴾ جاء على المعنى وإلا فهم قالوا : ﴿ جَاءَنَا ﴾ وكذا ﴿ لَيَكُونُنَّ ﴾ وإحدى بمعنى واحدة ، والظاهر أنها عامة وإن كانت نكرة في الإثبات لاقتضاء المقام العموم ، وتعريف ﴿ الامم ﴾ للعهد والمراد الأمم الذين كذبوا رسلهم أي لئن جاءنا نذير لنكونن أهدى من كل واحدة من الأمم اليهود والنصارى وغيرهم فنؤمن جميعاً ولا يكذب أحد منا أو المعنى لنكونن أهدى من أمة يقال فيها إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها من الأمم كما يقال هو واحد القوم وواحد عصره وكما قالوا هو أحد الأحدين وهي إحدى الأحد يريدون التفضيل في الدعاء والعقل ، قال الشاعر :

حتى استشاروا بي إحدى الأحد . . .

ليثا هزبرا ذا سلاح معتد

(103/642)

---

وقد نص ابن مالك في التسهيل على أنه قد يقال لما يستعظم مما لا نظير له هو إحدى الأحد لكن قال الدماميني في شرحه : إنما ثبت استعماله في احدى ونحوه المضاف إلى جمع مأخوذ من لفظه كاحدى الأحد وأحد الأحدين أو المضاف إلى وصف كاحد العلماء وإحدى الكبر أما في المضاف إلى أسماء الأجناس كالأمم فيحتاج إلى نقل ، وبحث فيه بأنه قد ثبت

استعمال إحدى في الاستعظام من دون إضافة أصلا فإنهم يقولون للداهية العظيمة هي إحدى من سبع أي احدى ليالي عاد في الشدة وشاع واحد قومه وأوحدهم وأوحد أمه ولم يظهر فارق بين المضاف إلى الجمع المأخوذ من اللفظ والمضاف إلى الوصف وبين المضاف إلى أسماء الأجناس ولا أظن أن مثل ذلك يحتاج إلى نقل فليتدبر .

وقال صاحب الكشف : إن دلالة ﴿ إِحْدَى الامم ﴾ على التفضيل ليست بواضحة بخلاف واحد القوم ونحوه ثم وجهها أنه على أسلوب .

أو يرتبط بعض النفوس حمامها .

يعني أن البعض المبهم قد يقصد به التعظيم كالتنكير فاحدى مثله ، وفيه أنه متى ثبت استعماله للاستعظام كانت دلالته على التفضيل في غاية الوضوح .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ وأي نذير وهو أشرف الرسل محمد صلى الله عليه وسلم كما روي عن ابن عباس .

وقتادة وهو الظاهر ، وعن مقاتل هو انشقاق القمر وهو أخفي من السها والمقام عنه يأبى ﴿ مَّا زَادَهُمْ ﴾ أي النذير أو مجيئه ﴿ إِلاَّ نُفُورًا ﴾ تباعدا عن الحق وهرباً منه ، وإسناد الزيادة إلى ذلك مجاز لأنه هو السبب لها .

والجملة جواب لما .

واستدل بالآية على حرفيتها لمكان النفي المانع عن عمل ما بعده فيها ، وفيه بحث ، وقوله تعالى :

(104/642)

---

﴿ استكبارا فِى الأرض ﴾ بدل من ﴿ نُفُورًا ﴾ وقال أبو حيان : الظاهر أنه مفعول من أجله ، ونقل الأول عن الأخفش ، وقيل : هو حال أي مستكبرين ﴿ وَمَكْرَ ﴾ هو الخداع الذي يرومونه برسول الله صلى الله عليه وسلم والكيد له ، وقال قتادة هو الشرك وروي ذلك عن ابن جريج ، وهو عطف على ﴿ واستكبروا استكبارا ﴾ وأصل التركيب وأن مكروا الشيء على أن ﴿ السيء ﴾ صفة لموصوف مقدر أي المكر المسيء ثم أقيم المصدر مقام أن والفعل وأضيف إلى ما كان صفة ، وجوز أن يكون عطفاً على ﴿ إِلاَّ نُفُورًا ﴾ وقرأ الأعمش .

وحمزة ﴿ السيء ﴾ باسكان الهمزة في الوصل إجراء له مجرى الوقف أو لتوالي الحركات وإجراء المنفصل مجرى المتصل ، وزعم الزجاج أن هذه القراءة لحن لما فيها من حذف الاعراب كما قال أبو جعفر .

وزعم محمد بن زيد أن الحذف لا يجوز في نثر ولا شعر لأن حركات الاعراب دخلت للفرق

بين المعاني ، وقد أعظم بعض النحويين أن يكون الأعمش قرأ بها ، وقال : إنما كان يقف على هذه الكلمة فغلط من أدى عنه ، والدليل على هذا أنها تمام الكلام ولذا لم يقرأ في نظيرها كذلك مع أن الحركة فيه أثقل لأنها ضمة بين كسرتين ، والحق أنها ليست بلحن ، وقد أكثر أبو علي في الحجة من الاستشهاد والاحتجاج للإسكان من أجل توالي الحركات والوصل بنية الوقف ، وقال ابن القشيري : ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أنه قرىء به فلا بد من جوازه ولا يجوز أن يقال لحن ، ولعمري أن الإسكان ههنا أحسن من الإسكان في ﴿ إلى بَارِئكُمْ ﴾ كما في قراءة أبي عمرو ، وروي عن ابن كثير ﴿ وَمَكْرَ ﴾ بهمزة ساكنة بعد السين وياء بعدها مكسورة وهو مقلوب السيء المخفف من السيء كما قال الشاعر :

ولا يجزون من حسن بسيء . . .

ولا يجزون من غلظ بلين

وقرأ ابن مسعود ﴿ مَكْرًا سَيّئًا ﴾ عطف نكرة على نكرة ﴿ ولاَ يَحِيقُ المكر ﴾ أي لا يحيط ﴿ السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ .

وقال الراغب : أي لا يصيب ولا ينزل ، وأياً ما كان فهو إنما ورد فيما يكره ، وزعم بعضهم أن أصل حلق حق فجيء بدل أحد المثلين بالألف نحو ذم وذام وزل وزال ، وهذا من ارسال المثل ومن أمثال العرب من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبا ، وعن كعب أنه قال لابن عباس : قرأت في التوراة من حفر مغواة وقع فيها قال : أنا وجدت ذلك في كتاب الله تعالى فقرأ الآية ، وفي الخبر " لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً فإن الله تعالى يقول ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ولا تبغوا ولا تعينوا باغياً فإن الله سبحانه يقول ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ [ يونس : 23 ] "

وقد حاق مكر هؤلاء بهم يوم بدر .

والآية عامة على الصحيح والأمور بعواقبها والله تعالى يمهل ولا يهمل ووراء الدنيا الآخرة وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، وبالجملة من مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلاً في الظاهر ففي الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك ، أسأل الله تعالى بحرمة حبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم أن يدفع ويرفع عنا مكر الماكرين وأن يعاملهم في الدارين بعدله إنه سبحانه القوى المتين .

وقرىء ﴿ وَلاَ يَحِيقُ ﴾ بضم الياء ﴿ المكر ﴾ بالنصب على أن يحيق من أحاق المتعدى وفاعله ضمير راجع إليه تعالى و﴿ يَحِيقُ المكر ﴾ مفعوله ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ ﴾ أي ما ينتظرون ، وهو مجاز بجعل ما يستقبل بمنزلة ما ينتظر ويتوقع ﴿ إِلا سُنَّتُ الاولين ﴾

أي إلا سنة الله تعالى فيهم بتعذيب مكذبيهم .

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ بأن يضع سبحانه موضع العذاب ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ بأن ينقل عذابه من المكذبين إلى غيرهم ، والفاء لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب من مجيئه ، ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفي وجودهما بالطريق البرهاني ، وتخصيص كل منهما بنفي مستقل لتأكيد انتفائهما ، والخطاب عام أو خاص به عليه الصلاة والسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

(106/642)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾

انتقال من نفي أن يكون لشركائهم خلق أو شركة تصرف في الكائنات التي في السماء والأرض إلى إثبات أنه تعالى هو القيّوم على السماوات والأرض لتبقَيَا موجودتَيْن فهو الحافظ بقدرته نظام بقائهما .

وهذا الإمساك هو الذي يعبر عنه في علم الهيئة بنظام الجاذبية بحيث لا يعْتريه خلل .

وعبر عن ذلك الحفظ بالإمساك على طريقة التمثيل .

وحقيقة الإِمساك : القبض باليد على الشيء بحيث لا ينفلت ولا يتفرق ، فمُثل حال حفظ نظام السماوات والأرض بحال استقرار الشيء الذي يُمسكه الممسك بيده ، ولمّا كان في الإِمساك معنى المنع عُدّي إلى الزوال بـ ﴿ مِن ﴾ ، وحذفت كما هو شأن حروف الجر مع ﴿ أنْ ﴾ و ﴿ أنّ ﴾ في الغالب ، وأكد هذا الخبر بحرف التوكيد لتحقيق معناه وأنه لا تسامح فيه ولا مبالغة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ويمسك السماء ﴾ في سورة الحج ( 65 ) .

ثم أشير إلى أن شأن الممكنات المصير إلى الزوال والتحول ولو بعد أدهار فعطف عليه قوله : ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ ، فالزوال المفروض أيضاً مراد به اختلال نظامهما الذي يؤدي إلى تطاحنهما .

والزوال يطلق على العدم ، ويطلق على التحول من مكان إلى مكان ، ومنه زوال الشمس عن كبد السماء ، وتقدم آخِرَ سورة إبراهيم .

وقد اختير هذا الفعل دون غيره لأن المقصود معناه المشترك فإن الله يُمسكهما من أن يُعْدما ، ويمسكهما من أن يتحول نظام حركتهما ، كما قال تعالى : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ﴾ [ يس : 40 ] .

فالله مريد استمرار انتظام حركة الكواكب والأرض على هذا النظام المشاهد المسمى بالنظام الشمسي وكذلك نظام الكواكب الأخرى الخارجة عنه إلى فلك الثوابت ، أي إذا أراد الله انقراض تلك العوالم أو بعضِها قيّض فيها طوارىء الخلل والفساد والخَرْق بعد الالتئام والفتق بعد الرتق ، فتفككت وانتشرت إلى ما لا يَعلم مصيره إلا الله تعالى وحينئذٍ لا يستطيع غيره مدافعة ذلك ولا إرجاعها إلى نظامها السابق فربما اضمحلت أو اضمحل بعضها ، وربما أخذت مسالك جديدة من البقاء .

وفي هذا إيقاظ للبصائر لتَعلم ذلك علماً إجمالياً وتتدبر في اتساق هذا النظام البديع .

فاللام موطئة للقسم .

والشرط وجوابه مقسم عليه ، أي محقق تعليق الجواب بالشرط ووقوعه عنده ، وجواب الشرط هو الجملة المنفية بـ ﴿ إن ﴾ النافية وهي أيضاً سادّة مسدّ جواب القسم .

وإذ قد تحقق بالجملة السابقة أن الله ممسكهما عن الزوال علم أن زوالهما المفروض لا يكون إلا بإرادة الله تعالى زوالهما وإلا لبطل أنه ممسكهما من الزوال .

وأسند فعل ﴿ زالتا ﴾ إلى ﴿ السماوات والأرض ﴾ على تأويل السماوات بسماء واحدة .

وأسند الزوال إليهما للعلم بأن الله هو الذي يزيلهما لقوله : ﴿ إن الله يمسك السماوات

والأرض أن تزولا ﴾ .

وجيء في نفي إمساك أحد بحرف ﴿ مِن ﴾ المؤكدة للنفي تنصيصاً على عموم النكرة في سياق النفي ، أي لا يستطيع أحد كائناً من كان إمساكهما وإرجاعهما .

و"من بعد" صفة ﴿ أحد ﴾ و ﴿ من ﴾ ابتدائية ، أي أحد ناشىء أو كائن من زمان بعده ، لأن حقيقة ( بعدٍ ) تأخر زمان أحد عن زمن غيره المضاففِ إليه ( بعد ) وهو هنا مجاز عن المغايرة بطريق المجاز المرسل لأن بعدية الزمان المضاف تقتضي مغايرة صاحب تلك البعدية ، كقوله تعالى : ﴿ فمن يهديه من بعد اللَّه ﴾ [ الجاثية : 23 ] ، أي غير الله فالضمير المضاف إليه ( بعد ) عائد إلى الله تعالى .

(108/642)

---

وهذا نظير استعمال ( وراءٍ ) بمعنى ( دون ) أو بمعنى ( غير ) أيضاً في قول النابغة :

وليس وراءَ الله للمرءِ مذهب

وفي ذكر إمساك السماوات عن الزوال بعد الإِطناب في محاجة المشركين وتفظيع غرورهم تعريض بأن ما يدعُون إليه من الفظاعة من شأنه أن يزلزل الأرضين ويسقط السماء كسفاً لولا أن الله أراد بقاءهما لحكمة ، كما في قوله تعالى : ﴿ لقد جئتم شيئاً إداً يكاد

السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ﴾ [ مريم : 89 ، 90 ] .

وهذه دلالة من مستتبعات التراكيب باعتبار مثار مقامات التكلم بها ، وهو أيضاً تعريض بالتهديد .

ولذلك أتبع بالتذييل بوصف الله تعالى بالحلم والمغفرة لما يشمله صفة الحليم من حلمه على المؤمنين أن لا يزعجهم بفجائع عظيمة ، وعلى المشركين بتأخير مؤاخذتهم فإن التأخير من أثر الحلم ، وما تقتضيه صفة الغفور من أن في الإمهال إعذاراً للظالمين لعلهم يرجعون كما قال النبي صلى الله عليه وسلم "لعل الله أن يُخرج من أصلابهم مَن يعبده" لما رأى مَلَك الجبال فقال له : "إن شئتَ أن أطبق عليهم الأَخشَبين" .

وفعل ﴿ كان ﴾ المخبر به عن ضمير الجلالة مفيد لتقرر الاتصاف بالصفتين الحسنيين .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ

هذا شيء حكاه القرآن عن المشركين فهو حكاية قول صدر عنهم لا محالة ، ولم يروَ خبر عن السلَف يعين صدور مقالتهم هذه ، ولا قائلها سوى كلام أثر عن الضحاك هو أشبه بتفسير الضمير من ﴿ أقسموا ﴾ ، وتفسير المراد ﴿ من إحدى الأمم ﴾ ولم يقل إنه سبب نزول .

وقال كثير من المُفسرين : إن هذه المقالة صدرت عنهم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا بلغهم أن اليهود والنصارى كذّبوا الرسل .

والذي يلوح لي: أن هذه المقالة صدرت عنهم في مجاري المحاورة أو المفاخرة بينهم وبين بعض أهل الكتاب ممن يقدم عليهم بمكة، أو يقدمون هم عليهم في أسفارهم إلى يثرب أو إلى بلاد الشام، فربما كان أهل تلك البلدان يدعون المشركين إلى اتباع اليهودية أو النصرانية ويصغرون الشرك في نفوسهم، فكان المشركون لا يجرأون على تكذيبهم لأنهم كانوا مرموقين عندهم بعين الوقار إذ كانوا يفضُلُونهم بمعرفة الديانة وبأنهم ليسوا أميين وهم يأبون أن يتركوا دين الشرك فكانوا يعتذرون بأن رسول القوم الذين يدعونهم إلى دينهم لم يكن مرسلاً إلى العرب ولو جاءنا رسول لكنا أهدى منكم، كما قال تعالى: ﴿أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم﴾ [الأنعام: 157].

والأظهر أن يكون الداعون لهم هم النصارى لأن الدعاء إلى النصرانية من شعار أصحاب عيسى عليه السلام فإنهم يقولون: إن عيسى أوصاهم أن يرشدوا بني الإِنسان إلى الحق وكانت الدعوة إلى النصرانية فأشبه في بلاد العرب أيام الجاهلية وتنصرت قبائل كثيرة مثل تغلب، ولخم، وكلب، ونجران، فكانت هذه الدعوة إن صح إِيصَاء عيسى عليه السلام بها دعوةَ إرشاد إلى التوحيد لا دعوة تشريع، فإذا ثبتت هذه الوصية فما أراها إلا توطئة

لدين يجيء تعمّ دعوته سائر البشر ، فكانت وصيته وسطاً بين أحوال الرسل الماضين إذ كانت دعوتهم خاصة وبين حالة الرسالة المحمدية العامة لكافة الناس عزماً .

أما اليهود فلم يكونوا يدعون الناس إلى اليهودية ولكنهم يقبلون من يتهود كما تهود عرب اليمن .

:

وأحسب أن الدعوة إلى نبذ عبادة الأصنام ، أو تشهير أنها لا تستحق العبادة ، لا يخلو عنها علماءُ موحِّدون ، وبهذا الاعتبار يصح أن يكون بعض النصاح من أحبار يهود يثرب يعرض لقريش إذا مروا على يثرب بأنهم على ضلال من الشرك فيعتذرون بما في هذه الآية .

*(110/642)*

---

وهي تساوق قوله تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنّا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾ [الأنعام : 155 157 ] .

فيتضح بهذا أن هذه الآية معطوفة على ما قبلها من أخبار ضلال المشركين في شأن الربوبية

وفي شأن الرسالة والتديّن ، وأن ما حكي فيها هو من ضلالاتهم ومجازفتهم .

والقَسَم بين أهل الجاهلية أكثره بالله ، وقد يقسمون بالأصنام وبآبائهم وعَمرهم .

والغالب في ذلك أن يقولوا : باللات والعزى ، ولذلك جاء في الحديث : " مَن حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله " أي من جرى على لسانه ذلك جريَ الكلام الغالب وذلك في صدر انتشار الإِسلام .

وجَهد اليمين : أبلغها وأقواها .

وأصله من الجَهد وهو التعب ، يقال : بلغ كذا مِنّي الجَهد ، أي عملته حتى بلغ عملُه مني تعبي ، كناية عن شدة عزمه في العمل .

فَجهْد الأيمان هنا كناية عن تأكيدها ، وتقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ في سورة [ العقود : 53 ] ، وتقدم في سورة الأنعام وسورة النحل وسورة النور .

وانتصب جهد ﴾ على النيابة عن المفعول المطلق المبين للنوع لأنه صفة لِما كان حقه أن يكون مفعولاً مطلقاً وهو ﴿ أيمانهم ﴾ إذ هو جمع يمين وهو الحلف فهو مرادف ل ﴿ أقَسموا ﴾ ، فتقديره : وأقسموا بالله قسماً جهداً ، وهو صفة بالمصدر أضيفت إلى موصوفها .

وجملة ﴿ لئن جاءهم نذير ﴾ الخ بيان لجملة ﴿ أقسموا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فوسوس

إليه الشيطان قال يا آدم الآية ﴾ [ طه : 120 ] .

وعبر عن الرسول بالنذير لأن مجادلة أهل الكتاب إياهم كانت مشتملة على تخويف وإنذار ، ولذلك لم يقتصر على وصف النذير في قوله تعالى : ﴿ أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ [ المائدة : 19 ] .

(111/642)

---

وهذا يرجح أن تكون المجادلة جرت بينهم وبين بعض النصارى لأن الإنجيل معظمه نذارة .

و ﴿ إحدى الأمم ﴾ أمة من الأمم ذات الدين ؛ فإن عنوا بها أمة معروفة : إمّا الأمة النصرانية ، وإما الأمة اليهودية ، أو الصابئة كان التعبير عنها بـ ﴿ إحدى الأمم ﴾ إبهاماً لها يحتمل أن يكون إبهاماً من كلام المقسمين تجنباً لمجابهة تلك الأمة بصريح التفضيل عليها ، ويحتمل أن يكون إبهاماً من كلام القرآن على عادة القرآن في الترفع عما لا فائدة في تعيينه إذ المقصود أنهم أشهدوا الله على أنهم إن جاءهم رسول يكونوا أسبق من غيرهم اهتداء فإذا هم لم يشموا رائحة الاهتداء .

ويحتمل أن يكون فريق من المشركين نظَّروا في قَسَمهم بهدي اليهود ، وفريق نظَّروا بهدي النصارى ، وفريق بهدي الصابئة ، فجَمعت عبارة القرآن ذلك بقوله : ﴿ من إحدى الأمم

﴿ ليأتي على مقالة كل فريق مع الإِيجاز.

وذكر في "الكشاف" وجهاً آخر أن يكون ﴿ إحدى الأمم ﴾ بمعنى أفضل الأمم، فيكون من تعبير المقسمين، أي أهدى من أفضل الأمم، ولكنه بناه على التنظير بما ليس له نظير، وهو قولهم: إحدى الإِحَد (بكسر الهمزة وفتح الحاء في الإِحَد) ولا يتم التنظير لأن قولهم: إحدى الإِحَد، جرى مجرى المثل في استعظام الأمر في الشرّ أو الخير.

وقرينة إرادة الاستعظام إضافة "إحدى" إلى اسم من لفظها فلا يقتضي أنه معنى يراد في حالة تجرد ﴿ إحدى ﴾ عن الإضافة.

وبين: ﴿ أهدى ﴾ و ﴿ إحدى ﴾ الجناس المحرِّف.



---

وهذه الآية وغيرها وما يؤثر من تنصُّر بعض العرب ومن اتساع بعضهم في التحنف يدل على أنهم كانوا يعلمون رسالة الرسل، وأما ما حكي عنهم في قوله تعالى: ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ [الأنعام: 91]، فذلك صدر منهم في الملاجّة والمحاجّة لما لزمتهم الحجة بأن الرسل من قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا من البشر وكانت أحوالهم أحوال البشر مثل قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين

إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ [ الفرقان : 20 ] فلجأوا إلى إنكار أن يوحي الله إلى بشر شيئاً .

وأما ما حكي عنهم هنا فهو شأنهم قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم

والنذير : المنذر بكلامه .

فالمعنى : فلما جاءهم رسول وهو محمد صلى الله عليه وسلم ولم يكن جاءهم رسول قبله كما قال تعالى : ﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ [ القصص : 46 ] وهذا غير القسم المحكي في قوله تعالى : "وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها" .

والزيادة : أصلها نماء وتوفر في ذوات .

وقد يراد بها القوة في الصفات على وجه الاستعارة كقوله تعالى : ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ [ التوبة : 125 ] .

ومن ثمة تطلق الزيادة أيضاً على طروّ حال على حال ، أو تغيير حال إلى غيره كقوله تعالى : ﴿ فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ [ النبأ : 30 ] .

وتطلق على ما يطرأ من الخير على الإنسان وإن لم يكن نوعه عنده من قبل كقوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [ يونس : 26 ] ، أي وعطاء يزيد في خيرهم .

ولما كان مجيء الرسول يقتضي تغير أحوال المرسل إليهم إلى ما هو أحسن كان الظنّ بهم لَمَّا أقسموا قسمهم ذلك أنهم إذا جاءهم النذير اهتَدوا وازدَادُوا من الخير أن كانوا على شأن

من الخير فإن البشر لا يخلو من جانب من الخير قوي أو ضعيف فإذا بهم صاروا نافرين من الدين الذي جاءهم .

(113/642)

---

والاستثناء مفرغ من مفعول ﴿ زادهم ﴾ المحذوف ، أي ما أفادهم صلاحاً وحالاً أو نحو ذلك إلا نفوراً فيكون الاستثناء في قوله : ﴿ إلا نفوراً ﴾ من تأكيد الشيء بما يُشبه ضده لأنهم لم يكونوا نافرين من قبل .

ويحتمل أن يكون المراد أنهم لما أقسموا : ﴿ لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى ﴾ كان حالهم حال النفور من قبول دعوة النصارى إياهم إلى دينهم أو من الاتعاظ بمواعظ اليهود في تقبيح الشرك فأقسموا ذلك القسم تفصياً من المجادلة ، وباعثهم عليه النفور من مفارقة الشرك ، فلما جاءهم الرسول ما زادهم شيئاً وإنما زادهم نفوراً ، فالزيادة بمعنى التغيير والاستثناء تأكيد للشيء بما يشبه ضده .

والنفور هو نفورهم السابق ، فالمعنى لم يزدهم شيئاً وحَالهم هي هي .

وضمير ﴿ زادهم ﴾ عائد إلى رسول أو إلى المجيء المأخوذ من ﴿ جاءهم ﴾ .

وإسناد الزيادة إليه على كلا الاعتبارين مجاز عقلي لأن الرسول أو مجيئه ليس هو يزيدهم

ولكنه سبب تقوية نفورهم أو استمرار نفورهم .

و﴿ استكبارا ﴾ بدل اشتمال من ﴿ نفوراً ﴾ أو مفعول لأجله ، لأن النفور في معنى الفعل فصحّ إعماله في المفعول له .

والتقدير : نفروا لأجل الاستكبار في الأرض .

والاستكبار : شدة التكبر ، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل استجاب .

والأرض : موطن القوم كما في قوله تعالى : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾ [ الأعراف : 88 ] أي بلدنا ، فالتعريف في ﴿ الأرض ﴾ للعهد .

والمعنى : أنهم استكبروا في قومهم أن يتبعوا واحداً منهم .

﴿ ومكر السيىء ﴾ عطف على ﴿ استكباراً ﴾ بالوجوه الثلاثة ، وإضافة ﴿ مكر ﴾ إلى ﴿ السيىء ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة مثل : عِشَاء الآخرة .

وأصله : أن يمكروا المكر السيّىء بقرينة قوله : ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ .

(114/642)

---

والمكر : إخفاء الأذى وهو سيِّىء لأنه من الغدر وهو مناف للخلق الكريم ، فوصفه بالسيّىء وصف كاشف ، ولَعل التنبيهَ إلى أنه وصف كاشف هو مقتضى إضافة

الموصوف إلى الوصف لإظهار ملازمة الوَصف للموصوف فلم يقل : ومكراً سيئاً ( ولم يرخص في المكر إلا في الحرب لأنها مدخول فيها على مثله ) أي مكراً بالنذير وأتباعه وهو مكر ذميم لأنه مقابلة المتسبب في صلاحهم بإضمار ضره .

وقد تبين كذبهم في قسمهم إذ قالوا : "لئن جاءنا نذير لنكونن أهدى منهم" وأنهم ما أرادوا به إلا التفصّي من اللوم .

وجملة ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ تذييل أو موعظة .

و﴿ يحيق ﴾ : ينزل به شيء مكروه حاق به ، أي نزل وأَحاط إحاطة سوء ، أي لا يقع أثره إلا على أهله .

وفيه حذف مضاف تقديره : ضر المكر السّيىء أو سوء المكر السيىء كما دل عليه فعل ﴿ يحيق ﴾ ؛ فإن كان التعريف في ﴿ المكر ﴾ للجنس كان المراد بـ "أهله" كل ماكر .

وهذا هو الأنسب بموقع الجملة ومحمِلها على التذييل ليعم كل مكر وكل ماكر ، فيدخل فيه الماكرون بالمسلمين من المشركين ، فيكون القصر الذي في الجملة قصراً ادعائياً مبنيّاً على عدم الاعتداد بالضر القليل الذي يحيق بالممكور به بالنسبة لما أعده الله للماكر في قدره من ملاقاة جزائه على مَكره فيكون ذلك من النواميس التي قدَّرها القدر لنظام هذا العالم لأن أمثال هذه المعاملات الضارة تؤول إلى ارتفاع ثقة الناس بعضهم ببعض والله بنى نظام هذا العالم على تعاون الناس بعضهم مع بعض لأن الإِنسان مدني بالطبع ، فإذا لم يأمن أفراد

الإنسان بعضهم بعضاً تنكَّر بعضهم لبعض وتبادروا الإِضرار والإِهلاك ليفوز كل واحد بكيد الآخر قبل أن يَقع فيه فيفضي ذلك إلى فساد كبير في العالم والله لا يحب الفساد ، ولا ضر عبيده إلا حيث تأذن شرائعه بشيء ، ولهذا قيل في المثل : "وما ظالم إلا سيُبلى بظالم" .

وقال الشاعر :

لكل شيء آفة من جنسه

حتى الحديدُ سطا عليه المِبْرَد . . .

(115/642)

---

وكم في هذا العالم من نواميس مغفول عنها ، وقد قال الله تعالى : ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ [ البقرة : 205 ] .

وفي كتاب ابن المبارك في الزهد بسنده عن الزهري بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تمكر ولا تُعِن ماكراً فإن الله يقول ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ " ومن كلام العرب "من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً" ، ومن كلام عامة أهل تونس (يا حافرْ حُفرة السّوْء ما تحفر إلا قِيَاسكَ" .

وإذا كان تعريف ﴿ المكر ﴾ تعريف العهد كان المعنى : ولا يحيق هذا المكر إلا بأهله ، أي الذين جاءهم النذير فازدادوا نفوراً ، فيكون موقع قوله : ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ موقع الوعيد بأن الله يدفع عن رسوله صلى الله عليه وسلم مكرهم ويحيق ضر مكرهم بهم بأن يسلط عليهم رسوله على غفلة منهم كما كان يوم بدر ويوم الفتح ، فيكون على نحو قوله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر اللَّه واللَّه خير الماكرين ﴾ [آل عمران : 54] فالقصر حقيقي .

فكم انهالت من خلال هذه الآية من آداب عمرانية ومعجزات قرآنية ومعجزات نبوية خفية .

واعلم أن قوله تعالى : ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ قد جُعل في علم المعاني مثالاً للكلام الجاري على أسلوب المساواة دون إيجاز ولا إطناب .

وأول من رأيته مثَّل بهذه الآية للمساواة هو الخطيب القزويني في "الإِيضاح" وفي "تلخيص المفتاح" ، وهو مما زاده على ما في "المفتاح" ولم يمثل صاحب "المفتاح" للمساواة بشيء ولم أدر من أين أخذه القزويني فإن الشيخ عبد القاهر لم يذكر الإِيجاز والإِطناب في كتابه .

وإذ قد صرح صاحب "المفتاح" "أن المساواة هي متعارف الأوساط وأنه لا يحمد في باب البلاغة ولا يذم" فقد وجب القطع بأن المساواة لا تقع في الكلام البليغ بَلْه المعجز .

ومن العجيب إقرار العلامة التفتازاني كلام صاحب "تلخيص المفتاح" وكيف يكون هذا من المساواة وفيه جملة ذات قصر والقصر من الإيجاز لأنه قائم مقام جملتين : جملة إثبات للمقصود ، وجملة نفيه عما سواه ، فالمساواة أن يقال : يحيق المكر السّيّىء بالماكرين دون غيرهم ، فما عدل عن ذلك إلى صيغة القصر فقد سلك طريقة الإيجاز .

وفيه أيضاً حذف مضاف إذ التقدير : ولا يحيق ضر المكر السّيّىء إلا بأهله على أن في قوله : ﴿ بأهله ﴾ إيجازاً لأنه عوض عن أن يقال : بالذين تقلدوه .

والوجه أن المساواة لم تقع في القرآن وإنما مواقعها في محادثات الناس التي لا يعبأ فيها بمراعاة آداب اللغة .

وقرأ حمزة وحده ﴿ ومكر السيىء ﴾ بسكون الهمزة في حالة الوصل إجراء للوصل مجرى الوقف .

﴿ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ ٱلأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ﴾ .

تفريع على جملة ﴿ فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ﴾ الآية .

ويجوز أن يكون تفريعاً على جملة ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ على الوجه الثاني في تعريف ﴿ المكر ﴾ وفي المراد بـ ﴿ بأهله ﴾ ، أي كما مكر الذين من قبلهم فحاق بهم مكرُهم كذلك هؤلاء .

و﴿ ينظرون ﴾ هنا من النظر بمعنى الانتظار.

كقول ذي الرُّمة:

وشُعثٍ ينظُرون إلى بلالِ

كما نَظَر العِطاش حيَا الغمام...

فقوله: "إلى" مفرد مضاف، وهو النعمة وجمعه آلاء.

ومعنى الانتظار هنا: أنهم يستقبلون ما حلّ بالمكذبين قَبلهم، فشبه لزوم حلول العذاب بهم بالشيء المعلوم لهم المنتظر منهم على وجه الاستعارة.

والسُّنَّة: العادة: والأوّلون: هم السابقون من الأمم الذين كذبوا رسلهم، بقرينة سياق الكلام.

و﴿ سنة ﴾ مفعول ﴿ ينظرون ﴾ وهو على حذف مضاف.

تقديره: مِثلَ أو قِياسَ، وهذا كقوله تعالى: ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ [يونس: 102].

والفاء في قوله : ﴿ فلن تجد لسنت اللَّه تبديلاً ﴾ فاء فصيحة لأن ما قبلها لمّا ذكّر الناس بسنة الله في المكذبين أفصح عن اطّراد سنن الله تعالى في خلقه .

والتقدير : إذا علموا ذلك فلن تجد لسنة الله تبديلاً .

و﴿ لن ﴾ لتأكيد النفي .

والخطاب في ﴿ تجد ﴾ لغير معيّن فيعم كل مخاطب ، وبذلك يتسنّى أن يسير هذا الخبر مسير الأمثال .

وفي هذا تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم وتهديد للمشركين .

والتبديل : تغيير شيء وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ﴾ في سورة [ النساء : 2 ] .

والتحويل : نقل الشيء من مكان إلى غيره ، وكأنه مشتق من الحَوْل وهو الجانب .

والمعنى : أنه لا تقع الكرامة في موقع العقاب ، ولا يترك عقاب الجاني .

وفي هذا المعنى قول الحكماء : ما بالطبع لا يتخلف ولا يختلف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾

يدل على أن المكر هنا شيء غير السيئ أضيف إلى السيئ للزوم المغايرة بين المضاف والمضاف إليه .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ يدل على أن المراد بالمكر هنا هو السيئ بعينه لا شيء آخر فالتنافي بين التركيب الإضافي والتركيب التقييدي ظاهر .

والذي يظهر والله تعالى أعلم أن التحقيق جواز إضافة الشيء إلى نفسه إذا اختلفت الألفاظ لأن المغايرة بين الألفاظ ربما كفت في المغايرة بين المضاف والمضاف إليه كما جزم به ابن جرير في تفسيره في غير هذا الموضع ويشير إليه ابن مالك في الخلاصة بقوله:

حتما وإلا أتبع الذي ردف

وإن يكونا مفردين فأضف

وأما قوله:

معنى وأوِّل مُوهِماً إذا ورد

ولا يضاف اسم لما به اتحد

فالذي يظهر فيه بعد البحث أنه لا حاجة إلى تأويله مع كثرته في القرآن واللغة العربية

فالظاهر أنه أسلوب من أساليب العربية بدليل كثرة وروده كقولنا هنا : ﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾

والمكر هو السيئ بدليل قوله: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ ﴾ الآية .

وكقوله: ﴿ وَالدَّارُ الآخِرَةُ ﴾ والدار هي الآخرة وكقوله: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ والشهر هو رمضان على التحقيق .

وكقوله: ﴿ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ والحبل هو الوريد ونظيره من كلام العرب قول عنترة في معلقته:

بالسيف عن حامي الحقيقة معلم

ومشك سابغة هتكت فروجها

فأصل المشك بالكسر السير الذي تشد به الدرع ولكن عنترة هنا أراد به نفس الدرع وأضافه إليها كما هو واضح من كلامه لأن الحكم بهتك الفروج واقع على الدرع لا على السير الذي تشد به كما جزم به بعض المحققين وهو ظاهر خلافا لظاهر كلام صاحب تاج العروس فإنه أورد بيت عنترة شاهدا لأن المشك السير الذي تشد به الدرع بل المشك في بيت عنترة هذا على التحقيق هو السابغة وأضيف إليها على ما ذكرنا .

وقول امرئ القيس:

غذاؤها نمير الماء غير المحلل

كبكر المقاناة البياض بصفرة

فالبكر هي المقاناة على التحقيق وأما على ما ذهب إليه ابن مالك فالجواب تأويل المضاف بأن المراد به مسمى المضاف إليه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 246. 248 ﴾

(120/642)

---

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى:

(بصيرة فى الإمساك)

وقد ورد فى النصّ على سبعة أَوجه:

الأَوّل: بمعنى رَجعة المطلّق بعد الطَّلاق ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أَى مراجعة.

الثانى: بمعنى الحبس: ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ﴾ أَى احتبسوهنّ.

الثالث: بمعنى البخل: ﴿ إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ ﴾ أَى بخلتم.

الرابع: بمعنى الحفظ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ ﴾ ، ﴿ وَيُمْسِكُ

السَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ أى يحفظ .

الخامس : بمعنى المنع : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ أَى فلا مانع ؛ ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ .

السّادس : بمعنى الاستيثاق بالشئ والتعلّق به : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ أى تعلَّق وتمسّك .

السَّابع : بمعنى العمل بالشئ : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ أَى اعمل به .

ويقال : مسك به ، وأَمسك ، وتماسك ، ومَسَّك ، واستمسك ، وتمسك أَى احتبس [واعتصم به] قال الشاعر :

*ودَعت إِلْفى وفى يدى يدُهُ * مثل غريق به تمسّكت*

*فراح عنى وراحتى عَطِرت * كأَنَّنى بعده تمسّكت*

والمُسْكة : ما يتمسّك به ، وما يُمسِك الأَبدان من الغِذاء والشَّراب .

وقيل : ما يتبلَّغ به منهما .

والمُسْكة أَيضاً ، والمَسِيك : العقل الوافر .

ورجل مَسِيك ، ومِسّيك ، ومُسَكة - كهُمَزة - ومُسُك - بضمّتين - : بخيل .

وفيه مُسْكة ، ومُسُكة ، ومَساك ، ومِسَاك ، ومِسَاكة وإِمساك : بُخْل .

والمَسَك والمَسَاك ، والمَسِيك : موضع يُمسِك الماءَ .

والمَسَكُ : الذبْل المشدود على المِعْصَم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 103.102 ﴾

(121/642)

---

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾

أمسكها بقدرته ، وأتقنهما بحكمته ، ورتَّبهما بمشيئته ، وخلَقَ أهلَهما على موجب قضيته ، فلا شبيهَ في أبقائها وإفنائهما يُساهِمه ، ولا شريكَ في وجودِهما ونظامهما يُقَاسِمُه .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِى الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ .

ليس لقولهم تحقيق ، ولا لِعَهْدِهم وضمانهم توثيق ، وما يَعِدُون من أَنفسهم فصريحُ زُورٍ ، وما يُوهِمُون مِنْ وفائهم فَصِرْفُ تغريرٍ . وكذلك المريدُ في أوان نشاطه تُمَنِّيه نَفْسُه فتظاهر

أمام مَنْ تقدّمه حالاً بأنه عاهد الله ، وأنه أَكَّدَ عقده مع الله . . فإذا عَضَتْه شهوتُه ، وأراد الشيطانُ أن يكذبه صرَعَه بكيده ، وأركسه في هوة غَيّة ، ومُنْيَةِ نَفْسِه ؛ فيسودُّ وَجْهُه ، وتذهب عند اللَّهِ وجاهتُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 209 . 210﴾

(122/642)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والأربعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/643)

---

الجزء الثالث والأربعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 44 ﴾ من سورة فاطر

وحتى الآية ﴿ 45 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/643)

---

قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (44) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (45) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بيّن أن حالهم موجب ولا بد للإيقاع بهم لما ثبت من أيام الله ، وأنكر ذلك عليهم ، وكان التقدير : ألم يسمعوا أخبار الأولين المرة وأحوالهم المستمرة من غير تخلف اصلاً في أن من كذب رسولاً أخذ ، فقال عاطفاً عليه استشهاداً على الخبر عن سنته في الأولين بما يذكر من آثارهم : ﴿ أولم يسيروا ﴾ أي فيما مضى من الزمان ﴿ في الأرض ﴾ أي التي ضربوا في المتاجر بالسير إليها في الشام واليمن والعراق ﴿ فينظروا ﴾ أي فيتسبب لهم عن ذلك السير أنه يتجدد لهم نظر واعتبار يوماً من الأيام ، فإن العاقل من إذا رأى شيئاً تفكر فيه حتى يعرف ما ينطق به لسان حاله إن خفي عنه ما جرى من مقاله ، وأشار بسوقه في أسلوب الاستفهام إلى أنه لعظمه خرج عن أمثاله فاستحق السؤال عن حاله ﴿ كيف كان عاقبة ﴾ أي آخر أمر ﴿ الذين ﴾ ولما كان عواقب الدمار في بعض ما مضى من الزمان ، أثبت الجار فقال : ﴿ من قبلهم ﴾ أي على أيّ حالة كان أخذهم ليعلموا أنهم ما أخذوا إلا بتكذيب الرسل فيخافوا أن يفعلوا مثل أفعالهم فيكون حالهم كحالهم ، وهذا معنى يس ﴿ أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ [ يس : 31 ] سواء كما يأتي أن شاء الله تعالى بيانه .

(5/643)

ولما كان السياق لاتصافهم بقوتي الظاهر من الاستكبار والباطن من المكر الضار مكّن قوة الذين خوفهم بمثل مآلهم بوصفهم بالأشدية في جملة حالية فقال : ﴿ وكانوا ﴾ أي أهلكناهم لتكذيبهم رسلنا والحال أنهم كانوا ﴿ أشد منهم ﴾ أي من هؤلاء ﴿ قوة ﴾ في قوتي الاستكبار والمكر الجارّ بعد العار إلى النار .

ولما كان التقدير : فما أعجز الله أمر أمة منهم ، ولا أمر أحد من أمة حين كذبوا رسولهم ، وما خاب له ولي ولا ربح ولا عدو ، عطف عليه قوله ، مؤكداً إشارة إلى تكذيب الكفرة في قطعهم بأن دينهم لا يتغير ، وأنهم لا يغلبون أبداً لما لهم من الكثرة والمكنة وما للمسلمين من القلة والضعف : ﴿ وما كان الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة ؛ وأكد الاستغراق في النفي بقوله : ﴿ ليعجزه ﴾ أي مريداً لأن يعجزه ، ولما انتفت إرادة العجز فيه انتفى العجز بطريق الأولى ! وأبلغ في التأكيد بقوله : ﴿ من شيء ﴾ أي قل أو جل ! وعم بما يصل إليه إدراكنا بقوله : ﴿ في السماوات ﴾ أي جهة العلو ، وأكد بإعادة النافي فقال : ﴿ ولا في الأرض ﴾ أي جهة السفل .

ولما كان منشأ العجز الجهل ، علل بقوله مؤكداً لما ذكر في أول الآية : ﴿ إنه كان ﴾ أي أزلاً وأبداً ﴿ عليماً ﴾ أي شامل العلم ﴿ قديراً ﴾ أي كامل القدرة ، فلا يريد شيئاً إلا كان .

ولما كانوا يستعجلون بالتوعد استهزاء فيقولون : ما له لا يهلكنا ، علم أن التقدير : لو عاملكم الله معاملة المؤاخذ لعجل إهلاككم ، فعطف عليه قوله إظهاراً للحكم مع العلم :

﴿ ولن يؤاخذ الله ﴾ أي بما له من صفات العلو ﴿ الناس ﴾ أي من فيه نوس أي حركة واضطراب من المكلفين عامة .

(6/643)

---

ولما كان السياق هنا لأفعال الجوارح لأن المكر والكبر إنما تكره آثارهما لا الاتصاف بهما ، بخلاف الذي هو سياق النحل فإنه ممنوع من الاتصاف وإن لم يظهر به أثر من آثار الجوارح ، عبر هنا بالكسب وفك المصدر ليخص ما وجد منه بالفعل فقال : ﴿ بما كسبوا ﴾ أي من جميع أعمالهم سواء كان حراماً أو لا ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ أي الأرض ﴿ من دآبة ﴾ أي بل كان يهلك الكل ، أما المكلفون فلأنه ليس في أعمالهم شيء يقدره سبحانه حق قدره ، لما لهم من النقص ولما له سبحانه من العلو والارتقاء والكمال ، وأما غيرهم فإنما خلقوا لهم ، والمعاصي تزيل النعم وتحل النقم ، وذلك كما فعل في زمان نوح عليه السلام ، لم ينج ممن كان على الأرض غير من كان في السفينة ﴿ ولكن ﴾ لم يعاملهم معاملة المؤاخذ المناقش ، بل يحلم عنهم فهو ﴿ يؤخرهم ﴾ أي في الحياة الدنيا ثم في البرزخ ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ أي سماه في الأزل لانقضاء أعمارهم ثم لبعثهم من قبورهم ، وهو لا يبدل القول لديه لما له من الصفات التي هي أغرب الغريب عندكم لكونكم لا تدركونها حق الإدراك ﴿ فإذا جاء

أجلهم ﴾ أي الفنائي الإعدامي قبض كل واحد منهم عند أجله ، أو الإيجابي الإبقائي بعث كلاًّ منهم فجازاه بعمله من غير وهم ولا عجز .

ولما كانوا ينكرون ما يفهمه ذلك من البعث ، أكد فقال : ﴿ فإن الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال الموجد بتمام القدرة وكمال الاختيار ﴿ كان ﴾ ولم يزل .

(7/643)

---

ولما كان السياق للكسب الذي هو أعم من الظلم قال : ﴿ بعباده ﴾ الذين أوجدهم ولا شريك له في إيجاد أحد منهم بجميع ذواتهم واحوالهم ﴿ بصيراً ﴾ أي بالغ البصر والعلم بمن يستحق العذاب منهم بالكسب ومن يستحق الثواب ، فقد انطبق آخرها كما ترى على أولها باستجماع صفات الكمال وتمام القدرة على كل من الإيجاد والإعدام للحيوان والجماد مهما أراد بالاختيار ، لما شوهد له سبحانه من الآثار ، كما وقع الإرشاد إليه بالأمر بالسير وبغيره وبما ختمت به السورة من صفة العلم على وجه أبلغ من ذكره بلفظه ، لما مضى في سورة طه من أن إحاطة العلم تستلزم شمول القدرة ، ولا تكون القدرة شاملة إلا إذا كانت عن اختيار ، فثبت حينئذ استحقاقه تعالى لجميع المحامد ، فكانت عنه سبحانه الرسالات الهائلة الجامعة للعزة والحكمة بالملائكة المجردين عن الشهوات وكل حظ

إلى من ناسبهم من البشر بما غلب من جيش عقله على عساكر شهواته ونفسه ، حتى صار عقلاً مجرداً صافياً ، حاكماً على الشهوات والحظوظ قاهراً كافياً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 236 . 238 ﴾

(8/643)

---

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ .

لما ذكر أن للأولين سنة وهي الإهلاك نبههم بتذكير حال الأولين فإنهم كانوا مارين على ديارهم رائين لآثارهم وأملهم كان فوق أملهم وعملهم كان دون عملهم ، أما الأول فلطول أعمارهم وشدة اقتدارهم ، وأما عملهم فلأنهم لم يكذبوا مثل محمد ولا محمداً وأنتم يا أهل مكة كذبتم محمداً ومن تقدمه ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ قد ذكرناه في سورة الروم ، بقي فيه أبحاث :

الأول : قال هناك : ﴿ كَانُواْ أَشَدَّ ﴾ [ الروم : 9 ] من غير واو ، وقال ههنا بالواو فما

الفرق ؟ نقول قول القائل : أما رأيت زيداً كيف أكرمني وأعظم منك ، يفيد أن القائل يخبره بأن زيداً أعظم ، وإذا قال : أما رأيته كيف أكرمني هو أعظم منك يفيد أنه تقرر أن كلا المعنيين حاصل عند السامع كأنه رآه أكرمه ورآه أكبر منه ولا شك أن هذه العبارة الأخيرة تفيد كون الأمر الثاني في الظهور مثل الأول بحيث لا يحتاج إلى إعلام من المتكلم ولا إخبار ، إذا علمت هذا فنقول المذكور ههنا كونهم أشد منهم قوة لا غير ، ولعل ذلك كان ظاهراً عندهم فقال بالواو أي نظركم كما يقع على عاقبة أمرهم يقع على قوتهم ، وأما هناك فالمذكور أشياء كثيرة فإنه قال : ﴿ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأرض وَعَمَرُوهَا ﴾ [ الروم : 9 ] وفي موضع آخر قال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِى الأرض ﴾ [ غافر : 82 ] ولعل علمهم لم يحصل بإثارتهم الأرض أو بكثرتهم ولكن نفس القوة ورجحانهم فيما عليهم كان معلوماً عندهم فإن كل طائفة تعتقد فيمن تقدمهم أنهم أقوى منهم ولا نزاع فيه .

(9/643)

---

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِن شَىْءٍ فِى السموات وَلاَ فِى الأرض إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون بياناً لهم أي أن الأولين مع شدة قوتهم ما

أعجزوا الله وما فاتوه فهم أولى بأن لا يعجزوه والثاني : أن يكون قطعاً لأطماع الجهال فإن قائلاً لو قال : هب أن الأولين كانوا أشد قوة وأطول أعماراً لكنا نستخرج بذكائنا ما يزيد على قواهم ونستعين بأمور أرضية لها خواص أو كواكب سماوية لها آثار فقال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِى السموات وَلاَ فِى الأرض إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً ﴾ بأفعالهم وأقوالهم : ﴿ قَدِيراً ﴾ على إهلاكهم واستئصالهم .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى

لما خوف الله المكذبين بمن مضى وكانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم يستعجلون بالعذاب ويقولون عجل لنا عذابنا فقال الله : للعذاب أجل والله لا يؤاخذ الناس بنفس الظلم فإن الإنسان ظلوم جهول ، وإنما يؤاخذ بالإصرار وحصول يأس الناس عن إيمانهم ووجود الإيمان ممن كتب الله إيمانه فإذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك المكذبين ولو آخذهم بنفس الظلم لكان كل يوم إهلاك وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

إذا كان الله يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدواب يهلكون ؟ نقول الجواب من وجوه أحدها : أن خلق الدواب نعمة فإذا كفر الناس يزيل الله النعم والدواب أقرب النعم لأن المفرد أولاً ثم المركب والمركب إما أن يكون معدنياً وإما أن يكون نامياً والنامي إما أن يكون حيواناً وإما أن يكون نباتاً ، والحيوان إما إنسان وإما غير إنسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات في عالم العناصر للإنسان الثاني : هو أن ذلك بيان لشدة العذاب وعمومه فإن بقاء الأشياء بالإنسان كما أن بقاء الإنسان بالأشياء وذلك لأن الإنسان يدبر الأشياء ويصلحها فتبقى الأشياء ثم ينتفع بها الإنسان فيبقى الإنسان فإذا كان الهلاك عاماً لا يبقى من الإنسان من يعمر فلا تبقى الأبنية والزروع فلا تبقى الحيوانات الأهلية لأن بقاءها بحفظ الإنسان إياها عن التلف والهلاك بالسقي والعلف الثالث : هو أن إنزال المطر هو إنعام من الله في حق العباد فإذا لم يستحقوا الإنعام قطعت الأمطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الأرض فتموت جميع الحيوانات وقوله تعالى : ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ الوجه الثالث : لأن بسبب انقطاع الأمطار تموت حيوانات البر ، أما حيوانات البحر فتعيش بماء البحار .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ على ظَهْرِهَا ﴾ كناية عن الأرض وهي غير مذكورة فكيف علم ؟ نقول مما تقدم ومما تأخر ، أما ما تقدم فقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِى السموات وَلاَ فِى الأرض ﴾ [ فاطر : 44 ] فهو أقرب المذكورات الصالحة لعود الهاء إليها ، وأما ما تأخر فقوله : ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ لأن الدواب على ظهر الأرض ، فإن قيل كيف يقال لما عليه الخلق من الأرض وجه الأرض وظهر الأرض ، مع أن الوجه مقابل الظهر كالمضاد ؟ نقول من حيث إن الأرض كالدابة الحاملة للأثقال والحمل يكون على الظهر يقال له ظهر الأرض ، ومن حيث إن ذلك هو المقابل للخلق المواجه لهم يقال له وجهها ، على أن الظهر في مقابلة البطن والظهر والظاهر من باب والبطن والباطن من باب ، فوجه الأرض ظهر لأنه هو الظاهر وغيره منها باطن وبطن .

المسألة الثالثة :

في قوله تعالى : ﴿ ولكن يُؤَخِرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ وجوه أحدها : إلى يوم القيامة وهو مسمى مذكور في كثير من المواضع ثانيها : يوم لا يوجد في الخلق من يؤمن على ما تقدم ثالثها : لكل أمة أجل ولكل أجل كتاب وأجل قوم محمد صلى الله عليه وسلم أيام القتل والأسر كيوم بدر وغيره .

المسألة الرابعة :

(12/643)

---

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾ تسلية للمؤمنين ، وذلك لأنه تعالى لما قال : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ وقال : ﴿ لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [ الأنفال : 25 ] قال : فإذا جاء الهلاك فالله بالعباد بصير ، إما أن ينجيهم أو يكون توفيهم تقريباً من الله لا تعذيباً ، لا يقال قد ذكرت أن الله لا يؤاخذ بمجرد الظلم ، وإنما يؤاخذ حين يجتمع الناس على الضلال ونقول بأنه تعالى عند الإهلاك يهلك المؤمن فكيف هذا ، نقول قد ذكرنا أن الإماتة والإفناء إن كان للتعذيب فهو مؤاخذة بالذنب وإهلاك ، وإن كان لإيصال الثواب فليس بإهلاك ولا بمؤاخذة ، والله لا يؤاخذ الناس إلا عند عموم الكفر ، وقوله : ﴿ بَصِيراً ﴾ اللفظ أتم في التسلية من العليم وغيره لأن البصير بالشيء الناظر إليه أولى بالإنجاء من العالم بحالة دون أن يراه والله أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 32 . 34 ﴾

(13/643)

---

وقال ابن عطية :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

لما توعدهم تعالى في الآية قبلها بسنة الأولين وأن الله تعالى لا يبد لها في الكفرة ، وقفهم في هذه الآية على رؤيتهم لما رأوا من ذلك في طريق الشام وغيره كديار ثمود ونحوها ، و" يعجزه " معناه يفوته ويفلته ، و﴿ من ﴾ في قوله تعالى : ﴿ من شيء ﴾ زائدة مؤكدة ، و" عليم قدير " صفتان لائقتان بهذا الموضع ، لأن مع العلم والقدرة لا يتعذر شيء ، ثم بين تعالى الوجه في إمهاله من أمهل من عباده أن ذلك إنما هو لأن الآخرة من وراء الجميع وفيها يستوفى جزاء كل أحد ، ولو جازى عز وجل في الدنيا على الذنوب لأهلك الجميع ، وقوله تعالى : ﴿ من دابة ﴾ مبالغة ، والمراد بنو آدم لأنهم المجازون ، وقيل المراد الجن والإنس ، وقيل كل ما دب على الأرض من الحيوان وأكثره إنما هو لمنفعة ابن آدم وبسببه ، والضمير في ﴿ ظهرها ﴾ عائد على ﴿ الأرض ﴾ المتقدم ذكرها ، ولو لم يتقدم لها ذكر لأمكن في هذا الموضع لبيان الأمر ولكانت ك ﴿ تورات بالحجاب ﴾ [ ص : 32 ] ونحوها ، و" الأجل المسمى " القيامة ، وقوله ﴿ فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ توعد وفيه للمتقين وعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

بين السنة التي ذكرها ؛ أي أو لم يروا ما أنزلنا بعاد وثمود ، وبِمَدْيَنَ وأمثالهم لما كذّبوا الرسل ، فتد بروا ذلك بنظرهم إلى مساكنهم ودورهم ، وبما سمعوا على التواتر بما حلّ بهم ، أفليس فيه عبرة وبيان لهم ؛ ليسوا خيراً من أولئك ولا أقوى ، بل كان أولئك أقوى ؛ دليله قوله : ﴿ وكانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض ﴾ أي إذا أراد إنزال عذاب بقوم لم يعْجزه ذلك .

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الناس بِمَا كَسَبُواْ ﴾ يعني من الذنوب .

﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ قال ابن مسعود : يريد جميع الحيوان مما دبّ ودرج .

قال قتادة : وقد فُعل ذلك زمن نوح عليه السلام .

وقال الكلبيّ : ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ يريد الجنّ والإنس دون غيرهما ؛ لأنه مُكلَّفان بالعقل .

وقال ابن جرير والأخفش والحسين بن الفضل : أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم .

قلت : والأوّل أظهر ؛ لأنه عن صحابيّ كبير .

قال ابن مسعود : كاد الجُعَل أن يُعذب في جُحره بذنب ابن آدم .

وقال يحيى بن أبي كثير : أمَر رجل بالمعروف ونَهى عن المنكر ، فقال له رجل : عليك بنفسك ؛ فإن الظالم لا يضر إلا نفسه .

فقال أبو هريرة : كذبت ؟ والله الذي لا إله إلا هو ثم قال والذي نفسي بيده إن الحُبَارَى لتموت هُزْلاً في وكرها بظلم الظالم .

وقال الثُّمَالي ويحيى بن سلام في هذه الآية : يحبس الله المطر فيهلك كل شيء .

وقد مضى في "البقرة" نحو هذا عن عكرمة ومجاهد في تفسير ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعنون ﴾ هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجَدْب بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنونهم .

(15/643)

---

وذكرنا هناك حديث البَرَاء بن عازب قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعنون ﴾ قال : "دواب الأرض" " ﴿ ولكن يُؤَخّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قال مقاتل : الأجل المسمى هو ما وعدهم في اللّوح المحفوظ .

وقال يحيى : هو يوم القيامة .

﴿ فَإِنَّ الله كَانَ بِعِبَادِهِ ﴾ أي بمن يستحق العقاب منهم ﴿ بَصِيراً ﴾ .

ولا يجوز أن يكون العامل في "إذا" "بصِيرا" كما لا يجوز : اليوم إن زيداً خارج .

ولكن العامل فيها "جاء" لشبهها بحروف المجازاة ، والأسماء التي يجازَى بها يعمل فيها ما بعدها .

وسيبويه لا يرى المجازاة ب"إذا" إلا في الشعر ، كما قال :

إذا قَصُرت أسيافنا كان وصلها . . .

خُطانا إلى أعدائنا فنضاربِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(16/643)

---

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾

الضمير في ﴿ وأقسموا ﴾ لقريش .

ولما بين إنكارهم للتوحيد ، بين تكذيبهم للرسل .

قيل : وكانوا يعلنون اليهود والنصارى حيث كذبوا رسلهم ، وقالوا : لئن أتانا رسول ليكونن أهدى من إحدى الأمم .

فلما بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم ) ، كذبوه .

﴿ لئن جاءهم ﴾ : حكاية لمعنى كلامهم لا للفظهم ، إذ لو كان اللفظ ، لكان التركيب لئن جاءنا نذير من إحدى الأمم ، أي من واحدة مهتدية من الأمم ، أو من الأمة التي يقال فيها إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها ، كما قالوا : هو أحد الأحدين ، وهو أحد الأحد ، يريدون التفضيل في الدهاء والعقل بحيث لا نظير له ، وقال الشاعر :

حتى استثاروا في أحد الأحد . . .

شاهد يرادا سلاح معد

﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ ، وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) ، قاله ابن عباس ، وهو الظاهر .

وقال مقاتل : هو انشقاق القمر .

﴿ ما زادهم ﴾ : أي ما زادهم هو أو مجيئه .

﴿ إلا نفوراً ﴾ : بعداً من الحق وهرباً منه .

وإسناد الزيادة إليه مجاز ، لأنه هو السبب في أن زادوا أنفسهم نفوراً ، كقوله : ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ وصاروا أضل مما كانوا .

وجواب لما : ﴿ ما زادهم ﴾ ، وفيه دليل واضح على حرفية لما لا ظرفيتها ، إذ لو كانت ظرفاً ، لم يجز أن يتقدّم على عاملها المنفي بما ، وقد ذكرنا ذلك في قوله : ﴿ فلما قضينا عليه الموت ما دلهم ﴾ وفي قوله : ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم

﴿ والظاهر أن ﴿ استكباراً ﴾ مفعول من أجله ، أي سبب النفور وهو الاستكبار ، ﴿ ومكر السيء ﴾ معطوف على ﴿ استكباراً ﴾ ، فهو مفعول من أجله أيضاً ، أي الحامل لهم على الابتعاد من الحق هو الاستكبار ؛ ﴿ والمكر السيء ﴾ ، وهو الخداع الذي ترومونه برسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، والكيد له .

(17/643)

---

وقال قتادة : المكر السيء هو الشرك .

وقيل : ﴿ استكباراً ﴾ بدل من ﴿ نفوراً ﴾ ، وقاله الأخفش .

وقيل : حال ، يعني مستكبرين وماكرين برسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) والمؤمنين ، ومكر السيء من إضافة الموصوف إلى صفته ، ولذلك جاء على الأصل : ﴿ ولا يحيق المكر السيء ﴾ .

وقيل : يجوز أن يكون ﴿ ومكر السيء ﴾ معطوفاً على ﴿ نفوراً ﴾ .

وقرأ الجمهور : ومكر السيء ، بكسر الهمزة ؛ والأعمش ، وحمزة : بإسكانها ، فإما إجراء للوصل مجرى الوقف ، وإما إسكاناً لتوالي الحركات وإجراء للمنفصل مجرى المتصل ، كقوله : لنا ابلان .

وزعم الزجاج أن هذه القراءة لحن .

قال أبو جعفر : وإنما صار لحناً لأنه حذف الإعراب منه .

وزعم محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز في كلام ولا شعر ، لأن حركات الإعراب دخلت للفرق بين المعاني ، وقد أعظم بعض النحويين أن يكون الأعمش يقرأ بهذا ، وقال : إنما كان يقف على من أدّى عنه ، والدليل على هذا أنه تمام الكلام ، وأن الثاني لما لم يكن تمام الكلام أعربه ، والحركة في الثاني أثقل منها في الأوّل لأنها ضمة بين كسرتين .

وقال الزجاج أيضاً : قراءة حمزة ومكر السيء موقوفاً عند الحذاق بياء بين لحن لا يجوز ، وإنما يجوز في الشعر للاضطرار .

وأكثر أبو علي في الحجة من الاستشهاد ، والاحتجاج للإسكان من أجل توالي الحركات والاضطرار ، والوصل بنية الوقف ، قال : فإذا ساغ ما ذكرناه في هذه القراءة من التأويل ، لم يسغ أن يقال لحن .

وقال ابن القشيري : ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أنه قرىء به فلا بد من جوازه ، ولا يجوز أن يقال لحن .

وقال الزمخشري : لعله اختلس فظن سكوناً ، أو وقف وقفة خفيفة ، ثم ابتدأ ﴿ ولا يحيق ﴾ .

وروي عن ابن كثير : ومكر السيء ، بهمزة ساكنة بعد السين وياء بعدها مكسورة ، وهو

مقلوب السيء المخفف من السيء ، كما قال الشاعر :

ولا يجزون من حسن بسيّ . . .

ولا يجزون من غلظ بلين

(18/643)

---

وقرأ ابن مسعود : ومكراً سيئاً ، عطف نكرة على نكرة ؛ ﴿ ولا يحيق ﴾ : أي يحيط ويحل ، ولا يستعمل إلا في المكروه .

وقرىء : يحيق بالضم ، أي بضم الياء ؛ المكر السيء : بالنصب ، ولا يحيق الله إلا بأهله ، أما في الدنيا فعاقبة ذلك على أهله .

وقال أبو عبد الله الرازي : فإن قلت : كثيراً نرى الماكر يفيده مكره ويغلب خصمه بالمكر ، والآية تدل على عدم ذلك .

فالجواب من وجوه : أحدها : أن المكر في الآية هو المكر بالرسول من العزم على القتل والإخراج ، ولا يحيق إلا بهم حيث قتلوا ببدر .

وثانيها : أنه عامّ ، وهو الأصح ، فإنه عليه السلام نهى عن المكر وقال : " لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً ، فإنه تعالى يقول : ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ ، فعلى هذا يكون

ذلك الممكور به أهلاً فلا يزد نقصاً " وثالثها : أن الأمور بعواقبها ، ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلاً في الظاهر ، ففي الحقيقة هو الفائز ، والماكر هو الهالك . انتهى .

وقال كعب لابن عباس في التوراة "من حفر حفرة لأخيه وقع فيها" ، فقال له ابن عباس : إنا وجدنا هذا في كتاب الله ، ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ . انتهى .

وفي أمثال العرب "من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً" .

و ﴿ سنة الأولين ﴾ : إنزال العذاب على الذين كفروا برسلهم من الأمم ، وجعل استقبالهم لذلك انتظاراً له منهم .

وسنة الأولين أضاف فيه المصدر .

وفي ﴿ لسنة الله ﴾ إضافة إلى الفاعل ، فأضيفت أولاً إليهم لأنها سنة بهم ، وثانياً إليه لأنه هو الذي سنها .

وبين تعالى الانتقام من مكذبي الرسل عادة لا يبدلها بغيرها ولا يحولها إلى غير أهلها ، وإن كان ذلك كائن لا محالة .

واستشهد عليهم مما كانوا يشاهدونه في مسايرهم ومتاجرهم ، في رحلتهم إلى الشام والعراق واليمن من آثار الماضين ، وعلامات هلاكهم وديارهم ، كديار ثمود ونحوها ، وتقدّم الكلام على نظير هذه الجملة في سورة الروم .

وهناك ﴿ كانوا أشد منهم قوّة ﴾ استئناف إخبار عن ما كانوا عليه ، وهنا : ﴿ وكانوا ﴾ : أي وقد كانوا ، فالجملة حال ، فهما مقصدان .

﴿ وما كانوا الله ليعجزه ﴾ : أي ليفوته ويسبقه ، ﴿ من شيء ﴾ : أي شيء ، و ﴿ من ﴾ لاستغراق الأشياء ﴿ إنه كان عليماً قديراً ﴾ : فبعلمه يعلم جميع الأشياء ، فلا يغيب عن علمه شيء ، وبقدرته لا يتعذر عليه شيء .

ثم ذكر تعالى حلمه تعالى على عباده في تعجيل العقوبة فقال : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ﴾ : أي من الشرك وتكذيب الرسل ، وهو المعنى في الآية التي في النحل ، وهو قوله : ﴿ بظلمهم ﴾ ، وتقدّم الكلام على نظير هذه الآية في النحل ، وهناك ﴿ عليها ﴾ ، وهنا على ﴿ ظهرها ﴾ ، والضمير عائد على الأرض ، إلا أن هناك يدل عليه سياق الكلام ، وهنا يمكن أن يعود على ملفوظ به ، وهو قوله : ﴿ في السموات ولا في الأرض ﴾ .

ولما كانت حاملة لمن عليها ، استعير لها الظهر ، كالدابة الحاملة للأثقال ، ولأنه أيضاً هو الظاهر بخلاف باطنها .

فإنه ﴿ بعباده بصيراً ﴾ : توعد للمكذبين ، أي فيجازيهم بأعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأرض فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾

استشهاد على ما قبله من جريان سُنَّتِه تعالى على تعذيبِ المُكذِّبينَ بما يشاهدونَه في مسايرِهم إلى الشَّامِ واليمنِ والعراقِ من آثار دمار الأممِ الماضيةِ العاتيةِ والهمزةُ للإنكارِ والنَّفيِ . والواوُ للعطفِ على مقدَّرٍ يليقُ بالمقامِ أي أقعدُوا في مساكِنِهم ولم يسيرُوا في الأرضِ فينظرُوا كيف كان عاقبة الذين من قبلِهم ﴿ وَكَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ وأطولَ أعماراً فما نفعهُم طول المَدَى وما أغنَى عنهم شدَّةُ القُوى . ومحلُّ الجملةِ النَّصبُ على الحاليَّةِ . وقولُه تعالى ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِن شَىْء ﴾ أي ليسبقَه ويفوتَه ﴿ فِي السموات وَلاَ فِى الأرض ﴾ اعتراضٌ مقررٌ لما يُفهم مِّما قبله من استئصالِ الأممِ السَّالفةِ . وقولُه تعالَى ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ﴾ أي مُبالغاً في العلمِ والقُدرةِ ولذلك علمَ بجميعِ أعمالِهم السَّيِّئةِ فعاقبَهم بموجبِها تعليلٌ لذلك .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس ﴾ جميعاً ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ من السَّيِّئاتِ كما فُعل بأولئك ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا ﴾ أي على ظهرِ الأرضِ ﴿ مِن دَابَّةٍ ﴾ من نسمةٍ تدبُّ عليها من بني آدمَ

وقيل : ومن غيرِهم أيضاً من شؤمِ معاصِيهم . وهو المرويُّ عن ابن مسعودٍ وأنس رضي الله عنهما . ويُعضدُ الأوّلَ قولُه تعالى ﴿ ولكن يُؤَخِرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ وهو يومُ القيامةِ ﴿ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ الله كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾ فيجازيهم عندَ ذلك بأعمالِهم إنْ خيراً فخيرٌ وإنْ شراً فشرٌّ .

عن النبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامِ : " مَن قرأَ سورةَ الملائكةِ دعتْهُ ثمانيةُ أبوابِ الجَنَّةِ أنِ ادخلْ من أيِّ بابٍ شئتَ " والله تعالَى أعلمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(21/643)

---

وقال الآلوسى :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾

استشهاد على ما قبله من جريان سنة الله تعالى على تعذيب المكذبين بما يشاهدونه في مسايرهم ومتاجرهم في رحلتهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار الأمم الماضية وعلامات هلاكهم ، والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر يليق بالمقام على رأي أي أقعدوا ولم يسيروا ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ في موضع الحال بتقدير قد أو بدونها .

﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ ﴾ أي ليس من شأنه عز شأنه أن يسبقه ويفوته ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ أي شيء ومن لاستغراق الأشياء ﴿ فِي السماوات وَلاَ فِى الأرض ﴾ هو نظير ﴿ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً ﴾ [ الكهف : 49 ] والواو حالية أو عاطفة.

وفي الإرشاد الجملة اعتراض مقرر لما يفهم مما قبله من استئصال الأمم السالفة ، وظاهره أن الواو اعتراضية.

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ﴾ مبالغاً في العلم والقدرة ، والجملة تعليل لنفي الإعجاز.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس ﴾ جميعاً ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ فعلوا من السيآت كما واخذ أولئك ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا ﴾ أي ظهر الأرض وقد سبق ذكرها في قوله تعالى : ﴿ فِي السموات وَلاَ فِى الأرض ﴾ [ فاطر : 44 ] فليس من الإضمار قبل الذكر كما زعمه الرضى ؛ وظهر الأرض مجاز عن ظاهرها كما قال الراغب.

(22/643)

---

وغيره ، وقيل : في الكلام استعارة مكنية تخييلية والمراد ما ترك عليها ﴿ مِن دَابَّةٍ ﴾ أي من حيوان يدب على الأرض لشؤم المعاصي ، وقد قال سبحانه ﴿ واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [ الأنفال : 25 ] وهو المروى عن ابن مسعود ، وقيل : المراد

بالدابة الانس وحدهم وأيد بقوله تعالى : ﴿ ولكن يُؤَخِرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ وهو يوم القيامة فإن الضمير للناس لأنه ضمير العقلاء ويوم القيامة الأجل المضروب لبقاء نوعهم ، وقيل : هو لجميع من ذكر تغليباً ويوم القيامة الأجل المضروب لبقاء جنس المخلوقات ﴿ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾ فيجازي المكلفين منهم عند ذلك بأعمالهم إن شرا فشر وإن خيراً فخير ، وجملة "فإن الله" الخ موضوعة موضع الجزاء والجزاء في الحقيقة يجازي كما أشرنا إليه ، هذا والله تعالى هو الموفق للخير ولا اعتماد إلا عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

*(23/643)*

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾

ثم لما فرغ سبحانه من ذكر جزاء عباده الصالحين ، ذكر جزاء عباده الطالحين ، فقال : ﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ ﴾ أي : لا يقضي عليهم بالموت ، فيموتوا ، ويستريحوا من العذاب ﴿ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مّنْ عَذَابِهَا ﴾ بل ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بدلناهم جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب ﴾ [ النساء : 56 ] وهذه الآية هي مثل

قوله سبحانه : ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يحيى ﴾ [ الأعلى : 13 ] .

قرأ الجمهور : ﴿ فيموتوا ﴾ بالنصب جواباً للنفي ، وقرأ عيسى بن عمر ، والحسن بإثبات النون .

قال المازني : على العطف على ﴿ يقضى ﴾ .

وقال ابن عطية : هي قراءة ضعيفة ، ولا وجه لهذا التضعيف بل هي كقوله : ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [ المرسلات : 36 ] .

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي كل من هو مبالغ في الكفر ، وقرأ أبو عمرو : ( نجزي ) على البناء للمفعول .

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ من الصراخ ، وهو : الصياح ، أي : وهم يستغيثون في النار رافعين أصواتهم ، والصارخ : المستغيث ، ومنه قول الشاعر :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع . . . كان الصارخ له قرع الطنابيب

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صالحا غَيْرَ الذى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أي : وهم فيها يصطرخون يقولون : ﴿ ربنا ﴾ إلخ .

قال مقاتل : هو : أنهم ينادون : ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ﴾ : من الشرك والمعاصي ، فنجعل الإيمان منا بدل ما كنا عليه من الكفر ، والطاعة بدل المعصية ،

وانتصاب ﴿ صالحاً ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف ، أي : عملاً صالحاً ، أو صفة لموصوف محذوف ، أي : نعمل شيئاً صالحاً .

(24/643)

---

قيل : وزيادة قوله : ﴿ غَيْرَ الذى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ للتحسر على ما عملوه من غير الأعمال الصالحة مع الاعتراف منهم بأن أعمالهم في الدنيا كانت غير صالحة ، فأجاب الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ والاستفهام للتقريع ، والتوبيخ ، والواو للعطف على مقدّر كما في نظائره ، وما نكرة موصوفة ، أي : أو لم نعمّركم عمراً يتمكن من التذكر فيه من تذكر .

فقيل : هو ستون سنة .

وقيل : أربعون .

وقيل : ثماني عشرة سنة .

قال بالأوّل جماعة من الصحابة ، وبالثاني الحسن ، ومسروق ، وغيرهما .

وبالثالث عطاء ، وقتادة .

وقرأ الأعمش : ( ما يذكر ) بالإدغام ﴿ وَجَاءكُمُ النذير ﴾ قال الواحدي : قال جمهور

المفسرين : هو النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال عكرمة ، وسفيان بن عيينة ، ووكيع ، والحسن بن الفضل ، والفرّاء ، وابن جرير : هو : الشيب ، ويكون معناه على هذا القول : أو لم نعمّركم حتى شبتم .

وقيل : هو القرآن ، وقيل : الحمى .

قال الأزهري : معناه : أن الحمى رسول الموت ، أي : كأنها تشعر بقدومه ، وتنذر بمجيئه ، والشيب نذير أيضاً ، لأنه يأتي في سنّ الاكتهال ، وهو علامة لمفارقة سنّ الصبا الذي هو سنّ اللهو واللعب .

وقيل : هو موت الأهل ، والأقارب .

وقيل : هو كمال العقل .

وقيل : البلوغ ﴿ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أي : فذوقوا عذاب جهنم ، لأنكم لم تعتبروا ، ولم تتعظوا ، فما لكم ناصر يمنعكم من عذاب الله ، ويحول بينكم وبينه .

قال مقاتل ، فذوقوا العذاب ، فما للمشركين من مانع يمنعهم .

﴿ إِنَّ الله عالم غَيْبِ السموات والأرض ﴾ قرأ الجمهور بإضافة ﴿ عالم ﴾ إلى ﴿ غيب ﴾ ، وقرأ جناح بن حبيش بالتنوين ، ونصب غيب .

والمعنى : أنه عالم بكل شيء ، ومن ذلك أعمال لا تخفى عليه منها خافية ، فلو ردّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [ الأنعام : 28 ] .

﴿ إِنَّهُ عَلِيمُُ بِذَاتِ الصدور ﴾ تعليل لما قبله ، لأنه إذا علم مضمرات الصدور ، وهي أخفى من كل شيء علم ما فوقها بالأولى .

وقيل : هذه الجملة مفسرة للجملة الأولى ﴿ هُوَ الذى جَعَلَكُمْ خلائف فِى الأرض ﴾ أي : جعلكم أمة خالفة لمن قبلها .

قال قتادة : خلفاً بعد خلف ، وقرناً بعد قرن ، والخلف : هو التالي للمتقدّم .

وقيل : جعلكم خلفاءه في أرضه ﴿ فَمَن كَفَرَ ﴾ منكم هذه النعمة ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي : عليه ضرر كفره ، لا يتعدّاه إلى غيره ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً ﴾ أي : غضباً ، وبغضاً ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ أي : نقصاً وهلاكاً ، والمعنى : أن الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيدهم إلاّ المقت ، ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يزيدهم إلاّ الخسار .

ثم أمره سبحانه أن يوبخهم ، ويبكتهم ، فقال : ﴿ قُلْ أَرَءيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ أي : أخبروني عن الشركاء الذين اتخذتموهم آلهة ، وعبدتموهم من دون الله ،

وجملة ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرض ﴾ بدل اشتمال من أرأيتم، والمعنى: أخبروني عن شركائكم، أروني أيّ شيء خلقوا من الأرض؟ وقيل: إن الفعلان، وهما أرأيتم، وأروني من باب التنازع.

وقد أعمل الثاني على ما هو اختيار البصريين ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السموات ﴾ أي: أم لهم شركة مع الله في خلقها، أو ملكها، أو التصرف فيها حتى يستحقوا بذلك الشركة في الإلهية ﴿ قُلْ أَرَءيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ ﴾ أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بالشركة ﴿ فَهُمْ على بينات مِنْهُ ﴾ أي: على حجة ظاهرة واضحة من ذلك الكتاب.



---

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وحفص عن عاصم: ﴿ بينة ﴾ بالتوحيد، وقرأ الباقون بالجمع.

قال مقاتل: يقول: هل أعطينا كفار مكة كتاباً، فهم على بيان منه بأن مع الله شريكاً.

ثم أضرب سبحانه عن هذا إلى غيره، فقال: ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ الظالمون بَعْضُهُم بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً ﴾ أي: ما يعد الظالمون بعضهم بعضاً، كما يفعله الرّؤساء، والقادة من المواعيد لأتباعهم إلاّ غروراً يغرونهم به، ويزينونه لهم، وهو الأباطيل التي تغرّ، ولا حقيقة لها،

وذلك قولهم : إن هذه الآلهة تنفعهم ، وتقرّبهم إلى الله ، وتشفع لهم عنده .

وقيل : إن الشياطين تعد المشركين بذلك .

وقيل : المراد بالوعد الذي يعد بعضهم بعضاً هو : أنهم ينصرون على المسلمين ، ويغلبونهم .

وجملة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السموات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ مستأنفة لبيان قدرة الله سبحانه ، وبديع صنعه بعد بيان ضعف الأصنام ، وعدم قدرتها على شيء .

وقيل : المعنى : إن شركهم يقتضي زوال السماوات والأرض كقوله : ﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً ﴾ [ مريم : 90 91 ] ﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مّن بَعْدِهِ ﴾ أي : ما أمسكهما من أحد من بعد إمساكه ، أو من بعد زوالهما ، والجملة سادّة مسدّ جواب القسم والشرط ، ومعنى : ﴿ أَن تَزُولاَ ﴾ : لئلا تزولا ، أو كراهة أن تزولا .

قال الزجاج : المعنى : أن الله يمنع السماوات والأرض من أن تزولا ، فلا حاجة إلى التقدير .

قال الفرّاء ، أي : ولو زالتا ما أمسكهما من أحد ، قال : وهو مثل قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [ الروم : 51 ] .

وقيل : المراد زوالهما يوم القيامة ، وجملة : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ تعليل لما قبلها من إمساكه تعالى للسماوات ، والأرض .

(27/643)

---

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيمانهم لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهدى مِنْ إِحْدَى الأمم ﴾ المراد قريش ، أقسموا قبل أن يبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بهذا القسم حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، ومعنى : ﴿ مِنْ إِحْدَى الأمم ﴾ يعني : المكذبة للرسل ، والنذير : النبيّ ، والهدى : الاستقامة ، وكانت العرب تتمنى : أن يكون منهم رسول كما كان الرسل في بني إسرائيل ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمْ ﴾ ما تمنوه ، وهو : رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو أشرف ﴿ نَذِيرٍ ﴾ ، وأكرم مرسل ، وكان من أنفسهم ﴿ مَّا زَادَهُمْ ﴾ مجيئه ﴿ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ منهم عنه ، وتباعداً عن إجابته .

﴿ استكبارا فِى الأرض ﴾ أي : لأجل الاستكبار ، والعتوّ ولأجل ﴿ مَكْرَ السيىء ﴾ أي : مكر العمل السيىء ، أو مكروا المكر السيىء ، والمكر هو : الحيلة ، والخداع ، والعمل القبيح ، وأضيف إلى صفته كقوله : مسجد الجامع ، وصلاة الأولى ، وأنث ﴿ إحدى ﴾ لكون أمة مؤنثة كما قال الأخفش .

وقيل : المعنى : من إحدى الأمم على العموم .

وقيل : من الأمة التي يقال لها إحدى الأمم تفضيلاً لها .

قرأ الجمهور : ﴿ ومكر السيىء ﴾ بخفض همزة السيىء .

وقرأ الأعمش ، وحمزة بسكونها وصلا .

وقد غلط كثير من النحاة هذه القراءة ، ونزهوا الأعمش على جلالته أن يقرأ بها ، قالوا : وإنما كان يقف بالسكون ، فغلط من روي عنه : أنه كان يقرأ بالسكون وصلا ، وتوجيه هذه القراءة ممكن ، بأن من قرأ بها أجرى الوصل مجرى الوقف كما في قول الشاعر :

فاليوم أشرب غير مستحقب . . . إثماً من الله ولا واغل

بسكون الباء من أشرب ، ومثله قراءة من قرأ : ﴿ وَمَا يُشْعِرْكُمْ ﴾ [ الأنعام : 109 ] بسكون الراء ، ومثل ذلك قراءة أبي عمرو :

﴿ إلى بَارِئكُمْ ﴾ [ البقرة : 54 ] بسكون الهمزة ، وغير ذلك كثير .

قال أبو علي الفارسي : هذا على إجراء الوصل مجرى الوقف ، وقرأ ابن مسعود : ( ومكراً سيئاً ) .

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ أي : لا تنزل عاقبة السوء إلاّ بمن أساء .

قال الكلبي : يحيق بمعنى : يحيط ، والحوق الإحاطة ، يقال : حاق به كذا إذا أحاط به ، وهذا هو الظاهر من معنى يحيق في لغة العرب ، ولكن قطرب فسره هنا بينزل ، وأنشد :

وقد رفعوا المنية فاستقلت . . . ذراعاً بعد ما كانت تحيق

أي : تنزل .

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : فهل ينتظرون إلاّ سنة الأوّلين ؟ أي : سنة الله فيهم بأن ينزل بهؤلاء العذاب كما نزل بأولئك ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أي : لا يقدر أحد أن يبدل سنّة الله التي سنّها بالأمم المكذبة من إنزال عذابه بهم بأن يضع موضعه غيره بدلاً عنه ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ بأن يحوّل ما جرت به سنّة الله من العذاب ، فيدفعه عنهم ، ويضعه على غيرهم ، ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفي وجودهما .

(29/643)

---

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ هذه الجملة مسوقة لتقرير معنى ما قبلها ، وتأكيده ، أي : ألم يسيروا في الأرض ، فينظروا ما أنزلنا بعاد ،

وثمود ، ومدين ، وأمثالهم من العذاب لما كذبوا الرسل ، فإن ذلك هو من سنّة الله في المكذبين التي لا تبدّل ، ولا تحوّل ، وآثار عذابهم ، وما أنزل الله بهم موجودة في مساكنهم ظاهرة في منازلهم والحال : أن أولئك ﴿ كَانُوا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ وأطول أعمارا ، وأكثر أموالاً ، وأقوى أبدانا ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى السموات وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : ما كان ليسبقه ويفوته من شيء من الأشياء كائناً ما كان فيهما ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ أي : كثير العلم ، وكثير القدرة لا يخفى عليه شيء ، ولا يصعب عليه أمر ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ من الذنوب ، وعملوا من الخطايا ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا ﴾ أي : الأرض ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ من الدوابّ التي تدبّ كائنة ما كانت ، أما بنو آدم فلذنوبهم ، وأما غيرهم فلشؤم معاصي بني آدم .

وقيل : المراد ما ترك على ظهر الأرض من دابة تدبّ من بني آدم والجنّ ، وقد قال بالأوّل ابن مسعود ، وقتادة ، وقال بالثاني الكلبي .

وقال ابن جريج ، والأخفش ، والحسين بن الفضل : أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم ﴿ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ ، وهو : يوم القيامة ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾ أي : بمن يستحق منهم الثواب ، ومن يستحق منهم العقاب ، والعامل في إذا هو جاء لا بصيرا ، وفي هذا تسلية للمؤمنين ، ووعيد للكافرين .

وقد أخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في السنن عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ قال : ستين سنة .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء الستين ؟ وهو العمر الذي قال الله : أو لم نعمّركم ما يتذكر فيه من تذكر " وفي إسناده إبراهيم بن الفضل المخزومي ، وفيه مقال .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، والنسائي ، والبزار ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعذر الله إلى امرىء أخر عمره حتى بلغ ستين سنة " وأخرج عبد بن حميد ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مروديه عن سهل بن سعد مرفوعاً نحوه .

وأخرج ابن جرير ، عن عليّ بن أبي طالب قال : العمر الذي عيرهم الله به ستون سنة .

وأخرج الترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم ، وابن المنذر ، والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك " قال الترمذي بعد إخراجه : حسن غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه ، ثم أخرجه

في موضع آخر من كتاب الزهد ، وقال : هذا حديث حسن غريب من حديث أبي صالح عن أبي هريرة ، وقد روي من غير وجه عنه .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس في هذه الآية قال : هو : ستّ وأربعون سنة .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : العمر الذي أعذر الله إلى ابن آدم فيه بقوله : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ أربعون سنة .

(31/643)

---

وأخرج أبو يعلى ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والدارقطني في الأفراد ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، والخطيب في تاريخه عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر : " قال : وقع في نفس موسى هل ينام الله عزّ وجلّ ؟ فأرسل الله إليه ملكاً ، فأرّقه ثلاثاً ، وأعطاه قارورتين في كلّ يد قارورة ، وأمره أن يحتفظ بهما ، فجعل ينام ، وتكاد يداه تلتقيان ، ثم يستيقظ ، فيحبس إحداهما على الأخرى حتى نام نومة ، فاصطفقت يداه وانكسرت القارورتان .

قال : ضرب الله له مثلاً إن الله تبارك وتعالى لو كان ينام لم تستمسك السماء ، والأرض "

وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن سلام : أن موسى قال : يا جبريل هل ينام ربك ؟ فذكر نحوه .

وأخرجه أبو الشيخ في العظمة ، والبيهقي عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه : أن موسى ، فذكر نحوه .

وأخرج الفريابي ، وابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : إنه كاد الجعل ليعذب في جحره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الناسَ بِظُلْمِهِمْ ﴾ الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(32/643)

---

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) ﴾

بيّن جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة : أنّه غنيّ عن خلقه وأنّ خلقه مفتقر إليه : أي فهو يأمرهم وينهاهم لا لينتفع بطاعتهم ، ولا ليدفع الضرّ بمعصيتهم ، بل النفع في ذلك كله لهم ، وهو جلّ وعلا الغنيّ لذاته الغنيّ المطلق .

وما دّلت عليه هذه الآية الكريمة مع كونه معلوماً من الدّين بالضرورة ، جاء في مواضع كثيرة

، من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ﴾ [ محمد : 38 ] الآية . وقوله تعالى : ﴿ فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد ﴾ [ التغابن : 6 ] وقوله تعالى : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد ﴾ [ إبراهيم : 8 ] إلى غير ذلك من الآيات .

وبذلك تعلم عظم افتراء الذين قالوا إن الله فقير ونحن الأغنياء ، وقد هدّدهم الله على ذلك بقوله : ﴿ سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ [ آل عمران : 181 ] .

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17)

قد قدمنا الايات الموضحة له في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا ﴾ [ النساء : 133 ] .

قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له مع الجواب عن بعض الأسئلة الواردة على الآية في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [ الأسراء : 15 ] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [ النحل : 25 ] ووجه الجمع بين أمثال هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [ العنكبوت : 13 ] ونحوها من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنّ إنذاره صلى الله عليه وسلم محصورة في الذين يخشون ربهم بالغيب ، وأقاموا الصلاة ، وهذا الحصر الإضافي ، لأنهم هم المنتفعون بالإنذار ، وغير المنتفع بالإنذار ، كأنه هو والذي لم ينذر سواء بجامع عدم النفع في كلّ منهما .

وهذا المعنى جاء موضحاً في آيات من كتاب الله تعالى كقوله تعالى : ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر وَخشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ [ يس : 1011 ] الآية . وقوله : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ [ النازعات : 45 ] ويشبه معنى ذلك في الجملة قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ ق : 45 ] وقد قدمنا معنى الإنذار وأنواعه موضحاً في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَلاَ

يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 2] .

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19)

قد قدمنا إيضاحه بالآيات في أوّل سورة هود في الكلام على قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ﴾ [هود : 24] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأحياء وَلاَ الأموات ﴾ .

(34/643)

---

الأحياء هنا المؤمنون والأموات الكفار ، فالحياة هنا حياة إيمان والموت موت كفر .

وهذا المعنى جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي الناس كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : 122] فقوله : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً ﴾ : أي موت كفر فأحييناه حياة إيمان ، وكقوله تعالى : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ القول عَلَى الكافرين ﴾ [يس : 70] فيفهم من قوله : ﴿ مَن كَانَ مَيْتاً ﴾ أي وهي حياة إيمان أن الكافرين الذين حق عليهم القول ليسوا كذلك ، وقد أطبق العلماء على أن معنى قوله ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ والموتى يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ [الأنعام : 36] أن المعنى والكفار يبعثهم الله .

وقد قدّمنا هذا موضحاً بالآيات القرآنية في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الموتى وَلَا تُسْمِعُ الصم الدعآء ﴾ [ النمل : 80 ] الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القبور ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له وما جاء في سماع الموتى في سورة النمل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الموتى وَلَا تُسْمِعُ الصم الدعآء ﴾ [ النمل : 80 ] الآية .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ الناس والدوآب والأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴾ .

*(35/643)*

---

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الروم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ [ الروم : 22 ] الآية ، وبيّنا هناك دلالة الآيات على أنه جل وعلا هو المؤثر وحده ، وأنّ الطبائع لا تأثير لها إلا بمشيئته تعالى .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ .

قد قدمنا الكلام على هذه الآية، مع نظائرها من آيات الرجاء استطراداً، وذكرنا معنى الظالم والمقتصد والسابق، ووجه تقديم الظالم عليهما بالوعد في الجنات في سورة النور في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الفضل مِنكُمْ والسعة أَن يؤتوا أُوْلِي القربى ﴾ [ النور: 22 ] الآية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ قد قدّمناه مع الآيات المماثلة. والمشابهة له في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [ النحل: 14 ].

قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [ الأعراف: 53 ] الآية.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ الآية.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ واتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [ الفرقان: 3 ]، وفي سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿ أَمْ جَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [ الرعد: 16 ] الآية.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ الآية.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [ الحج: 65 ].

قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أهدى مِنْ إِحْدَى الأمم ﴾.

قد قدّمنا الكلام عليه في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى ﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الكتاب لَكُنَّآ أهدى مِنْهُمْ ﴾ [ الأنعام: 157 ] الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ الآية.

قد قدمنا الآيات الموضحة له وشواهده العربية في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [ النحل: 61 ] الآية. انتهى

انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

عطف على جملة ﴿ فهل ينظرون إلا سنت الأولين ﴾ [ فاطر : 43 ] استدلالاً على أن مساواتهم للأولين تنذر بأن سيحل بهم ما حلّ بأولئك من نوع ما يشاهدونه من آثار استئصالهم في ديارهم .

وجملة ﴿ وكانوا أشد منهم قوة ﴾ في موضع الحال ، أي كان عاقبتهم الاضمحلال مع أنهم أشد قوة من هؤلاء فيكون استئصال هؤلاء أقرب .

وجيء بهذه الحال في هذه الآية لما يفيده موقع الحال من استحضار صورة تلك القوة إيثاراً للإيجاز لاقتراب ختم السورة .

ولذلك لم يؤت في نظائرها بجملة الحال ولكن أتى فيها بجملة وصفٍ في قوله في سورة غافر ( 21 ) : ﴿ الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض ﴾ وفي سورة الروم ( 9 ) ﴿ الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض ﴾ حيث أوثر فيهما الإطناب بتعداد بعض مظاهر تلك القوة .

مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَىْءٍ فِى السماوات وَلاَ فِى الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ ﴾ .

لما عَرَض وصف الأمم السابقة بأنهم أشد قوة من قريش في معرض التمثيل بالأولين تهديداً

واستعداداً لتلقّي مثل عذابهم أتبع ذلك بالاحتراس عن الطماعية في النجاة من مثل عذابهم بعلة أن لهم من المنجيات ما لم يكن للأمم الخالية كزعمهم : أن لهم آلهة تمنعهم من عذاب الله بشفاعتها أو دفاعها فقيل : ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض ﴾ ، أي هَبكم أقوى من الأولين أو أشدّ حِيلة منهم أو لكم من الأنصار ما ليس لهم ، فما أنتم بمفلَتين من عذاب الله لأن الله لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء كقوله : ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون اللَّه من ولي ولا نصير ﴾ [ العنكبوت : 22 ] .

(38/643)

---

وجيء بلام الجحود مع ﴿ كان ﴾ المنفية لإِفادة تأكيد نفي كل شيء يحول دون قدرة الله وإرادته ، فهذه الجملة كالاحتراس .

ومعنى "يعجِزه" : يجعله عاجزاً عن تحقيق مراده فيه فيفلت أحد عن مراد الله منه .

وجملة ﴿ إنه كان عليماً قديراً ﴾ تعليل لانتفاء شيء يغالب مراد الله بأن الله شديد العلم واسعه لا يخفى عليه شيء وبأنه شديد القدرة .

وقد حصر هذان الوصفان انتفاء أن يكون شيء يعجز الله لأن عجز المريد عن تحقيق

إرادته: إما أن يكون سببه خفاء موضع تحقق الإرادة، وهذا ينافي إحاطة العلم، أو عدم استطاعة التمكن منه وهذا ينافي عموم القدرة.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ

تذكير لهم عن أن يغرهم تأخير المؤاخذة فيحسبوه عجزاً أو رضى من الله بما هم فيه فهم الذين قالوا: ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمْطِرْ علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال: 32] فعلَّمهم أن لعذاب الله آجالاً اقتضتها حِكمتُه، فيها رَعْي مصالح أمم آخرين، أو استبقاءُ أجيال آتين.

فالمراد بـ ﴿ الناس ﴾ مجموع الأمة، وضمير "ما كسبوا" وضمير ﴿ يؤخرهم ﴾ عائد إلى ﴿ أجل ﴾.

ونظير هذه الآية تقدم في سورة النحل إلى قوله: ﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾ إلا أن هذه الآية جاء فيها ﴿ بما كسبوا ﴾ وهنالك جاء فيها ﴿ بظلمهم ﴾ [النحل: 61] لأن ما كسبوا يعم الظلم وغيره.

وأوثر في سورة النحل ﴿ بظلمهم ﴾ لأنها جاءت عقب تشنيع ظلم عظيم من ظلمهم وهو ظلم بناتهم المَوْءُودَات وإلا أن هنالك قال: ﴿ ما ترك عليها ﴾ [النحل: 61] وهنا ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ وهو تفنن تبعه المعري في قوله:

وإن شئت فازعم أن مَن فوق ظهرها

عبيدُك واستشهدْ إلهاك يَشْهَدِ . . .

والضمير للأرض هنا وهناك في البيت لأنها معلومة من المقام .

(39/643)

---

والظهر : حقيقته متن الدابة الذي يظهر منها ، وهو ما يعلو الصلب من الجسد وهو مقابل البطن فأطلق على ظهر الإنسان أيضاً وإن كان غير ظاهر لأن الذي يظهر من الإنسان صدره وبطنه .

وظهر الأرض مستعار لبسطها الذي يستقر عليه مخلوقات الأرض تشبيهاً للأرض بالدابة المركوبة على طريقة المكنية .

ثم شاع ذلك فصار من الحقيقة .

فأما قوله هنا : ﴿ فإن اللَّه كان بعباده بصيراً ﴾ ، وقد قال هنالك ﴿ لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ [ النحل : 61 ] ، فما هنا إيماء إلى الحكمة في تأخيرهم إلى أجل مسمى .

والتقدير : فإذا جاء أجلهم آخذَهم بما كسبوا فإن الله كان بعباده بصيراً ، أي عليماً في حالي التأخير ومجيء الأجل ، ولهذا فقوله : ﴿ فإن اللَّه كان بعباده بصيراً ﴾ دليل جواب

( إذاَ ) وليس هو جوابها ، ولذلك كان حقيقاً بقرنه بفاء التسبب ، وأما ما في سورة النحل فهو الجواب وهو تهديد بأنهم إذا جاء أجلهم وقع بهم العذاب دون إمهال .

وقوله : ﴿ فإن اللَّه كان بعباده بصيراً ﴾ هو أيضاً جواب عن سؤال مقدر أن يقال : ماذا جنت الدوابّ حتى يستأصلها الله بسبب ما كسب الناس ، وكيف يهلك كل من على الأرض وفيهم المؤمنون والصالحون ، فأفيد أن الله أعلم بعدله .

فأما الدواب فإنها مخلوقة لأجل الإِنسان كما قال تعالى : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ [ البقرة : 29 ] ، فإهلاكها قد يكون إنذاراً للناس لعلهم يقلعون عن إجرامهم ، وأما حال المؤمنين في حين إهلاك الكفار فالله أعلم بهم فلعل الله أن يجعل لهم طريقاً إلى النجاة كما نجّى هوداً ومن معه ، ولعله إن أهلكهم أن يعوض لهم حسن الدار كما قال النبي صلى الله عليه وسلم "ثم يحشرون على نياتهم" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

(40/643)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾

أخرج أبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والدارقطني في الافراد وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات والخطيب في تاريخه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " وقع في نفس موسى عليه السلام هل ينام الله عز وجل ؟ فأرسل الله ملكاً إليه ، فارقه ثلاثاً ، وأعطاه قارورتين ، في كل يد قارورة ، وأمره أن يتحفظ بهما ، فجعل ينام وتكاد يداه يلتقيان ، ثم يستيقظ فيحبس احداهما عن الأخرى حتى نام نومة ، فاصطفقت يداه وانكسرت القارورتان قال : ضرب الله له مثلاً أن الله تبارك وتعالى لو كان ينام ، ما كان يمسك السماء ولا الأرض " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن خرشة بن الحر رضي الله عنه قال : حدثني عبد الله بن سلام أن موسى عليه السلام قال : يا جبريل هل ينام ربك ؟ فقال جبريل : يا رب ان عبدك موسى يسألك هل تنام ؟ فقال الله : " يا جبريل قل له فليأخذ بيده قارورتين ، وليقم على الجبل من أول الليل حتى يصبح ، فقام على الجبل وأخذ قارورتين فصبر ، فلما كان آخر الليل غلبته عيناه ، فسقطتا فانكسرتا فقال : يا جبريل انكسرت القارورتان فقال الله : يا جبريل قل لعبدي إني لو نمت لزالت السموات والأرض " .

وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق عن عكرمة قال : أسر موسى عليه السلام إلى الملائكة هل ينام رب العزة ؟ قال : فسهر موسى أربعة أيام ولياليهن ، ثم قام على المنبر يخطب ، ورفع

إليه قارورتين في كل يد قارورة ، وأرسل الله عليه النعاس ، وهو يخطب إذ أدنى يده من الأخرى ، وهو يضرب القارورة على الأخرى ، ففزع ورد يده ثم خطب ، ثم أدنى يده ، فضرب بها على الأخرى ، ففزع ثم قال : ﴿ لا إله إلا الله الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ [ البقرة : 255 ] قال عكرمة : السنة التي يضرب برأسه وهو جالس والنوم الذي يرقد .

(41/643)

---

وأخرج أبو الشيخ في العظمة والبيهقي عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه رضي الله عنه ، أن موسى عليه السلام قال له قومه : أينام ربك ؟ قال " اتقوا الله إن كنتم مؤمنين " فأوحى الله إلى موسى : ان خذ قارورتين ، فاملأهما ماء . ففعل ، فنعس ، فنام ، فسقطتا من يده ، فانكسرتا ، فأوحى الله إلى موسى اني : أمسك السموات والأرض أَنْ تزولا ولو نِمْتُ لزالتا قال البيهقي رضي الله عنه : هذا أشبه أن يكون هو المحفوظ .

وأخرج الطبراني في كتاب السنة عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام : هل ينام ربنا ؟ إلخ .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا أتيت

سلطاناً مهيباً تخاف أن يسطو عليك فقل : الله أكبر ، الله أعز من خلقه جميعاً ، الله أعز مما أخاف وأحذر ، أعوذ بالله الذي لا إله إلا هو ، الممسك السموات السبع أن يقعن على الأرض إلا بإذنه ، من شر عبدك فلان ، وجنوده ، وأتباعه ، وأشياعه من الجن والإنس . اللهم كن لي جاراً من شرهم . جل ثناؤك ، وعز جارك ، وتبارك اسمك ، ولا إله غيرك ، ثلاث مرات .

(42/643)

---

وأخرج ابن السني في عمل يوم وليلة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن العبد إذا دخل بيته ، وأوى إلى فراشه ، ابتدره ملكه وشيطانه . يقول شيطانه : اختم بشر . ويقول الملك : اختم بخير . فإن ذكر الله وحده طرد الملك الشيطان ، وظل يكلؤه ، وإن هو انتبه من منامه ، ابتدره ملكه وشيطانه . يقول له الشيطان : افتح بشر . ويقول الملك : افتح بخير . فإن هو قال الحمد لله الذي رد إليَّ نفسي بعد موتها ، ولم يمتها في منامها . الحمد لله الذي ﴿ يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً ﴾ وقال الحمد لله الذي ﴿ يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ [ الحج : 56 ]

قال : فإن خرج من فراشه فمات كان شهيداً ، وإن قام يصلي صلّى " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق أبي مالك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الأرض على حوت ، والسلسلة على أذن الحوت في يد الله تعالى ، فذلك قوله ﴿ إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ﴾ قال : من مكانهما .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أن كعباً كان يقول : إن السماء تدور على نصب مثل نصب الرحا . فقال حذيفة بن اليمان : كذب كعب ﴿ إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن شقيق قال : قيل لابن مسعود إن كعباً يقول : إن السماء تدور في قطبة مثل قطبة الرحا ، في عمود على منكب ملك فقال : كذب كعب ﴿ إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ﴾ وكفى بها زوالاً أن تدور .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هلال أنه بلغه أن قريشاً كانت تقول : إن الله بعث منا نبياً ما كانت أمة من الأمم أطوع لخالقها ، ولا أسمع لنبيها ، ولا أشد تمسكاً بكتابها منا . فأنزل الله ﴿ لو أن عندنا ذكراً من الأولين ﴾ [ الصافات : 168 ] ﴿ ولو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ﴾ [ الأنعام : 157 ] ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ وكانت اليهود تستفتح به على الأنصار فيقولون : إنا نجد نبياً يخرج .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ قال : هو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ما زادهم إلا نفوراً ، استكباراً في الأرض ومكر السيء ﴾ وهو الشرك ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ أي الشرك ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ قال : عقوبة الأولين .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ قال : قريش ﴿ ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ قال : أهل الكتاب . وفي قوله تعالى ﴿ ومكر السيء ﴾ قال : الشرك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال : ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به : من مكر ، أو بغي ، أو نكث . ثم قرأ ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ [ يونس : 23 ] ، ﴿ فمن نكث فإنما

ينكث على نفسه ﴾ [ الفتح : 10 ] .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سفيان عن أبي زكريا الكوفي عن رجل حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إياكم والمكر السيء فإنه ﴿ لا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ ولهم من الله طالب " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ قال : هل ينظرون إلا أن يصيبهم من العذاب مثل ما أصاب الأولين من العذاب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وما كان الله ليعجزه ﴾ قال : لن يفوته . قوله تعالى ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس ﴾ .

*(44/643)*

---

وأخرج الفريابي وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : ان كان الجعل ليعذب في جحره من ذنب ابن آدم ، ثم قرأ ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

*(45/643)*

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ فَاطِرٍ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَوَى عِكْرِمَةُ قَالَ : ( ذُكِرَ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْكَلْبُ وَالْحِمَارُ ، فَقَرَأَ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ فَمَا الَّذِي يَقْطَعُ هَذَا .

( وَرَوَى سَالِمٌ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ : ( الْكَلِمُ الطَّيِّبُ يَرْفَعُهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ )

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾

الْحِلْيَةُ هَهُنَا اللُّؤْلُؤُ وَمَا يُتَحَلَّى بِهِ مِمَّا يَخْرُجُ مِنْ الْبَحْرِ .

وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي الْمَرْأَةِ تَحْلِفُ أَنْ لَا تَلْبَسَ حُلِيًّا ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : ( اللُّؤْلُؤُ وَحْدَهُ لَيْسَ بِحُلِيٍّ إلَّا أَنْ يَكُونَ مَعَهُ ذَهَبٌ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ ﴾ وَهَذَا فِي الذَّهَبِ دُونَ اللُّؤْلُؤِ ؛ إذْ لَا تُوقَدُ عَلَيْهِ ) .

وَقَوْلُهُ ﴿ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ إنَّمَا سَمَّاهُ حِلْيَةً فِي حَالِ اللُّبْسِ ، وَهُوَ لَا يُلْبَسُ وَحْدَهُ فِي الْعَادَةِ إنَّمَا يُلْبَسُ مَعَ الذَّهَبِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ إطْلَاقَ لَفْظِ الْحِلْيَةِ عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ لَا يُوجِبُ حَمْلَ الْيَمِينِ عَلَيْهِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ وَأَرَادَ بِهِ السَّمَكَ ؛ وَلَوْ

حَلَفَ أَنْ لَا يَأْكُلَ لَحْمًا فَأَكَلَ سَمَكًا لَمْ يَحْنَثْ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ وَمَنْ حَلَفَ لَا يَقْعُدُ فِي سِرَاجٍ وَقَعَدَ فِي الشَّمْسِ لَا يَحْنَثُ .

(46/643)

---

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فِيهِ الْإِبَانَةُ عَنْ فَضِيلَةِ الْعِلْمِ وَأَنَّ بِهِ يُتَوَصَّلُ إلَى خَشْيَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ ؛ لِأَنَّ مَنْ عَرَفَ تَوْحِيدَ اللَّهِ وَعَدْلَهُ بِدَلَائِلِهِ أَوْصَلَهُ ذَلِكَ إلَى خَشْيَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ ؛ إذْ كَانَ مَنْ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ وَلَا يَعْرِفُ عَدْلَهُ وَمَا قَصَدَ لَهُ بِخَلْقِهِ لَا يَخْشَى عِقَابَهُ وَلَا يَتَّقِيهِ ؛ وَقَوْلُهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿ يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَاَلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِّيَّةِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ خَيْرَ الْبَرِّيَّةِ مَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ، وَأَخْبَرَ فِي الْآيَةِ أَنَّ الْعُلَمَاءَ بِاَللَّهِ هُمْ الَّذِينَ يَخْشَوْنَهُ ، فَحَصَلَ بِمَجْمُوعِ الْآيَتَيْنِ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ بِاَللَّهِ هُمْ خَيْرُ الْبَرِّيَّةِ وَإِنْ كَانُوا عَلَى طَبَقَاتٍ فِي ذَلِكَ .

(47/643)

---

ثُمَّ وصفَ أَهْلَ الْعِلْمِ بِاللَّهِ الْمَوْصُوفِينَ بِالْخَشْيَةِ مِنْهُ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴾ فَكَانَ ذَلِكَ فِي صِفَةِ الْخَاشِعِينَ لِلَّهِ الْعَامِلِينَ بِعِلْمِهِمْ ؛ وَقَدْ ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى الْمُعْرِضَ عَنْ مُوجَبِ عِلْمِهِ فَقَالَ : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ ؛ فَهَذِهِ صِفَةُ الْعَالِمِ غَيْرِ الْعَامِلِ ، وَالْأَوَّلُ صِفَةُ الْعَالِمِ الْمُتَّقِي لِلَّهِ .

وَأَخْبَرَ عَنْ الْأَوَّلِينَ بِأَنَّهُمْ وَاثِقُونَ بِوَعْدِ اللَّهِ وَثَوَابِهِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴾ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ .

رَوَى بَعْضُ السَّلَفِ قَالَ : مِنْ

شَأْنِ الْمُؤْمِنِ الْحُزْنُ فِي الدُّنْيَا أَلَا تَرَاهُمْ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَقُولُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ؟ وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ ﴾ ؛ قِيلَ لِبَعْضِ النُّسَّاكِ : مَا بَالُ أَكْثَرِ النُّسَّاكِ مُحْتَاجِينَ إِلَى مَا فِي يَدِ غَيْرِهِمْ ؟ قَالَ : لِأَنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ ، وَهَلْ يَأْكُلُ الْمَسْجُونُ إِلَّا مِنْ يَدِ الْمُطْلَقِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ وَالضَّحَّاكِ قَالَا : ( مَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِ مُعَمَّرٍ آخَرَ ) .

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : ( ﴿ لَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ لَا يَنْقَضِي مَا يُنْقَصُ مِنْهُ وَقْتًا بَعْدَ وَقْتٍ وَسَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ ) ، وَالْعُمُرُ هُوَ مُدَّةُ الْأَجَلِ الَّتِي كَتَبَهَا اللَّهُ لِخَلْقِهِ فَهُوَ عَالِمٌ بِمَا يَنْقُصُ مِنْهَا بِمُضِيِّ الْأَوْقَاتِ وَالْأَزْمَانِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ﴾ .

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوقٍ أَنَّ الْعُمُرَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ بِهِ أَرْبَعُونَ سَنَةً .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رِوَايَةٌ وَعَنْ عَلِيٍّ : ( سِتُّونَ سَنَةً ) .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ غِفَارٍ عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَاهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً ، لَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إلَيْهِ لَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إلَيْهِ .

﴾ وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ أَبِي خَيْثَمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ( الْعُمُرُ الَّذِي أَعْذَرَ اللَّهُ فِيهِ إلَى ابْنِ آدَمَ سِتُّونَ سَنَةً

) .

وَبِإِسْنَادِهِ عَنْ مُجَاهِدٍ مِثْلُهُ مِنْ قَوْلِهِ .

(49/643)

---

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ﴾ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ التَّفْسِيرِ أَنَّ النَّذِيرَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرُوِيَ أَنَّهُ الشَّيْبُ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَائِرَ مَا أَقَامَ اللَّهُ مِنْ الدَّلَائِلِ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَتَصْدِيقِ رُسُلِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ وَمَا يَحْدُثُ فِي الْإِنْسَانِ مِنْ حِينِ بُلُوغِهِ إلَى آخِرِ عُمُرِهِ مِنْ التَّغَيُّرِ وَالِانْتِقَالِ مِنْ حَالٍ إلَى حَالٍ مِنْ غَيْرِ صُنْعٍ لَهُ فِيهِ وَلَا اخْتِيَارٍ مِنْهُ لَهُ ، فَيَكُونُ حَدَثًا شَابًّا ثُمَّ كَهْلًا ثُمَّ شَيْخًا ، وَمَا يَنْقَلِبُ فِيهِ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ مَرَضٍ وَصِحَّةٍ وَفَقْرٍ وَغِنَاءٍ وَفَرَحٍ وَحُزْنٍ ، ثُمَّ مَا يَرَاهُ فِي غَيْرِهِ وَفِي سَائِرِ الْأَشْيَاءِ مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ الَّتِي لَا صُنْعَ لِلْمَخْلُوقِينَ فِيهَا ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ دَاعٍ لَهُ إلَى اللَّهِ وَنَذِيرٌ لَهُ إلَيْهِ كَمَا قَالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ فِي جَمِيعِ مَا خَلَقَ دَلَالَةً عَلَيْهِ وَرَادًّا لِلْعِبَادِ إلَيْهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ

﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) ﴾

قوله: ﴿ فَيَمُوتُواْ ﴾: العامَّةُ على نصبِه بحذفِ النونِ جواباً للنفي. وهو على أحدِ معنَيَيْ نَصْبِ "ما تأتينا فتحدِّثَنا"، أي: ما يكون منك إتيانٌ فلا حديثٌ، انتفى السببُ وهو الإِتيانُ، فانتفى مُسَبَّبُه وهو الحديثُ. والمعنى الثاني: إثباتُ الإِتيانِ ونفيُ الحديثِ أي: ما تأتينا محدِّثاً بل تأتينا غيرَ مُحَدِّثٍ. وهذا لا يجوزُ في الآيةِ البتةَ.

وقرأ عيسى والحسن "فيموتون" بإثباتِ النون. قال ابنُ عطية: "هي ضعيفةٌ". قلت: وقد وَجَّهها المازنيُّ على العطفِ على ﴿ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ ﴾ فلا يموتون. وهو أحدُ الوجهين في معنى الرفعِ في قولك: "ما تأتينا فتحدِّثنا" أي: انتفاءُ الأمرَيْن معاً، كقولِه: ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات: 36]، أي: فلا يعتذرون. و "عليهم" قائمٌ مقامَ الفاعلِ، وكذلك "عنهم" بعد "يُخَفَّفُ". ويجوزُ أَنْ يكونَ القائمُ "من عذابها" و "

عنهم " منصوبُ المحلِّ . ويجوز أَنْ تكونَ " مِنْ " مزيدةً عند الأخفش ، فتَعَيَّن لقيامِه مَقامَ الفاعلِ لأنه هو المفعولُ به .

وقرأ أبو عمروٍ في روايةٍ " ولا يُخَفَّفْ " بسكون الفاء ، شبَّه المنفصلَ ب " عَضْد " كقوله :

3769 فاليومَ أَشْرَبْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

قوله : " كذلك " إمَّا مرفوعُ المحلِ أي : الأمرُ كذلك ، وإمَّا منصوبُه أي : مثلَ ذلك الجزاءِ نَجْزي . وقرأ أبو عمروٍ " يُجْزَى " مبنيًّا للمفعول ، " كلُّ " رفعٌ به . والباقون " نَجْزي " بنونِ العظمة مبنيًّا للفاعل ، " كلَّ " مفعول به .

(51/643)

---

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37)

قوله : { رَبَّنَآ } : على إضمارِ القول ، وذلك القولُ إنْ شئْتَ قَدَّرْته فعلاً مُفَسِّراً ل " يَصْطَرِخون " أي : يقولون في صُراخِهم : ربَّنا أَخْرِجْنا ، وإنْ شِئْتَ قَدَّرْتَه حالاً مِنْ فاعل " يَصْطَرِخون " أي : قائلين ربَّنا . ويَصْطَرِخون : يَفْتَعِلون مِن الصُّراخ وهو شدَّةُ رَفْعِ الصوتِ

فأُبدِلت التاءُ صاداً لوقوعِها قبلَ الطاء .

قوله : ﴿ صَالِحاً غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ يجوزُ أَنْ يكونا بمعنى مصدرٍ محذوفٍ أي : عملاً صالحاً غيرَ الذي كنا نعملُ ، وأَنْ يكونا بمعنى مفعولٍ به محذوفٍ أي : نعمل شيئاً صالحاً غيرَ الذي كنَّا نعملُ ، وأَنْ يكونَ " صالحاً " نعتاً لمصدرٍ ، و ﴿ غَيْرَ الذي كنَّا نَعْمَلُ ﴾ هو المفعولُ به . وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : فهلاَّ اكْتُفِي ب " صالحاً " كما اكْتُفِي به في قولِه : ﴿ فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً ﴾ [ السجدة : 12 ] ، وما فائدةُ زيادةِ ﴿ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ على أنه يُوْهِمُ أنهم يعملون صالحاً آخرَ غيرَ الصالحِ الذي عملوه ؟ قلت : فائدتُه زيادةُ التحسُّرِ على ما عَمِلوه من غيرِ الصالحِ مع الاعترافِ به . وأمَّا الوهمُ فزائلٌ بظهورِ حالهم في الكفرِ وظهورِ المعاصي ، ولأنَّهم كانوا يَحْسَبُون أنهم على سيرةٍ صالحةٍ ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [ الكهف : 104 ] فقالوا : أَخْرِجْنا نعمَلْ صالحاً غيرَ الذي كُنَّا نَحْسَبُه صالحاً فنعملُه " .



---

قوله : " ما يَتَذكَّر " جوَّزوا في " ما " هذه ، وجهين ، أحدهما : - ولم يَحْكِ الشيخُ غيرَه - أنها مصدريةٌ ظرفيةٌ قال : أي مدةَ تَذَكُّرٍ . وهذا غَلَطٌ ؛ لأنَّ الضميرَ في " فيه " يمنعُ مِنْ ذلك

لعَوْدِه على " ما " ، ولم يَقُلْ باسميَّةِ " ما " المصدريةِ إلاَّ الأخفشُ وابنُ السَّراج . الثاني : أنها نكرةٌ موصوفةٌ أي تعمُّرا يتذكر فيه ، أو زمانا يتذكَّر فيه . وقرأ الأعمشُ " ما يَذَّكَّرُ " بالإِدغام " مَنِ اذَّكَّر " . قال الشيخُ : " بالإِدغام واجتلاب همزةِ الوصلِ ملفوظاً بها في الدَّرْج " . وهذا غريبٌ حيث أُثْبِتَتْ همزةُ الوصلِ مع الاستغناءِ عنها ، إلاَّ أَنْ يكونَ حافَظَ على سكون " مَنْ " وبيانِ ما بعدها .

قوله : " وجاءكم " عطفٌ على " أولم نُعَمِّركم " لأنَّه في معنى : قد عَمَّرْناكم ، كقوله : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ ﴾ [الشعراء : 18] ثم قال : ﴿ وَلَبِثْتَ ﴾ [الشعراء : 18] ، ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ ﴾ [الانشراح : 1] ثم قال ﴿ وَوَضَعْنَا ﴾ [الانشراح : 2] إذ هما في معنى : رَبَّيْناك ، وشَرَحْنا .

قوله : " مِنْ نصير " يجوزُ أَنْ يكون فاعِلاً بالجارِّ لاعتمادِه ، وأنْ يكونَ مبتدأً مُخْبَراً عنه بالجارِّ قبله . وقُرِئ " النُّذُرُ " جمعاً .

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (38)

قوله : ﴿ عَالِمُ غَيْبِ ﴾ : العامَّةُ على الإِضافةِ تخفيفاً . وجناح بن حبيش بتنوين " عالمٌ " ونصب " غَيْبَ " .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي

السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (40)

(53/643)

---

قوله : ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ : فيها / وجهان ، أحدهما : أنها ألفُ استفهامٍ على بابِها ، ولم تتضمَّنْ هذه الكلمةُ معنى أَخْبِروني ، بل هو استفهامُ حقيقيٌّ . وقوله : " أَرُوْني " أمرُ تَعْجيزٍ . والثاني : أنَّ الاستفهامَ غيرُ مُرادٍ ، وأنها ضُمِّنَتْ معنى أَخْبِروني . فعلى هذا تتعدَّى لاثنين ، أحدُهما : " شركاءَكم " ، والثاني : الجملةُ الاستفهاميةُ مِنْ قولِه : " ماذا خلَقوا " . و " أَرُوْني " يُحتمل أَنْ تكونَ جملةً اعتراضيةً . الثاني : أَنْ تكونَ المسألةُ مِنْ بابِ الإِعمالِ ، فإنَّ " أَرَأَيْتُمْ " يطلبُ " ماذا خَلَقُوا " مفعولاً ثانياً ، و " أَرُوْني " أيضاً يطلبُه مُعَلِّقاً له ، وتكونُ المسألةُ مِنْ بابِ إعمالِ الثاني على مختارِ البصريين ، و " أَروني " هنا بَصَرِيَّةٌ تعدَّتْ للثاني بهمزةِ النقلِ ، والبصَرِيةُ قبل النقل تُعَلَّقُ بالاستفهامِ كقولِهم : " أما ترى أيُّ بَرْقٍ ههنا " ؟ وقد تقدَّم الكلامُ على " أَرَأَيْتُمْ " هذه في الأنعامِ مشبعاً . وقال ابنُ عطية هنا : " إنَّ أرأيتم يَتَنَزَّلُ عند سيبويهِ مَنْزِلَةَ أَخْبِروني ؛ ولذلك لا يَحْتاج إلى مَفْعولين " . وهو غَلَطٌ بل يَحْتاجُ كما تقدَّم تقريرُه . وجَعَلَ الزمخشريُّ الجملةَ مِنْ قولِه : " أَرُوْني " بدلاً مِنْ قولِه " أَرَأَيْتُمْ " قال : "

لأنَّ معنى أَرَأَيْتُمْ أَخْبروني " . وردَّه الشيخ : بأنَّ البدلَ مِمَّا دَخَلَتْ عليه أداةُ الاستفهامِ يَلْزَم إعادتُها في البدلِ ولم تُعَدْ هنا . وأيضاً فإبدالُ جملةٍ مِنْ جملةٍ لم يُعْهَدْ في لسانِهم .

قلت : والجوابُ عن الأول : أنَّ الاستفهامَ فيه غيرُ مرادٍ قطعاً فلم تُعَدْ أداتُه لعدمِ إرادتِه .

وأمَّا قولُه : " لم يُوْجَد في لسانِهم " فقد وُجِدَ . ومنه :

3770 متى تَأْتِنا تُلْمِمْ بنا . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

(54/643)

---

البيت . [ وقولُه : ]

إنَّ عليَّ اللَّهَ أن تُبايِعا . . . تُؤْخَذَ كَرْهاً . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

البيت . وقد نَصَّ النَّحْوِيون : على أنَّه متى كانت الجملةُ في معنى الأولِ ومُبَيِّنةً لها أُبْدِلَتْ منها .

قوله : ﴿ فَهُمْ على بَيِّنَةٍ ﴾ الضميرُ في " آتَيْناهم " و " فهم " الأحسنُ أَنْ يعودَ على الشركاء لتناسَقَ الضمائرُ . وقيل : يعودُ على المشركين ، فيكونُ التفاتاً مِنْ خطابٍ إلى غَيْبة .

وقرأ أبو عمرٍو وحمزةُ وابن كثير وحفصٌ "بَيِّنَةٍ" بالإِفراد . والباقون "بَيِّناتٍ" بالجمع . و"إنْ" في "إنْ يَعِدُ" نافيةٌ .

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (41)

قوله : ﴿ أَن تَزُولاَ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ مفعولاً من أجله . أي : كراهةَ أَنْ تَزُولا . وقيل : لئلا تَزُولا . ويجوزُ أَنْ يكونَ مفعولاً ثانياً على إسقاطِ الخافِضِ أي : يمنَعُهما مِنْ أَنْ تَزُوْلا . كذا قَدَّره أبو إسحاق . ويجوز أَنْ يكونَ بدلَ اشتمالٍ أي : يمنعُ زوالَهما .

قوله : "إنْ أَمْسَكَهما" جوابُ القسمِ الموطَّأ له بلامِ القسمِ ، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ يدلُّ عليه جوابُ القسمِ ، ولذلك كان فعل الشرط ماضياً . وقولُ الزمخشري : إنه يَسُدُّ مَسَدَّ الجوابَيْن ، يعني أنه دالٌّ على جوابِ الشرطِ . قال الشيخ : "وإنْ أُخِذ كلامُه على ظاهرِه لم يَصِحَّ ؛ لأنه لو سَدَّ مَسَدَّهما لكان له موضعٌ من الإِعرابِ ، من حيث إنه سَدَّ مَسَدَّ جوابِ الشرط ، ولا موضعَ له من حيث إنه سَدَّ مَسَدَّ جوابِ القسم ، والشيءُ الواحدُ لا يكونُ معمولاً غيرَ معمول" .

و"مِنْ أحدٍ" "مِنْ" مزيدةٌ لتأكيدِ الاستغراق . و"مِنْ بعدِه" : "مِنْ" لابتداءِ الغاية .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (42)

قوله : ﴿ لَيَكُونُنَّ ﴾ : جوابٌ للقسمِ المقدَّرِ . والكلامُ فيه كما تقدَّم وقوله : " لَئِنْ جاءَهم " حكايةٌ لمعنى كلامِهم لا للفظِه ، إذ لو كان كذلك لكان التركيبُ : لَئِنْ جاءَنا لنكونُنَّ .

قوله : ﴿ مِنْ إِحْدَى الأمم ﴾ أي : من الأمَّةِ التي يُقال فيها : هي إحدى الأمم ، تفضيلاً لها . كقولِهم : هو أحدُ الأَحَدَيْن . قال :

3772 حتى استثاروا بيَ إحدى الإِحَدِ . . . لَيْثاً هِزَبْراً ذا سلاحٍ مُعْتَدِيْ

قوله : " ما زادَهم " جوابُ " لَمَّا " . وفيه دليلٌ على أنها حرفٌ لا ظرفٌ؛ إذ لا يعملُ ما بعد " ما " النافيةِ فيما قبلها . وتقدَّمَتْ له نظائرُ . وإسنادُ الزيادةِ للنذير مجازٌ؛ لأنه سببٌ في ذلك ، كقولِه : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ ﴾ [ التوبة : 125 ] .

اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (43)

قوله : ﴿ استكبارا ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ مفعولاً له أي : لأجل الاستكبارِ ، وأَنْ يكونَ بدلاً مِنْ " نُفوراً " ، وأَنْ يكونَ حالاً أي : حالَ كونِهم مُسْتكبرين . قاله الأخفش .

قوله : " ومَكْرَ السَّيِّئِ " فيه وجهان ، أظهرُهما : أنه عطفٌ على " استكباراً " . والثاني :

أنه عطفٌ على " نُفورا " وهذا مِنْ إضافة الموصوفِ إلى صفتِه في الأصلِ ؛ إذ الأصلُ : والمكرَ السَّيِّئ . والبصريون يُؤَوِّلونه على حَذْفِ موصوفٍ / أي : العمل السَّيِّئ .

(56/643)

---

وقرأ العامَّةُ بخفضِ همزة " السَّيِّئ " ، وحمزة والأعمش بسكونِها وَصْلاً . وقد تَجَرَّأَتِ النحاةُ وغيرُهم على هذه القراءةِ ونسبوها لِلَّحْنِ ، ونَزَّهوا الأعمشَ عَنْ أَنْ يكونَ قرأ بها . قالوا : وإنما وَقَفَ مُسَكِّناً ، فظُنَّ أنه واصَلَ فغُلِط عليه . وقد احتجَّ لها قومٌ آخرون : بأنه إجراءٌ للوَصْلِ مُجْرَى الوقفِ ، أو أَجْرى المنفصلَ مُجْرى المتصلِ . وحَسَّنه كونُ الكسرة على حَرْفٍ ثقيل بعد ياءٍ مشددةٍ مكسورةٍ . وقد تقدَّم أنَّ أبا عمروٍ يَقْرأ " إلى بارِئْكم " بسكونِ الهمزة . فهذا أَوْلَى لزيادةِ الثقلِ ههنا . وقد تقدَّم هناك أمثلةٌ وشواهدُ فعليك باعتبارِها . ورُوِيَ عن ابنِ كثير " ومكْرَ السَّأْيِ " بهمزةٍ ساكنةٍ بعد السينِ ثم ياءٍ مكسورةٍ . وخُرِّجَتْ على أنها مقلوبةٌ من السَّيِّئِ ، والسَّيْئُ مخففٌ من السَّيِّئ كالمَيْت من الميِّت قال الحماسي :

3773 ولا يَجْزُوْنَ مِنْ حَسَنٍ بسَيْءٍ ... ولا يَجْزُون مِنْ غِلَظٍ بِلَيْنِ

وقد كَثُر في قراءتِه القلبُ نحو " ضِئاء " و " تَأْيسوا " و " لا يَأْيَسُ " كما تقدم تحقيقُه .

وقرأ عبد الله: "ومَكْراً سَيِّئاً" بالتنكيرِ، وهو موافِقٌ لما قبلَه. وقُرِئ "ولا يُحيق" بضمِّ الياء، "المكْرَ السَّيِّئَ" بالنصب على أنَّ الفاعلَ ضميرُ الله تعالى أي: لا يُحيط اللَّهُ المكرَ السيِّئَ إلَّا بأهله.

قوله: "سُنَّةَ الأوَّلِيْن" مصدرٌ مضافٌ لمفعولِه، و"سنةِ الله" مضافٌ لفاعِلِه؛ لأنَّه تعالى سَنَّها بهم، فصَحَّتْ إضافتُها إلى الفاعلِ والمفعول.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (44)

*(57/643)*

---

قوله: ﴿ وكانوا أَشَدَّ ﴾: جملةٌ في موضع نصبٍ على الحال. ونظيرتُها في الروم "كانوا" بلا واوٍ على أنها مستأنفةٌ فالمَقْصَدان مختلفان.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (45)

قوله: ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا ﴾: تقدَّم نظيرُها في النحل إلَّا أنَّ هناك لم يَجْرِ للأرض ذِكْرٌ، بل عاد الضميرُ على ما فُهِم من السِّياق وهنا قد صرَّح بها في قوله: ﴿ فِي السماوات ولاَ

فِي الأرض ﴾ . وهنا " على ظهرها " استعارةٌ مِنْ ظَهْرِ الدابّةِ دَلالةً على التمكُّنِ والتقلُّب عليها . والمَقامُ هنا يناسِبُ ذلك لأَنَّه حَثٌّ على السَّيْرِ للنظر والاعتبار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 242.234 ﴾

(58/643)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

في الجملة ما خاب له وليٌّ ، وما ربح له عدوٌّ ، ولا ينال الحقيقةَ مَنْ انعكس قَصْدُه ، بل يرتدُّ عليه كَيْدُه ؛ وهو سبحانه يُدَمِّر عل أعدائه تدميرا ويوسع لأوليائه فضلاً كبيرا .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ

لو عَجَّلَ لهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب لم تَفِ أعمارُهم القليلة به ، وما اتسعت أيامُهم القصيرة له ، فأَخَّرَ ذلك ليومِ الحَشْرِ . . . فإنَّه طويلٌ . واللَّهُ على كل شيءٍ قديرٌ ، وبأمورِ عبادِه خبيرٌ بصير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 210 ﴾

(59/643)

فصل

قال السمرقندي في الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الناس أَنتُمُ الفقراء إِلَى الله ﴾

يعني : أنتم محتاجون إلى ما عنده .

ويقال : ﴿ أَنتُمُ الفقراء إِلَى الله ﴾ في رزقه ومغفرته ﴿ والله هُوَ الغنى الحميد ﴾ ﴿ الغنى ﴾ عن عبادتكم ﴿ الحميد ﴾ في فعله وسلطانه .

وهذا كما قال في آية أخرى : ﴿ هَا أَنتُمْ هؤلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ الله فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ والله الغنى وَأَنتُمُ الفقرآء وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أمثالكم ﴾ [ محمد : 38 ] لأن كل واحد يحتاج إليه .

لأن أحداً لا يقدر أن يصلح أمره إلا بالأعوان ، والأمير ما لم يكن له خدم وأعوان ، لا يقدر على الإمارة .

وكذلك التاجر يحتاج إلى المكارين ، والله عز وجل غني عن الأعوان وغيره .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ يعني : يهلككم ويميتكم ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أفضل منكم وأطوع لله ﴿ وَمَا ذلك عَلَى الله بِعَزِيزٍ ﴾ يعني : شديد ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ يعني : لا تحمل نفس خطيئة نفس أخرى .

ويقال : لا تحمل بالطوع ولكن يحمل عليها إذا كان له خصماً .

ثم قال : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا ﴾ يعني : الذي أثقلته الذنوب والأوزار ، إن لو دعا أحداً ، ليحمل عنه بعض أوزاره ، لا يحمل من وزره شيئًا .

وإن كان ذا قرابة لا يحمل من وزره .

وروى إبراهيم بن الحكم عن أبيه ، عن عكرمة قال : إن الوالد يتعلق بولده يوم القيامة فيقول : يا بني إني كنت لك والداً فيثني عليه خيراً .

فيقول : يا بني قد احتجت إلى مثقال ذرة .

وفي رواية أخرى : إلى مثقال حبة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى .

فيقول له ولده : ما أيسر ما طلبت ولكن لا أطيق .

إني أخاف مثل الذي تخوفت .

(60/643)

---

ثم يتعلق بزوجته فيقول لها : إني كنت لك زوجاً في الدنيا فيثني عليها خيراً ويقول : إني طلبت إليك حسنة واحدة لعلي أنجو بها مما ترين .

فتقول : ما أيسر ما طلبت ، ولكن لا أطيق .

إني أخاف مثل الذي تخوفت فذلك قوله : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ .

ثم قال : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب ﴾ يعني : إنما تخوف بالقرآن الذين يخافون ربهم بالغيب .

يعني : آمنوا بالله وهم في غيب منه ﴿ والذين يُمَسّكُونَ ﴾ يعني : يقيمون الصلاة .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُنذر المؤمنين والكافرين .

ولكن الذين يخشون ربهم هم الذين يقبلون الإنذار فكأنه أنذرهم خاصة .

ثم قال : ﴿ وَمَن تزكى ﴾ يعني : توحد .

ويقال : تطهر نفسه من الشرك .

ويقال : من صلح فإنما صلاحه لنفسه يثاب عليه في الآخرة .

ويقال : من يعطي الزكاة فإنما ثوابه لنفسه .

﴿ فَإِنَّمَا يتزكى لِنَفْسِهِ وَإِلَى الله المصير ﴾ فيجازيهم بعملهم .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الاعمى ﴾ يعني : الكافر الأعمى عن الهدى ﴿ والبصير ﴾ يعني : المؤمن ﴿ وَلاَ الظلمات وَلاَ النور ﴾ يعني : الكفر والإيمان ﴿ وَلاَ الظل وَلاَ الحرور ﴾ يعني : الجنة والنار ﴿ وَلاَ الحرور ﴾ هو استقرار الحر ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الاحياء وَلاَ الاموات ﴾ قال القتبي : مثل الأعمى والبصير كالكافر والمسلم ، والظلمات والنور مثل

الكفر والإيمان، والظل والحرور مثل الجنة والنار، وما يستوي الأحياء ولا الأموات مثل العقلاء والجهال.

ثم قال: ﴿ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴾ يعني: يفقه من يشاء ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى القبور ﴾ يعني: لا تقدر أن تفقه الأموات وهم الكفار ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ يعني: ما أنت إلا رسول ﴿ إِنَّا أرسلناك بالحق ﴾ يعني: بالقرآن.

(61/643)

---

ويقال: لبيان الحق ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ وقد ذكرناه ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ يعني: وما من أمة فيما مضى إلا فيهم نذير.

يعني: إلا جاءهم رسول.

ثم قال: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ يا محمد ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ يعني: بالأمر والنهي ﴿ وبالزبر ﴾ يعني: بالكتب، وبأخبار من كان قبلهم ﴿ وبالكتاب المنير ﴾ يعني: المضيء.

الكتاب هو نعت لما سبق ذكره من البينات والزبر ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني: الذين كذبوهم فعاقبتهم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ يعني: كيف كان إنكاري وتغييري عليهم

ثم ذكر خلقه ليعتبروا به ويوحدوه :

فقال عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ يعني : المطر ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ من الثمار الأحمر ، والأصفر ، والحلو ، والحامض ﴿ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ ﴾ يعني : خلق من الجبال جدداً يعني : جماعة الجدة .

والجدة هي الطريق التي في الجبل .

والجدد هي الطرائق .

فترى الطريق من البعد منها أبيض ، وبعضها حمر .

وقال القتبي : الجدد الخطوط والطرق تكون في الجبال ، فبعضها بيض وبعضها حمر ، وبعضها غرابيب سود ، وهو جمع غربيب وهو الشديد السواد .

ويقال : أسود غربيب ﴿ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ ألوانها وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ الناس والدواب ﴾ يعني : خلق من الناس والدواب ﴿ والانعام مُخْتَلِفٌ ألوانه كَذَلِكَ ﴾ أي : كاختلاف الثمرات .

ثم استأنف فقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ وقال بعضهم : إنما يتم الكلام عند قوله : ﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ .

ثم استأنف فقال : ﴿ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ يعني : هكذا يخشى الله من عباده العلماء .

يعني : إن العلماء يعلمون خلق الله تعالى ويتفكرون في خلقه ، ويعملون ثوابه وعقابه فيخشونه ، ويعلمون بالطاعة طمعاً لثوابه ، ويمتنعون عن المعاصي خشية عقابه .

وقال مقاتل : أشد الناس خشية أعلمهم بالله تعالى .

فيها تقديم .

وروى سفيان عن بعض المشيخة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل : يا رسول الله أينا أعلم ؟ فقال : " أَخْشَاكُمْ لله تَعَالَى إنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ " قالوا : يا رسول الله فأيُّ الأصحاب أفضل ؟ قال : " الذي إذا ذَكَرْتَ أَعَانَكَ ، وإذا نَسِيتَ ذَكَّرَكَ " .

قالوا : فأي الأصحاب شر ؟ قال : "الَّذِي إذا ذَكَرْتَ لَمْ يُعِنْكَ ، وإذا أُنْسِيتَ لَمْ يُذَكِّرْكَ " .

قالوا : فأيُّ الناس شر ؟ قال : " اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلعُلَمَاءِ .

وَالعَالِمُ إذا فَسَدَ فَسدَ النَّاسُ " .

ثم قال تعالى : ﴿ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ في ملكه ﴿ غَفُورٌ ﴾ لمن تاب .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ كتاب الله ﴾ يعني : يقرؤون القرآن .

ويقال : معناه يتبعون كتاب الله تعالى .

يقال : تلا يتلو إذا تبعه كقوله تعالى : ﴿ والقمر إِذَا تلاها ﴾ [ الشمس : 2 ] ﴿ والذين يُمَسّكُونَ ﴾ يعني : أتموا الصلوات في مواقيتها ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ يعني : تصدقوا مما أعطيناهم من الأموال ﴿ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تجارة لَّن تَبُورَ ﴾ يعني : لن تهلك ولن تخسر .

ومعناه : ﴿ يَرْجُونَ تجارة ﴾ رابحة وهي الجنة مكان الحياة الدنيا .

ثم قال عز وجل : ﴿ لِيُوَفّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ يعني : يوفر ثواب أعمالهم ﴿ وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ ﴾ يعني : من رزقه من الجزاء ، والثواب في الجنة .

ويقال : ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ يعني : من تفضله ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ شَكُورٍ ﴾ لأعمالهم اليسيرة .

والشكر على ثلاثة أوجه .

الشكر ممن يكون دونه الطاعة لأمره وترك مخالفته .

والشكر ممن هو شكله يكون الجزاء والمكافأة .

والشكر ممن فوقه يكون رضى منه باليسير .

ثم قال عز وجل : ﴿ والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾ يعني : أرسلنا إليك جبريل عليه السلام بالقرآن ﴿ هُوَ الحق ﴾ لا شك فيه ، ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعني : موافقاً لما قبله من الكتب ﴿ إِنَّ الله بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ يعني : عالم بهم وبأعمالهم .

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب ﴾ ويقال : أعطينا القرآن ﴿ الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ يعني : اخترنا من هذه الأمة .

و ﴿ ثُمَّ ﴾ بمعنى العطف .

يعني : وأورثنا الكتاب .

ويقال ﴿ ثُمَّ ﴾ بمعنى التأخير .

يعني : بعد كتب الأولين ﴿ أَوْرَثْنَا الكتاب ﴾ ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ يعني : من الناس ظالم لنفسه ﴿ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات ﴾ .

روي عن ابن عباس في إحدى الروايتين أنه قال : الظالم الكافر ، والمقتصد المنافق ، والسابق المؤمن .

وروي عنه رواية أخرى أنه قال : هؤلاء كلهم من المؤمنين .

فالسابق الذي أسلم قبل الهجرة .

والمقتصد الذي أسلم بعد الهجرة ، قبل فتح مكة .

والظالم الذي أسلم بعد فتح مكة .

وطريق ثالث ما روى أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " السَّابِقُ الَّذِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَالمُقْتَصِدُ الَّذِي يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَالظَّالِمُ الذي يُحَاسَبُ فِي طُولِ المَحْشَرِ " .

وطريق رابع ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناجي ، وظالمنا مغفور له .

وطريق آخر ما روى أسد بن رفاعة عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال : سابقنا أهل الجهاد ، ومقتصدنا أهل حضرنا ، يعني : أهل الأمصار وهم أهل الجماعات والجمعات ، وظالمنا أهل بدونا .

(64/643)

---

وطريق سادس ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت عن هذه الآية فقالت : السابق النبي صلى الله عليه وسلم ومن مضى معه ، والمقتصد مثل أبي بكر ومن مضى معه ، والظالم فمثلي ومثلكم .

وطريق سابع ما روي عن مجاهد قال : الظالم هم أصحاب المشأمة ، والمقتصد أصحاب

الميمنة ، والسابق هم السابقون بالخيرات ، فكأنه استخرجه من قوله : ﴿ فأصحاب الميمنة مَا أصحاب الميمنة ﴾ [ الواقعة : 8 ] ﴿ والسابقون السابقون ﴾ [ الواقعة : 10 ] وطريق ثامن ما روي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال : الظالم هم المنافقون ، والمقتصد هم التابعون بإحسان ، والسابق هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

وطريق تاسع ما روي عن الحسن أيضاً أنه قال : السابق الذي ترك الدنيا ، والمقتصد الذي أخذ من الحلال ، والظالم الذي لا يبالي من أين أخذ .

وقيل : طريق عاشر : السابق الذي رجحت حسناته على سيئاته ، والمقتصد الذي استوت حسناته مع سيئاته ، والظالم الذي رجحت سيئاته على حسناته .

وقيل : طريق حادي عشر ، السابق الذي سره خَيْرٌ من علانيته ، والمقتصد الذي سِرُّهُ وعلانيته سواء ، والظالم الذي علانيته خير من سره .

وطريق ثاني عشر : السابق الذي تهيأ للصلاة قبل دخول وقتها ، والمقتصد الذي تهيأ للصلاة بعد دخول وقتها ، والظالم الذي ينتظر الإقامة .

وطريق ثالث عشر : السابق الذي يتوكل على الله يجعل جميع جهده في طاعة الله عز وجل ، والمقتصد الذي يطلب قوته ولا يطلب الزيادة ، والظالم الذي يطلب فوق القوت والكفاف .

وقيل : طريق رابع عشر : السابق الذي شغله معاده عن معاشه ، والمقتصد الذي يشتغل

بهما جميعاً ، والظالم الذي شغله معاشه عن معاده .

وقيل : طريق خامس عشر : السابق الذي ينجو نفسه وينجو غيره بشفاعته ، والمقتصد الذي يدخل الجنة برحمة الله وفضله ، والظالم الذي يدخل الجنة بشفاعة الشافعين .

*(65/643)*

---

وطريق سادس عشر : السابق الذي يعطى كتابه بيمينه ، والمقتصد الذي يعطى كتابه بشماله ، والظالم الذي يعطى كتابه وراء ظهره .

وطريق سابع عشر قيل : السابق الذي ركن إلى المولى ، والمقتصد الذي ركن إلى العقبى ، والظالم الذي ركن إلى الدنيا .

وطريق ثامن عشر : ما روي عن يحيى بن معاذ الرازي قال : الظالم الذي يضيع العمر في الشهوة ، والمعصية ، والمقتصد الذي يحارب فيهما ، والسابق الذي يجتهد في الزلات .

ثم قال : لأن محاربة الصديقين في الزلات ، ومحاربة الزاهدين في الشهوات ، ومحاربة التائبين في الموبقات .

وطريق تاسع عشر قال : الظالم يطلب الدنيا تمتعاً ، والمقتصد الذي يطلب الدنيا تلذذاً ، والسابق الذي ترك الدنيا تزهداً .

وطريق العشرين قال : الظالم الذي يطلب ما لم يؤمر بطلبه ، وهو الرزق ، والمقتصد الذي يطلب ما أمر به ولم يؤمر بطلبه ، والسابق الذي طلبه مرضاة الله ومحبته .

وطريق حادي عشرين قيل : الظالم أصحاب الكبائر ، والمقتصد أصحاب الصغائر ، والسابق المجتنب عن الصغائر والكبائر .

وطريق ثاني عشرين قيل : السابق الخارج إلى الغزو والرباطات قبل الناس ، والمقتصد الخارج إليها مع الناس الذي يعلم ويعلم الناس ويعمل به ، والمقتصد الذي يعلم ويعلم ولا يعمل به ، والظالم الذي لا يعلم ولا يرغب إلى التعليم .

وطريق رابع وعشرين ، السابق الذي هو مشغول في عيب نفسه ولا يطلب عيب غيره ، والمقتصد الذي يطلب عيب غيره ، والظالم الذي هو مشغول في عيب غيره ولا يصلح عيب نفسه .

وطريق خامس وعشرين ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا ﴾ إلى قوله : ﴿ الفضل الكبير ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ .

أمَّا السَّابِقُ بالخَيْرَاتِ فَإنَّهُ يدْخُلُ الجَنَّةَ بغَيْرِ حِسَاب ، وَأَمَّا المُقْتَصِدُ فَإنَّهُ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيْراً ثُمَّ يَدْخُلُ الجَنَّةَ ، وَأَمَّا الظَالِمُ لِنَفْسِهِ فَإنَّهُ يُحَاسَبُ حِسَاباً شَدِيداً وَيُحْبَسُ حَبْساً طَوِيلاً ثُمَّ يَدْخُلُ الجَنَّةَ .

فَإِذَا دَخَلُوا الجَنَّةَ قَالُوا : الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحُزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ " .

وقد قيل غير هذا : إلا أنه يطول الكلام فيه .

وفيما ذكرنا كفاية لمن عمل به .

وأكثر الروايات أن الأصناف الثلاثة كلهم في الجنة مؤمنون ، وأول الآية وآخرها دليل على ذلك .

فأما أول الآية فقوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا ﴾ من عبادنا يعني : أعطينا الكتاب .

فأخبر أنه أعطى الكتاب لهؤلاء الثلاثة .

وقال في آخر الآية ﴿ جنات عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي الله المتقين ﴾ [ النحل : 31 وغيرها ] فأشار إلى الأصناف الثلاثة بالآية الأولى ، حيث قال : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الكتاب ﴾ ، والأخرى حيث قال : ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ ولم يقل : يدخلانها .

وفي الآية الأخرى دليل أن الأصناف الثلاثة هم يدخلون الجنة .

وقال بعضهم : تأول قول ابن عباس الذي قاله في رواية أبي صالح : أن الظالم كافر يعني : كفر النعمة .

ومعناه : فمنهم من كفر بهذه النعمة ، ولم يشكر الله عز وجل عليها .

ومنهم مقتصد يعني : يشكر ويكفر .

ومنهم سابق يعني : يشكر ولا يكفر .

وروي عن كعب الأحبار أنه قيل له : ما منعك أن تسلم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : كان أبي مكنني جميع التوراة إلا ورقات منعني أن أنظر فيها .

فخرج أبي يوماً لحاجة .

فنظرت فيها فوجدت فيها نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته ، وأنه يجعلهم يوم القيامة ثلاثة أثلاث ثلث يدخلون الجنة بغير حساب .



---

وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ، ويدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث تشفع لهم الملائكة والنبيون فأسلمت .

وقلت : لعلّي أكون من الصنف الأول ، وإن لم أكن من الصنف الأول لعلّي أن أكون من

الصنف الثاني أو من الصنف الثالث .

فلما قرأت القرآن وجدتها في القرآن وهو قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب ﴾ إلى قوله : ﴿ جنات عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ الآية .

فإن قيل : ايش الحكمة في ذكره الظالم ابتداءً وتأخيره ذكر السابق قيل له : الحكمة فيه والله أعلم لكيلا يعجب السابق بنفسه ، ولا ييأس الظالم من رحمة الله عز وجل .

ثم قال تعالى : ﴿ بِإِذْنِ الله ذَلِكَ هُوَ الفضل الكبير ﴾ يعني : الذي أورثهم من الكتاب واختارهم هو الفضل الكبير من الله تعالى .

ثم قال عز وجل : ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ يعني : لهم جنات عدن أي دار الإقامة يقال عدن يعدن إذا أقام قرأ أبو عمرو وابن كثير في إحدى الروايتين ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ بضم الياء ، وفتح الخاء على معنى فعل ما لم يسم فاعله .

وقرأ الباقون ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ على معنى أن الفعل لهم ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ يعني : يلبسون الحلي من أساور ﴿ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ﴾ قرأ نافع وعاصم ﴿ وَلُؤْلُؤاً ﴾ بالنصب ومعناه : يحلون أساور ولؤلؤاً .

وقرأ الباقون بالكسر يعني : من ذهب ومن لؤلؤ .

ثم قال : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ يعني : لباسهم في الجنة من حرير الجنة لا كحرير الدنيا .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالُواْ الحمد لِلَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ يعني : حزن الموت وحزن

خوف الخاتمة.

ويقال: همّ العيش.

ويقال: همّ المرور على الصراط ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ ﴾ يغفر الذنوب ﴿ شَكُورٍ ﴾ يقبل اليسير من العمل ويعطي الجزيل عز وجل ﴿ الذى أَحَلَّنَا دَارَ المقامة مِن فَضْلِهِ ﴾ يعني: الحمد لله الذي أنزلنا دار الخلود والمقامة.

(68/643)

---

والمقام بمعنى واحد يعني: الإقامة والدوام من فضله وكرمه ﴿ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ يعني: لا يصيبنا تعب وعناء ﴿ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ يعني: لا يصيبنا فيها من أعباء كما يصيبنا في الدنيا.

ثم بيّن حال المشركين في النار:

فقال عز وجل: ﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾ يعني: جحدوا بوحدانية الله عز وجل ﴿ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ ﴾ الموت.

ويقال: لا يرسل عليهم ولا ينزل الموت ﴿ فَيَمُوتُواْ ﴾ حتى يستريحوا ﴿ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ يعني: من عذاب جهنم ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾ يعني: هكذا نعاقب

كل كافر بالله تعالى .

قرأ أبو عمرو ﴿ يَجْزِى ﴾ بالياء والضم ونصب الزاي ﴿ كُلُّ كَفُورٍ ﴾ بضم اللام على معنى فعل ما لم يسم فاعله .

وقرأ الباقون ﴿ نُجْزِى ﴾ بالنون والنصب ﴿ كُلَّ ﴾ بنصب اللام ومعنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد .

يعني : كذلك يجزي الله تعالى .

ثم أخبر عن حالهم فيها فقال عز وجل : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أي : يستغيثون .

يقال : صرخ يصرخ إذا أغاث واستغاث وهو من الأضداد .

ويستعمل للإغاثة والاستغاثة ، لأن كل واحد منهما يصلح وهو افتعال من الصراخ .

يعني : يدعون في النار ويقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صالحا غَيْرَ الذى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ يعني : نعمل غير الشرك وغير المعصية .

يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ﴾ يعني : أولم نعطكم من العمر والمهلة في الدنيا ﴿ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ يعني : يتعظ فيه من أراد أن يتعظ .

وروى مجاهد عن ابن عباس في قوله ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ﴾ قال : العمر ستون سنة ﴿ وَجَاءكُمُ النذير ﴾ يعني : الشيب والهرم .

وروي أن إبراهيم الخليل أول من رأى الشيب ، فقال : يا رب ما هذا ؟ فقال : هذا وقار في

الدنيا ، ونور في الآخرة .

فقال : يا رب زدني وقاراً .

(69/643)

---

ويقال : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمّرْكُمْ ﴾ يعني : أولم نعطكم ، ونطول أعماركم و ﴿ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ ﴾ من تذكر أي : مقدار ما يتعظ فيه من يتعظ .

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لَقَدَ أَعْذَرَ اللهُ إِلَى عَبْدٍ أَحْيَاهُ حَتَّى بَلَغَ سِتّينَ سَنَةً أَزَالَ عُذْرَهُ" ﴿ وَجَاءكُمُ النذير ﴾ أي : الرسول ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ العذاب في النار ﴿ فَمَا للظالمين مِن نَّصِيرٍ ﴾ يعني : ما للمشركين من مانع من عذاب الله عز وجل .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الله عالم غَيْبِ السموات والأرض ﴾ يعني : غيب ما يكون في السموات والأرض .

يعني : أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ يعني : عليم بما في قلوبهم .

ويقال : عالم بما في قلوب العباد من الخير والشر .

ثم قال عز وجل : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَكُمْ خلائف فِى الأرض ﴾ يعني : قل لهم يا محمد الله تعالى جعلكم سكان الأرض من بعد الأمم الخالية ﴿ فَمَن كَفَرَ ﴾ بتوحيد الله ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ يعني : عاقبة كفره وعقوبة كفره ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً ﴾ وهو الغضب الشديد الذي يستوجب العقوبة .

يعني : لا يزدادون في طول أعمارهم إلا غضب الله تعالى عليهم .

وقال الزجاج : المقت أشد الغضب ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ يعني : غبناً في الآخرة وخسراناً .

ثم قال عز وجل : ﴿ قُلْ أَرَءيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ يعني : تعبدون من دون الله ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ يعني : أخبروني أي شيء خلقوا مما في السموات أو مما في الأرض من الخلق .

وقال القتبي : من بمعنى في يعني : أروني ماذا خلقوا في الأرض .

يعني : أي شيء خلقوا في الأرض كما خلق الله عز وجل ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السموات ﴾ يعني : عون على خلق السموات والأرض .

ويقال : نصيب في السموات .

اللفظ لفظ الاستفهام والشك ، والمراد به النفي .

يعني : ليس لهم شرك في السموات .

ثم قال : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ ﴾ يعني : أعطيناهم كتاباً .

اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به النفي .

يعني : كما ليس لهم كتاب فيه حجة على كفرهم ﴿ فَهُمْ على بَيِّنَةٍ مِّنْهُ ﴾ يعني : ليسوا على بيان مما يقولون .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، وعاصم ، في رواية حفص ﴿ على بَيِّنَةٍ ﴾ بغير ألف .

وقرأ الباقون : ﴿ بينات ﴾ بلفظ الجماعة ، ومعناهما واحد ، لأن الواحد ينبىء عن الجماعة .

ثم قال : ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ الظالمون بَعْضُهُم بَعْضاً ﴾ يعني : ما يعد الظالمون بعضهم بعضاً .

يعني : الشياطين للكافرين من الشفاعة لمعبودهم ﴿ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ يعني : باطلاً .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السموات ﴾ يعني : يحفظ السموات ﴿ والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ يعني : لئلا تزولا عن مكانها ﴿ وَلَئِن زَالَتَا ﴾ يعني : يوم القيامة ﴿ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ يعني : لا يقدر أحد أن يمسكهما .

ويقال : ﴿ وَلَئِن زَالَتَا ﴾ يعني : إن زالتا في الحال ، وهما لا يزولان ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا ﴾

عن قول الكُفَّار ، حيث قالوا : لله ولد ، فكادت السموات والأرض أن تزولا فأمسكهما بحلمه فلم يزولا ﴿ غَفُوراً ﴾ يعني : متجاوزاً عنهم إن تابوا .

ويقال : ﴿ غَفُوراً ﴾ حيث لم يعجل عليهم بالعقوبة ، وأمسك السموات والأرض أن تزولا .

(71/643)

---

وقوله عز وجل ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أيمانهم ﴾ يعني : كفار مكة كانوا يعيرون اليهود والنصارى بتكذيبهم أنبياءهم ، وقالوا : لو أرسل الله عز وجل إلينا رسولاً ، لكنا أهدى من إحدى الأمم ، وكانوا يحلفون على ذلك فذلك قوله : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أيمانهم ﴾ فكل من حلف بالله ، فهو جهد اليمين ﴿ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ ﴾ يعني : رسول ﴿ لَّيَكُونُنَّ أهدى مِنْ إِحْدَى الامم ﴾ يعني : أصوب ديناً من اليهود والنصارى ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نفُوراً ﴾ يعني : ما زادهم الرسول إلا تباعداً عن الهدى .

قوله عز وجل : ﴿ استكبارا فِى الأرض ﴾ يعني : تكبراً في الأرض ، ﴿ استكبارا ﴾ مفعول المعنى زادهم الرسول تكبراً هذا كقوله ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرءان مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ

لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [ الإسراء : 82 ] وكأن القرآن سبب لخسرانهم فأضاف إليهم .

ثم قال : ﴿ وَمَكْرَ السيىء ﴾ يقول : قول الشرك واجتماعهم على قتل النبي صلى الله عليه وسلم .

قرأ حمزة ﴿ وَمَكْرَ السيىء ﴾ بجزم الياء .

وقرأ الباقون بالكسر لتبين الحروف ، وجزم حمزة لكثرة الحركات .

ثم قال : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ يعني : لا يدور وينزل المكر السيىء إلا بأهله .

يعني عقوبة المكر ترجع إليهم ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ ﴾ يعني : ما ينتظرون ﴿ إِلاَّ سُنَّةَ الأولين ﴾ يعني : عقوبة الأمم الخالية أن ينزل بهم مثل ما نزل بالأولين ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً ﴾ يعني : لصنعة الله تعالى .

ويقال : لملة الله .

ويقال : لسنة الله في العذاب ﴿ تَبْدِيلاً ﴾ يعني : لا يقدر أحد أن يبدله ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَحْوِيلاً ﴾ يعني : تغييراً .

يعني : لا يقدر أحد أن يغير فعل الله تعالى .

ثم وعظهم ليعتبروا فقال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرض ﴾ يعني : أو لم يسافروا في الأرض ﴿ فَيَنظُرُواْ ﴾ يعني : فيعتبروا ﴿ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين ﴾ يعني : آخر أمر الذين كانوا ﴿ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ يعني : منعة ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَىْء ﴾ يعني : ليسبقه ، ويفوته من شيء .

ويقال : لا يقدر أحد أن يهرب من عذابه ﴿ فِي السموات وَلاَ فِى الأرض إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً ﴾ بخلقه بأنه لا يفوت منهم أحد ﴿ قَدِيراً ﴾ يعني : قادراً عليهم بالعقوبة .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الناس بِمَا كَسَبُواْ ﴾ يعني : لو عاقبهم ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا ﴾ يعني : على ظهر الأرض ﴿ مِن دَابَّةٍ ﴾ يعني : لهلكت الدواب من قحط المطر .

قال قتادة : ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا ﴾ من دابة إلا أهلكهم كما أهلك من كان في زمان نوح عليه السلام ويقال : ﴿ مِن دَابَّةٍ ﴾ يعني : من الجن والإنس فيعاقبهم بذنوبهم ، فيهلكهم .

وقال مجاهد : ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ يعني من هوام الأرض من العقارب ، ومن الخنافس .

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : كاد الجعل أن يعذب في حجره بذنب بني آدم .

ثم قرأ ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الناس ﴾ الآية .

والعرب تكني عن الشيء إذا كان مفهوماً كما كنى ها هنا عن الأرض كقوله : ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا ﴾ وإن لم يسبق ذكر الأرض .

ثم قال : ﴿ ولكن يُؤَخِرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ يعني : إلى الميعاد الذي وعدهم الله تعالى .

ويقال : إلى الوقت الذي وقت لهم في اللوح المحفوظ ﴿ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ ﴾ يعني : إلى انقضاء حياتهم .

ويقال : هو البعث .

قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ الله كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾ يعني : عالماً بهم وبأعمالهم .

روى الزهري عن سعيد بن المسيب قال : لما طعن عمر رضي الله عنه ، قال كعب : لو دعى الله عمر لأخر في أجله .

*(73/643)*

---

فقال الناس : سبحان الله أليس قد قال الله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [ الأعراف : 34 ] فقال كعب : وقد قال : ﴿ والله خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أزواجا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا

﴿ يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [ فاطر : 11 ]

قال الزهري : فنرى أن ذلك ما لم يحضر الأجل فإذا حضر لم يؤخر ، وليس أحد إلا وعمره مكتوب في اللوح المحفوظ ، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 97.

108 ﴾

(74/643)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

أي لا تحمل نفس ما تحمله نفس أخرى من ذنوبها ، ومنه الوزير لأنه يحمل أثقال الملك بتدبيره .

﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ قال مجاهد مثقلة بالذنوب ، ومعنى الكلام أن النفس التي قد أثقلتها ذنوبها إذا دعت يوم القيامة من يتحمل الذنوب عنها لم تجد من يتحمل عنها شيئاً من ذنوبها .

﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ ولو كان المدعو إلى التحمل قريباً مناسباً ، ولو تحمله عنها ما قبل

تحمله ، لما سبق من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ .

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : في السر حيث لا يطلع عليه أحد ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : في التصديق بالآخرة ، حكاه ابن عيسى .

ويحتمل ثالثاً : يخشونه في ضمائر القلوب كما يخشونه في ظواهر الأفعال .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ . . ﴾ الآية . فيه قولان

: أحدهما : أن هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ، كما لا يستوي الأعمى والبصير ، ولا تستوي الظلمات ولا النور ، ولا يستوي الظل ولا الحرور لا يستوي المؤمن والكافر ، قاله قتادة .

الثاني : أن معنى قوله وما يستوي الأعمى والبصير أي عمى القلب بالكفر وبصره بالإيمان ، ولا تستوي ظلمات الكفر ونور الإيمان ، ولا يستوي ظل الجنة وحرور النار ، قاله السدي .

والحرور الريح الحارة كالسموم ، قال الفراء : الحرور يكون بالليل والنهار ، والسموم لا يكون إلا بالنهار .

وقال الأخفش : الحرور لا يكون إلا مع شمس النهار ، والسموم يكون بالليل والنهار .

قال قطرب : الحرور الحر ، والظل البرد . ومعنى الكلام : أنه لا يستوي الجنة والنار .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ، كما أنه لا يستوي الأحياء والأموات فكذلك لا يستوي المؤمن والكافر ، قاله قتادة .

الثاني : أن الأحياء المؤمنون الذين أحياهم الإيمان . والأموات الكفار الذين أماتهم الكفر وهذا مقتضى قول السدي .

الثالث : أن الأحياء العقلاء ، والأموات الجهال ، قاله ابن قتيبة وفي ﴿ لاَ ﴾ في هذا الموضع وفيما قبله قولان :

أحدهما : أنها زائدة مؤكدة .

الثاني : أنا نافية لاستواء أحدهما بالآخر .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي يهدي من يشاء

. ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أنه مثل ضربه الله ، كما أنك لا تُسمع الموتى في القبور كذلك لا تسمع الكافر .

الثاني : أن الكافر قد أماته الكفر حتى أقبره في كفره فلذلك لا يسمع ، وقيل إن مراد الله تعالى بهذه الآية الإخبار أن بين الخير فروقاً ، كما أن بين الشر فروقاً ، ليطلب من درجات

الخير أعلاها ولا يحتقر من درجات الشر أدناها ، وهو الظاهر من قول علي ابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً ﴾ أي بالقرآن بشرى بالجنة .

﴿ وَنَذِيراً ﴾ من النار . ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أي سلف فيها نبي ، قال ابن جريج : إلا العرب .

قوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ وفيه مضمر محذوف تقديره مختلف ألوانها وطعومها وروائحها ، فاقتصر منها على ذكر اللون لأنه أظهرها ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الجدد القطع مأخوذ من جددت الشيء إذا قطعته ، حكاه ابن بحر .

الثاني : أنها الخطط واحدتها جُدة مثل مُدة ومدد ، ومنه قول زهير :

كأنه أسفع الخدين ذو جُدد . . . طاوٍ ويرتع بعد الصيف عريانا

(76/643)

---

﴿ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ والغربيب الشديد السواد الذي لونه كلون الغراب . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " إِنَّ اللَّهَ يَبْغَضُ الشَّيْخَ الْغِرْبِيبَ " يعني الذي يخضب بالسواد ، قال امرؤ القيس :

العين طامعة واليد سابحة . . . والرجل لافحة والوجه غربيب

وقيل فيه تقديم وتأخير ، وتقديره سود غرابيب

. وفي المراد بالغرابيب السود ثلاثة أوجه :

أحدها : الجبال السود ، قاله السدي .

الثاني : الطرائف السود ، قاله ابن عباس .

الثالث : الأودية السود ، قاله قتادة .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : كذلك مختلف ألوانه أبيض وأحمر وأسود .

الثاني : يعني بقوله كذلك أي كما اختلف ألوان الثمار والجبال والناس والدواب والأنعام كذلك تختلف أحوال العباد في الخشية .

ثم استأنف فقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَآءُ ﴾ يعني بالعلماء الذين يخافون .

قال الربيع بن أنس : من لم يخش الله فليس بعالم . قال ابن مسعود : المتقون سادة ، والعلماء قادة . وقيل : فاتحة الزبور الحكمة خشية الله .

قوله عز وجل : ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ يعني الجنة ، وفيها وجهان

: أحدهما : لن تفسد ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : لن تكسد ، قاله علي بن عيسى والأول أشبه لقول الشاعر :

يا رسول المليك إن لساني . . . راتق ما فتقت إذا أنا بور

قوله عز وجل : ﴿ لِيُوَفِّيهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ يعني ثواب أعمالهم

. ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : يفسح لهم في قبورهم ، قاله الضحاك .

الثاني : يشفعهم فيمن أحسن إليهم في الدنيا ، قاله أبو وائل .

الثالث : يضاعف لهم حسناتهم ، وهو مأثور .

الرابع : غفر الكثير والشكر اليسير ، قاله بعض المتأخرين .

(77/643)

---

ويحتمل خامساً : يوفيهم أجورهم على فعل الطاعات ويزيدهم من فضله على اجتناب المعاصي ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ للذنب .

﴿ شَكُورٌ ﴾ للطاعة . ووصفه بأنه شكور مجاز ومعناه أن يقابل بالإحسان مقابلة الشكور لأنه يقابل على اليسير بأضعافه .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أن الكتاب هو القرآن ، ومعنى الإرث انتقال الحكم إليهم .

الثاني : أن إرث الكتاب هو الإيمان بالكتب السالفة لأن حقيقة الإرث انتقال الشيء من قوم إلى قوم .

وفي ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبادِنَا ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم الأنبياء ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : أنهم بنو إسرائيل لقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءادَمَ وَنُوحاً ﴾ [ آل عمران : 33 ] الآية . قاله ابن بحر .

الثالث : أمة محمد صلى الله عليه وسلم . قاله الكلبي .

﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ كلام مبتدأ لا يرجع إلى المصطفين ، وهذا قول من تأول المصطفين الأنبياء ، فيكون من عداهم ثلاثة أصناف على ما بينهم .

الثاني : أنه راجع إلى تفصيل أحوال الذين اصطفينا ، ومعنى الاصطفاء الاختيار وهذا قول من تأول المصطفين غير الأنبياء ، فجعلهم ثلاثة أصناف .

فأما الظالم لنفسه ها هنا ففيه خمسة أوجه :

أحدها : أنهم أهل الصغائر من هذه الأمة ، روى شهر بن حوشب أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له .

الثاني : أنهم أهل الكبائر وأصحاب المشأمة ، قاله السدي .

الثالث : أنهم المنافقون وهم مستثنون .

الرابع : أنهم أهل الكتاب ، قاله الحسن .

الخامس : أنه الجاحد ، قاله مجاهد .

وأما المقتصد ففيه أربعة أقاويل :

(78/643)

---

أحدها : أنه المتوسط في الطاعات وهذا معنى حديث أبي الدرداء ، روى ابراهيم عن أبي صالح عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ هذه الآية فقال : " أَمَّا السَّابِقُ فَيدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَأَمَّا الْمُقْتَصِدُ فَيُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ، وَأَمَّا الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ فَيُحْصَرُ فِي طُولِ الْحِبْسِ ثُمَّ يَتَجَاوَزُ اللَّهُ عَنْهُ

" الثاني : أنهم أصحاب اليمين ، قاله السدي

. الثالث : أنهم أصحاب الصغائر وهو قول متأخر .

الرابع : أنهم الذين اتبعوا سنن النبي صلى الله عليه وسلم من بعده ، قاله الحسن .

﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ فيه أربعة أقاويل

: أحدها : أنهم المقربون ، قاله مجاهد .

الثاني : أنهم المستكثرون من طاعة الله تعالى ، وهو مأثور .

الثالث : أنهم أهل المنزلة العليا في الطاعات ، قاله علي بن عيسى .

الرابع : أنه من مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد له بالجنة .

روى عقبة بن صهبان قال : سألت عائشة رضي الله عنها عن هذه الآية فقالت : كلهم من أهل الجنة ، السابق من مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد له بالحياة والرزق ، والمقتصد من اتبع أثره حتى لحق به ، والظالم لنفسه مثلي ومثلك ومن اتبعنا .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ فيه تسعة تأويلات :

أحدها : أنه خوف النار ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه حزن الموت ، قاله عطية .

الثالث : تعب الدنيا وهمومها ، قاله قتادة .

الرابع : حزن المنّة ، قاله سَمُرة .

الخامس : حزن الظالم لما يشاهد من سوء حاله ، قاله ابن زيد .

السادس : الجوع حكاه النقاش .

السابع : خوف السلطان ، حكاه الكلبي .

الثامن : طلب المعاش ، حكاه الفراء .

التاسع : حزن الطعام ، وهو مأثور .

ويحتمل عاشراً : أنه حزن التباغض والتحاسد لأن أهل الجنة متواصلون لا يتباغضون ولا يتحاسدون .

(79/643)

---

وفي وقت قولهم لذلك قولان :

أحدهما : عند إعطاء كتبهم بأيمانهم لأنه أول بشارات السلامة ، فيقولون عندها : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ .

الثاني : بعد دخول الجنة ، قاله الكلبي ، وهو أشبه لاستقرار الجزاء والخلاص من أهوال القيامة فيقولون ذلك عند أمنهم شكراً .

قوله عز وجل : ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي دار الإقامة وهي الجنة .

وفي الفرق بين المقامة بالضم والفتح وجهان :

أحدهما : أنها بالضم دار الإقامة ، وبالفتح موضع الإقامة .

الثاني : أنها بالضم المجلس الذي يجتمع فيه للحديث .

﴿ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : تعب ، قاله ابن عيسى .

الثاني : وجع ، قاله قتادة .

﴿ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أنه العناء ، قاله أبو جعفر الطبري .

الثاني : أنه الإعياء ، قاله قطرب وابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ قال ابن جريج : وهم يستغيثون فيها ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أي نؤمن بدل الكفر ونطيع بدل المعصية .

﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ فيه خمسة تأويلات

: أحدها : أنه البلوغ ، قاله الحسن لأنه أول زمان التذكر .

الثاني : ثماني عشرة سنة .

الثالث : أربعون سنة ، قاله ابن عباس ومسروق .

الرابع : ستون سنة ، قاله علي بن أبي طالب مرفوعاً .

الخامس : سبعون سنة لأنه آخر زمان التذكر ، وما بعده هرم . روى أبو هريرة .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى عَبْدٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً

" . قوله عز وجل : ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ فيه أربعة أقاويل

: أحدها : محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن زيد .

الثاني : الشيب ، حكاه الفراء والطبري .

الثالث : الحمى .

(80/643)

---

الرابع : موت الأهل والأقارب .

ويحتمل خامساً : أنه كمال العقل .

﴿ فَذُوقُواْ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : حسرة الندم .

الثاني : عذاب جهنم .

قوله عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ ﴾ قال قتادة خلفاً بعد خلف قرناً بعد قرن ، والخلف هو الثاني للمتقدم ، ولذلك قيل لأبي بكر رضي الله عنه يا خليفة الله ، فقال لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا راضٍ بذلك . وقال بعد السلف إنما يستخلف من يغيب أو يموت ، والله تعالى لا يغيب ولا يموت .

﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي فعليه عقاب كفره

. قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : شركاءكم في الأموال التي جعلتم لهم قسطاً منها الأوثان .

الثاني : الذين أشركتموهم في العبادة .

﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ ﴾ قاله السدي يعني في الأرض

. ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمواتِ ﴾ حتى صاروا شركاء في خلقها

. ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنهُ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : أم أنزلنا عليهم كتاباً بأن لله تعالى شركاء من الملائكة والأصنام فيهم

مستمسكون به ، وهذا قول ابن زياد .

الثاني : أم أنزلنا عليهم كتاباً بأن الله لا يعذبهم على كفرهم فهم واثقون به ، وهو معنى قول

الكلبي .

﴿ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : وعدوهم بأن الملائكة يشفعون .

الثاني : وعدوهم بأنهم ينصرون عليهم .

قوله عز وجل : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله

تعلى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم ،

فلعنوا من كذب نبيه منهم ، وحلفوا بالله جل اسمه يميناً .

﴿ لَئِن جَآءَهُم نَذِيرٌ ﴾ أي نبي

. ﴿ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمْ ﴾ يعني ممن كذب الرسل من أهل الكتاب

. ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم

. ﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : نفوراً عن الرسول .

الثاني : نفوراً عن الحق .

قوله عز وجل : ﴿ اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : استكباراً عن عبادة الله ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : استكباراً بمعاصي الله ، وهذا قول متأخر .

﴿ وَمَكْرَ السَّيِّىءِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : الشرك بالله ، قاله يحيى .

الثاني : أنه المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾ [ الأنفال : 30 ] الآية .

﴿ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : قاله الكلبي ، يحيق بمعنى يحيط .

الثاني : قاله قطرب ، يحيق بمعنى ينزل ، وأنشد قول الشاعر :

وقد دفعوا المنية فاستقلت . . . ذراعاً بعدما كادت تحيقُ

قال فعاد ذلك عليهم بقتلهم يوم بدر

. ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ ﴾ يعني سنة الله في الأولين ، وفيها وجهان

: أحدهما : نزول العذاب بهم عند إصرارهم في التكذيب .

الثاني : لا تقبل منهم التوبة عند نزول العذاب .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ يعني من الذنوب

. ﴿ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ قال يحيى بن سلام بحبس المطر عنهم وفيه ثلاثة

أقاويل :

أحدها : يعني جميع الحيوان مما دب ودرج ، قاله ابن مسعود ، قال قتادة : وقد فعل ذلك

زمان نوح عليه السلام .

الثاني : من الإنس والجن دون غيرهما لأنهما مكلفان بالعقل ، قاله الكلبي .

الثالث : من الناس وحدهم ، قاله ابن جريج .

﴿ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فيه قولان

: أحدهما : الأجل المسمى الذي وعدهم في اللوح المحفوظ ، قاله مقاتل .

(82/643)

---

الثاني : إلى يوم القيامة ، قاله يحيى .

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُم ﴾ فيه قولان

: أحدهما : نزول العذاب .

الثاني : البعث في القيامة .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرا ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : بصيراً بأجلهم .

الثاني : بصيراً بأعمالهم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(83/643)

---

وقال الثعلبى :

﴿ يا أيها الناس أَنتُمُ الفقرآء إِلَى الله والله هُوَ الغني الحميد * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى الله بِعَزِيزٍ * وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ ، سئل الحسين بن

الفضل عن الجمع بين هذه الآية وبين قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [ العنكبوت : 13 ] فقال : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ طوعاً ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [ العنكبوت : 13 ] كرهاً .

﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ ﴾ يعني وإن تدع نفس مثقلة بذنوب غيرها إلى حملها ، أي حمل ما عليها من الذنوب ﴿ لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ : ولو كان المدعوّ ذا قربى له : ابنه أو أُمه أو أباه أو أخاه .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا عن أحمد بن محمد بن رزمة القزويني عن محمد بن عبد ابن عامر السمرقندي قال : حدّثنا إبراهيم بن الأشعث قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : قوله سبحانه : ﴿ لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ قال : يعني الوالدة تلقي ولدها يوم القيامة فتقول : يا بني ألم تكن بطني لك وعاء ؟ ألم يكن لك ثديي سقاء ؟ فيقول : بلى يا أُماه . فتقول : يا بُني قد أثقلتني ذنوبي فاحمل عني ذنباً واحداً . فيقول : يا أُماه إليكِ عني ، فإني اليوم عنكِ مشغول .

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب ﴾ أي يخافونه ولم يروه ، ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة وَمَن تزكى ﴾ صلح عمل خيراً وصالحاً ﴿ فَإِنَّمَا يتزكى لِنَفْسِهِ وَإِلَى الله المصير ﴾ .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾ يعني: الجاهل والعالم، ﴿ وَلَا الظلمات وَلَا النور ﴾ يعني: الكفر والإيمان، ﴿ وَلَا الظل وَلَا الحرور ﴾ يعني: الجنة والنار، والحرور: الريح الحارة بالليل، والسموم بالنهار، وقال بعضهم: الحرور: بالنهار مع الشمس، ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأحيآء وَلَا الأموات ﴾ يعني: المؤمنين والكفار. ﴿ إِنَّ الله يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾، حتى يتعظ ويجيب ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القبور ﴾ يعني: الكفار شبههم بالأموات، وقرأ أشهب العقيلي: (بمسمع من في القبور) بلا تنوين على الإضافة.

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ * إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بالحق بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ * وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ﴾ كرر وهما واحد لاختلاف اللفظين.

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الذين كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ قدم النعت على الاسم فلذلك نصب. ﴿ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ ﴾: طرق، واحدها جُدّة نحو مدة و(مدد)، وأما جمع الجديد فجدُد (بضم الدال) مثل: سرير وسُرُر ﴿ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾، قال الفراء: فيه تقديم وتأخير، مجازه: سود غرابيب

، وهي جمع غربيب ، هو الشديد السواد يشبّهها بلون الغراب قال الشاعر يصف كرماً :

ومن تعاجيب خلق الله غاطية . . . البعضُ منها ملاحيٌّ وغربيب

(85/643)

---

﴿ وَمِنَ الناس والدوآب والأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ قال : المؤرخ : إنما ﴿ أَلْوَانُهُ ﴾ لأجل ﴿ مِنَ ﴾ ، وسمعت أُستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول : سمعت أبا بكر محمّد بن عياش يقول : إنما قال : ﴿ أَلْوَانُهُ ﴾ ؛ لأجل أنها مردودة إلى "ما" في الإضمار ، مجازه : ومن الناس والدوابّ والأنعام ما هو مختلف ألوانه .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ تمام الكلام هاهنا ، أي ومن هذه الأشياء مختلف ألوانه باختلاف الثمرات ، ثم ابتدأ فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ روى عن عمر بن عبد العزيز أنه قرأ ( إنما يخشى اللهُ ) رفعاً و ( العلماءَ ) نصباً ، وهو اختيار أبي حنيفة على معنى يعلم الله ، وقيل : يختار ، والقراءة الصحيحة ما عليه العامة .

وقيل : نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه أخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا ابن شنبه عن إسحاق بن صدقة قال : حدّثنا عبد الله بن هاشم عن سيف بن عمر قال : حدّثنا عباس بن عوسجة عن عطاء الخراساني رفع الحديث قال : ظهر من أبي بكر

خوف حتى عرف فيه فكلمه النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فأنزل الله سبحانه تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ في أبي بكر رضي الله عنه وفي الحديث : " أعلمهم بالله أشدهم له خشية " .

وقال مسروق : كفى بالمرء علماً أنْ يخشى الله ، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه .

وأخبرني الحسين بن محمد بن الحسين الثقفي قال : حدثنا محمد بن إبراهيم الربيعي قال : حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن أيوب المحرمي قال : حدثنا صالح بن مالك الأزدي قال : حدّثنا عبيد الله بن سعد عن صالح بن مسلم الليثي قال : أتى رجل الشعبيَّ فقال : أفتني أيها العالم؟ فقال : العالم من خشي الله عز وجل .

*(86/643)*

---

﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ * إِنَّ الذين يَتْلُونَ كِتَابَ الله ﴾ الآية قال مطرف بن عبد الله بن الشخير : هذه آية القراء ، ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً ﴾ .

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان قال : حدّثنا ابن شاذان قال : حدثنا جيعويه قال : حدّثنا صالح بن محمد عن عبد الله بن عبد الله عن عبيد الله بن الوليد الوصافي عن عبد الله بن عبيد الله بن عمير الليثي أنه قال : قام رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال

: " يا رسول الله ، ما لي لا أُحبُّ الموت ؟ قال : " ألك مال ؟ " . قال : نعم . قال : " فقدمه " . قال : لا أستطيع . قال : فإنّ قلب المرء مع ماله إن قدمه أحب أن يلحق به ، وإن أخّره أحب أن يتأخر معه " .

﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ ، قال الفراء : قوله ﴿ يَرْجُونَ ﴾ جواب لقوله : ﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ ﴾ .

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ * والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكتاب هُوَ الحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ الله بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ ﴾ مردود إلى ما قبله من كتب الله في قوله : ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، أي قبله من الكتب السالفة ، أي أنزلنا تلك الكتب ، ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ﴾ هذا ﴿ الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ، ويجوز أن تكون ﴿ ثُمَّ ﴾ بمعنى الواو أي ( وأورثنا ) كقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين آمَنُواْ ﴾ [ البلد : 17 ] أي وكان ومعنى و ﴿ أَوْرَثْنَا ﴾ : أعطينا ؛ لأنّ الميراث عطاء ، قاله مجاهد ، وقال بعض أهل المعاني : ﴿ أَوْرَثْنَا ﴾ أي أخرنا ، ومنه الميراث ؛ لأنه تأخر عن الميت ومعناه : أخرنا القرآن عن الأُمم السالفة وأعطيناكموه وأهّلناكم له ، وقال عنترة :

وأورثت سيفي عن حصين بن معقل . . . إلى جده إني لثأري طالب

أي أخرت ، وفي هذا كرامة لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال لهم : ﴿ أَوْرَثْنَا ﴾ وقال : لسائر الأمم ﴿ وَرِثُواْ الكتاب ﴾ [ الأعراف : 169 ] الآية يعني القرآن .

﴿ الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وهم أمة محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) . ثم قسمهم ثلاث طبقات ورتبهم على ثلاث درجات فقال الله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ قيّد اللفظ وعَلّق الظلم بالنفس ؛ فلذلك ساغ أن يكون من أهل الاصطفاء مع ظلمه .

فإن قيل : ما وجه الحكمة في تقديم الظالم وتأخير السابق وإنما يقدم الأفضل ؟

فالجواب عنه أن نقول : إنما أُخر السابق ليكون أقرب إلى الجنان والثواب ، كما قدم الصوامع والبيع والصلوات في سورة الحج على المساجد التي هي أفضل بقاع الأرض ، فتكون الصوامع أقرب إلى الهدم والخراب وتكون المساجد أقرب إلى ذكر الله تعالى .

ومنهم من قال : إنما جعل ذلك ؛ لأن الملوك إذا أرادوا الجمع بين الأشياء بالذكر قدموا الأدنى على الأفضل . كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب ﴾ [ الرعد : 6 ] ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ الأنعام : 165 ] [ الأعراف : 167 ] ، وقال : ﴿ يُولِجُ الليل فِي النهار ﴾ [ الحج : 61 ] ، وقال : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور ﴾ [ الشورى : 49 ] وقال : ﴿ خَلَقَ الموت والحياة ﴾ [ الملك : 2 ] .

وقيل : قدم الظالم لئلا ييأس من رحمته وأخر السابق لئلا يعجب بعمله .

وقال جعفر الصادق (عليه السلام) : "بدأ بالظالم إخباراً أنه لا يتقرب إليه إلاّ بصرف رحمته وكرمه، وأنّ الظلم لا يؤثّر في الاصطفائية ثم ثنى بالمقتصدين؛ لأنهم بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكر الله وكلّهم في الجنة بحرمه كلمة الإخلاص".



---

وقال بعضهم: قدم الظالم؛ لأنه لم يكن له شيء يتكل عليه إلاّ رحمة الله فاعتمد على الله واتكل على رحمته واتكل المقتصد على حسن ظنه بربه واتكل السابق على حسناته وطاعته.

وقال محمد بن علي الترمذي: جمعهم في الاصطفاء إزالة للعلل عن العطاء؛ لأنّ الاصطفاء أوجب الإرث لا الإرث أوجب الاصطفاء؛ لذلك قيل: صحح النسبة ثم اطمع في الميراث.

وقال أبو بكر الوراق: إنما رتبهم هذا الترتيب على مقامات الناس؛ لأنّ أحوال العبد ثلاث: معصية، وغفلة، ثم توبة وقربة.

فإذا عصى دخل في حيّز الظالمين، وإذا تاب دخل في جملة المقتصدين وإذا صحت التوبة

وكثرت العبادة والمجاهدة اتصل بالله ودخل في عداد السابقين .

واختلف المفسرون والمتأوّلون في معنى الظالم والمقتصد والسابق فأكثروا ، وأنا ذاكر نصوص ما قالوا وبالله التوفيق :

أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمّد بن الحسين بن عبد الله الحافظ ، قال : حدّثنا برهان ابن علي الصوفي والفضل بن الفضل الكندي قالا : أخبرني أبو خليفة الفضل بن الحباب قال : حدثنا محمد بن كثير قال : أخبرنا سفيان عن الأعمش عن أبي ثابت أنّ رجلاً دخل المسجد فقال : اللهم ارحم غربتي وآنس وحشتي ويسر لي جليساً صالحاً . قال أبو الدرداء : لئن كنت صادقاً لأنا أسعد بذلك منك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات بِإِذُنِ الله ﴾ ، فقال : " أما السابق فيدخل الجنة بغير حساب ، وأما المقتصد فيُحاسب حساباً يسيراً ، وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام ثم يدخل الجنة ، فهم [ الذين ] قالوا : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ لُغُوبٌ ﴾ " .

(89/643)

قال الكندي والأعمش عن رجل عن أبي ثابت : وأخبرني الحسين بن محمد قال : أخبرني أبو بكر بن مالك القطيعي عن عبد الله بن أحمد بن حنبل حدّثني أبي عن إسحاق بن عيسى حدّثني أنس بن عياض الليثي أبو ضمرة عن موسى بن عتبة عن علي بن عبد الله الأزدي عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله عز وجل : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات بِإِذْنِ الله ﴾ ، فأما الذين سبقوا بالخيرات فأُولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأُولئك الذين يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين تلقّاهم الله برحمته فهم الذين يقولون : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ إلى قوله : ﴿ لُغُوبٌ ﴾ " .

وأخبرني الحسين قال : حدّثنا أبو عمرو عثمان بن أحمد بن سمعان الذرار قال : حدّثنا يوسف بن يعقوب بن الحسن المقرئ بواسط قال : حدّثنا محمّد بن خالد بن عبد الله المزني قال : حدّثنا فرج بن فضالة عن أزهر بن عبد الله الحرازي قال : حدّثني من سمع عثمان بن عفان تلا هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية ، فقال : سابقنا : أهل جهادنا ، ومقتصرنا : أهل حضرنا ، وظالمنا : أهل بدونا .

وأخبرني الحسين قال: حدّثنا عمر بن الخطاب قال: حدّثنا محمد بن إسحاق قال: حدّثنا إسماعيل بن يزيد قال: حدّثنا داوُد عن الصلت بن دينار قال: حدّثنا عقبة بن صهبان قال: دخلت على عائشة فسألتها عن قول الله عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ فقالت لي: يا بني كلّهم في الجنة؛ أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم فجعلت نفسها معنا.

وقال مجاهد والحسن وقتادة: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ قالوا: هم أصحاب المشأمة، ﴿ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ هم أصحاب الميمنة ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ هم السابقون المقربون من الناس كلهم.

قال قتادة: فهذا في الدنيا على ثلاث منازل وعند الموت قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين ﴾ [الواقعة: 90] إلى قوله: ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [الواقعة: 94]، وفي الآخرة أيضاً، قال عز وجل: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً * فَأَصْحَابُ الميمنة مَآ أَصْحَابُ الميمنة ﴾ [الواقعة: 7-8] إلى قوله: ﴿ المقربون ﴾ [الواقعة: 11].

وقال ابن عباس: السابق: المؤمن المخلص، والمقتصد: المرائي، والظالم: الكافر بنعمة

الله غير الجاحد لها ؛ لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة فقال : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ ، وسمعت أبا محمد شيبة بن محمد بن أحمد الشعبي يقول : سمعت أبا بكر بن عبد يقول : قالت عائشة : السابق : الذي أسلم قبل الهجرة ، والمقتصد : الذي أسلم بعد الهجرة ، والظالم : نحن .



---

وقال بكر بن سهل الدمياطي : الظالم لنفسه : الذي مات على كبيرة ولم يتب منها ، والمقتصد : الذي لم يصب كبيرة ، والسابق بالخيرات : الذي لم يعصِ الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

وعن الحسن أيضاً قال : السابق : من رجحت حسناته ، والمقتصد : من استوى حسناته وسيئاته ، والظالم : الذي ترجح سيئاته على حسناته .

سهل بن عبد الله : السابق : العالم ، والمقتصد : المتعلم ، والظالم : الجاهل ، وعنه أيضاً : السابق : الذي اشتغل بمعاده ، والمقتصد : الذي اشتغل بمعادة عن معاشه ، والظالم : الذي اشتغل بمعاشه عن معاده .

وقيل : الظالم : طالب الدنيا ، والمقتصد : طالب العقبى ، والسابق ، طالب المولى .

وقيل : الظالم : المسلم ، والمقتصد : المؤمن ، والسابق : المحسن .

وقيل : الظالم : المرائي في جميع أعماله ، والمقتصد : من تكون أعماله بعضها رياءً وبعضها إخلاصاً ، والسابق : المخلص في أفعاله كلها ، وقيل : الظالم : من أخذ الدنيا حلالاً كان أو حراماً ، والمقتصد : من يجتهد في طلب الحلال ، والسابق : الذي ترك الدنيا جملةً وأعرض عنها .

أبو عثمان الحيري : الظالم : من وجد الله بلسانه ولم يوافق فعله قوله ، والمقتصد : من وجده بلسانه وأطاعه بجوارحه ، والسابق : من وجده بلسانه وأطاعه بجوارحه وأخلص في عمله ، وقيل : السابقون : هم المهاجرون الأولون ، والمقتصدون : عامة الصحابة ، والظالمون : التابعون .

وسمعت محمد بن الحسين السلمي يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبا القاسم البزاز بمصر يقول : قال ابن عطا : الظالم : الذي تحبه من أجل الدُّنيا ، والمقتصد : الذي تحبه من أجل العقبى ، والسابق : الذي أسقط مراده بمراد الحق ، فلا يرى لنفسه طلباً ولا مراداً لغلبة سلطان الحق عليه ، وقيل : الظالم : من كان ظاهره خيراً من باطنه ، والمقتصد : الذي استوى ظاهره وباطنه ، والسابق : الذي باطنه خيرٌ من ظاهره .

وقيل : الظالم : الذي يعبد الله خوفاً من النار ، والمقتصد : الذي يعبده طمعاً في الجنة ، والسابق : الذي يعبده لا لسبب ، وقيل : الظالم : الزاهد ، والمقتصد : العارف ، والسابق : المحب ، وقيل : الظالم : الذي يجزع عند البلاء ، والمقتصد : الذي يصبر عند البلاء ، والسابق : الذي يتلذذ بالبلاء ، وقيل : الظالم : الذي يعبده على الغفلة والعادة ، والمقتصد : الذي يعبده على الرغبة والرهبة ، والسابق : الذي يعبده على الهيبة ورؤية المنة ، وقيل : الظالم : الذي أُعطي فمنع ، والمقتصد : الذي أُعطي فبذل ، والسابق : الذي مُنع فشكر ، وقيل : الظالم : غافل ، والمقتصد : طالب ، والسابق واجد ، وقيل : الظالم : من استغنى بماله ، والمقتصد : من استغنى بدينه ، والسابق : من استغنى بربه ، وقيل : الظالم التالي للقرآن ، والمقتصد : القارئ له والعالم به ، والسابق : القارئ لكتاب الله العالم بكتاب الله العامل به ، وقيل : السابق : الذي يدخل المسجد قبل تأذين المؤذن ، والمقتصد : الذي يدخل المسجد وقد أذن ، والظالم : الذي يدخل المسجد وقد أُقيم ، وقيل : الظالم : الذي يحب نفسه ، والمقتصد : الذي يحب ربه ، والسابق : الذي يحبه ربه ، وقيل : الظالم : مريد ، والمقتصد : مُراد ، والسابق : مطلوب ، وقيل : الظالم : مدعو ، والمقتصد مأذون له ، والسابق : مقرب ، وقيل : الظالم : عيوف ، والمقتصد : ألوف ، والسابق : حليف .

وسمعت أبا القاسم بن حبيب يقول : الظالم : ينتصف ولا ينصف ، والمقتصد : ينصف

وينتصف ، والسابق ينصف ولا ينتصف .

ذو النون المصري : الظالم : الذي لا يذكر الله بلسانه ، والمقتصد : الذي يذكره بقلبه ، والسابق : الذي لا ينسى ربه .

أحمد بن عاصم الأنطاكي : الظالم : صاحب الأقوال ، والمقتصد : صاحب الأفعال ، والسابق : صاحب الأحوال .

ثم جمعهم الله سبحانه وتعالى في دخول الجنة فقال سبحانه وتعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ .

(93/643)

---

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن زرعة قال : حدّثنا يوسف بن عاصم الرازي قال : حدّثنا أبو أيّوب سليمان بن داوُد المنقري المعروف بالشاذكوي عن حصين ابن نمير أبو محصن عن ابن أبي ليلى عن أخيه عن أبيه عن أُسامة بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ الآية قال : "كلهم في الجنة" .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا علي بن محمد بن علي بن الحسين الفأفاء القاضي قال : حدّثنا بكر بن محمد المروزي قال : حدّثنا أبو قلابة قال : حدّثنا عمرو بن الحصين عن

الفضل بن عميرة عن ميمون الكردي عن أبي عثمان الهندي قال : سمعت عمر بن الخطاب قرأ على المنبر : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفورٌ له " قال أبو قلابة : فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه .

﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ أخبرني الحسين بن محمد بن الحسين قال : حدّثنا محمد بن الحسن بن بشير قال : حدثنا أبو الحرث أحمد بن سعيد بن أُمِّ سعيد قال : حدّثنا الربيع بن سليمان المرادي قال : حدّثنا أسيد بن موسى عن ابن ثومان عن عطاء ابن قرة عن عبد الله بن ضمرة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أن أدنى أهل الجنة حلية عدلت حليته بحلية أهل الدنيا جميعاً لكان ما يحليه الله سبحانه به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعاً " .

(94/643)

---

﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي يقولون إذا دخلوا الجنة ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ أخبرني الحسين بن محمد العدل قال : حدّثنا محمد بن المظفر قال : حدّثنا علي بن إسماعيل بن

حماد البغدادي قال : حدّثنا عمرو بن علي الفلاس قال : حدّثنا معاذ بن هشام ، قال حدّثني أبي عن عمرو بن مالك عن ابن أبي الجوزاء عن ابن عباس في قول الله عز وجل : ﴿ الحمد للَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ قال : حزن النار .

وأخبرني الحسين بن محمد عن محمد بن علي بن الحسن الصوفي قال : حدثنا أبو شعيب الحراني قال : حدّثنا عبد العزيز بن أبي داوُد الحراني قال : حدّثنا جرير عن أشعث بن قيس عن شمر بن عطية في قول الله عز وجل : ﴿ الحمد للَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ قال حزن الخبز .

عكرمة : حزن الذنوب والسيئات وخوف رد الطاعات ، وقيل : حزن الموت ، وقيل : حزن الجنة والنار لا يُدرى إلى أيهما يصير . الثمالي : حزن الدنيا . الضحاك : حزن إبليس ووسوسته . ذو النون : حزن القطيعة .

الكلبي : يعني الحزن الذي يحزننا في الدنيا من يوم القيامة ، وقيل : حزن العذاب والحساب ، وقيل : حزن أهوال الدنيا وأوجالها ، وقال القاسم : حزن زوال النعم وتقليب القلب وخوف العاقبة .

وسمعت السلمي يقول : سمعت النصرآبادي يقول : ما كان حزنهم إلاّ تدبير أحوالهم وسياسة أنفسهم ، فلما نجوا منها حمدوا ﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ ، أخبرني أبو عبد الله الدينوري قال : أخبرني أبو حذيفة أحمد بن محمد بن علي عن عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي عن يحيى بن عبد الحميد الحماني عن عبد الرَّحْمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "ليس على أهل ( لا إله إلاّ الله ) وحشة في قبورهم ولا في محشرهم ولا في منشرهم ، وكأني بأهل ( لا إله إلاّ الله ) يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن وجوههم ويقولون : ﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ "

.

﴿ الذي أَحَلَّنَا دَارَ المقامة ﴾ أي الإمامة ﴿ مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أي كلال وإعياء وفتور ، وقراءة العامة بضم اللام ، وقرأ السلمي بنصب اللام وهو مصدر أيضاً كالولوع ، وقال الفراء : كأنه جعله ما يلغب مثل لغوب .

(96/643)

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الجوزقي قال : أخبرنا أبو الحسين محمد بن محمد بن مهدي قال : أبو عبد الله محمد بن زكريا بن محمدويه الرجل الصالح عن عبد الله بن عبد الوهاب الخوارزمي قال : حدّثنا عاصم بن عبد الله قال : حدّثني إسماعيل عن ليث بن أبي سليم عن الضحاك بن مزاحم في قول الله سبحانه : ﴿ الحمد للَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ قال : إذا دخل أهل الجنة استقبلهم الولدان والخدم كأنهم اللؤلؤ المكنون . قال : فيبعث الله ملكاً من الملائكة معه هدية من رب العالمين وكسوة من كسوة الجنة فيلبسه . قال : فيُريد أن يدخل الجنة فيقول الملك : كما أنت فيقف ومعه عشرة خواتيم من خواتيم الجنة هدية من رب العالمين فيضعها في أصابعه . مكتوب في أول خاتم منها : ﴿ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ [ الزمر : 73 ] ، وفي الثاني مكتوب : ﴿ ادخلوها بِسَلاَمٍ ذَلِكَ يَوْمُ الخلود ﴾ [ ق : 34 ] ، وفي الثالث مكتوب : " رفعت عنكم الأحزان والهموم " ، وفي الرابع مكتوب : " زوجناكم الحور العين " ، وفي الخامس مكتوب : " ادخلوها بسلام آمنين " ، وفي السادس مكتوب : ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ اليوم بِمَا صبروا ﴾ [ المؤمنون : 111 ] ، وفي السابع مكتوب : " إنهم هم الفائزون " ، وفي الثامن : " صرتم آمنين لا تخافون " ، وفي التاسع مكتوب : " رافقتم النبيين والصديقين والشهداء " ، وفي العاشر مكتوب : " سكنتم في جوار من لا يؤذي الجيران " . ثم تقول الملائكة : " ادخلوها بسلام آمنين " .

فلما دخلوا بيوتاً ترفع وَ ﴿ قَالُواْ الحمد للَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن . . ﴾ إلى قوله : ﴿

لُغُوبٌ ﴾ .

﴿ والذين كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ أي لا يقبضون فيستريحون .

(97/643)

---

وذكر عن الحسن : فيموتون ، و ﴿ لَا ﴾ يكون حينئذ جواباً للنفي ، والمعنى : لا يقضى عليهم ولا يموتون . كقوله : ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [ المرسلات : 36 ] .

﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ قراءة العامة بنصب النون واللام وقرأ أبو عمرو بضم الياء واللام وفتح الزاي على غير تسمية الفاعل .

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ ﴾ : يدعون ويستغيثون ويصيحون فيها ، وهو افتعال من الصراخ ، ويُقال للمغيث : صارخ وللمستغيث : صارخ . ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا ﴾ من النار ﴿ نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ في الدّنيا ، فيقول الله عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ . اختلفوا في هذه المدة ، فقال قتادة والكلبي : ثماني عشرة سنة ، وقال الحسن : أربعون سنة ، وقال ابن عباس : ستون سنة .

أخبرني أبو عبد الله بن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه وأحمد بن جعفر بن حمدان قالا : حدّثنا إبراهيم بن سهلويه قال : حدّثنا أبو سلمة يحيى بن المغيرة حدّثنا ابن أبي فديك عن

عبد الله بن عبد الرَّحْمن بن أبي حصين عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم : " إذا كان يوم القيامة نُودي أين أبناء الستّين ؟ وهو الذي قال الله عز وجل فيه : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا أبو بكر بن حرجة قال : حدّثنا محمد بن أيوب قال : حدّثنا الحجبي عن عبد العزيز بن أبي حازم قال : سمعت أبي يُحدث عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم : " من عمّره الله ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر " .

(98/643)

---

وأخبرني ابن فنجويه عن أحمد بن جعفر بن حمدان عن إبراهيم بن سهلويه عن الحسين بن عرفة ، عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعمار أُمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك " .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " معترك منايا أُمتي ما بين الستين إلى السبعين " .

﴿ وَجَآءَكُمُ النذير ﴾ أي الرسول ، وقال زيد بن علي : القرآن ، وقال عكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع والحسين بن الفضل : يعني الشيب ، وفيه قيل :

رأيت الشيب من نُذُر المنايا . . . لصاحبها وحسبك من نذيرِ

فحدّ الشيبِ أُهبة ذي وقار . . . فلا خلفٌ يكون مع القتير

وقال آخر :

وقائلة تبيض والغواني . . . نوافر عن معاينة القتير

فقلت لها المشيب نذير عمري . . . ولستُ مسوداً وجه النذير

﴿ فَذُوقُواْ ﴾ أي العذاب ﴿ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ * إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السماوات والأرض إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور * هُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً ﴾ غضباً ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً * قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ أي في الأرض ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً ﴾ يأمرهم بذلك ﴿ فَهُمْ على بَيِّنَةٍ مِّنْهُ ﴾ .

(99/643)

---

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والأعمش وحمزة ﴿ بَيِّنَةٍ ﴾ على الواحد ، وقرأ غيرهم ( بينات ) بالجمع ، وهو اختيار أبي عبيد قال : لموافقة الخط . فإني قد رأيتها في بعض المصاحف

بالألف والتاء . ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ الظالمون بَعْضُهُم بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً * إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ ، روى مغيرة عن إبراهيم قال : جاء من أصحاب عبد الله بن مسعود إلى كعب ليتعلم من علمه ، فلما رجع قال عبد الله : هات الذي أصبت من كعب . قال : سمعت كعباً يقول : إنّ السماء تدور في قطبة مثل قطبة الرحا في عمود على منكب ملك . فقال عبد الله : وددت أنك انفلتّ من رحلتك براحلتك ورحلها ، كذب كعب ما ترك يهوديته بعدُ ، إنّ الله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ ﴾ الآية ، إن السماوات لاتدور ، ولو كانت تدور لكانت قد زالت .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ وذلك أنّ قريشاً لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا : لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم ، فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى ديناً منهم ، وهذا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم كذبوه فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أهدى مِنْ إِحْدَى الأمم ﴾ ، يعني اليهود والنصارى ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ : محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ بعداً ونفاراً .

﴿ استكبارا فِي الأرض ﴾ ونصب ﴿ استكبارا ﴾ على البدل من النفور ، قاله الأخفش ، وقيل : على المصدر ، وقيل : نزع الخافض . ﴿ وَمَكْرَ السيىء ﴾ يعني العمل القبيح ، وقال الكلبي : هو إجماعهم على الشرك وقتل النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ ، أي لا يحل ولا ينزل ، ويحيط ويلحق فقتلوا يوم بدر ، وقراءة العامة ﴿ السيىء ﴾ : بإشباع الإعراب فيها ، وجزم الأعمش وحمزة ( ومكر السَّيْ ) تخفيفاً وكراهة لالتقاء الحركات ولم يعملا ذلك في الأُخرى ، والقراءة المرضية ما عليه العامة .

وفي الحديث أنّ كعباً قال لابن عباس : قرأت في التوراة : من حفر حفرة وقع فيها . فقال ابن عباس : أنا أوجد لك ذلك في القرآن ، ثم قرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ .

وأخبرني أبو عبد الله الحسين بن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا محمد بن الحسن البلخي قال : حدّثنا عبد الله بن المبارك قال : أخبرنا يونس بن يزيد عن الزهري قال : بلغنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" لا تمكر ولا تعن ماكراً ؛ فإن : الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ ، ولا تبغ ولا تعن باغياً ، بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ

﴿ [ يونس : 23 ] ولا تنكث ولا تلعن ناكثاً فإنّ الله سبحانه يقول : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ على نَفْسِهِ ﴾ [ الفتح : 10 ] " .

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأولين ﴾ يعني العذاب إذا كفروا ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ الله تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ الله تَحْوِيلاً ﴾ .

(101/643)

---

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ وكانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً * وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِمَا كَسَبُواْ ﴾ من الجرائم ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا ﴾ ، يعني الأرض كناية عن غير مذكور ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ .

قال الأخفش والحسين بن الفضل : أراد بالدابة : الناس دون غيرهم ، وأجراها الآخرون على العموم . أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه [ عن ] الفربابي قال : حدّثني أبو مسعود أحمد بن الفرات قال : أخبرنا أبو عوانة قال : حدّثنا عبد الله بن المبارك عن يونس بن يزيد عن الزهري عن حمزة بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا أصاب الله عز وجل قوماً بعذاب أصاب به من بين ظهرانيهم ثم يبعثون على

أعمالهم يوم القيامة " .

وقال قتادة في هذه الآية : قد فعل الله ذلك في زمن نوح فأهلك الله ما على ظهر الأرض من دابة إلاّ ما حُمل في سفينة نوح ، وقال ابن مسعود : كاد الجعل يُعذب في جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ هذه الآية ، وقال أنس : إنّ الضب ليموت هزلاً في جحره بذنب ابن آدم ، وقال يحيى ابن أبي كثير : أمر رجل بمعروف ونهى عن منكر ، فقال له رجل : عليك نفسك فإنّ الظالم لا يضر إلاّ نفسه . فقال أبو هريرة : كذبت والذي نفسي بيده ، إنّ الحباري لتموت هزلاً في وكرها بظلم الظالم .

وقال أبو حمزة الثمالي في هذه الآية : يحبس المطر فيهلك كل شيء .

﴿ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 103 . 117 ﴾

(102/643)

---

وقال الزمخشري :

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) ﴾

فإن قلت : لم عرف الفقراء ؟ قلت : قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم

جنس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم ، لأن الفقر مما يتبع الضعف ، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر وقد شهد اللّه سبحانه على الإنسان بالضعف في قوله وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً وقال سبحانه وتعالى اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ولو نكر لكان المعنى أنتم بعض الفقراء . فإن قلت : قد قوبل الفقراء بالغنى ، فما فائدة الحميد ؟ قلت : لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم - وليس كل غنى نافعا بغناه إلا إذا كان الغنىّ جوادا منعما ، فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد - ذكر الحميد ليدل به على أنه الغنى النافع بغناه خلقه ، الجواد المنعم عليهم المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه ، الحميد على ألسنة مؤمنيهم بِعَزِيزٍ بممتنع ، وهذا غضب عليهم لاتخاذهم له أندادا ، وكفرهم بآياته ومعاصيهم ، كما قال وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيئا .

[سورة فاطر (35) : آية 18]

وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (18)

الوزر والوقر : أخوان ، ووزر الشيء إذا حمله . والوازرة : صفة للنفس ، والمعنى : أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته : لا تؤخذ نفس بذنب نفس ، كما تأخذ

جبابرة الدنيا : الولي بالولى ، والجار بالجار . فإن قلت : هلا قيل : ولا تزر نفس وزر أخرى ؟

ولم قيل وازرة ؟ قلت : لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا ترى منهن واحدة إلا حاملة وزرها ، لا وزر غيرها . فإن قلت : كيف توفق بين هذا وبين قوله وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ ؟ قلت : تلك الآية في الضالين المضلين ، وأنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم ، وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم . ألا ترى كيف كذبهم اللّه تعالى في

(103/643)

---

قولهم اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ بقوله تعالى وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ .

فإن قلت : ما الفرق بين معنى قوله وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وبين معنى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ؟ قلت : الأول في الدلالة على عدل اللّه تعالى في حكمه ، وأنه تعالى لا يؤاخذ نفسا بغير ذنبها ، والثاني في أن لا غياث يومئذ لمن استغاث ، حتى أن نفسا قد أثقلها الأوزار وبهظتها ، لو دعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث ، وإن كان

المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ. فإن قلت: إلام أسند كان في وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى؟ قلت: إلى المدعو المفهوم من قوله وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ. فإن قلت: فلم ترك ذكر المدعو؟ قلت: ليعمّ، ويشمل كل مدعوّ. فإن قلت: كيف استقام إضمار العام؟ ولا يصح أن يكون العام ذا قربى للمثقلة؟ قلت: هو من العموم الكائن على طريق البدل. فإن قلت: ما تقول فيمن قرأ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى على كان التامّة، كقوله تعالى وَإِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ؟ قلت: نظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة، لأنّ المعنى على أن المثقلة إن دعت أحدا إلى حملها لا يحمل منه شيء، وإن كان مدعوّها ذا قربى، وهو معنى صحيح ملتئم، ولو قلت: ولو وجد ذو قربى، لتفكك وخرج من اتساقه والتئامه «1»، على أنّ هاهنا ما ساغ أن يستتر له ضمير في الفعل بخلاف ما أوردته بِالْغَيْبِ حال من الفاعل أو المفعول، أى: يخشون ربهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه غائبا عنهم. وقيل: بالغيب في السر، وهذه صفة الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه، فكانت عادتهم المستمرّة أن يخشوا الله، وهم الذين أقاموا الصلاة وتركوها منارا منصوبا وعلما مرفوعا، يعنى: إنما تقدر على إنذار هؤلاء وتحذيرهم من قومك، وعلى تحصيل منفعة الإنذار فيهم دون متمرّديهم وأهل عنادهم وَمَنْ تَزَكَّى ومن تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصي. وقرئ: ومن ازكى فإنما يزكى، وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة، لأنهما من جملة التزكى وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ وعد للمتزكين بالثواب. فإن قلت: كيف اتصل قوله إِنَّما تُنْذِرُ بما

قبله؟ قلت : لما غضب عليهم في قوله إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أتبعه الإنذار بيوم القيامة وذكر أهوالها ، ثم قال إِنَّما تُنْذِرُ كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسمعهم ذلك ، فلم ينفع ، فنزل إِنَّما تُنْذِرُ أو أخبره الله تعالى بعلمه فيهم .

[سورة فاطر (35) : الآيات 19 إلى 23]

وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ (19) وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ (20) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (21) وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23)

---

(1) . قوله «وخرج من اتساقه والتئامه» أى : انتظامه . (ع)



---

الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ مثل للكافر والمؤمن ، كما ضرب البحرين مثلا لهما أو للصنم والله عزّ وجلّ ، والظلمات والنور والظنّ والحرور : مثلان للحق والباطل ، وما يؤدّيان إليه من الثواب والعقاب . والأحياء والأموات : مثل للذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه ، وأصروا على الكفر والحرور : السموم ، إلا أنّ السموم يكون بالنهار ، والحرور بالليل والنهار . وقيل : بالليل خاصة . فإن قلت : لا المقرونة بواو العطف ما هي؟ قلت : إذا

وقعت الواو في النفي قرنت بها لتأكيد معنى النفي. فإن قلت: هل من فرق بين هذه الواوات؟ قلت: بعضها ضمت شفعا إلى شفع، وبعضها وترا إلى وتر إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ يعنى أنه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه، فيهدى الذي قد علم أنّ الهداية تنفع فيه، ويخذل من علم أنها لا تنفع فيه. وأمّا أنت فخفى عليك أمرهم، فلذلك تحرص وتتهالك على إسلام قوم من المخذولين. ومثلك في ذلك مثل من لا يريد أن يسمع المقبورين وينذر، وذلك ما لا سبيل إليه، ثم قال إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ أى ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر، فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع، وإن كان من المصرين فلا عليك. ويحتمل أنّ اللّه يسمع من يشاء وأنه قادر على أن يهدى المطبوع على قلوبهم على وجه القسر والإلجاء، وغيرهم على وجه الهداية والتوفيق، وأما أنت فلا حيلة لك في المطبوع على قلوبهم الذين هم بمنزلة الموتى.

[سورة فاطر (35): آية 24]

إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ (24)

بِالْحَقِّ حال من أحد الضميرين، يعنى: محقا أو محقين، أو صفة للمصدر، أى: إرسالا مصحوبا بالحق. أو صلة لبشير ونذير على: بشيرا بالوعد الحق، ونذيرا بالوعيد الحق. والأمّة الجماعة الكثيرة. قال اللّه تعالى: وجد عليه أمّة من الناس، ويقال لأهل كل عصر: أمّة، وفي حدود المتكلمين: الأمّة هم المصدقون بالرسول صلى اللّه عليه وسلم دون

المبعوث إليهم ، وهم الذين يعتبر إجماعهم ، والمراد هاهنا : أهل العصر . فإن قلت : كم من أمّة في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ولم يخل فيها نذير ؟ قلت : إذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تندرس ، وحين اندرست آثار نذارة عيسى بعث اللّه محمدا صلى اللّه عليه وسلم . فإن قلت : كيف اكتفى بذكر النذير عن البشير في آخر الآية بعد ذكرهما ؟ قلت لما كانت النذارة مشفوعة بالبشارة لا محالة ، دلّ ذكرها على ذكرها ، لا سيما قد اشتملت الآية على ذكرهما

[سورة فاطر (35) : الآيات 25 إلى 26]

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ (25) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (26)



---

بِالْبَيِّناتِ بالشواهد على صحة النبوّة وهي المعجزات وَبِالزُّبُرِ وبالصحف وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ نحو التوراة والإنجيل والزبور . لما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسنادا مطلقا ، وإن كان بعضها في جميعهم : وهي البينات ، وبعضها في بعضهم : وهي الزبر والكتاب . وفيه مسلاة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

[سورة فاطر (35) : الآيات 27 إلى 28]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)

أَلْوانُها أجناسها من الرّمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها. والجدد: الخطط والطرائق. قال لبيد:

أو مذهب جدد على ألواحه

ويقال: جدة الحمار للخطة السوداء على ظهره، وقد يكون للظبي جدتان مسكيتان تفصلان بين لوني ظهره وبطنه وَغَرابِيبُ معطوف على بيض أو على جدد، كأنه قيل: ومن الجبال مخطط ذو جدد، ومنها ما هو على لون واحد غرابيب «1». وعن عكرمة رضى اللّه عنه: هي الجبال الطوال السود. فإن قلت: الغربيب تأكيد للأسود. يقال: أسود غربيب، وأسود حلكوك: وهو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه. ومنه الغراب. ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك: أصفر فاقع، وأبيض يقق «2» وما أشبه ذلك. قلت: وجهه أن يضمر المؤكد قبله ويكون الذي بعده تفسيرا لما أضمر، كقول النابغة:

والمؤمن العائذات الطّير «3» . . .

---

(1) . قوله «ما هو على لون واحد غرابيب» لعله. غربيب. (ع)

(2) . قوله «وأبيض يقق» بفتح القاف الأولى ، وحكى كسرها . أفاده الصحاح . (ع)

(3) فلا لعمر الذي طيفت بكعبته وما هريق على الأنصاب من جسد

والمؤمن العائذات الطير يرقبها ركبان مكة بين الغيل والسند

ما إن أتيت بشيء أنت تكرهه إذا فلا رفعت سوطى إلى يدي

للنابغة ، يعتذر للنعمان بن المنذر ، ولا زائدة قبل القسم ، لأنه في الغالب لنفى دعوى الخصم . والعمر : الحياة ، وهو مبتدأ حذف خبره وجوبا ، وطاف به يطيف طيفا . أتى عليه ونزل به ، وطاف به يطوف طوافا وطوفانا ، إذا دار حوله ومنه : طيفت ، وهو مبنى للمجهول ، ونائب الفاعل : الجار والمجرور ، ولما كان مؤنثا لحقت التاء الفعل شذوذا ، والفصيح تركها في مثله . والغيل والسند : أجمتان بجانب منى . وقيل : موضعا ماء بجانبي الحرم ، وهو قريب مما قبله . أى : حياة الذي طاف الحجيج بكعبته قسمي ، وما هريق ، والمؤمن : بالرفع عطف على المبتدأ والعائذات منصوب بالمؤمن ، والطير : عطف بيان للعائذات ، ويجوز جعله بدلا منه ، وكذا كل موصوف تبع صفته ، وهريق : أصله أريق . والجسد : البدن ، وجسد به الدم ، إذا لصق به ، فهو جاسد وجسد . فعلى الأول «أريق» بمعنى ذبح ، وعلى الثاني على ظاهره ، لكنه كناية عن الذبح ، أى وما ذبح على الحجارة المنصوبة حول الكعبة من الهدى ، والذي آمن الطير العائذات اللائذات بالحرم ، حال كونها ينظرها الحجاج في منى ولا يؤذونها لاحرامهم . وروى : يمسحها وهو أبلغ في

الأمن ، وما أتيت جواب القسم ، وإن زائدة . ويجوز أنها نافية مؤكدة ثم دعا على نفسه فقال : إذا كان ذلك منى فلا رفعت سوطى إلى يدي : بيان يدي ، كناية عن أنه يضعف غاية الضعف ، وروى «سوطا» ، بدل «سوطى» أى يضعف حتى لا يقدر على رفعه .

(106/643)

---

وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد ، حيث يدل على المعنى الواحد من طريقى الإظهار والإضمار جميعا ، ولا بد من تقدير حذف المضاف في قوله تعالى وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بمعنى : ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود ، حتى يؤول إلى قولك : ومن الجبال مختلف ألوانه كما قال : ثمرات مختلفا ألوانها وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ يعنى : ومنهم بعض مختلف ألوانه . وقرئ : ألوانها . وقرأ الزهري جدد ، بالضم : جمع جديدة ، وهي الجدّة ، يقال :

جديدة وجدد وجدائد ، كسفينة وسفن وسفائن . وقد فسر بها قول أبى ذؤيب يصف حمار وحش .

جون السّراة له جدائد اربع «1»

وروى عنه : جدد ، بفتحتين ، وهو الطريق الواضح المسفر وضعه موضع الطرائق

والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض . وقرئ ، والدواب مخففا ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ «ولا الضألين» لأنّ كل واحد منهما فرار من التقاء الساكنين ، فحرك ذاك أوّلهما ، وحذف هذا آخرهما . وقوله كَذٰلِكَ أى كاختلاف الثمرات والجبال . المراد : العلماء به الذين علموه بصفاته وعدله وتوحيده ، وما يجوز عليه وما لا يجوز ، فعظموه وقدروه حق قدره ، وخشوه حق خشيته ، ومن ازداد به علما ازداد منه خوفا ، ومن كان علمه به أقل كان آمن . وفي الحديث :

---

(1) والدهر لا يبقى على حدثانه جون السراة له جدائد أربع

لأبى ذؤيب في مرثية بنيه . والجون : الأسود ويطلق على الأبيض ، فهو من الأضداد .

وسراة الظهر : أعلاه .

وسراة كل شيء : أعلاه . وجديدة وجدد وجدائد ، كسفينة وسفن وسفائن . والجدائد : الأتن التي جف لبنها .

والمرأة الجداء : التي لا ثدي لها : يسلى عن بنيه بأن لك عادة الدهر ، فهو لا يبقى مع ما فيه من الحدثان أحدا ، حتى أسود الظهر كناية عن حمار الوحش له أتن أربع يرعى معهن في البراري وينزو عليهن . وقيل : إنه يعيش مائتي سنة فربما يتوهم أنه لا يصيبه الدهر بشيء .

ويجوز قراءة «يبقى» بالفتح . وجون بالرفع فاعل ، وله جدائد : جملة حالية أى : لا بد أن تهلك أتنه واحدة بعد واحدة ، أو يهلك هو .

«أعلمكم باللّه أشدّكم له خشية» «1» وعن مسروق: كفى بالمرء علما أن يخشى، وكفى بالمرء جهلا أن يعجب بعلمه. وقال رجل للشعبى: أفتنى أيها العالم، فقال: العالم من خشي اللّه. وقيل:

نزلت في أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه وقد ظهرت عليه الخشية حتى عرفت فيه. فإن قلت:

هل يختلف المعنى إذا قدّم المفعول في هذا الكلام أو أخر؟ قلت: لا بدّ من ذلك، فإنك إذا قدمت اسم اللّه وأخرت العلماء كان المعنى: إنّ الذين يخشون اللّه من بين عباده هم العلماء دون غيرهم، وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا اللّه، كقوله تعالى وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وهما معنيان مختلفان. فإن قلت: ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله؟ قلت: لما قال أَلَمْ تَرَ بمعنى ألم تعلم أن اللّه أنزل من السماء ماء، وعدد آيات اللّه وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته، أتبع ذلك إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ كأنه قال: إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك: ممن عرفه حق معرفته وعلمه كنه علمه. وعن النبي صلى اللّه عليه

وسلم : «أنا أرجو أن أكون أتقاكم للّه وأعلمكم «2» به» . فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ وهو عمر بن عبد العزيز ويحكى عن أبى حنيفة ؟

قلت : الخشية في هذه القراءة استعارة ، والمعنى :

إنما يجلهم ويعظمهم ، كما يجل المهيب المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ تعليل لوجوب الخشية ، لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم ، والمعاقب المثيب : حقه أن يخشى .

[سورة فاطر (35) : الآيات 29 إلى 30]

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30)

يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ يداومون على تلاوته وهي شأنهم وديدنهم . وعن مطرف رحمه اللّه : هي آية القرّاء . وعن الكلبي رحمه اللّه : يأخذون بما فيه . وقيل : يعلمون ما فيه ويعملون به .

وعن السدى رحمه اللّه : هم أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ورضى عنهم .

وعن عطاء : هم المؤمنون يَرْجُونَ خبر إن ، والتجارة : طلب الثواب بالطاعة . وِلِيُوَفِّيَهُمْ متعلق بلن تبور ، أى : تجارة ينتفي عنها الكساد وتنفق «3» عند اللّه ليوفيهم بنفاقها عنده أُجُورَهُمْ

---

(1) . لم أجده هكذا . وفي الصحيح : «أنا أعلمكم باللّه وأشدكم له خشية» .

(2) . أخرجه عبد الرزاق عن ابن جريج عن زيد بن أسلم . ومالك في الموطأ والشافعي عنه عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار به مرسلا في أثناء حديث أوله «أن رجلا قبل امرأته وهو صائم»

(3) . قوله «و تنفق عند اللّه» أى تروج. أفاده الصحاح. (ع) [. . . . . ]

(108/643)

---

وهي ما استحقوه من الثواب وَيَزِيدَهُمْ من التفضل على المستحق ، وإن شئت جعلت يَرْجُونَ في موضع الحال على : وأنفقوا راجين ليوفيهم ، أى فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل اللّه لهذا الغرض ، وخبر إن قوله إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ على معنى : غفور لهم شكور لأعمالهم . والشكر مجاز عن الإثابة .

[سورة فاطر (35) : آية 31]

وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31)

الْكِتابِ القرآن . ومن للتبيين أو الجنس . ومن للتبعيض مُصَدِّقاً حال مؤكدة ، لأنّ الحق لا

ينفك عن هذا التصديق لِما بَيْنَ يَدَيْهِ لما تقدّمه من الكتب لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ يعنى أنه خبرك وأبصر أحوالك، فرآك أهلا لأن يوحى إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب.

[سورة فاطر (35) : الآيات 32 إلى 35]

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (33) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34) الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (35)

فإن قلت: ما معنى قوله ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: إنا أوحينا إليك القرآن ثم أورثنا من بعدك أى حكمنا بتوريثه. أو قال: أورثناه وهو يريد نورثه، لما عليه أخبار الله الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا وهم أمّته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة، لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم، وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس، واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسل الله، وحمل الكتاب الذي هو أفضل كتب الله، ثم قسمهم إلى ظالم لنفسه مجرم وهو المرجأ لأمر الله، ومقتصد: هو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا، وسابق من السابقين. والوجه الثاني: أنه قدم

إرساله في كل أمّة رسولا وأنهم كذبوا برسلهم وقد جاءوهم بالبينات والزبر والكتاب المنير ، ثم قال : إنّ الذين يتلون



---

كتاب اللّه ، فأثنى على التالين لكتبه العاملين بشرائعه من بين المكذبين بها من سائر الأمم واعترض بقوله وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ ثم قال ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا أي من بعد أولئك المذكورين ، يريد بالمصطفين من عباده : أهل الملة الحنيفية ، فإن قلت : فكيف جعلت جَنَّاتُ عَدْنٍ بدلا من الفضل الكبير «1» الذي هو السبق بالخيرات المشار إليه بذلك ؟ قلت : لما كان السبب في نيل الثواب ، نزل منزلة المسبب ، كأنه هو الثواب ، فأبدلت عنه جنات عدن ، وفي اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم والسكوت عن الآخرين ما فيه من وجوب الحذر ، فليحذر المقتصد ، وليملك الظالم لنفسه حذرا وعليهما بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب اللّه ، ولا يغترا بما رواه عمر رضى اللّه عنه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له «2»» فإنّ شرط ذلك صحة التوبة «3» لقوله تعالى عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ وقوله إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ولقد نطق القرآن بذلك في

مواضع من استقرأها اطلع على حقيقة الأمر ولم يعلل نفسه بالخدع. وقرئ سباق. ومعنى بِإِذْنِ اللَّهِ بتيسيره وتوفيقه فإن قلت: لم قدم الظالم؟ ثم المقتصد ثم السابق؟ قلت: للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل.

وقرئ: جنة عدن على الإفراد، كأنها جنة مختصة بالسابقين. وجنات عدن:

---

(1). قال محمود: «يعنى بالمصطفين أمة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم قسمتهم الآية إلى ظالم لنفسه: هو المرجأ لأمر اللّه، وإلى مقتصد: وهو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا، وإلى سابق، ثم قال لزمخشرى: فان قلت:

كيف جعل الجنات بدلا من الفضل الكبير، وذلك في تتمة الآية في قوله وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها قلت: لأن الاشارة بالفضل إلى السبق بالخيرات وهو السبب في الجنات ونيل الثواب، فأقام السبب مقام المسبب، وفي اختصاص السابقين بذكر الجزاء دون الآخرين ما يوجب الحذر فليحذر المقتصد، وليملك الظالم لنفسه حذرا، وعليهما بالتوبة النصوح، ولا يغترا بما رواه عمر رضى اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له» فان شرط ذلك صحة التوبة فلا يعلل نفسه بالخدع» قال أحمد: وقد صدرت هذه الآية بذكر المصطفين من عباد اللّه، ثم قسمتهم إلى الظالم والمقتصد والسابق ليلزم اندراج الظالم لنفسه من الموحدين في المصطفين، وإنه لمنهم، وأى نعمة أتم وأعظم من

اصطفائه للتوحيد والعقائد السالمة من البدع ، فما بال المصنف يطنب في التسوية بين الموحد المصطفى والكافر المجترئ ، وقوله جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا الضمير فيه راجع إلى المصطفين عموما ، والجنات جزاؤهم على توحيدهم جميعا ، وإعرابها : جنات مبتدأ ، ويدخلونها الخبر ، وقوله يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ . . . إلى آخر الآية : خبر بعد خبر ، وخبر على خبر ، والله المستعان .

(2) . أخرجه البيهقي في الشعب من رواية ميمون بن سياه عن عمر رضى الله عنه مرفوعا . وهذا منقطع وأخرجه الثعلبي وابن مردويه من وجه آخر عن ميمون بن سياه عن أبى عثمان الهدى عن عمر . فيه الفضل بن عميرة : وهو ضعيف . ورواه سعيد بن منصور عن فرج بن فضالة عن أزهر بن عبد الله الحرازى عمن سمع عمر فذكره موقوفا

(3) . قوله «فإن شرط ذلك صحة التوبة» هذا عند المعتزلة . أما أهل السنة فيجوزون الغفران بمجرد الفضل . (ع)

(110/643)

---

بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر ، أى يدخلون جنات عدن يدخلونها ، ويدخلونها ، على البناء للمفعول . ويحلون : من حليت : المرأة ، فهي حال وَلُؤْلُؤاً معطوف

على محل من أساور ، ومن داخلة للتبعيض ، أى : يحلون بعض أساور من ذهب ، كأنه بعض سابق لسائر الأبعاض ، كما سبق المسوّرون به غيرهم : وقيل : إنّ ذلك الذهب في صفاء اللؤلؤ . وقرئ :

ولو لؤلؤا بتخفيف الهمزة الاولى ، وقرى : الحزن ، والمراد : حزن المتقين ، وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة ، كقوله تعالى إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ فمنّ اللّه علينا ووقانا عذاب السموم . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : حزن الاعراض والآفات . وعنه : حزن الموت .

وعن الضحاك : حزن إبليس ووسوسته . وقيل : همّ المعاش . وقيل : حزن زوال النعم ، وقد أكثروا حتى قال بعضهم : كراء الدار ، ومعناه : أنه يعم كل حزن من أحزان الدين والدنيا حتى هذا . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «ليس على أهل لا إله إلا اللّه وحشة في قبورهم ولا في محشرهم ولا في مسيرهم ، وكأنى بأهل لا إله إلا اللّه يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد للّه الذي أذهب عنا الحزن «1» » وذكر الشكور : دليل على أن القوم كثير والحسنات ، المقامة : بمعنى الإقامة ، يقال : أقمت إقامة ومقاما ومقامة مِنْ فَضْلِهِ من عطائه وإفضاله ، من قولهم : لفلان فضول على قومه وفواضل ، وليس من الفضل الذي هو التفضل ، لأن الثواب بمنزلة الأجر المستحق ، والتفضل كالتبرع . وقرئ : لغوب ، بالفتح :

وهو اسم ما يلغب منه، أي: لا تتكلف عملا يلغبنا: أو مصدر كالقبول والولوغ، أو صفة للمصدر، كأنه «2» لغوب لغوب، كقولك: موت مائت، فإن قلت: ما الفرق بين النصب واللغوب؟ قلت: النصب التعب والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر المزاول له. وأما اللغوب فما يلحقه من الفتور بسبب النصب، فالنصب: نفس المشقة والكلفة. واللغوب: نتيجته وما يحدث منه من الكلال والفترة.

[سورة فاطر (35): الآيات 35 إلى 37]

الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (35) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37)

---

(1). أخرجه أبو يعلى وابن أبى حاتم والبيهقي في أول الشعب والطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر. وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف وله طريق أخرى عند الطبراني والنسائي في الكنى عن ابن عمر. وأخرى عند البيهقي في الشعب. وفي الباب عن ابن عباس أخرجه تمام في فوائده والخطيب في ترجمة محمد بن سعيد الطائفي وعن أنس عند ابن مردويه

(2). «كأنه» لعله: كأنه قال. (ع)

فَيَمُوتُوا جواب النفي ، ونصبه بإضمار أن : وقرئ : فيموتون ، عطفا على يقضى ، وإدخالا له في حكم النفي ، أى : لا يقضى عليهم الموت فلا يموتون ، كقوله تعالى وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . كَذلِكَ مثل ذلك الجزاء «يجزى» وقرئ : يجازى . ونجزى كُلَّ كَفُورٍ بالنون «1» يَصْطَرِخُونَ يتصارخون : يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد وشدّة . قال

كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها «2»

واستعمل في الاستغاثة لجهد المستغيث صوته . فإن قلت : هلا اكتفى بصالحا كما اكتفى به في قوله تعالى فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً وما فائدة زيادة غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ على أنه يؤذن أنهم يعملون صالحا آخر غير الصالح الذي عملوه ؟ قلت : فائدته زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به . وأما الوهم فزائل لظهور حالهم في الكفر وركوب المعاصي ، ولأنهم «3» كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة ، كما قال اللّه تعالى وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً فقالوا . أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نحسبه صالحا فنعمله أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ توبيخ من اللّه يعنى : فنقول لهم . وقرئ : ما يذكر فيه ، من أذكر على الإدغام وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر ، إلا أن التوبيخ

في المتطاول أعظم .

وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «العمر الذي أعذر اللّه فيه إلى ابن آدم ستون سنة «4» . وعن

---

(1) . قوله «و تجزى كل كفور بالنون» ونصب كل في هذه القراءة ورفعه فيما قبلها . (ع)

(2) قصدت إلى عنس لأحدج رحلها وقد حان من تلك الديار رحيلها

فأنت كما أن الأسير وصرخت كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها

للأعشى . وعنست المرأة عنسا : إذا لم تخرج من بيتها للزواج مع بلوغها من السن . والعنس : الناقة الصلبة الصعبة وحدج من باب ضرب : إذا شد الرحل على الناقة . والحدوج : الرحال والهوادج ، وهو بتأخير الجيم . واما الجدح - بتأخير المهملة - : فهو اللت والخوض والمزج ، أى : عمدت إلى ناقة صلبة لأشد رحلها عليها ، والحال أنه جاء حين رحليها من تلك الديار . والأنين : الصوت المنخفض للتحزن ، أى : أنت كأنين الأسير في الأول ، وصرخت برفع صوتها ثانيا كصرخة حبلى عند الطلق أسلمتها وتركتها قبيلها التي تخدمها عند الولادة . والقبيل والقبول والقابلة :

التي تقوم بمصلحة المرأة عند الولادة وتتلقى الولد عند خروجه .

(3) . قوله «و لأنهم كانوا يحسبون» لعله : أو لأنهم كانوا . (ع)

(4) . أخرجه البزار من رواية سعيد المقبري عن أبى هريرة مرفوعا بهذا . وأصله في

البخاري، بلفظ «من عمره اللّه ستين سنة فقد أعذر اللّه إليه في العمر» ووهم الحاكم فاستدركه. ورواه ابن مردويه به من حديث سهل بن سعد

(112/643)

---

مجاهد: ما بين العشرين إلى الستين. وقيل: ثماني عشر وسبع عشر. والنَّذِيرُ الرسول صلى اللّه عليه وسلم. وقيل: الشيب. وقرئ: وجاءتكم النذر. فإن قلت: علام عطف وجاءكم النذير؟

قلت: على معنى: أو لم نعمركم، لأن لفظه لفظ استخبار. ومعناه معنى إخبار، كأنه قيل: قد عمرناكم وجاءكم النذير.

[سورة فاطر (35): آية 38]

إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (38)

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ

كالتعليل، لأنه إذا علم ما في الصدور وهو أخفى ما يكون، فقد علم كل غيب في العالم وذات الصدور: مضمراتها، وهي تأنيث ذو في نحو قول أبى بكر رضى اللّه عنه: ذو بطن خارجة جارية «1» وقوله:

لتغنى عنّى ذا إنائك أجمعا «2»

المعنى ما في بطنها من الحبل، وما في إنائك من الشراب، لأن الحبل والشراب يصحبان البطن والإناء. ألا ترى إلى قولهم: معها حبل، وكذلك المضمرات تصحب الصدور وهي معها.

وذو: موضوع لمعنى الصحبة.

[سورة فاطر (35): آية 39]

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً (39)

---

(1). أخرجه في الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة «أن أبا بكر كان نحلنى جداد عشرين وسقا - الحديث» وفيه «إنما هي أسماء فمن الأخرى؟ قال: ذو بطن بنت خارجة أراها جارية، فولدت جارية» وقد تقدم طرف منه في الاسراء

(2) وناولته من رسل كوماء جلدة وأغضبت عنه الطرف حتى تضلعا

إذا قال قدنى قلت بالله حلفة لتغنى عنى ذا إنائك أجمعا

لحريث بن عتاب الطائي. والرسل - بالكسر -: اللبن القليل. والكوماء: السمينة. والجلدة: الصلبة. والاغضاء الغض والإغماض. والتضلع: امتلاء البطن حتى يرتفع الجنبان والضلوع. وغض طرفه عن الضيف كى لا يستحى إذا قال الضيف: قدنى، أى

حسبي من الشرب قلت : باللّه . وروى : قال باللّه ، فكأنه عبر عن نفسه بطريق الغيبة .

ويروى : إذا قلت قدني قال ، على أن الشاعر الضيف وليس بذاك . وحلفة : نصب بمعنى القسم قبله ، أي : أحلف باللّه حلفة ، ولتغنى : جواب القسم وفتح آخره لاتصاله تقديرا بنون التوكيد الخفيفة ، أي : لتمنعنى عنى . وروى ثعلب لتغنن بنون التوكيد الثقيلة ، أي : لتبعدن عنى ، وكان حقه على اللغة المشهورة لتغنين ، لكن حذفت ياؤه بعد الكسرة على لغة فزارة . وروى لتغنى بكسر اللام للتعليل ، أي : اشرب لتغنى عنى صاحب إنائك وهو اللبن ، وأضافه للاناء لأنه فيه ، وأضاف الإناء لضمير الضيف لأنه في يده ، وتبرأ من نسبته إلى نفسه دلالة على الكرم ، وأجمع : توكيد للبن ، أي لا ترد إلى ما في الإناء ، بل أشربه كله .

(113/643)

---

يقال للمستخلف : خليفة وخليف ، فالخليفة تجمع خلائف ، والخليف : خلفاء ، والمعنى :

أنه جعلكم خلفاءه في أرضه قد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها ، وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة فَمَنْ كَفَرَ منكم وغمط مثل هذه النعمة «1» السنية ، فوبال كفره راجع عليه ، وهو مقت اللّه الذي ليس وراءه خزى وصغار

وخسار الآخرة الذي ما بقي بعده خسار ، والمقت : أشدّ البغض . ومنه قيل لمن ينكح امرأة أبيه : مقتى ، لكونه ممقوتا في كل قلب ، وهو خطاب للناس . وقيل : خطاب لمن بعث إليهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جعلكم أمّة خلفت من قبلها ، ورأت وشاهدت فيمن سلف ما ينبغي أن تعتبر به ، فمن كفر منكم فعليه جزاء كفره من مقت اللّه وخسار الآخرة ، كما أنّ ذلك حكم من قبلكم .

[سورة فاطر (35) : آية 40]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً (40)

أَرُونِي بدل من أرأيتم : لأنّ المعنى : أرأيتم أخبرونى ، كأنه قال : أخبرونى عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة أرونى أى جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون اللّه أم لهم مع اللّه شركة في خلق السماوات ، أم معهم كتاب من عند اللّه ينطق بأنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب . أو يكون الضمير في آتَيْناهُمْ للمشركين ، كقوله تعالى أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً أم آتيناهم كتابا من قبله ، بل إن يعد بعضهم وهم الرؤساء بَعْضاً وهم الأتباع إِلَّا غُرُوراً وهو قولهم هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ وقرئ : بينات .

[سورة فاطر (35) : آية 41]

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (41)

أَنْ تَزُولا كراهة أن تزولا. أو يمنعهما من أن تزولا: لأن الإمساك منع إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً غير معاجل بالعقوبة، حيث يمسكهما، وكانتا جديرتين بأن تهدّا هدّا، لعظم كلمة الشرك كما قال تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ. وقرئ: ولو زالتا، وإن أمسكهما: جواب القسم في وَلَئِنْ زالَتا سدّ مسدّ الجوابين، ومن الأولى مزيدة لتأكيد النفي، والثانية للابتداء. من بعده: من بعد إمساكه. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه أنه قال لرجل مقبل من

---

(1). قوله «و غمط مثل هذه النعمة» أى: واحتقر. (ع)

(114/643)

---

الشام: من لقيت به؟ قال: كعبا. قال: وما سمعته يقول؟ قال سمعته يقول: إنّ السماوات على منكب ملك. قال: كذب كعب. أما ترك يهوديته بعد «1» ثم قرأ هذه الآية.

[سورة فاطر (35) : الآيات 42 إلى 44]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (42) اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (43) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً (44)

بلغ قريشا قبل مبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنّ أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، فقالوا : لعن اللّه اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم ، فو اللّه لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كذبوه . وفِي إِحْدَى الْأُمَمِ وجهان ، أحدهما : من بعض الأمم ، ومن واحدة من الأمم من اليهود والنصارى وغيرهم . والثاني : من الأمّة التي يقال لها إحدى الأمم ، تفضيلا لها على غيرها في الهدى والاستقامة ما زادَهُمْ إسناد مجازى ، لأنه هو السبب في أن زادوا أنفسهم . نفورا عن الحق وابتعادا عنه كقوله تعالى فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ . اسْتِكْباراً بدل من نفورا . أو مفعول له ، على معنى : فما زادهم إلا أن نفروا استكبارا وعلوّا فِي الْأَرْضِ أو حال بمعنى : مستكبرين وماكرين برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين . ويجوز أن يكون وَمَكْرَ السَّيِّئِ معطوفا على نفورا فإن قلت : فما وجه قوله وَمَكْرَ السَّيِّئِ ؟ قلت : أصله : وأن

مكروا السيئ، أى المكر السيئ، ثم ومكرا السيئ، ثم ومكر السيئ. والدليل عليه قوله تعالى وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ومعنى يحيق: يحيط وينزل. وقرئ: ولا يحيق المكر السيئ، أى: لا يحيق الله، ولقد حاق بهم يوم بدر. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم: لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا، «2» فإنّ اللّه تعالى يقول وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا، يقول الله تعالى: إنما بغيكم على

---

(1). لم أجده. وروى الطبري من رواية أبى وائل قال: جاء رجل إلى عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه فقال: من أين جئت؟ قال: من الشام فذكره مثله، إلا أنه لم يقل ما ترك يهوديته»

(2). أخرجه ابن المبارك في الزهد. وقد تقدم في أول يونس [.....]

(115/643)

---

أنفسكم». وعن كعب أنه قال لابن عباس رضى اللّه عنهما: قرأت في التوراة: من حفر مغواة «1» وقع فيها. قال: أنا وجدت ذلك في كتاب اللّه، وقرأ الآية. وفي أمثال العرب: من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبا. وقرأ حمزة: ومكر السيئ، بإسكان الهمزة، وذلك لاستثقاله الحركات مع الياء والهمزة، ولعله اختلس فظنّ سكونا أو وقف وقفة خفيفة، ثم

ابتدأ وَلا يَحِيقُ وقرأ ابن مسعود : ومكرا سيئا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلهم ، وجعل استقبالهم لذلك انتظارا له منهم ، وبين أنّ عادته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل عادة لا يبدلها ولا يحولها ، أى : لا يغيرها ، وأنّ ذلك مفعول له لا محالة ، واستشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسايرهم ومتاجرهم في رحلهم إلى الشام والعراق واليمن : من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم لِيُعْجِزَهُ ليسبقه ويفوته .

[سورة فاطر (35) : آية 45]

وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً (45)

بِما كَسَبُوا بما اقترفوا من معاصيهم عَلى ظَهْرِها على ظهر الأرض مِنْ دَابَّةٍ من نسمة تدب عليها ، يريد بنى آدم . وقيل : ما ترك بنى آدم وغيرهم من سائر الدواب بشؤم ذنوبهم . وعن ابن مسعود : كاد الجعل يعذب في جحره بذنب ابن آدم ، «2» ثم تلا هذه الآية . وعن أنس :

إن الضب ليموت هزالا في جحره بذنب ابن آدم «3» . وقيل : يحبس المطر فيهلك كل شيء إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إلى يوم القيامة كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً وعيد بالجزاء .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة :

أن أدخل من أى باب شئت» «4» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 606 . 619 ﴾

---

(1) . قوله «من حفر مغواة وقع فيها» في الصحاح : وقع الناس في أغوية ، أى : في داهية . والمغويات – بفتح الواو مشددة – : جمع المغواة ، وهي حفرة كالزبية ، يقال : من حفر مغواة وقع فيها ، والزبية : حفرة تحفر للأسد اه أى : لصيد الأسد . (ع)

(2) . أخرجه الحاكم وقد تقدم في النحل ،

(3) . لم أجده عن أنس وقد تقدم في النحل عن أبى هريرة . وعزاه إليه المصنف فيه على الصواب

(4) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبى بن كعب رضى اللّه عنه .



---

وقال ابن الجوزى :

﴿ يا أَيُّها النَّاسُ أَنتم الفقراء إِلى الله ﴾

أي : المحتاجون إِليه ﴿ واللّهُ هو الغنيُّ ﴾ عن عبادتكم ﴿ الحميد ﴾ عند خلقه باحسانه إِليهم .

وما بعد هذا قد تقدم بيانه [إبراهيم: 19، الأنعام: 164] إلى قوله: ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ ﴾ أي: نفس مُثْقَلة بالذُّنوب ﴿ إِلَى حِمْلِهَا ﴾ الذي حملتْ من الخطايا ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ﴾ الذي تدعوه ﴿ ذَا قُرْبَى ﴾ ذا قرابة ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ أي: يخشونه ولم يَرَوه؛ والمعنى: إنما تَنفع بإنذارك أهل الخشية، فكأنك تُنذرهم دون غيرهم لمكان اختصاصهم بالانتفاع، ﴿ وَمَن تَزَكَّى ﴾ أي: تطهَّر من الشِّرك والفواحش، وفعلَ الخير ﴿ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ﴾ أي: فصلاحُه لنفْسه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ فيجزي بالأعمال.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ يعني المؤمن والمشرك، ﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ ﴾ يعني الشِّرك والضَّلالات ﴿ وَلَا النُّورُ ﴾ الهدى والإيمان، ﴿ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴾ فيه قولان.

أحدهما: ظِلُّ اللَّيل وسَمُوم النهار، قاله عطاء.

والثاني: الظِّلُّ: الجَنَّة، والحَرُور: النَّار، قاله مجاهد.

قال الفراء: الحَرُور بمنزلة السَّمُوم، وهي الرِّياح الحارَّة.

والحَرُور تكون بالنَّهار وبالليل، والسَّمُوم لا تكون إلا بالنَّهار.

وقال أبو عبيدة: الحَرُور تكون بالنَّهار مع الشمس، وكان رؤبة يقول: الحَرور باللَّيل، والسَّمُوم بالنَّهار.

قوله تعالى : ﴿ وما يستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ ﴾ فيهم قولان .

أحدهما : أن الأحياء : المؤمنون ، والأموات : الكفار .

والثاني : أن الأحياء : العقلاء ، والأموات : الجُهَّال .

وفي "لا" المذكورة في هذه الآية قولان .

أحدهما : أنها زائدة مؤكِّدة .

والثاني : أنها نافية لاستواء أحد المذكورَين مع الآخر .

(117/643)

---

قال قتادة : هذه أمثال ضربها اللّهُ تعالى للمؤمن والكافر ، يقول : كما لا تستوي هذه الأشياء ، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن .

﴿ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ من يشاء ﴾ أي : يُفهم من يريد إِفهامه ﴿ وما أنت بِمُسْمِعٍ مَنْ في القُبور ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، والجحدري : ﴿ بِمُسْمِعِ مَنْ ﴾ على الإِضافة ؛ يعني الكفار ، شبههم بالموتى ، ﴿ إِن أنتَ إِلاَّ نذير ﴾ قال بعض المفسرين : نُسخ معناها بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ وإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلا فيها نذير ﴾ أي : ما من أُمَّةٍ إِلا قد جاءها رسول .

وما بعد هذا قد سبق بيانه [آل عمران : 184 ، الحج : 44 ] إلى قوله : ﴿ فكيف كان نَكيرِ ﴾ أثبت فيها الياء في الحالين يعقوب ، وافقه في الوصل ورش .

قوله تعالى : ﴿ ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ ﴾ أي : ومِمَّا خَلَقْنا من الجبال جُدَدٌ .

قال ابن قتيبة : الجُدَدُ : الخُطوط والطَّرائق تكون في الجبال ، فبعضُها بِيض ، وبعضُها حُمر ، وبعضُها غرابيبُ سُودٌ ، والغَرابيب جمع غِرْبِيبٍ ، وهو الشديد السواد ، يقال : أسْوَدُ غِرْبِيبٌ ، وتمام الكلام عند قوله : ﴿ كذلك ﴾ ، يقول : من الجبال مختلِفٌ ألوانه ، ﴿ ومِنَ النّاس والدَّوابِّ والأنعام مختلِفٌ ألوانُه كذلك ﴾ أي : كاختلاف الثمرات .

قال الفراء : وفي الكلام تقديم وتأخير ، تقديره : وسودٌ غرابيب ، لأنه يقال : أسودُ غِرْبِيبٌ ، وقلّما يقال : غربيب أسود .

وقال الزجاج : المعنى : ومن الجبال غرابيبُ سود ، وهي ذوات الصخر الأَسْود .

وقال ابن دريد : الغِرْبِيب : الأَسْود ، أحسِبُ أن اشتقاقه من الغُراب .

وللمفسرين في المراد بالغرابيب ثلاثة أقوال .

أحدها : الطرائق السُّود ، قاله ابن عباس .

والثاني : الأودية السود ، قاله قتادة .

والثالث : الجبال السود ، قاله السدي .

ثم ابتدأ فقال : ﴿ إِنَّما يخشى اللّهَ مِنْ عِباده العُلَماءُ ﴾ يعني العلماء بالله عزّ وجل .

قال ابن عباس : يريد : إِنَّما يخافُني مِنْ خَلْقي مَنْ عَلِم جبروتي وعِزَّتي وسلطاني .

وقال مجاهد والشعبي : العالِم من خافَ اللّهَ .

وقال الربيع بن أنس : من لم يَخْشَ اللّهَ فليس بعالِم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَتْلُون كتاب الله ﴾ يعني قُرّاء القرآن ، فأثنى عليهم بقراءة القرآن ؛ وكان مطرّف يقول : هذه آية القُرّاء .

وفي قوله : ﴿ يَتْلُونَ ﴾ قولان .

أحدهما : يقرؤون .

والثاني : يَتَّبعون .

قال أبو عبيدة : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ بمعنى ويُقيمون ، وهو إِدامتها لمواقيتها وحدودها .

قوله تعالى : ﴿ يَرْجُونَ تجارة ﴾ قال الفراء : هذا جواب قوله : ﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ ﴾ .

قال المفسرون : والمعنى : يرجون بفعلهم هذا تجارة لن تفسُد ولن تَهْلِك ولن تَكْسُد ﴿ لِيُوَفِّيَهم أُجورهم ﴾ أي : جزاء أعمالهم ﴿ ويَزيدَهم من فضله ﴾ قال ابن عباس : سوى الثواب ما لم ترعين ولم تسمع أُذن .

فأما الشّكور، فقال الخطّابي: هو الذي يشكُر اليسيرَ من الطاعة، فيُثيب عليه الكثير من الثواب، ويُعطي الجزيل من النّعمة، ويرضي باليسير من الشُّكر؛ ومعنى الشُّكر المضاف إليه: الرِّضى بيسير الطَّاعة من العبد، والقبول له، وإعظام الثواب عليه؛ وقد يحتمل أن يكون معنى الثناء على الله بالشّكور ترغيب الخَلْق في الطاعة قلَّت أو كَثُرت، لئلاَّ يَسْتَقِلُّوا القليل من العمل، ولا يتركوا اليسير منه.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنا الكتابَ ﴾ في "ثُمَّ" وجهان.

أحدهما: أنها بمعنى الواو.

والثاني: أنها للترتيب.

والمعنى: أنزلنا الكتب المتقدِّمة، ثُمَّ أَوْرَثْنا الكتابَ ﴿ الذين اصطَفَيْنا ﴾ وفيهم قولان.

أحدهما: أنهم أُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم، قاله ابن عباس.

والثاني: أنهم الأنبياء وأتباعهم، قاله الحسن.

وفي الكتاب قولان.

أحدهما: أنه اسم جنس، والمراد به الكتب التي أنزلها الله عز وجل، وهذا يخرَّج على القولين.

فإن قلنا : الذين اصطفوا أُمَّة محمد ، فقد قال ابن عباس : إن الله أورث أُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم كلَّ كتاب أنزله .

وقال ابن جرير الطبري : ومعنى ذلك : أورثهم الإِيمانَ بالكتب كلِّها - وجميع الكتب تأمر باتِّباع القرآن - فهم مؤمنون بها عاملون بمقتضاها ؛ واستدل على صحة هذا القول بأن الله تعالى قال في الآية التي قبل هذه : ﴿ والذي أَوْحَيْنَا إِليكَ من الكتاب هو الحَقُّ ﴾ وأتبعه بقوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنا الكتاب ﴾ فعلمنا أنهم أُمَّة محمد ، إِذ كان معنى الميراث : انتقال شيء من قوم إِلى قوم ، ولم تكن أُمَّة على عهد نبينا انتقل إِليهم كتابٌ من قوم كانوا قبلهم غير أُمَّته .

فإن قلنا : هم الأنبياء وأتباعهم ، كان المعنى : أَورثْنا كلَّ كتاب أُنزل على نبيٍّ ذلك النبيَّ وأتباعَه .

والقول الثاني : أن المراد بالكتاب القرآن .

وفي معنى ﴿ أَوْرَثْنا ﴾ قولان .

أحدهما : أَعْطَيْنا ، لأنَّ الميراث عطاء ، قاله مجاهد .

والثاني : أخَّرْنا ، ومنه الميراث ، لأنه تأخّر عن الميت ؛ فالمعنى : أخَّرْنا القرآنَ عن الأُمم السالفة وأعطيناه هذه الأُمَّة ، إِكراماً لها ، ذكره بعض أهل المعاني .

قوله تعالى : ﴿ فِمنهم ظالم لنفسه ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه صاحب الصغائر ؛ روى عمر بن الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "سابقُنا سابق ، ومقتصدُنا ناجٍ ، وظالمُنا مغفورٌ له" وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ، قال : "كلُّهم في الجنة"

والثاني : أنه الذي مات على كبيرة ولم يَتُب منها ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : أنه الكافر ، رواه عمرو بن دينار عن ابن عباس ، وقد رواه ابن عمر مرفوعاً إِلى النبي صلى الله عليه وسلم .

(120/643)

---

فعلى هذا يكون الاصطفاء لجملة من أُنزل عليه الكتاب ، كما قال : ﴿ وإِنَّه لَذِكْرٌ لَكَ ولِقَومِكَ ﴾ [ الزخرف : 44 ] أي : لَشَرَف لكم ، وكم من مُكْرَم لم يَقبل الكرامة !

والرابع : أنه المنافق ، حكي عن الحسن .

وقد روي عن الحسن أنه قال : الظالم الذي ترجح سيئاته على حسناته ، والمقتصد : الذي قد استوت حسناته وسيّئاته ، والسابق : من رَجَحت حسناتُه .

وروي عن عثمان بن عفان أنه تلا هذه الآية ، فقال : سابقُنا أهل جهادنا ، ومقتصدِنا أهل

حَضَرنا ، وظالمُنا أهل بدونا .

قوله تعالى : ﴿ ومنهم سابِقٌ ﴾ وقرأ أبو المتوكل ، والجحدري ، وابن السميفع : ﴿ سَبَّاقٌ ﴾ مثل : فَعَّال ﴿ بالخيرات ﴾ أي : بالأعمال الصالحة إلى الجنة ، أو إلى الرَّحمة ﴿ باذن الله ﴾ أي : بارادته وأمره ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ يعني إيراثهم الكتاب .

ثم أخبر بثوابهم ، فجمعهم في دخول الجنة فقال : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ قرأ أبو عمرو وحده : ﴿ يُدْخَلُونَهَا ﴾ بضم الياء ؛ وفتحها الباقون ، وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ ولُؤْلُؤاً ﴾ بالنصب .

وروى أبو بكر عن عاصم أنه كان يهمز الواو الثانية ولا يهمز الأولى ، وفي رواية أخرى أنه كان يهمز الأولى ولا يهمز الثانية .

والآية مفسرة في سورة [ الحج : 23 ] .

قال كعب : تحاكت مناكبُهم وربِّ الكعبة ، ثم أُعطوا الفضل بأعمالهم .

ثم أخبر عمَّا يقولون عند دخولها ، وهو قوله : ﴿ الحمدُ لله الذي أَذهب عنَّا الحَزَنَ ﴾ الحَزَن والحُزْن واحد ، كالبَخَل والبُخْل .

وفي المراد بهذا الحزن خمسة أقوال .

أحدها : أنه الحزن لطول المقام في المحشر .

روى أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أمَّا السابق ، فيدخل

الجنة بغير حساب ، وأما المقتصِد ، فيحاسَب حساباً يسيراً ، وأما الظَّالم لنفسه ، فانه حزين في ذلك المقام" فهو الحزن والغم ، وذلك قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنّا الحَزَن ﴾ .

(121/643)

---

والثاني : أنه الجوع ، رواه أبو الدرداء أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [ ولا يصح ] ، وبه قال شمر بن عطية .

وفي لفظ عن شمر أنه قال : الحزن : هَمُّ الخُبز ، وكذلك روي عن سعيد بن جبير أنه قال : الحزن : هَمُّ الخُبز في الدنيا .

والثالث : أنه حزن النار ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس .

والرابع : حزنهم في الدنيا على ذُنوب سلفت منهم ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والخامس : حزن الموت ، قاله عطية .

والآية عامّة في هذه الأقوال وغيرها ، ومن القبيح تخصيص هذا الحزن بالخبز وما يشبهه ، وإِنما حزنوا على ذُنوبهم وما يوجبه الخوف .

قوله تعالى : ﴿ الذي أحلَّنا ﴾ أي : أنزلنا ﴿ دارَ المُقامة ﴾ قال الفراء : المُقامة هي

الإِقامة، والمَقامة: المجلس، بالفتح لا غير، قال الشاعر:

يَوْمَانِ يَوْمُ مَقامَاتٍ وأَنْدِيَةٍ . . .

وَيَوْمُ سَيْرٍ إلى الأَعْدَاءِ تأْوِيبِ

قوله تعالى: ﴿ مِنْ فَضْلِه ﴾ قال الزجاج: أي: بتفضُّله، لا بأعمالنا.

والنَّصَبُ: التَّعَب.

واللُّغوب: الإعياء من التَّعب.

ومعنى ﴿ لُغُوب ﴾: شيء يُلغِب؛ أي: لا نتكلّف شيئاً نُعَنّى منه.

قوله تعالى: ﴿ لا يُقْضى عليهم فيموتوا ﴾ أي: لا يهلكون فيستريحوا ممَّا هُمْ فيه، ومثله: ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ [القصص: 51].

قوله تعالى: ﴿ كذلك نَجْزي كلِّ كَفورٍ ﴾ وقرأ أبو عمرو: ﴿ يُجزى ﴾ بالياء ﴿ كُلُّ ﴾ برفع اللام.

وقرأ الباقون: ﴿ نَجزي ﴾ بالنون "كُلَّ" بنصب اللام.

قوله تعالى: ﴿ وهم يَصْطَرِخُون فيها ﴾ وهو افتعال من الصُّراخ: والمعنى: يستغيثون، فيقولون: ﴿ ربَّنا أَخْرِجنا نعملْ صالحاً ﴾ أي: نوحّدك ونُطيعك ﴿ غيرَ الذي كُنَّا نَعمَلُ ﴾ من الشِّرك والمعاصي؛ فوبَّخهم الله تعالى بقوله: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكم ﴾ قال أبو عبيدة: معناه التقرير، وليس باستفهام؛ والمعنى: أولم نعمِّركم عُمُراً يتذكَّر فيه من تَذَكَّر؟!

وفي مقدار هذا التعمير أربعة أقوال .

أحدها : أنه سبعون سنة ، قال ابن عمر : هذه الآية تعبير لأبناء السبعين .

والثاني : أربعون سنة .

والثالث : ستون سنة ، رواهما مجاهد عن ابن عباس ، وبالأول منهما قال الحسن ، وابن السائب .

والرابع : ثماني عشرة سنة ، قاله عطاء ، ووهب بن منبّه ، وأبو العالية ، وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ وجاءكم النَّذير ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه الشيب ، قاله ابن عمر ، وعكرمة ، وسفيان بن عيينة ؛ والمعنى : أَوَلَمْ نعمِّركم حتى شِبتم ؟ ! .

والثاني : النبيّ صلى الله عليه وسلم ، قاله قتادة ، وابن زيد ، وابن السائب ، ومقاتل .

والثالث : موت الأهل والأقارب .

والرابع .

الحمّى ذكرهما الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ فذوقوا ﴾ يعني : العذاب ﴿ فما للظالمين من نصير ﴾ أي : من مانع يَمنع عنهم .

وما بعد هذا قد تقدم بيانه [ المائدة : 7 ] إلى قوله : ﴿ خلائفَ في الأرض ﴾ وهي الأُمَّة التي خَلَفَتْ مَنْ قَبْلها ورأت فيمن تقدَّمها ما ينبغي أن تعتَبِر به ﴿ فمن كَفَر فعليه كُفره ﴾ أي : جزاء كفره .

قوله تعالى : ﴿ أرأيتُم شركاءكم ﴾ المعنى : أَخبِروني عن الذين عبدتم من دون الله واتخذتموهم شركاء بزعمكم ، بأيّ شيءٍ أوجبتم لهم الشركة في العبادة ؟ ! أبشيءٍ خلقوه من الارض ، أم شاركوا خالق السموات في خَلْقها ؟ ! ثم عاد إلى الكفار فقال : ﴿ أم آتيناهم كتاباً ﴾ يأمرهم بما يفعلون ﴿ فهُمْ على بيِّنة منه ﴾ ؟ ! قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، وحفص عن عاصم : ﴿ على بيّنةٍ ﴾ على التوحيد .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ بيّناتٍ ﴾ جمعاً .

والمراد : البيان بأنَّ مع الله شريكاً ﴿ بل إنْ يَعِدُ الظَّالمون ﴾ يعني المشركين يَعِدُ ﴿ بعضُهم بعضاً ﴾ أنَّ الأصنام تَشفع لهم ، وأنّه لا حساب عليهم ولا عقاب .

وقال مقاتل : ما يَعِدُ الشيطانُ الكفَّار من شفاعة الآلهة إلاَّ باطلاً .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمواتِ والأرضَ أنْ تَزُولا ﴾ أي : يمنعهما من الزوال والذهاب والوقوع .

قال الفراء : ﴿ ولئن ﴾ بمعنى "ولو" ، و"إنِ" بمعنى "ما" ، فالتقدير : ولو زالتا ما أمسكهما من أحد .

وقال الزجاج : لمَّا قالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقالت اليهود : عزير ابن الله ، كادت السمواتُ يتفطَّرْن والجبال أُن تَزُول والأرضُ أن تنشقّ ، فأمسكها الله عز وجل ؛ وإِنَّما وحَّد ﴿ الأرض ﴾ مع جمع ﴿ السموات ﴾ ، لأن الأرض تدل على الأَرَضِين .

﴿ ولَئِن زالتا ﴾ تحتمل وجهين .

أحدهما : زوالهما يوم القيامة .

والثاني : أن يقال تقديرًا : وإِن لم تزولا ، وهذا مكان يَدُلُّ على القدرة ، غير أنه ذكر الحِلْم فيه ، لأنه لمَّا أمسكهما عند قولهم : ﴿ اتخذ الرحمن ولداً ﴾ [ مريم : 88 ] ، حَلُم فلم يُعَجِّل لهم العقوبة .

قوله تعالى : ﴿ وأقسَموا بالله جَهْدَ أَيمانهم ﴾ يعني كفار مكة ، حلفوا بالله قبل إِرسال محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَئِن جاءهم نذير ﴾ أي : رسول ﴿ لَيَكُونُنَّ أَهدى ﴾ أي : أَصْوَبَ دِيناً ﴿ مِنْ إِحدى الأُمم ﴾ يعني : اليهود والنصارى الصابئين ﴿ فلمَّا جاءهم

نذير ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ما زادهم ﴾ مجيئُه ﴿ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ أي: تباعُداً عن الهُدى، ﴿ استكباراً في الأرض ﴾ أي: عتوّاً على الله وتكبُّراً عن الإِيمان به.

قال الاخفش: نصب ﴿ استكباراً ﴾ على البدل من النفور.

قال الفراء: المعنى: فعلوا ذلك استكباراً ﴿ ومَكْرَ السَّيِّءِ ﴾، فأضيف المكر إِلى السَّيِّءِ، كقوله: ﴿ وإِنَّه لَحَقُّ اليَقين ﴾ [الحاقة: 51]، وتصديقه في قراءة عبد الله: ﴿ ومَكْراً سَيِّئاً ﴾، والهمزة في ﴿ السَّيِّءِ ﴾ مخفوضة، وقد جزمها الأعمش وحمزة، لكثرة الحركات؛ قال الزجّاج: وهذا عند النحويِّين الحُذَّاق لَحْن، إِنّما يجوز في الشِّعر اضطراراً.

(124/643)

---

وقال أبو جعفر النحاس: كان الأعمش يقف على ﴿ مَكْرَ السَّيِّ ﴾ فيترك الحركة، وهو وقف حَسَنٌ تامّ، فغَلِط الراوي؛ فروى أنه كان يَحْذِفُ الإِعراب في الوصل، فتابع حمزة الغالط، فقرأ في الإِدراج بترك الحركة.

وللمفسرين في المراد ب ﴿ مكر السَّيِّءِ ﴾ قولان.

أحدهما: أنه الشّرك.

قال ابن عباس: عاقبة الشّرك لا تَحُلُّ إلا بمن أشرك.

والثاني: أنه المَكْر برسول الله صلى الله عليه وسلم، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ فهل ينظُرون ﴾ أي: ينتظِرون ﴿ إلاَّ سُنَّةَ الأوَّلِين ﴾ أي: إلاَّ أن يَنْزِل العذاب بهم كما نَزَل بالأمم المكذِّبة قبلهم ﴿ فلن تَجِد لِسُنَّةِ الله ﴾ في العذاب ﴿ تبديلاً ﴾ وإِن تأخَّر ﴿ ولن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تحويلاً ﴾ أي: لا يَقْدِر أحدٌ أن يحوِّل العذاب عنهم إلى غيرهم.

قوله تعالى: ﴿ ولو يؤاخِذ اللّهُ النّاسَ بما كَسَبوا ﴾ هذا عامٌّ، وبعضهم يقول: أراد بالناس المشركين.

والمعنى: لو واخذهم بأفعالهم لعجّل لهم العقوبة.

وقد شرحنا هذه الآية في [ النحل: 61 ].

وما أخللنا به فقد سبق بيانه [ يوسف: 109، الروم: 9، الأعراف: 34، النحل: 61 ].

قوله تعالى: ﴿ فإنَّ اللّهَ كان بِعِباده بَصيراً ﴾ قال ابن جرير: بصيراً بمن يَستحقُّ العُقوبة ومَن يستوجب الكرامة. انتهى انتهى. اهـ ﴿زاد المسير حـ 6 صـ 482. 499﴾

وقال الخازن:

قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ﴾

يعني إلى فضله وإحسانه والفقير المحتاج إلى من سواه والخلق كلهم محتاجون إلى الله فهم الفقراء ﴿ والله هو الغني ﴾ عن خلقه لا يحتاج إليهم ﴿ الحميد ﴾ يعني المحمود في إحسانه إليهم المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ لاتخاذكم أنداداً وكفركم بآياته ﴿ ويأت بخلق جديد ﴾ يعني يخلق بعدكم من يعبده ولا يشرك به شيئاً ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أي يمتنع ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ يعني أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الي اقترفته لا تؤاخذ بذنب غيرها فان قلت كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم.

قلت هذه الآية في الضالين وتلك في المضلين أنهم يحملون أثقال من أضلوه من الناس مع أثقال أنفسهم وذلك كله من كسبهم ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها ﴾ معناه وإن تدع نفس مثقلة بذنوبها إلى حمل ذنوب غيرها ﴿ ولا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ يعني ولو كان المدعو ذا قرابة كالأب والأم والابن والأخ قال ابن عباس يعلق الأب والأم بالابن فيقول يا بني احمل عني بعض ذنوبي فيقول لا أستطيع حسبي ما علي ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ يعني يخافون ربهم ﴿ بالغيب ﴾ يعني لم يروه والمعنى وإنما ينفع إنذارك الذين

يخشون ربهم بالغيب ﴿ وأقاموا الصلاة ومن تزكى ﴾ يعني أصلح وعمل خيراً ﴿ فانما يتزكى لنفسه ﴾ يعني لها ثوابه ﴿ وإلى الله المصير وما يستوي الأعمى والبصير ﴾ يعني الجاهل والعالم وقيل الأعمى عن الهدى وهو الشرك والبصير بالهدى وهو المؤمن .

(126/643)

---

﴿ ولا الظلمات ولا النور ﴾ يعني الكفر والإيمان ﴿ ولا الظل ولا الحرور ﴾ يعني الجنة والنار وقال ابن عباس : الحرور الريح الحارة بالليل والسموم بالنهار ﴿ وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ يعني المؤمنين والكفار وقيل العلماء والجهال ﴿ إن الله يسمع من يشاء ﴾ يعني حتى يتعظ ويجيب ﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ يعني الكفار شبههم بالأموات في القبور لأنهم لا يجيبون إذا دعوا ﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ أي ما أنت إلا منذر تخوفهم النار ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ يعني بشيراً بالثواب لمن آمن ونذيراً بالعقاب لمن كفر ﴿ وإن من أمة ﴾ أي من جماعة كثيرة فيما مضى ﴿ إلا خلا ﴾ أي سلف ﴿ فيها نذير ﴾ أي نبي منذر .

فان قلت كم من أمة في الفترة بين عيسى ومحمد ( صلى الله عليه وسلم ) لم يخل فيها نذير .

(127/643)

قلت : إذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلا أن تندرس ، وحين اندرست آثار رسالة عيسى عليه السلام بعث الله محمد ( صلى الله عليه وسلم ) وآثار نذارته باقية إلى يوم القيامة لأنه لا نبي بعده ﴿ وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالمعجزات الدالة على نبوتهم ﴿ وبالزبر ﴾ أي الصحف ﴿ وبالكتاب المنير ﴾ أي الواضح قيل أراد بالكتاب التوراة والإنجيل والزبور وقيل ذكر الكتاب بعد الزبر تأكيداً ﴿ ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ﴾ يعني المطر ﴿ فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾ يعني أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب والرطب ونحوها وقيل يعني ألوانها في الحمرة والصفرة والخضرة وغير ذلك مما لا يحصر ولا يعد ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر ﴾ يعني الخطط والطرق في الجبال ﴿ مختلف ألوانها ﴾ يعني منها ما هو أبيض ومنها ما هو أحمر ومنها ما هو أصفر ﴿ وغرابيب سود ﴾ يعني شديدة السواد كما يقال أسود غربيب تشبيهاً بلون الغراب ﴿ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه ﴾ يعني خلق مختلف ألوانه ﴿ كذلك ﴾ يعني كاختلاف الثمرات والجبال وتم الكلام ها هنا ، ثم ابتدأ فقال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ قال ابن عباس يريد إنما يخافني من خلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني وقيل : عظموه وقدروا قدره وخشوه حق خشيته ومن ازداد به علماً ازداد به

خشية ( ق ) عن عائشة قالت صنع رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) شيئاً فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبي ( صلى الله عليه وسلم ) فخطب فحمد الله ثم قال " ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية " قولها فرخص فيه أي لم يشدد فيه قولها فتنزه عن أقوام أي تباعد عنه وكرهه قوم ( ق ) عن أنس قال خطب رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) خطبة ما سمعت مثلها قط فقال



---

" لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً " فغطى أصحاب رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، وجوههم لهم خنين الخنين بالخاء المعجمة ، هو البكاء مع غنة وانتشاق الصوت من الأنف وقال مسروق كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلاً وقال رجل للشعبي أفتني أيها العالم فقال الشعبي إنما العالم من خشي الله وقال مقاتل أشد الناس خشية لله أعلمهم به ، وقال الربيع بن أنس : من لم يخش الله فليس بعالم ﴿ إن الله عزيز ﴾ أي من ملكه ﴿ غفور ﴾ يعني لذنوب عباده وهو تعليل لوجوب الخشية لأنه المثيب المعاقب وإذا كان كذلك فهو أحق أن يخشى ويتقى .

قوله ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾ أي يداومون على قراءته ويعلمون ما فيه ويعملون به

﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ أي ويقيمون الصلاة في أوقاتها ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ يعني في سبيل الله ﴿ سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ﴾ يعني لن تفسد ولن تهلك والمراد من التجارة ما وعد الله من الثواب ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ قال ابن عباس سوى الثواب يعني مما لم ترعين ولم تسمع أذن ﴿ إنه غفور شكور ﴾ قال ابن عباس : يغفر العظيم من ذنوبهم ويشكر اليسير من أعمالهم ﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ هو الحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ يعني من الكتب ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ .

(129/643)

---

قوله تعالى ﴿ ثم أورثنا الكتاب ﴾ يعني أوحينا إليك الكتاب وهو القرآن ثم أورثناه يعني حكمنا بتوريثه وقيل أورثناه بمعنى نورثه ﴿ الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ قال ابن عباس يريد أمة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ، لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم واختصهم بكرامته بأن جعلهم أتباع سيد الرسل وخصهم بحمل أفضل الكتب ثم قسمهم ورتبهم فقال تعالى ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ روي عن أسامة بن زيد قال قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) "كلهم من هذه الأمة" ذكره البغوي بغير

سند وعن أبي سعيد الخدري أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال في هذه الآية " ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ قال هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة " أخرجه الترمذي.

وقال حديث حسن غريب.

وعن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية على المنبر ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ فقال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له " قال أبو قلابة أحد رواته فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه أخرجه البغوي بسنده وروي بسنده عن ثابت

(130/643)

---

" أن رجلاً دخل المسجد فقال اللهم ارحم غربتي وآنس وحشتي وسق إلي جليساً صالحاً فقال أبو الدرداء لئن كنت صادقاً لأنا أسعد بك منك سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قرأ هذه الآية ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ قال أما السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً وأما ظالم لنفسه فيحبس في المقام حتى

يدخله الهم ثم يدخل الجنة ثم قرأ هذه الآية ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾ " وقال عقبة بن صهبان : سألت عائشة عن قول الله ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ الآية .

فقالت : يا بني كلهم في الجنة أما السابق فمن مضى على عهد رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وشهد له رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) بالجنة وأما المقتصد فمن تبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم ، فجعلت نفسها معنا " وقال ابن عباس السابق المؤمن المخلص والمقتصد المرائي والظالم الكافر ، نعمة الله غير الجاحد لها لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة فقال ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ وقيل الظالم هم أصحاب المشأمة والمقتصد أصحاب الميمنة ، والسابق هم السابقون المقربون من الناس كلهم وقيل : السابق من رجحت حسناته على سيئاته ، والمقتصد من استوت سيئاته وحسناته والظالم من رجحت سيئاته على حسناته وقيل الظالم من كان ظاهرة خيراً من باطنه والمقتصد الذي استوى ظاهره وباطنه والسابق الذي باطنه خير من ظاهره وقيل الظالم التالي للقرآن ولم يعمل به والمقتصد التالي له العامل به والسابق القارىء له العالم به العامل بما فيه وقيل الظالم أصحاب الكبائر والمقتصد أصحاب الصغائر والسابق الذي لم يرتكب صغيرة ولا كبيرة وقيل الظالم الجاهل ، والمقتصد المتعلم والسابق العالم .

فان قلت لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق .

قلت : قال جعفر الصادق بدأ بالظالمين إخباراً بأنه لا يتقرب إليه إلا بكرمه ، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفاء ثم ثنى بالمقتصدين ، لأنهم بين الخوف والرجاء ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره ، وكلهم في الجنة وقيل رتبهم الترتيب على مقامات الناس ، لأن أحوال العباد ثلاثة معصية وغفلة ثم توبة ، ثم قربة فإذا عصى الرجل دخل في حيز الظالمين ، فاذا تاب دخل جملة المقتصدين فاذا صحت توبته وكثرت عبادته ومجاهدته دخل في عداد السابقين وقيل قدم الظالم لكثرة الظلم وغلبته ثم المقتصد قليل بالاضافة إلى الظالمين ، والسابق أقل من القليل فلهذا أخرهم ومعنى سابق بالخيرات أي بالأعمال الصالحة إلى الجنة ، أو إلى رحمة الله ﴿ بإذن الله ﴾ أي بأمر الله وإرادته ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ يعني إيراثهم لكتابن واصطفاءهم ثم أخبر بثوابهم

فقال تعالى : ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ يعني الأصناف الثلاثة ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ تقدم تفسيره ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ قال ابن عباس حزن النار وقيل حزن الموت وقيل حزن الذنوب والسيئات وخوف رد الطاعات وأنهم لا يدرون ما يصنع بهم وقيل حزن زوال النعم

وتقليب القلوب وخوف العاقبة وقيل حزن أهوال يوم القيامة وهموم الحصر والمعيشة في الدنيا وقيل ذهب عن أهل الجنة كل حزن كان لمعاش أو معاد .

روى البغوي بسنده عن ابن عمر قال قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم وكأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن " ﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾ يعني غفر العظيم من الذنوب وشكر القليل من الأعمال ﴿ الذي أحلنا ﴾ يعني أنزلنا ﴿ دار المقامة ﴾ أي الإقامة ﴿ من فضله ﴾ أي لا بأعمالنا ﴿ لا يمسنا فيها نصب ﴾ أي لا يصيبنا فيها عناء ولا مشقة ﴿ ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ أي إعياء من التعب .



---

قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ أي فيستريحوا مما هم فيه ﴿ ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ أي من عذاب النار ﴿ كذلك نجزي كل كفور وهم يصطرخون ﴾ أي يستغيثون ويصيحون ﴿ فيها ﴾ يقولون ﴿ ربنا أخرجنا ﴾ أي من النار ﴿ نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ﴾ أي في الدنيا من الشرك والسيئات فيقول الله تعالى توبيخاً لهم ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ قيل : هو البلوغ وقيل ثمان

عشرة سنة وقيل أربعون سنة وقال ابن عباس ستون سنة ويروى ذلك عن علي وهو العمر الذي أعذر الله تعالى لابن آدم (خ) عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " أعذر الله إلى كل امرىء آخر أجله حتى بلغ ستين سنة " عنه بإسناد الثعلبي قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أعمار أمتي ما بين الستين والسبعين " ﴿ وجاءكم النذير ﴾ يعني محمد (صلى الله عليه وسلم) بالقرآن قاله ابن عباس: وقيل هو الشيب والمعنى أو لم نعمركم حتى شبتم.

ويقال الشيب: نذير الموت وفي الأثر " ما من شعرة تبيض إلا قالت لأختها استعدي فقد قرب الموت " ﴿ فذقوا ﴾ أي يقال لهم ذوقوا العذاب ﴿ فما للظالمين من نصير ﴾ أي لهم من مانع يمنعهم من عذابه ﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴾ يعني إنه إذا علم ذلك هو أخفى ما يكون، فقد علم غيب كل شيء في العالم.



---

قوله تعالى ﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ أي يخلف بعضكم بعضاً وقيل جعلكم أمة خلفت من قبلها من الأمم ورأت ما ينبغي أن يعتبر بهن وقيل جعلكم خلفاء في أرضه وملككم منافعها مقاليد التصرف فيها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿ فمن كفر

﴿ أي جحد هذه النعمة وغطمها ﴾ فعليه كفره ﴿ أي وبال كفره ﴾ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ﴿ يعني غضباً وقيل المقت أشد البغض ﴾ ولا يزيد الكافرين كفرم إلا خساراً ﴿ يعني في الآخرة ﴾ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ﴿ يعني الأصنام جعلتموها شركاء بزعمكم ﴾ أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴿ يعني أي جزء استبدوا بخلقه من الأرض ﴾ أم لهم شرك في السموات ﴿ أي خلق في السموات والأرض ﴾ أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ﴿ أي على حجة وبرهان من ذلك ﴾ بل إن يعد الظالمون بعضهم ﴿ يعني الرؤساء ﴾ بعضاً إلا غروراً ﴿ يعني قولهم هؤلاء الأصنام شفعاؤنا عند الله .

(134/643)

---

قوله ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ يعني لكي لا تزولا فيمنعهما من الزوال والوقوع وكانتا جديرتين بأن تزولا وتهدهد العظم كلمة الشرك ﴿ ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ يعني ليس يمسكهما أحد سواه ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ يعني غير معاجل بالعقوبة حيث أمسكهما وكانتا قد همتا بعقوبة الكفار لولا حلمه وغفرانه ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ يعني كفار مكة وذلك لما بلغهم أن أهل الكتاب

كذبوا رسلهم قالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم وأقسموا بالله لو جاءنا نذير لنكونن أهدى ديناً منهم وذلك قبل مبعث النبي (صلى الله عليه وسلم) فلما بعث محمد كذبوه فأنزل الله هذه الآية ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ ﴿ لئن جاءهم نذير ﴾ يعني رسول ﴿ ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) ﴿ ما زادهم ﴾ مجيئه ﴿ إلا نفوراً ﴾ يعني تباعدا عن الهدى ﴿ استكباراً في الأرض ﴾ يعني عتواً وتكبراً عن الإيمان به ﴿ ومكر السيىء ﴾ يعني عمل القبيح وهو اجتماعهم على الشرك وقيل هو مكرهم برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ يعني لا يحل ولا يحيط إلا بأهله فقتلوا يوم بدر قال ابن عباس عاقبة الشرك لا تحل إلا بمن أشرك ﴿ فهل ينظرون ﴾ أي ينظرون ﴿ إلا سنة الأولين ﴾ يعني أن ينزل العذاب بهم كما نزل بمن مضى من الكفار ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي تغييراً ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ أي تحويل العذاب عنهم إلى غيرهم.

﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين قبلهم ﴾ معناه أنهم يعتبرون بمن مضى وبآثارهم وعلامات هلاكهم ﴿ وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه ﴾ أي ليفوت عنه ﴿ من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ﴾ أي من الجرائم ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ أي ظهر الأرض ﴿ دابة ﴾ أي من نسمة تدب عليها يريد بني آدم وغيرهم كما أهلك من كان في زمن نوح بالطوفان إلا من كان في السفينة ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ فإذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيراً ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يريد أهل طاعته وأهل معصيته وقيل بصيراً بمن يستحق العقوبة وبمن يستحق الكرامة والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 300. 306 ﴾

(136/643)

---

وقال ابن جزى :

﴿ أَنتُمُ الفقرآءُ إِلَى الله ﴾

خطاب لجميع الناس، وإنما عرف الفقر بالألف واللام ليدل على اختصاص الفقر بجنس الناس، وإن كان غيرهم فقراء ولكن فقراء الناس أعظم، ثم وصف نفسه بأنه الغني في

مقابلة وصفهم بالفقر ، ووصفه بأنه الحميد ليدل على وجوده وكرمه الذي يوجب أن يحمده عباده .

﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ الحمل عبارة عن الذنوب ، والمثقلة الثقيلة الحمل أو النفس الكثيرة الذنوب ، والمعنى أنها لو دعت أحداً إلى أن يحمل عنها ذنوبها لم يحمل عنها ، وحذف مفعول ﴿ إِن تَدْعُ ﴾ لدلالة المعنى وقصد العموم ، وهذه الآية بيان وتكميل لمعنى قوله : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ [ الإسراء : 15 ] ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ المعنى ولو كان المدعوّ ذا قربى ممن دعاه إلى حمل ذنوبه لم يحمل منه شيئاً ، لأن كل واحد يقول : نفسي نفسي ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ المعنى أن الإنذار لا ينفع إلا الذين يخشون ربهم ، وليس المعنى اختصاصهم بالإنذار ﴿ بالغيب ﴾ في موضع حال من الفاعل في يخشون أي يخشون ربهم ، وهم غائبون عن الناس فخشيتهم حق لا رياء .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾ تمثيل للكافر والمؤمن ﴿ وَلاَ الظلمات وَلاَ النور ﴾ تمثيل للكفر والإيمان ﴿ وَلاَ الظل وَلاَ الحرور ﴾ تمثيل للثواب والعقاب وقيل : ﴿ الظل ﴾ : الجنة ﴿ وَلاَ الحرور ﴾ النار . والحرور في اللغة : شدة الحر بالنهار والليل السموم بالنهار خاصة .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَحيآءَ وَلاَ الأَموات ﴾ تمثيل لمن آمن فهو كالحي ومن لم يؤمن فهو كالميت ﴿ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ عبارة عن هداية الله لمن يشاء ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القبور ﴾ عبارة عن عدم سماع الكفار للبراهين والمواعظ ، فشبههم بالموتى في عدم إحساسهم ، وقيل : المعنى أن أهل القبور وهم الموتى حقيقة لا يسمعون ، فليس عليك أن تسمعهم ، وإنما بعث للأحياء .

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ معناه أن الله قد بعث إلى كل أمة نبياً يقيم عليهم الحجة ، فإن قيل : كيف ذلك وقد كان بين الأنبياء فترات وأزمنة طويلة ؟ ألا ترى أن بين عيسى ومحمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم ستمائة سنة لم يبعث فيها نبي ؟ فالجواب أن دعوة عيسى ومن تقدمه من الأنبياء كانت قد بلغتهم فقامت عليهم الحجة . فإن قيل : كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ؟ [ السجدة : 3 ] فالجواب أنهم لم يأتهم نذير معاصر لهم ، فلا يعارض ذلك من تقدم قبل عصرهم ، وأيضاً فإن المراد بقوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ليست ببدع فلا ينبغي أن تنكر ، لأن الله أرسله كما أرسل من قبله والمراد بقوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [ السجدة : 3 ] أنهم محتاجون إلى الإنذار ، لكونهم لم يتقدم من ينذرهم فاختلف سياق الكلام فلا تعارض بينهما .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم للتأسي ﴿ نَكِيرِ ﴾ ذكر في سبأ ﴿ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ يريد الصفرة والحمرة وغير ذلك من الألوان ، وقيل : يريد الأنواع والأول أظهر لذكره البيض والحمر والسود بعد ذلك . وفي الوجهين دليل على أن الله تعالى فاعل مختار ، يخلف ما يشاء ويختار . وفيه ردّ على الطبائعيين [ الدهريين ] لأن الطبيعة لا يصدر عنها ولا نوع واحد ﴿ جُدَدٌ ﴾ جمع جدة وهي الخطط والطرائق في الجبال ﴿ وَغَرَابِيبُ ﴾ جمع غربيب وهو الشديد السواد ، وقدم الوصف الأبلغ ، وكان حقه أن يتأخر لقصد التأكيد ، ولأن ذلك كثيراً ما يأتي في كلام العرب .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ يتعلق بما قبله فيتم الوقف عليه والمعنى : أن من الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه ، مثل الجبال المختلف ألوانها ، والثمرات المختلف ألوانها ، وذلك كله استدلال على قدرة الله وإرادته .

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ يعني العلماء بالله وصفاته وشرائعه علماً يوجب لهم الخشية من عذابه وفي الحديث : " أعلمكم بالله أشدكم له خشية " لأن العبد إذا عرف الله خاف من عقابه وإذا لم يعرفه لم يخف منه فلذلك خص العلماء بالخشية .

﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ كِتَابَ الله ﴾ أي يقرأون القرآن وقيل : معنى ﴿ يَتْلُونَ ﴾ : يتبعون والخبر ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً ﴾ أو محذوف ﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ أي لن تكسد ويعني بالتجارة طلب الثواب ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ توفية الأجور ، وهو ما يستحقه المطيع من الثواب ، والزيادة التضعيف فوق ذلك ، وقيل : الزيادة النظر إلى وجه الله ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ تقدم في البقرة .



---

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا ﴾ يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، والتوريث عبارة عن أن الله أعطاهم الكتاب بعد غيرهم من الأمم ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات ﴾ قال عمر وابن مسعود وابن عباس وكعب وعائشة وأكثر المفسرين هذه الأصناف الثلاثة في أمة محمد صلى الله عليه وسلم : فالظالم لنفسه العاصي والسابق التقي والمقتصد بينهما وقال الحسن : السابق من رجحت حسناته على سيئاته ، والظالم لنفسه من رجحت سيئاته والمقتصد من استوت حسانته وسيّئاته ، وجميعهم يدخلون الجنة وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له " ، وقيل : الظالم الكافر والمقتصد المؤمن العاصي ،

والسابق التقي فالضمير في منهم على هذا يعود على العباد ، وأما على القول الأول فيعود على الذين اصطفينا وهو أرجح وأصح لوروده في الحديث ، وجلالة القائلين به ، فإن قيل : لم قدّم الظالم ووسط المقتصد وآخر السابق ؟ فالجواب : أنه قدّم الظالم لنفسه رفقاً به لئلا ييئس وآخر السابق لئلا يعجب بنفسه ، وقال الزمخشري : قدّم الظالم لكثرة الظالمين وآخر السابق لقلة السابقين ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الفضل الكبير ﴾ إشارة إلى الاصطفاء .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بدل من الفضل أو خبر مبتدأ تقديره : ثوابهم جنات عدن أو مبتدأ تقديره : لهم جنات عدن ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ ضمير الفاعل يعود على الظالم ، والمقتصد ، والسابق ، على القول بأن الآية في هذه الأمة : وأما على القول بأن الظالم هو الكافر فيعود على المقتصد والسابق خاصة ، وقال الزمخشري : إنه يعود على السابق خاصة وذلك على قول المعتزلة في الوعيد ﴿ أَسَاوِرَ ﴾ ذكر في [ الحج : 23 ] .

﴿ أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ قيل هو عذاب النار ، وقيل : أهوال القيامة وقيل : هموم الدنيا والصواب العموم في ذلك كله .

﴿ دَارَ المقامة ﴾ هي الجنة والمقامة هي الإقامة ، والموضع وإنما سميت الجنة دار المقامة ، لأنهم يقومون فيها ولا يخرجون منها ﴿ نَصَبٌ ﴾ النصب تعب البدن ، واللغوب تعب النفس ، اللازم عن تعب البدن .

﴿ يَصْطَرِخُونَ ﴾ يفتعلون من الصراخ أي يستغيثون فيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا ﴾ وفي قولهم : ﴿ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ اعتراف بسوء عملهم وتندم عليه .

﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ﴾ الآية توبيخ لهم وإقامة حجة عليهم وقيل : إن مدة التذكير ستون سنة وقيل : أربعون وقيل : البلوغ والأول أرجح لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من عمره الله ستين فقد أعذر إليه في العمر " ﴿ وَجَآءَكُمُ النذير ﴾ يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : يعني الشيب ، لأنه نذير بالموت والأول أظهر .

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ أي بما تضمره الصدور وتعتقده ، وقال الزمخشري : ذات هنا تأنيث ذو معنى صاحب لأن المضمرات تصحب الصدور .

﴿ خَلاَئِفَ ﴾ ذكر الأنعام ﴿ مَقْتاً ﴾ المقت احتقار الإنسان وبغضه لأجل عيوبه أو ذنوبه .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ﴾ الآية احتجاج على المشركين وإبطال لمذهبهم ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ ﴾ أي نصيب ﴿ على بَيِّنَةٍ ﴾ قرأ نافع بيِّنات أي على أمر جليّ ، والضمير في أتيناهم يحتمل أن يكون للأصنام أو للمشركين وهذا أظهر في المعنى والأول أليق بما قبله من الضمائر

.

﴿ أَن تَزُولاَ ﴾ في موضع مفعول من أجله تقديره كراهة أن تزولا أو مفعول به لأن يمسك بمعنى يمنع ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ ﴾ أي لو فرض زوالهما لم يمسكهما أحد ، وقيل : أراد زوالهما يوم القيامة عند طيّ السماء وتبديل الأرض ونسف الجبال ﴿ مِّن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد تركه الإمساك .

(141/643)

---

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ ﴾ الضمير لقريش وذلك أنهم قالوا : لعن الله اليهود والنصارى جاءتهم الرسل فكذبوهم ، والله لئن جاءنا رسول لنكونن أهدى منهم ﴿ إِحْدَى الأُمَمِ ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ يعني محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ اسْتِكْبَارًا ﴾ بدل من نفوراً أو مفعول من أجله ﴿ وَمَكْرَ السيىء ﴾ هذا من إضافة الصفة إلى الموصوف كقولك : مسجد الجامع وجانب الغربي والأصل أن يقال : المكر السيء ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ أي لا يحيط وبال المكر السيء إلا بمن مكره ودبره ، وقال كعب لابن عباس : إن في التوراة من حفر حفرة لأخيه وقع فيها فقال ابن عباس : أنا أجد هذا في كتاب الله : ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ

سُنَّتَ الأولين ﴾ أي هل ينتظرون إلا عادة الأمم المتقدمة في أخذ الله لهم وإهلاكهم للرسل
.

﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ ﴾ أي لا يفوته شيء ولا يصعب عليه .

﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ الضمير للأرض والدابة عموم في كل ما يدب وقيل : أراد بني آدم خاصة ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني يوم القيامة وباقي الآية وعد ووعيد .

انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 3 صـ 156 . 160﴾

(142/643)

---

وقال النسفى :

﴿ يا أيها الناس أَنتُمُ الفقرآء إِلَى الله ﴾

قال ذو النون : الخلق محتاجون إليه في كل نفس وخطرة ولحظة وكيف لا ووجودهم به وبقاؤهم به ! ﴿ والله هُوَ الغنى ﴾ عن الأشياء أجمع ﴿ الحميد ﴾ المحمود بكل لسان ، ولم يسمهم بالفقراء للتحقير بل للتعريض على الاستغناء ولهذا وصف نفسه بالغني الذي هو مطعم الأغنياء ، وذكر الحميد ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه والجواد المنعم عليهم إذ ليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان الغني جواداً منعماً وإذا جاد وأنعم حمده المنعم

عليهم .

قال سهل : لما خلق الله الخلق حكم لنفسه بالغنى ولهم بالفقر ، فمن ادعى الغنى حجب عن الله ، ومن أظهر فقره أوصله فقره إليه .

فينبغي للعبد أن يكون مفتقراً بالسر إليه ومنقطعاً عن الغير إليه حتى تكون عبوديته محضة ، فالعبودية هي الذل والخضوع وعلامته أن لا يسأل من أحد .

وقال الواسطي : من استغنى بالله لا يفتقر ومن تعزز بالله لا يذل .

وقال الحسين : على مقدار افتقار العبد إلى الله يكون غنياً بالله وكلما ازداد افتقاراً ازداد غنى .

وقال يحيى : الفقر خير للعبد من الغنى لأن المذلة في الفقر والكبر في الغنى ، والرجوع إلى الله بالتواضع ، والذلة خير من الرجوع إليه بتكثير الأعمال .

وقيل : صفة الأولياء ثلاثة : الثقة بالله في كل شيء ، والفقر إليه في كل شيء ، والرجوع إليه من كل شيء .

وقال الشبلي : الفقر بحر البلاء وبلاؤه كله عز .

﴿ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ ﴾ كلكم إلى العدم فإن غناه بذاته لا بكم في القدم ﴿ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾ وهو بدون حمدكم حميد ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ ﴾ الأنشاء والإفناء ﴿ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴾ بممتنع .

وعن ابن عباس : يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيئاً .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى .

(143/643)

---

والوزر والوقر أخوان ، ووزر الشيء إذا حمله ، والوازرة صفة للنفس ، والمعنى أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته لا تؤاخذ نفس بذنب نفس كما تأخذ جبابرة الدنيا الولي بالولي والجار بالجار .

وإنما قيل ﴿ وازرة ﴾ ولم يقل ولا تزر نفس وزر أخرى ، لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا ترى منهن واحدة إلا حاملة وزرها لا وزر غيرها .

وقوله ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [ العنكبوت : 13 ] وارد في الضالين المضلين فإنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم ، ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى في قولهم ﴿ اتبعوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خطاياكم ﴾ [ العنكبوت : 12 ] بقوله ﴿ وَمَا هُمْ بحاملين مِنْ خطاياهم مّن شَىْءٍ ﴾ [ العنكبوت : 12 ] ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ ﴾ أي نفس مثقلة بالذنوب أحداً ﴿ إلى حِمْلِهَا ﴾ ثقلها أي ذنوبها ليتحمل عنها بعض ذلك ﴿ لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ﴾ أي المدعو وهو

مفهوم من قوله ﴿ وَإِن تَدْعُ ﴾ ﴿ ذَا قربى ﴾ ذا قرابة قريبة كأب أو ولد أو أخ.

والفرق بين معنى قوله ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ ومعنى ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ أن الأول دال على عدل الله في حكمه وأن لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها ، والثاني في بيان أنه لا غياث يومئذ لمن استغاث حتى إن نفساً قد أثقلتها الأوزار لودعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث وإن كان المدعو بعض قرابتها ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أي إنما ينتفع بإنذارك هؤلاء ﴿ بالغيب ﴾ حال من الفاعل أو المفعول أي يخشون ربهم غائبين عن عذابه ، أو يخشون عذابه غائباً عنهم .

(144/643)

---

وقيل : بالغيب في السر حيث لا اطلاع للغير عليه ﴿ وَأَقَامُوا الصلاوة ﴾ في مواقيتها ﴿ وَمَن تزكى ﴾ تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصي ﴿ فَإِنَّمَا يتزكى لِنَفْسِهِ ﴾ وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكي ﴿ وإلى الله المصير ﴾ المرجع وهو وعد للمتزكي الثواب .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأعمى والبصير ﴾ مثل للكافر والمؤمن أو للجاهل والعالم .

﴿ وَلاَ الظلمات ﴾ مثل للكفر ﴿ وَلاَ النور ﴾ للإيمان ﴿ وَلاَ الظل وَلاَ الحرور ﴾ الحق

والباطل أو الجنة والنار .

والحرور الريح الحار كالسموم إلا أن السموم تكون بالنهار والحرور بالليل والنهار .

عن الفراء ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأَحيآءَ وَلاَ الأَموات ﴾ مثل للذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه وزيادة .

"لا" لتأكيد معنى النفي .

والفرق بين هذه الواوات أن بعضها ضمت شفعاً إلى شفع وبعضها وتراً إلى وتر ﴿ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى القبور ﴾ يعني أنه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه فيهدي من يشاء هدايته ، وأما أنت فخفي عليك أمرهم فلذلك تحرص على إسلام قوم مخذولين .

شبه الكفار بالموتى حيث لا ينتفعون بمسموعهم ﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾ أي ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع وإن كان من المصرين فلا عليك ﴿ إِنَّا أرسلناك بالحق ﴾ حال من أحد الضميرين يعني محقاً أو محقين أو صفة للمصدر أي إرسالاً مصحوباً بالحق ﴿ بَشِيراً ﴾ بالوعد ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ بالوعيد ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ ﴾ وما من أمة قبل أمتك .

والأمة : الجماعة الكثيرة وجد عليه أمة من الناس ويقال لأهل كل عصر أمة ، والمراد هنا أهل العصر وقد كانت آثار النذارة باقية فيما بين عيسى ومحمد عليهما السلام فلم تخل تلك الأمم من نذير ، وحين اندرست آثار نذارة عيسى عليه السلام بعث محمد عليه السلام ﴿ إِلَّا خَلاَ ﴾ مضى ﴿ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ يخوفهم وخامة الطغيان وسوء عاقبة الكفران ، واكتفى بالنذير عن البشير في آخر الآية بعدما ذكرهما لأن النذارة مشفوعة بالبشارة فدل ذكر النذارة على ذكر البشارة .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ رسلهم ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم ﴾ حال و"قد" مضمرة ﴿ بالبينات ﴾ بالمعجزات ﴿ وبالزبر ﴾ وبالصحف ﴿ وبالكتاب المنير ﴾ أي التوراة والإنجيل والزبور .

ولما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسناداً مطلقاً وإن كان بعضها في جميعهم وهي البينات وبعضها في بعضهم وهي الزبر والكتاب وفيه مسلاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ﴾ عاقبت ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ بأنواع العقوبة ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ إنكاري عليهم وتعذيبي لهم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ بالماء ﴿ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها ﴿ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ ﴾ طرق

مختلفة جدة كمدة ومدد ﴿ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ ألوانها وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ جمع غربيب وهو تأكيد للأسود .

يقال : أسود غربيب وهو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه ومنه الغراب .

(146/643)

---

وكان من حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك "أصفر فاقع" إلا أنه أضمر المؤكد قبله والذي بعده تفسير للمضمر ، وإنما يفصل ذلك لزيادة التوكيد حيث يدل على المعنى الواحد من طريقي الإظهار والإضمار جميعاً ، ولا بد من تقدير حذف المضاف في قوله ﴿ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ ﴾ أي ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود حتى يؤول إلى قولك : ومن الجبال مختلف ألوانه كما قال ﴿ ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾ .

﴿ وَمِنَ الناس والدوآب والأنعام مُخْتَلِفٌ ألوانه ﴾ يعني ومنهم بعض مختلف ألوانه ﴿ كذلك ﴾ أي كاختلاف الثمرات والجبال .

ولما قال ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته ، أتبع ذلك ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماؤا ﴾ أي العلماء به الذين علموه بصفاته فعظموه ومن

ازداد علماً به ازداد منه خوفاً ومن كان علمه به أقل كان آمن .

وفي الحديث " أعلمكم بالله أشدكم له خشية " وتقديم اسم الله تعالى وتأخير العلماء يؤذن أن معناه أن الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم ولو عكس لكان المعنى أنهم لا يخشون إلا الله كقوله : ﴿ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللهَ ﴾ [ الأحزاب : 39 ] وبينهما تغاير ، ففي الأول بيان أن الخاشين هم العلماء ، وفي الثاني بيان أن المخشي منه هو الله تعالى .

وقرأ أبو حنيفة وابن عبد العزيز وابن سيرين رضي الله عنهم ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ والخشية في هذه القراءة استعارة ، والمعنى إنما يعظم الله من عباده العلماء ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم والمعاقب المثيب حقه أن يخشى .

(147/643)

---

﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ كتاب الله ﴾ يداومون على تلاوة القرآن ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً ﴾ أي مسرين النفل ومعلنين الفرض يعني لا يقتنعون بتلاوته عن حلاوة العمل به ﴿ يَرْجُونَ ﴾ خبر "إنّ" ﴿ تجارة ﴾ هي طلب الثواب بالطاعة ﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ لن تكسد يعني تجارة ينتفى عنها الكساد وتنفق عند الله ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ ﴾ متعلق ب

﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ أي ليوفيهم بنفاقها عنده ﴿ أُجُورَهُمْ ﴾ ثواب أعمالهم ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ بتفسيح القبور أو بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم أو بتضعيف حسناتهم أو بتحقيق وعد لقائه.

أو ﴿ يَرْجُونَ ﴾ في موضع الحال أي راجين.

واللام في ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ ﴾ تتعلق ب ﴿ يَتْلُونَ ﴾ وما بعده أي فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق لهذا الغرض وخبر "إنّ" ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ لفرطاتهم ﴿ شَكُورٌ ﴾ أي غفورٌ لهم شكور لأعمالهم أي يعطي الجزيل على العمل القليل ﴿ والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾ أي القرآن.

و"من" للتبيين ﴿ هُوَ الحق مُصَدِّقاً ﴾ حال مؤكدة لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ لما تقدمه من الكتب ﴿ إِنَّ الله بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ فعلمك وأبصر أحوالك ورآك أهلاً لأن يوحي إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب ﴾ أي أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه من بعدك أي حكمنا بتوريثه ﴿ الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وهم أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس، واختصهم بكرامة الإنتماء إلى أفضل رسله.

ثم رتبهم على مراتب فقال ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ وهو المرجأ لأمر الله ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات ﴾ وهذا التأويل يوافق التنزيل فإنه تعالى قال : ﴿ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين ﴾ [ التوبة : 100 ] الآية وقال بعده : ﴿ وَءَاخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [ التوبة : 102 ] الآية وقال بعده : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله ﴾ [ التوبة : 106 ] الآية .

والحديث فقد رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر بعد قراءة هذه الآية : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له " وعنه عليه السلام : " السابق يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يحاسب حساباً يسيرا ثم يدخل الجنة ، وأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يظن أنه لا ينجو ثم تناله الرحمة فيدخل الجنة " رواه أبو الدرداء .

والأثر فعن ابن عباس رضي الله عنهما : السابق المخلص ، والمقتصد المرائي ، والظالم الكافر بالنعمة غير الجاحد لها لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة .

وقول السلف فقد قال الربيع بن أنس : الظالم صاحب الكبائر ، والمقتصد صاحب

الصغائر ، والسابق المجتنب لهما .

وقال الحسن البصري : الظالم من رجحت سيئاته ، والسابق من رجحت حسناته ، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته .

وسئل أبو يوسف رحمه الله عن هذه الآية فقال : كلهم مؤمنون ، وأما صفة الكفار فبعد هذا وهو قوله : ﴿ والذين كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عباده فإنه قال : ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ والكل راجع إلى قوله ﴿ الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وهم أهل الإيمان وعليه الجمهور .

وإنما قدم الظالم للإيذان بكثرتهم وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل .

وقال ابن عطاء : إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله .



---

وقيل : إنما قدمه ليعرّفه أن ذنبه لا يبعده من ربه .

وقيل : إن أول الأحوال معصية ثم توبة ثم استقامة .

وقال سهل : السابق العالم والمقتصد المتعلم والظالم الجاهل .

وقال أيضاً : السابق الذي اشتغل بمعاده ، والمقتصد الذي اشتغل بمعاشه ومعاده ، والظالم الذي اشتغل بمعاشه عن معاده .

وقيل : الظالم الذي يعبده على الغفلة والعادة ، والمقتصد الذي يعبده على الرغبة والرهبة ، والسابق الذي يعبده على الهيبة والاستحقاق .

وقيل : الظالم من أخذ الدنيا حلالاً كانت أو حراماً ، والمقتصد من يجتهد أن لا يأخذها إلا من حلال ، والسابق من أعرض عنها جملة .

وقيل : الظالم طالب الدنيا ، والمقتصد طالب العقبي ، والسابق طالب المولى ﴿ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ بأمره أو بعلمه أو بتوفيقه ﴿ ذلك ﴾ أي إيراث الكتاب ﴿ هُوَ الفضل الكبير * جنات عَدْنٍ ﴾ خبر ثان ل ﴿ ذلك ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ والخبر ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ أي الفرق الثلاثة ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ : أبو عمرو ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ جمع أسورة جمع سوار ﴿ مّن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ﴾ أي من ذهب مرصع باللؤلؤ ﴿ ذَهَبٍ ﴾ بالنصب والهمزة : نافع وحفص عطفاً على محل ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ أي يحلون أساور ولؤلؤاً ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ لما فيه من اللذة والزينة .

﴿ وَقَالُواْ الحمد للهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ خوف النار أو خوف الموت أو هموم الدنيا ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ ﴾ يغفر الجنايات وإن كثرت ﴿ شَكُورٌ ﴾ يقبل الطاعات وإن قلت ﴿ الذى أَحَلَّنَا دَارَ المقامة ﴾ أي الإقامة لا نبرح منها ولا نفارقها يقال أقمت إقامة ومقاماً

ومقامة ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ من عطائه وإفضاله لا باستحقاقنا ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ تعب ومشقة ﴿ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ إعياء من التعب وفترة.

(150/643)

---

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ﴿ لَغُوبٌ ﴾ بفتح اللام وهو شيء يلغب منه أي لا تتكلف عملاً يلغبنا ﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ ﴾ جواب النفي ونصبه بإضمار "أن" أي لا يقضى عليهم بموت ثانٍ فيستريحوا ﴿ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مّنْ عَذَابِهَا ﴾ من عذاب نار جهنم ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ ﴿ يجزى كُلُّ كَفُورٍ ﴾ : أبو عمرو ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ يستغيثون فهو يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد ومشقة، واستعمل في الاستغاثة لجهر صوت المستغيث ﴿ رَبَّنَا ﴾ يقولون ربنا ﴿ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صالحا غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أي أخرجنا من النار ردنا إلى الدنيا نؤمن بدل الكفر ونطع بعد المعصية فيجاوبون بعد قدر عمر الدنيا ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ يجوز أن يكون "ما" نكرة موصوفة أي تعميراً يتذكر فيه من تذكر وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر، إلا أن التوبيخ في المتطاول أعظم.

ثم قيل : هو ثمان عشرة سنة .

وقيل : أربعون .

وقيل : ستون سنة ﴿ وَجَاءكُمُ النذير ﴾ الرسول عليه السلام أو المشيب وهو عطف على معنى ﴿ أَوَلَمْ نُعَمّرْكُمْ ﴾ لأن لفظه لفظ استخبار ومعناه إخبار كأنه قيل : قد عمرناكم وجاءكم النذير ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ العذاب ﴿ فَمَا للظالمين مِن نَّصِيرٍ ﴾ ناصر يعينهم .

﴿ إِنَّ الله عالم غَيْبِ السماوات والأرض ﴾ ما غاب فيهما عنكم ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ كالتعليل لأنه إذا علم ما في الصدور وهو أخفى ما يكون فقد علم كل غيب في العالم .

وذات الصدور مضمراتها وهي تأنيث ذو في نحو قول أبي بكر رضي الله عنه : ذو بطن خارجة جارية .

أي ما في بطنها من الحبل لأن الحبل يصحب البطن .

وكذا المضمرات تصحب الصدور وذو موضوع لمعنى الصحبة ﴿ هُوَ الذى جَعَلَكُمْ خلائف فِى الأرض ﴾ يقال للمستخلف خليفة ويجمع على خلائف، والمعنى أنه جعلكم خلفاء في أرضه قد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿ فَمَن كَفَرَ ﴾ منكم وغمط مثل هذه النعمة السنية ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ فوبال كفره راجع عليه وهو مقت الله وخسار الآخرة كما قال ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً ﴾ وهو أشد البغض ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ هلاكاً وخسراناً ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ ﴾ آلهتكم التي أشركتموهم في العباد ﴿ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ ﴿ أَرُونِىَ ﴾ بدل من ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أخبروني كأنه قيل: أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الشركة، أروني أي جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السماوات ﴾ أم لهم مع الله شركة في خلق السماوات ﴿ أَمْ ءاتيناهم كتابا فَهُمْ على بينات مِّنْهُ ﴾ أي معهم كتاب من عند الله ينطق أنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب.

﴿ بينات ﴾ علي وابن عامر ونافع وأبو بكر ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ ﴾ ما يعد ﴿ الظالمون بَعْضُهُم ﴾ بدل من ﴿ الظالمون ﴾ وهم الرؤساء ﴿ بَعْضًا ﴾ أي الأتباع ﴿ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ هو قولهم ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ [يونس: 18].

﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ يمنعهما من أن تزولا لأن الإمساك منع

﴿ وَلَئِن زَالَتَآ ﴾ على سبيل الفرض ﴿ إِنْ أَمْسَكَهُمَا ﴾ ما أمسكهما ﴿ مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ من بعد إمساكه.

(152/643)

---

و"من" الأولى مزيدة لتأكيد النفي والثانية للابتداء ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ غير معاجل بالعقوبة حيث يمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدّا هدّاً لعظم كلمة الشرك كما قال ﴿ تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض ﴾ [ مريم : 90 ] الآية.

﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أيمانهم ﴾ نصب على المصدر أي إقساماً بليغاً أو على الحال أي جاهدين في أيمانهم ﴿ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أهدى مِنْ إِحْدَى الأمم ﴾ بلغ قريشاً قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم أي من الأمة التي يقال فيها هي إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة كما يقال للداهية العظيمة هي إحدى الدواهي ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ أي ما زادهم مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم إلا تباعداً عن الحق وهو إسناد مجازي ﴿ استكبارا فِى الأرض ﴾ مفعول له

وكذا ﴿ وَمَكْرَ السيىء ﴾ والمعنى وما زادهم إلا نفوراً للاستكبار ومكر السيء ، أو حال يعني مستكبرين وماكرين برسول الله صلى الله عليه وسلم .

(153/643)

---

وأصل قوله ومكر السيء وأن مكروا السيء أي المكر السيء ، ثم ومكراً السيء ثم ومكر السيء والدليل عليه وقوله ﴿ وَلاَ يَحِيقُ ﴾ يحيط وينزل ﴿ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ ولقد حاق بهم يوم بدر وفي المثل "من حفر لأخيه جباً وقع فيه مكباً" ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتُ الأولين ﴾ وهو إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلهم ، والمعنى فهل ينظرون بعد تكذيبك إلا أن ينزل بهم العذاب مثل الذي نزل بمن قبلهم من مكذبي الرسل ، جعل استقبالهم لذلك انتظاراً له منهم ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ الله تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ الله تَحْوِيلاً ﴾ بين أن سنته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل سنة لا يبدلها في ذاتها ولا يحولها عن أوقاتها وأن ذلك مفعول لا محالة .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ استشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسايرهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم ﴿ وَكَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ ﴾ من أهل مكة ﴿ قُوَّةً ﴾ اقتداراً فلم يتمكنوا

من الفرار ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ ﴾ ليسبقه ويفوته ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ أيّ شيء ﴿ فِى السماوات وَفِى الارض إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً ﴾ بهم ﴿ قَدِيراً ﴾ قادراً عليهم ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الناس بِمَا كَسَبُواْ ﴾ بما اقترفوا من المعاصي ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا ﴾ على ظهر الأرض لأنه جرى ذكر الأرض في قوله ﴿ لِيُعْجِزَهُ مِن شَىْءٍ فِى السماوات وَلاَ فِى الأرض ﴾ [ فاطر : 44 ] ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ من نسمة تدب عليها ﴿ ولكن يُؤَخِرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ إلى يوم القيامة ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾ أي لم تخف عليه حقيقة أمرهم وحكمة حكمهم والله الموفق للصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 337 . 344 ﴾

*(154/643)*

---

وقال البيضاوى :

﴿ يا أيها الناس أَنتُمُ الفقراء إِلَى الله ﴾

في أنفسكم وما يعن لكم ، وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء ، وأن افتقار سائر الخلائق بالإِضافة إلى فقرهم غير معتد به ولذلك قال : ﴿ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً ﴾ ﴿ والله هُوَ الغني الحميد ﴾ المستغني على الإِطلاق

المنعم على سائر الموجودات حتى استحق عليهم الحمد .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ بقوم آخرين أطوع منكم ، أو بعالم آخر غير ما تعرفونه .

﴿ وَمَا ذلك عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ﴾ بمتعذر أو متعسر .

﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ، وأما قوله : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ ففي الضالين المضلين فإنهم يحملون أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم ، وكل ذلك أوزارهم ليس فيها شيء من أوزار غيرهم . ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ ﴾ نفس أثقلها الأوزار . ﴿ إلى حِمْلِهَا ﴾ تحمل بعض أوزارها . ﴿ لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ ﴾ لم تجب لحمل شيء منه نفى أن يحمل عنها ذنبها كما نفى أن يحمل عليها ذنب غيرها .

﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ ولو كان المدعو ذا قرابتها ، فأضمر المدعو لدلالة إن تدع عليه . وقرىء "ذو قربى" على حذف الخبر وهو أولى من جعل كان التامة فإنها لا تلائم نظم الكلام . ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب ﴾ غائبين عن عذابه ، أو عن الناس في خلواتهم ، أو غائباً عنهم عذابه . ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ فإنهم المنتفعون بالإنذار لا غير ، واختلاف الفعلين لما مر من الاستمرار . ﴿ وَمَن تزكى ﴾ ومن تطهر من دنس المعاصي .

﴿ فَإِنَّمَا يتزكى لِنَفْسِهِ ﴾ إذ نفعه لها ، وقرىء "ومن أزكى فإنما يزكي" وهو اعتراض

مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكي . ﴿ وإلى الله المصير ﴾ فيجازيهم على تزكيهم .

(155/643)

---

﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأعمى والبصير ﴾ الكافر والمؤمن ، وقيل هما مثلان للصنم ولله عز وجل .

﴿ وَلاَ الظلمات وَلاَ النور ﴾ ولا الباطل ولا الحق .

﴿ وَلاَ الظل وَلاَ الحرور ﴾ ولا الثواب ولا العقاب ، ولا لتأكيد نفي الاستواء وتكريرها على الشقين لمزيد التأكيد . و﴿ الحرور ﴾ فعول من الحر غلب على السموم . وقيل السموم ما يهب نهاراً والحرور ما تهب ليلاً .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأحياء وَلاَ الأموات ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الأول ولذلك كرر الفعل . وقيل للعلماء والجهلاء . ﴿ إِنَّ الله يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴾ هدايته فيوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته . ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى القبور ﴾ ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات ومبالغة في إقناطه عنهم .

﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾ فما عليك إلا الإنذار وأما الإسماع فلا إليك ولا حيلة لك إليه في

المطبوع على قلوبهم .

﴿ إِنَّا أرسلناك بالحق ﴾ محقين أو محقاً ، أو إرسالاً مصحوباً بالحق ، ويجوز أن يكون صلة لقوله : ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ أي بشيراً بالوعد الحق ونذيراً بالوعيد الحق . ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ ﴾ أهل عصر . ﴿ إِلاَّ خَلاَ ﴾ مضى . ﴿ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ من نبي أو عالم ينذر عنه ، والاكتفاء بذكره للعلم بأن النذارة قرينة البشارة سيما وقد قرن به من قبل ، أو لأن الإِنذار هو الأهم المقصود من البعثة .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ بالمعجزات الشاهدة على نبوتهم . ﴿ وبالزبر ﴾ كصحف إبراهيم عليه السلام . ﴿ وبالكتاب المنير ﴾ كالتوراة والإِنجيل على إرادة التفصيل دون الجمع ، ويجوز أن يراد بهما واحد والعطف لتغاير الوصفين .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الذين كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكار بالعقوبة .

(156/643)

---

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السماء مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ أجناسها وأصنافها على أن كلا منها ذو أصناف مختلفة ، أو هيئاتها من الصفرة والخضرة ونحوهما .

﴿ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ ﴾ أي ذو جدد أي خطط وطرائق يقال جدة الحمار للخطة السوداء على ظهره ، وقرئ "جُدَدٌ" بالضم جمع جديدة بمعنى الجدة و"جُدَدٌ" بفتحتين وهو الطريق الواضح . ﴿ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلوانها ﴾ بالشدة والضعف . ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ عطف على ﴿ بِيْضٌ ﴾ أو على ﴿ جُدَدٌ ﴾ كأنه قيل : ومن الجبال ذو جدد مختلفة اللون ومنها ﴿ غرابيب ﴾ متحدة اللون ، وهو تأكيد مضمر يفسره ما بعده فإن الغربيب تأكيد للأسود ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد ونظير ذلك في الصفة قول النابغة :

وَالمُؤْمِنُ العَائِذَاتُ الطَّيْرُ يَمْسَحُهَا . . . وفي مثله مزيد تأكيد لما فيه من التكرير باعتبار الإضمار والإظهار .

﴿ وَمِنَ الناس والدواب والأنعام مُخْتَلِفٌ أَلوانه كَذَلِكَ ﴾ كاختلاف الثمار والجبال . ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ إذ شرط الخشية معرفة المخشي والعلم بصفاته وأفعاله ، فمن كان أعلم به كان أخشى منه ولذلك قال عليه الصلاة والسلام " إني أخشاكم لله وأتقاكم له " ولذلك أتبعه بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته ، وتقديم المفعول لأن المقصود حصر الفاعلية ولو أخر انعكس الأمر . وقرئ برفع اسم الله ونصب العلماء على أن الخشية مستعارة للتعظيم فإن المعظم يكون مهيباً . ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالته على أنه معاقب للمصر على طغيانه غفور للتائب عن عصيانه .

﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ كتاب الله ﴾ يداومون على قراءته أو متابعة ما فيه حتى صارت سمة لهم وعنواناً ، والمراد بكتاب الله القرآن أو جنس كتب الله فيكون ثناء على المصدقين من الأمم بعد اقتصاص حال المكذبين . ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّا وَعَلاَنِيَةً ﴾ كيف اتفق من غير قصد إليهما . وقيل السر في المسنونة والعلانية في المفروضة . ﴿ يَرْجُونَ تجارة ﴾ تحصيل ثواب الطاعة وهو خبر إن . ﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ لن تكسد ولن تهلك بالخسران صفة للتجارة وقوله :

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ علة لمدلوله أي ينتفي عنها الكساد وتنفق عند الله ليوفيهم بنفاقها أجور أعمالهم ، أو لمدلول ما عد من امتثالهم نحو فعلوا ذلك ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ ﴾ أو عاقبة ل ﴿ يَرْجُونَ ﴾ . ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ على ما يقابل أعمالهم . ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ لفرطاتهم . ﴿ شَكُورٍ ﴾ لطاعاتهم أي مجازيهم عليها ، وهو علة للتوفية والزيادة أو خبر إن ويرجون حال من واو وأنفقوا .

﴿ والذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾ يعني القرآن و ﴿ مِنْ ﴾ للتبيين أو الجنس و ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض . ﴿ هُوَ الحق مُصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أحقه مصدقاً لما تقدمه من الكتب

السماوية حال مؤكدة لأن حقيته تستلزم موافقته إياه في العقائد وأصول الأحكام.

﴿ إِنَّ الله بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ عالم بالبواطن والظواهر فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوة لم يوح إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب، وتقديم الخبير للدلالة على أن العمدة في ذلك الأمور الروحانية.

(158/643)

---

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب ﴾ حكمنا بتوريثه منك أو نورثه فعبر عنه بالماضي لتحققه، أو أورثناه من الأمم السالفة، والعطف على ﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ ﴾ ﴿ والذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ اعتراض لبيان كيفية التوريث. ﴿ الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ يعني علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم، أو الأمة بأسرهم فإن الله اصطفاهم على سائر الأمم ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لّنَفْسِهِ ﴾ بالتقصير في العمل به. ﴿ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ يعمل به في غالب الأوقات. ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات بِإِذُنِ الله ﴾ بضم التعليم والإرشاد إلى العمل، وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم. وقيل الظالم المجرم والمقتصد الذي خلط الصالح بالسيء والسابق الذي ترجحت حسناته بحيث صارت سيئاته مكفرة، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام " أما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب،

وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون في طول المحشر ثم يتلقاهم الله برحمته " وقيل الظالم الكافر على أن الضمير للعباد ، وتقديمه لكثرة الظالمين ولأن الظلم بمعنى الجهل والركون إلى الهوى مقتضى الجبلة والاقتصاد والسبق عارضان . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفضل الكبير ﴾ إشارة إلى التوريث أو الاصطفاء أو السبق .



---

﴿ جنات عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ مبتدأ وخبر والضمير للثلاثة أو ل ﴿ الذين ﴾ أو لل ﴿ مُّقْتَصِدٌ ﴾ وال ﴿ سَابِقٌ ﴾ ، فإن المراد بهما الجنس وقرىء "جنة عدن" و ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ منصوب بفعل يفسره الظاهر ، وقرأ أبو عمرو "يَدْخُلُونَهَا" على البناء للمفعول . ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ خبر ثان أو حال مقدرة ، وقرىء "يُحَلَّوْنَ" من حليت المرأة فهي حالية . ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ ﴿ مِنْ ﴾ الأولى للتبعيض والثانية للتبيين . ﴿ وَلُؤْلُؤاً ﴾ عطف على ﴿ ذَهَبَ ﴾ أي ﴿ مّن ذَهَبٍ ﴾ مرصع باللؤلؤ ، أو ﴿ مّن ذَهَبٍ ﴾ في صفاء اللؤلؤ ونصبه نافع وعاصم رحمهما الله تعالى عطفاً على محل ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ . ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ .

﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ همهم من خوف العاقبة، أو همهم من أجل المعاش وآفاته أو من وسوسة إبليس وغيرها، وقرىء ﴿ الحزن ﴾. ﴿ وَإِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ ﴾ للمذنبين. ﴿ شَكُورٌ ﴾ للمطيعين.

﴿ الذى أَحَلَّنَا دَارَ المقامة ﴾ دار الإقامة. ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ من إنعامه وتفضله إذ لا واجب عليه. ﴿ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ تعب. ﴿ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ كلال إذ لا تكليف فيها ولا كد، أتبع نفي النصب نفي ما يتبعه مبالغة.

﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ ﴾ لا يحكم عليهم بموت ثان. ﴿ فَيَمُوتُواْ ﴾ فيتسريحوا، ونصبه بإضمار أن، وقرىء "فيموتون" عطفاً على ﴿ يقضى ﴾ فقوله تعالى: ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ ﴿ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مّنْ عَذَابِهَا ﴾ بل كلما خبت زيد إسعارها. ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الجزاء. ﴿ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ مبالغ في الكفر أو الكفران، وقرأ أبو عمرو "يجزى" على بناء المفعول وإسناده إلى ﴿ كُلٌّ ﴾، وقرى "يجازي".

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ يستغيثون يفتعلون من الصراخ وهو الصياح استعمل في الاستغاثة لجهر المستغيث صوته . ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صالحا غَيْرَ الذى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ بإضمار القول وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به ، والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه وأنهم كانوا يحسبون أنه صالح والآن تحقق لهم خلافه . ﴿ أَوَلَمْ نُعَمّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النذير ﴾ جواب من الله وتوبيخ لهم و﴿ مَّا يَتَذَكَّرُ ﴾ فيه متناول كل عمر يمكن المكلف فيه من التفكر والتذكر ، وقيل ما بين العشرين إلى الستين . وعنه عليه الصلاة والسلام " العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة " والعطف على معنى ﴿ أَوَلَمْ نُعَمّرْكُمْ ﴾ فإنه للتقرير كأنه قال : عمرناكم وجاءكم النذير وهو النبي صلى الله عليه وسلم أو الكتاب ، وقيل العقل أو الشيب أو موت الأقارب . ﴿ فَذُوقُواْ فَمَا للظالمين مِن نَّصِيرٍ ﴾ يدفع العذاب عنهم .

﴿ إِنَّ الله عالم غَيْبِ السموات والأرض ﴾ لا يخفى عليه خافية فلا يخفى عليه أحوالهم .

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ تعليل له لأنه إذا علم مضمرات الصدور وهي أخفى ما يكون كان أعلم بغيرها .

﴿ هُوَ الذى جَعَلَكُمْ خلائف فِى الأرض ﴾ ملقى إليكم مقاليد التصرف فيها ، وقيل خلفاً بعد خلف جمع خليفة والخلفاء جمع خليف . ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ جزاء كفره . ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً

﴾ بيان له ، والتكرير للدلالة على عن اقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين مستقل باقتضاء قبحه ووجوب التجنب عنه ، والمراد بالمقت وهو أشد البغض مقت الله وبالخسار خسار الآخرة .

(161/643)

---

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ يعني آلهتهم والإضافة إليهم لأنهم جعلوهم شركاء الله أو لأنفسهم فيما يملكونه .

﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ بدل من ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ بدل الاشتمال لأنه بمعنى أخبروني كأنه قال : أخبروني عن هؤلاء الشركاء أروني أي جزء من الأرض استبدوا بخلقه . ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السموات ﴾ أم لهم شركة مع الله في خلق السموات فاستحقوا بذلك شركة في الألوهية ذاتية . ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَاباً ﴾ ينطق على أنا اتخذناهم شركاء .

﴿ فَهُمْ على بَيّنَةٍ مّنْهُ ﴾ على حجة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة جعلية ، ويجوز أن يكون هم للمشركين كقوله تعالى : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سلطانا ﴾ وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر والكسائي "على بينات" فيكون إيماء إلى أن الشرك خطير لا بد فيه من تعاضد الدلائل . ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ الظالمون بَعْضُهُم إِلاَّ غُرُوراً ﴾ لما نفى أنواع الحجج في ذلك

أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه وهو تغرير الأسلاف الأخلاف، أو الرؤساء الأتباع بأنهم شفعاء عند الله يشفعون لهم بالتقرب إليه.

﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السموات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ كراهة أن تزولا فإن الممكن حال بقائه لا بد له من حافظ، أو يمنعهما أن تزولا لأن الإمساك منع. ﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ ﴾ ما أمسكهما. ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ من بعد الله أو من بعد الزوال، والجملة سادة مسد الجوابين ومن الأولى زائدة والثانية للابتداء. ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ حيث أمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدا هداً كما قال تعالى: ﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض. ﴾

(162/643)

---

﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أيمانهم لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أهدى مِنْ إِحْدَى الأمم ﴾ . وذلك أن قريشاً لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا: لعن الله اليهود والنصارى لو أتانا رسول لنكونن ﴿ أهدى مِنْ إِحْدَى الأمم ﴾ ، أي من واحدة من الأمم اليهود والنصارى وغيرهم، أو من الأمة التي يقال فيها هي ﴿ إِحْدَى الأمم ﴾ تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة. ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ يعني محمداً عليه الصلاة

والسلام . ﴿ مَّا زَادَهُمْ ﴾ أي النذير أو مجيئه على التسبب . ﴿ إِلاَّ نُفُورًا ﴾ تباعداً عن الحق .

﴿ استكبارا فِى الأرض ﴾ بدل من نفوراً أو مفعول له . ﴿ وَمَكْرَ السيىء ﴾ أصله وإن مكروا المكر السيء فحذف الموصوف استغناء بوصفه ، ثم بدل أن مع الفعل بالمصدر ، ثم أضيف . وقرأ حمزة وحده بسكون الهمزة في الوصل . ﴿ وَلاَ يَحِيقُ ﴾ ولا يحيط . ﴿ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ وهو الماكر وقد حاق بهم يوم بدر ، وقرىء ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر ﴾ أي ولا يحيق الله . ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ ﴾ ينتظرون . ﴿ إِلا سُنَّتُ الأولين ﴾ سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم . ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَحْوِيلاً ﴾ إذ لا يبدلها بجعله غير التعذيب تعذيباً ولا يحولها بأن ينقله من المكذبين إلى غيرهم ، وقوله :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ استشهاد علم بما يشاهدونه في مسايرهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار الماضين . ﴿ وَكَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِن شَىْءٍ ﴾ ليسبقه ويفوته . ﴿ فِي السموات وَلاَ فِى الأرض إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً ﴾ بالأشياء كلها . ﴿ قَدِيراً ﴾ عليها .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الناسَ بِمَا كَسَبُوا ﴾ من المعاصي . ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا ﴾ ظهر الأرض ﴿ مِن دَابَّةٍ ﴾ من نسمة تدب عليها بشؤم معاصيهم ، وقيل المراد بالدابة الإنس وحده لقوله : ﴿ ولكن يُؤَخِرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ هو يوم القيامة . ﴿ فَإذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾ فيجازيهم على أعمالهم .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة : أن أدخل من أي باب شئت " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 415.424 ﴾

(164/643)

---

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾

التفسير : لما بين دلائل الوحدانية بطريق الإخبار ذكر دليلاً آخر بطريق الاستخبار لأن الشيء إذا كان خفياً ولا يراه من بحضرتك كان معذوراً ، أما إذا كان بارزاً مكشوفاً فإنك تقول : أما تراه . والمخاطب إما كل أحد أو النبي صلى الله عليه وسلم لأن السيد إذا نصح بعض العباد ولم ينفعهم الإرشاد قال لغيره . اسمع ولا تكن مثل هذا ويكرر معه ما ذكره مع الأول . والالتفات في ﴿ فأخرجنا ﴾ لأن نزول الماء يمكن أن يقال : إنه بالطبع ولكن

الإخراج لا يمكن إلا بإرادة الله . وأيضاً الإخراج أتم نعمة من الإنزال لأن إنزال المطر لفائدة الإخراج. واختلاف ألوان الثمرات اختلاف " أصنافها أو هيئاتها ، والجدد الخطط ، والطرائق " فعلة " بمعنى " مفعول " والجد القطع. قال جار الله : لا بدّ من تقدير مضاف أي ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر مختلف ألوانها في البياض والحمرة ، لأن الأبيض قد يكون على لون الجص وقد يكون أدنى من ذلك ، وكذلك الحمرة . والغرابيب تأكيد للسود إلا أنه أضمر المؤكد أوّلاً ثم أظهر ثانياً على طريقة قوله :

والمؤمن العائذات الطير . . . وإنما لم يتصوّر اختلاف الألوان ههنا لأن السواد إذا كان في الغاية لم يكن بعدها لون .

(165/643)

---

يقال : أسود غربيب للذي أبعد في السواد وأغرب فيه ومنه الغراب . ويمكن أن يقال : إن المختلف صفة الحمر فقط . وحين فرغ من دلائل النبات وما يشبه المعادن شرع في الاستدلال بالحيوان ، وقدّم الإنسان لشرفه ، ثم ذكر الدواب على العموم ، ثم خصص الأنعام ، أو أراد بالدابة الفرس فجعله لشرفه رديف الإنسان . وقوله ﴿ مختلف ﴾ اي بعض مختلف ﴿ ألوانه ﴾ وذكر الضمير تغليباً للإنسان أو نظراً إلى البعض . وقوله ﴿

كذلك ﴾ أي كاختلاف الجبال والثمرات ، وفيه ن هذه الأجناس كما أنها في أنفسها دلائل فهي باختلافها أيضاً دلائل . وحين خاطب نبيه بقوله ﴿ ألم تر ﴾ بمعنى ألم تعلم أتبعه قوله ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ كأنه قال : إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك ممن نظر في دلائله فعرفه حق معرفته ، أو أراد أن يعرّفه كنه معرفته لأن الخشية على حسب العلم بنعوت كماله وصفات جلاله . وفي الحديث " أعلمكم بالله أشدّكم خشية له " وفائدة تقديم المفعول أن يعلم أن الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم ، ولو أخر المفعول كان معنى صحيحاً وهو أنهم لا يخشون أحداً إلا الله إلا أن ذلك غير مراد ههنا .

وعن عمر بن عبد العزيز ويحكى عن أبي حنيفة قرءا برفع الله ونصب العلماء فتكون الخشية مستعارة للتعظيم اي لا يعظم الله ولا يجل من الرجال إلا العلماء به . ثم بين السبب الباعث على الخشية بقوله ﴿ إن الله عزيز غفور ﴾ فالعزة توجب الخوف من أليم عقابه والمغفرة توجب الطمع في نعيمه وثوابه ، وفيه أن خوف المؤمن ينبغي أن يكون مخلوطاً برجائه . ثم مدح العالمين العاملين بقوله ﴿ إن الذين يتلون ﴾ الآية . قال أهل التحقيق : قوله ﴿ إنما يخشى الله ﴾ إشارة إلى عمل القلب ، وقوله ﴿ إن الذين يتلون ﴾ أي يداومون على التلاوة إشارة إلى عمل اللسان . وقوله ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ إشارة إلى عمل الجوارح ، والكل أقسام التعظيم لأمر الله .

ثم اشار إلى الشفقة على خلق الله بقوله ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ وقوله ﴿ يرجون ﴾ وهو خبر " إن " إشارة إلى الإخلاص في العقائد والأعمال أي نفقون من الأموال لا ليقال إنه كريم أو لغرض آخر بل لتجارة لا كساد فيها ولا بوار وهي طلب مرضاة الله . ؟ وقوله ﴿ ليوفيهم ﴾ متعلق ب ﴿ لن تبور ﴾ أي تنفق عند الله ليوفيهم بنفاقها عنده أجورهم . وجوّز جار الله أن يجعل ﴿ يرجون ﴾ في موضع الحال واللام متعلق بالأفعال المتقدّمة اي فعلوا جميع ما ذكر من التلاوة والإقامة والإنفاق لغرض التوفية . وخبر " إن " قوله ﴿ إنه غفور ﴾ لهم ﴿ شكور ﴾ لأعمالهم . وحين ذكر دلائل الوحدانية أتبعه بيان الرسالة وذكر حقيقة الكتاب المتلوّ والكتاب للجنس ف " من " للتبعيض أو هو القرآن ، و " من " للتبيين أو هو اللوح المحفوظ و " من " للابتداء وقد مرّ في البقرة أن قوله ﴿ مصدقاً ﴾ حال مؤكدة .



وفي قوله ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ تقرير لكونه حقاً لأن الذي يكون عالماً بالبواطن والظواهر لم يمكن أن يكون في كلامه شوب باطل . وفيه لم يختر محمداً للرسالة جزافاً وعلى

سبيل الاتفاق ولكنه أعلم حيث يجعل رسالته. قوله ﴿ ثم أورثنا الكتاب ﴾ زعم جمع من المفسرين أن الكتاب للجنس بدليل قوله فيما قبل ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر ﴾ والإيراث الإعطاء، والمصطفون من عبيده هم الأنبياء كأنه قال: علمنا البواطن وابصرنا الظواهر فاصطفينا عباداً ثم أورثناهم الكتاب. وعلى هذا فالمراد بالظلم على النفس وضع الشيء في غير موضعه وإن كان بترك الأولى ومنه قول ابينا آدم ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ [الأعراف: 23] وقوله يونس ﴿ إني كنت من الظالمين ﴾ [الأنبياء: 87] وإذا كان الظلم بهذا المعنى جائزاً عليهم فالاقتصاد أولى. ويجوز أن يعود الضمير في قوله ﴿ فمنهم ﴾ إلى الأمة كأنه قيل: إن الذي أوحينا إليك هو الحق وأنت المصطفى كما اصطفينا رسلنا، وآتيناهم كتباً فمن قومك ظالم كفر بك وبما أنزل إليك، ومقتصد آمن به ولم يأتِ بجميع ما أمر به، وسابق آمن وعمل صالحاً. وقال أكثرهم: إنه القرآن والإيراث الحكم بالتوريث أو هو على عادة إخبار الله في التعبير عن المستقبل بالماضي لتحققه أي نريد أن نورثه. والمصطفون هم الصحابة والتابعون ومن بعدهم إلى يوم القيامة كقوله ﴿ كنتم خير أمة ﴾ [آل عمران: 110] ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ [البقرة: 143] وعلى هذا ففي تفسير المراتب الثلاثة أقوال أحدها: الظالم الراجح السيئات، والمقتصد المتساوي الحسنات والسيئات، والسابق راجح الحسنات. ثانيها الظالم من ظاهره خير من باطنه، والمقتصد المتساوي، والسابق من باطنه خير. ثالثها: الظالم

صاحب الكبيرة ، والمقتصد صاحب الصغيرة ، والسابق المعصوم . رابعها : عن علي رضي الله عنه : الظالم أنا ، والمقتصد أنا ، والسابق أنا . فقيل له : كيف ذاك ؟ قال : أنا ظالم



---

بمعصيتي ، ومقتصد بتوبتي ، وسابق بمحبتي . خامسها : الظالم التالي للقرآن غير العالم به ولا العامل بموجبه ، والمقتصد التالي العالم غير العامل ، والسابق التالي العامل سادسها : الظالم الجاهل ، والمقتصد المتعلم ، والسابق العالم . سابعها : الظالم من يحاسب فيدخل النار وهو أصحاب المشأمة ، والمقتصد من يحاسب فيدخل الجنة وهو اصحاب الميمنة ، والسابق من يدخل الجنة بغير حساب ، ثامنها : الظالم من خالف أوامر الله وارتكب مناهيه فإنه واضع للتكليف في غير موضعه ، والمقتصد هو المجتهد في أداء التكاليف وإن لم يوفق لذلك فإنه قصد الحق واجتهد ، والسابق هو الذي لم يخالف تكاليف الله بتوفيقه دليله قوله في الأخير ﴿ بإذن الله ﴾ وذلك أنه إذا وقع الخير في نفسه سبق إليه قبل تسويل النفس ، والمقتصد يقع في قلبه فتردّده النفس ، والظالم تغلبه النفس .

وبعبارة أخرى من غلبته النفس الأمارة وأمرته فأطاعها ظالم ، ومن جاهد نفسه فغلبته تارة غلب أخرى فهو المقتصد صاحب النفس اللوامة ، ومن قهر نفسه فهو السابق . وفي تقديم الظالم ثم المقتصد إيذان بأن المقتصدين أكثر من السابقين والظالمون أكثر الأقسام كما قال ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ [ سبأ : 13 ] ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكر من التوفيق أو من السبق بالخيرات أو من الإيراث ﴿ هو الفضل الكبير ﴾ قال جار الله : أبدل قوله ﴿ جنات عدن ﴾ من الفضل لأنها مسببة عنه وكأنها هو . قلت : ويمكن أن يقال ﴿ جنات عدن ﴾ مبتدأ لأنها معرفة بدليل قوله ﴿ جنات عدن التي وعد الرحمن ﴾ [ مريم : 61 ] ولئن سلم أنها نكرة فليكن ﴿ يدخلونها ﴾ صفة له وخبرها ﴿ يحلون ﴾ ثم إن ضمير ﴿ يدخلون ﴾ إن عاد إلى التالين لكتاب الله أو إلى السابقين فلا إشكال ؛ فالظالم يدخل النار والمقتصد يكون أمره موقوفاً كقوله ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله ﴾ [ التوبة : 106 ] أو كقوله ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ وإن عاد إلى الفرق الثلاث فبشرط العفو أو بشرط التوبة ، وقد يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له " وفي تقديم ﴿ جنات عدن ﴾ وبناء الكلام عليها دون أن يقول " يدخلون جنات عدن " إيذان بأن الاهتمام بشأنها أكثر فإن نظر السامع على المدخول فيه لا على نفس الدخول . وقد مرت العبارة الاصلية في

سورة الحج في قوله ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات ﴾ [ الآية : 23 ] إلى قوله ﴿ حرير ﴾ [ الآية : 23 ] وتغيير العبارة في هذا المقام لمزيد هذه الفائدة والله أعلم . وفي قوله ﴿ يحلون فيها ﴾ إشارة إلى سرعة الدخول فإن في تحليتهم خارج الجنة تأخيراً للدخول . وفي تحليتهم بالسوار إشارة إلى أمرين : أحدهما الترفه والتنعم ، الثاني أنهم لا يحتاجون فيها إلى عمل من الصبخ وتهيئة سائر الأسباب . قال جار الله : أي يحلون بعض



---

أساور من ذهب كأنه بعض سابق لسائر الأبعاض كما سبق المسوّرون به غيرهم ، والذهب واللؤلؤ إشارة إلى النوعين اللذين منهما الحليّ . وقيل : إن ذلك الذهب في صفاء اللؤلؤ ، والحزن للجنس فيعم كل حزن من أحزان الدنيا والدين كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في محشرهم وكأني بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن وجوههم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن " وقد خصه جمع من المفسرين بخوف سوء العاقبة أو بحزن الآفات أو بحزن الموت أو بهمّ المعاش حتى قال بعضهم : كراء الدار والتعميم أولى .

والمقامة بمعنى الإقامة والفضل التفضل . وعند المعتزلة العطاء لأن الثواب أجر مستحق

واجب عندهم . والنصب التعب والمشقة التي تصيب المزاول للأمر المنتصب له .

واللغوب ما يلحقه من الفتور والكلال بعد ذلك قاله جار الله .

وقال غيره : إن الذي يباشر عملاً من الأعمال لا يظهر عليه الإعياء إلا بعد أن يستريح ، فالمراد أنهم لا يخرجون من الجنة إلى موضع يتعبون بسبب ذلك ثم يلحقهم الإعياء بعد الرجوع .

(171/643)

---

ثم عطف قوله ﴿ والذين كفروا ﴾ على قوله ﴿ إن الذين يتلون ﴾ وقوله ﴿ فيموتوا ﴾ جواب للنفي والتقدير لا يقضي عليهم بالموت فيستريحوا و ﴿ يصطرخون ﴾ يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد وشدّة كشأن المستغيث . وفائدة قوله ﴿ غير الذي كنا نعمل ﴾ زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح ، أو المراد نعمل صالحاً غير الذي كنا نحسبه صالحاً لأنهم كانوا يحسبون أنهم يحسنون . وفيه إشارة إلى أنهم في الآخرة أيضاً ضالون لم يهدهم الله في الآخرة كما لم يهدهم في الدنيا ، ولو كانوا مهتدين لقالوا : ربنا زدت للمحسنين حسنات بفضلك لا بعملهم ونحن أحوج إلى تخفيف العذاب منهم إلى تضعيف

الثواب فافعل بنا ما أنت أهله نظراً إلى فضلك ، ولا تفعل بنا ما نحن أهله نظراً إلى عدلك ، وانظر إلى مغفرتك الهاطلة ولا تنظر إلى معذرتنا الباطلة . وهذا بخلاف حال المؤمن هداه في العقبى كما هداه في الدنيا حتى دعاه بأقرب دعاء إلى الإجابة ، وأثنى عليه بأطيب ثناء عند الإنابة فقالوا ﴿ الحمد لله ﴾ وقالوا ﴿ إن ربنا لغفور ﴾ اعترافاً بتقصيرهم ﴿ شكور ﴾ إقراراً بوصول ما لم يخطر ببالهم إليهم وأحالوا الكل إلى فضله تصريحاً بأنه لا عمل لهم بالنسبة إلى بحار نعمه . قوله ﴿ أولم نعمركم ﴾ استفهام فيه توبيخ وإفحام وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه إلا أن التوبيخ في العمر الطويل أعظم . عن النبي صلى الله عليه وسلم " العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة " وروي " من جاوز الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار " وعن مجاهد : ما بين العشرين إلى الستين . وقيل : ثماني عشرة وسبع عشرة . وقوله ﴿ وجاءكم ﴾ معطوف على المعنى كأنه قيل : قد عمرناكم وجاءكم ﴿ النذير ﴾ وهو النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : الشيب . فبين بالجملتين أن القابل موجود والفاعل حاصل ، فالعذر غير مقبول ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ فما للظالمين ﴾ الذين وضعوا أعمالهم في غير موضعها وأتوا

بالمعذرة في غير وقتها ﴿ من نصير ﴾ نفى الأنصار والناصرين في آخر "آل عمران" وفي "الروم" ووحد ههنا كأنهم في النار قد أيسوا من كثير ممنم كانوا يتوقعون منهم النصرة إلا من نصير واحد وهو الله سبحانه. ثم كان لسائل أن يسال: ما بال الكافر يعذب ابداً وإنه ما كفر إلا اياماً معدودة فلاجرم قال ﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض ﴾ فكان يعلم من الكافر أن الكفر قد تمكن في قلبه بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله ولا عبده.

(173/643)

---

وذات الصدور صواحباتها من الظنون والعقائد فذو موضوع لمعنى الصحبة، فالصدور ذات العقائد والعقائد ذات الصدور باعتبار أنها تصحبها. وحين ذكرهم بما مر من أنه سوف يوبخهم بالتعمير وإيتاء العقول وإرسال من يؤيد المعقول بالمنقول وعظهم بأنه ﴿ هو الذي جعلكم ﴾ وفقد العاطف هنا خلاف ما في آخر "الأنعام" للعدول عن خطاب أهل الآخرة إلى خطاب أهل الدنيا. وقال ههنا ﴿ خلائف في الأرض ﴾ بزيادة "في" المفيدة لتمكن المظروف في الظرف لأجل المبالغة والترقي من الأدنى إلى الأعلى كأنه قيل: أمهلتهم وعمرتم وأمرتم على لسان الرسل بما أمرتم وجعلتم خلفاء الهالكين الماضين فأصبحتم بحالهم راضين ﴿ فمن كفر ﴾ بعد هذا كله ﴿ فعليه ﴾ وبال ﴿ كفره ولا يزيد الكافرين

كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ﴾ لأن الكافر السابق ممقوت واللاحق الذي أنذروه الرسول ولم

ينتبه أمقت لأنه رأى عذاب من تقدّمه ولم ينتبه ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا ﴾

فإن العمر كرأس مال من اشترى به رضا الله ربح ومن اشترى به سخطه خسر . ثم وبخ

أهل الشرك بقوله ﴿ قل أرأيتم ﴾ وأبدل منه ﴿ أروني ﴾ كأنه قال : أخبروني عن هؤلاء

الشركاء ، أروني أيّ جزء من أجزاء الأرض استبدّوا بخلقه ﴿ أم لهم ﴾ مع الله ﴿ شرك

في ﴾ خلق ﴿ السموات ﴾ أم معهم أو مع عابديهم كتاب من عند الله فهم على برهان من

ذلك الكتاب . والإضافة في ﴿ شركائكم ﴾ لملابسة العبادة ، أو المراد كونهم شركاءهم

في النار كقوله ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ [ الأنبياء : 98 ] ﴿

بل إن يعد الظالمون بعضهم ﴾ وهم الرؤساء ﴿ بعضاً ﴾ وهم الأتباع ﴿ إلا غروراً ﴾

وهو قولهم ﴿ هؤلاء شفعاؤنا ﴾ [ يونس : 18 ] وحين بين عجز الأصنام أراد أن يبين

كمال القدرة فقال ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض ﴾ أي يمنعهما من ﴿ أن تزولاً ﴾

أو كراهة زوالهما عن مقرهما ومركزهما ، ولو فرض زوالهما بأمر الله فلن يمسكهما أحد

من بعد زوالهما أو من بعد الله . وقيل

: أراد أنهما كانتا جديرتين بأن تهدّ هدّاً لعظم كلمة الشرك كقوله ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ [ مريم : 90 ] يؤيد هذا الوجه قوله ﴿ إنه كان حليماً ﴾ غير معاجل بالعقوبة ﴿ غفوراً ﴾ لمن تاب من الشرك . قال المفسرون : بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى أتتهم رسلهم فكذبوا فوالله لئن أتانا رسول لكنا أهدى . وزيف هذا النقل بأن المشركين كانوا منكرين للرسالة والحشر فكيف اعترفوا بأن اليهود والنصارى جاءهم رسل . سلمنا لكنهم كيف عرفوا تكذيب اليهود وتحريفهم ولم يأتهم رسول ولا كتاب ؟ فالوجه الصحيح في سبب النزول أنهم كانوا يقولون : لو جاءنا رسول لم ننكره وإنما ينكرون كون محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً لأنه كاذب ، ولو صح كونه رسولاً لآمنا . وقوله ﴿ من إحدى الأمم ﴾ ليس للتفضيل بل المراد أنا نكون أهدى مما نحن عليه ونكون من إحدى الأمم كقولك : زيد من المسلمين .

*(175/643)*

---

أو هو للتفضيل والأمم لتعريف العهد أي أمة محمد وموسى وعيسى عليهم السلام ، أو للعموم أي أهدى من ايّ أمة تفرض ويقال فيها إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة . ﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم الذي صح

لهم نذارته بالمعجزات الباهرة ﴿ ما زادهم ﴾ هو أو مجيئه ﴿ إلا نفوراً ﴾ كأنه صار سبباً في نفارهم عن الحق عناداً وكبراً فانتصب ﴿ استكباراً ﴾ على أنه مفعول لأجله أو حل ويجوز أن يون بدلاً من ﴿ نفوراً ﴾ وقوله ﴿ ومكر ﴾ من إضافة المصدر إلى صفة معموله أصله وأن مكروا السيء أي المكر السيء ، والمكر هو مكرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم من الهّم بالقتل والإخراج وقد حاق بهم يوم بدر ، أو هو عام وعاقبة الماكر وخيمة يصل إليه جزاؤه عاجلاً أو آجلاً .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً فإن الله يقول ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله " وفي أمثالهم " من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكباً " . وفي قوله ﴿ بأهله ﴾ دون أن يقول " إلا بالماكر إشارة إلى أن الرضا بالمكر والإعانة عليه كهو فيندرج مصاحبه في زمرة أهل المكر . وقوله ﴿ سنة الأوّلين ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول . وقوله ﴿ سنة الله ﴾ من إضافته إلى الفاعل والمراد بها إنزال العذاب على أمثالهم من مكذبي الرسل ، جعل استقبالهم لذلك واستعجالهم إياه انتظاراً له منهم . والتبديل تغيير الصورة مع بقاء المادة ، والتحويل نقل الشيء من مكان إلى مكان آخر . خص هذه السورة بالجمع بين الوصفين لأن كثيراً من أحوال الكفرة جاءت ههنا مثناة كقوله ﴿ ولا يزيد الكافرين ﴾ إلى قوله ﴿ إلا خساراً ﴾ وكقوله ﴿ إلا نفوراً استكباراً في الأرض ومكر السيء ﴾ ويحتمل أن يريد بسنة الأوّلين استمرارهم على الإنكار كأنه قال : أنتم تريدون

الإتيان بسنة الأوّلين والله يأتي بسنة لا تبدل . العذاب المعلوم بنوع آخر ولا تحوّله عن مستحقيه إلى من لا يستحقه . ثم أمرهم بالسير



---

وذكرهم ما رأوه في مسايرهم ومتاجرهم إلى الشام والعراق واليمن من آثار الهالكين الأقدمين مع وفور قوّتهم وكثرة شوكتهم . ثم بين كمال علمه ونهاية قدرته على اتصال أصناف الاستحقاقات بقوله ﴿ وما كان الله ليعجزه ﴾ أي ليسبقه ويفوته شيء . ثم ختم السورة بما يدل على غاية حلمه وهو أنه لا يؤاخذ الناس بكل جرم ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ هو القيامة وهو يومئذ أعلم بأحوالهم علماً عياناً فيجزي كلاً بحسب علمه ، وقد مر مثل الآية في سورة النحل . وقيل : الأجل هو يوم لا يوجد في الخلق من يؤمن أو حين يجتمع الناس على الضلال والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 515 . 521 ﴾



---

وقال الخطيب الشربيني :

ولما اختص تعالى بالملك ونفى عن شركائهم النفع أنتج ذلك قوله تعالى:

﴿ يا أيها الناس ﴾ أي : كافة ﴿ أنتم ﴾ أي : خاصة ﴿ الفقراء ﴾ وقوله سبحانه ﴿ إلى الله ﴾ إعلام بأنه لا افتقار إلا إليه ولا اتكال إلا عليه ، وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقر إليه وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار إلى غيره .

فإن قيل : لم عرف الفقراء ؟

أجيب : بأنه قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم ؛ لأن الفقر يتبع الضعف وكلما كان الفقير أضعف كان أحقر ، وقد شهد الله تعالى على الإنسان بالضعف في قوله تعالى ﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ (النساء : )

وقال تعالى ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ﴾ (الروم : )

ولو نكر لكان المعنى : أنتم بعض الفقراء .

قال القشيري : والفقر على ضربين : فقر خلقة ، وفقر صفة فالأول عام ، فكل حادث مفتقر إلى خالقه في أول حال وجوده ليبدئه وينشئه ، وفي ثانيه ليديمه ويبقيه ، وأما فقر الصفة : فهو التجرد وفقر العوام التجرد عن المال ، وفقر الخواص التجرد عن الإعلال فحقيقة الفقر المحمود تجرد السر عن المعلومات .

ولما ذكر العبد بوصفه الحقيقي أتبعه ذكر الخالق باسمه الأعظم فقال : ﴿ والله هو الغني ﴾ أي : المستغني على الإطلاق فلا يحتاج إلى أحد ولا إلى عبادة أحد من خلقه ، وإنما أمرهم بالعبادة لإشفاقه تعالى عليهم ففي هذا رد على المشركين حيث قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إن الله لعله محتاج إلى عبادتنا حتى أمرنا بها أمراً بالغاً وهددنا على تركها مبالغاً ، فإن قيل : قد قابل الفقر بالغنى فما فائدة قوله تعالى ﴿ الحميد ﴾ أي : المحمود في صنعه بخلقه ؟

(178/643)

---

أجيب : بأنه لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم وليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان الغني منعماً جواداً ، وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد ذكر الحميد ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه الجواد المنعم عليهم المستحق بإنعامه أن يحمدوه وقوله تعالى:

﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ أي : جميعاً بيان لغنائه وفيه بلاغة كاملة ؛ لأن قوله تعالى ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ أي : ليس إذهابكم موقوفاً إلا على مشيئته بخلاف الشيء المحتاج إليه فإن المحتاج إلى الشيء لا يقال فيه : إن شاء فلان هدم داره ، وإنما يقال : لولا حاجة السكنى

إلى الدار لبعثها ، ثم إنه تعالى زاد على بيان الاستغناء بقوله تعالى : ﴿ ويأت بخلق جديد ﴾ أي : إن كان يتوهم متوهم أن بهذا الملك كماله وعظمته فلو أذهبه لزال ملكه وعظمته فهو قادر أن يخلق خلقاً جديداً أحسن من هذا وأجمل ، وعن ابن عباس : يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيئاً .

﴿ وما ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم من الإذهاب والإتيان ﴿ على الله ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال خاصة ﴿ بعزيز ﴾ أي : بممتنع ولا شاق وهو محمود عند الإعدام كما هو محمود عند الإيجاد ، فإن قيل : استعمل تعالى العزيز تارة في القائم بنفسه فقال تعالى في حق نفسه ﴿ وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ (الأحزاب : )

وقال في هذه السورة ﴿ عزيز غفور ﴾ (فاطر : )

واستعمله تارة في القائم بغيره فقال تعالى ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ وقال تعالى ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ (التوبة : )

فهل هما بمعنى واحد أو بمعنيين ؟

أجيب : بأن العزيز في اللغة هو الغالب والفعل إذا كان لا يطيقه شخص يقال : هو مغلوب بالنسبة إلى ذلك الفعل فقوله تعالى ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أي : ذلك الفعل لا يغلبه بل هو هيّن على الله تعالى وقوله سبحانه ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ أي : يحزنه ويؤذيه كالشغل الغالب .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ فيه حذف الموصوف للعلم به أي : ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ، فإن قيل : كيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ ؟ (العنكبوت : )

أجيب : بأن تلك الآية في الضالين المضلين فإنهم يحملون أثقال إضلالهم وكل ذلك أوزارهم وليس فيها شيء من أوزار غيرهم . ﴿ وإن تدع ﴾ أي : نفس ﴿ مثقلة ﴾ أي : بالوزر ﴿ إلى حملها ﴾ أي : من الوزر أحداً ليحمل بعضه ﴿ لا يحمل ﴾ أي : من حامل ما ﴿ منه شيء ﴾ أي : لا طواعية ولا كرهاً بل لكل امرئ شأن يغنيه ﴿ ولو كان ﴾ ذلك الداعي أو المدعو للحمل ﴿ ذا قربى ﴾ لمن دعاه .

فإن قيل : ما الفرق بين معنى قوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ ومعنى قوله تعالى ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ﴾ ؟

أجيب : بأن الأول : في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه وأنه لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها ، والثاني : في أن لا غياث يومئذ بمن استغاث حتى أن نفساً قد أثقلتها الأوزار لَوْدَعت إلى أن تخفف بعض وزرها لم تجب ولم تغث ، وإن كان الداعي أو المدعو بعض قرابتها من أب

أو ولد أو أخ قال ابن عباس : يلقى الأب أو الأم ابنه فيقول : يا بني احمل عني بعض ذنوبي فيقول لا أستطيع حسبي ما علي .

تنبيه : أضمر الداعي أو المدعو بدلالة إن تدع عليه .

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسمعهم ذلك فلم ينفعهم نزل ﴿ إنما تنذر ﴾ أي : إنذاراً يفيد الرجوع عن الغي ﴿ الذين يخشون ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم فيوقعون هذا الفعل في الحال ويواطئون عليه في الاستقبال ، ولما كان أولى الناس عقلاً وأعلاهم همة من كان غيبه مثل حضوره قال تعالى ﴿ بالغيب ﴾ وهو حال من الفاعل أي : يخشونه غائبين عنه أو من المفعول أي : غائباً عنهم .

(180/643)

---

ولما كانت الصلاة جامعة للخضوع الظاهر والباطن فكانت أشرف العبادات وكانت إقامتها بمعنى حفظ جميع حدودها في كل حال أدل الطاعات على الإخلاص قال تعالى معبراً بالماضي ؛ لأن مواقيت الصلاة مضبوطة ﴿ وأقاموا ﴾ أي : دليلاً على خشيتهم ﴿ الصلاة ﴾ في أوقاتها الخمسة وما يتبع ذلك من السنن ﴿ ومن تزكى ﴾ أي : تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصي ﴿ فإنما يتزكى لنفسه ﴾ إذ نفعه لها ﴿ وإلى الله ﴾ أي : الذي لا

إله غيره ﴿ المصير ﴾ أي: المرجع كما كان منه المبدأ فيجازي كلاًّ على فعله.

ثم لما بين تعالى الهدى والضلالة وهدى الله تعالى المؤمن ولم يهد الكافر ضرب لهما مثلاً بقوله تعالى:

﴿ وما يستوي الأعمى ﴾ أي: عن الهدى ﴿ والبصير ﴾ بالهدى أي: المؤمن والكافر وقيل: الجاهل والعالم، وقيل: هما مثلاً للصنم ولله تعالى.

﴿ ولا الظلمات ﴾ أي: الكفر ﴿ ولا النور ﴾ أي: الإيمان، أو ولا الباطل ولا الحق.

﴿ ولا الظل ﴾ أي: الجنة ﴿ ولا الحرور ﴾ أي: النار، أو ولا الثواب ولا العقاب.

تنبيه: قال ابن عباس: الحرور الريح الحارة بالليل، والسموم بالنهار وقيل: الحرور تكون بالنهار مع الشمس، وقيل: السموم تكون بالنهار والحرور بالليل والنهار.

وقوله تعالى ﴿ وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ تمثيل آخر للمؤمن والكافر أبلغ من الأول ولذلك كرر الفعل وقيل: للعلماء وللجهال.



---

تنبيه: زيادة لا في الثلاثة لتأكيد نفي الاستواء، وجاء ترتيب هذه المنفيات على أحسن الوجوه، فإنه تعالى لما ضرب الأعمى والبصير مثلين للمؤمن والكافر عقب بما كل منهما فيه

، والكافر في ظلمة والمؤمن في نور ؛ لأن البصير وإن كان حديد البصر لابد له من ضوء يبصر فيه ، وقدم الأعمى ؛ لأن البصير فاصله فحسن تأخيره ، ولما تقدم الأعمى في الذكر ناسب تقديم ما فيه فلذلك قدمت الظلمة على النور ، ولأن النور فاصلة ، ثم ذكر ما لكل منهما فللمؤمن الظل وللكافر الحرور وأخر الحرور لأجل الفاصلة كما مر ، وقولنا : لأجل الفاصلة أولى من قول بعضهم لأجل السجع ؛ لأن القرآن ينبو عن ذلك ، وقد منع الجمهور أن يقال في القرآن سجع .

وإنما كرر الفعل في قوله تعالى ﴿ وما يستوي الأحياء ﴾ مبالغة في ذلك ؛ لأن المنافاة بين الحياة والموت أتّم من المنافاة المتقدمة ، وقدم الأحياء لشرف الحياة ولم يعد لا تأكيداً في قوله تعالى ﴿ الأعمى والبصير ﴾ وكرّرها في غيره ؛ لأن منافاة ما بعده أتم ، فإن الشخص الواحد قد يكون بصيراً ثم يصير أعمى فلا منافاة إلا من حيث الوصف بخلاف الظل والحرور ، والظلمات والنور ، فإنها منافية أبداً لا يجتمع اثنان منها في محل ، فالمنافاة بين الظل والحرور وبين الظلمة والنور دائمة .

فإن قيل : الحياة والموت بمنزلة العمى والبصر فإن الجسم قد يكون متصفاً بالحياة ثم يتصف بالموت ، أجيب : بأن المنافاة بينهما أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير ؛ لأن الأعمى والبصير يشتركان في إدراكات كثيرة ولا كذلك الحي والميت ، فالمنافاة بينهما أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير ؛ لأنه قابل الجنس بالجنس ، وقد يوجد في أفراد العميان من يساوي

بعض أفراد البصراء كأعمى ذكي له بصيرة يساوي بصيراً بليداً فالتفاوت بين الجنسين مقطوع به لا بين الأفراد .



---

وجمع الظلمات ؛ لأنها عبارة عن الكفر والضلال وطرقهما كثيرة متشعبة ووحد النور ؛ لأنه عبارة عن التوحيد وهو واحد ، فالتفاوت بين كل فرد من أفراد الظلمة وبين هذا الفرد الواحد والمعنى : الظلمات كلها لا يوجد فيها ما يساوي هذا الواحد .

ثم نبه سبحانه بقوله تعالى : ﴿ إن الله ﴾ أي : القادر على المفاوتة بين هذه الأشياء وعلى كل شيء بما له من الإحاطة من صفات الكمال ﴿ يسمع من يشاء ﴾ على أن الخشية والقسوة إنما هما بيده تعالى ، وإن الإنذار إنما هو لمن قضى بانتفاعه فيتعظ ويجيب ﴿ وما أنت ﴾ أي : بنفسك من غير إقدار الله تعالى لك ﴿ بمسمع ﴾ أي : بوجه من الوجوه ﴿ من في القبور ﴾ أي : الحسية أو المعنوية إسماعاً ينفعهم بل الله يسمعهم إن شاء ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ (فاطر : )

﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ أنت إلا نذير ﴾ أي : تنبه القلوب الميتة بقوارع الإنذار ولست بوكيل تقهرهم على الإيمان .

ثم بين تعالى أنه ليس نذيراً من تلقاء نفسه إنما هو بإذن الله تعالى وإرساله بقوله تعالى:

﴿ إنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ أرسلناك ﴾ أي : إلى هذه الأمة ﴿ بالحق ﴾ أي : الأمر الكامل في الثبات الذي يطابقه الواقع ، فإن من نظر إلى كثرة ما أوتيه من الدلائل علم مطابقة الواقع لما يأمر به .

تنبيه : يجوز في قوله تعالى : ﴿ بالحق ﴾ أوجه : أحدها : أنه حال من الفاعل أي : أرسلناك محقين ، أو من المفعول أي : محقاً ، أو نعت لمصدر محذوف أي : إرسالاً متلبساً بالحق ويجوز أن يكون صلة لقوله تعالى ﴿ بشيراً ﴾ أي : لمن أطاع ﴿ ونذيراً ﴾ أي : لمن عصى ﴿ وإن ﴾ أي : وما ﴿ من أمة إلا خلا ﴾ أي : سلف ﴿ فيها نذير ﴾ أي : نبي ينذرها .

تنبيه : الأمة : الجماعة الكثيرة قال تعالى ﴿ وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ (القصص : )



---

ويقال لكل أهل عصر أمة ، والمراد ههنا أهل العصر ، فإن قيل : كم من أمة في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يخل فيها نذير ، أجيب : بأن آثار النذارة إذا كانت

باقية لم تخل من نذير إلى أن تندرس وحين اندرست آثار نذارة عيسى عليه السلام بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم فإن قيل: كيف اكتفى بذكر النذير عن البشير في آخر الآية بعد ذكرهما؟

أجيب: بأنه لما كانت النذارة مشفوعة من البشارة لا محالة دلّ ذكرها على ذكرها، لا سيما وقد اشتملت الآية على ذكرهما، أو لأن الإنذار هو المقصود والأهم من البعثة.

﴿ وإن يكذبوك ﴾ أي: أهل مكة ﴿ فقد كذب الذين من قبلهم ﴾ أي: ما أتتهم به رسلهم عن الله تعالى ﴿ جاءتهم ﴾ أي: الأمم الخالية ﴿ رسلهم بالبينات ﴾ أي: الآيات الواضحات والدلالة على صحة الرسالة من المعجزات وغيرها ﴿ وبالزبر ﴾ أي: الأمور المكتوبة كصحف إبراهيم عليه السلام ﴿ وبالكتاب ﴾ أي: جنس الكتاب كالتوراة والإنجيل ﴿ المنير ﴾ أي: الواضح في نفسه الموضح لطريق الخير والشر، كما أنك أتيت قومك بمثل ذلك وإن كانت طريقتك أوضح وأظهر، وكتابك أنور وأبهر وأظهر وأشهر، وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم حيث علم أن غيره كان مثله في تكذيبه وكان محتملاً لأذى القوم.

تنبيه: لما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسناداً مطلقاً وإن كان بعضها في جميعهم وهي البينات وبعضها في بعضهم وهي الزبر والكتاب.

ولما سلاه الله تعالى هدد من خالفه وعصاه بما فعل في تلك الأمم الماضية بقوله تعالى:

﴿ ثم أخذت ﴾ أي : بأنواع الأخذ ﴿ الذين كفروا ﴾ أي : ستروا تلك الآيات المنيرة بعد طول صبر الرسل عليهم الصلاة والسلام عليهم ودعائهم لهم ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي : إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك أي : هو واقع موقعه .

تنبيه : أثبت ورش الياء بعد الراء في الوصل دون الوقف ، والباقون بغير ياء وقفاً ووصلاً .

(184/643)

---

ولما ذكر تعالى الدلائل ولم ينتفعوا قطع الكلام معهم والتفت إلى غيرهم بقوله تعالى:

﴿ ألم تر ﴾ أي : تعلم أي : أيها المخاطب ﴿ أن الله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ كما أن السيد إذا نصح بعض عبيده ولم ينزجر يقول لغيره : اسمع ولا تكن مثل هذا ويكرر ما ذكره للأول ، ويكون فيه إشعار بأن الأول فيه نقيصة لا يصلح للخطاب فيتنبه له ويدفع عن نفسه تلك النقيصة ، وأيضاً فلا يخرج إلى كلام أجنبي عن الأول بل يأتي بما يقاربه ؛ لئلا يسمع الأول كلام الآخر فيترك التفكر فيما كان وقوله تعالى ﴿ فأخرجنا ﴾ أي : بما لنا من القدرة والعظمة ﴿ به ﴾ أي : بالماء ﴿ ثمرات ﴾ أي : متعددة الأنواع ، فيه التفات من الغيبة إلى التكلم وإنما كان ذلك ؛ لأن المنة بالإخراج أبلغ من إنزال الماء وقوله تعالى : ﴿ مختلفاً ﴾ نعت لثمرات وقوله تعالى : ﴿ ألوانها ﴾ فاعل به ،

ولولا ذلك لأنث مختلفاً ، ولكنه لما أسند إلى جمع تكسير غير عاقل جاز تذكيره ، ولو أنث فقيل : مختلفة كما تقول : اختلفت ألوانها لجاز أي : مختلفة الأجناس من الرمان والتفاح والعنب وغيرها مما لا يحصر أو الهيئات من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها ، فالذي قدر على المفاوتة بينها وهي من ماء واحد لا يستبعد عليه أن يجعل الدلائل بالكتاب وغيره نوراً لشخص وعمى لآخر .

(185/643)

---

ولما ذكر تعالى تنوعاً من الماء وقدمه ؛ لأنه الأصل في التكوين أتبعه التكوين من التراب الذي هو أيضاً شيء واحد بقوله تعالى ذاكراً ما هو أصلب الأرض وأبعدها عن قابلية التكوين : ﴿ ومن الجبال جدد ﴾ قال الجلال المحلّي رحمه الله تعالى : جمع جدة : طريق في الجبل وغيره وقال الزمخشري : الجدد الخطوط والطرائق ، وقال أبو الفضل : الجدة ما تخالف من الطرائق لون ما يليها ، ومنه جدة الحمار للخطة السوداء على ظهره ، وقد يكون للظبي جدتان مسكيتان تفصلان بين لوني ظهره وبطنه ﴿ بيض وحمر ﴾ وصفر وقوله تعالى ﴿ مختلف ﴾ صفة لجدد وقوله تعالى ﴿ ألوانها ﴾ فاعل به كما مر في نظيره ، ويحتمل معنيين : أحدهما : أن البياض والحمرة يتفاوتان بالشدة والضعف فرب أبيض أشد

من أبيض وأحمر أشد من أحمر فنفس البياض مختلف وكذا الحمرة ، فلذلك جمع ألوانها فيكون من باب المشكك . والثاني : أن الجدد كلها على لونين بياض وحمرة والبياض والحمرة وإن كانا لونين إلا أنهما جمعا باعتبار محلهما .

وقوله تعالى ﴿ وغرابيب سود ﴾ فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه معطوف على حمر عطف ذي لون على ذي لون . ثانيها : أنه معطوف على بيض . ثالثها : واقتصر عليه الجلال المحلي أنه معطوف على جدد أي : صخور شديدة السواد قال الجلال المحلي : يقال كثيراً : أسود غربيب ، وقليلاً غربيب أسود ، وقال البغوي : أي : سود غرابيب على التقديم والتأخير يقال : أسود غربيب أي : شديد السواد تشبيهاً بلون الغراب أي : طرائق سود ، وعن عكرمة : هن الجبال الطوال السود ، وقال الزمخشري : الغربيب تأكيد للأسود ، ومن حق التوكيد أن يتبع المؤكد كقولك : أصفر فاقع ، ووجهه أن يضمر المؤكد قبله فيكون الذي بعده مفسراً لما أضمر كقوله النابغة الجعدي:

*والمؤمن العائذات الطير تمسحها ** ركبان مكة بين الغيل والسعد *

هما موضعان والمؤمن : اسم الله وهو مجرور بالقسم والعائذات : منصوب بالمؤمن والمراد بها : الحمام لما عاذت بمكة والتجأت إليها حرم التعرض لها ، والطير منصوب بالبدل أو بعطف البيان ، ووجه الاستدلال بذلك : أن الطير دال على المحذوف وهو مفعول لمؤمن العائذات الطير ، قال أبو حيان : وهذا لا يصح إلا على مذهب من يجوز حذف المؤكد ، ومن النحويين من منعه وهو اختيار ابن مالك ، ورد عليه بأن هذا ليس هو التأكيد المختلف في حذف مؤكده ؛ لأن هذا من باب الصفة والموصوف ومعنى تسميه الزمخشري له توكيداً من حيث إنه لا يفيد معنى زائداً وإنما يفيد المبالغة والتوكيد في ذلك اللون ، والنحويون قد سموا الوصف إذا لم يفد غير الأول توكيداً فقالوا : وقد يجيء لمجرد التوكيد نحو قوله تعالى ﴿ نفخة واحدة ﴾ (الحاقة : )

و ﴿ إلهين اثنين ﴾ (النحل : )

والتوكيد المختلف في حذف مؤكده ، إنما هو في باب التوكيد الصناعي ، ومذهب سيبويه جوازه ، وقال ابن عادل : والأولى فيه أن يسمى توكيداً لفظياً إذ الأصل سود غرابيب سود .

ولما ذكر تعالى ما الأغلب فيه الماء مما استحال إلى أمر آخر بعيد من الماء وأتبعه التراب الصرف ختم بما الأغلب فيه التراب مما استحال إلى ما هو في غاية البعد من التراب فقال: ﴿ ومن الناس والدواب ﴾ ولما كانت الدابة في الأصل اسماً لما دبَّ على الأرض ثم غلب

إطلاقه على ما يركب قال : ﴿ والأنعام ﴾ ليعم الكل صريحاً ﴿ مختلف ألوانه ﴾ أي : ألوان ذلك البعض الذي أفهمته من ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل الثمار والأراضي منه ما هو ذو لون ومنه ما هو ذو لونين أو أكثر .

*(187/643)*

---

ولما قال تعالى ﴿ ألم تر ﴾ بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعه وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس ، وما يستدل به عليه وعلى صفاته من أنه فاعل بالاختيار فهو يفعل ما يشاء قال تعالى : ﴿ إنما يخشى الله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال ﴿ من عباده العلماء ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه : يريد إنما يخافني من خلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني ، فالخشية بقدرة معرفة المخشي ، والعالم يعلم الله فيخافه ويرجوه ، وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد لقوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (الحجرات : )

بين تعالى أن الكرامة بقدر التقوى ، والتقوى بقدر العلم لا بقدر العمل ، فمن ازداد منه علماً ازداد منه خشية وخوفاً ، ومن كان علمه به أقل كانت خشيته أقل ، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : "إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية" وقال صلى الله عليه وسلم "لو

تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً" .

وقال مسروق : كفى بالمرء علماً أن يخشى ، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله ، وقال رجل للشعبي : أفتني أيها العالم فقال له : العالم من خشي الله تعالى ، قال السهروردي في الباب الثالث من معارفه : فينتفي العلم عمن لا يخشى الله تعالى كما إذا قال إنما يدخل الدار بغدادي فينتفي دخول غير البغدادي الدار ، وقيل : نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقد ظهرت عليه الخشية حتى أثرت فيه ، فإن قيل : هل يختلف المعنى إذا قدم المفعول في هذا الكلام أو أخر ؟

أجيب : بأنه يختلف فإنك إذا قدمت اسم الله وأخرت العلماء كان المعنى إن الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم ، فإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله كقوله تعالى ﴿ ولا يخشون أحداً إلا الله ﴾ (الأحزاب : )

وهما معنيان مختلفان .

(188/643)

---

تنبيه : رسم العلماء بالواو وقوله تعالى ﴿ إن الله ﴾ أي : المحيط بالجلال والإكرام ﴿ عزيز ﴾ أي : غالب على جميع أمره ﴿ غفور ﴾ أي : لذنوب من أراد من عباده تعليل

لوجوب الخشية لدلالته على أنه معاقب للمصرّ على طغيانه غفور للتائب عن عصيانه ، والمعاقب والمثيب حقه أن يخشى .

ولما بين سبحانه العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه بقوله تعالى:

﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾ أي : يداومون على تلاوته وهي شأنهم وديدنهم ، وعن مطرف : هي آية القراء ، وعن الكلبي : يأخذون بما فيه ، وقيل : يعلمون ما فيه ويعملون به ، وعن السدي : هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن عطاء : هم المؤمنون ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ أي : أداموها ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ من زكاة وغيرها ﴿ سراً وعلانية ﴾ قيل : السر في المسنون والعلانية في المفروض .

تنبيه : أشار تعالى بقوله سبحانه وتعالى ﴿ يتلون كتاب الله ﴾ إلى الذكر وبقوله تعالى : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ إلى العمل البدني وبقوله تعالى : ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ إلى العمل المالي ، وفي هاتين الآيتين الشريفتين حكمة بالغة وهي أن قوله تعالى ﴿ إنما يخشى الله ﴾ إشارة إلى عمل القلب وقوله تعالى ﴿ الذين يتلون ﴾ إشارة إلى عمل اللسان وقوله ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ إشارة إلى عمل الجوارح ثم إن هذه الأشياء الثلاثة متعلقة بجانب تعظيم الله تعالى وقوله تعالى ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ بمعنى الشفقة على خلقه وقوله

تعالى ﴿ سراً وعلانية ﴾ حث على الإنفاق كيفما تهيأ ، فإن تهيأ سراً فذاك وإلا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء فإن ترك الخير مخافة ذلك هو عين الرياء .

(189/643)

---

ولما أحل تعالى هؤلاء بالمحل الأعلى بين حالهم بقوله تعالى : ﴿ يرجون ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ﴿ تجارة ﴾ أي : بما عملوا ﴿ لن تبور ﴾ أي : تكسد وتهلك بل هي باقية ؛ لأنها رفعت إلى من لا تضيع إليه الودائع وهي رائجة رابحة لكونه تعالى تام القدرة شامل العلم له الغنى المطلق .

﴿ ليوفيهم أجورهم ﴾ أي : جزاء أعمالهم بالثواب ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه : يعني سوى الثواب ما لم تر عين ولم تسمع أذن ، ويحتمل أن يزيدهم النظر إليه تعالى كما جاء في تفسير الزيادة وهذا هو النعمة العظمى ﴿ إنه غفور شكور ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه : يغفر الذنب العظيم من ذنوبهم ويشكر اليسير من أعمالهم ، وقيل : غفور عند إعطاء الأجر شكور عند إعطاء الزيادة .

تنبيه : في خبر إن من قوله ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾ وجهان : أحدهما : أنه الجملة من قوله تعالى : يرجون تجارة أي : إن التالين يرجون ، ولن تبور صفة تجارة ، وليوفيهم متعلق ب

يرجون أو تبور ، أو بمحذوف أي : فعلوا ذلك ليوفيهم ، وعلى الوجهين الأولين يجوز أن تكون لام العاقبة . والثاني : أن الخبر إنه غفور شكور جوز هذا الزمخشري على حذف العائد أي : غفور لهم وعلى هذا فيرجون حال من أنفقوا أي : أنفقوا ذلك راجين .

ولما بين تعالى الأصل الأول وهو وجود الله تعالى الواحد بالدلائل في قوله تعالى ﴿ الله الذي يرسل الرياح ﴾ وقوله تعالى ﴿ والله خلقكم ﴾ وقوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ﴾ ذكر الأصل الثاني وهو الرسالة بقوله تعالى:

﴿ والذي أوحينا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ إليك من الكتاب ﴾ أي : الجامع خيري الدارين .

(190/643)

---

تنبيه : "من الكتاب" يجوز أن تكون من للبيان كما يقال : أرسل إلى فلان من الثياب جملة ، وأن تكون للجنس ، وأن تكون لابتداء الغاية كما يقال : جاءني كتاب من الأمير ، وعلى كل فالكتاب يمكن أن يراد به اللوح المحفوظ يعني : الذي أوحينا من اللوح المحفوظ ﴿ هو الحق ﴾ أي : الكامل في الثبات ومطابقة الواقع ، ويمكن أن يراد به القرآن وهو ما اقتصر عليه الجلال المحلي يعني : الإرشاد والتبيين اللذين أوحينا إليك من القرآن ، ويمكن أن تكون

من للتبعيض وهو فصل أو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي : لما تقدمه من الكتب حال مؤكدة ؛ لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق وهذا تقرير لكونه وحياً ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما لم يكن قارئاً كاتباً وأتى ببيان ما في كتاب الله لا يكون ذلك إلا بوحي من الله تعالى ، فإن قيل : لم يجعل ما تقدم مصدقاً للقرآن ؟

أجيب : بأن القرآن كونه معجزة يكفي تصديقه بأنه وحي وأما ما تقدم فلا بد فيه من معجزة تصدقه .

تنبيه : قوله تعالى ﴿ هو الحق ﴾ آكد من قول القائل الذي أوحينا إليك حق من وجهين : أحدهما : أن التعريف للخبر يدل على أن الأمر في غاية الظهور ؛ لأن الخبر في الأكثر يكون نكرة . الثاني : أن الإخبار في الغالب يكون إعلاماً بثبوت أمر لا يعرفه السامع كقولنا : زيد قام فإن السامع ينبغي أن يكون عارفاً ولا يعلم قيامه فيخبر به ، فإذا كان الخبر معلوماً فتكون الأخبار للنسبة فتعرف باللام كقولنا : إن زيداً العالم في هذه المدينة إذا كان علمه مشهوراً .

﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال ﴿ بعباده لخبير ﴾ أي : عالم أدق العلم وأتقنه ببواطن أحوالهم ﴿ بصير ﴾ أي : بظواهر أمورهم وبواطنها أي : فهو يسكن الخشية والعلم في القلوب على قدر ما أوتوا من الكتاب في علمه ، فأنت أحقهم بالكمال ؛ لأنك أخشاهم وأتقاهم فلذلك آتيناك هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب ، وتقديم الخبير للدلالة على أن العمدة في ذلك الأمور الروحانية وقوله تعالى:

﴿ ثم أورثنا الكتاب ﴾ في معناه وجهان : أحدهما : إنا أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه من بعدك أي : حكمنا بتوريثه أو قال تعالى ﴿ أورثنا ﴾ وهو يريد نورثه فعبر عنه بالماضي لتحققه وقال مجاهد : أورثنا أعطينا ؛ لأن الميراث إعطاء واقتصر على هذا الجلال المحلي ، وقيل : أورثنا أخرنا ومنه الميراث ؛ لأنه تأخر عن الميت ومعناه : أخرنا القرآن من الأمم السالفة وأعطيناكموه وأهلناكم له .

تنبيه : أكثر المفسرين على أن المراد بالكتاب القرآن ، وقيل : إن المراد جنس الكتاب ﴿ الذين اصطفينا ﴾ أي : اخترنا ﴿ من عبادنا ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه : يريد بالعباد أمة محمد صلى الله عليه وسلم أي : من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة ، ونقل ابن الجوزي عن ابن عباس رضي الله عنه أن الله تعالى أورث أمة محمد صلى الله عليه وسلم كل كتاب أنزله أي : لأن الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس ، وخصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله

تعالى ، وحمل الكتاب الذي هو أفضل كتب الله تعالى ، ثم قسمهم بقوله تعالى : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ أي : في التقصير بالعمل به ﴿ ومنهم مقتصد ﴾ أي : يعمل به في أغلب الأوقات ﴿ ومنهم سابق بالخيرات ﴾ وهو من يضم إلى العمل به التعليم والإرشاد إلى العمل .

(192/643)

---

روى أسامة بن زيد في هذه الآية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كلهم من هذه الأمة" . وروى أبو عثمان النهدي قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ على المنبر ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ الآية فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له" وروى أبو الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ﴿ ثم أورثنا الكتاب ﴾ الآية (فاطر : )

قال : أما السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً ، وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام حتى يدخله الهم ثم يدخل الجنة ، ثم قرأ قوله تعالى ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ الآية .

وقال عقبة بن صهبان : سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله عز وجل ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ الآية فقالت : يا بني كلهم في الجنة أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق بهم ، وأما الظالم فمثلي ومثلكم فجعلت نفسها معنا ، وقال مجاهد والحسن : فمنهم ظالم لنفسه هم أصحاب المشأمة ، ومنهم مقتصد هم أصحاب الميمنة ، ومنهم سابق بالخيرات السابقون المقربون من الناس كلهم .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : السابق المؤمن المخلص ، والمقتصد المرائي والظالم الكافر نعمة الله تعالى غير الجاحد لها ؛ لأنه تعالى حكم للثلاثة بدخول الجنة .



---

وقيل : الظالم هو الراجح السيئات ، والمقتصد هو الذي تساوت سيئاته وحسناته ، والسابق هو الذي رجحت حسناته ، وقيل : الظالم هو الذي ظاهره خير من باطنه ، والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه ، والسابق من باطنه خير من ظاهره ، وقيل : الظالم هو الموحد بلسانه الذي تخالفه جوارحه ، والمقتصد : هو الموحد الذي يمنع جوارحه من

المخالفة بالتكليف ، والسابق هو الموحد الذي ينسيه التوحيد غير التوحيد .

وقيل : الظالم صاحب الكبيرة ، والمقتصد صاحب الصغيرة ، والسابق المعصوم ، وقيل : الظالم التالي للقرآن غير العالم به والعامل به ، والمقتصد التالي العالم غير العامل ، والسابق التالي العالم العامل ، وقيل : الظالم الجاهل ، والمقتصد المتعلم ، والسابق العالم .

وقال جعفر الصادق : بدأ بالظالم إخباراً بأنه لا يتقرب إليه إلا بكرمه وإن الظلم لا يؤثر في الاصطفاء ، ثم ثنّى بالمقتصد ؛ لأنه بين الخوف والرجاء ، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره وكلهم في الجنة ، وقال أبو بكر الوراق : رتبهم هذا الترتيب على مقامات الناس ؛ لأن أحوال العبد ثلاثة : معصية وغفلة ، ثم توبة ، ثم قربة ، فإذا عصى دخل في حياز الظالمين ، فإذا تاب دخل في جملة المقتصدين ، فإذا صحت التوبة وكثرت العبادة والمجاهدة دخل في عداد السابقين ، وقيل غير ذلك والله أعلم .

ولما كان هذا ليس في قوة العبد في مجاري العادات ولا يوجد بالكسب والاجتهاد أشار إلى عظمته بقوله تعالى : ﴿ بإذن الله ﴾ أي : بتمكين من له القدرة التامة والعظمة العامة والفعل بالاختيار وجميع صفات الجمال والجلال والكمال وتسهيله وتيسيره ، لئلا يأمن أحد مكره تعالى ، قال الرازي في "اللوامع" : ثم من السابقين من يبلغ محل القرب فيستغرق في وحدانيته تعالى ﴿ ذلك ﴾ أي : إيراثهم الكتاب أو السبق أو الاصطفاء ﴿ هو الفضل الكبير ﴾ .

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوالهم بين جزاءهم وما لهم بقوله تعالى مستأنفاً جواباً لمن سأل عن ذلك:



---

﴿ جنات عدن ﴾ أي : إقامة بلا رحيل ؛ لأنه لا سبب للترحيل عنها وقوله تعالى ﴿ يدخلونها ﴾ أي : الثلاثة أصناف ، خبر جنات عدن ومن دخلها لم يخرج منها ؛ لأنه لا شيء يخرجه ولا هو يريد الخروج منها ، وقرأ أبو عمرو بضم الياء وفتح الخاء ، والباقون بفتح الياء وضم الخاء .

ولما كان الداخل إلى مكان أول ما ينظر إلى ما فيه من النفائس قال تعالى ﴿ يحلون فيها ﴾ أي : يلبسون على سبيل التزين والتحلي ﴿ من أساور ﴾ أي : بعض أساور ﴿ من ذهب ﴾ فمن الأولى للتبعيض ، والثانية للتبيين وقوله تعالى ﴿ ولؤلؤ ﴾ عطف على ذهب أي : من ذهب مرصع باللؤلؤ ، أو من ذهب في صفاء اللؤلؤ ، وقرأ عاصم ونافع بالنصب عطفاً على محل من أساور ، والباقون بالجر .

تنبيه : أساور جمع أسورة وهي جمع سوار ، وذكر الأساور من بين سائر الحلي في مواضع كثيرة كقوله تعالى ﴿ وحلوا أساور من فضة ﴾ (الإنسان : )

يدل على كون المتحلي غير مبتذل في الأشغال ؛ لأن كثرة الأعمال باليد فإذا حليت بالأساور على الفراغ من الأعمال ، ولما كانت هذه الزينة لا تليق إلا على اللباس الفاخر قال تعالى ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ .

(195/643)

---

﴿ وقالوا ﴾ أي : ويقولون عند دخولهم ، وعبر عنه بالماضي تحقيقاً له ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : حزن النار ، وقال قتادة : حزن الموت وقال مقاتل : لأنهم كانوا لا يدرون ما يصنع بهم ، وقال عكرمة : حزن السيئات والذنوب وخوف رد الطاعات ، وقال القاسم : حزن زوال النعم وخوف العاقبة ، وقيل : حزن أهوال القيامة ، وقال الكلبي : ما كان يحزنهم في الدنيا من أمر يوم القيامة ، وقال سعيد بن جبير : الحزن في الدنيا ، وقيل : همّ المعيشة ، وقال الزجاج : أذهب الله تعالى عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاش أو معاد أي : وهذا أولى الكل قال عليه الصلاة والسلام : "ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في منشرهم ، وكأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون : "الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن" .

ثم قالوا ﴿ إن ربنا ﴾ أي : المحسن إلينا مع إساءتنا ﴿ لغفور ﴾ أي : محّاء للذنوب عيناً

وأثراً للصنفين الأولين ولغيرهما من المذنبين ﴿ شكور ﴾ للصنف الثالث ولغيره من المطيعين.

تنبيه: ذكر الله تعالى عن هذه الثلاثة ثلاثة أمور كلها تفيد الكرامة، الأول: قولهم ﴿ الحمد لله ﴾ فإن الحامد يثاب. الثاني: قولهم ﴿ ربنا ﴾ فإن الله تعالى إذا نودي بهذا اللفظ استجاب للمنادي ما لم يكن يطلب ما لا يجوز. الثالث: قولهم ﴿ غفور شكور ﴾ والغفور إشارة إلى ما غفر لهم في الآخرة بحمدهم في الدنيا، والشكور إشارة إلى ما يعطيهم الله ويزيدهم بسبب حمدهم في الآخرة. وقولهم:

(196/643)

---

﴿ الذي أحلنا دار المقامة ﴾ أي: الإقامة إشارة إلى أن الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل منها إلى منزلة القبور، ومن القبور إلى منزلة العرصة التي فيها الجمع ومنها التفريق إلى دار البقاء، إما إلى الجنة، وإما إلى النار أجارنا الله تعالى ومحبينا منها. وقولهم ﴿ من فضله ﴾ أي: بلا عمل منا فإن حسناتنا إنما كانت مناً منه تعالى إذ لا واجب عليه، متعلق بأحلنا، ومن إما للعلة، وإما لابتداء الغاية.

وقولهم ﴿ لا يمسنا فيها ﴾ أي: في وقت من الأوقات ﴿ نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾

حال من مفعول أحلنا الأول أو الثاني ، لأن الجملة مشتملة على ضمير كل منهما ، وإن كان الحال من الأول أظهر ، والنصب التعب والمشقة ، واللغوب الفتور الناشئ عنه ، وعلى هذا فيقال : إذا انتفى السبب انتفى المسبب ، فإذا قيل : لم آكل فيعلم التغاء الشبع فلا حاجة إلى قوله ثانياً فلم أشبع بخلاف العكس ، ألا ترى أنه يجوز لم أشبع ولم آكل والآية الكريمة على ما تقرر من نفي السبب ثم نفي المسبب فما فائدته ؟

أجيب : بأن النصب هو تعب البدن واللغوب هو تعب النفس ، وقيل : اللغوب الوجع وحينئذ فالسؤال زائل ، وأجاب الرازي بجواب قال ابن عادل : ليس بذاك فتركته .

ولما بين تعالى ما هم فيه من النعمة في دار السرور التي قال فيها القائل:

*علياء لا تنزل الأحزان ساحتها ** لو مسها حجر مسته سراء*

بين ما لأعدائهم من النقمة زيادة في سرورهم بما قاسوا في الدنيا من تكبرهم عليهم وفخارهم بقوله تعالى:

﴿ والذين كفروا ﴾ أي : ستروا ما دلت عليه عقولهم من شموس الآيات وأنوار الدلالات ﴿ لهم نار جهنم ﴾ أي : بما تجهموا أولياء الله الدعاة إليه ﴿ لا يقضي ﴾ أي : يحكم ﴿ عليهم ﴾ أي : بموت ثان ﴿ فيموتوا ﴾ أي : فيتسبب عن القضاء موتهم فيستريحوا كقوله تعالى ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ﴾ (الزخرف : )

أي: بالموت فنستريح بل العذاب دائم.

تنبيه: نصب فيموتوا بإضمار أن.

(197/643)

---

ولما كانت الشدائد في الدنيا تنفرج وإن طال أمدها قال تعالى: ﴿ولا يخفف عنهم﴾ وأعرق في النفي بقوله تعالى: ﴿من عذابها﴾ أي: جهنم.

تنبيه: في الآية الأولى أن العذاب في الدنيا إن دام قتل وإن لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجاً فاسداً لا يحس به المعذب فقال: عذاب نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا إما أن يفنى وإما أن يألفه البدن بل هو في كل زمان شديد والمعذب فيه دائم.

الثانية: وصف العذاب بأنه لا يفتر ولا ينقطع ولا بأقوى الأسباب وهو الموت حتى يتمنوه ولا يجابون كما قال تعالى ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك﴾ (الزخرف: )

أي: بالموت.

الثالثة، ذكر في المعذبين الأشقياء أنه لا ينقضي عذابهم ولم يقل تعالى: نزيدهم عذاباً وفي المثابين قال تعالى ﴿ويزيدهم من فضله﴾ (النور: )

وقوله تعالى ﴿كذلك﴾ إما مرفوع المحل أي: الأمر كذلك وإما منصوبه أي: مثل ذلك

الجزاء العظيم ﴿ نجزي كل كفور ﴾ أي : كافر بالله تعالى وبرسوله ، وقرأ أبو عمرو بياء مضمومة وفتح الزاي ورفع كل ، والباقون بنون مفتوحة وكسر الزاي ونصب كل .

﴿ وهم ﴾ أي : فعل ذلك بهم والحال أنهم ﴿ يصطرخون فيها ﴾ أي : يوجدون الصراخ فيها بغاية ما يقدرون عليه من الجهد في الصياح من البكاء والتوجع يقولون ﴿ ربنا ﴾ أي : أيها المحسن إلينا ﴿ أخرجنا ﴾ أي : من النار ﴿ نعمل صالحاً ﴾ ثم فسروه وبينوه بقولهم ﴿ غير الذي كنا نعمل ﴾ في الدنيا ، فإن قيل : هلا اكتفى بقولهم ﴿ نعمل صالحاً ﴾ كما اكتفى به في قولهم ﴿ فارجعنا نعمل صالحاً ﴾ (السجدة : )

وما فائدة زيادة ﴿ غير الذي كنا نعمل ﴾ على أنه يوهم أنهم يعملون صالحاً آخر غير الصالح الذي عملوه ؟

أجيب : بأن فائدته زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به وأما الوهم فزائل بظهور حالهم في الكفر وظهور المعاصي ، ولأنهم كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة كما قال تعالى ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ (الكهف : )

فقالوا : أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نحسبه صالحاً فنعمله ، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً : ﴿ أو لم نعمركم ﴾ أي : نطل أعماركم مع إعطائنا لكم العقول ولم نعاجلكم بالأخذ .

﴿ ما ﴾ أي : زماناً ﴿ يتذكر فيه من تذكر ﴾ قال عطاء وقتادة والكلبي : ثماني عشرة سنة وقال الحسن : أربعون سنة وقال ابن عباس : ستون سنة ، وروي ذلك عن علي ، وروى البزار أنه صلى الله عليه وسلم قال : "العمر الذي أعذر الله تعالى فيه إلى ابن آدم ستون سنة" وروى البخاري أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من عمرّه الله ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر" وروى الترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : "أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين" وأقلهم من يجوز ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وجاءكم النذير ﴾ عطف على ﴿ أو لم نعمركم ﴾ لأنه في معنى قد عمرناكم كقوله ﴿ ألم نربك ﴾ (الشعراء : )

ثم قال ﴿ ولبثت ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ (الشرح : )

ثم قال تعالى ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ (الشرح : )

إذ هما في معنى ربيناك وشرحنا ، واختلف في النذير فقال الأكثرون : هو محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : القرآن ، وقال عكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع : هو الشيب ، والمعنى : أو لم نعمركم حتى شبتم ويقال : الشيب نذير الموت ، وفي الأثر ما من شعرة تبيض إلا قالت

لأختها : استعدي فقد قرب الموت.

ولما تسبب عن ذلك أن عذابهم لا ينفك قال تعالى : ﴿ فذوقوا ﴾ أي : ما أعددناه لكم من العذاب دائماً أبداً ﴿ فما للظالمين ﴾ أي : الذين وضعوا أعمالهم وأقوالهم في غير موضعها ﴿ من نصير ﴾ أي : في وقت الحاجة حتى يرفع العذاب عنهم قال البقاعي وهذا عام في كل ظالم.

ولما كان تعالى عالماً بكل ما نفى وما أثبت قال تعالى:

(199/643)

---

﴿ إن الله ﴾ أي : الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ عالم غيب السموات والأرض ﴾ لا تخفى عليه خافية فلا يخفى عليه تعالى أحوالهم وقوله تعالى ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ تعليل له ؛ لأنه إذا علم مضمرات الصدور قبل أن يعلمها أربابها حتى تكون غيباً محضاً كان أعلم بغيره ، ويعلم أنكم لو مدّت أعماركم لم ترجعوا عن الكفر أبداً ولو رددتم لعدتم لما نهيتم عنه وإنه لا مطمع في صلاحكم.

ولما كان من أنشأ شيئاً كان أعلم به قال تعالى:

﴿ هو ﴾ أي : وحده لا شركاؤكم ولا غيرهم ﴿ الذي جعلكم ﴾ أيها الناس ﴿ خلائف

في الأرض ﴾ أي : يخلف بعضكم بعضاً ، وقيل : جعلكم أمة واحدة خلفت من قبلها ورأت فيمن قبلها ما ينبغي أن يعتبر به ، وقال القشيري : أهل كل عصر خليفة عمن تقدّمهم فمن قوم هم لسلفهم جمال ومن قوم هم أرذال وأسافل .

تنبيه : خلائف جمع خليفة وهو الذي يقوم بعد الإنسان بما كان قائماً به والخلفاء : جمع خليفة قاله الأصبهاني ﴿ فمن كفر فعليه كفره ﴾ أي : وبال كفره ﴿ ولا ﴾ أي : والحال أنه لا ﴿ يزيد الكافرين ﴾ أي : المغطين للحق ﴿ كفرهم ﴾ أي : الذي هم ملتبسون به ظانون أنه يسعدهم وهم راسخون فيه غير منتقلين عنه ﴿ عند ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم ﴿ إلا مقتاً ﴾ أي : غضباً ؛ لأن الكافر السابق كان ممقوتاً ﴿ ولا يزيد الكافرين ﴾ أي : العريقين في صفة التغطية للحق ﴿ كفرهم إلا خساراً ﴾ أي : للآخرة ؛ لأن العمر كرأس مال من اشترى به رضا الله تعالى ربح ، ومن اشترى به سخط الله تعالى خسر . )

ولما بين أنه سبحانه هو الذي استخلفهم أكد بيان ذلك عندهم بأمره صلى الله عليه وسلم بما يضطرهم إلى الاعتراف بقوله تعالى:

﴿ قل ﴾ أي : لهم ﴿ أرأيتم ﴾ أي : أخبروني ﴿ شركاءكم ﴾ أضافهم إليهم ؛ لأنهم وإن كانوا جعلوهم شركاءه لم ينالوا شيئاً من شركته ؛ لأنهم ما نقصوه شيئاً من ملكه وإنما شاركوا العابدين في أموالهم بالسوائب وغيرها وفي أعمالهم فهم شركاؤهم بالحقيقة لا شركاؤه ، ثم بين المراد من عدّهم لهم شركاء بقوله تعالى : ﴿ الذين تدعون ﴾ أي : تعبدون ﴿ من دون الله ﴾ أي : غيره وهم الأصنام الذين زعمتم أنهم شركاء الله تعالى ﴿ أروني ﴾ أي : أخبروني ﴿ ماذا ﴾ أي : الذي أو أي شيء ﴿ خلقوا من الأرض ﴾ أي : لتصح لكم دعوى الشركة فيهم وإلا فادعاؤكم ذلك فيهم كذب محض وإنكم تدعون أنكم أبعد الناس منه في الأمور الهينة فكيف بمثل هذا ﴿ أم لهم شرك ﴾ أي : شركة مع الله تعالى وإن قلت ﴿ في السموات ﴾ أي : أروني ماذا خلقوا لكم من السموات فالآية من الاحتباك حذف أولاً الاستفهام عن الشركة في الأرض لدلالة مثله في السماء ثانياً عليه ، وحذف الأمر بالإراءة ثانياً له لدلالة مثله أولاً عليه .

﴿ أم آتيناهم كتاباً ﴾ ينطق على أنا اتخذنا شركاء ﴿ فهم ﴾ الأحسن في هذا الضمير أن يعود على الشركاء لتناسق الضمائر ، وقيل : يعود على المشركين قاله مقاتل فيكون التفاتاً من خطاب إلى غيبة ﴿ على بينة ﴾ أي : حجة ﴿ منه ﴾ بأن لهم معي شركة ، ولما كان التقدير لا شيء لهم من ذلك قال تعالى منبهاً على ذميم أحوالهم وسفه آرائهم وخسة هممهم ونقصان عقولهم ﴿ بل إن ﴾ أي : ما ﴿ يعد الظالمون ﴾ أي : الواضعون الأشياء

في غير موضعها ﴿ بعضهم بعضاً ﴾ أي : الاتباع للمتبوعين بأن شركاءهم تقربهم إلى الله تعالى زلفى ، وأنها تشفع وتضر وتنفع ﴿ إلا غروراً ﴾ أي : باطلاً .

ولما بين تعالى حقارة الأصنام بين عظمته سبحانه بقوله تعالى:

(201/643)

---

﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال ﴿ يمسك السموات ﴾ أي : على كبرها وعلوها ﴿ والأرض ﴾ أي : على سعتها وبعدها عن التماسك على ما تشاهدون ، وقوله تعالى ﴿ أن تزولا ﴾ أي : برجة عظيمة وزلزلة كبيرة يجوز أن يكون مفعولاً من أجله أي : كراهة أن تزولا ، وقيل : لئلا تزولا ، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً على إسقاط الخافض أي : يمنعهما من أن تزولا ، ويجوز أن يكون بدل اشتمال أي : يمنع زوالهما ؛ لأن ثباتهما على ما هما عليه على غير القياس لولا شامخ قدرته وباهر عزته وعظمته ، فإن ادعيتم عناداً أن شركاءكم لا يقدرون على الخلق لعلة من العلل فادعوهم لإزالة ما خلق الله تعالى .

ولما كان في هذا دليل على أنهما حادثتان زائلتان أتبعه ما هو أبين منه بقوله تعالى : معبراً بأداة الإمكان ﴿ ولئن ﴾ لام قسم ﴿ زالتا ﴾ أي : بزلزلة خراب أو غير ذلك ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ أمسكهما من أحد من بعده ﴾ جواب القسم الموطأ له بلام القسم وجواب الشرط

محذوف يدل عليه جواب القسم ، ولذلك كان فعل الشرط ماضياً ، وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري : والجملة سدت مسد الجوابين فيه تجوز ، فالمراد بسدهما مسدهما أنها تدل عليهما لا أنها قائمة مقامهما إذ يلزم أن تكون معمولة وغير معمولة ؛ لأنها باعتبار جواب القسم لا محل لها من الإعراب ، وباعتبار جواب الشرط لها محل ، ومن في ﴿ من أحد ﴾ مزيدة لتأكيد الاستغراق وفي ﴿ من بعده ﴾ لابتداء الغاية ، والمعنى : أحد سواه أو من بعد الزوال ﴿ إنه كان ﴾ أي : أزلاً وأبداً ﴿ حليماً ﴾ إذ أمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدّا هدّاً كما قال تعالى ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ﴾ (مريم : )

لأنه لا يستعجل إلا من يخاف الفوت فينتهز الفرصة ﴿ غفوراً ﴾ أي : محاء لذنوب من رجع إليه وأقبل بالاعتراف عليه فلا يعاقبه ولا يعاتبه .

ولما بلغ كفار مكة أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا : لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم:

﴿ وأقسموا ﴾ أي : كفار مكة ﴿ بالله ﴾ أي : الذي لا يقسم بغيره ﴿ جهد أيمانهم ﴾ أي : غاية اجتهادهم فيها ﴿ لئن جاءهم نذير ﴾ أي : رسول ﴿ ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ أي : اليهود والنصارى وغيرهم أي : آية واحدة منها لما رأوا من تكذيب بعضها بعضاً ﴿ إذ قالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ﴾ (البقرة : )

﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ أي : على ما شرطوا وزيادة وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذي كانوا يشهدون أنه خيرهم نفساً وأشرفهم نسباً وأكرمهم خلقاً ﴿ ما زادهم ﴾ أي : مجيئه شيئاً مما هم عليه من الأحوال ﴿ إلا نفوراً ﴾ أي : تباعداً عن الهدى ؛ لأنه كان سبباً في زيادتهم في الكفر كالإبل التي كانت نفرت من ربها فضلت عن الطريق فدعاها فازدادت بسبب دعائه نفرة فصارت بحيث يتعذر أو يتعسر ردها ، فتبين أنه لا عهد لهم مع ادعائهم أنهم أوفى الناس ولا صدق عندهم مع جزمهم بأنهم أصدق الخلق ، ثم علل نفورهم بقوله تعالى:

﴿ استكباراً ﴾ أي : طلباً لإيجاد الكبر لأنفسهم ﴿ في الأرض ﴾ أي : التي من شأنها السفول والتواضع والخمول فلم يكن نفورهم لأمر محمود ولا مباح ، ويجوز أن يكون استكباراً بدلاً من نفوراً وأن يكون حالاً أي : حال كونهم مستكبرين قاله الأخفش .

وقوله تعالى ﴿ ومكر السيء ﴾ فيه وجهان : أظهرهما : أنه عطف على استكباراً ،

والثاني : أنه عطف على نفوراً وهذا من إضافة الموصوف إلى صفته في الأصل إذ الأصل والمكر السيء ، والبصريون يؤولونه على حذف موصوف أي : العمل السيء أي : الذي من شأنه أن يسوء صاحبه وغيره وهو إرادتهم لإهانة أمر النبي صلى الله عليه وسلم وإطفاء نور الله عز وجل ، وقال الكلبي : هو اجتماعهم على الشرك وقتل النبي صلى الله عليه وسلم



---

وقرأ حمزة في الوصل بهمزة ساكنة أي : بنية الوقف إشارة إلى تدقيقهم المكر واتقانه وإخفائه جهدهم ، والباقون بهمزة مكسورة ، وإذا وقف حمزة أبدل الهمزة ياء وأدغم الياء الأولى في الياء الثانية ، ووقف الباقون بهمزة ساكنة ﴿ ولا ﴾ أي : والحال أنه لا ﴿ يحيق ﴾ أي : يحيط إحاطة لازمة خسارة ﴿ المكر السيء ﴾ أي : الذي هو عريق في السوء ﴿ إلا بأهله ﴾ أي : وإن أذى غير أهله لكنه لا يحيط بذلك الغير ، فإن قيل : كثيراً ما نرى الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك ، أجيب : بأجوبة : أحدها : أن المكر في الآية هو المكر الذي مكروه مع النبي صلى الله عليه وسلم من العزم على القتل والإخراج ولم يحق إلا بهم حيث قتلوا يوم بدر وغيره .

ثانيها : أنه عام وهو الأصح ، ويدل له قول الزهري : بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً فإن الله تعالى يقول : وقرأ هذه الآية ، ولا تبغوا ولا تعينوا باغياً يقول الله تعالى ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ (يونس : )

ولا تنكثوا ولا تعينوا ناكثاً قال الله تعالى ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ (الفتح : )

ثالثها : أن الأعمال بعواقبها ومن مكر بغيره ونفذ فيه المكر عاجلاً في الظاهر فهو في الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك كمثل راحة الكافر ومشقة المسلم في الدنيا ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى ﴿ فهل ينظرون ﴾ أي : ينتظرون ﴿ إلا سنت الأولين ﴾ أي : سنة الله تعالى فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم رسلهم ، والمعنى : فهل ينتظرون إلا أن ينزل بهم العذاب كما نزل بمن مضى من الكفار .

ولما كان هذا النظر يحتاج إلى صفاء في اللب وذكاء في النفس عدل عن ضميرهم إلى خطاب أعلى الخلق بقوله تعالى:



---

﴿ فلن تجد ﴾ أي : في وقت من الأوقات ﴿ لسنت الله ﴾ أي : طريقة الملك الأعظم التي شرعها وحكم بها وهي إهلاك العاصين وإنجاء الطائعين ﴿ تبديلاً ﴾ أي : من أحد يأتي

بسنة غيرها تكون بدلاً لها ؛ لأنه تعالى لا مكافئ له ﴿ ولن تجد لسنت الله ﴾ أي : الذي لا أمر لأحد معه ﴿ تحويلا ﴾ أي : من حالة إلى أخف منها ؛ لأنه لا مرد لقضائه .

فائدة : ترسم سنت لسنت الثلاثة بالتاء المجرورة كما رأيت ، ووقف أبو عمرو وابن كثير والكسائي بالهاء ، والباقون بالتاء ، وإذا وقف الكسائي أمال الهاء على أصله .

ولما ذكر الله تعالى الأولين وسنتهم في إهلاكهم نبههم بتذكير حال الأولين بقوله تعالى :

﴿ أولم يسيروا ﴾ أي : فيما مضى من الزمان ﴿ في الأرض ﴾ أي : التي ضربوا في المتاجر بالسير إليها في الشام واليمن والعراق ﴿ فينظروا ﴾ أي : فيتسبب عن ذلك السير أنه يتجدد لهم نظر واعتبار يوماً من الأيام ، فإن العاقل من إذا رأى شيئاً تفكر فيه حتى يعرف ما ينطق به لسان حاله إن خفي عليه ما جرى من مقاله ، وأشار بسوقه في أسلوب الاستفهام إلى أنه لعظمه خرج عن أمثاله فاستحق السؤال عن حاله ﴿ كيف كان عاقبة ﴾ أي : آخر أمر ﴿ الذين من قبلهم ﴾ أي : على أي حالة كان آخر أمرهم ليعلموا أنهم ما أخذوا إلا بتكذيب الرسل عليهم السلام فيخافوا أن يفعلوا مثل أفعالهم فيكون حالهم كحالهم فإنهم كانوا يمرون على ديارهم ويرون آثارهم ، وأملهم كان فوق أملهم وعملهم كان دون عملهم ، وكانوا أطول منهم أعماراً وأشد اقتداراً ومع هذا لم يكذبوا مثل محمد صلى الله عليه وسلم

وأنتم يا أهل مكة كفرتم بمحمد ومن قبله عليهم السلام ﴿ وكانوا ﴾ أي : أهلكناهم لتكذيبهم رسلنا ، والحال أنهم كانوا ﴿ أشد منهم ﴾ أي : من هؤلاء ﴿ قوة وما كان الله ﴾ أي : الذي له جميع العظمة وأكد الاستغراق في النفي بقوله تعالى : ﴿ ليعجزه ﴾ أي : مريداً لأن يعجزه ، ولما انتفت إرادة العجز فيه انتفى العجز بطريق الأولى ، وأبلغ في التأكيد بقوله تعالى : ﴿ من شيء ﴾ أي : قل أو جل وعم بما يصل إليه إدراكنا بقوله تعالى : ﴿ في السموات ﴾ أي : جهة العلو ، وأكد بقوله عز وجل ﴿ ولا في الأرض ﴾ أي : جهة السفل ﴿ أنه كان ﴾ أي : أزلاً وأبداً ﴿ عليماً ﴾ أي : بالأشياء كلها حقيرها وجليلها ﴿ قديراً ﴾ أي : كامل القدرة أي : فلا يريد شيئاً إلا كان ولما كانوا يستعجلون بالتوعد استهزاء ، كقولهم : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (الأنفال : )

على أن التقدير ولو عاملكم الله تعالى معاملة المؤاخذ لعجل إهلاككم عطف عليه قوله تعالى إظهاراً للحكم مع العلم

﴿ ولو يؤاخذ الله ﴾ أي : بما له من صفات العلو ﴿ الناس ﴾ أي : المكلفين ﴿ بما كسبوا ﴾ أي : من المعاصي ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ أي : الأرض ﴿ من دابة ﴾ أي : نسمة تدب عليها كما كان في زمن نوح عليه السلام أهلك الله تعالى ما على ظهر الأرض إلا

من كان في السفينة مع نوح.

فإن قيل: إذا كان الله تعالى يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدواب ؟

أجيب: بأن المطر إنعام من الله في حق العباد، وإذا لم يستحقوا الإنعام قطعت الأمطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الأرض فيموت جميع الحيوانات، وبأن خلقة الحيوانات نعمة والمعاصي تزيل النعم وتحل النقم والدواب أقرب النعم؛ لأن المفرد أولاً ثم المركب، والمركب إما أن يكون معدناً وإما أن يكون نامياً، والنامي إما أن يكون حيواناً أو نباتاً، والحيوان إما إنسان أو غير إنسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات في عالم العناصر للإنسان.

(206/643)

---

فإن قيل: كيف يقال لما علته الخلق من الأرض وجه الأرض وظهر الأرض مع أن الظهر مقابله الوجه فهو كالمتضاد ؟

أجيب: بأن الأرض كالدابة الحاملة للأثقال والحمل يكون على الظهر، وأما وجه الأرض فلأن الظاهر من باب والبطن والباطن من باب فوجه الأرض ظهر؛ لأنه هو الظاهر وغيره منها باطن وبطن.

﴿ ولكن ﴾ لم يعاملهم معاملة المؤاخذ المناقش بل يحلم عنهم فهو ﴿ يؤخرهم ﴾ أي : في الحياة الدنيا ثم في البرزخ ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ أي : سماه في الأزل لانقضاء أعمارهم ثم يبعثهم من قبورهم وهو تعالى لا يبدل القول لديه لما له من صفات الكمال ﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾ أي : الفناء الإعدامي قبض كل واحد منهم عند أجله ، أو الإيجاد الإبقائي بعث كلاً منهم فجازاه بعمله ﴿ فإن الله ﴾ أي : الذي له الصفات العليا ﴿ كان ﴾ ولم يزل ﴿ بعباده ﴾ الذين أوجدهم ولا شريك له في إيجاد واحد منهم بجميع ذواتهم وأحوالهم ﴿ بصيراً ﴾ أي : بالغ البصر والعلم بمن يستحق العذاب ومن يستحق الثواب ، قال ابن عباس : يريد أهل طاعته وأهل معصيته ، وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة الملائكة دعته يوم القيامة ثمانية أبواب الجنة أن ادخل من أي الأبواب شئت" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 67 89. ﴾

(207/643)

---

وقال القاسمى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾

أي : رحمته ، وعنايته ، ولطفه ، وإمداده في كل لمحة ونفس ، وسر وصل الآية بما قبلها من التهكم بالأنداد ، لتذكيرهم الالتجاء إليه تعالى ، والتضرع والابتهال إذا مسهم الضر ، وأخذت البأساء بمخانقهم ، فإنهم يشعرون من أنفسهم دافعاً إلى سؤاله لا مردّ له . وحاثّاً إلى اللجأ إليه لا صاد عنه ، كما بين في غير آية ، مما يدل على أنه تعالى هو الحقيق بالعبادة ، لغناه المطلق ، كما قال : ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أي : المحمود لنعمه التي لا تحصى .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي : بممتنع . قال الزمخشري : وهذا غضب عليهم ، لاتخاذهم له أنداداً ، وكفرهم بآيه ، ومعاصيهم ، كما قال : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ [ محمد : 38 ] .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أي : لا تحمل نفس آثمة : ﴿ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أي : إثم نفس أخرى ، بل إنما تحمل وزرها الذي اقترفته ، لا تؤخذ نفس بذنب نفس ؛ كما تأخذ جبابرة الدنيا الوليّ بالوليّ ، والجار بالجار ، ولا يرد آية : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [ العنكبوت : 13 ] ؛ لأنها في الضالين المضلين ، وأنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم ، وذلك كله أوزارهم ، ما فيها شيء من وزر غيرهم .

﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ ﴾ أي : نفس أثقلتها الأوزار : ﴿ إِلَى حِمْلِهَا ﴾ أي : إلى حمل بعض أوزارها ليخفف عنها : ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ أي : لم تجب ولم تُغث بحمل شيء : ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ أي : المدعو المفهوم من الدعوة : ﴿ ذَا قُرْبَى ﴾ أي : ذا قرابة من الداعي ، من أب أو ولد أو أخ ، وهذا قطع لأطماع انتفاعهم بقرابتهم ، وغنائهم عنهم ، وأنه لا تملك نفس لنفس شيئًا ، وأن كل امرئ بما كسب رهين ، ثم بين من يتعظ ويتذكر ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى ﴾ أي : تطهر من أوضار الأوزار : ﴿ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ مثل الكافر والمؤمن .

﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴾ مثل للحق والباطل .

﴿ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴾ مثل للثواب والعقاب و : ﴿ الْحَرُورُ ﴾ الريح الحارة بالليل ، وقد تكون بالنهار .



---

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أي : ما يستوي أحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله ، ومعرفة تنزيله ، وأموات القلوب ؛ لغلبة الكفر عليها

حتى صارت لا تعقل عن الله أمره ونهيه ، ولا تعرف الهدى من الضلال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴾ أي : يوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ أي : كما لا يقدر أن يسمع من في القبور كتاب الله ، فيهديهم به إلى سبيل الرشاد ، فكذلك لا يقدر أن ينتفع بمواعظ الله وبيان حججه ، من كان ميت القلب عن معرفة الله وفهم كتابه وواضح حججه . وهذا ترشيح لتمثيل المُصرّين على الكفر بالأموات ، وإشباع في إقناطه عليه الصلاة والسلام ، من إيمانهم .

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أي : ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر ، فإن كان المنذَر ممن يسمع الإنذار نفع ، وإن كان من المُصرّين فلا عليك .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أي : وما من أمة من الأمم الدائنة بملة ، إلا مضى فيها نذير من قبلك ينذرهم على كفرهم بالله ، ويزيح عنهم العلل كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [ الرعد : 7 ] وكقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ [ النحل : 36 ] .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أي : وإن يكذبوك ولم يستجيبوا لك ، فلا تبال بهم وتأس بمن كُذّب من الرسل السالفة ، فقد جاءوهم بالآيات ، والخوارق المحسوسة على صحة نبوتهم ، وبالصحف المرشدة لهم إلى مسالك الفلاح والنجاح ، وبالكتاب المنير لمن تدبره وتأمله ، أنه الحق الناطق بالصواب والصدق ، وليس المراد أن كل رسول جاء بجميع ما ذكر ، حتى يلزم أن يكون لكل رسول كتاب ، بل المراد أن بعض الرسل جاء بهذا ، وبعضهم جاء بهذا ، وجوز أن يراد بالجميع واحد ، والعطف لتغاير الأوصاف .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي : إنكاري بالعقوبة ، وفيه مزيد تشديد وتهويل لها .



---

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ جُدَدٌ ﴾ بضم الجيم وفتح الدال ، جمع جُدة بالضم ، وهي الطريقة من جدّه إذا قطعه ، أي : ومن الجبال ذوو جدَد ، أي : طرائق بيض وحمر ، وإنما قدر المضاف ؛ لأن الجبال ليست نفس الطرائق .

وغرابيب : جمع غربيب وهو الأسود المتناهي في السواد ، يقال : أسود غربيب ، كما يقال : أحمر قان ، وأصفر فاقع ، تأكيداً . وإما قدم هنا ، ومن حق التوكيد أن يتبع المؤكد للمبالغة ، ورأى بعضهم أنه مقدم من تأخير ، ذهاباً إلى جواز تقديم الصفة على موصوفها .

*(212/643)*

---

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴾ أي : اختلافاً كذلك ، أي : كاختلاف الثمرات والجبال . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ تكملة لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ [ فاطر : 18 ] ، بتعيين من يخشاه عز وجل من الناس ، بعد بيان اختلاف طبقاتهم ، وتباين مراتبهم ، أما في الأوصاف المعنوية فبطريق التمثيل , وأما في الأوصاف الصورية فبطريق التصريح ، توفية لكل واحدة منهما حقها اللائق بها من البيان ؛ أي : إنما يخشاه تعالى بالغيب ، العالمون به عز وجل ، وبما يليق به من صفاته الجليلية , وأفعاله الجميلة ؛ لما أن مدار الخشية معرفة المخشي والعلم بشؤونه ، فمن كان أعلم به تعالى ، كان أخشى منه عز وجل . كما قال عليه الصلاة والسلام : < أنا أخشاكم لله وأتقاكم له > . ولذلك عقب بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته ، وحيث كان الكفرة بمعزل من هذه المعرفة ، امتنع إنذارهم بالكلية .

أفاده أبو السعود .

وقال القاشاني : أي : ما يخشى الله إلا العلماء العرفاء به ؛ لأن الخشية ليست هي خوف العقاب ، بل هيئة في القلب خشوعية انكسارية عند تصوّر وصف العظمة ، واستحضاره لها ، فمن لم يتصوّر عظمته لم يمكنه خشيته ، ومن تجلى الله له بعظمته ، خشيه حق خشيته ، وبين الحضور التصوّري الحاصل للعالم غير العارف, وبين التجلي الثابت للعالم العارف – بون بعيد – ومراتب الخشية لا تحصى بحسب مراتب العلم والعرفان . انتهى .

ويذكر بعض المفسرين هنا القراءة الشاذة . رفع الاسم الجليل ونصب العلماء ، ويتأولون الخشية بالتعظيم استعارة ، وربما استشهدوا بقوله :

~أَهَابُكَ إِجْلَالاً وَمَا بِكَ قُدْرَةٌ عَلَيَّ وَلَكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا

(213/643)

---

وقد طعن في " النشر " في هذه القراءة ، والحق له ؛ لمنافاتها للسياق والسباق ، وما أغنى المنقحين عن تسويد الصحف بمثل هذه الشواذ ! وبالله التوفيق .

{ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ } أي : غالب على كل شيء بعظمته [في المطبوع : بعطمته ] ، غفور لمن تاب وأناب وعمل صالحاً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ أي : يداومون على تلاوته وتدبره ، للأخذ بما فيه : ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ أي : أجراً وفضلاً لا يفنى ، والتجارة استعارة لتحصيل الثواب بالطاعة ، والبوار بمعنى الكساد والهلاك ترشيح للاستعارة .

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أي : لأعمالهم ، والشكر مجاز عن الإثابة والجزاء بالإحسان .

(214/643)

---

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ أي : ثم ، بعد أخذ الذين كفروا ، أورثنا الكتاب الذي هو أعظم فضل ، وعناية ، ورحمة ، المصطفين من الموحدين . ثم بين انقسامهم في العمل به إلى ثلاثة ، بقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ أي : بالإثم والعصيان : ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ أي : في العمل ، ليس من المجرمين ، ولا من السابقين : ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

(215/643)

---

﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ ﴾ أي : الإقامة : ﴿ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ أي : تعب : ﴿ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أي : كلال .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أي : أو ما عشتم في الدنيا أعماراً ينتفع فيها من يتذكر ويتبصر ؟ قال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة . فنعوذ بالله أن نغتر بطول العمر ، وقد نزلت هذه الآية ، وإن فيهم لابن ثماني عشرة سنة .

(216/643)

---

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : مستخلفين فيها ، أباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة : ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً ﴾ أي : بغضا شديدا

﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً ﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ أي : تبكيتاً لهم : ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ أي : شركة في خلقها : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي : حجة وبرهان ، بأنه أذن لهم في الإشراك : ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً ﴾ أي : في قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

(217/643)

---

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا ﴾ أي : ما أمسكهما : ﴿ مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴾

يعني إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلهم : ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ وفي معنى الآية قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ [الأنعام : 156 – 157] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الصافات : 167 – 170] .

*(218/643)*

---

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أي : بما اقترفوا من معاصيهم : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أي : من نسمة تدب ، لشؤم معاصيهم ، والضمير للأرض لسبق ذكرها : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أي : يؤخر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا إلى أجل معلوم عنده : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ أي : فإذا جاء أجل عقابهم فإن

الله كان بعباده بصيراً بمن يستحق أن يعاقب ، وبمن يستوجب الكرامة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 52.41 ﴾

(219/643)

---

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) ﴾

مرة أخرى يرجع إلى الهتاف بالناس أن ينظروا في علاقتهم بالله ، وفي حقيقة أنفسهم ؛ ويرجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالتسلية عما يلقى ، والتسرية عما يجد من إعراض وضلال كالشأن في المقطع الثاني من السورة ويزيد هنا الإشارة إلى أن طبيعة الهدى غير طبيعة الضلال ، وأن الاختلاف بين طبيعتهما أصيل عميق كأصالة الاختلاف بين العمى والبصر والظلمات والنور والظل والحرور والموت والحياة . وأن بين الهدى والبصر والنور والظل والحياة صلة وشبهاً ؛ كما أن بين العمى والظلمة والحرور والموت صلة وشبهاً ! ثم تنتهي الجولة بإشارة إلى مصارع المكذبين للتنبيه والتحذير .

﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز ﴾ . .

إن الناس في حاجة إلى تذكيرهم بهذه الحقيقة في معرض دعوتهم إلى الهدى ، ومجاهدتهم ليخرجوا مما هم فيه من الظلمات إلى نور الله وهداه . في حاجة إلى تذكيرهم بأنهم هم الفقراء المحاويج إلى الله . وأن الله غني عنهم كل الغنى . وأنهم حين يدعون إلى الإيمان بالله وعبادته وحمده على آلائه فإن الله غني عن عبادتهم وحمدهم ، وهو المحمود بذاته . وأنهم لا يعجزون الله ولا يعزون عليه فهو إن شاء أن يذهب بهم ويأتي بخلق جديد من جنسهم أو من جنس آخر يخلفهم في الأرض ، فإن ذلك عليه يسير . .

الناس في حاجة إلى أن يذكروا بهذه الحقيقة ، لئلا يركبهم الغرور وهم يرون أن الله جل وعلا يعنى بهم ، ويرسل إليهم الرسل ؛ ويجاهد الرسل أن يردوهم عن الضلالة إلى الهدى ، ويخرجوهم من الظلمات إلى النور . ويركبهم الغرور فيظنون أنهم شيء عظيم على الله ! وأن هداهم وعبادتهم تزيد شيئاً في ملكه تعالى ! والله هو الغني الحميد .

(220/643)

---

وإن الله سبحانه يمنح العباد من رعايته ، ويفيض عليهم من رحمته ، ويغمرهم بسابغ فضله بإرسال رسله إليهم ، واحتمال هؤلاء الرسل ما يحتملون من إعراضهم وإيذائهم ، وثباتهم على الدعوة إلى الله بعد الإعراض والإيذاء . . إن الله سبحانه إنما يعامل عباده هكذا

رحمة منه وفضلاً وكرماً ومناً . لأن هذه صفاته المتعلقة بذاته . لا لأن هؤلاء العباد يزيدون في ملكه شيئاً بهداهم ، أو ينقصون من ملكه بعماهم . ولا لأن هؤلاء العباد مخلوقات نادرة عزيزة صعبة الإعادة أو الاستبدال ، فيغتفر لهم ما يقع منهم لأنهم صنف لا يعاد ولا يستبدل .

وإن الإنسان ليدهش ويحار في فضل الله ومنه وكرمه ، حين يرى هذا الإنسان الصغير الضئيل الجاهل القاصر ، الضعيف العاجز ، ينال من عناية الله ورعايته كل هذا القدر الهائل !

والإنسان ساكن صغير من سكان هذه الأرض .

والأرض تابع صغير من توابع الشمس . والشمس نجم مما لا عد له ولا حصر من النجوم . والنجوم إن هي إلا نقط صغيرة على ضخامتها الهائلة متناثرة في فضاء الكون الذي لا يعلم الناس حدوده . وهذا الفضاء الذي تتناثر فيه تلك النجوم كالنقط التائهة إن هو إلا بعض خلق الله !

ثم ينال الإنسان من الله كل هذه الرعاية . . ينشئه ، ويستخلفه في الأرض ، ويهبه كل أدوات الخلافة سواء في تكوينه وتركيبه أو تسخير القوى والطاقات الكونية اللازمة له في خلافته ويضل هذا المخلوق ويتبجح حتى ليشرك بربه أو ينكره . فيرسل الله إليه الرسل ، رسولاً بعد رسول ، وينزل على الرسل الكتب والخوارق . ويطرد فضل الله ويفيض حتى لينزل في

كتابه الأخير للبشر قصصاً يحدث بها الناس ، ويقص عليهم ما وقع لأسلافهم ، ويحدثهم عن ذوات أنفسهم ، ويكشف لهم عما فيها من قوى وطاقات ، ومن عجز وضعف ، بل إنه سبحانه ليحدث عن فلان وفلان بالذات ، فيقول لهذا : أنت فعلت وأنت تركت ، ويقول لذاك : هاك حلاً لمشكلتك ، وهاك خلاصاً من ضيقتك !

(221/643)

---

كل ذلك . وهذا الإنسان هو الساكن الصغير من سكان هذه الأرض ، التابعة الصغيرة من توابع الشمس ، التائهة في هذا الوجود الكبير حتى ما تكاد تحس ! والله سبحانه هو فاطر السماوات والأرض ، وخالق هذا الوجود بما فيه ومن فيه بكلمة . بمجرد توجه الإرادة . وهو قادر على أن يخلق مثله بكلمة وبمجرد توجه الإرادة . .

والناس خلقاء أن يدركوا هذه الحقيقة ليدركوا مدى فضل الله ورعايته ورحمته .

وليستحيوا أن يستجيبوا للفضل الخالص والرعاية المجردة والرحمة الفائضة بالإعراض والجحود والنكران .

فهي من هذه الناحية لمسة وجدانية موحية ، إلى جانب أنها حقيقة صادقة واقعة .

والقرآن يلمس بالحقائق قلوب البشر ؛ لأن الحقيقة حين تجلى أفعل في النفس ؛ ولأنه هو الحق

وبالحق نزل . فلا يتحدث إلا بالحق ، ولا يقنع إلا بالحق ، ولا يعرض إلا الحق ، ولا يشير بغير الحق . .

ولمسة أخرى بحقيقة أخرى . حقيقة فردية التبعة ، والجزاء الفردي الذي لا يغني فيه أحد عن أحد شيئاً . فما بالنبي صلى الله عليه وسلم من حاجة إلى هدايتهم يحققها لنفسه ، فهو محاسب على عمله وحده ، كما أن كلاًّ منهم محاسب على ما كسبت يداه ، يحمل حمله وحده ، لا يعينه أحد عليه . ومن يتطهر فإنما يتطهر لنفسه ، وهو الكاسب وحده لا سواه ؛ والأمر كله صائر إلى الله :

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى . وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ . .

﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه . وإلى الله المصير ﴾ . .

وحقيقة فردية التبعة والجزاء ذات أثر حاسم في الشعور الأخلاقي ، وفي السلوك العملي سواء . فشعور كل فرد بأنه مجزيٌّ بعمله ، لا يؤاخذ بكسب غيره ، ولا يتخلص هو من كسبه ، عامل قوي في يقظته لمحاسبة نفسه قبل أن تحاسب ! مع التخلي عن كل أمل خادع في أن ينفعه أحد بشيء ، أو أن يحمل عنه أحد شيئاً .

كما أنه في الوقت ذاته عامل مطمئن ، فلا يقلق الفرد خيفة أن يؤخذ بجريرة الجماعة ؛ فيطيش وييئس من جدوى عمله الفردي الطيب . ما دام قد أدى واجبه في النصح للجماعة ومحاولة ردها عن الضلال بما يملك من وسيلة .

إن الله سبحانه لا يحاسب الناس جملة بالقائمة ! إنما يحاسبهم فرداً فرداً ؛ كل على عمله . وفي حدود واجبه . ومن واجب الفرد أن ينصح وأن يحاول الإصلاح غاية جهده . فإذا قام بقسطه هذا فلا عليه من السوء في الجماعة التي يعيش فيها ، فإنما هو محاسب على إحسانه . كذلك لن ينفعه صلاح الجماعة إذا كان هو بذاته غير صالح . فالله لا يحاسب عباده بالقائمة كما أسلفنا !

والتعبير القرآني يصور هذه الحقيقة على طريقة التصوير في القرآن ، فتكون أعمق وأشد أثراً . يصور كل نفس حاملة حملها . لا تحمل نفس حمل أخرى . وحين تثقل نفس بما تحمل ثم تدعو أقرب الأقرباء ليحمل عنها شيئاً ، فلن تجد من يلبي دعاءها ويرفع عنها شيئاً مما يثقلها !

إنه مشهد القافلة كل من فيها يحمل أثقالها ويمضي في طريقه ، حتى يقف أمام الميزان والوزّان ! وهي في وقفتها يبدو على من فيها الجهد والإعياء ، واهتمام كل بحمله وثقله ، وانشغاله عن البعداء والأقرباء !

وعلى مشهد القافلة المجهدة المثقلة ، يلتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ﴾ . .

فهؤلاء هم الذين يفلح فيهم الإنذار . هؤلاء الذين يخشون ربهم ولم يشاهدوه . ويقيمون الصلاة ليتصلوا بربهم ويعبدوه . هؤلاء هم الذين ينتفعون بك ، ويستجيبون لك . فلا عليك ممن لا يخشى الله ولا يقيم الصلاة .

﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ﴾ . .

لا لك . ولا لغيرك . إنما هو يتطهر لينتفع بطهره . والتطهر معنى لطيف شفاف . يشمل القلب وخواجه ومشاعره ، ويشمل السلوك واتجاهاته وآثاره . وهو معنى موح رفاف .

﴿ وإلى الله المصير ﴾ . .

(223/643)

---

وهو المحاسب ، والمجازي ، فلا يذهب عمل صالح ، ولا يفلت عمل سيء . ولا يوكل الحكم والجزاء إلى غيره ممن يميلون أو ينسون أو يهملون . .

ولن يستوي عند الله الإيمان والكفر ، والخير والشر ، والهدى والضلال ؛ كما لا يستوي العمى والبصر ، والظلمة والنور ، والظل والحرور ، والحياة والموت . وهي مختلفة الطبائع

من الأساس :

﴿ وما يستوي الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ . .

وبين طبيعة الكفر وطبيعة كل من العمى والظلمة والحرور والموت صلة . كما أن هناك صلة بين طبيعة الإيمان وطبيعة كل من النور والبصر والظل والحياة . .

إن الإيمان نور ، نور في القلب ونور في الجوارح ، ونور في الحواس .

نور يكشف حقائق الأشياء والقيم والأحداث وما بينها من ارتباطات ونسب وأبعاد .

فالمؤمن ينظر بهذا النور ، نور الله ، فيرى تلك الحقائق ، ويتعامل معها ، ولا يخبط في طريقه ولا يلطش في خطواته !

والإيمان بصر ، يرى . يرى رؤية حقيقية صادقة غير مهزوزة ولا مخلخلة . ويمضي بصاحبه في الطريق على نور وعلى ثقة وفي اطمئنان .

والإيمان ظل ظليل تستروحه النفس ويرتاح له القلب ، ظل من هاجرة الشك والقلق والحيرة في التيه المظلم بلا دليل !

والإيمان حياة . حياة في القلوب والمشاعر . حياة في القصد والاتجاه . كما أنه حركة بانية . مثمرة . قاصدة . لا خمود فيها ولا همود . لا عبث فيها ولا ضياع .

والكفر عمى . عمى في طبيعة القلب . وعمى عن رؤية دلائل الحق . وعمى عن رؤية

حقيقة الوجود . وحقيقة الارتباطات فيه . وحقيقة القيم والأشخاص والأحداث والأشياء .

والكفر ظلمة أو ظلمات . فعندما يبعد الناس عن نور الإيمان يقعون في ظلمات من شتى الأنواع والأشكال . ظلمات تعز فيها الرؤية الصحيحة لشيء من الأشياء .



---

والكفر هاجرة . حرور . تلفح القلب فيه لوافح الحيرة والقلق وعدم الاستقرار على هدف ، وعدم الاطمئنان إلى نشأة أو مصير . ثم تنتهي إلى حر جهنم ولفحة العذاب هناك !

والكفر موت . موت في الضمير . وانقطاع عن مصدر الحياة الأصيل . وانفصال عن الطريق الواصل . وعجز عن الانفعال والاستجابة الآخذين من النبع الحقيقي ، المؤثرين في سير الحياة !

ولكل طبيعته ولكل جزاؤه ، ولن يستوي عند الله هذا وذاك .

وهنا يلتفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعزيه ويسري عنه ، بتقرير حدود عمله وواجبه في دعوة الله . وترك ما تبقى بعد ذلك لصاحب الأمر يفعل به ما يشاء :

﴿ إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من في القبور . إن أنت إلا نذير . إنا أرسلناك

بالحق بشيراً ونذيراً ، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير . وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير . ثم أخذت الذين كفروا . فكيف كان نكير؟ ﴾ . .

إن الفوارق أصيلة في طبيعة الكون وفي طبيعة النفس . واختلاف طباع الناس واختلاف استقبالهم لدعوة الله أصيل أصالة الفوارق الكونية في البصر والعمى ، والظل والحرور ، والظلمات والنور ، والحياة والموت . ووراء ذلك كله تقدير الله وحكمته . وقدرته على ما يشاء .

وإذن فالرسول ليس إلا نذيراً . وقدرته البشرية تقف عند هذا الحد . فما هو بمسمع من في القبور . ولا من يعيشون بقلوب ميتة فهم كأهل القبور ! والله وحده هو القادر على إسماع من يشاء ، وفق ما يشاء ، حسبما يشاء . فماذا على الرسول أن يضل من يضل ، ويعرض من يعرض متى أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، فسمع من شاء الله أن يسمع ، وأعرض من شاء الله أن يعرض؟

ومن قبل قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27)

وهذه الجولة قراءات في كتاب الكون وفي الكتاب المنزل. قراءات في كتاب الكون في صحائفه المعجبة الرائعة، المتنوعة الألوان والأنواع والأجناس. الثمار المتنوعة الألوان، والجبال الملونة الشعاب، والناس والدواب والأنعام وألوانها المتعددة الكثيرة.. هذه اللفتة العجيبة إلى تلك الصحائف الرائعة في كتاب الكون المفتوح.. وقراءات في الكتاب المنزل وما فيه من الحق المصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة. وتوريث هذا الكتاب للأمة المسلمة. ودرجات الوارثين. وما ينتظرهم جميعاً من نعيم بعد عفو الله وغفرانه للمسيئين؛ ومشهدهم في دار النعيم. ومقابلهم مشهد الكافرين الأليم. وتختم الجولة العجيبة المديدة المنوعة الألوان بتقرير أن ذلك كله يتم وفقاً لعلم الله العليم بذات الصدور..

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها؛ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك. إنما يخشى الله من عباده العلماء. إن الله عزيز غفور ﴾..

إنها لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب. لفتة تطوف في الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصباغ في كل عوالمها. في الثمرات. وفي الجبال. وفي الناس. وفي الدواب والأنعام. لفتة تجمع في كلمات قلائل، بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض

جميعاً ؛ وتدع القلب مأخوذاً بذلك المعرض الإلهي الجميل الرائع الكبير الذي يشمل الأرض جميعاً .

(226/643)

---

وتبدأ بإنزال الماء من السماء ، وإخراج الثمرات المختلفات الألوان . ولأن المعرض معرض أصباغ وشيات ، فإنه لا يذكر هنا من الثمرات إلا ألوانها ﴿ فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾ . . وألوان الثمار معرض بديع للألوان يعجز عن إبداع جانب منه جميع الرسامين في جميع الأجيال . فما من نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر . بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد . فعند التدقيق في أي ثمرتين أختين يبدو شيء من اختلاف اللون !

وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلة عجيبة في ظاهرها ؛ ولكنها من ناحية دراسة الألوان تبدو طبيعية . ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها ، بل إن فيها أحياناً ما يكون على شكل بعض الثمار وحجمها كذلك حتى ما تكاد تفرق من الثمار صغيرها وكبيرها !

﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾ . .

والجدد الطرائق والشعاب . وهنا لفتة في النص صادقة ، فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها . والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها . مختلف في درجة اللون والتظليل والألوان الأخرى المتداخلة فيه ، وهناك جدد غرابيب سود ، حالكة شديدة السواد . واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد ، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار ، تهز القلب هزاً ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي ، التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة ، على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة ، وعلى بعد ما بين وظيفتيهما في تقدير الإنسان .

ولكن النظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصراً مشتركاً بين هذه وتلك ، يستحق النظر والالتفات .

ثم ألوان الناس . وهي لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر . فكل فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه . بل متميز من توأمه الذي شاركه حملاً واحداً في بطن واحدة !

وكذلك ألوان الدواب والأنعام . والدواب أشمل والأنعام أخص . فالدابة كل حيوان . والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز ، خصصها من الدواب لقربها من الإنسان . والألوان والأصباغ فيها معرض كذلك جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور سواء . هذا الكتاب الكوني الجميل الصفحات العجيب التكوين والتلوين ، يفتحه القرآن ويقلب صفحاته ويقول : إن العلماء الذين يتلونه ويدركونه ويتدبرونه هم الذين يخشون الله :

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ . .

وهذه الصفحات التي قلبها في هذا الكتاب هي بعض صفحاته ، والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب . ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية . يعرفونه بآثار صنعته . ويدركونه بآثار قدرته . ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه . من ثم يخشونه حقاً ويتقونه حقاً ، ويعبدونه حقاً . لا بالشعور الغامض الذي يجده القلب أمام روعة الكون . ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر . . وهذه الصفحات نموذج من الكتاب . . والألوان والأصباغ نموذج من بدائع التكوين الأخرى وبدائع التنسيق التي لا يدركها إلا العلماء بهذا الكتاب . العلماء به علماً واصلاً . علماً يستشعره القلب ، ويتحرك به ، ويرى به يد الله المبدعة للألوان والأصباغ والتكوين والتنسيق في ذلك الكون الجميل .

إن عنصر الجمال يبدو مقصوداً قصداً في تصميم هذا الكون وتنسيقه . ومن كمال هذا

الجمال أن وظائف الأشياء تؤدى عن طريق جمالها . هذه الألوان العجيبة في الأزهار تجذب النحل والفراش مع الرائحة الخاصة التي تفوح. ووظيفة النحل والفراش بالقياس إلى الزهرة هي القيام بنقل اللقاح، لتنشأ الثمار . وهكذا تؤدي الزهرة وظيفتها عن طريق جمالها ! . . والجمال في الجنس هو الوسيلة لجذب الجنس الآخر إليه، لأداء الوظيفة التي يقوم بها الجنسان. وهكذا تتم الوظيفة عن طريق الجمال.

(228/643)

---

الجمال عنصر مقصود قصداً في تصميم هذا الكون وتنسيقه. ومن ثم هذه اللفتات في كتاب الله المنزل إلى الجمال في كتاب الله المعروض.

﴿ إن الله عزيز غفور ﴾ . .

عزيز قادر على الإبداع وعلى الجزاء . غفور يتدارك بمغفرته من يقصرون في خشيته، وهم يرون بدائع صنعته.

ومن كتاب الكون ينتقل الحديث إلى الكتاب المنزل، والذين يتلونه، وما يرجون من تلاوته، وما ينتظرهم من جزاء :

﴿ إن الذين يتلون كتاب الله، وأقاموا الصلاة، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية، يرجون

تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله .

إنه غفور شكور ﴾ . .

وتلاوة كتاب الله تعني شيئاً آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت . تعني تلاوته عن تدبر ، ينتهي إلى إدراك وتأثر ، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك . ومن ثم يتبعها بإقامة الصلاة ، وبالإنفاق سراً وعلانية من رزق الله . ثم رجاؤهم بكل هذا ﴿ تجارة لن تبور ﴾ . . فهم يعرفون أن ما عند الله خير مما ينفقون . ويتاجرون تجارة كاسبة مضمونة الربح . يعاملون فيها الله وحده وهي أربح معاملة ؛ ويتاجرون بها في الآخرة وهي أربح تجارة . . تجارة مؤدية إلى توفيتهم أجورهم ، وزيادتهم من فضل الله . ﴿ إنه غفور شكور ﴾ . . يغفر التقصير ويشكر الأداء . وشكره تعالى كناية عما يصاحب الشكر عادة من الرضا وحسن الجزاء . ولكن التعبير يوحي للبشر بشكر المنعم . تشبهاً واستحياء . فإذا كان هو يشكر لعباده حسن الأداء أفلا يشكرون له هم حسن العطاء ؟ !

ثم إشارة إلى طبيعة الكتاب ، وما فيه من الحق ، تمهيداً للحديث عن ورثة هذا الكتاب :

﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ، مصدقاً لما بين يديه . إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ . .

ودلائل الحق في هذا الكتاب واضحة في صلبه ؛ فهو الترجمة الصحيحة لهذا الكون في حقيقته ، أو هو الصفحة المقروءة والكون هو الصفحة الصامتة . وهو مصدق لما قبله من الكتب الصادرة من مصدره . والحق واحد لا يتعدد فيها وفيه . ومنزله نزله للناس وهو على علم بهم ، وخبرة بما يصلح لهم ويصلحهم : ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ . .

هذا هو الكتاب في ذاته . وقد أورثه الله لهذه الأمة المسلمة ، اصطفاها لهذه الوراثة ، كما يقول هنا في كتابه :

﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ . .

وهي كلمات جديرة بأن توحي لهذه الأمة بكرامتها على الله ؛ كما توحي إليها بضخامة التبعة الناشئة عن هذا الاصطفاء وعن تلك الوراثة . وهي تبعة ضخمة ذات تكاليف ، فهل تسمع الأمة المصطفاة وتستجيب ؟

إن الله سبحانه قد أكرم هذه الأمة بالاصطفاء للوراثة ؛ ثم أكرمها بفضله في الجزاء حتى لمن أساء :

﴿ فمنهم ظالم لنفسه . ومنهم مقتصد . ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ . .

فالفريق الأول ولعله ذكر أولاً لأنه الأكثر عدداً ﴿ ظالم لنفسه ﴾ تربى سيئاته في العمل على حسناته والفريق الثاني وسط ﴿ مقتصد ﴾ تتعادل سيئاته وحسناته . والفريق

الثالث ﴿ سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ ، تربى حسناته على سيئاته . . ولكن فضل الله شمل الثلاثة جميعاً . فكلهم انتهى إلى الجنة وإلى النعيم الموصوف في الآيات التالية . على تفاوت في الدرجات .

ولا ندخل هنا في تفصيل أكثر مما أراد القرآن عرضه في هذا الموضع من كرامة هذه الأمة باصطفائها ، وكرم الله سبحانه في جزائها . فهذا هو الظل الذي تلقيه النصوص هنا ، وهي النهاية التي تنتهي إليها هذه الأمة جميعاً بفضل الله ونطوي ما قد يسبق هذه النهاية من جزاء مقدر في علم الله .

(230/643)

---

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (39)

هذا المقطع الأخير في السورة يشتمل على جولات واسعة المدى كذلك ، ولمسات للقلب وإيحاءات شتى : جولة مع البشرية في أجيالها المتعاقبة ، يخلف بعضها بعضاً . وجولة في الأرض والسماوات للبحث عن أي أثر للشركاء الذين يدعونهم من دون الله . وجولة في السماوات والأرض كذلك لرؤية يد الله القوية القادرة تمسك بالسماوات والأرض أن

تزولا . وجولة مع هؤلاء المكذبين بتلك الدلائل والآيات كلها وهم قد عاهدوا الله من قبل لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، ثم نقضوا هذا العهد وخالفوه فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً . وجولة في مصارع المكذبين من قبلهم وهم يشهدون آثارهم الداثرة ولا يخشون أن تدور عليهم الدائرة وأن تمضي فيهم سنة الله الجارية . . ثم الختام الموحي الموقظ الرهيب : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ . وفضل الله العظيم في إمهال الناس وتأجيل هذا الأخذ المدمر المبيد . .

﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض . فمن كفر فعليه كفره . ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً . ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً ﴾ .



---

إن تتابع الأجيال في الأرض ، وذهاب جيل ومجيء جيل ، ووراثة هذا لذاك ، وانتهاء دولة وقيام دولة ، وانطفاء شعلة واتقاد شعلة . وهذا الدثور والظهور المتواليان على مر الدهور . . إن التفكير في هذه الحركة الدائبة خليق أن يجد للقلب عبرة وعظة ، وأن يشعر الحاضرين أنهم سيكونون بعد حين غابرين ، يتأمل الآتون بعدهم آثارهم ويتذاكرون أخبارهم ، كما هم يتأملون آثار من كانوا قبلهم ويتذاكرون أخبارهم . وجدير بأن يوقظ

الغافلين إلى اليد التي تدير الأعمار ، وتقلب الصولجان ، وتديل الدول ، وتورث الملك ، وتجعل من الجيل خليفة لجيل . وكل شيء يمضي وينتهي ويزول ، والله وحده هو الباقي الدائم الذي لا يزول ولا يحول .

ومن كان شأنه أن ينتهي ويمضي ، فلا يخلد ولا يبقى . من كان شأنه أنه سائح في رحلة ذات أجل ؛ وأن يعقبه من بعده ليرى ماذا ترك وماذا عمل ، وأن يصير في النهاية إلى من يحاسبه على ما قال وما فعل . من كان هذا شأنه جدير بأن يحسن ثواءه القليل ، ويترك وراءه الذكر الجميل ، ويقدم بين يديه ما ينفعه في مثواه الأخير .

هذه بعض الخواطر التي تساور الخاطر ، حين يوضع أمامه مشهد الدثور والظهور ، الطلوع والأفول ، والدول الدائلة ، والحياة الزائلة ، والوراثة الدائبة جيلاً بعد جيل :

﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ . .

وفي ظل هذا المشهد المؤثر المتتابع المناظر ، يذكرهم بفردية التبعة ، فلا يحمل أحد عن أحد شيئاً ، ولا يدفع أحد عن أحد شيئاً ؛ ويشير إلى ما هم فيه من إعراض وكفر وضلال ، وعاقبته الخاسرة في نهاية المطاف :

﴿ فمن كفر فعليه كفره .

ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً . ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً ﴾ .

والمقت أشد البغض. ومن يمقته ربه فأي خسران ينتظره؟ وهذا المقت في ذاته خسران يفوق كل خسران؟!



---

والجولة الثانية في السماوات والأرض، لتقصِّي أي أثر أو أي خبر لشركائهم الذين يدعونهم من دون الله، والسماوات والأرض لا تحس لهم أثراً، ولا تعرف عنهم خبراً:

﴿ قل: أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله؟ أروني ماذا خلقوا من الأرض؟ أم لهم شرك في السماوات؟ أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه؟ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾.

والحجة واضحة والدليل بيّن. فهذه الأرض بكل ما فيها ومن فيها. هذه هي مشهودة منظورة. أي جزء فيها أو أي شيء يمكن أن يدعي مدع أن أحداً غير الله خلقه وأنشأه! إن كل شيء يصرخ في وجه هذه الدعوى لو جرؤ عليها مدع. وكل شيء يهتف بأن الذي أبدعه هو الله؛ وهو يحمل آثار الصنعة التي لا يدعيها مدع، لأنه لا تشبهها صنعة، مما يعمل العاجزون أبناء الفناء!

﴿ أم لهم شرك في السماوات؟ ﴾..

ولا هذه من باب أولى ! فما يجرؤ أحد على أن يزعم لهذه الآلهة المدعاة مشاركة في خلق السماوات . ولا مشاركة في ملكية السماوات . كائنة ما كانت . حتى الذين كانوا يشركون الجن أو الملائكة . . فقصارى ما كانوا يزعمون أن يستعينوا بالشياطين على إبلاغهم خبر السماء . أو يستشفعوا بالملائكة عند الله . ولم يرتق ادعاؤهم يوماً إلى الزعم بأن لهم شركاً في السماء !

﴿ أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ؟ ﴾ . .

(233/643)

---

وحتى هذه الدرجة درجة أن يكون الله قد آتى هؤلاء الشركاء كتاباً فهم مستيقنون منه ، واثقون بما فيه لم يبلغها أولئك الشركاء المزعومون . . والنص يحتمل أن يكون هذا السؤال الإنكاري موجهاً إلى المشركين أنفسهم لا إلى الشركاء فإن إصرارهم على شركهم قد يوحي بأنهم يستمدون عقيدتهم هذه من كتاب أوتوه من الله فهم على بينة منه وبرهان . وليس هذا صحيحاً ولا يمكن أن يدعوه . وعلى هذا المعنى يكون هناك إيحاء بأن أمر العقيدة إنما يتلقى من كتاب من الله بيّن . وأن هذا هو المصدر الوحيد الوثيق . وليس لهم من هذا شيء يدعونه ؛ بينما الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاءهم بكتاب من عند الله بيّن .

فما لهم يعرضون عنه ، وهو السبيل الوحيد لاستمداد العقيدة ؟ !

﴿ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾ . .

والظالمون يعد بعضهم بعضاً أن طريقتهم هي المثلى ؛ وأنهم هم المنتصرون في النهاية . وإن هم إلا مخدوعون مغرورون ، يغر بعضهم بعضاً ، ويعيشون في هذا الغرور الذي لا يجدي شيئاً . .

والجولة الثالثة بعد نفي أن يكون للشركاء ذكر ولا خبر في السماوات ولا في الأرض تكشف عن يد الله القوية الجبارة تمسك بالسماوات والأرض وتحفظهما وتدبر أمرهما بلا شريك :

﴿ إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده . إنه كان حليماً غفوراً ﴾ . .

ونظرة إلى السماوات والأرض ؛ وإلى هذه الأجرام التي لا تحصى منتثرة في ذلك الفضاء الذي لا تعلم له حدود . وكلها قائمة في مواضعها ، تدور في أفلاكها محافظة على مداراتها ، لا تختل ، ولا تخرج عنها ، ولا تبطئ أو تسرع في دورتها ، وكلها لا تقوم على عمد ، ولا تشد بأمراس ، ولا تستند على شيء من هنا أو من هناك . . نظرة إلى تلك الخلائق الهائلة العجيبة جديرة بأن تفتح البصيرة على اليد الخفية القاهرة القادرة التي تمسك بهذه الخلائق وتحفظها أن تزول .

ولئن زالت السماوات والأرض عن مواضعها ، واختلت وتناثرت بدداً ، فما أحد بقادر على أن يمسكها بعد ذلك أبداً . وذلك هو الموعد الذي ضربه القرآن كثيراً لنهاية هذا العالم . حين يختل نظام الأفلاك وتضطرب وتتحطم وتتناثر ؛ ويذهب كل شيء في هذا الفضاء لا يمسك أحد زمامه .

وهذا هو الموعد المضروب للحساب والجزاء على ما كان في الحياة الدنيا . والانتهاء إلى العالم الآخر ، الذي يختلف في طبيعته عن عالم الأرض اختلافاً كاملاً .

ومن ثم يعقب على إمساك السماوات والأرض أن تزولا بقوله :

﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ . .

﴿ حليماً ﴾ يمهل الناس ، ولا ينهي هذا العالم بهم ، ولا يأخذ بنواصيهم إلى الحساب والجزاء إلا في الأجل المعلوم . ويدع لهم الفرصة للتوبة والعمل والاستعداد . ﴿ غفوراً ﴾ لا يؤاخذ الناس بكل ما اجترموا ، بل يتجاوز عن كثير من سيئاتهم ويغفرها متى علم فيهم خيراً . وهو تعقيب موح ينبه الغافلين لاقتناص الفرصة قبل أن تذهب فلا تعود .

والجولة الرابعة مع القوم وما عاهدوا الله عليه ، ثم ما انتهوا بعد ذلك إليه من نقض للعهد ، وفساد في الأرض . وتحذير لهم من سنة الله التي لا تتخلف ، ولا تبديل فيها ولا تحويل :

﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم . فلما

جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً . استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ . .

ولقد كان العرب يرون اليهود أهل كتاب يجاورونهم في الجزيرة ؛ وكانوا يرون من أمر انحرافهم وسوء سلوكهم ما يرون ؛ وكانوا يسمعون من تاريخهم وقتلهم رسلهم ، وإعراضهم عن الحق الذي جاءوهم به . وكانوا إذ ذاك ينحون على اليهود ؛ ويقسمون بالله حتى ما يدعون مجالاً للتشديد في القسم : ﴿ لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ . . يعنون اليهود . يعرضون بهم بهذا التعبير ولا يصرحون !

(235/643)

---

ذلك كان حالهم وتلك كانت أيمانهم .

. يعرضها كأنما يدعو المستمعين ليشهدوا على ما كان من هؤلاء القوم في جاهليتهم . ثم يعرض ما كان منهم بعد ذلك حينما حقق الله أمنيتهم ، وأرسل فيهم نذيراً :

﴿ فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً . استكباراً في الأرض ومكر السيىء ! ﴾ . .

وإنه لقبيح بمن كانوا يقسمون هذه الأيمان المشددة أن يكون هذا مسلكهم : استكباراً في

الأرض ومكر السيئ. والقرآن يكشفهم هذا الكشف، ويسجل عليهم هذا المسلك. ثم يضيف إلى هذه المواجهة الأدبية المزرية بهم، تهديد كل من يسلك هذا المسلك الزري:

﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾..

فما يصيب مكرهم السيئ أحداً إلا أنفسهم؛ وهو يحيط بهم ويحيق ويحبط أعمالهم.

وإذا كان الأمر كذلك فماذا ينتظرون إذن؟ إنهم لا ينتظرون إلا أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم، وهو معروف لهم. وإلا أن تمضي سنة الله الثابتة في طريقها الذي لا يحيد:

﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾..

والأمور لا تمضي في الناس جزافاً؛ والحياة لا تجري في الأرض عبثاً؛ فهناك نواميس ثابتة تتحقق، لا تتبدل ولا تتحول. والقرآن يقرر هذه الحقيقة، ويعلمها للناس، كي لا ينظروا الأحداث فرادى، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصيلة. محصورين في فترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان. ويرفع تصورهم لارتباطات الحياة، وسنن الوجود، فيوجههم دائماً إلى ثبات السنن واطراد النواميس. ويوجه أنظارهم إلى مصداق هذا فيما وقع للأجيال قبلهم؛ ودلالة ذلك الماضي على ثبات السنن واطراد النواميس.

وهذه الجولة الخامسة نموذج من نماذج هذا التوجيه بعد تقرير الحقيقة الكلية من أن سنة الله لا تتبدل ولا تتحول:

﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض . إنه كان عليماً قديراً ﴾ .

(236/643)

---

والسير في الأرض بعين مفتوحة وقلب يقظ ؛ والوقوف على مصارع الغابرين ، وتأمل ما كانوا فيه وما صاروا إليه . . كل أولئك خليق بأن تستقر في القلب ظلال وإيحاءات ومشاعر وتقوى . .

ومن ثم هذه التوجيهات المكررة في القرآن للسير في الأرض والوقوف على مصارع الغابرين ، وآثار الذاهبين . وإيقاظ القلوب من الغفلة التي تسدر فيها ، فلا تقف . وإذا وقفت لا تحس . وإذا أحست لا تعتبر . وينشأ عن هذه الغفلة غفلة أخرى عن سنن الله الثابتة . وقصور عن إدراك الأحداث وربطها بقوانينها الكلية . وهي الميزة التي تميز الإنسان المدرك من الحيوان البهيم ، الذي يعيش حياته منفصلة اللحظات والحالات ؛ لا رابط لها ، ولا قاعدة تحكمها . والجنس البشري كله وحدة أمام وحدة السنن والنواميس .

وأمام هذه الوقفة التي يقفهم إياها على مصارع الغابرين قبلهم وكانوا أشد منهم قوة فلم تعصمهم قوتهم من المصير المحتوم .

أمام هذه الوقفة يوجه حسهم إلى قوة الله الكبرى . القوة التي لا يغلبها شيء ولا يعجزها شيء ; والتي أخذت الغابرين وهي قادرة على أخذهم كالأولين:

(وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض) . .

ويعقب على هذه الحقيقة بما يفسرها ويعرض اسانيدها :

(إنه كان عليماً قديراً) . .

يحيط علمه بكل شيء في السماوات والأرض ; وتقوم قدرته إلى جانب علمه . فلا يند عن علمه شيء , ولا يقف لقدرته شيء . ومن ثم لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض . ولا مهرب من قدرته ولا استخفاء من علمه: (إنه كان عليماً قديراً) . .

الدرس السادس 45 حلم الله بالناس وتأخير حسابهم ليوم القيامة

وأخيراً يجيء ختام السورة , يكشف عن حلم الله ورحمته إلى جانب قوته وقدرته ; ويؤكد أن إمهال الناس عن حلم وعن رحمة , لا يؤثر في دقة الحساب وعدل الجزاء في النهاية:

(ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة . ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى . فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً) . .

إن ما يرتكبه الناس من كفر لنعمة الله , ومن شر في الأرض وفساد , ومن ظلم في الأرض وطغيان . إن هذا كله لفظيع شنيع ولو يؤاخذ الله الناس به , لتجاوزهم - لضخامته وشناعته وبشاعته - إلى كل حي على ظهر هذه الأرض . ولأصبحت الأرض كلها غير صالحة للحياة إطلاقاً . لا لحياة البشر فحسب , ولكن لكل حياة أخرى !

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً (45)

والتعبير على هذا النحو يبرز شناعة ما يكسب الناس وبشاعته وأثره المفسد المدمر للحياة كلها لو آخذهم الله به مؤاخذة سريعة .

غير أن الله حليم لا يعجل على الناس:

(ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) . .

(238/643)

---

يؤخرهم أفراداً إلى أجلهم الفردي حتى تنقضي أعمارهم في الدنيا . ويؤخرهم جماعات إلى أجلهم في الخلافة المقدرة لهم حتى يسلموها إلى جيل آخر . ويؤخرهم جنساً إلى أجلهم المحدد لعمر هذا العالم ومجيء الساعة الكبرى . ويفسح لهم في الفرصة لعلهم

يحسنون صنعاً .

(فإذا جاء أجلهم) . .

وانتهى وقت العمل والكسب , وحان وقت الحساب والجزاء , فإن الله لن يظلمهم شيئاً :

(فإن الله كان بعباده بصيراً) . .

وبصره بعباده كفيل بتوفيتهم حسابهم وفق عملهم وكسبهم , لا تفوت منهم ولا عليهم كبيرة ولا صغيرة .

هذا هو الإيقاع الأخير في السورة التي بدأت بحمد الله فاطر السماوات والأرض . (جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة) يحملون رسالة السماء إلى الأرض . وما فيها من تبشير وإنذار فإما إلى جنة وإما إلى نار . .

وبين البدء والختام تلك الجولات العظام في تلك العوالم التي طوفت بها السورة . وهذه نهاية المطاف . ونهاية الحياة . ونهاية الإنسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 ص 2951.2936 ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة : ﴿ الحمد للهِ فَاطِرِ السموات والأرض ﴾ إشارة إلى إيجاد عاملي اللطافة والكثافة وإلى أن إيجاد عالم اللطافة مقدم على إيجاد عالم الكثافة ، ويشير إلى ذلك ما شاع خلق الله تعالى الأرواح قبل الأبدان بأربعة آلاف سنة ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ في إيصال أو أمره من يشاء من عباده أو وسائط تجري إرادته سبحانه في مخلوقاته على أيديهم ﴿ أُوْلِى أَجْنِحَةٍ مثنى وثلاث ورباع ﴾ إشارة إلى اختلافهم في الاستعداد ﴿ يَزِيدُ فِى الخلق مَا يَشَاء ﴾ [ فاطر : 1 ] عام في الملك وغيره ، وفسرت الزيادة بهبة استعداد رؤيته عز وجل ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [ يونس : 26 ] ﴿ مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ الزيادة المشار إليها وغيرها ﴿ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ [ فاطر : 2 ] فيه إشارة إلى أن رحمته سبحانه سبقت غضبه عز وجل ﴿ وَإِن يُكَذّبُوكَ فَقَدْ كُذّبَتْ رُسُلٌ مّن قَبْلِكَ ﴾ [ فاطر : 4 ] تسلية لحبيبه صلى الله عليه وسلم وإرشاد لورثته إلى الصبر على إيذاء اعدائهم لهم وتكذيبهم إياهم وإنكارهم عليهم ﴿ والله الذى أَرْسَلَ الرياح فَتُثِيرُ سحابا فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [ فاطر : 9 ] جرت سنته تعالى في أحياء الأرض بهذه الكيفية كذلك إذا أراد سبحانه احياء أرض القلب فيرسل أولا رياح الإرادة فتسير سحاب المحبة ثم يأتي مطر الجود

والعناية فينبت في القلب رياحين الروح وأزهار البسط ونوار الأنوار ويطيب العيش .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة فَلِلَّهِ العزة جَمِيعاً ﴾

(240/643)

---

[ فاطر : 10 ] إشارة إلى أن العزة الحقيقية لا تحصل بدون الفناء ، ولا تغفل عن حديث " لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل " الخ ﴿ والله خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ وهو أبعد المخلوقات من الحضرة وأسفلها وأكثفها ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ وفيها نوع ما من اللطافة ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أزواجا ﴾ [ فاطر : 11 ] إشارة إلى ما حصل لهم من ازدواج الروح اللطيف العلوي والقالب الكثيف السفلى وهو مبدأ استعداد الوقوف على عوالم الغيب والشهادة ﴿ وَمَا يَسْتَوِى البحران ﴾ قيل أي بحر العلم الوهبي وبحر العلم الكسبي ﴿ هذا ﴾ أي بحر العلم الوهبي ﴿ عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ﴾ لخلوه عن عوارض الشكوك والأوهام ﴿ وهذا ﴾ أي بحر العلم الكسبي ﴿ مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ لما فيه من مشقة الفكر ومرارة الكسب وعروض الشكوك والتردد والاضطراب ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ إشارات لطيفة تتغذون بها وتتقون على الأعمال ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ وهي الأخلاق الفاضلة والآداب الجميلة والأحوال المستحسنة التي تكسب صاحبها زينة ﴿

وَتَرَى الفلك ﴾ سفن الشريعة والطريقة ﴿ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ جارية ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [ فاطر : 12 ] بالوصول إلى حضرته عز وجل فعل ذلك ﴿ خَبِيرٍ يا أيها الناس أَنتُمُ الفقراء إِلَى الله ﴾ في سائر شؤونكم ، ومراتب الفقر متغاوتة وكلما ازداد الإنسان قرباً منه عز وجل ازداد فقره إليه لازدياد المحبة حينئذ وكلما زاد العشق زاد فقر العاشق إلى المعشوق حتى يفني ﴿ والله هُوَ الغنى الحميد ﴾ [ فاطر : 15 ] فيه من البشارة ما فيه ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [ فاطر : 28 ] أي العلماء به تعالى وبشؤونه فهم كلما ازدادوا علما ازدادوا خشية لما يظهر لهم من عظمته عز وجل وأنهم بالنسبة إليه تعالى شأنه لا شيء ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ



---

لّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات بِإِذُنِ الله ﴾ [ فاطر : 32 ] قيل : الظالم لنفسه السالك والمقتصد السالك المجذوب والسابق المجذوب السالك ، والسالك هو المتقرب والمجذوب هو المقرب والمجذوب السالك هو المستهلك في كمالات القرب الفاني عن نفسه الباقي بربه عز وجل ﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ حزن تخيل الهجر فلا حزن للعاشق أعظم من حزن تخيل هجر معشوقه له وجفوته إياه ﴿ إِنَّ رَبَّنَا

لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [ فاطر : 34 ] فلا بدع إذا أذهب عنا ذلك وآمننا من القطيعة والهجران ﴿ الذى أَحَلَّنَا دَارَ المقامة مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ هو نصب الأبدان وتعبها من أعمال الطاعة للتقرب إليه سبحانه ﴿ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [ فاطر : 35 ] هو لغوب القلوب واضطرابها من تخيل القطيعة والرد وهجر الحبيب ، وقيل : لا يسمنا فيها نصب السعي في تحصيل أي أمر اردناه ولا يمسنا فيها لغوب تخيل ذهاب أي مطلوب حصلناه ، وقد أشاروا إلى أن كل ذلك من فضل الله تاعلى والله عز وجل ذو الفضل العظيم ، هذا ونسأل الله تعالى من فضله الحلو ما تنشق منه مرارة الحسود وينفطر به قلب كل عدو وينتعش فؤاد كل محب ودود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

*(242/643)*

---

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1)

الإعراب :

(للّه) متعلّق بخبر المبتدأ الحمد (جاعل) نعت ثان للفظ الجلالة مجرور (رسلا) مفعول به لاسم الفاعل جاعل " 1 " ، (أولي) نعت لـ (رسلا) منصوب ، وعلامة النصب الياء ، ملحق بجمع المذكّر (مثنى) نعت لأجنحة مجرور ، وعلامة الجرّ الفتحة المقدّرة على الألف ،ممنوع من الصرف ، صفة معدولة ، وكذلك (ثلاث ، رباع) ، (في الخلق) متعلّق بـ (يزيد) " 2 " ، (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (على كلّ) متعلّق بـ (قدير) .

---

(1) يجوز أن يكون حالا إذا فسّر (جاعل) بمعنى خالق .

(2) أو هو في موضع المفعول الثاني .



---

جملة : " الحمد للّه . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " يزيد . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إنّ اللّه . . قدير . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

البلاغة

معنى الزيادة : في قوله تعالى "يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ" :

خير ما قيل في هذه الآية ، ما أورده الزمخشري في كشافه : " و الآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق ، من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام في الأعضاء ، وقوة في البطش ، وحصافة في العقل ، وجزالة في الرأي ، وجراءة في القلب ، وسماحة في النفس ، وذلاقة في اللسان ، ولباقة في التكلم ، وحسن تأنّ في مزاولة الأمور ، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف " .

الفوائد

1 - مفعل وفعال .

تصاغ من الأعداد من واحد إلى عشرة صيغتان ممنوعتان من الصرف هما :



---

مفعل وفعال . فنقول : موحد وأحاد ، ومثنى وثناء ، ومثلث وثلاث . . إلخ . وسبب المنع أن هذه الأعداد صفات معدولة .

2 - قوله تعالى جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ وقوله تعالى في سورة النساء فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ : قال النحاة والمفسرون : (الواو) بمعنى (أو) ، لكن ابن هشام عقّب على قولهم بقوله : لا يعرف ذلك في اللغة ، وإنما

يقوله بعض ضعفاء المعربين والمفسرين . وأما الآية فقال أبو طاهر حمزة بن الحسين الأصفهاني ، في كتابه المسمّى بـ " الرسالة المعربة عن شرف الإعراب " : القول فيها بأن الواو بمعنى (أو) عجز عن درك الحق ، فاعلموا أن الأعداد التي تجمع قسمان : قسم يؤتى به ليضم بعضه إلى بعض ، وهو الأصول كقوله تعالى ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وقسم يؤتى به لا ليضم بعضه إلى بعض ، وإنما يراد به الانفراد ، لا الاجتماع ، وهو الأعداد المعدولة ، كآية النساء وآية فاطر الآنفتي الذكر . وقال : أي منهم جماعة ذوو جناحين ، وجماعة ذوو ثلاثة ثلاثة ، وجماعة ذوو أربعة أربعة فكل جنس مفرد بعدد .

[سورة فاطر (35) : آية 2]

ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2)

الإعراب :

(ما) اسم شرط جازم في محلّ نصب مفعول به مقدّم (يفتح) مجزوم وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (للناس) متعلّق بـ (يفتح)، (من رحمة) متعلّق بحال من (ما) "1" (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية للجنس (لها) متعلّق بخبر لا (الواو) عاطفة (ما يمسك فلا مرسل له) مثل ما يفتح.. فلاممسك لها (من بعده) متعلّق بالخبر المحذوف "2"، (الواو) استئنافيّة (الحكيم) خبر ثان مرفوع.

جملة: "يفتح اللّه..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لاممسك لها..." في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: "يمسك..." لا محلّ لها معطوفة على جملة يفتح.

وجملة: "لا مرسل له..." في محلّ جزم جواب الشرط الثاني مقترنة بالفاء.

وجملة: "هو العزيز..." لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) أو تمييز له. [.....]

(2) لم يعلّق الظرف باسم الفاعل (مرسل)، لأن اسم (لا) النافية للجنس المبنيّ لا يعمل وهو الرأي الغالب - ولكن يتسامح بالظرف ما لا يتسامح بغيره، فلا مانع من التعليق باسم الفاعل.

(أنّى) اسم استفهام في محلّ نصب على الظرفيّة المكانيّة متعلّق بـ (تؤفكون) ، و(الواو) فيه نائب الفاعل .

جملة النداء : " يأيّها . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اذكروا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " هل من خالق غير اللّه . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يرزقكم . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " لا إله إلّا هو . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تؤفكون . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كان هذا هو الحقّ فأنّى تؤفكون . . .

(4) - (الواو) عاطفة (الفاء) لربط الجواب بالشرط (قد) حرف تحقيق (رسل) نائب الفاعل مرفوع (من قبلك) متعلّق بنعت لرسل " 2 " ، (الواو) عاطفة (إلى اللّه) متعلّق بـ (ترجع) ، (الأمور) نائب الفاعل مرفوع .

وجملة : " يكذّبوك . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة النداء .

وجملة : "كذّبت رسل . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " ترجع الأمور . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يكذّبوك .

[سورة فاطر (35) : الآيات 5 إلى 7]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5) إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ (6) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7)

---

(1) أو في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ خالق.

(2) أو متعلّق بـ (كذّبت).



---

الإعراب:

(يأيّها الناس) مرّ إعرابها " 1 "، (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (لا) ناهية جازمة في الموضعين (تغرّنكم) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم، ومثله (يغرّنكم)، (بالّله) متعلّق بـ (يغرّنكم)، و(الباء) سببيّة بحذف مضاف أي بسبب حلم الله.

جملة: " يأيّها الناس.. " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " إنّ وعد اللّه حقّ... " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " لا تغرّنّكم الحياة... " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي: تنبهوا فلا

تغرّنكم . . . " 2 " .

وجملة : " لا يغرّنّكم باللّه الغرور . . " معطوفة على جملة لا تغرّنّكم الحياة . . .

(6) (لكم) متعلّق بحال من عدو (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (عدوّا) مفعول به ثان منصوب ، (من أصحاب) متعلّق بخبر يكونوا .

---

(1) في الآية (3) من هذه السورة .

(2) أو هي جواب شرط مقدّر أي : إن أردتم الفوز بوعد اللّه فلا تغرّنّكم الحياة .



---

وجملة : " إنّ الشيطان لكم عدوّ . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز جواب النداء .

وجملة : " اتّخذوه . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن وعيتم ذلك فاتّخذوه . . أو إن أردتم النجاة من النار فاتّخذوه . .

وجملة : " يدعو . . . . " لا محلّ لها تعليل لما سبق .

وجملة : " يكونوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

والمصدر المؤوّل (أن يكونوا . . . ) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يدعو) .

(7) (لهم) متعلّق بخبر مقدّم في الموضعين للمبتدأين عذاب ومغفرة (أجر) معطوف على

مغفرة بالواو مرفوع.

وجملة: "الذين كفروا.." لا محلّ لها استئناف في حيّز جواب النداء.

وجملة: "كفروا.." لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول.

وجملة: "لهم عذاب.." في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين).

وجملة: "الذين آمنوا..." لا محلّ لها معطوفة على جملة الذين كفروا...

وجملة: "آمنوا..." لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني.

وجملة: "عملوا..." لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا.

وجملة: "لهم مغفرة..." في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) الثاني.

[سورة فاطر (35) : آية 8]

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (8)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) استئنافيّة (من) اسم موصول في محلّ رفع مبتدأ، والخبر محذوف تقديره كمن هداه اللّه (له) متعلّق بـ (زيّن)، (سوء) نائب الفاعل مرفوع (حسنا) مفعول به ثان منصوب (الفاء) استئنافيّة (من) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به في الموضعين (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (عليهم) متعلّق بـ (تذهب)، (حسرات) مصدر في موضع الحال منصوب "1"، وعلامة النصب الكسرة (ما) حرف مصدريّ "2".

---

(1) أو مفعول لأجله منصوب.

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بعليم، والعائد محذوف.



---

والمصدر المؤوّل (ما يصنعون...) في محلّ جرّ بـ (الباء) متعلّق بعليم.

جملة: "من زيّن له سوء.." لا محلّ لها استئنافية.

وجملة: "زيّن له سوء.." لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول.

وجملة: "رآه..." لا محلّ لها معطوفة على جملة زيّن..

وجملة: "إنّ اللّه يضلّ..." لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة.

وجملة : " يضل . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " يهدي . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يضلّ .

وجملة : " يشاء (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثالث .

وجملة : " لا تذهب نفسك . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن عذّبوا فلا تذهب . . .

وجملة : " إنّ الله عليم . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يصنعون . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

البلاغة

فن الإيغال : في قوله تعالى " فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ " .



---

وفن الإيغال ، هو الإتيان بكلام يعتبر بمثابة التتمة لكلام سبقه احتياطا ، فقد أقسم الّله بحياة الرسول أكثر من مرة على أن الذين أعرضوا عنه وخالفوه قد تجاوزوا كل حدّ بإعراضهم ، ودللوا على أنهم مفرطون في الغباوة ، موغلون في الضلال ، كما قال تعالى في

أكثر من موضع " لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ " وقوله أيضا " وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ "

[سورة فاطر (35) : آية 9]

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (9)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (الفاء) عاطفة في المواضع الثلاثة " 1 " ، (إلى بلد) متعلّق بـ (سقناه) ، (به) متعلّق بـ (أحيينا) ، (بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ (أحيينا) ، وهو للزمان (كذلك) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (النشور) .

جملة: " اللّه الذي ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " أرسل .. " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة: " تثير ... " لا محلّ لها معطوفة على صلة الموصول " 2 " .

وجملة: " سقناه ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة تثير.

وجملة: " أحيينا ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة سقناه ..

وجملة: " كذلك النشور .. " لا محلّ لها استئنافيّة مقرّرة لمضمون ما سبق.

البلاغة

1 – الالتفات : في قوله تعالى " وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ " .

التفاتان : الأول : حيث أخبر بالفعل المضارع عن الماضي ، فقد قال : " فتثير " مضارع ، وما قبله وما بعده ماض ، ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية ، بحال تستغرب ، أو تهمّ المخاطب ، أو غير ذلك .

والالتفات الثاني : في قوله " فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا " .

ولو جرى على نمط الكلام لقال فسقى وأحيا ، ولكنه عدل بهما عن لفظ الغيبة إلى لفظ التكلم ، وهو أدخل في الاختصاص وأدل عليه . وإنما عبر بالماضيين بعد

---

(1) وفي (سقناه) التفات من الغيبة إلى المتكلّم .

(2) والعائد محذوف أي تثير الرياح بإرادته .



---

المضارع للدلالة على التحقق .

2 – التشبيه المرسل : في قوله تعالى " كَذَلِكَ النُّشُورُ " .

تشبيه مرسل ، لوجود الأداة ، أي كمثل إحياء الموات نشور الأموات ، في صحة المقدورية ،

أو في كيفية الإحياء .

[سورة فاطر (35) : آية 10]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (10)

الإعراب :

(من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (كان) ماض ناقص - ناسخ - في محلّ جزم فعل الشرط ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (للّه) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ العزّة (جميعا) حال منصوبة من العزّة الثاني أي في الدنيا والآخرة (إليه) متعلّق بـ (يصعد) ، (الواو) عاطفة (العمل) مبتدأ مرفوع " 1 " ، وفاعل (يرفعه) ضمير يعود على لفظ الجلالة " 2 " ، وضمير الغائب يعود على العمل (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ عذاب (السيّئات) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته " 3 " ، أي يمكرون المكرات السيّئات (هو) ضمير منفصل مبتدأ خبره جملة يبور .

جملة : " من كان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كان يريد . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

---

(1) أو معطوف على الكلم ، وجملة يرفعه حال من العمل ، أو استئناف بيانيّ .

(2) أو يعود على العمل، وضمير الغائب يعود على الكلم الطيّب.

(3) وإذا ضمّن الفعل (يمكرون) معنى يكسبون، فالسيّئات مفعول به.

(253/643)

---

وجملة: "يريد ... " في محلّ نصب خبر كان.

وجملة: "للّه العزّة ... " لا محلّ لها تعليل للجواب المقدّر أي:

من كان يريد العزّة فليطلبها من عند اللّه.

وجملة: "يصعد .. " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "العمل الصالح يرفعه .. " لا محلّ لها معطوفة على جملة يصعد " 1 ".

وجملة: "يرفعه ... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (العمل).

وجملة: "الذين يمكرون .. " لا محلّ لها معطوفة على جملة من كان ..

وجملة: "يمكرون .. " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "لهم عذاب .. " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين).

وجملة: "مكر أولئك .. " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "هو يبور .. " في محلّ رفع خبر المبتدأ " مكر ".

وجملة : " يبور " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) .

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى " إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ " .

صعود الكلم إليه تعالى مجاز مرسل عن قبوله بعلاقة اللزوم ، أو استعارة بتشبيه القبول بالصعود ، ويجوز أن يجعل الكلم مجازا عما كتب فيه بعلاقة الحلول .

[سورة فاطر (35) : الآيات 11 إلى 12]

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (11) وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12)

---

(1) يجوز أن تكون حالا من الكلم .

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من تراب) متعلّق بـ (خلقكم) ، وكذلك (من نطفة) فهو معطوف على الأول (أزواجا) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (ما) نافية (أنثى) مجرور لفظا ومرفوع محلّا فاعل تحمل (إلّا) للحصر (بعلمه) متعلّق بحال من أنثى أي : إلّا متلبّسة بعلمه أو إلّا معلوما حملها له (الواو) عاطفة (ما) مثل الأولى (معمّر) مجرور لفظا مرفوع محلّا نائب الفاعل ، ونائب الفاعل لفعل (ينقص) ضمير يعود على معمّر (من عمره) متعلّق بـ (ينقص) ، (إلّا في كتاب) مثل إلّا بعلمه ، والحال من معمّر أو من عمر (على اللّه) متعلّق بـ (يسير) .

جملة : " اللّه خلقكم . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلقكم . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " جعلكم . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة خلقكم .

وجملة : " تحمل من أنثى . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " تضع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تحمل .

وجملة : " يعمر من معمّر . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تحمل أو على الاستئناف .

وجملة : " ينقص . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعمّر .

وجملة : " إنّ ذلك . . يسير " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة (12) (الواو) عاطفة في المواضع السّتّة (ما) نافية (سائغ) خبر آخر

مرفوع " 1 " ، (شرابه) فاعل لاسم الفاعل سائغ ، (من كلّ) متعلّق بـ (تأكلون) ، (فيه) متعلّق بمواخر " 2 " ، (اللام) للتعليل (تبتغوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (من فضله) متعلّق بـ (تبتغوا) . . .

والمصدر المؤوّل (أن تبتغوا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (مواخر) .

وجملة : " ما يستوي البحران . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " هذا عذب . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " هذا ملح . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة هذا عذب .

وجملة : " تأكلون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما يستوي . . " 3 " .

وجملة : " تستخرجون . . . " معطوفة على جملة تأكلون تأخذ إعرابها .

وجملة : " تلبسونها . . " في محلّ نصب نعت لحلية .

وجملة : " ترى . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " تبتغوا . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " لعلّكم تشكرون . . " لا محلّ لها معطوفة على تعليل مقدّر أي لعلّكم ترزقون ولعلّكم تشكرون . .

وجملة : " تشكرون . . " في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(معمّر) ، اسم مفعول من الرباعيّ عمّر ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين .

---

(1) أو هو خبر مقدّم للمبتدأ (شرابه) والجملة خبر هذا . . [. . . . .]

(2) أو متعلّق بـ (ترى) .

(3) أو معطوفة على جملة الحال في محلّ نصب .

(255/643)

---

البلاغة

1 - الكلام المتسامح فيه : في قوله تعالى " وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ " .

الإنسان إما معمر أي طويل العمر : أو منقوص العمر ، أي قصير ، فأما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال ، ولذلك صح قوله " وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ " ، فهذا من الكلام المتسامح فيه ، ثقة في تأويله بأفهام السامعين ، واتكالا على تسديدهم معناه بعقولهم ، وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد ، وعليه كلام الناس المستفيض . يقولون :

لا يثيب اللّه عبدا ولا يعاقبه إلا بحق . وما تنعمت بلدا ولا اجتويته إلا قل فيه ثوائي ، أي :

كرهت المقام به .

2 - التمثيل : في قوله تعالى " وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ " .

ويسميه بعضهم الاستعارة التمثيلية ، وهو تركيب استعمل في غير موضعه ، لعلاقة المشابهة ، وليس فيه ذكر للمشبه ولا لأداة التشبيه . وهذا مثال يوضحه ، وهو قولهم :

"



---

أنت تضرب في حديد بارد " فقد شبهت حال من يلح في الحصول على شيء يتعذر تحقيقه ، بحال من يضرب حديدا باردا ، بجامع أن كلّا منهما يكون عملا لا يرجى من ورائه أثر وليس في هذا التركيب ذكر للمشبه ولا لأداة التشبيه ، فهو إذن استعارة تمثيلية ، لأنه تركيب استعمل في غير ما وضع له ، والمشابهة ظاهرة بين المعنيين المجازي والحقيقي .

وهذا النوع يكثر في الأمثال السائرة النثرية والشعرية ، كقولهم : " إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا " يضرب لمن يتطاول عليك ، أو للقوي يقع فيمن هو أقوى منه وأعنف .

والمخاطب لم يكن ريحا ولم يلاق إعصارا .

[سورة فاطر (35) : الآيات 13 إلى 14]

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14)

الإعراب:

(في النهار) متعلّق بـ (يولج)، وكذلك (في الليل)، وفاعل يولج في الموضعين، وفاعل (سخر) يعود على الله (لأجل) متعلّق بـ (يجري)، والإشارة في (ذلكم) إلى المتّصف بالصفات السابقة، مبتدأ خبره الأول الله، وخبره الثاني ربّكم (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ الملك.. والجملة خبر ثالث (الواو) عاطفة (من دونه) حال من مفعول تدعون المقدّر (ما) نافية (قطمير) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به.

جملة: "يولج الليل..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يولج النهار..." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "سخّر..." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة : "كلّ يجري . . " في محلّ نصب حال من الشمس والقمر .

وجملة : "يجري . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (كلّ) " 1 " .

وجملة : " ذلكم اللّه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " الذين تدعون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ذلكم اللّه .

وجملة : " تدعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ما يملكون . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

(14) (لا) نافية (يسمعوا) مضارع مجزوم جواب الشرط (لو) حرف شرط

---

(1) جاء (كلّ) مبتدأ على نيّة الإضافة أي كلّ واحد منهما ، فالتنوين فيه عوض من كلمة .



---

غير جازم (ما) نافية (لكم) متعلّق بـ (استجابوا) (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يكفرون) ، وكذلك (بشرككم) ، (الواو) استئنافيّة (لا) نافية . . .

وجملة : " تدعوهم . . . " لا محلّ لها تعليليّة - أو استئناف بيانيّ - وجملة : " لا يسمعوا . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة: "سمعوا . . . " لا محل لها معطوفة على جملة تدعوهم.

وجملة: " ما استجابوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "يكفرون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تدعوهم.

وجملة: "لا ينبّئك مثل خبير . . " لا محلّ لها استئنافيّة . .

الصرف:

(قطمير)، اسم لما يغلّف نواة التمر من قشر . . أو هو شقّ النواة - وهو اختيار المبرّد - وزنه فعليل.

فوائد

من أنواع (لو):

من أنواع (لو) ما لا يعقل فيه بين الجزأين ارتباط مناسب، وهو قسمان:

1 - ما يراد فيه تقرير الجواب، وجد الشرط أو فقد، ولكنه مع فقده أولى. وذلك كالأثر عن عمر رضي اللّه عنه: "نعم العبد صهيب لو لم يخف اللّه لم يعصه" فإنه يدل على تقرير عدم العصيان على كل حال، وعلى أن انتفاء المعصية مع ثبوت الخوف أولى، وإنما لم تدل على انتفاء الجواب لأمرين:

أحدهما : أن دلالتها على ذلك إنما هو من باب مفهوم المخالفة. وفي هذا الأثر دل مفهوم الموافقة على عدم المعصية ، لأنه إذا انتفت المعصية عند عدم الخوف فعند الخوف أولى ، وإذا تعارض هذان المفهومان قدم مفهوم الموافقة.

الثاني : لما فقدت المناسبة انتفت العلّيّة ، فلم يجعل عدم الخوف علة عدم المعصية ، فعلمنا أن عدم المعصية ، معلل بأمر آخر ، وهو الحياء والإعظام ، وذلك مستمر مع الخوف ، فيكون عدم المعصية عند عدم الخوف مستندا إلى ذلك السبب

وحده ، وعند الخوف مستندا إليه فقط ، أو إليه وإلى الخوف. وعلى ذلك تتخرج آية لقمان وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ لأن العقل يجزم بأن الكلمات إذا لم تنفد مع كثرة هذه الأمور فلأن لا تنفد مع قلتها أولى. وكذا في الآية التي نحن بصددها وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ لأن عدم الاستجابة عند عدم السماع أولى ، وكذا وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا فإن التولي عند عدم الإسماع أولى.

2 - أن يكون الجواب مقررا على كل حال ، من غير تعرض لأولوية ، نحو (وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ) ، فهذا وأمثاله يعرف ثبوته بعلة أخرى مستمرة على التقديرين ، والمقصود في هذا القسم تحقيق ثبوت الثاني ، وأما الامتناع في الأول فإنه وإن كان حاصلا لكنه ليس المقصود.

ويتضح من خلال ذلك فساد قول القائل بأن (لو) حرف امتناع لامتناع، وأن العبارة الجيدة قول سيبويه رحمه اللّه " حرف لما كان سيقع لوقوع غيره " .

[سورة فاطر (35) : الآيات 15 إلى 18]

*(260/643)*

---

يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17) وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (18)

الإعراب :

(يا أيها الناس) مرّ إعرابها " 1 " ، (إلى اللّه) متعلّق بالفقراء (هو) ضمير فصل (الغنيّ) خبر المبتدأ اللّه.

جملة : " يا أيها الناس . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) في الآية (3) من هذه السورة.

وجملة : " أنتم الفقراء . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اللّه . . الغنيّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

(16) (بخلق) متعلّق بـ (يأت) . .

وجملة : " يشأ . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز النداء .

وجملة : " يذهبكم . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " يأت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يذهبكم .

(17) (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (على اللّه) متعلّق بعزيز (عزيز) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما .

وجملة : " ما ذلك . . بعزيز " لا محلّ لها معطوفة على جملة يشأ .

(18) (الواو) عاطفة (لا) نافية (وازرة) فاعل مرفوع على حذف موصوف أي نفس وازرة (وزر) مفعول به منصوب (أخرى) مضاف إليه مجرور وعلى حذف موصوف أي نفس أخرى (مثقلة) فاعل تدع وعلى حذف موصوف أي نفس مثقلة (إلى حملها) متعلّق بـ (تدع)، ومفعول تدع محذوف أي تدع نفس نفسا (لا) نافية (يحمل) مضارع مجزوم جواب الشرط مبنيّ للمجهول (منه) متعلّق بـ (يحمل)، (شيء) نائب الفاعل (الواو) حاليّة (لو) حرف شرط غير جازم، واسم (كان) ضمير يعود على المدعو المفهوم من سياق الكلام (ذا) خبر كان منصوب "1"، (إنّما) كافّة ومكفوفة (بالغيب) حال من المفعول - أو الفاعل - (الواو) استئنافيّة - أو عاطفة - (تزكّى) فعل ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّما) مثل الأولى (لنفسه) متعلّق بحال من فاعل يتزكّى (الواو) عاطفة (إلى اللّه) خبر مقدّم....

---

(1) أجاز العكبريّ أن يكون حالا من فاعل كان التامّة.



---

وجملة: "لا تزر وازرة.." لا محلّ لها معطوفة على جملة يشأ.

وجملة: "تدع مثقلة..." لا محلّ لها معطوفة على جملة يشأ.

وجملة: "لا يحمل منه شيء .. "لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء.

وجملة: "كان ذا قربى ... "في محلّ نصب حال .. وجواب الشرط. محذوف دلّ عليه ما قبله.

وجملة: "إنّما تنذر ... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يخشون .. "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "أقاموا ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: "من تزكّى ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّما تنذر ...

وجملة: "تزكّى ... "في محلّ رفع خبر المبتدأ (من).

وجملة: "يتزكى ... "في محلّ جزم جواب الشرط ..

وجملة: "إلى اللّه المصير ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة من تزكّى.

الصرف:



---

(18) مثقلة: مؤنّث مثقل، اسم مفعول من الرباعيّ أثقل، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين.

(حملها) ، اسم لما يحمل ، الجمع أحمال زنة أفعال حمولة زنة فعولة بضمّ الفاء .

البلاغة

1 - المبالغة : في قوله تعالى " أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ " .

عرّف الفقراء للمبالغة في فقرهم ، كأنهم لكثرة افتقارهم ، وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب ، وأن افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم .

ولذلك قال تعالى " وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً " .

2 - جناس الاشتقاق : في قوله تعالى " وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى " .

فالجناس بين تزر ووازرة ووزر . والوزر كما في المصباح الإثم . والوزر الثقل أيضا ومنه يقال وزر يزر من باب وعد إذا حمل الإثم .

[سورة فاطر (35) : الآيات 19 إلى 23]

وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ (19) وَلا الظُّلُماتُ وَلا النُّورُ (20) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (21) وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22) إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (23)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (لا) زائدة لتأكيد النفي في المواضع الخمسة " 1 " ، (الظلمات ، النور الظل ، الحرور) ألفاظ معطوفة بحروف العطف على الأعمى والبصير كلّ بما يقابله

(ما) مثل الأولى (الأموات) معطوف على الأحياء (ما) الثالثة نافية عاملة عمل ليس

(مسمع) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما (في القبور) متعلّق بمحذوف صلة من.

(إن) نافية (إلّا) للحصر (نذير) خبر المبتدأ أنت.

جملة: "ما يستوي الأعمى.." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ما يستوي الأحياء.." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "إنّ اللّه يسمع.." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يسمع من يشاء..." في محلّ رفع خبر إنّ.

---

(1) قيل الزوائد قبل (النور، الحرور، الأموات)، وغير زوائد قبل (الظلمات، الظلّ) لأنهما فاعلان لفعلين محذوفين.

(265/643)

---

وجملة: "يشاء.." لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "ما أنت بمسمع.." لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ اللّه يسمع.

وجملة: "إن أنت إلّا نذير.." لا محلّ لها تعليليّة - أو استئناف بيانيّ -

الصرف:

(الحرور) ، مصدر حرّ يحرّ باب ضرب وباب نصر وهو اشتداد حرّ الشمس وغيره ، أو هو اسم للريح الحارة. قال أبو عبيدة:

أخبرنا رؤبة أن الحرور بالنهار والسموم بالليل - واللفظ مؤنّث وزنه فعول بفتح الفاء.

البلاغة

التمثيل والطباق: في قوله تعالى "الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ".

مثل للمؤمن والكافر والظلمات والنور ، مثل للحق والباطل وكذلك الظل والحرور والأحياء والأموات ، مثل للذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه وأصروا على الكفر.

[سورة فاطر (35) : الآيات 24 إلى 26]

إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ (24) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ (25) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (26)

الإعراب:

(إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (بالحقّ) متعلّق بحال من المفعول أو من الفاعل (بشيرا) حال من المفعول منصوبة (الواو) عاطفة (إن) حرف نفي (أمّة) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ - معتمد على نفي - (إلّا) للحصر (فيها) متعلّق بـ (خلا).

جملة: "إنّا أرسلناك.." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " أرسلناك . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " إن من أمّة إلّا خلا . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " خلا فيها نذير . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أمّة . . ) .

(25) (الواو) عاطفة (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (من قبلهم) متعلّق بمحذوف صلة الذين (بالبيّنات) متعلّق بحال من رسلهم (بالزبر ، بالكتاب) متعلّقان بما تعلّق به الجارّ الأول .

وجملة : " يكذّبوك . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّا أرسلناك .

وجملة : " قد كذّب الذين . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " جاءتهم رسلهم . . " في محلّ نصب حال من الموصول .

(26) (الفاء) عاطفة (كيف) اسم استفهام للتقرير في محلّ نصب خبر كان (نكير) اسم كان مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم المحذوفة لمناسبة فواصل الآيات . . و(الياء) المحذوفة مضاف إليه .

وجملة : " أخذت . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة كذّب الذين . .

وجملة: "كفروا... "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "كان نكير.. " معطوفة على جملة أخذت الذين.. لأن الاستفهام هنا تقريريّ

أي: عاقبت الذين كفروا فكان إنكاريّ في محلّه...

[سورة فاطر (35) : الآيات 27 إلى 28]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)

الجدول ج 22، ص: 269

الإعراب:

(267/643)

---

(الهمزة) للاستفهام التقريريّ (من السماء) متعلّق ب (أنزل) " 1 "، (به) متعلّق ب (أخرجنا)

و (الباء) سببيّة (مختلفا) نعت لثمرات منصوب (ألوانها) فاعل لاسم الفاعل (مختلفا)،

(الواو) عاطفة (من الجبال) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ جدد (بيض، حمر، مختلف) نعوت

لجدد مرفوع مثله (ألوانها) الثانية فاعل لاسم الفاعل مختلف (غرابيب) معطوف على بيض

" 2 " ، (سود) بدل من غرابيب أو عطف بيان على نيّة التأكيد .

جملة : " تر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنزل . . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه أنزل . . . ) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ترى .

وجملة : " أخرجنا . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أنزل " 3 " .

وجملة : " من الجبال جدد . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(28) و(الواو) عاطفة (من الناس) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ مختلف بحذف موصوف أي صنف مختلف ألوانه . . (ألوانه) فاعل لاسم الفاعل مختلف (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله مختلف (إنّما) كافّة ومكفوفة (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به مقدّم (من عباده) متعلّق

---

(1) أو بمحذوف حال من ماء .

(2) أو على جدد .

(3) وفي الكلام التفات من ضمير الغيبة إلى المتكلّم .

بحال من الفاعل المؤخّر العلماء . . .

وجملة : " من الناس . . . مختلف . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " يخشى اللّه . . . العلماء . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ اللّه عزيز . . . " لا محلّ لها في حكم التعليل .

الصرف :

(جدد) ، جمع جدّة اسم للطريقة ، وقال بعضهم هو مفرد بمعنى الطريق الواضحة وقد وضع المفرد موضع الجمع . . ووزن جدّة فعلة بضمّ فسكون ، ووزن جدد فعل بضمّ ففتح .



---

(بيض) ، جمع أبيض زنة أفعل اسم للون المعروف أو صفة له ، والأصل في بيض أن يكون على وزن فعل بضمّ فسكون – مفرده أفعل – ثمّ كسرت الباء لمناسبة الياء فقيل بيض .

(حمر) ، جمع أحمر زنة أفعل ، ووزن حمر فعل بضمّ فسكون ، الجمع القياسيّ للصفة التي على أفعل .

(غرابيب) ، جمع غربيب ، اسم بمعنى الأسود الفاحم المتناهي في السواد ، وزنه فعليل

بكسر الفاء ووزن غرابيب فعاليل .

(سود) ، جمع أسود زنة أفعل ، ووزن سود فعل بضمّ فسكون ، والجمع قياسيّ شأنه شأن

بيض وحمر .

البلاغة

1 - الالتفات : في قوله تعالى " فَأَخْرَجْنا بِهِ " .

فقد التفت عن الغيبة إلى التكلم ، لإظهار كمال الاعتناء بالفعل ، لما فيه من الصنع البديع ،

المنبئ عن كمال القدرة والحكمة .

2 - التدبيج : في قوله تعالى " وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ

سُودٌ " .

والتدبيج : هو أن يذكر المتكلم ألوانا ، يقصد الكناية بها ، والتورية بذكرها ، عن

*(270/643)*

---

أشياء من وصف أو مدح أو هجاء أو نسيب أو غير ذلك من الفنون ، وقد أراد اللّه بذلك

الكناية عن المشتبه من الطرق ، لأن الجادة البيضاء هي الطريق التي كثر السلوك عليها جدا

، وهي أوضح الطرق وأبينها ، يأمن فيها المتعسف ، ولا يخاف اجتيازها الموغل في

الاسفار ، والممعن في افتراش صعيد المغاور ولهذا قيل : ركب بهم المحجة البيضاء ، ودونها الحمراء ، ودون الحمراء السوداء ، كأنها في خفائها والتباس معالمها ضد البيضاء في الظهور والوضوح ، ولما كانت هذه الألوان الثلاثة في الظهور للعين طرفين وواسطة بينهما ، فالطرف الأعلى في الظهور البياض ، والطرف الأدنى في الخفاء السواد ، والأحمر بينهما ، على وضع الألوان والتراكيب ، وكانت ألوان الجبال لا تخرج ، في الغالب ، عن هذه الألوان الثلاثة ، أتت الآية الكريمة على هذا التقسيم ، فحصل فيها التدبيج ، مع صحة التقسيم وهي مسرودة على نمط متعارف ، مسوقة للاعتداد بالنعم ، على ما هدت إليه من السعي في طلب المصالح والمنافع ، وتجنب المعاطب والمهالك الدنيوية والأخرويه .

3 – العدول إلى الاسمية : في قوله تعالى " وَمِنَ النَّاسِ " وفي قوله تعالى قبلها " وَمِنَ الْجِبالِ " : إيراد الجملتين اسميتين ، مع مشاركتهما لما قبلهما من الجملة الفعلية ، في الاستشهاد بمضمونها ، على تباين الناس في الأحوال الباطنة ، لما أن اختلاف الجبال والناس والدواب والأنعام ، فيما ذكر من الألوان أمر مستمر ، فعبّر عنه بما يدل على الاستمرار وأما إخراج الثمرات المختلفة ، فحيث كان أمرا حادثا ، عبر عنه بما يدل على الحدوث .

4 – التقديم والتأخير والحصر : في قوله تعالى " إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ " لحصر الخشية بالعلماء ، كأنه قيل : إن الذين يخشون اللّه من بين عباده هم العلماء دون غيرهم أما

إذا قدمت الفاعل، فإن المعنى ينقلب إلى أنهم لا يخشون إلا الله. وهما معنيان مختلفان كما يبدو للمتأمل.

(271/643)

---

الفوائد

1 - عمل الصفة المشبهة باسم الفاعل:

اسم الفاعل يدل على صفة مؤقتة في الإنسان، مثل: سابح - لاعب. أما الصفة المشبهة، فتدل على صفة ثابتة، مثل: كريم - شجاع - صلب .. إلخ. وكل من اسم الفاعل واسم المفعول إذا دلا على صفات ثابتة في الإنسان فيعاملان معاملة الصفة المشبهة، فاسم الفاعل في الآية مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ يدل على صفة مشبهة.

أما عمل الصفة المشبهة، فإما أن يرتفع معمولها على الفاعلية، كما في الآية الكريمة مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ ألوانه: فاعل للصفة المشبهة مختلف وإما أن يجر بالإضافة، مثل (أخوك حسن الصوت)، وهو أغلب أحواله وإما أن ينصب على التمييز، إن كان نكرة أو شبه المفعولية، إن كان معرفة، مثل (أخوك حسن صوتا) (أخوك حسن صوته) إذا كانت الصفة المشبهة معرفة بـ (ال) فلا بد لمعمولها إذا أضيف إليها أن يعرف بـ (ال) أو يضاف إلى المعرف بـ (ال)

مثل : (أخوك الحسن الصوت) و(أخوك الحسن أداء النشيد) .

2 – العلم يصقل الفكر والسلوك :

قال ابن عباس : معنى الآية : (إنما يخافني من خلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني) .

ومن ازداد علما ازداد خشية لله عز وجل .

عن عائشة قالت : صنع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) شيئًا فرخّص فيه ، فتنزه عنه قوم . فبلغ ذلك النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) ، فخطب فحمد اللّه ثم قال : ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ؟ فو اللّه إني لأعلمهم باللّه وأشدهم له خشية . وعن أنس قال : خطب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) خطبة ما سمعت مثلها قط ، فقال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، ولما تلذذتم بنسائكم على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات (الطرقات) تجأرون (تدعون اللّه) ، فغطى أصحاب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) وجوههم ولهم خنين . الخنين : هو البكاء مع غنة وانتشاق الصوت من الأنف .

قال مسروق : كفى بخشية اللّه علما ، وكفى بالاغترار باللّه جهلا ، وقال مقاتل : أشد الناس خشية للّه أعلمهم .

[سورة فاطر (35) : الآيات 29 إلى 30]

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30)

الإعراب :

(ممّا) متعلّق بـ (أنفقوا) ، والعائد محذوف أي رزقناهم إيّاه (سرّا) مفعول مطلق نائب عن المصدر " 1 " فهو نوعه . .

جملة : " إنّ الذين . . . يرجون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتلون . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أقاموا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أنفقوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " رزقناهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يرجون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ " 2 " .

وجملة : " لن تبور . . " في محلّ نصب نعت لتجارة .

(30) (اللام) للتعليل - أو لام العاقبة - (يوفّيهم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام

(يزيدهم) مضارع منصوب معطوف على (يوفّيهم) ، (من فضله) متعلّق بـ (يزيدهم) " 3 "

. . . .

والمصدر المؤوّل (أن يوفّيهم . . ) في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف أي فعلوا ذلك ليوفّيهم . . أو متعلّق بـ (يرجون) إذا كانت اللام لام العاقبة .

وجملة : " يوفّيهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

---

(1) أو مصدر في موضع الحال .

(2) أجاز الزمخشريّ أن يكون الخبر جملة (إنّه غفور) ، والرابط مقدّر أي : غفور لهم . . وجملة يرجون حال من الفاعل في (أنفقوا) .

(3) وهو في موضع المفعول الثاني .



---

وجملة : " يزيدهم . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يوفّيهم . .

وجملة : " إنّه غفور . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

[سورة فاطر (35) : الآيات 31 إلى 35]

وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ

(31) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (33) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34) الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (35)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (الذي) اسم موصول مبتدأ خبره الحقّ (إليك) متعلّق بـ (أوحينا) ، (من الكتاب) متعلّق بحال من العائد المقدّر " 1 " ، (هو) ضمير فصل (مصدّقا) حال مؤكّدة منصوبة (لما) متعلّق بـ (مصدّقا) " 2 " ، (بين) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (بعباده) متعلّق بخبير وبصير (اللام) هي المزحلقة للتوكيد (بصير) خبر إنّ ثان مرفوع.

جملة : " الذي أوحينا . . الحقّ . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " إنّ الله . . لخبير . . " لا محل لها استئناف بيانيّ.

(32) (الذين) موصول في محلّ نصب مفعول به أوّل بتضمين الفعل معنى

---

(1) يجوز تعليقه بـ (أوحينا) على أنّ (من) للجنس أو تبعيضيّة.

(2) أو اللام زائدة للتقوية و (ما) مفعول به لاسم الفاعل (مصدقا) . [ . . . . . ]

أعطينا ، و(الكتاب) المفعول الثاني (من عبادنا) متعلّق بحال من العائد المقدّر (الفاء) عاطفة تفريعيّة (منهم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم في المواضع الثلاثة للمبتدآت (ظالم ، مقتصد ، سابق) ، (لنفسه) متعلّق بظالم " 1 " (بالخيرات) متعلّق بسابق (بإذن) متعلّق بحال من الضمير في سابق " 2 " ، (ذلك) اسم إشارة مبتدأ " 3 " ، (هو) ضمير فصل " 4 " ، (الفضل) خبر المبتدأ ذلك . .

وجملة : " أورثنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " اصطفينا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " منهم ظالم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اصطفينا . .

وجملة : " منهم مقتصد . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اصطفينا . .

وجملة : " منهم سابق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اصطفينا . .

وجملة : " ذلك . . الفضل . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(33) (جنّات) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو " 5 " ، و(الواو) في (يحلّون) نائب الفاعل (فيها) متعلّق بحال من الفاعل (من أساور) متعلّق بـ (يحلّون) ، (من ذهب) متعلّق بنعت

لأساور (لؤلؤا) مفعول به لفعل محذوف تقديره يحلّون (فيها) متعلّق بحال من حرير - نعت تقدّم على

---

(1) يجوز أن تكون اللام زائدة للتقوية، ف (نفسه) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به لاسم الفاعل ظالم.

(2) أو متعلّق بسابق.

(3) والإشارة إلى السبق أو إيراث الكتاب.

(4) أو ضمير منفصل مبتدأ ثان خبره الفضل والجملة خبر المبتدأ ذلك.

(5) أو هو مبتدأ خبره جملة يدخلونها.. أو هو خبر ثان للمبتدأ ذلك.



---

المنعوت - .

وجملة: "(هو) جنّات... " لا محلّ لها بدل من (ذلك هو الفضل).

وجملة: "يدخلونها... " في محلّ رفع نعت لجنّات - أو حال منها - .

وجملة: "يحلّون... " في محلّ نصب حال من فاعل يدخلونها أو من المفعول " 1 " .

وجملة: "لباسهم فيها حرير" معطوفة على جملة يحلّون.

(34) (الواو) استئنافيّة (للّه) متعلّق بخبر المبتدأ الحمد (الذي) موصول في محلّ جرّ نعت للفظ الجلالة (عنّا) متعلّق بـ (أذهب)، (اللام) المزحلقة للتوكيد . . .

وجملة: " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " الحمد للّه . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " أذهب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة: " إنّ ربّنا لغفور . . " لا محلّ لها اعتراضيّة.

(الذي) بدل من الموصول الأول في محلّ جرّ (من فضله) متعلّق بحال من فاعل أحلّنا (لا) نافية (فيها) متعلّق بـ (يمسّنا) " 2 "، (لا يمسّنا فيها لغوب) مثل لا يمسّنا فيها نصب.

وجملة: " أحلّنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثاني.

وجملة: " لا يمسّنا . . . " في محلّ نصب حال من المفعول الأول أو الثاني.

وجملة: " لا يمسّنا (الثانية) " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا يمسّنا (الأولى).

---

(1) أو هي خبر ثان لجنّات إذا أعرب مبتدأ.

(2) أو متعلّق بحال من نصب، أو بحال من ضمير المفعول في (يمسّنا).

الجدول ج 22، ص: 277

الصرف:

(35) المقامة: مصدر ميميّ من الرباعيّ أقام، وزنه مفعلة بضمّ الميم وفتح العين،

و(التاء) زائدة للمبالغة.

(لغوب)، مصدر لغب باب نصر بمعنى تعب أو باب فتح أو باب كرم، وقيل من باب فرح ولكنّها لغة ضعيفة، وزنه فعول بضمّ الفاء، وثمّة مصادر أخرى من الأبواب الثلاثة الأولى هي لغب بفتح فسكون، ولغوب بفتح اللام، ومن الباب الأخير لغب بفتحتين.

البلاغة

الاستعارة المكنية: في قوله تعالى "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا".

استعارة مكنية تبعية، شبّه إعطاء الكتاب إياهم، من غير كد أو تعب في وصوله إليهم، بتوريث الوارث.

فوائد

- أصناف المسلمين:



---

قال أبو الدرداء: سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) قرأ هذه الآية (ثم أورثنا الكتاب) إلى قوله (ومنهم سابق بالخيرات) قال: أما السابق بالخيرات، فيدخل الجنة بغير حساب وأما المقتصد، فيحاسب حسابا يسيرا وأما الظالم لنفسه، فيجلس في المقام

حتى يدخله الهم ثم يدخل الجنة ثم قرأ هذه الآية الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

وقيل: السابق من رجحت حسناته على سيئاته، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته، والظالم من رجحت سيئاته على حسناته، فإن قلت: لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق؟ قال جعفر الصادق: بدأ بالظالمين إخبارا بأنه لا يتقرب إليه إلا بكرمه وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفاء، ثم ثنى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره، وكلهم في الجنة. وقيل: رتبهم هذا الترتيب على مقامات الناس، لأن أحوال العباد ثلاثة: معصية وغفلة ثم توبة، فإذا عصى الرجل دخل في حيز الظالمين، فإذا تاب دخل في جملة المقتصدين، فإذا صحت توبته وكثرت عبادته ومجاهدته دخل في عداد

السابقين.

وقيل قدم الظالم لكثرة الظلم وغلبته، ثم المقتصد قليل بالقياس إلى الظالمين، والسابق أقل من القليل فلهذا أخرهم. والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وبأسرار كتابه.

[سورة فاطر (35): الآيات 36 إلى 37]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنّا

نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37)

الإعراب:



---

(الواو) استئنافيّة (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ نار (لا) نافية (عليهم) نائب الفاعل للمجهول (يقضى) (الفاء) فاء السببيّة (يموتوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء (لا) مثل الأولى (عنهم) نائب الفاعل للمجهول يخفّف " 1 " . (من عذابها) متعلّق بـ (يخفّف) ..

والمصدر المؤوّل (أن يموتوا ... ) في محلّ رفع معطوف على مصدر مأخوذ من النفي السابق أي: ليس ثمّة قضاء عليهم فموت آخر.

(كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نجزي ..

جملة: " الذين كفروا .... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " كفروا ... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " لهم نار ... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " لا يقضى عليهم . . " في محلّ رفع خبر ثان " 2 " .

---

(1) يجوز أن يكون نائب الفاعل (من عذابها) ، و(عنهم) متعلّق بـ (يخفّف) .

(2) أو في محلّ نصب حال من الضمير في (لهم) والعامل فيها الاستقرار .



---

وجملة : " يموتوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " لا يخفّف عنهم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لا يقضى . .

وجملة : " نجزي . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . .

(37) (الواو) عاطفة (فيها) متعلّق بـ (يصطرخون) ، (ربّنا) منادى مضاف منصوب ، حذف منه حرف النداء (نعمل) مضارع مجزوم جواب الطلب (صالحا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته " 1 " ، (غير) نعت لـ (صالحا) " 2 " ، (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الواو) عاطفة (ما) نكرة موصوفة بمعنى وقت ، متعلّق بـ (نعمّركم) ، (فيه) متعلّق بفعل يتذكّر (من) موصول فاعل يتذكّر (الواو) عاطفة - أو حالية - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر ، والثانية تعليليّة (ما) نافية (للظالمين) متعلّق بخبر مقدّم (نصير) مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخّر .

وجملة: " هم يصطرخون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لا يخفّف عنهم.

---

(1) أو مفعول به منصوب.

(2) أو نعت ثان للمحذوف الذي هو مفعول مطلق، أو مفعول به.



---

وجملة: " يصطرخون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم).

وجملة النداء: " ربّنا . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر.

وجملة: " أخرجنا . . . " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " نعمل . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء.

وجملة: "كنّا نعمل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة: " نعمل . . . " في محلّ نصب خبر كنّا.

وجملة: " نعمّركم . . " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول المقدّر أي: يقال لهم: ألم نمهلكم ونعمّركم . . .

وجملة: " يتذكّر . . . " في محلّ نصب نعت لـ (ما).

وجملة: " تذكّر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: " جاءكم النذير . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة نعمّركم " 1 " .

وجملة: " ذوقوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن كفرتم بالنذير فذوقوا .

وجملة: " ما للظالمين من نصير . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف:

(يصطرخون) ، فيه إبدال تاء الافتعال طاء ، أصله يصترخون ، جاءت التاء بعد الصاد قلبت طاء قلبا قياسيّا وزنه يفتعلون .

الفوائد

- غير:

غير: اسم ملازم للإضافة في المعنى ، ويجوز أن يقطع عنها لفظا إن فهم المعنى وتقدمت عليها كلمة ليس . وقولهم (لا غير) لحن وخطأ . ويقال: (قبضت عشرة ليس غيرها) برفع غير على حذف الخبر ، أي مقبوضا ، وبنصبها على إضمار الاسم أي (ليس المقبوض غيرها) . و(ليس غير) بالفتح من غير تنوين على إضمار الاسم أيضا وحذف المضاف إليه لفظا ونية ثبوته ، و(ليس غير) بالضم من غير تنوين .

ولا تتعرف " غير " بالإضافة ، لشدة إبهامها ، وتستعمل " غير " المضافة لفظا على وجهين :

أحدهما - وهو الأصل - أن تكون صفة للنكرة ، كقوله تعالى في الآية التي نحن

(1) أو في محلّ نصب حال بتقدير قد .

(280/643)

---

بصددها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ، أو لمعرفة قريبة منها كقوله تعالى صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ. غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ لأن المعرف الجنسي قريب من النكرة، ولأن غيرا إذا وقعت بين ضدين ضعف إبهامها .

الثاني: أن تكون استثناء، فتعرب بإعراب الاسم الواقع بعد (إلا) وقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل في غير هذا الموضع فليرجع إليه .

[سورة فاطر (35) : آية 38]

إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (38)

الإعراب:

(بذات) متعلّق بعليم .

جملة: " إنّ الله عالم .. " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " إنه عليم ... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

[سورة فاطر (35) : آية 39]

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَساراً (39)

الإعراب :

(في الأرض) متعلّق بخلائف (الفاء) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ ، خبره جملة كفر (الفاء) رابطة لجواب الشرط (عليه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ كفره (الواو) عاطفة (لا) نافية (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (يزيد) " 1 " ، (إلّا) للحصر (مقتا) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (لا يزيد . . . إلّا خسارا) مثل السابقة . .

جملة : " هو الذي . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو متعلّق بحال من (مقتا) .



---

وجملة : " جعلكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " من كفر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: "كفر . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة: "عليه كفره" في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

(282/643)

---

وجملة: "لا يزيد . . . كفرهم" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة: "لا يزيد . . كفرهم (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

الصرف:

(خلائف) ، جمع خليفة اسم لمن يخلف غيره ، لفظ مذكّر والتاء للمبالغة ، وزنه فعيلة وفعله خلف يخلف باب نصر .

[سورة فاطر (35) : آية 40]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً (40)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام ، والرؤية في الفعل بصريّة (الذين) موصول نعت لشركاء (من دون

متعلّق بحال من العائد المقدّر أي تدعونهم من دون اللّه (ماذا) اسم استفهام في محلّ نصب مفعول به عامله خلقوا " 1 " ، (من الأرض) متعلّق بحال من اسم الاستفهام ، (أم) منقطعة بمعنى بل والهمزة (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ شرك (في السموات) متعلّق بنعت لشرك (أم) مثل الأولى (كتابا) مفعول به ثان

---

(1) أو (ما) اسم استفهام مبتدأ (ذا) اسم موصول خبر ، وجملة خلقوا . . . صلة الموصول . [. . . . .]



---

(الفاء) عاطفة (على بيّنة) متعلّق بخبر المبتدأ هم (منه) متعلّق بنعت لبيّنة (بل) للإضراب الانتقاليّ (إن) حرف نفي (بعضهم) بدل من الفاعل مرفوع (إلّا) للحصر (غرورا) مفعول به ثان " 1 " منصوب .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أرأيتم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تدعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أروني . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ في حيّز القول " 2 " .

وجملة: " خلقوا . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل الرؤية المعلّق بالاستفهام.

وجملة: " لهم شرك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو نوعه، ويجوز أن يكون مفعولا لأجله.

(2) أو هي بدل من مقول القول.



---

وجملة: " آتيناهم " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " هم على بيّنة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتيناهم.

وجملة: " يعد الظالمون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة فاطر (35) : آية 41]

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (41)

الإعراب:

(أن) حرف مصدريّ ونصب، (تزولا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون وهو تامّ، (والألف) فاعل.

والمصدر المؤوّل (أن تزولا . . . ) في محلّ نصب مفعول لأجله بحذف مضاف أي كراهة أن تزولا " 1 " .

(الواو) عاطفة (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (زالتا) في محلّ جزم فعل الشرط (إن) نافية (أحد) مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل أمسكهما (من بعده) متعلّق بـ (أمسكهما) ، (غفورا) خبر ثان منصوب لـ (كان) .

جملة : " إنّ اللّه يمسك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يمسك . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " تزولا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " زالتا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " إن أمسكهما من أحد " لا محلّ لها جواب القسم . . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : " إنه كان حليما . . . " لا محلّ لها استئناف تعليليّ .

وجملة : " كان حليما . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

[سورة فاطر (35) : الآيات 42 إلى 44]

---

(1) أو في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (يمسك) ، أي يمسكهما من أن تزولا أي يمنعهما من الزوال (الزّجاج) .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (42) اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (43) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً (44)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (بالله) متعلّق بـ (أقسموا)، والضمير فيه يعود على كفّار مكّة (جهد) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو نوعه - أو صفته - " 1 "، (اللام) موطّئة للقسم (إن جاءهم) مثل إن زالتا " 2 "، (اللام) لام القسم (يكوننّ) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون، وقد حذفت لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين اسم يكونن و(النون) للتوكيد (أهدى) خبر يكوننّ منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة (من إحدى) متعلّق بـ (أهدى)، (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى متضمن معنى الشرط متعلّق بـ (زادهم)

المنفيّ (ما) نافية (إلّا) للحصر (نفورا) مفعول ثان.

جملة: "أقسموا ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "إن جاءهم نذير ... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "يكوننّ أهدى ... " لا محلّ لها جواب القسم ... وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم.

---

(1) أو هو مصدر في موضع الحال.

(2) في الآية (41) من هذه السورة.



---

وجملة: "جاءهم نذير ... " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "ما زادهم إلّا نفورا .. " لا محلّ لها جواب الشرط غير الجازم.

(43) (استكبارا) مفعول لأجله منصوب " 1 "، (في الأرض) متعلّق بـ (استكبارا)، (الواو) عاطفة (مكر) معطوف على (استكبار) - أو على (نفورا) (الواو) واو الحال - أو اعتراضيّة - (لا) نافية (إلّا) للحصر (بأهله) متعلّق بـ (يحيق)، (الفاء) عاطفة (هل) حرف استفهام للنفي (إلّا) مثل الأولى (سنّة) مفعول به منصوب (الفاء) رابطة لجواب

شرط مقدّر (لسنّة) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عمله تجد (الواو) عاطفة (لن تجد .. تحويلا) مثل السابقة.

جملة: "لا يحيق المكر ... " في محلّ نصب حال - أو اعتراضيّة لا محلّ لها -.

وجملة: "هل ينظرون " لا محلّ لها معطوفة على جملة الشرط وفعله وجوابه ..

وجملة: "لن تجد ... " جواب شرط مقدّر أي مهما تفعل فلن تجد ...

وجملة: "لن تجد (الثانية) " معطوفة على جملة لن تجد (الأولى).

(44) (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الواو) عاطفة ( (في الأرض) بـ (يسيروا) " 2 "، (الفاء) عاطفة (ينظروا) مجزوم معطوف على (يسيروا)، (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب خبر كان (من قبلهم) متعلّق بمحذوف صلة الموصول، (الواو) حاليّة (منهم) متعلّق بأشدّ (قوّة) تمييز منصوب (الواو) استئنافيّة (ما) نافية (اللام) لام الجحود (يعجزه) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (شيء) مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل

---

(1) أو مصدر في موضع الحال أي مستكبرين - الأخفش -، أو هو بدل من (نفورا).

(2) أو بحال من الفاعل ..

يعجزه (في السموات) متعلّق بـ (يعجزه) " 1 " ، (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (في الأرض) متعلّق بما تعلّق به (في السموات) فهو معطوف عليه (قديرا) خبر ثان . .

جملة : " لم يسيروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر أي أقعدوا في مساكنهم ولم يسيروا .

وجملة : " ينظروا " لا محلّ لها معطوفة على جملة لم يسيروا .

وجملة : "كان عاقبة . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام .

وجملة : "كانوا أشدّ . . . " في محلّ نصب حال بتقدير قد .

وجملة : " ما كان اللّه ليعجزه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعجزه من شيء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

والمصدر المؤوّل (أن يعجزه . . . ) في محلّ جرّ باللام متعلّق بمحذوف خبر كان .

وجملة : " إنّه كان عليما " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - .

وجملة : "كان عليما . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(استكبارا) ، مصدر قياسيّ للسداسيّ استكبر ، وزنه استفعال بكسر الثالث .

البلاغة

ائتلاف اللفظ مع المعنى : في قوله تعالى " وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ " .

(1) أو متعلّق بنعت لشيء .



فن ائتلاف اللفظ مع المعنى ، أي أن تكون ألفاظ المعنى المراد يلائم بعضها بعضا ، ليس فيها لفظة نافرة عن أخواتها ، غير لائقة بمكانها أو موصوفة بحسن الجوار ، بحيث إذا كان المعنى غريبا قحا ، كانت ألفاظه غريبة محضة ، وبالعكس ولما كان جميع الألفاظ المجاورة للقسم ، في هذه الآية ، كلها من المستعمل المتداول ، لم تأت فيها لفظة غريبة تفتقر إلى مجاورة ما يشاكلها في الغرابة .

الإسناد المجازي : في قوله تعالى " ما زادَهُمْ إِلَّا نفُوراً " .

إسناد مجازي ، لأنه هو السبب في أن زادوا أنفسهم نفورا عن الحق ، وابتعادا عنه ، كقوله تعالى " فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ " .

إرسال المثل : في قوله تعالى " وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ " .

وهذا من إرسال المثل ، ومن أمثال العرب : من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبا .

[سورة فاطر (35) : آية 45]

وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً (45)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (ما) حرف مصدري " 1 " ، (ما) نافية (على ظهرها) متعلّق بحال من دابة " 2 " و(الهاء) في ظهرها يعود على الأرض في الآية السابقة . . . (دابّة) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول .

والمصدر المؤوّل (ما كسبوا . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق ب (يؤاخذ) .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف أي كسبوه .

(2) أو متعلّق بمحذوف مفعول به ثان إذا كان (ترك) متعديا لاثنين .

(الواو) عاطفة (لكن) للاستدراك (إلى أجل) متعلّق بـ (يؤخّرهم) ، (الفاء) عاطفة والثانية رابطة لجواب الشرط (بعباده) متعلّق بـ (بصيرا) خبر كان .

جملة : " لو يؤاخذ اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كسبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " ما ترك . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يؤخّرهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " جاء أجلهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " إنّ اللّه كان . . . " لا محلّ لها تعليل لجواب الشرط المقدّر أي جازاهم بما هم له أهل . .

وجملة : " كان بعباده بصيرا " في محلّ رفع خبر إنّ .

البلاغة

الاستعارة المكنية : في قوله تعالى " ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها " .

استعارة مكنية تخييلية، فقد شبه الأرض بالدابة، التي يركب الإنسان عليها، ثم حذف المشبه به وهو الدابة، وأبقى لها شيئا من لوازمها وهو الظهر، والمراد ما ترك عليها. انتهى

انتهى. اهـ ﴿الجدول حـ 22 صـ 247. 289﴾

(292/643)

---

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(35) سورة فاطر

مكيّة وآياتها خمس وأربعون

[سورة فاطر (35) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ
وَرُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ
رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2) يا أَيُّهَا
النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ
هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3)

اللغة :

(فاطِرِ السَّماواتِ) خالقها على غير مثال وأصل الفطر الشقّ مطلقا وقيل الشق طولا وبابه نصر كما في المختار وعن مجاهد عن ابن عباس : ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى اختصم

إليّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أي ابتدأتها وابتدعتها ، وقد جمع بعضهم معنى هذه المادة على اختلافه فقال :

الابتداء والابتداع فطر والصّدع والغمز وأما الفطر

فترك صوم بعض كمء فطر وما بدا من عنب في الشجر

(تُؤْفَكُونَ) : تصرفون من الأفك بالفتح وهو الصرف يقال :

ما أفكك عن كذا أي ما صرفك عنه وقيل هو من الإفك بالكسر وهو الكذب وفي المختار : " والأفك بالفتح مصدر أفكه أي قلبه وصرفه عن الشيء وبابه ضرب ومنه قوله تعالى :

" قالوا أجئتنا لتأفكنا عما وجدنا عليه آباءنا " .

الاعراب :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) الحمد مبتدأ ولله خبره وفاطر السموات صفة له

والأرض عطف على السموات وأل في الحمد جنسية استغراقية أي جنس الحمد ،

والاضافة في فاطر السموات محضة لأنه للماضي . (جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ

مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ) جاعل الملائكة صفة ثانية والإضافة هنا محضة أيضا واعتبرها

بعضهم غير محضة لأنها حكاية حال ولهذا ساغ اعمال اسم الفاعل لأنه لا يعمل إذا كان

بمعنى الماضي ، ولهذا جعل بعضهم رسلا منصوبة بفعل مضمر ، وجوز الكسائي عمله

على كل حال . ورسلا مفعول ثان لجاعل وإذا كانت جاعل بمعنى خالق كانت رسلا حالا

مقدرة وأولي أجنحة نعت لرسلا ومثنى وثلاث ورباع صفات لأجنحة

وقد منعت من الصرف للوصف والعدل عن المكرر أي اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة

وقد تقدم الكلام في هذه الصفات في سورة النساء وأعربها الكازروني في حاشيته بدلا من

أجنحة . (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) كلام مستأنف مقرر لما

قبله وفي الخلق متعلقان بيزيد وما مفعول به وجملة يشاء صلة وإن واسمها وعلى كل شيء

متعلقان بقدير وقدير خبر إن والجملة تعليلية لا محل لها .

)

ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها ) ما اسم شرط جازم في محل نصب مفعول به مقدم ليفتح ويفتح فعل الشرط والله فاعل وللناس متعلقان بيفتح ومن رحمة حال والفاء رابطة لجواب الشرط ولا نافية للجنس وممسك اسمها ولها خبرها والجملة في محل جزم جواب الشرط. (وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) الواو عاطفة وما اسم شرط جازم في محل نصب أيضا مفعول مقدم ليمسك ويمسك فعل الشرط والفاء رابطة ولا نافية للجنس ومرسل اسمها وله خبرها وفي قوله أولا فلا ممسك لها حمل التأنيث على معنى ما لأن المراد الرحمة وفي الثاني حمل على اللفظ ، ومن بعده حال أي بعد إمساكه وهو مبتدأ والعزيز خبر أول والحكيم خبر ثان .

(يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) يا حرف نداء وأي منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب والهاء للتنبيه والناس بدل واذكروا نعمة الله فعل أمر وفاعل ومفعول به ومضاف إليه وعليكم متعلقان بنعمة لأنها بمعنى الإنعام وإذا كانت بمعنى المنعم به تعلق الجار والمجرور بمحذوف على أنه حال .

(هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ) هل حرف استفهام ومن حرف جر زائد وخالق مبتدأ مجرور لفظا مرفوع محلا وغير الله صفة لخالق على المحل أو على اللفظ أو منصوب على الاستثناء وقرىء بها جميعا وخبر خالق محذوف أي لكم ويجوز أن تكون

جملة يرزقكم نصبا على الحال أو رفعا صفة لخالق على المحل أو جرا صفة لخالق على اللفظ ويجوز أن تكون خبرا لخالق ، ومن السماء متعلقان بيرزقكم والأرض عطف وسيأتي المزيد من إعراب هذه الآية وما قيل فيها في باب الفوائد ومعنى الاستفهام التقرير والتوبيخ .

)



---

لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) جملة مستأنفة مسوقة لتقرير النفي المستفاد من الاستفهام وقد تقدم إعراب لا إله إلا الله مفصلا ، فأنى الفاء استئنافية وأنى اسم استفهام في محل نصب حال وتؤفكون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل .

الفوائد :

1- معنى " نزيد في الخلق ما نشاء " :

اشتملت هذه الآيات على فوائد كثيرة أولها معنى الزيادة في الخلق ، ونرى أن خير ما قيل فيها ما أورده الزمخشري في كشافه فبعد أن أورد ما قاله العلماء فيها قال : " والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق من طول قامة واعتدال صورة وتمام في الأعضاء وقوة في البطش

وحصافة في العقل وجزالة في الرأي وجراءة في القلب وسماحة في النفس وذلاقة في اللسان ولباقة في التكلم وحسن تأنّ في مزاولة الأمور وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف " وهذا الكلام على وجازته وبلاغته جامع مانع وفيه تعليل مرض لما تراه من تفاوت في مخلوقات اللّه .

واستعار الفتح للإطلاق والإرسال كأنما هي أبواب موصدة لا يفتح مغالقها إلا اللّه من صنوف النعم وضروب الآلاء كالرزق والمطر والصحة والأمن في الأوطان وغير ذلك مما لا يحصى عدده .

وفي تنكير الرحمة ما يدل على الاشاعة والإبهام لتندرج في مطاويها ضروب النعم كما تقدم .

2- إعراب هل من خالق :

منع بعضهم أن تكون جملة يرزقكم خبرا لخالق لأن هل لا تدخل على مبتدأ مخبر عنه بفعل على الأصح .

3- مواضع زيادة " من " :

قلنا في مكان آخر أن " من " الجارة تزاد قبل النكرة إذا سبقت بنفي أو نهي أو استفهام ونضيف هنا أن ذلك يطرد في تسعة أوجه :

1- في الابتداء .

2- في الفاعل .

3- في اسم كان .

4- في مفعول ما يتعدى لواحد .

5- في أول مفعولي ظننت .

6- في أول مفاعيل علمت .

7- في أول مفعولي أعطيت .

8- في ثاني مفعولي أعطيت .

9- في مفعول ما لم يسم فاعله .

]

(296/643)

---

سورة فاطر (35) : الآيات 4 إلى 7]

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (4) يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ
اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5) إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ
فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ (6) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ

شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7)

الإعراب :

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ) كلام مستأنف مسوق لتسليته صلى اللّه عليه وسلم بأن له فيمن تقدمه من الأنبياء أسوة حسنة . وإن حرف شرط جازم ويكذبوك فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والكاف مفعول به والفاء رابطة لجواب الشرط وجملة قد كذبت في محل جزم جواب الشرط وهي من وضع السبب موضع المسبب وهو التأسي والتقدير فتأس بتكذيب الرسل من

قبلك ، ورسل نائب فاعل ومن قبلك صفة لرسل وبهذا التقدير يجاب عن الاعتراض بأن من حق الجزاء أن يتعقب الشرط وهذا سابق له .

(

وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) الواو عاطفة والى اللّه متعلقان بترجع والأمور نائب فاعل . (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) يا أيها الناس : تقدم إعرابها كثيرا وان واسمها وخبرها . (فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) الفاء الفصيحة ولا ناهية وتغرنكم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقلية وهو في محل جزم بلا الناهية والكاف مفعول به والحياة فاعل والدنيا صفة ولا يغرنكم باللّه الغرور عطف على ما تقدم والغرور بفتح الغين صيغة مبالغة كالصبور والشكور والمراد بها الشيطان لأن ذلك ديدنه .

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) إن واسمها ولكم متعلقان بعدو أو حال منه وعدو خبر إن والفاء الفصيحة واتخذوه فعل أمر وفاعل ومفعول به أول وعدوا مفعول به ثان .

(إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ) إنما كافة ومكفوفة ويدعو فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو وحزبه مفعول به واللام للتعليل ويكونوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازا بعد لام التعليل ويجوز أن تكون اللام هي لام الصيرورة أو العاقبة ، والواو اسم يكونوا ومن أصحاب السعير خبرها . (الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ) الذين مبتدأ وجملة كفروا صلة ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر الذين وشديد صفة ويجوز أن يكون اسم الموصول بدلا من الواو في ليكونوا أو صفة لحزبه فيكون موضعه النصب كما يجوز أن يكون محله الجر على أنه بدل

من أصحاب أو انه نعت لأصحاب . (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) الذين مبتدأ وجملة آمنوا صلة وعملوا الصالحات عطف على آمنوا ولهم خبر مقدم ومغفرة مبتدأ مؤخر والجملة خبر الذين وأجر عطف على مغفرة وكبير صفة .

[سورة فاطر (35) : آية 8]

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (8)

الإعراب :

(أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما سبق من التباين بين عاقبتي الفريقين ببيان تباين حالهما المؤدي إلى تينك العاقبتين .



والهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة على محذوف وقد تقدمت نظائرها ومن اسم موصول في محل رفع مبتدأ خبره محذوف دل عليه سياق الكلام والتقدير كمن هداه اللّه ، وأعربه بدر الدين بن مالك اسم شرط وجواب الشرط محذوف تقديره : ذهبت نفسك عليهم حسرة ، وجملة زين صلة من وله متعلقان بزين وسوء عمله نائب فاعل ، فرآه الفاء عاطفة ورآه عطف على زين والهاء مفعول رأى الأول وحسنا مفعول رأى الثاني لأنها قلبية والفاء رابطة لما في الموصول من معنى الشرط وان واسمها وجملة يضل خبرها ومن

يشاء مفعول يضل وجملة ويهدي من يشاء عطف على جملة يضل من يشاء . (فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ

عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ)

الفاء الفصيحة ولا ناهية وتذهب فعل مضارع مجزوم بلا ونفسك فاعل وعليهم متعلقان بتذهب كما تقول هلك عليه حبا ومات عليه حزنا ، ولا يجوز أن يتعلق بحسرات لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته ، وحسرات مفعول لأجله والمعنى فلا تهلك نفسك للحسرات وقال المبرد انها تمييز وقال الزمخشري : "يجوز أن يكون حالا كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر كما قال جرير :

مشق الهواجر لحمهن مع السرى حتى ذهبن كلا كلا وصدورا

يصف نوقا بالهزال يقال فرس ممشوق أي طويل مهزول وجارية ممشوقة القوام والهاجرة شدة الحر والسرى بالضم سير الليل والكلكل والكلكال الصدر أي صرن من شدة الحر كأنهن عظام فقط لا لحم عليهن وعطف الصدور على الكلاكل للتفسير وسيأتي المزيد من هذا البحث في باب البلاغة .

وان واسمها وخبرها وبما يصنعون متعلقان بعليم .

البلاغة :

في قوله : " فلا تذهب نفسك عليهم حسرات " فن الإيغال وهو الإتيان بكلام يعتبر بمثابة

التتمة لكلام سبقه احتياطا فقد أقسم اللّه تعالى بحياة الرسول أكثر من مرة ان الذين أعرضوا عنه وخالفوه قد تجاوزوا كل حدّ بإعراضهم ودللوا على أنهم مفرطون في الغباوة



---

موغلون في الضلال كما قال تعالى في أكثر من موضع " لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون " وقوله أيضا " ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر " وقوله " فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا " وذهاب النفس حسرة وأسفا تعبير مرموق رمقه الشعراء كثيرا فقال شاعر قديم :

فعلى إثرهم تساقط نفسي حسرات وذكرهم لي سقام

لما أصابه الحزن بعد ذهاب الأحباب وتمكن من نفسه وسيطر بدمه ، تخيل أنها تتناثر وتنزل من جسمه حال كونها حسرات متتابعة ، وجعل النفس حسرات لامتزاجها بها فكأنها هي ، أو تتساقط بعدهم لأجل الحسرات والأحزان ، وذكرهم أي تذكرهم سقام لي وهو بالفتح مصدر كالسقم . وقال ابن الرومي مقتبسا هذه اللفظة البديعة في رثاء ابنه محمد وهو أوسط أولاده :

وظل على الأيدي تساقط نفسه ويذوي كما يذوي القضيب من الزند

وإنما يحمل المريض على الأيدي إذا كان صغيرا وقد مات ابنه محمد منزوفا وهو فيما بين الرابعة والخامسة.

أقول روى التاريخ أن هذه الآية نزلت في أبي جهل بن هشام لما زين له سوء عمله فرآه صوابا أو جميلا فهام في الضلال، وأطلق آمر النهي واعتنق طاعة الهوى حتى رأى الحسن قبيحا والقبيح حسنا كأنما ران عليه وسلبه عقله ولبه وتمييزه وقد رمق أبو نواس سماء هذا المعنى فقال:

اسقني حتى تراني حسنا عندي القبيح

يقول لساقي الخمر: اسقني حتى أسكر فيحسن عندي القبيح، وحسنا هو المفعول الثاني لتراني والقبيح فاعل حسنا لأنه صفة مشبهة.

[سورة فاطر (35) : الآيات 9 إلى 10]



---

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (9) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (10)

اللغة :

(

بَلَدٍ) : في المصباح : " البلد يذكر ويؤنث " والبلدة البلد وتطلق البلد والبلدة على كل موضع من الأرض عامرا كان أو خلاء ، وفي التنزيل : " إلى بلد ميت " أي إلى أرض ليس بها نبات ولا مرعى فيخرج ذلك بالمطر فترعاه أنعامهم فأطلق الموت على عدم النبات والمرعى وأطلق الحياة على وجودهما " .

(الْكَلِمُ) : اسم جنس لأنه يدل على الماهية من حيث هي هي وليس بجمع خلافا لصاحب القاموس ولغيره من النحاة لأنه يجوز تذكير ضميره والجمع يغلب عليه التأنيث ولا اسم جمع لأن له واحدا من لفظه والغالب على اسم الجمع خلاف ذلك وواحدة كلمة والكلمة

فيها ثلاث لغات : كلمة بفتح الكاف وكسر اللام وكلمة بكسر الكاف وسكون اللام وكلمة بفتح الكاف وسكون اللام .

(يَبُورُ) : يهلك ويفسد يقال : بار يبور بورا وبوارا : هلك وبارت السوق أو السلعة كسدت وبار العمل : بطل وبارت الأرض :

لم تزرع وبوّر الأرض تركها أو صيرها بائرة وأباره : أهلكه وتبوّر نفسه رثاها وناح من البوار ، والبائر : ما بار من الأرض والجمع بور يقال : حائر بائر أي لا يطيع مرشدا ولا يتجه لشيء

والبور أيضا :

الفاسد الهالك الذي لا خير فيه يقال امرأة بور وقوم بور ، والبور من الأرض : ما لم يزرع

والبوار الهلاك والفساد ودار البوار : جهنم .

الاعراب :

(

(301/643)

---

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً ) الله مبتدأ والذي خبره وجملة أرسل الرياح صلة الموصول والرياح مفعول به والفاء عاطفة وتثير فعل مضارع وسيأتي سر عطف المضارع على الماضي وكيف جاء مخالفا لما قبله وما بعده في باب البلاغة وسحابا مفعول به .

(فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) فسقناه عطف أيضا على طريق الالتفات وسقناه فعل وفاعل ومفعول به والى بلد متعلقان بسقناه وميت صفة ، فأحيينا به الأرض عطف أيضا والظرف متعلق بمحذوف حال وكذلك خبر مقدم والنشور مبتدأ مؤخر وسيأتي سر هذا التشبيه في باب البلاغة . (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ) من اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ وكان فعل ماض ناقص واسمها مستتر

يعود على ما وجملة يريد خبرها والعزة مفعول به والفاء

رابطة لجواب الشرط ولله خبر مقدم والعزة مبتدأ مؤخر والجملة في محل جزم جواب

الشرط ، وساغ قيام هذه الجملة مقام الجواب لدلالتها عليه لأن الشيء لا يطلب إلا عند

صاحبه ومالكه ونظيره قولك من أراد النصيحة فهي عند الأبرار ، تريد فليطلبها عندهم

إلا أنك أقمت ما يدل عليه مقامه ، ومعنى فلله العزة جميعا أن العزة كلها مختصة لله ، وقال

آخرون : " ومن شرطية مبتدأ وجواب الشرط محذوف تقديره فليعطه وقوله فلله العزة

تعليل للجواب المحذوف " وقدر البيضاوي جواب الشرط المحذوف بقوله " فليطعه " ولله

خبر مقدم والعزة مبتدأ مؤخر وجميعا حال وجملة الشرط وجوابه خبر من .

)

(302/643)

---

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) الجملة نصب على الحال وإليه متعلقان

بيصعد ويصعد الكلم فعل مضارع وفاعل والطيب صفة للكلم والعمل مبتدأ ، ويجوز رفعه

على العطف والصالح صفة وجملة يرفعه خبر العمل وفاعل يرفعه ضمير مستتر يعود على

العمل أي العمل الصالح يرفع الكلم وقيل الفاعل ضمير الله فتعود الهاء على العمل ، وعن ابن

المقفع " قول بلا عمل كثريد بلا دسم وسحاب بلا مطر وقوس بلا وتر " (وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ) كلام مستأنف مسوق لبيان حال الكلم الخبيث والعمل السيّء بعد بيان حال الكلم الطيب والعمل الصالح وأهلهما . والذين مبتدأ وجملة يمكرون صلة الذين والسيئات صفة مفعول مطلق وتقديره المكرات السيئات ولا يجوز نصبه على أنه مفعول به لأن مكر فعل غير متعد والمكرات بفتحات جمع مكرة بسكون الكاف وهي المرة من المكر الذي هو الحيلة والخديعة وقال بعضهم يجوز تضمين يمكرون السيئات معنى يكسبون السيئات فيجوز نصبها على أنها مفعول به ، ومكر مبتدأ وأولئك مضاف إليه ووضع اسم الاشارة موضع الضمير للإيذان بتميزهم بالشر والفساد عن سائر المفسدين أي هم لا غيرهم ، وهو ضمير فصل لا محل له وجملة يبور خبر مكر ويجوز أن يكون هو مبتدأ وجملة يبور الخبر والجملة الاسمية خبر مكر وقد اختلف في وقوع ضمير الفصل قبل الخبر فمنعه قوم وأجازه آخرون ونحن أميل إلى الجواز .

البلاغة :

1- الالتفات :

في قوله " والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلخ " التفاتان : الأول في الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضي فقد قال " فتثير " مستقبلا وما قبله وما بعده ماض لحكاية الحال الماضية واستحضار لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة وهكذا يفعل بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية كحال تستغرب أو تهم المخاطب وغير ذلك كما قال تأبط شرا :

فمن ينكر وجود الغول إني أخبر عن يقين بل عيان

بأني قد لقيت الغول تهوي بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرت صريعا لليدين وللجران

والغول أنثى الشياطين والعيان المشاهدة بالعين والهوي الهبوط والمراد سرعة العدو والسهب بالفتح الفضاء المستوي البعيد الأطراف

والصحيفة الكتاب والصحصحان بالفتح المستوي من الأرض والجران ككتاب مقدم عظم العنق من الحلق إلى اللبة وجمعه جرنه ككتبه وأجرنة كأفئدة يقول : من ينكر وجود الغول فقد كذب فإني أخبر عن يقين أو المعنى فيا من تنكر وجود الغول إني أخبر إخبارا ناشئا عن يقين وهو ما كان بدليل قاطع بله عيان ومشاهدة بالعين .

وعلى هذا الأسلوب ما ورد من حديث الزبير بن العوام في غزوة بدر فإنه قال : لقيت عبيدة بن سعيد بن العاص وهو على فرس وعليه لأمة كاملة لا يرى منه إلا عيناه وهو يقول : أنا أبو

ذات الكؤوس ، وفي يدي عنزة فأطعن بها في عينه فوقع وأطأ برجلي على خده حتى خرجت العنزة متعقفة . فقوله فأطعن بها في عينه وأطأ برجلي معدول به عن لفظ الماضي إلى المستقبل ليمثل للسامع الصورة التي فعل فيها ما فعل من الإقدام والجراءة على قتل ذلك الفارس المستلئم ، ألا ترى أنه قال أولا لقيت عبيدة بلفظ الماضي ثم قال بعد ذلك فأطعن بها في عينه ولو عطف كلامه على أوله لقال فطعنت بها في عينه .



---

و الالتفات الثاني في قوله : " فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا إلخ " ولو جرى على نمط الكلام لقال فسقى وأحيا ولكنه عدل بهما عن لفظ الغيبة إلى لفظ التكلم وهو أدخل في الاختصاص وأدلّ عليه وإنما عبر بالماضيين بعد المضارع للدلالة على التحقق .

2- التشبيه :

وفي قوله "كذلك النشور " تشبيه مرسل لوجود الأداة أي كمثل إحياء الموات نشور الأموات في صحة المقدورية أو في كيفية الاحياء .

3- المجاز الاسنادي :

وفي قوله " إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه " مجاز في المسند ومجاز في الاسناد

فالصعود مجاز عن العلم لأن الصعود صفة من صفات الاجرام والكلم معلوم فأسند الفعل للمفعول به.

[سورة فاطر (35) : الآيات 11 إلى 14]

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (11) وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14)

اللغة:

(فُراتٌ) : شديد العذوبة وفي القاموس " وفرت الماء ككرم فروتة عذب " .

(أُجاجٌ) : شديد الملوحة وفي القاموس " وأجّ الماء أجوجا بالضم يأجج كيسمع ويضرب وينصر إذا اشتدت ملوحته " وتقول هجير أجاج للشمس فيه مجاج وهو لعاب الشمس وماء أجاج يحرق بملوحته .

(قِطْمِيرٍ) : القطمير لفافة النواة وهي القشرة الرقيقة الملتفة عليها وقيل هي النكتة في ظهرها ، ومعلوم أن في النواة أربعة أشياء يضرب بها المثل في القلة : الفتيل وهو ما في شق النواة والقطمير وهو اللفافة والنقير وهو ما في ظهرها والثفروق وهو بين القمع والنواة وقال الجوهري : " ويقال هو النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت منها النخلة " .

الاعراب :

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً) كلام مستأنف مسوق لإيراد تقرير آخر أو دليل آخر على صحة البعث والنشور . واللّه مبتدأ وجملة خلقكم خبر ومن تراب متعلقان بخلقكم ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ومن نطفة عطف على من تراب ، ثم جعلكم أزواجا عطف على خلقكم من تراب وأزواجا مفعول ثان لجعل أي أصنافا ذكورا وإناثا . (وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ)

اللغة :

(جُدَدٌ) : بضم الجيم وفتح الدال جمع جدة وهي طريق في الجبل أو غيره أو هي الخطة

والطريقة من قولك جددت الشيء أي قطعته، قال لبيد بن ربيعة: "أو مذهب جدد على ألواحه" وقال أبو الفضل: "هي ما يخالف من الطرائق لون ما يليها ومنه جدة الحمار للخط الذي في ظهره" والمراد في الجبال ما هو ذو جدد يخالف لونها لون الجبل.

)



---

غَرابِيبُ) : جمع غربيب وهو الأسود المتناهي في السواد يقال أسود غربيب وأسود حلكوك وهو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه ومنه الغراب وفي القاموس "وأسود غربيب حالك فأما غرابيب سود فالسود بدل لأن توكيد الألوان لا يتقدم" وسيأتي المزيد من هذا البحث في باب الاعراب.

الاعراب:

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) الواو عاطفة وإن شرطية ويكذبوك فعل الشرط والواو فاعل والكاف مفعول به، فقد الفاء رابطة لجواب الشرط وقد حرف تحقيق وكذب الذين فعل وفاعل ومن قبلهم

متعلقان بمحذوف صلة وجملة فقد كذب في محل جزم جواب الشرط والأولى أن يكون

الجواب محذوفا تقديره فاصبر كما صبروا وقوله فقد كذب دليل عليه (جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ) جملة جاءتهم حال وهو فعل ماض ومفعول به ورسلهم فاعل وبالبينات متعلقان بجاءتهم وما بعده عطف عليه والمنير صفة لكتاب والمراد بالزبر صحف إبراهيم وبالكتاب المنير التوراة والإنجيل. (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ) ثم حرف عطف وأخذت الذين كفروا فعل وفاعل ومفعول به والفاء استئنافية وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر لكان مقدم عليها ونكيري اسمها وحذفت الياء في الرسم لمراعاة الفاصلة والنكير بمعنى الإنكار أي إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك، والاستفهام هنا معناه التقرير أي انه وقع موقعه وصادف أهله.

)

(307/643)

---

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما تقدم من ذكر اختلاف أحوال الناس وأنه أمر مطرد في جميع الكائنات. والهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر فعل مضارع مجزوم بلم وفاعله مستتر تقديره أنت وان واسمها سدت مسد مفعولي تر وأن واسمها وجملة أنزل من السماء خبرها وماء مفعول أنزل. (فَأَخْرَجْنا

بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها ) الفاء عاطفة وأخرجنا عطف على أنزل على طريق الالتفات من

الغيبة إلى التكلم وبه متعلقان بأخرجنا وثمرات مفعول أخرجنا ومختلفا صفة لثمرات وهو

نعت سببي وألوانها فاعل به ولذلك لم يؤنث لأنه أسند إلى جمع تكسير يجوز فيه التذكير

والتأنيث وسيأتي سر هذا الالتفات في باب البلاغة .

(وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ) ومن

الجبال الواو استئنافية ومن الجبال الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم وجدد

مبتدأ مؤخر وسيرد سر هذه الجملة الاسمية في باب البلاغة ، وبيض صفة لجدد وحمر

عطف على بيض ومختلف صفة لجدد أيضا وألوانها فاعل بمختلف ، وقد تقدم نظيره

ولذلك لا يجوز أن تعرب مبتدأ مؤخرا وخبرا مقدما لأن المطابقة واجبة حينذاك ،

وغرابيب عطف على جدد وسود بدل من غرابيب وجعله الزمخشري معطوفا على بيض

أو جدد ، قال "كأنه قيل ومن الجبال مخطط ذو جدد ومنها ما هو على لون واحد " ثم قال

" ولا بد من تقدير حذف المضاف في قوله ومن الجبال جدد بمعنى ومن الجبال ذو جدد

بيض وحمر وسود حتى يئول إلى قولك ومن الجبال مختلف ألوانها كما قال ثمرات مختلفا

ألوانها " ولم يذكر بعد غرابيب سود مختلف ألوانها كما ذكر ذلك بعد بيض وحمر لأن

الغربيب هو البالغ في السواد فصار لونا واحدا غير متفاوت بخلاف ما تقدم .

)

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ) الواو عاطفة ومن الناس خبر مقدم والدواب والأنعام معطوفان على الناس ومختلف ألوانه نعت لمحذوف هو المبتدأ أي صنف مختلف ألوانه من الناس وكذلك نعت لمصدر محذوف لمختلف أي اختلاف كذلك .

(إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) الجملة تعليل للرؤية لأن الخشية معرفة المخشي والعلم بصفاته وأفعاله فمن كان أعلم به كان أخشى منه . وإنما كافة ومكفوفة ويخشى الله فعل مضارع ومفعول به مقدم ومن عباده حال والعلماء فاعل ، وسيأتي سر هذا الحصر في باب البلاغة ، وان واسمها وخبراها .

البلاغة :

انطوت هذه الآيات على فنون رفيعة من البيان نورد منها :

1 - الالتفات في قوله " فأخرجنا " فقد التفت عن الغيبة إلى التكلم لأن المنة بالإخراج أبلغ من إنزال الماء ، ولإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة .

2- التدبيج في قوله " ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود " وقد تقدم أن التدبيج هو أن يذكر المتكلم ألوانا يقصد الكناية بها والتورية بذكرها عن أشياء من وصف أو مدح أو هجاء أو نسيب أو غير ذلك من الفنون ، وقد أراد اللّه تعالى بذلك الكناية عن المشتبه من الطرق لأن الجادة البيضاء هي الطريق التي كثر السلوك عليها جدا وهي أوضح الطرق وأبينها يأمن فيها المتعسف ولا يخاف اجتيازها الموغل في الاسفار والممعن في افتراش صعيد المغاور ، ولهذا قيل ركب بهم الحجة البيضاء ودونها الحمراء ودون الحمراء السوداء كأنها في خفائها والتباس معالمها ضد البيضاء في الظهور والوضوح ، ولما كانت هذه الألوان الثلاثة في الظهور للعين طرفين وواسطة بينهما ، فالطرف الأعلى في الظهور البياض والطرف الأدنى في الخفاء السواد والأحمر بينهما على وضح الألوان والتراكيب ، وكانت ألوان الجبال لا تخرج ، في الغالب ، عن هذه الألوان الثلاثة ، والهداية بكل علم نصب للهداية منقسمة هذه القسمة ، أتت الآية الكريمة على هذا التقسيم فحصل فيها التدبيج مع صحة التقسيم وهي مسرودة على نمط متعارف ، مسوقة للاعتداد بالنعم على ما هدت اليه

من السعي في طلب المصالح والمنافع وتجنب المعاطب والمهالك الدنيوية والأخروية .

3- العدول إلى الاسمية :

وذلك في قوله " ومن الجبال " فإن إيراد هذه الجملة والجملة التي بعدها وهي " ومن الناس " اسميتين مع مشاركتهما للجملة الفعلية قبلهما في الاستشهاد بمضمون كل من هذه الجمل على تباين الناس في الأحوال، كما أن اختلاف الجبال والناس والدواب والأنعام فيما ذكر من الألوان أمر مستمر فعبر عنه بما يدل على الاستمرار، وأما إخراج الثمرات المختلفة فأمر حادث متجدد فعبر عنه بما يدل على الحدوث.

4- التقديم والتأخير والحصر:



---

في قوله " إنما يخشى اللّه من عباده العلماء " لحصر الخشية بالعلماء كأنه قيل: إن الذين يخشون اللّه من بين عباده هم العلماء دون غيرهم، أما إذا قدمت الفاعل فإن المعنى ينقلب إلى أنهم لا يخشون إلا اللّه وهما معنيان مختلفان كما يبدو للمتأمل.

[سورة فاطر (35) : الآيات 29 إلى 31]

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30) وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31)

الاعراب:

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ) إن واسمها وجملة يتلون صلة وكتاب الله مفعول يتلون وأقاموا الصلاة فعل ماض وفاعل ومفعول به وهي عطف على الصلة داخلة في حيزها. (وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً) عطف أيضا وأنفقوا فعل وفاعل ومما متعلقان بأنفقوا وجملة رزقناهم صلة وسرا وعلانية منصوبان بنزع الخافض أي في السر والعلانية وفي ذلك إلماع إلى الإنفاق كيفما تهيأ ولك أن تنصبهما على الحال أي مسرين ومعلنين وقيل هو إلماع إلى الصدقة المطلقة والأحسن فيها أن تكون سرا والزكاة وهي لا تكون إلا علانية.

(يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ) جملة يرجون خبر إن وتجارة مفعول به ولن حرف نفي ونصب واستقبال وتبور فعل مضارع منصوب بلن وجملة لن تبور صفة لتجارة.

)



---

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ) اللام للعاقبة والصيرورة أو للتعليل ويوفيهم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بلن تبور على

معنى أنها لن تكسد لأجل أن يوفيهم أجور أعمالهم الصالحة، وقيل إن اللام متعلقة بمحذوف دل عليه السياق أي فعلوا ذلك ليوفيهم والهاء مفعول يوفيهم الأول وأجورهم مفعول به ثان ويزيدهم عطف على يوفيهم وان واسمها وغفور خبرها الأول وشكور خبرها الثاني وجملة إن تعليل لما تقدم من التوفية والزيادة، وأجاز الزمخشري جعل جملة يرجون في محل نصب على الحال أي وأنفقوا راجين، وخبر إن قوله إنه غفور شكور.

(وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ) الذي مبتدأ

وجملة أوحينا صلة وإليك متعلقان بأوحينا ومن الكتاب حال وهو مبتدأ أو ضمير فصل والحق خبر هو والجملة الاسمية خبر الذي أو الحق خبر الذي. (مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ) مصدقا حال مؤكدة أي وموافقا لما تقدمه من الكتب ولما متعلقان بمصدقا والظرف متعلق بمحذوف صلة ما ويديه مضاف اليه أي من الكتب التي تقدمته وإن واسمها وبعباده متعلقان بخبير واللام المزحلقة وخبير وبصير خبران لإن أي عالم بما ظهر وما بطن منهم.

[سورة فاطر (35) : الآيات 32 إلى 35]

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (33) وَ

ؤلؤا معطوف على محل من أساور ومن داخلة للتبعيض أي يحلون بعض أساور من ذهب " ولباسهم مبتدأ وفيها حال وحرير خبر.



---

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) الواو عاطفة وقالوا فعل ماض أراد به المضارع وعدل إلى الماضي للدلالة على التحقيق ، والحمد مبتدأ ولله خبر والذي نعت وجملة أذهب عنا صلة والحزن مفعول به لأذهب الذي تعدى بالهمز وعنا متعلقان بأذهب . (إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) ان واسمها واللام المزحلقة وغفور خبر أول لإن وشكور خبر ثان (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ) بدل من الذي المتقدمة وجملة أحلنا صلة وهو فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به أول ودار المقامة مفعول به ثان أي أنزلنا دار المقامة ومن فضله متعلقان بأحلنا ومن للابتداء أو للتعليل . (لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) جملة لا يمسنا حال من مفعول أحلنا الأول ويجوز أن تكون حالا من المفعول الثاني والأول أرجح ويمسنا فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وفيها متعلقان بيمسنا ونصب فاعل ولا يمسنا فيها لغوب عطف على ما تقدم .

البلاغة :

1- في قوله " ثم أحدثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا " استعارة مكنية تبعية ، شبّه إعطاء الكتاب إياهم من غير كد أو تعب في وصوله إليهم بتوريث الوارث .

2- وفي هذه الآية أيضا فن " الجمع مع التقسيم " وهو أن يجمع المتكلم بين شيئين أو أكثر في حكم ثم يقسم ما جمعه أو يقسم أولا ثم يجمع ، فالأول كالآية المذكورة وقوله تعالى " يوم تأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد " إلى آخر الآية .

الفوائد :

1- الترتيب على مقامات الناس :



---

قال الزمخشري : " فإن قلت : لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق ؟ قلت : للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم وان المقتصدين قيلل بالإضافة إليهم والسابقين أقل من القليل " وأوضح الخازن هذا المعنى بعبارة أكثر بسطا فقال : " فإن قلت : لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق ؟ قلت : قيل : رتبهم هذا الترتيب على مقامات الناس لأن أحوال الناس ثلاثة : معصية وغفلة وتوبة ، فإذا عصى الرجل دخل في حيز الظالمين فإذا تاب دخل في جملة المقتصدين فإذا صحت توبته وكثرت عبادته ومجاهدته دخل في عداد السابقين " .

2- بين المعتزلة وأهل السنة :

قال الزمخشري : " فإن قلت كيف جعلت جنات عدن بدلا من الفضل الكبير؟ قلت : لأن الاشارة بالفضل إلى السبق بالخيرات وهو السبب في الجنات ونيل الثواب ، فأقام السبب مقام المسبب ، وفي اختصاص السابقين بذكر الجزاء دون الآخرين ما يوجب الحذر فليحذر المقتصد وليملك الظالم لنفسه حذرا وعليهما بالتوبة النصوح ولا يغترا بما رواه عمر رضي اللّه عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له فإن شرط ذلك صحة التوبة فلا يعلل نفسه بالخدع " وهذا الكلام جار على مذهب المعتزلة أما أهل السنة فيجوزون الغفران بمجرد الفضل ، قال ابن المنير في الرد على الزمخشري : " وقد صدرت هذه الآية بذكر المصطفين من عباد اللّه ثم قسمتهم إلى الظالم والمقتصد والسابق ليلزم اندراج الظالم لنفسه من الموحّدين في المصطفين وانه لمنهم ، وأي نعمة أتم وأعظم من اصطفائه للتوحيد والعقائد السالمة من البدع فما بال المصنف (أي الزمخشري) يطنب في التسوية بين الموحد المصطفى والكافر المجترئ.

قبسة عن المعتزلة :

هذا والمعتزلة طائفة من المسلمين يرون أن أفعال الخير من اللّه وأفعال الشر من الإنسان وأن اللّه تعالى يجب عليه رعاية الأصلح للعباد وان القرآن محدث مخلوق ليس بقديم وأن اللّه تعالى ليس بمرئي يوم القيامة وأن المؤمن إذا ارتكب الكبيرة كان في منزلة بين المنزلتين يعنون بذلك أنه ليس بمؤمن ولا كافر وأن من دخل النار لم يخرج منها وأن الايمان قول وعمل واعتقاد وأن إعجاز القرآن في الصرف عنه لا أنه

في نفسه معجز ولو لم يصرف العرب عن معارضته لأتوا بما يعارضه وأن المعدوم شيء وأن الحسن والقبح عقليان وأن اللّه تعالى حيّ لذاته لا بحياة وعالم لذاته لا بعلم وقادر لذاته لا بقدرة.

ومن مشهوري المعتزلة وأعيانهم الجاحظ وأبو الهذيل العلاف وابراهيم النظام وواصل بن عطاء وأحمد بن حابط وبشر بن المعتمر ومعمر بن عباد السلمي، وأبو موسى عيسى الملقب بالمزداد ويعرف براهب المعتزلة وثمامة بن أشرس وهشام بن عمر الفوطي وأبو الحسن ابن أبي عمر والخياط وأستاذ الكعبي وأبو علي الجبائي أستاذ الشيخ أبي الحسن الأشعري أولا وابنه أبو هاشم عبد السلام، هؤلاء هم رءوس مذهب الاعتزال وغالب الشافعية أشاعرة والغالب في الحنفية معتزلة والغالب في المالكية قدرية والغالب في الحنابلة حشوية ومن المعتزلة أبو القاسم الصاحب إسماعيل بن عباد والزمخشري والفراء النحوي

والسيرافي.

[سورة فاطر (35) : الآيات 36 إلى 38]

(315/643)

---

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37) إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (38)

اللغة:

(يَصْطَرِخُونَ) : يتصارخون يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد ومشقة، قال الأعشى:

قصدت إلى عنس لأحدج رحلها وقد حان من تلك الديار رحيلها

فأنّت كما أنّ الأسير وصرخت كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها

أي أنّت كأنين الأسير في الأول ورفعت برفع صوتها ثانيا كصرخة حبلى عند الطلق تركتها قبيلها التي تخدمها عند الولادة والقبيل والقبول والقابلة التي تقوم بمصلحة المرأة عند الولادة وتتلقى الولد عند خروجه. والفعل المبدوءة بأحد أحرف الاطباق وهي الصاد والضاد

والطاء والظاء إذا صيغ منها على وزن افتعل وما يتصرف منه أبدلت تاء الافتعال طاء مثال ذلك الأفعال : صلح ، ضرب ، طرد ، ظلم إذا بنينا منها صيغة افتعل قلنا : على القياس : اصتلح ، اضترب ، اطترد ، اظتلم ، ولتخفيف اللفظ أبدلت التاء طاء والمجانسة بينهما ظاهرة فنقلت إلى اصطلح ، اضطرب ، اطرد ، اظطلم ، ويجوز في نحو اظطلم وجهان آخران اظّلم واطّلم .

الاعراب :

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ) عطف على قوله " إن الذين يتلون كتاب اللّه " والذين مبتدأ وجملة كفروا صلة ولهم خبر مقدم

(316/643)

---

ونار جهنم مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر الذين . (لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها) الجملة خبر ثان للذين أو حال منهم ولا نافية ويقضى فعل مضارع مبني للمجهول أي لا يحكم عليهم بالموت وعليهم متعلقان بيقضى والفاء السببية ويموتوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية ولا يخفف عطف على لا يقضى وعنهم يجوز أن يقوم مقام الفاعل ومن عذابها متعلقان بيخفف ويجوز العكس . (كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ

كَفُورٍ) كذلك نعت لمصدر محذوف ونجزي فعل مضارع وفاعل مستتر وكل كفور مفعول به .

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ) الواو عاطفة وهم مبتدأ وجملة يصطرخون خبر وفيها متعلقان بيصطرخون وربنا منادى مضاف محذوف منه حرف النداء وجملة النداء وما بعدها مقول قول محذوف في محل نصب على الحال أي قائلين ربنا ، وأخرجنا فعل أمر معناه الدعاء والفاعل مستتر ونا مفعول ونعمل فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الأمر والفاعل مستتر تقديره نحن وصالحا غير الذي يجوز أن يكونا صفتين لمصدر محذوف أو لمفعول به محذوف ويجوز أن يكون صالحا نعتا للمصدر وغير الذي هو المفعول وجملة كنا صلة الموصول وكان واسمها وجملة نعمل خبر كنا .

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ) الجملة مقول قول محذوف أي فيقال لهم أولم نعمركم ، والهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي والواو للعطف على مقدر أي ألم نمهلكم ونؤخركم عمرا يتذكر فيه من تذكر أي وقتا يتيح لكم التفكير لو خطر لكم أن تتفكروا ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ونعمركم فعل مضارع مجزوم

بلم وفاعله مستتر تقديره نحن والكاف مفعول به وما نكرة مقصودة بمعنى وقتا فهي في محل نصب على الظرفية الزمانية أو على المصدرية أي تعميرا وجملة يتذكر صفة لما وفيه متعلقان بيتذكر ومن فاعل وجملة تذكر صلة. (وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) الواو عاطفة وجملة جاءكم النذير عطف على أولم نعمركم لأن لفظه لفظ استخبار ومعناه معنى إخبار كأنه قيل قد عمرناكم وجاءكم النذير، فذوقوا الفاء الفصيحة لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجيء النذير، والفاء في فما للتعليل وما نافية وللظالمين خبر مقدم ومن حرف جر زائد ونصير مبتدأ مؤخر محلا مجرور بمن لفظا ويجوز أن تكون ما حجازية عند من يجيز تقديم خبرها على اسمها.

(إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ)

ان واسمها وعالم خبرها وما بعده مضاف اليه. (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ)

ان واسمها وعليم خبرها وبذات الصدور متعلقان بعليم وقد تقدم القول مسهبا في ذات.

[سورة فاطر (35) : الآيات 39 إلى 40]

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَساراً (39) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً (40)

اللغة :

)

(318/643)

---

خَلائِفَ) : جمع خليفة أي يخلف بعضكم بعضا وعبارة الزمخشري : " يقال للمستخلف خليفة وخليف فالخليفة تجمع خلائف والخليف خلفاء " هذا ولم نجد مادة توزعت على كثير من المعاني كهذه المادة ومن يرجع إليها في معاجم اللغة ير العجب ، ولذلك جمع بعضهم معانيها في هذه الأبيات :

عديم خير حدّ سيف خلف والاستقا والقرن أما الخلف

فاسم لعشب الصيف ثم الخلف للوعد ليس من صفات الحر

ذهاب شهوة الطعام خلفه ورقعة ونبت صيف خلفه

كذا اختلاف الوحش ثم الخلفة اسم إلى العيب وذاك يزري

الولد الصالح هذاك خلف وجمع خلفة لرقعة خلف

وخلفة بالضم جمعها خلف لعنب وذاك أصل الخمر

الاعراب :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ) كلام مستأنف مسوق لبيان أحوال الكافرين الذين غمطوا نعمة اللّه عليهم بعد أن استخلفهم في الأرض ، وهو مبتدأ والذي خبره وجملة جعلكم صلة وجعلكم فعل وفاعل ومفعول به أول وخلائف مفعول به ثان وفي الأرض متعلقان بخلائف أو بمحذوف صفة له . (فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً) الفاء الفصيحة ومن اسم شرط جازم مبتدأ وكفر فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والفاء رابطة وعليه خبر مقدم وكفره مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط والواو عاطفة ولا نافية ويزيد الكافرين كفرهم فعل مضارع ومفعول به مقدم وكفرهم فاعل مؤخر وعند ربهم ظرف مكان متعلق بمحذوف حال وإلا أداة حصر ومقتا مفعول به ثان أو تمييز .

)



---

وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً) عطف على الجملة السابقة وكررت للتوكيد ولزيادة التقرير على رسوخ الكفر في نفوسهم واقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين الهائلين وهما المقت والخسار (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أرأيتم تقدم القول فيها أنها

بمعنى أخبروني والرؤية هنا تتعدى لاثنين كما سيأتي وقيل الاستفهام هنا حقيقي ولم تضمن الكلمة معنى أخبروني ، ورأيتم فعل وفاعل وشركاءكم مفعول به أول لرأيتم والذين صفة وجملة تدعون صلة ومن دون اللّه حال .

(أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ) أروني فعل أمر وفاعل ومفعول به والمراد بالأمر التعجيز والجملة معترضة وأعربها الزمخشري بدلا من أرأيتم ورد عليه أبو حيان بما لا يتسع له المجال . وجملة ماذا خلقوا في محل نصب مفعول به ثان إما لرأيتم وإما لأروني فالمسألة من باب التنازع أو أن جملة أروني اعتراضية وماذا يجوز فيها الوجهان المعروفان لها أو إن جملة أروني بدل من جملة أرأيتم كأنه قيل أخبروني عن شركائكم أروني أي جزء خلقوا ومن الأرض متعلقان بخلقوا .

(أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ) أم حرف عطف وهي منقطعة فهي بمعنى بل ويكون قد أضرب عن الاستفهام الأول وشرع في استفهام الآخر والاستفهام إنكاري ولهم خبر مقدم وشرك مبتدأ مؤخر وفي السموات متعلقان بشرك أي شركة . (أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ) عطف على ما تقدم وآتيناهم فعل وفاعل ومفعول به أول وكتابا مفعول به ثان والفاء حرف عطف وهم مبتدأ وعلى بينة خبر ومنه صفة لبينة .

)

بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً) إن نافية ويعد الظالمون فعل مضارع وفاعل وبعضهم بدل من الظالمون بدل بعض من كل وبعضا مفعول يعد وإلا أداة حصر وغرورا منصوب بنزع الخافض أو نعت لمصدر محذوف أي إلا وعدا باطلا وذلك بقولهم إن الأصنام تشفع لنا عند الله.

[سورة فاطر (35) : الآيات 41 إلى 43]

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (41) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (42) اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (43)

الإعراب:

)

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا) إن واسمها وجملة يمسك السموات والأرض خبرها ، وأن تزولا أن وما في حيزها في محل نصب مفعول لأجله أي مخافة أن تزولا وقيل ضمن يمسك معنى يمنع فتكون أن وما في حيزها في محل نصب مفعول به ثان أو على نزع الخافض أي عن أن تزولا والجار والمجرور متعلقان بيمسك قاله الزجاج وقيل أن وما في حيزها في محل نصب بدل اشتمال من السموات أي يمسك زوالهما . (وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وإن شرطية وزالتا فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وإن نافية وأمسكهما فعل ماض ومفعول به ومن حرف جر زائد وأحد مجرور لفظا فاعل أمسكهما محلا ومن بعده حال أو صفة لأحد ، فعلى الأول يكون المعنى من بعد إمساكه وعلى الثاني يكون المعنى سواه أي من أحد غيره ، وجملة إن أمسكهما لا محل لها لأنها جواب القسم وجواب الشرط محذوف دل عليه المذكور على حد قوله في الخلاصة :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

(إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً) ان واسمها وجملة كان خبرها وحليما خبر كان وغفورا خبر ثان .

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ) أقسموا فعل وفاعل وبالله متعلقان بأقسموا وجهد أيمانهم منصوب على المصدرية أو على الحال

أي جاهدين ، قال الفراء : " الجهد بالفتح من قولك اجهد جهدك أي ابلغ غايتك والجهد بالضم الطاقة وعند غير الفراء كلاهما بمعنى الطاقة واللام واقعة في جواب القسم وان شرطية وجاءهم نذير فعل ومفعول به وفاعل واللام جواب القسم أيضا ، ويكونن فعل مضارع مرفوع لعدم اتصاله المباشر بنون التوكيد وأصله ليكونونن حذفت إحدى النونات كراهة توالي الأمثال فلما التقى ساكنان حذفت الواو وبقيت الضمة دليلا عليها فهو مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو المحذوفة اسمها وأهدى خبرها ومن إحدى الأمم متعلقان بأهدى أي من كل واحدة منها .

(فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً) الفاء عاطفة ولما ظرفية حينية أو رابطة متضمنة معنى الشرط وجاءهم نذير فعل ومفعول به وفاعل وجملة ما زادهم جواب لما لا محل لها ، قال الشهاب الحلبي :

" وفيه دليل على أنها - أي لما - حرف لا ظرف إذ لا يعمل ما بعد ما النافية فيما قبلها " وإلا أداة حصر ونفورا مفعول به ثان أو تمييز .

(اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ) استكبارا مفعول لأجله أي لأجل الاستكبار أو بدل من نفورا أو حال أي حال كونهم مستكبرين وفي الأرض متعلقان باستكبارا ومكر السيّء عطف على استكبارا أو على نفورا وهو من إضافة الموصوف إلى صفته والأصل المكر

السيّء أو أن هناك موصوفا محذوفا أي مكر العمل السيء .

(وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) الواو حالية ولا نافية ويحيق المكر فعل مضارع وفاعل والسيّء صفته وإلا أداة حصر وبأهله متعلقان بيحيق .

(فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا) الفاء عاطفة وهل حرف استفهام وينظرون فعل مضارع



و فاعل أي ينتظرون وإلا أداة حصر وسنة الأولين مفعول به وسنة مصدر أضيف إلى مفعوله تارة كما هنا ولفاعله أخرى كقوله : فلن تجد لسنة اللّه لأنه تعالى سنها بهم فصحت إضافتها إلى الفاعل والمفعول ولن حرف نفي ونصب واستقبال وتجد فعل مضارع منصوب بلن ولسنة اللّه متعلقان بتبديلا وتبديلا مفعول تجد .

البلاغة :

1 - ائتلاف اللفظ مع المعنى :

في قوله " وأقسموا باللّه جهد أيمانهم " فن ائتلاف اللفظ مع المعنى أي أن تكون ألفاظ المعنى المراد يلائم بعضها بعضا ليس فيها لفظة نافرة عن إخوانها غير لائقة بمكانها أو موصوفة

بحسن الجوار بحيث إذا كان المعنى غريبا قحا كانت ألفاظه غريبة محضة وبالعكس ، ولما كانت جميع الألفاظ المجاورة للقسم في هذه الآية كلها من المستعمل المتداول لم تأت فيها لفظة غريبة تفتقر إلى مجاورة ما يشاكلها في الغرابة ، وقد تقدم هذا البحث بتفصيل واف في سورة يوسف .

2- إرسال المثل :

وفي قوله " ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله " فن إرسال المثل وقد تقدمت الاشارة إلى هذا الفن مع إيراد أمثال كثيرة وخاصة في شعر أبي الطيب وهو هنا واضح لأن المكر لا يقع إلا على أهله ، وفي أمثالهم :

" من حفر مغواة وقع فيها " قال في الصحاح : وقع الناس في أغوية أي في داهية والمغوّيات بفتح الواو المشددة جمع المغواة وهي حفرة

كالزبية ، يقال من حفر مغويات وقع فيها . قال كعب لابن عباس : في التوراة من حفر حفرة لأخيه وقع فيها ، فقال له ابن عباس : إنا وجدنا هذا في كتاب اللّه : " ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله " .

3- الاسناد المجازي :

وفي قوله : " ما زادهم إلا نفورا " إسناد مجازي لأن إسناد الزيادة للنذير مجاز مرسل لأنه

سبب في ذلك .

[سورة فاطر (35) : الآيات 44 إلى 45]

(324/643)

---

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً (44) وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً (45)

الإعراب :

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) كلام مسوق للاستشهاد على جريان سنته تعالى على تعذيب المكذبين ، والهمزة للاستفهام الانكاري والواو للعطف على مقدر يستدعيه المقام أي ألزموا مساكنهم ولم يسيروا ، ولم حرف نفي وقلب

وجزم ويسيروا فعل مضارع مجزوم بلم والواو فاعل وفي الأرض متعلقان بيسيروا ، فينظروا الفاء عاطفة وينظروا عطف على يسيروا وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر كان

المقدم وعاقبة اسمها المؤخر والجملة في محل نصب مفعول ينظروا والذين مضاف إليه ومن قبلهم متعلقان بمحذوف صفة الذين . (وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً) الواو للحال وكانوا كان واسمها وأشد خبرها ومنهم متعلقان بأشد وقوة تمييز والجملة في محل نصب على الحال .

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) الواو عاطفة وما نافية وكان واسمها واللام لام الجحود ويعجزه فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود والهاء مفعول به ومن حرف جر زائد وشيء مجرور لفظا مرفوع على أنه فاعل شيء وفي السموات صفة لشيء ولا في الأرض عطف على في السموات .

(



---

إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا) ان واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو وعليما وقديرا خبراها . (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ) الواو عاطفة ولو شرطية ويؤاخذ اللّه الناس فعل مضارع وفاعل ومفعول به وبما متعلقان بيؤاخذ وما موصولة أو مصدرية أي بالذي كسبوه أو بكسبهم وعلى كل فجملة كسبوا لا محل لها وجملة ما ترك لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وعلى ظهرها متعلقان بترك ومن

حرف جز زائد ودابة مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول ترك . ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ الواو عاطفة ولكن مخففة مهملة فهي للاستدراك ويؤخرهم فعل مضارع ومفعول به وفاعل مستتر والى أجل متعلقان بيؤخرهم ومسمى نعت لأجل ، فإذا الفاء

عاطفة وإذا ظرف مستقبل وجملة جاء أجلهم في محل جر بإضافة الظرف إليها وجواب إذا العامل فيها محذوف تقديره فيجازيهم والفاء رابطة وان واسمها وجملة كان خبرها وبعباده متعلقان ببصيرا وبصيرا خبر كان .

البلاغة :

في قوله " ما ترك على ظهرها إلخ " استعارة مكنية فقد شبه الأرض بالدابة التي يركب الإنسان عليها ثم حذف المشبه به وهو الدابة وأبقى لها شيئًا من لوازمها وهو الظهر ، ولزاده في حاشيته على البيضاوي سؤال لطيف نورده بنصه قال : " فإن قيل كيف يقال لما عليه الخلق من الأرض وجه الأرض وظهر الأرض مع أن الظهر مقابل الوجه فهو من قبيل إطلاق الضدين على شيء واحد قلت صح ذلك باعتبارين فإنه يقال لظاهرها ظهر الأرض من حيث أن الأرض كالدابة الحاملة للأثقال ويقال له وجه الأرض لكون الظاهر منها كالوجه للحيوان وإن غيره كالبطن هو الباطن منها " . انتهى انتهى . اهـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 8 صـ 118. 171﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

ويُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والأربعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والأربعون بعد الستمائة

(4/644)

---

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

( سورة يس )

(5/644)

---

" فصل فى فضل السورة الكريمة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فضل السّورة

روى عن النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم أَنَّه قال : "من قرأَ يس فى ليله أَصبح مغفوراً [له]

وروى أَيضاً : من دخل المقابر فقرأَ يس خُفِّف عنهم يومئذ ، وكان به بعدد من فيها

حسنات ، وفتحت له أَبواب الجنَّة .

وفى لفظ : مَن قرأَ يس يريد بها الله غفر الله له ، وأُعطى من الأَجر كأَنَّما قرأَ القرآن اثنتى

عشرة مرّة .

وأَيُّمَا مريض قرئ عنده سورةُ يس نزل عليه بعدد كلّ حرف عشرةُ أَملاكٍ يقومون بين يديه صفوفاً ، فيُصلُّون ويستغفرون له ، ويشهدون قبضهُ وغُسله ، ويشيّعون جنازته ، ويصلُّون عليه ويشهدون دفنه .

وأَيُّما مريضٍ قرأَ سورة يس وهو فى سكرات الموت لم يقبض مَلَك الموت روحه حتى يجيئه رِضوانُ خازم الجنان بشَرْبة من الجَنَّة فيشربُها وهو على فراشه ، فيموت وهو ريَّان ، ولا يحتاج إِلى حوض من حياض الأَنبياءِ ، حتى يدخل الجنَّة ، وهو ريَّان .

وفى حديث علىّ : يا علىّ من قرأَ يس فتحت له أَبواب الجنَّة ، فيدخل من أَيِّها شاءَ بغير حساب ، وكُتب له بكلّ آية قرأَها عشرة آلاف حسنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 392﴾

(6/644)

---

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

(سورة يس)

وتسمى القلب والدافعة والقاضية والمعمة .

مقصودها إثبات الرسالة التي هي روح الوجود وقلب جميع الحقائق وبها قوامه وصلاحها للملارسل بها الذي هو خالصة المرسلين الذين هم قلب الموجودات كلها ذوات ومعاني إلى أهل مكة أم القرى وقلب الأرض وهم قريش قلب العرب الذين هم فلب الناس ، بصلاحهم صلاحهم كلهم وبفسادهم فسادهم ، فلذلك كان من حولهم جميع أهل الأرض ، وجل فائدة الرسالة إثبات اللوحدانية التي هي قلب الإعتقاد وخالصه وعموده للعزيز الرحيم ذي الجلال والإكرام ، وإنذار يوم الحجمع الذي به – مع ستره عن العيان الذي هو من خواص القلب – صلاح الخلق ، فهو قلب الأكوان ، وبه الصلاح أو الفساد للإنسان ، وعلى ذلك تنطبق معاني أسمائها : يس والقلب والدافعة والقاضية والمعمة ، وأما يس فسيأتي بيانه من جهة إشارته إلى سر كونها قلبا المشير إلى البعث الذي هو من أجل مقاصدها الذي به يكون صلاح القلب الذي به يكون قبول ما ذكر ، وأما الباقي فإن من اعتقد الرسالة كفته ودفعت عنه جميع مهمه ، وقضت له بكل خير ، وأعطته كل مراد ، وكل منها له أتم نظر إلى القلب كما لا يخفى ، والمعمة : الشاملة بالخير والبركة ، قال في القاموس : يقال : عممهم بالعطية وهو معم خير من خيره ، فقد لاح أن هذه السورة الشريعة لما كانت قلبا كان كل شيء فيها له نظر عميق إلى القلبية . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 6 صـ 239﴾

فصل

قال الآلوسى :

سورة يس

صح من حديث الإمام أحمد وأبي داود والنسائي وإبن ماجه والطبراني وغيرهم عن معقل بن يسار أن رسول الله قال يس قلب القرآن وعد ذلك أحد أسمائها وبين حجة الإسلام الغزالي عليه الرحمة وجه إطلاق ذلك عليها بأن المدار على الإيمان وصحته بالإعتراف بالحشر والنشر وهو مقرر فيها على أبلغ وجه وأحسنه ولذا شبهت بالقلب الذي به صحة البدن وقوامه وأستحسنه الإمام الرازي وأورد على ظاهره أن كل ما يجب الإيمان به لا يصح الإيمان بدونه فلا وجه لإختصاص الحشر والنشر بذلك وأجيب بأن المراد بالصحة في كلام الحجة ما يقابل السقم والمرض ولا شك أن من صح إيمانه بالحشر يخاف من النار ويرغب في الجنة دار الأبرار فيرتدع عن المعاصي التي هي كأسقام الإيمان إذ بها يختل ويضعف ويشتغل بالطاعات التي هي

كحفظ الصحة ومن لم يقو إيمانه به كان خحاله على العكس فشابه الإعتراف به بالقلب الذي بصلاحه يصلح البدن وبفساده يفسد وجوز أن يقال وجه الشبه بالقلب أن به صلاح البدن وفساده وهو غير مشاهد في الحس وهو محل لإنكشاف الحقائق والأمور الخفية وكذا الحشر من المغيبات وفيه يكون إنكشاف الأمور والوقوف على حقائق المقدور وبملاحظته وإصلاح أسبابه تكون السعادة الأبدية وبالإعراض عنه وإفساد أسبابه يبتلي بالشقاوة السرمدية وفي الكشف لعل الإشارة النبوة في تسمية هذه السورة قلبا وقلب كل شيء عليه وأصله الذي ما سواه إما من مقدماته وإما من متمماته إلى ما أسلفناه في تسمية الفاتحة بأم القرآن من أن مقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب إرشاد العباد إلى غايتهم الكمالية في المعاد وذلك بالتحقق والتخلق المذكورين هنالك وهو المعبر عنه بسلوك الصراط المستقيم ومدار هذه السورة الكريمة على بيان ذلك أتم بيان

ويعلم منه وجه اختصاص الحشر بما ذكر في كلام الحجة فلا وجه لقول البعض في الإعتراض عليه فلا وجه إلخ وسيأتي إن شاء الله تعالى آخر الكلام في تفسير السورة الإشارة إلى ما أشتملت عليه من أمهات علم الأصول والمسائل المعتبرة بين الفحول وتقريرها إياها بأبلغ وجه وأتمه ولعل هذا هو السر في الأمر الوارد في صحيح الأخبار بقراءتها على الموتى أي المحتضرين وتسمى أيضا العظيمة عند الله تعالى

أخرج أبو نصر السجزي في الإبانة وحسنه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قال

رسول الله إن في القرآن لسورة تدعى العظيمة عند الله تعالى ويدعى صاحبها الشريف عند الله تعالى يشفع صاحبها يوم القيامة في أكثر من ربيعة ومضر وهي سورة يس وذكر أنها تسمى أيضا المعمة والمدافعة القاضية

(9/644)

---

أخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن حسان بن عطية أن رسول الله قال سورة يس تدعى في التوراة المعمة تعم صاحبها بخير الدنيا والآخرة وتكابد عنه بلوى الدنيا والآخرة وتدفع عنه أهاويل الدنيا والآخرة وتدعى المدافعة القاضية تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضي له كل حاجة الخبر وتعقبه البيهقي فقال : تفرد به محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الجدعاني عن سليمان بن دفاع وهو منكر وهي على ما أخرج ابن الضريس والنحاس وإبن مردويه والبيهقي عن ابن عباس مكية وأستثنى منها بعضهم قوله تعالى : إنا نحن نحيي الموتى الآية مدعيا أنها نزلت بالمدينة لما أراد بنو سمة النقلة إلى قرب مسجد النبي وكانوا في ناحية المدينة فقال عليه الصلاة والسلام إن آثاركم تكتب فلم ينتقلوا وسيأتي إن شاء الله تعالى ما قيل في ذلك وقوله سبحانه وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله الآية لأنها نزلت في المنافقين فتكون مدنية

وتعقب بأنه لا صحة له وأيها ثلاث وثمانون آية في الكوفي وإثنتان وثمانون في غيره وجاء مما يشهد بفضلها وعلو شأنها عدة أخبار وآثار وقد مر آنفا بعض ذلك وصح من حديث معقل بن يسار لا يقرؤها عبد يريد الله تعالى والدار الآخرة إلا غفر له ما تقدم من ذنبه وأخرج الترمذي والدارمي من حديث أنس من قرأ يس كتب الله تعالى له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات ولا يلزم من هذا تفضيل الشيء على نفسه إذ المراد بقراءة القرآن قراءته دون يس وقال الخفاجي : لا يلزم ذلك إذ يكفي في صحة التفضيل المذكور التغاير الإعتباري فإن يس من حيث تلاوتها فردة غير كونها

(10/644)

---

مقروءة في جملته كما إذا قلت : الحسناء في الحلة الحمراء أحسن منها في البيضاء وقد يكون للشيء مفردا ما ليس له مجموعا مع غيره كما يشاهد في بعض الأدوية ورجا أن يكون أقرب مما قدمنا وأنا لا أرجو ذلك والظاهر أنه يكتب له الثواب المذكور مضاعفا أي كل حرف بعشرة حسنات ولا بدع في تفضيل العمل القليل على الكثير فلله تعالى أن يمن بما شاء على من شاء ألا ترى ما صح أن هذه الأمة أقصر الأمم أعمارا وأكثرها ثوابا وإنكار الخصوصيات مكابرة ولله تعالى در من قال : فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم

الغزال وذكر بعضهم أن من قرأها أعطى من الأجر كمن قرأ القرآن أثنتين وعشرين مرة

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي قلابة وهو من كبار التابعين أن من قرأها فكأنما قرأ القرآن إحدى عشرة مرة

وعن أبي سعيد أنه قال من قرأ يس مرة فكأنما قرأ القرآن مرتين

وحديث العشر مرفوع عن ابن عباس ومعقل بن يسار وعقبة بن عامر وأبي هريرة وأنس رضي الله تعالى عنهم فعليه المعول ووجه إتصالها بما قبلها على ما قاله الجلال السيوطي أنه لما ذكر في سورة فاطر قوله سبحانه وجاءكم النذير وقوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانكم لئن جاءهم نذير إلى قوله سبحانه فلما جاءهم نذير وأريد به محمد وقد أعرضوا عنه وكذبوه أفتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته عليه الصلاة والسلام وأنه على صراط مستقيم لينذر قوما ما أنذر آباؤهم وقال سبحانه في فاطر وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل وفي هذه السورة والشمس تجري لمستقر لها والقمر قدرناه منازل إلى غير ذلك ولا يخفى أن أمر المناسبة يتم على تفسير النذير بغيره أيضا فتأمل. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 22 صـ 208. 210 ﴾

(11/644)

"فصل"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى . . يس .

والقرآن الحكيم )

السّورة مكّيّة بالإجماع .

عدد آياتها ثمانون وثلاث آيات عند الكوفيّين واثنتان عند الباقين .

وكلماتها سبعمائة وتسع وعشرون .

وحروفها ثلاثة آلاف .

المختلف فيها آية واحدة .

يس .

مجموع فواصل آياتها (من) وللسّورة اسمان : سورة يس ؛ لافتتاحها ، وسورة حبِيب النجار ؛ لاشتمالها على قصّته .

معظم مقصود السّورة : تأكيد أَمْر القرآن ، والرسالة ، وإِلزام الحجّة على أَهل الضَّلالة ، وضرب المَثَل فى أَهل أَنطاكِية ، وذكر حَبِيب النّجار ، وبيان البراهين المختلفة فى إِحياءِ الأَرض الميتة ، وإِبداءِ اللَّيل ، والنهار ، وسير الكواكب ، ودَوْر الأَفلاكِ ، وَجَرى الجوارى المنشآت فى البحار ، وذلَّة الكفار عند الموت ، وحَيْرتهم ساعة البَعْث ، وسعد المؤمنين

المطيعين، وشُغُلهم فى الجنَّة، وميْز المؤمن من الكافر فى القيامة، وشهادة الجوارح على أَهل المعاصى بمعاصيهم، والمِنَّة على الرّسول صَلَّى الله عليه وسلَّم بصيانته من الشِّعْر ونظمِه، وإِقامة البرهان على البعث، ونفاذ أَمر الحق فى كن فيكون، وكمال مُلْك ذى الجلال على كلّ حال فى قوله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

السّورة خالية من النَّاسخ والمنسوخ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 391.390﴾

(12/644)

---

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة:

سورة يس

353 - مسألة:

قوله تعالى: (مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ) ؟ إن جعلت (ما) نافية، فقد تقدم الجواب في فاطر. وإن جعلتها مصدرية

أو موصولة ، فالمراد كإنذار آبائهم ، فإن إنذار إسماعيل لم يزل فيهم إلى زمن عمرو بن لحى .

، 35 – مسألة :

قوله تعالى : (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى) وفى القصص : (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى) تقدم في القصص جوابه .

ونزيد ههنا أن الرجل جاء ناصحا لهم في مخالفة دينهم فمجيئه من البعد أنسب لدفع التهمة والتواطى عنه ، فقدم ذكر البعد لذلك . وفى القصص : لم يكن نصحه لترك أمر يشق تركه كالدين بل لمجرد نصيحة ، فجاء على الأصل في تقديم الفاعل على المفعول الفضلة .

– مسألة :

قوله تعالى : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ)

وفى مريم (لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا )

وقال تعالى في الفرقان : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ) مضمرا .

جوابه :

أن آية مريم ويس وردتا بعد ضمير المتكلم فناسب الإظهار . وأية الفرقان : وردت بعد تكرار ضمير الغائب ،

فناسب الإضمار للغائب لتناسب الضمائر ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ كشف المعاني صـ 304.305 ﴾

(13/644)

---

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ سبق .

قوله : ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ مرتين ليس بتكرار ؛ لأَنَّ الأُولى هى النفخة الَّتى يموت بها الخَلْق ، والثانية التى يحيا بها الخَلْق .

قوله : ﴿ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ﴾ ، وكذلك فى مريم .

ولم يقل : ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ ؛ كما فى الفرقان ، بل صرّح كيلا يؤدّى إِلى مخالفة الضمير قبله ؛ فإِنه فى السورتين بلفظ الجمع تعْظيما .

وقد سبق فى الفرقان .

قوله : ﴿ فَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ وفى ويونس ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ للَّهِ جَمِيعاً ﴾ تشابَهَا فى الوقف على (قولُهم) فى السّورتين ، لأَنَّ الوقف عليه لازم ، (وإِنَّ

فيهما مكسور بالابتداءِ بالحكاية ، ومحكىُّ القول محذوف ولا يجوز الوصل ؛ لأَنَّ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم منزَّه من أَن يخاطَب بذلك .

قوله : ﴿ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ، وفى الصّافَّات : ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ذكر فى المتشابه ، وما يتعلَّق بالإِعراب لا يُعَدُّ من المتشابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 391 ﴾

(14/644)

---

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة يس

421 - قوله تبارك وتعالى وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى 20 قد سبق

422 - قوله إن كانت إلا صيحة واحدة 29 53 مرتين ليس بتكرار لأن الأولى هي النفخة التي يموت بها الخلق والثانية هي التي يحيا بها الخلق

423 - قوله فلا يحزنك قولهم إنا نعلم 76 وفي يونس ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا 65 تشابها في الوقف على قولهم في السورتين لأن الوقف عليه لازم و إن فيهما مكسورة بالابتداء بالكتابة ومحكى القول محذوف ولا يجوز الوصل لأن النبي صلى الله عليه وسمل

منزه من أن يخاطب بذلك

424 - قوله وصدق المرسلون 52 وفي الصافات وصدق المرسلين 37 ذكر في المتشابه وما يتعلق بالإعراب لا يعد في المتشابه. انتهى انتهى. اهـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 178﴾

(15/644)

---

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يس

سميت هذه السورة يس بمسمى الحرفين الواقعين في أولها في رسم المصحف لأنها انفردت بها فكانا مميزين لها عن بقية السور ، فصار منطوقهما علما عليها .

وكذلك ورد اسمها عن النبي صلى الله عليه وسلم .

روى أبو داود عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقرأوا يس على موتاكم " .

وبهذا الاسم عنون البخاري والترمذي في كتابي التفسير.

ودعاها بعض السلف "قلب القرآن" لوصفها في قول النبيء صلى الله عليه وسلم: "إن لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس"، رواه الترمذي عن أنس، وهي تسمية غير مشهورة.

ورأيت مصحفا مشرقيا نسخ سنة 1078 أحسبه في بلاد العجم عنونها "سورة حبيب النجار" وهو صاحب القصة ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ [يس: 20] كما يأتي.

وهذه تسمية غريبة لا نعرف لها سندا ولم يخالف ناسخ ذلك المصحف في أسماء السور ما هو معروف إلا في هذه السورة وفي "سورة التين" عنونها "سورة الزيتون".

وهي مكية، وحكى ابن عطية الاتفاق على ذلك قال: "إلا أن فرقة قالت قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس: 12] نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فقال لهم: "ديارَكم تُكتبُ آثاركم".

وليس الأمر كذلك وإنما نزلت الآية بمكة ولكنها احتج بها عليهم في المدينة" اهـ.

وفي الصحيح أن النبيء صلى الله عليه وسلم قرأ عليهم: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ وهو يؤول ما في حديث الترمذي بما يوهم أنها نزلت يومئذ.

وهي السورة الحادية والأربعون في ترتيب النزول في قول جابر بن زيد الذي اعتمده

الجعبري ، نزلت بعد سورة ﴿ قُلْ أُوحِيَ ﴾ وقبل سورة الفرقان .

وعدت آياتها عند جمهور الأمصار اثنتين وثمانين .

وعدت عند الكوفيين ثلاثا وثمانين .

وورد في فضلها ما رواه الترمذي عن أنس قال النبيء صلى الله عليه وسلم : " إن لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس .

ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات " .

قال الترمذي : هذا حديث غريب ، وفيه هارون أبو محمد شيخ مجهول .

قال أبو بكر بن العربي : حديثها ضعيف .

أغراض هذه السورة

التحدي بإعجاز القرآن بالحروف المقطعة ، وبالقسم بالقرآن تنويها به ، وأدمج وصفه بالحكيم إشارة إلى بلوغه أعلى درجات الإحكام .

والمقصود من ذلك تحقيق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وتفضيل الدين الذي جاء به في كتاب منزل من الله لإبلاغ الأمة الغاية السامية وهي استقامة أمورها في الدنيا والفوز في

الحياة الأبدية ، فلذلك وصف الدين بالصراط المستقيم كما تقدم في سورة الفاتحة .

وأن القرآن داع لإنقاذ العرب الذين لم يسبق مجيء رسول إليهم ، لأن عدم سبق الإرسال إليهم لنفوسهم لقبول الدين إذ ليس فيها شاغل سبق يعز عليهم فراقه أو يكتفون بما فيه من هدى .

ووصف إعراض أكثرهم عن تلقي الإسلام ، وتمثيل حالهم الشنيعة ، وحرمانهم من الانتفاع بهدي الإسلام وأن الذين اتبعوا دين الإسلام هم أهل الخشية وهو الدين الموصوف بالصراط المستقيم .

وضرب المثل لفريقي المتبعين والمعرضين من أهل القرى بما سبق من حال أهل القرية الذين شابه تكذيبهم الرسل تكذيب قريش .

وكيف كان جزاء المعرضين من أهلها في الدنيا وجزاء المتبعين في درجات الآخرة .

ثم ضرب المثل بالأعم وهم القرون الذين كذبوا فأهلكوا .

والرثاء لحال الناس في إضاعة أسباب الفوز كيف يسرعون إلى تكذيب الرسل .

وتخلص إلى الاستدلال على تقريب البعث وإثباته بالاستقلال تارة وبالاستطراد

أخرى .

مدمجا في آياته الامتنان بالنعمة التي تتضمنها تلك الآيات .

ورامزا إلى دلالة تلك الآيات والنعم على تفرد خالقها ومنعمها بالوحدانية إيقاظا لهم .

ثم تذكيرهم بأعظم حادثة حدثت على المكذبين للرسل والمتمسكين بالأصنام من الذين أرسل إليهم نوح نذيرا ، فهلك من كذب ، ونجا من آمن .

ثم سيقت دلائل التوحيد المشوبة بالامتنان للتذكير بواجب الشكر على النعم بالتقوى والإحسان وترقب الجزاء .

والإقلاع عن الشرك والاستهزاء بالرسول واستعجال وعيد العذاب .

وحذروا من حلوله بغتة حين يفوت التدارك .

وذكروا بما عهد الله إليهم مما أودعه في الفطرة من الفطنة .

والاستدلال على عداوة الشيطان للإنسان .

واتباع دعاة الخير .

ثم رد العجز على الصدر فعاد إلى تنزيه القرآن عن أن يكون مفترى صادرا من شاعر بتخيلات الشعراء .

وسلى الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن لا يحزنه قولهم وأن لهم بالله أسوة إذ خلقهم فعطلوا قدرته عن إيجادهم مرة ثانية ولكنهم راجعون إليه .

فقامت السورة على تقرير أمهات أصول الدين على أبلغ وجه وأتمه من إثبات الرسالة ، ومعجزة القرآن ، وما يعتبر في صفات الأنبياء وإثبات القدر ، وعلم الله ، الحشر ، والتوحيد ، وشكر المنعم ، وهذه أصول الطاعة بالاعتقاد والعمل ، ومنها تتفرع الشريعة . وإثبات الجزاء على الخير والشر مع إدماج الأدلة من الآفاق والأنفس بتفنن عجيب ، فكانت هذه السورة جديرة بأن تسمى " قلب القرآن " لأن من تقاسيمها تتشعب شرايين القرآن كله ، وإلى وتينها ينصب مجراها .

قال الغزالي : إن ذلك لأن الإيمان صحته باعتراف بالحشر ، والحشر مقرر في هذه



---

السورة بأبلغ وجه ، كما سميت الفاتحة أم القرآن إذ كانت جامعة لأصول التدبر في أفانيه كما تكون أم الرأس ملاك التدبر في أمور الجسد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ 194.191 ﴾



---

وقال الشيخ سيد قطب :

مقدمة سورة يس

هذه السورة المكية ذات فواصل قصيرة . وإيقاعات سريعة . ومن ثم جاء عدد آياتها ثلاثاً وثمانين , بينما هي أصغر وأقصر من سابقتها - سورة فاطر - وعدد آياتها خمس وأربعون .

وقصر الفواصل مع سرعة الإيقاع يطبع السورة بطابع خاص , فتتلاحق إيقاعاتها , وتدق على الحس دقات متوالية , يعمل على مضاعفة أثرها ما تحمله معها من الصور والظلال التي تخلعها المشاهد المتتابعة من بدء السورة إلى نهايتها . وهي متنوعة وموحية وعميقة الآثار .

والموضوعات الرئيسية للسورة هي موضوعات السور المكية . وهدفها الأول هو بناء أسس العقيدة . فهي تتعرض لطبيعة الوحي وصدق الرسالة منذ افتتاحها :(يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . . .) . وتسوق قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون , لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة ; وتعرض هذه العاقبة في القصة على طريقة القرآن في استخدام القصص لتدعيم قضاياه . وقرب نهاية السورة تعود إلى الموضوع ذاته:(وما علمناه الشعر - وما ينبغي له - إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) . .

كذلك تتعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية . فيجيء استنكار الشرك على لسان الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة ليحاج قومه في شأن المرسلين وهو يقول: وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ? أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ? إني إذاً لفي ضلال مبين . . وقرب ختام السورة يجيء ذكر هذا الموضوع مرة أخرى:(واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) . .

(20/644)

---

والقضية التي يشتد عليها التركيز في السورة هي قضية البعث والنشور , وهي تتردد في مواضع كثيرة في السورة . تجيء في أولها :(إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) . . وتأتي في قصة أصحاب القرية , فيما وقع للرجل المؤمن . وقد كان جزاؤها العاجل في السياق:(قيل:ادخل الجنة . قال:يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) . . ثم ترد في وسط السورة:(ويقولون:متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ? ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) . . ثم يستطرد السياق إلى مشهد كامل من

مشاهد القيامة . وفي نهاية السورة ترد هذه القضية في صورة حوار (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه . قال:من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . .

هذه القضايا المتعلقة ببناء العقيدة من أساسها , تتكرر في السور المكية . ولكنها تعرض في كل مرة من زاوية معينة , تحت ضوء معين , مصحوبة بمؤثرات تناسب جوها , وتتناسق مع إيقاعها وصورها وظلالها .

هذه المؤثرات منتزعة في هذه السورة من مشاهد القيامة - بصفة خاصة - ومن مشاهد القصة ومواقفها وحوارها . ومن مصارع الغابرين على مدار القرون . ثم من المشاهد الكونية الكثيرة المتنوعة الموحية:مشهد الأرض الميتة تدب فيها الحياة . ومشهد الليل يسلخ منه النهار فإذا هو ظلام . ومشهد الشمس تجري لمستقر لها . ومشهد القمر يتدرج في منازله حتى يعود كالعرجون القديم . ومشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين . ومشهد الأنعام مسخّرة للآدميين . ومشهد النطفة ثم مشهدها إنساناً وهو خصيم مبين ! ومشهد الشجر الأخضر تكمن فيه النار التي يوقدون !

وإلى جوار هذه المشاهد مؤثرات أخرى تلمس الوجدان الإنساني وتوقظه: منها صورة المكذبين الذين حقت عليهم كلمة الله بكفرهم فلم تعد تنفعهم الآيات والنذر: (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ; وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) . ومنها صورة نفوسهم في سرهم وفي علانيتهم مكشوفة لعلم الله لا يداريها منه ستار . . ومنها تصوير وسيلة الخلق بكلمة لا تزيد: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن . فيكون) . . وكلها مؤثرات تلمس القلب البشري وهو يرى مصداقها في واقع الوجود .

ويجري سياق السورة في عرض موضوعاتها في ثلاثة أشواط:

يبدأ الشوط الأول بالقسم بالحرفين: يا . سين وبالقرآن الحكيم , على رسالة النبي ( صلى الله عليه وسلم ) وأنه على صراط مستقيم . يتلو ذلك الكشف عن النهاية البائسة للغافلين الذين يكذبون . وهي حكم الله عليهم بألا يجدوا إلى الهداية سبيلاً , وأن يحال بينهم وبينها أبداً . وبيان أن الإنذار إنما ينفع من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ; فاستعد قلبه لاستقبال دلائل الهدى وموحيات الإيمان . . ثم يوجه رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) إلى أن يضرب لهم مثلاً أصحاب القرية , فيقص قصة التكذيب وعاقبة المكذبين . كما يعرض طبيعة الإيمان في قلب الرجل المؤمن وعاقبة الإيمان والتصديق . .

ومن ثم يبدأ الشوط الثاني بنداء الحسرة على العباد الذين ما يفتأون يكذبون كل رسول

ويستهزئون به . غير معتبرين بمصارع المكذبين , ولا متيقظين لآيات الله في الكون وهي كثير . . وهنا يعرض تلك المشاهد الكونية التي سبقت الإشارة إليها في تقديم السورة , كما يعرض مشهداً مطولاً من مشاهد القيامة فيه الكثير من التفصيل .

(22/644)

---

والشوط الثالث يكاد يلخص موضوعات السورة كلها . فينفي في أوله أن ما جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) شعر , وينفي عن الرسول كل علاقة بالشعر أصلاً . ثم يعرض بعض المشاهد واللمسات الدالة على الألوهية المتفردة , وينعى عليهم اتخاذ آلهة من دون الله يبتغون عندهم النصر وهم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة المدعاة ! . ويتناول قضية البعث والنشور فيذكرهم بالنشأة الأولى من نطفة ليروا أن إحياء العظام وهي رميم كتلك النشأة ولا غرابة ! ويذكرهم بالشجر الأخضر الذي تكمن فيه النار وهما في الظاهر بعيد من بعيد ! وبخلق السماوات والأرض وهو شاهد بالقدرة على خلق أمثالهم من البشر في الأولى والآخرة . . وأخيراً يجيء الإيقاع الأخير في السورة:(إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له:كن . فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون) . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2956 . 2957 ﴾

وقال الشيخ الصابوني :

سورة يس مكية

بين يدي السورة

* سورة يس مكية وقد تناولت مواضيع أساسية ثلاثة وهى : (الإيمان بالبعث والنشور ، وقصة أهل القرية ، والأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ) .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحي ، وصدق رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم ) ثم تحدثت عن كفار قريش ، الذين تمادوا في الغي والضلال ، وكذبوا سيد الرسل محمد بن عبد الله ، فحق عليهم عذاب الله وإنتقامه . ثم ساقت قصة أهل القرية " إنطاكية " الذين كذبوا الرسل ، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة ، على طريقة القرآن في إستخدام القصص للعظة والإعتبار .

* وذكرت موقف الداعية المؤمن (حبيب النجار) الذى نصح قومه فقتلوه فأدخله الله الجنة ، ولم يمهل المجرمين بل أخذهم بصيحة الهلاك والدمار .

* وتحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية ، في هذا الكون العجيب ، بدءا من

مشهد الأرض الجرداء تدب فيها الحياة ، ثم مشهد الليل ينسلخ عنه النهار ، فإذا هو ظلام دامس ، ثم مشهد الشمس الساطعة تدور بقدرة الله في فلك لا تتخطاه ، ثم مشهد القمر يتدرج في منازله ، ثم مشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين ، وكلها دلائل باهرة على قدرة الله جل وعلا .

* وتحدثت عن القيامة وأهوالها ، وعن نفخة البعث والنشور ، التي يقوم الناس فيها من القبور ، وعن أهل الجنة وأهل النار ، والتفريق بين المؤمنين والمجرمين في ذلك اليوم الرهيب ، حتى يستقر السعداء في روضات النعيم ، والأشقياء في دركات الجحيم .

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن الموضوع الأساسي ، وهو موضوع " البعث والجزاء " وأقامت الأدلة والبراهين على حدوثه ، وعلى صدقه .

التسمية :

سميت السورة " سورة يس " لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بها ، وفي الإفتتاح بها إشارة الى إعجاز القرآن الكريم .

فضلها :

قال (صلى الله عليه وسلم) : (إن لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس ، وددت أنها في قلب كل انسان من أمتي) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿صفوة التفاسير حـ 3 صـ 6.5 ﴾

(25/644)

---

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة يس

(يس) : تقدم الكلام في نظائره من الحروف المقطعة في أوائل السور ، وأن الرأى الرجيح فيها أنها حروف تنبيه نحو ألا ويا ، وينطق بأسمائها فيقال (ياسين) .

روى عن ابن عباس أنه قال يس : أي يا إنسان بلغة طيىء .

والحكيم : أي ذي الحكمة ، على صراط مستقيم : أي طريق قويم ، من عقائد صحيحة ، وشرائع حقة ، حق : أي ثبت ووجب ، الأغلال : واحدها غلّ ، وهو ما تشدّ به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد ، والقمح : الذي يرفع رأسه ويغضّ بصره .

قال أبو عبيدة : يقال قمح البعير : إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب . من بين أيديهم : أي من أمامهم ، فأغشيناهم : أي فغطّينا أبصارهم ، والذكر : القرآن ، وخشى الرّحمن : أي

خشى عقابه ، بالغيب : أي قبل حلوله ومعاينة أهواله ، ما قدّموا :

أي ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة ، وآثارهم : أي ما أبقوه بعدهم من الحسنات كعلم علّموه ، أو كتاب ألّفوه ، أو بناء في سبيل اللّه بنوه ، أو من السيئات كغرس بذور الضلالات بين الناس ، فى إمام مبين : أي في أصل يؤتم به

ضرب المثل : يستعمل تارة في تشبيه حال غريبة بأخرى مثلها كما في قوله :

"

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ " الآية ، ويستعمل أخرى في ذكر حال غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تشبيهها بحال أخرى نحو قوله : " وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ " أي وبيّنا لكم أحوالا غاية في الغرابة كالأمثال ، والقرية : هى أنطاكية كما روى عن قتادة وعكرمة ، والمرسلون : هم رسل عيسى من الحواريين ، فعززنا : أي فقوّينا وشددنا ، البلاغ المبين : أي التبليغ الواضح الظاهر للرسالة ، تطيّرنا : أي تشاءمنا ، لنرجمنكم : أي لنرمينكم بالحجارة ، طائركم : أي سبب شؤمكم ، مسرفون : أي مجاوزون الحد في العصيان ، أقصى المدينة : أي أبعد مواضعها ، يسعى :

أي يعدو ويسرع ، لا تغن : أي لا تنفع ، ولا ينقذون : أي لا يخلصوني .

الجند : العسكر ، والمراد بهم الجند من الملائكة ، والخمود : انطفاء النار والمقصود به الموت ، والحسرة على ما قال الراغب : الغم على ما فات ، والندم عليه كأن المتحسر انحسرت عنه قواه من فرط الإعياء ، وإن : بمعنى ما ، ولما : بمعنى إلا ، محضرون : أي للحساب والجزاء .

أصل السلخ : كشط الجلد عن الشاة ونحوها واستعمل هنا في كشف الضوء من مكان الليل وموضع الفاء ظله ، مظلمون : أي داخلون في الظلام ، لمستقر لها : أي حول مستقر لها وهو مركز مدارها ، وقدرناه : أي صيرنا مسيره في منازل ، والمنازل واحدها منزل : وهو المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة ، عاد : أي صار في أواخر سيره وقربه من الشمس كالعرجون في رأى العين ، والعرجون : هو العود الذي عليه الشماريخ ، فإذا أتى عليه الحول تقوس ودقّ واصفرّ .

قال أعشى بنى قيس :

شرق المسك والعبير بها فهى صفراء كعرجون القمر

ينبغى لها : أي لا يتيسر لها ، أن تدرك القمر : أي تجتمع معه في وقت واحد فتداخله وتطمس نوره ، لأن لكل منهما دورة خاصة في فلكه سيأتى ذكرها بعد ، والفلك : مجرى الكواكب ، سمى بذلك لاستدارته ، والسباحة : الجري في الماء للسمك ونحوه ، ثم

استعمل في سير الكوكب في الفضاء في مداره الخاص .

الذرية : أصلها صغار الأولاد ، ثم استعملت في الصغار والكبار ، ويقع على الواحد والجمع وهى من ذرأ اللّه الخلق فتركت همزته نحو بريّة ، الفلك : السفينة ، المشحون : المملوء ، ما يركبون : هى الإبل فإنها سفائن البر لكثرة ما تحمل ، فلا صريخ : أي فلا مغيث لهم يحفظهم من الغرق .

(27/644)

---

متى هذا الوعد : أي متى يتحقق ويجىء ما وعدنا به ؟ ينظرون : أي ينتظرون ، صيحة واحدة : هى النفخة الأولى في الصور بها يموت أهل الأرض جميعا ، ونفخ فى الصور : أي النفخة الثانية ، والأجداث : واحدها جدث (بفتحتين) القبر ، ينسلون : أي يسرعون ، والويل : الهلاك ، من مرقدنا : أي موتنا ، محضرون : أي للحساب والجزاء .

الشغل : الشأن الذي يصدّ المرء ويشغله عما سواه من شئونه وأحواله لأهميته لديه ، إما لأنه يحصّل مسرة كاملة أو مساءة عظيمة ، الفاكه : الطيب النفس الضحوك قاله أبو زيد ، والظلال : واحدها ظل وهو ضد الضّح (ما تصيبه الشمس) والأرائك : واحدها أريكة وهى سرير منجّد مزيّن في قبة أو في بيت ، يدّعون : أي يطلبون .

امتازوا : أي انفردوا وابتعدوا عن المؤمنين ، والعهد : الوصية وعرض ما فيه خير ومنفعة ، وعبادة الشيطان : يراد بها عبادة غير اللّه من الآلهة الباطلة ، وأضيفت إلى الشيطان لأنه الآمر بها والمزّين لها ، والجبلّ : الجماعة العظيمة ، اصلوها : أي قاسوا حرها ، والختم على الأفواه : يراد به المنع من الكلام ، والطمس : إزالة الأثر بالمحو ، فاستبقوا الصراط : أي ابتدروا إلى الطريق المألوف لهم ، فأنى يبصرون : أي فكيف يبصرون الحق ، ويهتدون إليه ؟ والمسخ تحويل الصورة إلى صورة أخرى قبيحة ، على مكانتهم :

أي في أماكنهم حيث يجترحون القبائح ، ونعمره : أي نطل عمره ، ننكسه في الخلق : أي نقلبه فيه فلا يزال ضعفه يتزايد ، وانتقاص بنيته يكثر ، بعكس ما كان عليه في بدء أمره حتى يردّ إلى أرذل العمر .

وما ينبغى له : أي لا يليق به ولا يصلح له ، ذكر : أي عظة من اللّه وإرشاد للثقلين ، حيّا : أي حىّ القلب مستنير البصيرة ، يحق القول : أي يجب العذاب .



---

أولم ير : أي أولم يعلم ، والخصيم : المبالغ في الجدل والخصومة إلى أقصى الغاية ، وضرب لنا مثلا : أي وأورد في شأننا قصة عجيبة هى في غرابتها كالمثل إذ أنكر إحياءنا للعظام النخرة

، والرميم : كالرّمّة والرفات ، وبلى : كلمة جواب كنعم تأتى بعد كلام منفىّ ، أمره : أي شأنه في الإيجاد ، والملكوت : الملك التام كالرحموت والرهبوت والجبروت ، والعرب تقول : جبروتى خير من رحموتى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 22 صـ 145 : حـ 23 صـ 35 ﴾ . باختصار .

(29/644)

---

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يس

وهي مكية

1 - من ذلك قوله جل وعز يسن والقرآن الحكيم آية 2 وقرأ عيسى ياسين بفتح النون روى سفيان عن أبي بكر الهذلي عن الحسين يس قال افتتاح القرآن وروى هشيم عن حصين عن الحسن قال يس

قال يا إنسان وكذلك قال الضحاك

وقال عكرمة هو قسم وقال مجاهد من فواتح كلام الله جل وعز وقال قتادة هو اسم للسورة

وقراة عيسى تحتمل أن تكون اسما للسورة ونصب بإضمار فعل ويجوز أن يكون الفتح

لالتقاء الساكنين قال سيبويه وقد قرأ بعضهم يسن والقرآن وق والقرآن يعني بنصبهما جميعا

قال فمن قال هذا فكأنه جعله اسما أعجميا ثم قال اذكر ياسين

قال أبو جعفر هذا يدل على أن مذهب سيبويه في يس أنه اسم السورة كما قال قتادة قال

سيبويه ويجوز أن يكون يس وص اسمين غير متمكنين فيلزما ثنا الفتح كما ألزمت الأسماء

غير المتمكنة الحركات نحو كيف وأين وحيث وأمس 2 - وقوله جل وعز إنك لمن المرسلين

على صراط مستقيم آية 3 و 4 خبر بعد خبر ويجوز أن يكون على صراط مستقيم من

صلة

المرسلين أي لمن المرسلين على استقامة من الحق 3 - وقوله جل وعز تنزيل العزيز الرحيم

آية 5 أي الذي أوحي إليك تنزيل العزيز الرحيم والنصب لأنه مصدر 4 - ثم قال جل وعز

لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون آية 6 قال قتادة قال قوم لتنذر قوما ما أتى آباءهم

قبلك من نذير وقال قوم لتنذر قوما مثل ما أنذر آباؤهم قال أبو جعفر المعنى على القول

الثاني لتنذر قوما بما أنذر

آباؤهم كما قال سبحانه فقل أنذرتكم صاعقة 5 - ثم قال جل وعز لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون آية 7 أي وجب القول عليهم بكفرهم بأن لهم النار وقيل عقوبة على كفرهم 6 - ثم قال جل وعز إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا آية 8 في معنى هذا أقوال قال الضحاك منعناهم من النفقة في سبيل الله كما قال تعالى ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك وقيل هذا في يوم القيامة إذا دخلوا النار

والماضي بمعنى المستقبل أو لأن الله جل وعز أخبر به أو على إضمار إذا كان وقيل جعلنا بمعنى وصفنا أنهم كذا وقد حكى سيبويه أن جعل تأتي في كلام العرب على هذا المعنى وهو أحد أقواله في قولهم جعلت متاعك بعضه فوق بعض وقوله جل وعز وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا

7 - ثم قال جل وعز فهي إلى الأذقان فهم مقمحون آية 8 والمعنى فأيديهم إلى الأذقان ولم يجر للأيدي ذكر لأن المعنى قد عرف كما قال فما أدري إذا يممت وجها أريد الخير أيهما يليني أألخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي لا يأتليني وفي قراءة عبد الله بن مسعود إنا جعلنا في أيمانهم أغلالا ثم قال تعالى فهم مقمحون آية 8 قال مجاهد أي رافعوا رؤوسهم وأيديهم على أفواههم

وقال الفراء هو الرافع رأسه الغاض بصره

وقال أبو عبيدة هو الذي يجذب وهو رافع رأسه قال أبو جعفر المعروف في اللغة أن المقمح

الرافع رأسه لمكروه ومنه قيل لكانونين به شهرا قماح لأن الإبل إذا وردت فيهما الماء رفعت رؤوسها من البرد ومنه قوله ونحن على جوانبها قعود نغض الطرف كالإبل القماح 8 - ثم قال جل وعز وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا آية 9

(31/644)

---

قال أبو جعفر السد والسد الجبل والمعنى أعميناهم كما قال ومن الحوادث لا أبالك أنني ضربت على الأرض بالأسداد لا أهتدي فيها لموضع تلعة بين العذيب وبين أرض مراد قال عكرمة كل ما كان من صنعة الله عز وجل فهو سد وما كان من صنعة المخلوقين فهو سد وقال ابن أبي إسحق كل ما لا يرى فهو سد وما رئي فهو سد ويروى أنهم أرادوا النبي صلى الله عليه وسلم بسوء فأحال الله جل وعز

بينهم وبينه أي فصاروا كأن بينهم وبينه سدا وكأن في أعناقهم

إغلالا كذا قال عكرمة ونزلت في أبي جهل 9 - ثم قال جل وعز فأغشيناهم فهم لا يبصرون آية 9 التغشية التغطية وروي عن ابن عباس وعمر بن عبد العزيز فأغشيناهم بالعين غير معجمة كما قال تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين 10 - وقوله جل وعز إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم آية 12

روى سماك عن عكرمة عن ابن عباس كانت الأنصار بعيدة من المسجد فقالوا نأخذ أمكنة تقرب من المسجد فأنزل الله جل وعز ونكتب ما قدموا وآثارهم فقالوا نثبت مكاننا

وقال مسروق ما من رجل يخطو خطوة إلا كتب الله له حسنة أو سيئة وقال مجاهد وقتادة آثارهم خطاهم وقال سعيد بن جبير نكتب ما قدموا أعمالهم وآثارهم ما سنوا بعدهم

11 - وقوله جل وعز واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون آية 13 قال عكرمة هي أنطاكية

قال أبو جعفر يقال عندي ضروب من هذا أي أمثال فالمعنى على هذا ومثل لهم مثلا أي اذكر لهم مثلا أصحاب القرية على البدل أي اذكر أصحاب القرية والمعنى واذكر خبر أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون 12 - وقوله جل وعز إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث آية

(32/644)

---

قال قتادة أرسل إليهم عيسى صلى الله عليه وسلم اثنين من الحواريين فكذبوهما وقال كعب ووهب أرسل الله جل وعز إلى أنطيخس الفرعون بأنطاكية وكان يعبد الأصنام اثنين ثم عزز بثالث قال الفراء الثالث أرسل قبل الإثنين وفي التلاوة كأنه أرسل بعدهما قال ومعنى

فعززنا بثالث فعززنا بتعليم الثالث

قال وفي قراءة ابن مسعود فعززنا بالثالث وأهل وأهل التفسير على خلاف قوله وقوله ليس بالبين والله أعلم قال الحسن ومجاهد فعززنا فشددنا قال الفراء وقرأ عاصم فعززنا خفيفة

قال وهو مثل شددنا وشددنا

قال أبو جعفر والمعروف في اللغة أن معنى عززنا غلبنا وقهرنا والمستقبل يفعل بالضم 13

- وقوله جل وعز قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم

قال قتادة أي ما أصابنا من شر فهو بكم ثم قال تعالى لئن لم تنتهوا لنرجمنكم أي لنقتلنكم رجما 14 - وقوله جل وعز قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون آية 19

روي عن مجاهد عن ابن عباس قال طائركم معكم أي الأرزاق والأقدار تتبعكم قال أبو جعفر ومن هذا قوله جل وعز وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه أي ما يطير له من الخير والشر فهو لازم له في عنقه على التمثيل

ثم قال تعالى أئن ذكرتم قال قتادة أي إن ذكرتم تطيرتم وقرأ أبو رزين أأن ذكرتم والمعنى على قراءته ألأن ذكرتم بالله أو بالعذاب تطيرتم وقرأ عيسى قالوا طائركم معكم أين ذكرتم

وقرأ الحسن أين ذكرتم وفسره حيث ذكرتم طائركم معكم 15 - وقوله جل وعز وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى آية 20 قال مجاهد هو حبيب النجار

قال قتادة كان يعبد الله جل وعز في غار فلما سمع بخبر المرسلين جاء يسعى فقال للمرسلين أتطلبون على ما جئتم به أجرا قالوا لا ما أجرنا إلا على الله فقال يا قوم اتبعوا المرسلين إلى قوله إني آمنت بربكم فاسمعون يقول هذا للمرسلين وقال كعب ووهب قال هذا لقومه قال قتادة فرجمه قومه فقال اللهم اهد قومي أحسبه قال فإنهم لا يعلمون فلم يزالوا يرجمونه حتى أقعصوه فأدخله

الله جل وعز الجنة ولم ينظر الله قومه حتى أهلكهم قال كعب ووهب وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه فإذا هم خامدون 16 - وقوله جل وعز قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون آية 29 قال مجاهد في قوله تعالى قيل ادخل الجنة قال قيل له وجبت لك الجنة 17 - وقوله جل وعز إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون آية 29 وقرأ أبو جعفر إن كانت إلا صيحة واحدة

والمعنى على قراءته إن وقعت عقوبتهم إلا صيحة واحدة

فإذا هم خامدون أي ساكنون بمنزلة الرماد الخامد 18 - وقوله جل وعز يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون آية 30 وفي حرف أبي يا حسرة العباد أي هذا موضع حضور الحسرة قال أبو جعفر وحقيقة الحسرة في اللغة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيرا 19 - وقوله جل وعز ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم

إليهم لا يرجعون آية 31

قال سيبويه هو بدل من كم أي ألم يروا أن القرون التي أهلكناهم أنهم لا يرجعون قال محمد بن يزيد هذا لا يصح ولا يجوز ومعنى ألم يروا ألم يعلموا لأنهم إنما أخبروا بهذا وكم نصب ب أهلكنا والمعنى ألم يعلموا كم أهلكنا قبلهم من القرون أي بأنهم إليهم لا يرجعون أي بالاستئصال قال والدليل على هذا أنها في قراءة عبد الله بن مسعود من أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون وقرأ الحسن إنهم إليهم لا يرجعون 20 - وقوله جل وعز وإن كل لما جميع لدينا محضرون آية 31

(34/644)

---

إن بمعنى ما ولما بمعنى إلا وحكى النحويون بالله لما قمت بمعنى إلا وفي حرف أبي بن كعب وإن منهم إلا جميع لدينا محضرون 21 - ثم قال جل وعز وآية لهم الأرض الميتة أحييناها آية 33 أي وعلامة تدل على قدرة الله عز وجل وإحيائه الموتى الأرض الميتة أحييناها

22 - وقوله جل وعز ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم آية 35

روي عن ابن عباس أي ولم تعمله أيديهم وتقرأ وما عملت أيديهم بمعنى والذي عملت أيديهم

23 - وقوله جل وعز سبحان الذي خلق الأزواج كلها أي الأصناف من الثمرات

والحيوان وغيرها 24 - وقوله جل وعز وآية لهم اليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون آية

37 يقال سلخت الشئ من الشئ أي أزلته منه وخلصته حتى لم يبق منه شئ فإذا هم

مظلمون فإذا هم مظلمون أي داخلون في الإظلام

25 - ثم قال جل وعز والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير

العزيز العليم آية 38 قيل المعنى إلى موضع قرارها كما جاء في الحديث تذهب فتسجد بين

يدي ربها جل وعز ثم تستأذن بالرجوع فيؤذن لها آي وآية لهم الشمس تجري لمستقر لها

ويجوز أن تكون مبتدأة ولمستقر لها الخبر أي لأجل لها وروي عن ابن عباس أنه قرأ لا

مستقر لها أي جارية لا تثبت في موضع واحد وروى الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه

عن أبي ذر رضي الله عنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله جل

وعز

والشمس تجري لمستقر لها قال مستقرها تحت العرش وقيل إلى أبعد منازلها في الغروب ثم

ترجع ولا تجاوزه 26 - وقوله جل وعز والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم

أي وآية لهم القمر ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر قدرناه منازل والتقدير

قدرناه ذا منازل كما قال سبحانه وإذا كالوهم أي كالوا لهم

27 - ثم قال جل وعز حتى عاد كالعرجون القديم آية 39 قال قتادة أي كالعذق هذا

اليابس المنحني من النخلة قال أبو جعفر الذي قاله قتادة هو الذي حكاه أهل اللغة والعذق بكسر العين هو الكباسة والقنو وأهل مصر

(35/644)

---

يسمونه الإسباطة وإذا جف شبه به القمر في آخر الشهر وأوله والعذق بفتح العين النخلة

28 - ثم قال جل وعز لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار آية 40 قال الضحاك أي لا تجئ الشمس فيغلب ضوءها ضوء القمر ولا يطلع القمر فيخالط ضوءه ضوء الشمس ولا الليل سابق النهار قال أي لا يزول من قبل أن يجئ النهار ثم 29 - قال جل وعز وكل في فلك يسبحون آية 40

كل من سار سيرا فيه انبساط فهو سابح 30 - ثم قال جل وعز وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون آية 31

قال أبو جعفر أحسن ما قيل في هذا أن المعنى وآية لأهل مكة أنا حملنا ذريات القرون الماضية في الفلك المشحون 31 - وقوله جل وعز وخلقنا لهم من مثله ما يركبون آية 42 قال ابن عباس وأبو مالك وأبو صالح والحسن يعني السفن وقال عبد الله بن شداد بن الهاد وعكرمة ومجاهد وقتادة يعني الإبل

قال أبو جعفر والإبل والدواب في البر بمنزلة السفن في البحر إلا أن الأول أشبه بتأويل ذلك

لدلالة قوله وإن نشأ نغرقهم وإنما الغرق في الماء 32 - وقوله جل وعز وإن نشأ نغرقهم فلا

صريخ لهم ولا هم ينقذون قال قتادة أي فلا مغيث لهم 33 - وقوله جل وعز وإذا قيل لهم

اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم آية 45 قال قتادة أي ما بين أيديكم من الوقائع فيمن كان

قبلكم وما خلفكم قال من الآخرة

والمعنى على قول الحكم بن عتيبة ما بين أيديكم من الدنيا أي مثل ما أصاب عادا وثمودا

وما خلفكم الآخرة وعلى قول مجاهد ما بين أيديكم من ذنوبكم وما لم تعملوه وعلى قول ابن

عباس وسعيد بن جبير ما بين أيديكم الآخرة وما خلفكم الدنيا وكذلك قالا في قول الله

جل وعز

ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم والتقدير في العربية وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما

خلفكم أعرضوا

*(36/644)*

---

ودل على هذا الحذف قوله تعالى وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين

34 - ثم قال جل وعز وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله آية 47 قال الحسن هم اليهود

35 - ثم قال جل وعز قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه آية 49 يقولون هذا على التهزؤ 36 - وقوله جل وعز ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون

وفي حرف أبي وهم يختصمون والمعنى واحد ويقرأ يخصمون أي يخصم بعضهم بعضا ويجوز أن يكون معناه وهم يخصمون عند أنفسهم بالحجة من آمن بالساعة 37 - ثم قال جل وعز فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون آية 5 أي لا يمهلون حتى يوصوا ولا إلى أهلهم يرجعون أي يموتون مكانهم

ويجوز أن يكون المعنى ولا يرجعون إلى أهلهم قولا 38 - وقوله جل وعز ونفخ في الصور آية 51 قال أبو عبيدة هو جمع صورة يذهب إلى أن المعنى ونفخ في الأجسام واحتج بقول الشاعر * لما أتى خبر الزبير تواضعت * سور المدينة والجبال الخشع * قال أبو جعفر الذي قاله أبو عبيدة لا يعرفه أهل التفسير ولا أهل اللغة والحديث على أنه الصور الذي ينفخ فيه إسرافيل صلى الله عليه وأهل اللغة على أن جمع صورة صور

وسيبويه وغيره يذهب إلى أن سور المدينة ليس بجمع سورة 39 - ثم قال جل وعز فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون آية 51 أي القبور يقال للقبر جدث وجدف إلى ربهم ينسلون قال أبو عبيدة أي يسرعون 40 - وقوله جل وعز قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا آية 52 وفي قراءة عبد الله من أهبنا من مرقدنا

قال أبي بن كعب ينامون نومة قبل البعث فيجدون لذلك راحة فيقولون يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا قال الأعمش بلغني أنه يكف عنهم العذاب بين النفختين فإذا نفخ في الصور قالوا من بعثنا من مرقدنا قال مجاهد وقتادة هذا قول الكفار فقال لهم المؤمنون هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون



---

وقيل هذا من قول الملائكة لهم وقيل التمام عند قوله هذا والمعنى الذي وعد الرحمن حق

41 - وقوله جل وعز إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون آية 55 يقال فلان فاكه أي ذو فاكهة وتامر أي ذو تمر كما قال الشاعر * أغررتني وزعمت أنك * لابن بالصيف تامر *

روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس فاكهين فرحين وفي بعض التفاسير ناعمين فأما فكهون فقال الفراء معناه كمعنى فاكهين كما يقال حذر وحاذر وهذا أولاها وقال أبو زيد يقال رجل فكه إذا كان طيب النفس

ضحوكا وقال أبو عبيدة يقال هو فكه بالطعام أو بالفاكهة أو بأعراض الناس

وقال قتادة فكهون معجبون 42 - ثم قال جل وعز هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك

متكئون آية 56 في ظلال جمع ظل ويجوز أن يكون جمع ظلة فأما ظلل فهو جمع ظلة لا غير

قال ابن عباس وقتادة الأرائك السرر في الحجال وقيل الفرش في الحجال وقيل: الفرش في

الحجال.

وقيل هي الفرش أين كانت وهذا معروف في كلام العرب قال ذو الرمة خدودا جفت في

السير حتى كأنما * يباشرن بالمعزاء مس الأرائك * 43 - وقوله جل وعز لهم فيها

فاكهة ولهم ما يدعون آية 57 قال أبو عبيدة أي ما يتمنون يقال ادع علي ما شئت أي تمن

قال أبو جعفر هو مأخوذ من الدعاء بالشيء أي كلما

دعوا بشيء أعطوه 44 - ثم قال جل وعز سلام قولا من رب رحيم آية 58

قال الفراء أي لهم ذلك سلام أي مسلم قال أبو إسحاق سلام بدل من ما أي ولهم أن يسلم

الله جل وعز عليهم وذلك غاية أمنيتهم وفي قراءة عبد الله سلاما قال أبو إسحاق قولا أي

يقول الله ذلك السلام قولا قال الفراء يجوز أن يكون المعنى ولهم ما يدعون قولا كما تقول عدة



---

45 - وقوله جل وعز وامتازوا اليوم أيها المجرمون آية 59 أي انفرزوا ثم عن المؤمنين يقال

مزته فانماز وامتاز وميزته فتميز 46 - وقوله جل وعز ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا

تعبدوا الشيطان آية 60 أي ألم أتقدم إليكم وأوصيكم 47 - وقوله جل وعز ولقد أضل

منكم جبلا كثيرا قال مجاهد أي خلقا قال أبو جعفر فيه سبعة أوجه قرئ منها بخمسة فأما

الخمسة التي قرئ بها فهي ولقد أضل منكم جبلا

وجبلا وجبلا وجبلا وجبلا وأما الإثنان اللذان لم يقرأ بهما ف جبلا وجبلا 48 - وقوله

جل وعز اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم آية 58 وفي قراءة عبد الله بن مسعود اليوم

نختم على أفواههم ولتكلمنا أيديهم في الكلام حذف على هذه القراءة كما قال تعالى

وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين

49 - وقوله جل وعز ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط آية 66 قال

الحسن أي لتركناهم عميا يترددون قال أبو جعفر المطموس والطميس عند أهل اللغة

الأعمى الذي ليس في عينيه شق فاستبقوا الصراط أي ليجوزوا قال مجاهد الصراط

الطريق ثم قال تعالى فأنى يبصرون أي فمن أين يبصرون

50 - ثم قال جل وعز ولو نشاء لمسخناهم رسول على مكانتهم آية 67 قال الحسن أي

لأقعدناهم

وعن ابن عباس قال أي لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم قال أبو جعفر المكان والمكانة

واحد 51 - وقوله جل وعز ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون آية 68 قال قتادة هو

الهرم يتغير سمعه وبصره وقوته كما رأيت

52 - وقوله جل وعز وما علمناه الشعر وما ينبغي له آية 69 أي ما ينبغي أن يقوله قال أبو إسحاق ليس هذا يوجب أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم لم يتمثل بيت شعر ولكنه يوجب أنه صلى الله عليه وسلم ليس بشاعر وأن القرآن لا يشبه الشعر قال قتادة بلغني أن عائشة قالت لم يتمثل النبي صلى الله عليه وسلم بيت شعر إلا بيت طرفة ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا . . . * ويأتيك بالأخبار من لم تزود * فقال ويأتيك من لم تزود بالأخبار فقال أبو بكر ليس هو كذلك يا رسول الله فقال إني لا أحسن الشعر ولا ينبغي لي

53 - وقوله جل وعز لينذر من كان حيا ويحق القول على

الكافرين آية 71

حيا قيل عاقلا وقيل مؤمنا وقال قتادة حي القلب

54 - وقوله جل وعز أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما العرب تستعمل اليد في موضع القوة والله أعلم بما أراد 55 - وقوله جل وعز فهم لها مالكون آية 71 أي ضابطون لأن المقصود ههنا التذليل وأنشد سيبويه * أصبحت لا أملك السلاح ولا * أملك رأس البعير إن نفرا * 56 - وقوله جل وعز لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون آية 75

أي أنهم يعبدونهم ويقومون بنصرتهم فهم لهم بمنزلة الجند قال قتادة يغضبون لهم في الدنيا وهذا بين حسن وقيل تفسير هذا ما روي في الحديث أنه يمثل لكل قوم ما كانوا يعبدون من دون الله جل وعز فيتبعونه إلى النار فهم لهم جند محضرون إلى النار 57 – وقوله جل وعز أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو
خصيم مبين آية 77 روى هشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال أخذ



---

العاص بن وائل عظما حائلا ففته فقال يا محمد أيحيي الله هذا بعد ذا فقال نعم يميتك الله ثم يبعثك ثم يدخلك نار جهنم فأنزل الله عز وجل أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم إلى آخر السورة قال مجاهد وقتادة نزلت في أبي بن خلف قال أبو جعفر يقال رم العظم فهو رميم ورمام 58 – وقوله جل وعز الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون آية 80 هو المرخ والعفار تستعمل الأعراب منه الزنود 59 – ثم قال جل وعز أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى آية 81 كما قال سبحانه لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس وبلى تأتي بعد النفي ولا يجوز أن يؤتى ب نعم لو قال لك قائل

أما قام زيد فقلت نعم انقلب المعنى فصار نعم ما قام فإذا قلت بلى صح المعنى

58 - وقوله جل وعز الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون آية

80

هو المرخ والعفار تستعمل الأعراب منه الزنود 59 - ثم قال جل وعز أو ليس الذي خلق

السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى آية 81 كما قال سبحانه لخلق السموات

والأرض أكبر من خلق الناس وبلى تأتي بعد النفي ولا يجوز أن يؤتى ب نعم لو قال لك قائل

أما قام زيد فقلت نعم انقلب المعنى فصار نعم ما قام فإذا قلت بلى صح المعنى

وهي عند الكوفيين بل زيدت عليها الياء لأن بل عندهم إيجاب بعد نفي فاختيرت لهذا

وزيدت عليها الياء لتدل على هذا المعنى وتخرج من النسق 60 - وقوله جل وعز

فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون آية 83 أي تنزيها للذي بيده ملك كل

شئ وخزائنه فهو يقدر على إحياء الموتى وما يريد وإليه ترجعون أي تردون وتصيرون بعد

مماتكم . تمت سورة يس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معاني القرآن / للنحاس جـ 5 ص 471 .

522 ﴾

وقال الفراء :

سورة (يس)

﴿ يس ﴾

وقوله: ﴿ يس . . . ﴾

حَدّثنا أبو العباس قال حدّثنا محمد قال حدّثنا الفَرّاء قال: حدّثَنى شيخ من أهل الكوفة عن الحسن نفسِه قال: يس: يا رجل . وهو فى العربيَّة بمنزلة حرف الهجاء ؛ كقولك: ﴿ حم ﴾ وأشباهها .

القراءة بوقف النون من يس . وقد سمعت من العرب من ينصبها فيقول: ﴿ يا سينَ والقرآنِ الحكِيم ﴾ كأنه يجعلها متحركة كتحريك الأدوات إذا سكن ما قبلها ؛ مثل لَيْتَ ولَعلّ ينصبُ منها ما سَكنَ الذى يلى آخر حروفه . ولو خُفض كما خُفض جَيْرِ لا أفعلُ ذلكَ خُفضت لمكان اليَاء التى فى جَيْرِ .

﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

وقوله: ﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . . . ﴾

يكون خبراً بعد خبر: إنك لَمِن المرسلينَ ، إنك على صراطٍ مُستقيم . ويكون: إنك لمن الذين أُرسِلوا على صراطٍ مستقيم على الاستقامة .

﴿ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾

وقوله: ﴿ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . . . ﴾

القراءة بالنصب ، على قولك: حقّاً إنك لَمِنَ المرسلينَ تنزيلاً حقّاً . وقرأ أهل الحجاز بالرفع ، وعاصم والأعمش ينصبانها . ومَن رفعها جعَلَها خبراً ثالثاً : إنك لتنزيل العزيز الرحيم . ويكون رفعه على الاستئناف ؛ كقولك: ذلك تنزيل العزيز الرحيم ؛ كما قال ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ سَاعةً مِنْ نَهَارٍ بَلاَغٌ ﴾ أى ذلكَ بلاغ .

﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ . . . ﴾

يقال: لتنذر قوماً لم يُنذر آباؤهم أى لم تنذرهم ولا أتاهم رسول قَبلك . ويقال: لتنذرهم بما أنذِر آباؤهم ، ثم تُلقى الباء ، فيكون (ما) فى موضع نصبٍ كما قال ﴿ أَنْذَرْتُكُم صاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وثَمُودَ ﴾ .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِىَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِىَ إِلَى الأَذْقَانِ . . . ﴾

فكنى عن هى ، وهى للأيمان ولم تذكر . وذلك أن الغُلّ لا يكون إلاّ باليمين ، والعنق ، جامِعاً لليمين ، والعُنق ، فيكفِى ذِكر أحدهما مِن صَاحِبه ، كَمَا قَالَ ﴿ فمنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أو إثماً فأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ﴾ فضمّ الورَثة إلى الوصىّ ولم يُذكروا ؛ لأن الصلح إنما يقع بين الوَصىّ والورَثة . ومثله قول الشاعر :

وما أدرى إذا يمّمت وجهاً * أُريد الخير أيُّهما يلينى

أأَلخير الذى أنَا أبتغيه * أم الشرّ الذى لا يأتلينى

فكنى عن الشرّ وإنما ذكر الخير وحده ، وذلك أن الشرّ يُذكر مع الخير ، وهى فى قراءة عبد الله (إنا جعنا فى أَيمانهم أغلالاً فهى إلى الأذقان ﴾ فكَفَتِ الأيمان من ذكر الأعناق فى حرف عبد الله ، وكَفَت الأعناق من الأيمان فى قراءة العامّة . والذَقَن أسْفل اللَّحيين . والمُقمَح: الغاضّ بصره بعد رفع رأسِهِ . ومعناه: إنا حبسناهم عن الإنفاق فى سَبيل الله .

﴿ وجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ . . . ﴾

أى فألبسنا أبصارهم غِشَاوة . ونزلت هذه الآية فى قوم أرادوا قتل النبىّ صلى الله عليه وسلم من بنى مخزوم ، فأَتوه فى مُصَلاّه ليلا ، فأعمى الله أبصارهم عنه ، فجعلوا يسْمعونَ صوته بالقرآن ولا يرونه . فذلك قوله ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ وتقرأ ﴿ فأَعْشَيْنَاهُمْ ﴾ بالعين . أعْشيناهم عنه ؛ لأن العَشْو بالليل ، إذا أمسيت وأنت لا ترى شيئًا فهو العَشْو .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا . . . ﴾

أمّا ما قدّموا فما أسلفوا من أعمالهم. وآثارُهم ما استُنّ به مِن بعدهم. وهو /ا مثل قوله ﴿ يُنَبَّأُ الإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وأَخَّرَ ﴾ .

(43/644)

---

وقوله ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ القراء مجتمعون على نصب (كُلّ) لما وقع من الفعل على راجع ذكرها. والرفع وجه جيّد؛ قد سمِعتُ ذلك من العرب؛ لأن (كُلّ) بمنزلة النكرة إذا صحبها الجحد؛ فالعرب تقول: هل أحد ضربته، وفى (كلّ) مِثْل هذا التأويل، ألا ترى أن مَعْنَاه: ما من شىء إلاّ قد أحصيناه.

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ . . . ﴾

والثالث قد كان أُرسل قبل الاثنين فكُذّبَ. وقد تراه فى التنزيل كأنه بعدهما. وإنما معنى قوله ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾: بالثالث الذى قبلهما؛ كقولك: فعزّزنا بالأوّل. والتعزيز يقول: شدّدنا أمرهما بما علَّمهما الأوّل شمعون. وكانوا أُرسِلوا إلى أنطاكيَة. وهى فى قراءة

عبد الله (فعزّزنا بالثالث) لأنه قد ذركر فى المرسلين ، وإذا ذُكرت النكرة فى شىءٍ ثم أُعيدت خرجَت معرفةً كقولك للرجل : قد أعطيتك درهمين ، فيقُول : فأين الدرهمان ؟

وقرأ عاصم (فعَزَزْنا) خفيفة . وهو كقولك : شدّدنا وشدَدنا .

﴿ قَالُواْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وقوله : ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ . . . ﴾

يريد : لنقتلنكم . وعامّة ما كان فى القرآن من الرجم فهو قتل ، كقوله ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ .

﴿ قَالُواْ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

وقوله : ﴿ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ . . . ﴾

القراء مجتمعون على (طائركم) بالألف . والعرب تقول : طيركم معكم .

وقوله : ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ قراءة العَامّة بالهمز وكسر أَلف (إنْ) .

(44/644)

---

وقرأ أبو رزِين – وكان من أصْحَاب عبد الله – ﴿ أَأَنْ ذُكِرتم ﴾ ومَن كسر قال ﴿ أَئِن ﴾ جعَله جزاء أُدخِل عليه ألف استفهام . وقد ذُكر عن بعض القرّاء (طائركم معكم أين

ذُكِّرْتم) و ﴿ ذُكِرتم ﴾ يريد: طائركم معكم حيثما كنتم. والطائر هَا هنا: الأعمال والرزق. يقول: هو فى أعناقكم. ومن جعَلها ﴿ أَين ﴾ فينبغى له أن يخفّف ﴿ ذكرتم ﴾ وقد خَفّف أبو جعفر المدنىّ ﴿ ذُكِرتم ﴾ ولا أحفظ عنه (أين).

﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾

وقوله: ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ... ﴾

أى فاشهدُوا لى بذلكَ. يقوله حبيب للرسل الثلاثة.

﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾

وقوله: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي... ﴾

و(بِمَا) تكون فى موضع (الذى) وتكون (ما) و (غفر) فى موضع مصدر. ولو جَعلت (مَا) فى معنى (أىّ) كان صَوابًا. يكون المعْنى: ليتهم يَعلمونَ بأىّ شىء غَفَر لى رَبِّى. ولو كان كذلك لجاز له فيه: ﴿ بِمَ غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ بنُقصان الألف. كما تقول. سَلْ عَمَّ شئت، وكما: قال ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وقد أتَمّها الشاعر وهى استفهام فقال:

إنا قتلنا بقتلانا سَرَاتَكُمُ * أهلَ اللواء فَفِيما يُكثَر القِيل

﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾

وقوله: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً... ﴾

نصبتها القراء، إلا أبا جعفر، فإنه رفعها، عَلَى ألاّ يُضمِر فى (كانت) اسماً. والنصب إذا

اضْمرت فيها ؛ كما تقول: اذهب فليس إلاّ اللهُ الواحد القهّارُ والواحدَ القهّار ، على هذا التفسير ، وسمعت بعض العرب يقول لرجل يصفه بالخِبّ: لو لم يكن إلاّ ظِلُّه لخَابَّ ظِلُّه . والرفع والنصب جائزان . وقد قرأت القراء (إلاّ أنْ تكونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً) بالرفع والنصب . وهذا مِن ذاكَ .

(45/644)

---

وقوله: ﴿ إن كَانَتْ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ وفى قراءة عبد الله ﴿ إنْ كانتْ إلاَّ زَقْيَةً ﴾ والزَقْيَة والزَقْوة لغتان . يقال زَقَيت وزَقَوت . وأنشدنى بعضهم وهو يذكر امرأة:

تلد غلاماً عارماً يؤذيكِ * ولو زَقَوت كزُقاء الدّيك

﴿ ياحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

وقوله: ﴿ ياحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ . . . ﴾

الْمعنَى: يا لهَا حَسْرَةً على العباد . وقرأ بعضهم ﴿ يا حسرةَ العباد ﴾ والمعنى فى العربيّة واحد . والله أعلم . والعرب إذا دعت نكرة موصولة بشىء آثرت النصب ، يقولون: يا رَجلاً كريماً أَقبل ، ويا راكباً على البعير أَقبل . فإذا أفردُوا رفعوا أكثر / ب ممّا ينصبون . أنشدنى بَعضهم:

يا سيّدا ما أنت من سَيّدٍ * موطّأ الأعقابِ رَحْبَ الذراع

قوّال معروف وفعّاله * نحّار أُمّاتِ الرِّباعِ الرِّتاع

أنشدنيه بعض بنى سُلَيم (موطّأ) بالرفع، وأنشدنيه الكسائىّ (موطأ) بالخفض. وأنشدنى آخر:

ألا يَا قتيلاً ما قتيلَ بنى حِلْسٍ * إذا ابتلّ أطرافُ الرماح من الدّعْسِ

ولو رفعت النكرة الموصولة بالصّفة كان صوَابا. قد قالت العرب:

* يا دار غيّرها البلى تغييرا *

تريد: يأيّتها الدار غيّرَهَا. وسَمعت أبا الجراح يقول لرجل: أَيا مَجْنُونٌ مَجْنُونٌ، إتباع.

وسمعت من العرب: يا مهتمٌّ بأمرنا لا تهتمّ، يريدون: يأيّها المهتمّ.

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا . . . ﴾

(46/644)

---

(كَمْ) فى موضع نصب من مكانين: أحدهما أن توقع ﴿ يَرَوْا ﴾ على ﴿ كَمْ ﴾ وهى فى قراءة عبد الله (ألم يروا مَن أهلكنا) فهذا وجه. والآخر أن توقع ﴿ اهلكنا ﴾ على (كم)

وتجعله استفهاماً . كما تقول: علمت كم ضربتَ غلامك . وإذا كان قبل مَن وأىّ وكم رأيت وما اشتُقّ منهَا ، أو العِلْمُ وما اشتقّ منه وما أشبَه معنَاهمَا ، جَازَ أن توقع مَا بعد كم وأىّ ومن وأشباهها عَلَيهَا ، كمَا قَالَ الله ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى﴾ ألا ترى أنك قد أبطلت العلم عن وقوعه على أىّ ، ورفعت أيّا بأحصى . فكذلك تنصبُها بفعل لو وقع عليهَا .

وقوله ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ﴾ فُتحت ألفهَا ؛ لأن المعْنَى: أَلم يروا أنهم إليهم لا يرجعون . وقد كسرها الحسن البصرى ، كأنه لم يوقع الرؤية عَلَى (كم) فلم يوقعهَا عَلى (أنّ) وإنْ شئت كسرتها على الاسْتِئنَاف وجعَلت كم منصوبَةً بوقوع يروا عليهَا .

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾

وقوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ . . .﴾

شدّدها الأعمش وعاصم . وقد خفّفها قوم كثير منهم من قرّاء أهل المدينة وبلغنى أن عليّاً خففَها . وهو الوجه ؛ لأنها (ما) أدخلت عَليهَا لام تكون جوَاباً لإنْ ؛ كأنك: قلت: وإن كلّ لجمع لدينا محضَرونَ . ولم يثقّلها مَن ثقّلها إلاّ عن صوَاب . فإن شئت أردت: وإن كل لِمَن ما جميع ، ثم حُذفت إحدى الميمات لكثرتهنّ ؛ كما قَالَ .

غداة طفَتْ عَلْماءِ بكرُ بن وائل * وعُجْنا صدورَ الخيل نحو تميم

والوجه الآخر من التثقيل أَن يجعَلوا (لَمّا ) بمنزلة (إلاَّ) مع (إنْ) خاصة ، فتكون فى مذهبها

بمنزلة إنما إذا وضعتْ فى معنى إلاَّ ، كأنها لَمْ ضُمّت إليها مَا فصارا جميعاً (استثناء

وخرجتا من حدّ الجحد . ونُرى أن قول العرب (إلاَّ) إنما جمعوا بين إن التى تكون جحداً

وضمّوا إليها (لا) فصارا جميعاً حرفاً واحداً وخرجا من حد الجحد إذ جمعتا فصارا

حرفا واحداً . وكذلك لمّا . ومثل ذلك قوله: ﴿ لولا ﴾ ، إنما هى لو ضمت إليها لا

فصارتا حرفا واحدا . وكان الكسائى ينفى هذا القول . ويقول: لا أعرف جهة لَمّا فى

التشديد فى القراءة .

﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ . . . ﴾

وفى قرءاة عبد الله (وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ) وكلّ صوَاب . والعرب تضمر الهاء فى الذى ومَن

ومَا ، وتظهرها . وكلّ ذلكَ صواب ﴿ وَمَا عَمِلَتْ ﴾ (ما) إن شئت فى موضع خفضٍ:

ليأكلوا منْ ثمره وممّا عملت أيديهم . وإن شئت جعلتها جحداً فلم تجعل لها موضعاً .

ويكون المعْنى: أنا جعَلنا لهم الجنات والنخيل والأعناب ولم تعمله أيديهم ﴿ أَفَلاَ

يَشْكُرُونَ ﴾ .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ . . . ﴾

فإن قال قائل: مَا قوله: ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ ﴾ ؟ فإنما معناه: نسلخ عنه النهار: نرمى بالنهار عنه فتأتى الظلمة. وكذلك النهار يُسلخ منه الليل فيأتى الضوء. وهو عربىّ معروف، ألا ترى قوله: ﴿ آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها ﴾ أى خرج منها وتركها. وكَذلكَ الليل والنهار.

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

وقوله: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها . . . ﴾



---

إلى مقدار مجاريها: المقدار المستقر. من قال: ﴿ لا مستقرّ لهَا ﴾ أو ﴿ لا مُسْتَقَرٌّ لها ﴾ فهما وجهان حَسَنان، جعلهَا أبداً جارية. وأمّا أن يخفض المستقرّ فلا أدرى ما هو.

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾

وقوله: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ . . . ﴾

الرفع فيه أعجب إلىّ من النصب، لأنه قال ﴿ وآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ ﴾ ثم جعل الشمس والقمر مُتبَعين لليل وهما فى مذهبه آيات مثله. ومَن نصبَ أراد: وقدّرنَا القمر منازل، كما فعلنا بالشمس. فردّه على الهاء من الشمس فى المعْنى، لا أنه أوقع عليه ما أوقع عَلَى

الشمس . ومثله فى الكلام: عبد الله يقوم وجَاريتَه يضربها ، فالجارية مردودة عَلَى الفعل لا عَلَى الاسم لذلك نصبناهَا ؛ لأنّ الواو التى فيها للفعْل المتأخّر .

وقوله: ﴿ كَالعُرجُونِ ﴾ والعُرْجون ما بين الشمَاريخ إلى النابت فى النخلة . والقديم فى هذا الموضع: الذى قد أتى عليه حول .

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تدْرِكَ القَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

وقوله: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تدْرِكَ القَمَرَ . . . ﴾

يقول: تطلع ليلا ، ولا أن يسبق الليل النهار ، يقول: ولا القمر له أن يطلُع نهاراً ، أى لا يكون له ضَوء . ويقال: لا ينبغى للشمس أن تدرِك القمر فتُذْهِب ضوءه ، ولا أن يسبق الليلُ النهار فيظلمه . وموضع ﴿ أَن تدْرِكَ ﴾ رفع .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾

وقوله: ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ . . . ﴾

إنما يخاطب أهل مكّة ، فجعَل الذرّية التى كانت مع نوح لأهل مكّة ؛ لأنها أصْل لهم ، فقال: ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ هم أبناء الذرّيّة .

﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ . . . ﴾

من مثل فُلْك نوح ﴿ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ يقول: جعلنا لهم السُّفن مُثّلت على ذلكَ المثال. وهى الزواريق وأشباهها ممَّا يركب فيه الناس. ولو قرأ قارئ: من مَثَلِه كان وَجْهاً يريد من مثاله: أسمعْ أحداً قرأ به.

﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ... ﴾

الصريخ: الإغاثة.

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا... ﴾

يقول: إلاَّ أن نفعل ذلك رحمة. وقوله ﴿ وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ يقول: بقاء إلى أجلٍ، أى نرحمهم فنمتّعهم إلى حين.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

وقوله: ﴿ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ... ﴾

من عذاب الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ من عذاب الدنيا ممّا لا تأمنونَ من عذاب ثَمُود ومَن مضَى.

وقوله: ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ . . . ﴾

جَواب للآية ، وجواب لقوله ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ﴾ فلمّا أن كانوا معرضين عن كلّ آية كفى جوابُ واحدةٍ من ثنتين ، لأن المعْنَى: وإذا قيل لهم: اتقُوا أعرضوا ، وإذا أَتتهم آية أعرضوا .

﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . . . ﴾

(50/644)

---

قرأهَا يحيى بن وثّاب (يخْصِمُونَ) وقرأها عَاصِم (يَخِصِّمُون) بنصب اليَاء ويكسر الخاء . ويَجُوز نصب الخاء ؛ لأن التاء كانت تكون منصوبة فنقل إعْرابُها إلى الخاء . والكسر أكثر وأجود . وقرأهَا أهْل الحجاز ﴿ يَخْصّمونَ ﴾ يشدّدون ويجمعون بين ساكنين . وهى فى قراءة أُبَىّ بن كعب (يَخْتَصِمونَ) فهذه حجّة لمن يشدد . وأما معنى يَحْيى بن وثّابٍ فيكون عَلى مَعْنى يَفعَلونَ من الخُصومة كأنه قال: وهم يتكلّمون ويكون عَلى وجهٍ آخر: وهم يخصمونَ: وهم فى أنفسهم يخصِمُونَ من وعدهم الساعة . وهو وجه حسن أى تأخذهم السَّاعة لأن المعنى: وهم عند أنفسهم يَغلبون من قال لهم: أن الساعة آتية .

﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً... ﴾

يقول: لا يستطيع / ب بعضهم أن يوصى إلى بعضٍ. ﴿ وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى لا يرْجعونَ إلى أهْلهم قولاً. ويقال: لا يرجعون: لا يستطيعُون الرجوع إلى أهليهم من الأسواق.

﴿ قَالُواْ يا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا... ﴾

يقال: إن الكلام انقطع عند المَرْقد. ثم قالت المَلائكة لهم: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ فـ(هذا) و(ما) فى موضع رفعٍ كأنك قلت: هذا وعد الرحمن. ويكون ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا ﴾ فيكون (هذا) من نعت المرقد خفضاً و(ما) فى موضع رفعٍ. بَعثكم وَعْدُ الرحمن. وفى قراءة عَبْدالله بن مسعود ﴿ مَنْ أَهَبَّنا من مرقدنا هَذا ﴾ والبَعْث فى هَذا الموضع كالاستيقاظ؛ تقول: بعثت ناقتى فانبعثت إذا أثارها.

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فاكِهُونَ... ﴾

بالألف. وتقرأ ﴿فكِهونَ﴾ وهى بمنزلة حَذِرون وحاذرونَ وهى فى قراء عبد الله (فاكهِينَ) بالأَلف.

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾

وقوله: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ...﴾

وَ﴿على الأرائك متكِئينَ﴾ منصوباً عَلى القطع. وفى قرَاءتنا رفع. لأنها منتهى الخبر. وقوله ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ أراد جمع ظُلَّة وظُلَل. ويكون أيضاً ﴿ظِلالاً﴾ وهى جمع لظُلَّة كما تقول: خُلَّة وَخُلَل فإذا كثرتْ فهى الخِلال. والجِلاَل والقِلاَل. ومن قال: ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ فهى جمع ظلّ.

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾

وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا...﴾

وفى قراءة عبد الله ﴿سَلاَماً قولاً﴾ فمن رفع قال: ذلكَ لهم سلام قولا، أى لهم ما يدَّعون مُسَلّم خالص، أى هو لهم خالص، يجعله خَبراً لقوله ﴿لَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ خالص. ورُفع عَلى الاستئناف يريد ذلكَ لهم سَلام. ونَصْب القول إن شئت عَلى أن يخرج من السّلاَم كأنك قلت قاله قولاً. وإن شئت جَعلته نصباً من وقوله ﴿لهم ما يدعون﴾ [قولاً] كقولك: عِدَةً من الله.

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

وقوله: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ . . . ﴾

وفى قراءة عبدالله (ولِتُكَلِّمنا) كأنه قال: نختم على أفواههم لتكلمنا . والواو فى هذا الموضع بمنزلة قوله ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ ﴾ .

﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ . . . ﴾

قرأ عاصم والأعمش وحمزة (نُنكِّسْه) بالتشديد وقرأ الحسن وأهل المدينة (نَنْكُسْهُ) بالتخفيف وفتح النون .

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ . . . ﴾

(52/644)

---

اجتمع القراء على فتح الرّاء لأن المعنى: فمنها ما يركبون . ويقوّى ذلك أن عائشة قرأت (فَمِنْها رَكُوبَتُهم) ولو قرأ قارئ: (فمنها رُكوبهم) كما تقول: منها أكلهم وشربهم وركوبهم كان وجهاً .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَآ أَنتُم مِّنْه تُوقِدُونَ ﴾

وقوله: ﴿ مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ . . . ﴾

ولم يقل: الخُضْر . وقد قال الله ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ ولم يقل: أخضر . والرَفْرف ذكر مثل الشجر . والشجر أشدّ اجتمَاعاً وأشبه بالواحِد من الرفرف ؛ ألا ترى اجتمَاعه كاجتمَاع العُشْب والحَصَى والتمر ، وأنت تقول: هذا حَصىً أبيض وحَصىً أسود ، لأنّ جمعه أكثر فى الكلام مِن انفرادِ واحِده . ومثله الحنطة السمراء ، وهى واحدة فى لفظ جمع . ولو قيل حنطة سُمر كان صوابا ًولو قيل الشجر الخُضْر كان صوابا كما قيل الحنطة السمراء وقد قال الآخر:

* بهرجاب ما دام الأراك به خُضْراً *

فقال: خُضْراً ولم يَقل: أخضر . وكلّ صوَاب . والشجر يؤنّث ويذكر . قال الله ﴿ لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُون ﴾ فأنَّث . وقال ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ فذكّر ولم يقل: فيهَا . وقال ﴿ فَإِذَآ أَنتُم مِّنْه تُوقِدُونَ ﴾ فذكّر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 371. 382 ﴾

(53/644)

وقال بيان الحق الغزنوي:

سورة يس

(ما أنذر ءاباؤهم) [6] يجوز أن يكون "ما" بمعنى النفي. ويجوز بمعنى الذي، أي: لنخوفهم الذي خوف آباءهم. وهذا أولى، لأن الأرض لا تخلو من حجة تخوف. (إنا جعلنا في أعناقهم) [8] نزلت الآيتان فيمن هم أن يفتك برسول الله -صلى الله عليه- فصرفهم الله عنه. ويجوز أن يكون ذلك صورة عذابهم في الآخرة. ويجوز أن يكون ذلك مثل امتناعهم عن الإيمان، كالمغلول عن التصرف.

كما قال الأفوه الأودي: 986- كيف الرشاد إذا ما كنت في نفر لهم على الرشد أغلال وأقياد/987- أعطوا غواتهم جهلاً مقادتهم وكلهم في حبال الغي منقاد. (مقمحون) [8] مرفوعة رؤوسهم. والقمح: رفع الشيء إلى الفم. وقيل: المقمح: الذي يرفع رأسه فيصوبها إلى ظهره، فيكون خارج الصدر، متطامن ما بين المنكبين، وتلك هيئة البعير إذا رفع رأسه. (ونكتب ما قدموا) [12] أعمالهم. (وءاثارهم)

سننهم، أي: [ما] استن بها من بعدهم، كقوله: (ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر).

(أصحاب القرية) [13] أهل أنطاكية. والرسولان الأولان: تومان وبولص، والثالث: شمعون.

(رجل يسعى) [20] حبيب النجار. كان من بني إسرائيل، وكانت السماء أمسكت،

فتطيروا بهم وقتلوهم ، فلما رأى حبيب نعيم الجنة ، تمنى إيمان قومه بني إسرائيل فقال: (يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي) بأي شيء غفر . (من جند) [28] لم تحتج إلى جند . (إن كانت) [29] أي: ما كانت (إلا صيحة) . (خامدون) ميتون ، كالنار الخامدة . (يا حسرة على العباد) [30]

(54/644)

---

تلقين لهم أن يتحسروا على ما فاتهم . (وإن كل [لما جميع لدينا محضرون)] [32] ["لما" بالتخفيف على أن "ما" صلة مؤكدة ، و"إن" مخففة من المثقلة أي]: إن كلاً لجميع لدينا محضرون . وبالتشديد ، على أنها بمعنى "إلا" ، وإن بمعنى "ما" . أي: ما كل إلا جميع لدينا محضرون . و(جميع) في الوجهين تأكيد [لـ(كل)] . (ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم) [35] يحتمل معنى الإثبات والنفي . الإثبات: أي يأكلون هنيئًا بغير صنعة كالرطب والفواكه ، ويصنعون منه بأيديهم .

[أو هو على النفي أي: ليأكلوا ولم يعملوا ذلك بأيديهم] . (نسلخ منه النهار) [37] نخرج منه ضوءه ، كما نسلخ الشاة من جلدها . (والشمس تجري لمستقر لها) [38] لانتهائها وفنائها عند انقضاء الدنيا .

وقيل: لأبعد مغاربها من الأفق، ثم تكر راجعة إليها. (والقمر) [39] نصبه بتقدير فعل مضمر، كأنه قدرنا القمر قدرناه، فيكون الفعل المضمر قبل القمر معلوماً بالفعل المظهر بعده، هذا هو مذهب سيبويه في قولك: زيداً ضربته. قال أبو عبيد: لا سيما وقد تقدم القمر ما يمكن أن يعمل في نصبه، وهو نسلخ منه النهار، أي نسلخ النهار، ونقدر القمر. (قدرناه منازل) هي المنازل المعروفة الثمانية والعشرون. (كالعرجون القديم) العذق اليابس. والعذق: ما يخرج من قضبان الكرم والنخيل فيدق ويتقوس، والقديم الذي أتى عليه الحول فدق واستقوس.

ولا يعجبنا اختيار المتكلمين لفظة القديم من بين أسماء الله الحسنى، وقد شبه الله بالعرجون بعض خلقه في أضعف حالاته، وجعل القديم من أدق صفاته.

وكذلك قولهم الذات خطأ، لأن صفات الله لا تلحقها تاء التأنيث للمبالغة، لا يقال: علامة، وهو أعلم [العالمين].

(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) [40] أي: بسرعة سير القمر، كما يرى ذلك في حركتها من المغرب إلى المشرق. فبينا هو يجامع الشمس في الأفق الغربي من أول الشهر، إذ هو يستقبله في النصف منه.

وقال يحيى بن سلام: إن المراد به ليلة البدر ، لأنه يبادر في صبيحتها بالمغيب قبل طلوعها .

(ولا الليل سابق النهار) [40] أي: لا يأتي الليل إلا بعد النهار ، وقت النهار بتمامه .

وسئل الرضا عند المأمون عن الليل والنهار أيهما أقدم وأسبق ؟ ، فقال: النهار ، فطلب منه الدليل ؟ فقال: أما من القرآن فقوله: (ولا الليل سابق النهار) ، وأما من الحساب: فخلق الدنيا بطالع السرطان ، والكواكب في أشرافها ، فيقتضي

كون الشمس من الحمل في عاشر الطالع أن يكون في وسط السماء . (يسبحون) يسيرون بسرعة ، ومنه فرس سابح وسبوح. قال الراجز: 988- ومهمه فيه السراب يسبح

989- يدأب فيه القوم حتى يطلحوا /

990- وإن غدوا فيه وإن تروحوا 991- كأنما أمسوا بحيث أصبحوا . (حملنا ذرياتهم) [41] أي آباءهم ، سمى الآباء ذرية ، لأنه ذرأ الأبناء منهم على طريق تسمية السبب باسم المسبب ، كما قال الراجز: 992- أقبل في المستن من ربابه 993- [أسنمة] الآبال من سحابه . (من مثله) [42]

من سائر السفن التي هي مثل سفينة نوح. وقيل: هي الزواريق . وقيل: الإبل فإنها سفن البر . قال طرفة: 994- كأن حدوج المالكية [غدوة] خلايا [سفين] بالنواصف [من] دد . وقال المثقب: 995- وهن كذاك حين قطعن [فلجاً] كأن حمولهن على سفين

996- يشبهن السفين وهن بخت عراضات الأباهر والشؤون . (اتقوا ما بين أيديكم) [45] من عذاب الدنيا . (وما خلفكم) من عذاب الآخرة . (وهم يخصمون) [49] أي: في متاجرهم ومبائعهم . (ينسلون) [51] يسرعون . وقيل: يخرجون .

(من مرقدنا ) [52] يخفف عنهم بين النفختين فينامون . (في شغل فاكهون) [55] ناعمون ، وذلك الشغل افتضاض الأبكار . وقيل: السماع . والأولى: أن يحمل على كل لذة ونعيم .

(56/644)

---

وقال الفراء: الفكه [والفاكه] واحد ، وهو الرجل الطيب الحديث ، الناعم البال . وقال أبو عبيدة: الفكه الذي يتفكه بالطعام ، والفاكه صاحب الفاكهة ، كالتامر واللابن . (ما يدعون) [57] يستدعون ويتمنون . (سلام قولاً) [58] أي: ولهم من الله سلام يسمعونه ، ومعناه: بشارة الله لهم بسلامتهم أبداً .

(وامتازوا اليوم) [59] ينفصل فرق المجرمين بعضهم عن بعض . (جبلاً كثيراً) [62] خلقاً كثيراً . والأولى: جبلاً بدليل مؤنثه الجبلة/ ، كقوله: (والجبلة الأولين) . وهذا كما يقال: بعير ذفر ، وناقة ذفرة: إذا كانت عظيمة الذفرى . ويجوز أن يكون الجبل جمع جبلة . وأما (جبلاً) بالضمتين ، فهي جمع جبيل ، مثل: سبيل وسبل .

ومعناه: المجبول: مثل الجريح والقتيل. (لطمسنا على أعينهم) [66] أعميناهم في الدنيا. (فاستبقوا [الصراط]) الطريق. (فأنى يبصرون) فكيف يبصرون. (لمسخناهم على مكانتهم) [67] أي: في منازلهم حيث يجترحون المآثم. (ومن نعمره) [68] [نبلغه] ثمانين سنة. (ننكسه) نرده من القوة إلى الضعف، ومن الجدة إلى البلى، ومن الزيادة إلى النقصان.

(مما عملت أيدينا) [71] مما تولينا خلقه، كقوله: (فبما كسبت أيديكم). وقال الحسن: مما عملت قوانا. واليد: القوة كالأيد والله يتعالى عن أن تحله القوة أو الضعف، ولكن معناه: مما عملت قوانا التي أعطيناها الأشياء من الأمور السماوية والأرضية. (وهم لهم جند محضرون) [75] أي: في النار، أو عند الحساب. أي: لا [يتمكنون] من نصرهم وهم حاضرون.

[تمت سورة يس]. انتهى انتهى. اهـ ﴿باهر البرهان صـ 1174. 1193﴾

(57/644)

---

وقال الأخفش:

سورة (يس)

﴿ يس ﴾

قال ﴿ يس ﴾ يقال معناها يا انسان كأنه يعني النبي صلى الله عليه فلذلك قال ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [3] لأنه يعني النبي صلى الله عليه وسلم.

﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾

وقال ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ أي: قوم لم ينذر آباؤهم لأنهم كانوا في الفترة. وقال بعضهم ﴿ مَّا أُنذِرَهُ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ فدخول الفاء في هذا المعنى كأنه لا يجوز - والله أعلم - وهو على الأول احسن.

﴿ قَالُواْ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَإِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

وقال ﴿ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَإِن ذُكِّرْتُم ﴾ أي: إِنْ ذُكِّرْتُمْ فَمَعَكُمْ طائِرُكُم.

﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

وقال ﴿ لاَ الشَّمْسُ ﴾ فادخل "لا" لمعنى النفي ولكن لا ينصب ما [162 ب] بعدها ان تكون نكرة [فهذا] مثل قوله ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ ﴾ .

﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾

قوله ﴿ وَلَهُمْ فيها مَّا يَدَّعُونَ ﴾ .

﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾

وقال ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً ﴾ فانتصب ﴿ قَوْلاً ﴾ على البدل من اللفظ بالفعل كأنه قال "أَقُولُ

قَوْلاً" وقرأه ابن مسعود ﴿ سَلاَماً ﴾ وعيسى وابن ابي اسحاق كذلك نصبوها على خبر المعرفة [على].

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾

وقال ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ أي: "منها ما يركبون" لأنك تقول: "هذه دابَّةٌ رَكُوبٌ" .

و"الرَّكُوبُ": هو فعلهم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 488. 489﴾

(58/644)

---

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة يس

مكية كلها

7 - لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ أي وجب.

8 - فَهُمْ مُقْمَحُونَ «المقمح» : الذي يرفع رأسه، ويغض بصره. يقال: بعير قامح، وإبل قماح، إذا رويت من الماء وقمحت. قال الشاعر - وذكر سفينة وركبانها - :

ونحن على جوانبها قعود نغض الطرف كالإبل القماح

يريد إنا حبسناهم عن الإنفاق في سبيل اللّه بموانع كالأغلال .

9 - وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا والسد والسّد :

الجبل . وجمعها : أسداد . فَأَغْشَيْناهُمْ أي أغشينا عيونهم ، وأعميناهم عن الهدى .

وقال الأسود بن يعفر - وكان قد كف بصره - :

ومن الحوادث - لا أبالك - أنني ضربت على الأرض بالأسداد

ما أهتدي فيها لمدفع تلعة بين العذيب ، وبين أرض مراد

12 - وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا من أعمالهم ، وَآثارَهُمْ : ما استن به بعدهم من سننهم .

وهو مثل قوله : يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ

[سورة القيامة



آية : 13] أي بما قدم من عمله وأخر من أثر باق بعده .

14 - فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ أي قوينا وشددنا . يقال : عزز منه ، أي قوّ من قلبه . وتعزز لحم الناقة

: إذ صلب .

18 و19 - قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ قال قتادة : يقولون : إن أصابنا شر فهو بكم قالُوا طائِرُكُمْ

مَعَكُمْ. ثم قال: أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ تطيرتم بنا ؟ :

وقال غيره: طائركم معكم أين ذكرتم .

و«الطائر» هاهنا : العمل والرزق. يقول: هو في أعناقكم، ليس من شؤمنا . ومثله: وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ [سورة الإسراء آية: 13]. وقد ذكرناه فيما تقدم .

25 - إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ أي فاشهدوا .

34 و35 - وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أي وليأكلوا مما عملته أيديهم .

ويجوز أن يكون: إنا جعلنا لهم جنات من نخيل وأعناب ولم تعمله أيديهم .

ويقرأ: وما عملت أيديهم بلا هاء .

36 - سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها أي الأجناس كلها .

37 - فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ أي داخلون في الظلام .

38 - وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها أي موضع تنتهي إليه، فلا تجاوزه، ثم ترجع .

39 - وكَالْعُرْجُونِ: عود الكباسة. وهو: الإهان أيضا . و

الْقَدِيمِ: الذي قد أتي عليه حول، فاستقوس ودق. وشبه القمر – آخر لية يطلع – به.

40 – لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ فيجتمعا. وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ أي لا يفوت الليل النهار، فيذهب قبل مجيئه. وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ يعني: الشمس والقمر والنجوم يسبحون، أي يجرون.

42 و44 – فَلا صَرِيخَ لَهُمْ أي لا مغيث لهم، ولا مجير، وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ أي إلا أن نرحمهم، ونمتعهم إلى أجل.

29 – يَخِصِّمُونَ أي يختصمون. فأدغم التاء في الصاد.

51 – والْأَجْداثِ: القبور. واحدها: جدث.

يَنْسِلُونَ قد ذكرناه في سورة الأنبياء.

53 – مُحْضَرُونَ: مشهدون.

55 – فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ أي يتفكهون. قال: أبو عبيد: تقول العرب للرجل – إذا كان يتفكه بالطعام أو بالفاكهة أو بأعراض الناس –: إن فلانا لفكه بكذا قال الشاعر:

فكه إلى جنب الخوان إذا غدت نكباء تقطع ثابت الأطناب

ومنه يقال للمزاح: فاكهة. ومن قرأ: فاكِهُونَ أراد ذوي فاكهة، كما يقال: فلان لابن تامر.

وقال الفراء: «هما جميعا سواء: فكة وفاكه، كما يقال حذر وحاذر».

وروي في التفسير: فَاكِهُونَ: ناعمون. وتَفَكَّهُونَ:

معجبون.

56 - فِي ظِلَالٍ: جمع ظل و(في ظلل): جمع ظلة.

الْأَرَائِكِ: السرر في الحجال. واحدها: أريكة.

(61/644)

---

57 - وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ أي ما يتمنون. ومنه يقول الناس: هو في خير ما ادعي، أي ما

تمنى. والعرب تقول: أدع [علي] ما شئت، أي تمن [عليّ] ما شئت.

58 - سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ أي سلام يقال لهم [فيها]، كأنهم يتلقون من رب رحيم.

59 - وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ أي انقطعوا عن المؤمنين، وتميزوا منهم. يقال: مزت

الشيء من الشيء - إذا عزلته عنه - فانماز وامتاز وميزته فتميز.

60 - أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ. ألم آمركم، ألم أوصيكم؟!

62 - وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أي خلقا. وجبلا بالضم والتخفيف، مثله. والجبل

أيضا: الخلق. قال الشاعر:

[جهارا] ويستمتعن بالأنس الجبل

66 - وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ والمطموس هو [الأعمى ] الذي لا يكون بين جفنيه شق . فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ . ليجوزوا . فَأَنَّى يُبْصِرُونَ أي فكيف يبصرون ؟ ! .

67 - عَلى مَكانَتِهِمْ هو مثل مكانهم . يقال : مكان ومكانة ، ومنزل ومنزلة .

68 - وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أي نرده إلى أرذل العمر .

70 - لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا أي مؤمنا . ويقال ، عاقلا .

71 - خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا يجوز أن يكون مما عملناه بقدرتنا وقوتنا . وفي اليد القوة والقدرة على العمل ، فتستعار اليد ، فتوضع موضعها .

(62/644)

---

على ما بيناه في كتاب «المشكل» . هذا مجاز للعرب يحتمله هذا الحرف والله اعلم بما أراد .

72 - فَمِنْها رَكُوبُهُمْ أي ما يركبون . والحلوب : ما يحلبون والحلوبة : ما يحلبون . ويقرأ : «ركوبتهم» أيضا . [هي ] قراءة عائشة رضي الله عنها .

78 - وَهِيَ رَمِيمٌ أي بالية . يقال : رم العظم - إذا بلى - فهو رميم ورمام . كما يقال : رفات وفتات .

80 - الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً أراد الزنود التي توري بها الأعراب، من شجر المرخ والعفار. انتهى انتهى. ا هـ ﴿تأويل مشكل القرآن صـ 316.312﴾

(63/644)

---

وقال الغزنوى:

ومن سورة يس

6 ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ: يجوز ما نافية، ويجوز بمعنى «الذي» «1» أي:

لتخوفنهم الذي خوّف آباؤهم لأنّ الأرض لا تخلو من حجة.

8 إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ: هي صورة عذابهم، أو مثل امتناعهم عن الإيمان كالمغلول عن التصرف «2».

وفي حديث النساء «3»: «منهن غلّ قمل» فإنّه إذا يبس الغلّ قمل في

---

(1) معاني القرآن للأخفش: 2/ 666، ومعاني القرآن للزجاج: 4/ 278، وإعراب القرآن للنحاس: 3/ 383، والتبيان للعكبري: 2/ 1079.

(2) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره: 3/ 383 عن يحيى بن سلام، وذكره البغوي في تفسيره: 4/ 6، وابن الجوزي في زاد المسير: 7/ 6، ونقله القرطبي في تفسيره: 15/

8 عن يحيى بن سلام، وأبي عبيدة.

(3) هو من حديث عمر رضي اللّه عنه كما في غريب الحديث لابن قتيبة: (1/ 602، 603)، ولفظ الحديث: «النساء ثلاث، فهينة لينة، عفيفة مسلمة تعين أهلها على العيش، ولا تعين العيش على أهلها، وأخرى وعاء للولد، وأخرى غل قمل، يضعه اللّه في عنق من يشاء، ويفكه عمّن يشاء ...».

قال ابن قتيبة: «قوله: «غل قمل»، الأصل فيه أنهم كانوا يغلون بالقدّ وعليه الشعر فيقمل على الرجل».

وانظر الحديث ومعناه في الفائق: 4/ 122، وغريب الحديث لابن الجوزي: 2/ 161، والنهاية: 3/ 381.

(64/644)

---

عنقه، فتجتمع عليه محنتان، فضربه مثلا للسليطة اللّسان، الغالية المهر.

مُقْمَحُونَ: مرفوعة رؤوسهم، والمقمح الذي يصوّب رأسه إلى ظهره على هيئة البعير، بعير قامح وإبل قماح «1».

11 وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ: أي: بالغيب عن الناس، أو فيما غاب عنه من أمر

الآخرة.

12 وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا : أعمالهم وَآثارَهُمْ : سننهم بعدهم في الخير والشر ، كقوله «2» :

يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ

.

13 أَصْحابَ الْقَرْيَةِ : أهل أنطاكية «3» .

والرسولان الأولان : توصا وبولص «4» ، والثالث : شمعون «5» .

20 رَجُلٌ يَسْعى : حبيب النجّار «6» .

---

(1) غريب القرآن لليزيدي : 311 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 363 ، ومعاني

الزجاج :

4/ 279 ، وتهذيب اللغة : 4/ 81 .

(2) سورة القيامة : آية : 13 .

(3) ورد هذا القول في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 22/ 155 عن عكرمة ،

وقتادة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 49 ، وعزا إخراجه إلى الفريابي عن ابن عباس

رضي اللّه عنهما . كما نسبه إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن عكرمة .

وقال الماوردي في تفسيره : 3/ 385 : «هي أنطاكية في قول جميع المفسرين» وأنطاكية :

بالفتح ثم السكون والياء مخففة مدينة بالشام قريبة من حلب .

انظر : معجم ما استعجم : 1/ 200 ، ومعجم البلدان : 1/ 266 ، والروض المعطار : 38 .

(4) في «ك» : توماء وبولص ، وجاء في هامش الأصل عن ابن إسحاق في اسميهما : «تاروص» و«ماروص» وعن كعب «صادوق» ، و«صدوق» ، وعن مقاتل : «تومان» ، و«مانوص» .

وانظر الأقوال في اسميهما في زاد المسير : 7/ 10 ، وتفسير القرطبي : 15/ 14 .

(5) قال ابن عطية في المحرر الوجيز : 12/ 286 : «وذكر الناس في أسماء الرسل : صادق مصدوق ، وشلوم ، وغير هذا ، والصحة معدومة فاختصرت» . [. . . . .]

(6) تفسير الطبري : 22/ 158 ، وتفسير الماوردي : 3/ 388 ، والتعريف والأعلام للسهيلي :

144 ، وتفسير القرطبي : 15/ 17 .

وكانت السماء أمسكت فتطيروا بهم وقتلوهم ، فلما رأى حبيب نعيم الجنة تمنى إيمان قومه .

27 بِما غَفَرَ لِي : بأي شيء غفر [لي] «1» .

[80/ب] 28 مِنْ جُنْدٍ : /أي : لم نحتج إلى جند .

29 خامِدُونَ : ميتون «2» .

30 يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ : تلقين لهم أن يتحسروا على ما فاتهم ، أو معناه : حلّوا محلّ من يتحسّر عليه «3» .

وال

والحسرة : شدّة النّدم حتى يحسر كالحسير البعير المعيي «4» .

32 وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ : لما بالتخفيف «5» على أنّ «ما» صلة مؤكدة و«إن» مخففة من المثقلة ، أي : إن كلا لجميع لدينا محضرون .

وبالتشديد «6» على أنها بمعنى الأوان جحدا ، بمعنى : أي : ما كلّ إلّا جميع لدينا .

وجَمِيعٌ في الوجهين تأكيد ل كُلٌّ .

35 لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ : أي : يأكلوا من ثمره بغير صنعة كالرطب والفواكه ، ويعملون منه بأيديهم كالخبز والحلاوى .

---

(1) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» .

(2) تفسير الطبري : 2/23 ، والمفردات للراغب : 158 ، واللسان : 3/ 165

(خمد) .

(3) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 3/ 389 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(4) أي : المتعب .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 4/ 285 ، واللسان : 4/ 188 (حسر) .

(5) وهي قراءة نافع ، وابن كثير ، وأبي عمرو ، والكسائي .

التبصرة لمكي : 306 ، والتيسير للداني : 126 .

وانظر توجيه هذه القراءة ، وقراءة التشديد في معاني القرآن للفراء : 2/ 377 ، ومعاني

القرآن للزجاج : 4/ 286 ، وإعراب القرآن للنحاس : 3/ 393 ، والكشف لمكي :

2/ 215 .

(6) قراءة عاصم ، وابن عامر كما في الغاية في القراءات العشر : 246 ، والتبصرة لمكي

:

306 ، والتيسير للداني : 126 .

أو هو على النفي ، أي : ليأكلوا ولم يعملوا ذلك بأيديهم «1» .

36 خَلَقَ الْأَزْواجَ : الأشكال .

37 نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ : نخرج منه ضوءه كما تسلخ الشّاة من جلدها «2» .

38 لِمُسْتَقَرٍّ لَها : لأبعد مغاربها من الأفق ثم ترجع إليها «3» .

39 قَدَّرْناهُ مَنازِلَ : المنازل المعروفة الثمانية والعشرون [الشّرطان ، البطين ، الثّريا ، الدّبران ، الهقعة ، الهنعة ، الذّراع ، النّثرة ، الطّرف ، الجبهة ، الزّبرة ، الصرفة ، العوّاء ، السّماك ، الغفر ، الزّباني ، الإكليل ، القلب ، الشّولة ، ، النعائم ، البلدة ، سعد الذابح ، سعد بلع ، سعد السّعود ، سعد الأخبية ، فرغ الدلو المقدم ، فرغ الدلو المؤخر ، بطن الحوت . هذه ثمانية وعشرون منزلا ، أربعة عشر منها شامية أولها الشرطان وآخرها السّماك ، لأنها في شق الشام من السماء ، وأربعة عشر منها يمانية أولها الغفر وآخرها بطن الحوت لأنها في شق اليمن عن السماء ، وهي تعرف في الهيئات من النجوم] «4» .

---

(1) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 365 ، وتفسير الطبري : 23/ 4 ، ومعاني الزجاج : 4/ 286 .

(2) انظر معاني القرآن للزجاج : 4/ 287 ، والمفردات للراغب : 238 ، واللسان : 3/ 24 (سلخ) .

(3) انظر هذا المعنى في تفسير الطبري: 23/ 6، وتفسير البغوي: 4/ 12، وزاد المسير:

7/ 19.

وأخرج الإمام البخاري والإمام مسلم رحمهما اللّه تعالى عن أبي ذر رضي اللّه عنه قال:

«سألت النبي صلى اللّه عليه وسلم عن قوله تعالى: وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها قال:

«مستقرها تحت العرش».

صحيح البخاري: 6/ 30، كتاب التفسير، سورة يس، باب قوله: وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها.

وصحيح مسلم: 1/ 139، كتاب الإيمان، باب «بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان».

(4) ما بين معقوفين عن نسخة «ك»، وانظر أسماء منازل القمر في كتاب الأزمنة وتلبية الجاهلية لقطرب: (23، 24)، والأنواء لابن قتيبة: 4، واللسان: 1/ 176 (نوأ).

(67/644)

---

كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ: العذق اليابس «1». يقولون: عرجون «فنعول» من «الانعراج» بل «فعلون» «2».

40 لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ: لسرعة سير القمر «3».

وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ: لا يأتي اللّيل إلّا بعد انتهاء النّهار.

وسئل الرضا «4» - عند المأمون - عن اللّيل والنهار أيّهما أسبق؟ فقال:

النهار ودليله: أمّا من القرآن: وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ، ومن الحساب أنّ الدنيا خلقت بطالع

«السّرطان» والكواكب في إشرافها، فتكون الشّمس في «الحمل» عاشر الطالع وسط

السّماء.

يَسْبَحُونَ: يسيرون بسرعة فرس سابح وسبوح «5».

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 161، وغريب القرآن لليزيدي: 311، وتفسير

الطبري:

23/ 6، وتفسير القرطبي: 15/ 30.

(2) في «ك»: بل فعلون، من الانعراج.

وفي وزن «عرجون» قال العكبري في التبيان: 2/ 1083: «فعلول، والنون أصل.

وقيل:

هي زائدة لأنه من الانعراج وهذا صحيح المعنى، ولكنه شاذ في الاستعمال».

وانظر الكشاف: 3/ 323، والبيان لابن الأنباري: 2/ 295، وتفسير القرطبي:

15/ 30.

(3) قال النحاس في إعراب القرآن: 3/ 395: «وأحسن ما قيل في معناه وأبينه مما لا يدفع أن سير القمر سير سريع فالشمس لا تدركه في السير». [. . . . . .]

(4) الرّضا: (153 - 203هـ).

هو علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، كان مقربا من الخليفة العباسي المأمون، الذي عهد إليه بالخلافة من بعده، لكنه مات في حياة المأمون ب «طوس».

قال الحافظ ابن حجر في التقريب: 405: «صدوق، والخلل ممن روى عنه، من كبار العاشرة. . .».

وانظر أخباره في تاريخ الطبري: 8/ 568، وسير أعلام النبلاء: 9/ 387، وشذرات الذهب: 2/ 6.

(5) سبح الفرس: جريه، وفي النهاية: 2/ 332: «فرس سابح، إذا كان حسن مدّ اليدين في الجري».

وانظر الصحاح: 1/ 372، واللسان: 2/ 470، وتاج العروس: 6/ 444 (سبح).

41 حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ «1» : آباءهم «2» لأنّه ذرأ «3» الأبناء منهم ، تسمية للسبب باسم المسبّب ، وإن كان الذرية الأولاد فذكرهم لأنه لا قوة لهم على السّفر كقوّة الرجال .

42 مِنْ مِثْلِهِ : من سائر السّفن التي هي مثل سفينة نوح «4» ، أو هو الإبل فإنّهن سفن البرّ «5» .

45 اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ : من عذاب الدنيا ، وَما خَلْفَكُمْ : من عذاب الآخرة «6» .

49 وَهُمْ يَخِصِّمُونَ : في متاجرهم ومبايعهم/ .

وفي الحديث «7» : «النّفخات ثلاث : نفخة الفزع ، والصعق ، والقيام

---

(1) بالجمع قراءة نافع ، وابن عامر كما في السبعة لابن مجاهد : 540 ، والتبصرة لمكي : 307 ، والتيسير للداني : 184 .

(2) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 3/ 392 عن أبان بن عثمان رضي اللّه عنهما . ولفظ الذرية يطلق على الآباء وعلى الأبناء ، فهو من الأضداد كما في اللسان : (14/ 285 ، 286) (ذرا) .

(3) أي : خلق الأبناء منهم .

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 23/ 10 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما . ورجحه الطبري : «لدلالة قوله : وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ على أن ذلك كذلك ، وذلك أن الغرق معلوم أنه لا يكون إلا في الماء ، ولا غرق في البر» .

(5) أخرجه الطبري في تفسيره : (23/ 10 ، 11) عن محمد بن سعد عن أبيه . . . ، وهو إسناد مسلسل بالضعفاء ، تقدم بيان أحوالهم ص (135) .

وأخرجه أيضا عن عكرمة ، وعبد الله بن شداد ، والحسن .

(6) ذكره الزجاج في معانيه : 4/ 289 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 393 عن سفيان ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 23 ، والقرطبي في تفسيره : 15/ 36 .

(7) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الطبري في تفسيره : 23/ 14 عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا .

وأورده القرطبي في تفسيره : 13/ 240 ، ثم قال : «ذكره علي بن معبد والطبري والثعلبي وغيرهم ، وصححه ابن العربي» .

وذكره ابن كثير في تفسيره : 5/ 385 ، وقال : «وهذا الحديث قد رواه الطبراني وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وغير واحد ، مطولا جدا . . .» .

قال القرطبي - رحمه الله تعالى - في التذكرة : 266 : «واختلف في عدد النفخات ، فقيل :

ثلاث ، نفخة الفزع لقوله تعالى : وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ ونفخة الصعق ، ونفخة البعث ، لقوله تعالى : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى

فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ.

وهذا اختيار ابن العربي وغيره... وقيل: هما نفختان، ونفخة الفزع هي نفخة الصعق

، لأن الأمرين لا زمان لها، أي: فزعوا فزعا ماتوا منه...» اه- .

وصحح القرطبي هذا القول وأورد الأدلة عليه، فانظره هناك.

(69/644)

---

لرب العالمين».

52 مِنْ مَرْقَدِنا: يخفّف عنهم بين النفختين فينامون «1».

55 فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ: ناعمون «2»، و«الشغل»: افتضاض الأبكار «3».

وقيل: السّماع، بل هو كلّ راحة ونعيم.

والفكه الذي يتفكه مما يأكل، والفاكه صاحب الفاكهة ك«التامر» «4».

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره: 23/ 16 عن قتادة، ونقله البغوي في تفسيره: 4/ 15

عن ابن عباس، وأبي بن كعب، وقتادة.

(2) انظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 366، وتفسير الماوردي: 3/ 396،

واللسان:

13/ 524 (فكه) .

(3) ورد هذا المعنى في أثر أخرجه الطبري في تفسيره: 23/ 18 عن عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب رضي الله تعالى عنهم.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 7/ 64، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما كما عزا إخراجه إلى عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وعبد الله بن أحمد، وابن مسعود رضي الله عنه.

وانظر هذا القول في معاني الزجاج: 4/ 291، وتفسير الماوردي: 3/ 396، وتفسير ابن كثير: 6/ 569.

(4) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: (2/ 163، 164)، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 366، واللسان: 13/ 524 (فكه) .

(70/644)

---

56 والْأَرائِكِ: الفرش في الحجال «1» .

57 ما يَدَّعُونَ: يستدعون ويتمنّون «2» .

58 سَلامٌ قَوْلًا : أي : ولهم من اللّه سلام يسمعونه ، وهو بشارتهم بالسّلامة أبدا .

59 وَامْتازُوا : ينفصل فرق المجرمين بعضهم عن بعض «3» .

62 جبلًّا «4» وجبلّا : خلقا «5» .

66 لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ : أعميناهم في الدنيا .

فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ : الطريق .

فَأَنَّى يُبْصِرُونَ : فكيف .

67 لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ : في منازلهم حيث يجترحون المآثم .

فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا : لم يقدروا على ذهاب ومجيء .

68 وَمَنْ نُعَمِّرْهُ : نبلغه ثمانين سنة «6» نُنَكِّسْهُ : نرده من القوة إلى

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 164 ، وغريب القرآن لليزيدي : 312 ، وتفسير غريب القرآن :

366 ، وتفسير الطبري : 23/ 20 ، والمفردات للراغب : 16 .

قال الزجاج في معانيه : 4/ 292 : «وهي في الحقيقة «الفرش» كانت في حجال أو غير حجال» .

وفي الصحاح : 4/ 1667 (حجل) : «والحجلة بالتحريك : واحدة حجال العروس ، وهي بيت يزيّن بالثياب والأسرة والستور» . [. . . . .]

(2) مجاز القرآن : 2/ 164 ، وتفسير الطبري : 20/ 21 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 292 .

(3) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 397 عن الضحاك .

(4) بضم الجيم والباء وتخفيف اللام قراءة ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وقرأ نافع ، وعاصم بكسر الجيم والباء وتشديد اللام .

السبعة لابن مجاهد : 542 ، والتبصرة لمكي : 308 ، والتيسير للداني : 184 .

(5) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 164 ، وتفسير الطبري : 23/ 23 ، ومعاني الزجاج : 4/ 293 ، والمفردات للراغب : 87 .

(6) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 3/ 399 عن سفيان ، وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 70 ، وعزا إخراجه إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن سفيان .

والصواب في ذلك ما قاله المفسرون إن المراد من قوله تعالى : نُعَمِّرْهُ : نمد له في العمر ونطيل فيه ، ونرده إلى أرذله .

انظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 368 ، وتفسير الطبري : 23/ 26 ، وتفسير البغوي :

4/ 18 ، وزاد المسير : 7/ 33 ، وتفسير القرطبي : 15/ 51 .

الضعف ومن الزيادة إلى النقصان .

70 مَنْ كانَ حَيًّا : حيّ القلب «1» .

وَيَحِقَّ : يجب .

71 مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا : تولّينا خلقه «2» ، وكقوله «3» : فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ أو مما

عملت قوانا .

واليد والأيد : القوّة «4» ، واللّه متعال أن تحله القوة أو الضعف ، فالمعنى : قوانا التي

أعطيناها الأشياء .

مالِكُونَ : ضابطون لأن القصد إلى أنها ذليلة لقوله : وَذَلَّلْناها لَهُمْ «5» .

75 جُنْدٌ مُحْضَرُونَ : في النار «6» ، أو عند الحساب «7» : أي : لا

---

(1) أخرج الطبري في تفسيره : 23/ 28 عن قتادة قال : حيّ القلب حيّ البصر» .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 400 عن قتادة ، وكذا البغوي في تفسيره : 4/ 19 ،

وابن عطية في المحرر الوجيز : 12/ 324 .

(2) تفسير البغوي : 4/ 20 .

(3) سورة الشورى: آية: 30.

(4) ينظر هذا المعنى في تفسير غريب القرآن: 368، وتأويل مشكل القرآن: 154، 155، والمحرر الوجيز: 12/ 325، والصحاح: 6/ 2540، واللسان: 15/ 424 (يدي).

(5) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج: 4/ 294.

وانظر تفسير الطبري: 13/ 28، وتفسير الماوردي: 3/ 401، وتفسير البغوي: 4/ 20.

(6) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره: 3/ 401 عن الحسن، وأورده السيوطي في الدر المنثور: 7/ 73، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم عن الحسن رحمه الله تعالى.

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 23/ 29 عن مجاهد.



---

ينصرون «1» وهم حاضرون.

78 قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ: قاله أبيّ بن خلف «2».

ولا يجوز نصب فَيَكُونُ من قوله: كُنْ فَيَكُونُ «3» لأنّ الفعل واحد وإنما ينصب الثاني

الذي يجب بوجوب الأول كقولك : ائتني فأكرمك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 686.695 ﴾

---

(1) في «ك» و«ج» : ينصرونهم .

(2) انظر تفسير الطبري : 23/ 30 ، وأسباب النزول : 423 ، وتفسير ابن كثير : 6/ 579 ، والدر المنثور : (7/ 74 ، 75) . [. . . . .]

(3) في هذا القول نظر ، لأن قراءة النصب سبعية ، قرأ بها ابن عامر والكسائي كما في السبعة لابن مجاهد : 544 ، والتيسير للداني : 137 .

وانظر توجيه هذه القراءة في إعراب القرآن للنحاس : 3/ 408 ، وحجة القراءات : 3/ 408 .

*(73/644)*

---

وقال ملا حويش :

تفسير سورة يس

عدد 41 - 36

نزلت بمكة بعد سورة الجن عدا الآية 45 فإنها نزلت بالمدينة ، وهي ثلاث وثمانون آية ،

وسبعمائة وعشر كلمات ، وثلاثة آلاف حرف ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)

قال تعالى مخاطبا رسوله صلى اللّه عليه وسلم بلفظ :

"يس" 1 وجاء في الخبر أن اللّه سماني أحمدا ومحمدا وطه ويس .

وقال ابن عباس معناه بلغة الحبشة وفي رواية عنه بلغة طي (يا إنسان) وقال غيره الياء

للنداء والسين قائمة مقام إنسان انتزع منه حرف فأقيم مقامه ، ونظيره ما جاء في الحديث :

كفى بالسيف شا . . .

أي شاهدا .

وقال آخر هو اسم من أسمائه عليه السلام ، مستدلا بقول السيد الحميري :

يا نفس لا تمحضي بالود جاهدة على المودة إلا آل ياسين

وقيل هو مقطع حروف سميع منان قدير وشبهها من أسماء اللّه تعالى ، وقد قال العلماء إن

للّه عزّ شأنه أن يطلق على ذاته المقدسة وعظماء خلقه ما أراد من الأسماء .

وتحمل حينئذ على التعظيم سواء كانت حروفا أو حرفا ، مصغرة أو مكبرة ، قال ابن

الفارض رحمة اللّه :

ما قلت حبيبي من التحقير بل يعذب اسم الشيء بالتصغير

والكلام فيه من حيث الإعراب والبناء كالكلام في أوائل السور المتقدمة والحروف المتقطعة ، وجاء في تتمة الخبر السابق والمزمل والمدثر وعبد اللّه ، وقد ذكرت في القرآن هذه الأسماء كلها كما في هذه السور والسور المتقدمة وسورة الصف ، الآية 7 في ج 3 ، وطه ومريم الآتيتين ، وعبد اللّه في سورة الجن المارّة ، ثم أقسم جل قسمه فقال "وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ" 2 في معانيه ومبانيه ، العظيم في مقاصده ومراميه وهو مبالغة حاكم ، وجواب القسم قوله عز قوله "إِنَّكَ" يا سيد الرسل المخاطب هنا بلفظ يس الذي هو من جملة أسمائك الكريمة التي سميتك بها في هذا القرآن "لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ" 3 إلى الخلق كافة حقا ، يدل عليه التأكيد بكاف الخطاب وإن واللام ، وذلك لأن هذه الآية نزلت ردا على الكفرة القائلين لست مرسلا ، وكفى باللّه شهيدا على رسالته العامة السائدة "عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ" 4 عدل سوي لا اعوجاج فيه ولا ميل ، وأن هذا القرآن الذي أنزلناه عليك "تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ" الغالب على خلقه القوي في ملكه "الرَّحِيمِ" 5 بعباده الرؤوف بهم

وإنما أرسلناك يا محمد "لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ" الأقدمون من قبل رسولهم إسماعيل عليه السلام ، وهذا على جعل ما موصولة مفعولا ثانيا لتنذر ، وعليه يكون المطلوب الأمر بتبليغهم شريعة إبراهيم عليه السلام التي أنذر بها أسلافهم ، أو العذاب الذي خوف به آباءهم الأولين ، وإذا جعلت ما نافية يكون المعنى أنذرهم بما أمرت به ، لأن آباءهم الأدنين بعد إسماعيل وجيله لم يأتهم نذير قبلك ، وهذا أبلغ وأوفق لقوله تعالى "فَهُمْ غافِلُونَ" 6 عن طريق الهدى ومسالك الرشد الذي جئتهم به ، إذ لم ينذرهم ويخوفهم عذاب اللّه الذي أنذر به آباؤهم الأقدمون أحد بعد إسماعيل عليه السلام ، ولم يرسل إليهم نبي بعده ، ولم يترك لهم كتابا يتبعونه لذلك أرسلناك يا محمد إليهم لتنذرهم وتخوفهم عاقبة أمرهم إذا لم يؤمنوا بك ، وزد في عظتهم وذكرهم بأحوال من قبلهم المكذبين ، علّهم يعتبرون بما وقع عليهم ، فهذا كله على جعل ما نافيه وهو الأنسب بالمقام والأليق للتأويل ، إذ على المعنى الأول وهو جعل ما موصوله لا يستقيم هذا ، وذلك لأن شريعة إبراهيم عليه السلام التي جاءهم بها إسماعيل لم يبق لها أثر عندهم ولا يعرفون شيئا عنها البتة لعدم تركه كتابا بها بدليل قوله تعالى (وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ) الآية 44 من سبأ في ج 2 لهذا ، فأن الأمر تبليغهم شريعة إبراهيم لا معنى له ولهذا البحث صلة في تفسير الآية 3 من سورة السجدة في ج 2 والآية 23 من سورة فاطر الآتية .

ثم أقسم ثانيا فقال وعزتي وجلالي "لَقَدْ حَقَّ" وجب وثبت ووقع "الْقَوْلُ" في سابق أزلي وقديم علمي.

(76/644)

---

والمراد بهذا القول العظيم قوله عز قوله لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين الآية 19 من سورة هود ونظيرها الآية 11 من سورة السجدة في ج 2 والآية 17 من سورة الأعراف المارة، وهذا القول قضى به "عَلى أَكْثَرِهِمْ" أما الأقل فهم في رحمة والأقل هو الأحسن من كل شيء قال تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ) الآية 13 من سورة سباء وقوله تعالى (وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) الآية 41 من سورة هود في ج 2 وقوله (وَقَلِيلٌ ما هُمْ) الآية 25 من سورة ص المارة

وهكذا القليلون هم الخيرون قولا وعملا من كل ملة والأكثرون هم المسيئون الداخلون في ذلك القول "فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ" 7 بك بل يموتون على كفرهم إذ بت في أمرهم قبل وجودهم، والمراد بهم صناديد قريش المعارضون لحضرة الرسول وقد قتل أكثرهم في غزوة بدر، على الكفر تصديقا لقوله تعالى وليس المراد عموم قريش لأن أكثرهم آمنوا به صلى اللّه عليه وسلم، وسبب عدم إيمان أولئك "إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا" لئلا يلتفتوا إلى الحق ولا

يعطفوا أعناقهم نحوه ولا يميلوا اليه "فَهِيَ" ملزقة برقابهم واصلة "إِلَى الْأَذْقَانِ" متصلة برؤوسهم "فَهُمْ مُقْمَحُونَ" 8 رافعون رؤوسهم بسببها لا يقدرون على إرخائها إلى الأسفل لينظروا أمامهم ، وذلك لأن الغل عبارة عن طوق حديد يجمع به اليدان إلى العنق ويكون في ملتقى طرفيه حلقة فيها رأس العمود خارجا من الحلقة إلى الذقن وهو محدّد فلا يتركه يطاطىء رأسه خوفا من نخسه ، فيضطر لإبقاء رأسه مرفوعا بالطبع ، فصار كأنه متصل برأسه .

قال السيد علاء الدين

(77/644)

---

علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي في تفسيره لباب التأويل في معاني التنزيل نزلت هذه الآية في أبي جهل وأصحابه المخزوميين ، لانه حلف لئن رأى محمدا يصلي ليرضخنّ رأسه ، فأتاه في المسجد ليدمغه بحجر في يده ، فلما رفعه انثنت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده ، فأخبر أصحابه بما رأى ، فقال له رجل من بني مخزوم أنا أقتله بهذا الحجر ، فأتاه ليرميه به ، فأعمى اللّه بصره عنه ، فرجع إلى أصحابه وقال ما رأيته ، ولقد سمعت صوته وحال بيني وبينه كهيئة الفحل (يطلق على الذكر من كل حيوان وخصه بعضهم بالذكر القوي في الدواب

ويراد به هنا واللّه أعلم ذكر الأفعى بدليل قوله) يخطر بذنبه لو دنوت منه لأكلني ، فأنزل اللّه فيهم هذه الآية وهذا إنما يصح إذا كان صلى اللّه عليه وسلم يتعبد بصلاة يتعاطاها كما سبق في الآية 18 من سورة الجن المارة ، فراجعها ففيها ما فيها .

ولا يخفى أن الآية هنا عامة وأن شمولها لهذه الحادثة على فرض صحتها لا يخصصها فيها بل يدخل فيها أبو جهل وغيره من كل من لم يؤمن به قال تعالى "وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا" أي قدامهم "وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا" من ورائهم "فَأَغْشَيْناهُمْ" بالسدين المذكورين وغطيناهم بهما غطاء محكما ، وقرىء فأعشيناهم بالعين من العشاء وهو ضعف البصر ، والأول أبلغ وقرىء سدا بضم السين وفتحها ، وقيل ما كان من فعل الناس فهو بالفتح وما كان من خلق اللّه فهو بالضم ، وقيل بالعكس "فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ" 9 سبل الهدى لأنهم يتعامون عن النظر في آيات اللّه فلا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإيمان .

(78/644)

---

واعلم أن المانع من النظر بآيات اللّه قسمان قسم يمنع عن النظر في الأنفس فشبه بالغلّ الذي يجعل صاحبه مقحما لا يرى نفسه ولا يقع بصره على بدنه كما مر آنفا ، والمراد من جمع الأيدي إلى الأذقان المشار إليه أعلاه عبارة عن منع التوفيق إلى الهدى ، ولهذا استكبروا

عن الحق ، لأن المتكبر يوصف برفع العنق ، والمتواضع بضده قال تعالى : (فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) الآية 5 من سورة الشعراء الآتية ، وقسم يمنع النظر في الآفاق فشبّه بالسد المحيط بالشيء فإن الشيء انحاط به لا يقع نظره على الآفاق فلا يظهر له ما فيها من الآيات ، فمن ابتلي بهذين القسمين حرم من النظر بالكلية ، وان اللّه تعالى شبه تصميم هؤلاء الكفرة على الكفر بالأغلال ، وشبه استكبارهم عن قبول الحق والتواضع لاستماعه بالأقماح لأن القمح لا يقدر أن يطأطىء رأسه ، وقوله تعالى إلى الأذقان تتمة للزوم الإقماح لهم ، وشبه عدم نظرهم في أحوال الأمم السابقة بسد منيع من خلفهم ، وشبه عدم نظرهم بالعواقب المستقبلة بسد عظيم من أمامهم ولذلك نفى اللّه عنهم الإبصار لأن من كان هذا حاله بعيد عن إبصار الحق لعماء بصيرته عن التفكر فيه ، وان هذا وصف لما سينزله عليهم من العذاب الأخروي حين يلقون في النار ، أجارنا اللّه منها .

قال تعالى "وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ" أولئك الكفرة الموصوفين آنفا "أَأَنْذَرْتَهُمْ" يا محمد وخوفتهم عاقبة أمرهم إن لم يؤمنوا بك "أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ" بما أمرت به فهم "لا يُؤْمِنُونَ" 10 بك ولا ينتفعون بوعظك وزجرك ، إذ يستوي عندهم الحالان فوجود إنذارك وعدمه سواء لديهم ، فلا تزعج نفسك بالإلحاح عليهم ، لأنهم ضالّون أزلا ، ومن يضلل اللّه فلا هادي له

وإنك يا سيد الرسل "إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ" المنزل عليك وهو القرآن العظيم ليعمل بما فيه وينتفع باتباعه رغبة بك وبدينك وربك ، وعبر بلفظ الماضي لتحقق وقوع اتباعهم له ، لأنهم من الناجين فى علم الله الأزلي ، ومن يهد الله فهو المهتد لا يقدر أحد على إضلاله ، وهذا بمقابلته (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ) لأن أولئك من غضب الله عليهم ، وهؤلاء من رحمته بهم ورضاه عنهم "وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ" خافه سرا وجهرا إذ لم يره وداوم على عبادته ولم يغتر برحمته لأنه مع عظيم رأفته أليم عذابه ، قال تعالى (نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ) الآية 51 من سورة الحجر في ج 2 فهذا الذي يهابني ولم يرني "فَبَشِّرْهُ" يا محمد "بِمَغْفِرَةٍ" واسعة لذنوبه مهما عظمت "وَأَجْرٍ كَرِيمٍ" 11 زيادة على المغفرة والأجر وأوله الجنة ونعيمها ، وآخره رؤية المولى وهو الجواد على عباده بها ، كيف لا وهو الكريم الذي يعطي لا لغرض أو عوض ؟

وقل يا أكرم الرسل لمنكري الحياة الأخرى "إِنَّا" نحن إله السموات والأرض اللتين خلقهما أكبر من خلق الناس قادرون على أن "نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى" مرة ثانية للحشر والحساب كما أحييناهم من النطفة ، وكما نحيي الأرض الميتة بالماء والقلوب الغافلة بالذكر ، لأن القلوب الميتة بأدران الشرك لا تحيا إلا بطهارة الإيمان .

مطلب فيما يكتب من آثار الخلق :

"وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا" في دنياهم من خير وشر "وَ" نحصي "آثَارَهُمْ" التي أبقوها بعدهم لتخلّدها لهم ليبقى ذكرهم إن كان حسنا كوصية لا جور فيها ، ووقف لوجوه البرّ ، وعلم ينتفع به ، وتعليم الخير للغير ، وكتاب صنفوه في أمر الدين ، وبناء رباط ، أو جامع ، أو مستشفى ، أو مدرسة ، فيكون ذكرهم حسنا .

*(80/644)*

---

وإن كان سيئًا كمال تركوه حراما ، وحكم حكموه جورا ، ومظالم ارتكبوها يكون ذكرهم سيئًا .

روى مسلم عن جرير بن عبد اللّه البجلي قال :

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : من سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من يعمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء .

وعلى هذا يستحق على الأولى المدح والثناء والترحم ، وعلى الثانية الذم والتحقير والشتم ، وما قيل إن هذه الآية نزلت في بني سلمة استدلالا بما رواه البخاري عن أنس رضي اللّه عنه قال : أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد فكره رسول اللّه صلى اللّه عليه

وسلم أن تعرى (تخلى) المدينة فتترك عراء فضاء لا يسترها شيء فقال يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم ؟ فأقاموا .

ولما روى مسلم عن جابر قال خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة ان ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال لهم بلغني انكم تريدون ان تنتقلوا قرب المسجد ؟ فقالوا نعم يا رسول اللّه قد أردنا ذلك ، فقال بني سلمة (أي يا بني سلمة) الزموا دياركم تكتب آثاركم : فقالوا ما يسرّنا إذا تحولنا (أي لعدم رضاء حضرة الرسول) وروينا عن أبي موسى الأشعري قال قال صلى اللّه عليه وسلم : أعظم الناس أجرا في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجرا من الذي يصلي ثم ينام .



---

لا يصح لأن هذه الآية مكيّة بالاتفاق اما ما نقله بعض المفسرين من أنها مدنية فغير صحيح ، لأنه لم يذكر المنقول عنه ، وإنما قال بمدنيتها ليجعلها سبب النزول ، وعلى الناقل صحة النقل حتى يكون حجة وإذا لم يكن حجة فلا احتجاج ، وان ما جاء في هذه الأحاديث عبارة عن حكاية حال وقعت في المدينة ، والآية عامة ولا يوجد ما يخصصّها فيدخل في

معناها بنو سلمة وغيرهم من كل من يترك آثارا حسنة أو سيئة كما ذكرنا (وكلّ شيء) من أعمال الخلق خيرها وشرها هزلها وصحيحها "أَحْصَيْناهُ" عليهم وعددناه وبيناه للملائكة بعد أن حققناه وأثبتناه لدينا "فِي إِمامٍ" لوح من اللوح المحفوظ الذي هو أصل الكتب كلها فلا شيء مما كان ويكون الا وهو مدون فيه فهو المقتدى وفيه المنتهى والمبتدأ "مُبِينٍ" 12 واضح ظاهر فيه كل شيء إلى يوم القيمة وكيفية هذا اللوح العظيم الذي لم يأت ذكره إلا في سورة البروج المارة أما الألواح المذكورة في سورة الأعراف ثلاث مرات في الآيات 143 و149 و153 المارات فهي ألواح التوراة



---

وهي أيضا من جملة ما هو مدوّن في هذا اللوح الجليل لم يرد فيها ما يفيد القطع عن ماهيته وكميته وكيفيّته غير وصفه بهذا الاسم، لذلك ينبغي الإمساك عنه وان نكل علمه إلى اللّه كالآيات المتشابهات، وغاية ما قيل فيه عند المسلمين انه جسم، ولا يخفى أن كل جسم متناهي الأبعاد كما تشهد به الأدلة، وان ما كان وسيكون إلى يوم القيامة متناه كما تشهد به الآثار، والمطلق منها محمول على المقيد هذا وقد فسر بعض العلماء الامام بعلم اللّه الأزلي كما فسر أمّ الكتاب في قوله تعالى "وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ" الآية 39 من سورة الرعد قوله "هُنَّ أُمُّ

الْكِتَابِ" الآية 7 من سورة آل عمران ج 3 والآية الرابعة من سورة الزخرف في ج 2 فيكون بمعنى كل شىء على العموم بحيث يشمل ما في الدنيا وما في الآخرة وأحوال الجنة وما يتجدد فيها لأهلها دون انقطاع ولا تناه وكذلك النار قال صاحب أبدال الامالي :

ولا يفنى الجحيم ولا الجنان ولا أهلوهما أهل انتقال

وكذلك أحوال النار وأهلها وجميع ما يقع في الدنيا من التجدد على نحو ما يحكى من بيان الحوادث الكونية في الجفر الجامع على طراز أعلى وأشرف ، ولهذا قال غير واحد إن القرآن الكريم يشتمل على كل شيء في الدنيا حتى على أسماء الملوك ومدد ملكهم وأسباب انقراضهم ، ويشتمل على ما في الآخرة أيضا .

مطلب قصة رسل عيسى عليه السلام :

قال تعالى "وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا" أي صف لهم يا محمد "أَصْحابَ الْقَرْيَةِ" جزم أكثر المفسرين بأنها انطاكية أي كيف كان أهلها "إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ" 13 من قبل عيسى عليه السلام ليدعوهم إلى ترك الأوثان وعبادة الرحمن والإخلاص في توحيد الملك الديان ، فاذكر لقومك يا سيد الرسل قصتهم "إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ" ردأ لعيسى وعضدا لانهاض دعوته وتقوية لبعثها في النفوس رجلين "اثْنَيْنِ" من حوارييّه .

هذا إذا كان المرسل هو اللّه عز وجل ، أو أن عيسى عليه السلام أرسلهما بأمر اللّه تعالى كأنه كان هو المرسل ، لانّ

أمر المأمور بما أمره به آمره أمر لآمره ، وهو اولى من القول بأن عيسى نفسه أرسلهما من تلقاء نفسه ، لأن الرسول لا يعمل شيئًا إلا بوحي من مرسله .

وهذان الرسولان على ما قيل هما حنا وبولس عليهما السلام ، فلما قربا من القرية رأيا حبيبا النجار يرعى أغنامه ، فسلما عليه فقال : من أنتما ؟ قالا رسولا عيسى بن مريم صلوات اللّه عليه وسلامه ، فقال : ما جاء بكما إلى هنا من القدس ؟ قالا : أتينا لندعوكم لعبادة اللّه وحده ، ونحذركم من عبادة الأوثان ، فقال : ما آيتكما على ذلك ؟ قالا : آيتنا إبراء الأكمه والأبرص ونشفي المرضى بإذن اللّه ، وان الذي أرسلنا يفعل هذا ويحيي الموتى بإذن اللّه .

فأخذهما إلى منزله وعرض عليهما بنته المريضة المزمنة ، فلمساها بيدهما فقامت بإذن اللّه صحيحة سليمة ، ثم أتى لهما بمرضى آخرين فلمساهم فشفاهم اللّه على يديهما ، فحلت به العناية وأسلم ، وشاع خبرهما في المدينة بأنهما يشفيان المرضى دون عقاقير ، فاستدعاهما ملك المدينة إذ ذاك واسمه انطيخش وقال لهما أولنا دون آلهتنا آلهة ؟ قالا نعم .

قال من هو ؟ قالا الذي أوجدك وآلهتك .

فأخذهما وحبسهما وضربهما .

(84/644)

---

وهذا مغزى قوله تعالى "فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثَالِثٍ" قويناهما بإرسال رسول ثالث وهو على ما قيل شمعون عليه السلام ، وذلك أن عيسى عليه السلام لما استبطأهما ولم يأت خبر منهما ولا عنهما أرسل بأمر اللّه رسولا آخر ليسبر خبرهما ويبصر ما جرى لهما ، فتوجه إلى انطاكية ودخلها متنكرا ، وبعد أن استقر صار يختلط مع عامة أهلها ليقف على حالهم ويتعرف على رفيقيه ، ولم يزل حتى عرفهما بالسجن من أجل دعوتهما وجود إله هو إله الملك والخلق أجمع ، فاتصل بحاشية الملك وصار يعاشر كلا منهم بما يليق به ويكلم كلا بحسب مقامه بما آتاه اللّه من حنكة وحكمة ولين جانب وخلق واسع ، حتى استمال الجميع من الخادم إلى الوزير ثم صار يعرض لهم أنه يود مقابلة الملك وأنه يحبه ، وقد أنسوا به ولم يريدوا فراقه ، فرفعوا أمره للملك وأخبروه بما هو عليه من لياقة ولباقة ، فاشتاق إليه واستحضره ، فلما كلّمه أنس به وأكرمه ورضي عشرته وأثنى على حاشيته الذين قدموه له نظرا لما كان يعاملهم به من التقية توصلا

لإنقاذ صاحبيه ، وصار يجالس الملك ويقص عليه ما يؤنسه ، حتى جاء على ذكر الرسولين في جملة حديثه معه وسأله عنهما وسبب حبسهما ، فقال له الملك إنهما تجارأا وذكرا أن لهما إلها غير آلهتنا حتى انهما دعوني لعبادته ، فأنفت منهما وأمرت بحبسهما .

قال له حينما دعواك إلى غير دينك هل سألتهما وسمعت منهما عن آلهتهما شيئًا ؟

قال لا إذ حال الغضب بيني وبين ذلك حتى اني أمرت بضربهما .

قال إن رأى حضرة الملك إحضارهما ليطلع على ما عندهما من هذه الدعوة العظيمة ، فدعاهما بالحال وفوضه بخطابهما ، فقال لهما من أرسلكما إلى هنا ؟ قالا اللّه الذي خلق كل شيء لا شريك له .

قال لهما صفاه لنا وأوجزا ، قالا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .



---

قال شيء عظيم هذا ، ما آيتكما عليه ؟ قالا ما يتمناه الملك ، فتذاكر مع الملك صرا وقال لهما عندنا غلام مطموس العينين فهل تقدران أن تجعلاه بصيرا ؟ قالا نعم ، فأمر الملك بإحضاره فدعوا له ، فانشق له موضع العينين فعملا بندقتين من طين ووضعاهما في موضع العينين ، ودعوا اللّه فصارتا مقلتين يبصر بهما ذلك المطموس ، فتعجبا من ذلك ، ثم همس

شمعون في أذن الملك ، وقال لو سألت آلهتك تصنع مثل هذا لكان لك بها الشرف ، فقال الملك ليس عليك سر مكتوم إن آلهتنا نفسها لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع ، فكيف لمثل هذا تصنع ؟ فلم يرد أن يطعن بآلهته ليستدرجه على الإيمان ولئلا يتهمه مبدئيا بأنه ليس على دينه ، وأراد أن يظهر شيئًا يقسره على الإيمان عفوا ، فقال له لنمتحنهما بأكثر من هذا ، قال الملك هيا ، فقال لهما شمعون إن أحيا إلهكما ميتا آمنا به وتركنا كما ، قالا هات ، فقال له الملك إن ابن الدهقان مات منذ سبعة أيام ، فقال شمعون مر بإحضاره ، فأمر فأحضروه له ، فصارا يدعوان علانية ويطلبان من اللّه إحياءه ، وصار شمعون يدعو ربه سرا ويؤمن على دعائهما ، فأحياه اللّه ، فقال لهما شمعون كلّماه ، فإذا كان حيا حقا فليذكر لنا شيئًا عن موته ، فسألاه فقال : أيها الملك إني مت منذ سبعة أيام على الشرك الذي تدين به أنت ، وأدخلت في سبعة أودية من النار ، فأحذركم ما أنتم عليه ، وآمنوا أيها الناس كلكم يا للّه رب هؤلاء ، فإني رأيت السماء

فتحت ونظرت فيها شابا حسن الوجه يشفع إلى هؤلاء الثلاثة ، وأشار إلى شمعون وصاحبيه .

فعجب الملك من ذلك وآمن بهم وآمن معه خلق كثيرون من قومه ، وأصر الآخرون على كفرهم .

هذا ما نقله الأخباريون بقصص الأنبياء عن هؤلاء الرسل الثلاثة أخذا من قوله تعالى (فَكَذَّبُوهُما ) أما ما قصه اللّه تعالى على نبيه فيهم فهو ما بينه بقوله جل قوله "فَقالُوا" الثلاثة إلى أهل أنطاكية "إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ" 14 من قبل اللّه أو من قبل رسوله على الوجهين المارّين، فأجابوهم بقولهم "قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا" لا مزية لكم علينا توجب اتباعنا لكم واختصاصكم بما تدعونه "وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ" الذي تدعونه إلها لكم ولسائر الخلق "مِنْ شَيْءٍ" من الوحي ولم يرسل رسولا كما تزعمون، وكان هذا بمقابلة قولهم لهم أتينا ندعوكم لعبادة الرحمن، ثم قالوا "إِنْ" ما "أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ" 15 بدعواكم هذه "قالُوا" لهم أيضا "رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ" 16 استشهدوا بربهم إذ لا شاهد لهم من أهل القرية على ذلك، لأنهم لم يتعرفوا على أحد من أهلها أول مجيئهم وأكدوا قولهم بأن الدالة على التوكيد واللام المؤكدة لها، لأنه جواب عن إنكار يحتاج لزيادة التأكيد بخلاف قولهم الأول في الآية 14 المارة لأنه إخبار ابتداء، ثم قالوا لهم إنا لم نأت لقسركم على ما نريده بكم من الخير لأنا لم نؤمر بذلك "وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ" 17 الظاهر المكشوف الذي لا غبار عليه الموثق والموضح بالآيات الدالة على صدقنا "قالُوا" أهل القرية لهم "إِنَّا تَطَيَّرْنا" تشاءمنا "بِكُمْ" لأنكم تدعون إلى إله واحد وترفضون الأوثان وإنا لا نعلم بوجود آلهة غير آلهتنا وقد هالنا ما سمعناه منكم وواللّه "لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا" عن مقالتكم هذه وتتركونا وما نحن عليه

"لَنَرْجُمَنَّكُمْ" بالأحجار "وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ" 18 خبرما وحرفا تمنون معهما الموت "قالُوا" لا

(87/644)

---

تتشاءموا بنا إذ ما بنا شؤم لأنا رسل اللّه وإنما "طائِرُكُمْ" الذي تتشاءمون منه هو "مَعَكُمْ" لأنه ناشىء عن كفركم وتكذيبكم لما جئناكم به دون أن تسألونا عن آية صدقنا "أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ" فيما به سعادتكم في الدنيا ونجاتكم في الآخرة أطيرتم وصرتم

تهددوننا بسببه لا ، لا تفعلوا شيئا "بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ" 19 في الضلال متجاوزون الحد في الشرك والعصيان ، مفرطون فيما يعود لنفعكم ، لأنا لم نعمل معكم شيئا يوجب رجمنا "وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى" يهرول اسمه حبيب النجار المار ذكره في القصة ، الذي رأى آيات الرسولين وأنس بهما قبل حضور الرسول الثالث ، وكان في غار يتعبد فيه عند فراغه من عمله ، قالوا وكان يتصدق بنصف ما يربح ، وقد مر في القصة أنه كان راعيا ، إذ علم أن قومه كذبوا الرسل وقصدوا قتلهم ، وهذا على القول بأنهم لم يؤمنوا ، أوهم الذين لم يؤمنوا مع الملك لأن نسق الخطاب لا ينطبق على نسق القرآن ، لأن الحكاية ذكر فيها أن التكذيب والضرب والحبس وقع على الرسولين الأولين فقط وأنهم آمنوا بعد حضور

الثالث ، والقرآن يسكت عما وقع مع الأولين ويتكلم عن الثلاثة معا "قالَ" الراعي حبيب "يا قَوْمِ" اتركوا الرسل لا تعتدوا عليهم فيصيبكم منهم معرة ، وإذا أردتم الخير لأنفسكم "اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ" 20 إلى ما يدعوكم إليه بغية نجاتكم من عذاب اللّه وكأنه التفت إلى الرسل وقال لهم أتطلبون أجرا على ما تدعون الناس إليه قالوا لا نحن أبعد الناس عن طلبه

(88/644)

---

فالتفت إلى قومه وقال "اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً" على إرشادكم لطريق الهدى والسداد "وَهُمْ مُهْتَدُونَ" 21 من قبل اللّه الذي أرسلهم فاقبلوا هدايتهم مجانا إلى خير الدنيا والآخرة واتبعوهم على ما هم عليه ترجوا رضاء اللّه خالقكم من غير أن تخسروا شيئا من دنياكم فقالوا له إذا أنت على دينهم مؤمن بربهم الذي فطرهم على هذا الدين الذي جاؤا يدعوننا إليه ، ولذلك تحبذ دعوتهم فقال لهم "وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي" خلقني وهو رحمه اللّه يعبد الذي فطره وإنما أرادهم بذلك ، أي وما لكم لا تعبدون الذي فطركم مثلي لأني أعبده حقا أي أيّ شيء خذلكم وصرفكم عن عبادته "وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" 22 حتما في الآخرة ، لأن مصير الكل إليه خاطب نفسه رحمه اللّه في هذه الجملة وهو يريدهم فيها

لأنه أبلغ في الزجر ، وأمعن في الوعظ ، وأحرى للقبول ، وأبعد عن اللجاجة ، ثم قال لهم "أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ"

(89/644)

---

أي الإله الواحد الذي آمنت به "آلِهَةً" أصناما مثلكم لا تضر ولا تنفع ، كلا لا أفعل ، وإنما أتخذ اللّه الإله الواحد الفعال لما يريد الذي لا رب غيره إلها لي وهو إله الخلق أجمع ، واعلموا يا قومي إني "إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ" إله هؤلاء الرسل وإلهي وإله العالمين وخالق الكون وما فيه "بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ" أي شفاعة الأوثان التي اتخذتموها آلهة وترجون شفاعتها فلا تنفعني إذا حل بي الضر من الإله الواحد القادر "شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ" 23 من مكاره الدنيا ولا من عذاب الآخرة لأنها أحجار وأخشاب لا تعصم نفسها من التعدي عليها فكيف تنفع غيرها ؟ وإذا كان كذلك فكيف أتخذها آلهة "إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ" 24 لا يقبل التأويل لشدة وضوحه ولا يخفى على أحد ، ثم أقبل على الرسل وخاطبهم علنا بقوله "إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ" 25 واشهدوا على إيماني فلا أبالي بما يصيبني منهم .

أخرج الحاكم عن ابن مسعود أنه قال لما قال صاحب يس (حبيب النجار المذكور إذ شهر بذلك) : يا قوم اتبعوا المرسلين ، خنقوه ليموت ، فالتفت إلى الأنبياء فقال : آمنت بربكم

فاسمعون ، فأسرع إليه قومه فقتلوه رجما بالحجارة .

قال السدي رموه بالحجارة وهو يقول اللهم اهد قومي ، حتى مات .

(90/644)

---

وجاء في الحديث انه نصح قومه حيا وميتا ، رحمه اللّه فلما مات شهيدا ولقي ربه "قِيلَ" له من قبل ملائكة الرحمة "ادْخُلِ الْجَنَّةَ" فأدخلت روحه فيها رحمه اللّه ودفن جثمانه في سوق انطاكية بالمحل الذي قتل فيه ، وقبره معروف حتى الآن يزوره الغادي والبادي ، ولما أحست روحه الطاهرة بنعيم الجنة ورأت ما فيها من السرور والروح تتصل بجسدها أحيانا "قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ" 26 ما صرت إليه من النعيم "بِما غَفَرَ لِي رَبِّي" ما اقترفته من الذنوب وستر لي ما جنيته من العيوب وما أكرمني به في الجنة الدائمة ، فلو علموا ذلك لآمنوا بالرسل ، واللّه يعلم أنهم لم يؤمنوا ، إذ لم تكتب لهم السعادة .

وما هنا ، مصدرية ، أي بالغفران الذي غفره لي وعظمته وما ينتج عنه من خير وأجاز بعض القراء كونها استفهامية ، أي بأي شيء غفر لي وهو هجره دينهم والصبر على أذاهم .

وقال الكسائي لو كان ذاك أي جعل ما استفهامية ، لقال بم بدون الألف مثل عمّ يتساءلون ،

وبمثل قوله :

علام أقول الرمح أثقل عاتقي إذا أنا لم أطعن إذا الخيل كرت

على الاستفهام لأن اللغة الفصحى حذف الألف إذا جرت بحرف الجر فرقا بينها وبين ما الموصولة ، ولا تثبت الألف مع حرف الجر إلا ضرورة لقوله :

على ما يشتمني لئيم كخنزير تمرّغ في رماد

وقول الآخر :

إنا قتلنا بقتلانا سراتكم أهل اللواء فقيما يكثر القتل

(91/644)

---

فأثبتت ما للضرورة في البيتين ، ولا ضرورة هنا لأنه ليس بشعر فتبين أنها هنا مصدرية واللّه أعلم "وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ" 27 فيها وذلك لما رأت روحه من إكرام الملائكة لها وإكرامهم إياها تمنى رحمه اللّه المغفرة والكرامة لقومه رحمة بهم وشفقة عليهم ليرغبهم في الإيمان ويحملهم على طاعة الرسل ، فلما قتلوه ولم يسمعوا نصحه ولم يلتفتوا إلى رأفته بهم غضب اللّه عليهم ، فعجل عقوبتهم المبينة في قوله جل جلاله "وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ" لأن أمر إهلاكهم أيسر لدينا من ذلك "وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ" 28 جندا من

الملائكة لإهلاكهم لأنهم أخس من ذلك "إِنْ كَانَتْ" عقوبتهم في الإهلاك ما هي "إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً" من بعض أملاكنا فأمر جبريل فصاح بهم "فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ" 29 جميعا لا حراك بهم ، القاعد قاعدا والقائم قائما والمضجع مضجعا .

روي أن الله تعالى بعث عليهم جبرائيل عليه السلام فأخذ بعضادتي باب مدينتهم وصاح بهم صيحة فماتوا جميعا ، وقد شبهت الصيحة بالنار على سبيل الاستعارة المكنية وجيء بالخمود وتخييل لها وقوله خامدون رمزا إلى أن الحي كشعلة من نار ، والميت كالرماد ، وهو كذلك قال لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوءه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

وما المال والأهلون الا ودائع ولا بد يوما أن ترد الودائع

(92/644)

---

قال تعالى "يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ" إذا لم يؤمنوا بالرسل ويا ويلهم من يوم الحسرة راجع تفسير الآية 29 من سورة مريم الآتية ، ثم بين سبب هذه الحسرة بقوله عز قوله "ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ" 30 يسخرون من قوله لا يسمعون نصحه ، وهذه نظير الآية 10 من سورة الحجر في ج 2 ، ومعنى الحسرة الغم والندم على ما فات لأن الإنسان من

شدة الندم على صنعه الضر وتضييعه فرصة تلاقيه بالخير ، وإهماله أوقاته سدى يركبه غم لا نهاية له بعده ، ونزلت الحسرة منزلة العقلاء بإدخال حرف النداء عليها كأنه قال يا حسرة احضري ، فهذه الحال من الأحوال التي يجب أن تحضري فيها لأهميتها والمعنى أنهم أحقاء بان يتحسر عليهم المتحسرون ويتلهف على حالهم المتلهفون لرفضهم الخير الذي جاء إليهم من اللّه عفوا دون طلب ،

ثم التفت إلى أهل مكة بعد الانتهاء من هذه القصة فقال عز قوله "أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ" الخالية من أهل كل عصر .

(93/644)

---

وسموا قرونا لاقترانهم في الوجود ، والرؤية هنا علمية لا بصرية لأن أهل مكة لم يحضروا هلاك من قبلهم من الأمم الخالية حتى يروه عيانا بل علموه بالأخبار المتناقلة عن الأجيال بمشاهدة آثار المهلكين من أطلال مساكنهم ، اما أهل الفيل أبرهة ومن معه فلا يعدون من القرون الخالية لأنهم كانوا في زقهم وآبائهم ومنهم من شاهد ما وقع بهم ، راجع تفسير سورة الفيل المارة "أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ" 31 لان الهالك في الدنيا لا يرجع إلى الدنيا ، وإنما مصيره الآخرة ينم على هذا قوله "وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا" أي الأوان هنا بمعني لا النافية أي ما كل إلا جميع

لدينا ، قيل إنها مخففة وما زائدة وعليه يكون المعنى انه إي الحال والشان كل جميع لدينا ، والأول أولى إذ لا زائد في كتاب اللّه "جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ" 32 يوم القيمة للحساب والجزاء أفلا يعتبر أهل مكة بهم ويتحققوا أن مصيرهم كمصيرهم بل انهم سيموتون ويرجعون إلينا فنحاسبهم ونعاقبهم ، وقرىء لما بالتخفيف ، وعليه تكون ما للتأكيد وان مخففة من الثقيلة ، والتنوين في كل عوض عن المضاف إليه ، ويكون المعنى ان

(94/644)

---

كلهم مجموعون محضرون ليوم الدين "وَآيَةٌ لَهُمُ" لمنكري البعث أهل مكة وغيرهم دالة على إحياء الأموات "الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ" الجافة اليابة التي لا نبات فيها قد "أَحْيَيْناها" بعد موتها بانزال المطر وإخراج النبات فيها "وَأَخْرَجْنا مِنْها" من النبات الخارج فيها بسبب الغيث "حَبًّا" نكره ليعم جميع الحبوب مما يأكله الإنسان والحيوان "فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ" 33 جميعهم وقدم المتعلق بالكسر على المتعلق بالفتح لإفادة الحصر أي كأنهم لا يأكلون غيره ، لأن معظم أكلهم منه "وَجَعَلْنا فِيها" أيضا بسبب الغيث جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْناب وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ" 34 الكثيرة مياها متدفقة غزيرة لا تنضب وانما فعلنا ذلك "لِيَأْكُلُوا" كافه خلقنا من ثمره الحاصل من حبه ومن الأشجار الأخرى وذلك كله بسبب الغيث المسبب لحماة الأرض ،

وأعاد بعض المفسرين ضمير ثمره إلى الله جل شأنه وتوجيهه أن الثمر نفسه فعل الله وخلقه إلا أن فيه آثارا من فعل البشر ، فيكون أصل الكلام من ثمرنا كما قال تعالى وفجرنا فنقل الكلام في التكلم إلى الغيبة على طريق الالتفات ، والأول أولى وأليق بالمقام وأنسبه للسياق ، إذ لا داعي هذا التكلف مع ظهور المعنى على الأول "وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ" أي ذلك الحب والثمر البديع الصنع بل هيّء لهم بصنع الله لأن الزرع ليس زرعهم بل من فعل الله والغرس ليس غرسهم بل من عمل الله وان أتعابهم التي صرفوها في ذلك هي من قدرة الله ، لأنه لو لم يقدرهم على ذلك لما قدروا على شيء أصلا ولو شاء لحرمهم منه بتسليط آفة سماوية عليه أو أرضية فيقطع عنهم الماء أو يرسل حرا أو بردا أو آفة فيدمره ، راجع تفسير الآية 63 فما بعدها من سورة الواقعة الآتية والآية 96 من سورة الصافات في ج 2 ويجوز أن يكون المراد ليأكلوا من ثمره رأسا أو مما عملته أيديهم منه كعصير العنب والبرتقال والثمر وسائر



---

الفواكه وما يعقدونه منها أو يخرجونه بغيره كالحلويات والمعجنات وغيرها من أنواع السكاكر والمأكولات ، فهذه كلها من الدلائل على صحة الإحياء بعد الموت "أَفَلا

يَشْكُرُونَ" 35 نفعا هذه عليهم واثبا تنا لها

بالحجج والدلائل لإقناعهم على الإيمان بالإله الواحد والرسل والحياة الأخرى ووجود الجنة

لمن أطاعنا والنار لمن عصانا ، وهذا استفهام انكار لانكارهم وجحودهم واستقباح لعدم

شكرهم نعم اللّه عليهم وكأنهم لم يكتفوا بهذه البراهين على ذلك "سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ

الْأَزْواجَ كُلَّها" من أصناف الحيوان والجماد والنّبات "مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا

يَعْلَمُونَ" 36 مما لم يطلعهم اللّه على علمه ومعرفته ولم يتوصلوا لها بعد لعدم وقوفهم على

عظيم قدرته وسعة ملكه وما عرفه الناس المادة الكهربائية الا عثورا ، ومن يعش ير لأنا

رأينا أشياء لم يرها أسلافنا ولم يحلموا بها ، ولو ذكرت لهم لكذبوها فقد كذبوا حديث

الدجال من أنه إذا ظهر يبلغ خبره المشرق والمغرب بيوم واحد ، وها ان المذياع (الراديو)

يسمع أخباره أهل المشرق والمغرب بلحظة واحدة ، وسيرى أحفادنا ما لم نره نحن من

عظيم مكونات اللّه التي

*(96/644)*

---

سيطلع عليها خلقه بأوقاتها المقدرة عنده ، فسبحان من لا يحيط بعلمه غيره ، ثم ذكر

برهانا على إمكان الحياة الأخرى بقوله عظم قوله "وَآيَةٌ لَهُمُ" على قدرتنا باعادة الخلق كما

بدأناه ليتيقن هؤلاء المنكرون عظمتنا وحجة ما جاءهم به رسلنا "اللَّيْلُ نَسْلَخُ" نكشط ونقشط ونكشف (ويأتى بمعنى السّرى والتنفس) "منه النّهار" فلا نبقي معه شيئًا من ضوء الشمس مثل نزع القميص الأبيض عن الزنجي الأسود ، لأن ما بين الأرض والسماء ظلمة فيكسو بعض ذلك الفضاء ضوء شمس فيكون كبيت مظلم أسرج فيه سراج ، فاذا انطفأ السراج أظلم البيت "فَإِذا هُمْ" أي جميع المخلوقات التي كساها ضوء الشمس "مُظْلِمُونَ" 37 بعد انسلاخ النهار بظلام الكون في المحيط الموجودين فيه ، وينصرف أيضا للقسم الآخر منه ، إذ تكون الحال في موضع ليلا وفي آخر نهارا وفي موضع صبحا وفي غيره مساء ، وفي قطر ضحى وآخر عصرا وهكذا ، ثم ذكر آية ثالثة لهؤلاء المنكرين على الحياة الآخرة بقوله عز وجل "وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها" لمقدار تنتهي إليه في منازلها بالنظر لما نراه لأن سيرها محدود غايته المستقر الذي قدره اللّه لها وقد صرح إمام الحرمين وغيره بأن الشمس تطلع عند



---

قوم وتغرب عند آخرين فبآن واحد طالعة في مكان غائبة في غيره ، فيطول الليل عند أناس ويقصر عند آخرين ، وبين الليل والنهار اختلاف ما في الطول والقصر عند خط الاستواء ،

وفي أقصى بلاد البلغار قد يطلع الفجر قبل غياب الشفق ، فلا وقت لصلاة العشاء عندهم إلا أنهم يقدرونه تقديرا بحسب الساعات ، وفي عرض تسعين لا تزال طالعة ما دامت في البروج الشمالية ولا تزال غاربة في البروج القبلية ، فنصف السنة في ذلك المكان ليل ونصفها نهار وقامت الأدلة على عدم سكونها عند غروبها والا لكانت ساكنة عند طلوعها بناء على ان غروبها في أفق ، طلوع في غيره وأيضا هي قائمة على أنها لا تفارق فلكها ، أما ما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ابي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي ذر رضي اللّه عنه قال سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن قوله تعالى "وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا" قال مستقرها تحت العرش ، فالمستقر اسم مكان ، وظاهر الحديث الذي لا غبار عليه أن للشمس مستقرا أي قرارا حقيقيا ، وقال النووي وجماعة من أهل العلم بظاهره أيضا لا سيما وأنه مروي عن أبي ذر وهو من عرفت مكانته وما هو عليه من الصدق والأمانة ، والآية نصت على أن جريانها لمستقر لها أيضا ، ولا يمكن التوفيق بين الآية والحديث وبين ما يقوله أهل الهيئة إلا إذا قلنا إن الشمس وسائر الكواكب مدركة عاقلة كما ينبىء عن هذا قوله تعالى "وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" الآية الآتية ومثلها الآية 34 من سورة الأنبياء في ج 2 حيث لسند الفعل إلى ضمير العقلاء مثله في قوله "إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً" الآية 4 من سورة يوسف في ج 2 حيث جمعها جمع من يعقل أيضا ، وما جاء في هذا الحديث في رواية

أخرى وهي أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال لأبي ذر حين غربت الشمس أتدري أين تذهب ؟ قال اللّه و

رسوله أعلم .

*(98/644)*

---

قال إنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها ، فيقال لها ارجعي من حيث جئت ، فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ) - أخرجاه في الصحيحين - والمتبادر من الاستيذان

ما يكون بلسان القال دون لسان الحال كغيرها من الجمادات التي خاطبها اللّه تعالى ومكنها من الإجابة حسبما أراد ، راجع تفسير الآية 73 من سورة الأعراف المارة بما يتعلق بهذا البحث ، هذا وما يقال أن اللّه جل شأنه خلق فيها الإدراك والتمييز حال السجود والاستئذان ثم سلبه عنها ، بعيد غاية البعد ولا حاجة إلى مثل هذا .

والشواهد من الكتاب والسنة وكلام العترة على كونها ذات إدراك وتمييز مما لا تكاد تحصيه كثرة .

والعترة نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأدنون ممن مضى ونجد (أي بقي) والمراد بها هنا (آل الرسول ورهطه وعشيرته) والبروج المار ذكرها بيناها في سورة البروج المارة فراجعها تر بعضها يدل على ثبوت ذلك لها بالخصوص، وبعضها يدل على ثبوته لها في العموم أو بالغاية، إذ لا قائل بالفرق ومتى كانت كذلك فلا يبعد أن يكون لها نفس ناطقة كنفس الإنسان، بل صرح بعض الصوفية بكونها ذات نفس ناطقة كاملة.

مطلب في انسلاخ الأنفس:

(99/644)

---

اثبت الحكماء النفس للفلك، وصرح بعضهم بإثباتها للكواكب أيضا وقالوا كل ما في العالم العلوي والسفلي من الكواكب الأفلاك الكلية والجزئية والتداوير حيّ ناطق، والأنفس الناطقة الإنسانية إذا كانت قدسية قد تنسلخ من الأبدان وتذهب متمثلة ظاهرة بصور أبدانها أو بصور أخرى كما تمثل جبريل عليه السلام وظهر لحضرة المصطفى وأصحابه بصورة دحية الكلبي أو بصورة بعض الأعراب كما جاء بالحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عمر رضي اللّه عنه قال بينما نحن جلوس عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا

يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فاسند ركبته إلى ركبتيه ودفع كفيه على فخذيه ، وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أن تشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .

قال صدقت ، فتعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن باللّه وملائكته

وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال صدقت ، قال فأخبرني عن الإحسان ، قال أن تعبد اللّه كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك ، قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال فأخبرني عن أماراتها قال : أن تلد الأمة ربّنها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان ، ثمّ انطلق فلبثت مليا ثم قال يا عمر أتدري من السائل ؟

قلت : اللّه ورسوله أعلم ، قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

فقد ثبت في هذا الحديث أن جبريل جاء بصورة اعرابي ، ثم تذهب تلك الصورة المنسلخة عن الجسد الظاهر حيث يشاء اللّٰه عز وجل ، مع بقاء نوع تعلق لها بالأبدان الأصلية يتأتى معه صدور الأفعال منها كما يصدر عن أصلها المنسلخ منها .

ومن هذا القبيل ما يحكى عن بعض الأولياء قدست أسرارهم أنهم يرون في وقت واحد في عدة مواضع ، وبدنها الأصلي في موضع آخر وهذا من قبيل الكرامة التي يظهرها اللّٰه تعالى لهم وانا أشهد بهذا وأصدق وأنت أيها المنكر :

إذا لم تر إهلال فصدّق لأناس رأوه بالأبصار

وذلك أني سمعت هذا من أناس أثق بصدقهم وصلاحهم وهم من أهل هذا

لا تقل دارها بشرقي نجد كل نجد للعامرية دار

وهذا أمر مقدر عند السادة الصوفة مشهود فيما بينهم بالتواتر وهو غير طي المسافة المقرر عندهم أيضا والثابت وقوعه لديهم تواترا أيضا ، ولا يسعنا إلا التصديق لأن إنكار هاتين الخصلتين عليهم مكابرة لا تصدر الا عن جاهل بحقيقتهم أو معاند لهم ، وقد عجب العلامة التفتازاني من بعض فقهاء أهل السنة كابن مقاتل المشهور انه حكم بالكفر على معتقد ما روي عن ابراهيم بن أدهم قدس اللّٰه سره أنهم رأوه بالبصرة يوم التروية (ثامن ذي الحجة سمي بذلك لأن ابراهيم عليه السلام رأى الرؤيا فيه بذبح ابنه) وأنه رئي ذلك اليوم بمكة وبنى حكمه هذا على زعمه أنه من جنس المعجزة العظيمة وهي مما لا تثبت كرامة

للولي ، وهذا حكم فاسد لا يلتفت اليه ولا يعول عليه ، لان المعتمد عند أهل السنة والجماعة جواز ثبوت الكرامة مطلقا



---

للولي ، وان كل ما جاز وقوعه معجزة للنّبي جاز أن يكون كرامة للولي إلا إذا ثبت بالدليل عدم إمكانه كالإتيان بسورة مثل القرآن ، والتحدّي به ، لأن ذلك من خصائص الرسالة ، فمن أنكر هاتين الخصلتين أو إحداهما خرج عن دينه ولو طار بالهواء لانه بادعاء إحداهما يكون مدعيا الرسالة ولا رسالة بعد خاتمها ، تدبر ، حفظك اللّه من الزيغ وغرور النفس والحسد ، فإن كلا من هذه الثلاثة داع للانكار ، راجع الآية 147 من سورة الأعراف المارة ، وما ترشدك اليه ، هذا وقد أثبت غير واحد خبر نقل النفس وتطورها لنبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم بعد وفاته وادعى أنه عليه الصلاة والسلام يرى في عدة مواضع في وقت واحد ، مع كونه في قبره الشريف يصلي ، وضح أن موسى عليه الصلاة السلام يصلي في قبره مع أن الرسول صلى اللّه عليه وسلم رآه في السماء وجرى بينهما ما جرى في أمر الصلوات المفروضة ليلة الإسراء كما بحث في تفسير أول الإسراء الآتية ، وعليه فلا قيمة لما يقوله بعض من لا ثقة بعلمه ولا وثوق بذاته من إنكار هذه القضية البالغة من التواتر دون

معارضته من أهل العلم العاملين ، وما تعلل به من كون موسى عليه السلام عرج إلى السماء بجسده الذي كان في القبر بعد أن رآه النبي صلى اللّه عليه وسلم عند قبره في الأرض مما لم يقل به أحد جزما ، لأن القول به احتمال بعيد ، بل لا بد أن يكون بصورة أخرى عنه ، وقد رأى صلى اللّه عليه وسلم ليلة أسري بروحه وجسده إلى السماء جماعة من الأنبياء في السموات أيضا مع أن قبورهم في الأرض ولم يقل أحد إنهم نقلوا من الأرض إلى السماء على قياس ما سمعت آنفا ، وليس ذلك مما ادعى الحكميون استحالته من شغل النفس لواحدة أكثر من بدن واحد وحيّز واحد ، بل هو أمر ممكن كما لا يخفى على من نور اللّه بصيرته ، فعلى هذا لا يقال إن الشمس نفس مثل تلك الأنفس القدسية وانّها تنسلخ عن الجرم المشاهد مع بقاء سيرها وعدم سكونها حسبما يدعيه أهل



---

الهيئة وغيرهم ، ويكون ذلك إذا غربت وتجاوزت الأفق الحقيقي بالنسبة لكل قطر وانقطعت رؤية سكان المعمور في الأرض لها ، ولا يضر فيه طلوعها إذ ذاك في عرض تسعين ونحوه ، لأن ما ذكرت من كون السجود

والسكون باعتبار النفس المنسلخة المتمثلة بما شاء اللّه ، لا ينافي الجرم المعروف ، بل لو كان

السجود والسكون نصف النهار في خط الاستواء لم يضر أيضا بالنسبة لكل مدينة ولا يضر فيه كونها طالعة إذ ذاك في أفق آخر ، إلا الذي يغلب على الظن ما يأتي بعد في تفسير قوله تعالى "وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" وإذا علمت هذا تيقنت أن لا تعارض بين الحديث الصحيح المار ذكره في الشمس وبين كلام أهل الهيئة وما يقتضيه الحس أيضا والله أعلم ا هو من روح المعاني وغيره بتصرف واختصار وتبسط "ذَلِكَ" الجري البديع والمستقر الشان "تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" 48 به بحساب يكل النظر عن استخراجه وتحير الافهام في استنباطه ، لانه فعل الغالب بقدرته على هذا الجريان حسبما تقتضيه إرادته ، فانظر رعاك الله في هذين الشخوص والهبوط المستمرين في الكون على المنوال المذكور في هذه الآية الكريمة ، وتفكر هل كان أحد في عهد نزول

القرآن العظيم اطلع عليها وهل علمها أحد قبل إنشاء المراصد الفلكية واختراع المكبرات الرصدية غير صانع هذا الكون وبارئه على غير مثال سابق .

وقد أخبرنا به المنزل عليه محمد صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرنا عن ربه عز وجل ، ولا أبين من بيان الله في حق هذا القرآن الجليل ، كيف لا وقد قال فيه (تِبْيانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) الآية 90 من سورة النحل في ج2 ، قال تعالى "وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ" جمع منزلة والمراد بها المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة وهو لا يتعداها من أول ليلة إلى الثامن والعشرين ثم يستكن ليلة إذا كان تسعا وعشرين وليلتين إذا كان ثلاثين يوما .

مطلب منازل الكواكب وكيفية جريانها :

وقال أهل الهيئة إن المنازل سبعة وعشرون وثلث ، وقد حذفوا الثلث لنقصه عن النصف كما هو مصطلح المنجمين .

ويراد بالمنازل والله أعلم مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء الممطرة ، وهي ثمان وعشرون منزلة :

1 الشرطان ، 2 البطين ، 3 الثريا ، 4 الدبران ، 5 الهقعة ، 6 الهنعة ، 7 الذراع ، 8 النثرة ، 9 الطرف ، 10 الجبهة ، 11 الزّبرة ، 12 الصرفة ،

13 العوّا ، 14 السماك ، 15 الفقر ، 16 لزّباني ، 17 الإكليل ، 18 القلب ، 19 الشّوله ، 20 النعائم ، 21 البلدة ، 22 سعد الذابح ، 23 سعد بلع ، 24 سعد السعود ، 25 سعد الأخبية ، 26 فرع الدلو المقدم ، 27 فرع الدلو المؤخر ، 28 الرشا .

ولكل منها معنى وتعريف خاص بها سنأتي على بيانه في تفسير الآية 15 من سورة الحجر في ج 2 إن شاء الله إذ أننا أطلنا البحث هنا فيما يتعلق بانسلاخ الشمس الذي نشأ عنه الانسلاخ القوسي .

هذا ، واعلم أنه إذا كان القمر في آخر منازله رق وتقوس ولهذا أشار إليه تعالت إشارته بقوله "حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ" أحد شماريخ عذق النخل "الْقَدِيمِ" 49 الذي مر عليه الحول ، لأنه لشدّة يبسه يكون رفع من العرجون الحديث "لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ" فتجتمع معه وتداخله في سلطانه ليلا ، ولا يتمكن هو من الاجتماع معها ليشاركها في سلطانها نهارا "وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ" أيضا بل يتعاقبان بنظام بديع وحساب معلوم لا يتغير ولا يخطىء ، لأنه إذا أدرك أحدهما الآخر اختل نظام الكون وقامت القيامة ، قال تعالى : (فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ) الآيات من 8 إلى 11 من سورة القيامة المارة ، أي يقال هذا القول يوم القيامة الذي يحار الإنسان فيه ويذهل عن ذويه وخاصته "وَكُلٌّ" من الشمس والقمر وما ينشأ عنهما من الليل والنهار وما يرتبط بسيرهما من الكواكب "فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" 40 يسيرون ، وكررت هذه الجملة في الآية 33 من سورة الأنبياء في ج 2 ، بما يدل على أن سير هذه كلها مقطوع بها حتما لا سبيل لانخرامه ، تدبر ، وفيها إشارة إلى أنها كلها عائمة بالهواء في الفضاء ليست مرتكزة على شيء ولا متعلقة بشيء كجريان السمك بالماء لجواز أن تكون السماء كلها

لطيفه أو مجرى الكواكب منها لطيفا فيشق الكوكب ما يحاذيه يجري به كما تجري السمكة الكبيرة أو الصغيرة في البحر أو في النهر أو في ساقية منه .

أما ما يقوله الفلاسفة بانقطاع كرة الهواء عند كرة النار المماسة لقعر فلك القمر وانحصار الأجسام اللطيفة بالعناصر الثلاثة وصلابة جرم السماء وتساوي أجزائها واستحالة



---

الخرق والالتئام عليها واستحالة وجود الخلاء فلا قيمة له ، إذ لم يقم لهم دليل قاطع على شيء من ذلك ، وهو عبارة عن حدسيات وشبهات توغلوا فيها لإنكار عروج صاحب الرسالة ، وقد بينا ما يتعلق في هذا في تفسير سورة والنجم المارة في الآية 18 ، ولهذا البحث صلة أول سورة الإسراء الآتية فراجعه ففيه كفاية ، على أنه يجوز أن يكون الفلك عبارة عن جسم مستدير والكواكب فيه تجري بجريانه ، وهناك أخبار تشير إلى صحته .

أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس أنه قال في الآية هذه فلكة كفلكة المغزل يسبحون يدورون في أبواب السماء كما تدور الفلكة في المغزل وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : لا يدور المغزل إلا بالفلكة ، ولا تدور الفلكة إلا بالمغزل ، والنجوم في فلكة كفلكة المغزل ، فلا تدور إلا بها .

وقال الشيخ لأكبر في فتوحاته المكية :

جعل اللّه السموات ساكنة وخلق فيها نجوما وجعل لها في عالم سيرها وسباقها في هذه السموات حركات مقدرة لا تزيد ولا تنقص ، وجعلهم عاقلة سامعة مطيعة بدليل قوله جل قوله (وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها ) الآية 14 من سورة فصلت في ج 2 ، ثم إنه تعالى شأنه لما جعل السباحة للنجوم أحدث لكل منها طريقين في السماء هو قوله تعالى (وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ) الآية 8 من سورة الذاريات في ج 2 ، قسمت تلك الطرق أفلاكا ، فالأفلاك تحدث بحدوث سير الكواكب وهي سريعة السير فتخرق الهواء الماس السماء فيحدث منه أصوات ونغمات مطربة ، لكون سيرها على وزن معلوم وتجري بعادة مستمرة ، وقد علم بالرصد مقادير سيرها على التقريب ، وكذلك دخول بعضها على بعض ظنا إذ لا يعلم ذلك على التحقيق إلا اللّه الذي جعل يسيرها عبرة للناظرين بين بطء وسرعة وتقدم وتأخر في أماكن من السماء معلومة بصورة بديعة .

(106/644)

---

ثم ذكر برهانا رابعا على عظيم قدرته فقال "وَآيَةٌ لَهُمْ" على بالغ قدرتنا وبديع صنعنا "أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ" أي ذرية آبائهم الأقدمين قبل نوح عليه السلام "فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ" 41

سفينة أبيهم الثاني إذ ملأها به وبأهله ومن آمن به معه ومن عموم الحيوانات زوجين اثنين حتى من الطيور

راجع تفسير الآية 37 من سورة هود في ج 2 .

(107/644)

---

ويجوز أن يراد بالذرية أولاد المخاطبين ، إذ كانوا يبعثونهم بالسفن البحرية الشراعية للتجارة ، لأن أصل الذرية الصغار من الأولاد ويقع بالتعارف على الكبار والصغار ، ويستعمل للواحد والجمع وفي الأصل هو للجمع فقط ، وفي قوله المشحون إشارة إلى البواخر المحدثة بعد عهد نزول القرآن التي أصلها سفينة نوح عليه السلام هذه ، لأنها مشحونة بالأشخاص والأموال ومشحونة أيضا بالبخار الذي يسوقها ولا شيء يمتلىء امتلاء البواخر بالبخار ، يدل على هذا قوله جل قوله "وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ" أي ذلك الفلك المشحون "ما يَرْكَبُونَ" 42 فيه بالبحر من السفن والبواخر الكبار في الهواء من الطيارات المتنوعة وفي البر من الحيوانات وخاصة الإبل إذ يسمونها سفن البر ، والسيارات والدراجات والعجلات لتنوعة مما يركب ويحمل عليه ، وكل هذا داخل في قوله تعالى من مثله كالقطارات ، لأن هذه الإشارة تشمل الجميع ولأن بيوت بخارها مثل بيوت بخار

البواخر المشار إليها بكلمة ذريتهم وهم أبناء هذا الزمان ، وهذا كله من الإخبار بالغيب الذي يقصه اللّه علينا في كتابه ولا تناهي لمعجزاته ، قال تعالى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ) الآية 53 من سورة فصلت في ج 2 ، أي آفاق السموات والأرض ولا يخترق هذه الآفاق إلا هذه المحدثات ، وما ندري ما يحقق لنا القرآن فيما بعد مما يتصوره العقل من الجائزات ، ولعل يكون ما قاله أبو الحسن الأشعري من أنه يجوز لأعمى الصين أن يرى بقعة الأندلس ، وقد تحقق ذلك بعد أن ظهر المذياع المصور بكسر الواو الذي يسمع فيه صوت القارئ وترى صورته ، واللّه على كل شيء قدير ، ومن قدرته أقدار خلقه على مثل هذه الأشياء مما لا يكاد يقبله العقل ولا يتصوره مع وجوده ، راجع الآية 10 من ص المارة والآية 95 من سورة الصافات في ج 2 ، قال تعالى "وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ" في البحر هم و

(108/644)

---

سفنهم مهما عظمت إذ سماها اللّه جواري وشبهها بالجبال في قوله : (وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ) الآية 24 من سورة الرحمن في ج 3 ، ونظيراتها الآية 31 من سورة الشورى في ج 2 ، وكذلك إذا شاء يقلب القطارات ويوقع الطائرات بسبب وبغير سبب ، وإذا أغرقهم أو أسقطهم أو قلبهم "فَلا صَرِيخَ لَهُمْ" أي لا مغيث يستغيث لهم ، وسمى

المغيث صريخا لأنه ينادي من ينجيه مما حل فيه فيصرخ بأعلى صوته ولا أحدا يغيثه من قدر الله "وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ" 43 ينجون منه لأن من يقدر هلاكه الله لا محيد له عنه البتة ، لأن البشر عاجز عن الحؤول دونه "إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا" نحن الإله القادر على إغاثتهم بالنظر لما هو في علمنا الأزلي فنيسر لهم من يغيثهم أو نحفظهم من الهلاك وقتا مقدرا "وَمَتاعاً إِلى حِينٍ" 44 انقضاء آجالهم قال أبو الطيب :

ولم أسلم لكي أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام

وفي هاتين الحالتين ننقذهم نحن ، وغيرنا لا يقدر على إنقاذهم إذا لم نشأه ، حد قوله :

إذا نحن نؤمنك تأمن غيرنا وإذا لم تأخذ الأمن منا لم تزل حذرا



---

و هذه الآية المدنية من هذه السورة ، قال تعالى "وَإِذا قِيلَ لَهُمُ" لمنافقي المدينة "اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ" مما يتوقع حصوله من العذاب الدنيوي إذا أصررتم على نفاقكم كالأمم الماضية التي أصرت على كفرها "وَ" اتقوا أيضا "ما خَلْفَكُمْ" مما توعدون به من عذاب الآخرة ، ويجوز أن يكون على العكس بأن يراد ما بين أيديهم عذاب الآخرة ، لانهم مقبلون عليه ، فكأنه بين أيديهم وبما خلفكم عذاب الدنيا لأنهم تاركوه وراءهم ، ولكن الأول أولى وأنسب بالمقام ،

أي احذروا هذين العذابين المتوخى نزولهما بكم "لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" 45 أي ترجون رحمة اللّه ، وقال بعض المفسرين إن هذه الآية مكية والخطاب لكفار قريش أي اتقوا الوقائع التي ابتليت فيها الأمم المكذبة لانبيائها ، واتقوا إنكار أمر الساعة وآمنوا بنبيكم علكم تصيبكم رحمة ربكم ، وجواب إذا محذوف تقديره : فأعرضوا ولم يلتفتوا إلى هذا القول ، على كلا القولين والمعنيين ، ويدل على حذف الجواب قوله تعالى "وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ" الدالة على قدرته وصدق نبيه "إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ" 46 دأبهم في كل آية فيها إنذار وبشارة "وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا" أيها المتمولون على فقرائكم "مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ" وأحسنوا إليهم كما أحسن اللّه إليكم "قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا" المأمورون بالإنفاق من أهل مكة

(110/644)

---

و غيرهم "لِلَّذِينَ آمَنُوا" القائلين لهم أنفقوا "أَنُطْعِمُ" رزقنا الذي حصلنا عليه بكدنا "مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ" أي كيف نطعمه وقد أفقره اللّه ؟ فليطعمه الذي أفقره وهو استفهام إنكار ، أي لا نفعل ذلك أبدا ، والكلام مسوق لذمّهم على البخل وعدم شفقتهم على ذويهم وأبناء جنسهم من فضل ما منّ اللّه به عليهم إثر ذمهم بإنكار البعث والنبوة والمعاد ، ثم لم يكتفوا بما قالوا بل أتبعوه بقولهم "إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ" 47 لأنكم تأمروننا بإعطاء

رزقنا لمن لم يرد اللّه إعطاءه ، وهذا أولى من قول من قال إن هذه الجملة من قول اللّه أي قال تعالى لهم إن أنتم إلخ ، وأولى من قول من قال إن هذه الجملة من قول المؤمنين لهم لمخالفتها سياق الآية وسياق الحكاية ، قالوا كان العاص بن وائل السهمي وبعض كفار قريش المتزندقين إذا سألهم المساكين من فضول أموالهم ، ومما زعموا أنهم جعلوه للّه من حروثهم وأنعامهم كما سيأتي بيانه في الآية 136 من سورة الأنعام في ج 2 فما بعدها ، قالوا له اذهب إلى ربك فهو أولى بك منا ، أيمنعك هو ونعطيك نحن ؟ كلا ، لا نفعل هذا ، فلو أراد رزقك لرزقك كما رزقنا ، فنزلت فيهم هذه الآية .

وقد تمسك بقولهم هذا البخلاء أسوة بسادتهم أولئك إذ يقولون لا نعطي من حرمه اللّه ، وهو قول باطل يلجأ إليه كل عاطل من فعل الخير إخوان المنزل فيهم هذه الآية ، لأن اللّه تعالى أغنى أناسا وأفقر آخرين ابتلاء واختبارا لا بخلا ولا استحقاقا ، وأمر الغني بالإنفاق ليمتحنه أيقدر شكر نعمته عليه أم لا ، وقد هدد الغني في الحديث القدسي : (الأغنياء وكلائي والفقراء عيالي فإن بخل وكلائي على عيالي أذقتهم وبالي ولا أبالي . ) وامتحن الفقير بهدر ماء وجهه ليختبره أيصبر أم لا ، ألا فليتعظ الأغنياء ويتعظوا قبل أن يحل بهم ما لا كاشف له إلا اللّه .

وما قيل إن هذه الآية نزلت في اليهود لا صحة له لأنها مكية بالاتفاق كسائر هذه السورة إلا الآية المستثناة 45 المارة على قول بأنها مدنية والأرجح عندي أنها مكية أيضا كما مر لك في تفسيرها الثاني والله أعلم ، قال تعالى "وَيَقُولُونَ" هؤلاء الكفرة يا محمد "مَتى هذَا الْوَعْدُ" الذي توعدنا به أنت وأصحابك من نزول العذاب

وقيام الساعة والحساب والجزاء في يوم البعث من القبور ، قد طال علينا أمده أخبرونا وقته على الحقيقة "إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ" 48 بقولكم ، قال تعالى قل لهم يا سيد الرسل إنه قريب بالنسبة لما عند الله وأنه على حين غفلة سيأتيكم غرة لأنه تعالى يقول :

مطلب في النفختين والذي لا يبلى من البشر :

"ما يَنْظُرُونَ" هؤلاء المستعجلون على شرهم "إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً" من عبدنا جبريل الموكل بالنفخة الأولى والثانية "تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ" 49 فجاءة أثناء مخاصمتهم في بيعهم وشرائهم ومنازعتهم في أمورهم لدنيوية المنهمكين بها ، وحينذاك "فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً" في شيء من أمورهم لأن كلا منهم يموت على حالته التي هو فيها حين سماعه الصيحة ولهذا قال تعالى ولا إلى أهلهم يرجعون 50" إذ ليس باستطاعتهم لرجوع إذا كانوا خارجين لشأنهم وفي هذا تنبيه عظيم على عظمة هذه الصيحة التي لا تمهل القائم أن يقعد ولا القاعد أن يقوم إذ يموت كل بمكانه على هيأته دون حركة ، ولا عجب من ذلك لأنه من فعل

اللّه .

قالوا كان شبيب الحروري إذا صاح في القوم لا يلوي أحد على أحد وفيه يقول :

إن صاح يوما حسبت الصخر منحدرا والريح عاصفة والموج يلتطم

فإذا كانت صيحة عبد من عبيده في الدنيا تفعل هكذا ، فما بالك في صيحة ملك عظيم من ملائكته .

*(112/644)*

---

روى مسلم من حديث عمرو ابن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا (أي مال عنقه لان الليت صفحة العنق) فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله (أي يصلحه ويطينه) فيصعق ويصعق الناس ، وقدمنا في تفسير الآية 185 من سورة الأعراف حديث أبي هريرة المتعلق بهذا مطولا فراجعه ،

قال تعالى "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ" أي النفخة الثانية للبعث والحساب وبينهما على ما قيل أربعون سنة "فَإِذا هُمْ" الأموات الذين ماتوا قبل النفخة الأولى جميعهم والذين ماتوا بعدها قائمين "مِنَ الْأَجْداثِ" المدافن أعم من القبور "إِلى رَبِّهِمْ" ومالك أمرهم "يَنْسِلُونَ" 51 يخرجون

أحياء يتسابقون إلى الموقف وراء المنادي

قالوا لبعضهم متعجبين من حالتهم التي كانوا غافلين عنها في الدنيا ومنكرين وجودها "يا وَيْلَنا" يا هلاكنا "مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا" الذي كنا فيه لأنهم يرون ما كانوا فيه من عذاب البرزخ بالنسبة لما شاهدوه من الهول هينا وكأنه في جنب شدة القيامة نوما ، وهنا وقف لازم ، أي سكتة خفيفة ، فرقا بين كلامهم وكلام الملائكة القائلين لهم "هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ" به خلقه في الدنيا على لسان رسله "وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ" 52 بما قالوا لكم عنه بأنكم تموتون ثم تحيون وتسألون عما عملتم في دنياكم وتعاقبون وتثابون فكذبتموهم .

ويوجد ثلاث سكتات أخر مثل هذه ينبغي للقارئ أن يسكت سكتة خفيفة عند تلاوتها : الآية 14 من سورة المطففين ، والأولى من سورة الكهف ج 2 ، والآية 27 من سورة القيامة المارة ، يقال : (من .

راق) كما سنبينها في مواضعها "إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً" أي تلك النفخة من ملكنا جبريل عليه السلام "فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ" 53 أولهم وآخرهم في الموقف للحساب والجزاء عما كان منهم في الدنيا من خير وشر .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ما بين النفختين أربعون ، قالوا يا أبا هريرة أربعون يوما قال أبيت ، قالوا أربعون شهرا ، قال : أبيت ، قالوا أربعون سنة ، قال : أبيت (يقول رضي اللّه عنه كلما سئل عن بيان الأربعين وتمييزها أبيت أي أمتنع عن القول ، وذلك لانه لم يسمع من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما هي الأربعون ، لانه أمين على ما سمع ، فينقل ما سمعه بلا زيادة ولا نقص جزاه اللّه عنا خيرا . ومع هذا الحرص على حفظ كلام الرسول وأمانته عليه من أن يدخل فيه ما ليس منه ما لم يتحقق سماعه ، فإن بعض من لا خلاق له من العلم يتهمه بسبب كثرة روايته عن النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وقد اعتذر لهم بأنه كان ملازما حضرة الرسول ، وإخوانه بالأسواق وغيرها يتلهون بأعمالهم ، لذلك صار أكثر رواية منهم أللهم حسن ظننا بعبادك المخلصين) ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، ويأمر اللّه تعالى كل ذرة أينما كانت في البر أو البحر أو الهواء بالاتصال بجسدها التي انفصلت منه ، وليس من الإنسان شيء لا يبلى إلا

عظما واحدا هو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة قال صاحب الجوهرة :

والجسم يفنى غير عجب الذنب وغير شهيد الحرب ونبي

وهذا أيضا جاء على قاعدة ما عموم إلا وخصص .

هذا ، وحينما يتظاهر أهل الموقف بالضجر مما يشاهدونه من الهول وعدم علمهم بما يؤول إليه أمرهم يقول الله تعالى "فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ" منكم أيها الخلق "شَيْئاً" مما عملتموه في دنياكم برة كانت نفسكم أو فاجرة حسنا كان عملها أو سيئا "وَلا تُجْزَوْنَ" جنّكم وإنسكم "إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" فيها إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، ثم طفق يصف للناس أصحاب الخير بعد حسابهم بقوله جل قوله "إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ" من معانقة الأبكار على ضفاف الأنهار وزيارة الأخيار عند سيد الأبرار وضيافة الملك الغفار في مشهد تحار فيه الأفكار والأبصار ، مما لا توصف لذته ولا تقدر فرحته "فاكِهُونَ" 55 متلذذون متنعمون "هُمْ وَأَزْواجُهُمْ" المؤمنات في الدنيا وما من الله عليهم من الحور والولدان جميعهم "فِي ظِلالٍ" من أكناف القصور والمواقع التي لا تقع عليها الشمس تسمى ظلالا في الدنيا أما الآخرة فلا شمس فيها قال تعالى "لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً" الآية 13 من سورة الرحمن في ج 3 ، وإنما سميت ظلالا بالنسبة لما نعرفه من ظلال الأشجار وغيرها وكلهم "عَلَى الْأَرائِكِ" السور في الحجال أو الفراش في الحجال وحكى الطبرسي أن الأريكة هي الوسادة ، وهذا مما يقبله الضمير قال تعالى "مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ" في صدر الآية المارة والاتكاء عادة في الدنيا يكون على الوسائد ، وما الدنيا إلا أنموذج الآخرة "مُتَّكِؤُنَ" 56 وهذا مما يؤيد أن الأريكة هي الوسادة ، وقال الزهري كل ما اتكئ عليه فهو أريكة .

قال في الصحاح الأريكة سرير منجّد مزين في قبة أو بيت ، وقال ابن عباس لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة ولا حجلة إذا لم يكن السرير فيها والحجلة كالقبة وموقع مزّين بالثياب والستور للعروس .

(115/644)

---

وعلى كل فإن المراد بها الوسادة ، لأن السرير لا يكون بدون وسد فالذي يجلس عليه يتكىء على ما فيه من الوسد

"لَهُمْ فِيها" أي الجنة "فاكِهَةٌ" يتفكهون بها من أنواع الثمار والخضار "وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ" 57 . ويطلبون من أصناف المآكل والمشارب مما يتمنون ويشتهون .

مطلب تحية اللّه لعباده وتوبيخ المجرمين :

وزيادة على هذا فإن الملائكة غير الحافين بهم تبلغهم من ربهم تحية وهي "سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ" 58 أو انه جل جلاله يطلع عليهم بذاته المقدسة يدل على هذا ما رواه البغوي بإسناد الثعلبي عن جابر ابن عبد اللّه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع نور لهم فرفعوا رؤوسهم ، فاذا الرب عز وجل قد أشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة ، فذلك قوله عز وجل سلام إلخ ينظر إليهم وينظرون

اليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون اليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم قال صاحب بدء الامالي :

يراه المؤمنون بغير كيف وادراك وضرب في مثال

فينسون النعيم إذا رأوه فيا خسران أهل الاعتزال

(116/644)

---

و من هذه النعمة العظيمة رؤية الحق جل جلاله لانهم يتكرونها في الدنيا والآخرة فعوقبوا بحرمانهم منها راجع بحث الرؤية في تفسير الآية 143 من الأعراف المارة ، ثم شرع ينعت أهل النار أجارنا اللّه منها بقوله "وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ" 59 اعتزلوا عن المؤمنين لانهم صاروا إلى ما وعدوا به في الدنيا على لسان الرسل ، وبمجرد صدور هذه الكلمة بل قبل تمامها اعتزل جميع أهل النار من كل الملل عن أهل الجنة ، لان أمره بين الكاف والنون وصار يوبخهم ويقرعهم بما هو أشد من عذابهم وأمر فقال لهم "أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ" وأنتم في عالم الذر راجع تفسير الآية 172 من الأعراف المارة وأقول لكم "أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ" وافردوني وحدي بالعبادة وألم أقل لكم "إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" 60 العداوة ، إذ بدأها بأبيكم آدم فاحذروه

ولا تشركوا بي أحدا ولا شيئًا ، كيف وقد أعطيتموني هذا الميثاق وشهدتم به على أنفسكم وأشهدت عليكم ملائكتي وقد نقضتموه وعبدتم غيري

"وَأَنِ اعْبُدُونِي" وحدي لا تشركوا بي شيئًا "هذا" الذي عهدت به إليكم من وجوب طاعتي وعبادتي ومعصية الشيطان وترك الشرك هو "صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ" 61 لو اتبعتموه لنجوتم الآن لأنه سوي بليغ بالاعتدال لا اعوجاج فيه فلو تمسكتم به لكفى في إلزام أنفسكم طاعتي قال الآلوسي رحمه اللّه :

تفسر بعض الناس عنك كناية خوف الوشاة وأنت كل الناس

لأن الأصل الاستقامة ، ولا يكون إلا باتباع الطريق المستقيم فمن اتبعه نجا ومن حاد عنه هلك ، قال تعالى مخاطبا الخلق كلهم "وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ" أيها الناس "جِبِلًّا كَثِيراً" أي خلقا ، لان الجبل الجماعة العظيمة والأمة التي لا تقل عن عشرة آلاف تشبيها لها بالجبل العظيم .

(117/644)

---

مع كثرة إرسال الرسل إليكم لارشادكم "أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ" 62 ما بلغوكم به عنّا لتستعدوا ليومكم هذا استفهام توبيخ وتقريع لعدم اتعاظهم بما جرى على الأمم الضالة قبلهم تكذيبهم رسلهم وطاعتهم عدوهم إبليس ثم التفت لأهل النار وقال لهم "هذِهِ جَهَنَّمُ

الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ" 63 بها من قبل الرسل في الدنيا والتي كانوا يخوفونكم بها وأنتم

تكذبونهم ثم يقال لهم على سبيل الإهانة والتحقير من قبل ملائكة العذاب "اصْلَوْهَا الْيَوْمَ"

أدخلوها لتكونوا وقودها "بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ" 64 باللّه ورسله وتجحدون هذا اليوم ولما

أرادوا أن يتكلموا الجمهم عن الكلام بقوله "الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ" لئلا يتكلموا بها لانا

سنأمر جوارحهم بالاعتراف عما فعلت "وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ" بما بطشت وما أخذت

وأعطت "وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ" بما مشت ورمحت وهكذا كافة أعضائهم تنطق "بِما كانُوا

يَكْسِبُونَ" 65 في الدنيا وذلك أنهم أرادوا أن يعتذروا إلى اللّه بأنهم انقادوا لأكابرهم وأنهم

لم يكذبوا رسله ولم يشركوا به، كما مر في الآية 59 فما بعدها من سورة ص وما سيأتي في

الآية 23 من سورة الأنعام في ج 2

فيمنعون من الكلام إذ لا فائدة لهم به.

روى مسلم عن أنس بن مالك قال:

*(118/644)*

---

كنا عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فضحك، (أي تبسم لأنه كان لا يضحك وكلما

نقل عنه أنه ضحك فالمراد به تبسم) فقال هل تدرون ممّ أضحك؟ قلنا اللّه ورسوله أعلم

، قال في مخاطبة العبد ربه ، فيقول يا رب ألم تجرني من الظلم ؟ قال يقول بلى ، قال فيقول : فإني لا أجيز على نفسي الا شاهدا منّي (أي لا أقبل شاهدا عليّ من الغير) قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا "و الآية في الإسراء بلفظ حَسِيباً "مما يفهم أن الاستشهاد بغير الآية ، قال فيختم على فيه ويقال لاركانه : انطقي ، قال فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعدا لكنّ وسحقا فعنكن كنت أناضل (أدافع وأخاصم ومعنى هذا هلاكا ) والمراد بالختم على الأفواه ليس عدم شهادتها بل منع المحدث عنهم عن التكلم بألسنتهم وهو أمر وراء تكلم الألسن نفسها ، وكيفية شهادة الجوارح أن يجعل اللّه تعالى القادر على كل شيء فيها علما وإرادة وقدرة على التكلم ، فتتكلم وتشهد وأصحابها مختوم على أفواههم راجع كيفية هذا الختم في الآية 24 من سورة النور في ج 3 ، ولا نص فيها عن الأفواه كما أنه لا نص في هذه الآية على الألسنة أي لا ختم على الأفواه هناك ولا على الشهادة بالألسنة هنا وعليه فيجوز أن يكون المحدث عنهم في السورتين واحدا قال تعالى "وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا" مسخنا "عَلى أَعْيُنِهِمْ" كما أغشينا قلوبهم الباطنة بأن نجعلها كأنها غير مشقوقة ، وهذا أبلغ من أعميناها أو أغشيناها "فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ" بادروا طريقهم المألوف لهم ويجوز أن يكون الكلام من باب الحذف والإيصال بان حذف الجار وهو إلى واتصل الفعل بالمجرور وهو الأصل فاستبقوا إلى الصراط "فَأَنَّى يُبْصِرُونَ" 66 طريقهم وهم عمي القلوب عمي الأعين معا "وَلَوْ نَشاءُ

لَمَسَخْنَاهُمْ" حجارة بأن قلبنا ماهيتهم أو صيّرناهم قردة وخنازير كما فعلنا بأصحاب السبت أشار إليهم في

(119/644)

---

الآية 163 من سورة الأعراف المارة والآتي ذكرهم في الآية 60 من سورة المائدة في ج 3 قالوا ان مسخ الحيوان أو تحويله إلى

أحجار يسمى رسخا وإلى نبات يسمى فسخا وإلى حيوان يسمى نسخا أي لغيرناهم عن خلقهم وهم "عَلى مَكانَتِهِمْ" المكانة كالمكان مثل المقامة والمقام ويكون بمعنى المنزلة العالية في غير هذا المكان أي لو أردنا مسخهم لمسخناهم في منازلهم "فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا" عنها فلا يقدرون ان يبرحوها ويتخلصوا منها من ويل ما وقعوا فيه "وَلا يَرْجِعُونَ" 67 إلى ما كانوا عليه قبل النسخ أي عجزوا على الحالتين معا .

(120/644)

---

واعملوا أيها الناس ان طول الأعمار وقصرها بايدينا وفق ما هو في أزلنا "وَمَنْ نُعَمِّرْهُ" منكم زيادة على غيره "نُنَكِّسْهُ" أي نقلبه "فِي الْخَلْقِ" فلا يزال يتزايد ضعفه وتنقص بنيته وتضعف قواه ، وقد يقل عقله عكس ما كان عليه لأنه في بدأ طفولته كان يتزايد في الكبر والقوة والعقل والعلم ، لأنه يكون عند ولادته عاريا عن ذلك كله فإذا بلغ أشده استكمل قوته وعقله وعلمه ، وأنكس قلب الشيء على رأسه ، والمنكوس الولد الذي تخرج رجلاه قبل رأسه والنكس عود المرض بعد النّقه وكل ما كان مقلوبا فهو منكوس ولهذا قال ننكسه أي نرجعه على حالة الطفولة من جهة نقص القوى وضعف الجوارح والنكس الشيخ المدرهمّ الساقط العاجز من الكبر بعد الهرم ، والناكس المطأطئ رأسه من أجل ذلك "أَفَلا يَعْقِلُونَ" 68 هؤلاء بأن من قدّر تعريف أحوال الإنسان بالصورة المذكورة وهي مدونة ومشاهدة ، ألا يقدر على إحياء من يميته ويبعثه حيّا مرة ثانية ، أفلا يعتبرون ويقيسون ما كان على ما يكون ، أفلا يتدبرون هذا نظرا وفكرا ؟ ثم التفت إلى كفار قريش الذين اتهموا نبيه صلى اللّه عليه وسلم بكونه شاعرا بعد أن قالوا ساحر وكاهن ومعلم ، لأنه هو المقصود بإنزال هذا القرآن بل من خلق اللّه كله فقال مكذبا لهم "وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ" والكلام المنزل عليه لا يضاهي الشعر لأنه غير موزون بأوزانه .

مطلب أوزان الشعر ومخالفة القرآن لها :

أن الشعر عبارة عن تخيلات مرغبة أو منفّرة ، وهو معدن الكذب ومقر الهزل في كثير من الأحيان ولهذا قيل في مدحه (أعذبه أكذبه) وهو مبني على

(121/644)

---

ستة أصول (1) سبب خفيف وهو كل حرف متحرك وراءه ساكن مثل من وعن وقد (2) سبب ثقيل وهو كل حرفين متحركين مثل لم بما من (3) وتد مجموع وهو كل حرفين متحركين بعدهما ساكن مثل غزا ورمى وعلا (4) وتد مفروق وهو كل حرفين متحركين بينهما ساكن مثل سار ، قال ، باع (5) فاصلة صغرى وهي كل ثلاثة أحرف متحركات بعدها ساكن مثل ذهبا خرجا أكلا (6) فاصلة كبرى وهي كل أربعة أحرف متحركات مثل خرجتا ، ذهبتا ، أكلتا وهو عبارة عن ستة عشر بحرا لكل منها وزن خاص لا يتعداه وله أصول يتقيد فيها كالخبن والجزء .

وهو علم خاص له فروع في عروضه وضروبه وقوافيه ، ويغتفر فيه ما لا يغتفر في النثر ، ومتى خرم في أصوله ووزنه بشيء لا يسمى شعرا .

وهذا القرآن العظيم كله حكم وعقائد وشرائع وأمثال وقصص وأمر ونهي منزه عن الهزل ، وكله قول حق وصدق قال تعالى "إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ" الآيتان 13 و14 من

سورة الطارق المارة وإذا كان منزّها من الهزل فبراءته عن غيره أولى ، وليس على أوزان الشعر وقوافيه وأصوله فأين الثرى من الثريا ، وأين الثريا من يد المتناول ، وإذا لم يكن هذا القرآن شعرا ، وهو كذلك ، فإن محمدا صلى اللّه عليه وسلم ليس بشاعر ، لأنه لا ينطق عن اللّه بغير ما يوحيه إليه ، فما يقوله هؤلاء الكفرة وأضرابهم وتلوكه ألسنتهم من الشعر غرضهم منه وصمه صلى اللّه عليه وسلم بالشعر مع أن ما جاء به ليس بشعر وحاشاه ثم حاشاه "وَما يَنْبَغِي لَهُ" ولا يليق به الشعر .

ولا تعلمّه ولا نطق به ، لأنه قد يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن ، وهذا ليس كذلك .

(122/644)

---

والشعر أحسنه المبالغة في الوصف والمجازفة والإغراق في المدح والإفراط بتحسين ما ليس بحسن والتفريط في تقبيح ما ليس بقبيح ، وهذا مما يستدعي الكذب أو يحاكيه وجلّ جناب الشارع عن ذلك روي عن عائشة رضي اللّه عنها وقد قيل لها هل كان النّبي شاعرا يتمثل بشيء من الشعر قالت كان يتمثل بشعر ابن رواحه ويقول :

ويأتيك بالأخبار من لم تزود . . . . . .

أخرجه الترمذي ، وفي رواية غيره قالت كان الشعر أبغض الحديث اليه صلى اللّه عليه وسلم ولم يتكلم منه إلا ببيت أخي قيس طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فجعل يقول ويأتيك من لم تزود بالأخبار .

فقال أبو بكر رضي اللّه عنه ليس هكذا يا رسول اللّه ، فقال إني لست بشاعر ولا ينبغي لي ، وروى عن الحسن أنه صلى اللّه عليه وسلم كان يتمثل بهذا البيت : كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا .

فقال أبو بكر يا نبي اللّه انما قال الشاعر : كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا .

أشهد أنك رسول ، وتلا هذه الآية وقد جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لان يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير من أن يمتلئ شعرا وما صح من حديث جندب بن عبد اللّه أنه قال بينما نحن مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا أصابه حجر فدميت إصبعه فقال :

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل اللّه ما لقيت

ومن حديث أنس رضي اللّه عنه ان النبي صلى اللّه عليه وسلم قال :

لهمّ إن العيش عيش الآخرة فأكرم الأنصار والمهاجرة

وما روى أنه قال :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

(123/644)

---

فهو من جملة كلامه الذي يرمي به من غير صنعة فيه ولا تكلف ، إلا أنه اتفق كذلك عفوا من غير قصد الشعرية وان كان موزونا كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس ومحاوراتهم ورسائلهم ، كلام موزون مقفى يدخل في بحور الشعر وأوزانه اتفاقا ، وقد جاء في القرآن العظيم ما هو بوزن شطر منه مثل قوله تعالى : "قالَ خُذْها ولا تَخَفْ" الآية 21 من سورة طه الآتية وقوله جل قوله : "فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ" الآية 25 من سورة الأحقاف في ج 2 وغيره كثير كما في الآية 14 من سورة النمل ، والآية 33 من سورة فاطر الآتيتين. فهل يسمى هذا شعرا ؟ كلا ، على أن الخليل قال المشطور من الرجز ليس بشعر ، وهذا كله من

مشطور الرجز ، وما روي عن الخليل أنه قال كان الشعر أحبّ إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من كثير من الكلام مناف لما سمعت من الأحاديث والأخبار ، ولعله قال ذلك بالتفضيل بين شعر وشعر كما قال حين أعجبه شعر أمية ابن الصلت (آمن شعره وكفر

قلبه) وكما قال حين سمع قول النابغة :

بلغنا السماء بجدنا وسناؤنا وانا لنرجو بعد ذلك مظهرا

قال له إلى أين قال إلى الجنة يا رسول الله ، فأعجبه ولما بلغ في قصيدته قوله :

ولا خير في علم إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن حليم إذا ما أورد الأمر اصدرا

قال له لا يفضض الله فاك .



---

قالوا إنه عاش مائة وثلاثين سنة لم يسقط له فيها سن هذا ، وان القرآن العظيم امتاز عن كلام البشر بما تقدم ، وبنظم آياته على نظام السجع المستمر أو النثر من الشعر وبضرب الأمثال وسوق القصص وتكرارها بغير النسق الأول مع إعطاء المعنى كاملا ، وهذا مما يعجز عنه البشر وعدم التزامه أسلوبا واحدا في الأداء والبحث فكما تجد في السورة الواحدة عدة أبحاث تجده في الآية الواحدة أيضا ، وكما أن كثيره معجز فقليله معجز ، فهو في هذه الحيثية لا يتجزأ كالنور فإنه إذا تجزا لا يخرج عن طبيعته كله لأن جزء النور نور وهكذا القرآن جل منزله .

ولهذا البحث صلة في تفسير الآية 226 من سورة الشعراء نستقصي فيها ما لا بد منه في هذا الشأن إن شاء اللّه تعالى ، ولما نفى جل جلاله أن يكون نبيه شاعرا وأن يكون كلامه شعرا قال "إِنْ هُوَ" أي ما الذي علمناه لحضرة رسوله "إِلَّا ذِكْرٌ" من لدنا أنزلناه عليه ليذكر به عبادنا ويعظهم به "وَقُرْآنٌ" يقرأه عليهم "مُبِينٌ" 69 ظاهر واضح بأنه ليس من قول البشر ويلقم من تصدى لمعارضته الحجر كتاب سماوي لا مثل لمثله ، تحدى الخلق كلهم ليأتوا بسورة مثله فعجزوا ، وهو مصوغ صوغا إلهيا يباين كلام الإنسان ويخالف ما في الشعر من أصول وأوزان ، موضح للحدود والأحكام ، ومبين للحلال والحرام صادر عن حضرة الملك العلام القائل "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً"



---

الآية 88 من سورة الإسراء الآتية ، فأين هو بعد هذا مما يتقوله المتقولون من مضاهاته للشعر المربوط بأوزان لا يتجاوزها ، وبحور لا يتعداها ، وهو من همزات الشياطين وأقاويل الكافرين ليمدحوا عليه أو ينالوا به شيئا من حطام الدنيا ، إذ كان متعارفا بينهم للمدح والذم المبالغ فيهما ، هذا وإنما أنزل اللّه جل شأنه هذا القرآن على رسوله صلى اللّه عليه

وسلم "لِيُنْذِرَ" بأوامره ونواهيه ويرشد "مَنْ كانَ حَيًّا" قلبه تنجع فيه النذر وتؤثر فيه المواعظ "وَيَحِقَّ الْقَوْلُ" بوجوب العذاب "عَلَى الْكافِرِينَ" 70 الذين لا ينتفعون بالذكرى.

ثم شرع يعدد نعمه على خلقه الذين لا يجدر بهم ان يجحدوا كتابه ورسوله لو كان لهم ألباب فقال "أَ وَلَمْ يَرَوْا" هؤلاء المعارضون لرسولنا "أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً" من الإبل والبقر والغنم وغيرها وخص الأنعام، مع أن غيرها مثلها وأحسن كالخيل والبغال والحمير والبراذين التي لا غنى لهم عنها إذ ذاك، لأنها أكثر أموالهم، ولهذا قال تعالى "فَهُمْ لَها مالِكُونَ" 71 يتصرفون فيها كيفما شاءوا أو أرادوا.

مطلب آيات الصفات ونعمة إذلال الحيوانات:

*(126/644)*

---

هذا، وقد سبق أن ذكرنا في تفسير الآية 54 من الأعراف والآية 30 من سورة ق المارتين بان آيات الصفات كهذه الآية مما لم يقطع بتفسيرها، إذ أن السلف أبقوها على ظاهرها وأطلقوا معناها عليه، وتأولها بعض الخلف وقال المتكلمون وبعض أهل الرأي أنه جل شأنه له يد لا كالأيدي ورجل لا كالأرجل وهكذا وهو مما طعن فيه أكثر الخلف لشدة تنزيههم الحضرة الإلهية عن مثله، وكل ما هو من شأن البشر، ولهذا فإنهم أولوا اليد بالقوة

والنعمة والقدرة تحاشيا عن ذلك ، قال تعالى "وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ" جعلنا هذه الأنعام مسخرة منقادة لخلقنا لتمام الانتفاع بها إذ لو جعلت متوحشة كغيرها من الحيوانات لم يقدروا على ضبطها ولحرموا منافعها وهذا من أكبر نعم اللّه على خلقه ، فانك تجد الطفل المميز يقود البعير بخطامه ويتابعه حيث أراد ، ولولا تذليله لعجز عنه الجماعة ولأتلف بضربة من رأسه الطائفة من الناس فله الحمد والشكر على هذا التسخير "فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ" عليها بسبب تذليلها وحملها الأثقال "وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ" 72 الرجل يذبح الثور والجمل فيأكل ويبيع ويهدي من لحمه وشحمه ، ولولا تسخير اللّه لما تمكن من ذلك "وَلَهُمْ فِيهَا" غير الركوب والحمل "مَنَافِعُ" كثيرة من أوبارها وأشعارها وصوفها وجلدها لباسا ومن نسلها قنية وتجارة إذ يبيعونها ويشترون بثمنها لوازمهم ويستكثرون بها مما يجب الشكر والحمد لمذللها "وَمَشَارِبُ" من حليبها ولبنها وزبدها وسمنها وجبنها ولباها واقطها ومخيضها أكلا وشربا وبيعا وادخارا "أَفَلَا يَشْكُرُونَ" 73 هذا الرب الكريم على إنعامه هذا عليهم ، فضلا عن باقي نعمه التي لا تعد ولا تحصى ، قال صلى اللّه عليه وسلم اتقوا اللّه لما يغذوكم به .

أي إن لم تتقوه لنعمة الحياة والسمع والبصر وبقية الجوارح والحواس وخوف المرض والفقر والعذاب فاتقوه على الأقل لنعمة الأكل والشرب واللبس التي لولاها لهلكتم ، إذ فيها قوامكم فهذه كلها نعم من اللّه تعالى يجب عليكم شكرها فما بالكم تقابلونها بالكفر وتنكرون نعمها "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً" من صنع أيديهم من الأحجار والأخشاب وعبدوها "لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ" 74 إذا أضربهم أمر من خوف وجدب أو حلّ بهم ضر من مرض وفقر كلا "لا يَسْتَطِيعُونَ" أولئك الأوثان المتخذة "نَصْرَهُمْ" على غيرهم لأنها عاجزة عن نصر نفسها لأنها من صنعهم بدليل قوله واتخذوا "وَهُمْ" هؤلاء الكفرة الراجون من هذه الآلهة المزيفة نصرا ويعبدونها من دون اللّه مع علمهم أنها لا تضر ولا تنفع ولا عن أنفسها شرا تدفع ومع هذا تراهم "لَهُمْ جُنْدٌ" أعوان لأوثانهم وخدم "مُحْضَرُونَ" 75 مهيئون يحمونها ممن يتعدى عليها ويرجون خيرها ويخافون شرها ولا ينظرون لخالقهم ورازقهم وحافظهم فيا سيد الرسل اتركهم الآن واصبر عليهم "فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ" بانك ساحر أو كاهن أو شاعر

وإن كتابك سحر وشعر وكهانة ، ووصم ربك بالشريك والولد والصاحب "إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ" لبعضهم ويكنون في قلوبهم من العداء لك والحسد على ما خولك ربك والحرص على إهلاكك "وَما يُعْلِنُونَ" 76 في ذلك كله وتسافههم عليك وعكوفهم على عبادة أصنامهم على مرأى منك ، واتهامك بالكذب ، وتهديدك بالجلاء والقتل ، وغير ذلك مما

نحن عالمون به قبل إظهاره لك .

واعلم يا أكمل الرسل أنا مجازوهم على ذلك كله لأنهم بوصمك هذا يكذبون الذي أرسلك ويجحدون آياته .

(128/644)

---

راجع تفسير الآية 32 من سورة الأنعام في ج 2 ، ولذلك فإنا نجعل كيدهم في نحرهم وننصرك عليهم وفي هذه الآية من التهديد والوعيد ما لا يخفى على بصير وفيها أيضا وعد وتسلية من اللّه لرسوله ليقشع عنه ما لحقه من هم وحزن من قومه بسبب تقولاتهم هذه وإصرارهم على الكفر والتكذيب ورميهم له بما لا يليق بجنابه وليس في هذه الآيات ما ينم على حزنه نفسه بسبب ما ناله من أذاهم وإهانتهم وإنما على عدم قبولهم الايمان ورفضهم كتاب اللّه وإنكارهم رسالته وجحدهم الإله الواحد لأنها على حد قوله تعالى "فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ" الآية 88 وقوله ولا تدع مع اللّه إلها آخر الآية 89 من سورة القصص الآتية ومن المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام لا يظاهر الكافرين ولا يكون من المشركين ولا يدع مع اللّه إلها وان المخاطب فيها على الحقيقة غيره وانما خاطبه بها لإلهاب القلوب وركونها إلى المحبوب وجنوحها عن الأغيار وميلها عن مصاحبة الأشرار ولهذا البحث صلة في تفسير

الآيات المذكورة إن شاء اللّه تعالى .

مطلب تفنيد من كفر القارئ انا بالفتح :

قال بعض المفسرين من قرأ انا هذه بالفتح فسدت صلاته وإذا اعتقد معناها كفر ، وهو قول مبالغ فيه فلو اقتصر على تخطيئه أو غلطة لكان الأمر فيه ما فيه ولكن الكفر أمر عظيم لا يليق أن يجنح إليه عالم ما وجد مخرجا لعدم تكفير المسلم لأنه إذا وجد لمن يصدر عنه قول ظاهره الكفر احتمالا ما ، يجب صرفه لهذا الاحتمال إذ لا يجوز تكفير المسلم حتى أن العلماء رحمهم اللّه قالوا إذا وجد قول

(129/644)

---

بعدم التكفير وتسع وتسعون قولا بالتكفير ، يصار إلى عدم التكفير ، وهنا يمكن حمل الكلام على حذف لام الفعل أي لأنا نعلم ، ومثله كثير في القرآن وفي غيره أكثر ، وعليه تلبية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أحيانا إذ يقول أن الحمد والنعمة لك بفتح الهمزة من أن وقد قرأها الشافعي رضي اللّه عنه بالفتح وأبو حنيفة بالكسر ولكل منهما تعليل وتوجيه لانه إذا قرأتها بالفتح على أنها بدل من قوله "فَلا يَحْزُنْكَ" بحيث يكون المعنى فلا يحزنك علمنا ما يسرون وما يعلنون ففساده ظاهر لان هذا لا يحزنه بل يسره وفيه ما فيه وهذا المعنى يكون

مع كسر إن أيضا إذا جعلتها مفعولة للقول أي كلمة قولهم لأن المصدر يعمل عمل فعله وعليه فيظهر من هذا أنه تعلق الحزن يكون اللّه عالما به وعدم تعلقه بذلك لا يدوران على فتح انا وكسرها وانما يدوران على تقديرك أنت أيها المتفحص وعليك أن تفعل فان فتحت انا قدرت معنى القليل لا معنى البدل لأن فيه الفساد كما علمت ، وان كسرتها أي همزه إنا تفصل أيضا بأن تقدر معنى التعليل لا المفعولية وبهذا ننجو من الخطإ والفساد .

وليعلم القائل بالتكفير بان المسلم لا يكفر إلا بجحد ما يجب الإيمان به قال تعالى "أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ" منكر البعث وهو أبي بن خلف الذي نزلت فيه الآية حينما أخذ عظما باليا من الأرض وقال يا محمد أترى ربك يحيي هذا بعد ما رمّ ؟

فقال نعم ويبعثك ويدخلك جهنم .



---

وانما أغلظ عليه في هذه الجملة لأنه صلى اللّه عليه وسلم لا يغضب لنفسه وانما إذا انتهكت حرمات اللّه أو استهزأ بها كما هنا يغضب ويشتد غضبه ولهذا قال له ما قال وقيل أن القائل العاص ابن وائل وقيل غيره إذ يجوز أن تكون الآية واحدة لأسباب كثيرة وعموم لفظها لا يقيدها بمن نزلت فيه لأن لا عبرة بخصوص السبب فضلا عن أن الإنسان

جاء معرفا بأل الجنسية فتشمل الواحد والمتعدد من جنس الإنسان ويجوز أن تكون أل فيه للاستغراق فيراد بها كل فرد من أفراد الإنسان أي أو لم يبصر هذا الساخر "أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ" زهيدة حقيرة وسويناه رجلا كاملا منها "فَإِذَا هُوَ" بعد خلقنا له إعطائه القوة والعقل "خَصِيمٌ" لنا بما أنعمنا به عليه من الخلق والرزق "مُبِينٌ" 77

62

في خصومته معلن لها يجادلنا بالباطل وينكر علينا إعادته كما بدأناه ولا يتفكر في كيفية إنشائه وما كان عليه من الضعف في قواه وجوارحه (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ) بالعظم البالي وبغتة لرسولنا جاحدا قدرتنا على احيائه كما كان "وَنَسِيَ خَلْقَهُ" من تلك النطفة اليسيرة وتصييره تدريجا هيكلا عظيما على أحسن صورة وأبلغ خلقة مما هو أعظم وأقرب من إحياء العظم البالي فلان يتعجب في ماهيته وأدوار حياته وإعطائه القوة بعد الضعف والنطق بعد البكم أولى من أن يتعجب من احياء العظم وما إعادته بأهون علينا من بدايته وما بدايته بأهون علينا من إعادته ان كان له حجى يعقل به أو نهى يتدبر به أو لب يتذكر به .

ثم ذكر مقالته القبيحة بقوله الحسن الجليل العظيم "قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ" 78 أو لا يذكر هذا الحيوان أن الإعادة أهون من الإبداع لأن اللّه خلق الإنسان على غير مثال سابق فبالأحرى أن يعيده على مثل ما خلقه عليه وانه خلقه من التراب وانه مهما بلي ورمم لا يصير الا ترابا فيخلقه منه كما بدأه قال تعالى "كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ" الآية 28 من الأعراف المارة ثم التفت إلى حبيبه فقال يا أكمل الرسل "قُلْ" لهذا السائل "يُحْيِيهَا" أي العظام البالية وغيرها "الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ" قبل أن تكن شيئا وبعد أن كانت فمن باب أولى فانه يعيدها كما كانت "وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ" 79 ليس خلق الإنسان فقط الذي لا تخفى عليه أجزاؤه المفتتة المتفرقة ولا يعجزه جمعها من البر والبحر وبطون الوحوش والهوام والحيتان والطيور ولا كيفية إعادتها على خلقها لأنه عالم بذلك على التفصيل وهو قادر على ما يعلم وقادر على إعادة كل ذرة لجسدها سواء كان إنسانا أو غيره لا يتعاظمه شيء ولا يعزّ عليه شيء مما تتصوره العقول البتة، - راجع تفسير الآية 53 المارة - واعتقد ولا تستكثر على الإله شيئا أبدا ولهذا البحث صلة في تفسير الآية 259 من سورة البقرة في ج 3.

مطلب خلق النار من الشجر وكيفية أمر اللّه:

كيف يتصور وهو الإله القادر الجبار "الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً"

تنتفعون بها منافع جمة لا تحصى "فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ" أيها الناس "تُوقِدُونَ" 80 للتوضئة والطبخ وتليين المعادن وتقويتها وصنعها فالإله الذي يقدر على جمع الماء والنار في الشجر وهما ضدان ألا يقدر على إعادة ما خلقه كما خلقه بلي والعجز من شيمة وصفة المخلوق لا الخالق ، واعلم انما ضرب اللّه تعالى المثل بالنار لما كان في علمه أنه ينشأ منها ما لم يكن يعرف قبلا ، فقد نشأ منها القوى الكهربائية التي هي أعظم قوة وقف عليها البشر حتى الآن ، وهي جامعة بين الأضداد كالحرارة والبرودة ، والجمع والتفريق ، والحركة والسكون ، فهي العامل الوحيد الآن لأكثر لوازم الإنسان والحيوان ، وما ندري ما ينشأ عنها بعد ، فتفكروا أيها الناس في آلاء اللّه تعالى تفتح أبصاركم وتنور بصائركم لمعرفة مكنونات ربكم في هذه الأرض التي أمر نبيكم بالتماس خباياها وفي عجائب مصنوعاته في السماء التي جعل فيها رزقكم وما وعدكم به .

قال ابن عباس : أراد اللّه تعالى في هذه الشجر شجرتي المرخ والعفار الموجودتين في أرض الحجاز فمن أراد إذكاء النار قطع منها غصنين فيسحق المرخ على العفار فتخرج منها النار وهما خضراوان يقطران الماء ، ولهذا تقول العرب في كل شجر نار ، واستمجد المرخ

والعفار أي استكثر منها ، هذا خلق اللّه أيها الناس وخلق السموات والأرض أكبر من خلقكم ، فالذي يفعل هذه الأشياء إبداعا ألا يقدر على إعادة خلقكم من رميمكم البالي كما بدأكم ؟

(133/644)

---

ثم ذكر مثلا أعظم من الأول فقال "أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ" بما فيهما من جبال وأودية وبحار وأنهار وكواكب وشموس ومناسك وبروج "بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ" لأنهم بالنسبة لذلك لا يعدّون شيئا ، قل أيها الإنسان قسرا "بَلَى " قادر على أكثر من ذلك "وَهُوَ الْخَلَّاقُ" الموجد لأنواع المخلوقات العظيم "الْعَلِيمُ" 81 بكيفية خلقها أولا وإعادتها ثانيا لا يعجزه شيء ولا يحتاج في تكوينها إلى شيء من عقاقير ومحللات ومركبات .

واعلم أيها الكامل "إِنَّمَا أَمْرُهُ" في الإيجاد "إِذَا أَرَادَ شَيْئًا" يوجده "أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" 82 حالا كما أراد لا محالة بين الكاف والنون ، وكذلك إذا أراد إعدام شيء أعدمه

(134/644)

بقول كن أيضا ، لا فرق عنده فيهما ، هذا وقد عبر جل تعبيره عن إيجاد الأكوان بقول كن ، من غير ان كان منه كاف ونون لسرعة الإيجاد ، فكأنه جلّت قدرته يقول كما أنه لا يثقل قول كن عليكم أيها الناس فكذلك لا يثقل عليّ إبداء الخلق وإعادتهم ، وهو يمثل لنا لتأثير قدرته تعالى في مراده بالأمر المطاع للمأمور المطيع في سرعة حصول المأمور به من غير امتناع وتوقف على شيء ، وإذا نظرت إلى قوله تعالى "أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ" الآية 40 من سورة النمل الآتية عرفت بعض قدرة ذلك الرب العظيم على كل عظيم بأقل من لفظ كن والظاهر من الآية أن هناك قولا لفظيا هو لفظ كن ، وإليه ذهب معظم السلف ، وذهب غيرهم إلى أن لا قول أصلا ، وقال بعض العلماء إن هناك قولا نفسيا ، والأحسن أن تضرب عن هذه الأقوال صفحا لأن شؤون اللّه تعالى وراء ما تصل إليه الأفهام ، فلا تشغل نفسك أيها العاقل العارف بمثل هذا الكلام وقل "فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ" من كل شيء يتصرف به كيفما يشاء ويختار ، وقد زيدت الواو والتاء في لفظ ملكوت للمبالغة كما زيدت في جبروت ورحموت في مبالغة الجبر والرحمة وقد أشرنا في تفسير الآية 18 الأعراف إلى ما يتعلق بهذا فراجعه .

"وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" 83 أيها الناس بعد الموت كسائر خلقه لا محيد لكم عنه .

أخرج الامام أحمد وأبو داود والنسائي وغير عن معقل بن يسار أن رسول اللّه صلى اللّه

عليه وسلم قال: يس قلب القرآن.

وأخر أبو النصر السنجري في الإبانة وحسنه عن عائشة رضي اللّه عنها قالت قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: إن في القرآن لسورة تدعى العظيمة عند اللّه ويدعى صاحبها (حافظها الشريف عند اللّه تعالى، يشفع صاحبها يوم القيامة في أكثر من ربيعة ومضر وهي سورة يس.

*(135/644)*

---

وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن حسان بن عطية أن رسول صلى اللّه عليه وسلم قال سورة يس تدعى في التوراة المعمّة تعمّ صاحبها بخير الدنيا والآخرة أي تدفع وتدعى المدافعة القاضية تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضى له كل حاجة واخرج الخطيب عن أنس مثله وعن معقل بن يسار قال قال صلى اللّه عليه وسلم: اقرأوا على موتاكم يس أخرجه أبو داود وغيره.

هذا، واللّه أعلم، واستغفر اللّه، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم، وصلى اللّه وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 2 صـ 64.21 ﴾

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة يس

مكية وقيل الا قوله وإذا لهم اتقوا الآية فمدنية أو مكية

وتقدم الكلام على يس وواو والقرآن للقسم لمن المرسلين كاف إن جعل ما بعده استئنافا فاقان جعل هبرا ثانيا لان فليس بوقف مستقيم تام لمن قرا تنزيل بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف أو بالنصب على المصدرية وليس بوقف إن جر بدلا من القرآن ولا يوقف على الرحيم لان ما بعده لام كي وهي متعلقة بما قبلها غافلون حسن وكذا لا يؤمنون مقمحون كاف وكذا لا يبصرون لا يؤمنون حسن بالغيب جائز كريم وآثارهم كاف مبين تام إليكم مرسلون حسن وكذا الا تكذبون لمرسلون كاف المبين حسن تطيرنا بكم مفهوم أليم حسن أئن ذكرتم كاف مسرفون تام المرسلين صالح مهتدون حسن يرجعون كاف مبين حسن وكذا فاسمعون ادخل الجنة صالح المكرمين حسن منزلين صالح خامدون تام وكذا يا حسرة على العباد ويستهزؤن ولا يرجعون ومحضرون يأكلون كاف وكذا وأعناب ليأكلوا من ثمره حسن

إن جعلت ما في عملت أيديهم للنفي وليس بوقف إن جعلت بمعنى الذي وقرئ عملته أو قدر الضمير أيديهم كاف على الوجهين يشكرون تام وكذا لا يعلمون ومظلمون لمستقر لها كاف العليم تام لمن قرأ والقمر بالرفع على الابتداء والخبر أو بالنصب تقديره قدرنا القمر وليس بوقف لمن قراه بالرفع عطفا على ما قبله بتقدير وآية لهم القمر القديم حسن وكذا سابق النهار يسحبون تام المشحون صالح يركبون كاف إلى حين حسن لعلكم ترحمون كاف معرضين حسن مبين كاف وكذا صادقين يخصمون رأس آية وليس بوقف يرجعون كاف وكذا ينسلون من مرقدنا تام وقيل الوقف على هذه بجعله بدلا من مرقدنا زجعل ما وعد الحمن خبر مبتدأ محذوف المرسلون حسن محضرون كاف تعلمون تام فاكهون حسن وكذا متكئون ما يدعون تام وقيل كاف وقال أبو حاتم الوقف عند سلام بجعله بدلا من ما وكل من القولين حسن من رب رحيم وكذا المجرمون وأن عبدوني حسن وكذا مستقيم كثيرا صالح تعقلون حسن توعدون كاف وكذا تكفرون ويكسبون ويبصرون ولا يرجعون حسن في الخلق صالح يعقلون حسن وما ينبغي له تام وكذا الكافرين

مالكون كاف وذللنا ها لهم جائز يأكلون حسن ومشارب كاف يشكرون حسن ينصرون صالح محضرون كاف قولهم تام وكذا يعلنون مبين حسن رميم كاف توقدون تام وكذا أن يخلق مثلهم بلى العليم حسن كن فيكون تقدما في سورة البقرة كل شيء جائز آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿المقصد صـ 636.644﴾

*(138/644)*

---

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني:

سورة يس

مكية قيل إلا قوله وإذا قيل لهم اتقوا الآية فمدني كلمها سبعمائة وسبع وعشرون كلمة وحروفها ثلاثة آلاف وعشرون حرفاً وآيها اثنتان أو ثلاث وثمانون آية وليس فيها شيء مما يشبه الفواصل

يس (حسن) إن جعل يس افتتاح السورة أو إسماً لها ليس بوقف إن فسر يس بيا رجل أو يا إنسان لأنَّ قوله إنك لمن المرسلين قد دخل في الخطاب كأنه قال يا محمد والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين فيكون كالكلام الواحد فلا يوقف على الحكيم لأن قوله والقرآن الحكيم قسم وجوابه إنك فلا يفصل بين القسم وجوابه بالوقف

لمن المرسلين (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل حبراً ثانياً لأن وكذا إن جعل موضع الجار والمجرور نصباً مفعولاً ثانياً لمعنى الفعل في المرسلين لأن تقديره إنك لمن الذين أرسلوا على صراط مستقيم فيكون قوله على صراط مستقيم داخلاً في الصلة وكذا إن قدر إنك لمن المرسلين لتنذر قوماً فيدخل قوله لتنذر في الصلة أيضاً فعلى هذه الأوجه لا يوقف على المرسلين ولا على مستقيم

ومستقيم (تام) لمن قرأ تنزيل بالرفع خبر مبتدأ محذوف أي هو تنزيل لأن القرآن قد جرى ذكره وبالرفع قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والباقون بالنصب وكذا من قرأ تنزيل بالنصب على المصدرية بفعل مضمر أي نزله تنزيل العزيز أو نصب على المدح وهو في المعنى كالرفع وليس بوقف إن جرّ تنزيل نعتاً للقرآن أو بدلاً منه وبها قرأ أبو جعفر

الرحيم ليس بوقف لتعلق لام كي بما قبلها

قوماً (جائز) إن جعلت ما نافية أي لم تنذر قوماً ما أنذر آباؤهم لأن قريشاً لم يبعث إليهم نبي قبل محمد صلى الله عليه وسلم وليس بوقف إن جعلت اسم موصول والتقدير لتنذر قوماً لذي أنذر آباؤهم أي بالشيء الذي أنذر به آباؤهم

غافلون (كاف)

على أكثرهم (جائز)

فهم لا يؤمنون (كاف) أغلالاً (جائز) أي منعوا من التصرف في الخير لأنَّ ثم أغلالاً

إلى الأذقان (جائز)

(139/644)

---

مقمحون (كاف) أي يغضون بصرهم بعد رفعها

ومن خلفهم سداً ليس بوقف

فأغشيناهم (جائز)

لا يبصرون (تام) قرأ العامة أغشيناهم بالغين المعجمة أي غطينا أبصارهم وقرئ بالعين

المهملة وهو ضعف البصر يقال غشى بصره وأغشيته أنا

لا يؤمنون (كاف)

بالغيب (جائز)

كريم (تام)

ما قدموا ليس بوقف لأن قوله وآثارهم معطوف على ما فكأنه قال نكتب الشيء الذي

قدموه وآثارهم قيل نزلت في قوم كانت منازلهم بعيدة عن مسجد رسول الله صلى الله عليه

وسلم فكانت تلحقهم المشقة إذا أرادوا الصلاة مع النبي صلى الله عليه وسلم فأرادوا أن

يتقربوا من مسجده فأنزل الله إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم والوقف على آثارهم كاف لأن كل منصوب بمقدر أي أحصينا كل شيء أحصيناه

مبين (تام)

مثلاً ليس بوقف لأن أصحاب القرية حال محل مثل الذي هو بيان مثل الذي في الآية فلا يفصل بينهما أي ومثل لهم مثلا مثل فمثل الثاني بيان للأول والأول مفعول به

القرية (جائز) إن علق إذ بمقدر

المرسلون الأول ليس بوقف لأن إذ بدل من إذ الأولى وإن علق بعامل مضمر جاز الوقف عليه

إنا إليكم مرسلون (تام)

بشر مثلنا ليس بوقف ومثله من شيء لأن ما بعدهما من مقول الكفار

إلا تكذبون (كاف) ومثله لمرسلون

المبين (تام)

تطيرنا بكم (حسن) للابتداء بلام القسم

لنرجمكم ليس بوقف لأن ما بعده معطوف عليه

أليم (كاف)

طائركم معكم (حسن) لمن قرأ أئن ذكرتم على الاستفهام التوبيخي لأن له صدر الكلام سواء قرئ بهمزة محققة أو مسهلة فكان شعبة ونافع وأبو عمرو يقرؤن آن ذكرتم بهمزة واحدة ممدودة وقرأ عاصم ويحيى وحمزة والكسائي إن ذكرتم فعلى هذين القراءتين يحسن الوقف على طائركم معكم لأن الاستفهام داخل على شرط جوابه محذوف تقديره آن ذكرتم بهمزة ممدودة تطيركم وأن الناصبة أي أتطيرتم لأن ذكرتم وليس بوقف على قراءة زر بن حبيش أأن ذكرتم بهمزتين مفتوحتين والتقدير ألأن ذكرتم واختلف سيبويه ويونس إذا اجتمع شرط واستفهام أيهما يجاب فذهب سيبويه إلى إجابة الاستفهام ويونس إلى إجابة الشرط فالتقدير عند سيبويه آن ذكرتم تتطيرون وعند يونس تتطيروا مجزوم فالجواب على القولين محذوف وهذا الوقف حقيق بأن يخص بتأليف وهذا غاية في بيانه لمن تدبر ولله الحمد

مسرفون (تام)

يسعى ليس بوقف ومثله المرسلين لأن اتبعوا الثانية بدل من اتبعوا الأولى وهو كلام واحد صادر من واحد

مهتدون (كاف) ورسموا أقصا هنا وفي القصص بألف كما ترى

فطرني (جائز)

ترجعون (كاف)

آلهة ليس بوقف لأن جملة أن يردن الرحمن في محل نصب صفة لآلهة ورسموا إن يردن بغير ياء بعد النون وليست الياء من الكلمة وعلامة الجزم سكون الدال

ولا ينقذون (جائز) ولا كراهة في الابتداء بما بعده لأن القارئ يقرأ ما أنزل الله باعتقاد صحيح وضمير صالح وإنما الأعمال بالنيات ومن فسدت نيته واعتقد معنى ذلك فهو كافر إجماعاً ومن حكى ذلك عن قائله فلا جناح عليه كما تقدم

مبين (حسن) ومثله فاسمعون

قيل ادخل الجنة (أحسن) مما قبله ورسموا ادخل الجنة بلام واحدة من غير ياء كما ترى

يعلمون ليس بوقف لأنَّ الباء متعلقة بما قبلها وكذا ربي لأن قوله وجعلني معطوف على وغفر لي

المكرمين (كاف)

من السماء (جائز)

منزلين (كاف) على استئناف ما بعده

خامدون (تام) ومثله على العباد لأنه تمام الكلام

يستهزؤن (كاف)

من القرون ليس بوقف لأن إنهم منصوب بما قبله

لا يرجعون (كاف)

محضرون (تام)

يأكلون (كاف) على استئناف ما بعده وجائز إن عطف على ما قبله

وأعناب (جائز) إن جعل ليأكلوا متعلقاً بفجرنا وليس بوقف إن جعل ليأكلوا متعلقاً بجعلنا

من ثمره (حسن) إن جعلت ما نافية وليس بوقف إن جعلت اسم موصول بمعنى الذي في

محل جرّ عطفاً على ثمره كأنه قال ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم فعلى هذا يكون قد أثبت

لأيديهم عملاً

أيديهم (حسن) على الوجهين

يشكرون (تام) ومثله لا يعملون

الليل (جائز) على تقدير إنا نسلخ وليس بوقف إن جعل حالاً

مظلمون (كاف) إن رفعت والشمس بالابتداء وما بعده الخبر وليس بوقف إن جعلت

والشمس معطوفة على والليل

لمستقر لها (كاف) وقرئ لا مستقر بلا النافية وقرئ لا مستقر لها بلا العاملة عمل ليس

فمستقراً اسمها ولها في محل نصب خبرها كقوله

تعز فلا شيء على الأرض باقياً ولا وزر مما قضى الله واقياً

والمعنى إنها لا مستقر لها في الدنيا بل هي دائمة الجريان

العليم (تام) لمن قرأ والقمر بالرفع على الابتداء والخبر وبالرفع قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو

والباقون بنصبه بتقدير قدرنا القمر وليس بوقف لمن قرأه بالرفع عطفاً على ما قبله أي وآية

لهم القمر قدرناه

ومنازل ليس بوقف لأن حتى متعلقة بما قبلها وهي غاية كأنه قال قدرناه منازل إلى أن عاد

كالعرجون القديم

القديم (كاف) ومثله سابق النهار

يسبحون (تام)

المشحون (جائز)

ما يركبون (كاف) قيل السفن وقيل الإبل

ولا هم ينقذون ليس بوقف لأن بعده حرف الاستثناء

إلى حين (كاف) ومثله ترحمون على أن جواب إذا محذوف تقديره وإذا قيل لهم هذا أعرضوا ويدل عليه ما بعده وهو وما تأتيهم من آية وليس بوقف إن جعل قوله إلا كانوا عنها معرضين جواب وإذا قيل لهم اتقوا وجواب وما تأتيهم من آية إذ كل واحد منهما يطلب جواباً فإذا جعلت إلا كانوا عنها معرضين جواب إذا فقد جعلت إلا كانوا جواب شيئين وشيء واحد لا يكون جواباً لشيئين على المشهور

معرضين (كاف)

مما رزقكم الله ليس بوقف لأن قال الذين كفروا جواب إذا

أطعمه ليس بوقف لأن ما بعده من تمام الحكاية لأن البخلاء من الكفار قالوا أفقره الله ونطعمه نحن أحق بذلك فحينئذ لا وقف من قوله وإذا قيل لهم اتقوا إلى مبين إجماعاً لأن التصريح بالوصفين من الكفر والإيمان دليل على أن المقول لهم كفار والقائل لهم المؤمنون وإن كل وصف حامل صاحبه على ما صدر منه

مبين (تام) ومثله صادقين

يخصمون رأس آية وليس بوقف إن جعل متصلاً بما قبله وإن جعل مستأنفاً كان كافياً

يرجعون (تام)

ينسلون (كاف)

من مرقدنا (تام) عند الأكثر وقيل الوقف على هذا إن جعل في محل جر صفة لمرقدنا أو

بدلاً منه وعليهما يكون الوقف على هذا وقوله ما وعد الرحمن خبر مبتدأ محذوف أي بعثكم ما وعد الرحمن فما في محل رفع خبر بعثكم أو ما وعد الرحمن وصدق المرسلون حق عليكم فهذا من كلام الملائكة أو من كلام المؤمنين جواباً لقول الكفار من بعثنا من مرقدنا ويؤيد هذا ما في شرح الصدور للسيوطي عن مجاهد قال للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم قبل يوم القيامة فإذا صيح بأهل القبور يقول الكافر يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا فيقول المؤمن إلى جنبه هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون

المرسلون (كاف) ومثله محضرون

شيأً (جائز)

تعملون (تام)



---

فاكهون (جائز) إن جعل هم مبتدأ ومتكون خبراً لهم والتقدير هم وأزواجهم في ظلال متكون على الأرائك فقوله على الأرائك متعلق به لا أنه خبر مقدم ومتكون مبتدأ مؤخر إذ لا معنى له وإن جعل متكون خبر مبتدأ محذوف حسن الوقف على الأرائك وليس فاكهون بوقف إن جعل هم توكيداً للضمير في فاكهون وأزواجهم معطوفاً على الضمير في فاكهون

متكئون (حسن) ومثله فاكهة

ما يدّعون (تام) إن جعل ما بعده مستأنفاً خبر مبتدأ محذوف أي وذلك سلام وليس بوقف

إن جعل بدلاً من ما في قوله ما يدعون أي ولهم ما يدعون ولهم فيها سلام كذلك وإذا كان

بدلاً كان خصوصاً والظاهر أنه عموم في كل ما يدعونه وإذا كان عموماً لم يكن بدلاً منه وإن

نصب قولاً على المصدر بفعل مقدر جاز الوقف على سلام أي قالوا قولاً أو يسمعون قولاً

من رب وليس بوقف إن جعل قولاً منصوباً بما قبله بتقدير ولهم ما يدعون قولاً من رب عدة

من الله وحاصله إن في رفع سلام ستة أوجه أحدها أنه خبر ما في قوله ولهم ما يدعون أي

سلام خالص أو بدل من ما أو صفة لها أو خبر مبتدأ محذوف أي هو سلام أو مبتدأ خبره

الناصب لقولاً أي سلام يقال لهم قولاً أو مبتدأ خبره من رب وقولاً مصدر مؤكد لمضمون

الجملة معترض بين المبتدأ والخبر وقرىء سلاماً قولاً بنصبهما وبرفعهما

من رب رحيم (تام) للخروج من قصة إلى قصة

المجرمون (كاف)

الشيطان (جائز) للابتداء بإن

مبين ليس بوقف لأن قوله وأن اعبدون معطوف على أن لا تعبدوا وإن جعلت إن مفسرة

فيهما فسرت العهد بنهي وأمر أو مصدرية أي ألم أعهد إليكم في عدم عبادة الشيطان وفي

عبادتي

مستقيم (كاف)

كثيراً (جائز)

تعقلون (كاف) و توعدون و تكفرون و يكسبون و يبصرون كلها وقوف كافية

على مكانتهم (جائز)

ولا يرجعون (تام)

في الخلق (حسن)

يعقلون (تام) للابتداء بالنفي ووسم بعضهم له بالحسن غير حسن

وما ينبغي له (حسن) وقيل تام



---

مبين ليس بوقف لأن بعده لام كي ولا يوقف على حياً لأن قوله ويحق معطوف على لينذره

الكافرين (تام)

أنعاماً (حسن)

مالكون (كاف)

وذللناها لهم (جائز) ومثله ركوبهم و يأكلون و مشارب

يشكرون (تام)

من دون الله آلهة ليس بوقف لتعلق حرف الترجي بما قبله

ينصرون (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده متعلقاً بما قبله ومن حيث كونه رأس آية يجوز

نصرهم (حسن)

محضرون (كاف)

قولهم (تام) عند الفراء وأبي حاتم لانتهاء كلام الكفار لئلا يصير إنا نعلم مقول الكفار الذي يحزن النبي صلى الله عليه وسلم والقراءة المتواترة كسر همزة إنا نعلم وقول بعضهم من فتحها بطلت صلاته ويكفر فيه شيء إذ يجوز أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم مراداً به غيره كقوله فلا تكونن ظهيراً للكافرين ولا تدع مع الله إلهاً آخر ولا تكونن من المشركين ولابد من التفصيل في التكفير إن اعتقد أن محمداً صلى الله عليه وسلم يحزن لعلم الله بسر هؤلاء وعلانيتهم فهذا كفر لا كلام فيه وقد يكون فتحها على تقدير حذف لام التعليل أو يكون إنا نعلم بدلاً من قولهم أي ولا يحزنك إنا نعلم وهذا يقتضي أنه قد نهي عن حزنه عن علم الله بسرهم وعلانيتهم وليس هذا بكفر أيضاً تأمل

وما يعلنون (تام)

مبين (كاف)

ونسي خلقه (حسن)

رميم (كاف) ومثله أول مرة وكذا عليم على استئناف ما بعده خبر مبتدأ محذوف تقديره هو الذي أوفي موضع نصب بتقدير أعني وليس بوقف إن جعل الذي في موضع رفع بدلاً من قوله الذي أنشأها أول مرة أو بياناً له وعليه فلا يوقف على أول مرة ولا على عليم

ناراً ليس بوقف لمكان الفاء

(145/644)

---

توقدون (تام) للابتداء بالاستفهام بعده ومثله في التمام مثلهم عند أبي حاتم لانتهاء الاستفهام ووقف جميع على بلى ولكل منهما موجب ومقتض فموجبه عند أبي حاتم تناهي الاستفهام وموجب الثاني وهو أجود تقدم النفي وهو أو ليس نفي ودخل عليها الاستفهام صيرها إيجاباً وما بعدها لا تعلق له بها فصار الوقف عليها له مقتضيان وعدم الوقف عليها له مقتض واحد وماله مقتضيان أجود مما له مقتض واحد وهذا بخلاف ما في البقرة ما بعد بلى له تعلق بها لأن ما بعدها من تتمة الجواب فلا يوقف على بلى في الموضعين فيها كما مر التنبيه عليه بأشبع من هذا

الخلاق العليم (كاف)

كن (حسن) لمن قرأ فيكون بالرفع خبر مبتدأ محذوف أي فهو يكون وليس بوقف لمن قرأه بالنصب عطفاً على يقول

فيكون (كاف) على القراءتين

كل شيء (جائز)

ترجعون (تام) القراءة ترجعون بالفوقية مجهولاً وقرئ بفتحها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 644.636 ﴾

(146/644)

---

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة يس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "يَاسِينَ والقُرْآنِ

1" ، بفتح النون ابن أبي إسحاق - بخلاف - والثقفي .

وقرأ : "يَاسِينِ

" ، بكسر النون أبو السمال وابن ابي إسحاق ، بخلاف .

وهارون عن أبي بكر الهُذَليّ2 عن الكلبي : "يَاسِينُ" ، بالرفع . قال : فلقيت الكلبي فسألته ، فقال : هي بلغة طيء : يا إنسان .

قال أبو الفتح : أما الكسر والفتح جميعا فكلاهما لالتقاء الساكنين ؛ لأنه بنى الكلام على الإدراج ، لا على وقف حروف المعجم ؛ فحُرِّك فيه لذلك .

ومَن فتح هرب إلى خفة الفتحة لأجل ثقل الياء قبلها والكسرة .

ومن كسر جاء به على أصل حركة التقاء الساكنين . ونظيره قولهم : جَيْرِ3 ، وهَيْتِ4 لك ، وإيهِ وسيبويه [133و] وعَمْرَوَيْهِ ، وبابهما .

ومَن ضم احتمل أمرين : أحدهما أن يكون أيضا لالتقاء الساكنين5 ، كحَوْبُ6 في الزجر ، ونحن ، وهَيْتُ لك .

والآخر أن يكون على ما ذهب إليه الكلبيّ ، ورُوِّينا فيه عن قطرب :

فَيَا لَيْتَنِي من بعدِ فَاطا وأهلِهَا هلكتُ ولم أسْمَعْ بِها صوتَ إِسانِ7

---

1 سورة يس : 1 ، 2 .

2 هو أبو بكر الهذلي البصري ، اسمه سُلمى – بضم أوله وسكون اللام – أو روح . روى عن الشعبي ، وروى عنه وكيع ، وضعفه أبو زرعة . مات سنة 167 . الخلاصة : 383 .

3 جير: نعم، أو أجل.

4 هيت لك، مثلثة الآخر: هلم.

5 سقط في ك: "لالتقاء الساكنين".

6 الحوب، في الأصل: الجمل، ثم كثر حتى صار زجرا له، فقالوا: حوب، مثلثة الباء.

7 في اللسان "أنس" أن البيت لعامر بن جوين الطائي، وروايته "ما طاف" مكان "فاط"، وفيه أن "الإيسان" لغة طائية في الإنسان، وأن البيت لعامر بن جرير مكان جوين، وهو تحريف.



---

ورواه أيضا: من بعد ما طاف أهلها، وقال: معناه صوت إنسان.

ويحتمل ذلك عندي وجها آخر ثالثا، وهو أن يكون أراد يا إنسان، إلا أنه اكتفى من جميع الاسم بالسين، فقال: ياسين، "فيا" فيه الآن حرف نداء، كقولك: يا رجل. ونظير حذف بعض الاسم قول النبي صلى الله عليه وسلم: كفى "بالسيف شا"، أي: شاهدا، فحذف العين واللام. وكذلك حذف من إنسان الفاء والعين، غير أنه جعل ما بقي منه اسما قائما برأسه، وهو السين، فقيل: ياسين، كقولك: لو قست عليه في نداء زيد: يا

دال . ويؤكد ذلك[1] ما ذهب إليه ابن عباس في "حم عسق" ونحوه أنها حروف من جملة أسماء الله "عز وجل" ، وهي : رحيم ، وعليم ، وسميع ، وقدير . ونحو ذلك . وشبيه به قوله :

قُلْنا لها قِفِي لَنا قالَتْ قَافْ[2]

أي : وقفَتْ ، فاكتفت بالحرف منه الكلمة .

ومن ذلك قراءة ابن عباس وعكرمة وابن يعمَرَ ويزيد البربري وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن المهلب والنخعي وابن سيرين ، بخلاف : "فَأَعْشَيْنَاهُمْ"[3] .

قال أبو الفتح : هذا منقول من عَشِي يَعْشَى : إذا ضعف بصره فعَشِيَ وأعشَيْتُه ، كعَمِيَ وأعْمَيْتُه . وأما قراءة العامة : ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ فهو على حذف المضاف ، أي : فأغشيْنا أبصارَهُم : فجعلنا عليها غِشاوَة .

وينبغي أن يعلم أن غ ش ي يلتقي معناها مع غ ش و ؛ وذلك أن الغشاوة على العين كالغشي على القلب ، كل منهما يركب صاحبه ويتجلله ، غير أنهم خصوا ما على العين بالواو ، وما على

---

1 سقطت "ذلك" في ك .

2 للوليد بن عقبة بن أبي معيط أخي عثمان "رضي الله عنه" لأمه ، وكان يتولى الكوفة له ، فاتهم بشرب الخمر ، فكتب إليه الخليفة يأمره بالشخوص إليه ، فخرج في جماعة ، ونزل

الوليد يسوق بهم ، فقال :

قلْتُ لها : قِفِي ، فقالت : قاف لا تحسبينا قد نسينا الإيجاف

والنشوات من معتق صاف وعزف قينات علينا عزاف

والإيجاف : العدو وهو أيضا : الحمل عليه وانظر شواهد الشافية : 261 وما بعدها .

والخصائص : 1 : 30 ، والأغاني : 5 : 131 .

3 سورة يس : 9 .

(148/644)

---

القلب بالياء ؛ من حيث كانت الواو أقوى لفظا من الياء ، وما يبدو للناظر من الغشاوة على العين أبدى للحس مما يخامر القلب ؛ لأن ذلك غائب عن العين ، وإنما استدل عليه بشواهده لا بشاهده ومعاينه . ولهذا في هذه اللغة من النظائر ما لو أودع كتابا لكبر حجما ، وكثر وزنا . ومحصول الحال واسع وكثير ، لكن المحصل له نزر قليل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ومن ذلك قراءة ابن محيصن والزهري : "أُنْذَرْتَهُمْ"1 ، بهمزة واحدة على الخبر .

قال أبو الفتح : الذي ينبغي أن يعتقد في هذا أن يكون أراد همزة الاستفهام كقراءة العامة : ﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ ، إلا أنه حذف الهمزة تخفيفا وهو يريدها ، كما قال الكميت :

طَرِبْتُ وما شَوقًا إلى البيضِ أَطْرَبُ ولا لَعِبًا مِنِي وذُو الشَّيبِ يَلْعَبُ2

قالوا : معناه : أو ذو الشيب يلعب ؟ تناكُرًا لذلك ، وتعجُّبًا . وكبيتِ الكتاب :

[133ظ]

لعمْرُكَ ما أَدْرِي وإن كنْتُ دارِيًا شُعيْثُ ابنُ سَهْمٍ أمْ شُعيْثُ ابنُ مِنْقَرِ2

يريد : أشعيث ابن سهم أم شعيث ابن منقر ؟

ويدل على إرادة هذه القراءة الهمزة وأنها إنما حذفت لما ذكرنا بقاء "أم" بعدها ، ولو أراد الخبر لقال : أولم تنذرهم . فإن قيل : تكون "أم" هذه منقطعة ، كقولهم : إنها لإبل أمْ شاءٌ3 ، قيل : إذا قدرت ذلك بقي قوله تعالى : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِم ﴾ منقطعا لا ثاني له ، وأقل ما يكون خبر سواء اثنان . فقد علمت4 بهذا أن قول ابن مجاهد على الخبر لا وجه له ، اللهم إلا أن يُتحمَّل له ، فيقال : أراد بلفظ الخبر وفيه من الصنعة ما تراه .

ومن ذلك قراءة الماجشون : "أنْ ذُكِّرْتُمْ"5 ، بهمزة واحدة مفتوحة مقصورة ، ولا ياء بعدها وقرأ : "أَيْنَ" بهمزة بعدها ياء ساكنة ، والنون مفتوحة "ذُكِرْتُمْ" ، مضمومة الذال ، خفيفة الكاف الأعمش وأبو جعفر يزيد .

---

1 سورة يس : 10 .

2 انظر الصفحة 50 من الجزء الأول .

3 جمع شاة ، وهي الواحدة من الغنم ، للذكر والأنثى .

4 سقطت "علمت بهذا" في ك.

5 سورة يس: 19.

(149/644)

---

قال أبو الفتح: أما "أَنْ ذُكِّرْتُم" فمنصوبة الموضع بقوله سبحانه: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾، وذلك أنهم لما قالوا لهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾، أي: تشاءمنا، قالوا لهم جوابًا عن ذلك: بل ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾، أي: بل شؤمكم معكم1 "أَنْ ذُكِّرْتُم"، أي: هو معكم لِأَنْ ذُكِّرْتُمْ، فلم تذكروا، ولم تنتهوا. فاكتفى بالسبب الذي هو التذكير من المسبب الذي هو الانتهاء، على ما قدمناه من إقامتهم كل واحد من المسبب والسبب مقام صاحبه. ووضعوا الطائر أيضا موضع مسببه وهو التَّشَؤُمُ2، لما كانوا يألفونه من تكارههم نعيقَ الغراب أو بُرُوحَه3 ونحو ذلك. ومَن رأى أنّ "أنْ" قد حُذِفَ الجارُّ عن لفظها وإرادتِه فيها مجرورةً رأى ذٍلك هنا فيها، وهو الخليل.

وأما "أَيْنَ ذُكِرْتُمْ" فمعناه أين حَلَلْتُم، وكنتم، ووُجِدْتم؛ فذُكِرْتُم. فاكتفى بالمسبب الذي هو الذكر من السبب الذي هو الوجود، و"أَين" هنا شرط وجوابها محذوف لدلالة ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ عليه، فكأنه قال: أَين ذكِرْتم، أو أين وجدتم شؤمكم معكم. وهذا

كقولك : سَيفُك معك أين حَلَلْت ، وجُودك معك متى 4 سئلت كنت جوادا ، وكقولك :

أنت ظالم إن فعلت ، أي : إن فعلت ظلمت . ولا يجوز الوقوف في هاتين القراءتين على

"معكم" لاتصال "أنْ" و"أين" بها ، لكن على 5 قراءة من قرأ بالاستفهام : "أَئِنْ ذُكِّرْتُم" ؟

لأن الاستفهام يقطع ما قبله عما بعده ؛ لأن له صدر الكلام ؛ فكأنه قال : بل طائركم معكم

ردًّا عليهم ، ثم استأنف مستفهمًا ، وهو يريد الإنكار .

ومن ذلك قراءة أبي جعفر ومعاذ بن الحارث : "إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ"6 .

وقرأ ابن مسعود وعبد الرحمن بن الأسود : "إلا زَقْيَةً" .

قال أبو الفتح : في الرفع ضعف ؛ لتأنيث الفعل ، وهو قوله : "كانت" . ولا يقوى أن تقول : ما

قامت إلا هند ، وإنما المختار من ذلك : ما قام إلا هند ؛ وذلك أن الكلام

---

1 سقطت "معكم" في ك .

2 في ك : التشاؤم, وأصل التشاؤم : الأخذ إلى الشمال ، وبه يكون تشاؤمهم .

3 بروحه : مروره من الميامن إلى المياسر .

4 في ك : "أين" ويبدو أن في العبارة سقطا بعد "سئلت" ، وهو "أي متى سئلت كنت" .

5 أي : لكن يجوز على قراءة من قرأ .

6 سورة يس : 29 .

محمول على معناه، أي: ما قام أحد إلا هند. فلما كان هذا هو المراد المعتمد - ذكر

[134و] لفظ الفعل، إرادة له، وإيذانا به. ثم إنه لما كان محصول الكلام: قد كانت صيحة واحدة جيء بالتأنيث؛ إخلادًا إليه، وحملا لظاهر اللفظ عليه. ومثله قراءة الحسن: "فَأَصْبَحُوا لا تُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ" 1 بالتاء في "ترى". وعليه قول ذو الرمة.

بَرَى النَّحْزُ والْأَجْرال ما في غُرُوضِها فما بقيتْ إلا الصدُورُ الجراشع2

وأقوى الإعرابين: فما بقي إلا الصدور؛ لأن المراد ما بقي شيء منها إلا الصدور، على ما مضى.

وأما "زَقْيَةً" فيقال: زَقَا الطائر يَزْقُو ويَزقِي زُقُوًّا وزُقِيًّا وزُقاء: إذا صاح، وهي الزَّقْوة والزَّقْية.

وأما أبو حاتم فصرّف الفعل على الواو، فلم ير للياء فيه تصريفا، وقال: أصلها "زقوة"، إلا أن الواو أبدلت للتخفيف ياء، وشبهه بقولهم: أرض مَسْنِيَّةٌ3، وإنما هو مَسْنُوَّةٌ، وقوله:

أنا اللَّيْثُ مَعْدِيًّا عليَّ وعاديًا4

أي: مَعْدُوًّا عليه، وأثبت أبو العباس أحمد بن يحيى الياء في "زَقْية" أصلا، وأنشدوا قوله

:

وتَرَى المُكَّاءَ فِيهِ ساقِطا لَثِق الرِّيشِ إذَا زَفَّ زفى5

---

1 سورة الأحقاف : 25 .

2 روي "طوى" مكان "برى" و"الأجراز" مكان "الأجرال" ، وقد نبه على هذا في هامش نسخة الأصل . والنحز : الركل بالعقب . والأجرال : جمع جرل - بالتحريك - وهو المكان الصلب الغليظ . والأجراز : جمع جرز ، وهي الأرض التي لا تنبت . والغروض جمع غَرْض - كسهم - وهو للرحل كالحزام للسرج. والجراشع : جمع جرشع ، وهو الغليظ . وانظر الديوان : 341 .

3 مسنية : تسقيها السانية .

4 صدره :

وقد علمت عرسي مليكة أنني

والبيت من قصيدة عبد يغوث الحارثي الجاهلي التي قالها لما أسرته تيم الرباب . ويروى "عليه" مكان "على" . وانظر ذيل الأمالي : 133 ، وشواهد الشافية : 400 ، 401 .

5 المكاء : طائر . ولثق الريش : مبتله . وزفى الطائر زفا وزفيفا : رمى بنفسه ، أو بسط جناحيه .

وكأنه إنما استعمل هنا صياح الطائر : الديك ونحوه ؛ تنبيها على أن البعث - بما فيه من عظيم القدرة وإعادة ما استرم1 من إحكام الصنعة وإنشار الموتى من القبور - سهل على الله "سبحانه" ، كزَقْيَةٍ زقَاها طائرٌ . فهذا نحو من قوله : ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ 2 ، ونحو ذلك من الآي التي تدل على عظيم القدرة ، جل الله جلالا ، وعلا علوا كبيرا . وأنشد الفراء مستشهدا به على صحة الياء قوله :

تَلِدُ غُلامًا عارِمًا يُودِيكَ ولو زَقَيْتِ كَزُقَاءِ الدِّيكِ3

وقال : يُقال : زَقَوْتَ وَزَقَيْتَ .

ومن ذلك قراءة الأعرج ومسلم بن جندب وأبي الزناد : "يَا حَسْرَهْ"4 ، ساكنة الهاء ، "عَلَى الْعِبَادِ" .

وقرأ : "يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ" - مضافًا - ابن عباس والضحاك وعلى بن حسين ومجاهد وأبي ابن كعب .

قال أبو الفتح5 : أما "يَا حَسْرَهْ" ، بالهاء ساكنة ففيه النظر . وذلك أن قوله : ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ متعلق بها ، أو صفة لها . وكلاهما لا يحسن الوقوف عليها دونه ، ووجه ذلك

عندي ما أذكره. وذلك أن العرب إذا أخبرت6 عن الشيء – غير مُعْتَمِدَتِهٍ ولا مُعْتَزِمَةٍ عليه – أسرعت فيه، ولم تتأن على اللفظ. المعبر به عنه. وذلك كقوله:

قُلْنَا لَهَا قِفِي لنا قَالَتْ قَافْ7

معناه: وقفْتُ، فاقتصرَتْ من جملة الكلمة على حرف منها؛ تهاوُنًا بالحال، وتثاقُلًا على الإجابة، واعتماد المقال. ويكفي في ذلك قول الله سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ

---

1 استرم: حان أن يرم ويصلح.

2 سورة لقمان: 28.

3 ضبط "تلد" في الأصل بضم الدال، والوزن يقتضي تسكينها، أو اعتبار التاء خزما. وانظر الصفحة 134 من هذا الجزء. وعارما: شرسا مؤذيا.

4 سورة يس: 30.

5 سقط في ك: قال أبو الفتح.

6 في ك: خبرت.

7 انظر الصفحة 204 من الجزء.

فِي أَيمَانِكُمْ ﴾ 1 . قالوا في تفسيره : هو كقولك : لا والله ، وبلى والله . فأين سرعة اللفظ بذكر اسم الله تعالى هنا من التثبت فيه ، والإشباع له ، والمماطلة عليه من قول الهذلي :

فَوَاللهِ لا أَنسَى قَتِيلا رُزِئتُهُ بِجَانِبِ قُوسَى مَا مَشَيْتُ عَلَى الأَرْضِ2 ؟

أفلا ترى إلى تَطَعُّمِكَ3 هذه اللفظة في النطق هنا 4 بها ، وتَمَطِّيكَ لإشباع معنى القسم [134ظ] عليها ؟ وكذلك أيضا قد ترى إلى إطالة الصوت بقوله من بعده :

بَلَى إنَّهَا تَعْفُو الكُلُومُ وإنما نُوكَّلُ بالأَدْنَى وإنْ جَلَّ مَا يَمْضِي5

أفلا تراهُ – لما أكذب نفسه ، وتدارك ما كان أفرط في اللفظ – أطال الإقامة على قوله : بلى ؛ رجوعا إلى الحق عنده ، وانتكاثا عما كان عقد عليه يمينه ؟ فأين قوله هنا : "فوالله" ، وقوله : بلى ، منهما في قوله : لا والله ، وبلى والله ؟

وعليه قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيمَانَ ﴾ 6 ، أي : وكّدتموها ، وحققتموها وإذا أوليت هذا أدنى تأمل عرفت منه وبه ما نحن بسبيله وعلى سمته ، وعلى هذا قال سيبويه : إنهم يقولون : سِيرَ عليه لَيْلٌ ، يريدون : ليلٌ طويلٌ . وهذا إنما يفهم عنهم بتطويل الياء ، فيقولون : سِيرَ عليه ليلٌ7 ، فقامت المدة مقام الصفة .

ومن ذلك ما تستعمله العرب من إشباع مدات التأسيس والردف والوصل والخروج عناية بالقافية ، إذ كانت للشعر نظاما ، وللبيت اختتاما .

أخبرنا أبو أحمد الطبراني عن شيخ له ذكره عن البحتري ، قال : سمعت ابن الأعرابي يقول :

استجيدوا القوافي، فإنها حوافر الشعر. وقال لي الشجري في بعض كلامه: القافية

---

1 في سورتي البقرة: 225، والمائدة: 89.

2 لأبي خراش الهذلي في رثاء أخيه عروة، وقد قتل بقوسى: بلد بالسراة. وضبطت العبارة في القاموس والتاج بفتح القاف، وبالقلم في الأصل والديوان بضمها. وانظر ديوان الهذليين: 2: 158، والحماسة: 1: 332، والخزانة: 2: 458.

3 في ك: تطفك، وهو تحريف. وتطعم الشيء: ذاقه.

4 ساقطة في ك.

5 يروى "على" مكان "بلى" وتعفو: تمحى. يريد أن حرقة الأسى وإن جلت يعفو أثرها مع الأيام، وإنما يشتد الجزع من المصيبة القريبة العهد.

6 بقية الآية 89 السابقة من سورة المائدة.

7 عبارة الكتاب "1: 1"2: "وتقول: سير عليه ليل طويل، وسير عليه نهار طويل وإن لم تذكر الصفة وأردت هذا المعنى رفعت إلا أن الصفة تبين بها معنى الرفع وتوضحه".

رأس البيت ، وهذا ليس نقضا للأول ، وإنما غرضه فيه أنها أشرف ما فيه ، كما أن حوافر الفرس هي أوثق ما فيه ، وبها نهوضه ، وعليها اعتماده . ولقد تغنّى يوما خفير لنا بشعر مؤسس نحو قوله :

أَلا عَلِّلانِي قَبْلَ لَوْمِ العَوَاذِلِ

فلَعهدي به وهو يمطُل الألف حتى يَخْطُوَ به فرسُه الخطوة والعشرين ، ولولا ظاهر ما في القولِ لقلْتُ الأكثر . فإذا تجاوز الألف أسرع عند الدخيل ، فاختلس الذال والروي بعدها . وكان أيضا يمده بتقبُّل صدى صوته مع تماديه واغتراق أقصى النفَسِ فيه ما كان يعطيه إياه نقل الفرس به ؛ فإن ذلك كان يهزُّ الألف ، ويصنعها ، ويزيل تحيّرها والساذَجِيّة المملولة عنها .

وعلى ذكر طول الأصوات وقصرها لقوة المعاني المعبر بها عنها وضعفها ما يحكى أن رجلا ضرب ابنا له ، فقالت له أمه : لا تضربه ، ليس هو ابنك ؛ فرافعها إلى القاضي فقال : هذا ابني عندي ، وهذه أمه تذكر أنه ليس مني . فقالت المرأة : ليس الأمر على ما ذكره ، وإنما أخذ يضرب ابنه فقلت له : لا تضربه ليس هو ابنك ، ومدت فتحة النون جدا ، فقال الرجل : والله ما كان فيه هذا الطويل 1 الطويل ، والأمر يذكر للأمر على تقاربهما ، أو تفاوتهما إذا كان ذلك للغرض مُوَضِحًا ، وإليه بطالبه مُفْضِيًا . وقد قال :

وَعِنْدَ سَعِيدٍ غَيْرَ أَنْ لَمْ أُبِحْ بِهِ ذَكَرْتُكِ إِنَّ الأَمرَ يُذْكَرُ لِلْأَمْرِ 2

وإذا3 كان جميع ما أوردناه ونحوه مما استطلناه فحذفناه يدل أن الأصوات تابعة للمعاني - فمتى قويت قويت ، و متى ضعفت ضعفت . ويكفيك من ذلك قولهم : قَطَعَ وقَطَّعَ ، وكَسَرَ وكَسَّرَ . زادوا في الصوت لزيادة المعنى ، واقتصدوا فيه لاقتصادهم فيه - علمت أن قراءة من قرأ : "يَا حَسْرَهْ عَلَى الْعِبَادِ" ، بالهاء ساكنة إنما هو [135و] لتقوية المعنى في النفس ، وذلك أنه في موضع وعظ . وتنبيه ، وإيقاظ وتحذير ، فطال الوقوف على الهاء كما يفعله المستعظم للأمر ، المتعجب4 منه ، الدال على أنه قد بهره ، وملك عليه لفظه وخاطره . ثم قال من بعد : "على العباد" ، عاذرا نفسه في الوقوف على الموصول دون صلته لما كان فيه ، ودالًّا للسامع

---

1 كذا في الأصلين ، وقد يكون تحريف "الطول" .

2 الخصائص : 2 : 264 .

3 جواب "إذا" قوله : "علمت" الآتي بعد أسطر .

4 في الأصل : "المتعجب ومنه" ، ولا محل هنا الواو .

على أنه إنما تجشم ذلك – على حاجة الموصول إلى صلته وضعف الإعراب وتحجره على جملته – ليفيد السامع منه ذهابَ الصورة بالناطق .

ولا يَجْفُ ذلك عليك على ما به من ظاهر انتقاض صنعته ؛ فإن العرب قد تحمل على ألفاظها لمعانيها حتى تفسد الإعراب لصحة المعنى . ألا ترى إلى أن أقوى اللغتين – وهي الحجازية في الاستفهام عن الأعلام نحو قولهم فيمن قال : مررت بزيدٍ : من زَيْدٍ ؟ فالجر حكاية لجر المسئول عنه ، فهذا مما احتُمل فيه إضعاف الإعراب لتقوية المعنى . ألا ترى أنه لو ركب اللغة التميمية طلبا لإصابة الإعراب فقال : مَنْ زَيْدٌ ؟ لم يَضِحْ من ظاهر اللفظ أنه إنما يسأل عن زيد هذا المذكور آنفا ولم يؤمن أن يُظن به أنه إنما ارتجل سؤالا عن زيد آخر مستأنفا ؟

ومن الحمل على اللفظ للمعنى قوله :

يا بُؤْسَ لِلْجَهْلِ ضَرَّارًا لأَقْوَام1

فتجشَّم الفصل بين المضاف والمضاف إليه بلام الجر ؛ لما يعقبه من توكيد معنى الإضافة ، فهذا ونظائره يؤكد أن المعاني تتلعّب بالألفاظ ، تارة كذا ، وأخرى كذا . وفيه بيان لما مضى .

وقد يجوز غير هذا كله ، وهو أن يكون "حسرة" غير متعلقة بـ"على" ، فيحسن الوقوف عليها , ثم تُعَلَّق "على" بمضمر ، وتدل عليه "حسرة" حتى كأنه قال : أتحسَّر على العباد .

وهذا في القرآن ما لا أحصيه لكثرته .

وأما "يا حسرةَ العِبادِ" مضافا فإن لك فيه ضربين من التأويل :

إن شئت كان "العباد" فاعلين في المعنى ، كقولك : يا قيام زيد ويا جلوس عمرو أي : كأن العباد إذا شاهدوا العذاب تحسروا .

وإن شئت كان "العباد" مفعولين في المعنى ، وشاهده للقراءة الظاهرة : "يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ" ، أي : يتحسر عليهم مَنْ يعنيه أمْرُهُم ويهمُه ما يمسهم ، وهذا ظاهر .

---

1 انظر الصفحة 251 من الجزء الأول .



---

ومن ذلك قراءة ابن مسعود وابن عباس وعكرمة وعطاء بن أبي رباح1 وأبي جعفر محمد بن علي وأبي عبد الله جعفر بن محمد وعلي بن حسين : "وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِا مُسْتَقَرَّ لَهَا"2 ، بنصب الراء .

قال أبو الفتح : ظاهر هذا الموضع ظاهر العموم ، ومعناه معنى الخصوص ؛ وذلك أن "لا" هذه النافية الناصبة للنكرة لا تدخل إلا نفيا عاما ؛ وذلك أنها جواب سؤال عام ، فقولك : لا رجل عندك . جواب هل من رجل عندك ؟ فكما أن قولك : هل من رجل عندك ،

سؤال عام ، أي : هل عندك قليل أو كثير من الجنس الذي يقال لواحده رجل ؟ فكذلك ظاهر قوله : "لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا" نفي أن تستقر أبدا ، ونحن نعلم أن السموات إذا زُلْنَ بطل سير الشمس أصلا ، فاستقرت مما كانت عليه من السير . ونعوذ بالله أن نقول : إن حركتها دائمة كما يذهب مُحَبَّنُو3 الملحدة ، فهذا إذًا - في لفظ العموم بمعنى الخصوص - بمنزلة قوله :

أَبْكِي لفَقْدِكَ ما ناحَتْ مُطَوَّقَةٌ وما سما فَنَنٌ يومًا عَلَى ساقِ4

ونحن نعلم أن أقصى الأعمار الآن إنما هو مائة سنة ونحوُها ، أي : لو عشت أبدا بكيتك . فكذلك "لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا" ما دامت السموات على ما هي عليه . [135ظ] وقد تقدم ذكرنا باب المجاز في كتابنا الخصائص5 ، وأنه أضعاف الحقيقة قولا واحدا .

ومن ذلك قراءة قتادة : "وَنُفِخَ فِي الصُّوَر"6 .

قال أبو الفتح : قد سبق القول على ذلك فيما مضى بشواهده7 .

---

1 كذا بالأصل والبحر . وسقطت "أبي" في البحر . وكتب بهامش الأصل "يسار" . دون إشارة إلى إنها استدراك لكلمة "رباح" ، ولكل من عطاء بن أبي رباح وعطاء بن يسار ترجمة في طبقات القراء : 2 : 513 .

2 سورة يس : 38 .

3 محبنو الملحدة : المدخولو الطبيعة منهم . وأصل الحبن داء في البطن يعظم منه ويرم ، أو تخرج منه حبون ، أي : دماميل مقيحة ، الواحد حبن ، بكسر فسكون .

4 لأم عمرو، أخت ربيعة بن مكدم، ترثي أخاها ربيعة، وقد قتلته بنو سليم. ويروى "فسوف أبكيك" مكان "أبكي لفقدك"، "وما سريت مع الساري" مكان "وما سما فنن يوما" والبيت من ثمانية أبيات رواها القالي في ذيل الأمالي: 13.

5 تكلم عن المجاز في بابين من الخصائص: الأول باب في فرق بين الحقيقة والمجاز: 2: 442 - 447، والآخر باب في أن المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة: 2: 447 - 457.

6 سورة يس: 51.

7 انظر الصفحة 59 من الجزء الثاني.



---

ومن ذلك قراءة علي بن أبي طالب "عليه السلام": "مِنْ بَعْثِنَا" 1.

قال أبو الفتح: أي: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا، كقولك: يا ويلي مِن أَخْذِكَ مني مالي، ف "مِنْ" الأولى متعلقة بالويل، كقولك: يا تَأَلُّمِي منك.

وإن شئت كانت حالا من "وَيْلَنَا"؛ فتعلقت بمحذوف، حتى كأنه قال: يا ويلنا كائنا من بَعْثِنا. وجاز أن يكون حالا منه، كما يجوز أن يكون خبرا عنه، كقول الأعشى:

وَيْلي عَلَيْكَ وَوَيْلي مِنكَ يا رَجُلُ 2

وذلك أن الحال ضرب من الخبر .

وأما "من" في قوله تعالى : ﴿ مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ فإنها متعلقة بنفس البعث ، كقولك : سرني بعثك من بلدك إليّ .

ومن ذلك قراءة ابن أبي ليلى : "يَا وَيْلَتَا" 1 ، بزيادة تاء .

قال أبو الفتح : هو تأنيث الويل ، فويلة كقولة ، ومثله : ﴿ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ 3 ، وأصلها : يا ويلتي ، فأبدلت الياء ألفا ؛ لأنه نداء ، فهو في موضع تخفيف ، فتارة تحذف هذه الياء كقولك : يا غلامِ ، وأخرى بالبدل كقولك : يا غلامَا . قال :

يا أَبَتَا عَلّك أو عساكا 4

فإن قلت : فكيف قال : "يَا وَيْلَتَا" ، وهذا لفظ الواحد وهم جماعة ، ألا ترى أن

---

1 سورة يس : 52 .

2 صدره :

قالت هريرة لما جئت زائرها

وانظر الديوان : 57 .

3 سورة هود : 72 .

4 للعجاج يمدح الحارث بن سليم الهجيمي . وقبله :

تقول بنتي : قد أنى أناكا

وأنى : قرب ، والأنى : الوقت . وأنى أناك : حان وقت رحيلك إلى من تأمل حباءه . وخبر علك محذوف . وينكر ابن الأعرابي أن يكون ما قبل الشاهد : تقول بنتي . . في خلاف طويل ، تجده في الخزانة : 2 : 441 ، والشاهد في متفرقات الديوان مع أرجوزته : 85 ، وانظر الكتاب : 1 : 382 ، 2 : 299 .

(157/644)

---

بعده ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ؟ قيل : يكون على أن كل واحد منهم قال : "يَا وَيْلَتَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا" ، كما يقول الرجل : صبرا على ما حكم الله به علينا ، ورضيت بما قسم الله لنا ، ونحوٌ منه قول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ 1 ، أي : اجلدوا كل واحد منهم . ومثله ما حكاه أبو زيد من قولهم : أتينا الأمير فكسانا كلنا حلّة ، وأعطانا كلنا مائة ، أي : كسا كل واحد منا حلة ، وأعطى كل واحد منا مائة .

ومن ذلك قراءة أبي بن كعب : " منْ هَبَّنَا مِنْ مَرْقَدِنَا "2 ، يعني أصحاب القبور .

قال أبو الفتح : قد أثبت أبو حاتم عن ابن مسعود : "مَنْ أَهَبَّنَا" ، بالهمزة . وهي أقيس القراءتين . يقال : هَبَّ من نومه ، أي : انتبه وأَهْبَبْتُهُ أنا ، أي : أنبهته . قال :

أَلَا أَيُّها النُّوامُ وَيْحكُمُ هُبُّوا أُسَائِلُكُمْ: هَلْ يَقْتُلُ الرَّجُلَ الحُبُّ[3]

فأما "هَبَنَّي" أي: أيقظني فلم أر لها في اللغة أصلا، ولعلها لغة قليلة، ولا مَرَّ بنا مَهْبُوب، بمعنى مُوقَظ. وهي -مع حسن الظن بأُبَيّ- مقبولة. وقد أثبتها أبو حاتم أيضا، اللهم إلا أن يكون حرف الجر معها محذوفا، أي: وهب بنا، بمعنى أيقظنا، ثم حُذف حرف الجر، فوصل الفعل بنفسه. وليس المعنى على من هَبَّ فَهَبَبْنَا معه كقولك: انتبَهَ وأَنْبَهْنَا[4] معه، وإنما معناه من أيقظنا. ألا ترى إلى قول الله "سبحانه" ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِم ﴾[5] ليس معناه "تعالى" أنه ذهب وذهب بنورهم معه؟ هذا مدفوع عن الله تعالى، وإنما معناه: أَذْهَبَ نُورَهُمْ، فذَهَبَ بِهِ كأَذْهَبَهُ، أي أزاله وأنفده[6]، فاعرف ذلك.

ومن ذلك قراءة محمد بن كعب القُرَظِيّ: "وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ سِلْمٌ قَوْلًا"[7].

---

1 سورة النور: 4.

2 سورة يس: 52، وقراءة الجماعة: ﴿ مَنْ بَعَثَنَا ﴾.

3 لجميل من سبعة أبيات في سمط اللآلي: 946، ورواية الصدر فيه:

ألا أيها الركب النيام إلا هبوا

وانظر الأمالي: 2: 302.

4 كذا بالأصل، والسياق يقتضي "انتبهنا".

5 سورة البقرة: 17.

6 في ك: وأبعده.

7 سورة يس: 58.

(158/644)

---

وقرأ عيسى الثقفي: "سَلامًا قَوْلًا" نصبا جميعا.

قال أبو الفتح: أما الرفع فعلى أوجه:

أحدها أن يكون مقطوعا مستأنفا، كأنه لما قال: ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ قال: "سِلْمٌ" [136و] أي: ذاك "سِلْمٌ"، أي: ثابت لا نزاع فيه ولا ضيم ولا اعتراض، بل هو سِلْمٌ لهم.

ووجه ثان: أن يكون على: ما يدعون سِلْمٌ لهم، أي: مسلَّمٌ لهم، فـ"لهم" على هذا متعلق بنفس "سِلْمٌ"، وليس بمصدر، بل هو بمعنى اسم الفاعل أو المفعول، وإنما على مُسَالِم لهم، أو على مسلَّم لهم. ولم يجز بمعنى المصدر؛ لأنه كان يكون في صلته، ومحال تقدم الصلة أو شيء منها على الموصول.

ووجه ثالث، وهو أن يكون: "لهم" خبرا عن: "ما يدعّون" و"سِلْم" بدل منه.

2ووجه رابع، وهو أن يكون "لهم" خبرا عن "ما يدعّون" و"سِلْمٌ" خبر آخر، كقولنا: زيد

جالس متحدث ، كما جاز أن يكون بدلا من "لهم" فكذلك يجوز أن يكون خبرا معه آخر .

فإن قلت : فإذا كان لهم سلم لا حرب لهم فما فيه من الفائدة ؟ قيل : قد يكون الشيء لك لكن على خلاج1 وبعد شواجر الخلاف ، وذلك كالشيء المتناهَب ، فقد يحصل لأحد الفريقين ، لكن على أغراض من النزاع باقية فيه ، ولم يَصْفُ صفاء ما لا تعلق للمتبعِ به ، فمعلوم أن هذه الثوابت لأربابها لا تتساوى أحوالها في انحسار الشُّبَه والزخارف عنها .

ونَصب "قولا" على المصدر ، أي : قال الله ذلك قولا أو يقال ذلك قولا . ودل على الفعل المحذوف لفظ مصدره ، وأن القرآن إنما هو أقوال متابِعة . وأما "سلامًا" بالنصب فحال مما قبله ، أي : ذلك لهم مسلَّما ، أو مُسالِما ، أي : ذا سلام وسلامة . ونصب "قولا" على المصدر كما مضى .

---

1 خلاج : منازعة .

(159/644)

---

ومن ذلك قراءة الحسن وعبد الله بن عبيد بن عمير1 وابن أبي إسحاق والزهري والأعرج وحفص بن حميد : "جُبُلًّا"2 ، بضم الجيم والباء ، واللام مشددة .

وقرأ : "جِبْلًا" ، مكسورة الجيم ، ساكنة الباء الأشهب العقيلي .

قال أبو الفتح : قد تقدم ذكر هذا[3] الحرف بما فيه .

ومن ذلك قراءة طلحة – رواه عبد الرحمن بن محمد بن طلحة عن أبيه عن جده : "نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَلِتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَلِتَشْهَدَ أَرْجُلُهُمْ"[4] .

قال أبو الفتح : الكلام محمول على محذوف ، أي : نختم على أفواههم وَلِتُكَلِّمُنَا أيديهم ولتشهَدَ أرجلُهم بما كانوا يكسبون ما نختم على أفواههم ، كقولك : أحسنت إليك ولشكرك ما أحسنت إليك ، وأنلتك سؤالك ولمسألتك ما أنلتك سؤلك ، كما قال :

أَحْبَبْتُهَا وَلِحَيْنِي كانَ حُبِّيها هَلْ أنتَ يا سعْدُ يومًا مَا مُلاقِيها ؟

ومن ذهب إلى زيادة الواو نحو قول الله "سبحانه" : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ جاز أن يذهب إلى مثل ذلك في هذا الموضع ، فكأنه اليوم نختم على أفواههم لِتُكَلِّمُنَا أيديهم . فأما الواو في قوله "تعالى" : "وَلِتَشْهَدَ" فعطف على ما قبلها ، وهو "لِتُكَلِّمَنَا" ، وعلى أن زيادة الواو لا يعرفها البصريون ، وإنما هو للكوفيين خاصة .

ومن ذلك قراءة الحسن والأعمش : "رُكُوبُهُم

"[5] ، برفع الراء وقرأ : [136ظ] "رَكُوبَتُهُمْ" عائشة وأبي بن كعب .

قال أبو الفتح : أما الرُّكوب ، بضم الراء فمصدر ، والكلام محمول على حذف المضاف مقدما أو مؤخرا .

---

1 هو عبد الله بن عبيد بن عمير بن قتادة بن سعد بن عامر بن جندع ، أبو هاشم الليثي

المكي ، تابعي جليل وردت الرواية عنه في حروف القرآن ، ومات سنة 113 . طبقات القراء لابن الجزري : 1 : 430 .

2 سورة يس : 62 .

3 انظر الصفحة : 132 من هذا الجزء . وفيها "الجبلة" دون تعليق ، وليس في القرآن إلا هي و"الجبل" .

4 سورة يس : 65 .

5 سورة يس : 72 .



---

فإن شئت كان التقدير فيها ذو رُكوبهم ، وذو الرُّكوب هنا هو المركوب ، فيرجع المعنى بعد إلى معنى قراءة من قرأ : "رَكُوبهم" بفتح الراء ، و"رَكُوبَتُهُمْ" .

وإن شئت كان التقدير فمن منافعها أو من أغراضها رُكوبهم ، كما تقول لصاحبك : من منافعك إعطاؤك لي ، ومن بركاتك وصول الخير إليّ على يدك . ومثله في تقدير حذف المضاف من جهتين أيَّ الجهتين شئت قول الله "سبحانه" : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ﴾ 1 ، إن شئت كان على تقدير : ولكنّ البِرَّ برُّ من اتقى ، وإن شئت كان تقديره : ولكنّ ذا

البرِّ من اتقى .

والتقدير الأول في هذا أجود عندنا ؛ وذلك أن تقديره حذف المضاف من الخبر ، أعني : برُّ من اتقى ، والخبر أولى بذلك من المبتدأ ؛ وذلك أن حذف المضاف ضرب من التوسع .

والتوسعُ آخرُ الكلام أولى به من أوله ، كما أن الحذف والبدل كلما تأخر2 كان أمثل ؛ من حيث كانت الصدور أولى بالحقائق من الأعجاز وهذا واضح ، ولذلك اعتمده عندنا صاحب الكتاب فحمله على أن التقدير : ولكنّ البِرَّ بِرُّ من اتقى3 .

وأجاز أبو العباس أن يكون الحذف من الأول على ما مضى ، وهو لعمري جائز ، إلا أن الوجه ما قدمنا ذكره ، لكن الحذفين في قوله : "فَمِنْهَا رَكُوبُهُم" - على ما قدمنا - متساويان ، وذلك إن قدرته على أنه : فمن منافعها رُكُوبُهُمْ فإنما حذفت من الخبر ؛ لأن تقديره : فَرُكُوبُهُمْ منها ، فهو - وإن كان مقدما في اللفظ - مؤخر في المعنى . وإن قدرته على معنى : فمنها ذو رُكُوبُهُمْ ، فَحَسَنٌ أيضا ، وإن كان مقدما في المعنى فإنه مؤخر في اللفظ ، فاعرف ذلك .

وأما "رَكُوبَتُهُمْ" فهي المركوبة : كالقَتُوبَة4 ، والجَزُورَة ، والحَلُوبَة ، أي : ما يُقْتَبُ ، ويُجَزُّ ، ويُحْلَبُ . وقد أشبعنا هذا الموضع في كتابنا المعروف بالخطيب ، وهو شرح كتاب المذكر والمؤنث ليعقوب بن السكيت .

ومن ذلك قراءة طلحة وإبراهيم التيمي الأعمش : "مَلَكَةُ كُلِّ شَيْءٍ"5 .

---

1 سورة البقرة : 177 .

2 كذا بالأصلين ، والأظهر : تأخرا .

3 الكتاب : 1 : 108 .

4 القتوبة : الإبل تشد عليها الأقتاب ، والأقتاب : جمع قتب ، وهو الأكاف ، أو الصغير على قدر سنام البعير .

5 سورة يس : 83 .

(161/644)

---

قال أبو الفتح : معناه – والله أعلم – سبحان الذي بيده عصمة كل شيء وقدرة كل شيء ، وهو من مَلَكْتُ العجينَ : إذا أَجَدْت عجنه ، فقويتَهُ بذلك . ومنه المِلْكُ ؛ لأنه القدرة على المملوك ، ومنه المُلْكُ ؛ لأن به قِوَام الأمور .

والمَلَكُوت فَعَلُوت منه ، زادوا الواو والتاء للمبالغة بزيادة اللفظ ، وهذا 1 لا يطلق الملكوت إلا على الأمر الأعظم . ألا تراك تقول : مِلْك البزاز والعطار والحناط ، ولا تقول الملكوت في شيء من ذلك ؟ ونظيره الجَبَرُوت ، والرَّغَبُوت 2 ، الرَّهَبُوت 3 ، ومنه عندنا الطاغُوت ، هو فَعَلُوت من الطغيان ، إلا أنه قُلِب وأصله طَغَيُوت ، فَقُدِّمت اللام على العين ، فصارت

طَيَغُوت ، ثم قلبتِ الياء لوقوعها متحركة بين متحركين فصار [137و] طاغُوت ، وقد تقصينا ذلك في كتابنا الموسوم بالمنصف 4 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 217.202﴾

---

1 كذا بالأصلين ، ولعلها : هذا ولا .

2 الرغبوت : الرغبة .

3 الرهبوت : الرهبة .

4 المنصف : 3 : 21 ، 22 .

*(162/644)*

---

وقال العلامة الدمياطى :

سورة يس

وهي قلب القرآن مكية قيل إلا قوله تعالى وإذا قيل لهم أنفقوا الآية وآيها ثمانون وثنتان غير كوفي وثلاث فيه خلافها آية يس كوفي مشبه الفاصلة موضع رجل يسعى وعكسه اثنان من العيون فيكون القرآت أمال الياء من يس أبو بكر وحمزة والكسائي وخلف وروح وهذا هو المشهور عن حمزة وعليه الجمهور وروى عنه التقليل صاحب العنوان في جماعة والوجهان

في الطيبة وغيرها واختلف عن نافع فالجمهور عنه على الفتح وقطع له بالتقليل الهذلي وابن بليمة وغيرهما فيدخل فيه الأصبهاني وسكت أبو جعفر على ي وس وأدغم النون في واو والقرآن هشام والكسائي ويعقوب وخلف عن نفسه وأظهرها أبو عمرو وقنبل وحمزة وأبو جعفر واختلف عن نافع والبزي وابن ذكوان وعاصم ومر تفصيله في الإدغام الصغير وعن الحسن بكسر النون على أصل التقاء الساكنين وقرأ والقرآن بالنقل ابن كثير وقرأ صراط بالسين قنبل من طريق ابن مجاهد ورويس وأشم الصاد زايا خلف عن حمزة

واختلف في ( تنزيل ) الآية 5 فابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وخلف بنصب اللام على المصدر بفعل من لفظه وافقهم الأعمش وعن الحسن بالجر بدل من القرآن والباقون بالرفع خبر لمقدر أي هو أو ذلك أو القرآن تنزيل

وقرأ ( سدا ) الآية 9 معا بفتح السين حفص وحمزة والكسائي وخلف ومر بالكهف كهمزتي ( أأنذرتهم ) أول البقرة مع الوقف عليها لحمزة وعن الحسن ( فأغشيناهم ) بعين مهملة وأدغم ذال إذ جاءها أبو عمرو وهشام وأمال جاء هشام بخلفه وابن ذكوان وحمزة وخلف وضم الهاء والميم وصلا من إليهم اثنين حمزة والكسائي ويعقوب وخلف وكسرهما أبو عمرو وكسر الهاء وضم الميم الباقون أما وقفا فحمزة ويعقوب بضم الهاء والباقون بالكسر

واختلف في ( فعززنا ) الآية 14 فأبو بكر بتخفيف الزاي من عز غلب فهو

متعد ومفعوله محذوف أي فغلبنا أهل القرية بثالث ومنه وعزني في الخطاب والباقون بتشديدها من عز يعز قوي فهو لازم عدى بالتضعيف ومفعوله أيضا محذوف أي فقوينا الرسولين هما يحيى وعيسى فيما قاله البيضاوي وصادق وصدوق وفيما قاله وهب وكعب بثالث وهو شمعون وعن الحسن طيركم بسكون الياء بلا ألف

واختلف في ﴿ أإن ذكرتم ﴾ الآية 19 فأبو جعفر بفتح الهمزة الثانية وتسهيلها وإدخال ألف بينهما على حذف لام العلة أي لأن ذكرتم علته تطيرتم فتطيرتم هو المعلول وإن ذكرتم وافقه المطوعي لكنه حقق الهمزة ولم يدخل ألفا والباقون بهمزتين الأولى للاستفهام والثانية مكسورة همزة إن الشرطية فقالون وأبو عمرو بالتسهيل مع الفصل وورش وابن كثير ورويس بالتسهيل بلا فصل والباقون بالتحقيق بلا فصل ولهشام وجه آخر وهو التحقيق مع الفصل كما مر تفصيله

واختلف في ( ذكرتم ) الآية 19 فأبو جعفر بتخفيف الكاف أي طائركم معكم حيث

جرى ذكرتم وهو أبلغ وافقه المطوعي وابن محيصن من المبهج والباقون بتشديدها وسكن

ياء ( ) وما لي لا أعبد ( هشام بخلفه وحمزة ويعقوب وخلف والباقون بالفتح وعليه الجمهور

لهشام وهنا نكتة لطيفة نقلها في الأصل هي أن أبا عمرو بن العلا سئل عن حكمة تسكينه

مالي لا أرى بالنمل وفتحه مالي لا أعبد فأجاب بما معناه أن التسكين ضرب من الوقف فلو

سكن هنا لكان كالمستأنف بلا أعبد وفيه ما فيه ولا كذلك موضع النمل وأما الهمزتان من

أأتخذ فكأأنذرتهم وأثبت الياء في ( إن يردن ) في الحالين أبو جعفر وفتحها وصلا قال في

البحر هي ياء الإضافة المحذوفة خطا ونطقا لالتقاء الساكنين وأثبتها وقفا يعقوب والباقون

بالحذف في الحالين وتقدم أن أبا جعفر بفتح ياء تتبعن أفعصيت بطه وصلا ويقف بالياء

ساكنة فهي عنده كيردن هنا وأثبت الياء في ينقذون وصلا ورش وفي الحالين يعقوب وفتح

الياء من ( ) إني إذا ( نافع وابو عمرو وابو جعفر ومن ( ) إني آمنت ( ) نافع وابن كثير وأبو

عمرو وأبو جعفر وأثبت الياء في فاسمعون في الحالين يعقوب وأشم كسرة قيل الضم هشام

والكسائي ورويس

واختلف في ( ) إن كانت إلا صيحة واحدة ( الآية 29 في الموضعين فأبو جعفر برفعهما

فيهما على أن كان تامة أي ما حدثت أو وقعت إلا صيحة وكان الأصل عدم لحوق التاء

في كانت نحو ما قام إلا هند فلا يجوز ما قامت إلا في الشعر لكن جوزه بعضهم نثرا على قلة

والباقون بالنصب في الموضعين على أنها ناقصة واسمها مضمر أي إن كانت الأخذة إلا صيحة واحدة صاح بها جبريل عليه السلام وخرج بالقيد ما ينظرون إلا صيحة واحدة المتفق على نصبه لأنها مفعول ينظرون وعن الحسن يا حسرة العباد
بغير تنوين وحذف على على الإضافة وعنه من القرون أنهم بالكسر على الاستئناف ومر حكم ( ) يستهزؤون ( ) للأزرق وغيره في البقرة وغيرها

(165/644)

---

وقرأ ( لما ) الآية 32 بتشديد الميم ابن عامر وعاصم وحمزة وابن جماز على أنها بمعنى إلا وأن نافية وكل رفع بالابتداء خبره تاليه وجميع فعيل بمعنى مفعول ولدينا ظرف له أو لمحضرون وافقهم الحسن والأعمش والباقون بتخفيفها على أن أن مخففة من الثقيلة وما مزيدة للتأكيد واللام هي الفارقة أي إن كل لجميع ووقع في الأصل التعبير بأبي جعفر بدل ابن جماز ولعله سبق قلم فإن ابن وردان يخفف كالجماعة وقرأ ( الميتة ) الآية 33 بالتشديد نافع وأبو جعفر وقرأ ( العيون ) بكسر العين ابن كثير وابن ذكوان أبو بكر وحمزة والكسائي ومرا بالبقرة وقرأ ( من ثمره ) بضم المثلثة والميم حمزة والكسائي وخلف ومر موجها بالأنعام واختلف في ( ) وما عملته أيديهم ( ) الآية 35 فأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف

عملت ﴾ بغير هاء موافقة لمصاحفهم وافقهم المطوعي والباقون بالهاء موافقة لمصاحفهم إلا حفصا فخالف مصحفه وما موصولة أو موصوفة أو نافية فإن كانت موصولة فالعائد محذوف في القراءة الأولى وكذا إن كانت موصوفة أي ومن الذي عملته أو شيء عملته فالهاء لما وإن كانت نافية فعلى الأولى لا ضمير وعلى الثانية الضمير يعود على ثمره

واختلف في ( والقمر ) الآية 39 فنافع وابن كثير وأبو عمرو وروح بالرفع على الابتداء وافقهم الحسن واليزيدي والباقون بالنصب بإضمار فعل على الاشتغال وقرأ ( ذريتهم ) الآية 41 بالجمع مع كسر التاء نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب والباقون بالتوحيد مع فتح التاء ومر بالأعراف ومر إبدال همز وإن نشأ ألفا للأصبهاني وأبي جعفر وعن الحسن ( نغرقهم ) الآية 43 بفتح الغين وتشديد الراء ومر آنفا إشمام قيل وأمال متى حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق والدوري عن أبي عمرو كما هو صريح الطيبة لكن نقل في النشر التقليل عن أبي عمرو من الروايتين عن ابن شريح وغيره وأقره



---

واختلف في ( يخصمون ) الآية 49 فقالون بخلف عنه وابو جعفر بفتح الياء وإسكان الخاء وتشديد الصاد فيجمع بين ساكنين وتقدم مثله في باب الإدغام وعليه العراقيون قاطبة عن

قالون وقرأ قالون في وجهه الثاني وأبو عمرو في أحد وجهيه باختلاس فتحة الخاء تنبيها

على أن أصله السكون مع تشديد الصاد وهو الذي أجمع عليه المغاربة لأبي عمرو ولم يذكر

الداني عنه غيره وقرأ ورش وابن كثير وقالون في وجهه

الثالث وأبو عمرو في وجهه الثاني وهشام من طريق الحلواني بفتح الياء وإخلاص فتحة

الخاء مع تشديد الصاد وأصلها عندهم يختصمون أدغمت التاء في الصاد ونقلت فتحتها

إلى الخاء الساكنة وافقهم ابن محيصن والحسن وهذا الوجه لقالون في تلخيص ابن بليمة

وغيره ولأبي عمرو عند العراقيين وقرأ ابن ذكوان وهشام من طريق الداجوني وأبو بكر

بخلف عنه من طريقيه وحفص والكسائي ويعقوب وخلف عن نفسه بفتح الياء وكسر

الخاء وتشديد الصاد وافقهم الأعمش حذفوا حركتها فالتقى ساكنان فكسر أولهما وقرأ

أبو بكر في وجهه الثاني من طريقيه بكسر الياء والخاء معا وقرأ حمزة بفتح الياء وسكون

الخاء وتخفيف الصاد من خصم أي يخصم بعضهم بعضا فالمفعول محذوف فتلخص لقالون

ثلاثة إسكان الخاء مع تشديد الصاد كأبي جعفر واختلاس فتحة الخاء كأبي عمرو وإتمام

حركتها كورش ولأبي عمرو وجهان الاختلاس كقالون والإتمام كورش وابن كثير ولهشام

وجهان فتح الخاء كابن كثير وكسرها كابن ذكوان ولأبي بكر أيضا وجهان فتح الياء مع

كسر الخاء كحفص وكسر الياء والخاء معا فتحصل ست قراآت وعن ابن محيصن أهلهم

يرجعون بالبناء للمفعول وقرأ ( ) من مرقدنا ( بالسكت على ألفه حفص بخلف عنه من

طريقيه ويبتدىء هذا لئلا يوهم أنه صفة لمرقدنا وضم الغين من شغل ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف وسكنها الباقون كما مر في البقرة



---

واختلف في ( فاكهون ) الآية 55 و ﴿ فاكهين ﴾ الآية 55 هنا والدخان الآية 27 والطور الآية 18 والمطففين الآية 31 فأبو جعفر بلا ألف بعد الفاء فيها كلها صفة مشبهة من فكه بمعنى فرح أو عجب أو تلذذ أو تفكه وافقه الحسن هنا والدخان وقرأ حفص كذلك في المطففين واختلف فيه عن ابن عامر والباقون بالألف في الجميع اسم فاعل بمعنى أصحاب فاكهة كلابن وتامر ولاحم

واختلف في ﴿ ظلل ﴾ الآية 56 فحمزة والكسائي وخلف بضم الظاء وحذف الألف جمع ظلة نحو غرفة وغرف وحلة وحلل وافقهم الأعمش والباقون بكسر الظاء والألف جمع ظل كذئب وذئاب أو جمع ظلة كقلة وقلال

وقرأ ( متكئون ) الآية 56 بحذف الهمزة مع ضم الكاف أبو جعفر ومر في الهمز المفرد ويوقف عليه لحمزة بالتسهيل كالواو وبالحذف كقراءة أبي جعفر وبالإبدال ياء مضمومة على مذهب الأخفش وأما كالياء وإبدالها واوا مضمومة فكلاهما لا يصح وكذا الوجه

الخامل وهو كسر الكاف مع الحذف وكسر نون وأن أعبدوني وصلا أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب

وقرأ صراط ) الآية 70 بالسين قنبل بخلفه ورويس واسم الصاد زايا خلف عن حمزة

واختلف في ( جبلا ) الآية 62 فنافع وعاصم وأبو جعفر بكسر الجيم والباء وتشديد اللام وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ورويس وخلف جبلا بضمتين وتخفيف اللام وافقهم ابن محيصن والحسن والأعمش وقرأ روح بضمهما وتشديد والباقون أبو عمرو وابن عامر بضم الجيم وسكون الباء وتخفيف اللام وكلها لغات ومعناها الخلق وضم الهاء من أيديهم يعقوب وأمال فأنى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق والدوري عن أبي عمرو بخلفهما وقرأ ( مكانتهم ) بالألف على الجمع أبو بكر ومر بالأنعام

(168/644)

---

واختلف في ( ننكسه ) الآية 68 فعاصم وحمزة بضم الأول وفتح الثاني وتشديد الثالث وكسره مضارع نكس للتكثير تنبيها على تعدد الرد من الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة إلى الهرم وافقهما الأعمش والباقون بفتح الأول وإسكان الثاني وضم الثالث وتخفيفه مضارع نكسه كنصره أي ومن نطل عمره نرده من قوة الشباب ونضارته إلى ضعف الهرم

ونحولته وهو أرذل العمر الذي تختل فيه قواه حتى يعدم الإدراك وقرأ ﴿ أفلا تعقلون ﴾ بالخطاب نافع وابو جعفر ويعقوب واختلف عن ابن عامر فروى الداجوني عن أصحابه عن هشام من غير طريق الشذائي وروى الأخفش والصوري من غير طريق زيد كلاهما عن ابن ذكوان كذلك بالخطاب وروى الحلواني عن هشام والشذائي عن الداجوني وزيد عن الرملي عن الصوري بالغيب وبه قرأ الباقون

واختلف في ﴿ لتنذر ﴾ الآية 70 هنا والأحقاف الآية 12 فنافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بالخطاب للرسول في الموضعين وللبزي خلاف في حرف الأحقاف يأتي تفصيله إن شاء الله تعالى والباقون بالغيب والضمير للقرآن أو النبي وعن الحسن والمطوعي ( ركوبهم ) بضم الراء مصدر على حذف مضاف أي ذو ركوبهم

وأمال ( ومشارب ) ابن عامر بخلف عنه من روايتيه وهي رواية جمهور المغاربة عن هشام وكذا الصوري عن ابن ذكوان وفتحه عن الأخفش وكذا الداجوني عن هشام كالباقين وقرأ فلا يحزنك بضم الياء وكسر الزاي نافع من أحزن

واختلف في ( بقادر ) الآية 81 هنا والأحقاف الآية 33 فرويس ﴿ يقدر ﴾ بياء تحتية مفتوحة وإسكان القاف بلا ألف وضم الراء فيهما فعلا مضارعا من قدر كضرب ووافقه روح في الأحقاف والباقون بموحدة مكسورة وفتح القاف وألف بعدها وخفض

الراء منونة اسم فاعل وبه قرأ روح هنا وخرج بقادر بسورة القيامة المتفق فيه على الألف لرسمه بها في بعض المصاحف بخلاف يس والأحقاف فإنها محذوفة فيهما في الكل وأمال بلى حمزة والكسائي وخلف وشعبة من طريق أبي حمدون عن يحيى بن آدم وقلله الأزرق بخلفه وكذا أبو عمرو من روايتيه كما في النشر وإن قصر الخلاف على الدوري من طيبته وعن الحسن الخالق بألف بعد الخاء كعالم اسم فاعل والجمهور بوزن علام بصيغة المبالغة وقرأ فيكون بالنصب ابن عامر والكسائي على جواب لفظ كن لأنه جاء بلفظ الأمر فشبه بالأمر الحقيقي وقرأ رويس بيده باختلاس كسرة الهاء والباقون بإشباعها وعن المطوعي ملكة بفتح الكاف وحذف الواو على وزن شجرة أي ضبط كل شيء والقدرة عليه والجمهور ملكوت وقرأ ( ترجعون ) بالبناء للفاعل يعقوب ومر بالبقرة

المرسوم في الكوفي عملته بغير هاء وفي البقية بالهاء فاكهون وفاكهين في الثلاث المتقدمة بألف في بعضها ويحذفها في باقيها كما مر وكتبوا أن اعبدوني بالياء وفي العراقية أين ذكرتم بالياء واتفقوا على كتابة أقصا بالألف وعلى قطع أن لا تعبدوا الشيطان ياءآت الإضافة ثلاث ( ) وما لي لا أعبد ( الآية 22 ( ) إني إذا ( الآية 24 ( ) إني آمنت ( ) الآية 25 الزوائد ثلاث ( ) يردن الرحمن ( ) الآية 24 ( ) ولا ينقذون ( ) الآية 23 ( فاسمعون ) الآية 25 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ 465 . 470 ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة يس "

" يس والقرآن " سكت أبو جعفر على يا وسين سكتة لطيفة من غير تنفس ، ولا يخفى أنه يلزم من السكت على نون يس إظهارها . وقرأ ورش والشامي وشعبة والكسائي ويعقوب وخلف في اختياره بإدغام النون في الواو مع الغنة والباقون بإظهارها ، ولا يخفى نقل والقرآن لابن كثير في الحالين ولحمزة في الوقف .

" صراط " لتنذر . ما أنذر . فهي . أيديهم . ومن خلفهم . يبصرون . عليهم . بمغفرة . ءأنذرتهم . ءأتخذ . إليهم اثنين . قيل . كله جلي .

" تنزيل " قرأ ابن عامر وحفص والأخوان وخلف بنصب اللام وغيرهم برفعها .

" سدا ، معا " فتح السين فيهما حفص والأخوان وخلف ، وضمها غيرهم .

" فعززنا " قرأ شعبة بتخفيف الزاي الأولى والباقون بتشديدها .

" أئن " قرأ أبو جعفر بفتح الهمزة الثانية وتسهيلها ، وإدخال ألف بينها وبين الأولى على أصله ، والباقون بكسرها نوكل على أصله في التسهيل وغيره . فقالون وأبو عمرو بالتسهيل

مع الإدخال ، وورش والمكي ورويس بالتسهيل من غير إدخال وهشام بالتحقيق مع الإدخال وتركه والباقون بالتحقيق من غير إدخال .

" ذكرتم " قرأ أبو جعفر بتخفيف الكاف والباقون بتشديدها .

" ومالي لا أعبد " أسكن الياء في الحالين حمزة وخلف ويعقوب وفتحها غيرهم وصلا وأسكنها وقفا .

" ترجعون " لا يخفى ليعقوب .

" إن يردن " قرأ أبو جعفر بإثبات الياء مفتوحة وصلا وساكنة وقفا ، وأثبتها في الوقف فقط يعقوب ، وحذفها الباقون في الحالين .

" ينقذون " أثبت الياء وصلا وحذفها وقفا ورش ، وأثبتها في الحالين يعقوب ، وحذفها الباقون مطلقا .

" إني إذا " فتح الياء المدنيان والبصري وأسكنها غيرهم .

" إني آمنت " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" فاسمعون " أثبت الياء في الحالين يعقوب ، وحذفها غيره كذلك .

" المكرمين " آخر الربع .

الممال

جاءهم معا ، وجاء معا ، وجاءها لابن ذكوان وحمزة وخلف . زادهم لحمزة وابن ذكوان بخلاف عنه . أهدى ومسمى وأقصا لدى الوقف ويسعى بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلف عنه . إحدى لدى الوقف والموتى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . قوة ودابة والجنة عند الوقف للكسائي بلا خلاف ، يس بإمالة الياء لشعبة والأخوين وروح وخلف .

المدغم

" الصغير " إذ جاءها للبصري وهشام .

" الكبير " نحن نحيى ، غفر لي .

" إلا صيحة واحدة " قرأ أبو جعفر برفع التاء فيهما والباقون بنصبهما .

" يأتيهم " يستهزءون . إليهم . تقدير . وإن نشأ . قيل معا . تأتيهم . لا تظلم . متكئون . كله جلي .

" لما " قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وابن جماز بتشديد الميم وغيرهم بتخفيفها .

" الميتة " شدد الياء المدنيان وخففها غيرهما .

" العيون " كسر العين المكي وابن ذكوان والأخوان وشعبة وضمها غيرهم .

" ثمره " قرأ الأخوان وخلف بضم الثاء والميم والباقون بفتحهما .

" عملته " قرأ شعبة والأخوان وخلف بحذف هاء الضمير والباقون بإثباتها ، ولا يخفى صلتها لابن كثير.

" والقمر قدرناه " قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وروح برفع راء والقمر والباقون بنصبها ووصل المكي هاء قدرناه.

" ذريتهم " قرأ المدنيان والشامي ويعقوب بألف بعد الياء مع كسر التاء ، والباقون بحذف الألف مع نصب التاء .

" ما ينظرون إلا صيحة واحدة " اتفقوا على نصب التاء فيهما .

" يخصمون " قرأ أبو جعفر بإسكان الخاء وتشديد الضاد . وقرأ أبو عمرو باختلاس فتحة الخاء وتشديد الصاد . وورش وابن كثير وهشام بفتح الخاء وتشديد الصاد . وابن ذكوان وعاصم والكسائي ويعقوب وخلف في اختياره بكسر الخاء وتشديد الصاد وحمزة بإسكان الخاء وتخفيف الصاد . ولقالون وجهان: الأول كأبي جعفر . والثاني كأبي عمرو ، والياء مفتوحة للجميع .

" مرقدنا " قرأ حفص بالسكت على ألف مرقدنا سكتة خفيفة من غير تنفس والباقون بغير سكت .

" إن كانت إلا صيحة واحدة " حكمه حكم مثله لأبي جعفر .

" شغل " أسكن الغين نافع والمكي والبصري وضمها غيرهم .

" فاكهون " حذف أبو جعفر الألف بعد الفاء وأثبتها غيرهم .

" ظلال " قرأ الأخوان وخلف بضم الظاء وحذف الألف بعد اللام الأولى ، والباقون بكسر الظاء وإثبات الألف بعد اللام .

" المجرمون " آخر الربع .

الممال

" النهار " بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، متى بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

" الكبير " قيل لهم معا ، رزقكم ، أنطعم من .

" وأن اعبدوني " صراط الصراط كثيرا ، اصلوها ، أيديهم ، يبصرون ، الشعر ، ذكر وقرآن ، يسرون ، خلقناه ، وهي ، وهو ، منه ، كله جلي .

" جبلا " قرأ عاصم والمدنيان بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، والمكي والأخوان وخلف ورويس بضم الجيم والباء وتخفيف اللام . والبصري والشامي بضم الجيم وإسكان

الباء وتخفيف اللام وروح بضمهما مع تشديد اللام .

" مكانتهم " قرأ شعبة بألف بعد النون والباقون بحذفها .

" ننكسه " قرأ عاصم وحمزة بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف مشددة والباقون بفتح الأولى وإسكان الثانية وضم الكاف مخففة .

" أفلا تعقلون " قرأ المدنيان وابن ذكوان ويعقوب بتاء الخطاب والباقون بياء الغيبة .

" لينذر " قرأ المدنيان والشامي ويعقوب بتاء الخطاب والباقون بياء الغيبة ورقق ورش راءه .

" يحزنك " قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي والباقون بفتح الياء وضم الزاي .

" بقادر " قرأ رويس بياء تحتية مفتوحة وإسكان القاف وضم الراء على أنه فعل مضارع وغيره بباء موحدة مكسورة في مكان الياء مع فتح القاف وألف بعدها وكسر الراء منونة على أنه اسم فاعل .

" فيكون " قرأ الشامي والكسائي بنصب النون والباقون برفعها .

" بيده " قرأ رويس بحذف صلة هاء الضمير وغيره بإثبات الصلة .

" ترجعون " قرأ يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم وغيره بضم التاء وفتح الجيم . انتهى ا . هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 270 . 273 ﴾

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة يس

قوله تعالى ﴿ يس والقرآن ﴾ يقرأ بإدغام النون في الواو وإظهارها فالحجة لمن أدغم أنه أتى به على الأصل والحجة لمن أظهر أن حروف التهجي ليست كغيرها لأنها ينوى بها الوقف على كل حرف منها فكأنه بذلك منفرد مما بعده

فإن قيل فيلزم من أدغم النون ها هنا في الواو أن يدغم في قوله ﴿ ن والقلم ﴾ فقل هذا لا يلزم لأن الياء أخف من الواو وأسهل في اللفظ وقد ذكرت الإمالة والتفخيم فيما تقدم

قوله تعالى ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ يقرأ برفع اللام ونصبها فالحجة لمن رفع أنه جعله خبر ابتداء محذوف معناه هذا تنزيل العزيز والحجة لمن نصب أنه أراد المصدر كما قال تعالى ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾

قوله تعالى ﴿ من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا ﴾ يقرآن بضم السين وفتحها وقد ذكرت علله في الكهف

قوله تعالى ﴿ فعززنا بثالث ﴾ أجمع القراء على تشديد الزاي فيه إلا ما رواه أبو بكر عن عاصم من التخفيف فمعنى التشديد قوينا ومنه أعزك الله ومعنى التخفيف غلبنا ومنه

من عز بز أي من غلب أخذ السلب

قوله تعالى ﴿ أئن ذكرتم ﴾ يقرأ بهمزتين محققتين وبهمزة وياء وقد ذكر فيما مضى

قوله تعالى ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ يقرا بإثبات الهاء وطرحها فالحجة لمن أثبتها أنه اتى بالكلام على أصل ما وجب لأن الهاء عائدة على ما في صلتها لأنها من أسماء النواقص التي تحتاج إلى صلة وعائد والحجة لمن حذفها أنه لما اجتمع في الصلة فعل وفاعل ومفعول خفف الكلمة بحذف المفعول لأنه فضلة في الكلام

قوله تعالى ﴿ والقمر قدرناه ﴾ يقرأ بالرفع والنصب فالحجة لمن رفع أنه ابتدأه وجعل ما بعده خبرا عنه والهاء عائدة عليه وبها صلح الكلام والحجة لمن نصب أنه اضمر فعلا فسره ما بعده فكأنه في التقدير وقدرنا القمر قدرناه

(174/644)

---

فإن تقدم قبل الاسم حرف هو بالفعل أولى وتأخر بعده ما له صدر الكلام كالامر والنهي والاستفهام كان وجه الكلام النصب لأنك بالفعل تأمر وعنه تنهي وتستفهم ودليل ذلك إجماع القراء على نصب قوله ﴿ أبشرا منا واحدا نتبعه ﴾ والرفع عند النحويين جائز وإن كان ضعيفا

قوله تعالى ﴿ وهم يخصمون ﴾ يقرا بإسكان الخاء والتخفيف وبتشديد الصاد أيضا مع الإسكان وبفتح الياء والخاء وكسر الصاد والتشديد وبفتح الياء وكسر الخاء والصاد وبكسر الياء والخاء والصاد وقد ذكرت علله مستقصاة في نظائره

قوله تعالى ﴿ في شغل ﴾ يقرا بضمتين متواليتين وبضم الشين وإسكان الغين فقيل هما لغتان فصيحتان وقيل الأصل الضم والإسكان تخفيف وقيل معنى شغلهم افتضاض الأبكار وقيل استماع النغم والألحان

قوله تعالى ﴿ في ظلال ﴾ يقرأ بضم الظاء وفتح اللام من غير ألف بين اللامين وبكسر الظاء والف بين اللامين فالحجة لمن ضم الظاء أنه جعله جمع ظلة ودليله قوله تعالى ﴿ في ظلل من الغمام ﴾ والحجة لمن كسر الظاء أنه جعله جمع ظل وهو ما ستر من الشمس في أول النهار إلى وقت الزوال وما ستر بعد ذلك فهو فيء لأنه ظل فاء من مكان إلى مكان أي رجع ودليله قوله تعالى ﴿ وظل ممدود ﴾

قوله تعالى ﴿ وأن اعبدوني ﴾ يقرأ بضم النون وكسرها وقد تقدم القول فيه آنفا فأما الياء فثابتة وصلا ووقفا لانها مكتوبة في السواد

قوله تعالى ﴿ جبلا كثيرا ﴾ يقرأ بضم الجيم والباء وبإسكانها مع التخفيف وبكسر الجيم والباء وتشديد اللام وكلها لغات معناها الخلقة والطبع وما جبل الإنسان عليه

قوله تعالى ﴿ ننكسه في الخلق ﴾ يقرأ بضم النون والتشديد وبفتحها والتخفيف فقيل هما

لغتان بمعنى واحد وقيل معنى التشديد التكثير والترداد ومعنى التخفيف المرة الواحدة

وفرق أبو عمرو بينهما فقال نكست الرجل عن دابته بالتشديد

ونكس في مرضه رد فيه ومعناه نعيده إلى أرذل العمر يريد به الهرم

(175/644)

---

قوله تعالى ﴿ أفلا يعقلون ﴾ يقرا بالياء والتاء على ما قدمناه

قوله تعالى ﴿ أنا حملنا ذريتهم ﴾ يقرأ بالتوحيد والجمع وقد تقدم الاحتجاج في نظائره بما يغني عن إعادته ومثله ﴿ لمسخناهم على مكانتهم ﴾ ? < ومكاناتهم > ?

قوله تعالى ﴿ لينذر من كان حيا ﴾ يقرأ بالياء والتاء فالحجة لمن قرأه بالياء قوله ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ والحجة لمن قرأه بالتاء أنه جعله عليه السلام مخاطبا ووجه الياء أن يكون للقرآن لقوله تعالى ﴿ لأنذركم به ﴾

قوله تعالى ﴿ كن فيكون ﴾ يقرأ بالرفع والنصب وقد ذكر وجه ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 297 . 300 ﴾

(176/644)

وقال ابن زنجلة :

36 - سورة يس

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر يس بكسر الياء وقرأ الباقون بفتح الياء

قال سيبويه إنما جازت الإمالة في يا و طا و ها لأنها أسماء ما تكتبه وإنما أملتها لتفصل بينها وبين الحروف لأن الإمالة إنما تلحق الأسماء والأفعال ومن لم يمل فإن كثيرا من العرب لا يميلون

قرأ ابن عامر والكسائي وأبو بكر يس والقرآن بإخفاء النون عند الواو وقرأ الباقون بإظهار النون عند الواو وإنما جاز إظهار النون وإن كانت تخفى مع حروف الفم ولا تتبين لأن هذه الحروف مبنية على الوقف ومما يدل على ذلك استجازتهم فيها الجمع بين ساكنين كما يجتمعان في الكلمة التي يوقف عليها ولولا ذلك لم يجز فيها الجمع بينهما وحجة من لم يبين هي وإن كانت في تقدير الوقف لم تقطع فيه همزة الوصل وذلك قوله آلم الله ألا ترى أنهم حذفوا همزة الوصل ولم يبينوها كما لم يبينوها مع غيرها فلا يكون التقدير فيها وهي تجري مجرى قوله من واق

تنزيل العزيز الرحيم 5

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر تنزيل العزيز الرحيم

بالرفع وقرأ الباقون بالنصب

فمن نصب فعلى المصدر على معنى نزل الله ذلك تنزيلا مثل قوله صنع الله وهو مصدر صدر من غير لفظه لأنه لما قال إنك من المرسلين على صراط مستقيم 3 و4 كأنه قال نزل ذلك في كتابه تنزيلا فأخرج المصدر على المعنى المفهوم من الكلام ومن قرأ بالرفع فإنه جعله خبر ابتداء محذوف على تقدير هذا تنزيل و هو تنزيل قال الزجاج من قرأ بالرفع فعلى معنى الذي أنزل إليك تنزيل العزيز الرحيم أو تنزيل العزيز الرحيم هذا

وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشينهم فهم لا يبصرون 9

قرأ حمزة والكسائي وحفص سدا ومن خلفهم سدا بفتح السين وقرأ الباقون بالضم

(177/644)

---

قال أبو عمرو السد الحاجز بينك وبين الشيء والسد بالضم في العين وأبو عمرو ذهب في سورة الكهف إلى الحاجز بين الفريقين ففتح وذهب ها هنا إلى سدة العين فرفع والعرب تقول بعينه سدة والذي يدل على هذا قوله فأغشيناهم فهو لا يبصرون أي جعلنا على أبصارهم غشاوة فلم يبصروا طريق الهدى والحق وقال أبو عبيدة كل شيء وجدته العرب من فعل الله من الجبال

والشعاب فهو سد بالضم وما بناه الآدميون فهو سد فمن رفع في سورة الكهف ذهب أنه من

صنع الله وهو قوله تعالى بين السدين وذهب في يس إلى المعنى وذلك أنه يجوز أن يكون الفتح فيها على معنى المصدر الذي صدر من غير لفظه لأنه لما قال وجعلنا من بين أيديهم سدا كأنه قال وسددنا من بين أيديهم سدا فأخرج المصدر على معنى الجعل إذ كان معلوما أنه لم يرد بقوله سدا ما أريد في قوله بين السدين لأنهما في ذلك الموضع جبلان وهما ها هنا عارض في العين

فكذبوهما فعززنا بثالث 14

قرأ أبو بكر فعززنا بثالث بالتخفيف أي فغلبنا من قول العرب من عز بز أي من غلب سلب

وقرأ الباقون بالتشديد أي قوينا وشددنا

وإن كل لما جميع لدينا محضرون 32

قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وإن كل لما بالتشديد بمعنى إلا و إن بمعنى ما التقدير ما كل إلا جميع لدينا محضرون

وقرأ الباقون لما بالتخفيف المعنى وإن كل لجميع لدينا محضرون ف ما زائدة وتفسير الآية أنهم يحضرون يوم القيامة فيقفون على ما عملوا

ليأكلوا من ثمره وما علمته أيديهم 35

قرأ حمزة والكسائي ليأكلوا من ثمره بضم الثاء والميم تقول ثمرة وثمار و ثمر جمع الجمع ويجوز

أن يكون ثمر جمع ثمرة مثل خشبة وخشب وقرأ الباقون من ثمره جعلوه جمع ثمرة مثل بقرة وبقر وشجرة وشجر



---

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وما عملت أيديهم بغير هاء وقرأ الباقون وما عملته أيديهم بالهاء وحجتهم أنها كذلك في مصاحفهم فالهاء عائدة على ما و ما في معنى الذي وموضع ما خفض نسقا على ثمره المعنى ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم قال الزجاج ويجوز أن يكون ما نفيا وتكون الهاء عائدة على الثمر فلا موضع ل ما حينئذ ويكون المعنى ليأكلوا من ثمره ولم تعمله أيديهم قال السدي قوله وما عملته أيديهم يقول نحن عملناه نحن أنبتناه لم يعملوه هم ويقوي النفي قوله أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ويقوي إثبات الهاء قوله تعالى كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان ولم يقل يتخبط فكذلك قوله عملته وحجة من حذف الهاء إجماع الجميع على حذف الهاء في قوله مما عملت أيدينا أنعاما و ما في قوله ليأكلوا من ثمره وما عملت في موضع خفض المعنى ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم قال الزجاج إذا حذفت الهاء فالاختيار أن يكون ما في موضع خفض فيكون في معنى الذي فيحسن حذف الهاء

واعلم أن العرب تضمر الهاء عائدة على من و الذي و ما وأكثر ما جاء في التنزيل من هذا على حذف الهاء كقوله أهذا الذي بعث الله رسولا أي بعثه الله وقال وسلام على عباده الذين اصطفى أي اصطفاهم وقال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم و منهم من كلم الله أي كلمه الله وكل هذا على إرادة الهاء وإنما حذفوا اختصارا وإيجازا

والقمر قدرناه منازل 39

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو و القمر قدرناه بالرفع وقرأ الباقون بالنصب والنصب على وقدرنا القمر قدرناه قال سيبويه كما تقول زيدا ضربته تضمر ضربت وإنما جاز ذلك لأنك قد أظهرت الضرب بعد زيد فجاز لك أن تضمره قبل زيد والرفع على قوله وآية لهم القمر قدرناه مثل قوله و آية لهم الليل نسلخ منه النهار ويجوز أن يكون على الابتداء و قدرناه الخبر

وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون 41



---

قرأ نافع وابن عامر وآية لهم أنا حملنا ذرياتهم على الجمع وحجتهم أنها مكتوبة في مصاحفهم بالألف

وقرأ الباقون ذريتهم على التوحيد وحجتهم أن الذرية تكون جمعا وتكون واحدا فالواحد

قوله هب لي من لدنك ذرية والجمع قوله ذرية ضعافا

وما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون 49

قرأ نافع وهم يخصمون بسكون الخاء وتشديد الصاد الأصل يختصمون ثم أدغمت التاء في الصاد فبقيت يخصمون

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وورش يخصمون بفتح الخاء والأصل يختصمون وطرحت فتحة التاء على الخاء وأدغمت التاء في الصاد هذا أحسن الوجوه بدلالة قولهم رد وفر وعض

وقرأ ابن عامر وعاصم والكسائي يخصمون بكسر الخاء الأصل يختصمون ثم حذفوا الحركة وكسروا الخاء لسكونها وسكان الصاد

قرأ حمزة يخصمون بكسون الخاء وتخفيف الصاد قال الزجاج ومعناها تأخذهم ويخصم بعضهم بعضا فحذف المضاف

وحذف المفعول به ويجوز أن يكون يخصمون مجادلهم عند أنفسهم فحذف المفعول به

ومعنى يخصمون يغلبون في الخصام خصومهم قال ويجوز أن يكون تأخذهم وهم عند أنفسهم يخصمون في الحجة في أنهم لا يبعثون فتأخذهم الصيحة وهم متشاغلون في متصرفاتهم

إن أصحب الجنة اليوم في شغل فكهون هم وأزواجهم في ظلل على الأرائك متكئون 55 و56

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو في شغل ساكنة الغين استثقلوا الضمتين في كلمة واحدة

فسكنوا الغين وقرأ الباقون في شغل بضمتين على أصل الكلمة

وقرأ حمزة والكسائي في ظلل على الأرائك بغير ألف وضم الظاء الظلل جمع ظله كما تقول

حلة وحلل وغرفة وغرف وقربة وقرب وحجتهما إجماع الجميع على قوله في ظلل من الغمام

وقال ظلل من النار فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى وقرأ الباقون في ظلال بالألف

جمع ظلة مثل قلة وقلال وحلة وحلال وحفرة وحفار فيكون على هذا معنى القراتين

واحدا ويجوز أن تكون ظلال جمع ظل وحجتهم يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل

ولقد أضل منكم جبلا كثيرا 62

(180/644)

---

قرأ نافع وعاصم جبلا كثيرا وبكسر الجيم والباء والتشديد

وحجتهما إجماع الجميع على قوله تعالى والجبلة الأولين

وقرأ أبو عمرو وابن عامر جبلا بضم الجيم وسكون الباء استثقلا اجتماع الضمتين فأسكنا

الباء طلبا للتخفيف

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي جبلا بضمتين وهو الأصل وذلك أنه جمع جبيلا وجبيل

معدول عن مجبول مثل قتيل من مقتول وصريع من مصروع ثم جمع الجبيل جبلا كما يجمع السبيل سبلا والطريق طرقا قالوا ولا ضرورة تدعو إلى إسكان حرف مستحق للتحريك

ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم 67

قرأ أبو بكر على مكاناتهم جماعة وقرأ الباقون مكانتهم واحدة

من أفرد فلإنه مصدر والمصادر تفرد في موضع الجمع لأنه يراد به الكثير كما يراد في سائر أسماء الأجناس ومن جمع فلأنهم قد جمعوا

من المصادر أيضا قالوا الحلوم والألباب

ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون 68

قرأ عاصم وحمزة ننكسه بضم النون الأولى وتشديد الكاف وقرأ الباقون ننكسه مخففا وهما لغتان تقول نكسته أنكسه وأنكسته أنكسه

قرأ نافع وابن عامر أفلا تعقلون بالتاء وحجتهما قوله قبلها ولقد أضل منكم وقرأ الباقون بالياء وحجتهم قوله قبلها ولو نشاء لطمسنا على أعينهم 66 ولو نشاء لمسخناهم 67 ولم يقل لمسخناكم

وما علمنه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرءان مبين لينذر من كان حيا 69 و70

قرأ نافع وابن عامر لتنذر من كان حيا بالتاء على الخطاب أي لتنذر يا محمد من كان حيا ويقوي التاء قوله إنما أنت منذر وقرأ الباقون لينذر بالياء جائز أن يكون المضمر في قوله

لينذر النبي صلى الله عليه ويقوي هذا قو قبلها وما علمناه الشعر وما ينبغي له ثم يقول

لينذر وجائز أن يكون القرآن أي لينذر القرآن

إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون 82

قرأ ابن عامر والكسائي فيكون نصب نسقا على قوله

أن يقول له كن فيكون

وقرأ الباقون فيكون رفعا عل تقدير فهو يكون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ

604.595﴾

(181/644)

---

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة يس

مكية ولا نظير لها في عددها

وكلمها سبع مئة وسبع وعشرون كلمة

وحروفها ثلاثة آلاف وعشرون حرفا

وهي ثمانون وثلاث آيات في الكوفي وآيتان في عدد الباقين

اختلافها آية ( ﴿ يس ﴾ ) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون وكلهم لم يعد ن وليس فيها مما

يشبه الفواصل شيء ورؤوس الآي

الحكيم

2 المرسلين

3 مستقيم

4 الرحيم

5 غافلون

6 لا يؤمنون

7 مقمحون

8 لا يبصرون

9 لا يؤمنون

10 كريم

11 مبين

12 المرسلون

13 مرسلون

14 تكذبون

15 لمرسلون

16 المبين

17 أليم

18 مسرفون

19 المرسلين

20 مهتدون

21 ترجعون

22 ينقذون

23 مبين

24 فاسمعون

25 يعلمون

26 المكرمين

27 منزلين

28 خامدون

29 يستهزئون

30 لا يرجعون

31 محضرون

32 يأكلون

33 العيون

34 يشكرون

35 لا يعلمون

36 مظلمون

37 العليم

38 القديم

39 يسبحون

40 المشحون

41 يركبون

42 ينقذون

43 حين

44 ترحمون

45 معرضين

46 مبين

47 صادقين

48 يخصمون

49 يرجعون

50 ينسلون

51 المرسلون

52 محضرون

53 يعملون

54 فاكهون

55 متكئون

56 يدعون

57 رحيم

58 المجرمون

59 مبين

60 مستقيم

61 تعقلون

62 توعدون

63 تكفرون

64 يكسبون

65 يبصرون

66 يرجعون

67 يعقلون

68 مبين

69 الكافرين

70 مالكون

71 يأكلون

72 يشكرون

73 ينصرون

74 محضرون

75 يعلنون

76 مبين

77 رميم

78 عليم

79 توقدون

80 العليم

81 فيكون

82 ترجعون

83 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 211 ﴾

*(182/644)*

---

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجمهور على إسكان النون وقد ذكر نظيره ، ومنهم من يظهر النون لأنه حقق بذلك إسكانها ، وفي الغنة ما يقربها من الحركة من أجل الوصل المحض ، وفى الإظهار تقريب للحرف من الوقف عليه ، ومنهم من يكسر النون على أصل التقاء الساكنين ، ومنهم من

يفتحها كما يفتح أين ، وقيل الفتحة إعراب ، ويس اسم للسورة كهابيل ، والتقدير : اتل يس (والقرآن) قسم على كل وجه .

قوله تعالى (على صراط) هو خبر ثان لإن ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير في الجار (تنزيل العزيز) أي هو تنزيل العزيز ، والمصدر بمعنى المفعول: أي منزل العزيز ، ويقرأ بالنصب على أنه مصدر : أي نزل تنزيلا ، وبالجر أيضا صفة للقرآن (لتنذر) يجوز أن تتعلق اللام بتنزيل ، وأن تتعلق بمعنى قوله من المرسلين: أي مرسل لتنذر ، و (ما) نافية ، وقيل هي بمعنى الذى: أي تنذرهم العذاب الذى أنذره آباؤهم ، وقيل هي نكرة موصوفة ، وقيل هي زائدة .

قوله تعالى (فأغشيناهم) بالغين: أي غطينا أعين بصائرهم ، فالمضاف محذوف ويقرأ بالعين: أي أضعفنا بصائرهم عن إدراك الهدى كما تضعف عين الأعشى .

قوله تعالى (وكل شئ) مثل " وكل إنسان ألزمناه " وقد ذكر .

قوله تعالى (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية) اضرب هنا بمعنى اجعل ، وأصحاب مفعول أول ، ومثلا مفعول ثان ، وقيل هو بمعنى اذكر ، والتقدير : مثلا مثل أصحاب ، فالثاني بدل من الأول ، و (إذ جاءها ) مثل إذ انتبذت ، وقد ذكر ، و (إذ) الثانية بدل من الأولى (فعززنا ) بالتشديد والتخفيف ، والمفعول محذوف أي قويناهما .

قوله تعالى (أئن ذكرتم) على لفظ الشرط ، وجوابه محذوف: أي إن ذكرتم كفرتم ونحوه ،

ويقرأ بفتح الهمزة: أي لأذكرتم ، ويقرأ شاذا " أين ذكرتم " أي عملكم السيئ لازم لكم أين ذكرتم ، والكاف مخففة في هذا الوجه .

(183/644)

---

قوله تعالى (ومالى) الجمهور على فتح الياء ، لأن ما بعدها في حكم المتصل بها إذا كان لا يحسن الوقف عليها والابتداء بما بعدها و " مالى لأرى الهدهد " بعكس ذلك .

قوله تعالى (لاتغن عنى) هو جواب الشرط ، ولايجوز أن تقع " ما " مكان " لا " هنا ، لأن " ما " تنفى ما فى الحال ، وجواب الشرط مستقبل لاغير .

قوله تعالى (بما غفر لى) في " ما " ثلاثة أوجه: أحدها مصدرية: أي بغفرانه والثانى بمعنى الذى: أي بالذنب الذى غفره .

والثالث استفهام على التعظيم ذكره بعض الناس ، وهو بعيد لأن " ما " في الاستفهام إذا دخل عليه حرف الجر حذفت ألفها ، وقد جاء في الشعر بغير حذف .

قوله تعالى (وما أنزلنا ) " ما " نافية ، وهكذا (وما كنا ) ويجوز أن تكون " ما " الثانية زائدة: أي وقد كنا ، وقيل هي اسم معطوف على جند .

قوله تعالى (إن كانت إلا صيحة) اسم كان مضمر: أي ما كانت الصيحة إلا صيحة ،

والغرض وصفها بالاتحاد .

وإذا للمفاجأة ، والله أعلم .

قوله تعالى (يا حسرة) فيه وجهان : أحدهما أن حسرة منادى : أي يا حسرة احضرى فهذا وقتك ، و (على) تتعلق بحسرة فلذلك نصبت كقولك : ياضاربا رجلا .

والثانى المنادى محذوف ، وحسرة مصدر : أي أتحسر حسرة ، ويقرأ في الشاذ " يا حسرة العباد " أي يا تحسيرهم ، فالمصدر مضاف إلى الفاعل ، ويجوز أن يكون مضافا إلى المفعول : أي أتحسر على العباد .

قوله تعالى (ما يأتيهم من رسول) الجملة تفسير سبب الحسرة (وكم أهلكنا) قد ذكر ، و (أنهم إليهم) بفتح الهمزة وهى مصدرية ، وموضع الجملة بدل من موضع كم أهلكنا ، والتقدير : ألم يروا أنهم إليهم ، ويقرأ بكسر الهمزة على الاستئناف .

قوله تعالى (وإن كل) قد ذكر في آخر هود .

قوله تعالى (وآية لهم) مبتدأ ولهم الخبر ، و (الأرض) مبتدأ ، و (أحييناها) الخبر ، والجملة تفسير للآية ، وقيل الأرض مبتدأ ، وآية خبر مقدم ، وأحييناها تفسير الآية ، ولهم صفة آية .

قوله تعالى (من العيون) من على قول الأخفش زائدة ، وعلى قول غيره المفعول محذوف: أي من العيون ما ينتفعون به (وما عملته) في " ما " ثلاثة أوجه أحدها هي بمعنى الذى ، والثانى نكرة موصوفة ، وعلى كلا الوجهين هي في موضع جر عطفا على ثمرة ، ويجوز أن يكون نصبا على موضع من ثمره .

والثالث هي نافية ، ويقرأ بغير هاء ويحتمل الأوجه الثلاثة إلا أنها نافية بضعف لأن عملت لم يذكر لها مفعول .

قوله تعالى (والقمر) بالرفع مبتدأ ، و (قدرناه) الخبر: وبالنصب على فعل مضمر: أي وقدرنا القمر لأنه معطوف على اسم قد عمل فيه الفعل فحمل على ذلك ، ومن رفع قال: هو محمول على: وآية لهم في الموضعين ، وعلى: والشمس ، وهى أسماء لم يعمل فيها فعل ، و (منازل) أي ذا منازل ، فهو حال أو مفعول ثان ، لأن قدرنا بمعنى صيرنا ، وقيل التقدير: قدرنا له منازل ، و (العرجون) فعول ، والنون أصل ، وقيل هي زائدة لأنه من الانعراج وهذا صحيح المعنى ، ولكن شاذ في الاستعمال وقرأ بعضهم (سابق النهار) بالنصب وهو ضعيف ، وجوازه على أن يكون حذف التنوين لالتقاء الساكنين ، وحمل (يسبحون) على من يعقل لوصفها بالجريان

والسباحة والإدراك والسبق .

قوله تعالى ، و (أنا ) يجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف: أي هي أنا ، وقيل هي مبتدأ ، وآية لهم الخبر ، وجاز ذلك لما كان لأنا تعلق بما قبلها ، والهاء والميم في (ذريتهم) لقوم نوح ، وقيل لأهل مكة (فلا صريخ) الجمهور على الفتح ويكون ما بعده مستأنفا ، وقرئ بالرفع والتنوين ووجهه ما ذكرنا في قوله " ولا خوف عليهم " .

قوله تعالى (إلا رحمة) هو مفعول له أو مصدر ، وقيل التقدير: إلا برحمة ، وقيل هو استثناء منقطع (يخصمون) مثل قوله يهد ، وقد ذكر في يونس .

(185/644)

---

قوله تعالى (يا ويلنا ) هو مثل قوله " يا حسرة " وقال الكوفيون: وى كلمة ، ولنا جار ومجرور ، والجمهور على (من بعثنا ) أنه استفهام ، وقرئ شاذا من بعثنا على أنه جار ومجرور يتعلق بويل ، و (هذا) مبتدأ ، و (ما وعد ) الخبر و " ما " بمعنى الذى ، أو نكرة موصوفة أو مصدر ، وقيل هذا نعت لمرقدنا فيوقف عليه ، وما وعد مبتدأ والخبر محذوف: أي حق ونحوه ، أو خبر والمبتدأ محذوف: أي هذا أو بعثنا .

قوله تعالى (في شغل) هو خبر إن ، و (فاكهون) خبر ثان ، أو هو الخبر وفى شغل يتعلق به ، ويقرأ " فاكهين " على الحال من الضمير في الجار ، والشغل بضمتين ، وبضم بعده سكون ،

وبفتحتين ، وبفتحة بعدها سكون لغات قد قرئ بهن .

قوله تعالى (في ظلال) يجوز أن يكون خبرهم (على الأرائك) مستأنف ، وأن يكون الخبر (متكئون) وفي ظلال حال ، وعلى الأرائك منصوب بمتكئون وظلال جمع ظل مثل ذيب وذياب ، أو ظلة مثل قبة ، وقباب ، والظلل جمع ظلة

لاغير (ما يدعون) في " ما " ثلاثة أوجه: هي بمعنى الذى ونكرة ، ومصدرية وموضعها مبتدأ والخبر لهم ، وقيل الخبر (سلام) وقيل سلام صفة ثانية لما ، وقيل سلام خبر مبتدأ محذوف: أي هو سلام ، وقيل هو بدل من " ما " ويقرأ بالنصب على المصدر ، ويجوز أن يكون حالا من " ما " أو من الهاء المحذوفة: أي ذا سلامة أو مسلما ، و (قولا) مصدر: أي يقول الله ذلك لهم قولا ، أو يقولون قولا ، و (من) صفة لقول .

قوله تعالى (جبلا) فيه قراءات كثيرة ، كلها لغات بمعنى واحد .

قوله تعالى .

(إن هو) الضمير للمعلم: أي أن ما علمه ذكر ، ودل عليه " وما علمناه " (لتنذر) بالتاء على الخطاب ، وبالياء على الغيبة ، أو على أنه للقرآن .

قوله تعالى (ركوبهم) بفتح الراء: أي مركوبهم كما قالوا حلوب بمعنى محلوب وقيل هو النسب: أي ذو ركوب ، وقرئ " ركوبتهم " بالتاء مثل حلوبتهم ، ويقرأ بضم الراء: أي ذو ركوبهم ، أو يكون المصدر بمعنى المفعول مثل الخلق .

(186/644)

---

و (رميم) بمعنى رامم أو مرموم ، و (كن فيكون) قد ذكر في سورة النحل ، والله أعلم . انتهى
انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 201 . 205 ﴾

(187/644)

---

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة يس

[سورة يس (36) : الآيات 1 الى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (4)
تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى
أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (7) إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8)

(188/644)

"يس" هذه الحروف لا إعراب لها "وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ" الواو حرف جر وقسم والقرآن مقسم به وحرف الجر والمقسم به متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم "الْحَكِيمِ" صفة القرآن "إِنَّكَ" إن واسمها "لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ" اللام لام المزحلقة ومتعلقان بخبر إن المحذوف وهو وما قبله كلام مستأنف "عَلَى صِرَاطٍ" متعلقان بخبر ثان لإن "مُسْتَقِيمٍ" صفة لصراط "تَنْزِيلَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "الْعَزِيزِ" مضاف إليه من إضافة المصدر إلى فاعله "الرَّحِيمِ" صفة "لِتُنْذِرَ قَوْمًا" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وقوما مفعوله والفاعل مستتر "ما" نافية "أُنْذِرَ" ماض مبني للمجهول مبني على الفتح "آبَاؤُهُمْ" نائب فاعل والهاء مضاف إليه والجملة في محل نصب صفة لقوما "فَهُمْ غَافِلُونَ" مبتدأ وخبر والجملة تعليلية لا محل لها "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "حَقَّ الْقَوْلُ" ماض وفاعله "عَلَى أَكْثَرِهِمْ" متعلقان بالفعل قبلهما والهاء مضاف إليه وجملة القسم مستأنفة "فَهُمْ" الفاء للتعليل وهم مبتدأ والجملة تعليلية لا محل لها "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر هم "إِنَّا" إن ونا اسمها والجملة مستأنفة "جَعَلْنا" ماض وفاعله والجملة خبر إنا "فِي أَعْنَاقِهِمْ" في موقع المفعول الثاني لجعلنا "أَغْلَالًا" مفعول به أول لجعلنا "فَهِيَ" الفاء عاطفة وهي مبتدأ والجملة معطوفة "إِلَى

الْأَذْقانِ" متعلقان بمحذوف خبر "فَهُمْ مُقْمَحُونَ" مبتدأ وخبر والجملة معطوفة.

[سورة يس (36) : الآيات 9 الى 12]

(189/644)

---

وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (9) وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (12)

"وَجَعَلْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "مِنْ بَيْنِ" في موقع المفعول الثاني لجعلنا "أَيْدِيهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه ثان "سَدًّا" مفعول به أول لجعلنا "وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا" معطوف على ما سبق "فَأَغْشَيْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "فَهُمْ" الفاء تعليلية وهم مبتدأ والجملة تعليلية لا محل لها "لا" نافية "يُبْصِرُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر "وَسَواءٌ" خبر مقدم و"عَلَيْهِمْ" متعلقان به والجملة مستأنفة "أَأَنْذَرْتَهُمْ" الهمزة للاستفهام وماض وفاعله ومفعوله وهو مع الهمزة مؤول بمصدر

(190/644)

تقديره إنذارك وعدمه سواء ويعرب مبتدأ وسواء خبر "أَمْ" عاطفة "لَمْ" حرف جزم "تُنْذِرْهُمْ" مضارع مجزوم بلم والهاء مفعوله والجملة معطوفة "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ومضارع وفاعله والجملة مستأنفة "إِنَّما" كافة مكفوفة "تُنْذِرُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مستأنفة "مَنِ" اسم موصول مفعول به "اتَّبَعَ الذِّكْرَ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة "وَخَشِيَ الرَّحْمنَ" ماض ومفعوله والجملة معطوفة "بِالْغَيْبِ" متعلقان بمحذوف حال "فَبَشِّرْهُ" الفاء الفصيحة وأمر ومفعوله وفاعله مستتر "بِمَغْفِرَةٍ" متعلقان بالفعل قبلهما "وَأَجْرٍ" معطوف "كَرِيمٍ" صفة "إِنَّا" إن ونا اسمها "نَحْنُ" مبتدأ "نُحْيِ الْمَوْتى" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والموتى مفعوله المنصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر والفاعل مستتر والجملة خبر نحن وجملة نحن نحيي خبر إنا "وَنَكْتُبُ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة "ما" اسم موصول مفعول به "قَدَّمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَآثارَهُمْ" معطوفة على ما "وَكُلَّ" مفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور والتقدير أحصينا كل شيء أحصيناه "شَيْءٍ" مضاف إليه "أَحْصَيْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة تفسيرية "فِي إِمامٍ" متعلقان بالفعل قبلهما "مُبِينٍ" صفة والمعنى حفظنا في اللوح المحفوظ.

[سورة يس (36) : الآيات 13 الى 14]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14)

*(191/644)*

---

"وَاضْرِبْ" الواو استئنافية وأمر فاعله مستتر وضرب هنا بمعنى جعل أي اجعل لهم "لَهُمْ" متعلقان بمحذوف حال "مَثَلًا" مفعول به ثان "أَصْحابَ" مفعول به أول "الْقَرْيَةِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "إِذْ" ظرف زمان "جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر المرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة مضاف إليه والمرسلون هم رجلان من أصحاب عيسى عليه السلام أرسلهما إلى تلك المدينة ليهدوا أهلها إلى الإيمان "إِذْ" ظرف زمان بدل من إذ الأولى "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "إِلَيْهِمُ" متعلقان بالفعل قبلهما "اثْنَيْنِ" مفعول به منصوب بالياء "فَكَذَّبُوهُما" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "فَعَزَّزْنا" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "بِثالِثٍ" متعلقان بعززنا "فَقالُوا" ماض وفاعله "إِنَّا" إن ونا المدغمة بها اسمها "إِلَيْكُمْ" متعلقان بما بعدهما "مُرْسَلُونَ" خبر إن المرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة في محل نصب مقول القول.

[سورة يس (36) : الآيات 15 الى 19]

قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (17) قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (18) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19)

"قالُوا" الجملة مستأنفة "ما" نافية "أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ" مبتدأ وخبر والجملة مقول القول وإلا أداة حصر "مِثْلُنا" صفة لبشر ونا مضاف إليه "وَما" الواو عاطفة وما نافية "أَنْزَلَ الرَّحْمنُ" ماض وفاعله والجملة



معطوفة "مِنْ" حرف جر زائد "شَيْءٍ" اسم مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به "إِنْ" نافية "أَنْتُمْ" مبتدأ والجملة مقول القول "إِلَّا" أداة حصر "تَكْذِبُونَ" الجملة خبر "قالُوا" الجملة مستأنفة "رَبُّنا" مبتدأ ونا مضاف إليه والجملة مقول القول "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "إِنَّا" إن ونا اسمها والجملة سدت مسد مفعولي يعلم "إِلَيْكُمْ" متعلقان بالخبر بعدهما "لَمُرْسَلُونَ" اللام لام المزحلقة ومرسلون خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم "وَما" الواو عاطفة وما نافية "عَلَيْنا" متعلقان بالخبر المقدم المحذوف "إِلَّا" أداة حصر "الْبَلاغُ"

مبتدأ مؤخر "الْمُبِينُ" صفة والجملة معطوفة "قالُوا" الجملة مستأنفة "إِنَّا" إن ونا اسمها "تَطَيَّرْنا" ماض وفاعله والجملة خبر إنا "بِكُمْ" متعلقان بالفعل قبلهما "لَئِنْ" اللام موطئة للقسم وإن حرف شرط جازم "لَمْ" جازمة "تَنْتَهُوا" مضارع مجزوم وهو فعل الشرط والواو فاعل "لَنَرْجُمَنَّكُمْ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ونون التوكيد حرف لا محل له من الإعراب والكاف مفعول به والفاعل مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه "وَلَيَمَسَّنَّكُمْ" معطوف على ما قبله وإعرابه مثله "مِنَّا" متعلقان بالفعل قبلهما "عَذابٌ" فاعل يمسنكم "أَلِيمٌ" صفة "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "طائِرُكُمْ" مبتدأ والكاف مضاف إليه "مَعَكُمْ" ظرف مكان متعلق بالخبر والكاف مضاف إليه والتطير عادة جاهلية فهم يرسلون طيرا فإذا ذهب نحو اليمين تفاءلوا وإن ذهب نحو الشمال تشاءموا وقد حرم الإسلام هذه العادة "أَإِنْ" الهمزة للاستفهام وإن حرف شرط جازم "ذُكِّرْتُمْ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل وهو فعل الشرط وجوابه محذوف "بَلْ" حرف إضراب وعطف "أَنْتُمْ"

مبتدأ "قَوْمٌ" خبر "مُسْرِفُونَ" صفة قوم مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم، والجملة معطوفة.

[سورة يس (36) : الآيات 20 الى 23]

وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ (23)

"وَجاءَ" الواو عاطفة وماض مبني على الفتح "مِنْ أَقْصَا" متعلقان بالفعل قبلهما "الْمَدِينَةِ" مضاف إليه "رَجُلٌ" فاعل جاء والجملة معطوفة "يَسْعى" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة صفة لرجل "قالَ" الجملة مستأنفة "يا" أداة نداء "قَوْمِ" منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة للتخفيف وحركت بالكسر لمناسبة الياء المحذوفة والمنادى في محل نصب "اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ" أمر وفاعله ومفعوله "اتَّبِعُوا" أمر وفاعله والجملة مقول القول "مَنْ" اسم موصول مفعول به "لا" نافية "يَسْئَلُكُمْ" مضارع والكاف مفعوله "أَجْراً" مفعول به ثان والفاعل هو والجملة صلة لا محل لها من الإعراب "وَهُمْ مُهْتَدُونَ" الواو حالية ومبتدأ وخبر والجملة حالية "وَما" الواو عاطفة وما حرف استفهام مبتدأ

"لِي" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة معطوفة "لا" نافية "أَعْبُدُ الَّذِي" مضارع واسم الموصول مفعوله والفاعل مستتر "فَطَرَنِي" ماض والياء مفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة "وَإِلَيْهِ" متعلقان بترجعون "تُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل "أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً" الهمزة للاستفهام ومضارع مرفوع وآلهة مفعوله وفاعله مستتر والجار والمجرور متعلقان بأتخذ والجملة مستأنفة "إِنْ" حرف شرط جازم "يُرِدْنِ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والنون للوقاية والياء المحذوفة مفعوله "الرَّحْمنُ" فاعل "بِضُرٍّ" متعلقان بالفعل قبلهما "لا" نافية "تُغْنِ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة والجملة لا محل لها لأنها لم تقترن بالفاء "عَنِّي" متعلقان بالفعل قبلهما "شَفاعَتُهُمْ" فاعل والهاء مضاف إليه "شَيْئاً" مفعول به "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "يُنْقِذُونِ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة .

[سورة يس (36) : الآيات 24 الى 29]

إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27) وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ (28)

إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (29)

"إِنِّي" إن والياء في محل نصب اسمها "إِذاً" حرف جواب "لَفِي ضَلالٍ" اللام المزحلقة متعلقان بالخبر المحذوف "مُبِينٍ" صفة والجملة تعليلية لا محل لها "إِنِّي" إن واسمها والجملة مستأنفة "آمَنْتُ" فعل ماض والتاء فاعله والجملة خبر إني "بِرَبِّكُمْ" متعلقان بالفعل قبلهما "فَاسْمَعُونِ" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والياء المحذوفة للتخفيف مفعوله والجملة لا محل لها "قِيلَ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل مستتر والجملة مستأنفة "ادْخُلِ الْجَنَّةَ" أمر ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مقول القول "قالَ" الجملة مستأنفة "يا" للتنبيه "لَيْتَ" حرف مشبه بالفعل "قَوْمِي" اسم ليت منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة والجملة مقول القول "يَعْلَمُونَ" مضارع والواو فاعله والجملة خبر ليت "بِما" اسم موصول مجرور بالباء ومتعلقان بالفعل قبلهما أو هي مصدرية "غَفَرَ" ماض مبني على الفتح "لِي" متعلقان بغفر "رَبِّي" فاعل والياء مضاف إليه والجملة صلة "وَجَعَلَنِي" الواو عاطفة وماض والنون للوقاية والياء مفعوله الأول "مِنَ الْمُكْرَمِينَ" وقع الجار والمجرور في موقع المفعول الثاني والجملة معطوفة "وَما" الواو عاطفة وما نافية "أَنْزَلْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "عَلى قَوْمِهِ" متعلقان بالفعل قبلهما "مِنْ بَعْدِهِ" متعلقان بمحذوف حال "مِنْ" حرف جر زائد "جُنْدٍ" اسم مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به والجملة معطوفة "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بمحذوف

صفة لجند "وَما" الواو عاطفة وما نافية أو زائدة "كُنَّا مُنْزِلِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة معطوفة "إِنْ" نافية "كانَتْ" كان والتاء للتأنيث واسمها محذوف والجملة مستأنفة "إِلَّا" أداة حصر "صَيْحَةً" خبر كانت "واحِدَةً" صفة "فَإِذا" الفاء عاطفة وإذا الفجائية "هُمْ" مبتدأ "خامِدُونَ" خبر.

(196/644)

---

[سورة يس (36) : آية 30]

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (30)

"يا حَسْرَةً" حسرة منادى شبيه بالمضاف منصوب "عَلَى الْعِبادِ" متعلقان بفعل النداء "ما يَأْتِيهِمْ" ما نافية وفعل مضارع ومفعول به والميم لجمع الذكور "مِنْ رَسُولٍ" من حرف جر زائد رسول اسم مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل يأتي والجملة استئنافية لا محل لها "إِلَّا" حرف حصر "كانُوا" ماض ناقص واسمه والجملة في محل نصب حال "بِهِ" متعلقان بيستهزئون "يَسْتَهْزِؤُنَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كانوا.

[سورة يس (36) : آية 31]

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (31)

"أَلَمْ يَرَوْا" الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف جازم ومضارع مجزوم وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها . "كَمْ" خبرية مفعول أهلكنا المقدم "أَهْلَكْنا" ماض وفاعله والجملة في محل نصب مفعول يروا "قَبْلَهُمْ" ظرف زمان "مِنَ الْقُرُونِ" متعلقان بمحذوف حال "أَنَّهُمْ" أن واسمها والمصدر المؤول بدل اشتمال من معنى كم أهلكنا "إِلَيْهِمْ" متعلقان بيرجعون "لا يَرْجِعُونَ" لا نافية وفعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر أن .

[سورة يس (36) : آية 32]

وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (32)

"وَإِنْ" الواو حرف استئناف وإن نافية "كُلٌّ" مبتدأ "لَمَّا" بمعنى إلا "جَمِيعٌ" خبر المبتدأ كل والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "لَدَيْنا" ظرف مكان "مُحْضَرُونَ" خبر ثان مرفوع بالواو .

[سورة يس (36) : آية 33]

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33)

"وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ" الواو حرف استئناف آية خبر مقدم "لَهُمُ" متعلقان بمحذوف صفة

والأرض مبتدأ مؤخر والجملة استئنافية لا محل لها . "الْمَيْتَةُ" صفة "أَحْيَيْناها" ماض

وفاعله ومفعوله والجملة حال .

"وَأَخْرَجْنا" الواو حرف عطف وأخرجنا ماض وفاعله "مِنْها" متعلقان بأخرجنا .

"حَبًّا" مفعول به والجملة معطوفة "فَمِنْهُ" الفاء استئنافية ومنه متعلقان بيأكلون "يَأْكُلُونَ"

مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة استئنافية .

[سورة يس (36) : آية 34]

وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (34)

"وَجَعَلْنا" الواو حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على أحييناها "فِيها"

متعلقان بجعلنا "جَنَّاتٍ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "مِنْ نَخِيلٍ"

متعلقان بمحذوف صفة لجنات "وَأَعْنابٍ" معطوفة على نخيل "وَفَجَّرْنا" الواو حرف

عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "فِيها" متعلقان بفجرنا "مِنَ الْعُيُونِ"

متعلقان بمحذوف صفة لمفعول فجرنا المحذوف .

[سورة يس (36) : آية 35]

لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (35)

"لِيَأْكُلُوا" اللام للتعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد اللام والواو فاعله والمصدر المؤول

في محل جر باللام "مِنْ ثَمَرِهِ" متعلقان بيأكلوا "وَما عَمِلَتْهُ" ما موصولية معطوفة على من ثمره وعملته فعل ماض ومفعوله "أَيْدِيهِمْ" فاعل والجملة صلة "أَفَلا" الهمزة للاستفهام الإنكاري الفاء حرف عطف ولا نافية "يَشْكُرُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة معطوفة على محذوف تقديره يرون هذه النعم ويستمتعون بها فلا يشكرونها .

[سورة يس (36) : آية 36]

سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (36)

(198/644)

---

"سُبْحانَ" مفعول مطلق لفعل محذوف والجملة استئنافية لا محل لها "الَّذِي" مضاف إليه "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر "الْأَزْواجَ" مفعوله والجملة صلة لا محل لها "كُلَّها" توكيد "مِمَّا" متعلقان بحال محذوفة "تُنْبِتُ" مضارع "الْأَرْضُ" فاعل والجملة صلة "وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ" الواو حرف عطف والجار والمجرور معطوفان على مما "وَمِمَّا" عطف على مما السابقة "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون وفاعله والجملة صلة لا محل لها .

[سورة يس (36) : آية 37]

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (37)

"وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ" الواو حرف عطف آية خبر مقدم لهم متعلقان بصفة لآية الليل مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "نَسْلَخُ" مضارع والفاعل مستتر والجملة حال "مِنْهُ" متعلقان بنسلخ "النَّهارَ" مفعول به "فَإِذا" الفاء حرف عطف وإذا الفجائية "هُمْ" مبتدأ "مُظْلِمُونَ" خبر والجملة في محل جر بالإضافة.

[سورة يس (36) : آية 38]

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38)

"وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها" الشمس مبتدأ وتجري مضارع فاعله مستتر والجملة خبر للمبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها لا محل لها "لِمُسْتَقَرٍّ لَها" متعلقان بتجري ولها متعلقان بمحذوف صفة "ذلِكَ" مبتدأ اسم الإشارة واللام للبعد والكاف للخطاب "تَقْدِيرُ" خبر "الْعَزِيزِ" مضاف إليه "الْعَلِيمِ" صفة ثانية والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها.

[سورة يس (36) : آية 39]

وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39)

"

"وَالْقَمَرَ" الواو حرف عطف. القمر مفعول به لفعل محذوف يفسره ما ذكر بعده "قَدَّرْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة تفسيرية "مَنازِلَ" حال "حَتَّى" حرف غاية وجر "عادَ" فعل ماض والفاعل مستتر تقديره هو "كَالْعُرْجُونِ" متعلقان بمحذوف حال "الْقَدِيمِ" صفة للعرجون.

[سورة يس (36) : آية 40]

لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)

"لَا الشَّمْسُ" لا نافية والشمس مبتدأ "يَنْبَغِي" مضارع مرفوع والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "لَها" متعلقان بينبغي "أَنْ تُدْرِكَ" مضارع منصوب بأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل ينبغي "الْقَمَرَ" مفعول به "وَلَا اللَّيْلُ" الواو حرف عطف ولا نافية والليل مبتدأ "سابِقُ" خبر "النَّهارِ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "وَكُلٌّ" الواو استئنافية

ومبتدأ "فِي فَلَكٍ" متعلقان بيسبحون "يَسْبَحُونَ" فعل مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة خبر والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها.

[سورة يس (36) : آية 41]

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41)

"وَآيَةٌ" الواو حرف استئناف وآية خبر مقدم "لَهُمْ" صفة "أَنَّا حَمَلْنا" أن واسمها وحملنا

ماض وفاعله والجملة خبر وأن وما بعدها في تأويل مصدر مبتدأ مؤخر . والجملة الاسمية

استئنافية لا محل لها "ذُرِّيَّتَهُمْ" مفعول به "فِي الْفُلْكِ" متعلقان بحملنا "الْمَشْحُونِ" صفة .

[سورة يس (36) : آية 42]

وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (42)

"وَخَلَقْنا" ماض وفاعله . "لَهُمْ" متعلقان بخلقنا "مِنْ مِثْلِهِ" في محل نصب حال والجملة

عطف على حملنا فهي مثلها في محل رفع "ما" موصولية مفعول به "يَرْكَبُونَ" مضارع مرفوع

وفاعله والجملة صلة .



---

[سورة يس (36) : آية 43]

وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ (43)

"وَإِنْ" الواو حرف عطف وإن شرطية "نَشَأْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والفاعل

مستتر تقديره نحن "نُغْرِقْهُمْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط . والهاء مفعوله والجملة

جواب شرط جازم لا محل لها .

وجملة نشأ ابتدائية لا محل لها "فَلا" الفاء حرف استئناف ولا نافية للجنس "صَرِيخَ" اسمها مبني على الفتح "لَهُمْ" خبرها والجملة استئنافية لا محل لها "وَلا" الواو حرف عطف ولا نافية "هُمْ" مبتدأ "يُنْقَذُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع والواو نائب فاعل والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها لا محل لها وجملة ينقذون خبر المبتدأ .

[سورة يس (36) : آية 44]

إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (44)

"إِلَّا" حرف حصر "رَحْمَةً" مفعول لأجله "مِنَّا" متعلقان برحمة "وَمَتاعاً" اسم معطوف على رحمة "إِلى حِينٍ" متعلقان بمتاعا .

[سورة يس (36) : آية 45]

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45)

"وَإِذا" الواو حرف استئناف . إذا ظرفية شرطية "قِيلَ" ماض مبني للمجهول والجملة في محل جر بالإضافة "لَهُمُ" متعلقان بقيل "اتَّقُوا" أمر وفاعله والجملة في محل رفع نائب فاعل قيل "ما" مفعول به "بَيْنَ" ظرف مكان "أَيْدِيكُمْ" مضاف إليه "وَما خَلْفَكُمْ" عطف على سابقه "لَعَلَّكُمْ" لعل واسمها والجملة تعليل "تُرْحَمُونَ" مضارع مرفوع مبني للمجهول ونائب الفاعل والجملة خبر لعل .

[سورة يس (36) : آية 46]

وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (46)

(201/644)

---

"وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "تَأْتِيهِمْ" مضارع ومفعوله والجملة استئنافية لا محل لها "مِنْ آيَةٍ" اسم مجرور لفظا بمن مرفوع محلا فاعل تأتيهم "مِنْ آياتِ" متعلقان بمحذوف صفة "رَبِّهِمْ" مضاف إليه "إِلَّا" حرف حصر "كانُوا" كان واسمها "عَنْها" متعلقان بمعرضين "مُعْرِضِينَ" خبرها والجملة في محل نصب حال.

[سورة يس (36) : آية 47]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (47)

"وَإِذا" الواو حرف عطف وإذا ظرفية شرطية "قِيلَ" ماض مبني للمجهول والجملة في محل جر بالإضافة "لَهُمْ" متعلقان بقيل "أَنْفِقُوا" أمر وفاعله والجملة في محل رفع نائب فاعل قيل "مِمَّا" متعلقان بأنفقوا "رَزَقَكُمُ اللَّهُ" ماض ومفعوله وفاعله والجملة صلة "قالَ" ماض "الَّذِينَ" اسم موصول فاعل "كَفَرُوا" ماض وفاعل والجملة صلة "لِلَّذِينَ" متعلقان بقال

"آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "أَنُطْعِمُ" الهمزة حرف استفهام ونطعم فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره نحن "مَنْ" مفعول به والجملة مقول القول "لَوْ" شرطية "يَشاءُ" مضارع "اللَّهُ" فاعل والجملة صلة "أَطْعَمَهُ" ماض ومفعوله والجملة جواب لو لا محل لها. "إِنْ أَنْتُمْ" إن حرف نفي وأنتم مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "فِي ضَلالٍ" خبر والجملة مقول القول "مُبِينٍ" صفة.

[سورة يس (36) : آية 48]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (48)

"وَيَقُولُونَ" الواو حرف استئناف ومضارع مرفوع وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "مَتى" اسم استفهام خبر "هذَا" مبتدأ مؤخر "الْوَعْدُ" بدل "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" كان واسمها "صادِقِينَ" خبرها وحذف جواب الشرط لأن ما قبله دل عليه.

[سورة يس (36) : آية 49]

(202/644)

---

ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49)

"ما" نافية "يَنْظُرُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة استئنافية "إِلَّا" حرف حصر

"صَيْحَةً" مفعول به "واحِدَةً" صفة "تَأْخُذُهُمْ" مضارع ومفعوله والجملة صفة ثانية لصيحة "وَهُمْ" الواو حالية، هم ضمير مبتدأ "يَخِصِّمُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة خبر والجملة الاسمية في محل نصب حال.

[سورة يس (36) : آية 50]

فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50)

"فَلا" حرف استئناف ولا نافية "يَسْتَطِيعُونَ" مضارع مرفوع بالنون وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "تَوْصِيَةً" مفعول به "وَلا" الواو حرف عطف ولا نافية "إِلى أَهْلِهِمْ" متعلقان بيرجعون "يَرْجِعُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة معطوفة على جملة لا يستطيعون لا محل لها مثلها.

[سورة يس (36) : آية 51]

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51)

"وَنُفِخَ" الواو حرف استئناف وماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو "فِي الصُّورِ" متعلقان بنفخ والجملة استئنافية لا محل لها. "فَإِذا" الفاء حرف عطف إذا فجائية "هُمْ" مبتدأ "مِنَ الْأَجْداثِ" متعلقان بينسلون "إِلى رَبِّهِمْ" متعلقان بينسلون أيضا والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "يَنْسِلُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة خبر المبتدأ.

[سورة يس (36) : آية 52]

قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52)

(203/644)

---

"قالُوا" فعل ماض وفاعل والجملة استئنافية لا محل لها "يا وَيْلَنا" يا أداة نداء ويلنا منادى مضاف "مَنْ" اسم استفهام مبتدأ "بَعَثَنا" ماض وفاعله والجملة خبر "مِنْ مَرْقَدِنا" متعلقان ببعثنا "هذا" مبتدأ "ما" خبر والجملة مقول القول لقول محذوف "وَعَدَ" ماض "الرَّحْمنُ" فاعل "وَصَدَقَ" الواو حرف عطف صدق ماض "الْمُرْسَلُونَ" فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها .

[سورة يس (36) : آية 53]

إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (53)

"إِنْ كانَتْ" إن نافية وماض ناقص واسمه مستتر تقديره الصيحة والجملة استئنافية لا محل لها "إِلَّا" حرف حصر "صَيْحَةً" خبر "واحِدَةً" صفة "فَإِذا" الفاء حرف عطف إذا فجائية "هُمْ" مبتدأ "جَمِيعٌ" خبر والجملة معطوفة على ما قبلها "لَدَيْنا" ظرف مكان "مُحْضَرُونَ" خبر ثان .

[سورة يس (36) : آية 54]

فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54)

"فَالْيَوْمَ" الفاء حرف استئناف وظرف زمان "لا" نافية. "تُظْلَمُ" مضارع مبني للمجهول والجملة استئنافية "نَفْسٌ" نائب فاعل "شَيْئاً" مفعول مطلق "وَلا تُجْزَوْنَ" الواو حرف عطف ولا نافية ومضارع مبني للمجهول والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "إِلَّا" حرف حصر "ما" مفعول به ثان لتجزون "كُنْتُمْ" ماض ناقص واسمه والجملة صلة "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة خبر الفعل الناقص.

[سورة يس (36) : آية 55]

إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (55)

"إِنَّ أَصْحابَ" إن واسمها "الْجَنَّةِ" مضاف إليه "الْيَوْمَ" ظرف زمان "فِي شُغُلٍ" خبر إن الثاني "فاكِهُونَ" خبر إن الأول. والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها.

[سورة يس (36) : آية 56]

هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (56)

"هُمْ" مبتدأ "وَأَزْواجُهُمْ" معطوف على هم "فِي ظِلالٍ" متعلقان بخبر محذوف "عَلَى الْأَرائِكِ" متعلقان بمتكئون "مُتَّكِؤُنَ" خبرهم.

[سورة يس (36) : آية 57]

لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ (57)

"لَهُمْ" خبر مقدم والجملة استئنافية لا محل لها "فِيها" متعلقان بمحذوف حال "فاكِهَةٌ" مبتدأ مؤخر "وَلَهُمْ" خبر مقدم "ما" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "يَدَّعُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة صلة

[سورة يس (36) : آية 58]

سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58)

"سَلامٌ" خبر لمبتدأ مقدم هو سلام "قَوْلًا" مفعول مطلق لفعل محذوف "مِنْ رَبٍّ" صفة لقولا "رَحِيمٍ" صفة لرب

[سورة يس (36) : آية 59]

وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59)

"وَامْتازُوا" الواو حرف عطف امتازوا فعل أمر والواو فاعل "الْيَوْمَ" ظرف زمان والجملة مقول القول لقول محذوف "أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة والها للتنبيه "الْمُجْرِمُونَ" بدل والجملة مقول القول أيضا.

[سورة يس (36) : آية 60]

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60)

"أَلَمْ" الهمزة للاستفهام والتوبيخ والتقريع ولم جازمة. "أَعْهَدْ" مضارع مجزوم وفاعله ضمير مستتر تقديره أنا "إِلَيْكُمْ" متعلقان بأعهد "يا بَنِي" يا حرف نداء ومنادى مضاف منصوب بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "آدَمَ" مضاف إليه "أَنْ لا" أن تفسيرية لا ناهية "تَعْبُدُوا" مضارع مجزوم بلا "الشَّيْطانَ" مفعول به "إِنَّهُ" إن واسمها "لَكُمْ" متعلقان بعدو "عَدُوٌّ" خبر إن "مُبِينٌ" صفة والجملة الاسمية تعليل للنهي لا محل لها.

[سورة يس (36) : آية 61]

وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (61)



"وَأَنِ" الواو حرف عطف وأن مفسرة "اعْبُدُونِي" أمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على أن لا تعبدوا لا محل لها "هذا" مبتدأ "صِراطٌ" خبر "مُسْتَقِيمٌ" صفة والجملة تعليل للأمر.

[سورة يس (36) : آية 62]

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62)

"وَلَقَدْ" الواو حرف استئناف واللام جواب للقسم المحذوف قد حرف تحقيق "أَضَلَّ" ماض فاعله مستتر تقديره هو "مِنْكُمْ" متعلقان بأضل "جِبِلًّا" مفعول به "كَثِيراً" صفة والجملة جواب القسم لا محل لها "أَفَلَمْ" الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء حرف استئناف ولم جازمة "تَكُونُوا" مضارع ناقص مجزوم والواو اسمها "تَعْقِلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون وفاعله والجملة خبر تكونوا والجملة الفعلية استئنافية لا محل لها .

[سورة يس (36) : آية 63]

هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63)

"هذِهِ جَهَنَّمُ" مبتدأ وخبر والجملة استئنافية لا محل لها "الَّتِي" صفة "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة صلة لا محل لها . "تُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة خبر كنتم .

[سورة يس (36) : آية 64]

اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64)

"اصْلَوْهَا" أمر وفاعله ومفعوله "الْيَوْمَ" ظرف زمان "بِما" متعلقان باصلوها "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَكْفُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون وفاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم تكفرون صلة لا محل لها .

[سورة يس (36) : آية 65]
الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (65)

(206/644)

---

"الْيَوْمَ" ظرف زمان "نَخْتِمُ" مضارع مرفوع والفاعل مستتر تقديره نحن "عَلى أَفْواهِهِمْ" متعلقان بنختم "وَتُكَلِّمُنا" مضارع مرفوع ومفعول به "أَيْدِيهِمْ" فاعل مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها . "وَتَشْهَدُ" الواو حرف عطف وفعل مضارع "أَرْجُلُهُمْ" فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها .
"بِما" متعلقان بتكلمنا "كانُوا" كان واسمها "يَكْسِبُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وجملة كانوا صلة لا محل لها وجملة يكسبون خبر كانوا .
[سورة يس (36) : آية 66]
وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66)
"وَلَوْ نَشاءُ" الواو حرف عطف ولو شرطية ونشاء مضارع وفاعل مستتر تقديره نحن "لَطَمَسْنا" اللام واقعة في جواب الشرط وماض وفاعله والجملة جواب شرط لا محل لها "عَلى أَعْيُنِهِمْ" متعلقان بطمسنا "فَاسْتَبَقُوا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله والجملة

عطف على ما قبلها لا محل لها .

"الصِّراطَ" منصوب بنزع الخافض "فَأَنَّى" الفاء الفصيحة وأنى اسم استفهام في محل نصب على الحال "يُبْصِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها .

[سورة يس (36) : آية 67]

وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ (67)

"وَلَوْ" الواو حرف عطف ولو شرطية "نَشاءُ" مضارع مرفوع وفاعل مستتر تقديره نحن والجملة ابتدائية لا محل لها "لَمَسَخْناهُمْ" اللام واقعة في جواب الشرط وماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "عَلى مَكانَتِهِمْ" متعلقان بمحذوف حال "فَمَا" الفاء حرف عطف ما نافية "اسْتَطاعُوا" ماض وفاعله "مُضِيًّا" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلا" الواو حرف عطف ولا نافية "يَرْجِعُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها .

(207/644)

---

[سورة يس (36) : آية 68]

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ (68)

"وَمَنْ" الواو حرف استئناف ومن اسم شرط جازم مبتدأ "نُعَمِّرْهُ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط ومفعول به والفاعل مستتر تقديره نحن "نُنَكِّسْهُ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط ومفعوله والفاعل مستتر تقديره نحن وجملتا الشرط والجواب في محل رفع خبر المبتدأ "فِي الْخَلْقِ" متعلقان بننكسه "أَفَلا" الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء حرف استئناف ولا نافية "يَعْقِلُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة يس (36) : آية 69]

وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69)

"وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "عَلَّمْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله "الشِّعْرَ" مفعول به ثان والجملة استئنافية لا محل لها "وَما" الواو حرف عطف وما نافية "يَنْبَغِي" مضارع مرفوع والجملة معطوفة على علمناه لا محل لها "لَهُ" متعلقان بينبغي "إِنْ" نافية "هُوَ" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "ذِكْرٌ" خبر "وَقُرْآنٌ" عطف "مُبِينٌ" صفة والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة يس (36) : آية 70]

لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (70)

"لِيُنْذِرَ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد اللام والمصدر المؤول في محل جر باللام وهما متعلقان بمحذوف أي أنزل عليه للإنذار "مَنْ" مفعول به "كانَ" ماض ناقص "حَيًّا" خبر كان واسمها ضمير مستتر تقديره هو والجملة صلة "وَيَحِقَّ" الواو حرف عطف

ومضارع منصوب معطوف على لينذر "الْقَوْلُ" فاعل "عَلَى الْكافِرِينَ" متعلقان بيحق.

[سورة يس (36) : آية 71]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (71)

(208/644)

---

"أَوَلَمْ" الهمزة للاستفهام والتوبيخ والواو حرف عطف عطفت على محذوف مقدر ألم يتفكروا ولم يروا. "يَرَوْا" مضارع مجزوم بلم وفاعله "أَنَّا" أن واسمها "خَلَقْنا" ماض وفاعله والجملة خبر والمصدر المؤول من أنا وما بعدها سدّ مسد مفعولي يروا "لَهُمْ" متعلقان بخلقنا "مِمَّا" متعلقان بمحذوف حال "عَمِلَتْ" ماض والجملة صلة "أَيْدِينا" فاعل "أَنْعاماً" مفعول به "فَهُمْ" الفاء حرف عطف ومبتدأ "لَها" متعلقان بمالكون "مالِكُونَ" خبر المبتدأ هم والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها.

[سورة يس (36) : آية 72]

وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ (72)

"وَذَلَّلْناها" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "لَهُمْ" متعلقان بذللناها "فَمِنْها" الفاء حرف عطف وتفريع ومنها خبر مقدم

"رَكُوبُهُمْ" مبتدأ مؤخر "وَمِنْها" متعلقان بيأكلون "يَأْكُلُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها.

[سورة يس (36) : آية 73]

وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (73)

"وَلَهُمْ" الواو حرف عطف ولهم متعلقان بخبر مقدم محذوف "فِيها" متعلقان بخبر محذوف أيضا "مَنافِعُ" مبتدأ مؤخر "وَمَشارِبُ" معطوفة على منافع "أَفَلا" الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء للاستئناف ولا نافية "يَشْكُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة استئنافية لا محل لها.

[سورة يس (36) : آية 74]

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74)

"وَاتَّخَذُوا" الواو حرف عطف واتخذوا فعل ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "مِنْ دُونِ" متعلقان باتخذوا "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "آلِهَةً" مفعول به أول "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها والجملة تعليل للاتخاذ "يُنْصَرُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع والواو نائب فاعل والجملة خبر.

[سورة يس (36) : آية 75]

لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75)

"لا يَسْتَطِيعُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع وفاعله والجملة حال "نَصْرَهُمْ" مفعول به "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ "لَهُمْ" متعلقان بمحذوف حال "جُنْدٌ" خبر المبتدأ هم والجملة الاسمية حالية "مُحْضَرُونَ" خبر ثان.

[سورة يس (36) : آية 76]

فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (76)

"فَلا يَحْزُنْكَ" الفاء حرف استئناف ولا جازمة ويحزنك مضارع مجزوم بلا ومفعوله والجملة استئنافية لا محل لها "قَوْلُهُمْ" فاعل "إِنَّا" إن واسمها "نَعْلَمُ" مضارع والجملة خبر إن "ما" مفعول به "يُسِرُّونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة صلة "وَما يُعْلِنُونَ" الجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة يس (36) : آية 77]

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77)

"أَوَلَمْ" الهمزة حرف استفهام والواو حرف عطف ولم جازمة "يَرَ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة "الْإِنْسانُ" فاعل "أَنَّا" أن واسمها "خَلَقْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر

والمصدر المؤول سد مسد مفعولي ير "مِنْ نُطْفَةٍ" متعلقان بخلقناه "فَإِذا" الفاء حرف عطف وإذا فجائية "هُوَ" مبتدأ "خَصِيمٌ" خبر والجملة معطوفة على لم ير لا محل لها "مُبِينٌ" صفة.

[سورة يس (36) : آية 78]

وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78)

*(210/644)*

---

"وَضَرَبَ" الواو حرف عطف، ضرب ماض وفاعل مستتر تقديره هو والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "لَنا" متعلقان بضرب "مَثَلًا" مفعول به "وَنَسِيَ" ماض معطوف على ضرب والجملة لا محل لها "خَلْقَهُ" مفعول به "قالَ" ماض والجملة تفسيرية لا محل لها "مَنْ يُحْيِ" من اسم استفهام مبتدأ ومضارع مرفوع والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية مقول القول "الْعِظامَ" مفعول به "وَهِيَ" الواو حالية ومبتدأ "رَمِيمٌ" خبر والجملة حال.

[سورة يس (36) : آية 79]

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79)

"قُلْ" أمر والجملة استئنافية "يُحْيِيهَا" مضارع ومفعوله والجملة مقول القول "الَّذِي" فاعل

"أَنْشَأَها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة "أَوَّلَ" ظرف "مَرَّةٍ" مضاف إليه

"وَهُوَ" الواو حرف استئناف وهو مبتدأ "بِكُلِّ" متعلقان بعليم "خَلْقٍ" مضاف إليه "عَلِيمٌ"

خبر والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة يس (36) : آية 80]

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80)

"الَّذِي" بدل من الذي السابقة "جَعَلَ" ماض والجملة صلة "لَكُمْ" متعلقان بجعل "مِنَ

الشَّجَرِ" متعلقان بجعل أيضا "الْأَخْضَرِ" صفة "ناراً" مفعول به لجعل "فَإِذا" الفاء حرف

عطف وإذا فجائية "أَنْتُمْ" مبتدأ "مِنْهُ" متعلقان بتوقدون "تُوقِدُونَ" مضارع مرفوع وفاعله

والجملة خبر .

[سورة يس (36) : آية 81]

أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ

(81)

"أَوَلَيْسَ" الهمزة للاستفهام الإنكاري والواو حرف استئناف، ليس ماض ناقص "الَّذِي" اسمها "خَلَقَ" ماض "السَّماواتِ" مفعوله والجملة صلة "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات "بِقادِرٍ" الباء حرف جر زائد وقادر اسم مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليس "عَلى" حرف جر "أَنْ" حرف ناصب "يَخْلُقَ" مضارع منصوب والمصدر المؤول في محل جر بعلى والجار والمجرور متعلقان بقادر "مِثْلَهُمْ" مفعوله

"بَلى" حرف جواب "وَهُوَ" الواو حرف عطف وهو مبتدأ "الْخَلَّاقُ" خبر "الْعَلِيمُ" خبر ثان والجملة الاسمية معطوفة على ما يفيده الإيجاب.

[سورة يس (36) : آية 82]

إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82)

"إِنَّما" كافة ومكفوفة "أَمْرُهُ" مبتدأ "إِذا" ظرف للمستقبل متضمن معنى الشرط "أَرادَ" ماض وفاعل مستتر تقديره هو والجملة في محل جر بالإضافة "شَيْئاً" مفعول به "أَنْ يَقُولَ" مضارع منصوب بأن وأن وما بعدها في تأويل مصدر خبر المبتدأ أمره "لَهُ" متعلقان بيقول "كُنْ" أمر تام والفاعل مستتر تقديره أنت والجملة مقول القول "فَيَكُونُ" الفاء الفصيحة ومضارع مرفوع والجملة جواب شرط محذوف لا محل لها.

[سورة يس (36) : آية 83]

فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)

"فَسُبْحانَ" الفاء حرف استئناف ومفعول مطلق فعله محذوف "الَّذِي" مضاف إليه "بِيَدِهِ" خبر مقدم "مَلَكُوتُ" مبتدأ مؤخر والجملة صلة لا محل لها "كُلِّ" مضاف إليه "شَيْ ءٍ" مضاف إليه ثان "وَإِلَيْهِ" الواو حرف عطف وجار ومجرور متعلقان بترجعون "تُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها . انتهى انتهى .

اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 101.88﴾

*(212/644)*

---

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة يس

ذكر فِيهَا عشرَة أَحَادِيث

1070 - قَوْله

رَوَى أَن أَبَا جهل حلف إِن رَأَى مُحَمَّدًا يُصَلِّي لَيَرْضَخَنَّ رَأسه فَأَتَاهُ وَمَعَهُ حجر ليدمغه فَلَمَّا رفع يَده انْثَنَتْ إِلَى عُنُقه وَلَزِقَ الْحجر بِيَدِهِ حَتَّى فكوه عَنْهَا بِجهْد فَرجع إِلَى قومه فَأخْبرهُم فَقَالَ آخر أَنا أَقتلهُ بِهَذَا الْحجر فَذهب فَأَعْمَى الله بَصَره

قلت رَوَاهُ بِنَقص يسير أَبُو نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فِي الْفَصْل الثَّالِث وَالثَّلَاثِينَ من طَرِيق ابْن إِسْحَاق ثني مُحَمَّد بن أبي مُحَمَّد مولى زيد بن ثَابت عَن سعيد أَو عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس قَالَ إِن أَبَا جهل قَالَ إِنِّي أعَاهد الله لأجلسن غَدا لمُحَمد بِحجر مَا أُطِيق حمله فَإِذا سجد فِي صلَاته فضخت بِهِ رَأسه فَلَمَّا أصبح أَخذ أَبُو جهل حجرا كَمَا وصف وَغدا إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَوَجَدَهُ يُصَلِّي بَين الرُّكْنَيْنِ وغدت قُرَيْش فَجَلَست فِي أَنْدِيَتهمْ ينتظرون مَا يفعل أَبُو جهل فَلَمَّا سجد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم احْتمل أَبُو جهل الْحجر ثمَّ أقبل نَحوه حَتَّى إِذا دنا مِنْهُ رَجَعَ مُنْهَزِمًا مَرْعُوبًا قد يبست يَدَاهُ عَلَى الْحجر حَتَّى قذف الْحجر من يَده انْتهى وَهُوَ فِي أَوَائِل سيرة ابْن هِشَام من قَول ابْن إِسْحَاق فِي كَلَام طَوِيل

1071 - الحَدِيث الأول

(213/644)

---

عَن جَابر قَالَ أردنَا النقلَة إِلَى الْمَسْجِد وَالْبِقَاع حوله خَالِيَة فَبلغ ذَلِك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَتَانَا فِي دِيَارنَا وَقَالَ (يَا بني سَلمَة بَلغنِي أَنكُمْ تُرِيدُونَ النقلَة إِلَى الْمَسْجِد) فَقُلْنَا نعم بعد علينا الْمَسْجِد وَالْبِقَاع حوله خَالِيَة فَقَالَ (عَلَيْكُم دِيَاركُمْ فَإِنَّمَا تكْتب لكم

آثَاركُم ) قَالَ فَمَا وَدِدْنَا حضرةَ الْمَسْجد لما قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قلت رَوَاهُ مُسلم بتَغَيُّر يسير فِي الصَّلَاة فِي بَاب كَثْرَة الْخطأ إِلَى الْمَسَاجد من حَدِيث أبي نَضرة عَن جَابر بن عبد الله قَالَ خلت الْبِقَاع حول الْمَسْجد فَأَرَادَ بَنو سَلمَة أَن يَنْتَقِلُوا إِلَى قريب من الْمَسْجد فَبلغ ذَلِك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُم ( إِنَّه بَلغنِي أَنكُمْ تُرِيدُونَ أَن تنتقلوا قرب الْمَسْجد ) فَقَالُوا نعم يَا رَسُول الله قَالَ ( يَا بني سَلمَة دِيَاركُمْ تكْتب آثَاركُم دِيَاركُمْ تكْتب آثَاركُم ) فَقَالُوا مَا كَانَ يسرنَا أَنا كُنَّا تحولنا انْتهى

ورَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الأول من الْقسم الأول بِلَفْظ الْمُصَنّف بحروفه إِلَّا أَنه قَالَ فَمَا وَدِدْنَا أَنا بحضرة الْمَسْجد

1072 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ( سباق الْأُمَم ثَلَاثَة لم يكفروا بِاللَّه طرفَة عين عَليّ بن أبي طَالب وَصَاحب يَاسِين وَمُؤمن آل فِرْعَوْن )

(214/644)

---

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ بِنَقص فِي مُعْجَمه من حَدِيث حُسَيْن بن حسن الْأَشْقَر عَن سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن ابْن أبي نجيح عَن مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (

السباق ثَلَاثَة فالسَّابق إِلَى مُوسَى يُوشَع بن نون وَالسَّابق إِلَى عِيسَى صَاحب ياسين وَالسَّابق إِلَى مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلي بن أبي طَالب) انْتَهَى

وَرَوَاهُ كَذَلِك ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره والعقيلي فِي الضُّعَفَاء وأعله بحُسَيْن الْأَشْقَر وَقَالَ إِنَّه شيعي مَتْرُوك وَلَا يعرف هَذَا إِلَّا من جِهَته وَهُوَ حَدِيث مُنكر

وَرَوَاهُ بِلَفْظ المُصَنّف الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث عَمْرو بن جَمِيع عَن مُحَمَّد بن أبي لَيْلَى عَن أَخِيه عِيسَى بن عبد الرَّحْمَن بن أبي لَيْلَى عَن أَبِيه قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (سباق الْأُمَم ثَلَاثَة) إِلَى آخِره سَوَاء

وَحَدِيث السباق أَرْبَعَة رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الْفَضَائِل من حَدِيث عمَارَة بن زَاذَان عَن ثَابت عَن أنس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (السباق أَرْبَعَة أَنا سَابق الْعَرَب وبلال سَابق الْحَبَشَة وصهيب سَابق الرّوم وسلمان سَابق الْفرس) انْتَهَى وَلم يُصَحِّحهُ وَإِنَّمَا قَالَ تفرد بِهِ عمَارَة بن زَاذَان عَن ثَابت انْتَهَى قَالَ الذَّهَبِيّ فِي مُخْتَصره وَعمارَة بن زَاذَان واه ضعفه الدَّارَقُطْنِيّ انْتَهَى

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الصَّغِير من حَدِيث بَقِيَّة بن الْوَلِيد ثَنَا أبي عَن مُحَمَّد بن زِيَاد عَن أبي أُمَامَة مَرْفُوعا نَحوه وَزَاد فِيهِ إِلَى الْجنَّة

وَذكره ابْن أبي حَاتِم فِي علله بِهَذَا السَّنَد وَقَالَ سَمِعت أبي وَأَبا زرْعَة يَقُولَانِ هَذَا حَدِيث بَاطِل لَا أصل لَهُ بِهَذَا الْإِسْنَاد

1073 - الحَدِيث الثَّالِث

فِي حَدِيث مَرْفُوع نصح قومه حيا وَمَيتًا

قلت رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا الْحسن بن مُحَمَّد السكونِي الْكُوفِي ثَنَا عَليّ بن مُحَمَّد بن خَالِد الْمُطَرز ثَنَا عمر بن إِسْمَاعِيل بن مجَالد ثَنَا أبي ثَنَا بَيَان عَن قيس بن أبي حَازِم عَن الْمُغيرَة بن شُعْبَة أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لما هَاجر إِلَى الْمَدِينَة وَأهل مَكَّة حَرْب وَأهل الطَّائِف حَرْب وَكَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم جَالِسا إِذْ جَاءَهُ عُرْوَة بن مَسْعُود فَسلم عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ثمَّ أقبل عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ يَا



رَسُول الله إِنِّي أسلمت لم يغزها وَلم يطأ أرْضهَا جَيش قَالَ نعم قَالَ فَاجْعَلنِي رَسُولك إِلَيْهِم فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أَتَخَوَّف أَن يقتلوك) قَالَ لَو وجدوني نَائِما لم

يوقظوني قَالَ (فَأَنت رَسُولِي إِلَيْهِم) فَانْطَلق إِلَيْهِم فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَام فَرَمَاهُ رجل مِنْهُم بِسَهْم فَأَصَاب مَقْتَله فَوَقع وَاجْتمع حوله بَنو عَمه فَكَانَ يَقُول لَهُم وَهُوَ فِي النزع يَا معشر ثَقِيف ايتوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَاطْلُبُوا مِنْهُ الْأمان قبل أَن يبلغهُ موتِي فيغزوكم فَمَا زَالَ هَذَا كَلَامه حَتَّى قبض رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لقد نصحهمْ حَيا وَمَيتًا) وَشبهه بِصَاحِب ياسين إِذْ نصح قومه حَيا وَمَيتًا فَقَالَ يَا لَيْت قومِي يعلمُونَ بِمَا غفر لي رَبِّي وَجَعَلَنِي من الْمُكرمين انْتَهَى

1074 - قَوْله

عَن ابْن عَبَّاس أَنه قيل لَهُ إِن قوما مَا يَزْعمُونَ أَن عليا مَبْعُوث قبل يَوْم الْقِيَامَة فَقَالَ بئس الْقَوْم نَحن إِذا نَكَحْنَا نِسَاءَهُ وقسمنا مِيرَاثه

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي فَضَائِل الصَّحَابَة عَن أبي إِسْحَاق السبيعِي عَن عَمْرو بن الْأَصَم قَالَ قلت لِلْحسنِ بن عَلّي إِن هَذِه الشِّيعَة تزْعم أَن عليا عَلَيْهِ السَّلَام مَبْعُوث قبل يَوْم الْقِيَامَة فَقَالَ كذبُوا مَا أُولَئِكَ شيعَة لَو كَانَ مَبْعُوثًا مَا زَوجنَا نِسَاءَهُ وَلَا اقتسمْنَا مَاله انْتَهَى وَسكت عَنهُ

وروَاهُ فِي تَفْسِير سُورَة الْبَقَرَة من حَدِيث عمرَان بن الْحَارث قَالَ بَينا نَحن عِنْد ابْن عَبَّاس إِذْ جَاءَ رجل فَقَالَ من أَيْن جئْت قَالَ من الْعرَاق قَالَ من أَيهمْ قَالَ من الْكُوفَة قَالَ فَمَا الْخَبَر قَالَ تركتهم وهم يتحدثون أَن عليا خَارج إِلَيْهِم فَقَالَ لَا أَبَا لَك لَو شعرنَا ذَلِك مَا أنكحنا نِسَاءَهُ مُخْتَصر وَهُوَ حَدِيث الْكتاب فَإِنَّهُ من رِوَايَة بن عَبَّاس

1075 - الحَدِيث الرَّابِع

أَعدَدْت لعبادي الصَّالِحين مَا لَا عين رَأَتْ وَلَا أذن سَمِعت وَلَا خطر عَلَى قلب بشر بله مَا أطلعتم عَلَيْهِ

قلت رَوَاهُ الْجَمَاعَة إِلَّا أَبَا دَاوُد من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَقد تقدم فِي سُورَة السَّجْدَة

1076 - الحَدِيث الْخَامِس

فِي الحَدِيث يَقُول العَبْد يَوْم الْقِيَامَة إِنِّي لَا أُجِيز عَلّي شَاهدا إِلَّا من نَفسِي فيختم عَلَى فِيهِ وَيُقَال لأركانه انطقي فتنطق بأعماله ثمَّ يخلى بَينه وَبَين الْكَلَام فَيَقُول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أُنَاضِل

قلت رواه مسلم في الزهد من حديث عبيد الله الأشجعي عن سفيان الثوري عن عبيد المكي عن فضيل عن الشعبي عن أنس بن مالك قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال (هل تدرون مم أضحك) قال قلنا الله ورسوله أعلم قال (من مخاطبة العبد لربه فيقول يا رب ألم تجرني من الظلم فيقول بلى فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني قال فيقول فكفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي قال فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل) انتهى

ووهم الحاكم في مستدركه فرواه في كتاب الأهوال بسنده ومتنه وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه انتهى

وقال الحميدي في الجمع بين الصحيحين ليس للشعبي عن أنس في الصحيح غير هذا الحديث انتهى

وقال النسائي في التفسير في سورة الانفطار بعد أن رواه لا أعلم أحدا رواه عن الثوري غير الأشجعي وهو حديث غريب

1077 - الحديث السادس

قوله صلى الله عليه وسلم

(أنا النبي لا أكذب . . . أنا ابن عبد المطلب)

وَقَال

(هَل أَنْت إِلَّا أصْبع دميت . . . وَفِي سَبِيل الله مَا لقِيت)

قلت أخرجهَا البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي الْجِهَاد وَمُسلم فِي الْمَغَازِي

*(219/644)*

---

الأول من حَدِيث الْبَراء بن عَازِب قَالَ لَهُ رجل أفررتم عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْم حنين قَالَ لَا لَكِن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لم يفر إِن هوَازن كَانُوا قوما رُمَاة وَإِنَّا لما لَقيناهُمْ حملنَا عَلَيْهِم فانهزموا فَأقبل الْمُسلمُونَ عَلَى الْغَنَائِم استقبلونا بِالسِّهَامِ فَأَما رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لم يفر فَلَقَد رَأَيْته وَإنَّهُ لعَلَى بغلته الْبَيْضَاء وَإِن أَبَا سُفْيَان آخذ بلجامها وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (أَنا النَّبِي لَا كذب أَنا ابْن عبد الْمطلب) انْتَهَى

الثَّانِي من حَدِيث جُنْدُب بن سُفْيَان أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي بعض الْمشَاهد وَقد دميت أَصَابِعه فَقَالَ (هَل أَنْت إِلَّا أصْبع دميت) إِلَى آخِره

1078 - الحَدِيث السَّابِع

حَدِيث تَلْبِيَة رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِن الْحَمد وَالنعْمَة لَك)

قلت رَوَاهُ الْأَئِمَّة السِّتَّة فِي كتبهمْ من حَدِيث ابْن عمر أَن تَلْبِيَة رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسلم (لبيْك اللَّهُمَّ لبيْك لبيْك لَا شريك لَك لبيْك إن الْحَمد وَالنعْمَة لَك وَالْملك لَا شريك لَك) قَالَ وَكَانَ عبد الله بن عمر يزِيد فِي تَلْبِيَة لبيْك لبيْك وَسَعْديك وَالْخَيْر بَين يَديك وَالرغْبَاء إِلَيْك وَالْعَمَل انْتهى

وَقَوله كسر أَبُو حنيفَة وَرفع الشَّافِعِي وكلَاهُمَا تَعْلِيل يَعْنِي همزَة إِن وَهَذَا الْخلاف لَا أعرفهُ لَكِن قَالَ الشَّيْخ تَقِيّ الدّين فِي الإِمَام قَالَ الْخطابِيّ هما

(220/644)

---

رِوَايَتَانِ وَالْكَسْر أَجود قَالَ ثَعْلَب من كسر فقد عَم وَمن فتح فقد خص قَالَ القَاضِي عِيَاض وَالْأَوْجه مَا قَالَه وَذَلِكَ أَنه اسْتَأْنف الْأَخْبَار وَالِاعْتِرَاف لله بِمَا يجب لَهُ من الْحَمد وَمَا لَهُ من النِّعْمَة وَإِذا فتح فَإِنَّمَا تَقْتَضِي التَّلْبِيَة لَهُ من أجل ذَلِك وَلَا تعلق للتَّلْبِيَةِ بهَا إِلَّا على بعد وَتَخْرِيج وَهَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ ثَعْلَب من الْعُمُوم وَالْخُصُوص انْتهى كَلَامه

1079 - الحَدِيث الثَّامِن

رُوِيَ أَن جمَاعَة من كفار قُرَيْش مِنْهُم أبي بن خلف وَأَبُو جهل وَالْعَاص بن وَائِل والوليد بن الْمُغيرَة تكلمُوا فِي ذَلِك فَقَالَ لَهُم أبي أَلا تَسْمَعُونَ مَا يَقُول مُحَمَّد إِن الله يبْعَث الْأَمْوَات قَالَ وَاللات والعزى لأصيرن لَهُ ولأخصمنه وَأخذ عظما بَالِيًا فَجعل يفته بِيَدِهِ وَيَقُول يَا مُحَمَّد

أَتَرَى اللهُ يحيي هَذَا بَعْدمَا رم فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (نعم وَيبْعَثك وَيُدْخِلك جَهَنَّم)

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَنَقله الثَّعْلَبِيّ عَن قَتَادَة هَكَذَا بِلَفْظ الْمُصَنّف

وَرَوَى الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك من حَدِيث عَمْرو بن عون ثَنَا هُشَيْم أَنا أَبُو بشر عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس أَن الْعَاصِ بن وَائِل أَخذ عظما من الْبَطْحَاء ففته بِيَدِهِ ثمَّ قَالَ لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُحيي الله هَذَا بعد مَا أرى فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (نعم يُمِيتك الله ثمَّ يُحْيِيك ثمَّ يدْخلك جَهَنَّم) قَالَ وَنزلت الْآيَات من آخر يس انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ

(221/644)

---

وَحَدِيث أبي رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْبَعْث والنشور من حَدِيث سعيد بن مَنْصُور عَن خَالِد عَن حُصَيْن عَن أبي مَالك قَالَ جَاءَ أبي بن خلف بِعظم فَجعل يفته بَين يَدي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ من يحيي الْعِظَام وَهِي رَمِيم فَأنْزل الله آخر سُورَة يس انْتَهَى

وَرَوَى الطَّبَرِيّ وَابْن مرْدَوَيْه ثَنَا مُحَمَّد بن سعد ثني أبي ثَنَا عمي ثَنَا أبي عَن أَبِيه عَن ابْن عَبَّاس من حَدِيث الْعَوْفِيّ عَن ابْن عَبَّاس أَن عبد الله ابْن أبي جَاءَ بِعظم يفته فَذكر نَحوه

وَهَذَا فِيهِ نَكَارَة فَإِن السُّورَة مَكِّيَّة وَعبد الله بن أبي بن سلول إِنَّمَا كَانَ فِي الْمَدِينَة وعَلى كل تَقْدِير فَسَوَاء كَانَت فِي أبي بن خلف أَو فِي الْعَاصِ بن وَائِل أَو فيهمَا فَهِيَ عَامَّة فِي كل من أنكر الْبَعْث

وَقد تقدم فِي أول النَّحْل شَيْء من هَذَا

وروى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث نهشل بن سعيد عَن الضَّحَّاك عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله من يحيي الْعِظَام وَهِي رَمِيم قَالَ نزلت هَذِه الْآيَة فِي أبي جهل جَاءَ بِعظم حَائِل بَال إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذراه فَقَالَ من يحيي الْعِظَام وَهِي رَمِيم فَقَالَ الله يَا مُحَمَّد قل يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أول مرّة وَهُوَ بِكُل خلق عليم انْتَهَى

1080 - قَوْله

عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لَيْسَ من شَجَرَة إِلَّا وفيهَا نَار إِلَّا الْعنَّاب

1081 - الحَدِيث التَّاسِع



---

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِن لكل شَيْء قلب وقلب الْقُرْآن يس وَمن قَرَأَ يس يُرِيد بهَا وَجه الله تَعَالَى غفر الله لَهُ وَأَعْطَاهُ من الْأجر كَأَنَّمَا قَرَأَ الْقُرْآن اثْنَتَيْنِ وَعشْرين مرّة

وأَيمَا مُسلم قرئ عِنْده إِذا نزل بِهِ ملك الْمَوْت سُورَة يس نزل بِكُل حرف منا عشرَة أَمْلَاك يقومُونَ بَين يَدَيْهِ صُفُوفا يصلونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَيشْهدُونَ غسله ويشيعون جنَازَته وَيصلونَ عَلَيْهِ وَيشْهدُونَ دَفنه وأَيمَا مُسلم قَرَأَ سُورَة يس وَهُوَ فِي سَكَرَات الْمَوْت لم يقبض ملك الْمَوْت روحه حَتَّى يَجِيئهُ رضوَان خَازِن الْجنَّة بشربة من شراب الْجنَّة يشْربهَا وَهُوَ عَلَى فرَاشه فَيقبض ملك الْمَوْت روحه وَهُوَ ريَّان وَلَا يحْتَاج إِلَى حَوْض من حِيَاض الْأَنْبِيَاء حَتَّى يدْخل الْجنَّة وَهُوَ ريَّان )

(223/644)

---

قلت رَوَاهُ الْقُضَاعِي فِي مُسْند الشهَاب من طَرِيق مُحَمَّد بن جرير الطَّبَرِيّ ثَنَا زَكَرِيَّا بن يَحْيَى ثَنَا شَبابَة ثَنَا مخلد بن عبد الْوَاحِد عَن عَلّي بنى زيد بن جدعَان وَعَطَاء بن أبي مَيْمُونَة عَن زر حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ( إِن لكل شَيْء قلب وَإِن قلب الْقُرْآن يس من قَرَأَ يس وَهُوَ يُرِيد بهَا الله عَزَّ وَجَلَّ غفر الله لَهُ وَأعْطِي من الْأجر كَأَنَّمَا قَرَأَ الْقُرْآن اثْنَتَيْ عشر مرّة وأَيمَا مُسلم قرئ عِنْده إِذا نزل بِهِ ملك الْمَوْت سُورَة يس نزل بِكُل حرف مِنْهَا عشرَة أَمْلَاك يقومُونَ بَين يَدَيْهِ صُفُوفا يصلونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَيشْهدُونَ عَلَيْهِ ويشيعون جنَازَته وَيصلونَ عَلَيْهِ وَيشْهدُونَ دَفنه وأَيمَا مُسلم

قَرَأَ يس وَهُوَ فِي سَكَرَات الْمَوْت لم يقبض ملك الْمَوْت روحه حَتَّى يَجِيئهُ رضوَان خَازِن الْجنَّة بشربة من الْجنَّة فيشربها وَهُوَ على فرَاشه فيقبض ملك الْمَوْت روحه وَهُوَ ريان وَيمْكث فِي قَبره وَهُوَ ريان ويبعث يَوْم الْقِيَامَة وَهُوَ ريان ويحاسب وَهُوَ ريان وَلَا يحْتَاج إِلَى حَوْض من حِيَاض الْأَنْبِيَاء حَتَّى يدْخل الْجنَّة وَهُوَ ريان ) انْتهى

وَلم أَجِدهُ فِي تَفْسِير الطَّبَرِيّ

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي ثَنَا هَارُون ابْن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب مَرْفُوعا بِلَفْظ الْقُضَاعِي

وَرَوَاهُ أَيْضا عَن الطَّبَرِيّ بِسَنَدِهِ الأول فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث يُوسُف بن عَطِيَّة عَن هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب مَرْفُوعا فَذكره سَوَاء

(224/644)

---

وَقَوله فِي الحَدِيث أَن لكل شَيْء قلب وقلب الْقُرْآن يس هُوَ فِي التِّرْمِذِيّ رَوَاهُ فِي فَضَائِل الْقُرْآن من حَدِيث حميد بن عبد الرَّحْمَن الرُّؤَاسِي عَن الْحسن ابْن صَالح عَن هَارُون أبي مُحَمَّد عَن مقَاتل بن حبَان عَن قَتَادَة عَن انس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (

إِن لكل شَيْء قلبا وَإِن قلب الْقُرْآن يس وَمن قَرَأَ يس كتب الله لَهُ بقراءتها قِرَاءَة الْقُرْآن عشر مرَّات ) انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث غَرِيب لَا نعرفه إِلَّا من حَدِيث حميد بن عبد الرَّحْمَن

وَهَارُون أَبُو مُحَمَّد شيخ مَجْهُول وَفِي الْبَاب عَن أبي بكر الصّديق وَأبي هُرَيْرَة وَحَدِيث أبي بكر الصّديق لَا يَصح وَحَدِيث أبي هُرَيْرَة مَنْظُور فِيهِ

قلت حَدِيث أبي هُرَيْرَة رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث زيد بن الْحباب عَن حميد الْمَكِّيّ مولى آل عَلْقَمَة عَن عَطاء بن أبي رَبَاح عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( إِن لكل شَيْء قلب وَإِن قلب الْقُرْآن يس ) انْتَهَى وَقَالَ لَا نعلمهُ يرويهِ عَن حميد إِلَّا زيدا انْتَهَى

وَذكره عبد الْحق فِي أَحْكَامه من جِهَة الْبَزَّار وَسكت عَنهُ وَتعقبه ابْن الْقطَّان فَقَالَ حميد هَذَا مولى بني عَلْقَمَة لَا نَعْرِف روى عَنهُ إِلَّا زيد بن الْحباب قَالَ وَقد ذكر هُوَ ذَلِك فِي أَحْكَامه الْكُبْرَى انْتَهَى

1082 - الحَدِيث الْعَاشِر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( إِن فِي الْقُرْآن سُورَة تشفع قارئها وَتغْفر لمستمعها أَلا وَهِي سُورَة يس )

قلت رواهُ الثَّعْلَبيّ أَخْبرني مُحمَّد بن مُحمَّد ثنَا مُحمَّد بن مُحمَّد بن يَعْقُوب ثنَا مُحمَّد بن عبد الله بن مُحمَّد بن مُسلم الْمَلْطِي بِمصْر ثنَا إِسْمَاعِيل بن حَمْدَوَيْه النَّيْسَابُورِي ثنَا أَحْمد بن عمرَان الرَّازِيّ عَن مُحَمَّد بن عُمَيْر عَن هِشَام بن عُرْوَة عَن أَبِيه عَن عَائِشَة قَالَت قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِن فِي الْقُرْآن سُورَة تشفع لقارِئها وَيغْفر لمُسْتَمِعِهَا أَلا وَهِي سُورَة يس) انْتهى

وَعَزاهُ الْقُرْطُبِيّ فِي التذْكَار لأبي عِيسَى التِّرْمِذِيّ من حَدِيث عَائِشَة وَالتِّرْمِذِيّ الْحَكِيم من حَدِيث أبي بكر وَينظر. انتهى انتهى. اهـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار ج 3 ص 171.161﴾

(226/644)

---

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي:

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة يس

قوله تعالى : ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ، الآية/ 78 ، 79 .

فيه دليل على استعمال القياس والاعتبار والتعلق بطريق الأولى ، فإن الابتداء أصعب من الإعادة ، والإعادة أيسر من الابتداء ، والقادر على الأعظم قادر على الأهون الأدون لا محالة .

فاستدل قوم من أصحاب الشافعي بذلك على أن العظام فيها حياة ، وقد بينا ضعف ذلك في الفقه ، وبينا أن الحياة تطلق بمعنى حياة النمو وذلك حقيقة في العظم والشعر ، والأخرى الحس ولا يتحقق ذلك في العظام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 355﴾

*(227/644)*

---

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة يس» (36)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله «يس» (1) مجازه مجاز ابتداء أوائل السور . .

«لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ» (7) أي وجب . .

ا «إِلَى الْأَذْقانِ» (8) لذقن مجتمع اللحيين . .

«فَهُمْ مُقْمَحُونَ» (8) المقمح والمقنع واحد ، تفسيره أي يجذب الذقن حتى يصير فى الصدر ثم يرفع رأسه «1» قال بشر بن أبى خازم الأسدىّ :

ونحن على جوانبها قعود نغضّ الطّرف كالإبل القماح

«2» [752] .

«سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (10) لها ثلاثة مواضع ، لفظها لفظ الاستفهام وليس باستفهام قال زهير :

سواء عليه أىّ حين أتيته أساعة نحس تتّقى أم بأسعد

«3» [753]

---

(1) . - 4 - 7 «الأذقان . . . رأسه» : رواه الطبري 22/ 88 والذي ورد فى الجمهرة (2/ 182 رواه ابن دريد عن أبى عبيدة ، وفى غريب القرآن للسجستانى (ص : 70

ويقال المقمح الذي جذب ذقنه إلى صدره ثم رفع رأسه .

(2) . - 752 : من كلمة فى مختارات الشعراء ص 80 ورواه ابن دريد وقال فهذا

يخالف قول أبى عبيدة لأنه قال نغض الطرف فكأن المقمح واللّه أعلم رفع شاخصا كان أو مغضيا وهو فى اللسان والتاج (قمح) ، والقرطبي 15/ 8 .

(3) . - 753 : ديوانه ص 232 .

(228/644)

---

فخرج لفظها على لفظ الاستفهام وإنما هو إخبار وكذلك قال حسّان بن ثابت :

ما أبالى أنبّ بالحزن تيس أم لحانى بظهر غيب لئيم

«1» [754] وكذلك قول زهير :

وما أدرى وسوف - إخال - أدرى أقوم آل حصن أم نساء

«2» [755] .

«وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ» (12) أي جعلناه . .

«فِي إِمامٍ مُبِينٍ» (12) أي فى كتاب مبين . .

«فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ» (14) أي قوّينا وشددنا قال النّمر بن تولب :

كأنّ جمرة أو عزّت لها شبها بالجذع يوم تلاقينا بإرمام «3»

[756] أو عزّتها : أو غلبتها ، يقال فى المثل من عزّ بزّ «4» : من قهر سلب وتفسير

«بزّ» انتزع، قال علىّ بن أبى طالب: «5»

---

(1) . - 754: ديوانه ص 378 والكتاب 1/ 437 والشنتمرى 1/ 488 والعيني 4/ 135.

(2) . - 755: ديوانه ص 73 واللسان (قوم) .

(3) . - 8 «أرمام» : جبل فى ديار باهلة بن أعصر وقيل أرمام واد . . . ألخ. (معجم ما استعجم 1/ 141) .

(4) . - 9 «من عزيز» : فى الفاخر ص 72 والميداني 2/ 174 والقرطبي 15/ 14 واللسان (عزز) والفرائد 2/ 267. [. . . . . .]

(5) . - 757: لعله من كلمة فى ديوان متلمس رقم 9.

(229/644)

---

فعففت عن أثوابه «1» ولو اننى كنت المقطّر بزّنى أثوابى

[758] .

«قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ» (19) أي حظكم من الخير والشر . .

«قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ» (20) بعض العرب يقول: يا قوم، يكسرها ولا يطلق ياء

الاضافة كما حذفوا التنوين من نداء المفرد قالوا : يا زيد أقبل وبعضهم ينشد بيت زهير :

تبيّن خليل هل ترى من ظعائن تحمّلن بالعلياء من فوق جرثم

[550] .

«اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ» (21) «من» فى موضع جميع . .

«وَلا يُنْقِذُونِ» 23 تكف هذه الياء ( - كما تكف ياء الإضافة - ) هاهنا وفى آية

أخرى «رَبِّي أَكْرَمَنِ [وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي ] أَهانَنِ» (89/ 15

- 16) قال الأعشى :

ومن كاشح ظاهر غمره إذا ما انتسبت له أنكرن

«2» [759] والعرب تكفّ الياءات المكسورات والمفتوحات من الأرداف قال لبيد ابن

ربيعة :

---

(1) . - 1 «عمرو بن عبد ود» الذي ورد اسمه فى الفروق : أخباره فى تاريخ الطبري

1/ 1475 من الدورة الأولى .

(2) . - 759 : ديوانه 16 والكتاب 2/ 317 والشنتمرى 2/ 290 وأمالى القالي

2/ 263 والسمط ص 903 .

وقبيل من لكيز شاهد رهط مرجوم ورهط ابن المعلّ

«1» [760] مرجوم العصرى من بنى عصر من عبد القيس وابن المعلّى جد الجارود الجذمىّ . .

«إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ» (25) مثل ذلك ومجازها : اسمعونى اسمعوا منى . .

«أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ»

(31) عمل الفعل الذي قبلها فيها «أَلَمْ يَرَوْا» إذا كانت معلقة بما قبلها فهى مفتوحة . .

«وَإِنْ كُلٌّ» (32) إذا خففت «إن» رفعت بها وإن ثقّلتها نصبت «لَمَّا جَمِيعٌ» تفسيرها وإن كلّ لجميع و«ما» مجازها مجاز «مَثَلًا ما بَعُوضَةً» (2/ 26) و«عَمَّا قَلِيلٍ» (23/ 40) .

«الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ» (33) مخففة الميت والميّت قال قوم : إذا كان قد مات فهو خفيف وإذا لم يكن مات فهو مثقل وقوم «2» يجعلونه واحدا ، الأصل الثقيل وهذا

---

(1) . - 760 : لم أجده فى ديوانه وهو فى الكتاب 2/ 317 والجمهرة 2/ 85 ، واللسان (رجم) والشنتمرى 2/ 291 والعيني 4/ 548 . مرجوم : قال ابن دريد : مرجوم لقب رجل من العرب كان سيدا ففاخر رجلا من قومه إلى بعض ملوك الحيرة فقال له

: قد رجمتك بالشرف أي حكمت لك به فسمى مرجوما . البيت . . يريد المعلى وهو

جد الجارود بشر بن عمرو بن المعلى . لكيز : قال الشنتمرى : قبيلة من ربيعة وهم لكيز بن

أفصى وعمر بن جديلة بن أسد ابن ربيعة .

(2) . - 10 - 11 «قال قوم . . . قوم» : قال فى اللسان (موت) : وقيل الميت الذي لم

يمت بعد .

وحكى الجوهري عن الفراء : يقال لمن لم يمت إنه مائت عن قليل ولا يقولون لمن مات هذا

مائت . . إلخ.

(231/644)

---

تخفيفها ، مجازها مجاز «هيّن» ، «ليّن» ثم يخففون فيقولون : هين ، لين ، كما قال ابن

الرّعلاء الغسّانىّ :

ليس من مات فأستراح بميت إنما الميت ميّت الأحياء

[179] فجعله خفيفا جميعا موضع : قد مات وموضع : لم يمت ثم ثقّل الخفيف . .

«وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ» (34 -

35) مجاز هذا مجاز قول العرب يذكرون الاثنين ثم يقتصرون على خبر أحدهما وقد

أشركوا ذاك فيه وفى القرآن «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (9/ 34) وقال الأزرق بن طرفة «1» ابن العمرّد الفراصى من بنى فراص من باهلة:

رمانى بأمر كنت منه ووالدي بريئا ومن دون الطّوىّ رمانى

«2» [761] اقتصر على خبر واحد وقد أدخل الآخر معه وقال حسّان بن ثابت:

إن شرخ الشباب والشّعر الأسود ما لم يعاص كان جنونا

(291) ولم يقل: يعاصيا وكانا..

«نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ» (37) نميّزه منه فنجىء بالظلمة «فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ» (37) أي يقال للرجل: سلخه اللّه من دينه»

..

«حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ» (39) هو الإهان إهان العذق الذي فى أعلاه العثاكيل «4» وهى الشّماريخ والعذق بفتح العين النخلة.

---

(1) . - 8 «الأزرق بن طرفة» : لم أقف على ترجمته.

(2) . - 761: البيت منسوب فى الكتاب (1/ 29) والشنتمرى (1/ 38) إلى ابن أحمر ونسبه المحبى للفرزدق (شواهد الكشاف 311) .

(3) . - 15 «سلخة.. دينه» : هذا القول فى القرطبي 15/ 26.

(4) . - 17 «العثاكيل» : واحدها العثكال والعثكول والعثكلة العذق.

الشماريخ : واحدها الشمراخ والشمرخ.

*(232/644)*

---

«لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ» (40) مجازها : لا يكون أن تفوت . .

«وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (40) مجاز هذا مجاز الموات الذي أجرى مجرى الناس فى القرآن «رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ» (12/4) وفى آية أخرى «لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ» (21/15) . .

«فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» (41) المملوء يقال : شحنها عليه خيلا ورجالا أي ملأها والفلك القطب الذي تدور عليه السماء والفلك السفينة، الواحد والجميع من السّفن . .

«فَلا صَرِيخَ لَهُمْ» (43) لا مغيث لهم . .

«وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا» (43 - 44) مجازها مجاز المصدر الذي فعله بغير لفظه قال رؤبة :

«إنّ نزارا أصبحت نزارا دعوة أبرار دعوا أبرارا

(697) وقال الأحوص :

إنّى لأمنحك الصّدود وإننى قسما إليك مع الصدود لأميل

. (695)

«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ» (51) جميع صورة فخرجت مخرج بسرة وبسر ولم

(233/644)

---

تحمل على ظلمة وظلم ولو كانت كذلك لقلت «صور» فخرجت الواو بالفتحة ومجازها

كسورة المدينة والجميع سور قال جرير :

لما أتى خبر الزّبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشّع

(224) ومنها سور المجد أي أعاليه وقال العجّاج :

فرب ذى سرادق محجور سرت إليه فى أعالى السور

. (4)

«مِنَ الْأَجْداثِ» (51) واحدها جدث وهى لغة أهل العالية ، وأهل نجد يقولون

«جدف» . .

«يَنْسِلُونَ» (51) يسرعون ، والذئب يعسل وينسل . .

«يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا» (52) أي من منامنا ثم جاء «هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ

وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ» (52) استئناف . .

«مُحْضَرُونَ» (53) مشهدون .

«فى شغل فكهون» (55) الفكه الذي يتفكه تقول العرب للرجل إذ كان يتفكه بالطعام أو بالفاكهة أو بأعراض الناس : إن فلانا لفكه بأعراض قالت خنساء أو عمرة بنتها :

فكه على حين العشاء إذا حضر الشتاء وعزّت الجزر

[765]

(234/644)

---

ومن قرأها فاكهون جعله كثير الفواكه صاحب فاكهة قال الحطيئة :

ودعوتنى وزعمت أنك لابن بالصيف تامر

«1» [767] أي ذو لبن وتمر أي عنده لبن كثير وتمر كثير «2» وكذلك عاسل ولاحم وشاحم . .

«فِي ظِلالٍ» (56) واحدها ظلّة وجميع الظل أظلال وهو الكنّ أي لا يضحون .

«عَلَى الْأَرائِكِ» (56) واحدتها أريكة وهى الفرش فى الحجال قال ذو الرّمة وجعلها فراشا :

خدودا جفت في السّير حتى كأنما يباشرن بالمعزاء مسّ الأرائك

(468) .

«ما يَدَّعُونَ» (57) أي ما يتمنون «3» ، تقول العرب : ادّع على ما شئت أي تمنّى على ما شئت . .

«سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ» (58) «سلام» رفع على «لهم» عملت فيها . و«قولا» خرجت مخرج المصدر الذي يخرج من غير لفظ فعله . .

«وَامْتازُوا» (59) أي تميّزوا . .

«أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا» (62) مثقل وبعضهم لا يثقّل ويضمّ الحرف الأول ويثقل اللام ومعناهن الخلق والجماعة .

---

(1) . - 767 : ديوانه ص 75 والكتاب 2/ 88 وفتح الباري 8/ 414 .

(2) . - 1 - 3 «ومن . . . وتمر كثير» : روى ابن حجر هذا الكلام عنه (فتح الباري 8/ 414) .

(3) . - 8 «يتمنون» : روى القرطبي (15/ 45) تفسيره هذا عنه .

«وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ» (66) يقال: أعمى طمس ومطموس وهو أن لا يكون بين جفنى العين غرّ وهو الشق بين الجفنين «1» والريح تطمس الأثر فلا يرى والرجل يطمس الكتاب..

«عَلى مَكانَتِهِمْ» (67) المكان والمكانة واحد..

«رَكُوبُهُمْ «2»» (72) ما ركبوا والحلوبة ما حلبوا و«ركوبهم» فعلهم إذا ضمّ الأول..

«وَهِيَ رَمِيمٌ» (78) الرّفات..

«مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ» (83) والملك واحد. انتهى انتهى. اهـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 165.157﴾

---

(1). - 1 - 2 «أعمى... الجفنين»: هذا الكلام فى الطبري 23/ 16.

(2). - 5 «ركوبهم»: روى القرطبي (15/ 56) فى تفسير هذه الآية ما رواه الجرمي عن أبى عبيدة: الركوبة تكون للواحد والجماعة والركوب لا يكون إلا للجماعة.

[.....]

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة يس

" يس " حرفان من حروف الهجاء ، وليسا اسما للنبى عليه الصلاة والسلام . والقسم التالى " والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين " ، قسم بقوة البرهان على صدق الرسالة ! فإن الدليل الصحيح ينطق بصحة الدعوى . وهذا القرآن معجزة شاهدة بأن محمدا حق ، وأنه مرسل من لدن الله بكتاب مستقيم الهداية منزه عن الافتعال والانحراف " تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون " . والمعجزات المادية لا ترتفع إلى مستوى الإنارة العقلية . والذين ورثوا العكوف علي الأصنام لا تفطمهم عن عبادتها عصا موسى ولا طب عيسى ، وإنما يشفيهم من عماهم كتاب يحرك عقولهم ، ويزيح عنها الأوهام على شرط أن يتحركوا ويعوا . وهناك ناس يعيشون فى عالم السدود والقيود سجناء وراء جدران لا يرون فيها شيئا " إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون " . والمقمح من استقر القيد تحت ذقنه ، فاعوج رأسه إلى فوق فما يحسن الرؤية "وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون " . والتقليد الأعمى يخلق أجيالا من هذا النوع المتحجر لا يصلح بشىء ! ! ولا تجدى معه النذر " إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم " . وسورة يس –

وتسمى قلب القرآن – يمكن أن نقول إنها مكونة من مقدمة وثلاثة – فصول . أما المقدمة ، فهى – كما رأيت – حديث عن القرآن ومستمعيه ، وراديه أو مؤيديه . ! ؟ وأما الفصول الثلاثة ، فهى أدلة منوعة على صدق ما دعا إليه . أولها دليل تاريخى تضمن قصة موجزة عن قرية تشبه مكة ، ناوأت المرسلين وضاقت بالوحى . وثانيها دليل عقلى فتح الأنظار على الكون علوه وسفله ، واكتشف من نظامه وانسجامه ، ما يدل على عظمة خالقه .

(237/644)

---

والدليل الثالث تربوى يأخذ من حقيقة البعث والجزاء ما يكبح الغرائز ويزيح الغفلة ، ويسوق النفوس إلى الحق بمشاعر الرغبة والرهبة . من المقدمة والأدلة الثلاثة تتكون سورة يس وما دعت إليه من توحيد الله ، والتأمل فى ملكوته والاستعداد للقائه للخلود فى جواره . . ويبدأ الدليل الأول بقوله تعالى : " واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . . " . ولا يعنينا اسم القرية ، وإنما يعنينا ما وقع فيها من أحداث . إن أعداء المرسلين يحسبونهم جاءوا لاستلاب سلطانهم وأخذ ما بأيديهم ولذلك سرعان ما تبرموا بهم وتهددوهم وتشاءموا من "إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم * قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون" . ومنذ نوح وأعداء الأنبياء

يحسبونهم طلاب رياسة ، ويظنون دعوتهم شركا المآرب خاصة . ولذلك قالوا لهم ما قيل لنوح " ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين " . لكن الله يخلق رجالا يعشقون الحقيقة ، ويضحون من أجلها ويعانون فى سبيلها ، كما قال شوقى: إن الذى خلق الحقيقة علقما لم يخل من أهل الحقيقة جيلا وفى هذه القرية أقبل رجل من بعيد ينصح الناس مؤكدا أمرين . 1.أن الرسل ناس متجردون لا ينشدون جاها ولا مالا . 2.وأن الله الذى يدعون إليه هو الحق المبين ، وما عداه وهم لا وجود له ، يضر ولا ينفع . " يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون * وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون " . لكن هذا الناصح الأمين فشل فى إقناع الضالين . ولم تذكر القصة أقتل أم مات ، لكنه بعدما انتقل إلى ربه ، ورأى ما أعد له من كرامة ، قال حزينا على حالهم "يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين " .



---

وأنى لقومه أن يثوبوا إلى رشدهم ؟ فماذا حدث ؟ هل عبأت السماء قواها لتعاقبهم على كفرهم ؟ أمرهم من ذلك أهون: " وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما

كنا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون " . إن غرور الناس فاجع العقبى ، وما يلقون به الرسل من إهانة وتكذيب فادح الثمن . وتشتد العقوبة مع كبر الجريمة ، ولذلك قال جل شأنه: " يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون * ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون " . إن مستقبل الحضارة التى تظلنا مقلق ، لأنها ترفض ذكر الله ، وتنسى الإعداد للقائه ، وهى تبحث عن حتفها بظلفها . فى الفصل الثانى من السورة المباركة سورة يس نجد بضعه أدلة على عظمة الله واستحقاقه كل كمال . أول هذه الأدلة قوله جل شأنه "وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون" . إننا نعطى الأرض أسوأ ما لدينا وتعطينا أحسن ما عندها ! ويقول الفلاحون إن أجود البطيخ ما كان سماده خرء الحمام ! وفضلات البشر تساق إلى الحقول ، فإذا هى تنتج كيزان الذرة وسنابل القمح ، وعيدان القطن والكتان ، وصنوفا لا حصر لها من الفواكه والثمار . من الذى أخرج من الحمأ المسنون هذه الخيرات السنية ؟ " سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون " ! ونصعد من الأرض إلى السماء فى إطلالة خاطفة على نظامها الفلكى ! إن الظلام يسود أرجاء الكون ، وأشعة الشمس تتحول إلى ملاءة بيضاء عندما تستقبلها الأرض . فإذا جمع الله الأشعة عادت الظلمة الأولى . ولذلك جاء التعبير عن الليل والنهار بهذه الألفاظ " وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون

" . وربما بدا للناس أن الشمس والقمر فى مدار واحد . وهذا خطأ ، فلكليهما مداره ، ولن يلتقيا ، وإنى أتصور أحيانا هذه الكواكب ، فأتساءل: ما يمسكها فى فضائها ؟ ما يدفعها فى



---

مجراها وبأى طاقة تسير؟ من أحكم ، نظمها وهى ألوف الألوف ، فضبط مكانها وزمانها وشروقها وغروبها ؟

ونحن البشر فى زاوية من الكون الكبير نرقب آيات ربنا ، ومنا المؤمن ومنا الكافر ! نعود مرة أخرى إلى الأرض لنرمق البحار وما يسبح فيها من جوار كالأعلام ، ونتلو قوله تعالى : " وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون " ! ! إن البحر أكبر من البر أربع مرات ، وعالمه أوسع مساحة من عالمنا ، وقد عرفنا أن للأجسام الطافية فيه قانونا مضبوطا ، فهى تجرى أو تغوص بقدر ، وعندما يتعرض الناس لأخطاره فلا مغيث لهم إلا الله ، فهل يذكرون ذلك عندما يأمنون؟ هذه الأدلة الثلاثة السابقة تبعتها أدلة أخرى فى نهايات السورة مثل قوله تعالى "أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون" . إننى أنظر إلى الجزارين فى

الأسواق قد علقوا فى دكاكينهم قطعانا من الغنم والبقر . . وأرى الألوف تلتهمها ، وهى لا تدرى شيئًا عمن سخرها ! ! ما هذه الغفلة عن الله . . ؟ والفصل الأخير من تفسير السورة يتضمن حديثا عن البعث والجزاء ، وهما من عمد التربية الدينية ، ولكن الحضارة الحديثة تغفلهما وتستهجن الحديث عنهما ، وتخيل للناس أن مصيرهم لا يعدو مصاير الدواب النافقة ، لا حش ولا حساب . ويبدو أنه كما تجىء المنية بغتة ، تقوم الساعة بغتة دون ترقب من الناس أو محاذرة ! ! وهذا ما تشير إليه الآيات: " ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون * فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون " . أى أنها تقع وهم مشغولون فى أسواقهم ومجامعهم ، كما ذكر الحديث " لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبا بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه . ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه . ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها . . . " . ووقوع الساعة على



---

هذا النحو لا يعطى فرصة لعمل شىء ولا التوصية بشىء ، ثم ينشر العباد إلى ربهم للحساب بعد أن تهمد كل حركة على ظهر الأرض ، ويواجه الناس ما قدموا . . . " فإذا

هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون " .

وفى الآيات وصف رائق لأهل الجنة يشرح ما ينعمون به ويحبرون فيه . أما أهل النار فيسمعون التبكيت على ما أسلفوا " ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون . . " ؟ ومع أن أساس هذا الفصل هو البعث والجزاء ، فقد حوى معانى أخرى من دلائل العظمة الإلهية ، ومظاهر النعمة التى خص بها بنو آدم . ثم عاد الكلام مرة ثانية إلى أدلة البعث فى صورة حوار طريف " وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم " . إن الذى بدأ الخلق أولا لا يعييه أن يعيد الخلق كرة أخرى ! ! ثم لفت القرآن نظرنا إلى حقيقة علمية فى عناصر الكون . إننا نتنفس فنأخذ من الهواء "الأوكسيجين " ثم نرده "كربونا " ، ويتنفس النبات فيأخذ الكربون ويرسل " الأوكسيجين " . ويتراكم غاز الكربون الذى يأخذه النبات ويتجمد فى كيانه جذوعا وأغصانا وأوراقا ، لا تلبث أن تكون حطبا محترقا " الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون " . إن هذه الوظائف الطبيعية من آيات الله الذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى . وهذا السلوك ظاهر فى النبات

الذى يخرج من التربة حيا وسط عناصرها مدة " فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 340.344 ﴾

*(241/644)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والأربعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/645)

---

الجزء الخامس والأربعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة يس

وحتى الآية ﴿ 27 ﴾ من نفس السورة

(4/645)

---

( فى رياض آيات السورة الكريمة )

(5/645)

---

" فصل "

قال السيوطى :

سورة يس

أقول ظهر لي وجه اتصالها بما قبلها: أنه لما ذكر في سورة فاطر قوله: (وجاءكُم النَذير) وقوله: (وأَقسِموا باللهِ جهد أيمانهم لئن جاءهُم نذير ليكونن أَهدى من إِحدى الأُمم فلما جاءهم نذير) والمراد به محمد صلى الله عليه وسلم وقد أعرضوا عنه وكذبوه، فافتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته، وأنه على صراط مستقيم، لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم وهذا وجه بين وفي فاطر: (وسخرَّ الشمس والقمر) وفي يس (والشَمسُ تَجري لمستقرها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) وذلك أبسط وأوضح وفي فاطر: (وترى الفُلكَ فيه مواخر) وفي يس (وآية لهم أنَا حلمنا ذُريَتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهُم مِن مثله ما يركبون وإن نشأ نُغرِقهُم فلا صريخ لهُم ولاهُم ينقذون) فزاد القصة بسطاً. انتهى انتهى. اهـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 127. 128﴾

(6/645)

---

قوله تعالى ﴿يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6)﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

( بسم الله ) الذي جل ملكه عن أن يحاط بمقداره ( الرحمن ) الذي جعل الإنذار بيوم الجمع رحمة عامة ( الرحيم ) الذي أنار قلوب أوليائه بالاجتهاد ليوم لقائه .

(7/645)

---

لما كان قلب كل شيء أبطن ما فيه وأنفس ، وكان قلب الإنسان غائبا عن الإحساس ، وكان مودعا من المعاني الجليلة والإدراكات الحفية والجلية ما يكون للبدن سببا في إصلاحه أو إفساده من إشقائه أن إبقائه ، وكان الساعة من عالم الغيب ، وفيها يكون انكشاف الأمور ، والوقوف على حقائق المقدور ، وبملاحقتها في إصلاح أسبابها تكون السعادة الأبدية ، وبالإعراض عنها وإفساد أسبابها تكون الشقاوة السرمدية ، وكانت قد بينت في هذه السورة بيانا لم يكن في غيرها بما وقع من التصريح في قلبها الذي هزو وسطها بنفختها المميتة لكل من على الأرض ) فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ( الباعثة ) فإذا ه من الأجداث إلى ربهم ينسلون ( والتصريح بالمعاد الجسماني والاستدلال عليه بالدليل الذي نقل أبا نصر الفارابي - الذي وسم بأنه المعلم الثاني - كان يقول : وددت أن هذا العالم الرباني - يشير إلأى المعلم الأول أرسطو وقف على هذا القياس أن يقال : الله أنشأ العظام

وأحياها أول مرة ، وكل من أنشأ أولمرة ، وكل من أنشأ شيئا وأحياه أول مرة فهو قادلا على إنشائه وإحيائه ثاني مرة ، ينتج أن الله قادر عل إنشاء العظام وإحيائها بعد فنائها ، فاختصت بذلكط عن باقي القرآن كانت قلبا له ، كما قالا النبي (صلى الله عليه وسلم) فيما رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه : "لكل شيء قلب وقلب القرآن يس" ورواه أبو يعلى الموصلي - وهذا لفظه والإمام أحمد في مسنديهما عن معقل بن يسار رضي الله عنه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال "يس قلب القرآن لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له ، اقرؤوها على موتاكم" قال شيخنا الحافظ شهاب الدين البوصيري : وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه رواه البزار في مسنده - هذا ما هداني الله إليه ، وله الحمد من بيان السر في كونها قلبا ، ثم رأيت البرهان النسفي قال في تفسيره الذي هو مختصر التفسير الكبير للإمام

(8/645)

---

الرازي في آخر السورة بعد أن ذكر الحديث : قال الغزالي فيه : إن ذلك - أي كونها قلبا - لأن الإيمان صحته بالاعتراف بالحشر ، والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه ، فجعلت قلب القرآن لذلك ، واستحسنه الإمام المدقق المحقق فخر الدين الرازي ، ويمكن أن يقال :

إن هذه السورة ليس فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة : الوحدانية والرسالة والحشر ، بأقوى البراهين فابتدأها ببيان الرسالة بقوله ) إنك لمن المرسلين ( ودليله ما قدمه عليها بقوله ) والقرآن الحكيم ( وما أخبره عنها بقوله ) لتنذر قوما ( وأنهاها ببيان الوحدانية والحشر بقوله ) فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ( إشارة إلى التوحيد ، وقوله ) وإليه ترجعون ( إشارة إلى الحشر ، وليس في هذه السورة إلا هذه الأصول الثلاثة ودلائلها ، ومن حصل من القرآن أن هذا القدر لا فقد حصل نصيب قلبه ، وهو التصديق الذي بالجنان ، وأما الذي باللسان والذي بالأركان ففي غير هذه السورة ، فلما كان فيها أعمال القلب لا غير سماها قلبا ولهذا ورد عنه ( صلى الله عليه وسلم ) قراءتها عند رأس من دنا منه الموت ، لأن في ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة والأعضاء الظاهرة ساقطة المنة ، لكن القلب يكون قد أقبل على الله ، ورجع عن كل ما سواه ، فيقرأ عند رأسه ما يزداد به قوة في قلبه ويشتد تصديقه بالأصول الثلاثة – انتهى . وفيه بعض تصرف ، وقوله " إن وظيفة اللسان والأركان ليس في هذه السورة منها شيء " ربما بعكر عليه قوله تعالى ) وما لي لا أعبد الذي فطرني ( ) وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ( ) وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ( والحديث الذي ذكره رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن معقل بن يسار رضي الله عنه رفعه " اقرؤوا يس على موتاكم " وأ " له ابن القطان وضعفه

الدارقطني ، وأسند صاحب الفردوس عن أبي الدرداء وأبي ذر وحده رضي الله عنه ، والإمام أحمد في مسنده عن صفوان بن عمرو قال : كانت



---

المشيخة يقولون : إذا قرئت يس عند الميت خفف عنه بها . قال ابن حبان : المراد المحتضر . واستمد من هذا التصريح بالحشر كل ما انبث في القرآن من ذكر الآخرة الذي بمراعاته وإتقانه يكون صلاح جميع الأحوال في الدارين ، وبإهماله ونسيانه يكون فسادها فيهما - هذا مع ما شاركت به غيرها مما جمعتهمن جميع معانيه المجموعة يفي الفاتحة من الأسماء الحسنى : الله والرب والرحمن والرحيم وملك يوم الدين الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ، والأمر بالعبادة بسلوك الصراط المستقيم ، وتفضيل أهل النعيم وأهل الجحيم ، وإثبات الأصول الثلاثة التي يصير بها المكلف مؤمنا : الوحدانية والحشر والرسالة التي هي قلب الوجود ، وبها صلاحه ، وهي ممدة لكل روح يكون به حياة هنيئة ، وهي مبدأ الصلاح كما أ ، البعث غايته ، وأن الخاتم لها إنسان عين الموجودات وقلبها ، فأثبت له ذلك على أصرح وجه وآكده ، زمع جمع ما افتتحت به السورة من الحروف المقطعة المنثورة

أول السورة عمادا للقرآن وسحذا للأذهان لصنفي المنقوطة والعاطلة ووصفي المجهورة والمهموسة .

(10/645)

---

ولما كان القلب من الإنسان المقصود بالذات من الأكوان في نحو ثلث بدنه من جهة رأسه ، وكانت الياء في نحو ذلك من حروف " أبجد " فإنها العاشرة منها والسين بذلك المحل من حروف أ ب ت ث فإنها الثانية عشرة منها ، وعلا هذان الحرفان - بما فيهما من الجهر - عن غاية الضعف ونزلا بما لهما من الهمس عن نهاية الشدة ، إشارة إلى أن القلب الصحيح هو الزجاجي الشفاف الجامع بين الصلابة والرقة الذي علا بصلابته عن رقة الماء الذي لا يثبت فيه صورة ، ونزل بلطافته عن قساوة الحجر الذي لا يكاد ينطبع فيه شيء إلا بغاية الجهد ، فكان جامعاً بين الصلابة والرقة متهيئاً لأن تنطبع فيه الصور وتثبت ليكون قابلاً مفيداً ، فيكون متخلقاً من صفات موجدة بالقدرة والاختيار اللذين دلت عليهما سورة الملائكة ، وبمعرفة الخير فيجتلبه والشر فيجتنبه فيكون فيه شاهد من نفسه على الاعتقاد الحق في صانعه ، وكانت المجهورة أقوى فقدمت الياء لجهرها ، وكانتا - بعد اختلاف بالجهر والهمس - قد اتفقتا في الانفتاح والرخاوة والاستفال إشارة إلى أن القلب لا يصلح - كما

تقدم – مع الصلابة التي هي في معنى الجهر إلا بالإخبات الذي هو في معنى الهمس ، وبالنزول عن غاية الصلابة إلى حد الرخاوة لئلا يكون حجرياً قاسياً بأن يكون فيه انفتاح ليكون مفيداً وقابلاً ويكون مستفلاً ليكون إلى ربه بتواضعه واصلاً وزادت السين بالصفير الذي فيه شدة وانتشار وقوة لضعفها عن الياء بالهمس فتعادلتا ، ودل صفيرها على النفخ في الصور الذي صرحت به هذه السورة ودل جهر الياء على قوته ودل كونها من حروف النداء على خروجه عن الحد في الشده حتى تبدو عنه تلك الآثار المخلية للديار ، المنفية للصغار والكبار ، ثم الباغتة لهم من جميع الأقطار ، امتثالاً لأمر الواحد القهار ، وكان مخرجهما من اللسان الذي هو قلب المخارج الثلاثة لتوسطه وكثرة منافعه في ذلك ، وكانت الياء من وسطه والسين من طرفه ، وكان هذان المخرجان

(11/645)

---

، مع كونهما وسطاً ، مداراً لأكثر الحروف ، هذا مع ما لهما من الأسرار التي تدق عن تصور الأفكار ، قال تعالى : ﴿ يس ﴾ وإن كان المعنى : يا إنسان ، فهو قلب الموجودات المخلوقات كلها وخالصها وسرها ولبابها ، وإن أريد : يا سيد ، فهو خلاصة من سادهم ، وإن أريد : يا رجل ، فهو خلاصة البشر ، وإن أريد : يا محمد ، فهو خالصة الرجال الذين

هم لباب البشر الذين هم سر الأحياء الذين هم عين الموجودات فهو خلاصة الخلاصة وخيار وعين القلب ، وكأن من قال معناه محمد نظر إلى الإتحاد في عدد اسمه. صلى الله عليه وسلم. بالجمل بالنظر إلى اليمين في المشددة وعدد ﴿ قلب ﴾ وعدد اسمي الحرفين ، ولا يخفى أن الهمزة في اسم الياء ألف ثانية ، فمبلغ عدده اثنا عشر .

ولما تقدم في الملائكة إثبات رسالة النبي. صلى الله عليه وسلم. وتهديد قومه على النفرة عنه ، وأن مرسله تعالى بصير بعباده ، عالم بما يصلحهم ومن يصلح منهم للرسالة وغيرها ، وكان مدار مادة " قرأ " - كما مضى في سورة الحجر - الجمع مع الفرق ، وكان ذلك أعلى مقامات السائرين إلى الله وهو وظيفة القلب ، عبر في القسم بقوله : ﴿ والقرآن ﴾ ووصفه بصفة القلب العازف فقال : ﴿ الحكيم ﴾ أي الجامع من الدلالة على العلم المزين بالعمل والإرشاد إلى العمل المحكم بالعلم .

(12/645)

---

ولما كان قد ثبت في سورة الملائكة أنه سبحانه الملك الأعلى ، لما ثبت له من تمام القدرة وشمول العلم ، وكان من أجلّ ثمرات الملك إرسال الرسل إلى الرعايا بأوامر الملك وردهم عما هم عليه مما دعتهم إليه النفوس ، وقادتهم إليه الشهوات والحظوظ ، إلى ما يفتحه لهم

من الكرم ، ويبصرهم به من الحكم ، وكانت الرسالة أحد الأصول الثلاثة التي تنقل الإنسان من الكفر إلى الإيمان ، وكانت هي المنظور إليها أولاً لأنها السبب في الأصلين الآخرين ، وكانوا قد ردوا رسالته نفوراً واستكباراً ، قال مقدماً لها تقديم السبب على مسببه على وجه التأكيد البليغ مع ضمير الخطاب الذي لا يحتمل لبساً : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ أي الذين حكمت عقولهم على دواعي نفوسهم ، فصاروا - بما وهبهم الله القوة النورانية - كالملائكة الذين قدم في السورة الماضية أنهم رسله وفي عدادهم بما تخلقوا به من أوامره ونواهيه وجميع ما يرتضيه .

(13/645)

---

ولما كان الأنبياء عليهم السلام من نوره ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لأنه أولهم خلقاً وآخرهم بعثاً ، فكانوا في الحقيقة إنما هم ممهدون لشرعه ، وكان سبحانه إنما أرسله ليتمم مكارم الأخلاق ، وكان قد جعل سبحانه من المكارم أن لا يكلم الناس إلا بما تسع عقولهم ، وكانت عدة المرسلين كما في حديث أبي أمامة الباهلي عن أبي ذر ـ رضى الله عنهما ـ عند أحمد في المسند ثلاثمائة وخمسة عشر ، وفيه أن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، وهو في الطبراني الكبير عن أبي أمامة ـ رضى الله عنه ـ أن رجلاً سأل النبي ـ صلى الله

عليه وسلم.فذكر عدد الرسل فقط ، وكانت عقول العرب لا تسع بوجه قبل الإيمان أنهم منه ، أقسم سبحانه ظاهراً أنه منهم ورمزاً للأصفياء باطناً إلى أنهم منه ، بجعلهم عدد أسماء حروف اسمه محمد .صلى الله عليه وسلم.الذي رمز إليه بالحرفين أول السورة ، فكأنه قال : إنك يا ياسين الذي تأويله محمد الذي عدد أسماء حروفه بعددهم لأصلهم ، فصار رمزاً في رمز ، وكنزاً نفيساً داخل كنز ، وسراً من سر ، وبراً إلى بر ، وهو أحلى في منادمة الأحباب من صريح الخطاب ، ثم علق باسم المفعول قوله : ﴿على صراط﴾ أي طريق واسع واضح ﴿مستقيم﴾ أي أنت من هؤلاء الذين قد ثبت لهم أنهم عليه ، وهو الصراط المستقيم الأكمل المتقدم في الفاتحة لأنه لخواص المنعم عليهم ولقوله تعالى في حق موسى وهارون عليه السلام ﴿وهديناهما الصراط المستقيم﴾ فيكون تنوينه – بما أرشد إليه القسم والتأكيد – للتعظيم ، والمعنى أنهم قد ثبت لهم هذا الوصف العظيم وأنت منهم بما شاركتهم فيه من الأدلة ، فليس لأحد أن يخصك من بينهم بالتكذيب .



---

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما أوضحت سورة سبأ وسورة فاطر من عظيم ملكه تعالى وتوحده بذلك وانفراده بذلك بالملك والخلق والاختراع ما تنقطع العقول دون تصور

أدناه ، ولا تحيط من ذلك إلا بما شاء ، وأشارت من البراهين والآيات إلى ما يرفع الشكوك ويوضح السلوك مما كانت الأفكار قد خمدت عن إدركها ، واستولت عليها الغفلة فكانت قد جمدت عن معهود حراكها ، ذكر سبحانه بنعمة التحريك إلى اعتبارها بثنائه على من اختاره لبيان تلك الآيات ، واصطفاه لإيضاح تلك البينات ، فقال تعالى ﴿ يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم ﴾ ثم قال ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهو غافلون ﴾ فأشار سبحانه إلى ما تثمر نعمة الإنذار ، ويبعثه التيقظ بالتذكار ؛ ثم ذكر علة من عمي بعد تحريكه وإن كان مسبباً عن الطبع وشر السابقة ﴿ لقد حق القول على أكثرهم ﴾ الآيات ؛ ثم أشار بعد إلى بعض من عمي عن عظيم تلك البراهين لأول وهلة قد يهتز عند تحريكه لسابق سعادته فقال تعالى : ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ﴾ فكذلك نفعل بهؤلاء إذا شئنا هدايتهم ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ ثم ذكر دأب المعاندين وسبيل المكذبين مع بيان الأمر فقال ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ﴾ - الآيات ، واتبع ذلك سبحانه بما أودع في الوجود من الدلائل الواضحة والبراهين فقال ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون ﴾ الآية ، ثم قال ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ﴾ إلى قوله : ﴿ أفلا تشكرون ﴾ ثم قال ﴿ وآية لهم الّيل نسلخ منه النهار ﴾ ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ ثم قال ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم ﴾ إلى قوله : ﴿ إلى حين ﴾ ثم ذكر إعراضهم مع عظيم

هذه البراهين وتكذيبهم وسوء حالهم عند بعثهم وندمهم وتوبيخهم وشهادة اعضائهم بأعمالهم، ثم تناسجت الآية جارية على ما يلائم ما تقدم إلى آخر السورة - انتهى.

(15/645)

---

ولما كان كأنه قيل: ما هذا الذي أرسل به؟ كان كأنه قيل جوباً لمن سأل: هو القرآن الذي وقع الإقسام به وهو ﴿ تنزيل ﴾ أو حاله كونه تنزيل ﴿ العزيز ﴾ أي المتصف بجميع صفات الكمال.

ولما كانت هذه الصفة للقهر والغلبة، وكان ذلك لا يكون صفة كمال إلا بالرحمة قال: ﴿ الرحيم ﴾ أي الحاوي لجميع صفات الإكرام الذي ينعم على من يشاء من عباده بعد الإنعام بإيجادهم بما يقيمهم على المنهاج الذي يرضاه لهم، فهو الواحد الذي لا مثل له أصلاً لما قهر به من عزته، وجبر به من رحمته.

نزل إليك وهو في جلالة النظم وجزالة القول وحلاوة السبك وقوة التركيب ورصانة الوضع وحكيم المعاني وإحكام المباني في أعلى ذرى الإعجاز، وجعل إنزاله تدريجاً بحسب المصالح مطابقاً مطابقة أعجزت الخلائق عن أن يأتوا بمثلها، ثم نظمه على غير ترتيب النزول نظماً أعجز الخلق عن أن يدركوا جميع المراد من بحور معانيه وحكيم مبانيه، فكله

إعجاز على ما له من إطناب وإيجاز .

ولما ذكر المرسَل والمرسَل به والمرسِل ؛ ذكر المرسَل له فقال : ﴿ لتنذر قوماً ﴾ أي ذوي بأس وقوة وذكاء وفطنة ﴿ ما أنذر ﴾ أي لم ينذر أصلاً ﴿ آباؤهم ﴾ أي الذين غيروا دين أعظم آبائهم إبراهيم عليه السلام ومن أتى بعدهم عند فترة الرسل .

ولما كان عدم الإنذار موجباً لاستيلاء الحظوظ والشهوات على العقل فيحصل عن ذلك الغفلة عن طريق النجاة قال : ﴿ فهم ﴾ أي بسبب زمان الفترة ﴿ غافلون ﴾ أي المعنى على ان " ما " مفعول ثان لتنذر : أي لتنذرهم الذي أنذره آباؤهم الذين كانوا قبل التغيير ، فإن هؤلاء غافلون عن ذلك لطول الزمان وحدوث النسيان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 239 . 245 ﴾

(16/645)

---

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ يس ﴾ بإظهار النون : أبو عمرو وسهل ويعقوب غير رويس وابن كثير غير ابن فليح وحمزة وأبو جعفر ونافع غير النجاري عن ورش والحلواني عن قالون وعاصم غير

يحيى وابن ابي غالب . وقرأ حمزة وعلي وخلف ويحيى وحماد بالإمالة . ﴿ تنزيل ﴾ بالنصب : ابن عامر وحمزة وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد . والباقون : بالرفع ﴿ سدّاً ﴾ بفتح السين في الحرفين : حمزة وعلي وخلف وحفص وابو زيد ﴿ فعززنا ﴾ بالتخفيف : أبو بكر وحماد والمفضل ﴿ آين ﴾ بالمد والياء أبو عمرو وقالون وزيد مثله ولكن بالقصر ابن كثير ونافع غير قالون وسهل ويعقوب غير زيد . ﴿ أئن ﴾ بهمزتين : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير المفضل وابن عامر ، هشام يدخل بينهما مدة وقرأ المفضل ﴿ أين ﴾ على وزن "كيف" ﴿ آن ﴾ بسكون النون وبالمد : يزيد مثل ﴿ آنذرتهم ﴾ ﴿ ذكرتم ﴾ بالتخفيف : زيد ﴿ ومالي ﴾ بسكون الياء : حمزة ويعقوب ﴿ ينقذوني ﴾ في الحالين بالياء : يعقوب وافق ورش وسهل وعباس في الوصل ﴿ إني إذا ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو ﴿ إني آمنت ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ بالرفع وكذلك ما بعدها : يزيد ﴿ لما ﴾ بالتشديد : ابن عامر وحمزة وعاصم ﴿ الميتة ﴾ بالتشديد : أبو جعفر ونافع ﴿ عملت ﴾ بغير هاء الضمير : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير حفص والمفضل ﴿ لمستقر ﴾ بكسر القاف : زيد عن يعقوب ﴿ والقمر ﴾ بالرفع على الابتداء : ابن كثير وأبو عمرو وسهل ونافع ويعقوب غير رويس . الآخرون : بالنصب إضماراً على شريطة التفسير ﴿ ذرياتهم ﴾ على الجمع : أبو جعفر ونافع وابن عامر وسهل ويعقوب .

الوقوف : ﴿ يس ﴾ 5 كوفي ﴿ الحكيم ﴾ 5 لا لجواب القسم ﴿ المرسلين ﴾ 5 لا لأن الجار والمجرور خبر بعد خبر أو مفعول ثانٍ لمعنى الفعل في ﴿ المرسلين ﴾ أي أرسلت على صراط ﴿ مستقيم ﴾ 5 ط على القراءتين فمن نصب فمعناه نزل تنزيل أو أعني تنزيل ومن رفع فالتقدير هذا تنزيل ﴿ الرحيم ﴾ 5 لا لتعلق لام كي بمعنى التنزيل والإرسال ﴿ غافلون ﴾ 5 ﴿ لا يؤمنون ﴾ 5 ﴿ مقمحون ﴾ 5 ﴿ لا يبصرون ﴾ 5 ﴿ لا يؤمنون ﴾ 5 ﴿ بالغيب ﴾ 5 لانقطاع النظم مع دخول الفاء ﴿ كريم ﴾ 5 ﴿ وآثارهم ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ القرية ﴾ 5 لأن "إذ" ليس ظرفاً ﴿ لاضرب ﴾ بل التقدير وإذكر إذ جاءها . وجوّز في الكشاف أن يكون "إذ" بدلاً من ﴿ أصحاب القرية ﴾ فلا وقف . ﴿ المرسلون ﴾ 5 ج لاحتمال أن يكون "إذ" بدلاً أو معمولاً لعامل آخر مضمر ﴿ مرسلون ﴾ 5 ﴿ مثلنا ﴾ لا ﴿ من شيء ﴾ لا لاتحاد المقول فيهما ﴿ تكذبون ﴾ 5 ﴿ لمرسلون ﴾ 5 ج ﴿ المبين ﴾ 5 ﴿ بكم ﴾ ج للإبتداء بما في معنى القسم مع اتحاد المقول ﴿ أليم ﴾ 5 ﴿ معكم ﴾ ط ﴿ ذكرتم ﴾ ط ﴿ مسرفون ﴾ 5 ﴿ المرسلين ﴾ 5 لأن ﴿ اتبعوا ﴾ بدل من الأوّل ﴿ مهتدون ﴾ 5 ﴿ ترجعون

﴿ 5 ﴾ ولا ينقذون ﴿ 5 ج للابتداء بان مع تعلق " إذا " بما قبلها أي أني إذا اتخذت آلهة لفي ضلال ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ فاسمعون ﴾ 5 ط لأن التقدير فلم يسمعوا قوله فقتلوه ثم قيل له ادخل ﴿ الجنة ﴾ ط ﴿ يعلمون ﴾ 5 لا لتعلق الباء .

(18/645)

---

﴿ المكرمين ﴾ 5 ﴿ منزلين ﴾ 5 ﴿ خامدون ﴾ 5 ﴿ العباد ﴾ ج لأن ما بعده يصلح استئنافاً وحالاً والعامل معنى في حسرة ﴿ يستهزؤن ﴾ 5 ﴿ لا يرجعون ﴾ 5 ﴿ محضرون ﴾ 5 ﴿ يأكلون ﴾ 5 ﴿ العيون ﴾ 5 لا ﴿ ثمر ﴾ 5 ط لمن جعل " ما " نافية ومن جعلها موصولة لم يقف ﴿ ايديهم ﴾ ط ﴿ يشكرون ﴾ 5 ﴿ لا يعلمون ﴾ 5 ﴿ مظلمون ﴾ 5 ط ﴿ لها ﴾ ط ﴿ العليم ﴾ 5 لا لمن قرأ ﴿ والقمر ﴾ بالرفع بالعطف على ﴿ الليل ﴾ ، ومن قرأ بالنصب وقف مطلقاً ﴿ القديم ﴾ 5 ﴿ النهار ﴾ ط ﴿ يسبحون ﴾ 5 ﴿ المشحون ﴾ 5 لا ﴿ يركبون ﴾ 5 ﴿ ينقذون ﴾ 5 لا ﴿ حين ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 523 . 524 ﴾

(19/645)

فصل

قال الفخر :

﴿ يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

قد ذكرنا كلاماً كلياً في حروف التهجي في سورة العنكبوت وذكرنا أن في كل سورة بدأ الله فيها بحروف التهجي كان في أوائلها الذكر أو الكتاب أو القرآن ولنذكر ههنا أبحاثاً :

(20/645)

---

البحث الأول : هو أن في ذكر هذه الحروف في أوائل السور أموراً تدل على أنها غير خالية عن الحكمة ولكن علم الإنسان لا يصل إليها بعينها فنقول ما هو الكلي من الحكمة فيها ، أما بيان أن فيها ما يدل على الحكمة فهو أن الله تعالى ذكر من الحروف نصفها وهي أربعة عشر حرفاً وهي نصف ثمانية وعشرين حرفاً ، وهي جميع الحروف التي في لسان العرب على قولنا الهمزة ألف متحركة ، ثم إنه تعالى قسم الحروف ثلاثة أقسام تسعة أحرف من الألف إلى الذال وتسعة أحرف أخر في آخر الحروف من الفاء إلى الياء وعشرة من الوسط من الراء إلى الغين ، وذكر من القسم الأول حرفين هما الألف والحاء وترك سبعة وترك من القسم

الآخر حرفين هما الفاء والواو وذكر سبعة ، ولم يترك من القسم الأول من حروف الحلق والصدر إلا واحداً لم يذكره وهو الخاء ، ولم يذكر من القسم الآخر من حروف الشفة إلا واحداً لم يتركه وهو الميم ، والعشر الأواسط ذكر منها حرفاً وترك حرفاً فذكر الراء وترك الزاي وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء وذكر العين وترك الغين ، وليس هذا أمراً يقع اتفاقاً بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة ، وأما أن عينها غير معلومة فظاهر وهب أن واحداً يدعى فيها شيئًا فماذا يقول في كون بعض السور مفتتحة بحرف كسورة ﴿ ن ﴾ و ﴿ ق ﴾ و ﴿ ص ﴾ وبعضها بحرفين كسورة ﴿ حم ﴾ و ﴿ يس ﴾ و ﴿ طس ﴾ و ﴿ طه ﴾ وبعضها بثلاثة أحرف كسورة ﴿ الم ﴾ و ﴿ طسم ﴾ و ﴿ ألر ﴾ وبعضها بأربعة كسورتي ﴿ ألمر ﴾ و ﴿ المص ﴾ وبعضها بخمسة أحرف كسورتي ﴿ حم عسق ﴾ و ﴿ كهيعص ﴾ وهب أن قائلاً يقول إن هذا إشارة إلى أن الكلام ، إما حرف ، وإما فعل ، وإما اسم ، والحرف كثيراً ما جاء على حرف كواو العطف وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف التشبيه وباء الإلصاق وغيرها وجاء على حرفين كمن للتبعيض وأو للتخيير وأم للاستفهام المتوسط وأن للشرط وغيرها والاسم والفعل والحرف جاء على ثلاثة أحرف كإلى وعلى في الحرف وإلى وعلى في

الاسم وألا يألو وعلا يعلو في الفعل ، والاسم والفعل جاء على أربعة ، والاسم خاصة جاء على ثلاثة وأربعة وخمسة كفجل وسجل وجردحل فما جاء في القرآن إشارة إلى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه ، فماذا يقول هذا القائل في تخصيص بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم تمام السر إلا الله ومن أعلمه الله به ، إذا علمت هذا فنقول اعلم أن العبادة منها قلبية ، ومنها لسانية ، ومنها جارحية ، وكل واحدة منها قسمان قسم عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم ، أما القلبية مع أنها أبعد عن الشك والجهل ففيها ما لم يعلم دليله عقلاً ، وإنما وجب الإيمان به والاعتقاد سمعاً كالصراط الذي ( هو ) أرق من الشعرة وأحد من السيف ويمر عليه المؤمن والموقن كالبرق الخاطف والميزان الذي توزن به الأعمال التي لا ثقل لها في نظر الناظر وكيفيات الجنة والنار فإن هذه الأشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلي ، وإنما المعلوم بالعقل إمكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع ومنها ما علم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله وصدق الرسول ، وكذلك في العبادات الجارحية ما علم معناه وما لم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات ، وقد ذكرنا الحكمة فيه وهي أن العبد إذا أتى بما أمر به من غير أن يعلم ما فيه من الفائدة لا يكون إلا آتياً بمحض العبادة بخلاف ما لو علم الفائدة فربما يأتي به للفائدة وإن لم يؤمن كما لو قال السيد لعبده انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما في النقل فنقلها ولو قال انقلها فإن تحتها كنزاً هو لك ينقلها

وإن لم يؤمن ، إذا علم هذا فكذلك في العبادات اللسانية الذكرية وجب أن يكون منها ما لا يفهم معناه حتى إذا تكلم به العبد علم منه أنه لا يقصد غير الانقياد لأمر المعبود الآمر الناهي فإذا قال : ﴿ حم ، يس ، الم ، طس ﴾ علم أنه لم يذكر ذلك لمعنى يفهمه أو يفهمه فهو يتلفظ به إقامة لما أمر به .

(22/645)

---

البحث الثاني : قيل في خصوص يس إنه كلام هو نداء معناه يا إنسان ، وتقريره هو أن تصغير إنسان إنيسين فكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال : ﴿ يس ﴾ أي أنيسين ، وعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب مع محمد صلى الله عليه وسلم ويدل عليه قوله تعالى بعده : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ [ يس : 3 ] .

البحث الثالث : قرىء يس إما بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف هو قوله هذه كأنه قال : هذه يس ، وإما بالضم على نداء المفرد أو على أنه مبني كحيث ، وقرىء يس إما بالنصب على معنى اتل يس وإما بالفتح كأين وكيف ، وقرىء يس بالكسر كجير لإسكان الياء وكسرة ما قبلها ولا يجوز أن يقال بالجر لأن إضمار الجار غير جائز وليس فيه حرف قسم ظاهر وقوله تعالى : ﴿ والقرءان الحكيم ﴾ أي ذي الحكمة كعيشة راضية أي ذات رضا

أو على أنه ناطق بالحكمة فهو كالحي المتكلم.

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3)

مقسم عليه وفيه مسائل:

المسألة الأولى:

(23/645)

---

الكفار أنكروا كون محمد مرسلاً والمطالب تثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة في الإقسام؟ نقول فيه وجوه الأول: هو أن العرب كانوا يتوقون الأيمان الفاجرة وكانوا يقولون إن اليمين الفاجرة توجب خراب العالم وصحح النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: " اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع " ثم إنهم كانوا يقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم يصيبه من آلهتهم عذاب وهي الكواكب فكان النبي صلى الله عليه وسلم يحلف بأمر الله وإنزال كلامه عليه وبأشياء مختلفة، وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأناً وأمنع مكاناً فكان ذلك يوجب اعتقاد أنه ليس بكاذب الثاني: هو أن المتناظرين إذا وقع بينهما كلام وغلب أحدهما الآخر بتمشية دليله وأسكته يقول المطلوب إنك قررت هذا بقوة جدالك وأنت خبير في نفسك بضعف مقالك وتعلم أن الأمر ليس كما تقول وإن أقمت عليه صورة

دليل وعجزت أنا عن القدح فيه ، وهذا كثير الوقوع بين المتناظرين فعند هذا لا يجوز أن يأتي هو بدليل آخر ، لأن الساكت المنقطع يقول في الدليل الآخر ما قاله في الأول فلا يجد أمراً إلا اليمين ، فيقول والله إني لست مكابراً وإن الأمر على ما ذكرت ولو علمت خلافه لرجعت إليه فههنا يتعين اليمين ، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما أقام البراهين وقالت الكفرة : ﴿ مَا هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ . . .

(24/645)

---

وقال الذين كفروا لِلْحَقّ لَمَّا جَاءهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [ سبأ : 43 ] تعين التمسك بالأيمان لعدم فائدة الدليل الثالث : هو أن هذا ليس مجرد الحلف ، وإنما هو دليل خرج في صورة اليمين لأن القرآن معجزة ودليل كونه مرسلاً هو المعجزة والقرآن كذلك فإن قيل فلم لم يذكر في صورة الدليل ؟ وما الحكمة في ذكر الدليل في صورة اليمين ؟ قلنا الدليل أن ذكره في صورة اليمين قد لا يقبل عليه سامع فلا يقبله فؤاده فإذا ابتدىء به على صورة اليمين واليمين لا يقع لا سيما من العظيم الأعلى أمر عظيم والأمر العظيم تتوفر الدواعي على الإصغاء إليه فلصورة اليمين تشرئب إليه الأجسام ، ولكونه دليلاً شافياً يتشربه الفؤاد فيقع في السمع وينفع في القلب .

المسألة الثانية :

كون القرآن حكيماً عندهم لكون محمد رسولاً ، فلهم أن يقولوا إن هذا ليس بقسم ، نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن كون القرآن معجزة بين إن أنكروه قيل لهم فأتوا بسورة من مثله والثاني : أن العاقل لا يثق بيمين غيره إلا إذا حلف بما يعتقد عظمته ، فالكافر إن حلف بمحمد لا نصدقه كما نصدقه لو حلف بالصليب والصنم ، ولو حلف بديننا الحق لا يوثق بمثل ما يوثق به لو حلف بدينه الباطل وكان من المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعظمون القرآن فحلفه به هو الذي يوجب ثقتهم به .

عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4)

(25/645)

---

خبر بعد خبر أي إنك على صراط مستقيم والمستقيم أقرب الطرق الموصلة إلى المقصد والدين كذلك فإنه توجه إلى الله تعالى وتولى عن غيره والمقصد هو الله والمتوجه إلى المقصد أقرب إليه من المولى عنه والمتحرف منه ولا يذهب فهم أحد إلى أن قوله إنك منهم على صراط مستقيم مميز له عن غيره كما يقال إن محمداً من الناس مجتبى لأن جميع المرسلين على صراط مستقيم ، وإنما المقصود بيان كون النبي صلى الله عليه وسلم على الصراط

المستقيم الذي يكون عليه المرسلون وقوله : ﴿ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فيه معنى لطيف يعلم منه فساد قول المباحية الذين يقولون المكلف يصير واصلاً إلى الحق فلا يبقى عليه تكليف وذلك من حيث إن الله بين أن المرسلين ما داموا في الدنيا فهم سالكون سائحون مهتدون منتهجون إلى السبيل المستقيم فكيف ذلك الجاهل العاجز .

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5)

قرىء بالجر على أنه بدل من القرآن كأنه قال : والقرآن الحكيم تنزيل العزيز الرحيم إنك لمن المرسلين لتنذر وقرىء بالنصب وفيه وجهان أحدهما : أنه مصدر فعله منوي كأنه قال نزل تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويكون تقديره نزل القرآن أو الكتاب الحكيم والثاني : أنه مفعول فعل منوي كأنه قال والقرآن الحكيم أعني تنزيل العزيز الرحيم إنك لمن المرسلين لتنذر ، وهذا ما اختاره الزمخشري وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ منوي كأنه قال هذا تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويحتمل وجهاً آخر على هذه القراءة وهو أن يكون مبتدأ خبره لتنذر كأنه قال تنزيل العزيز للإنذار وقوله : ﴿ العزيز الرحيم ﴾ إشارة إلى أن الملك إذا أرسل رسولاً فالمرسل إليهم إما أن يخالفوا المرسل ويهينوا المرسل وحينئذٍ لا يقدر الملك على الانتقام منهم إلا إذا كان عزيزاً أو يخافوا المرسل ويكرموا المرسل وحينئذٍ يرحمهم الملك ، أو نقول المرسل يكون معه في رسالته منع عن أشياء وإطلاق لأشياء فالمنع يؤكد العزة والإطلاق يدل على الرحمة .

(26/645)

---

وقوله تعالى : ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ ءابَاؤُهُمْ فَهُمْ غافلون ﴾ .

قد تقدم تفسيره في قوله : ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أتاهم مّن نَّذِيرٍ مّن قَبْلِكَ﴾ [ القصص : 46 ] وقيل المراد الإثبات وهو على وجهين أحدهما : لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ، فتكون ما مصدرية الثاني : أن تكون موصولة معناه : لتنذر قوماً الذين أنذر آباؤهم فهم غافلون ، فعلى قولنا ما نافية تفسيره ظاهر فإن من لم ينذر آباؤه وبعد الإنذار عنه فهو يكون غافلاً ، وعلى قولنا هي للإثبات كذلك لأن معناه لتنذرهم إنذار آبائهم فإنهم غافلون ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

كيف يفهم التفسيران وأحدهما يقتضي أن لا يكون آباؤهم منذرين والآخر يقتضي أن يكونوا منذرين وبينهما تضاد ؟ نقول على قولنا ما نافية معناه ما أنذر آباؤهم وإنذار آبائهم الأولين لا ينافي أن يكون المتقدمون من آبائهم منذرين والمتأخرون منهم غير منذرين .

المسألة الثانية :

(27/645)

قوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ ﴾ يقتضي أن لا يكون النبي صلى الله عليه وسلم مأموراً بإنذار اليهود لأن آباءَهم أنذروا ، نقول ليس كذلك ، أما على قولنا ما للإثبات لا للنفي فظاهر ، وأما على قولنا هي نافية فكذلك ، وقد بينا ذلك في قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ الحق مِن رَّبّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أتاهم مّن نَّذِيرٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ [ السجدة : 3 ] وقلنا إن المراد أن آباءهم قد أنذروا بعد ضلالهم وبعد إرسال من تقدم فإن الله إذا أرسل رسولاً فما دام في القوم من يبين دين ذلك النبي ويأمر به لا يرسل الرسول في أكثر الأمر ، فإذا لم يبق فيهم من يبين ويضل الكل ويتباعد العهد ويفشو الكفر يبعث رسولاً آخر مقرراً لدين من كان قبله أو واضعاً لشرع آخر ، فمعنى قوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ ﴾ أي ما أنذروا بعد ما ضلوا عن طريق الرسول المتقدم واليهود والنصارى دخلوا فيه لأنهم لم تنذر آباؤهم الأدنون بعد ما ضلوا ، فهذا دليل على كون النبي صلى الله عليه وسلم مبعوثاً بالحق إلى الخلق كافة .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ فَهُمْ غافلون ﴾ دليل على أن البعثة لا تكون إلا عند الغفلة ، أما إن حصل لهم العلم بما أنزل الله بأن يكون منهم من يبلغهم شريعة ويخالفونه فحق عليهم الهلاك ولا يكون ذلك تعذيباً من قبل أن يبعث الله رسولاً ، وكذلك من خالف الأمور التي لا تفتقر إلى بيان

الرسل يستحق الإهلاك من غير بعثة ، وليس هذا قولاً بمذهب المعتزلة من التحسين والتقبيح العقلي بل معناه أن الله تعالى لو خلق في قوم علماً بوجوب الأشياء وتركوه لا يكونون غافلين فلا يتوقف تعذيبهم على بعثة الرسل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 35. 39 ﴾

(28/645)

---

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يس ﴾ :

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى هَكَذَا كُتِبَ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي سَطَّرْنَاهَا الْآنَ ، وَهِيَ فِي الْمُصْحَفِ كَذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ ثَبَتَ قَوْلُهُ : ﴿ ق ﴾ وَثَبَتَ قَوْلُهُ : ﴿ ن وَالْقَلَمِ ﴾ ؛ وَلَمْ يَثْبُتْ عَلَى التَّهَجِّي ، فَيُقَالُ فِيهِ يَاسِين ، وَلَا قِيلَ قَافْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، وَلَا نُونْ وَالْقَلَمِ ، وَلَوْ ثَبَتَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ لَقُلْت فِيهَا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : إنَّ قَافَ جَبَلٌ ، وَإِنَّ نُونَ الْحُوتُ أَوْ الدَّوَاةُ ؛ فَكَانَتْ فِي ذَلِكَ حِكْمَةٌ بَدِيعَةٌ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْخُلَفَاءَ وَالصَّحَابَةَ الَّذِينَ تَوَلَّوْا كَتْبَ الْقُرْآنِ كَتَبُوهَا مُطْلَقَةً لِتَبْقَى تَحْتَ حِجَابِ الْإِخْفَاءِ ، وَلَا يُقْطَعُ عَلَيْهَا بِمَعْنًى مِنْ الْمَعَانِي الْمُحْتَمَلَةِ ؛ فَإِنَّ الْقَطْعَ عَلَيْهَا إنَّمَا يَكُونُ بِدَلِيلِ خَبَرٍ ؛ إذْ لَيْسَ لِلنَّظَرِ فِي ذَلِكَ أَثَرٌ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَعْنَاهُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ أَنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى؛ قَالَهُ مَالِكٌ، رَوَى عَنْهُ أَشْهَبُ قَالَ: سَأَلْت مَالِكًا هَلْ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُسَمِّيَ يس؟ قَالَ: مَا أَرَاهُ يَنْبَغِي، لِقَوْلِ اللَّهِ: ﴿ يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ يَقُولُ: هَذَا اسْمِي يس.

الثَّانِي: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يس يَا إنْسَانُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ، وَقَوْلُك يَا طَه: يَا رَجُلُ.

وَعَنْهُ رِوَايَةٌ أَنَّهُ اسْمُ اللَّهِ، كَمَا قَالَ مَالِكٌ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ كُنِّيَ بِهِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِيلَ لَهُ: يَا يس أَيْ يَا سَيِّدُ.

(29/645)

---

الرَّابِعُ أَنَّهُ مِنْ فَوَاتِحِ السُّوَرِ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَمَّانِي اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ سَبْعَةَ أَسْمَاءٍ: مُحَمَّدًا، وَأَحْمَدَ، وَطَه، وَيس، وَالْمُزَّمِّلَ وَالْمُدَّثِّرَ، وَعَبْدَ اللَّهِ ﴾.

وَهَذَا حَدِيثٌ لَا يَصِحُّ، وَقَدْ جَمَعْنَا أَسْمَاءَهُ مِنْ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فِي كِتَابِ النَّبِيِّ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ رِوَايَةُ أَشْهَبَ عَنْ مَالِكٍ: لَا يُسَمَّى أَحَدٌ يس؛ لِأَنَّهُ اسْمُ اللَّهِ كَلَامٌ بَدِيعٌ؛ وَذَلِكَ

أَنَّ الْعَبْدَ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَسَمَّى بِاسْمِ اللَّهِ إذَا كَانَ فِيهِ مَعْنًى مِنْهُ ، كَقَوْلِهِ : عَالِمٌ ، وَقَادِرٌ ، وَمُرِيدٌ ، وَمُتَكَلِّمٌ ؛ وَإِنَّمَا مَنَعَ مَالِكٌ مِنْ التَّسْمِيَةِ بِهَذَا ، لِأَنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ لَا يُدْرَى مَعْنَاهُ ، فَرُبَّمَا كَانَ مَعْنَاهُ يَنْفَرِدُ بِهِ الرَّبُّ ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقْدِمَ عَلَيْهِ الْعَبْدُ إذَا كَانَ لَا يَعْرِفُ هَلْ هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْبَارِي فَيُقْدِمُ عَلَى خَطَرٍ مِنْهُ ، فَاقْتَضَى النَّظَرُ رَفْعَهُ عَنْهُ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ سَلَامٌ عَلَى إلْ يَاسِينَ ﴾ .

قُلْنَا : ذَلِكَ مَكْتُوبٌ بِهِجَاءٍ فَيَجُوزُ التَّسْمِيَةُ بِهِ ، وَهَذَا الَّذِي لَيْسَ بِمُتَهَجًّى هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ مَالِكٌ عَلَيْهِ لِمَا فِيهِ مِنْ الْإِشْكَالِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(30/645)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يس ﴾ في "ياس" أوجه من القراءات : قرأ أهل المدينة والكسائي ﴿ يس * والقرآن الحكيم ﴾ بإدغام النون في الواو .

وقرأ أبو عمرو والأعمش وحمزة "يَسِنْ" بإظهار النون .

وقرأ عيسى بن عمر "يَسِنَ" بنصب النون .

وقرأ ابن عباس وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم "يسِنِ" بالكسر .

وقرأ هارون الأعور ومحمد بن السَّمَيْقَع "يَسِنُ" بضم النون ؛ فهذه خمس قراءات .

القراءة الأولى بالإدغام على ما يجب في العربية ؛ لأن النون تدغم في الواو .

ومن بيّن قال : سبيل حروف الهجاء أن يوقف عليها ، وإنما يكون الإدغام في الإدراج .

وذكر سيبويه النصب وجعله من جهتين : إحداهما أن يكون مفعولاً ولا يصرفه ؛ لأنه عنده اسم أعجمي بمنزلة هابيل ، والتقدير اذكر يسين .

وجعله سيبويه اسما للسورة .

وقوله الآخر أن يكون مبنياً على الفتح مثل كيفَ وأينَ .

وأما الكسر فزعم الفراء أنه مشبّه بقول العرب جيرِ لا أفعل ؛ فعلى هذا يكون "يسِنِ" قسَما .

وقاله ابن عباس .

وقيل : مشبَّه بأمِس وحذامِ وهؤلاءِ ورقاشِ .

وأما الضم فمشبّه بمنذُ وحيثُ وقطُّ ، وبالمنادى المفرد إذا قلت يا رجلُ ، لمن يقف عليه .

قال ابن السَّمَيْقَع وهارون : وقد جاء في تفسيرها يا رجل فالأولى بها الضم .

قال ابن الأنباري : "ياس" وقف حسن لمن قال هو افتتاح للسورة .

ومن قال : معنى "ياس" يا رجل لم يقف عليه .

وروي عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما أن معناه يا إنسان ، وقالوا في قوله تعالى : ﴿ سَلَامٌ على إِلْ يَاسِينَ ﴾ [ الصافات : 130 ] أي على آل محمد .

وقال سعيد بن جبير : هو اسم من أسماء محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ودليله "إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ" .

قال السيد الحميري :

يا نفس لا تَمحضِي بالنُّصْحِ جاهدةً . . .

عَلَى المودّةِ إلا آلَ ياسينَ

وقال أبو بكر الورّاق : معناه يا سيد البشر .

وقيل : إنه اسم من أسماء الله ؛ قاله مالك .

(31/645)

---

روى عنه أشهب قال : سألته هل ينبغي لأحد أن يتسمّى بياسين ؟ قال : ما أراه ينبغي لقول الله : ﴿ يس * والقرآن الحكيم ﴾ يقول هذا اسمي ياس .

قال ابن العربي هذا كلام بديع ، وذلك أن العبد يجوز له أن يتسمَّى باسم الرب إذا كان فيه معنى منه ؛ كقوله : عالم وقادر ومريد ومتكلم .

وإنما منع مالك من التسمية ب "يسين" ؛ لأنه اسم من أسماء الله لا يُدْرى معناه ؛ فربما كان معناه ينفرد به الربّ فلا يجوز أن يقدم عليه العبد .

فإن قيل فقد قال الله تعالى : ﴿ سَلَامٌ على إِلْيَاسِينَ ﴾ قلنا : ذلك مكتوب بهجاء فتجوز التسمية به ، وهذا الذي ليس بمتهجًّى هو الذي تكلم مالك عليه ؛ لما فيه من الإشكال ؛ والله أعلم .

وقال بعض العلماء : افتتح الله هذه السورة بالياء والسين وفيهما مجمع الخير : ودلّ المفتتح على أنه قلب ، والقلب أمير على الجسد ؛ وكذلك "ياس" أمير على سائر السور ، مشتمل على جميع القرآن .

ثم اختلفوا فيه أيضاً ؛ فقال سعيد بن جُبير وعكرمة : هو بلغة الحبشة .

وقال الشّعبي : هو بلغة طيّ .

الحسن : بلغة كلب .

الكلبي : هو بالسريانية فتكلمت به العرب فصار من لغتهم .

وقد مضى هذا المعنى في "طه" وفي مقدّمة الكتاب مستوفى .

وقد سرد القاضي عياض أقوال المفسرين في معنى "ياس" فحكى أبو محمد مكيّ أنه روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لي عند ربي عشرة أسماء " ذكر أن منها طه وياس اسمان له .

قلت : وذكر الماورديّ عن عليّ رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى أسماني في القرآن سبعة أسماء محمد وأحمد وطه وياس والمزمّل والمدّثر وعبد الله " قاله القاضي .

وحكى أبو عبد الرحمن السُّلَميّ عن جعفر الصادق أنه أراد يا سيد ، مخاطبة لنبيّه صلى الله عليه وسلم .

وعن ابن عباس : "ياس" يا إنسان أراد محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقال : هو قَسَم وهو من أسماء الله سبحانه .

(32/645)

---

وقال الزجاج : قيل معناه يا محمد وقيل يا رجل وقيل يا إنسان .

وعن ابن الحنفية : "ياس" يا محمد .

وعن كعب : "ياس" قَسَم أقسم الله به قبل أن يخلق السماء والأرض بألفي عام ( قال ) يا محمد "إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ" ، ثم قال : "وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ" .

فإن قدر أنه من أسمائه صلى الله عليه وسلم ، وصحّ فيه أنه قَسَم كان فيه من التعظيم ما تقدّم ، ويؤكد فيه القَسَم عطف القَسَم الآخر عليه .

وإن كان بمعنى النداء فقد جاء قَسَم آخر بعده لتحقيق رسالته والشهادة بهدايته .

أقسم الله تعالى باسمه وكتابه أنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده ، وعلى صراط مستقيم من إيمانه ؛ أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق .

قال النقاش : لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له ، وفيه من تعظيمه وتمجيده على تأويل من قال إنه يا سيِّد ما فيه ، وقد قال عليه السلام : " أنا سيد ولد آدم " انتهى كلامه .

وحكى القشيري قال ابن عباس : قالت كفار قريش لست مرسلاً وما أرسلك الله إلينا ؛ فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمداً من المرسلين .

" والحكيم " المحكَم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض ؛ كما قال : ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ [ هود : 1 ] .

وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل .

وقد يكون " الْحَكِيمِ " في حق الله بمعنى المحكِم بكسر الكاف كالأليم بمعنى المؤلم .

﴿ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي دين مستقيم وهو الإسلام .

وقال الزجاج : على طريق الأنبياء الذين تقدموك ؛ ( و ) قال : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ خبر إن ، و ﴿ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ خبر ثانٍ ؛ أي إنك لمن المرسلين ، وإنك على صراط مستقيم .

وقيل : المعنى لمن المرسلين على استقامة ؛ فيكون قوله : ﴿ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ من صلة المرسلين ؛ أي إنك لمن المرسلين الذين أرسلوا على طريقة مستقيمة ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ الله ﴾ [ الشورى : 52 53 ] أي الصراط الذي أمر الله به .

قوله تعالى : ﴿ تَنزِيلَ العزيز الرحيم ﴾ قرأ ابن عامر وحفص والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف : "تَنْزِيلَ" بنصب اللام على المصدر ؛ أي نزّل الله ذلك تنزيلاً .

وأضاف المصدر فصار معرفة كقوله : ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ [ محمد : 4 ] أي فضربا للرقاب .

الباقون "تَنْزِيلُ" بالرفع على خبر ابتداء محذوف أي هو تنزيل ، أو الذي أنزل إليك تنزيل العزيز الرحيم .

هذا وقرىء : "تَنْزِيلِ" بالجر على البدل من "الْقُرْآن" والتنزيل يرجع إلى القرآن .

وقيل : إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي إنك لمن المرسلين ، وإنك ﴿ تَنزِيلَ العزيز الرحيم ﴾ .

فالتنزيل على هذا بمعنى الإرسال ؛ قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَّسُولاً يَتْلُو ﴾ [ الطلاق : 10 11 ] ويقال : أرسل الله المطر وأنزله بمعنى .

ومحمد صلى الله عليه وسلم رحمة الله أنزلها من السماء .

ومن نصب قال : إنك لمن المرسلين إرسالاً من الْعَزيز الرحيم .

و"العزِيزِ" المنتقم ممن خالفه "الرَّحِيم" بأهل طاعته .

قوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنْذِرَ آبَآؤُهُمْ ﴾ "ما" لا موضع لها من الإعراب عند أكثر أهل التفسير ، منهم قتادة ؛ لأنها نفي والمعنى : لتنذر قوماً ما أتى آباءهم قبلك نذير .

وقيل : هي بمعنى الذي فالمعنى : لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة أيضاً .

وقيل : إن "ما" والفعل مصدر ؛ أي لتنذر قوماً إنذار آبائهم .

ثم يجوز أن تكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء ؛ فالمعنى لم ينذَروا برسول من أنفسهم .

ويجوز أن يكون بلغهم الخبر ولكن غفلوا وأعرضوا ونَسُوا .

ويجوز أن يكون هذا خطاباً لقوم لم يبلغهم خبر نبيّ ، وقد قال الله : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ [ سبأ : 44 ] وقال : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [ سجدة : 3 ] أي لم يأتهم نبيّ .

وعلى قول من قال بلغهم خبر الأنبياء ، فالمعنى فهم معرضون الآن متغافلون عن ذلك ، ويقال للمعرض عن الشيء إنه غافل عنه .

وقيل : ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ عن عقاب الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(35/645)

---

وقال أبو السعود :

( سورة يس مكية . وعنه صلى الله عليه وسلم تدعى المعمة تعم صاحبها خير الدارين والدافعة والقاضية تدفع عنه كل سوء وتقضى له كل حاجة وآياتها ثلاث وثمانون )

(36/645)

﴿ بِسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم ﴾ ﴿ يس ﴾ إمَّا مسرودٌ على نمطِ التَعديدِ فلا حظَّ له من الإعرابِ أو اسمٌ للسُّورةِ كما نصَّ عليه الخليلُ وسيبويهِ وعليه الأكثرُ فمحلُّه الرَّفعُ على أنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أو النَّصبُ على أنَّه مفعولٌ لفعلٍ مضمرٍ. وعليهما مدارُ قراءةِ يسن بالرَّفعِ والنَّصبِ أي هَذه يسن أو اقرأْ يسن. ولا مساغَ للنَّصب بإضمارِ فعلِ القسمِ لأنَّ ما بعدَهُ مُقسمٌ به وقد أَبوا الجمعَ بين قَسَمين على شيءٍ واحدٍ قبل انقضاءِ الأوّلِ ولا مجالَ للعطفِ لاختلافِهما إعراباً. وقيل هو مجرورٌ بإضمارِ باءِ القسمِ مفتوحٌ لكونِه غيرَ منصرفٍ كما سلف في فاتحةِ سُورةِ البقرةِ من أنَّ ما كانتْ من هذه الفواتحِ مفردةً مثلَ صاد وقاف ونون أو كانت موازنةً لمفردٍ نحو طس ويسن وحم الموازنةِ لقابيلَ وهابيلَ يتأتَّى فيها الإعرابُ اللَّفظيُّ ذكَره سيبويهِ في بابِ أسماءِ السُّورِ من كتابه. وقيل: هُما حركتا بناءٍ كما في حيثُ وأينَ حسَبما يشهدُ بذلك قراءةُ يسن بالكسر كجَيْرِ وقيل: الفتحُ والكسرُ تحريكٌ للجدِّ في الهربِ من التقاءِ السَّاكنينِ. وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ معناه يا إنسانُ في لغةِ طَيءٍ قالُوا المرادُ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. ولعلَّ أصلَه يا أُنيسين فاقتُصر على شطرِه كما قيل مَنُ اللهِ في أيمَن الله ﴿ والقرءان ﴾ بالجرِّ على أنَّه مقسمٌ به ابتداءً وقد جُوِّز أنْ يكونَ عطفاً على يسن على تقديرِ كونِه مجروراً بإضمارِ باءِ القسمِ ﴿ الحكيم ﴾ أي المتضمِّنِ للحكمةِ أو النَّاطقِ بها بطريقِ الاستعارةِ أو المتَّصفِ بها على الإسنادِ المجازيِّ،

وقد جُوِّزَ أنْ يكونَ الأصلُ الحكيمُ قائلُه فحذفُ المضافُ وأُقيمِ المضافُ إليه مقامَه فبانقلابِه مرفوعاً بعد الجرِّ استكنَّ في الصِّفةِ المُشبَّهةِ كما مرَّ في صدرِ سُورةِ لُقمانَ ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ جوابٌ للقسم. والجملةُ

(37/645)

---

لردِّ إنكارِ الكَفَرةِ بقولِهم في حقِّه عليه بالصَّلاةُ والسَّلامُ لستَ مُرسَلاً. وهذه الشَّهادةُ منه عزَّ وجلَّ من جملة ما أُشيرَ إليه بقوله تعالى في جوابهم: ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ وفي تخصيص القُرآنِ بالإقسامِ به أَوَّلاً بوصفه بالحكيمِ ثانياً تنويهٌ بشأنه وتنبيهٌ على أنه كما يشهدُ برسالته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من حيث نظمُه المعجزُ المُنطوي على بدائعِ الحكمِ يشهدُ بها من هذه الحيثيَّةِ أيضاً لما أنَّ الإقسامَ بالشَّيءِ استشهادٌ به على تحقُّقِ مضمونِ الجملةِ القسميةِ وتقويةٌ لثبوتِه فيكون شاهداً به ودليلاً عليه قَطْعاً

وقوله تعالى: ﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ خبرٌ آخرُ لأنَّ أو حالٌ من المستكنِّ في الجارِّ والمجرور على أنَّه عبارة عن الشَّريعةِ الشَّريفةِ بكمالها لا عن التَّوحيدِ فقط وفائدتُه بيانُ أنَّ شريعتَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أقوى الشَّرائعِ وأعدلُها كما يُعرب عنه التَّنكيرُ التَّفخيميُّ والوصفُ إثرَ بيانِ أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من جملة المرسلين بالشَّرائعِ.

﴿ تَنزِيلَ العزيزِ الرحيم ﴾ نصب على المدحِ. وقُرِىءَ بالرَّفعِ على أَنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ وبالجرِّ على أنه بدلٌ من القرآن وأيّاً ما كان فهو مصدرٌ بمعنى المفعول عبَّر به عن القرآنُ بياناً لكمال عراقتِه في كونه منزَّلاً من عند الله عزَّ وجل كأَنَّه نفس التَّنزيلِ وإظهار لفخامتِه الإضافية بعد بيان فخامتِه الذاتيَّةِ بوصفه بالحكمة وفي تخصيص الاسمينِ الكريمينِ المُعربينِ عن الغلبةِ التَّامةِ والرَّأفةِ العامَّةِ حثٌّ على الإيمان به ترهيباً وترغيباً وإشعارٌ بأنَّ تنزيلَه ناشيءٌ عن غايةِ الرَّحمةِ حسبما نطقَ به قولُه تعالى : ﴿ وَمَا أرسلناك إلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ وقيل : النَّصبُ على أنه مصدرٌ مؤكّدٌ لفعله المضمرِ أي نزل تنزيل العزيزِ الرَّحيمِ على أَنَّه استئنافٌ مسوقٌ لبيان ما ذُكر من فخامةِ شأنِ القُرآن وعلى كلِّ تقديرٍ ففيهِ فضلُ تأكيدٍ لمضمونِ الجملة القسميةِ ﴿ لّتُنذِرَ ﴾ متعلِّقٌ بتنزيل على الوجوهِ الأُولِ وبعامله المضمرِ على الوجهِ الآخيرِ أي لتنذر به كما في صدرِ الأعرافِ وقيل : هو متعلِّقٌ بما يدلُّ عليه لمن المرسلين أي إنَّك مرسلٌ لتنذرَ ﴿ قَوْماً مَّا أُنذِرَ ءابَاؤُهُمْ ﴾ أي لم يُنذرْ آباؤُهم الأقربون لتطاولِ مدَّة الفترةِ على أنَّ ما نافيةٌ فتكون صفةً مبيّنةً لغاية احتياجهم إلى الإنذار أو الذي أنذره أو شيئاً أُنذره آباؤهم الأبعدون على أَنَّها موصولةٌ أو موصوفة فيكون مفعولاً ثانياً

لتنذرَ أو إنذار آبائِهم الأقدمين على أنَّها مصدريةٌ فيكون نعتاً لمصدرٍ مؤكَّدٍ أي لتنذرَ إنذاراً كائناً مثلَ إنذارِهم ﴿ فَهُمْ غافلون ﴾ على الوجهِ الأولِ متعلّق بنفي الإنذارِ مترّتب عليه والضَّميرُ للفريقينِ أي لم تُنذرْ آباؤهم جميعاً لأجلِه غافلون وعلى الوجوهِ الباقيةِ متعلّقٌ بقوله تعالى : ﴿ لّتُنذِرَ ﴾ أو بما يفيده إنَّك لمن المُرسلين واردٌ لتعليل إنذارِه عليه السَّلامُ أو

(39/645)

---

إرساله بغفلتهم المحوجةِ إليهما على أنَّ الضَّميرَ للقوم خاصّةً فالمعنى فهم غافلُون عنه أي عمَّا أُنذر آباؤهم الأقدمونَ لامتدادِ المُدَّة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(40/645)

---

وقال الآلوسى :

﴿ يس ﴾ الكلام فيه كالكلام في ﴿ الم ﴾ [ البقرة : 1 ] ونحوه من الحروف المقطعة في أوائل السور إعراباً ومعنى عند كثير .

وأخرج ابن أبي شيبة .

وعبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس أنه قال : يس يا انسان .

وفي رواية أخرى عنه زيادة بالحبشية .

وفي أخرى عنه أيضاً في لغة طي .

قال الزمخشري : إن صح هذا فوجهه أن يكون أصله يا أنيسين فكثر النداء به على ألسنهم حتى اقتصروا على شطره كما في القسم م الله في أيمن الله .

وتعقبه أبو حيان بأن المنقول عن العرب في تصغير إنسان أنيسيان بياء قبل الألف وهو دليل على أن الإنسان من النسيان وأصله انسيان فلما صغر رده التصغير إلى أصله ولا نعلمهم قالوا في تصغيره انيسين ، وعلى تقدير أنه بقية أنيسين فلا يجوز ذلك إلا أن يبنى على الضم ولا يبقى موقوفاً لأنه منادى مقبل عليه ومع ذلك لا يجوز التصغير في أسماء الأنبياء عليهم السلام كما لا يجوز في أسماء الله عز وجل ، وما ذكره في م من أنه شطر أيمن قول ، ومن النحويين من يقول م حرف قسم وليس شطر أيمن انتهى .

قال الخفاجي : لزوم البناء على الضم مما لا كلام فيه فلعل من فسره بذلك يقرؤه بالضم على

الأوجه فيه ، وأما الاعتراضان الآخران فلا ورود لهما أصلاً ، فأما الأول فلأن من يقول أنيسيان على خلاف القياس وهو الأصح لا يلزمه فيما غير منه أن يقدره كذلك وهو لم يلفظ به حتى يقال له : نطقت بما لم تنطق به العرب بل هو أمر تقديري ، فإذا قال : المقدر مفروض عندي على القياس هل يتوجه عليها لسؤال ، وأما الأخير فلأن التصغير في نحو ذلك إنما يمتنع منا وأما من الله تعالى فله سبحانه أن يطلق على نفسه عز وجل وعظماء خلقه ما أراد ويحمل حينئذ على ما يليق كالتعظيم والتحبيب ونحوه من معاني التصغير كما قال ابن الفارض :

ما قلت حبيبي من التحقير . . .

بل يعذب اسم الشيء بالتصغير

(41/645)

---

والذي قاله أبو حيان في توجيه ذلك أنهم يقولون إيسان بمعنى إنسان ويجمعون على أياسين فهذا منه ولا يخفى أنه يحتاج إلى إثبات وبعده لا يخفى ما في التخريج عليه ، وقالت فرقة : يا حرف نداء والسين مقامة مقام إنسان انتزع منه حرف فأقيم مقامه ، ونظيره ما جاء في الحديث "كفى بالسيف شا " أي شاهداً ، وأيد بما ذهب إليه ابن عباس في ﴿ حم عسق

﴾ [ الشورى : 1 ، 2 ] ونحوه من أنها حروف من جملة أسماء له تعالى وهي رحيم وعليم وسميع وقدير ونحو ذلك .

وظاهر كلام بعضهم كابن جبير أن يس بمجموعه اسم من أسمائه عليه الصلاة والسلام وهو ظاهر قول السيد الحمري :

يا نفس لا تمحضي بالود جاهدة . . .

على المودة إلا آل ياسينا

ولتسميته صلى الله عليه وسلم بهذين الحرفين الجليلين سر جليل عند الواقفين على أسرار الحروف ، وقد تكلمت ولله تعالى الحمد فيما تعلق بهذه الكلمة الشريفة ثلاثة أيام أشرع كل يوم منها بعد العصر وأختم قبيل المغرب وذلك في مجلس وعظي في المسجد الجامع الداودي واليوم لا أستطيع أن أذكر من ذاك بنت شفة بل لا أتذكر منه إلا رسماً هب عليه عاصف الزمان الغشوم فنسفه فحسبي الله عمن سواه فلا رب غيره ولا يرجى إلا خيره .

وقرىء بفتح الياء وإمالتها محضاً وبين بين .

وقرأ جمع بسكون النون مدغمة في الواو ، وآخرون بسكونها مظهرة والقراءتان سبعيتان ، وقرأ ابن أبي إسحاق .

وعيسى بفتح النون ، قال أبو حاتم قياس قول قتادة : إنه قسم أن يكون على حد الله لأفعلن بالنصب .

ويجوز أن يكون مجروراً بإضمار باء القسم وهو ممنوع من الصرف.

وقال الزجاج: النصب على تقدير أتل يس وهذا على قول سيبويه أنه اسم للسورة، وقيل هو مبني والتحريك للجد في الهرب من التقاء الساكنين والفتح للخفة كما في أين، وسبب البناء غير خفي عليك إذا أحطت خبراً بما قرروا في ﴿ الم ﴾ أول سورة البقرة.

(42/645)

---

ولا تغفل عما قالوا في النصب بإضمار فعل القسم من أنه لا يسوغ لما فيه من جمع قسمين على مقسم عليه واحد وهو مستكره، ولا سبيل إلى جعل الواو بعد للعطف لا للقسم لمكان الاختلاف إعراباً.

وقرأ الكلبي بضم النون وخرج على أنه منادى مقصود بناءً على أنه بمعنى إنسان أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف، ويقدر هذه إذا كان اسماً للسورة وهذا إن كان اسماً للقرآن وهو يطلق على البعض كما يطلق على الكل، وجعله مبتدأ محذوف الخبر وهو قسم أي يس قسمي نحو أمانة الله لأفعلن بالرفع لا يخفى حاله، وقيل الضمة فيه ضمة بناءً كما في حيث.

وقرأ أبو السمال.

وابن أبي إسحاق أيضاً بكسرها ، وخرج على أنه للجد في الهرب عن الساكنين بما هو الأصلي فتأمل وتذكر .

﴿ والقرءان ﴾ ابتداء قسم ، وجوز أن يكون عطفاً على يس على تقدير كونه مجروراً بإضمار باء القسم لا أنه قسم بعد قسم لما سمعت من كلامهم ﴿ الحكيم ﴾ أي ذي حكمة على أنه صيغة نسبة كلابن وتأمر أي متضمن إياها أو الناطق بالحكمة كالحي على أن يكون من الاستعارة المكنية أو المتصف بالحكمة على أن الإسناد مجازي وحقيقته الإسناد إلى الله تعالى المتكلم به .

وفي "البحر" هو إما فعيل بمعنى مفعل كأعقدت العسل فهو عقيد أي معقد وإما للمبالغة من حاكم .

﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ جواب للقسم ، والجملة لرد إنكار الكفرة رسالته عليه الصلاة والسلام فقد قالوا : ﴿ لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾ [ الرعد : 43 ] وتقدم ما يشعر بأنهم على جانب عظيم من الإنكار أعني قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ [ فاطر : 42 43 ] استكباراً في الأرض ومكر السيء ، وهذه الآية من جملة ما أشير إليه بقوله تعالى في جوابهم عن إنكارهم ﴿ قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [ الرعد : 3 4 ] وتخصيص القرآن بالإقسام به أولاً وبوصفه بالحكيم ثانياً تنويه بشأنه على أكمل وجه .

وقوله تعالى :

﴿ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ خبر ثان لأن ، واختاره الزجاج قائلاً : إنه الأحسن في العربية أو حال من ضميره عليه الصلاة والسلام المستكن في الجار والمجرور أو الواقع اسم إن بناءً على رأي من يجوز الحال من المبتدأ ؛ وجوز أن يكون متعلقاً بالمرسلين وليس المراد به الحال أو الاستقبال أي لمن الذين أرسلوا على صراط مستقيم ، وأن يكون حالاً من عائد الموصول المستتر في اسم الفاعل ، أو حالاً من نفس ﴿ المرسلين ﴾ [يس : 3 ] .

والزمخشري لم يذكر من هذه الأوجه سوى كونه خبراً وكونه صلة للمرسلين ، وأياً ما كان فالمراد بالصراط المستقيم ما يعم العقائد والشرائع الحقة وليس الغرض من الإخبار الإعلام بتمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته ليقال إن ذلك حاصل قبله لما أن كل أحد يعلم أن المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم بل الغرض الإعلام بأنه موصوف بكذا وأن ما جاء به الموصوف بكذا تفخيماً لشأنهما فسلكا في مسلك سلوكاً لطريق الاختصار ، وأيضاً التنكير في ﴿ صراط ﴾ للتفخيم فهو دال على أنه أرسل من بين الصرط المستقيمة على صراط لا يكتنه وصفه وهذا شيء لم يعلم قبل ، ولا يرد أن الطريق المستقيم واحد ليس إلا ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل

﴾ [الأنعام : 153 ] لأن لكل نبي شارع منهاجاً هو مستقيم وباعتبار الرجوع إلى المرسل تعالى شأنه الكل متحد وباعتبار الاختصاص بالمرسل والشرائع مختلف فصح أنه أرسل من بني الصرط المستقيمة الخ .

وأيضاً هو فرض والفرض تعظيم هذا الصراط بأنه لا صراط أقوم منه واقعاً أو مفروضاً ولا نظر إلى أن هنالك آخر أولاً ، وهذا قريب من أسلوب مثلك لا يفعل كذا فافهم ولا تغفل .

وقوله تعالى :

﴿ تَنزِيلَ العزيز الرحيم ﴾ نصب على المدح أو على المصدرية لفعل محذوف أي نزل تنزيل .

وقرأ جمع من السبعة وأبو بكر .

وأبو جعفر .

وشيبة .

والحسن .

والأعرج.

والأعمش بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والمصدر بمعنى المفعول أي هو تنزيل أي منزل العزيز الرحيم ، والضمير للقرآن ويجوز إبقاؤه على أصله بجعله عين التنزيل ؛ وجوز أن يكون خبر ﴿ يس ﴾ إن كان المراد بها السورة والجملة القسمية معترضة ، والقسم لتأكيد المقسم عليه والمقسم به اهتماماً فلا يقال : إن الكفار ينكرون القرآن فكيف يقسم به لإلزامهم .

وقرأ أبو حيوة .

واليزيدي .

والقورضي عن أبي جعفر .

وشيبة بالخفض على البدلية من ﴿ القرءان ﴾ أو الوصفية له .

وأياً ما كان ففيه إظهار لفخامة القرآن الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية بوصفه بالحكمة ، وفي تخصيص الاسمين الكريمين المعربين عن الغلبة الكاملة والرحمة الفاضلة حث على الإيمان به ترهيباً وترغيباً وإشعاراً بأن تنزيله ناشىء عن غاية الرحمة حسبما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ [ الأنبياء : 107 ] .

﴿ لّتُنذِرَ ﴾ متعلق بتنزيل أو بفعله المضمر على الوجه الثاني في إعرابه أي نزل تنزيل العزيز الرحيم لتنذر به أو بما يدل عليه ﴿ لَمِنَ المرسلين ﴾ [ يس : 3 ] أي أرسلت أو إنك مرسل لتنذر ﴿ قَوْماً مَّا أُنذِرَ ءابَاؤُهُمْ ﴾ أي لم تنذر آباؤهم على ما روي عن قتادة فما

نافية والجملة صفة ﴿ قَوْماً ﴾ مبينة لغاية احتياجهم إلى الإنذار ، والمراد بالإنذار الإعلام أو التخويف ومفعوله الثاني محذوف أي عذاباً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً ﴾ [ النبأ : 40 ] والمراد بآبائهم آباؤهم الأدنون وإلا فالأبعدون قد أنذرهم إسماعيل عليه السلام وبلغهم شريعة إبراهيم عليه السلام .

وقد كان منهم من تمسك بشرعه على أتم وجه ثم تراخى الأمر وتطاول المدد فلم يبق من شريعته عليه السلام إلا الاسم .

(45/645)

---

وفي "البحر" الدعاء إلى الله تعالى لم ينقطع عن كل أمة أما بمباشرة من أنبيائهم وأما بنقل إلى وقت بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم والآيات التي تدل على أن قريشاً ما جاءهم نذير معناها لم يباشرهم ولا آباءهم القريبين .

وأما أن النذارة انقطعت فلا ، ولما شرعت آثارها تندرس بعث النبي صلى الله عليه وسلم وما ذكره المتكلمون من حال أهل الفترات فهو على حسب الفرض اه .

وعليه فالمعنى ما أنذر آباءهم رسول أي لم يباشرهم بالإنذار لا أنه لم ينذرهم منذر أصلاً فيجوز أن يكون قد أنذرهم من ليس بنبي كزيد بن عمرو بن نفيل .

وقس بن ساعدة فلا منافاة بين ما هنا وقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [ فاطر : 24 ] وليس في ذلك إنكار الفترة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ على فَتْرَةٍ مِّنَ الرسل ﴾ [ المائدة : 19 ] لأنها فترة إرسال وانقطاعها زماناً لا فترة إنذار مطلقاً ، وعن عكرمة ﴿ مَا ﴾ بمعنى الذي ، وجوز أن تكون موصوفة وهي على الوجهين مفعول ثان لتنذر أي لتنذر قوماً الذي أنذره أو شيئاً أنذره الرسل آباءهم الأبعدين ، وقال ابن عطية : يحتمل أن تكون ما مصدرية فتكون نعتاً لمصدر مؤكد أي لتنذر قوما إنذاراً مثل إنذار الرسل آباءهم الأبعدين ، وقيل هي زائدة وليس بشيء ﴿ فَهُمْ غافلون ﴾ هو على الوجه الأول متفرع على نفي الإنذار ومتسبب عنه والضمير للفريقين أي لم ينذر آباؤهم فهم جميعاً لأجل ذلك غافلون ، وعلى الأوجه الباقية متعلق بقوله تعالى : ﴿ لّتُنذِرَ ﴾ أو بما يفيده ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ وارد لتعليل إنذاره عليه الصلاة والسلام أو إرساله بغفلتهم المحوجة إليه نحو اسقه فإنه عطشان على أن الضمير للقوم خاصة فالمعنى فهم غافلون عنه أي عما أنذر آباؤهم .

وقال الخفاجي : يجوز تعلقه بهذا على الأول أيضاً وتعلقه بقوله تعالى : ﴿ لِّتُنذِرَ ﴾ على الوجوه وجعل الفاء تعليلية والضمير لهم أو لآبائهم اه ، ولا يخفى عليك أن المنساق إلى الذهن ما قرر أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

(47/645)

---

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

سورة يس

نزولها : مكية .

عدد آياتها : ثلاث وثمانون آية .

عدد كلماتها : سبعمائة وتسع وعشرون .

عدد حروفها : ثلاثة آلاف .

مناسبتها لما قبلها جاء فى الآيات التي ختمت بها سورة « فاطر » السابقة قوله تعالى : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً » ثم جاءت الآيات الثلاث التي تلت هذه الآية والتي ختمت بها السورة. تعقيبا على تلك الآية ، وبيانا لموقف المشركين من هذا القسم الذي أقسموه . .

وقد بدئت سورة « يس » بالقسم بالقرآن الكريم ، الذي جاءهم النبىّ الكريم به ، ثم وقوع هذا القسم على الإخبار بأن محمدا هو رسول اللّه ، وأنه على صراط مستقيم ، وأن تكذيب المشركين له ، ورفضهم لدعوته ، لم يكن إلا عن ضلال وعمى ، وإلا عن استكبار وحسد . . لقد كانوا يتمنون أن يبعث اللّه فيهم رسولا ، وأن يأتيهم بكتاب ، مثل كتب أهل الكتاب ، وها هو ذا الرسول ، والكتاب . . فماذا هم فاعلون ؟ ستكشف الأيام عن جواب هذا السؤال . .



---

قوله تعالى : « يس » . . اختلف فى تأويلها ، فقيل فيها كل ما قيل فى الحروف التي بدئت بها بعض سور القرآن . . وقيل إنها اسم للنبىّ صلى اللّه عليه وسلم . . ولا نقول إلا أنها من المتشابه ، الذي لا يعلم تأويله إلا اللّه والراسخون فى العلم ! .

قوله تعالى : « وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

هو قسم بالقرآن الحكيم ، وفى هذا القسم تشريف لمقامه ، وتأكيد وتنويه

بمنزلته . . وكيف لا يكون فى قمة التشريف والتكريم ، وهو آيات اللّه ، وكلمات اللّه ؟

وفى وصف القرآن بالحكمة هنا ، إلفات لما اشتمل عليه من فرائد الحكمة ، التي هى مورد العقول ، ومطلب الحكماء . . وأن الذي ينظر فى آيات اللّه ينبغى أن ينظر فيها بعقل متفتح ، وبصيرة متطلعة ، وقلب مشوق ، حتى يظفر ببعض ما يتحدث به هذا القرآن الحكيم ، فإنه لا ينتفع بحكمة الحكيم ، إلا من كان ذا حكمة وبصيرة . .

.وقوله تعالى : « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » خطاب للنبىّ ، وتوكيد للصفة التي له عند اللّه . وأنه من المرسلين ، الذين اصطفاهم اللّه لرسالته إلى عباده .

.وقوله تعالى : « عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » . . هو خبر ثان ، عن النبىّ ، وأنه قائم على صراط مستقيم ، من اتبعه فقد اهتدى ، ومن اتخذ سبيلا غير سبيله فقد ضلّ وهلك .

قوله تعالى : « تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » « تنزيل » منصوب على المصدر ، أي إنك لمن المرسلين . . وإنك على صراط مستقيم ، نزّل « تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » . . ويكون المراد بالصراط المستقيم هنا هو القرآن الكريم ، كما يقول اللّه تعالى : « وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ » (153 : الأنعام) ويكون قوله تعالى : « تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » جملة وقعت صفة .

قوله تعالى : « لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ » .

أي إنك من المرسلين ، وإنك على صراط مستقيم بهذا الكتاب المنزل من العزيز الرحيم : « لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ » . . فهذا الحشد العظيم من

(50/645)

---

الصفات العظيمة للنبىّ ، هو وإن كانت تكريما للنبىّ ، وامتنانا عليه بإحسان ربّه إليه. هو أيضا تكريم لهؤلاء الجاهليين ، وامتنان بفضل اللّه عليهم ، إذ بعث فيهم خير رسله ، وخاتم أنبيائه ، ومجتمع كتبه . . وفى هذا حثّ لهم على أن يقبلوا على هذا الخير الكثير المرسل إليهم ، وأن يأخذوا حظهم منه .

.وفى قوله تعالى : « ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ » . . إشارة إلى أنهم لم يبعث فيهم رسول قبله . . أما رسالة إسماعيل عليه السلام ، فهى رسالة كانت مقصورة على أهله ، كما يقول تعالى : « وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ » (55 : مريم) وإذا كان لهذه الرسالة أثر ، فقد اندثر ، وعفّى عليه الزمن وسط ظلام الجاهلية وضلالها .

.وفى قوله تعالى : « فَهُمْ غافِلُونَ » . . إشارة أخرى إلى ما كان عليه القوم من جهل وغفلة ، فكانوا بهذا فى أشد الحاجة إلى من يعالج هذا الداء المتمكن فيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 11 صـ 904 ـ 907 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ يس (1) ﴾

القول فيه كالقول في الحروف المقَطَّعة الواقعة في أوائل السور ، ومن جملتها أنه اسم من أسماء الله تعالى ، رواه أشهب عن مالك قاله ابن العربي ، وفيه عن ابن عباس أنه : يا إنسان ، بلسان الحبشة .

وعنه أنها كذلك بلغة طيء ، ولا أحسب هذا يصح عنه لأن كتابتها في المصاحف على حرفين تنافي ذلك .

ومن الناس من يدعي أن يس من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وبنى عليه إسماعيل بن بكر الحِميري شاعر الرافضة المشهور عندهم بالسيد الحِميري قوله :

يا نفْسسِ لا تَمْحضِي بالودّ جَاهدة

على المَودة إلاّ آل ياسِينا . . .

ولعله أخذه من قوله تعالى في سورة الصافات ( 130 ) ﴿ سلام على آل ياسين ﴾ فقد قيل إنه يعني آل محمد صلى الله عليه وسلم

ومن الناس من قال : إن يس اختزال : يا سيد ، خطابا للنبيء صلى الله عليه وسلم ويوهنه نطق القراء بها بنون .

ومن الناس من يسمّي ابنه بهذه الكلمة وهو كثير في البلاد المصرية والشامية ومنهم الشيخ يس بن زين الدين العُليمي الحمصي المتوفى سنة 1061 صاحب التعاليق القيمة فإنما يكتب اسمه بحسب ما ينطق به لا بحروف التهجي وإن كان الناس يغفلون فيكتبونه بحرفين كما يكتب أول هذه السورة .

قال ابن العربي قال أشهب : سألت مالكاً هل ينبغي لأحد أن يسمي يس ؟ قال : ما أراه ينبغي لقول الله تعالى : ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ [ يس : 1 ، 2 ] يقول هذا : اسمي يس .

قال ابن العربي : وهو كلام بديع لأن العبد لا يجوز أن يسمّى باسم الله إذا كان فيه معنى منه كقوله : عالم وقادر ، وإنما منع مالك من التسمية بهذا لأنه اسم من أسماء الله لا يُدرَى معناه فربما كان معناه ينفرد به الرب فلا يجوز أن يقدم عليه العبْد فيقدم على خطر فاقتضى النظر رفعه عنه اه .

وفيه نظر .

والنطق باسم ( يا ) بدون مد تخفيف كما في كهيعص .

وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4)

القسَم بالقرآن كناية عن شرف قدره وتعظيمه عند الله تعالى ، وذلك هو المقصود من الآيات الأُوَل من هذه السورة .

والمقصود من هذا القَسَم تأكيد الخبر مع ذلك التنويه .

و﴿ القرآن ﴾ علَم بالغلبة على الكتاب الموحَى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم من وقت مبعثه إلى وفاته للإِعجاز والتشريع ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ وما تتلو منه من قرآن ﴾ في سورة يونس ( 61 ) .

والحكيم ﴾ يجوز أن يكون بمعنى المُحْكَم بفتح الكاف ، أي المجعول ذا إحكام ، والإِحكام : الإِتقان بماهية الشيء فيما يراد منه .

ويجوز أن يكون بمعنى صاحب الحِكمة ، ووصفه بذلك مجاز عقلي لأنه محتوٍ عليها .

وجملة ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ جواب القسم ، وتأكيد هذا الخبر بالقسم وحرف التأكيد ولامِ الابتداء باعتبار كونه مراداً به التعريض بالمشركين الذين كذبوا بالرسالة فهو تأنيس للنبيء صلى الله عليه وسلم وتعريض بالمشركين ، فالتأكيد بالنسبة إليه زيادةُ تقرير وبالنسبة للمعنى الكنائي لرد إنكارهم ، والنكت لا تتزاحم .

﴿ على صراط مستقيم ﴾ خبر ثان ل ( إنّ ) ، أو حال من اسم ( إنّ ) .

والمقصود منه : الإِيقاظ إلى عظمة شريعته بعد إثبات أنه مرسل كغيره من الرسل .

و ﴿ على ﴾ للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى التمكُّن كما تقدم في قوله : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ في سورة البقرة ( 5 ) .

وليس الغرض من الإِخبار به عن المخاطب إفادة كونه على صراط مستقيم لأن ذلك معلوم حصوله من الأخبار من كونه أحد المرسلين .

فقد علم أن المراد من المرسلين المرسلون من عند الله ، ولكن الغرض الجمع بين حال الرسول عليه الصلاة والسلام وبين حال دينه ليكون العِلم بأن دينه صراط مستقيم عِلماً مُستقلاً لا ضِمنياً .

(53/645)

---

والصراط المستقيم : الهدى الموصل إلى الفوز في الآخرة ، وهو الدين الذي بعث به النبي ، والخُلُق الذي لَقنه الله ، شبه بطريق مستقيم لا اعوجاج فيه في أنه موثوق به في الإِيصال إلى المقصود دون أن يتردد السائر فيه .

فالإِسلام فيه الهدى في الحياتين فمتبِعه كالسائر في صراط مستقيم لا حيرة في سيره تعتريه

حتى يبلغ المكان المراد .

والقرآن حاوي الدين فكان القرآن من الصراط المستقيم .

وتنكير صراط ﴾ للتوصل إلى تعظيمه .

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6)

راجع إلى ﴿ القرآن الحكيم ﴾ [ يس : 2 ] إذ هو المنزل من عند الله ، فبعد أن استوفى القسم جوابه رجع الكلام إلى بعض المقصود من القسم وهو تشريف المقسم به فوسم بأنه ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ .

وقد قرأه الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف للعلم به ، وهذا من مواقع حذف المسند إليه الذي سماه السكاكي الحذف الجاري على متابعة الاستعمال في أمثاله .

وذلك أنهم إذا أجروا حديثاً على شيء ثم أخبروا عنه التزموا حذف ضميره الذي هو مسند إليه إشارة إلى التنويه به كأنه لا يخفى كقول إبراهيم الصّولي ، أو عبد الله بن الزَّبير الأَسدي أو محمد بن سعيد الكاتب ، وهي من أبيات الحماسة في باب الأضياف:

سأشكر عَمْراً إن تراختْ منيتي . . .

أيادي َلم تمنن وإن هي جَلّتِ

فتىً غيرُ محجوب الغنى عن صديقه . . .

ولاَ مظهرِ الشكوى إذ النعل زلّتِ

تقديره : هو فتى .

وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بنصب ﴿ تنزيل ﴾ على تقدير : أعني .

والمعنى : أعني من قسمي قرآناً نزّلتُه ، وتلك العناية زيادة في التنويه بشأنه وهي تعادل حذف المسند إليه الذي في قراءة الرفع .

والتنزيل : مصدر بمعنى المفعول أخبر عنه بالمصدر للمبالغة في تحقيق كونه منزلاً .

(54/645)

---

وأضيف التنزيل إلى الله بعنوان صفتي ﴿ العزيز الرحيم ﴾ لأن ما اشتمل عليه القرآن لا يعدُو أن يكون من آثار عزة الله تعالى ، وهو ما فيه من حمل الناس على الحق وسلوك طريق الهدى دون مصانعة ولا ضعف مع ما فيه من الإنذار والوعيد على العصيان والكفران .

وأن يكون من آثار رحمته وهو ما في القرآن من نَصْب الأدلة وتقريب البعيد وكشف الحقائق للناظرين ، مع ما فيه من البشارة للذين يكونون عند مرضاة الله تعالى ، وذلك هو ما ورد بيانه بعدُ إجمالاً من قوله : ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ [ يس : 6 ] ثم تفصيلاً بقوله : ﴿ لقد حق القول على أكثرهم ﴾ [ يس : 7 ] وبقوله : ﴿ إنما تُنذر من

اتَّبع الذكر وخَشِيَ الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ [يس : 11] .

فاللام في ﴿ لتنذر ﴾ متعلقة بـ ﴿ تنزيل ﴾ وهي لام التعليل تعليلاً لإِنزال القرآن .

واقتصر على الإِنذار لأن أول ما ابتدىء به القومُ من التبليغ إنذارهم جميعاً بما تضمنته أول سورة نزلت من قوله : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ [العلق : 6، 7] الآية .

وما تضمنته سورة المدثر لأن القوم جميعاً كانوا على حالة لا ترضي الله تعالى فكان حالهم يقتضي الإِنذار ليسرعوا إلى الإِقلاع عما هم فيه مرتبكون .

والقوم الموصوفون بأنهم لم تنذر آباؤهم : إما العرب العدنانيون فإنهم مضت قرون لم يأتهم فيها نذير ، ومضى آباؤهم لم يسمعوا نذيراً ، وإنما يُبتدأ عدُّ آبائهم من جدّهم الأعلى في عمود نسبهم الذين تميزوا به جذماً وهو عدنان ، لأنه جذم العرب المستعربة ، أو أريد أهل مكة .

وإنما باشر النبي صلى الله عليه وسلم في ابتداء بعثته دعوة أهل مكة وما حولها فكانوا هم الذين أراد الله أن يتلقّوا الدين وأن تتأصل منهم جامعة الإِسلام ثم كانوا هم حملة الشريعة وأعوان الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغ دعوته وتأييده .

فانضمّ إليهم أهل يثرب وهم قحطانيون فكانوا أنصاراً ثم تتابع إيمان قبائل العرب .

وفرع عليه قوله : ﴿ فهم غافلون ﴾ أي فتسبب على عدم إنذار آبائهم أنهم متصفون بالغفلة وصفاً ثابتاً ، أي فهم غافلون عما تأتي به الرسل والشرائع فهم في جهالة وغواية إذ تراكمت الضلالات فيهم عاماً فعاماً وجيلاً فجيلاً .

فهذه الحالة تشمل جميع من دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم سواء من آمن بعدُ ومن لم يؤمن .

والغفلة : صريحها الذهول عن شيء وعدم تذكره ، وهي هنا كناية عن الإِهمال والإِعراض عما يحق التنبيه إليه كقول النابغة:

يقول أناس يجهلون خليقتي . . .

لعلّ زياداً لا أباك غافل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

(56/645)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى الياء )

وهى حرف هجاءٍ شَجْرِىٌّ مخرجُه من مفتتح الفم جوار مخرج الصّاد ، والنسبة إِليه يائِىٌّ وياوِىٌّ ويوِىٌّ.

والفعل منه يأْيَتُ ياءً حسنةً وحَسْناءُ ، والأَصل يَيَّيْتُ ، اجتمعت أَربعُ ياءات متوالية قلبوا اليائين المتوسطين أَلفاً وهمزة طلبا للتخفيف .

2 - الياءُ فى حساب الجُمّل : اسمٌ لعدد العَشَرَة .

3 - الياءُ الأَصلىّ : الذى يكون تارةً فى أَوّل الكلمةِ ، نحو يُمْن ، وتارة فى وسطها ، نحو : مَيْن ، وتارة فى آخرها نحو : ظَبْى ولَحْى .

4 - الياءُ المكرّرة ، نحو : حَيٍّ وطَيٍّ فى الأَسماءِ ، وعَيَّن وبَيَّن فى الأَفعال .

5 - الياءِ الكافية عن كلمة نحو : يس ، وكهيعص ، الياءُ من اليُمْنِ ، والسّين من السّيّد ، وهكذا باقى الحروف .

6 - ياءُ الوَقْف ، فى نحو : حُبْلَى وكِسْرَى إِذا وقفوا عليها جعلوا الأَلف المقصورة ياء .

7 - ياءُ التَّثْنِيَة [نحو] : رأَيت الزَّيْدَين ، ﴿ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴾ ، ﴿ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ ، ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ .

8 - ياءُ الجمع : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ .

9 - ياءُ الإِعراب فى الأَسماءِ نحو : رَبِّ اغْفِرْ لِى ولأَبى : ﴿ لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي ﴾ .

10 - ياءُ الاستقبال فى حال الإِخبار ، نحو؛ يدخُل ، ويَخْرج.

11 - الياءُ الفارِقة المميّزة بين الخطاب والتأْنيث ، نحو : تضربى وتَدْخُلى .

12 - ياءُ الإِضافَةِ ، وتكون مخفَّفة ، نحو : دارِى وغُلامِى ﴿ قُلْ يا عِبَادِيَ ﴾ .

13 - ياءُ النسبة ، وتكون مُشدّدة ، نحو : عَرَبِىٍّ وقرَشىٍّ .

14 - ياءُ المؤنَّث : ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ .

(57/645)

---

15 - ياءُ التصغير : ﴿ يابُنيَّ ارْكَبْ مَّعَنا ﴾ ، ﴿ يابُنيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ ، ونحوه : أُخَىٌّ وأُخَيَّة ، ورُجَيْل ومُرَيَّة .

16 - ياءُ النِّداءِ : يا ربَّنا .

17 - الياءُ الزائدة ، وهذه قد تكون فى أَوّل الكلمة نحو : يرمع ، ويَعْسُوب ؛ أَو فى ثانيها نحو : حَيْدَر وصَيْقَل ؛ أَو فى ثالثها ، نحو : خَطِيب وخَطِير ؛ أَو فى رابِعها نحو : قِنْدِيل ومِنْدِيل ؛ أَو فى خامسها نحو : خَنْدَرِيس وعَنْتَرِيس .

18 - الياءُ المبْدَلة ، وهذه إِما أَن تكون من أَلف : كحِمْلاق فى حمليق أَو من باءٍ : كالثَّعالِى فى ثَعالِب ، أَو من ثاءٍ : كالثَّالِى فى الثَّالث ، أَو من راءٍ : كِقيراط فى قِرّاط ، أَو

من سين: كالسّادِي والخامِي فى السّادس والخامس، أَو من صاد: نحو قصَّيْتُ أَظفارى فى قَصَّصْت، أَو من ضاد نحو: تَقَضَّى البازى أَى تَقَضَّضَ، أَو من عين: كالضَّفادِي فى ضَفادع، أَو من كاف: كالمَكاكِي فى جمع مَكُّوك، أَو من لام نحو: أَمْلَيْتُ فى أَمْللت، أَو من ميم نحو: دِيماس فى دِمّاس، أَو من نون نحو: دِينار والأَصل دِنَّارٌ؛ أَو من واو نحو: ميزانٍ، والأَصل مِوْزان؛ أَو من هاءٍ نحو: دَهْدَيْتُ الحجر فى دَهْدَهْتُه.

19 – الياءُ اللُّغَوِىّ، قال الخليل: الياءُ عندهم النّاحِيَة.

*تَيَمَّمتُ ياءَ الحَىِّ حين رأَيْتُها * تَضِىءُ كبَدْرٍ طالِعٍ ليلَةَ البَدْرِ* . انتهى انتهى. ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 371. 373 ﴾

(58/645)

---

لطيفة أخرى

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى:

( بصيرة فى غفل )

الغَفْلَة: سهوٌ يعترى من قِلَّة التحفُّظ والتيقُّظ.

غَفَلَ عنه غفُولاً وأَغفله.

قيل : غفلَ ، أَى صار غافلا ، وغفل عنه وأَغفله : وَصَل غَفْلَته إِليه ، والاسم الغَفْلة والغَفَل والغُفْلان ، قال تعالى : ﴿ مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ .

والتغافل والتغفُّل : تعمّد الغفلة .

والتَّغفيل : أَن يكفيك صاحبك وأَنت غافل .

والمغفَّل : مَن لاَ فطنة له .

والغُفْل - بالضمّ - مَن لا يرجى َخيره ولاُ يخشى شرّه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ ، أَى تركناه غير مكتوب فيه الإِيمان .

وقيل : من جعلناه غافلا عن الحقائق .

والغَفُول : العظيم الغفلة .

*تيقَّظ من منامك يا غَفُولُ * فنومك بين رَمْسك قد يطولُ*

*تأَهَّبْ للمنيّة حين تغدو * عسى تُمسى وقد نزل الرسول*

قيل : وردت حروف هذه المادّة فى القرآن على عشرة أَوجه :

1- غفلة الكفَّار المغبونين بالإِعراض عن الإِيمان : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ .

2- وغفلة مقيّدة بإِقرارهم : ﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ﴾ .

3- وغفلة شهد عليهم بها القرآن : ﴿ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ .

4- وغفلة / مقيّدة بشهادة الملائكة المقرّبين : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ﴾ .

5- وغفلة عن عبادتهم من الأوثان : ﴿ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ .

6- وغفلة لهم عن أَحكام آيات القرآن : ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ .

7- وغفلة شُبِّهوا فيها بالأَنعام من الحيوان : ﴿ أُوْلَائِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَائِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ .

8- وغفلة تعالى الله عنها : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

9- وغفلة عن أَعمال الظَّالمين تقدّس الله وتنزَّه عنها : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 140 . 141 ﴾

(59/645)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

سورة يس

قوله جل ذكره : ( بسم الله الرحمن الرحيم )

" بسم الله " آية افتتح بها خطابه ، فمن علمها أجزل ثوابه ، ومن عرفها أكثر إيجابه ، ومن أكبر قدرها أكرم مآبه .

قوله جل ذكره : ﴿يس والقرآن الحكيم﴾

يقال معناه : يا سيد .

ويقال : الياء تشير إلى يوم الميثاق ، والشين تشير إلى سِرِّه مع الأحباب ؛ فيقال بحقِّ يوم الميثاق وسِرِّي مع الأحباب ، وبالقرآن الحكيم .

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4)

إي إنَّكَ – يا محمد لَمِنَ المرسلين ، وإنَّكَ لَعَلَى صراطٍ مستقيم .

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5)

أي هذا الكتاب تنزيل ﴿العزيز﴾ : المتكبر الغني عن طاعة المطيعين ، ﴿الرحيم﴾ : المُتَفَضِّل على عباده المؤمنين .

لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6)

أي خَصَصْنَاكَ بهذا القرآن ، وأنزلنا عليكَ هذا الفُرقان لِتُنْذِرَ به قوماً حصلوا في أيام الفترة ، وانقرض أسلافُهم على هذه الصِّفَةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 211﴾

(60/645)

قوله تعالى ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (12) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان تطاول الإقامة على شيء موجباً للإلف له ، والإلف قتال لما يوجب من الإصرار على المألوف لمحبته " وحبك للشيء يعمي ويصم " قال جواباً لمن يتوقع الجواب عما أثمرته حالهم : ﴿ لقد حق القول ﴾ أي الكامل في بابه وهو إيجاب العذاب بملازمة الغفلة ﴿ على أكثرهم فهم ﴾ أي بسبب ذلك ﴿ لا يؤمنون ﴾ أي بما يلقى إليهم من الإنذار بل يزيدهم عمى استكباراً في الأرض ومكر السيىء .

ولما كان المعنى أنه لا يتجدد منهم إيمان بعد البيان الواضح والحكمة الباهرة ، وكان ذلك أمراً عجباً ، علله بما يوجبه من تمثيل حالهم تصويراً لعزته سبحانه وباهر عظمته الذي لفت الكلام إليه لإفهامه – وهذا الذي ذكر هو اليوم معنى ومثال وفي الآخرة ذات ظاهر – وأنه ما انفك عنهم أصلاً وما زال ، فقال : ﴿ إنا جعلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ، وأكده لما لهم

من التكذيب ﴿ في أعناقهم أغلالاً ﴾ أي من ظلمات الضلالات كل عنق غل ، وأشار بالظرف إلى أنها من ضيقها لزت اللحم حتى تثنى على الحديد فكاد يغطيه فصار - والعنق فيه - كأنه فيها وهي محيطة به .

(61/645)

---

ولما كان من المعلوم أن الحديد إذا وضع في العنق أنزله ثقله إلى المنكب ، لم يذكر جهة السفل وذكر جهة العلو فقال : ﴿ فهي ﴾ أي الأغلال بعرضها واصلة بسبب هذا الجعل ﴿ إلى الأذقان ﴾ جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين ، فهي لذلك مانعة من مطاطأة الرأس .

ولما كان هذا من رفع الرأس فعل المتكبر ، وكان تكبرهم في غير موضعه ، بيّن تعالى أنهم ملجؤون إليه فهو ذل في الباطن وإن كان كبراً في الظاهر فقال : ﴿ فهم ﴾ أي بسبب هذا الوصول ﴿ مقمحون ﴾ من أقمح الرجل - إذا أقمحه غيره أي جعله قامحاً أي رافعاً رأسه غاضاً بصره لا ينظر إلا ببعض بصره هيئة المتكبر ، وأصله من قولهم : قمح البعير - إذا رفع رأسه عند الشرب ولم يشرب الماء ، قال في الجمع بين العباب والمحكم : قال بشر بن أبي حازم يصف سفينة ، قال أبو حيان : ميتة أحدهم ليدفنها :

ونحن على جوانبها قعود . . .

نغض الطرف كالإبل القماح

وقال الرازي في اللوامع : والمقمح : الذي يضرب رأسه إلى ظهره هيئة البعير ، وقال القزاز : والمقمح : الشاخص بعيينه الرافع رأسه .

أبو عمرو : والقامح من الإبل هو الذي لا يشرب وهو عطشان عطشاً شديداً ولا تقبل نفسه الماء ، والقمح مصدر قمحت الشيء والاقتماح : أخذك الشيء في راحتك ثم تقمحه في فيك أي تبتلعه ، والاسم القمحة كاللقمة والأكلة - انتهى .

وكأن المقمح من هذا لأن هيئته عند هذا الابتلاع رفع الرأس وغض الطرف أو شخوصه إذا عسر عليه الابتلاع - والله أعلم فهذا تمثيل لرفعهم رؤوسهم عن النظر إلى الداعي تكبراً وشماخة بحيث لو أمكنهم أن يسكنوا الجو لم يتأخروا صلافة وتيهاً ، أو لأنهم يتركون هذا الأمر العظيم الحسن الجدير بأن يقبل عليه ويتروى منه وهم في غاية الحاجة إليه ، فهم ذلك كالبعير القامح ، إنما منعه من الماء مع شدة عطشه مانع عظيم أقمحه ، ولكنه خفي أمره فلم يعلم ما هو ، ولذلك بنى الاسم للمفعول إشارة إلى أنهم مقهورون على تفويت حظهم من هذا الأمر الجليل .

ولما كان الرافع رأسه غير ممنوع من النظر أمامه قال : ﴿ وجعلنا ﴾ أي بعظمتنا .

ولما كان المقصود حجبهم عن خير مخصوص ، وهو المؤدي إلى السعادة الكاملة لا عن كل ما ينفعهم ، أدخل الجار فقال : ﴿ من بين أيديهم ﴾ أي الوجه الذي يمكنهم علمه ﴿ سداً ﴾ .

ولما كان الإنسان إذا انسدت عليه جهة مال إلى أخرى قال : ﴿ ومن خلفهم ﴾ أي الوجه الذي هو خفي عنهم ، وأعاد السد تأكيداً لإنكارهم ذلك وتحقيقاً لجعله فقال :

﴿ سداً ﴾ أي فصارت كل جهة يلتفت إليها منسدة ، فصاروا لذلك لا يمكنهم النظر إلى الحق ولا الخلوص إليه ، فلذلك قال : ﴿ فأغشيناهم ﴾ أي جعلنا على أبصارهم بما لنا من العظمة غشاوة ﴿ فهم ﴾ أي بسبب ذلك ﴿ لا يبصرون ﴾ أي لا يتجدد لهم هذا الوصف من إبصار الحق وما ينفعهم ببصر ظاهر وبصيرة باطنة أصلاً .

ولما منعوا بذلك حس البصر ، أخبر عن حس السمع فقال : ﴿ وسواء ﴾ أي مستو ومعتدل غاية الاعتدال من غير نوع فرق ؛ وزاد في الدلالة على عدم عقولهم بالتعبير بأداة الاستعلاء إيذاناً بأنهم إذا امتنعوا مع المستعلي كانوا مع غيره أشد امتناعاً فقال : ﴿ عليهم ءأنذرتهم ﴾ أي ما أخبرناك به من الزواجر المانعة من الكفر ﴿ أم لم تنذرهم ﴾ ثم بيّن أن الذي استوى حالهم فيه بما سببه الإغشاء عدم الإيمان ، فقال مستانفاً : ﴿ لا يؤمنون ﴾ .

ولما بيّن ما كان السبب المانع لهم من الإبصار ، علم أن السبب المانع من السمع مثله ، لأن المخبر عزيز ، فهو إذا فعل شيئاً كان على وجه لا يمكن فيه حيلة .

(63/645)

---

ولما أخبر أن الأكثر بهذه الصفة ، استشرف السامع إلى أمارة يعرف بها الأقل الناجي لأنه المقصود بالذات فقال جواباً له : ﴿ إنما تنذر ﴾ أي إنذاراً ينتفع به المنذر فيتأثر عنه النجاة ، فالمعنى : إنما يؤمن بإنذارك ﴿ من اتبع الذكر ﴾ أي أجهد نفسه في اتباع كل ما يذكر بالله من القرآن وغيره ويذكر به صاحبه ويشرف ﴿ وخشي الرحمن ﴾ أي خاف العام الرحمة خوفاً عظيماً ، ودل لفت الكلام عن مظهر العظمة إلى الوصف بالرحمانية على أن أهل الخشية يكفيهم في الاتعاظ التذكير بالإحسان ﴿ بالغيب ﴾ أي بسبب ما يخبر به من مقدوراته الغائبة لا سيما البعث الذي كان اختصاصها بغاية بيانه بسبب كونها قلباً من غير طلب آية كاشفة للحجاب بحيث يصير الأمر عن شهادة لا غيب فيه ، بل تجويزاً لما يجوز من انتقامه ولو بقطع إحسانه ، لما ثبت له في سورة فاطر من القدرة والاختيار ، ويخشاه أيضاً خشية خالصة في حال غيبته عمن يرائيه من الناس ، فهؤلاء هم الذين ينفعهم الإنذار ، وهو المتقون الذين ثبت في البقرة أن الكتاب هدى لهم ، وغيرهم لا سبيل إلى

استقامته ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإنه ليس عليك إلا الإنذار ، إن الله عليم بما يصنعون ، فمن علم منه هذه الخشية أقبل به ، ومن علم منه القساوة رده على عقبه بما حال دونه من الغشاوة - والله الموفق .

ولما دل السياق على أن هذا نفع نفسه ، تشوف السامع إلى معرفة جزائه ، فقال مفرداً الضمير على النسق الماضي في مراعاة لفظ " من " دلالة على قلة هذا الصنف من الناس بأجمعهم في هذه السورة الجامعة بكونها قلباً لما تفرق في غيرها : ﴿ فبشره ﴾ أي بسبب خشيته بالغيب ﴿ بمغفرة ﴾ أي لذنوبه وإن عظمت وإن تكررت مواقعته لها وتوبته منها ، فإن ذلك لا يمنع الاتصاف بالخشية .

ولما حصل العلم بمحو الذنوب عينها وأثرها قال : ﴿ وأجر كريم ﴾ أي دارّ عظيم هنيء لذيذ متواصل ، لا كدر فيه بوجه .

(64/645)

---

ولما بين الأصل الثاني هو الرسالة وأتبعها ثمرتها المختومة بالبشارة ، وكان الأصل الثالث في الإيمان - وهو البعث - سبباً عظيماً في الترقية إلى اعتقاد الوحدانية التي هي الأصل الأول ، وكان أكثر الخائفين منه سبحانه مقتراً عليهم في دنياهم منغضة عليهم حياتهم ، علل هذه

البشارة إعلاماً بأن هذا الأجر في هذه الدار بالملابس الباطنة الفاخرة من المعارف والسكينة والبركات والطمأنينة ، وبعد البعث بالملابس الطاهرة الزاهرة المسببة عن الملابس الدنيوية الباطنة الخفية من غير أهلها ، بشارة لهم ونذارة للقسم الذي قبلهم بقوله ، مقدماً للبعث لما ذكر من فائدته ، لافتاً القول إلى مظهر العظمة إيذاناً بعظمة هذه المقاصد وبأنه لا يحمي لهؤلاء الخلص مع قلتهم ومباينتهم للأولين مع كثرتهم إلا من له العظمة الباهرة : ﴿ إنا نحن ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا تضاهى ﴿ نحيي ﴾ أي بحسب التدريج الآن وجملة في الساعة ﴿ الموتى ﴾ أي كلهم حساً بالبعث ومعنى بالإنقاذ إذا أردنا من ظلم الجهل ﴿ ونكتب ﴾ أي من صالح وغيره شيئاً فشيئاً بعده فلا يتعدى التفصيل شيئاً في ذلك الإجمال ﴿ ما قدموا ﴾ من جميع أفعالهم وأحوالهم وأقوالهم جملة عند نفخ الروح ﴿ وآثارهم ﴾ أي سننهم التي تبقى من بعدهم صالحة كانت أو غير صالحة ، ونجازي كلاًّ بما يستحق في الدار الآخرة التي الجزاء فيها لا ينقطع ، فلا أكرم منه إذا كان كريماً .

(65/645)

---

ولما كان ذلك ربما أوهم الاقتصار على كتابة ما ذكر من أحوال الآدميين أو الحاجة إلى الكتابة ، دل على قدرته على ما لا تمكن القدرة عليه لأحد غيره في أقل قليل مما ذكر ،

فكيف بما فوقه ، فقال ناصباً عطفاً لفعليه وهي " تكتب " : ﴿ وكل شيء ﴾ أي من أمر الأحياء وغيرهم ﴿ أحصيناه ﴾ أي قبل إيجاده بعلمنا القديم إحصاء وكتبناه ﴿ في إمام ﴾ أي كتاب هو أهل لأن يقصد ﴿ مبين ﴾ أي لا يخفى فيه شيء من جميع الأحوال على أحد أراد علمه منه ، فلله هذه القدرة الباهرة والعظمة الظاهرة والعزة القاهرة ، فالآية من الاحتباك : دل فعل الإحصاء على مصدره وذكر الإمام على فعل الكتابة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 245.249 ﴾

(66/645)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) ﴾

لما بين أن الإرسال أو الإنزال للإنذار ، أشار إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس عليه الهداية المستلزمة للاهتداء ، وإنما عليه الإنذار وقد لا يؤمن من المنذرين كثير وفي قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول ﴾ وجوه الأول : وهو المشهور أن المراد من القول هو قوله تعالى : ﴿ حَقَّ القول مِنّي لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ ﴾ [ ص : 85 ] الثاني : هو أن معناه

لقد سبق في علمه أن هذا يؤمن وأن هذا لا يؤمن فقال في حق البعض أنه لا يؤمن ، وقال في حق غيره أنه يؤمن فحق القول أي وجد وثبت بحيث لا يبدل بغيره الثالث : هو أن يقال المراد منه لقد حق القول الذي قاله الله على لسان الرسل من التوحيد وغيره وبأن برهانه فأكثرهم لا يؤمنون بعد ذلك لأن من يتوقف لاستماع الدليل في مهلة النظر يرجى منه الإيمان إذا بان له البرهان ، فإذا تحقق وأكد بالإيمان ولم يؤمن من أكثرهم فأكثرهم تبين أنهم لا يؤمنون لمضي وقت رجاء الإيمان ولأنهم لما لم يؤمنوا عندما حق القول واستمروا فإن كانوا يريدون شيئاً أوضح من البرهان فهو العيان وعند العيان لا يفيد الإيمان ، وقوله : ﴿ على أَكْثَرِهِمْ ﴾ على هذا الوجه معناه أن من لم تبلغه الدعوة والبرهان قليلون فحق القول على أكثر من لم يوجد منه الإيمان وعلى الأول والثاني ظاهر فإن أكثر الكفار ماتوا على الكفر ولم يؤمنوا وفيه وجه رابع وهو أن يقال لقد حقت كلمة العذاب العاجل على أكثرهم فهم لا يؤمنون وهو قريب من الأول .

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8)

لما بين أنهم لا يؤمنون بين أن ذلك من الله فقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾ وفيه وجوه أحدها : أن المراد إنا جعلناهم ممسكين لا ينفقون في سبيل الله كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ [ الإسراء : 29 ] والثاني : أن الآية نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين حيث حلف أبو جهل أنه يرضخ رأس محمد ، فرآه ساجداً فأخذ صخرة ورفعها ليرسلها على رأسه فالتزقت بيده ويده بعنقه .

والثالث : وهو الأقوى وأشد مناسبة لما تقدم وهو أن ذلك كناية عن منع الله إياهم عن الاهتداء وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

هل للوجهين الأولين مناسبة مع ما تقدم من الكلام ؟ نقول الوجه الأول : له مناسبة وهي أن قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [ يس : 7 ] يدخل فيه أنهم لا يصلون كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانكم ﴾ [ البقرة : 143 ] أي صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة على ما بينا فكأنه قال لا يصلون ولا يزكون ، وأما على الوجه الثاني فمناسبة خفية وهي أنه لما قال : ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ ﴾ [ يس : 7 ] وذكرنا أن المراد به البرهان قال بعد ذلك بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ومنع من إرسال الحجر وهو يضطر إلى الإيمان ولم يؤمن علم أنه لا يؤمن أصلاً والتفسير هو الوجه الثالث .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ فَهِيَ ﴾ راجعة إلى ماذا ؟ نقول فيها وجهان أحدهما : أنها راجعة إلى الأيدي وإن كانت غير مذكورة ولكنها معلومة لأن المغلول تكون أيديه مجموعة في الغل إلى عنقه وثانيهما : وهو ما اختاره الزمخشري أنها راجعة إلى الأغلال ، معناه إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ثقالاً غلاظاً بحيث تبلغ إلى الأذقان فلم يتمكن المغلول معها من أن يطأطىء رأسه .

المسألة الثالثة :

(68/645)

---

كيف يفهم من الغل في العنق المنع من الإيمان حتى يجعل كناية فنقول المغلول الذي بلغ الغل إلى ذقنه وبقي مقمحاً رافع الرأس لا يبصر الطريق الذي عند قدمه وذكر بعده أن بين يديه سداً ومن خلفه سداً فهو لا يقدر على انتهاج السبيل ورؤيته وقد ذكر من قبل أن المرسل على صراط مستقيم فهذا الذي يهديه النبي إلى الصراط المستقيم العقلي جعل ممنوعاً كالمغلول الذي يجعل ممنوعاً من إبصار الطريق الحسي ، ويحتمل وجهاً آخر وهو أن يقال الأغلال في الأعناق عبارة عن عدم الانقياد فإن المنقاد يقال فيه إنه وضع رأسه على الخط وخضع عنقه والذي في رقبته الغل الثخين إلى الذقن لا يطأطىء رأسه ولا يحركه تحريك المصدق ،

ويصدق هذا قوله : ﴿ مُّقْمَحُونَ ﴾ فإن المقمح هو الرافع رأسه كالمتأبي يقال بعير قامح إذا رفع رأسه فلم يشرب الماء ولم يطأطئه للشرب والإيمان كالماء الزلال الذي به الحياة وكأنه تعالى قال : إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهم مقمحون لا يخضعون الرقاب لأمر الله .

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9)

يكون متمماً لمعنى جعل الله إياهم مغلولين لأن قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ﴾ إشارة إلى أنهم لا ينتهجون سبيل الرشاد فكأنه قال لا يبصرون الحق فينقادون له لمكان السد ولا ينقادون لك فيبصرون الحق فينقادون له لمكان الغل والإيمان المورث للإيقان .

(69/645)

---

إما باتباع الرسول أولاً فتلوح له الحقائق ثانياً وإما بظهور الأمور أولاً واتباع الرسول ثانياً ، ولا يتبعون الرسول أولاً لأنهم مغلولون فلا يظهر لهم الحق من الرسول ثانياً ، ولا يظهر لهم الحق أولاً لأنهم واقعون في السد فلا يتبعون الرسول ثانياً وفيه وجه آخر : وهو أن يقال المانع ، إما أن يكون في النفس ، وإما أن يكون خارجاً عنها ، ولهم المانعان جميعاً من الإيمان ، أما في النفس فالغل ، وأما من الخارج فالسد ، ولا يقع نظرهم على أنفسهم فيرون الآيات التي في أنفسهم كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءاياتنا فِى الآفاق وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [ فصلت : 53 ]

وذلك لأن المقمح لا يرى نفسه ولا يقع بصره على يديه ، ولا يقع نظرهم على الآفاق لأن من بين السدين لا يبصرون الآفاق فلا تبين لهم الآيات التي في الآفاق وعلى هذا فقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أعناقهم ﴾ [ يس : 8 ] ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله في الأنفس والآفاق ، وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ﴾

مسائل :

المسألة الأولى :

(70/645)

---

السد من بين الأيدي ذكره ظاهر الفائدة فإنهم في الدنيا سالكون وينبغي أن يسلكوا الطريقة المستقيمة ومن بين أيديهم سداً فلا يقدرون على السلوك ، وأما السد من خلفهم ، فما الفائدة فيه ؟ فنقول الجواب عنه من وجوه الأول : هو أن الإنسان له هداية فطرية والكافر قد يتركها وهداية نظرية والكافر ما أدركها فكأنه تعالى يقول : جعلنا من بين أيديهم سداً فلا يسلكون طريقة الاهتداء التي هي نظرية ﴿ وجعلنا من خلفهم سداً ﴾ فلا يرجعون إلى الهداية الجبلية التي هي الفطرية الثاني : هو أن الإنسان مبدأه من الله ومصيره إليه فعمى الكافر لا يبصر ما بين يديه من المصير إلى الله ولا ما خلفه من الدخول في الوجود بخلق الله

الثالث : هو أن السالك إذا لم يكن له بد من سلوك طريق فإن انسد الطريق الذي قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع وإذا انسد الطريق من خلفه ومن قدامه فالموضع الذي هو فيه لا يكون موضع إقامة لأنه مهلك فقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ إشارة إلى إهلاكهم .

المسألة الثانية :

(71/645)

---

قوله تعالى : ﴿ فأغشيناهم ﴾ بحرف الفاء يقتضي أن يكون للإغشاء بالسد تعلق ويكون الإغشاء مرتباً على جعل السد فكيف ذلك ؟ فنقول ذلك من وجهين أحدهما : أن يكون ذلك بياناً لأمور مترتبة يكون بعضها سبباً للبعض فكأنه تعالى قال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أعناقهم أغلالا ﴾ فلا يبصرون أنفسهم لإقماحهم وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فلا يبصرون ما في الآفاق وحينئذٍ يمكن أن يروا السماء وما على يمينهم وشمالهم فقال بعد هذا كله : وجعلنا على أبصارهم غشاوة فلا يبصرون شيئاً أصلاً وثانيهما : هو أن ذلك بيان لكون السد قريباً منهم بحيث يصير ذلك كالغشاوة على أبصارهم فإن من جعل من خلفه ومن قدامه سدين ملتزقين به بحيث يبقى بينهما ملتزقاً بهما تبقى عينه على سطح السد

فلا يبصر شيئاً ، أما غير السد فللحجاب ، وأما عين السد فلكون شرط المرئي أن لا يكون قريباً من العين جداً .

المسألة الثالثة :

(72/645)

---

ذكر السدين من بين الأيدي ومن خلف ولم يذكر من اليمين والشمال ما الحكمة فيه ؟ فنقول ، أما على قولنا إنه إشارة إلى الهداية الفطرية والنظرية فظاهر ، وأما على غير ذلك فنقول بما ذكر حصل العموم والمنع من انتهاج المناهج المستقيمة ، لأنهم إن قصدوا السلوك إلى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين إلى شيء ومولين عن شيء فصار ما إليه توجههم ما بين أيديهم فيجعل الله السد هناك فيمنعه من السلوك ، فكيفما يتوجه الكافر يجعل الله بين يديه سداً ووجه آخر : أحسن مما ذكرنا وهو أنا لما بينا أن جعل السد صار سبباً للإغشاء كان السد ملتزقاً به وهو ملتزق بالسدين فلا قدرة له على الحركة يمنة ولا يسرة فلا حاجة إلى السد عن اليمين وعن الشمال وقوله تعالى : ﴿ فأغشيناهم فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ يحتمل ما ذكرنا أنهم لا يبصرون شيئاً ، ويحتمل أن يكون المراد هو أن الكافر مصدود وسبيل الحق عليه مسدود وهو لا يبصر السد ولا يعلم الصد ، فيظن أنه على

الطريقة المستقيمة، وغير ضال.

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10)

أي الإنذار وعدمه سيان بالنسبة إلى الإيمان منهم إذ لا وجود له منهم على التقديرين، فإن قيل إذا كان الإنذار وعدمه سواء فلماذا الإنذار؟ نقول قد أجبنا في غير هذا الموضع أنه تعالى قال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ وما قال سواء عليك فالإنذار بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليس كعدم الإنذار لأن أحدهما مخرج له عن العهدة وسبب في زيادة سيادته عاجلاً وسعادته آجلاً، وأما بالنسبة إليهم على السواء فإنذار النبي صلى الله عليه وسلم ليخرج عما عليه وينال ثواب الإنذار وإن لم ينتفعوا به لما كتب عليهم من البوار في دار القرار.

إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11)

والترتيب ظاهر وفي التفسير مسائل:

(73/645)

---

المسألة الأولى:

قال من قبل: ﴿لِتُنْذِرَ﴾ [يس: 6] وذلك يقتضي الإنذار العام على ما بينا وقال:

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ وهو يقضي التخصيص فكيف الجمع بينهما ؟ نقول من وجوه : الأول : هو أن قوله : ﴿ لّتُنذِرَ ﴾ أي كيفما كان سواء كان مفيداً أو لم يكن وقوله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ أي الإنذار المفيد لا يكون إلا بالنسبة إلى من يتبع الذكر ويخشى الثاني : هو أن الله تعالى لما قال إن الإرسال والإنزال ، وذكر أن الإنذار وعدمه سيان بالنسبة إلى أهل العناد قال لنبيه : ليس إنذارك غير مفيد من جميع الوجوه فأنذر على سبيل العموم وإنما تنذر بذلك الإنذار العام من يتبع الذكر كأنه يقول : يا محمد إنك بإنذارك تهدي ولا تدري من تهدي فأنذر الأسود والأحمر ومقصودك من يتبع إنذارك وينتفع بذكراك الثالث : هو أن نقول قوله : ﴿ لّتُنذِرَ ﴾ أي أولاً فإذا أنذرت وبالغت وبلغت واستهزأ البعض وتولى واستكبر وولى ، فأعرض بعد ذلك فإنما تنذر الذين اتبعوك الرابع : وهو قريب من الثالث إنك تنذر الكل بالأصول ، وإنما تنذر بالفروع من ترك الصلاة والزكاة من اتبع الذكر وآمن .

المسألة الثانية :

(74/645)

---

قوله : ﴿ مَنِ اتبع الذكر ﴾ يحتمل وجوهاً الأول : وهو المشهور من اتبع القرآن الثاني : من اتبع ما في القرآن من الآيات ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ والقرءان ذِي الذكر ﴾ [ ص : 1 ]

فما جعل القرآن نفس الذكر الثالث : من اتبع البرهان فإنه ذكر يكمل الفطرة وعلى كل وجه فمعناه : إنما تنذر العلماء الذين يخشون وهو كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [ فاطر : 28 ] وكقوله تعالى : ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [ البقرة : 82 ] فقوله : ﴿ اتبع الذكر ﴾ أي آمن ، وقوله : ﴿ وَخشِيَ الرحمن ﴾ أي عمل صالحاً وهذا الوجه يتأيد بقوله : ﴿ فَبَشّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ لأنا ذكرنا مراراً أن الغفران جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور والأجر الكريم جزاء العمل كما قال تعالى : ﴿ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أولئك لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [ سبأ : 4 ] وتفسير الذكر بالقرآن يتأيد بتعريف الذكر بالألف واللام ، وقد تقدم ذكر القرآن في قوله تعالى : ﴿ والقرءان الحكيم ﴾ [ يس : 2 ] وقوله : ﴿ وَخشِيَ الرحمن ﴾ فيه لطيفة وهي أن الرحمة تورث الاتكال والرجاء فقال مع أنه رحمن ورحيم فالعاقل لا ينبغي أن يترك الخشية فإن كل من كانت نعمته بسبب رحمته أكثر فالخوف منه أتم مخافة أن يقطع عنه النعم المتواترة وتكملة اللطيفة : هي أن من أسماء الله اسمين يختصان به هما الله والرحمن كما قال تعالى : ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ [ الإسراء : 110 ] حتى قال بعض الأئمة : هما علمان إذا عرفت هذا فالله اسم ينبىء عن الهيبة والرحمن ينبىء عن العاطفية فقال في موضع ﴿ يرجوا الله ﴾ [ الأحزاب : 21 ] وقال ههنا : ﴿ وَخشِيَ الرحمن ﴾ يعني مع كونه ذا هيبة لا تقطعوا عنه

رجاءكم ومع كونه ذا رحمة لا تأمنوه ، وقوله : ﴿ بالغيب ﴾ يعني بالدليل وإن لم ينته إلى درجة المرئي المشاهد فإن عند الانتهاء إلى تلك الدرجة لا يبقى للخشية فائدة ،

(75/645)

---

والمشهور أن المراد بالغيب ما غاب عنا وهو أحوال القيامة ، وقيل إن الوحدانية تدخل فيه ، وقوله : ﴿ فَبَشِّرْهُ ﴾ فيه إشارة إلى الأمر الثاني من أمري الرسالة فإن النبي صلى الله عليه وسلم بشير ونذير وقد ذكر أنه أرسل لينذر وذكر أن الإنذار النافع عند اتباع الذكر ، فقال بشر : كما أنذرت ونفعت ، وقوله : ﴿ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ على التنكير أي بمغفرة واسعة تستر من جميع الجوانب حتى لا يرى عليه أثر من آثار النفس ويظهر عليه أنوار الروح الزكية ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أي ذي كرم ، وقد ذكرنا ما في الكريم في قوله :

﴿ ورزق كريم ﴾ [ الأنفال : 4 ] وفي قوله : ﴿ ورزقاً كريماً ﴾ [ الأحزاب : 31 ] .

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (12)

في الترتيب وجوه أحدها : أن الله تعالى لما بين الرسالة وهو أصل من الأصول الثلاثة التي يصير بها المكلف مؤمناً مسلماً ذكر أصلاً آخر وهو الحشر وثانيها : وهو أن الله تعالى لما ذكر الإنذار والبشارة بقوله : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ [ يس : 11 ] ولم يظهر ذلك بكماله في

الدنيا فقال : إن لم ير في الدنيا فالله يحيي الموتى ويجزي المنذرين ويجزي المبشرين وثالثها : أنه تعالى لما ذكر خشية الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكده وهو إحياء الموتى وفي التفسير مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون مبتدأ وخبراً كقول القائل :



---

أنا أبو النجم وشعري شعري . . ومثل هذا يقال عند الشهرة العظيمة ، وذلك لأن من لا يعرف يقال له من أنت ؟ فيقول : أنا ابن فلان فيعرف ومن يكون مشهوراً إذا قيل له من أنت يقول أنا أي لا معرف لي أظهر من نفسي فقال : إنا نحن معروفون بأوصاف الكمال ، وإذا عرفنا بأنفسنا فلا تنكر قدرتنا على إحياء الموتى وثانيهما : أن يكون الخبر ﴿ نُحْيِ ﴾ كأنه قال إنا نحيي الموتى ، و ﴿ نَحْنُ ﴾ يكون تأكيداً والأول أولى .

المسألة الثانية :

﴿ إنا نحن ﴾ فيه إشارة إلى التوحيد لأن الاشتراك يوجب التمييز بغير النفس فإن زيداً إذا شاركه غيره في الاسم ، فلو قال أنا زيد لم يحصل التعريف التام ، لأن للسامع أن يقول : أيما

زيد ؟ فيقول ابن عمرو ولو كان هناك زيد آخر أبوه عمرو لا يكفي قوله ابن عمرو ، فلما قال الله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ أي ليس غيرنا أحد يشاركنا حتى تقول أنا كذا فنمتاز ، وحينئذٍ تصير الأصول الثلاثة مذكورة ؛ الرسالة والتوحيد والحشر .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ فيه وجوه أحدها : المراد ما قدموا وأخروا فاكتفى بذكر أحدهما كما في قوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [ النحل : 81 ] والمراد والبرد أيضاً وثانيها : المعنى ما أسلفوا من الأعمال صالحة كانت أو فاسدة وهو كما قال تعالى : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [ البقرة : 95 ] أي بما قدمت في الوجود على غيره وأوجدته وثالثها : نكتب نياتهم فإنها قبل الأعمال وآثارهم أي أعمالهم على هذا الوجه .

المسألة الرابعة :

*(77/645)*

---

وآثارهم فيه وجوه الأول : آثارهم أقدامهم فإن جماعة من أصحابه بعدت دورهم عن المساجد فأرادوا النقلة فقال صلى الله عليه وسلم : " إن الله يكتب خطواتكم ويثيبكم عليه فالزموا بيوتكم " والثاني : هي السنن الحسنة ، كالكتب المصنفة والقناطر المبنية ،

والخبائس الدارة ، والسنن السيئة كالظلمات المستمرة التي وضعها ظالم والكتب المضلة ، وآلات الملاهي وأدوات المناهي المعمولة الباقية ، وهو في معنى قوله صلى الله عليه وسلم : "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجر العامل شيء ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها "

فما قدموا هو أفعالهم وآثارهم أفعال الشاكرين فبشرهم حيث يؤاخذون بها ويؤجرون عليها والثالث : ما ذكرنا أن الآثار الأعمال وما قدموا النيات فإن النية قبل العمل .

المسألة الخامسة :

(78/645)

---

الكتابة قبل الإحياء فكيف أخر في الذكر حيث قال : نحيي ونكتب ولم يقل نكتب ما قدموا ونحييهم نقول الكتابة معظمة لأمر الإحياء لأن الإحياء إن لم يكن للحساب لا يعظم والكتابة في نفسها إن لم تكن إحياء وإعادة لا يبقى لها أثر أصلاً فالإحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لأمره ، فلهذا قدم الإحياء ولأنه تعالى لما قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ وذلك يفيد العظمة والجبروت ، والإحياء عظيم يختص بالله والكتابة دونه فقرن بالتعريف الأمر العظيم وذكر ما يعظم ذلك العظيم وقوله : ﴿ وَكُلَّ شيْء أحصيناه فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ يحتمل

وجوهاً أحدها : أن يكون ذلك بياناً لكون ما قدموا وآثارهم أمراً مكتوباً عليهم لا يبدل ، فإن القلم جف بما هو كائن فلما قال : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ بين أن قبل ذلك كتابة أخرى فإن الله كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا وكذا ثم إذا فعلوه كتب عليهم أنهم فعلوه وثانيها : أن يكون ذلك مؤكداً لمعنى قوله : ﴿ وَنَكْتُبُ ﴾ لأن من يكتب شيئاً في أوراق ويرميها قد لا يجدها فكأنه لم يكتب فقال : نكتب ونحفظ ذلك في إمام مبين وهذا كقوله تعالى : ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِى كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [ طه : 52 ] وثالثها : أن يكون ذلك تعميماً بعد التخصيص كأنه تعالى يكتب ما قدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه ، بل كل شيء محصي في إمام مبين ، وهذا يفيد أن شيئاً من الأقوال والأفعال لا يعزب عن علم الله ولا يفوته ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزبر * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [ القمر : 52 ، 53 ] يعني ليس ما في الزبر منحصراً فيما فعلوه بل كل شيء فعلوه مكتوب ، وقوله : ﴿ أحصيناه ﴾ أبلغ من كتبناه لأن من كتب شيئاً مفرقاً يحتاج إلى جمع عدده فقال : هو محصي فيه وسمي الكتاب إماماً لأن الملائكة يتبعونه فما كتب فيه من أجل ورزق وإحياء وإماتة اتبعوه وقيل هو اللوح المحفوظ ، وإمام جاء

جمعاً في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [ الإسراء : 71 ] أي بأئمتهم وحينئذٍ فإمام إذا كان فرداً فهو ككتاب وحجاب وإذا كان جمعاً فهو كجبال وحبال والمبين هو المظهر للأمور لكونه مظهراً للملائكة ما يفعلون وللناس ما يفعل بهم وهو الفارق يفرق بين أحوال الخلق فيجعل فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 39.44 ﴾

(80/645)

---

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إمَامٍ مُبِينٍ ﴾ .

فِيهِ مَسْأَلَةٌ وَاحِدَةٌ : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَتْ مَنَازِلُ الْأَنْصَارِ بَعِيدَةً مِنْ الْمَسْجِدِ ، فَأَرَادُوا أَنْ يَنْتَقِلُوا إلَى الْمَسْجِدِ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ فَقَالُوا : نَثْبُتُ مَكَانَنَا .

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا بَنِي سَلِمَةَ ، وَأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِمْ .

وَفِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ بَنِي سَلِمَةَ أَرَادُوا أَنْ يَنْتَقِلُوا قَرِيبًا مِنْ الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ لَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا بَنِي سَلِمَةَ ؛ دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ ؛ يَعْنِي الْزَمُوا دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ لَكُمْ آثَارُكُمْ ﴾ ، أَيْ خُطَاكُمْ إلَى الْمَسْجِدِ ، فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ سَبْعًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ إذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ خَرَجَ إلَى الْمَسْجِدِ لَا يُخْرِجُهُ إلَّا الصَّلَاةُ لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً ، وَحَطَّ بِهَا عَنْهُ خَطِيئَةً ، فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلْ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ ، وَلَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلَاةَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى جـ 4 صـ ﴾

(81/645)

---

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

أمال حمزة والكسائي الياء في ﴿ يس ﴾ غير مفرطين والجمهور يفتحونها ونافع وسط في ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ يس ﴾ يدخل فيه من الأقوال ما تقدم في الحروف المقطعة في أوائل السور ، ويختص هذا بأقوال ، منها أن سعيد بن جبير قال : إنه اسم من أسماء محمد صلى

الله عليه وسلم دليله ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ وقال السيد الحميري :

يا نفس لا تمحضي بالنصح جاهدة . . . على المودة إلا آل ياسينا

(82/645)

---

وقال ابن عباس : معناه يا إنسان بلسان الحبشة ، وقال أيضاً ابن عباس في كتاب الثعلبي : هو بلغة طيِّيء وذلك أنهم يقولون يا إيسان بمعنى إنسان ويجمعونه على أياسين فهذا منه ، وقالت فرقة : "يا " حرف نداء ، والسين مقامة مقام الإنسان انتزع منه حرف فأقيم مقامه ، ومن قال إنه اسم من أسماء السورة أو من أسماء القرآن فذلك من الأقوال المشتركة في أوائل جميع السور ، وقرأ جمهور القراء ﴿ يس ﴾ و﴿ نون ﴾ [ القلم : 1 ] بسكون النون وإظهارها وإن كانت النون ساكنة تخفى مع الحروف فإنما هذا مع الانفصال ، وإن حق هذه الحروف المقطعة في الأوائل أن تظهر ، وقرأ عاصم وابن عامر بخلاف عنهما ﴿ يس والقرآن ﴾ بإدغام النون في الواو على عرف الاتصال ، وقرأ ابن أبي إسحاق بخلاف بنصب النون ، وهي قراءة عيسى بن عمرو رواها عن الغنوي ، وقال قتادة : ﴿ يس ﴾ قسم ، قال أبو حاتم : قياس هذا القول نصب النون كما تقول الله لأفعلن كذا ، وقرأ الكلبي بضمها وقال هي بلغة طيىء " يا إنسان " ، وقرأ أبو السمال وابن أبي إسحاق بخلاف

بكسرها وهذه الوجوه الثلاثة هي للالتقاء ، وقال أبو الفتح ويحتمل الرفع أن يكون اجتزاء بالسين من " يا إنسان " ، وقال الزجاج النصب كأنه قال اتل يس وهو مذهب سيبويه على أنه اسم للسورة ، و﴿ يس ﴾ مشبهة الجملة من الكلام فلذلك عدت آية بخلاف ﴿ طس ﴾ [ النحل : 14 ] ولم ينصرف ﴿ يس ﴾ للعجمة والتعريف ، و﴿ الحكيم ﴾ المحكم ، فيكون فعيل بمعنى مفعل أي أحكم في مواعظه وأوامره ونواهيه ، ويحتمل أن يكون ﴿ الحكيم ﴾ بناء فاعل أي ذو الحكمة ، وقوله ﴿ على صراط مستقيم ﴾ يجوز أن تكون جملة في موضع رفع على أنها خبر بعد خبر ، ويجوز أن يكون في موضع نصب على أنها في موضع حال من ﴿ المرسلين ﴾ ، و" الصراط " الطريق ، والمعنى على طريق وهدى ومهيع رشاد ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عامر " تنزيلُ " بالرفع على خبر الابتداء وهي قراءة أبي جعفر وشيبة والحسن والأعرج

(83/645)

---

والأعمش ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي " تنزيلَ " بالنصب على المصدر ، واختلف عن عاصم ، وهي قراءة طلحة والأشهب وعيسى بن عمر والأعمش بخلاف عنهما .

لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6)

اختلف المفسرون في قوله ﴿ ما أنذر ﴾ ، فقال عكرمة ﴿ ما ﴾ بمعنى الذي ، والتقدير الشيء الذي أنذره الآباء من النار والعذاب ، ويحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ مصدرية على هذا القول من أن الآباء أنذروا .

قال القاضي أبو محمد : ف " الآباء " على هذا كله هم الأقدمون على مر الدهور ، وقوله تعالى : ﴿ فهم ﴾ ، مع هذا التأويل بمعنى فإنهم دخلت الفاء لقطع الجملة من الجملة ، وقال قتادة ﴿ ما ﴾ نافية أي أن آباءهم لم ينذروا ، فالآباء على هذا هم القريبون منهم ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ [ سبأ : 44 ] ، وهذه النذارة المنفية هي نذارة المباشرة والأمر والنهي ، وإلا فدعوة الله تعالى من الأرض لم تنقطع قط ، وقوله ﴿ فهم ﴾ على هذا ، الفاء منه واصلة بين الجملتين ، ورابطة للثانية بالأولى ، و﴿ حق القول ﴾ معناه وجب العذاب وسبق القضاء به هذا فيمن لم يؤمن من قريش كمن قتل ببدر وغيرهم ، وقوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ الآية قال مكي : قيل هي حقيقة في أحوال الآخرة وإذا دخلوا النار .

قال القاضي أبو محمد : وقوله تعالى : ﴿ فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ يضعف هذا القول لأن بصر الكافر يوم القيامة إنما هو حديد يرى قبح حاله ، وقال الضحاك : معناه متعناهم من النفقة في سبيل الله ، كما قال تعالى ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ [ الإسراء : 23 ] ، وقال ابن عباس وابن إسحاق : الآية استعارة لحال الكفرة الذين أرادوا محمداً صلى الله عليه وسلم بسوء ، فجعل الله تعالى هذا مثالاً لهم في كفه إياهم عن محمد صلى الله عليه وسلم ومنعهم من إذايته حين بيتوه ، قال عكرمة : نزلت هذه الآية حين أراد أبو جهل ضربه بالحجر العظيم فمنعه الله تعالى منه ، الحديث ، وفي غير ذلك من المواطن وقالت فرقة : الآية مستعارة المعاني من منع الله تعالى آباءهم من الإيمان وحوله بينهم وبينه .

*(85/645)*

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا أرجح الأقوال لأنه تعالى لما ذكر أنهم ﴿ لا يؤمنون ﴾ بما سبق لهم في الأزل عقب ذلك بأن جعل لهم من المنع وإحاطة الشقاوة ما حالهم معه حال المغللين ، والغل ما أحاط بالعنق على معنى التثقيف والتضييق والتعذيب والأسر ومع العنق اليدان أو اليد الواحدة هذا معنى التغليل ، وقوله تعالى : ﴿ فهي ﴾ يحتمل أن يعود

على " الأغلال " أي هي عريضة تبلغ بحرفها ﴿ الأذقان ﴾ ، والذقن مجتمع اللحيين فيضطر المغلول إلى رفع وجهه نحو السماء وذلك هو " الإقماح " وهو نحو الإقناع في الهيئة ونحوه ما يفعله الإنسان والحيوان عند شرب الماء البارد وعند الملوحات والحموضة القوية ونحوه ، ويحتمل وهو قول الطبري أن تعود " هي " على الأيدي وإن لم يتقدم لها ذكر لوضوح مكانها من المعنى ، وذلك أن الغل إنما يكون في العنق مع اليدين ، وروي أن في مصحف ابن مسعود وأبيّ " إنا جعلنا في أيمانهم " ، وفي بعضها " في أيديهم " ، وقد ذكرنا معنى " الإقماح " ، وقال قتادة : المقمح الرافع رأسه ، وقال قتادة : ﴿ مقمحون ﴾ مضللون عن كل خير ، وأرى الناس علي بن أبي طالب رضي الله عنه الإقماح فجعل يديه تحت لحييه وألصقها ورفع رأسه ، وقرأ الجمهور " سُداً " بضم السين في الموضعين ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وابن مسعود وطلحة وابن وثاب وعكرمة والنخعي وابن كثير " سَداً " بفتح السين ، وقال أبو علي : قال قوم هما بمعنى واحد أي حائلاً يسد طريقهم ، وقال عكرمة : ما كان مما يفعله البشر فهو بالضم وما كان خلقة فهو بالفتح .

قال القاضي أبو محمد : والسد ما سد وحال ، ومنه قول الأعرابي في صفة سحاب : طلع سد مع انتشار الطفل ، أي سحاب سد الأفق ، ومنه قولهم : جراد سد ، ومعنى الآية أن طريق الهدى سد دونهم ، وقرأ جمهور الناس " فأغشيناهم " بالغين منقوطة أي جعلنا على أعينهم غشاوة ، وقرأ ابن عباس وعكرمة وابن يعمر وعمر بن عبد العزيز والنخعي وابن سيرين " فأعشيناهم " بالعين غير منقوطة ، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم وهي من العشى أي أضعفنا أبصارهم والمعنى ﴿ فهم لا يبصرون ﴾ رشداً ولا هدى ، وقرأ يزيد البربري " فأغشيتهم " بتاء دون ألف وبالغين منقوطة .

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10)

(87/645)

---

هذه مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم مضمنها تسلية عنهم أي أنهم قد حتم عليهم بالكفر فسواء إنذارك وتركه ، والألف في قوله في ﴿ أأنذرتهم ﴾ ألف التسوية لأنها ليست باستفهام بل المستفهم والمستفهَم مستويان في علم ذلك ، وقرأ الجمهور " آنذرتهم " بالمد ، وقرأ ابن محيصن والزهري " أنذرتهم " بهمزة واحدة على الخبر ، ﴿ وسواء ﴾ رفع بالابتداء ، وقوله ﴿ أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ جملة من فعلين متعادلين تقدر تقدير فعل

واحد هو خبر الابتداء ، كأنه قال وسواء عليهم جميع فعلك ففسر هذا الجميع ب ﴿ أنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ ، ومثله قولهم : سواء عندي أقمت أم عقدت ، هكذا ذكر أبو علي في تحقيق الخبر في مثل هذا إذ من الأصول أن الابتداء هو الخبر والخبر هو الابتداء ، وقوله ﴿ إنما تنذر ﴾ ليس على جهة الحصر ب ﴿ إنما ﴾ بل على تجهة تخصيص من ينفعه الإنذار ، و" اتباع الذكر " هو العمل بما في كتاب الله تعالى والاقتداء به ، قال قتادة : ﴿ الذكر ﴾ القرآن وقوله تعالى : ﴿ بالغيب ﴾ أي بالخلوات عند مغيب الإنسان عن عيون البشر ، ثم قال تعالى ﴿ فبشره ﴾ فوحد الضمير مراعاة للفظ من ، و" الأجر الكريم " هو كل ما يأخذه الأجير مقترناً بحمد على الأحسن وتكرمة ، وكذلك هي للمؤمنين الجنة ، ثم أخبر تعالى بإحيائه الموتى رداً على الكفرة ، ثم توعدهم بذكره كتب الآثار ، وإحصاء كل شيء وكل ما يصنعه الإنسان ، فيدخل فيما قدم ويدخل في آثاره لكنه تعالى ذكر الأمر من الجهتين ولينبه على الآثار التي تبقى ويذكر ما قدم الإنسان من خير أو شر ، وإلا فذلك كله داخل فيما قدم ابن آدم ، وقال قتادة ﴿ ما قدموا ﴾ معناه من عمل ، وقاله ابن زيد ومجاهد وقد يبقى للمرء ما يستن به بعد فيؤجر به أو يأثم ، ونظير هذه الآية ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ [ الانفطار : 5 ] ، وقوله ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ [ القيامة : 13 ] ، وقرأت فرقة " وآثارهم " بالنصب ، وقرأ مسروق "

وآثارهم " بالرفع ، وقال ابن عباس وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدري إن هذه الآية نزلت في بني سلمة حين أرادوا النقلة إلى جانب المسجد ، وقد بينا ذلك في أول السورة ، وقال ثابت البناني : مشيت مع أنس بن مالك إلى الصلاة فأسرعت فحبسني فلما انقضت الصلاة قال لي : مشيت مع زيد بن ثابت إلى الصلاة ، فأسرعت في مشيي فحبسني فلما انقضت الصلاة قال : مشيت مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة فأسرعت في مشيي فحبسني ، فلما انقضت الصلاة قال لي : يا زيد أما علمت أن الآثار تكتب . قال القاضي أبو محمد : فهذا احتجاج بالآية ، وقال مجاهد وقتادة والحسن : والآثار في هذه الآية الخطا ، وحكى الثعلبي عن أنس أنه قال : الآثار هي الخطا إلى الجمعة ، وقيل الآثار ما يبقى من ذكر العمل فيقتدى به فيكون للعامل أجر من عمل بسنته من بعده ، وكذلك الوزر في سنن الشر ، وقوله تعالى : ﴿ وكلَّ شيء ﴾ نصب بفعل مضمر يدل عليه ﴿ أحصيناه ﴾ كأنه قال وأحصينا كل شيء أحصيناه ، و" الإمام " الكتاب المقتدى به الذي هو حجة ، قال مجاهد وقتادة وابن زيد : أراد اللوح المحفوظ ، وقالت فرقة : أراد صحف الأعمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ ﴾

أي وجب العذاب على أكثرهم ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ ﴾ بإنذارك .

وهذا فيمن سبق في علم الله أنه يموت على كفره .

ثم بيّن سبب تركهم الإيمان فقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا في أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً ﴾ .

قيل : نزلت في أبي جهل ابن هشام وصاحبيه المخزوميين ؛ وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلّي ليرضخنّ رأسه بحجر ؛ فلما رآه ذهب فرفع حجراً ليرميه ، فلما أومأ إليه رجعت يده إلى عنقه ، والتصق الحجر بيده ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما ؛ فهو على هذا تمثيل أي هو بمنزلة من غُلَّت يدُه إلى عنقه ، فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى ، فقال الرجل الثاني وهو الوليد بن المغيرة : أنا أرضَخ رأسه .

فأتاه وهو يصلّي على حالته ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه ، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقال : والله ما رأيته ولقد سمعت صوته .

فقال الثالث : والله لأشدخنّ أنا رأسه .

ثم أخذ الحجر وانطلق فرجع القهقرى ينكص على عقبيه حتى خرَّ على قفاه مغشيّا عليه .

فقيل له : ما شأنك ؟ قال شأني عظيم ! رأيت الرجل فلما دنوت منه ، وإذا فَحْل يَخطِر بذنبه ما رأيت فحلا قط أعظم منه حال بيني وبينه ، فواللَّاتِ والعُزّى لو دنوت منه لأكلني .

فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الأذقان فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ .

وقرأ ابن عباس : "إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْمَانِهِمْ" .

وقال الزجاج : وقرىء "إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْدِيهِم" .

قال النحاس : وهذه القراءة تفسير ولا يقرأ بما خالف المصحف .

وفي الكلام حذف على قراءة الجماعة ؛ التقدير : إنا جعلنا في أعناقهم وفي أيديهم أغلالاً فهي إلى الأذقان ، فهي كناية عن الأيدي لا عن الأعناق ، والعرب تحذف مثل هذا .



---

ونظيره : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [ النحل : 81 ] وتقديره وسرابيل تقيكم البرد فحذف ؛ لأن ما وقى من الحر وقى من البرد ؛ لأن الغُلّ إذا كان في العنق فلا بد أن يكون في اليد ، ولا سيما وقد قال الله عز وجل : ﴿ فَهِيَ إِلَى الأذقان ﴾ فقد علم أنه يراد به

الأيدي .

﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ أي رافعو رؤوسهم لا يستطيعون الإطراق ؛ لأن من غُلّت يده إلى ذَقنه ارتفع رأسه .

روى عبد الله بن يحيى : أن علي بن أبي طالب عليه السلام أراهم الإقماح ، فجعل يديه تحت لحيته وألصقهما ورفع رأسه .

قال النحاس ، وهذا أجلّ ما روي فيه وهو مأخوذ مما حكاه الأصمعي .

قال : يقال أقمحت الدابة إذا جذبت لجامها لترفع رأسها .

قال النحاس : والقاف مبدلة من الكاف لقربها منها .

كما يقال : قَهَرته وكَهَرته .

قال الأصمعِي : يقال أكمحتُ الدابَة إذا جذبت عنانها حتى ينتصب رأسها .

ومنه قول الشاعر :

. . .

والرأسُ مُكَمَحُ . . .

ويقال : أكمحتها وأكفحتها وكبحتها ؛ هذه وحدها بلا ألف عن الأصمعي .

وقَمَح البعير قُمُوحاً : إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب ، فهو بعير قامِحٌ وقِمحٌ ؛ يقال : شَرِب فتقمّح وانقمح بمعنًى إذا رفع رأسه وترك الشرب رِيًّا .

وقد قامحت إبلُك : إذا وردت ولم تشرب ، ورفعت رأسها من داء يكون بها أو برد .

وهي إبل مُقامحة ، وبعير مقامح ، وناقة مقامح أيضاً ، والجمع قِماح على غير قياس ؛ قال بشر يصف سفينة :

ونحن على جَوانبها قُعُودٌ . . .

نَغُضّ الطرفَ كالإبل القِمَاحِ

والإقماح : رفع الرأس وغض البصر ؛ يقال : أقْمَحه الغُلّ إذا ترك رأسه مرفوعاً من ضيقه .

وشهرا قِماح : أشدّ ما يكون من البرد ، وهما الكانونان سميا بذلك ؛ لأن الإبل إذا وردت آذاها برد الماء فقامحت رؤوسها ؛ ومنه قَمِحتُ السويَق .

وقيل : هو مثل ضربه الله تعالى لهم في امتناعهم من الهدى كامتناع المغلول ؛ قاله يحيى بن سلاّم وأبو عبيدة .



---

وكما يقال : فلان حمار ؛ أي لا يبصر الهدى .

وكما قال :

لهم عن الرشدِ أغلالٌ وأقياد . . .

وفي الخبر : أن أبا ذؤيب كان يهوى امرأة في الجاهلية ، فلما أسلم راودته فأبى وأنشأ يقول :

فليس كعهدِ الدارِ يا أُم مَالكٍ . . .

ولكن أحاطت بالرقاب السلاسِل

وعاد الفتى كالكهلِ ليس بقائلٍ . . .

سِوى العدلِ شيئاً فاستراح العواذِلُ

أراد مُنِعْنَا بموانع الإسلام عن تعاطي الزنى والفسق .

وقال الفراء أيضاً : هذا ضرب مثل ؛ أي حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [ الإسراء : 29 ] وقاله الضحاك .

وقيل : إن هؤلاء صاروا في الاستكبار عن الحق كمن جُعل في يده غُلٌّ فجمعت إلى عنقه ، فبقي رافعاً رأسه لا يخفضه ، وغاضاً بصره لا يفتحه .

والمتكبر يوصف بانتصاب العنق .

وقال الأزهري : إن أيديهم لما غُلَّت عند أعناقهم رَفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صُعُداً كالإبل ترفع رؤوسها .

وهذا المنع بخلق الكفر في قلوب الكفار ، وعند قوم بسلبهم التوفيق عقوبة لهم على كفرهم .

وقيل : الآية إشارة إلى ما يُفعَل بأقوام غداً في النار من وضع الأغلال في أعناقهم والسلاسل

؛ كما قال تعالى : ﴿ إِذِ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ والسلاسل ﴾ [ غافر : 71 ] وأخبر عنه بلفظ الماضي .

"فَهُمْ مُقْمَحُونَ" تقدّم تفسيره .

قال مجاهد : "مُقْمَحُونَ" مُغلُّون عن كل خير .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وِمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً ﴾ قال مقاتل : لما عاد أبو جهل إلى أصحابه ، ولم يصل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وسقط الحجر من يده ، أخذ الحجر رجل آخر من بني مخزوم وقال : أقتله بهذا الحجر .

فلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم طمس الله على بصره فلم ير النبي صلى الله عليه وسلم ، فرجع إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه ، فهذا معنى الآية .

(92/645)

---

وقال محمد بن إسحاق في روايته : جلس عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل وأمية بن خلف ، يراصدون النبي صلى الله عليه وسلم ليبلغوا من أذاه ؛ فخرج عليهم عليه السلام وهو يقرأ "يس" وفي يده تراب فرماهم به وقرأ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وِمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً ﴾ فأطرقوا حتى مرّ عليهم عليه السلام .

وقد مضى هذا في سورة "سبحان" ومضى في "الكهف" الكلام في "سَدًّا" بضم السين وفتحها وهما لغتان.

﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ أي غطينا أبصارهم؛ وقد مضى في أول "البقرة".

وقرأ ابن عباس وعكرمة ويحيى بن يعمر "فأعشيناهم" بالعين غير معجمة من العَشاء في العين وهو ضعف بصرها حتى لا تبصر بالليل قال:

متى تأْتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نارِهِ . . .

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن ﴾ [الزخرف: 36] الآية.

والمعنى متقارب، والمعنى أعميناهم؛ كما قال:

ومن الحوادثِ لا أَبَالَكَ أنّني . . .

ضُرِبتْ عليّ الأرضُ بالأَسْدَادِ

لا أهتدي فيها لموضعِ تَلْعَةٍ . . .

بين العُذَيْبِ وبينَ أرضِ مُرادِ

﴿ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ أي الهدى؛ قاله قتادة.

وقيل: محمداً حين ائتمروا على قتله؛ قاله السدي.

وقال الضحاك: ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ﴾ أي الدنيا ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً ﴾ أي الآخرة؛ أي عَمُوا عن البعث وعَمُوا عن قبول الشرائع في الدنيا؛ قال الله تعالى: ﴿

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [ فصلت : 25 ] أي زيّنوا لهم الدنيا ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة .

وقيل : على هذا "مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا" أي غرورا بالدنيا "وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا" أي تكذيبا بالآخرة .

وقيل : "مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ" الآخرة "وَمِنْ خَلْفِهِمْ" الدُّنْيَا .

(93/645)

---

﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ تقدّم في "البقرة" والآية ردّ على القَدَرية وغيرهم .

وعن ابن شهاب : أن عمر بن عبد العزيز أحضر غيلان القَدَريّ فقال : يا غيلان بلغني أنك تتكلم بالقَدَر ؛ فقال : يكذبون عليّ يا أمير المؤمنين .

ثم قال : يا أمير المؤمنين أرأيت قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [ الإنسان : 32 ]

قال : اقرأ يا غيلان فقرأ حتى انتهى إلى قوله : ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ فقال اقرأ فقال : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فقال : والله يا أمير المؤمنين إن شعرت أنّ

هذا في كتاب الله قط .

فقال له : يا غيلان اقرأ أوّل سورة "ياس" فقرأ حتى بلغ ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ ﴾ فقال غيلان : والله يا أمير المؤمنين لكأني لم أقرأها قط قبل اليوم ؛ اشهد يا أمير المؤمنين أني تائب .

قال عمر : اللهم إن كان صادقاً فتب عليه وثبته ، وإن كان كاذباً فسلّط عليه من لا يرحمه واجعله آية للمؤمنين ؛ فأخذه هشام فقطع يديه ورجليه وصلبه .

وقال ابن عون : فأنا رأيته مصلوباً على باب دمشق .

فقلنا : ما شأنك يا غيلان ؟ فقال : أصابتني دعوة الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر ﴾ يعني القرآن وعمل به .

﴿ وَخشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ أي ما غاب من عذابه وناره ؛ قاله قتادة .

وقيل : أي يخشاه في مغيبه عن أبصار الناس وانفراده بنفسه .

﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أي لذنبه ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أي الجنة .

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (12)

فيه أربع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الموتى ﴾ أخبرنا تعالى بإحيائه الموتى ردًّا على الكفرة .

وقال الضحاك والحسن : أي نحييهم بالإيمان بعد الجهل .

والأوّل أظهر ؛ أي نحييهم بالبعث للجزاء .

ثم توعدهم بذكره كَتْب الآثار وهي :

الثانية وإحصاء كل شيء وكل ما يصنعه الإنسان .

قال قتادة : معناه مِن عملٍ .

وقاله مجاهد وابن زيد .

ونظيره قوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [ الانفطار : 5 ] وقوله : ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذِ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [ القيامة : 13 ] ، وقال : ﴿ اتقوا الله وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [ الحشر : 18 ] فآثار المرء التي تبقى وتذكر بعد الإنسان من خير أو شر يجازى عليها : من أثر حسن ؛ كعلم علّموه ، أو كتاب صنّفوه ، أو حبيس احتبسوه ، أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك .

أو سَيِّىءٍ كوظيفة وظفها بعض الظلاّم على المسلمين ، وسكة أحدثها فيها تخسيرهم ، أو شيء أحدثه فيه صدّ عن ذكر الله من ألحان وملاهٍ ، وكذلك كل سُنّة حسنة ، أو سيئة

يستنّ بها .

وقيل : هي آثار المشّائين إلى المساجد .

وعلى هذا المعنى تأوّل الآية عمر وابن عباس وسعيد بن جُبير .

وعن ابن عباس أيضاً أن معنى : "وَآثَارَهُمْ" خُطاهم إلى المساجد .

قال النحاس : وهذا أولى ما قيل فيه ؛ لأنه قال : إن الآية نزلت في ذلك ؛ لأن الأنصار كانت منازلهم بعيدة عن المسجد .

وفي الحديث مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يُكتبُ له برِجل حصنة وتُحطُّ عنه برِجل سيئة ذاهباً وراجعاً إذا خرج إلى المسجد " .

(95/645)

---

قلت : وفي الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : "كانت بنو سَلِمة في ناحية المدينة فأرادوا النُّقلَة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الموتى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَآثَارَهُمْ ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن آثاركم تكتب" فلم ينتقلوا "

قال : هذا حديث حسن غريب من حديث الثوري .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : أراد بنو سَلِمة أن يتحوّلوا إلى قرب المسجد

؛ قال : والبقاع خالية ؛ قال : فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " يا بني سَلِمة ديارَكم تُكتَبْ آثارُكم ديارَكم تُكْتَبْ آثارُكم " فقالوا : ما كان يسرنا أنا كنا تحوّلنا .

وقال ثابت البُنَاني : مشيت مع أنس بن مالك إلى الصلاة فأسرعت ، فحبسني فلما انقضت الصلاة قال : مشيت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم وأسرعت ، فحبسني فلما انقضت الصلاة قال : " أمَا علمت أن الآثار تُكتَب " فهذا احتجاج بالآية .

وقال قتادة ومجاهد أيضاً والحسن : الآثار في هذه الآية الخُطَا .

وحكى الثعلبي عن أنس أنه قال : الآثار هي الخُطَا إلى الجمعة .

وواحد الآثار أَثَر ويقال أُثْر .

الثالثة : في هذه الأحاديث المفسّرة لمعنى الآية دليل على أن البعد من المسجد أفضل ، فلو كان بجوار مسجد ، فهل له أن يجاوزه إلى الأبعد ؟ اختلف فيه ؛ فروي عن أنس أنه كان يجاوز المحدَث إلى القديم .

وروي عن غيره : الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجْراً .

وكره الحسن وغيره هذا ؛ وقال : لا يدع مسجداً قربَه ويأتي غيره .

وهذا مذهب مالك .

وفي تخطي مسجده إلى المسجد الأعظم قولان .

وخرّج ابن ماجه من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "

صلاة الرجل في بيته بصلاة وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاةً وصلاته في المسجد الذي يُجمَّع فيه بخمسمائة صلاة "

الرابعة : "دياركم" منصوب على الإغراء أي الزموا ، و "نكتب" جزم على جواب ذلك الأمر .

(96/645)

---

"وكُلَّ" نصب بفعل مضمر يدلّ عليه "أَحْصَيْنَاهُ" كأنه قال : وأحصينا كل شيء أحصيناه .

ويجوز رفعه بالابتداء إلا أن نصبه أولى ؛ ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل .

وهو قول الخليل وسيبويه .

والإمام : الكتاب المقتدَى به الذي هو حجة .

وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : أراد اللوح المحفوظ .

وقالت فرقة : أراد صحائف الأعمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(97/645)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) ﴾

هذه السورة مكية ، إلا أن فرقة زعمت أن قوله : ﴿ ونكتب ما قدموا ﴾ ، و﴿ وآثارهم ﴾ ، نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول ، وليس زعماً صحيحاً .

وقيل : إلا قوله : ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ﴾ الآية .

وتقدم الكلام في الحروف المقطعة في أول البقرة ، قال ابن جبير هنا : إنه اسم من أسماء محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ، ودليله ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ .

قال السيد الحميري :

يا نفس لا تمحضي بالود جاهدة . . .

على المودة إلا آل ياسيناً

وقال ابن عباس : معناه يا إنسان بالحبشية ، وعنه هو في لغة طيء ، وذلك أنهم يقولون إيسان بمعنى إنسان ، ويجمعونه على أياسين ، فهذا منه .

وقالت فرقة : يا حرف نداء ، والسين مقامة مقام إنسان انتزع منه حرف فأقيم مقامه .

وقال الزمخشري : إن صح أن معناه يا إنسان في لغة طيء ، فوجهه أن يكون أصله يا أنيسين

، فكثر النداء على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره ، كما قالوا في القسم : م الله في أيمن الله . انتهى .

والذي نقل عن العرب في تصغيرهم إنسان أنيسيان بياء بعدها ألف ، فدل على أن أصله أنيسان ، لأن التصغير يرد الأشياء إلى أصولها ، ولا نعلمهم قالوا في تصغيره أنيسين ، وعلى تقدير أنه بقية أنيسين ، فلا يجوز ذلك ، لا أن يبنى على الضم ، ولا يبقى موقوفاً ، لأنه منادي مقبل عليه ، مع ذلك فلا يجوز لأنه تحقير ، ويمتنع ذلك في حق النبوة .

وقوله : كما قالوا في القسم م الله في أيمن الله ، هذا قول .

ومن النحويين من يقول : إن م حرف قسم وليس مبقى من أيمن .

وقرىء : بفتح الياء وإمالتها محضاً ، وبين اللفظين .

وقرأ الجمهور : بسكون النون مدغمة في الواو ؛ ومن السبعة : الكسائي ، وأبو بكر ، وورش ، وابن عامر : مظهرة عند باقي السبعة .

(98/645)

---

وقرأ ابن أبي إسحاق ، وعيسى : بفتح النون .

وقال قتادة : يس قسم .

قال أبو حاتم : فقياس هذا القول فتح النون ، كما تقول : الله لأفعلن كذا .

وقال الزجاج : النصب ، كأنه قال : اتل يس ، وهذا على مذهب سيبويه أنه اسم للسورة .

وقرأ الكلبي : بضم النون ، وقال هي بلغة طيء : يا إنسان .

وقرأ السماك ، وابن أبي إسحاق أيضاً : بكسرها ؛ قيل : والحركة لالتقاء الساكنين ، فالفتح كائن طلباً للتخفيف والضم كحيث ، والكسر على أصل التقائهما .

وإذا قيل أنه قسم ، فيجوز أن يكون معرباً بالنصب على ما قال أبو حاتم ، والرفع على الابتداء نحو : أمانة الله لأقومن ، والجر على إضمار حرف الجر ، وهو جائز عند الكوفيين .

والحكيم : إما فعيل بمعنى مفعل ، كما تقول : عقدت العسل فهو عقيد : أي معقد ، وإما للمبالغة من حاكم ، وإما على معنى السبب ، أي ذي حكمة .

﴿ على صراط ﴾ : خبر ثان ، أو في موضع الحال منه عليه السلام ، أو من المرسلين ، أو متعلق بالمرسلين .

والصراط المستقيم : شريعة الإسلام .

وقرأ طلحة ، والأشهب ، وعيسى : بخلاف عنهما ؛ وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : تنزيل ، بالنصب على المصدر ؛ وباقي السبعة ، وأبو بكر ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والحسن ، والأعرج ، والأعمش : بالرفع مبتدأ محذوف ، أي هو تنزيل ؛ وأبو حيوة ، واليزيدي ،

والقورصي عن أبي جعفر ، وشيبة ؛ بالخفض إما على البدل من القرآن ، وإما على الوصف بالمصدر .

﴿ لتنذر ﴾ : متعلق بتنزيل أو بأرسلنا مضمرة .

﴿ ما أنذر ﴾ ، قال عكرمة : بمعنى الذي ، أي الشيء الذي أنذره آباؤهم من العذاب ، فما مفعول ثان ، كقوله : ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ﴾ قال ابن عطية : ويحتمل أن تكون ما مصدرية ، أي ﴿ ما أنذرهم آباؤهم ﴾ ، والآباء على هذا هم الأقدمون من ولد إسماعيل ، وكانت النذارة فيهم .

و ﴿ فهم ﴾ على هذا التأويل بمعنى فإنهم ، دخلت الفاء لقطع الجملة من الجملة الواقعة صلة ، فتتعلق بقوله : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ .

(99/645)

---

﴿ لتنذر ﴾ ، كما تقول : أرسلتك إلى فلان لتنذره ، فإنه غافل ، أو فهو غافل .

وقال قتادة : ما نافية ، أي أن آباءهم لم ينذروا ، فآباؤهم على هذا هم القريبون منهم ، وما أنذر في موضع الصفة ، أي غير منذر آباؤهم ، وفهم غافلون متعلق بالنفي ، أي لم ينذروا فهم غافلون ، على أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم .

وباعتبار الآباء في القدم والقرب يزول التعارض بين الإنذار ونفيه .

﴿ لقد الحق على أكثرهم ﴾ : المشهور أن القول ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وقيل : لقد سبق في علمه وجوب العذاب .

وقيل : حق القول الذي قاله الله على لسان الرسل من التوحيد وغيره وبان برهانه ؛ فأكثرهم لا يؤمنون بعذ ذلك .

والظاهر أن قوله : ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ الآية هو حقيقة لا استعارة .

لما أخبر تعالى أنهم لا يؤمنون ، أخبر عن شيء من أحوالهم في الآخرة إذا دخلوا النار .

قال ابن عطية : وقوله ﴿ فأغشناهم فهم لا يبصرون ﴾ يضعف هذا ، لأن بصر الكافر يوم القيامة إنما هو حديد يرى قبح حاله .

انتهى ، ولا يضعف هذا .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً ﴾ وقوله : ﴿ قال رب لما حشرتني أعمى ﴾ وإما أن يكون قوله : ﴿ فبصرك اليوم حديد ﴾ كناية عن إدراكه ما يؤول إليه ، حتى كأنه يبصره .

وقال الجمهور : ذلك استعارة .

قال ابن عباس ، وابن إسحاق : استعارة لحالة الكفرة الذين أرادوا الرسول بسوء ، جعل الله هذا لهم مثلاً في كفه إياهم عنه ، ومنعهم من أذاه حين بيتوه .

وقال الضحاك، والفراء: استعارة لمنعهم من النفقة في سبيل الله، كما قال: ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ وقال عكرمة: نزلت حين أراد أبو جهل ضربه بالحجر العظيم، وفي غير ذلك من المواطن، فمنعه الله؛ وهذا قريب من قول ابن عباس، فروى أن أبا جهل حمل حجراً ليدفع به النبي (صلى الله عليه وسلم)، وهو يصلي، فانثنت يداه إلى عنقه حتى عاد إلى أصحابه والحجر في يده قد لزق، فما فكوه إلا بجهد، فأخذ آخر، فلما دنا من الرسول، طمس الله بصره فلم يره، فعاد إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه، فجعل الغل يكون استعارة عن منع أبي جهل وغيره في هذه القصة.

ولما كان أصحاب أبي جهل راضين بما أراد أن يفعل، فنسب ذلك إلى جمع.

وقالت فرقة: استعارة لمنع الله إياهم من الإيمان وحوله بينهم وبينه.

قال ابن عطية: وهذا أرجح الأقوال، لأنه تعلى لما ذكر أنهم لا يؤمنون، لما سبق لهم في الأزل عقب ذلك بأن جعل لهم من المنع وإحاطة الشقاوة ما حالهم معه حال المغلوين.

انتهى.

وقال الزمخشري: مثل تصميمهم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى دعواهم بأن جعلهم

كالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يطأطئون رؤوسهم له ، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم في أن لا تأمل لهم ولا يبصرون ، إنهم متعامون عن النظر في آيات الله تعالى .

انتهى ، وفيه دسيسة الاعتزال .

ألا ترى إلى قول أهل السنة استعارة لمنع الله إياهم من الإيمان ؟ وقول الزمخشري مثل تصميمهم ونسبته الأفعال التي يعدها إليهم لا إلى الله .

والغل ما أحاط بالعنق على معنى التعنيف والتضييق والتعذيب والأسر ، ومع العنق اليدان أو اليد الواحدة على معنى التعليل .

والظاهر عود الضمير في فهي إلى الأغلال ، لأنها هي المذكورة والمحدث عنها .

(101/645)

---

قال ابن عطية : هي عريضة تبلغ بحرفها الأذقان ، والذقن مجتمع اللحيين ، فيضطر المغلول إلى رفع وجهه نحو السماء ، وذلك هو الإقماح ، وهو نحو الأقناع في الهيئة .

وقال الزمخشري : الأغلال وأصله إلى الأذقان مكروزة إليها ، وذلك أن طوق الغل الذي هو عنق المغلول يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادراً من الحلقة إلى

الذقن ، فلا تخليه يطاطىء رأسه ويوطىء قذاله ، فلا يزال مقمحاً . انتهى .

وقال الفراء : القمح الذي يغض بصره بعد رفع رأسه .

وقال الزجاج نحوه قال : يقال قمح البعير رأسه عن ري وقمح هو .

وقال أبو عبيدة : قمح قموحاً : رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب ، والجمع قماح ، ومنه قول بشر يصف ميتة أحدهم ليدفنها :

ونحن على جوانبها قعود . . .

نغض الطرف كالإبل القماح

وقال الليث : هو رفع البعير رأسه إذا شرب الماء الكريه ثم يعود .

وقال الزجاج : للكانونين شهرا قماح ، لأن الإبل إذا وردت الماء ترفع رؤوسها لشدة برده ، وأنشد أبو زيد بيت الهذلي :

فتى ما ابن الأعز إذا شتونا . . .

وحب الزاد في شهري قماح

رواه بضم القاف ، وابن السكيت بكسرها ، وهما لغتان .

وسميا شهري قماح لكراهة كل ذي كبد شرب الماء فيه .

وقال الحسن : القامح : الطافح ببصره إلى موضع قدمه .

وقال مجاهد : الرافع الرأس ، الواضح يده على فيه .

وقال الطبري : الضمير في فهي عائد على الأيدي ، وإن لم يتقدم لها ذكر ، لوضوح مكانها من المعنى ، وذلك أن الغل إنما يكون في العنق مع اليدين ، ولذلك سمي الغل جامعة لجمعه اليد والعنق .

وأرى علي ، كرم الله وجهه ، الناس الأقماح ، فجعل يديه تحت لحييه وألصقهما ورفع رأسه .

وقال الزمخشري : جعل الأقماح نتيجة قوله : ﴿ فهي إلى الأذقان ﴾ .

ولو كان الضمير للأيدي ، لم يكن معنى التسبب في الأقماح ظاهراً .

(102/645)

---

على أن هذا الإضمار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطل الذي يجفو عنه ترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجلج . انتهى .

وقرأ عبد الله ، وعكرمة ، والنخعي ، وابن وثاب ، وطلحة ، وحمزة ، والكسائي ، وابن كثير ، وحفص : ﴿ سداً ﴾ بفتح السين فيهما ؛ والجمهور : بالضم ، وتقدم شرح السد في الكهف .

وقرأ الجمهور : ﴿ فأغشيناهم ﴾ بالغين منقوطة ؛ وابن عباس ، وعمر بن عبد العزيز ،

وابن يعمر ، وعكرمة ، والنخعي ، وابن سيرين ، والحسن ، وأبو رجاء ، وزيد ابن علي ، ويزيد البربري ، ويزيد بن المهلب ، وأبو حنيفة ، وابن مقسم : بالعين من العشاء ، وهو ضعف البصر ، جعلنا عليها غشاوة .

﴿ وسواء عليهم ﴾ الآية : تقدّم الكلام على نظيرها تفسيراً وإعراباً في أول البقرة .

﴿ إنما تنذر ﴾ : تقدم ﴿ لتنذر قوماً ﴾ ، لكنه لما كان محتوماً عليهم أن لا يؤمنوا حتى قال : ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ ، لم يجد الإنذار لانتفاء منفعته فقال : ﴿ إنما تنذر ﴾ : أي إنذاراً ينفع من اتبع الذكر ، وهو القرآن .

قال قتادة : أو الوعظ .

﴿ وخشي الرحمن ﴾ : أي المتصف بالرحمة ، مع أن الرحمة قد تعود إلى الرجاء ، لكنه مع علمه برحمته هو يخشاه خوفاً من أن يسلبه ما أنعم به عليه بالغيب ، أي بالخلوة عند مغيب الإنسان عن غيوب البشر .

ولما أحدث فيه النذارة ، بشره بمغفرة لما سلف ؛ ﴿ وأجر كريم ﴾ على ما أسلف من العمل الصالح ، وهو الجنة .

ولما ذكر تعالى الرسالة ، وهي أحد الأصول الثلاثة التي بها يصير المكلف مؤمناً ، ذكر الحشر ، وهو أحد الأصول الثلاثة .

والثالث هو توحيد ، فقال : ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ﴾ : أي بعد مماتهم .

وأبعد الحسن والضحاك في قوله : إحياؤهم : إخراجهم من الشرك إلى الإيمان .

﴿ ونكتب ما قدموا ﴾ ، كناية عن المجازاة : أي ونحصي ، فعبر عن إحاطة علمه بأعمالهم بالكتابة التي تضبط بها الأشياء .

(103/645)

---

وقرأ زر ومسروق : ويكتب ما قدموا وآثارهم بالياء مبنياً للمفعول ، وما قدموا من الأعمال .

وآثارهم : خطاهم إلى المساجد .

وقال : السير الحسنة والسيئة .

وقيل : ما قدّموا من السيئات وآثارهم من الأعمال .

وقال الزمخشري : ونكتب ما أسلفوا من الأعمال الصالحات غيرها ، وما هلكوا عنه من أثر حسن ، كعلم علموه ، وكتاب صنفوه ، أو حبيس أحبسوه ، أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك ، أو سيء كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين ، وسكة أحدثها فيها تخيرهم ، وشيء أحدث فيه صد عن ذكر الله من ألحان وملاه ، وكذلك كل سنة حسنة ، أو سيئة يستن بها ، ونحوه قوله عز وجل : ﴿ ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدّم

وأخر ﴾ من آثاره . انتهى .

وقرأ الجمهور : ﴿ وكل شيء ﴾ بالنصب على الاشتغال .

وقرأ أبو السمال : بالرفع على الابتداء .

والإمام المبين : اللوح المحفوظ ، قاله مجاهد وقتادة وابن زيد ، وقالت فرقة : أراد صحف الأعمال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(104/645)

---

وقال أبو السعود :

واللاَّمُ في قوله تعالى ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ ﴾ جوابُ القسمِ أي والله لقد ثبت وتحقَّقَ عليهم ألبتةَ لكن لا بطريقِ الجَبْرِ من غيرِ أنْ يكونَ من قبلهم ما يقتضيه بل بسبب إصرارِهم الاختياريِّ على الكُفرِ والإنكارِ وعدمِ تأثُّرِهم من التَّذكيرِ والإنذارِ وغلوِّهم في العُتوِّ والطُّغيانِ وتماديهم في اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ بحيثُ لا يلويهم صارفٌ ولا يثنيهم عاطفٌ كيف لا والمرادُ بما حقَّ من القولِ قولُه تعالى لإبليسَ عند قوله لأغوينَّهم أجمعين . ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وهو المعنيُّ بقوله تعالى : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ كما يُلوحُ به تقديمُ الجِنَّةِ على النَّاسِ فإنَّه كما ترى قد

أوقع فيه الحكم بإدخال جهنّم على مَن تبعَ إبليسَ وذلك تعليلٌ له بتبعيته قطعاً وثبوت القولِ على هؤلاء الذين عبَّر عنهم بأكثرِهم إنَّما هو لكونِهم من جملة أولئك المصرِّين على تبعيَّةِ إبليسَ أبداً وإذ قد تبيَّن أنَّ مناطَ ثبوتِ القول وتحقُّقهِ عليهم إصرارُهم على الكفرِ إلى الموتِ ظهر أنَّ قوله تعالى: ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ متفرِّعٌ في الحقيقةِ على ذلك لا على ثُبوت القول وقوله تعالى:

(105/645)

---

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أعناقهم أغلالا ﴾ تقريرٌ لتصميمهم على الكُفرِ وعدم ارعوائِهم عنه بتمثيلِ حالِهم بحال الذين غُلَّتْ أعناقُهم ﴿ فَهِىَ إِلَى الاذقان ﴾ أي فالأغلال مُنتهيةٌ إلى أذقانِهم فلا تدعُهم يلتفتونَ إلى الحقِّ ولا يَعطفون أعناقَهم نحوَه ولا يُطأطئونَ رؤوسَهم له ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ رافعونَ رؤوسَهم غاضُّون أبصارَهم بحيثُ لا يكادُون يرونَ الحقَّ أو ينظرُون إلى جهتِه ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فأغشيناهم فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ إمَّا تتمةٌ للتَّمثيل وتكميلٌ له أي تكميلٍ أي وجعلنا مع ما ذُكر من أمامهم سَدّاً عظيماً ومن ورائهم سَدّاً كذلك فغطَّينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يقدرونَ على إبصارِ شيءٍ ما أصلاً وإمَّا تمثيلٌ مستقلٌ فإنَّ ما ذُكر من جعلهم محصورينَ بين سَدَّينِ هائلين

قد غطّيا أبصارَهم بحيث لا يُبصرون شيئاً قطعاً كافٍ في الكشف عن كمال فظاعةِ حالِهم وكونِهم محبوسين في مطمورةِ الغيِّ والجهالاتِ محرومين عن النّظرِ في الأدلّةِ والآياتِ وقُرِىءَ سُدّاً بالضمِّ وهي لغة فيه ، وقيل ما كان من عمل النّاسِ فهو بالفتحِ وما كان من خلقِ الله فبالضمّ . وقُرِىءَ فأعشيناهم من العَشَا . وقيل الآيتانِ في بني مخزومٍ وذلك أنّ أبا جهلٍ حلف لِئن رأى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يصلِّي ليرضخنّ رأسَه فأتاه وهو عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُصلِّي ومعه حجرٌ ليدمغه فلمّا رفع يدَه انثنتْ يدُه إلى عنقِه ولزق الحجرُ بيده حتَّى فكُّوه عنها بجهدٍ فرجع إلى قومه فأخبرَهم بذلك فقال مخزوميٌّ آخرُ أنا أقتلُه بهذا الحجرِ فذهب فأَعمى الله تعالى بصرَه .

(106/645)

---

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَءنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ بيانٌ لشأنِهم بطريق التَّصريحِ إثرَ بيانِه بطريق التَّمثيلِ أي مستوٍ عندهم إنذارُك إيّاهم وعدمُه حسبما مرَّ تحقيقُه في سورةِ البقرةِ وقوله تعالى : ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ استئنافٌ مؤكّدٌ لما قبله مبيّنٌ لما فيه من إجمالِ ما فيه الاستواءُ أو حالٌ مؤكّدةٌ له أو بدلٌ منه ولما بُيّن كونَ الإنذارِ عندهم كعدمِه عقب ببيانِ من يتأثّر منه فقيل ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ أي إنذاراً مستتبعاً للأثر ﴿ مَنِ اتبع الذكر ﴾ أي القرآنَ بالتَّأمُّلِ فيه

أو الوعظِ ولم يصرَّ على اتّباعِ خُطُوات الشّيطانِ ﴿ وَخشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ أي خافَ عقابَه وهو غائبٌ عنه على أنَّه حالٌ من الفاعلِ أو المفعولِ أو خافَه في سريرته ولم يغترَّ برحمتِه فإنَّه منتقمٌ قهّار كما أنَّه رحيمٌ غَفَّار كما نطق به قولُه تعالى: ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الغفور الرحيم وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ العذاب الاليم ﴾ ﴿ فَبَشّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ عظيمةٍ ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ لا يُقادر قدرُه. والفاء لترتيب البشارةِ أو الأمرِ بها على ما قبلها من اتّباعِ الذّكرِ والخشيةِ.

(107/645)

---

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ الموتى ﴾ بيانٌ لشأنٍ عظيمٍ بنطوي على الإنذارِ والتّبشيرِ انطواءً إجماليّاً أي نبعثُهم بعد مماتِهم. وعن الحسنِ إحياؤهم إخراجُهم من الشّركِ إلى الإيمانِ فهو حينئذٍ عدةٌ كريمةٌ بتحقيقِ المُبشّرِ به ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ ﴾ أي ما أسلفُوا من الأعمالِ الصّالحةِ وغيرِها ﴿ وَءاثَارَهُمْ ﴾ التي أبقوها من الحسناتِ كعلمٍ علموه أو كتابٍ ألَّفُوه أو حبيسٍ وقفُوه أو بناءٍ بنوه من المساجدِ والرّباطاتِ والقناطرِ وغيرِ ذلك من وجوهِ البرّ ومن السّيئاتِ كتأسيسِ قوانينِ الظُّلمِ والعُدوانِ وترتيبِ مبادِىء الشّرّ والفسادِ فيما بين العبادِ وغيرِه ذلكَ من فُنون الشّرور التي أحدثوها وسنُّوها لمن بعدهم من المُفسدين. وقيل هي آثارُ إلى

المشَّائينَ إلى المساجدِ ولعلَّ المرادَ أنَّها من جُملةِ الآثارِ . وقُرِئ ويُكتب على البناء للمفعولِ ورفعِ آثارَهم .

﴿ وَكُلَّ شىْء ﴾ من الأشياءِ كائناً ما كانَ ﴿ أحصيناه فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أصلٍ عظيمِ الشَّأنِ مظهرٍ لجميعِ الأشياءِ ممَّا كان وما سيكونُ وهو اللَّوحُ المحفوظُ . وقُرِئ كلُّ شيءٍ بالرَّفعِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(108/645)

---

وقال الآلوسى :

﴿ لَقَدْ حَقَّ ﴾ جواب لقسم محذوف أي والله لقد ثبت ووجب ﴿ القول ﴾ الذي قلته لإبليس يوم قال : ﴿ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ ص : 28 ] وهو ﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [ هود : 119 ] ﴿ على أَكْثَرِهِمْ ﴾ متعلق بحق .

والمراد سبق في علمي دخول أكثرهم فيمن أملأ منهم جهنم وهم تبعة إبليس كما يشير إليه تقديم الجنة على الناس وصرح به قوله تعالى : ﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ ص : 85 ] .

ولا مانع من أن يراد بالقول لكن المشهور ما تقدم ، وظاهر كلام الراغب أن المراد بالقول علم

الله تعالى بهم ولا حاجة إلى التزام ذلك ، وقيل : الجار متعلق بالقول ويقال قال عليه إذا تكلم فيه بالشر ، والمراد لقد ثبت في الأزل عذابي لهم ، وفيه ما فيه ، ويؤيد تعلقه بحق قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ يونس : 96 ] ، ونقل أبو حيان أن المعنى حق القول الذي قاله الله تعالى على لسان الرسل عليهم السلام من التوحيد وغيره وبان برهانه وهو كما ترى .

﴿ فَهُمْ ﴾ أي الأكثر ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بإنذارك إياهم ، والفاء تفريعية داخلة على الحكم المسبب عما قبله فيفيد أن ثبوت القول عليهم علة لتكذيبهم وكفرهم وهو علة له باعتبار سبق العلم بسوء اختيارهم وما هم عليه في نفس الأمر فإن علمه تعالى لا يتعلق بالأشياء إلا على ما هي عليه في أنفسها ومآله إلى أن سوء اختيارهم وما هم عليه في نفس الأمر علة لتكذيبهم وعدم إيمانهم بعد الإنذار فليس هناك جبر محض ولا أن المعلوم تابع للعلم .

*(109/645)*

---

وقال بعضهم : الفاء إما تفريعية وكون ثبوت القول علة لعدم إيمانهم مبني على أن المعلوم تابع للعلم وإما تعليلية مفيدة أن عدم الإيمان علة لثبوب القول بناءً على أن العلم تابع للمعلوم ، ولا يلزم الجبر على الوجهين ، أما على الثاني فظاهر ، وأما على الأول فلأن العلم ليس علة

مستقلة عند القائل بذلك بل لاختيارهم وكسبهم مدخل فيه فتأمل .

والتفريع هو الذي أميل إليه .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أعناقهم ﴾ جمع عنق بالضم وبضمتين وهو الجيد ويقال عنيق كأمير وعنق كصرد ﴿ أغلالا ﴾ جمع غل بالضم وهو على ما قيل ما يشد به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد ، وفي البحر الغل ما أحاط بالعنق على معنى التثقيف والتضييق والتعذيب والأسر ومع العنق اليدان أو اليد الواحدة .

وذكر الراغب أنه ما يقيد به فتجعل الأعضاء وسطه ، وأصله من الغلل تدرع الشيء وتوسطه ومنه الغلل للماء الجاري بين الشجر وقد يقال له الغيل ، وكأن في الكلام عليه قلباً أي جعلنا أعناقهم في أغلال كما تقول جعلت الخاتم في أصبعي أي جعلت أصبعي في الخاتم ، وجوز أن يكون على حد ﴿ لأصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النخل ﴾ [ طه : 71 ] والتنوين للتعظيم والتهويل أي أغلالاً عظيمة هائلة ، وإسناد الفعل إلى ضمير العظمة مما يؤيد ذلك ﴿ فَهِىَ ﴾ أي الأغلال كما هو الظاهر ﴿ إِلَى الاذقان ﴾ جمع ذقن بالتحريك مجتمع اللحيين من أسفلهما ، وأل للعهد أو عوض عن المضاف إليه والظرف متعلق بكون خاص خبر هي أي فهي واصلة أو منتهية إلى أذقانهم ، والفاء للتفريع ، وقيل : لمجرد التعقيب بناءً على عدم حمل التنوين على التعظيم والتهويل ، وقوله تعالى : ﴿ فَهُمْ ﴾ نتيجة ﴿ فَهِىَ إِلَى الاذقان

﴾ فالفاء تفريعية أيضاً ، والمقمح على ما في النهاية الذي يرفع رأسه ويغض بصره وكأنه أراد المجهول بحيث يرفع الخ.

(110/645)

---

وقال أبو عبيدة : يقال قمح البعير قموحاً إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب والجمع قماح ، ومنه قول بشر يصف سفينة أخذهم الميد فيها :

ونحن على جوانبها قعود . . .

نغض الطرف كالإبل القماح

وقال الليث : هو رفع البعير رأسه إذا شرب الماء الكريه ثم يعود ، ومنه قيل للكانونين شهراً قماح بضم القاف وكسرها لأن الإبل إذا وردت الماء ترفع رؤوسها لشدة برده ، وقال الراغب : القمح رفع الرأس لسف الشيء المتخذ من القمح أي البر إذا جرى في السنبل من لدن الإنضاج إلى حين الاكتناز ثم يقال لرفع الرأس كيفما كان قمح ، وقمح البعير رفع رأسه وأقمحت البعير شددت رأسه إلى خلف ، وقيل : المقمح الذي يجذب ذقنه حتى يصير في صدره ثم يرفع ، وقال مجاهد : القامح الرافع الرأس الواضع يده على فيه ، وقال الحسن : هو الطامح ببصره إلى موضع قدمه ، وظاهره يقتضي أن يكون هناك نكس للرأس والمعروف في

القمح الرفع ، ووجه التفريع أن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادراً من الحلقة إلى الذقن فلا يخليه يطأطىء ويوطىء قذاله فلا يزال مقمحاً لا سيما إذا كان الغل عظيماً ، وقال ابن عطية : إن الأغلال عريضة تبلغ بحروفها الأذقان أي فيحصل القمح ، وكلام ابن الأثير يشعر أن القمح لضيق الغل ، وإن أريد جعلنا في كل من أعناقهم أغلالاً كان أمر القمح أظهر وأظهر ، وقال البغوي .

والطبري .

والزجاج .

والطبرسي : ضمير هي للأيدي وإن لم يتقدم لها ذكر لوضوح مكانها من المعنى لأن الغل يتضمن العنق واليد ولذلك سمي جامعة وما يكون في العنق وحده أو في اليد وحدها لا يسمى غلاً فمتى ذكر مع العنق فاليد مرادة أيضاً ومتى ذكر مع اليد كما في قراءة ابن عباس ﴿ فى أَيدِيهِمْ أغلالا ﴾ وفي قراءة ابن مسعود ﴿ فِى أيمانهم أغلالا ﴾ فالعنق مراد أيضاً ، وهذا ضرب من الإيجاز والاختصار ونظير ذلك قول الشاعر :

وما أدري إذا يممت أرضا . . .

أريد الخير أيهما يليني

أألخير الذي أنا أبتغيه . . .

أم الشر الذي لا يأتليني

حيث ذكر الخير وحده وقال أيهما أي الخير والشر ، وقد علم أن الخير والشر يعرضان للإنسان ، واختار الزمخشري ما تقدم ثم قال : والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ ألا ترى كيف جعل الإقماح نتيجة ﴿ فَهِىَ إِلَى الأذقان ﴾ ولو كان الضمير للأيدي لم يكن معنى التسبب في الأقماح ظاهراً على أن هذا الإضمار فيه ضرب من التعسف ، وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذي يجفو عنه ترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجلج اه ، وصاحب الانتصاف أراد الانتصار للجماعة فقال : يحتمل أن يكون الفاء في ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ للتعقيب كسابقه أو للتسبب فإن ضغط اليد مع العنق يوجب الإقماح لأن اليد تبقى ممسكة بالغل تحت الذقن رافعة لها ولأن اليد إذا كانت مطلقة كانت راحة للمغلول فربما يتحيل بها على فكاك الغل فيكون منبهاً على انسداد باب الحيلة اه .

قال صاحب الكشف : والجواب أنه لا فخامة للتعقيب المجرد ، ثم إن ما ذكره الزمخشري وقد أشرنا إليه نحن فيما سبق مستقل في حصول الإقماح فأين التعقيب ، وبه خرج الجواب عن التسبب ، وقوله ولأن اليد الخ لا يستقل جواباً دون الأولين اه ، وعلى العلات رجوع الضمير إلى الأغلال هو الحري بالاعتبار وبلاغة الكتاب الكريم تقتضيه ولا تكاد تلتفت إلى

غيره .

﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ عطف على ﴿ جَعَلْنَا ﴾ السابق ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ من قدامهم ﴿ سَدّا ﴾ عظيماً وقيل نوعاً من السد ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ من ورائهم ﴿ سَدّا ﴾ كذلك والقدام والوراء كناية عن جميع الجهات ﴿ فأغشيناهم ﴾ فغطينا بما جعلناه من السد أبصارهم ، وعن مجاهد ﴿ فأغشيناهم ﴾ فألبسنا أبصارهم غشاوة ﴿ فَهُمُ ﴾ بسبب ذلك ﴿ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ لا يقدرون على إبصار شيء ما أصلاً .

(112/645)

---

وقرأ جمع من السبعة وغيرهم ﴿ سَدّا ﴾ بضم السين وهي لغة فيه ، وقيل ما كان من عمل الناس فهو بالفتح وما كان من خلق الله تعالى فهو بالضم ، وقيل بالعكس .

وقرأ ابن عباس .

وعمر بن عبد العزيز .

وابن يعمر .

وعكرمة .

والنخعي .

وابن سيرين .

والحسن .

وأبو رجاء .

وزيد بن علي .

وأبو حنيفة .

ويزيد البربري .

ويزيد بن المهلب .

(113/645)

---

وابن مقسم ﴿ فأغشيانهم ﴾ بالعين من العشا وهو ضعف البصر ، ومجموع المتعاطفين من قوله تعالى : ﴿ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾ الخ تأكيد وتقرير لما دل عليه قوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ ﴾ [ يس : 7 ] الخ من سوء اختيارهم وقبح حالهم فإن جعل الله تعالى إياهم بما أظهر فيهم من الإعجاب العظيم بأنفسهم مستكبرين عن اتباع الرسل عليهم السلام شامخين برؤوسهم غير خاضعين لما جاؤوا به وسد أبواب النظر فيما ينفعهم عليهم بالكلية ليس إلا لأنهم سيئو الاختيار وقبيحو الأحوال قد عشقت ذواتهم ما هم عليه

عشقاً ذاتياً وطلبته طلباً استعدادياً فلم تكن لها قابلية لغيره ولم تلتفت إلى ما سواه ، وإذا قايست بين ذواتهم وما هم عليه وبين الجسم والحيز أو الثلاثة والفردية مثلاً لم تكد تجد فرقاً ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [ النحل : 33 ] ففي الكلام تشبيهات متعددة كما لوحنا إليه ، وهذا الوجه هو الذي يقتضيه ما عليه كثير من الأجلة وإن لم يذكروه في الآية ؛ وفي الانتصاف إذا فرق التشبيه كان تصميمهم على الكفر مشبهاً بالأغلال وكان استكبارهم عن قبول الحق والتواضع لاستماعه مشبهاً بالإقماح لأن المقمح لا يطأطأ رأسه ، وقوله تعالى : ﴿ فَهِىَ إِلَى الاذقان ﴾ [ يس : 8 ] تتمة للزوم الإقماح لهم وكان عدم النظر في أحوال الأمم الخالية مشبهاً بسد من خلفهم وعدم النظر في العواقب المستقبلة مشبهاً بسد من قدامهم وفي التيسير جمع الأيدي إلى الأذقان بالأغلال عبارة عن منع التوفيق حتى استكبروا عن الحق لأن المتكبر يوصف برفع العنق والمتواضع بضده كما في قوله تعالى : ﴿ فَظَلَّتْ أعناقهم لَهَا خاضعين ﴾ [ الشعراء : 4 ] ولم يذكر المراد بجعل السد ، وذكر الإمام أن المانع عن النظر في الآيات قسمان قسم يمنع عن النظر في الأنفس فشبه ذلك بالغل الذي يجعل صاحبه مقمحاً لا يرى نفسه ولا يقع بصره على بدنه وقسم

يمنع عن النظر في الآفاق فشبه ذلك بالسد المحيط فإن المحاط بالسد لا يقع نظره على الآفاق فلا يظهر له ما فيها من الآيات فمن ابتلي بهما حرم عن النظر بالكية ، واختار بعضهم كون ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾ الخ تمثيلاً مسوقاً لتقرير تصميمهم على الكفر وعدم ارعوائهم عنه فيكون قد مثل حالهم في ذلك بحال الذين غلت أعناقهم ، وجوز في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ الخ أن يكون تتمة لذلك وتكميلاً له وأن يكون تمثيلاً مستقلاً فإن جعلهم محصورين بين سدين هائلين قد غطيا أبصارهم بحيث لا يبصرون شيئاً قطعاً كاف في "الكشف" عن كمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغي والجهالات .

(115/645)

---

وقال أبو حيان الظاهر أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾ الآية على حقيقتها لما أخبر تعالى أنهم لا يؤمنون أخبر سبحانه عن شيء من أحوالهم في الآخرة إذا دخلوا النار ، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع ، ولا يضعف هذا كما زعم ابن عطية قوله تعالى : ﴿ فأغشيناهم فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ لأن بصر الكافر يومئذٍ حديد يرى قبح حاله ، ألا ترى إلى قوله سبحانه : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْيًا ﴾ [ الإسراء : 97 ] وقوله سبحانه : ﴿ قَالَ رَبّ لِمَ حَشَرْتَنِى أعمى ﴾ [ طه : 125 ] فإما أن يكون ذلك حالين وإما أن يكون

قوله تعالى : ﴿ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ [ ق : 22 ] كناية عن إدراكه ما يؤول إليه حتى كأنه يبصره ، واعترض بعضهم عليه بأنه يلزم أن يكون الكلام أجنبياً في البين وتوجيهه بأنه كالبيان لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ ﴾ [ يس : 7 ] قد دغدغ فيه ، والإنصاف أنه خلاف الظاهر ، وقال الضحاك : والفراء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أعناقهم أغلالا ﴾ [ يس : 8 ] استعارة لمنعهم من النفقة في سبيل الله تعالى كما قال سبحانه : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ﴾ [ الإسراء : 29 ] ولعله جعل الجملة الثانية استعارة لمنعهم عن رؤية الخير والسعي فيه ، ولا يخفى أن كون الكلام على هذا أجنبياً في البين في غاية الظهور ، وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المسجد فيجهر بالقراءة فتأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه فإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم وإذا هم لا يبصرون فجاؤا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ننشدك الله تعالى والرحم يا محمد قال : ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبي صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة فدعا النبي عليه الصلاة والسلام حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت يس ﴿ والقرآن الحكيم ﴾ إلى قوله

سبحانه: ﴿ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يس: 1-10] فلم يؤمن من ذلك النفر أحد، وروي أن الآيتين نزلتا في بني مخزوم وذلك أن أبا جهل حمل حجراً لينال بها ما يريد برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فأثبتت يده إلى عنقه حتى عاد إلى أصحابه والحجر قد لزق بيده فما فكوه إلا بجهد فأخذه مخزومي آخر فلما دنا من الرسول صلى الله عليه وسلم طمس الله تعالى بصره فعاد إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه فقام ثالث فقال: لأشدخن أنا رأسه ثم أخذ الحجر وانطلق فرجع القهقرى ينكص على عقبيه حتى خر على قفاه مغشياً عليه فقيل له: ما شأنك؟ قال: عظيم رأيت الرجل فلما دنوت منه فإذا فحل ما رأيت فحلاً أعظم منه حال بيني وبينه فواللات والعزى لو دنوت منه لأكلني فجعل الغل يكون استعارة عن منع من أراد أذاه عليه الصلاة والسلام وجعل السد استعارة عن سلب قوة الإبصار كما قيل، وقال السدي: السد ظلمة حالت فمنعت الرؤية، وجاء في الآثار غير ذلك مما يقرب منه والربط عليها غير ظاهر، ولعله باعتبار إشارة الآيتين إلى ما هو عليه من التصميم على الكفر وشدة العناد؛ ومع هذا الأرجح في نظر البليغ حمل الكلام على غير ما تقتضيه ظواهر الآثار مما سمعت وليس فيها ما ينافيه عند التحقيق فتأمل.

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ ﴾

أي مستو عندهم إنذارك إياهم وعدمه حسبما مر تحقيقه في أوائل سورة البقرة، والظاهر أن العطف على ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا ﴾ [يس: 8] وكأنه جيء به للتصريح بما هم عليه في

أنفسهم بعد الإشارة إليه فيما تقدم بناءً على أنه مما يستتبع الجعل المذكور .

وقريب منه القول بأن ما تقدم لبيان حالهم المجعول وهذا لبيان حالهم من غير ملاحظة جعل وفيه تمهيد لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ [يس : 11] الخ .

(117/645)

---

وفي إرشاد العقل السليم هو بيان لشأنهم بطريق التصريح إثر بيانه بطريق التمثيل ، وفي "الحواشي الخفاجية" لم يورد بالفاء مع ترتبه على ما قبله إما تفويضاً لذهن السامع أو لأنه غير مقصود هنا انتهى .

وانظر هل تجد مانعاً من العطف على ﴿ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : 9] ليكون خبراً لهم أيضاً داخلاً في حيز الفاء والتفريع على ما تقدم كأنه قيل : فهم سواء عليهم الخ ، واختلاف الجملتين بالاسمية والفعلية لا أراك تعده مانعاً ، وقوله تعالى : ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ استئناف مؤكد لما قبله مبين لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء أو حال مؤكدة له أو بدل منه .

إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11)

ولما بين كون الإنذار عندهم كعدمه عقب ببيان من يتأثر منه فقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ أي إنذاراً مستتبعاً للأثر ﴿ مَنِ اتبع الذكر ﴾ أي القرآن كما روي عن قتادة بالتأمل فيه

والعمل به ، وقيل : الوعظ ، واتبع بمعنى يتبع ، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع أو المعنى إنما ينفع إنذارك المؤمنين الذين اتبعوا ، ويكون المراد بمن اتبع المؤمنين وبالإنذار الإنذار عما يفرط منهم بعد الاتباع فلا يلزم تحصيل الحاصل ، وقيل : المراد من اتبع في علم الله تعالى وهم الأقلون الذين لم يحق القول عليهم ﴿ وَخشِىَ الرحمن ﴾ أي عقابه ولم يغتر برحمته عز وجل فإنه سبحانه مع عظم رحمته أليم العذاب كما نطق به قوله تعالى : ﴿ نَبّىء عِبَادِى أَنّى أَنَا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ [ الحجر : 50 49 ] .

(118/645)

---

ومما قرر يعلم سر ذكر الرحمن مع الخشية دون القهار ونحوه ﴿ بالغيب ﴾ حال من المضاف المقدر في نظم الكلام كما أشرنا إليه أي خشي عقاب الرحمن حال كون العقاب ملتبساً بالغيب أي غائباً عنه ، وحاصله خشي العقاب قبل حلوله ومعاينة أهواله ، ويجوز أن يكون حالاً من فاعل ﴿ خَشِىَ ﴾ أي خشي عقاب الرحمن غائباً عن العقاب غير مشاهد له أو خشي غائباً عن أعين الناس غير مظهر الخشية لهم لأنها علانية قلما تسلم عن الرياء ، وبعضهم فسر الغيب بالقلب وجعل الجار متعلقاً بخشي أي خشي في قلبه ولم يكن مظهراً للخشية وليس بخاش ، قيل : ويجوز جعله حالاً من ﴿ الرحمن ﴾ ولا يخفى

حاله، والكلام في خشي على طرز الكلام في ﴿ أَتَّبَعُ ﴾ ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ عظيمة لما سلف، وقيل: لما يفرط منه ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ حسن لا يقادر قدره لما أسلف، والفاء لترتيب البشارة أو الأمر بها على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية.

وفي "البحر" لما أجدت فيه النذارة فبشره الخ فلا تغفل، وعن قتادة تفسير الأجر الكريم بالجنة والمراد نعيمها الشامل لما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأجل جميع ذلك رؤية الله عز وجل.

*(119/645)*

---

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الموتى ﴾ الخ تذييل عام للفريقين المصممين على الكفر والمشفعين بالإنذار ترهيباً وترغيباً ووعيداً ووعداً، وتكرير الضمير لإفادة الحصر أو للتقوية، وما ألطف هذا الضمير الذي عكسه كطرده ههنا، وضمير العظمة للإشارة إلى جلالة الفعل، والتأكيد للاعتناء بأمر الخبر أو لرد الإنكار فإن الكفرة كانوا يقولون: ﴿ إِنْ هِىَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون: 37] أي إنا نحن نحيي الأموات جميعاً ببعثهم يوم القيامة ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ ﴾ ما أسلفوه من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿ وَءاثَارَهُمْ ﴾ التي أبقوها بعدهم من الحسنات كعلم علموه أو كتاب ألفوه أو حبيس وقفوه

أو بناء في سبيل الله تعالى بنون وغير ذلك من وجوه البر ومن السيئات كتأسيس قوانين الظلم والعدوان وترتيب مبادىء الشر والفساد فيما بين العباد وغير ذلك من فنون الشرور التي أحدثوها وسنوها بعدهم للمفسدين .

أخرج ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله البجلي قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيئاً ثم تلا ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءاثَارَهُمْ ﴾ " وعن أنس أنه قال في الآية : هذا في الخطو يوم الجمعة ، وفسر بعضهم الآثار بالخطأ إلى المساجد مطلقاً لما أخرج عبد الرزاق .

وابن جرير .

وابن المنذر .

والترمذي وحسنه عن أبي سعيد الخدري قال كان بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ الموتى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءاثَارَهُمْ ﴾ فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنه يكتب آثاركم ثم تلا عليهم الآية فتركوا .

وأخرج الإمام أحمد في الزهد .

وابن ماجه .

(120/645)

---

وغيرهما عن ابن عباس قال كانت الأنصار منازلهم بعيدة من المسجد فأرادوا أن ينتقلوا قريباً من المسجد فنزلت ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءاثَارَهُمْ ﴾ فقالوا بل : نمكث مكاننا . وأنت تعلم أنه لا دلالة فيما ذكر على أن الآثار هي الخطأ لا غير وقصارى ما يدل عليه أنها من الآثار فلتحمل الآثار على ما يعملها وغيرها ، واستدل بهذين الخبرين ونحوهما على أن الآية مدنية .

وقال أبو حيان : ليس ذلك زعماً صحيحاً وشنع عليه بما ورد مما يدل على ذلك ، وانتصر له الخفاجي بأن الحديث الدال معارض بما في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ لهم هذه الآية ولم يذكر أنها نزلت فيهم وقراءته عليه الصلاة والسلام لا تنافي تقدم النزول ومراد أبي حيان هذا لا أنه أنكر أصل الحديث ، ولا يخفى أن الحديثين السابقين ظاهران في أن الآية نزلت يومئذ وليس في حديث الصحيحين ما يعارض ذلك ، والعجب من الخفاجي كيف خفي عليه هذا ، وقيل ما قدموا من النيات وآثارهم من الأعمال ، والظاهر أن المراد

بالكتابة الكتابة في صحف الملائكة الكرام الكاتبين ولكونها بأمره عز وجل أسندت إليه سبحانه ، وأخرت في الذكر عن الأحياء مع أنها مقدمة عليه لأن أثرها إنما يظهر بعده وعلى هذا يضعف تفسير ما قدموا بالنيات بناء على ما يدل عليه بعض الأخبار من أن النيات لا تطلع عليها الملائكة عليهم السلام ولا يؤمرون بكتابتها .

وفسر بعضهم الكتابة بالحفظ أي نحفظ ذلك ونثبته في علمنا لا ننساه ولا نهمله كما يثبت المكتوب ، ولعلك تختار أن كتابة ما قدموا وآثارهم كناية عن مجازاتهم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر وحينئذ فوجه ذكرها بعد الأحياء ظاهر .

وعن الحسن .



---

والضحاك أن إحياء الله تعالى الموتى أن يخرجهم من الشرك إلى الايمان وجعلا الموت مجازاً عن الجهل ، وتعريف ﴿ الموتى ﴾ للعهد والكلام عليه توكيد للوعد المبشر به كأنه قيل : إنما ينفع إنذارك في هؤلاء لأنا نحييهم ونكتب صالح أعمالهم وآثارهم ولا يخفى ما في ذلك من البعد .

وقرأ زر .

ومسروق ﴿ ويكتب ﴾ بالياء مبنياً للمفعول ﴿ قَدَّمُواْ وَءَاثَارَهُمْ ﴾ بالرفع ﴿ وَكُلَّ شيْءٍ ﴾ من الأشياء كائناً ما كان ، والنصب على الاشتغال أي وأحصينا كل شيء ﴿ أحصيناه ﴾ أي بيناه وحفظناه ؛ وأصل الإحصاء العد ثم تجوز به عما ذكر لأن العد لأجله .

﴿ فِى إِمَامٍ ﴾ أي أصل عظيم الشأن يؤتم ويقتدى به ويتبع ولا يخالف ﴿ مُّبِينٍ ﴾ مظهر لما كان وسيكون ، وهو على ما في "البحر" حكاية عن مجاهد .

وقتادة .

وابن زيد اللوح المحفوظ ، وبيان كل شيء فيه إذا حمل العموم على حقيقته بحيث يشمل حوادث الجنة وما يتجدد لأهلها من دون انقطاع على نحو ما يحكى من بيان الحوادث الكونية في الجفر الجامع لكنه على طرز أعلا وأشرف ، ونحو هذا ما قال غير واحد من اشتمال القرآن الكريم على كل شيء حتى أسماء الملوك ومدد ملكهم أو يقال إن بيان ذلك فيه ليس دفعة واحدة بل دفعات بأن يبين فيه جملة من الأشياء كحوادث ألف سنة مثلاً ثم تمحى عند تمام الألف ويبين فيه جملة أخرى كحوادث ألف أخرى وهكذا ، والداعي لما ذكر أن اللوح عند المسلمين جسم وكل جسم متناه الأبعاد كما تشهد به الأدلة وبيان كل شيء فيه على الوجه المعروف لنا دفعة مقتض لكون المتناهي ظرفاً لغير المتناهى وهو محال بالبديهة .

وإذا أريد بكل شيء الأشياء التي في هذه النشأة وأفعال العباد وأحوالهم فيها فلا إشكال في البيان على الوجه المعروف دفعة.



---

والذي يترجح عندي أن ما كتب في اللوح ما كان وما يكون إلى يوم القيامة وهو متناه وبعض الآثار تشهد بذلك والمطلق منها محمول على المقيد، وحقيقة اللوح لم يرد فيها ما يفيد القطع ولذا نمسك عن تعيينها، وكون أحد وجهيه ياقوتة حمراء والثاني زمرة خضراء جاء في بعض الآثار ولا جزم لنا بصحته، وكونه أحد المجردات وما من شيء إلا وهو يعلمه بالفعل مما لم يذهب إليه أحد من المسلمين وإنما هو من تخيلات الفلاسفة ومن حذا حذوهم فلا ينبغي أن يعول عليه، وفسر بعضهم الإمام المبين بعلمه تعالى الأزلي كما فسر أم الكتاب في قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ به وهو أصل لا يكون في صفوف صنوف الممكنات ما يخالفه كما يلوح به قول الشافعي:

خلقت العباد على ما علمت . . .

ففي العلم يجري الفتى والمسن

ووصفه بمبين لأنه مظهر فقد قالوا: العلم صفة يتجلى بها المذكور لمن قامت به أو لأن إظهار

الأشياء من خزائن العدم يكون بعد تعلقه فإن القدرة إنما تتعلق بالشيء بعد العلم فالشيء يعلم ثم يراد ثم تعلق القدرة بإيجاده فيوجد ، ولا يخفى ما في هذا التفسير من ارتكاب خلاف الظاهر وعليه فلا كلام في العموم ، نعم في كيفية وجود الأشياء في علمه تعالى كلام طويل محله كتب الكلام .

وعن الحسن أنه أريد به صحف الأعمال وليس بذاك .

وحكى لي عن بعض غلاة الشيعة أن المراد بالإمام المبين علي كرم الله تعالى وجهه وإحصاء كل شيء فيه من باب :

ليس على الله بمستنكر . . .

أن يجمع العالم في واحد



ومنهم من يزعم أن ذلك على معنى جعله كرم الله تعالى وجهه خزانة للمعلومات على نحو اللوح المحفوظ ، ولا يخفى ما في ذلك من عظيم الجهل بالكتاب الجليل نسأل الله تعالى العفو والعافية ، ويمكن أن يقال : إنهم أرادوا بذلك نحو ما أراده المتصوفة في إطلاقهم الكتاب المبين على الإنسان الكامل اصطلاحاً منهم على ذلك فيهون أمر الجهل ، وكمال علي كرم

الله تعالى وجهه لا ينكره إلا ناقص العقل عديم الدين .

وقرأ أبو السمال ﴿ وَكُلٌّ ﴾ بالرفع على الابتداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

(124/645)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ يس ﴾ قرأ الجمهور بسكون النون ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، وحفص ، وقالون ، وورش بإدغام النون في الواو الذي بعدها ، وقرأ عيسى بن عمر بفتح النون ، وقرأ ابن عباس ، وابن أبي إسحاق ، ونصر بن عاصم بكسرها ، فالفتح على البناء ، أو على أنه مفعول فعل مقدّر تقديره : اتل يس ، والكسر على البناء أيضاً كجير ، وقيل : الفتح ، والكسر للفرار من التقاء الساكنين .

وأما وجه قراءة الجمهور بالسكون للنون ، فلكونها مسرودة على نمط التعديد ، فلا حظ لها من الإعراب .

وقرأ هارون الأعور ، ومحمد بن السميفع ، والكلبي بضم النون على البناء كمنذ ، وحيث ، وقط ، وقيل : على أنها خبر مبتدأ محذوف : أي : هذه يس ، ومنعت من الصرف للعلمية

، والتأنيث .

واختلف في معنى هذه اللفظة ، فقيل : معناها : يا رجل ، أو يا إنسان .

قال ابن الأنباري : الوقف على يس حسن لمن قال : هو افتتاح للسورة ، ومن قال : معناه : يا رجل ، لم يقف عليه .

وقال سعيد بن جبير ، وغيره : هو اسم من أسماء محمد صلى الله عليه وسلم دليله ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ ، ومنه قول السعد الحميري :

يا نفس لا تمحضي بالنصح جاهدة . . . على المودّة إلاّ آل ياسين

ومنه قوله : ﴿ سلام على إِلْيَاسِينَ ﴾ [ الصافات : 130 ] أي : على آل محمد ، وسيأتي في الصافات ما المراد بآل ياسين .

قال الواحدي : قال ابن عباس ، والمفسرون : يريد يا إنسان : يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقال أبو بكر الورّاق : معناه : يا سيد البشر .

وقال مالك : هو : اسم من أسماء الله تعالى ، روى ذلك عنه أشهب .

وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصادق : أن معناه : يا سيد .

وقال كعب : هو : قسم أقسم الله به ، ورجح الزجاج أن معناه : يا محمد .

واختلفوا هل هو عربيّ أو غير عربيّ ؟ ، فقال سعيد بن جبير ، وعكرمة : حبشي .

وقال الكلبي : سرياني تكلمت به العرب ، فصار من لغتهم .

(125/645)

---

وقال الشعبي : هو بلغة طيّ .

وقال الحسن : هو بلغة كلب .

وقد تقدم في طه ، وفي مفتتح سورة البقرة ما يغني عن التطويل ها هنا ﴿ والقرءان الحكيم ﴾ بالجرّ على أنه مقسم به ابتداء .

وقيل : هو معطوف على يس على تقدير كونه مجروراً بإضمار القسم .

قال النقاش : لم يقسم الله لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلاّ لمحمد صلى الله عليه وسلم تعظيماً له وتمجيداً ، والحكيم المحكم الذي لا يتناقض ، ولا يتخالف ، أو الحكيم قائله ، وجواب القسم ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ ، وهذا ردّ على من أنكر رسالته من الكفار بقولهم : ﴿ لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾ [ الرعد : 43 ] وقوله : ﴿ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ خبر آخر لإنّ : أي : إنك على صراط مستقيم ، والصراط المستقيم : الطريق القيم الموصل إلى المطلوب .

قال الزجاج: على طريقة الأنبياء الذين تقدّموك، ويجوز: أن يكون في محل نصب على الحال ﴿ تَنزِيلَ العزيز الرحيم ﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر برفع "تنزيل" على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي: هو تنزيل، ويجوز: أن يكون خبراً لقوله: يس إن جعل اسماً للسورة، وقرأ الباقون بالنصب على المصدرية: أي: نزّل الله ذلك تنزيل العزيز الرحيم.

والمعنى: أن القرآن تنزيل العزيز الرحيم، وقيل: المعنى: إنك يا محمد تنزيل العزيز الرحيم، والأوّل أولى.

وقيل: هو منصوب على المدح على قراءة من قرأ بالنصب، وعبر سبحانه عن المنزل بالمصدر مبالغة حتى كأنه نفس التنزيل، وقرأ أبو حيوة، والترمذي، وأبو جعفر يزيد بن القعقاع، وشيبة "تنزيل" بالجرّ على النعت للقرآن، أو البدل منه.

(126/645)

---

واللام في ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ ءابَاؤُهُمْ ﴾ يجوز: أن تتعلق ب ﴿ تنزيل ﴾، أو بفعل مضمر يدلّ عليه ﴿ من المرسلين ﴾: أي: أرسلناك لتنذر، و"ما" في ﴿ مَّا أُنذِرَ ءابَاؤُهُمْ ﴾ هي: النافية: أي: لم ينذر آباؤهم، ويجوز: أن تكون موصولة، أو موصوفة:

أي: لتنذر قوماً الذي أنذره آباؤهم، أو لتنذرهم عذاباً أنذره آباؤهم، ويجوز: أن تكون مصدرية: أي: إنذار آبائهم، وعلى القول بأنها نافية يكون المعنى: ما أنذر آباؤهم برسول من أنفسهم، ويجوز: أن يراد، ما أنذر آباؤهم الأقربون لتطاول مدة الفترة، وقوله: ﴿ فَهُمْ غافلون ﴾ متعلق بنفي الإنذار على الوجه الأوّل: أي: لم ينذر آباؤهم، فهم بسبب ذلك غافلون، وعلى الوجوه الآخرة متعلق بقوله ﴿ لتنذر ﴾: أي: ﴿ فهم غافلون ﴾ عما أنذرنا به آباءهم، وقد ذهب أكثر أهل التفسير إلى أن المعنى على النفي، وهو الظاهر من النظم لترتيب فهم غافلون على ما قبله، واللام في قوله: ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ ﴾ هي: الموطئة للقسم، أي: والله لقد حقّ القول على أكثرهم، ومعنى ﴿ حقّ ﴾: ثبت، ووجب القول: أي: العذاب على أكثرهم: أي: أكثر أهل مكة، أو أكثر الكفار على الإطلاق، أو أكثر كفار العرب، وهم من مات على الكفر، وأصرّ عليه طول حياته، فيتفرّع قوله: ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ على ما قبله بهذا الاعتبار، أي: لأن الله سبحانه قد علم منهم الإصرار على ما هم فيه من الكفر، والموت عليه، وقيل: المراد بالقول المذكور هنا: هو قوله سبحانه: ﴿ فالحق والحق أَقُولُ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ ﴾ [ص: 84 85].

وجملة ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أعناقهم أغلالا ﴾ تقرير لما قبلها مثلت حالهم بحال الذين غلت أعناقهم ﴿ فَهِىَ ﴾ أي: الأغلال منتهية ﴿ إِلَى الأذقان ﴾ ، فلا يقدرون عند ذلك على الالتفات، ولا يتمكنون من عطفها، وهو معنى قوله: ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ أي: رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم.

قال الفراء، والزجاج: المقمح: الغاضّ بصره بعد رفع رأسه، ومعنى الإقماح: رفع الرأس، وغضّ البصر، يقال: أقمح البعير رأسه، وقمح: إذا رفع رأسه، ولم يشرب الماء.

قال الأزهري: أراد الله أن أيديهم لما غلت عند أعناقهم رفعت الأغلال إلى أذقانهم، ورؤوسهم صعداء، فهم مرفوعو الرؤوس برفع الأغلال إياها.

وقال قتادة: معنى مقمحون: مغلولون، والأوّل أولى، ومنه قول الشاعر:

ونحن على جوانبها قعود . . . نغضّ الطرف كالإبل القماح

قال الزجاج: قيل: للكانونين: شهرا قماح؛ لأن الإبل إذا وردت الماء رفعت رؤوسها لشدّة البرد، وأنشد قول أبي زيد الهذلي:

فتى، ما ابن الأغرّ إذا شتونا . . . وحب الزاد في شهري قماح

قال أبو عبيدة: قمح البعير إذا رفع رأسه عن الحوض، ولم يشرب.

وقال أبو عبيدة أيضاً: هو مثل ضربه الله لهم في امتناعهم عن الهدى كامتناع المغلول، كما

يقال : فلان حمار : أي : لا يبصر الهدى ، وكما قال الشاعر :

لهم عن الرشد أغلال وأقياد . . . وقال الفراء : هذا ضرب مثل : أي : حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله ، وهو كقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ [ الإسراء : 29 ] .

وبه قال الضحاك .

وقيل : الآية إشارة إلى ما يفعل بقوم في النار من وضع الأغلال في أعناقهم كما قال تعالى : ﴿ إِذِ الأغلال فِى أعناقهم ﴾ [ غافر : 71 ] وقرأ ابن عباس " إنا جعلنا في أيمانهم أغلالاً "

قال الزجاج : أي : في أيديهم .

قال النحاس : وهذه القراءة تفسير ، ولا يقرأ بما خالف المصحف .

(128/645)

---

قال : وفي الكلام حذف على قراءة الجماعة ، التقدير : إنا جعلنا في أعناقهم ، وفي أياديهم أغلالاً فهي إلى الأذقان ، فلفظ " هي "كناية عن الأيدي لا عن الأعناق ، والعرب تحذف مثل هذا .

ونظيره : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [ النحل : 81 ] وسرابيل تقيكم البرد ، لأن ما وقى

من الحرّ ، وقى من البرد ؛ لأن الغلّ إذا كان في العنق ، فلا بدّ أن يكون في اليد ، ولا سيما ، وقد قال الله ﴿ فَهِىَ إِلَى الأَذْقَانِ ﴾ ، فقد علم أنه يراد به الأيدي ، فهم مقمحون ، أي : رافعو رؤوسهم لا يستطيعون الإطراق ؛ لأن من غلت يداه إلى ذقنه ارتفع رأسه .

وروي عن ابن عباس : أنه قرأ " إنا جعلنا في أيديهم أغلالاً " ، وعن ابن مسعود : أنه قرأ " إنا جعلنا في أيمانهم أغلالاً " كما روي سابقاً من قراءة ابن عباس ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً ﴾ أي : منعناهم عن الإيمان بموانع ، فهم لا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإيمان ، كالمضروب أمامه ، وخلفه بالأسداد ، والسد بضم السين ، وفتحها لغتان .

ومن هذا المعنى في الآية قول الشاعر :

ومن الحوادث لا أبالك أنني . . . ضربت عليّ الأرض بالأسداد

لا أهتدي فيها لموضع تلعة . . . بين العذيب وبين أرض مراد

﴿ فأغشيناهم ﴾ أي : غطينا أبصارهم ﴿ فَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ أي : لا يقدرون على إبصار شيء .

قال الفراء : فألبسنا أبصارهم غشوة : أي : عمى فهم لا يبصرون سبيل الهدى ، وكذا قال قتادة : إن المعنى : لا يبصرون الهدى .

وقال السدّي : لا يبصرون محمداً حين ائتمروا على قتله .

وقال الضحاك : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ﴾ : أي : الدنيا ، ﴿ ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً ﴾ أي : الآخرة ، ﴿ فأغشيناهم ، فهم لا يبصرون ﴾ : أي : عموا عن البعث ، وعموا عن قبول الشرائع في الدنيا .

(129/645)

---

وقيل : ما بين أيديهم : الآخرة ، وما خلفهم : الدنيا ، قرأ الجمهور بالغين المعجمة : أي : غطينا أبصارهم ، فهو على حذف مضاف .

وقرأ ابن عباس ، وعمر بن عبد العزيز ، والحسن ، ويحيى بن يعمر ، وأبو رجاء ، وعكرمة بالعين المهملة من العشا ، وهو : ضعف البصر .

ومنه ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن ﴾ [ الزخرف : 36 ] ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : إنذارك إياهم ، وعدمه سواء .

قال الزجاج : أي : من أضله الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار ، إنما ينفع الإنذار من ذكر في قوله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر وَخشِىَ الرحمن بالغيب ﴾ أي : اتبع القرآن ، وخشي الله في الدنيا ، وجملة ﴿ لا يؤمنون ﴾ مستأنفة مبينة لما قبلها من الاستواء ، أو في محل نصب على الحال ، أو بدل ، و ﴿ بالغيب ﴾ في محل نصب على الحال من الفاعل ، أو

المفعول ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : بشر هذا الذي اتبع الذكر ، وخشي الرحمن بالغيب بمغفرة عظيمة ، وأجر كريم ، أي : حسن ، وهو : الجنة .

ثم أخبر سبحانه بإحيائه الموتى ، فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الموتى ﴾ أي : نبعثهم بعد الموت .

وقال الحسن ، والضحاك ، أي : نحييهم بالإيمان بعد الجهل ، والأوّل أولى .

ثم توعدهم بكتب آثارهم ، فقال : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ ﴾ أي : أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿ وَءاثَارَهُمْ ﴾ أي : ما أبقوه من الحسنات التي لا ينقطع نفعها بعد الموت .

كمن سنّ سنّة حسنة ، أو نحو ذلك ، أو السيئات التي تبقى بعد موت فاعلها : كمن سن سنّة سيئة .

قال مجاهد ، وابن زيد : ونظيره قوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [ الانفطار : 5 ] وقوله : ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذِ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [ القيامة : 13 ] .

وقيل : المراد بالآية آثار المشائين إلى المساجد ، وبه قال جماعة من الصحابة ، والتابعين .

قال النحاس : وهو أولى ما قيل في الآية ؛ لأنها نزلت في ذلك .

ويجاب عنه بأن الاعتبار بعموم الآية لا بخصوص سببها ، وعمومها يقتضي كتب جميع آثار الخير والشرّ ، ومن الخير : تعليم العلم ، وتصنيفه ، والوقف على القرب ، وعمارة المساجد ، والقناطر .

ومن الشرّ : ابتداع المظالم ، وإحداث ما يضرّ بالناس ، ويقتدي به أهل الجور ، ويعملون عليه من مكس ، أو غيره ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَكُلَّ شىْء أحصيناه فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : وكل شيء من أعمال العباد ، وغيرها كائناً ما كان ، في إمام مبين ، أي : كتاب مقتدى به موضح لكل شيء .

قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : أراد اللوح المحفوظ ، وقالت فرقة : أراد صحائف الأعمال .

قرأ الجمهور " ونكتب " على البناء للفاعل .

وقرأ زرّ ، ومسروق على البناء للمفعول .

وقرأ الجمهور ﴿ كُلّ شَىْء أحصيناه ﴾ بنصب "كل" على الاشتغال .

وقرأ أبو السمأل بالرفع على الابتداء .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود ، وابن عباس في قوله : ﴿ يس ﴾ قالا : يا محمد .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ يس ﴾ قال : يا إنسان .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الحسن ، والضحاك ، وعكرمة مثله .

(131/645)

---

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المسجد ، فيجهر بالقراءة ، حتى تأذى به ناس من قريش ، حتى قاموا ليأخذوه ، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم ، وإذا هم عمي لا يبصرون ، فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ننشدك الله والرحم يا محمد ، قال : ولم يكن بطن من بطون قريش إلاّ وللنبي صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم حتى ذهب ذلك عنهم ، فنزلت ﴿ يس * والقرءان الحكيم ﴾ إلى قوله : ﴿ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ قال : "فلم يؤمن من ذلك النفر أحد" وفي الباب : روايات في سبب نزول ذلك ، هذه الرواية أحسنها ، وأقربها إلى الصحة .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : الأغلال : ما بين الصدر إلى الذقن ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ كما تقمح الدابة باللجام .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ﴾ الآية قال : كانوا يمرّون على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا يرونه .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال : اجتمعت قريش بباب النبي صلى الله عليه وسلم ينتظرون خروجه ليؤذوه ، فشقّ ذلك عليه ، فأتاه جبريل بسورة يس ، وأمره بالخروج عليهم ، فأخذ كفاً من تراب وخرج وهو يقرؤها ، ويذرّ التراب على رؤوسهم ، فما رأوه حتى جاز ، فجعل أحدهم يلمس رأسه ، فيجد التراب ، وجاء بعضهم فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً ، فقال : لقد رأيته داخلاً المسجد ، قال : قوموا ، فقد سحركم .

(132/645)

---

وأخرج عبد الرّزّاق ، والترمذي وحسنه ، والبزار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقيّ في الشعب عن أبي سعيد الخدري قال : كان بنو سلمة في ناحية من المدينة ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد ، فأنزل الله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الموتى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءاثَارَهُمْ ﴾ ، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " إنه يكتب آثاركم " ثم قرأ عليهم الآية : فتركوا .

وأخرج الفريابي ، وأحمد في الزهد ، وعبد بن حميد ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن

المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه .

وفي صحيح مسلم ، وغيره من حديث جابر قال : إن بني سلمة أرادوا أن يبيعوا ديارهم ، ويتحوّلوا قريباً من المسجد ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا بني سلمة ، دياركم تكتب آثاركم" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(133/645)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) ﴾

هذا تفصيل لحال القوم الذين أُرسل محمد صلى الله عليه وسلم لينذرهم ، فهم قسمان : قسم لم تنفع فيهم النذارة ، وقسم اتبعوا الذكر وخافوا الله فانتفعوا بالنذارة .

وبيّن أن أكثر القوم حقت عليهم كلمة العذاب ، أي عَلِمَ الله أنهم لا يؤمنون بما جبَل عليه عقولهم من النفور عن الخير ، فحقق في علمه وكَتب أنهم لا يؤمنون ، فالفاء لتفريع انتفاء إيمان أكثرهم على القول الذي حق على أكثرهم .

و﴿ حَق ﴾ : بمعنى ثبت ووقع فلا يقبل نقضاً .

و﴿ القول ﴾ : مصدر أريد به ما أراده الله تعالى بهم فهو قول من قبيل الكلام النفسي ، أو

مما أوحى الله به إلى رسله .

والتعريف في ﴿ القول ﴾ تعريف الجنس ، والمقول محذوف لدلالة تفريعه عليه .

والتقدير : ﴿ لقد حق ﴾ القول ، أي القول النفسي وهو المكتوب في علمه تعالى أنهم لا يؤمنون فهم لا يؤمنون .

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8)

هذه الجملة بدل اشتمال من جملة ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ [ يس : 7 ] فإن انتفاء إيمانهم يشتمل على مَا تضمنته هذه الآية من جعل أغلال في أعناقهم حقيقة أو تمثيلاً .

والجعل : تكوين الشيء ، أي جعلنا حالهم كحال من في أعناقهم أغلال فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ، فيجوز أن يكون تمثيلاً بأن شُبهت حالة إعراضهم عن التدبر في القرآن ودعوة الإسلام والتأمل في حججه الواضحة بحال قوم جعلت في أعناقهم أغلال غليظة ترتفع إلى أذقانهم فيكونون كالمقمحين ، أي الرافعين رؤوسهم الغاضِّين أبصارهم لا يلتفتون يميناً ولا شِمالاً فلا ينظرون إلى شيء مما حولهم فتكون تمثيلية .

وذِكر ﴿ فهي إلى الأذقان ﴾ لتحقيق كون الأغلال ملزوزة إلى عظام الأذقان بحيث إذا أراد المغلول منهم الالتفات أو أن يطاطىء رأسه وجِعَه ذقنه فلازم السكون وهذه حالة تخييل هذه الأغلال وليس كل الأغلال مثل هذه الحالة .

وهذا التمثيل قابل لتوزيع أجزاء المركب التمثيلي إلى تشبيه كل جزء من الحالين بجزء من الحالة الأخرى بأن يشبه ما في نفوسهم من النفور عن الخير بالأَغلال ، ويشبه إعراضهم عن التأمل والإِنصاف بالإِقماح .

فالفاء في قوله : ﴿ فهي إلى الأذقان ﴾ عطف على جملة ﴿ جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ ، أي جعلنا أغلالاً ، أي فأبلغناها إلى الأذقان .

والجعل : هنا حقيقة وهو ما خلق في نفوسهم من خلق التكبر والمكابرة .

والأغلال : جمع غُلّ بضم الغين ، وهو حلقة عريضة من حديد كالقلادة ذات أضلاع من إحدى جهاتها وطرفين يقابلان أضلاعهما فيهما أثقاب متوازية تشد الحلقة من طرفيها على رقبة المغلول بعمود من حديد له رأس كالكرة الصغيرة يسقط ذلك العمُود في الأثقاب فإذا انتهى إلى رأسه الذي كالكرة استقرّ ليمنع الغُلّ من الانحلال والتفلّت ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وأولئك الأغلال في أعناقهم ﴾ في سورة الرعد ( 5 ) .

والفاء في قوله : فهم مقمحون ﴾ تفريع على جملة ﴿ فهي إلى الأذقان ﴾ .

والمقمَح : بصيغة اسم المفعول المجعول قامحاً ، أي رافعاً رأسه ناظراً إلى فوقه يقال : قمحه

الغُلّ ، إذا جعل رأسه مرفوعاً وغضّ بصره ، فمدلوله مركب من شيئين .

والأذقان : جمع ذَقَن بالتحريك ، وهو مجتمع اللحيين .

وتقدم في الإِسراء .

(135/645)

---

ويجوز أن يكون قوله : ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ الخ وعيداً بما سيحلّ بهم يوم القيامة حين يساقون إلى جهنم في الأغلال كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ في سورة غافر ( 71 ، 72 ) ، فيكون فعل جعلنا ﴾ مستقبلاً وعبر عنه بصيغة الماضي لتحقيق وقوعه كقوله تعالى : ﴿ أتى أمر اللَّه ﴾ [ النحل : 1 ] ، أي سنجعل في أعناقهم أغلالاً .

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9)

هذا ارتقاء في حرمانهم من الاهتداء لو أرادوا تأملاً بأنّ فظاظة قلوبهم لا تقبل الاستنتاج من الأدلة والحجج بحيث لا يتحولون عما هم فيه ، فمُثّلت حالهم بحالة من جُعلوا بين سدَّين ، أي جدارين : سداً أمامهم ، وسداً خلفهم ، فلو راموا تحوّلاً عن مكانهم وسعيهم إلى مرادهم لما استطاعوه كقوله تعالى : ﴿ فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون ﴾ [ يس : 67

] ، وقول أبي الشيص :

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي . . .

متأخَّر عنه ولا مُتَقَدَّم

وقد صرح بذلك في قول . . . . :

ومن الحوادث لا أبالك أنني . . .

ضربتُ على الأرض بالأسداد

لا أهتدي فيها لموضع تَلْعة . . .

بين العُذيب وبين أرض مُراد

وتقدم السدّ في سورة الكهف .

وفي "مفاتيح الغيب" : مانع الإيمان : إما أن يكون في النفس ، وإما أن يكون خارجاً عنها .

ولهم المانعان جميعاً : أما في النفس فالغُلّ ، وأما من الخارج فالسد فلا يقع نظرهم على أنفسهم فيروا الآيات التي في أنفسهم لأن المُقْمَح لا يرى نفسه ولا يقع نظرهم على الآفاق لأن مَن بين السدّين لا يبصرون الآفاق فلا تتبين لهم الآيات كما قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ [ فصلت : 53 ] .

وإعادة فعل ﴿ وجعلنا ﴾ على الوجه الأول في معنى قوله : ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ [ يس : 8 ] الآية ، تأكيد لهذا الجعل ، وأما على الوجه الثاني في معنى ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ فإعادة فعل ﴿ وجعلنا ﴾ لأنه جَعْل حاصل في الدُّنيا فهو مغاير للجعل الحاصل يوم القيامة .

وقرأ الجمهور ﴿ سداً ﴾ بالضم وهو اسم الجدار الذي يَسُدّ بين داخل وخارج .

وقرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بالفتح وهو مصدر سمي به ما يُسد به .

﴿ خَلْفِهِمْ سَدّاً فأغشيناهم فَهُمْ ﴾ .

تفريع على كلا الفعلين ﴿ جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ [ يس : 8 ] و ﴿ جعلنا من بين أيديهم سُدّاً ومن خلفهم سداً ﴾ لأن في كلا الفعلين مانعاً من أحوال النظر .

وفي الكلام اكتفاء عن ذكر ما يتفرع ثانياً على تمثيلهم بمن جعلوا بين سُدين من عدم استطاعة التحول عمّا هم عليه .

والإِغشاء : وضع الغشاء .

وهو ما يغطي الشيء .

والمراد : أغشينا أبصارهم ، ففي الكلام حذف مضاف دلّ عليه السياق وأكّده التفريع بقوله : ﴿ فهم لا يبصرون ﴾ .

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي لإفادة تقوي الحكم ، أي تحقيق عدم إبصارهم .

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10)

عطف على جملة ﴿ لا يبصرون ﴾ [ يس : 9 ] ، أي إنذارك وعدمه سواء بالنسبة إليهم ، فحرف ( على ) معناه الاستعلاء المجازي وهو هنا الملابسة ، متعلق بـ ﴿ سواء ﴾ الدال على معنى ( استوى ) ، وتقدم نظيرها في أول سورة البقرة .

وهمزة التسوية أصلها الاستفهام ثم استعملت في التسوية على سبيل المجاز المرسل ، وشاع ذلك حتى عدّت التسوية من معاني الهمزة لكثرة استعمالها في ذلك مع كلمة سواء وهي تفيد المصدرية .

ولما استعملت الهمزة في معنى التسوية استعملت ﴿ أم ﴾ في معنى الواو ، وقد جاء على الاستعمال الحقيقي قول بُثَيْنة :

سواء علينا يا جميل بن معمر

إذَا مِتَّ بأْساءُ الحياةِ ولينُها . . .

وجملة ﴿ لا يؤمنون ﴾ مبيّنة استواء الإنذار وعدمه بالنسبة إليهم .

إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11)

لما تضمن قوله : ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ [ يس : 10 ] أن الإنذار في جانب الذين حق عليهم القول أنهم لا يؤمنون هو وعدمه سواء وكان ذلك قد يُوهم انتفاء الجدوى من الغير وبعض من فضل أهل الإيمان أعقب ببيان جدوى الإنذار بالنسبة لمن اتبع الذكر وخشي الرحمان بالغيب .

و﴿ الذكر ﴾ القرآن .

والاتّباع : حقيقته الاقتفاء والسَّيْر وراء سائر ، وهو هنا مستعار للإقبال على الشيء والعناية به لأن المتبع شيئاً يعتني باقتفائه ، فاتباع الذكر تصديقُه والإيمانُ بما فيه لأن التدبر فيه يفضي إلى العمل به ، كما ورد في قصة إيمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه وجد لَوْحاً فيه سورة طه عند أخته فأخذ يقرأُ ويتدّبر فآمن .

وكان المشركون يُعرضون عن سماع القرآن ويصُدُّون الناس عن سماعه ، ويبين ذلك ما في قصة عبد الله بن أُبيّ ابن سَلول في مبدأ حلول رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بمجلس عبد الله بن أُبَيّ فنزل فسلم وتلا عليهم القرآن حتى إذا فرغ قال عبدُ الله بن أُبَيّ : يا هذا إنه لا أحسن من حديثك إن كان حقاً ، فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدّثه ومن لم يأتك فلا تَغُتَّه به " .

ولما كان الإقبال على سماع القرآن مُفضياً إلى الإيمان بما فيه لأنه يداخل القلب كما قال الوليد بن المغيرة "إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمُغْدِق ، وإن أعلاه لمُثمر" .

أُتبعت صلة ﴿ اتبع الذكر ﴾ بجملة ﴿ وخشي الرحمان بالغيب ﴾ ، فكان المراد من اتّباع الذكر أكمل أنواعه الذي لا يعقبه إعراض فهو مؤدَ إلى امتثال المتبِعين ما يدعوهم إليه .

(138/645)

---

وخشية الرحمان : تقواه في خويصة أنفسهم ، وهؤلاء هم المؤمنون تنويهاً بشأنهم وبشأن الإنذار ، فهذا قسيم قوله : ﴿ لقد حق القول على أكثرهم ﴾ [ يس : 7 ] وهو بقية تفصِيل قوله : ﴿ لتنذر قوماً ﴾ [ يس : 6 ] .

والغرض تقوية داعية الرسول صلى الله عليه وسلم في الإنذار ، والثناءُ على الذين قَبِلوا نذارته فآمنوا .

فمعنى فعل ﴿ تنذر ﴾ هو الإنذار المترتب عليه أثره من الخشية والامتثال ، كأنه قيل : إنما تنذر فينتذر مَن اتبع الذكر ، أي مَن ذلك شأنهم لأنهم آمنوا ويتقون .

والتعبير بفعل المضيّ للدلالة على تحقيق الاتّباع والخشية .

والمراد : ابتداءً الاتّباع .

ثم فرع على هذا التنويه الأمر بتبشير هؤلاء بمغفرة ما كان منهم في زمن الجاهلية وما يقترفون من اللمم.

والجمع بين ﴿ تنذر ﴾ و"بشر" فيه محسن الطِباق، مع بيان أن أول أمرهم الإِنذار وعاقبته التبشير.

والأجر: الثواب على الإِيمان والطاعات، ووصفه بالكريم لأنه الأفضل في نوعه كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ إني ألقي إلي كتاب كريم ﴾ في سورة النمل (29).

والتعبير بوصف الرحمان ﴾ دون اسم الجلالة لوجهين: أحدهما: أن المشركين كانوا ينكرون اسم الرحمان، كما قال تعالى: ﴿ قالوا وما الرحمان ﴾ [الفرقان: 60].

والثاني: الإِشارة إلى أن رحمته لا تقتضي عدم خشيته فالمؤمن يخشى الله مع علمه برحمته فهو يرجو الرحمة.

فالقصر المستفاد من قوله: ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر ﴾ وهو قصر الإِنذار على التعلّق بـ ﴿ من اتبع الذكر ﴾ وخشِي الله هو بالتأويل الذي تُؤُوّل به معنى فعل ﴿ تنذر ﴾، أي حصول فائدة الإِنذار يكون قصراً حقيقياً، وإن أبيت إلا إبقاء فعل ﴿ تنذر ﴾ على ظاهر استعمال الأفعال وهو الدلالة على وقوع مصادرها فالقصر ادعائي بتنزيل إنذار الذين لم يتبعوا الذكر ولم يخشوا منزلة عدم الإِنذار في انتفاء فائدته.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (12)

لما اقتضى القصر في قوله : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ﴾ [ يس : 11 ] نفى أن يتعلق الإنذار بالذين لم يتبعوا الذكر ولم يخشوا الرحمان ، وكان في ذلك كناية تعريضية بأن الذين لم ينتفعوا بالإنذار بمنزلة الأموات لعدم انتفاعهم بما ينفع كل عاقل ، كما قال تعالى : ﴿ لتنذر من كان حياً ﴾ [ يس : 70 ] وكما قال : ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ [ النمل : 80 ] استطرد عقب ذلك بالتخلّص إلى إثبات البعث فإن التوفيق الذي حفّ بمن اتبع الذكر وخشي الرحمان هو كإحياء الميت لأن حالة الشرك حالة ضلال يشبه الموت ، والإخراج منه كإحياء الميت ؛ فهذه الآية اشتملت بصريحها على علم بتحقيق البعث واشتملت بتعريضها على رمز واستعارتيْن ضمنيتين : استعارة الموتى للمشركين ، واستعارة الإحياء للإنقاذ من الشرك ، والقرينة هي الانتقال من كلام إلى كلام لما يومىء إليه الانتقال من سبق الحضور في المخيلة فيشمل المتكلم مما كان يتكلم في شأنه إلى الكلام فيما خطر له .

وهذه الدلالة من مستتبعات المقام وليست من لوازم معنى التركيب .

وهذا من أدق التخلص بحرف ( إنّ ) لأن المناسبة بين المنتقل منه والمنتقل إليه تحتاج إلى فطْنة ، وهذا مقام خطاب الذكِيّ المذكور في مقدمة علم المعاني .

فيكون موقع جملة "إنا نحيي الموتى" استئنافاً ابتدائياً لِقصد إنذار الذين لم يتبعوا الذكر، ولم يخشوا الرحمان، وهم الذين اقتضاهم جانب النفي في صيغة القصر.

ويجوز أن يكون الإِحياء مستعاراً للإنقاذ من الشرك، والموتى: استعارة لأهل الشكر، فإحياء الموتى توفيق من آمن من الناس إلى الإِيمان كما قال تعالى: ﴿ أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ﴾ [الأنعام: 122] الآية.

(140/645)

---

فتكون الجملة امتناناً على المؤمنين بتيسير الإِيمان لهم، قال تعالى: ﴿ فمن يرد اللَّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ [الأنعام: 125]، وموقع الجملة موقع التعليل لقوله: ﴿ فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ [يس: 11].

والمراد بكتابة ما قدموا الكناية عن الوعد بالثواب على أعمالهم الصالحة والثواب على آثارهم.

وهذا الاعتبار يناسبه الاستئناف الابتدائي ليكون الانتقال بابتداء كلامٍ منبهاً السامعَ إلى ما اعتبره المتكلم في مطاوي كلامه.

والتأكيد بحرف ( إنّ ) منظور فيه إلى معنى الصريح كما هو الشأن ، و ﴿ نحن ﴾ ضمير فصل للتقوية وهو زيادة تأكيد .

والمعنى : نحييهم للجزاء ، فلذلك عطف ﴿ ونكتب ما قدموا ﴾ ، أي نُحْصي لهم أعمالهم من خير وشر قدموها في الدنيا لنجازيهم .

وعطفُ ذلك إدماج للإِنذار والتهديدِ بأنهم محاسبون على أعمالهم ومجازَون عليها .

والكناية : كناية عن الإِحصاء وعدم إفلات شيء من أعمالهم أو إغفاله .

وهي ما يعبر عنه بصحائف الأعمال التي يسجلها الكِرام الكاتبون .

فالمراد بـ ﴿ ما قدموا ﴾ ما عملوا من الأعمال قبل الموت ؛ شبهت أعمالهم في الحياة الدنيا بأشياء يقدمونها إلى الدار الآخرة كما يقدم المسافر ثَقله وأحماله .

وأما الآثار فهي آثار الأعمال وليست عينَ الأعمال بقرينة مقابلته بـ ﴿ ما قدموا ﴾ مثل ما يتركون من خير أو شر بين الناس وفي النفوس .

والمقصود بذلك ما عملوه موافقاً للتكاليف الشرعية أو مخالفاً لها وآثارهم كذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من سَنّ سُنة حسنة فله أجْرُها وأجر مَن عمل بها إلى يوم القيامة ومَن سَنّ سنة سيئة فعليه وزرُها ووزرُ من عمل بها إلى يوم القيامة لا يَنقص ذلك من أعمالهم شيئاً " .

فالآثار مسببات أسباب عملوا بها .

وليس المراد كتابة كل ما عملوه لأن ذلك لا تحصل منه فائدة دينية يترتب عليها الجزاء .

فهذا وعد ووعيد كلٌّ يأخذ بحظه منه .

(141/645)

---

وقد ورد عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه أن بني سلمة أرادوا أن يتحوّلوا من منازلهم في أقصى المدينة إلى قُرب المسجد وقالوا : البقاع خالية ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم "يا بني سَلِمة دياركم تُكتبْ آثاركم" مرتين رواه مسلم .

ويعني آثار أرجلهم في المشي إلى صلاة الجماعة .

وفي رواية الترمذي عن أبي سعيد زاد : أنَّه قرأ عليهم : ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ فجعل الآثار عامّاً للحسية والمعنوية ، وهذا يلاقي الوجه الثاني في موقع جملة ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ﴾ .

وهو جارٍ على ما أسسناه في المقدمة التاسعة .

وتوهَّم راوي الحديث عن الترمذي أن هذه الآية نزلت في ذلك وسياق الآية يخالفه ومكيتها تنافيه .

والإِحصاء : حقيقته العدّ والحساب وهو هنا كناية عن الإِحاطة والضبط وعدم تخلف

شيء عن الذكر والتعيين لأن الإِحصاء والحساب يستلزم أن لا يفوت واحد من المحسوبات.

والإِمام: ما يُؤتم به في الاقتداء ويُعمَل على حسب ما يَدلّ عليه، قال النابغة:

بنوا مجد الحياة على إمام

أطلق الإِمام على الكتاب لأن الكتاب يتّبع ما فيه من الأخبار والشروط، قال الحارث بن حلزة:

حذر الجور والتطاخي وهل ين

قض ما في المهارق الأهواء...

والمراد بـ ﴿ كل شيء ﴾ بحسب الظاهر هو كل شيء من أعمال الناس كما دل عليه السياق، فذكر ﴿ كل شيء ﴾ لإِفادة الإِحاطة والعموم لما قدموا وآثارهم من كبيرة وصَغيرة.

فكلمة ﴿ كلّ ﴾ نص على العموم من اسم الموصول ومن الجمع المعرّف بالإِضافة، فتكون جملة ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾، ومبينة لمُجملها، ويكون عطفها دون فصلها مراعىً فيه ما اشتملت عليه من زيادة الفائدة.

ويجوز أن يكون المراد بـ ﴿ كل شيء ﴾ كل ما يوجد من الذوات والأعمال، ويكون

الإحصَاء إحصاء علم ، أي تعلق العلم بالمعلومات عند حدوثها ، ويكون الإِمام المبين علم الله تعالى .



---

والظرفية ظرفية إحاطة ، أي عدم تفلت شيء عن علمه كما لا ينفلت المظروف عن الظرف .

وجعل علم الله إماماً لأنه تجري على وفقه تعلقات الإِرادة الربانية والقدرةِ فتكون جملة ﴿ وكل شيء أحصيناه ﴾ على هذا تذييلاً مفيداً أن الكتابة لا تختص بأعمال الناس الجارية على وفق التكاليف أو ضدها بل تعمّ جميع الكائنات .

وإذ قد كان الشيء يرادف الموجود جاز أن يراد بـ ﴿ كل شيء ﴾ الموجود بالفعل أو ما يقبل الإِيجاد وهو الممكن ، فيكون إحصاؤه هو العلم بأنه يكون أو لا يكون ومقادير كونه وأحواله ، كقوله تعالى : ﴿ وأحصى كلّ شيء عدداً ﴾ [ الجن : 28 ] . انتهى ا . هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

فائدة

قال التستري :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر وَخشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ [ 11 ]

قال : من عبد الله في سره أورثه اليقين ، ومن عبد الله بصدق اللسان لم يستقر قلبه دون العرش ، ومن عبد الله بالإنصاف كانت السماوات والأرض في ميزانه .

قيل : وما الإنصاف ؟ قال : الإنصاف أن لا تتحرك جميع أعضائك إلا لله ، ومتى طالبته برزق الغد فقد ذهب إنصافك ، لأن القلب لا يحمل همين ، والإنصاف بينك وبين الخلق أن تأخذ بالفضل ، فإذا طلبت الإنصاف فلست بمنصف .

وحكي عن يحيى وعيسى عليهما السلام أنهما خرجا يمشيان ، فصدم يحيى امرأة ، فقال له عيسى : يا ابن خالتي ، لقد أصبت اليوم خطيئة ، ما أرى الله يغفرها لك .

قال : وما هي ؟ قال : صدمت امرأة .

قال : والله ما شعرت بها .

قال عيسى : سبحان الله ، بدنك معي ، فأين قلبك ؟ قال : معلق بالعرش ، ولو أن قلبي اطمأن إلى جبريل صلوات الله عليه طرفة عين ، لظننت أني ما عرفت الله عزَّ وجلَّ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير التستري صـ 130 ﴾

فائدة

قال ابن القيم:

قوله تعالى ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾

قال الفراء حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله وقال أبو عبيدة منعناهم عن الإيمان بموانع ولما كان الغل مانعا للمغلول من التصرف والتقلب كان الغل الذي على القلب مانعا من الإيمان فإن قيل فالغل المانع من الإيمان هو الذي في القلب فكيف ذكر الغل الذي في العنق قيل لما كان عادة الغل أن يوضع في العنق ناسب ذكر محله والمراد به القلب كقوله تعالى وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ومن هذا قولهم انما في عنقك وهذا في عنقك ومن هذا قوله ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك شبه الإمساك عن الإنفاق باليد إذا غلت إلى العنق ومن هذا قال الفراء أنا جعلنا في أعناقهم أغلالا حبسناهم عن الإنفاق قال أبو إسحاق وإنما يقال للشيء اللازم هذا في عنق فلان أي لزومه كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق قال أبو علي هذا مثل قولهم طوقتك كذا وقلدتك كذا ومنه قلده السلطان كذا أي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق قلت ومن هذا قولهم قلدت فلانا حكم

كذا وكذا كأنك جعلته طوقا في عنقه وقد سمى الله التكاليف الشاقة أغلالا في قوله ويضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم فشبهها بالأغلال لشدتها وصعوبتها قال الحسن هي الشدائد التي كانت في العبادة كقطع أثر البول وقتل النفس في التوبة وقطع الأعضاء الخاطئة وتتبع العروق من اللحم وقال ابن قتيبة هي تحريم الله سبحانه عليهم كثيرا مما أطلقه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم وجعلها أغلالا لأن التحريم يمنع كما يقبض الغل اليد وقوله فهي إلى الأذقان قالت طائفة الضمير يعود إلى الأيدي وإن لم تذكر لدلالة السياق عليها قالوا لأن الغل يكون في العنق فتجمع إليه اليد ولذلك سمي جامعة وعلى هذا فالمعنى فأيديهم او فايمنهم مضمومة الى أذقانهم هذا



---

قول الفراء والزجاج وقالت طائفة الضمير يرجع إلى الأغلال وهذا هو الظاهر وقوله فهي إلى الأذقان أي واصلة وملزوزة إليها فهو غل عريض قد أحاط بالعنق حتى وصل إلى الذقن وقوله فهم مقمحون قال الفراء والزجاج المقمح هو الغاض بصره بعد رفع رأسه ومعنى الإقماح في اللغة رفع الرأس وغض البصر يقال أقمح البعير رأسه وقمح وقال الأصمعي بعير قامح إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب قال الأزهري لما غلت أيديهم إلى أعناقهم رفعت

الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صعدا كالإبل الرافعة رؤوسها انتهى فإن قيل فما وجه التشبيه بين هذا وبين حبس القلب عن الهدى والإيمان قيل أحسن وجه وأبينه فإن الغل إذا كان في العنق واليد مجموعة إليها منع اليد عن التصرف والبطش فإذا كان عريضا قد ملأ العنق ووصل إلى الذقن منع الرأس من تصويبه وجعل صاحبه شاخص الرأس منتصبه لا يستطيع له حركة ثم أكد هذا المعنى والحبس بقوله وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا قال ابن عباس منعهم من الهدى لما سبق في علمه والسد الذي جعل من بين أيديهم ومن خلفهم هو الذي سد عليهم طريق الهدى فأخبر سبحانه عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم ومثلها بأحسن تمثيل وأبلغه وذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان في أعناقهم وضمت أيديهم إليها وجعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما وأغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئا وإذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق وتبين له ثم جحده وكفر به وعاداه أعظم معاداة وجدت هذا المثل مطابقا له أتم مطابقة وانه قد حيل بينه وبين الإيمان كما حيل بين هذا وبين التصرف والله المستعان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ شفاء العليل صـ 94.95 ﴾

(146/645)

## لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى غل )

الغُلّ والغُلّة والغَلَل والغَلِيل : العطش ، وقيل : شدّة العطش وحرارة الجوف .

وقد غَلّ يَغَلّ - بفتحهما وبضمهما - فهو مغلول وغَليل ومغتّل .

وبعير غالّ وغَلاّن ؛ وقد غلّ يغَلّ بفتحهما .

والغُلّ معروف ، والجمع : أَغلال .

وغَلّه : وضع فى عنقه أَويده الغُلّ .

ويقال للبخيل : مغلول اليد ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، أَى رَمَوه بالبخل .

وقيل : إِنهم لمّا سمعوا أَنّ الله قد قضى كلّ شىء قالوا : إِذاً يدُ الله مغلولة ، أَى فى حكم المقيّد لكونه فارغًا .

فقال تعالى ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً ﴾ أَى منعناهم فعل الخير ، وذلك نحو وصفهم بالطَّبْع والخَتْم على قلوبهم وسمعهم وأَبصارهم .

وقيل : بل ذلك وإِن كان بلفظ الماضى فإِنه إِشارة إِلى ما يُفعل بهم فى الآخرة كقوله :

﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ .

والغِلّ والغَلِيل : الحِقد والضّغْن ، وقد غَلّ / صدرُه يَغِلّ ، قال تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ وغَلّ غُلُولا وأغلّ : خان .

وقيل : خاصّ بالفيء .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب برواية رَوْح وزيد (أَنْ يَغُلّ) بفتح الياءِ وضمّ الغين ، والباقون على العكس ، فمعنى يَغُلّ يخون ، ومعنى يُغَلّ بضم الياءِ وفتح الغين يحتمل أَمرين : يُخَان ، يعنى أَن يؤخذ من غنيمته . والآخر ، يُخَوَّن أَى ينسب إلى الغُلُول .

وقال أَبو عبيد : الغُلُول من المغنم خاصّة ، ولا نراه من الخيانة ولا من الحِقْد .

(147/645)

---

ومّما يبيّن ذلك أَنّه يقال من الخيانة : أَغلّ يُغِلّ ، ومن الحقد : غَلّ يَغِلّ بالكسر ، ومن الغلول : غَلّ يَغُلّ بالضم ، وفى الحديث : "ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب مؤمن : إِخلاص العمل لله ، والنصيحة لولاة الأَمر ، ولزوم جماعة المسلمين فإِن دعوتهم تحيط من ورائهم" ، رُوِى : لا يَغِلّ أَى لا يضطغن .

وروى : لا يُغِلّ أى لا يصير ذا خيانة .

وفلان شَفَى غِليله ، أى غيظه .

وغَلّ فى الشىء ، وانغلّ ، وتغلّل ، وتغلغل : دَخَلَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 144 . 145 ﴾

(148/645)

---

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن ﴾ الآية .

ظاهرها خصوص الإنذار بالمنتفعين به ونظيرها قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ وقد جاءت آيات أخر تدل على عموم الإنذار كقوله: ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً ﴾ .

وقوله ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ ، وقوله: ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى ﴾ وقد قدمنا وجه الجمع بأن الإنذار في الحقيقة عام وإنما خص في بعض الآيات بالمؤمنين لبيان أنهم هم المنتفعون به دون غيرهم كما قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وبين أن الإنذار وعدمه سواء بالنسبة إلى إيمان الأشقياء بقوله: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 249 ﴾

(149/645)

---

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) ﴾

أي حقّ القول بالعقوبة على أكثرهم لأنهم أصرُّوا على جَحْدِهم ، وانهمكوا في جهلهم ، فالمعلومُ منهم والمحكومُ عليهم أنَّهم لا يُؤمنون .

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8)

سَنَجُرُّهُم إلى هوانهم وصغرهم ، وسنذيقهم وبالَ أمرهم .

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9)

أغرقناهم اليومَ في بحار الضلالة وأحطنا بهم سرادقات الجهالة . وفي الآخرة سنُغْرِقُهم في النار والأنكال ، ونضيّقُ عليهم الحال ، بالسلاسل والأغلال .

﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ : أعميناهم اليومَ عن شهود الحُجّة ، ونُلبِّسُ في الآخرة سبيلَ المَحجّة ،

فيتعثّرون في وَهَدَاتِ جهنم داخرين ، ويبقون في حُرُقَاتها مهجورين ، مطرودين ملعونين ، لا نَقْطَعُ عنهم ما به يُعذّبون ، ولا نَرْحمهم مما منه يَشْكُون ؛ تمَادَى بهم حِرْمانُ الكفر ، وأحاطت بهم سرادقاتُ الشقاء ، ووقعت عليهم السِّمَةُ بالفراق .

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10)

مهجورُ الحقِّ لا يصِلُه أحدٌ ، ومردودُ الحقِّ لا يَقْبَلُه أحد . والذي قَصَمَتْه المشيئةُ وأقْمَتْهُ القضيةُ لا تنجعُ فيه النصيحة .

إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11)

*(150/645)*

---

أي إنما ينتفع بإنذارك مَنْ اتَّبعَ الذِكْرَ ؛ فإنَّ إنذارك - وإن كان عاماً في الكلِ وللكُلِّ - فإنَّ الذين كفروا على غيِّهم يُصِرُّون . ألاَ سَاء ما يحكُمون ، وإن كانوا لا يعلمون قُبْحَ ما يفعلون . أمَّا الذين اتبعوا الذكر ، واستبصروا ، وانتفعوا بالذي سمعوه منك ، وبه عملوا - فقد استوجبوا أنْ تبَشّرِهم ؛ فَبَشّرْهُم ، وأخبِرْهم على وجهٍ يظهر السرور بمضمون خبرك عليهم .

﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ : كبير وافر على أعمالهم - وإن كان فيها خَلَلٌ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ ﴾ .

نُحيي قلوباً ماتت بالقسوة بما نُمْطِرُ عليها من صَوْبِ الإقبال والزلفة ، ونكتب ما قدّموا .

﴿ وَءَاثَارَهُمْ ﴾ : خُطَاهم إلى المساجد ، ووقوفهم على بساط المناجاة معنا ، وتَرَقْرُق دموعهم على عَرَصَات خدودهم ، وتَصاعُدَ أنفاسهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ .

أثبتنا تفصيله في اللوح المحفوظ . . لا لتناسينا لها – وكيف وقد أحصينا كل شيءٍ عدداً ؟ – ولكننا أحْبَبْنا إثبات آثار أحبائنا في المكنون من كتابنا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 213.214 ﴾

(151/645)

---

قوله تعالى ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ

﴿ (19) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انتهى الكلام إلى هنا ، وكان مقصود السورة كما سلف إثبات الرسالة لإنذار يوم الجمع ، وكان الإنذار غاية ، وكانت الغايات هي المقاصد بالذات ، وكانت غاية الإنذار اتباع الذكر ، فكان ذلك غاية الغاية ، كان الكلام على المتبعين أولى بالتقديم على أنه يلزم من الكلام فيهم الكلام في أضدادهم وهم المعرضون الذين حق عليهم القول والكلام على اليوم المنذر به ، فلذلك ضرب المثل الجامع لذلك كله ، ومر إلى أن صور البعث تصويراً لم يتقدم مثله ، ثم عطف بآية الطمس وما بعدها على القسم المعرض ، ثم رجع إلى الكلام على الرسول والكتاب .

ولما دل سبحانه على ما له من القدرة الكاملة بالأفعال الهائلة من كل من الإماتة والإحياء الحسيين والمعنويين إبداء وإعادة ، وكان ضرب الأمثال بالمشاهدات ألصق شيء بالبال ، وأقطع للمراء والجدال ، وأكشف لما يراد من الأحوال ، قال عاطفاً على ﴿ فبشره ﴾ مبيناً للأصل الثالث الذي هو الأول بالأصالة المقصود بالذات ، وهو التوحيد ، ضامّاً إليه الأصلين الاخرين ، ليكون المثل جامعاً ، والبرهان به واضحاً ساطعاً : ﴿ واضرب لهم ﴾ أي لأجلهم بشارة بما يرجى لهم عند إقبالهم ، ونذارة لما يخشى عليهم عند

إعراضهم وإدبارهم ﴿ مثلاً ﴾ أي مشاهداً في إصرارهم على مخالفة الرسول وصبره عليهم ولطفه بهم ، لأنا ختمنا على قلوبهم على الكفران مع قربهم منك في النسب والدار ، وفوز غيرهم لأنا نورنا قلوبهم مع البعد في النسب والدار بالإيمان وثمراته الحسان ، لأنهم يخشون الرحمن بالغيب ، ولا يثبتون على الغباوة والريب .

ولما ذكر المثل ، أبدل منه قوله : ﴿ أصحاب القرية ﴾ التي هي محل الحكمة واجتماع الكلمة وانتشار العلم ومعدن الرحمة .

ولما كان الممثل به في الحقيقة إنما هو إخبارها بأحوال أهلها لأنها وجه الشبه ، وكانت أخبارها كثيرة في أزمنة مديدة ، وعين المراد بقوله : ﴿ إذ ﴾ وهي بدل اشتمال من القرية مسلوخة من الظرفية .

(152/645)

---

ولما كان الآتي ناحية من بلد وإن عظم يعد في العرف آتياً لذلك البلد ، أعاد الضمير على موضع الرسالة تحقيقاً له وإبلاغاً في التعريف بمقدار بعد الأقصى فقال : ﴿ جاءها ﴾ أي القرية لإنذار أهلها ﴿ المرسلون ﴾ أي عن الله لكونهم عن رسوله عيسى عليه السلام أرسلهم بأمره لإثبات ما يرضيه سبحانه ونفي ما يكرهه الذين هم من جملة من قيل في فاطر

إنهم جاؤوا بالبينات وبالزبر ، والتعريف إما لكونهم يعرفون القرية ويعرفون أمرها ، وإما لأنه شهير جداً فهم بحيث لو سألوا أحداً من أهل الكتاب الذين يعتنون بها أخبرهم به ، لأنه قد عهد منهم الرجوع إليهم بالسؤال ليبينوا لهم - كما زعموا - مواضع الإشكال .

ولما كان أعظم مقاصد السياق تسلية النبي -صلى الله عليه وسلم- في توقفهم عن المبادرة إلى الإيمان به مع دعائه بالكتاب الحكيم إلى صراط المستقيم ، وكان في المشاركة في المصائب أعظم تسلية ، أبدل من قوله ﴿ إذ جاءها ﴾ تفصيلاً لذلك المجيء قوله ، مسنداً إلى نفسه المقدس لكونه أعظم في التسلية : ﴿ إذ أرسلنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة .

ولما كان المقصود بالرسالة أصحابها قال : ﴿ إليهم اثنين ﴾ أي ليعضد أحدهما الآخر فيكون أشد لأمرهما فأخبراهم بإرسالهما إليهم كأن قالا : نحن رسولان إليكم لتؤمنوا بالله ﴿ فكذبوهما ﴾ أي مع ما لهما من الآيات ، لأنه من المعلوم أنا ما أرسلنا رسولاً إلا كان معه من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، سواء كان عنا من غير واسطة أو كان بواسطة رسولنا ، كما كان للطفيل بن عمرو الدوسي ذي النور لما ذهب إلى قومه وسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- أن تكون آية فكانت نوراً في جبهته ، ثم سأل أن تكون في غير وجهه فكانت في سوطه .

ولما كان التضافر على الشيء أقوى لشأنه ، وأعون على ما يراد منه ، سبب عن ذلك قوله حاذفاً المفعول لفهمه من السياق ، ولأن المقصود إظهار الاقتدار على إيقاع الفعل وتصريفه في كل ما أريد له : ﴿ فعززنا ﴾ أي فأوقعنا العزة ، وهي القوة والشدة والغلبة ، لأمرنا أو لرسولنا بسبب ما وقع لهما من الوهن بالتكذيب فحصل ما أردنا من العزة - بما أشارت إليه قراءة أبي بكر عن عاصم بالتخفيف ﴿ بثالث ﴾ أرسلناه بما أرسلناهما به ﴿ فقالوا ﴾ أي الثلاثة بعد أن أتوهم وظهر لهم إصرارهم على التكذيب ، مؤكدين بحسب ما رأوا من تكذيبهم : ﴿ إنا إليكم ﴾ أي لا إلى غيركم ﴿ مرسلون قالوا ﴾ أي أهل القرية : ﴿ ما أنتم ﴾ أي وإن زاد عددكم ﴿ إلا ﴾ ولما نقض الاستثناء النفي زال شبهة ما تلبس فزال عملها فارتفع قوله : ﴿ بشر مثلنا ﴾ أي فما وجه الخصوصية لكم في كونكم رسلاً دوننا ، ولما كان التقدير : فما أرسلتم إلينا بشيء ، عطفوا عليه قوله : ﴿ وما أنزل الرحمن ﴾ أي العام الرحمة ، فعموم رحمته مع استوائنا في عبوديته تقتضي أن يسوي بيننا في الرحمة فلا يخصكم بشيء دوننا ، وأعرقوا في النفي بقولهم : ﴿ من شيء ﴾ .

ولما كان الإتيان على ما ذكر محتملاً للغلط ونحوه ، قالوا دافعين لذلك : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ أنتم إلا تكذبون ﴾ أي حالاً ومآلاً ﴿ قالوا ﴾ أي الرسل : ﴿ ربنا ﴾ أي الذي لو لم يكن لنا وازع عن الكذب عليه إلا إحسانه إلينا لكان كافياً ﴿ يعلم ﴾ أي ولذلك يظهر على

أيدينا الآيات ، ويحمينا ممن يكيدنا ، وهذه العبارة تجري مجرى القسم ، وكذا نحو ﴿ شهد الله ﴾ .

ولما واجهوهم بهذا التكذيب المبالغ في تأكيده زادوا في تأكيد جوابه فقالوا : ﴿ إنا إليكم ﴾ أي خاصة ﴿ لمرسلون ﴾ ما أتيناكم غلطاً ولا كذباً ، فالأول ابتداء أخبار ، وهذان جوابا إنكار ، فأعطى كلاًّ ما يستحق .

(154/645)

---

ولما قرروا ذلك عندهم ، اتبعوه بدليله وبالإعلام بأن وبال التكذيب لا يلحقهم منه ضرر ، إشارة لهم إلى الإنذار من عذاب الملك الجبار فقالوا : ﴿ وما علينا ﴾ أي وجوباً من قبل من أرسلنا ، وهو الله تعالى الذي له الأمر كله ﴿ إلا البلاغ المبين ﴾ أي المؤيد بالأدلة القطعية من الحجج القولية والفعلية بالمعجزات وغيرها ، فلولا أنه يعلم لما أمكننا شيء من ذلك كما أن آلهتكم لما لم يكن لها علم لم يقدروا على بيان في أمرها بشيء ، وإذ قد ثبت علم مرسلنا برسالتنا فهو الشاهد لنا بما يظهر على أيدينا وكفى به شهيداً .

ولما كان حلول الصالحين بين الناس يكون تارة نعمة وأخرى نقمة باعتبار التصديق والتكذيب والإساءة والإحسان ، فكان قد حصل لهؤلاء الذين كذبوا هؤلاء الرسل بلاء

لتكذيبهم لهم من جدب الأرض وصعوبة الزمان ، ونحو ذلك من الامتحان ، ذكر ما أثره ذلك عند أهل القرية فقال : ﴿ قالوا ﴾ ولما كانوا لما يرون عليهم من الآيات وظاهر الكرامات مما يشهد ببركتهم ويمن نقيبتهم بحيث إذا ذموهم توقعوا تكذيب الناس لهم ، أكدوا قولهم : ﴿ إنا تطيرنا ﴾ أي حملنا أنفسنا على الطيرة والتشاوم تطيراً ظاهراً - بما أشار إليه الإظهار بخلاف ما في النمل والأعراف ﴿ بكم ﴾ بنسبة ما حل بنا من البلاء إلى شومكم ، لأن عادة الجهال التيمن بما مالوا إليه ويسندون ما حل بهم من نعمة إلى يمنة والتشاوم بما كرهوه ، ويسندون ما أصابهم من نقمة إلى شومه ؛ ثم إنهم استأنفوا استئناف النتائج قولهم على سبيل التأكيد إعلاماً بأن ما أخبروا به لا فترة لهم عنه وإن كان مثلهم مستبعداً عند العقلاء : ﴿ لئن لم تنتهوا ﴾ أي عن دعائكم هذا ﴿ لنرجمنكم ﴾ أي لنشتمنكم أو لنرمينكم بالحجارة حتى تنتهوا أو لنقتلنكم شر قتلة .

(155/645)

---

ولما كان الإنسان قد يفعل ما لا يؤخذ أثره فقالوا معبرين بالمس دون الإمساس : ﴿ وليمسنكم منا ﴾ أي عاجلاً لا من غيرنا كما تقولون أنتم في تهديدكم إيانا بما يحل بنا ممن أرسلكم ﴿ عذاب أليم ﴾ حتى تنتهوا عنا لنكف عن إيلامكم ﴿ قالوا ﴾ أي الرسل :

﴿ طائركم ﴾ أي شومكم الذي أحل بكم البلاء ﴿ معكم ﴾ وهو أعمالكم القبيحة التي منها تكذيبكم .

ولما كان لم يبد منهم غير ما يقتضي عند النظر الصحيح التيمن والبركة ، وهو التذكير بالله الذي بيده الخير كله ، أنكروا عليهم تطيرهم منهم على وجه مبين أنه لا سبب لذلك غيره فقالوا : ﴿ أئن ذكرتم ﴾ أي الأجل إن حصل لكم تذكير بالله تطيرتم بنا ؟ ولما كان ذلك لا يصح أن يكون سبباً للتطير بوجه ، أضربوا عنه منبهين لهم على أن موضع الشوم إسرافهم لا غير فقالوا : ﴿ بل ﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم في أن التذكير سبب للتطير بل ﴿ أنتم قوم ﴾ أي غركم ما آتاكم الله من القوة على القيام فيما تريدون ﴿ مسرفون ﴾ أي عادتكم الخروج عن الحدود والطغيان فعوقبتم لذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 252.249 ﴾

*(156/645)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) ﴾

وفيه وجهان ، والترتيب ظاهر على الوجهين الوجه الأول : هو أن يكون المعنى واضرب لأجلهم مثلاً والثاني : أن يكون المعنى واضرب لأجل نفسك أصحاب القرية لهم مثلاً أي مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية وعلى الأول نقول لما قال الله : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ [ يس : 3 ] وقال : ﴿ لّتُنذِرَ ﴾ [ يس : 6 ] قال قل لهم : ﴿ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾ [ الأحقاف : 9 ] بل قبلي بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون وأنذروهم بما أنذرتكم وذكروا التوحيد وخوفوا بالقيامة وبشروا بنعيم دار الإقامة ، وعلى الثاني نقول لما قال الله تعالى إن الإنذار لا ينفع من أضله الله وكتب عليه أنه لا يؤمن قال للنبي عليه الصلاة والسلام فلا تأس واضرب لنفسك ولقومك مثلاً ، أي مثل لهم عند نفسك مثلاً حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا وصبر الرسل على القتل والإيذاء ، وأنت جئتهم واحداً وقومك أكثر من قوم الثلاثة فإنهم جاؤا قرية وأنت بعثت إلى العالم ، وفي التفسير مسائل :

المسألة الأولى :

ما معنى قول القائل ضرب مثلاً ؟ وقوله تعالى : ﴿ واضرب ﴾ مع أن الضرب في اللغة ، إما إمساس جسم جسماً بعنف ، وإما السير إذا قرن به حرف في كقوله تعالى : ﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأرض ﴾ [ النساء : 101 ] نقول قوله ضرب مثلاً معناه مثل مثلاً ، وذلك لأن الضرب اسم للنوع يقال هذه الأشياء من ضرب واحد أي اجعل هذا وذاك من ضرب واحد .

المسألة الثانية :

أصحاب القرية ، معناه واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية فترك المثل وأقيم الأصحاب مقامه في الإعراب كقوله : ﴿ واسئل القرية ﴾ [ يوسف : 82 ] هذا قول الزمخشري في الكشاف ، ويحتمل أن يقال لا حاجة إلى الإضمار بل المعنى اجعل أصحاب القرية لهم مثلاً أو مثل أصحاب القرية بهم .

المسألة الثالثة :

(157/645)

---

﴿ إذ جاءها المرسلون ﴾ ، ( إذ ) منصوبة لأنها بدل من ( أصحاب القرية ) كأنه قال تعالى : ﴿ واضرب لَهُم ﴾ وقت مجيء المرسلين ومثل ذلك الوقت بوقت مجيئك ، وهذا أيضاً قول الزمخشري وعلى قولنا إن هذا المثل مضروب لنفس محمد صلى الله عليه وسلم تسلية فيحتمل أن يقال إذا ظرف منصوب بقوله : ﴿ اضرب ﴾ أي اجعل الضرب ، كأنه حين مجيئهم وواقع فيه ، والقرية أنطاكية والمرسلون من قوم عيسى وهم أقرب مرسل أرسل إلى قوم إلى زمان محمد صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة كما بين الله تعالى وقوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا ﴾ [ يس : 14 ] يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون إذ أرسلنا بدلاً من إذ جاءها

كأنه قال الضرب لهم مثلاً ، إذ أرسلنا إلى أصحاب القرية اثنين وثانيهما : وهو الأصح والأوضح أن يكون إذ ظرفاً والفعل الواقع فيه جاءها أي جاءها المرسلون حين أرسلناهم إليهم أي لم يكن مجيئهم من تلقاء أنفسهم وإنما جاءوهم حيث أمروا ، وهذا فيه لطيفة : وهي أن في الحكاية أن الرسل كانوا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام أرسلهم إلى أنطاكية فقال تعالى : إرسال عيسى عليه السلام هو إرسالنا ورسول رسول الله بإذن الله رسول الله فلا يقع لك يا محمد أن أولئك كانوا رسل الرسول وأنت رسول الله فإن تكذيبهم كتكذيبك فتتم التسلية بقوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا ﴾ وهذا يؤيد مسألة فقهية وهي أن وكيل الوكيل بإذن الموكل وكيل الموكل لا وكيل الوكيل حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه وينعزل إذا عزله الموكل الأول ، وهذا على قولنا : ﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً ﴾ ضرب المثل لأجل محمد صلى الله عليه وسلم ظاهر .

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14)



---

في بعثة الأثنين حكمة بالغة وهي أنهما كانا مبعوثين من جهة عيسى بإذن الله فكان عليهما إنهاء الأمر إلى عيسى والإتيان بما أمر الله ، والله عالم بكل شيء لا يحتاج إلى شاهد يشهد

عنده ، وأما عيسى فهو بشر فأمره الله بإرسال اثنين ليكون قولهما على قومهما عند عيسى حجة تامة .

وقوله : ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أي قوينا وقرئ فعززنا بثالث مخففاً ، من عز إذا غلب فكأنه قال فغلبنا نحن وقهرنا بثالث والأول أظهر وأشهر وترك المفعول حيث لم يقل فعززناهما لمعنى لطيف وهو أن المقصود من بعثهما نصرة الحق لا نصرتهما والكل مقوون للدين المتين بالبرهان المبين ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

النبي صلى الله عليه وسلم بعث رسله إلى الأطراف واكتفى بواحد وعيسى عليه السلام بعث اثنين ، نقول النبي بعث لتقرير الفروع وهو دون الأصول فاكتفى بواحد فإن خبر الواحد في الفروع مقبول ، وأما هما فبعثا بالأصول وجعل لهما معجزة تفيد اليقين وإلا لما كفى إرسال اثنين أيضاً ولا ثلاثة .

المسألة الثانية :

قال الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ ﴾ [ القصص : 35 ] فذكر المفعول هناك ولم يذكره ههنا مع أن المقصود هناك أيضاً نصرة الحق ، نقول موسى عليه السلام كان أفضل من هارون وهارون بعث معه بطلبه حيث قال : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ ﴾ [ القصص : 34 ] فكان هارون معبوثاً ليصدق موسى فيما يقول ويقوم بما يأمره ، وأما هما فكل واحد

مستقل ناطق بالحق فكان هناك المقصود تقوية موسى وإرسال من يؤنس معه وهو هارون ، وأما ههنا فالمقصود تقوية الحق فظهر الفرق .

قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15)

(159/645)

---

ثم بين الله ما جرى منهم وعليهم مثل ما جرى من محمد صلى الله عليه وسلم وعليه فقالوا : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾ [ يس : 14 ] كما قال : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ [ يس : 3 ] وبين ما قال القوم بقوله : ﴿ قَالُواْ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرحمن مِن شَيْءٍ ﴾ جعلوا كونهم بشراً مثلهم دليلاً على عدم الإرسال ، وهذا عام من المشركين قالوا في حق محمد : ﴿ أَأنزِلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ [ ص : 8 ] وإنما ظنوه دليلاً بناءً على أنهم لم يعتقدوا في الله الاختيار ، وإنما قالوا فيه إنه موجب بالذات وقد استوينا في البشرية فلا يمكن الرجحان ، والله تعالى رد عليهم قولهم بقوله : ﴿ الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [ الأنعام : 124 ] وبقوله : ﴿ الله يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [ الشورى : 13 ] إلى غير ذلك ، وقوله : ﴿ وما أَنزَلَ الرحمن مِن شَيْءٍ ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون متمماً لما ذكروه فيكون الكل شبهة واحدة ، ووجهه هو أنهم قالوا أنتم بشر فما نزلتم من عند الله وما أنزل الله إليكم

أحداً ، فكيف صرتم رسلاً لله ؟ ثانيهما : أن يكون هذا شبهة أخرى مستقلة ووجهه هو أنهم لما قالوا أنتم بشر مثلنا فلا يجوز رجحانكم علينا ذكروا الشبهة من جهة النظر إلى المرسلين ، ثم قالوا شبهة أخرى من جهة المرسل ، وهو أنه تعالى ليس بمنزل شيئاً في هذا العالم ، فإنه تصرفه في العالم العلوي وللعلويات التصرف في السفليات على مذهبهم ، فالله تعالى لم ينزل شيئاً من الأشياء في الدنيا فكيف أنزل إليكم ، وقوله : ﴿ الرحمن ﴾ إشارة إلى الرد عليهم ، لأن الله لما كان رحمن الدنيا والإرسال رحمة ، فكيف لا ينزل رحمته وهو رحمن ، فقال إنهم قالوا : ما أنزل الرحمن شيئاً ، وكيف لا ينزل الرحمن مع كونه رحمن شيئاً ، هو الرحمة الكاملة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ أي ما أنتم إلا كاذبين .

(160/645)

---

قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16)

إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا ، بل أعادوا ذلك لهم وكرروا القول عليهم وأكدوه باليمين وقالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وأكدوه باللام ، لأن يعلم الله يجري مجرى القسم ، لأن من يقول يعلم الله فيما لا يكون قد نسب الله إلى الجهل وهو سبب العقاب

، كما أن الحنث سببه ، وفي قوله : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴾ إشارة إلى الرد عليهم حيث قالوا أنتم بشر ، وذلك لأن الله إذا كان يعلم أنهم لمرسلون ، يكون كقوله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [ الأنعام : 124 ] يعني هو عالم بالأمور وقادر ، فاختارنا بعلمه لرسالته .

وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17)

تسلية لأنفسهم ، أي نحن خرجنا عن عهدة ما علينا وحثاً لهم على النظر ، فإنهم لما قالوا : ﴿ مَا عَلَيْنَا إِلاَّ البلاغ ﴾ كان ذلك يوجب تفكرهم في أمرهم حيث لم يطلبوا منهم أجراً ولا قصدوا رياسة ، وإنما كان شغلهم التبليغ والذكر ، وذلك مما يحمل العاقل على النظر و ﴿ المبين ﴾ يحتمل أموراً أحدها : البلاغ المبين للحق عن الباطل ، أي الفارق بالمعجزة والبرهان وثانيها : البلاغ المظهر لما أرسلنا للكل ، أي لا يكفي أن نبلغ الرسالة إلى شخص أو شخصين وثالثها : البلاغ المظهر للحق بكل ما يمكن ، فإذا تم ذلك ولم يقبلوا يحق هنالك الهلاك .

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18)

ثم كان جوابهم بعد هذا أنهم قالوا إنا تطيرنا بكم وذلك أنه لما ظهر من الرسل المبالغة في البلاغ ظهر منهم الغلو في التكذيب ، فلما قال المرسلون : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ [ يس : 14 ] قالوا : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾ [ يس : 15 ] ولما أكد الرسل قولهم باليمين حيث قالوا : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴾ [ يس : 16 ] أكدوا قولهم بالتطير بهم فكأنهم قالوا في الأول كنتم كاذبين ، وفي الثاني صرتم مصرين على الكذب ، حالفين مقسمين عليه ، و " اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع " فتشاءمنا بكم ثانياً ، وفي الأول كما تركتم ففي الثاني لا نترككم لكون الشؤم مدركنا بسببكم فقالوا : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقوله لنرجمنكم يحتمل وجهين أحدهما : لنشتمنكم منا لرجم بالقول وعلى هذا فقوله : ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ ﴾ ترق كأنهم قالوا ولا يكتفي بالشتم ، بل يؤدي ذلك إلى الضرب والإيلام الحسي وثانيهما : أن يكون المراد الرجم بالحجارة ، وحينئذٍ فقوله : ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ ﴾ بيان للرجم ، يعني ولا يكون الرجم رجماً قليلاً نرجمكم بحجر وحجرين ، بل نديم ذلك عليكم إلى الموت وهو عذاب أليم ، ويكون المراد لنرجمنكم وليمسنكم بسبب الرجم عذاب منا أليم ، وقد ذكرنا في الأليم أنه بمعنى المؤلم ، والفعيل معنى مفعل قليل ، ويحتمل أن يقال هو من باب قوله : ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [ الحاقة : 21 ] أي ذات رضا ، فالعذاب الأليم هو ذو ألم ، وحينئذٍ يكون فعيلاً بمعنى فاعل وهو كثير .

قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19)

ثم أجابهم المرسلون بقولهم : ﴿ قَالُواْ طائركم مَّعَكُمْ ﴾ أي شؤمكم معكم وهو الكفر .

(162/645)

---

ثم قالوا : ﴿ أَئِن ذُكّرْتُم ﴾ جواباً عن قولهم : ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ يعني أتفعلون بنا ذلك ، وإن ذكرتم أي بين لكم الأمر بالمعجز والبرهان ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ حيث تجعلون من يتبرك به كمن يتشاءم به وتقصدون إيلام من يجب في حقه الإكرام أو ﴿ مسرفون ﴾ حيث تكفرون ، ثم تصرون بعد ظهور الحق بالمعجز والبرهان ، فإن الكافر مسيء فإذا تم عليه الدليل وأوضح له السبيل ويصر يكون مسرفاً ، والمسرف هو المجاوز الحد بحيث يبلغ الضد وهم كانوا كذلك في كثير من الأشياء ، أما في التبرك والتشاؤم فقد علم وكذلك في الإيلام والإكرام ، وأما في الكفر فلأن الواجب اتباع الدليل ، فإن لم يوجد به فلا أقل من أن لا يجزم بنقيضه وهم جزموا بالكفر بعد البرهان على الإيمان ، فإن قيل بل للإضرار فما الأمر المضرب عنه ؟ نقول يحتمل أن يقال قوله : ﴿ أَئِن ذُكّرْتُم ﴾ وارد على تكذيبهم ونسبتهم الرسل إلى الكذب بقولهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾ [ يس : 15 ] فكأنهم قالوا : أنحن كاذبون وإن جئنا بالبرهان ، لا بل أنتم قوم مسرفون ويحتمل أن يقال أنحن مشؤومون ، وإن

جئنا ببيان صحة ما نحن عليه ، لا بل أنتم قوم مسرفون ويحتمل أن يقال أنحن مستحقون للرجم والإيلام ، وإن بينا صحة ما أتينا به ، لا بل أنتم قوم مسرفون وأما الحكاية فمشهورة ، وهي أن عيسى عليه السلام بعث رجلين إلى أنطاكية فدعيا إلى التوحيد وأظهرا المعجزة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى فحبسهما الملك ، فأرسل بعدهما شمعون فأتى الملك ولم يدع الرسالة ، وقرب نفسه إلى الملك بحسن التدبير ، ثم قال له : إني أسمع أن في الحبس رجلين يدعيان أمراً بديعاً ، أفلا يحضران حتى نسمع كلامهما ؟ قال الملك : بلى ، فأحضرا وذكرا مقالتهما الحقة ، فقال لهما شمعون : فهل لكما بينة ؟ قالا : نعم ، فأبرآ الأكمة والأبرص وأحييا الموتى ، فقال شمعون : أيها الملك ، إن شئت أن تغلبهم ، فقال للآلهة التي



---

تعبدونها تفعل شيئاً من ذلك ، قال الملك : أنت لا يخفى عليك أنها لا تبصر ولا تسمع ولا تقدر ولا تعلم ، فقال شمعون : فإذن ظهر الحق من جانبهم ، فآمن الملك وقوم وكفر آخرون ، وكانت الغلبة للمكذبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 44 . 48 ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً أَصْحَابَ القرية إِذْ جَآءَهَا المرسلون ﴾

خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، أُمِر أن يضرب لقومه مثلاً بأصحاب القرية ) هذه القرية هي أنطاكية في قول جميع المفسرين فيما ذكر الماوردي .

نسبت إلى أهل أنطبيس وهو اسم الذي بناها ثم غُيِّر لما عُرِّب ؛ ذكره السهيلي .

ويقال فيها : أنتاكية بالتاء بدل الطاء .

وكان بها فرعون يقال له أنطيخس بن أنطيخس يعبد الأصنام ؛ ذكره المهدوي ، وحكاه أبو جعفر النحاس عن كعب ووهب .

فأرسل الله إليه ثلاثة : وهم صادق ، وصدوق ، وشلوم هو الثالث .

هذا قول الطبري .

وقال غيره : شمعون ويوحنا .

وحكى النقاش : سمعان ويحيى ، ولم يذكرا صادقاً ولا صدوقاً .

ويجوز أن يكون "مَثَلاً" و "أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ" مفعولين لاضرب ، أو "أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ" بدلاً من "مَثَلاً" أي اضرب لهم مثل أصحاب القرية فحذف المضاف .

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإنذار هؤلاء المشركين أن يحلّ بهم ما حلّ بكفار أهل القرية

المبعوث إليهم ثلاثة رسل .

قيل : رسل من الله على الابتداء .

وقيل : إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثنين ﴾ وأضاف الربّ ذلك إلى نفسه ؛ لأن عيسى أرسلهما بأمر الربّ ، وكان ذلك حين رُفع عيسى إلى السماء .

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ قيل ضربوهما وسجنوهما .

﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أي فقوّينا وشدّدنا الرسالة "بِثَالِثٍ" .

وقرأ أبو بكر عن عاصم : "فَعَزَزْنَا بِثَالِثٍ" بالتخفيف وشدّد الباقون .

قال الجوهري : وقوله تعالى : ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ يخفّف ويشدّد ؛ أي قوّينا وشدّدنا .

قال الأصمعي : أنشدني فيه أبو عمرو بن العلاء للمتلمّس :

أُجُدٌّ إذا رَحَلَت تَعَزَّزَ لحْمُها . . .

وإذا تُشَد بِنسْعِها لا تَنْبِسُ

أي لا ترغو ؛ فعلى هذا تكون القراءتان بمعنًى .

وقيل: التخفيف بمعنى غلبنا وقهرنا؛ ومنه: ﴿ وَعَزَّنِي فِي الخطاب ﴾ [ص: 23].

والتشديد بمعنى قوّينا وكثرنا.

وفي القصة: أن عيسى أرسل إليهم رسولين، فلقيا شيخاً يرعى غُنيمات له وهو حبيب النجار صاحب "ياس" فدعوه إلى الله وقالا: نحن رسولا عيسى ندعوك إلى عبادة الله.

فطالبهما بالمعجزة فقالا: نحن نشفي المرضى وكان له ابن مجنون.

وقيل: مريض على الفراش فمسحاه، فقام بإذن الله صحيحاً؛ فآمن الرجل بالله.

وقيل: هو الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، ففشا أمرهما، وشَفَيَا كثيراً من المرضى، فأرسل الملك إليهما وكان يعبد الأصنام يستخبرهما فقالا: نحن رسولا عيسى.

فقال: وما آيتكما؟ قالا: نبرىء الأكمه والأبرص ونبرىء المريض بإذن الله، وندعوك إلى عبادة الله وحده.

فهمَّ الملكُ بضربهما.

وقال وهب: حبسهما الملك وجلدهما مائة جلدة؛ فانتهى الخبر إلى عيسى فأرسل ثالثاً.

قيل: شمعون الصفا رأس الحواريين لنصرهما؛ فعاشر حاشية الملك حتى تمكن منهم، واستأنسوا به، ورفعوا حديثه إلى الملك فأنس به، وأظهر موافقته في دينه، فرضي الملك طريقته؛ ثم قال يوماً للملك: بلغني أنك حبست رجلين دعواك إلى الله، فلو سألت عنهما ما وراءهما.

فقال : إن الغضب حال بيني وبين سؤالهما .

قال : فلو أحضرتهما .

فأمر بذلك ؛ فقال لهما شمعون : ما برهانكما على ما تدّعيان ؟ فقالا : نبرىء الأكمه والأبرص .

(166/645)

---

فجيء بغلام ممسوح العينين ؛ موضع عينيه كالجبهة ، فدعوا ربهما فانشق موضع البصر ، فأخذا بندقتين طيناً فوضعاهما في خديه ، فصارتا مقلتين يبصر بهما ؛ فعجب الملك وقال : إن هاهنا غلاماً مات منذ سبعة أيام ولم أدفنه حتى يجيء أبوه فهل يحييه ربكما ؟ فدعوا الله علانية ، ودعاه شمعون سرًّا ، فقام الميت حيًّا ، فقال للناس : إني متّ منذ سبعة أيام ، فوُجدت مشركاً ، فأدخلتُ في سبعة أودية من النار ، فأحذّركم ما أنتم فيه فآمِنوا بالله ، ثم فتحت أبواب السماء ، فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة شمعون وصاحبيه ، حتى أحياني الله ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن عيسى روح الله وكلمته ، وأن هؤلاء هم رسل الله .

فقالوا له : وهذا شمعون أيضاً معهم ؟ فقال : نعم وهو أفضلهم .

فأعلمهم شمعون أنه رسول المسيح إليهم ، فأثر قوله في الملك ، فدعاه إلى الله ، فآمن الملك في قوم كثير وكفر آخرون .

وحكى القشيري أن الملك آمن ولم يؤمن قومه ، وصاح جبريل صيحة مات كل من بقي منهم من الكفار .

وروي أن عيسى لما أمرهم أن يذهبوا إلى تلك القرية قالوا : يا نبيّ الله إنا لا نعرف أن تتكلم بألسنتهم ولغاتهم .

(167/645)

---

فدعا الله لهم فناموا بمكانهم ، فهبُّوا من نومتهم وقد حملتهم الملائكة فألقتهم بأرض أنطاكية ، فكلم كل واحد صاحبه بلغة القوم ؛ فذلك قوله : ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ فقالوا جميعاً : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ تأكلون الطعام وتمشون في الأسواق ﴿ وَمَا أَنْزَلَ الرحمن مِن شَيْءٍ ﴾ يأمر به ولا ( من شيء ) ينهى عنه ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ في دعواكم الرسالة ؛ فقالت الرسل : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ وإن كذبتمونا ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا البلاغ المبين ﴾ في أن الله واحد ﴿ قالوا ﴾ لهم ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أي تشاءمنا بكم .

قال مقاتل : حبس عنهم المطر ثلاث سنين فقالوا هذا بشؤمكم .

ويقال : إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين .

﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ ﴾ عن إنذارنا ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ قال الفراء : لنقتلنكم .

قال : وعامة ما في القرآن من الرجم معناه القتل .

وقال قتادة : هو على بابه من الرجم بالحجارة .

وقيل : لنشتمنكم ؛ وقد تقدّم جميعه .

﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قيل : هو القتل .

وقيل : هو التعذيب المؤلم .

وقيل : هو التعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب .

فقالت الرسل : ﴿ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ أي شؤمكم معكم أي حظكم من الخير والشر معكم

ولازمٌ في أعناقكم ، وليس هو من شؤمنا ؛ قال معناه الضحاك .

وقال قتادة : أعمالكم معكم .

ابن عباس : معناه الأرزاق والأقدار تتبعكم .

الفراء : "طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ" رزقكم وعملكم ؛ والمعنى واحد .

وقرأ الحسن : "اطيركم" أي تطيركم .

﴿ أَإِن ذُكِّرْتُم ﴾ قال قتادة : إن ذكرتم تطيرتم .

وفيه تسعة أوجه من القراءات : قرأ أهل المدينة : "أَيِنْ ذُكِّرْتُمْ" بتخفيف الهمزة الثانية .

وقرأ أهل الكوفة : "أَإِنْ" بتحقيق الهمزتين .

(168/645)

---

والوجه الثالث : "أَاإِنْ ذُكِّرْتُمْ" بهمزتين بينهما ألف أدخلت الألف كراهة للجمع بين الهمزتين .

والوجه الرابع : "أاإنْ" بهمزة بعدها ألف وبعد الألف همزة مخففة .

والقراءة الخامسة "أَاأَنْ" بهمزتين مفتوحتين بينهما ألف .

والوجه السادس : "أَأَنْ" بهمزتين محققتين مفتوحتين .

وحكى الفراء : أنّ هذه القراءة قراءة أبي رُزَين .

قلت : وحكاه الثعلبي عن زِرّ بن حُبيش وابن السَّمَيْقع .

وقرأ عيسى بن عمر والحسن البصري : ﴿ قَالُواْ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَإِن ذُكِّرْتُم ﴾ بمعنى حيث .

وقرأ يزيد بن القعقَاع والحسن وطلحة "ذُكِرْتُمْ" بالتخفيف ؛ ذكر جميعه النحاس .

وذكر المهدوي عن طلحة بن مُصرِّف وعيسى الهَمَذانِي : "آنْ ذُكِّرْتُمْ" بالمد ، على أن همزة

الاستفهام دخلت على همزة مفتوحة.

الماجشون: "أَنْ ذُكِّرْتُمْ" بهمزة واحدة مفتوحة.

فهذه تسع قراءات.

وقرأ ابن هُرْمُز "طَيْرُكُمْ مَعَكُمْ".

"أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ" أي لِإِن وُعِظتم؛ وهو كلام مستأنف، أي إن وعظتم تطيرتم.

وقيل: إنما تطيروا لما بلغهم أن كل نبي دعا قومه فلم يجيبوه كان عاقبتهم الهلاك ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ قال قتادة: مسرفون في تطيّركم.

يحيى بن سلاّم: مسرفون في كفركم.

وقال ابن بحر: السرف هاهنا الفساد، ومعناه بل أنتم قوم مفسدون.

وقيل: مسرفون مشركون، والإسراف مجاوزة الحد، والمشرك يجاوز الحدّ. انتهى انتهى.

اهـ ﴿تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾



---

وقال أبو السعود:

﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً أصحاب القرية ﴾

ضربُ المَثَل يُستعمل تارةً في تطبيق حالةٍ غريبةٍ بحالةٍ أُخرى مثلِها كما في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ ﴾ وأخرى في ذكر حالةٍ غريبةٍ وبيانِها للنّاس من غير قصدٍ إلى تطبيقِها بنظيرةٍ لها كما في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الامثال ﴾ على أحدِ الوجهينِ أي بيَّنا لكم أحوالاً بديعةً هي في الغرابةِ كالأمثالِ فالمَعْنى على الأوّلِ اجعلْ أصحابَ القريةِ مثلاً لهؤلاء في الغُلوِّ في الكفرِ والإصرارِ على تكذيبِ الرُّسلِ أي طبّقِ حالَهم بحالهم على أنّ مثلاً مفعولٌ ثانٍ لاضربْ وأصحابَ القريةِ مفعولُه الأوّلَ أُخِّرَ عنه ليتَّصل به ما هو شرحُه وبيانُه وعلى الثَّاني اذكرْ وبيِّن لهم قصّةً هي في الغرابةِ كالمَثَلِ وقوله تعالى أصحابَ القريةِ بدلٌ منه بتقديرِ المضافِ أو بيانٌ له والقريةُ أنطاكيّةُ ﴿ إِذْ جَاءهَا المرسلون ﴾ بدلُ اشتمالٍ من أصحابَ القريةِ وهم رُسلُ عيسى عليه السَّلامُ إلى أهلِها ونسبةُ إرسالِهم إليهِ تعالى في قولِه:

(170/645)

---

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثنين ﴾ بناء على أنَّه كان بأمره تعالى لتكميلِ التَّمثيلِ وتتميم التَّسليةِ وهما يحيى وبُولس، وقيل غيرُهما ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أي فأتياهم فدعواهم إلى الحقِّ فكذَّبوهما في الرِّسالةِ ﴿ فَعَزَّزْنَا ﴾ أي قوّينا يقال عزَّزَ المطرُ الأرضَ إذا لبّدها. وقُرِىء

بالتَّخفيفِ من عزَّه إذا غلبه وقهره . وحُذف المفعولُ لدلالة ما قبله عليه ولأنَّ المقصدَ ذكر المعزَّز به ﴿ بِثَالِثٍ ﴾ هو شمعون ﴿ فَقَالُوا ﴾ أي جميعاً ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ مُؤكِّدين كلامهم لسبق الإنكار لما أنَّ تكذيبهما تكذيبٌ للثَّالثِ لاتِّحادِ كلمتهم ، وذلك أنَّهم كانوا عَبَدةَ أصنام فأرسل إليهم عيسى عليه السلام اثنينِ فلما قَرُبا من المدينة رأيا شيخاً يَرعى غُنيماتٍ له وهو حبيبٌ النَّجار صاحبُ يسن فسألهما فأخبراهُ قال أمعكما آيةٌ فقالا نشفي المريضَ ونُبرىء الأكْمه والأبرصَ وكان له ولدٌ مريضٌ منذ سنتينِ فمسحاهُ فقام فآمن حبيبٌ وفشا الخبرُ وشُفي على أيديهما خلقٌ وبلغ حديثُهما إلى الملكِ وقال لهما ألنا إلهٌ سوى آلهتِنا قالا نعم من أوجدكَ وآلهتَك فقال حتَّى أنظرَ في أمرِكما فتبعهما النَّاسُ ، وقيل : ضربُوهما ، وقيل : حُبسا .

(171/645)

---

ثمَّ بعث عيسى عليه السَّلامُ شَمعُون فدخلَ مُتنكِّرا وعاشر حاشيةَ الملك حتَّى استأنُسوا به ورفعوا خبرَه إلى الملكِ فأنسَ به فقالَ له يَوْماً بلغني أنَّك حبستَ رجلينِ فهل سمعتَ ما يقولانِه قال لاَ حال الغضبُ بيني وبينَ ذلكَ فدعاهُما فقال شَمعُون : مَن أرسلكُما قالا الله الذي خلَق كلَّ شيءٍ وليسَ له شريكٌ فقال : صفاهُ وأَوْجِزا . قالاَ يفعلُ مَا يشاءُ ويحكمُ ما

يريدُ قال وما آيتكُما قالا ما يتمنَّى الملكُ فدَعا بغلامٍ مطمُوسِ العينينِ فدعوَا الله تعالى حتَّى انشقَّ له بصرٌ فأخذا بُندقتينِ فوضعاهما في حدقتيهِ فصارتا مُقلتينِ ينظرُ بهما فقال له شَمعُون أرأيتَ لو سألتَ إلهك حتَّى يصنعَ مثلَ هذا فيكونَ لك وله الشَّرفُ قال ليس لي عنك سرٌّ إن إلهنَا لا يُبصر ولا يسمعُ ولا يضرُّ ولا ينفعُ . وكان شمعُون يدخلُ معهم على الصَّنمِ فيصلِّي ويتضرَّعُ وهم يحسبون أنَّه منهم ثم قال : إنْ قدر إلهُكما على إحياءِ ميِّتٍ آمنَّا به فدعَوا بغلامٍ ماتَ من سبعةِ أيامٍ فقامَ وقال إنِّي أُدخلت في سبعةِ أوديةٍ من النَّارِ وإنِّي أُحذركم ما أنتُم فيه فآمِنُوا وقال فُتحت أبوابُ السَّماء فرأيتُ شاباً حسنَ الوجهِ يشفعُ لهولاءِ الثَّلاثةِ قال الملكُ من هُم قال شمعُونُ وهذان . فتعجَّبَ الملكُ فلمَّا رأى شمعُون أنَّ قولَه قد أثر فيه نصحَه فآمنَ وآمن قومٌ ومَن لم يُؤمن صاحَ عليهم جبريلُ عليه السَّلامُ فهلكُوا .

هكذا قالُوا ، ولكن لا يُساعده سياقُ النَّظمِ الكريمِ حيثُ اقتُصر فيه على حكايةِ تمادِيهم في العنادِ واللَّجاجِ وركوبِهم متنَ المُكابرةِ في الحِجاجِ ولم يُذكرْ فيه ممَّن يؤمن أحدٌ سوى حبيبٍ ولو أنَّ الملكَ وقوماً من حواشيه آمنُوا لكان الظَّاهرُ أنْ يُظاهروا الرُّسلَ ويساعدوهم قُبلوا في ذلك أو قُتلوا كدأبِ النَّجارِ الشهيد ولكان لهم فيه ذكرٌ ما بوجه من الوجوه ، اللَّهم إلاَّ أن يكونَ إيمانُ الملكِ بطريق

الخُفيةِ على خوفٍ من عُتاةِ ملِئه فيعتزِلُ عنهم مُعتذراً بعذرٍ من الأعذار .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي أهل أُنطاكيَّةَ الذين لَم يُؤمنوا مُخاطبينَ للثَّلاثةِ ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ مِنْ غَيْرِ مزيةٍ لكُم عَلينا مُوجبةٍ لاختصاصكم بما تدعونَه . ورفعُ بشرٌ لانتقاضِ النَّفي المُقتضي لإعمالِ ما بإلاَّ . ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرحمن مِن شَىْءٍ ﴾ مِمَّا تدعُونه من الوحي والرِّسالةِ ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾ في دعْوى رسالتِه ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ اشتَشهَدوا بعلمِ الله تعالى وهو يَجْري مجرى القسمِ مع ما فيه من تحذيرِهم معارضَةَ علمِ الله تعالى وزادُوا اللاَّمَ المؤكِّدةَ لِما شاهدُوا منهم من شدَّةِ الإنكارِ ﴿ وَمَا عَلَيْنَا ﴾ أي من جهةِ ربِّنا ﴿ إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ أي إلاَّ تبليغَ رسالتِه تبليغاً ظَاهِراً بيِّناً بالآياتِ الشَّاهدةِ بالصِّحَّةِ وقد خرجنا عن عُهدته فلا مؤاخذةَ لنا بعد ذلك من جهةِ ربِّنا أو ما علينا شيءٌ نُطالب به من جهتِكم إلا تبليغُ الرِّسالةِ على الوجهِ المذكورِ وقد فعلناه فأيُّ شيءٍ تطلبون منَّا حتَّى تُصدِّقونا بذلك .

﴿ قَالُواْ ﴾ لمَّا ضاقتْ عليهم الحِيلُ وعيتْ بهم العللُ ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ تشاءمنا بكم جرياً على دَيْدنِ الجَهَلةِ حيث كانُوا يتيَّمنون بكلِّ ما يُوافق شهواتِهم وإن كان مستجلباً لكلِّ شرَ ووبال ويتشاءُمون بما لا يُوافقها وإنْ كان مستتبعاً لسعادةِ الدَّارينِ أو بناء على أنَّ الدَّعوةَ لا تخلُو عن الوعيدِ بما يكرهونَه من إصابة ضُرَ ومتعلّقٍ بأنفسهم وأهليهم وأموالِهم إنْ لم يُؤمنوا فكانُوا ينفرون عنه. وقد رُوي أنَّه حُبس عنهم القطرُ فقالوه: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ ﴾ أي عن مقالتِكم هذه ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ بالحجارةِ ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لا يُقادرُ قَدرُه ﴿ قَالُواْ طائركم ﴾ أي سببُ شُؤمكم ﴿ مَّعَكُمْ ﴾ لا مِن قِبلنا وهو سوءُ عقيدتِكم وقبحُ أعمالكم. وقُرىء طَيرُكُم ﴿ أَءن ذُكّرْتُم ﴾ أي وُعظتُم بما فيه سعادتُكم. وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ ثقةً بدلالة ما قبله عليه أي تطيرتُم وتوعدتُم بالرَّجمِ والتَّعذيبِ. وقُرىء بألفٍ بين الهمزتينِ وبفتحِ أنْ بمعنى أتطيرتُم لأنْ ذُكِّرتم وأنْ ذُكِّرتم وإنْ ذُكِّرتم بغيرِ استفهامٍ وأينَ ذُكِّرتم بمعنى طائركم معكم حيثُ جرى ذكرُكم وهو أبلغُ ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ إضرابٌ عمَّا تقتضيه الشَّرطيَّةُ من كونِ التَّذكيرِ سبباً للشُّؤمِ أو مصحِّحاً للتوعد أي ليس الأمرُ كذلك بل أنتم قومٌ عادتُكم الإسرافُ في العصيان فلذلك أتاكم الشُّؤمُ أو في الظُّلمِ والعُدوانِ ولذلك توعدتُم وتَشاءمتُم بمن يجبُ إكرامُه والتَّبركُ به. انتهى انتهى.

اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً أصحاب القرية ﴾

إما عطف على ما قبله عطف القصة على القصة وأما عطف على مقدر أي فأنذرهم واضرب لهم الخ ، وضرب المثل يستعمل تارة في تطبيق حالة غريبة بأخرى مثلها كما في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً لّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأت نُوحٍ ﴾ [ التحريم : 10 ] الآية وأخرى في ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيرة لها كما في قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الامثال ﴾ [ إبراهيم : 45 ] في وجه أي بينا لكم أحوالاً بديعة هي في الغرابة كالأمثال .

فالمعنى على الأول اجعل أصحاب القرية مثلاً لهؤلاء في الغلو في الكفر والإصرار على التكذيب أي طبق حالهم بحالهم على أن ﴿ مَثَلاً ﴾ مفعول ثان لا ضرب ﴿ وأصحاب القرية ﴾ مفعول الأول أخر عنه ليتصل به ما هو شرحه وبيانه ، وعلى الثاني اذكر وبين لهم قصة هي في الغرابة كالمثل ، وقوله سبحانه : ﴿ أصحاب القرية ﴾ بتقدير مضاف أي مثل أصحاب القرية وهذا المضاف بدل كل من كل أو عطف بيان له على القول بجواز اختلافهما تعريفاً وتنكيراً ، وجوز أن يكون المقدر مفعولاً وهذا حالاً .

والقرية كما روى عن ابن عباس .

وبريدة.

وعكرمة انطاكية، وفي "البحر" إنها هي بلا خلاف.

﴿ إِذْ جَاءهَا المرسلون ﴾ بدل اشتمال ﴿ مِنْ أصحاب القرية ﴾ أو ظرف للمقدر،

وجوز أن يكون بدل كل من ﴿ أصحاب ﴾ مراداً بهم قصتهم وبالظرف ما فيه وهو

تكلف لا داعي إليه، وقيل، إذ جاءها دون إذ جاءهم إشارة إلى أن المرسلين أتوهم في

مقرهم، والمسلون عند قتادة.

وغيره من أجلة المفسرين رسل عيسى عليه السلام من الحواريين بعثهم حين رفع إلى السماء

، ونسبة إرسالهم إليه تعالى في قوله سبحانه:

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثنين ﴾ بناء على أنه كان بأمره تعالى لتكميل التمثيل وتتميم التسلية،

وقال ابن عباس.

وكعب.

(175/645)

---

هم رسل الله تعالى: واختاره بعض الأجلة وادعى أن الله تعالى أرسلهم ردءاً لعيسى عليه

السلام مقررين لشريعته كهرون لموسى عليهما السلام، وأيد بظاهر ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ

اثنين ﴾ وقول المرسل إليهم ﴿ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [يس : 15] إذ البشرية تنافى على زعمهم الرسالة من الله تعالى لا من غيره سحبانه ، واستدل البعض على ذلك بظهور المعجزة كإبراء الأكمه وإحياء الميت على أيديهم كما جاء في بعض الآثار والمعجزة مختصة بالنبي على ما قرر في الكلام ، ومن ذهب إلى الأول أجاب عن الأول بما سمعت وعن الثاني بأنهم إما أن يكونوا دعوهم على وجه فهموا منه أنهم مبلغون عن الله تعالى دون واسطة أو أنهم جعلوا الرسل بمنزلة مرسلهم فخاطبوهم بما يبطل رسالته ونزلوه منزلة الحاضر تغليباً فقالوا ما قالوه ، وعن الثالث بأن ما ظهر على أيديهم إن صح الأثر كان كرامة لهم في معنى المعجزة لعيسى عليه السلام ولا يتعين كونه معجزة لعم إلا إذا كانوا قد ادعوا الرسالة من الله تعالى بدون واسطة وهو أول المسألة ، و ﴿ إِذْ ﴾ بدل من إذ الأولى ، والإثنان قيل يوحنا وبولس ، وقال مقاتل تومان وبولس ، وقال شعيب الجبائي شمعون ويوحنا ، وقال وهب . وكعب : صادق وصدوق ، وقيل نازوص وماروس .

(176/645)

---

وقيل : ﴿ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ﴾ دون أرسلنا إليها ليطابق إذ جاءها لأن الإرسال حقيقة إنما يكون إليهم لا إليها بخلاف المجيء وأيضاً التعقيب بقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ عليه

أظهر وهو هنا نظير التعقيب في قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضرب بّعَصَاكَ الحجر فانفجرت ﴾ [ البقرة : 60 ] وسميت الفاء الفضيحة لأنها تفصح عن فعل محذوف وكان أصحاب القرية إذ ذاك عباد أصنام ﴿ فَعَزَّزْنَا ﴾ أي قوينا هما وشددنا قاله مجاهد وابن قتيبة ، وقال يقال تعزز لحم الناقة إذ صلب ، وقال غيره : يقال عزز المطر الأرض إذا لبدها وشدها ويقال للأرض الصلبة العزاز ومنه العز بمعناه المعروف ، ومفعول الفعل محذوف أي فعززناهما ﴿ بِثَالِثٍ ﴾ لدلالة ما قبله عليه ولأن المقصود ذكر المعزز به .

وهو على ما روى عن ابن عباس شمعون الصفا ويقال سمعنان أيضاً ، وقال وهب وكعب : شلوم وعند شعيب الجبائي بولص بالصاد وبعضهم يحكيه بالسين .

وقرأ الحسن .

وأبو حيوة .

وأبو بكر .

والمفضل .

وأبان ﴿ فَعَزَّزْنَا ﴾ بالتخفيف وهو التشديد لغتان كشدة وشدده فالمعنى واحد ، وقال أبو علي المخفف من عزه إذا غلبه ومنه قولهم من عزيز أي من غلب سلب ، والمعنى عليه فغلبناهم بحجة ثالث .

وقرأ عبد الله ﴿ بالثالث ﴾ ﴿ بالبينات فَقَالُواْ ﴾ عطف على ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾

فعززنا والفاء للتعقيب أي فقال الثلاثة بعد تكذيب الإثنين والتعزيز بثالث ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ ولا يضر في نسبة القول إلى الثلاثة سكوت البعض إذ يكفي الاتفاق بل قالوا طريقة التكلم مع الغير كون المتكلم واحداً والغير متفقاً معه .

(177/645)

---

﴿ قَالُواْ ﴾ أي أصحاب القرية مخاطبين للثلاثة ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ من غير مزية لكم علينا مجبة لاختصاصكم بما تدعونه ، ورفع ﴿ بُشّرَ ﴾ لانتقاض النفي بالا فان ما عملت حملاً على ليس فإذا انتقض نفيها بدخول إلا على الخبر ضعف الشبه فيها فبطل عملها خلافاً ليونس ؛ ومثل صفة ﴿ بُشّرَ ﴾ ولم يكتسب تعريفاً بالإضافة كما عرف في النحو ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرحمن مِن شَىْء ﴾ مما تدعون من الوحي على أحد وظاهر هذا القول يقتضي إقرارهم بالألوهية لكنهم ينكرون الرسالة ويتوسلون بالأصنام وكان تخصيص هذا الاسم الجليل من بين أسمائه عز وجل لزعمهم أن الرحمة تأبى إنزال الوحي لاستدعائه تكليفاً لا يعود منه نفع له سبحانه ولا يتوقف إيصاله تعالى الثواب إلى البعض عليه ، وقيل ذكر الرحمن في الحكاية لا في المحكي وهم قالوا لا إله ولا رسالة لما في بعض الآثار أنهم قالوا ألنا إله سوى آلهتنا ، والتعبير به لحمله تعالى عليهم ورحمته سبحانه إياهم بعدم تعجيل

العذاب آن إنكارهم ولعل ما تقدم أولى وأظهر ولا جزم بصحة ما ينافيه من الأثر .

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ فيما تدعون وهذا تصريح بما قدوه من الجملتين السابقتين واختيار تكذبون على كاذبون للدلالة على التجدد .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي المرسلون ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ استشهدوا بعلم الله تعالى وهو جاري مجرى القسم في التأكيد والجواب بما يجاب به ، وذكر أن من استشهد به كاذباً يكفر ولا كذلك القسم على كذب ، وفيه تحذيرهم معارضة علم الله تعالى ، وفي اختيار عنوان الربوبية رمز إلى حكمة الإرسال كما رمز الكفرة إلى ما ينافيه بزعمهم .

(178/645)

---

وإضافة رب إلى ضمير الرسل لا يأبى ذلك ، ويجوز أن يكون اختياره لأنه أوفق بالحال التي هم فيها من إظهار المعجز على أيديهم فكأنهم قالوا ناصرنا بالمعجزات يعلم إنا إليكم لمرسلون ، وتقديم المسند إليه لتقوية الحكم أو للحصر أي ربنا يعلم لا أنتم لانتفاء النظر في الآيات عنكم .

(179/645)

﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ إلا بتبليغ رسالته تعالى تبليغاً ظاهراً بيناً بحيث لا يخفى على سامعه ولا يقبل التأويل والحمل على خلاف المراد أصلاً وقد خرجنا من عهدته فلا مؤاخذة علينا من جهة ربنا كذا قيل ، والأولى أن يفسر التبليغ المبين بما قرن بالآيات الشاهدة على الصحة وهم قد بلغوا كذلك بناء على ما روى من أنهم أبرؤا الأكمه وأحيوا الميت أو أنهم فعلوا خارقاً غير ما ذكر ولم ينقل لنا ولم يلتزم في الكتاب الجليل ولا في الآثار ذكر خارق كل رسول كما لا يخفى ، ثم إن ذلك إما معجزة لهم على القول بأنهم رسل الله تعالى بدون واسطة أو كرامة لهم معجزة لمرسلهم عيسى عليه السلام على القول بأنهم رسله عليه السلام ، والمعنى ما علينا من جهة ربنا إلا التبليغ البين بالآيات وقد فعلنا فلا مؤاخذة علينا أو ما علينا شيء نطالب به من جهتكم إلا تبليغ الرسالة على الوجه المذكور وقد بلغنا كذلك فأي شيء تطلبون منا حتى تصدقونا بدعوانا ولكون تبليغهم كان بينا بهذا المعنى حسن منهم الاستشهاد بالعلم فلا تغفل ، وجاء كلام الرسل ثانياً في غاية التأكيد لمبالغة الكفرة في الإنكار جداً حيث أتوا بثلاث جمل وكل منها دال على شدة الانكار كما لا يخفى على من له أدنى تأمل قال السكاكي : أكدوا في المرة الأولى لأن تكذيب الإثنين تكذيب للثالث لاتحاد المقالة فلما بالغوا في تكذيبهم زادوا في التأكيد ، وقال الزمخشري : إن الكلام الأول ابتداء أخبار والثاني جوا بعن إنكار ، ووجه ذلك السيد السند بأن الأول

ابتداء إخبار بالنظر إلى أن مجموع الثلاثة لم يسبق منهم إخبار فلا تكذيب لهم في المرة الأولى فيحمل التأكيد فيها على الاعتناء والاهتمام منهم بشأن الخبر انتهى ، وفيه أن الثلاثة كانوا عالمين بإنكارهم والكلام المخرج مع المنكر لا يقال له ابتداء اخبار ، وقال "صاحب الكشف" : أراد أنه غير مسبوق باخبار سابق ولم يرد أنه كلام مع خالي الذهن أو جعل

(180/645)

---

الابتداء باعتبار قول الثالث أو المجموع ، وقال الجلبي : لعل مراده أنه بمنزلة ابتداء إخبار بالنسبة إلى إنكارهم الثاني في عدم احتياجه إلى مثل تلك المؤكذات فكان إنكارهم الأول لا يعد إنكاراً بالنسبة إلى إنكارهم الثاني لا أنه ابتداء اخبار حقيقة ، ولا يخفى ضعف ذلك ، وقال الفاضل اليمني : إنما أكد القول الأول لتنزيلهم منزلة من أنكر إرسال الثلاثة لأنه قد لاح ذلك من إنكار الإثنين فعلى هذا يكون ابتداء اخبار بالنظر إلى إخراج الكلام على مقتضى الظاهر وإنكارياً بالنظر إلى إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر فنظر الزمخشري أدق من نظر السكاكي وإن قال السيد السند بالعكس ، ويعلم ما فيه مما تقدم بأدنى نظر ، وقال أجل المتأخرين الفاضل عبد الحكيم السالكوتي : عندي أن ما ذكره السكاكي مبني على عطف

﴿ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ [يس : 14] على ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا ﴾ [يس : 14] والفاء للتعقيب فيكون الكلام صادراً عن الثلاثة بعد تكذيب الإثنين والتعزيز بثالث فكان كلاماً مع المنكرين فجاء مؤكداً ، وقول الزمخشري مبني على أنه عطف على ﴿ إِذْ جَاءهَا المرسلون ﴾ [يس : 3] وأنه تفصيل للقصة المذكورة إجمالاً بقوله سبحانه : ﴿ إِذْ جَاءهَا المرسلون ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ [يس : 14] فالفاء للتفصيل فقوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ [يس : 14] بيان لقوله عز وجل : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثنين ﴾ [يس : 14] فيكون ابتداء إخبار صدر من الإثنين قالوا بصيغة الجمع تقريراً لشأن الخبر وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُنَا ﴾ [يس : 15] الخ بيان لقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ رَبُّنَا إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ [يس : 16 ، 17] بيان لقوله عز شأنه ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ فإن البلاغ المبين هو إثباتهم الرسالة بالمعجزات وهو التعزيز والغلبة ثم قال : ولا يخفى حسن هذا التفسير لموافقته للقصة المذكورة في التفاسير وملاءمته لسوق الآية فإنها ذكرت أولاً إجمالاً بقوله تعالى : ﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً أصحاب القرية ﴾ [يس : 13] ثم فصلت

بعض التفصيل بقوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءهَا المرسلون ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ [ يس : 13 14 ] ثم فصلت تفصيلاً تاماً بقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ خامدون ﴾ [ يس : 16-29 ] وعدم احتياجه إلى جعل الفاء في ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ فصحية بخلاف تفسير السكاكي فإنه يحتاج إلى تقدير فدعوا إلى التوحيد اه .

*(182/645)*

---

ولا يخفى على المنصف أنه تفسير في غاية البعد والكلام عليه وأصل إلى رتبة الألغاز ، ومع هذا فيه ما فيه ، وأنا أقول : لا يبعد أن يكون الزمخشري أراد بكلامه أحد الاحتمالات التي ذكرت في توجيهه إلا أن ما ذهب إليه السكاكي أبعد عن التكلف وأسلم عن القيل والقال .

﴿ قَالُواْ ﴾ لما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أي تشاء منا بكم جرياً على ديدن الجهلة حيث يتيمنون بكل ما يوافق شهواتهم وإن كان مستجلباً لكل شر ويتشاءمون بما لا يوافقها وإن كان مستتبعاً لكل خير أو بناء على أن الدعوة لا تخلو عن الوعيد بما يكرهونه من إصابة ضر إن لم يؤمنوا فكانوا ينفرون عنه ، وقد قال مقاتل : إنه حبس عنهم المطر وقال آخر : أسرع فيهم الجذام عند تكذيبهم الرسل عليهم السلام ، وقال

ابن عطية : أن تطير هؤلاء كان بسبب ما دخل فيهم من اختلاف الكلمة وافتنان الناس ، وأصل التطهير التفاؤل بالطير البارح والسانح ثم عم ، وكان مناط التطير بهم مقالتهم كما يشعر به قوله تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا ﴾ أي عن مقالتكم هذه .

﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ بالحجارة قاله قتادة وذكر فيه احتمالان احتمال أن يكون الرجم للقتل أي لنقتلنكم بالرجم بالحجارة واحتمال أن يكون للأذى أي لنؤذينكم بذلك ، وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد أنه قال : أي لنشتمنكم ثم قال : والرجم في القرآن كله الشتم .

(183/645)

---

﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال في "البحر" : وهو الحريق ، وقيل عذاب غيره تبقى معه الحياة ، والمراد لنقتلنكم بالحجارة أو لنعذبنكم إذا لم نقتلكم عذاباً أليماً لا يقادر قدره تتمنون معه القتل ، وقيل أريد بالعذاب الأليم العذاب الروحاني وأريد بالرجم بالحجارة النوع المخصوص من الأذى الجسماني فكأنهم قد رددوا الأمر بين إيذاء جسماني وإيذاء روحاني ، وقيل أريد بالعذاب الأليم الجسماني وبالرجم العذاب والأذى الروحاني بناء على أن المراد به الشتم ، وقيل غير ذلك .

﴿ قَالُوا ﴾ أي الرسل رداً عليهم ﴿ طَائِرُكُمْ ﴾ أي سبب شؤمكم ﴿ مَّعَكُمْ ﴾ لا من

قبلنا كما تزعمون وهو سوء عقيدتكم وقبح أعمالكم .

وأخرج ابن المنذر .

عن ابن عباس أنه فسر الطائرة بنفس الشؤم أي شؤمكم معكم وهو الإقامة على الكفر وأما نحن فلا شؤم معنا لأنا ندعوا إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وفيه غاية اليمن والخير والبركة ،

وعن أبي عبيدة .

والمبرد ﴿ طَائِرُكُمْ ﴾ أي حظكم ونصيبكم من الخير والشر معكم من أفعالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وقرأ الحسن .

وابن هرمز .

وعمرو بن عبيد وزر بن حبش ﴿ طيركم ﴾ بياء ساكنة بعد الطاء ، قال الزجاج : الطائر والطير بمعنى ، وفي القاموس الطير جمع طائر وقد يقع على الواحد وذكر أن الطير لم يقع في القرآن الكريم إلا جمعاً كقوله تعالى : ﴿ والطير صافات ﴾ [ النور : 41 ] فإذا كان في هذا القراءة كذلك فطائر وإن كان مفرداً لكنه بالإضافة شامل لكل ما يتطير به فهو في معنى الجمع فالقراءتان متوافقتان ، وعن الحسن أنه قرأ ﴿ أطيركم ﴾ مصدر أطير الذي أصله تطير فأدغمت التاء في الطاء فاجتلبت همزة الوصل في الماضي والمصدر ﴿ أَءِن ذُكِّرْتُم ﴾ بهمزتين الأولى همزة الاستفهام والثانية همزة إن الشرطية حققها الكوفيون .

وابن عامر وسهلها باقي السبعة.

واختلف سيبويه.

(184/645)

---

ويونس فيما إذا اجتمع استفهام وشرط أيهما يجاب فذهب سيبويه إلى إجابة الاستفهام أي تقدير المستفهم عنه وكأنه يستغنى به عن تقدير جواب الشرط فالمعنى عليه أئن ذكرتم ووعظتم بما فيه سعادتكم تتطيرون أو تتوعدون أو نحو ذلك ويقدر مضارع مرفوع وإن شئت قدرت ماضياً كتطيرتم.

وذهب يونس إلى إجابة الشرط وكأنه يستغنى به عن إجابة الاستفهام وتقدير مصب له فالتقدير أئن ذكرتم تتطيروا أو نحوه مما يدل عليه ما قبل ويقدر مضارع مجزوم وإن شئت قدرت ماضياً مجزوم المحل.

وقرأ زر بهمزتين مفتوحتين وهي قراءة أبي جعفر.

وطلحة إلا أنهما لينا الثانية بين بين، وعلى تحقيقهما جاء قول الشاعر:

إن كنت داود بن أحوى مرجلا . . .

فلست براع لابن عمك محرماً

فالهمزة الأولى للاستفهام والثانية همزة إن المصدرية والكلام على تقدير حرف لام الجر أي ألأن ذكرتم تطيرتم .

وقرأ الماجشون يوسف بن يعقوب المدني بهمزة واحدة مفتوحة فيحتمل تقدير همزة الاستفهام فتتحد هذه القراءة والتي قبلها معنى ، ويحتمل عدم تقديرها فيكون الكلام على صورة الخبر ، وهو على ما قيل مسوق للتعجب والتوبيخ ، وتقدير حرف الجر على حاله ، والجار متعلق بمحذوف على ما يشعر به كلام الكشاف أي تطيرتم لأن ذكرتم ، وقال ابن جني ﴿ إن ذُكِّرْتُم ﴾ على هذه القراءة معمول ﴿ طائركم مَّعَكُمْ ﴾ فإنهم لما قالوا ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ [ يس : 18 ] أجيبوا بل طائركم معكم إن ذكرتم أي هو معكم لأن ذكرتم فلم تذكروا ولم تنتهوا فاكتفى بالسبب الذي هو التذكير عن المسبب الذي هو الانتهاء كما وصفوا الطائر موضع مسببه وهو التشاؤم لما كانوا يألفونه من تكارههم نعيب الغراب أو بروحه .

وقرأ الحسن بهمزة واحدة مكسورة وفي ذلك احتمالان تقدير الهمزة فتتحد هذه القراءة وقراءة الجمهور وعدم تقديرها فيكون الكلام على صورة الخبر والجواب محذوف لدلالة ما قبل عليه وتقديره كما تقدم ، وقرأ أبو عمرو في رواية .

وزر أيضاً بهمزتين مفتوحتين بينهما مدة كأنه استثقل اجتماعهما ففصل بينهما بألف .

وقرأ أيضاً أبو جعفر .

والحسن وكذا قرأ قتادة .

والأعمش وغيرهما ﴿ أَيْنَ ﴾ بهمزة مفتوحة وياء ساكنة وفتح النون ﴿ ذُكِّرْتُم ﴾ بتخفيف الكاف على أن أين ظرف أداة شرط وجوابها محذوف لدلالة طائركم عليه على ما قيل أي أين ذكرتم صحبكم طائركم والمراد شؤمكم معكم حيث جرى ذكركم وفيه من المبالغة بشؤمهم ما لا يخفى .

وفي "البحر" من جوز تقديم الجزاء على الشرط وهم الكوفيون وأبو زيد .

والمبرد يجوز أن يكو الجواب طائركم معكم وكان أصله أين ذكرتم فطائركم معكم فلما قدم حذف الفاء ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أي عادتكم الإسراف ومجاوزة الحد في العصيان مستمرون عليه فمن ثم أتاكم الشؤم لا من قبل رسل الله تعالى وتذكيرهم فهو إضراب عما يقتضيه قوله تعالى : ﴿ أَءن ذُكِّرْتُم ﴾ من إنكار أن يكون ما هو سبب السعادات أجمع سبب الشؤم لأنه تنبيه وتحريك إلى البت عليهم بلزام الشؤم وإثبات الإسراف الذي هو أبلغ وهو جالب الشؤم كله أو بل ﴿ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ في ضلالكم متمادون في غيكم حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من الهداة لدين الله تعالى فهو إضراب عن مجموع الكلام

أجابوهم بأنهم جعلوا أسباباً للسعادة مدمجين فيه التنبيه على سوء صنيعهم في الحرمان عنها ثم أضربوا عنه إلى ما فعل القوم من التعكيس لما يقتضيه النظر الصحيح فتأمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

(186/645)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) ﴾

أعقب وصف إعراضهم وغفلتهم عن الانتفاع بهدي القرآن بتهديدهم بعذاب الدنيا إذ قد جاء في آخر هذه القصة قوله : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدةً فإذا هم خامدون ﴾ [ يس : 29 ] .

والضرب مجاز مشهور في معنى الوضع والجعل ، ومنه : ضرب ختمه .

وضربتْ بيتاً ، وهو هنا في الجعل وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن اللَّه لا يستحيي أن يضرب مثلاً مَّا ﴾ في سورة البقرة ( 26 ) .

والمعنى : اجعل أصحاب القرية والمرسلين إليهم شَبهاً لأهل مكة وإرسالك إليهم .

ولهم ﴾ يجوز أن يتعلق بـ ﴿ اضرب ﴾ أي اضرب مثلاً لأجلهم ، أي لأجل أن يعتبروا

كقوله تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ﴾ [ الروم : 28 ] .

ويجوز أن يكون ﴿ لهم ﴾ صفة ل ( مثَل ) ، أي اضرب شبيهاً لهم كقوله تعالى : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ [ النحل : 74 ] .

والمثل : الشبيه ، فقوله : ﴿ واضرب لهم مثلاً ﴾ معناه ونظّرْ مثلاً ، أي شَبِّه حالهم في تكذيبهم بك بشبيه من السابقين ، ولما غلب المثل في المشابه في الحال وكان الضرب أعم جُعل ﴿ مثلاً ﴾ مفعولاً ل ﴿ اضرب ﴾ ، أي نظّر حالهم بمشابه فيها فحصل الاختلاف بين ﴿ اضرب ﴾ ، و ﴿ مثلاً ﴾ بالاعتبار .

وانتصب ﴿ مثلاً ﴾ على الحال .

وانتصب ﴿ أصحاب القرية ﴾ على البيان ل ﴿ مثلاً ﴾ ، أو بدل ، ويجوز أن يكون مفعولاً أول ل ﴿ اضرب ﴾ و ﴿ مثلاً ﴾ مفعولاً ثانياً كقوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً قرية ﴾ [ النحل : 112 ] .

والمعنى : أن حال المشركين من أهل مكة كحال أصحاب القرية الممثل بهم .

و ﴿ القرية ﴾ قال المفسرون عن ابن عباس : هي ( أنطاكية ) وهي مدينة بالشام متاخمة لبلاد اليونان .

والمرسلون إليها قال قتادة : هم من الحواريين بعثهم عيسى عليه السلام وكان ذلك حين رُفع

عيسى .

وذكروا أسماءهم على اختلاف في ذلك .

(187/645)

---

وتحقيق القصة : أن عيسى عليه السلام لم يدْعُ إلى دينه غير بني إسرائيل ولم يكن الدين الذي أرسل به إلا تكملة لما اقتضت الحكمة الإلهية إكماله من شريعة التوراة ، ولكن عيسى أوصى الحواريين أن لا يغفلوا عن نهي الناس عن عبادة الأصنام فكانوا إذا رأوا رؤيا أو خطر لهم خاطر بالتوجه إلى بلد من بلاد إسرائيل أو مما جاورها ، أو خطر في نفوسهم إلهام بالتوجه إلى بلد علموا أن ذلك وحي من الله لتحقيق وصية عيسى عليه السلام .

وكان ذلك في حدود سنة أربعين بعد مولد عيسى عليه السلام .

ووقعت اختلافات للمفسرين في تعيين الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أهل أنطاكية وتحريفات في الأسماء ، والذي ينطبق على ما في كتاب أعمال الرسل من كتب العهد الجديد أن ( برنابا ) و ( شاول ) المدعو ( بُولس ) من تلاميذ الحواريين ووُصِفا بأنهما من الأنبياء ، كانا في أنطاكية مرسلَيْن للتعليم ، وأنهما عُزِزا بالتلميذ ( سيلا ) .

وذكر المفسرون أن الثالث هو ( شمعون ) ، لكن ليس في سفر الأعمال ما يقتضي أن بُولس

وبرنابا عزّزا بسمعان .

ووقع في الإِصحاح الثالث عشر منه أنه كان نبيء في أنطاكية اسمه ( سمعان ) .

والمكذبون هم من كانوا سكاناً بأنطاكية من اليهود واليونان ، وليس في أعمال الرسل سوى كلمات مجملة عن التكذيب والمحاورة التي جرت بين المرسلين وبين المرسل إليهم ، فذكر أنه كان هنالك نفر من اليهود يطعنون في صدق دعوة بولس وبرنابا ويثيرون عليهما نساء الذين يؤمنون بعيسى من وجوه المدينة من اليونان وغيرهم ، حتى اضطر ( بولس وبرنابا ) إلى أن خرجا من أنطاكية وقصدا أيقونية وما جاورها وقاومهما يهود بعض تلك المدن ، وأن أحبار النصارى في تلك المدائن رأوا أن يعيدون بولس وبرنابا إلى أنطاكية .

(188/645)

---

وبعد عودتهما حصل لهما ما حصل لهما في الأولى وبالخصوص في قضية وجوب الختان على من يدخل في الدين ، فذهب بولس وبرنابا إلى أورشليم لمراجعة الحواريين فرأى أحبار أورشليم أن يؤيدوهما برجلين من الأنبياء هما ( برسابا ) و ( سيلا ) .

فأما ( برسابا ) فلم يمكث .

وأما ( سيلا ) فبقي مع ( بولس وبرنابا ) يعظون الناس ، ولعل ذلك كان بوحي من الله إليهم

وإلى أصحابهم من الحواريين .

فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ إذ أسند الإرسال والتعزيز إلى الله .

والتعزيز : التقوية ، وفي هذه المادة معنى جعل المقوّى عزيزاً فالأحسن أن التعزيز هو النصر .

وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ فعززنا ﴾ بتخفيف الزاي الأولى ، وفعل عزّ بمعنى يحيي مرادفاً لعزّز كما قالوا شدّ وشدّد .

وتأكيد قولهم : ﴿ إنا إليكم مرسلون ﴾ لأجل تكذيبهم إياهم فأكدوا الخبر تأكيداً وسطاً ، ويسمى هذا ضرباً طلبياً .

وتقديم المجرور للاهتمام بأمر المرسل إليهم المقصود إيمانهم بعيسى .

قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15)

كان أهل ( أنطاكية ) والمدن المجاورة لها خليطاً من اليهود وعبدة الأصنام من اليونان ، فقوله : ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ صالح لأن يصدر من عبدة الأوثان وهو ظاهر لظنهم أن الآلهة لا تبعث الرسل ولا تُوحي إلى أحد ، ولذلك جاء في سفر أعمال الرسل أن بعض اليونان من أهل مدينة ( لسترة ) رأوا معجزة من بولس النبي فقالوا بلسان يوناني : إن الآلهة تشبهوا بالناس ونزلوا إلينا فكانوا يدعون ( برنابا ) ( زفسَ ) .

أي كوكب المشتري ، و ( بولسَ ) ( هُرمسَ ) أي كوكب عطارد وجاءهما كاهن ( زفس ) بثيران ليذبحها لهما ، وأكاليل ليضعها عليهما ، فلما رأى ذلك ( بولس وبرنابا ) مزّقا ثيابهما وصرخا : "نحن بشر مثلكم نعظكم أن ترجعوا عن هذه الأباطيل إلى الإلِه الحي الذي خلق السماوات والأرض" الخ .

وصالح لأن يصدر من اليهود الذين لم يتنصّروا لأن ذلك القول يقتضي أنهما وبقية اليهود سواء وأن لا فضل لهما بما يزعمون من النبوءة ويقتضي إنكار أن يكون الله أنزل شيئاً ، أي بعد التوراة .

فمن إعجاز القرآن جمع مقالة الفريقين في هاتين الجملتين .

واختيار وصف ﴿ الرحمان ﴾ في حكاية قول الكفرة ﴿ وما أنزل الرحمان من شيء ﴾ لكونه صالحاً لعقيدة الفريقين لأن اليونان لا يعرفون اسم الله ، وربُّ الأرباب عندهم هو ( زفس ) وهو مصدر الرحمة في اعتقادهم ، واليهود كانوا يتجنبون النطق باسم الله الذي هو في لغتهم ( يَهْوَه ) فيعوضونه بالصفات .

والاستثناء في ﴿ إن أنتم إلا تكذبون ﴾ استفهام مفرغ من أخبار محذوفة فجملة ﴿ تكذبون ﴾ في موضع الخبر عن ضمير ﴿ أنتم ﴾ .

قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17)

حكيت هذه المحاورة على سنن حكاية المحاورات بحكاية أقوال المتحاورين دون عطف.

و﴿ ربنا يعلم ﴾ قَسَم لأنه استشهاد بالله على صدق مقالتهم، وهو يمين قديمة انتقلها

العرب في الجاهلية فقال الحارث بن عَبَّاد:

لم أكن من جُناتِها عَلِم الل

ه وإني لِحرّها اليومَ صالي...

ويظهر أنه كان مغلّظاً عندهم لقلة وروده في كلامهم ولا يكاد يقع إلا في مقام مهم.

وهو عند علماء المسلمين يمين كسائر الأيمان فيها كفارة عند الحِنث.

وقال بعض علماء الحنفية: إن لهم قولاً بأن الحالف به كاذباً تلزمه الردّة لأنه نسب إلى علم

الله ما هو مخالف للواقع، فآل إلى جعل علم الله جهلاً.



وهذا يرمي إلى التغليظ والتحذير وإلا فكيف يكفر أحد بلوازم بعيدة.

واضطرهم إلى شدّة التوكيد بالقسم ما رأوا من تصميم كثير من أهل القرية على تكذيبهم.

ويسمى هذا المقدار من التأكيد ضرباً إنكاريّاً.

وأما قولهم: ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ فذلك وعظ وعظوا به القوم ليعلموا أنهم لا

منفعة تنجرّ لهم من إيمان القوم وإعلان لهم بالتبرُّؤ من عهدة بقاء القوم على الشرك وذلك من شأنه أن يثير النظر الفكري في نفوس القوم .

و ﴿ البلاغ ﴾ اسم مصدر من أبلغ إذا أوصل خبراً ، قال تعالى : ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ [ الشورى : 48 ] وقال : ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ [ إبراهيم : 52 ] .

ولا يستعمل البلاغ في إيصال الذوات .

والفقهاء يقولون في كراء السفن والرواحل : إن منه ما هو على البلاغ .

يريدون على الوصول إلى مكان معيَّن بين المكري والمكتري .

و ﴿ المبين ﴾ وصف للبلاغ ، أي البلاغ الواضح دلالة وهو الذي لا إيهام فيه ولا مواربة .

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18)

لما غلبتهم الحجة من كل جانب وبلغ قول الرسل ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ [ يس : 17 ] من نفوس أصحاب القرية مبلغ الخجل والاستكانة من إخفاق الحجة والاتسام بميسم المكابرة والمنابذة للذين يبتغون نفعهم انصرفوا إلى ستر خجلهم وانفحامهم بتلفيف السبب لرفض دعوتهم بما حسبوه مقنعاً للرسل بترك دعوتهم ظنّاً منهم أن يدَّعونه شيء خفي لا قِبل لغير مخترعه بالمنازعة فيه ، وذلك بأن زعموا أنهم تطّيروا بهم ولحقهم منهم شُؤْم ، ولا بد للمغلوب من بارد العذر .

والتطير في الأصل : تكلف معرفة دلالة الطير على خير أو شر من تعرض نوع الطير ومن

صفة اندفاعه أو مجيئه ، ثم أطلق على كل حدث يَتوهم منه أحد أنه كان سبباً في لحاق شر به فصار مرادفاً للتّشاؤم .

(191/645)

---

وفي الحديث : "لا عَدوى ولا طِيَرَة وإنما الطِيرَة على من تَطير" وبهذا المعنى أطلق في هذه الآية ، أي قالوا : إنا تشاءمنا بكم .

ومعنى ﴿ بكم ﴾ بدعوتكم ، وليسوا يريدون أن القرية حلّ بها حادث سوء يعمّ الناس كلهم من قحط أو وباء أو نحو ذلك من الضرّ العام مقارن لحلول الرسل أو لدعوتهم ، وقد جوزه بعض المفسرين ، وإنما معْنى ذلك : أن أحداً لا يخلو في هذه الحياة من أن يناله مكروه .

ومن عادة أصحاب الأوهام السخيفة والعقول المأفونة أن يسندوا الأحداث إلى مقارناتها دون معرفة أسبابها ثم أن يتخيروا في تعيين مقارنات الشؤم أموراً لا تلائم شهواتهم وما ينفرون منه ، وأن يعينوا من المقارنات للتيمن ما يرغبون فيه وتقبله طباعهم يغالطون بذلك أنفسهم شأن أهل العقول الضعيفة ، فمرجع العلل كلها لديهم إلى أحوال نفوسهم ورغائبهم كما حكى الله تعالى عن قوم فرعون : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم

سيّئة يَطّيّروا بموسى ومن معه ﴾ [الأعراف : 131] وحكَى عن مشركي مكة ﴿ وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ﴾ [النساء : 78] .

ويجوز أن يكونوا أرادوا بالشؤم أن دعوتهم أحدثت مشاجرات واختلافاً بين أهل القرية فلما تمالأت نفوس أهل القرية على أن تعليل كل حدث مكروه يصيب أحدهم بأنه من جراء هؤلاء الرسل اتفقت كلمتهم على ذلك فقالوا : ﴿ إنا تطيرنا بكم ﴾ أي يقولها الواحد منهم أو الجمع فيوافقهم على ذلك جميع أهل القرية .

ثم انتقلوا إلى المطالبة بالانتهاء عن هذه الدعوة فقالوا : ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم ﴾ وبذلك ألجأوا ( بولس ) و ( برنابا ) إلى الخروج من أنطاكية فخرجا إلى أيقونية وظهرت كرامة ( بولس ) في أيقونية ثم في ( لسترة ) ثم في ( دربة ) .

(192/645)

---

ولم يزل اليهود في كل مدينة من هذه المدن يشاقّون الرسل ويضطهدونهم ويثيرون الناس عليهم ويَلحقونهم إلى كل بلد يحلّون به ليشغبوا عليهم ، فمسّهم من ذلك عذاب وضرّ ورُجم ( بولس ) في مدينة ( لسترة ) حتى حسبوا أن قد مات .

ولام ﴿ لئن لم تنتهوا ﴾ موطئة للقسم حكي بها ما صدر منهم من قسم بكلامهم .

قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19)

حكي قول الرسل بما يرادفه ويؤدي معناه بأسلوب عربي تعريضاً بأهل الشرك من قريش الذين ضربت القرية مثلاً لهم ، فالرسل لم يذكروا مادة الطيرة والطير وإنما أتوا بما يدل على أن شؤم القوم متصل بذواتهم لا جاءٍ من المرسلين إليهم فحكي بما يوافقه في كلام العرب تعريضاً بمشركي مكة وهذا بمنزلة التجريد لضرب المثل لهم بأن لوحظ في حكاية القصة ما هو من شؤون المشبّهين بأصحاب القصة .

ولما كانت الطيرة بمعنى الشؤم مشتقة من اسم الطير لوحظ فيها مادة الاشتقاق .

وقد جاء إطلاق الطائر على معنى الشؤم في قوله تعالى في سورة الأعراف ( 131 ) : ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ على طريقة المشاكلة .

ومعنى طائركم معكم ﴾ الطائر الذي تنسبون إليه الشؤم هو معكم ، أي في نفوسكم ، أرادوا أنكم لو تدبرتم لوجدتم أن سبب ما سميتموه شؤماً هو كفركم وسوء سمعكم للمواعظ ، فإن الذين استمعوا أحسن القول اتبعوه ولم يعْتَدُوا عليكم ، وأنتم الذين آثرتم الفتنة وأسعرتم البغضاء والإِحن فلا جرم أنتم سبب سوء الحالة التي حدثت في المدينة .

وأشار آخرُ كلامهم إلى هذا إذ قالوا : ﴿ أَإِن ذُكِّرتم ﴾ بطريقة الاستفهام الإِنكاري الداخل على ﴿ إِنْ ﴾ الشرطية ، فهو استفهام على محذوف دلّ عليه الكلام السابق ، وقُيِّد ذلك المحذوف بالشرط الذي حذف جوابه أيضاً استغناء عنه بالاستفهام عنه ، وهما بمعنى واحد ، إلا أن سيبويه يرجّح إذا اجتمع الاستفهام والشرط أن يؤتى بما يناسب الاستفهام لو صرح به ، فكذلك لمَّا حُذف يكون المقدَّر مناسباً للاستفهام .

والتقدير : أتتشاءمون بالتذكير إنْ ذُكِّرتم ، لما يدل عليه قول أهل القرية ﴿ إنا تطيرنا بكم ﴾ [ يس : 18 ] ، أي بكلامكم وأبطلوا أن يكون الشؤم من تذكيرهم بقولهم : ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ أي لا طيرة فيما زعمتم ولكنكم قوم كافرون غشيت عقولكم الأوهام فظننتم ما فيه نفعكم ضرّاً لكم ، ونُطتم الأشياء بغير أسبابها من إغراقكم في الجهالة والكفر وفساد الاعتقاد .

ومن إسرافكم اعتقادكم بالشؤم والبخت .

وقرأ الجمهور ﴿ أَإِن ذُكِّرتم ﴾ بهمزة استفهام داخلة على ﴿ إِنْ ﴾ المكسورة الهمزة الشرطية وتشديد الكاف .

وقرأه أبو جعفر ﴿ أَأَن ذُكِرتم ﴾ بفتح كلتا الهمزتين وبتخفيف الكاف من ﴿ ذُكِرتم ﴾ . والاستفهام تقرير ، أي أَلأَجْلِ إن ذكرنا أسماءَكم حين دعوناكم حلّ الشؤم بينكم كناية عن كونهم أهلاً لأن تكون أسماؤهم شؤماً .

وفي ذكر كلمة ﴿ قوم ﴾ إيذان بأن الإسراف متمكن منهم وبه قِوام قوميتهم كما تقدم في قوله : ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة البقرة ( 164 ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

(194/645)

---

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) ﴾

انقرض زمانهم ونُسِيَ أوانهم وشأنُهم ! ولكننا نتذكر أحوالهم بعد فوات أوقاتهم ، ولا نرضى بألا يجري بين أحبائنا وعلى أْلسِنَةِ أوليائنا ذِكْرُ الغائبين والماضين ، وهذا مخلوقٌ يقول في صفة مخلوق :

إذا نَسِيَ الناسُ إخوانهم . . . وخَانَ المودَّةَ خِلاَّنُها

فعندي لإخوانِي الغائبين . . . صحائفُ ذِكْرُكَ عنوانُها

قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15)

قال الرسل : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ وليس عِلْمُنا إلاَّ بما أُمِرْنا به من التبليغ

والإنذار .

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18)

لنرجمنّكم ، ولنَصْنَعَنّ ، ولنفعَلَنَّ . . فأجابهم الرسل : إنكم لجهلكم وجحدكم سوف تَلْقَوْنَ ما تُوعَدُون . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 213.214 ﴾

(195/645)

---

قوله تعالى ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان السياق لأن الأمر بيد الله ، فلا هادي لمن أضل ولا مضل لمن هدى ، فهو يهدي البعيد في البقعة والنسب إذا أراد ، ويضل القريب فيهما إن شاء ، وكان بعد الدار ملزوماً

في الغالب لبعد النسب ، قدم مكان المجيء على فاعله بياناً لأن الدعاء نفع الأقصى ولم ينفع الأدنى فقال : ﴿ وجاء من أقصا ﴾ أي أبعد - بخلاف ما مر في سورة القصص ؛ ولأجل هذا الغرض عدل عن التعبير بالقرية كما تقدم وقال : ﴿ المدينة ﴾ لأنها أدل على الكبر المستلزم لبعد الأطراف وجمع الأخلاط .

ولما بين الفاعل بقوله : ﴿ رجل ﴾ بين اهتمامه بالنهي عن المنكر ومسابقته إلى إزالته كما هو الواجب بقوله : ﴿ يسعى ﴾ أي يسرع في مشيه فوق المشي ودون العدو حرصاً على نصيحة قومه .

ولما تشوفت النفس إلى الداعي إلى إتيانه ، بينه قوله : ﴿ قال ﴾ واستعطفهم بقوله : ﴿ يا قوم ﴾ وأمرهم بمجاهدة النفوس بقوله : ﴿ اتبعوا المرسلين ﴾ أي في عبادة الله وحده وكل ما يأمرونكم به ؛ ثم نبههم على الداعي إلى اتباعهم والمانع من الإعراض عنهم بقوله ، معداً الفعل دلالة على شدة اهتمامه به : ﴿ اتبعوا ﴾ أي بغاية جهدكم ﴿ من لا يسئلكم ﴾ أي في حال من الأحوال ﴿ أجراً ﴾ ولما كان أفرد الضمير نظراً إلى لفظ " من " دلالة على وجوب الاتباع لمن اتصف بهذا الأمر الدال على الرسالة وإن كان واحداً ، جمع بياناً للأولوية بالتظافر والتعاضد والاتفاق في الصيانة والبعد عن الدنس ، الدال على اتحاد القصد الدال على تحتم الصدق فقال : ﴿ وهم مهتدون ﴾ أي ثابت لهم الاهتداء لا

يزايلهم ، ما قصدوا شيئاً إلا أصابوا وجه صوابه ، فتفوزوا بالدين الموجب للفوز بالآخرة ، ولا يفوتكم شيء من الدنيا ، فأتى بمجامع الترغيب في هذا الكلام الوجيز .

*(196/645)*

---

ولما أفهم السياق أنه قال : فإني اتبعتهم في عبادة الله ، بنى عليه قوله جواباً لمن يلومه على ذلك وترغيباً فيما اختاره لنفسه وتوبيخاً لمن يأباه : ﴿ وما ﴾ أي وأيّ شيء ﴿ لي ﴾ في أني ﴿ لا أعبد الذي فطرني ﴾ أي وإليه أرجع ، فله مبدئي ومعادي ، وما لكم لا تعبدون الذي فطركم ﴿ وإليه ﴾ أي لا إلى غيره ﴿ ترجعون ﴾ كذلك فهو يستحق العبادة شكراً لما أنعم به في الابتداء وخوفاً من عاقبته في الانتهاء فالآية من الاحتباك : حذف " وإليه أرجع " أولاً لما دل عليه ثانياً ، وإنكاره عليهم ثانياً بما دل عليه أولاً من إنكاره على نفسه استجلاباً لهم بإظهار الإنصاف ، والبعد عن التصريح بالخلاف ، وفيه تنبيه لهم على موجب الشكر ، وتهديد على ارتكاب الكفر .

ولما أمر صريحاً ونهى تلويحاً ، ورغب ورهب ، ووبخ وقرع ، وبين جلالة من آمن به ومن كانوا سبباً في ذلك ، أنكر على من يفعل غيره بالإنكار على نفسه ، محقراً لمن عبدوه من دون الله وهو غارقون في نعمه ، فقال مشيراً بصيغة الافتعال إلى أن في ذلك مخالفة للفطرة

الأولى : ﴿ ءأتخذ ﴾ وبين علو رتبته سبحانه بقوله : ﴿ من دونه ﴾ أي سواء مع دنو المنزلة ؛ وبين عجز ما عبدوه بتعدده فقال : ﴿ آلهة ﴾ ثم حقق ذلك بقوله مبيناً بأداة الشك أن النفع أكثر من الضر ترغيباً فيه سبحانه : ﴿ إن يردن ﴾ إرادة خفيفة بما أشار إليه حذف الياء ، أو شديدة بما أشار إليه إثباتها ، ظاهرة بما دل عليه تحريكها ، أو خفية بما نبه عليه إسكانها .

ولما ذكرهم بإبداعه سبحانه له إرشاداً إلى أنهم كذلك ، صرح بما يعمهم فقال :

﴿ الرحمن ﴾ أي العام النعمة على كل مخلوق من العابد والمعبود ، وحذرهم بقوله :

﴿ بضر ﴾ وأبطل أنهى ما يعتقدونه فيها بقوله : ﴿ لا تغن عني ﴾ أي وكل أحد مثلي في هذا ﴿ شفاعتهم ﴾ أي لو فرض أنهم شفعوا ولكن شفاعتهم لا توجد ﴿ شيئاً ﴾ من إغناء .

(197/645)

---

ولما دل بإفراد الشفاعة على عدهم عدماً ولو اتحدت شفاعتهم وتعاونهم في آن واحد ، دل بضمير الجمع على أنهم كذلك سواء كانوا مجتمعين أو متفرقين فقال : ﴿ ولا ينقذون ﴾ أي من مصيبته إن دعا الأمر إلى المشاقة بما أراده فإنه بمجرد إرادته يكون مراده ، إنقاذاً

ضعيفاً - بما أشار إليه من حذف الياء ، ولا شديداً - بما دل عليه من أثبتها ظاهراً خفياً ، ثم استأنف ما يبين بعد ذلك عن فعل العقلاء الناصحين لأنفسهم بقوله مؤكداً له بأنواع التأكيد لأجل إنكارهم له بعدم رجوعهم عن معبوداتهم : ﴿ إني إذاً ﴾ أي إذا فعلت ذلك الاتخاذ ﴿ لفي ضلال ﴾ أي محيط بي لا أقدر معه على نوع اهتداء ﴿ مبين ﴾ أي واضح في نفسه لمن لم يكن مظروفاً له ، موضح لكل ناظر ما هو فيه من الظلام .

ولما أقام الأدلة ولم يبق لأحد تخلف عنه علة ، صرح بما لوح إليه من إيمانه ، فقال مظهراً لسروره بالتأكيد وقاطعاً لما يظنونه من أنه لا يجترئ على مقاطعتهم كلهم بمخالفتهم في أصل الدين : ﴿ إني آمنت ﴾ أي أوقعت التصديق الذي لا تصديق في الحقيقة غيره بالرسل مؤمناً لهم من أن أدخل عليهم نوع تشويش من تكذيب أو غيره .

ولما أرشدهم بعموم الرحمانية تلويحاً ، صرح لهم بما يلزمهم شكره من خصوص الربوبية فقال : ﴿ بربكم ﴾ أي بسبب الذي لا إحسان عندكم إلا منه قد نسيتم ما له لديكم من الربوبية والرحمانية والإبداع ، وزاد في مصارحتكم إظهاراً لعدم المبالاة بهم بقوله : ﴿ فاسمعون ﴾ أي سماعاً إن شئتم أشعتموه ، وإن شئتم كتمتموه - بما دل عليه حذف الياء وإثباتها ، فلا تقولوا بعد ذلك : ما سمعناه ، ولو سمعناه لفعلنا به .

فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه ، وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن مثل

صاحب يس هذا في هذه الأمة عروة بن مسعود الثقفي حيث بادى قومة الإسلام ، ونادى على عليته بالأذان ، فرموه بالسهام فقتلوه .

(198/645)

---

ولما كان من المعلوم - بما دل عليه من صلابتهم في تكذيبهم الرسل وتهديدهم مع ما لهم من الآيات - أنهم لا يبقون هذا الذي هو من مدينتهم وقد صارحهم بما إن أغضوا عنه فيه انتقض عليهم أكثر أمرهم ، لم يذكره تعالى عداً له عداد ما لا يحتاج إلى ذكره ، وقال جواباً لمن تشوف إلى علم حاله بعد ذلك بقوله إيجازاً في البيان ترغيباً لأهل الإيمان : ﴿ قيل ﴾ أي له بعد قتلهم إياه ، فبناه للمفعول وحذفه لأن المقصود القول لا قائله والمقول له معلوم : ﴿ ادخل الجنة ﴾ لأنه شهيد ، والشهداء يسرحون في الجنة حيث شاؤوا من حين الموت .

(199/645)

---

ولما كان الطبع البشري داعياً إلى محبة الانتقام ممن وقع منه الأذى بين سبحانه أن الأصفياء على غير ذلك الحال ، فقال مستأنفاً : ﴿ قال يا ليت قومي ﴾ أي الذين فيهم قوة لما يراد

منهم ، فلو كانت قوتهم على الكفار لكانت حسنة ﴿ يعلمون ﴾ ولما أريد التصريح بوقوع الإحسان إليه ، حل المصدر إلى قوله : ﴿ بما غفر لي ﴾ أي أوقع الستر لما كنت مرتكباً له طول عمري من الكفر به بإيمان في مدة يسيرة ﴿ ربي ﴾ أي الذي أحسن إلي في الأخرى بعد إحسانه في الدنيا ﴿ وجعلني ﴾ ولما كان الأنس أعظم فوز ، عدل عن أن يقول " مكرماً " إلى قوله : ﴿ من المكرمين ﴾ أي الذين أعطاهم الدرجات العلى بقطعهم جميع أعمارهم في العبادة ، فنصح لقومه حياً وميتاً يتمنى علمهم بإكرامه تعالى له ليعملوا مثل عمله فينالوا ما ناله ، وفي قصته حث على المبادرة إلى مفارقة الأشرار واتباع الأخيار ، والحلم عن أهل الجهل وكظم الغيظ والتلطف في خلاص الظالم من ظلمه وأنه لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله وإن كان محسناً ، وهذا كما وقع للأنصار .رضى الله عنه.م في المبادرة إلى الإيمان مع بعد الدار والنسب ، وفي قول من استشهد منهم في بئر معونة – كما رواه البخاري في المغازي عن أنس .رضى الله عنه.: بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا ، وفي غزوة أحد كما في السيرة وغيرها لما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال تبارك وتعالى : فأنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله تعالى على رسوله .صلى الله عليه وسلم. ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ﴾ الآيات في سورة آل عمران ، وفي التمثيل بهذه القصة إشارة إلى أن في قريش من ختم بموته على الكفر ولم ينقص ما ضرب

له من الأجل فهو سبحانه يؤيد هذا الدين بغيرهم لتظهر قدرته وليستوفي الآجال أولئك ، ثم يقبل بقلوب غيرهم ، فتظهر مع ذلك حكمته - إلى غير ذلك

من ينابيع المعاني ، وثابت المباني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 252. 255 ﴾

*(200/645)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) ﴾

وفي فائدته وتعلقه بما قبله وجهان أحدهما : أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعي ، وعلى هذا فقوله : ﴿ مِنْ أَقْصَا المدينة ﴾ فيه بلاغة باهرة ، وذلك لأنه لما جاء من أقصى المدينة رجل وهو قد آمن دل على أن إنذارهم وإظهارهم بلغ إلى أقصى المدينة وثانيهما : أن ضرب المثل لما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم تسلية لقلبه ذكر بعد الفراغ من ذكر الرسل سعى المؤمنين في تصديق رسلهم وصبرهم على ما أوذوا ، ووصول الجزاء الأوفى إليهم ليكون ذلك تسلية لقلب أصحاب محمد ، كما أن ذكر

المرسلين تسلية لقلب محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي التفسير مسائل .

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى المدينة رَجُلٌ ﴾ في تنكير الرجل مع أنه كان معروفاً معلوماً عند الله فائدتان الأولى : أن يكون تعظيماً لشأنه أي رجل كامل في الرجولية : الثانية : أن يكون مفيداً لظهور الحق من جانب المرسلين حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به فلا يقال إنهم تواطؤا ، والرجل هو حبيب النجار كان ينحت الأصنام وقد آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل وجوده حيث صار من العلماء بكتاب الله ، ورأى فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه .

المسألة الثانية :



---

قوله : ﴿ يسعى ﴾ تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ، ليكونوا في النصح باذلين جهدهم ، وقد ذكرنا فائدة قوله : ﴿ مِنْ أَقْصَى المدينة ﴾ وهي تبليغهم الرسالة بحيث انتهى إلى من في أقصى المدينة والمدينة هي أنطاكية ، وهي كانت كبيرة شاسعة وهي الآن دون ذلك ومع هذا فهي كبيرة وقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتبعوا المرسلين ﴾ فيه معان لطيفة الأول : في قوله

: ﴿ يا قَوْمِ ﴾ فإنه ينبىء عن إشفاق عليهم وشفقة فإن إضافتهم إلى نفسه بقوله : ﴿ يا قَوْمِ ﴾ يفيد أنه لا يريد بهم إلا خيراً ، وهذا مثل قول مؤمن آل فرعون ﴿ يا قوم اتبعون ﴾ [ غافر : 38 ] فإن قيل قال هذا الرجل ﴿ اتبعوا المرسلين ﴾ وقال ذلك ﴿ اتبعون ﴾ فما الفرق ؟ نقول هذا الرجل جاءهم وفي أول مجيئه نصحهم وما رأوا سيرته ، فقال : اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل ، وأما مؤمن آل فرعون فكان فيهم واتبع موسى ونصحهم مراراً فقال اتبعوني في الإيمان بموسى وهارون عليهما السلام ، واعلموا أنه لو لم يكن خيراً لما اخترته لنفسي وأنتم تعلمون أني اخترته ، ولم يكن للرجل الذي جاء من أقصى المدينة أن يقول أنتم تعلمون اتباعي لهم الثاني : جمع بين إظهار النصيحة وإظهار إيمانه فقوله : ﴿ اتبعوا ﴾ نصيحة وقوله : ﴿ المرسلين ﴾ إظهار أنه آمن الثالث : قدم إظهار النصيحة على إظهار الإيمان لأنه كان ساعياً في النصح ، وأما الإيمان فكان قد آمن من قبل وقوله : ﴿ رَجُلٌ يسعى ﴾ يدل على كونه مريداً للنصح وما ذكر في حكايته أنه كان يقتل وهو يقول : "اللهم اهد قومي" .

اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21)

وهذا في غاية الحسن وذلك من حيث إنه لما قال : ﴿ اتبعوا المرسلين ﴾ كأنهم منعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال لا شك أن الخلق في الدنيا سالكون طريقة وطالبون للاستقامة ، والطريق إذا حصل فيه دليل يدل يجب اتباعه ، والامتناع من الاتباع لا يحسن إلا عند أحد أمرين ، إما مغالاة الدليل في طلب الأجرة ، وإما عند عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته الطريق ، لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحق ، فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين ، أليسوا بمهتدين ، فاتبعوهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وما لِيَ لا أعبد الذي فطرني ﴾ لما قال : ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [ يس : 21 ] بين ظهور اهتدائهم بأنهم يدعون من عبادة الجماد إلى عبادة الحي القويم ، ومن عبادة ما لا ينفع إلى عبادة من منه كل نفع وفيه لطائف : الأولى قوله : ﴿ مَالِيَ ﴾ أي مالي مانع من جانبي .

(203/645)

---

إشارة إلى أن الأمر من جهة المعبود ظاهر لا خفاء فيه ، فمن يمتنع من عبادته يكون من جانبه مانع ولا مانع من جانبي فلا جرم عبدته ، وفي العدول عن مخاطبة القوم إلى حال نفسه حكمة أخرى ولطيفة ثانية : وهي أنه لو قال مالكم لا تعبدون الذي فطركم ، لم يكن في

البيان مثل قوله : ﴿ ومالي ﴾ لأنه لما قال : ﴿ ومالي ﴾ وأحد لا يخفى عليه حال نفسه علم كل أحد أنه لا يطلب العلة وبيانها من أحد لأنه أعلم بحال نفسه فهو يبين عدم المانع ، وأما لو قال : ( مالكم ) جاز أن يفهم منه أنه يطلب بيان العلة لكون غيره أعلم بحال نفسه ، فإن قيل قال الله : ﴿ مَالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ [ نوح : 13 ] تقول القائل هناك غير مدعو ، وإنما هو داع وههنا الرجل مدعو إلى الإيمان فقال : ومالي لا أعبد وقد طلب مني ذلك الثانية : قوله : ﴿ الذي فَطَرَنِي ﴾ إشارة إلى وجود المقتضى فإن قوله : ﴿ ومالي ﴾ إشارة إلى عدم المانع وعند عدم المانع لا يوجد الفعل ما لم يوجد المقتضى ، فقوله : ﴿ الذي فَطَرَنِي ﴾ ينبىء عن الاقتضاء ، فإن الخالق ابتداء مالك والمالك يجب على المملوك إكرامه وتعظيمه ، ومنعم بالإيجاد والمنعم يجب على المنعم شكر نعمته الثالثة : قدم بيان عدم المانع على بيان وجود المقتضى مع أن المستحسن تقديم المقتضى حيث وجد المقتضى ولا مانع فيوجد لأن المقتضى لظهوره كان مستغنياً عن البيان رأساً فلا أقل من تقديم ما هو أولى بالبيان لوجود الحاجة إليه الرابعة : اختار من الآيات فطرة نفسه لأنه لما قال : ﴿ ومالِيَ لاَ أَعْبُدُ ﴾ بإسناد العبادة إلى نفسه اختار ما هو أقرب إلى إيجاب العبادة على نفسه ، وبيان ذلك هو أن خالف عمرو يجب على زيد عبادته لأنه من خلق عمراً لا يكون إلا كامل القدرة شامل العلم واجب الوجود وهو مستحق للعبادة بالنسبة إلى كل مكلف لكن العبادة على زيد بخلق زيد أظهر إيجاباً .

واعلم أن المشهور في قوله : ﴿ فَطَرَنِي ﴾ خلقني اختراعاً وابتداعاً ، والغريب فيه أن يقال : فطرني أي جعلني على الفطرة كما قال الله تعالى : ﴿ فِطْرَةَ الله التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا ﴾ [ الروم : 30 ] وعلى هذا فقوله : ﴿ ومالِيَ لاَ أَعْبُدُ ﴾ أي لم يوجد في مانع فأنا باق على فطرة ربي الفطرة كافية في الشهادة والعبادة فإن قيل فعلى هذا يختلف معنى الفطر في قوله : ﴿ فَاطِرَ السموات ﴾ [ الأنعام : 14 ] فنقول قد قيل بأن فاطر السموات من الفطر الذي هو الشق فالمحذور لازم أو نقول المعنى فيهما واحد كأنه قال فطر المكلف على فطرته وفطر السموات على فطرتها والأول من التفسير أظهر .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إشارة إلى الخوف والرجاء كما قال : ﴿ ادعوه خَوْفاً وَطَمَعًا ﴾ [ الأعراف : 56 ] وذلك لأن من يكون إليه المرجع يخاف منه ويرجى وفيه أيضاً معنى لطيف وهو أن العابد على أقسام ثلاثة ذكرناها مراراً فالأول : عابد يعبد الله ، لكونه إلهاً مالكاً سواء أنعم بعد ذلك أو لم ينعم ، كالعبد الذي يجب عليه خدمة سيده سواء أحسن إليه أو أساء والثاني : عابد يعبد الله للنعمة الواصلة إليه والثالث : عابد يعبد الله خوفاً مثال الأول من يخدم الجواد ، ومثال الثاني من يخدم الغاشم فجعل القائل

نفسه من القسم الأعلى وقال : ﴿ ومالِيَ لاَ أَعْبُدُ الذي فَطَرَنِي ﴾ أي هو مالكي أعبده لأنظر إلى ما سيعطيني ولأنظر إلى أن لا يعذبني وجعلهم دون ذلك فقال : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي خوفكم منه ورجاؤكم فيه فكيف لا تعبدونه ، ولهذا لم يقل وإليه أرجع كما قال فطرني لأنه صار عابداً من القسم الأول فرجوعه إلى الله لا يكن إلا للإكرام وليس سبب عبادته ذلك بل غيره .

(205/645)

---

ثم قال تعالى : ﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً ﴾ ليتم التوحيد ، فإن التوحيد بين التعطيل والإشراك ، فقال : ومالي لا أعبد إشارة إلى وجود الإله وقال : ﴿ أَأَتَّخِذ مِن دُونِهِ ﴾ إشارة إلى نفي غيره فيتحقق معنى لا إله إلا الله ، وفي الآية أيضاً لطائف الأولى : ذكره على طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الأمر ، وذلك أن من أخبر من شيء فقال مثلاً لا أتخذ يصح من السامع أن يقول له لم لا تتخذ فيسأله عن السبب ، فإذا قال : أأتخذ يكون كلامه أنه مستغن عن بيان السبب الذي يطالب به عند الإخبار ، كأنه يقول استشرتك فدلني والمستشار يتفكر ، فكأنه يقول تفكر في الأمر تفهم من غير إخبار مني الثانية : قوله من دونه وهي لطيفة عجيبة : وبيانها هو أنه لما بين أنه يعبد الله بقوله : ﴿ الذي فَطَرَنِي ﴾ [يس :

22 ] يبين أن من دونه لا تجوز عبادته فإن عبد غير الله وجب عبادة كل شيء مشارك للمعبود الذي اتخذ غير الله ، لأن الكل محتاج مفتقر حادث ، فلو قال لا أتخذ آلهة لقيل له ذلك يختلف إن اتخذت إلهاً غير الذي فطرك ، ويلزمك عقلاً أن تتخذ آلهة لا حصر لها ، وإن كان إلهك ربك وخالقك فلا يجوز أن تتخذ آلهة الثالثة : قوله : ﴿ أَءَتَّخِذُ ﴾ إشارة إلى أن غيره ليس بإله لأن المتخذ لا يكون إله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مَا اتخذ صاحبة وَلاَ وَلَداً ﴾ [ الجن : 3 ] وقال : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [ الإسراء : 111 ] لأنه تعالى لا يكون له ولد حقيقة ولا يجوز ، وإنما النصارى قالوا : تبنى الله عيسى وسماه ولداً فقال : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ [ الفرقان : 2 ] ولا يقال قال الله تعالى : ﴿ فاتخذه وَكِيلاً ﴾ في حق الله تعالى حيث قال : ﴿ رَّبُّ المشرق والمغرب لاَ إله إِلاَّ هُوَ فاتخذه وَكِيلاً ﴾ [ المزمل : 9 ] نقول ذلك أمر متجدد ، وذلك لأن الإنسان في أول الأمر يكون قليل الصبر ضعيف القوة ، فلا يجوز أن يترك أسباب الدنيا ويقول إني أتوكل فلا يحسن

(206/645)

---

من الواحد منا أن لا يشتغل بأمر أصلاً ويترك أطفاله في ورطة الحاجة ولا يوصل إلى أهله نفقتهم ويجلس في مسجد وقلبه متعلق بعطاء زيد وعمرو ، فإذا قوي بالعبادة قلبه ونسي

نفسه فضلاً عن غيره وأقبل على عبادة ربه بجميع قلبه وترك الدنيا وأسبابها وفوض أمره إلى الله حينئذٍ يكون من الأبرار الأخيار ، فقال الله لرسوله : أنت علمت أن الأمور كلها بيد الله وعرفت الله حق المعرفة وتيقنت أن المشرق والمغرب ، وما فيهما وما يقع بينهما بأمر الله ، ولا إله يطلب لقضاء الحوائج إلا هو فاتخذه وكيلاً ، وفوض جميع أمورك إليه فقد ارتقيت عن درجة من يؤمر بالكسب الحلال وكنت من قبل تتجر في الحلال ومعنى قوله :

﴿ فاتخذه وكِيلاً ﴾ أي في جميع أمورك وقوله تعالى : ﴿ لاَّ تُغْنِ عَنّي ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون كالوصف كأنه قال : أأتخذ آلهة غير مغنية عند إرادة الرحمن بي ضراً وثانيهما : أن يكون كلاماً مستأنفاً كأنه قال لا أتخذ من دونه آلهة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِن يُرِدْنِ الرحمن بِضُرّ لاَّ تُغْنِ عَنّي شفاعتهم شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :



---

قال : ﴿ إِن يُرِدْنِ الرحمن بِضُرّ ﴾ ولم يقل إن يرد الرحمن بي ضراً ، وكذلك قال تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ الله بِضُرّ هَلْ هُنَّ كاشفات ضُرّه ﴾ [ الزمر : 38 ] ولم يقل إن أراد الله بي

ضراً ، نقول الفعل إذا كان متعدياً إلى مفعول واحد تعدى إلى مفعولين بحرف كاللازم يتعدى بحرف في قولهم ذهب به وخرج به ، ثم إن المتكلم البليغ يجعل المفعول بغير حرف ما هو أولى بوقوع الفعل عليه ويجعل الآخر مفعولاً بحرف فإذا قال القائل مثلاً ؟ كيف حال فلان : يقول اختصه الملك بالكرامة والنعمة فإذا قال كيف كرامة الملك ؟ يقول : اختصها بزيد فيجعل المسؤول مفعولاً بغير حرف لأنه هو المقصود إذا علمت هذا فالمقصود فيما نحن فيه بيان كون العبد تحت تصرف الله يقلبه كيف يشاء في البؤس والرخاء ، وليس الضر بمقصود بيانه ، كيف والقائل مؤمن يرجو الرحمة والنعمة بناءً على إيمانه بحكم وعد الله ويؤيد هذا قوله من قبل ﴿ الذي فَطَرَنِي ﴾ [ يس : 22 ] حيث جعل نفسه مفعول الفطرة فكذلك جعلها مفعول الإرادة وذكر الضر وقع تبعاً وكذا القول في قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ الله بِضُرٍّ ﴾ [ الزمر : 38 ] المقصود بيان أنه يكون كما يريد الله وليس الضر بخصوصه مقصوداً بالذكر ويؤيده ما تقدم حيث قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [ الزمر : 36 ] يعني هو تحت إرادته ويتأيد ما ذكرناه بالنظر في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن ذَا الذي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ الله إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً ﴾ [ الأحزاب : 17 ] حيث خالف هذا النظم وجعل المفعول من غير حرف السوء وهو كالضر والمفعول بحرف هو المكلف ، وذلك لأن المقصود ذكر الضر للتخويف وكونهم محلاًّ له ، وكيف لا وهم كفرة استحقوا العذاب بكفرهم فجعل الضر

مقصوداً بالذكر لزجرهم ، فإن قيل فقد ذكر الله الرحمة أيضاً حيث قال : ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ [ الأحزاب : 17 ] نقول المقصود ذلك ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِهِ



---

وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾ [ الأحزاب : 17 ] وإنما ذكر الرحمة تتمة للأمر بالتقسيم الحاصر ، وكذلك إذا تأملت في قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بكم نفعاً ﴾ [ الفتح : 11 ] فإن الكلام أيضاً مع الكفار وذكر النفع وقع تبعاً لحصر الأمر بالتقسيم ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [ الفتح : 11 ] فإنه للتخويف ، وهذا كقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضلال مُّبِينٍ ﴾ [ سبأ : 24 ] ، والمقصود إني على هدى وأنتم في ضلال ، ولو قال هكذا لمنع مانع فقال بالتقسيم كذلك ههنا المقصود الضر واقع بكم ولأجل دفع المانع قال الضر والنفع .

المسألة الثانية :

قال ههنا : ﴿ إِن يُرِدْنِ الرحمن ﴾ وقال في الزمر : ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ ﴾ [ الزمر : 38 ] فما الحكمة في اختيار صيغة الماضي هنالك واختيار صيغة المضارع ههنا وذكر المريد باسم الرحمن هنا وذكر المريد باسم الله هناك ؟ نقول أما الماضي والمستقبل فإن إن في الشرط تصير الماضي مستقبلاً وذلك لأن المذكور ههنا من قبل بصيغة الاستقبال في قوله :

﴿ أَءَتَّخِذُ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ ﴾ [ يس : 22 ] والمذكور هناك من قبل بصيغة الماضي في قوله : ﴿ أَفَرَءَيْتُمْ ﴾ [ الزمر : 38 ] وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ ﴾ [ الأنعام : 17 ] لكون المتقدم عليه مذكوراً بصيغة المستقبل وهو قوله : ﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ [ الأنعام : 16 ] وقوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ ﴾ [ الأنعام : 15 ] والحكمة فيه هو أن الكفار كانوا يخوفون النبي صلى الله عليه وسلم بضر يصيبه من آلهتهم فكأنه قال صدر منكم التخويف ، وهذا ما سبق منكم ، وههنا ابتداء كلام صدر من المؤمن للتقرير ، والجواب ما كان يمكن صدوره منهم فافترق الأمران ، وأما قوله هناك :

﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ ﴾ [ الزمر : 38 ] فنقول قد ذكرنا أن الأسمين المختصين بواجب الوجود الله والرحمن كما قال تعالى : ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ [ الإسراء : 110 ] والله للهيبة والعظمة والرحمن للرأفة والرحمة ، وهناك وصف الله بالعزة والانتقام في قوله :

﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتقام ﴾ [ الزمر : 37 ] وذكر ما يدل على العظمة ما يدل على

العظمة بقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض ﴾ [ العنكبوت : 61 ] فذكر الاسم الدال على العظمة وقال ههنا ما يدل على الرحمة بقوله : ﴿ الذي فَطَرَنِي ﴾ [ يس : 22 ] فإنه نعمة هي شرط سائر النعم فقال : ﴿ إِن يُرِدْنِ الرحمن بِضُرٍّ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ لاَّ تُغْنِ عَنّى شفاعتهم شَيْئاً وَلاَ ينقذون ﴾ على ترتيب ما يقع من العقلاء ،

(210/645)

---

وذلك لأن من يريد دفع الضر عن شخص أضر به شخص يدفع بالوجه الأحسن فيشفع أولاً فإن قبله إلا يدفع فقال : لا تغن عني شفاعتهم ولا يقدرون على إنقاذي بوجه من الوجوه ، وفي هذه الآيات حصل بيان أن الله تعالى معبود من كل وجه إن كان نظراً إلى جانبه فهو فاطر ورب مالك يستحق العبادة سواء أحسن بعد ذلك أو لم يحسن وإن كان نظراً إلى إحسانه فهو رحمن ، وإن كان نظراً إلى الخوف فهو يدفع ضره ، وحصل بيان أن غيره لا يصلح أن يعبد بوجه من الوجوه ، فإن أدنى مراتبه أن يعد ذلك ليوم كريهة وغير الله لا يدفع شيئاً إلا إذا أراد الله وإن يرد فلا حاجة إلى دافع .

إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24)

يعني إن فعلت فأنا ضال ضلالاً بيناً ، والمبين مفعل بمعنى فعيل كما جاء عكسه فعيل بمعنى

مفعل في قوله أليم أي مؤلم ، ويمكن أن يقال ضلال مبين أي مظهور الأمر للناظر والأول هو الصحيح .

إِنِّي آَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25)

(211/645)

---

في المخاطب بقوله : ﴿ بِرَبِّكُمْ ﴾ وجوه أحدها : هم المرسلون ، قال المفسرون : أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل وهو على المرسلين وقال : إني آمنت بربكم فاسمعوا قولي واشهدوا لي وثانيها : هم الكفار كأنه لما نصحهم وما نفعهم قال : فأنا آمنت فاسمعون وثالثها : بربكم أيها السامعون فاسمعون على العموم ، كما قلنا في قول الواعظ حيث يقول : يا مسكين ما أكثر أملك وما أنزل عملك يريد به كل سامع يسمعه وفي قوله : ﴿ فاسمعون ﴾ فوائد أحدها : أنه كلام مترو متفكر حيث قال : ﴿ فاسمعون ﴾ فإن المتكلم إذا كان يعلم أن لكلامه جماعة سامعين يتفكر وثانيها : أنه ينبه القوم ويقول إني أخبرتكم بما فعلت حتى لا تقولوا لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرت لآمنا معك وثالثها : أن يكون المراد السماع الذي بمعنى القبول ، يقول القائل نصحته فسمع قولي أي قبله ، فإن قلت لم قال من قبل : ﴿ ومَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الذي فَطَرَنِي ﴾ [ يس : 22 ] وقال ههنا : ﴿ آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ولم يقل آمنت بربي

؟ نقول قولنا الخطاب مع الرسل أمر ظاهر ، لأنه لما قال آمنت بربكم ظهر عند الرسل أنه قبل قولهم وآمن بالرب الذي دعوه إليه ولو قال بربي لعلهم كانوا يقولون كل كافر يقول لي رب وأنا مؤمن بربي ، وأما على قولنا الخطاب مع الكفار ففيه بيان للتوحيد ، وذلك لأنه لما قال : ﴿ أَعْبُدُ الذي فَطَرَنِي ﴾ [ يس : 22 ] ثم قال : ﴿ آمَنتُ بِرَبّكُمْ ﴾ فهم أنه يقول ربي وربكم واحد وهو الذي فطرني وهو بعينه ربكم ، بخلاف ما لو قال آمنت بربي فيقول الكافر وأنا أيضاً آمنت بربي ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ الله رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ [ الشورى : 15 ] .

ثم قال تعالى : ﴿ قِيلَ ادخل الجنة ﴾ فيه وجهان أحدهما : أنه قتل ثم قيل له ادخل الجنة بعد القتل وثانيهما : قيل ادخل الجنة عقيب قوله ﴿ ءامَنتُ ﴾ [ يس : 25 ] وعلى الأول .

(212/645)

---

فقوله تعالى : ﴿ قَالَ ياليت قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ يكون بعد موته والله أخبر بقوله وعلى الثاني قال ذلك في حياته وكأنه سمع الرسل أنه من الداخلين الجنة وصدقهم وقطع به وعلمه ، فقال : يا ليت قومي يعلمون كما علمت فيؤمنون كما آمنت وفي معنى قوله تعالى : ﴿ قِيلَ ﴾

وجهان كما أن في وقت ذلك وجهان أحدهما : قيل من القول والثاني : ادخل الجنة ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ ﴾ [ يس : 82 ] ليس المراد القول في وجه بل هو الفعل أي يفعله في حينه من غير تأخير وتراخ وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يا أرض ابلعي ﴾ [ هود : 44 ] في وجه جعل الأرض بالعة ماءها .

بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27)

وفي قوله تعالى : ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ وجوه أحدها : أن ما استفهامية كأنه قال : يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي حتى يشتغلوا به وهو ضعيف ، وإلا لكان الأحسن أن تكون ما محذوفة الألف يقال بم وفيم وعم ولم وثانيها : خبرية كأنه قال : يا ليت قومي يعلمون بالذي غفر لي ربي وثالثها : مصدرية ، كأنه قال : يا ليت قومي يعلمون بمغفرة ربي لي ، والوجهان الآخران هما المختاران .

ثم قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ المكرمين ﴾ قد ذكرنا أن الإيمان والعمل الصالح يوجبان أمرين هما الغفران والإكرام كما في قوله تعالى : ﴿ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [ سبأ : 4 ] والرجل كان من المؤمنين الصلحاء ، والمكرم على ضد المهان ، والإهانة بالحاجة والإكرام بالاستغناء فيغني الله الصالح عن كل أحد ويدفع جميع حاجاته بنفسه . انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 48.54 ﴾

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) ﴾

الضرب للمثل مأخوذ من الضريب الذي هو الشبه في النوع ، كما تقول هذا ضرب هذا ، واختلف هل يتعدى فعل ضرب المثل إلى مفعولين أو إلى واحد ، فمن قال إنه يتعدى إلى مفعولين جعل هذه الآية ﴿ مثلاً ﴾ و ﴿ أصحاب ﴾ مفعولين لقوله ﴿ اضرب ﴾ ، ومن قال إنه يتعدى إلى مفعول واحد جعله ﴿ مثلاً ﴾ وجعل ﴿ أصحاب ﴾ بدلاً منه ، ويجوز أن يكون المفعول ﴿ أصحاب ﴾ ويكون قوله ﴿ مثلاً ﴾ نصب على الحال ، أي في حال تمثيل منك ، و ﴿ القرية ﴾ على ما روي عن ابن عباس والزهري وعكرمة أنطاكية ، واختلف المفسرون في " المرسلين " فقال قتادة وغيره : كانوا من الحواريين الذين بعثهم عيسى عليه السلام حين رفع وصلب الذي ألقي عليه شبهه ، فافترق الحواريون في الآفاق فقص الله تعالى هنا قصة الذين نهضوا إلى انطاكية ، وقالت فرقة : هؤلاء أنبياء من قبل الله تعالى .

قال القاضي أبو محمد : وهذا يرجحه قول الكفرة ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ فإنها محاورة إنما تقال لمن ادعى الرسالة عن الله تعالى والآخر محتمل ، وذكر النقاش في قصص هذه الآية شيئاً يطول والصحة فيه غير متيقنة فاختصرته ، واللازم من الآية أن الله تعالى بعث إليها رسولين فدعيا أهل القرية إلى عبادة الله تعالى وحده ، وإلى الهدى والإيمان فكذبوهما فشدد الله تعالى أمرهما بثالث وقامت الحجة على أهل القرية ، وآمن منهم الرجل الذي جاء يسعى ، وقتلوه في آخر أمره ، وكفروا فأصابتهم صيحة من السماء فخمدوا ، وقرأ جمهور القراء " فعزّزنا " بشد الزاي الأولى على معنى قوينا وشددنا ، وبهذا فسر مجاهد وغيره ، وقرأ عاصم في رواية المفضل عن أبي بكر " فعزَزنا " بالتخفيف في الزاي على معنى غلبناهم أمرهم ، وفي حرف ابن مسعود " فعززنا بالثالث " بألف ولام ، وهذ الأمة أنكرت النبوءة بقولها : ﴿ وما أنزل الرحمن من شيء ﴾ ، وراجعتهم الرسل بأن يردوا العلم إلى الله تعالى وقنعوا بعلمه وأعلموهم أنهم إنما عليهم البلاغ فقط وما عليهم من هداهم وضلالهم ، وفي هذا وعيد لهم .

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18)

قال بعض المتأولين : إن أهل هذه القرية أسرع فيهم الجذام عند تكذيبهم المرسلين فلذلك ﴿ قالوا إنا تطيرنا بكم ﴾ ، وقال مقاتل : احتبس عنهم المطر فلذلك قالوه ، ومعناه تشاءمنا بكم ، مأخوذ من الحكم بالطير ، وهو معنى متداول في الأمم وقلما يستعمل تطيرت إلا في الشؤم ، وأما حكم الطير عند مستعمليه ففي التيمن وفي الشؤم ، والأظهر أن تطير هؤلاء إنما كان بسبب ما دخل قريتهم من اختلاف الكلمة وافتتان الناس ، وهذا على نحو تطير قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى نحو ما خوطب به موسى ، وقال قتادة : قالوا إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم ، و﴿ لنرجمنكم ﴾ معناه بالحجارة ، قاله قتادة ، وقولهم عليهم السلام ، ﴿ طائركم معكم ﴾ ، معناه حظكم وما صار إليه من خير وشر معكم ، أي من أفعالكم ومن تكسباتكم ليس هو من أجلنا ولا بسببنا بل ببغيكم وكفركم ، وبهذا فسر الناس ، وسمي الحظ والنصيب طائراً استعارة أي هو مما تحصل عن النظر في الطائر ، وكثر استعمال هذا المعنى حتى قالت المرأة الأنصارية : فطار لنا ، حين اقتسم المهاجرون ، عثمان بن مظعون ، ويقول الفقهاء : طار لفلان في المحاصة كذا وكذا ، وقرأ ابن هرمز والحسن وعمرو بن عبيد "طيركم معكم" ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر "أإن ذكرتم" بهمزتين الثانية مكسورة على معنى أإن ذكرتم تتطيرون ، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير بتسهيل هذه الهمزة الثانية وردها ياء "أين ذكرتم" ، وقرأ الماجشون "أن ذكرتم" بفتح الألف ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن "إن ذكرتم" بكسر الألف ، وقرأ أبو

عمرو في بعض ما روي عنه وزر بن حبيش "أأن ذكرتم" بهمزتين مفتوحتين وشاهده قول الشاعر : [الطويل]

أأن كنت داود أحوى مرجلاً . . . فلست براعٍ لابن عمك محرما

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع والأعمش "أينْ ذكَرتم" بسكون الياء وتخفيف الكاف .

(216/645)

---

قال القاضي أبو محمد : فهي "أين" المقولة في الظرف ، وهذه قراءة أبي جعفر وخالد وطلحة وقتادة والحسن في تخفيف الكاف فقط ، ثم وصفهم بالإسراف والتعدي ، وأخبر تعالى ذكره عن حال رجل ﴿ جاء من أقصى المدينة ﴾ سمع من المرسلين وفهم عن الله تعالى فجاء يسعى على قدميه وسمع قولهم فلما فهمه روي أنه تعقب أمرهم وسبرهم بأن قال لهم : أتطلبون على دعوتكم هذه أجراً ؟ قالوا : لا ، فدعا عند ذلك قومه إلى اتباعهم و"الإيمان بهم" إذ هو الحق ثم احتج عليهم بقوله ﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجراً ﴾ وهم على هدى من الله .

قال القاضي أبو محمد : وهذه الآية حاكمة بنقص من يأخذ على شيء من أفعال الشرع التي هي لازمة كالصلاة ونحوها ، فإنها كالتبليغ لمن بعث بخلاف ما لا يلزمه كالإمارة والقضاء ،

وقد ارتزق أبو بكر الصديق رضي الله عنه وروي عن أبي مجلز وكعب الأحبار وابن عباس أن اسم هذا الرجل حبيب وكان نجاراً وكان فيما قال وهب بن منبه قد تجذم، فقيل: كان في غار يعبد ربه، وقال ابن أبي ليلى: سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة علي بن أبي طالب وصاحب ياسين ومؤمن آل فرعون، وذكر الناس من أسماء الرسل صادق وصدوق وشلوم وغير هذا والصحة معدومة فاختصرته.

وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22)

(217/645)

---

قرأ الجمهور "ومالِيَ" بفتح الياء، وقرأ الأعمش وحمزة بسكون الياء، وقد تقدم مثل هذا، وقوله تعالى: ﴿ وما لي ﴾ تقرير لهم على جهة التوبيخ في هذا الأمر يشهد العقل بصحته أن من فطر واخترع وأخرج من العدم إلى الوجود فهو الذي يستحق أن يعبد، ثم أخبرهم بأنهم يحشرون إليه يوم القيامة، ثم وقفهم أيضاً على جهة التوبيخ على اتخاذ الآلهة من دون الله تعالى، وهي لا ترد عن الإنسان المقادير التي يريدها الله تعالى به لا بقوة منها ولا بشفاعة، وقرأ طلحة السمان وعيسى الهمداني "أن يردنَي" بياء مفتوحة، ورويت عن نافع وعاصم وأبي عمرو، ثم صدع رضي الله تعالى عنه بإيمانه وأعلن فقال ﴿ إني آمنت

بربكم فاسمعون ﴾ واختلف المفسرون في قوله ﴿ فاسمعون ﴾ فقال ابن عباس وكعب ووهب : خاطب بها قومه .

قال القاضي أبو محمد : على جهة المبالغة والتنبيه ، وقيل خاطب بها الرسل على جهة الاستشهاد بهم والاستحفاظ عندهم ، وقرأ الجمهور " فاسمعونِ " بكسر النون على نية الياء بعدها وروى أبو بكر عن عاصم " فاسمعونَ " بفتح النون قال أبو حاتم : هذا خطأ لا يجوز لأنه أمر ، فإما حذف النون وإما كسرها على نية الياء .

قال القاضي أبو محمد : وهنا محذوف تواترت به الأحاديث والروايات ، وهو أنهم قتلوه ، واختلف كيف ، فقال قتادة وغيره : رجموه بالحجارة ، وقال عبد الله بن مسعود ، مشوا عليه بأقدامهم حتى خرج قصبه من دبره ، فقيل له عند موته ﴿ ادخل الجنة ﴾ وذلك والله أعلم بأن عرض عليه مقعده منها ، وتحقق أنه من ساكنيها برؤيته ما أقر عينه ، فلام تحصل له ذلك تمنى أن يعلم قومه بذلك ، وقيل أراد بذلك الإشفاق والتنصح لهم ، أي لو علموا بذلك لآمنوا بالله تعالى ، وقيل أراد أن يعلموا ذلك فيندموا على فعلهم به ويحزنهم ذلك ، وهذا موجود في جبلة البشر إذا نال خيراً في بلد غربة ود أن يعلم ذلك جيرانه وأترابه الذين نشأ فيهم ولا سيما في الكرامات ، ونحو من ذلك قول الشاعر :

والعز مطلوب وملتمس . . . وأحبه ما نيل في الوطن

قال القاضي أبو محمد : والتأويل الأول أشبه بهذا العبد الصالح ، وفي ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم " نصح قومه حياً وميتاً " ، وقال قتادة بن دعامة : نصحهم على حالة الغضب والرضى ، وكذلك لا تجد المؤمن إلا ناصحاً للناس ، و" ما " في قوله تعالى : ﴿ بما ﴾ يجوز أن تكون مصدرية أي بغفران ربي لي ، ويجوز أن تكون بمعنى الذي ، وفي غفر ضمير عائد محذوف قال الزهراوي : ويجوز أن يكون استفهاماً ثم ضعفه . انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(219/645)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا المدينة رَجُلٌ يسعى ﴾

هو حبيب بن مري وكان نجارا .

وقيل : إسكافاً .

وقيل : قصّاراً .

وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل : هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان يَنْحَت الأصنام ، وهو ممن آمن بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وبينهما ستمائة سنة ، كما آمن به تُبّع الأَكبر وورَقة بن نوفل وغيرهما .

ولم يؤمن بنبيّ أحدٌ إلا بعد ظهوره .

قال وهب : وكان حبيب مجذوماً ، ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ، وكان يَعكِفُ على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم ، لعلهم يرحمونه ويكشفون ضره فما استجابوا له ، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ، ندعو ربّنا القادر فيفرج عنك ما بك .

فقال : إن هذا لَعجب ! أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرّج عني فلم تستطع ، ( فكيف ) يفرجه ربكم في غداة واحدة ؟ قالوا : نعم ، ربُّنا على ما يشاء قدير ، وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر .

فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به ، كأن لم يكن به بأس ؛ فحينئذٍ أقبل على التكسب ، فإذا أمسى تصدّق بكسبه ، فأطعم عياله نصفاً وتصدّق بنصف ، فلما همّ قومه بقتل الرسل جاءهم ف ﴿ قَالَ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ الآية .

وقال قتادة : كان يعبد الله في غارٍ ، فلما سمع بخبر المرسلين جاء يسعى ، فقال للمرسلين : أتطلبون على ما جئتم به أجراً ؟ قالوا : لا ؛ ما أجرنا إلا على الله .

قال أبو العالية: فاعتقد صدقهم وآمن بهم وأقبل على قومه ف"قَالَ يَا قَوْمِ اتبعوا الْمُرْسَلِينَ".

﴿ اتبعوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴾ أي لو كانوا متَّهمين لطلبوا منكم المال ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ فاهتدوا بهم.

﴿ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذي فَطَرَنِي ﴾ قال قتادة: قال له قومه أنت على دينهم؟! فقال: ﴿ ومَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذي فطَرَنِي ﴾ أي خلقني.

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وهذا احتجاج منه عليهم.

(220/645)

---

وأضاف الفطرة إلى نفسه؛ لأن ذلك نعمة عليه توجب الشكر، والبعث إليهم؛ لأن ذلك وعيد يقتضي الزجر؛ فكان إضافة النعمة إلى نفسه أظهر شكراً، وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثراً.

﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ يعني أصناماً.

﴿ إِن يُرِدْنِ الرحمن بِضُرٍّ ﴾ يعني ما أصابه من السقم.

﴿ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونَ ﴾ يخلصوني مما أنا فيه من البلاء ﴿ إني إِذاً

﴿ يعني إن فعلت ذلك ﴿ لَّفِي ضَلَاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي خسران ظاهر .

﴿ إني آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فاسمعون ﴾ قال ابن مسعود : خاطب الرسل بأنه مؤمن بالله ربهم .

ومعنى "فَاسْمَعُونِ" أي فاشهدوا ، أي كونوا شهودي بالإيمان .

وقال كعب ووهب : إنما قال ذلك لقومه إني آمنت بربكم الذي كفرتم به .

وقيل : إنه لما قال لقومه ﴿ اتبعوا المرسلين اتبعوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴾ رفعوه إلى الملك وقالوا : قد تبعت عدوّنا ؛ فطوّل معهم الكلام ليشغلهم بذلك عن قتل الرسل ، إلى أن قال : ﴿ إني آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ فوثبوا عليه فقتلوه .

قال ابن مسعود : وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه من دبره ، وأُلقي في بئر وهي الرَّسُّ وهم أصحاب الرَّسِّ .

وفي رواية أنهم قتلوا الرسل الثلاثة .

وقال السدي : رموه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهدي قومي حتى قتلوه .

وقال الكلبي : حفروا حفرة وجعلوه فيها ، وردموا فوقه التراب فمات ردما .

وقال الحسن : حرقوه حرقاً ، وعلّقوه من سور المدينة وقبره في سور أنطاكية ؛ حكاه الثعلبي .

وقال القشيري : وقال الحسن لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إلى السماء ، فهو في الجنة لا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة ، فإذا أعاد الله الجنة أُدخلها .

وقيل : نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه ، فوالله ما خرجت روحه إلا إلى الجنة فدخلها ؛ فذلك قوله : ﴿ قِيلَ ادخل الجنة ﴾ فلما شاهدها ﴿ قَالَ ياليت قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَلِي رَبِّي ﴾ أي بغفران ربي لي ؛ ف"ما" مع الفعل بمنزلة المصدر .

وقيل : بمعنى الذي والعائد من الصلة محذوف .

ويجوز أن تكون استفهاما فيه معنى التعجب ، كأنه قال ليت قومي يعلمون بأي شيء غفر لي ربي ؛ قاله الفرّاء .

واعترضه الكسائي فقال : لو صحّ هذا لقال بِم من غير ألف .

وقال الفراء : يجوز أن يقال بما بالألف وهو استفهام وأنشد فيه أبياتاً .

الزمخشري : "بِمَ غَفَرَلِي" بطرح الألف أجود ، وإن كان إثباتها جائزاً ؛ يقال : قد علمت بما صنعت هذا وبِمَ صنعت .

المهدوي : وإثبات الألف في الاستفهام قليل .

فيوقف على هذا على "يَعْلَمُونَ" .

وقال جماعة : معنى قيل "ادخل الْجَنَّةَ" وجبت لك الجنة ؛ فهو خبر بأنه قد استحق دخول

الجنة ؛ لأن دخولها يُستحق بعد البعث .

قلت : والظاهر من الآية أنه لما قُتل قيل له ادخل الجنة .

قال قتادة : أدخله الله الجنة وهو فيها حيّ يرزق ؛ أراد قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [ آل عمران : 169 ] على ما تقدم في "آل عمران" بيانه .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ ياليت قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم الذي هو ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ المكرمين ﴾ وقرىء "مِنَ الْمُكَرَّمِينَ" وفي معنى تمنيه قولان : أحدهما أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته .

الثاني تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله .

قال ابن عباس : نصح قومه حياً وميتاً .

رفعه القشيري فقال : وفي الخبر أنه عليه السلام قال في هذه الآية : " إنه نصح لهم في حياته وبعد موته " وقال ابن أبي ليلى : سُبَّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين : علي بن أبي طالب وهو أفضلهم ، ومؤمن آل فرعون ، وصاحب ياس ، فهم الصدّيقون ؛ ذكره الزمخشري مرفوعاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي هذه الآية تنبيه عظيم ، ودلالة على وجوب كظم الغيظ ، والحلم عن أهل الجهل ، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي ، والتشمر في تخليصه ، والتلطف في افتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه .

ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته ، والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام . انتهى . انتهى ا . هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

*(223/645)*

---

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) ﴾

تقدم الكلام على ﴿ اضرب ﴾ مع المثل في قوله : ﴿ إن يضرب مثلاً ما بعوضة ﴾

والقرية : أنطاكية ، فلا خلاف في قصة أصحاب القرية .

﴿ إذ جاءها المرسلون ﴾ : هم ثلاثة ، جمعهم في المجيء ، وإن اختلفوا في زمن المجيء .

﴿ إذا أرسلنا إليهم اثنين ﴾ .

الظاهر من أرسلنا أنهم أنبياء أرسلهم الله ، ويدل عليه قوله المرسل إليهم : ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ .

وهذه المحاورة لا تكون إلا مع من أرسله الله ، وهذا قول ابن عباس وكعب .

وقال قتادة وغيرهم من الحواريين : بعثهم عيسى عليه السلام حين رفع وصلب الذي ألقي عليه الشبه ، فافترق الحواريون في الآفاق ، فقص الله قصة الذين ذهبوا إلى أنطاكية ، وكان أهلها عباد أصنام ، صادق وصدوق ، قاله وهب وكعب الأحبار .

وحكى النقاش بن سمعان : ويحنا .

وقال مقاتل : تومان ويونس .

﴿ فكذبوهما ﴾ ، أي دعواهم إلى الله ، وأخيراً بأنهما رسولا الله ، ﴿ فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ : أي قوينا وشددنا ، قاله مجاهد وابن قتيبة ، وقال ؛ يقال تعزز لحم الناقة إذا صلب ، وقال غيره : يقال المطر يعزز الأرض إذا لبدها وشدها ، ويقال للأرض الصلبة القرآن ، هذا على قراءة تشديد الزاي ، وهي قراءة الجمهور .

وقرأ الحسن ، وأبو حيوة ، وأبو بكر ، والمفضل ، وأبان : بالتخفيف .

قال أبو علي : فغلبنا .

انتهى ، وذلك من قولهم من عزني ، وقوله تعالى : ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ وقرأ عبد الله : بالثالث ، بألف ولام ، والثالث شمعون الصفا ، قاله ابن عباس .

وقال كعب ، ووهب : شلوم ؛ وقيل : يونس .

وحذف مفعول فعززنا مشدداً ، أي قويناهما بثالث مخففاً ، فغلبناهم : أي بحجة ثالث وما يلطف به من التوصل إلى الدعاء إلى الله حتى من الملك على ما ذكر في قصتهم ، وستأتي هي أو بعض منها إن شاء الله .

(224/645)

---

وجاء أولاً مرسلون بغير لام لأنه ابتداء إخبار ، فلا يحتاج إلى توكيد بعد المحاورة .

﴿ لمرسلون ﴾ بلام التوكيد لأنه جواب عن إنكار ، وهؤلاء أمة أنكرت النبوات بقولها : ﴿ وما أنزل الرحمن من شيء ﴾ ، وراجعتهم الرسل بأن ردوا العلم إلى الله وقنعوا بعلمه ، وأعلموهم أنهم إنما عليهم البلاغ فقط ، وما عليهم من هداهم وضلالهم ، وفي هذا وعيد لهم .

ووصف البلاغ بالمبين ، وهو الواضح بالآيات الشاهدة بصحة الإرسال ، كما روي في هذه القصة من المعجزات الدالة على صدق الرسل من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الميت .

﴿ قالوا إنا تطيرنا بكم ﴾ : أي تشاءمنا .

قال مقاتل : احتبس عليهم المطر .

وقال آخر : أسرع فيهم الجذام عند تكذيبهم الرسل .

قال ابن عطية : والظاهر أن تطير هؤلاء كان سببه ما دخل فيهم من اختلاف الكلمة وافتتان الناس ، وهذا على نحو تطير قريش بمحمد ( صلى الله عليه وسلم ) ، وعلى نحو ما خوطب به موسى عليه السلام .

وقال الزمخشري : وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم ، وعادة الجهال أن يتمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه وقبلته طباعهم ، ويشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابتهم نعمة أو بلاء قالوا : ببركة هذا وبشؤم هذا ، كما حكى الله عن القبط : ﴿ وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ وعن مشركي مكة : ﴿ وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ﴾ انتهى .

وعن قتادة : إن أصابنا شيء كان من أجلكم .

﴿ لنرجمنكم ﴾ بالحجارة ، قاله قتادة .

﴿ عذاب أليم ﴾ : هو الحريق .

﴿ قالوا طائركم معكم ﴾ : أي حظكم وما صار لكم من خير أو شر معكم ، أي من أفعالكم ، ليس هو من أجلنا بل بكفركم .

وقرأ الحسن ، وابن هرمز ، وعمرو بن عبيد ، وزر بن حبيش : طيركم بياء ساكنة الطاء .

وقرأ الحسن فيما نقل : اطيركم مصدر اطير الذي أصله تطير ، فأدغمت التاء في الطاء ، فاجتلبت همزة الوصل في الماضي والمصدر .

وقرأ الجمهور : طائركم على وزن فاعل .

*(225/645)*

---

وقرأ الجمهور : ﴿ أئن ذكرتم ﴾ بهمزتين ، الأولى همزة الاستفهام ، والثانية همزة إن الشرطية ، فخففها الكوفيون وابن عامر ، وسهلها باقي السبعة .

وقرأ زر : بهمزتين مفتوحتين ، وهي قراءة أبي جعفر وطلحة ، إلا أنهما البناء الثانية بين بين .

وقال الشاعر في تحقيقها :

أإن كنت داود بن أحوى مرحلاً . . .

فلست بداع لابن عمك محرماً

والماجشوني ، وهو أبو سلمة يوسف بن يعقوب بن عبد الله بن أبي سلمة المدني : بهمزة واحدة مفتوحة ؛ والحسن : بهاء مكسورة ؛ وأبو عمرو في رواية ، وزر أيضاً : بمدة قبل الهمزة المفتوحة ، استثقل اجتماعهما ففصل بينهما بألف .

وقرأ أبو جعفر أيضاً ، والحسن أيضاً ، وقتادة ، وعيس الهمداني ، والأعمش : أين بهمزة مفتوحة وياء ساكنة ، وفتح النون ظرف مكان .

وروي هذا عن عيسى الثقفي أيضاً .

فالقراءة الأولى على معنى : إن ذكرتم تتطيرون ، بجعل المحذوف مصب الاستفهام ، على مذهب سيبويه ، بجعله للشرط ، على مذهب يونس ؛ فإن قدرته مضارعاً كان مجزوماً .

والقراءة الثانية على معنى : ألان ذكرتم تطيرتم ، فإن مفعول من أجله ، وكذلك الهمزة الواحدة المفتوحة والتي بمدة قبل الهمزة المفتوحة ؛ وقراءة الهمزة المكسورة وحدها ، فحرف شرط بمعنى الإخبار ، أي إن ذكرتم تطيرتم .

والقراءة الثانية الأخيرة أين فيها ظرف أداة الشرط ، حذف جزاؤه للدلالة عليه وتقديره : أين ذكرتم صحبكم طائركم ، ويدل عليه قوله : ﴿ طائركم معكم ﴾ .

ومن جوز تقديم الجزاء على الشرط ، وهم الكوفيون وأبو زيد والمبرد ، يجوز أن يكون الجواب ﴿ طائركم معكم ﴾ ، وكان أصله : أين ذكرتم فطائركم معكم ، فاما قدم حذفت الفاء .

وقرأ الجمهور : ذكرتم ، بتشديد الكاف ؛ وأبو جعفر ، وخالد بن الياس ، وطلحة ، والحسن ، وقتادة .

وأبو حيوة ، والأعمش من طريق زائدة ، والأصمعي عن نافع : بتخفيفها .

﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ : مجاوزون الحد في ضلالكم ، فمن ثم أتاكم الشؤم .

(226/645)

---

﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ﴾ اسمه حبيب ، قاله ابن عباس وأبو مجلز وكعب الأحبار ومجاهد ومقاتل .

قيل : وهو ابن إسرائيل ، وكان قصاراً ، وقيل : إسكافاً ، وقيل : كان ينحت الأصنام ، ويمكن أن يكون جامعاً لهذه الصنائع .

و ﴿ من أقصى المدينة ﴾ : أي من أبعد مواضعها .

فقيل : كان في خارج المدينة يعاني زرعاً له .

وقيل : كان في غار يعبد ربه .

وقيل : كان مجذوماً ، فميزله أقصى باب من أبوابها ، عبد الأصنام سبعين سنة يدعوهم لكشف ضره .

فلما دعاه للرسل إلى عبادة الله قال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ، ندعو ربنا القادر يفرج عنك ما بك ، فقال : إن هذا لعجيب ! لي سبعون سنة أدعو هذه الآلهة فلم تستطع ، يفرجه

ربكم في غداة واحدة؟ قالوا : نعم ، ربنا على ما يشاء قدير ، وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر ، فآمن .

ودعوا ربهم ، فكشف الله ما به ، كأن لم يكن به بأس .

فأقبل على التكسب ، فإذا مشى ، تصدق بكسبه ، نصف لعياله ، ونصف يطعمه .

فلما هم قومه بقتل الرسل جاءهم فقال : ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ .

وحبيب هذا ممن آمن برسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، وبينهما ستمائة سنة ، كما آمن به تبع الأكبر ، وورقة بن نوفل وغيرهما ، ولم يؤمن بني غيره أحد إلا بعد ظهوره .

وقال ابن أبي ليلى : سباق الأمم ثلاثة ، لم يكفروا قط طرفة عين : على بن أبي طالب ، وصاحب يس ، ومؤمن آل فرعون .

وأورد الزمخشري قول ابن أبي ليلى حديثاً عن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، وتقدم قبل من حاله أنه كان مجذوماً ، عبد الأصنام سبعين سنة ، فالله أعلم .

وهنا تقدم : ﴿ من أقصى المدينة ﴾ ، وفي القصص تأخر ، وهو من التفنن في البلاغة .

﴿ رجل يسعى ﴾ : يمشي على قدميه .

﴿ قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ .

الظاهر أنه لا يقول ذلك بعد تقدم إيمانه ، كما سبق في قصة .

وقيل : جاء عيسى وسمع قولهم وفهمه فيما فهمه .

روي أنه تعقب أمرهم وسبره بأن قال لهم : أتطلبون أجراً على دعوتكم هذه؟ قالوا : لا ، فدعا عند ذلك قومه إلى اتباعهم والإيمان بهم ، واحتج عليهم بقوله : ﴿ اتبعوا من لايسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ : أي وهم هدى من الله .

أمرهم أولاً باتباع المرسلين ، أي هم رسل الله إليكم فاتبعوهم ، ثم أمرهم ثانياً بجمله جامعة في الترغيب ، في كونهم لا ينقص منهم من حطام دنيانهم شيء ، وفي كونهم يهتدون بهداهم ، فيشتملون على خيري الدنيا والآخرة .

وقد أجاز بعض النحويين في ﴿ من ﴾ أن تكون بدلاً من ﴿ المرسلين ﴾ ، ظهر فيه العامل كما ظهر إذا كان حرف جر ، كقوله تعالى : ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم ﴾ والجمهور : لا يعربون ما صرح فيه بالعامل الرافع والناصب ، بدلاً ، بل يجعلون ذلك مخصوصاً بحرف الجر .

وإذا كان الرافع والناصب ، سموا ذلك بالتتبيع لا بالبدل .

وفي قوله : ﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجراً ﴾ ، دليل على نقص من يأخذ أجراً على شيء من أفعال الشرع التي هي لازمة له ، كالصلاة .

ولما أمرهم باتباع المرسلين، أخذ بيدي الدليل في اتباعهم وعبادة الله، فأبرزه في صورة نصحه لنفسه، وهو يريد نصحهم ليتلطف بهم ويراد بهم؛ ولأنه أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، فوضح قوله: ﴿ ومالي لا أعبد الذين فطرني ﴾، موضع: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم؟ ولذلك قال: ﴿ وإليه ترجعون ﴾، ولولا أنه قصد ذلك لقال: وإليه أرجع.

ثم أتبع الكلام كذلك مخاطباً لنفسه فقال: ﴿ أأتخذ من دونه آلهة ﴾ قاصرة عن كل شيء، لا تنفع ولا تضر؟ فإن أرادكم الله بضر، وشفعت لكم، لم تنفع شفاعتهم، ولم يقدروا على إنقاذكم فيه، أولاً بانتفاء الجاه عن كون شفاعتهم لا تنفع، ثم ثانياً بانتفاء القدر.

فعبر بانتفاء الإنقاذ عنه، إذ هو نتيجته.



---

وفتح ياء المتكلم في يردني مع طلحة السمان، كذا في كتاب ابن عطية، وفي كتاب ابن خالويه طلحة بن مطرف، وعيسى الهمذاني، وأبو جعفر، ورويت عن نافع وعاصم وأبي عمرو.

وقال الزمخشري: وقرىء إن يردني الرحمن بضر بمعنى: إن يجعلني مورداً للضر. انتهى.

وهذا والله أعلم رأي في يكتب القراءات ، يردني بفتح الياء ، فتوهم أنها ياء المضارعة ، فجعل الفعل متعدياً بالياء المعدية كالهمزة ، فلذلك أدخل عليه همزة التعدية ، ونصب به اثنين .

والذي في كتب القراء الشواذ أنها ياء الإضافة المحذوفة خطأ ونطقاً لالتقاء الساكنين .

قال في كتاب ابن خالويه : بفتح ياء الإضافة .

وقال في اللوامح : إن يردني الرحمن بالفتح ، وهو أصل الياء عند البصرية ، لكن هذه محذوفة ، يعني البصرية ، أي المثبتة بالخط البربري بالبصر ، لكونها مكتوبة بخلاف المحذوفة خطأً ولفظاً ، فلا ترى بالبصر .

﴿ إني إذا ﴾ ، إن لم أعبد الذي فطرني واتخذت آلهة من دونه ، في حيرة واضحة لكل ذي عقل صحيح .

ثم صرح بإيمانه وصدع بالحق ، فقال مخاطباً لقومه : ﴿ إني آمنت بربكم ﴾ : أي الذي كفرتم به ، ﴿ فاسمعون ﴾ : أي اسمعوا قولي وأطيعون ، فقد نبهتكم على الحق ، وأن العبادة لا تكون إلا لمن منه نشأتكم وإليه مرجعكم .

والظاهر أن الخطاب بالكاف والميم وبالواو ، وهو لقومه ، والأمر على جهة المبالغة والتنبيه ، قال ابن عباس وكعب ووهب .

وقيل : خاطب بقوله ﴿ فاسمعون ﴾ الرسل ، على جهة الاستشهاد بهم والاستحفاظ

للأمر عندهم .

وقيل : الخطاب في ﴿ بربكم ﴾ ، وفي ﴿ فاسمعون ﴾ للرسل .

لما نصح قومه أخذوا يرجمونه ، فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل فقال ذلك ، أي اسمعوا إيماني

واشهدوا لي به .

﴿ قيل أدخل الجنة ﴾ : ظاهره أن أمر حقيقي .

وقيل : معناه وجبت لك الجنة ، فهو خبر بأنه قد استحق دخولها ، ولا يكون إلا بعد البعث

، ولم يأت في القرآن أنه قتل .



---

فقال الحسن : لما أراد قومه قتله ، رفعه الله إلى السماء ، فهو في الجنة لا يموت إلا بفناء

السموات وهلاكه الجنة ، فإذا أعاد الله الجنة دخلها .

وقيل : لما قال ذلك ، رفعوه إلى الملك ، فطول معهم الكلام ليشغلهم عن قتل الرسل إلى أن

صرح لهم بإيمانه ، فوثبوا عليه فقتلوه بوطء الأرجل حتى خرج قلبه من دبره وألقي في بئر ،

وهي الرس .

وقال السدي : رموه بالحجارة وهو يقول : "اللهم اهد قومي" ، حتى مات .

وقال الكلبي : رموه في حفرة ، وردوا التراب عليه فمات .

وعن الحسن : حرقوه حرقاً ، وعلقوه في باب المدينة ، وقبره في سور أنطاكية .

وقيل : نشروه بالمناشير حتى خرج من بين رجليه .

وعن قتادة : أدخله الله الجنة ، وهو فيها حي يرزق .

أراد قوله تعالى : ﴿ بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين ﴾ وفي النسخة التي طالعنا من تفسير ابن عطية ما نصه .

وقرأ الجمهور : فاسمعون بفتح النون .

قال أبو حاتم : هذا خطأ لا يجوز لأنه أمر ، فإما حذف النون ، وإما كسرها على جهة البناء .

انتهى ، يعني ياء المتكلم والنون للوقاية .

وقوله : وقرأ الجمهور وهم فاحش ، ولا يكون ، والله أعلم ، إلا من الناسخ ؛ بل القراء مجمعون فيما أعلم على كسر النون ، سبعتهم وشواذهم ، إلا ما روي عن عصمة عن عاصم من فتح النون ، ذكره في الكامل مؤلف أبي القاسم الهذلي ، ولعل ذلك وهم من عصمة .

وقال ابن عطية : هنا محذوف تواترت به الأحاديث والروايات ، وهو أنهم قتلوه ، فقيل له

عند موته : ﴿ ادخل الجنة ﴾ ، وذلك ، والله أعلم ، بأن عرض عليه مقعده منها ، وتحقق أنه من ساكنيها ، فرأى ما أقر عينه ، فلما حصل ذلك ، تمنى أن يعلم قومه بذلك . انتهى .

(230/645)

---

وقول : ﴿ قيل ادخل الجنة ﴾ كأنه جواب لسائل عن حاله عند لقاء ربه بعد ذلك التصلب في دينه فقيل : ﴿ ادخل الجنة ﴾ ، ولم يأت التركيب : قيل له ، لأنه معلوم أنه المخاطب ، وتمنيه علم قومه بذلك هو مرتب على تقدير سؤال عن ما وجد من قوله عند ذلك استيفاقاً ونصحاً لهم ، أي لو علموا ذلك لآمنوا بالله .

وفي الحديث : " نصح قومه حياً وميتاً " وقيل : تمنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ في أمره ، وهو على صواب ، فيندموا ويحزنهم ذلك ويبشر بذلك .

وموجود في طباع النشر أن من أصاب خيراً في غير موطنه ، ودَّ أن يعلم بذلك جيرانه وأترابه الذين نشأ فيهم .

وبلغنا أن الوزير ذنك الدين المسيري ، وكان وزيراً لملك مصر ، راح إلى قريته التي كان منها ، وهي مسير ، وهي من أصغر قرى مصر ، فقيل له في ذلك ، فقال : أردت أن يراني عجائز مسير في هذه الحالة التي أنا فيها ، قال الشاعر :

والعز مطلوب وملتمس . . .

وأحبه ما نيل في الوطن

والظاهر أن ما في قوله : ﴿ بما غفر لي ربي ﴾ مصدرية ، جوزوا أن يكون بمعنى الذي ، والعائد محذوف تقديره : بالذي غفره لي ربي من الذنوب ، وليس هذا بجيد ، إذ يؤول إلى تمني علمهم بالذنوب المغفرة ، والذي يحسن تمني علمهم بمغفرة ذنوبه وجعله من المكرمين .

وأجاز الفراء أن تكون ما استفهاماً .

وقال الكسائي : لو صح هذا ، يعني الاستفهام ، لقال بم من غير ألف .

وقال الفراء : يجوز أن يقال بما بالألف ، وأنشد فيه أبياتاً .

وقال الزمخشري : ويحتمل أن تكون استفهامية ، يعني بأي شيء غفر لي ربي ، يريد ما كان منه معهم من المصابرة لاعزاز دين الله حتى قيل : إن قولك ﴿ بما غفر لي ربي ﴾ يريد ما كان منه معهم بطرح الألف أجود ، وإن كان إثباتها جائزاً فقال : قد علمت بما صنعت هذا وبم صنعت . انتهى .

والمشهور أن إثبات الألف في ما الاستفهامية ، إذا دخل عليها حرف جر ، مختص بالضرورة ، نحو قوله :

على ما قام يشتمني لئيم . . .

كخنزير تمرغ في رماد

(231/645)

---

وحذفها هو المعروف في الكلام ، نحو قوله :

على م يقول الرمح يثقل كاهلي . . .

إذا أنا لم أطعن إذا الخيل كرت

وقرىء : من المكرمين ، مشدد الراء مفتوح الكاف ؛ والجمهور : بإسكان الكاف وتخفيف الراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(232/645)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَجَاء مِنْ أَقْصَا المدينة رَجُلٌ يسعى ﴾

هو حبيبُ النَّجارُ وكان ينحتُ أصنامَهم وهو ممَّن آمنَ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم وبينهما ستمائةُ سنةٍ كما آمنَ به تبَّعُ الأكبرُ وورقةُ بنُ نوفلٍ وغيرُهما ، ولم يُؤمن بنبي غَيرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أحدٌ قبل مبعثِه . وقيل كان في غارٍ يعبدُ الله تعالى فلمَّا بلغه خبرُ الرُّسلِ

عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ أظهرَ دينَه.

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ وقع جواباً عن سُؤالٍ نشأ من حكايةِ مجيئِه ساعياً كأنَّه قيل: فماذا قال عند مجيئِه فقيل قال: ﴿ قَالَ يا قومِ اتبعوا المرسلين ﴾ تعرض لعُنوانِ رسالتهم حثّاً لهم على اتّباعِهم كما أنَّ خطابَهم بيا قوم لتأليفِ قلوبهم واستمالتِها نحو قبولِ نصيحتِه. وقوله تعالى: ﴿ اتبعوا مَن لاَّ يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ تكريرٌ للتَّأكيد وللتَّوسُّلِ به إلى وصفهم بما يرغِّبُهم في اتِّباعهم من التَّنزه عن الغرض الدُّنيويِّ والاهتداء إلى خير الدُّنيا والدِّينِ ﴿ وَمَا لِىَ لاَ أَعْبُدُ الذى فَطَرَنِى ﴾ تلطُّفٌ في الإرشادِ بإيراده في معرض المُناصحةِ لنفسِه وإمحاض النُّصحِ حيثُ أراهم أنَّه اختارَ لهم ما يختارُ لنفسه. والمرادُ تقريعُهم على تركِ عبادةِ خالقِهم إلى عبادةِ غيرِه كما يُنبىء عنه قوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ مبالغةً في التَّهديدِ ثمَّ عاد إلى المساقِ الأوَّلِ فقال:



---

﴿ أَءتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءالِهَةً ﴾ إنكارٌ ونفيٌ لاتّخاذِ الآلهة على الإطلاقِ. وقوله: ﴿ إِن يُرِدْنِ الرحمن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنّى شفاعتهم شَيْئاً ﴾ أي لا تنفعني شيئاً من النَّفع. ﴿ وَلاَ يُنقِذُونَ ﴾ من ذلك الضُّرِّ بالنُّصرةِ والمظاهرة، استئنافٌ سيقَ لتعليلِ النَّفي المذكور.

وجعله صفةً لآلهةً كما ذهب إليه بعضهم رُبّما يُوهم أنّ هناك آلهةً ليست كذلكَ . وقُرىء

إنْ يَردن بفتح الياءِ على معنى إنْ يُوردني ضرا أي يجعلني موردا للضُّرّ ﴿ إِنّى إذاً ﴾ أي

إذا اتخذتُ من دونه آلهةً ﴿ لَفِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ فإنّ إشراكَ ما ليس من شأنِه النّفعُ ولا دفعُ

الضُّرّ بالخالق المقتدرِ الذي لا قادرَ غيرُه ولا خيرَ إلا خيرُه ضلال بيّن لا يَخْفى على أحدٍ ممَّن

له تمييزٌ في الجملةِ ﴿ إِنّى ءامنتُ بِربّكُمْ ﴾ خطاب منه للرُّسلِ بطريق التَّلوينِ قيل : لمَّا نصحَ

قومَه بما ذُكر همُّوا برجمِه فأسرع نحوَ الرُّسلِ قبل أن يقتلُوه فقال ذلك ، وإنما أكَّده لإظهارِ

صدوره عنه بكمال الرّغبةِ والنّشاطِ وأصناف الربَّ إلى ضميرِهم رَوْماً لزيادة التَّقريرِ

وإظهاراً للاختصاصِ والاقتداءِ بهم كأنَّه قال بربِّكم الذي أرسلَكم أو الذي تدعُوننا إلى

الإيمانِ به ﴿ فاسمعون ﴾ أي اسمعُوا إيماني َ واشهدُوا لي به عند الله تعالى ، وقيل :

الخطابُ للكفرةِ شافههم بذلك إظهاراً للتَّصلُّبِ في الدِّينِ وعدم المبالاة بالقتلِ ، وإضافةُ

الرَّبّ إلى ضميرهم لتحقيقِ الحقّ والتَّنبيهِ على بُطلانِ ما هم عليه من اتّخاذِ الأصنامِ أرباباً

وقيل للنَّاس جميعاً : ﴿ قِيلَ ادخل الجنة ﴾ قيل له ذلك لمَّا قتلوه إكراماً له بدخولِها حينئذٍ

كسائرِ الشُّهداءِ وقيل : لما همُّوا بقتله رفعه الله تعالى إلى الجنَّةِ قاله الحسنُ . وعن قَتَادةَ

أدخلَه الله الجنّةَ وهو فيها حيٌّ يُرزقُ . وقيل معناه البُشرى بدخولِ الجنَّةِ وأنَّه من أهلِها

وإنَّما لم يُقل له لأنَّ الغرضَ بيانُ المقولِ لا القولِ له لظهوره وللمبالغةِ في المسارعةِ إلى بيانِه .

والجملةُ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤالٍ نشأ من حكايةِ حالِه ومقالِه كأنَّه قيل : كان لقاءُ ربِّه بعد ذلك التصلُّب في دينه والتَّسخِّي بروحه لوجهه تعالى فقيل قيل : ادخل الجنَّة .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَالَيتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ فإنَّه جواب عن سؤالٍ نشأ من حكايةِ حالِه كأنَّه قيل : فماذا قال عند نيلِه تلك الكرامةَ السَّنيةَ فقيل قال : الخ وإنما تمنَّى علمَ قومِه بحالِه ليحملَهم ذلك عن اكتسابِ مثله بالتَّوبةِ عن الكُفرِ والدخول في الإيمانِ والطَّاعةِ جرياً على سَنَنِ الأولياء في كظمِ الغيظِ . والتَّرحمِ على الأعداءِ أو ليعلموا أنهم كانُوا على خطأٍ عظيمٍ في أمره وأنَّه كان على الحقّ وأنَّ عداوتَهم لم تكسبه إلاَّ سعادةً . وقُرِىء من المكرمين . وما موصولةٌ أو مصدريةٌ والياءُ صلةُ يعلمون أو استفهاميةٌ وردتْ على الأصلِ والياءُ متعلِّقةٌ بغفرَ أي بأي شيءٍ غفرَ لي ربِّي يريدُ به تفخيمَ شأنِ المهاجرةِ عن ملَّتِهم والمصابرةِ . على أذيَّتِهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَجَاء مِنْ أَقْصَا المدينة ﴾

أي من أبعد مواضعها ﴿ رَجُلٌ ﴾ أي رجل عند الله تعالى فتنوينه للتعظيم ، وجوز أن يكون التنكير لإفادة أن المرسلين لا يعرفونه ليتواطئوا معه واسمه على ما روي عن ابن عباس .

وأبي مجلز .

وكعب الأحبار .

ومجاهد .

ومقاتل حبيب وهو ابن إسرائيل على ما قيل ، وقيل : ابن مري وكان على المشهور نجاراً ، وقيل : كان حراثاً ، وقيل : قصاراً ، وقيل : إسكافاً ، وقيل : نحاتاً للأصنام ويمكن أن يكون جامعاً لهذه الصفات ، وذكر بعضهم أنه كان في غار مؤمناً يعبد ربه عز وجل فلما سمع أن قومه كذبوا الرسل جاء ﴿ يسعى ﴾ أي يعدو ويسرع في مشيه حرصاً على نصح قومه ، وقيل : إنه سمع أن قومه عزموا على قتل الرسل فقصد وجه الله تعالى بالذب عنهم فسعى هنا مثلها في قوله تعالى : ﴿ وسعى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ [ الإسراء : 19 ] وهو مجاز مشهور وكونه في غار لا ينافي مجيئه من أقصى المدينة لجواز أن يكون في أقصاها غار ، نعم هذا القول ظاهر في أنه كان مؤمناً وهو ينافي أنه كان نحاتاً للأصنام .

وأجيب بأن المراد ينحت التماثيل لا للعبادة وكان في تلك الشريعة مباحاً ، وحكى القول بإيمانه عن ابن أبي ليلى ، ونقل في "البحر" عنه أنه قال : سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا قط طرفة عين .

علي بن أبي طالب .

وصاحب يس .

ومؤمن آل فرعون .

وذكر الزمخشري وجماعة هذا حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا ذكروا أنه ممن آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم كما آمن به تبع الأكبر .

وورقة بن نوفل .

وغيرهما ؛ ولم يؤمن أحد بنبي غيره عليه الصلاة والسلام قبل ظهوره .

(236/645)

---

وقيل كان مجذوماً وكان منزله أقصى باب من أبواب المدينة عبد الأصنام سبعين سنة يدعوهم لكشف ضره فلم يكشف فلما دعاه الرسل إلى عبادة الله تعالى قال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ندعوا ربنا القادر يفرج عنك ما بك فقال : إن هذا لعجب لي سبعون سنة أدعو

هذه الآلهة فلم تستطع تفريجه فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة؟ قالوا : ربنا على ما يشاء قدير وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر فآمن ودعوا ربهم سبحانه فكشف عز وجل ما به كأن لم يكن به بأس فأقبل على التكسب فإذا أمسى تصدق بنصف كسبه وأنفق النصف الآخر على نفسه وعياله فلما هم قومه بقتل الرسل جاء من أقصى المدينة يسعى ، وعلى هذا نحته للأصنام غير مشكل ولا يحتاج إلى ذلك الجواب البعيد ، نعم بين هذا وبين خبر سباق الأمم ثلاثة وأنه ممن آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم كما آمن تبع منافاة ، وكون إيمانه به عليه الصلاة والسلام إنما كان على يد الرسل وإن كان خلاف الظاهر دافع للمنافاة بينه وبين الأخير فتبقى المنافاة بينه وبين الخبر الأول إلا أن يقال : المراد سباق الأمم إلى الإيمان بعد الدعوة ثلاثة لم يكفروا بعدها قط طرفة عين ، ومما يدل بظاهره أن الرجل لم يكن قبل مؤمناً ما حكى أن المرسلين اللذين أرسلا أولاً لما قربا إلى المدينة رأياه يرعى غنماً فسألهما فأخبراه فقال : أمعكما آية؟ فقالا : نشفي المريض ونبرىء الأكمه والأبرص وكان له ولد مريض فمسحاه فبرىء فآمن ، وحمل آمن على أظهر الإيمان خلاف الظاهر ، والذي يترجح في نظري أنه كان مؤمناً بالمرسلين قبل مجيئه ونصحه لقومه ولا جزم لي بإيمانه ولا عدمه قبل إرسال الرسل ، وظواهر الأخبار في ذلك متعارضة ومع هذا لم يتحقق عندي صحة شيء منها والله أعلم تعالى أعلم بحقيقة الحال .

وجاء ﴿ مِنْ أَقْصَى المدينة ﴾ هنا مقدماً على ﴿ رَجُلٌ ﴾ عكس ما جاء في القصص وجعله أبو حيان من التفنن في البلاغة .

(237/645)

---

وقال الخفاجي : قدم الجار والمجرور على الفاعل الذي حقه التقديم بياناً لفضله إذ هداه الله تعالى مع بعده عنهم وإن بعده لم يمنعه عن ذلك ولذا عبر بالمدينة هنا بعد التعبير بالقرية إشارة إلى السعة وإن الله تعالى يهدي من يشاء سواء قرب أو بعد ، وقيل قدم للاهتمام حيث تضمن الإشارة إلى أن إنذارهم قد بلغ أقصى المدينة فيشعر بأنهم أتوا بالبلاغ المبين ، وقيل إنه لو أخرتوهم تعلقه بيسعى فلم يفد أنه من أهل المدينة مسكنه في طرفها وهو المقصود ، وجملة ﴿ يسعى ﴾ صفة ﴿ رَجُلٌ ﴾ وجوز كونها حالاً منه من جوز مجيء الحال من النكرة ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : فماذا قال عند مجيئه ؟ فقيل : قال ﴿ قَالَ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ وجوز كونه بياناً للسعي بمعنى قصد وجه الله عز وجل ولا يخفى ما فيه ، والتعرض لعنوان رسالتهم لحثهم على اتباعهم كما أن خطابهم بيا قوم لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصيحته ، وقوله تعالى :

﴿ اتبعوا مَن لاَّ يَسْئَلُكُمْ أَجْراً ﴾ تكرير للتأكيد وللتوسل به إلى وصفهم بما يتضمن نفي

المانع عن اتباعهم بعد الإشارة إلى تحقق المقتضى ، وقوله سبحانه : ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ أي ثابتون على الاهتداء بما هم عليه إلى خير الدنيا والآخرة جملة حالية فيها ما يؤكد كونهم لا يسألون الأجر ولا ما يتبعه من طلب جاه وعلو ولذا جعلت إيغالاً حسناً نحو قول الخنساء :

وإن صخراً لتأتم الهداة به . . .

كأنه علم في رأسه نار

(238/645)

---

والظاهر أن الرجل لم يقل ذلك إلا بعد سبق إيمانه ، وروي أنه لما بلغته الدعوة جاء يسعى فسمع كلامهم وفهمه ثم قال لهم : أتطلبون أجراً على دعوتكم هذه ؟ قالوا : لا فدعا عند ذلك قومه إلى اتباعهم والإيمان بهم قائلاً ﴿ يا قَوْمِ ﴾ الخ ، وللنحويين في مثل هذا التركيب وجهان ؛ أحدهما : أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ بدلاً من ﴿ المرسلين ﴾ بإعادة العامل كما أعيد إذا كان حرف جر نحو قوله تعالى : ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ ﴾ [ الزخرف : 33 ] وإليه ذهب بعضهم وثانيهما : وإليه ذهب الجمهور أنه ليس ببدل فإنه مخصوص بما إذا كان العامل المعاد حرف جر أما إذا كان رافعاً أو ناصباً فيسمون ذلك بالتتبيع لا بالبدل

، واستدل بالآية على نقص من يأخذ أجرة على شيء من أفعال الشرع والبحث مستوفى في الفروع.

﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾

تلطف في إرشاد قومه بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره كما ينبىء عنه قوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ مبالغة في تهديدهم بتخويفهم بالرجوع إلى شديد العقاب مواجهة وصريحاً ولو قال: وإليه أرجع كان فيه تهديد بطريق التعريض، وعد التعبير بإليه ترجعون بعد التعبير بما لي لا أعبد من باب الالتفات لمكان التعريض بالمخاطبين في ﴿ مَالِيَ لاَ أَعْبُدُ ﴾ الخ فيكون المعبر عنه في الأسلوبين واحداً بناءً على ما ذهب إليه الخطب.

(239/645)

---

والسعد التفتازاني من أن التعريض إما مجاز أو كناية وهو ههنا مجاز لامتناع إرادة الموضوع له فيكون اللفظ مستعملاً في غير ما وضع له فيتحد المعبر عنه، وحقق السيد السند أن المعنى التعريضي من مستتبعات التراتيب واللفظ ليس بمستعمل فيه بل هو بالنسبة إلى

المستعمل فيه إما حقيقة أو مجاز أو كناية وعليه فمضير المتكلم في ﴿ مَالِيَ ﴾ الخ ليس مستعملاً في المخاطبين فلا يكون المعبر عنه في الأسلوبين واحداً فلا التفات، وجوز بعضهم كون الآية من الاحتباك والأصل ﴿ لِىَ لَاَ أَعْبُدُ الذى فَطَرَنِى ﴾ وإليه أرجع وما لكم لا تعبدون الذي فطركم وإليه ترجعون فحذف من الأول نظير ما ذكر في الثاني وبالعكس وهو مفوت لما سمعت، وظاهر كلام الواحدي أنه لا تعريض في الآية حيث قال: لما قال الرجل ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ [يس: 20] الخ رفعوه إلى الملك فقال له الملك: أفأنت تتبعهم؟ فقال: ﴿ مَالِيَ لَاَ أَعْبُدُ الذى فَطَرَنِى ﴾ أي أي شيء لي إذا لم أعبد خالقي ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تردون عند البعث فيجزيكم بكفركم، ورد عليه بأنه إذا رجع الإنكار إليه دون القوم لم يكن لخطابهم بترجعون معنى وكان الظاهر أرجع.

وأجيب بأنه يمكن أن يقال: إن الرجل كان في غيظ شديد من تكذيبهم الرسل وتوعدهم إياهم فانتهز الفرصة للانتقام فلما تمكن من تهديدهم أوقع قوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ في البين أي مالي لا أعبد الذي من على بنعمة الإيجاد ونعمة الانتقام منكم والتشفي من غيظكم إذ ترجعون إليه فيجزيكم بكفركم وتكذيبكم الرسل وعنادكم، وأنت تعلم أن النظم الجليل لا يساعد على هذا وهو ظاهر فيما تقدم، وقد عاد إلى المساق الأول من التلطف بالإرشاد فقال:

﴿ أَءَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ إنكار ونفي لاتخاذ جنس الآلهة على الإطلاق وفيه من تحميق من يعبد الأصنام ما فيه .

(240/645)

---

وقوله تعالى : ﴿ إِن يُرِدْنِ الرحمن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنّى شفاعتهم شَيْئاً ﴾ استئناف سيق لتعليل النفي المذكور ، وجعله صفة لآلهة كما ذهب إليه البعض ربما يوهم أن هناك آلهة ليست كذلك ، ومعنى ﴿ لاَ تُغْنِى ﴾ الخ لا تنفعني شيئاً من النفع ، وهو إما على حد .

لا ترى الضب بها ينجحر . . .

أي لا شفاعة لهم حتى تنفعني ، وإما على فرض وقوع الشفاعة أي لا تغني عن شفاعتهم لو وقعت شيئاً ﴿ وَلاَ يُنقِذُونِ ﴾ يخلصون من ذلك الضر بالنصر والمظاهرة ، وهو ترق من الأدنى إلى الأعلى بدأ أولاً بنفي الجاه وذكر ثانياً انتفاء القدرة وعبر عنه بانتفاء الإنقاذ لأنه نتيجته ، وفتح ياء المتكلم في ﴿ يردني ﴾ طلحة السمان على ما قال ابن عطية ، وقال ابن خالويه : طلحة بن مصرف .

وعيسى الهمداني .

وأبو جعفر ، ورويت عن نافع .

وعاصم .

وأبي عمرو ؛ وقال الزمخشري : وقرئ ﴿ إن يُردْنِ الرحمن بِضُرّ ﴾ بمعنى إن يوردني ضراً أي يجعلني مورداً للضر اه ، قال أبو حيان : كأنه والله تعالى أعلم رأي في كتب القراءات ﴿ يردني ﴾ بفتح الياء فتوهم أنها ياء المضارعة فجعل الفعل متعدياً بالياء المعدية كالهمزة فلذلك أدخل عليه همزة التعدية ونصب به اثنين ، والذي في كتب الشواذ أنها ياء الإضافة المحذوفة خطاً ونطقاً لالتقاء الساكنين ، قال في كتابه ابن خالويه : بفتح الياء ياء الإضافة ، وقال في "اللوامح" : ﴿ إن مُّقْتَدِرِ الرحمن ﴾ بالفتح وهو أصل الياء البصرية أي المثبتة بالخط الذي يرى بالبصر لكن هذه محذوفة اه كلامه ، وحسن الظن بالزمخشري يقتضي خلاف ما ذكره .

﴿ إِنّى إِذاً ﴾ أي إذا اتخذت من دونه آلهة ﴿ لَفِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ فإن إشراك ما يصنع وليس من شأنه النفع ولا دفع الضر بالخالق المقتدر الذي لا قادر غيره ولا خير إلا خيره ضلال وخطأ بين لا يخفى على من له أدنى تمييز .

﴿ إِنِّى ءامَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الظاهر أن الخطاب لقومه شافههم بذلك وصدع بالحق إظهاراً للتصلب في الدين وعدم المبالاة بما يصدر منهم ، والجملة خبرية لفظاً ومعنى ، والتأكيد قيل إنهم لم يعلموا من كلامه أنه آمن بل ترددوا في ذلك لما سمعوا منه ما سمعوا .

وإضافة الرب إلى ضميرهم لتحقيق الحق والتنبيه على بطلان ما هم عليه من اتخاذ الأصنام أرباباً أي إني آمنت بربكم الذي خلقكم ﴿ فاسمعون ﴾ أي فاسمعوا قولي فإني لا أبالي بما يكون منكم على ذلك ، وقيل : مراده دعوتهم إلى الخير الذي اختاره لنفسه ، وقيل لم يرد بهذا الكلام إلا أن يغضبهم ويشغلهم عن الرسل بنفسه لما رآهم لا ينجع فيهم الوعظ وقد عزموا على الإيقاع بهم وليس بشيء ، وقدر بعضهم المضاف المحذوف عاماً وفسر السماع بالقبول كما في سمع الله تعالى لمن حمده أي فاسمعوا جميع ما قلته واقبلوه وهو مما يسمع .

وجعل الخطاب للقوم في الجملتين هو المروى عن ابن عباس .

وكعب .

ووهب .

وأخرج الحاكم عن ابن مسعود أنه قال : لما قال صاحب يس ﴿ قَالَ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ [ يس : 20 ] خنقوه ليموت فالتفت إلى الأنبياء فقال : ﴿ إِنِّي ءامَنتُ بِرَبِّكُمْ فاسمعون ﴾ أي فاشهدوا فالخطاب فيهما للرسل بطريق التلوين ، وأكد الخبر إظهاراً لصدوره عنه بكمال الرغبة والنشاط ، وأضاف الرب إلى ضميرهم روما لزيادة التقرير وإظهاراً للاختصاص والاقتداء بهم كأنه قال : بربكم الذي أرسلكم أو الذي تدعوننا إلى الإيمان به ، وطلب السماع منهم ليشهدوا له بالإيمان عند الله عز وجل كما يشير إليه كلام ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ، وقيل الخطاب الأول لقومه والثاني للرسل خاطبهم على جهة الاستشهاد بهم والاستحفاظ للأمر عندهم ، وقيل الخطابان للناس جميعاً ، وروي عن عاصم أنه قرأ ﴿ فاسمعون ﴾ بفتح النون ، قال أبو حاتم : هذا خطأ لا يجوز لأنه أمر فإما أن تحذف كما حذفت نون الإعراب ويقال فاسمعوا وإما أن تبقى وتكسر ؛ ومن الناس من وجهه بأن الأصل فاسمعونا أي فاسمعوا كلامنا أي كلامي وكلامهم لتشهدوا بما كان مني ومنهم .

﴿ قِيلَ ادخل الجنة ﴾ استئناف لبيان ما وقع له بعد قوله ذلك ، والظاهر أن الأمر إذن له بدخول الجنة حقيقة وفي ذلك إشارة إلى أن الرجل قد فارق الدنيا فعن ابن مسعود أنه بعد أن قال ما قال قتلوه بوطء الأرجل حتى خرج قصبه من دبره وألقي في بئر وهي الرس ، وقال السدي : رموه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهد قومي حتى مات ، وقال الكلبي : رموه في

حفرة وردوا التراب عليه فمات ، وعن الحسن حرقوه حتى مات وعلقوه في بر المدينة وقبره في سور أنطاكية ، وقيل : نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه .

ودخوله الجنة بعد الموت دخول روحه وطوافها فيها كدخول سائر الشهداء ، وقيل الأمر للتبشير لا للإذن بالدخول حقيقة قالت له ملائكة الموت ذلك بشارة له بأنه من أهل الجنة يدخلها إذا دخلها المؤمنون بعد البعث ، وحكى نحو ذلك عن مجاهد .

أخرج عبد بن حميد .

(243/645)

---

وابن جرير .

وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أنه قال في قوله تعالى : ﴿ قِيلَ ادخل الجنة ﴾ وجبت له الجنة ، وجاء في رواية عن الحسن أنه قال : لما أراد قومه قتله رفعه الله تعالى إلى السماء حياً كما رفع عيسى عليه السلام إلى السماء فهو في الجنة لا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة فإذا أعاد الله تعالى الجنة أعيد له دخولها فالأمر كما في الأول ، والجمهور على أنه قتل ، وادعى ابن عطية أنه تواترت الأخبار والروايات بذلك ، وقول قتادة أدخله الله تعالى الجنة وهو فيها حي يرزق ليس نصاً في نفي القتل .

وفي "البحر" أنه أراد بقوله وهو فيها حي يرزق قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [ آل عمران : 169 ] وقال بعضهم : الجملة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : ما حاله عند لقاء ربه عز وجل بعد ذلك التصلب في دينه .

فقيل : قيل ادخل الجنة ، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع ، ولعل الأولى ما أشرنا إليه أولاً ، وإنما لم يقل قيل له لأن الغرض المهم بيان المقول لا القائل والمقول له ؛ وقوله تعالى :

﴿ قَالَ يَا ءادَمُ ياليت قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ بِمَا غَفَرَ لِى رَبّى وَجَعَلَنِى مِنَ المكرمين ﴾

استئناف بياني أيضاً كأنه قيل بعد أن أخبر عنه بما أخبر : فماذا قال عند نيله تلك الكرامة السنية ؟ فقيل : قال الخ ، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والطاعة جرياً على سنن الأولياء في كظم الغيظ والترحم على الأعداء ، وفي الحديث نصح قومه حياً وميتاً .



---

وقيل : يجوز أن يكون تمنيه ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة وأن عداوتهم لم تكسبه إلا فوزاً ولم تعقبه إلا سعادة لأن في ذلك

زيادة غبطة له وتضاعف لذة وسرور ، والوجه الأول أولى ، والظاهر أن ما مصدرية ، ويجوز أن تكون موصولة والعائد مقدر أي يا ليت قومي يعلمون بالذي غفر لي به أي بسببه ربي أو بالذي غفره أي بالغفران الذي غفره لي ربي ، والمراد تعظيم مغفرته تعالى له فتؤول إلى المصدرية ، وقال الزمخشري : أي بالذي غفره لي ربي من الذنوب .

وتعقب بأنه ليس بجيد إذ يؤول إلى تمني علمهم بذنوبه المغفورة ولا يحسن ذلك ، وكذا عطف ﴿ وَجَعَلَنِى مِنَ المكرمين ﴾ عليه لا ينتظم ، وما قيل من أن الغرض منه الإعلام بعظم مغفرة الله تعالى ووفور كرمه وسعة رحمته فلا يبعد حينئذٍ إرادة معنى الاطلاع عليها لذلك بل هو أوقع في النفس من ذكر المغفرة مجردة عن ذكر المغفور لاحتمال حقارته تكلف .

وأجاز الفراء أن تكون استفهامية والجار صلة ﴿ غَفَرَ ﴾ أي بأي شيء غفر لي ربي يريد به المهاجرة عن دينهم والمصابرة على أذيتهم حتى قتل .

وتعقبه الكسائي بأنه لو صح ذلك لقيل بم بغير ألف فإن اللغة الفصيحة حذفها إذا جرت ما الاستفهامية بحرف جر نحو عم يتساءلون ، وقوله :

علام أقول الرمح أثقل عاتقي . . .

إذا أنا لم أطعن إذا الخيل كرت

فرقا بينها وبين الموصولة ، وإثباتها نادر ؛ وقيل مختص بالضرورة نحو قوله :

على ما قام يشتمني لئيم . . .

كخنزير تمرغ في رماد

وقوله :

إنا قتلنا بقتلانا سراتكم . . .

أهل اللواء ففيما يكثر القتل

وقراءة عكرمة .

وعيسى ﴿ عَمَّا يَتَسَاءلُونَ ﴾ [ النبأ : 1 ] وقرأ ﴿ مِنَ المكرمين ﴾ مشدد الراء

مفتوحها مفتوح الكاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 22 صـ ﴾

(245/645)

---

وقال الشوكاني فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً أصحاب القرية ﴾

قد تقدّم الكلام على نظير هذا في سورة البقرة ، وسورة النمل ، والمعنى : اضرب لأجلهم مثلاً ، أو اضرب لأجل نفسك أصحاب القرية مثلاً ، أي : مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية ، فعلى الأوّل لما قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ [يس : 3 ] وقال : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً ﴾ [يس : 6 ] قال : قل لهم : ما أنا بدعا من الرسل ، فإن قبلي بقليل جاء أصحاب

القرية مرسلون ، وأنذروهم بما أنذرتكم ، وذكروا التوحيد ، وخوّفوا بالقيامة ، وبشروا بنعيم دار الإقامة .

وعلى الثاني لما قال : إن الإنذار لا ينفع من أضله الله ، وكتب عليه أنه لا يؤمن ، قال للنبي صلى الله عليه وسلم : اضرب لنفسك ، ولقومك مثلاً : أي : مثل لهم عند نفسك مثلاً بأصحاب القرية حيث جاءهم ثلاثة رسل ، ولم يؤمنوا ، وصبر الرسل على الإيذاء ، وأنت جئت إليهم واحداً ، وقومك أكثر من قوم الثلاثة ، فإنهم جاءوا إلى أهل القرية ، وأنت بعثتك إلى الناس كافة .

والمعنى : واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية : أي : اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية ، فترك المثل ، وأقيم أصحاب القرية مقامه في الإعراب .

وقيل : لا حاجة إلى الإضمار ، بل المعنى : اجعل أصحاب القرية لهم مثلاً على أن يكون ﴿ مثلاً ﴾ و ﴿ أصحاب القرية ﴾ مفعولين لاضرب ، أو يكون أصحاب القرية بدلاً من مثلاً ، وقد قدّمنا الكلام على المفعول الأوّل من هذين المفعولين هل هو : مثلاً ، أو أصحاب القرية .

وقد قيل : إن ضرب المثل يستعمل تارة في تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما في قوله : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امرأة نُوحٍ وامرأة لُوطٍ ﴾ [ التحريم : 10 ] ، ويستعمل أخرى في ذكر حالة غريبة ، وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيره لها كما في قوله : ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأمثال ﴾ [ إبراهيم : 45 ] أي : بينا لكم أحوالاً بديعة غريبة : هي في الغرابة كالأمثال ؛ فقوله سبحانه هنا : ﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً ﴾ يصح اعتبار الأمرين فيه .

قال القرطبي : هذه القرية هي : أنطاكية في قول جميع المفسرين .

وقوله : ﴿ إِذْ جَآءَهَا المرسلون ﴾ بدل اشتمال من أصحاب القرية ، والمرسلون : هم أصحاب عيسى ، بعثهم إلى أهل أنطاكية للدّعاء إلى الله ، فأضاف الله سبحانه الإرسال إلى نفسه في قوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثنين ﴾ ، لأن عيسى أرسلهم بأمر الله سبحانه ، ويجوز : أن يكون الله أرسلهم بعد رفع عيسى إلى السماء ، فكذبوهما في الرسالة ، وقيل : ضربوهما ، وسجنوهما .

قيل : واسم الاثنين يوحنا ، وشمعون .

وقيل : أسماء الثلاثة : صادق ، ومصدوق ، وشلوم قاله ابن جرير ، وغيره .

وقيل : سمعان ، ويحيى ، وبولس ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ قرأ الجمهور بالتشديد ، وقرأ أبو بكر عن عاصم بتخفيف الزاي .

قال الجوهري : "فعزّزنا" يخفف ، ويشدّد : أي : قوّينا ، وشدّدنا ، فالقراءتان على هذا

بمعنى .

وقيل : التخفيف بمعنى : غلبنا ، وقهرنا ، ومنه

﴿ وَعَزَّنِى فِى الخطاب ﴾ [ ص : 23 ] والتشديد بمعنى : قوّينا وكثّرنا .

(247/645)

---

قيل : وهذا الثالث هو شمعون ، وقيل : غيره ﴿ فَقَالُواْ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ أي : قال الثلاثة جميعاً ، وجاؤوا بكلامهم هذا مؤكداً لسبق التكذيب للاثنين ، والتكذيب لهما تكذيب للثالث ، لأنهم أرسلوا جميعاً بشيء واحد ، وهو : الدعاء إلى الله عزّ وجلّ ، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ؛ كأنه قيل : ما قال هؤلاء الرّسل بعد التعزيز لهم بثالث؟ وكذلك جملة ﴿ قَالُواْ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُنَا ﴾ فإنها مستأنفة جواب سؤال مقدّر : كأنه قيل : فما قال لهم أهل أنطاكية ، فقيل : قالوا : ما أنتم إلاّ بشر مثلنا : أي : مشاركون لنا في البشرية ، فليس لكم مزية علينا تختصون بها .

ثم صرّحوا بجحود إنزال الكتب السماوية ، فقالوا : ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرحمن مِن شَىْءٍ ﴾ مما تدّعونه أنتم ، ويدّعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل ، وأتباعهم ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾ أي : ما أنتم إلاّ تكذبون في دعوى ما تدّعون من ذلك ، فأجابوهم بإثبات رسالتهم بكلام

مؤكد تأكيداً بليغاً لتكرر الإنكار من أهل أنطاكية، وهو قولهم: ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾، فأكدوا الجواب بالقسم الذي يفهم من قولهم: ربنا يعلم، وبإنّ، وباللام.

﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ أي: ما يجب علينا من جهة ربنا إلاّ تبليغ رسالته على وجه الظهور، والوضوح، وليس علينا غير ذلك، وهذه الجملة مستأنفة كالتي قبلها، وكذلك جملة ﴿ قَالُواْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾، فإنها مستأنفة جواباً عن سؤال مقدّر: أي: إنا تشاءمنا بكم، لم تجدوا جواباً تجيبون به على الرسل إلاّ هذا الجواب المبنيّ على الجهل المنبىء عن الغباوة العظيمة، وعدم وجود حجة تدفعون الرسل بها.

قال مقاتل: حبس عنهم المطر ثلاث سنين.



---

قيل: إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين، ثم رجعوا إلى التجبر، والتكبر لما ضاقت صدورهم، وأعيتهم العلل، فقالوا: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ أي: لئن لم تتركوا هذه الدعوى، وتعرضوا عن هذه المقالة؛ لنرجمنّكم بالحجارة ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: شديد فظيع.

قال الفرّاء: عامة ما في القرآن من الرجم المراد به القتل.

وقال قتادة : هو على بابه من الرجم بالحجارة .

قيل : ومعنى العذاب الأليم : القتل ، وقيل : الشتم ، وقيل : هو التعذيب المؤلم من غير تقييد بنوع خاص ، وهذا هو الظاهر .

ثم أجاب عليهم الرسل دفعاً لما زعموه من التطير بهم فقالوا : ﴿ طائركم مَّعَكُمْ ﴾ أي : شؤمكم معكم من جهة أنفسكم ، لازم في أعناقكم ، وليس هو من شؤمنا .

قال الفراء : ﴿ طائركم معكم ﴾ : أي : رزقكم وعملكم ، وبه قال قتادة .

قرأ الجمهور ﴿ طائركم ﴾ اسم فاعل : أي : ما طار لكم من الخير ، والشرّ ، وقرأ الحسن "أطيركم" أي : تطيركم ﴿ أَءِن ذُكِّرْتُم ﴾ .

قرأ الجمهور من السبعة ، وغيرهم بهمزة استفهام بعدها إن الشرطية على الخلاف بينهم في التسهيل والتحقيق ، وإدخال ألف بين الهمزتين ، وعدمه .

وقرأ أبو جعفر ، وزرّ بن حبيش ، وابن السميفع ، وطلحة بهمزتين مفتوحتين .

وقرأ الأعمش ، وعيسى بن عمر ، والحسن "أين" بفتح الهمزة ، وسكون الياء على صيغة الظرف .

واختلف سيبويه ، ويونس إذا اجتمع استفهام وشرط أيهما يجاب ؟ فذهب سيبويه إلى أنه يجاب الاستفهام ، وذهب يونس إلى أنه يجاب الشرط ، وعلى القولين ، فالجواب هنا محذوف : أي : أئن ذكرتم ، فطائركم معكم لدلالة ما تقدّم عليه .

وقرأ الماجشون "أن ذكرتم" بهمزة مفتوحة: أي: لأن ذكرتم.

ثم أضربوا عما يقتضيه الاستفهام، والشرط من كون التذكير سبباً للشؤم، فقالوا: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أي: ليس الأمر كذلك، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في المعصية.

(249/645)

---

قال قتادة: مسرفون في تطيركم.

وقال يحيى بن سلام: مسرفون في كفركم، وقال ابن بحر: السرف هنا: الفساد، والإسراف في الأصل: مجاوزة الحاء في مخالفة الحقّ.

﴿ وَجَاء مِنْ أَقْصَى المدينة رَجُلٌ يسعى ﴾ هو: حبيب بن موسى النجار، وكان نجاراً، وقيل: إسكافاً.

وقيل: قصاراً.

وقال مجاهد، ومقاتل: هو: حبيب بن إسرائيل النجار، وكان ينحت الأصنام.

وقال قتادة: كان يعبد الله في غار، فلما سمع بخبر الرسل جاء يسعى، وجملة ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ اتبعوا المرسلين ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر: كأنه قيل: فماذا قال لهم عند مجيئه؟ فقيل: قال: يا قوم اتبعوا المرسلين هؤلاء الذين أرسلوا إليكم، فإنهم جاءوا بحق.

ثم أكد ذلك، وكرّره، فقال: ﴿ اتبعوا مَن لَّا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً ﴾ أي: لا يسألونكم أجراً على ما جاؤوكم به من الهدى ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ يعني: الرسل.

ثم أبرز الكلام في معرض النصيحة لنفسه، وهو يريد مناصحة قومه، فقال: ﴿ وَمَا لِىَ لاَ أَعْبُدُ الذى فَطَرَنِى ﴾ أي: أيّ مانع من جانبي يمنعني من عبادة الذي خلقني؟ ثم رجع إلى خطابهم لبيان أنه ما أراد نفسه، بل أرادهم بكلامه، فقال: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ولم يقل: إليه أرجع، وفيه مبالغة في التهديد.

ثم عاد إلى المساق الأوّل لقصد التأكيد، ومزيد الإيضاح، فقال: ﴿ أَءتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءالِهَةً ﴾، فجعل الإنكار متوجهاً إلى نفسه.

وهم المرادون به: أي: أتخذ من دون الله آلهة، وأعبدها، وأترك عبادة من يستحق العبادة، وهو الذي فطرني.

ثم بيّن حال هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله سبحانه إنكاراً عليهم، وبياناً لضلال عقولهم، وقصور إدراكهم، فقال: ﴿ إِن يُرِدْنِ الرحمن بِضُرّ لاَّ تُغْنِ عَنّى شفاعتهم شَيْئاً ﴾ أي: شيئاً من النفع كائناً ما كان ﴿ وَلاَ يُنقِذُونَ ﴾ من ذلك الضرّ الذي أرادني الرحمن به.

وهذه الجملة صفة لآلهة ، أو مستأنفة لبيان حالها في عدم النفع ، والدفع ، وقوله : ﴿ لَّا تُغْنِ ﴾ جواب الشرط ، وقرأ طلحة بن مصرّف "إن يردني" بفتح الياء ، قال : ﴿ إِنِّى إِذًا لَّفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : إني إذا اتخذت من دونه آلهة لفي ضلال مبين واضح ، وهذا تعريض بهم كما سبق ، والضلال الخسران .

ثم صرّح بإيمانه تصريحاً لا يبقى بعده شكّ ، فقال : ﴿ إِنِّى ءامَنتُ بِرَبِّكُمْ فاسمعون ﴾ خاطب بهذا الكلام المرسلين .

قال المفسرون : أرادوا القوم قتله ، فأقبل هو على المرسلين ، فقال : إني آمنت بربكم أيها الرسل ، فاسمعون : أي : اسمعوا إيماني ، واشهدوا لي به .

وقيل : إنه خاطب بهذا الكلام قومه لما أرادوا قتله تصلباً في الدين ، وتشدّداً في الحقّ ، فلما قال هذا القول ، وصرّح بالإيمان ، وثبوا عليه ، فقتلوه ، وقيل : وطئوه بأرجلهم ، وقيل : حرقوه ، وقيل : حفروا له حفيرة ، وألقوه فيها ، وقيل : إنهم لم يقتلوه بل رفعه الله إلى السماء ، فهو في الجنة ، وبه قال الحسن ، وقيل : نشروه بالمنشار .

﴿ قِيلَ ادخل الجنة ﴾ أي : قيل له ذلك تكريماً له بدخولها بعد قتله كما هي سنّة الله في شهداء عباده .

وعلى قول من قال : إنه رفع إلى السماء ، ولم يقتل يكون المعنى : أنهم لما أرادوا قتله نجاه الله

من القتل، وقيل له: ادخل الجنة، فلما دخلها، وشاهدها ﴿ قَالَ يَالَيتَ قَوۡمِى يَعۡلَمُونَ * بِمَا غَفَرَلِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ المكرمين ﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، أي: فماذا قال بعد أن قيل له: ادخل الجنة، فدخلها.

فقيل: قال: ﴿ يا ليت قومي ﴾ إلخ، "وما" في ﴿ بِمَا غَفَرَلِى ﴾ هي: المصدرية: أي بغفران ربي، وقيل: هي الموصولة: أي: بالذي غفر لي ربي، والعائد محذوف: أي: غفره لي ربي، واستضعف هذا؛ لأنه لا معنى لتمنيه أن يعلم قومه بذنوبه المغفورة، وليس المراد: إلاّ التمني منه بأن يعلم قومه بغفران ربه له.

(251/645)

---

وقال الفراء: إنها استفهامية بمعنى: التعجب، كأنه قال: بأيّ شيء غفر لي ربي.

قال الكسائي: لو صح هذا لقال "بم" من غير ألف.

ويجاب عنه بأنه قد ورد في لغة العرب إثباتها، وإن كان مكسوراً بالنسبة إلى حذفها، ومنه قول الشاعر:

على ما قام يشتمني لئيم... كخنزير تمرغ في دمان

وفي معنى تمنيه قولان: أحدهما: أنه تمنى أن يعلموا بحاله؛ ليعلموا حسن مآله، وحميد

عاقبته إرغاماً لهم .

وقيل : إنه تمنى أن يعلموا بذلك ؛ ليؤمنوا مثل إيمانه ، فيصيروا إلى مثل حاله .

وقد أخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله : ﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً أصحاب القرية ﴾ قال : هي : أنطاكية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن بريدة مثله .

وأخرج ابن سعد ، وابن عساكر من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال : كان بين موسى بن عمران ، وبين عيسى ابن مريم ألف سنة وتسعمائة سنة ، ولم يكن بينهما فترة ، وأنه أرسل بينهما ألف نبيّ من بني إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم ، وكان بين ميلاد عيسى ، والنبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة وتسع وستون سنة ، بعث في أوّلها ثلاثة أنبياء ، وهو قوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثنين فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ ، والذي عزّز به شمعون ، وكان من الحواريين ، وكانت الفترة التي لم يبعث الله فيها رسولاً أربعمائة سنة وأربع وثلاثون سنة .

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله : ﴿ طائركم مَّعَكُمْ ﴾ قال : شؤمكم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَجَاء مِنْ أَقْصَى المدينة رَجُلٌ ﴾ قال : هو : حبيب النجار .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه من وجه آخر ، قال : اسم صاحب يس : حبيب ، وكان الجذام

قد أسرع فيه .

وأخرج الحاكم عن ابن مسعود قال : لما قال صاحب يس ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ خنقوه ؛ ليموت ، فالتفت إلى الأنبياء ، فقال : ﴿ إِنِّى ءامَنتُ بِرَبِّكُمْ فاسمعون ﴾ أي : فاشهدوا لي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(252/645)

---

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ يس (1) ﴾

التحقيق أنه من جملة الحروف المقطّعة في أوائل السور ، والياء المذكورة فيه ذكرت في فاتحة سورة مريم في قوله تعالى : ﴿ كهيعص ﴾ [ مريم : 1 ] والسين المذكورة فيه ذُكرت في أول الشعراء والقصص . في قوله : ﴿ طس ﴾ [ النمل : 1 ] وفي أول النمل في قوله : ﴿ طس ﴾ وفي أول الشورى في قوله تعالى : ﴿ حمعاساقا ﴾ [ الشورى : 12 ] . .

وقد قدمنا الكلام مستوفى على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة هود .

وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3)

قد بيّنا أنّ موجب التوكيد لكونه من المرسلين ، هو إنكار الكفار لذلك في قوله تعالى : ﴿

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ [ الرعد : 43 ] في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [ البقرة : 252 ] .

لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6)

لفظة ( ما ) في قوله تعالى : ﴿ مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ ﴾ قيل نافية وهو الصحيح ، وقيل موصولة ، وعليه فهو المفعول الثاني لتنذر . وقيل مصدرية .

وقد قدمنا دلالة الآيات على أنها نافية وأنّ مما يدل على ذلك ترتيبه بالفاء عليه قوله بعده : ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ ، ولأن كونهم غافلين يناسب عدم الإنذار ، لا الإنذار ، وهذا هو الظاهر مع آيات أخر ، دالة على ذلك كما أوضحنا ذلك كلّه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [ الإسراء : 15 ] . .

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7)



---

الظاهر أن القول في قوله : ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ ﴾ ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ [ فصلت : 25 ] الآية .

وفي قوله تعالى : ﴿ قَالَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول رَبَّنَا هؤلاء الذين أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا

﴾ [ القصص : 63 ] الآية . وفي قوله تعالى : ﴿ وَيَحِقَّ القول عَلَى الكافرين ﴾ [ يس : 70 ] . وقوله تعالى : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾ [ الصافات : 31 ] والكلمة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ [ يونس : 9697 ] وفي قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ بلى ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ [ الزمر : 71 ] أن المراد بالقول والكلمة أو الكلمات على قراءة ( حقت عليهم كلمات ربك ) بصيغة الجمع ، هو قوله تعالى : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [ هود : 119 ] و [ السجدة : 13 ] كما دلت على ذلك آيات من كتاب الله تعالى : كقوله تعالى في آخر سورة هود : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ولذلك خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [ هود : 118119 ] وقوله تعالى في السجدة : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ولكن حَقَّ القول مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [ السجدة : 13 ] .

وقوله تعالى : في أخريات ص : ﴿ قَالَ فالحق والحق أَقُولُ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ ص : 8485 ] .

وقوله تعالة في هذه الآية الكريمة : ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ ﴾ يدلّ على أن أكثر الناس من أهل جهنم ، كما دلّت على ذلك آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ هود : 17 ] و[ الرعد : 1 ] و[ غافر : 59 ] ، ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ الناس وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [ يوسف : 103 ] ، ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأولين ﴾ [ الصافات : 71 ] ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [ الشعراء : 8 و67 و103 و121 و174 و190 ] .

وقد قدمنا الكلام على هذا في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأرض يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [ الأنعام : 116 ] الآية .

وبيّنا بالسنة الصحيحة في أول سورة الحج : أن نصيب النار من الألف تسعة وتسعون وتسعمائة ، وأن نصيب الجنة منها واحد .

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9)

الأغلال : جمع غلّ وهو الذي يجمع الأيدي إلى الأعناق ، والأذقان : جمع ذقن وهو ملتقى اللحيين ، والمقمح بصيغة اسم المفعول ، هو الرافع ، رأسه . والسد بالفتح والضم : هو الحاجز الذي يسدّ طريق الوصول إلى ما وراءه .

وقوله: ﴿ فَأَغْشَيْنَا ﴾ أي جعلنا على أبصارهم الغشاوة، وهي الغطاء الذي يكون على العين يمنعها من الإبصار، ومنه قوله تعالى: ﴿ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة: 7] وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ [الجاثية: 23]. وقول الشاعر وهو الحارث بن خالد بن العاص:

هويتك إذ عيني عليها غشاوة... فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

(255/645)

---

والمراد بالآية الكريمة: أن هؤلاء الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة في علم الله المذكورين في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يس: 7] صرفهم الله عن الإيمان صرفاً عظيماً مانعاً من وصوله إليهم، لأن من جعل في عنقه غلّ، وصار الغل إلى ذقنه، حتى صار رأسه مرفوعاً لا يقدر أن يطأطئه، وجعل أمامه سدّ، وخلفه سدّ وجعل على بصره الغشاوة لا حيلة له في التصرف، ولا جلب نفع لنفسه، ولا في دفع ضرّ عنهم، فالذين أشقاهم الله بهذه المثابة لا يصل إليهم خير.

وهذا المعنى الذي دّلت عليه هذه الآية من كونه جلّ وعلا يصرف الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة في علمه عن الحق ويحول بينهم وبينه، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [ الكهف : 57 ] وقوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [ البقرة : 7 ] وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ [ الجاثية : 23 ] وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء ﴾ [ الأنعام : 125 ] وقوله تعالى : ﴿ مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [ الأعراف : 186 ] وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [ المائدة : 41 ] .

*(256/645)*

---

وقوله تعالى : ﴿ أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [ النحل : 108 ] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ هود : 20 ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ [ الكهف : 101 ] والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقد قدمنا أن هذا الطبع والختم على القلوب وكذلك الأغلال في الأعناق ، والسدّ من بين أيديهم ومن خلفهم ، أن جميع تلك الموانع المانعة من الإيمان ، ووصول الخير إلى القلوب أن الله إنما جعلها عليهم بسبب مسارعتهم ، لتكذيب الرسل ، والتمادي على الكفر ، فعاقبهم الله على ذلك ، بطمس البصائر والختم على القلوب والطبع عليها ، والغشاوة على الأبصار ، لأن من شؤم السيئات أن الله جلّ وعلا يعاقب صاحبها عليها بتماديه على الشرّ ، والحيلولة بينه وبين الخير وجزاه الله بذلك على كفره جزاء وفاقاً .

(257/645)

---

والآيات الدالة على ذلك كثيرة كقوله تعالى : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [ النساء : 155 ] فالباء سببية ، وفي الآية : تصريح منه تعالى أن سبب ذلك الطبع على قلوبهم هو كفرهم ، وكقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ [ المنافقون : 3 ] ومعلوم أن الفاء من حروف التعليل : أي فطبع على قلوبهم بسبب كفرهم ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [ الصف : 5 ] . وقوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [ الأنعام : 110 ] وقوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ﴾ [ البقرة : 10 ] إلى غير

ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه .

وقد دلّت هذه الآية على أن شؤم السيئات يجرّ صاحبه إلى التمادي في السيئات ، ويفهم من مفهوم مخالفة ذلك ، أن فعل الخير يؤدي إلى التمادي في فعل الخير ، وهو كذلك كما قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [ محمد : 17 ] وقوله تعالى : ﴿ والذين جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [ العنكبوت : 69 ] وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [ التغابن : 11 ] إلى غير ذلك من الآيات .



---

واعلم : أن قول من قال من أهل العلم : إن معنى قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا في أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً ﴾ أن المراد بذلك الأغلال ، التي يعذبون بها في الأخرة كقوله تعالى : ﴿ إِذِ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ والسلاسل يُسْحَبُونَ فِي الحميم ثُمَّ فِي النار يُسْجَرُونَ ﴾ [ غافر : 7172 ] خلاف التحقيق ، بل المراد بجعل الأغلال في أعناقهم وما ذكر معه في الآية هو صرفهم عن الإيمان والهدى في دار الدنيا كما أوضحنا وقرأ هذا الحرف . حمزة ، والكسائي ، وحفص ، عن عاصم : ﴿ سَدّاً ﴾ بالفتح في الموضعين ، وقرأه الباقون بضم السين ، ومعناهما واحد على الصواب . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر وَخشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ .

تقدم إيضاحه مع نظائره من الآيات في سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ [ فاطر : 18 ] .

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (12)

ذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة أربعة أشياء .

الأول : أنه يحيي الموتى مؤكداً ذلك متكلماً عن نفسه بصيغة التعظيم .

الثاني : أنه يكتب ما قدموا في دار الدنيا .

الثالث : أنه يكتب آثارهم .

الرابع : أنه أحصى كل شيء في إمام مبين . أي في كتاب بيّن واضح ، وهذه الأشياء الأربعة جاءت موضحة في غير هذا الموضع .

أما الأول منها : وهو كونه يحيي الموتى بالبعث فقد جاء في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى .



---

كقوله تعالى : ﴿ قُلْ بلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [ التغابن : 7 ] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِي وربي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ [ يونس : 53 ] . وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ الله مَن

يَمُوتُ بلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ﴾ [ النحل : 38 ] والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقد قدّمناها بكثرة في سورة البقرة وسورة النحل في الكلام على براهين البعث وقدمنا الإحالة على ذلك مراراً .

وأما الثاني منها : وهو كونه يكتب ما قدموا في دار الدنيا فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بلى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [ الزخرف : 80 ] . وقوله تعالى : ﴿ هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [ الجاثية : 29 ] . وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقرأ كَتَابَكَ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [ الإسراء : 1314 ] وقوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا ويلتنا مالِ هذا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [ الكهف : 49 ] الآية . وقوله تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ ق : 18 ] .

وقد قدّمنا بعض الكلام على هذا في سورة الكهف .

وأما الثالث منها : وهو كونهم تكتب آثارهم فقد ذكر في بعض الآيات أيضاً .

واعلم أن قوله : ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ فيه وجهان من التفسير معروفان عند العلماء .

الأول منهما : أن معنى ﴿ مَا قَدَّمُواْ ﴾ ما باشروا فعله في حياتهم ، وأن معنى ﴿

﴿وَآثَارَهُمْ﴾ : هو ما سنّوه في الإسلام من سنة حسنة أو سيئة ، فهو من آثارهم التي يعمل بها بعدهم .

(260/645)

---

الثاني : أن معنى آثارهم خطاهم إلى المساجد ونحوها من فعل الخير ، وكذلك خطاهم إلى الشر ، كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنّه قال : "يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم" يعني خطاكم من بيوتكم إلى مسجده صلى الله عليه وسلم .

أما على القول الأول فالله جل وعلا قد نص على أنهم يحملون أوزار من أضلوهم وسنوا لهم السنن السيئة كما في قوله تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل : 25] الآية . وقوله تعالى : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت : 13] .

وقد أوضحنا ذلك في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل : 25] وذكرنا حديث جرير ، وأبي هريرة في صحيح مسلم في إيضاح ذلك .

ومن الآيات الدالة على مؤاخذة الإنسان بما عمل به بعده مما سنه من هدى أو ضلالة . قوله

تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [ القيامة : 13 ] بناء على أن المعنى بما قدّم مباشراً له ، وأخّر مما عمل به بعده ممّا سنه من هدى أو ضلال . وقوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [ الإنفطار : 5 ] على القول بذلك .

وأما على تفسير الثاني : وهو أن معنى ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ خطاهم إلى المساجد ونحوها ، فقد جاء بعض الآيات دالاً على ذلك المعنى كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ ﴾ [ التوبة : 121 ] لأن ذلك يستلزم أن تكتب لهم خطاهم التي قطعوا بها الوادي في غزوهم .

وأما الرابع : وهو قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شيءٍ أَحْصَيْنَاهُ في إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ فقد تدّل عليه الآيات الدالة على الأمر الثاني ، وهو كتابة جميع الأعمال التي قدّموها بناء على أن المراد بذلك خصوص الأعمال .

(261/645)

---

وأما على فرض كونه عامّاً فقد دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وأحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾ [ الجن : 28 ] وقوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ﴾ [ الأنعام : 38 ] بناء على أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ، وهو أصحّ القولين .

والعلم عند الله تعالى.

قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15)

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: 94].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة عن الكفار: ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرحمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ قد بين أنهم قد قالوا ذلك في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك: 89] الآية، وقد بيّن تعالى أن الذين أنكروا إنزال الله الوحي كهؤلاء أنهم لم يقدروه حق قدره: أي لن يعظموه حق عظمته، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: 91].

قوله تعالى: ﴿ قالوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بموسى وَمَن مَّعَهُ ﴾ [ الأعراف : 131 ] وذكرنا بعض الكلام عليه في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ اطيرنا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ [ النمل : 47 ] الآية .

قوله تعالى : ﴿ اتبعوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، وما يتعلق بها من الأحكام في سورة هود في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وياقوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله ﴾ [ هود : 29 ] .

وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22)

قوله : فطرني معناه : خلقني وابتدعني ، كما تقدّم إيضاحه في أول سورة فاطر .

والمعنى : أي شيء ثبت لي يمنعني من أن أعبد الذي خلقني ، وابتدعني ، وأبرزني من العدم إلى الوجود ، وما دلّت عليه هذه الآية الكريمة من أن الذي يخلق هو وحده ، الذي يستحق أن يعبد وحده ، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله .

وقد قدّمنا إيضاح ذلك في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى : ﴿ واتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [ الفرقان : 3 ] وفي سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ ﴾ [ الرعد : 16 ] الآية .

أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23)

إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24)

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ أَأَتَّخِذُ ﴾: للإنكار، وهو مضمن معنى النفي: أي لا أعبد من دون الله معبودات، إن أرادني الله بضر لا تقدر على دفعه عني، ولا تقدر أن تنقذني من كرب.

(263/645)

---

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من عدم فائدة المعبودات من دون الله جاء موضحاً في آيات من كتاب الله تعالى: كقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِيَ الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ الله عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتوكلون ﴾ [ الزمر: 38 ] وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضر عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ﴾ [ الإسراء: 56 ] وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ الله لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض ﴾ [ سبأ: 22 ] الآية. وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [ يونس: 18 ] وقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن

دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [ يونس : 106 ] ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ أي لا شفاعة لهم أصلاً حتى تغني شيئاً ، ونحو هذا أسلوب عربي معروف ، ومنه قول امرئ القيس :

على لاحب لا يهتدي بمناره . . . إذا سافه العود النباطي جرجرا

فقوله : لا يهتدي بمناره : أي لا منار له أصلاً حتى يهتدي به .

وقول الآخر :

لا تفزع الأرنب أهوالها . . . ولا ترى الضب بها ينجحر

أي لا أرنب فيها ، حتى تفزعها أهوالها ، ولا ضب فيها حتى ينجحر : أي يتخذ حجراً .

(264/645)

---

وهذا المعنى هو المعروف هو المعروف عند المنطقيينبقولهم : السالبة لا تقتضي وجود الموضوع . كما تقدم إيضاحه . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(265/645)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب فى الآيات السابقة :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) ﴾

مناسبة ضرب هذا المثل هنا ، هو أن الآيات السابقة كشفت عن الطبيعة الإنسانية ، وأن الناس على طبيعتين : أصحاب طبيعة متأبّية على الخير ، مغلقة الحواسّ عنه ، لا يستجيبون له مهما جئ إليهم به من شتى الوسائل . . وأصحاب طبيعة أخرى مهيأة للإيمان ، مستعدة له ، متشوفة إليه ، لا تكاد تهبّ عليهم نسمة من أنسامه العطرة ، حتى يتنفسوا أنفاسه ، ويملئوا صدورهم به . .

وفى هذا المثل ، عرض للناس فى طبيعتيهم هاتين معا . .

قوله تعالى : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ » . .

[القرية . . والمرسلون إليها] المفسّرون على إجماع بأن هذه القرية ، هى « أنطاكية » . . وعلى إجماع كذلك بأن هؤلاء الرسل ، هم من حواريى المسيح ، ورسله الذين بعثهم لينشروا الدعوة فى الناس . .

وهذا التأويل للقرية وللرسل ، لا يقوم له شاهد من القرآن الكريم ، ولا تدل عليه إشارة من إشاراته القريبة أو البعيدة . . وإنما هو من واردات أهل الكتاب ، وأخبارهم . والخبر هنا وارد من المسيحية ، وينسب إلى وهب

ابن منبّه ، الذي تلقاه من المسيحية ، مما يعرف عند المسيحيين بأعمال الرسل ، الملحقة بالأناجيل . .

فهذا التأويل .في نظرنا .لا يعوّل عليه ، ما دام غير مستند إلى دليل من القرآن الكريم ذاته . . فالقرآن الكريم .في رأينا .يفسر بعضه بعضا ، وهو كما وصفه الحق سبحانه وتعالى في قوله : « وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ » (89 : النحل) فكيف لا يكون تبيانا لما فيه ؟ .

وندع القرية واسمها ، والرسل والصفة التي لهم .ندع هذا الآن ، ونعرض المثل على أن القرية واحدة من القرى المبثوثة في هذه الدنيا ، وأن الرسل ، هم بعض رسل اللّه إلى عباده . .

فهذه قرية ، قد جاءها رسل ، مبعوثون من عند الله ، وقد دعوا أصحابها إلى الإيمان ، فلم يلقوا منهم إلّا الصد اللئيم ، والقول القبيح . .

أرسل الله سبحانه إليهم رسولين معا . . فكذبوهما . . « إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ » أي أمدهما اللّه برسول ثالث ، يقوّيهما ، ويشد أزرهما . . فلم يزدهم ذلك إلا عنادا ، وإصرارا على الكفر والضلال :

«إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ، وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ . . إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ» . .

ولم يكن للرسل بين يدى هذا القول المنكر ، إلا أن يقولوا ما حكاه القرآن عنهم :

قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ» . .

ويجىء ردّ القوم على الرسل ، زاجرا مهددا :



---

« قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ» . .

ويلقى الرسل هذا الرد الفاجر ، بملاطفة ، ووداعة :

« قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ . . ! » أي شؤمكم معكم ، ومستقرّ فى كيانكم الفاسد ، الذي يمسك عليكم هذا الداء الذي أنتم فيه . . وليس هو شؤما واردا عليكم من خارج ، فإن ما معكم من الشؤم لا يحتاج إلى مزيد . .

- « أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ ؟ » ألأن ذكرتم بما أنتم فيه من غفلة ، وما أنتم عليه من ضلال ، ترموننا بهذا الاتهام الكاذب الفاجر ؟ .

- « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ » - أي متجاوزون الحد فى الضلال . .

وينتهى موقف الرسل مع أصحاب القرية إلى هذا الطريق المسدود . .

ثم لا يلبث أن يجىء صوت العقل، من واحد من أهل القرية، فيكسر هذا الحائط، ويدخل على القوم منه، ويأخذ موقفه مع الرسل، داعيا إلى اللّه . .

« وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ » . . فأى دعوة أولى من هذه الدعوة، بالقبول لها، والاحتفاء بأهلها ؟ إنها دعوة من أهل الهدى، الذين لا يسألون أجرا على هذا الهدى الذي، يقدمونه ويدعون إليه . .

فلم التمنّع والإعراض عن خير يبذل بلا ثمن ؟ ذلك لا يكون إلا عن سفه وجهل معا . .

ثم يعرض هذا الوافد الجديد، نفسه عليهم، فى الزىّ الجديد الذي تزيّا، والخير الموفور الذي بين يديه من تلك الدعوة . .

(268/645)

---

« وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ ؟ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ » .

أسئلة إنكارية، ينكر بها الرجل على نفسه ألا يكون فى العابدين لله، الذي فطره، والذي

إليه موعده ولقاؤه مع الناس ، يوم الحشر ، إنه لا بد أن يكون له إله يعبده . . أفيترك عبادة من خلقه ورزقه ، والذي يميته ثم يحييه . .

ويعبد آلهة من دون اللّه ، إن يرده اللّه بضر لا تغنى عنه هذه الآلهة شيئًا ، ولا تمد يدها لإنقاذه مما يريده اللّه به من ضر ؟ « إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ » ! ! وأي ضلال بعد هذا الضلال ، الذي يدع فيه الإنسان حبل النجاة الممدود إليه ، ثم يتعلق بأمواج البحر الصاخبة ، وتياراته المتدافعة ؟ .

« إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ » . وهكذا يقولها صريحة مدوّية فى وجه القوم . . إنها هى كلمة النجاة ، وحسبه أن يمسك بها ، وليكن ما يكون . . !

وألا فليسمعوها عالية مدوية متحدية . . إنها كلمة الحق التي يجب أن ترتفع فوق كل كلمة ، وتعلو على كل نداء .

« قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ » . هذا هو الجواب الذي تلقاه الرجل المؤمن ، ردّا على إقراره بالإيمان بربه . . وهو الجزاء الذي يلقاه كل مؤمن صادق الإيمان . .

والقول الذي قيل لهذا المؤمن ، إما أن يكون فى الحياة الدنيا ، بوحي من اللّه سبحانه وتعالى ، وإما أن يكون ذلك بعد الموت ، حيث يعلم المرء مكانه من الجنة أو النار فيقال له يومئذ : « ادخل الجنة » فهى الدار التي أعدّها اللّه لك .

« قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ » !

إنه يتمنّى لقومه أن ينالوا هذا الخير الذي ناله ، بإيمانه بربه ، وأن يعلموا ما أعد اللّه للمؤمنين من مغفرة وإكرام . . وأنّى لهم أن يعلموا هذا الغيب ؟

وأنّى لهم أن يؤمنوا به ، وقد أنكروا ما لمسوه بحواسهم ، وكذبوا ما رأوه بأعينهم ؟ . .

هذا هو المثل ، وتلك هى مواقف الشخصيات والأحداث فيه . .

وعلى ضوء هذا المثل يرى المشركون الضالون ، إلى أين يسير بهم كفرهم وضلالهم ، وإلى أين ينتهى الإيمان بالمؤمنين الذين استجابوا لرسول اللّه ، واستقاموا على الطريق الذي يدعوهم إليه ! .

والصورة التي يصورها المثل واضحة مشرقة ، لا ينقصها أن يفتقد اسم القرية فيها ، ولا أن تغيب أسماء الرسل ومشخصاتهم . . إنها مستغنية عن كل هذا . .

وإذا كان لا بد من التطلع إلى ما وراء هذه الصورة ، والنظر إلى موقع القرية من هذا العالم ، وإلى أشخاص الرسل من بين رسل اللّه. إذا كان لا بد من ذلك ، فليكن النظر مقصورا على كتاب اللّه ، وليكن التطلع محجوزا فى هذه الحدود . . لا يتجاوزها . .

وننظر فى القرآن الكريم فنرى :

أولا : أن القرآن الكريم ، لم يتحدث عن رسولين حملا رسالة واحدة ، إلى جهة واحدة ، غير موسى وهرون . .

وثانيا : أن هذين الرسولين الكريمين ، قد حملا رسالتهما إلى فرعون . .

وثالثا : أنه قد قام من قوم فرعون رجل مؤمن ، خرج على سلطان فرعون ، وعلى ما كان عليه قومه من متابعة فرعون فى كفره وضلاله .



---

ورابعا : أن القرآن الكريم ، يعقد الصلة فى أكثر من موضع منه ، بين فرعون ، وبين هؤلاء المشركين من قريش . .

فإذا نظرنا إلى المثل على ضوء هذه الإشارات المضيئة من القرآن الكريم ، نجد :

أولا : أن قوله تعالى : « إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما » يقبل التأويل ، على أن الرسولين ، هما موسى ، وهرون ، كما يقول تعالى : « اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى » (43 : طه) . .

وثانيا : أن قوله تعالى : « فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ » يقابله فى قصة موسى وهرون مع فرعون ، حديث عظيم فى القرآن العظيم ، عن رجل لم يكشف القرآن عن اسمه ، وإنما أشار إلى أنه من آل فرعون . . أي خاصته ، وذوى قرابته . .

فهو إنسان ذو شأن فى المجتمع الفرعوني . . ومع هذا لم يكشف القرآن عن اسمه . . إذ ما جدوى الاسم ، فى مقام الوزن للقيم الإنسانية فى الناس ؟ إن المعتبر هنا هو الصفة لا الموصوف ، وذات المسمّى لا الاسم . .

يقول القرآن الكريم ، عن هذا الرجل المؤمن : « وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ



---

وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ . . . »

(المؤمن : 28.34) .

ثم تمضى الآيات ، فتذكر دعوة هذا الداعي إلى الله . . فيقول سبحانه :

« وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ » (38.45 : المؤمن) . .

هذه دعوة رجل صاحب رسالة . . إنها إن لم تكن على يد رسول ، فهى رسالة رسول ، وحقّ لصاحبها أن يدخل فى زمرة الرسل . . وهذا هو السر فى التعبير القرآنى : « فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ » أي فعززنا الرسولين بثالث ، وهذا يمكن أن يحمل ـ وهو فى إطلاقه كهذا ـ على محملين ، فيقدّر برسول ثالث ، أو معين ثالث ، بعد المعين الثاني ، الذي كان معينا للرسول الأول ، فهو تعزيز بعد تعزيز . . ولقد عزّز موسى بهارون ، وكان هذا الرجل المؤمن تعزيزا لهما . .

بقيت مسألة تحتاج إلى نظر . . وهى أن المثل ذكر مع الرسل الثلاثة ، رجلا ، كانت له دعوة إلى اللّه كدعوة هؤلاء الرسل ، وأنه جاء من أقصى

(272/645)

---

المدينة ، وهى القرية التي جاء ذكرها فى أول المثل . . وهذا الرجل يكاد يكون صورة مطابقة لمؤمن آل فرعون ، الذي قلنا عنه إنه رسول ، أو حوارىّ رسول . فمن هو هذا الرجل ؟ وهل له مكان فى قصة موسى مع فرعون ؟ .

ونعم ، فإننا نجد فى قصة موسى مع فرعون ، رجلا آخر ، جاء من أقصى المدينة ، يسعى . . ولكنه فى هذه القصة لم يكشف عن دعوة له إلى اللّه ، وإنما جاء ناصحا لموسى ، هاتفا به أن يخرج من المدينة ، فإن الملأ يأتمرون به ليقتلوه ، كما يقول تعالى فى سورة القصص : « وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ » (آية 20) .

ولم تكن للرجل دعوة إلى اللّه هنا ، لأن موسى لم يكن قد أرسل بعد . .

وربما كان الرجل مؤمنا باللّه ، يدين بالتوحيد عن طريق اليهودية ، أو عن طريق النظر الحرّ . . وعلى أىّ فهو على غير دين فرعون . . وقد ظل الرجل على إيمانه إلى أن بعث اللّه

موسى رسولا ، فلما جاء موسى يدعو فرعون إلى اللّه ، وعرض بين يديه تلك المعجزات ، ازداد الرجل إيمانا ، فأصبح داعية إلى اللّه ، يدعو قومه إلى الإيمان باللّه . .

وعلى هذا ، فإننا نجد فى القصة والمثل رجلين :

أحدهما ، وهو المؤمن الذي من آل فرعون . والذي وقف مع موسى وهرون موقف الداعية إلى اللّه ، وأنه كان على إيمان باللّه ، ولكنه كان يكتم إيمانه خوفا من فرعون ، فلما رأى أن فرعون يدبّر لقتل موسى ، فزع لهذا الأمر ، وأعلن إيمانه ، ووقف مع موسى وهرون ، يحاجّ فرعون ، ويجادله ، إذ كان ـ مع إيمانه ـ ذا جاء وسلطان . . إنه من آل فرعون ! . .

(273/645)

---

أما الرجل الآخر ، فهو الذي جاء إلى موسى ، قبل الرسالة ، وحذّره مما يدبر له القوم ، ونصح له بالفرار من المدينة . .

وبهذا نرى أن أحد الرجلين ، خلّص موسى من القتل بعد الرسالة ، على حين أن الآخر قد خلّصه من القتل أيضا ، ولكن قبل الرسالة . .

ومسألة أخرى ، تحتاج إلى نظر أيضا . .

إذا كان هذان الرجلان هما المشار إليهما فى المثل المضروب ، فى سورة « يس » باعتبار

أن الرجل الذي من آل فرعون هو الرسول ، أو حوارىّ الرسول ، وأن الآخر هو الذي جاء من أقصى المدينة ، وقال : يا قوم « اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ الآيات » . إذ كان ذلك كذلك ، فلم نوه القرآن الكريم فى المثل المضروب بالرجل الآخر ، ولم يذكر شيئا عن موقف الرجل الأول ، الذي هو من آل فرعون ، والذي قلنا إنه هو الذي عزّز به الرسولان الكريمان ؟ :

والجواب على هذا . والله أعلم . من وجهين :

فأولا : أنه بحسب مؤمن آل فرعون تنويها ، أن يضاف إلى الرسولين الكريمين ، وأن يكون له المكان الثالث معهما . . فقد رفع إلى درجة رسول .

وثانيا : وبحسبه شرفا وتكريما أن تسمى فى القرآن سورة باسمه ، هى سورة « المؤمن » والتي تسمى « غافر » أيضا . . وقد ذكرت فى هذه السورة رسالته كلها ، والتي قلنا عنها إنها رسالة رسول . . . !

هذا ، والله أعلم . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 11 صـ 913. 921﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) ﴾

عطف على قصة التحاور الجاري بين أصحاب القرية والرسل الثلاثة لبيان البون بين حال المعاندين من أهل القرية وحالِ الرجل المؤمن منهم الذي وعظهم بموعظة بالغة وهو من نفر قليل من أهل القرية .

فلك أن تجعل جملة ﴿ وجاء من أقصا المدينة ﴾ عطفاً على جملة ﴿ جاءها المرسلون ﴾ [ يس : 13 ] ولك أن تجعلها عطفاً على جملة ﴿ فقالوا إنا إليكم مرسلون ﴾ [ يس : 14 ] .

والمراد بالمدينة هنا نفس القرية المذكورة في قوله : ﴿ أصحاب القرية ﴾ [ يس : 13 ] عُبر عنها هنا بالمدينة تفنناً ، فيكون ﴿ أقصا ﴾ صفة لمحذوف هو المضاف في المعنى إلى المدينة .

والتقدير : من بَعيد المدينة ، أي طرف المدينة ، وفائدة ذكر أنه جاء من أقصى المدينة الإِشارة إلى أن الإِيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة لأن قلب المدينة هو مسكن حكامها وأحبار اليهود وهم أبعد عن الإِنصاف والنظر في صحة ما يدعوهم إليه الرسل ، وعامة سكانها تبع لعظمائها لتعلقهم بهم وخشيتهم بأسهم بخلاف سكان أطراف المدينة فهم أقرب إلى الاستقلال بالنظر وقلة اكتراثٍ بالآخرين لأن سكان

الأطراف غالبهم عملة أنفسهم لقربهم من البدو .

وبهذا يظهر وجه تقديم ﴿ من أقصا المدينة ﴾ على ﴿ رجل ﴾ للاهتمام بالثناء على أهل أقصى المدينة .

وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط ، وأن الإِيمان يسبق إليه الضعفاء لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة ، قال أبو تمام :

كانت هي الوسطَ المحميّ فاتصلت

بها الحوادث حتى أصبحت طرَفا . . .

وأما قوله تعالى في سورة القصص ( 20 ) ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ﴾ فجاء النظم على الترتيب الأصلي إذ لا داعي إلى التقديم إذ كان ذلك الرجل ناصحاً ولم يكن داعياً للإِيمان .



---

وعلى هذا فهذا الرجل غير مذكور في سفر أعمال الرسل وهو مما امتاز القرآن بالإعلام به .

وعن ابن عباس وأصحابه وجد أن اسمه حبيب بن مرة قيل : كان نجاراً وقيل غير ذلك

فلما أشرف الرسل على المدينة رآهم ورأى معجزة لهم أو كرامة فآمن .

وقيل : كان مُؤمناً من قبل ، ولا يبعد أن يكون هذا الرجل الذي وصفه المفسرون بالنجّار أنه هو ( سمعان ) الذي يدعى ( بالنيجر ) المذكور في الإِصحاح الحادي عشر من سفر أعمال الرسل وأن وصف النجار محرف عن ( نيجر ) فقد جاء في الأسماء التي جرت في كلام المفسرين عن ابن عباس اسم شمعون الصفا أو سمعان .

وليس هذا الاسم موجوداً في كتاب أعمال الرسل .

ووصفُ الرجل بالسعي يفيد أنه جاء مسرعاً وأنه بلغه همُّ أهل المدينة برجم الرسل أو تعذيبهم ، فأراد أن ينصحهم خشيةً عليهم وعلى الرسل ، وهذا ثناء على هذا الرجل يفيد أنه ممن يُقتدَى به في الإِسراع إلى تغيير المنكر .

وجملة قال يا قوم ﴾ بدل اشتمال من جملة "جاء رجل" لأن مجيئه لما كان لهذا الغرض كان مما اشتمل عليه المجيء المذكور .

وافتتاح خطابه إياهم بندائهم بوصف القومية له قُصد منه أن في كلامه الإِيماء إلى أن ما سيخاطبهم به هو محْض نصيحة لأنه يحِب لقومه ما يحِب لنفسه .

والاتباع : الامتثال ، استعير له الاتّباع تشبيهاً للآخِذِ برأي غيره بالمتبعِ له في سيره .

والتعريف في ﴿ المرسلين ﴾ للعهد .

وجملة ﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجراً ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ اتبعوا المرسلين ﴾ مع زيادة

الإِيماء إلى علة اتّباعهم بلوائح علامات الصدق والنصح على رسالتهم إذ هم يَدْعُون إلى هُدى ولا نفع ينجرّ لهم من ذلك فتمحّضت دعوتهم لقصد هداية المرسَل إليهم ، وهذه كلمة حكمة جامعة ، أي اتبعوا من لا تخسرون معهم شيئاً من دنياكم وتربحون صحة دينكم .

(276/645)

---

وإنما قدم في الصلة عدم سؤال الأجر على الاهتداء لأن القوم كانوا في شك من صدق المرسلين وكان من دواعي تكذيبهم اتّهامهم بأنهم يجرّون لأنفسهم نفعاً من ذلك لأن القوم لما غلب عليهم التعلق بحب المال وصاروا بعداء عن إدراك المقاصد السامية كانوا يَعُدّون كل سعي يلوح على امرىء إنما يسعى به إلى نفعه .

فقدم ما يزيل عنهم هذه الاستزابة وليَتهَيّؤوا إلى التأمل فيما يدعونهم إليه ، ولأن هذا من قبيل التخلية بالنسبة للمرسلين والمرسل إليهم ، والتخلية تُقدَّم على التحلية ، فكانت جملة ﴿ لا يسألكم أجراً ﴾ أهم في صلة الموصول .

والأجر يصدق بكل نفع دنيوي يحصل لأحد من عمله فيشمل المال والجاه والرئاسة .

فلما نفي عنهم أن يسألوا أجراً فقد نفي عنهم أن يكونوا يرمون من دعوتهم إلى نفع دنيوي يحصل لهم .

وبعد ذلك تهيّأ الموقع لجملة ﴿ وهُم مهتدون ﴾ ، أي وهم متّصفون بالاهتداء إلى ما يأتي بالسعادة الأبدية ، وهم إنما يدعونكم إلى أن تسيروا سِيرتهم فإذا كانوا هم مهتدين فإن ما يدعونكم إليه من الاقتداء بهم دعوة إلى الهدى ، فتضمنت هذه الجملة بموقعها بعد التي قبلها ثناء على المرسلين وعلى ما يدعون إليه وترغيباً في متابعتهم .

وأعلم أن هذه الآية قد مثل بها القزويني في "الإِيضاح" و "التلخيص" للإِطناب المسمى بالإِيغال وهو أن يُوتَى بعد تمام المعنى المقصود بكلام آخر يتمّ المعنى بدونه لنكتة ، وقد تبين لك مما فسّرنا به أن قوله : ﴿ وهم مهتدون ﴾ لم يكن مجرد زيادة بل كان لتوقف الموعظة عليها ، وكان قوله : ﴿ من لا يسألكم أجراً ﴾ كالتوطئة له .

ونعتذر لصاحب "التلخيص" بأن المثال يكفي فيه الفرض والتقدير .

وجاءت الجملة الأولى من الصلة فعلية منفية لأن المقصود نفي أن يحدث منهم سؤال أجر فضلاً عن دوامه وثباته ، وجاءت الجملة الثانية اسمية لإِفادة إثبات اهتدائهم ودوامه بحيث لا يخشى من يتبعهم أن يكون في وقت من الأوقات غير مهتد .

وقوله: ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ﴾ عطف على جملة ﴿ اتبعوا المرسلين ﴾ قَصد إشعارهم بأنه اتَّبع المرسلين وخلع عبادة الأوثان، وأبرز الكلام في صورة استفهام إنكاري وبصيغة: ما لي لا أفعلَ، التي شأنها أن يوردها المتكلم في ردَ على من أنكر عليه فعلاً، أو ملكه العجب من فعله أو يوردها من يقدر ذلك في قلبه، ففيه إشعار بأنهم كانوا منكرين عليه الدعوة إلى تصديق الرسل الذين جاؤوا بتوحيد الله فإن ذلك يقتضي أنه سبقهم بما أمرهم به.

و﴿ ما ﴾ استفهامية في موضع رفع بالابتداء، والمجرور من قوله: ﴿ لي ﴾ خبر عن ﴿ ما ﴾ الاستفهامية.

وجملة ﴿ لا أعبد ﴾ حال من الضمير.

والمعنى: وما يكون لي في حال لا أعبد الذي فطرني، أي لا شيء يمنعني من عبادة الذي خلقني، وهذا الخبر مستعمل في التعريض بهم كأنه يقول: وما لي لا أعبد وما لكم لا تعبدون الذي فطركم بقرينة قوله: ﴿ وإليه ترجعون ﴾، إذ جعل الإِسناد إلى ضميرهم تقوية لمعنى التعرض، وإنما ابتدأه بإِسناد الخبر إلى نفسه لإِبرازه في معرض المناصحة لنفسه وهو مريد مناصحتهم ليتَلطَّف بهم ويدارئهم فيسمعهم الحق على وجه لا يثير غضبهم ويكون أعون على قبولهم إياه حين يرون أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه.

ثُمّ أتبعه بإبطال عبادة الأصنام فرجع إلى طريقة التعريض بقوله: ﴿ أأتخذ من دونه آلهة ﴾

وهي جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لاستشعار سؤال عن وقوع الانتفاع بشفاعة تلك الآلهة عند الذي فطره ، والاستفهام إنكاري ، أي أنكر على نفسي أن أتخذ من دونه آلهة ، أي لا أتخذ آلهة .

والاتخاذ : افتعال من الأخذ وهو التناول ، والتناول يشعر بتحصيل ما لم يكن قبل ، فالاتخاذ مشعر بأنه صُنع وذلك من تمام التعريض بالمخاطبين أنهم جعلوا الأوثان آلهة وليست بآلهة لأن الإِله الحق لا يُجعل جعلاً ولكنه مستحق الإلهية بالذات .



---

ووصف الآلهة المزعومة المفروضة الاتخاذَ بجملة الشرط بقوله : ﴿ إن يردن الرحمان بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ﴾ .

والمقصود : التعريض بالمخاطبين في اتخاذهم تلك الآلهة بعلة أنها تشفع لهم عند الله وتقربهم إليه زلفى .

وقد علم من انتفاء دفعهم الضر أنهم عاجزون عن جلب نفع لأن دواعي دفع الضر عن المَولى أقوى وأهم ، ولحاق العار بالوَلِيّ في عجزه عنه أشد .

وجاء بوصف ﴿ الرحمان ﴾ دون اسم الجلالة للوجه المتقدم آنفاً عند قوله تعالى : ﴿

قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء ﴾ [ يس : 15 ] .

والإِنقاذ : التخليص من غلب أو كرب أو حيرة ، أي لا تنفعني شفاعتهم عند الله الذي أرادني بضر ولا ينقذونني من الضر إذا أصابني .

وإذ قد نفي عن شفاعتهم النفع للمشفوع فيه فقد نفي عنهم أن يشفعوا بطريق الالتزام لأن من يعلم أنه لا يُشفع لا يشْفّع ، فكأنه قال : آتخذ من دونه آلهة لا شفاعة لهم عند الله ، لإبطال اعتقادهم أنهم شفعاء مقبولو الشفاعة .

وإذ كانت شفاعتهم لا تنفع لعجزهم وعدم مساواتهم لله الذي يضرّ وينفع في صفات الإِلهية كان انتفاء أن ينقِذوا أولى .

وإنما ذكر العدول عن دلالة الفحوى إلى دلالة المنطوق لأن المقام مقام تصريح لتعلقه بالإِيمان وهو أساس الصلاح .

وجملة ﴿ إني إذا لفي ضلال مبين ﴾ جواب للاستفهام الإِنكاري .

فحرْف ﴿ إذن ﴾ جزاء للمنفي لا للنفي ، أي إن اتخذتُ من دون الله آلهة أكُنْ في ضلال مبين .

وجملة ﴿ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ واقعة موقع الغاية من الخطاب والنتيجة من الدليل .

وهذا إعلان لإِيمانه وتسجيل عليهم بأن الله هو ربهم لا تلك الأصنام .

وأكد الإعلان بتفريع ﴿ فاسمعون ﴾ استدعاءً لتحقيق أسماعهم إن كانوا في غفلة .

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26)

استئناف بياني لما ينتظره سامع القصة من معرفة ما لقيه من قومه بعد أن واجههم بذلك الخطاب الجَزل .

(279/645)

---

وهل اهتدوا بهديه أو أعرضوا عنه وتركوه أو آذوه كما يُؤذَى أمثاله من الداعين إلى الحق المخالفين هوى الدهماء فيجاب بما دل عليه قوله : ﴿ قيل ادخل الجنة ﴾ وهو الأهم عند المسلمين وهم من المقصودين بمعرفة مثل هذا ليزدادوا يقيناً وثباتاً في إيمانهم ، وأما المشركون فحظهم من المَثل ما تقدم وما يأتي من قوله : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ [ يس : 29 ] .

وفي قوله : ﴿ قيل ادخل الجنة ﴾ كناية عن قتله شهيداً في إعلاء كلمة الله لأن تعقيب موعظته بأمره بدخول الجنة دفعة بلا انتقال يفيد بدلالة الاقتضاء أنه مات وأنهم قتلوه لمخالفته دينهم ، قال بعض المفسرين : قتلوه رجماً بالحجارة ، وقال بعضهم : أحرقوه ، وقال بعضهم : حفروا له حفرة وردموه فيها حيّاً .

وإن هذا الرجل المؤمن قد أُدخل الجنة عقب موته لأنه كان من الشهداء والشهداء لهم مزية التعجيل بدخول الجنة دخولاً غير موسع .

ففي الحديث : " إن أرواحَ الشهداء في حواصل طيور خُضرٍ تأكل من ثمار الجنة " .

والقائل : ﴿ ادخل الجنة ﴾ هو الله تعالى .

والمقولُ له هو الرجل الذي جاء من أقصى المدينة وإنما لم يذكر ضمير المقول له مجروراً باللام لأن القول المذكور هنا قول تكويني لا يقصد منه المخاطب به بل يقصد حكاية حصوله لأنه إذا حصل حصل أثره كقوله تعالى : ﴿ أن نقول له كن فيكون ﴾ [ النحل : 40 ] .

وإذ لم يقَصّ في المثَل أنه غادر مَقامه الذي قام فيه بالموعظة كان ذلك إشارة إلى أنه مات في مقامه ذلك ، ويفهم منه أنه مات قتيلاً في ذلك الوقت أو بإثره .

*(280/645)*

---

وإنما سلك في هذا المعنى طريق الكناية ولم يصرح بأنهم قتلوه إغماضاً لهذا المعنى عن المشركين كيلا يسرّهم أن قومه قتلوه فيجعلوه من جملة ما ضرب به المثل لهم وللرسول صلى الله عليه وسلم فيطمعوا فيه أنهم يقتلون الرسول صلى الله عليه وسلم فهذه الكناية لا يفهمها إلا أهل الإِسلام الذين تقرر عندهم التلازم بين الشهادة في سبيل الله ودخول الجنة ،

أما المشركون فيحسبون أن ذلك في الآخرة .

وقد تكون في الكلام البليغ خصائص يختص بنفعها بعض السامعين .

وجملة ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون ﴾ مستأنفة أيضاً استئنافاً بيانياً لأن السامع يترقب ماذا قال حين غمره الفرح بدخول الجنة .

والمعنى : أنه لم يُلهِه دخوله الجنة عن حال قومه ، فتمنى أن يعلموا ماذا لقي من ربه ليعلموا فضيلة الإِيمان فيؤمنوا وما تمنّى هلاكهم ولا الشماتة بهم فكان متّسِماً بكظم الغيظ وبالحلم على أهل الجهل ، وذلك لأن عالم الحقائق لا تتوجه فيه النفس إلا إلى الصلاح المحض ولا قيمة للحظوظ الدنية وسفساف الأمور .

وأدخلت الباء على مفعول ﴿ يعلمون ﴾ لتضمينه معنى : يُخبَرون ، لأنه لا مطمع في أن يحصل لهم علم ذلك بالنظر والاستدلال .

و( ما ) من قوله : ﴿ بما غفر لي ربي ﴾ مصدرية ، أي يعلمون بغفران ربي وجعله إياي من المكرمين .

والمراد بالمكرمين : الذين تلحقهم كرامة الله تعالى وهم الملائكة والأنبياء وأفضل الصالحين قال تعالى : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ [ الأنبياء : 26 ] يعني الملائكة وعيسى عليهم السلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) ﴾

أخرج ابن مردويه من طريق ابن عباس قال ﴿ يس ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم . وفي لفظ قال : يا محمد .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن محمد بن الحنفية في قوله ﴿ يس ﴾ قال : يا محمد .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿ يس ﴾ قال : يا إنسان .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن وعكرمة والضحاك ، مثله .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يس ﴾ قال : يا إنسان بالحبشية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أشهب قال : سألت مالك بن أنس أينبغي لاحد أن يتسمى بيس ؟ فقال : ما أراه ينبغي لقوله ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ يقول : هذا اسمي ، تسميت به .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله الله ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ قال : يقسم الله بما يشاء ، ثم نزع بهذه الآية ﴿ سلام على آل ياسين ﴾ [ الصافات : 130 ] كأنه يرى أنه سلم على رسوله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي كثير في قوله ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ قال : يقسم بألف عالم ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن كعب الأحبار في قوله ﴿ يس ﴾ قال : هذا قسم ، أقسم به ربك قال ﴿ يا محمد إنك لمن المرسلين ﴾ قبل أن اخلق الخلق بألفي عام .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين ﴾ قال : اقسم كما تسمعون أنه ﴿ لمن المرسلين على صراط مستقيم ﴾ أي على الإِسلام ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ قال : هو القرآن ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ﴾ قال : قريش لم يأت العرب رسول قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، لم يأتهم ولا آباءهم رسول قبله .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباءهم ﴾ قال بعضهم ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ﴾ ما أنذر الناس من قبلهم ، وقال بعضهم ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ﴾ أي هذه الأمة لم يأتهم نذير حتى جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ لقد حق القول على أكثرهم ﴾ قال : سبق في علمه .

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال "كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المسجد ، فيجهر بالقراءة ، حتى تأذّى به ناس من قريش ، حتى قاموا ليأخذوه ، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم ، وإذا هم لا يبصرون ، فجاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ننشدك الله والرحم يا محمد ، ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبي صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم حتى ذهب ذلك عنهم .

فنزلت ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ إلى قوله ﴿ أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ قال : فلم يؤمن من ذلك النفر أحد " .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً لأفعلن . ولأفعلن . . . فنزلت ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ إلى قوله ﴿ لا يبصرون ﴾ فكانوا يقولون : هذا محمد فيقول : أين هو أين هو . . . ؟ لا يبصره .

وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ﴾ قال: كفار قريش غطاء ﴿ فأغشيناهم ﴾ يقول: ألبسنا أبصارهم ﴿ فهم لا يبصرون ﴾ النبي صلى الله عليه وسلم فيؤذونه، وذلك أن ناساً من بني مخزوم تواطئوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليقتلوه. منهم أبو جهل، والوليد بن المغيرة. فبينا النبي صلى الله عليه وسلم قائم يصلي يسمعون قراءته، فأرسلوا إليه الوليد ليقتله، فانطلق حتى أتى المكان الذي يصلي فيه، فجعل يسمع قراءته ولا يراه، فانصرف إليهم، فأعلمهم ذلك، فأتوه فلما انتهوا إلى المكان الذي يصلي فيه، سمعوا قراءته فيذهبون إليه فيسمعون أيضاً من خلفهم، فانصرفوا ولم يجدوا إليه سبيلاً. فذلك قوله ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً . . ﴾ .

وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل عن محمد بن كعب القرظي قال: " اجتمع قريش؛ وفيهم أبو جهل على باب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا على بابه: ان محمداً يزعم أنكم ان بايعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، وبعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم نار تحرقون فيها ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وأخذ حفنة من تراب في يده قال : " نعم ، أقول ذلك ، وأنت أحدهم " ، وأخذ الله على أبصارهم فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو هذه الآيات ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ إلى قوله ﴿ فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات ، فلم يبق رجل إلا وضع على رأسه تراباً ، فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، وإذا عليه تراب فقالوا : لقد كان صدقنا الذي حدثنا " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ﴿ الأغلال ﴾ ما بين الصدر إلى الذقن ﴿ فهم مقمحون ﴾ كما تقمح الدابة باللجام .

(284/645)

---

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ مقمحون ﴾ قال : مجموعة أيديهم إلى أعناقهم تحت الذقن .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ مقمحون ﴾ قال ( المقمح ) الشامخ بأنفه ، المنكس برأسه . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما

سمعت قول الشاعر :

ونحن على جوانبها قعود . . . نغض الطرف كالإبل القماح

وأخرج الخرائطي في مساوىء الأخلاق عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ قال : البخل . أمسك الله أيديهم عن النفقة في سبيل الله ﴿ فهم لا يبصرون ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ قال : في بعض القراءات " إنا جعلنا في أيمانهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون " قال : مغلولون عن كل خير .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ فهم مقمحون ﴾ قال : رافعوا رؤوسهم ، وأيديهم موضوعة على أفواههم .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ " وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً " برفع السين فيهما ﴿ فأغشيناهم ﴾ بالغين .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : اجتمعت قريش بباب النبي صلى الله عليه وسلم ، ينتظرون خروجه ليؤذوه ، فشق ذلك عليه ، فأتاه جبريل بسورة ﴿ يس ﴾ وأمره بالخروج عليهم ، فأخذ كفاً من تراب ، وخرج وهو يقرأها ويذر التراب على رؤوسهم ، فما رأوه حتى جاز ، فجعل أحدهم يلمس رأسه ، فيجد التراب وجاء بعضهم فقال : ما

يجلسكم؟ قالوا : ننتظر محمداً فقال : لقد رأيته داخلاً المسجد قالوا : قوموا فقد سحركم.

(285/645)

---

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : " اجتمعت قريش فبعثوا عتبة بن ربيعة فقالوا : أئتِ هذا الرجل، فقل له إن قومك يقولون : إنك جئت بأمرٍ عظيم، ولم يكن عليه آباؤنا، ولا يتبعك عليه أحلامنا، وإنك إنما صنعت هذا إنك ذو حاجة، فإن كنت تريد المال فإن قومك سيجمعون لك ويعطونك، فدع ما تريد وعليك بما كان عليه آباؤك، فانطلق عليه عتبة فقال له : الذي أمروه، فلما فرغ من قوله وسكت. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم، حمتنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ [ فصلت 1 - 2 ] فقرأ عليه من أولها حتى بلغ ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ [ فصلت : 13 ] فرجع عتبة فأخبرهم الخبر، فقال : لقد كلمني بكلام ما هو بشعر، ولا بسحر، وإنه لكلام عجيب، ما هو بكلام الناس، فوقعوا به، وقالوا نذهب إليه بأجمعنا، فلما أرادوا ذلك، طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعمدهم حتى قام على رؤوسهم، وقال بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ حتى

بلغ ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ فضرب الله بأيديهم على أعناقهم ، فجعل من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً ، فأخذ تراباً ، فجعله على رؤوسهم ، ثم انصرف عنهم ، ولا يدرون ما صنع بهم ، فعجبوا وقالوا : ما رأينا أحداً قط أسحر منه أنظروا ما صنع بنا " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال : أئتمر ناس من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم ليسطوا عليه ، فجاؤوا يريدون ذلك ، فجعل الله ﴿ من بين أيديهم سداً ﴾ قال : ظلمة ﴿ ومن خلفهم سداً ﴾ قال : ظلمة ﴿ فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ قال : فلم يبصروا النبي صلى الله عليه وسلم .

(286/645)

---

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : كان ناس من المشركين من قريش يقول بعضهم لبعض : لو قد رأيت محمداً لفعلت به كذا وكذا ، فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم في حلقة في المسجد ، فوقف عليهم فقرأ ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ حتى بلغ ﴿ لا يبصرون ﴾ ثم أخذ تراباً ، فجعل يذره على رؤوسهم ، فما يرفع إليه رجل طرفه ، ولا يتكلم كلمة ، ثم جاوز النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعلوا ينفضون التراب عن رؤوسهم ولحاهم ، والله ما سمعنا ، والله ما أبصرنا ، والله ما عقلنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً ﴾ قال: عن الحق ﴿ فهم ﴾ يترددون ﴿ فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ هدى، ولا ينتفعون به.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال: جعل هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان، فلم يخلصوا إليه. وقرأ ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ من منعه الله لا يستطيع.

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم النخعي، أنه كان يقرأ " من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً " بنصب السين.

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة أنه قرأ ﴿ فأغشيناهم ﴾.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر ﴾ قال: اتباع الذكر اتباع القرآن ﴿ وخشي الرحمن بالغيب ﴾ قال: خشي عذاب الله وناره ﴿ فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ قال: الجنة.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (12)

أخرج عبد الرزاق والترمذي وحسنه والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدري قال : كان بنو سلمة في ناحية من المدينة ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد ، فأنزل الله ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إنه يكتب آثاركم ، ثم قرأ عليهم الآية ، فتركوا " .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ قال : الخطا .

وأخرج الفريابي وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت الأنصار منازلهم بعيدة من المسجد ، فأرادوا أن ينتقلوا قريباً من المسجد ، فنزلت ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ فقالوا : بل نمكث مكاننا .

وأخرج مسلم وابن جرير وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : إن بني سلمة أرادوا أن يبيعوا ديارهم ، ويتحولوا قريباً من المسجد ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن مردويه عن أنس قال : أراد بنو سلمة أن يبيعوا دورهم ، ويتحوّلوا قريب المسجد ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فكره أن تعرى المدينة

فقال " يا بني سلمة أما تحبون أن تكتب آثاركم إلى المسجد ؟ قالوا : بلى . فأقاموا " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس رضي الله عنه في قوله ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ قال : هذا في الخطو يوم الجمعة .

(288/645)

---

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود وابن ماجة وابن مردويه عن أُبيّ بن كعب قال : "كان رجل ما يعلم من أهل المدينة ممن يصلي القبلة أبعد منزلاً منه من المسجد ، فكان يشهد الصلاة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقيل له لو اشتريت حماراً تركبه في الرمضاء والظلمات ، فقال والله ما يسرني أن منزلي بلصق المسجد ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن ذلك ، فقال : يا رسول الله كيما يكتب أثري ، وخطاي ، ورجوعي إلى أهلي ، وإقبالي ، وإدباري ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعطاك الله ذلك كله ، وأعطاك ما احتسبت أجمع " " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حين يخرج أحدكم من منزله إلى منزل رجل يكتب له حسنة ، ويحط عنه سيئة " .

وأخرج عبد بن حميد عن مسروق قال : ما خطا رجل خطوة إلا كتب الله له حسنة أو

سيئة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجراً " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ونكتب ما قدموا ﴾ قال : أعمالهم ﴿ وآثارهم ﴾ قال : خطاهم بأرجلهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : لو كان مغفلاً شيئاً من أثر ابن آدم لأغفل هذا الأثر التي تعفها الرياح ، ولكن أحصر على ابن آدم أثره ، وعمله كله ، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو في طاعة الله أو معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله ، فليفعل .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ قال : ما سنوا من سنة ، فعملوا بها من بعد موتهم .



---

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ نكتب ما قدموا ﴾ قال : ما قدموا من خير ﴿ وآثارهم ﴾ قال : ما أورثوا من

الضلالة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله البجلي قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيء . ثم تلا هذه الآية ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن الضريس في فضائل القرآن وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ قال : أم الكتاب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ قال : كل شيء من امام عند الله محفوظ ، يعني في كتاب .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم رضي الله عنه ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ قال : كتاب .

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13)

أخرج الفريابي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ﴾ قال : هي انطاكية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن بريدة ﴿ أصحاب القرية ﴾ قال : انطاكية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾ قال : انطاكية .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾ قال : ذكر لنا أنها قرية من قرى الروم ، بعث عيسى ابن مريم إليها رجلين ، فكذبوهما .



---

وأخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان موسى بن عمران عليه السلام بينه وبين عيسى ألف سنة ، وتسعمائة سنة ولم يكن بينهما ، وانه أرسل بينهما ألف نبي من بني إسرائيل ، ثم من أرسل من غيرهم ، وكان بين ميلاد عيسى والنبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة وتسع وستون سنة ، بعث في أولها ثلاثة أنبياء . وهو قوله ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ والذي عزز به : شمعون . وكان من الحواريين ، وكانت الفترة التي ليس فيها رسول أربعمائة سنة وأربعة وثلاثين سنة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي

الله عنه في قوله ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين ﴾ قال : بلغني أن عيسى بن مريم بعث إلى أهل القرية - وهي انطاكية - رجلين من الحواريين ، واتبعهم بثالث .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية رضي الله عنه في قوله ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ قال : لكي تكون عليهم الحجة أشد ، فأتوا أهل القرية ، فدعوهم إلى الله وحده وعبادته لا شريك له ، فكذبوهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن شعيب الجبائي قال : اسم الرسولين اللذين قالا ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين ﴾ شمعون . ويوحنا . واسم ( الثالث ) بولص .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فعززنا بثالث ﴾ مخففة .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين . . . . ﴾ قال : اسم الثالث الذي عزز به : سمعون بن يوحنا . والثالث بولص ، فزعموا أن الثلاثة قتلوا جميعاً ، وجاء حبيب وهو يكتم إيمانه ﴿ فقال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ فلما رأوه أعلن بإيمانه فقال ﴿ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ وكان نجاراً ألقوه في بئر ، وهي الرس ، وهم أصحاب " الرس " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ قالوا إنا تطيرنا بكم ﴾ قال : يقولون إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ﴾ بالحجارة ﴿ قالوا طائركم معكم ﴾ أي أعمالكم معكم ﴿ أئن ذكرتم ﴾ يقول : ائن ذكرناكم بالله ، تطيرتم بنا .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله ﴿ لنرجمنكم ﴾ قال : لنشتمنكم قال والرجم في القرآن كله الشتم وفي قوله ﴿ طائركم معكم أئن ذكرتم ﴾ يقول : ما كتب عليكم واقع بكم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ طائركم معكم ﴾ قال : شؤمكم معكم .

وأخرج عبد بن حميد عن يحيي بن وثاب أنه قرأها "أئن ذكرتم" بالخفض وقرأها زر بن حبيش "أن ذكرتم" بالنصب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ﴾ قال : هو حبيب النجار .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ، مثله .

وأخرج ابن جرير عن أبي مجلز قال : كان اسم صاحب ( يس ) حبيب بن مري .

وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عن ابن عباس قال : اسم صاحب ( يس ) حبيب وكان الجذام قد أسرع فيه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ﴾ قال : بلغني أنه رجل كان يعبد الله في غار ، واسمه حبيب ، فسمع بهؤلاء النفر الذين أرسلهم عيسى إلى أهل انطاكية ، فجاءهم فقال : تسألون أجراً فقالوا : لا ، فقال لقومه ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ حتى بلغ ﴿ فاسمعون ﴾ قال : فرجموه بالحجارة فجعل يقول : رب اهد قومي ﴿ فإنهم لا يعلمون بما غفر لي ربي ﴾ حتى بلغ ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ قال : فما نوظروا بعد قتلهم إياه حتى أخذتهم ﴿ صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن الحكم في قوله ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ﴾ قال : بلغنا أنه كان قصاراً .



---

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل ﴾ كان حراثاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن كعب أن ابن عباس سأله عن أصحاب الرس فقال :

إنكم معشر العرب تدعون البئر رساً وتدعون القبر رساً فخدوا خدوداً في الأرض ، وأوقدوا فيها النيران للرسل الذين ذكر الله في ﴿ يس ﴾ ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ وكان الله تعالى إذا جمع لعبد النبوة والرسالة منعه من الناس ، وكانت الأنبياء تقتل ، فلما سمع بذلك رجل من أقصى المدينة ، وما يراد بالرسل أقبل يسعى ليدركهم ، فيشهدهم على إيمانه ، فأقبل على قومه فقال ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ إلى قوله ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ ثم أقبل على الرسل فقال ﴿ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ ليشهدهم على إيمانه فأُخِذَ فَقُذِفَ في النار فقال الله تعالى ﴿ ادخل الجنة ﴾ قال ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ .

وأخرج الحاكم عن ابن مسعود قال : لما قال صاحب ( يس ) ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ خنقوه ليموت فالتفت إلى الأنبياء فقال ﴿ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ أي فاشهدوا لي .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ قيل ادخل الجنة ﴾ قال : وجبت له الجنة ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون ﴾ قال : هذا حين رأى الثواب . انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) ﴾

في القصة أنه جاءُ من قرية فسمَّاها مدينة، وقال من أقصى المدينة، ولم يكن أقصاها وأدناها لِيَتَفَاوَتَا بكثيرٍ، ولكنه -سبحانه- أجرى سُنَّتَه في استكثار القليل من فِعْلِ عَبْدِهِ إذا كان برضاه، ويستنزرُ الكثيرَ من فَضْلِه إذا بَذَلَّه وأعطاه.

﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴾ فأَبْلَغَ الوَعْظ وَصدَقَ النُّصْحَ. ولكن كما قالوا:

وكم سُقْتُ في آثاركم من نصيحةٍ . . . وقد يستفيد البغضةَ المتنصِّحُ

فلمَّا صدَقَ في حاله، وصبَرَ على ما لَقِيَ من قومه، ورجع إلى التوبة، لقَّاه حُسْنَ أفضالِه، وآواه إلى كَنَفِ إقبالِه، ووجَدَ ما وَعَدَه ربُّه من لُطْفِ أفضالِه.

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27)

تَمَنَّى أن يعلم قومُه حاله، فَحَقَّقَ اللَّهُ مُنَاه، وأخبر عن حاله، وأنزل به خطابه، وعَرَفَ قومُه ذلك. وإنما تمَنَّى وأراد ذلك إشفاقاً عليهم، ليعملوا مثلما عَمِلَ ليَجدُوا مثلما وَجَدَ.

انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 214. 215﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ يس ﴾

قرأ حمزة بين الكسر والفتح .

وقرأ الكسائي بالإمالة .

وقرأ الباقون : بالفتح .

وقرأ ابن عامر ، والكسائي : ﴿ يس والقرءان ﴾ مدغم بالنون .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وحمزة : بإظهار النون .

وكل ذلك جائز في اللغة .

وقرىء في الشاذ ﴿ يَاسِينَ ﴾ بنصب النون ، ومعناه : اتل ياسين .

لأن يس اسم سورة .

وقراءة العامة بالتسكين ، لأنها حروف هجاء ، فلا تحتمل الإعراب مثل قوله تعالى : ﴿ الم ﴾ وروي عن ابن عباس في تفسير قوله : ﴿ يس ﴾ يعني : يا إنسان بلغة طيىء .

وهكذا قال مقاتل عن قتادة، والضحاك.

وروي عن محمد ابن الحنفية أنه قال: ﴿ يس ﴾ يعني: يا محمد.

وروى معمر عن قتادة قال: ﴿ يس ﴾ اسم من أسماء القرآن.

ويقال: افتتاح السورة.

وقال مجاهد: هذه فواتح السور يفتتح بها كلام رب العالمين.

وقال شهر بن حوشب.

قال كعب: ﴿ يس ﴾ قسم أقسم الله تعالى به قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، فقال: ﴿ يس والقرءان الحكيم ﴾ ويا محمد ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ وقال ابن عباس في قوله: ﴿ والقرءان الحكيم ﴾ أي: أحكم حلاله، وحرامه، وأمره، ونهيه.

ويقال: حكيم يعني: محكم من التناقض والعيب.

ويقال: ﴿ الحكيم ﴾ أي: الحاكم كالعليم.

يعني: العالم.

يعني: القرآن حاكم على جميع الكتب التي أنزلها الله تعالى من قبل ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ فهذا جواب القسم، ومعناه: يا إنسان ﴿ والقرءان الحكيم إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ يعني: رسولاً كسائر المرسلين جواباً لقولهم: لست مرسلاً ﴿ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يعني:

إنك على صراط مستقيم ويقال: هذا نعت للرسل يعني: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمرسلين ﴾ الذين كانوا على صراط مستقيم، أي: على طريق الإسلام.



---

ثم قال عز وجل: ﴿ تَنزِيلَ الْعزيز الرحيم ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم في إحدى الروايتين ﴿ تَنزِيلَ ﴾ بضم اللام ومعناه: هذا القرآن تنزيل أو هو تنزيل العزيز الرحيم، وقرأ الباقون ﴿ تَنزِيلَ ﴾ بالنصب، ومعناه: نزّله تنزيلاً فصار نصباً بالمصدر.

ثم قوله تعالى: ﴿ لِّتُنذِرَ ﴾ يعني: لتخوف بالقرآن ﴿ قَوْماً مَّا أُنذِرَ ءابَاؤُهُمْ ﴾ يعني: كما أنذر آباؤهم الأولون ﴿ فَهُمْ غافلون ﴾ عن ذلك يعني: عما أنذر آباؤهم.

ثم قال عز وجل: ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول ﴾ أي: وجب القول بالعذاب ﴿ على أَكْثَرِهِمْ ﴾ أي: على الكفار.

ويقال: ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول ﴾ وهو قوله: ﴿ قَالَ اخرج مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: 18 وغيرها] ويقال: ﴿ القول ﴾ كناية عن العذاب أي: وجب عليهم العذاب ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني: لا يصدقون بالقرآن ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أعناقهم أغلالا ﴾ قال مقاتل: نزلت في بني مخزوم، وذلك أن أبا

جهل حلف لئن رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليدفعنه بحجر ، فأتاه وهو يصلي ، فرفع الحجر ليدمغه ، فيبست يده إلى عنقه ، والتزق الحجر بيده ، ورجع إلى أصحابه ، فخلصوا الحجر من يده .

ورجل آخر من بني المغيرة ، أتاه ليقتله ، فطمس الله على بصره ، فلم يرَ النبي صلى الله عليه وسلم ، وسمع قوله ، فرجع إلى أصحابه ، فلم يرهم حتى نادوه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أعناقهم أغلالا فَهِىَ إِلَى الاذقان فَهُم مُّقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وِمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً ﴾ وذكر في رواية الكلبي نحو هذا ، وقال بعضهم : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أعناقهم أغلالا ﴾ أي : نجعل في أعناقهم أغلالاً يوم القيامة .

(296/645)

---

ويقال : معناه ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أعناقهم أغلالا ﴾ أي : جعلنا أيديهم ممسكة عن الخيرات ، مجازاة لكفرهم .

﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ﴾ أي : حائلاً لا يهتدون إلى الإسلام ، ولا يبصرون الهدى ، وقال بعضهم : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أعناقهم أغلالا ﴾ يعني : أيديهم .

ولم يذكر في الآية اليد ، وفيها دليل ، لأن الغل لا يكون إلا باليد إلى العنق .

فلما ذكر العنق فكأنما ذكر اليد .

وروي عن ابن عباس ، وابن مسعود ، أنهما قرآ : إنا جعلنا في ﴿ أيمانهم أغلالا ﴾ .

وقرأ بعضهم ﴿ فِى أَيْدِيهِمْ ﴾ .

وكل ذلك يرجع إلى معنى واحد .

لأنه لا يجوز أن يكون الغل بأحدهما دون الآخر كقوله : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلالا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الجبال أكنانا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر وسرابيل تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [ النحل : 81 ] ولم يذكر البرد لأن في الكلام دليلاً عليه .

ثم قال : ﴿ فَهِىَ إِلَى الاذقان فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ أي : رددنا أيديهم إلى أعناقهم ﴿ إِلَى الاذقان ﴾ أي : الحنك الأيسر ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ أي : رافعو الرأس إلى السماء ، غاضّو الطرف لا يبصر موضع قدميه .

وقال قتادة : أي مغلولين من كل خير .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ﴾ أي : ظلمة ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً ﴾ أي : ظلمة ﴿ فأغشيناهم ﴾ بالظلمة ﴿ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية .

يعني : خوفتهم ، اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به التوبيخ ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ يعني : خوفتهم ﴿ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : أم لم تخوفهم لا يصدقون .

إنما نزلت الآية في شأن الذين ماتوا على كفرهم، أو قتلوا على كفرهم.

قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿ سَدًا ﴾ بنصب السين في كلاهما.



---

وقرأ الباقون: بالضم.

وقال أبو عبيدة: قراءتنا بالضم لأنهما من فعل الله تعالى، وليس من فعل بني آدم.

وقال القتبي: المقمح الذي يرفع رأسه، ويغض بصره.

يقال: بعير قامح إذا روي من الماء فقمحت عيناه.

وقال: والسد الجبل ﴿ فأغشيناهم ﴾ يعني: أعمينا أبصارهم عن الهدى.

ثم قال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر ﴾ يعني تخوف بالقرآن من اتبع الذكر، يعني من قبل الموعظة وسمع القرآن ﴿ وَخشِىَ الرحمن بالغيب ﴾ يعني: أطاعه في الغيب ﴿ فَبَشّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ في الدنيا ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ في الآخرة.

ثم قال عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ الموتى ﴾ يعني: نبعثهم في الآخرة ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ ﴾ يعني: نحفظ ما أسلفوا، وما عملوا من أعمالهم.

ويقال: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ ﴾ يعني: تكتب أعمالهم الكرام الكاتبون، وما عملوا من

خير أو شر ﴿ وَءاثَارَهُمْ ﴾ يعني : ما استنوا من سنة خير أو شر عملوه ، واقتدى بهم من بعدهم ، فلهم مثل أجورهم ، أو عليهم مثل أوزارهم من غير أن ينقص منه شيئاً ، وهذا كقوله عز وجل : ﴿ بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ [ القيامة : 14 ] وهذا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ " إلى آخره وقال مجاهد : ﴿ وَءاثَارَهُمْ ﴾ يعني : خطاهم .

وروى مسروق أنه قال : مَا خَطَا عَبْدٌ خُطْوَةً إلاَّ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ أَوْ سَيِّئَةٌ .

وروي عن جابر بن عبد الله أنه قال : إن بني سلمة ذكروا للنبي صلى الله عليه وسلم بعد منازلهم من المسجد .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "يَا بَنِي سَلَمَةَ دِيَارَكُمْ فَإِنَّمَا تُكْتَبُ آثَارُكُمْ " .

ثم قال : ﴿ وَكُلَّ شيْء أحصيناه ﴾ أي : حفظناه وبيّناه ﴿ فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني : في اللوح المحفوظ .

(298/645)

---

قوله عز وجل : ﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً ﴾ أي : وصف لهم شبهاً ﴿ أصحاب القرية ﴾ أهل القرية وهي أنطاكية ﴿ إِذْ جَاءهَا المرسلون ﴾ يعني : رسل عيسى عليه السلام ﴿

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثنين ﴾ قال مقاتل : هما تومان وطالوس ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ يعني : قويناهما بثالث وهو شمعون وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ فَعَزَّزْنَا ﴾ بالتخفيف ، ومعناهما : غلبنا .

تقول : عزه يعزه إذا غلبه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِى نَعْجَةٌ واحدة فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الخطاب ﴾ [ ص : 23 ] يعني : غلبني في القول .

وقرأ الباقون : ﴿ فَعَزَّزْنَا ﴾ بالتشديد ، ومعناه : قوينا ، وشددنا الرسالة برسول ثالث ، وذلك أن عيسى ابن مريم عليهما السلام رسول إلى أنطاكية .

وإنما كان إرساله بإذن الله عز وجل .

فأضاف إليه حيث قال : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثنين ﴾ ثم بعث بعد ذلك شمعون .

وروي في بعض الروايات أن عيسى عليه السلام أوصى إلى الحواريين أن يتفرقوا في البلدان .

ثم رفع عيسى إلى السماء ، وكان مجيء الرسل بعدما رفع عيسى .

وفي بعض الروايات : أنه أرسل الرسل ، ثم رفع ، وكان للرسل من المعجزة ما للأنبياء عليهم السلام بدعاء عيسى عليه السلام فلما جاء الرسولان الأولان ، ودخلا أنطاكية ، وجعلا يناديان فيها بالإيمان بالرحمن ، يعني : يدعوان إلى الإيمان بالله عز وجل ، ويزجران أهلها عن عبادة الأصنام والشيطان ، فأخذوهما شرط الملك ، وأتوا بهما إلى الملك ، فلما دخلا على الملك ، قالا : إن الأوثان التي تعبدون ليست بشيء ، وإن إلهاكم الله الذي في السماء

، وأن من مات منكم صار إلى النار .

فغضب الملك ، وجلدهما ، وسجنهما ، ثم حضر شمعون ودخل أنطاكية ، وجاء إلى السجن فقال للسجان : ائذن لي حتى أدخل السجن ، فإني أريد أن أدفع إلى كل واحد كسرة خبز ، فأذن له .

(299/645)

---

فدخل وجعل يعطي لكل واحد كسرة خبز ، حتى انتهى إلى صاحبيه ، فقال لهما : إني أريد أن آتي الملك ، وأطلب فكاككما ، حتى أخلصكما ، فإنكما لم تأتيا الأمر من قبل وجهه .

ألم تعلما أنكما لا تطاعان إلا بالرفق واللطف ، وأن مثلكما مثل امرأة لم تلد زماناً من دهرها ثم ولدت غلاماً ، فأسرعت بشأنه ، فأطعمته الخبز قبل أوانه ، فغص بلقمة فمات .

فكذلك دعوتكما هذا الملك قبل أوان الدعاء ، فأصابكما البلاء ، ثم انطلق شمعون ، وتركهما ، فقعد عند بيت الأصنام ، حتى إذا دخلوا بيت الأصنام ، دخل في صلاتهم ، فقام بين يدي تلك الأصنام يصلي ، ويتضرع ، ويسجد لله تعالى ، ولا يشكون أنه على ملتهم ، وأنه إنما يدعو آلهتهم ، ففعل ذلك أياماً ، فذكروا ذلك للملك ، فدعاه ، وكلمه ، وقال له :

من أين أنت ؟ فقال : أنا رجل من بني إسرائيل ، وقد انقرض أهلي ، وكنت بقيتهم ، وجئت إلى أصحابك آنس بهم ، وأسكن إليكم ، فسأله الملك عن أشياء ، فوجده حسن التدبير ، والرأي فلبث فيهم ما شاء الله ، فلما رأى أمره قد استقام ، قال : يا أيها الملك إِنّي قد بلغني أنك سجنت رجلين منذ زمان يدعوانك إلى إله غير إلهاك ، فهل لك أن تدعوهما ، فأسمع كلاهما وأخاصمهما عنك ؟ فقال الملك : نعم .

فدعاهما ، وأقيما بين يديه ، فقال لهما شمعون ، أخبراني عن إلهاكما ؟ فقالا : إنه يبرىء الأكمه والأبرص ، فدعي برجل ولد أعمى فدعوا الله تعالى ، فأبصر الأعمى .

قال شمعون : فأنا أفعل مثل ذلك .

فأتي بآخر ، فدعا شمعون رضي الله عنه فبرىء ، فقال لهما شمعون ، لا فضل لكما عليّ بهذا .

ثم أتي برجل أبرص ، فدعوا ، فبرىء ، وفعل شمعون بآخر مثل ذلك .

فقال لهما شمعون : فهل عندكما شيء غير هذا ؟ فقالا : نعم إن ربنا يحيي الموتى .

فقال شمعون : أنا لا أقدر على ذلك .

ثم قال للملك : هل لك أن تأتي بالصنم فلعله يحيي الموتى ، فيكون لك الفضل عليهما ولإلاهك ؟ فقال الملك : إنك تعلم أنه لا يسمع ، ولا يبصر ، فكيف يحيي الموتى ؟ ثم قال له شمعون سلهما هل يستطيعان أن يفعلا مثل ما قالا ؟ فقال الملك : إن عندنا ميتاً قد مات منذ سبعة أيام ، وكان لأبيه ضيعة قد خرج إليها وأهله ينتظرون قدومه ، واستأذنوا في دفنه ، فأمرهم أن يؤخروه حتى يحضر أبوه ، فأمَرَهم بإحضار ذلك الميت ، فلم يزالا يدعوان الله تعالى ، وشمعون يعينهما بالدعاء في نفسه ، حتى أحياه الله تعالى .

فقال شمعون : أنا أشهد أنهما صادقان وأن إلهما حق ، فاجتمع أهل المصر ، وقالوا : إن كلمتهم كانت واحدة ، فرجموهم بالحجارة ، وجاء أب الغلام ، فأسلم ، وقتل أب الغلام أيضاً ، وهو حبيب بن إسرائيل النجار .

ثم إن الله عز وجل بعث جبريل عليه السلام فصاح صيحة فماتوا كلهم ، فذلك قوله تعالى :

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثنين فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُواْ ﴾ يعني : هؤلاء الثلاثة ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ وأروهم العلامة .

قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ يعني : آدمي مثلنا ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرحمن مِن شَىْءٍ ﴾ يعني : لم يرسل الرسل من الآدميين ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾ بأنكم رسل الله تعالى .

يعني : أرسلكم عيسى بأمر الله تعالى ، فأنكروا ذلك ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴾ يعني : أن الرسل قالوا : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ يعني : أرسلنا عيسى عليه السلام بأمر الله تعالى ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ البلاغ المبين قَالُواْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ يعني : قال أهل أنطاكية : إنا تشاءمنا بكم ، وهذا الذي يصيبنا من شؤمكم ، وهو قحط المطر ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ يعني : لنقتلنّكم ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالُواْ طائركم مَّعَكُمْ ﴾ يعني : شؤمكم معكم ، وبأعمالكم الخبيثة .

ويقال : إن الذي يصيبكم ، كان مكتوباً في أعناقكم ، ﴿ أَءِن ذُكّرْتُم ﴾ يعني : إن وعظتم بالله .

قرأ نافع وأبو عمرو ﴿ أَيْنَ ﴾ بهمزة واحدة ممدودة .

وقرأ الباقون : بهمزتين .

وقرأ زر بن حبيش : ﴿ إن ذُكّرْتُم ﴾ بهمزة واحدة مع التخفيف والفتح .

يعني : لأنكم وعظتم ؟ فلم تتعظوا .

ومن قرأ بالاستفهام فمعناه : إن وعظتم تطيرتم .

قالوا : هذا جواباً لقولهم : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ ويقال : معناه ﴿ أَءِن ذُكّرْتُم ﴾ .

يعني : حين وعظتم بالله تشاءمتم بنا .

ثم قال : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ يعني : مشركون .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى المدينة ﴾ يعني : من وسط المدينة ، وهو حبيب بن إسرائيل النجار ﴿ رَجُلٌ يسعى ﴾ يعني : يسعى في مشيه .

وقال بعضهم : هو الذي عاش ابنه بعد الموت ، بدعاء الرسل ، فجاء وأسلم .

وقال بعضهم : كان ابنه مريضاً ، فبرىء بدعوة الرسل ، فصدق بهم ، فلما بلغه أن القوم أرادوا قتل الرسل ، جاء ليمنع الناس عن قتلهم .

وقال قتادة : كان في غار يدعو ربه فلما بلغه مجيء الرسل أتاهم ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتبعوا المرسلين ﴾ يعني : دين المرسلين ثم قال للرسل هل تسألون على هذا أجراً ؟ فقالوا : لا .



---

فقال : للقوم ﴿ اتبعوا مَن لاَّ يَسْئَلُكُمْ أَجْراً ﴾ يعني : على الإيمان ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ يدعوكم إلى التوحيد .

فقال له قومه : تبرأت عن ديننا ، واتبعت دين غيرنا .

فقال : ﴿ وَمَا لِىَ لاَ أَعْبُدُ الذى فَطَرَنِى ﴾ يعني : خلقني .

قرأ حمزة وابن عامر في إحدى الروايتين : ﴿ وَمَا لِىَ ﴾ بسكون الياء .

وقرأ الباقون : بالفتح .

وهما لغتان وكلاهما جائز .

ثم قال : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يعني : تصيرون إليه بعد الموت ، وهذا كقوله : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الذين يَبْخَلُونَ بِمَآ ءاتاهم الله مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ القيامة وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السماوات والأرض والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [ آل عمران : 180 ] فقالوا له : ارجع إلى ديننا .

فقال حبيب : ﴿ أَءَتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءالِهَةً ﴾ يعني : أعبد من دونه أصناماً ﴿ إِن يُرِدْنِ الرحمن بِضُرٍّ ﴾ يعني : ببلاء وشدة إذا فعلت ذلك ﴿ لاَّ تُغْنِ عَنّى شفاعتهم شَيْئاً ﴾ يعني : لا تقدر الآلهة أن يشفعوا لي ﴿ وَلاَ يُنقِذُونَ ﴾ يعني : لا يدفعون عني الضرر ﴿ إِنّى إِذاً لَّفِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ يعني : إني إذا فعلت ذلك لفي خسران بيّن ﴿ إِنّى ءامَنتُ بِرَبّكُمْ فاسمعون ﴾ يعني : فاشهدوني ، وأعينوني بقول لا إله إلا الله .

وقال ابن عباس : أُلقي في البئر وهو الرس كما قال ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ ق : 12 ] وقال قتادة : قتلوه بالحجارة .

وهو يقول : رب اهد قومي فإنهم لا يعلمون .

وقال مقاتل : أخذوه ووطؤوه ، تحت أقدامهم ، حتى خرجت أمعاؤه ، ثم أُلقي في البئر ، وقتلوا الرسل الثلاثة .

(303/645)

---

فلما ذهب بروح حبيب النجار إلى الجنة ف ﴿ قِيلَ ﴾ له ﴿ ادخل الجنة قَالَ ياليت ياليت قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَلِى رَبِّى ﴾ وذلك حين دخلها ، وعاين ما فيها من النعيم ، تمنى أن يسلم قومه فقال : ﴿ قَالَ ياليت قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَلِى رَبِّى ﴾ بالذي غفر لي ربي .

ويقال : بمغفرتي .

ويقال : بماذا غفر لي ربي ؟ فلو علموا ، لآمنوا بالرسل .

ثم قال : ﴿ وَجَعَلَنِى مِنَ المكرمين ﴾ أي : الموحدين في الجنة .

نصح لهم في حياته ، وبعد وفاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 109 . 115 ﴾

(304/645)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ يس ﴾

فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

الثاني : أنه اسم من أسماء الله تعالى أقسم به ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه فواتح من كلام الله تعالى افتتح به كلامه ، قاله مجاهد .

الرابع : أنه : يا محمد ، قاله محمد بن الحنفية ، وروى علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّانِي فِي الْقُرآنِ بِسَبْعَةِ أَسْمَاءَ : مُحَمَّدٍ وَأَحْمَدَ وَطه وَيس وَالمزَّمِّلِ وَالْمُدَّثِّرِ وَعَبدَ اللَّهِ

" . الخامس : أنه يا إنسان : قاله الحسن ، وعكرمة ، والضحاك ، وسعيد ابن جبير . ثم اختلفوا فيه فقال سعيد بن جبير وعكرمة هي بلغة الحبشة . وحكى الكلبي أنه بالسريانية وقال الشعبي : هو بلغة طيىء . وقال آخرون : هي بلغة كلب .

ويحتمل سادساً : يئس من كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون مؤمناً بالله ، نفياً للإيمان أن يكون إلا بالشهادتين ، واليأس أبلغ في النفي من جميع ألفاظه ، ثم أثبت رسالته بقسمه فقال :

﴿ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : على شريعة واضحة .

الثاني : على حجة بينة .

قوله عز وجل : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنهم قريش أنذروا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولم ينذر آباؤهم من قبلهم ، قاله قتادة .

الثاني : أنه عام ومعناه لتنذر قوماً كما أنذر آباؤهم ، قاله السدي . ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : عن قبول الإنذار . الثاني : عن استحقاق العذاب .

قوله عز وجل : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : معناه لقد وجب العذاب على أكثرهم ، قاله السدي .

الثاني : لقد سبق علم الله في أكثرهم ، قاله الضحاك .

وفي هذا القول الذي حق عليهم وجهان :



---

أحدهما : أنه الوعيد الذي أوجبه الله تعالى عليهم من العذاب .

الثاني : أنه الإخبار عنهم بأنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم .

﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني الأكثرية الذين حق القول عليهم ، وهم الذين عاندوا رسول الله

صلى الله عليه وسلم من كفار قريش ، وأكثرهم لم يؤمنوا فكان المخبر كالخبر .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً ﴾ فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه مثل ضربه الله تعالى لهم في امتناعهم من الهدى كامتناع المغلول من التصرف ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : ما حكاه السدي أن ناساً من قريش ائتمروا بالنبي صلى الله عليه وسلم فجاءوا يريدون ذلك فجعلت أيديهم إلى أعناقهم فلم يستطيعوا أن يبسطوا إليه يداً .

الثالث : أن المراد به جعل الله سبحانه لهم في النار من الأغلال في أعناقهم ويكون الجعل ها هنا مأخوذاً من الجُعالة التي هي الأجرة كأن جعالتهم في النار الأغلال ، حكاه ابن بحر .

وفي قوله : ﴿ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ قولان :

أحدهما : في أيديهم ، فكنى بالأعناق عن الأيدي لأن الغُل يكون في الأيدي ، قاله الكلبي ، وحكى قطرب أنها في قراءة ابن عباس : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْمَانِهِم أَغْلاَلاً ﴾

الثاني : أنها في الأعناق حقيقة ، لأن الأيدي تجمع في الغل إلى الأعناق ، قاله ابن عباس ﴿ فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إلى الوجوه فكنى عنها بالأذقان لأنها منها ، قاله قتادة ، أي قد غلت يده عند وجهه .

الثاني : أنها الأذقان المنحدرة عن الشفة في أسفل الوجه لأن أيديهم تماسها إذا غلت .

﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : رفع رؤوسهم ووضع أيديهم على أفواههم ، قاله مجاهد .



---

الثاني : هو الطامح ببصره إلى موطىء قدمه ، قاله الحسن . الثالث : هو غض الطرف ورفع الرأس مأخوذ من البعير المقمح وهو أن يرفع رأسه ويطبق أجفانه في الشتاء إذا ورد ماء كريهاً ، حكاه النقاش . وقال المبرد ، وأنشد قول الشاعر :

ونحن على جوانبها قعود . . . نغض الطرف كالإبل القماح

الرابع : هو أن يجذب ذقنه إلى صدره ثم يرفعه مأخوذ من القمح وهو رفع الشيء إلى الفم ، حكاه عليّ بن عيسى وقاله أبو عبيدة .

قوله عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني ضلالاً ، قاله قتادة .

الثاني : سداً عن الحق ، قاله مجاهد .

الثالث : ظلمة سدت قريشاً عن نبي الله صلى الله عليه وسلم حين ائتمروا لقتله قاله السدي . قال عكرمة : ما صنع الله تعالى فهو السُدُّ بالضم ، وما صنع الإنسان فهو السد

بالفتح .

﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فأغشيناهم بظلمة الكفر فهم لا يبصرون الهدى ، قاله يحيى بن سلام ، ومعنى قول مجاهد .

الثاني : فأغشيناهم بظلمة الليل فهم لا يبصرون محمداً صلى الله عليه وسلم حين ائتمروا على قتله ، قاله السدي ، ومحمد بن كعب .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ يعني القرآن . ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما يغيب به عن الناس من شر عمله ، قاله السدي .

الثاني : ما غاب من عذاب الله وناره ، قاله قتادة .

﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ لذنبه .

﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ لطاعته ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنه الكثير . الثاني : الذي تنال معه الكرامة .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : نحييهم بالإيمان بعد الكفر ، قاله الضحاك .

الثاني : بالبعث للجزاء ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ ﴾ فيه تأويلان: أحدهما : ما قدموا هو ما عملوا من خير أو شر ، وآثارهم ما أثروا من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعدهم ، قاله سعيد بن جبير.

الثاني: ما قدموا : أعمالهم ، وآثارهم : خطاهم إلى المساجد ، قاله مجاهد .

روى سفيان عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد ، فنزلت : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحِيي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ ﴾ وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : "إن آثَارُكُمْ تُكْتَبُ فَلَمْ يَنتَقِلُوا

". ويحتمل إن لم يثبت نقل هذا السبب تأويلاً ثالثاً أن آثارهم هو أن يصلح من صاحبهم بصلاحهم ، أو يفسد بفسادهم.

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ ﴾ فيه وجهان:

أحدهما : علمناه.

الثاني: حفظناه.

﴿ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدهما : اللوح المحفوظ ، قاله السدي . الثاني : أم الكتاب قاله مجاهد .

الثالث : معناه طريق مستقيم ، قاله الضحاك .

قوله عز وجل : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ هذه القرية هي أنطاكية من قول جميع المفسرين .

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ اختلف في اسميهما على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهما شمعون ويوحنا ، قاله شعيب .

الثاني : صادق وصدوق ، قاله ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه .

الثالث : سمعان ويحيى ، حكاه النقاش .

﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : فشددنا ، قاله مجاهد .

الثاني : فزدنا ، قاله ابن جريج .

الثالث : قوينا مأخوذ من العزة وهي القوة المنيعة ، ومنه قولهم : من عز وبز : واختلف في اسمه على قولين :

أحدهما : يونس قاله شعيب .

الثاني : شلوم ، قاله ابن عباس وكعب ووهب . وكان ملك أنطاكية أحد الفراعنة يعبد الأصنام مع أهلها ، وكانت لهم ثلاثة أصنام يعبدونها ، ذكر النقاش أن أسماءها روموس وقيل وارطميس .

واختلف في اسم الملك على قولين :

أحدهما : أن اسمه أنطيخس ، قاله ابن عباس وكعب ووهب .

الثاني : انطرا ، قاله شعيب .

قوله عز وجل : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ وهذا القول منهم إنكار لرسالته ، ويحتمل وجهين :

أحدهما : أنكم مثلنا غير رسل وإن جاز أن يكون البشر رسلاً .

الثاني : إن مثلكم من البشر لا يجوز أن يكونوا رسلاً .

﴿ وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون ذلك منهم إنكاراً للرحمن أن يكون إلهاً مرسلاً .

الثاني : أن يكون ذلك إنكاراً أن يكونوا للرحمن رسلاً .

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : تكذبون في أن لنا إلهاً .

الثاني : تكذبون في أن تكونوا رسلاً .

قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ فإن قيل يعلم الله تعالى أنهم لا تكون حجة عند الكفار لهم .

قيل يحتمل قولهم ذلك وجهين :

أحدهما : معناه ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون بما يظهره لنا من المعجزات ، وقد قيل إنهم أحيوا ميتاً وأبرؤوا زمناً .

الثاني : أن تمكين ربنا لنا إنما هو لعلمه بصدقنا .

واختلف أهل العلم فيهم على قولين :

أحدهما : أنهم كانوا رسلاً من الله تعالى إليهم .

الثاني : أنهم كانوا رسل عيسى عليه السلام من جملة الحواريين أرسلهم إليهم فجاز ، لأنهم رسل رسول الله ، أن يكونوا رسلاً لله ، قاله ابن جريج .

﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ يعني بالإعجاز الدال على صحة الرسالة أن الذي على الرسل إبلاغ الرسالة وليس عليهم الإجابة ، وإنما الإجابة على المدعوين دون الداعين .

قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : تشاءَمنا بكم ، وعساهم قالوا ذلك لسوء أصابهم ، قاله يحيى بن سلام . قيل إنه حبس المطر عن أنطاكية في أيامهم .

الثاني : معناه إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم ، قاله قتادة : تحذيراً من الرجوع عن دينهم .

الثالث : استوحشنا منكم فيما دعوتمونا إليه من دينكم .

﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه : أحدها : لنرجمنكم بالحجارة ، قاله قتادة .

الثاني : لنقتلنكم ، قاله السدي .

الثالث : لنشتمنكم ونؤذيكم ، قاله النقاش .

﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه القتل .

الثاني : التعذيب المؤلم قبل القتل .

قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ طَآئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أن أعمالكم معكم أئن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا ، قاله قتادة .

الثاني : أن الشؤم معكم إن أقمتم على الكفر إذا ذكرتم ، قاله ابن عيسى .

الثالث : معناه أن كل من ذكركم بالله تطيرتم به ، حكاه بعض المتأخرين .

الرابع : أن عملكم ورزقكم معكم ، حكاه ابن حسام المالكي .

﴿ بَل أَنتُمْ قومٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في تطيركم ، قاله قتادة .

الثاني : مسرفون في كفركم ، قاله يحيى بن سلام . وقال ابن بحر : السرف ها هنا الفساد

ومعناه بل أنتم قوم مفسدون ، ومنه قول الشاعر :

إن امرأ سرف الفؤاد يرى . . . عسلاً بماءِ غمامة شتمي

وقيل : إن شمعون من بينهم أحيا بنت ملك أنطاكية من قبرها ، فلم يؤمن أحد منهم غير

حبيب النجار فإنه ترك تجارته حين سمع بهم وجاءهم مسرعاً فآمن ، وقتلوا جميعاً

وحبيب معهم ، وألقوا في بئر . قال مقاتل : هم أصحاب الرس : ولما عرج بروح حبيب إلى

الجنة تمنى فقال ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ اختلف فيه على ثلاثة أقاويل

:

أحدها : أنه كان إسكافاً ، قاله عمر بن عبد الحكيم .

الثاني : أنه كان قصاراً ، قاله السدي .

الثالث : أنه كان حبيب النجار ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد .

﴿ قَالَ يَا قَومِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ وفي علمه بنبوتهم وتصديقه لهم قولان :

أحدهما : لأنه كان ذا زمانة أو جذام فأبرؤوه ، قاله ابن عباس .

الثاني : لأنهم لما دعوه قال أتأخذون على ذلك أجراً ؟ قالوا لا ، فاعتقد صدقهم وآمن بهم ، قاله أبو العالية .

قوله عز وجل : ﴿ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون قال ذلك تنبيهاً على صدقهم .

الثاني : أن يكون قال ذلك ترغيباً في أجابتهم .

﴿ وُهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : مهتدون لهدايتكم .

الثاني : مهتدون فاهتدوا بهم .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أي خلقني ﴿ وَإِلَيهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي تبعثون . فإن قيل : فلم أضاف الفطرة إلى نفسه والبعث إليهم وهو معترف أن الله فطرهم جميعاً ويبعثهم إليه جميعاً ؟

قيل : لأنه خلق الله تعالى له نعمة عليه توجب الشكر ، والبعث في القيامة وعيد يقتضي الزجر ، فكان إضافة النعمة ، إلى نفسه إضافة شكر ، وإضافة الزجر إلى الكافر أبلغ أثراً .

قال قتادة : بلغني أنهم لما قال لهم : وما لي لا أعبد الذي فطرني وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه وهو يقول : يا رب اهدِ قومي ، أحسبه قال : فإنهم لا يعلمون .

قوله عز وجل : ﴿ إِنِّي ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه خاطب الرسل بذلك أنه يؤمن بالله ربهم ﴿ فَاسْمَعُونِ ﴾ أي فاشهدوا لي ، قاله ابن مسعود .

الثاني : أنه خاطب قومه بذلك ، ومعناه إني آمنت بربكم الذي كفرتم به فاسمعوا قولي ، قاله وهب بن منبه .

قوله عز وجل : ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه أمر بدخول الجنة .

الثاني : أنه أخبر بأنه قد استحق دخول الجنة لأن دخولها يستحق بعد البعث .

﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ في هذا التمني منه قولان :

أحدهما : أنه تمنى أن يعلموا حاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته .

الثاني : أنه تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله . قال ابن عباس : نصح قومه حياً وميتاً .

ويحتمل قوله : ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ وجهين :

أحدهما : ممن أكرمه بقبول عمله . الثاني : ممن أحله دار كرامته . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

(312/645)

---

وقال الثعلبى :

﴿ يس ﴾ اختلف القُراء فيه ، فقرأ حمزة والكسائي وخلف في أكثر الروايات ﴿ يس ﴾ بكسر الياء بين اللفظين قراءة أهل المدينة ، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم .

الباقون : بفتح الياء ، وقرأ أبو جعفر وأبو عمرو وحمزة وأيوب وأبو حاتم وعاصم في أكثر الروايات ، (يسين) ، بإظهار النون والسكون .

واختلف فيه عن نافع وابن كثير ، فقرأ عيسى بن عمر : ( ياس ) بالنصب ، شبهه ب ( أين ) و ( كيف ) ، وقرأ ابن أبي إسحاق بكسر النون ، شبهه بأمسِ ورقاشِ وحذامِ وقرأ هارون الأعور : بضم النون ، شبهه بمنذُ وحيثُ وقطُّ . الآخرون : بإخفاء النون .

واختلف المفسرون في تأويله ، فقيل : قسم ، وقال ابن عباس : يعني يا إنسان بلغة طيىء عطا : بالسريانية ، وقال أبو العالية : يا رجل ، وقال سعيد بن جبير : يا محمّد ، دليله قوله : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ .

وقال السيد الحميري :

يا نفس لا تمحضي بالنصح جامدة . . . على المودة إلاّ آل ياسينا

وقال أبو بكر الوراق : يا سيد البشر .

فإن قيل : لم عدّ ﴿ يس ﴾ آية ولم يعد ﴿ طس ﴾ [ النمل : 1 ] آية ؟

فالجواب أنّ ﴿ طس ﴾ [ النمل : 1 ] أشبه قابيل من جهة الزنة والحروف الصحاح و ﴿ يس ﴾ أوله حرف علة وليس مثل ذلك في الأسماء المفردة ، فأشبه الجملة والكلام التام وشاكل ما بعده من رؤوس الآي .

﴿ والقرآن الحكيم * إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ وهو جواب لقول الكفار : لستَ مرسلاً .

﴿ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ ﴾ قرأ ابن عامر وأهل الكوفة بنصب اللام على المصدر كأنه قال : نزل تنزيلاً ، وقيل : على الخروج من الوصف ، وقرأ الآخرون بالرفع أي

هو تنزيلُ ﴿ العزيز ﴾ : الشديد المنع على الكافرين ﴿ الرحيم ﴾ : ب[ عباده ] وأهل طاعته .

﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ ﴾ في الفترة ، وقيل : بما أُنذر آباؤهم ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ عن الإيمان والرشد .

(313/645)

---

﴿ لَقَدْ حَقَّ القول ﴾ وجب العذاب ﴿ على أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا ﴾ ، نزلت في أبي جهل وأصحابه المخزوميين ، وذلك أنّ أبا جهل كان قد حلف لئن رأى محمداً يُصلّي ليرضخن برأسه . فأتاه وهو يُصلي ومعه حجر ليدمغه فلما رفعه أثبتت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده . فلما عاد إلى أصحابه وأخبرهم بما رأى سقط الحجر ، فقال رجل من بني مخزوم : أنا أقتله بهذا الحجر .

فأتاه وهو يُصلي ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه ، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه وقالوا له : ما صنعت ؟ فقال : ما رأيته ، ولقد سمعت صوته وحال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه لو دنوت منه لأكلني ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾ .

﴿ فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأذقان فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ : مغلولون، وأصل الإقماح غض البصر ورفع الرأس، يُقال: بعير مقمح إذا رفع رأسه وغض بصره، وبعير قامح إذا أروى من الماء فأقمح.

قال الشاعر يذكر سفينة كان فيها:

ونحن على جوانبها قعود . . . نغضّ الطرف كالإبل القماح

وقال أبو عبيدة: هذا على طريق المثل، ولم يكن هناك غل، إنما أراد: منعناهم عن الإيمان وعما أرادوا بموانع، فجعل الأغلال مثلاً لذلك، وفي الخبر أنّ أبا ذؤيب كان يهوى امرأة في الجاهلية، فلما أسلم أتته المرأة واسمها أُم مالك فراودته عن نفسه، فأبى وأنشد يقول:

فليس كعهد الدار يا أُمّ مالك . . . ولكن أحاطت بالرقاب السلاسلُ

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل . . . سوى العدل شيئاً فاستراح العواذل

أراد منعنا: بموانع الإسلام عن تعاطي الزنا والفسق، وقال عكرمة: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً ﴾ يعني ظلمات وضلالات كانوا فيها.

﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وِمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ : فأعميناهم، العامة بالغين.

أخبرني الحسن بن محمد الثقفي قال : حدّثنا البغوي ببغداد قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن أبي شنبه البغدادي قال : حدّثنا أبو القاسم عثمان بن صالح الحناط قال : حدّثنا عثمان بن عمر عن شعبة عن علي بن نديمة قال : سمعت عكرمة يقول : بالعين غير معجمة وروى ذلك عن ابن عباس .

﴿ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ * وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أخبرنا ابن فنجويه الدينوري عن عبد الله بن محمد بن شنبه قال : حدّثنا عمير بن مرداس قال : حدّثنا سلمة بن شبيب قال : حدّثنا الحسين بن الوليد قال : حدّثنا حنان بن زهير العدوي عن أبيه عن عمر بن عبد العزيز ، وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه عن الفربابي قال : حدّثنا عبيد الله بن معاذ قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا محمد بن عمرو الليثي أنّ الزهري حدثه قال : دعا عمر بن عبد العزيز غيلان القدري فقال : يا غيلان بلغني أنك تكلم في القدر ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنهم يكذبون عليّ . قال : يا غيلان اقرأ أول سورة ( يس ) فقرأ : ﴿ يس * والقرآن الحكيم ﴾ إلى قوله : ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ . فقال غيلان : يا أمير المؤمنين والله لكأني لم أقرأها قط قبل اليوم ، أُشهدك يا أمير المؤمنين أني تائب مما كنت أقول في القدر . فقال عمر بن عبد العزيز : اللهم إن كان صادقاً فتب عليه ، وإن كان كاذباً فسلط عليه من لا يرحمه واجعله آية للمؤمنين .

قال : فأخذه هشام فقطع يديه ورجليه .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه عن الفريابي قال : حدّثنا عبد الله بن معاذ قال : حدّثنا أبي عن بعض أصحابه قال : حدث محمد بن عمير بهذا الحديث ابن عون ، فقال ابن عون : أنا رأيته مصلوباً على باب دمشق .



---

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر ﴾ يعني إنما ينفع إنذارك لأنه كان ينذر الكل ﴿ مَنِ اتبع الذكر ﴾ : القرآن فعمل به ﴿ وَخشِيَ الرحمن بالغيب فَبَشِّرْهُ ﴾ : أخبره ﴿ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الموتى ﴾ عند البعث ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ ﴾ من الأعمال ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ ما استُن به بعدهم ، نظيره قوله :

﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [ القيامة : 13 ] ، وقوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [ الإنفطار : 5 ] .

وقال المغيرة بن شعبة والضحاك : نزلت في بني عذرة ، وكانت منازلهم بعيدة عن المسجد فشق عليهم حضور الصلوات ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَآثَارَهُمْ ﴾ يعني خُطاهم إلى المسجد .

أخبرنا ابن فنجويه قال: حدّثنا ابن شنبه قال: حدّثنا جعفر بن محمد الفربابي قال: حدّثنا حنان بن موسى قال: حدّثنا عبد الله بن المبارك عن سعيد الحريري عن أبي نضرة عن جابر عن عبد الله قال: أردنا النقلة إلى المسجد والبقاع حول المسجد خالية فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأتانا في ديارنا فقال: " "يا بني سلمة، بلغني أنكم تريدون النقلة إلى المسجد؟ " فقالوا: يا رسول الله، بعد علينا المسجد، والبقاع حول المسجد خالية. فقال: "يا بني سلمة، دياركم فإنما تكتب آثاركم" قال: فما وددنا بحضرة المسجد لمّا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه الذي قال..

أخبرنا أبو علي الروزباري قال: حدّثنا أبو بكر محمد بن مهرويه الرازي قال: حدّثنا أبو حاتم الرازي قال: حدّثنا قرة بن حبيب قال: حدّثنا عتبة بن عبد الله عن ثابت عن أنس في قوله سبحانه: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَآثَارَهُمْ ﴾ قال: الخُطى يوم الجمعة.

﴿ وكُلَّ شيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ ﴾ علمناه وعدّدناه وبيناه ﴿ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً أَصْحَابَ القرية ﴾ وهي أنطاطية ﴿ إِذْ جَآءَهَا المرسلون ﴾ يعني رُسل عيسى : قالت العلماء بأخبار الأنبياء : بعث عيسى (عليه السلام) رسولين من الحواريين إلى أنطاكية، فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات وهو حبيب صاحب (ياس)، فسلما عليه، فقال الشيخ: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى يدعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرَّحْمن. فقال: أمعكما آية؟ قالا: نعم، نشفي المرضى ونبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله. فقال الشيخ: إنّ لي ابناً مريضاً صاحب فراش منذ سنين. قالا: فانطلق بنا إلى منزلك نتطلع حاله.

فأتى بهما إلى منزله، فمسحها ابنه فقام في الوقت بإذن الله صحيحاً، ففشا الخبر في المدينة وشفى الله على يديهما كثيراً من المرضى، وكان لهم ملك يقال له سلاحين، وقال: وهب اسمه ابطيحيس، وكان من ملوك الروم يعبد الأصنام، قالوا: فانتهى الخبر إليه فدعاهما، فقال لهما: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى. قال: وما آيتكما؟ قالا: نبرئ الأكمه والأبرص، ونُشفي المرضى بإذن الله. قال: وفيم جئتما؟ قالا: جئناك ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يُبصر إلى عبادة من يسمع ويُبصر. فقال الملك: أو لنا إله سوى آلهتنا؟ قالا: نعم من أوجدك وآلهتك. قال: قوما حتى أنظر في أمركما. فتتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما في السوق.

وقال وهب بن منبه: بعث عيسى (عليه السلام) هذين الرسولين إلى أنطاكية فأتياها ولم

يصلا إلى ملكها فطالت مدة مقامهما ، فخرج الملك ذات يوم : فكبرا وذكرا الله ، فغضب الملك وأمر بهما فأُخذا وحُبسا وجلد كل واحد منهما مئة جلدة . قالوا : فلما كُذب الرسولان وضُربا ، بعث عيسى رأس الحواريين شمعون الصفا على أثرهما لينصرهما .

(317/645)

---

فدخل شمعون البلدة متنكراً وجعل يُعاشر حاشية الملك حتى أَنسوا به فرُفع خبره إلى الملك فدعاه فرضي عشرته ، وآنس به وأكرمه . ثم قال له ذات يوم : أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن ضربتهما حين دعواك إلى غير دينك ، فهل كلمتهما وسمعت قولهما ؟ فقال الملك : حال الغضب بيني وبين ذلك . قال : فإذا رأى الملك دعاهما حتى نتطلع ما عندهما .

فدعاهما الملك فقال لهما شمعون : من أرسلكما إلى ها هنا ؟ قالا : الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك . فقال لهما شمعون : فصِفاهُ وأوجزا . فقالا : إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يُريد . قال شمعون : وما آيتكما ؟ قالا له : ما تتمناه . فأمر الملك حتى جاؤوا بغلام مطموس العينين موضع عينيه كالجبهة . فما زالا يدعوان ربّهما حتى انشق موضع البصر ، فأخذا بندقتين من الطين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين فبصر بهما ،

فتعجب الملك ، فقال شمعون للملك : أرأيت [ لو ] سألت إلهك حتى يصنع صنيعاً مثل هذا فيكون لك الشرف ولإلهك .

فقال له الملك : ليس عندي سر إنّ إلهنا الذي نعبده لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع ، وكان شمعون إذا دخل الملك على الصنم يدخل بدخوله ويُصلّي كثيراً ويتضرع ، حتى ظنوا أنه على ملتهم .

وقال الملك للرسولين : إن قدر إلهكما الذي تعبدانه على إحياء ميت آمنا به وبكما . قالا : إلهنا قادر على كل شيء . فقال الملك : إنّ ها هنا ميتاً مات منذ سبعة أيام ابناً لدهقان وأنا أخرته فلم أدفنه حتى يرجع أبوه وكان غائباً .

فجاؤوا بالميت وقد تغيّر وأروح ، فجعلا يدعوان ربهما علانية ، وجعل شمعون يدعو ربه سراً . فقام الميت وقال : إني قد مُتُ منذ سبعة أيام ، ووُجدت مشركاً فأُدخلت في تسعة أودية من النار ، وأنا أُحذركم ما أنتم فيه ، فآمنوا بالله .



---

ثم قال : فتحت أبواب السماء فنظرت فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة . قال الملك : ومن الثلاثة ؟ قال : شمعون وهذان ، وأشار إلى صاحبيه . فتعجب الملك ، فلما

علم شمعون أنّ قوله أثر في الملك أخبره بالحال ودعاه ، فآمن قوم وكان الملك فيمن آمن ، وكفر آخرون .

وقال ابن إسحاق عن كعب ووهب : بل كفر الملك ، وأجمع هو وقومه على قتل الرسل ، فبلغ ذلك حبيباً وهو على باب المدينة الأقصى فجاء يسعى إليهم ويذكرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين فذلك قوله سبحانه : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثنين ﴾ .

واختلفوا في اسميهما ، فقال ابن عباس : تاروص وماروص ، وقال وهب : يحيى ويونس ، ومقاتل : تومان ومانوص .

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أي فقوّينا برسول ثالث . قرأ طلحة بن مصرف وعاصم عن حفص : ﴿ فَعَزَّزْنَا ﴾ مخففاً ، أي فغلبناهم ، من عزيز برسول ثالث وهو شمعون .

وقال مقاتل : شمعان ، وقال كعب : الرسولان صادق وصدوق والثالث شلوم وإنما أضاف الإرسال إليه لأن عيسى (عليه السلام) إنما بعثهم بأمره عزّ وجل ، وكانوا في جملة الرسل ، فقالوا جميعاً لأهل أنطاكية : ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ * قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ الرحمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾ : ما أنتم إلاّ كاذبون . ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَآ إِلاَّ البلاغ المبين * قالوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا ﴾ تشاءمنا .

﴿ بِكُمْ ﴾ ، قال مقاتل : حبس عنهم المطر فقالوا : هذا بشؤمكم ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ ، قال قتادة : بالحجارة ، وقال آخرون : لنقتلنكم ، ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُواْ طَائِرُكُم ﴾ : شؤمكم ﴿ مَّعَكُمْ ﴾ بكفركم ، وقال ابن عباس والضحاك : حظّكم من الخير والشر . قال قتادة : أعمالكم ، وقرأ الحسن والأعرج : طيركم .

﴿ أَإِن ذُكِّرْتُم ﴾ وعظتم ، وقرأ أبو جعفر بالتخفيف ، يعني من حيث ذكرتم ، وجوابه محذوف مجازه : أئن ذكرتم قلتم هذا القول ، ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ : مشركون مجاوزون الحد .

قوله : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَى المدينة رَجُلٌ يسعى ﴾ وهو حبيب بن مري ، وقال ابن عباس ومقاتل : حبيب بن إسرائيل النجار ، وقال وهب : وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام ، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ، وكان مؤمناً ذا صدقة يجمع كسبه إذا أمسى فيقسمه نصفين : فيطعم نصفاً عياله ويتصدق بنصفه ، فلما بلغه أنّ قومه قصدوا قتل الرسل جاءهم فقال : ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ ، قال قتادة : لما انتهى حبيب إلى الرسل قال لهم : تسألون على هذا من أجر ؟ قالوا : لا .

فقال ذلك . قال : وكان حبيب في غار يعبد ربه ، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وما هو عليه من التوحيد وعبادة الله ، فقيل له : وأنت مخالف لديننا وتابع دين هؤلاء الرسل ومؤمن بإلههم ؟ فقال : ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الذي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرحمن بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنقِذُونَ * إني ﴾ إن فعلت ذلك ﴿ إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إني آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فاسمعون ﴾ فلما قال لهم ذلك وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يكن أحد يدفع عنه .

*(320/645)*

---

قال عبد الله بن مسعود : وطئوه بأرجلهم حتى خرج قضيبه من دبره ، وقال السدّي : كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهدِ قومي حتى قطعوه وقتلوه ، وقال الحسن : خرقوا خرقاً في حلقة فعلقوه من سوق المدينة ، وقبره في سور أنطاكية فأوجب الله له الجنة ، فذلك قوله : ﴿ قِيلَ ادخل الجنة ﴾ .

فلما أفضى إلى جنة الله وكرامته ، ﴿ قَالَ يا ليت قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ المكرمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشف والبيان حـ 8 صـ 118 .

126﴾

وقال الزمخشري :

سورة يس

(بسم اللّه الرحمن الرحيم) مكية ، [إلا آية 45 فمدنية] وآياتها 83 [نزلت بعد الجنّ]

[سورة يس (36) : الآيات 1 إلى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (4)

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى

أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (7)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قرئ : يس ، بالفتح «1» ، كأين وكيف . أو بالنصب على اتل يس ، وبالكسر على الأصل كجير ، وبالرفع على هذه يس . أو بالضم كحيث . وفخمت الألف وأميلت «2» . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : معناه يا إنسان في لغة طيئ ، واللّه أعلم بصحته ، وإن صح فوجهه أن يكون أصله يا أنيسين ، فكثر النداء به على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره ، كما قالوا في القسم : م اللّه في أيمن اللّه الْحَكِيمِ ذى

الحكمة . أو لأنه دليل ناطق بالحكمة كالحي . أو لأنه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به

عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ خبر بعد خبر ، أو صلة للمرسلين . فإن قلت : أى حاجة إليه خبرا

كان أو صلة ، وقد علم أنّ المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم؟ قلت : ليس

الغرض

---

(1) . قوله «قرئ يس بالفتح» يفيد أن السكون قراءة الجمهور ، والحركات قراءات

لبعضهم ، فالفتح بناء أو نصب ، والكسر بناء فقط ، فتدبر (ع)

(2) . قوله «و أخفت الألف وأميلت» يعنى : قرأ الجمهور بالتفخيم . وقرأ بعضهم بالامالة

، كما في النسفي . (ع)

(322/645)

---

بذكره ما ذهبت إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته

، وإنما الغرض وصفه ووصف ما جاء به من الشريعة ، فجمع بين الوصفين في نظام واحد ،

كأنه قال :

إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت ، وأيضا فإن التنكير فيه دل على أنه أرسل من

بين الصراط المستقيمة على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه «1» ، وقرئ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ

الرَّحِيمِ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وبالنصب على أعنى ، وبالجرّ على البدل من القرآن قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ قوما غير منذر آباؤهم على الوصف «2» ونحوه قوله تعالى لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ، وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ . وقد فسر ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ على إثبات الإنذار .

ووجه ذلك أن تجعل ما مصدرية ، لتنذر قوما إنذار آبائهم أو موصولة ومنصوبة على المفعول الثاني لتنذر «3» قوما ما أنذره آباؤهم من العذاب ، كقوله تعالى نَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً

فإن قلت : أى فرق بين تعلقي قوله فَهُمْ غافِلُونَ على التفسيرين ؟ قلت : هو على الأوّل متعلق بالنفي ، أى : لم ينذروا فهم غافلون ، على أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم ، وعلى الثاني بقوله إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ لتنذر ، كما تقول : أرسلتك إلى فلان لتنذره ، فإنه غافل . أو فهو غافل . فإن قلت : كيف يكونون منذرين غير منذرين لمناقضة هذا ما في الآي الأخر ؟ قلت : لا مناقضة :

لأنّ الآي في نفى إنذارهم لا في نفى إنذار آبائهم ، وآباؤهم القدماء من ولد إسماعيل وكانت النذارة فيهم «4» فإن قلت : ففي أحد التفسيرين أنّ آباءهم لم ينذروا وهو الظاهر ، فما تصنع به ؟ قلت :

---

(1) . قال محمود : «إن قلت ما سر قوله على صراط مستقيم وقد علم بكونه من

المرسلين أنه كذلك؟ وأجاب بأن الغرض وصفه ووصف ما جاء به، فجاء بالوصفين في نظام واحد، فكأنه قال: إنك لمن المرسلين على طريق ثابت.

قال: وأيضا ففي تنكير الصراط أنه مخصوص من بين الصراط المستقيمة بصراط لا يكتنه وصفه. انتهى كلامه» قال أحمد: قد تقدم في مواضع أن التنكير قد يفيد تفخيما وتعظيما وهذا منه.

(2). قال محمود: إنه على الوصف كقوله لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ قال: وقد فسر ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ على إثبات الانذار على أن ما مصدرية أو موصولة. قال: والفرق بين موقع الفاء على التفسيرين أنها على الأول متعلقة بالنفي معنى جوابا له، والمعنى أن نفى إنذارهم هو السبب في غفلتهم، وعلى الثاني بقوله إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ لتنذر، كما تقول: أرسلناك إلى فلان لتنذره، فانه غافل أو فهو غافل انتهى» قال أحمد: يعنى أنها على التفسير الثاني تفهم أن غفلتهم سبب في إنذارهم.

(3). قوله «على المفعول الثاني لتنذر» لعل بعده سقطا تقديره: أى لتنذر. (ع)

(4). قال محمود: فان قلت كيف يكونون منذرين على هذا التفسير غير منذرين في قوله ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ وأجاب بأن الآية لنفى إنذارهم لا لنفى إنذار آبائهم، وآباؤهم القدماء من ولد إسماعيل، وقد كانت النذارة فيهم.

قال: فما تصنع بأحد التفسيرين الذي مقتضاه أن آباءهم لم ينذروا وهو التفسير الأول في

هذه الآية مع التفسير الثاني ، ومقتضاء أنهم أنذروا ، وأجاب بأن آباءهم الأباعد هم المنذرون لا آباؤهم الأدنون . قال : ثم مثل تصميمهم على للكفر وأنهم لا يرعوون ولا يرجعون بأن جعلهم كالمغلولين لمقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يطأطئون رؤسهم له ، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم قال والضمير للأغلال لأن طوق الغريكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادرا من الحلقة إلى الذقن ، فلا تخليه يطأطئ رأسه ، فلا يزال مقمحا . انتهى كلامه» قال أحمد : إذا فرقت هذا التشبيه كان تصميمهم على الكفر مشبها بالأغلال ، وكان استكبارهم عن قبول الحق وعن الخضوع والتواضع لاستماعه ، مشبها بالاقماح ، لأن المقمح لا يطأطئ رأسه .

وقوله : فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ تتمة للزوم الاقماح لهم ، وكان عدم الفكر في القرون الخالية مشبها بسد من خلفهم ، وعدم النظر في العواقب المستقلة مشبها بسد من قدامهم .



---

أريد آباؤهم الأدنون دون الأباعد الْقَوْلُ قوله تعالى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ يعنى تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب ، لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر .

[سورة يس (36) : الآيات 8 إلى 9]

إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (9)

ثم مثل تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين : في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يطأطئون رءوسهم له ، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدّامهم ولا ما خلفهم : في أن لا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهم متعامون عن النظر في آيات اللّه . فإن قلت : ما معنى قوله فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ ؟ قلت : معناه : فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها ، وذلك أن طوق الغل الذي في عنق المغلول ، يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود ، نادرا «1» من الحلقة إلى الذقن ، فلا تخليه يطأطئ رأسه ويوطئ قذاله «2» ، فلا يزال مقمحا . والمقمح : الذي يرفع رأسه ويغض بصره . يقال :

قمح البعير فهو قامح : إذا روى فرفع رأسه . ومنه شهرا قماح «3» ، لأن الإبل ترفع رءوسها عن الماء لبرده فيهما ، وهما الكانونان . ومنه : اقتحمت السويق . فإن قلت : فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدى وزعم أن الغل لما كان جامعا لليد والعنق - وبذلك يسمى جامعة - كان ذكر الأعناق دالا على ذكر الأيدى «4» ؟ قلت : الوجه ما ذكرت لك ، والدليل عليه قوله

---

(1) . قوله «رأس العمود نادرا» أى شاذا ، كما يفيده الصحاح . (ع)

(2) . قوله «ويوطئ قذاله» في الصحاح «القذال» : جماع مؤخر الرأس ، فتدبر . (ع)

(3) . قوله «ومنه شهرا قماح» بوزن كتاب وغراب ، كما نقل عن القاموس . وفي الصحاح : سميا بذلك ، لأن الإبل إذا وردت فيهما آذاها برد الماء فقامحت . (ع)

(4) . قال محمود : فان قلت : فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدى وزعم أن الغل لما كان جامعا لليد والعنق وبذلك يسمى جامعة : كان ذكر الأعناق دالا على ذكر الأيدى. وأجاب بأن الوجه هو الأول ، واستدل على هذا التفسير الثاني بقوله فَهُمْ مُقْمَحُونَ لأنه جعل الاقماح نتيجة قوله فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ ولو كان الضمير للأيدى لم يكن معنى التسبب في الاقماح ظاهرا ، وترك الحق الأبلج للباطل اللجلج . انتهى كلامه» قال أحمد : ويحتمل أن تكون الفاء للتعقيب كالفاء الأولى في قوله فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ أو للتسبب ، ولا شك أن ضغط اليد مع العنق في الغل يوجب الاقماح ، فان اليد والعياذ بالله تعالى تبقى ممسكة بالغل تحت الذقن دافعة بها ومانعة من وطأتها ، ويكون التشبيه أتم على هذا التفسير ، فان اليد متى كانت مرسلة مخلاة كان للمغلول بعض الفرج بإطلاقها ، ولعله يتحيل بها على فكاك الغل ، ولا كذلك إذا كانت مغلولة ، فيضاف إلى ما ذكرناه من التشبيهات المفرقة أن يكون انسداد باب الحيل عليهم في الهداية والانخلاع من ربقة الكفر المقدر عليهم مشبها بغل الأيدى ، فان اليد آلة الحيلة إلى الخلاص . [. . . . .]

فَهُمْ مُقْمَحُونَ ألا ترى كيف جعل الإقماح نتيجة قوله فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ ولو كان الضمير للايدى لم يكن معنى التسبب في الإقماح ظاهرا على أن هذا الإضمار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذي يجفو عنه وترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجلج «1» . فإن قلت : فقد قرأ ابن عباس رضى اللّه عنهما في أيديهم وابن مسعود في أيمانهم ، فهل تجوّز على هاتين القراءتين أن تجعل الضمير للأيدى أو للايمان ؟ قلت : يأبى ذلك وإن ذهب الإضمار المتعسف ظهور كون الضمير للاغلال ، وسداد المعنى عليه كما ذكرت . وقرئ :

سدا بالفتح والضم . وقيل : ما كان من عمل الناس فبالفتح ، وما كان من خلق اللّه فبالضم فَأَغْشَيْناهُمْ فأغشينا أبصارهم ، أى : غطيناها وجعلنا عليها غشاوة عن أن تطمح إلى مرئى ، وعن مجاهد : فأغشيناهم : فألبسنا أبصارهم غشاوة . وقرئ بالعين من العشا . وقيل : نزلت في بنى مخزوم ، وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمدا يصلى ليرضخن رأسه ، فأتاه وهو يصلى ومعه حجر ليدمغه به ، فلما رفع يده أثبتت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد ، فرجع إلى قومه فأخبرهم ، فقال مخزومى آخر : أنا أقتله بهذا الحجر ، فذهب ، فأعمى اللّه عينيه «2»

[سورة يس (36) : الآيات 10 إلى 11]

وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11)

فإن قلت: قد ذكر ما دلّ على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الإنذار، ثم قفاه بقوله إِنَّما تُنْذِرُ «3» وإنما كانت تصح هذه التقفية لو كان الإنذار منفيا. قلت: هو كما قلت، ولكن لما كان ذلك نفيا للايمان مع وجود الإنذار وكان معناه أن البغية المرومة بالإنذار غير حاصلة وهي الإيمان، قفى بقوله إِنَّما تُنْذِرُ على معنى: إنما تحصل البغية بإنذارك من غير هؤلاء المنذرين وهم المتبعون للذكر: وهو القرآن أو الوعظ، الخاشون ربهم.

---

(1). قوله «إلى الباطل اللجلج» أى الذي يردد من غير أن ينفذ. أفاده الصحاح. (ع)

(2). أخرجه ابن إسحاق في السيرة في كلام طويل. ورواه أبو نعيم في الدلائل من طريق ابن إسحاق: حدثني محمد بن محمد بن سعيد، أو عكرمة، عن ابن عباس «أن أبا جهل قال: إنى أعاهد اللّه لأجلسن غدا لمحمد بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه. فذكر نحوه إلى قوله قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر بين يديه: وأصله في البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس رضى اللّه عنهما.

(3). قال محمود: «إن قلت: قد ذكر ما دل على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الانذار، ثم قفاه بقوله إِنَّما تُنْذِرُ وإنما كانت التقفية تصح لو كان الانذار منفيا، وأجاب بأن الأمر كذلك، ولكن لما بين أن البغية المرومة بالإنذار وهي الايمان منفية عنهم: قفاه بقوله إِنَّما تُنْذِرُ أى إنما

تحصل بغية الانذار ممن اتبع الذكر. انتهى كلامه» قلت: في السؤال سوء أدب، وينبغي أن يقال: وما وجه ذكر الانذار الثاني في معرض المخالفة للأول، مع أن الأول إثبات، والانذار الثاني كذلك.

(325/645)

---

[سورة يس (36) : آية 12]

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (12)

نُحْيِ الْمَوْتى نبعثهم بعد مماتهم. وعن الحسن: إحياؤهم: أن يخرجهم من الشرك إلى الإيمان وَنَكْتُبُ ما أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها وما هلكوا عنه من أثر حسن، كعلم علموه، أو كتاب صنفوه، أو حبيس حبسوه، أو بناء بنوه: من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك. أو سيئ، كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين، وسكة أحدث فيها تخسيرهم، وشيء أحدث فيه صدّ عن ذكر الله: من ألحان وملاه، وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها. ونحوه قوله تعالى يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ أى: قدّم من أعماله، وأخر من آثاره. وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد. وعن جابر: أردنا النقلة إلى المسجد والبقاع حوله «1» خالية، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله

عليه وسلم فأتانا في ديارنا وقال : يا بنى سلمة ، بلغني أنكم تريدون النقلة إلى المسجد ، فقلنا نعم ، بعد علينا المسجد والبقاع حوله خالية ، فقال :

عليكم دياركم . فإنما تكتب آثاركم . قال : فما وددنا حضرة المسجد لما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وعن عمر بن عبد العزيز : لو كان اللّه مغفلا شيئًا لأغفل هذه الآثار التي تعفيها الرياح.

والإمام : اللوح. وقرئ : ويكتب ما قدّموا وآثارهم على البناء للمفعول . وكل شيء : بالرفع

[سورة يس (36) : الآيات 13 إلى 15]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (15)

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا ومثل لهم مثلا ، من قولهم : عندي من هذا الضرب كذا ، أى : من هذا المثال ، وهذه الأشياء على ضرب واحد ، أى على مثال واحد . والمعنى . واضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية ، أى : اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية . والمثل الثاني بيان للأوّل .

وانتصاب إذ بأنه بدل من أصحاب القرية . والقرية أنطاكية . والْمُرْسَلُونَ رسل عيسى

عليه

---

(1) . أخرجه ابن حبان في الأول من الأول عن طريق أبى نضرة عنه . وأصله في مسلم .

(326/645)

---

السلام إلى أهلها ، بعثهم دعاة إلى الحق وكانوا عبدة أوثان . أرسل إليهم اثنين ، فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس ، فسألهما فأخبراه ، فقال :

أمعكما آية ؟ فقالا : نشفى المريض ونبرئ الأكمه والأبرص ، وكان له ولد مريض من سنتين فمسحاه ، فقام ، فآمن حبيب وفشا الخبر ، فشفى على أيديهما خلق كثير ، ورقى حديثهما إلى الملك وقال لهما : ألنا إله سوى آلهتنا ؟ قالا : نعم من أوجدك وآلهتك ، فقال : حتى أنظر في أمركما ، فتبعهما الناس وضربوهما . وقيل : حبسا ، ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون ، فدخل متنكرا وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به ، ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به ، فقال له ذات يوم :

بلغني أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه ؟ فقال : لا ، حال الغضب بيني وبين ذلك ، فدعاهما ، فقال شمعون : من أرسلكما ؟ قالا : اللّه الذي خلق كل شيء وليس له

شريك ، فقال :

صفاه وأوجزا . قالا : يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . قال : وما آيتكما ؟ قالا : ما يتمنى الملك ، فدعا بغلام مطموس العينين ، فدعوا اللّه حتى انشق له بصر ، وأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فكانتا مقلتين ينظر بهما ، فقال له شمعون : أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف . قال : ليس لي عنك سر ، إنّ إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع ، وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلى ويتضرع ويحسبون أنه منهم ، ثم قال :

إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به ، فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال : إنى أدخلت في سبعة أودية من النار ، وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا ، وقال : فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة ، قال الملك : ومن هم ؟ قال شمعون ، وهذان ، فتعجب الملك . فلما رأى شمعون أنّ قوله قد أثر فيه نصحه فآمن وآمن معه قوم ، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا فَعَزَّزْنا فقوّينا . يقال : المطر يعزز الأرض إذا لبدها وشدّها ، وتعزز لحم الناقة . وقرئ بالتخفيف من عزه يعزه : إذا غلبه ، أى : فغلبنا وقهرنا بِثالِثٍ وهو شمعون . فإن قلت : لم ترك ذكر المفعول به ؟ قلت : لأنّ الغرض ذكر المعزز به وهو شمعون وما لطف فيه من التدبير حتى عزّ الحق وذلّ الباطل ، وإذا كان الكلام منصبا إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه ، كأن ما سواه

مرفوض مطرح.

ونظيره قولك : حكم السلطان اليوم بالحق ، الغرض المسوق إليه : قولك بالحق فلذلك

رفضت ذكر المحكوم له والمحكوم عليه. إنما رفع بشر ونصب «1» في قوله ما هذا بَشَراً لأنّ

إلا تنقض النفي ، فلا يبقى لما المشبهة بليس شبه ، فلا يبقى له عمل. فإن قلت : لم قيل : إنا

إليكم

---

(1). قوله «إنما رفع بشر ونصب» عبارة النسفي : إنما رفع بشر هنا ونصب . . . الخ.

(ع)

(327/645)

---

مرسلون أوّلا «1» ، وإِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ آخرا؟ قلت : لأن الأوّل ابتداء إخبار ، والثاني

جواب عن إنكار.

[سورة يس (36) : الآيات 16 إلى 17]

قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَما عَلَيْنا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (17)

وقوله رَبُّنا يَعْلَمُ جار مجرى القسم في التوكيد ، وكذلك قولهم : شهد اللّه ، وعلم اللّه. وإنما

حسن منهم هذا الجواب الوارد على طريق التوكيد والتحقيق مع قولهم وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ

الْمُبِينُ

أى الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة لصحته ، وإلا فلو قال المدعى : واللّه إنى لصادق فيما أدعى ولم يحضر البينة كان قبيحا .

[سورة يس (36) : الآيات 18 إلى 19]

قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (18) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19)

تَطَيَّرْنا بِكُمْ تشاءمنا بكم ، وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم ، «2» وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم ، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا ، كما حكى اللّه عن القبط :

وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه . وعن مشركي مكة : وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . وقيل : حبس عنهم القطر فقالوا ذلك . وعن قتادة : إن أصابنا شيء كان من أجلكم طائِرُكُمْ مَعَكُمْ وقرئ : طيركم ، أى سبب شؤمكم معكم وهو كفرهم . أو أسباب شؤمكم معكم ، وهي كفرهم ومعاصيهم . وقرأ الحسن : أطيركم أى تطيركم .

وقرئ : أئن ذكرتم ؟ بهمزة الاستفهام وحرف الشرط . وآئن بألف بينهما ، «3» بمعنى : أتطيرون إن ذكرتم ؟ وقرئ : أأن ذكرتم بهمزة الاستفهام وأن الناصبة ، يعنى : أتطيرتم لأن

ذكرتم؟ وقرئ: أن، وإن، بغير استفهام لمعنى الإخبار، أى تطيرتم لأن ذكرتم، أو إن ذكرتم تطيرتم. وقرئ: أين ذكرتم: على التخفيف، أى شؤمكم معكم حيث جرى ذكركم، وإذا شئم المكان بذكرهم كان بحلولهم فيه أشأم بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ في العصيان: ومن ثم أتاكم الشؤم، لا من قبل رسل اللّه وتذكيرهم، أو بل أنتم قوم مسرفون في ضلالكم متمادون في غيكم، حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل اللّه.

---

(1) . قال محمود: «إن قلت: لم أسقط اللام هنا وأثبتها في الثانية عند قوله رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ قلت: الأول ابتداء إخبار، والثاني جواب إنكار» قال أحمد: أى فلاق توكيده.

(2) . قوله «ونفرت منهم» لعله: منه كعبارة النسفي. (ع)

(3) . قوله «وآئن بألف بينهما» الذي في النسفي أن هذا وما قبله بياء مكسورة بدل الهمزة الثانية. (ع)



---

[سورة يس (36) : الآيات 20 إلى 25]

وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ

أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (24)

إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25)

رَجُلٌ يَسْعى هو حبيب بن إسرائيل النجار ، وكان ينحت الأصنام ، وهو ممن آمن برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ، وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما ، ولم يؤمن بنبي أحد إلا بعد ظهوره . وقيل : كان في غار يعبد اللّه ، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وقاول الكفرة ، فقالوا : أو أنت تخالف ديننا ، فوثبوا عليه فقتلوه . وقيل : توطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه «1» من دبره . وقيل : رجموه وهو يقول : اللهم اهد قومي ، وقبره في سوق أنطاكية ، فلما قتل غضب اللّه عليهم فأهلكوا بصيحة جبريل عليه السلام .

وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «سباق الأمم ثلاثة : لم يكفروا باللّه طرفة عين : على بن أبى طالب ، وصاحب يس ، ومؤمن آل فرعون» «2» مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ كلمة جامعة في الترغيب فيهم ، أى : لا تخسرون معهم شيئا من دنياكم ، وتربحون صحة دينكم فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة ، ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ، ولأنه أدخل في إمحاض النصح حيث

لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه ، ولقد وضع قوله وَما لِي لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي مكان قوله : وما لكم لا تعبدون الذي فطركم . ألا ترى إلى قوله وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ولولا أنه قصد ذلك لقال : الذي فطرني وإليه أرجع ، وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ يريد فاسمعوا قولي وأطيعونى ، فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه : أنّ العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم ، وما أدفع العقول وأنكرها لأن تستحبوا على عبادته عبادة أشياء إن أرادكم هو بضر وشفع لكم هؤلاء لم تنفع شفاعتهم ولم يمكنوا من أن يكونوا شفعاء عنده ، ولم يقدروا على

---

(1) . قوله «حتى خرج قصبه» في الصحاح «القصب» بالضم : المتقى . والمعى : واحد الأمعاء . (ع)

(2) . أخرجه الثعلبي من طريق عبد الرحمن بن أبى ليلى عن أبيه بهذا ، وفيه عمرو بن جمع وهو متروك . ورواه العقيلي والطبراني وابن مردويه ، من طريق حسين بن حسن الأشقر عن ابن عيينة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس ، بلفظ «السباق ثلاثة . فالسابق إلى عيسى صاحب يس ، والى محمد صلى اللّه عليه وسلم على بن أبى طالب

إنقاذكم منه بوجه من الوجوه ، إنكم في هذا الاستحباب لواقعون في ضلال ظاهر بين لا يخفى على ذى عقل وتمييز . وقيل : لما نصح قومه أخذوا يرجمونه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل ، فقال لهم إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ أى اسمعوا إيمانى تشهدوا لي به . وقرئ : إن يردني الرحمن بضر ، بمعنى : أن يوردني ضرا ، أى يجعلني موردا للضر .

[سورة يس (36) : الآيات 26 إلى 27]

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27)

أى لما قتل قِيلَ له ادْخُلِ الْجَنَّةَ وعن قتادة : أدخله اللّه الجنة وهو فيها حىّ يرزق أراد قوله تعالى بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ وقيل : معناه البشرى بدخول الجنة ، وأنه من أهلها . فإن قلت : كيف مخرج هذا القول في علم البيان ؟ قلت : مخرجه مخرج الاستئناف ، لأنّ هذا من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه ، كأنّ قائلا قال : كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب في نصرة دينه والتسخى لوجهه بروحه ؟ فقيل : قيل ادخل الجنة ولم يقل قيل له ، لانصباب الغرض إلى المقول وعظمه ، لا إلى المقول له مع كونه معلوما ، وكذلك قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم ، وإنما تمنى علم قومه بحاله ، ليكون علمهم بها سببا لاكتساب مثلها لأنفسهم ، بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلهما إلى الجنة . وفي حديث مرفوع :

نصح قومه حيا وميتا «1» . وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ ، والحلم عن أهل الجهل ، والترؤف على من أدخل نفسه في عمار الأشرار وأهل البغي ، والتشمر في تخليصه والتلطف في افتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه . ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام . ويجوز أن يتمنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره ، وأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة ، وأن عداوتهم لم تكسبه إلا فوزا ولم تعقبه إلا سعادة ، لأنّ في ذلك زيادة غبطة له وتضاعف لذة وسرور . والأوّل أوجه . وقرئ : المكرّمين . فإن قلت :

ما في قوله تعالى بِما غَفَرَ لِي رَبِّي أى الماءات هي ؟ قلت : المصدرية أو الموصولة ، أى : بالذي غفره لي من الذنوب . ويحتمل أن تكون استفهامية ، يعنى بأى شيء غفر لي ربى ، يريد به

---

(1) . ورد هذا في قصة عروة بن مسعود أخرجه ابن مردويه من حديث المغيرة بن شعبة ، فذكر القصة وفي آخرها «فكان يقول وهو في النزع : يا معشر ثقيف ائتوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فاطلبوا منه الأمان ، قبل أن يبلغه موتى فيغزوكم . فلم يزل كذلك حتى مات ، فبلغ النبي صلى اللّه عليه وسلم . فقال : لقد نصح قومه حبا وميتا ، وشبهه بصاحب يس .

ما كان منه معهم من المصابرة لإعزاز الدين حتى قتل ، إلى أنّ قولك بما غَفَرَ لِي بطرح الألف أجود وإن كان إثباتها جائزا ، يقال : قد علمت بما صنعت هذا ، أي : بأي شيء صنعت وبم صنعت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 12.3 ﴾



وقال ابن الجوزى :

وفي قوله : ( يس ) خمسة أقوال .

أحدها : أن معناها : يا إنسان ، بالحبشية ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومقاتل .

والثاني : أنها قَسَم أقسم اللهُ به ، وهو من أسمائه ، رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أن معناها : يا محمد ، قاله ابن الحنفية ، والضحاك .

والرابع : أن معناها : يا رجُل ، قاله الحسن .

والخامس : اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

وقرأ الحسن ، وأبو الجوزاء : " يس " بفتح الياء وكسر النون .

وقرأ أبو المتوكل ، وأبو رجاء ، وابن أبي عبلة : بفتح الياء والنون جميعاً .

وقرأ أبو حصين الأسدي : بكسر الياء وإظهار النون .

قال الزجاج : والذي عند أهل العربية أن هذا بمنزلة افتتاح السُّوَر ، وبعض العرب يقول :

﴿ يسنَ والقرآن ﴾ بفتح النون .

وهذا جائز في العربية لوجهين .

أحدهما : أن "يس" اسم للسورة ، فكأنه قال : اتْل يُس ، وهو على وزن هابيل وقابيل لا ينصرف .

والثاني : أنهُ فتح لالتقاء الساكنين ، والتسكين أجود ، لأنه حرف هجاء .

قوله تعالى : ﴿ والقرآن الحكيم ﴾ هذا قَسَم ، وقد سبق معنى " الحكيم " [ البقرة : 32 ] ، قال الزجّاج : وجوابه : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ ﴾ ؛ وأحسنُ ما جاء في العربيّة أن يكون "لَمِنَ المُرْسَلِينَ" خبر "إنَّ" ، ويكون قوله : ﴿ على صِراطٍ مستقيمٍ ﴾ خبراً ثانياً ، فيكون المعنى : إنكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ ، إنكَ على صِراطٍ مستقيم .

ويجوز أن يكون ﴿ على صِراطٍ ﴾ من صلة ﴿ المُرْسَلِين ﴾ ، فيكون المعنى : إنكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ الذين أُرسِلوا على طريقة مستقيمة .

قوله تعالى: ﴿ تنزيلَ العزيزِ ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿ تنزيلُ ﴾ برفع اللام.

وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿ تنزيلَ ﴾ بنصب اللام.

وعن عاصم كالقراءتين.

(332/645)

---

قال الزجاج: من قرأ بالنصب، فعلى المصدر، على معنى: نزّلَ اللهُ ذلك تنزيلاً، ومن قرأ بالرفع، فعلى معنى: الذي أُنزلَ إليكَ تنزيلُ العزيز.

وقال الفراء: من نصب، أراد إنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ تنزيلاً حقاً مُنزَلاً ويكون الرفع على الاستئناف، كقوله: ﴿ ذلك تنزيل العزيز ﴾ وقرأ أُبيّ بن كعب، وأبو رزين، وأبو العالية، والحسن، والجحدري: ﴿ تنزيلِ ﴾ بكسر اللام.

وقال مقاتل: هذا القرآن تنزيل العزيز في ملكه، الرحيمِ بخَلْقه.

قوله تعالى: ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤهم ﴾ في "ما" قولان.

أحدهما: أنها نفي، وهو قول قتادة والزجاج في الأكثرين.

والثاني: أنها بمعنى "كما"، قاله مقاتل.

وقيل: هي بمعنى "الذي".

قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ غافلون ﴾ أي : عن حُجج التوحيد وأدلة البعث .

﴿ لقد حَقَّ القولُ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : وجب العذاب .

والثاني : سبق القول بكفرهم .

قوله تعالى : ﴿ على أكثرهم ﴾ يعني أهل مكة ، وهذه إِشارة إِلى إِرادة الله تعالى السابقة لكفرهم ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ لِمَا سبق من القَدَر بذلك .

﴿ إِنَّا جَعَلْنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها مَثَلٌ ، وليس هناك غُلٌّ حقيقة ، قاله أكثر المحقِّقين ، ثم لهم فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها مَثَل لمنعهم عن كل خير ، قاله قتادة .

والثاني : لحبسهم عن الإِنفاق في سبيل الله بموانع كالأَغلال ، قاله الفراء ، وابن قتيبة .

والثالث : لمنعهم من الإِيمان بالله ، قاله أبو سليمان الدمشقي .



---

والقول الثاني : أنها موانع حسِيَّة مَنَعَتْ كما يَمنع الغُلُّ ؛ قال مقاتل بن سليمان : حلف أبو جهل لئن رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصلي لَيَدْمَغَنَّهُ ، فجاءه وهو يصلِّي ، فرفع حجراً

فيَبِسَتْ يدُه والتصق الحجر بيده ، فرجَع إلى أصحابه فأخبرهم الخبر ، فقام رجل منهم فأخذ الحجر ، فلمَّا دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم طَمَسَ اللهُ على بصره فلم يره ، فرجَع إلى أصحابه فلم يُبْصِرهم حتى نادَوْه ، فنزل في أبي جهل : ﴿ إِنّا جعَلْنا في أعناقهم أغلالاً . . .

﴾ الآية .

ونزل في الآخر : ﴿ وجعَلْنا مِنْ بين أيديهم سَدّاً ﴾ .

والقول الثالث : أنه على حقيقته ، إلاَّ أنَّه وَصْفٌ لِمَا سيُنْزِلُه اللهُ تعالى بهم في النار ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ فهي إلى الأذقان ﴾ قال الفراء : " فهي "كناية عن الأيمان ، ولم تُذْكَر ، لأن الغُلَّ لا يكون إلاَّ في اليمين والعنق جامعاً لهما ، فاكتُفِيَ بذكر أحدهما عن صاحبه .

وقال الزجّاج : " هي "كناية عن الأيدي ، ولم يذكرها إيجازاً ، لأن الغُلَّ يتضمن اليد والعنق ، وأنشد :

وما أدري إذا يَمَّمْتُ أرضاً . . .

أُريدُ الخَيْرَ أيُّهما يَلِيني

وإنما قال : أيُّهما ، لأنه قد علم أن الخير والشرَّ معرَّضان للإنسان .

قال الفراء : والذَّقْن : أسفل اللَّحْيَيْن ، والمُقْمَحُ : الغاضّ بصره بعد رفع رأسه ، قال أبو

عبيده : كل رافعٍ رأسَه فهو مُقَامِح وقَامِح ، والجمع قِماح ، فإن فُعل ذلك بإنسان فهو مُقْمَح ، ومنه هذه الآية .

وقال ابن قتيبة : يقال بعيرٌ قامحٌ وإبلٌ قِماحٌ : إذا رَوِيَتْ من الماء فقَمَحَتْ ، قال الشاعر وذكر سفينة :

ونحنُ على جَوانِبها قُعُودٌ . . .

نَغُضُّ الطَّرْفَ كالإبلِ القِمَاحِ

وقال الأزهري : المُراد أنَّ أيديهم لمّا غُلَّت عند أعناقهم ، رَفَعَتْ الأغلال أُذقانَهم ورؤوسَهم ، فهم مرفوعو الرؤوس برفع الأغلال إيّاها .

(334/645)

---

قوله تعالى : ﴿ وجَعَلْنا مِنْ بينِ أيديهم سَدّاً ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : بفتح السين ، والباقون : بضمها ، وقد تكلّمنا على الفَرْق [ بينهما ] في [ الكهف : 94 ] .

وفي معنى الآية قولان :

أحدهما : منعناهم عن الإِيمان بموانع ، فهم لا يستطيعون الخروج عن الكفر .

والثاني : حجبناهم عن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالظُّلمة لمّا قصدوه بالأذى .

قوله تعالى : ﴿ فأَغشيناهم ﴾ قال ابن قتيبة : أغشينا عيونَهم وأعميناهم عن الهُدىَ .

وقرأ ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، ويحيى بن يعمر : ﴿ فأعشيناهم ﴾ بعين غير معجمة .

ثم ذكر أن الإِنذار لا ينفعهم لإِضلاله إيّاهم بالآية التي بعد هذه .

ثم أخبر عمَّن ينفعُه الإِنذارُ بقوله : ﴿ إنَّما تُنْذِرُ ﴾ أي : إنَّما يَنفع إِنذارُك ﴿ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ وهو القرآن ، فعمل به ﴿ وخَشيَ الرَّحمنَ بالغَيب ﴾ وقد شرحناه في [ الأنبياء : 49 ] ، والأجر الكريم : الحَسَن ، وهو الجنة .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيي المَوْتى ﴾ للبعث ﴿ ونَكْتُبُ ما قدَّموا ﴾ من خير وشرٍّ في دنياهم .

وقرأ النخعي والجحدري : " ويُكْتُبُ " بياء مرفوعة وفتح التاء " وآثارُهم " برفع الراء .

وفي آثارهم ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها خُطاهم بأرجُلهم ، قاله الحسن ، ومجاهد ، وقتادة .

قال أبو سعيد الخدري : شَكَت بنو سَلِمَةَ إِلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعْدَ منازلهم من المسجد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَنَكْتُبُ ما قدَّموا وآثارهم ﴾ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " عليكم منازلَكم ، فإنَّما تُكْتَبُ آثارُكم " ، وقال قتادة وعمر بن عبد العزيز :

لو كان اللهُ مُغْفِلاً شيئاً ، لأغفل ما تعفِّي الرِّياحُ من أثر قَدَم ابن آدم .

والثاني : أنها الخُطا إلى الجمعة ، قاله أنس بن مالك .

(335/645)

---

والثالث : ما أَثَروا من سُنَّة حسنة أو سيِّئة يُعْمَل بها بعدهم ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، واختاره الفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج .

قوله تعالى : ﴿ وكُلَّ شيء ﴾ وقرأ ابن السميفع ، وابن أبي عبلة : " وكُلُّ " برفع اللام ، أي : مِنَ الأعمال ( أحصيناه ) أي : حَفِظْناه ﴿ في إِمامٍ مُبينٍ ﴾ وهو اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مَثَلاً ﴾ المعنى : صف لأهل مكة مثلاً ؛ أي : شِبْهاً .

وقال الزجاج : المعنى : مَثِّل لهم مَثَلاً ﴿ أصحابَ القرية ﴾ وهو بدل من مَثَل ، كأنه قال : اذكُرْ لهم أصحابَ القرية .

وقال عكرمة ، وقتادة : هذه القرية هي أنطاكية .

﴿ إِذ أَرْسَلْنَا إِليهم اثنين ﴾ وفي اسميهما ثلاثة أقوال :

أحدها : صادق وصدوق ، قاله ابن عباس ، وكعب .

والثاني : يوحنا وبولس ، قاله وهب بن منبه .

والثالث : تومان وبولس ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ فعزَّزْنا ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : "فعَزَّزْنا" بتشديد الزاي .

قال ابن قتيبة : المعنى : قوّينا وشدّدْنا ، يقال : تعزَّز لحمُ النّاقة : إذا صَلُب .

وقرأ أبو بكر ، والمفضَّل عن عاصم : "فعَزَزْنا" خفيفة ، قال أبو علي : أراد : فغَلَبْنا .

قال مقاتل : واسم هذا الثالث شمعون ، وكان من الحواريِّين ، وهو وصيُّ عيسى عليه السلام .

قال وهب : وأوحى اللهُ إلى شمعون يُخبره خبر الاثنين ويأمره بنُصرتهما ، فانطلق يؤمُّهما .

وذكرَ الفراء أن هذا الثالث كان قد أُرسل قبلَهما ؛ قال : ونراه في التنزيل كأنه بعدهما ، وإنما المعنى : فعزَّزنا بالثالث الذي قبلهما ، والمفسرون على أنه إنما أُرسل لنُصرتهما ، ثُمَّ إنَّ الثالث إنما يكون بعد ثانٍ ، فأمّا إذا سبق الاثنين فهو أوّل ؛ وإنّي لأتعجب من قول الفراء .

واختلف المفسِّرون فيمن أَرسلَ هؤلاء الرُّسل على قولين :

أحدهما: أن الله تعالى أرسلهم، وهو ظاهر القرآن، وهو مرويّ عن ابن عباس، وكعب، ووهب.

والثاني: أن عيسى أَرسلهم.

وجاز أن يُضاف ذلك إلى الله تعالى لأنهم رسل رسوله، قاله قتادة، وابن جريج.

قوله تعالى: ﴿ قالوا ما أنتم إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا ﴾ أي: مالكم علينا فضل في شيء ﴿ وما أنزل الرَّحمنُ مِنْ شيءٍ ﴾ أي: لم يُنزل كتاباً ولم يُرسِل رسولاً.

وما بعده ظاهر إلى قوله: ﴿ قالوا إِنَّا تطيَّرْنا بكم ﴾ وذلك أن المطر حُبس عنهم، فقالوا: إنَّما أصابنا هذا من قِبلكم ﴿ لئن لم تَنتهوا ﴾ أي: تسكُتُوا عنا ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ أي: لَنَقْتُلَنَّكم.

﴿ قالوا طائرُكم معكم ﴾ أي: شُؤْمُكم معكم بكفركم، لا بنا ﴿ أئنْ ذُكِّرتُم ﴾ قرأ ابن كثير: ﴿ أين ذُكِّرْتم ﴾ بهمزة واحدة بعدها ياء؛ وافقه أبو عمرو، إلاَّ أنه كان يَمُدُّ.

قال الأخفش: معناه: حيث ذُكِّرتم، أي: وُعِظتم وخُوِّفتم، وهذا استفهام جوابه محذوف، تقديره: أئن ذُكِّرتم تطيَّرتم بنا؟! وقيل: أئن ذُكِّرتم قُلتم هذا القول؟ والمسِرفون هاهنا المشرِكون.

قوله تعالى: ﴿ وجاءَ مِنْ أقصى المدينة رَجُلٌ يسعى ﴾ واسمه حبيب النجّار، وكان مجذوماً، وكان قد آمن بالرُّسل لمَّا وردوا القرية، وكان منزلُه عند أقصى باب من أبواب

القرية ، فلمّا بلغه أنّ قومه قد كذّبوا الرُّسل وهمُّوا بقتلهم ، جاء يسعى ، فقال ما قصّه اللهُ علينا إلى قوله : ﴿ وهم مُهْتَدون ﴾ يعني الرُّسل ، فأخذوه ورفعوه إلى المِلك .

فقال له المِلك : أفأنت تتبعهم ؟ فقال : ﴿ وماليَ ﴾ أسكن هذه الياء حمزة ، وخلف ، ويعقوب ﴿ لا أعبُدُ الذي فطَرَني ﴾ أي : وأيُّ شيء لي إذا لم أعبُد خالقي ﴿ وإليه تُرْجَعونَ ﴾ عند البعث ، فيَجزيكم بكُفركم ؟ !

فإن قيل : لِمَ أضاف الفِطرةَ إلى نفسه والبعثَ إليهم وهو يَعلم أنّ الله قد فطَرهم جميعاً كما يَبعثهم جميعاً ؟

(337/645)

---

فالجواب : أن إيجاد الله تعالى نِعمة يوجب الشُّكر ، والبعثُ في القيامة وعيدٌ يوجب الزَّجر ، فكانت إِضافةُ النِّعمة إلى نفسه أظهرَ في الشُّكر ، وإِضافةُ البعث إلى الكافر أبلغ في الزَّجر .

ثم أنكر عبادة الأصنام بقوله : ﴿ أأتَّخِذُ مِنْ دونه آلهة ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لا تُغْنِ عنِّي شفاعتُهم ﴾ يعني أنه لا شفاعة لهم فتُغْني ، ﴿ ولا يُنْقِذون ﴾ أثبت ها هنا الياء في الحالين يعقوب ، وورش .

والمعنى : لا يخلِّصوني من ذلك المكروه.

﴿ إِنِّي إِذاً ﴾ فتح هذه الياء نافع، وأبو عمرو.

قوله تعالى : ﴿ إنِّي آمنتُ بربِّكم ﴾ فتح هذه الياء أهل الحجاز وأبو عمرو.

وفيمن خاطبهم بإيمانه قولان :

أحدهما : أنه خاطب قومه بذلك، قاله ابن مسعود.

والثاني : أنه خاطب الرُّسل.

ومعنى ﴿ فاسمَعونِ ﴾ اشهَدوا لي بذلك، قاله الفراء.

وقال أبو عبيدة : المعنى : فاسمَعوا منِّي.

وأثبت ياء " فاسمَعوني " في الحالين يعقوب.

قال ابن مسعود : لمَّا خاطب قومه بذلك، وطئوه بأرجُلهم.

وقال السدي : رمَوْه بالحجارة، وهو يقول : اللهّم اهْدِ قَومي.

قوله تعالى : ﴿ قيل ادخُلِ الجَنَّة ﴾ لمَّا قتلوه فلقي الله، قيل له : " ادخُل الجَنَّة "، فلمَّا دخلها ﴿ قال ياليت قَوْمِي يَعْلَمونَ بِما غَفَرَ لي ربِّي ﴾، وفي " ما " قولان :

أحدهما : أنها مع " غَفَرَ " في موضع مصدر ؛ والمعنى : بغُفران الله لي.

والثاني : أنها بمعنى " الذي "، فالمعنى : ليتهم يَعلمون بالذي غَفَرَ لي [ به ] ربِّي فيؤمنون، فنصحهم حياً وميتاً.

فلمّا قتلوه عجّل اللهُ لهم العذاب ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وما أَنْزَلْنا على قومه ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 14.3 ﴾

(338/645)

---

وقال الخازن :

قول : ﴿ يس ﴾ قال ابن عباس : هو قسم ، وعنه أن معناه يا إنسان بلغة طيىء يعني محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) وقيل يا سيد البشر وقيل هو اسم للقرآن ﴿ والقرآن الحكيم ﴾ أي ذي الحكمة لأنه دليل ناطق بالحكمة وهو قسم وجوابه ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ أي أقسم بالقرآن أن محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) لمن المرسلين وهو رد على الكفار حيث قالوا لست مرسلاً ﴿ على صراط مستقيم ﴾ معناه وإنك على صرط مستقيم ، وقيل معناه إنك لمن المرسلين الذين هم على طريقة مستقيمة ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ يعني القرآن تنزيل العزيز في ملكه الرحيم بخلقه ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ﴾ يعني لم تنذر آباؤهم لأن قريشاً لم يأتهم نبي قبل محمد ( صلى الله عليه وسلم ) وقيل معناه لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم من العذاب ﴿ فهم غافلون ﴾ أي عما يراد بهم من الإيمان والرشد .

﴿ لقد حق القول ﴾ أي وجب العذاب .

﴿ على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ فيه إشارة إلى إرادة الله تعالى السابقة فيهم فهم لا يؤمنون لما سبق لهم من القدر بذلك .

قوله : ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) يصلي ليرضخن رأسه بالحجارة فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه به فلما رفعه انثنت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده فلما رجع إلى أصحابه وأخبرهم بما رأى سقط الحجر فقال له رجل من بني مخزوم أنا أقتله بهذا الحجر فأتاه وهو يصلي ليرميه بالحجر فأعمى الله تعالى بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقالوا له ما صنعت فقال : ما رأيته ولقد سمعت صوته وحال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه لو دنوت منه لأكلني .



---

فأنزل الله تعالى ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ قيل هذا على وجه التمثيل ، ولم يكن هناك غل ، أراد منعناهم عن الإيمان بموانع فجعل الأغلال مثلاً لذلك وقيل حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله بموانع كالأغلال وقيل إنها موانع حسية منعت كما يمنع الغل وقيل إنها وصف في الحقيقة وهي ما سينزله الله بهم في النار ﴿ فهي ﴾ يعني الأيدي ﴿ إلى الأذقان

﴾ جمع ذقن وهو أسفل اللحيين لأن الغل يجمع اليد إلى العنق ﴿ فهم مقمحون ﴾ يعني رافعو رؤوسهم مع غض البصر وقيل أراد أن الأغلال رفعت رؤوسهم فهم مرفعوا الرؤوس برفع الأغلال لها ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً ﴾ معناه منعناهم عن الإيمان بموانع فهم لا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإيمان كالمضروب أمامه وخلفه بالأسداد وقيل حجبناهم بالظلمة عن أذى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو قوله تعالى: ﴿ فأغشيناهم ﴾ يعني فأعميناهم ﴿ فهم لا يبصرون ﴾ يعني سبيل الهدى ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ يعني من يرد الله إضلاله لم ينفعه الإنذار ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر ﴾ يعني إنما ينفع إنذارك من اتبع القرآن فعمل بما فيه ﴿ وخشي الرحمن بالغيب ﴾ أي خافه في السر والعلن ﴿ فبشره بمغفرة ﴾ يعني لذنوبه ﴿ وأجر كريم ﴾ يعني الجنة.

(340/645)

---

قوله تعالى: ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ﴾ يعني للبعث ﴿ ونكتب ما قدموا ﴾ أي من الأعمال من خير وشر ﴿ وآثارهم ﴾ أي ونكتب ما سنوا من سنة حسنة أو سيئة (م) عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من سنَّ في

الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء " وقيل نكتب خطاهم إلى المسجد عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال " كانت بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ فقال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " إن آثاركم تكتب فلم ينتقلوا " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب ( خ ) عن أنس قال : أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد فكره رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) أن تعرى المدينة فقال : " يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم ؟ " فأقاموا .

قوله تعرى يعني تخلى فتترك عراء وهو الفضاء من الأرض الخالي الذي لا يستره شيء ( م ) .

عن جابر قال خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك النبي ( صلى الله عليه وسلم ) فقال لهم : " بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد " فقالوا نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك فقال : " بني سلمة دياركم تكتب آثاركم " فقالوا ما يسرنا إذا تحولنا .

قوله بني سلمة أي يا بني سلمة وقوله : دياركم أي الزموا دياركم ( ق ) .

عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " أعظم الناس

أجراً في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى ، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجراً من الذي يصلي ثم ينام " .

قوله تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه ﴾ أي حفظناه وعددناه وأثبتناه ﴿ في إمام مبين ﴾ يعني اللوح المحفوظ.

(341/645)

---

قوله : ﴿ واضرب لهم مثلاً ﴾ يعني صف لهم شبهاً مثل حالهم من قصة ﴿ أصحاب القرية ﴾ يعني أنطاكية ﴿ إذ جاءها المرسلون ﴾ يعني رسل عيسى .

( ذكر القصة في ذلك ) قال العلماء بأخبار الأنبياء بعث عيسى عليه السلام رسولين من الحواريين إلى أهل إنطاكية فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب ياسين فسلما عليه فقال الشيخ لهما من أنتما فقالا رسولا عيسى ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن فقال الشيخ لهما أمعكما آية قالا نعم نشفي المريض ونبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله قال الشيخ إن لي ابناً مريضاً منذ سنين قالا : فانطلق بنا نطلع على حاله فأتى بهما إلى منزله فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن الله تعالى صحيحاً ففشا الخبر في المدينة وشفى الله تعالى على أيديهما كثيراً من المرضى وكان لهم ملك يعبد

الأصنام اسمه انطيخس وكان من ملوك الروم فانتهى خبرهما إليه فدعا بهما ، وقال : من أنتما قالا : رسولا عيسى ، قال : وفيم جئتما قالا ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر فقال ولنا إله دون آلهتنا قالا نعم الذي أوجدك وآلهتك قال لهما : قوما حتى أنظر في أمركما فتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما وقال وهب بعث عيسى عليه السلام هذين الرجلين إلى أنطاكية فأتياها فلم يصلا إلى ملكها وطالت مدة مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبرا وذكرا الله تعالى فغضب الملك وأمر بهما فحبسا وجلد كل واحد منهما مائتي جلدة فلما كذبا وضربا بعث عيسى رأس الحواريين شمعون الصفا على أثرهما ليبصرهما فدخل شمعون البلد متنكراً فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه وأنس به وأكرمه ورضي عشرته فقال للملك ذات يوم : بلغني أنك حبست رجلين وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل كلمتهما وسمعت قولهما ، فقال : حال الغضب بيني وبين ذلك .



---

قوله تعالى : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ﴾ قال وهب اسمهما يوحنا وبولس وقال كعب صادق وصدوق ﴿ فعززنا بثالث ﴾ يعني قوينا برسول ثالث وهو شمعون وقيل

شلوم وإنما أضاف الله تعالى الإرسال إليه لأن عيسى إنما بعثهم بإذن الله ﴿ فقالوا ﴾ يعني لم يرسل رسولاً ﴿ إن أنتم إلا تكذبون ﴾ يعني فيما تزعمون ﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ يعني وإن كذبتمونا ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ أي بالآيات الدالة على صدقنا ﴿ قالوا إنا تطيرنا بكم ﴾ أي تشاءمنا منكم وذلك لأن المطر حبس عنهم فقالوا أصابنا ذلك بشؤمكم ﴿ لئن لم تنتهوا ﴾ أي تسكتوا عنا ﴿ لنرجمنكم ﴾ يعني لنقتلنكم وقيل بالحجارة ﴿ وليمسنكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم ﴾ يعني شؤمكم معكم بكفركم وتكذيبكم يعني أصابكم الشؤم من قبلكم وقال ابن عباس حظكم من الخير والشر ﴿ أئن ذكرتم ﴾ معناه اطيرتم لأن ذكرتم ووعظتم ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ أي في ضلالكم وشرككم متمادون في غيكم .

قوله : ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ﴾ هو حبيب النجار وقيل كان قصاراً وقال وهب كان يعمل الحرير وكان سقيماً قد أسرع فيه الجذام وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المسجد وكان مؤمناً ذا صدقة يجمع كسبه فإذا أمسى قسمه نصفين نصف لعياله ويتصدق بنصفه فلما بلغه أن قومه كذبوا الرسل وقصدوا قتلهم جاءهم ﴿ قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ وقيل كان في غار يعبد ربه فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وقال لهم أتسألون على هذا أجراً قالوا لا فأقبل على قومه وقال يا قوم اتبعوا المرسلين .

﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ أي لا تخسرون معهم شيئاً من دنياكم وتربحون صحة دينكم فيحصل لكم خير الدنيا والآخرة فلما قال ذلك قالوا له أو أنت مخالف لديننا ومتابع دين هؤلاء الرسل ومؤمن بإلههم فقال ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ﴾ قيل أضاف الفطرة إلى نفسه والرجوع إليهم لأن الفطرة أثر النعمة وكانت عليه أظهر والرجوع فيه معنى الزجر فكان بهم أليق وقيل معناه وأي شيء بي إذا لم أعبد خالقي وإليه تردون عند البعث فيجزيكم بأعمالكم ﴿ أأتخذ من دونه آلهة ﴾ أي لا أتخذ من دونه آلهة ﴿ إن يردن الرحمن بضر ﴾ أي بسوء ومكروه ﴿ لا تغن عني ﴾ أي لا تدفع عني ﴿ شفاعتهم شيئاً ﴾ أي لا شفاعة لها فتغني عني ﴿ ولا ينقذون ﴾ أي من ذلك المكروه وقيل من العذاب ﴿ إني إذاً لفي ضلال مبين ﴾ أي خطأ ظاهر ﴿ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ أي فاشهدوا لي بذلك قيل هو خطاب للرسل وقيل هو خطاب لقومه فلما قال ذلك وثب القوم عليه وثبة رجل واحد فقتلوه.

قال ابن مسعود ووطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره وقيل كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول اللهم اهد قومي حتى أهلكوه وقبره بأنطاكية فلما لقي الله تعالى: ﴿ قيل ﴾ له ﴿ ادخل الجنة ﴾ فلما أفضى إلى الجنة ورأى نعيمها ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ تمنى أن يعلم قومه أن الله تعالى غفر له وأكرمه ليرغبوا في دين

الرسل فلما قتل غضب الله له فعجّل لهم العقوبة فأمر جبريل فصاح بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير الخازن حـ 6 صـ 7.2﴾

(344/645)

---

وقال ابن جزى:

سورة يس

قد تكلمنا في البقرة على حروف الهجاء وقيل: في يس إنه من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وقيل: معناه يا إنسان.

﴿ تَنزِيلَ ﴾ بالرفع خبر ابتداء مضمر وبالنصب مصدر أو مفعول بفعل مضمر ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً ﴾ هم قريش ويحتمل أن يدخل معهم سائر العرب وسائر الأمم ﴿ مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ ﴾ ما نافية والمعنى: لم يرسل إليهم ولا لآبائهم رسول ينذرهم، وقيل: المعنى: لتنذر قوماً مثل ما أنذر آباؤهم، فما على هذا موصولة بمعنى الذي، أو مصدرية والأول أرجح لقوله ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ يعني أن غفلتهم بسبب عدم إنذارهم، وتكون بمعنى قولهم: ما أتاهم من نذير من قبلك ولا يعارض هذا بعث الأنبياء المتقدمين، فإن هؤلاء القوم لم يدركوهم ولا آبائهم الأقربون ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول ﴾ أي سبق القضاء.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً ﴾ الآية : فيها ثلاثة أقوال : الأول أنها عبارة عن تماديهم على الكفر ، ومنع الله لهم من الإيمان ، فشبههم بمن جعل في عنقه غل يمنعه من الالتفات ، وغطى على بصره فصار لا يرى ، والثاني أنها عبارة عن كفهم عن إذاية النبي صلى الله عليه وسلم حين أراد أبو جهل أن يرميه بحجر ، فرجع عنه فزعاً مرعوباً ، والثالث : أن ذلك حقيقة في حالهم في جهنم ، والأول أظهر وأرجح لقوله قبلها ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقوله بعدها ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ فَهِىَ إِلَى الأذقان ﴾ الذقن هي طرف الوجه حيث تنبت اللحية ، والضمير للأغلال ، وذلك أن الغل حلقة في العنق ، فإذا كان واسعاً عريضاً وصل إلى الدقن فكان أشدّ على المغلول ، وقيل : الضمير للأيدي على أنها لم يتقدم لها ذكر ، ولكنها تفهم من سياق الكلام ، لأن المغلول تضم يداه في الغل إلى عنقه ، وفي مصحف ابن مسعود : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِىَ إِلَى الأذقان ﴾ . وهذه القراءة تدل على هذا المعنى ، وقد أنكره الزمخشري ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ يقال قمح البعير إذا رفع رأسه ، وأقمحه غيره إذا فعل به ذلك ، والمعنى أنهم لما اشتدت

الأغلال حتى وصلت إلى أذقانهم اضطرت رؤوسهم إلى الارتفاع ، وقيل : معنى ﴿ مُّقْمَحُونَ ﴾ ممنوعون من كل خير .



---

﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ﴾ الآية : السّد الحائل بين الشيئين ، وذلك عبارة عن منعم من الإيمان ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ أي غطينا على أبصارهم وذلك أيضاً مجاز يراد به إضلالهم ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية : ذكرنا معناها وإعرابها في [ البقرة : 6 ] ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر ﴾ المعنى أن الإنذار لا ينفع إلا من اتبع الذكر وهو القرآن ﴿ وَخشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ معناه كقولك : إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وقد ذكرناه في [ فاطر : 18 ] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الموتى ﴾ أي نبعثهم يوم القيامة ، وقيل : أحياؤهم إخراجهم من الشرك إلى الإيمان ، والأول أظهر ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَآثَارَهُمْ ﴾ أي ما قدموا من أعمالهم ، وما تركوه بعدهم ، كعلم علموه أو تحبيس حبسوه ، وقيل : الأثر هنا : الخطا إلى المساجد ، وجاء ذلك في الحديث ﴿ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في كتاب وهو اللوح المحفوظ أو صحائف الأعمال .

﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً ﴾ الضمير لقريش ، ومثلاً وأصحاب القرية مفعولان بأضرب على

القول بأنها تتعدى إلى مفعولين ، وهو الصحيح والقرية أنطاكية ﴿ إِذْ جَآءَهَا المرسلون ﴾ هم من الحواريين الذين أرسلهم عيسى عليه الصلاة والسلام ، يدعون الناس إلى عبادة الله ، وقيل : بل هم رسل أرسلهم الله ، ويدل على هذا قول قومهم : ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ، فإن هذا إنما يقال : لمن ادعى أن الله أرسله ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أي قوينا الاثنين برسول ثالث ، قيل : اسمه شمعون ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ أنما أكدوا الخبر هنا باللام لأنه جواب المنكرين ، بخلاف الموضع الأول فإنه إخبار مجرد .

(347/645)

---

﴿ قالوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أي تشاءمنا بكم ، وأصل اللفظة من زجر الطير ليستدل على ما يكون من شر أو خير ، وإنما تشاءموا بهم لأنهم جاؤوهم بدين غير دينهم ، وقيل : وقع فيهم الجذام لما كفروا ، وقيل : قحطوا ﴿ قَالُواْ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ أي قال الرسل لأهل القرية : شؤمكم معكم ؛ أي إنما الشؤم الذي أصابكم بسبب كفركم لا بسببنا ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ دخلت همزة الاستفهام على حرف الشرط وفي الكلام حذف تقديره : أتطيرون أن ذكرتم .

﴿ يسعى ﴾ أي يسرع بجده ونصيحته ، وقيل : اسمه حبيب النجار ﴿ اتبعوا مَن لاَّ

يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ أي هؤلاء المرسلون لا يسألونكم أجرة على الإيمان ، فلا تخسرون معهم شيئاً من دنياكم ، وترجعون معهم الاهتداء في دينكم ﴿ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذي فَطَرَنِي ﴾ المعنى أي شيء يمنعني من عبادة ربي ؟ وهذا توقيف سؤال وإخبار عن نفسه قصد به البيان لقومه ، ولذلك قال : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فخاطبهم ﴿ إِن يُرِدْنِ الرحمن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ ﴾ هذا وصف للآلهة ، والمعنى : كيف أتخذ من دون الله آلهة لا يشفعون ولا ينقذونني من الضر ﴿ إني إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي إن اتخذت آلهة غير الله فإني لفي ضلال مبين ﴿ إني آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فاسمعون ﴾ خطاب لقومه أي : اسمعوا قولي واعملوا بنصيحتي ، وقيل : خطاب للرسل ليشهدوا له .

(348/645)

---

﴿ قِيلَ ادخل الجنة ﴾ قيل : محذوف يدل عليه الكلام ، وروي في الأثر وهو أن الرجل لما نصح قومه قتلوه فلما مات قيل له : ادخل الجنة ، واختلف هل دخلها حيث موته كالشهداء ؟ أو هل ذلك بمعى البشارة بالجنة ورؤيته لمقعده منها ؟ ﴿ قَالَ يا ليت قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ تمنّى أن يعلم قومه بغفران الله له على إيمانه فيؤمنون ، ولذلك

ورد في الحديث أنه نصح لهم حياً وميتاً ، وقيل : أراد أن يعلموا ذلك فيندموا على فعلهم معه وينفعهم ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 162.160 ﴾

(349/645)

---

وقال النسفى :

﴿ يس ﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما معناه يا إنسان في لغة طيء ، وعن ابن الحنفية يا محمد ، وفي الحديث : " إن الله سماني في القرآن بسبعة أسماء : محمد وأحمد وطه ويس والمزمل والمدثر وعبد الله " وقيل يا سيد .

﴿ يَاسِين ﴾ بالإمالة : علي وحمزة وخلف وحماد ويحيى ﴿ والقرءان ﴾ قسم ﴿ الحكيم ﴾ ذي الحكمة أو لأنه دليل ناطق بالحكمة أو لأنه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ جواب القسم وهو رد على الكفار حين قالوا : ﴿ لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾ [ الرعد : 43 ] ﴿ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ خبر بعد خبر أو صلة ل ﴿ المرسلين ﴾ أي الذين أرسلوا على صراط مستقيم أي طريقة مستقيمة وهو الإسلام ﴿ تَنزِيلَ ﴾ بنصب اللام : شامي وكوفي غير أبي بكر على "اقرأ تنزيل" أو على أنه مصدر

أي نزل تنزيل ، وغيرهم بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو تنزيل والمصدر بمعنى المفعول ﴿ العزيز ﴾ الغالب بفصاحة نظم كتابه أوهام ذوي العناد ﴿ الرحيم ﴾ الجاذب بلطافة معنى خطابه أفهام أولي الرشاد .

واللام في ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً ﴾ متصل بمعنى المرسلين أي أرسلت لتنذر قوماً ﴿ مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ "ما" نافية عند الجمهور أي قوماً غير منذر آباؤهم على الوصف بدليل قوله ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتاهم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [ القصص : 46 ] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ [ سبأ : 44 ] .

أو موصولة منصوبة على المفعول الثاني أي العذاب الذي أنذره آباؤهم كقوله ﴿ إِنَّآ أنذرناكم عَذَاباً قَرِيباً ﴾ [ النبأ : 40 ] أو مصدرية أي لتنذر قوماً إنذار آبائهم أي مثل إنذار آبائهم ﴿ فَهُمْ غافلون ﴾ إن جعلت "ما" نافية فهو متعلق بالنفي أي لم ينذروا فهم غافلون وإلا فهو متعلق بقوله : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين لِّتُنذِرَ ﴾ .



---

كما تقول "أرسلتك إلى فلان لتنذره فإنه غافل أو فهو غافل" ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني قوله : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [ السجدة :

13 ] أي تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر .

ثم مثل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤوسهم له ، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم في أن لا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله بقوله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أعناقهم أغلالا فَهِىَ إِلَى الأذقان ﴾ معناه فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ مرفوعة رءوسهم .

يقال : قمح البعير فهو قامح إذا روي فرفع رأسه وهذا لأن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود خارجاً من الحلقة إلى الذقن فلا يخليه يطأطىء رأسه فلا يزال مقمحاً ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وِمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً ﴾ بفتح السين : حمزة وعلي وحفص .

وقيل : ما كان من عمل الناس فبالفتح ، وما كان من خلق الله كالجبل ونحوه فبالضم ﴿ فأغشيناهم ﴾ فأغشينا أبصارهم أي غطيناها وجعلنا عليها غشاوة ﴿ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ الحق والرشاد .

وقيل : نزلت في بني مخزوم وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلي ليرضخن رأسه ، فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه به ، فلما رفع يده انثنت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد فرجع إلى قومه فأخبرهم فقال مخزومي آخر : أنا أقتله بهذا الحجر

فذهب فأعمى الله بصره ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي سواء عليهم الإنذار وتركه ، والمعنى من أضله الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار .



---

ورُوي أن عمر بن عبد العزيز قرأ الآية على غيلان القدري فقال : كأني لم أقرأها أشهدك أني تائب عن قولي في القدر .

فقال عمر : اللهم إن صدق فتب عليه وإن كذب فسلط عليه من لا يرحمه ، فأخذه هشام بن عبد الملك من عنده فقطع يديه ورجليه وصلبه على باب دمشق ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر ﴾ أي إنما ينتفع بإنذارك من اتبع القرآن ﴿ وَخشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ وخاف عقاب الله ولم يره ﴿ فَبَشّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ وهي العفو عن ذنوبه ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أي الجنة . ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الموتى ﴾ نبعثهم بعد مماتهم أو نخرجهم من الشرك إلى الإيمان ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ ﴾ ما أسلفوا من الأعمال الصالحات وغيرها ﴿ وَءَاثَارَهُمْ ﴾ ما هلكوا عنه من أثر حسن كعلم علّموه أو كتاب صنّفوه أو حبيس حبّسوه أو رباط أو مسجد صنعوه أو سيء كوظيفة وظفها بعض الظلمة ، وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها ونحوه قوله تعالى ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذِ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [ القيامة : 13 ] قدم من أعماله وأخر من

آثاره .

وقيل : هي خطاهم إلى الجمعة أو إلى الجماعة ﴿ وَكُلَّ شىْءٍ أحصيناه ﴾ عددناه وبيناه ﴿ فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني اللوح المحفوظ لأنه أصل الكتب ومقتداها .

﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً أصحاب القرية ﴾ ومثل لهم من قولهم "عندي من هذا الضرب كذا" أي من هذا المثال ، وهذه الأشياء على ضرب واحد أي على مثال واحد ، والمعنى واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية أي أنطاكية ، أي اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية ، والمثل الثاني بيان للأول .

*(352/645)*

---

وانتصاب ﴿ إِذْ ﴾ بأنه بدل من ﴿ أصحاب القرية ﴾ ﴿ جَآءَهَا المرسلون ﴾ رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها بعثهم دعاة إلى الحق وكانوا عبدة أوثان ﴿ إِذْ ﴾ بدل من ﴿ إِذْ ﴾ الأولى ﴿ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ﴾ أي أرسل عيسى بأمرنا ﴿ اثنين ﴾ صادقاً وصدوقاً ، فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار فسأل عن حالهما فقالا : نحن رسولا عيسى ، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن فقال : أمعكما آية ؟ فقالا : نشفي المريض ونبرىء الأكمه والأبرص ، وكان له ابن مريض مدة

سنتين فمسحاه فقام ، فآمن حبيب وفشا الخبر فشفي على أيديهما خلق كثير ، فدعاهما الملك وقال لهما : ألنا إله سوى آلهتنا ؟ قالا : نعم من أوجدك وآلهتك .

فقال : حتى أنظر في أمركما فتبعهما الناس وضربوهما .

وقيل : حبسا ثم بعث عيسى شمعون فدخل متنكراً وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به فقال له ذات يوم : بلغني أنك حبست رجلين فهل سمعت قولهما ؟ قال : لا .

فدعاهما فقال شمعون : من أرسلكما ؟ قالا : الله الذي خلق كل شيء ورزق كل حي وليس له شريك .

فقال : صفاه وأوجزا .

قالا : يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

قال : وما آيتكما ؟ قالا : ما يتمنى الملك .

فدعا بغلام أكمه فدعوا الله فأبصر الغلام .

فقال له شمعون : أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف ؟ قال الملك : ليس لي عنك سر إن إلهنا لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع .

ثم قال : إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به ، فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال : إني أدخلت في سبعة أودية من النار لما مت عليه من الشرك وأنا أحذركم ما أنتم فيه

فآمنوا .

وقال : فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة .

قال الملك : ومن هم ؟ قال : شمعون وهذان ، فتعجب الملك .

فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فآمن وآمن قوم ، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل فهلكوا .



---

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ فكذب أصحاب القرية الرسولين ﴿ فَعَزَزْنَا ﴾ فقوينا هما ، ﴿ فَعَزَّزْنَا ﴾ أبو بكر من عزه يعزه إذا غلبه أي فغلبنا وقهرنا ﴿ بِثَالِثٍ ﴾ وهو شمعون وترك ذكر المفعول به لأن المراد ذكر المعزز به وهو شمعون وما لطف فيه من التدبير حتى عز الحق وذل الباطل ، وإذا كان الكلام منصباً إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه كأن ما سواه مرفوض ﴿ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ أي قال الثلاثة لأهل القرية ﴿ قَالُوا ﴾ أي أصحاب القرية ﴿ مَا أَنتُمْ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ رفع ﴿ بشر ﴾ هنا ونصب في قوله ﴿ مَا هذا بَشَرًا ﴾ [ يوسف : 31 ] لانتقاض النفي ب "إلا" فلم يبق لما شبه بليس وهو الموجب لعمله ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرحمن مِن شَىْءٍ ﴾ أي وحياً ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلا تَكْذِبُونَ ﴾ ما

أنتم إلا كذبة .

﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ أكد الثاني باللام دون الأول لأن الأول ابتداء إخبار والثاني جواب عن إنكار فيحتاج إلى زيادة تأكيد .

و﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴾ جارٍ مجرى القسم في التوحيد وكذلك قولهم "شهد الله" و"علم الله" ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ أي التبليغ الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة بصحته ﴿ قَالُواْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ تشاءمنا بكم وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم ، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه وقبلته طباعهم ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم بلاء أو نعمة قالوا بشؤم هذا وبركة ذلك .

(354/645)

---

وقيل : حبس عنهم المطر فقالوا ذلك ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ ﴾ عن مقالتكم هذه ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ لنقتلنكم أو لنطردنكم أو لنشتمنكم ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وليصيبنكم عذاب النار وهو أشد عذاب ﴿ قَالُواْ طائركم ﴾ أي سبب شؤمكم ﴿ مَّعَكُمْ ﴾ وهو الكفر ﴿ أَئِن ﴾ بهمزة الاستفهام وحرف الشرط : كوفي وشامي ﴿ ذُكِّرْتُم ﴾ وعظتم ودعيتم إلى الإسلام ، وجواب الشرط مضمر وتقديره "تطيرتم" ، ﴿ آين ﴾ بهمزة ممدودة

بعدها ياء مكسورة : أبو عمرو ، و ﴿ أَيِن ﴾ بهمزة مقصورة بعدها ياء مسكورة : مكي ونافع .

﴿ ذكرتم ﴾ بالتخفيف : يزيد ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ مجاوزون الحد في العصيان فمن ثم أتاكم الشؤم من قبلكم لا من قبل رسل الله وتذكيرهم ، أو بل أنتم مسرفون في ضلالكم وغيكم حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله .

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَى المدينة رَجُلٌ يسعى ﴾ هو حبيب النجار وكان في غار من الجبل يعبد الله فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وقال : أتسألون على ما جئتم به أجراً ؟ قالوا : لا ﴿ قَالَ يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا مَن لاَّ يَسْئَلُكُمْ أَجْراً ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ أي الرسل : فقالوا : أو أنت على دين هؤلاء ؟ فقال : ﴿ وَمَا لِىَ لاَ أَعْبُدُ الذى فَطَرَنِى ﴾ خلقني ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وإليه مرجعكم ، ﴿ وَمَا لِى ﴾ حمزة .

﴿ ءَأَتَّخِذُ ﴾ بهمزتين : كوفي ﴿ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً ﴾ يعني الأصنام ﴿ إِن يُرِدْنِ الرحمن بِضُرٍّ ﴾ شرط جوابه ﴿ لاَّ تُغْنِ عَنِّى شفاعتهم شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ ﴾ من مكروه ، ﴿ ولا ينقذوني ﴾ ﴿ فاسمعوني ﴾ في الحالين : يعقوب ﴿ إِنِّى إِذاً ﴾ أي إذا اتخذت ﴿ لَفِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ ظاهر بين .

ولما نصح قومه أخذوا يرجمونه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل فقال لهم ﴿ إِنِّى ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فاسمعون ﴾ أي اسمعوا إيماني لتشهدوا لي به .

(355/645)

---

ولما قتل ﴿ قِيلَ ﴾ له ﴿ ادخل الجنة ﴾ وقبره في سوق أنطاكية .

ولم يقل "قيل له" لأن الكلام سيق لبيان المقول لا لبيان المقول له مع كونه معلوماً ، وفيه دلالة أن الجنة مخلوقة .

وقال الحسن : لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إليه وهو في الجنة ولا يموت إلا بفناء السماوات والأرض ، فلما دخل الجنة ورأى نعيمها ﴿ قَالَ ياليت قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى ﴾ أي بمغفرة ربي لي أو بالذي غفر لي ﴿ وَجَعَلَنِى مِنَ المكرمين ﴾ بالجنة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 2.6 ﴾

(356/645)

---

وقال البيضاوى :

سورة يس مكية وعنه عليه الصلاة والسلام "يس تدعى المعمة تعم

صاحبها خير الدارين

والدافعة والقاضية تدفع عنه كل سوء وتقضي له كل

حاجة " وآيها ثلاث وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ يس ﴾ في المعنى والإعراب ، وقيل معناه يا إنسان بلغة طيء ، على أن أصله يا أنيسين

فاقتصر على شطره لكثرة النداء به كما قيل ( من الله ) في أيمن . وقريء بالكسر كجير

وبالفتح على البناء كأين ، أو الإعراب على اتل يس أو بإضمار حرف القسم والفتحة لمنع

الصرف وبالضم بناء كحيث ، أو إعراباً على هذه ﴿ يس ﴾ وأمال الياء حمزة

والكسائي وروح وأبو بكر وأدغم النون في واو .

﴿ والقرءان الحكيم ﴾ ابن عامر والكسائي وأبو بكر وورش ويعقوب ، وهي واو القسم

أو العطف إن جعل ﴿ يس ﴾ مقسماً به .

﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ لمن الذين أرسلوا .

﴿ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو التوحيد والإستقامة في الأمور ، ويجوز أن يكون ﴿

على صراط ﴾ خبراً ثانياً أو حالاً من المستكن في الجار والمجرور ، وفائدته وصف الشرع

صريحاً بالاستقامة وإن دل عليه ﴿ لَمِنَ المرسلين ﴾ التزاماً .

﴿ تَنزِيلَ العزيز الرحيم ﴾ خبر محذوف والمصدر بمعنى المفعول . وقرأ ابن عامر وحمزة

والكسائي وحفص بالنصب بإضمار أعني أو فعله على أنه على أصله ، وقريء بالجر على

البدل من القرآن .

﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً ﴾ متعلق ب ﴿ تنزِيلَ ﴾ أو بمعنى ﴿ لَمِنَ المرسلين ﴾ . ﴿ مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ ﴾ قوماً غير منذر آباؤهم يعني آباءَهم الأقربين لتطاول مدة الفترة ، فيكون صفة مبينة لشدة حاجتهم إلى إرساله ، أو الذي أنذر به أو شيئاً أنذر به آباؤهم الأبعدون ، فيكون مفعولاً ثانياً ﴿ لِّتُنذِرَ ﴾ ، أو إنذار آبائهم على المصدر . ﴿ فَهُمْ غافلون ﴾ متعلق بالنفي على الأول أي لم ينذروا فبقوا غافلين ، أو بقوله ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ على الوجوه الأخرى أي أرسلناك إليهم لتنذرهم فإنهم غافلون .

(357/645)

---

﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ ﴾ يعني قوله تعالى : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم ممن علم الله أنهم لا يؤمنون .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أعناقهم أغلالا ﴾ تقرير لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا تغني عنهم الآيات والنذر ، بتمثيلهم بالذين غلت أعناقهم . ﴿ فَهِىَ إِلَى الأذقان ﴾ فالأغلال واصلة إلى أذقانهم فلا تخليهم يطأطئون رؤوسهم له . ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم في أنهم لا يلتفتون لفت الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه

ولا يطأطئون رؤوسهم له .

﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ وبمن أحاط بهم سدان فغطى أبصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم ووراءهم في أنهم محبوسون في مطمورة الجهالة ممنوعون عن النظر في الآيات والدلائل . وقرأ حمزة والكسائي وحفص "سَدّا" بالفتح وهو لغة فيه ، وقيل ما كان بفعل الناس فبالفتح وما كان بخلق الله فبالضم . وقرئ "فأعشيناهم" من العشاء . وقيل الآيتان في بني مخزوم حلف أبو جهل أن يرضخ رأس النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه ، فلما رفع يده انثنت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد ، فرجع إلى قومه فأخبرهم ، فقال مخزومي آخر : أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى الله بصره .

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَءَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ سبق في سورة "البقرة" تفسيره .

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ إنذاراً يترتب عليه البغية المرومة . ﴿ مَنِ اتبع الذكر ﴾ أي القرآن بالتأمل فيه والعمل به . ﴿ وَخشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ وخاف عقابه قبل حلوله ومعاينة أهواله ، أو في سريرته ولا يغتر برحمته فإنه كما هو رحمن ، منتقم قهار . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الموتى ﴾ الأموات بالبعث أو الجهال بالهداية. ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ ﴾ ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة. ﴿ وَءَاثَارَهُمْ ﴾ الحسنة كعلم علموه وحبيس وقفوه، والسيئة كإشاعة باطل وتأسيس ظلم. ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أحصيناه فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني اللوح المحفوظ.

﴿ واضرب لَهُم ﴾ ومثل لهم من قولهم هذه الأشياء على ضرب واحد أي مثال واحد، وهو يتعدى إلى مفعولين لتضمنه معنى الجعل وهما: ﴿ مَّثَلاً أصحاب القرية ﴾ على حذف مضاف أي اجعل لهم مثل أصحاب القرية مثلاً، ويجوز أن يقتصر على واحد ويجعل المقدر بدلاً من الملفوظ أو بياناً له، والقرية انطاكية. ﴿ إِذْ جَاءَهَا المرسلون ﴾ بدل من أصحاب القرية، و﴿ المرسلون ﴾ رسل عيسى عليه الصلاة والسلام إلى أهلها وإضافته إلى نفسه في قوله:

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثنين ﴾ لأنه فعل رسوله وخليفته وهما يحيى ويونس، وقيل غيرهما. ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا ﴾ فقوينا، وقرأ أبو بكر مخففاً من عزه إذا غلبه وحذف المفعول لدلالة ما قبله عليه ولأن المقصود ذكر المعزز به. ﴿ بِثَالِثٍ ﴾ وهو شمعون. ﴿ فَقَالُواْ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ وذلك أنهم كانوا عبدة أصنام فأرسل إليهم عيسى عليه السلام اثنين، فلما قربا من المدينة رأيا حبيباً النجار يرعى غنماً فسألهما فأخبراه فقال: أمعكما آية

فقالا : نشفي المريض ونبرىء الأكمه والأبرص ، وكان له ولد مريض فمسحاه فبرأ فآمن حبيب وفشا الخبر ، فشفي على أيديهما خلق كثير وبلغ حديثهما إلى الملك وقال لهما : ألنا إله سوى آلهتنا ؟



---

قالا : نعم من أوجدك وآلهتك ، قال حتى أنظر في أمركما فحبسهما ، ثم بعث عيسى شمعون فدخل متنكراً وعاشر أصحاب الملك حتى استأنسوا به وأوصلوه إلى الملك فأنس به ، فقال له يوماً : سمعت أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه ، قال فدعاهما فقال شمعون من أرسلكما قالا : الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك ، فقال صفاه وأوجزا ، قالا : يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، قال وما آيتكما ، قالا : ما يتمنى الملك ، فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله حتى انشق له بصره ، وأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين ينظر بهما ، فقال شمعون أرأيت لو سألت آلهتك حتى تصنع مثل هذا حتى يكون لك ولها الشرف ، قال ليس لي عنك سر آلهتنا لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ، ثم قال إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به ، فأتوا بغلام مات منذ سبعة أيام فدعوا الله فقام وقال : إني أدخلت في سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا ، وقال

فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسناً يشفع لهؤلاء الثلاثة فقال الملك من هم قال شمعون وهذان فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فآمن في جمع ، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه الصلاة والسلام فهلكوا .

﴿ قَالُواْ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ لا مزية لكم علينا تقتضي اختصاصكم بما تدعون ، ورفع بشر لانتقاض النفي المقتضي إعمال ما بإلا . ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرحمن مِن شَىْءٍ ﴾ وحي ورسالة. ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ في دعوى الرسالة .

﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ استشهدوا بعلم الله وهو يجري مجرى القسم ، وزادوا اللام المؤكدة لأنه جواب عن إنكارهم .

﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا البلاغ المبين ﴾ الظاهر البين بالآيات الشاهدة لصحته ، وهو المحسن للاستشهاد فإنه لا يحسن إلا ببينة .

*(360/645)*

---

﴿ قَالُواْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ تشاءمنا بكم ، وذلك لاستغرابهم ما ادعوه واستقباحهم له وتنفرهم عنه . ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ ﴾ عن مقالتكم هذه . ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ قَالُواْ طائركم مَّعَكُمْ ﴾ سبب شؤمكم معكم وهو سوء عقيدتكم وأعمالكم ، وقرىء "طيركم معكم" . ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ وعظتم ، وجواب الشرط محذوف مثل تطيرتم أو توعدتم بالرجم والتعذيب ، وقد قرىء بألف بين الهمزتين وبفتح أن بمعنى أتطيرتم لأن ذكرتم وأن بغير الاستفهام و"أين ذكرتم" بمعنى طائركم معكم حيث جرى ذكركم وهو أبلغ . ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ قوم عادتكم الإسراف في العصيان فمن ثم جاءكم الشؤم ، أو في الضلال ولذلك توعدتم وتشاءمتم بمن يجب أن يكرم ويتبرك به .

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا المدينة رَجُلٌ يسعى ﴾ هو حبيب النجار وكان ينحت أصنامهم وهو ممن آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام وبينهما ستمائة سنة ، وقيل كان في غار يعبد الله فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه . ﴿ قَالَ يا قَوْمِ اتبعوا المرسلين ﴾ .

﴿ اتبعوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴾ على النصح وتبليغ الرسالة . ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ إلى خير الدارين .

﴿ وَمَا لِىَ لاَ أَعْبُدُ الذى فَطَرَنِى ﴾ على قراءة غير حمزة فإنه يسكن الياء في الوصل ، تلطف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح ، حيث أراد لهم ما أراد لها والمراد تقريعهم على تركهم عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ولذلك قال : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ مبالغة في التهديد ثم عاد إلى المساق الأول فقال :

﴿ أَءَتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرحمن بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شفاعتهم شَيْئًا ﴾ لا تنفعني شفاعتهم. ﴿ وَلَا يُنقِذُونَ ﴾ بالنصرة والمظاهرة.

(361/645)

---

﴿ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ فإن إيثار ما لا ينفع ولا يدفع ضراً بوجه ما على الخالق المقتدر على النفع والضر وإشراكه به ضلال بين لا يخفى على عاقل، وقرأ نافع ويعقوب وأبو عمرو بفتح الياء.

﴿ إِنِّي ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الذي خلقكم، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء. ﴿ فاسمعون ﴾ فاسمعوا إيماني، وقيل الخطاب للرسل فإنه لما نصح قومه أخذوا يرجمونه فأسرع نحوهم قبل أن يقتلوه.

﴿ قِيلَ ادخل الجنة ﴾ قيل له ذلك لما قتلوه بشرى له بأنه من أهل الجنة، أو إكراماً وإذناً في دخولها كسائر الشهداء، أو لما هموا بقتله رفعه الله إلى الجنة على ما قاله الحسن وإنما لم يقل له لأن الغرض بيان المقول دون المقول له فإنه معلوم، والكلام استئناف في حيز الجواب عن السؤال عن حاله عند لقاء ربه بعد تصلبه في نصر دينه وكذلك: ﴿ قَالَ يَالَيتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ فإنه جواب عن السؤال عن قوله عند ذلك القول، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم على اكتساب مثلها بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والطاعة على دأب الأولياء في كظم الغيظ والترحم على الأعداء، أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على حق، وقرىء ﴿ المكرمين ﴾ و"ما" خبرية أو مصدرية والباء صلة ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ أو استفهامية جاء على الأصل، والباء صلة غفر أي بأي شيء ﴿ غَفَرَ ﴾ لي، يريد به المهاجرة عن دينهم والمصابرة على أذيتهم. انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 425. 431 ﴾

*(362/645)*

---

وقال الخطيب الشربينى :

سورة يس

مكية وهي ثلاث وثمانون آية، وسبعمائة وتسعة وعشرون كلمة، وثلاثة آلاف حرف وتسمى أيضاً : القلب والدافعة والقاضية والمعممة تعم صاحبها بخير الدارين، وتدفع عنه كل سوء وتقضي له كل حاجة، والبيضاوي ذكر هذه التسمية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال شيخنا القاضي زكريا : لم أره ولكن المثبت مقدم على النافي.

﴿ بسم الله ﴾ أي : الذي جل ملكه على أن يحاط بمقدراه ﴿ الرحمن ﴾ الذي جعل إنذار يوم الجمع رحمة عامة ﴿ الرحيم ﴾ الذي أنار قلوب أوليائه بالاجتهاد ليوم لقائه وقوله تعالى:

﴿ يس ﴾ كـ[ألم] في المعنى والإعراب

وقال ابن عباس : يس قسم ، وروي عن شعبة أن معناه يا إنسان بلغة طيء على أن أصله يا أنيسين فاقتصر على شطره لكثرة النداء به كما قيل : م الله في أيمن الله ، وقال أكثر المفسرين : يعني محمداً صلى الله عليه وسلم قاله الحسن وسعيد بن جبير وجماعة وقال أبو العالية : يا رجل وقال أبو بكر الوراق : يا سيد البشر .



---

قال ابن عادل في ذكر هذه الحروف أوائل السور : أمور تدل على أنها غير خالية من الحكمة ، لكن علم الإنسان لا يصل إليها والذي يدل على أنها فيها حكمة هو أن الله عز وجل ذكر من الحروف نصفها وهي أربعة عشر حرفاً نصف ثمانية وعشرين حرفاً هي جميع الحروف التي في لسان العرب على قولنا : الهمزة ألف متحركة ، ثم إن الله تعالى قسم الحروف ثلاثة أقسام تسعة أحرف من الألف إلى الذال ، والتسعة الأخيرة من الفاء إلى الياء وعشرة في

الوسط من الراء إلى الغين ، وذكر من القسم الأول حرفين الألف والحاء ، وترك سبعة وترك من القسم الأخير حرفين هما الألف واللام ، وذكر سبعة ولم يترك من القسم الأول من حروف الحلق والصدر إلا واحداً لم يذكره وهو الخاء ، ولم يذكر من القسم الأخير من حروف الشفة إلا واحداً لم يتركه وهو الميم والعشر الأوسط ذكر منه حرفاً وترك حرفاً فترك الزاي وذكر الراء ، وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء وذكر العين وترك الغين ، وليس لها أمر يقع اتفاقاً بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة لكنها غير معلومة .

وهب أن واحداً يدعى فيه شيئاً فماذا يقول في كون بعض السور مفتتحة بحرف كسورة ن وق وص ، وبعضها بحرفين كسورة حم ويس وطس وطه ، وبعضها بثلاثة أحرف كألم وطسم والر ، وبعضها بأربعة أحرف كسورة المر والمص ، وبعضها بخمسة أحرف كسورة حم عسق وكهعيص .

وهب أن قائلاً يقول : إن هذه إشارة بأن الكلام إما حرف وإما فعل وإما اسم ، والحرف كثيراً ما جاء على حرف كواو العطف وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف التشبيه وباء الإلصاق وغيرها ، وجاء على حرفين كمن للتبعيض وأو للتخيير وأم للاستفهام المتوسط وإن للشرط وغيرها ، والفعل والاسم والحرف جاءت ثلاثة أحرف كإلى وعلى في الحرف وإلى وعلى في الاسم وألا يألوا بالواو ، وعلا يعلو في الفعل والاسم ، والفعل جاء على أربعة

أحرف ، والاسم خاصة جاء على ثلاثة أحرف وأربعة وخمسة كعجل ومسجد وجردحل .



---

فما جاء في القرآن إشارة إلى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه فماذا يقول هذا القائل في تخصيص بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم ما السر إلا الله تعالى ، ومن أعلمه الله تعالى به .

وإذا علم هذا فالعبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جارحية ، وكل واحد منها قسمان : قسم عقل معناه وحقيقته ، وقسم لم يعلم ، أما القلبية مع أنها أبعد عن الشك والجهل فمنها ما لم يعلم دليله عقلاً ، وإنما وجب الإيمان به والاعتقاد سمعاً كالصراط الذي هو أدق من الشعر وأحد من السيف ويمر عليه المؤمن كالبرق الخاطف ، والميزان الذي توزن به الأعمال التي لا ثقل لها في نظر الناظر ، وكيفية الجنة والنار ، فإن هذه الأشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلي ، وإنما المعلوم بالعقل إمكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع ، ومنها ما علم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله تعالى وصدق الرسل ، وكذلك في العبادات الجارحية ما علم معناه وما لم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات .

والحكمة في ذلك أن العبد إذا أتى بما أمر به من غير أن يعلم ما فيه من الفائدة فلا يكون الإتيان إلا لمحض الفائدة بخلاف ما لم تعلم الفائدة ، فربما تأتي الفائدة وإن لم يؤمر كما لو قال السيد لعبده : انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما في النقل فنقلها ، ولو قال : انقلها فإن تحتها كنزاً هو لك فإنه ينقلها وإن لم يؤمر .

وإذا علم هذا فكذلك في العبادات اللسانية الذكرية يجب أن يكون ما لم يفهم معناه إذا تكلم به العبد علم أنه لا يعقل غير الانقياد لأمر المعبود الإلهي فإذا قال : حم طس يس علم أنه لا يذكر ذلك لمعنى يفهمه بل يتلفظ به امتثالاً لما أمر به ، انتهى كلام ابن عادل بحروفه وهو كلام دقيق ، وقرأ يس بإمالة الياء شعبة وحمزة والكسائي ، والباقون بالفتح ، وأظهر النون من يس عند واو .



---

﴿ والقرآن ﴾ قالون وابن كثير وأبو عمرو وحفص وحمزة ، وأدغم الباقون ، وهي واو القسم أو العطف إن جعل يس مقسماً به ، ثم وصف القرآن بقوله تعالى : ﴿ الحكيم ﴾ أي : المحكم بعظيم النظم وبديع المعاني ، وقوله تعالى:

﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ أي : الذين حكمت عقولهم على دواعي نفوسهم فصاروا بما

وهبهم الله من القوة النورانية وبما تخلقوا به من أوامره ونواهيه كالملائكة الذين تقدم ذكرهم في السورة الماضية إنهم رسله جواب القسم وهو رد على الكفار حيث قالوا : لست مرسلاً ، فإن قيل : المطلب يثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة بالإقسام ؟

أجيب : بأوجه : أولها : أن العرب كانوا يتقون الأيمان الفاجرة ، وكانوا يقولون إن الأيمان الفاجرة توجب خراب العالم ، وصحح النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : "اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع" ثم إنهم كانوا يقولون : إن النبي صلى الله عليه وسلم يصيبه من آلهتهم وهي الكواكب عذاب ، والنبي صلى الله عليه وسلم يحلف بأمر الله وإنزال كلامه عليه بأشياء مختلفة ، وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأناً وأمنع مكاناً فكان ذلك يوجب اعتقاد أنه ليس بكاذب .

ثانيها : أن المناظرين إذا وقع بينهما كلام وغلب أحدهما الآخر بتمشية دليله وأسكته يقول المغلوب : إنك قررت هذا بقوة جدالك وأنت خبير في نفسك بضعف مقالتك ، وتعلم أن الأمر ليس كما تقول وإن أقمت عليه الدليل صورة وعجزت أنا على القدح فيه ، وهذا كثير الوقوع بين المتناظرين فعند هذا لا يجوز أن يأتي هو بدليل آخر ؛ لأن الساكت المنقطع يقول في الدليل الآخر ما قاله في الأول فلا يجد أمراً إلا اليمين ، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم أقام البراهين وقالت الكفرة ﴿ ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد أباؤكم ﴾ (سبأ : )

﴿ وقالوا ما هذا إلا أفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ (سبأ : )

فالتمسك بالأيمان لعدم فائدة الدليل .



---

ثالثها : أن هذا ليس بمجرد الحلف بل دليل خرج في صورة اليمين ؛ لأن القرآن معجزة ، ودليل كونه مرسلاً هو المعجزة والقرآن كذلك ، فإن قيل : لِمَ لم يذكر في صورة الدليل وما الحكمة في ذكر الدليل في صورة اليمين ؟

أجيب : بأن الدليل إذا ذكر في صورة اليمين ، واليمين لا يقع ولاسيما من العظيم الأعلى أمر عظيم والأمر العظيم تتوفر الدواعي على الإصغاء إليه فلصورة اليمين يقبل عليه السامع لكونه دليلاً شافياً يسر به الفؤاد فيقع في السمع وفي القلب وقوله تعالى:

﴿ على صراط ﴾ أي : طريق واسع واضح ﴿ مستقيم ﴾ أي : هو التوحيد والاستقامة في الأمر ، يجوز أن يكون متعلقاً بالمرسلين تقول : أرسلت عليه كذا قال تعالى ﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴾ (الفيل : )

وأن يكون متعلقاً بمحذوف على أنه حال من الضمير المستكن في ﴿ لمن المرسلين ﴾

لوقوعه خبراً ، وأن يكون حالاً من المرسلين ، وأن يكون خبراً ثانيا لإنك . H

وقرأ قنبل "سراط" بالسين عوضاً عن الصاد ، وخلف بالإشمام وهو بين الصاد والزاي ، والباقون بالصاد الخالصة .

ولما كان كأنه قيل : ما هذا الذي أرسل به ؟ كان كأنه قيل جواباً : هو القرآن الذي وقع الإقسام به وهو:

﴿ تنزيل ﴾ أو حال كونه تنزيل ﴿ العزيز ﴾ أي : المتصف بجميع صفات الجلال

﴿ الرحيم ﴾ أي : الحاوي لجميع صفات الإكرام الذي ينعم على من يشاء من عباده بعد الإنعام بإيجادهم فهو الواحد المنفرد في ملكه ، وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي تنزيل بالنصب على الحال كما مر ، أو بإضمار أعني ، والباقون بالرفع على أنه خبر مبتدأ مضمر كما مر .

ولما ذكر تعالى المرسل وهو الله تعالى ، والمرسل وهو النبي صلى الله عليه وسلم والمرسل به وهو القرآن ذكر المرسل لهم بقوله تعالى:

﴿ لتنذر قوماً ﴾ أي : ذوي بأس وقوة وذكاء وفطنة ﴿ ما أنذر ﴾ أي : لم تنذر أصلاً

﴿ آباؤهم ﴾ أي : لم ينذروا في زمن الفترة ﴿ فهم ﴾ أي : بسبب زمان الفترة

﴿ غافلون ﴾ أي : عن الإيمان والرشد وقوله تعالى:

﴿ لقد حق القول على أكثرهم ﴾ فيه وجوه : أشهرها : أن المراد بالقول هو قوله تعالى :

﴿ لقد حق القول مني لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ ثانيها : أن معناه لقد سبق في علمه تعالى أن هذا يؤمن وهذا لا يؤمن فحق القول أي : وجب وثبت بحيث لا يبدل بغيره كما قال تعالى ﴿ ما يبدل القول لدى ﴾ (ق : )

ثالثها : المراد لقد حق القول الذي قاله الله تعالى على لسان الرسل من التوحيد وغيره

﴿ فهم ﴾ أي : بسبب ذلك ﴿ لا يؤمنون ﴾ أي : بما يلقى إليهم من الإنذار بل يزيدهم عمى استكباراً في الأرض ومكر السيء .

ونزل في أبي جهل وصاحبه:

﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ أي : بأن تضم إليها الأيدي ؛ لأن الغل يجمع اليد إلى العنق ، وذلك أن أبا جهل كان قد حلف لئن رأى محمداً صلى الله عليه وسلم يصلي ليرضخن رأسه ، فأتاه وهو يصلى ومعه حجر ليدمغه به فلما رفعه أثبتت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده إلى عنقه ، فلما رجع إلى أصحابه وأخبرهم بما رأى سقط الحجر فقال رجل من بني مخزوم : أنا أقتله بهذا الحجر فأتاه وهو يصلي ليرميه بالحجر فأعمى الله تعالى بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه ، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقالوا له : ما صنعت ؟ فقال : ما رأيته ولقد سمعت كلاماً وحال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه ولو دنوت منه لأكلني

، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ووجه المناسبة لما تقدم أنه لما قال تعالى ﴿ لقد حق القول على أكثرهم ﴾ وتقدم أن المراد به البرهان وقال بعد ذلك : بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ، ومنع من إرسال الحجر وهو مضطر إلى الإيمان ولم يؤمن علم أنه لا يؤمن أصلاً ، وقال أهل المعاني : هذا على طريق المثل ولم يكن هناك غل ، أراد منعناهم عن الإيمان بموانع ، فجعل الأغلال مثلاً لذلك فهو تقرير لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا تغني عنهم الآيات والنذر بتمثيلهم بالذين غلت أيديهم .



---

وقال الفراء : معناه حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله كقوله تعالى ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ (الإسراء : )

معناه : ولا تمسكها عن النفقة ، ومناسبة هذا لما تقدم أن قوله تعالى ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ يدخل فيه أنهم لا يصلون لقوله تعالى ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ (البقرة : )

أي : صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة فكأنه قال : لا يصلون ولا يزكون ، واختلف في عود الضمير في قوله تعالى ﴿ فهي إلى الأذقان ﴾ على وجهين : أشهرهما :

أنه عائد على الأغلال ؛ لأنها هي المحدث عنها ، ومعنى هذا الترتيب بالفاء أن الغل لغلظه وعرضه يصل إلى الذقن ؛ لأنه يلبس العنق جميعه ، قال الزمخشري : والمعنى أنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ثقالاً بحيث تبلغ إلى الأذقان فلم يتمكن المغلول معها من أن يطأطئ رأسه .

ثانيهما : أن الضمير يعود إلى الأيدي ، وإليه ذهب الطبري وعليه جرى الجلال المحلي ؛ لأن الغل لا يكون إلا في العنق واليدين ، ودل على الأيدي وإن لم تذكر الملازمة المفهومة من هذه الآلة أعني الغل . وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء ، والباقون بكسرها والأذقان جمع ذقن وهو مجمع اللحيين ﴿ فهم مقمحون ﴾ أي : رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم في أنهم لا يلتفتون لفتة إلى الحق ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤوسهم له ، والإقماح رفع الرأس إلى فوق كالإقناع وهو من قمح البعير رأسه إذا رفعها بعد الشرب إما لبرودة الماء ، وإما لكراهة طعمه .

ولما كان الرافع رأسه غير ممنوع من النظر أمامه قال تعالى:

﴿ وجعلنا ﴾ أي : بعظمتنا ﴿ من بين أيديهم ﴾ أي : الوجه الذي يمكنهم عمله ﴿ سداً ﴾ فلا يسلكون طريق الاهتداء .

ولما كان الإنسان إذا انسدت عليه جهة مال إلى أخرى قال تعالى ﴿ ومن خلفهم ﴾ أي : الوجه الذي هو خفي عنهم ﴿ سداً ﴾ فلا يرجعون إلى الهداية فصارت كل جهة يلتفتون إليها منسدة فصاروا لذلك لا يمكنهم النظر إلى الحق ، ولا الخلوص إليه ، فلذلك قال تعالى ﴿ فأغشيناهم ﴾ أي : جعلنا على أبصارهم بما لنا من العظمة غشاوة ﴿ فهم ﴾ أي : بسبب ذلك ﴿ لا يبصرون ﴾ أي : لا يتجدد لهم هذا الوصف من إبصار الحق وما ينفعهم بصر ظاهر ولا بصيرة باطنة ، وأيضاً الإنسان مبدؤه من الله تعالى ومصيره إليه فعمى الكافرين بأن لا يبصروا ما بين أيديهم من المصير إلى الله تعالى ، وما خلفهم من الدخول في الوجود بخلق الله تعالى كمن أحاط بهم سد فغطى أبصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم ووراءهم في أنهم محبوسون في مطمورة الجهالة ممنوعون عن النظر في الآيات والدلائل ، وأيضاً فإن السالك إذا لم يكن له بد من سلوك طريق فإن انسد الطريق الذي قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع ، فإذا انسد الطريق من خلفه ومن قدامه والموضع الذي هو فيه لا يكون موضع إقامته هلك .

فإن قيل : ذكر السد من بين الأيدي ومن الخلف ولم يذكره من اليمين والشمال فما الحكمة في ذلك ؟

أجيب : بأنهم إذا قصدوا السلوك إلى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين إلى شيء وموليين عن شيء فصار ما إليه توجههم ما بين أيديهم ، فيجعل الله تعالى السد هناك

فيمنعه من السلوك فكيفما توجه الكافر يجعل الله تعالى بين يديه سداً ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص سداً بفتح السين في الموضعين وهو لغة فيه ، والباقون بالضم .

ولما منعوا بذلك حس البصر أخبر عن حس السمع بقوله تعالى:



---

﴿ وسواء عليهم ﴾ أي : مستو ومعتدل غاية الاعتدال ﴿ أأنذرتهم ﴾ أي : بما أخبرناك به من الزواجر المانعة للكفر ﴿ أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ؛ لأنهم ممن علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون ، وقد سبق أيضاً في البقرة تفسيره والكلام على الهمزتين ، ثم بين الله تعالى الأقل الناجي ؛ لأنه المقصود بالذات بقوله تعالى:

﴿ إنما تنذر ﴾ أي : إنذاراً ينفع المنذر فتتأثر عنه النجاة ﴿ من اتبع الذكر ﴾ أي : القرآن بالتأمل فيه والعمل به ﴿ وخشي الرحمن ﴾ أي : خاف عقابه ﴿ بالغيب ﴾ أي : قبل موته ومعاينة أهواله أو في سريرته ولا يغتر برحمته فإنه تعالى كما هو رحمن رحيم منتقم جبار ﴿ فبشره ﴾ أي : بسبب خشيته بالغيب ﴿ بمغفرة ﴾ أي : لذنوبه وإن عظمت وتكررت .

ولما حصل العلم بمحو الذنوب عينها وأثرها قال تعالى ﴿ وأجر كريم ﴾ أي : هو الجنة فإنها

دار لا كدر فيها بوجه، والمقصود منها هو النظر لوجهه الكريم، اللهم متعنا ومحبينا بالنظر إلى وجهك الكريم.

ولما ذكر تعالى خشية الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكده وهو إحياء الموتى بقوله تعالى:

﴿ إنا نحن ﴾ أي: بما لنا من العظمة التي لا تضاهى ﴿ نحيي الموتى ﴾ أي: كلهم حسّاً بالبعث، ومعنى بالإنقاذ إذا أردنا من ظلمة الجهل ﴿ ونكتب ﴾ أي: جملة عند نفخ الروح وشيئاً فشيئاً بعده فلا يتعدى التفصيل شيئاً في ذلك الإجمال ﴿ ما قدموا ﴾ أي: وأخروا من جميع أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم من صالح وغيره فاكتفى بأحدهما لدلالة الآخر عليه كقوله تعالى ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ (النحل: )

أي: والبرد.

وقيل المعنى: ما أسلفوا من الأعمال صالحة كانت أو فاسدة كقوله تعالى ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ (الجمعة: )

أي: بما قدموا في الوجود وأوجدوه، وقيل: نكتب نياتهم فإنها قبل الأعمال وقوله تعالى ﴿ وآثارهم ﴾ فيه وجوه: أحدها: وهو مبني على التفسير الأخير، وهو كتب النيات المراد بالآثار: الأعمال.

ثانيها : ما سنوا من سنة حسنة وسيئة ، فالحسنة كالكتب المصنفة والقناطر المبنية ، والسيئة كالظلامات المستمرة التي وضعتها الظلمة والكتب المضلة قال صلى الله عليه وسلم "من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها من بعده كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً" .

ثالثها : خطاهم إلى المساجد لما روى أبو سعيد الخدري قال : شكت بنو سلمة بعد منازلهم عن المسجد فأنزل الله تعالى ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ فقال صلى الله عليه وسلم "إن الله يكتب خطواتكم ومشيكم ويثيبكم عليها" وقال صلى الله عليه وسلم "أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم مشياً والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجراً من الذي يصلي ثم ينام" ، فإن قيل : الكتابة قبل الإحياء فكيف أخر في الذكر حيث قال تعالى ﴿ نحيي الموتى ونكتب ﴾ ولم يقل نكتب ما قدموا ونحييهم ؟

أجيب : بأن الكتابة معظمة لأمر الإحياء ؛ لأن الإحياء إن لم يكن للحساب لا يعظم ، والكتابة في نفسها إن لم يكن هناك إحياء ولا إعادة لا يبقى لها أثر أصلاً ، والإحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لأمره فلهذا قدم الإحياء ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ إنا نحن ﴾

وذلك يفيد العظمة والجبروت ، والإحياء العظيم يختص بالله تعالى والكتابة دونه تقرير التعريف الأمر العظيم وذلك مما يعظم ذلك الأمر العظيم .

(372/645)

---

ولما كان ذلك الأمر ربما أوهم الاقتصاد على ما ذكر من أحوال الآدميين دفع ذلك بقوله تعالى : ﴿ وكل شيء ﴾ من أمور الدنيا والآخرة ﴿ أحصيناه ﴾ أي : قبل إيجاده بعلمنا القديم إحصاء وحفظاً وكتبناه ﴿ في إمام ﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿ مبين ﴾ أي : لا يخفى فيه شيء من جميع الأحوال والأقوال فهو تعميم بعد تخصيص ؛ لأنه تعالى يكتب ما قدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه بل كل شيء محصي في إمام مبين ، وهذا يفيد أن شيئاً من الأقوال والأفعال لا يعزب عن علم الله تعالى ولا يفوته كقوله تعالى ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر ﴾ (القمر : . )

يعني ليس ما في الزبر منحصراً فيما فعلوه بل كل شيء مكتوب لا يبدل ، فإن القلم جف بما هو كائن فلما قال تعالى ﴿ نكتب ما قدموا ﴾ بين أن قبل ذلك كتابة أخرى ، فإن الله تعالى كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا وكذا ، ثم إذا فعلوا كتب عليهم أنهم فعلوه ، قيل : إن ذلك مؤكد لمعنى قوله تعالى ﴿ ونكتب ﴾ ؛ لأن من يكتب شيئاً في أوراق ويرميها قد لا يجدها

فكأنه لم يكتب فقال تعالى: نكتب ونحفظ ذلك في إمام مبين وهو كقوله تعالى ﴿ علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ (طه: )

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿ واضرب ﴾ بمعنى واجعل ﴿ لهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ مثلاً ﴾ مفعول أول، وقوله تعالى: ﴿ أصحاب ﴾ مفعول ثان والأصل: واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب ﴿ القرية ﴾ فترك المثل وأقيم الأصحاب مقامه في الإعراب كقوله تعالى ﴿ واسأل القرية ﴾ (يوسف: ) قال الزمخشري: وقيل لا حاجة إلى الإضمار بل المعنى: اجعل أصحاب القرية لهم مثلاً، أو مثل أصحاب القرية بهم قال المفسرون: المراد بالقرية أنطاكية وقوله تعالى ﴿ إذ جاءها ﴾ إلخ بدل اشتمال من أصحاب القرية أي: إذ جاء أهلها ﴿ المرسلون ﴾ أي: رسل عيسى عليه السلام وإضافة إلى نفسه في قوله تعالى:



---

﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين ﴾ لأنه فعل رسوله عليه السلام ﴿ وإذ أرسلنا ﴾ إلخ بدل من إذ الأولى، وفي هذا لطيفة وهي أن في القصة أن الرسل كانوا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام أرسلهم إلى أنطاكية فقال تعالى: إرسال عيسى عليه السلام هو إرسالنا ورسول

رسول الله بإذن الله رسول الله فلا تفهم يا محمد أن أولئك كانوا رسل الرسول وإنما هو رسل الله تعالى ، فتكذيبهم كتكذيبك فتتم التسلية بقوله تعالى : ﴿ إذ أرسلنا ﴾ ويؤيد هذا مسألة فقهية وهي أن كل وكيل للوكيل بإذن الموكل عند الإطلاق وكيل الموكل لا وكيل الوكيل حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه ، وينعزل إذا عزله الموكل الأول .

تنبيه : في بعث الاثنين حكمة بالغة وهي أنهما كانا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام بإذن الله تعالى ، فكان عليهما إنهاء الأمر إليه والإتيان بما أمر الله تعالى ، والله سبحانه عالم بكل شيء لا يحتاج إلى شاهد يشهد عنده ، وأما عيسى عليه السلام فبشر فأمر الله تعالى بإرسال اثنين ليكون قولهما على قومهما عند عيسى عليه السلام حجة ثابتة ، وقرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم في الوصل ، وحمزة والكسائي بضمهما ، والباقون بكسر الهاء وضم الميم وأما الوقف فحمزة بضم الهاء ، والباقون بكسرها ، والجميع في الوقف بسكون الميم . ﴿ فكذبوهما ﴾ أي : مع ما لهما من الآيات ؛ لأن من المعلوم أنا ما أرسلنا رسولاً إلا كان معه من الآيات ما مثله آمن عليه البشر سواء أكان عنا من غير واسطة ، أو كان بواسطة رسولنا كما كان للطفيل بن عمرو الدوسي ذي النورين لما ذهب إلى قومه وسأل النبي صلى الله عليه وسلم أن تكون له آية فكانت نوراً في جبهته ، ثم سأل أن تكون في غير وجهه فكانت في سوطه .

ولما كان المتظافر على الشيء أقوى لشأنه وأعون على ما يراد منه تسبب عن ذلك قوله تعالى ﴿ فعززنا ﴾ أي : قوينا ﴿ بثالث ﴾ يقال : عزز المطر الأرض أي : قواها ولبدها ويقال لتلك الأرض العزاز وكذا كل أرض صلبة ، وتعزز لحم الناقة أي : صلب وقوي والمفعول محذوف أي : فقويناهما بثالث ، أو فغلبناهما بثالث ؛ لأن المقصود من البعثة نصرة الحق لا نصرتهما ، والكل كانوا مقوين للدين بالبرهان قال وهب : اسم المرسلين يحيى ويونس ، واسم الثالث شمعون ، وقال كعب : الرسولان صادق ومصدوق والثالث : سلوم ، وقرأ شعبة بتخفيف الزاي الأولى ، والباقون بتشديدها والزاي الثانية ساكنة بلا خلاف . ﴿ فقالوا إنا إليكم مرسلون ﴾ وذلك أنهم كانوا عبدة أصنام فأرسل إليهم عيسى عليه السلام اثنين فلما قربا من المدينة رأيا حبيباً النجار يرعى غنماً فسلما عليه فقال : من أنتما ؟ فقالا : رسولا عيسى عليه السلام يدعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن فقال : أمعكما آية ؟ قالا : نعم نشفي المريض ونبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى فقال : إن لي ابناً مريضاً منذ سنين قالا : فانطلق بنا ننظر حاله فأتى بهما إلى منزله فمسحاه فقام في الوقت بإذن الله تعالى صحيحاً ففشا الخبر في المدينة وآمن حبيب النجار ، وشفى الله تعالى على أيديهما كثيراً من المرضى وكان لهم ملك اسمه أنطيحس وكان من ملوك الروم فانتهى الخبر إليه فدعاهما فقال لهما : من أنتما ؟ فقالا : رسولا عيسى عليه السلام قال :

وفيما جئتما ؟ قالا : ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر قال : أولنا إله دون آلهتنا ؟ قالا : نعم من أوجدك وآلهتك فقال : قوما حتى أنظر في أمركما وأمر بحبسهما وجلد كل واحد منهما مائة جلدة ، فلما كذبا وضربا بعث عيسى عليه السلام رأس الحواريين شمعون الصفار على أثرها لينصرهما ، فدخل البلد متنكراً وجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به وأوصلوا خبره إلى الملك فدعاه فرضي عشرته وأنس به



---

وأكرمه ، ثم قال له ذات

يوم : أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعوا إلى غير دينك فهل كلمتهما وسمعت قولهما ؟ فقال الملك : حال الغضب بيني وبين ذلك قال : فإن رأى الملك دعاهما حتى نطلع على ما عندهما فدعاهما الملك فقال لهما شمعون : من أرسلكما إلى هاهنا ؟ قالا : الله تعالى الذي خلق كل شيء وليس له شريك فقال لهما شمعون : فصفاه وأوجزا قالا : يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال لهما شمعون : وما آيتكما ؟ قالا : ما يتمنى الملك فدعا بغلام مطموس العينين موضع عينيه كالجبهة فما زالا يدعوان ربهما حتى انشق موضع البصر فأخذا بندقتين من الطين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر

بهما فتعجب الملك فقال شمعون للملك : أرأيت إن سألت إلهك يصنع مثل هذا حتى يكون لك الشرف ولآلهتك ؟ فقال الملك : ليس لي عنك سر إن إلهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، وكان شمعون إذا دخل الملك على الصنم يدخل بدخوله ويصلي كثيراً ويتضرع حتى ظنوا أنه على ملتهم ، ثم قال الملك لهما : إن قدر إلهكما الذي تعبدانه على إحياء ميت آمنا به وبكما قالا : إلهنا قادر على كل شيء فقال الملك : إن هنا ميتاً مات منذ سبعة أيام ابن لدهقان وأنا أخرته فلم أدفنه حتى يرجع أبوه ، وكان غائباً فجاؤوا بالميت وقد تغير وأروح فجعلا يدعوان ربهما علانية وجعل شمعون يدعو ربه سراً ، فقام الميت وقال : إني دخلت سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله تعالى ، ثم قال : فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسناً يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك : ومن الثلاثة ؟ قال : شمعون وهذان وأشار إلى صاحبيه فتعجب الملك لما علم ، فلما علم شمعون أن قوله أثر في الملك أخبره بالحال ودعاه فآمن الملك وآمن قوم وكفر آخرون ، فمن لم يؤمن صاح عليهم جبريل فهلكوا .

وقيل : أن ابنة الملك كانت قد توفيت ودفنت فقال شمعون للملك : اطلب من هذين الرجلين أن يحييا ابنتك فطلب الملك منهما ذلك فقاما وصليا ودعوا الله تعالى وشمعون معهما في السر فأحيا الله تعالى المرأة ، ثم انشق القبر عنها فخرجت وقالت : أسلموا فإنهما صادقان قالت : ولا أظنكم تسلمون ثم طلبت من الرسولين أن يرداها إلى مكانها فذرا تراباً على رأسها فعادت إلى قبرها كما كانت ، وقال ابن إسحاق عن كعب ووهب : بل كفر واجتمع هو وقومه على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيباً وهو على باب المدينة بالأقصى ، فجاء يسعى إليهم يذكرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين .

﴿ قالوا ﴾ أي : أهل القرية للرسل ﴿ ما أنتم ﴾ أي : وإن زاد عددكم ﴿ إلا بشر مثلنا ﴾ لا مزية لكم علينا فما وجه الخصوصية لكم في كونكم رسلاً دوننا ، فجعلوا كونهم بشراً مثلهم دليلاً على عدم الإرسال ، وهذا عام في المشركين قالوا في حق محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ (ص : )

وقد استوينا في البشرية فلا يمكن الرجحان ، فرد الله عليهم بقوله سبحانه ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ (الجن : )

وبقوله تعالى : ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ﴾ (الشورى : )

إلى غير ذلك .

تنبيه : رفع بشر لانتقاض النفي المقتضي إعمال ما بإلا ثم قالوا ﴿ وما أنزل الرحمن ﴾ أي :

العام الرحمة ، فعموم رحمته مع استوائنا في عبوديته يقتضي أن يسوي بيننا في الرحمة فلا يخصكم بشيء دوننا ، وأغرقوا في النفي بقولهم ﴿ من شيء ﴾ أي : وحي ورسالة ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ أنتم إلا تكذبون ﴾ أي : في دعوى رسالة حالاً ومآلاً .

﴿ قالوا ﴾ أي : الرسل ﴿ ربنا ﴾ أي : الذي أحسن إلينا ﴿ يعلم ﴾ أي : ولهذا يظهر على أيدينا الآيات ﴿ إنا إليكم لمرسلون ﴾ استشهدوا بعلم الله تعالى وهو يجري مجرى القسم ، وزادوا اللام المؤكدة ؛ لأنه جواب عن إنكارهم .



---

﴿ وما علينا ﴾ أي : وجوباً من قبل من أرسلنا ﴿ إلا البلاغ المبين ﴾ أي : المؤيد بالأدلة القطعية من الحجج القولية والفعلية بالمعجزات ، وهي إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الميت وغيرهما فما كان جوابهم بعد هذا إلا أن:

﴿ قالوا إنا تطيرنا ﴾ أي : تشاءمنا ﴿ بكم ﴾ وذلك أن المطر حبس عنهم فقالوا : أصابنا هذا بشؤمكم ولاستغرابهم ما ادعوه واستقباحهم له ونفرتهم عنه قالوا : ﴿ لئن لم تنتهوا ﴾ أي : عن مقالتكم هذه ﴿ لنرجمنكم ﴾ أي : لنقتلنكم قال قتادة : بالحجارة ، وقيل : لنشتمنكم وقيل : لنقتلنكم شر قتلة ﴿ وليمسنكم منا ﴾ أي : لا من غيرنا

﴿ عذاب أليم ﴾ كأنهم قالوا : لا نكتفي برجمكم بحجر وحجرين بل نديم ذلك عليكم إلى الموت وهو العذاب الأليم ، أو يكون المراد وليمسنكم بسبب الرجم منا عذاب أليم أي : مؤلم ، وإن قلنا : الرجم : الشتم فكأنهم قالوا : ولا يكفينا الشتم بل شتم يؤدي إلى الضرب والإيلام الحسي ، وإذا فسرنا أليم بمعنى مؤلم ففعيل بمعنى مفعل قليل ، ويحتمل أن يقال : هو من باب قوله تعالى ﴿ عيشة راضية ﴾ (الحاقة : )

أي : ذات رضا أي : عذاب ذو ألم فيكون فعيلاً بمعنى فاعل وهو كثير ، ثم أجابهم المرسلون بأن:

﴿ قالوا طائركم ﴾ أي : شؤمكم الذي أحل بكم البلاء ﴿ معكم ﴾ وهو أعمالكم القبيحة التي منها تكذيبكم وكفركم فأصابكم الشؤم من قبلكم ، وقال ابن عباس والضحاك : حظكم من الخير والشر ، والهمزة في قوله تعالى ﴿ أئن ذكرتم ﴾ أي : وعظتم وخوفتم همزة استفهام وجواب الشرط محذوف أي : تطيرتم وكفرتم فهو محل الاستفهام والمراد به التوبيخ ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الثانية ، وأدخل قالون وأبو عمرو بينهما ألفاً ، وورش وابن كثير بغير إدخال ، والباقون بتحقيقهما مع عدم الإدخال .

ولما كان ذلك لا يصح أن يكون سبباً للتطير بوجه أضربوا عنه بقولهم ﴿ بل ﴾ أي: ليس الأمر كما زعمتم في أن التذكير بسبب التطير بل ﴿ أنتم قوم ﴾ أي: غركم ما آتاكم الله من القوة على القيام فيما تريدون ﴿ مسرفون ﴾ أي: عادتكم الخروج عن الحدود والطغيان فعوقبتم لذلك.

ولما كان السياق لأن الأمر بيد الله تعالى، فلا هادي لمن يضل ولا مضل لمن هدى فهو يهدي البعيد في البقعة والنسب إذا أراد، ويضل القريب فيهما إذا أراد وكان بعد الدار ملزوماً في الغالب لبعد النسب قدّم مكان المجيء على فاعلة بياناً لأن الدعاء نفع الأقصى ولم ينفع الأدنى فقال تعالى:

﴿ وجاء من أقصى ﴾ أي: أبعد بخلاف ما مر في القصص ولأجل هذا الغرض عدل عن التعبير بالقرية وقال ﴿ المدينة ﴾ لأنها أدل على الكبر المستلزم بعد الأطراف وجمع الأخلاط ولما بين الفاعل بقوله تعالى: ﴿ رجل ﴾ بين اهتمامه بالنهي عن المكر ومسابقته إلى إزالته كما هو الواجب بقوله تعالى: ﴿ يسعى ﴾ أي: يسرع في مشيه فوق المشي ودون العدو حرصاً على نصيحة قومه.

تنبيه: في تنكير الرجل مع أنه كان معلوماً معروفاً عند الله تعالى فيه فائدتان، الأولى: أن يكون تعظيماً لشأنه أي: رجل كامل في الرجولية، الثانية: أن يكون مفيداً ليظهر من جانب المرسلين أمر رجل من الرجال لا معرفة لهم به فلا يقال: إنهم تواطؤوا، والرجل هو حبيب

النجار كان ينحت الأصنام ، وقال السدي : كان قصاراً ، وقال وهب : كان يعمل الحرير وكان سقيماً قد أسرع فيه الجذام وكان منزله عند أقصى باب في المدينة ، وكان مؤمناً وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل وجوده حين صار من العلماء بكتاب الله تعالى ورأى فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه وقوله : ﴿ يسعى ﴾ تبصير للمسلمين وهداية لهم ليبذلوا جهدهم في النصح .

ولما تشوفت النفس إلى الداعي إلى إتيانه بينه بقوله تعالى:

(379/645)

---

﴿ قال ﴾ واستعطفهم بقوله تعالى : ﴿ يا قوم ﴾ وأمرهم بمجاهدة النفوس بقوله ﴿ اتبعوا المرسلين ﴾ أي : في عبادة الله تعالى وحده ، فجمع بين إظهار دينه وإظهار النصيحة فقوله ﴿ اتبعوا ﴾ النصيحة وقوله ﴿ المرسلين ﴾ إظهار إيمانه ، وقدم إظهار النصيحة على إظهار الإيمان ؛ لأنه كان ساعياً في النصيحة ، وأما الإيمان فكان قد آمن من قبل وقوله ﴿ يسعى ﴾ دل على إردته النصح .

فإن قيل : ما الفرق بين مؤمن آل فرعون حيث قال : ﴿ اتبعون أهدكم ﴾ (غافر : ) وهذا قال : ﴿ اتبعوا المرسلين ﴾ ؟

أجيب : بأن هذا الرجل جاءهم وفي أول مجيئه نصحهم ولم يعلموا سيرته فقال : اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل ، وأما مؤمن آل فرعون فكان فيهم ونصحهم مراراً فقال : اتبعوني في الإيمان بموسى وهرون عليهما السلام ، واعلموا أنه لو لم يكن خيراً لما اخترته لنفسي وأنتم تعلمون أني اخترته ولم يكن الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يعلمون اتباعه لهم .

ولما قال لهم : اتبعوا المرسلين كأنهم منعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال:

﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجراً ﴾ أي : أجرة ؛ لأن الخلق في الدنيا سالكون طريق الاستقامة ، والطريق إذا كان فيه دليل وجب اتباعه وعدم الاستماع من الدليل لا يحسن إلا عند أحد أمرين : إما لطلب الدليل الأجرة ، وإما : لعدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفة الطريق لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة ﴿ وهم مهتدون ﴾ عالمون بالطريق المستقيم الموصلة إلى الحق فهب أنهم ليسوا بمرسلين أليسوا بمهتدين ؟ فاتبعوهم وقوله تعالى:



---

﴿ ومالي لا أعبد الذي فطرني ﴾ أصله : وما لكم لا تعبدون ولكنه صرف الكلام عنه ليكون الكلام أسرع قبولاً حيث أراد لهم ما أراد لنفسه والمراد : تقريعهم على تركهم عبادة

خالقهم إلى عبادة غيره ولذلك قال ﴿ وإليه ترجعون ﴾ دون وإليه أرجع مبالغة في التهديد وفي العدول عن مخاصمة القوم إلى حال نفسه مبالغة في الحكمة ، وهي أنه لو قال : ما لكم لا تعبدون الذي فطركم لم يكن في البيان مثل قوله : ما لي ؛ لأنه لما قال : مالي فأحد لا يخفى عليه حال نفسه ، علم كل واحد أنه لا يطلب العلة وبيانها من أحد ؛ لأنه أعلم بحال نفسه وقوله ﴿ الذي فطرني ﴾ أشار به إلى وجود المقتضى فإن قوله : ﴿ مالي ﴾ إشارة إلى عدم المانع وعند عدم المانع لا يوجد الفعل ما لم يوجد المقتضى فقوله ﴿ الذي فطرني ﴾ دليل المقتضي فإن الخالق ابتداء مالك والمالك يجب على المملوك إكرامه وتعظيمه ومنعم بالإيمان ، والمنعم يجب على المنعم عليه شكر نعمته ، وقدم بيان عدم المانع على بيان وجود المقتضي مع أن المستحسن تقديم المقتضي ، لأن المقتضي لظهوره كان مستغنياً عن البيان فلا أقل من تقديم ما هو أولى بالبيان للحاجة إليه ، واختار من الآيات فطرة نفسه ؛ لأن خالق عمرو يجب على زيد عبادته ؛ لأن من خلق عمراً لا يكون إلا كامل القدرة واجب الوجود فهو مستحق للعبادة بالنسبة إلى كل مكلف ، لكن العبادة على زيد بخلق زيد أظهر إيجاباً .

تنبيه : أضاف الفطرة إلى نفسه والرجوع إليهم ؛ لأن الفطرة أثر النعمة فكانت عليه أظهر ، وفي الرجوع معنى الزجر فكان بهم أليق ، روي أنه لما قال ﴿ اتبعوا المرسلين ﴾ أخذوه ورفعوه إلى الملك فقال له : أفأنت تتبعهم ؟ فقال ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني ﴾ أي : أي

: شيء يمنعني أن أعبد خالقي وإليه ترجعون ، تردون عند البعث فيجزيكم بأعمالكم

ومعنى فطرني : خلقني اختراعاً ابتداء ، وقيل : خلقني على الفطرة كما قال تعالى ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ (الروم : )

ثم عاد إلى السياق الأول فقال:

(381/645)

---

﴿ أأتخذ ﴾ وهو استفهام بمعنى الإنكار أي : لا أتخذ وبين علو رتبته تعالى بقوله ﴿ من دونه ﴾ أي : سواه مع دنو المنزلة وبين عجز ما عبدوه بتعدده فقال ﴿ آلهة ﴾ وفي ذلك لطيفة وهي : أنه لما بين أنه يعبد الذي فطره بين أن من دونه لا تجوز عبادته ؛ لأن الكل محتاج مفتقر حادث وقوله ﴿ أأتخذ ﴾ إشارة إلى أن غيره ليس بإله ؛ لأن المتخذ لا يكون إلهاً ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بتسهيل الثانية بخلاف عن هشام ، وأدخل فيهما ألفاً قالون وأبو عمرو وهشام وورش وابن كثير بغير إدخال ألف ، والباقون بتحقيقهما مع عدم الإدخال وإذا وقف حمزة فله تسهيل الثانية والتحقيق ؛ لأنه متوسط بزائد وله أيضاً إبدالها ألفاً .

ثم بين عجز تلك الآلهة بقوله ﴿ إن يردن الرحمن ﴾ أي : العام النعمة على كل المخلوقين

العابد والمعبود ﴿ بضر ﴾ أي: سوء ومكروه ﴿ لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ﴾ أي: لو فرض أنهم شفعوا ولكن شفاعتهم لا توجد ﴿ ولا ينقذون ﴾ أي: بالنصر والمظاهرة من ذلك المكروه أو من العذاب لو عذبني الله تعالى إن فعلت ذلك.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى هنا: ﴿ إن يردن الرحمن ﴾ بصيغة المضارع وقال في الزمر: ﴿ إن أرادني الله ﴾ (الزمر: )

بصيغة الماضي وذكر المريد هنا باسم الرحمن وذكر المريد هناك باسم الله؟

أجيب: بأن الماضي والمستقبل مع الشرط يصير الماضي مستقبلاً؛ لأن المذكور هنا من قبل بصيغة الاستقبال في قوله ﴿ أأتخذ ﴾ وقوله ﴿ مالي لا أعبد ﴾ والمذكور هناك من قبل بصيغة الماضي في قوله ﴿ أفرأيتم ﴾ (الزمر: )

تنبيه: إن يردن شرط جوابه لا تغن عني إلخ والجملة الشرطية في محل النصب صفة لآلهة.

فائدة: أثبت ورش الياء بعد النون في الوصل دون الوقف، والباقون بغير ياء وقفاً ووصلاً.

﴿ إني إذاً ﴾ أي: إن عبدت غير الله تعالى ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ أي: خطأ ظاهر، وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء، وسكنها الباقون وهم على مذاهبهم في المد.

ولما أقام الأدلة ولم يبق لأحد تخلف عنه عله صرح بما لوح إليه من إيمانه بقوله:

﴿ إني آمنت ﴾ أي : أوقعت التصديق الذي لا تصديق في الحقيقة غيره ، وفتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو ، وسكنها الباقون ، واختلف في المخاطب بقوله ﴿ بربكم ﴾ على أوجه أحدها : أنه خاطب المرسلين قال المفسرون : أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين قال ﴿ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ أي : اسمعوا قولي واشهدوا لي ، وثانيها : هم الكفار لما نصحهم وما نفعهم قال ﴿ آمنت بربكم فاسمعون ﴾ وثالثها : بربكم أيها السامعون فاسمعون على العموم كقول الواعظ : يا مسكين ما أكثر أملك يريد : كل سامع يسمعه فلما قال ذلك وثب القوم عليه وثبة رجل واحد فقتلوه وقال ابن مسعود : وطئوه بأرجلهم ، وقال السدي : كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهد قومي حتى قطعوه وقتلوه وقال الحسن : خرقوا خرقاً في حلقه فعلقوه في سور المدينة وقبره بأنطاكية مشهور رضي الله تعالى عنه .

تنبيه : في قوله ﴿ فاسمعون ﴾ فوائد : منها : أنه كلام متفكر حيث قال : اسمعوا فإن المتكلم إذا كان يعلم أن لكلامه جماعة سامعين يتفكر ، ومنها : أن ينبه القوم ويقول : إني أخبرتكم بما فعلت حتى لا تقولوا لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرته لآمنا معك ، فإن قيل : إنه قال من قبل ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني ﴾ وقال ههنا : ﴿ آمنت بربكم ﴾ ولم يقل : آمنت بربي ؟

أجيب : بأنا إن قلنا : الخطاب مع الرسل فالأمر ظاهر ؛ لأنه لما قال ﴿ آمنت بربكم ﴾ ظهر عند الرسل أنه قبل قولهم وآمن بالرب الذي دعوه إليه وقال ﴿ بربكم ﴾ وإن قلنا الخطاب مع الكفار ففيه بيان التوحيد ؛ لأنه لما قال ﴿ أعبد الذي فطرني ﴾ ثم قال ﴿ آمنت بربكم ﴾ فهم أنه يقول : ربي وربكم واحد وهو الذي فطرني وهو بعينه ربكم بخلاف ما لو قال : آمنت بربي فيقول الكافر : وأنا أيضاً آمنت بربي .



---

فائدة : أخبر النبي صلى الله عليه وسلم "أن مثل صاحب يس هذا في هذه الأمة عروة بن مسعود الثقفي حيث نادى قومه بالإسلام ونادى على علية بالأذان فرموه بالسهام فقتلوه" .

ثم إنه سبحانه وتعالى بين حال هذا الذي قال ﴿ آمنت بربكم ﴾ بعد ذلك بقوله تعالى :

إيجازاً في البيات لأهل الإيمان:

﴿ قيل ﴾ أي : قيل له بعد قتلهم إياه ، فبناه للمفعول ؛ لأن المقصود المقول لا قائله والمقول له معلوم ﴿ ادخل الجنة ﴾ لأنه شهيد والشهداء يسرحون في الجنة حيث شاؤوا من حين الموت ، وقيل : لما هموا بقتله رفعه الله تعالى إلى الجنة ، وقرأ هشام والكسائي بضم القاف وهو المسمى بالإشمام ، والباقون بالكسر .

ولما أفضى به إلى الجنة ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي ﴾ أي : بغفران ربي لي المحسن إلي في الآخرة بعد إحسانه في الدنيا بالإيمان في مدة يسيرة بعد طول عمري في الكفر ﴿ وجعلني من المكرمين ﴾ أي : الذين أعطاهم الدرجات العلا فنصح لقومه حياً وميتاً بتمني علمهم بالكرامة له ليعملوا مثل عمله فينالوا ما ناله .

تنبيه : في القصة حث على المبادرة إلى مفارقة الأشرار واتباع الأخيار والحلم عن أهل الجهل وكظم الغيظ والتلطف في خلاص الظالم من ظلمه وأنه لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله وإن كان محسناً ، وهذا كما وقع للأنصار رضي الله تعالى عنهم في المبادرة إلى الإيمان مع بعد الدار والنسب ، وفي قول من استشهد منهم في بئر معونة كما رواه البخاري في المغازي عن أنس : "بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا" وفي غزوة أُحد .

*(384/645)*

---

كما في السيرة وغيرها : لما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله تعالى بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله تبارك وتعالى : فأنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ﴾ (آل عمران : ) ، وفي التمثيل بهذه القصة إشارة إلى أن في

قريش من حتم بموته على الكفر ولم ينقص ما قضى له من الأجل ، فالله سبحانه يؤيد هذا الدين بغيرهم لتظهر قدرته وحكمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 89 . 106 ﴾

*(385/645)*

---

وقال القاسمى :

﴿ يس ﴾ تقدم الكلام في مثل هذه الفواتح مراراً . وحاصله - كما قاله أبو السعود - أنها إما مسرودة على نمط التعديد ، فلا حظّ لها من الإعراب ، أو اسم للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه ، وعليه الأكثر ، فمحله الرفع على أنه خبر محذوف ، أو النصب ، مفعولاً لمحذوف ، وعليهما مدار قراءة : ﴿ يس ﴾ بالرفع والنصب .

﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ أي : ذي الحكمة أو الناطق بالحكمة ، ولما كانت منزلة الحكمة من المعارف ، منزلة الرأس ، وكانت أخص ، أو صاف التنزيل ، أوثرت في القَسم به دون بقية صفاته ، لذلك .

﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو الوصل إلى المطلوب بدون لغوب . والتنكير للتفخيم والتعظيم .

﴿ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ بالنصب على إضمار فعله ، وبالرفع خبر لمحذوف ، أو خبر لـ : ﴿ يس ﴾ إن كان اسماً للسورة ، أو مؤولاً بها . والجملة القسمية معترضة ، والقسم لتأكيد المقسَم عليه والمقسَم به ، اهتماماً .

﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ أي : برسول ولا كتاب : ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ أي : عن أمر حق الخالق والمخلوق ، بالكفر ، والفساد ، ونكران البعث ، والمعاد .



---

﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ﴾ أي : استأهلوا لأن ينزل بهم العذاب ، وينتقم منهم أشد الانتقام : ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : لا يريدون أن يؤمنوا ويهتدوا ، كفراً ، وكبراً ، وعناداً ، وبغياً في الأرض بغير الحق .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ ﴾ أي : اللحى ؛ أي : واصلة إليها وملزوزة إليها : ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ أي : ناصبو رؤوسهم ، غاضّو أبصارهم . يقال : أقمح الرجل ، في رأسه وغض بصره . وأقمح الغلّ الأسير ، إذا ترك رأسه مرفوعاً لضيقه ، فهو مقمح ، إذا لم يتركه عمود الغل الذي ينخس ذقنه ، أن يطأطئ رأسه . قال ابن الأثير : هي في قوله تعالى : ﴿ فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ ﴾ كناية عن الأيدي لا عن الأعناق ؛ لأن الغلّ

يجعل اليد تلي الذقن والعنق ، وهو مقارب للذقن . وقال الأزهري : أراد عز وجل أن أيديهم لما غلّت عند أعناقهم ، رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صُعُداً ، كالإبل الرافعة رؤوسها ، وهذا معنى قول ابن كثير : اكتفى بذكر الغل في العنق ، عن ذكر اليدين ، وإن كانتا مرادتين ، لما دل السياق عليه ؛ فإن الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق .



---

﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ قال الزمخشري : مثل تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم ، بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين ، في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يطأطئون رؤوسهم له ، وكالحاصلين بين سدّين ، لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم ، في أن لا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله . انتهى . أي : فالمجموع استعارة تمثيلية .

وفي " الانتصاف " للناصر : إذا فرقت هذا التشبيه ، كان تصميمهم على الكفر مشبهها بالأغلال ، وكان استكبارهم عن قبول الحق ، وعن الخضوع ، والتواضع لاستماعه ، مشبهاً بالإقماح ؛ لأن المقمح لا يطأطئ رأسه . وقوله : ﴿ فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ ﴾ تتمة للزوم الإقماح لهم ، وكان عدم الفكر في القرون الخالية مشبهاً بسدٍّ من خلفهم ، وعدم النظر في

العواقب المستقبلة مشبهاً بسدٍّ من قدامهم . انتهى . فيكون فيه تشبيه متعدد . قال الشهاب : والتمثيل أحسن منه . انتهى .

ثم قال الناصر : يحتمل أن تكون الفاء في : ﴿ فَهُمْ مُقْمَحُوْنَ ﴾ للتعقيب ، كالفاء الأولى ، أو للتسبب ، ولا شك أن ضغط اليد مع العنق في الغل يوجب الإقماح ؛ فإن اليد ، والعياذ بالله ، تبقى ممسكة بالغل تحت الذقن ، دافعة بها ومانعة من وطأتها . ويكون التشبيه أتم على هذا التفسير ، فإن اليد متى كانت مرسلة مخلاة ، كان للمغلول بعض الفرج بإطلاقها , ولعله يتحيّل بها على فكاك الغل ، ولا كذلك إذا كانت مغلولة . فيضاف إلى ما ذكرناه من التشبيهات المفرقة ، أن يكون انسداد باب الحيل عليهم في الهداية والانخلاع من ربقة الكفر المقدر عليهم ، مشبهاً بغلّ الأيدي ؛ فإن اليد آلة الحيلة إلى الخلاص . انتهى .

*(388/645)*

---

وإنما اختير هذا ؛ لأن ما قبله وما بعده في ذكر أحوالهم في الدنيا ، وجعله أبو حيان لبيان أحوالهم في الآخرة ، على أنه حقيقة لا تمثيل فيه ، فورد عليه أن يكون أجنبياً في البين ، وتوجيهه بأنه كالبيان لقوله : ﴿ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ﴾ [ يس : 7 ] ، والأول أدق ، وبالقبول أحق .

﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ أي : خوفتهم بالقرآن : ﴿ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : لا يريدون أن يؤمنوا ، ولما صدقت الآية على مثل أبي جهل وأصحابه من كفرة قريش ، الذين هلكوا في بدر ، وكانوا طواغيت الكفر ، أشار بعضهم إلى أن الآية نزلت في ذلك .

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ أي : الإنذار المترتب عليه النفع : ﴿ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ أي : القرآن بالتأمل فيه والعمل به : ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ ﴾ أي : عمل الصالحات لوجهه ، وإن كان لا يراه

﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أي : لذنوبه في الدنيا : ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : ثواب حسن في الجنة .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أي : للبعث : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ أي : نحفظ عليهم ما أسلفوا من الخير والشر : ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ أي : ما تركوه من سنة صالحة ، فعُمل بها بعد موتهم ، أو سنة سيئة فعُمل بها بعدهم : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ أي : في اللوح المحفوظ ، أو العلم الأزلي .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً ﴾ أي : مثّل لأهل مكة مثلاً : ﴿ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ أي : أذكر لهم قصة عجيبة ، قصة أصاب القرية : ﴿ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي : الدعاة إلى الحق ، ورفض عبادة الأوثان .

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أي : فقوّيناهما برسالة ثالث : ﴿ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ .

﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ أي : التبليغ عن الله ظاهراً بيّناً لا سترة فيه ، وقد خرجنا من عهدته .



---

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أي : تشاءمنا بكم ، فكان إذا حدث في البلد ما يسيء من حريق أو بلاء ، نسبوه إليهم . وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم ، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه ، وآثروه وقبلته طباعهم ، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه ؛ فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا بركة هذا وبشؤم هذا ، كما حكى الله عن القبط : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ ﴾ [ الأعراف : 131 ] ، وعن مشركي

مكة : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ [ النساء : 78 ] ، أفاده الزمخشري

﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا ﴾ أي : عن دعوتكم إلى التوحيد : ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ قَالُوا ﴾ أي : الرسل : ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ أي : سبب شؤمكم معكم ، وهو الكفر والمعاصي : ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ أي : وعظتم بما فيه سعادتكم . وجواب الشرط محذوف ، ثقة [ في المطبوع : ثقتة ] بدلالة ما قبله عليه ؛ أي : تطيرتم ، وتوعدتم بالرجم والتعذيب : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أي : في الشؤم والعدوان .

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ أي : يسرع في المشي ، حيث سمع بالرسل : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي : بالإيمان بالله وحده .

﴿ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أي : جعلاً ، ولا مالاً على الإيمان : ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي : في أنفسكم بالكمالات ، والأخلاق الكريمة ، والآداب الشريفة ؛ أي : فيجدر أن يُتأسّى بهم .

﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أي : خلقني ، وهذا تلطّف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه ، وإمحاض النصح ، حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه . والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ؛ كما ينبئ عنه قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : بعد الموت .

﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ أي : فأضرع إليها وأعبدها ، وهي في المهانة والحقارة بحيث ﴿ إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ أي : من ذلك الضر ، بالنصر والمظاهرة . وفيه تحميق لهم ؛ لأن ما يتخذ ويصنعه المخلوق ، كيف يعبد ؟

﴿ إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ أي : فاسمعوا إيماني واشهدوا به . قال السمين : الجمهور على كسر النون ، وهي نون الوقاية ، حذفت بعدها ياء الإضافة ، مجتزئ [ في المطبوع : مجتزى ] عنها بكسرة النون ، وهي اللغة العالية . وقرأ بعضهم بفتحها وهي غلط . انتهى .



---

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ أي : ثواباً على صدق إيمانك ، وفوزك بسببه بالشهادة : ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ أي : ليقبلوا على ما أقبلت

عليه ، ويضحوا لأجله النفس والنفيس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 58.52 ﴾

(393/645)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فِى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والأربعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/646)

---

الجزء السادس والأربعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 28 ﴾ من سورة يس

وحتى الآية ﴿ 44 ﴾ من نفس السورة

(4/646)

---

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (32) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان سبحانه قد جعل أكثر جند هذا النبي الكريم من الملائكة فأيده بهم في حالتي

المسمالمة والمصادمة وحرسه ممن أراده في مكة المشرفة وبعدها بهم ، ذكره ذلك بقوله عاطفاً على ما تقديره : وما أنزلنا على قومه قبل قتلهم له من جند من السماء يحول بينهم وبين ذلك كما فعلنا بك إذ أراد أبو جهل قتلك بالصخرة وأنت ساجد عند البيت وغيره بغير ذلك مما هو مفصل في السير ، وأما بعد الهجرة ففي غزوة الأحزاب إذ أرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً ردتهم خائبين ، وفي غزوة أحد وبدر وحنين وغير ذلك : ﴿ وما أنزلنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ على قومه ﴾ أي صاحب يس ﴿ من بعده ﴾ أي بعد قتله ، وأعرق في النفي بقوله : ﴿ من جند ﴾ وحقق المراد بقوله : ﴿ من السماء ﴾ أي لإهلاكهم ، وحقق أن إرسال الجنود السماوية أمر خص به . صلى الله عليه وسلم . لأنه لحكم ترجع إلى النصرة بغير الاستئصال فإنهم يتبدون في صور الآدميين ويفعلون أفعالهم ، وأما عذاب الاستئصال فإن السنة الإلهية جرت بأنه لا يكون بأكثر من واحد من الملائكة لأنه أدل على الاقتدار ، فلذلك قال تعالى : ﴿ وما كنا منزلين ﴾ أي ما كان ذلك من سنتنا ، وما صح في حكمتنا أن يكون عذاب الاستئصال بجند كثير ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ كانت ﴾ أي الواقعة التي عذبوا بها ﴿ إلا صيحة ﴾ صاحها بهم جبريل عليه السلام فماتوا عن آخرهم ؟ وأكد أمرها وحقق وحدتها بقوله : ﴿ واحدة ﴾ أي لحقارة أمرهم عندنا ، ثم زاد في تحقيرهم ببيان الإسراع في الإهلاك بقوله : ﴿ فإذا هم خامدون ﴾ أي ثابت لهم الخمود ما كأنهم كانت لهم حركة يوماً من الدهر ، ومن المستجاد في هذا قول أبي العلاء أحمد ابن سليمان المعري

:

وكالنار الحياة فمن رماد . . .

أواخرها وأولها دخان

(5/646)

---

ولما أخبر عنهم سبحانه بما هو الحق من أمرهم ، ورغبهم بما ضرب لهم من المثل ورهبهم ولم ينفعهم ذلك ، أنتج التأسيف عليهم وعلى الممثل بهم ومن شابههم فقال تعالى : ﴿ يا حسرة ﴾ أي هذا الحال مستحق لملازمة حسرة عظيمة ﴿ على العباد ﴾ فكأنه قيل لها : تعالى فهذا من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها ، فإن هؤلاء أحقاء بأن يتحسر عليهم ، والحسرة : شدة الندم على ما فات ، فأحرق فقده وأعيى أمره ، فلا حيلة في رده ، ويجوز أن يكون المعنى أن العباد - لكثرة ما يعكسون من أعمالهم - لا تفارقهم أسباب الحسرة ولا حاضر معهم غيرها ، فلا نديم لهم إلا هي ، ولا مستعلي عليهم وغالب لهم سواها .

ولما كان كأنه قيل : أيّ حال ؟ قال مبينا له ومعللاً للتحسر بذكر سببه : ﴿ ما يأتيهم ﴾ وأعرق في النفي والتعميم بقوله : ﴿ من رسول ﴾ أي رسول كان في أيّ وقت كان ﴿ إلا كانوا به ﴾ أي بذلك الرسول ﴿ يستهزءون ﴾ أي يوجدون الهزء ، والرسل أبعد الخلق من

الهزء حالاً ومقالاً وفعالاً ، ومن الواضح أن المستهزئ بمن هذا حاله هالك فهو جدير بملازمة الحسرة وأن يتحسر عليه .

(6/646)

---

ولما أتم سبحانه الخبر عن أول أمر الممثل بهم وأول أمر المؤمن بهم وآخره ، وأذن هذا التحسر بأن هلاك المكذبين أمر لا بد منه ، دل عليه معجباً عن عدم نظرهم لأنفسهم ومهدداً للسامعين منهم ، ومحذراً من آخر أمر الممثل بهم على وجه اندرج فيه جميع الأمم الماضية والطوائف الخالية بقوله : ﴿ ألم يروا ﴾ أي يعلم هؤلاء الذين تدعوهم علماً هو كالرؤية بما صح عندهم من الأخبار وما شاهدوه من الآثار : ﴿ كم أهلكنا ﴾ على ما لنا من العظمة ، ودل قوله : ﴿ قبلهم ﴾ - بكونه ظرفاً لم يذكر فيه الجار - على أن المراد جميع الزمان الذي تقدمهم من آدم إلى زمانهم ، وإدخال الجار على المهلكين يدل على أن المراد بعضهم ، فرجع حاصل ذلك إلى أن المراد : انظروا جميع ما مضى من الزمان هل عذب فيه قوم عذاب الاستئصال إلا بسبب عصيان الرسل فقال : ﴿ من القرون ﴾ أي الكثيرة الشديدة الضخمة ، والقرن - قال البغوي : أهل كل عصر سموا بذلك لاقترانهم في الوجود ﴿ أنهم ﴾ أي لأن القرون .

ولما كان المراد من رسول ليس واحداً بعينه، وكانت صيغة فعول كفعيل يستوي فيها المذكر والمؤنث والواحد والجمع، أعاد الضمير للجميع فقال: ﴿ إليهم ﴾ أي إلى الرسل خاصة من حيث كونهم رسلاً ﴿ لا يرجعون ﴾ أي عن مذاهبهم الخبيثة، ويخصون الرسل بالاتباع فلا يتبعون غيرهم أصلاً في شيء من الأشياء الدينية او الدنيوية فاطردت سنتنا ولن تجد لسنتنا تبديلاً في أنه كلما كذب قوم رسولهم أهلكناهم ونجينا رسولهم ومن تبعه، أفلا يخاف هؤلاء أن نجريهم على تلك السنة القديمة القويمة ف "إن" تعليلية على إرادة حذف لام العلة كما هو معروف في غير موضع، وضمير ﴿ أنهم ﴾ للمرسل إليهم، وضمير ﴿ إليهم ﴾ للرسل، لا يشك في هذا من له ذوق سليم وطبع مستقيم، والتعبير بالمضارع للدلالة على إمهالهم والتأني بهم والحلم عنهم مع تماديهم في العناد بتجديد عدم الرجوع، و ﴿ يرجعون ﴾ هنا نحو قوله تعالى



---

﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ [السجدة: 21] أي عن طرقهم الفاسدة - وهذا معنى الآية بغير شك، وليس بشيء قول من قال: المعنى أن المهلكين لا يرجعون إلى الدنيا ليفيد الرد على من يقول بالرجعة لأن العرب ليست ممن

يعتقد ذلك ، ولو سلم لم يحسن ، لأن السياق ليس له ، لم يتقدم عنهم غير الاستهزاء ، فأنكر عليهم استهزاءهم مع علمهم بأن الله تعالى أجرى سنته أن من استهزأ بالرسل وخالف قولهم فلم يرجع إليه أهلكه ، أطرد ذلك من سنته ولم يتخلف في أمة من الأمم كما وقع لقوم نوح وهود ومن بعدهم ، لم يتخلف في واحدة منهم ، وكلهم تعرف العرب أخبارهم ، وينظرون آثارهم ، وكذا يعرفون قصة موسى عليه السلام مع فرعون فالسياق للتهديد فصار المعنى : ألم ير هؤلاء كثرة من أهلكنا ممن قبلهم لمخالفتهم للرسل ، أفلا يخشون مثل ذلك في مخالفتهم لرسولهم ؟ وذلك موافق لقراءة الكسر التي نقلها البرهان السفاقسي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره عن الحسن ، وقالوا : إنها استئنافية ، فهي على تقدير سؤال من كأنه قال : لم أهلكهم ؟ وهذا كما إذا شاع أن الوادي الفلاني ما سلكه أحد إلا أصيب ، يكون ذلك مانعاً عن سلوكه ، وإن أراد ذلك أحد صح أن يقال له : ألم تر أنه ما سلكه أحد إلا هلك ، فيكون ذلك زاجراً له وراداً عن التمادي فيه ، لكون العلة في الهلاك سلوكه فقط ، وذلك أكف له من أن يقال له : ألم تر أن الناس يموتون وكثرة من مات منهم ولم يرجع أحد منهم ، غير معلل ذلك بشيء من سلوك الوادي ولا غيره ، فإن هذا أمر معلوم له ، غير مجدد فائدة ، وزيادة عدم الرجوع إلى الدنيا لا دخل لها في العلية أيضاً لأن ذلك معلوم عند المخاطبين بل هم قائلون بأعظم منه من أنه لا حياة بعد الموت لا إلى الدنيا ولا إلى

غيرها ، وعلى تقدير التسليم فربما كان ذكر الرجوع للأموات أولى بأن يكون تهديداً ، فإن كل إنسان منهم يرجع حينئذ إلى ما في يد غيره مما

*(8/646)*

---

كان مات عليه ويصير المتبوع بذلك تابعاً أو يقع الحرب وتحصل الفتن ، فأفاد ذلك أنه لا يصلح التهديد بعدم الرجوع - والله الموفق للصواب .

ولما كان كثير من أهل الجهل وذوي الحمية والأنفة لا يبالون بالهلاك في متابعة الهوى اعتماداً على أن موتة واحدة في لحظة يسيرة أهون من حمل النفس على ما لا تريد ، فيكون لهم في كل حين موتات ، أخبر تعالى أن الأمر غير منقض بالهلاك الدنيوي ، بل هناك من الخزي والذل والهوان والعقوبة والإيلام ما لا ينقضي أبداً فقال : ﴿ وإن كل ﴾ أي وإنهم كلهم ، لا يشذ منهم أحد ، وزاد في التأكيد لمزيد تكذيبهم بقوله : ﴿ لما ﴾ ومن شدد ﴿ لما ﴾ فالمعنى عنده " وما كل منهم إلا " وأشار إلى أنهم يأتون صاغرين راغمين في حالة اجتماعهم كلهم في الموقف لا تناصر عندهم ولا تمانع وليس أحد منهم غائب بحال التخلف عن الانتصار عليه فقال : ﴿ جميع ﴾ وأشار إلى غرابة الهيئة التي يجتمعون عليها بقوله : ﴿ لدينا ﴾ وزاد في العظمة بإبرازه في مظهرها ، وعبر باسم الفاعل المأخوذ من المبني للمفعول جامعاً

نظراً إلى معنى ﴿ كل ﴾ لأنه أدل على الجمع في آن واحد وهو أدل على العظمة :

﴿ محضرون ﴾ أي في يوم القيامة بعد بعثهم بأعيانهم كما كانوا في الدنيا سواء ، إشارة إلى أن هذا الجمع على كراهة منهم وإلى أنه أمر ثابت لازم دائم ، كأنه لعظيم ثباته لم يزل ، وأنه لا بد منه ، ولا حيلة في التفصي عنه ، وأنه يسير لا توقف له غير الإذن ، فإذا أذن فعله كل من يؤمر به من الجنود كائناً من كان ، وما أحسن ما قال القائل :

ولو أنا متنا تركنا . . .

لكان الموت راحة كل حي

ولكنا إذا متنا بعثنا . . .

ونسأل بعدها عن كل شي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 6 صـ 255 . 259 ﴾

*(9/646)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) ﴾

إشارة إلى هلاكهم بعده سريعاً على أسهل وجه فإنه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم ، وفيه

مسائل :

المسألة الأولى :

قال ههنا : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا ﴾ بإسناد الفعل إلى النفس ، وقال في بيان حال المؤمن ﴿ قِيلَ ادخل الجنة ﴾ [ يس : 26 ] بإسناد القول إلى غير مذكور ، وذلك لأن العذاب من باب الهيبة فقال بلفظ التعظيم ، وأما في : ﴿ ادخل الجنة ﴾ فقال ( قيل ) ليكون هو كالمهنأ بقول الملائكة حيث يقول له كل ملك وكل صالح يراه ادخل الجنة خالداً فيها ، وكثيراً ما ورد في القرآن قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ ٱدْخُلُواْ ﴾ إشارة إلى أن الدخول يكون دخولاً بإكرام كما يدخل العريس البيت المزين على رؤوس الأشهاد يهنئه كل أحد .

المسألة الثانية :

لم أضاف القوم إليه مع أن الرسول أولى بكون الجمع قوماً لهم فإن الواحد يكون له قوم هم آله وأصحابه والرسول لكونه مرسلاً يكون جميع الخلق وجميع من أرسل إليهم قوماً له ؟ نقول لوجهين أحدهما : ليبين الفرق بين اثنين هما من قبيلة واحدة أكرم أحدهما غاية الإكرام بسبب الإيمان وأهين الآخر غاية الإهانة بسبب الكفر ، وهذا من قوم أولئك في النسب وثانيهما : أن العذاب كان مختصاً بأقارب ذلك ، لأن غيرهم من قوم الرسل آمنوا بهم فلم يصبهم العذاب .

المسألة الثانية :

خصص عدم الإنزال بما بعده والله تعالى لم ينزل عليهم جنداً قبله أيضاً فما فائدة التخصيص ؟ نقول استحقاقهم العذاب كان بعده حيث أصروا واستكبروا فبين حال الهلاك أنه لم يكن بجند .

المسألة الرابعة :

(10/646)

---

قال : ﴿ مِّنَ السماء ﴾ وهو تعالى لم ينزل عليهم ولا أرسل إليهم جنداً من الأرض فما فائدة التقييد ؟ نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن يكون المراد وما أنزلنا عليهم جنداً بأمر من السماء فيكون للعموم وثانيهما : أن العذاب نزل عليهم من السماء فبين أن النازل لم يكن جنداً لهم عظمة وإنما كان ذلك بصيحة أخمدت نارهم وخربت ديارهم .

المسألة الخامسة :

﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ أية فائدة فيه مع أن قوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا ﴾ يستلزم أنه لا يكون من المنزلين ؟ نقول قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا ﴾ أي ما كان ينبغي لنا أن ننزل لأن الأمر كان يتم بدون ذلك فما أنزلنا وما كنا محتاجين إلى إنزال ، أو نقول : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا . . .

وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ في مثل تلك الواقعة جنداً في غير تلك الواقعة ، فإن قيل فكيف أنزل الله

جنوداً في يوم بدر وفي غير ذلك حيث قال : ﴿ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [ التوبة : 26 ] ؟ تقول ذلك تعظيماً لمحمد صلى الله عليه وسلم وإلا كان تحريك ريشة من جناح ملك كافياً في استئصالهم وما كان رسل عيسى عليه السلام في درجة محمد صلى الله عليه وسلم .

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29)

ثم بين الله تعالى ما كان بقوله : ﴿ إِن كَانَتْ ﴾ الواقعة ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً ﴾ وقال الزمخشري أصله إن كان شيء إلا صيحة فكان الأصل أن يذكر ، لكنه تعالى أنث لما بعده من المفسر وهو الصيحة .

وقوله تعالى : ﴿ واحدة ﴾ تأكيد لكون الأمر هيناً عند الله .



---

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ خامدون ﴾ فيه إشارة إلى سرعة الهلاك فإن خمودهم كان من الصيحة وفي وقتها لم يتأخر ، ووصفهم بالخمود في غاية الحسن وذلك لأن الحي فيه الحرارة الغريزية وكلما كانت الحرارة أوفر كانت القوة الغضبية والشهوانية أتم وهم كانوا كذلك ، أما الغضب فإنهم قتلوا مؤمناً كان ينصحهم ، وأما الشهوة فلأنهم احتملوا العذاب الدائم

بسبب استيفاء اللذات الحالية فإذن كانوا كالنار الموقدة ، ولأنهم كانوا جبارين مستكبرين كالنار ومن خلق منها فقال : ﴿ فَإِذَا هُمْ خامدون ﴾ وفيه وجه آخر : وهو أن العناصر الأربعة يخرج بعضها عن طبيعته التي خلقه الله عليها ويصير العنصر الآخر بإرادة الله فالأحجار تصير مياهاً ، والمياه تصير أحجاراً وكذلك الماء يصير هواء عند الغليان والسخونة والهواء يصير ماء للبرد ولكن ذلك في العادة بزمان ، وأما الهواء فيصير ناراً والنار تصير هواء بالاشتعال والخمود في أسرع زمان ، فقال خامدين بسببها فخمود النار في السرعة كإطفاء سراج أو شعلة .

ثم قال تعالى : ﴿ يا حسرة عَلَى العباد ﴾ أي هذا وقت الحسرة فاحضري يا حسرة والتنكير للتكثير ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الألف واللام في العباد يحتمل وجهين أحدهما : للمعهود وهم الذين أخذتهم الصيحة فيا حسرة على أولئك وثانيهما : لتعريف الجنس جنس الكفار المكذبين .

المسألة الثانية :

من المتحسر ؟ نقول فيه وجوه الأول : لا متحسر أصلاً في الحقيقة إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب .

وههنا بحث لغوي : وهو أن المفعول قد يرفض رأساً إذا كان الغرض غير متعلق به يقال إن فلاناً يعطي ويمنع ولا يكون هناك شيء معطي إذ المقصود أن له المنع والإعطاء ، ورفض المفعول كثير وما نحن فيه رفض الفاعل وهو قليل ، والوجه فيه ما ذكرنا ، أن ذكر المتحسر غير مقصود وإنما المقصود أن الحسرة متحققة في ذلك الوقت الثاني : أن قائل يا حسرة هو الله على الاستعارة تعظيماً للأمر وتهويلاً له وحينئذٍ يكون كالألفاظ التي وردت في حق الله كالضحك والنسيان والسخر والتعجب والتمني ، أو نقول ليس معنى قولنا يا حسرة ويا ندامة ، أن القائل متحسر أو نادم بل المعنى أنه مخبر عن وقوع الندامة ، ولا يحتاج إلى تجوز في بيان كونه تعالى قال : ﴿يا حَسْرَةً﴾ بل يخبر به على حقيقته إلا في النداء ، فإن النداء مجاز والمراد الإخبار الثالث : المتلهفون من المسلمين والملائكة ألا ترى إلى ما حكي عن حبيب أنه حين القتل كان يقول : اللهم اهد قومي وبعد ما قتلوه وأدخل الجنة قال : يا ليت قومي يعلمون ، فيجوز أن يتحسر المسلم للكافر ويتندم له وعليه .

المسألة الثالثة :

قرىء ﴿يا حَسْرَةً﴾ بالتنوين ، و ( يا حسرة العباد ) بالإضافة من غير كلمة على ، وقرىء يا حسرة علي بالهاء إجراء للوصل مجرى الوقف .

المسألة الرابعة :

من المراد بالعباد ؟ نقول فيه وجوه أحدها : الرسل الثلاثة كأن الكافرين يقولون عند ظهور البأس يا حسرة عليهم يا ليتهم كانوا حاضرين شأننا لنؤمن بهم وثانيها : هم قوم حبيب وثالثها : كل من كفر وأصر واستكبر وعلى الأول فإطلاق العباد على المؤمنين كما في قوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ [ الحجر : 42 ] وقوله : ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ ﴾ [ الزمر : 53 ] وعلى الثاني فإطلاق العباد على الكفار ، وفرق بين العبد مطلقاً وبين المضاف إلى الله تعالى فإن الإضافة إلى الشريف تكسو المضاف شرفاً تقول بيت الله فيكون فيه من الشرف ما لا يكون في قولك البيت ، وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن ﴾ [ الفرقان : 63 ] من قبيل قوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِي ﴾ [ الحجر : 42 ] وكذلك ﴿ عِبَادَ الله ﴾ [ الصافات : 74 ] .

ثم بين الله تعالى سبب الحسرة بقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وهذا سبب الندامة وذلك لأن من جاءه ملك من بادية ، وأعرفه نفسه ، وطلب منه أمراً هيناً فكذبه ولم يجبه إلا ما دعاه ، ثم وقف بين يديه وهو على سرير ملكه فعرفه أنه ذلك ،

يكون عنده من الندامة ما لا مزيد عليه ، فكذلك الرسل هم ملوك وأعظم منهم بإعزاز الله إياهم وجعلهم نوابه كما قال :

(14/646)

---

﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ ﴾ [ آل عمران : 31 ] وجاؤا وعرفوا أنفسهم ولم يكن لهم عظمة ظاهرة في الحس ، ثم يوم القيامة أو عند ظهور البأس ظهرت عظمتهم عند الله لهم ، وكان ما يدعون إليه أمراً هيناً نفعه عائد إليهم من عبادة الله وما كانوا يسألون عليه أجراً ، فعند ذلك تكون الندامة الشديدة ، وكيف لا وهم يقتنعوا بالإعراض حتى آذوا واستهزأوا واستخفوا واستهانوا وقوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ ﴾ الضمير يجوز أن يكون عائداً إلى قوم حبيب ، أي ما يأتيهم من رسول من الرسل الثلاثة إلا كانوا به يستهزؤون على قولنا الحسرة عليهم ، ويجوز أن يكون عائداً إلى الكفار المصرين .

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31)

ثم إن الله تعالى لما بين حال الأولين قال للحاضرين : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مّنَ القرون ﴾ أي الباقون لا يرون ما جرى على من تقدمهم ، ويحتمل أن يقال : إن الذين قيل في

حقهم : ﴿ يا حَسْرَةً ﴾ [ يس : 30 ] هم الذين قال في حقهم : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ ومعناه أن كل مهلك تقدمه قوم كذبوا وأهلكوا إلى قوم نوح وقبله .

(15/646)

---

وقوله : ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ بدل في المعنى عن قوله : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ وذلك لأن معنى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ ألم يروا كثرة إهلاكنا ، وفي معنى ، ألم يروا المهلكين الكثيرين أنهم إليهم لا يرجعون ، وحينئذٍ يكون كبدل الاشتمال ، لأن قوله : ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ حال من أحوال المهلكين ، أي أهلكوا بحيث لا رجوع لهم إليهم فيصير كقولك : ألا ترى زيداً أدبه ، وعلى هذا فقوله : ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ فيه وجهان أحدهما : أهلكوا إهلاكاً لا رجوع لهم إلى من في الدنيا وثانيهما : هو أنهم لا يرجعون إليهم ، أي الباقون لا يرجعون إلى المهلكين بنسب ولا ولادة ، يعني أهلكناهم وقطعنا نسلهم ، ولا شك في أن الإهلاك الذي يكون مع قطع النسل أتم وأعم ، والوجه الأول أشهر نقلاً ، والثاني أظهر عقلاً .

وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (32)

لما بين الإهلاك بين أنه ليس من أهلكه الله تركه ، بل بعده جمع وحساب وحبس وعقاب ، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة ، ونعم ما قال القائل :

ولو أنا إذا متنا تركنا . . لكان الموت راحة كل حي

ولكنا إذا متنا بعثنا . . ونسأل بعده من كل شيء

(16/646)

---

وقوله : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا ﴾ في إن وجهان أحدهما : أنها مخففة من الثقيلة واللام في لما فارقة بينها وبين النافية ، وما زائدة مؤكدة في المعنى ، والقراءة حينئذٍ بالتخفيف في لما وثانيهما : أنها نافية ولما بمعنى إلا ، قال سيبويه : يقال نشدتك بالله لما فعلت ، بمعنى إلا فعلت ، والقراءة حينئذٍ بالتشديد في لما ، يؤيد هذا ما روي أن أبياً قرأ ﴿ وَمَا كُلٌّ إِلاَّ جَمِيعٌ ﴾ وفي قوله سيبويه : لما بمعنى إلا وارد معنى مناسب وهو أن لما كأنها حرفا نفي جمعاً وهما لم وما فتأكد النفي ، ولهذا يقال في جواب من قال قد فعل لما يفعل ، وفي جواب من قال فعل لم يفعل ، وإلا كأنها حرفا نفي إن ولا فاستعمل أحدهما مكان الآخر ، قال الزمخشري : فإن قال قائل كل وجميع بمعنى واحد ، فكيف جعل جميعاً خبراً لكل حيث دخلت اللام عليه ، إذ التقدير وإن كل لجميع ، نقول معنى جميع مجموع ، ومعنى كل كل فرد بحيث لا يخرج عن الحكم أحد ، فصار المعنى كل فرد مجموع مع الآخر مضموم إليه ، ويمكن أن يقال محضرون ، يعني عما ذكره ، وذلك لأنه لو قال : وإن جميع لجميع محضرون ، لكان كلاماً صحيحاً ولم

يوجد ما ذكره من الجواب ، بل الصحيح أن محضرون كالصفة للجميع ، فكأنه قال جميع جميع محضرون ، كما يقال الرجل رجل عالم ، والنبي نبي مرسل ، والواو في ﴿ وَإِن كُلٌّ ﴾ لعطف الحكاية على الحكاية ، كأنه يقول بينت لك ما ذكرت ، وأبين أن كلاً لدينا محضرون .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 54 . 57 ﴾

(17/646)

---

وقال القرطبى :

فلما قتل حبيب غضب الله له وعجل النقمة على قومه ، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم ؛ فذلك قوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا على قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السمآء وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ أي ما أنزلنا عليهم من رسالة ولا نبيّ بعد قتله ؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن .

قال الحسن : الجند الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء .

وقيل : الجند العساكر ؛ أي لم أحتج في هلاكهم إلى إرسال جنود ولا جيوش ولا عساكر ؛ بل أهلكهم بصيحة واحدة .

قال معناه ابن مسعود وغيره .

فقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ تصغير لأمرهم ؛ أي أهلكناهم بصيحة واحدة من بعد ذلك

الرجل ، أو من بعد رفعه إلى السماء .

وقيل : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ على من كان قبلهم .

الزمخشري : فإن قلت فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق ؟ فقال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [ الأحزاب : 9 ] ، وقال : ﴿ آلَافٍ مِّنَ الملائكة مُنزَلِينَ بِخَمْسَةِ آلاف مِّنَ الملائكة مُسَوِّمِينَ ﴾ [ آل عمران : 124 125 ] .

قلت : إنما كان يكفي ملك واحد ، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل ، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة ، ولكن الله فضل محمداً صلى الله عليه وسلم بكل شيء على سائر الأنبياء وأولي العزم من الرسل فضلاً عن حبيب النجار ، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحداً ؛ فمن ذلك أنه أنزل له جنوداً من السماء ، وكأنه أشار بقوله : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا ﴾ .

﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك ، وما كنا نفعل لغيرك .

﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ قراءة العامة "وَاحِدَةً" بالنصب على تقدير ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة .

وقرأ أبو جعفر بن القَعْقَاع وشيبة والأعرج: "صَيْحَةٌ" بالرفع هنا ، وفي قوله ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ جعلوا الكون بمعنى الوقوع والحدوث ؛ فكأنه قال : ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة .

وأنكر هذه القراءة أبو حاتم وكثير من النحويين بسبب التأنيث فهو ضعيف ؛ كما تكون ما قامت إلا هندٌ ضعيفاً ؛ من حيث كان المعنى ما قام أحد إلا هند .

قال أبو حاتم : فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال : إن كان إلا صيحةٌ .

قال النحاس : لا يمتنع شيء من هذا ، يقال : ما جاءتني إلا جاريتك ، بمعنى ما جاءتني امرأة أو جارية إلا جاريتك .

والتقدير في القراءة بالرفع ما قاله أبو إسحاق ، قال : المعنى إن كانت عليهم صيحة إلا صيحة واحدة ، وقدّره غيره : ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة .

وكان بمعنى وقع كثير في كلام العرب .

وقرأ عبد الرحمن بن الأسود ويقال إنه في حرف عبد الله كذلك "إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقْيَةً وَاحِدَةً" .

وهذا مخالف للمصحف .

وأيضاً فإن اللغة المعروفة زَقَا يَزْقو إذا صاح ، ومنه المثل : أثقلُ من الزَّوَاقي ؛ فكان يجب

على هذا أن يكون زَقْوة.

ذكره النحاس.

قلت: وقال الجوهري: الزَّقْو والزَّقْي مصدر، وقد زَقَا الصدى يَزْقو زقاء: أي صاح، وكل صائح زاقٍ، والزَّقْية الصّيحة.

قلت: وعلى هذا يقال: زَقْوة وزَقْية لغتان؛ فالقراءة صحيحة لا اعتراض عليها.

والله أعلم.

﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ أي ميتون هامدون؛ تشبيهاً بالرماد الخامد.

وقال قتادة: هلكى.

والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿ ياحسرة عَلَى العباد ﴾ منصوب؛ لأنه نداء نكرة ولا يجوز فيه غير النصب عند البصريين.

وفي حرف أُبَيّ "يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ" على الإضافة.

وحقيقة الحسرة في اللغة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيراً.

وزعم الفراء أن الاختيار النصب، وأنه لو رفعت النكرة الموصولة بالصلة كان صواباً.

واستشهد بأشياء منها أنه سمع من العرب : يا مُهَتَمُّ بأمرنا لا تهتمّ .

وأنشد :

يا دارُ غَيَّرَها البِلَى تَغْيِيرَا . . .

قال النحاس : وفي هذا إبطال باب النداء أو أكثره ؛ لأنه يرفع النكرة المحضة ، ويرفع ما هو بمنزلة المضاف في طوله ، وبحذف التنوين متوسطاً ، ويرفع ما هو في المعنى مفعول بغير علة أوجبت ذلك .

فأما ما حكاه عن العرب فلا يشبه ما أجازه ؛ لأن تقدير يا مُهْتَمُّ بأمرنا لا تهتم على التقديم والتأخير ، والمعنى : يا أيها المهتم لا تهتم بأمرنا .

وتقدير البيت : يا أيتها الدار ، ثم حوّل المخاطبة ؛ أي يا هؤلاء غيّر هذه الدار البلى ؛ كما قال الله جل وعز : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [ يونس : 22 ] .

ف"حسرة" منصوب على النداء ؛ كما تقول يا رجلاً أقبل ، ومعنى النداء : هذا موضع حضور الحسرة .

الطبري : المعنى يا حسرة من العباد على أنفسهم وتندّماً وتلهّفاً في استهزائهم برسل الله عليهم السلام .

ابن عباس : "يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ" أي يا ويلا على العباد .

وعنه أيضاً : حلّ هؤلاء محلّ من يتحسر عليهم .

وروى الربيع عن أنس عن أبي العالية أن العباد هاهنا الرسل ؛ وذلك أن الكفار لما رأوا العذاب قالوا : "يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ" فتحسروا على قتلهم ، وترك الإيمان بهم ؛ فتمنوا الإيمان حين لم ينفعهم الإيمان ؛ وقاله مجاهد .

وقال الضحاك : إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل .

وقيل : "يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ" من قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ، لما وثب القوم لقتله .

وقيل : إن الرسل الثلاثة هم الذين قالوا لما قتل القوم ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ، وحلّ بالقوم العذاب : يا حسرة على هؤلاء ، كأنهم تمنوا أن يكونوا قد آمنوا .

*(20/646)*

---

وقيل : هذا من قول القوم قالوا لما قتلوا الرجل وفارقتهم الرسل ، أو قتلوا الرجل مع الرسل الثلاثة ، على اختلاف الروايات : يا حسرة على هؤلاء الرسل ، وعلى هذا الرجل ، ليتنا آمنا بهم في الوقت الذي ينفع الإيمان .

وتم الكلام على هذا ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ ﴾ .

وقرأ ابن هُرْمُز ومسلم بن جُنْدب وعِكرمة : "يَا حَسْرَهْ عَلَى الْعِبَادِ" بسكون الهاء للحرص على البيان وتقرير المعنى في النفس ؛ إذ كان موضع وعظ وتنبيه والعرب تفعل ذلك في مثله ، وإن لم يكن موضعاً للوقف .

ومن ذلك ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يُقَطِّعُ قراءته حرفاً حرفاً ؛ حرصاً على البيان والإفهام .

ويجوز أن يكون "عَلَى الْعِبَادِ" متعلقاً بالحسرة .

ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف لا بالحسرة ؛ فكأنه قدر الوقف على الحسرة فأسكن الهاء ، ثم قال : "عَلَى الْعِبَادِ" أي أتحسر على العباد .

وعن ابن عباس والضحاك وغيرهما : "يَا حَسْرَةَ العِبَادِ" مضاف بحذف "على" .

وهو خلاف المصحف .

وجاز أن يكون من باب الإضافة إلى الفاعل فيكون العباد فاعلين ؛ كأنهم إذا شاهدوا العذاب تحسروا فهو كقولك يا قيام زيدٍ .

ويجوز أن تكون من باب الإضافة إلى المفعول ، فيكون العباد مفعولين ؛ فكأن العباد يتحّسر عليهم من يشفق لهم .

وقراءة من قرأ : "يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ" مقوّية لهذا المعنى .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ القرون أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ قال سيبويه :

"أنّ" بدل من "كم" ، ومعنى كم هاهنا الخبر ؛ فلذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام .

والمعنى : ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون .

وقال الفراء : "كَمْ" في موضع نصب من وجهين : أحدهما ب "يَرَوْا" واستشهد على هذا بأنه في قراءة ابن مسعود "أَلَمْ يَرَوْا مَنْ أَهْلَكْنَا" .

(21/646)

---

والوجه الآخر أن يكون "كَمْ" في موضع نصب ب "أَهْلَكْنَا" .

قال النحاس : القول الأوّل محال ؛ لأن "كَمْ" لا يعمل فيها ما قبلها ؛ لأنها استفهام ، ومحال أن يدخل الاستفهام في خبر ما قبله .

وكذا حكمها إذا كانت خبراً ، وإن كان سيبويه قد أومأ إلى بعض هذا فجعل "أَنَّهُمْ" بدلاً من كم .

وقد ردّ ذلك محمد بن يزيد أشدّ ردّ ، وقال "كَمْ" في موضع نصب ب "أَهْلَكْنَا" و "أَنَّهُمْ" في موضع نصب ، والمعنى عنده بأنهم أي ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ القرون ﴾ بالاستئصال .

قال : والدليل على هذا أنها في قراءة عبد الله "مَنْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ

يَرْجِعُونَ" .

وقرأ الحسن : "إِنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ" بكسر الهمزة على الاستئناف .

وهذه الآية ردٌّ على من زعم أن من الخلق من يرجع قبل القيامة بعد الموت .

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ يريد يوم القيامة للجزاء .

وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة : "وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا" بتشديد "لما" .

وخفف الباقون .

ف"إن" مخففة من الثقيلة وما بعدها مرفوع بالابتداء ، وما بعده الخبر .

وبطل عملها حين تغيّر لفظها .

ولزمت اللام في الخبر فرقاً بينها وبين إن التي بمعنى ما .

و"ما" عند أبي عبيدة زائدة .

والتقدير عنده : وإن كلٌّ لجميع .

قال الفرّاء : ومن شدّد جعل "لما" بمعنى إلا و "إِن" بمعنى ما ، أي ما كلٌّ إلاَّ لَجميع ؛ كقوله :

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ [ المؤمنون : 25 ] .

وحكى سيبويه في قوله : سألتك بالله لما فعلت .

وزعم الكسائي أنه لا يعرف هذا .

وقد مضى هذا المعنى في "هود" .

وفي حرف أُبَيّ "وَإِنْ مِنْهُمْ إِلاَّ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(22/646)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا على قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ ﴾

من بعد قتلِه أو رفعِه ﴿ مِن جُندٍ مّنَ السماء ﴾ لإهلاكِهم والانتقامِ منهم كما فعلناه يومَ بدرٍ والخندقِ كفينا أمرَهم بصيحةِ مَلَكٍ وفيه استحقارٌ لهم ولإهلاكهم وإيماء إلى تفخيمِ شأنِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ وما صحَّ في حكمتِنا أنْ ننزلَ لإهلاكِ قومِه جُنداً من السَّماءِ لما أنَّا قدَّرنا لكلِّ شيءٍ سبَباً حيثُ أهلكنا بعضَ مَن أهلكنا من الأُمم بالحاصبِ وبعضَهم بالصيحة وبعضَهم بالخسفِ وبعضَهم بالإغراقِ وجعلنا إنزالَ الجندِ من خصائصِك في الانتصارِ من قومك . وقيل : ما موصولةٌ معطوفةٌ على جندٍ أي وما كنَّا مُنزلين على مَن قبلهم من حجارةٍ وريحٍ وأمطارٍ شديدةٍ وغيرِها ﴿ إِن كَانَتْ ﴾ أي ما كانتْ الأخذةُ أو العقوبةُ ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ صاحَ بها جبريلُ عليه السَّلامُ . وقُرِىء إلاَّ صيحةٌ بالرَّفعِ على أنَّ كانَ تامَّةٌ . وقُرِىء إلا زَقيةً واحدةً من زَقَا الطَّائرُ إذا صاحَ

﴿ فَإِذَا هُمْ خامدون ﴾ ميّتُون شُبِّهوا بالنَّارِ الخامدةِ رَمْزاً إلا أنَّ الحيّ كالنَّارِ السَّاطعةِ في الحَركَةِ والالتهابِ والمَيِّتُ كالرَّمادِ قال لَبيدٌ

ومَا المرءُ إلاَّ كالشَّهَابِ وضوئِه . . . يحورُ رَمَاداً بعدَ إذْ هُو ساطعُ

(23/646)

---

﴿ يا حسرةً عَلَى العباد ﴾ تعالى فهذه من الأحوالِ التي حقُّها أنْ تحضرِي فيها ، وهي ما دلَّ عليه قولُه تعالى ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ فإنَّ المستهزئينَ بالنَّاصحينَ الذين نيطت بنصائحهم سعادةُ الدَّارينِ أحقَّاءُ بأنْ يتحسَّروا ويتحسَّرُ عليهم المتحسِّرون . أو قد تلهَّفَ على حالهم الملائكةُ والمؤمنون من الثَّقلينِ . وقد جُوِّزَ أنْ يكون تحسُّراً عليهم من جهةِ الله تعالى بطريقِ الاستعارةِ لتعظيمِ ما جنَّوه على أنفسِهم . ويؤيِّده قراءةُ يَا حسرتَا لأنَّ المعنى يا حسرتِي ونصبُها لطولِها بما تعلَّق بها من الجارِّ وقيل : بإضمارِ فعلِها ، والمنادى محذوفٌ وقُرِىء يا حسرةَ العبادِ بالإضافةِ إلى الفاعلِ أو المفعولِ ويا حسرة على العبادِ بإجراءِ الوصلِ مجرى الوقفِ .

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ أي ألم يعلمُوا وهو معلَّقٌ عن العملِ في قولِه تعالى ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون ﴾ لأنَّ كم لا يعملُ فيها ما قبلها وإنْ كانتْ خبريَّةً لأنَّ أصلَها الاستفهامُ خلا أنَّ معناه

نافذٌ في الجُملةِ كما نفذَ في قولك ألم ترَ إنّ زيداً لمنطلقٌ وإن لم يعملْ في لفظه ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ بدلٌ من كم أهلكنا على المعنى أيْ ألم يروا كثرةَ إهلاكِنا من قبلهم من المذكُورين آنِفاً ومن غيرهم كونهم غير راجعين إليهم . وقُرِىء بالكسرِ على الاستئنافِ . وقُرِىء ألم يَرَوا من أهلكنا والبدل حينئذٍ بدلُ اشتمالٍ .

(24/646)

---

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ بيانٌ لرجوعِ الكلِّ إلى المحشرِ بعد بيان عدم الرُّجوعِ إلى الدُّنيا وأنْ نافية وتنوينُ كلٍّ عِوضٌ عن المضافِ إليهِ ولمَّا بمعنى إلاَّ ، وجميعُ فعيلٌ بمعنى مفعولٍ ، ولدينا ظرفٌ له أو لما بعده . والمعنى ما كلُّهم إلاَّ مجموعون لدينا مُحضرون للحسابِ والجزاءِ وقيل : محضرُون معذَّبون فكل ذلك عبارةٌ عن الكَفَرة . وقُرِىء لما بالتَّخفيفِ على أنّ إنْ مخفَّفةٌ من الثقيلة واللاّمُ فارقةٌ وما مزيدةٌ للتأكيد والمعنى أنّ كلهم مجموعون الخ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(25/646)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا على قَوْمِهِ ﴾

أي قوم الرجل الذي قيل له ﴿ ادخل الجنة ﴾ [ يس : 26 ] ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد قتله ، وقيل : من بعد رفعه إلى السماء حيا ﴿ مِن جُندٍ ﴾ أي جندا فمن مزيدة لتؤكيد النفي ، وقيل : يجوز أن تكون للتبعيض وهو خلاف الظاهر ، والجند العسكر لما فيه من الغلظة كأنه من الجند أي الأرض الغليظة التي فيها حجارة ، والظاهر أن المراد بهذا الجند جند الملائكة أي ما أنزلنا لاهلاكهم ملائكة ﴿ مّنَ السماء وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ وما صح في حكمتنا أن ننزل الجند لاهلاكهم لما أنا قدرنا لكل شيء سبباً حيث أهلكنا بعض من أهلكنا من الأمم بالحاصب وبعضهم بالصيحة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالاغراق وجعلنا إنزال الجند من خصائصك في الانتصار لك من قومك وكفينا أمر هؤلاء بصيحة ملك صاح بهم فهلكوا كما قال سبحانه :

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29)

﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة فَإِذَا هُمْ خامدون ﴾ وفي ذلك استحقار لهم ولا هلاكهم وإيماء إلى تفخيم شأن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفسر أبو حيان الجند بما يعم الملائكة فقال : كالحجارة والريح وغير ذللك والمتبادر ما تقدم ، وقيل : الجند ملائكة الوحي الذين ينزلون على الأنبياء عليهم السلام أي قطعنا عنهم الرسالة حين فعلوا ما فعلوا ولم نعبأ بهم

وأهلكناهم ، وعن الحسن ومجاهد قالا قطع الله تعالى عنهم الرسالة حين قتلوا رسله ،

وهذا التفسير بعيد جداً ، وقتل الرسل الثلاثة محكى في البحر بقيل وهو ظاهر هذا المروى

لكن المعروف أنهم لم يقتلوا وإنما قتل حبيب فقط ، وذهبت فرقة إلى أن ما في قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ [ يس : 28 ] موصولة معطوفة على ﴿ جُندُ ﴾ والمراد ما أنزلنا

على قومه من بعده جنداً من السماء وما أنزلنا الذي كنا منزليه على الذين من قبلهم من

حجارة وريح وغير ذلك .

(26/646)

---

وتعقبه أبو حيان بأنه يلزم عليه زيادة ﴿ مِنْ ﴾ في المعرفة ، ومن هنا قيل الأولى جعلها نكرة

موصوفة ، وأجيب بأنه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع ، ولا يخفى أن هذا لا يدفع بعده ،

ومن أبعد ما يكون قول أبي البقاء : يجوز أن تكون ما زائدة أي وقد كنا منزلين على غيرهم

جنداً من السماء بل هو ليس بشيء ، وإن نافية وكان ناقصة واسمها مضمر و ﴿ صَيْحَةً

﴾ خبرها أي ما كانت هي أي الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة ، روى أن الله تعالى

بعث عليهم جبريل عليه السلام حتى أخذ بعضادتي باب المدينة فصاح بهم صيحة

واحدة فماتوا جميعاً ، وإذا فجائية وفيها إشارة إلى سرعة هلاكهم بحيث كان مع الصيحة

، وقد شبهوا بالنار على سبيل الاستعارة المكنية والخمود تخييل ، وفي ذلك رمز إلى أن الحي كشعلة النار والميت كالرماد كما قال لبيد

: وما المرء إلا كالشهاب وضوئه . . .

يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

ويجوز أن تكون الاستعارة تصريحية تبعية في الخمود بمعنى البرودة والسكون لأن الروح لفزعها عند الصيحة تندفع إلى الباطن دفعة واحدة ثم تنحصر فتنطفىء الحرارة الغريزية لانحصارها ، ولعل في العدول عن هامدون إلى ﴿ خامدون ﴾ رمزاً خفياً إلى البعث بعد الموت ، والظاهر أنه لم يؤمن منهم سوى حبيب وانهم هلكوا عن آخرهم ، وفي بعض الآثار أنه إمن الملك وأمن قوم من حواشيه ومن لم يؤمن هلك بالصيحة ، وهذا بعيد فإنه كان الظاهر أن يظاهر أولئك المؤمنون الرسل كما فعل حبيب ولكان لهم في القرآن الجليل ذكر ما بوجه من الوجوه اللهم إلا أن يقال : إنهم آمنوا خفية وكان لهم ما يعذرون به عن المظاهرة ، ومع هذا لا يخلو بعد عن بعد ، وقرأ أبو جعفر .

وشيبة .

ومعاذ بن الحرق القارىء ﴿ صَيْحَةٍ ﴾ بالرفع على أن كان تامة أي ما حدثت ووقعت إلا صيحة وينبغي أن لا تلحق الفعل تاء التأنيث في مثل هذا التركيب فلا يقال ما قامت إلا هند بل ما قام إلا هند لأن الكلام على معنى ما قام أحد إلا هند والفاعل فيه مذكر ، ولم يجوز كثير من النحويين ألا لحاق إلا في الشعر كقول ذي الرمة :

طوى التحز والإجراز ما في غروضها . . .

وما بقيت ألا الضلوع الجراشع

وقول الآخر

: ما برئت من ريبة وذم . . .

في حربنا إلا بنات العم

ومن هنا أنكر الكثير كما قال أبو حاتم هذه القراءة ، ومنهم من أجاز ذلك في الكلام على قلة كما في قراءة الحسن .

ومالك بن دينار .

وأبي رجاء .

والجحدري .

وقتادة .

وأبي حيوة .

وابن أبي عبلة .

وأبي بحرية ﴿ لاَّ ترى إِلاَّ مساكنهم ﴾ [ الأحقاف : 25 ] بالتاء الفوقية ، ووجهه مراعاة الفاعل المذكور ، وكأني بك تميل إلى هذا القول ، وقرأ ابن مسعود ﴿ إِلا ﴾ من زقي الطائر يزقو ويزقي زقا وزقاء إذا صاح ، ومنه المثل أثقل من الزواقي وهي الديكة لأنهم كانوا يسمرون إلى أن تزقوا فإذا صاحت تفرقوا .

(28/646)

---

﴿ يا حسرة عَلَى العباد ﴾ الحسرة على ما قال الراغب الغم على ما فات والندم عليه كأن المتحسر انحسر عنه قواه من فرط ذلك أو ادركه إعياء عن تدارك ما فرط منه ، وفي البحر هي أن يركب الإنسان من شدة الندم ما لا نهاية بعده حتى يبقى حسيراً ، والظاهر أن ﴿ يا ﴾ للنداء و ﴿ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ هو المنادي ونداؤها مجاز بتنزيلها منزلة العقلاء كأنه قيل : يا حسرة احضري فهذا الحال من الأحوال التي من حقها أن تحضري فيها وهي ما دل عليها قوله تعالى : ﴿ مَا تَأْتِيهِم مّنْ رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ والمراد بالعباد مكذبو الرسل ويدخل فيهم المهلكون المتقدمون دخولاً أولياً ، وقيل : هم المراد وليس بذاك وبالحسرة المناداة حسرتهم والمستهزؤون بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير

الدارين أحقاء بأن يتحسروا على أنفسهم حيث فوتوا عليها السعادة الأبدية وعوضوها

العذاب المقيم، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس.

وأبي.

وعلي بن الحسين.

والضحاك.

ومجاهد.

والحسن ﴿ حَكَمَ بَيْنَ العباد ﴾ بالإضافة، وكون المراد حسرة غيرهم عليهم والإضافة

لأدنى ملابسة خلاف الظاهر؛ وأخرج ابن جرير.

وغيره عن قتادة أنه قال في بعض القرآن ﴿ حسابهم وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ ﴾

الخ.

(29/646)

---

وجوز أن تكون حسرة الملائكة عليهم السلام والمؤمنين من الثقلين، وعن الضحاك

تخصيصها بحسرة الملائكة عليهم السلام وزعم أن المراد بالعباد الرسل الثلاثة وأبو العالية

فسر ﴿ العباد ﴾ بهذا أيضاً لكنه حمل الحسرة على حسرة الكفار المهلكين قال:

تحسروا حين رأوا عذاب الله تعالى وتلهفوا على ما فاتهم، وقيل: المراد بالعباد المهلكون والتحسر الرجل الذي جاء من اقصى المدينة تحسر لما وثب القوم لقتله، وقيل: المراد بالعباد أولئك والمتحسر الرسل حين قتلوا ذلك الرجل وحل بهم العذاب ولم يؤمنوا، ولا يخفى حال هذه الأقوال وكان مراد من قال: المتحسر الرجل ومن قال المتحسر الرسل عني أن القول المذكور قول الرجل أو قول الرسل، في كلام أبي حيان ما هو ظاهر في ذلك، ومع هذا لا ينبغي أن يعول على شيء مما ذكر، وجوز أن يكون التحسر منه سبحانه وتعالى مجازاً عن استعظام ما جنوه على أنفسهم، وأيد بأنه قرىء ﴿ خامدون ياحسرة عَلَى العباد ﴾ فإن الأصل عليها يا حسرتي فقلبت الياء ألفاً، ونحوها قراءة ابن عباس كما قال ابن خالويه ﴿ خامدون ياحسرة عَلَى العباد ﴾ بغير تنوين فإن الأصل أيضاً يا حسرتي فقلبت الياء ألفاً ثم حذفت الألف واكتفى عنها بالفتحة، وقرأ أبو الزناد.

وابن هرمز.

وابن جندب ﴿ خامدون ياحسرة عَلَى العباد ﴾ بالهاء الساكنة، قال في المنتقى: وقف ﴿ على ﴾ وقفاً طويلاً تعظيماً للأمر ثم قيل ﴿ ياحسرة عَلَى العباد ﴾.

وفي اللوامح وقفوا على الهاء مبالغة في التحسر لما في الهاء من التأهه كالتأوه، ثم وصلوه على تلك الحال.

وقال الطيبي : إن العرب إذا أخبرت عن الشيء غير معتد به أسرعت فيه ولم تأت على اللفظ المعبر عنه نحو قلت لها قفي قالت لنا قاف أي وقفت فاقتصرت من جملة الكلمة على حرف منها تهاوناً بالحال وتثاقلاً عن الإجابة ، ولا يخفى أن هذا لا يناسب المقام ، وينبغي على هذه القراءة أن لا يكون ﴿ عَلَى العباد ﴾ متعلقاً بحسرة أو صفة له إذ لا يحسن الوقف حينئذ بل يجعل متعلقاً بمضمر يدل عليه ﴿ حَسْرَةً ﴾ نحو يتحسر أو أتحسر على العباد ، وتقدير انظروا ليس بذاك أو خبر مبتدأ محذوف لبيان المتحسر عليه أي الحسرة على العباد وتخريج قراءة ﴿ يا حسرتا ﴾ بالألف على هذا الطرز بأن يقال : قدر الوقف على المنصوب المنون فإنه يوقف عليه بالألف ﴿ كان الله على كل شيء قديرا ﴾ [ الأحزاب : 27 ] وضرب زيد عمراً ليس بشيء ولو سلم أنه شيء لا ينافي التأييد ، وقيل ﴿ يا ﴾ للنداء والمنادي محذوف و ﴿ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ مفعول مطلق لفعل مضمر و ﴿ عَلَى العباد ﴾ متعلق بذلك الفعل أي يا هؤلاء تحسروا حسرة على العباد .

ولعل الأوفق للمقام المتبادر إلى الأفهام أن المراد نداء حسرة كل من يتأتى منه التحسر ففيه من المبالغة ما فيه .

وقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ ﴾ الخ استئناف لبيان ما يتحسر منه ، و ﴿ بِهِ ﴾ متعلق

بيستهزؤون .

وقدم عليه للحصر الادعائي وجوز أن يكون لمراعاة الفواصل .

(31/646)

---

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون ﴾ الضمير لأهل مكة والاستفهام للتقرير وكم خبرية في موضع نصب بأهلكنا و ﴿ مِّنَ القرون ﴾ بيان لكم ، وجوز بعض المتأخرين كون ﴿ كَمْ ﴾ مبتدأ والجملة بعده خبره وهو كلام من لا خبر عنده والجملة معمولة ليروا نافذ معناها فيها و ﴿ كَمْ ﴾ معلقة لها عن العمل في اللفظ لأنها وإن كانت خبرية لها صدر الكلام كالاستفهامية فلا يعمل فيها عامل متقدم على اللغة الفصيحة إلا إذا كان حرف جر أو اسماً مضافاً نحو على كم فقير تصدقت أرجو الثواب وابن كم رئيس صحبته .

وحكى الأخفش على ما في البحر جواز تقدم عامل عليها غير ذلك عن بعضهم نحو ملكت كم غلام أي ملكت كثيراً من الغلمان عاملوها معاملة كثير ؛ والرؤية علمية لا بصرية خلافاً لابن عطية لأنها لا تعلق على المشهور ولأن أهل مكة لم يحضروا إهلاك من قبلهم حتى يروه بل علموه بالأخبار ومشاهدة الآثار ، والقرون جمع قرن وهم القوم المقترنون في زمن واحد كعاد وثمود وغيرهم ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ الضمير عائد على معنى ﴿ كَمْ ﴾ وهي القرون أي إن

القرون المهلكين ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ أي إلى أهل مكة ﴿ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ وأن وما بعدها في تأويل المفرد بدل من جلمة ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ على المعنى كما نقل عن سيبويه وتبعه الزجاج أي ألم يروا كثرة اهلاكنا من قبلهم وكونهم غير راجعين إليهم .

وقيل على المعنى لأن الكثرة المذكورة وعدم الرجوع ليس بينهما اتحاد بجزئية ولا كلية ولا ملابسة كما هو مقتضى البدلية لكن لما كان ذلك في معنى الذين أهلكناهم وأنهم لا يرجعون بمعنى غير راجعين اتضح فيه البدلية على أنه بدل اشتمال أو بدل كل من كل قاله الخفاجي : وأفاد صاحب الكشف على أنه من بدل الكل بجعل كونهم غير راجعين كثرة اهلاك تجوزا ، وعندي أن هذا الوجه وإن لم يكن فيه إبدال مغرد من جملة وتحقق فيه مصحح البدلية على ما مسعت ولا يخلو عن تكلف ، وسيبويه ليس بنبي النحو ليجب اتباعه .



---

وقال السيرافي : يجوز أن يجعل ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ الخ صلة أهلكناهم أي أهلكناهم بأنهم لا يرجعون أي بهذا الضرب من الهلاك ، وجوز ابن هشام في المغنى أن يكون أن وصلتها معمول ﴿ يَرَوْا ﴾ وجملة ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ معترضة بينهما وأن يكون معلقاً عن ﴿ كَمْ

أَهْلَكْنَا ﴾ وأنهم إليهم لا يرجعون مفعولاً لأجله ، قال الشمني : ليروا والمعنى أنهم علموا لأجل أنهم لا يرجعون اهلاكهم .

ورد بأنه لا فائدة يعتد بها فيما ذكر من المعنى .

وتعقبه الخفاجي بقوله : لا يخفى أن ما ذكر وارد على البدلية أيضاً ، والظاهر أن المقصود من ذكره إما التهكم بهم وتحميقهم وإما إفادة ما يفيد تقديم ﴿ إِلَيْهِمُ ﴾ من الحصر أي أنهم لا يرجعون إليهم بل إلينا فيكون ما بعده مؤكداً له اه وهو كما ترى ، وقال الجلبي : لعل الحق أن يجعل أول الضميرين لمعنى ﴿ كَمْ ﴾ وثانيهما للرسل وان وصلتها مفعولاً لأجله لأهلكناهم ، والمعنى أهلكناهم لاستمرارهم على عدم الرجوع عن عقائدهم الفاسدة إلى الرسل وما دعوهم إليه فاختيار ﴿ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ على لم يرجعوا للدلالة على استمرار النفي مع مراعاة الفاصلة انتهى .

وهو على بعده ركيك معنى ، وأرك منه ما قيل الضميران على ما يتبادر فيهما من رجوع الأول لمعنى ﴿ كَمْ ﴾ والثاني لمن نسبت إليه الرؤية وأن وصلتها علة لاهلكنا ، والمعنى أنهم لا يرجعون إليهم فيخبروهم بما حل بهم من العذاب وجزاء الاستهزاء حتى ينزجر هؤلاء فلذا أهلكناهم ، ونقل عن الفراء أنه يعمل ﴿ يَرَوْا ﴾ في ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ وفي ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ الخ من غير إبدال ولم يبين كيفية ذلك .

وزعم ابن عطية أن أن وصلتها بدل من ﴿ كَمْ ﴾ ولا يخفى أنه إذا جعلها معمول ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ كما هو المعروف لا يسوغ ذلك لأن البدل على نية تكرار العامل ولا معنى لقولك أهلكنا أنهم لا يرجعون ولعله تسامح في ذلك ، والمراد بدل من ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ على المعنى كما حكى عن سيبويه ، وأما جعل ﴿ كَمْ ﴾ معمولة ليروا والإبدال منها نفسها إذ ذاك فلا يخفى حاله ، وقال أبو حيان : الذي تقتضيه صاعة العربية أن ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ الخ معمول لمحذوف دل عليه المعنى وتقديره قضينا أو حكمنا أنهم إليهم لا يرجعون والجملة حال من فاعل ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ على ما قال الغفجاي وأراه أبعد عن القيل والقال بيد أن في الدلالة على المحذوف خفاء فإن لم يلصق بقلبك لذلك فالأقوال بين يديك ولا حجر عليك .

وكأني بك تختار ما نقل عن السيرافي ولا بأس به ، وجوز على بعض الأقوال أن يكون الضمير في ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ عائداً على من أسند إليه يروا وفي ﴿ إِلَيْهِمُ ﴾ عائداً على المهلكين ، والمعنى أن الباقين لا يرجعون إلى المهلكين بنسب ولا ولادة أي أهلكناهم وقطعنا نسلهم والاهلاك مع قطع النسل أتم وأعم ، ويحسن هذا على الوجه المحكى عن السيرافي .

وقرأ ابن عباس .

والحسن ﴿ أَنَّهُ ﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف وقطع الجملة عما قبلها من جهة الإعراب .

وقرأ عبد الله ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ مِنْ أَهْلَكْنَا فَإِنَّهُمْ ﴾ الخ على قراءة الفتح بدل اشتمال ، ورد بالآية على القائلين بالرجعة كما ذهب إليه الشيعة .

وأخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر عن أبي إسحاق قال : قيل لابن عباس أن ناساً يزعمون أن علياً كرم الله تعالى وجهه مبعوث قبل يوم القيامة ؟ فسكت ساعة ثم قال : بئس القوم نحن إن نكحنا نساءه واقتسمنا ميراثه أما تقرؤون ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ .

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾

(34/646)

---

بيان لرجوع الكل إلى المحشر بعد بيان عدم الرجوع إلى الدنيا و﴿ إن ﴾ نافية و﴿ كُلٌّ ﴾ مبتدأ وتنوينه عوض عن المضاف إليه ، و﴿ لَّمّاً ﴾ بمعنى إلا ومجيئها بهذا المعنى ثابت في "لسان العرب" بنقل الثقات فلا يلتفت إلى زعم الكسائي أنه لا يعرف ذلك .

وقال أبو عبد الله الرازي : وفي كونها بهذا المعنى معنى مناسب وهو أنها كأنها حرفا نفي أكد أولهما بثانيهما وهما لم وما وكذلك إلا كأنها حرفا نفي وهما إن النافية ولا فاستعمل

أحدهما مكان الآخر ، وهو عندي ضرب من الوساوس و ﴿ جَمِيعٌ ﴾ خبر المبتدأ وهو فعيل بمعنى مفعول فيفيد ما لا تفيده ﴿ كُلٌّ ﴾ لأنها تفيد إحاطة الأفراد وهذا يفيد اجتماعها وانضمام بعضها إلى بعض و ﴿ لَدَيْنَا ﴾ ظرف له أو لمحضرون و ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ خبر ثان أو نعت وجمع على المعنى ، والمعنى ما كلهم إلا مجموعون لدينا محضرون للحساب والجزاء .

وقال ابن سلام : محضرون أي معذبون فكل عبارة عن الكفرة ، ويجوز أن يراد به هذا المعنى على الأول .

وفي الآية تنبيه على أن المهلك لا يترك .

وقرأ جمع من السبعة ﴿ لَمًّا ﴾ بالتخفيف على أن إن مخففة من الثقيلة واللا فارقة وما مزيدة للتأكيد والمعنى أن الشأن كلهم مجموعون الخ وهذا مذهب البصريين ، وذهب الكوفيون إلى أن إن نافية واللام بمعنى إلا وما مزيدة والمعنى كما في قراءة التشديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(35/646)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) ﴾

رجوع إلى قصة أصحاب القرية بعد أن انقطع الحديث عنهم بذكر الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة ناصحاً لهم وكان هذا الرجوع بمناسبة أن القوم قومُ ذلك الرجل .

فجملة ﴿ وما أنزلنا على قومه ﴾ الخ عطف على جملة ﴿ قيل ادخُل الجَنَّة ﴾ [ يس : 26 ] فهي مستأنفة أيضاً استئنافاً بيانياً لأن السامع يتشوف إلى معرفة ما كان من هذا الرجل ومِن أمر قومه الذين نصحهم فلم ينتصحوا فلما بيّن للسامع ما كان من أمره عطف عليه بيان ما كان من أمر القوم بعدَه .

وافتتاح قصة عقابهم في الدنيا بنفي صورة من صُور الانتقام تمهيد للمقصود من أنهم ما حلّ بهم إلا مثل ما حلّ بأمثالهم من عذاب الاستئصال ، أي لم ننزل جنوداً من السماء مخلوقة لقتال قومه ، أو لم ننزل جنوداً من الملائكة من السماء لإِهلاكهم ، وما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة من مَلَك واحد أهلكتهم جميعاً .

و﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ مزيدة في الظرف لتأكيد اتصال المظروف بالظرف وأصلها ﴿ مِن ﴾ الابتدائية ، وإضافة ﴿ بعد ﴾ إلى ضمير الرجل على تقدير مضاف شائع الحذف ، أي بعدَ موته كقوله تعالى : ﴿ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ﴾ [ البقرة : 133 ] .

و ﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ مِن جُندٍ ﴾ مؤكدة لعموم ﴿ جُنْدٍ ﴾ في سياق النفي ، و ﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ ابتدائية وفي الإِتيان بحرف ﴿ مِن ﴾ ثلاثَ مرات مع اختلاف المعنى مُحسّن الجناس .

وفي هذا تعريض بالمشركين من أهل مكة إذ قالوا للنبيء صلى الله عليه وسلم ﴿ أو تأتَي بالله والملائكة قبيلاً ﴾ [ الإسراء : 92 ] أي تأتي بالله الذي تدّعي أنه أرسلك ومعه جنده من الملائكة ليثأر لك .

(36/646)

---

فجملة ﴿ وما كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ معترضة بين نوعي العقاب المنفي والمثبَت ، لقصد الرد على المشركين بأن سنة الله تعالى لم تجر بإنزال الجنود على المكذبين وشأن العاصين أَدْوَنُ من هذا الاهتمام .

والصيحة : المرة من الصياح ، بوزن فعلَة ، فوصفها بواحدة تأكيد لمعنى الوحدة لئلا يتوهم أن المراد الجنس المفرد من بين الأجناس ، و ﴿ صَيْحَةً ﴾ منصوب على أنه خبر ﴿ كَانَتْ ﴾ بعد الاستثناء المفرّغ ، ولحاق تاء التأنيث بالفعل مع نصب ﴿ صَيْحَةً ﴾ مشير إلى أن المستثنى منه المحذوف العقوبة أو الصيحة التي دلت عليها ﴿ صيحة واحِدةً ، ﴾

أي لم تكن العقوبة أو الصيحة إلا صيحةً من صفتها أنها واحدة إلى آخره .

وقرأ أبو جعفر برفع ﴿ صَيْحَةٌ ﴾ على أن "كان" تامة ، أي ما وقعت إلا صيحة واحدة .

ومجيء "إذا" الفجائية في الجملة المفرعة على ﴿ إن كَانَتْ إلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ لإِفادة سرعة الخمود إليهم بتلك الصيحة .

وهذه الصيحة صاعقة كما قال تعالى حكاية عن ثمود : ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ [ الحجر : 73 ] .

والخمود : انطفاء النار ، استعير للموت بعد الحياة المليئة بالقوة والطغيان ، ليتضمن الكلام تشبيه حال حياتهم بشبوب النار وحال موتهم بخمود النار فحصل لذلك استعارتان إحداهما صريحة مصرحة ، وأخرى ضمنية مكنية ورمزها الأُولى ، وهما الاستعارتان اللتان تضمنهما قول لبيد

:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه

يَحور رماداً بعد إذ هو ساطع . . .

وتقدم قوله تعالى : ﴿ حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ في سورة الأنبياء ﴿ ( 15 ) ، فكان هذا الإِيجاز في الآية بديعاً لحصول معنى بيت لبيد في ثلاث كلمات .

وهذا يشير إلى حدث عظيم حدث بأهل أنطاكية عقب دعوة المرسلين وهو كرامة لشهداءِ

أتباع عيسى عليه السلام ، فإن كانت الصيحة صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود كان الذين خمدوا بها جميعَ أهل القرية فلعلهم كانوا كفاراً كلهم بعد موت الرجل الذي وعظهم وبعد مغادرة الرسل القرية .

(37/646)

---

ولكن مثل هذا الحادث لم يذكر التاريخ حدوثه في أنطاكية ، فيجوز أن يهمل التاريخ بعض الحوادث وخاصة في أزمنة الاضطراب والفتنة .

يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30)

( 30 ) ياحسرة عَلَى العباد مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ ﴾ .

تذييل وهو من كلام الله تعالى واقع موقع الرثاء للأمم المكذبة الرسل شامل للأمة المقصودة بسوق الأمثال السابقة من قوله : ﴿ واضْرِبْ لَهُم مَثَلاً أصحابَ القرية ﴾ [ يس : 13 ] ، واطراد هذا السَنن القبيح فيهم .

فالتعريف في ﴿ العباد ﴾ تعريف الجنس المستعمل في الاستغراق وهو استغراق ادعائي روعي فيه حال الأغلب على الأمم التي يأتيها رسول لعدم الاعتداء في هذا المقام بقلة الذين صدّقوا الرسل ونصروهم فكأنَّهم كلهم قد كذبوا .

و﴿ العباد ﴾ : اسم للبشر وهو جمع عبد .

والعبد : المملوك وجميع الناس عبيد الله تعالى لأنه خالقهم والمتصرف فيهم قال تعالى : ﴿ رزقاً للعباد ﴾ [ ق : 11 ] ، وقال المغيرة بن حبناء :

أمسَى العباد بشَرَ لا غياث لهم

إلا المهلب بعد الله والمطرُ . . .

ويجمع على عبيد وعباد وغلب الجمع الأول على عبد بمعنى مملوك ، والجمع الثاني على عبد بمعنى آدمي ، وهو تخصيص حسن من الاستعمال العربي .

والحسرة : شدة الندم مشوباً بتلهف على نفع فائت .

وحرف النداء هنا لمجرد التنبيه على خطر ما بعده ليصغي إليه السامع وكثر دخوله في الجمل المقصود منها إنشاء معنى في نفس المتكلم دون الإخبار فيكون اقتران ذلك الإنشاء بحرف التنبيه إعلاناً بما في نفس المتكلم من مدلول الإنشاء كقولهم : يا خيبة ، ويا لعنة ، ويا ويلي ، ويا فرحي ، ويا ليتني ، ونحو ذلك ، قالت امرأة من طي من أبيات الحماسة :

فيا ضَيعَةَ الفتيان إذ يعتلونه

ببطن الشرا مثل الفنيق المسدّم . . .

وبيت الكتاب :

يا لعنةَ الله والأقوام كلّهم

والصالحين على سِمْعانَ من جار . . .

(38/646)

---

وقد يقع النداء في مثل ذلك بالهمزة كقول جعفر بن علبة الحارثي :

أَلَهْفَى بقُرَّى سَحْبلٍ حين أجلبت

علينا الولايا والعدوُّ المباسل . . .

وأصل هذا النداء أنه على تنزيل المعنى المثير للإنشاء منزلة العاقل فيقصد اسمه بالنداء لطلب حضوره فكأن المتكلم يقول : هذا مقامك فاحْضر ، كما ينادَى من يقصد في أمر عظيم ، ويُنتقل من ذلك إلى الكناية عما لحق المتكلم من حاجة إلى ذلك المنادي ثم كثر ذلك وشاع حتى تنوسي ما فيه من الاستعارة والكناية وصار لمجرد التنبيه على ما يجيء بعده ، والاهتمام حاصل في الحالين .

وتقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ يا ليتني كنت معهم ﴾ في سورةَ النساء ﴿ ( 73 ) ،

وقوله : ﴿ يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ في سورة الفرقان ﴿ ( 28 ) .

وموقع مثله في كلام الله تعالى تمثيل لحال عباد الله تعالى في تكذيبهم رسل الله بحال من يَرثي له

أهله وقوعه في هلاك أرادوا منه تجنبه .

وجملة ﴿ ما يأتيهم من رسول ﴾ بيان لوجه التحسّر عليهم لأن قوله : ﴿ ياحسرة على العباد ﴾ وإن كان قد وقع بعد ذكر أهل القرية فإنه لما عمّم على جميع العباد حدث إيهام في وجه العموم .

فوقع بيانه بأن جميع العباد مساوون لمن ضُرب بهم المثل ومن ضُرب لهم في تلك الحالة الممثل بها ولم تنفعهم المواعظ والنذر البالغة إليهم من الرسول المرسل إلى كل أمة منهم ومن مشاهدة القرون الذين كذبوا الرسل فهلكوا ، فعُلم وجه الحسرة عليهم إجمالاً من هذه الآية ثم تفصيلاً من قوله بعد : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا ﴾ [يس : 31] الخ .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلاّ كانوا به يستهزئون ﴾ مفرغ من أحوال عامة من الضمير في ﴿ يأتيهم ﴾ أي لا يأتيهم رسول في حال من أحوالهم إلا في حال استهزائهم به .

وتقديم المجرور على ﴿ يستهزئون ﴾ للاهتمام بالرسول المشعر باستفظاع الاستهزاء به مع تأتّي الفاصلة بهذا التقديم فحصل منه غرضان من المعاني ومن البديع .

(39/646)

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31)

هذه الجملة بيان لجملة ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ [يس: 30] لما فيها من تفصيل الإجمال المستفاد من قوله: ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون فإن عاقبة ذلك الاستهزاء بالرسول كانت هلاك المستهزئين، فعدمُ اعتبار كل أمة كذبت رسولها بعاقبة المكذبين قبلها يثير الحسرة عليها وعلى نظرائها كما أثارها استهزاؤهم بالرسول وقلة التبصر في دعوته ونذارته ودلائل صدقه.

وضمير يَرَوا ﴾ عائد إلى العباد كما يقتضيه تناسق الضمائر.

والمعاد فيه عموم ادعائي كما تقدم آنفاً، فيتعين أن تخص منه أول أمة كذبت رسولها وهم قوم نوح فإنهم لم يسبق قبلهم هلاك أمة كذبت رسولَها، فهذا من التخصيص بدليل العقل لأن قوله: ﴿ قَبْلَهُم ﴾ يرشد بالتأمل إلى عدم شموله أول أمة أرسل إليها.

وقيل: يجوز أن يكون ضمير ﴿ أَلَم يَروا ﴾ عائداً إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ واضْرِب لهُمْ مَثَلاً ﴾ [يس: 13] ويكون المثَل قد انتهى بجملة ﴿ يا حَسْرَةً على العِبَادِ ﴾ [يس: 30] الآية.

وهذا بعيد لأنه كان يقتضي أن تعطف الجملة على جملة ﴿ واضْرِب لهم مَثَلاً ﴾ كما عطفت جملة ﴿ وءَايَةٌ لهم الأرض الميتة أحييناها ﴾ [يس: 33] الآية، وجملة ﴿ وءاية لهم اللَّيل نسلَخُ منه النهار ﴾ [يس: 37]، وجملة ﴿ وءايةٌ لهم أنَّا حملنا ذريتهم

في الفلك المشحون ﴾ [يس : 41] ، ولا مُلجىء إلى هذا الاعتبار في المعاد ، وقد علمت توجيه الاعتبار الأول لتصحيح العموم .

(40/646)

---

والاستفهام يجوز أن يكون إنكاريا ً؛ نزلت غفلتهم عن إهلاك القرون منزلة عدم العلم فأنكر عليهم عدم العلم بذلك وهو أمر معلوم مشهور ، ويجوز كون الاستفهام تقريريا ً بُني التقرير على نفي العلم بإهلاك القرآن استقصاء لمعذرتهم حتى لا يسعهم إلا الإقرار بأنهم عالمون فيكون إقرارهم أشد لزوما ً لهم لأنهم استفهموا على النفي فكان يسعهم أن ينفوا ذلك .

والرؤية على التقديرين علمية وليست بصرية لأن إهلاك القرون لم يكن مشهودا ً لأمة جاءت بعد الأمة التي أهلكت قبلها .

وفعل الرؤية معلق عن العمل بورود ﴿ كم ﴾ لأن ﴿ كم ﴾ لها صدر الكلام سواء كانت استفهاما ً أم خبرا ً ، فإن ﴿ كم ﴾ الخبرية منقولة من الاستفهامية وما له صدر الكلام لا يعمل ما قبله فيما بعده .

و﴿ كم ﴾ في موضع نصب بـ ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ : ومفادها كثرة مبهمة فسّرت بقوله : ﴿ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ ووقعت ﴿ كم ﴾ في موضع المفعول لقوله : ﴿ أَهْلَكنا ﴾ .

و ﴿ قَبْلَهُم ﴾ ظرف ل ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ ومعنى ﴿ قَبْلَهُم : ﴾ قبل وجودهم .

وقوله : ﴿ أَنَّهُم إليهم لا يَرْجِعون ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ أهلكنا ﴾ لأن الإهلاك يشتمل على عدم الرجوع ؛ أبدل المصدر المنسبك من "أَنَّ" وما بعدها من معنى جملة ﴿ كم أهلكنا قبلهم من القرون ﴾ لأن معنى تلك الجملة كثرة الإهلاك أو كثرة المهلكين .

وفعل الرؤية عامل في ﴿ أَنَّهم إليهم لا يَرْجِعُونَ ﴾ بالتبعية لتسلط معنى الفعل على جملة ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ لأن التعليق يبطل العمل في اللفظ لا في المحل .

وفائدة هذا البدل تقرير تصوير الإهلاك لزيادة التخويف ، ولاستحضار تلك الصورة في الإهلاك أي إهلاكاً لا طماعية معه لرجوع إلى الدنيا ، فإن ما يشتمل عليه الإهلاك من عدم الرجوع إلى الأهل والأحباب مما يزيد الحسرة اتضاحاً .

و ﴿ إِلَيْهِم ﴾ متعلق بـ ﴿ يَرجعون ﴾ وتقديمه على متعلقه للرعاية على الفاصلة .

(41/646)

---

وضمير ﴿ إليهم ﴾ عائد إلى ﴿ العِبَادِ ﴾ [ يس : 30 ] ، وضمير ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ عائد إلى ﴿ القُرُون .

وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (32)

أرى أن عطفه على جملة ﴿ أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ [ يس : 31 ] واقعٌ موقع الاحتراس من توهم المخاطبين بالقرآن أن قوله : ﴿ أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ مؤيد اعتقادهم انتفاء البعث .

و ﴿ إِنْ ﴾ يجوز أن تكون مخففة من الثقيلة والأفصح إهمالها عن العمل فيما بعدها ، والأكثر أن يقترن خبر الاسم بعدها بلام تسمّى اللام الفارقة لأنها تفرق بين ﴿ إِنْ ﴾ المخففة من الثقيلة وبين ﴿ إِنْ ﴾ النافية لئلا يلتبس الخبر المؤكد بالخبر المنفي فيناقض مقصد المتكلم ، وعلى هذا الوجه يكون قوله : ﴿ لَما ﴾ مخفف الميم كما قرأ الجمهور ﴿ لَمَا جَمِيعٌ ﴾ بتخفيف ميم ﴿ لَمَّا ﴾ ، فهي مركبة من اللام الفارقة و ( ما ) الزائدة للتأكيد ، ويجوز أن تكون ﴿ إِنْ ﴾ نافية بمعنى ( لا ) ويكون ﴿ لَمَّا ﴾ بتشديد الميم على أنها حرف استثناء بمعنى ( إلا ) تقع بعد النفي ونحوه كالقسم .

وكذلك قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر .

والتقدير : وما كلهم إلا مُحْضَرُون لدينا .

و ﴿ كُلٌّ ﴾ مبتدأ وتنوينه تنوين العوض عما أضيف إليه ( كل ) ، أي كل القرون ، أو كل المذكورين من القرون والمخاطبين .

و ﴿ جَمِيعٌ ﴾ اسم على وزن فعيل ، أي مجموع ، وهو ضد المتفرق .

يقال : جمع أشياءَ كذا ، إذا جعلها متقاربة متصلة بعد أن كانت مشتتة ومتباعدة .

والمعنى : أن كل القرون محضرون لدينا مجتمعين ، أي ليس إحضارهم في أوقات مختلفة ولا في أمكنة متعددة ؛ فكلمة ﴿ كل ﴾ أفادت أن الإِحضار محيط بهم بحيث لا ينفلت فريق منهم ، وكلمة ﴿ جميع ﴾ أفادت أنهم محضرون مجتمعين فليست إحدى الكلمتين بمغنية عن ذكر الأخرى ، ألا ترى أنه لو قيل : وإن أكثرهم لما جميع لدينا محضرون ، لما كان تناف بين "أكثرهم" وبين "جميعهم" أي أكثرهم يحضر مجتمعين ؛ فارتفع ﴿ جَمِيعٌ ﴾ على الخبرية في قراءات تخفيف ﴿ لَمَا ﴾ وعلى الاستثناء على قراءات تشديد ﴿ لَمَّا ﴾ .

و﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ نعت ل ﴿ جَمِيعٌ ﴾ على القراءتين .

وروعي في النعت معنى المنعوت فألحقت به علامة الجماعة ، كقول لبيد :

عَرِيتْ وكان بها الجَميع فأبكروا

منها وغُودر نُؤيها وثُمامها . . .

والإِحضار : الإِحضار للحساب والجزاء والعقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) ﴾

ما كانت إلا قضية مِنَّا بعقوبتهم ، وتغييراً لِمَا كانوا به من السلامة إلى وصف البلاء .

يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30)

إن لم يتحسَّروا هم اليوم فَلَهُم موضع التحسُّر ؛ وذلك لانخراطهم في سِلكٍ واحد من التكذيب ومخالفة الرسل ، ومناوءة أوليائه -سبحانه .

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (32)

ألم يروا ما فعلنا بمن قبلهم من القرون الماضية ، وما عاملنا به الأمم الخالية ، فلم يرجع إليهم أحد ، فكُلُّهم في قبضة القدرة ، ولم يَفُتنا أحدٌ ، ولم يكن لواحدٍ منهم علينا عونٌ ولا مَدَدٌ ، ولا عن حكمنا ملتحد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 215 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أتم ضرب المثل المفيد لتمام قدرته على الأفعال الهائلة ببشارة ونذارة حتى أن من طبع على قلبه فهو لا يؤمن وإن كان قريباً في النسب والدار ، ومن أسكن قلبه الخشية يؤمن وإن شط به النسب والمزار ، فتم التعريف بالقسم المقصود بالذات وهو من يتبع الذكر ، وختم بالبعث وكانوا له منكرين ، وكان قد جعله في صدر الكلام من تمام بشارة من اتبع الذكر ، دل عليه بقوله مبتدئاً بنكرة تنويها دال على تعظيمها : ﴿ وآية ﴾ أي علامة عظيمة ﴿ لهم ﴾ على قدرتنا على البعث وإيجادنا له ﴿ الأرض ﴾ أي هذا الجنس الذي هم منه ؛ ثم وصفها بما حقق وجه الشبه فقال : ﴿ الميتة ﴾ التي لا روح لها لأنه لا نبات بها أعم من أن يكون بها نبات وفني فتفتت وصار ترابا أو لم يكن بها شيء أصلاً .

ثم استأنف بيان كونها آية بقوله : ﴿ أحييناها ﴾ أي باختراع النبات فيها أو بإعادته بسبب المطر كما كان بعد اضمحلاله .

ولما كان إخراج الأقوات نعمة أخرى قال : ﴿ وأخرجنا منها حباً ﴾ ونبه تعالى على عظيم القدرة فيها وعلى عموم نفعها بمظهر العظمة ، وزاد في التنبيه بالتذكير بأن الحب معظم ما يقيم الحيوان فقال مقدماً للجار إشارة إلى عد غيره بالنسبة إليه عدماً لعظيم وقعه وعموم نفعه بدليل أنه متى قل جاء القحط ووقع الضرر : ﴿ فمنه ﴾ أي بسبب هذا الإخراج ﴿ يأكلون ﴾ أي فهو حب حقيقة يعلمون ذلك علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين لا يقدرون على أن يدعوا أن ذلك خيال سحري بوجه ، وفي هذه الآية وأمثالهم حث عظيم على تدبر القرآن واستخراج ما فيه من المعاني الدالة على جلال الله وكماله ، وقد أنشد هنا الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله في تفسيره في عيب من أهمل ذلك فقال :

يا من تصدر في دست الإمامة في . . .

مسائل الفقه إملاء وتدريسا

غفلت عن حجج التوحيد تحكمها . . .

شيدت فرعاً وما مهدت تأسيسا

ولما ذكر سبحانه ما في الزروع وما لا ساق له من النعمة والقدرة ، ودل السياق فيه على

الحصر ، أتبعه ما يبن المراد التعظيم لا الحصر الحقيقي بإظهار المنة في غيره من الأشجار الكبار والصغار ذات الأقوات والفواكه ، فقال دالاً على عظمه بمظهر العظمة :

﴿ وجعلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ فيها ﴾ أي الأرض ﴿ جنات ﴾ أي بساتين تستر داخلها بما فيها من الأشجار الملتفة .

ولما كان النخل – مع ما فيه من النفع – زينة دائماً بكونه لا يسقط ورقه ، قدمه وسماه باسمه فقال : ﴿ من نخيل ﴾ وفيه أيضاً إشارة إلى أنه نفع كله خشبه وليفه وشعبه وخوصه وعراجينه وثمره طلعاً وجماراً وبسراً ورطباً وتمراً ، ولذلك – والله أعلم – أتى فيه بصيغة جمع الكثرة كالعيون ، ولما كان الكرم لا تكون له زينة بأوراق تجن إلا ما كان العنب قائماً قال : ﴿ وأعناب ﴾ ودل بالجمع فيهما دون الحب على كثرة اختلاف الأصناف في النوع الواحد الموجب للتفاوت الظاهر في القدر والطعم وغير ذلك .

(46/646)

---

ولما كانت الجنات لا تصلح إلا بالماء ، وكان من طبع الماء الغور في التراب والرسوب بشدة السريان إلى أسفل ، فكان فورانه إلى جهة العلو أمراً باهراً للعقل لا يكون إلا بقسر قاسر حكيم قال : ﴿ وفجرنا ﴾ أي فتحنا تفتيحاً عظيماً ﴿ فيها ﴾ ودل على تناهي عظمته

وتعاليها عن أن يحاط بشيء منها بالتبعيض بقوله : ﴿ من العيون ﴾ والتعريف هنا يدل على أن الأرض مركبة على الماء ، فكل موضع منها صالح لأن ينفجر منه الماء ، ولكن الله يمنعه عن بعض المواضع بخلاف الأشجار ليس منها شيء غالباً على الأرض ، ففي ذلك تذكير بالنعمة في حبس الماء عن بعض الأرض لتكون موضعاً للسكن ، ولو شاء لفجر الأرض عيوناً كما فعل بقوم نوح عليه السلام فأغرق الأرض كلها .

ولما كانت حياة كل شيء إنما هي بالماء ، أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ ليأكلوا من ﴾ وأشارت قراءة حمزة والكسائي بصيغة الجمع مع إفراد الضمير إلى أن الشجرة الواحدة تجمع بالتطعيم أصنافاً من الثمر ﴿ ثمره ﴾ أي من ثمر ما تقدم ، ولولا الماء لما طلع ، ولولا أنه بكثرة لما أثمر بعد الطلوع .

ولما كان الإنسان قد يتسبب في تربية بعض الأشياء ، أبطل سبحانه الأسباب فيما يمكن أن يدعو فيه تسبباً ، ونبه على أن الكل بخلقه فقال : ﴿ وما عملته ﴾ أي ولم تعمل شيئاً من ذلك ﴿ أيديهم ﴾ أي عملاً ضعيفاً - بما أشار إليه تأنيث الفعل فكيف بما فوقه وإن تظافروا على ذلك بما أشار إليه جمع اليد .

ولما كان السياق ظاهراً في هذا جاءت قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بحذف الضمير غير منوي قصراً للفعل تعميماً للمفعول رداً لجميع الأمور إلى بارئها سواء كانت بسبب أو بغير سبب ، أي ولم يكن لأيديهم عمل لشيء من الأشياء لا لهذا ولا لغيره مما له

مدخل في عيشهم ومن غيره ، ولذلك حسن كل الحسن إنكاره عليهم عدم الشكر بقوله :

﴿ أفلا يشكرون ﴾ أي يدأبون دائماً في إيقاع الشكر والدوام على تجديده في كل حين بسبب هذه النعم الكبار .

(47/646)

---

ولما كان السياق لإثبات الوحدانية والإعلام بأن ما عبد من دونه لا استحقاق له في ذلك بوجه ، ولا نفع بيده ولا ضر ، وأنتج هذا السياق بما دل عليه من تفرده بكل كمال وأنه لا أمر لأحد معه بوجه من الوجوه - تنزهه عما ادعوه من الشرك غاية التنزه ، قال لافتاً للكلام عن مظهر العظمة لأن إثباتها بالرحمة الدال عليها أدخل في التعظيم : ﴿ سبحان الذي ﴾ ووصفه بما أكد ما مضى من إسناد الأمور كلها إليه ونفى كل شيء منها عمن سواه فقال :

﴿ خلق الأزواج ﴾ أي الأنواع المتشاكلة المتباينة في الأوصاف وفي الطعوم والأرابيح والأشكال والهيئات والطبائع وغير ذلك من أمور لا يحصيها إلا الله تدل أعظم دلالة على كمال القدرة وعظيم الحكمة والاختيار في الإرادة ، وأكد بقوله : ﴿ كلها ﴾ لإفادة التعميم ؛ ثم زاد الأمر تصريحاً بالبيان بقوله : ﴿ مما تنبت الأرض ﴾ فدخل فيه من كل نجم وشجر ومعدن وغيره من كل ما يتولد منها ، وأشار - لكونه في سياق تكذيبهم - إلى تأديبهم

بتحقيرهم بجمع القلة والتعبير بالنفس التي تطلق في الغالب على ما يذم به فقال : ﴿ ومن أنفسهم ﴾ وبين أن وراء ذلك أموراً لا يعلمها إلا هو سبحانه فقال : ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ أي ومما لا يحتاجون إليه في دينهم ولا دنياهم ، ولا توقف لشيء من إصلاح المعاش والمعاد عليه ، ولو كان ذلك لأعلم به كما أعلم بأحوال الآخرة وغيرها مما لم نكن نعلمه . انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 259 . 261 ﴾

*(48/646)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) ﴾

كأنه يقول : وأقول أيضاً آية لهم الأرض الميتة وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما وجه تعلق هذا بما قبله ؟ نقول مناسب لما قبله من وجهين أحدهما : أنه لما قال :

﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ ﴾ [ يس : 32 ] كان ذلك إشارة إلى الحشر ، فذكر ما يدل على إمكانه قطعاً لإنكارهم واستبعادهم وإصرارهم وعنادهم ، فقال : وآية لهم الأرض الميتة

أحييناها كذلك نحيي الموتى وثانيهما : أنه لما ذكر حال المرسلين وإهلاك المكذبين وكان شغلهم التوحيد ذكر ما يدل عليه ، وبدأ بالأرض لكونها مكانهم لا مفارقة لهم منها عند الحركة والسكون .

المسألة الثانية :

الأرض آية مطلقاً فلم خصصها بهم حيث قال : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ نقول : الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشيء بأبلغ الوجوه ، وأما من عرف الشيء بطريق الرؤية لا يذكر له دليل ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم وعباد الله المخلصين عرفوا الله قبل الأرض والسماء ، فليست الأرض معرفة لهم ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءاياتنا فِي الآفاق وَفِي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ [ فصلت : 53 ] وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبّكَ أَنَّهُ على كُلّ شَيْء شَهِيدٌ ﴾ [ فصلت : 53 ] يعني أنت كفاك ربك معرفاً ، به عرفت كل شيء فهو شهيد لك على كل شيء ، وأما هؤلاء تبين لهم الحق بالآفاق والأنفس ، وكذلك ههنا آية لهم .

المسألة الثالثة :

إن قلنا إن الآية مذكورة للاستدلال على جواز إحياء الموتى فيكفي قوله : ﴿ أحييناها ﴾ ولا حاجة إلى قوله : ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً ﴾ وغير ذلك ، وإن قلنا إنها للاستدلال على وجود الإله ووحدته فلا فائدة في قوله : ﴿ الأرض الميتة أحييناها ﴾ لأن نفس الأرض دليل ظاهر وبرهان باهر ، ثم هب أنها غير كافية فقوله : ﴿ الميتة أحييناها ﴾ كاف في التوحيد فما فائدة قوله : ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً ﴾ نقول مذكورة للاستدلال عليها ولكل ما ذكره الله تعالى فائدة .

(50/646)

---

أما قوله : ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً ﴾ فله فائدة بالنسبة إلى بيان إحياء الموتى ، وذلك لأنه لما أحيا الأرض وأخرج منها حباً كان ذلك إحياءً تاماً لأن الأرض المخضرة التي لا تنبت الزرع ولا تخرج الحب دون ما تنبته في الحياة ، فكأنه قال تعالى الذي أحيا الأرض إحياءً كاملاً منبتاً للزرع يحيي الموتى إحياءً كاملاً بحيث تدرك الأمور ، وأما بالنسبة إلى التوحيد فلأن فيه تعديد النعم كأنه يقول آية لهم الأرض فإنها مكانهم ومهدهم الذي فيه تحريكهم وإسكانهم والأمر الضروري الذي عنده وجودهم وإمكانهم وسواء كانت ميتة أو لم تكن فهي مكان لهم لا بد لهم منها فهي نعمة ثم إحياؤها بحيث تخضر نعمة ثانية فإنها تصير

أحسن وأنزه ، ثم إخراج الحب منها نعمة ثالثة فإن قوتهم يصير في مكانهم ، وكان يمكن أن يجعل الله رزقهم في السماء أو في الهواء فلا يحصل لهم الوثوق ، ثم جعل الجنات فيها نعمة رابعة لأن الأرض تنبت الحب في كل سنة ، وأما الأشجار بحيث تؤخذ منها الثمار فتكون بعد الحب وجوداً ، ثم فجرنا فيها العيون ليحصل لهم الاعتماد بالحصول ولو كان ماؤها من السماء لحصل ولكن لم يعلم أنها أين تغرس وأين يقع المطر وينزل القطر وبالنسبة إلى بيان إحياء الموتى كل ذلك مفيد وذلك لأن قوله : ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً ﴾ كالإشارة إلى الأمر الضروري الذي لا بد منه وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جنات ﴾ كالأمر المحتاج إليه الذي إن لم يكن لا يغني الإنسان لكنه يبقى مختل الحال وقوله : ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العيون ﴾ إشارة إلى الزينة التي إن لم تكن لا تغني الإنسان ولا يبقى في ورطة الحاجة ، لكنه لا يكون على أحسن ما ينبغي ، وكأن حال الإنسان بالحب كحال الفقير الذي له ما يسد خلته من بعض الوجوه ولا يدفع حاجته من كل الوجوه وبالثمار ويعتبر حاله كحال المكتفي بالعيون الجارية التي يعتمد عليها الإنسان ويقوى بها قلبه كالمستغني الغني المدخر لقوت سنين ، فيقول

الله عز وجل كما فعلنا في موات الأرض كذلك نفعل في الأموات في الأرض فنحييهم ونعطيهم ما لا بد لهم منه في بقائهم وتكوينهم من الأعضاء المحتاج إليها وقواها كالعين والقوة الباصرة والأذن والقوة السامعة وغيرهما ونزيد له ما هو زينة كالعقل الكامل والإدراك الشامل فيكون كأنه قال نحيي الموتى إحياءً تاماً كما أحيينا الأرض إحياءً تاماً .

المسألة الرابعة :

قال عند ذكر الحب ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ وفي الأشجار والثمار قال : ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ وذلك لأن الحب قوت لا بد منه فقال : ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ أي هم آكلوه ، وأما الثمار ليست كذلك ، فكأنه تعالى قال إن كنا ما أخرجناها كانوا يبقون من غير أكل فأخرجناها ليأكلوها .

المسألة الخامسة :

خصص النخيل والأعناب بالذكر من سائر الفواكه لأن ألذ المطعوم الحلاوة ، وهي فيها أتم ولأن التمر والعنب قوت وفاكهة ، ولا كذلك غيرهما ولأنهما أعم نفعاً فإنها تحمل من البلاد إلى الأماكن البعيدة ، فإن قيل فقد ذكر الله الرمان والزيتون في الأنعام والقضب والزيتون والتين في مواضع ، نقول في الأنعام وغيرها المقصود ذكر الفواكه والثمار ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ [ الأنعام : 99 ] وإلى قوله : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ ﴾ [ عبس : 24 ] فاستوفى الأنواع بالذكر وههنا المقصود ذكر صفات الأرض

فاختار منها الألذ الأنفع ، وقد ذكرنا في سورة الأنعام ما يستفاد منه الفوائد ويعلم منه فائدة قوله تعالى : ﴿ فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [ الرحمن : 68 ] .

المسألة السادسة :

(52/646)

---

في المواضع التي ذكر الله الفواكه لم يذكر التمر بلفظ شجرته وهي النخلة ولم يذكر العنب بلفظ شجرته بل ذكره بلفظ العنب والأعناب ، ولم يذكر الكرم وذلك لأن العنب شجرته بالنسبة إلى ثمرته حقيرة قليلة الفائدة والنخل بالنسبة إلى ثمرته عظيمة جليلة القدر كثيرة الجدوى ، فإن كثيراً من الظروف منها يتخذ وبلحائها ينتفع ولها شبه بالحيوان فاختار منها ما هو الأعجب منها ، وقوله تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العيون ﴾ آية عظيمة لأن الأرض أجزاؤها بحكم العادة لا تصعد ونحن نرى منابع الأنهار والعيون في المواضع المرتفعة وذلك دليل القدرة والاختيار والقائلون بالطبائع قالوا إن الجبال كالقباب المبنية والأبخرة ترتفع إليها كما ترتفع إلى سقوف الحمامات وتكون هناك قطرات من الماء ثم تجتمع ، فإن لم تكن قوية تحصل المياه الراكدة كالآبار وتجري في القنوات ، إن كانت قوية تشق الأرض وتخرج أنهاراً جارية وتجتمع فتحصل الأنهار العظيمة وتمدها مياه الأمطار والثلوج ، فنقول اختصاص

بعض الجبال بالعيون دليل ظاهر على الاختيار وما ذكروه تعسف ، فالحق هو أن الله تعالى خلق الماء في المواضع المرتفعة وساقها في الأنهار والسواقي أو صعد الماء من المواضع المتسفلة إلى الأماكن المرتفعة بأمر الله وجرى في الأودية إلى البقاع التي أنعم الله على أهلها .

ثم قال تعالى : ﴿لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾ والترتيب ظاهر ويظهر أيضاً في التفسير وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(53/646)

---

لم أخر التنبيه على الانتفاع بقوله : ﴿لِيَأْكُلُواْ﴾ عن ذكر الثمار حتى قال : ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العيون﴾ وقال في الحب : ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ عقيب ذكر الحب ، ولم يقل عقيب ذكر النخيل والأعناب ليأكلوا ؟ نقول الحب قوت وهو يتم وجوده بمياه الأمطار ولهذا يرى أكثر البلاد لا يكون بها شيء من الأشجار والزرع والحراثة لا تبطل هناك اعتماداً على ماء السماء وهذا لطف من الله حيث جعل ما يحتاج إليه الإنسان أعم وجوداً ، وأما الثمار فلا تتم إلا بالأنهار ولا تصير الأشجار حاملة للثمار إلا بعد وجود الأنهار فلهذا أخر .

المسألة الثانية :

الضمير في قوله : ﴿ مِن ثَمَرِهِ ﴾ عائد إلى أي شيء ؟ نقول المشهور أنه عائد إلى الله أي ليأكلوا من ثمر الله وفيه لطيفة : وهي أن الثمار بعد وجود الأشجار وجريان الأنهار لم توجد إلا بالله تعالى ولولا خلق الله ذلك لم توجد فالثمر بعد جميع ما يظن الظان أنه سبب وجوده ليس إلا بالله تعالى وإرادته فهي ثمره ، ويحتمل أن يعود إلى النخيل وترك الأعناب لحصول العلم بأنها في حكم النخيل ويحتمل أن يقال هو راجع إلى المذكور أي من ثمر ما ذكرنا ، وهذان الوجهان نقلهما الزمخشري ، ويحتمل وجهاً آخر أغرب وأقرب وهو أن يقال المراد من الثمر الفوائد يقال ثمرة التجارة الربح ويقال ثمرة العبادة الثواب ، وحينئذٍ يكون الضمير عائداً إلى التفجير المدلول عليه بقوله : ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العيون ﴾ تفجيرا ليأكلوا من فوائد ذلك التفجير وفوائده أكثر من الثمار بل يدخل فيه ما قال الله تعالى :

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الماء صَبّاً ﴾ [ عبس : 25 ] إلى أن قال : ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وفاكهة وَأَبّاً ﴾ [ عبس : 27 31 ]

والتفجير أقرب في الذكر من النخيل ، ولو كان عائداً إلى الله لقال من ثمرنا كما قال ( وجعلنا ) ( وفجرنا ) .

المسألة الثالثة :

ما في قوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ ﴾ من أي الماءات هي ؟ نقول فيها وجوه أحدها : نافية كأنه قال : وما عملت التفجير أيديهم بل الله فجر وثانيها : موصولة بمعنى الذي كأنه قال والذي عملته أيديهم من الغراس بعد التفجير يأكلون منه أيضاً ويأكلون من ثمر الله الذي أخرجه من غير سعي من الناس ، فعطف الذي عملته الأيدي على ما خلقه الله من غير مدخل للإنسان فيها وثالثها : هي مصدرية على قراءة من قرأ ( وما عملت ) من غير ضمير عائد معناه ليأكلوا من ثمره وعمل أيديهم يعني يغرسون والله ينبتها ويخلق ثمرها فيأكلون مجموع عمل أيديهم وخلق الله ، وهذا الوجه لا يمكن على قراءة من قرأ مع الضمير .

المسألة الرابعة :

على قولنا ما موصولة ، يحتمل أن يكون بمعنى وما عملته أي بالتجارة كأنه ذكر نوعي ما يأكل الإنسان بهما ، وهما الزراعة والتجارة ، ومن النبات ما يؤكل من غير عمل الأيدي كالعنب والتمر وغيرهما ومنه ما يعمل فيه عمل صنعة فيؤكل كالأشياء التي لا تؤكل إلا مطبوخة أو كالزيتون الذي لا يؤكل إلا بعد إصلاح ، ثم لما عدد النعم أشار إلى الشكر بقوله : ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ وذكر بصيغة الاستفهام لما بينا من فوائد الاستفهام فيما تقدم .

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36)

قد ذكرنا أن لفظة سبحان علم دال على التسبيح وتقديره سبح تسبيح الذي خلق الأزواج كلها ، ومعنى سبح نزه ، ووجه تعلق الآية بما قبلها هو أنه تعالى لما قال : ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [ يس : 35 ] وشكر الله بالعبادة وهم تركوها ولم يقتنعوا بالترك بل عبدوا غيره وأتوا بالشرك فقال : سبحان الذي خلق الأزواج وغيره لم يخلق شيئاً فقال أو نقول ، لما بين أنهم أنكروا الآيات ولم يشكروا بين ما ينبغي أن يكون عليه العاقل فقال : ﴿ سبحان الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا ﴾ أو نقول لما بين الآيات قال : سبحان الذي خلق ما ذكره عن أن يكون له شريك أو يكون عاجزاً عن إحياء الموتى وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ كُلَّهَا ﴾ يدل على أن أفعال العباد مخلوقة لله لأن الزوج هو الصنف وأفعال العباد أصناف ولها أشباه هي واقعة تحت أجناس الأعراض فتكون من الكل الذي قال الله فيها إنه خلق الأزواج كلها ، لا يقال مما تنبت الأرض ، يخرج الكلام عن العموم لأن من قال أعطيت زيداً كل ما كان لي يكون للعموم إن اقتصر عليه ، فإذا قال بعده من الثياب لا يبقى الكلام على عمومه لأنا نقول ذلك إذا كانت من لبيان التخصيص ، أما إذا كانت لتأكيد

العموم فلا ، بدليل أن من قال أعطيته كل شيء من الدواب والثياب والعبيد والجواري يفهم منه أنه يعدد الأصناف لتأكيد العموم ويؤيد هذا قوله تعالى في حم : ﴿ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [ الزخرف : 12 ] من غير تقييد .

المسألة الثانية :

(56/646)

---

ذكر الله تعالى أموراً ثلاثة ينحصر فيها المخلوقات فقوله : ﴿ مِمَّا تُنبِتُ الأرض ﴾ يدخل فيها ما في الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات والثمار وقوله : ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ يدخل فيها الدلائل النفسية وقوله : ﴿ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يدخل ما في أقطار السموات وتخوم الأرضين وهذا دليل على أنه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل أن الأنعام مما خلقها الله والمعادن لم يذكرها وإنما ذكر الأشياء لتأكيد معنى العموم كما ذكرنا في المثال .

المسألة الثالثة :

قوله ﴿ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فيه معنى لطيف وهو أنه تعالى إنما ذكر كون الكل مخلوقاً لينزه الله عن الشريك فإن المخلوق لا يصلح شريكاً للخلق ، لكن التوحيد الحقيقي لا يحصل إلا بالاعتراف بأن لا إله إلا الله ، فقال تعالى اعلموا أن المانع من التشريك فيما تعلمون وما لا

تعلمون لأن الخلق عام والمانع من الشركة الخلق فلا تشركوا بالله شيئاً مما تعلمون فإنكم تعلمون أنه مخلوق ومما لا تعلمون فإنه عند الله كله مخلوق لكون كله ممكناً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 57 . 61 ﴾

(57/646)

---

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) ﴾

(58/646)

---

هذه مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم فيها توعد لقريش إذ هذا هو المروع لهم من المثال ، أي ينزل بهم من عذاب الله ما نزل بقوم حبيب النجار ، فنفى عز وجل ، أي أنه ما أنزل على قوم هذا الرجل ﴿ من جند من السماء ﴾ ، فقال مجاهد : أراد أنه لم يرسل رسولاً ولا استعتبهم ، قال ابن مسعود : أراد لم يحتج في تعذيبهم إلى جند من جنود الله تعالى كالحجارة والغرق والريح وغير ذلك بل كانت صيحة واحدة لأنهم كانوا أيسر وأهون من

ذلك ، قال قتادة : والله ما عاتب الله تعالى قومه بعد قتله حتى أهلكهم ، واختلف المتأولون في قوله ﴿ وما كنا منزلين ﴾ ، فقالت فرقة ﴿ ما كنا منزلين ﴾ ، ﴿ ما ﴾ نافية وهذا يجري مع التأويل الثاني في قوله ، ﴿ ما أنزلنا من جند ﴾ ، وقالت فرقة ﴿ وما ﴾ عطف على ﴿ جند ﴾ أي من جند ومن الذي كنا منزلين على الأمم مثلهم قبل ذلك ، وقرأ الجمهور " إلا صيحةً " بالنصب على خبر "كان " ، أي ما كان عذابهم إلا صحية واحدة ، وقرأ أبو جعفر ومعاذ بن الحارث " إلا صيحةٌ " بالرفع ، وضعفها أبو حاتم ، والوجه فيها أنها ليست "كان " التي تطلب الاسم والخبر ، وإنما التقدير ما وقعت أو حدثت إلا صحية واحدة ، وقرأ ابن مسعود وعبد الرحمن بن الأسود إلا زقية " وهي الصيحة " من الديك ونحوه من الطير ، و ﴿ خامدون ﴾ ساكنون موتى لاطئون بالأرض شبهوا بالرماد الذي خمدت ناره وطفئت ، وقوله ﴿ يا حسرة ﴾ نداء لها على معنى هذا وقت حضورك وظهورك هذا تقدير نداء مثل هذا عند سيبويه ، وهو معنى قويم في نفسه ، وهو نداء منكور على هذا القراءة ، قال الطبري : المعنى " يا حسرة العباد على أنفسهم " ، وذكر أنها في بعض القراءات كذلك ، وقال ابن عباس : " يا ويلا العباد " ، وقرأ ابن عباس والضحاك وعلي بن الحسين ومجاهد وأبي بن كعب " يا حسرةَ العبادِ " ، بإضافتها ، وقول ابن عباس حسن مع قراءته ، وتأويل الطبري في ذلك القراءة الأولى ليس بالبين وإنما يتجه أن يكون المعنى

تلهفاً على العباد ، كأن الحال يقتضيه وطباع كل بشر توجب عند سماعه حالهم وعذابهم على الكفر وتضييعهم أمر الله تعالى أن يشفق ويتحسر على العبادة ، وقال أبو العالية : المراد ب ﴿ العباد ﴾ الرسل الثلاثة ، فكأن هذا التحسر هو من الكفار حين رأوا عذاب الله تلهفوا على ما فاتهم ، وقوله تعالى : ﴿ ما يأتيهم ﴾ الآية ، يدافع هذا التأويل ، والحسرة التلهفات التي تترك صاحبها حسيراً ، وقرأ الأعرج بن جندب وأبو الزناد " يا حسرة " بالوقف على الهاء وذلك للحرص على بيان معنى التحسر وتقريره للنفس ، والنطق بالهاء في مثل هذا أبلغ في التشفيق وهز النفس كقولهم : أوه ونحوه ، وقوله ﴿ ما يأتيهم من رسول ﴾ الآية ، تمثيل لفعل قريش ثم عناهم بقوله ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون ﴾ ، و ﴿ كم ﴾ هنا خبرية ، و ﴿ أنهم ﴾ بدل منها ، والرؤية رؤية البصر ، وفي قراءة ابن مسعود " أو لم يروا من أهلكنا " ، وقرأ جمهور القراء " أنهم " بفتح الألف ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " إنهم " بكسرها ، وقرأ جمهور الناس " لما جميع " بتخفيف الميم وذلك على زيادة " ما " للتأكيد ، والمعنى لجميع ، وقرأ الحسن وابن جبير عاصم " لمّا " بشد الميم ، قالوا هي منزلة منزلة " إلا " ، وقيل المراد " لمما " حذفت الميم الواحدة وفيها

ضعف، وفي حرف أبيّ و" إن منهم إلا جميع "، و﴿ محضرون ﴾ قال قتادة: محشرون يوم القيامة.

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33)

(60/646)

---

﴿ وآية ﴾ معناه علامة على الحشر وبعث الأجساد، والضمير في ﴿ لهم ﴾ يراد به كفار قريش، وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر، "الميِّتة" بكسر الياء وشدها، وقرأ أبو عمرو وعاصم "الميْتة" بسكون الياء، وإحياؤها بالمطر، وقرأ جمهور الناس "من ثَمَره" بفتح الثاء والميم، وقرأ طلحة وابن وثاب وحمزة والكسائي "من ثُمُرة" بضمهما، وقرأ الأعمش "من ثُمْره" بضم الثاء وسكون الميم، والضمير في ﴿ ثمره ﴾ قالت فرقة هو عائد على الماء الذي يتضمنه قوله ﴿ وفجرنا فيها من العيون ﴾ لأن التقدير ماء، وقالت فرقة هو عائد على جميع ما تقدم مجملاً، كأنه قال: من ثمر ما ذكرنا، وقال أبو عبيدة: هو من باب أن يذكر الإنسان شيئين أو ثلاثة ثم يعيد الضمير على واحد ويكني عنه، كما قال الشاعر، وهو الأزرق بن طرفة بن العمرد القارضي الباهلي: [ الطويل ]

رماني بذنب كنت منه ووالدي . . . بريئاً ومن أجل الطويّ رماني

قال القاضي أبو محمد : وهذا وجه في الآية ضعيف ، و﴿ ما ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ قال الطبري : هي اسم معطوف على الثمر أي يقع الأكل من الثمر ومما عملته الأيدي بالغرس والزراعة ونحوه ، وقالت فرقة : هي مصدرية وقيل هي نافية ، والتقدير أنهم يأكلون من ثمره وهي شيء لم تعمله أيديهم بل هي نعمة من الله عليهم ، وقرأ جمهور الناس " عملته " بالهاء الضمير ، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر وطلحة وعيسى " عملت " بغير ضمير ، ثم نزه نفسه تعالى تنزيهاً مطلقاً في كل ما يلحد به ملحد أو يشرك مشرك ، و﴿ الأزواج ﴾ الأنواع من جميع الأشياء ، وقوله تعالى : ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ نظير قوله ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ [ النمل : 8 ] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(61/646)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأرض الميتة أَحْيَيْنَاهَا ﴾

نبّههم الله تعالى بهذا على إحياء الموتى ، وذكّرهم توحيده وكمال قدرته ، وهي الأرض الميتة أحياها بالنبات وإخراج الحبّ منها .

﴿ فَمِنْهُ ﴾ أي من الحب ﴿ يَأْكُلُونَ ﴾ وبه يتغذّون.

وشدّد أهل المدينة "الْمَيْتَةُ" وخفف الباقون، وقد تقدّم.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ أي في الأرض.

﴿ جَنَّاتٍ ﴾ أي بساتين.

﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ وخصصهما بالذكر؛ لأنهما أعلى الثمار.

﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ أي في البساتين.

﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ ﴾ الهاء في "ثمره" تعود على ماء العيون؛ لأن الثمر منه اندرج؛ قاله الجرجاني والمهدوي وغيرهما.

وقيل: أي ليأكلوا من ثمر ما ذكرنا؛ كما قال: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ [النحل: 66].

وقرأ حمزة والكسائي: "مِن ثُمُرِهِ" بضم الثاء والميم.

وفتحهما الباقون.

وعن الأعمش ضم الثاء وإسكان الميم.

وقد مضى الكلام فيه في "الأنعام".

﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ "ما" في موضع خفض على العطف على "مِنْ ثَمَرِهِ" أي ومما عملته أيديهم.

وقرأ الكوفيون : "وَمَا عَمِلَتْ" بغير هاءٍ .

الباقون "عَمِلَتْه" على الأصل من غير حذف .

وحذف الصلة أيضاً في الكلام كثير لطول الاسم .

ويجوز أن تكون "ما" نافية لا موضع لها فلا تحتاج إلى صلة ولا راجع .

أي ولم تعمله أيديهم من الزرع الذي أنبته الله لهم .

وهذا قول ابن عباس والضحاك ومقاتل .

وقال غيرهم : المعنى ومِن الذي عملته أيديهم أي من الثمار ، ومن أصناف الحلاوات والأطعمة ، ومما اتخذوا من الحبوب بعلاج كالخبز والدهن المستخرج من السمسم والزيتون .

وقيل : يرجع ذلك إلى ما يغرسه الناس .

روي معناه عن ابن عباس أيضاً .

﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ نعمه .

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَق الأزواج كُلَّهَا ﴾ نزّه نفسه سبحانه عن قول الكفار ؛ إذ عبدوا غيره مع ما رأوه من نعمه وآثار قدرته .

وفيه تقدير الأمر ؛ أي سبِّحوه ونزِّهوه عما لا يليق به .

وقيل : فيه معنى التعجب ؛ أي عجباً لهؤلاء في كفرهم مع ما يشاهدونه من هذه الآيات ؛ ومَن تعجب من شيء قال : سبحان الله ! والأزواج الأنواع والأصناف ؛ فكل زوج صنف ؛ لأنه مختلف في الألوان والطعوم والأشكال والصغر والكبر ، فاختلافها هو ازدواجها .

وقال قتادة : يعني الذكر والأنثى .

﴿ مِمَّا تُنبتُ الأرض ﴾ يعني من النبات ؛ لأنه أصناف .

﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ يعني وخلق منهم أولاداً أزواجاً ذكوراً وإناثاً .

﴿ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي من أصناف خلقه في البر والبحر والسماء والأرض .

ثم يجوز أن يكون ما يخلقه لا يعلمه البشر وتعلمه الملائكة .

ويجوز ألا يعلمه مخلوق .

ووجه الاستدلال في هذه الآية أنه إذا انفرد بالخلق فلا ينبغي أن يشرك به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الأرض الميتة ﴾

بالتَّخفيفِ وقُرِئ بالتَّشديدِ . وقوله تعالى آيةٌ خبرٌ مقدَّمٌ للاهتمامِ به وتنكيرُها للتفخيم ولهم إمَّا متعلِّقةٌ بها لأنَّها بمعنى العلامةِ أو بمضمرٍ هو صفة لها والأرضُ مبتدأٌ والميتةُ صفتُها . وقوله تعالى ﴿ أحييناها ﴾ استئنافٌ مبيِّن لكيفيَّةِ كونها آيةً وقيل آيةٌ مبتدأٌ ولهم خبرٌ والأرضُ الميتةُ مبتدأ موصوف وأحييناها خبره ، والجملة مفسِّرة لآية . وقيل : الإرض مبتدأ وأحييناها خبرُه والجملةُ خبرٌ لآيةٌ وقيل : الخبرُ لها هو الأرضُ وأحييناها صفتُها لأنَّ المرادَ بها الجنسُ لا المعيّنة والأوَّلُ هو الأَولى لأنَّ مصبَّ الفائدةِ هو كونُ الأرضِ آيةً لهم لا كونُ الآيةِ هي الأرضُ . ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً ﴾ جنس الحبِّ ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ تقديم الصِّلةِ للدِّلالةِ على أنَّ الحبَّ معظم ما يُؤكل ويُعاش به .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جنات مِّن نَّخِيلٍ وأعناب ﴾ أي من أنواعِ النَّخلِ والعنبِ ولذلك جُمعا دون الحبِّ فإنَّ الدّالَّ على الجنسِ مشعرٌ بالاختلافِ ولا كذلك الدّالُّ على الأنواعِ . وذكرُ النَّخيلِ دُونَ التُّمور ليطابقَ الحبَّ والأعنابَ لاختصاص شجرها بمزيدِ النَّفعِ وآثار الصُّنعِ ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا ﴾ وقُرِئ بالتَّخفيفِ والفجرُ والتَّفجيرُ كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى ﴿

مِنَ العيون ﴾ أي بعضاً من العُيون فحذف الموصوفُ وأقيمتِ الصِّفةُ مقامَه أو العيون ومن مزيدةٌ على رأيِ الأخفَشِ.

(64/646)

---

﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِه ﴾ متعلِّقٌ بجعلنا وتأخيرُه عن تفجير العُيُونِ لأنَّه من مبادىءِ الأثمارِ أي وجعلنا فيها جنَّاتٍ من نخيلٍ ورتبنا مبادىء أثمارِها ليأكُلوا من ثمرِ ما ذُكر من الجنَّاتِ والنَّخيلِ بإجراء الضَّميرِ مجرى اسمِ الإشارةِ وقيل: الضَّميرُ لله تعالى بطريقِ الالتفاتِ إلى الغَيبةِ. والإضافةُ لأنَّ الثَّمرَ بخلقه تعالى. وقُرىء بضمَّتينِ وهي لغةٌ فيه أو جمع ثمارٍ وبضمَّةٍ وسكونٍ ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيدِيهِمْ ﴾ عطفٌ على ثمره وهو ما يُتَّخذُ منه من العصير والدِّبس ونحوهما، وقيل: ما نافيةٌ والمعنى أن التمر بخلق الله تعالى لا بفعلهم ومحلُّ الجملة النَّصبُ على الحاليةِ ويؤكد الأوَّلَ قراءةُ عملتْ بلا هاءٍ فإنَّ حذفَ العائدِ من الصِّلةِ أحسنُ من الحذفِ من غيرِها ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ إنكارٌ واستقباحٌ لعدم شكرِهم للنِّعم المعدودةِ والفاء للعطفِ على مقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ أي أيرون هذه النِّعمَ أو أيتنعمون بها فلا يشكرونَها.

(65/646)

﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الازواجَ كلَّهَا ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتنزيهه تعالى عمّا فعلوه من ترك شكره على آلائه المذكورة واستعظام ما ذُكر في حيّزِ الصّلةِ من بدائعِ آثارِ قُدرتِه وأسرارِ حكمتِه وروائعِ نعمائِه الموجبةِ للشُّكرِ وتخصيصِ العبادةِ به والتَّعجيب من إخلالِهم بذلك والحالةُ هذه وسبحانَ علمٌ للتَّسبيحِ الذي هو التَّبعيدُ عن السُّوءِ اعتقاداً وقولاً أي اعتقادَ البُعد عنه والحكم به من سَبَحَ في الأرضِ والماءِ إذا أبعد فيهما وأمعنَ ومنه فرسٌ سبوحٌ أي واسعُ الجري. وانتصابُه على المصدريّةِ ولا يكاد يذكر ناصبُه أي أسبّح سبحانَه أي أنزهه عمَّا لا يليقُ به عقْداً وعملاً تنزيهاً خاصَّا به حقيقاً بشأنِه وفيه مبالغةٌ من جهةِ الاشتقاقِ من السَّبحِ ومن جهةِ النَّقلِ إلى التَّفعيلِ ومن جهةِ العدولِ عن المصدرِ الدَّالِ على الجنسِ إلى الاسمِ الموضوعِ له خاصَّةً لا سيِما العلمُ المشيرُ إلى الحقيقةِ الحاضرةِ في الذّهنِ ومن جهة إقامتِه مقامَ المصدرِ مع الفعلِ وقيل: هو مصدرٌ كغفرانٍ أُريد به التَّنزه التَّام والتَّباعد الكُلِّيُ عن السُّوءِ ففيه مبالغةٌ من جهةِ إسنادِ التَّنزه إلى الذَّاتِ المُقدَّسةِ فالمعنى تنزه بذاتِه عن كلِّ ما لا يليقُ به تنزُّهاً خاصَّا به فالجملةُ على هذا إخبارٌ من الله تعالى بتنزهِه وبراءتِه عن كلِّ ما لا يليقُ به مِمَّا فعلُوه وما تركُوه وعلى الأوّلِ حكم منه عزَّ وجلَّ بذلك وتلقين للمؤمنين أنْ يفعلُوه ويعتقدُوا مضمونَه ولا يُخلُّوا به ولا يغفلُوا عنه. والمرادُ بالأزواجِ الأصنافُ والأنواعُ ﴿ مِمَّا تُنبتُ الأرض ﴾ بيانٌ لها والمرادُ به كلُّ ما ينبتُ فيها من الأشياءِ المذكورةِ وغيرها

﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي خلقَ الأزواجَ من أنفسِهِم أي الذكَّرَ والأُنثى ﴿ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي والأزواجَ مما لم يُطلعهم الله تعالى على خُصوصيَّاتِهِ لعدمِ قُدرتِهم على الاحاطةِ

(66/646)

---

بها ولمَّا لم يتعلَّق بذلك شيءٌ من مصالحِهم الدّينيةِ والدُّنيويةِ وإنما أطلعَهم على ذلك بطريقِ الإجمالِ على منهاجِ قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ( لمَا نيطَ به وقوفُهم على عظمِ قدرتِه وسعةِ مُلكِهِ وسلطانِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(67/646)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَءايَةٌ لَّهُمُ الأرض الميتة ﴾

بالتخفيف وقرأ نافع بالتشديد ، و﴿ ءايَةً ﴾ خبر مقدم للاهتمام وتنكيرها للتفخيم و﴿ لَهُمْ ﴾ إما متعلق بها لأنها بمعنى العلامة أو متعلق بمضمر هو صفة لها وضمير الجمع لكفار أهل مكة ومن يجري مجراهم في إنكار الحشر ، و﴿ الأرض ﴾ مبتدأ و﴿ الميتة ﴾

صفتها ، وقوله تعالى : ﴿ أحييناها ﴾ استئناف مبين لكيفية كونها آية ، وقيل في موضع الحال والعامل فيها آية لما فيها من معنى الاعلام وهو تكلف ركيك ، وقيل ﴿ ءايَةً ﴾ مبتدأ أول و ﴿ لَهُمْ ﴾ صفتها أو متعلق بها وكل من الأمرين مسوغ للابتداء بالنكرة و ﴿ الأرض الميتة ﴾ مبتدأ ثان وصفة وجملة ﴿ أحييناها ﴾ خبر المبتدأ الثاني وجملة المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول ولكونها عين المبتدأ كخبر ضمير الشأن لم تحتج لرابط ، قال الخفاجي : وهذا حسن جداً إلا أن النحاة لم يصرحوا به في غير ضمير الشأن ، وقيل إنها مؤولة بمدلول هذا القول فلذا لم يحتج لذلك ولا يخفى بعده ، وقيل ﴿ ءايَةً ﴾ مبتدأ و ﴿ الأرض ﴾ خبره وجملة ﴿ أحييناها ﴾ صفة الأرض لأنها لم يرد بها أرض معينة بل الجنس فلا يلزم توصيف المعرفة بالجملة التي هي في حكم النكرة ، ونظير ذلك قوله : ولقد أمر على اللئيم يسبني . . .

فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

وأنكر جواز ذلك أبو حيان مخالفاً للزمخشري .

وابن مالك في التسهيل وجعل جملة يسبني حالاً من اللئيم ، وأنت تعلم أن المعنى على استمرار مروره على من يسبه وإغماضه عنه ولهذا قال : أمر وعطف عليه فمضيت والتقييد بالحال لا يؤذي هذا المؤدي ، ثم إن مدار الخبرية إرادة الجنس فليس هناك أخبار

بالمعرفة عن النكرة ليكون مخالفاً للقواعد كما قيل نعم أرجح الأوجه ما قرر أولاً وقد مر المراد بموت الأرض وأحيائها فتذكر .

(68/646)

---

﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً ﴾ أي جنس الحب من الحنطة والشعير والأرز وغيرها ، والنكرة قد تعم كما إذا كانت في سياق الامتنان أو نحوه ، وفي ذكر الإخراج وكذا الجعل الآتي تنبيه على كمال الإحياء ﴿ فَمِنْهُ ﴾ أي من الحب بعد إخراجنا إياه ، والفاء داخلة على المسبب ومن ابتدائية أو تبعيضية والجار والمجرور متعالق بقوله تعالى ﴿ يَأْكُلُونَ ﴾ والتقديم للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به لما في ذلك من إيهام الحصر للاهتمام به حتى كأنه لا مأكول غيره .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جنات مّن نَّخِيلٍ ﴾ جمع نخل كعبيد جمع عبد كما ذهب إليه أكثر الأئمة وصرح به في القاموس ، وقيل اسم جمع ، وقال الجوهري : النخل والنخيل بمعنى واحد وعلى الأول المعول ﴿ وَأَعْنَابٍ ﴾ جمع عنب ويقال على الكرم نفسه وعلى ثمرته كما قال الراغب : ولعله مشترك فيهما ، وقيل حقيقة في الثمرة مجاز في الشجرة ، وأياً ما كان فالمراد الأول بقرينة العطف على النخيل ، وجمعا دون الحب قيل لتدل الجمعية على تعدد الأنواع

أي من أنواع النخل وأنواع العنب وذلك لأن النخل والعنب اسمان لنوعين فكل منهما مقول على افراد حقيقة واحدة فلا يدلان على اختلاف ما تحتهما وتعدد أنواعه إلا إذا عبر عنهما بلفظ الجمع بخلاف الحب فإنه اسم جنس وهو يشعر باختلاف ما تحته لأنه المقول على كثرة مختلفة الحقائق قولاً ذاتياً فلا يحتاج في الدلالة على الاختلاف إلى الجمعية، وقولهم جمع العالم في قوله تعالى: ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ [الفاتحة: 2] وهو اسم جنس ليشمل ما تحته من الأجناس لا ينافي ذلك قيل لأن المراد ليشمل شمولاً ظاهراً متعيناً وان حصل الاشعار بدونه، وقيل جمعاً للدلالة على مزيد النعمة، وأما الحب ففيه قوام البدن وهو حاصل بالجنس.

(69/646)

---

وامتن عز وجل في معرض الاستدلال على أمر الحشر بجعل الجنات من النخيل والأعناب المراد بها الأشجار ولم يمتن سبحانه وتعالى بجعل ثمرات تلك الأشجار من التمر والعنب كما امتن جل جلاله بإخراج الحب أعظاماً للمنة لتضمن ذلك الامتنان بالثمار وغيرها من منافع تلك الأشجار أنفسها بسائر أجزائها للإنسان نفسه بلا واسطة لا سيما النخيل ولا دلالة في الكلام على حصر ثمر الجعل بأكل الثمرة، وثمرة التنصيص على ذلك من بين المنافع ظاهرة

وهذا بخلاف أشجار الحبوب فإنها ليست بهذه المثابة ولذا غير الأسلوب ولم يعامل ثمر ذلك معاملة الحبوب وكلام البيضاوي عليه الرحمة ظاهر في أن المراد بالأعناب الثمار المعروفة لا الكروم وعلل ذكر النخيل دون ثمارها مع أنه الأوفق بما قبل وما بعد باختصاصها بمزيد النفع وآثار الصنع وتفسير الأعناب بالثمار دون الكروم بعيد عندي لمكان العطف مع أن الجار والمجرور في موضع الصفة لجنات ، والمعروف كونها من أشجار لا من ثمار .

قال الراغب : الجنة كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض ، وقد تسمى الأشجار الساترة جنة وعلى ذلك حمل قوله

: من النواضح تسقى جنة سحقا . . .

على أن في الآية بعد ما يؤيد إرادة الثمار فتدبر .

﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا ﴾ أي شققنا في الأرض .

وقرأ جناح بن حبيش ﴿ فجرنا ﴾ بالتخفيف والمعنى واحد بيد أن المشدد دال على المبالغة والتكثير ﴿ فِيهَا مِنَ العيون ﴾ أي شيئاً من العيون على أن الجار والمجرور في موضع الصفة لمحذوف ، ومن بيانية وجوز كونها تبعيضية وليس بذاك ، وقيل المفعول محذوف و ﴿ مِنَ العيون ﴾ متعلق بفجر ومن ابتدائية على معنى فجرنا من المنابع ما ينتفع

به من الماء ، وذهب الأخفش إلى زيادة من وجعل العيون مفعول فجرنا لأنه يرى جواز زيادتها في الإثبات مع تعريف مجرورها .

(70/646)

---

﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ متعلق بجعلنا وتأخيره عن تفجير العيون لأنه من مبادىء الثمر أي وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ورتبنا مبادىء ثمرها ليأكلوا ، وضمير ثمره عائد على المجعول وهو ﴿ الجنات ﴾ [يس : 34] ولذا أفرد وذكر ولم يقل من ثمرها أي الجنات أو من ثمرهما أي النخيل والأعناب ، ومثله ما قيل عائد على المذكور والضمير قد يجري مجرى اسم الإشارة كما في قول رؤبة

: فيها خطوط من سواد وبلق . . .

كأنه في الجلد توليع البهق

فإنه أراد كما قال لأبي عبيدة وقد ساله كأنه ذاك ، وقيل عائد على الماء لدلالة العيون عليه أو لكون الكلام على حذف مضاف أي ماء العيون ، وقيل على النخيل واكتفى به للعلم باشتراك الأعناب معه في ذلك ، وقيل على التفجير المفهوم من ﴿ فجرنا ﴾ [يس : 34] والمراد بثمره فوائده كما تقول ثمرة التجارة الربح أو هو ظاهره والإضافة لأدنى ملابسة

والكل كما ترى، وجوز أن يكون الضمير له عز وجل وإضافة الثمر إليه تعالى لأنه سبحانه خالقه فكأنه قيل: ليأكلوا مما خلقه الله تعالى من الثمر.

وكان الظاهر من ثمرنا لضمير العظمة على قياس ما تقدم إلا أنه التفت من التكلم إلى الغيبة لأن الأكل والتعيش مما يشغل عن الله تعالى فيناسب الغيبة فالالتفات في موقعه.

وزعم بعضهم أن هذا ليس من مظانه لأنه أولى بضمير الواحد المطاع لأنه المقصود بالإحياء والجعل والتفجير وقد أسندت إليه.

ورد بأن ما سبق أفخم لأنها أفعال عامة النفع ظاهرة في كمال القدرة والثمر أحط مرتبة من الحب ولذا لم يورد على سبيل الاختصاص فلا يستحق ذلك التفخيم كيف وقد جعل بعضهم الثمر خلق الله تعالى وكماله بفعل الآدمي، وبما تقدم يستغني عما ذكر.

وقرأ طلحة.

وابن وثاب.

وحمزة.

والكسائي ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ بضمتين وهي لغة فيه أو هو جمع ثمار.

وقرأ الأعمش ﴿ مِن ثَمَرِه ﴾ بضم فسكون ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيدِيهِمْ ﴾ ﴿ مَا ﴾ موصولة في محل جر عطف على ﴿ ثَمَرِه ﴾ وجعله في محل نصب عطفاً على محل ﴿ مِن ثَمَرِه ﴾ خلاف الظاهر أي وليأكلوا من الذي عملوه أو صنعوه بقواهم، والمراد به ما يتخذ من الثمر كالعصير والدبس وغيرهما، وقال الزمخشري: أي من الذي عملته أيديهم بالغرس والسقي والآبار وليس بذاك، وجوز أن تكون ما نكرة موصوفة أي ومن شيء عملته أيديهم والأول أظهر، وقيل: ما نافية وضمير ﴿ عَمِلَتْهُ ﴾ راجع إلى الثمر والجملة في موضع الحال، والمراد من نفي عمل أيديهم إياه أنه بخلق الله تعالى لا بفعلهم ولا تقول المشايخ بالتوليد، وروي القول بأنها نافية عن ابن عباس.

والضحاك، وظاهر كلام الحبر أن الضمير راجع إلى شيئاً الموصوف المحذوف والجملة حال منه، فقد روى سعيد بن منصور.

وابن المنذر عنه أنه قال: وجدوه معمولاً لم تعمله أيديهم يعني الفرات ودجلة ونهر بلخ وأشباهها وفيه بعد.

وأيد القول بالموصولية بقراءة طلحة.

وعيسى.

وحمزة.

والكسائي.

وأبي بكر ﴿ وَمَا عَلَّمْتُمْ ﴾ بلا هاء ، ووجه التأييد أن الموصول مع الصلة كاسم واحد فيحسن معه لاستطالته ولاقتضائه إياه ودلالته عليه يكون كالمذكور ، وتقدير اسم ظاهر غير ظاهر ، وقال الطيبي : جعلها نافية أولى من جعلها موصولة لئلا يوهم استقلالهم بالعمل لأن ذكر الأيدي للتأكيد في هذا المقام كما في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أنعاما ﴾ [يس : 71] لأن التركيب من باب أخذته بيدي ورأيته بعيني وحينئذ لا يناسب أن يكون قوله تعالى : ﴿ أحييناها ﴾ [يس : 33] الخ تفسيراً لكون الأرض الميتة آية .

(72/646)

---

وتعقبه في الكشف بأنه ليس بشيء لأن العمل من العباد بمعن الكسب وقد جاء ﴿ بما قدمت أيديكم ﴾ [آل عمران : 182] و﴿ بما قدمت يداك ﴾ [الحج : 10] فهذا التأكيد دافع للإيهام انتهى فلا تغفل .

وجوز على هذه القراءة كون ما مصدرية أي وعمل أيديهم ويراد بالمصدر اسم المفعول أي معمول أيديهم فيعود إلى معنى الموصولة ولا يخفى ما فيه ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ إنكاراً واستقباح لعدم شركهم للمنعم بالنعم المعدودة بالتوحيد والعبادة ، والفاء للعطف على

مقدر يقتضيه المقام أي أيرون هذه النعم أو أيتنعمون بها فلا يشكرون المنعم بها .

﴿ سبحان الذى خَلَقَ الأَزواجَ كُلَّهَا ﴾ استئناف مسوق لتنزيهه تعالى عما فعلوه من ترك شكره عز وجل واستعظام ما ذكر في حيز الصلة من بدائع آثار قدرته وأسرار حكمته وروائع نعمائه الموجبة لشكره تعالى وتخصيص العبادة به سبحانه والتعجيب من إخلالهم بذلك والحال هذه ، وقد تقدم الكلام في ﴿ سُبْحَانَ ﴾ .

وفي الإرشاد هنا أنه علم للتسبيح الذي هو التبعيد عن السوء اعتقاداً وقولاً أي اعتقاد البعد عنه والحكم به من سبح في الأرض والماء إذا بعد فيهما وأمعن وانتصابه على المصدري أي أسبح سبحانه أي أنزهه عما لا يليق به عقداً وعملاً تنزيهاً خاصاً به حقيقاً بشأنه عز شأنه ، وفيه مبالغة من جهة الاشتقاق وجهة العدول إلى التفعيل وجهة العدول عن المصدر الدار على الجنس إلى الاسم الموضوع له خاصة لا سيما العلم وجهة إقامته مقام المصدر مع الفعل ، وقيل : هو مصدر كغفران أريد به التنزه التام والتباعد الكلي عن السوء ففيه مبالغة من جهة إسناد التنزه إلى الذات المقدس فالمعنى تنزه بذاته عن كل ما لا يليق به تعالى تنزهاً خاصاً به سبحانه ، فالجملة على هذا إخبار منه تعالى بتنزهه وبراءته عن كل ما لا يليق به مما فعلوه وما تركوه ؛ وعلى الأول حكم منه عز وجل بذلك وتلقين للمؤمنين أن يقولوه ويعتقدوا مضمونه ولا يخلو به ولا يغفلوا عنه .

وقدر بعضهم الفعل الناصب أمراً أي سبحوا سبحان ، والمراد بالأزواج الأنواع والأصناف ، وقال الراغب : الأزواج جمع زوج ويقال لكل واحد من القرينين ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً وكل ما في العالم زوج من حيث أن له ضداً ما أو مثلاً ما أو تركيباً ما بل لا ينفعك بوجه من تركيب صورة ومادة وجوهر وعرض .

﴿ مِمَّا تُنبِتُ الأَرضُ ﴾ بيان للأزواج والمراد به كل ما ينبت فيها من الأشياء المذكورة وغيرها ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي وخلق الأزواج من أنفسهم أي الذكر والأنثى ﴿ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي والأزواج مما لم يطلعهم الله تعالى ولم يجعل لهم طريقاً إلى معرفته بخصوصياته وإنما اطلعهم سبحانه على ذلك بطريق الإجمال على منهاج ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [ النحل : 8 ] لما نيط به وقوفهم على عظم قدرته وسعة ملكه وجلاله سلطانه عز وجل ، ولعله لما كان العلم من أخص صفات الربوبية لم يثبت على وجه الكمال والإحاطة لأحد سواه سبحانه ولو كان بطريق الفيض منه تبارك وتعالى على أن ظرف الممكن يضيق عن الإحاطة فما يجهله كل أحد أكثر مما يعلمه بكثير ، وقد يقال على بعض الاعتبارات : إن ما يعلمه كل أحد متناه وما يجهله غير متناه ولا نسبة بين المتناهي وغير المتناهي أصلاً فلا نسبة بين معلوم كل أحد ومجهوله ، وتأمل في هذا مع دعوى بعض الأكابر الوقوف على

الأعيان الثابتة والإطلاع عليها وقل رب زدني علماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(74/646)

---

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ » .

وهذا شاهد يشهد للمكذبين بالبعث ، بأنه أمر ممكن ، وإن إنكارهم له يقوم على فهم خاطئ لقدرة اللّه . . فلو أنهم نظروا إلى هذه الأرض الميتة ، وكيف يحيى اللّه مواتها ، ويبعث فيها الحياة ، ويخرج من أحشائها صورا لا حصر لها من الكائنات الحية. لو نظروا إلى هذا لرأوا أن بعث الأجساد الهامدة لا يختلف فى شىء ، عن بعث الحياة فى الأرض الجديب.

وقوله تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ » مبتدأ وخبر ، وقدم الخبر « آية » على المبتدأ « الأرض » للإلفات إليه ، لأنه الآية المراد النظر فى وجهها ، وأصل النظم :

« والأرض الميتة آية لهم » وقوله تعالى : « أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ » هو

بدل من الأرض الميتة . . وهو بيان لها ، يكشف عما فى كيان هذه الآية التي تخرج من الأرض . . والحبّ ، هو ما يخرج من نبات البرّ ، والشعير والأرز ، ونحوها . .

(75/646)

---

قوله تعالى : « وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ » خصت جنات النخيل والأعناب من بين أنواع الفاكهة بالذكر ، لأن هاتين الشجرتين - النخلة ، والكرمة - غاية ما يبلغه النبات من كمال فى سلّم الترقّي . .

فهما على قمة العالم النباتي ، وما تحتهما تبع لهما . . وإلى هذا يشير الحديث الشريف : « أكرموا عماتكم النخل ، فإنهن خلقن من طينة آدم » - وهذا يعنى أن النخل قد أشرف من قمة عالم النبات على عالم الحيوان ، وكاد يلامس هذا العالم ، ويحسب من أفراده . .

وقدم النخيل على الأعناب ، لأنه أرقى درجة منه . .

قوله تعالى : « لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ » يمكن أن تكون اللام فى قوله تعالى : « لِيَأْكُلُوا » للتعليل ، أي أحيينا الأرض ، وأنبتنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، ليكون ذلك نعمة من نعمنا عليهم ، لحفظ حياتهم ، بالأكل من ثمرات هذه الجنات . .

ويمكن أن تكون اللام للأمر ، وفى هذا الأمر دعوة لهم إلى الأكل من تلك المائدة التي مدها

اللّه للعباد ، وجعل عليها ما تشتهى الأنفس من طيبات. وفى هذا الأمر إلفات لهم إلى هذا الإحسان ، وذلك الفضل من اللّه ، وإلى ما ينبغى للّه من شكر وحمد ، وهذا مثل قوله تعالى : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ . . إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى » (53. 54 : طه) والضمير فى ثمره ، يعود إلى النخيل ، لأنه المقدم رتبة على العنب ، وهو

(76/646)

---

أكثر أنواعا وألوانا منه ، فلا يعدو أن يكون العنب لونا من ألوان الثمر. وقوله تعالى : « وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ » يمكن أن تكون الجملة معطوفة على قوله تعالى : « مِنْ ثَمَرِهِ » أي ليأكلوا من ثمره من غير صنعة ، وليأكلوا ما عملته أيديهم من هذا الثمر ، وصنعته . .

ويمكن أن تكون الجملة حالية ، والواو واو الحال ، وما نافية . . ويكون المعنى ، ليأكلوا من ثمر هذا الشجر ، والحال أنه لم تعمله أيديهم ، ولم يكن فى قدرتهم أن يخرجوا شجرة منه ، أو أن يصنعوا ثمرة من هذا الشجر .

. وقوله تعالى : « أَفَلا يَشْكُرُونَ » حثّ لهم على الشكر ، وإنكار لموقفهم من هذه النعم موقف الجاحد المنكر للمنعم بها . .

قوله تعالى : «سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ» هو تسبيح بحمد اللّه ، وتنزيه له عن الشريك والولد ، وتمجيد لجلاله وقدرته . . وهذا التسبيح والحمد ، بلسان الوجود كله . وأنه إذا خرست ألسنة الضالين والمكذبين أن يسبحوا بحمد اللّه ، وأن ينزهوه ويمجدوه ، فإن الوجود كلّه لسان تسبيح ، وتنزيه ، وتمجيد للّه رب العالمين : «الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ» فالمخلوقات كلها من أزواج ، هى الذكر والأنثى . . كما فى عالم الأحياء من حيوان ، ونبات ، وهى الشيء ومقابله ، كما فى عالم المعاني . كالصدق والكذب ، والحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والضلال والهدى . . وقد تحدثنا عن ذلك فى غير موضع من قبل .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 12 صـ 929 . 931 ﴾

(77/646)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) ﴾

عطف على قصة ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ﴾ [ يس : 13 ] فإنه ضرب لهم مثلاً لحال إعراضهم وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وما تشتمل عليه تلك الحال

من إشراك وإنكار للبعث وأذى للرسول صلى الله عليه وسلم وعاقبة ذلك كله .

ثم أعقب ذلك بالتفصيل لإبطال ما اشتملت عليه تلك الاعتقادات من إنكار البعث ومن الإشراك بالله .

وابتدىء بدلالة تقريب البعث لمناسبة الانتقال من قوله : ﴿ وإن كُلٌّ لَّمَا جَمِيعٌ لدينا مُحْضَرُون ﴾ [ يس : 32 ] على أن هذه لا تخلو من دلالتها على الانفراد بالتصرف ، وفي ذلك إثبات الوحدانية .

و ﴿ وءَايَةٌ ﴾ مبتدأ و ﴿ لَّهُمُ ﴾ صفة ﴿ آية ﴾ ، و ﴿ الأَرْضُ ﴾ خبر ﴿ آية ﴾ ، و ﴿ المَيْتَةُ ﴾ صفة ﴿ الأَرْضُ ﴾ .

وجملة ﴿ أَحْيَيْناهَا ﴾ في موضع الحال من ﴿ الأَرْضُ ﴾ وهي حال مقيدة لأن إحياء الأرض هو مناط الدلالة على إمكان البعث بعد الموت ، أو يكون جملة ﴿ أَحْيَيْناها ﴾ بياناً لجملة ﴿ آية لهم الأرض ﴾ لبيان موقع الآية فيها ، أو بدل اشتمال من جملة ﴿ آية لهم الأرض ﴾ ، أو استئنافاً بيانياً كأنّ سائلاً سأل : كيف كانت الأرض الميتة ؟

وموت الأرض : جفافها وجَرازتها لخلوّها من حياة النبات فيها ، وإحياؤها : خروج النبات منها من العشب والكلأ والزرع .

وقرأ نافع وأبو جعفر ﴿ المَيِّتَةُ ﴾ بتشديد الياء .

وقرأ الباقون بتخفيف الياء ، والمعنى واحد وهما سواء في الاستعمال .

والحبّ : اسم جمع حبّة ، وهو بَزرة النبت مثل البُرّة والشعيرة .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ﴾ في سورة البقرة ( 261 ) .

وإخراج الحب من الأرض : هو إخراجه من نباتها فهو جاء منها بواسطة .

وهذا إدماج للامتنان في ضمن الاستدلال ولذلك فرّع عليه ﴿ فَمِنْهُ يأكلون .

(78/646)

---

﴾ وتقديم ﴿ منه ﴾ على ﴿ يأكُلُونَ ﴾ للاهتمام تنبيهاً على النعمة ولرعاية الفاصلة .

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34)

هذا من إحياء الأرض بإنبات الأشجار ذات الثمار ، وهو إحياء أعجب وأبقى وإن كان الإحياء بإنبات الزرع والكلأ أوضح دلالة لأنه سريع الحصول .

وتقدم ذكر ﴿ جنات ﴾ في أول سورة الرعد ﴿ ( 4 ) .

وتفجير العيون تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وإن من الحجارة لمَا يتفجر منه الأنهار في سورة البقرة ﴾ ( 74 ) .

والثَّمَر بفتحتين وبضمتين : ما يغلّه النخل والأعناب من أصناف التمر وأصناف العنب

والثمرة بمنزلة الحبّ للسنبل .

وقرأ الجمهور : ﴿ ثَمَرِه ﴾ بفتحتين .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف بضمتين .

والنخيل : اسم جمع نخل .

والأعناب جمع عنب ، وهو يطلق على شجرة الكرم وعلى ثمرها .

وجمع النخيل والأعناب باعتبار تعدد أصناف شجره المثمر أصنافاً من ثمره .

وضمير ﴿ مِن ثَمَرِه ﴾ عائد إلى المذكور ، أي من ثمر ما ذكرنا ، كقول رُؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق

كأنه في الجلد توليع البهق . . .

فقيل له : هلا قلت : كأنها ؟ فقال : أردت كأن ذلك ويْلَك .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ عوان بين ذلك ﴾ في سورة البقرة ﴾ ( 68 ) .

ويجوز أن يعود الضمير على النخيل وتترك الأعناب للعلم بأنها مثل النخيل .

كقول الأزرق بن طرفة بن العمود القراطي الباهلي :

رماني بذنب كنتُ منه ووالدي

بريئاً ومن أجْل الطويِّ رّماني . . .

فلم يقل : بريئين ، للعلم بأن والده مثله .

ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ وما عَمِلَتْهُ أيدِيهم ﴾ موصولة معطوفة على ﴿ ثَمَرِه ، ﴾ أي ليأكلوا من ثمر ما أخرجناه ومن ثمر ما عملته أيديهم ، فيكون إدماجاً للإرشاد إلى إقامة الجنات بالخدمة والسقي والتعهد ليكون ذلك أوفر لأغلالها .

وضمير ﴿ عَمِلَتْهُ ﴾ على هذا عائد إلى اسم الموصول .

*(79/646)*

---

ويجوز أن يكون ﴿ ما ﴾ نافية والضمير عائد إلى ما ذكر من الحب والنخيل والأعناب .

والمعنى : أن ذلك لم يخلقوه .

وهذا أوفر في الامتنان وأنسب بسياق الآية مساق الاستدلال .

وقرأ الجمهور : ﴿ وما عَمِلَتْهُ ﴾ بإثبات هاء الضمير عائداً إلى المذكور من الحب والنخيل والأعناب .

وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف ﴿ وما عملت ﴾ بدون هاء ، وكذلك هو مرسوم في المصحف الكوفي وهو جار على حذف المفعول إن كان معلوماً .

ويجوز أن يكون من حذف المفعول لإرادة العموم .

والتقدير : وما عملت أيديهم شيئاً من ذلك .

وكلا الحذفين شائع .

وفرع عليه استفهام الإنكار لعدم شكرهم بأن اتخذوا للذي أوجد هذا الصنع العجيب أنداداً .

وجيء بالمضارع مبالغة في إنكار كفرهم بأن الله حقيق بأن يكرروا شكره فكيف يستمرون على الإشراك به .

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36)

اعتراض بين جملة ﴿ وءاية لهم الأرض ﴾ [يس : 33 ] وجملة ﴿ وءاية لهم الليل ﴾ [ يس : 37 ] ، أثارَه ذكر إحياء الأرض وإخراج الحبّ والشجر منها فإن ذلك أحوالاً وإبداعاً عجيباً يذكّر بتعظيم مُودِع تلك الصنائع بحكمته وذلك تضمن الاستدلال بخلق الأزواج على طريقة الإدماج.

و﴿ سبحان ﴾ هنا لإنشاء تنزيه الله تعالى عن أحوال المشركين تنزيهاً عن كل ما لا يليق بإلهيته وأعظمه الإشراك به وهو المقصود هنا .

وإجراء الموصول على الذات العلية للإيماء إلى وجه إنشاء التنزيه والتعظيم .

وقد مضى الكلام على ﴿ سُبْحَانَ في سورة البقرة وغيرها .

والأزواج ﴾ : جمع زوج وهو يطلق على كل من الذكر والأنثى من الحيوان ، ويطلق الزوج على معنى الصنف المتميز بخواصه من نوع الموجودات تشبيهاً له بصنف الذكر وصنف الأنثى كما في قوله تعالى : ﴿ فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾ وتقدم في سورة طه ﴿ ( 53 ) ، والإطلاق الأول هو الكثير كما يؤخذ من كلام الراغب ، وهو الذي يناسبه نقل اللفظ من الزوج الذي يكون ثانِياً لآخرَ ، فيجوز أن يحمل ﴿ للأزْواجَ ﴾ في هذه الآية على المعنى الأول فيكون تذكيراً بخلق أصناف الحيوان الذي منه الذكر والأنثى ، وتكون ﴿ مِن ﴾ في المواضع الثلاثة ابتدائية متعلقة بفعل ﴿ خَلَقَ .

وهذا إدماج لذكر آية أخرى من آيات الانفراد بالخَلق ، فخلْق الحيوان بما فيه من القوى لتناسله وحماية نوعه وإنتاج منافعه ، هو أدق الخلق صنعاً وأعمقه حكمة ، وأدخله في المنة على الإِنسان ، بأن جعلت منافع الحيوان له كما في آية سورة المؤمنين .

فمن أجل ذلك خصّ من بين الخلق الآخر بقَرْنه بالتسبيح لخالقه تنويهاً بشأنه وتفنناً في سرد أعظم المواليد الناشئة عن إبداع قوة الحياة للأرض وانبثاق أنواع الأحياء وأصنافها منها ، كما أشار إليه الابتداء بذكر مِمَّا تُنبتُ الأَرْضُ ﴾ قبلَ غيره من مبادىء التخلق لأنه الأسبق في تكوين مواد حياة الحيوان فإنه يتولد من النطف الذكور والإِناث ، وتتولد النطف من قوى الأغذية الحاصلة من تناول النبات فذلك من معنى قوله : ﴿ مما تنبت الأرض ومن

أنفسهم ﴾ أي ومما يتكون فيهم من أجزائهم الحيوانية .

وجيء بضمير جماعة العقلاء تغليباً لنوع الإنسان نظراً لكونه المقصود بالعبرة بهذه الآية ، وللتخلص إلى تخصيصه بالعبرة في قوله : ﴿ وِممَّا لاَ يَعْلمُونَ ﴾ .

(81/646)

---

وإشارة قوله تعالى : ﴿ وِممَّا لاَ يَعْلمونَ ﴾ إلى أسرار مودعة في خلق أنواع الحيوان وأصنافه هي التي ميزت أنواعه عن بعض وميزت أصنافه وذكورَه عن إناثه ، وأودعت فيه الروح الذي امتاز به عن النبات بتدبير شؤونه على حسب استعداد كل نوع وكل صنف حتى يبلغ في الارتقاء إلى أشرف الأنواع وهو نوع الإنسان ، فمعنى ﴿ وِممَّا لاَ يَعْلمُونَ ﴾ : مما لا يعلمونه تفصيلاً وإن كانوا قد يشعرون به إجمالاً ، فإن المتأمل يعلم أن في المخلوقات أسراراً خفية لم تصل أفهامهم إلى إدراك كنهها ، ومن ذلك الروح فقد قال تعالى:

﴿ قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ [ الإسراء : 85 ] .

وقد يتفاضل الناس في إدراك بعض تلك الخصائص إجمالاً وتفصيلاً ثم يستوون في عدم العلم ببعضها ، وقد يمتاز بعض الطوائف أو الأجيال بمعرفة شيء من دقائق الخلق بسبب اكتشاف أو تجربة أو تقضي آثار لم يكن يعرفها غير أولئك ثم يستوون فيما بقي تحت طيّ

الخفاء من دقائق التكوين، فبهذا الشعور الإجمالي بها وقع عدّها في ضمن الاعتبار بآية خلق الأزواج من جميع النواحي.

وإذا حمل ﴿ الأزواج ﴾ في قوله: ﴿ سبحان الذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ على المعنى الثاني لهذا اللفظ وهو إطلاقه على الأصناف والأنواع المتمايزة كما في قوله: ﴿ فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾ [طه: 53] كانت ﴿ من في المواضع الثلاثة بيانية، والمجرور بها في فحوى عطف البيان، أو بدل مفصل من مجمل من قوله: الأزواج ﴾ والمعنى: الأزواج كلها التي هي: ما تنبت الأرض، وأنفسهم، وما لا يعلمون.

ويدل قوله ﴿ وِممَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ على محذوف تقديره: وما يعلمون، وذلك من دلالة الإشارة.

فخص بالذكر أصناف النبات لأن بها قوام معاش الناس ومعاش أنعامهم ودوابهم، وأصناف أنفس الناس لأن العبرة بها أقوى، قال تعالى: ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات: 21].

ثم ذكر ما يعمّ المخلوقات مما يعلمه الناس وما لا يعلمونه في مختلف الأقطار والأجيال والعصور .

وقدم ذكر النبات إيثاراً له بالأهمية في هذا المقام لأنه أشبه بالبعث الذي أومأ إليه قوله : ﴿ وإن كُلٌّ لَّما جَميعٌ لدينا مُحْضَرُونَ ﴾ [ يس : 32 ] .

وتكرير حرف ﴿ مِن ﴾ بعد واو العطف للتوكيد على كلا التفسيرين .

وضمير ﴿ أنفسهم ﴾ عائد إلى ﴿ العِبَادِ ﴾ في قوله : ﴿ يا حَسْرَةً على العِباد ﴾ [ يس : 30 ] .

والمراد بهم : المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

*(83/646)*

---

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) ﴾

لَّما كان أمرُ البعث أعظمَ شُبَهِهِمْ ، وكَثُرَ فيه إنكارُهم كان تكرارُ الله سبحانه لحديث البعث

، وقد ضَرَبَ – سبحانه – المَثَلَ له بإحياء الأرض بالنبات في الكثيرمن الآيات . والعَجَبُ مَمَّنْ يُنْكِر علومَ الأصول ويقول ليس في الكتاب عليها دليل ! وكيف يشكل ذلك وأكثر ما في القرآن من الآيات بحث على سبيل الاستدلال ، وتحكيم أدلة العقول ؟ ولكن يَهْدِي اللَّهُ لنوره من يشاء . ولو أنهم أنصفوا من انفسهم ، واشتغلوا بأهم شيءٍ عندهم لَمَا ضيَّعوا أصول الدِّين ، ولكنهم رضوا فيها بالتقليد ، وادَّعَوْا في الفروع رتبةَ الإمامة والتصَدُّر . .

ويقال في معناه :

يا مَنْ تَصَدَّرَ في دستَ الإمامة في . . . مسائل الفقه إملاءً وتدريسا

غَفَلْتَ عن حججِ التوحيد تُحْكِمها . . . شيَّدتَ فرعاً وما مَهَّدتَ تأسيسا

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36)

(84/646)

---

تُنَبه هذه الآيةُ على التفكُّرِ في بديع صُنْعِه ؛ فقال : تنزيهاً لِمَنْ خَلَقَ الأَشياء المتشاكلةَ في الأجزاء والأعضاء ، من النبات ، ومن أنفسهم ، ومن الأشياء الأخرى التي لا يعلمون تفصيلها ، كيف جعل أوصافَها في الطعوم والراوئح ، في الشكل والهيئة ، في اختلاف الأشجار في أوراقها وفنون أغصانها وجذوعها وأصناف أنوارها وأَزهارها ، واختلاف

أشكال ثمارها في تفرُّقها واجتماعها ، ثم ما نيط بها من الانتفاع على مجرى العادة مما يسميه قومٌ : الطبائع ؛ في الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، واختلاف الأحداث التي يخلقها اللَّهُ عقيب شراب هذه الأدوية وتناول هذه الأطعمة على مجرى العادة من التأثيرات التي تحصل في الأبدان . ثم اختلاف صور هذه الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة ، فالأوقات متجانسة ، والأزمان ، متماثلة ، والجواهر متشاكلة . . وهذه الأحكام مختلفة ، ولولا تخصيص حُكْم اللَّهُ لكل شيءٍ بما اختصَّ به لم يكن تخصيصٌ بغير ذلك أولى منه . وإنَّ مَنْ كحَّلَ اللَّهُ عيونَ بصيرته بيُمْن التعريف ، وقرَنَ أوقاته بالتوفيق ، وأتَمَ نَظَرَه ، ولم يصده مانع . فما أقوى في المسائل حُجَّتَه ! وما أَوْضَحَ في السلوكِ نَهْجَه ! .

إنَّها لأقْسامٌ سبَقَت على مَنْ شاءَه الحقُّ بما شاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 217.215 ﴾

*(85/646)*

---

قوله تعالى ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

يَسْبَحُونَ (40) وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (42) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (43) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما دربهم على النظر بآيات الأعيان الحسية الدالة على القدرة الباهرة لا سيما على البعث ، رقاهم إلى المعاني على ذلك النحو ، فإن إيجاد كل من الملوين بعد إعدامه أدل دليل على البعث ، فقال ناقلاً لهم من المكان الكلي إلى الزمان الكلي الجامعين للجواهر والأعراض : ﴿ وآية لهم ﴾ أي على إعادة الشيء بعد إفنائه ﴿ الّليل ﴾ أي الذي يشاهدونه لا شك عندهم فيه ولا حيلة بوجه في رفعه ؛ ثم استأنف قوله : ﴿ نسلخ ﴾ عائداً إلى مظهر العظمة دلالة على جلالة هذا الفعل بخصوصه .

(86/646)

---

ولما كان الأصل في هذا الوجود الظلام ، والضياء حادث ، وكان ضياؤه ليس خالصاً ، عبر ب " من " التي تصلح للملابسة مع التخلل في الأجزاء فقال : ﴿ منه النهار ﴾ أي الذي كان

مختلطاً به بإزالة الضوء وكشفه عن حقيقة الليل ﴿ فإذا هم ﴾ بعد إزالتنا للنهار الذي سلخناه من الليل ﴿ مظلمون ﴾ أي داخلون في الظلام بظهور الليل الذي كان الضياء ساتراً كما يستر الجلد الشاة، قال الماوردي : وذلك أن ضوء النهار يتداخل في الهواء فيضيء فإذا خرج منه أظلم - نقله ابن الجوزي عنه ، وقد أرشد السياق حتماً إلى أن التقدير : والنهار نسلخ منه الليل الذي كان ساتره وغالباً عليه فإذا هم مبصرون .

ولما ذكر الوقتين ، ذكر آيتيهما فقال : ﴿ والشمس ﴾ أي التي سلخ النهار من الليل بغيبوبتها ﴿ تجري ﴾ ولما كان غيابها بالليل مثل سكون الإنسان في مبيته ، وجعلها على خط قدر لسيرها كل يوم بتقدير لا زيغ فيه ومنهاج لا يعوج ، قال : ﴿ لمستقر ﴾ أي عظيم ﴿ لها ﴾ وهو السير الذي لا تعدوه جنوباً ولا شمالاً ذاهبة وآئبة ، وهي فيه مسرعة - بدليل التعبير باللام في موضع " إلى " ويدل على هذا قراءة " لا مستقر لها " بل هي جارية ابداً إلى انقراض الدنيا في موضع مكين محكم هو أهل للقرار ، وعبر به مع أنها لا تستقر ما دام هذا الكون لئلا يتوهم أن دوام حركتها لأجل أن موضع جريها لا يمكن الاستقرار عليه ، ولا ينافي هذا ما في صحيح البخاري وفي كتاب الإيمان من صحيح مسلم عن أبي ذر -رضى الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال : " مستقرها تحت العرش ، وأنها تذهب فتستأذن في السجود فيؤذن لها وكأنها قد قيل لها : ارجعي من حيث جئت ، فتطلع من مغربها " -

هذا لفظ مسلم ، وسيأتي لفظ البخاري ، ويمكن أن يكون المستقر آخر جريها عند إبادة هذا الوجود .

(87/646)

---

ولما كان هذا الجري على نظام لا يختل على مر السنين وتعاقب الأحقاب تكل الأوهام عن استخراجه ، وتحير الأفهام في استنباطه ، عظمه بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر الباهر للعقول ؛ وزاد في عظمه بصيغة التفعيل في قوله : ﴿ تقدير ﴾ وأكد ذلك لافتاً القول عن مطلق مظهر العظمة إلى تخصيصه بصفتي العزة والعلم تعظيماً لهذه الآية تنبيهاً على أنها أكبر آيات السماء فقال : ﴿ العزيز ﴾ أي الذي لا يقدر أحد في شيء من أمره على نوع مغالبة ، وهو غالب على كل شيء ﴿ العليم ﴾ أي المحيط علماً بكل شيء الذي يدبر الأمر ، فيطرد على نظام عجيب ونهج بديع لا يعتريه وهن ولا يلحقه يوماً نوع خلل إلى أن يريد سبحانه إبادة هذا الكون فتسكن حركاته وتفنى موجوداته ، روى البخاري عن أبي ذر - رضى الله عنه - قال : "كنت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في المسجد عند غروب الشمس فقال : يا أبا ذر ! أتدري أين تذهب ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها

وتستأذن فلا يؤذن لها ، فيقال لها : ارجعي من حيث جئت ، فذلك قوله تعالى :

﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ " .

(88/646)

---

ولما ذكر آية النهار ، أتبعها آية الليل فقال : ﴿ والقمر ﴾ ومعناه في قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وروح عن يعقوب بالرفع : يجري لمستقر له ، ونصبه الباقون دلالة على عظمة هذا الجري لسرعته بقطعه في شهر ما تقطعه الشمس في سنة ، ولذلك ضعف الفعل المفسر للناصب وأعمله في ضمير القمر ليكون مذكوراً مرتين فيدل على شدة العناية تنبيهاً على تعظيم الفعل فيه ، وأعاد مظهر العظمة فقال مستأنفاً في قراءة الرفع : ﴿ قدرناه ﴾ أي قسناه قياساً عظيماً أي قسنا لسيره ﴿ منازل ﴾ ثمانية وعشرين ، ثم يستسر ليلتين : عند التمام وليلة للنقصان لا يقدر يوماً أن يتعداه قال الأستاذ أبو القاسم القشيري : يبعد عن الشمس ولا يزال يتباعد حتى يعود بدراً ثم يدنو فكلما ازداد من الشمس دنواً ازداد في نفسه نقصاناً إلى أن يتلاشى .

﴿ حتى عاد ﴾ أي بعد أن كان بدراً عظيماً ﴿ كالعرجون ﴾ من النخل وهو عود العذق ما بين شماريخه إلى منتهاه وهو منبته من النخلة دقيقاً منحنياً ، وهو فعلول ذكره أهل اللغة في

النون وقالوا : عرجن الثوب : صور فيه صور العراجين ، وقال المفسرون : إنه من عرج ، أي أعوج.

ولما كانت حمرته آخذة إلى صفرة قال : ﴿ القديم ﴾ أي المحول ، فإن العرجون إذا طال مكثه صار كذلك ، فدق وانحنى واصفر .

(89/646)

---

ولما تقرر أن لكل منهما منازل لا يعدوها ، فلا يغلب ما هو آيته ما هو آية الآخر ، بل إذا جاء سلطان هذا ذهب ذاك ، وإذا جاء ذاك ذهب هذا ، فإذا اجتمعا قامت الساعة ، تحرر أن نتيجة هذه القضايا : ﴿ لا الشمس ﴾ أي التي هي آية النهار ﴿ ينبغي لها ﴾ أي ما دام هذا الكون موجوداً على هذا الترتيب ﴿ أن تدرك ﴾ أي لأن حركتها بطيئة ﴿ القمر ﴾ أي فتطمسه بالكلية ، فما النهار سابق الليل ﴿ ولا الّيل سابق النهار ﴾ أي حتى ينبغي للقمر مع سرعة سيره أن يدرك الشمس ويغلبها فلا يوجد نهار أصلاً ، ولو قيل : يستبق لاختل المعنى لإيهامه أنه لا يتقدمه أصلاً فالآية من الاحتباك : نفى أولاً إدراك الشمس لقوتها دليلاً على ما حذف من الثانية من نفي إدراك القمر للشمس ، وذكر ثانياً سبق الليل النهار لما له من القوة بما يعرض من النهار فيغشيه دليلاً على حذف سبق النهار الليل أولاً

﴿ وكل ﴾ أي من المذكورات حقيقة ومجازاً ﴿ في فلك ﴾ محيط به ، ولما ذكر لها فعل العقلاء ، وكان على نظام محرر لا يختل ، وسير مقدر لا يعوج ولا ينحل ، فكان منزهاً عن آفة تلحقه ، أو ملل يطرقه ، عبر بما تدور مادته على القدرة والشدة والاتساع فقال : آتياً بضمير العقلاء جامعاً لأنه أدل على تسخيرهم دائماً : ﴿ يسبحون ﴾ حثاً على تدبر ما فيها من الآيات التي غفل عنها – لشدة الإلف لها – الجاهلون .

(90/646)

---

ولما ذكر ما حد له حدوداً في السباحة في وجه الفلك لو تعداها لاختل النظام ، ذكر ما هيأه من الفلك للسباحة على وجه الماء الذي طبق الأرض في زمن نوح عليه السلام حتى كانت كالسماء ، ولو تعدت السفينة ما حد لها سبحانه من المنازل فنفذت إلى بحر الظلمات لفسد الشأن ، وكانوا فيها كأنهم في الأرض ، وسيرها كأنهم يخترقون الجبال والفيافي والقفار – كل ذلك تذكيراً بأيام الله ، وتنبيهاً على استدرار نعمه ، وتحذيراً من سطواته ونقمه ، ومنّاً عليهم بما يسر لهم من سلوك البحر والتوصل به إلى جليل المنافع فقال : ﴿ وآية لهم ﴾ أي على قدرتنا التامة الشامل ﴿ أنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ حملنا ﴾ .

ولما كان من قبل نوح عليه السلام من أصول البشر لم يحملوا في الفلك ، عدل عن التعبير

بالضمير والآباء إلى قوله : ﴿ ذريتهم ﴾ أي ذرية البشر التي ذرأناها وذروناها وذررناها حتى ملأنا بها الأرض من ذلك الوقت إلى آخر الدهر ، ولهذا التكثير المفهوم من هذا الاشتقاق البليغ اغتنى ابن كثير وأبو عمرو والكوفيون فقرؤوا بالإفراد ، وزادت في الإيضاح قراءة الباقين بالجمع ، بعضهم ظاهراً وبعضهم في ظهر أبيه ﴿ في الفلك ﴾ عرفه لشهرته بين جميع الناس ﴿ المشحون ﴾ أي الموقر المملوء حيواناً وزاداً ، وهو يتقلب في تلك المياه التي لم ير قط مثلها ولا يرى أبداً ، ومع ذلك فسلمه الله .

ولما كانت هذه الآية لم تنقطع بل عم سبحانه بنفعها : ﴿ وخلقنا ﴾ أي بعظمتنا الباهرة ﴿ لهم من مثله ﴾ أي من مثل ذلك الفلك من الإبل والفلك ﴿ ما يركبون ﴾ أي مستمرين على ذلك على سبيل التجدد ليقصدوا منافعهم ، ولو شئنا لمنعنا ذلك .

(91/646)

---

ولما كان قد أنجى سبحانه آباءنا حين حمله في ذلك الماء الذي لم يكن مثله قط ، وكان ربما ظن أن الإنجاء لسر من الأسرار غير إرادته ، جعل أمر ما خلق من مثله تارة وتارة ليعرف أن ذلك هو بصنعه فتشكر نعمته أولاً وآخراً فقال : ﴿ وإن نشأ ﴾ أي لأجل ما لنا من القوة الشاملة ﴿ نغرقهم ﴾ أي مع أن هذا الماء الذي يركبونه لا يعشر ذلك الذي حملنا فيه

آباءهم ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ أي مغيث ينجيهم مما نريد بهم من الغرق ﴿ ولا هم ﴾ أي بأنفسهم من غير صريخ ﴿ ينقذون ﴾ أي يكون لهم إنقاذ أي خلاص بأنفسهم أو غيرها .

ولما كان هو سبحانه يصرخ من يشاء فينجيه وكانت "لا" نافية نفياً مستغرقاً ، استثنى ما كان منه سبحانه فقال : ﴿ إلا رحمة ﴾ أي إلا نحن فننقذهم إن شئنا رحمة ﴿ منا ﴾ أي لهم ، لا وجوباً علينا ، ولا لمنفعة تعود منهم إلينا ﴿ ومتاعاً ﴾ أي لهم ﴿ إلى حين ﴾ أي وهو حين انقضاء آجالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 261.265 ﴾

(92/646)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) ﴾

لما استدل الله بأحوال الأرض وهي المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي فإن دلالة المكان والزمان مناسبة لأن المكان لا تستغني عنه الجواهر والزمان لا تستغني عنه الأعراض ، لأن كل عرض فهو في زمان ومثله مذكور في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءاياته الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ [ فصلت : 37 ] ثم قال بعده : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَنَّكَ تَرَى

الأرض خاشعة فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الماء اهتزت وَرَبَتْ ﴾ [ فصلت : 39 ] حيث استدل بالزمان والمكان هناك أيضاً ، لكن المقصود أولاً هناك إثبات الوحدانية بدليل قوله تعالى : ﴿ لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ ﴾ [ فصلت : 37 ] ثم الحشر بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذي أحياها لمحيي الموتى ﴾ [ فصلت : 39 ] وههنا المقصود أولاً إثبات الحشر لأن السورة فيها ذكر الحشر أكثر ، يدل عليه النظر في السورة ، وهناك ذكر التوحيد أكثر بدليل قوله تعالى فيه : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [ فصلت : 9 ] إلى غيره وآخر السورتين يبين الأمر ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

المكان يدفع عن أهل السنة شبه الفلاسفة ، والزمان يدفع عنهم شبه المشبهة .

(93/646)

---

أما بيان الأول : فذلك لأن الفلسفي يقول لو كان عدم العالم قبل وجوده لكان عند فرض عدم العالم قبل ، وقبل وبعد لا يتحقق إلا بالزمان ، فقبل العالم زمان والزمان من جملة العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه وهو محال ، فنقول لهم قد وافقتمونا على أن الأمكنة متناهية ، لأن الأبعاد متناهية بالاتفاق ، فإذن فوق السطح الأعلى من العالم يكون عدماً

وهو موصوف بالفوقية ، وفوق وتحت لا يتحقق إلا بالمكان ففوق العالم مكان والمكان من العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه ، فإن أجابوا بأن فوق السطح الأعلى لا خلا ولا ملا ، نقول قبل وجود العالم لا آن ولا زمان موجود .

أما بيان الثاني : فلأن المشبهي يقول لا يمكن وجود موجود إلا في مكان ، فالله في مكان فنقول فيلزمكم أن تقولوا الله في زمان لأن الوهم كما لا يمكنه أن يقول هو موجود ولا مكان لا يمكنه أن يقول هو كان موجوداً ولا زمان وكل زمان فهو حادث وقد أجمعنا على أن الله تعالى قديم .

المسألة الثانية :

لو قال قائل إذا كان المراد منه الاستدلال بالزمان فلم اختار الليل حيث قال : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الليل ﴾ ؟ نقول لما استدل بالمكان الذي هو المظلم وهو الأرض وقال : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الأرض ﴾ [ يس : 33 ] استدل بالزمان الذي فيه الظلمة وهو الليل ووجه آخر : وهو أن الليل فيه سكون الناس وهدوء الأصوات وفيه النوم وهو كالموت ويكون بعده طلوع الشمس كالنفخ في الصور فيتحرك الناس فذكر الموت كما قال في الأرض : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الأرض الميتة ﴾ [ يس : 33 ] فذكر من الزمانين أشبههما بالموت كما ذكر من المكانين أشبههما بالموت .

المسألة الثالثة :

(94/646)

---

ما معنى سلخ النهار من الليل ؟ نقول معناه تمييزه منه يقال انسلخ النهار من الليل إذا أتى آخر النهار ودخل أول الليل وسلخه الله منه فانسلخ هو منه ، وأما إذا استعمل بغير كلمة من فقيل سلخت النهار أو الشمس فمعناه دخلت في آخره ، فإن قيل فالليل في نفسه آية فأية حاجة إلى قوله : ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾ ؟ نقول الشيء تتبين بضده منافعه ومحاسنه ، ولهذا لم يجعل الله الليل وحده آية في موضع من المواضع إلا وذكر آية النهار معها ، وقوله : ﴿ فَإِذَا هُم مٌّظْلِمُونَ ﴾ أي داخلون في الظلام ، وإذا للمفاجأة أي ليس بيدها بعد ذلك أمر ولا بد لهم من الدخول فيه .

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38)

(95/646)

---

ويحتمل أن يكون الواو للعطف على الليل تقديره : وآية لهم الليل نسلخ والشمس تجري والقمر قدرناه ، فهي كلها آية ، وقوله : ﴿ والشمس تَجْرِي ﴾ إشارة إلى سبب سلخ النهار

فإنها تجري لمستقر لها وهو وقت الغروب فينسلخ النهار ، وفائدة ذكر السبب هو أن الله لما قال نسلخ منه النهار وكان غير بعيد من الجهال أن يقول قائل منهم سلخ النهار ليس من الله إنما يسلخ النهار بغروب الشمس فقال تعالى : والشمس تجري لمستقر لها بأمر الله فمغرب الشمس سالخ للنهار فبذكر السبب يتبين صحة الدعوى ويحتمل أن يقال بأن قوله :

﴿ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ إشارة إلى نعمة النهار بعد الليل كأنه تعالى لما قال : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾ [ يس : 37 ] ذكر أن الشمس تجري فتطلع عند انقضاء الليل فيعود النهار بمنافعه ، وقوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ ﴾ اللام يحتمل أن تكون للوقت كقوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصلاة لِدُلُوكِ الشمس ﴾ [ الإسراء : 78 ] وقوله تعالى : ﴿ فَطَلّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [ الطلاق : 1 ] ووجه استعمال اللام للوقت هو أن اللام المكسورة في الأسماء لتحقيق معنى الإضافة لكن إضافة الفعل إلى سببه أحسن الإضافات لأن الإضافة لتعريف المضاف بالمضاف إليه كما في قوله : دار زيد لكن الفعل يعرف بسببه فيقال اتجر للربح واشتر للأكل ، وإذا علم أن اللام تستعمل للتعليل فنقول وقت الشيء يشبه سبب الشيء لأن الوقت يأتي بالأمر الكائن فيه ، والأمور متعلقة بأوقاتها فيقال خرج لعشر من كذا ﴿ وَأَقِمِ الصلاة لِدُلُوكِ الشمس ﴾ [ الإسراء : 78 ] لأن الوقت معرف كالسبب وعلى هذا فمعناه تجري الشمس وقت استقرارها أي كلما استقرت زماناً أمرت بالجري فجرت ، ويحتمل أن تكون بمعنى إلى أي إلى مستقر لها وتقريره هو أن اللام تذكر للوقت

وللوقت طرفان ابتداء وانتهاء يقال سرت من يوم الجمعة إلى يوم الخميس فجاز استعمال ما يستعمل فيه في أحد طرفيه لما بينهما من

(96/646)

---

الاتصال ويؤيد هذا قراءة من قرأ ﴿ والشمس تَجْرِي إلى مُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ وعلى هذا ففي ذلك المستقر وجوه الأول : يوم القيامة وعنده تستقر ولا يبقى لها حركة الثاني : السنة الثالث : الليل أي تجري إلى الليل الرابع : أن ذلك المستقر ليس بالنسبة إلى الزمان بل هو للمكان وحينئذٍ ففيه وجوه الأول : هو غاية ارتفاعها في الصيف وغاية انخفاضها في الشتاء أي تجري إلى أن تبلغ ذلك الموضع فترجع الثاني : هو غاية مشارقها فإن في كل يوم لها مشرق إلى ستة أشهر ثم تعود إلى تلك المقنطرات وهذا هو القول الذي تقدم في الإرتفاع فإن اختلاف المشارق بسبب اختلاف الإرتفاع الثالث : هو وصولها إلى بيتها في الابتداء الرابع : هو الدائرة التي عليها حركتها حيث لا تميل عن منطقة البروج على مرور الشمس وسنذكرها ، ويحتمل أن يقال ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ أي تجري مجرى مستقرها .

(97/646)

فإن أصحاب الهيئة قالوا الشمس في فلك والفلك يدور فيدير الشمس فالشمس تجري مجرى مستقرها ، وقالت الفلاسفة تجري لمستقرها أي لأمر لو وجدها لاستقر وهو استخراج الأوضاع الممكنة وهو في غاية السقوط ، وأجاب الله عنه بقوله : ﴿ ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ أي ليس لإرادتها وإنما ذلك بإرادة الله وتقديره وتدبيره وتسخيره إياها ، فإن قيل عددت الوجوه الكثيرة وما ذكرت المختار ، فما الوجه المختار عندك ؟ نقول المختار هو أن المراد من المستقر المكان أي تجري لبلوغ مستقرها وهو غاية الارتفاع والانخفاض فإن ذلك يشمل المشارق والمغارب والمجرى الذي لا يختلف والزمان وهو السنة والليل فهو أتم فائدة ، وقوله : ﴿ ذلك ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى جري الشمس أي ذلك الجري تقدير الله ويحتمل أن يكون إشارة إلى المستقر أي لمستقر لها وذلك المستقر تقدير الله والعزيز الغالب وهو بكمال القدرة يغلب ، والعليم كامل العلم أي الذي قدر على إجرائها على الوجه الأنفع وعلم الأنفع فأجراها على ذلك ، وبيانه من وجوه الأول : هو أن الشمس في ستة أشهر كل يوم تمر على مسامته شيء لم تمر من أمسها على تلك المسامتة ، ولو قدر الله مرورها على مسامته واحدة لاحترقت الأرض التي هي مسامته لمرها وبقي المجموع مستولياً على الأماكن الآخر فقدر الله لها بعداً لتجمع الرطوبات في باطن الأرض والأشجار في زمان الشتاء ثم قدر قربها بتدريج لتخريج النبات والثمار من الأرض

والشجر وتنضج وتجفف ، ثم تبعد لئلا يحترق وجه الأرض وأغصان الأشجار الثاني : هو أن الله قدر لها في كل يوم طلوعاً وفي كل ليلة غروباً لئلا تكون القوى والأبصار بالسهر والتعب ولا يخرب العالم بترك العمارة بسبب الظلمة الدائمة ، الثالث : جعل سيرها أبطأ من سير القمر وأسرع من سير زحل لأنها كاملة النور فلو كانت بطيئة السير لدامت زماناً كثيراً في مسامته شيء واحد فتحرقه ، ولو كانت سريعة السير لما حصر لها لبث بقدر ما ينضج

*(98/646)*

---

الثمار في بقعة واحدة .

وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39)

قال الزمخشري : لا بد من تقدير لفظ يتم به معنى الكلام لأن القمر لم يجعل نفسه منازل فالمعنى أنا قدرنا سيره منازل وعلى ما ذكره يحتمل أن يقال المراد منه ، والقمر قدرناه ذا منازل لأن ذا الشيء قريب من الشيء ولهذا جاز قول القائل عيشة راضية لأن ذا الشيء كالقائم به الشيء فأتوا بلفظ الوصف .

وقوله : ﴿ حتى عَادَ كالعرجون القديم ﴾ أي رجع في الدقة إلى حالته التي كان عليها من قبل .

والعرجون من الانعراج يقال لعود العذق عرجون ، والقديم المتقادم الزمان ، قيل إن ما غبر عليه سنة فهو قديم ، والصحيح أن هذه بعينها لا تشترط في جواز إطلاق القديم عليه وإنما تعتبر العادة ، حتى لا يقال لمدينة بنيت من سنة وسنتين إنها بناء قديم أو هي قديمة ويقال لبعض الأشياء إنه قديم ، وإن لم يكن له سنة ، ولهذا جاز أن يقال بيت قديم وبناء قديم ولم يجز أن يقال في العالم إنه قديم ، لأن القدم في البيت والبناء يثبت بحكم تقادم العهد ومرور السنين عليه ، وإطلاق القديم على العالم لا يعتاد إلا عند من يعتقد أنه لا أول له ولا سابق عليه .

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)

(99/646)

---

إشارة إلى أن كل شيء من الأشياء المذكورة خلق على وفق الحكمة ، فالشمس لم تكن تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمر وإلا لكان في شهر واحد صيف وشتاء فلا تدرك الثمار وقوله : ﴿ وَلاَ الليل سَابِقُ النهار ﴾ قيل في تفسيره إن سلطان الليل وهو القمر ليس يسبق الشمس وهي سلطان النهار ، وقيل معناه ولا الليل سابق النهار أي الليل لا يدخل وقت النهار والثاني بعيد لأن ذلك يقع إيضاحاً للواضح والأول صحيح إن أريد به ما

بينته وهو أن معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا الليل سَابِقُ النهار ﴾ أن القمر إذا كان على أفق المشرق أيام الاستقبال تكون الشمس في مقابلته على أفق المغرب ، ثم إن عند غروب الشمس يطلع القمر وعند طلوعها يغرب القمر ، كأن لها حركة واحدة مع أن الشمس تتأخر عن القمر في ليلة مقدارا ظاهراً في الحس ، فلو كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس ولا تدركه الشمس ؛ وللشمس حركة واحدة بها تتأخر عن القمر ولا تدرك القمر ؛ لبقي القمر والشمس مدة مديدة في مكان واحد ، لأن حركة الشمس كل يوم درجة فخلق الله تعالى في جميع الكواكب حركة أخرى غير حركة الشهر والسنة ، وهي الدورة اليومية وبهذه الدورة لا يسبق كوكب كوكباً أصلاً ، لأن كل كوكب من الكواكب إذا طلع غرب مقابله وكلما تقدم كوكب إلى الموضع الذي فيه الكوكب الآخر بالنسبة إلينا تقدم ذلك الكوكب ، فبهذه الحركة لا يسبق الشمس ، فتبين أن سلطان الليل لا يسبق سلطان النهار فالمراد من الليل القمر ومن النهار الشمس فقوله : ﴿ لَا الشمس يَنبَغِى لَهَا أَن تدْرِكَ القمر ﴾ إشارة إلى حركتها البطيئة التي تتم الدورة في سنة وقوله : ﴿ وَلَا الليل سَابِقُ النهار ﴾ إشارة إلى حركتها اليومية التي بها تعود من المشرق إلى المشرق مرة أخرى في يوم وليلة ، وعلى هذا ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما الحكمة في إطلاق الليل وإرادة سلطانه وهو القمر ، وماذا يكون لو قال ولا القمر سابق الشمس ؟ نقول لو قال ولا القمر سابق الشمس ما كان يفهم أن الإشارة إلى الحركة اليومية فكان يتوهم التناقض ، فإن الشمس إذا كانت لا تدرك القمر والقمر أسرع ظاهراً ، وإذا قال ولا القمر سابق يظن أن القمر لا يسبق فليس بأسرع ، فقال الليل والنهار ليعلم أن الإشارة إلى الحركة التي بها تتم الدورة في مدة يوم وليلة ، ويكون لجميع الكواكب أو عليها طلوع وغروب في الليل والنهار .

المسألة الثانية :

ما الفائدة في قوله تعالى : ﴿ لَا الشمس يَنبَغِى لَهَا أَن تدْرِكَ ﴾ بصيغة الفعل وقوله : ﴿ وَلَا الليل سَابِقُ النهار ﴾ بصيغة اسم الفاعل ، ولم يقل ولا الليل يسبق ولا قال مدركة القمر ؟ نقول الحركة الأولية التي للشمس ، ولا يدرك بها القمر مختصة بالشمس ، فجعلها كالصادرة منها ، وذكر بصيغة الفعل لأن صيغة الفعل لا تطلق على من لا يصدر منه الفعل فلا يقال هو يخيط ولا يكون يصدر منه الخياطة .

والحركة الثانية ليست مختصة بكوكب من الكواكب بل الكل فيها مشتركة بسبب حركة فلك ليس ذلك فلكاً لكوكب من الكواكب ، فالحركة ليست كالصادرة منه فأطلق اسم الفاعل لأنه لا يستلزم صدور الفعل يقال فلان خياط وإن يكن خياطاً ، فإن قيل قوله تعالى :

﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ [ الأعراف : 54 ] يدل على خلاف ما ذكرتم ، لأن النهار إذا كان يطلب الليل فالليل سابقه ، وقلتم إن قوله : ﴿ وَلَا اللَّيل سَابِقُ النهار ﴾ معناه ما ذكرتم فيكون الليل سابقاً ولا يكون سابقاً ، نقول قد ذكرنا أن المراد بالليل ههنا سلطان الليل وهو القمر ، وهو لا يسبق الشمس بالحركة اليومية السريعة ، والمراد من الليل هناك نفس الليل وكل واحد لما كان في عقيب الآخر فكأنه طالبه ، فإن قيل فلم ذكر ههنا ﴿ سَابِقُ النهار ﴾ وقد ذكر هناك يطلبه ، ولم يقل طالبه ؟ نقول ذلك لما بينا من أن المراد في هذه السورة من الليل كواكب الليل ، وهي في هذه الحركة كأنها لا حركة لها ولا تسبق ، ولا من شأنها أنها سابقة ، والمراد هناك نفس الليل والنهار وهما زمانان والزمان لا قرار له فهو يطلب حثيثاً لصدور التقصي منه ، وقوله تعالى : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يحقق ما ذكرنا أي للكل طلوع وغروب في يوم وليلة لا يسبق بعضها بعضاً ، بالنسبة إلى هذه الحركة وكل حركة في فلك تخصه وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

التنوين في قوله ( وكل ) عوض عن الإضافة معناه كل واحد وإسقاط التنوين للإضافة حتى لا يجتمع التعريف والتنكير في شيء واحد فلما سقط المضاف إليه لفظاً رد التنوين عليه لفظاً ، وفي المعنى معرف بالإضافة ، فإن قيل فهل يختلف الأمر عند الإضافة لفظاً وتركها ؟ فنقول نعم ، وذلك لأن قول القائل كل واحد من الناس كذا لا يذهب الفهم إلى غيرهم فيفيد اقتصار الفهم عليه ، فإذا قال كل كذا يدخل في الفم عموم أكثر من العموم عند الإضافة ، وهذا كما في قبل وبعد إذا قلت افعل قبل كذا فإذا حذفت المضاف وقلت افعل قبل أفاد فهم الفعل قبل كل شيء ، فإن قيل فهل بين قولنا كل منهم وبين قولنا كلهم وبين كل فرق ؟ نقول نعم عند قولك كلهم تثبت الأمر للاقتصار عليهم ، وعند قولك كل منهم تثبت الأمر أولاً للعموم ، ثم استدركت بالتخصيص فقلت منهم ، وعند قولك كل تثبت الأمر على العموم وتتركه عليه .

المسألة الثانية :

إذا كان كل بمعنى كل واحد منهم والمذكور الشمس والقمر فكيف قال : ﴿يَسْبَحُونَ﴾ ؟ نقول الجواب عنه من وجوه أحدها : ما بينا أن قوله كل للعموم فكأنه أخبر عن كل كوكب في السماء سيار ثانيها : أن لفظ كل يجوز أن يوحد نظراً إلى كونه لفظاً موحداً غير مثنى ولا مجموع ، ويجوز أن يجمع لكون معناه جمعاً ، وأما التثنية فلا يدل عليها للفظ ولا المعنى فعلى

هذا يحسن أن يقول القائل زيد وعمرو كل جاء أو كل جاءوا ولا يقول كل جاءا بالتثنية

وثالثها : لما قال : ﴿ وَلَا الليل سَابِقُ النهار ﴾ والمراد ما في الليل من الكواكب قال :

﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ .

المسألة الثالثة :

الفلك ماذا ؟ نقول الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة لأن أهل اللغة اتفقوا على أن فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها وفلكة الخيمة هي الخشبة المسطحة المستديرة التي توضع على رأس العمود لئلا يمزق العمود الخيمة وهي صفحة مستديرة ، فإن قيل فعلى هذا تكون السماء مستديرة .

(103/646)

---

وقد اتفق أكثر المفسرين على أن السماء مبسوطة ليس لها أطراف على جبال وهي كالسقف المستوي .

ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ والسقف المرفوع ﴾ [ الطور : 5 ] نقول ليس في النصوص ما يدل دلالة قاطعة على كون السماء مبسوطة غير مستديرة ، ودل الدليل الحسي على كونها مستديرة فوجب المصير إليه .

أما الأول فظاهر لأن السقف المقبب لا يخرج عن كونه سقفاً ، وكذلك كونها على جبال ، وأما الدليل الحسي فوجوه أحدها : أن من أمعن في السير في جانب الجنوب يظهر له كواكب مثل سهيل وغيره ظهوراً أبدياً حتى أن من يرصد يراه دائماً ويخفى عليه بنات نعش وغيرها خفاءً أبدياً ، ولو كان السماء مسطحاً مستوياً لبان الكل للكل بخلاف ما إذا كان مستديراً فإن بعضه حينئذٍ يستتر بأطراف الأرض فلا يرى

الثاني : هو أن الشمس إذا كانت مقارنة للحمل (1) مثلاً فإذا غربت ظهر لنا كوكب في منطقة البروج من الحمل إلى الميزان ثم في قليل يستتر الكوكب الذي كان غروبه بعد غروب الشمس ويظهر الكوكب الذي كان طلوعه بعد طلوع الشمس وبالعكس وهو دليل ظاهر وإن بحث فيه يصير قطعياً الثالث : هو أن الشمس قبل طلوعها وبعد غروبها يظهر ضوءها ويستنير الجو بعض الاستنارة ثم يطلع ولولا أن بعض السماء مستتر بالأرض وهو محل الشمس فلا يرى جرمها وينتشر نورها لما كان كذا بل كان عند إعادتها إلى السماء يظهر لكل أحد جرمها ونورها معاً لكون السماء مستوية حينئذٍ مكشوفة كلها لكل أحد

الرابع : القمر إذا انكسف في ساعة من الليل في جانب الشرق ، ثم سئل أهل الغرب عن

وقت الكسوف أخبروا عن الخسوف في ساعة أخرى قبل تلك الساعة التي رأى أهل المشرق فيها الخسوف لكن الخسوف في وقت واحد في جميع نواحي العالم والليل مختلف فدل على أن الليل في جانب المشرق قبل الليل في جانب المغرب فالشمس غربت من عند أهل المشرق وهي بعد في السماء ظاهرة لأهل المغرب فعلم استتارها بالأرض ولو كانت مستوية لما كان كذلك

الخامس : لو كانت السماء مبسوطة لكان القمر عندما يكون فوق رؤوسنا على المسامتة أقرب إلينا وعندما يكون على الأفق أبعد منا لأن العموم أصغر من القطر والوتد ، وكذلك في الشمس والكواكب كان يجب أن يرى أكبر لأن القريب يرى أكبر وليس كذلك فإن قيل جاز أن يكون وهو على الأفق على سطح السماء وعندما يكون على

---

(1) الحمل من بروج الشمس الاثني عشر وقد نظمت في قول الشاعر :

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان

ورمى عقرب بقوس لجدي نزح الدلو بركة الحيتان .

مسامتة رؤوسنا في بحر السماء غائراً فيها لأن الخرق جائز على السماء ، نقول لا تنازع في جواز الخرق لكن القمر حينئذٍ تكون حركته في دائرة لا على خط مستقيم وهو غرضنا ولأنا نقول لو كان كذلك لكان القمر عند أهل المشرق وهو في منتصف نهارهم أكبر مقداراً لكونه قريباً من رؤوسهم ضرورة فرضه على سطح السماء الأدنى وعندنا في بحر السماء ، وبالجملة الدلائل كثيرة .

والإكثار منها يليق بكتب الهيئة التي الغرض منها بيان ذلك العلم ، وليس الغرض في التفسير بيان ذلك غير أن القدر الذي أوردناه يكفي في بيان كونه فلكاً مستديراً .

المسألة الرابعة :



---

هذا يدل على أن لكل كوكب فلكاً ، فما قولك فيه ؟ نقول : أما السبعة السيارة (1) فلكل فلك ، وأما الكواكب الآخر فقيل للكل فلك واحد ، ولنذكر كلاماً مختصراً في هذا الباب من الهيئة حيث وجب الشروع بسبب تفسير الفلك فنقول : قيل إن للقمر فلكاً لأن حركته أسرع من حركة الستة الباقية ، وكذلك لكل كوكب فلك لاختلاف سيرها بالسرعة والبطء والممر ، فإن بعضها يمر في دائرة وبعضها في دائرة أخرى حتى في بعض الأوقات يمر

بعضها ببعض ولا يكسفه وفي بعض الأوقات يكسفه فلكل كوكب فلك ، ثم إن أهل الهيئة قالوا فكل فلك هو جسم كرة وذلك غير لازم بل اللازم أن نقول لكل فلك هو كرة أو صفحة أو دائرة يفعلها الكوكب بحركته ، والله تعالى قادر على أن يخلق الكوكب في كرة يكون وجوده فيها كوجود مسمار مغرق في ثخن كرة مجوفة ويدير الكرة فيدور الكوكب بدوران الكرة ، وعلى مذهب أرباب الهيئة حركة الكواكب السيارة على هذا الوجه ، وكذلك قادر على أن يخلق حلقة يحيط بها أربع سطوح متوازنة بها فإنها أربع دوائر متوازية كحجر الرحى إذا قورناه وأخرجنا من وسطه طاحونة من طواحين اليد ويبقى منه حلقة يحيط بها سطوح ودوائر كما ذكرنا وتكون الكواكب فيه وهو فلك فتدور تلك الحلقة وتدير الكوكب ، والحركة على هذا الوجه وإن كانت مقدورة لكن لم يذهب إليه أحد ممن يعتبر وكذلك هو قادر على أن يجعل الكواكب بحيث تشق السماء فتجعل دائرة متوهمة كما لو فرضت سمكة في الماء على وجهه تنزل من جانب وتصعد إلى موضع من الجانب الآخر على استدارة وهذا هو المفهوم من قوله تعالى : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ والظاهر أن حركة الكواكب على هذا الوجه ، وأرباب الهيئة أنكروا ذلك وقالوا لا تجوز الحركة على هذا الوجه لأن الكوكب له جرم فإذا شق السماء وتحرك فإما أن يكون موضع دورانه ينشق ويلتئم كالماء تحركه السمكة أو لا ينشق ولا يلتئم ، بل هناك خلاء يدور الكوكب فيه ، لكن الخلاء محال والسماء لا تقبل

(1) نظم بعضهم السبعة السيارة في بيت وهو :

زحل شرى مريخه من شمسه فتزاهرت لعطارد الأقمار

والمراد من قوله شرى كوكب المشترى : ولم يكن معروفا غير هذه السبعة عند القدماء ، وقد اكتشف المحدثون كواكب أخرى جديدة منها نبتون وأورانوس .

(107/646)

---

الشق والالتئام ، هذا ما اعتمدوا عليه ، ونحن نقول كلاهما جائز .

(108/646)

---

أما الخلاء فلا يحتاج إليه ههنا ، لأن قوله تعالى : ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يفهم منه أنه بشق والتئام ، وأما امتناع الشق والالتئام فلا دليل لهم عليه وشبهتهم في المحدد للجهات وهي هناك ضعيفة ، ثم إنهم قالوا على ما بينا تخرج الحركات وبه علمنا الكسوفات ، ولو كان لها حركات مختلفة لما وجب الكسوف في الوقت الذي يحكم فيه بالكسوف والخسوف وذلك لأنا نقول للشمس فلكان أحدهما : مركزه مركز العالم ثانيهما : مركزه فوق مركز العالم وهو

مثل بياض البيض بين صفرته وبين القيض والشمس كرة في الفلك الخارج المركز تدور بدورانه في السنة دورة ، فإذا جعلت في الجانب الأعلى تكون بعيدة عن الأرض فيقال إنها في الأوج ، وإذا حصلت في الجانب الأسفل تكون قريبة من الأرض فتكون في الحضيض ، وأما القمر فله فلك شامل لجميع أجزائه وأفلاكه وفلك آخر هو بعض من الفلك الأول محيط به كالقشرة الفوقانية من البصلة وفلك ثالث في الفلك التحتاني كما كان في الفلك الخارج المركز في فلك الشمس وفي الفلك الخارج المركز كرة مثل جرم الشمس وفي الكرة القمر مركوز كمسمار في كرة مغرق فيها ويسمى الفلك الفوقاني الجوزهر والخارج المركز الفلك الحامل والفلك التحتاني الذي فيه الفلك الحامل الفلك المائل والكرة التي في الحامل تسمى فلك التدوير ، وكذلك قالوا في الكواكب الخمسة الباقية من السيارات غير أن الفوقاني الذي سموه فلك الجوزهر لم يثبتوه لها فأثبتوا أربعة وعشرين فلكاً ، الفلك الأعلى وفلك البروج ، ولزحل ثلاثة أفلاك الممثل والحامل وفلك التدوير ، وللمشتري ثلاثة كما لزحل ، وللمريخ كذلك ثلاثة ، وللشمس فلكان الممثل والخارج المركز ، وللزهرة ثلاثة أفلاك كما للعلويات ، ولعطارد أربعة أفلاك الثلاثة التي ذكرناها في العلويات ، وفلك آخر يسمونه المدير ، وللقمر أربعة أفلاك والرابع يسمونه فلك الجوزهر والمدير ليس كالجوزهر لأن المدير غير محيط بأفلاك عطارد وفلك الجوزهر محيط ، ومنهم من زاد

في الخمسة في كل فلك فلكين آخرين وجعل تدويراتها مركبة من ثلاثة أفلاك ، وقالوا إن بسبب هذه الأجرام تختلف حركات الكواكب ويكون لها عروض ورجوع واستقامة وبطء وسرعة .

هذا كلامهم على سبيل الاقتناص والاقتصار ونحن نقول لا يبعد من قدرة الله خلق مثل ذلك ، وأما على سبيل الوجوب فلا نسلم ورجوعها واستقامتها بإرادة الله وكذلك عرضها وطولها وبطؤها وسرعتها وقربها وبعدها هذا تمام الكلام .

المسألة الخامسة :

قال المنجمون الكواكب أحياء بدليل أنه تعالى قال : ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ وذلك لا يطلق إلا على العاقل ، نقول إن أردتم القدر الذي يصح به التسبيح فنقول به لأنه ما من شيء من هذه الأشياء إلا وهو يسبح بحمد الله وإن أردتم شيئاً آخر فلم يثبت ذلك والاستعمال لا يدل كما في قوله تعالى في حق الأصنام ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ [ الصافات : 92 ] وقوله : ( ألا تنطقون ) .

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41)

ولها مناسبة مع ما تقدم من وجهين أحدهما : أنه تعالى لما من بإحياء الأرض وهي مكان الحيوانات بين أنه لم يقتصر بل جعل للإنسان طريقاً يتخذ من البحر خيراً ويتوسطه أو يسير فيه كما يسير في البر وهذا حينئذٍ كقوله : ﴿ وحملناهم فِي البر والبحر ﴾ [ الإسراء : 70 ] ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [ يس : 42 ] إذا فسرناه بأن المراد الإبل فإنها كسفن البراري وثانيهما : هو أنه تعالى لما بين سباحة الكواكب في الأفلاك وذكر ما هو مثله وهو سباحة الفلك في البحار ، ولها وجه ثالث : وهي أن الأمور التي أنعم الله بها على عباده منها ضرورية ومنها نافعة والأول للحاجة والثاني للزينة فخلق الأرض وإحياؤها من القبيل الأول فإنها المكان الذي لولاه لما وجد الإنسان ولولا إحياؤها لما عاش والليل والنهار في قوله : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الليل ﴾ [ يس : 37 ] أيضاً من القبيل الأول ، لأنه الزمان الذي لولاه لما حدث الإنسان ، والشمس والقمر وحركتهما لو لم تكن لما عاش ، ثم إنه تعالى لما ذكر من القبيل الأول آيتين ذكر من القبيل الثاني وهو الزينة آيتين إحداهما : الفلك التي تجري في البحر فيستخرج من البحر ما يتزين به كما قال تعالى : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفلك فيه مواخر ﴾ [ فاطر : 12 ] وثانيتهما : الدواب التي هي في البر كالفلك في البحر في قوله : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [ يس : 42 ] فإن الدواب زينة كما قال تعالى : ﴿ والخيل والبغال

والحمير لتركبوها وزينة ﴾ [ النحل : 8 ] وقال : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [ النحل : 6 ] فيكون استدلالاً عليهم بالضروري والنافع لا يقال بأن النافع ذكره في قوله : ﴿ جنات مّن نَّخِيلٍ وأعناب ﴾ [ يس : 34 ] فإنها للزينة لأنا نقول ذلك حصل تبعاً للضروري ،

(111/646)

---

لأن الله تعالى لما خلق الأرض منبتة لدفع الضرورة وأنزل الماء عليها كذلك لزم أن يخرج من الجنة النخيل والأعناب بقدرة الله ، وأما الفلك فمقصود لا تبع ، ثم إذا علمت المناسبة ففي الآيات أبحاث لغوية ومعنوية :

(112/646)

---

أما اللغوية : قال المفسرون الذرية هم الآباء أي حملنا آباءكم في الفلك والألف واللام للتعريف أي فلك نوح وهو مذكور في قوله : ﴿ واصنع الفلك ﴾ [ هود : 37 ] ومعلوم عند العرب فقال الفلك ، هذا قول بعضهم ، وأما الأكثرون فعلى أن الذرية لا تطلق إلا على الولد

وعلى هذا فلا بد من بيان المعنى ، فنقول الفلك إما أن يكون المراد الفلك المعين الذي كان لنوح ، وإما أن يكون المراد الجنس كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [ الزخرف : 12 ] وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى الفلك فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ [ فاطر : 12 ] وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك ﴾ [ العنكبوت : 65 ] إلى غير ذلك من استعمال لام التعريف في الفلك لبيان الجنس ، فإن كان المراد سفينة نوح عليه السلام ففيه وجوه الأول : أن المراد إنا حملنا أولادكم إلى يوم القيامة في ذلك الفلك ، ولولا ذلك لما بقي للآدمي نسل ولا عقب وعلى هذا فقوله : ﴿ حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ بدل قوله : حملناهم إشارة إلى كمال النعمة أي لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية إلى أعقابكم إلى يوم القيامة ، هذا ما قاله الزمخشري ، ويحتمل عندي أن يقال على هذا إنه تعالى إنما خص الذرية بالذكر ، لأن الموجودين كانوا كفاراً لا فائدة في وجودهم فقال : ﴿ حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي لم يكن الحمل حملاً لهم ، وإنما كان حملاً لما في أصلابهم من المؤمنين كما أن من حمل صندوقاً لا قيمة له وفيه جواهر إذا قيل له لم تحمل هذا الصندوق وتتعب في حمله وهو لا يشتري بشيء ؟ يقول : لا أحمل الصندوق وإنما أحمل ما فيه الثاني : هو أن المراد بالذرية الجنس معناه حملنا أجناسهم وذلك لأن ولد الحيوان من جنسه ونوعه والذرية تطلق على الجنس ولهذا يطلق على النساء نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الذراري ، أي النساء وذلك لأن المرأة وإن كانت صنفاً غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه يقال ذرارينا أي

أمثالنا فقوله : ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي أمثالهم وآباؤهم حينئذٍ تدخل فيهم الثالث : هو أن الضمير في قوله : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ عائد إلى العباد حيث قال :

﴿ ياحسرة عَلَى العباد ﴾ [ يس : 30 ] وقال بعد ذلك : ﴿ وءَايَةٌ لَّهُمُ الأرض ﴾ [ يس : 33 ] وقال : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الليل ﴾ [ يس : 37 ] ﴿ وَءايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ إذا علم هذا فكأنه تعالى قال : وآية للعباد أنا حملنا ذريات العباد ولا يلزم أن يكون المراد بالضمير في الموضعين أشخاصاً معينين كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [ النساء : 29 ] ويريد بعضكم بعضاً ، وكذلك إذا تقاتل قوم ومات الكل في القتال ، يقال هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم ، فهم في الموضعين يكون عائداً إلى القوم ولا يكون المراد أشخاصاً معينين ، بل المراد أن بعضهم قتل بعضاً ، فكذلك قوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ أي آية لكل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم ، أو ذرية بعض منهم .

وأما إن قلنا إن المراد جنس الفلك فهو أظهر ، لأن سفينة نوح لم تكن بحضرتهم ولم يعلموا من حمل فيها ، فأما جنس الفلك فإنه ظاهر لكل أحد ، وقوله تعالى في سفينة نوح :

﴿ وجعلناها ءايَةً للعالمين ﴾ [ العنكبوت : 15 ] أي بوجود جنسها ومثلها ، ويؤيده قوله

تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفلك تَجْرِى فِى البحر بِنِعْمَتِ الله لِيُرِيَكُمْ مِّنْ ءاياته إِنَّ فِى ذَلِكَ لأيات لّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [ لقمان : 31 ] فنقول قوله تعالى : ﴿ حَمَلْنَا ذُرّيَّتَهُمْ ﴾ أي ذريات العباد ولم يقل حملناهم ، لأن سكون الأرض عام لكل أحد يسكنها فقال : ﴿ وَءايَةٌ لَّهُمُ الأرض الميتة ﴾ إلى أن قال : ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ [ يس : 33 ] لأن الأكل عام ، وأما الحمل في السفينة فمن الناس من لا يركبها في عمره ولا يحمل فيها ، ولكن ذرية العباد لا بد لهم من ذلك فإن فيهم من يحتاج إليها فيحمل فيها .

المسألة الثانية :



---

جعل الفلك تارة جمعاً حيث قال : ﴿ وَتَرَى الفلك فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ [ فاطر : 12 ] جمع ماخرة وأخرى فرداً حيث قال : ﴿ فِى الفلك المشحون ﴾ نقول فيه تدقيق مليح من علم اللغة ، وهو أن الكلمة قد تكون حركتها مثل حركة تلك الكلمة في الصورة ، والحركتان مختلفتان في المعنى مثالها قولك : سجد يسجد سجوداً للمصدر وهم قوم سجود في جمع ساجد ، تظن أنهما كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك ، بل السجود عند كونه مصدراً حركته أصلية إذا قلنا إن الفعل مشتق من المصدر وحركة السجود عند كونه للجمع حركة

متغيرة من حيث إن الجمع يشتق من الواحد ، وينبغي أن يلحق المشتق تغيير في حركة أو حرف أو في مجموعهما ، فساجد لما أردنا أن يشتق منه لفظ جمع غيرناه ، وجئناه بلفظ السجود ، فإذاً السجود للمصدر والجمع ليس من قبيل الألفاظ المشتركة التي وضعت بحركة واحدة لمعنيين ، إذا عرفت هذا فنقول الفلك عند كونه واحداً مثل قفل وبرد ، وعند كونها جمعاً مثل خشب ومرد وغيرهما ، فإن قلت فإذا جعلته جمعاً ماذا يكون واحدها ؟ نقول جاز أن يكون واحدها فلكة أو غيرها مما لم يستعمل كواحد النساء حيث لم يستعمل ، وكذا القول في : ﴿إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس : 12] وفي قوله : ﴿نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامهم﴾ [الإسراء : 71] أي بأئمتهم عند قوله تعالى : ﴿إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ إما كزمام وكتاب وعند قوله تعالى : ﴿كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامهم﴾ إمام كسهام وكرام وجعاب وهذا من دقيق التصريف وأما المعنوية : فنذكرها في مسائل :

المسألة الأولى :



---

قال ههنا : ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ من عليهم بحمل ذريتهم ، وقال تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الماء حملناكم فِى الجارية﴾ [الحاقة : 11] من هناك عليهم بحمل أنفسهم ، نقول لأن من ينفع

المتعلق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير ، ومن يدفع الضرر على المتعلق بالغير لا يكون قد دفع الضرر عن ذلك الغير ، بل يكون قد نفعه مثاله من أحسن إلى ولد إنسان وفرحه فرح بفرحه أبوه ، وإذا دفع واحد الألم عن ولد إنسان يكون قد فرح أباه ولا يكون في الحقيقة قد أزال الألم عن أبيه ، فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقهم فقال دفعت عنكم الضرر ، ولو قال دفعت عن أولادكم الضرر لما حصل بيان دفع الضرر عنهم ، وههنا أراد بيان المنافع فقال :

﴿ حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ لأن النفع حاصل بنفع الذرية ويدلك على هذا أن ههنا قال : ﴿ فِى الفلك المشحون ﴾ فإن امتلاء الفلك من الأموال يحصل بذكره بيان المنفعة ، وأما دفع المضرة فلا ، لأن الفلك كلما كان أثقل كان الخلاص به أبطأ وهنالك السلامة ، فاختار هنالك ما يدل على الخلاص من الضرر وهو الجري ، وههنا ما يدل على كمال المنفعة وهو الشحن ، فإن قيل قال تعالى :

﴿ وحملناهم فِى البر والبحر ﴾ [ الإسراء : 70 ] ولم يقل : وحملنا ذريتهم مع أن المقصود في الموضعين بيان النعمة ، لا دفع النقمة ، نقول لما قال : ﴿ فِى البر والبحر ﴾ عم الخلق ، لأن ما من أحد إلا وحمل في البر أو البحر ، وأما الحمل في البحر فلم يعم ، فقال إن كنا ما حملناكم بأنفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره من الأولاد والأقارب والإخوان والأصدقاء .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿المشحون﴾ يفيد فائدة أخرى غير ما ذكرنا وهي أن الآدمي يرسب في الماء ويغرق ، فحمله في الفلك واقع بقدرته ، لكن من الطبيعيين من يقول الخفيف لا يرسب في الماء ، لأن الخفيف يطلب جهة فوق فقال : ﴿الفلك المشحون﴾ أثقل من الثقال التي ترسب ، ومع هذا حمل الله الإنسان فيه مع ثقله ، فإن قالوا ذلك لامتناع الخلاء نقول قد ذكرنا الدلائل الدالة على جواز الخلاء في الكتب العقلية ، فإذن ليس حفظ الثقيل فوق الماء إلا بإرادة الله .

المسألة الثالثة :

قال تعالى : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الأرض﴾ [يس : 33] وقال : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الليل﴾ [يس : 37] ولم يقل وآية لهم الفلك جعلناها بحيث تحملهم ، وذلك لأن حملهم في الفلك هو العجب .

أما نفس الفلك فليس بعجب لأنه كبيت مبني من خشب .

وأما نفس الأرض فعجب ونفس الليل عجب لا قدرة عليهما لأحد إلا الله .

وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (42)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

من حيث اللغة فقوله لهم يحتمل أن يكون عائداً إلى الذرية ، أي حملنا ذريتهم وخلقنا للمحمولين ما يركبون ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى العباد الذين عاد إليهم قوله : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ [يس : 41] وهو الحق لأن الظاهر عود الضمائر إلى شيء واحد .

المسألة الثانية :

﴿ مِنْ ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون صلة تقديره وخلقنا لهم مثله ، وهذا على رأي الأخفش ، وسيبويه يقول : من لا يكون صلة إلا عند النفي ، تقول ما جاءني من أحد كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : 38] ، وثانيهما : هي مبينة كما في قوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [الأحقاف : 31] كأنه لما قال : ﴿ خَلَقْنَا لَهُم ﴾ والمخلوق كان أشياء قال من مثل الفلك للبيان .

المسألة الثالثة :

(117/646)

---

الضمير في ﴿ مِّثْلِهِ ﴾ على قول الأكثرين عائد إلى الفلك فيكون هذا كقوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص : 58] وعلى هذا فالأظهر أن يكون المراد الفلك الآخر الموجود في زمانهم ويؤيد هذا هو أنه تعالى قال : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ [يس : 43

] ولو كان المراد الإبل على ما قاله بعض المفسرين لكان قوله : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ فاصلاً بين متصلين ، ويحتمل أن يقال الضمير عائد إلى معلوم غير مذكور تقديره أن يقال : وخلقنا لهم من مثل ما ذكرنا من المخلوقات في قوله : ﴿ خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض ﴾ [ يس : 36 ] وهذا كما قالوا في قوله تعالى : ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ [ يس : 35 ] أن الهاء عائد إلى ماذكرنا ، أي من ثمر ما ذكرنا ، وعلى هذا فقوله : ﴿ خَلَقْنَا لَهُم ﴾ فيه لطيفة ، وهي أن ما من أحد إلا وله ركوب مركوب من الدواب وليس كل أحد يركب الفلك فقال في الفلك حملنا ذريتهم وإن كان ما حملناهم ، وأما الخلق فلهم عام وما يركبون فيه وجهان أحدهما : هو الفلك الذي مثل فلك نوح ثانيهما : هو الإبل التي هي سفن البر ، فإن قيل إذا كان المراد سفينة نوح فما وجه مناسبة الكلام ؟ نقول ذكرهم بحال قوم نوح وأن المكذبين هلكوا والمؤمنين فازوا فكذلك هم إن آمنوا يفوزوا وإن كذبوا يهلكوا .

(118/646)

---

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ إشارة إلى فائدتين أحداهما : أن في حال النعمة ينبغي أن لا يأمنوا عذاب الله وثانيتهما : هو أن ذلك جواب سؤال مقدر وهو أن الطبيعي يقول السفينة تحمل بمقتضى الطبيعة والمجوف لا يرسب فقال ليس كذلك بل لو شاء الله أغرقهم

وليس ذلك بمقتضى الطبع ولو صح كلامه الفاسد لكان لقائل أن يقول : ألست توافق أن من السفن ما ينقلب وينكسر ومنها ما يثقبه ثاقب فيرسب وكل ذلك بمشيئة الله فإن شاء الله إغراقهم من غير شيء من هذه الأسباب كما هو مذهب أهل السنة أو بشيء من تلك الأسباب كما تسلم أنت .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أي لا مغيث لهم يمنع عنهم الغرق .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ إذا أدركهم الغرق وذلك لأن الخلاص من العذاب ، إما أن يكون بدفع العذاب من أصله أو برفعه بعد وقوعه فقال : لا صريخ لهم يدفع ولا هم ينقذون بعد الوقوع فيه ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ لَّا تُغْنِ عَنِّي شفاعتهم شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونَ ﴾ فقوله : ﴿ لا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ فيه فائدة أخرى غير الحصر وهي أنه تعالى قال لا صريخ لهم ولم يقل ولا منقذ لهم وذلك لأن من لا يكون من شأنه أن ينصر لا يشرع في النصرة مخافة أن يغلب ويذهب ماء وجهه ، وإنما ينصر ويغيث من يكون من شأنه أن يغيث فقال لا صريخ لهم ، وأما من لا يكون من شأنه أن ينقذ إذا رأى من يعز عليه في ضر يشرع في الإنقاذ ، وإن لم يثق بنفسه في الإنقاذ ولا يغلب على ظنه .

وإنما يبذل المجهود فقال : ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ ولم يقل ولا منقد لهم .

إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (44)

وهو يفيد أمرين أحدهما : انقسام الإنقاذ إلى قسمين الرحمة والمتاع ، أي فيمن علم الله منه أنه يؤمن فينقذه الله رحمة ، وفيمن علم أنه لا يؤمن فليتمتع زمانا ً ويزداد إثما ً وثانيهما : أنه بيان لكون الإنقاذ غير مفيد للدوام بل الزوال في الدنيا لا بد منه فينقذه الله رحمة ويمتعه إلى حين ، ثم يميته فالزوال لازم أن يقع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 61 . 72 ﴾

(120/646)

---

وقال ابن عطية :

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) ﴾

(121/646)

---

هذه الآيات جعلها الله عز وجل أدلة على القدرة ووجوب الألوهية له ، و ﴿ نسلخ ﴾ معناه نكشط ونقشر ، فهي استعارة ، و ﴿ مظلمون ﴾ داخلون في الظلام ، واستدل قوم

من هذه الآية على أن الليل أصل والنهار فرع طارٍ عليه ، وفي ذلك نظر ، و" مستقر الشمس " على ما روي في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق أبي ذؤيب " بين يدي العرش تمجد فيه كل ليلة بعد غروبها " ، وفي حديث آخر " أنها تغرب في عين حمئة ولها ثم وجبة عظيمة " ، وقالت فرقة : مستقرها هو في يوم القيامة حين تكون فهي تجري لذلك المستقر ، وقالت فرقة : مستقرها كناية عن غيوبها لأنها تجري كل وقت إلى حد محدود تغرب فيه ، وقيل : مستقرها آخر مطالعها في المنقلبين لأنهما نهاية مطالعها فإذا استقر وصولها كرت راجعة وإلا فهي لا تستقر عن حركتها طرفة عين ، ونحا إلى هذا ابن قتيبة ، وقالت فرقة : مستقرها وقوفها عند الزوال في كل يوم ، ودليل استقرارها وقوف ظلال الأشياء حينئذ ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود وعكرمة ، وعطاء بن أبي رباح وأبو جعفر ومحمد بن علي وجعفر بن محمد ، " والشمس تجري لا مستقر لها " ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والحسن والأعرج " والقمرُ " بالرفع عطفاً على قوله ﴿ وآية لهم الليل ﴾ عطف جملة على جملة ويصح وجه آخر وهو أن يكون قوله ﴿ وآية ﴾ ابتداء وخبره محذوف ، كأنه قال : في الوجود وفي المشاهدة ، ثم فسر ذلك بجملتين من ابتداء وخبر وابتداء وخبر ، الأولى منهما ﴿ الليل نسلخ منه النهار ﴾ ، والثانية ﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ ، وقرأ الباقون " والقمرَ قدرناه " بنصب " القمر " على إضمار فعل يفسره ﴿ قدرناه ﴾ وهي قراءة أبي جعفر وابن محيصن والحسن بخلاف عنه ، و﴿ منازلَ ﴾ نصب على الظرف ،

وهذه المنازل المعروفة عند العرب وهي ثمانية وعشرون منزلة يقطع القمر منها كل ليلة أقل من واحدة فيما يزعمون ، وعودته هي استهلاله رقيقاً ، وحينئذ يشبه " العرجون " وهو الغصن من النخلة

(122/646)

---

الذي فيه شماريخ التمر فإنه ينحني ويصفر إذا قدم ويجيء أشبه شيء بالهلال قاله الحسن بن أبي الحسن ، والوجود تشهد به ، وقرأ سليمان التيمي "كالعِرجون" بكسر العين ، و ﴿ القديم ﴾ معناه العتيق الذي قد مر عليه زمن طويل ، و ﴿ ينبغي ﴾ هنا مستعملة فيما لا يمكن خلافه لأنها لا قدرة لها على غير ذلك ، وقرأ الجمهور " سابقُ النهارِ " بالإضافة ، وقرأ عبادة " سابقُ النهار " دون تنوين في القاف ، وبنصب " النهارَ " ذكره الزهراوي وقال : حذف التنوين تخفيفاً ، و " الفلك " فيما روي عن ابن عباس متحرك مستدير كفلكة المغزل من الكواكب ، و ﴿ يسبحون ﴾ معناه يجرون ويعومون ، قال مكي : لما أسند إليها فعل من يعقل جمعت الواو والنون .

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41)

(123/646)

﴿ آية ﴾ معناه علامة ودليل ، ورفعها بالابتداء وخبره في قوله ﴿ لهم ﴾ ، و﴿ أنا ﴾ بدل من ﴿ آية ﴾ وفيه نظر ، ويجوز أن تكون " أن " مفسرة لا موضع لها من الإعراب ، والحمل منع الشيء أن يذهب سفلاً ، وذكر الذرية لضعفهم عن السفر فالنعمة فيهم أمكن ، وقرأ نافع وابن عامر والأعمش " ذرياتهم " بالجمع ، وقرأ الباقون " ذريتهم " بالإفراد ، وهي قراءة طليحة وعيسى ، والضمير المتصل بالذريات هو ضمير الجنس ، كأنه قال ذريات جنسهم أو نوعهم هذا أصح ما اتجه في هذا ، وخلط بعض الناس في هذا حتى قالوا الذرية تقع على الآباء وهذا لا يعرف لغة ، وأما معنى الآية فيحتمل تأويلين : أحدهما قاله ابن عباس وجماعة ، وهو أن يريد ب " الذريات المحمولين " أصحاب نوح في السفينة ، ويريد بقوله ﴿ من مثله ﴾ السفن الموجودة في جنس بني آدم إلى يوم القيامة ، وإياها أراد الله تعالى بقوله ﴿ وإن نشأ نغرقهم ﴾ ، والتأويل الثاني قاله مجاهد والسدي وروي عن ابن عباس أيضاً هو أن يريد بقوله ﴿ أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ﴾ السفن الموجودة في بني آدم إلى يوم القيامة ويريد بقوله ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ الإبل وسائر ما يركب فتكون المماثلة في أنه مركوب مبلغ إلى الأقطار فقط ، ويعود قوله ﴿ وإن نشأ نغرقهم ﴾ على السفن الموجودة في الناس ، وأما من خلط القولين فجعل الذرية في الفلك في قوم نوح في سفينة وجعل ﴿ من مثله ﴾ في الإبل فإن هذا نظر فاسد يقطع به قوله تعالى : ﴿ وإن

نشأ نغرقهم ﴾ فتأمله ، و﴿ الفلك ﴾ جمع على وزنه هو الإفراد معناه الموفر ، و﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من مثله ﴾ ، يتجه على أحد التأويلين : أن تكون للتبعيض ، وعلى التأويل الآخر أن تكون لبيان الجنس فانظره ، ويقال الإبل مراكب البر ، و" الصريخ " هنا بناء الفاعل بمعنى المصرخ ، وذلك أنك تقول صارخ بمعنى مستغيث ، ومصرخ بمعنى مغيث ، ويجيء ﴿ صريخ ﴾ مرة بمعنى هذا ومرة بمعنى هذا لأن فعيلاً من أبنية اسم



---

الفاعل ، فمرة يجيء من أصرخ ومرة يجيء من صرخ إذا استغاث ، وقوله ﴿ إلا رحمة ﴾ قال الكسائي نصب ﴿ رحمةً ﴾ على الاستثناء كأنه قال إلا أن يرحمهم رحمة ، وقال الزجاج : نصب ﴿ رحمة ﴾ على المفعول من أجله كأنه قال : إلا لأجل رحمتنا إياهم ، و﴿ متاعاً ﴾ عطف على ﴿ رحمة ﴾ ، وقوله ﴿ إلى حين ﴾ ، يريد إلى آجالهم المضروبة لهم .

قال القاضي أبو محمد : والكلام تام في قوله ﴿ وإن نشأ نغرقهم ﴾ ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ استئناف إخبار عن السائرين في البحر ناجين كانوا أو مغرقين فهم بهذه لا نجاة لهم إلا برحمة

الله وليس قوله ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ مربوطاً بالمغرقين، وقد يصح ربطه به والأول أحسن فتأمله. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(125/646)

---

فائدة

قال الإمام السبكى:

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ إنْ قَدَّرْته "كُلُّهُمْ" فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِالْفَلَكِ الْأَفْلَاكَ؛ وَإِنْ قَدَّرْته "كُلٌّ مِنْهُمْ" فَيَكُونُ "يَسْبَحُونَ" جُمْلَةً أُخْرَى لَا خَبَرًا ثَانٍ عَلَى الْمَعْنَى لِئَلَّا يَلْزَمَ الْإِخْبَارُ بِالْمُفْرَدِ عَنْ الْجَمْعِ. انْتَهَى. انتهى. ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 102 ﴾

(126/646)

---

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾

أي وعلامة دالة على توحيد الله وقدرته ووجوب إلاهِيَّته .

والسلخ : الكشط والنزع ؛ يقال : سلخه الله من دينه ، ثم تستعمل بمعنى الإخراج .

وقد جعل ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالسلخ من الشيء وظهور المسلوخ فهي استعارة .

و ﴿ مُّظْلِمُونَ ﴾ داخلون في الظلام ؛ يقال : أظلمنا أي دخلنا في ظلام الليل ، وأظهرنا

دخلنا في وقت الظهر ، وكذلك أصبحنا وأضحينا وأمسينا .

وقيل : "مِنه" بمعنى عنه ، والمعنى نسلخ عنه ضياء النهار .

"فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ" أي في ظلمة ؛ لأن ضوء النهار يتداخل في الهواء فيضيء ؛ فإذا خرج

منه أظلم .

قوله تعالى : ﴿ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ يجوز أن يكون تقديره وآية لهم الشمس .

ويجوز أن يكون "الشمس" مرفوعاً بإضمار فعل يفسره الثاني .

ويجوز أن يكون مرفوعاً بالابتداء ﴿ تَجْرِي ﴾ في موضع الخبر أي جارية .

وفي صحيح مسلم "عن أبي ذرّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله عز

وجل : ﴿ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ قال "مستقرّها تحت العرش" .

وفيه عن أبي ذرّ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال يوماً : "أتدرون أين تذهب هذه الشمس" ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ؛ قال : "إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرّها تحت العرش فتخرّ ساجدة ولا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي ارجعي من حيث جئتِ فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري يستنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرّها ذاك تحت العرش فيقال لها ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك فتصبح طالعة من مغربها" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتدرون متى ذلكم ذاك حين ﴿ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾ [ الأنعام : 158 ] " "

ولفظ البخاري عن أبي ذرّ " قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأبي ذرّ حين غربت الشمس : "تدري أين تذهب" قلت الله ورسوله أعلم ، قال : "فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى : ﴿ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ " " ولفظ الترمذي عن أبي ذرّ قال : دخلت المسجد حين غابت الشمس والنبيّ صلى الله عليه وسلم جالس .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا أبا ذرّ أتدري أين تذهب هذه " قال قلت : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإنها تذهب فتستأذن في السجود فيؤذن لها وكأنها قد قيل لها اطلعي من حيث جئت فتطلع من مغربها " قال : ثم قرأ "ذَلِكَ مُسْتَقَرٌّ لَهَا" قال وذلك قراءة

عبد الله .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وقال عكرمة : إن الشمس إذا غَرَبت دخلت محراباً تحت العرش تسبّح الله حتى تصبح ، فإذا أصبحت استعفت ربها من الخروج فيقول لها الرب : ولِمَ ذاك ؟ قالت : إني إذا خرجت عُبِدت من دونك .

(128/646)

---

فيقول الرب تبارك وتعالى : اخرجي فليس عليك من ذاك شيء ، سأبعث إليهم جهنم مع سبعين ألف مَلَك يقودونها حتى يدخلوهم فيها .

وقال الكلبي وغيره : المعنى تجري إلى أبعد منازلها في الغروب ، ثم ترجع إلى أدنى منازلها ؛ فمستقرها بلوغها الموضع الذي لا تتجاوزه بل ترجع منه ؛ كالإنسان يقطع مسافة حتى يبلغ أقصى مقصوده فيقضي وَطَره ، ثم يرجع إلى منزله الأوّل الذي ابتدأ منه سفره .

وعلى تبليغ الشمس أقصى منازلها ، وهو مستقرها إذا طلعت الهَنْعَة ، وذلك اليوم أطول الأيام في السنة ، وتلك الليلة أقصر الليالي ، فالنهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات ، ثم يأخذ في النقصان وترجع الشمس ، فإذا طلعت الثريا استوى الليل والنهار ، وكل

واحد ثنتا عشرة ساعة ، ثم تبلغ أدنى منازلها وتطلع النَّعائم ، وذلك اليوم أقصر الأيام ، والليل خمس عشرة ساعة ، حتى إذا طلع فَرْغ الدَّلْو المؤخَّر استوى الليل والنهار ، فيأخذ الليل من النهار كل يوم عشر ثلث ساعة ، وكل عشرة أيام ثلث ساعة ، وكل شهر ساعة تامة ، حتى يستويا ويأخذ الليل حتى يبلغ خمس عشرة ساعة ، ويأخذ النهار من الليل كذلك .

وقال الحسن : إن للشمس في السنة ثلثمائة وستين مطلعاً ، تنزل في كل يوم مطلعاً ، ثم لا تنزله إلى الحول ؛ فهي تجري في تلك المنازل وهي مستقرّها .

وهو معنى الذي قبله سواء .

وقال ابن عباس : إنها إذا غربت وانتهت إلى الموضع الذي لا تتجاوزه استقرت تحت العرش إلى أن تطلع .

قلت : ما قاله ابن عباس يجمع الأقوال فتأمله .

وقيل : إلى انتهاء أمدها عند انقضاء الدنيا .

وقرأ ابن مسعود وابن عباس "وَالشَّمْسُ تَجْرِي لاَ مُسْتَقَرَّ لَهَا" أي إنها تجري في الليل والنهار لا وقوف لها ولا قرار ، إلى أن يكوّرها الله يوم القيامة .

وقد احتج من خالف المصحف فقال : أنا أقرأ بقراءة ابن مسعود وابن عباس .

قال أبو بكر الأنباري : وهذا باطل مردود على من نقله ؛ لأن أبا عمرو روى عن مجاهد عن ابن عباس وابن كثير روى عن مجاهد عن ابن عباس "وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا" فهذان السندان عن ابن عباس اللذان يشهد بصحتهما الإجماع يبطلان ما روي بالسند الضعيف مما يخالف مذهب الجماعة ، وما اتفقت عليه الأمة .

قلت : والأحاديث الثابتة التي ذكرناها تردّ قوله ، فما أجرأه على كتاب الله ، قاتله الله .

وقوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ أي إلى مستقرّها ، والمستقرّ موضع القرار .

﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ ﴾ أي الذي ذكر من أمر الليل والنهار والشمس تقدير ﴿ العزيز العليم ﴾ .

وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ والقمر ﴾ يكون تقديره وآيةٌ لهم القمرُ .

ويجوز أن يكون "وَالْقَمَرُ" مرفوعاً بالابتداء .

وقرأ الكوفيون "وَالْقَمَرَ" بالنصب على إضمار فعل وهو اختيار أبي عبيد .

قال : لأن قبله فعلاً وبعده فعلاً ؛ قبله "نَسْلَخُ" وبعده "قَدَّرْنَاهُ" .

النحاس : وأهل العربية جميعاً فيما علمت على خلاف ما قال ، منهم الفرّاء قال : الرفع

أعجب إليّ ، وإنما كان الرفع عندهم أولى ؛ لأنه معطوف على ما قبله ومعناه وآيةٌ لهم القمرُ .

وقوله : إن قبله "نَسْلَخُ" فقبله ما هو أقرب منه وهو "تَجْرِي" وقبله "وَالشَّمْسُ" بالرفع .

والذي ذكره بعده وهو "قَدَّرْنَاهُ" قد عمل في الهاء .

قال أبو حاتم : الرفع أولى ؛ لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير فرفعته بالابتداء .

ويقال : القمر ليس هو المنازل فكيف قال ﴿ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ ففي هذا جوابان :

أحدهما قدّرناه ذا منازل ؛ مثل : ﴿ واسأل القرية ﴾ [ يوسف : 82 ] .

والتقدير الآخر قدّرنا له منازل ثم حذفت اللام ، وكان حذفها حسناً لتعدي الفعل إلى مفعولين مثل ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً ﴾ [ الأعراف : 155 ] .

(130/646)

---

والمنازل ثمانية وعشرون منزلاً ، ينزل القمر كل ليلة منها بمنزل ؛ وهي : الشَّرَطَان .

البُطَيْن .

الثُّرَيَّا .

الدَّبَران .

الهَقْعَة.

الهنعة.

الذّراع.

النَّثْرة.

الطَّرْف.

الْجَبْهة.

الخَراتان.

الصَّرْفة.

العَوّاء.

السّمَاك.

الْغَفْر.

الزُّبَانيان.

الإكْليل.

القَلْب.

الشّوْلة.

النّعَائم.

البَلَدّة .

سَعدْ الذَّابح .

سَعدْ بُلَع .

سَعْد السُّعود .

سَعدْ الأَخْبِية .

الفَرْغ المقدَّم .

الفَرْغ المؤخَّر .

بطن الحوت .

فإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أوّلها ، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة .

ثم يَسْتَسِرُّ ثم يطلع هلالاً ، فيعود في قطع الفلك على المنازل ، وهي منقسمة على البروج لكل برج منزلان وثلث .

فللحمَل الشّرَطان والبُطَين وثلث الثريا ، وللثور ثلثا الثريا والدّبَران وثلثا الهَقْعة ، ثم كذلك إلى سائرها .

وقد مضى في "الحجر" تسمية البروج والحمد لله .

وقيل : إن الله تعالى خلق الشمس والقمر من نارٍ ثم كُسِيا النور عند الطلوع ، فأما نور الشمس فمن نور العرش ، وأما نور القمر فمن نور الكرسي ، فذلك أصل الخلقة وهذه

الكسوة .

فأما الشمس فترِكت كسوتها على حالها لتشعشع وتشرق ، وأما القمر فأمرَّ الروحُ الأمين جناحه على وجهه فمحا ضوءه بسلطان الجناح ، وذلك أنه روح والروح سلطانه غالب على الأشياء .

فبقي ذلك المحو على ما يراه الخلق ، ثم جعل في غلاف من ماء ، ثم جعل له مجرى ، فكل ليلة يبدو للخلق من ذلك الغلاف قمراً بمقدار ما يقمِر لهم حتى ينتهي بدؤه ، ويراه الخلق بكماله واستدارته .

ثم لا يزال يعود إلى الغلاف كل ليلة شيء منه فينقص من الرؤية والإقمار بمقدار ما زاد في البدء .

ويبتدىء في النقصان من الناحية التي لا تراه الشمس وهي ناحية الغروب حتى يعود كالعرجون القديم ، وهو العِذْق المتقوِّس ليُبسه ودقته .

وإنما قيل القمر ؛ لأنه يُقمِر أي يبيض الجوّ ببياضه إلى أن يَستَتِرَّ .

الثانية : ﴿ حتى عَادَ كالعرجون القديم ﴾ قال الزجاج : هو عود العِذْق الذي عليه الشماريخ ، وهو فُعْلون من الانعراج وهو الانعطاف ، أي سار في منازله ، فإذا كان في آخرها دقّ واستقوس وضاق حتى صار كالعُرجون .

وعلى هذا فالنون زائدة .

وقال قتادة : هو العِذْق اليابس المنحني من النخلة .

ثعلب : "كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ" قال : "الْعُرْجُون" الذي يبقى من الكباسة في النخلة إذا قطعت ، و "القَديم" البالي .

الخليل : في باب الرباعي "الْعُرْجُون" أصل العِذْق وهو أصفر عريض يشبَّه به الهلالُ إذا انحنى .

الجوهري : "العرجون" أصل العِذق الذي يعوج وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابسا ؛ وعَرْجَنه : ضربه بالعرجون .

فالنون على قول هؤلاء أصلية ؛ ومنه شعر أعشى بني قيس :

شرق المسْك والعبير بها . . .

فهي صفراء كعرجون القمر

فالعرجون إذا عَتق ويَبِس وتقوّس شبِّه القمرُ في دقّته وصفرته به .

ويقال له أيضاً الإهان والكباسة والقِنْو ، وأهل مصر يسمونه الإسباطة .

وقرىء : "العِرْجَوْن" بوزن الفِرجون وهما لغتان كالبُزْيون والبِزْيون ؛ ذكره الزمخشري وقال : هو عود العِذْق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة .

واعلم أن السَّنَة منقسمة على أربعة فصول ، لكل فصل سبعة منازل : فأوّلها الربيع ، وأوله خمسة عشر يوماً من أذَار ، وعدد أيامه اثنان وتسعون يوماً ؛ تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، وسبعة منازل : الشَّرَطان والبُطَين والثُّريا والدَّبَران والهَقْعة والهَنْعة والذِراع .

ثم يدخل فصل الصيف في خمسة عشر يوماً من حَزِيران ، وعدد أيامه اثنان وتسعون يوماً ؛ تقطع الشمس فيه ثلاثة بروج : الشَّرَطان ، والأسد ، والسُّنْبلة ، وسبعة منازل : وهي النثرة والطَّرْف والجبهة والخَرَاتان والصّرفة والعوّاء والسِماك .

(132/646)

---

ثم يدخل فصل الخريف في خمسة عشر يوماً من أيلول ، وعدد أيامه أحد وتسعون يوماً ، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج ؛ وهي الميزان ، والعقرب ، والقوس ، وسبعة منازل الغُفْر والزُّبانان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة .

ثم يدخل فصل الشتاء في خمسة عشر يوماً من كانون الأوّل ، وعدد أيامه تسعون يوماً وربما

كان أحداً وتسعين يوماً ، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج : وهي الْجَدي والدّلْو والحوت ، وسبعة منازل سعد الذابح وسعد بُلَع وسعد السّعود وسعد الأَخْبِية والفَرْغ المقدم ، والفرغ المؤخر وبطن الحوت .

وهذه قسمة السريانيين لشهورها : تشرين الأوّل ، تشرين الثاني ، كانون الأوّل ، كانون الثاني ، أشباط ، آذار ، نيسان ، أيار ، حَزِيران ، تَمُّوز ، آب ، أيلول ، وكلها أحد وثلاثون إلا تشرين الثاني ونيسان وحزيران وأيلول ، فهي ثلاثون ، وأشباط ثمانية وعشرون يوماً وربع يوم .

وإنما أردنا بهذا أن تنظر في قدرة الله تعالى ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ والقمر قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ فإذا كانت الشمس في منزل أهلّ الهلال بالمنزل الذي بعده ، وكان الفجر بمنزلتين من قبله . فإذا كانت الشمس بالثريا في خمسة وعشرين يوماً من نيسان ، كان الفجر بالشرطين ، وأهلّ الهلال بالدبران ، ثم يكون له في كل ليلة منزلة حتى يقطع في ثمان وعشرين ليلة ثمانياً وعشرين منزلة .

وقد قطعت الشمس منزلتين فيقطعهما ، ثم يطلع في المنزلة التي بعد منزلة الشمس ف ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ القديم ﴾ قال الزمخشري : القديم المحوِل وإذا قَدُم دقّ وانحنى واصفر فشبه القمر به من ثلاثة أوجه .

وقيل: أقل عدّة الموصوف بالقديم الحَوْل، فلو أن رجلاً قال: كل مملوك لي قديم فهو حر، أو كتب ذلك في وصيته عتق من مضى له حول أو أكثر.

قلت: قد مضى في "البقرة" ما يترتب على الأهِلة من الأحكام والحمد لله.

(133/646)

---

قوله تعالى: ﴿ لَا الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر ﴾ رفعت "الشمس" بالابتداء، ولا يجوز أن تعمل "لا" في معرفة.

وقد تكلم العلماء في معنى هذه الآية، فقال بعضهم: معناها أن الشمس لا تدرك القمر فتبطل معناه.

أي لكل واحد منهما سلطان على حياله، فلا يدخل أحدهما على الآخر فيذهب سلطانه، إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك، فتطلع الشمس من مغربها على ما تقدّم في آخر سورة "الأنعام" بيانه.

وقيل: إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء.

روي معناه عن ابن عباس والضحاك.

وقال مجاهد: أي لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر.

وقال قتادة : لكلٍّ حدّ وعَلَم لا يعدوه ولا يقصر دونه إذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا .

وقال الحسن : إنهما لا يجتمعان في السماء ليلة الهلال خاصة .

أي لا تبقى الشمس حتى يطلع القمر ، ولكن إذا غرَبت الشمس طلع القمر .

يحيى بن سلاّم : لا تدرك الشمس القمر ليلة البدر خاصة ؛ لأنه يبادر بالمغيب قبل طلوعها .

وقيل : معناه إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدي الآخر في منازل لا يشتركان فيها ؛ قاله ابن عباس أيضاً .

وقيل : القمر في السماء الدنيا ، والشمس في السماء الرابعة فهي لا تدركه ؛ ذكره النحاس والمهدوي .

قال النحاس : وأحسن ما قيل في معناها وأبينه مما لا يُدفَع : أن سير القمر سيْر سريع والشمس لا تدركه في السير ؛ ذكره المهدوي أيضاً .

فأما قوله سبحانه : ﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ [ القيامة : 9 ] فذلك حين حَبْس الشمس عن الطلوع على ما تقدّم بيانه في آخر "الأنعام" ويأتي في سورة "القيامة" أيضاً .

وجمعهما علامة لانقضاء الدنيا وقيام الساعة .

﴿ وَكُلٌّ ﴾ يعني من الشمس والقمر والنجوم ﴿ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي يجرون .

وقيل : يدورون .

ولم يقل تسبح ؛ لأنه وصفها بفعل من يعقل .

(134/646)

---

وقال الحسن : الشمس والقمر والنجوم في فلك بين السماء والأرض غير ملصَقة ؛ ولو كانت ملصقة ما جرت ؛ ذكره الثعلبي والماوردي .

واستدل بعضهم بقوله تعالى : ﴿ وَلَا الليل سَابِقُ النهار ﴾ على أن النهار مخلوق قبل الليل ، وأن الليل لم يسبقه بخلق .

وقيل : كل واحد منهما يجيء وقته ولا يسبق صاحبه إلى أن يجمع بين الشمس والقمر يوم القيامة ؛ كما قال ﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ وإنما هذا التعاقب الآن لتتم مصالح العباد .

﴿ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ [ الإسراء : 12 ] ويكون الليل للإجمام والاستراحة ، والنهار للتصرف ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [ القصص : 73 ] وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ [ النبأ : 9 ] أي راحة لأبدانكم من عمل النهار .

فقوله : ﴿ وَلَا اللَّيل سَابِقُ النهار ﴾ أي غالب النهار ؛ يقال : سبق فلان فلاناً أي غلبه .

وذكر المبّرد قال : سمعت عمارة يقرأ "وَلَا اللَّيْل سَابِقُ النَّهَارَ" فقلت ما هذا ؟ قال : أردت سابِقٌ النهارَ فحذفت التنوين ؛ لأنه أخفّ .

قال النحاس : يجوز أن يكون "النهارَ" منصوباً بغير تنوين ويكون التنوين حذف لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها عبرة لهم ؛ لأن في الآيات اعتبارا .

الثاني نعمة عليهم ؛ لأن في الآيات إنعاماً .

الثالث إنذار لهم ؛ لأن في الآيات إنذاراً .

﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفلك المشحون ﴾ من أشكل ما في السورة ؛ لأنهم هم المحمولون .

فقيل : المعنى وآية لأهل مكة أنا حملنا ذرية القرون الماضية "فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ" فالضميران مختلفان ؛ ذكره المهدوي .

وحكاه النحاس عن عليّ بن سليمان أنه سمعه يقوله .

وقيل : الضميران جميعاً لأهل مكة على أن يكون ذرياتهم أولادهم وضعفاءهم ؛ فالفلك على القول الأوّل سفينة نوح .

وعلى الثاني يكون اسما للجنس ؛ خبّر جل وعز بلطفه وامتنانه أنه خلق السفن يحمل فيها من يصعب عليه المشي والركوب من الذرية والضعفاء ، فيكون الضميران على هذا متفقين .

وقيل : الذرية الآباء والأجداد ، حملهم الله تعالى في سفينة نوح عليه السلام ؛ فالآباء ذرية والأبناء ذرية ؛ بدليل هذه الآية ؛ قاله أبو عثمان .

وسمّي الآباء ذرية ؛ لأن منهم ذرأ الأبناء .

وقول رابع : أن الذرية النُّطَف حملها الله تعالى في بطون النساء تشبيهاً بالفلك المشحون ؛ قاله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ ذكره الماوردي .

وقد مضى في "البقرة" اشتقاق الذرية والكلام فيها مستوفًى .

و"الْمَشْحُونِ" المملوء الموقَر ، و"الْفُلْك" يكون واحداً وجمعاً .

وقد تقدّم في "يونس" القول فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ والأصل يركبونه فحذفت الهاء لطول الاسم وأنه رأس آية .

وفي معناه ثلاثة أقوال : مذهب مجاهد وقتادة وجماعة من أهل التفسير ، وروي عن ابن عباس أن معنى "مِنْ مِثْلِهِ" للإبل ، خلقها لهم للركوب في البر مثل السفن المركوبة في البحر ؛

والعرب تشبه الإبل بالسفن .

قال طرفة :

كأنّ حُدُوجَ المالكيةِ غُدوةً . . .

خلايا سفينٍ بالنواصِفِ من دَدِ

جمع خلّية وهي السفينة العظيمة .

والقول الثاني أنه للإبل والدواب وكل ما يركب .

والقول الثالث أنه للسفن ؛ النحاس : وهو أصحها لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس .

﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ قال : خلق لهم سفناً أمثالها يركبون فيها .

وقال أبو مالك : إنها السفن الصغار خلقها مثل السفن الكبار ؛ وروي عن ابن عباس والحسن .

وقال الضحاك وغيره : هي السفن المتخذة بعد سفينة نوح .

(136/646)

---

قال الماورديّ : ويجيء على مقتضى تأويل علي رضي الله عنه في أن الذرّية في الفلك المشحون هي النطف في بطون النساء قول خامس في قوله : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا

يَرۡكَبُونَ ﴾ أن يكون تأويله النساء خلقن لركوب الأزواج لكن لم أره محكياً .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ ﴾ أي في البحر فترجع الكناية إلى أصحاب الذرية ، أو إلى الجميع ، وهذا يدلّ على صحة قول ابن عباس ومن قال : إن المراد "مِن مِّثۡلِهِۦ" السفن لا الإبل .

﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ ﴾ أي لا مغيث لهم رواه سعيد عن قتادة .

وروى شيبان عنه : فلا منعة لهم ومعناهما متقاربان .

و"صَرِيخ" بمعنى مُصرِخ فعيل بمعنى فاعل .

ويجوز ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ ﴾ ؛ لأن بعده ما لا يجوز فيه إلا الرفع ؛ لأنه معرفة وهو ﴿ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ﴾ والنحويون يختارون لا رجل في الدار ولا زيد .

ومعنى : "يُنۡقَذُونَ" يخلصون من الغرق .

وقيل : من العذاب .

﴿ إِلَّا رَحۡمَةً مِّنَّا ﴾ قال الكسائي : هو نصب على الاستثناء .

وقال الزجاج : نصب مفعول من أجله ؛ أي للرحمة ﴿ وَمَتَاعاً ﴾ معطوف عليه .

﴿ إلى حِينٍ ﴾ إلى الموت ؛ قاله قتادة .

يحيى بن سلّام : إلى القيامة أي إلا أن نرحمهم ونمتعهم إلى آجالهم ، وأن الله عجل عذاب

الأمم السالفة ، وأخّر عذاب أمة محمد صلى الله عليه وسلم وإن كذبوه إلى الموت والقيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(137/646)

---

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) ﴾

أخبر تعالى بإهلاك قوم حبيب بصيحة واحدة صاح بهم جبريل ، وفي ذلك توعد لقريش أن يصيبهم ما أصابهم ، إذ هم المضروب لهم المثل .

وأخبر تعالى أنه لم ينزل عليهم لإهلاكهم جنداً من السماء ، كالحجارة والريح وغير ذلك ، وكانوا أهون عليه .

وقوله : ﴿ من بعده ﴾ ، يدل على ابتداء الغاية ، أي لم يرسل إليهم رسولاً ، ولا عاتبهم بعد قتله ، بل عاجلهم بالهلاك .

والظاهر أن ما في قوله : ﴿ ومكنا منزلين ﴾ نافية ، فالمعنى قريب من معنى الجملة قبلها ، أي وما كان يصح في حكمنا أن ننزل في إهلاكهم جنداً من السماء ، لأنه تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض ، كما قال : ﴿ فكلاًّ أخذنا بذنبه ﴾ الآية .

وقالت فرقة : ما اسم معطوف على جند .

قال ابن عطية : أي من جند ومن الذي كنا منزلين على الأمم مثلهم .

انتهى ، وهو تقدير لا يصح ، لأن من في من جند زائدة .

ومذهب البصريين غير الأخفش أن لزيادتها شرطين : أحدهما : أن يكون قبلها نفي ، أو نهي ، أو استفهام .

والثاني : أن يكون بعدها نكرة ، وإن كان كذلك ، فلا يجوز أن يكون المعطوف على النكرة معرفة .

لا يجوز : ما ضربت من رجل ولا زيد ، وإنه لا يجوز : ولا من زيد ، وهو قدر المعطوف بالذي ، وهو معرفة ، فلا يعطف على النكرة المجرورة بمن الزائدة .

وقال أبو البقاء : ويجوز أن تكون ما زائدة ، أي وقد كنا منزلين ، وقوله ليس بشيء .

وقرأ : ﴿ إن كانت إلا صيحة ﴾ ، بنصب الصيحة ، وكان ناقصة واسمها مضمر ، أي إن كانت الأخذة أو العقوبة .

وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، ومعاذ بن الحارث القارئ : صيحة بالرفع في الموضعين على أن كانت تامة ، أي ما حدثت أو وقعت إلا صيحة ، وكان الأصل أن لا يلحق التاء ، لأنه إذا كان الفعل مسنداً إلى ما بعد إلا من المؤنث ، لم تلحق العلامة للتأنيث فيقول : ما قام إلا هند ، ولا يجوز : ما قامت إلا هند ، عند أصحابنا إلا في الشعر ، وجوزه بعضهم في الكلام على قلة .

ومثله قراءة الحسن ، ومالك بن دينار ، وأبي رجاء ، والجحدري ، وقتادة ، وأبي حيوة ، وابن أبي عبلة ، وأبي بحرية : لا ترى إلا مساكنهم بالتاء ، والقراءة المشهورة بالياء ، وقول ذي الرمة :

وما بقيت إلا الضلوع الجراشع . . .

وقول الآخر :

ما برئت من ريبة وذمّ . . .

في حربنا إلا بنات العمّ

فأنكر أبو حاتم وكثير من النحويين هذه القراءة بسبب لحوق تاء التأنيث .

﴿ فإذا هم خامدون ﴾ : أي فاجأهم الخمود إثر الصيحة ، لم يتأخر .

وكنى بالخمود عن سكوتهم بعد حياتهم ، كنار خمدت بعد توقدها .

ونداء الحسرة على معنى هذا وقت حضورك وظهورك ، هذا تقدير نداء ، مثل هذا عند

سيبويه ، وهو منادى منكور على قراءة الجمهور .

وقرأ أبيّ ، وابن عباس ، وعلي بن الحسين ، والضحاك ، ومجاهد ، والحسن : يا حسرة العباد ، على الإضافة ، فيجوز أن تكون الحسرة منهم على ما فاتهم ، ويجوز أن تكون الحسرة من غيرهم عليهم ، لما فاتهم من اتباع الرسل حين أحضروا للعذاب ؛ وطباع البشر تتأثر عند معاينة عذاب غيرهم وتتحسر عليهم .

وقرأ أبو الزناد ، وعبد الله بن ذكوان المدني ، وابن هرمز ، وابن جندب : ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ ، بسكون الهاء في الحالين حمل فيه الوصل على الوقف ، ووقفوا على الهاء مبالغة في التحسر ، لما في الهاء من التأهه كالتأوّه ، ثم وصلوا على تلك الحال ، قاله صاحب اللوامح .



---

وقال ابن خالويه : يا حسرة على العباد بغير تنوين ، قاله ابن عباس ، انتهى ، ووجهه أنه اجتزأ بالفتحة عن الألف التي هي بدل من ياء المتكلم في النداء ، كما اجتزأ بالكسرة عن الياء فيه .

وقد قرىء : يا حسرتا ، بالألف ، أي يا حسرتي ، ويكون من الله على سبيل الاستعارة في

معنى تعظيم ما جنوه على أنفسهم ، وفرط إنكاره وتعجيبه منه .

والظاهر أن العباد هم مكذبو الرسل ، تحسرت عليهم الملائكة ، قاله الضحاك .

وقال الضحاك أيضاً : المعنى يا حسرة الملائكة على عبادنا الرسل حتى لم ينفعهم الإيمان لهم .

وقال أبو العالية : المراد بالعباد الثلاثة ، وكان هذا التحسر هو من الكفار ، حين رأوا عذاب الله تلهفوا على ما فاتهم .

قال ابن عطية : وقوله ﴿ ما يأتيهم ﴾ الآية يدفع هذا التأويل . انتهى .

قال الزجاج : الحسرة أمر يركب الإنسان من كثرة الندم على ما لا نهاية له حتى يبقى حسيراً .

وقيل : المنادى محذوف ، وانتصب حسرة على المصدر ، أي يا هؤلاء تحسروا حسرة .

وقيل : ﴿ ياحسرة على العباد ﴾ من قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ، لما وثب القوم لقتله .

وقيل : هو من قول الرسل الثلاثة ، قالوا ذلك حين قتلوا ذلك الرجل وحل بهم العذاب ، قالوا : يا حسرة على هؤلاء ، كأنهم تمنوا أن يكونوا قد آمنوا . انتهى .

فالألف واللام للعهد إذا قلنا إن العباد المراد بهم الرسل الثلاثة أو من أرسلوا إليه وهم الهالكون بسبب كفرهم وتكذيبهم إياهم .

والظاهر أنها لتعريف جنس الكفار المكذبين وتلخص أن المتحسر الملائكة أو الله تعالى أو المؤمنون أو الرسل الثلاثة أو ذلك الرجل ، أقوال .

﴿ ما يأتيهم ﴾ إلى آخر الآية : تمثيل لقريش ، وهم الذين عاد عليهم الضمير في قوله ﴿ ألم يروا كم أهلكنا ﴾ .

قال ابن عطية : وكم هنا خبرية ، وأنهم بدل منها ، والرؤية رؤية البصر . انتهى .

فهذا لا يصح ، لأنها إذا كانت خبرية فهي في موضع نصب بأهلكنا ، ولا يسوغ فيها إلا ذلك .

(140/646)

---

وإذا كان كذلك ، امتنع أن يكون أنهم بدل منها ، لأن البدل على نية تكرار العامل ، ولو سلطت أهلكنا على أنهم لم يصح .

ألا ترى أنك لو قلت أهلكنا انتفاء رجوعهم ، أو أهلكنا كونهم لا يرجعون ، لم يكن كلاماً ؟ لكن ابن عطية توهم أن يروا مفعوله كم ، فتوهم أن قولهم أنهم لا يرجعون بدل ، لأنه يسوغ أن يتسلط عليه فتقول : ألم يروا أنهم لا يرجعون ؟ وهذا وأمثاله دليل على ضعفه في علم العربية .

وقال الزجاج: هو بدل من الجملة، والمعنى: ألم يروا أن القرون التي أهلكناها إليهم لا يرجعون، لأن عدم الرجوع والهلاك بمعنى النهي.

وهذا الذي قاله الزجاج ليس بشيء، لأنه ليس بدلاً صناعياً، وإنما فسر المعنى ولم يلحظ صنعة النحو.

وقال أبو البقاء: أنهم إليهم.

انتهى، وليس بشيء، لأن كم ليس بمعمول ليروا.

ونقل عن الفراء أنه يعمل يروا في الجملتين من غير إبدال، وقولهم في الجملتين تجوز، لأن أنهم وما بعده ليس بجملة، ولم يبين كيفية هذا العمل.

وقال الزمخشري: ﴿ ألم يروا ﴾: ألم يعلموا، وهو معلق عن العمل في كم، لأن كم لا يعمل فيها عامل قبلها كانت للاستفهام أو للخبر، لأن أصلها الاستفهام، إلا أن معناها نافذ في الجملة، كما نفذ في قولك: ألم يروا أن زيداً لمنطلق؟ وأن لم تعمل في لفظه.

و﴿ أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ بدل من ﴿ أهلكنا ﴾ على المعنى لا على اللفظ تقديره: ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم؟ انتهى.

فجعل يروا بمعنى يعلموا، وعلقها على العمل في كم.

وقوله : لأن كم لا يعمل فيها ما قبلها ، كانت للاستفهام أو للخبر ، وهذا ليس على إطلاقه ، لأن العامل إذا كان حرف جر أو اسماً مضافاً جاز أن يعمل فيها ، نحو كم على : كم جذع بيتك ؟ وأين : كم رئيس صحبت ؟ وعلى : كم فقير تصدّقت ؟ أرجو الثواب ، وأين : كم شهيد في سبيل الله أحسنت إليه ؟ وقوله : أو للخبر الخبرية فيها لغتان : الفصيحة كما ذكر لا يتقدمها عامل إلا ما ذكرنا من الجار واللغة الأخرى ، حكاها الأخفش ؛ يقولون فيها : ملكت كم غلام ؟ أي ملكت كثيراً من الغلمان .

فكما يجوز أن يتقدم العامل على كثير ، كذلك يجوز أن يتقدم على كم لأنها بمعناها .

وقوله : لأن أصلها الاستفهام ، ليس أصلها الاستفهام ، بل كل واحدة أصل في بابها ، لكنها لفظ مشترك بين الاستفهام والخبر .

وقوله : إلا أن معناها نافذ في الجملة ، يعني معنى يروا نافذ في الجملة ، لأن جعلها معلقة ، وشرح يروا بيعلموا .

وقوله : كما تقدم في قولك : ألم يروا أن زيداً لمنطلق ؟ فإن زيداً لمنطلق معمول من حيث المعنى ليروا ، ولو كان عاملاً من حيث اللفظ لم تدخل اللام ، وكانت أن مفتوحة ، فإن وفي خبرها اللام من الأدوات التي تعلق أفعال القلوب .

وقوله : و ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ إلى آخر كلامه لا يصح أن يكون بدلاً ، لا على اللفظ ولا

على المعنى .

أما على اللفظ فإنه زعم أن يروا معلقة ، فيكون كم استفهاماً ، وهو معمول لأهلكنا ، وأهلكنا لا يتسلط على ﴿ أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ ، وتقدّم لنا ذلك .

وأما على المعنى ، فلا يصح أيضاً ، لأنه قال تقديره ، أي على المعنى : ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم ؟ فكونهم غير كذا ليس كثرة الإهلاك ، فلا يكون بدل كل من كل ، ولا بعضاً من الإهلاك ، ولا يكون بدل بعض من كل ، ولا يكون بدل اشتمال ، لأن بدل الاشتمال يصح أن يضاف إلى ما أبدل منه ، وكذلك بدل بعض من كل ، وهذا لا يصح هنا .



---

لا تقول : ألم يروا انتفاء رجوع كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم ، وفي بدل الاشتمال نحو : أعجبني الجارية ملاحتها ، وسرق زيد ثوبه ، يصح أعجبني ملاحة الجارية ، وسرق ثوب زيد ، وتقدم لنا الكلام على إعراب مثل هذه الجملة في قوله : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ في سورة الأنعام .

والذي تقتضيه صناعة العربية أن أنهم معمول لمحذوف ، ودل عليه المعنى ، وتقديره :

قضينا أو حكمنا ﴿ أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ .

وقرأ ابن عباس والحسن : إنهم بكسر الهمزة على الاستئناف ، وقطع الجملة عن ما قبلها من جهة الإعراب ، ودل ذلك على أن قراءة الفتح مقطوعة عن ما قبلها من جهة الإعراب لتتفق القراءتان ولا تختلفا .

والضمير في أنهم عائد على معنى كم ، وهم القرون ، وإليهم عائد على من أسند إليه يروا ، وهم قريش ؛ فالمعنى : أنهم لا يرجعون إلى من في الدنيا .

وقيل : الضمير في أنهم عائد على من أسند إليه يروا ، وفي إليهم عائد على المهلكين ، والمعنى : أن الباقين لا يرجعون إلى المهلكين بنسب ولا ولادة ، أي أهلكناهم وقطعنا نسلهم ، والإهلاك مع قطع النسل أتم وأعم .

وقرأ عبد الله : ألم يروا من أهلكنا ، وأنهم على هذا بدل اشتمال ؛ وفي قولهم : أنهم لا يرجعون ، رد على القائلين بالرجعة .

وقيل لابن عباس : إن قوماً يزعمون أن علياً مبعوث قبل يوم القيامة ، فقال : ليس القوم نحن إذا نكحنا نساءه وقسمنا ميراثه .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، وابن عامر : بتثقيل لما ؛ وباقي السبعة : بتخفيفها .

فمن ثقلها كانت عنده بمعنى إلا ، وإن نافية ، أي ما كل ، أي كلهم ﴿ إلا جميع لدينا محضرون ﴾ : أي محشورون ، قاله قتادة .

وقال ابن سلام : معذبون ؛ وقيل : التقدير لمن ما وليس بشيء ، ومن خفف لما جعل إن المخففة من الثقيلة ، وما زائدة ، أي إن كل لجميع ، وهذا على مذهب البصريين .

(143/646)

---

وأما الكوفيون ، فإن عندهم نافية ، واللام بمعنى إلا ، وما زائدة ، ولما المشددة بمعنى إلا ثابت في لسان العرب بنقل الثقاة ، فلا يلتفت إلى زعم الكسائي أنه لا يعرف ذلك .

وقال أبو عبد الله الرازي : في كون لما بمعنى إلا معنى مناسب ، وهو أن لما كأنها حرفا نفي جميعاً .

وهما لم وما ، فتأكد النفي ؛ وإلا كأنها حرفا نفي إن ولا ، فاستعمل أحدهما مكان الآخر .

انتهى ، وهذا أخذه من قول الفراء في إلا في الاستثناء أنها مركبة من إن ولا ، إلا أن الفراء جعل إن المخففة من الثقيلة وما زائدة ، أي إن كل لجميع ، وهذا على مذهب البصريين .

وأما الكوفيون ، فإن عندهم نافية ، واللام بمعنى إلا ، وما زائدة ، ولما المشددة بمعنى إلا ثابت حرف نفي ، وهو قول مردود عند النحاة ركيك ، وما تركب منه وزاد تحريفاً أرك منه ، وكل بمعنى الإحاطة ، وجميع فعيل بمعنى مفعول ، ويدل على الاجتماع ، وجميع محضرون هنا على المعنى ، كما أفرد منتصر على اللفظ ، وكلاهما بعد جميع يراعى فيه

الفواصل .

وجاءت هذه الجملة بعد ذكر الإهلاك تبييناً أنه تعالى ليس من أهله يترك ، بل بعد إهلاكهم جمع وحساب وثواب وعقاب ، ولذلك أعقب هذا بما يدل على الحشر من قوله : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ﴾ وما بعده من الآيات .

وبدأ بالأرض ، لأنها مستقرهم ، حركة وسكوناً ، حياة وموتاً .

وموت الأرض جدبها ، وإحياؤها بالغيث .

والضمير في لهم عائد على كفار قريش ومن يجري مجراهم في إنكار الحشر .

و﴿ أحييناها ﴾ : استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية ، وكذلك نسلخ .

وقيل : أحييناها في موضع الحال ، والعامل فيها آية بما فيها من معنى الإعلام ، ويكون آية خبراً مقدماً ، والأرض الميتة مبتدأ ؛ فالنية بآية التأخير ، والتقدير : والأرض الميتة آية لهم محياة كقولك : قائم زيد مسرعاً ، أي زيد قائم مسرعاً ، ولهم متعلق بآية ، لا صفة .



---

وقال الزمخشري : ويجوز أن يوصف الأرض والليل بالفعل ، لأنه أريد بهما الجنسان مطلقين لا أرض ، وليل بإحيائهما ، فعوملا معاملة النكرات في وصفها بالأفعال ونحوه :

ولقد أمر على اللئيم يسبني . . .

انتهى .

وهذا هدم لما استقر عند أئمة النحو من أن النكرة لا تنعت إلا بالنكرة ، والمعرفة لا تنعت إلا بالمعرفة ، ولا دليل لمن ذهب إلى ذلك .

وأما يسبني فحال ، أي سابًّا لي ، وقد تبع الزمخشري ابن مالك على ذلك في التسهيل من تأليفه .

وفي هذه الجمل تعدد نعم إحياؤها بحيث تصير مخضرة تبهج النفس والعين ، وإخراج الحب منها حيث صار ما يعيشون به في المكان الذي هم فيه مستقرون ، لا في السماء ولا في الهواء ، وجعل الحبات لأنهم أكلوا من الحب ، وربما تاقت النفس إلى النقلة ، فالأرض يوجد منها الحب ، والشجر يوجد منه المثر ، وتفجير العيون يحصل به الاعتماد على تحصيل الزرع والثمر ، ولو كان من السماء لم يدرأ يغرس ولا أين يقع المطر .

وقرأ جناح بن حبيش : ﴿ وفجرنا ﴾ بالتخفيف ، والجمهور : بالتشديد .

﴿ ومن ثمره ﴾ بفتحتين ؛ وطلحة ، وابن وثاب ، وحمزة ، والكسائي : بضمتين ؛ والأعمش : بضم الثاء وسكون الميم ؛ والضمير في ثمره عائد على الماء ، قيل : لدلالة العيون عليه ولكونه على حذف مضاف ، أي من ماء العيون ؛ وقيل : على النخيل ، واكتفى به للعلم في اشتراك الأعيان فيما علق به النخيل من أكل ثمره ، أو يراد من ثمر المذكور

، وهو الجنات ، كما قال الشاعر :

فيها خطوط من سواد وبلق . . .

كأنه في الجلد توليع البهق

فقيل له : كيف قلت بعيون ، كأنه والذي تقدم خطوط ؟ فقال أرت : كان ذاك .

وقيل : عائد إلى التفجير الدال عليه وفجرنا الآية أقرب مذكور ، وعنى بثمرة : فوائده ، كما تقول : ثمرة التجارة الربح .



---

وقال الزمخشري : وأصله من ثمرنا ، كما قال : ﴿ وجعلنا ﴾ ، ﴿ وفجرنا ﴾ ، فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريق الالتفات ، والمعنى : ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر ، ومما عملته أيديهم من الغرس والسقي والآبار وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه ، وبأن أكله يعني أن الثمر في نفسه فعل الله وخلقه ، وفيه آثار من كد بني آدم .

ويجوز أن تكون ما نافية ، على أن الثمر خلق الله ، ولم تعمله أيديه الناس ، ولا يقدرون على خلقه .

وقرأ الجمهور : ﴿ ما عملته ﴾ بالضمير ، فإن كانت ما موصولة فالضمير عائد عليها ،

وإن كانت نافية فالضمير عائد على الثمر .

وقرأ طلحة ، وعيسى ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر : بغير ضمير مفعول عملت على التقريرين محذوفة ، وجوز في هذه القراءة أن تكون ما مصدرية ، أي وعمل أيديهم ، وهو مصدر أريد به المعمول ، فيعود إلى معنى الموصول .

ولما عدد تعالى هذه النعم ، حض على الشكر فقال : ﴿ أفلا يشكرون ﴾ ، ثم نزه تعالى نفسه عن كل ما يلحد به ملحد ، أو يشرك به مشرك ، فذكر إنشاء الأزواج ، وهي الأنواع من جميع الأشياء ، ﴿ مما تنبت الأرض ﴾ : من النخل والشجر والزرع والثمر وغير ذلك .

وكل صنف زوج مختلف لوناً وطعماً وشكلاً وصغراً وكبراً ، ﴿ ومن أنفسهم ﴾ : ذكوراً وإناثاً ، ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ : أي وأنواعاً مما لا يعلمون ، أعلموا بوجوده ولم يعلموا ما هو ، إذ لا يتعلق علمهم بماهيته ، أمر محتاج إليه في دين ولا دنيا .

وفي إعلامه بكثرة مخلوقاته دليل على اتساع ملكه وعظم قدرته .

ولما ذكر تعالى الاستدلال بأحوال الأرض ، وهي المكان الكلي ، ذكر الاستدلال بالليل والنهار ، وهو الزمان الكلي ؛ وبينهما مناسبة ، لأن المكان لا تستغني عنه الجواهر ، والزمان لا تستغني عنه الأعراض ، لأن كل عرض فهو في زمان ، ومثله مذكور في قوله : ﴿

ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ ثم قال بعده : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ﴾ الآية .

(146/646)

---

وبدأ هناك بالزمان ، لأن المقصود إثبات الوحدانية بدليل قوله : ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ﴾ الآية ، ثم الحشر بقوله : ﴿ إن الذي أحياها لمحيي الموتى ﴾ وهذا المقصود الحشر أولاً لأن ذكره فيها أكثر ، وذكر التوحيد في فصلت أكثر بدليل قوله : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض ﴾ انتهى ، وهو من كلام أبي عبد الله الرازي ، وفيه تلخيص .

و﴿ نسلخ ﴾ : معناه نكشط ونقشر ، وهو استعارة لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل .

و﴿ مظلمون ﴾ : داخلون في الظلام ، كما تقول : أعتمنا وأسحرنا : دخلنا في العتمة وفي السحر .

واستدل قوم بهذا على أن الليل أصل والنهار فرع طارىء عليه ، ومستقر الشمس بين يدي العرش تسجد فيه كل ليلة بعد غروبها .

كما جاء في حديث أبي در : "ويقال لها اطلعي من حيث طلعت ، فإذا كان طلوعها من مغربها يقال لها اطلعي من حيث غربت ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً" .

وقال ابن عباس : إذا غربت وانتهت إلى الموضع الذي لا تتجاوزه ، استوت تحت العرش إلى أن تطلع .

وقال الحسن : للشمس في السنة ثلاثمائة وستون مطلعاً ، تنزل كل يوم مطلعاً ، ثم لا تنزل إلى الحول ، وهي تجري في فلك المنازل ، أو يوم القيامة ، أو غيبوبتها ، لأنها تجري كل وقت إلى حد محدود تغرب فيه ، أو أحد مطالعها في المنقلبين ، لأنهما نهايتا مطالعها ؛ فإذا استقر وصولها كرت راجعة ، وإلا فهي لا تستقر عن حركتها طرفة عين .

ونحا إلى هذا ابن قتيبة ، أو وقوفها عند الزوال كال يوم ، ودليل استقرارها وقوف ذلك الظلام حينئذ .

وقال الزمخشري : بمستقر لها : لحدِّها مؤقت مقدر تنتهي إليه من فلكها في آخلا السنة .

شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره ، أو كمنتهي لها من المشارق والمغارب ، لأنها تتقصاها مشرقاً مشرقاً ومغرباً مغرباً حتى تبلغ أقصاها ثم ترجع ، فلذلك حدها ومستقرها ، لأنها لا تعدوه أو لا يعدلها من مسيرها كل يوم في مرأى عيوننا وهو المغرب .

وقيل : مستقرها : محلها الذي أقر الله عليه أمرها في جريها فاستقرت عليه ، وهو آخر السنة .

وقيل : الوقت الذي تستقر فيه وينقطع جريها ، وهو يوم القيامة .

وقال أبو عبد الله الرازي ما ملخصه : في المستقر وجوه في الزمان وفي المكان ، ففي الزمان الليل أو السنة أو يوم القيامة ، وفي المكان غاية ارتفاعها في الصيف وانخفاضها في الشتاء ، وتجري إلى ذلك الموضع فترجع ، أو غاية مشارقها ، فلها في كل يوم مشرق إلى ستة أشهر ، ثم تعود على تلك المقنطرات ؛ وهذا هو ما تقدم في الارتفاع .

فإن اختلاف المشارق سبب اختلاف الارتفاع ، أو وصولها إلى بيتها في الأسد ، أو الدائرة التي عليها حركتها ، حيث لا تميل عن منطقة البروج على مرور الشمس .

ويحتمل أن يقال : تجري مجرى مستقرها ، فإن أصحاب الهيئة قالوا : الشمس في فلك ، والفلك يدور فيدير الشمس ، فالشمس تجري مجرى مستقرها . انتهى .

وقرىء : إلى مستقرها .

وقرأ عبد الله ، وابن عباس ، وعكرمة ، وعطاء بن رباح ، وزين العابدين ، والباقر ، وابنه

الصادق ، وابن أبي عبدة : لا مستقر لها ، نفياً مبنياً على الفتح ، فيقتضي انتفاء كل مستقر وذلك في الدنيا ، أي هي تجري دائماً فيها ، لا تستقر ؛ إلا ابن أبي عبلة ، فإنه قرأ برفع مستقر وتنوينه على إعمالها إعمال ليس ، نحو قول الشاعر :

تعز فلا شيء على الأرض باقيا . . .

ولا وزر مما قضى الله واقيا

الإشارة بذلك إلى جري الشمس : أي ذلك الجري على ذلك التقدير والحساب الدقيق .

﴿ تقدير العزيز ﴾ : الغالب بقدرته على كل مقدور ، المحيط علماً بكل معلوم .

وقرأ الحرميان ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر ، وابن محيصن ، والحسن : بخلاف عنه .



---

﴿ والقمر ﴾ : بالرفع على الابتداء ؛ وباقي السبعة : بالنصب على الاشتغال .

و﴿ قدرناه ﴾ على حذف مضاف ، أي قدرنا سيره ، و﴿ منازل ﴾ : طرف ، أي منازله ؛ وقيل : قدرنا نوره في منازل ، فيزيد مقدار النور كل يوم في المنازل الاجتماعية وينقص في المنازل الاستقبالية .

وقيل : قدرناه : جعلنا أنه أجري جريه عكس منازل أنوار الشمس ، ولا يحتاج إلى حذف

حرف الصفة ، فإن جرم القمر مظلم ، ينزل فيه النور لقبوله عكس ضياء الشمس ، مثل المرآة المجلوة إذا قوبل بها الشعاع .

وهذه المنازل معروفة عند العرب ، وهي ثمانية وعشرون منزلة ، ينزل القمر كل ليلة في واحد منها ، لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه ، على تقدير مستولا بتفاوت ، يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين ، ثم يسير ليلتين إذا نقص الشهر ، وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة ، وهي : الشرطين ، البطين ، الثريا ، الدبوان ، الهقعة ، الهنعة ، الذراع ، النثرة ، الطرف ، الجبهة ، الدبرة ، الصرفة ، العواء ، السماك ، العفر ، الزباني ، الإكليل ، القلب ، الشولة ، النعائم ، البلدة ، سعد الذابح ، سعد بلع ، سعد السعود ، سعد الأخبية ، فرع الدلو المقدم ، فرع الدلو المؤخر ، بطن الحوت ، ويقال له الرشاء ، فإذا كان في آخر منازله دق واستقوس واصفر ، فشبه بالعرجون القديم من ثلاثة الأوجه .

وقرأ سليمان التيمي : كالعِرجون ، بكسر العين وفتح الجيم ؛ والجمهور : بضمها ، وهما لغتان كالبريون .

و ﴿ القديم ﴾ : ما مر عليه زمان طويل .

وقيل : أقل عدة الموصوف بالقدم حول ، فلو قال رجل : كل مملوك لي قديم فهو حر ، أو كتب ذلك في وصية ، عتق منهم من مضى له حول وأكثر . انتهى .

والقدم أمر نسبي ، وقد يطلق على ما ليس له سنة ولا سنتان ، فلا يقال العالم قديم ، وإنما تعتبر العادة في ذلك .

(149/646)

---

﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ : ينبغي لها مستعملة فيما لا يمكن خلافه ، أي لم يجعل لها قدرة على ذلك ، وهذا الإدراك المنبغي هو ، قال الزمخشري : إن الله تعالى جعل لكل واحد من الليل والنهار وآيتيهما قسماً من الزمان ، وضرب له حداً معلوماً ، ودبر أمرهما على التعاقب .

فلا ينبغي للشمس أن لا يستهل لها ، ولا يصح ، ولا يستقيم ، لوقوع التدبير على العاقبة .

وإن جعل لكل واحد من النيرين سلطان ، على حياله أن يدرك القمر ، فتجتمع معه في وقت واحد ، وتداخله في سلطانه ، فتطمس نوره .

ولا يسبق الليل النهار ، يعني آية الليل آية النهار ، وهما النيران .

ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك ، وينقص ما ألف ، فيجمع بين الشمس والقمر ، فتطلع الشمس من مغربها .

انتهى .

وقال ابن عباس، والضحاك: إذا طلعت، لم يكن للقمر ضوء؛ وإذا طلع، لم يكن للشمس ضوء.

وقال مجاهد: لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر.

وقال قتادة: لكل أحد حدّ لا يعدوه ولا يقصر دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا.

وقال ابن عباس أيضاً: إذا اجتمعا في السماء، كان أحدهما بين يدي الآخر، في منازل لا يشتركان فيها.

وقال الحسن: لا يجتمعان في السماء ليلة الهلال خاصة، أي لا تبقى الشمس حتى يطلع الفجر، ولكن إذا غربت طلع.

وقال يحيى بن سلام: لا تدركه ليلة البدر خاصة، لأنه يبادر بالمغيب قبل طلوعها.

وقيل: لا يمكنها أن تدركه في سرعته، لأن دائرة فلك القمر داخلة في فلك عطارد، وفك عطارد داخل في فلك الزهرة، وفلك الزهرة داخل في فلك الشمس.

فإذا كان طريق الشمس أبعد، قطع القمر جميع أجزاء فلكه، أي من البروج الاثني عشر، في زمان تقطع الشمس فيه برجاً واحداً من فلكه.

وقال النحاس: ما قيل فيه، وأبينه أن مسير القمر مسير سريع، والشمس لا تدركه في السير.

انتهى ، وهو ملخص القول الذي قبله : ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ ، لا يعارض قوله : ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ لأن ظاهر قوله : ﴿ يطلبه حثيثاً ﴾ ، أن النهار سابق أيضاً ، فيوافق الظاهر .

وفهم أبو عبد الله الرازي من قوله : ﴿ يطلبه حثيثاً ﴾ أن النهار يطلب الليل ، والليل سابقه .

وفهم من قوله : ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ ، أن الليل مسبوق لا سابق ، فأورده سؤالاً . وقال : كيف يكون الليل سابقاً مسبوقاً ؟ وأجاب بأن المراد من الليل هنا سلطان الليل ، وهو القمر ، وهو لا يسبق الشمس بالحركة اليومية السريعة .

والمراد من الليل هناك نفس الليل ، وكل واحد لما كان في عقب الآخر كان طالبه . انتهى .

وعرض له هذا السؤال لكونه جعل الضمير الفاعل في يطلبه عائداً على النهار ، وضمير المفعول عائداً على الليل .

والظاهر أن ضمير الفاعل عائد على ما هو الفاعل في المعنى وهو الليل ، لأنه كان قبل دخول همزة النقل ﴿ يغشى اليل النهار ﴾ وضمير المفعول عائد على النهار ، لأنه المفعول قبل النقل وبعده .

وقرأ عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير الخطفي : سابق بغير تنوين ، النهار : بالنصب .

قال المبرد : سمعته يقرأ فقلت : ما هذا ؟ قال : أردت سابق النهار ، فحذفت لأنه أخف .

انتهى ، وحذف التنوين فيه لالتقاء الساكنين .

وتقدّم شرح : ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ في سورة الأنبياء .

والظاهر من الذرية أنه يراد به الأبناء ومن نشأ منهم .

وقيل : ينطلق على الآباء وعلى الأبناء ، قاله أبو عثمان .

وقال ابن عطية : هذا تخليط ، ولا يعرف هذا في اللغة . انتهى .

وتقدّم الكلام في الذرية في آل عمران .

والظاهر أن الضمير في لهم وفي ذرياتهم عائد على شيء واحد ، فالمعنى أنه تعالى حمل ذريات هؤلاء ، وهم آباؤهم الأقدمون ، في سفينة نوح عليه السلام ، قاله ابن عباس وجماعة .



---

ومن مثله : للسفن الموجودة في جنس بني آدم إلى يوم القيامة أو أريد بقوله : ذرياتهم ، حذف مضاف ، أي ذريات جنسهم ، وأريد بالذرية من لا يطيق المشي والركوب من الذرية والضعفاء .

فالفلك اسم جنس من عليهم بذلك ، وكون الفلك مراداً به الجنس ، قاله ابن عباس أيضاً ومجاهد والسدّي ، ومن مثله : الإبل وسائر ما يركب .

وقيل : الضميران مختلفان ، أي ذرية القرون الماضية ، قاله عليّ بن سليمان ، وكان آية لهؤلاء ، إذ هم نسل تلك الذرية .

وقيل : الذرية : النطف ، والفلك المشحون : بطون النساء ، ذكره الماوردي ، ونسب إلى عليّ بن أبي طالب ، وهذا لا يصح ، لأنه من نوع تفسير الباطنية وغلاة المتصوفة الذين يفسرون كتاب الله على شيء لا يدل عليه اللفظ بجهة من جهات الدلالة ، يحرفون الكلم عن مواضعة .

ويدل على أنه أريد ظاهر الفلك قوله : ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ : يعني الإبل والخيل والبغال والحمير ، والمماثلة في أنه مركوب مبلغ للأوطان فقط ، هذا إذا كان الفلك جنساً .

وأما إن أريد به سفينة نوح ، فالمماثلة تكون في كونها سفناً مثلها ، وهي الموجودة في بني آدم .

ويبعد قول من قال : الذرية في الفلك قوم نوح في سفينته ، والمثل الأجل : وما يركب ، لأنه يدفعه قوله : ﴿ وإن نشأ نغرقهم ﴾ .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، والأعمش ، وزيد بن عليّ ، وأبان بن عثمان : ذرياتهم بالجمع ؛

وكسر زيد وأبان الذال ؛ وباقي السبعة ، وطلحة ، وعيسى : بالإفراد .

وقال الزمخشري : ذريتهم : أولادهم ومن يهمهم حمله .

وقيل : اسم الذرية يقع على النساء ، لأنهن مزراعها .

وفي الحديث : "أنه نهى عن قتل الذراري" ، يعني النساء .

﴿ من مثله ﴾ : من مثل الفلك ، ﴿ ما يركبون ﴾ : من الإبل ، وهي سفائن البر .

وقيل : ﴿ الفلك المشحون ﴾ : سفينة نوح.

ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها : أنه حمل فيها آباؤهم الأقدمون ، وفي أصلابهم هم وذرياتهم .

(152/646)

---

وإنما ذكر ذرياتهم دونهم ، لأنه أبلغ في الامتنان عليهم ، وأدخل في التعجب من قدرته في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح.

و﴿ من مثله ﴾ : من مثل ذلك الفلك ، ﴿ ما يركبون ﴾ : من السفن . انتهى .

وقال أبو عبد الله الرازي : إنما خص الذريات بالذكر ، لأن الموجودين كانوا كفاراً لا فائدة في وجودهم ، أي لم يكن الحمل حملاً لهم ، وإنما كان حملاً لما في أصلابهم من المؤمنين .

وقال أيضاً : الضمير في وآية لهم عائد على العباد في قوله : ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ ثم قال بعد ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ﴾ ، ﴿ وآية لهم الليل ﴾ ، ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم ﴾ : ذريات العباد ، ولا يلزم أن يكون الضمير في الموضعين لمعنيين ، فهو كقوله :

﴿ لا تقتلوا أنفسكم ﴾ إنما يريد : لا يقتل بعضكم بعضاً ، فذلك هذا .

﴿ وآية لهم ﴾ : أي آية كل بعض منهم ، ﴿ أنا حملنا ﴾ ذرية كل بعض منهم ، أو ذرية بعض منهم . انتهى .

والظاهر فلي قوله : ﴿ وخلقنا ﴾ أنه أريد الإنشاء والاختراع ، فالمراد الإبل وما يركب ، وتكون من للبيان ، وإن كان ما يصنعه الإنسان قد ينسب إلى الله خلقاً ، لكن الأكثر ما ذكرنا .

وإذا أريد به السفن ، تكون من للتبعيض ، ولهم الظاهر عوده على ما عاد عليه ﴿ وآية لهم ﴾ ، لأنه المحدث عنهم ، وجوز أن يعود على الذرية ؛ والظاهر أن الضمير في مثله عائد على الفلك .

وقيل : يعود على معلوم غير مذكور وتقديره : من مثل ما ذكرنا من المخلوقات في قوله : ﴿ سبحان الذين خلق الأزواج كلها مما تنبيت الأرض ﴾ ، كما قالوا : في قوله ﴿ من ثمره ﴾ ، أي من ثمر ما ذكرنا .

وقرأ الحسن : نغرقهم مشدداً ؛ والجمهور : مخففاً ؛ والصريخ : فعيل بمعنى صارخ : أي مستغيث ، وبمعنى مصرخ : أي مغيث ، وهذا معناه هنا ، أي فلا مغيث لهم ولا معين.

وقال الزمخشري : ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ : أي فلا إغاثة لهم . انتهى .

(153/646)

---

كأنه جعله مصدراً من أفعل ، ويحتاج إلى نقل أن صريخاً يكون مصدراً بمعنى صراخ .

والظاهر أن قوله : ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ : أي لا مغيث لهؤلاء الذين شاء الله إغراقهم ، ﴿ ولا هم ينقذون ﴾ : أي ينجون من الموت بالغرق .

نفي أولاً الصريخ ، وهو خاص ؛ ثم نفى ثانياً إنقاذهم بصريخ أو غيره .

وقال ابن عطية : وقوله ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ استئناف إخبار عن المسافرين في البحر ، ناجين كانوا أو مغرقين ، فهم في هذه الحال لا نجاة لهم إلا برحمة الله .

وليس قوله : ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ مربوطاً بالمغرقين ، وقد يصح ربطه به ، والأول أحسن فتأمله .

انتهى ، وليس بحسن ولا أحسن .

والفاء في ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ تعلق الجملة بما قبلها تعليقاً واضحاً ، وترتبط به ربطاً

لائحاً .

والخلاص من العذاب بما يدفعه من أصله ، فنفي بقوله : ﴿ فَلَاصَرِيخَ لَهُمْ ﴾ ، وما يرفعه بعد وقوعه ، فنفي بقوله : ﴿ ولا هم ينقذون ﴾ .

وانتصب ﴿ رحمة ﴾ على الاستثناء المفرغ للمفعول من أجله ، أي لرحمة منا .

وقال الكسائي ، والزجاج : ﴿ إلى حسن ﴾ : أي إلى حين الموت ، قاله قتادة .

وقال الزمخشري : إما لرحمة منا ، وليتمتع بالحياة إلى حين : أي إلى أجل يموتون فيه لا بد لهم منه بعد النجاة من موت الغرق . انتهى .

وإنما قال : لا بد لهم من موت الغرق ، لأنه تعالى قال ﴿ وإن نشأ ﴾ : أي إغراقهم ، ﴿ نغرقهم ﴾ : فمن شاء إغراقه لا بد أن يموت بالغرق .

والظاهر أن ﴿ رحمة ﴾ ، ﴿ ومتاعاً إلى حين ﴾ يكون للذين ينقذون ، فلا يفيد الدوام ، بل ينقذه الله رحمة له ويمتعه إلى حين ثم يميته .

وقيل : فيه تقسيم ، إلا رحمة لمن علم أنه يؤمن من فينقذه الله رحمة ، ومن علم أنه لا يؤمن يمنعه زماناً ويزداد إثماً . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الليل ﴾

جملة من خبرٍ مقدَّمٍ ومبتدأٍ مؤخَّرٍ كما مرَّ وقوله تعالى ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾ جملةٌ مبيِّنة لكيفيَّةِ كونِه آيةً أي نُزيله ونكشفُه عن مكانِه مستعارٌ من السَّلخِ وهو إزالةُ ما بين الحيوانِ وجلدِه من الاتِّصالِ. والأغلبُ في الاستعمالِ تعليقُه بالجلدِ يقال سلختُ الإهابَ من الشَّاةِ وقد يُعكس ومنه الشَّاةُ المسلوخةُ ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ أي داخلونَ في الظَّلامِ مفاجأةً وفيه رمزٌ إلى أنَّ الأصلَ هو الظَّلامُ والنُّورُ عارضٌ. ﴿ والشمس تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ لحدَ مُعينٍ ينتهي إليهِ دورُها فشبه بمستقرِّ المسافرِ إذ قطع مسيرَه أو لكبد السَّماءِ فإنَّ حركتَها فيه توجد أبطأَ بحيثُ يظنُّ أنَّ لها هناك وقفةً قال :

والشَّمسُ حَيْرى لها بالجوِّ تدويمُ. . . أو لا استقرارَ لها على نهجٍ مخصوصٍ أو لمنتهى مقدَّرٍ لكلِّ يومٍ من المشارقِ والمغاربِ فإنَّ لها في دورِها ثلاثمائة وستِّين مشرقاً ومغرباً تطلع كلَّ يومٍ من مطلعٍ وتغربُ من مغربٍ ثمَّ لا تعودُ إليهما إلى العامِ القابلِ أو لمنقطعِ جريها عند خرابِ العالمِ. وقُرِىء إلى مستقرَلها. وقُرِىء لا مستقرَّ لها أي، لا سكونَ لها فإنَّها متحرِّكةٌ دائماً وقُرِىء لا مستقرَّ لها على أنَّ لا بمعنى ليسَ.

﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى جريها وما فيهِ من معنى البُعد مع قُربِ العهدِ بالمُشارِ إليه للإيذانِ بعلوِ رُتبتِه وبُعد منزلتِه أي ذلك الجريُ البديعُ المنطوي على الحِكَمِ الرَّائعةِ التي تحارُ في فهمها

العقولُ والأفهامُ ﴿ تَقْدِيرُ العزيز ﴾ الغالب بِقدرته علَى كلِّ مقدورٍ ﴿ العليم ﴾ المحيطِ علمُه بكلِّ معلومٍ.

(155/646)

---

﴿ والقمر قدرناه ﴾ بالنَّصب بإضمار فعلٍ يفسِّره الظَّاهرُ. وقُرىء بالرَّفعِ على الابتداءِ أي قدَّرنا له ﴿ مَنَازِلَ ﴾ وقيل: قدرنا مسيرَه منازلَ وقيل: قدرنَاهُ ذا منازلَ وهي ثمانيةٌ وعشرون السرطانِ البَطينُ الثُّريَّا الدَّبرانِ الهقعة الهَنْعَةُ الذِّراعُ النَّثرةُ الطَّرفُ الجَبهةُ الزَّبرةُ الصَّرفةُ العوَا السِّماكُ الغفر الزباني الإكليلُ القَلبُ الشَّولةُ النَّعائمُ البلدةُ سعدُ الذَّابحُ سعدُ بَلْعٍ سَعدُ السُّعود سَعدُ الأخبيةِ فرغ الدَّلو المقدَّم فرغ الدَّلو المؤخرَّ الرِّشا وهو بطنُ الحوتِ ينزل كلَّ ليلةٍ في واحدٍ منها لا يتخطَّاها ولا يتقاصرُ عنها فإذا كان في آخرِ منازِله وهو الذي يكون قبيلَ الاجتماعِ دقَّ واستقوسَ ﴿ حتى عَادَ كالعرجون ﴾ كالشِّمراخِ المُعوجِ فعلون من الانعراجِ وهو الاعوجاجُ وقُرىء كالعَرجونَ وهما لغتانِ كالبُزيَون والبزيونِ. ﴿ القديم ﴾ العَتيق وقيل: وهو ما مرَّ عليه حولٌ فصاعداً ﴿ لاَ الشمس يَنبَغِى لَهَا ﴾ أي يصحُّ ويتسهَّلُ ﴿ أَن تدْرِكَ القمر ﴾ في سرعةِ السَّيرِ فإنَّ ذلكَ يخلُّ بتكونِ النَّباتِ وتعيُّشِ الحيوانِ أو في الآثارِ والمنافعِ أو في المكانِ بأن تنزلَ في منزلِه أو في سلطانه فتطمس نورَه. وإيلاءُ حرفِ

التّفي الشّمسَ للدّلالةِ على أنّها مسخّرةٌ لا يتيسر لها إلا ما قُدِّر لها ﴿ وَلَا اللّيل سَابِقُ النهار ﴾ أي يسبقُه فيفوتُه ولكنْ يعاقُبه وقيل: المرادُ بهما آيتاهُما النيِّرانِ وبالسبقِ سبقُ القمرِ إلى سُلطانِ الشّمسِ فيكون عكساً للأوّل، وإيراد السَّبقِ كانَ الإدراكِ لأنَّه الملائمُ لسرعةِ سيرِه ﴿ وَكُلٌّ ﴾ أي وكلُّهم على أنّ التّنوينَ عوضٌ عن المضافِ إليه الذي هو الضّميرُ العائدُ إلى الشّمسِ والقمرِ. والجمعُ باعتبارِ التّكاثرِ العارضِ لهما بتكاثرِ مطالعهما فإنّ اختلافَ الأحوالِ يُوجب تعدداً ما في الذّاتِ أو إلى الكواكبِ

(156/646)

---

فإنّ ذكرَهما مشعرٌ بها ﴿ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يسيرُون بانبساطٍ وسهولةٍ.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أولادَهم الذين يبعثُونهم إلى تجاراتِهم أو صبيانَهم ونساءَهم الذين يستصحبونهم، فإنّ الذُّرية تطلقُ عليهن لا سيَّما مع الاختلاطِ، وتخصيصُهم بالذّكرِ لما أنّ استقرارَهم في السُّفنِ أشقُّ واستمساكهم فيها أبدعُ ﴿ فِى الفلك المشحون ﴾ أي المملوءِ وقيل: هو فُلكُ نوحٍ عليه السّلامُ وحمل ذريَّاتِهم فيها حملُ آبائِهم الأقدمين وفي أصلابِهم هؤلاء وذرياتُهم، وتخصيصُ أعقابِهم بالذّكرِ دُونَهم لأنه أبلغَ في الامتنانِ وأدخلُ في التَّعجيبِ الذي عليه يدورُ كونُه آيةً.

﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ مما يماثل الفُلكَ ﴿ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ من الإبل فإنها سفائنُ البرِّ أو ممَّا يُماثل ذلك الفُلكَ من السُّفنِ والزَّوارقِ وجعلها مخلوقةً لله تعالى مع كونِها من مصنوعاتِ العبادِ ليس لمجرَّدِ كون صُنعِهم بأقدار الله تعالى وإلهامِه بل لمزيدِ اختصاص أصلِها بقُدرته تعالى وحكمته حسبما يُعرب عنه قولُه عزَّ وجلَّ : ﴿ واصنع الفلك بأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ والتَّعبيرُ عن مُلابستهم بهذه السُّفنِ بالرُّكوبِ لأنَّها باختيارهم كما أنَّ التَّعبيرَ عن مُلابسة ذُرِّيَّتهم بفُلكِ نوحٍ عليه السَّلامُ بالحَملِ لكونِها بغير شعورٍ منهم واختيارٍ . ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ الخ من تمامِ الآيةِ فإنَّهم معترفون بمضمونه كما ينطقُ به قولُه تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كالظلل دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ وقُرىء نُغرِّقهم بالتَّشديدِ وفي تعليق الإغراقِ بمحض المشيئةِ إشعارٌ بأنَّه قد تكامل ما يُوجب إهلاكَهم من معاصيهم ولم يبقَ إلاَّ تعلُّقُ مشيئته تعالى به أي إنْ نشأْ نغرقهم في اليمِّ مع ما حملناهم فيه من الفُلك فحديثُ خَلْقِ الإبل حينئذٍ كلامٌ جيء به في خلالِ الآيةِ بطريق الاستطرادِ لكمالِ التَّماثلِ بين الإبلِ والفُلكِ فكأنَّها نوعٌ منه أو مع ما يركبون من السُّفنِ والزَّوارقِ ﴿ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أي فلا مُغيثَ لهم يخرجهم من الغرَقِ ويدفعه عنهم قبل وقوعِه وقيل : فلا استغاثةَ لهم من قولِهم أتاهم الصَّريخُ ﴿ وَلاَ هُمْ

يُنقَذُونَ ﴾ أي ينجُّون منه بعد وقوعِه وقوله تعالى ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً ﴾ استثناء مفرَّغٌ من أعمِّ العللِ الشَّاملةِ للباعث المتقدِّمِ والغاية المتأخِّرةِ أي لا يُغاثون ولا يُنقذون لشيءٍ من الأشياءِ إلا لرحمةٍ عظيمةٍ من قبلنا داعيةٍ إلى الإغاثةِ والانقاذِ وتمتيع بالحياة مترتِّب عليهما ويجوز أنْ يُرادَ

(158/646)

---

بالرَّحمةِ ما يُقارن التَّمتيعَ من الرَّحمةِ الدُّنيويَّةِ فيكون كلاهما غايةً للإغاثةِ والانقاذِ أي لنوعٍ من الرَّحمةِ وتمتع ﴿ إلى حِينٍ ﴾ أي إلى زمانٍ قُدِّر فيه آجالُهم كما قيل

ولم أسلمْ لكي أبقَى ولكن . . . سَلِمتُ من الحِمامِ إلى الحِمامِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(159/646)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَءايَةٌ لَّهُمُ الليل ﴾ بيان لقدرته تعالى الباهرة في الزمان بعدما بينها سبحانه في المكان ،

و ﴿ ءَايَةٌ ﴾ خبر مقدم و ﴿ الليل ﴾ مبتدأ مؤخر وقوله تعالى : ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾ استئناف لبيان كونه آية ، وفي التركيب احتمالات أخر تعلم مما مر إلا أن الأرجح ما ذكر أي نكشف ونزيل الضوء من مكان الليل وموضع إلقاء ظله وظلمته وهو الهواء النهار عبارة عن الضوء إما على التجوز أو على حذف المضاف ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْهُ ﴾ على حذف مضاف وذلك لأن النهار والليل عبارتان عن زمان كون الشمس فوق الأفق وتحته ولا معنى لكشف أحدهما عن الآخر وأصل السلخ كشط الجلد نحو الشاة فاستعير لكشف الضوء عن مكان الليل وملقى ظلمته وظله استعارة تبعية مصرحة والجامع ما يعقل من ترتب أمر على آخر فإنه يترتب ظهور اللحم على كشط الجلد وظهور الظلمة على كشف الضوء عن مكان الليل ، وجوز أن يكون في النهار استعارة مكنية وفي السلخ استعارة تخييلية والجمهور على ما ذكرنا ومن ابتدائية ، وقيل : تبعيضية وجعلها سببية ليس بشيء ، وهذا التفسير محكي عن الفراء ونحوه تفسير السلخ بالنزع ، واستعمال الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ أي داخلون في الظلام كما يفيده همزة الأفعال عليه ظاهر ، ووقع في عبارة الشيخ عبد القاهر والإمام السكاكي أن المستعار له في الآية ظهور النهار من ظلمة الليل والمستعار منه ظهور المسلوخ من جلده وذلك على ما قال العلامة الطيبي والفاضل اليمني مأخوذ من قول الزجاج معنى نسلخ منه النهار نخرج منه النهار

إخراجاً لا يبقى معه شيء من ضوئه فالظهور في عبارتهما بمعنى الخروج وهو يتعدى بمن فلا حاجة إلى جعلها بمعنى عن .

(160/646)

---

وقد جاء بهذا المعنى كما في قول عمر لأبي عبيدة رضي الله تعالى عنهما اظهر بمن معك من المسلمين إليها أي الأرض يعني أخرج إلى ظاهرها ، وفي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها كان صلى الله عليه وسلم يصلي العصر ولم يظهر الفيء بعد من الحجرة أي لم يخرج إلى ظاهرها فسقط ما أورد عليه من أنه لو أريد الظهور لقيل ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ ولم يقل ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ لأن الواقع عقيب ظهور النهار من ظلمة الليل إنما هو الإبصار لا الأظلام من غير حاجة إلى حمل العبارة على القلب أي ظهور ظلمة الليل من النهار ، وبعضهم رفع هذا الإيراد بأن النهار عبارة عن مجموع المدة من طلوع الفجر أو الشمس إلى الغروب لا عن بعضها فالواقع عقيب هذه المدة كلها الدخول في الظلام .

وتعبه السالكوتي بأن الدخول في الظلام مترتب على السلخ لا على انقضاء مدة النهار .

ولعل مراد البعض أن السلخ بمعنى ظهور النهار لا يتحقق إلا بظهور كل أجزائه ومتى ظهرت أجزاء النهار كلها انقضت مدته ، وذكر العلامة القطب أن السلخ قد يكون بمعنى النزع نحو

سلختا الأهاب عن الشاة وقد يكون بمعنى الإخراج نحو سلخت الشاة من الأهاب والشاة مسلوخة فذهب الشيخ عبد القاهر والسكاكي إلى الثاني وغيرهما إلى الأول فاستعمال الفاء في ﴿ فاذاهم ﴾ ظاهر على قول الغير وأما على قولهما فإنما يصح من جهة أنها موضوعة لما يعد في العادة مرتباً غير متراخ وهذا يختلف باختلاف الأمور والعادات فقد يطول الزمان والعادة في مثله تقتضي عدم اعتبار المهلة وقد يكون بالعكس كما في هذه الآية فإن زمان النهار وإن توسط بين إخراج النهار من الليل وبين دخول الظلام لكن لعظم دخول الظلام بعد إضاءة النهار وكونه مما ينبغي أن لا يحصل إلا في أضعاف ذلك الزمان عد الزمان قريباً وجعل الليل كأنه يفاجئهم عقيب إخراج النهار من الليل بلا مهلة.



---

ثم لا يخفى أن إذا المفاجأة إنما تصح إذا جعل السلخ بمعنى الإخراج كما يقال: أخرج النهار من الليل ففاجأه دخول الليل فإنه مستقيم بخلاف ما إذا جعل بمعنى النزع فإنه لا يستقيم أن يقال: نزع ضوء الشمس عن الهواء ففاجأه الظلام كما لا يستقيم أن يقال كسرت الكوز ففاجأه الانكسار لأن دخولهم في الظلام عين حصول الظلام فيكون نسبة دخولهم في الظلام إلى نزع ضوء النهار كنسبة الانكسار إلى الكسر فلهذا جعلا السلخ بمعنى الإخراج دون

النزع اه كلامه ، وقواه العلامة الثاني بأنه لا شك أن الشيء إنما يكون آية إذا اشتمل على نوع استغراب واستعجاب بحيث يفتقر إلى نوع اقتدار وذلك إنما هو مفاجأة الظلام عقيب ظهور النهار لا عقيب زوال ضوء النهار .

وقال السالكوتي : إن عدم استقامة المفاجأة فيما ذكر لأنها إنما تتصور فيما لا يكون مترقباً بل يحصل بغتة وحينئذ يمكن أن يقال في الجواب : إن نزع الضوء عن الليل لكون ظهوره في غاية الكمال كان المترقب فيه أن يكون في مدة مديدة فحصول الظلال بعده في مدة قصيرة أمر غير مترقب ثم قال وبهذا ظهر الجواب عن التقوية ، وقيل إن الظلمة لكونها مما تنفر عنها الطباع وتركها النفوس يكون حصولها كأنه غير مترتقب ويكفي نفس السلخ في الدلالة على الاقتدار ، والذي يقتضيه ما سبق عن الطيبي واليمني أن الشيخ والسكاكي أرادا إخراج النهار من الليل إخراجاً لا يبقى معه شيء من ضوئه كما قال الزجاج ، ومآله إزالة ضوء النهار من مكان الليل وموضع ظلمته كما قال الفراء ، وجاء في كلامهم الظهور بمعنى الزوال كما في قول أبي ذؤيب :

وعيرها الواشون أني أحبها . . .

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وحكى الجوهري .

يقال هذا أمر ظاهر عنك عاره أي زائل .

وقال المرزوقي في قول الحماسي :

وذلك عار يا ابن ريطة ظاهر . . .

(162/646)

---

أيضاً كذلك فلا مانع من أن يكون في كلام الشيخين بهذا المعنى ويراد بالظهور الإظهار ، والتعبير به مساهلة لظهور أن نسلخ متعد فيرجع الأمر إلى الأزالة فيتحد كلامهما بما قاله الفراء وكذا على ما قيل المراد بالظهور الخروج على وجه المفارقة لظهور الزوال فيه حينئذ وأمر المساهلة على حاله ، وعلى القول بالاتحاد يجيء اعتراض العلامة والجواب هو الجواب فتأمل والله تعالى الهادي إلى الصواب .

وفي الآية على ما قال غير واحد دلالة على أن الأصل الظلمة والنور طارىء عليها يسترها بضوئه وفي الحديث ما يشعر بذلك أيضاً ، روى الإمام أحمد .

والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من نور اهتدى ومن أخطأه ضل . "

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38)

﴿ والشمس ﴾ عطف على ﴿ الليل ﴾ [ يس : 37 ] أي وآية لهم الشمس .

وقوله تعالى : ﴿ تَجْرِى ﴾ الخ استئناف لبيان كونها آية ، وقيل : ﴿ الشمس ﴾ مبتدأ وما بعده خبر والجملة عطف على ﴿ الليل نسلخ ﴾ [ يس : 37 ] وقيل غير ذلك فلا تغفل ، والجري المر السريع ، وأصله لمر الماء ولما يجري بجريه والمعنى تسير سريعاً ﴿ لِمُسْتَقَرّ لَّهَا ﴾ لحد معين تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره من حيث أن في كل انتهاء إلى محل معين وإن كان للمسافر قرار دونها ، وروى هذا عن الكلبي واختاره ابن قتيبة ، والمستقر عليه اسم مكان واللام بمعنى إلى وقرىء بها بدل اللام ، وجوز أن تكون تعليلية أو لمنتهى لها من المشارق اليومية والمغارب لأنها تتقصاها مشرقاً مشرقاً ومغرباً مغرباً حتى تبلغ أقصاها ثم ترجع فذلك حدها ومستقرها لأنها لا تعدوه .



---

وروى هذا عن الحسن وهو متفق في أن المستقر اسم مكان واللام على ما سمعت ، ومختلف باعتبار أن الأول من استقرار المسافر تشبيهاً لانتهاء الدورة بانتهاء السفرة وهذا باعتبار مقنطرات الارتفاع وبلوغ أقصاها ومقنطرات الانخفاض كذلك والاستقرار

باعتبار عدم التجاوز عن الأول في استقصاء المشارق وعن الثاني في استقصاء المغارب أو

لحد لها من مسيرها كل يوم في رأي عيوننا وهو المغرب ، والمستقر عليه اسم مكان أيضاً

واللام كما سمعت أو لكبد السماء ودائرة نصف النهار فالمستقر واللام على نظير ما تقدم .

وكون ذلك محل قرارها إما مجاز عن الحركة البطيئة أو هو باعتبار ما يتراءى ؛ قال ذو الرمة

يصف فرسه وجريه في الظهيرة وشدة الحر

: معروريا رمض الرضراض تركضه . . .

والشمس حيرى لها بالجو تدويم

أو لاستقرار لها ومكث في كل برج من البروج الإثني عشر على نهج مخصوص فالمستقر

مصدر ميمي واللام داخلة على الغاية أو الحامل ، وقيل : تجري لبيتها وهو برج الأسد ،

واستقرارها عبارة عن حسن حالها فيه ، وهذا غير مقبول إلا عند أهل الأحكام ولا

يخفى حكمهم على محققي الإسلام ، وقال قتادة .

ومقاتل المعنى تجري إلى وقت لها لا تتعداه ، قال الواحدي : وعلى هذا مستقرها انتهاء

سيرها عند انقضاء الدنيا وهذا اختيار الزجاج كما قال النووي : في "شرح صحيح

مسلم" ، ومستقر عليه اسم زمان وفي غير واحد من الصحاح عن أبي ذر أتدري أين

تذهب هذه الشمس ؟ قلت الله تعالى ورسوله أعلم قال : تذهب لتسجد فتستأذن

فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها فيقال لها ارجعي من

حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله عز وجل : ﴿ والشمس تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾

وفي رواية أتدرون أين تذهب هذه الشمس ؟ قالوا : الله تعالى ورسوله أعلم قال إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها وتحت العرش فتخر ساجدة الحديث وفي ذلك عدة رواسات وقد روى مختصراً جداً .

وأخرج أحمد .

والبخاري .

ومسلم .

وأبو داود .

*(164/646)*

---

والترمذي .

والنسائي .

وابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ وابن مردويه .

والبيهقي عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : ﴿

والشمس تَجْرِى لِمُسْتَقَرّ لَّهَا ﴾ قال مستقرها تحت العرش فالمستقر اسم مكان والظاهر أن للشمس فيه قراراً حقيقة ، قال النووي : قال جماعة بظاهر الحديث ، قال الواحدي : وعلى هذا القول إذا غربت الشمس كل يوم استقرت تحت العرش إلى أن تطلع ، ثم قال النووي : وسجودها بتمييز وإدراك يخلقه الله تعالى فيها .

وذكر ابن حجر الهيتمي في "فتيه الحديثية" أن يسجودها تحت العرش إنما هو عند غروبها وحكى فيها عن بعضهم أنها تطلع من حيث جئت فتنزل من سماء إلى سماء حتى تطلع من المشرق وبنزولها إلى سماء الدنيا يطلع الفجر ، وفيها أيضاً أخرج أبو الشيخ عن عكرمة أنها إذا غربت دخلت نهراً تحت العرش فتسبح ربها حتى إذا أصبحت استعفت ربها عن الخروج فيقول سبحانه لم فتقول أني إذا خرجت عبدت من دونك ، والسجود تحت العرش قد جاء أيضاً من روايات الإمامية ولهم في ذلك أخبار عجيبة منها أن الشمس عليها سبعون ألف كلاب وكل كلاب يجره سبعون ألف ملك من مشرقها إلى مغربها ثم ينزعون منها النور فتخر ساجدة تحت العرش ثم يسألون ربهم هل نلبسها لباس النور أم لا ؟ فيجابون بما يريده سبحانه ثم يسألونه عز وجل هل نطلعها من مشرقها أو مغربها ؟ فيأتيهم النداء بما يريد جل شأنه ثم يسألون عن مقدار الضوء فيأتيهم النداء بما يحتاج إليه الخلق من قصر النهار وطوله .

وفي الهيئة السنية للجلال السيوطي أخبار من هذا القبيل والصحيح من الإخبار قليل ، وليس لي على صحة إخبار الإمامية وأكثر ما في الهيئة السنية تعويل نعم ما تقدم عن أبي ذر مما لا كلام في صحته وماذا يقال في أبي ذر وصدق لهجته ، والأمر في ذلك مشكل إذا كان السجود والاستقرار كل ليلة تحت العرش سواء قيل إنها تطلع من سماء إلى سماء حتى تصل إليه فتسجد أن قيل إنها تستقر وتسجد تحته من غير طلوع فقد صرح إمام الحرمين وغيره بأنه لا خلاف في أنها تغرب عند قوم وتطلع على آخرين والليل يطول عند قوم ويقصر عند آخرين وبين الليل والنهار اختلاف ما في الطول والقصر عند خط الاستواء ، وفي بلاد بلغار قد يطلع الفجر قبل أن يغيب شفق الغروب ، وفي عرض تسعين لا تزال طالعة ما دامت في البروج الشمالي وغاربة ما دامت في البروج الجنوبية فالسنة نصفها ليل ونصفها نهار على ما فصل في موضعه ، والأدلة قائمة على أنها لا تسكن عند غروبها وإلا لكانت ساكنة عند طلوعها بناء على أن غروبها في أفق طلوع في غيره ، وأيضاً هي قائمة على أنها لا تفارق فلكها فكيف تطلع من سماء إلى سماء حتى تصل إلى العرش بل كون الأمر ليس كذلك أظهر من الشمس لا يحتاج إلى بيان أصلاً وكذا كونها تحت العرش دائماً بمعنى احتوائه عليها وكونها في جوفه كسائر الأفلاك التي فوق فلكها والتي تحته وقد سألت كثيراً من أجلة المعاصرين عن التوفيق بين ما سمعت من الأخبار الصحيحة وبين ما يقتضي

خلافها من العيان والبرهان فلم أوفق لأن أفوز منهم بما يروي الغليل ويشفي العليل ، والذي يخطر بالبال في حل ذلك الإشكال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال أن الشمس وكذا سائر الكواكب مدركة عاقلة كما ينبىء عن ذلك قوله تعالى الآتي :

(166/646)

---

﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [ يس : 40 ] حيث جيء بالفعل مسنداً إلى ضمير جمع العقلاء وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [ يوسف : 4 ] لنحو ما ذكر يدل وعليه ظاهر ما روى عن أبي ذر من أنها تسجد وتستأذن فإن المتبادر من الاستئذان ما يكون بلسان القال دون لسان الحال .

وخلق الله تعالى الإدراك والتمييز فيها حال السجود والاستئذان ثم سلبه عنها مما لا حاجة إلى التزامه بل هو بعيد غاية البعد والشواهد من الكتاب والسنة وكلام العترة على كونها ذات إدراك وتمييز مما لا تكاد تحصى كثرة وبعض يدل على ثبوت ذلك لها بالخصوص وبعضها يدل على ثبوته لها باعتبار دخولها في العموم أو بالمقايسة إذ لا قائل بالفرق ومتى كانت كذلك فلا يبعد أن يكون لها نفس ناطقة كنفس الإنسان بل صرح بعض الصوفية بكونها ذات نفس ناطقة كاملة جداً ، والحكماء أثبتوا النفس للفلك وصرح بعضهم بإثباتها

للكواكب أيضاً وقالوا : كل ما في العالم العلوي من الكواكب والأفلاك الكلية والجزئية والتداوير حي ناطق والأنفس الناطقة الإنسانية إذا كانت قدسية قد تنسلخ عن الأبدان وتذهب متمثلة ظاهرة بصور أبدانها أو بصور أخرى كما يتمثل جبريل عليه السلام ويظهر بصورة دحية أو بصورة بعض الأعراب كما جاء في "صحيح الأخبار" حيث يشاء الله عز وجل مع بقاء نوع تعلق لها بالأبدان الأصلية يتأتى معه صدور الأفعال منها كما يحكى عن بعض الأولياء قدست أسرارهم أنهم يرون في وقت واحد في عدة مواضع وما ذاك إلا لقوة تجرد أنفسهم وغاية تقدسها فتمثل وتظهر في موضع وبدنها الأصلي في موضع آخر

.

لا تقل دارها بشرقي نجد . . .

كل نجد للعامرية دار



---

وهذا أمر مقرر عند السادة الصوفية مشهور فيما بينهم وهو غير طي المسافة وإنكار من ينكر كلاً منهما عليهم مكابرة لا تصدر إلا من جاهل أو معاند ، وقد عجب العلامة التفتازاني من بعض فقهاء أهل السنة أي كابن مقاتل حيث حكم بالكفر على معتقد ما

روى عن إبراهيم بن أدهم قدس سره أنهم رأوه بالبصرة يوم التروية ورؤي ذلك اليوم بمكة ، ومبناه زعم أن ذلك من جنس المعجزات الكبار وهو مما لا يثبت كرامة لولي وأنت تعلم أن المعتمد عندنا جواز ثبوت الكرامة للولي مطلقاً إلا فيما يثبت بالدليل عدم إمكانه كالإتيان بسورة مثل إحدى سور القرآن ، وقد أثبت غير واحد تمثل النفس وتطورها لنبينا صلى الله عليه وسلم بعد الوفاة وادعى أنه عليه الصلاة والسلام قد يرى في عدة مواضع في وقت واحد مع كونه في قبره الشريف يصلي ، وقد تقدم الكلام مستوفي في ذلك ، وصح أنه صلى الله عليه وسلم رأى موسى عليه السلام يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر ورآه في السماء وجرى بينهما ما جرى في أمر الصلوات المفروضة ، وكونه عليه السلام عرج إلى السماء بجسده الذي كان في القبر بعد أن رآه النبي صلى الله عليه وسلم مما لم يقله أحد جزماً والقول به احتمال بعيد ، وقد رأى صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به جماعة من الأنبياء غير موسى عليه السلام في السموات مع أن قبورهم في الأرض ولم يقل أحد إنهم نقلوا منها إليها على قياس ما سمعت آنفاً ، وليس ذلك مما ادعى الحكميون استحالته من شغل النفس الواحدة أكثر من بدن واحد بل هو أمر وراءه كما لا يخفى على من نور الله تعالى تعالى بصيرته فيمكن أن يقال : إن للشمس نفساً مثل تلك الأنفس القدسية وأنها تنسلخ عن الجرم المشاهد المعروف مع بقاء نوع من التعلق لها به فتعرج إلى العرش فتسجد تحته بلا واسطة

وتستقر هناك وتستأذن ولا ينافي ذلك سير هذا الجرم المعروف وعدم سكونه حسبما يدعيه أهل الهيئة وغيرهم ويكون ذلك إذا غربت وجاوزت الأفق الحقيقي وانقطعت



---

رؤية سكان المعمور من الأرض إياها ولا يضر فيه طلوعها إذ ذاك في عرض تسعين ونحوه لأن ما ذكرنا من كون السجود والسكون باعتبار النفس المنسلخة المتمثلة بما شاء الله تعالى لا ينافي سير الجرم المعروف بل لو كانا نصف النهار في خط الاستواء لم يضر أيضاً ، ويجوز أن يقال سجودها بعد غروبها عن أفق المدينة ولا يضر فيه كونها طالعة إذ ذاك في أفق آخر لما سمعت إلا أن الذي يغلب على الظن ما ذكر أولاً ، وعلى هذا الطرز يخرج ما يحكي أن الكعبة كانت تزور واحداً من الأولياء بأن يقال إن الكعبة حقيقة غير ما يعرفه العامة وهي باعتبار تلك الحقيقة تزور واحداً من الأولياء بأن يقال إن الكعبة حقيقة غير ما يعرفه العامة وهي باعتبار تلك الحقيقة تزول والناس يشاهدونها في مكانها أحجاراً مبنية .



---

وقد ذكر الشيخ الأكبر قدس سره في الفتوحات كلاماً طويلاً ظاهراً في أن لها حقيقة غير ما يعرفه العامة وفيه أنه كان بينه وبينها زمان مجاورته مراسلات وتوسلات ومعاتبة دائمة وأنه دون بعض ذلك في جزء سماه تاج الوسائل ومنهاج الرسائل وقد سأل نجم الدين عمر النسفي مفتي الإنس والجن عما يحكي أن الكعبة كانت تزور الخ هل يجوز القول به فقال: نقض العادة على سبيل الكرامة لأهل الولاية جائز عند أهل السنة وارتضاه العلامة السعد وغيره لكن لم أرض من خرج زيارتها على هذا الطرز، وظاهر كلام بعضهم أن ذلك بذهاب الجسم المشاهد منها إلى المزور وانتقاله من مكانه، ففي عدة الفتاوي والولوالجية وغيرهما لو ذهبت الكعبة لزيارة بعض الأولياء فالصلاة إلى هوائها، ويمكن أن يكون أريد به غير ما يحكى فإنه والله تعالى أعلم لم يكن بانتقال الجسم المشاهد ثم الجمع بين الحديث في الشمس وبين ما يقتضيه الحس وكلام أهل الهيئة بهذا الوجه لم أره لأحد بيد أني رأيت في بعض مؤلفات عصرينا الرشتي رئيس الطائفة الإمامية الكشفية أن سجدة الشمس عند غروبها تحت العرش عبارة عن رفع الآنية ونزع جلباب الماهية وهو عندي نوع من الرطانة لا يفهمه من لا خبرة له باصطلاحاته ولو كان ذا فطانة: وقال في موضع آخر بعد أن ذكر حديث الكلاليب السابق إن ذلك لا ينافي كلام أهل الهيئة ولا بقدر سم الخياط ولم يبين وجه عدم المنافاة مع أنها أظهر من الشمس معتذراً بأن الكلام فيه طويل ولا أظنه لو كان آتياً به إلا من ذل القبيل، وهذا ما عندي فليتأمل والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

وقرأ عبد الله .

وابن عباس .

وزين العابدين .

وابنه الباقر .

وعكرمة .

وعطاء بن أبي رباح ﴿ لا مُّسْتَقَرٌّ لَهَا ﴾ بلا نافية للجنس وبناء ﴿ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ على الفتح فتقتضي انتفاء كل مستقر حقيقي لجرمها المشاهد وذلك في الدنيا أي هي تجري في الدنيا دائماً لا تستقر .

(170/646)

---

وقرأ ابن أبي عبلة بلا أيضاً إلا أنه رفع ﴿ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ ونونه على إعمالها إعمال ليس كما في قوله

: تعز فلا شيء على الأرض باقيا . . .

ولا وزر مما قضى الله واقياً ﴾

ذلك ﴾ إشارة إلى الجري المفهوم من ﴿ تَجْرِى ﴾ أي ذلك الجري البديع الشأن المنطوي

على الحكم الرائقة التي تحار في فهمها العقول والأذهان ﴿ تَقْدِيرُ العزيز ﴾ الغالب بقدرتها على كل مقدور ﴿ العليم ﴾ المحيط علمه بكل معلوم ، وذكر بعضهم في حكمة جريها حتى تسجد كل ليلة تحت العرش ما يقتضيه الخبر السابق تجدد اكتساب النور من العرش ويترتب عليه في عالم الطبيعة والعناصر ما يترتب وباكتسابها النور من العرش صرح به غير واحد ، ومن العجيب ما ذكره الرشتي أنها تستمد النور من ظاهر العرش وتمد فلك القمر ومن باطن العرش وتمد فلك زحل وتستمد من ظاهر الكرسي وتمد فلك عطارد ومن باطنه وتمد فلك المشتري وتستمد من ظاهر تقاطع نقطتي المنطقتين وتمد فلك الزهرة ومن باطنه وتمد فلك المريخ ، وليت شعري من أين استمد فقال ما قال وذلك مما لم نجد فيه نقلاً ولا نظن أنه مر بخيال ، وقال الشيخ الأكبر : قدس سره إن نور الشمس ما هو من حيث عينها بل هو من تجل دائم لها من اسمه تعالى النور ونور سائر السيارات من نورها وهو في الحقيقة من تجلي اسمه سبحانه النور فما ثم إلا نوره عز وجل .

وادعى كثير من أجلة المحققين أن نور جميع الكواكب ثوابتها وسياراتها مستفاد من ضوء الشمس وهو مفاض عليها من الفياض المطلق جل جلاله وعم نواله .

وفي الآية رد على القائلين بأن الشمس ساكنة وهي مركز العالم والكواكب والأرض كرات دائرة عليها .

﴿ والقمر قدرناه ﴾ أي صيرنا مسيره أي محله الذي يسير فيه ﴿ مَنَازِلَ ﴾ فقدر بمعنى

صير الناصب لمفعولين والكلام على حذف مضاف والمضاف المحذوف مفعوله الأول و ﴿ مَنَازِلَ ﴾ مفعوله الثاني .

(171/646)

---

واختار أبو حيان تقدير مصدر مضاف وقدر متعد إلى واحد و ﴿ مَنَازِلَ ﴾ منصوب على الظرفية أي قدرنا سيره في مناز وقدر بعضهم نوراً أي قدرنا نوره في منازل فيزيد مقدار النور كل يوم في المنازل الاجتماعية وينقص في المنازل الاستقبالية لما أن نوره مستفاد من ضوء الشمس لاختلاف تشكلاته بالقرب والبعد منها مع خسوفه بحيلولة الأرض بنيه وبنيها وبهذا يتم الاستدلال ، والحق أنه لا قطع بذلك وليس هناك إلا غلبة الظن ، ويجوز أن يكون قدر متعدياً لاثنين و ﴿ مَنَازِلَ ﴾ بتقدير ذا منازل ، وأن يكون متعدياً لواحد وهو ﴿ مَنَازِلَ ﴾ والأصل قدرنا له منازل على الحذف والإيصار واختاره أبو السعود ، ونصب ﴿ القمر ﴾ بفعل يفسره المذكور أي وقدرنا القمر قدرناه وفي ذلك من الاعتناء بأمر التقدير ما فيه ، وكأنه لما أن شهرهم باعتباره ويعلم منه سر تغيير الأسلوب .

وقرأ الحرميان .

وأبو عمرو .

وأبو جعفر .

وابن محيصن .

(172/646)

---

والحسن بخلاف عنه ﴿ والقمر ﴾ بالرفع قال غير واحد ، على الابتداء وجملة ﴿ قدرناه ﴾ خبره ، ويجوز فيما أرى أن يجري في التركيب ما جرى في قوله تعالى : ﴿ والشمس تَجْرِى ﴾ [ يس : 38 ] من الإعراب تدبر ، والمنازل جمع منزل والمراد به المسافة التي قطعها القمر في يوم وليلة وهي عند أهل الهند سبعة وعشرون لأن القمر يقطع فلك البروج في سبعة وعشرين يوماً وثلث فحذفوا الثلث لأنه ناقص عن النصف كما هو مصطلح أهل التنجيم ، وعند العرب وساكني البدو ثمانية وعشرون لا لأنهم تمموا الثلث واحداً كما قال بعضهم بل لأنه لما كانت سنوهم باعتبار الأهلة مختلفة الأوائل لوقوعها في وسط الصيف تارة وفي وسط الشتاء أخرى وكذا أوقات تجارتهم وزمان أعيادهم احتاجوا إلى ضبط سنة الشمس لمعرفة فصول السنة حتى يشتغلوا في استقبال كل فصل بما يهمهم في ذلك الفصل من الانتقال إلى المراهي وغيرها فاحتالوا في ضبطها فنظروا أولاً إلى القمر فوجدوه يعود إلى وضع له من الشمس في قريب من ثلاثين يوماً ويختفي آخر الشهر

لليلتين أو أقل أو أكثر فاسقطوا يومين من زمان الشهر فبقي ثمانية وعشرون وهو زمان ما بين أول ظهوره بالعشيات مستهلاً أول الشهر وأخر رؤيته بالغدوات مستتراً آخره فقسموا دور الفلك عليه فكان كل قسم اثنتي عشرة درجة وإحدى وخمسين دقيقة تقريباً وهو ستة أسباع درجة فنصيب كل برج منه منزلان وثلث ثم لما انضبط الدور بهذه القسمة احتالوا في ضبط سنة الشمس بكيفية قطعها لهذه المنازل فوجدوها تستر دائماً ثلاثة منازل ما هي فيه بشعاعها وما قبلها بضياء الفجر وما بعدها بضياء الشمس ورصدوا ظهور المستتر بضياء الفجر ثم بشعاعها ثم بضياء الشفق فوجدوا الزمان بين كل ظهوري منزلتين ثلاثة عشر يوماً تقريباً فأيام جميع المنازل تكون ثلثمائة وأربعة وستين لكن الشمس تقطع جميعها في ثلثمائة وخمس وستين فزادوا يوماً في أيام منزل غفر وزادوه ههنا اصطلاحاً منهم أو لشرفه على ما تسمعه إن



شاء الله تعالى وقد يحتاج إلى زيادة يومين ليكون انقضاء الثمانية والعشرين مع انقضاء السنة ويرجع الأمر إلى النجم الأول ، واعلم أن العرب جعلت علامات الأقسام الثمانية والعشرين من الكواكب الظاهرة القريبة من المنطقة مما يقارب طريقة القمر في ممره أو يحاذيه فيرى القمر

كل ليلة نازلاً بقرب أحدها وأحوال كواكب المنازل مع المنازل كأحوال كواكب البروج مع البروج عند أهل الهيئة من أنها مسامتة للمنازل وهي في فلك الأفلاك وإذا أسرع القمر في سيره فقد يخلي منزلاً في الوسط وإن أبطأ فقد يبقى ليلتين في منزل أول الليلتين في أوله وآخرهما في آخره وقد يرى في بعض الليالي بين منزلتين ، وما يقال في الشهور إن الظاهر من المنازل في كل ليلة يكون أربعة عشر وكذا الخفي وأنه إذا طلع منزل غاب رقيبه وهو الخامس عشر من الطالع سمي به تشبيهاً له برقيب يرصده ليسقط في المغرب إذا ظهر ذلك في المشرق ظاهر الفساد لأنها ليست على نفس المنطقة ولا أبعاد ما بينها متساوية ولهذا قد يكون الظاهر ستة عشر وسبعة عشر وقد يكون الخفي ثلاثة عشر وهذه الكواكب المسماة بالمنازل المسامتة للمنازل الحقيقية على ما روي عن ابن عباس وغيره أولها الشرطان بفتح الشين والراء مثنى شرط بفتحتين وهي العلامة وهما كوكبان نيران من القدر الثالث على قرني الحمل معترضان بين الشمال والجنوب بينهما ثلاثة أشبار وبقرب الجنوبي منهما كوكب صغير سمت العرب الكل أشراطاً لأنها بسقوطها علامات المطر والريح والقمر يحاذيهما وبقرب الشمالي منهما كوكب نير هو الشرطان عند بعض ويقال للشرطين الناطح أيضاً ثم البطين تصغير البطن وهو ثلاثة كواكب خفية من القدر الخامس على شكل مثلث حاد الزوايا على فخذي الحمل بينه وبين الشرطين قيد رمح والقمر يجتاز بها أحياناً

ثم الثريا تصغير ثروى من الثراء وهو الكثرة ويسمى بالنجم وهي على المشهور عند المنجمين ستة كواكب مجتمعة كشكل مروحة مقبضها نحو المشرق وفيه انحناء

(174/646)

---

في جانب الشمال ، وقيل هي شبيهة بعنقود عنب وعليه قول أحيحة بن الجلاح أو قيس بن الأسلت

: وقد لاح في الصبح الثريا كما ترى . . .

كعنقود ملاحية حين نورا

(175/646)

---

والمرصود منها أربعة كلها من القدر الخامس وموضعها سنام الثور ، وفي "الشكف" هي الية الحمل وربما يكسفها القمر ثم الدبران بفتحتين سمي به لأنه دبر الثريا وخلفها وهو كوكب أحمر نير من القدر الأول على طرف صورة السبعة من رقوم الهند ويسمى المجدح وموقعه عين الثور والذي على طرفه الآخر من القدر الثالث على عينه الأخرى والثلاثة

الباقية وهي من الثالث أيضاً على وجهه وزاوية هذا الرقم على خطم الثور وبعضهم يسمى الدبران بقلب الثور وقد يكسفه القمر ثم الهقعة بفتح الهاء وسكون القاف وفتح العين المهملة وهي ثلاثة كواكب خفية مجتمعة شبيهة بنقط الثاء كأنها لطخة سحابية شبهت بالدائرة التي تكون في عرض زور الفرس أو بحيث تصيب رجل الفارس أو بلمعة بياض تكون في جنب الفرس الأيسر تسمى بذلك وتسمى الأثافي أيضاً وهي على رأس الجبار المسمى بالجوزاء والقمر يحاذيها ولا يقاربها ثم الهنعة بوزن الهقعة وثانيه نون وهي كوكبان من القدر الرابع والثالث شبهت بسمة في منخفض عنق الفرس وهما على رجلي التوأمين مما يلي الشمال وفي "الكشف" هي منكب الجوزاء الأيسر والقمر يمر بهما ثم الذراع وهما كوكبان أزهران من القدر الثاني على رأسي التوأمين يعنون بهما ذراع الأسد المبسوطة إذ المقبوضة هي الشعرى الشامية مع مرزمها والقمر يقارب المبسوطة ثم النثرة وهي الفرجة بين الشاربين حيال وترة الأنف وهو أنف الأسد وهما كوكبان خفيان من الرابع بينهما قيد ذراع ولطخة سحابية وهي على وسط السرطان ويقربها كوكبان يسميان الحمارين واللطخة التي بينهما بالمعلف تشبيهاً لها بالتبن وبممحطة الأسد أي موضع استاره ويكسب القمر كلاً منهما ثم الطرف وهما كوكبان صغيران من الرابع أحدهما : على رأس الأسد قدام عينيه والآخر : قدام يده المقدمة والقمر يحاذي أشملهما ويكسف أجنبهما

ويعنون بالطرف غين الأسد ثم الجبهة ويعنون بها جبهة الأسد وهي أربعة كواكب على سطر فيه تعويج آخذ من الشمال إلى

(176/646)

---

الجنوب أعظمها على طرف السطر مما يلي الجنوب يسمى قلب الأسد لكونه في موضعه ويسمى الملكي أيضاً وهو من القدر الأول والقمر يمر به وبالذي يليه ثم الزبرة بضم الزاي وسكون الباء وهما كوكبان نيران على أثر الجبهة بينهما أرجح من ذراع وهما على زبرة الأسد أي كاهله عند العرب وعند المنجمين عند مؤخرة فزبرة الأسد شعره الذي يزبر عند الغضب في قفاه أجنبهما من الثالث وأشملهما من الثاني وتسمى ظهر الأسد والقمر يحاذيهما من جهة الجنوب ثم الصرفة وهو كوكب واحد على طرف ذنب الأسد ويسمى ذنب الأسد والقمر يحاذيه من جهة الجنوب وسمي بذلك لأن البرد ينصرف عند سقوطه ثم العواء يمد ويقصر والقصر أجود وهي خمسة كواكب من الثالث على هيئة لام في الخط العربي ثلاثة منها آخذة من منكب العذراء الأيسر إلى تحت ثديها الأيسر وهي على سطر جنوبي من الصرفة ثم ينعطف اثنان على سطر يحيط مع الأول بزاوية منفرجة زعمت العرب أنها كلاب تعوي خلف الأسد ولذلك سميت العواء ، وقيل في ذلك كأنها تعوي في أثر

البرد ولهذا سميت طاردة البرد ، وقيل هي من عوي الشيء عطفه فلما فيها من الانعطاف سميت بذلك .

(177/646)

---

وفي "الكشف" العوا سافلة الإنسان ويقال أنها ورك الأسد والقمر يخرقها ثم السماك الأعزل وهو كوكب نير من الأول على كف العذراء اليسرى قريب من المنطقة والقمر يمر به ويكسفه ويقابل السماك الأعزل السماك الرامح وليس من المنازل وسمي رامحاً لكوكب يقدمه كأنه رمحه وسمي سماكاً لأنه سمك أي ارتفع ثم الغفر وهي ثلاثة كواكب من الرابع على ذيل العذراء ورجلها المؤخرة على سطر معوج كدبته إلى الشمال وقيل كوكبان والقمر يمر بجنوبيهما وقد يحاذي الشمالي وهو منزل خير بعد عن شرين مقدم الأسد ومؤخر العقرب ويقال إنه طالع الأنبياء والصالحين وسميت غفراً لسترها ونقصان نورها وذكر بعضهم أنها من كواكب الميزان ثم الزبانا بالضم وآخره ألف وهما كوكبان نيران من الثاني متباعدان في الشمال والجنوب بينهما قيد رمح على كفتي الميزان .

(178/646)

وقال غير واحد هما قرنا العقرب والقمر قد يكسف جنوبيهما ثم الإكليل وهي ثلاثة كواكب خفية معترضة من الشمال إلى الجنوب على سطر مقوس يشبه شكلها شكل الغفر الأوسط منها متقدم والاثنان تاليان وهي من الرابع والقمر يمر بجميعها ، وقيل هي أربعة كواكب برأس العقرب ولذا سميت به وأصل معناه التاج ثم القلب وهو قلب العقرب كوكب أحمر نير أوسط الثلاثة التي على بدن العقرب على استقامة من المغرب إلى المشرق وهو من الثاني واللذان قبله وبعده ويسميان نياطين من الثالث والقمر يمر به ويكسفه من المنطقة ثم الشولة بفتح الشين المعجمة واللام وتسمى إبرة العقرب عند الحجازيين كوكبان من الثاني أزهران متقاربان على طرف ذنب العقرب في موضع الحمة والقمر يحاذيهما ثم النعائم أربعة كواكب من الثالث على منحرف تابع للشولة وتسمى النعائم الواردة أي إلى المجرة والقمر يمر باثنين منها ويحاذي الباقية ويقرب منها أربعة أخرى من الثالث على منحرف هي النعائم الصادرة أي من المجرة وكلها من صورة الرامي وسميت نعائم تشبيهاً بالخشبات التي تكون على البئر ، ثم البلدة وهي قطعة من السماء خالية من الكواكب مستديرة شبهت ببلدة الثعلب وهي ما يكنسه بذنبه وتسمى أيضاً بالمفازة والفرجة ، وقيل سميت بذلك تشبيهاً بالفرجة التي تكون بين الحاجبين وموضعها خلف الكواكب التي تسمى بالقلادة وهي عصابة الرامي ثم سعد الذابح كوكبان على قرني الجدي بينهما قدر باع جنوبيهما من

الثالث والقمر يقاربه ولا يكسفه ويقرب الشمالي كوكب صغير يكاد يلتصق به يقال إنه شاته التي يريد أن يذبحها ، وقيل : إنه في مذبحه ولهذا يسمى بالذابح ثم سعد بلع كوكبان على كف ساكب الماء السرى فوق ظهر الجدي بينهما قدر باع غربيهما من الثالث وشرقيهما من الرابع ويقرب متقدمهما كوكب صغير كأنه ابتلعه فلهذا سمي به ، وفي "القاموس" سعد بلع كزفر معرفة منزل للقمر طلع لما قال الله تعالى :

(179/646)

---

﴿ يا أرض ابلعي مَاءكِ ﴾ [ هود : 44 ] وهو نجمان مستويان في المجرى أحدهما خفي والآخر مضيء يسمى بالعاً كأنه بلع الآخر ، وقيل : لأنه ليس له ما لسعد الذابح فكأنه بلغ شاته والقمر يقارب أجنبهما ولا يكسفه ثم سعد السعود كوكبان ، وقيل : ثلاثة على خط مقوس بين الشمال والجنوب حدبته إلى المغرب أجنبهما والقمر يقرب منه من الخامس على طرف ذنب الجدي وأشملهما من الثالث وهو مع الآخر في القول الآخر من كواكب القوس والقمر يقارب أجنبهما وسمي بذلك لأنه في وقت طلوعه ابتداء ما به يعيشون وتعيش مواشيهم ثم سعد الأخبية أربعة كواكب من الثالث ومن كواكب الرامي على يد ساكب الماء اليمنى ثلاثة منها على شكل مثلث حاد الزوايا والرابع وسطه وهو السعد والثلاث

خباؤه ولذا سمي بذلك ، وقيل : لأنه يطلع قبل الدفء فيخرج من الهوام ما كان مختبئاً

والقمر يقاربها من ناحية الجنوب ثم الفرغ المقدم ويقال الأعلى كوكبان نيران من الثاني بينهما

قيد رمح أجنبهما على متن الفرس الأكبر المجنح وأشملهما على منكبه والقمر يمر بالبعد

منهما ثم الفرغ المؤخر كوكبان نيران من الثاني بينهما قيد رمح أيضاً أجنبهما على جناح

الفرس وأشملهما مشترك بين سرته ورأس المسلسلة شبهت العرب الأربعة بفرغ الدلو وهو

بفتح الفاء وسكون الراء المهملة وغين معجمة مصب الماء منها لكثرة الأمطار في وقتها ثم

بطن الحوت ويقال له الرشاء بكسر الراء أي رشاء الدلو وقلب الحوت أيضاً كوكب نير من

الثالث على جنب المرأة المسلسلة يحاذيه القمر ولا يقاربه وإنما سمي به لوقوعه في بطن

سمكة عظيمة تحت نحر الناقة تصورها العرب من سطرين عليهما كواكب خفية بعضها من

المسلسلة وبعضها من إحدى سمكتي الحوت .

(180/646)

---

هذا واعلم أن هذه المنازل الثمانية والعشرين تسمى العرب الأربعة عشر الشمالية منها

التي أولها الشرطان وآخرها السماك شامية والباقية منها التي أولها الغفر وآخرها بطن

الحوت يمانية وأنها تسمى خروج المنزل من ضياء الفجر طلوعه وغروب رقيبه وقت

الصبح سقوطه والمنازل التي يكون طلوعها في مواسم المطر الأنواء ورقباؤها إذا طلعت في غير مواسم المطر البوارح قاله القطب ، وقال الجوهري : النوء سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته في كل ليلة إلى مضي ثلاثة عشر يوماً ما خلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً ، قال أبو عبيد : ولم يسمع في النوء أنه السقوط إلا في هذا الموضع والعرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها ، وقال الأصمعي : إلى الطالع في سلطانه فتقول مطرنا بنوء الثريا مثلاً والجمع أنواء ونوآن مثل عبد وعبدان ، وذكر الطيبي عن المرزوقي أن نوء الشرطين ثلاثة أيام ونوء البطين ثلاث ليال ونوء الثريا خمس ليال ونوء الدبران ثلاث ليال ونوء الهقعة ست ليال ولا يذكرون نوأها إلا بنوء الجوزاء ونوء الهنعة لا يذكر أيضاً وإنما يكون في أنواء الجوزاء والذراع لا نوء له ونوء النثرة سبع ليال ونوء الطرف ثلاث ليال ونوء الجبهة سبع والزبرة أربع والصرفة ثلاث والعواء ليلة والسماك أربع والغفر ثلاث وقيل ليلة والزبانا ثلاث والإكليل أربع والقلب ثلاث والشولة كذلك والنعائم ليلة والبلدة ثلاث ، وقيل : ليلة وسعد الذابح ليلة وبلع وسعد السعود وسعد الأخبية والفرغ المقدم ثلاث والمؤخر أربع ولم يذكر في نسختي للرشاء نوءاً .

ثم إن قول الإنسان مطرنا فنوء كذا إن أراد به أن النوء نزل بالماء فهو كفر والقائل كافر حلال دمه إن لم يتب كما نص عليه الشافعي وغيره ، وفي "الروضة" من اعتقد أن النوء يمطر حقيقة كفر وصار مرتداً وإن أراد به أن النوء سبب ينزل الله تعالى به الماء حسبما علم وقدر فهو ليس بكفر بل مباح لكن قال ابن عبد البر : هو وإن كان مباحاً كفر بنعمة الله تعالى وجهل بلطيف حكمته .

وفي "الصحيحين" عن زيد بن خالد الجهني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إثر سماء : " هل تدرون ما قال ربكم ؟ قالوا : الله تعالى ورسوله أعلم قال : قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر .

فأما من قال مطرنا بفضل الله تعالى ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا فهو كافر بي مؤمن بالكوكب " وظاهره أن الكفر مقابل الإيمان فيحمل على ما إذا أراد القائل ما سمعت أولاً والله تعالى الحافظ من كل سوء لا رب غيره ولا يرجى الأخيرة .

والقمر في العرف العام هو الكوكب المعروف في جميع ليالي الشهر ، والمشهور عند اللغويين أنه بعد الاجتماع مع الشمس ومفارقته إياها لا يسمى قمراً إلا من ثلاث ليال وست وعشرين ليلة وفيما عدا ذلك يسمى هلالاً ولعل الأظهر في الآية حمله على المعنى الأول وهو الشائع إذا ذكر مع الشمس أي قدرنا هذا الجرم المعروف منازل ومسافات مخصوصة

فسار فيها ونزلها منزلة منزلة ﴿ حتى عَادَ ﴾ أي صار في أواخر سيره وقربه من الشمس في رأي العين ﴿ كالعرجون ﴾ هو عود عزق النخلة من بين الشمراخ إلى منبته منها وروي ذلك عن الحسن وقتادة ، وعن ابن عباس أنه أصل العذق ، وقيل الشمراخ وهو ما عليه البسر من عيدان العذق والكباسة ، والمشهور الأول ، ونونه على ما حكى عن الزجاج زائدة فوزنه فعلون من الانعراج وهو الاعوجاج والانعطاف ، وذهب قوم واختاره الراغب والسمين .

(182/646)

---

وصاحب "القاموس" إلى أنها أصلية فوزنه فعلول ، وقرأ سليمان التيمي ﴿ كالعرجون ﴾ بكسر العين وسكون الراء وفتح الجيم وهي لغة فيه كالبزيون والبزيون وهو بساط رومي أو السندس .

﴿ القديم ﴾ أي العتيق الذي مر عليه زمان يبس فيه ووجه الشبه الإصفرار والدقة والاعوجاج ، وقيل : أقل مدة القدم حول فلو قال رجل كل مملوك لي قديم فهو حر عتق منهم من مضى له حول وأكثر ، وقيل : ستة أشهر وحكاه بعض الإمامية عن أبي الحسن الرضا رضي الله تعالى عنه .

﴿ لاَ الشمس يَنبَغِى لَهَا ﴾ أي يتسخر ويتسهل كما في قولك النار ينبغي أن تحرق الثوب أو يحسن ويليق أي حكمة كما في قولك الملك ينبغي أن يكرم العالم ، واختار غير واحد المعنى الأول ، وأصل ﴿ يَنبَغِى ﴾ مطاوع بغي بمعنى طلب وما طاوع وقبل الفعل فقد تسخر وتسهل ، والنفي راجع في الحقيقة إلى ﴿ يَنبَغِى ﴾ فكأنه قيل : لا يتسهل للشمس ولا يتسخر ﴿ أَن تدْرِكَ القمر ﴾ أي في سلطانه بأن تجتمع معه في الوقت الذي حده الله تعالى له وجعله مظهراً لسلطانه فإنه عز وجل جعل لتدبير هذا العالم بمقتضى الحكمة لكل من النيرين الشمس والقمر حداً محدوداً ووقتاً معيناً يظهر فيه سلطانه فلا يدخل أحدهما في سلطان الآخر بل يتعاقبان إلى أن يأتي أمر الله عز وجل ، وهذه الجملة لنفى أن تدرك الشمس القمر فيما جعل له وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ الليل سَابِقُ النهار ﴾ لنفى أن يدرك القمر الشمس فيما جعل لها أي ولا آية الليل سابقة آية النهار وظاهر سلطانها في وقت ظهور سلطانها وإلى هذا المعنى يشير كلام قتادة .

والضحاك .

وعكرمة .

وأبي صالح .

واختاره الزمخشري ليناسب قوله تعالى : ﴿ لَا الشمس يَنبَغِى لَهَا ﴾ ولأن الكلام في الآيتين دل عليه قوله تعالى : ﴿ والشمس تَجْرِى ﴾ [ يس : 38 ] الآيتان وآخراً ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ وعبر بالإدراك أولاً وبالسبق ثانياً على ما في "الكشاف" لمناسبة حال الشمس من بطء السير وحال القمر من سرعته ، ولم يقل ولا القمر سابق الشمس ليؤذن على ما قال الطيبي بالتعاقب بين الليل والنهار وبنصوصية التدبير على المعاقبة فإنه مستفاد من الحركة اليومية التي مدار تصرف كل منهما عليها .

وفي "الكشف" التحقيق أن المقصود بيان معاقبة كل من الشمس والقمر في ترتب الإضاءة وسلطانه على الاستقلال وكذلك اختلاف الليل والنهار فقيل : ﴿ وَلَا الليل سَابِقُ النهار ﴾ كناية عن سبق آيته آيته فحصل الدلالة على الاختلاف أيضاً إدماجاً لأنها لا تنافي إرادة الحقيقة ، وجاء من ضرورة التقابل هذا المعنى في النهار أيضاً من قوله تعالى : ﴿ لَا الشمس يَنبَغِى لَهَا أَن تدْرِكَ القمر ﴾ ولما ذكر مع الشمس الإدراك المؤذن بأنها طالبة للحاق قيل : ﴿ لَا يَنبَغِى ﴾ رعاية للمناسبة وجيء بالفعل المؤذن بالتجدد ولما نفى السبق في المقابل أكد ذلك بأن جيء بالجملة الاسمية المحضة من دون الابتغاء لأنه مطلوب اللحوق اه .

ولم يذكر السر في إدخال حرف النفي على الشمس دون الفعل المؤذن بصفتها ويوشك أن

يكون أخفى من السها وكان ذلك ليستشعر منه في المقام الخطابي أن الشمس إذا خليت وذاتها تكون معدومة كما هو شأن سائر الممكنات وإنما يحصل لها ما يحصل من علته التي هي عبارة عن تعلق قدرته تعالى به على وفق إرادته سبحانه الكاملة التي لا يأبى عنها شيء من أشياء عالم الإمكان ويفيد ذلك في غاية كونها مسخرة في قبضة تصرفه عز وجل لا شيء فوق تلك المسخرية وفيه تأكيد لما يفيده قوله تعالى :

﴿ ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ [يس : 38] ورد بليغ لمن إليها يسند التأثير .

*(184/646)*

---

وجوز أن يكون ذلك لإفادة كونها مسخرة لا يتسهل لها إلا ما أريد بها من حيث تقديم المسند إليه على الفعل وجعله بعد حرف النفي نحو ما أنا قلت هذا وما زيد سعى في حاجتك يفيد التخصيص أي ما أنا قلت هذا بل غيري وما زيد سعى في حاجتك بل غيره على ما حققه علماء البلاغة والمقصود من نفي تسهل إدراك القمر في سلطانه عن الشمس نفي أن يتسهل لها أن تطمس نوره وتذهب سلطانه ويرجع ذلك إلى نفي قدرتها على الطمس وإذهاب السلطان فيكون المعنى بناء على قاعدة التقديم أن الشمس لا تقدر على

ذلك بل غيرها يقدر عليه وهو الله عز وجل وهذا بعد إثبات الجريان لها بتقدير العزيز العليم مشعر بكونها مسخرة لا يتسهل لها إلا ما أريد بها .

(185/646)

---

وقال بعض الفضلاء فيما كتبه على هامش تفسير البيضاوي عند قوله : وإلاء حرف النفي الشمس للدلالة على أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها وجه الدلالة أن الإيلاء المذكور يفيد التخصيص والابتغاء بمعنى الصحة والتسهيل المساوقين للاقتدار فيفيد الكلام أن الشمس ليس لها قدرة على إدراك القمر وسرعة المسير التي هي ضد لحركتها الخاصة بل القدرة عليهما لله سبحانه فهو فاعل لحركتها حقيقة ولها مجرد المحلية للحركة فصحت الدلالة المذكورة ثم قال : وتفصيل الكلام أن الله سبحانه ذكر أولاً أن الشمس تجري لمستقر لها إشارة إلى حركتها الخاصة ثم ذكر سبحانه أنه قدر القمر أيضاً في منازل الشمس حتى عاد كالعرجون القديم أي رجع إلى الشكل الهلالي وذلك إنما يكون عند قربه إلى الشمس ورجوعه إليها ولما كان للوهم سبيل إلى أن يتوهم أن جرى الشمس وسيرها وتقدير أنوار القمر وجرمه المرئي مما يستند إلى إرادتهما على سبيل إرادتنا التي تتعلق تارة بالشيء وأخرى بضده فيصح ويتيسر للنيرين الأمران كما يصحان لنا وأن يتوهم أن إسناد

أمر الشمس والقمر إلى التقدير الإلهي من قبيل إسناد أفعالنا إليه من حيث أن الأقدار والتمكين منه تعالى وأنه سبحانه المبدأ والمنتهي إلى غير ذلك من الاعتبارات .

(186/646)

---

نبه جل شأنه بالتخصيص المذكور على دفع على هذا التوهم على سبيل التنبيه على كون الشيء مسخراً مضطراً في أمره بسلب اقتداره على ضده وإن لم يذكر جميع أضداده فأشار سبحانه إلى أن الحركة السريعة المفضية إلى إدراك القمر التي هي ضد الحركة الخاصة للشمس لا يصح استنادها إليها والقدرة عليها مختصة بغيرها ﴿ وَهُوَ العزيز العليم ﴾ حتى يظهر أن وجود الحركة الخاصة لها مستند إلى تقديره تعالى وتدبيره جل شأنه من غير مشاركة للشمس معه سبحانه ثم أردفع ذلك بحكم القمر حيث قال تعالى : ﴿ وَلاَ الليل سَابِقُ النهار ﴾ فإن الأقرب كون المعنى فيه ليس لآية الليل القدرة على أن تسبق آية النهار بحيث تفوتها ولا تكون لها مراجعة إليها ولحوق بها تنبيهاً على أن تقدير القمر في المنازل على الوجه المرصود الذي يعود به إلى الشكل الهلالي الشبيه بالعرجون ويفضي إلى مقاربة الشمس مستند أيضاً إلى تقديره تعالى وتدبيره سبحانه من غير مشاركة للقمر فيه فالجملتان في قوة التأكيد للآيتين السابقتين ولهذا فصلتا اه ، وفيه دغدغة لا تخفى على ذكي

فتأمل .

وما أشار إليه من أن معنى ﴿ لَا الشمس يَنبَغِي لَهَا أَن تدْرِكَ القمر ﴾ أن الشمس لا قدرة لها على أن تدرك القمر في سيره لبطء حركتها الخاصة وسرعة حركته كذلك قاله غير واحد .

(187/646)

---

وادعى النحاس أنه أظهر ما قيل في معناه وبينه وبين ما تقدم من المعنى قرب ما بل قال بعضهم : الفرق بين الوجهين بالاعتبار ، وقال بعض من ذهب إليه في ﴿ وَلَا الليل سَابِقُ النهار ﴾ إن المراد أن القمر لا يسبق الشمس بالحركة اليومية وهي ما تكون له وكذا لسائر الكواكب بواسطة فلك الأفلاك فإن هذه الحركة لا يقع بسببها تقدم ولا تأخر وقيل المراد بقوله تعالى : ﴿ لَا الشمس يَنبَغِي لَهَا أَن تدْرِكَ القمر ﴾ إنه لا ينبغي لها أن تدركه في آثاره ومنافعه فإنه سبحانه خص كلاً منهما بآثار ومنافع كالتلوين بالنسبة للقمر والنضج بالنسبة للشمس ، وعن الحسن أن المراد أنهما لا يجتمعان فيما يشاهد من السماء ليلة الهلال خاصة أي لا تبقى الشمس طالعة إلى أن يطلع القمر ولكن إذا غربت طلع ، وقال يحيى : ابن سلام : المراد لا تدركه ليلة البدر خاصة لأنه يبادر المغيب قبل طلوعها وكلا القولين لا

يعول عليهما ولا ينبغي أن يلتفت إليهما ، وقيل في معنى الجملة الثانية إن الليل لا يسبق النهار ويتقدم على وقته فيدخل قبل مضيه .

وفي "الدر المنثور" عن بعض الأجلة أي لا ينبغي إذا كان ليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار ، وعليك بما تقدم فهو لعمري أقوم ، واستدل بالآية أن النهار سابق على الليل في الخلق .

(188/646)

---

روى العياشي في تفسيره بالإسناد عن الأشعث بن حاتم قال كنت بخراسان حيث اجتمع الرضا رضي الله تعالى عنه والمأمون والفضل بن سهل في الإيوان بمرو فوضعت المائدة فقال الرضا : إن رجلاً من بني إسرائيل سألني بالمدينة : فقال النهار خلق قبل أم الليل فما عندكم ؟ فأرادوا الكلام فلم يكن عندهم شيء فقال الفضل للرضا : أخبرنا بها أصلحك الله تعالى قال نعم من القرآن أم من الحساب ؟ قال له الفضل : من جهة الحساب فقال رضي الله تعالى عنه : قد علمت يا فضل أن طالع الدنيا السرطان والكواكب في مواضع شرفها فزحل في الميزان والمشتري في السرطان والمريخ في الجدي والشمس في الحمل والزهرة في الحوت وعطارد في السنبلة والقمر في الثور فتكون الشمس في العاشر وسط السماء فالنهار

قبل الليل ، ومن القرآن قوله تعالى : ﴿ وَلَا اللَّيلُ سَابِقُ النهار ﴾ أي الليل قد سبقه النهار اه .

وفي الاستدلال بالآية بحث ظاهر وأما بالحساب فله وجه في الجملة .

ورأى المنجمون أن ابتداء الدورة دائرة نصف النهار وله موافقة لما ذكر ، والذي يغلب على الظن عدم صحة الخبر من مبتدئه فالرضي أجل من أن يستدل بالآية على ما سمعت من دعواه وفهم الإمام من قوله تعالى : ﴿ وَلَا اللَّيلُ سَابِقُ النهار ﴾ أن الليل مسبوق لا سابق ومن قوله سبحانه : ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ [ الأعراف : 54 ] أن الليل سابق لأن النهار يطلبه ، وأجاب عما يلزم عليه من كون الليل سابقاً مسبوقاً بأن المراد من الليل هنا آيته وهو القمر وهو لا يسبق الشمس بالحركة اليومية والمراد من الليل هناك نفس الليل وكل واحد لما كان في عقب الآخر كان طالبه .



---

وتعقبه أبو حيان بأن فيه جعل الضمير الفاعل في ﴿ يَطْلُبُهُ ﴾ عائداً على النهار وضمير المفعول عائداً على ﴿ الليل ﴾ والظاهر أن ضمير الفاعل عائد على ما هو الفاعل في المعنى وهو الليل لأنه كان قبل دخول همزة النقل ﴿ يغشى وَهُوَ الذى ﴾ وضمير المفعول

عائد على ﴿ النهار ﴾ لأنه المفعول قبل النقل وبعده وحينئذٍ كلتا الآيتين تفيد أن النهار سابق فلا سؤال انتهى.

فتأمل ولا تغفل.

وقرأ عمار بن عقيل ﴿ سَابِقُ ﴾ بغير تنوين ﴿ النهار ﴾ بالنصب قال المبرد: سمعته يقرأ فقلت ما هذا؟ قال: أردت سابق النهار بالتنوين فحذفت لأنه أخذ.

وفي "البحر" حذف التنوين لالتقاء الساكنين ﴿ وَكُلٌّ ﴾ أي كل واحد من الشمس والقمر إذ هما المذكوران صريحاً والتنوين عوض عن المضاف إليه وقدره بعضهم ضمير جمع العقلاء ليوافق ما بعد أي كلهم وقدره آخر اسم إشارة أي كل ذلك أي المذكور الشمس والقمر ﴿ فِى فَلَكٍ ﴾ هو كما قال الراغب مجرى الكوكب سمي به لاستدارته كفلكة المغزل وهي الخشبة المستديرة في وسطه وفلكة الخيمة وهي الخشبة المستديرة التي توضع على رأس العمود لئلا تتمزق الخيمة.

(190/646)

---

﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ أي يسيرون فيه بانبساط وكل من بسط في شيء فهو يسبح فيه، ومنه السباحة في الماء، وهذا المجرى في السماء ولا مانع عندنا أن يجري الكوكب بنفسه في

جوف السماء وهي ساكنة لا تدور أصلاً وذلك بأن يكون فيها تجويف مملوء هواء أو جسماً آخر لطيفاً مثله يجري الكوكب فيه جريان السمكة في الماء أو البندقة في الأنبوب المستدير مثلاً أو تجويف خال من سائر ما يشغله من الأجسام يجري الكوكب فيه أو بأن تكون السماء بأسرها لطيفة أو ما هو مجرى الكوكب منها لطيفاً فيشق الكوكب ما يحاذيه ويجري كما تجري السمكة في البحر أو في ساقية منه وقد انجمد سائره وانقطاع كرة الهواء عند كرة النار المماسة لمقعر فلك القمر عند الفلاسفة وانحصار الأجسام اللطيفة بالعناصر الثلاثة وصلابة جرم السماء وتساوي أجزائها واستحالة الخرق والالتئام عليها واستحالة وجود الخلاء لم يتم دليل على شيء منه ، وأقوى ما يذكر في ذلك شبهات أوهن من بيت العنكبوت وأنه ورب السماء لأوهن البيوت .

ويجوز أن يكون الفلك عبارة عن جسم مستدير ويكون الكوكب فيه يجري بجريانه في ثخن السماء من غير دوران للسماء ، ولا مانع من أن يعتبر هذا الفلك لبعض الكواكب الفلك الكلي ويكون فيه نحو ما يثبته أهل الهيئة لضبط الحركات المختلفة من الأفلاك الجزئية لكن لا يضطر إلى ذلك بناءً على القواعد الإسلامية كما لا يخفى إلا أن في نسبة السبح إلى الكوكب نوع أباء بظاهره عن هذا الاحتمال ، وفي كلام الأئمة من الصحابة وغيرهم إيماءً إلى بعض ما ذكرنا .

أخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم.

وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس أنه قال في الآية: ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ ﴾ فلكة كفلكة المغزل يسبحون يدورون في أبواب السماء كما تدور الفلكة في المغزل.

وأخرج الأخيران عن مجاهد أنه قال: لا يدور المغزل إلا بالفلكة ولا تدور الفلكة إلا بالمغزل والنجوم في فلكة كفلكة المغزل فلا يدرن إلا بها ولا تدور إلا بهن.

(191/646)

---

وفي الفتوحات المكية للشيخ الأكبر قدس سره جعل الله تعالى السموات ساكنة وخلق فيها سبحانه نجوماً وجعل لها في عالم سيرها وسباحتها في هذه السموات حركات مقدرة لا تزيد ولا تنقص وجعلها عاقلة سامعة مطيعة وأوحى في كل سماء أمرها ثم أنه عز وجل لما جعل السباحة للنجوم في هذه السموات حدثت لسيرها طرق لكل كوكب طريق وهو قوله تعالى: ﴿ والسماء ذَاتِ الحبك ﴾ [الذاريات: 7] فسميت تلك الطرق أفلاكاً فالأفلاك تحدث بحدوث سير الكواكب وهي سريعة السير في جرم السماء الذي هو مساحتها فتخرق الهواء المماس لها فيحدث لسيرها أصوات ونغمات مطربة لكون سيرها على وزن معلوم فتلك نغمات الأفلاك الحادثة من قطع الكواكب المسافات المساوية فهي

تجري في هذه الطرق بعادة مستمرة قد علم بالرصد مقادير ودخول بعضها على بعض في السير وجعل سيرها للناظرين بين بطء وسرعة وجعل سبحانه لها تقدماً وتأخراً في أماكن معلومة من السماء تعينها أجرام الكواكب لإضائتها دونها إلى آخر ما قال.

وقال الإمام: إن الله تعالى قادر على أن يجعل الكوكب بحيث يشق السماء فيجعل دائرة متوهمة كما لو جرت سمكة في الماء على الاستدارة وهذا هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ والظاهر أن حركة الكوكب على هذا الوجه.

(192/646)

---

وأرباب الهيئة انكروا ذلك للزوم الخرق والالتئام ان انشق موضع الجري والتأم أو الخلاء ان انشق ولم يلتئم والكل محال عندهم وعندنا لا محالية في ذلك وما يلزم هنا الخرق والالتئام لأنه المفهوم من يسبحون ولا دليل لهم على الاستحالة فيما عدا المحدد وهو هناك شبهة ضعيفة لا دليل، وظاهر الآية أن كل واحد من من النيرين في فلك أي في مجرى خاص به وهذا مما يشهد به الحس وذهب إلى نحوه فلاسفة الإسلام كغيرهم من الفلاسفة بيد أنه يقولون باتحاد الفلك والسماء ولما سمعوا عن قبلهم أن كلا من السبع السيارة في فلك وكل الكواكب الثوابت في فلك وفوق كل ذلك فلك يحرك الجميع من المشرق إلى المغرب ويسمى فلك

الأفلاك لتحريكه إياها والفلك الأعظم لاحاطته بها والفلك الأطلس لأنه كاسمه غير مكوكب وسمعوا عن الشارع ذكر السموات السبع والكرسي والعرش أرادوا أن يطبقوا بين الأمرين فقالوا : السموات السبع في كلام الشارع هي الأفلاك السبعة في كلام الفلاسفة فلكل من السيارات سماء من السموات والكرسي هو فلك الثوابت والعرش هو الفلك المحرك للجميع المسمى بفلك الأفلاك وقد أخطؤوا في ذلك وخالفوا سلف الأمة فيه فالفلك غير السماء ، وقوله تعالى مع ما هنا ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سموات طِبَاقاً وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ [ نوح : 15 ، 16 ] لا يدل على الاتحاد لما قلنا من أن الكواكب في الفلك والفلك في السماء فيكون الكوكب فيها بلا شبهة فلا يحوج الجمع إلى القول بالعينية ولم يقم دليل على كرية العرش بل ظاهر ما ورد في الأخبار من أن له قوائم يدل على عدم الكرية ، نعم ورد ما يدل بظاهره أنه مقبب وهذا شيء غير ما يزعمونه فيه وكذا الكرسي لم يدل دليل على كريته كما يزعمون ومع هذا ليس عندهم دليل تام على كون الثوابت كلها في فلك فيجوز أن تكون في أفلاك كممثلات كلها فوق زحل أو بعضها فوقه وبعضها بين أفلاك العلوية وهي لا

تكسف الثوابت التي عروضها أكثر من عروضها ولا لها اختلاف منظر ليعرف بأحد الوجهين كون الجميع فوق العلوية أو كتداوير ولا يلزم اختلاف أبعاد بعضها من بعض لجواز تساوي أجرام التداوير وحركاتها ولا اختلاف حركاتها بالسرعة والبطء للبعد والقرب وموافقة الممثل ومخالفته لأنا لا نسلم أن حركاتها لا تختلف بذلك المقدار ولا اختلاف أبعادها من الأرض لأنها غير محققة ، ويجوز أيضاً أن تكون كلها مركوزة في محدب ممثل زحل على أنه يتحرك الحركة البطيئة والمعدل الحركة السريعة ، وأيضاً يجوز أن يكون فيما سموه الفلك الأطلس كواكب لا ترى لصغرها جداً أو ترى وهي سريعة الحركة ولم يرصد كل كوكب ليتحقق بطء حركة الجميع ، وأيضاً يجوز أن تكون السيارات أكثر من سبع فيحتاج إلى أزيد من سبع سموات ، ويقرب هذا ظفر أهل الارصاد الجديدة بكوكب سيار غير السبع سموع باسم من ظفر به وأدركه وهو هرشل ، وبالجملة لا قاطع فيما قالوه ، وللشيخ الأكبر قدس سره في هذا الباب كلام رخر مبناه الكشف وهو أن العرش الذي استوى الرحمن سبحانه عليه سرير ذو أركان أربعة ووجوه أربعة هي قوائمه الأصلية وهي الماء الجامد وفي جوفه الكرسي وهو على شكله في التربيه لا في القوائم ومقره على الماء الجامد أيضاً وبين مقعر العرش وبينه فضاء واسع وهواء مخترق وفي .

جوف الكرسي خلق الله تعالى الفلك الأطلس جسماً شفافاً مستديراً مقسماً إلى اثنين عشر قسماً هي البروج المعروفة وفي جوفه الفلك المكوكب وما بينهما الجنات وبعد أن خلق الله تعالى الأرضين واكتسى الهواء صورة الدخان خلق الله سبحانه السموات السبع وجعل في كل منها كوكباً وهي الجواري ، وزعم الخفاجي أن المراد بالفلك في الآية الفلك الأعظم لأن الشمس والقمر وكذا سائر الكواكب تتحرك بحركته فالسباحة عنده عبارة عن الحركة القسرية ، وفي القلب من ذلك شيء ، ثم على ما هو الظاهر من أن لكل واحد فلكاً يخصه ذهبوا إلى أن فلك الشمس فوق فلك القمر لما أنه يكسفها والمكسوف فوق الكاسف ضرورة ، وذكر معظم أهل الهيئة أن الفلك الأدنى فلك القمر وفوقه فلك عطارد وفوقه فلك الزهرة وفوقه فلك الشمس وفوقه فلك المريخ وفوقه فلك المشتري وفوقه فلك زحل واستدلوا على بعض ذلك بالكسف وعلى بعضه الآخر بأن فيه حسن الترتيب وجودة النظام ، ولا مانع فيما أرى من القول بذلك لكن لا على الوجه الذي قال به أهل الهيئة من كون السموات هي الأفلاك الدائرة بل على وجه يتأتى معه القول بسكون السموات ودوران الكواكب في أفلاكها ومجاريها بعضها فوق بعض ، وقد مر لك ما ينفعك في هذا المقام فراجعه ، وجوز كون ضمير ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ عائداً على الكواكب ويشعر بها ذكر الشمس والقمر والليل والنهار ، ورجح على الأول بأن الإتيان بضمير الجمع عليه ظاهر لا

يحتاج إلى تكلف بخلافه على الأول فإنه محوج إلى أن يقال اختلاف أحوال الشمس والقمر في المطالع وغيرها نزل منزلة تعدد أفرادهما فكان المرجح شموساً وأقماراً ، وظني أنه لا يحتاج إلى ذلك بناء على أنه قد يعتبر الإثنان جمعاً أو بناء على ما قال الإمام من أن لفظ كل يجوز أن يوحد نظراً إلى لفظه وأن يجمع نظراً إلى كونه بمعنى الجميع وأما التثنية فلا يد عليها اللفظ ولا المعنى قال : فعلى هذا يحسن أن يقال زيد وعمرو كل جاء وكل جاؤوا ولا يحسن كل

(195/646)

---

جاءاً بالتثنية ، واستدل بالاتيان بضمير جمع العقلاء على أن الشمس والقمر من ذوي العقول .

وأجيب بأن ذاك لما أن المسند إليهما فعل ذوي العقول كما في قوله تعالى في حق الأصنام ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ [ الصافات : 92 ] وقوله سبحانه : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [ الصافات : 91 ] والظواهر غير ما ذكر مع المستدلين .

واستدل بالآية بعض فلاسفة الإسلام القائلين باتحاد السماء والفلك على استدارة السماء وجعلوا من اللطائف فيها أن ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ ﴾ لا يستحيل بالانعكاس نحو كلامك كمالك وسر فلا كبا بك الفرس وقالوا : لا يعكر على ذلك أنه سبحانه سماها سقفاً في قوله عز

قائلاً : ﴿ والسقف المرفوع ﴾ [ الطور : 5 ] لأن السقف المقبب لا يخرج عن كونه سقفاً بالتعبيب ، وأنت تعلم أن السموات غير الأفلاك ومع هذا أقول باستدارة السموات كما ذهب إليه بعض السلف ، وبعض ظواهر الأخبار يقتضي أنها أنصاف كرات كل سماء نصف كرة كالقبة على أرض من الأرضين السبع وإليه ذهب الشيخ الأكبر وقال بالاستدارة لفلك المنازل دون السموات السبع وادعى أن تحت الأرضين السبع التي على كل منها سماء ماء ، وتحته هواء ، وتحته ظلمة وعليه فليتأمل في كيفية سير الكوكب بعد غروبه حتى يطلع .

(196/646)

---

ثم إن الفلاسفة الذاهبين إلى استدارة السماء تمسكوا في ذلك بأدلة أقربها على ما قيل دليلان ، الأول أنا متي قصدنا عدة مساكن على خط واحد من عرض الأرض وحصلنا الكواكب المارة على سمت رأس في كل واحدة منها ثم اعتبرنا أبعاد ممرات تلك الكواكب في دائرة نصف النهار بعضها من بعض وجدناها على نسب المسافات الأرضية بين تلك المساكن ، وكذلك وجدنا ارتفاع القطب فيها متفاضلاً بمثل تلك النسب فتحدب السماء في العرض مشابه لتحدب الأرض فيه لكن هذا التشابه موجود في كل خط من خطوط

العرض وكذا في كل خط من خطوط الطول فسطح السماء بأسره مواز لسطح الظاهر من الأرض بأسره وهذا السطح مستدير حساً فكذا سطح السماء الموازي له ، والثاني أن أصحاب الأرصاد دونوا في كتبهم مقادير اجرام الكواكب وأبعاد ما بينها في الأماكن المختلفة في وقت واحد كما في أنصاف نهار تلك الأماكن مثلا متساوية وهذا يدل على تساوي أبعاد مراكز الكواكب عن مناظر الأبصار المستلزم لتساوي أبعادها عن مركز العالم لاستدارة الأرض المستلزم لكون جرم السماء كريا .

ونوقش في هذا بأنه إنما يصح أن لو كان الفلك ساكناً والكوكب متحركاً إذ لو كان الفلك متحركاً جاز أن يكون مربعاً وتكون مساواة أبعاد مراكز الكواكب عن مناظر الأبصار وتساوي مقادير الإجرام للكواكب حاصلة ، وفي الأول بأنه إنما يصح لو كان الاعتبار المذكور موجوداً في كل خط من خطوط الطول والعرض ولا يخفى جريان كل من المناقشتين في كل من الدليلين ، ولهم غير ذلك من الأدلة مذكورة بما لها وعليها في مطولات كتبهم .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾

أي أولادهم ، قال الراغب : الذرية أصلها الصغار من الأولاد ويقع في التعارف على الصغار والكبار معا ويستعمل للواحد والجمع وأصله للجمع ، وفيه ثلاثة أقوال فقيل هو من ذرأ الله الخلق فترك همزته نحو برية وروية ، وقيل : أصله ذروية ، وقيل : هو فعلية من الذر نحو قمرية واستظهر حمله على الأولاد مطلقاً أبو حيان ، وجوز غير واحد أن يحمل على الكبار لأنهم المبعوثون للتجارة أي حملنا هم حين يبعثونهم للتجارة ﴿ فِى الفلك ﴾ أي السفينة سميت بذلك على ما في مجمع البيان لأنها تدور في الماء ﴿ المشحون ﴾ أي المملوء ، وقيل : هو مستعمل على أصله وهم الأولاد الصغار الذين يستصحبونهم ، وقيل : المراد به النساء فإنه يطلق عليهن ، وفي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن قتل الدراري وفسر بالنساء .

وفي الفائق قال حنظلة الكاتب : كنا في غزاة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى امرأة مقتولة فقال : هاه ما كانت هذه تقاتل الحق خالداً وقل لا تقتلن ذرية ولا عسيفا ، وهي نسل الرجل وأوقعت على النساء كقولهم للمطر سماء ويراد بالنساء اللاتي يستصحبونهن وتخصيص الذرية على هذين القولين بالذكر لأن استقراره وتماسكهم في الفلك أعجب ، وقيل : تطلق الذرية على الآباء وعلى الابناء قاله أبو عثمان .

وتعقبه ابن عطية بأنه تخليط لا يعرف في اللغة ، وقيل : الذرية النطف والفلك المشحون بطون النساء ذكره الماوردي ونسب إلى علي كرم الله تعالى وجهه ، والظاهر أنه لم يصح

ذلك عنه رضي الله تعالى عنه وفي الآية ما يبعده وهو أشبه شيء بتأويلات الباطنية ، والمراد بالفلك جنسه والوصف بالمشحون أقوى في الامتنان بسلامتهم فيه ، وقيل : لأنه أبعد من الخطر ، وإرادة الجنس مروية عن ابن عباس .

ومجاهد .

والسدى

وفسر ما في قوله تعالى :

(198/646)

---

﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ عليه بالابل فإنها سفائن البر لكثرة ما تحمل وقلة كلالها في المسير ، وإطلاق السفائن عليها شائع كما قيل :

سفائن بر والسراب بحارها . . .

وروي ذلك عن الحسن وعبد الله بن سداد ، وفسره مجاهد بالأنعام الإبل وغيرها ، وعن أبي مالك وأبي صالح وغيرهما وهي رواية عن ابن عباس أيضاً أن المراد بالفلك سفينة نوح عليه السلام على أن التعريف للعهد فما عبارة عما سمعت أيضاً عند بعض وعند آخرين

هي السفن والزوارق التي كانت بعد تلك السفينة .

واستشكل حمل ذريتهم في سفينة نوح عليه السلام .

(199/646)

---

وأجيب بأن ذلك يحمل آبائهم الأقدمين وفي أصلابهم هؤلاء وذريتهم ، وتخصيص الذرية مع أنهم محمولون بالتبع لأنه أبلغ في الامتنان حيث تضمن بقاء عقبهم وادخل في التعجب ظاهراً حيث تضمن حمل ما لا يكاد يحصى كثرة في سفينة واحدة مع الإيجاز لأنه كان الظاهر أن يقال حملناهم ومن معهم ليبقى نسلهم فذكر الذرية يدل على بقاء النسل وهو يستلزم سلامة أصولهم فدل بلفظ قليل على معنى كثير ، وقال الإمام : يحتمل عندي أن التخصيص لأن الموجودين كانوا كفاراً لا فائدة في وجودهم أي لم يكن الحمل حملاً لهم وإنما كان حملاً لما في أصلابهم من المؤمنين ، وقيل : الكلام على حذف مضاف أي حملنا ذريات جنسهم وهو كما ترى ، وقيل : ضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ لأهل مكة وضمير ﴿ ذُرِّيَّتُهُم ﴾ للقرون الماضية الذين هم منهم وحكى ذلك عن علي بن سليمان وليس بشيء ، وجوز الإمام كون الضميرين للعباد في قوله تعالى : ﴿ ياحسرة عَلَى العباد ﴾ [ يس : 30 ] ولا يكون المراد في كل أشخاصاً معينين بل ذلك على نحو هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم على معنى قتل

بعضهم بعضاً فالمعنى آية لكل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم أو ذرية بعض منهم وفيه من البعد ما فيه ، ورجح تفسير ﴿ مَا ﴾ بالإبل ونحوها من الأنعام دون السفن بأن المتبادر من الخلق الإنشاء والاختراع فيبعد أن يتعلق بما هو مصنوع العباد .

(200/646)

---

وتعقب بأن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى عند أهل الحق وتبادر الإنشاء ممنوع وعليه يكون في الآية رد على المعتزلة كما قيل في قوله تعالى : ﴿ والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [ الصافات : 96 ] على تقدير كون ما موصولة ، و ﴿ مِنْ ﴾ تحتمل أن تكون للبيان وأن تكون للتبعيض ؛ وجوز زيادتها على نظر الأخفش ورأيه ، والظاهر أن ضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ الثاني عائد على ما عاد عليه ضمير الأول ، وجوز عوده على الذرية ، وجوز أيضاً عود ضمير ﴿ مّثْلِهِ ﴾ على معلوم غير مذكور تقديره من مثل ما ذكرنا من المخلوقات في قوله سبحانه : ﴿ سبحان الذى خَلَقَ الازواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض ﴾ [ يس : 36 ] وهو أبعد من العيوق ، وأياً ما كان فلا يخفى مناسبة هذه الآية لقوله تعالى : ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [ يس : 40 ] وإنما لم يؤت بها على أسلوب إخواتها بأن يقال وآية لهم الفلك حملنا ذريتهم فيه كما قال سبحانه : ﴿ وَءايَةٌ لَّهُمُ الأرض الميتة أحييناها ﴾ [ يس : 33

] ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾ [ يس : 37 ] لأنه ليس الفلك نفسه عجباً وإنما حملهم فيه هو العجب ، وقرأ نافع .

وابن عامر .

والأعمش .

وزيد بن علي .

وأبان بن عثمان ﴿ ذرياتهم ﴾ بالجمع ، وكسر زيد .

وأبان الذال .

وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (43)

(201/646)

---

﴿ وَإِن نَّشَأْ ﴾ إغراقهم ﴿ نُغْرِقْهُمْ ﴾ في الماء مع ما حملنا هم فيه من الفلك وما يركبون من السفن والزوارق فالكلام من تمام ما تقدم فإن كان المراد ب ﴿ ما ﴾ [ يس : 42 ] هناك السفن والزوارق فالأمر ظاهر وإن كان المراد بها الإبل ونحوها كان الكلام من تمام صدر الآية أي نغرقهم مع ما حملنا هم فيه من الفلك وكان حديث خلق الإبل ونحوها في البين استطراداً للتماثل ، ولما في ذلك من نوع بعد قيل إن قوله سبحانه : ﴿ وَإِن نَّشَأْ ﴾ الخ

يرجح حمل ﴿ الفلك ﴾ [ يس : 41 ] على الجنس و﴿ مَا ﴾ على السفن والزوارق الموجودة بين بني آدم إلى يوم القيامة ، وفي تعليق الإغراق بمحض المشيئة اشعار بأنه قد تكامل ما يستدعى اهلاكهم من معاصيهم ولم يبق إلا تعلق مشيئته تعالى به ، وقيل إن ذلك ذلك إشارة إلى الرد على من يتوهم إن حمل الفلك الذرية من غير أن يغرق أمر تقتضيه الطبيعة ويستدعيه امتناع الخلاء ، وقرأ الحسن ﴿ نغرِقْهُمْ ﴾ بالتشديد ﴿ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أي فلا مغيث لهم يحفظهم من الغرق ، وتفسير الصريخ بالمغيث مروى عن مجاهد . وقتادة ، ويكون بمعنى الصارخ وهو المستغيث ولا يراد هنا ، ويكون مصدراً كالصراخ ويتجوز به عن الاغاثة لأن المستغيث ينادي من يستغيث به فيصرخ له ويقول جاءك العون والنصر قال المبرد في أول الكامل : قال سلامة بن جندل :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع . . .

كان الصراخ له فزع المطانيب

يقول إذا أتانا مستغيث كانت إغاثته الجد في نصرته ، وجوز إرادته هنا أي فلا إغاثة لهم ﴿ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ أي ينجون من الموت به بعد وقوعه .

﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مّنَّا وَمَتَاعاً ﴾

استثناء مفرغ من أعم العلل الشاملة للباعث المتقدم والغاية المتأخرة أي لا يغاثون ولا ينقذون لشيء من الأشياء إلا لرحمة عظيمة من قبلنا داعية إلى الإغاثة والإنقاذ وتمتيع بالحياة مترتب عليهما ، ويجوز أن يراد بالرحمة ما يقارن التمتيع بالحياة الدنيوية فيكون كلاهما غاية للإغاثة والإنقاذ أي لنوع من الرحمة وتمتيع ، وإلى كونه استثناء مفرغاً مما يكون مفعولاً لأجله ذهب الزجاج والكسائي ، والاستثناء على ما يقتضيه الظاهر متصل ، وقيل : الاستثناء منقطع على معنى ولكن رحمة منا ومتاع يكونان سبباً لنجاتهم وليس بذاك ، وجوز أن يكون النصب بتقدير الباء أي إلا برحمة ومتاع ، والجار متعلق بينقذون ولما حذف انتصب مجروره بنزع الخافض .

وقيل هو على المصدرية لفعل محذوف أي إلا أن نرحمهم رحمة ونمتعهم تمتيعاً ، ولا يخفى حاله وكذا حال ما قبله ﴿ إلى حِينٍ ﴾ أي إلى زمان قدر فيه حسبما تقتضيه الحكمة آجالهم ، ومن هنا أخذ أبو الطيب قوله

: ولم أسلم لكي أبقى ولكن . . .

سلمت من الحمام إلى الحمام

والظاهر أن المحدث عنه من يشاء الله تعالى إغراقهم ، وقال ابن عطية : إن ﴿ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ [ يس : 43 ] الخ استئناف أخبار عن المسافرين في البحر ناجين كانوا أو مغرقين أي

لا نجاة لهم إلا برحمة الله تعالى ، وليس مربوطاً بالمغرقين وقد يصح ربطه به والأول أحسن فتأمله اه ، وقد تأملناه فوجدناه لا حسن فيه فضلا عن أن يكون أحسن .

والفاء ظاهرة في تعلق ما بعدها بما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(203/646)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) ﴾

لما وقع ما وقع منهم مع حبيب النجار غضب الله له ، وعجل لهم النقمة ، وأهلكهم بالصيحة ، ومعنى ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا على قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي : على قوم حبيب النجار من بعد قتلهم له ، أو من بعد رفع الله له إلى السماوات على الاختلاف السابق ﴿ مِن جُندٍ مّنَ السماء ﴾ لإهلاكهم ، وللانتقام منهم : أي : لم تحتج إرسال جنود من السماء لإهلاكهم كما وقع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر من إرسال الملائكة لنصرته ، وحرب أعدائه ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ أي : وما صحّ في قضائنا ، وحكمتنا أن ننزل لإهلاكهم جنداً لسبق قضائنا ، وقدرنا بأن إهلاكهم بالصيحة لا بإنزال الجند .

وقال قتادة، ومجاهد ، والحسن : أي : ما أنزلنا عليهم من رسالة من السماء ، ولا نبيّ بعد قتله .

وروي عن الحسن أنه قال : هم الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء ، والظاهر أن معنى النظم القرآني تحقير شأنهم ، وتصغير أمرهم : أي : ليسوا بأحقاء بأن ننزل لإهلاكهم جنداً من السماء ، بل أهلكناهم بصيحة واحدة كما يفيده قوله : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحدة ﴾ أي : إن كانت العقوبة ، أو النقمة ، أو الأخذة إلاّ صيحة واحدة صاح بها جبريل ، فأهلكهم .

قال المفسرون : أخذ جبريل بعضادتي باب المدينة ، ثم صاح بهم صيحة ، فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حسّ كالنار إذا طفئت ، وهو معنى قوله : ﴿ فَإِذَا هُمْ خامدون ﴾ أي : قوم خامدون ميتون ، شبههم بالنار إذا طفئت ؛ لأن الحياة كالنار الساطعة ، والموت كخمودها .

قرأ الجمهور ﴿ صيحة ﴾ بالنصب على أن كان ناقصة ، واسمها ضمير يعود إلى ما يفهم من السياق كما قدّمنا .

وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، والأعرج ، ومعاذ القارئ برفعها على أن كان تامة : أي : وقع ، وحدث ، وأنكر هذه القراءة أبو حاتم ، وكثير من النحويين بسبب التأنيث في قوله : ﴿ إِن كَانَتْ ﴾ قال أبو حاتم : فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال : " إن كان إلاّ صيحة " ، وقدّر الزجاج هذه القراءة بقوله : إن كانت عليهم صيحة إلاّ صيحة واحدة ، وقدّرها غيره : ما وقعت عليهم إلاّ صيحة واحدة .

وقرأ عبد الله بن مسعود "إن كانت إلاّ زقية واحدة" ، والزقية : الصيحة ، قال النحاس : وهذا مخالف للمصحف ، وأيضاً .

فإن اللغة المعروفة : زقا يزقو إذا صاح.

ومنه المثل "أثقل من الزواقي" ، فكان يجب على هذا أن تكون زقوة ، ويجاب عنه بما ذكره الجوهري قال : الزقو والزقي مصدر ، وقد زقا الصدا يزقو .

زقا : أي صاح : وكل صائح زاق ، والزقية : الصيحة .

﴿ ياحسرة عَلَى العباد ﴾ قرأ الجمهور بنصب ﴿ حسرة ﴾ ، على أنها منادى منكر ، كأنه نادى الحسرة ، وقال لها : هذا أوانك فاحضري .

وقيل : إنها منصوبة على المصدرية ، والمنادى محذوف ، والتقدير : يا هؤلاء تحسروا حسرة .

وقرأ قتادة ، وأبيّ في رواية عنه بضم حسرة على النداء .

قال الفراء : في توجيه هذه القراءة : إن الاختيار النصب ، وإنها لو رفعت النكرة لكان صواباً ، واستشهد بأشياء نقلها عن العرب منها أنه سمع من العرب : يا مهتم بأمرنا لا تهتم ، وأنشد :

يا دار غيّرها البلى تغييرا . . . قال النحاس : وفي هذا إبطال باب النداء ، أو أكثره .

قال : وتقدير ما ذكره : يأيها المهتم لا تهتم بأمرنا ، وتقدير البيت : يا أيتها الدار .

وحقيقة الحسرة : أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيراً .

قال ابن جرير : المعنى : يا حسرة من العباد على أنفسهم ، وتندّما وتلهفا في استهزائهم برسل الله ، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس ، وعليّ بن الحسين " يا حسرة العباد " على الإضافة ، ورويت هذه القراءة عن أبيّ .

(205/646)

---

وقال الضحاك : إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل .

وقيل : هي من قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة .

وقيل : إن القائل : يا حسرة على العباد هم : الكفار المكذبون ، والعباد الرسل ، وذلك أنهم لما رأوا العذاب تحسروا على قتلهم ، وتمنوا الإيمان قاله أبو العالية ، ومجاهد ، وقيل :

إن التحسر عليهم هو من الله عزّ وجلّ بطريق الاستعارة لتعظيم ما جنوه .

وقرأ ابن هرمز ، ومسلم بن جندب ، وعكرمة ، وأبو الزناد " يا حسره " بسكون الهاء إجراء للوصل مجرى الوقف .

وقرئ " يا حسرتا " كما قرئ بذلك في سورة الزمر ، وجملة ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما كانوا عليه من تكذيب الرسل ، والاستهزاء بهم ، وأن ذلك هو سبب التحسر عليهم .

ثم عجب سبحانه من حالهم حيث لم يعتبروا بأمثالهم من الأمم الخالية ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون ﴾ أي : ألم يعلموا كثرة من أهلكنا قبلهم من القرون التي أهلكناها من الأمم الخالية ، وجملة ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ بدل من كم أهلكنا على المعنى .

قال سيبويه : أنّ بدل من كم ، وهي : الخبرية ، فلذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام ، والمعنى : ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون .

وقال الفراء : "كم" في موضع نصب من وجهين : أحدهما : ب ﴿ يروا ﴾ ، واستشهد على هذا بأنه في قراءة ابن مسعود " ألم يروا من أهلكنا " ، والوجه الآخر : أن تكون "كم" في موضع نصب ب ﴿ أهلكنا ﴾ .

قال النحاس : القول الأوّل محال ، لأن كم لا يعمل فيها ما قبلها ؛ لأنها استفهام ، ومحال أن يدخل الاستفهام في حيز ما قبله ، وكذا حكمها إذا كانت خبراً ، وإن كان سيبويه قد أومأ إلى بعض هذا ، فجعل أنهم بدلاً من كم ، وقد ردّ ذلك المبرد أشدّ ردّ ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي : محضرون لدينا يوم القيامة للجزاء .

قرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ﴿ لما ﴾ بتشديدها ، وقرأ الباقون بتخفيفها .

قال الفراء : من شدّد جعل لما بمعنى : إلاّ ، وإن بمعنى : ما ، أي : ما كلّ إلاّ جميع لدينا محضرون ، ومعنى ﴿ جميع ﴾ مجموعون ، فهو فعيل بمعنى : مفعول ، ولدينا ظرف له ، وأما على قراءة التخفيف ، فإن هي المخففة من الثقيلة ، وما بعدها مرفوع بالابتداء ، وتنوين ﴿ كل ﴾ عوض عن المضاف إليه ، وما بعده الخبر ، واللام هي : الفارقة بين المخففة والنافية .

قال أبو عبيدة : وما على هذه القراءة زائدة ، والتقدير عنده : وإن كلّ لجميع .

وقيل : معنى ﴿ محضرون ﴾ : معذبون ، والأولى أنه على معناه الحقيقي من الإحضار للحساب .

ثم ذكر سبحانه البرهان على التوحيد ، والحشر مع تعداد النعم ، وتذكيرها ، فقال : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الأرض الميتة ﴾ ، فآية خبر مقدّم ، وتنكيرها للتفخيم ، ولهم صفتها ، أو متعلقة

بآية؛ لأنها بمعنى: علامة، والأرض مبتدأ، ويجوز: أن تكون ﴿ آية ﴾ مبتدأ لكونها قد تخصصت بالصفة، وما بعدها الخبر.

(207/646)

---

قرأ أهل المدينة "الميتة" بالتشديد، وخففها الباقون، وجملة ﴿ أحييناها ﴾ مستأنفة مبينة لكيفية كونها آية، وقيل: هي صفة للأرض، فنبههم الله بهذا على إحياء الموتى، وذكرهم نعمه، وكمال قدرته، فإنه سبحانه أحيا الأرض بالنبات: وأخرج منها الحبوب التي يأكلونها، ويتغذون بها، وهو معنى قوله: ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾، وهو ما يقتاتونه من الحبوب، وتقديم ﴿ منه ﴾ للدلالة على أن الحبّ معظم ما يؤكل، وأكثر ما يقوم به المعاش.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جنات مّن نَّخِيلٍ وأعناب ﴾ أي: جعلنا في الأرض جنات من أنواع النخل، والعنب، وخصصهما بالذكر؛ لأنهما أعلى الثمار، وأنفعها للعباد ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العيون ﴾ أي: فجرنا في الأرض بعضاً من العيون، فحذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، أو المفعول العيون، ومن مزيدة على رأي من جوّز زيادتها في الإثبات، وهو الأخفش، ومن وافقه، والمراد بالعيون عيون الماء.

قرأ الجمهور ﴿ فجرنا ﴾ بالتشديد ، وقرأ جناح بن حبيش بالتخفيف ، والفجر والتفجير : كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى ، واللام في ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ متعلق بجعلنا ، والضمير في ﴿ من ثمره ﴾ يعود إلى المذكور من الجنات ، والنخيل ، وقيل : هو راجع إلى ماء العيون ؛ لأن الثمر منه ، قاله الجرجاني .

قرأ الجمهور ﴿ ثمره ﴾ بفتح الثاء ، والميم ، وقرأ حمزة ، والكسائي بضمهما ، وقرأ الأعمش بضم الثاء ، وإسكان الميم ، وقد تقدّم الكلام في هذا في الأنعام ، وقوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ معطوف على ﴿ ثمره ﴾ : أي : ليأكلوا من ثمره ، ويأكلوا مما عملته أيديهم كالعصير ، والدبس ، ونحوهما ، وكذلك ما غرسوه وحفروه على أن " ما " موصولة ، وقيل : هي نافية ، والمعنى : لم يعملوه ، بل العامل له هو الله ، أي : وجدوها معمولة ، ولا صنع لهم فيها ، وهو قول الضحاك ، ومقاتل .

(208/646)

---

قرأ الجمهور ﴿ عملته ﴾ وقرأ الكوفيون "عملت" بحذف الضمير ، والاستفهام في قوله : ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ للتقريع ، والتوبيخ لهم لعدم شكرهم للنعم .

وجملة ﴿ سبحان الذى خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا ﴾ مستأنفة مسوقة لتنزيه سبحانه عما وقع

منهم من ترك الشكر لنعمه المذكورة ، والتعجب من إخلالهم بذلك .

وقد تقدّم الكلام مستوفى في معنى : سبحان ، وهو في تقدير الأمر للعباد بأن ينزهوه عما لا يليق به ، والأزواج : الأنواع ، والأصناف ، لأن كل صنف مختلف الألوان ، والطعوم ، والأشكال ، و ﴿ مِمَّا تُنبِتُ الأَرضُ ﴾ بيان للأزواج ، والمراد كل ما ينبت فيها من الأشياء المذكورة ، وغيرها ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : خلق الأزواج من أنفسهم ، وهم : الذكور ، والإناث ﴿ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ من أصناف خلقه في البرّ ، والبحر ، والسماء ، والأرض ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ اليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾ الكلام في هذا كما قدّمنا في قوله : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الأرض الميتة أحييناها ﴾ ، والمعنى : أن ذلك علامة دالة على توحيد الله ، وقدرته ، ووجوب إلهيته ، والسلخ : الكشط ، والنزع ، يقال : سلخه الله من بدنه ، ثم يستعمل بمعنى : الإخراج ، فجعل سبحانه ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالسلخ من الشيء ، وهو استعارة بليغة ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ أي : داخلون في الظلام مفاجأة وبغتة ، يقال : أظلمنا : أي : دخلنا في ظلام الليل ، وأظهرنا دخلنا في وقت الظهر ، وكذلك أصبحنا ، وأمسينا ، وقيل : "منه" بمعنى : عنه ، والمعنى : نسلخ عنه ضياء النهار .

قال الفراء : يرمى بالنهار على الليل ، فيأتي بالظلمة ، وذلك أن الأصل هي : الظلمة ، والنهار داخل عليه ، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل ، أي : كشط ، وأزيل ، فتظهر الظلمة .

﴿ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ يحتمل : أن تكون الواو للعطف على الليل ، والتقدير : وآية لهم الشمس ، ويجوز : أن تكون الواو ابتدائية ، والشمس مبتدأ ، وما بعدها الخبر ، ويكون الكلام مستأنفاً مشتملاً على ذكر آية مستقلة .

قيل : وفي الكلام حذف ، والتقدير : تجري لمجرى مستقرّ لها ، فتكون اللام للعلة : أي : لأجل مستقرّ لها ، وقيل : اللام بمعنى : إلى وقد قرئ بذلك .

قيل : والمراد بالمستقرّ : يوم القيامة ، فعنده تستقرّ ، ولا يبقى لها حركة ، وقيل : مستقرها هو أبعد ما تنتهي إليه ، ولا تجاوزه ، وقيل : نهاية ارتفاعها في الصيف ، ونهاية هبوطها في الشتاء ، وقيل : مستقرها تحت العرش ؛ لأنها تذهب إلى هنالك ، فتسجد ، فتستأذن في الرجوع ، فيؤذن لها ، وهذا هو الرّاجح .

وقال الحسن : إن للشمس في السنة ثلثمائة مطلعاً تنزل في كل يوم مطلعاً ، ثم لا تنزل إلى الحول ، فهي تجري في تلك المنازل ، وهو : مستقرّها ، وقيل : غير ذلك .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وعكرمة ، وزين العابدين ، وابنه الباقر ، والصادق بن الباقر " لا مستقرّ لها " بلا التي لنفي الجنس ، وبناء مستقرّ على الفتح .

وقرأ ابن أبي عبلة : " لا مستقرّ " بلا التي بمعنى : ليس ، ومستقرّ اسمها ، ولها خبرها ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى جري الشمس : أي : ذلك الجري ﴿ تَقْدِيرُ العزيز ﴾ أي : الغالب القاهر ﴿ العليم ﴾ : أي : المحيط علمه بكل شيء ، ويحتمل : أن تكون الإشارة راجعة إلى المستقرّ : أي : ذلك المستقرّ : تقدير الله .

﴿ والقمر قدرناه مَنَازِلَ ﴾ .

قرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو برفع القمر على الابتداء .

وقرأ الباقون بالنصب على الاشتغال ، وانتصاب ﴿ منازل ﴾ على أنه مفعول ثانٍ ، لأن " قدرنا " بمعنى : صيرنا ، ويجوز : أن يكون منتصباً على الحال : أي : قدّرنا سيره حال كونه ذا منازل ، ويجوز : أن يكون منتصباً على الظرفية : أي : في منازل .

(210/646)

---

واختار أبو عبيد النصب في القمر ؛ لأن قبله فعلاً ، وهو ﴿ نسلخ ﴾ ، وبعده فعلاً ، وهو " قدّرنا " .

قال النحاس : أهل العربية جميعاً فيما علمت على خلاف ما قال .

منهم الفراء قال : الرفع أعجب إليّ ، قال : وإنما كان الرفع عندهم أولى ؛ لأنه معطوف على

ما قبله ، ومعناه : وآية لهم القمر .

قال أبو حاتم : الرفع أولى ، لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير ، فرفعته بالابتداء ، والمنازل : هي : الثمانية والعشرون التي ينزل القمر في كل ليلة في واحد منها ، وهي معروفة ، وسيأتي ذكرها ، فإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أوّلها ، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة ، ثم يستتر ليلتين ، ثم يطلع هلالاً ، فيعود في قطع تلك المنازل من الفلك ﴿ حتى عَادَ كالعرجون القديم ﴾ قال الزجاج : العرجون هو عود العذق الذي فيه الشماريخ ، وهو فعلون من الانعراج ، وهو الانعطاف : أي : سار في منازله ، فإذا كان في آخرها دقّ ، واستقوس ، وصغر حتى صار كالعرجون القديم ، وعلى هذا فالنون زائدة .

قال قتادة : وهو : العذق اليابس المنحني من النخلة .

قال ثعلب : العرجون الذي يبقى في النخلة إذا قطعت ، والقديم : البالي .

وقال الخليل : العرجون أصل العذق ، وهو أصفر عريض ، يشبه به الهلال إذا انحنى ، وكذا قال الجوهري : إنه أصل العذق الذي يعوج ، ويقطع منه الشماريخ ، فيبقى على النخل يابساً ، وعَرَجْتُه : ضربته بالعرجون ، وعلى هذا فالنون أصلية .

قرأ الجمهور ﴿ العرجون ﴾ بضم العين ، والجيم : وقرأ سليمان التيمي بكسر العين ، وفتح الجيم ، وهما لغتان ، والقديم : العتيق .

﴿ لَا الشمس يَنبَغِى لَهَا أَن تدْرِكَ القمر ﴾ الشمس مرفوعة بالابتداء ، لأنه لا يجوز أن تعمل لا في المعرفة : أي : لا يصح ، ولا يمكن للشمس أن تدرك القمر في سرعة السير ، وتنزل في المنزل الذي فيه القمر ؛ لأن لكل واحد منهما سلطاناً على انفراده ، فلا يتمكن أحدهما من الدخول على الآخر ، فيذهب سلطانه إلى أن يأذن الله بالقيامة ، فتطلع الشمس من مغربها .

وقال الضحاك : معناه : إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء ، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء .

وقال مجاهد : أي : لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر .

وقال الحسن : إنهما لا يجتمعان في السماء ليلة الهلال خاصة ، وكذا قال يحيى بن سلام .

وقيل : معناه : إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدي الآخر في منزل لا يشتركان فيه .

وقيل : القمر في سماء الدنيا ، والشمس في السماء الرابعة .

ذكره النحاس ، والمهدوي .

قال النحاس : وأحسن ما قيل في معناه ، وأبينه : أن سير القمر سير سريع ، والشمس لا تدركه في السير .

وأما قوله : ﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ [ القيامة : 9 ] ، فذلك حين حبس الشمس عن الطلوع على ما تقدّم بيانه في الأنعام ، ويأتي في سورة القيامة أيضاً ، وجمعهما علامة لانقضاء الدنيا ، وقيام الساعة ﴿ وَلاَ اليل سَابِقُ النهار ﴾ أي يسبقه ، فيفوته ، ولكن يعاقبه ، ويجيء كل واحد منهما في وقته ، ولا يسبق صاحبه ، وقيل : المراد من الليل ، والنهار : آيتاهما ، وهما الشمس والقمر ، فيكون عكس قوله : ﴿ لاَ الشمس يَنبَغِى لَهَا أَن تدْرِكَ القمر ﴾ أي : ولا القمر سابق الشمس ، وإيراد السبق مكان الإدراك لسرعة سير القمر ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ التنوين في كلّ عوض عن المضاف إليه : أي : وكل واحد منهما ، والفلك : هو الجسم المستدير ، أو السطح المستدير ، أو الدائرة ، والخلاف في كون السماء مبسوطة ، أو مستديرة معروف ، والسبح : السير بانبساط ، وسهولة ، والجمع في قوله ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ باعتبار اختلاف مطالعهما ، فكأنهما متعدّدان بتعدّدها ، أو المراد : الشمس ، والقمر ، والكواكب .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا على قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ ﴾ الآية يقول : ما كابدناهم بالجموع : أي ، الأمر أيسر علينا من ذلك .

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ يا حسرة عَلَى العباد ﴾ يقول: يا ويلاً للعباد.

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ قال: الندامة على العباد الذين ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ يقول: الندامة عليهم يوم القيامة.

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ قال: وجدوه معمولاً لم تعمله أيديهم: يعني: الفرات، ودجلة، ونهر بلخ، وأشباهها ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ لهذا.

(213/646)

---

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي ذرّ قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله: ﴿ والشمس تَجْرِى لِمُسْتَقَرّ لَّهَا ﴾ قال: "مستقرّها تحت العرش" وفي لفظ للبخاري، وغيره من حديثه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد عند غروب الشمس، فقال: "يا أبا ذرّ أتدري أين تغرب الشمس؟" قلت: الله، ورسوله أعلم، قال: "إنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله: ﴿ والشمس تَجْرِى لِمُسْتَقَرّ لَّهَا ﴾" وفي لفظ من حديثه أيضاً عند أحمد، والترمذي، والنسائي، وغيرهم قال: "يا أبا ذرّ، أتدري أين تذهب هذه؟ قلت: الله، ورسوله أعلم، قال:

فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها ، فتستأذن في الرجوع ، فيأذن لها ، وكأنها قد قيل لها : اطلعي من حيث جئت ، فتطلع من مغربها " .

ثم قرأ " ذلك مستقرّ لها " وذلك قراءة عبد الله .

وأخرج الترمذي ، والنسائي ، وغيرهما من قول ابن عمر نحوه .

وأخرج الخطيب في كتاب النجوم عن ابن عباس في قوله : ﴿ والقمر قدرناه مَنَازِلَ ﴾ الآية قال : هي : ثمانية وعشرون منزلاً ينزلها القمر في كلّ شهر : أربعة عشر منها شامية ، وأربعة عشر منها يمانية ، أولها الشرطين ، والبطين ، والثريا ، والدبران ، والهقعة ، والهنعة ، والذراع ، والنثرة ، والطرف ، والجبهة ، والدبرة ، والصرفة ، والعوّاء ، والسماك .

وهو آخر الشامية ، والغفر ، والزبانا ، والإكليل ، والقلب ، والشولة ، والنعائم ، والبلدة ، وسعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد السعود ، وسعد الأخبية ، ومقدّم الدلو ، ومؤخر الدلو ، والحوت ، وهو آخر اليمانية ، فإذا سار هذه الثمانية وعشرين منزلاً ﴿ عَادَ كالعرجون القديم ﴾ كما كان في أوّل الشهر .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ كالعرجون القديم ﴾ : يعني : أصل العذق العتيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ » أي والليل آية لهم . . وقوله تعالى : « نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ » جملة حاليّة من الليل . .

وسلخ النهار من الليل ، كشطه عنه ، وإزالة القشرة النورانية التي تكسوه ، كما يكسو الجلد الحيوان . . فإذا سلخت هذه القشرة النورانية عن كيان الكائنات ، سادها الظلام . .

وفى قوله تعالى : « نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ » . إشارة إلى حركة انسحاب النور ، بحركة الأرض ، ودورانها حول الشمس ، فينسلخ النور شيئًا فشيئًا عن الأماكن التي تطلع عليها الشمس ، وذلك كما يسلخ الجلد عن الحيوان ، شيئًا فشيئًا . . لا دفعة واحدة . .

وفى قوله تعالى : « فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ » . إشارة إلى أن كل إنسان يكتسى من النور حلة ، فإذا سلخت عنه صار جسما معتما مظلما ، وأصبح قطعة من هذا الظلام ، تجتمع قطعه بعضها إلى بعض ، فإذا هى الليل . .

قوله تعالى : «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » أي وآية لهم الشمس . . فهذه الشمس تسير فى مدار محدود لها ، وتتحرك فى فلك لا تتعداه ولا تخرج عنه . . وذلك بتقدير « العزيز » ذى العزة والسلطان « العليم » الذي تجرى أحكامه ومقاديره بعلم نافذ إلى كل شىء ، متمكن من كل كبيرة وصغيرة فى هذا الوجود .

وجريان الشمس ، هو حركتها فى فلكها المرسوم لها . وهى تقطع دورة هذا الفلك فى سنة كاملة ، وفى سرعة مذهلة .

(215/646)

---

قوله تعالى : « وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » أي أن القمر يأخذ كل ليلة منزلا من الأرض ، على مدى شهر قمرى ، ففى أوسط منازله يبدو قمرا منيرا ، يغمر نور الشمس وجهه كله المواجه للأرض ، المتوسطة بينه وبين الشمس ، فيرى بدرا كاملا ، ثم يرجع إلى الوراء منزلة كل ليلة ، وذلك لبطء دورانه عن دوران الأرض ، فيقلّ مع كل ليلة أو منزلة ، الوجه المقابل منه للشمس ، ويظل يتناقص شيئا فشيئا مدة نصف شهر قمرى ، حتى يكون وجهه المواجه للأرض متوسطا بين الأرض والشمس ، وهنا يكون وجهه المواجه للشمس مضيئا بضوئها ، على حين يكون وجهه المواجه للأرض معتما ، فإذا نزل منزلته فى آخر ليلة لم ير من وجهه شىء ، وسمى محاقا ، لأن نوره الذي كان يبدو منه قد محق . . ثم يبدأ يولد من جديد . . فإذا كانت الليلة الأولى أو المنزلة الأولى لمولده ، لم ير منه إلا قوس صغير ، أشبه بقلامة الظّفر ، ويسمى هلالا ، غائرا فى الشفق ، فيختلط الضوء القليل الذي يبدو منه بحمرة الشفق ، فيكون له تلك الصورة التي صورها له القرآن الكريم

أدق تصوير وأروعه ، حين شبهه بالعرجون القديم . .

والعرجون ، هو عذق النخلة ، الذي يحمل النمر ، ومنه تتدلى عناقيد النمر ، ولونه أصفر ، فإذا جفّ ، وطال عليه الزمن تقوس شكله وصار لونه ضاربا إلى الحمرة الداكنة . . وهذه التحركات والتغيرات التي تظهر على وجه القمر ليلة بعد ليلة ، جديرة بأن تستثير التفكير والتأمل ، وأن تدعو العقل إلى النظر فيما وراء هذه المنظر الظاهر للقمر ، إلى وضعه فى المجموعة الشمسية ، وإلى صلته بالأرض ، وإلى إمكان الوصول إليه ، ولو على سبيل الفرض أولا ، ثم اتخاذ الأسباب التي يمكن تحقيق هذا الفرض بها . . إن الملاحظة للشىء ، هى الطريق الطبيعي

(216/646)

---

للكشف عن حقيقته . . وليس مثل هذا العرض الذي عرضه القرآن الكريم للقمر داعية إلى الملاحظة والتأمل ، لو أن ذلك وجد هما متطلعة ، وعزائم جادة . . ! !

قوله تعالى : « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » أي أن من قدرة اللّه سبحانه وتعالى ، ومن إحكام علمه ، أن أجرى هذه العوالم بعلمه ، وسخّرها بقدرته ، وأقامها على نظام محكم ، وأجراها فى مجار لا تتعداها . .

فلا يصطدم بعضها ببعض ، ولا يأخذ بعضها من بعض وضعا غير الذي أقامه اللّه فيه . .

فلا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر . فهى مع سرعتها المذهلة ، التي تبلغ ألوف المرّات بالنسبة لسرعة القمر فإنها لا تدركه . .

فهى لها فلك تدور فيه ، كما للقمر فلكه الذي يدور فيه . .

وكما أن الشمس لا تدرك القمر ، كذلك الليل لا يسبق النهار ، إنهما يجريان بحيث يتبع أحدهما الآخر ، دون أن يسبقه . . «وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» ، .

وجعل الليل وراء النهار ، لأن النهار أسبق من الليل هى دورة الأرض حول نفسها من الغرب إلى الشرق . . فالأرض فى دورانها حول نفسها من الغرب إلى الشرق ، إنما تجرى نحو النور ، ومن وراء النور الظلام . . فالنور دائما أمام الظلام ، وهما معا فى حركة وجريان . فالآية الكريمة تشير إلى حركة الأرض وإلى دورانها حول نفسها من الغرب إلى الشرق . .

واستعمل مع هذه العوالم ضمير العقلاء - إشارة إلى هذا النظام المحكم



---

المسك بها ، والذي يقيمها على طريق مستقيم ، كما يقيم العقل السليم صاحبه على طريق مستقيم . .

قوله تعالى : «وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» .

أي ومن آياتنا التي نعرضها على هؤلاء المشركين ، والتي تحمل إليهم الدلائل على قدرتنا ، وإحساننا ـ أننا «حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» .

والفلك . يطلق على الواحد والجمع من السفن ، قال تعالى : «فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا» . فهى هنا سفينة واحدة ، وقال تعالى : «حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ . » وهى هنا جمع . . والمراد بها فى الآية الجمع كذلك ، لأنه وصف بمذكر ، وهو قوله تعالى : «الْمَشْحُونِ» ، وعاد عليها الضمير كذلك مذكرا فى قوله تعالى : «وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ» . .

فعومل بهذا معاملة الجنس . . والمشحون : الممتلئ . .

والمراد بالذرية : الأبناء ، وهى ، تجمع على ذرارى ، وذريات ، وأصلها من الذرء ، وهو إظهار الشيء ، يقال ذرأ اللّه الخلق ، أي أوجد أشخاصهم ، والذرأة بياض الشعر . .

وفى الإشارة إلى حمل ذرياتهم دون حمل آبائهم إلفات إلى ما تحمل الفلك لهم من فلذات أكباد ، ونفائس أموال وأمتعة ، فتحفظها ، وتصل بها إلى غايتها . . وفى هذا ما يريهم فضل اللّه عليهم ، وإحسانه بهم ، فقد لا يرى الإنسان فضل النعمة ، ولا يقدرها قدرها إذا هى لبسته هو ، فإذا رآها فى غيره عرف لها قدرها ، وذكر فضلها . .

قوله تعالى : « وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ » معطوف على قوله تعالى : « حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ » أي وآية لهم أنا خلقنا لهم من مثل هذا الفلك ، مراكب يركبونها فى البر ، وهى الإبل التي تسمى سفائن الصحراء ، والخيل ، والبغال والحمير ، وغيرها مما يركب ، ويحمل عليه . .

قوله تعالى : « وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ . . »

أي أنه إذا كان من قدرة اللّه أن سخّر الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، فلا يغرق راكبوهم فإن من قدرته سبحانه أن يغرق هذه السفن ، بمن فيها من أولاد وأموال ، فلا يجدون من يسمع لهم صراخا ، أو يستجيب لهم ، أو يقدر على إنقاذهم إن سمع واستجاب . . فهم هلكى لا محالة ، إلّا أن تداركهم رحمة اللّه ، وإلا أن تكون لهم بقية من أجل . .

فقوله تعالى : « إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ » استثناء من قوله تعالى : « فَلا صَرِيخَ لَهُمْ » أي لا ينقذهم منقذ أبدا إلا رحمة اللّه ، وما لهم من أجل لم ينته بعد . . انتهى انتهى . اهـ ﴿التفسير القرآنى للقرآن حـ 12 صـ 932.936﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) ﴾

انتقال إلى دلالة مظاهر العوالم العلوية على دقيق نظام الخالق فيها مما تؤذن به المشاهدة مع التبصر .

وابتدىء منها بنظام الليل والنهار لتكرر وقوعه أمام المشاهدة لكل راءٍ .

وجملة ﴿ نسلخ منه النهار ﴾ تحتمل جميع الوجوه التي ذكرناها في جملة ﴿ أَحْيَيناهَا ﴾ [ يس : 33 ] آنفاً .

والسلخ : إزالة الجلد عن حيوانه ، وفعله يتعدّى إلى الجلد المزال بنفسه على المفعولية ، ولذلك يقال للجلد المزال من جسم الحيوان : سِلخ ( بكسر السين وسكون اللام ) بمعنى مسلوخ ، ولا يقال للجسم الذي أزيل جلده : سلخ .

ويتعدّى فعل سلَخ إلى الجسم الذي أزيل جلده بحرف الجر ، والأكثر أنه ( مِن ) الابتدائية ، ويتعدى بحرف ( عن ) أيضاً لما في السلخ من معنى المباعدة والمجاوزة بعد الاتصال .

فمفعول ﴿ نَسْلَخُ ﴾ هنا هو ﴿ النَّهَارَ ﴾ بلا ريب ، وعدي السلخ إلى ضمير ﴿ اللَّيْلُ ﴾ بـ ( من ) فصار المعنى : الليل آية لهم في حال إزالةِ غشاء نور النهار عنه فيبقى عليهم الليل ، فشبه النهار بجلد الشاة ونحوها يغطي ما تحته منها كما يغطي النهار ظلمةَ الليل في الصباح .

وشبه كشف النهار وإزالته بسلخ الجلد عن نحو الشاة فصار الليل بمنزلة جسم الحيوان

المسلوخ منه جلده ، وليس الليل بمقصود بالتشبيه وإنما المقصود تشبيه زوال النهار عنه فاستتبع ذلك أن الليل يبقى شبه الجسم المسلوخ عنه جلده .

ووجه ذلك أن الظلمة هي الحالة السابقة للعوالم قبل خلق النور في الأجسام النيّرة لأن الظلمة عدم والنور وجود ، وكانت الموجودات في ظلمة قبل أن يخلق الله الكواكب النيّرة ويُوصِل نورها إلى الأجسام التي تستقبلها كالأرض والقمر .



---

وإذا كانت الظلمة هي الحالة الأصلية للموجودات فليس يلزم أن تكون أصلية للأرض لأن الظاهر أن الأرض انفصلت عن الشمس نيرة وإنما ظلمة نصف الكرة الأرضية إذا غشيها نور الشمس معتبرة كالجسم الذي غشيه جلده فإذا أزيل النور عادت الظلمة فشبه ذلك بسلخ الجلد عن الحيوان كما قال تعالى في مقابله في سورة الرعد ( 3 ) : ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ فليس في الآية دليل على أن أصل أحوال العالم الأرضي هو الظلمة ولكنها ساقت للناس اعتباراً ودلالة بحالةٍ مشاهدة لديهم ففرع عليه فإذا هم مُظلمونَ ﴾ بناء على ما هو متعارف .

وقد اعتبر أئمة البلاغة الاستعارة في الآية أصلية تبعية ولم يجعلوها تمثيلية لما قدمناه من أن

المقصود بالتشبيه هو حالة زوال نور النهار عن الأفق فتخلفها ظلمة الليل لقوله : ﴿ فَإِذَا هُم مُظلمونَ ﴾ .

وإسناد ﴿ مُظْلِمُونَ ﴾ إلى الناس من إسناد إفعال الذي الهمزة فيه للدخول في الشيء مثل أصبح وأمسى .

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38)

﴿ الشمس ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ اللَّيْلُ ﴾ من قوله : ﴿ وءايَةٌ لهم اللَّيْلُ ﴾ [ يس : 37 ] عطفَ مفرد على مفرد ويقدر له خبر مماثل لخبر الليل ، والتقدير : والشمس آية لهم ، وتكون جملة ﴿ تَجْرِي ﴾ حالاً من ﴿ الشمس ﴾ مثل جملة ﴿ نَسْلَخُ منه النَّهَارَ ﴾ [ يس : 37 ] .

ويجوز أن يكون عطفَ جملة على جملة ويكون قوله : ﴿ تَجْرِي ﴾ خبراً عن ﴿ الشمس ﴾ .

وأيّاما كان فهو تفصيل لإجمال جملة ﴿ وءاية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ [ يس : 37 ] الخ كما دل عليه قوله الآتي : ﴿ ولا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ [ يس : 40 ] ، وكان مقتضى الظاهر من كونه تفصيلاً أن لا يعطف فيقال : الشمسُ تجري لمستقر لها ، فخولف مقتضى الظاهر لأن في هذا التفصيل آيةً خاصة وهي آية سير الشمس والقمر .

وقدم التنبيه على آية الليل والنهار لما ذكرناه هنالك ؛ فكانت آية الشمس المذكورة هنا مراداً بها دليل آخر على عظيم صنع الله تعالى وهو نظام الفصول .

وجملة ﴿ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ يحتمل الوجوه التي ذكرناها في جملة ﴿ أحييناها ﴾ [ يس : 33 ] من كونها حالاً أو بياناً لجملة ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ [ يس : 37 ] أو بدل اشتمال من ﴿ وَءَايَةٌ .

والجري حقيقته : السير السريع وهو لذوات الأرْجل ، وأطلق مجازاً على تنقل الجسم من مكان إلى مكان تنقلاً سريعاً بالنسبة لتنقل أمثال ذلك الجسم ، وغلب هذا الإِطلاق فساوى الحقيقة وأريد به السير في مسافات متباعدة جدّ التباعد فتقطعها في مدة قصيرة بالنسبة لتباعد الأرض حول الشمس .

وهذا استدلال بآثار ذلك السير المعروفةِ للناس معرفةً إجمالية بما يحسبون من الوقت وامتداد الليل والنهار وهي المعرفة لأهل المعرفة بمراقبة أحوالها من خاصة الناس وهم الذين يرقبون منازل تنقلها المسماة بالبروج الاثني عشر ، والمعروفةِ لأهل العلم بالهيئة تفصيلاً واستدلالاً وكل هؤلاء مخاطبون بالاعتبار بما بلغه علمهم .

والمستقر : مكان الاستقرار ، أي القرار أو زمانه ، فالسين والتاء فيه للتأكيد مثل : استجاب بمعنى أجاب .

واللام في ﴿لِمُسْتَقَرٍّ﴾ يجوز أن تكون لام التعليل على ظاهرها، أي تجري لأجل أن تستقر، أي لأجل أن ينتهي جريها كما ينتهي سير المسافر إذا بلغ إلى مكانه فاستقر فيه، وهو متعلق بـ ﴿تجري﴾ على أنه نهاية له لأن سير الشمس لما كانت نهايته انقطاعه نُزِّل الانقطاع عنه منزلة العلة كما يقال: "لِدُوا للموت وابنوا للخراب".

وتنزيل النهاية منزلة العلة مستعمل في الكلام، ومنه قوله تعالى: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ [القصص: 8].

والمعنى: أنها تسير سيرا دائباً مشاهداً إلى أن تبلغ الاحتجاب عن الأنظار.

(222/646)

---

ويجوز أن تكون اللام بمعنى (إلى)، أي تجري إلى مكان استقرارها وهو مكان الغروب، شبه غروبها عن الأبصار بالمستقَر والمأوَى الذي يأوي إليه المرء في آخر النهار بعد الأعمال.

وقد ورد تقريب ذلك في حديث أبي ذر الهروي في صحيحي "البخاري" و"مسلم" و"جامع الترمذي" بروايات مختلفة حاصل ترتيبها أنه قال:

"كنتُ مع رسول الله في المسجد عند غروب الشمس فسألته (أو فقال): إن هذه تجري

حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخرَّ ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها : ارتفعي ارجعي من حيث جئت فترجع فتصبح طالعةً من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة ولا تزال كذلك حتى يقال لها : ارتفعي ارجعي من حيث جئت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش فيقال لها : ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك فتصبح طالعة من مغربها فذلك مستقرّ لها ومستقرها تحت العرش فذلك قوله تعالى : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ " وهذا تمثيل وتقريب لسير الشمس اليومي الذي يبتدىء بشروقها على بعض الكرة الأرضية وينتهي بغروبها على بعض الكرة الأرضية ، في خطوط دقيقة ، وبتكرر طلوعها وغروبها تتكون السنة الشمسية .

وقد جعل الموضع الذي ينتهي إليه سيرها هو المعبر عنه بتحت العرش وهو سمت معيّن لا قبل للناس بمعرفته ، وهو منتهى مسافة سيرها اليومي ، وعنده ينقطع سيرها في إبان انقطاعه وذلك حين تطلع من مغربها ، أي حين ينقطع سير الأرض حول شعاعها لأن حركة الأجرام التابعة لنظامها تنقطع تبعاً لانقطاع حركتها هي وذلك نهاية بقاء هذا العالم الدنيوي .

واللام في قوله ﴿ لها ﴾ لام الاختصاص وهو صفة ﴿ لِمُسْتَقَر ﴾ .

وعُدل عن إضافة مستقر لضمير الشمس المغنية عن إظهار اللام إلى الإتيان باللام ليتأتى تنكير "مستقر" تنكيراً مشعراً بتعظيم ذلك المستقر.

(223/646)

---

وكلام النبي صلى الله عليه وسلم هذا تمثيل لحال الغروب والشروق اليوميين.

وجعل سجود الشمس تمثيلاً لتسخرها لتسخير الله إياها كما جعل القول تمثيلاً له في آية ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ [فصلت: 11].

واعلم أن قوله: ﴿ لِمُستقر لها ﴾ إدماج للتعليم في التذكير وليس من آية الشمس للناس لأن الناس لا يشعرون به فهو كقوله تعالى: ﴿ ليقضى أجل مسمى ﴾ [الأنعام: 60] عقب الامتنان بقوله: ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ﴾ [الأنعام: 60].

والإشارة بـ ﴿ ذلك تقديرُ العَزِيزِ العلِيمِ ﴾ إلى المذكور: إما من قوله: ﴿ والشَّمْسُ تَجْرِي ﴾ أي ذلك الجري، وإما منه ومن قوله: ﴿ وءايَة لهم اللَّيْلُ ﴾ [يس: 37] أي ذلك المذكور من تعاقب الليل والنهار.

وذكر صفتي ﴿ العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾ لمناسبة معناهما للتعلق بنظام سير الكواكب، فالعزة

تناسب تسخير هذا الكوكب العظيم ، والعلم يناسب النظام البديع الدقيق ، وتقدم تفصيله عند قوله تعالى : ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً ﴾ في سورة الفرقان ﴾ (61) .

وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39)

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وروح عن يعقوب برفع ﴿ والقَمَرُ ﴾ فهو إما معطوف على ﴿ والشمس تجري ﴾ [يس : 38] عطفَ المفردات ، وإما مبتدأ والعطف من عطف الجمل .

وجملة ﴿ قَدَّرْنَاهُ ﴾ إما حال وإما خبر .

وقرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر ورويس عن يعقوب وخلفٌ بنصب ﴿ القمرَ ﴾ على الاشتغال فهو إذن من عطف الجمل .

وتقدّم تفسير منازل القمر عند قوله تعالى : ﴿ وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ في سورة يونس ﴾ (5) .

والتقدير : يطلق على جعل الأشياء بقدْر ونظام محكم ، ويطلق على تحديد المقدار من شيء تطلب معرفة مقداره مثل تقدير الأوقات وتقدير الكميات من الموزونات والمعدودات ، وكلا الإِطلاقين مراد هنا .

فإن الله قدّر للشمس والقمر نظامَ سيرهما وقدّر بذلك حساب الفصول السنوية والأشهر والأيام والليالي .

وعُدّي فعل ﴿ قَدَّرْنَاهُ ﴾ إلى ضمير ﴿ القمر ﴾ الذي هو عبارة عن ذاته وإنما التقدير لسيره ولكن عدي التقدير إلى اسم ذاته دون ذكر المضاف مبالغة في لزوم السَّير له من وقت خَلقه حتى كأنَّ تقدير سيره تقدير لذاته .

وانتصب ﴿ مَنَازِلَ ﴾ على الظرفية المكانية مثل : سرت أميالاً ، أي قدرنا سيره في منازل ينتقل بسيره فيها منزلة بعد أخرى .

و﴿ حتى ﴾ ابتدائية ، أي ليست حرف جر فإن ما بعدها جملة .

ومعنى الغاية لا يفارق ﴿ حتى ﴾ فآذن ما فيها من معنى الغاية بمغيًا محذوف فالغاية تستلزم ابتداء شيء .

والتقدير : فابتدأ ضوؤه وأخذ في الازدياد ليلة قليلة ثم أخذ في التناقص حتى عاد ، أي صار كالعرجون القديم ، أي شبيهاً به .

وعبر عنه بهذا التشبيه إذ ليس لضوء القمر في أواخر لياليه اسم يعرف به بخلاف أول

أجزاء ضوئه المسمّى هلالاً ، ولأن هذا التشبيه يماثل حالة استهلاله كما يماثل حالة انتهائه .

و﴿ عَادَ ﴾ بمعنى صار شكله للرائي كالعرجون .

والعرجون : العود الذي تخرجه النخلة فيكون الثمر في منتهاه وهو الذي يبقى متصلاً بالنخلة بعد قطع الكَبَاسَة منه وهي مجتمع أعواد التمر .

و﴿ القديم ﴾ : هو البالي لأنه إذا انقطع الثمر تَقوس واصفَارّ وتضاءل فأشبه صورة ما يواجه الأرض من ضوء القمر في آخر ليالي الشهر وفي أول ليلة منه ، وتركيب ﴿ عَادَ كالعُرجُونِ القَدِيمِ ﴾ صالح لصورة القمر في الليلة الأخيرة وهي التي يعقبها المحاق ولصورته في الليلة الأولى من الشهر هو الهلال .

وقد بُسط لهم بيان سير القمر ومنازله لأنهم كانوا يتقنون علمه بخلاف سير الشمس .

(225/646)

---

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)

لما جرى ذكر الشمس والقمر في معرض الآيات الدالة على انفراده تعالى بالخلق والتدبير وعلى صفات إلهيته التي من متعلِّقاتها تعلق صفة القدرة بآية الشمس وسيرها ، والقمر

وسيره ، وقد سمّاها بعض المتكلمين صفات الأفعال وكان الناس يعرفون تقارب الشمس والقمر فيما يراه الراءون ، وكانوا يقدرون سيرهما بأسمات معلَّمة بعلامات نجومية تسمى بُروجاً بالنسبة لسير الشمس ، وتسمى منازل بالنسبة لسير القمر ، وكانوا يعلمون شدة قرب المنازل القمرية من البروج الشمسية فإن كل برج تسامته منزلتان أو ثلاث منازل ، وبعض نجوم المنازل هي أجزاء من نجوم البروج ، زادهم الله عبرة وتعليماً بأن للشمس سيراً لا يلاقي سير القمر ، وللقمر سيراً لا يلاقي سير الشمس ولا يمر أحدهما بطرائق مسير الآخر وأن ما يتراءى للناس من مشاهدة الشمس والقمر في جو واحد وفي حجمين متقاربين ، وما يتراءى لهم من تقارب نجوم بروج الشمس ونجوم منازل القمر ، إن هو إلا من تخيلات الأبصار وتفاوت المقادير بين الأجرام والأبعاد .

فالكرة العظيمة كالشمس تبدو مقاربة لكرة القمر في المرأى وإنما ذلك من تباعد الأبعاد فأبعاد فلك الشمس تفوت أبعاد فلك القمر بمئات الملايين من الأميال ، حتى يلوح لنا حجم الشمس مقارباً لحجم القمر .

فبين الله أنه نظم سير الشمس والقمر على نظام يستحيل معه اتصال إحدى الكرتين بالأخرى لشدة الأبعاد بين مداريهما .

فمعنى : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبغي لها أن تُدْرِكَ القَمَر ﴾ نفي انبغاء ذلك ، أي نفي تأتّيه ، لأن انبغى مطاوع بغى الذي هو بمعنى طلب ، فانبغى يفيد أن الشيء طُلب فحصل للذي طَلبه

، يقال : بغاه فانبغَى له ، فإثبات الانبغاء يفيد التمكن من الشيء فلا يقتضي وجوباً ، ونفي الانبغاء يفيد نفي إمكانه ولذلك يكنى به عن الشيء المحظور .

(226/646)

---

يقال : لا ينبغي لك كذا ، ففرقٌ ما بين قولك : ينبغي أن لا تفعل كذا ، وبين قولك : لا ينبغي لك أن تفعل كذا ، قال تعالى : ﴿ قالوا سبحانك ما كان ينبغي أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ [ الفرقان : 18 ] وتقدم قوله تعالى : ﴿ وما ينبغي للرحمان أن يتخذ ولداً ﴾ في سورة مريم ( 92 ) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ [ يس : 69 ] في هذه السورة .

والإِدراك : اللحاق والوصول إلى البُغية فقوله : ﴿ أن تُدرك ﴾ فاعل ﴿ يَنْبَغِي ﴾ فأفاد الكلام نفي ابنغاء إدراك الشمسسِ القمرَ .

والمعنى : نفي أن تصطَدم الشمس بالقمر ، خلافاً لما يبدو من قرب منازلهما فإن ذلك من المسامتة لا من الاقتراب .

وصوغ هذا بصيغة الإِخبار عن المسند إليه بالمسند الفعلي لإِفادة تقوّي حكم النفي فذلك أبلغ في الانتفاء مما لو قيل : لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر .

وافتتاح الجملة بحرف النفي قبل ذكر الفعل المنفي ليكون النفي متقرراً في ذهن السامع أقوى مما لو قيل : الشمسُ لا ينبغي لها أن تدرك القمر ، فكان في قوله : ﴿ لا الشَّمْسُ ينبغي لها أن تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ خُصوصيتان .

ولَمَّا ذكر الشمس والقمر وكانت الشمس مقارنة للنهار في مخيلات البشر ، وكان القمر مقارناً لليل ، وكان في نظام الليل والنهار منافع للناس اعترض بذكر نظام الشمس والقمر أثناء الاعتبار بنظام الليل والنهار .

ومعنى : ﴿ ولاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ أن الليل ليس بمفلتٍ للنهار ، فالسبق بمعنى التخلص والنجاة ، كقول مُرة بن عَدَّاء الفقعسي :

كأَنَّكَ لَم تَسبَقْ من الدهر مَرَّةً

إذا أنتَ أدركت الذي كنتَ تطلب . . .

﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ﴾ في سورة العنكبوت ﴿ ( 4 ) ،

والمعنى : أن انسلاخ النهار على الليل أمر مسخّر لا قبل لليل أن يتخلف عنه .

ولا يستقيم تفسير السبق هنا بمعناه المشهور وهو الأوَّلية بالسير لأن ذلك لا يُتصور في تداول الليل والنهار ، ولا أن يكون المراد بالسبق ابتداءَ التكوين إذ لا يتعلق بذلك غرض مهم في الآية ، على أن الشأن أن تكون الظلمة أسبق في التكوين .

والغرض التذكير بنعمة الليل ونعمة النهار فإن لكليهما فوائد للناس فلو تخلص أحدهما من الآخرِ فاستقرّ في الأفق لتعطلت منافع جمّة من حياة الناس والحيوان .

وفي الكلام اكتفاء ، أي لأن التقدير : ولا القمرُ يدرك الشمسَ ، ولا النهارُ سابق الليل .

وقوله : ﴿ وكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ عطف على جملة ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ .

والواو عاطفة ترجيحاً لِجانب الإِخبار بهذه الحقيقة على جانب التذييل ، وإلا فحقّ التذييل الفصل .

وما أضيف إليه ﴿ كلّ ﴾ محذوف ، وتنوين ﴿ كل ﴾ تنوين عوض عن المضاف إليه المحذوفِ ، فالتقدير : وكلّ الكواكب .

وزيدت قرينة السياق تأكيداً بضمير الجمع في قوله : ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ مع أن المذكور من قبل شيئان لا أشياء ، وبهذا التعميم صارت الجملة في معنى التذييل .

والفَلَك : الدائرة المفروضة في الخلاء الجوّي لسير أحد الكواكب سيراً مطّرداً لا يحيد عنه ، فإن أهل الأرصاد الأقدمين لما رصدوا تلك المدارات وجدوها لا تتغير ووجدوا نهايتها

تتصل بمبتداها فتوهموها طرائق مستديرة تسير فيها الكواكب كما تتقلب الكرة على الأرض وربما توسعوا في التوهم فظنوها طرائق صلبة ترتكز عليها الكواكب في سيرها وبعض الأمم يتوهمون الشمس في سيرها مجرورة بسلاسل وكلاليب وكان ذلك في معتقد القبط بمصر .

*(228/646)*

---

وسمّى العرب تلك الطرائق أفلاكاً واحدها فَلَك اشتقوا له اسماً من اسم فَلْكَة المِغْزَل ، وهي عُود في أعلاه خشبة مستديرة متبطحة مثل التفاحة الكبيرة تلفُّ المرأة عليها خيوط غزلها التي تفتلها لتديرها بكفّيها فتلتف عليها خيوط الغزل ، فتوهموا الفلك جسماً كُروياً وتوهموا الكواكب موضوعة عليه تدور بدورته ولذلك قدروا الزمان بأنه حركة الفَلَك .

وسمّوا ما بين مبدأ المُدّتين حتى ينتهي إلى حيث ابتدأ دورة الفلك .

ولكن القرآن جاراهم في الاسم اللغوي لأن ذلك مبلغ اللغة وأصلح لهم ما توهموا بقوله : ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ ، فبطل أن تكون أجرام الكواكب ملتصقة بأفلاكها ولزم من كونها سابحة أن طرائق سيرها دوائر وهمية لأن السبح هنا سبح في الهواء لا في الماء ، والهواء لا تخطط فيه الخطوط ولا الأخاديد .

وجيء بضمير ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ ضمير جمع مع أن المتقدم ذِكره شيئان هما الشمس والقمر لأن المراد إفادة تعميم هذا الحكم للشمس والقمر وجميع الكواكب وهي حقيقة علمية سبق بها القرآن .

وجملة ﴿ كل في فلك ﴾ فيها محسن الطرد والعكس فإنها تقرأ من آخرها كما تقرأ من أولها .

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41)

انتقال من عدّ آيات في الأرض وفي السماء إلى عد آية في البحر تجمع بين العبرة والمنة وهي آية تسخير الفُلك أن تسير على الماء وتسخير الماء لتطفو عليه دون أن يغرقها .

وقد ذكَّر الله الناس بآية عظيمة اشتهرت حتى كانت كالمشاهدة عندهم وهي آية إلهام نوح صنع السفينة ليحمل الناس الذين آمنوا ويحمل من كل أنواع الحيوان زوجين لينجي الأنواع من الهلاك والاضمحلال بالغرق في حادث الطوفان .

ولما كانت هذه الآية حاصلة لفائدة حمل أزواج من أنواع الحيوان جُعلت الآية نفس الحمل إدماجاً للمنة في ضمن العبرة فكأنه قيل : وآية لهم صنع الفُلك لنحمل ذرياتهم فيه فحملناهم .

وأطلق الحَمل على الإِنجاء من الغرق على وجه المجاز المرسل لعلاقة السببية والمسببية ، أي أنجينا ذرياتهم من الغرق بحملهم في الفُلك حين الطوفان .

والذريات : جمع ذرية وهي نسل الإِنسان .

و ﴿ الفلك المشحون ﴾ : هو المعهود بين البشر في قصة الطوفان ، وهو هنا مفرد بقرينة وصفه بالمفرد وهو ﴿ المَشْحُونِ ﴾ ولم يقل : المشحونة كما قال : ﴿ وترى الفلك فيه مواخر ﴾ [ فاطر : 12 ] وهو فلك نوح فقد اشتهر بهذا الوصف في القرآن كما في سورة الشعراء ( 119 ) ﴿ فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ﴾ ولم يوصف غير فلك نوح بهذا الوصف .

وتعدية حَمَلْنَا ﴾ إلى الذريات تعدية على المفعولية المجازية وهو مجاز عقلي فإن المجاز العقلي لا يختص بالإِسناد بل يكون المجاز في التعليق فإن المحمول أصول الذريات لا الذريات وأصولها ملابسة لها .

ولما كانت ذريات المخاطبين مما أراد الله بقاءه في الأرض حين أمر نوحاً بصنع الفلك لإِنجاء الأنواع وأمره بحمل أزواج من الناس هم الذين تولد منهم البشر بعد الطوفان نُزّل البشر كله منزلة محمولين في الفلك المشحون في زمن نوح ، وذكر الذريات يقتضي أن أصولهم محمولون بطريق الكناية إيجازاً في الكلام ، وأن أنفسهم محمولون كذلك كأنه قيل : إنا حملنا أُصولهم

وحملناهم وحملنا ذرياتهم، إذ لولا نجاة الأصول ما جاءت الذرّيات، وكانت الحكمة في حمل الأصول بقاء الذريات فكانت النعمة شاملة للكل، وهذا كالامتنان في قوله: ﴿ إنّا لمّا طغى الماءُ حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة ﴾ [الحاقة: 11، 12].

*(230/646)*

---

وضمير ﴿ ذُرِّيَّاتَهُم ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ أي العباد المراد بهم المشركون من أهل مكة لكنهمْ لوحظوا هنا بعنوان كونهم من جملة البشر، فالمعنى: آية لهم أنا حملنا ذريات البشر في سفينة نوح وذلك حين أمر الله نوحاً بأن يحمل فيها أهله والذين آمنوا من قومه لبقاء ذريات البشر فكان ذلك حملاً لذرياتهم ما تسلسلت كما تقدم آنفاً.

هذا هو تأويل هذه الآية قال القرطبي: وهي من أشكل ما في السورة، وقال ابن عطية: "قد خلط بعض الناس حتى قالوا: الذرية تطلق على الآباء وهذا لا يعرف من اللغة" وتقدم قوله:

﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ﴾ في سورة الأعراف (172).

وقرأ نافع وابن عامر ﴿ ذرياتهم ﴾ بلفظ الجمع.

وقرأه الباقون بدون ألف بصيغة اسم الجمع، والمعنى واحد.

وقد فهم من دلالة قوله : ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّاتَهُمْ ﴾ صريحاً وكناية أن هذه الآية مستمرة لكل ناظر إذ يشهدون أسفارهم وأسفار أمثالهم في البحر وخاصة سكان الشطوط والسواحل مثل أهل جُدة وأهل يُنْبُع إذ يسافرون إلى بلاد اليمن وبلاد الحبشة فيفهم منه : أنا حملنا ونحمل وسنحمل أسلافهم وأنفسهم وذرياتهم .

وقد وصف طرفة السفن في معلّقته .

وجملة ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ معترضة في خلال آية البحر اقتضتها مراعاة النظير تذكيراً بنعمة خلق الإبل صالحة للأسفار فحُكيت آية الإلهام بصنع الفلك من حيث الحكمة العظيمة في الإلهام وتسخير البحر لها وإيجادها في وقت الحاجة لحفظ النوع ، فلذلك لم يؤت في جانبها بفعل الخلق المختص بالإيجاد دون صنع الناس .

(231/646)

---

وحكيت آية اتخاذ الرواحل بفعل ﴿ خلقنا ﴾ ، ونظير هذه المقارنة قوله تعالى : ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ [ الزخرف : 12 ] ، فَمَا صدْق ﴿ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ هنا هو الرواحل خاصة لأنها التي تشبه الفلك في جعلها قادرة على قطع الرمال كما جعل الفلك صالحاً لمخْر البحار ، وقد سمت العرب الرواحل سفائن البرّ و ﴿ مِن ﴾ التي

في قوله : ﴿ مِن مِثلِهِ ﴾ بيانية بتقديم البيان على المبين وهو جائز على الأصح ، أو مؤكدة

ومجرورها أصله حال من ﴿ ما ﴾ الموصولة في قوله : ﴿ ما يركَبُون ﴾ .

والمراد المماثلة في العظمة وقوة الحمل ومداومة السير وفي الشكل .

وجملة ﴿ وإن نَشأْ نُغْرِقْهُم ﴾ عطف على جملة ﴿ أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّاتَهُم ﴾ باعتبار دلالتها

الكنائية على استمرار هذه الآية وهذه المنة تذكيراً بأن الله تعالى الذي امتنّ عليهم إذا شاء

جعل فيما هو نعمة على الناس نقمة لهم لحكمة يعلمها .

وهذا جرى على عادة القرآن في تعقيب الترغيب بالترهيب وعكسِهِ لئلا يبطر الناس

بالنعمة ولا ييأسوا من الرحمة .

وقرينة ذلك أنه جيء في هذه الجملة بالمضارع المتمحّض في سياق الشرط لكونه مستقبلاً ،

وهذا كقوله تعالى : ﴿ أفأمِنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا

تجدوا لكم وكيلاً أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح

فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ [ الإسراء : 6869 ] .

والصريخ : الصارخ وهو المستغيث المستنجد تقول العرب : جاءهم الصريخ ، أي المنكوب

المستنجد لينقذوه ، وهو فعيل بمعنى فاعل .

ويطلق الصريخ على المغيث فعيل بمعنى مفعول ، وذلك أن المنجد إذا صرخ به المستنجد

صرخ هو مجيباً بما يطمئن له من النصر .

وقد جمع المعنيين قول سلامة بن جندل أنشده المبرد في "الكامل

" :

إنا إذا أتانا صارخ فزع

كان الصُراخ له قَرع الظَنابيب . . .

والظنابيب : جمع ظُنبوب وهو مسمار يكون في جُبة السنان .



---

وقرع الظنابيب تفقد الأسنة استعداداً للخروج .

والمعنى : لا يجدون من يستصرخون به وهم في لُجج البحر ولا ينقذهم أحد من الغرق .

والإنقاذ : الانتشال من الماء .

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في قوله : ﴿ ولا هم يُنقَذُونَ ﴾ لإفادة تقوّي الحكم

وهو نفي إنقاذ أحدٍ إياهم .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلاَّ رَحْمَةً ﴾ منقطع فإن الرحمة ليست من الصريخ ولا من المنقذ

وإنما هي إسعاف الله تعالى إياهم بسكون البحر وتمكينهم من السبح على أعواد الفلك .

و﴿ وَمَتَاعاً ﴾ عَطف على ﴿ رَحْمَةً ﴾ ، أي إلاّ رحمة هي تمتيع إلى أجل معلوم فإن كل

حي صائر إلى الموت فإذا نجا من موته استقبلته موتة أخرى ولكن الله أودع في فطرة الإنسان حبّ زيادة الحياة مع علمه بأنه لا محيد له عن الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

(233/646)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يس (1) ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قرأ العامَّةُ "يَسِيْنْ" بسكونِ النونِ . وأظهر النونَ عند الواوِ بعدَها ابنُ كثير وأبو عمروٍ وحمزةُ وحفصٌ وقالونُ وورشٌ بخلافٍ عنه ، وكذلك النونُ مِنْ ﴿ ن والقلم ﴾ [ القلم : 1 ] وأدغمهما الباقون . فَمَنْ أَدْغَمَ فللخِفَّةِ ، ولأنَّه لَمَّا وَصَل والتقى متقاربان مِنْ كلمتَين أوَّلُهما ساكنٌ وَجَبَ الإِدغامُ . ومَنْ أظهرَ فللمبالغةِ في تفكيكِ هذه الحروفِ بعضِها من بعض لأنه بنيَّةِ الوَقْفِ ، وهذا أَجْرى على القياسِ في الحروفِ المقَطَّعَةِ ولذلك التقى فيها الساكنان وَصْلاً ، ونَقَل إليها حركةَ همزةِ الوصلِ على رَأْيٍ نحو : ﴿ ألف لام ميم الله ﴾

كما تقدَّم تقريرُه .

وأمال الياءَ مِنْ " يس " الأخَوان وأبو بكر لأنها اسمٌ من الأسماءِ كما تقدَّم تقريرُه أولَ البقرةِ .

قال الفارسيُّ : " وإذا أمالوا " يا " وهي حرفُ نداءٍ فلأَنْ يُميلوا " يا " مِنْ يس أجدرُ " .

وقرأ عيسى وابنُ أبي إسحاق بفتح النون : إمَّا على البناءِ على الفتح تخفيفاً كأَيْن وكيفَ ، وإمَّا على أنَّه مفعولٌ ب " اتْلُ " ، وإمَّا على أنَّه مجرورٌ بحرفِ القسمِ . وهو على الوجهَيْن غيرُ منصرفٍ للعَلَميَّةِ والتأنيث . ويجوز أَنْ يكونَ منصوباً على إسقاطِ حرفِ القسمِ ، كقولِه :

3774 . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . فذاكَ أمانةَ اللَّهِ

الثَّريدُ

(234/646)

---

وقرأ الكلبي بضم النون . فقيل : على أنها خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هذه يس ، ومُنِعَتْ من الصرفِ لِما تقدَّم . وقيل : بل هي حركةُ بناءٍ كحيث فيجوز أَنْ يكونَ خبراً كما تقدَّم ، وأَنْ يكونَ مُقْسَماً بها نحو : " عَهْدُ اللَّهِ لأفعلَنَّ " . وقيل : لأنها منادى فبُنِيَتْ على الضم ؛ ولهذا فَسَّرها الكلبيُّ القارئُ لها ب " يا إنسانُ " قال : " وهي لغةُ طِيِّئ " . قال الزمخشري

: " إنْ صَحَّ معناه فوجهُه أن يكونَ أصلُه يا أُنَيْسِيْنُ فكَثُر النداءُ به على ألسنتِهم ، حتى اقتصروا على شَطْرِه ، كما قالوا في القسم : مُ اللهِ في " أيْمُنُ اللَّهِ " . قال الشيخ : " والذي نُقِل عن العرب في تصغير إنْسان : أُنَيْسِيان بياءٍ بعدها ألفٌ فدلَّ على / أنَّ أصلَه إنْسِيان ؛ لأنَّ التصغيرَ يَرُدُّ الأشياءَ إلى أصولها ، ولا نعلمُ أنَّهم قالوا في تصغيره : أُنَيْسِين . وعلى تقدير أنه يُصَغَّر كذلك فلا يجوز ذلك ، إلاَّ أَنْ يُبنى على الضمِّ ؛ لأنه منادى مُقْبَلٌ عليه ومع ذلك فلا يجوز لأنه تحقيرٌ ، ويمتنعُ ذلك في حقِّ النبوة " . قلت : أمَّا الاعتراضُ الأخيرُ فصحيحٌ نصُّوا على أنَّ التصغيرَ لا يَدْخُلُ في الأسماءِ المعظمةِ شَرْعاً . ولذلك يُحْكى أنَّ ابنَ قتيبة لَمَّا قال في المُهَيْمن : إنَّه مصغرٌ مِنْ مُؤْمِن ، والأصل مُؤَيْمِن ، فأُبْدِلَتِ الهمزةُ هاءً . قيل له : هذا يقرُبُ من الكفرِ فليتَّقِ اللَّهَ قائلُه . وقد تقدَّمَتْ هذه الحكايةُ في المائدةِ مطوَّلَةً وما قيل فيها . وقد تقدَّم للزمخشريِّ في طه ما يَقْرُبُ من هذا البحثِ ، وتقدَّم للشيخ معه كلامٌ .

واقرأ ابنُ أبي إسحاق أيضاً وأبو السَّمَّال "يَسنِ" بكسرِ النون ، وذلك على أصلِ التقاءِ الساكنين . ولا يجوزُ أَنْ تكونَ حركةَ إعرابٍ .

وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2)

قوله : ﴿ والقرآن ﴾ : إمّا قسمٌ مستأنفٌ ، إنْ لم يُجْعَلْ ما تقدّم قَسَماً ، وإمّا عَطْفٌ على ما قبلَه إنْ كانَ مُقْسَماً به . وقد تقدَّم كلامٌ عن الخليل في ذلك أول آياتِ البقرة فعليكَ باعتباره هنا ، فإنَّه حَسَنٌ جداً . وتقدَّم الكلامُ على "الحكيم" .

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3)

قوله : ﴿ إنَّكَ ﴾ : جوابُ القسمِ و "على صِراط" يجوزُ أَنْ يكونَ متعلقاً بالمرسَلين . تقول : أَرْسَلْتُ عليه كذا . قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً ﴾ [ الفيل : 3 ] ، وأَنْ يكونَ متعلّقاً بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ من الضميرِ المستكنّ في "لَمِنَ المُرْسَلين" لوقوعِه خبراً ، وأنْ يكونَ حالاً من المرسلين ، وأَنْ يكونَ خبراً ثانياً ل "إنَّك" .

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5)

قوله : ﴿ تنزيلَ ﴾ : قرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وأبو بكر بالرفع على أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هو تنزيل . ويجوزُ أَنْ يكونَ خبراً لمبتدأ إذا جَعَلْتَ يس اسماً للسورة أي : هذه السورة المسمَّاة ب يس تنزيلُ ، أو هذه الأحرفُ المقطعة تنزيلُ . والجملةُ القسميةُ على هذا اعتراضٌ . والباقون بالنصبِ على المصدرِ ، أو على المدح . وهو في المعنى كالرفع على خبر ابتداءٍ مضمر . وتنزيل مصدرٌ مضافٌ لفاعِله . وقيل : هو بمعنى مُنْزَل . وقرأ أبو حيوة واليزيديُّ وأبو جعفر وشيبة "تنزيلِ" بالجرّ على النعتِ للقرآنِ أو البدلِ منه .

لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6)

قوله : ﴿ لِتُنذِرَ ﴾ : يجوزُ أَنْ يتعلَّقَ بـ تنزيل أو بمعنى المرسلين ، يعني بإضمارِ فِعْلٍ يَدُلُّ عليه هذا اللفظُ أي : أَرْسَلْناك لتنذِرَ .



---

قوله : ﴿ مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ ﴾ يجوزُ أَنْ تكونَ " ما " هذه بمعنى الذي ، وأَنْ تكونَ نكرةً موصوفةً . والعائدُ على الوجهين مقدَّرٌ أي : ما أُنْذِرَه آباؤهم فتكونُ " ما " وصلتُها أو وَصْفُها في محلِّ نصب مفعولاً ثانياً لقوله : " لتُنْذِرَ " كقوله : ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً ﴾ [ النبأ : 40 ] والتقدير : لتنذرَ قوماً الذي أُنْذِرَه آباؤهم مِن العذاب ، أو لتنذرَ قوماً عذاباً أُنْذِرَه آباؤهم . ويجوزُ أَنْ تكونَ مصدريةً أي : إنذارَ آبائهم أي : مثلَه . ويجوزُ أَنْ تكونَ نافيةً ، وتكونُ الجملةُ المنفيةُ صفةً لـ " قوماً " أي : قوماً غيرَ مُنْذَرٍ آباؤهم . ويجوزُ أَنْ تكونَ زائدةً أي : قوماً أُنْذِرَ آباؤهم ، والجملةُ المُثبتةُ أيضاً صفةٌ لـ " قوماً " قاله أبو البقاء وهو مُنافٍ للوجهِ الذي قبلَه .

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8)

قوله : ﴿ فَهِىَ إِلَى الأذقان ﴾ : في هذا الضميرِ وجهان ، أحدهما : - وهو المشهورُ - أنه عائدٌ على الأَغْلال ، لأنها هي المُحَدَّثُ عنها ، ومعنى هذا الترتيبِ بالفاءِ : أن الغِلَّ لغِلَظِه

وعَرْضِه يَصِلُ إلى الذَّقَنِ لأنه يَلْبَسُ العُنُقَ جميعَه . الثاني : أن الضميرَ يعودُ على الأَيدي ؛ لأنَّ الغِلَّ لا يكونُ إلاَّ في العُنُقِ واليدين ، ولذلك سُمِّي جامِعَةً . ودَلَّ على الأيدي هذه الملازَمَةُ المفهومةُ من هذه الآلةِ أعني الغِلَّ . وإليه ذهب الطبري . إلاَّ أنَّ الزمخشريَّ قال : " جعل الإِقْماحَ نتيجةَ قولِه : ﴿ فَهِىَ إِلَى الأذقان ﴾ ولو كان للأيدي لم يكن معنى التَّسَبُّبِ في الإِقماحِ ظاهراً . على أنَّ هذا الإِضمارَ فيه ضَرْبٌ من التعسُّفِ وتَرْكِ الظاهر " . /

(237/646)

---

وللناس في هذا الكلامِ قولان ، أحدهما : أنَّ جَعْلَ الأغلالِ حقيقةٌ . والثاني : أنه استعارةٌ . وعلى كلٍّ من القولين جماعةٌ من الصحابةِ والتابعين . وقال الزمخشري : " مَثَّل تصميمَهم على الكفر ، وأنه لا سبيلَ إلى ارْعوائِهم بأنْ جَعَلَهم كالمَغْلُوْلين المُقْمَحِيْن في أنهم لا يَلْتَفِتون إلى الحق ولا يَعْطِفون أعناقَهم نحوَه ، ولا يُطَأْطِئون رؤوسَهم له وكالحاصلين بين سَدَّيْن لا يُبْصِرون ما قُدَّامَهم وما خلْفَهم في أنْ لا تأمُّلَ لهم ولا تَبَصُّرَ ، وأنهم مُتَعامُوْن عن آياتِ الله " . وقال غيره : " هذه استعارةٌ لِمَنْعِ اللَّهِ إياهم مِن الإِيمان وحَوْلِه بينهم وبينه " . قال ابن عطية : " وهذا أَرْجَحُ الأقوال ؛ لأنه تعالى لَمَّا ذَكَرَ أنهم لا يُؤْمنون لما سَبَقَ لهم في الأَزَلِ عَقَّبَ ذلك بأنْ جَعَلَ لهم من المَنْعِ وإحاطةِ الشقاوةِ ما حالُهم معه حالُ المَغْلُوْلين " انتهى .

وتقدَّم تفسيرُ الأذقان .

قوله : " فهم مُقْمَحُوْن " هذه الفاءُ لأحسنِ ترتيب ؛ لأنه لمَّا وَصَلَتِ الأغلالُ إلى الأَذْقان لِعَرْضِها لَزِم عن ذلك ارتفاعُ رؤوسِهم إلى فوقُ ، أو لَمَّا جُمِعَتْ الأيدي إلى الأَذْقان وصارت تحتَها لَزِم مِنْ ذلك رَفْعُها إلى فوقُ ، فترتفعُ رؤوسُهم . والإِقْماح : رَفْعُ الرأسِ إلى فوقُ كالإِقناع ، وهو مِنْ قَمَحَ البعيرُ رَأْسَه إذا رفعَها بعد الشُّرْب : إمَّا لبرودةِ الماءِ وإمَّا لكراهةِ طَعْمِه قُموحاً وقِماحاً بكسرِ القافِ وضمِّها . وأَقْمَحْتُه أنا إقماحاً والجمع قِماح وأنشد :

3775 ونحن على جوانبِها قُعودٌ . . . نَغُضُّ الطَّرْفَ كالإِبلِ القِماحِ

يصفُ نفسَه وجماعةً كانوا في سفينة فأصابهم المَيْدُ . قال الزجاج : " قيل للكانونَيْن شَهْرا قُماح ؛ لأنَّ الإِبلَ إذا وَرَدَتِ الماءَ رَفَعَتْ رؤوسَها لشدَّةِ البردِ " . وأنشد أبو زيد للهذلي :

*(238/646)*

---

3776 فتىً ما ابنُ الأَغَرِّ إذا شَتَوْنا . . . وحُبَّ الزادُ في شَهْرَيْ قُماحِ

كذا رَواه بضمِّ القافِ ، وابن السكيت بكسرِها . وهما لغتان في المصدرِ كما تقدَّم . وقال الليث : القُموح : رَفْعُ البعيرِ رَأْسَه إذا شَرِبَ الماءَ الكريهَ ثم يعودُ . وقال أبو عبيدة : " إذا رَفَعَ رأسَه عن الحوض ، ولم يشرَبْ " والمشهورُ أنه رَفْعُ الرأسِ إلى السماء كما تقدَّم تحريرُه .

وقال الحسن : " القامِحُ : الطامِحُ ببصرِه إلى مَوْضِعِ قَدَمِه " وهذا يَنْبُو عنه اللفظُ والمعنى .

وزاد بعضُهم مَع رَفْعِ الرأس غَضَّ البصرِ مُسْتَدِلاًّ بالبيتِ المتقدم :

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . نَغُضُّ الطَّرْفَ كالإِبِلِ

القِماحِ

وزاد مجاهدٌ مع ذلك وَضْعَ اليدِ على الفم . وسأل الناسُ أميرَ المؤمنين علياً كَرَّم اللَّهُ وجهه عن هذه الآيةِ فجعل يديه تحت لِحْيَيْه ورَفَعَ رأسَه ولعَمْري إنَّ هذه الكيفية تُرَجِّح قولَ الطبريِّ في عَوْدِ " فهي " على الأيدي .

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9)

قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ﴾ : تقدَّم خلافُ القُرَّاء في فتح السين وضمِّها والفرقُ بينهما ، مستوفى في آخر الكهف .

قوله : " فأَغْشَيْناهم " العامَّةُ على الغين المعجمة أي : غَطَّيْنا أبصارَهم فهو على حَذْفِ مضافٍ . وابن عباس وعمر بن عبد العزيز والحسن وابن يعمر وأبو رجاء في آخرين بالعين المهملة ، وهو ضَعْفُ البصرِ . يُقال : عَشِي بَصَرُه وأَعْشَيْتُه أنا ، وقوله تعالى هذا يحتمل الحقيقةَ والاستعارةَ كما تقدَّم .

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10)

قوله : ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ : تقدَّم تحريرُه أولَ البقرة .

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (12)

قوله : ﴿ وَنَكْتُبُ ﴾ : العامَّةُ على بنائِه للفاعل ، فيكونُ " ما قَدَّموا " مفعولاً به ، و " آثارهم " عطفٌ عليه . وزر ومسروق مبنياً للمفعول ، و " آثارُهم " بالرفعِ ، عطف على " ما قدَّموا " لقيامِه مقامَ الفاعل .

قوله : ﴿ وَكُلَّ شيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ ﴾ العامَّةُ على نصبِه على الاشتغالِ . وأبو السَّمَّال قرأه مرفوعاً بالابتداءِ . والأرجحُ قراءةُ العامَّةِ لعطفِ جملةِ الاشتغالِ على جملةٍ فعلية . وقد تقدَّمَ الكلامُ على نحو ﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً ﴾ في البقرة ، والنحل .

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13)

و : ﴿ إِذْ جَآءَهَا ﴾ : بدل اشتمال تقدَّمَ نظيرُه . و " إذْ أَرْسَلْنا " بدلٌ من " إذ " الأولى .

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14)

قوله : ﴿ فَعَزَّزْنَا ﴾ : قرأ/ أبو بكر بتخفيفِ الزاي بمعنى غَلَبْنا ، ومنه قولُه : ﴿ وَعَزَّنِي فِي الخطاب ﴾ [ ص : 23 ] . ومنه قولُهم : " مَنْ عَزَّبَزَّ " أي صار له بَزٌّ . والباقون بالتشديد بمعنى قَوَّينا . يقال : عزَّزَ المطرُ الأرضَ أي : قوَّاها ولبَّدها . ويُقال لتلك الأرضِ

: العَزازُ، وكذا كلُّ أرضٍ صُلْبةٍ . وتَعَزَّزَ لحمُ الناقةِ أي: صَلُبَ وقَوِيَ . وعلى كلتا القراءتَيْن المفعولُ محذوفٌ أي: فَقَوَّيناهما بثالثٍ أو فَغَلَّبْناهما بثالث .

وقرأ عبد الله " بالثالث " بألف ولام .

(240/646)

---

قوله: ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ جَرَّدَ خبرَ " إنَّ " هذه من لام التوكيد ، وأَدْخَلها في خبر الثانيةِ ، لأنَّهم في الأولى استعملوا مجرَّدَ الإنكارِ فقابَلَتْهم الرسُلُ بتوكيدٍ واحدٍ وهو الإتيانُ ب " إنَّ " ، وفي الثانيةِ بالمبالغةِ في الإنكارِ فقابَلَتْهم بزيادةِ التوكيدِ فأتَوْا ب إنَّ وباللام .

قال أهل البيان : الأخبارُ ثلاثةُ أقسامٍ : ابتدائيٌّ وطلبيٌّ وإنكاريٌّ ، فالأولُ يُقال لمن لم يتردَّدْ في نسبةِ أحدِ الطرفين إلى الآخر نحو : زيد عارفٌ ، والثاني لِمَنْ هو متردِّدٌ في ذلك ، طالِبٌ له منكِرٌ له بعضَ إنكارٍ ، فيقال له : إنَّ زيداً عارِفٌ ، والثالثُ لِمَنْ يبالِغُ في إنكارِه ، فيُقال له : إنَّ زيداً لعارفٌ . ومِنْ أحسن ما يُحْكى أن رجلاً جاء إلى أبي العباس الكِنْدِيِّ فقال : إني أجد في كلامِ العربِ حَشْواً قال : وما ذاك؟ قال : يقولون : زيدٌ قائمٌ ، وإنَّ زيداً قائمٌ ، وإنَّ زيداً لَقائمٌ . فقال : " كلا بل المعاني مختلفةٌ ، فزيد قائمٌ إخبارٌ بقيامِه ، وإنَّ زيداً قائمٌ جوابٌ لسؤالِ سائلٍ ، وإنَّ زيداً لَقائمٌ جوابٌ عن إنكارِ مُنْكِرٍ " . قلت : هذا هو الكنديٌّ الذي

سُئِل أن يعارِضَ القرآنَ ففتح المصحفَ فرأى سورةَ المائدةِ فكعَّ عن ذلك . والحكايةُ ذكرتُها أولَ المائدة .

وقال الشيخ : " وجاء أولاً " مُرْسَلون " بغير لام ؛ لأنه ابتداءُ إخبارٍ فلا يَحْتاجُ إلى توكيدٍ ، وبعد المحاورة " لَمُرْسَلون " بلامِ التوكيد ؛ لأنه جوابٌ عن إنكار " وهذا قصورٌ عن فَهْم ما قاله أهلُ البيان ، فإنه جعَلَ المقامَ الثاني وهو الطلبيُّ مكانَ المقامِ الأولِ ، وهو الابتدائيُّ .

قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19)

(241/646)

---

قوله : ﴿ طَائِرُكُم ﴾ : العامَّةُ على " طائر " اسمَ فاعل أي : ما طارَ لكم من الخيرِ والشرِّ فعبَّر عن الحَظِّ والنصيب . وقرأ الحسن - فيما رَوَى عنه الزمخشري - " اطَّيُّرُكم " مصدرُ اطَّيَّر الذي أصلُه تطَيَّر فلمَّا أُرِيْدَ إدغامُه أُبْدِلَتِ التاءُ طاءً ، وسُكِّنَتْ واجْتُلِبَتْ همزةُ الوصلِ فصار اطَّيَّرَ فيكون مصدره اطَّيُّرًا . ولَمَّا ذكر الشيخ هذا لم يَرُدَّ عليه ، وكان هو في بعضِ ما رَدَّ به على ابن مالك في " شرح التسهيل " في باب المصادر قال : " إن مصدرَ تطَيَّر وتدارَأَ إذا أدغما وصارا اطَّيَّرَ وادَّارَأ لا يجيءُ مصدرُهما عليهما بل على أصلهما فيقال : اطَّيَّر تَطَيُّرًا ، وادَّارأ تدارُؤًا ، ولكنَّ هذه القراءةَ تَرُدُّه إنْ صَحَّتْ وهو بعيدٌ . وقد رَوَى

غيرُه عنه " طَيْركم " بياء ساكنة ويَغْلِبُ على الظنّ أنَّها هذه ، وإنما تَصَحَّفَتْ على الرائي فحَسِبها مصدراً ، وظنَّ أنَّ ألف " قالوا " همزةُ وَصْلٍ .

قوله : " أإنْ ذُكِّرْتُمْ " قرأ السبعةُ بهمزةِ استفهام بعدها " إنْ " الشرطيةُ ، وهم على ما عَرَفْتَ مِنْ أصولِهم : من التسهيلِ والتحقيق وإدخالِ ألفٍ بين الهمزتين وعدمِه في سورةِ البقرة . واختلف سيبويهِ ويونسُ إذ اجتمع استفهامٌ وشرطٌ أيُّهما يُجابُ؟ فذهب سيبويهِ إلى إجابةِ الاستفهام ، ويونسُ إلى إجابة الشرطِ ، فالتقديرُ عند سيبويهِ : " أإن ذُكِّرْتُمْ تتطيَّرون " وعند يونسَ " تطيَّرُوا " مجزوماً ، فالجوابُ للشرطِ على القولين محذوفٌ . وقد تقدَّم هذا في سورة الأنبياء .

وقرأ أبو جعفر وطلحة وزرٌّ بهمزتين مفتوحتين إلاَّ أن زرّاً لم يُسَهِّلِ الثانيةَ كقوله :

3777 أأَنْ كُنْتَ داودَ بنَ أحوى مُرَجَّلاً . . . فلستَ براعٍ لابنِ عمِّك مَحْرَما

(242/646)

---

ورُوي عن أبي عمروٍ وزرٍّ أيضاً كذلك ، إلاَّ أنهما فَصَلا بألفٍ بين الهمزتين . وقرأ الماجشون بهمزةٍ واحدةٍ مفتوحة . وتخريجُ هذه القراءاتِ الثلاثِ على حَذْفِ لامِ العلةِ أي : ألَئِنْ ذُكِّرْتم تطيَّرْتُمْ ، ف تَطَيَّرْتُمْ هو المعلولُ ، وأنْ ذُكِرْتم علتُه ، والاستفهامُ منسَحِبٌ

عليهما في قراءةِ الاستفهامِ وفي غيرِها يكونُ إخباراً بذلك .

وقرأ الحسن بهمزةٍ واحدةٍ مكسورةٍ وهي شرطٌ من غير استفهامٍ ، وجوابُه محذوفٌ أيضاً .

وقرأ الأعمشُ والهمدانيُّ " أَيْنَ " بصيغةِ الظرفِ . وهي " أين " / الشرطيةُ ، وجوابُها محذوفٌ عند جمهور البصريين أي : أين ذُكِرتم فطائرُكم معكم ، أو صَحِبَكم طائرُكم ، لدلالةِ ما تقدَّمَ مِنْ قولِه " طائرُكُمْ معكم " ومَنْ يُجَوِّزُ تقديمَ الجوابِ لا يَحْتاج إلى حَذْفٍ .

وقرأ الحسن وأبو جعفر وأبو رجاء والأصمعيُّ عن نافع " ذُكِرْتُمْ " بتخفيفِ الكاف .

اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21)

قوله : ﴿ مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴾ : بدلٌ من " المرسلين " بإعادة العامل ، إلاَّ أنَّ الشيخَ قال : " النحاةُ لا يقولون ذلك إلاَّ إذا كان العاملُ حرفَ جر ، وإلاَّ فلا يُسَمُّونه بدلاً بل تابعاً " وكأنه يريد التوكيدَ اللفظيَّ بالنسبة إلى العامل .

وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22)

قوله : ﴿ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ ﴾ : أصلُ الكلامِ : " وما لكم لا تعبدون " ولكنه صَرَفَ الكلامَ عنهم ، ليكونَ الكلامُ أسرعَ قبولاً ولذلك جاء قولُه " وإليه تُرْجَعون " دون " وإليه أرجعُ " .

أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23)

قوله : ﴿ أَأَتَّخِذُ ﴾ : مبنيٌّ على كلامِه الأول ، وهذه الطريقةُ أحسنُ من ادِّعاءِ الالتفاتِ .

قوله : "مِنْ دونِه" يجوزُ أَنْ يتعلَّقَ بـ "أتخذ" على أنها متعديةٌ لواحدٍ وهو "آلهةً" ، ويجوزُ أَنْ يكونَ متعلقاً بمحذوف على أنه حال مِنْ "آلهةً" ، وأَنْ يكونَ مفعولاً ثانياً قُدِّمَ على أنها المتعديةُ لاثنين .

قوله : "إنْ يُرِدْنِيْ" شَرْطٌ ، جوابُه ﴿ لاَّ تُغْنِ عَنِّي ﴾ ، والجملةُ الشرطيةُ في محلِّ نصبٍ صفةً لـ آلهةً . وفتح طلحة السلماني - وقيل : طلحةُ ابنُ مصرِّفٍ - ياءَ المتكلم . قال الزمخشري : "وقُرِئ ﴿ إن يُرِدْنِي الرحمن بضُرٍّ ﴾ بمعنى : إنْ يُوْردني ضَرَّاء ، أي يجعله مَوْرِداً للضُرِّ" . قال الشيخُ : "وهذا - واللَّهُ أعلم - رأى في كتبِ القراءات بفتح الياءِ فتوهمَّ أنها ياءُ المضارعة فجعل الفعلَ متعدِّياً بالياء المعدِّية كالهمزة ، فلذلك أَدْخَلَ همزةَ التعديةِ فنصَبَ به اثنين ، والذي في كتبِ القراءات الشواذ أنها ياءُ الإِضافةِ المحذوفةُ خَطَّاً ونطقاً لالتقاء الساكنين" . قلت : وهذا رجلٌ ثقةٌ قد نَقَلَ هذه القراءةَ فتُقْبل منه .

إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25)

قوله : ﴿ فاسمعون ﴾ : العامَّةُ على كسر النون ، وهي نونُ الوقايةِ حُذِفَتْ بعدها ياءُ الإِضافةِ مُجْتَزَأً عنها بكسرةِ النون ، وهي اللغةُ العالية .

وقرأ عصمة عن عاصم بفتحِها ، وليسَتْ هذه إلاَّ غَلَطاً على عاصم ، إذ لا وجهَ . وقد وقع لابنِ عطيةَ وهمٌ فاحشٌ في ذلك فقال : " وقرأ الجمهورُ " فاسمعونَ " بفتح النون ، قال أبو حاتم : هذا خطأٌ ، فلايجوز لأنه أمرٌ : فإمَّا حَذْفُ النون ، وإمَّا كَسْرُها على جهةِ الياءِ " يعني ياءَ المتكلم ، وقد يكونُ قولُه " الجمهور " سَبْقَ قَلَمٍ منه أو من النُّسَّاخِ وكأنَّ الأصلَ : " وقرأ غيرُ الجمهور " فسقط لفظةُ " غير " . وقال ابن عطية : " حُذِفَ من الكلام ما تواتَرَتِ الأخبارُ والرواياتُ به وهو أنهم قَتَلوه فقيل له عند مَوْته : ادْخُلِ الجنةَ " .

بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27)

قوله : { بِمَا غَفَرَ لِي } : يجوز في " ما " هذه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : المصدريةُ أي : يعلمون بغُفْرانِ ربي . والثاني : أنها بمعنى الذي ، والعائدُ محذوفٌ ، أي : بالذي غَفَرَه لي ربي . واسْتُضْعِفَ هذا : من حيث إنه يَبْقى معناه أنه تمنى أَنْ يعلمَ قومُه بذنوبه المغفورةِ . وليس المعنى على ذلك ، إنما المعنى على تَمَنِّي عِلْمِهم بغفرانِ ربِّه ذنوبَه . والثالث : أنها استفهاميةٌ ، وإليه ذهب الفراء . وردَّه الكسائيُّ : بأنه كان ينبغي حَذْفُ ألِفها لكونِها مجرورةً وهو ردٌّ صحيحٌ . وقال الزمخشري : " الأجودُ طَرْحُ الألفِ " والمشهورُ مِنْ مذهبِ

البصريين وجوبُ حَذْفِ ألِفها كقوله :

3778 علامَ تقولُ الرُّمْحَ يُثْقِلُ عاتقي . . . إذا أنا لم أَطْعَنْ إذا الخيلُ كَرَّتِ

إلاَّ في ضرورةٍ ، كقولِ الآخر :

3779 على ما قامَ يَشْتِمُني لَئيمٌ . . . كخِنْزيرٍ تَمَرَّغَ في رَمادِ

وقُرِئ " من المُكَرَّمين " بتشديدِ الراء .

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28)

(245/646)

---

قوله : { وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ } : في " ما " هذه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنها نافيةٌ كالتي قبلَها فتكونُ الجملةُ الثانيةُ جاريةً مَجْرى التأكيد للأولى . والثاني : أنها مزيدةٌ . قال أبو البقاء : " أي : وقد كنَّا مُنْزِلين " . وهذا لا يجوزُ البتةَ لفسادِه لفظاً ومعنًى . الثالث : أنها اسمٌ معطوفٌ على " جند " . قال ابن عطية : " أي : مِنْ جندٍ ومن الذي كنَّا مُنْزِلين " . ورَدَّه الشيخُ : بأنَّ " مِنْ " مزيدةٌ . وهذا التقديرُ يُؤدِّي إلى زيادتِها في الموجَب جارَّةً لمعرفةٍ ، ومذهبُ البصريين - غيرَ الأخفشِ - أن يكونَ الكلامُ غيرَ موجَبٍ ، وأَنْ يكونَ المجرورُ نكرةً . قلت : فالذي يَنْبغي عند مَنْ يقولُ بذلك أَنْ يُقَدِّرَها / بنكرةٍ أي : ومِنْ عذابٍ كنا

مُنْزليه . والجملةُ بعدها صفةٌ لها . وأمّا قولُه : إنَّ هذا التقديرَ يؤدِّي إلى زيادتها في الموجَبِ فليس بصحيحٍ البتةَ . وتَعَجَّبْتُ كيف يُلْزِمُ ذلك ؟

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29)

قوله : ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً ﴾ : العامَّةُ على النصبِ على أنَّ "كان" ناقصةٌ . واسمُها ضميرُ الأَخْذَةِ ، لدلالةِ السياقِ عليها . و "صيحةً" خبرُها . وقرأ أبو جعفر وشيبةُ ومعاذٌ القارئُ برفعِها ، على أنها التامةُ أي : وقع وحَدَثَ وكان ينبغي أَنْ لا تَلْحق تاءُ التأنيث للفصلِ ب "إلاَّ" بل الواجبُ في غيرِ نُدورٍ واضطرارٍ حَذْفُ التاءِ نحو : "ما قام إلاَّ هند" وقد شَذَّ الحسنُ وجماعةٌ فقرؤوا ﴿ لاَ ترى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ كما سأبيِّنه في موضعه إن شاء الله وقال الشاعر :

3780 . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . وما

بَقِيَتْ إلاَّ الضُّلوعُ الجراشِعُ

وقال آخر :

4781 ما بَرِئَتْ مِنْ رِيْبَةٍ وذَمِّ . . . في حَرْبنا إلاَّ بناتُ العَمِّ

يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30)

قوله: ﴿ ياحسرة ﴾: العامَّةُ على نصبِها. وفيه وجهان، أحدهما: أنها منصوبةٌ على المصدر، والمنادى محذوفٌ تقديره: يا هؤلاء تَحَسَّروا حسرةً. والثاني: أنها منونةٌ لأنها منادى منكورٌ فنُصِبت على أصلها كقوله:

3782 أيا راكباً إمَّا عَرَضْتَ فبَلِّغَنْ ... نداماي مِنْ نَجْران أَنْ لا تَلاقِيا

ومعنى النداءِ هنا على المجازِ، كأنه قيل: هذا أوانُكِ فاحْضُري. وقرأ قتادةُ وأُبَيٌّ في أحدِ وجهَيْه "يا حَسْرَةُ" بالضم، جعلها مُقْبلاً عليها، وأُبَيٌّ أيضاً وابن عباس وعلي بن الحسين ﴿ ياحسرة العباد ﴾ بالإضافة. فيجوزُ أَنْ تكونَ الحَسْرةُ مصدراً مضافاً لفاعِله أي: يتحسَّرون على غيرهم لِما يَرَوْنَ مِنْ عذابهم، وأَنْ يكونَ مضافاً لمفعوله أي: يَتَحَسَّر عليهم غيرُهم. وقرأ أبو الزِّناد وابن هرمز. وابن جندب "يا حَسْرَهْ" بالهاءِ المبدلةِ مِنْ تاءِ التأنيث وَصْلاً، وكأنَّهم أَجْرَوْا الوصلَ مُجْرى الوقفِ وله نظائرُ مَرَّتْ. وقال صاحب "اللوامح": "وقفوا بالهاء مبالغةً في التحسُّر، لِما في الهاءِ من التَّأَهُّه بمعنى التأوُّه، ثم وصلوا على تلك الحال". وقرأ ابن عباس أيضاً "يا حَسْرَةَ" بفتح التاء من غير تنوين. ووجْهُها أنَّ الأصل: يا حَسْرتا فاجْتُزِئ بالفتحة عن الألف كما اجتُزِئ بالكسرة عن الياء. ومنه:

3783 ولَسْتُ براجعٍ ما فاتَ مِنّي ... بَلَهْفَ ولا بلَيْتَ ولا لواني

أي: بلهفا بمعنى لَهْفي.

وقُرِئ " يا حَسْرتا " بالألف كالتي في الزمر، وهي شاهدةٌ لقراءةِ ابنِ عباس، وتكون التاءُ لله تعالى، وذلك على سبيل المجاز دلالةً على فَرْطِ هذه الحَسْرة. وإلاَّ فالله تعالى لا يُوْصَفُ بذلك.

(247/646)

---

قوله: " ما يَأْتِيْهم " هذه الجملةُ لا مَحَلَّ لها؛ لأنَّها مُفَسِّرةٌ لسبب الحسرةِ عليهم.

قوله: " إلاَّ كانوا " جملةٌ حاليةٌ مِنْ مفعول " يَأْتيهم ".

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31)

قوله: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾: "كم" هنا خبريةٌ فهي مفعولٌ ب "أَهْلكنا" تقديرُه: كثيراً من القرونِ أهلَكْنا. وهي معلِّقةٌ ل "يَرَوْا" ذهاباً بالخبريَّة مذهبَ الاستفهاميةِ. وقيل: بل "يَرَوْا" عِلْمية، و "كم" استفهاميةٌ كما سيأتي بيانُه.

(248/646)

---

و ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه بدلٌ مِنْ "كم" قال ابن عطية : " وكم هنا خبريةٌ ، و "أنهم" بدلٌ منها ، والرؤيةُ بَصَرية " . قال الشيخ : " وهذا لا يَصِحُّ ؛ لأنها إذا كانَتْ خبريةً كانَتْ في موضعِ نصب ب "أهلَكْنا " . ولا يَسُوغُ فيها إلاَّ ذلك . وإذا كانت كذلك امتنع أن يكون "أَنَّهم" بدلاً منها ؛ لأنَّ البدلَ على نيةِ تكرار العاملِ . ولو سُلِّطت أَهْلكنا على "أنهم" لم يَصِحّ ؛ ألا ترى أنك لو قلتَ : أهلَكْنا انتفاءَ رجوعِهم ، أو أَهلكنا كونَهم لا يرجعون ، لم يكن كلاماً . لكنَّ ابنَ عطية تَوَهَّمَ أنَّ "يَرَوْا" مفعولُه "كم" فتوهَّم أنَّ قوله : ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ بدلٌ منه ؛ لأنه يُسَوِّغُ أَنْ يُسَلَّط عليه فتقول : ألم يَرَوْا أنهم إليهم لا يَرْجعون . وهذا وأمثالُه دليلٌ على ضَعْفِه في عِلْم العربية " . قلت : وهذا الإِنحاءُ تحاملٌ عليه ؛ لأنه لقائلٍ أَنْ يقول : "كم" قد جعلها خبريةً ، والخبريةُ يجوز أَنْ تكونَ معمولةً لِ ما قبلها عند قومٍ ، فيقولون : " ملكتُ كم عبدٍ " فلم يَلْزَمْ الصدرَ ، فيجوزُ أَنْ يكونَ بنى هذا التوجيهَ على هذه اللغةِ وجعل "كم" منصوبةً ب "يَرَوْا" و "أنهم" بدلٌ منها ، نَ التي أهلكناها وليس هو ضعيفاً في العربية حينئذٍ .

الثاني : أنَّ "أَنَّهم" بدلٌ من الجملةِ قبلَه . قال الزجاج : " هو بدلٌ من الجملة ، والمعنى : ألم يَرَوْا أن القرو أنهم لا يَرْجعون ؛ لأنَّ عَدَمَ الرجوعِ والهلاكَ بمعنى " . قال الشيخ : " وليس بشيءٍ ؛ لأنه ليس بدلاً صناعياً ، وإنما فَسَّر المعنى ولم يَلْحَظ صناعةَ النحو " . قلت : بل

هو بدلٌ صناعي ؛ لأنَّ الجملةَ في قوة المفرد ؛ إذ هي سادَّةٌ مَسَدَّ مفعولِ "يَرَوْا" فإنها معلِّقةٌ لها كما تقدَّم .

(249/646)

---

الثالث : قال الزمخشري : "ألم يَرَوْا" ألم يعلموا ، وهو مُعَلِّق/عن العمل في "كم" لأنَّ "كم" لا يعمل فيها عاملٌ قبلها - كانَتْ للاستفهام أو للخبرِ - لأنَّ أصلها الاستفهامُ ، إلاَّ أنَّ معناها نافِذٌ في الجملةِ كما نفذ في قولك : "ألم يَرَوْا إنَّ زيداً لَمنطلقٌ" وإنْ لم يعملْ في لفظِه ، وأنهم إليهم لا يَرْجِعون : بدلٌ مِنْ "كم أهلَكْنا" على المعنى لا على اللفظِ تقديرُه : ألم يَرَوْا كثرةَ إهلاكِنا القرونَ مِنْ قَبْلهم كونَهم غيرَ راجعين إليهم " .

قال الشيخ : "قولُه لأنَّ "كم" لا يعمل فيها ما قبلَها كانت للاستفهام أو للخبرِ" ليس على إطلاقِه ؛ لأنَّ العاملَ إذا كان حرفَ جر أو اسماً مضافاً جاز أَنْ يعملَ فيها نحو : "على كم جِذْعٍ بيتُك ؟ وابنُ كم رئيسٍ صحبتَ ؟ وعلى كم فقيرٍ تصدَّقْتُ أرجو الثواب ؟ وابنُ كم شهيد في سبيل الله أحسنت إليه ؟" . وقوله : "أو للخبر" والخبرية فيها لغتان : الفصيحةُ كما ذكر لا يتقدَّمُها عاملٌ إلاّ ما ذَكَرْنا من الجارِّ ، واللغةُ الأخرى حكاها الأخفش يقولون : "ملكتُ كم غلامٍ" أي : ملكتُ كثيراً من الغِلْمان . فكما يجوز تقدُّم العاملِ على كثيراً

كذلك يجوزُ على "كم" لأنها بمعناها . وقوله : "لأنها أصلها الاستفهامُ ، والخبريةُ ليس أصلُها الاستفهامَ" بل كلٌّ واحدةٍ أصلٌ بنفسِها ، ولكنهما لفظان مشتركان بين الاستفهام والخبر . وقوله : "لأنَّ معناها نافذٌ في الجملة" يعني معنى "يَرَوا" نافذٌ في الجملة ؛ لأنَّه جعلَها مُعَلَّقة وشرحَ "يَرَوْا" ب يعلموا .

(250/646)

---

وقوله : "كما نفذ في قولك : ألم يَرَوْا إنَّ زيداً لَمنطلقٌ" يعني أنه لو كان معمولاً من حيث اللفظُ لامتنع دخولُ اللامِ ولَفُتِحَتْ "إنَّ" فإنَّ "إنَّ" التي في خبرها اللامُ من الأدوات المعلّقة لأفعال القلوبِ . وقوله : "إنهم إليهم" إلى آخره كلامُه لا يَصِحُّ أن يكون بدلاً لا على اللفظِ ولا على المعنى . أمَّا على اللفظِ فإنه زعم أنَّ "يَرَوْا" معلَّقةٌ فتكون "كم" استفهاميةً فهي معمولةٌ ل "أهلكنا" ، و "أهلكنا" لا يَتَسَلَّط على ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ . وقد تقدَّم لنا ذلك . وأمَّا على المعنى فلا يَصِحُّ أيضاً لأنه قال : تقديره : أي على المعنى ألم يَرَوْا كثرةَ إهلاكنا القرونَ مِنْ قَبْلهم كونَهم غيرَ راجعين إليهم ، فكونُهم غيرَ راجعين ليس كثرةَ الإهلاكِ ، فلا يكون بدلَ بعضٍ من كل ، ولا يكون بدلَ اشتمالٍ ؛ لأنَّ بدلَ الاشتمال يَصِحُّ أن يضافَ إلى ما أُبْدِلَ منه ، وكذلك بدلُ بعضٍ من كل . وهذا لا يَصِحُّ هنا . لا تقول : ألم يَرَوْا انتفاءَ رجوعِ

كثرةِ إهلاكِنا القرونَ مِنْ قبلهم ، وفي بدلِ الاشتمال نحو : " أَعْجَبَتْني الجاريةُ مَلاحتُها ، وسُرِقَ زيدٌ ثوبُه " يصحُّ : " أعجبتني ملاحةُ الجاريةِ ، وسُرِق ثوبُ زيد " .

الرابع : أَنْ يكونَ " أنهم " بدلاً مِنْ موضع " كم أهلَكْنا " ، والتقدير : ألم يَرَوْا أنهم إليهم . قاله أبو البقاء . ورَدَّه الشيخ : بأنَّ " كم أهلَكْنا " ، ليس بمعمولٍ ل " يَرَوْا " .

قلت : قد تقدَّم أنها معمولةٌ لها على معنى أنها مُعَلِّقَةٌ لها .

الخامس : - وهو قولُ الفراء - أن يكون " يَرَوْا " عاملاً في الجملتين من غير إبدال ، ولم يُبَيِّنْ كيفيةَ العملِ . وقوله " الجملتين " تجوُّزٌ ؛ لأنَّ " أنهم " ليس بجملةٍ لتأويله بالمفرد إلاَّ أنه مشتملٌ على مُسْندٍ ومسند إليه .

(251/646)

---

السادس : أنَّ " أنهم " معمولُ لفعلٍ محذوفٍ دَلَّ عليه السياقُ والمعنى ، تقديره : قَضَيْنا وحَكَمْنا أنهم لا يَرْجعون . ويَدُلُّ على صحةِ هذا قراءةُ ابنِ عباس والحسن " إنهم " بكسر الهمزة على الاستئناف ، والاستئنافُ قَطْعٌ لهذه الجملةِ مِمَّا قبلها فهو مُقَوٍّ لأَنْ تكونَ معمولةً لفعلٍ محذوفٍ يقتضي انقطاعَها عَمَّا قبلَها . والضميرُ في " أنهم " عائدٌ على معنى " كم " وفي " إليهم " عائدٌ على ما عاد عليه واو " يَرَوْا " . وقيل : بل الأولُ عائدٌ على ما عاد

عليه واو " يَرَوْا " . والثاني عائدٌ على المُهْلَكين .

وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (32)

(252/646)

---

قوله : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ ﴾ : قد تقدم في هود تشديدُ " لَمَّا " وتخفيفُها وما قيل في ذلك . وقال الفخر الرازي في مناسبة وقوعِ " لَمَّا " المشدَّدَةِ موقعَ إلاَّ : " إنَّ " لَمَّا " كأنها حرفا نفي ، وهما لم وما ، فتأكَّد النفيُ ، و " إلاَّ " كأنَّها حرفا نفي : إنْ ولا فاستعمل أحدُهما مكانَ الآخر " . انتهى . وهذا يجوز أَنْ يكونَ أَخَذه من قول الفراءِ في " إلاَّ " في الاستثناء : إنها مركبةٌ من إنْ ولا . إلاَّ أنَّ الفراءَ جَعَلَ " إنْ " مخففةً من الثقيلة ، وجعلها نافيةٌ ، وهو قولٌ ركيكٌ رَدَّه عليه النحويون . وقال الفراء أيضاً : إن " لَمَّا " هذه أصلُها : لَمِمَّا فخُفِّفَ بالحذفِ . وهذا كلُّه قد تقدَّم موضَّحاً . وقوله : " كلٌّ " مبتدأ و " جميعٌ " خبرُه . و " مُحْضَرون " خبرٌ ثانٍ لا يختلف ذلك سواءٌ شَدَّدْتَ " لَمَّا " أم خَفَّفْتَها . لا يُقال : إنَّ جميعاً تأكيد لا خبرٌ ، لأنَّ جميعاً هنا فَعيل بمعنى / مَفْعول أي : مجموعون ف " كلٌّ " تدل على الإِحاطةِ والشمول ، و " جميع " تَدُلُّ على الاجتماع فمعناها حُمِل على لفظها في قوله : ﴿ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ [ القمر : 44 ] وقَدَّمَ " جميع " في الموضعين لأجلِ الفواصلِ ، و " لَدَيْنا "

متعلقٌ ب " مُحْضَرون " فَمَنْ شَدَّدَ ف " لَمَّا " بمعنَى " إلاَّ " وَ " إنْ " نافيةٌ كما تقدَّمَ ، ومَنْ خَفَّفَ فإنْ مخففةٌ ، واللامُ فارقةٌ و " ما " مزيدةٌ . هذا قولُ البصريين ، والكوفيون يقولون : " إنْ " نافيةٌ ، واللامُ بمعنى " إلاَّ " كما تقدَّم غيرَ مرةٍ .

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33)

(253/646)

---

قوله : { وَآيَةٌ } : خبرٌ مقدمٌ و " لهم " صفتُها أو متعلِّقةٌ ب " آية " لأنها بمعنى علامة . و " الأرضُ " مبتدأ . وتقدَّم تخفيفُ الميتة وتشديدُها في أول آل عمران . ومنع الشيخُ أَنْ تكونَ " لهم " صفةً ل " آية " ولم يُبيِّن وجهَه ولا وَجَّهَ له . وأعرب أبو البقاء " آية " مبتدأً و " لهم " الخبرُ و " الأرضُ الميتةُ " مبتدأٌ وصفتُه ، و " أَحْيَيناها " خبرُه . والجملةُ مفسِّرةٌ ل " آية " وبهذا بدأ ثم قال : وقيل : فذكر الوجهَ الذي بدأْتُ به . وكذلك حكى مكي أعني أَنْ يكونَ " آية " ابتداءً ، و " لهم " الخبر . وجوَّز مكي أيضاً أن تكونَ " آية " مبتدأً و " الأرضُ " خبرُه . وهذا ينبغي أَنْ لا يجوزَ ؛ لأنه لا تُعْزَلُ المعرفةُ من الابتداءِ بها ، ويُبْتَدأ بالنكرة إلاَّ في مواضعَ للضرورةِ .

قوله : " أَحْيَيْناها " قد تقدَّم أنه يجوزُ أَنْ يكونَ خبرَ " الأرض " ، ويجوزُ أيضاً أَنْ يكونَ حالاً

من " الأرض " إذا جَعَلْناها مبتدأً ، و " آية " خبرٌ مقدمٌ . وجوَّزَ الزمخشريُّ في " أَحْيَيْناها " وفي " نَسْلَخُ " أَنْ يكونا صفتين للأرض والليل ، وإن كانا مُعَرَّفين بأل لأنه تعريفٌ بأل الجنسيةِ ، فهما في قوةِ النكرة قال : كقوله :

3784 ولقد أَمُرُّ على اللئيمِ يَسُبُّني . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . .

لأنه لم يَقْصِدْ لئيماً بعينه .

(254/646)

---

وردَّه الشيخُ : بأنَّ فيه هَدْماً للقواعد : مِنْ أنه لا تُنْعَتُ المعرفةُ بنكرةٍ . قال : وقد تبعه على ذلك ابنُ مالك . ثم خَرَّجَ الشيخُ الجملَ على الحال أي : الأرضُ مُحْياةً والليل مُنْسَلِخاً منه النهارُ ، واللئيمُ شاتماً لي . قلت : وقد اعتبر النحاةُ ذلك في مواضع ، فاعتبروا معنى المعرَّفِ بأل الجنسيةِ دونَ لفظِه فوصفوه بالنكرة الصريحةِ نحو : " بالرجلِ خيرٍ منك " على أحد الأوجه ، وقوله : { إِلاَّ الذين } [ العصر : 3 ] بعد { إِنَّ الإنسان } [ العصر : 2 ] وقوله : { أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ } [ النور : 31 ] و " أهلك الناسَ الدينارُ الحمرُ والدرهمُ البيض " . كلُ هذا رُوعي فيه المعنى دونَ اللفظ ، وإن اختلف نوعُ المراعاةِ .

ويجوز أن يكون " أحييناها " استئنافاً بَيّن به كونها آية .

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34)

قوله : ﴿ وَفَجَّرْنَا ﴾ : العامَّةُ على التشديد تكثيراً لأنَّ [ فَجَّر ] مخففةً متعدّ . وقرأ جناح بن حبيش بالتخفيف . والمفعول محذوفٌ على كلتا القراءتين أي : ينبوعاً كما في آية سبحان .

لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35)

قوله : ﴿ مِن ثَمَرِهِ ﴾ : قيل : الضميرُ عائدٌ على النخيل ؛ لأنه أقربُ مذكور ، وكان مِنْ حَقِّ الضميرِ أَنْ يُثَنَّى على هذا لتقدُّم شيئين : وهما الأعنابُ والنخيلُ ، إلاَّ أنه اكتفى بذِكْرِ أحدِهما . وقيل : يعود على جنات ، وعاد بلفظ المفرد ذَهاباً بالضميرِ مَذْهَبَ اسم الإِشارةِ وهو كقول رُؤْبة :

3785 فيها خُطوطٌ من سَوادٍ وبَلَقْ . . . كأنَّه في الجلدِ تَوْليعُ البَهَقْ

(255/646)

---

فقيل له . فقال : أَرَدْتُ : كأنَّ ذاك وَيْلَكَ . وقيل : عائد على الماءِ المدلول عليه ب عيون .

وقيل : بل عاد عليه لأنه مقدَّرٌ أي : من العيون . ويجوز أَنْ يعودَ على العيون . ويُعتذر عن

إفراده بما تَقَدَّم في عَوْده على جنات . ويجوز أَنْ يعودَ على الأعناب والنخيل معاً ، ويُعتذر عنه بما تقدَّم أيضاً . وقال الزمخشري : " وأصلُه : مِنْ ثمرنا ، لقوله : " وفَجَّرْنا " و " جَعَلْنا " فنقل الكلامَ من التكلُّم إلى الغَيْبة على طريقة الالتفات ، والمعنى : ليأكلوا مِمَّا خلقَه اللَّهُ مِن الثمر " . قلت : فعلى هذا يكون الضميرُ عائداً على الله تعالى ، ولذلك فَسَّر معناه بما ذكر . وقد تقدَّم قراءاتٌ في هذه اللفظةِ في سورةِ الأنعام وما قيل فيها بحمد الله تعالى .

قوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ في " ما " هذه أربعةُ أوجهٍ ، أحدها : أنها موصولةٌ أي : ومن الذي عَمِلَتْه أيديهم من الغرس والمعالجة . وفيه تَجَوُّزٌ على هذا . والثاني : أنها نافيةٌ أي : لم يعملوه هم ، بل الفاعلُ له هو اللَّهُ تعالى .

(256/646)

---

وقرأ الأخَوان وأبو بكر بحذف الهاء والباقون " وما عَمِلَتْه " بإثباتها . فإنْ كانَتْ " ما " موصولةً فعلى قراءة الأخوين وأبي بكر حُذِف العائدُ كما حُذِف في قولِه : ﴿ أهذا الذي بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾ [ الفرقان : 41 ] بالإجماع . وعلى قراءةِ غيرِهم جيْءَ به على الأصل . وإن كانَتْ نافيةً فعلى قراءةِ الأخوين وأبي بكر لا ضميرَ مقدرٌ ، ولكن المفعولَ محذوفٌ أي : ما عَمِلَتْ أيديهم شيئاً مِنْ ذلك ، وعلى قراءةِ غيرِهم الضميرُ يعودُ على "

ثَمَرِه " وهي مرسومةٌ بالهاء في غيرِ مصاحفِ الكوفةِ ، وبحذفِها فيما عداها . /

والأَخَوان وأبو بكرٍ وافقوا مصاحفهم ، والباقون - غير حَفْصٍ - وافقوها أيضاً ، وجعفر خالَفَ مصحفَه ، وهذا يَدُلُّ على أنَّ القراءةَ متلقَّاةٌ مِنْ أفواهِ الرجال ، فيكون عاصمٌ قد أقرأها لأبي بكرٍ بالهاء ولحفص بدونها .

الثالث : أنها نكرةٌ موصوفةٌ ، والكلامُ فيها كالذي في الموصولة . والرابع : أنها مصدريةٌ أي : ومِنْ عَمَلِ أيديهم . والمصدرُ واقعٌ موقعَ المفعولِ به ، فيعودُ المعنى إلى معنى الموصولة أو الموصوفة .

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37)

قوله : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الليل ﴾ : كقولِه و ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأرض ﴾ [يس : 33] . و " نَسْلَخُ " استعارةٌ بديعةٌ شبَّه انكشافَ ظلمةِ الليلِ بكَشْطِ الجِلْد عن الشاة . وقوله : " مُظْلِمون " أي : داخلون في الظلام كقوله : ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر : 66] .

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38)

قوله : ﴿ لِمُسْتَقَرّ ﴾ : قيل : في الكلام حَذْفُ مضافٍ تقديره : تجري لجَرْيٍ مستقرٍ لها .

وعلى هذا فاللامُ للعلةِ أي : لأجل جَرْيٍ مستقرٍ لها . والصحيحُ أنَّه لا حَذْفَ ، وأنَّ اللامَ بمعنى إلى . ويَدُلُّ على ذلك قراءةُ بعضهم " إلى مُسْتقر " . وقرأ عبد الله وابن عباس وعكرمة وزين العابدين وابنه الباقر والصادق بن الباقر " لا مُستقرَّ " ب لا النافيةِ للجنسِ وبناءِ " مستقرَّ " على الفتح ، و " لها " الخبر . وابن أبي عبلة " لا مُسْتقرٌ " ب لا العاملةِ عملَ ليس ، ف مُسْتَقَرٌ اسمها ، و " لها " في محلِ نصب خبرُها كقوله :

3786 تَعَزَّ فلا شيءٌ على الأرضِ باقيا . . . ولا وَزَرٌ مِمَّا قضى اللَّهُ واقيا

والمرادُ بذلك أنها لا تستقرُّ في الدنيا بل هي دائمةُ الجريانِ ، وذلك إشارةٌ إلى جَرْيها المذكور .

وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39)

(258/646)

---

قوله : ﴿ والقمر قَدَّرْنَاهُ ﴾ : قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو برفعِه ، والباقون بنصبه . فالرفعُ على الابتداء ، والنصبُ بإضمارِ فعلٍ على الاشتغال ، والوجهان مُسْتويانِ لتقدُّمِ جملةٍ ذاتِ وجهين ، وهي قوله : " والشمسُ تجري " فإنْ راعَيْتَ صدرَها رَفَعْتَ لتعطِفَ

جملةً اسميةً على مثلِها ، وإنْ راعَيْتَ عَجْزَها نَصَبْتَ لتعطِفَ فعليةً على مثلِها . وبهذه الآيةِ يَبْطُل قولُ الأخفش : إنه لا يجوزُ النصبُ في الاسم إلاَّ إذا كان في جملةِ الاشتغالِ ضميرٌ يعود على الاسمِ الذي تضمَّنَتْه جملةٌ ذاتُ وجهين . قال : لأنَّ المعطوفَ على الخبرِ خبرٌ فلا بُدَّ مِنْ ضميرٍ يعودُ على المبتدأ فيجوز : " زيدٌ قام وعمراً أكرمتُه في داره " ، ولو لم يَقُلْ " في داره " لم يَجُز . ووجهُ الردِّ مِنْ هذه الآية أنَّ أربعةً من السبعةِ نصبوا ، وليس في جملة الاشتغال ضميرٌ يعودُ على الشمس . وقد أُجْمع على النصب في قولِه تعالى : ﴿ والسمآءَ رَفَعَهَا ﴾ [ الرحمن : 7 ] بعد قوله : ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ [ الرحمن : 5 ] .

قوله : " منازلَ " فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه مفعولٌ ثانٍ ؛ لأنَّ " قدَّرنا " بمعنى صَيَّرْنا . الثاني : أنه حالٌ ، ولا بُدَّ مِنْ حَذْفِ مضافٍ قبل " منازل " تقديرُه : ذا منازلَ . الثالث : أنه ظرفٌ أي : قَدَّرْنا مسيرَه في منازلَ ، وتقدَّم نحوُه أولَ يونس .



---

قوله : " كالعُرْجُون " العامَّةُ على ضَمِّ العينِ والجيم . وفي وزنِه وجهان ، أحدهما : أنه فُعْلُول فنونُه أصليةٌ ، وهذا هو المرجَّحُ . والثاني : وهو قولُ الزجَّاج أنَّ نونَه مزيدةٌ ، ووزنُه فُعْلُون ، مشتقاً من الانعراجِ وهو الانعطافُ ، وقرأ سليمان التيمي بكسر العين وفتح الجيم ، وهما

لغتان كالبُزيُوْن والبِزْيون . والعُرْجُوْن : عُوْد العِذْقِ ما بين الشّماريخ إلى مَنْبته من النخلةِ .

وهو تشبيهٌ بديعٌ ، شبَّه به القمرَ في ثلاثة أشياء : دقتِه واستقواسِه واصفراره .

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)

قوله : ﴿ سَابِقُ النهارِ ﴾ : قرأ عمارة بنصب " النهارَ " حَذَفَ التنوين لالتقاءِ الساكنين .

قال المبرد : " سمعته يقرؤُها فقلت : ما هذا ؟ فقال : أَرَدْتُ " سابقٌ " بالتنوين فخفَّفْتُ "

.

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41)

قوله : ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ﴾ : مبتدأ ، و " آيةٌ " خبرٌ مقدمٌ . وجوَّز أبو البقاء أَنْ يكونَ " أنَّا حَمَلْنا " خبرَ مبتدأ محذوفٍ بناءٍ منه على أنَّ " آيةٌ لهم " مبتدأٌ وخبرٌ ، كلامٌ مستقلٌ بنفسِه ، كما تقدَّم في نظيرِه . والظاهرُ أنَّ الضميرين في " لهم " و " ذريتهم " لشيءٍ واحدٍ . ويُراد بالذرِّيَّة آباؤهم المحمولون في سفينة نوح عليه السلام أو يكون الضميران مختلفَيْن أي : ذرية القرون الماضية . ووجهُ الامتنانِ عليهم : أنَّهم في ذلك مثلُ الذرِّية من حيث إنهم يَنْتفعون بها كانتفاعِ أولئك .

وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (42)

قوله : ﴿ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ : هذا يَحْتمل أَنْ يكونَ من جنسِ الفلك إنْ أُريد بالفُلْكِ سفينةُ نوحٍ عليه السلام خاصةً ، وأن يكونَ مِنْ جنسٍ آخرَ كالإِبلِ ونحوِها ، ولهذا سَمَّتْها سُفُنَ البرِّ .

وقد تقدَّم اشتقاقُ الذرِّيَّة في البقرة واختلافُ القُرَّاءِ فيها في الأعراف .

قوله : " مِنْ مِثْلِه " أي : من مثلِ الفلك . وقيل : من مثل ما ذكر من خَلْقِ الأزواجِ .

وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (43)

وقرأ الحسن " نُغَرِّقْهُمْ " بتشديد الراء .

قوله : " فلا صَرِيْخَ " / فَعيل بمعنى فاعِل أي : فلا مستغيثَ . وقيل : بمعنى مُفْعِل أي : فلا مغيثَ . وهذا هو الأليقُ بالآية . وقال الزمخشري : " فلا إغاثةَ " جعله مصدراً مِنْ أَصْرخ . قال الشيخ : " ويَحْتاج إلى نَقْلِ أنَّ صَرِيخاً يكون مصدراً بمعنى إصْراخ " . والعامَّةُ على فتح " صريخ " . وحكى أبو البقاء أنه قُرِئ بالرفع والتنوين . قال : " ووجهُه على ما في قوله : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [ البقرة : 38 ] .

إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (44)

قوله : ﴿ إِلَّا رَحْمَةً ﴾ : منصوبٌ على المفعولِ له وهو استثناءٌ مفرغٌ . وقيل : استثناءٌ منقطعٌ . وقيل : على المصدرِ بفعلٍ مقدرٍ وعلى إسقاط الخافضِ . أي : إلاَّ برحمةٍ .

والفاءُ في قوله : " فلا صريخَ " رابطةٌ لهذه الجملةِ بما قبلها . فالضميرُ في " لهم " عائدٌ على "

المُغرَقِين" . وجوّز ابن عطية هذا ووجهاً آخرَ ، وجعله أحسنَ منه : وهو أَنْ يكونَ استئنافَ إخبارٍ عن المسافرين في البحر ناجين كانوا أو مُغْرَقين ، هم بهذه الحالةِ لا نجاةَ لهم إلاَّ برحمةِ اللَّهِ ، وليس قولُه : ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ مربوطاً بالمغرقين . انتهى . وليس جَعْلُه هذا الأحسنَ بالحسنِ لئلا تخرجَ الفاءُ عن موضوعِها والكلامُ عن التئامِه . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 243. 273 ﴾

(261/646)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) ﴾

نُبْطِلُ ضوءَ النهارِ بهجومِ الليلِ عليه ، ونزيلُ ظلامَ الليل بهجومِ النهار عليه ، كذلك نهارُ الوجود يدخل على ليالي التوقف ، ويقود بيد كَرَمِه عصا مَنْ عَمِيَ عن سلوك رُشْدِه فيهديه إلى سَوَاءَ الطريق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ . على ترتيبٍ معلوم لا يتفاوت في فصول السنة ، وكل يومٍ لها مشرِقٌ جديد ولها مغرِبٌ جديد . . وكل هذا بتقدير العزيز

العليم .

وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39)

الإشارة منه أن العبد في أَوان لطلب رقيقُ الحال ، ضعيفٌ ، مختصرُ الفَهْم . ثم يُفَكِّر حتى تزداد بصيرته . . أنه كالقمر يصير كاملاً ، ثم يتناقَصُ ، ويدنو من الشمس قليلاً قليلاً ، وكُلَّمَا ازداد من الشمس دُنُوَّا ازداد في نفسه نقصاناً حتى يتلاشى ويختفي ولا يُرَى . . ثم يَبْعُدُ عن الشمس فلا يزال يتباعد ويتباعد حتى يعود بدراً - مَنْ الذي يُصَرِّفه في ذلك إلا أَنه تقدير العزيز العليم؟ وشبيهُ الشمسِ عارِفٌ أبداً في ضياء معرفته ، صاحبُ تمكينٍ غيرُ مُتَلَوِّنٍ ، يشرق من برج سعادته دائماً ، لا يأخذه كسوفٌ ، ولا يستره سحابٌ .

وشبيهُ القمر عبدٌ تتلون أحوالُه في تنقله ؛ فهو في حال من البسط يترقَّى إلى حَدِّ الوصال ، ثم يُرَدُّ إلى الفترة ، ويقع في القبض مما كان به من صفاء الحال ، فيتناقص ، ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته ، ثم يجود الحقُّ - سبحانه - فيُوَفِّقُه لرجوعه عن فترته ، وإفاقته عن سَكْرَته ، فلا يزال يصفوا حاله إلى أنْ يَقْرُبَ من الوصال ، ويرزقَ صفة الكمال ، ثم بعد ذلك يأخذ في النقص والزوال . . كذلك حاله إلى أن يُحَقَّ له بالمقسوم ارتحاله ، كما قالوا :

ما كنت أشكو ما على بَدَني . . . من كثرة التلوين من بُدّه

وأنشدوا :

كُلَّ يوم تتلون . . . غير هذا بك أجمل

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (42)

الإشارة إلى حَمْلِ الخَلْق في سفينة السلامة في بحار التقدير عند تلاطم أمواجها بفنونٍ من التغيير والتأثير. فكَمْ من عبدٍ غرق في اشتغاله في ليلة ونهاره ، لا يستريح لحظةً من كَدِّ أفعاله ، ومقاساةِ التعب في أعماله ، وجَمْع ماله .

فَجرَّه ذلك إلى نسيان عاقبته ومآله ، واستيلاء شُغْله بولَدِه وعيالِه على فِكْرِه وبالِه – وما سَعْيُه إلاَّ في وبَالِه !

وكم من عِبْدٍ غرق في لُجّةِ هواه ، فجرّته مُناه إلى تَحمُّلِ بلواه ، وخسيس من أمر مطلوبه ومُبْتَغَاه . . ثم لا يَصلُ قط إلى منتهاه ، خسِرَ دنياه وعقباه ، وبَقِيَ عن مولاه ! ومن أمثال هذا وذالك ما لا يُحصَى ، وعلى عقلِ مَنْ فكَّرَ واعتبر لا يَخْفَى .

أمّا إذا حفظ عبداً في سفينة العناية أفرده – سبحانه – بالتحرُّر من رقّ خسائس الأمور . وشغَلَه بظاهره بالقيام بحقّه ، وأكرمه في سرائره بفراغ القلب مع ربّه ، ورقّاه إلى ما قال : " أنا جليس مَنْ ذكرني " . . وقُلْ في عُلُوّ شأن مَنْ هذه صفته . . ولا حَرَجَ !

وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (43) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (44)

لولا جُودُه وفَضْلُه لحَلَّ بهم من البلاء ما حَلَّ بأمثالهم ، لكنه بِحُسْنِ الأفضال ، يحفظهم في جميع الأحوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 219.217 ﴾

(263/646)

---

فصل فى رد بعض شبهات أعداء القرآن

قال الشيخ محمد الغزالى :

أتانا وافد من " أسيوط " بوريقات تضمنت عشرات المطاعن ضد الإسلام ، كتبها

شخص يدعى "كميل جرجس " وجمع عليها بعض طلاب الجامعة !

وتصفحت على عجل مختلف الموضوعات التى تعرض لها الكاتب ، ورأيت أنها تحتاج إلى

رد وبيان ، وسيعرف القراء قيمتها عندما نذكرها .

وقد أسافر إلى أسيوط لأحسم العلة من جذورها ، ويكفى هنا أن أسوق أمثلة لما يشاع

عن ديننا ، ويجد طريقه ممهوداً إلى أدمغة القاصرين ! !

غلطة فلكية !

كذَّب الكاتب قوله تعالى : " والشمس تجرى لمستقر لها " وزعم أن ذلك يخالف العلم . .

أى علم ؟ !

. . إن جريان الشمس من أسرتها المعروفة فى فضاء الله الواسع مقرر فلكياً ، لم ينكره أحد قط ،

ولكن " عبقرى أسيوط " يريد تكذيب القرآن ، فحكى دورة الأرض حول محورها ، ودورتها حول أمها الشمس ، ثم قال: " من هذا يتضح أن الشمس لا تجرى ولا تذهب لتسجد تحت العرش ، وأنها لا تغرب فى عين حمئة . . " .

والاستنتاج مضحك فقد فهم العبقرى أن دوران الأرض حول الشمس يعنى أن الشمس ثابتة ، وفهم من قوله تعالى: " وجدها تغرب فى عين حمئة " أن الشمس تغطس فى الماء يومياً ثم تخرج ! !

ولم يدرك ما يعرفه الأطفال عندنا أن اختفاء قرص الشمس فى الماء إنما هو فى عين الرائى لا فى حقيقة الأمر ! !

أما أن الشمس تسجد لربها ، فإن الجماد والنبات والحيوان والكائنات جمعاء خاضعة لله ، تسبح بحمده ، وتهتف بمجده ، وتلبى أمره ، وهى طوع مشيئته . .

ويوم لا يأذن للشمس فى الشروق ، وينهى أمر الدنيا ، ويفتح يوم الحساب ، فمن الذى يعصيه ؟

ويظهر أن المسكين فهم من سجود الشمس أنها تصلى ركعتين كسائر البشر ! ! " ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر

والدواب وكثير من الناس . وكثير حق عليه العذاب . ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء " (الروم: 24) .

الكسوف والخسوف



---

قال الكاتب: " جاء فى سورة الروم: " ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون " .

" وروى البخارى فى صحيحه عن أبى موسى الأشعرى قال: خسفت الشمس فقام النبى فزعاً يخشى أن تقوم الساعة فأتى المسجد فصلى بأطول قيام وركوع وسجود ، ما رأيته قط يفعله ، وقال: " هذه الآيات التى يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا حياته ، ولكن يخوف الله بها عباده ، فإذا رأيتم شيئاً من ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره " . (البخارى) .

وبعد أن ذكر الكاتب التفسير العلمى للبرق ، والكسوف ، والخسوف كما هو مقرر فى الكتب المدرسية قال: " إذن فالواضح أنه ليس الهدف من البرق أن يخوف الله البشر ، أو الهدف من الكسوف ما ظنه البعض بجهالة أنه لموت إبراهيم (ابن النبى) ، أو خشية قيام

الساعة بل الأمر مجرد ظواهر طبيعية عادية ، وهذا هو فضل العلم الحديث على البشرية جمعاء ، ولكنهم لم يكونوا يدركون ذلك بعد ، وكان تفسيرهم لتلك الظواهر نابعاً من استنتاجات محدودة " .

ونقول: هذه الظواهر الطبيعية العادية كما يسميها الكاتب هى آيات الله فى منطق المؤمنين به . . فحياة الأرض بعد نزول الماء آية وإن سماها ظاهرة طبيعية ، والتفريغ الكهربى الناشئ من تلاقى السحب آية سواء أحدث صوت الرعد أم ضوء البرق .

ورجاء الناس فى أن تهمى هذه السحب طمع فى محله لا يستغرب ، وخوفهم أن يكون البرق وليد سحاب جهام لا خير فيه خوف فى محله لا يستنكر . ولو خشوا أن يتحول التيار الكهربائى إلى صواعق مهلكة فخشيتهم طبيعية لا نكير عليها . .

أما تصور الكاتب أن الناس تخاف البرق لأن عفريتاً يصنعه فهذا تصور أطفال ، والآية التى أوردها عن البرق والمطر واحدة من ثمانى آيات متتابعة تصف ما يسميه ظواهر طبيعية وصفاً جليلاً رائعاً يحييه العلماء من قلوبهم .

أما قصة الكسوف فلا ندرى مقدار العمى الذى كان صحب الكاتب وهو يذكرها ، لقد وهل الناس أن الشمس كسفت لموت إبراهيم بن النبى عليه الصلاة والسلام ، فقام النبى ينفى ذلك بشدة مؤكداً أن الكسوف والخسوف آيات إلهية ، أو بالتعبير الحديث ظواهر طبيعية .

وزهد صاحب الرسالة فى المجد الذى أتاحته الظروف ! ! وكان فى وسعه أن يسكت تاركاً هذا الظن يستقر ، ولكنه أبى ، وأمر أتباعه بالصلاة تحية لرب الأرض والسماء ، وانحناء أمام عظمة مسير الكواكب فى الفضاء .

أهذا مسلك يعاب ؟ ! شاهت الوجوه . .

ومعروف فى سيرة النبى الكريم أنه كان شديد الرقابة لله ، شديد الخشية منه ، وربما تعصف الريح فيقلق خشية أن تكون ريحاً مدمرة يعذب الله بها المتمردين عليه ، فهل قالوا : إن هبوب الريح من علامات الساعة ؟

وهل خوف النبى من أن يكون الكسوف إيذاناً باقتراب الساعة يدل على شىء أكثر من شعوره الحى بقرب لقاء الله .

ولنترك ما حكاه " أبو موسى الأشعرى " فى ذلك ولنتدبر ماذا قال الرسول نفسه عن الكسوف والخسوف ؟ قال عنهما : آيتان من آيات الله . . وحسب . .

فأى اعتراض علمى على هذا ؟

ويقول الكاتب: " يحدد لنا العلم أن الكسوف للشمس ، والخسوف للقمر " ، وليس كما جاء في الحديث: " خسفت الشمس " .

الجواب: ليس هذا تحديداً علمياً ، وإنما هي اصطلاحات تواضع عليها بعض الناس لا تؤثر في طبيعة اللغة العربية التي تسمح باستعمال الكسوف والخسوف للشمس على سواء .

إن كلمة " التبشير " شاعت فيما يفرح ، ولكنها لغة تستعمل فيما يسر ، وفيما يسوء .

وكلمة " أصاب " أو " مصيبة " تستعمل في الآلام والمتاعب ، ولكنها لغة تستعمل كذلك في الأفراح

" ما أصابك من حسنة فمن الله " (النساء: 79) و " نصيب برحمتنا من نشاء " (يوسف: 56) ولكن عبقري أسيوط الذي لا يعرف من لغة العرب إلا نزراً يريد أن يتصيد أخطاء لغوية لرجال البلاغة العربية .

غلطة جغرافية !

وننقل هذه " النكتة " ليتفكه بها القراء:

روى البخاري بسنده أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذكر مواقيت الحج: قرناً لأهل نجد ، وذا الحليفة لأهل المدينة ، والجحفة لأهل الشام ، ويلملم لأهل اليمن " وذكر العراق فقال: لم يكن يومئذ عراق . . " .

وليس يعنينا : من سأل ولا من أجاب وبديهى أن معنى " لم يكن يومئذ عراق " أنه لم يكن حجيج وافدون من العراق . .

لكن أخصائى الشبه قال: " ولكن الواقع العلمى يثبت ويؤكد أنه كان يومئذ عراق ، ولكن القوم لم يكونوا قد ذهبوا إليه ! ! أو سمعوا عنه ! ! . . " .

العرب فى الجزيرة والشام لم يكونوا يعرفون أن هناك قطراً مجاوراً لهم اسمه العراق .

لقد كان سكان العراق عرباً ، وكانت علاقاتهم بسكان الجزيرة قائمة ، وكان العرب إذا ذهبوا إلى فارس أو الهند مروا طبعاً بالعراق .

ولقد وصف النبى قصور " الحيرة "كبرى مدن العراق يومئذ للمسلمين ، وهم محصورون وراء الخندق ، وبشرهم بأنهم سيفتتحونها ، فكيف يقول أبله: إن العرب كانوا يجهلون وجود العراق لأن " علم الجغرافيا " لم يكن تأسس بعد ؟ ! !

الشهاب الراصد

ويتحدث الكاتب عن الشهب الساقطة فيكذب ما ورد فى القرآن من أنها رجوم للشياطين .

جاء فى سورة الجن: " وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً " (الجن: 8 ، 9) . .

ونقول: أجمع علماء الكون على رحابته ، واتساع آفاقه ، والسؤال الذى نورده: هل أبناء آدم وحدهم هم العقلاء الذين يحيون فيه ؟ ! . أيبنى رجل قصراً من سبعين ألف طبقة ثم يسكن غرفة منه ويدع الباقى تصفر فيه الريح ؟ فلم بناه بهذه الضخامة ؟

الواقع أن هناك غيرنا يسكن هذا الكون ، ومن هؤلاء " الجن " الذين تحدثت عنهم الأديان ، فإذا حاول أحدهم التمرد ، وإفساد الهداية النازلة لأهل الأرض فما المانع من إرسال شهاب وراءه يحرق كيانه ؟

(267/646)

---

ولم يقل القرآن الكريم إن "كل " شهاب يلمع فهو وراء شيطان سارق ! لم يرد هذا القصر فى القرآن قط ، فقد تتساقط الشهب لأمور أخرى لا ندريها ولم يعرف العلم المعاصر عنها شيئاً .

ومن هنا فإن القول بأن القرآن " أصبح يتناقض مع العلم فى قصة الشهب " لغو لا أصل له .

خزان المياه

ويكذب الكاتب "النابغ" قوله تعالى " وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين " (الحجر: 22) فيقول:

أصبحنا بعد إقامة السد العالى من أكبر الخازنين لمياه الأمطار .

وبذلك تكون الآية كاذبة ! !

فإن خزن المياه فى " الأزيار " أو فى " الصهاريج " أو وراء السدود لم يكن معروفاً فى الدنيا حتى بنى سد أسوان . ! ! !

أرأيت هذا العمى ؟ ؟

إن خزن مياه الأمطار على هذا النحو معروف للأولين والآخرين .

والآية تشير إلى معنى رائع فإن الزروع تحتاج إلى الماء لتنمو ، والناس والدواب تحتاج إلى الماء لتحيا ، وقد تكفل الله بإعداد المقادير من الماء الصالح لسد هذه الحاجات كلها ، ورتب لذلك عمليات البخر وتكون السحب وسقوط الأمطار ، وتفجر الينابيع أو جريان الأنهار . .

وستذوى أعواد النبات وتفنى أجساد البشر ، ويعود ما فى هذه وتلك وغيرهما من ماء ، ليأخذ دوره البخر والسحب والأمطار . . الخ وهكذا دواليك . [ أكدت هذا المعنى آية أخرى " وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض ، وإنا على ذهاب به لقادرون " ] .

وتوفر العذوبة للماء ، وحفظ القدر الذى تحتاج الدنيا له ، هما معنى الاختزان الوارد فى الآية .

وما فهم ذكى ولا غبى أن الناس عاجزون عن خزن المياه لأنفسهم فى قلة أو زير أو مستودع صغير أو كبير . . ! !

فهم عجيب

وتصفحت الكراسة التى بين يدي ، وهى مليئة بلغو ممل ، لأتبين حدود الهجوم على القرآن الكريم ، فوجدت الكاتب يتحدث عن ابنى آدم اللذين قتل أحدهما أخاه .

(268/646)

---

والقصة معروفة: أخ صالح تقرب إلى الله بقربان فقبله منه ، وأخ شرير تقرب كذلك فرفض الله قربانه ، فتوعد الشرير أخاه بالقتل ، ولكن الأخ الطيب نصح أخاه الفاشل قائلاً: " إنما يتقبل الله من المتقين " أى اتق الله ليقبل منك عملك ، كما قبل منى ، ولم تجد النصيحة ، وافترس الشرير أخاه .

وقد تناول عبقرى أسيوط هذه القصة ، وذكر أنها واردة فى التوراة .

لماذا ؟ . . يقول: هذه القصة لو تمت على هذه الصورة لكان القاتل بريئاً ؛ إذ تعرض بسبب

رفض قربانه لحالة نفسية قاسية نتيجة شعوره بعدالة ما كان يرنو إليه من قبول ، ثم يقول: " إن القصة تشير بأصابع الاتهام إلى المحرض على القتل ، وهو الذى رفض قبول القربان " .

ثم يقول المغفل عن الله: " إنه لو كان قبل القربان ما تمت الجريمة " .

حد السرقة

ووقعت عيناى على هذه العبارات فى أثناء هجوم الكاتب على " حد السرقة " يقول: " أما عن تحريم الأديان للسرقة فقد كان الغرض منه ترضية الأغنياء وتأمينهم على مالهم وضمان تأييدهم ، إذ المفروض بداهة ألا يسرق إلا الفقير " ! !

ويقول: " التأميم هو اغتصاب شرعى لما سبق أن اغتصب ظلماً من الجماهير الكادحة فهو تصحيح للأوضاع وإزالة للظلم التاريخى المتأصل " .

وقد يلومنى بعض القراء لاهتمامى بذكر هذه السخافات والرد عليها ، ولو علموا ما تركته من آثار بين طلاب الجامعة فى أسيوط لعذرونى .

إن هؤلاء الطلاب لم يعرفوا عن الإسلام شيئاً ، والخطة الموضوعة " لتخريجهم " باعدت بينهم وبين الثقافة الإسلامية الناضجة ، والسليقة الأدبية العالية ، حتى إذا تركوا الجامعة بعد نيل " إجازاتها " خدموا كل شىء إلا دينهم ، وأصبحوا فريسة سهلة لمبشرين محتالين أو أفاكين من النوع الذى قرأت هنا شبهاته ضد القرآن الكريم . .

وما وقع فى " أسيوط " وقع قريب منه فى " الإسكندرية " ونتج عنه ارتداد بعض الفتية

والفتيات.

إنهم مساكين غير محصنين بشيء ضد الإلحاد أو الشرك.

(269/646)

---

ولما كانت كتب السنة قد تضمنت أشياء تحتاج إلى بيان وتمحيص وكشف فلا بد من الوقوف قليلاً أمام ما أثاره هؤلاء الفتانون.

نبى مرعب

قال لى طالب جامعى بالإسكندرية: لقد أرونى كتاب البخارى، وقرءوا لى منه حديث " نصرت بالرعب " وتضاحكوا وهم يقولون: " نبى مرعب " ينشر دينه بالإرهاب، والاعتراف سيد الأدلة!!

وقلت للطالب: إن البخارى وغيره رووا هذا الحديث، وأريد أن أشرح لك المعنى الوحيد له مستعرضاً مواضع هذه الكلمة لا فى السنة الشريفة، بل فى القرآن الكريم، لتعلم أنها أتت فى سياق حرب " دفاعية " عن الحق " هجومية " على الباطل، لا عدوان فيها ولا إرهاب..

بعد هزيمة المسلمين فى أحد نزلت هذه الآية: " سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما

أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين " (آل عمران: 151) .

وهزيمة أحد كانت فى أعقاب خروج المشركين من مكة ، وشنهم الهجوم على الإسلام وأمته فى المدينة .

وقد استطاع المشركون إيقاع خسائر جسيمة بالمدافعين عن الدين وموطنه الجديد مما ترك آثاراً سيئة فى النفوس . .

فأراد الله أن يواسى جراحهم ، وأن يشعرهم أن القتال القادم سيكون لمصلحتهم ، وأنه سيقذف الرعب فى قلوب المعتدين عندما يكررون هجومهم . فماذا فى ذلك من عيب ؟

وجاءت هذه الكلمة عندما خان يهود بنى النضير عهدهم ، وحاولوا قتل النبى صلى الله عليه وسلم ، فجرد عليهم حملة ليؤدبهم ، ولكن القوم - دون قتال - حل بهم الفزع ، وقرروا الجلاء عن المدينة " ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب " (الحشر: 2) .

وأخيراً ذُكرت هذه الكلمة عندما انضم يهود بنى قريظة إلى الأحزاب التى أحاطت بالمدينة تبغى دكها على من فيها ، وأعلنت حصاراً رهيباً عليها .

وكان بنو قريظة قد أعطوا العهد من قبل على أن يعيشوا مع المسلمين فى سلام شريف ، واعترف رئيسهم بأنه لم يجد من النبى إلا خيراً ، ومع ذلك فقد انتهز الفرصة التى سنحت وأعلن الحرب الغادرة ، وظن أنه سيقاسم المشركين الغنايم بعد الإجهاز على محمد وصحابته . ولكن قدر الله كان أغلب ، لقد فض الله جموع المحاصرين " وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً " (الأحزاب: 26) .

أإذا وقعت حرب الآن بيننا وبين إسرائيل ، حرب جادة يستعلن فيها الإسلام وتتحد الكلمة ويتقدم ليوث محمد يطلبون إحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة ، وفزع اليهود لهذا الزحف الجديد ، الواثق العنيد ، أإذا حدث ذلك وسرى الرعب فى قلوب أعدائنا قيل عنا إننا إرهابيون ؟

إن تحريف الكلم عن موضعه شىء مألوف عند أعداء الإسلام .

لقد نصر الله نبيه محمداً بالرعب كما قال: فهلا قيل نصره فى أى قتال ؟

إن أشرف قتال وقع على ظهر الأرض هو القتال الذى خاضه محمد وأصحابه . .

ولقد شعرت بشىء غير قليل من الضيق وأنا أقرأ قول الكاتب الأسيوطى " توفى محمد عن ثلاث وستين سنة بعدما رفرفت راية التوحيد وطهرت الأرض من الوثنية فى أعقاب

غزوات ضارية ، متعددة بلغت تسع عشرة غزوة . كما يقول البخارى . هى على التوالى :
العشيرة ، بدر ، أحد ، الرجيع ، رعل وذكوان ، الخندق ، بنو قريظة ، ذات الرقاع ، بنو المصطلق ، الحديبية ، خيبر ، مؤتة ، تبوك ، الفتح ، حنين ، الطائف ، ذات السلاسل ، سيف البحر " .

وبغض النظر عن الترتيب التاريخى ، ما رأى القارئ إذا قلت له : إن عشراً منها على الأقل لم يقتل فيها أكثر من عشرة أشخاص هم مجموع خسائر المشركين ! ! !

وأن جملة الوثنيين فى شتى المعارك الكبرى تتجاوز المائتين قليلاً .

وأن خسائر اليهود فى صراعهم مع الإسلام عدة مئات من القتلى . .

*(271/646)*

---

هذه هى الغزوات الضارية المتعددة التى نشرت الإسلام كما يزعم الأفاكون ! : خسائرها الحربية عشر ، بل نصف عشر الفتنة التى وقعت بين الكاثوليك والبروتستانت فى عيد " سان بارتلميو " .

. . خسائرها قطرة دم أريقت لمنع العدوان ، نعم قطرة بالنسبة لحمامات الدم التى صحبت تطبيق الشيوعية ، وتوطيد سلطانها .

قطرة بالنسبة للألوف المؤلفة الذين ذبحوا فى صمت أو ضجة لدعم الحكم الفردى المطلق .

وبعد أن أحرقت رفات الضحايا سمعت أغرب صيحة فى العالم: إن الشيوعية تدعو للسلام !

والشيوعية فى هذا النفاق الفاجر تقلد الصهيونية والصليبية . . المتهم المسكين هو ديننا وحده ! !

كذب على رسول الله (عليه الصلاة والسلام)

ونعود إلى ذكر الأحاديث التى هاجمها المستشرقون والمبشرون وسماسرتهم .

روى الكاتب الأسيوطى أن رسول الله قال: " إذا غضب الله على قوم أمطرهم صيفاً " [ لم أجده حتى فى كتب الموضوعات المشهورة ! ! ] . .

وبنى على هذا الحديث جهل قائله بالحقائق الجغرافية . . ونقول: ما رواه الكاتب كذب ، والحديث باطل موضوع .

وروى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه حرم الثوم تحريماً قاطعاً مع ما فيه من فوائد غذائية وطبية .

ونقول: هذا كذب ، فأكل الثوم والبصل والفجل جائز ، وهذه المواد مباحة كلها ، ولكن على آكلها ألا يؤذى المجتمع برائحة فمه ، ويستطيع أن يبتعد عن غيره ويقوم بأى عمل انفرادى ، وتسقط عنه صلاة الجماعة بل إن الأبخر تسقط عنه صلاة الجماعة ، رحمة

بالآخرين . .

وروى الكاتب حديث " الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء " [ الحديث رواه البخارى ، والترمذى ، وابن ماجه : كلهم فى : الطب ، ورواه مسلم فى : السلام ، والدارمى من : الرقائق ، ومالك وأحمد . وهو صحيح كما بين شيخنا ]

وكذبه قائلاً : الحمى ليست من فيح جهنم ، بل هى من فيح الأرض وما فيها من قاذورات تساعد على تولد الجراثيم . .

(272/646)

---

والكاتب كاذب والحديث صحيح ، وما قاله ليس رداً ، فإن الحمى مهما كان سببها ترفع درجة الحرارة ، وتكاد تصدع الرأس بآلامها فإذا شبهها النبى بعذاب جهنم ، وأوصى أن تخفض درجة الحرارة بالمبردات ، فهو محق .

نماذج لتحريف الكلم

وذكر الكاتب الحديث القدسى " إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته عنهما الجنة " [ رواه أحمد : 2 / 144 ط الحلبى ، والبخارى فى كتاب الرضى ، والدارمى فى الرقاق ، والترمذى فى الزهد ] ، يريد عينيه . ثم علق عليه بهذه الكلمات الحمقاء :

الرأى متروك لأطباء العيون ليقرروا هل فقد البصر ابتلاء من الله أم هو ناتج عن أمراض معينة ؟

ثم قال بعد لغو طويل: "إذن المسألة ليست الصبر أو التعويض عن فقد العينين بالجنة ! ! المسألة كلها نقص فى المستوى العلمى آنذاك ! ! " .

والمرء يتحير فى هذا الغباء ! هل يقال لمن أصيب بانفصال فى الشبكية مثلاً: انتحر فقد فقدت نور الحياة ، أم يقال له اصبر واحتسب ؟ !

وهل الوصية بالصبر تعنى عدم التماس العلاج إن وجد إليه سبيل ؟

لقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتداوى والتماس العافية من أى سبيل ميسور .

لكن ما العمل إذا لم ينفع الدواء ؟ أيقول الأنبياء للمرضى: موتوا بغيظكم . أم: اصبروا على قضاء ربكم ، يأجركم يوم اللقاء بما يطيب خاطركم .

وذكر الكاتب حديث رسول الله فى الطاعون ثم أخذ يتخبط فى التعليق عليه ، وتعليمات النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك تحصر الوباء فى أضيق نطاق ممكن لأنه يقول: إذا سمعتم بالطاعون فى بلد فلا تسافروا إليها ولا تخرجوا منها . .

ولا شك أن الباقى فى بلد تحدثه نفسه بالفرار نجاة بحياته ، بيد أن النبى الكريم يوصيه بالبقاء ـ منعاً للعدوى ـ كما أسلفنا ، ويجعل لمن مات مصاباً أجر شهيد ، وهى مواساة كريمة ، ووعد مصدوق . .

وبديهى أن يكون هذا الأجر الأخروى لمن يؤمن بالآخرة وحده ، إذ ماذا ينتظر من الله منكر لوجوده ، أو مفتر الكذب عليه ؟ !

(273/646)

---

لكن هذا الأسيوطى المسكين يسوق حديث البخارى فى هذا الموضوع على هذا النحو:

روت عائشة قالت: " سألت رسول الله عن الطاعون ، فأخبرنى أنه عذاب يبعثه الله على من يشاء ، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين ، ليس من أحد يقع الطاعون فى بلده فيمكث صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله إلا كان له أجر شهيد " (رواه البخارى وأحمد) .

ثم يتساءل: " والآن لا نقول ما رأى الطب فى هذا القول ؟ بل ما رأى المثقف العادى ؟ "

وبعد ثرثرة فارغة يقول: " أرجو كبار الأطباء أن ينظروا فى مراجعهم حتى يشرحوا نوع الشهادة التى رأى محمد أن يخص بها المسلمين فقط . . " .

وما نجد شيئاً نعقب به على هذا الغباء . .

ومعروف من تعاليم الإسلام أنه شديد الاهتمام بنظافة البدن ، وتنقيته من كل درن ، وما دام الإنسان يأكل الطعام فهو محتاج إلى إرشادات مهمة لاستقباله ، والخلاص من فضلاته .

ولم يؤثر عن أحد أنه أمر بتطهير الفم كما أثر ذلك عن محمد عليه الصلاة والسلام .

ولم يؤثر عن أحد أنه أمر بالتطهر التام من آثار الفضلات الأدبية كما أثر ذلك عن الإنسان الطهور الوضيء محمد بن عبد الله فقد أوصى باستخدام الماء ، بعد أن أوصى بإزالة القذى دون ملامسة اليد له ، ولا بأس فى بيئة صحراوية من الاستعانة ببعض الحصى فى ذلك تنزيهاً لليد من مباشرة النجس ! ! ومع ذلك كله فقد أمر بدلك اليد بالتراب ، أو بأى مزيل للروائح الكريهة ! ماذا يفعل أكثر من ذلك لتكريم الجسد الإنسانى ؟

وفى الجنابة إذا كانت هناك آثار للسائل المنوى تغسل ، وينقى منها البدن والثوب ، مع أن السائل المنوى طاهر عند فريق من الفقهاء .

غير أن عبقرى أسيوط دخل فى هذه القضية بفكر متعصب قذر ، فذكر عن ميمونة ـ زوج النبى ـ أنه اغتسل من الجنابة فغسل فرجه بيده ثم دلك بها الحائط ، ثم غسلها ، ثم توضأ وضوءه للصلاة ، فلما فرغ من غسله غسل رجليه" (رواه البخارى ، ومسلم ، والإسماعيلى فى مستخرجه وابن حبان ، راجع تلخيص الحبير: 1 / 142) .

قال الكاتب: " فى هذا الحديث نقف عند جملة معينة هى: " فغسل فرجه بيده ثم دلك بها الحائط " أى مسح يده بالحائط ، أليس هذا التصرف ناقلاً للعدوى لو أنا تابعناه . . إن الطب يؤكد أن أمراضاً كثيرة مثل الديدان المعوية والبلهارسيا تنتقل بهذا التصرف من المريض إلى السليم . . "

وهذا كذب فى كذب ! من قال: إن أى زوج ينقى جسمه من آثار المباشرة الجنسية ينقل البلهارسيا وديدان الأمعاء ؟ !

والكاتب الذى يمد عينيه إلى هذه الشئون كيف ينسى ما عنده من تعاليم تجعل ما يخرج من جسمه ـ أياً كان ـ ليس نجساً . . أى الفريقين أطهر وأشرف ؟ هل نذكر له ما ورد فى الأناجيل من ذلك ؟

[ يراجع كتابنا دفاع عن العقيدة والشريعة ] .

إن التوجيهات المحمدية فى ذلك بلغت القمة ، أما ما ينقل عن غيره فيثير الغثيان .

وإذا لم يكن الكاتب نصرانياً وكان شيوعياً فهل يدلنا كيف كان ماركس يتطهر ؟ إن إبقاء الغطاء على هذا الموضوع أحفظ للمروءة وأصون للذوق العام !

ويتهكم الكاتب بالطهارة الرمزية المعروفة فى الإسلام باسم التيمم . ونحن نقول له: إذا كنت تضيق أن يمس التراب بعض أعضاء الإنسان فما رأيك إذا كان الكتاب المقدس يأمر بابتلاع هذا التراب نفسه ؟ (سنسوق النص بعد قليل عند الحديث عن الاعتراف) .

وينكر الكاتب وجود السماء قائلاً: إن الفكر البشرى أيام جهالته أخطأ فى فهم الزرقة التى تحيط بنا، فوصفها بأنها سقف الأرض وسماها سماء، ثم جاءت الأديان فأكدت ذلك، وزادت بأن حددت عدد طبقاتها، وظل هذا الاعتقاد سائداً حتى أبطله العلم.

ونقول: تطلق السماء لغة على كل ما علا. وقد أطلق القرآن الكريم السماء على السحاب. قال تعالى: "ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها" (فاطر: 27) وفى آية أخرى: "ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله.." (النور: 42). أى المطر.

ومن الآيتين معاً نعلم أن السماء هى السحاب.



---

وأطلق القرآن السماء على السقف العادى، وكل ما ارتفع: "من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع.." (الحج: 15).

وتطلق السماوات السبع على طباق فوقنا لا نعرف: ما هى، ولا ما أبعادها، ولم يتحدث الدين عن مادتها، ولا عن طريقة بنائها، فماذا فى العلم يخالف ما أسلفنا بيانه؟

يقول هذا الكاتب: وراء النجوم فراغ لا نهائى، لا محدود..

ونقول هذا كذب ، فالكون محدود ، والوصف بالمطلق هو لله وحده ، ولم يقل علماء الفلك أنهم استيقنوا من أن كوننا هذا لا نهائى . .

ثم يجىء الكاتب إلى قوله تعالى: " أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما " فيزعم أن هذا الرأى يناقض جميع النظريات العلمية ، كما يعرف ذلك طلاب المدارس . .

لقد فهم الأحمق من الآية أن الأرض كانت ملزوقة فى الزرقة الفضائية قبل أن تنفصل وحدها . . وهذا ما لم يقله أحد .

سئل ابن عباس عن هذه الآية فقال: فتق السماء بالمطر ، وفتق الأرض بالنبات . .

وهناك رأى علمى بأن المجموعة الشمسية كانت سديماً ، ثم انفصلت عن الشمس وتوابعها على نحو ما نرى .

ونحن لا نصدق ولا نكذب رأياً علمياً لم يستقر فى وضعه الأخير . . والمهم أن القرآن يستحيل أن يكون به ما يناقض حقيقة علمية مقررة .

المداد القرآنى

ومن سخافات المسكين أن يقول إن القرآن كله تتم كتابته بقطرات من محبرة ، فكيف يجىء به " قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى . . "

(الكهف: 109)

إن كلمات الله تكثر كثرة ما يعلم ، وقد وسع كل شيء علماً ، إنها الكلمات المتصلة بتدبير الوجود كله ، والقيام على أمره ، إنها تتصل بحياة كل ذرة فى الأرض والسماء .

وليست بداهة ألفاظ القرآن ، ولكن الجنون فنون . .

ولا أريد أن أطيل السرد ، والأخذ والرد مع شخص يهزل ويرى أنه يجد ! !

حديث الذباب



---

أريد أن أقرر حقيقة إسلامية ربما جهلها البعض : هل رفض حديث آحاد لملحظ ما يعد صدعاً فى بناء الإسلام ؟

كلا فإن سنن الآحاد عندنا تفيد الظن العلمى ، إنها قرينة تستفاد منها الأحكام الفرعية فى ديننا ، فإذا وجد الفقيه أو المحدث أن هناك قرينة أرجح منها ، تركها إلى الدليل الأقوى دون غضاضة .

وتعريف الحديث الصحيح : " ألا تكون فيه علة قادحة " ، فإذا بدت علة فى " سنده " أو " متنه " تلاشت صحته ، ولا حرج .

وأئمة الفقه الإسلامى بنوا اجتهادهم على هذا النظر الصائب .

.فأبو حنيفة مثلاً رفض أن يترك المسلم إذا قتل كافراً دون قصاص وتجاوز حديث البخارى

فى ذلك " لا يقتل مسلم فى كافر " واعتمد فى مذهبه على آية " النفس بالنفس " .

.ومالك كره أن تنفل المصلى قبل فريضة المغرب ، ولم يلتفت لما رواه البخارى فى ذلك من

استحباب صلاة ركعتين لمن شاء ، ورأيه هذا يرجع إلى أن عمل أهل المدينة أدل على

السنة من حديث آحاد ، وهم لا يتنفلون قبل المغرب ، فاتباعهم أولى من رواية البخارى .

.وأبو حنيفة ومالك جميعاً يكرهون أن يصلى المرء تحية المسجد والإمام يخطب يوم الجمعة

، ويردون ما رواه البخارى فى ذلك بردود شتى .

.وأغلب الأئمة يرفض ما روى . . فى الصحيح من أن رضاعة الكبار تثبت حرمة

المصاهرة ، ويرون أن الرضاعة المثبتة المحرمة ما كان فى فترة الطفولة ، أى ما أنبت اللحم

وشد العظم .

ولا نريد أن ننتقل إلى مباحث فقهية مفصلة ، وإنما نريد أن نقول: هب أن رجلاً قال: لا

أستطيع قبول رواية " إذا وقع الذباب فى شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه ، فإن فى

إحدى جناحيه داء والأخرى شفاء " أيكون من الكافرين ؟ كلا ! ! فلم يقل أحد أن

أركان الإسلام تضم الإيمان بالله واليوم الآخر وغمس الذباب فى الشراب إذا سقط فيه !

وحيث الآحاد ليس مصدر عقيدة شرعية أو حكم قاطع ، بيد أنى من باب استكمال

البحث العلمى فقط

أسأل: هل الحديث مردود ؟ إن بعض علماء الحشرات قرر أن هذه الحشرة تفرز الشيء والشيء المضاد له ، فإن استقر هذا الرأى الفنى فالحديث صحيح ، وإن ثبت قطعاً أن الذباب مؤذ فى جميع الأحوال التى تعرض له ومن بينها الحالة المروية فى الحديث رددته دون غضاضة.

وليس بقادح هذا فى دينى ولا يقينى.

وقد روى " البخارى " أحاديث صحيحة السند لكن أئمة الفقه عملوا بغيرها لأدلة أقوى عندهم منها . . وأنا شخصياً متوقف فى هذا الحديث ، لم أنته فيه إلى حكم حاسم ، وعلى أية حال فهو لا يتعلق بسلوك خاص أو عام . .

إن قواعد الدين وعباداته وفضائله وقيمه ترتكز أولاً على القرآن الكريم ثم ما يشرحه من سنن استراح النقاد الأخصائيون لها . .

ومنهج المحدثين فى تلقى التراث النبوى لا غبار عليه ، بل إن هذا المنهج هو ما تحتاج إليه الديانات الأخرى لتكون موضع ثقة وقبول.

وما دام هناك من يضرب رأسه بالجبل ليثبت أن فى الإسلام متناقضات فلنلق نحن نظرة

خاطفة على تراث القوم ليرى القراء أين تقع التناقضات الحقيقية:

أساطير العهد القديم

إننا فى الفصل الأول من هذا الكتاب فضحنا الأسلوب الطفولى الماجن الذى تحدث به العهد القديم عن الألوهية ، فلنسمع هذه الأخبار عن عدد بنى إسرائيل حين دخلوا مصر وحين خرجوا منها ، يقول الأستاذ عصام الدين حفنى ناصف كاشفاً عن التزوير الذى اقترفه كتّاب التوراة:

" من ذلك ما زعموه أن يعقوب وأسرته وفدوا على مصر بدعوة من يوسف ، وكانت عدتهم 70 شخصاً فما انصرمت 215 عاماً حتى كان عددهم قد ناهز 3000000 (أى 3 مليون) فلما نزحوا عن ديارنا كان بينهم " نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد " .هكذا سجل سفر الخروج.(12: 37) وقد أحصوا أبكارهم فكان جميع الأبكار الذكور بعدد الأسماء من ابن شهر فصاعداً ، المعدودين منهم اثنين وعشرين ألفاً ومائتين وثلاثة وسبعين (عدد 3: 43) .

فإذا ضاعفنا هذا الرقم كان جميع الأبكار من الجنسين نحو 45000 ، وبقسمة عدد الجماعة على عدد الأبكار نخلص إلى أن المرأة الإسرائيلية كانت تلد زهاء 65 وليداً ! ! ".

هذه هي مقررات الكتاب المقدس . . دون تعليق !

وظاهر أن اليهود كذبوا في ذكر عددهم كذباً صارخاً ، وأنهم أودعوا كذبهم هذا في تضاعيف التوراة ، وعلينا أن نصدق ! ! !

يقول " عصام ناصف " : " إن هذه الملايين الثلاثة المزعومة من اليهود الآبقين من مصر لو أنها سارت في صفوف عرضية متراصة يضم كل صف منها عشرين يهودياً ، ويشغل الصف بين سابقه ولاحقه متراً واحداً لاستطال هذا القطار البشري " الطابور " مسافة 150 كيلو متراً . أبعد من المسافة بين القاهرة وخليج السويس . ولتعذر على قائدهم موسى أن يبلغهم أوامره " !

وعن كهنة الأديان السابقة وإغراقهم في المتاع المادي يقول : " إن المال والجاه وإن كانا في حقيقة أمرهما غرضاً يبتغى لذاته ، هما كذلك وقبل ذلك وسيلة لفرض لا تكتمل المتعة إلا به ، وهو قضاء الوطر من الناحية الجنسية ، ومن ثم خولوا أنفسهم حق الاستماع إلى اعترافات النساء ، فيما يتصل بأوثق علاقاتهن بالرجال . .

" وقد اشترعوا لهذا الغرض ما أسموه " شريعة الغيرة " . فإذا استراب رجل بامرأته ،

وهجس فى صدره أنها خانته مع آخر " يأتى الرجل بامرأته إلى الكاهن ويأتى بقربانها معها ، فيقعدها الكاهن ويوقفها أمام الرب ، ويأخذ الكاهن ماء مقدساً فى إناء خزف ويأخذ الكاهن من الغبار الذى فى أرض المسكن ويجعله فى الماء " (عدد 17.15) ويخلو الكاهن بالمرأة ويشرع فى تلاوة بعض الألفاظ ويستحلف المرأة أن تقر بما كان منها ثم يجرعها الماء المشوب بالغبار .

(279/646)

---

ومتى سقاها الماء فإن كانت قد تنجست وخانت رجلها يدخل فيها ماء اللعنة للمرارة فيرم ـ يتورم ـ بطنها وتسقط فخذها ( ! ) فتصير المرأة لعنة فى وسط شعبها . وإن لم تكن المرأة قد تنجست بل كانت طاهرة تتبرأ وتحبل لزرع " (عدد : 17.15) [ نقدم هذا النص لمن لم يرقهم " التيمم " بالغبار ، ها هو ذا الغبار يشرب عندهم ]

ومن المعلوم أن الماء لا يدخل المرارة ، وأن وظائف الأعضاء لا تمت إلى المسلك الخلقى بسبب وثيق ، ولكنها إجراءات خادعة تتخذ بتعزيز سلطان الكاهن على المرأة ، فهو ينفرد بها فى خلوة ثم يخرج راضياً أو ساخطاً وينطق بالقول الفصل فيدينها بالموت مجللة بالعار ، أو يدعها تنعم بالحياة مرفوعة الرأس ناصعة الجبين " .

هذه توجيهات الكتاب المقدس ، ومبدأ الاعتراف على هذا النحو أو على أى نحو آخر لا معنى له ولا أثر ، اللهم إلا إفساد الدين والخلق . .

ماذا على من أخطأ أن يتصل بربه لفوره فى دعاء النادم ، ورجاء الخاشع ، والله يبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ويبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، وبابه يستقبل كل شخص رجلاً كان أو امرأة ، شيخاً أو شاباً ، عالما أو جاهلاً ؟ ؟

هذه توجيهات الإسلام ، وهى نابعة من مبدئه العتيد : "كل امرئ بما كسب رهين " أما انفراد المرأة

بكاهن ـ أو غير كاهن ـ فى خلوة فأمر لا تحمد عقباه ، خصوصاً إذا كانت هذه الخلوة مع محروم من الزواج معلوف بأطايب الطعام ! !

هل الله جل شأنه مصدر هذه التعليمات ؟ كلا . .

إن من المقطوع به أن عدداً من المؤلفين لا مؤلفاً واحداً أشرف على وضع الكتاب المقدس كله ، ولا نزعم أنه خال من الوحى الإلهى من أوله إلى آخره ، لا ، بل نقرر أن خليطاً معقداً من أهواء الناس وهدايات الله . . تم التنسيق بينهما على النحو الذى نرى .

بيد أن من المضحك أن الذى قام بتأليف التوراة نسى نفسه وهو يكتب ، وذهل كل الذهول أنه سوف ينسب ما يكتب إلى موسى ! !

فأورد فى تضاعيف التوراة. النازلة على موسى فرضاً. هذه العبارات: " فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض موآب حسب قول الرب، ودفنه فى الجواء فى أرض موآب مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم. وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات. ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته، فبكى بنو إسرائيل فى عربات موآب ثلاثين يوماً، فكملت أيام بكاء مناحة موسى.. ".

ما هذا ؟ موسى الذى أنزلت التوراة تتحدث عنه التوراة بهذا النعى والعزاء والمناحة ؟؟ ما يستطيع عاقل إلا الإقرار بأن كاتب التوراة بعد موسى نسى نفسه ونسى الدور التمثيلى الذى يقوم به، وغلبت عليه صفة المؤرخ لا المؤلف فقال ما قال ليعرف المستغفلون ماذا يقرأون !!

ونقرن هذا النص بخبر آخر نشرته جريدة الأهرام فى 3 مايو سنة 1973 (19 من ربيع الأول سنة 1392) تحت عنوان " وثائق دينية تاريخية تسلمها هولندا إلى الأردن ":

" عمان: . سلم اليوم الدكتور " هانك بانكير " بالنيابة عن الحكومة الهولندية إلى الدكتور غالب بركات وزير السياحة الأردنى وثائق تاريخية تتضمن النصوص القديمة التى قال المؤرخون أنها تطلبت إعادة تقييم الإنجيل. وكانت بعثة أثرية هولندية قد اكتشفت هذه الوثائق فى عام 1967، وهى وثائق كتبت بالآرامية فى القرن السابع قبل الميلاد،

وعثرت عليها البعثة فى وادى الأردن ، وكانت البعثة قد حملت تلك الوثائق إلى هولندا لدراستها وحل رموزها بقصد حفظها . وقال الدكتور " هـ . فراكين " الذى رأس تلك البعثة: إن هذه الوثائق فريدة من نوعها ، وقال: إن كل المعلومات التى وردت فى الإنجيل حول فلسطين والأردن فى نهاية العصر البرونزى وبداية العصر الحديث غير موثوق بها لأنها كانت محاولة قام بها قساوسة من القدس لجعل التاريخ يتناسب مع الآراء الدينية للقرن السابع للميلاد " .

هذا الخبر الصغير نقطة فى بحر من الأوهام والترهات التى تغص بها هذه الصحائف .

(281/646)

---

وما نعلم كتاباً حفته العناية العظمى ، وصانته أجل صيانة من هذا القرآن الكريم .

إن القارات الخمس ليس فيها ما يوصف بأنه وحى السماء إلا هذا الكتاب الفذ .

فهل يؤدى المسلمون حقه ؟ !

تحقير التدين ومطاردة المتدينين لأدنى ملابسة خطوة إلى الارتداد الذى لا ريب فيه ، وهو فى الظروف التى تواجهها أمتنا نوع من الخيانة العظمى أو هو الخيانة العظمى نفسها .

وقد أفهم أن تشتبك السلطات الحاكمة مع أفراد أو جماعات ينازعونها السيادة لغرض

سيء أو حسن ! لكن هل يقال: إن التاريخ الإسلامي يعين على تكوين جماعة الإخوان ، فليمسخ هذا التاريخ ! . . أو: إن البيئات المتدينة مستودع يستمد منه الإخوان ، فلتحارب هذه البيئات ؟ ؟

إن هذا القول يعني بداهة نقل الخصومة من ميدان إلى ميدان آخر ، وأن الإسلام ذاته قد أصبح عرضة للعدوان .

وقد هززت رأسي أسفاً وأنا أسمع شاباً يتبرأ من الانتساب إلى الإخوان فيقول لقضاته: أنا عمري ما ركعتها ، ويعلم صحبي أني أشرب الخمر ، وأفعل كذا وكذا ! !

وقد استمع الناس إلى أحد " نجوم الفكاهة " في مصر يذكر أن امرأة اقتيد زوجها إلى السجن فسئلت: أهو من الإخوان ؟ فقالت: " فشر ! زوجي حرامي قد الدنيا " .

وهكذا أصبحت اللصوصية شرفاً ! أو نسبة لا حرج فيها على الأقل !

والواقع أنه مرت ببلدنا أيام كالحة الوجه ، مشئومة العقبى كان التدين فيها تهمة تخرب البيوت ، وكان عدد من الشبان المؤمنين يختفي بصلاته وتقواه ، وقل تردده على المساجد لأنه أشيع أن نفراً من الذين صلوا الفجر في مسجد كذا قد اعتقلوا . .

وامتداداً لهذه السياسة. سياسة سوء الظن بكل ذي نزعة متدينة. وضعت المؤسسات الإسلامية الكبرى تحت رياسة عسكرية لها الكلمة العليا مثل " الجمعية الشرعية " ، و " الشبان المسلمين " ، و " المجلس الأعلى للشئون الإسلامية " و " مدينة البعوث الإسلامية

" . .

وذلك لضمان حصر عاطفة التدين داخل إطار معين:

.فلا يسمع أى كلام عن تطبيق الشريعة الإسلامية .



---

.ولا يقبل أى اتجاه للعودة بالأمة إلى الاصطباغ بدينها فى ظاهر أمرها وباطنه .

ومن الإنصاف أن نذكر أن من بين هؤلاء العسكريين من ترك الشعور الإسلامى ينمو دون حرج ، خصوصاً بعد أن تغيرت الظروف التى أملت بالتقرير المثبت فى هذا الكتاب [ راجع تقرير اللجنة التى شكلت من : زكريا محيى الدين ، صلاح نصر ، وشمس بدران لدراسة الظاهرة الإخوانية ] .

على أن الشيوعيين والصليبيين قد انتهزوا فرصة هذه المطاردة المثيرة فأعلنوا حرباً على الشارات الإسلامية فى المجتمع ونجحوا فى تحقيرها وتأليب قوى شتى ضدها .

وعن طريق المسرح وحده أمكن عرض روايات هازلة وجادة غرضها انتزاع كل مهابة لشيوخ الإسلام والمتحدثين باسمه .

كما أن سماسرة الغزو الثقافى فى بلادنا استماتوا فى صرف الشباب عن الدين ، وأغروه

بفنون الشهوات لينسى ربه ودينه ونبيه .

فلما تغلبت الفطرة الأصيلة وأخذ الشباب يعود إلى دينه فى صمت وظهرت الملابس الحشمة بين الطالبات الجامعيات جن جنون السماسرة من صحافيين وصحافيات وانطلقوا يفترون الكذب على العفيفات المحصنات ، ووصفت امرأة ماجنة ملابس الفضيلة بأنها " أكفان موتى ! " وأخذت مع غيرها ينهشن بضراوة أعراض الطيبات الطاهرات .

وقد تصفحت المجلة التى نشرت هذا اللغو فوجدت بها دعوة إلى الزنا والرضا به ، والتحريض عليه ، فى عدة مواضع . . ! !

ولا عجب فرئيسة تحرير المجلة هى التى ناقشت العقيد " القذافى " بسماجة نادرة ، وسوغت أمامه انتشار الخنا فى شارع الهرم عندما نصر الرجل النساء بالتزام أحكام الإسلام .

" الخيانة الزوجية " تعبير مخفف عن جريمة الزنا عندما يرتكبها رجل مغافلاً امرأته أو ترتكبها امرأة مخادعة زوجها .

وأظن هذا التعبير مترجماً عن اللغات الأوربية حيث يعتبر اقتراف ذلك الإثم تفريطاً فى حق إنسانى عادى ، أما نحن المسلمين ، بل معشر المتدينين إجمالاً ، فنرى الزنا تفريطاً فى حق الله قبل أن يكون تفريطاً فى حق عباده ، وهو من الشخص المحصن أغلظ وأشنع ممن لم يسبق له زواج.

لكن الأستاذة المعلمة " أمينة السعيد " لها وجهة نظر أخرى فى هذه القضية: لماذا ينظر إلى الزنا هذه النظرة السيئة ؟ بل لماذا تستبشع الخيانة الزوجية على هذا النحو الشائع بين الناس ؟ فنشرت فى صفحة 47 من مجلة حواء (العدد 843 . 18 / 11 / 1972 م) هذا الكلام تحت عنوان " أراحت نفسها " :

" سألوها (وهى زوجة فرنسية) : هل تغارين ؟ أجابت: أعانى من الشعور بالوحدة عندما يبتعد عنى زوجى ، لكن لا أغار ، وأعتقد أن الغيرة شىء لا معنى له ، ولذلك ينبغى ألا نستسلم له ! !

لكن سائلها لم تقنعه هذه الإجابة ، فقال لها : اشرحى لى !

قالت: إننى أقول لنفسى افرضى أنه الآن مع واحدة أخرى ، هل من حقى أن أعترض ؟ إننى لم أتزوج قرداً أو نكرة وإنما تزوجت رجلاً " ملء ثوبه " ، أحببته لهذا ، ولا بد أن يعجب غيرى من النساء ! إننى لا أحمل له عاطفة الحب وحدها ولكن أيضاً الاحترام

والتقدير !

قاطعها السائل: لا أهمية عندك إذن للإخلاص والوفاء ؟

(284/646)

---

قالت وهى تأخذ رشفة من فنجان القهوة: " اسمع ! أنا الآن أشرب هذه القهوة . . شعرت بحاجة إليها . . وها أنذا أستمتع بها . . هل يمانع أحد ؟ . . هل من حق زوجى إذا دخل الآن أن يلومنى قائلاً: لماذا شربت القهوة دون إذن منى ؟ أقصد أن الخيانة العابرة ليست أكثر من فنجان قهوة بالنسبة لى . . لماذا أجعل لها من الأهمية أكثر مما تستحق ؟ أليس من الجائز أن يستمتع هو فى غيابى أيضاً بقطعة موسيقى . . باستلقاءة فى الشمس . . بنكتة يسمعها من أحد زملائه ؟ هل يوجد فرق كبير حقاً بين الاثنين ؟ أقصد أن النزوات . . الغلطات العابرة ينبغى أن نتسامح فيها ، فإذا تغير شعوره نحوى تماماً ونفض يده منى فهذا شىء آخر . . شىء يستحق حزنى ، لكن حتى فى هذه الحالة لن تفيدنى الغيرة شيئاً ! " .

والآن (ما زال الكلام للمجلة) هل أثارت دهشتك ردود هذه السيدة ؟ ! إنها زوجة فرنسية . . ولا أعتقد أن كل الزوجات الفرنسيات يعتنقن هذا الرأى الجرىء والذى عبرت

عنه فى حديث أجرته صحيفة " مارى كلير " مع بعض الزوجات . . لكن الذى لا شك فيه أن فى كلامها حكمة تفتح نافذة على نوع من راحة البال يحتاج إليه كثير من المتزوجين ".

وفى الصفحة رقم (5) من هذا العدد علاج مماثل لقضية الزنا أو الخيانة الزوجية كما شاع على الألسنة ، وهذه الكلمة المكتوبة تعليق على رواية للصحافى المشهور " توفيق الحكيم " . . فإن هذا " التوفيق حكيم " منح الرجل حق الزنا أو حق خيانة زوجته ، وضن على المرأة بهذا الحق ! ! فجاءت مجلة " حواء " لترفع راية المساواة بين الجنسين ، ولتطلب من الفنان الخليع أن يعيد النظر فيما كتب لأنه يعالج موضوعاً " يتعرض للكثير من التغير بين جيل وجيل " .

يقول المعلق الخسيس : " فأنا لا أقصد أن كل ما جاء فى الرواية فى حاجة لمراجعة ، ولكن يكفى أن بعضها محتاج إلى ذلك ، لكى يحمل رجل الاجتماع الذى يسكن فى أعماق الفنان أن يقول كلمة التطور والتغير اللذين أصابا المجتمع وبدلا من أوضاعه وأفكاره " .

ما الرأى فيما قالته الزوجة فى تساؤلها : وإذا خان الزوج ، أليس لها الحق أن تخونه ؟ . . وكان جواب " راهب الفكر " : لا ، وكان تبريره لذلك أن الرجل هو الذى يعرق والمرأة هى التى تنفق ، ثم يمضى قائلاً : اكدحى كما يكدح زوجك ، اعرقى كما يعرق فإذا تساويتما فى التضحيات تساويتما فى الحقوق ، فالرجل إذا خان خان من ماله ، لكن الزوجة تخون من مال زوجها ، لن تكون هناك مساواة مطلقة بينكن وبين الرجال فى هذا الإثم إلا إذا تطور الزمن تطوراً آخر فرأينا الزوجة تناضل فى الحياة وتكتسب بالقدر الذى يربحه الزوج ! . . أليس هذا المنطق بحاجة لمراجعة بعد أن تطور الزمن إلى ما نراه الآن ؟ . . إن ريح التغير قد أصابت بعض ما جاء فى هذه من أفكار ، لكنها مع ذلك تظل قطعة فنية تحمل طابع زمنها وتتضوع بالأريج الذى يفوح دائماً من قلم فناننا الكبير المبدع " .

هكذا تعالج مجلة حواء جريمة الزنا ، وتطلب إعادة النظر فى جعلها حكراً على الزوج وحده كما يرى راهب الفكر ، هذه هى رهبانية الفكر فى عالم الدواب .

هل يستغرب من مجلة حواء - التى تتمرغ فى هذا الحضيض - أن تنشر مقالاً للسيدة محررتها تحمل فيه حملة شعواء على ملابس الفضيلة التى تستر بدن المرأة كله عدا الوجه والكفين ؟

إن " المعلمة " التى تقود نشاطاً نسوياً فى بلادنا تشبه هذه الملابس الشرعية السابغة بـ " الكفن ! " .

وقد لعب التصوير دوره فى هذه المأساة ، ففى الصفحة الخامسة من العدد صورة امرأة مضطجعة على وسادتها تحلم بالحب . . إن هذا أمر سائغ لا يعاب ، وفى الصفحة الحادية عشرة صورة طالبة جميلة الملابس مشوهة الوجه ، بادية الحشمة ، كئيبة الطلعة ! !

لم هذا التحامل ؟ . . ولحساب من ؟ . . الجواب معروف !

وتبلغ الوقاحة قرارها السحيق عندما تصف رئيسة التحرير نفسها . وقد نقلنا نماذج من أخلاق مجلتها . فتقول إنها " من الوقورات المحتشمات المؤمنات بدينهن المتقيات لله الفاعلات للخير . . الخ " .



---

وهذا أسلوب جديد فى الحرب المعلنة على الإسلام ، يقول لك مستبيح الخمر والزنا والانحلال والاعوجاج: هل أنت بدعوتك إلى الصلاة والاستقامة مسلم ؟ . . لا ، نحن أولى بالإسلام منك ، إنك لا تعرف الإسلام ، الإسلام تطور ومدنية ، وليس المظاهر التى تتمسكون بها ، نحن الصالحات الراقيات !

ونذكر قول الشاعر:

فياله من عمل صالح

يرفعه الله إلى أسفل ! ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ قذائف الحق صـ 43.35 ﴾

(287/646)

---

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

التفسير : الكلام الكلي في فواتح السور قد مر في أوّل البقرة وغيرها والذي يختص بالمقام ما قيل إن معناه يا سيد أو يا أنيسين فاقتصر على البعض رواه جار الله عن ابن عباس . ولا يخفى أن النداء على هذا يكون لمحمد صلى الله عليه وسلم يؤيده قوله ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ وكثيراً ما يستعمل القسم بعد إفحام الخصم الألدّ كيلا يقول إنك قد افحمت بقوّة جدالك وأنت في نفسك خبير بضعف مقالك . وأيضاً الابتداء بصورة اليمين يدل على أن المقسم عليه أمر عظيم والأمر العظيم تتوفر الدواعي على الإصغاء إليه ، وكانت العرب يتحرزون من الأيمان الفاجرة ويقولون إنها تدع الديار بلاقع ، وكان من المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعظمون القرآن غاية التعظيم وكان اليمين به موقوفاً عليه عند

الكفرة. وقوله ﴿ على صراط ﴾ كالتأكيد لأن المرسلين لا يكونون إلا على المنهج القويم. وتنكير صراط للتعظيم. قيل: فيه دليل على فساد قول المباحية القائلين بأن المكلف إذا صار واصلاً لم يبق عليه تكليف فإن المرسلين لم يستغنوا عن رعاية الشريعة فكيف غيرهم. وقوله ﴿ ما أنذر آباؤهم ﴾ كقوله في "القصص" ﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير ﴾ [الآية: 46] وقد مر أنه يشمل اليهود والنصارى لأن آباءهم الأدنين لم ينذروا بعدما ضلوا ﴿ فهم غافلون ﴾ لهذا السبب. وقد يقال: إن "ما" مصدرية أو موصولة أي أرسلت لتنذرهم إنذارا آبائهم أو ما أنذر آباؤهم فإنهم في غفلة، فعلى هذا كونهم غافلين سبب باعث على الإنذار، وعلى الأول عدم الإنذار سبب غفلتهم. ثم بين أن السبب الحقيقي للغفلة هو أنه تعالى جعلهم من جملة المطبوع على قلوبهم ومن زمرة أهل النار وهو قوله فيهم ﴿ لأملأنّ جهنم منك وممن تبعك ﴾ [ص: 85] أو أراد بالقول سبق علمه فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤمنون.

*(288/646)*

---

وقيل: أراد أن القول بالدعوة بلغ أكثرهم ولكنهم لا يؤمنون جحوداً وعناداً، وذلك أن من يتوقف على استماع الدليل في مهلة النظر يرجى منه الإيمان إذا بان له البرهان، أما بعد

البيان والوضوح فلا يكون عدم الإيمان إلا للمكابرة . وحين بيّن أنهم لا يؤمنون ذكر أن ذلك من الله تعالى فقال ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ فيكون مثلاً لتصميمهم على الكفر كالطبع والختم . وقيل : إنه إشارة إلى إمساكهم وأنهم لا ينفقون في سبيل الله كما قال ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ [ الإسراء : 29 ] وعلى هذا يمكن أن يكون معنى قوله ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ أنهم لا يزكون كأنه عبر بالإيمان عن الزكاة كما عبر به عن الصلاة في قوله ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ [ البقرة : 143 ] وقيل : نزلت في بني مخزوم وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً صلى الله عليه وسلم يصلي ليرضخن رأسه ، فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه فلما رفع يده انثنت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد فرجع إلى قومه فأخبرهم فقال مخزومي آخر : أنا أقتله بهذا الحجر . فذهب فأعمى الله بصره وأنزلت الآيتان . والضمير في قوله ﴿ فهي إلى الأذقان ﴾ راجع إلى الأيدي وإن كانت غير مذكورة لكونها معلومة فإن المغلول تكون أيديه مجموعة إلى العنق ولذلك يسمى الغل جامعة أي جامعاً لليد والعنق . وتأنيث الجامعة مبالغة أو بتأويل الآلة . وقيل : واختاره في الكشاف أنه يرجع إلى الأغلال اي جعلنا في أعناقهم أغلالاً ثقالاً غلاظاً بحيث تبلغ إلى الأذقان فلم يتمكن المغلول معها من أن يطأطئ رأسه فلا يزال مقمحاً . والمقمح الذي يرفع راسه ويغض بصره ومنه أقمحت السويق اي سففته . والكانونان يقال لهما شهراً قماح لأن الإبل ترفع رؤوسها عن الماء لبرده فيهما . وكيف يفهم من الغل في العنق المنع من

الإيمان حتى يجعل كناية فيقول المغلول الذي بلغ الغل ذقنه وبقي مقمحاً رافع الرأس لا يبصر الطريق فضرب ذلك مثلاً للذي يهديه

(289/646)

---

النبي صلى الله عليه وسلم إلى الصراط المستيم العقلي وهو لا يبصره بنظر بصيرته ، ويمكن أن يجعل كناية عن عدم التصديق بتحريك الرأس . ويقال : بعير قامح إذا رفع رأسه فلم يشرب الماء ، والإيمان كالماء الزلال الذي به الحياة . ثم ضرب مثلاً آخر لكونهم غير منتهجين سبيل الرشاد وذلك قوله ﴿ وجعلنا من بين ايديهم سداً ﴾ قال أهل التحقيق : المانع إما أن يكون في النفس وهو الغل فلا يتبين لهم ىيات الأنفس ، وإما أن يكون خارداً عنها وهو السدّ فلا يتضح لهم دلائل الآفاق . ويمكن أن يقال : السدّ من قدام إشارة إلى عدم العلوم النظرية ، ومن خلف إشارة إلى عدم فطنتهم الغريزية ، أو الأوّل إشارة إلى الغفلة عن أحوال المعاد ، والثاني إشارة إلى الغفلة عن المبدأ .

(290/646)

---

وفيه أن السالك إذا انسدّ عليه الطريق من قدامه ومن خلفه والموضع الذي هو فيه لا يكون موضع إقامة فإنه يهلك لا محالة. ثم زاد ف التأكيد بقوله ﴿ فأغشيناهم ﴾ أي جعلنا بعد ذلك كله على ابصارهم غشاوة ﴿ فهم لا يبصرون ﴾ شيئاً اصلاً. ويحتمل أن يكون الإغشاء إشارة إلى أن السدّ قريب منهم بحيث يصير ذلك كالغشاوة فإن القرب القريب مانع من الرؤية فلا يرون السدّ قريب منهم ﴿ فهم لا يبصرون ﴾ وعلى هذا يكون ذكر السد من خلف تأكيداً على تكيد، فإن الذي جعل بين يديه ومن خلفه سدان ملتزقان لا يمكنه التحرك يمنة ويسرة ولا النظر إلى السدّ ولا إلى غيره. ويمكن أن يقال: فائدته تعميم المنع من انتهاج المسالك المستقيمة لأنهم إن قصدوا السلوك إلى جانب اليمين أو إلى جانب الشمال صاروا متوجهين إلى شيء ومولين عن شيء، وهكذا إن فرض رجوع قهقرى فإن المشي من هاتين الجهتين عادة، ثم صرح بالمقصود معطوفاً على المذكورات قائلاً ﴿ وسواء عليهم ﴾ الآية. وقد مر إعرابه وسائر ما يتعلق بتفسيره في أول البقرة. ولا يخفى أن الإنذار وعدمه بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم غير مستويين وإنما الإنذار سبب لزيادة سيادته وسعادته عاجلاً وآجلاً.

ثم بين بقوله ﴿ إنما تنذر ﴾ أن عدم فائدة الإنذار إنما هو بالإضافة إلى المطبوع على قلوبهم الذين تقدم شرح حالهم وبيان أمثالهم لا إلى المنتفعين به . والذكر القرآن أو ما فيه من المواعظ والحكم والدلائل ، وفي ذكر الخشية مع تعقيبه باسم الرحمن إشارة إلى أن قهره مقرون بلطفه يعني مع كونه ذا هيبة لا تقطعوا رجاءكم . والغيب ما غاب عنا من أحوال القيامة وغيرها . وقيل : أي بالدليل وإن لم ينته إلى العيان فعند الانتهاء إلى ذلك لم يبق للخشية فائدة . ومعنى الفاء في ﴿ فبشره ﴾ أنك كما أنذرت وخوّفت فبشر بمغفرة واسعة وأجر كريم لا يكتنه كنهه ، فكأن المغفرة بإزاء الإيمان والأجر الكريم للعمل الصالح . أو الأول لاتباع الذكر والثاني للخشية . وحين فرغ من بيان الرسالة شرع في أصل الحشر قائلاً ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ﴾ على أن البشارة بالمغفرة والأجر لا يتم إلا بعد ثبوت الإعادة وهكذا خشية الرحمن بالغيب تناسب ذكر إحياء الأموات . والظاهر أن قوله ﴿ نحن ﴾ ضمير الفصل ويجوز أن يكون مبتدأ والفعل خبره والجملة هخبر " إن " ويجوز أن يكون ﴿ نحن ﴾ خبر " إن " كقول القائل عند الافتخار بالشهرة : أنا أنا . كأن الله تعالى قال إنما نحن معروفون بأوصاف الكمال وإذا عرّفنا أنفسنا فلا تنكر قدرتنا على إحياء الموتى . وفي هذا التركيب أيضاً إشارة إلى التوحيد أي ليس غيرنا أحد يشاركنا حتى نقول إنا كذا فنمتاز .

ثم اشار إلى العلم التام الذي يتوقف عليه المجازاة فقال ﴿ ونكتب ما قدّموا ﴾ أي اسلفوا من الأعمال صالحة كانت أو فاسدة. وقيل: أراد ما قدّموا وأخروا فاكتفى بأحدهما كقوله ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [النحل: 81] والصحيح أنه لا حاجة إلى هذا التقدير لأن قوله ﴿ وآثارهم ﴾ يدل عليه والمراد بها ما هلكوا عليه من أثر حسن كعلم علموه أو كتاب صنفوه أو بقعة خير عمروها أو أثر سيء كبدعة وظلامة وآلات ملاه. وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد. عن جابر: أردنا النقلة إلى المسجد والبقاع حوله خالية فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عليكم دياركم فإنما تكتب آثاركم" وعن عمر بن عبد العزيز: لو كان الله مغفلاً شيئاً لأغفل هذه الآثار التي تعفيها الرياح أي تمحوها. وقيل: أراد ونكتب ما قدموا من نياتهم فإنها قبل الأعمال وآثارهم أي أعمالهم.



---

سؤال: كيف قدم إحياء الموتى على الكتابة ولم يقل "نكتب ما قدموا ونحييهم" لأجل الجزاء؟ الجواب لأن الكتابة ليست مقوصدة بالذات وإنما المقصود الأصلي هو الإحياء للجزاء ولو لم يكن إحياء وإعادة لم يكن للكتابة أثر. وأيضاً قوله ﴿ إنا نحن ﴾ دال على

العظمة والجبروت ، والإحياء أمر عظيم لا يقدر عليه أحد إلا الله سبحانه بخلاف الكتابة ، فقدّم الأمر العظيم ليناسب اللفظ الدال على العظمة . وأيضاً أراد أن يرتب على كتابة الأعمال قوله ﴿ وكل شيء أحصيناه ﴾ ومعناه أن قبل هذه الكتابة كتابة أخرى فإن الله كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا ، ثم إذا فعلوا كتب عليهم أنهم فعلوه . وفيه بيان أن الكتابة مقرونة بالحفظ والإحصاء ، فرب مكتوب غير محفوظ ولا مضبوط ، وفيه تعميم بعد تخصيص كأنه قال : ليست الكتابة مختصة بأفعالهم وإنما هي لكل شيء . والإمام اللوح لأن الملائكة يتبعون ما كتب فيه من أجل ورزق وإماتة وإحياء ، والمبين هو المظهر للأمور ، والفارق بين أحوال الخلق ، وحيث بين أن الإنذار لا ينفع من اضله الله وكتب عليه أنه لا يؤمن قال لنبيه صلى الله عليه وسلم لا تأس .

﴿ واضرب ﴾ لنفسك ولقومك ﴿ مثلاً ﴾ مثل ﴿ أصحاب القرية ﴾ وهي إنطاكية الروم ، والمرسلون رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها . وفي قوله ﴿ إذ أرسلنا ﴾ دلالة على أن رسول الرسول رسول وأنه يؤيد مسألة فقهية وهي أن وكيل الوكيل بإذن الموكل وكيل الموكل حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه وينعزل إذا عزله الموكل الأول ، وكأنه أرسل اثنين ليكون قولهما على قومهما عند عيسى حجة تامة . وكان رسولنا صلى الله عليه وسلم يكتفي بواحد في الأغلب كمعاذ وغيره فمن هنا يعلم ترجيح هذه الأمة . وأما القصة فإن عيسى

عليه السلام أرسل إليهم اثنين فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنماً واسمه حبيب النجار فسألهما فأخبراه فقال : ما آيتكما ؟ قالا : نشفي المريض ونبرئ الأكمة والأبرص .

(294/646)

---

وكان له ولد مريض من سنتين فمسحاه فبرأ فآمن حبيب وفشا الخبر فشفى على أيديهما خلق كثير ورفع خبرهما إلى الملك فأحضرا فلما سمع قولهما قال : ألنا إله سوى آلهتنا ؟ قالا : نعم . من أوجدك وآلهتك . فحبسهما حتى ينظر في أمرهما فبعث عيسى شمعون وذلك قوله سبحانه ﴿ فعززنا بثالث ﴾ من قرأ بالتشديد فمعناه فقوّينا الرسولين ، ومن قرأ بالتخفيف فمن العزة أي فغلبنا وقهرنا أهل القرية . وإنما ترك ذكر المفعول به لأن الغرض ذكر الثالث فالعناية بذكره أهم وأتم نظيره قولك : حكم السلطان اليوم بالحق الغرض الذي سبق له الكلام قولك بالحق فلذلك تركت ذكر المحكوم له والمحكوم عليه . وأما باقي القصة فإن شمعون دخل متنكراً وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به فقال له ذات يوم بلغني أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه ؟ قال : لا ، حال الغضب بيني وبين ذلك . فدعاهما فقال شمعون : من أرسلكما قال : الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . قال : وما آيتكما ؟ قالا : ما يتمنى

الملك . فدعا بغلام مطموس فدعوا الله حتى انشق له بصر وأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فكانتا مقلتين ينظر بهما فقال شمعون : يا أيها الملك إن شئت أن تغلبهما فقل لآلهتك حتى تصنع مثل هذا . فقال الملك : أنت لا يخفى عليك أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تقدر ولا تعلم . وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلي ويتضرع ويحسبون أنه منهم . فقال شمعون : فالحق إذاً معهم فآمن الملك وبعض حاشيته وبقي آخرون على الكفر فأهلكوا بالصيحة . قال أهل البيان : يجب زيادة المؤكدات في الجملة الخبرية بحسب تزايد الإنكار من السامع فلهذا قال الرسل أوّلاً : إنا إليكم مرسلون مقتصرين على " أن " . وثانياً ﴿ ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ مجموعاً بين " أن " واللام وما يجري مجرى القسم . ولا يخفى أن اليمين بعد إظهار البينة وإفحام الخصم مؤكد قوي كما مر في أول السورة . وفي



---

قولهم ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ تسلية لأنفسهم أي نحن خرجنا من عهدة ما علينا ولم يبق إلا التفكر منكم والتذكر . وحيث أكد الرسل قولهم باليمن أكد الكفار قولهم بالتطير ، فمن عادة الجهال أن يتيمنوا بكل ما يوافق طباعهم وهواهم ويتشاءموا بما كرهوه وكأنهم قالوا في الأول كنتم كاذبين وفي الثاني صرتم مصرين على الكذب حالفين بالأيمان

الكاذبة التي تدع الديار بلاقع فتشاءمنا بكم ولا نترككم . ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ﴾ بالقول أو بالحجارة . ﴿ وليمسنكم ﴾ بعد ذلك أو بسبب الرجم بالحجارة المتوالية إلى الموت ﴿ عذاب أليم ﴾ ﴿ قالوا طائركم ﴾ أي سبب شؤمكم ﴿ معكم ﴾ وهو كفركم ومعاصيكم ﴿ أئن ذكرتم ﴾ يعني أتطيرون إن ذكرتم .



---

ومن قرأ ﴿ أين ﴾ على وزن "كيف" ذكرتم بالتخفيف فالمراد شؤمكم معكم حيث جرى ذكركم فضلاً عن المكان الذي حللتم فيه . ثم إن الرسل كأنهم قالوا لهم أنحن كاذبون أم نحن مشؤمون ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ في عصيانكم أو ضلالكم فمن ثم أتاكم الشؤم ، أو تشاءمتم بمن يجب التبرك بهم وقصدتموهم بالسوء ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل ﴾ هو حبيب النجار الذي مر ذكره نصح قومه فقتلوه وقبره في سوق أنطاكية . وقيل : في غار يعبد الله عز وجل ، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وقاول الكفرة فوثبوا عليه فقتلوه . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم "سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين : علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، وصاحب ياسين ومؤمن آل فرعون" ومن هنا قالوا : إنه آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل ولادته وذلك أنه سمع نعته من الكتب والعلماء .

وتنكير رجل للتعظيم أي رجل كامل في الرجولية أو ليفيد ظهور الحق من جانب المرسلين حيث آمن بهم رجل من الرجال لا معرفة لهم به وكان بعيداً من التواطؤ. وقوله ﴿ من أقصى المدينة ﴾ ايضاً يفيد مثل هذا أو أنهم ما قصروا في التبليغ والإنذار حتى بلغ خبرهم القاصي والداني والسعي بمعنى المشي أو بمعنى القيام في المهام أي يهتم بشأن المؤمنين ويسعى في نصرتهم وهدايتهم ونصحهم. ثم حثهم على اتباع الرسل ولم يقل اتبعوني كما قال مؤمن آل فرعون ﴿ اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ [ غافر : 38 ] لأنه جاءهم فنصحهم في أوّل مجيئه وما رأوا سيرته بعد فقال: اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لأجلكم السبيل. فقوله ﴿ اتبعوا ﴾ نصيحة وقوله ﴿ المرسلين ﴾ إظهار للإِيمان وقدم النصيحة إظهاراً للشفقة. وقد روي أنه كان يقتل ويقول: اللهم اهد قومي.

*(297/646)*

---

ثم أكد وجوب الاتباع بأنهم في أنفسهم مهتدون ولا يتوقعون أجراً في الدلالة ووجوب اتباع مثل هذا الدليل للذي ضل عن سواء السبيل مركوز في العقول. ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحة قومه. قال الحكيم ﴿ الذي فطرني ﴾ إشارة إلى وجود المقتضى. وقوله ﴿ ومالي ﴾ إشارة إلى عدم المانع من جانبه فإن كل امرئ هو

أعلم بحال نفسه ، والمقتضى وإن كان مقدماً في الوضع والطبع على المانع إلا أن المقتضي ههنا لظهوره كان مستغنياً عن البيان رأساً فقدّم عدم المانع لأجل البيان ولهذا لم يقل " وما لكم لا تعبدون "كيلا يذهب الوهم إلى أنه لعله يطلب العلة والبيان وإنما ورد في سورة نوح ﴿ ما لكم ترجون لله وقاراً ﴾ [ الآية : 13 ] لأن القائل هناك داع لا مدعو فكأن الرجل قال : مالي لا أعبد وقد طلب مني ذلك . وفي قوله ﴿ وإليه ترجعون ﴾ بيان الخوف والرجاء ولهذا لم يقل " وإليه أرجع "كأنه جعل نفسه ممن يعبد الله لذاته لا لرغبة أو رهبة .

(298/646)

---

ثم أراد كمال التوحيد فقال ﴿ أئتخذ من دونه آلهة ﴾ فقوله ﴿ مالي لا أعبد الذي فطرني ﴾ فيه إقرار بوجود الصانع الفاطر ، وقوله ﴿ أأتخذ ﴾ على سبيل الإنكار نفي لغيره ممن يسمى إلهاً وبهما يتم معنى لا إله إلا الله . ثم عرض على عقولهم جهل عابدي الأصنام أنهم لا يقدرون على دفع ضر ولا على إيصال نفع ، وقد رتب الكلام فيه على ترتيب ما يقع بين العقلاء فإن الذي يريد أن يدفع الضر عن شخص يقدم على الشفاعة له ، فإن قبلت وإلا أنقذه اي أخلصه بوجه من الوجوه . قال بعض المفسرين : لما أقبل القوم عليه يريدون قتله أقبل هو على المرسلين . قال ﴿ إني آمنت بربكم ﴾ فاسمعوا قولي لتشهدوا

لي . وإنما قال ﴿ بربكم ﴾ ولم يقل " بربي " ليتعين أنه آمن بالرب الذي دعوه إليه . وقال أكثرهم : الخطاب للفكار وعلى هذا فالمراد به بيان التوحيد أي ربي وربكم واحد وهو الذي فطرني وفطركم فاسمعوا قولي وأطيعوني . وفي قوله ﴿ قيل ادخل الجنة ﴾ وجهان أحدهما . أنه قتل . ثم كأن سائلاً سأل : كيف لقاؤه ربه بعد ذلك التصلب في نصرة الدين حتى بذل مهجته ؟ فقيل : قيل ادخل الجنة . والقائل هو الله سبحانه أو الملائكة بأمره .

قال جار الله : لم يذكر المقول له لانصباب الغرض إلى المقول وعظم شأنه ولأنه معلوم . ثم كأن سائلاً آخر سأل : ايّ شيء تمنى في الجنة ؟ فقيل ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون ﴾ وإنما تمنى علم قومه بحاله ليصير ذلك سبباً لهم في التوبة والإيمان ليفوزوا بما فاز ويؤيده ما روي في حديث مرفوع أنه نصح قومه حياً وميتاً . ويجوز أن يكون سبب التمني هو أن ينبهوا على خطئهم في أمره وعلى صوابه في رأيه وأن عداوتهم لم تعقبه إلا سعادة وكرامة . وثانيهما أن الرسل بشروه وهو حيّ بدخول الجنة فصدّقهم وتمنى علم قومه بحاله فيؤمنوا كما آمن . و " ما " في قوله ﴿ بما غفر ﴾ مصدرية أو موصولة أي بالذي غفره لي من الذنوب ، أو استفهامية يعني بأي شيء غفر لي أراد ما جرى بينه وبينهم من المصابرة والذب

عن الدين إلا أن طرح الألف أجود . فقول القائل : علمت بم صنعت هذا أحسن من قوله " بما صنعت " فقوله ﴿ غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ بإزاء قوله ﴿ فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ ثم اشار إلى كيفية إهلاك قومه بعده قائلاً ﴿ وما أنزلنا على قومه ﴾ قال المفسرون : يجوز أن يريد بقومه الذين بقوا من أهل القرية بعد المؤمنين منهم وأن يريد به أقاربه فلعل غيرهم من قوم الرسل آمنوا فلم يصبهم العذاب . ثم قال ﴿ وما كنا منزلين ﴾ أي وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء ، ومن هنا يعلم فضل نبينا صلى الله عليه وسلم على غيره فقد أنزل الله لأجله الجنود من السماء يوم بدر والخندق وحنين وما أنزلها لغيره من نبي فضلاً عن حبيب ، فشتان بين حبيب الجبار وبين حبيب النجار .

فالحصال أنه تعالى يقول لمحمد صلى الله عليه وسلم : إن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك وما كنا نفعله لغيرك . فمن قرأ ﴿ إلا صيحة ﴾ بالنصب أراد ما كانت الأخذة أو العقوبة إلا بسبب صيحة ، ومن قرأ بالرفع على أن "كان" التامة فمعناه ما وقعت إلا صيحة . قال جار الله : القياس والاستعمال على تذكير الفعل لأن المعنى ما وقع شيء إلا صيحة ولكنه نظر إلى ظاهر اللفظ وأن الصيحة في حكم فاعل الفعل . قلت : يجوز أن يقدر ما حدثت عقوبة . وقيل : إن التأنيث لتهويل الواقعة ولهذا جاءت أسماء الجنس كلها مؤنثة . ووصف الصيحة بواحدة للتأكيد . وقرأ ابن مسعود إلا زقية وهي

الصيحة ايضاً ومنه المثل " أثقل من الزواقي " والزقاء صياح الديك ونحوه ، وذلك لأن صياح الديكة يؤل بنزول الأنس وبتبدل الفراق بالوصال .

(300/646)

---

ثم شبه هلاكهم بخمود النار وهو صيرورتها رماداً لأنهم كانوا كالنار الموقدة في القوة الغضبية حيث قتلوا من نصحهم وتجبروا على من أظهر المعجزة لديهم . ثم بين بقوله ﴿ يا حسرة ﴾ أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون من الملائكة والثقلين أو من الله عز وجل على سبيل الاستعارة وذلك لتعظيم ما صدر من تقصيرهم وبدر من تفريطهم ثم ذكر سبب التحسر بقوله ﴿ ما يأتيهم ﴾ الآية . ثم عجب من حالهم في عدم الاعتبار بأمثالهم من الأمم الخالية . وقوله ﴿ أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ بدل من ﴿ كم أهلكنا ﴾ التقدير : ألم يعلموا القرون الكثيرة المهلكة من قبلهم كونهم غير ارجعين إليهم . والبدل بدل اشتمال لهم لأنه حال من أحوال المهلكة أي أهلكوا بحيث لا رجوع لهم إليهم . ولا رجوع حسيّ وهو ظاهر ، أو معنويّ وهو الرجوع بالنسب والولادة أي أهلكناهم وقطعنا نسلهم . من قرأ " لما " بالتشديد فمعنى إلا و " أن " نافية . ومن قرأ بالتخفيف فإن مخففة و " ما " صلة تقديره . وإن كلهم لمحشورون مجموعون محضرون للحساب يوم القيامة . قال في الكشاف : كيف

أخبر عن كل المجموعي بجميع ؟ وأجاب بأنهما ليسا بواحد ، بل الكل يفيد الشمول والجميع يفيد الانضمام وأن المحشر يجمعهم . ويحتمل أن يقال : الغرض وصف الجميع بالإحضار كقولك : الرجل رجل عالم والنبيّ نبيّ مرسل . ثم ذكر البرهان على الحشر وعلى التوحيد أيضاً مع تعداد النعم وتذكيرها قائلاً : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة ﴾ قال المحققون : إنما قال لهم لأن الأرض ليست آية للنبي ولغيره من أهل الإخلاص الذين هم بالله عرفوا الله قبل النظر إلى الأرض والسماء كقوله

﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ [ فصلت : 53 ] وقوله ﴿ أحييناها ﴾ استئناف بياناً لكونها آية وكذلك نسلخ ويجوز أن يكونا وصفين على قياس .

(301/646)

---

ولقد أمر على اللئيم يسبني . . . وقوله ﴿ فمنه يأكلون ﴾ بتقديم الجار للدلالة على أن الحب هو معظم قوت الإنسان وبه قوام معاشه عادة ، فنفس الأرض آية فإنها مهدهم الذي فيه تحريكهم واستكانهم والأمر الضروري الذي عنده وجودهم وإمكانهم . وسواء كانت ميتة أو لم تكن فهي مكان لهم ، ثم إحياؤها مخضرة نعمة ثانية فإنها أحسن وأنزه ، ثم إخراج الحب منها نعمة ثالثة فإن قوتهم إذ كان في مكانهم كان أجمع للقوة والفراغ . ثم جعل الجنات

فيها نعمة رابعة موجبة للتفكه وسعة العيش ، ثم تفجير العيون فيها نعمة خامسة لأن ماء السماء لا يحصل الوثوق بنزوله في كل حين فذلك كالشيء المدخر القريب التناول .

والضمير في قوله ﴿ من ثمره ﴾ يعود إلى الله ، وفائدة الالتفات أن الثمار بعد وجود الاشجار وجريان الأنهار لا توجد إلا بتخليق الملك الجبار ، ويحتمل أن يعود إلى المذكور وهو الجنات أو إلى التحصيل وترك ذكر الأعناب لأن حكمه حكم النخيل . وقيل : إلى التفجير المدلول عليه بسياق الكلام أي ليأكلوا من فوائد التفجير وهو أعم من الثمار ، ويشمل جميع ما ذكره في قوله ﴿ أنا صببنا الماء صباً ﴾ [ عبس : 25 ] إلى قوله ﴿ وفاكهة وأباً ﴾ [ عبس : 31 ] وقوله ﴿ وما عملت ﴾ من قرأ بغير هاء الضمير فما موصولة أو مصدرية أي ليأكلوا من ثمر الله ومن ثمر ما عملته أو من ثمر عمل ايديهم ، أو نافية فيكون إشارة إلى أن الثمر خلق الله ولم تعمله أيدي الناس ولا يقدرون عليه ، ومن قرأ مع الضمير فما موصولة والضمير لها أو نافية والضمير للتفجير أو المذكور . ومعنى عمل الأيدي ما يتكابده الناس من الحرث والسقي وغير ذلك . هذا إذا جعلت " ما " موصولة ، فإن كانت نافية فالمراد الإيجاد والخلق . وقيل : عمل الأيدي التجارة . وقيل : الطبخ ونحوه .

ثم نزه نفسه بقوله ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج ﴾ أي الأصناف والمراد بقوله ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ أزواج لم يطلع الله الإنسان عليها بطريق من طرق المعرفة ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ [ المدثر : 31 ] ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ [ السجدة : 17 ] قالت الأشاعرة : فيه دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله لأن أفعالهم أعراض وهي داخلة تحت الأجناس . وقوله ﴿ مما تنبت ﴾ لا يخرجه عن العموم لأن البيان متعدّد نظيره قول القائل : أعطيته كل شيء من الثياب والدواب والعبيد . فإنه يفهم أن تعديد الأصناف لتأكيد العموم يؤيده قوله في الزخرف ﴿ الذي خلق الأزواج كلها ﴾ [ الآية : 12 ] من غير تقييد . وحين فرغ من الاستدلال بالمكان شرع في الاستدلال بالزمان .

(303/646)

---

ومعنى سلخ النهار من الليل تميزه منه . ومعنى سلخ النهار من الليل تميزه منه . قال جار الله : أصله من سلخ الجلد الشاة إذا ازالة عنها فاستعير لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل وموضع إلقاء ظله . ومعنى ﴿ مظلمون ﴾ داخلون في الظلام أي لا بد لهم أن يدخلوا في الظلام إذ زال ولا يقدرون على دفعه . وفيه أن الليل كعرض أصلي يطرأ عليه النور تارة

ويزول عنه أخرى. ثم كان لجاهل أن يقول: سلخ النهار إنما هو بغروب الشمس فلا جرم قال ﴿ والشمس تجري لمستقرّ ﴾ أي لحدّ لها مؤقت تنتهي إليه من فلكها شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره إلا أن المسافر له قرار بعد ذلك وهذه لا قرار لها بعد الحصول في ذلك الحدّ ولكنها تستأنف الحركة منه وهو أوّل الحمل أو أحد الخافقين أو إحدى الغايتين في تصاعدها فلك نصف النهار وتنازلها أو غير ذلك من الاعتبارات. وقيل: أراد بالمستقر بيتها وهو الأسد. وقيل: أراد لجري مستقرها وهو فلكها. وقيل: هو الدائرة التي عليها حركتها الخاصة. وقال الحكيم: أراد لأمر لو وجده لاستقر وهو استخراج الأوضاع الممكنة. وقيل: أراد الوقت الذي ينقطع جريها وهو يوم القيامة. وقيل: إنه إشارة إلى نعمة النهار بعد الليل كأنه قال: إن الشمس تجري فتطلع عند انقضاء الليل فيعود النهار لمنافعه وعلى هذا فالمستقر هو افق الغرب خاصة ﴿ ذلك ﴾ الجري على الوجوه المذكورة ﴿ تقدير العزيز ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿ العليم ﴾ بمبادئ الأمور وغاياتها.

(304/646)

---

ثم ذكر أمر سير القمر وقد مر في أوّل سورة يونس في قوله ﴿ وقدره منازل ﴾ [ الآية: 5 ] والعرجون عود العذق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة وهو " فعلون " من الانعراج

الانعطاف قاله الزجاج. والقديم ما تقادم عهده ويختلف بحسب الأعيان. فلا يقال لمدينة بنيت من سنة وسنيتن هي قديمة. وقد يقال: نبت قديم وإن لم يكن له سنة. وإطلاق القديم على العالم لا يعتاد لأنه موهم إلا عند من يعتقد أنه لا أول له. وقال في الكشاف: القديم المحول وهو أول ما يوصف بالقدم، فلو أن رجلاً قال: كل مملوك لي قديم فهو حر وكتب ذلك في وصية، عتق منهم من مضى له حول وأكثر. وإذا قدم العرجون دق وانحنى واصفرّ فشبه انقراض الشهر به من الوجوه الثلاثة. ثم بين أن لكل واحد من النيرين حركة مقدرة وسلطاناً على حياله ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ لتباطؤ سيرها عن سيره ﴿ ولا الليل ﴾ أي ولا تسبق آية الليل - وهو القمر - آية النهار - وهي الشمس - أي لا يداخل القمر الشمس في سلطانها. وقيل: أراد أن الليل لا يدخل في وقت النهار. وقيل: إنه إشارة إلى الحركة اليومية التي بها يحدث الليل والنهار.



---

والمراد أن القمر لا يسبق الشمس بهذه الحركة لأنها تشملهما على السواء، وهكذا جميع الكواكب فلا يقع بسببها تقدم ولا تأخر ولهذا لم يقل "يسبق" على قياس تدرك أي ليس من شأنه السبق إذ الكواكب كأنها كلها ساكنة بهذه الحركة. وأقول: يحتمل أن يراد لا الشمس

ينبغي لها أن تدرك القمر ولا القمر ينبغي أن يتخلف ، فحذف إحدى القرينتين للعلم به كقوله ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [ النحل : 81 ] وكذا الكلام في قوله ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ أراد ولا النهار سابق الليل أي لا يدخل شيء منهما في غير وقته . سلمنا أن المراد بالليل والنهار آيتهما لكنه يمكن أن يقال : إنه إشارة إلى الحركة الدورية لأنه لما قال : إن الشمس لبطء سيرها لا تدرك القمر . فهم منه أن القمر يسبق الشمس بحركته ، فأشار إلى أن هذا السبق ليس على قياس المتحركات على الاستقامة ولكنه سبق هو بعينه موجب للقرب ، وهذا معنى قول أهل الهيئة إن الكوكب هارب عن نقطة ما طالب لها بعينه . وأما قوله ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ فقد مرّ تفسيره في سورة الأنبياء . ولما بين ما هو كالضروري لوجود الإنسان من المكان والزمان وما يتبعه ويسبقه ، شرع في تقرير ما هو نافع لهم في أحوال المعاش . قال بعض المفسرين : أراد بحمل الذرية حمل آبائهم وهم في أصلابهم . والفلك فلك نوح ومثله هو ما يركبون الآن عليه من السفن والزوارق . قال جار الله : وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم وأدخل في التعجب من قدرته في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح ، ولولا ذلك لما بقي للآدمي نسل . ومن فوائد ذكر الذرية أن من الناس من لا يركب السفينة طول عمره ولكنه في ذريته من يركبها غالباً . وذهب آخرون إلى أن المراد حمل أولادهم ومن يهمهم حمله كالنساء . وقد يقع اسم الذرية

عليهن لأنهن مزارع الأولاد . في الحديث " إنه نهى عن قتل الذراري " يعني النساء فكأنه قيل : إن كنا ما حملناكم بأنفسكم فقد حملنا من يهمكم



---

أمره وعلى هذا يكون قوله ﴿ وخلقنا لهم ﴾ إلى آخره اعتراضاً ، ومثل الفلك ما يركبون من الإبل لأنها سفائن البر . وفي وصف الفلك بالمشحون مزيد تقرير للقدرة والنعمة فإن الفلك إذا كان خالياً كان خفيفاً لا يرسب في الماء بالطبع . ثم ذكر ما يؤكد كونه فاعلاً مختاراً قائلاً ﴿ وإن يشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ﴾ وهو مصدر أو صفة أي لا إغاثة أو لا مغيث . وقوله ﴿ إلا رحمة ﴾ إشارة إلى أن الإنقاذ رحمة بالنسبة إلى المؤمن ومتاع إلى حلول الأجل بالإضافة إلى الكافر ، أو المراد أن أحد لا يتخلص من الموت وإن سلم من الآفات ولله در القائل :

ولم أسلم لكي أبقى ولكن . . . سلمت من الحمام إلى الحمام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 524.534 ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ يس ﴾ إشارة إلى أنه بلغ في السيادة مبلغاً لم يبلغه أحد من المرسلين ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ فيه أنه لعزته لا يحتاج إلى تنزيل القرآن ولكن رحمته اقتضت ذلك ﴿ نحيي ﴾ القلوب ﴿ الموتى ونكتب ما قدموا ﴾ من الأنفاس المتصاعدة ندماً وشوقاً ، وآثار خطا أقدام صدقهم وآثار دموعهم على خدودهم ﴿ أصحاب القرية ﴾ القلوب ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين ﴾ من الخواطر الرحمانية والإلهامات الربانية بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ﴿ فكذبوهما ﴾ النفس وصفاتها ﴿ فعززنا بثالث ﴾ من الجذبة ﴿ إنا تطيرنا بكم ﴾ لأن النفس وصفاتها لا يوافقهما ما يدعو الإلهام والجذبة إليه ﴿ طائركم معكم ﴾ لأن النفس خلقت من العدم على خاصيتها المشؤومة ﴿ رجل يسعى ﴾ هو الروح المشتاق إلى لقاء الحق ﴿ لا يسألكم أجراً ﴾ لأنه لا شرب له من مشاربكم . ﴿ قيل ادخل الجنة ﴾ وهي عالم الأرواح وهو كقوله ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ [ الفجر : 27 ] إلى قوله ﴿ ادخلي جنتي ﴾ [ الفجر : 30 ] ﴿ على قومه من بعده ﴾ أي بعد رجوع الروح إلى الحضرة ما أنزل إلى النفس وصفاتها ملائكة من السماء لأنهم لا يقدرون على النفس وصفاتها وإصلاح حالها ، فإن صلاحها في موتها

والمميت هو الله . ﴿ صيحة واحدة ﴾ من وارد حق ﴿ فإذا هم ﴾ يعني النفس وصفاتها ﴿ خامدون ﴾ ميتون عن أنانيته بهويته ﴿ ألم يروا كم أهلكنا ﴾ فيه إشارة إلى أن هذه الأمة خير الأمم شكى معهم من كل أمة وما شكى إلى أحد من غيرهم شكايتهم ﴿ وآية لهم ﴾ القلوب ﴿ الميتة أحييناها ﴾ بالطاعة ونخيل الأذكار واعناب الأشواق وعيون الحكمة وثمر المكاشفات وعمل الخيرات والصدقات ﴿ خلق الأزواج ﴾ من الآباء العلوية والأمهات السفلية ﴿ مما تنبت ﴾ ارض البشرية بازدواج الكاف والنون . ﴿ ومن أنفسهم ﴾ بازدواج الروح والقلب ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ من تأثير العناية في قلوب المخلصين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ﴿ وآية لهم ﴾ ليل البشرية ﴿ نسلخ منه ﴾



---

نهار الروحانية ﴿ فإذا هم مظلمون ﴾ بظلمة الخليقة فإن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره . وشمس نور الله ﴿ تجري لمستقر لها ﴾ وهو قلب استقر فيه رشاش نور الله وقمر القلب ﴿ قدرناه ﴾ ثمانية وعشرين منزلاً على حسب حروف القرآن وأسماؤها : الألفة والبر والتوبة والثبات والجمعية والحلم والخلوص والديانة والذلة والرأفة

والزلفة والسلامة والشوق والصدق والصبر والطلب والظمأ والعشق والعزة والفتوة والقربة والكرم واللين والمروءة والنور والولاية والهداية واليقين . فإذا قطع كل المنازل فقد تخلق بخلق القرآن ولهذا قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [ الحجر : 99 ] وهو آخر المنازل والمقامات ، فإن السالك يألف الحق أوّلاً ثم يتوب فيثبت على ذلك حتى تحصل له الجمعية ، وعلى هذا يعبر المقامات حتى يصير كاملاً كالبدر ، ثم يتناقص نوره بحسب دنوّه من شمس شهود الحق إلى أن يتلاشى ويخفى وهو مقام الفقر الحقيقي الذي افتخر به نبيناً صلى الله عليه وسلم بقوله " الفقر فخري " ثم أشار بقوله ﴿ لا الشمس ينبغي لها ﴾ إلى أن الرب لا يصير عبداً ولا العبد رباً . ثم ذكر أن العلوم محمولون في سفينة الشريعة والخواص في بحر الحقيقة كلاهما بفلك العناية وملاحة ارباب الطريقة ، ومثل ما يركبون هو جناح همة المشايخ . ﴿ وإن نشأ ﴾ نغرق العوام في بحر الدنيا والرخص والخواص في بحر الشبهات والإباحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 534.535 ﴾

*(309/646)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والأربعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والأربعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 45 ﴾ من سورة يس

وحتى الآية ﴿ 59 ﴾ من نفس السورة

*(4/647)*

---

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (46) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (47) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان هذا الحال معلوماً لهم لا ينازعون فيه بوجه ، بل إذا وقعوا فيه أخلصوا الدعاء وأمروا به وخلعوا الأنداد ، وكان علم ذلك موجباً لصاحبه أن لا يغفل عن القادر عليه وقتاً ما ، بل لا يفتر عن شكره خوفاً من مكره ، وكان العاقل إذا ذكر بأمر فعلمه يقيناً كان

جديراً بأن يقبله ، فإذا لم يقبله وخوف عاقبته بأمر محتمل جد في الاحتراز منه ، عجب منهم في إعراضهم عنه سبحانه مع قيام الأدلة القاطعة على وحدانيته وأنه قادر على ما يريد من عذاب وثواب ، وإقبالهم على ما لا ينفعهم بوجه ، فقال : ﴿ وإذا قيل ﴾ أي من أي قائل كان ﴿ لهم اتقوا ﴾ أي خافوا خوفاً عظيماً تعالجون فيه أنفسكم ﴿ ما بين أيديكم ﴾ أي بما يمكن أن تقعوا فيه من العثرات المهلكة في الدارين ﴿ وما خلفكم ﴾ أي ما فرطتم فيه ولم تجاروا به ولا بد من المحاسبة عليه لأن الله الذي خلقكم أحكم الحاكمين ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أي تعاملون معاملة المرحوم بالإكرام .

ولما كان التقدير : أعرضوا لأن الإعراض قد صار لهم خلقاً لا يقدرون على الانفكاك من أسره ، عطف عليه قوله إشارة إليه : ﴿ وما تأتيهم ﴾ وعمم بقوله : ﴿ من آية ﴾ وبين قوله : ﴿ من آيات ﴾ ولفت الكلام للتذكير بالإنعام تكذيباً لهم في أنهم أشكر الناس للمنعم فقال : ﴿ ربهم ﴾ أي المحسن إليهم ﴿ إلا كانوا عنها ﴾ أي مع كونها من عند من غمرهم إحسانه وعمهم فضله وامتنانه ﴿ معرضين ﴾ أي دائماً إعراضهم .

ولما كانت الرحمة بالرزق والنصر إنما تنال بالرحمة للضعفاء " هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم " " إنما يرحم الله من عباده الرحماء " وكان الإنفاق خلق المؤمنين ، قال مبيناً أنهم انسلخوا عن الإنسانية جملة فلا يخافون ما يجوز وقوعه من العذاب ، ولا يرجون ما يجوز حلوله من الثواب : ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي من أيّ قائل كان : ﴿ أنفقوا ﴾ أي على من لا شيء ، شكراً لله على ما أنجاكم منه ونفعكم به بنفع خلقه الذين هم عياله ، وبين أنهم يبخلون بما لا صنع لهم فيه ولم تعمله أيديهم بل ببعضه فقال : ﴿ مما رزقكم ﴾ وأظهر ولم يضمر إشارة إلى جلالة الرزق بجلالة معطيه ، وزاد في تقريعهم بجعل ذلك الظاهر اسم الذات لأنه لا ينبغي أن يكون عطاء العبد على قدر سيده فقال : ﴿ الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ قال ﴾ وأظهر تبكيتاً لهم بالوصف الحامل لهم على البخل فقال : ﴿ الذين كفورا ﴾ أي ستروا وغطوا ما دلتهم عليه أنوار عقولهم من الخيرات ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي القائلين بذلك المعتقدين له سواء كانوا هم القائلين لهم أو غيرهم منكرين عليهم استهزاء بهم عادلين عما اقتضى السؤال عن ذكر الإنفاق إلى ما يفيد التقريع بالفقر والحاجة إلى الأكل : ﴿ أنطعم ﴾ وعدلوا عن التعبير بالماضي لئلا يقال لهم : قد تولى سبحانه إطعامه من حين خلقه إلى الآن ، فقالوا : ﴿ من لو يشاء ﴾ وأظهروا حدّاً له ومساعيه فقالوا : ﴿ الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة كما زعمتم في كل وقت يريده ﴿ أطعمه ﴾ أي لكنا ننظره لا يشاء ذلك فإنه لم يطعمهم لما نرى من فقرهم فنحن أيضاً لا نشاء ذلك بموافقة

لمراد الله فيه فتركوا التأدب مع الأمر وأظهروا التأدب مع بعض الإرادة المنهي عن الجري معها والاستسلام لها ، وما كفاهم حتى قالوا لمن أرشدهم إلى الخير على طريق النتيجة لما تقدم : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ أنتم إلا في ضلال ﴾ أي محيط بكم ﴿ مبين ﴾ أي في غاية الظهور ، وما دروا أن الضلال إنما هو لهم لأنه سبحانه إنما جعل إطعام بعض خلقه بلا

(6/647)

---

واسطة وبعضهم بواسطة امتحاناً منه للمطيع والعاصي والشاكر والكافر والجزع والصابر - وغير ذلك من حكمه .

ولما ذكر قلة خيرهم المستندة إلى تهكمهم باليوم الذي ذكروا به بالأمر بالاتقاء والتعليل بترجي الرحمة ، أتبعه حكاية استهزاء آخر منهم دال على عظيم جهلهم بتكذيبهم بما يوعدون على وجه التصريح بذلك اليوم والتصوير له بما لا يسع من له أدنى مسكة غير الانقياد له فقال : ﴿ ويقولون ﴾ أي عادة مستمرة مضمونة إلى ما تقدم مما يستلزم تكذيبهم ، وزادوا بالتعبير بأداة القرب في تقريعهم إشارة إلى أنكم زدتم علينا في التهديد به والتقريب له حتى ظن أنه مصبحنا أو ممسينا ولم نحس منه عيناً ولا أثراً : ﴿ متى هذا ﴾ وزادوا في

الاستهزاء بتسميته وعداً فقالوا : ﴿ الوعد ﴾ أي الذي تهددوننا به تارة تلويحاً وتارة تصريحاً ، عجلوه لنا .

(7/647)

---

وألهبوا وهيجوا زيادة في التكذيب بقولهم : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ ولما كان الحازم من لا يتهكم بشيء إلا إذا استعد له بما هو محقق الدفع ، بين سفههم بإتيانها بغتة وبأنه لا بد من وقوعها ، وأنها بحيث تملأ السماوات والأرض ، فكأنه لا شيء فيهما غيرها بقوله : ﴿ ما ينظرون ﴾ أي مما يوعدون ويجوز أن يكون بمعنى " ينتظرون " لأن استبطاءهم لها في صورة الانتظار وإن أرادوا به الاستهزاء وجرد الفعل تقريباً لها لتحقق وقوعه ﴿ إلا صيحة ﴾ وبين حقارة شأنهم وتمام قدرته بقوله : ﴿ واحدة ﴾ وهي النفخة الأولى المميتة ، واقتصر في تأكيد الوحدة على هذا بخلاف ما يأتي في المحيية لأنهم لا ينكرون أصل الموت ﴿ تأخذهم ﴾ أي تهلكهم ؛ وبين غرورهم بقوله : ﴿ وهم يخصمون ﴾ أي يختصمون أي يتخاصمون في معاملاتهم على غاية من الغفلة ، ولعله عبر بذلك إشارة بالإدغام اللازم عنه التشديد إلى تناهي الخصام بإقامة أسبابه أعلاها وأدناها إلى حد لا مزيد عليه لأن التاء معناه عند أهل الله انتهاء التسبيب إلى أدناه وكل ذلك إشارة إلى أنهم في وقت الصعق

يكونون في أعظم الأمان منها لأن إعراضهم عنها بلغ إلى غاية لا مزيد عليها ، ويشير الإدغام أيضاً إلى أن خصومتهم في غاية الخفاء بالنسبة إلى الصيحة ، وأن بلغت الخصومة النهاية في الشدة ، ولم يقرأ أحد "يختصمون" بالإظهار إشارة إلى أنه لا يقع في ذلك الوقت خصومه كاملة حتى تكون ظاهرة بل تهلكهم الصيحة قبل استيفاء الحجج وإظهار الدلائل ، فمنها ما كان ابتدأ فيه اصحابه فأوجزوا - بما أشارت إليه قراءة حمزة بإسكان الخاء وكسر الصاد مخففاً ، ومنها ما كان متوسطاً وفيه خفاء وعلو - بما أشار إليه تشديد الصاد مع اختلاس فتحة الخاء ، ومنها ما هو كذلك وهو إلى الجلاء أقرب - بما أشار إليه إخلاص فتحة الخاء مع تشديد الصاد ، وأشار من قرأه كذلك مع كسر الخاء إلى التوسط مع الخفاء والسفول ، والله أعلم .

(8/647)

---

ولما كانت هذه النفخة المميتة ، سبب عنها قوله : ﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ أي أن يوجدوا الوصية في شيء من الأشياء ، والاستفعال والتفعيل يدلان على أن الموت ليس حين سماع أول الصوت بل عقبه من غير مهلة لتمام أمر ما .

ولما كان ذلك ليس نصّاً في نفي المشي قال : ﴿ ولا إلى أهلهم ﴾ أي فضلاً عن غيرهم

﴿ يرجعون ﴾ بل يموت كل واحد في مكانه حيث تفجأه الصيحة ، وربنا أفهم التعبير ب " إلى " أنهم يريدون الرجوع فيخطون خطوة أو نحوها ، وفي الحديث " ليقومن من الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يبيعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد رفع الرجل أكلته إلى فيه فلا يطعمها " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 6 صـ 265 . 268 ﴾

(9/647)

---

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ يخصمون ﴾ بفتحتين ثم كسر الصاد المشددة : ابن كثير وورش وسهل ويعقوب وأصله " يختصمون " أدغمت التاء في الصاد بعد نقل حركتها إلى الخاء ، وقرأ أبو جعفر ونافع غير ورش بسكون الخاء ، وقرأ أبو عمرو بإشمام الفتحة قليلاً وقرأ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد من الخصم ثلاثياً . الباقون : بكسر الخاء للاتباع وتشديد الصاد . وروى خلف عن يحيى بكسر الياء والخاء والتشديد . ﴿ شغل ﴾ بضمتين : عاصم وخلف وابن عامر ويزيد ويعقوب . ﴿ فكهون ﴾ وبابه بغير ألف : يزيد . ﴿ ظل ﴾ بضم الظاء وفتح اللام : حمزة وعلي وخلف على أنه جمع ظلة . الآخرون : ﴿ ظلال

﴿ جمع ظل ﴿ جبلاً ﴾ بضم الجيم وسكون الباء . ابن عامر وأبو عمرو . وقرأ أبو جعفر ونافع وعاصم وسهل بكسرتين واللام مشددة ، وقرأ يعقوب بضمتين والتشديد . والباقون : بضمتين والتخفيف ﴿ ننكسه ﴾ مشدداً : حمزة وعاصم غير مفضل . الآخرون : بالتخفيف من النكس . ﴿ تعقلون ﴾ بتاء الخطاب : أبو جعفر ونافع وابن ذكوان وسهل ويعقوب ﴿ لتنذر ﴾ على الخطاب أبو جعفر ونافع وابن عامر وسهل ويعقوب ﴿ يقدر ﴾ على صيغة المضارع : يعقوب ﴿ كن فيكون ﴾ بالنصب : ابن عامر وعلي .

(10/647)

---

الوقوف : ﴿ ترحمون ﴾ 5 ﴿ معرضين ﴾ 5 ﴿ رزقكم الله ﴾ لا لأن ما بعده جواب "إذا " ﴿ أطعمه ﴾ لا كذلك لاتحاد المقول ولئلا يبتدأ بما لا يقوله مسلم . وجوز جار الله أن يكون قوله ﴿ إن أنتم ﴾ قول الله أو حكاية قول المؤمنين لهم فالوقف جائز . ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ صادقين ﴾ 5 ﴿ يخصمون ﴾ 5 ﴿ يرجعون ﴾ 5 ﴿ ينسلون ﴾ 5 ﴿ مرقدنا ﴾ 5 لئلا يوهم أن هذا صفة وما بعده منفي وفيه وجوه أخر نذكرها في التفسير ﴿ المرسلون ﴾ 5 ﴿ محضرون ﴾ 5 ﴿ تعملون ﴾ 5 ﴿ فاكهون ﴾ 5 ج لاحتمال

أن ﴿ هم ﴾ تأكيد الضمير ﴿ أزواجهم ﴾ عطف عليه و ﴿ في ظلال ﴾ ظرف ﴿ فاكهون ﴾ ، ولاحتمال أن ما بعده مبتدأ وخبره ﴿ متكئون ﴾ ﴿ يدعون ﴾ 5 ج لأنه من المحتمل أن يكون ﴿ سلام ﴾ خبر محذوف اي عليهم سلام يقول قولاً ، وأن يكون ﴿ سلام ﴾ بدل ﴿ ما يدعون ﴾ اي لهم ما يتمنون وهو سلام ﴿ سلام ﴾ ط ج لحق الحذف ﴿ رحيم ﴾ 5 ﴿ المجرمون ﴾ 5 ﴿ الشيطان ﴾ ج لأن التقدير فإنه ﴿ مبين ﴾ 5 لا للعطف ﴿ اعبدوني ﴾ ج ﴿ مستقيم ﴾ 5 ﴿ كثيراً ﴾ 5 ﴿ تعقلون ﴾ 5 ﴿ توعدون ﴾ 5 ﴿ تكفرون ﴾ 5 ﴿ يكسبون ﴾ 5 ﴿ يبصرون ﴾ 5 ﴿ يرجعون ﴾ 5 ﴿ في الخلق ﴾ ط ﴿ يعقلون ﴾ 5 له ج ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ الكافرين ﴾ 5 ﴿ مالكون ﴾ 5 ﴿ يأكلون ﴾ 5 ﴿ مشارب ﴾ 5 ﴿ يشكرون ﴾ 5 ﴿ ينصرون ﴾ ج ﴿ نصرهم ﴾ لا لأن الواو للحال ﴿ محضرون ﴾ 5 ﴿ قولهم ﴾ 5 لئلا يوهم أن ما بعده مقول الكفار ﴿ يعلنون ﴾ 5 ﴿ مبين ﴾ 5 خلقه ﴾ ط ﴿ رميم ﴾ 5 ﴿ مرة ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ 5 لا لأن ﴿ الذي ﴾ بدل ﴿ توقدون ﴾ 5 ﴿ مثلهم ﴾ ط لانتهاء الاستفهام ﴿ العليم ﴾ 5 ﴿ فيكون ﴾ 5 ﴿ ترجعون ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 537 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) ﴾

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما عدد الآيات بقوله : ﴿ وَءايَةٌ لَّهُمُ الأرض . . . وَءايَةٌ لَّهُمُ الليل . . . وَءايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرّيَّتَهُمْ ﴾ [ يس : 33 ، 37 ، 41 ] وكانت الآيات تفيد اليقين وتوجب القطع بما قال تعالى ولم تفدهم اليقين ، قال فلا أقل من أن يحترزوا عن العذاب فإن من أخبر بوقوع عذاب يتقيه ، وإن لم يقطع بصدق قول المخبر احتياطاً فقال تعالى إذا ذكر لهم الدليل القاطع لا يعترفون به وإذا قيل لهم اتقوا لا يتقون فهم في غاية الجهل ونهاية الغفلة ، لا مثل العلماء الذين يتبعون البرهان ، ولا مثل العامة الذين يبنون الأمر على الأحوط ، ويدل على ما ذكرنا قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ بحرف التمني أي في ظنكم فإن من يخفى عليه وجه البرهان .

لا يترك طريقة الاحتراز والاحتياط، وجواب قوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتقوا﴾ محذوف معناه وإذا قيل لهم ذلك لا يتقون أو يعرضون، وإنما حذف لدلالة ما بعده عليه وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ آيات ربهم﴾ [الأنعام: 4] وفي قوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ وجوه أحدها: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ الآخرة فإنهم مستقبلون لها ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ الدنيا فإنهم تاركون لها وثانيها: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُم﴾ من أنواع العذاب مثل الغرق والحرق، وغيرهما المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ [يس: 43] وما خلفكم من الموت الطالب لكم إن نجوتم من هذه الأشياء فلا نجاة لكم منه يدل عليه قوله تعالى: ﴿ومتاعا إلى حِينٍ﴾ [يس: 44] وثالثها: ما بين أيديكم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم فإنه حاضر عندكم وما خلفكم من أمر الحشر فإنكم إذا اتقيتم تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم والتكذيب بالحشر رحمكم الله وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ مع أن الرحمة واجبة، فيه وجوه ذكرناها مراراً ونزيد ههنا وجهاً آخر وهو أنه تعالى لما قال: ﴿اتقوا﴾ بمعنى أنكم إن لم تقطعوا بناء على البراهين فاتقوا احتياطاً قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يعني أرباب اليقين يرحمون جزماً وأرباب الاحتياط يرجى أن يرحموا، والحق ما ذكرنا من وجهين أحدهما: اتقوا راجين الرحمة فإن الله لا يجب عليه شيء وثانيهما: هو أن الاتقاء نظراً إليه أمر يفيد الظن بالرحمة فإن كان يقطع به أحد لأمر من خارج فذلك لا يمنع الرجاء فإن الملك إذا كان في قلبه أن

يعطي من يخدمه أكثر من أجرته أضعافاً مضاعفة لكن الخدمة لا تقتضي ذلك ، يصح منه أن يقول افعل كذا ولا يبعد أن يصل إليك أجرتك أكثر مما تستحق .

(13/647)

---

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (46)

وهذا متعلق بما تقدم من قوله تعالى : ﴿ يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ [ يس : 30 ] ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مّنْ ءايَةٍ مّنْ ءايات رَبّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عنها معرضين ﴾ يعني إذا جاءتهم الرسل كذبوهم فإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها وما التفتوا إليها وقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مّنَ القرون ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [ يس : 31 - 45 ] كلام بين كلامين متصلين ويحتمل أن يقال هو متصل بما قبله من الآية وبيانه هو أنه تعالى لما قيل : ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ﴾ [ يس : 45 ] وكان فيه تقدير أعرضوا قال ليس إعراضهم مقتصراً على ذلك بل هم على كل آية معرضون أو يقال إذا قيل لهم اتقوا اقترحوا آيات مثل إنزال الملك وغيره فقال : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مّنْ ءايَةٍ مّنْ ءايات رَبّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ وعلى هذا كانوا في المعنى يكون زائداً معناه إلا يعرضون عنها أي لا ينفعهم الآيات من كذب بالبعض هان عليه التكذيب بالكل .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (47)

(14/647)

---

إشارة إلى أنهم يبخلون بجميع ما على المكلف ، وذلك لأن المكلف عليه التعظيم لجانب الله والشفقة على خلق الله وهم تركوا التعظيم حيث قيل لهم ﴿ اتقوا ﴾ فلم يتقوا وتركوا الشفقة على خلق الله حيث قيل لهم : ﴿ أَنْفِقُواْ ﴾ فلم ينفقوا وفيه لطائف الأولى خوطبوا بأدنى الدرجات في التعظيم والشفقة فلم يأتوا بشيء منه وعباد الله المخلصون خوطبوا بالأدنى فأتوا بالأعلى إنما قلنا ذلك لأنهم في التقوى أمروا بأن يتقوا ما بين أيديهم من العذاب أو الآخرة وما خلفهم من الموت أو العذاب وهو أدنى ما يكون من الاتقاء ، وأما الخاص فيتقي تغيير قلب الملك عليه وإن لم يعاقبه ومتقى العذاب لا يكون إلا للبعيد ، فهم لم يتقوا معصية الله ولم يتقوا عذاب الله ، والمخلصون اتقوا الله واجتنبوا مخالفته سواء كان يعقابهم عليه أو لا يعاقبهم ، وأما في الشفقة فقيل لهم : ﴿ أَنفِقُواْ مِمَّا ﴾ أي بعض ما هو لله في أيديكم فلم ينفقوا ، والمخلصون آثروا على أنفسهم وبذلوا كل ما في أيديهم ، بل أنفسهم صرفوها إلى نفع عباد الله ودفع الضرر عنهم الثانية : كما أن في جانب التعظيم ما كان فائدة

التعظيم راجعة إلا إليهم فإن الله مستغن عن تعظيمهم كذلك في جانب الشفقة ما كان فائدة الشفقة راجعة إلا إليهم ، فإن من لا يرزقه المتمول لا يموت إلا بأجله ولا بد من وصول رزقه إليه ، لكن السعيد من قدر الله إيصال الرزق على يده إلى غيره الثالثة : قوله : ﴿ مِمَّا رَزَقَكُمُ ﴾ إشارة إلى أمرين أحدهما : أن البخل به في غاية القبح فإن أبخل البخلاء من يخبل بمال الغير وثانيهما : أنه لا ينبغي أن يمنعكم من ذلك مخافة الفقر فإن الله رزقكم فإذا أنفقتم فهو يخلفه لكم ثانياً كما رزقكم أولاً وفيه مسائل أيضاً :

المسألة الأولى :



---

عند قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ ﴾ حذف الجواب ، وههنا أجاب وأتى بأكثر من الجواب وذلك لأنه تعالى لو قال : وإذا قيل لهم أنفقوا قالوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه لكان كافياً ، فما الفائدة في قوله تعالى : ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ؟ نقول الكفار كانوا يقولون بأن الإطعام من الصفات الحميدة وكانوا يفتخرون به ، وإنما أرادوا بذلك القول رداً على المؤمنين فقالوا نحن نطعم الضيوف معتقدين بأن أفعالنا ثناء ، ولولا إطعامنا لما اندفع حاجة الضيف وأنتم تقولون إن إلهكم يرزق من يشاء ، فلم تقولون لنا أنفقوا ؟ فلما

كان غرضهم الرد على المؤمنين لا الامتناع من الإطعام .

قال تعالى عنهم : ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إشارة إلى الرد ، وأما في قولهم :

﴿ اتقوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾

[ يس : 45 ] فلم يكن لهم رد على المؤمنين فأعرضوا وأعرض الله عن ذكر إعراضهم

لحصول العلم به .

المسألة الثانية :

ما الفائدة في تغيير اللفظ في جوابهم حيث لم يقولوا أنُنفق على من لو يشاء الله رزقه ، وذلك

لأنهم أمروا بالإنفاق في قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ ﴾ فكان جوابهم بأن يقولوا أننفق فلم

قالوا : ﴿ أَنُطْعِمُ ﴾ ؟ نقول فيه بيان غاية مخالفتهم وذلك لأنهم إذا أمروا بالإنفاق والإنفاق

يدخل فيه الإطعام وغيره لم يأتوا بالإنفاق ولا بأقل منه وهو الإطعام وقالوا لا نطعم ، وهذا

كما يقول القائل لغيره أعط زيداً ديناراً يقول لا أعطيه درهماً مع أن المطابق هو أن يقول لا

أعطيه ديناراً ولكن المبالغة في هذا الوجه أتم فكذلك ههنا .

المسألة الثالثة :

كان كلامهم حقاً فإن الله لو شاء أطعمه فلماذا ذكره في معرض الذم ؟ نقول لأن مرادهم كان الإنكار لقدرة الله أو لعدم جواز الأمر بالاتفاق مع قدرة الله وكلاهما فاسد بين الله ذلك في قوله : ﴿ مِمَّا رَزَقَكُمُ ﴾ فإنه يدل على قدرته ويصحح أمره بالإعطاء لأن من كان له في يد الغير مال وله في خزائنه مال فهو مخير إن أراد أعطى مما في خزائنه وإن أراد أمر من عنده المال بالإعطاء ولا يجوز أن يقول من بيده ماله في خزائنك أكثر مما في يدي أعطه منه ، وقوله : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ إشارة إلى اعتقادهم أنهم قطعوا المؤمنين بهذا الكلام وأن أمرهم بالإنفاق مع قولهم بقدرة الله ظاهر الفساد واعتقادهم هو الفاسد وفيه مباحث لغوية ومعنوية .

أما اللغوية : فنقول : ﴿ إن ﴾ وردت للنفي بمعنى ما ، وكان الأرض في إن أن تكون للشرط والأصل في ما أن تكون للنفي لكنهما اشتركا من بعض الوجوه فتقارضا واستعمل ما في الشرط واستعمل إن في النفي ، أما الوجه المشترك فهو أن كل واحد منهما حرف مركب من حرفين متقاربين فإن الهمزة تقرب من الألف والميم من النون ولا بد من أن يكون المعنى الذي يدخل عليه ما وأن لا يكون ثابتاً أما في ما فظاهر ، وأما في إن فلأنك إذا قلت إن جاءني زيد أكرمه ينبغي أن لا يكون له في الحال مجيء فاستعمل إن مكان ما ، وقيل إن زيد قائم أي ما زيد بقائم واستعمل ما في الشرط تقول ما تصنع أصنع ، والذي يدل على ما ذكرنا أن ما النافية تستعمل حيث لا تستعمل إن وذلك لأنك تقول ما إن جلس زيد فتجعل إن صلة ولا

تقول إن جلس زيد بمعنى النفي وبمعنى الشرط تقول إما ترين فتجعل إن أصلاً وما صلة ، فدلنا هذا على أن إن في الشرط أصل وما دخيل وما في النفي بالعكس .

البحث الثاني : قد ذكرنا أن قوله : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ ﴾ يفيد ما لا يفيد قوله : أنتم في ضلال لأنه يوجب الحصر وأنه ليسوا في غير الضلال .

*(17/647)*

---

البحث الثالث : وصف الضلال بالمبين قد ذكرنا معناه أنه لظهوره يبين نفسه أنه ضلال أي في ضلال لا يخفى على أحد أنه ضلال .

البحث الرابع : قد ذكرنا أن قوله : ﴿ فِي ضلال ﴾ يفيد كونه مغمورين فيه غائصين ، وقوله في مواضع ﴿ على بَيّنَةٍ ﴾ [ الأنعام : 57 ] و ﴿ على هُدًى ﴾ [ البقرة : 5 ] إشارة إلى كونهم راكبين متن الطريق المستقيم قادرين عليه .

وأما المعنوية : فهي أنهم إنما وصفوا الذين آمنوا بكونهم في ضلال مبين لكونهم ظانين أن المؤمن كلامه متناقض ومن تناقض كلامه يكون في غاية الضلال ، إنما قلنا ذلك لأنهم قالوا : ﴿ أَنُطْعِمُ لَّوْ يَشَاءُ الله أَطْعَمَهُ ﴾ إشارة إلى أن الله إن شاء أن يطعمهم كان يطعمهم فلا تقدر على إطعامهم لأنه يكون تحصيلاً للحاصل ، وإن لم يشأ الله إطعامهم لا يقدر أحد على

إطعامهم لامتناع وقوع ما لم يشأ الله فلا قدرة لنا على الإطعام ، فكيف تأمرونا بالإطعام

ووجه آخر : وهو أنهم قالوا أراد الله تجويعهم فلو أطعمناهم يكون ذلك سعياً في إبطال فعل الله وأنه لا يجوز وأنتم تقولون أطعموهم فهو ضلال ولم يكن في الضلال إلا هم حيث نظروا إلى المراد ولم ينظروا إلى الطلب والأمر ، وذلك لأن العبد إذا أمره السيد بأمر لا ينبغي أن يكشف سبب الأمر والإطلاع على المقصود الذي أمر به لأجله .

مثاله : الملك إذا أراد الركوب للهجوم على عدوه بحيث لا يطلع عليه أحد وقال لعبده أحضر المركوب ، فلو تطلع واستكشف المقصود الذي لأجله الركوب لنسب إلى أنه يريد أن يطلع عدوه على الحذر منه وكشف سره ، فالأدب في الطاعة وهو اتباع الأمر لا تتبع المراد ، فالله تعالى إذا قال : أنفقوا مما رزقكم لا يجوز أن يقولوا : لم يطعمهم الله مما في خزائنه .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48)

(18/647)

---

وهو إشارة إلى ما اعتقدوه وهو أن التقوى المأمور بها في قوله : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتقوا } [ يس : 45 ] والإنفاق المذكور في قوله تعالى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ } [ يس : 47 ] لا فائدة فيه لأن الوعد لا حقيقة له وقوله : { متى هذا الوعد } أي متى يقع الموعود به ،

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

وهي أن إن للشرط وهي تستدعي جزاء ومتى استفهام لا يصلح جزاء فما الجواب ؟ نقول هي في الصورة استفهام ، وفي المعنى إنكار كأنهم قالوا إن كنتم صادقين في وقوع الحشر فقولوا متى يكون .

المسألة الثانية :

الخطاب مع من في قولهم : ﴿ إِن كُنتُمْ ﴾ ؟ نقول الظاهر أنه مع الأنبياء لأنهم لما أنكروا الرسالة قالوا إن كنتم يا أيها المدعوون للرسالة صادقين فأخبرونا متى يكون .

المسألة الثالثة :

ليس في هذا الموضع وعد فالإشارة بقوله : ﴿ هذا الوعد ﴾ إلى أي وعد ؟ نقول هو ما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتقوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ [ يس : 45 ] من قيام الساعة ، أو نقول هو معلوم وإن لم يكن مذكوراً لكون الأنبياء مقيمين على تذكيرهم بالساعة والحساب والثواب والعقاب .

مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49)

ثم قال تعالى : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ أي لا ينتظرون إلا الصيحة المعلومة والتنكير للتكثير ، فإن قيل هم ما كانوا ينتظرون بل كانوا يجزمون بعدمها ، فنقول الانتظار

فعلي لأنهم كانوا يفعلون ما يستحق به فاعله البوار وتعجيل العذاب وتقريب الساعة لولا حكم الله وقدرته وعلمه فإنهم لا يقولون أو نقول لما لم يكن قوله متى استفهاماً حقيقياً قال ينتظرون انتظاراً غير حقيقي ، لأن القائل متى يفهم منه الانتظار نظراً إلى قوله .

(19/647)

---

وقد ذكروا ههنا في الصيحة أموراً تدل على هولها وعظمها أحدها : التنكير يقال لفلان مال أي كثير وله قلب أي جريء وثانيها : واحدة أي لا يحتاج معها إلى ثانية وثالثها : تأخذهم أي تعمهم بالأخذ وتصل إلى من في مشارق الأرض ومغاربها ، ولا شك أن مثلها لا يكون إلا عظيماً .

وقوله : ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ، مما يعظم به الأمر لأن الصيحة المعتادة إذا وردت على غافل يرجف فإن المقبل على مهم إذا صاح به صائح يرجف فؤاده بخلاف المنتظر للصيحة ، فإذا كان حال الصيحة ما ذكرناه من الشدة والقوة وترد على الغافل الذي هو مع خصمه مشغول يكون الارتجاف أتم والإيحاف أعظم ، ويحتمل أن يقال : ﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾ في البعث ويقولون لا يكون ذلك أصلاً فيكونون غافلين عنه بخلاف من يعتقد أنه يكون فيتهيأ له وينتظر وقوعه فإنه لا يرتجف

وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي السموات وَمَن فِي الأَرض إِلاَّ مَن شَاء ﴾ [ الزمر : 68 ] ممن اعتقد وقوعها فاستعد لها ، وقد مثلنا ذلك فيمن شام برقاً وعلم أن سيكون رعد ومن لم يشمه ولم يعلم ثم رعد الرعد ترى الشائم العالم ثابتاً والغافل الذاهل مغشياً عليه ، ثم بين شدة الأخذ وهي بحيث لا تمهلهم إلى أن يوصوا .

(20/647)

---

وفيه أمور مبينة للشدة أحدها : عدم الاستطاعة فإن قول القائل فلان في هذا الحال لا يوصي دون قوله لا يستطيع التوصية لأن من لا يوصي قد يستطيعها الثاني : التوصية وهي بالقول والقول يوجد أسرع مما يوجد الفعل فقال : لا يستطيعون كلمة فكيف فعلاً يحتاج إلى زمان طويل من أداء بالواجبات ورد المظالم الثالث : اختيار التوصية من بين سائر الكلمات يدل على أنه لا قدرة له على أهم الكلمات فإن وقت الموت الحاجة إلى التوصية أمس الرابع : التنكير في التوصية للتعميم أي لا يقدر على توصية ما ولو كانت بكلمة يسيرة ، ولأن التوصية قد تحصل بالإشارة فالعاجز عنها عاجز عن غيرها الخامس : قوله : ﴿ وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ بيان لشدة الحاجة إلى التوصية لأن من يرجو الوصول إلى أهله قد يمسك عن الوصية لعدم الحاجة إليها ، وأما من يقطع بأنه لا وصول له إلى أهله فلا بد له من التوصية

، فإذا لم يستطع مع الحاجة دل على غاية الشدة .

وفي قوله : ﴿ وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وجهان أحدهما : ما ذكرنا أنهم يقطعون بأنهم لا يمهلون إلى أن يجتمعوا بأهاليهم وذلك يوجب الحاجة إلى التوصية وثانيهما : أنهم إلى أهلهم لا يرجعون ، يعني يموتون ولا رجوع لهم إلى الدنيا ، ومن يسافر سفراً ويعلم أنه لا رجوع له من ذلك السفر ولا اجتماع له بأهله مرة أخرى يأتي بالوصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 72.77 ﴾

(21/647)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتقوا مَا بَيْنَ أَيدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾

قال قتادة : يعني "اتقوا مَا بَيْنَ أَيدِيكُمْ" أي من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم ، "وَمَا خَلْفَكُمْ" من الآخرة .

ابن عباس وابن جُبير ومجاهد : "مَا بَيْنَ أَيدِيكُمْ" ما مضى من الذنوب ، "وَمَا خَلْفَكُمْ" ما يأتي من الذنوب .

الحسن : "مَا بَيْنَ أَيدِيكُمْ" ما مضى من أجَلِكُمْ "وَمَا خَلْفَكُمْ" ما بقي منه .

وقيل : "مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ" من الدنيا ، "وَمَا خَلْفَكُمْ" من عذاب الآخرة ؛ قاله سفيان .

وحكى عكس هذا القول الثعلبي عن ابن عباس .

قال : "مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ" من أمر الآخرة وما عملوا لها ، "وَمَا خَلْفَكُمْ" من أمر الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها .

وقيل : "مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ" ما ظهر لكم "وَمَا خَلْفَكُمْ" ما خفي عنكم .

والجواب محذوف ، والتقدير : إذا قيل لهم ذلك أعرضوا ؛ دليله قوله بعد : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ فاكتفى بهذا عن ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾ أي تصدّقوا على الفقراء .

قال الحسن : يعني اليهود أمروا بإطعام الفقراء .

وقيل : هم المشركون قال لهم فقراء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أعطونا ما زعمتم من أموالكم أنها لله ؛ وذلك قوله : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً ﴾ [ الأنعام : 136 ] فحرموهم وقالوا : لو شاء الله أطعمكم استهزاء فلا نطعمكم حتى ترجعوا إلى ديننا .

قالوا : ﴿ أَنُطْعِمُ ﴾ أي أنرزق ﴿ مَن لَّوْ يَشَآءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ﴾ كان بلغهم من قول المسلمين : أن الرازق هو الله .

فقالوا هزءا : أنرزق من لو يشاء الله أغناه .

وعن ابن عباس : كان بمكة زنادقة ، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله ! أيفقره الله ونطعمه نحن .

وكانوا يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون : لو شاء الله لأغنى فلاناً ، ولو شاء الله لأعزّ ، ولو شاء الله لكان كذا .

فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين ، وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى .

وقيل : قالوا هذا تعلقاً بقول المؤمنين لهم : ﴿ أَنفِقُواْ مِمَّا رزَقَكُمُ الله ﴾ أي فإذا كان الله رزقنا فهو قادر على أن يرزقكم فلم تلتمسون الرزق منا ؟ .

وكان هذا الاحتجاج باطلاً ؛ لأن الله تعالى إذا ملّك عبداً مالاً ثم أوجب عليه فيه حقّاً فكأنه انتزع ذلك القدر منه ، فلا معنى للاعتراض .

وقد صدقوا في قولهم : لو شاء الله أطعمهم ولكن كذبوا في الاحتجاج .

ومثله قوله : ﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ [ الأنعام : 148 ] ، وقوله : ﴿ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ ﴾

[المنافقون : 1 ] .

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ قيل : هو من قول الكفار للمؤمنين ؛ أي في سؤال المال وفي اتباعكم محمداً .

قال معناه مقاتل وغيره .

وقيل : هو من قول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لهم .

وقيل : من قول الله تعالى للكفار حين ردّوا بهذا الجواب .

وقيل : إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يطعم مساكين المسلمين فلقيه أبو جهل فقال : يا أبا بكر أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء ؟ قال : نعم .

قال : فما باله لم يطعمهم ؟ قال : ابتلى قوماً بالفقر ، وقوماً بالغنى ، وأمر الفقراء بالصبر ، وأمر الأغنياء بالإعطاء .

(23/647)

---

فقال : والله يا أبا بكر ما أنت إلا في ضلال ! أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ثم تطعمهم أنتا ؟ فنزلت هذه الآية ، ونزل قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى وصدق بالحسنى ﴾ [ الليل : 5 6 ] الآيات .

وقيل : نزلت الآية في قوم من الزنادقة ، وقد كان فيهم أقوام يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع ، واستهزءوا بالمسلمين بهذا القول ؛ ذكره القشيري والماوردي .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هَذَا الوعد ﴾ لما قيل لهم : "اتقوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ" قالوا : "مَتَى هَذَا الْوَعْدُ" وكان هذا استهزاء منهم أيضاً أي لا تحقيق لهذا الوعيد ، قال الله تعالى : ﴿ مَا يَنظُرُونَ ﴾ أي ما ينتظرون ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ وهي نفخة إسرافيل ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أي يختصمون في أمور دنياهم فيموتون في مكانهم ؛ وهذه نفخة الصَّعْق .

وفي "يَخِصِّمُونَ" خمس قراءات : قرأ أبو عمرو وابن كثير : "وَهُمْ يَخَصِّمُونَ" بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد .

وكذا روى وَرْش عن نافع .

فأما أصحاب القراءات وأصحاب نافع سوى ورش فرووا عنه "يَخْصِّمُونَ" بإسكان الخاء وتشديد الصاد على الجمع بين ساكنين .

وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة : "وَهُمْ يَخْصِمُونَ" بإسكان الخاء وتخفيف الصاد من خصمه .

وقرأ عاصم والكسائيّ "وَهُمْ يَخِصِّمُونَ" بكسر الخاء وتشديد الصاد ، ومعناه يخصم بعضهم بعضاً .

وقيل : تأخذهم وهم عند أنفسهم يختصمون في الحجة أنهم لا يبعثون .

وقد روى ابن جبير عن أبي بكر عن عاصم ، وحماد عن عاصم كسر الياء والخاء والتشديد .

قال النحاس : القراءة الأولى أبينها ، والأصل فيها يختصمون فأدغمت التاء في الصاد فنقلت حركتها إلى الخاء .

وفي حرف أُبَيّ "وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ" وإسكان الخاء لا يجوز ، لأنه جمع بين ساكنين وليس أحدهما حرف مدّ ولِين .

(24/647)

---

وقيل : أسكنوا الخاء على أصلها ، والمعنى يخصم بعضهم بعضاً فحذف المضاف ، وجاز أن يكون المعنى يخصمون مجادلَهم عند أنفسهم فحذف المفعول .

قال الثعلبي : وهي قراءة أبيّ بن كعب .

قال النحاس : فأما "يَخِصمُون" فالأصل فيه أيضاً يختصمون ، فأدغمت التاء في الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين .

وزعم الفرّاء أن هذه القراءة أجود وأكثر ؛ فترك ما هو أولى من إلقاء حركة التاء على الخاء

واجتلب لها حركة أخرى وجمع بين ياء وكسرة ، وزعم أنه أجود وأكثر .

وكيف يكون أكثر وبالفتح قراءة الخلق من أهل مكة وأهل البصرة وأهل المدينة وما روي عن عاصم من كسر الياء والخاء فللإتباع .

وقد مضى هذا في "البقرة" في ﴿ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ وفي "يونس" ﴿ يَهْدِي ﴾ .

وقال عِكرمة في قوله جل وعز : ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ قال : هي النفخة الأولى في الصور .

وقال أبو هريرة : يُنفخ في الصُّور والناس في أسواقهم : فمن حالبٍ لقحة ، ومن ذارعٍ ثوباً ، ومن مارّ في حاجة .

وروى نعيم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فلا يطويانه حتى تقوم الساعة ، والرجل يَلِيط حوضه ليسقي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم الساعة ، والرجل يخفض ميزانه فما يرفعه حتى تقوم الساعة ، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما يَتَبَلَّعها حتى تقوم الساعة " وفي حديث عبد الله بن عمرو : " "وأوّل من يسمعه رجل يَلُوط حوضَ إبله قال فيصعق ويصعق الناس" الحديث "

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أي لا يستطيع بعضهم أن يوصي بعضاً لما في يده من حق .

وقيل : لا يستطيع أن يوصي بعضهم بعضاً بالتوبة والإقلاع ؛ بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم .

﴿ وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إذا ماتوا .

وقيل : إن معنى "وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ" لا يرجعون إليهم قولاً .

وقال قتادة : "وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ" أي إلى منازلهم ؛ لأنهم قد أعجلوا عن ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(25/647)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتقوا ﴾

بيانٌ لإعراضِهم عن الآياتِ التَّنزيليةِ بعد بيانِ إعراضِهم عن الآياتِ الآفاقيةِ التي كانُوا يشاهدونَها وعدم تأمُّلِهم فيها أي إذَا قيل لهم بطريقِ الإنذارِ بما نزل من الآيات أو بغيرِه اتَّقوا ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ من الآفاتِ والنَّوازلِ فإنَّها محيطة بكم أو ما يصيبكم من المكارهِ من حيثُ تحتسبون ومن حيثُ لا تحتسبون أو من الوقائعِ النَّازلةِ على الأُممِ الخاليةِ قبلكم والعذابِ المعدّ لكم في الآخرة أو من نوازلِ السَّماءِ ونوائبِ الأرض أو من عذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخرة أو ما تقدَّم من الذنوبِ وما تأخَّر . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ إمَّا حال

من واوِ واتَّقوا أو غايةٌ له أي راجين أنْ تُرحموا أو كي تُرحموا فتنجُوا من ذلك لما عرفتُم أنَّ مناطَ النَّجاةِ ليس إلاَّ رحمةَ الله تعالى. وجوابُ إذا محذوف ثقةً بانفهامِه من قوله تعالى:

(26/647)

---

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءايَةٍ مِّنْ ءايات رَبّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ انفهاماً بيِّناً أمَّا إذا كان الإنذارُ بالآيةِ الكريمة فبعبارةِ النَّصّ وأمَّا إذا كان بغيرها فبدلالته لأَّنهم حين أعرضوا عن آياتِ ربِّهم فلأنْ يُعرضوا عن غيرِها بطريق الأولويّةِ كأَّنه قيل: وإذا قيل لهم اتَّقوا العذاب أعرضُوا حسبما اعتادُوه. وما نافيةٌ وصيغةُ المضارعِ للدّلالة على الاستمرارِ التَّجدُّدِي ومن الأُولى مزيدة لتأكيد العموم، والثَّانيةُ تبعيضية واقعة مع مجرورِها صفةً لآيةٍ. وإضافة الآيات إلى اسم الرَّبِّ المضاف إلى ضميرِم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترءُوا عليه في حقِّها، والمراد بها إمَّا الآيات التَّنزيلية فإتيانُها نزولُها والمعنى ما يُنزَّل إليهم آيةٌ من الآيات القرآنيةِ التي من جُملتها هذه الآياتُ النَّاطقةُ بما فُصِّل من بدائعِ صنعِ الله تعالى وسوابغِ آلائِه الموجبة للإقبال عليها والإيمان بها إلاَّ كانُوا عنها مُعرضين على وجه التَّكذيبِ والاستهزاء، وإمَّا ما يعمُّها وغيرها من الآياتِ التَّكوينيَّةِ الشَّاملةِ للمعجزات وغيرها من تعاجيبِ المصنوعاتِ التي من جُملتها الآياتُ الثَّلاثُ المعدودة آنفاً فالمرادُ بإتيانها ما يعمُّ نزول الوحيِ

وظهور تلك الأمورِ لهم . والمعنى ما يظهر لهم آيةٌ من الآيات التي من جُملتها ما ذُكر من شؤونه الشّاهدةِ بوحدانيّته تعالى وتفرُّدِه بالأُلوهّيةِ إلّا كانُوا عنها مُعرضين تاركين للنظر الصَّحيحِ فيها المؤدّي إلى الإيمان به تعالى . وإيثارُه على أنْ يُقال إلّا أعرضُوا عنها كما وقع مثلُه في قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ للدّلالةِ على استمرارهم على الإعراضِ حسب استمرار إتيانِ الآياتِ ، وعن مُتعلّقةٌ بمعرضين قُدّمتْ عليه مراعاةً للفواصل . والجملة في حيِّزِ النَّصبِ على أنَّها

(27/647)

---

حالٌ من مفعولِ تأتي أو من فاعِله المتخصصِ بالوصف لاشتمالِها على ضميرِ كلَ منهُما ، والاستثناءُ مفرّغٌ من أعمّ الأحوالِ أي ما تأتيُهم من آيةٍ من آيات ربّهم في حالٍ من أحوالِهم إلا حالَ إعراضِهم عنها أو ما تأتيهم آيةٌ منها في حالٍ من أحوالِها إلا حالَ إعراضِهم عنها . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ أي أعطاكُم بطريق التَّفضلِ والإنعام من أنواع الأموالِ عبَّر عنها بذلك تحقيقاً للحقّ وترغيباً في الإنفاق على منهاجِ قولِه تعالى : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ ﴾ وتنبيهاً على عِظَمِ جنايتهم في تركِ الامتثالِ بالأمر ، وكذلك من التبعيضية أي إذا قيل لهم بطريق النصيحة أنفقُوا بعض ما أعطاكم الله تعالى من فضله على

المحتاجين فإنَّ ذلك ممَّا يردُّ البلاَ ويدفعُ المكاره ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ بالصَّانع عزَّ وجلَّ وهم زنادقةٌ كانُوا بمكَّةَ ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ تهكُّماً بهم وبما كانُوا عليه من تعليق الأمورِ بمشيئةِ الله تعالى ﴿ أَنُطْعِمُ ﴾ حسبما تعظوننا به ﴿ مَن لَّوْ يَشَاء الله أَطْعَمَهُ ﴾ أي على زعمِكم. وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهُمَا: كان بمكَّةَ زنادقةٌ إذا أُمروا بالصَّدقةِ على المساكين قالوا لا والله أيفقره الله ونُطعمه نحنُ. وقيل قالَه مُشركو قُريشٍ حين استطعمهم فقراءُ المؤمنين من أموالهم التي زعمُوا أنهم جعلوُها لله تعالى من الحارث والأنعامِ يُوهمون أنَّه تعالى لما لم يشأْ إطعامَهم وهو قادرٌ عليه فنحن أحقُّ بذلك، وما هو إلا لفرطِ جهالتِهم فإنَّ الله تعالى يُطعم عبادَه بأسبابٍ من جُملتها حثُّ الأغنياءِ على إطعامِ الفُقراء وتوفيقُهم لذلك. ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ حيثُ تأمروننا بما يُخالف مشيئةَ الله تعالى. وقد جُوِّزَ أنْ يكونَ جواباً لهم من جهتِه تعالى أو حكايةً لجواب المُؤمنين لهم.

(28/647)

---

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أي فيما تعدوننا بِه من قيام السَّاعةِ مُخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لَمَا أنَّهم أيضاً كانُوا يتلون عليهم آياتِ الوعيدِ بقيامها. ومعنى القُربِ في هذا إمَّا بطريق الاستهزاءِ وإمَّا باعتبارِ قُربِ العهدِ

بالوعدِ . ﴿ مَا يَنظُرُونَ ﴾ جوابٌ من جهته تعالى أي ما ينتظرون ﴿ إِلَّا صَيْحَةً واحدة ﴾ هي النَّفخة الأُولى ﴿ تَأْخُذُهُمْ ﴾ مفاجأةً ﴿ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أي يتخاصمُون في متاجرِهم ومعاملاتِهم لا يخطر ببالِهم شيءٌ من مخايلها كقولِه تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ فلا يغترُّوا بعدم ظهور علائِمها ولا يزعمُوا أنَّها لا تأتيهم . وأصلُ يخصِّمون يَخْتَصِمُون فسكِّنت التَّاءُ وأُدغمتْ في الصَّادِ ثمَّ كُسرتْ الخاءُ لالتقاءِ السَّاكنينِ . وقُرىء بكسر الياءِ للاتباعِ ، وبفتح الخاءِ على إلقاءِ حركةِ التَّاءِ عليه . وقُرىء على الاختلاسِ ، وبالإسكانِ على تجويزِ الجمعِ بين السَّاكنينِ إذا كان الثَّاني مُدغماً وإنْ لم يكنُ الأوَّلُ حرف مدَ . وقُرىء يَخْصِمُون من خصَمَه إذا جادله . ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ في شيءٍ من أمورِهم إنْ كانُوا فيما بين أهليهم ﴿ وَلاَ إلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إنْ كانُوا في خارج أبوابِهم بل تبغتهم الصَّيحة فيموتون حيثُما كانُوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(29/647)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ الخ

بيان لاعراضهم عن الآيات التنزيلية بعد بيان إغراضهم عن الآيات الآفاقية التي كانوا يشاهدونها وعدم تأملهم فيها أي إذا قيل لأهل مكة بطريق الإنذار بما نزل من الآيات أو بغيره ﴿ اتقوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ قال قتادة.

ومقاتل : أي عذاب الأمم التي قبلكم ، والمراد اتقوا مثل عذابهم ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ أي عذاب الآخرة ، وقال مجاهد في رواية عكس ذلك ، وجاء عنه في رواية أخرى ما بين أيديهم ما تقدم من ذنوبهم وما خلفهم ما يأتي منها ، وعن الحسن مثله ، وقيل ما بين أيديهم نوازل السماء وما خلفهم نوائب الأرض ، وقيل ما بين أيديهم المكاره من حيث يحسبون وما خلفهم المكاره من حيث لا يحتسبون ، وحاصل الأمر على ما قيل اتقوا العذاب أو اتقوا ما يترتب العذاب عليه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ حال من واو اتقوا أو غاية له راجعين أن ترحموا أو كي ترحموا ، وفسرت الرحمة بالانجاء من العذاب ، وجواب إذا محذوف ثقة بانفهامه من قوله تعالى :

(30/647)

---

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءايَةٍ مِّنْ ءايات رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ انفهاماً بينا ، أما إذا كان الإنذار بالآية الكريمة فبعبارة النص ، وأما إذا كان بغيرها فبدلالته لأنهم حين أعرضوا عن

أيات ربهم فلأن يعرضوا عن غيرها بطريق الأولى كأنه قيل : وإذا قيل لهم اتقوا العذاب أو اتقوا ما يوجبه أعرضوا لأنهم اعتادوه وتمرنوا عليه ، وما نافية وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددي ، ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لآية ، وإضافة الآيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترأوا عليه في حقها ، والمراد بها إما هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله تعالى وسوابغ آلائه تعالى الموجبة للإقبال عليها والإيمان وإيتاؤها نزول الوحي بها أي ما نزل الوحي بآية من الآيات الناطقة بذلك إلا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب والاستهزاء ، وإما ما يعمها والآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وتعاجيب المصنوعات التي من جملتها الآية الثلاث المعدودة آنفاً وإيتاؤها ظهورها لهم أي ما ظرت لهم آية من الآيات التي من جملتها ما ذكر من شؤونه تعالى الشاهدة بوحدانيته سبحانه وتفرده تعالى بالألوهية إلا كانوا عنها معرضين تاريكن للنظر الصحيح فيما المؤدي إلى الإيمان به عز وجل .

وفي الكلام إشارة إلى استمرارهم على الأعراض حسب استمرار إتيان الآيات ، و ﴿ عَنْ ﴾ متعلقة بمعرضين قدمت عليه للحصر الإدعائي مبالغة في تقبيح حالهم ، وقيل للحصر الإضافي أي معرضين عنها لا عما عم عليه من الكفر وقيل لرعاية الفواصل والجملة في حيز النصب على أنها حال من مفعول تأتي أو من فاعله المتخصص بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي ما تأتيهم آية من آيات ربهم في حال من أحوالهم إلا حال إعراضهم عنها أو ما تأتيهم آية منها في حال من أحوالها إلا حال اعراضهم عنها .

وجملة ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم ﴾ الخ على ما يشعر به كلام الكشاف تذييل يؤكد ما سبق من حديث الاعراض ، وإلى كونه تذييلاً ذهب الخفاجي ثم قال : فتكون معترضة أو حالا مسوقة لتأكيد ما قبلها لشمولها لما تضمنه مع زيادة إفادة التعليل الدال على الجواب المقدر المعلل به فليس من حقها الفصل لأنها مستأنفة كما توهم فتأمل .

(32/647)

---

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾ أي أعطاكم سبحانه بطريق التفضل والأنعام من أنواع الأموال ، وعبر بذلك تحقيقاً للحق وترغيباً في الإنفاق على منهاج قوله تعالى : ﴿

وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ [ القصص : 77 ] وتنبيهاً على عظم جنايتهم في ترك الامتثال بالأمر ، وكذلك الإتيان بمن التبعيضية ، والكلام على ما قيل لذمهم على ترك الشفقة على خلق الله تعالى أثر ذمهم على ترك تعظيمه عز وجل بترك التقوى ، وفي ذلك إشارة إلى أنهم أخلوا بجميع التكاليف لأنها كلها ترجع إلى أمرين التعظيم لله تعالى والشفقة على خلقه سبحانه ، وقيل هو للإشارة إلى عدم مبالاتهم بنصح الناصح وإرشاده إياهم إلى ما يدفع البلاء عنهم قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتقوا ﴾ [يس : 45 ] الخ والمعنى عليه ، إذا قيل لهم بطريق النصيحة والإرشاد إلى ما فيه نفعهم انفقوا بعض ما آتاكم الله من فضله على المحتاجين فإن ذلك مما يرد البلاء ويدفع المكاره ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء اللهُ أَطْعَمَهُ ﴾ والأول أظهر ، والظاهر أن الذين كفروا هم الذين قيل لهم انفقوا وعدل عن ضميرهم إلى الظاهر إيماء إلى علة القول المذكور ، وفي كون القول للذين آمنوا إيماء إلى أنهم القائلون ، قيل : لما أسلم حواشي الكفار من أقربائهم ومواليهم من المستضعفين قطعوا عنهم ما كانوا يواسونهم به وكان ذلك بمكة قبل نزول آيات القتال فندبهم المؤمنون إلى صلة حواشيهم فقالوا : ﴿ أَنُطْعِمُ ﴾ الخ ، وقيل : سحت قريش بسبب أزمة على المساكين من مؤمن وغيره فندبهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى النفقة عليهم فقالوا هذا القول ، وقيل : قال فقراء المؤمنين أعطونا ما زعمتم من أموالكم أنها لله تعالى فحرموا

وقالوا ذلك ، وروي هذا عن مقاتل ، وقال ابن عباس : كان بمكة زنادقة إذا أمروا بالصدقة قالوا لا والله أيفقره الله تعالى



---

ونطعمه نحن وكانوا يسمعون المؤمنين يعلقون الأفعال بمشيئة الله تعالى يقولون لو شاء الله تعالى لأغنى فلاناً ولو شاء لأعزه ولو شاء سبحانه لكان كذا فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولون .

وقال القشيري أيضاً : إن الآية نزلت في قوم من الزنادقة لا يؤمنون بالصانع وأنكروا وجوده فقولهم لو يشاء الله من باب الاستهزاء بالمسلمين .

وجوز أن يكون مبنياً على اعتقاد المخاطبين ويفهم من هذا أن الزنديق من ينكر الصانع ، وقد حقق الأمر فيه على الوجه الأكمل ابن الكمال في رسالة مستقلة فارجع إليها إن أردت ذلك .

وعن الحسن .

وأبي خالد أن الآية نزلت في اليهود أمروا بالإنفاق على الفقراء فقالوا ذلك .

وظاهر ما تقدم يقتضي أنها في كفار مكة أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله تعالى وهو عام في

الإطعام وغيره فأجابوا بنفي الإطعام الذي لم يزالوا يفتخرون به دلالة على نفس غيره بالطريق الأولى ولذا لم يقل أنفق .

وقيل لم يقل ذلك لأن الإطعام هو المراد من الإنفاق أو لأن ﴿ نُطْعِمُ ﴾ بمعنى نعطي وليس بذاك ، و﴿ أَطْعَمَهُ ﴾ جواب ﴿ لَوْ ﴾ وورود الموجب جواباً بغير لام فصيح ومه ﴿ أَن لَّوْنَشَاء أصبناهم ﴾ [ الأعراف : 100 ] ﴿ لو نشاء جعلناه اجاجا ﴾ [ الواقعة : 70 ] نعم الأكثر مجيئه باللام .

والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ من تتمة قول الذين كفروا للذين آمنوا أي ما أنتم إلا في ضلال ظاهر حيث طلبتم منا ما يخالف مشيئة الله عز وجل ، ولعمري أن الإناء ينضح بما فيه فإن جوابهم يدل على غاية ضلالهم وفرط جهلهم حيث لم يعلموا أنه تعالى يطعم بأسباب منها حث الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم سبحانه له ، ويجوز أن يكون جواباً من جهته تعالى زجر به الكفرة وجهلهم به أو حكاية لجواب المؤمنين لهم فيكون على الوجهين استئنافاً بيانياً جواباً لما عسى أن يقال ما قال الله تعالى أو ما قال المؤمنون في جوابهم ؟

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عطف على الشرطية السابقة مفيد لإنكارهم البعث الذي هو مبدأ كل قبيح والنبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يعدهم بذلك ، ومما يستحضر في أذهانهم ما تقدم من الأوامر فلذا أتوا بالإشارة إلى القريب في قولهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ يعنون وعد البعص ، وجوز أن يكون ذلك من باب الاستهزاء وأرادوا متى يكون ذلك ويتحقق في الخارج ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ فيما تقولون وتعدون فاخبرونا بذلك ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لما أنهم أيضاً كانوا يتلون عليهم الآيات الدالة عليه والآمرة بالإيمان به وكأنه لم يعتبر كونه شراً لهم ولذا عبروا بالوعد دون الوعيد ، وقيل : إن ذاك لأنهم زعموا إن لهم الحسنى عند الله تعالى إن تحقق البعث بناء على أن الآية في غير المعطلة .

﴿ مَا يَنظُرُونَ ﴾ جواب من جهته تعالى أي ما ينتظرون ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً ﴾ عظيمة ﴿ واحدة ﴾ وهي النفخة الأولى في الصور التي يموت بها أهل الأرض .

وعبر بالانتظار نظراً إلى ظاهر قوللهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [ يس : 48 ] أو لأن الصيحة لما كانت لا بد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظروها ﴿ ﴾ أو لأن الصيحة لما كانت لا بد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظروها ﴿ تَأْخُذُهُمْ ﴾ تقهرهم وتستولي عليهم فيهلكون ﴿ وَهُمْ يَخِصّمُونَ ﴾ أي يتخاصمون ويتنازعون في معاملاتهم ومتاجرهم لا يخطر ببالهم شيء من مخايلها كقوله تعالى : ﴿ فأخذناهم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [

الأعراف : 95 ] فلا يغترو ا بعدم ظهور علائمها حسبما يريدون ولا يزعمون أنها لا تأتي ، وأخرج ابن جرير .

(35/647)

---

وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : "لينفخن في الصور والناس في طرفهم وأسواقهم ومجالسهم حتى أن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومان فما يرسله أحدهما من يده حتى ينفخ في الصور فيصعق به" وهي التي قال الله تعالى ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ الخ ، وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتومن الساعة والرجل يليط حوضه فلا يسقي منه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نعجته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها " وأصل يخصمون يختصمون وبه قرأ أبي فسكنت التاء وأدغمت في الصاد بعد قلبها صادا ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين ، وجوز أن يكون الكسر لاتباع حركة الصاد الثانية والساكن لا يضر حاجزاً .

وقرأ الحرميان .

وأبو عمرو .

والأعرج.

وشبل.

وابن قسطنين بادغام التاء في الصاد ونقل حركتها وهي الفتحة إلى الخاء، وأبو عمرو أيضاً.

وقالوا بخلف باختلاس حركة الخاء وتشديد الصاد، وعنهما إسكان الخاء وتخفيف الصاد من خصمه إذا جادله، والمفعول عليها محذوف أي يخصم بعضهم بعضاً، وقيل يخصمون مجادلتهم عن أنفسهم، وبعضهم يكسر ياء المضارعة إتباعاً لكسرة الخاء وشد الصاد، وكسر ياء المضارعة لغة حكاها سيبويه عن الخليل في مواضع، وعن نافع أنه قرى بفتح الياء وسكون الخاء وتشديد الصاد المكسورة، وفيها الجمع بين الساكنين على حده المعروف، وكأنه يجوز الجمع بينهما إذا كان الثاني مدغماً كان الأول حرف مد أيضاً أم لا، وهذا ما اخترناه في نقل القراءات تبعاً لبعض الأجلة والرواة في ذلك مختلفون.



---

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ في شيء من أمورهم إذا كانوا فيما بين أهليهم، ونصب ﴿ تَوْصِيَةً ﴾ على أنه مفعول به ليستطيعون، وجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً لمقدر ﴿ وَلَا إلى

أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إذا كانوا في خارج أبوابهم بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا ويرجعون إلى الله عز وجل لا إلى غيره سبحانه .

وقرأ ابن محيصن ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ بالبناء للمفعول والضمائر للقائلين ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [ يسن : 48 ] لا من حيث أعيانهم أعني أهل مكة الذين كانوا وقت النزول بل لمنكري البعث مطلقاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(37/647)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) ﴾

تخلص الكلام من عدم انتفاعهم بالآيات الدالة على وحدانية الله إلى عدم انتفاعهم بالأقوال المبلَّغة إليهم في القرآن من الموعظة ، والتذكير بما حلّ بالأمم المكذبة أن يصيبهم مثل ما أصابهم ، وبعدم انتفاعهم بتذكير القرآن إياهم بالأدلة على وحدانية الله ، وعلى البعث .

وبناء فعل ﴿ قِيلَ ﴾ للمجهول لظهور أن القائل هو الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغه عن الله تعالى ، أي قيل لهم في القرآن .

وما بين الأيدي يراد منه المستقبل ، وما هو خلف يراد منه الماضي ، قال تعالى حكاية عن

عيسى عليه السلام : ﴿ مصدقاً لما بين يديَّ من التوراة ﴾ [ آل عمران : 50 ] ، أي ما تقدمني .

وذلك أن أصل هذين التركيبين تمثيلان فتارة ينظرون إلى تمثيل المضاف إليه بسائر إلى مكان فالذي بين يديه هو ما سيرد هو عليه ، والذي من ورائه هو ما خلَّفه خلْفه في سيره ، وتارة ينظرون إلى تمثيل المضاف بسائر ، فهو إذا كان بين يدي المضاف إليه فقد سبقه في السير فهو سَابق له وإذا كان خلف المضاف إليه فقد تأخر عنه فهو وارد بعده .

وقد فسرت هذه الآية بالوجهين فقيل : ما بين أيديكم من أمر الآخرة وما خلفكم من أحوال الأمم في الدنيا ، وهو عن مجاهد وابن جبير عن ابن عباس .

وقيل : ما بين أيديكم أحوال الأمم في الدنيا وما خلفكم من أحوال الآخرة وهو عن قتادة وسفيان .

ومتى حمل أحد الموصولَين على ما سبق من أحوال الأمم وجب تقدير مضافين قبل ﴿ ما ﴾ الموصولة هما المفعول ، أي اتقوا مثل أحوال ما بين أيديكم ، أو مثل أحوال ما خلفكم ، ولا يقدر مضافان في مقابله لأن مَا صدْق ﴿ ما ﴾ الموصولة فيه حينئذٍ هو عذاب الآخرة فهو مفعول ﴿ اتَّقُوا ﴾ .

ونقدم قوله تعالى : ﴿ فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها ﴾ في سورة البقرة ( 66 ) .

و ( لعلّ ) للرجاء ، أي ترجى لكم رحمة الله ، لأنهم إذا اتقوا حذروا ما يوقع في المتقى فارتكبوا واجتنبوا وبادروا بالتوبة فيما فرط فرضي ربهم عنهم فرحِمهم بالثواب وجنّبهم العقاب .

والكلام في ( لعل ) الواردة في كلام الله تعالى تقدم عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ في سورة البقرة ( 21 ) .

وجواب ﴿ إذا ﴾ محذوف دل عليه قوله في الجملة المعطوفة ﴿ إلاَّ كَانُوا عنها مُعْرِضِينَ ﴾ .

فالتقدير هنا : كانوا معرضين .

وجملة ﴿ ما تأتيهم من ءايَةٍ من ءايات ربِهم إلاَّ كانوا عَنها مُعْرِضين ﴾ واقعة موقع التذييل لما قبلها ، ففيها تعميم أحوالهم وأحوالِ ما يُبلَّغونه من القرآن ؛ فكأنه قيل : وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا ، والإِعراض دأبهم في كل ما يقال لهم .

والآيات : آيات القرآن التي تنزل فيقرؤها النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ، فأطلق على بلوغها إليهم فعل الإِتيان ووصفها بأنها من آيات ربهم للتنويه بالآيات والتشنيع عليهم بالإِعراض عن كلام ربهم كفراً بنعمة خلقه إياهم .

و ﴿ ما ﴾ نافية ، والاستثناء من أحوال محذوفة ، أي ما تأتيهم آية في حال من أحوالهم إلا

كانوا عنها معرضين.

وجملة ﴿ كانُوا عنها مُعْرِضِينَ ﴾ في موضع الحال.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (47)

(39/647)

---

كانوا مع ما هم عليه من الكرم يشحّون على فقراء المسلمين فيمنعونهم البذل تشفّياً منهم فإذا سمعوا من القرآن ما فيه الأمر بالإنفاق أو سألهم فقراء المسلمين من فضول أموالهم أو أن يعطوهم ما كانوا يجعلونه لله من أموالهم الذي حكاه الله عنهم بقوله: ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ [الأنعام: 136] فلعل من أسلم من الفقراء سألوا المشركين ما اعتادوا يعطونهم قَبْل إسلامهم فيقولون أعطوا مما رزقكم الله وقد سمعوا منهم كلمات إسلامية لم يكونوا يسمعونها من قبل، وربما كانوا يحاجونهم بأن الله هو الرزاق ولا يقع في الكون كائن إلا بإرادته فجعل المشركون يتعللون لمنعهم بالاستهزاء فيقولون: لا نُطعم من لو يشاء الله لأطعمه، وإذا كان هذا رزقناه الله فلماذا لم يرزقكم، فلو شاء الله لأطعمكم كما أطعمنا.

وقد يقول بعضهم ذلك جهلاً فإنهم كانوا يجهلون وضع صفات الله في مواضعها كما حكى الله عنهم : ﴿ وقالوا لو شاء الرحمان ما عبدناهم ﴾ [ الزخرف : 20 ] .

وإظهار الموصول من قوله : ﴿ قَالَ الذينَ كَفَرُوا ﴾ في مقام الإِضمار مع أن مقتضى الظاهر أن يقال : قالوا أنطعم الخ لنكتة الإِيماء إلى أن صدور هذا القول منهم إنما هو لأجل كفرهم ولأجل إيمان الذين سئل الإِنفاق عليهم .

روى ابنُ عطية : أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر المشركين بالإِنفاق على المساكين في شدة أصابت الناس فشحّ فيها الأغنياء على المساكين ومنعوهم ما كانوا يعطونهم .

(40/647)

---

واللام في قوله : ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ يجوز أن تكون لتعدية فعل القول إلى المخاطب به أي خاطبوا المؤمنين بقولهم : ﴿ أَنُطعِمُ مَن لو يَشاءُ الله أطعَمَهُ ﴾ ، ويجوز أن تكون اللام للعلة ، أي قال الذين كفروا لأجل الذين آمنوا ، أي قالوا في شأن الذين آمنوا كقوله تعالى : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ [ آل عمران : 168 ] وقوله : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ [ الأحقاف : 11 ] أي قالوا ذلك تعلة لعدم الإِنفاق على فقراء المؤمنين .

والاستفهام في ﴿ أَنُطْعِمُ ﴾ إنكاري، أي لا نطعم من لو شاء الله لأطعمهم بحسب اعتقادكم أن الله هو المطعم.

والتعبير في جوابهم بالإطعام مع أن المطلوب هو الإنفاق: إمّا لمجرد التفنن تجنباً لإعادة اللفظ فإن الإنفاق يراد منه الإطعام، وإمّا لأنهم سئلوا الإنفاق وهو أعمّ من الإطعام لأنه يشمل الإكساء والإسكان فأجابوا بإمساك الطعام وهو أيسر أنواع الإنفاق، ولأنهم كانوا يعيّرون من يشحّ بإطعام الطعام وإذا منعوا المؤمنين الطعام كان منعهم ما هو فوقه أحرى.

وجملة ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ من قول المشركين يخاطبون المؤمنين، أي ما أنتم في قولكم: ﴿ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾ وما في معناه من اعتقاد أن الله متصرف في أحوالنا إلا متمكن منكم الضلال الواضح.

وجعلوه ضلالاً لجهلهم بصفات الله، وجعلوه مبيناً لأنهم يحكمون الظواهر من أسباب اكتساب المال وعدمه.

والجملة تعليل للإنكار المستفاد من الاستفهام.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48)

ذكر عقب استهزائهم بالمؤمنين لمّا منعوهم الإنفاق بعلة أن الله لو شاء لأطعمهم استهزاء آخر بالمؤمنين في تهديدهم المشركين بعذاب يحلّ بهم فكانوا يسألونهم هذا الوعد استهزاء بهم بقرينة قوله : ﴿ إن كنتم صادِقِينَ ﴾ ، فالاستفهام مستعمل كناية عن التهكم والتكذيب .

وأطلق الوعد على الإنذار والتهديد بالشر لأن الوعد أعمّ ويتعين للخير والشر بالقرينة .

واسم الإشارة للوعد مستعمل في الاستخفاف بوعد العذاب كما في قول قيس بن الخطيم :

متى يأت هذا الموتُ لا يُلف حاجة

لنفسي إلا قد قضيتُ قضاءها . . .

وإذا قد كان استهزاؤهم هذا يسوء المسلمين أعلم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن الوعد واقع لا محالة وأنهم ما ينتظرون إلا صيحة تأخذهم فلا يُفلتون من أخذتها .

وفعل ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ مشتق من النَّظِرة وهو الترقب ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة في سورة ﴾ [ الأنعام : 158 ] .

والصيحة : الصوت الشديد الخارج من حلق الإنسان لزجر ، أو استغاثة .

وأطلقت الصيحة في مواضع في القرآن على صوت الصاعقة كما في قوله تعالى في شأن ثمود : ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ [ الحجر : 73 ] .

فالصيحة هنا تحتمل المجاز ، أي ما ينتظرون إلا صعقة أو نفخة عظيمة .

والمراد النفخة الأولى التي ينقضي بها نظام الحياة في هذا العالم، والأخرى تنشأ عنها النشأة الثانية وهي الحياة الأبدية، فيكون أسلوب الكلام خارجاً على الأسلوب الحكيم إعراضاً عن جوابهم لأنهم لم يقصدوا حَقيقة الاستفهام فأجيبوا بأن ما أعد لهم من العذاب هو الأجدر بأن ينتظروه.

ومعنى ﴿ تأْخُذُهُم ﴾ تُهلكهم فجأة، شبه حلول صيحة العقاب بحلول المُغِيرين على الحيّ لأخذ أنعامه وسَبْيِ نسائه، فأطلق على ذلك الحلولِ فعل ﴿ تأْخُذُهُم ﴾ كقوله تعالى: ﴿ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ [الحاقة: 10] أي تحلّ بهم وهم يختصمون.

(42/647)

---

وإسناد الأخذ إلى الصيحة حقيقة عقلية لأنهم يهلكون بصعقتها.

ويحتمل أن تكون الصيحة على حقيقتها وهي صيحة صائحين، أي ما ينتظرون إلا أن يصاح بهم صيحة تنذر بحلول القتل، فيكون إنذاراً بعذاب الدنيا.

ولعلها صيحة الصارخ الذي جاءهم بخبر تعَرّض المسلمين لركب تجارة قريش في بدر.

و﴿ يَخصّمُونَ ﴾ من الخصومة والخصام وهو الجدال، وتقدم في قوله: ﴿ ولا تكن

للخائنين خصيماً ﴾ في سورة النساء ﴾ (105) ، وقوله : ﴿ هذان خصمان ﴾ في سورة الحج ﴾ (19) .

وأصله : يختصمون فوقع إبدال التاء ضاداً لقرب مخرجيهما طلباً للتخفيف بالإدغام .

واختلَف القراء في كيفية النطق بها ، فقرأه الجميع بفتح الياء واختلفوا فيما عدا ذلك : فقرأ ورش عن نافع وابن كثير وأبو عمرو في رواية عنه ﴿ يَخصّمُونَ ﴾ بتشديد الصاد مكسورة على اعتبار التاء المبدلة صاداً والمسَكَّنةُ لأجل الإدغام ، ألقيت حركتُها على الخاء التي كانت ساكنة .

وقرأه قالون عن نافع وأبو عمرو في المشهور عنه بسكون الخاء سكوناً مختَلساً (بالفتح) لأجل التخلص من التقاء الساكنين وبكسر الصاد مشدّدة .

وقرأه عاصم والكسائي وابنُ ذكوان عن ابن عامر ويعقوبُ وخلف ﴿ يَخصّمُونَ ﴾ بكسر الخاء وكسر الصاد مشدّدة .

وقرأه حمزة ﴿ يخْصِمون ﴾ بسكون الخاء وكسر الصاد مخففة مضارع (خَصم) قيل بمعنى جادل .

وقرأ أبو جعفر ﴿ يخْصِّمون ﴾ بإسكان الخاء وبكسر الصاد مشددة على الجمع بين الساكنين .

والاختصام : اختصامهم في الخروج إلى بدر أو في تعيين من يخرج لما حلّ بهم من مفاجآت

لهم وهم يختصمون بين مصدق ومكذب للنذير .

وإسناد الأخذ إلى الصيحة على هذا التأويل مجاز عقلي لأن الصيحة وقت الأخذ وإنما تأخذهم سيوف المسلمين .

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في قوله : ﴿ وهُمْ يَخصّمُونَ ﴾ لإفادة تقوّي الحكم وهو أن الصيحة تأخذهم .

(43/647)

---

وفرع على ﴿ تأْخُذُهُمْ ﴾ جملة ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعونَ توصِيَةً ﴾ أي لا يتمكنون من توصية على أهليهم وأموالهم من بعدهم كما هو شأن المحْتَضَر ، فإن كان المراد من الصيحة صيحة الواقعة كان قوله : ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعونَ توصِيَةً ﴾ كناية عن شدة السرعة بين الصيحة وهلاكهم ، إذ لا يكون المراد مدلوله الصريح لأنهم لا يتركون غيرهم بعدهم إذ الهلاك يأتي على جميع الناس .

وإن كان المراد من الصيحة صيحة القتال كان المعنى : أنهم يفزعون إلى مواقع القتال يوم بدر ، أو إلى ترقب وصول جيش الفتح يوم الفتح فلا يتمكنون من الحديث مع من يُوصُونه بأهليهم .

والتوصية : مصدر وَصَّى المضاعف وتنكيرها للتقليل ، أي لا يستطيعون توصية ما .

وقوله : ﴿ وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ يجوز أن يكون عطفاً على ﴿ تَوْصِيَةً ﴾ ، أي لا يستطيعون الرجوع إلى أهلهم كشأن الذي يفاجئه ذعْر فيبادر بافتقاد حال أهله من ذلك .

ويجوز أن يكون عطفاً على جملة "لا يستطيعون" فيكون مما شمله التفريع بالفاء ، أي فلا يرجعون إلى أهلهم ، أي هم هالكون على الاحتمالين ، إلا أنه على احتمال أن يراد صيحة الحرب يخصص ضمير ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ بكبراء قريش الذين هلكوا يوم بدر لأنهم هم المتولون كِبْر التكذيب والعناد ، أو الذين أكملوا بالهلاك يوم الفتح مثل عبد الله بن خطل الذي قتل يوم الفتح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

(44/647)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) ﴾

هذه صفات مُنْ سَيَّبَهم في أودية الخذلان ، ووَسَمهم بسِمَةِ الحرمان ، وأصَمَّهم عن سماع الرُّشْد ، وصدّهم بالخذلان عن سلوكِ القصد ، فلا تأتيهم آيةٌ في الزّجْرِ إلا قابلوها

بإعراضهم، وتجافوا عن الاعتبار بها على دوام انقباضهم، وإذا أُمِرُوا بالإنفاقِ والإطعام عارضوا بأنَّ اللهَ رازقُ الأنام، وإن يشأ أَنظَرَ إليهم بالإنعام:

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48)

يستعجلون هجومَ الساعة، ويستبطئون قيامَ القيامة - لا عن تصديقٍ يُريحهم من شَكِّهم، أو عن خوفٍ يمنعهم عن غَيِّهم، ولكن تكذيباً لدعوة الرسل، وإنكاراً لِصحة النبوة، واستبعاداً للنشر والحشر.

ويومَ القيامةِ هم في العذاب مُحْضَرُون، ولا يُكْشَفُ عنهم، ولا يُنْصَرُون. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 219 ﴾

(45/647)

---

قوله تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى:

ولما دل ذلك على الموت قطعاً ، عقبه بالبعث ، ولذلك عبر فيه بالنفخ فإنه معروف في إفاضة الروح فقال : ﴿ ونفخ في الصور ﴾ أي الذي أخذتهم صيحته ، وجهله إشارة إلى أنه لا توقف له في نفس الأمر على نافخ معين ليكون عنه ما يريد سبحانه من الأثر ، بل من أذن له الله كائناً من كان تأثر عن نفخه ما ذكر ، وإن كنا نعلم أن المأذون له إسرافيل عليه السلام .

(46/647)

---

ولما كان هذا النفخ سبباً لقيامهم عنده سواء من غير تخلف ، عبر سبحانه بما يدل على التعقب والتسبب والفجاءة فقال : ﴿ فإذا هم ﴾ أي في حين النفخ ﴿ من الأجداث ﴾ أي القبور المهيأة هي ومن فيها لسماع ذلك النفخ ﴿ إلى ربهم ﴾ أي الذي أحسن إليهم بالتربية والتهيئة لهذا البعث فكفروا إحسانه ، لا إلى غيره ﴿ ينسلون ﴾ أي يسرعون المشي مع تقارب الخطى بقوة ونشاط ، فيا لها من قدرة شاملة وحكمة كاملة ، حيث كان صوت واحد يحيي تارة ويميت أخرى ، كأنه ركب فيه من الأسرار أنه يكسب كل شيء ضد ما هو عليه من حياة أو موت أو غشي أو إفاقة .

ولما تشوفت النفس إلى سماع ما يقولون إذا عاينوا ما كانوا ينكرون ، استأنف قوله :

﴿ قالوا ﴾ أي الذين هم من أهل الويل من عموم الذين الذين قاموا بالنفخة وهم جميع من كان قد مات قبل ذلك .

ولما كانوا عالمين بأن جزاء ما أسلفوا كل خزي ، اتبعوه قولهم حاكياً سبحانه عبارتهم إذ ذاك لأنه أنكى لهم : ﴿ يا ويلنا ﴾ أي ليس بحضرتنا اليوم شيء ينادمنا إلا الويل ، ثم استفهموا جرياً على عادتهم في الغباوة فقالوا مظهرين لضميرهم تخصيصاً للويل بهم لأنهم في معرض الشك : ﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾ عدوا مكانهم الذين كانوا به - مع ما كانوا فيه من عذاب البرزخ - مرقداً هنيئاً بالنسبة إلى ما انكشف لهم أنهم لا قوة من العذاب الأكبر ، ووحدوه إشارة إلى أنهم على تكاثرهم وتباعدهم كانوا في القيام كنفس واحدة ثم تذكروا ما كانوا يحذرونه من أن الله هو يبعثهم للجزاء الذي هو رحمة الملك لأهل مملكته ، فقالوا مجيبين لأنفسهم استئنافاً : ﴿ هذا ما ﴾ أي الوعد الذي ﴿ وعد ﴾ أي به ، وحذفوا المفعول تعميماً لأنهم الآن في حيز التصديق ﴿ الرحمن ﴾ أي العام الرحمة الذي رحمانيته مقتضية ولا بد للبعث لينصف المظلوم من ظالمه ، ويجازي كلاًّ بعمله من غير حيف ، وقد رحمنا بإرسال الرسل إلينا بذلك ، وطال ما أنذرونا حلوله ، وحذرونا صعوبته وطوله .

ولما كان التقدير : فصدق الرحمن ، عطف عليه قوله : ﴿ وصدق ﴾ أي في أمره ﴿ المرسلون ﴾ أي الذين أتونا بوعده ووعيده ، فالله الذي تقدم وعده به وأرسل به ورسله هو الذي بعثنا تصديقاً لوعده ورسله .

ولما كان الإخبار بالنفخ لا ينفي التعدد ، قال محقراً لأمر البعث بالنسبة إلى قدرته مظهراً للعناية بتأكيد كونها واحدة بجعل الخبر عنه أصلاً مستقلاً بفضله عن النفخ والإتيان فيه بفعل الكون و " إن " النافية لأدنى مظاهر مدخولها فكيف بما وراءه دون " ما " التي إنما تنفي التمام : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ كانت ﴾ أي النفخة التي وقع الإحياء بها مطلق كون ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ أي كما كانت نفخة الإماتة واحدة ﴿ فإذا هم ﴾ أي فجأة من غير توقف أصلاً ﴿ جميع ﴾ أي على حالة الاجتماع ، لم يتأخر منهم أحد ، يتعللون به في ترك الانتصار ، ودوام الخضوع والذل والصغار ، ولما كان ذلك على هيئات غريبة لا يبلغ كنهها العقول ، قال لافتاً القول إلى مظهر العظمة معبراً بما للأمور الخاصة : ﴿ لدينا ﴾ ولما كان ذلك أمراً لا بد منه ، ولا يمكن التخلف عنه ، عبر بصيغة المفعول وأكد معنى الاجتماع بالجمع نظراً إلى معنى جميع ولم يفرد اعتباراً للفظها لما ذكر من المعنى فقال : ﴿ محضرون ﴾ أي بغاية الكراهة منهم لذلك بقادة تزجرهم وساقة تقهرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 268. 269 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) ﴾

أي نفخ فيه ( مرة ) أخرى كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [ الزمر : 68 ] وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال تعالى في موضع آخر : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ وقال ههنا : ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ والقيام غير النسلان وقوله في الموضعين : ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ يقتضي أن يكون معاً نقول الجواب : عنه من وجهين أحدهما : أن القيام لا ينافي المشي السريع لأن الماشي قائم ولا ينافي النظر وثانيهما : أن السرعة مجيء الأمور كأن الكل في زمان واحد كقول القائل :

مكر مفر مقبل مدبر معا . . [ كجلمود صخر حطه السيل من عل ]

المسألة الثانية :

كيف صارت النفختان مؤثرتين في أمرين متضادين الأحياء والإماتة ؟ نقول لا مؤثر غير الله والنفخ علامة ، ثم إن الصوت الهائل يزلزل الأجسام فعند الحياة كانت أجزاء الحي مجتمعة

فزلزلها فحصل فيها تفريق ، وحالة الموت كانت الأجزاء متفرقة فزلزلها فحصل فيها اجتماع فالحاصل أن النفختين يؤثران تزلزلاً وانتقالاً للأجرام فعند الاجتماع تتفرق وعند الافتراق تجتمع .

المسألة الثالثة :

ما التحقيق في إذا التي للمفاجأة ؟ نقول هي إذا التي للظرف معناه نفخ في الصور فإذا نفخ فيه هم ينسلون لكن الشيء قد يكون ظرفاً للشيء معلوماً كونه ظرفاً ، فعند الكلام يعلم كونه ظرفاً وعند المشاهدة لا يتجدد علم كقول القائل إذا طلعت الشمس أضاء الجو وغير ذلك ، فإذا رأى إضاءة الجو عند الطلوع لم يتجدد علم زائد ، وأما إذا قلت خرجت فإذا أسد بالباب كان ذلك الوقت ظرف كون الأسد بالباب .

لكنه لم يكن معلوماً فإذا رآه علمه فحصل العلم بكونه ظرفاً له مفاجأة عند الإحساس فقيل إذا للمفاجأة .

المسألة الرابعة :

أين يكون في ذلك الوقت أجداث وقد زلزلت الصيحة الجبال ؟ نقول يجمع الله أجزاء كل واحد في الموضع الذي قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدثه .

المسألة الخامسة :

الموضع موضع ذكر الهيبة وتقدم ذكر الكافر ولفظ الرب يدل على الرحمة فلو قال بدل الرب المضاف إليهم لفظاً دالاً على الهيبة هل يكون أليق أم لا ؟ قلنا : هذا اللفظ أحسن ما يكون ، لأن من أساء واضطر إلى التوجه من أحسن إليه يكون ذلك أشد ألماً وأكثر ندماً من غيره .

المسألة السادسة :

المسيء إذا توجه إلى المحسن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، والنسلان هو سرعة المشي فكيف يوجد منهم ذلك ؟ نقول : ينسلون من غير اختيارهم ، وقد ذكرنا في تفسير قوله : ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [ الصافات : 19 ] أنه أراد أن يبين كمال قدرته ونفوذ إرادته حيث ينفخ في الصور ، فيكون في وقته جمع وتركيب وإحياء وقيام وعدو في زمان واحد ، فقوله : ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ يعني في زمان واحد ينتهون إلى هذه الدرجة وهي النسلان الذي لا يكون إلا بعد مراتب .

قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52)

يعني لما بعثوا قالوا ذلك ، لأن قوله : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ [ يس : 51 ] يدل على أنهم

بعثوا وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(50/647)

---

لو قال قائل : لو قال الله تعالى فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون يقولون : يا ويلنا كان أليق ، نقول معاذ الله ، وذلك لأن قوله : ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [ يس : 51 ] على ما ذكرنا إشارة إلى أنه تعالى في أسرع زمان يجمع أجزاءهم ويؤلفها ويحييها ويحركها ، بحيث يقع نسلانهم في وقت النفخ ، مع أن ذلك لا بد له من الجمع والتأليف ، فلو قال يقولون ، لكان ذلك مثل الحال لينسلون ، أي ينسلون قائلين يا ويلنا وليس كذلك ، فإن قولهم يا ويلنا قبل أن ينسلوا ، وإنما ذكر النسلان لما ذكرنا من الفوائد .

المسألة الثانية :

لو قال قائل : قد عرفنا معنى النداء في مثل يا حسرة ويا حسرتا ويا ويلنا ، ولكن ما الفرق بين قولهم وقول الله حيث قال : ﴿ ياحسرة عَلَى العباد ﴾ [ يس : 30 ] من غير إضافة ، وقالوا : يا حسرتا ويا حسرتنا ويا ويلنا ؟ نقول حيث كان القائل هو المكلف لم يكن لأحد علم إلا بحالة أو بحال من قرب منه ، فكان كل واحد مشغولاً بنفسه ، فكان كل واحد يقول

: يا حسرتنا ويا ويلنا ، فقوله : ﴿ قَالُوا۟ ياويلنا ﴾ أي كل واحد قال يا ويلي ، وأما حيث قال الله قال على سبيل العموم لشمول علمه بحالهم .

المسألة الثالثة :



---

ما وجه تعلق : ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ بقولهم : ﴿ يا ويلنا ﴾ نقول لما بعثوا تذكروا ما كانوا يسمعون من الرسل ، فقالوا : يا ولينا من بعثنا أبعثنا الله البعث الموعود به أم كنا نياماً فنبهنا ؟ وهذا كما إذا كان إنسان موعوداً بأن يأتيه عدو لا يطيقه ، ثم يرى رجلاً هائلاً يقبل عليه فيرتجف في نفسه ويقول : هذا ذلك أم لا ؟ ويدل على ذكرنا قولهم : ﴿ مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ حيث جعلوا القبور موضع الرقاد إشارة إلى أنهم شكوا في أنهم كانوا نياماً فنبهوا أو كانوا موتى وكان الغالب على ظنهم هو البعث فجمعوا بين الأمرين ، فقالوا : ﴿ مَن بَعَثَنَا ﴾ إشارة إلى ظنهم أنه بعثهم الموعود به ، وقالوا : ﴿ مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ إشارة إلى توهمهم احتمال الانتباه .

المسألة الرابعة :

﴿ هذا ﴾ إشارة إلى ماذا ؟ نقول فيه وجهان أحدهما : أنه إشارة إلى المرقد كأنهم قالوا :

من بعثنا من مرقدنا هذا فيكون صفة للمرقد يقال كلامي هذا صدق وثانيهما :

﴿ هذا ﴾ إشارة إلى البعث ، أي هذا البعث ما وعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون .

المسألة الخامسة :

إذا كان هذا صفة للمرقد فكيف يصح قوله تعالى : ﴿ مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ ؟ نقول يكون ما وعد به الرحمن ، مبتدأ خبره محذوف تقديره ما وعد الرحمن حق ، والمرسلون صدقوا ، أو يقال ما وعد الرحمن وصدق فيه المرسلون حق ، والأول أظهر لقلة الإضمار ، أو يقال ما وعد الرحمن خبر مبتدأ محذوف تقديره هو ما وعد الرحمن من البعث ليس تنبيهاً من النوم ، وصدق المرسلون فيما أخبروكم به .

المسألة السادسة :

(52/647)

---

إن قلنا : ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى المرقد أو إلى البعث ، فجواب الاستفهام بقولهم ﴿ مَن بَعَثَنَا ﴾ أن يكون ؟ نقول : لما كان غرضهم من قولهم : ﴿ مَن بَعَثَنَا ﴾ حصول العلم بأنه بعث أو تنبيه حصل الجواب بقوله هذا بعث وعد الرحمن به ليس تنبيهاً ، كما أن الخائف إذا قال لغيره ماذا تقول أيقتلني فلان ؟ فله أن يقول لا تخف وسكت ، لعلمه أن غرضه إزالة

الرعب عنه وبه يحصل الجواب .

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53)

أي ما كانت النفخة إلا صيحة واحدة ، يدل على النفخة قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور ﴾ [ يس : 51 ] ويحتمل أن يقال إن كانت الواقعة ، وقرئت الصيحة مرفوعة على أن كان هي التامة ، بمعنى ما وقعت إلا صيحة ، وقال الزمخشري : لو كان كذلك لكان الأحسن أن يقال : إن كان ، لأنا لمعنى حينئذٍ ما وقع شيء إلا صيحة ، لكن التأنيث جائز إحالة على الظاهر ، ويمكن أن يقول الذي قرأ بالرفع أن قوله : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾ [ الواقعة : 1 ] تأنيث تهويل ومبالغة ، يدل عليه قوله : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ [ الواقعة : 2 ] فإنها للمبالغة فكذلك ههنا قال : ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً ﴾ مؤنثة تأنيث تهويل ، ولهذا جاءت أسماء يوم الحشر كلها مؤنثة كالقيامة والقارعة والحاقة والطامة والصاخة إلى غيرها ، والزمخشري يقول كاذبة بمعنى ليس لوقعتها نفس كاذبة ، وتأنيث أسماء الحشر لكون الحشر مسمى بالقيامة ، وقوله : ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ دل على أن كونهم ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ [ يس : 51 ] إجباري لا اختياري . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 77 . 79 ﴾

(53/647)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور ﴾

هذه النفخة الثانية للنشأة .

وقد بيّنا في سورة "النمل" أنهما نفختان لا ثلاث .

وهذه الآية دالة على ذلك .

وروى المبارك بن فضالة عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بين النفختين أربعون سنة : الأولى يميت الله بها كلّ حيّ ، والأخرى يحيي الله بها كل ميّت "

وقال قتادة : الصُّور جمع صُورَة ؛ أي نفخ في الصور والأرواح.

وصُورَة وصُور مثل سُورَة البناء وسُور ؛ قال العَجّاج :

ورُبَّ ذِي سُرَادِقٍ مَحْجُورِ . . .

سِرْتُ إليهِ في أَعالِي السُّورِ

وقد روي عن أبي هريرة أنه قرأ : "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ" .

النحاس : والصحيح أن "الصور" بإسكان الواو : القَرْن ؛ جاء بذلك التوقيف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك معروف في كلام العرب .

أنشد أهل اللغة :

نحن نَطَحْنَاهُمْ غَداةَ الغُورَيْن . . .

بالضَّابحاتِ في غُبَار النَّقْعَيْن

نَطْحًا شديداً لا كَنَطْحِ الصُّورَيْن . . .

وقد مضى هذا في "الأنعام" مستوفًى.

﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث ﴾ أي القبور.

وقرىء بالفاء "مِنَ الأَجْدَافِ" ذكره الزمخشري.

يقال : جَدَثٌ وَجَدَفٌ.

واللغة الفصيحة الجدث (بالثاء) والجمع أَجْدُث وأجداث ؛ قال المتنخِّل الهذليّ :

عَرفتُ بأَجْدُثٍ فنِعافِ عِرْقٍ . . .

عَلاَماتٍ كَتَحبير النِّمَاطِ

واجتدث : أي اتخذ جدَثاً.

﴿ إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ أي يخرجون ؛ قاله ابن عباس وقتادة.

ومنه قول امرىء القيس :

فَسُلِّي ثيابي منْ ثيَابكِ تَنْسُلِي . . .

ومنه قيل للولد نَسْل ؛ لأنه يخرج من بطن أمه.

وقيل : يسرعون.

والنَّسَلان والعَسَلان : الإسراع في السير ، ومنه مشية الذئب ؛ قال :

عسلانَ الذّئبِ أَمْسَى قَارِباً . . .

بَرَدَ الليلُ عليه فَنَسَلْ

يقال : عَسَل الذئبُ ونَسَل ، يَعْسِل ويَنْسِل ، من باب ضرب يضرب .

ويقال : يَنسُل بالضم أيضاً .

(54/647)

---

وهو الإسراع في المشي ؛ فالمعنى يخرجون مسرعين .

وفي التنزيل : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [ لقمان : 28 ] ، وقال : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [ القمر : 7 ] ، وفي ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ ﴾ [ المعارج : 1 ] : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [ المعارج : 43 ] أي يسرعون .

وفي الخبر : شكونا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم الضعف فقال "عليكم بالنَّسْل" أي بالإسراع في المشي فإنه ينشط .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ياويلنا ﴾ قال ابن الأنباري : "يَاوَيْلَنَا" وقف حسن ثم تبتدىء ﴿ مَن

بَعَثَنَا ﴾ .

وروي عن بعض القراء "يَا وَيْلَنَا مِنْ بَعْثِنَا" بكسر مِنْ والثاء من البعث .

روي ذلك عن عليّ رضي الله عنه ؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على قوله : ﴿ ياويلنا ﴾ حتى يقول ﴿ مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ .

وفي قراءة أبيّ بن كعب "مَنْ هَبَّنَا" بالوصل "مِنْ مَرْقَدِنَا" فهذا دليل على صحة مذهب العامة .

قال المهدوي : قرأ ابن أبي ليلى : "قَالُوا يَا وَيْلَتَنَا" بزيادة تاء وهو تأنيث الويل ، ومثله : ﴿ ياويلتا أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ ﴾ [ هود : 72 ] .

وقرأ عليّ رضي الله عنه "يَا وَيْلَتَا مِنْ بَعثِنَا" ف "من" متعلقة بالويل أو حال من "ويلتا" فتتعلق بمحذوف ؛ كأنه قال : يا ويلتا كائناً مِن بعثنا ؛ وكما يجوز أن يكون خبراً عنه كذلك يجوز أن يكون حالاً منه .

و"مِن" من قوله : ﴿ مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ متعلقة بنفس البعث .

ثم قيل : كيف قالوا هذا وهم من المعذبين في قبورهم ؟ فالجواب أن أُبيّ بن كعب قال : يناموِن نومة .

وفي رواية فيقولون : ياويلتا من أَهَبَّنَا من مرقدنا .

قال أبو بكر الأنباري: لا يحمل هذا الحديث على أن "أَهبّنا" من لفظ القرآن كما قاله من طعن في القرآن، ولكنه تفسير "بَعَثَنَا" أو معبر عن بعض معانيه.

(55/647)

---

قال أبو بكر: وكذا حفظته "مَن هَبَّنَا" بغير ألف في أهبنا مع تسكين نون مَن.

والصواب فيه على طريق اللغة "مَنَ اهَبَنَا" بفتح النون على أن فتحة همزة أهب ألقيت على نون "من" وأسقطت الهمزة؛ كما قالت العرب: من اخبرك من اعلمك؟ وهم يريدون من أخبرك.

ويقال: أهببتُ النائم فهبّ النائمُ.

أنشدنا أحمد بن يحيى النحوي:

وعَاذِلَة هَبَّتْ بِلَيْلِ تَلُومُني . . .

ولم يَعتمرْني قبل ذاك عَذُول

وقال أبو صالح: إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور وهجعوا هجعة إلى النفخة الثانية وبينهما أربعون سنة؛ فذلك قولهم: "مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا" وقاله ابن عباس وقتادة.

وقال أهل المعاني : إن الكفار إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب صار ما عذبوا به في قبورهم إلى جنب عذابها كالنوم .

قال مجاهد : فقال لهم المؤمنون : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن ﴾ .

قال قتادة : فقال لهم من هدى الله ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن ﴾ .

وقال الفراء : فقال لهم الملائكة : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن ﴾ .

النحاس : وهذه الأقوال متفقة ؛ لأن الملائكة من المؤمنين وممن هدى الله عز وجل .

وعلى هذا يتأول قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أولئك هُمْ خَيْرُ البرية ﴾ [ البينة : 7 ] وكذا الحديث : " المؤمن عند الله خير من كل ما خلق " ويجوز أن تكون الملائكة صلى الله عليهم وغيرهم من المؤمنين قالوا لهم : "هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ" .

وقيل : إن الكفار لما قال بعضهم لبعض : "مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا" صدّقوا الرسل لما عاينوا ما أخبروهم به ، ثم قالوا : "هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ" فكذبنا به ؛ أقروا حين لم ينفعهم الإقرار .

وكان حفص يقف على "مِنْ مَرْقَدِنَا" ثم يبتدىء فيقول : "هَذَا" .

قال أبو بكر بن الأنباري : "مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا" وقف حسن ؛ ثم تبتدىء : "هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ" ويجوز أن تقف على مرقدِنا هذا" فتخفض هذا على الإتباع للمرقد ، وتبتدىء : "مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ" على معنى بَعْثكم ما وعد الرحمن ؛ أي بَعْثكم وعد الرحمن .

النحاس : التمام على "مِنْ مَرْقَدِنَا" و "هَذَا" في موضع رفع بالابتداء وخبره "مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ" .

ويجوز أن يكون في موضع خفض على النعت ل "مَرْقَدِنَا" فيكون التمام "مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا" .

"مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ" في موضع رفع من ثلاث جهات .

ذكر أبو إسحاق منها اثنتين قال : يكون بإضمار هذا .

والجهة الثانية أن يكون بمعنى حق ما وعد الرحمن بعثكم .

والجهة الثالثة أن يكون بمعنى بعثكم ما وعد الرحمن .

﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ يعني إن بعثهم وإحياءهم كان بصيحة واحدة وهي قول إسرافيل : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، والشعور المتمزِّقة ! إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

وهذا معنى قوله الحق : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصيحة بالحق ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ [ ق : 42 ] .

وقال : ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع ﴾ [ القمر : 8 ] على ما يأتي .

وفي قراءة ابن مسعود إن صحّ عنه "إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقْيَةً وَاحِدَةً" والزقية الصيحة ؛ وقد تقدّم

هذا .

﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ "فَإِذَا هُمْ" مبتدأ وخبره "جَمِيعٌ" نكرة ، و "مُحْضَرُونَ" من صفته .

ومعنى "مُحْضَرُونَ" مجموعون أحضروا موقف الحساب ؛ وهو كقوله : ﴿ وَمَآ أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر ﴾ [ النحل : 77 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(57/647)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾

هي النَّفخةُ الثَّانيةُ بينها وبين الأُولى أربعون سنةً أي يُنفخ فيهِ . وصيغةُ الماضي للدلالةِ على تحقُّقِ الوقوعِ ﴿ فَإِذَا هُم مّنَ الاجداث ﴾ أي القبورِ جمع جَدَثٍ وقرىء بالفاءِ ﴿ إلى رَبّهِمْ ﴾ مالكِ أمرِهم على الإطلاقِ ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ يُسرعون بطريقِ الإجبارِ دُونَ الأختيارِ لقولِه تعالى لدينا مُحضرُون . وقُرىء بضمِّ السِّينِ .

(58/647)

﴿ قَالُواْ ﴾ أي في ابتداء بعثهم من القُبور ﴿ يا ويلنا ﴾ احضرْ فهذا أوانُك. وقُرئ يا ويلَتَنا. ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ وقُرئ مَن أهبّنا من هبَّ من نومه إذا انتبه. وقُرئ من هَبّنا بمعنى أهبنا. وقيل: أصلُه هبَّ بنا فحُذف الجارُّ وأُوصل الفعل إلى الضَّمير، قيل فيه ترشيحٌ ورمزٌ وإشعارٌ بأنَّهم لاختلاطِ عقولِهم يظنُّون أنَّهم كانوا نياماً. وعن مجاهدٍ أنَّ للكفَّار هجعةً يجدون فيها طعمَ النَّومِ فإذا صِيح بأهل القُبور يقولون ذلك. وعن ابن عبَّاسٍ وأُبيِّ بن كعبٍ وقَتَادةَ رحمهم الله تعالى: أنَّ الله تعالى يرفعُ عنهم العذابَ بينَ النَّفختينِ فيرقدُون فإذا بُعثوا بالنَّفخةِ الثَّانيةِ وشاهدُوا من أهوال القيامةِ ما شاهدُوا دعَوا بالويلِ، وقالوا ذلك. وقيل: إذا عاينُوا جهنَّم وما فيها من أنواع العذاب يصير عذابُ القبرِ في جنبها مثلَ النَّومِ فيقولون ذلك، وقُرئ (مِن بَعْثنا) ومِن هَبّنا بمن الجارَّةِ والمصدرِ. والمرقدُ إمَّا مصدرٌ أي من رُقادِنا أو اسمُ مكانٍ أُريد به الجنسُ فينتظم مراقدَ الكلِّ ﴿ هَـٰذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ جملةٌ من مبتدأٍ وخبرٍ. وما موصولةٌ محذوفةُ العائدِ أو مصدريةٌ وهو جواب من قبل الملائكةِ أو المؤمنينَ عُدل به عن سَنَنِ سؤالِهم تذكيراً لكُفرهم وتقريعاً لهم عليه وتنبيهاً على أنَّ الذي يهُمهم هو السُّؤالُ عن نفسِ البعثِ ماذا هو دون السُّؤال عن الباعثِ كأنَّهم قالُوا بعثكم الرحمن الذي وعدكُم ذلك في كتبه وأرسلَ إليكم الرُّسلَ فصدقُوكم فيه وليسَ الأمرُ كما تتوهمونَه حتَّى تسألُوا عن الباعثِ وقيل: هو من كلامِ

الكافرينَ حيثُ يتذكّرون ما سمعُوه من الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ فيجيبونَ به أنفسَهم أو بعضَهم بعضاً وقيل هذا صفةٌ لمرقدنا وما وعدَ الخ خبرُ مبتدأ محذوفٍ أو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ أي ما وعد الرَّحمنُ وصدقَ المرسلونَ

(59/647)

---

حقٌّ.

﴿ إِن كَانَتْ ﴾ أي ما كانتْ النَّفخةُ التي حكيتُ آنفاً ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ حصلتْ من نفخ إسرافيلَ عليه السَّلامُ في الصُّور ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ ﴾ أي مجموعٌ ﴿ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ من غيرِ لبثٍ ما طرفةَ عينٍ وفيه من تهوينِ أمرِ البعثِ والحشرِ والإيذانِ باستغنائِهما عن الأسبابِ ما لا يَخْفى. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(60/647)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ هي النفخة الثانية بينها وبين الأولى أربعون أي ينفح فيه ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع .

وقرأ الأعرج ﴿ الصور ﴾ بفتح الواو وقد مر الكلام في ذلك ﴿ فَإِذَا هُم مّنَ الاجداث ﴾ أي القبور جمع جدث بفتحتين ، وقرىء بالفاء بدل الثاء والمعنى واحد ﴿ إلى رَبّهِمُ ﴾ مالك أمرهم ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ يسرعون بطريق الأجبار لقوله تعالى : ﴿ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [ يس : 32 ] قيل : وذكر الرب للإشارة إلى إسراعهم بعد الإساءة إلى من أحسن إليهم حين اضطروا إليه ، ولا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [ الزمر : 68 ] لجواز اجتماع القيام والنظر والمشي أو لتقارب زمان القيام ناظرين وزمان الإسراع في المشي .

وقرأ ابن أبي إسحق .

وأبو عمرو بخلاف عنه بضم السين .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي في ابتداء بعثهم من القبور ﴿ يَا وَيْلَنَا ﴾ أي هلاكنا أحضر فهذا أوانك وقيل أي يا قومنا أنظروا ويلنا وتعجبوا منه .

وعلى حذف المنادي قيل وي كلمة تعجب ولنا بيان ونسب للكوفيين وليس بشيء .

وقرأ ابن أبي ليلى يا ويلتنا بتاء التأنيث ، وعنه أيضاً ﴿ يا ويلتي ﴾ بتاء بعدها ألف بدل من ياء الإضافة ، والمراد أن كل واحد منهم يقول يا ويلتي ﴿ قَالُواْ ياويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ أي رقادنا على أنه مصدر ميمي أو محل رقادنا على أنه اسم مكان ويراد بالمفرد الجمع أي مراقدنا ، وفيه تشبيه الموت بالرقاد من حيث عدم ظهور الفعل والاستراحة من الأفعال الاختيارية ، ويجوز أن يكون المرقد على حقيقته والقوم لاختلاط عقولهم ظنوا أنهم كانوا نياماً ولم يكن لهم ءدراك لعذاب القبر لذلك فاستفهموا عن موقظهم ، وقيل سموا ذلك مرقداً مع علمهم بما كانوا يقاسون فيه من العذاب لعظم ما شاهدواه فكأن ذلك مرقد بالنسبة إليه فقد روي أنهم إذا عاينوا جهنم وما فيها من ألوان العذاب يرون ما كانوا فيه مثل النوم في جبنها فيقولون ذلك .

وأخرج الفريابي .

وعبد بن حميد .

وابن جرير وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب أنه قال : ينامون قبل البعث نومة ، وأخرج هؤلاء ما عدا ابن جرير عن مجاهد قال : للكفار هجعة يجدون فيها طعم النون قبل يوم القيامة فإذا صيح بأهل القبور يقولون ﴿ قَالُواْ يا ويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ وروي عن ابن عباس أن الله

تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فإذا بعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا الأهوال

قالوا : ذلك .

وفي البحر أن هذا غير صحيح الإسناد واختار أن المرقد استعارة عن مضجع الموت .

وقرأ أمير المؤمنين علي .

وابن عباس .

والضحاك .

وأبو نهيك ﴿ مَن بَعَثَنَا ﴾ بمن الجارة والمصدر المجرور وهو متعلق بويل أو بمحذوف وقع

حالاً منه .

ونحوه في الخبر .

ويلي عليك وويلي منك يا رجل . . . .

ومن الثانية متعلق ببعث .

وعن ابن مسعود أنه قرأ ﴿ مِنْ ﴾ بمن الاستفهامية وأهب بالهمزة من هب من نومه إذا

انتبه وأهببته أنا أي أنبهته .

وعن أبي أنه قرأ ﴿ هبنا ﴾ بلا همز قال ابن جنى : وقراءة ابن مسعود أقيس فهبني بمعنى أيقظني لم أر لها أصلاً ولا مر بنا في اللغة مهبوب بمعنى موقظ اللهم إلا أن يكون حرف الجر محذوفاً أي هب بنا أي أيقظنا ثم حذف وأوصل الفعل ، وليس المعنى على من هب فهببنا معه وإنما معناه من أيظنا ، وقال البيضاوي : هبنا بدون الهمة بمعنى أهبنا بالهمز ، وقرىء ﴿ مِنْ ﴾ بمن الجارة والمصدر من هب يهب ﴿ هذا مَا وَعَدَ الرحمن ﴾ جملة من مبتدأ وخبر ﴿ وَصَدَقَ المرسلون ﴾ عطف على ما في حيز ما ، وعطفه على الجملة الاسمية أو جعله حالاً بتقدير قد بدونه خلاف الظاهر ، وما موصولة محذوفة العائد أي هذا الذي وعده الرحمن والذي صدقه المرسلون أي صدق فيه من قولهم صدقت زيداً الحديث أي صدقته فيه ومنه قولهم صدقني سن بكره أو مصدرية أي هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق ، وهو على ما قيل جواب من جهته عز وجل على ما قال الفراء من قبل الملائكة وعلى ما قال قتادة ومجاهد من قبل المؤمنين ؛ وكان الظاهر أن يجابوا بالفاعل لأنه الذي سألوا عنه بأن يقال الرحمن أو الله بعثكم لكن عدل عنه إلى ما ذكر تذكيراً لكفرهم وتقريعاً لهم عليه مع تضمنه الإشارة إلى الفاعل ، وذكر غير واحد أنه من الأسلوب الحكيم على أن المعنى لا تسألوا عن الباعث فإن هذا الباعث ليس كبعث النائم وإن ذلك ليس مما يهمكم الآن وإنما الذي يهمكم أن تسألوا ما هذا البعث ذو الأهوال والأفزاع ، وفيه من تقريعهم ما فيه .

(63/647)

وزعم الطيبي أن ذكر الفاعل ليس بكاف في الجواب لأن قولهم ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ حكاية عن قولهم ذلك عند البعث بعدما سبق من قولهم ﴿ متى هذا الوعد إِن كُنُتمْ صادقين ﴾ [ يس : 48 ] فلا بد في الجواب من قول مضمن معنيين فكان مقتضى الظاهر أن يقال بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل لكن عدل إلى ما يشعر بتكذيبهم ليكون أهول وفي التقريع أدخل ، وهو وارد على الأسلوب الحكيم وفي دعوى عدم كفاية ذكر الفاعل في الجواب نظر ، وفي إيثارهم اسم الرحمن قيل إشارة إلى زيادة التقريع من حيث أن الوعد بالبعث من آثار الرحمة وهم لم يلقوا له بالا ولم يلتفتوا إليه وكذبوا به ولم يستعدوا لما يقتضيه ، وقيل آثره المجيبون من المؤمنين لما أن الرحمة قد غمرتهم فهي نصب أعينهم ، واختصاص رحمة الرحمة بما يكون في الدنيا ورحمة الرحيم بما يكون في الأخرى ممنوع فقد ورد يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما .

(64/647)

وقال ابن زيد : هذا الجواب من قبل الكفار على أنهم أجابوا أنفسهم حيث تذكروا ما سمعوه من المرسلين عليه السلام أو أجاب بعضهم بعضاً ، وآثروا اسم الرحمن طمعاً في أن يرحمهم وهيهات ليس لكافر نصيب يومئذ من رحمته عز وجل ، وجوز الزجاج كون ﴿ هذا ﴾ صفة لمرقدنا لتأويله بمشتق فيصح الوقف عليه ، وقد روى عن حفص أنه وقف عليه وسكت سكتة خفيفة فحكاية إجماعة القراء على الوقف على ﴿ مَّرْقَدِنَا ﴾ غير تامة ، وما مبتدأ محذوف الخبر أي حق أو مبتدأ خبره محذوف أي هو أو هذا ما وعد ، وفيه من البديع صنعة التجاذب وهو أن تكون كلمة محتملة أن تكون من الساق وأن تكون من اللاحق ، ومثله كما قال الشيخ الأكبر قدس سره في "تفسيره" المسمى ب "إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن" ومن خطه الشريف نقلت ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يَعْرِفُونَهُ ﴾ [ البقرة : 146 ] الآية بعد قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِمَا جَاءكَ مِنَ العلم إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظالمين ﴾ [ البقرة : 145 ] وقوله تعالى : ﴿ فِيهِ هُدًى بَعْدَ لاَ رَيْبَ ﴾ [ البقرة : 2 ] فليحفظ .

﴿ إِن كَانَتْ ﴾ أي ما كانت الفعلة أو النفخة التي حكيت آنفاً ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ حصلت من نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور ، وقيل : هي قول إسرائيل عليه السلام أيتها العظام النخرة والأوصال المتقطعة والشعور المتمزقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

وقرئ برفع ﴿ صَيْحَةٍ ﴾ ومر توجيهها ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ ﴾ مجمع ﴿ لَدَيْنَا ﴾ عندنا وفي محل حكمنا وانقطاع التصرف الظاهري من غيرنا ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ لفصل الحساب من غير لبث ما طرفة عين، وفيه من تهوين أمر البعث والحشر والإيذان باستغنائهما عن الأسباب ما لا يخفى. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(65/647)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) ﴾

يجوز أن تكون الواو للحال والجملة موضع الحال، أي ما ينظرون إلا صيحة واحدة وقد نفخ في الصور الخ..

ويجوز أن تكون الواو اعتراضية، وهذا الاعتراض واقع بين جملة ﴿ ما ينظُرُونَ إلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً ﴾ [يس : 49] الخ...

وجملة ﴿ ولو نشاء لطمسنا ﴾ [يس : 66].

والمقصود : وعظهم بالبعث الذي أنكروه وبما وراءه.

والماضي مستعمل في تحقق الوقوع مثل ﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : 1].

والمعنى : وينفخ في الصور ، أي ويَنفخ نافخ في الصور ، وهو المَلَك الموّكل به ، واسمه إسرافيل .

وهذه النفخة الثانية التي في قوله تعالى : ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ [ الزمر : 68 ] .

و"إذا" للمفاجأة وهي حصول مضمون الجملة التي بعدها سريعاً وبدون تهيّؤ .

وضمير ﴿ هم ﴾ عائد إلى ما عادت إليه الضمائر السابقة .

ويجوز أن يعود إلى معلوم من المقام ، أي فإذا الناس كلّهم ومنهم المتحدث عنهم .

و﴿ الأجداث ﴾ : جمع جَدَث بالتحريك ، وهو القبر .

و﴿ يَنسِلُونَ ﴾ يمشون مشياً سريعاً .

وفعله من باب ضَرب وورد من باب نصر قليلاً .

والمصدر : النسَلان ، على وزن الغليان لما في معنى الفعل من التقليب والاضطراب ، وتقدم في آخر سورة الأنبياء .

وهذا يقتضي أنهم قُبِروا بعد الصيحة التي أخذتهم فإن كانت الصيحة صيحة الواقعة فالأجداث هي ما يعلوهم من التراب في المدة التي بين الصيحة والنفخة .

وقد ورد أن بينهما أربعين سنة إذ لا يبقى بعد تلك الصيحة أحد من البشر ليَدفِن من هلَك منهم ، وإن كانت الصيحة صيحة الفزع إلى القتل فالأجداث على حقيقتها مثل قليب

بدر .

ومعنى : ﴿ إلى ربِّهم ﴾ إلى حكم ربهم وحسابه ، وهو متعلق بـ ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ .

قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52)

*(66/647)*

---

استئناف بياني لأن وصف هذه الحال بعد حكاية إنكارهم البعث وإحالتهم إياه يثير سؤال من يسأل عن مقالهم حينما يرون حقية البعث .

و﴿ يا وَيْلَنَا ﴾ كلمة يقولها الواقع في مصيبة أو المُتحسِّر .

والويل : سوء الحال ، وإنما قالوا ذلك لأنهم رأوا ما أُعدّ لهم من العذاب عندما بعثوا .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ في سورة البقرة ( 79 ) .

وحكي قولهم بصيغة الماضي اتباعاً لحكاية ما قبله بصيغة المضيّ لتحقيق الوقوع .

وحرف النداء الداخل على ﴿ ويلنا ﴾ للتنبيه وتنزيل الويل منزلة من يسمع فيُنادَى ليحضر ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قالت يا ويلتى ﴾ في سورة هود ( 72 ) .

و﴿ مَن ﴾ استفهام عن فاعل البعث مستعمل في التعجّب والتحسّر من حصول البعث .

ولما كان البعث عندهم محالاً كنّوا عن التعجب من حصوله بالتعجب من فاعله لأن الأفعال الغريبة تتوجه العقول إلى معرفة فاعلها لأنهم لما بُعثوا وأُزْجي بهم إلى العذاب علموا أنه بعثٌ فعَله من أراد تعذيبهم.

والمَرْقَد : مكان الرقاد.

وحقيقة الرقاد : النوم.

وأطلقوا الرقاد على الموت والاضطجاع في القبور تشبيهاً بحالة الراقد.

ثم لم يلبثوا أن استحضرت نفوسهم ما كانوا يُنذرون به في الدنيا فاستأنفوا عن تعجبهم قولهم : ﴿ هذا ما وَعَدَ الرحمن وصَدَقَ المُرْسَلُونَ ﴾.

وهذا الكلام خبر مستعمل في لازم الفائدة وهو أنهم علموا سبب ما تعجبوا منه فبطل العجب، فيجوز أن يكونوا يقولون ذلك كما يتكلم المتحسّر بينه وبين نفسه، وأن يقوله بعضهم لبعض كل يظن أن صاحبه لم يتفطن للسبب فيريد أن يعلمه به.

وأتوا في التعبير عن اسم الجلالة بصفة الرحمان إكمالاً للتحسر على تكذيبهم بالبعث بذكر ما كان مقارناً للبعث في تكذيبهم وهو إنكار هذا الاسم كما قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمان قالوا وما الرحمان ﴾ [ الفرقان : 60 ].

والإشارة بقوله: ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى الحالة المرْئية لِجميعهم وهي حالة خروجهم من الأرض.

وجملة ﴿ وصَدَقَ المُرْسَلُونَ ﴾ عطف على جملة ﴿ هذا ما وعَدَ الرحمن ﴾ وهو مستعمل في التحسّر على أن كذبوا الرسل.

وجَمع المرسلين مع أن المحكي كلامُ المشركين الذين يقولون ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [ يس: 48 ] إمّا لأنهم استحضروا أن تكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم كان باعثَه إحالتُهم أن يكون الله يرسل بَشراً رسولاً، فكان ذلك لأنهم لا يصدقون أحداً يأتي برسالة من الله كما حكى عنهم قوله تعالى: ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ [ الأنعام: 91 ] فلما تحسروا على خطئهم ذكَروه بما يشمله ويشمل سببَه كقوله تعالى: ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ من سورة الشعراء ( 105 )، وقوله في سورة الفرقان ( 37 ) ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم ﴾، وإما لأن ذلك القول صدر عن جميع الكفار المبعوثين من جميع الأمم فعلِمت كل أمة خطأها في تكذيب رسولها وخطأ غيرها في تكذيب رسلهم فنطقوا جميعاً بما يفصح عن الخطأين، وقد مضى أن ضمير ﴿ فَإِذَا هُم جَمِيعٌ ﴾ [ يس: 53 ] يجوز أن يعود على جميع الناس.

ومن المفسرين من جعل قوله: ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصَدَقَ المُرْسَلُونَ ﴾ من كلام

الملائكة يجيبون به قول الكفار ﴿ مَنْ بعَثَنا مِن مَرْقَدِنا ﴾ فهذا جواب يتضمن بيان مَن بعثهم مع تنديمهم على تكذيبهم به في الحياة الدنيا حين أبلغهم الرسل ذلك عن الله تعالى.

واسم ﴿ الرحمن ﴾ حينئذٍ من كلام الملائكة لزيادة توبيخ الكفار على تجاهلهم به في الدنيا .

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53)

(68/647)

---

فذلكة لجملة ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحِدَة ﴾ [ يس : 49 ] إلى قوله : ﴿ وصدق المرسلون ﴾ [ يس : 52 ] لأن النفخ مرادف للصيحة في إطلاقها المجازي ، فاقتران فعل كانت بتاء التأنيث لِتأويل النفي مأخوذ من ﴿ ونُفِخَ في الصُّورِ ﴾ [ يس : 51 ] بمعنى النفخة ينظر إلى الإخبار عنه بـ ﴿ صيحة ﴾ .

ووصفها بـ ﴿ واحِدَةً ﴾ لأن ذلك الوصف هو المقصود من الاسْتِثناء المفرّغ ، أي ما كان ذلك النفخ إلاّ صيحة واحدة لا يكرر استدعاؤهم للحضور بل النفخ الواحد يخرجهم من القبور ويسير بهم ويُحضرهم للحساب .

وأما قوله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء

الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ [ الزمر : 68 ] فتلك نفخة سابقة تقع على الناس في الدنيا فيفنى بها الناس وسيأتي ذكرها في سورة الزمر .

ولما كان قوله : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحِدَة ﴾ في قوة التكرير والتوكيد لقوله ﴿ ونُفِخَ في الصُّورِ ﴾ [ يس : 51 ] كان ما تفرع عليه من قوله : ﴿ فإذَا هُم جَمِيعٌ لدينا مُحْضَرُونَ ﴾ بمنزلة العطف على قوله : ﴿ فإذا هم من الأَجْدَاثِ إلى ربّهم يَنسِلُونَ ﴾ [ يس : 51 ] فكأنه مثل ﴿ ونُفِخَ في الصُّورِ فَإذَا هُم مِنَ الأَجْدَاثِ إلى ربهم يَنسلُون ﴾ [ يس : 51 ] و ﴿ فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ ، وإعادة حرف المفاجأة إيماء إلى حصول مضمون الجملتين المقترنتين بحرف المفاجأة في مثل لمح البصر حتى كأن كليهما مفاجأ في وقت واحد .

وتقدم الكلام على نظير هذا التركيب آنفاً .

و ﴿ جَمِيعٌ ﴾ نعت للمبتدأ ، أي هم جميعهم ، فالتنوين في ﴿ جميع ﴾ عوض المضاف إليه الرابط للنعت بالمنعوت ، أي مجتمعون لا يحضرون أفواجاً وزرافات ، وقد تقدم قوله تعالى : ﴿ وإن كُلٌّ لَمَّا جَميعٌ لدينا مُحْضَرُونَ ﴾ [ يس : 32 ] في هذه السورة .

وقرأ الجمهور بنصب ﴿ صَيْحَةً ﴾ .

وقرأه أبو جعفر بالرفع على أن "كان" تامة ، وتقدم نظيره في أوائل السورة . انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) ﴾

يموتون قَهْراً ، ويُحْشَرُون جَبْراً ، ويلقون أمراً ، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً .

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ يموتون على جهلٍ ، لا يعرفون ربَّهم ، ويُبْعَثُون على مِثْلِ حالِهم ، لا يعرفون مَنْ بَعَثَهم ، ويعدون ما كانوا فيه في قبولهم من العقوبة الشديدة - بالإضافة إلى ما سَيَلْقَوْنَ من الآلام الجديدة - نوماً ورقاداً ، وسيطئون من الفراق المبرح والاحتراق العظيم الضخم مهاداً ، لا يذوقون بَرْداً ولا شراباً إلا حميماً وغَسَّاقاً ، ولقد عوملوا بذلك استحقاقاً : فقد قال جل ذكره : -

﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 220 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان هذا الإحضار بسبب العدل وإظهار جميع صفات الكمال قال : ﴿ فاليوم ﴾ ولما كان نفي الظلم مطلقاً أبلغ من نفيه عن أحد بعينه ، وأدل على المراد وأوجز ، قال لافتاً القول عن الإظهار أو الإضمار بمظهر العظمة أو غيره ! ﴿ لا تظلم ﴾ ولما كان التعبير بما كثر جعله محط الرذائل والحظوظ والنقائص أدل على عموم نفي الظلم قال : ﴿ نفس ﴾ أي أيّ نفس كانت مكروهة أو محبوبة ﴿ شيئاً ﴾ أي لا يقع لها ظلم ما من أحد ما في شي ما .

ولما كانت المجازاة بالجنس أدل على القدرة وأدخل في العدل ، قال محققاً بالخطاب والجمع أن المنفي ظلمه كل من يصلح للخطاب لئلا يقع في وهم أن المنفي ظلمه نفوس مخصوصة أو نفس واحد : ﴿ ولا تجزون ﴾ أي على عمل من الأعمال شيئاً من الجزاء من أحد ما ﴿ إلا ما كنتم تعملون ﴾ ديدناً لكم بما ركز في جبلاتكم .

ولما قرر أن الجزاء من جنس العمل ، شرع في تفصيله ، وبدأ بأشرف الحزبين في جواب من

سأل عن هذا الجزاء فقال مؤسفاً لأهل الشقاء بالتذكير بالتأكيد بما كان لهم من الإنكار في الدنيا وإظهار للرغبة في هذا القول والتبجح به لما له من عظيم الثمرة : ﴿ إن اصحاب الجنة ﴾ أي الذين لا حظ للنار فيهم ، وكرر التعبير باليوم تعظيماً لشأنه وتهويلاً لأمره على إثر نفختيه المميتة والمقيمة بذكر بعض ثمراته ، وجمل من عظائم تأثيراته ، فقال : ﴿ اليوم ﴾ أي يوم البعث ، وهذا يدل على أنه يعجل دخولهم أو دخول بعضهم إليها ووقوف الباقين للشفاعة ونحوها من الكرامات عن دخول أهل النار النار ، وعبر بما يدل على أنهم بكلياتهم مقبلون عليه ومظروفون له مع توجههم إليه فقال : ﴿ في شغل ﴾ أي عظيم جداً لا تبلغ وصفه العقول كما كانوا في الدنيا في أشغل الشغل بالمجاهدات في الطاعات .

ولما تاقت النفوس إلى تفسير هذا الشغل قال : ﴿ فاكهون ﴾ أي لهم عيش المتفكة ، وهو الأمن والنعمة والبسط واللذة وتمام الراحة كما كانوا يرضوننا بإجهاد أنفسهم وإتعابها وإشقائها وإرهابها ، وقراءة أبي جعفر بحذف الالف أبلغ لأنها تدور على دوام ذلك لهم وعلى أنهم في أنفسهم في غاية ما يكون من خفة الروح وحسن الحديث .

ولما كانت النفس لا يتم سرورها إلا بالقرين الملائم قال : ﴿هم﴾ أي بظواهرهم وبواطنهم ﴿وأزواجهم﴾ أي أشكالهم الذين هم في غاية الملاءمة كما كانوا يتركونهم في المضاجع على ألذ ما يكون ، ويصفون أقدامهم في خدمتنا وهم يبكون ﴿في ظلال﴾ أي يجدون فيها برد الأكباد وغاية المراد ، كما كانوا يشوون أكبادهم في دار العمل بحر الصيام ، وتجرع مرارات الأوام ، والصبر في مرضاتنا على الآلام ، ويقرون أيديهم وقلوبهم عن الأموال ، ببذل الصدقات في سبلنا على مر الأيام وكر الليال ، وقراءة حمزة والكسائي بضم الظاء وحذف الألف على أنه أشد امتداداً ، ويدل اتفاقهما في الجمع على أن الظل فيها مختلف باختلاف الأعمال .

ولما كان التمتع لا يكمل إلا مع العلو الممكن من زيادة العلم الموجب لارتياح النفس وبهجة العين بانفساح البصر عند مد النظر ، قال : ﴿على الأرائك﴾ أي السرر المزينة العالية التي هي داخل الحجل ، قال البغوي : قال ثعلب : لا يكون أريكة حتى يكون عليها حجلة ، وقال ابن جرير : الأرائك : الحجال فيها السرر ، وروى أبو عبيد في كتاب الفضائل عن الحسن قال : كنا لا ندري ما الأرائك حتى لقينا رجلاً من أهل اليمن فأخبرنا أن الأريكة عندهم الحجلة فيها السرير .

وهذا جزاء لما كانوا يلزمون المساجد ويغضون الأبصار ويضعون نفوسهم لأجلنا ﴿متكئون﴾ كما كانوا يدأبون في الأعمال قائمين بين أيدينا في أغلب الأحوال ، والاتكاء :

الميل على شق مع الاعتماد على ما يريح الاعتماد عليه ، أو الجلوس مع التكمن على هيئة المتربع ، وقراءته بضم الكاف وحذف الهمزة أدل على التربع وما قاربه ، وقراءة كسر الكاف وضم الهمزة أدل على القرب من التمدد لما فيها من الكسرة ، فإنه يقال كما نقله أبو عبد الله القزاز : اتكأت الرجل اتكاء - إذا وسدته أي جعلت له وسادة ، أي محذة يستريح عليها .

(72/647)

---

ولما قدم المعاني التي توجب أكل الفاكهة ، أتى بها فقال : ﴿ لهم ﴾ أي خاصة بهم ﴿ فيها فاكهة ﴾ أي لا تنقطع أبداً ، فلا مانع لهم من تناولها ، ولا يوقف ذلك على غير الإرادة .

(73/647)

---

ولما كانت الفاكهة قد تطلق على ما يلذذ ، صرح بأن ذلك هو المراد ، فقال معبراً بالعطف لتكون الفاكهة مذكورة مرتين خصوصاً وعموماً : ﴿ ولهم ﴾ ولما كان السياق لأصحاب الجنة الذين تفهم الصيحة أنهم فيها دائماً وإن كانوا في الدنيا ، أعري الكلام من الظرف ليفهم

إجابة دعائهم في الدنيا وإنالتهم جميع مرادهم في الدارين فقال : ﴿ ما يدعون ﴾ أي الذي يطلبون طلباً أما إخراجاً لما قد يهجس في النفس من غير عزم عليه إن كان المراد في الجنة من غير كلام الله كالمآكل والمشارب ونحوها ، وإما إظهاراً للاهتمام إن كان المراد أنه كلامه سبحانه ، وذلك لأجل ما كانوا في الدنيا يفطمون أنفسهم عن الشهوات عزوفاً عما يفنى ، وطموحاً إلى ما عندنا من الباقيات الصالحات ، ثم فسر الذي يدعونه - أي يطلبونه - بغاية الاشتياق إليه أو استأنف الإخبار عنه بقوله : ﴿ سلام ﴾ أي عظيم جداً لا يكتنه وصفه ، عليكم يا أهل الجنة ، كائن هو أو مقول هو ، والسلام يجمع جميع النعم ، ثم بين حال هذا السلام بما أظهر من عظمه بقوله : ﴿ قولاً من رب ﴾ أي دائم الإحسان ﴿ رحيم ﴾ أي عظيم الإكرام بما ترضاه الألهية ، كما كانوا في الدنيا يفعلون كل ما فيه الرضا ، فيرحمهم في حال السلام وسماع الكلام بلذة الرؤية مع التقوية عن الدهش والصعق لعظيم الأمر وبالتأهيل لهذا المقام الأكرم مع قصورهم عنه ، وقد أوضح هذا السياق أنه من الله تعالى بلا واسطة ، فإنه أكده بالقول وحرف الابتداء ، وذكر صفات الإحسان كما قال الأستاذ أبو القاسم القشيري : ولا ارتياب في أنه لا شيء يعدل هذا في النعيم وقرة العين والشرف وعلو القدر ، ولا شك أن هذا هو المقصود بالحقيقة ، فهو قلب النعيم في ذلك اليوم الذي هو قلب الوجود حقاً خفاء وصلاحاً وفساداً ، فصح أن هذه الآية قلب هذه السورة كما كانت

هذه السورة قلب القرآن ، وقد ورد حديث في تفسير البغوي وكتاب المائتين للأستاذ أبي عثمان الصابوني أنه من الله تعالى بلا واسطة

(74/647)

---

عن جابر -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : " بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، وذلك قوله تعالى ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته في ديارهم "

قال الأستاذ أبو عثمان : هذا حديث غريب الإسناد والمتن لا أعلم إني كتبته إلا من هذا الوجه .

ولما كان التقدير : فانظروا وازدادوا حسرة أيها المجرمون ، عطف عليه قوله :

﴿ وامتازوا ﴾ أي انفردوا انفراداً هو بغاية القصد ، وجرى على النمط الماضي من زيادة التهويل لذلك الموقف بإعادة قوله : ﴿ اليوم ﴾ أي عن عبادي الصالحين أو عمن بقي منهم معكم في الموقف ليظهروا من أوضارهم ، ويشفوا من مضارهم ، لأن غيبة الرقيب أتم

النعيم ، وإبعاد العدو أعلى السرور ، وحذف أداة النداء لا لقرب الكرامة بل للدلالة على أنهم في القبضة لا مانع من غاية التصرف فيهم لكل ما يراد لأنه لا حائل دونهم ﴿ أيها المجرمون ﴾ أي العريقون في الإجرام ، فلا يقع في أوهامكم أنكم تخالطونهم اليوم أصلاً ، وهذا ما كنتم تمتازون عنهم في الدنيا وتقاطعونهم ترفعاً واستكباراً ، فهذا قوله للمجرمين وذلك قوله للمؤمنين ، فصح أنه قلب لأنه به صلاح بعض المكلفين وفساد الآخرين الذي هو تمام صلاح الأولين ، وقد تقدم في أوائل سورة الروم منام ينفع استحضاره هنا . انتهى .

اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 269.272 ﴾

(75/647)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54) ﴾

فقوله : ﴿ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ ﴾ ليأمن المؤمن ﴿ وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ لييأس المجرم الكافر وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما الفائدة في الخطاب عند الإشارة إلى يأس المجرم بقوله : ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ ﴾ وترك الخطاب في الإشارة إلى أمان المؤمن من العذاب بقوله : ﴿ لَا تُظْلَمُ ﴾ ولم يقل ولا تظلمون أيها المؤمنون ؟ نقول لأن قوله : ﴿ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ يفيد العموم وهو كذلك فإنها لا تظلم أبداً ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ ﴾ مختص بالكافر ، فإن الله يجزي المؤمن وإن لم يفعل فإن الله فضلاً مختصاً بالمؤمن وعدلاً عاماً ، وفيه بشارة .

المسألة الثانية :

ما المقتضى لذكر فاء التعقيب ؟ نقول لما قال : ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ [ يس : 53 ] مجموعون والجمع للفصل والحساب ، فكأنه تعالى قال إذا جمعوا لم يجمعوا إلا للفصل بالعدل ، فلا ظلم عند الجمع للعدل ، فصار عدم الظلم مترتباً على الإحضار للعدل ، ولهذا يقول القائل للوالي أو للقاضي : جلست للعدل فلا تظلم ، أي ذلك يقتضي هذا ويستعقبه .

المسألة الثالثة :



---

لا يجزون عين ما كانوا يعملون ، بل يجزون بما كانوا أو على ما كانوا وقوله : ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يدل على أن الجزاء بعين العمل ، لا يقال جزى يتعدى بنفسه وبالباء ،

يقال جزيته خيراً وجزيته بخير ، لأن ذلك ليس من هذا لأنك إذا قلت جزيته بخير لا يكون الخير مفعولك ، بل تكون الباء للمقابلة والسببية كأنك تقول جزيته جزاء بسبب ما فعل ، فنقول الجواب عنه من وجهين : أحدهما : أن يكون ذلك إشارة على وجه المبالغة إلى عدم الزيادة وذلك لأن الشيء لا يزيد على عينه ، فنقول قوله تعالى : تجزون بما كانوا يعملون في المساواة كأنه عين ما علموا يقال فلان يجاوبني حرفاً بحرف أي لا يترك شيئًا ، وهذا يوجب اليأس العظيم الثاني : هو أن ما غير راجع إلى الخصوص ، وإنما هي للجنس تقديره ولا تجزون إلا جنس العمل أي إن كان حسنة فحسنة ، وإن كانت سيئة فسيئة فتجزون ما تعملون من السيئة والحسنة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [ الشورى : 40 ] .

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55)

(77/647)

---

وقوله : ﴿ فِي شُغُلٍ ﴾ يحتمل وجوهاً : أحدهما : في شغل عن هول اليوم بأخذ ما آتاهم الله من الثواب ، فما عندهم خبر من عذاب ولا حساب ، وقوله : ﴿ فاكهون ﴾ يكون متمماً لبيان سلامتهم فالله لو قال : في شغل جاز أن يقال هم في شغل عظم من التفكر في

اليوم وأهواله ، فإن من يصيبه فتنة عظيمة ثم يعرض عليه أمر من أموره ويخبر بخسران وقع في ماله ، يقول أنا مشغول عن هذا بأهم منه ، فقال : ﴿ فاكهون ﴾ أي شغلوا عنه باللذة والسرور لا بالويل والثبور وثانيها : أن يكون ذلك بياناً لحالهم ولا يريد أنهم شغلوا عن شيء بل يكون معناه هم في عمل ، ثم بين عملهم بأنه ليس بشاق ، بل هو ملذ محبوب وثالثها : في شغل عما توقعوه فإنهم تصوروا في الدنيا أموراً وقالوا نحن إذا دخلنا الجنة لا نطلب إلا كذا وكذا ، فرأوا ما لم يخطر ببالهم فاشتغلوا به ، وفيه وجوه : غير هذه ضعيفة أحدها : قيل افتضاض الأبكار وهذا ما ذكرناه في الوجه الثالث أن الإنسان قد يترجح في نظره الآن مداعبة الكواعب فيقول في الجنة ألتذ بها ، ثم إن الله ربما يأتيه ما يشغله عنها وثانيها قيل في ضرب الأوتار وهو من قبيل ما ذكرناه توهم وثالثها في التزاور ورابعها : في ضيافة الله وهو قريب مما قلنا لأن ضيافة الله تكون بألذ ما يمكن وحينئذ تشغله تلك عما توهمه في دنياه وقوله : ﴿ فاكهون ﴾ خبر إن ، و ﴿ فِي شُغُلٍ ﴾ بيان ما فكاهتهم فيه يقال زيد على عمله مقبل ، وفي بيته جالس فلا يكون الجار والمجرور خبراً ولو نصبت جالساً لكان الجار والمجرور خبراً .

وكذلك لو قال في شغل فاكهين لكان معناه أصحاب الجنة مشغولون فاكهين على الحال وقرىء بالنصب والفاكه الملتذ المتنعم به ومنه الفاكهة لأنها لا تكون في السعة إلا للذة فلا تؤكل لدفع ألم الجوع ، وفيه معنى لطيف .

وهو أنه أشار بقوله : ﴿ فِي شُغُلٍ ﴾ عن عدمهم الألم فلا ألم عندهم ، ثم بين بقوله : ﴿ فاكهون ﴾ عن وجدانهم اللذة وعادم الألم قد لا يكون واجداً للذة .

(78/647)

---

فبين أنهم على أتم حال ثم بين الكمال بقوله : ﴿ هُمْ وأزواجهم ﴾ وذلك لأن من يكون في لذة قد تتنغص عليه بسبب تفكره في حال من يهمه أمره فقال : ﴿ هُمْ وأزواجهم ﴾ أيضاً فلا يبقى لهم تعلق قلب ، وأما من في النار من أقاربهم وإخوانهم فيكونون هم عنهم في شغل ، ولا يكون منهم عندهم ألم ولا يشتهون حضورهم والأزواج يحتمل وجهين : أحدهما : أشكالهم في الإحسان وأمثالهم في الإيمان كما قال تعالى : ﴿ مِن شَكْلِهِ أزواج ﴾

(79/647)

---

[ ص : 58 ] ، وثانيهما : الأزواج هم المفهومون من زوج المرأة وزوجة الرجل كما في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ على أزواجهم أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ [ المعارج : 30 ] وقوله تعالى : ﴿ وَيَذَرُونَ أزواجا ﴾ [ البقرة : 234 ] فإن المراد ليس هو الإشكال ، وقوله : ﴿ فِي

ظلال ﴾ جمع ظل وظلل جمع ظلة والمراد به الوقاية عن مكان الألم ، فإن الجالس تحت كن لا يخشى المطر ولا حر الشمس فيكون به مستعداً لدفع الألم ، فكذلك لهم من ظل الله ما يقيهم الأسواء ، كما قال تعالى : ﴿ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [ فاطر : 35 ] وقال : ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ [ الإنسان : 13 ] إشارة إلى عدم الآلام وفيه لطيفة أيضاً وهي أن حال المكلف ، إما أن يكون اختلالها بسبب ما فيه من الشغل ، وإن كان في مكان عال كالقاعد في حر الشمس في البستان المتنزه أو يكون بسبب المكان ، وإن كان الشغل مطلوباً كملاعبة الكواعب في المكان المكشوف ، وإما أن يكون بسبب المأكل كالمتفرج في البستان إذا أعوزه الطعام ، وإما بسبب فقد الحبيب ، وإلى هذا يشير أهل القلب في شرائط السماع بقولهم : الزمان والمكان والإخوان قال تعالى : ﴿ فِي شُغُلٍ فاكهون ﴾ إشارة إلى أنهم ليسوا في تعب وقال : ﴿ هُمْ وأزواجهم ﴾ إشارة إلى عدم الوحدة الموحشة وقال : ﴿ فِي ظلال عَلَى الأرائك مُتَّكِئُونَ ﴾ إشارة إلى المكان وقال : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فاكهة وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ إشارة إلى دفع جميع حوائجهم وقوله : ﴿ مُتَّكِئُونَ ﴾ إشارة إلى أدل وضع على القوة والفراغة فإن القائم قد يقوم لشغل والقاعد قد يقعد لهم . وأما المتكىء فلا يتكىء إلا عند الفراغ والقدرة لأن المريض لا يقدر على الإتكاء ، وإنما يكون مضطجعاً أو مستلقياً والأرائك جمع أريكة .

وهي السرير الذي عليه الفرش وهو تحت الحجلات فيكون مرئياً هو وما فوقه وقوله :

﴿ لَهُمْ فِيهَا فاكهة ﴾ إشارة إلى أن لا جوع هناك ، وليس الأكل لدفع ألم الجوع ، وإنما مأكولهم فاكهة ، ولو كان لحماً طرياً ، لا يقال قوله تعالى : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [ الواقعة : 21 ] يدل على التغاير وصدق الشهوة وهو الجوع لأنا نقول قوله : ﴿ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ يؤكد معنى عدم الألم لأن أكل الشيء قد يكون للتداوي من غير شهوة فقال مما يشتهون لأن لحم الطير في الدنيا يؤكل في حالتين إحداهما : حالة التنعم والثانية : حالة ضعف المعدة وحينئذ لا يأكل لحم طير يشتهيه ، وإنما يأكل ما يوافقه ويأمره به الطبيب ، وأما أنه يدل على التغاير ، فنقول مسلم ذلك لأن الخاص يخالف العام ، على أن ذلك لا يقدح في غرضنا ، لأنا نقول إنما اختار من أنواع المأكول الفاكهة في هذا الموضع لأنها أدل على التنعم والتلذذ وعدم الجوع والتنكير لبيان الكمال ، وقد ذكرناه مراراً وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فاكهة ﴾ ولم يقل يأكلون ، إشارة إلى كون زمام الاختيار بيدهم وكونهم مالكين وقادرين وقوله : ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ فيه وجوه : أحدها لهم فيها ما يدعون لأنفسهم أي دعاؤهم مستجاب ، وحينئذ يكون هذا افتعالاً بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحيل ، وعلى هذا فليس معناه أنهم يدعون لأنفسهم دعاء فيستجاب دعاؤهم بعد الطلب بل معناه ولهم ما يدعون لأنفسهم أي ذلك لهم فلا حاجة لهم إلى الدعاء والطلب ، كما أن

الملك إذا طلب منه مملوكه شيئاً يقول لك ذلك فيفهم منه تارة أن طلبك مجاب وأن هذا أمر هين بأن تعطي ما طلبت ، ويفهم تارة منه الرد وبيان أن ذلك لك حاصل فلم تطلبه فقال تعالى : ولهم ما يدعون ويطلبون فلا طلب لهم وتقريره هو أن يكون ما يدعون بمعنى ما يصح أن يطلب ويدعى يعني كل ما يصح أن يطلب فهو حاصل لهم قبل الطلب ، أونقول المراد الطلب والإجابة وذلك



---

لأن الطلب من الله أيضاً فيه لذة فلو قطع الله الأسباب بينهم وبينه لما كان يطيب لهم فأبقى أشياء يعطيهم إياها عند الطلب ليكون لهم عند الطلب لذة وعند العطاء ، فإن كون المملوك بحيث يتمكن من أن يخاطب الملك في حوائجه منصب عظيم ، والملك الجبار قد يدفع حوائج المماليك بأسرها قصداً منه لئلا يخاطب الثاني : ما يدعون ما يتداعون وحينئذ يكون افتعالا بمعنى التفاعل كالاقتتال بمعنى التقاتل ، ومعناه ما ذكرناه أن كل ما يصح أن يدعو أحد صاحبه إليه أو يطلبه أحد من صاحبه فهو حاصل لهم الثالث : ما يتمنونه الرابع : بمعنى الدعوى ومعناه حينئذ أنهم كانوا يدعون في الدنيا أن لهم الله وهو مولاهم وأن الكافرين لا مولى لهم .

فقال لهم في الجنة ما يدعون به في الدنيا ، فتكون الحكاية محكية في الدنيا ، كأنه يقول في يومنا هذا لكن أيها المؤمنون غداً ما تدعون اليوم ، لا يقال بأن قوله : ﴿ إِنَّ أصحاب الجنة اليوم فِي شُغُلٍ فاكهون * هُمْ وأزواجهم فِي ظلال ﴾ يدل على أن القول يوم القيامة لأنا نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن قوله : ﴿ هُمْ ﴾ مبتدأ ﴿ وأزواجهم ﴾ عطف عليهم فيحتمل أن يكون هذا الكلام في يومنا هذا يخبرنا أن المؤمن وأزواجه في ظلال غداً وله ما يدعيه والجواب الثاني : وهو أولى هو أن نقول : معناه لهم ما يدعون أي ما كانوا يدعون .

لا يقال بأنه إضمار حيث لا ضرورة وإنه غير جائز لأنا نقول على ما ذكرنا يبقى الادعاء مستعملاً في معناه المشهور لأن الدعاء هو الإتيان بالدعوى وإنما قلنا إن هذا أولى لأن قوله : ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مّن رَّبّ رَّحِيمٍ ﴾ [ يس : 58 ] هو في دار الآخرة وهو كالتفسير لقوله : ﴿ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ ولأن قوله : ﴿ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ مذكور بين جمل كلها في الآخرة فما يدعون أيضاً ينبغي أن يكون في الآخرة وفي الآخرة لا يبقى دعوى وبينة لظهور الأمور والفصل بين أهل الثبور والحبور .

سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58)

هو أكمل الأشياء وهو آخرها الذي لا شيء فوقه ولنبينه في مسائل :

المسألة الأولى :

ما الرافع لقوله ﴿ سلام ﴾ ؟ نقول يحتمل ذلك وجوهاً أحدها : هو بدل مما يدعون كأنه تعالى لما قال : ﴿ لَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [ يس : 57 ] بينه ببدله فقال لهم سلام فيكون في المعنى كالمبتدأ الذي خبره جار ومجرور ، كما يقال في الدار رجل ولزيد مال ، وإن كان في النحو ليس كذلك بل هو بدل وبدل النكرة من المعرفة جائز فتكون ما بمعنى الذي معرفة وسلام نكرة ، ويحتمل على هذا أن يقال ما في قوله تعالى : ﴿ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ لا موصوفة ولا موصولة بل هي نكرة تقديره لهم شيء يدعون ثم بين بذكر البدل فقال : ﴿ سلام ﴾ والأول هو الصحيح وثانيها سلام خبر ما ولهم لبيان الجهة تقديره ما يدعون سالم لهم أي خالص والسلام بمعنى السالم الخالص أو السليم يقال عبد السلام أي سليم من العيوب كما يقال لزيد الشرف متوفر والجار والمجرور يكون لبيان من له ذلك والشرف هو المبتدأ ومتوفر خبره وثالثها قوله تعالى : ﴿ سلام ﴾ منقطع عما تقدم وسلام مبتدأ وخبره محذوف تقديره سلام عليهم فيكون ذلك إخباراً من الله تعالى في يومنا هذا كأنه تعالى حكى لنا وقال : ﴿ إِنَّ أَصحاب الجنة اليوم في شُغُلٍ ﴾ [ يس : 55 ] ثم لما بين كمال حالهم قال سلام عليهم ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ سلام على نُوحٍ ﴾ [ الصافات : 79 ] ﴿ سلام على

المرسلين ﴾ [ الصافات : 181 ] فيكون الله تعالى أحسن إلى عباده المؤمنين كما أحسن إلى عباده المرسلين وهذا وجه مبتكر جيد ما يدل عليه منقول ، أو نقول تقديره سلام عليكم ويكون هذا نوعاً من الالتفات حيث قال لهم كذا وكذا ، ثم قال سلام عليكم .

المسألة الثانية :

(83/647)

---

﴿ قَوْلاً ﴾ منصوب بماذا ؟ نقول يحتمل وجوهاً أحدها : نصب على المصدر تقديره على قولنا المراد لهم سلام هو أن يقال لهم سلام يقوله الله قولاً أو تقوله الملائكة قولاً وعلى قولنا ما يدعون سالم لهم تقديره قال الله ذلك قولاً ووعدهم بأن لهم ما يدعون سالم وعداً وعلى قولنا سلام عليهم تقديره أقوله قولاً وقوله : ﴿ مّن رَّبّ رَّحِيمٍ ﴾ يكون لبيان أن السلام منه أي سلام عليهم من رب رحيم أقوله قولاً ، ويحتمل أن يقال على هذا إنه تمييز لأن السلام قد يكون قولاً وقد يكون فعلاً فإن من يدخل على الملك فيطأطىء رأسه يقول سلمت على الملك ، وهو حينئذ كقول القائل البيع موجود حكماً لا حساً وهذا ممنوع عنه قطعاً لا ظناً .

المسألة الثالثة :

قال في السلام ﴿ مّن رَّبّ رَّحِيمٍ ﴾ وقال في غيره من أنواع الإكرام ﴿ نُزُلاً مّنْ غَفُورٍ

رَّحِيمٍ ﴾ [ فصلت : 32 ] فهل بينهما فرق ؟ نقول نعم ، أما هناك فلأن النزل ما يرزق النزيل أولاً ، وذلك وإن كان يدل عليه ما بعده فإن النزيل إذا أكرم أولا يدل على أنه مكرم وإذا أخل بإكرامه في الأول يدل على أنه مهان دائماً غير أن ذلك غير مقطوع به ، لجواز أن يكون الملك واسع الرزق فيرزق نزيله أولاً ولا يمنع منه الطعام والشراب ويناقشه في غيره فقال غفور لما صدر من العبيد ليأمن العبد ولا يقول بأن الإطعام قد يوجد ممن يعاقب بعده والسلام يظهر مزية تعظيمه للمسلم عليه لا بمغفرة فقال : ﴿ رَبّ غَفُورٌ ﴾ لأن رب الشيء مالكه الذي إذا نظر إلى علو مرتبته لا يرجى منه الإلتفات إليه بالتعظيم ، فإذا سلم عليه يعجب منه وقيل انظر هو سيده ويسلم عليه .

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59)

*(84/647)*

---

وفيه وجوه منها تبيين وجه الترتيب أيضاً الأول : امتازوا في أنفسكم وتفرقوا كما قال تعالى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ﴾ [ الملك : 8 ] أي بعضه من بعض غير أن تميزهم من الحسرة والندامة ووجه الترتيب حينئذ أن المجرم يرى منزلة المؤمن ورفعته ونزول دركته وضعته فيتحسر فيقال لهم امتازوا اليوم إذ لا دواء لألمكم ولا شفاء لسقمكم الثاني : امتازوا عن

المؤمنين وذلك لأنهم يكونون مشاهدين لما يصل إلى المؤمن من الثواب والإكرام ثم يقال لهم تفرقوا وادخلوا مساكنكم من النار فلم يبق لكم اجتماع بهم أبداً الثالث : امتازوا بعضكم عن بعض على خلاف ما للمؤمن من الاجتماع بالإخوان الذي أشار إليه بقوله تعالى : ﴿ هُمْ وأزواجهم ﴾ [ يس : 56 ] فأهل النار يكون لهم العذاب الأليم وعذاب الفرقة أيضاً ولا عذاب فوق الفرقة ، بل العقلاء قالوا بأن كل عذاب فهو بسبب تفرق اتصال ، فإن من قطعت يده أو أحرق جسمه فإنما يتألم بسبب تفرق المتصلات بعضها عن بعض ، لكن التفرق الجسمي دون التفرق العقلي الرابع : امتازوا عن شفعائكم وقرنائكم فما لكم اليوم حميم ولا شفيع الخامس : امتازوا عما ترجون واعتزلوا عن كل خير ، والمجرم هو الذي يأتي بالجريمة ، ويحتمل أن يقال إن المراد منه أن الله تعالى يقول امتازوا فيظهر عليهم سيما يعرفون بها ، كما قال تعالى : ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم ﴾ [ الرحمن : 41 ] وحينئذ يكون قوله تعالى امتازوا أمر تكوين ، كما أنه يقول : كن فيكون كذلك يقول امتازوا فيتميزون بسيماهم ويظهر على جباههم أو في وجوههم سواء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 80.84 ﴾

*(85/647)*

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

ثم ابتدأ الإخبار عن عتو قريش بقوله ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ الآية ، وما بين أيديهم قال مقاتل وقتادة ، هو عذاب الأمم الذي قد سبقهم في الزمن وما خلفهم هو عذاب الآخرة الذي يأتي من بعدهم في الزمن وهذا هو النظر ، وقال الحسن : خوفوا بما مضى من ذنوبهم وبما يأتي منها .

قال القاضي أبو محمد : فجعل الترتيب كأنهم يسيرون من شيء إلى شيء ، ولم يعتبر وجود الأشياء في الزمن ، وهذا النظر يكسره عليه قوله تعالى : ﴿ مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ﴾ [ المائدة : 46 ] ، وإنما المطرد أن يقاس ما بين اليد والخلف بما يسوقه الزمن فتأمله ، وجواب ﴿ إذا ﴾ في هذه الآية محذوف تقديره أعرضوا يفسره قوله بعد ذلك ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾ ، و" الآيات " العلامات والدلائل .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ



---

الضمير في قوله ﴿ لهم ﴾ لقريش ، وسبب الآية أن الكفار لما أسلم حواشيهم من الموالي وغيرهم من المستضعفين قطعوا عنهم نفقاتهم وجميع صلاتهم وكان الأمر بمكة أولاً فيه

بعض الاتصال في وقت نزول آيات الموادعة فندب أولئك المؤمنون قرابتهم من الكفار إلى أن يصلوهم وينفقوا عليهم مما رزقهم الله ، فقالوا عند ذلك ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ قال الرماني : ونسوا ما يجب من التعاطف وتآلف المحقين وقالت فرقة : بل سبب الآية أن قريشاً شحت بسبب أزمة على المساكين جميعاً ، مؤمن وغير مؤمن وندبهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى النفقة على المساكين فقالوا هذا القول ، وقولهم يحتمل معنيين من التأويل : أحدهما يخرج على اختيارات لجهال العرب ، فقد روي أن أعرابياً كان يرعى إبله فجعل السمان في الخصب والمهازيل في المكان الجدب فقيل له في ذلك فقال : أكرم ما أكرم الله وأهين ما أهان الله ، فيخرج قول قريش على هذا المعنى كأنهم رأوا الإمساك عمن أمسك الله عنه رزقه ، ومن أمثالهم "كن مع الله كالمدبر" ، والتأويل الثاني أن يكون كلامهم بمعنى الاستهزاء بقول محمد صلى الله عليه وسلم إن ثم إلهاً هو الرزاق فكأنهم قالوا لم لا يرزقهم إلهك الذي تزعم أي نحن لا نطعم من لو يشاء هذا الإله الذي زعمت أطعمه .

(87/647)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا كما يدعي إنسان أنه غني ثم يحتاج إلى معونتك في مال فتقول له على جهة الاحتجاج والهزء به أتطلب معونتي وأنت غني أي على قولك ، وقوله تعالى :

﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ يحتمل أن يكون من قول الكفرة للمؤمنين ، أي في أمركم لنا في نفقة أموالنا وفي غير ذلك من دينكم ، ويحتمل أن يكون من قول الله عز وجل للكفر استئناف وزجرهم بهذا ، ثم حكى عنهم على جهة التقرير عليهم قولهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ أي متى يوم القيامة الذي تزعم ، وقيل أرادوا متى هذا العذاب الذي تهددنا به وسموا ذلك وعداً من حيث قيدته قرائن الكلام أنه في شر والوعد متى ورد مطلقاً فهو في خير وإذا قيدته بقرينة الشر استعمل فيه ، والوعيد دائماً إنما هو في الشر ، و ﴿ ينظرون ﴾ معناه ينتظرون ، و ﴿ ما ﴾ نافية ، وهذه الصيحة هي صيحة القيامة والنفخة الأولى في الصور رواه عبد الله بن عمر وأبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي حديث أبي هريرة أن بعدها نفخة الصعق ثم نفخة الحشر وهي التي تدوم ، فما لها من فواق ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والأعرج وشبل وابن القسطنطين المكي "يَخَصِّمون" بفتح الياء والخاء وشد الصاد المكسورة ، وأصلها يختصمون نقلت حركة التاء إلى الخاء وأدغمت التاء الساكنة في الصاد ، وقرأ نافع وأبو عمرو أيضاً "يَخْصِّمون" بفتح الياء وسكون الخاء وشد الصاد المكسورة وفي هذه القراءة جمع بين الساكنين ولكنه جمع ليس بجمع محض ووجهها أبو علي ، وأصلها يختصمون حذفت حركة التاء دون نقل ثم أدغمت في الصاد ، وقرأ عاصم والكسائي وابن عامر ونافع أيضاً والحسن وأبو عمرو بخلاف عنه "يَخِصِّمون" بفتح الياء وكسر الخاء وشد الصاد المكسورة أصلها يختصمون عللت كالتي قبلها ، ثم كسرت

للالتقاء ، وقرأت فرقة "يِخِصِّمون" بكسر الياء والخاء وشد الصاد المكسورة عللت كالتي قبلها ثم أتبعت كسرة الخاء كسرة الياء ، وفي مصحف أبي بن كعب "يختصمون"

(88/647)

---

ومعنى هذه القراءات كلها أنهم يتحاورون ويتراجعون الأقوال بينهم ويتدافعون في شؤونهم ، وقرأ حمزة "يخصمون" وهذه تحتمل معنيين أحدهما المذكور في القراءات أي يخصم بعضهم بعضاً في شؤونهم والمعنى الثاني يخصمون أهل الحق في زعمهم وظنهم ، كأنه قال تأخذهم الصيحة وهم يظنون بأنفسهم أنهم قد خصموا وغلبوا لأنك تقول خاصمت فلاناً فخصمته إذا غلبته ، وقوله تعالى : ﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ عبارة عن إعجال الحال ، والتوصية مصدر من وصى ، وقوله تعالى : ﴿ ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ يحتمل ثلاث تأويلات : أحدها ولا يرجع أحد إلى منزله وأهله لإعجال الأمر بل تفيض نفسه حيثما أخذته الصيحة ، والثاني معناه ﴿ ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ قولاً وهذا أبلغ في الاستعجال وخص الأهل بالذكر لأن القول معهم في ذلك الوقت أهم على الإنسان من الأجنبيين وأوكد في نفوس البشر ، والثالث تقديره ﴿ ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ أبداً ، فخرج هذا عن معنى وصف الاستعجال إلى معنى ذكر انقطاعهم وانبتارهم من دنياهم ،

وقرأ الجمهور "يَرجعون" بفتح الياء وكسر الجيم ، وقرأ ابن محيصن بضم الياء وفتح الجيم .

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51)

هذه نفخة البعث ، و﴿ الصور ﴾ القرن في قول جماعة المفسرين وبذلك تواترت الأحاديث ، وذهب أبو عبيدة إلى أن ﴿ الصور ﴾ جمع صورة خرج مخرج بسر وبسرة وكذلك قال سورة البناء جمعها سور ، والمعنى عنده وعند من قال بقوله نفخ في صور بني آدم فعادوا أحياء ، و﴿ الأجداث ﴾ القبور ، وقرأ الأعرج "في الصوَر" بفتح الواو جمع صورة ، و﴿ ينسلون ﴾ معناه يمشون بسرعة ، والنسلان مشية الذئب ، ومنه قول الشاعر :

عسلان الذيب أمسى قارباً . . . برد الليل عليه فنسل

*(89/647)*

---

وقال ابن عباس : ﴿ ينسلون ﴾ يخرجون ، وقرأ جمهور الناس "ينسِلون" بكسر السين ، وقرأ ابن أبي إسحاق وأبو عمرو أيضاً "ينسُلون" بضمها ، ونداؤهم الويل بمعنى هذا وقتك وأوان حضورك وهو منادى مضاف ، ويحتمل أن يكون نصب الويل على المصدر والمنادى محذوف ، كأنهم قالوا يا قومنا ويلنا ، وقرأ ابن أبي ليلى "يا ويلتنا" بتاء التأنيث ، وقرأ

الجمهور " مَن بعثنا " بفتح الميم على معنى الاستفهام ، وروي عن علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما أنها قرآ " مِن بْعِثنا " بكسر الميم على أنها لابتداء الغاية ، وسكون العين وكسر الثاء على المصدر ، وفي قراءة ابن مسعود ، " من أهبنا من مرقدنا " أي من نبهنا ، وفي قراءة أبي بن كعب " من هبنا " ، قال أبو الفتح ولم أرَ لها في اللغة أصلاً ولا مر بنا مهبوب ، ونسبها أبو حاتم إلى ابن مسعود رضي الله عنه ، وقولهم ﴿ من مرقدنا ﴾ يحتمل أن يريدوا من موضع الرقاد حقيقة ، ويروى عن أبي بن كعب وقتادة ومجاهد أن جميع البشر ينامون نومة قبل الحشر .

(90/647)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا غير صحيح الإسناد ، وإنما الوجه في قولهم ﴿ من مرقدنا ﴾ أنها استعارة وتشبيه ، كما تقول في قتيل هذا مرقده إلى يوم القيامة ، وفي كتاب الثعلبي : أنهم قالوا ﴿ من مرقدنا ﴾ لأن عذاب القبر كان كالرقاد في جنب ما صاروا إليه من عذاب جهنم ، وقال الزجاج : يجوز أن يكون هذا إشارة إلى المرقد ، ثم استأنف بقوله ، ﴿ ما وعد الرحمن ﴾ ويضمر الخبر حق أو نحوه ، وقال الجمهور : ابتداء الكلام ﴿ هذا ما وعد الرحمن ﴾ ، واختلف في هذه المقالة من قالها ، فقال ابن زيد : هي من قول الكفرة

أي لما رأوا البعث والنشور الذي كانوا يكذبون به في الدنيا قالوا ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ وقالت فرقة : ذلك من قول الله تعالى لهم على جهة التوبيخ والتوقيف ، وقال الفراء : هو من قول الملائكة ، وقال قتادة ومجاهد : هو من قول المؤمنين للكفرة على جهة التقريع ، ثم أخبر تعالى أن أمر القيامة والبعث من القبور ما هو ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ فإذا الجميع حاضر محشور ، وقرأت فرقة " إلا صيحةً " بالنصب ، وقرأ فرقة فرقة " إلا صيحةٌ " بالرفع ، وقد تقدم إعراب نظيرها ، وقوله ﴿ فاليوم ﴾ نصب على الظرف ، ويريد يوم القيامة ، والحشر المذكور وهذه مخاطبة يحتمل أن تكون لجميع العالم .

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55)

(91/647)

---

هذا إخبار من الله عز وجل عن حال أهل الجنة بعقب ذكر أهوال يوم القيامة وحالة الكفار ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن مسعود وابن عباس ومجاهد والحسن وطلحة وخالد بن إلياس " في شُغْل " بضم الشين وسكون الغين ، وقرأ الباقون " في شُغُل " بالضم فيهما وهي قراءة أهل المدينة والكوفة ، وقرأ مجاهد وأبو عمرو أيضاً بالفتح فيهما ، وقرأ ابن هبيرة على المنبر " في شَغْل " بفتح الشين وسكون الغين وهي كلها بمعنى واحد ، واختلف

الناس في تعيين هذا الشغل ، فقال ابن مسعود وابن عباس وابن المسيب : في افتضاض الأبكار ، وحكى النقاش عن ابن عباس سماع الأوتار ، وقال مجاهد معناه نعيم قد شغلهم .

(92/647)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا هو القول الصحيح وتعيين شيء دون شيء لا قياس له ، ولما كان النعيم نوعاً واحداً هو نعيم وحده فقال ﴿ في شغل ﴾ ولو اختلف لقال في أشغال ، وحكى الثعلبي عن طاوس أنه قال : لو علم أهل الجنة عمن شغلوا ما همهم ما شغلوا به ، قال الثعلبي : وسئل بعض الحكماء عن قوله عليه السلام " أكثر أهل الجنة البله " فقال : لأنهم شغلوا بالنعيم عن المنعم ، وقرأ جمهور الناس " فاكهون " معناه أصحاب فاكهة كما تقول لابن وتامر وشاحم ولاحم ، وقرأ أبو رجاء ومجاهد ونافع أيضاً وأبو جعفر " فكهون " ومعناه طربون وفرحون مأخوذ من الفكاهة أي لا همّ لهم ، وقرأ طلحة والأعمش وفرقة " فاكهين " جعلت الخبر في الظرف الذي هو قوله ﴿ في شغل ﴾ ونصب " فاكهين " على الحال ، وقوله تعالى : ﴿ هم ﴾ ابتداء و ﴿ أزواجهم ﴾ و ﴿ في ظلال ﴾ خبره ويحتمل أن يكون ﴿ هم ﴾ بدلاً من قوله ﴿ فاكهون ﴾ ويكون قوله ﴿ في ظلال ﴾ في موضع

الحال كأنه قال مستظلين ، وقرأ جمهور القراء " في ظلال " وهو جمع ظل إذ الجنة لا شمس فيها وإنما هواؤها سجسج كوقت الأسفار قبل طلوع الشمس ، ويحتمل قوله ﴿ في ظلال ﴾ أن يكون جمع ظلة قال أبو علي كبرمة وبرام وغير ذلك ، وقال منذر بن سعيد : ﴿ ظلال ﴾ جمع ظلة بكسر الظاء .

(93/647)

---

قال القاضي أبو محمد : وهي لغة في ظلة ، وقرأ حمزة والكسائي " في ظلل " وهي جمع ظلة وهي قراءة طلحة وعبد الله وأبي عبد الرحمن ، وهذه عبارة عن الملابس والمراتب من الحجال والستور ونحوها من الأشياء التي تظل ، وهي زينة ، و ﴿ الأرائك ﴾ السرر المفروشة ، قال بعض الناس : من شروطها أن تكون عليها حجلة وإلا فليست بأريكة ، وبذلك قيدها ابن عباس ومجاهد والحسن وعكرمة ، وقال بعضهم : الأريكة السرير كان عليه حجلة أو لم يكن ، وقوله تعالى : ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ بمنزلة ما يتمنون قال أبو عبيدة : العرب تقول : ادع علي ما شئت بمعنى تمن علي ، وتقول : فلان فيما ادعى أي فيما دعى به لأنه افتعل من دعا يدعو وأصل هذا يدتعيون نقلت حركة الياء إلى العين وحذفت الياء لاجتماعها مع الواو الساكنة فصار يدتعون قلبت التاء دالاً فأدغمت الدال فيها وخصت

الدال بالبقاء دون التاء لأنها حرف جلد ، والتاء حرف همس .

قال الرماني : المعنى أن من ادعى شيئاً فهو له لأنهم قد هذبت طباعهم فلا يدعون إلا ما يحسن منهم ، وقوله تعالى : ﴿ سلام ﴾ قيل : هي صفة لما أي مسلم لهم وخالص ، وقيل : هو ابتداء ، وقيل ؛ هو خبر ابتداء ، وقرأ ابن مسعود وأبي بن كعب وعيسى الثقفي والغنوي "سلاماً" بالنصب على المصدر ، وقرأ محمد بن كعب القرطبي "سلم" وهو بمعنى سلام ، و﴿ قولاً ﴾ نصب على المصدر وقوله تعالى : ﴿ وامتازوا اليوم ﴾ الآية فيه حذف تقديره ونقول للكفرة وهذه معادلة لقوله لأصحاب الجنة ﴿ سلام ﴾ ، ﴿ وامتازوا ﴾ معناه انفصلوا وانحازوا لأن العالم في الموقف إنما هم مختلطون. انتهى ا . هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(94/647)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فاليوم لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾

أي لا تنقص من ثواب عمل .

﴿ وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ "مَا" في محل نصب من وجهين : الأول أنه مفعول ثانٍ

لما لم يسم فاعله .

والثاني بنزع حرف الصفة ؛ تقديره : إلا بما كنتم تعملون ؛ أي تعملونه فحذف .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الجنة اليوم فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومجاهد : شغلهم افتضاض العَذَارى .

وذكر الترمذيّ الحكيم في كتاب مشكل القرآن له : حدّثنا محمد بن حميد الرّازي ، حدّثنا يعقوب القُمِّي ، عن حفص بن حميد ، عن شمر بن عطية ، عن شقيق بن سلمة ، عن عبد الله بن مسعود في قوله : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الجنة اليوم فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ قال : شغلهم افتضاض العذارى .

حدثنا محمد بن حميد ، حدثنا هارون بن المغيرة ، عن نهشل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس بمثله .

وقال أبو قِلابة : بينما الرجل من أهل الجنة مع أهله إذ قيل له تحوّل إلى أهلك فيقول أنا مع أهلي مشغول ؛ فيقال تحوّل أيضاً إلى أهلك .

وقيل : أصحاب الجنة في شغل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي ومصيرهم إلى النار ، وما هم فيه من أليم العذاب ، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم ؛ قاله سعيد بن المسيّب وغيره .

وقال وكيع : يعني في السماع .

وقال ابن كيسان : "فِي شُغُلٍ" أي في زيارة بعضهم بعضاً .

وقيل : في ضيافة الله تعالى .

(95/647)

---

وروى أنه إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : أين عبادي الذين أطاعوني وحفظوا عهدي بالغيب ؟ فيقومون كأنما وجوههم البدر والكوكب الدريّ ، ركباناً على نجب من نور أزمتها من الياقوت ، تطير بهم على رؤوس الخلائق ، حتى يقوموا بين يدي العرش ، فيقول الله جل وعز لهم : السلام على عبادي الذين أطاعوني وحفظوا عهدي بالغيب ، أنا اصطفيتكم وأنا اجتبيتكم وأنا اخترتكم ، اذهبوا فادخلوا الجنة بغير حساب فـ ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ .

فيمرون على الصراط كالبرق الخاطف فتفتح لهم أبوابها .

ثم إن الخلق في المحشر موقوفون فيقول بعضهم لبعض : يا قوم أين فلان وفلانا ؟ وذلك حين يسأل بعضهم بعضاً فينادي منادٍ ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ .

و"شُغُلٍ" و "شُغْلِ" لغتان قرىء بهما ؛ مثل الرُّعُبِ والرعْبِ ؛ والسحُت والسحْت ؛ وقد تقدم .

﴿ فَاكِهُونَ ﴾ قال الحسن : مسرورون .

وقال ابن عباس : فرحون .

مجاهد والضحاك : معجبون .

السّدّي : ناعمون .

والمعنى متقارب .

والفكاهة المزاح والكلام الطّيّب .

وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج : "فَكِهُونَ" بغير ألف وهما لغتان كالفارِه والفَره ، والحاذَر والحَذِر ؛ قاله الفراء .

وقال الكسائي وأبو عبيدة : الفاكه ذو الفاكهة ؛ مثل شاحم ولاحِم وتامِر ولابِن ، والفَكِه : المتفكّه والمتّنعم .

و "فَكِهُون" بغير ألف في قول قتادة : معجبون .

وقال أبو زيد : يقال رجل فكِه إذا كان طيب النفس ضحوكاً .

وقرأ طلحة بن مُصرّف : "فَاكِهِينَ" نصبه على الحال .

﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ مبتدأ وخبره .

ويجوز أن يكون "هُمْ" توكيداً "وَأَزْوَاجُهُمْ" عطف على المضمر ، و "مُتَّكِئُونَ" نعت لقوله

"فَاكِهُونَ" .

وقراءة العامة : "فِي ظِلَالٍ" بكسر الظاء والألف .

(96/647)

---

وقرأ ابن مسعود وعبيد بن عمير والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف : "في ظُلَلٍ" بضم الظاء من غير ألف ؛ فالظلال جمع ظِلّ ، وظُلَل جمع ظُلّة .

﴿ عَلَى الأَرَائِكِ ﴾ يعني السُّرر في الحجال واحدها أريكة ؛ مثل سفينة وسفائن ؛ قال الشاعر :

كأنّ أحمرارَ الوردِ فوق غُصُونه . . .

بوقتِ الضحى في روضةِ المتضاحِك

خُدُودُ عذارَى قد خَجلن من الحيَا . . .

تَهَادَيْنَ بالريحان فوق الأَرائِك

وفي الخبر عن أبي سعيد الخدري قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن أهل الجنة كلما جامعوا نساءهم عُدن أبكاراً " وقال ابن عباس : إنّ الرجل من أهل الجنة ليعانق الحوراء سبعين سنة ، لا يملّها ولا تملّه ، كلما أتاها وجدها بكراً ، وكلما رجع إليها عادت إليه

شهوته؛ فيجامعها بقوة سبعين رجلاً، لا يكون بينهما منيّ؛ يأتي من غير منيّ منه ولا منها.

﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ ابتداء وخبر.

﴿ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ الدال الثانية مبدلة من تاء، لأنه يفتعلون من دعا أي من دعا بشيء أعطيه.

قاله أبو عبيدة؛ فمعنى "يَدَّعُونَ" يتمنون من الدعاء.

وقيل: المعنى أن من ادعى منهم شيئاً فهو له؛ لأن الله تعالى قد طبعهم على ألا يدّعي منهم أحد إلا ما يجمُل ويحسن أن يدّعيه.

وقال يحيى بن سلام: "يَدَّعُونَ" يشتهون.

ابن عباس: يسألون.

والمعنى متقارب.

قال ابن الأنباري: "وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ" وقف حسن، ثم تبتدىء: "سَلَامٌ" على معنى ذلك لهم سلام.

ويجوز أن يرفع السلام على معنى ولهم ما يدّعون مسلّم خالص.

فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على "مَا يَدَّعُونَ".

وقال الزجاج: "سلام" مرفوع على البدل من "ما" أي ولهم أن يسلّم الله عليهم، وهذا منى أهلِ الجنة.

وروي من حديث جرير بن عبد الله البَجَليّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الربّ تعالى قد اطلع عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ . فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركاته عليهم في ديارهم " ذكره الثعلبي والقشيري .

ومعناه ثابت في صحيح مسلم ، وقد بيّناه في "يونس" عند قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [ يونس : 26 ] .

ويجوز أن تكون "ما" نكرة ، و "سَلَامٌ" نعتاً لها ؛ أي ولهم ما يدعون مسلّم .

ويجوز أن تكون "ما" رفع بالابتداء ، و "سلام" خبر عنها .

وعلى هذه الوجوه لا يوقف على "وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ" .

وفي قراءة ابن مسعود "سلاماً" يكون مصدراً ، وإن شئت في موضع الحال ؛ أي ولهم ما يدعون ذا سلام أو سلامة أو مسلّماً ؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على "يَدَّعُونَ" .

وقرأ محمد بن كعب القُرَظي "سِلمٌ" على الاستئناف كأنه قال : ذلك سلم لهم لا يتنازعون فيه ، ويكون "وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ" تاماً .

ويجوز أن يكون "سَلاَمٌ" بدلاً من قوله : ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ ، وخبر "مَا يَدَّعُونَ" "لِهم" .

ويجوز أن يكون "سَلاَمٌ" خبراً آخر ، ويكون معنى الكلام أنه لهم خالص من غير منازع فيه .

﴿ قَوْلاً ﴾ مصدر على معنى قال الله ذلك قولاً .

أو بقوله قولاً ، ودلّ على الفعل المحذوف لفظ مصدره .

ويجوز أن يكون المعنى ولهم ما يدعون قولاً ؛ أي عدة من الله .

فعلى هذا المذهب الثاني لا يحسن الوقف على "يَدَّعُونَ" .

وقال السجستاني : الوقف على قوله "سَلاَمٌ" تام ؛ وهذا خطأ لأن القول خارج مما قبله .

(98/647)

---

قوله تعالى : ﴿ وامتازوا اليوم أَيُّها المجرمون ﴾ ويقال تميّزوا وامازوا وامتازوا بمعنى ؛ ومزته فانماز وامتاز ، وميّزته فتميّز .

أي يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال حين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة ؛ أي اخرجوا من جملتهم .

قال قتادة : عزلوا عن كل خير .

وقال الضحاك : يمتاز المجرمون بعضهم من بعض ؛ فيمتاز اليهود فرقة ، والنصارى فرقة ، والمجوس فرقة ، والصابئون فرقة ، وعبدة الأوثان فرقة .

وعنه أيضاً : إن لكل فرقة في النار بيتاً تدخل فيه ويردّ بابه ؛ فتكون فيه أبداً لا تَرَى ولا تُرَى .

وقال داود بن الجرّاح : فيمتاز المسلمون من المجرمين ، إلا أصحاب الأهواء فيكونون مع المجرمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(99/647)

---

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) ﴾

الضمير في ﴿ لهم ﴾ لقريش ، و ﴿ ما بين أيديكم ﴾ ، قال قتادة ومقاتل : عذاب الأمم قبلكم ، ﴿ وما خلفكم ﴾ : عذاب الآخرة .

وقال مجاهد : عكسه .

وقال الحسن : خوفوا بما مضى من ذنوبهم وما يأتي منها .

وقال مجاهد أيضاً ، كقول الحسن : ﴿ ما تقدم من ﴾ ذنوبكم وما تأخر ، ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ .

وجواب إذا محذوف يدل عليه ما بعده ، أي أعرضوا .

﴿ وما تأتيهم من آية ﴾ : أي دأبهم الإعراض عند كل آية تأتيهم .

﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا ﴾ : لما أسلم حواشي الكفار من أقربائهم ومواليهم من المستضعفين ، قطعوا عنهم ما كانوا يواسونهم به ، وكان ذلك بمكة أولاً قبل نزول آيات القتال ، فندبهم المؤمنون إلى صلة قراباتهم فقالوا : ﴿ أنطعم من لو شاء الله أطعمه ﴾ .

وقيل : سحق قريش بسبب أذية المساكين من مؤمن وغيره ، فندبهم النبي ( صلى الله عليه وسلم ) إلى النفقة عليهم ، فقالوا هذا القول .

وقيل : قال فقراء المؤمنين : أعطونا ما زعمتم من أموالكم ، إنها لله ، فحرموهم وقالوا ذلك على سبيل الاستهزا .

وقال ابن عباس : كان بمكة زنادقة ، إذا أمروا بالصدقة قالوا : لا والله ، أيفقره الله ونطعمه نحن ؟ أو كانوا يسمعون المؤمنين يعلقون الأفعال بمشيئة الله : لو شاء الله لأغنى فلاناً ، ولو شاء لأعزه ، ولو شاء لكان كذا ، فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولون .

وقال القشيري : نزلت في قوم من الزنادقة لا يؤمنون بالصانع ، استهزاء بالمسلمين بهذا

القول .

وقال الحسن : ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ ، أي اليهود ، أمروا بإطعام الفقراء .

(100/647)

---

وجواب لو نشاء قوله : اطعمهم ، وورود الموجب بغير لام فصيح ، ومنه : ﴿ أن لو نشاء أصبناهم ﴾ ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ والأكثر مجيئه باللام ، والتصريخ بالموضعين من الكفر والإيمان دليل على أن المقول لهم هم الكافرون ، والقائل لهم هم المؤمنون ، وأن كل وصف حامل صاحبه على ما صدر منه ، إذ كل إناء بالذي فيه يرشح .

وأمروا بالانفاق ﴿ مما رزقكم الله ﴾ ، وهو عام في الإطعام وغيره ، فأجابوا بغاية المخالفة ، لأن نفي إطعامهم يقتضي نفي الإنفاق العام ، فكأنهم قالوا : لا ننفق ، ولا أقل الأشياء التي كانوا يسمحون بها ويؤثرون بها على أنفسهم ، وهو الإطعام الذي به يفتخرون ، وهذا على سبيل المبالغة .

كمن يقول لشخص : أعط لزيد ديناراً ، فيقول : لا أعطيه درهماً ، فهذا أبلغ لا أعطيه ديناراً .

والظاهر أن قوله : ﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ من تمام كلام الكفار يخاطبون المؤمنين ،

أي حيث طلبتم أن تطعموا من لا يريد الله إطعامه ، إذ لو أراد الله إطعامه لأطعمه هو .

ويجوز أن يكون من قول الله لهم استأنف زجرهم به ، أو من قول المؤمنين لهم .

ثم حكي تعالى عنهم ما يقولون على سبيل الاستهزاء والتعجيل : لما توعدون به ؟ أي متى يوم القيامة الذي أنتم توعدونا به ؟ أو متى هذا العذاب الذي تهددوننا به ؟ وهو سؤال على سبيل الاستهزاء منهم لما أمروا بالتقوى ، ولا يتقي إلا مما يخاف ، وهم غير مؤمنين .

سألوا متى يقع هذا الذي تخوفونا به استهزاء منهم .

﴿ ما ينظرون ﴾ : أي ما ينتظرون .

ولما كانت هذه الصيحة لا بد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظروها ، وهذه هي النفخة الأولى تأخذهم فيهلكون ، وهم يتخاصمون ، أي في معاملاتهم وأسواقهم ، في أماكنهم من غير إمهال لتوصية ، ولا رجوع إلى أهل .



---

وفي الحديث : " تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه ، فما يطويانه حتى تقوم ، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه ، والرجل يرفع أكلته إلي فيه ، فما تصل إلي فيه حتى تقوم " وقيل : لا يرجعون إلى أهلهم قولاً ؛ وقيل : ولا إلى أهلهم يرجعون أبداً .

وقرأ أبي : يختصمون على الأصل ؛ والحرميان ، وأبو عمرو ، والأعرج ، وشبل ، وابن فنطنطين : بإدغام التاء في الصاد ونقل حركتها إلى الخاء ؛ وأبو عمرو أيضاً ، وقالون : يخالف بالاختلاس وتشديد الصاد ، وعنهما إسكان الخاء وتخفيف الصاد من خصم ؛ وباقي السبعة : بكسر الخاء وشد الصاد ؛ وفرقة : بكسر الياء إتباعاً لكسرة الخاء وشد الصاد .

وقرأ ابن محيصن : يرجعون ، بضم الياء وفتح الجيم .

وقرأ الأعراج : في الصور ، بفتح الواو ؛ والجمهور : بإسكانها .

وقرىء : من الأجداف ، بالفاء بدل الثاء .

وقرأ الجمهور : بالثاء ، وينسلون ، بكسر السين ؛ وابن أبي إسحاق ، وأبو عمرو : بخلاف عنه بضمها .

وهذه النفخة هي الثانية التي يقوم الناس أحياء عنها .

ولا تنافر بين ﴿ ينسلون ﴾ وبين ﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ لأنه لا ينسل إلا قائماً ، ولأن تفاوت الزمانين يجعله كأنه زمان واحد .

وقرأ ابن أبي ليلى : يا ويلتنا ، بتاء التأنيث ؛ وعنه أيضاً : يا ويلتى ، بالتاء بعدها ألف بدل من ياء الإضافة ، ومعنى هذه القراءة : أن كل واحد منهم يقول يا ويلتى .

والجمهور : و﴿ من بعثنا ﴾ : من استفهاما ، وبعث فعل ماض ؛ وعلي ، وابن عباس ،

والضحاك ، وأبو نهيك : من حرف جر ، وبعثنا مجرور به .

والمرقد : استعارة عن مضجع الميت ، واحتمل أن يكون مصدراً ، أي من رقادنا ، وهو أجود .

أو يكون مكاناً ، فيكون المفرد فيه يراد به الجمع ، أي من مراقدنا .

وما روي عن أبيّ بن كعب ومجاهد ، وقتادة : من أن جميع البشر ينامون نومة قبل الحشر ، فقالوا : هو غير صحيح الإسناد .

وقيل : قالوا من مرقدناً ، لأن عذاب القبر كان كالرقاد في جنب ما صاروا إليه من عذاب جهنم .

(102/647)

---

والظاهر أن هذا ابتداء كلام ، فقيل : من الله ، وعلى سبيل التوبيخ والتوقيف على إنكارهم .

وقال الفراء : من قول الملائكة .

وقال قتادة ، ومجاهد : من قول المؤمنين للكفار ، على سبيل التقريع .

وقال ابن زيد : من قول الكفرة ، أو البعث الذي كانوا يكذبون به في الدنيا ، قالوا ذلك .

والاستفهام بمن سؤال عن الذي بعثهم ، وتضمن قوله : ﴿ هذا ما وعد الرحمن ﴾ ، ذكر الباعث ، أي الرحمن الذي وعدكموه ، وما يجوز أن تكون مصدرية على سمة الموعود ، والمصدر فيه بالوعد والصدق ، وبمعنى الذي ، أي هذا الذي وعده الرحمن . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(103/647)

---

وقال أبو السعود :

﴿ فاليوم لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ ﴾

(104/647)

---

من النُّفوس برةً كانتْ أو فاجرةً ﴿ شَيْئًا ﴾ من الظُّلم ﴿ وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي الإجزاءُ ما كنتُم تعملونَه في الدُّنيا على الاستمرار من الفكرِ والمعاصي على حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مقامَه للتَّنبيه على قُوَّةِ التَّلازمِ والارتباطِ كأنَّهما شيءٌ واحدٌ أو إلاَّ بما كنتُم تعملونَه أي بمقابلتِه أو بسببهِ . وتعميمُ الخطابِ للمؤمنين يردُّه أنَّه تعالى يُوفِّيهم

أجورهم ويزيدَهم من فضلِه أضعافاً مضاعفةً وهذه حكايةٌ لما سيُقال لهم حين يرَون العذابَ المعدَّ لهم تحقيقاً للحقِّ وتقريعاً لهم. وقوله تعالى ﴿ إِنَّ أَصحاب الجنة اليوم فِى شُغُلٍ فاكهون ﴾ من جُملة ما سيُقال لهم يؤمئذٍ زيادةً لحسرتهم وندامتِهم فإنَّ الأخبارَ بحسن حالِ أعدائِهم إثرَ بيان سُوء حالِهم مِّما يزيدُهم مساءةً على مساءةٍ. وفي هذه الحكايةِ مزجرةٍ لهؤلاءِ الكفَرة عمَّا هم عليه ومدعاةٌ إلى الاقتداء بسيرةِ المُؤمنين. والشُّغُل هو الشَّأْنُ الذي يصدُّ المرءَ ويشغله عمَّا سواهُ من شؤونه لكونِه أهمَّ عنده من الكُلِّ إمَّا لإيجابهِ كمالَ المسرَّةِ والبهجةِ أو كمالِ المساءةِ والغمِّ. والمرادُ ههنا هو الأولُ وما فيه من التَّنكيرِه والإبهامِ للإيذان بارتفاعِه عن رتبةِ البيانِ والمراد به ما هم فيه من فنون الملاذِّ التي تلهيهم عمَّا عداهَا بالكلية، وإمَّا أنَّ المرادَ به افتضاضُ الأبكارِ أو السَّماعُ وضربُ الأوتارِ أو التَّزاورُ أو ضيافةُ الله تعالى أو شغلُهم عمَّا فيه أهلُ النَّارِ على الإطلاقِ أو شغلُهم عن أهاليهم في النَّارِ لا يهمهم أمرُهم ولا يُبالون بهم كيلا يُدخلَ عليهم تنغيصٌ في نعيمهم كما روى كلٌّ واحدٍ منها عن واحدٍ من أكابرِ السَّلفِ فليس مرادُهم بذلك حصرَ شغلِهم فيما ذكرُوه فقط بل بيانَ أنَّه من جُملةِ اشتغالِهم. وتخصيصُ كلَ منهم كلاًّ من تلكَ الأمورِ بالذكرِ محمولٌ على

إقضاءِ مقامِ البيانِ إياَّه وهو مع جارِه خبرٌ لأنَّ وفاكهون خبر آخرُ لها أي أنهم مستقرُّون في شغل وأي شغلٍ في شغل عظيمِ الشّأنِ متنعمون بنعيمٍ مقيم فائزون بملك كبيرٍ . والتَّعبيرُ عن حالِهم هذه بالجملةِ الاسميةِ قبل تحقُّقِها بتنزيلِ المرتقب المتوقَّعِ منزلة الواقع للإيذان بغايةِ سرعةِ تحقُّقها ووقوعِها ولزيادةِ مساءة المخاطَبين بذلك قرىء في شُغْل بسكون العينِ وفي شَغَل بفتحتين وبفتحةٍ وسكون والكلُّ لغاتٌ وقُرىء فكهون للمبالغةِ وفَكُهون بضمِّ الكاف وهي لغةٌ كنطُس وفاكِهينَ وفكهِين على الحالِ من المستكنِّ في الظَّرف .

(106/647)

وقوله تعالى : ﴿ هُمْ وأزواجهم فِى ظلال عَلَى الارائك مُتَّكِئُونَ ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ كيفيَّةِ شغلِهم وتفكّههم وتكميلهما بما يزيدهُم بهجة وسروراً من شركة أزواجِهم لهم فيما هُم فيه من الشّغل والفكاهةِ على أنَّ هم مبتدأ وأزواجهم عطفٌ عليه ومتكئون خبر والجارّانِ صلتانِ له قدمتا عليه لمراعاة الفواصلِ أو هو والجاران بما تعلّقا به من الاستقرارِ أخبارٌ مترتبة وقيل : الخبر هو الظّرفُ الأولُ والثّاني مستأنفٌ على أنَّه متعلق بمتكئون وهو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ وقيل : على أنَّه خبرٌ مقدَّمٌ ومتكئون مبتدأٌ مؤخَّرٌ . وقُرىء متكين بلا

همزةٍ نصباً على الحالِ من المستكنّ في الظّرفينِ أو أحدِهما وقيل : هم تأكيدٌ للمستكنّ في خبرانِ ومتكئون خبرٌ آخرُ لها وعلى الأرائكِ متعلّقٌ به وكذا في ظلال أو هذا بمضمرٍ هو حالٌ من المعطوفين والظِّلال جمع ظل كشعابٍ جمع شعبٍ أو جمع ظُلّةٍ كقِباب جمع قُبّةٍ ويؤيده في ظُللٍ ، والأرائك جمعُ أريكةٍ وهي السّريرُ المزين بالثياب والسُّتور قال ثعلبٌ : لا تكون أريكةٌ حتى تكونَ عليها حجلةٌ وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فاكهة ﴾ الخ بيانٌ لما يتمتعون به في الجنةِ من المآكلِ والمشاربِ وما يتلذّذون به من الملاذّ الجسمانيةِ والرُّوحانيةِ بعد بيانِ ما لهُم فيها من مجالسِ الأنسِ ومحافلِ القدسِ تكميلاً لبيانِ كيفيةِ ما هُم فيه من الشغلِ والبهجةِ أي لهم فيها فاكهةٌ كثيرةٌ من كلِّ نوعٍ من أنواعِ الفواكه وما في قولِه تعالى : ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ موصولةٌ أو موصوفةٌ عبّر بها عن مدعوَعظيمِ الشّأنِ معيَّنٍ أو مبهمٍ إيذاناً بأنَّه الحقيقُ بالدُّعاءِ دونَ ما عداهُم ثم صرّح به رَوْماً لزيادةِ التَّقريرِ بالتّحقيقِ بعد التّشويقِ كما ستعرفه أو هي باقيةٌ على عمومها قصد بها التّعميمِ بعد تخصيصِ بعضِ الموادِّ المعتادةِ بالذكر ، وإيّاً ما كانَ فهو مبتدأ ولهم

خبرُه والجملةُ معطوفةٌ على الجملةِ السّابقةِ وعدمُ الاكتفاءِ بعطفِ ما يدّعون على فاكهة لئلاّ يتوهم كون ما عبارةً عن توابعِ الفاكهةِ وتماتها والمَعْنى ولهم ما يدّعون به لأنفسِهم من مدعوَ عظيمِ الشّأنِ أو كل ما يدّعُون به كائناً ما كانَ من أسبابِ البهجةِ وموجباتِ السرُّورِ ، وأيّاً ما كان ففيهِ دلالةٌ على أنَّهم في أقصى غايةِ البهجةِ والغبطةِ ويدّعون يفتعلونَ من الدُّعاءِ كما أُشيرَ إليه مثل اشتوى واجتمَل إذا شوَى وجمل لنفسهِ وقيل : بمعنى يتداعون كالارتماءِ بمعنى التّرامي وقيل بمعنى يتمّنون من قولِهم ادعُ على ما شئْتَ بمعنى تمنَّه علي وقال الزَّجّاجُ هو من الدُّعاءِ أي ما يدعُو به أهلُ الجنّةِ يأتيهم فيكون الافتعالِ بمعنى الفعلِ كالاحتمالِ بمعنى الحملِ والارتحالِ بمعنى الرِّحلةِ ويعضدُه القراءةُ بالتَّخفيفِ كما ذكره الكواشيُّ .

(108/647)

---

وقوله تعالى : ﴿ سلام ﴾ على التَّقديرِ الأوّلِ بدلٌ من ما يدّعُون . أو خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ . وقوله تعالى ﴿ قَوْلاً ﴾ مصدرٌ مؤكّدٌ لفعلٍ هو صفةٌ لسلامٌ وما بعده من الجارِّ متعلّقٌ بمضمر هو صفةٌ له كأنّه قيل ولهم سلامٌ أو ما يدّعُون سلامٌ يُقال لهم قَولاً كائناً ﴿ مِنْ ﴾ جهةِ ﴿ رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ أي يُسلَّم عليهم من جهتِه تعالى بواسطةِ المَلَكِ أو بدونِها مبالغةً في تعظيمهم . قال ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما : والملائكةُ يدخلُون عليهم بالتَّحيةِ من ربِّ العالمين . وأمّا

على التَّقديرِ الثَّاني فقد قيل إنَّه خبرٌ لمَا يدّعُون ولهم لبيان الجهةِ كما يُقال لزيدٍ الشّرَفُ متوفّرٌ . على أنّ الشّرَف مبتدأٌ ومتوفّرٌ خبرُه والجارُّ والمجرورُ لبيانِ مَن له ذلك أي ما يدّعُون سالمٌ لهم خالصٌ لا شوبَ فيه . وقولاً حينئذٍ مصدرٌ مؤكّدٌ لمضمونِ الجملةِ أي عدةٌ من ربَ رحيمٍ . والأوجهُ أنْ ينتصبَ على الاختصاص . وقيل هو مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ ، أي لهم سلامٌ أي تسليمٌ قولاً من ربَ رحيمٍ . أو سلامةٌ من الآفاتِ فيكون قولاً مصدرا مؤكداً لمضمونِ الجملة كما سبقَ وقيل : تقديرُه سلامٌ عليهم فيكون حكايةً لما سيقالُ لهم من جهتِه تعالى يومئذٍ وقيل : خبرُه الفعلُ المقدّرُ ناصباً لقولاً وقيل : خبرُه من ربَ رحيمٍ . وقُرِىء سلاماً بالنّصبِ على الحاليّةِ أي لهم مرادُهم سالماً خالِصاً . وقُرِىء سلمٌ وهو بمعنى السّلامِ في المعنيين .

(109/647)

---

﴿ وامتازوا اليوم ﴾ عطفٌ إمَّا على الجملة السَّابقةِ المسوقة لبيان أحوالِ أهل الجنّةِ لا على أنّ المقصودَ عطف فعل الأمر بخصُوصِه حتّى يَتحمّلَ له مشاكل يصحُّ عطفه عليه ، بل على أنَّه عطفُ قصّةِ سوء حال هؤلاءِ وكيفيّةِ عقابِهم على قصّةِ حُسن حال أولئك ووصف ثوابِهم كما مرّ في قوله تعالى : ﴿ وَبَشّرِ الذين ءامَنُواْ ﴾ الآيةَ وكأنّ تغيير السّبكِ

لتخييل كمالِ التّباينِ بين الفريقين وحاليهما . وإمّا على مضمرٍ تنساق إليه حكايةُ حال أهل الجنَّةِ كأنَّه قيل : إثرَ بيان كونِهم في شغل عظيمِ الشّأنِ وفوزهم بنعيم مقيمٍ يقصرُ عنه البيانُ فليقرُّوا بذلك عيناً وامتازُوا عنهم ﴿ أَيُّهَا المجرمون ﴾ إلى مصيرِكم . وعن قَتادةَ : اعتزِلُوا عن كلِّ خبر . وعن الضَّحّاكِ : لكلِّ كافر بيتٌ من النَّارِ يكون فيه لا يَرى ولا يُرى . وأمّا ما قيل : من أنَّ المضمرَ فليمتازوا فبمعزلٍ من السَّدادِ لما أنَّ المحكيَّ عنهم ليس مصيرهم إلى ما ذُكر من الحال المرضيةِ حتَّى يتسنَّى ترتيب الأمر المذكور عليه بل إنَّما هو استقرارُهم عليها بالفعل ، وكونُ ذلك بطريق تنزيل المترقِّب منزلَة الواقع لا يُجدي نفعاً لأنَّ مناطَ الإضمار إنسياقُ الأفهام إليه وانصبابُ نظم الكلامِ عليه ، فبعد ما نزلت تلك الحالة منزلَة الواقع بالفعل لما اقتضاه المقامُ من النُّكتةِ البارعة بالحكمة الرَّائعةِ حسبما مرَّ بيانه وأُسقط كونها مترقَّبةً عن درجة الاعتبار بالكُلِّيةِ يكون التَّصدّي لإضمار شيء يتعلَّقُ به إخراجاً للنَّظمَ الكريم عن الجَزالة بالمرَّةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

*(110/647)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ فاليوم ﴾ الحاضر أو المعهود وهو يوم القيامة الدال نفخ الصور عليه ؛ وانتصب على

الظرف والعامل فيه قوله تعالى : ﴿ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ ﴾ من النفوس برة كانت أو فاجرة ﴿ شَيْئًا ﴾ من الظلم فهو نصب على المصدرية أو شيئاً من الأشياء على أنه مفعول به على الحذف والإيصال ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي إلا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من الكفر والمعاصي فالكلام على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه للتنبيه على قوة التلازم والارتباط بينهما كأنهما شيء واحد أو إلا بما كنتم تعملونه أي بمقابلته أو بسببه ، وقيل : لا تجزوم إلا نفس ما كنتم تعملونه بأن يظهر بصورة العذاب ، وهذا حكاية عما يقال للكافرين حين يرون العذاب المعد لهم تحقيقاً للحق وتقريعاً لهم ، واستظهر أبو حيان أن الخطاب يعم المؤمنين بأن يكون الكلام إخباراً من الله تعالى عما لأهل المحشر على العموم كما يشير إليه تنكير ﴿ نَفْسٌ ﴾ واختاره السكاكي ، وقيل : عليه يأباه الحصر لأنه تعالى يوفي المؤمنين أجورهم ويزيدهم من فضله أضعافاً مضاعفة .

ورد بأن المعنى أن الصالح لا ينقص ثوابه والطالح لا يزاد عقابه لأن الحكمة تأبى ما هو على صورة الظالم أما زيادة الثواب ونقص العقاب فليس كذلك أو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ إنكم لا تجزون إلا من جنس عملكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

﴿ إِنَّ أَصحاب الجنة اليوم فِى شُغُلٍ فاكهون ﴾ على تقدير كون الخطاب السابق خاصاً بالكفرة من جملة ما سيقال لهم يومئذ زيادة لحسرتهم وندامتهم فإن الإخبار بحسن حال أعدائهم إثر بيان سوء حالهم مما يزيدهم مساءة على مساءة وفي حكاية ذلك مزجرة لهؤلاء الكفرة عما هم عليه ومدعاة إلى الاقتداء بسيرة المؤمنين ، وعلى تقدير كونه عاماً ابتداء كلام وإخبار لنا بما يكون في يوم القيامة إذا صار كل إلى ما أعد لهم من الثواب والعقاب ، والشغل هو الشأن الذي يصدر المرء ويشغله عما سواه من شؤنه لكونه أهم عنده من الكل إما لإيجابه كمال المسرة أو كمال المساءة والمراد ههنا هو الأول ، وتنكيره للتعظيم كأنه شغل لا يدرك كنهه ، والمراد به ما هم فيه من النعيم الذي شغلهم عن كل ما يخطر بالبال ، وعن ابن عباس .

وابن مسعود .

وقتادة هو افتضاض الأبكار وهو المروي عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس ضرب الأوتار .

وقيل السماع وروى عن وكيع .

وعن ابن كيسان التزاور ، وقيل ضيافة الله تعالى وهي يوم الجمعة في الفردوس الأعلى عند كيب المسك وهناك يتجلى سبحانه لهم فيرونه جل شأنه جميعاً ، وعن الحسن نعيم شغلهم

عما فيه أهل النار من العذاب ، وعن الكلبي شغلهم عن أهاليهم من أهل النار لا يذكرونهم لئلا يتنغصوا ، ولعل التعميم أولى .

وليس مراد أهل هذه الأقوال بذلك حصر شغلهم فيما ذكروه فقط بل بيان أنه من جملة أشغالهم ، وتخصيص كل منهم كلا من تلك الأمور بالذكر محمول على اقتضاء مقام البيان إياه ، وأفرد الشغل باعتبار أنه نعيم وهو واحد بهذا الاعتبار ، والجار مع مجروره متعلق بمحذوف وقع خبراً لأن و﴿ فاكهون ﴾ خبر ثان لها وجوز أن يكون هو الخبر و﴿ فِى شُغُلٍ ﴾ متعلق به أو حال من ضميره ؛ والمراد بفاكهون على ما أخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

عن ابن عباس فرحون ، وأخرجوا عن مجاهد أن المعنى يتعجبون بما هم فهي .

(112/647)

---

وقال أبو زيد : الفاكه الطيب النفس الضحوك ولم يسمع له فعل من الثلاثي ، وقال أبو مسلم : إنه مأخوذ من الفاكهة بالضم وهي التحدث بما يسر ، وقيل : التمتع والتلذذ قيل ﴿ فاكهون ﴾ ذووا فاكهة نحو لابن وتامر .

وظاهر صنيع أبي حيان اختياره ، والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحققها لتنزيل المترقب المتوقع منزلة الواقع للإيذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها ، وفيه على تقدير خصوص الخطاب زيادة لمساءة المخاطبين .

وقرأ الحرميان .

وأبو عمرو ﴿ شُغُلٍ ﴾ بضم الشين وسكون الغين وهي لغة في شغل بضمتين للحجازيين كما قال الفراء .

وقرأ مجاهد .

وأبو السمال .

وابن هبيرة فيما نقل عنه ابن خالويه بفتحتين ، ويزيد النحوي .

وابن هبيرة أيضاً فيما نقل عنه أبو الفضل الرازي بفتح الشين وإسكان العين وهما لغتان أيضاً فيه .

وقرأ الحسن .

وأبو جعفر .

وقتادة .

وأبو حيوة .

ومجاهد .

وشيبة .

وأبو رجاء .

ويحيى بن صبيح .

ونافع في رواية ﴿ فاكهون ﴾ جمع فكه كحذر وحذرون وهو صفة مشبهة تدل على المبالغة والثبوت ، وقرأ طلحة .

والأعمش ﴿ فاكهين ﴾ بالألف وبالياء نصباً على الحال و ﴿ فِى شُغُلٍ ﴾ هو الخبر ، وقرىء ﴿ فَكِهِينَ ﴾ بغير ألف وبالياء كذلك ، وقرىء ﴿ فاكهون ﴾ بفتح الفاء وضم الكاف وفعل بضم العين من أوزان الصفة المشبهة كنطس وهو الحاذق الدقيق النظر الصادق الفراسة



---

﴿ هُمْ وأزواجهم فِى ظلال عَلَى الأرائك مُتَّكِئُونَ ﴾ استئناف مسوق لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلها بما يزيدهم بهجة وسروراً من شركة أزواجهم ، فهم مبتدأ و ﴿ أزواجهم ﴾ عطف عليه و ﴿ مُتَّكِئُونَ ﴾ خبر والجاران صلة له قيل قدما عليه لمراعاة الفواصل أو هو والجاران بما تعلقا به من الاستقرار أخبار مترتبة ، وجوز أن يكون الخبر هو

الرف الأول والظرف الثاني متعلق بمتكئون وهو خبر مبتدأ محذوف أي هم متكون على الأرائك أو الظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم و﴿ متكون ﴾ مبتدأ مؤخر والجملة على الوجهين استئناف بياني ، وقيل : ﴿ هُمْ ﴾ تأكيد للمستكن في خبر ( إن ) أعني ( فاكهون ) أو ﴿ في شغل ﴾ [ يس : 55 ]

.

ومنعه بعضهم زعماً منه أن فيه الفصل بين المؤكد والمؤكد بأجنبي و﴿ مُتَّكِئُونَ ﴾ خبر آخر لها و﴿ على الارائك ﴾ متعلق به وكذا ﴿ فِى ظلال ﴾ أو هو متعلق بمحذوف هو حال من المعطوف والمعطوف عليه ، ومن جوز مجيء الحال من المبتدأ جوز هذا الاحتمال على تقدير أن يكون ﴿ هُمْ ﴾ مبتدأ أيضاً ، والضلال جمع ظل وجمع فعل على فعال كثير كشعب وشعاب وذئب وذئاب ، ويحتمل أن يكون جمع ظلة بالضم كقبة وقباب وبرمة وبرام ، وأيد بقراءة عبد الله .

والسلمي .

وطلحة .

وحمزة .

والكسائي ﴿ فِي ظُلَلٍ ﴾ بضم ففتح فإنه جمع ظلة لا ظل والأصل توافق القراءات ، ومنذر بن سعيد يقول : جمع ظلة بالكسر وهي لغة في ظلة بالضم فيكون كلقحة ولقاح وهو

قليل .

وفسر الإمام الظل بالوقاية عن مظان الألم ؛ ولأهل الجنة من ظل الله تعالى ما يقيهن الأسواء والجمع باعتبار مالك واحد منهم من ذلك أو هو متعدد للشخص الواحد باعتبار تعدد ما منه الوقاة .

ويحتمل أنه جمع باعتبار كونه عظيم الشأن جليل القدر كجمع اليد بمعنى القدرة على قول في قوله تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بأَيدٍ ﴾ [ الذاريات : 47 ] .

(114/647)

---

وفسر أبو حيان الظلال جمع ظلة بالملابس ونحوها من الأشياء التي تظل كالستور ، وأقول قال ابن الأثير الظل الفيء الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس أي شيء كان ، وقيل هو مخصوص بما كان منه إلى زوال الشمس وما كان بعده فهو الفيء ، وأنت تعلم أن الظل بالمعنى الذي تعتبر فيه المس لا يتصور في الجنة إذ لا شمس فيها ، ومن هنا قال الراغب : الظل ضد الضح وهو أعم من الفيء فإنه يقال ظل الليل وظل الجنة ، وجاء في ظلها ما يدل على أنه كالظل الذي يكون في الدنيا قبل طلوع الشمس ، فقد روى ابن القيم في حادي الأرواح عن ابن عباس أنه سئل ما أرض الجنة ؟ قال : مرمرة بيضاء من فضة كأنها مرآة قيل

: ما نورها ؟ قال : ما رأيت الساعة التي قبل طلوع الشمس فذلك نورها إلا أنها ليس فيها شمس ولا زمهرير ، وذكر ابن عطية نحو هذا لكن لم يعزه .

وتعقبه أبو حيان بأنه يحتاج إلى نقل صحيح وكيف يكون ذلك وفي الحديث ما يدل على أن حوراء من حور الجنة لو ظهرت لأضاءت منها الدنيا أو نحو من هذا ، ويمكن الجواب بأن المراد تقريب الأمر لفهم السائل وإيضاح الحال بما يفهمه أو بيان نورها في نفسها لا الأعم منه ومما يحصل فيها من أنوار سكانها الحوار العين وغيرهم .



---

نعم نورها في نفسها أتم من نور الدنيا قبل طلوع الشمس كما يومىء إليه ما أخرجه ابن ماجه عن أسامة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا هل مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها أي لا عدل ولا مثل وهي ورب الكعبة نور يتلألأ " الحديث ، ويجوز حمل الظلال جمع ظل هنا على المعنى وجمعه للتعدد الاعتباري ، ويجوز حمل الظل على العزة والمناعة فإنه قد يعبر به عن ذل وبهذا فسر الراغب قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴾ [ المرسلات : 41 ] وهو غير معنى الوقاية عن مظان الألم الذي ذكره الإمام ، ويجوز حمله على أنه جمع ظلة على الستور التي تكون فوق الرأس من سقف وشجر ونحوهما ووجود

ذلك في الجنة مما لا شبهة فيه فقد جاء في الكتاب وصح في السنة أن فيها غرفاً وهي ظاهرة فيما كان ذا سقف بل صرح في بعض الأخبار بالسقف وجاء فيها أيضاً ما هو ظاهر في أن فيها شجراً مرتفعاً يظل من تحته، وقد صح من رواية الشيخين أنه صلى الله عليه وسلم قال: "إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها فاقرؤا إن شئتم ﴿ وظل مَّمْدُودٍ ﴾" وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس أنه قال الظل الممدود شجرة في الجنة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد في ظلها مائة عام في كل نواحيها يخرج إليها أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون في ظلها الخبر، وابن الأثير يقول: معنى في ظلها في ذراها وناحيتها، وكان هذا لدفع أنها تظل من الشمس أو نحوها، و﴿ الارائك ﴾ جمع أريكة وهو السرير في قول، وقيل: الوسادة حكاه الطبرسي.

وقال الزهري: كل ما اتكئ عليه فهو أريكة، وقال ابن عباس: لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة فإن كان سرير بغير حجلة لا تكون أريكة وإن كانت حجلة بغير سرير لم تكن أريكة فالسرير والحجلة أريكة.

وفي "حادي الأرواح" لا تكون أريكة إلا أن يكون السرير في الحجلة وأن يكن على السرير فراش ، وفي "الصحاح الأريكة" سرير منجد مزين في قبة أو بيت ، وقال الراغب : الأريكة حجلة على سرير والجمع أرائك ، وتسميتها بذلك إما لكونها في الأرض متخذة من أراك وهو شجر معروف أو لكونها مكاناً للإقامة من قولهم أرك بالمكان أروكا ، وأصل الأروك الإقامة على رعي الأراك ثم تجوز به في غيره من الإقامات .

وبالجملة إن كلام الأكثرين يدل على أن السرير وحده لا يسمى أريكة نعم يقال للمتكىء على أريكة متكىء على سرير فلا منافاة بين ما هنا وقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ [ الطور : 20 ] لجواز أن تكون في السرر في الحجال فتكون أرائك ، ويجوز أن يقال : إن أهل الجنة تارة يتكئون على الأرائك وأخرى يتكئون على السرر التي ليست بارائك ، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما ورد في وصف سررهم رزقنا الله تعالى وإياكم الجلوس على هاتيك السرر والاتكاء مع الأزواج على الأرائك ، والظاهر أن المراد بالأزواج أزواجهم المؤمنات اللاتي كن لهم في الدنيا ، وقيل أزواجهم اللاتي متن ولم يتزوجن في الدنيا فزوجهن الله تعالى في الجنة من شاء من عباده بل الأعم من ذلك كله ومن المؤمنات اللاتي تزوجن في الدنيا بأزواج ماتوا كفاراً فأدخلوا النار مخلدين فيها وأدخلن الجنة كامرأة فرعون فقد جاء في الأخبار أنها تكون زوجة نبينا صلى الله عليه وسلم وجوز أن يكون المراد بأزواجهم أشكالهم في الإحسان وأمثالهم في الايمان كما قال سبحانه : ﴿ وَءاخَرُ مِن

شَكْلِهِ أزواج ﴾ [ص : 85] وقريب منه ما قيل المراد به أخلاؤهم كما في قوله تعالى :

﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وأزواجهم ﴾ [الصافات : 22] وقيل يجوز أن يراد به ما يعم الاشكال والإخلاء ومن سمعت أولاً ، وأنت تعلم بعد إرادة ذلك وكذا إرادة الاشكال أو الإخلاء بالخصوص .

(117/647)

---

﴿ لَهُمْ فِيهَا فاكهة ﴾ بيان لما يتمعون به في الجنة من المآكل والمشارب وما يتلذذون به من الملاذ الجسماني والروحانية بعد بيان ما لهم فيها من مجالس الإنس ومحافل القدس تكميلاً لبيان كيفية ما هم فيه من الشغل والبهجة كذا قيل ، ويجوز أن يكون استئنافاً بيانياً وقع جواب سؤال نشأ مما يدل عليه الكلام السابق من اشتغالهم بالإنس واتكائهم على الأراشك عدم تعاطيهم أسباب المأكل والمشرب فكأنه قيل : إذا كان حالهم ما ذكر فكيف يصنعون في أمر مأكلهم ؟ فأجيب بقوله سبحانه : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فاكهة ﴾ وهو مشير إلى أن لهم من المأكل ما لهم على أتم وجه ، وأفيد أن فيه إشارة إلى أنه لا جوع هناك وليس الأكل لدفع ألم الجوع وإنما مأكولهم فاكهة ولو كان لحماً ، والتنوين للتفخيم أي فاكهة جليلة الشأن ، وفي قوله سبحانه : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فاكهة ﴾ دون يأكلون فيها فاكهة إشارة إلى كون زمام الاختيار

بأيديهم وكونهم مالكين قادرين فإن شاؤا أكلوا وإن شاؤا أمسكوا .

﴿ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ أي ما يدعون به لأنفسهم أي لهم كل ما يطلبه أحد لنفسه لا أنهم يطلبون فإنه حاصل كما إذا سألك أحد فقلت : لك ذلك تعني فلم تطلب أو لهم ما يطلبون بالفعل على أن هناك طلباً وإجابة لأن الغبطة بالإجابة توجب اللذة بالطلب فإنه مرتبة سنية لا سيما والمطلوب منه والمجيب هو الله تعالى الملك الجليل جل جلاله وعم نواله ، فيدعون من الدعاء بمعنى الطلب ، وأصله يد تعيون على وزن يفتعلون سكنت الياء بعد أن ألقيت حركتها على ما قبلها وحذفت لسكونها وسكون الواو بعدها ، وقيل : بل ضمت العين لأجل واو الجمع ولم يلق حركة الياء عليها وإنما حذفت استثقالاً ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين فصار يد تعون فقلبت التاء دالاً وأدغمت ، وافتعل بمعنى فعل الثلاثي كثير ومنه اشتوى بمعنى شوى واجتمل بمعنى جمل أي أذاب الشحم .

قال لبيد :

فاشتوى ليلة ريح واجتمل . . . .

و ﴿ لَهُمْ ﴾ خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر وهي موصولة والجملة بعدها صلة والعائد محذوف وهو إضما ضمير مجرور أو ضمير منصوب على الحذف والإيصال ، وجوز أن تكون منا نكرة موصوفة وأن تكون مصدرية فالمصدر حينئذ مبتدأ وهو خلاف الظاهر ، والجملة عطف على الجملة قبلها ، وعدم الاكتفاء بعطف ﴿ مَا ﴾ على ﴿ فاكهة ﴾ لئلا يتوهم كونها عبارة عن توابع الفاكهة ومتمماتها .

وجوز أن يكون ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ من الافتعال بمعنى التفاعل كارتموه بمعنى تراموه أي لهم ما يتداعون ، والمعنى كل ما يصح أن يطلبه أحد من صاحبه فهو حاصل لهم أو ما يطلبه بعضهم من بعض بالفعل لما في ذلك من التحاب ، وأن يكون من الافتعال على ما سمعت أولاً إلا أن الادعاء بمعنى التمني .

قال أبو عبيدة : العرب تقول ادع على ما شئت بمعنى تمن على ، وتقول فلان في خير ما ادعى أي تمني أي لهم ما يتمنون ، قال الزجاج : وهو مأخوذ من الدعاء أي كل ما يدعونه أهل الجنة يأتيهم ، وقيل : افتعل بمعنى فعل فيدعون بمعنى يدعون من الدعاء بمعناه المشهور أي لهم ما كان يدعون به الله عز وجل في الدنيا من الجنة ودرجاتها .

سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58)

﴿ سلام ﴾ جوز أن يكون بدلاً من ﴿ ما ﴾ [ يس : 57 ] بدل بعض من كل ولزوم الضمير غير مسلم ، وقوله تعالى : ﴿ قَوْلاً ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف والجملة صفة

لاسماً ، وقوله تعالى : ﴿ مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ صفة ﴿ قَوْلاً ﴾ أي سلام يقال لهم قولاً من جهة رب رحيم أي يسلم عليهم من جهته تعالى بلا واسطة تعظيماً لهم .

(119/647)

---

فقد أخرج ابن ماجه وجماعة عن جابر قال : " قال النبي صلى الله عليه وسلم بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرعوا رؤسهم فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة وذلك قول الله تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ قال فينظر إليه وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم " وقيل بواسطة الملائكة عليهم السلام لقوله تعالى : ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ [ الرعد : 23 ، 24 ] وروى ذلك عن ابن عباس وعلى الأول الأكثرون ، وأما ما قيل إن ذلك سلام الملائكة على المؤمنين عند الموت فليس بشيء ، والبدلية المذكورة مبنية على أن ما عامة .

وجوز أن يكون بدل كل من كل على تقدير أن يراد بها خاص أو على ادعاء الاتحاد تعظيماً ، ولا بأس في إبدال هذه النكرة منها على تقدير موصوليتها لأنها نكرة موصوفة بالجملة بعدها ، على أنه يجوز أن يلتزم جواز إبدال النكرة من المعرفة مطلقاً من غير قبح .

ويجوز أن يكون ﴿ سلام ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة بعده صفته أي هو أو ذلك سلام يقال قولاً من رب رحيم ، والضمير لما وكذا الإشارة ، وجوز أن يكون صفة لما أي لهم ما يدعون سالم أو ذو سلامة مما يكره ، و ﴿ قَوْلاً ﴾ مصدر مؤكد لقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [ يس : 75 ] سلام أي عدة من رب رحيم ، وهذه الوصفية على تقدير كون ما نكرة موصوفة ولا يصح على تقدير كونها موصولة للتخالف تعريفاً وتنكيراً وأن يكون خبراً لما ، و ﴿ لَهُمْ ﴾ متعلق به لبيان الجهة كما يقال لزيد الشرف متوفر أي ما يدعون سالم لهم خالص لا شوب فيه ، ونصب ﴿ قَوْلاً ﴾ على ما سمعت آنفاً .

(120/647)

---

وفي "الكشاف" الأوجه أن ينتصب على الاختصاص وهو من مجازه فيكون الكلام جملة مفصولة عما سبق ولا ضير في نصب النكرة على ذلك ، وجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف أي ولهم سلام يقال قولاً من رب رحيم ، وقد الخبر مقدماً لتكون الجملة على أسلوب أخواتها لا ليسوغ الابتداء بالنكرة فإن النكرة موصوفة بالجملة بعدها ، وظاهر كلامهم تقدير العاطف أيضاً ويمكن أن لا يقدر ، وفصل الجملة على ما قيل لأنها كالتعليل لما تضمنته لآي قبلها فإن سلام الرب الرحيم منشأ كل تعظيم وتكريم ، وجوز على تقدير كونه

مبتدأ تقدير الخبر المحذوف عليهم؛ قال الإمام: فيكون ذلك إخباراً من الله تعالى في الدنيا كأنه سبحانه حكى لنا وقال جل شأنه:

﴿ إِنَّ أَصحاب اليوم فِى شُغُلٍ ﴾ [يس: 55] ثم لما كمل بيان حالهم قال: ﴿ سلام عَلَيْهِمْ ﴾ وهذا كما قال سبحانه: ﴿ سلام على نُوحٍ ﴾ [الصافات: 79] ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ [الصافات: 181] فيكون جل وعلا قد أحسن إلى عباده المؤمنين كما أحسن إلى عباده المرسلين ثم قال: وهذا وجه مبتكر جيد ما يدل عليه فنقول: أو نقول تقديره سلام عليكم ويكون هذا نوعاً من الالتفات حيث قال تعالى لهم كذا وكذا ثم قال سبحانه: ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ اه.

ووجه الابتداء بسلام في مثل هذا التركيب موصوفاً كان أم لا معروف عند أصاغر الطلبة.

وقرأ محمد بن كعب القرظي ﴿ سلام ﴾ بكسر السين وسكون اللام ومعناه سلام.

وقال أبو الفضل الرازي: مسالم لهم أي ذلك مسالم وليس بذاك.

وقرأ أبي.

وعبد الله.

وعيسى.

والغنوي ﴿ سَلاَماً ﴾ بالنصب على المصدر أي يسلم عليهم سلاماً أو على الحال من

ضمير ما في الخبر أو منها على القول بجواز مجيء من المبتدأ أي ولهم مرادهم خالصاً .

﴿ وامتازوا اليوم أَيُّهَا المجرمون ﴾ أي انفردوا عن المؤمنين إلى مصيركم من النار .

(121/647)

---

وأخرج عبد بن حميد وغيره عن قتادة أي اعتزلوا عن كل خير ، وعن الضحاك لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى ولا يرى أي على خلاف ما للمؤمنين من الاجتماع مع من يحبون ، ولعل هذا بعد زمان من أول دخولهم فلا ينافي عتاب بعضهم بعضاً الوارد في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى النار ﴾ [ غافر : 47 ] ويحتمل أنه أراد لكل صنف كافر كاليهود والنصارى ، وجوز الإمام كون الأمر أمر تكوين كما في ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [ يس : 82 ] على معنى أن الله تعالى يقول لهم ذلك فتظهر عليهم سيماء يعرفون بها كما قال سبحانه : ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم ﴾ [ الرحمن : 41 ] ولا يخفى بعده ، والجملة عطفاً ما على الجملة السابقة المسوقة لبيان أحوال أصحاب الجنة من عطف القصة على القصة فلا يضر التخالف إنشائية وخبرية ، وكأن تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين الفريقين وحاليهما ، وإما على مضمر ينساق إليه حكاية حال أصحاب الجنة

كأنه قيل إثر بيان كونهم في شغل عظيم الشأن وفوزهم بنعيم مقيم يقصر عنه البيان فليقروا بذلك عينا وامتازوا عنهم أيها المجرمون .



---

قاله أبو السعود ، وقال الخفاجي : يجوز أن يكون بتقدير ويقال امتازا على أنه معطوف على يقال المقدر العامل في ﴿ قولا ﴾ [ يس : 58 ] وهو أقرب وأقل تكلفاً لأن حذف القول وقيام معموله مقامه كثير حتى قيل فيه هو البحر حدث عنه ولا حرج ، وفيه بحث يظهر بأدنى تأمل ، وقيل : إن المذكور من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصحاب الجنة ﴾ [ يس : 55 ] إلى هنا تفصيل للمجمل السابق أعني قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [ يس : 54 ] وبني عليه أن المعطوف عليه متضمن لمعنى الطلب على معنى فليمتز المؤمنون عنكم يا أهل المحشر إلى الجنة وامتازوا عنهم إلى النار ، وتعقبه في "الكشف" بأنه ليس بظاهر إذ بأحد الأمرين غنية عن الآخر ثم قال : والوجه أن المقصود عطف جملة قصة أصحاب النار على جملة قصة أصحاب الجنة وأوثرها هنا الطلب زيادة للتهويل والتعنيف ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ اصلوها اليوم ﴾ [ يس : 64 ] وإن كان لا بد من التضمين فالمعطوف أولى بأن يجعل في معنى الخبر على المعنى وأن المجرمون ممتازون منفردون .

وفائدة العدول ما في الخطاب والطلب من النكتة اه ، وما ذكره من حديث إغناء أحد الأمرين عن الآخر سهل لكون الأمر تقديرياً مع أن الامتياز الأول على وجه الإكرام وتحقيق الوعد والآخر على وجه الإهانة وتعجيل الوعيد فيفيد كل منهما ما لا يفيده الآخر ، نعم قال العلامة أبو السعود في ذلك : إن اعتبار فليمتز المؤمنون وإضماره بمعزل عن السداد لما أن المحكى عنهم ليس مصيرهم إلى ما ذكر من الحال المرضية حتى يتسنى ترتيب الأمر المذكور عليه بل إنما هو استقرارهم عليها بالفعل ، وكون ذلك تنزيل المترقب منزلة الواقع لا يجدي نفعاً لأن مناط الاعتبار والإضمار انسياق الافهام إليه وانصباب نظم الكلام عليه فبعد التنزيل المذكور وإسقاط الترقب عن درجة الاعتبار يكون التصدي لاضمار شيء يتعلق به إخراجاً للنظم الكريم عن الجزالة بالمرة ، والظاهر أنه لا فرق في هذا بين التضمين والإضمار ، والذي يغلب على الظن أن ما ذكر لا يفيد أكثر من أولوية تقدير فليقروا عيناً على تقدير فليمتازوا فليفهم ، وقال بعض الأذكياء : يجوز أن يكون ﴿ امتازوا ﴾ فعلاً ماضياً والضمير للمؤمنين أي انفرد المؤمنون عنكم بالفوز بالجنة ونعيمها أيها المجرمون ففيه تحسير لهم والعطف حينئذ من عطف الفعلية الخبرية على الاسمية الخبرية ولا منع منه ،

وتعقب بأنه مع ما فيه من المخالفة للأسلوب المعروف من وقوع النداء مع الأمر نحو ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ [ يوسف : 29 ] قليل الجدوى وما ذكره من التحسير يكفي فيه ما قبل من ذكر ما هم عليه من التنعم وأيضاً للمأثور يأبى عنه غاية الإباء وهو كالنص في أن ﴿ امتازوا ﴾ فعل أمر ولا يكاد يخطر لقارىء ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(124/647)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَآَيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41) ﴾

ثم ذكر سبحانه وتعالى نوعاً آخر مما امتنّ به على عباده من النعم ، فقال : ﴿ وَءايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرّيَّتَهُمْ فِى الفلك المشحون ﴾ أي دلالة وعلامة ، وقيل : معنى ﴿ آية ﴾ هنا : العبرة ، وقيل : النعمة ، وقيل : النذارة .

وقد اختلف في معنى ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرّيَّتَهُمْ ﴾ وإلى من يرجع الضمير ، لأن الضمير الأوّل ، وهو قوله : ﴿ وَءايَةٌ لَّهُمْ ﴾ لأهل مكة ، أو لكفار العرب ، أو للكفار على الإطلاق الكائنين في عصر محمد صلى الله عليه وسلم ، فقيل : الضمير يرجع إلى القرون الماضية ،

والمعنى : أن الله حمل ذرّية القرون الماضية في الفلك المشحون ، فالضميران مختلفان .

وهذا حكاه النحاس عن عليّ بن سليمان الأخفش .

وقيل : الضميران لكفار مكة ، ونحوهم .

والمعنى : أن الله حمل ذرّياتهم من أولادهم ، وضعفائهم على الفلك ، فامتنّ الله عليهم بذلك : أي : إنهم يحملونهم معهم في السفن إذا سافروا ، أو يبعثون أولادهم للتجارة لهم فيها .

وقيل : الذرّية : الآباء والأجداد ، والفلك هو : سفينة نوح ، أي : إن الله حمل آباء هؤلاء ، وأجدادهم في سفينة نوح.

قال الواحدي : والذرّية تقع على الآباء كما تقع على الأولاد .

قال أبو عثمان : وسمي الآباء ذرية ، لأن منهم ذرء الأبناء ، وقيل : الذرّية النطف الكائنة في بطون النساء ، وشبه البطون بالفلك المشحون ، والراجح : القول الثاني ، ثم الأوّل ، ثم الثالث ، وأما الرابع ففي غاية البعد ، والنكارة .

وقد تقدّم الكلام في الذرية ، واشتقاقها في سورة البقرة مستوفي ، والمشحون : المملوء الموقر ، والفلك يطلق على الواحد والجمع كما تقدّم في يونس ، وارتفاع آية على أنها خبر مقدّم ، والمبتدأ ﴿ أنا حملنا ﴾ ، أو العكس على ما قدّمنا .

وقيل : إن الضمير في قوله : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ ﴾ يرجع إلى العباد المذكورين في قوله : ﴿ ياحسرة عَلَى العباد ﴾ [ يس : 30 ] ؛ لأنه قال بعد ذلك : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الأرض الميتة ﴾ [ يس : 33 ] ، وقال : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ اليل ﴾ [ يس : 37 ] .

ثم قال : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ، فكأنه قال : وآية للعباد أنا حملنا ذريات العباد ، ولا يلزم أن يكون المراد بأحد الضميرين : البعض منهم ، وبالضمير : الآخر البعض الآخر ، وهذا قول حسن .

﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مّن مّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ أي : وخلقنا لهم مما يماثل الفلك ما يركبونه على أن ما هي : الموصولة .

قال مجاهد ، وقتادة ، وجماعة من أهل التفسير : وهي : الإبل خلقها لهم للركوب في البرّ مثل السفن المركوبة في البحر ، والعرب تسمي الإبل سفائن البرّ ، وقيل : المعنى : وخلقنا لهم سفناً أمثال تلك السفن يركبونها ، قاله الحسن ، والضحاك ، وأبو مالك .

قال النحاس : وهذا أصحّ ؛ لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس ، وقيل : هي السفن المتخذة بعد سفينة نوح ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ هذا من تمام الآية التي امتنّ الله بها عليهم ، ووجه الامتنان أنه لم يغرقهم في لجج البحار مع قدرته على ذلك ، والضمير يرجع إما إلى أصحاب الذرية ، أو إلى الذرية ، أو إلى الجميع على اختلاف

الأقوال ، والصريخ بمعنى : المصرخ ، والمصرخ هو : المغيث : أي : فلا مغيث لهم يغيثهم إن شئنا إغراقهم ، وقيل : هو المنعة .

ومعنى ﴿ ينقذون ﴾ : يخلصون ، يقال : أنقذه ، واستنقذه ، إذا خلصه من مكروه ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ استثناء مفرّغ من أعمّ العلل : أي : لا صريخ لهم ، ولا ينقذون لشيء من الأشياء إلاّ لرحمة منا ، كذا قال الكسائي ، والزجاج ، وغيرهما ، وقيل : هو استثناء منقطع : أي : لكن لرحمة منا .

(126/647)

---

وقيل هو منصوب على المصدرية بفعل مقدّر ﴿ و ﴾ انتصاب ﴿ متاعا ﴾ على العطف على رحمة : أي : نمتعهم بالحياة الدنيا ﴿ إلى حِينٍ ﴾ وهو : الموت ، قاله قتادة . وقال يحيى بن سلام : إلى القيامة .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتقوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ أي : ما بين أيديكم من الآفات ، والنوازل ، فإنها محيطة بكم ، وما خلفكم منها .

قال قتادة : معنى ﴿ اتقوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي : من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ في الآخرة .

وقال سعيد بن جبير، ومجاهد: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ ما مضى من الذنوب ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ ما بقي منها.

وقيل: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾: الدنيا ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾: الآخرة، قاله سفيان.

وحكى عكس هذا القول الثعلبي عن ابن عباس.

وقيل: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ ما ظهر لكم ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ ما خفي عنكم، وجواب إذا محذوف، والتقدير: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا كما يدلّ عليه ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي: رجاء أن ترحموا، أو كي ترحموا، أو راجين أن ترحموا ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءايَةٍ مِّنْ ءايات رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ "ما" هي النافية، وصيغة المضارع للدلالة على التجدّد، ومن الأولى مزيدة للتوكيد، والثانية للتبعيض: والمعنى: ما تأتيهم من آية دالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى صحة ما دعا إليه من التوحيد في حال من الأحوال إلّا كانوا عنها معرضين.

وظاهره يشمل الآيات التنزيلية، والآيات التكوينية، وجملة ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ في محلّ نصب على الحال كما مرّ تقريره في غير موضع.

والمراد بالإعراض عدم الالتفات إليها ، وترك النظر الصحيح فيها ، وهذه الآية متعلقة بقوله : ﴿ ياحسرة عَلَى العباد مَا يَأْتِيهِم مّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ أي : إذا جاءتهم الرسل كذّبوا .

وإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رِزَقَكُمُ الله ﴾ أي : تصدّقوا على الفقراء مما أعطاكم الله ، وأنعم به عليكم من الأموال ، قال الحسن : يعني : اليهود أمروا بإطعام الفقراء .

وقال مقاتل : إن المؤمنين قالوا لكفار قريش : أنفقوا على المساكين مما زعمتم أنه لله من أموالكم من الحرث والأنعام كما في قوله سبحانه :

﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ الله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً ﴾ [ الأنعام : 136 ] ، فكان جوابهم ما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ استهزاءً بهم ، وتهكماً بقولهم : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء الله أَطْعَمَهُ ﴾ أي : من لو يشاء الله رزقه ، وقد كانوا سمعوا المسلمين يقولون : إن الرّزّاق هو : الله ، وأنه يغني من يشاء ، ويفقر من يشاء ، فكأنهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمسلمين ، وقالوا : نحن نوافق مشيئة الله ، فلا نطعم من لم يطعمه الله ، وهذا غلط منهم ، ومكابرة ، ومجادلة بالباطل ، فإن الله سبحانه أغنى بعض خلقه ، وأفقر بعضاً ، وأمر الغنيّ أن يطعم الفقير ، وابتلاه به فيما فرض له من ماله من الصدقة .

وقولهم : ﴿ مَن لَّوْيَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ﴾ هو وإن كان كلاماً صحيحاً في نفسه ، ولكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة الله ، أو إنكار جواز الأمر بالانفاق مع قدرة الله كان احتجاجهم من هذه الحيثية باطلاً .

وقوله : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ من تمام كلام الكفار .

والمعنى : إنكم أيها المسلمون في سؤال المال ، وأمرنا بإطعام الفقراء لفي ضلال في غاية الوضوح والظهور .



---

وقيل : هو من كلام الله سبحانه جواباً على هذه المقالة التي قالها الكفار .

وقال القشيري ، والماوردي : إن الآية نزلت في قوم من الزنادقة .

وقد كان في كفار قريش وغيرهم من سائر العرب ، قوم يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع ، فقالوا هذه المقالة استهزاء بالمسلمين ، ومناقضة لهم .

وحكى نحو هذا القرطبي عن ابن عباس .

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ الذي تعدونا به من العذاب ، والقيامة ، والمصير إلى الجنة أو النار .

﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ فيما تقولون ، وتعدونا به .

قالوا ذلك استهزاء منهم ، وسخرية بالمؤمنين .

ومقصودهم إنكار ذلك بالمرّة ، ونفي تحققه ، وجحد وقوعه ، فأجاب الله سبحانه عنهم بقوله : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ أي : ما ينتظرون إلاّ صيحة واحدة ، وهي : نفخة إسرافيل في الصور ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصّمُونَ ﴾ أي : يختصمون في ذات بينهم في البيع ، والشراء ، ونحوهما من أمور الدنيا ، وهذه هي النفخة الأولى ، وهي : نفخة الصعق .

وقد اختلف القراء في ﴿ يخصّمون ﴾ ، فقرأ حمزة بسكون الخاء ، وتخفيف الصاد من خصم يخصم ، والمعنى : يخصم بعضهم بعضاً ، فالمفعول محذوف .

وقرأ أبو عمرو ، وقالون بإخفاء فتحة الخاء ، وتشديد الصاد .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وهشام كذلك إلا أنهم أخلصوا فتحة الخاء ، وقرأ الباقون بكسر الخاء ، وتشديد الصاد .

والأصل في القراءات الثلاث يختصمون ، فأدغمت التاء في الصاد ، فنافع ، وابن كثير ، وهشام نقلوا فتحة التاء إلى الساكن قبلها نقلاً كاملاً ، وأبو عمرو ، وقالون اختلسا حركتها تنبيهاً على أن الخاء أصلها السكون ، والباقون حذفوا حركتها ، فالتقى ساكنان ، فكسروا أوّلهما .

وروي عن أبي عمرو، وقالون: أنهما قرءا بتسكين الخاء، وتشديد الصاد، وهي قراءة مشكلة لاجتماع ساكنين فيها.

وقرأ أبيّ "يختصمون" على ما هو الأصل.

(129/647)

---

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أي: لا يستطيع بعضهم أن يوصي إلى بعض بما له، وما عليه، أو لا يستطيع أن يوصيه بالتوبة، والإقلاع عن المعاصي، بل يموتون في أسواقهم، ومواضعهم ﴿ وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي: إلى منازلهم التي ماتوا خارجين عنها.

وقيل: المعنى: لا يرجعون إلى أهلهم قولاً، وهذا إخبار عما ينزل بهم عند النفخة الأولى. ثم أخبر سبحانه عما ينزل بهم عند النفخة الثانية، فقال: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور ﴾ وهي: النفخة التي يبعثون بها من قبورهم، ولهذا قال: ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث ﴾ أي: القبور ﴿ إلى رَبّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ أي: يسرعون، وبين النفختين أربعون سنة.

وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي حيث قال: ﴿ ونفخ ﴾ تنبيهاً على تحقق وقوعه كما ذكره أهل البيان، وجعلوا هذه الآية مثالاً له، والصور بإسكان الواو: هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل، كما وردت بذلك السنة، وإطلاق هذا الاسم على القرن معروف في لغة

العرب ، ومنه قول الشاعر :

نحن نطحناهم غداة الغورين . . . نطحاً شديداً لا كنطح الصورين

أي : القرنين .

وقد مضى هذا مستوفى في سورة الأنعام .

وقال قتادة : الصور جمع صورة ، أي : نفخ في الصور الأرواح ، والأجداث جمع جدث ،

وهو : القبر .

وقرىء "الأجداف" بالفاء ، وهي لغة ، واللغة الفصيحة بالثاء المثلثة ، والنسل ،

والنسلان : الإسراع في السير ، يقال : نسل ينسل كضرب يضرب ، ويقال : ينسل بالضم ،

ومنه قول امرىء القيس :

فسلي ثيابي من ثيابك تنسل . . . وقول الآخر :

عسلان الذيب أمسى قارنا . . . برد الليل عليه فنسل

﴿ قَالُواْ ياويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ أي : قالوا عند بعثهم من القبور بالنفخة : يا ويلنا :

نادوا ويلهم ، كأنهم قالوا له احضر ، فهذا أوان حضورك ، وهؤلاء القائلون هم : الكفار .

قال ابن الأنباري : الوقف على ﴿ يا ويلنا ﴾ وقف حسن .

ثم يبتدىء الكلام بقوله : ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ظنوا لاختلاط عقولهم بما شاهدوا من الهول ، وما داخلهم من الفزع أنهم كانوا نياماً .

قرأ الجمهور ﴿ يا ويلنا ﴾ ، وقرأ ابن أبي ليلى " يا ويلتنا " بزيادة التاء .

وقرأ الجمهور ﴿ من بعثنا ﴾ بفتح ميم " من " على الاستفهام .

وقرأ ابن عباس ، والضحاك ، وأبو نهيك بكسر الميم على أنها حرف جرّ ، ورويت هذه القراءة عن عليّ بن أبي طالب .

وعلى هذه القراءة تكون " من " متعلقة بالويل ، وقرأ الجمهور ﴿ من بعثنا ﴾ .

وفي قراءة أبيّ " من أهبنا " من هبّ نومه : إذا انتبه ، وأنشد ثعلب على هذه القراءة :

وعاذلة هبت بليل تلومني . . . ولم يعتمدني قبل ذاك عذول

وقيل : إنهم يقولون ذلك إذا عاينوا جهنم .

وقال أبو صالح : إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور ، وهجعوا هجعة إلى النفخة الثانية ، وجملة ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ جواب عليهم من جهة الملائكة ، أو من جهة المؤمنين .

وقيل : هو من كلام الكفرة يجيب به بعضهم على بعض .

قال بالأوّل الفراء ، وبالثاني مجاهد .

وقال قتادة: هي من قول الله سبحانه، و"ما" في قوله: ﴿ مَا وَعَدَ الرحمن ﴾ موصولة، وعائدها محذوف والمعنى: هذا الذي وعده الرحمن، وصدق فيه المرسلون قد حق عليكم، ونزل بكم، ومفعولا الوعد والصدق محذوفان أي: وعدكموه الرحمن، وصدقكموه المرسلون، والأصل وعدكم به، وصدقكم فيه، أو وعدناه الرحمن، وصدقناه المرسلون على أن هذا من قول المؤمنين، أو من قول الكفار ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ أي: ما كانت تلك النفخة المذكورة إلاّ صيحة واحدة صاحها إسرافيل بنفخه في الصور ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي: فإذا هم مجموعون محضرون لدينا بسرعة للحساب، والعقاب ﴿ فاليوم لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ ﴾ من النفوس ﴿ شَيْئاً ﴾ مما تستحقه أي: لا ينقص من ثواب عملها شيئاً من النقص، ولا تظلم فيه بنوع من أنواع الظلم ﴿ وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي: إلاّ جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا، أو إلاّ بما كنتم تعملونه أي: بسببه، أو في مقابلته.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ الآية قال: في سفينة نوح حمل فيها من كلّ زوجين اثنين ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مّن مّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ

﴾ قال : السفن التي في البحر والأنهار التي يركب الناس فيها .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن أبي صالح نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ قال : هي السفن جعلت من بعد سفينة نوح .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : يعني : الإبل خلقها الله كما رأيت ، فهي : سفن البرّ يحملون عليها ، ويركبونها .

ومثله عن الحسن ، وعكرمة ، وعبد الله بن شدّاد ، ومجاهد .

(132/647)

---

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن أبي هريرة في قوله : ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ الآية قال : تقوم الساعة ، والناس في أسواقهم يتبايعون ، ويذرعون الثياب ، ويحلبون اللقاح ، وفي حوائجهم ، ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ، وأخرج عبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن المنذر عن الزبير بن العوّام قال : إن الساعة تقوم ، والرجل يذرع الثوب ، والرجل يحلب الناقة ، ثم قرأ ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ الآية .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لتقومنّ الساعة ، وقد نشر الرجلان ثوبهما ، فلا يتبايعانه ، ولا يطويانه ، ولتقومنّ الساعة ، وهو يليط حوضه ، فلا يسقي فيه ، ولتقومنّ الساعة ، وقد انصرف الرجل بلبن لقحته ، فلا يطعمه ، ولتقومنّ الساعة ، وقد رفع أكلته إلى فيه ، فلا يطعمها " وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن أبيّ بن كعب في قوله : ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ قال : يناموں قبل البعث نومة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(133/647)

---

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30) ﴾

بيّن جلّ وعلا أن العباد ما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزءون غير مكتفين بتكذيبه ، بل جامعين معه الاستهزاء .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ ﴾ نص صريح في تكذيب الأمم لجميع الرسل لما تقرر في الأصول ، من أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها " من " ،

فهي نص صريح في عموم النفي ، كما هو وهذا العموم الذي دلّت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات أخر ، وجاء في بعض إخراج أمة واحدة عن حكم هذا العموم بمخصص متصل ، وهو الاستثناء .

فمن الآيات الموضحة لهذا العموم قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [ سبأ : 34 ] وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [ الزخرف : 23 ] وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ ﴾ [ الأعراف : 94 ] ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [ الأعراف : 95 ] .

وقد قدمنا الكلام على هذا في سورة " قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ " ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ [ المؤمنون : 44 ] الآية .

وقدمنا طرفاً من الكلام عليه في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا ﴾ [ الأنعام : 123 ] الآية .

وأما الأمة التي أخرجت من هذا العموم فهي أمة يونس ، والآية التي بينت ذلك هي قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [ يونس : 98 ] . وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [ الصافات : 147148 ] والحسرة أشد الندامة ، وهو منصوب على أنه منادى عامل في المجرور بعده ، فأشبه المنادى المضاف .

والمعنى : يا حسرة على العباد ! تعالي واحضري ، فإن الاستهزاء بالرسل هو أعظم الموجبات لحضورك .

قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

قد قدمنا أنّ إحياء الأرض المذكور في هذه الآية ، برهان قاطع على البعث في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ [ البقرة : 22 ] وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [ النحل : 10 ] الآية ، وفي غير ذلك من المواضع وأوضحنا في المواضع المذكورة ، بقية براهين البعث بعد الموت .

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (42)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي

سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ [ النحل : 14 ] الآية .

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (46)

ذم جل وعلا في هذه الآية الكريمة الكفار بإعراضهم عن آيات الله .



وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية جاء في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في أوّل سورة الأنعام : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُواْ بالحق لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ [ الأنعام : 45 ] الآية . وقوله تعالى في آخر يوسف : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [ يوسف : 105 ] وقوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر وَإِن يَرَوْاْ آيَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [ القمر : 12 ] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لاَ يَذْكُرُونَ وَإِذَا رَأَوْاْ آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ [ الصافات : 1314 ] وأصل الإعراض مشتق من العرض بالضم ، وهو الجانب ، لأن المعرض عن الشيء يوليه بجانب عنقه صاداً عنه .

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة النفخة الأخيرة ، والصور قرن من نور ينفخ فيه الملك

نفخة البعث ، وهي النفخة الأخيرة ، وإذا نفخها قام جميع أهل القبور من قبورهم ، أحياء إلى الحساب والجزاء .

وقوله : ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث ﴾ جمع جدث بفتحتين ، وهو القبر ، وقوله : ينسلون : أي يسرعون في المشي من القبور إلى المحشر ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [ المعارج : 43 ] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرض عَنْهُمْ سِرَاعاً ﴾ [ ق : 44 ] الآية . وكقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع ﴾ [ القمر : 78 ] الآية . وقوله : ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع ﴾ أي مسرعين مادّي أعناقهم على أشهر التفسيرين ، ومن إطلاق نسل بمعنى أسرع :

(136/647)

---

قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [ الأنبياء : 96 ] وقول لبيد :

عسلان الذئب أمسى قارباً . . . برد الليل عليه فنسل

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أن أهل القبور يقومون أحياء عند النفخة الثانية ، جاء موضحاً في آيات كثيرة في كتاب الله تعالى كقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي

السماوات وَمَن فِي الأرض إلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [ الزمر : 68 ] . وقوله تعالى : ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [ يس : 53 ] ، وهذه الصيحة هي النفخة الثانية كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصيحة بالحق ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ [ ق : 42 ] أي الخروج من القبور وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بالساهرة ﴾ [ النازعات : 1314 ] والزجرة : هي النفخة الثانية . والساهرة : وجه الأرض ، والفلاة الواسعة ، ومنه قول أبي كبير الهذلي .

يرتدن ساهرة كأن جميمها . . . وعميمها أسداف ليل مظلم

وقول لأشعث بن قيس :

وساهرة يضحى السراب مجللاً . . . لأقطارها قد حببتها متلثما

وكقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [ الصافات : 19 ] وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السمآء والأرض بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [ الروم : 25 ] وهذه الدعوة بالنفخة الثانية ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ [ الإسراء : 52 ] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52)

قد قدّمنا الكلام عليه في سورة الروم ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم والإيمان لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ الله إلى يَوْمِ البعث ﴾ [ الروم : 56 ] الآية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(138/647)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54) ﴾

إن كان قوله تعالى : ﴿ هذا ما وعَدَ الرحمن ﴾ [ يس : 52 ] حكاية لكلام الكفار يوم البعث كان هذا كلاماً من قبل الله تعالى بواسطة الملائكة وكانت الفاء في قوله : ﴿ فاليوم لا تُظلمُ نفسٌ شَيْئاً ﴾ فاء فصيحة وهي التي تفصح وتنبىء عن كلام مقدّر نشأ عن قوله : ﴿ فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ [ يس : 53 ] فهو خطاب للذين قالوا : ﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾ [ يس : 52 ] .

والمعنى : فقد أيقنتم أن وعد الله حق وأن الرسل صدقوا فاليوم يوم الجزاء كما كان الرسل ينذرونكم .

وإن كان قوله : ﴿ هذا ما وعَدَ الرحمن ﴾ [ يس : 52 ] من كلام الملائكة كانت الفاء تفريعاً عليه وكانت جملة ﴿ إن كانَتْ إلاَّ صيحَةً واحِدَةً ﴾ [ يس : 53 ] الخ معترضة بين المفرع والمفرع عليه .

و"اليوم" ظرف وتعريفه للعهد ، وهو عهد حضور يعني يوم الجزاء .

وفائدة ذكر التنويه بذلك اليوم بأنه يوم العدل .

وأشعر قوله : ﴿ لا تُظلم نفسٌ شيئاً ﴾ بالتعريض بأنهم سيلقون جزاء قاسياً لكنه عادل لا ظلم فيه لأن نفي الظلم يشعر بأن الجزاء مما يُخال أنه متجاوز معادَلَةَ الجريمة ، وهو معنى ﴿ ولاَ تُجْزونَ إلاَّ ما كنتم تعملون ﴾ أي إلا على وفاق ما كنتم تعملون وعلى مقداره .

وانتصب ﴿ شيئاً ﴾ على المفعول المطلق ، أي شيئاً من الظلم .

ووقوع ﴿ نَفْسٌ ﴾ و ﴿ شَيْئاً ﴾ وهما نكرتان في سياق النفي يعمّ انتفاء كل ذلك عن كل نفس وانتفاء كل شيء من حقيقة الظلم وذلك يعمّ جميع الأنفس .

.

ولكن المقصود أنفس المعاقَبين ، أي أن جزاءهم على حسب سيّئاتهم جزاء عادل .

وإذ قد كان تقديره من الله تعالى وهو العليم بكل شيء كانت حقيقة العدل محققة في مقدار جزائهم إذ كلّ عدل غير عدل الله معرض للزيادة والنقصان في نفس الأمر ولكنه يجري على حسب اجتهاد الحاكمين ، والله لم يكلف الحاكم إلاّ ببذل جهده في إصابة الحق ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم " إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد " .

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55)

هذا من الكلام الذي يُلْقى من الملائكة ، والجملة مستأنفة ، وهذا مما يقال لمن حق عليهم العذاب إعلاماً لهم بنزول مرتبتهم عن مراتب أهل الجنة إعلاناً بالحقائق لأن ذلك عالم الحقائق وإدخالاً للندامة عليهم على ما فرطوا فيه من طلب الفوز في الآخرة .

وهذا يؤذن بأن أهل الجنة عجل بهم إلى النعيم قبل أن يبعث إلى النار أهلها ، وأن أهل الجنة غير حاضرين ذلك المحضر .

وتعريف ﴿ اليَوْمَ ﴾ للعهد كما تقدم .

وفائدة ذكر الظرف وهو ﴿ اليَوْمَ ﴾ التنويه بذلك اليوم بأنه يوم الفضل على المؤمنين المتقين .

والشغل : مصدر شغله ، إذا ألهاه .

يقال : شغله بكذا عن كذا فاشتغل به .

والظرفية مجازية ؛ جعل تلبسهم بالشغل كأنهم مظروفون فيه ، أي أحاط بهم شغل عن

مشاهدة موقف أهل العذاب صرفهم الله عن منظر المزعجات لأن مشاهدتها لا تخلو من انقباض النفوس، ولكون هذا هو المقصود عدل عن ذكر ما يشغلهم إذ لا غرض في ذكره، فقوله: ﴿ فِي شُغُلٍ ﴾ خبر ﴿ إن ﴾ و ﴿ فاكِهُونَ ﴾ خبر ثان.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب ﴿ شُغْلٍ ﴾ بضم فسكون.

وقرأه الباقون بضمتين وهما لغتان فيه.

والفاكِه: ذو الفُكاهة بضم الفاء، وهي المزاح بالكلام المُسِرّ والمضحك، وهي اسم مصدر: فكِه بكسر الكاف، إذا مَزح وسُرّ.

(140/647)

---

وعن بعض أهل اللغة: أنه لم يسمع له فعل من الثلاثي، وكأنه يعني قلة استعماله، وأما الأفعال غير الثلاثية من هذه المادة فقد جاء في المثل: لا تُفاكه أَمَهْ ولا تَبُل على أكمه، وقال تعالى: ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ [الواقعة: 65].

وقرأ الجمهور ﴿ فاكِهُونَ ﴾ بصيغة اسم الفاعل.

وقرأه أبو جعفر بدون ألف بصيغة مثال المبالغة.

وجملة ﴿ هُمْ وأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ ﴾ إلى آخرها واقعة موقع البيان لجملة ﴿ إِنَّ أَصحابَ

الجَنَّةِ ﴾ الخ .

والمراد بأزواجهم : الأزواج اللاتي أُعِدّت لهم في الجنة .

ومنهن من كُنّ أزواجاً لهم في الدنيا إن كنّ غير ممنوعات من الجنة قال تعالى : ﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ [ الرعد : 23 ] .

والظلال قرأه الجمهور بوزن فِعال بكسر أوله على أنه جمع ظلّ ، أي ظلّ الجنات .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف ﴿ ظُلَل ﴾ بضم الظاء وفتح اللام جمع ( ظُلة ) وهي ما يظل كالقِباب .

وجمع الظلال على القراءتين لأجل مقابلته بالجمع وهم أصحاب الجنة ، فكلّ منهم في ظل أو في ظلة .

و﴿ الأرائك ﴾ : جمع أريكة ، والأريكة : اسم لمجموع السرير والحَجَلة ، فإذا كان السرير في الحَجَلة سمي الجميع أريكة .

وهذا من الكلمات الدالة على شيء مركب من شيئين مثل المائدة اسم للخِوان الذي عليه طعام .

والاتكاء : هيئة بين الاضطجاع والجلوس وهو اضطجاع على جنب دون وضع الرأس والكتف على الفراش .

وهو افتعال من وكأ المهموز ، إذا اعتمد ، أبدلت واوه تاء كما أبدلت في تُجاه وتُراث ،

وأخذ منه فعل اتكأ لأن المتّكىء يشد قعدته ويرسخها بضرب من الاضطجاع.

والاسم منه التُّكَأة بوزن هُمَزة، وهو جلوس المتطلب للراحة والإِطالة وهو جلسة أهل الرفاهية، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿ وأعتدت لهن متكأ ﴾ في سورة يوسف ( 31 ).

(141/647)

---

وكان المترفهون من الأمم المتحضرة يأكلون متّكئين كان ذلك عادة سادة الفرس والروم ومن يتشبه بهم من العرب ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم "أمَّا أنا فلا آكل متكئاً" وذلك لأن الاتكاء يعين على امتداد المعدة فتقبل زيادة الطعام ولذلك كان الاتكاء في الطعام مكروهاً للإِفراط في الرفاهية.

وأما الاتكاء في غير حال الأكل فقد اتكأ النبي صلى الله عليه وسلم في مجلسه كما في حديث ضِمام بن ثعلبة وافِد بني سعد بن بكر: أنه دخل المسجد فسأل عن النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له: "هو ذلك الأزهر المتكىء".

والفاكهة: ما يؤكل للتلذذ لا للشبع كالثمار والنقول وإنما خصت بالذكر لأنها عزيزة النوال للناس في الدنيا ولأنها استجلبها ذكر الاتكاء لأن شأن المتكئين أن يشتغلوا بتناول الفواكه.

ثم عَمم ما أعد لهم بقوله : ﴿ ولهم ما يدَّعُونَ ﴾ و ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ يجوز أن يكون متصرفاً من الدعاء أو من الادعاء ، أي ما يَدْعون إليه أو ما يدَّعون في أنفسهم أنه لهم بإلهام إلهي .

وصيغ له وزن الافتعال للمبالغة ، فوزن ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ يفتعلون .

أصله يدتَعيُون نقلت حركة الياء إلى العين طلباً للتخفيف لأن الضم على الياء ثقيل بعد حذف حركة العين فبقيت الياء ساكنة وبعدها واو الجماعة لأنه مفيد معنَى الإِسنادِ إلى الجمع .

وهذا الافتعال لك أن تجعله من ( دعا ) ، والافتعال هنا يجعل فعل ( دعا ) قاصراً فينبغي تعليق مجرور به .

والتقدير : ما يدعون لأنفسهم ، كقول لبيد :

فاشتوى ليلة ريح واجتمل

اشتوى إذا شوى لنفسه واجتمل إذا جمل لنفسه ، أي جمع الجميل وهو الشحم المذاب وهو الإِهالة .

وإن جعلته من الادعاء فمعناه : أنهم يدعون ذلك حقاً لهم ، أي تتحدث أنفسهم بذلك فيؤول إلى معنى : ويتمنون في أنفسهم دون احتياج إلى أن يسألوا بالقول فلذلك قيل معنى ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ يتمنون .

يقال : ادع عليّ ما شئت ، أي تمنّ عليّ ، وفلان في خير ما ادّعى ، أي في خير ما يتمنى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ في سورة فصّلت ( 31 ) .

سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58)

استئناف قطع عن أن يعطف على ما قبله للاهتمام بمضمونه ، وهو الدلالة على الكرامة والعناية بأهل الجنة من جانب القدس إذ يوجه إليهم سلام الله بكلام يعرفون أنه قول من الله : إمّا بواسطة الملائكة ، وإما بخلق أصوات يُوقنون بأنها مجعولة لأجل إسماعهم كما سمع موسى كلام الله حين ناداه من جانب الطور من الشجرة فبعد أن أخبر بما حباهم به من النعيم مشيراً إلى أصول أصنافه ، أخبر بأن لهم ما هو أسمى وأعلى وهو التكريم بالتسليم عليهم قال تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ [ التوبة : 72 ] .

و﴿ سَلَامٌ ﴾ مرفوع في جميع القراءات المشهورة .

وهو مبتدأ وتنكيره للتعظيم ورفعه للدلالة على الدوام والتحقق ، فإن أصله النصب على المفعولية المطلقة نيابة عن الفعل مثل قوله : ﴿ فقالوا سلاماً ﴾ [ الذاريات : 25 ] .

فلما أريدت الدلالة على الدوام جيء به مرفوعاً مثل قوله : ﴿ قال سلام ﴾ [ هود : 69 ] ، وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى : ﴿ الحَمدُ للهِ رَبّ العالمين ﴾ [ الفاتحة : 2 ] .

وحذف خبر ﴿ سَلامٌ ﴾ لنيابة المفعول المطلق وهو قوله ﴿ قَوْلاً ﴾ عن الخبر لأن تقديره : سلام يقال لهم قولاً من الله ، والذي اقتضى حذف الفعل ونيابة المصدر عنه هو استعداد المصدر لقبول التنوين الدال على التعظيم ، والذي اقتضى أن يكون المصدر منصوباً دون أن يؤتى به مرفوعاً هو ما يشعر به النصب من كون المصدر جاء بدلاً عن الفعل .

و﴿ من ﴾ ابتدائية .

وتنوين ﴿ رَبّ ﴾ للتعظيم ، ولأجل ذلك عدل عن إضافة ﴿ رب ﴾ إلى ضميرهم ، واختير في التعبير عن الذات العلية بوصف الرب لشدة مناسبته للإكرام والرضى عنهم بذكر أنهم عبدوه في الدنيا فاعترفوا بربوبيته .

*(143/647)*

---

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59)

يجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ إنَّ أَصْحابَ الجَنَّةِ اليوم في شُغُلٍ فاكِهُونَ ﴾ [ يس : 55 ] ويجوز أن يعطف على ﴿ سَلامٌ قَوْلاً ﴾ [ يس : 58 ] ، أي ويقال : امتازوا اليوم

أيها المجرمون ، على الضد مما يقال لأصحاب الجنة .

والتقدير : سلام يقال لأهل الجنة قولاً ، ويقال للمجرمين : امتازوا ، فتكون من توزيع الخطابين على مخاطَبيْن في مقام واحد كقوله تعالى : ﴿ يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك ﴾ [ يوسف : 29 ] .

وامتاز مطاوع مَازه ، إذا أفرده عما كان مختلطاً معه ، وُجِّه الأمر إليهم بأن يمتازُوا مبالغة في الإِسراع بحصول الميز لأن هذا الأمر أمر تكوين فعبر عن معنى .

فيكونُ الميز بصوغ الأمر من مادة المطاوعة ، فإن قولك : لتنكَسِرْ الزجاجةُ أشد في الإِسراع بحصول الكسر فيها من أن تقول : اكسروا الزجاجة .

والمراد : امتيازهم بالابتعَاد عن الجنة ، وذلك بأن يصيروا إلى النار فيؤول إلى معنى : ادخلوا النار .

وهذا يقتضي أنهم كانوا في المحشر ينتظرون ماذا يفعل بهم كما أشرنا إليه عند قوله تعالى آنفاً : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ﴾ [ يس : 55 ] ، فلما حُكي ما فيه أصحاب الجنة من النعيم حين يقال لأصحاب النار : ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ﴾ [ يس : 54 ] ، حُكي ذلك ثم قيل للمشركين ﴿ وامتازوا اليوم أيُّها المُجرمون ﴾ .

وتكرير كلمة ﴿ اليَوْمَ ﴾ ثلاث مرات في هذه الحكاية للتعريض بالمخاطبين فيه وهم الكفار الذين كانوا يجحدون وقوع ذلك اليوم مع تأكيد ذكره على أسماعهم بقوله : ﴿ فاليوم لا تُظلمُ

نفسٌ ﴾ [يس : 54] وقوله : ﴿ إِنَّ أَصْحابَ الجَنَّةِ اليومَ في شُغُل ﴾ [يس : 55]

وقوله : ﴿ امتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ .

*(144/647)*

---

ونداؤهم بعنوان : ﴿ المجرمون ﴾ للإيماء إلى علة ميزهم عن أهل الجنة بأنهم مجرمون ، فاللام في ﴿ المُجْرِمُونَ ﴾ موصولة ، أي أيها الذين أجرموا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

*(145/647)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) ﴾ )

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله ﴿ وما أنزلنا على قومه . . . ﴾

قال : ما استعنت عليهم جنداً من السماء ولا من الأرض .

وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن سيرين قال : في قراءة ابن مسعود " إن كانت إلا رتقة واحدة " وفي قراءتنا ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ فإذا هم خامدون ﴾ قال : ميتون .

وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " السبق ثلاثة : فالسابق إلى موسى يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى صاحب يس . والسابق إلى محمد صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب " .

وأخرج ابن عساكر من طريق صدقة القرشي عن رجل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أبو بكر الصديق خير أهل الأرض إلا أن يكون نبي ، وإلا مؤمن آل ياسين ، وإلا مؤمن آل فرعون " .

وأخرج ابن عدي وابن عساكر : ثلاثة ما كفروا بالله قط : مؤمن آل ياسين ، وعلي بن أبي طالب ، وآسية امرأة فرعون .

وأخرج البخاري في تاريخه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الصديقون ثلاثة : حزقيل مؤمن آل فرعون ، وحبيب النجار صاحب آل ياسين ، وعلي بن أبي طالب " .

وأخرج أبو داود وأبو نعيم وابن عساكر والديلمي عن أبي ليلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الصديقون ثلاثة : حبيب النجار مؤمن آل ياسين ، الذي قال ﴿ يا قوم

اتبعوا المرسلين ﴾ وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ [ غافر : 28 ] وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم " .

(146/647)

---

وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل عن عروة قال : قدم عروة بن مسعود الثقفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم استأذن ليرجع إلى قومه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنهم قاتلوك ؟ قال : لو وجدوني نائماً ما أيقظوني ، فرجع إليهم ، فدعاهم إلى الإِسلام ، فعصوه وأسمعوه من الأذى ، فلما طلع الفجر قام على غرفة ، فأذن بالصلاة . وتشهد ، فرماه رجل من ثقيف بسهم فقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه قتله : مثل عروة . مثل صاحب يس . دعا قومه إلى الله فقتلوه " .

وأخرج ابن مردويه من حديث ابن شعبة موصولاً ، نحوه .

وأخرج عبد بن حميد والطبراني عن مقسم عن ابن عباس ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث عروة بن مسعود إلى الطائف إلى قومه ثقيف ، فدعاهم إلى الإِسلام ، فرماه رجل بسهم فقتله ، فقال : " ما أشبهه بصاحب ( يس ) " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عامر الشعبي قال : شبه النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة نفر من

أمته قال " دحية الكلبي يشبه جبريل ، وعروة بن مسعود الثقفي يشبه عيسى ابن مريم ، وعبد العزى يشبه الدجال " .

يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30)

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ يقول : يا ويلاً للعباد .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف عن ابن عباس أنه قال ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ قال : كان حسرة عليهم استهزاؤهم بالرسل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ يا حسرة العباد على أنفسها على ما ضيعت من أمر الله ، وفرطت في جنب الله تعالى قال : وفي بعض القراءة " يا حسرة العباد على أنفسها ما يأتيهم من رسول " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ قال : الندامة على العباد الذين ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون ﴾ يقول : الندامة عليهم إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ قال : يا حسرة لهم .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن هارون قال : في حرف أبي بن كعب " يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون " .

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ قال : عادا ، وثمودا ، وقروناً بين ذلك كثيراً ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ قال : يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق هارون عن الأعرج وأبي عمرو في قوله ﴿ أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ قالا : ليس في مدة اختلاف هذا من رجوع الدنيا .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي إسحق قال : قيل لابن عباس أن ناساً يزعمون أن علياً مبعوث قبل يوم القيامة . فسكت ساعة ثم قال : بئس القوم نحن إن كنا أنكحنا نساءه ، واقتسمنا ميراثه ، أما تقرأون ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا

يرجعون ﴾ .

لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35)

أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس أنه قرأ ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ قال : وجدوه معمولاً لم تعمله أيديهم . يعني الفرات ، ودجلة ، ونهر بلخ ، وأشباهها ﴿ أفلا يشكرون ﴾ لهذا . والله أعلم .

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36)

*(148/647)*

---

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها ﴾ قال : الأصناف كلها . الملائكة زوج ، والإنس زوج ، والجن زوج ، وما تنبت الأرض زوج ، وكل صنف من الطير زوج ، ثم فسر فقال ﴿ مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ الروح لا يعلمه الملائكة ولا خلق الله ، ولم يطلع على الروح أحد وقوله ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ لا يعلم الملائكة ولا غيرها .

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37)

أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ قال : يخرج

أحدهما من الآخر.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ قال: كقوله ﴿ يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل ﴾ [الحج: 61].

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38)

أخرج عبد بن حميد والبخاري والترمذي وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي ذر قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد عند غروب الشمس فقال: "يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ قال: مستقرها تحت العرش".

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن أبي ذر قال: "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ قال: "مستقرها تحت العرش"".

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي ذر قال : دخلت المسجد حين غابت الشمس ، والنبي صلى الله عليه وسلم جالس ، فقال " يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه ؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال : فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها ، فتستأذن في الرجوع ، فيأذن لها وكأنها قيل لها اطلعي من حيث جئت ، فتطلع من مغربها " ، ثم قرأ " وذلك مستقرٍ لها " قال : وذلك قراءة عبد الله .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن عمر في الآية قال ﴿ مستقرٍ لها ﴾ أن تطلع فتردها ذنوب بني آدم ، فإذا غربت سلمت ، وسجدت ، واستأذنت ، فيؤذن لها حتى إذا غربت سلمت ، فلا يؤذن لها فتقول : إن السير بعيد ، وإني لم يؤذن لي لا أبلغ ، فتحبس ما شاء الله أن تحبس ، ثم يقال اطلعي من حيث غربت . قال : فمن يومئذٍ إلى يوم القيامة ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها ﴾ [ الأنعام : 158 ] .

وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن الأنباري في المصاحف وأحمد عن ابن عباس أنه كان يقرأ " والشمس تجري لمستقرٍ لها " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عمرو قال : لو أن الشمس تجري مجرى واحداً من أهل الأرض فيخشى منها ، ولكنها تحلق في الصيف ، وتعترض في الشتاء ، فلو أنها طلعت مطلعها في الشتاء في الصيف ، لأنضجهم الحر . ولو أنها طلعت في الصيف لقطعهم البرد .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي راشد رضي الله عنه في قوله ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ قال : موضع سجودها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ قال : لوقتها ولأجلٍ لا تعدوه .

وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39)

(150/647)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ الآية . قال : قدره الله منازل ، فجعل ينقص حتى كان مثل عذق النخلة ، فشبهه بذلك .

وأخرج الخطيب في كتب النجوم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ قال : في ثمانية وعشرين منزلاً ينزلها القمر في شهر : أربعة عشر منها شامية ، وأربعة عشر منها يمانية . فأولها السرطين ، والبطين ، والثريا ، والدبران ، والهقعة ، والهنعة ، والذراع ، والنثرة ، والطرف ، والجبهة ، والزبرة ، والصرفة ، والعواء ، والسماك . وهو آخر الشامية والعقرب ، والزبانين ، والاكليل ، والقلب ، والشولة

، والنعائم ، والبلدة ، وسعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد السعود ، وسعد الأخبية ، ومقدم الدلو ، ومؤخر الدلو ، والحوت ، وهو آخر اليمانية . فإذا سار هذه الثمانية والعشرين منزلاً ﴿ عاد كالعرجون القديم ﴾ كما كان في أول الشهر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ كالعرجون القديم ﴾ يعني أصل العذق القديم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ كالعرجون القديم ﴾ قال : عرجون النخل اليابس .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ كالعرجون القديم ﴾ قال : هو عذق النخلة اليابس المنحني .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ كالعرجون القديم ﴾ قال : كعذق النخلة إذا قدم فانحنى .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن بن الوليد قال : أعتق رجل كل غلام له عتيق قديم ، فسئل يعقوب فقال : من كان لسنة فهو حر . قال الله ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ وكان لسنة .

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ قال : لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر ، ولا ينبغي لهما ذلك . وذلك ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ قال : يتطالبان حثيثين يسلخ أحدهما من الآخر .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ﴾ قال : لكل حد وعلم لا يعدوه ولا يقصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا ، وإذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ قال : ذاك ليلة الهلال .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن في قوله ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ﴾ قال : لكل واحد منهما سلطان . للقمر سلطان بالليل . وللشمس سلطان بالنهار ، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل . وقوله ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ يقول : لا ينبغي إذا كان ليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ قال : لا يذهب الليل من ههنا حتى يجيء النهار من هنا ، وأومأ بيده إلى المشرق .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ قال : في قضاء الله وعلمه أن لا يفوت الليل النهار حتى يدركه ، فتذهب ظلمته . وفي قضاء الله وعلمه أن لا يفوت النهار الليل حتى يدركه ، فيذهب بضوئه .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن أبي صالح رضي الله عنه في قوله ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ﴾ قال : لا يدرك هذا ضوء هذا ، ولا هذا ضوء هذا .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه في الآية قال : لا يسبق هذا ضوء هذا ، ولا هذا ضوء هذا .

(152/647)

---

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك رضي الله عنه في الآية قال : لا يعلو هذا ضوء هذا ، ولا هذا على هذا .

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41)

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ﴾ قال : سفينة نوح عليه السلام ، حمل فيها من كل

زوجين اثنين ﴾ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴿ قال : السفن التي في البحور ، والأنهار التي يركب الناس فيها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي صالح في قوله ﴿ حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ﴾ قال : سفينة نوح ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ قال : هذه السفن مثل خشبها وصنعتها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ قال : هي السفن جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ قال : يعني السفن الصغار ، وقال : الحسن رضي الله عنه : هي الابل .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ يعني الإِبل خلقها الله تعالى كما رأيت ، فهي سفن البر ، يحملون عليها ، ويركبونها .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الله بن شداد رضي الله عنه في قوله ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ قالا : الإِبل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في

قوله ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ قال : الأنعام . وفي قوله ﴿ وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ﴾ لا مغيث لهم يستغيثون به .

(153/647)

---

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ قال : لا مغيث لهم وفي قوله ﴿ ومتاعاً إلى حين ﴾ قال : إلى الموت . وفي قوله ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم ﴾ قال : من الوقائع التي قد خلت فيمن كان قبلكم ، والعقوبات التي أصابت عادا ، وثموداً والأمم ﴿ وما خلفكم ﴾ قال : من أمر الساعة . وفي قوله ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ﴾ . قال : نزلت في الزنادقة كانوا لا يطعمون فقيراً ، فعاب الله ذلك عليه وعيّرهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم ﴾ قال ، ما مضى وما بقي من الذنوب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ قال : اليهود تقوله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن إسماعيل عن أبي خالد رضي الله عنه في قوله ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ قال : يهود تقوله

مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ﴾ قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " تهيج الساعة الناس والرجل يسقي ماشيته ، والرجل يصلح حوضه ، والرجل يقيم سلعته في سوقه ، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه ، فتهيج بهم وهم كذلك ﴿ فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ قال : اعجلوا عن ذلك " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ﴾ قال : هذا مبتدأ يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وهم يخصمون ﴾ قال : يتكلمون .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : لينفخن في الصور والناس في طرقهم ، وأسواقهم ، ومجالسهم ، حتى أن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومان ، فما يرسله أحدهما من يده حتى ينفخ في الصور فيصعق به ، وهي التي قال الله ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه في هذه الآية قال : تقوم الساعة والناس في أسواقهم ، يتبايعون ، ويذرعون الثياب ، ويحلبون اللقاح ، وفي حوائجهم ﴿ فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن المنذر عن الزبير بن العوّام رضي الله عنه قال : إن الساعة تقوم والرجل يذرع الثوب ، والرجل يحلب الناقة ، ثم قرأ ﴿ فلا يستطيعون توصيةً ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور والبخاري ومسلم وابن المنذر وأبو الشيخ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعانه ، ولا يطويانه . ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه ، فلا يسقي فيه . ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته ، فلا يطعمه . ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ تأخذهم وهم يخصمون ﴾ قال: تذرهم في أسواقهم، وطرقهم ﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ قال: لا يوصي بعضهم إلى بعض. والله أعلم.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51)

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث ﴾ قال: النفخة الأخيرة.

(155/647)

---

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فإذا هم من الأجداث ﴾ يعني من القبور ﴿ إلى ربهم ينسلون ﴾ قال: يخرجون.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه، مثله.

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ من الأجداث ﴾ قال: القبور قال: هل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول عبد الله بن رواحة:

حيناً يقولون اذ مروا على جدثي . . . أرشده يا رب من غاز وقد رشدا

قال أخبرني عن قوله ﴿ إلى ربهم ينسلون ﴾ قال : النسل المشي الخبب قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت نابغة بن جعدة وهو يقول :

عملان الذنب أمشي قاريا . . . يرد الليل عليه فنسل

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن علي رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ .

وأخرج ابن الأنباري عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه قال : ينامون نومة قبل البعث ، فيجدون لذلك راحة فيقولون ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في قوله ﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾ قال : ينامون قبل البعث نومة .

وأخرج هناد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري عن مجاهد قال : للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم قبل يوم القيامة ، فإذا صيح بأهل القبور يقول الكافر ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ فيقول المؤمن إلى جنبه ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : يقول المشركون ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ فيقول المؤمن ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ قال : أولها للكفار ، وآخرها للمسلمين . قال الكفار ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ وقال المسلمون ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن أبي صالح رضي الله عنه في الآية قال : كانوا يرون أن العذاب يخفف عنهم ما بين النفختين ، فلما كانت النفخة الثانية ، قالوا : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم رضي الله عنه في الآية قال : ينامون قبل البعث نومة ، فإذا بعثوا قال الكفار ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ قال : فتجيبهم الملائكة ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ قال : عند الحساب .

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (56)

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله

عنه في قوله ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ﴾ قال : يعجبون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ﴾ قال : شغلهم النعيم عما فيه أهل النار من العذاب .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ في شغل فاكهون ﴾ قال : في افتضاض الأبكار .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ﴾ قال : شغلهم افتضاض العذارى .



---

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة وقتادة ، مثله .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن المؤمن كلما أراد زوجة وجدها عذراء .

وأخرج البزار والطبراني في الصغير وأبو الشيخ في العظمة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عادوا أبكاراً".

وأخرج المقدسي في صفة الجنة عن أبي هريرة رضي الله عنه "عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه سئل أنطؤ في الجنة؟ قال: نعم. والذي نفسي بيده دحماً دحماً، فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكراً".

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ في شغل فاكهون ﴾ قال: ضرب الأوتار قال أبو حاتم: هذا خطأ من السمع إنما هو افتضاض الأبكار.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وأزواجهم ﴾ قال: حلائلهم.

لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57)

وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة بسند جيد عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن الرجل من أهل الجنة ليشتهي الشراب من شراب الجنة، فيجيء إليه الابريق، فيقع في يده، فيشرب، فيعود إلى مكانه.

سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58)

أخرج ابن ماجة وابن أبي الدنيا في صفة الجنة والبزار وابن أبي حاتم والآجري في الرؤية

وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " بينا أهل الجنة في نعيمهم ، إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال السلام عليكم يا أهل الجنة . وذلك قول الله ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ قال : فينظر إليهم ، وينظرون إليه ، فلا يلتفتوا إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم " .

(158/647)

---

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ قال : فإن الله هو يسلم عليهم .

وأخرج ابن جرير عن البراء رضي الله عنه في قوله ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ قال : يسلم عليهم عند الموت .

وأخرج ابن جرير وأبو نصر السجزي في الابانة عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه في قوله ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ قال : يأتيهم تبارك وتعالى في درجاتهم ، فيسلم عليهم ، فيردون عليه السلام ، فيقول " سلوني فيقولون : ما نسألك ؟ وعزتك وجلالك لو أنك قسمت علينا رزق الثقلين الجن والانس لأطعمناهم ، ولأسقيناهم ، ولألبسناهم ،

ولأخذ مناهم ، ولا ينقصنا ذلك شيئاً . فيقول : إن لدي مزيداً ، فيقول ذلك بأهل كل درجة حتى ينتهي ، ثم يأتيهم التحف من الله تحمله إليهم الملائكة " .

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59)

أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله الناس على تل رفيع ، ثم نادى مناد : امتازوا اليوم أيها المجرمون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن رواد بن الجراح رضي الله عنه في الآية قال : إذا كان يوم القيامة نادى مناد : أن ميزوا المسلمين من المجرمين ، إلا صاحب الأهواء . يعني يترك صاحب الهوى مع المجرمين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ فرق ، وبكى ، وقال : ما سمع الناس قط بنعت أشد منه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ قال : عزلوا عن كل خير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55) ﴾

إنما يضافُ العبدُ إلى ما كان الغالبَ عليه ذِكْرُه بمجامع قلبه ، فصاحبُ الدنيا مَنْ في أَسْرِها ، وأصحابُ الجنة مَنْ هم طُلاَّبها والساعون لها والعاملون لِنَيْلِها ؛ قال تعالى مخبراً عن أقوالهم وأحوالهم : ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [ الصافات : 61 ] . وهذه الأحوال - وإن جَلَّتْ منهم ولهم - فهي بالإضافة إلى أحوال السادة والأكابر تتقاصر ، قال صلى الله عليه وسلم : " أكثر أهل الجنة البُلْه " ومَنْ كان في الدنيا عن الدنيا حُرّاً فلا يبعد أن يكون في الجنة عن الجنة حراً ، والله يختص برحمته من يشاء .

وقيل إنما يقول هذا الخطاب لأقوام فارغين ، فيقول لهم : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ وهم أهل الحضرة والدنو ، لا تشغلهم الجنة عن أُنس القربة ، وراحات الوصلة ، والفراغ للرؤية .

ويقال : لو عَلِموا عمَّن شُغِلوا لَمَا تَهَنَّأوا بما شُغِلوا .

ويقال بل إنما يقول لأهل الجنة : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ كأنه يخاطبهم مخاطبة المُعاينة إجلالاً لهم كما يقال : الشيخ يفعل كذا ، ويُرادُ به : أنت تفعل كذا .

ويقال : إنما يقول هذا لأقوام في العرصة أصحاب ذنوب لم يدخلوا النار ، ولم يدخلوا الجنة

بَعْدُ لِعِصْيانِهِم ؛ فيقول الحق : عبدي . . أهلُ النار لا يتفرغون إليك لأهوالهم ، وما هم فيه من صعوبة أحوالهم ، وأهل الجنة وأصحابها اليومَ في شُغْلٍ عنك لأنهم في لذّاتهم ، وما وجدوا من أفضالهم مع أهلهم وأشكالهم ؛ فليس لك اليوم إلا نحن !

وقيل شغلهم تأهبهم لرؤية مولاهم ، وذلك من أتم الأشغال ، وهي أشغالٌ مؤنِسَةٌ مريحةٌ لا مُتْعِبَةٌ موحِشَةٌ .

(160/647)

---

ويقال : الحقُّ لا يتعلَّق به حقٌّ ولا باطل ؛ فلا تَنَافِيَ بين اشتغالهم بأبدانهم مع أهلهم ، وشهودهم مولاهم ، كما أنهم اليومَ مشغولون مستديمون لمعرفته بأي حالةٍ هم ، ولا يَقْدَحُ اشتغالهم - باستيفاء حُظُوظِهم - في معارفهم .

ويقال شَغَلَ نفوسهم بشهواتها حتى يخلص الشهود لأسرارهم على غيبةٍ من إحساس النَّفْس الذي هو أصعب الرُّقباء ، ولا شيء أعلى من رؤية الحبيب مع فَقْدِ الرقيب .

هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (56)

﴿ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾ : قيل أشكالهم في الحال والمنزلة ، كقوله : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [ الصافات : 22 ] وقيل حَظَايا هم من زوجاتهم .

لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57)

﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ : أي نصيب أنفسهم . ويقال الإشارة فيها إلى راحات الوقت دون حظوظ النفس .

﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ : ما يريدون ، ويقال تسلم لهم دواعيهم ، والدعوى -إذا كانت بغير حقٍّ- معلولة .

سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58)

يسمعونَ كلامَه وسلامَه بلا واسطة ، وأكَّد ذلك بقوله : " قولاً " .

وبقوله : ﴿ مِّن رَّبٍّ ﴾ ليعلم أنه ليس سلاماً على لسان سفير .

﴿ مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ والرحمةُ في تلك الحالة أن يرزقهم الرؤية في حال ما يُسَلِّم عليهم لِتَكْمُلَ لهم النعمة . ويقال الرحمة في ذلك الوقت أن يُنَقِّيهم في حال سماع السلام وحال اللقاء لئلا يصحبهم دهش ، ولا تلحقهم حيرة .

ويقال إنما قال : ﴿ مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ ليكون للعصاة من المؤمنين فيه نَفَسٌ ، ولرجائهم مساغ ؛ فإن الذي يحتاج إلى الرحمة العاصي .

ويقال : قال ذلك ليعلم العبدُ أنه لم يصل إليه بفعله واستحقاقه ، وإنما وصل إليه برحمة ربه .

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59)

غيبةُ الرقيب أتمُّ نعمةٍ ، وإبعادُ العدوّ مِنْ أجَلِّ العوارف ؛ فالأولياءُ في إيجاب القربة ، والأعداء في العذاب والحجبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 220 . 222 ﴾

(162/647)

---

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله الله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا على قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السماء ﴾

يعني : من بعد حبيب النجار ﴿ مِن جُندٍ ﴾ من السماء ، يعني : الملائكة ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ يعني : لم نبعث إليهم أحداً ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ يعني : ما كانت إلا صيحة جبريل عليه السلام ﴿ فَإِذَا هُمْ خامدون ﴾ يعني : ميتون لا يتحركون ﴿ خامدون ياحسرة عَلَى العباد ﴾ يعني : يا ندامة على العباد في الآخرة .

يعني : يقولون : يا حسرتنا على ما فعلنا بالأنبياء عليهم السلام ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مّن رَّسُولٍ ﴾ في الدنيا ﴿ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

ثم خوّف المشركين بمثل عذاب الأمم الخالية ليعتبروا فقال: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ يعني: ألم يعلموا؟ ويقال: ألم يخبروا كم أهلكنا ﴿ قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون ﴾ يعني: كم عاقبنا من القرون الماضية ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ إلى الدنيا ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ قرأ عاصم، وحمزة، وابن عامر، بتشديد الميم.

وقرأ الباقون: بالتخفيف.

فمن قرأ بالتشديد فمعناه: وما كل إلا جميع.

ومن قرأ بالتخفيف فما زائدة ومؤكدة.

والمعنى وإن كل لجميع لدينا محضرون.

يعني: يوم القيامة محضرون عندنا، ثم وعظهم كي يعتبروا من صنعه، فيعرفوا توحيده.



---

قوله تعالى ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ ﴾ يعني علامة وحدانيته ﴿ الأرض الميتة أَحْيَيْنَاهَا ﴾ يعني الأرض اليابسة أحييناها بالمطر لتنبت ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً ﴾ يعني الحبوب كلها ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ يعني وخلقنا في الأرض ﴿ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ يعني البساتين والكروم ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العيون ﴾ يعني أجرينا في الأرض الأنهار تخرج ن

العيون ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ يعني من الثمرات ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيدِيهِم ﴾ يعني لم تعمل أيديهم ، ويقال : والذي عملت أيديهم مما يزرعون ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ رب هذه النعم فيوحدوه ، وقرأ حمزة والكسائي ﴿ ثُمَرِهِ ﴾ بالضم .

وقرأ الباقون : بالنصب .

والثَّمر بالنصب ، جماعة الثمرة .

والثمرات جمع الجمع وهو الثمر ، مثل كتاب وكتب .

والثُّمر بالضم جمع الثمار .

قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر : ﴿ وَمَا عَمِلَتْ ﴾ بغير هاء .

وقرأ الباقون : بالهاء .

ومعناهما واحد .

ثم قال : ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به الأمر ، يعني : اشكروا رب هذه النعم ووحدوه .

ثم قال عز وجل : ﴿ سبحان الذى خَلَقَ الازواج كُلَّهَا ﴾ يعني : تنزيهاً لله عز وجل الذي خلق الأصناف كلها ﴿ مِمَّا تُنبِتُ الأرض ﴾ يعني : ألواناً من النبات والثمار .

ففي كل شيء خلق الله تعالى دليلاً على وحدانيته تعالى وربوبيته ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ يعني : خلق من جنسهم أصناف الذكر والأنثى ، وألواناً مختلفة ﴿ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني :

وخلق من الخلق ما لا يعلمون ، وهذا كقوله : ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [ النحل : 8 ] .

*(164/647)*

---

ثم ذكر لهم دلالة أخرى ليعتبروا بها ، فقال عز وجل : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الليل ﴾ يعني : علامة وحدانيته الليل ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾ يعني : نخرج ونميز منه النهار ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ يعني : داخلون في الظلمة .

ويقال : يبقون في الظلمة .

ويقال : إن الله خلق الدنيا مظلمة .

ثم قال : ﴿ والشمس ﴾ سراجاً ، فإذا طلعت الشمس ، صارت الدنيا مضيئة .

وإذا غربت الشمس ، بقيت الظلمة .

كما كانت ، وهو قوله تعالى : ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾ يعني : ننزع الضوء منه ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ يعني : يبقون في الظلمة .

ويقال : نسلخ الليل .

يعني : نخرج منه النهار إخراجاً لا يبقى منه شيء من ضوء النهار ، كما نسلخ الليل من

النَّهار ، فكذلك نسلخ النهار من الليل .

فكأنه يقول : الليل نسلخ منه النهار ، والنهار نسلخ منه الليل ، فاكتفى بذكر أحدهما ، لأن في الكلام دليلاً .

وقد ذكر في آية أخرى قال : ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار وَيُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ العزيز الغفار ﴾ [ الزمر : 5 ] .

ثم قال عز وجل : ﴿ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ قال مقاتل : يعني : لوقت لها .

وقال الكلبي : تسير في منازلها حتى تنتهي إلى مستقرها ، ولا تتجاوزها .

ثم ترجع إلى أول منازلها .

وقال القتبي : ﴿ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ يعني : إلى مستقر لها .

ومستقرها أقصى منازلها في الغروب .

وذلك لأنها لا تزال تتقدم في كل ليلة ، حتى تنتهي إلى أبعد مغاربها ، ثم ترجع فذلك مستقرها ، لأنها لا تجاوزها .

وطريق آخر ما روي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم عند غروب الشمس ، فقال : " يا أَبَا ذَرَ أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ " قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : " فإنَّها تَغْربُ ، وتَذْهَبُ حتَّى تَسْجُدَ تحْتَ العَرْشِ ، وتَسْتأْذِن فيُؤْذَنُ لَهَا ، ويُوشِكُ أنْ تَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنَ لَها ، حتَّى تَسْتَشْفِعَ ، وتَطْلُبَ ، فإذا طَالَ عَلَيْها ، قيلَ لَهَا : اطلعي مَكَانَكِ ، فذلك قوله : ﴿ والشمس تَجْرِى لِمُسْتقرّ لَّهَا ﴾ قال : مُسْتَقَرُّها تحْتَ العَرْشِ ".

ثم قال : ﴿ ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ العزيز بالنقمة ، العليم بما قدّره من أمرها ، وخلقها .

وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس أنه كان يقرأ : ﴿ والشمس تَجْرِى لمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ يعني : لا تقف ، ولا تستقر ، ولكنها جارية أبداً .

ثم قال عز وجل : ﴿ والقمر قدرناه مَنَازِلَ ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ﴿ والقمر ﴾ بالضم وقرأ الباقون : بالنصب .

فمن قرأ بالضم ، فله وجهان .

أحدهما أن يكون على الابتداء ، والآخر معناه : ﴿ وَءايَةٌ لَّهُمُ ﴾ القمر عطف على قوله : ﴿ وَءايَةٌ لَّهُمُ الليل ﴾ ومن قرأ بالنصب ، فمعناه : وقدرنا القمر .

وقال مقاتل في قوله : ﴿ والقمر قدرناه مَنَازِلَ ﴾ يعني : قدرناه منازل في السماء ، يبدو رقيقاً ، ثم يستوي ، ثم ينقص في آخر الشهر .

وقال الكلبي : ﴿ قدرناه مَنَازِلَ ﴾ أي : قدرناه منازل بالليل ، ينزل كل ليلة في منزل ، ويصعد في منزل ، حتى ينتهي إلى مستقره الذي لا يجاوزه ، ثم يعود إلى أدنى منازله .

ويقال : إن القمر يدور في منازله في شهر واحد ، مثل ما تدور الشمس في منازلها في سنة واحدة ، قال مقاتل وذلك أن القمر عرضه ثمانون فرسخاً مستديرة ، والشمس هكذا .

وكان ضوؤهما واحداً ، فأخذ تسعة وتسعون جزءاً من القمر ، فألحقت بالشمس .

وروي عن ابن عباس أنه قال : القمر أربعون فرسخاً في أربعين فرسخاً ، والشمس ستون فرسخاً في ستين فرسخاً .

وقال بعضهم : القمر والشمس عرض كل واحد منهما مثل الدنيا كلها .

*(166/647)*

---

ثم قال تعالى : ﴿ حتى عَادَ كالعرجون القديم ﴾ يعني : صار كالعذق اليابس ، المنقرس ، الذي حال عليه الحول .

ويقال : للقمر ثمانية وعشرون منزلاً ، فإذا صار في آخر منازله ، دقّ حتى يعود كالعذق

اليابس .

والعرجون إذا يبس ، دق واستقوس ، فشبه القمر به .

يعني : صار في عين الناظر كالعرجون ، وإن كان هو في الحقيقة عظيم بنفسه ، إلا أنه في عين الناظر يراه دقيقاً .

ثم قال عز وجل : ﴿ لَا الشمس يَنبَغِى لَهَا أَن تدْرِكَ القمر ﴾ يعني : أن تطلع في سلطان القمر .

وقال عكرمة : لكل واحد منهما سلطان للشمس سلطان بالنهار ، وللقمر سلطان بالليل .

فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل ﴿ وَلَا الليل سَابِقُ النهار ﴾ يعني : لا يدرك سواد الليل ضوء النهار ، فيغلبه على ضوئه ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يعني : في دوران يجرون ، ويدورون ، ويقال : ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ يعني : يسيرون فيه بالانبساط ، وكل من انبسط في شيء ، فقد سبح فيه ، وقال بعضهم : السماء كالموج المكفوف ، والشمس والقمر ، والكواكب الدوارة يسبحون فيها وقال بعضهم : الأفلاك كثيرة ، مختلفة في السير ، تقطع القمر في ثمانية وعشرين يوماً ، والشمس تقطع في سنة .

وقال بعضهم : الفلك واحد ، وجريهن مختلف ، والفلك في اللغة كل ما يدور .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ ﴾ يعني : علامة لكفار مكة على معرفة وحدانية الله تعالى ، ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ يعني : آباءهم ، واسم الذرية يقع على الآباء والنسوة ،

والصبيان، وأصله الخلق، كقوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجن والإنس لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءاذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أولئك كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أولئك هُمُ الغافلون ﴾ [الأعراف: 179] يعني: خلقنا.

ويقال: ﴿ ذُرِّيَّتُهُمْ ﴾ خاصة.

*(167/647)*

---

ثم قال: ﴿ فِى الفلك المشحون ﴾ يعني: في سفينة نوح عليه السلام الموقرة المملوءة.

يعني: حملنا ذريتهم في أصلاب آبائهم قرأ نافع وابن عامر: ﴿ ذُرِّيَاتِهِمْ ﴾ بلفظ الجماعة.

وقرأ الباقون: ﴿ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم ﴾ وأراد به الجنس.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مّن مّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ يعني: من مثل سفينة نوح عليه السلام ما يركبون في البحر.

وقال قتادة: يعني: الإبل يركب عليها في السير، كما تركب السفن في البحر.

وقال السدي: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مّن مّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾.

فقال: هذه السفن الصغار.

يعني: الزوارق.

وقال عبد الله بن سلام : هي الإبل .

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله : أخبرني الثقة بإسناده عن أبي صالح .

قال : قال لي ابن عباس : ما تقول في قوله : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ قلت : هي السفن .

قال : خذ مني بآذان إنما هي الإبل .

فلقيني بعد ذلك .

فقال : إني ما رأيتك إلا وقد غلبتني فيها ، هي كما قلت ألا ترى أنه يقول : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ يعني : إن نشأ نغرقهم في الماء ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ يعني : لا مغيث لهم ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ يعني : لا يمنعون ، فلا ينجون من الغرق .

قوله عز وجل : ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ يعني : إلا نعمة منا ، حين لم نغرقهم .

ويقال : معناه لكن رحمة منا بحيث لم نغرقهم ﴿ ومتاعا إلى حِينٍ ﴾ يعني : بلاغاً إلى آجالهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتقوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ يعني : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ من أمر الآخرة فاعملوا لها ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ من أمر الدنيا فلا تغتروا بها .

وقال مقاتل : ﴿ اتقوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ لكيلا يصيبكم مثل عذاب الأمم الخالية ﴿ وَمَا

خَلْفَكُمْ ﴾ يعني : ﴿ واتقوا مَا بَيْنَ أَيدِيكُمْ ﴾ أي : من عذاب الآخرة .

والأول قول الكلبي .

(168/647)

---

ثم قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ يعني : لكي ترحموا فلا تعذبوا ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءايَةٍ مِّنْ ءايات رَبّهِمْ ﴾ مثل انشقاق القمر ﴿ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ يعني : مكذبين .

وهذا جواب لقوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتقوا مَا بَيْنَ أَيدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ الآية .

ثم أخبر عن حال زنادقة الكفار فقال عز وجل ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ يعني : تصدقوا من المال الذي أعطاكم الله عز وجل : ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء الله أَطْعَمَهُ ﴾ على وجه الاستهزاء منهم ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ يعني : في خطأ بيّن .

قال بعضهم : هذا قول الكفار الذين أمرهم بالنفقة .

وقال بعضهم : هذا قول الله تعالى .

يعني : قل لهم يا محمد : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ وروي عن ابن عباس مثل هذا .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ يعني : متى هذا الوعد

الذي تعدونا به يوم القيامة ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ بأنا نبعث بعد الموت ، فيقول الله تعالى : ﴿ مَا يَنظُرُونَ ﴾ بالعذاب ﴿ إِلَّا صَيْحَةً واحدة ﴾ يعني : لا حظر لإهلاكهم ، فليس إلا صيحة واحدة ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾ بكسر الياء والخاء .

وقرأ نافع ﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾ بنصب الياء ، وسكون الخاء .

وقرأ الكسائي وعاصم في رواية حفص وابن عامر في إحدى الروايتين : بنصب الياء ، وكسر الخاء .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بنصب الياء والخاء .

وقراءة حمزة ﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾ بنصب الياء ، وجزم الخاء بغير تشديد .

ومعناه : تأخذهم وبعضهم يخصم بعضاً .

ومن قرأ بالتشديد .

فالأصل فيه يختصمون فأدغمت التاء في الصاد ، وشددت .

ومن قرأ : بنصب الخاء طرح فتحة التاء على الخاء .

ومن قرأ بكسر الخاء ، فلسكونها ، وسكون الصاد .

وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص : لينفخن في الصور ، والناس في طرقهم ، وأسواقهم ، حتى أن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومان ، فما يرسله واحد منهما ، حتى ينفخ في الصور ، فيصعق به ، وهي التي قال الله تعالى : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ قال الفقيه أبو الليث رحمه الله : وأخبرني الثقة بإسناده عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" تَقُومُ السَّاعَةُ والرَّجُلانِ يَتَبَايَعَانِ الثَّوْب ، فَلا يَطْوِيَانِهِ ، ولا يَتَبَايَعَانِهِ .

وتَقُومُ السَّاعَةُ ، والرَّجُل يَحْلُبُ النَّاقَة ، فَلا يَصِلُ الإِنَاءُ إِلَى فِيه .

وتَقُومُ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلُوطُ الْحَوْضَ ، فَلا يَسْقِي فِيه " .

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ يعني : يموتون من ساعتهم بغير وصية ، فلا يستطيعون أن يوصوا إلى أهلهم بشيء ﴿ وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ يعني : ولا إلى منازلهم يرجعون من الأسواق فأخبر الله تعالى بما يلقون في النفخة الأولى ثم أخبر بما يلقون في النفخة الثانية .

يعني : إذا بعثوا من قبورهم بعد الموت فذلك قوله : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث ﴾ من القبور ﴿ إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ يعني : يخرجون من قبورهم أحياء .

وكان بين النفختين أربعين عاماً في رواية ابن عباس .

وقيل : أكثر من ذلك .

ورفع العذاب عن الكفار بين النفختين .

فكأنهم رقدوا .

فلما بعثوا ﴿ قَالُواْ يا ويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ يعني : من أيقظنا من منامنا .

قال : فيقول لهم الحفظة من الملائكة ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن ﴾ على ألسنة الرسل ﴿ وَصَدَقَ المرسلون ﴾ بأن البعث حق .

ويقال : إن المؤمنين هم الذين يقولون : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ بأن البعث كائن .

(170/647)

---

ثم قال عز وجل : ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ قال الكلبي : يعني : في الآخرة .

وقال مقاتل : في بيت المقدس لحسابهم .

ثم قال : ﴿ فاليوم لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ يعني يوم القيامة لا تنقص نفس مؤمنة ، ولا كافرة ، من أعمالهم شيئاً ﴿ وَلاَ تُجْزَوْنَ ﴾ يعني : ولا تثابون ﴿ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير

أو شر .

ثم قال : ﴿ إِنَّ أصحاب الجنة اليوم فِى شُغُلٍ فاكهون ﴾ يعني : يوم القيامة في شغل مما هم فيه .

أي : عن الذي هم فيه فاكهون .

يعني : ناعمين .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ﴿ فِى شُغْلٍ ﴾ بجزم الغين .

وقرأ الباقون : بالضم .

وهما لغتان .

يقال : شغْل وشغُل مثل عُذْر وعذُر وعمْر وعمُر .

قرأ أبو جعفر المدني : ﴿ فاكهون ﴾ بغير ألف ، وقراءة العامة ﴿ فاكهون ﴾ بالألف .

فمن قرأ بغير ألف يعني : يتفكهون .

قال أبو عبيد : يقال : للرجل إذا كان يتفكه بالطعام ، أو بالشراب ، أو بالفاكهة ، أو بأعراض الناس ، إن فلاناً يتفكه .

ومنه يقال للمزاحة فكاهة .

ومن قرأ بالألف يعني : ذوي فاكهة .

وقال الفراء : فاكهة وفكهة لغتان ، كما يقال حذر وحاذر .

وروي في التفسير ﴿ فاكهون ﴾ يعني : ناعمون .

وفكهون معجبون .

وقال الكلبي ومقاتل في قوله : ﴿ إِنَّ أصحاب الجنة ﴾ الآية يعني : شغلوا بالنعيم في افتضاض الأبكار العذارى عن أهل النار ، فلا يذكرونهم يعني : معجبين بما هم فيه من النعم والكرامة .

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله : حدّثنا محمد بن الفضل بإسناده عن عكرمة في قوله : ﴿ فِى شُغُلٍ فاكهون ﴾ قال في افتضاض الأبكار .

وروى زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إِنَّ الرَّجُلَ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الأَكْلِ ، وَالشُّرْبِ ، وَالجِمَاعِ " فقال رجل من أهل الكتاب : إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة .



---

فقال الرسول : " يَفِيضُ مِنْ جَسَدِ أَحَدِهِمْ عَرَقٌ مِثْلُ المِسْكِ الأَذْفَرِ فَيَضْمُرُ بذلك بَطْنُهُ " .

ثم قال تعالى : ﴿ هُمْ وأزواجهم فِى ظلال ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ فِي ظُلَلٍ ﴾ وقرأ الباقون ﴿ فِى ظلال ﴾ فمن قرأ ﴿ فِي ظُلَلٍ ﴾ فهو جمع الظلة .

يقال : ظلة وظلل مثل حلة وحلل .

ومن قرأ بكسر الظاء فهو جمع الظل يعني : هم في ظلال العرش والشجر ويقال معنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد .

يعني : إن أهل الجنة ﴿ هُمْ وأزواجهم ﴾ الحور العين في القصور ﴿ عَلَى الارائك مُتَّكِئُونَ ﴾ يعني : على السرر عليها الحجال .

وروى مجاهد عن ابن عباس قال : الأرائك سرر في الحجال .

وقال الكلبي : لا تكون أريكة إلا إذا اجتمعا ، فإذا تفرقا فليست بأريكة ﴿ مُتَّكِئُونَ ﴾ أي : ناعمون .

وإنما سمي هذا لأن الناعم يكون متكئاً .

ثم قال : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فاكهة ﴾ يعني : لهم في الجنة من أنواع الفاكهة ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ يعني : ما يتمنون مما يشتهوا من الخير ، ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مّن رَّبّ رَّحِيمٍ ﴾ يعني : يرسل إليهم ربهم بالتحية والسلام .

والعرب تقول : ادّعي ما شئت ، ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ يتمنون .

فقوله عز وجل : ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً ﴾ يعني : يقال لهم سلام كأنهم يتلقونه بالسلام ﴿ مّن رَّبّ رَّحِيمٍ ﴾ ويقال : ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ سلام ﴾ يعني : لهم ما يشاؤون خالصاً .

ثم قال : ﴿ قَوْلاً مّن رَّبّ رَّحِيمٍ ﴾ .

يقول الله تعالى ﴿ وامتازوا اليوم ﴾ وذلك أنه إذا كان يوم نادى مناد : ﴿ وامتازوا اليوم أَيُّهَا المجرمون ﴾ يعني : اعتزلوا أيها الكفار من المؤمنين ، فإنهم قد تأذوا منكم في الدنيا ، فاعتزلوهم حتى ينجوا منكم .

ويقال : إن المنادي ينادي ﴿ أَيُّهَا المجرمون ﴾ امتازوا ، فإن المؤمنين قد فازوا .

وأيها المنافقون امتازوا ، فإن المخلصين قد فازوا .

ويا أيها الفاسقون امتازوا فإن الصالحين قد فازوا ويا أيها العاصون امتازوا ، فإن المطيعين قد فازوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 115.122 ﴾

(172/647)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء ﴾

فيه قولان : أحدهما : معنى جند من السماء أي رسالة ، قاله مجاهد ، لأن الله تعالى قطع عنهم الرسل حين قتلوا رسله .

الثاني : أن الجند الملائكة الذين ينزلون الوحي على الأنبياء ، قاله الحسن .

﴿ وما كنا منزلين ﴾ أي فاعلين .

﴿ إن كانت إلا صيحة واحدةً ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنَّ الصيحة هي العذاب .

الثاني : أنها صيحة من جبريل عليه السلام ليس لها مثنوية ، قاله السدي .

﴿ فإذا هم خامدون ﴾ أي ميتون تشبيهاً بالرماد الخامد .

قوله عز وجل : ﴿ يا حسرةً على العباد ما يأتيهم ﴾ فيه ثلاثة أوجه : أحدها : يا حسرة العباد على أنفسها ، قال قتادة ، وحكاه عبد الرحمن بن أبي حاتم في بعض القراءات متلوّاً .

الثاني : أنها حسرتهم على الرسل الثلاثة ، قاله أبو العالية .

الثالث : أنها حسرة الملائكة على العباد في تكذيبهم الرسل ، قاله الضحاك .

وفيه وجه رابع : عن ابن عباس أنهم حلوا محل من يتحسر عليهم .

﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءُون ﴾ الاستهزاء منهم قبل العذاب .

وفي الحسرة منهم قولان :

أحدهما : بعد معاينة العذاب .

الثاني : في القيامة ، قاله ابن عباس .

قوله عز وجل : ﴿ وإن كلٌّ لما جميعٌ ﴾ يعني الماضين والباقين .

﴿ لدينا محضرون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : معذبون ، قاله السدي .

الثاني : مبعثون ، قاله يحيى بن سلام .

قوله عز وجل : ﴿ وفجرنا فيها مِن العيون ليأكلوا من ثَمَرِه وما عَمِلَتْهُ أيديهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنها إثبات وتقديره : ومما عملته أيديهم ، قاله الكلبي والفراء وابن قتيبة .

والوجه الثاني : أنها جحد وفيها على هذا القول وجهان :

أحدهما : وما لم تعمله أيديهم من الأنهار التي أجراها الله سبحانه لهم . قال الضحاك يعني الفرات ودجلة ونهر بلخ ونيل مصر .

الثاني : وما لم تعمله أيديهم من الزرع الذي أنبته الله تعالى لهم .



---

قوله عز وجل : ﴿ سبحان الذي خَلَق الأزواج كلها ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني الأصناف كلها ، قاله السدي .

الثاني : يعني من النخل والشجر والزرع كل صنف منه زوج .

﴿ ومن أنفسهم ﴾ وفي ذلك دليل على مشاكلة الحيوان لهم في أنها زوج ذكر وأنثى .

﴿ ومما لا يَعْلمون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني الروح التي يعلمها الله ولا يعلمها غيره .

الثاني : ما يرى نادراً من حيوان ونبات .

ويحتمل ثالثاً : مما لا تعلمون من تقلب الولد في بطن أمه .

قوله عز وجل : ﴿ وآيةٌ لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ أي نخرج منه النهار يعني ضوءه ، مأخوذ من سلخ الشاة إذا خرجت من جلدها .

﴿ فإذا هم مظلمون ﴾ أي في ظلمة لأن ضوء النهار يتداخل في الهواء فيضيء ، فإذا خرج منه أظلم .

﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : لوقت واحد لا تعدوه ، قاله قتادة .

الثالث : أي أبعد منازلها في الغروب ، ثم ترجع إلى أدنى منازلها ، قاله الكلبي . وروى عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقرأها : والشمس تجري لا مستقر لها . وتأويل هذه القراءة أنها تجري في الليل والنهار ولا وقوف لها ولا قرار .

وقوله عز وجل : ﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : جعله في كل ليلة على مقر له ، يزيد في كل ليلة من أول الشهر حتى يستكمل ثم ينقص بعد استكماله حتى يعود كما بدأ ، وهو محتمل .

الثاني : أنه يطلع كل ليلة في منزل حتى يستكمل جميع المنازل في كل شهر ، ولذلك جعل بعض الحساب السنة الشمسية ثلاثة عشر شهراً قمرياً .

﴿ حتى عَادَ كالعرجون القديم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه العذق اليابس إذا استقوس ، وهو معنى قول ابن عباس ، ومنه قول أعشى قيس :

شرق المسك والعبير بها . . . فهي صفراء كعرجون القمر

الثاني : أنه النخل إذا انحنى مائلاً ، قاله الحسن .

﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تُدْرِكَ القَمر ﴾ فيه خمسة تأويلات :



---

أحدها : أي لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر ، قاله مجاهد .

الثاني : لا يجتمع ضوء أحدهما مع ضوء الآخر ، لأن ضوء القمر ليلاً وضوء الشمس نهاراً ، فإذا جاء سلطان أحدهما ذهب سلطان الآخر ، قاله قتادة .

الثالث : معناه أنهما إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدي الآخر في منازل لا يشتركان فيها ، قاله ابن عباس .

الرابع : أنهما لا يجتمعان في السماء ليلة الهلال خاصة ، قاله الحسن .

الخامس : أنه لا تدرك الشمس القمر ليلة البدر خاصة لأنه يبادر بالمغيب قبل طلوعها ، حكاه يحيى بن سلام .

﴿ ولا الليلُ سابق النهار ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني أنه لا يتقدم الليل قبل استكمال النهار وهو معنى قول يحيى بن سلام .

الثاني : أنه لا يأتي ليل بعد ليل متصل حتى يكون بينهما نهار منفصل ، وهو معنى قول عكرمة .

ومن الناس من يجعل هذا دليلاً على أن أول الشهر النهار دون الليل ، لأنه إذا لم يسبق الليل النهار واستحال اجتماعهما وجب أن يكون النهار سابقاً . وهذا قول يدفعه الشرع ويمنع منه الإجماع .

﴿ وكلٌّ في فلك يسْبَحون ﴾ قال الحسن : الشمس والقمر والنجوم في فلك بين السماء والأرض غير ملتصقة بالسماء ، ولو كانت ملتصقة ما جرت .

وفي قوله تعالى : ﴿ يسبحون ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : يجرون ، قاله ابن عباس .

الثاني : يدورون كما يدور المغزل في الفلكة ، قاله عكرمة ومجاهد .

الثالث : يعملون ، قاله الضحاك .

قوله عز وجل : ﴿ وآية لهم ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : عبرة لهم لأن في الآيات اعتباراً .

الثاني : نعمة عليهم لأن في الآيات إنعاماً .

الثالث : إنذار لهم لأن في الآيات إنذاراً .

﴿ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَتَهم في الفلك المشحون ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الذرية الآباء حملهم الله تعالى في سفينة نوح عليه السلام ، قاله أبان بن عثمان ، وسمى الآباء ذرية لأن منهم ذرء الأبناء .



---

الثاني : أن الذرية الأبناء والنساء لأنهم ذرء الآباء حملوا في السفن ، والفلك هي السفن الكبار ، قاله السدي .

الثالث : أن الذرية النطف حملها الله تعالى في بطون النساء تشبيهاً بالفلك المشحون ، قاله عليّ رضي الله عنه .

وفي ﴿ المشحون ﴾ قولان :

أحدهما : الموقر ، قاله ابن عباس .

الثاني : المملوء ، حكاه ابن عباس أيضاً .

﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ فيه أربعة تأويلات : أحدها : أنه خلق مثل سفينة نوح مما يركبونها من السفن ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها السفن الصغار خلقها لهم مثل السفن الكبار ، قاله أبو مالك .

الثالث : أنها سفن الأنهار خلقها لهم مثل سفن البحار ، قاله السدي .

الرابع : أنها الإبل خلقها لهم للركوب في البر مثل السفن المركوبة في البحر ، قاله الحسن وعبد الله بن شداد . والعرب تشبه الإبل بالسفن ، قال طرفة :

كأنَّ حدوجَ المالكية غدوةً . . . خلايا سَفينٍ بالنواصِف من دَدِ

ويجيء على مقتضى تأويل عليّ رضي الله عنه في أن الذرية في الفلك المشحون هي النطف في بطون النساء . قولٌ خامس في قوله : ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ : أن يكون تأويله النساء خلقن لركوب الأزواج ، لكن لم أره محكياً .

قوله عز وجل : ﴿ وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فلا مغيث لهم ، رواه سعيد عن قتادة .

الثاني : فلا منعة لهم ، رواه شيبان عن قتادة .

﴿ ولا هم ينقذون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من الغرق .

الثاني : من العذاب .

﴿ إلا رحمة منا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إلا رحمتنا ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : إلا نعمة منا ، قاله مقاتل .

﴿ ومتاعاً إلى حين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إلى الموت ، قاله قتادة .

الثاني : إلى القيامة ، قاله يحيى .

قوله عز وجل : ﴿ وإذا قيل لهم اتَّقوا ما بين أيديكم وما خلْفكم ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : ما بين أيديكم ما مضى من الذنوب ، وما خلفكم ما يأتي من الذنوب ، قاله مجاهد .



الثاني : ما بين أيديكم من الدنيا ، وما خلفكم من عذاب الآخرة ، قاله سفيان .

الثالث : ما بين أيديكم عذاب الله لمن تقدم من عاد وثمود ، وما خلفكم من أمر الساعة ، قاله قتادة .

ويحتمل تأويلاً رابعاً : ما بين أيديكم ما ظهر لكم ، وما خلفكم ما خفي عنكم .

﴿ لعلكم ترحمون ﴾ معناه لكي ترحموا فلا تعذبوا . ولهذا الكلام جواب محذوف تقديره : إذا قيل لهم هذا أعرضوا عنه .

قوله عز وجل : ﴿ وما تأتيهم مِن آيةٍ مِنْ آيات ربِّهم ﴾ فيها ثلاثة تأويلات :

أحدها : من آية من كتاب الله ، قاله قتادة .

الثاني : من رسول ، قاله الحسن .

الثالث : من معجز ، قاله النقاش .

ويحتمل رابعاً : ما أنذروا به من زواجر الآيات والعبر في الأمم السالفة .

قوله عز وجل : ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم اللهُ قال الذين كفروا ﴾ الآية . فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم اليهود أمروا بإطعام الفقراء فقالوا ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ قال الحسن .

الثاني : أنهم الزنادقة أمروا فقالوا ذلك ، قاله قتادة .

الثالث : أنهم مشركو قريش جعلوا لأصنامهم في أموالهم سهماً فلما سألهم الفقراء أجابوهم بذلك ، قاله النقاش .

ويحتمل هذا القول منهم وجهين :

أحدهما : إنكارهم وجوب الصدقات في الأموال .

الثاني : إنكارهم على إغناء من أفقره الله تعالى ومعونة من لم يعنه الله تعالى .

﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه من قول الكفار لمن أمرهم بالإطعام ، قاله قتادة .

الثاني : أنه من قول الله تعالى لهم حين ردوا بهذا الجواب ، حكاه ابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما وعدوا به من العذاب ، قاله يحيى بن سلام . الثاني : ما وعدوا به من الظفر بهم ، قاله قتادة .



---

قوله عز وجل : ﴿ ما ينظرون إلا صيحةً واحدة تأخذهم ﴾ قال السدي : هي النفخة الأولى من إسرافيل ينتظرها آخر هذه الأمة من المشركين ، وروى نعيم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتى تقوم ، والرجل يخفض ميزانه فما يرفعه حتى تقوم ، والرجل يليط حوضه ليسقي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم ، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتى

تقوم

". ﴿ وهم يخصمون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يتكلمون في معايشهم ومتاجرهم ، قاله السدي .

الثاني : يخصمون في دفع النشأة الثانية ، حكاه ابن عيسى .

﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ أي يستطيع بعضهم أن يوصي إلى بعض بما في يديه من حق .

ويحتمل وجهاً ثانياً : أنه لا يستطيع أن يوصي بعضهم بعضاً بالتوبة والإقلاع .

﴿ ولا إلى إهلهم يرجعون ﴾ أي إلى منازلهم ، قال قتادة لأنهم أعجلوا عن ذلك .

قوله عز وجل : ﴿ ونفخ في الصور ﴾ وهذه هي النفخة الثانية للنشأة وقيل إن بينهما أربعين سنة . روى المبارك بن فضالة عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بين النفختين أربعون : الأولى يميت الله سبحانه بها كل حي ، والآخرة يحيي الله بها كل ميت "

والنفخة الثانية من الآخرة . وفي الأولى قولان : أحدهما : أنها من الدنيا ، قاله عكرمة .

الثاني : أنها من الآخرة ، قاله الحسن .

﴿ فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ والأجداث القبور ، وأحدها جدث . وفي قوله تعالى ﴿ ينسلون ﴾ ثلاثة تأويلات :

أحدها : يخرجون ، قاله ابن عباس وقتادة ، قال الشاعر :

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . فسلي ثيابي من ثيابك تنسلي

الثاني : يسرعون ، كقول الشاعر :

عسلان الذئب أمسى قاربا . . . بَرَدَ الليلُ عليه فنسل

الثالث : يتخلصون من السلو ، قاله ابن بحر .

(178/647)

---

قوله عز وجل : ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا مِن مَرقدنا ﴾ قال قتادة : هي النومة بين النفختين لا يفتر عنهم عذاب القبر إلا فيها . وفي تأويل هذا القول قولان :

أحدهما : أنه قول المؤمنين ثم يجيبون أنفسهم فيقولون : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ حكاه ابن عيسى .

الثاني : أنه قول الكفار لإنكارهم البعث فيقال لهم : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ .

وفي قائل ذلك لهم قولان :

أحدهما : أنه قول المؤمنين لهم عند قيامهم من الأجداث معهم ، قاله قتادة .

الثاني : أنه قول الملائكة لهم ، قاله الحسن .

وفي ﴿ هذا ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه إشارة إلى المرقد تماماً لقوله تعالى ﴿ من بعثنا من مرقدنا هذا ﴾ وعليه يجب أن يكون الوقف .

الثاني : أنه ابتداء ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ فيكون إشارة إلى الوعد ويكون الوقف قبله والابتداء منه .

قوله عز وجل : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شُغُل فاكهون ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : في افتضاض الأبكار ، قاله الحسن وسعيد بن جبير وابن مسعود وقتادة .

الثاني : في ضرب الأوتار ، قاله ابن عباس ومسافع بن أبي شريح .

الثالث : في نعمة ، قاله مجاهد .

الرابع : في شغل مما يَلقى أهل النار ، قاله إسماعيل بن أبي خالد وأبان بن تغلب . وروي بضم الغين وقرئ بتسكينها وفيها وجهان :

أحدهما : أن الشغل بالضم المحبوب .

الثاني : الشغل بالإسكان يعني المروة ، فعلى هذا لا يجوز أن يقرأ بالإسكان في أهل الجنة ولا يقرأ بالضم في أهل النار .

﴿ فاكهون ﴾ ويقرأ : فكهون ، بغير ألف . وفي اختلاف القراءتين وجهان :

أحدهما : أنها سواء ومعناهما واحد يقال فاكه وفكه كما يقال حاذر وحذر قاله الفراء .

الثاني : أن معناهما في اللغة مختلف فالفكه الذي يتفكه بأعراض الناس . والفاكه ذو الفاكهة ، قاله أبو عبيد وأنشد :

فكه إلى جنب الخوان إذا عدت . . . نكْباء تقلع ثابت الأطنابِ

وفيه ها هنا أربعة تأويلات :

أحدها : فرحون ، قاله ابن عباس .

(179/647)

---

الثاني : ناعمون ، قاله قتادة .

الثالث : معجبون ، قاله مجاهد .

الرابع : ذو فاكهة كما يقال شاحم لاحم أي ذو شحم ولحم ، وكما قال الشاعر :

وغررتني وزعمت أنَّك لابنٌ بالصيف تامر . . . أي ذو لبن وتمر .

قوله عز وجل : ﴿ هم وأزواجُهم في ظلال ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وأزواجهم في الدنيا من وافقهم على إيمانهم .

الثاني : أزواجهم اللاتي زوّجهم الله تعالى بهن في الجنة من الحور العين .

﴿ في ظِلال ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : في ظلال النعيم .

الثاني : في ظلال تسترهم من نظر العيون إليهم .

قوله عز وجل : ﴿ لهم فيها فاكهةٌ ولهُم ما يَدَّعون ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : ما يشتهون ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : ما يسألون ، قاله ابن زياد . الثالث : ما يتمنون ، قاله أبو عبيدة .

الرابع : ما يدعونه فيأتيهم ، قاله الكلبي قال الزجاج : وهو مأخوذ من الدعاء .

ويحتمل خامساً : ما يدّعون أنه لهم فهو لهم لا يدفعون عنه ، وهم مصروفون عن دعوى ما لا يستحقون .

قوله عز وجل : ﴿ سلامٌ قولاً مِن ربّ رحيم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه سلام الله تعالى عليهم إكراماً لهم ، قاله محمد بن كعب .

الثاني : أنه تبشير الله تعالى لهم بسلامتهم .

قوله عز وجل : ﴿ وامتازوا اليوم أيُّها المجرمون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : قاله الكلبي ، لأن المؤمنين والكفار يحشرون مع رسلهم فلذلك يؤمرون بالامتياز .

الثاني : يمتاز المجرمون بعضهم من بعض ، فيمتاز اليهود فرقة ، والنصارى فرقة ، والمجوس فرقة ، والصابئون فرقة ، وعبدة الأوثان فرقة ، قاله الضحاك .

فيحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون الامتياز عند الوقوف .

الثاني : عند الانكفاء إلى النار .

قال دواد بن الجراح : فيمتاز المسلمون من المجرمين إلا صاحب الهوى فيكون مع المجرمين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

(180/647)

---

وقال الثعلبى :

أخبرنا أبو بكر عبد الرَّحْمن بن عبد الله بن علي بن حمشاد المزكى بقراءتي عليه في شعبان سنة أربعمئة فأقرّ به قال : أخبرنا أبو ظهير عبد الله بن فارس بن محمد بن علي ابن عبد الله بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب في شهر ربيع الأول سنة ست وأربعن وثلاثمئة قال : حدّثنا إبراهيم بن الفضل بن مالك قال : حدّثنا عن أخيه عيسى عن عبد الرَّحْمن ابن أبي ليلى عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سبّاق الأُمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين : علي بن أبي طالب ، وصاحب آل يس ، ومؤمن آل فرعون ، فهم الصديقون وعلي أفضلهم " .

قالوا : فلما قُتل حبيب غضب الله له وعجّل لهم النقمة ، فأمر جبرئيل ( عليه السلام )

فصاح بهم صيحة ماتوا عن آخرهم ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا على قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السماء وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ ، وفي مصحف عبد الله : ( إن كانت إلاّ زقية واحدة ) ، وهي الصحيحة أيضاً وأصلها من الزقا ، وقرأ أبو جعفر : ﴿ صَيْحَةٌ ﴾ بالرفع ، جعل الكون بمعنى الوقوع ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ ميتون .

﴿ يا حسرة عَلَى العباد ﴾ قال عكرمة : يعني على أنفسهم ، وفيه قولان :

أحدهما : أنّ الله يقول : ﴿ ياحسرة عَلَى العباد ﴾ وكآبة عليهم حين لم يؤمنوا .

والآخر : أنه من قول الهالكين . قال أبو العالية : لما عاينوا العذاب قالوا : ﴿ ياحسرة عَلَى العباد ﴾ يعني الرسل الثلاثة حين لم يؤمنوا ، بهم فتمنوا الإيمان حين لم ينفعهم ، وقرأ عكرمة : ﴿ ياحسرة عَلَى العباد ﴾ بجزم الهاء ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وكان خبر الرسل الثلاثة في أيام ملوك الطوائف .



---

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ يعني أهل مكة ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون ﴾ ؟ والقرن : أهل كل عصر ؛ سموا بذلك لاقترابهم في الوجود ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ * وَإِن كُلٌّ لَّمَّا ﴾

بالتشديد ، ابن عامر والأعمش وعاصم وحمزة . الباقون : بالتخفيف . فمن شدد جعل ﴿ إِن ﴾ بمعنى الجحد ، و ﴿ لَّمَّا ﴾ بمعنى ( إِلَّا ) ، تقديره : وما كل إلا جميع ، كقولهم : سألتك لما فعلت ، أي إلاّ فعلت ، ومن خفف جعل ﴿ إِن ﴾ للتحقيق وحققه ، وما صلة ، مجازه : وكل ﴿ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ * وَآيَةٌ لَّهُمُ الأرض الميتة أَحْيَيْنَاهَا ﴾ بالمطر ، ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ ﴾ : بساتين ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العيون * لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ ، قرأ الأعمش : بضم الثاء وجزم الميم ( ثُمْره ) ، وقرأ ( خلف ) ويحيى وحمزة والكسائي بضم الثاء والميم ، وقرأ الآخرون بفتحهما ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ قرأ العامة بالهاء ، وقرأ عيسى بن عمر وأهل الكوفة : ( عملت ) بلا هاء ، ويجوز في ﴿ مَا ﴾ ثلاثة أوجه :

الوجه الأوّل : الجحد ، بمعنى ولم تعمله أيديهم ، أي وجدوها معمولة ولا صنع لهم فيها ، وهذا معنى قول الضحاك ومقاتل .

والوجه الثاني معنى المصدر ، أي ومن عمل أيديهم .

والوجه الثالث معنى الذي ، ( أي وما عملت أيديهم ) من الحرث والزرع والغرس ، وهو معنى قول ابن عباس . ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ نعمه ؟

﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَق الأزواج ﴾ : الأشكال والأصناف ﴿ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض

وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ * وَآيَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ ﴾ : ننزع ونخرج ﴿ مِنْهُ النهار ﴾ ، وقال الكلبي : نذهب به ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ : داخلون في الظلام.

(182/647)

---

﴿ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ يعني إلى مستقر لها . قال ابن عباس : لا تبلغ مستقرها حتى ترجع إلى منازلها ، وقال قتادة : إلى وقت واحد لها لا تعدوه ، وقيل : إلى انتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا ، وقيل : إلى أبعد منازلها في الغروب.

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عمر بن الخطاب وأحمد بن جعفر قالا : حدّثنا إبراهيم ابن سهل قال : حدّثنا محمد بن بكار العيسي قال : حدّثنا إسماعيل بن علية قال : حدّثنا يونس بن عبيد عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ قال : " مستقرها تحت العرش " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حبيش قال : حدّثني أبو الطيب أحمد بن عبد الله بن يحيى الدارمي قال : حدّثنا أبو عبد الله أحمد بن محمد السمرقندي بدمياط قال : حدّثنا أبو عبيد القاسم بن سلام قال : حدّثنا مروان بن معاوية عن محمد بن أبي حسان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أنه قرأ : ( والشمس تجري لا مستقر لها ) ، وهي قراءة ابن

مسعود أيضاً ، أي لا قرار لها ، فهي جارية أبداً .

﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم * والقمر ﴾ بالرفع ، نافع وابن كثير وأبو عمرو وأيوب ويعقوب غير ورش ، واختاره أبو حاتم قال : لأنك شغلت الفعل عنه فرفعته للابتداء ، وقرأ الباقون بالنصب ، واختاره أبو عبيد ، قال : للفعل المتقدم قبله والمتأخر بعده ، فأما المتقدم فقوله : ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾ وأما المتأخر فقوله : ﴿ قَدَّرْنَاهُ ﴾ ، أي قدرنا له المنازل .

(183/647)

---

﴿ مَنَازِلَ ﴾ ، أي قدرنا له المنازل وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة بمنزل منها ، وأسماؤها : الشرطان ، والبطين ، والثريا ، والدبران ، والهقعة ، والهنعة ، والذراع ، والنثرة ، والطرف ، والجبهة والزبرة ، والصرفة ، والعوّا ، والسماك ، والغفر ، والزبانى ، والإكليل ، والقلب ، والشولة ، والنعائم ، والبلدة ، وسعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد السعود ، وسعد الأخبية ، وفرغ الدلو المقدم ، وفرغ الدلو المؤخر ، وبطن الحوت .

فإذا صار إلى آخر منازله ﴿ عَادَ كالعرجون القديم ﴾ ، وهو العذق الذي فيه الشماريخ ، فإذا أقدم وعتق يبس وتقوّس واصفر فشبه القمر في دقته وصفرته به ، ويُقال لها أيضاً الأهان .

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ بل هما يسيران دائبين ولكل حدٌّ لا يعدوه ولا يقصر دونه، فإذا جاء سلطان هذا ذهب ذلك وإذا جاء سلطان ذلك ذهب هذا، فذلك قوله: ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾. فإذا اجتمعا وأدرك كل واحد صاحبه قامت القيامة وذلك قوله سبحانه: ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [القيامة: 9].

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾: يجرون.

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ الموقر المملوء، وهي سفينة نوح؛ الآباء في السفينة، والأبناء في الأصلاب، والحمل: منع الشيء أن يذهب إلى جهة السفل.

﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ ﴾ أي مثل سفينة نوح ﴿ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ وهي السفن كلها.

أخبرنا عبيد بن محمد بن محمّد بن مهدي قال: حدّثنا أبو العباس الأصم قال: حدّثنا أحمد بن حازم قال: حدّثنا عبد الله بن موسى عن سفيان عن السدي عن أبي مالك في قوله: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ قال: السفن الصغار، وقال ابن عباس: الإبل سفن البر.

﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ : ينجون من الغرق ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ يعني انقضاء آجالهم .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتقوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي ما بين أيديكم من الآخرة فاعملوا لها ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ من أمر الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها . قاله ابن عباس ، وقال مجاهد : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ : ما يأتي من الذنوب ، ﴿ وَمَا خَلْفَكُم ﴾ : ما مضى من الذنوب . الحسن . ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ يعني وقائع الله فيمن كان قبلكم من الأُمم ﴿ وَمَا خَلْفَكُم ﴾ من أمر الساعة .

مقاتل : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ عذاب الأُمم الخالية ، ﴿ وَمَا خَلْفَكُم ﴾ : عذابُ الآخرة . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ، والجواب محذوف تقديره : إذا قيل لهم هذا ، أعرضوا ، دليله ما بعده : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمنوا أَنُطْعِمُ ﴾ : الرزق ﴿ مَن لَّوْ يَشَآءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ﴾ يتوهمون أنّ الله تعالى لما كان قادراً على إطعامه وليس يشاء إطعامه ، فنحن أحق بذلك . نزلت في مشركي مكة حين قال لهم فقراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اعطونا ما زعمتم من أموالكم أنها لله ، وذلك قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً ﴾ [ الأنعام : 136 ] فحرموهم ، وقالوا : لو شاء الله أطعمكم فلا نُعطيكم شيئاً حتى ترجعوا إلى ديننا .

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ في اتباعكم محمداً ومخالفكتم ديننا . عن مقاتل بن حيان ، وقال غيره : هو من قول أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم .

(185/647)

---

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنا نُبعث ؟ فقال الله تعالى : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ وهي نفخة إسرافيل ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أي يختصمون ويُخاصم بعضهم بعضاً .

واختلفت القراء فيه ؛ فقرأ ابن كثير وورش وأبو عبيد وأبو حاتم بفتح الخاء وتشديد الصاد ومثله روى هشام عن أهل الشام : لما أدغموا نقلوا حركة التاء إلى الخاء .

وقرأ أبو جعفر وأيوب ونافع غير ورش ساكنة الخاء مخففة الصاد ، وقرأ أبو عمرو : بالإخفاء ، وقرأ حمزة : ساكنة الخاء مخففة الصاد ، أي يغلب بعضهم بعضاً بالخصام ، وهي قراءة أُبي بن كعب ، وقرأ الباقون : بكسر الخاء وتشديد الصاد . ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ : فلا يقدرون على أنْ يوصي بعضهم بعضاً ، ﴿ وَلاَ إلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ * وَنُفِخَ فِي الصور ﴾ وهي النفخة الأخيرة : نفخة البعث ، وبين النفختين أربعون سنة ، ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث ﴾ أي القبور ، واحدها جدث ﴿ إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ يخرجون ،

ومنه قيل للولد : نسلاً ؛ لأنه يخرج من بطن أُمّه ، والنسلان والعسلان : الإسراع في السير .

﴿ قَالُواْ ياويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ أي منامنا قال أُبي بن كعب وابن عباس وقتادة :

إنما يقولون هذا ؛ لأن الله رفع عنهم العذاب فيما بين النفختين فيرقدون ، وقال أهل المعاني :

إنّ الكفار إذا عاينوا جهنم وأنواع عذابها صار ما عذبوا في القبور في جنبها كالنوم ، فقالوا :

﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ؟ ثم قال : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ :

أقرّوا حين لم ينفعهم الإقرار ، وقال مجاهد : يقول الكفار : ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ؟

ويقول المؤمنون : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ .



---

﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فاليوم لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، محل ﴿ مَا ﴾ نصب من وجهين :

أحدهما : مفعول ما لم يسمّ فاعله .

والثاني : بنزع حرف [ الخفض ] ، أي ب ( ما ) .

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الجنة اليوم فِي شُغُلٍ ﴾ ، قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشيبة بجزم الغين ، واختاره أبو حاتم ، وقرأ الآخرون : بضم الغين ، واختاره أبو عبيد ، وهما لغتان مثل

السُّحْت والسُّحُت ونحوهما .

واختلف المفسرون في معنى الشغل . فأخبرنا محمد بن حمدون قال : أخبرنا مكي بن عبدان قال : حدّثنا أبو الأزهر قال : حدّثنا أسباط بن محمد عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الجنة اليوم فِي شُغُلٍ ﴾ قال : افتضاض الأبكار .

وأخبرني فنجويه قال : حدّثنا عبد الله بن يوسف قال : حدّثنا أحمد بن الوليد الشطوي قال : حدّثنا محمد بن موسى قال : حدّثنا معلى بن عبد الرَّحْمن قال : حدّثنا شريك عن عاصم الأحول عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عادوا أبكاراً " .

وقال الكلبي والثمالي والمسيب : يعني في شُغل عن أهل النار وعما هم فيه ، لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم ، وقال وكيع بن الجراح : يعني في السماع ، سئل يحيى بن معاذ : أي الأصوات أحسن ؟ قال : مزامير أُنس في مقاصير قدس بألحان تحميل في رياض تمجيد في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وقال ابن كيسان : يعني في زيارة بعضهم بعضاً ، وقيل : في ضيافة الله وقيل : في شغلهم بعشرة أشياء : ملك لا عزل معه ، وشباب لا هرم معه ، وصحة لا سقم معها ، وعزّ لا ذل

معه ، وراحة لا شدة معها ، ونعمة لا محنة معها ، وبقاء لا فناء معه ، وحياة لا موت معها ، ورضا لا سخط معه ، وأُنس لا وحشة معه .

(187/647)

---

وقيل : شغلهم في الجنة بسبعة أنواع من الثواب لسبعة أعضاء : فأما ثواب الرجل فقوله ﴿ ادخلوها بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾ [ الحجر : 46 ] ، وثواب اليد قوله : ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً ﴾ [ الطور : 23 ] ، وثواب الفرج قوله : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ [ الواقعة : 22 ] ، وثواب البطن قوله : ﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئًاً ﴾ [ الطور : 19 ] الآية ، وثواب اللسان قوله : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [ يونس : 10 ] وثواب الأُذن قوله : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً * إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً ﴾ [ الواقعة : 25 - 26 ] ، وثواب العين قوله : ﴿ وَتَلَذُّ الأعين ﴾ [ الزخرف : 71 ] .

قال طاووس : لو علم أهل الجنة عمّن شغلوا ما هنّأهم ما اشتغلوا به ، وسئل بعض الحكماء عن قوله ( عليه السلام ) : " أكثر أهل الجنة البله " قال : لأنهم في شغل بالنعيم عن المنعم ، ثم قال : من رضي بالجنة عن الله فهو أبله .

﴿ فَاكِهُونَ ﴾ قرأ العامة : بالألف ، وقرأ أبو جعفر ( فكهون وفكهين ) بغير ألف حيث

كانا ، وهما لغتان : كالحاذر والحذر والفارهِ والفرهِ ، وقال الكسائي : الفاكه والفاكهة مثل شاحم ولاحم ولابن وتامر ، واختلف العلماء في معناهما ، فقال ابن عباس : فرحون . مجاهد والضحاك : معجبون . السدي : ناعمون .

﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾ : حلائلهم ﴿ فِي ظِلاَلٍ ﴾ قرأ العامة بالألف وكسر الظاء على جمع ( ظلّ ) ، وقرأ ابن مسعود وعبيد بن عمير وحمزة والكسائي وخلف : ( ظلل ) على جمع ( ظلة ) .

﴿ عَلَى الأَرَآئِكِ ﴾ يعني السُرر في الحجال ، واحدتها أريكة ، مثل سفينة وسفن وسفائن وقيل : هي الفرش ، ﴿ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ قال ابن عباس : يسألون . قال مقاتل : يتمنون ويريدون ، وقيل : معناه . من ادّعى منهم شيئاً فهو له بحكم الله عز وجل ؛ لأنهم لا يدعون إلاّ ما يحسن .

(188/647)

---

﴿ سَلاَمٌ ﴾ قرأ العامة بالرفع ، أي لهم سلام ، وقرأ النخعي : بالنصب على القطع والمصدر .

أخبرني الحسن بن محمّد بن عبد الله الحافظ قال : حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان قال :

حدّثنا أحمد بن الفرج المقرئ قال : حدّثنا محمد بن عبد الملك أبي الشوارب قال : حدّثنا أبو عاصم عبد الله بن عبد الله العباداني قال : حدّثنا الفضل بن عيسى الرقاشي ، وأخبرنا عبد الخالق بن علي بن عبد الخالق المؤذن قال : حدّثني أبو بكر أحمد بن محمد بن موسى الملحمي الأصفهاني قال : حدّثنا الحسن بن أبي علي الزعفراني قال : حدّثنا ابن أبي الشوارب قال : حدّثنا أبو عاصم قال : حدّثنا الفضل الرقاشي عن محمد بن المنكدر عن جابر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الربّ عزّ وجل قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة . فذلك قوله عز وجل ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ، فيبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم " .

﴿ وامتازوا اليوم أيُّها المجرمون ﴾ قال ابن عباس : تفرقوا . أبو العالية : تميزوا . السدي : كونوا على حدة . قتادة : اعدلوا عن كل خير . الضحاك : إنّ لكل كافر في النار بيتاً ، يدخل ذلك البيت ويردم به بالنار فيكون فيه أبد الآبدين فلا يرى ولا يُرى . انتهى ا . هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 126 . 133 ﴾

وقال الزمخشرى :

﴿ وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) ﴾

المعنى : أن اللّه كفى أمرهم بصيحة ملك ، ولم ينزل لإهلاكهم جندا من جنود السماء ، كما فعل يوم بدر والخندق ، فإن قلت : وما معنى قوله وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ ؟ قلت : معناه : وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جندا من السماء ، وذلك لأنّ اللّه تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون البعض ، وما ذلك إلا بناء على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة . ألا ترى إلى قوله تعالى فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا . فإن قلت : فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق ؟ قال تعالى فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها ، بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ، بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ ، بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ؟

قلت : إنما كان يكفى ملك واحد ، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل ، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة منه ، ولكنّ اللّه فضل محمدا صلى اللّه عليه وسلم بكل شيء على كبار الأنبياء وأولى العزم من الرسل ، فضلا عن حبيب النجار ، وأولاده من أسباب الكرامة والإعذار ما لم يوله أحدا ، فمن ذلك : أنه أنزل له جنودا من السماء ، وكأنه

أشار بقوله :

وَما أَنْزَلْنا ، وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك ، وما كنا نفعله بغيرك إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً إن كانت الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة . وقرأ أبو جعفر المدني بالرفع على كان التامّة ، أى : ما وقعت إلا صيحة ، والقياس والاستعمال على تذكير الفعل ، لأنّ المعنى : ما وقع شيء إلا صيحة ، ولكنه نظر إلى ظاهر اللفظ وأن الصيحة في حكم فاعل الفعل ، ومثلها قراءة الحسن : فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ، وبيت ذى الرمّة :

وما بقيت إلّا الضلوع الجراشع «1»

---

(1) برى لحمها سير الفيافي وحرها وما بقيت إلا الضلوع الجراشع

للبيد . يصف ناقته بأنها أذهب لحمها سير الأراضى القفرة ، أى السير فيها وحرها الشديد ، برما بقيت فيها إلا الضلوع .

وكان الأفصح حذف التاء ، لأن المعنى : ما بقي فيها شيء إلا الضلوع ، لكنه أنث نظرا للضلوع . والجراشع : جمع جرشع كقنفذ ، وهو الغليظ المرتفع . ويروى : بدل الشطر الأول

طوى الحر والأجراز ما في عروضها

والأجراز : جمع جرز ، وهي المفازة القفرة ، والعروض : جمع عرض – بضم فسكون – : أى جنوبها . ويروى :

النحز ، بدل الحر ، وهو بنون فمهملة فزاى : النخس والدفع . ويروى «غروض» بغين معجمة : جمع غرض ، كقفل : وهو حزام الرحل ، أراد به الصدر لعلاقة المجاورة . أو هو على حذف مضاف ، أى محل غروضها . ويجوز أنه أراد بما في غروضها الصدر ذاته لا الشحم واللحم . ومعنى الطي التضمير أو الاذهاب على طريق المجاز .

(190/647)

---

وقرأ ابن مسعود : الأزقية : واحدة ، من زقا الطائر يزقو ويزقى ، إذا صاح. ومنه المثل : أثقل من الزواقى خامِدُونَ خمدوا كما تخمد النار ، فتعود رمادا ، كما قال لبيد :

وما المرء إلّا كالشهاب وضوءه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع «1»

[سورة يس (36) : آية 30]

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (30)

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ نداء للحسرة عليهم ، كأنما قيل لها : تعالى يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضرى فيها ، وهي حال استهزائهم بالرسل . والمعنى أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ، ويتلهف على حالهم المتلهفون . أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين . ويجوز أن يكون من الله تعالى على سبيل الاستعارة في معنى

تعظيم ما جنوه على أنفسهم ومحنوها به، وفرط إنكاره له وتعجيبه منه، وقراءة من قرأ: يا حسرتا، تعضد هذا الوجه لأن المعنى: يا حسرتى. وقرئ: يا حسرة العباد، على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم، من حيث أنها موجهة إليهم. ويا حسرة على العباد: على إجراء الوصل مجرى الوقف.

[سورة يس (36) : الآيات 31 إلى 32]

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (31) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (32)

أَلَمْ يَرَوْا ألم يعلموا، وهو معلق عن العمل في كَمْ لأن كم لا يعمل فيها عامل قبلها، كانت للاستفهام أو للخبر، لأن أصلها الاستفهام، إلا أن معناه نافذ في الجملة، كما نفذ في قولك: ألم يروا إن زيدا لمنطلق، وإن لم يعمل في لفظه. وأَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ بدل من كَمْ أَهْلَكْنا على المعنى، لا على اللفظ، تقديره: ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم

---

(1) وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوما أن ترد الودائع

للبيد العامري، أى: ليس حال المرء وحياته وبهجته ثم موته وفناؤه بعد ذلك إلا مثل حال شهاب النار وضوئه حال كونه يصير رمادا بعد إضاءته. ويمكن أن قوله «يحور رمادا» استئناف مبين لوجه للشبه، وذلك تشبيه هيئة ولا يصح تشبيه المرء بالشهاب وضوئه،

وشبه مال الشخص وأقاربه بالودائع تشبيها بليغا ، بجامع أنه لا بد من أخذ كل ، وبين ذلك بقوله : ولا بد أن ترد الودائع في يوم من الأيام .

(191/647)

---

غير راجعين إليهم . وعن الحسن : كسر إنّ على الاستئناف . وفي قراءة ابن مسعود : ألم يروا من أهلكنا ، والبدل على هذه القراءة بدل اشتمال ، وهذا مما يردّ قول أهل الرجعة . ويحكى عن ابن عباس رضى اللّه عنهما أنه قيل له : إن قوما يزعمون أنّ عليا مبعوث قبل يوم القيامة ، فقال : بئس القوم نحن إذن نكحنا : نساءه وقسمنا ميراثه «1» . قرئ : لما ، بالتخفيف ، على أن «ما» صلة للتأكيد ، وإن : مخففة من الثقيلة ، وهي متلقاة باللام لا محالة . ولما بالتشديد ، بمعنى : إلا ، كالتي في مسألة الكتاب . نشدتك باللّه لما فعلت ، وإن نافية . والتنوين في كُلٌّ هو الذي يقع عوضا من المضاف إليه ، كقولك : مررت بكل قائما . والمعنى أن كلهم محشورون مجموعون محضرون للحساب يوم القيامة . وقيل محضرون معذبون . فإن قلت : كيف أخبر عن كل بجميع ومعناهما واحد «2» ؟ قلت : ليس بواحد : لأن كلا يفيد معنى الإحاطة ، وأن لا ينفلت منهم أحد ، والجميع : معناه الاجتماع ، وأن المحشر يجمعهم . والجميع : فعيل بمعنى مفعول ، يقال حى جميع ، وجاءوا جميعا .

[سورة يس (36) : الآيات 33 إلى 36]

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (35) سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (36)

القراءة بالميتة على الخفة أشيع، لسلسها على اللسان. وأَحْيَيْناها استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية، وكذلك نسلخ: ويجوز أن توصف الأرض والليل بالفعل، لأنه أريد بهما الجنسان مطلقين لا أرض «3» وليل بأعيانهما، فعوملا معاملة النكرات في وصفهما

---

(1) . أخرجه الحاكم في تفسير البقرة نحوه باختصار. وأخرجه من حديث الحسن في فضائل الصحابة أتم منه.

وليس فيه: بئس القوم نحن إذن [.....]

(2) . قال محمود: «إن قلت لم أخبر عن كل بجميع ومعناهما واحد وأجاب بأن كلا تفيد الاحاطة لا ينلفت عنهم أحد وجميع تفيد الاجتماع وهو فعيل بمعنى مفعول وبينهما فرق انتهي كلامه، قال أحمد: ومن ثم وقع أجمع في التوكيد تابعا لكل، لأنه أخص منه وأزيد معنى

(3) . قال محمود: «يجوز أن يكون أحييناها صفة للأرض وصح ذلك لأن المراد بالأرض

الجنس ولم يقصد بها أرض معينة وأن يكون بيانا لوجه الآية فيها» قال أحمد : وغيره من النحاة يمنع وقوع الجملة صفة للمعرف وإن كان جنسيا وليس الغرض منه معينا ويراعي هذا المانع المطابقة اللفظية في الوصفية ومنه

ولقد أمر على اللئيم يسبني

.

(192/647)

---

بالأفعال ، ونحوه :

ولقد امر على اللّئيم يسبني «1»

وقوله فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ بتقديم الظرف للدلالة على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس ، وإذا قل جاء القحط ووقع الضرّ ، وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء . قرئ وَفَجَّرْنا بالتخفيف والتثقيل ، والفجر والتفجير ، كالفتح والتفتيح لفظا ومعنى . وقرئ ثَمَرِه بفتحتين وضمتين وضمة وسكون ، والضمير للّه تعالى : والمعنى :

ليأكلوا مما خلقه اللّه من الثمر ومن ما عَمِلَتْهُ أَيدِيهِمْ من الغرس والسقي والآبار ، وغير ذلك

من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبان أكله ، يعنى أنّ الثمر في نفسه فعل اللّه وخلقه ، وفيه آثار من كد بنى آدم ، وأصله من ثمرنا كما قال : وجعلنا ، وفجرنا ، فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات. ويجوز أن يرجع إلى النخيل ، وتترك الأعناب غير مرجوع إليها ، لأنه علم أنها في حكم النخيل فيما علق به من أكل ثمره. ويجوز أن يراد من ثمر المذكور وهو الجنات ، كما قال رؤبة :

فيها خطوط من بياض وبلق كأنّه في الجلد توليع البهق «2»

فقيل له ، فقال : أردت كأن ذاك : ولك أن تجعل «ما» نافية على أنّ الثمر خلق اللّه ولم تعمله أيدى الناس ولا يقدرون عليه. وقرئ على الوجه الأوّل ، وما عملت من غير راجع ، وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك ، وفي مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير الْأَزْواجَ الأجناس والأصناف وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ومن أزواج لم يطلعهم اللّه عليها ولا توصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم ، ولا يبعد أن يخلق اللّه تعالى من الخلائق الحيوان والجماد ما لم يجعل للبشر طريقا إلى العلم به ، لأنه لا حاجة بهم في دينهم ودنياهم إلى ذلك العلم ، ولو كانت بهم اليه حاجة لأعلمهم بما لا يعلمون ، كما أعلمهم بوجود ما لا يعلمون. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : لم يسمهم. وفي الحديث «ما لا عين رأت «3» ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، بله ما أطلعتهم عليه» فأعلمنا بوجوده وإعداده ولم يعلمنا به ما هو ، ونحوه فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ وفي الإعلام بكثرة ما خلق مما علموه ومما

جهلوه ما دلّ على عظم قدرته واتساع ملكه.

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 16 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 149 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(3) . قوله «في الحديث ما لا عين رأت» أوله: «أعددت لعبادي الصالحين» كما مر في تفسير السجدة. (ع)

(193/647)

---

[سورة يس (36) : آية 37]

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (37)

سلخ جلد الشاة: إذا كشطه عنها وأزاله. ومنه: سلخ الحية لخرشائها «1» ، فاستعير لازالة الضوء وكشفه عن مكان الليل وملقى ظله مُظْلِمُونَ داخلون في الظلام، يقال: أظلمنا، كما تقول: أعتمنا وأدجينا «2» لِمُسْتَقَرٍّ لَها لحدّ لها مؤقت مقدّر تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة، شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره، أو لمنتهى لها من المشارق والمغارب، لأنها تتقصاها مشرقا مشرقا ومغربا مغربا حتى تبلغ أقصاها، ثم ترجع فذلك حدها

ومستقرّها ، لأنها لا تعدوه أو لحدّ لها من مسيرها كل يوم في مرأى عيوننا وهو المغرب .

وقيل : مستقرّها : أجلها الذي أقر اللّه عليه أمرها في جريها ، فاستقرت عليه وهو آخر السنة. وقيل : الوقت الذي تستقر فيه وينقطع جريها وهو يوم القيامة .

[سورة يس (36) : الآيات 38 إلى 40]

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)

وقرئ : تجرى إلى مستقر لها . وقرأ ابن مسعود : لا مستقرّ لها ، أى : لا تزال تجرى لا تستقر . وقرئ : لا مستقر لها ، على أنّ لا بمعنى ليس ذِلكَ الجري على ذلك التقدير والحساب الدقيق الذي تكل الفطن عن استخراجه وتتحير الأفهام في استنباطه . ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور ، المحيط علما بكل معلوم . قرئ : والقمر رفعا على الابتداء ، أو عطفا على الليل . يريد : من آياته القمر ، ونصبا بفعل يفسره قدرناه ، ولا بدّ في قَدَّرْناهُ مَنازِلَ من تقدير مضاف ، لأنه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل . والمعنى : قدرنا مسيره منازل وهي ثمانية وعشرون منزلا ، ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه ، على تقدير مستو لا يتفاوت ، يسير فيها كل ليلة من المستهل إلى الثامنة والعشرين ، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر ، وهذه المنازل هي مواقع النجوم

التي نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة ، وهي : الشرطان ، البطين ، الثريا ، الدبران ، الهقعة ، الهنعة ، الذراع ، النثرة ، الطرف ، الجبهة ، الزبرة ، الصرفة ، العوّا ، السماك ، الغفر ، الزباني ، الإكليل ، القلب ، الشولة ، النعائم ، البلدة ، سعد الذابح ، سعد بلع ، سعد السعود ، سعد الأخبية ، فرغ الدلو المقدم ،

---

(1) . قوله «و منه سلخ الحية لخرشائها» في الصحاح «الخرشاء» : مثل الحرباء : جلد الحية . (ع)

(2) . قوله «أعتمنا وأدجينا» الدجى : وجع في حافر الفرس أو خف البعير . أفاده الصحاح وغيره . (ع)

*(194/647)*

---

فرغ الدلو المؤخر ، الرشا . فإذا كان في آخر منازله دق واستقوس ، وعادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ وهو عود العذق ، ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة . وقال الزجاج : هو «فعلون» من الانعراج وهو الانعطاف . وقرئ : العرجون ، بوزن الفرجون «1» ، وهما لغتان ، كالبزيون والبزيون ، والقديم المحول ، وإذا قدم دق وانحنى واصفر ، فشبه به من ثلاثة أوجه . وقيل : أقل مدّة الموصوف بالقدم الحول ، فلو أنّ رجلا قال : كل مملوك لي قديم فهو حر . أو كتب

ذلك في وصيته : عتق منهم من مضى له حول أو أكثر . وقرئ : سابق النهار . على الأصل ، والمعنى :

أنّ اللّه تعالى قسم لكل واحد من الليل والنهار وآيتيهما قسما من الزمان ، وضرب له حدا معلوما ، ودبر أمرهما على التعاقب ، فلاينبغي للشمس : أى لا يتسهل لها ولا يصح ولا يستقيم لوقوع التدبير على المعاقبة ، وإن جعل لكل واحد من النيرين سلطان على حياله «2»

---

(1) . قوله «و قرئ العرجون بوزن الفرجون» في الصحاح «الفرجون» : المحسة ، وقد فرجنت الدابة إذا فرجنتها . ومنه قول بعضهم : ادفنوني في ثيابي ولا تحسوا عتى ترابا ، أى : لا تنفضوه . وفيه «البزيون» :

السندس . (ع)

(2) . قال محمود : «معناه أن كل واحد منهما لا يدخل على الآخر في سلطانه فيطمس نوره بل هما متعاقبان بمقتضى تدبيره تعالى . قال : فان قلت : لم جعلت الشمس غير مدركة والقمر غير سابق ؟ قلت : لأن الشمس بطيئة السير تقطع فلكها في سنة والقمر يقطع فلكه في شهر ، فكانت الشمس لبطئها جديرة بأن توصف بالإدراك ، والقمر لسرعته جديرا بأن يوصف بالسبق انتهى كلامه» قال أحمد : يؤخذ من هذه الآية أن النهار تابع لليل وهو المذهب المعروف للفقهاء ، وبيانه من الآية أنه جعل الشمس التي هي آية النهار غير مدركة

للقمر الذي هو آية الليل ، وإنما نفى الإدراك لأنه هو الذي يمكن أن يقع ، وذلك يستدعى تقدم القمر وتبعية الشمس ، فانه لا يقال : أدرك السابق اللاحق ، ولكن أدرك اللاحق السابق ، وبحسب الإمكان توقيع النفي ، فالليل إذا متبوع والنهار تابع .

فإن قيل : هل يلزم على هذا أن يكون الليل سابق النهار ؟ وقد صرحت الآية بأنه ليس سابقا ، فالجواب : أن هذا مشترك الإلزام ، وبيانه أن الأقسام المحتملة ثلاثة : إما تبعية النهار لليل وهو مذهب الفقهاء . أو عكسه وهو المنقول عن طائفة من النحاة . أو اجتماعهما ، فهذا القسم الثالث منفي باتفاق «فلم يبق إلا تبعية النهار لليل وعكسه ، وهذا السؤال وارد عليهما جميعا ، لأن من قال : إن النهار سابق الليل ، لزمه أن يكون مقتضى البلاغة أن يقال : ولا الليل يدرك النهار ، فان المتأخر إذا نفى إدراكه كان أبلغ من نفى سابقه ، مع أنه يتناءى عن مقتضى قوله لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ تنائيا لا يجمع شمل المعنى باللفظ ، فان اللّه تعالى نفى أن تكون مدركة فضلا عن أن تكون سابقة ، فإذا أثبت ذلك فالجواب المحقق عنه أن المنفي السبقية الموجبة لتراخى النهار عن الليل وتخلل زمن آخر بينهما ، وحينئذ يثبت التعاقب وهو مراد الآية . وأما سبق أول المتعاقبين للآخر منهما فانه غير معتبر . ألا ترى إلى جواب موسى بقوله : هم أولاء على أثرى ، فقد قربهم منه عذرا عن قوله تعالى وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ فكأنه سهل أمر هذه العجلة بكونهم على أثره ، فكيف لو كان متقدما وهم في عقبه لا يتخلل بينهم وبينه مسافة ؟ فذاك لو اتفق لكان

سياق الآية يوجب أنه لا يعد عجلة ولا سبقا ، فحينئذ يكون القول بسبقية النهار لليل مخالفا صدر الآية على وجه لا يقبل التأويل ، فان بين عدم الإدراك الدال على التأخير والتبعية وبين السبق بونا بعيدا ومخالفا أيضا لبقية الآية ، فانه لو كان الليل تابعا ومتأخرا لكان أحرى أن يوصف بعدم الإدراك ولا يبلغ به عدم السبق ، ويكون القول بتقدم الليل على النهار مطابقا لصدر الآية صريحا ، ولعجزها بوجه من التأويل مناسب لنظم القرآن وثبوت ضده أقرب إلى الحق من حبل وريده ، والله الموفق للصواب من القول وتسديده .

(195/647)

---

أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ فتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره ، ولا يسبق الليل النهار يعنى آية الليل آية النهار وهما النيران ، ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك ، وينقض ما ألف فيجمع بين الشمس والقمر ، ويطلع الشمس من مغربها . فإن قلت : لم جعلت الشمس غير مدركة ، والقمر غير سابق ؟ قلت : لأنّ الشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة ، والقمر يقطع فلكه في شهر ، فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك لتباطئ سيرها عن سير القمر خليقا بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره وَكُلٌّ التنوين فيه عوض عن المضاف إليه ، والمعنى : وكلهم ، والضمير للشموس

والأقمار على ما سبق ذكره.

[سورة يس (36) : الآيات 41 إلى 44]

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41) وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (42)
وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ (43) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (44)

ذُرِّيَّتَهُمْ أولادهم ومن يهمهم حمله. وقيل: اسم الذرية يقع على النساء، لأنهنّ مزارعها وفي الحديث أنه نهى عن قتل الذراري يعنى النساء مِنْ مِثْلِهِ من مثل الفلك ما يَرْكَبُونَ من الإبل، وهي سفائن البر. وقيل الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ سفينة نوح، ومعنى حمل اللّه ذرياتهم فيها: أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين، وفي أصلابهم هم وذرياتهم، وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم، وأدخل في التعجيب من قدرته، في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح. وَمِنْ مِثْلِهِ من مثل ذلك الفلك ما يركبون من السفن والزوارق فَلا صَرِيخَ لا مغيث. أولا إغاثة. يقال: أتاهم الصريخ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ لا ينجون من الموت بالغرق إِلَّا رَحْمَةً إلا لرحمة منا ولتمتيع بالحياة إِلى حِينٍ «1» إلى أجل يموتون فيه لا بد لهم منه بعد النجاة من موت الغرق. ولقد أحسن من قال:

ولم أسلم لكي أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام «2»

وقرأ الحسن رضى اللّه عنه: نغرقهم،

---

(1). قال أحمد: من هنا أخذ أبو الطيب:

ولم أسلم لكي أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام

لأنه تعالى أخبر أنهم إن سلموا من موت الغرق فتلك السلامة متاع إلى حين ، أى : إلى أجل يموتون فيه ، ولا بد .

(2) . للمتنبي يقول : ولم أسلم من حوادث الدهر ومكاره الحرب لأجل أن أخلد ، وإنما سلمت من الحمام - ككتاب - : أى الموت ببعض الأسباب إلى أن أموت ببعضها الآخر . أو منقلب إلى الموت ببعضها الآخر ، لأنه لا خلود في الدنيا .

(196/647)

---

[سورة يس (36) : الآيات 45 إلى 46]

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (46)

اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ كقوله تعالى أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وعن مجاهد : ما تقدّم من ذنوبكم وما تأخر . وعن قتادة : ما بين أيديكم من الوقائع التي خلت ، يعنى من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها ، وما خلفكم من أمر الساعة لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ لتكونوا على رجاء رحمة الله . وجواب إذا

محذوف مدلول عليه بقوله إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ فكأنه قال : وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا .

ثم قال :

ودأبهم الإعراض عند كل آية وموعظة .

[سورة يس (36) : آية 47]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (47)

كانت الزنادقة منهم يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال اللّه تعالى بمشيئته فيقولون : لو شاء اللّه لأغنى فلانا ، ولو شاء لأعزه ، ولو شاء لكان كذا ، فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة اللّه . ومعناه : أنطعم المقول فيه هذا القول بينكم ، وذلك أنهم كانوا دافعين أن يكون الغنى والفقر من اللّه ، لأنهم معطلة لا يؤمنون بالصانع : وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : كان بمكة زنادقة ، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا واللّه ، أيفقره اللّه ونطعمه نحن ؟ وقيل : كانوا يوهمون أن اللّه تعالى لما كان قادرا على إطعامه ولا يشاء إطعامه فنحن أحق بذلك . نزلت في مشركي قريش حين قال فقراء أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أعطونا مما زعمتم من أموالكم أنها للّه ، يعنون قوله وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً ، فحرموهم وقالوا : لو شاء اللّه لأطعمكم .

[سورة يس (36) : الآيات 48 إلى 50]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (48) ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50)

إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ قول الله لهم. أو حكاية قول المؤمنين لهم. أو هو من جملة جوابهم للمؤمنين. قرئ: وهم يخصمون بإدغام التاء في الصاد مع فتح الخاء وكسرها، وإتباع الياء الخاء في الكسر. ويختصمون على الأصل. ويخصمون، من خصمه. والمعنى: أنها تبغتهم

(197/647)

---

وهم في أمنهم وغفلتهم عنها، لا يخطرونها ببالهم مشتغلين بخصوماتهم في متاجرهم ومعاملاتهم وسائر ما يتخاصمون فيه ويتشاجرون. ومعنى خصمون: يخصم بعضهم بعضا. وقيل: تأخذهم وهم عند أنفسهم يخصمون في الحجة في أنهم لا يبعثون فلا يَسْتَطِيعُونَ أن يوصوا في شيء من أمورهم تَوْصِيَةً ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم وأهاليهم، بل يموتون بحيث تفجؤهم الصيحة.

[سورة يس (36) : الآيات 51 إلى 52]

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52)

قرئ الصور ، بسكون الواو وهو القرن ، أو جمع صورة ، وحرّكها بعضهم . والْأَجْداثِ القبور . وقرئ بالفاء «1» يَنْسِلُونَ يعدون بكسر السين وضمها ، وهي النفخة الثانية . قرئ :

يا ويلتنا . وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه : من أهبنا ، من هب من نومه إذا انتبه ، وأهبه غيره وقرئ : من هبنا بمعنى أهبنا : وعن بعضهم : أراد هب بنا ، فحذف الجار وأوصل الفعل :

وقرئ : من بعثنا ، ومن هبنا ، على من الجارة والمصدر ، وهذا مبتدأ ، وما وَعَدَ خبره ، وما مصدرية أو موصولة . ويجوز أن يكون هذا صفة للمرقد ، وما وعد : خبر مبتدإ محذوف ، أى : هذا وعد الرحمن ، أى : مبتدأ محذوف الخبر ، أى ما وعد الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ حق . وعن مجاهد : للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم ، فإذا صيح بأهل القبور قالوا : من بعثنا ، وأما هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ فكلام الملائكة . عن ابن عباس . وعن الحسن :

كلام المتقين . وقيل : كلام الكافرين يتذكرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضا . فإن قلت : إذا جعلت ما مصدرية : كان المعنى : هذا وعد الرحمن

وصدق المرسلين ، على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق ، فما وجه قوله وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ إذا جعلتها موصولة ؟ قلت : تقديره : هذا الذي وعده الرحمن والذي صدّقه المرسلون ، بمعنى :

والذي صدق فيه المرسلون ، من قولهم : صدقوهم الحديث والقتال . ومنه صدقنى سن بكره .

فإن قلت : مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ؟ سؤال عن الباعث ، فكيف طابقه ذلك جوابا ؟ قلت : معناه بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل ، إلا أنه جيء به على طريقة : سيئت بها قلوبهم ، ونعيت إليهم أحوالهم ، وذكروا كفرهم وتكذيبهم ، وأخبروا بوقوع ما أنذروا به وكأنه قيل لهم : ليس بالبعث الذي عرفتموه وهو بعث النائم من مرقده ، حتى يهمكم السؤال عن

---

(1) . قوله «و قرئ بالفاء» في الصحاح «الجدف» : القبر ، وهو إبدال الجدث . قال الفراء : العرب تعقب بين الفاء والثاء في اللغة ، فيقولون : جدث وجدف ، وهي الأجداث والأجداف . (ع)

الباعث ، إن هذا هو البعث الأكبر ذو الأهوال والأفزاع ، وهو الذي وعده اللّه في كتبه المنزلة على ألسنة رسله الصادقين .

[سورة يس (36) : الآيات 53 إلى 58]

إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (53) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54) إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (56) لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ (57)

سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58)

إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً قرئت منصوبة ومرفوعة فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً . . . إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ «1» حكاية ما يقال لهم في ذلك اليوم . وفي مثل هذه الحكاية زيادة تصوير للموعود ، وتمكين له في النفوس ، وترغيب في الحرص عليه وعلى ما يثمره فِي شُغُلٍ في أى شغل وفي شغل لا يوصف ، وما ظنك بشغل من سعد بدخول الجنة التي هي دار المتقين ، ووصل إلى نيل تلك الغبطة وذلك الملك الكبير والنعيم المقيم ، ووقع في تلك الملاذ التي أعدّها اللّه للمرتضين من عباده ، ثوابا لهم على أعمالهم مع كرامة وتعظيم ، وذلك بعد الوله والصبابة ، والتفصي من مشاق التكليف ومضايق التقوى والخشية ، وتخطى الأهوال ، وتجاوز الأخطار وجواز الصراط . ومعاينة ما لقى العصاة من العذاب ، وعن ابن عباس

: في افتضاض الأبكار .

وعنه : في ضرب الأوتار . وعن ابن كيسان : في التزاور . وقيل : في ضيافة اللّه . وعن الحسن :

شغلهم عما فيه أهل النار التنعم بما هم فيه . وعن الكلبي : هم في شغل عن أهاليهم من أهل النار ، لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم : لئلا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم . قرئ : في شغل ، بضمتين وضمة وسكون ، وفتحتين ، وفتحة وسكون . والفاكه والفكه : المتنعم والمتلذذ : ومنه الفاكهة ، لأنها مما يتلذذ به . وكذلك الفكاهة ، وهي المزاحة . وقرئ فاكهون ، وفكهون ، بكسر الكاف وضمها ، كقولهم : رجل حدث وحدث «2» ، ونطس ونطس . وقرئ : فاكهين وفكهين ،

---

(1) . قال أحمد : هذا مما التنكير فيه للتفخيم ، كأنه قيل : في شغل أى شغل ، وكذا قوله تعالى : سلام قولا من رب رحيم .

(2) . قوله «كقولهم رجل حدث وحدث» أى حسن الحديث ، والنطس البالغ في التطهر والمدقق في العلم .

أفاده الصحاح . (ع) [ . . . . . ]

على أنه حال والظرف مستقر هُمْ يحتمل أن يكون مبتدأ وأن يكون تأكيدا للضمير في فِي شُغُلٍ وفي فاكِهُونَ على أنّ أزواجهم يشاركنهم في ذلك الشغل والتفكه والاتكاء على الأرائك تحت الظلال. وقرئ: في ظلل، والأريكة: السرير في الحجلة «1». وقيل: الفراش فيها. وقرأ ابن مسعود: متكين يَدَّعُونَ يفتعلون من الدعاء، أى: يدعون به لأنفسهم، كقولك: اشتوى واجتمل، إذا شوى «2» وجمل لنفسه. قال لبيد:

فاشتوى ليلة ريح واجتمل «3»

ويجوز أن يكون بمعنى يتداعونه، كقولك: ارتموه، وتراموه. وقيل: يتمنون، من قولهم: ادّع علىّ ما شئت، بمعنى تمنه علىّ، وفلان في خير ما ادّعى، أى في خير ما تمنى. قال الزجاج: وهو من الدعاء، أى: ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم. وسَلامٌ بدل مما يدعون، كأنه قال لهم: سلام يقال لهم قَوْلًا مِنْ جهة رَبٍّ رَحِيمٍ والمعنى: أنّ اللّه يسلم عليهم بواسطة الملائكة، أو بغير واسطة، مبالغة في تعظيمهم وذلك متمناهم، ولهم ذلك لا يمنعونه. قال ابن عباس: فالملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين. وقيل: ما يَدَّعُونَ، مبتدأ وخبره سلام، بمعنى: ولهم ما يدعون سالم خالص لا شوب فيه. وقَوْلًا مصدر مؤكد لقوله تعالى وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ سَلامٌ أى: عدة من رب رحيم. والأوجه: أن ينتصب على الاختصاص، وهو من مجازه. وقرئ: سلم، وهو بمعنى السلام في المعنيين. وعن ابن

مسعود : سلاما نصب على الحال ، أى لهم مرادهم خالصا .

[سورة يس (36) : آية 59]

وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59)

وَامْتازُوا وانفردوا عن المؤمنين ، وكونوا على حدة ، وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة . ونحوه قوله تعالى

---

(1) . قوله «السرير في الحجلة» هي بيت العروس يزين بالثياب والستور ، كذا في الصحاح . (ع)

(2) . قوله و«اجتمل إذا شوى» في الصحاح : جملت الشحم أجمله جملا ، واجتملته : إذا أذبته . (ع)

(3) وغلام أرسلته أمه بألوك فبذلنا ما سأل

أرسلته فأتاه رزقه فاشتوى ليلة ريح واحتمل

للبيد بن ربيعة . والألوك : الرسالة ، أى : ورب غلام أرسلته أمه إلينا برسالة وهي هنا السؤال ، فبذلنا ما سأله من الطعام عقب سؤاله ، وبين ذلك بقوله : أرسلته فأتاه رزقه ، وفيه دلالة على أنه لم يكن عندهم طعام حين أتاهم الغلام ، أى : فأتاه رزقه من الصيد ، فاشتوى لنفسه من اللحم في ليلة ريح مظلمة يقل فيها الجود ، واحتمل : أى حمل كثيرا منه

بنفسه لنفسه ، ولأمه التي أرسلته . ويروى : اجتمل ، بالجيم : وفي الصحاح : جملت الشحم واجتملته إذا أذبته ، وهذه الرواية أنسب وأفيد .

(200/647)

---

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا . . . الآية يقال : مازه فانماز وامتاز .

وعن قتادة : اعتزلوا عن كل خير . وعن الضحاك : لكل كافر بيت من النار يكون فيه ، لا يرى ولا يرى . ومعناه : أنّ بعضهم يمتاز من بعض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 23.12 ﴾

(201/647)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وما أَنْزَلْنا على قومه ﴾ .

يعنى قوم حبيب ﴿ مِنْ بَعْدِه ﴾ أي : مِنْ بَعْدِ قتله ﴿ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ يعني

الملائكة ، أي : لم ينتصر منهم بجُند من السَّماء ﴿ وما كُنَّا ﴾ نُنْزِلهم على الأُمم إذا أهلكناهم .

وقيل : المعنى : ما بعثْنا إليهم بعده نبيّاً ، ولا أنزلنا عليهم رسالة .

﴿ إنْ كانت إلاَّ صيحةً واحدةً ﴾ قال المفسِّرون : أخذ جبريل عليه السلام بِعِضَادَتَي باب المدينة ، ثم صاح بهم صيحة واحدة ، فإذا هم ميّتون لا يُسْمَع لهم حِسٌّ ، كالنَّار إذا طُفِئَت ، وهو قوله تعالى : ﴿ فإذا هم خامدون ﴾ أي : ساكنون كهيأة الرَّماد الخامد .

قوله تعالى : ﴿ يا حَسْرَةً على العِبَاد ﴾ قال الفراء : المعنى : يالها حَسْرَةً على العباد .

وقال الزجاج : الحَسْرَةُ أن يَرْكَبَ الإنسان من شِدَّة الندم مالا نهاية له حتى يبقى قلبُه حَسِيراً .

وفي المتحسِّر على العباد قولان :

أحدهما : أنهم يتحسَّرون على أنفسهم ، قال مجاهد والزجاج : استهزاؤهم بالرُّسل كان حسرةً عليهم في الآخرة .

وقال أبو العالية : لمَّا عايَنوا العذاب ، قالوا : يا حسرتنا على المرسَلين ، كيف لنا بهمُ الآن حتى نؤمِن .

والثاني : أنه تحسُّر الملائكة على العباد في تكذيبهم الرُّسل ، قاله الضحاك .

ثم خوَّف كُفَّار مكَّة فقال : ﴿ ألم يَرَوا ﴾ أي : ألم يَعْلَموا ﴿ كم أهلكْنا قبلهم من القرون

﴿ فيعتبروا ويخافوا أن نعجِّل لهم الهلاك كما عجِّل لمن أُهلك قبلهم ولم يرجعوا إلى الدنيا ؟ ! .

قال الفراء : وأَلف ﴿ أَنَّهم ﴾ مفتوحة ، لأن المعنى : ألم يَرَوا أنَّهم إليهم لا يرجعون .

وقد كسرها الحسن ، كأنه لم يُوقِع الرؤية على "كم" ، فلم يوقِعها على ﴿ أنّ ﴾ ، وإن استأنفتَها كسرتَها .

(202/647)

---

قوله تعالى : ﴿ وإنْ كُلٌّ لَمَا ﴾ وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة : "لَمَّا" بالتشديد ، ﴿ جميعٌ لدينا مُحضَرون ﴾ أي : إن الأُمم يُحضَرون يوم القيامة ، فيجازون بأعمالهم .

قال الزجاج : من قرأ "لَمَا" بالتخفيف ، ف ﴿ ما ﴾ زائدة مؤكِّدة ، والمعنى : وإنْ كُلٌّ لَجميعٌ ، ومعناه : وما كُلٌّ إلاّ جميع لدينا مُحضَرون .

ومن قرأ "لَمَّا" بالتشديد ، فهو بمعنى "إلاّ" تقول : "سألتُكَ لَمَّا فعلتَ" وإلاّ فعلتَ .

﴿ وآيةٌ لهم الأرضُ المَيْتَةُ ﴾ وقرأ نافع : ﴿ المَيِّتَةُ ﴾ بالتشديد ، وهو الأصل ، والتخفيف أكثر ، وكلاهما جائز ؛ ﴿ وآيةٌ ﴾ مرفوعة بالابتداء ، وخبرها "لهم" ، ويجوز أن يكون خبرها "الأرضُ الميتةُ" ؛ والمعنى : وعلامةٌ تدلُّهم على التوحيد وأنَّ الله

يَبْعَثُ الموتى أحياءً الأرضُ الميتة.

قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُ يأكُلونَ ﴾ يعنى ما يُقتات من الحبوب.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعْلَنَا فيها ﴾ وقوله: ﴿ وفجّرنا فيها ﴾ يعني في الأرض.

قوله تعالى: ﴿ ليأكُلوا مِنَ ثَمَره ﴾ يعني النخيل، وهو في اللفظ مذكّر.

﴿ وما عَمِلَتْهُ أيديهم ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: "عَمِلَتْهُ" بهاءٍ.

وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿ عَمِلَتْ ﴾ بغير هاءٍ.

والهاء مُثْبَتة في مصاحف مكة والمدينة والشام والبصرة.

ومحذوفة من مصاحف أهل الكوفة.

قال الزجاج: وضع "ما" خفض؛ والمعنى: ليأكُلوا من ثمره وممّا عملَتْه أيديهم؛ ويجوز أن يكون "ما" نفياً؛ المعنى: ولم تعمله أيديهم، وهذا على قراءه من أثبت الهاء.

فإذا حُذفت الهاءُ، فالاختيار أن تكون "ما" في موضع خفض.

وتكون بمعنى "الذي" فَيحْسُن حذف الهاء.

وكذلك ذكر المفسِّرون القولين.

فمن قال بالأول، قال: ليأكُلوا ممّا عملتْ أيديهم، وهو الغُروس والحُروث التي تعبوا فيها، ومن قال بالثاني قال: ليأكُلوا ما ليس مِنْ صُنعهم، ولكنه مِنْ فِعل الحق عز وجل ﴿ أفلا يشكُرون ﴾ الله تعالى فيوحِّدوه؟!.

ثم نزَّه نفسه بقوله ﴿ سبحانَ الذي خَلَق الأزواج كُلَّها ﴾ يعني الأجناس كلَّها ﴿ ممّا تُنْبِتُ الأرضُ ﴾ من الفواكهة والحبوب وغير ذلك ﴿ ومِنْ أَنْفسهم ﴾ وهم الذكور والإناث ﴿ وممّا لا يَعْلَمُونَ ﴾ من دوابِّ البَرِّ والبحر وغير ذلك ممّا لم يَقفوا على عِلْمه.

قوله تعالى: ﴿ وآيةٌ له الليلُ نَسْلَخُ منه النَّهار ﴾ أي: وعلامة لهم تَدُلُّ على توحيدنا وقدرتنا الليلُ نَسلخ منه النهار؛ قال الفراء: نرمي بالنهار عنه.

و"منه" بمعنى "عنه".

وقال أبو عبيدة: نُخْرِجُ منه النهار ونميِّزه منه فتجيء الظُّلمة، قال الماوردي: وذلك أنّ ضوء النهار يتداخل في الهواء فيضيء، فإذا خرج منه أظلم.

وقوله ﴿ فإذا هم مُظْلِمونَ ﴾ أي: داخلون في الظَّلام.

﴿ والشَّمْسُ ﴾ أي: وآيةٌ لهم الشمس ﴿ تَجري لِمُسْتَقَرٍّ لها ﴾ وفيه أربعة أقوال:

أحدها: إلى موضع قرارها؛ روى "أبو ذر قال سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لها ﴾ قال: "مُسْتَقَرُّها تحت العَرْش"، وقال: "إنَّها تذهب حتى

تسجُد بين يَدَي ربِّها ، فتَستأذِنُ في الطُّلوع ، فيؤذَنُ لها "

والثاني : أنَّ مُسْتَقَرَّها مغربها لا تجاوزه ولا تقصر عنه ، قاله مجاهد .

والثالث : لِوقت واحدٍ لا تعدُوه ، قاله قتاده .

وقال مقاتل : لِوقت لها إِلى يوم القيامة .

والرابع : تسير في منازلها حتى تنتهيَ إِلى مُسْتَقَرِّها الذي لا تجاوزه ، ثم ترجعِ إِلى أوَّل منازلها ، قاله ابن السائب .

وقال ابن قتيبة : إِلى مُسْتَقَرٍ لها ، ومُسْتَقَرُّها : أقصى منازلها في الغُروب ، [ وذلك ] لأنها لا تزال تتقدَّم إِلى أقصى مغاربها ، ثم ترجع .

(204/647)

---

وقرأ ابن مسعود ، وعكرمة ، وعليّ بن الحسين ، والشيزري عن الكسائي : ﴿ لا مُسْتَقَرَّ لها ﴾ والمعنى : أنها تجري أبداً ، لا تثبُت في مكان واحد .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ الذي ذُكِر من أمر الليل والنهار والشمس ﴿ تقديرُ العزيزِ ﴾ في مُلكه ﴿ العليمِ ﴾ بما يقدِّر .

قوله تعالى : ﴿ والقَمَرَ ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : " والقَمَرُ " بالرفع .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : و " القَمَرَ " بالنصب .

قال الزجاج : من قرأ بالنصب فالمعنى : وقدَّرْنا القمر قدَّرناه منازل .

ومن قرأ بالرفع فالمعنى : وآيةٌ لهم القمرُ قدَّرْناه ، ويجوز أن يكون على الابتداء ، و " قدَّرْناه " الخبر .

قال المفسِّرون : ومنازلُ القمر ثمانيةٌ وعشرون منزِلاً ، ينزِلها من أوَّل الشَّهر إلى آخره ، وقد سمَّيناها في سورة [ يونس : 5 ] ، فإذا صار إلى آخر منازله دَقَّ فعاد كالعُرجون ، وهو عود العِذْق الذي تركته الشماريخ فإذا جفَّ وقَدُمُ يشبه الهلال .

قال ابن قتيبة : و " القديم " هاهنا : الذي قد أتى عليه حَوْلٌ ، شُبِّه القمرُ آخِرَ ليلةٍ يطلعُ به .

قال الزجاج : وتقدير " عُرجون " : فُعْلون من الانعراج .

وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء ، والضحاك ، وعاصم الجحدري ، وابن السميفع : ﴿ كالعِرْجَوْن ﴾ بكسر العين .

قوله تعالى : ﴿ لا الشَّمس ينبغي لها أن تُدْرِكَ القمر ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدهما : أنهما إذا اجتمعا في السماء ، كان أحدهما بين يَدَي الآخر ، فلا يشتركان في المنازل ، قاله ابن عباس .

والثاني : لا يُشْبِه ضوءُ أحدهما ضوءُ الآخر ، قاله مجاهد .

والثالث : لا يجتمع ضوءُ أحدهما مع الآخر ، فإذا جاء سُلطان أحدهما ذهب سُلطان الآخر ، قاله قتادة ؛ فيكون وجه الحكمة في ذلك أنه لو اتصل الضوء لم يُعرف الليل .

(205/647)

---

قوله تعالى : ﴿ ولا الليّلُ سابِقُ النّهارِ ﴾ وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وأبو عمران ، وعاصم الجحدري : ﴿ سابِقٌ ﴾ بالتنوين "النّهارَ" بالنصب ، وفيه قولان :

أحدهما : لا يَتقدَّم الليل قبل استكمال النهار .

والثاني : لا يأتي ليل بعد ليل من غير نهارٍ فاصلٍ بيهما .

وباقي الآية مفسَّر في سورة [ الأنبياء : 33 ] .

قوله تعالى : ﴿ وآيةٌ لهم أنّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قرأ نافع ، وابن عامر : "ذُرِّيّاتِهِمْ" على الجمع ؛ وقرأ الباقون من السبعة : "ذُرِّيَّتَهُمْ" على التوحيد .

قال المفسِّرون : أراد : في سفينة نوح ، فنسب الذُّرِّيَّة إلى المخاطَبين ، لأنهم من جنسهم ، كأنه قال : ذُرِّيَّة الناس .

وقال الفراء : أي : ذُرِّيَّة مَنْ هو منهم ، فجعلها ذُرِّيَّةً لهم ، وقد سبقتْهم .

وقال غيره : هو حَمْلُ الأنبياء في أصلاب الآباء حين رَكِبوا السفينة ، ومنه قول العباس :

بَلْ نُطْفَةً تَرْكَبُ السَّفِينَ وَقَدْ . . .

أَلْجَمَ نَسْرًا وَأَهْلَهُ الغرَقُ

قال المفضّل بن سلمة : الذُّرِّيَّة : النَّسْل ، لأنهم مَنْ ذرأهم اللهُ منهم ، والذُّرِّيَّة أيضا : الآباء ، لأن الذَّرَّ وقع منهم ، فهو من الأضداد .

ومنه هذه الآية وقد شرحنا هذا في قوله ، ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران : 34 ] ؛ والمشحون : المملوء .

قوله تعالى : ﴿ وخَلَقْنا لهم مِنْ مِثْلِه ﴾ فيه قولان .

أحدهما : مِثْل سفينة نوح ، وهي السُّفُن ، روى هذا المعنى سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك ، وأبو مالك ، وأبو صالح ، والمراد بهذا ذِكْر مِنَّته بأن خَلَق الخشب الذي تُعْمَل منه السُّفُن .

والثاني : أنها الإِبل ، خَلَقها لهم للرُّكوب في البَرِّ ، مثل السُّفُن المركوبة في البحر ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، وعن الحسن وقتادة كالقولين .

قوله تعالى : ﴿ فلا صَريخَ لهم ﴾ أي : لا مُغيثَ ولا مُجير ، ﴿ ولا هُمْ يُنْقَذُون ﴾ أي : ينجون من الغرق ، يقال : أنقذه واستنقذه : إذا خلّصه ، من المكروه ، ﴿ إلاَّ رَحْمةً مِنّا ﴾ المعنى : إلا أن نرحمهم ونمتِّعهم إلى آجالهم .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ يعني الكُفَّار ﴿ اتَّقُوا ما بين أيديكم وما خلفكم ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدها : ﴿ ما بين أيديكم ﴾ : ما مضى من الذُّنوب ، ﴿ وما خَلْفكم ﴾ : ما يأتي من الذُّنوب ، قاله مجاهد .

والثاني : ﴿ ما بين أيدكم ﴾ ما تَقدَّم من عذاب الله للأُمم ﴿ وما خلفكم ﴾ من أمر الساعة ، قاله قتادة .

والثالث : " ما بين أيديكم " من الدنيا " وما خَلْفكم " من عذاب الآخرة قاله سفيان .

والرابع : " ما بين أيديكم " من أمر الآخرة ، " وما خَلْفكم " من أمر الدنيا فلا تَغْتَرُّوا بها . قاله ابن عباس والكلبي .

﴿ لعلكم تُرْحَمون ﴾ أي : لتكونوا على رجاء الرحمة من الله .

وجواب " إذا " محذوف تقديره : إذا قيل لهم هذا ، أعرضوا ؛ ويدُلُّ على هذا المحذوف قوله ﴿ وما تأتيهم مِنْ آيةٍ ﴾ أي : من دلالة تدل على صدق الرسول .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم أنفِقوا ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال :

أحدها : في اليهود ، قاله الحسن .

والثاني : في الزنادقة قاله قتادة .

والثالث : في مشركي قريش قاله مقاتل ؛ وذلك أن المؤمنين قالوا لكفار مكة : أنفقوا على المساكين النصيب الذي زعمتم أنه لله من الحرث والأنعام فقالوا ﴿ أَنُطْعِمُ من لو يشاءُ اللهُ أطعمه ﴾ .

(207/647)

---

وقال ابن السائب : كان العاص بن وائل إِذا سأله مسكين ، قال : اذهب إلى ربِّك فهو أولى بك مني ، ويقول : قد منعه الله ، أُطعمه أنا ؟ ! ومعنى الكلام أنهم قالوا : لو أراد اللهُ أن يرزقهم لرزقهم ، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم فلا نُطْعِمهم وهذا خطأٌ منهم ، لأن الله تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعضاً ، ليبلوَ الغنيَّ بالفقير فيما فرض له في ماله من الزكاة ، والمؤمن لا يعترض على المشيئة ، وإنما يوافق الأمر .

وقيل : إنما قالوا هذا على سبيل الاستهزاء .

وفي قوله : ﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ قولان .

أحدهما : أنه من قول الكفار للمؤمنين ، يعنون إِنكم في خطأٍ من اتِّباع محمد .

والثاني : أنه من قول الله للكفار لما ردُّوه من جواب المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ يعنون القيامة ؛ والمعنى : متى إنجاز هذا الوعد ﴿ إن كنّتم صادقين ﴾ ؟ يعنون محمدا وأصحابه .

﴿ ما ينظُرون ﴾ أي : ما ينتظرون ﴿ إلاَّ صيحةً واحدةً ﴾ وهي النفخة الأولى .

و ﴿ يَخِصّمُونَ ﴾ بمعنى يختصون ، فأُدغمت التاء في الصاد .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : ﴿ يَخَصِّمُونَ ﴾ بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد .

وروي عن أبي عمرو اختلاس حركة الخاء .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، والكسائي : ﴿ يَخْصِّمُونَ ﴾ بفتح الياء وكسر الخاء .

وعن عاصم كسر الياء والخاء .

وقرأ نافع بسكون الخاء وتشديد الصاد .

وقرأ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد ، أي : يَخْصِمُ بعضهم بعضاً .

وقرأ أُبيُّ بن كعب : ﴿ يختصمون ﴾ بزيادة تاء ؛ والمعنى أن الساعة تأتيهم أَغفلَ ما كانوا عنها وهم متشاغلون في متصرَّفاتهم وبيعهم وشرائهم ﴿ فلا يستطيعون توصيةً ﴾ قال مقاتل : أُعجلوا عن الوصية فماتوا ، ﴿ ولا إلى أهلهم يَرْجِعُونَ ﴾ أي : لا يعودون من الأسواق إلى منازلهم ؛ فهذا وصف ما يَلْقَون في النفخة الأولى .

ثم ذكر ما يَلْقَون في النفخة الثانية فقال: ﴿ ونُفِخَ في الصُّور فإذا هم من الأجداث ﴾ يعني القبور؛ ﴿ إلى ربهم يَنْسِلُونَ ﴾ أي: يخرُجون بسرعة، وقد شرحنا هذا المعنى في سورة [الأنبياء: 96].

﴿ قالوا يا وليلنا مَنْ بَعَثَنا من مرقدنا ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو رزين، والضحاك وعاصم الجحدري: ﴿ من بعثْنا ﴾ بكسر الميم والثاء وسكون العين.

قال المفسرون: إنما قالوا هذا، لأن الله تعالى رفع عنهم العذاب فيما بين النفختين.

قال أُبيُّ بن كعب: ينامون نومة قبل البعث فإذا بُعثوا قالوا هذا.

قوله تعالى: ﴿ هذا ما وعد الرحمنُ ﴾ في قائلي هذا الكلام ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه قول المؤمنين، قاله مجاهد، وقتادة، وابن أبي ليلى.

قال قتادة: أول الآية للكافرين، وآخرها للمؤمنين.

والثاني: أنه قول الملائكة لهم، قاله الحسن.

والثالث: أنه قول الكافرين، يقول بعضهم لبعض: هذا الذي أخبرَنا به المرسَلون أننا نُبعث ونجازى، قاله ابن زيد.

قال الزجاج: ﴿ من مرقدنا ﴾ هو وقف التمام ويجوز أن يكون "هذا" من نعت "مرقدنا" على معنى: مَنْ بعثَنا مِنْ مرقدنا هذا الذي كنّا راقدين فيه؟ ويكون في قوله ﴿ ما وعد

الرَّحمنُ ﴾ أحد إِضمارين، إما " هذا " ، وإِما " حق " ، فيكون المعنى : حقٌّ ما وَعد الرَّحمنُ.

ثم ذكر النفخة الثانية، فقال : ﴿ إن كانت إلاَّ صيحةً واحدةً ﴾ ، وما بعد هذا ظاهر إلى قوله ﴿ إنَّ أصحاب الجنة اليوم ﴾ يعني في الآخرة ﴿ في شُغُلٍ ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو " في شُغْلٍ " بإسكان الغين.

وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي : " في شُغُلٍ " بضم الشين والغين.

وقرأ أبو هريرة، وأبو رجاء، وأيوب السختياني : ﴿ في شَغَلٍ ﴾ بفتح الشين والغين.

وقرأ أبو مجلز، وأبو العالية، وعكرمة، والضحاك، والنخعي، وابن يعمر، والجحدري " ﴿ في شَغْلٍ ﴾ بفتح الشين وسكون الغين.

وفيه ثلاثة أقوال :



---

أحدها : أن شغلهم افتضاض العذارى، رواه شقيق عن ابن مسعود، ومجاهد عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن المسيب، وقتادة، والضحاك.

والثاني : ضرب الأوتار، رواه عكرمة عن ابن عباس ؛ وعن عكرمة كالقولين، ولا يثبت

هذا القول .

والثالث : النِّعمة ، قاله مجاهد .

وقال الحسن : شغلهم : نعيمهم عمَّا فيه أهل النار من العذاب .

قوله تعالى : ﴿ فاكِهونَ ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو المتوكل ، وقتادة ، وأبو الجوزاء ، والنخعي ، وأبو جعفر : ﴿ فَكِهُون ﴾ .

وهل بينهما فرق ؟ فيه قولان :

أحدهما : أن بينهما فرقاً .

فأما " فاكهون " ففيه أربعه أقوال :

أحدها : فَرِحون ، قاله ابن عباس .

والثاني : مُعْجَبُون ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثالث : ناعمون قاله أبو مالك ، ومقاتل .

والرابع : ذوو فاكهة ، كما يقال : فلانٌ لابِنٌ تامِرٌ ، قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة .

وأما ﴿ فَكِهون ﴾ ففيه قولان .

أحدهما : أن الفَكِه : الذي يتفكه ، تقول العرب للرجل إذا كان يتفكَّه بالطعام أو بالفاكهة أو بأعراض الناس : إن فلاناً لفَكِهٌ بكذا .

ومنه يقال للمُزاح : فُكاهَة ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : أن فَكِهين بمعنى فَرِحين ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

والقول الثاني : أن فاكهين وفكِهين بمعنى واحد ، كما يقال : حاذِرٌ وحَذِرٌ ، قاله الفراء .

وقال الزجاج : فاكِهون وفكِهون بمعنى فَرِحين ، وقال أبو زيد : الفَكِه : الطيّب النَّفْس الضَّحوك ، يقال رجل فاكِه وفَكِه .

قوله تعالى : ﴿ هم وأزواجهم ﴾ يعنى حلائلهم ﴿ في ظلال ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : ﴿ في ظُلَلٍ ﴾ .

قال الفراء : الظِّلال جمع ظِلٍّ والظُّلَل جمع ظُلَّة ، وقد تكون الظِّلال جمع ظُلَّة أيضا ، كما يقال : خُلَّة وخُلَل ؛ فإذا كثرت فهي الخِلال والحِلال والقِلال .

قال مقاتل : والظِّلال : أكنان القصور .

قال أبو عبيدة : والمعنى أنهم لا يَضْحَوْنَ .



---

فأما الأرائك فقد بيَّنّاها في سورة [ الكهف : 31 ] .

قوله تعالى : ﴿ ولهم ما يدَّعون ﴾ قال ابن قتيبة : ما يَتَمَنَّوْنَ ، ومنه يقول الناس : هو في خيرِ ما ادّعى ، أي : ما تمنّى ، والعرب تقول : ادَّعِ ما شئْتَ ، أي : تَمَنَّ ما شئْتَ .

وقال الزجاج: هو مأخوذ من الدّعاء ؛ والمعنى : كلُّ ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم وقوله : ﴿ سلامٌ ﴾ بدل من " ما " ؛ المعنى : لهم ما يتمنَّون سلام ، أي هذا مُنى أهل الجنة أن يُسلّم اللهُ عليهم و ﴿ قولاً ﴾ منصوب على معنى : سلامٌ يقوله اللهُ قولاً .

قال أبو عبيدة : " سلامٌ " رفع على " لهم " ؛ فالمعنى : لهم فيها فاكهة ولهم فيها سلام .

وقال الفراء : معنى الكلام : لهم ما يدّعون مسلَّم خالص ، ونصب القول ، كأنكَ قلتَ : قاله قولاً ، وإن شئتَ جعلتَه نصباً من قوله : ولهم ما يدّعون قولاً ، كقولكَ : عِدةً من الله .

وقرأ ابن مسعود ، وأُبيُّ بن كعب ، والجحدري ﴿ سلاماً قولاً ﴾ بنصبهما جميعاً .

قوله تعالى : ﴿ وامتازوا اليومَ أيُّها المُجْرِمون ﴾ قال ابن قتيبة : أي : انقطِعوا عن المؤمنين وتميَّزوا منهم ، يقال : مِزتُ الشيءَ من الشيء : إذا عزلتَه عنه ، فانماز وامتاز وميّزتُه فتميَّز .

قال المفسرون : إذا اختلط الإنس والجن في الآخرة ، قيل : ﴿ وامتازوا اليوم أيُّها المجرمون ﴾ ، فيقال للمجرمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿زاد المسير حـ 7 صـ 14.30 ﴾

(211/647)

وقال الخازن:

قوله تعالى: ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء ﴾

يعني الملائكة ﴿ وما كنا منزلين ﴾ أي ما كنا لنفعل هذا بل الأمر في إهلاكهم كان أيسر مما تظنون ثم بيَّن عقوبتهم فقال تعالى: ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ قال المفسرون أخذ جبريل بعضادتي باب المدينة وصاح بهم صيحة واحدة ﴿ فإذا هم خامدون ﴾ أي ميتون ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ يعني يا لها حسرة وندامة وكآبة على العباد والحسرة أن يركب الإنسان من شدة الندم ما لا نهاية له حتى يبقى قلبه حسيراً قيل تحسروا على أنفسهم لما عاينوا من العذاب حيث لم يؤمنوا بالرسل الثلاثة فتمنوا الإيمان حيث لم ينفعهم وقيل تتحسر عليهم الملائكة حيث لم يؤمنوا بالرسل وقيل يقول الله تعالى يا حسرة على العباد يوم القيامة حيث لم يؤمنوا بالرسل ثم بين سبب تلك الحسرة فقال تعالى: ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ قوله تعالى: ﴿ ألم يروا ﴾ أي ألم يخبروا خطاب لأهل مكة ﴿ كم أهلكنا قبلهم من القرون ﴾ أي من الأمم الخالية من أهل كل عصر سموا بذلك لاقترانهم في الوجود ﴿ أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ أي لا يعودون إلى الدنيا أفلا يعتبرون بهم ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ يعني أن جميع الأمم يحضرون يوم القيامة.

﴿ وآية لهم ﴾ يعني تدلهم على كمال قدرتنا على إحياء الموتى ﴿ الأرض الميتة أحييناها ﴾ أي بالمطر ﴿ وأخرجنا منها ﴾ أي من الأرض ﴿ حباً ﴾ يعني الحنطة والشعير وما أشبههما ﴿ فمنه يأكلون ﴾ أي من الحب ﴿ وجعلنا فيها ﴾ يعني في الأرض ﴿ جنات ﴾ يعني بساتين ﴿ من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره ﴾ يعني من الثمر الحاصل بالماء ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ يعني من الزرع والغرس الذي تعبوا فيه وقرئ عملت بغير هاء وقيل ما للنفي والمعنى ولم تعمله أيديهم وليس من صنيعهم بل وجدوها معمولة وقيل أراد العيون والأنهار التي لم تعملها يد خلق مثل النيل والفرات ودجلة ﴿ أفلا يشكرون ﴾ يعني نعمة الله تعالى ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها ﴾ يعني الأصناف كلها ﴿ مما تنبت الأرض ﴾ أي من الأشجار والثمار والحبوب ﴿ ومن أنفسهم ﴾ يعني الذكر والأنثى ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ يعني مما خلق الله تعالى من الأشياء في البر والبحر من الدواب.

قوله: ﴿ وآية لهم ﴾ يعني تدلهم على قدرتنا ﴿ الليل نسلخ ﴾ أي ننزع ونكشط ﴿ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾ يعني فإذا هم في الظلمة وذلك أن الأصل هي الظلمة والنهار داخل عليها فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل فتظهر الظلمة ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ يعني إلى مستقر لها قيل إلى انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وقيام الساعة

وقيل تسير في منازلها حتى تنتهي إلى مستقرها الذي لا تجاوزه ثم ترجع إلى أول منازلها وهو أنها تسير حتى تنتهي إلى أبعد مغاربها ثم ترجع فذلك مستقرها وقيل مستقرها نهاية ارتفاعها في السماء في الصيف ونهاية هبوطها في الشتاء .



---

وقرأ ابن مسعود والشمس تجري لا مستقر لها أي لا قرار ولا وقوف فهي جارية أبداً إلى يوم القيامة وقد صح عن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) فيما رواه أبو ذر قال " سألت النبي ( صلى الله عليه وسلم ) عن قوله والشمس تجري لمستقر لها قال مستقرها تحت العرش " وفي رواية قال النبي ( صلى الله عليه وسلم ) لأبي ذر حين غربت الشمس " أتدري أين تذهب الشمس " قال الله ورسوله أعلم قال " إنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها فيقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها " فذلك قوله تعالى : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ أخرجاه في الصحيحين قال الشيخ محيي الدين النووي اختلف المفسرون فيه فقال جماعة بظاهر الحديث .

قال الواحدي فعلى هذا القول إذا غربت الشمس كل يوم استقرت تحت العرش إلى أن تطلع

وقيل تجري إلى وقت لها وأصل لا تتعداه وعلى هذا مستقرها انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وأما سجود الشمس فهو تمييز وإدراك يخلقه الله تعالى فيها والله أعلم ﴿ ذلك ﴾ يعني الذي ذكر من جرى الشمس على ذلك التقدير والحساب الذي يكل النظر عن استخراجه وتحير الأفهام عن استنباطه ﴿ تقدير العزيز ﴾ يعني الغالب بقدرته على كل شيء مقدور ﴿ العليم ﴾ يعني المحيط علماً بكل شيء .

﴿ وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ﴾ يعني لا مغيث لهم ﴿ ولا هم ينقذون ﴾ يعني ينجون من الغرق قال ابن عباس ولا أحد ينقذهم من عذابي ﴿ إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين ﴾ يعني إلا أن يرحمهم الله ويمتعهم إلى انقضاء آجالهم ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم ﴾ قال ابن عباس ﴿ ما بين أيديكم ﴾ يعني الآخرة فاعملوا لها ﴿ وما خلفكم ﴾ يعني الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها .



---

وقيل ﴿ ما بين أيديكم ﴾ يعني وقائع الله تعالى بمن كان من قبلكم من الأمم ﴿ وما خلفكم ﴾ يعني الآخرة ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أي لتكونوا على رجاء الرحمة وجواب إذا محذوف تقديره وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا ويدل على الحذف قوله تعالى : ﴿ وما تأتيهم من آية من

آيات ربهم ﴾ أي دلالة على صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾ قوله: ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم ﴾ أي مما أعطاكم ﴿ الله ﴾ نزلت في كفار قريش وذلك أن المؤمنين قالوا لكفار مكة أنفقوا على المساكين مما زعمتم أنه لله تعالى من أموالكم وهو ما جعلوه لله من حروثهم وأنعامهم ﴿ قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم ﴾ أي أنرزق ﴿ من لو يشاء الله أطعمه ﴾ أي رزقه قيل كان العاص بن وائل السهمي إذا سأله المسكين قال له اذهب إلى ربك فهو أولى مني بك ويقول قد منعه أفأطعمه أنا ومعنى الآية أنهم قالوا لو أراد الله أن يرزقهم لرزقهم فنحن نوافق مشيئة الله فيهم فلا نطعم من لم يطعمه وهذا مما يتمسك به البخلاء يقولون لا نعطي من حرمه الله وهذا الذي يزعمون باطل لأن الله تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم ابتلاء فمنع الدنيا من الفقير لا بخلاً وأعطى الدنيا الغني لا استحقاقاً وأمر الغني بالإنفاق لا حاجة إلى ماله ولكن ليبلو الغني بالفقير فيما فرض له من مال الغني ولا اعتراض لأحد في مشيئة الله وحكمته في خلقه والمؤمن يوافق أمر الله تعالى وقيل قالوا هذا على سبيل الاستهزاء ﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ قيل هو من قول الكفار للمؤمنين ومعناه ما أنتم إلا في خطأ بيّن باتباعكم محمداً وترك ما نحن عليه وقيل هو من قول الله تعالى للكفار لما ردوا من جواب المؤمنين ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ يعني يوم القيامة والبعث ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ قال الله تعالى: ﴿ ما ينظرون ﴾ أي

ينتظرون ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يريد النفخة الأولى ﴿ تأخذهم وهم يخصمون ﴾ أي في



---

أمر الدنيا من البيع والشراء ويتكلمون في الأسواق والمجالس وفي متصرفاتهم فتأتيهم الساعة أغفل ما كانوا عنها ، وقد صح في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) قال

قوله تعالى : ﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ أي لا يقدرون على الإيصاء بل أعجلوا عن الوصية فماتوا ﴿ ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ يعني لا يقدرون على الرجوع إلى أهلهم لأن الساعة لا تمهلهم بشيء ﴿ ونفخ في الصور ﴾ هذه النفخة الثانية وهي نفخة البعث وبين النفختين أربعون سنة ( ق ) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " ما بين النفختين أربعون قالوا يا أبا هريرة أربعين يوماً قال أبيت قالوا أربعين شهراً قال أبيت قالوا أربعين سنة قال أبيت ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء لا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة " ﴿ فإذا هم من الأجداث ﴾ أي القبور ﴿ إلى ربهم ينسلون ﴾ أي

يخرجون منها أحياء ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ قال ابن عباس إنما يقولون هذا لأن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فإذا بعثوا بعد الثانية وعاينوا أهوال القيامة دعوا بالويل .

وقيل إذا عاين الكفار جهنم وأنواع عذابها صار عذاب القبر في جنبها كالنوم فقالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ أقروا حين لا ينفعهم الإقرار .

(216/647)

---

وقيل قالت لهم الملائكة ذلك وقيل يقول الكفار من بعثنا من مرقدنا فيقول المؤمنون هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ يعني النفخة الأخيرة ﴿ فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ أي للحساب ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ قوله تعالى : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل ﴾ قال ابن عباس في افتضاض الأبكار وقيل في زيارة بعضهم بعضاً وقيل في ضيافة الله تعالى وقيل في السماع وقيل شغلوا بما في الجنة من النعيم عما فيه أهل النار من العذاب الأليم ﴿ فاكهون ﴾ قال ابن عباس فرحون وقيل ناعمون وقيل معجبون بما هم فيه .

﴿ هم وأزواجهم في ظلال ﴾ يعني أكنان القصور ﴿ على الأرائك ﴾ يعني السرر في الحجال ﴿ متكئون ﴾ يعني ذوو اتكاء تحت تلك الظلال ﴿ لهم فيها فاكهة ﴾ أي في الجنة ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ يعني ما يتمنون ويشتهون والمعنى أن كل ما يدعون أي أهل الجنة يأتيهم ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ يعني يسلم الله عليهم روى البغوي بإسناد الثعلبي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) "بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ ينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم" وقيل تسلم الملائكة عليهم من ربهم وقيل تدخل الملائكة على أهل الجنة من كل باب يقولون سلام عليكم من ربكم الرحيم وقيل يعطيهم السلامة يقول اسلموا السلام الأبدية ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ يعني اعتزلوا وانفردوا وتميزوا اليوم من المؤمنين الصالحين وكونوا على حدة وقيل إن لكل كافر في النار بيتاً فيدخل ذلك البيت

ويردم بابه فيكون فيه أبد الآبدين لا يرى ولا يرى فعلى هذا القول يمتاز بعضهم عن بعض .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 12.7 ﴾

*(218/647)*

---

وقال ابن جزى :

﴿ وَمَآ أَنْزَلْنَا على قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السمآء ﴾

المعنى أن الله أهلكهم بصيحة صاحها جبريل ، ولم يحتج في تعذيبهم إلى إنزال جند من السماء ، لأنهم أهون من ذلك ، وقيل المعنى ما أنزل الله على قومه ملائكة رسلاً كما قالت قريش : ﴿ لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ [ للفرقان : 7 ] ولفظ الجند أليق بالمعنى الأول ، وكذلك ذكر الصيحة بعد ذلك ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ ما كنا لننزل جنداً من السماء على أحد ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ أي ساكنون لا يتحركون ولا ينطقون .

﴿ ياحسرة عَلَى العباد ﴾ نداء للحسرة كأنه قال : يا حسرة احضري فهذا وقتك ، وهذا التفجع عليهم استعارة في معنى التهويل والتعظيم لما فعلوا من استهزائهم بالرسل ، ويحتمل أن يكون من كلام الملائكة ، أو المؤمنين من الناس ، وقيل : المعنى يا حسرة العباد على أنفسهم .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ الضمير لقريش أو للعباد على الاطلاق ، والرؤية هنا بمعنى العلم ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ قرئ لما بالتخفيف وهي لام التأكيد دخلت على ﴿ مَا ﴾ المزيدة وإن على هذا مخففة من الثقيلة ، وقرئ بالتشديد وهي بمعنى إلا ، وإن على هذا نافية .

﴿ ومَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ على ثمرة أي ليأكلوا من الثمر ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ بالحرث والزراعة والغراسة ، وقيل ﴿ مَا ﴾ نافية وقرئ ﴿ مَا عَمِلَتْ ﴾ من غيرها وما على معطوفة ﴿ الأزواج ﴾ يعني أصناف المخلوقات ثم فسرها بقوله : ﴿ مِمَّا تُنبِتُ الأَرض ﴾ وما بعده ، فمن في المواضع الثلاثة للبيان ﴿ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني أشياء لا يعلمها بنو آدم كقوله : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [ النحل : 8 ] .

﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾ أن نجرده منه وهي استعارة .

(219/647)

---

﴿ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ أحد لحد موقت تنتهي إليه من فلكها ، وهي نهاية جريها إلى أن ترجع في المنقلبين الشتاء والصيف ، وقيل : مستقرها : وقوفها كل وقت زوال ، بدليل وقوف الظل حينئذ ، وقيل : مستقرها يوم القيامة حين تكوّر ، وفي الحديث : "

مستقرها تحت العرش تسجد فيه كل ليلة بعد غروبها " وهذا أصح الأقوال لوروده عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المروي في البخاري عن أبي ذر ، وقرئ ﴿ لا مستقر لها ﴾ أي لا تستقر عن جريها .

﴿ والقمر قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ قرأ نافعت بالرفع على الابتداء أو عطف على الليل ، وآخرون بالنصب على إضمار فعل ، ولا بد في ﴿ قَدَّرْنَاهُ ﴾ من حذف تقديره : قدرنا سيره منازل ، ومنازل القمر ثمانية وعشرون ينزل القمر كل ليلة واحدة منها أول الشهر ، ثم يستتر في آخر الشهر ليلة أو ليلتين ، وقال الزمخشري : وهذه المنازل هن مواضع النجوم ؛ وهي السرطان ، البطين ، الثريا ، الدبران ، الهقعة الهنعة ، الذراع ، النثرة ، الطرف ، الجبهة ، الزبرة الصرفة ، العوى ، السماك ، الغفر ، الزباني ، الأكليل ، القلب ، الشولة ، النعائم ، البلدة ، سعد بلع ، سعد الذابح ، سعد السعود ، سعد الأخبية ، فرغ الدلو المقدم ، فرغ الدلو المؤخر ، بطن الحوت ﴿ حتى عَادَ كالعرجون القديم ﴾ العرجون هو غصن النخلة شبه القمر به إذا انتهى في نقصانه ، والتشبيه في ثلاثة أوصاف : وهي الرقة ، والانحناء ، والصفرة ، ووصفه بالقديم لأنه حينئذ تكون له هذه الأوصاف .

﴿ لَا الشمس يَنبَغِي لَهَا أَن تدْرِكَ القمر ﴾ المعنى لا يمكن الشمس أن تجتمع مع القمر بالليل فتمحو نوره ، وهكذا قال بعضهم ، ويحتمل أن يريد أن سير الشمس في الفلك بطيء ، فإنها تقطع الفلك في سنة وسير القمر سريع ، فإنه يقطع الفلك في شهر ، والبطيء لا يدرك السريع ﴿ وَلَا اليل سَابِقُ النهار ﴾ يعني أن كل واحد منهما جعل الله له وقتاً موقتاً ، واحداً معلوماً لا يتعدّاه ، فلا يأتي الليل حتى ينفصل النهار ، كما لا يأتي النهار حتى ينفصل الليل ، ويحتمل أن يريد أن آية الليل وهي القمر لا تسبق آية النهار وهي الشمس : أي لا تجتمع معه فيكون المعنى كالذي قيل في قوله ﴿ لَا الشمس يَنبَغِي لَهَا أَن تدْرِكَ القمر ﴾ فحصل من ذلك أن الشمس لا تجتمع مع القمر وأن القمر لا يجتمع مع الشمس ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ذكر في [ الأنبياء : 23 ] .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفلك المشحون ﴾ معنى المشحون : المملوء ، والفلك هنا يحتمل أن يريد به جنس السفن ، أو سفينة نوح عليه السلام ، وأما الذرية فقيل : إنه يعني الآباء الذين حملهم الله في سفينة نوح عليه السلام ، وسمى الآباء ذرية لأنها تناسلت منهم ، وأنكر ابن عطية ذلك ، وقال : إنه يعني النساء ، وهذا بعيد ، والأظهر أنه أراد بالفُلك جنس السفن ، فيعني جنس بن آدم ، وإنما خص ذريتهم بالذكر لأنه أبلغ في الامتنان عليهم ، ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة ، وإن أراد بالفلك سفينة نوح فيعني

بالذرية من كان في السفينة ، وسماهم ذرية ، لأنهم ذرية آدم ونوح ، فالضمير في ذريتهم على هذا النوع بني آدم كأنه يقول الذرية منهم .

(221/647)

---

﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ إن أراد بالفلك سفينة نوح فيعني بقوله : ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ سائر السفن التي يركبها سائر الناس ، وإن أراد بالفلك جنس السفن فيعني بقوله ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ الإبل وسائر المركوبات ، فتكون المماثلة على هذا في أنه مركوب لا غير ، والأول أظهر ، لقوله ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ ، ولا يتصور هذا في المركوبات غير السفن ﴿ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أي لا مغيث لهم ولا منفذ لهم من الغرق ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ قال الكسائي : نصب رحمة على الاستثناء كأنه قال : إلا أن نرحمهم ، وقال الزجاج : نصب رحمة على المفعول من أجله كأنه قال : إلا لأجل رحمتنا إياهم ﴿ وَمَتَاعاً إلى حِينٍ ﴾ يعني آجالهم .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتقوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ الضمير لقريش ، وجواب إذا محذوف تقديره : أعرضوا يدل عليه ﴿ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ ، والمراد ب ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ : ذنوبهم المتقدّمة والمتأخرة ، وقيل : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ عذاب الأمم المتقدمة ، ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ عذاب الآخرة .

﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمنوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ الله أَطْعَمَهُ ﴾ كان النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون يحضون على الصدقات وإطعام المساكين فيجيبهم الكفار بهذا الجواب ، وفي معناه قولان : أحدهما أنهم قالوا كيف نطعم المساكين ولو شاء الله أن يطعمهم لأطعمهم ، ومن حرمهم الله نحن نحرمهم ، وهذا كقولهم : كن مع الله على المدبر ، والآخر أن قولهم رد على المؤمنين ، وذلك أن المؤمنين كانوا يقولون : إن الأمور كلها بيد الله ، فكأن الكفار يقولون لهم : لو كان كما تزعمون لأطعم الله هؤلاء فما بالكم تطلبون إطعامهم منا ، ومقصودهم في الوجهين احتجاج لبخلهم ، ومنعهم الصدقات واستهزاء بمن حضهم على الصدقات ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ يحتمل أن يكون من بقية كلامهم خطاباً للمؤمنين ، أون يكون من كلام الله خطاباً للكافرين .

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ يعنون يوم القيامة أن نزول الأولى في الصور وهي نفخة الصعق .

﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أي يتكلمون في أمروهم وأصل ﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾ يختصمون ، ثم آدغم ، وقرئ بفتح الخاء وبكسرها واختلاس حركتها .

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أي لا يقدرون أن يوصوا بما لهم وما عليهم لسرعة الأمر ﴿ وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي يستطيعون أن يرجعوا إلى منازلهم لسرعة الأمر .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ هذه النفخة الثانية وهي نفخة القيام من القبور ، والأجداث هي القبور ، وينسلون يسرعون المشيء ، وقيل : يخرجون .

(223/647)

---

﴿ قَالُواْ ياويلنا ﴾ الويل منادى أو مصدر ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن ﴾ المرقد يحتمل أن يكون اسم مصدر أو اسم مكان ، قال أبيّ بن كعب ومجاهد : إن البشر ينامون نومة قبل الحشر ، قال ابن عطية هذا غير صحيح الإسناد ، وإنما الوجه في معنى قولهم : ﴿ مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ : أنها استعارة وتشبيه به يعني أن قبورهم شبهت بالمضاجع ، لكونهم فيها على هيئة الرقاد ، وإن لم يكن رقاد في الحقيقة ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ هذا مبتدأ وما بعده خبر وقيل : إن هذا صفة لمرقدنا وما وعد الرحمن مبتدأ محذوف الخبر وهذا ضعيف ، ويحتمل أن يكون هذا الكلام من بقية كلامهم ، أو من كلام الله أو الملائكة أو المؤمنين يقولونها للكفار على وجه التقريع .

﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ يعني النفخة الثانية وهي نفخة القيام .

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الجنة اليوم فِي شُغُلٍ ﴾ قرأ نافع وغيره ﴿ شُغُلٍ ﴾ بسكون الغين وقرأ عاصم وآخرون بضم الغين ، عام في الاشتغال باللذات ﴿ فَاكِهُونَ ﴾ قرئ بالألف ومعناه أصحاب فاكهة ، وبغير ألف وهو في الفكاهة بمعنى الراحة والسرور ﴿ فِي ظِلَالٍ ﴾ جمع ظل ، وبالضم جمع ظلة ، ﴿ عَلَى الأرآئك ﴾ جمع أريكة وهي السرير ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ أي ما يتمنون ، وقيل : معناه أن ما يدعومن به يأتيهم ﴿ سَلاَمٌ ﴾ مبتدأ ، وقيل بدل مما يدعون ﴿ قَوْلاً ﴾ مصدر مؤكد ، والمعنى : أن السلام عليهم قول من الله بواسطة الملك أو بغير واسطة .

﴿ وامتازوا اليوم أَيُّهَا المجرمون ﴾ أي انفردوا عن المؤمنين ، وكونوا على حدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 3 صـ 162 . 165﴾

*(224/647)*

---

وقال النسفى :

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا ﴾ "ما" نافيه ﴿ على قَوْمِهِ ﴾ قوم حبيب ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد قتله أو رفعه ﴿ مِن جُندٍ مِّنَ السمآء ﴾ لتعذيبهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ وما كان يصح في

حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء ، وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض لحكمة اقتضت ذلك ﴿ إِن كَانَتْ ﴾ الأخذة أو العقوبة ﴿ إِلَّا صَيْحَةً واحدة ﴾ صاح جبريل عليه السلام صيحة واحدة ﴿ فَإِذَا هُمْ خامدون ﴾ ميتون كما تخمد النار .

والمعنى أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك ولم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء كما فعل يوم بدر والخندق .

﴿ ياحسرة عَلَى العباد مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ الحسرة شدة الندم وهذا نداء للحسرة عليهم كأنما قيل لها تعالي يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها وهي حال استهزائهم بالرسل ، والمعنى أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ويتلهف على حالهم المتلهفون ، أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ ألم يعلموا ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ القرون ﴾ "كم" نصب ب ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ و ﴿ يَرَوْاْ ﴾ معلق عن العمل في "كم" لأن "كم" لا يعمل فيها عامل قبلها كانت للاستفهام أو للخبر ، لأن أصلها الاستفهام إلا أن معناه نافذ في الجملة .

وقوله ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ بدل من ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ على المعنى لا على اللفظ تقديره : ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ﴿ لَّمَّا ﴾ بالتشديد : شامي وعاصم وحمزة بمعنى إلا و "إن"

نافية .

وغيرهم بالتخفيف على أن "ما" صلة للتأكيد و "إن" مخففة من الثقيلة وهي متلقاة باللام لا

محالة .

(225/647)

---

والتنوين في ﴿ كُلٌّ ﴾ عوض من المضاف إليه ، والمعنى إن كلهم محشورون مجموعون محضرون للحساب أو معذبون .

وإنما أخبر عن ﴿ كُلٌّ ﴾ بجميع لأن "كلا" يفيد معنى الإحاطة والجميع فعيل بمعنى مفعول ومعناه الاجتماع يعني أن المحشر يجمعهم ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ مبتدأ وخبر أي وعلامة تدل على أن الله يبعث الموتى إحياء الأرض الميتة ، ويجوز أن يرتفع ﴿ ءَايَةٌ ﴾ بالابتداء و ﴿ لَهُمْ ﴾ صفتها ، وخبرها ﴿ الأرض الميتة ﴾ اليابسة .

وبالتشديد : مدني ﴿ أحييناها ﴾ بالمطر وهو استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية وكذلك ﴿ نَسْلَخُ ﴾ ويجوز أن توصف الأرض والليل بالفعل لأنه أريد بهما جنسان مطلقان لا أرض وليل بأعيانهما فعوملا معاملة النكرات في وصفهما بالأفعال ونحوه :

ولقد أمر على اللئيم يسبني . . .

﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً ﴾ أريد به الجنس ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ قدم الظرف ليدل على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس، وإذا قل جاء القحط ووقع الضر وإذا فقد حضر الهلاك ونزل البلاء ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ في الأرض ﴿ جنات ﴾ بساتين ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وأعناب وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العيون ﴾ "من" زائدة عند الأخفش وعند غيره المفعول محذوف تقديره ما ينتفعون به ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ والضمير لله تعالى أي ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر.

﴿ مِن ثُمُره ﴾ حمزة وعلي ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي ومما عملته أيديهم من الغرس والسقي والتلقيح وغير ذلك من الأعمال إلى أن يبلغ الثمر منتهاه، يعني أن الثمر في نفسه فعل الله وخلقه وفيه آثار من كد بني آدم وأصله من ثمرنا كما قال ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ ﴿ وَفَجَّرْنَا ﴾ فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريق الالتفات.

(226/647)

---

ويجوز أن يرجع الضمير إلى النخيل وتترك الأعناب غير مرجوع إليها لأنه علم أنها في حكم النخيل مما علق به من أكل ثمره، ويجوز أن يراد من ثمر المذكور وهو الجنات كما قال رؤبة.

فيها خطوط من بياض وبلق...

كأنه في الجلد توليع البهق

فقيل له فقال : أردت كأن ذاك .

﴿ وما عملت ﴾ كوفي غير حفص وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك ، وفي مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير .

وقيل : "ما" نافية على أن الثمر خلق الله ولم تعمله أيدي الناس ولا يقدرون عليه ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ استبطاء وحث على شكر النعمة .

﴿ سبحان الذى خَلَقَ الأزواج ﴾ الأصناف ﴿ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض ﴾ من النخيل والشجر والزرع والثمر ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ الأولاد ذكورا وإناثاً ﴿ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها ولا توصلوا إلى معرفتها ، ففي الأودية والبحار أشياء لا يعلمها الناس .

(227/647)

---

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾ نخرج منه النهار إخراجاً لا يبقى معه شيء من ضوء النهار ، أو ننزع عنه الضوء نزع القميص الأبيض فيعرى نفس الزمان كشخص زنجي أسود لأن أصل ما بين السماء والأرض من الهواء الظلمة فاكتسى بعضه ضوء الشمس كبيت

مظلم أسرج فيه فإذا غاب السراج أظلم ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ داخلون في الظلام ﴿ والشمس تَجْرِى ﴾ وآية لهم الشمس تجري ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ لحد لها موقت مقدر تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة ، شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره أو لحد لها من مسيرها كل يوم في مرائي عيوننا وهو المغرب ، أو لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا ﴿ ذلك ﴾ الجري على ذلك التقدير والحساب الدقيق ﴿ تَقْدِيرُ العزيز ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿ العليم ﴾ بكل معلوم ﴿ والقمر ﴾ نصب بفعل يفسره ﴿ قدرناه ﴾ وبالرفع مكي ونافع وأبو عمرو وسهل على الابتداء والخبر قدرناه أو على "وآية لهم القمر" ﴿ مَنَازِلَ ﴾ وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة وفي واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستوٍ يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين ، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر .

ولا بد في ﴿ قدرناه مَنَازِلَ ﴾ من تقدير مضاف لأنه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل أي قدرنا نوره فيزيد وينقص ، أو قدرنا مسيره منازل فيكون ظرفاً فإذا كان في آخر منازله دق واستقوس ﴿ حتى عَادَ كالعرجون ﴾ هو عود الشمراخ إذا يبس واعوج ووزنه فعلون من الانعراج وهو الانعطاف ﴿ القديم ﴾ العتيق المحول وإذا قدم دق وانحنى واصفر فشبه القمر به من ثلاثة أوجه .

﴿ لَا الشمس يَنبَغِى لَهَا ﴾ أي لا يتسهل لها ولا يصح ولا يستقيم ﴿ أَن تدرِكَ القمر ﴾ فتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره لأن لكل واحد من النيرين سلطاناً على حياله، فسلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل ﴿ وَلَا الليل سَابِقُ النهار ﴾ ولا يسبق الليل النهار أي آية الليل آية النهار وهما النيران، ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن تقوم القيامة فيجمع الله بين الشمس والقمر وتطلع الشمس من مغربها ﴿ وَكُلٌّ ﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه أي وكلهم والضمير للشموس والأقمار ﴿ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .

يسيرون

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ﴿ ذرياتهم ﴾ مدني وشامي ﴿ فِى الفلك المشحون ﴾ أي المملوء .

والمراد بالذرية الأولاد ومن يهمهم حمله وكانوا يبعثونهم إلى التجارات في بر أو بحر، أو الآباء لأنها من الأضداد .

والفلك على هذا سفينة نوح عليه السلام .

وقيل : معنى حمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين وفي أصلابهم هم وذرياتهم .

وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ ﴾ من مثل الفلك ﴿ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ من الإبل وهي سفائن البر ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ في البحر ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ فلا مغيث أو فلا إغاثة ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ لا ينجون ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ أي ولا ينقذون إلا لرحمة منا ولتمتيع بالحياة إلى انقضاء الأجل، فهما منصوبان على المفعول له.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتقوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ أي ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر مما أنتم تعملون من بعد أو من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها، وما خلفكم من أمر الساعة أو فتنة الدنيا وعقوبة الآخرة ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لتكونوا على رجاء رحمة الله.

(229/647)

---

وجواب "إذا" مضمر أي أعرضوا، وجاز حذفه لأن قوله ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءايات رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ يدل عليه.

و"من" الأولى لتأكيد النفي والثانية للتبعيض أي ودأبهم الإعراض عند كل آية وموعظة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ لمشركي مكة ﴿ أَنفِقُوا مِمَّا رِزَقَكُمُ الله ﴾ أي تصدقوا على الفقراء ﴿

قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما : كان بمكة زنادقة فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ قول الله لهم أو حكاية قول المؤمنين لهم أو هو من جملة جوابهم للمؤمنين .

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ أي وعد البعث والقيامة ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ فيما تقولون خطاب للنبي وأصحابه ﴿ مَا يَنظُرُونَ ﴾ ينتظرون ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ هي النفخة الأولى ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد من خصمه إذا غلبه في الخصومة ، وشدد الباقون الصاد أي ﴿ يَخِصّمُونَ ﴾ بإدغام التاء في الصاد ، لكنه مع فتح الخاء : مكي بنقل حركة التاء المدغمة إليها ، وبسكون الخاء : مدني ، وبكسر الياء والخاء : يحيى فأتبع الياء الخاء في الكسر ، وبفتح الياء وكسر الخاء : غيرهم .

والمعنى تأخذهم وبعضهم يخصم بعضاً في معاملاتهم .

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ فلا يستطيعون أن يوصوا في شيء من أمورهم توصية ﴿ وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم بل يموتون حيث يسمعون الصيحة ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ هي النفخة الثانية والصور القرن أو جمع صورة ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أي القبور ﴿ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ يعدون بكسر السين وضمها ﴿ قَالُوا ﴾ أي الكفار ﴿ ياويلنا مَنْ بَعَثَنَا ﴾ من أنشرنا ﴿ مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ أي مضجعنا ، وقف لازم عن حفص وعن مجاهد للكفار مضجعة يجدون فيها طعم النوم فإذا صيح بأهل القبور قالوا من بعثنا ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ كلام الملائكة أو المتقين أو الكافرين يتذكرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضاً ، أو "ما" مصدرية ومعناه هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين على تسلمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق ، أو موصولة وتقديره هذا الذي وعده الرحمن والذي صدقه المرسلون أي والذي صدق فيه المرسلون ﴿ إِن كَانَتْ ﴾ النفخة الأخيرة ﴿ إِلَّا صَيْحَةً واحدة فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ للحساب .

ثم ذكر ما يقال لهم في ذلك اليوم ﴿ فاليوم لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّ أصحاب الجنة اليوم فِى شُغُلٍ ﴾ بضمتين : كوفي وشامي ، وبضمة وسكون : مكي ونافع وأبو عمرو .

والمعنى في شغل في أي شغل وفي شغل لا يوصف ، وهو افتضاض الأبكار على شط الأنهار تحت الأشجار أو ضرب الأوتار أو ضيافة الجبار ﴿ فاكهون ﴾ خبر ثان ﴿ فَكِهُونَ ﴾ يزيد ، والفاكه والفكه : المتنعم المتلذذ ومنه الفاكهة لأنها مما يتلذذ به وكذا الفكاهة ﴿ هُمْ ﴾ مبتدأ ﴿ وأزواجهم ﴾ عطف عليه ﴿ فِى ظلال ﴾ حال جمع ظل وهو الموضع الذي لا تقع عليه الشمس كذئب وذئاب ، أو جمع ظلة كبرمة وبرام دليله قراءة حمزة وعليّ ، ﴿ ظُلَلٌ ﴾ جمع ظلة وهي ما سترك عن الشمس ﴿ على الأرآئك ﴾ جمع الأريكة وهي السرير في الحجلة أو الفراش فيها ﴿ مُتَّكِئُونَ ﴾ خبر أو ﴿ فِى ظلال ﴾ خبر و ﴿ على الأرائك ﴾ مستأنف ﴿ لَهُمْ فِيهَا فاكهة وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ يفتعلون من الدعاء أي كل ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم أو يتمنون من قولهم "ادع علي ما شئت" أي تمنه عليّ ، عن الفراء هو من الدعوى ولا يدعون ما لا يستحقون .

﴿ سلام ﴾ بدل من ﴿ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ كأنه قال لهم سلام يقال لهم ﴿ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ والمعنى أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة تعظيماً لهم وذلك متمناهم ولهم ذلك لا يمنعونه .

قال ابن عباس : والملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين .

﴿ وامتازوا اليوم أَيُّهَا المجرمون ﴾ وانفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة وذلك حين

يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 6.

11 ﴾

(232/647)

---

وقال البيضاوى :

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا على قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ ﴾

من بعد هلاكه أو رفعه. ﴿ مِن جُندٍ مّنَ السماء ﴾ لإهلاكهم كما أرسلنا يوم بدر والخندق بل كفينا أمرهم بصيحة ملك، وفيه استحقار لإهلاكهم وإيماء بتعظيم الرسول عليه السلام. ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ وما صح في حكمتنا أن ننزل جنداً لإهلاك قومه إذ قدرنا لكل شيء سبباً وجعلنا ذلك سبباً لانتصارك من قومك، وقيل ﴿ مَا ﴾ موصولة معطوفة على ﴿ جُندُ ﴾ أي ومما كنا منزلين على من قبلهم من حجارة وريح وأمطار شديدة.

﴿ إِن كَانَتْ ﴾ ما كانت الأخذة أو العقوبة. ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ صاح بها جبريل عليه السلام، وقرئت بالرفع على كان التامة. ﴿ فَإِذَا هُمْ خامدون ﴾ ميتون، شبهوا بالنار رمزاً إلى أن الحي كالنار الساطعة والميت كرمادها كما قال لبيد :

وَمَا المَرْءُ إلَّا كَالشِّهَابِ وَضَوْئِه . . . يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إذْ هُوَ سَاطِعُ

﴿ ياحسرة عَلَى العباد ﴾ تعالي فهذه من الأحوال التي من حقها أن تحضري فيها ، وهي ما دل عليها : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ فإن المستهزئين بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير الدارين أحقاء بأن يتحسروا ويتحسر عليهم ، وقد تلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين ، ويجوز أن يكون تحسراً من الله عليهم على سبيل الاستعارة لتعظيم ما جنوه على أنفسهم ويؤيده قراءة ﴿ يا حسرتا ﴾ ونصبها لطولها بالجار المتعلق بها ، وقيل بإضمار فعلها والمنادى محذوف ، وقرىء "يا حسرة العباد" بالإضافة إلى الفاعل أو المفعول ، و"يا حسرة" بالهاء على العباد بإجراء الوصل مجرى الوقف .

(233/647)

---

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ ألم يعلموا وهو معلق عن قوله : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون ﴾ لأن ﴿ كَمْ ﴾ لا يعمل فيها ما قبلها وإن كانت خبرية لأن أصلها الاستفهام . ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ بدل من ﴿ كَمْ ﴾ على المعنى أي ألم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم ، وقرىء بالكسر على الاستئناف .

﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ يوم القيامة للجزاء، و﴿ إن ﴾ مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة و"ما" مزيدة للتأكيد، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ﴿ لَمّاً ﴾ بالتشديد بمعنى إلا فتكون إن نافية وجميع فعيل بمعنى مفعول، و﴿ لَدَيْنَا ﴾ ظرف له أول ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الأرض الميتة ﴾ وقرأ نافع بالتشديد. ﴿ أحييناها ﴾ خبر ل﴿ الأرض ﴾، والجملة خبر ﴿ ءَايَةٌ ﴾ أو صفة لها إذ لم يرد بها معينة وهي الخبر أو المبتدأ والآية خبرها، أو استئناف لبيان كونها ﴿ ءاية ﴾. ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً ﴾ جنس الحب. ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ قدم الصلة للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جنات مّن نَّخِيلٍ وأعناب ﴾ من أنواع النخل والعنب، ولذلك جمعهما دون الحب فإن الدال على الجنس مشعر بالاختلاف ولا كذلك الدال على الأنواع، وذكر النخيل دون التمور ليطابق الحب والأعناب لاختصاص شجرها بمزيد النفع وآثار الصنع. ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا ﴾ وقرىء بالتخفيف، والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى. ﴿ مِنَ العيون ﴾ أي شيئاً من العيون، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، أو ﴿ العيون ﴾ و﴿ مِنْ ﴾ مزيدة عند الأخفش.

﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ ثمر ما ذكر وهو الجنات ، وقيل الضمير لله تعالى على طريقة الالتفات والإِضافة إليه لأن الثمر بخلقه ، وقرأ حمزة والكسائي بضمتين وهو لغة فيه ، أو جمع ثمار وقرىء بضمة وسكون . ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ عطف على الثمر والمراد ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما ، وقيل ﴿ مَا ﴾ نافية والمراد أن الثمر بخلق الله لا بفعلهم ، ويؤيد الأول قراءة الكوفيين غير حفص بلا هاء فإن حذفه من الصلة أحسن من غيرها .

﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ أمر بالشكر من حيث أنه إنكار لتركه .

﴿ سبحان الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا ﴾ الأنواع والأصناف . ﴿ مِمَّا تُنبِتُ الأرض ﴾ من النبات والشجر . ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ الذكر والأنثى . ﴿ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وأزواجاً مما لم يطلعهم الله تعالى عليه ولم يجعل لهم طريقاً إلى معرفته .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ اليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾ نزيله ونكشفه عن مكانه مستعار من سلخ الجلد والكلام في إعرابه ما سبق . ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ داخلون في الظلام .

﴿ والشمس تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ لحد معين ينتهي إليه دورها ، فشبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره ، أو لكبد السماء فإن حركتها فيه يوجد فيها بطء بحيث يظن أن لها هناك وقفة قال :

وَالشَّمْسُ حَيْرَى لَهَا بِالجَوِّ تَدْوِيمُ . . . أو لاستقرار لها على نهج مخصوص ، أو لمنتهى

مقدر لكل يوم من المشارق والمغارب فإن لها في دورها ثلثمائة وستين مشرقاً ومغرباً ، تطلع كل يوم من مطلع وتغرب من مغرب ثم لا تعود إليهما إلى العام القابل ، أو لمنقطع جريها عند خراب العالم . وقرئ "لا مستقر لها" أي لا سكون فإنها متحركة دائماً و"لا مستقر" على أن "لا" بمعنى ليس . ﴿ ذلك ﴾ الجري على هذا التقدير المتضمن للحكم التي تكل الفطن عن إحصائها . ﴿ تَقْدِيرُ العزيز ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور . ﴿ العليم ﴾ المحيط علمه بكل معلوم .

*(235/647)*

---

﴿ والقمر قدرناه ﴾ قدرنا مسيره . ﴿ مَنَازِلَ ﴾ أو سيره في منازل وهي ثمانية وعشرون : السرطان ، البطين ، الثريا ، الدبران ، الهقعة ، الهنعة ، الذراع ، النثرة ، الطرف ، الجبهة ، الزبرة ، الصرفة ، العواء ، السماك ، الغفر ، الزبانا ، الإِكليل ، القلب ، الشولة ، النعائم ، البلدة ، سعد الذابح ، سعد بلع ، سعد السعود ، سعد الأخبية ، فرغ الدلو المقدم ، فرغ الدلو المؤخر ، الرشا ، وهو بطن الحوت ينزل كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه ، فإذا كان في آخر منازله وهو الذي يكون فيه قبيل الإِجتماع دق واستقوس ، وقرأ الكوفيون وابن عامر ﴿ والقمر ﴾ بنصب الراء . ﴿ حتى عَادَ كالعرجون ﴾

كالشمراخ المعوج ، فعلون من الانعراج وهو الاعوجاج ، وقرىء ﴿ كالعرجون ﴾ وهما لغتان كالبزيون والبزيون . ﴿ القديم ﴾ العتيق وقيل ما مر عليه حول فصاعداً .

﴿ لَا الشمس يَنبَغِي لَهَا ﴾ يصح لها ويتسهل . ﴿ أَن تدْرِكَ القمر ﴾ في سرعة سيره فإن ذلك يخل بتكون النبات وتعيش الحيوان ، أو في آثاره ومنافعه أو مكانه بالنزول إلى محله ، أو سلطانه فتطمس نوره ، وإيلاء حرف النفي ﴿ الشمس ﴾ للدلالة على أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها . ﴿ وَلَا اليل سَابِقُ النهار ﴾ يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه ، وقيل المراد بهما آيتاهما وهما النيران ، وبالسبق سبق القمر إلى سلطان الشمس فيكون عكساً للأول وتبديل الإدراك بالسبق لأنه الملائم لسرعة سيره . ﴿ وَكُلٌّ ﴾ وكلهم والتنوين عوض عن المضاف إليه ، والضمير للشموس والأقمار فإن اختلاف الأحوال يوجب تعدداً ما في الذات ، أو للكواكب فإن ذكرهما مشعر بهما . ﴿ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يسيرون فيه بانبساط .

*(236/647)*

---

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم ، أو صبيانهم ونساءهم الذين يستصحبونهم ، فإن الذرية تقع عليهن لأنهن مزارعها . وتخصيصهم لأن

استقرارهم في السفن أشق وتماسكهم فيها أعجب ، وقرأ نافع وابن عامر ﴿ ذرياتهم ﴾ . ﴿ فِى الفلك المشحون ﴾ المملوء ، وقيل المراد فلك نوح عليه الصلاة والسلام ، وحمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين وفي أصلابهم هم وذرياتهم ، وتخصيص الذرية لأنه أبلغ في الامتنان وأدخل في التعجب مع الإيجاز .

﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ من مثل الفلك . ﴿ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ من الإِبل فإنها سفائن البر أو من السفن والزوارق .

﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ فلا مغيث لهم يحرسهم عن الغرق ، أو فلا إغاثة كقولهم أتاهم الصريخ . ﴿ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ ينجون من الموت به .

﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً ﴾ إلا لرحمة ولتمتيع بالحياة . ﴿ إلى حِينٍ ﴾ زمان قدر لآجالهم .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتقوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ الوقائع التي خلت أو العذاب المعد في الآخرة ، أو نوازل السماء ونوائب الأرض كقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إلى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السماء والأرض ﴾ أو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة أو عكسه ، أو ما تقدم من الذنوب وما تأخر .

﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لتكونوا راجين رحمة الله ، وجواب إذا محذوف دل عليه قوله : ﴿

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءايات رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ كأنه قال وإذا قيل لهم اتقوا العذاب أعرضوا لأنهم اعتادوه وتمرنوا عليه.

(237/647)

---

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رِزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ على محاويجكم. ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بالصانع يعني معطلة كانوا بمكة. ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ تهكماً بهم من إقرارهم به وتعليقهم الأمور بمشيئته. ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ على زعمكم، وقيل قاله مشركو قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين إيهاماً بأن الله تعالى لما كان قادراً أن يطعمهم ولم يطعمهم فنحن أحق بذلك، وهذا من فرط جهالتهم فإن الله يطعم بأسباب منها حث الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم له. ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ حيث أمرتمونا ما يخالف مشيئة الله، ويجوز أن يكون جواباً من الله لهم أو حكاية لجواب المؤمنين لهم.

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ يعنون وعد البعث.

﴿ مَا يَنظُرُونَ ﴾ ما ينتظرون. ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ هي النفخة الأولى. ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم أمرها كقوله: ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ الساعة بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ وأصله يختصمون فسكنت التاء

أدغمت ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين ، وقرأ أبو بكر بكسر الياء للاتباع ، وقرأ ابن كثير وورش وهشام بفتح الخاء على إلقاء حركة التاء إليه ، وأبو عمرو وقالون به مع الإِختلاس وعن نافع الفتح فيه والإِسكان والتشديد وكأنه جوز الجمع بين الساكنين إذا كان الثاني مدغماً ، وقرأ حمزة ﴿ يَخِصّمُونَ ﴾ من خصمه إذا جادله .

﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ في شيء من أمورهم . ﴿ وَلاَ إلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فيروا حالهم بل يموتون حيث تبغتهم .

﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ أي مرة ثانية وقد سبق تفسيره في سورة "المؤمنين" . ﴿ فَإِذَا هُم مّنَ الأجداث ﴾ من القبور جمع جدث وقرىء بالفاء . ﴿ إلى رَبّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ يسرعون وقرىء بالضم .

(238/647)

---

﴿ قَالُواْ ياويلنا ﴾ وقرىء "يا ويلتنا" . ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ وقرىء "من أهبنا" من هب من نومه إذا انتبه ومن هبنا بمعنى أهبنا ، وفيه ترشيح ورمز وإشعار بأنهم لاختلاط عقولهم يظنون أنهم كانوا نياماً ، و﴿ مَن بَعَثَنَا ﴾ و"من هبنا" على الجارة والمصدر ، وسكت حفص وحده عليها سكتة لطيفة والوقف عليها في سائر القراءات حسن . ﴾

﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ مبتدأ وخبر و﴿ مَا ﴾ مصدرية، أو موصولة محذوفة الراجع، أو ﴿ هذا ﴾ صفة ل ﴿ مَّرْقَدِنَا ﴾ و﴿ مَا وَعَدَ ﴾ خبر محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف أي ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾، أو ﴿ مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ حق وهو من كلامهم، وقيل جواب للملائكة أو المؤمنين عن سؤالهم، معدول عن سننه تذكيراً لكفرهم وتقريعاً لهم عليه وتنبيهاً بأن الذي يهمهم هو السؤال عن البعث دون الباعث كأنهم قالوا: بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأرسل إليكم الرسل فصدقوكم وليس الأمر كما تظنون، فإنه ليس يبعث النائم فيهمكم السؤال عن الباعث وإنما هو البعث الأكبر ذو الأهوال.

﴿ إِن كَانَتْ ﴾ ما كانت الفعلة. ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ هي النفخة الأخيرة، وقرئت بالرفع على كان التامة. ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ بمجرد تلك الصيحة وفي كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر واستغناؤهما عن الأسباب التي ينوطان بها فيما يشاهدونه.

﴿ فاليوم لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ حكاية لما يقال لهم حينئذ تصويراً للموعود وتمكيناً له في النفوس وكذا قوله:

﴿ إِنَّ أَصحاب الجنة اليوم فِى شُغُلٍ فاكهون ﴾ متلذذون في النعمة من الفكاهة ، وفي تنكير ﴿ شُغُلٍ ﴾ وإبهامه تعظيم لما هم فيه من البهجة والتلذذ ، وتنبيه على أنه أعلى ما يحيط به الأفهام ويعرب عن كنهه الكلام ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿ فِى شُغْلٍ ﴾ بالسكون ، ويعقوب في رواية "فكهون" للمبالغة وهما خبران ل ﴿ إِنْ ﴾ ، ويجوز أن يكون ﴿ فِى شُغُلٍ ﴾ صلة ﴿ لفاكهون ﴾ ، وقرىء "فكهون" بالضم وهو لغة كنطس ونطس "وفاكهين" "وفكهين" على الحال من المستكهن في الظرف ، و﴿ شُغُلٍ ﴾ بفتحتين وفتحة وسكون والكل لغات .

﴿ هُمْ وأزواجهم فِى ظلال ﴾ جمع ظل كشعاب أو ظلة كقباب ويؤيده قراءة حمزة والكسائي في "ظلل" . ﴿ على الأرائك ﴾ على السرر المزينة . ﴿ مُتَّكِئُونَ ﴾ و ﴿ هُمْ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ فِى ظلال ﴾ ، و ﴿ على الأرائك ﴾ جملة مستأنفة أو خبر ثان أو ﴿ مُتَّكِئُونَ ﴾ والجاران صلتان له ، أو تأكيد للضمير في شغل أو في فاكهون ، وعلى الأرائك متكئون خبر آخر لإن وأزواجهم عطف على ﴿ هُمْ ﴾ للمشاركة في الأحكام الثلاثة ، و ﴿ فِى ظلال ﴾ حال من المعطوف والمعطوف عليه .

﴿ لَهُمْ فِيهَا فاكهة وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ ما يدعون به لأنفسهم يفتعلون من الدعاء كاشتوى واجتمل إذا شوى وجمل لنفسه ، أو ما يتداعونه كقولك ارتموه بمعنى تراموه ، أو يتمنون من

قولهم ادع علي ما شئت بمعنى تمنه علي ، أو ما يدعونه في الدنيا من الجنة ودرجاتها و ﴿ مَا ﴾ موصولة أو موصوفة مرتفعة بالابتداء ، و ﴿ لَهُمْ ﴾ خبرها وقوله :

(240/647)

---

﴿ سلام ﴾ بدل منها أو صفة أخرى ، ويجوز أن يكون خبرها أو خبر محذوف أو مبتدأ محذوف الخبر أي ولهم سلام ، وقرىء بالنصب على المصدر أو الحال أي لهم مرادهم خالصاً . ﴿ قَوْلاً مّن رَّبّ رَّحِيمٍ ﴾ أي يقول الله أو يقال لهم قولاً كائناً من جهته ، والمعنى أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة تعظيماً لهم وذلك مطلوبهم ومتمناهم ، ويحتمل نصبه على الاختصاص .

﴿ وامتازوا اليوم أَيُّهَا المجرمون ﴾ وانفردوا عن المؤمنين وذلك حين يسار بهم إلى الجنة كقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ وقيل اعتزلوا من كل خير أو تفرقوا في النار فإن لكل كافر بيتاً ينفرد به لا يرى ولا يرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 438.431 ﴾

(241/647)

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ وما أنزلنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ على قومه ﴾ أي : حبيب ﴿ من بعده ﴾ أي : من بعد إهلاكه أو رفعه ﴿ من جند من السماء ﴾ لإهلاكهم كما أرسلنا يوم بدر والخندق بل كفينا أمرهم بصيحة ملك ، وفيه استحقار بإهلاكهم وإيماء بتعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم وإلا لكان تحريك ريشة من جناح ملك كافياً في استئصالهم ، فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى ﴿ من بعده ﴾ وهو تعالى لم ينزل عليهم من قبله ؟

أجيب : بأن استحقاق العذاب كان بعده حيث أصروا واستكبروا فبين حال الإهلاك بقوله تعالى : ﴿ وما كنا منزلين ﴾ أي : ما كان ذلك من سنتنا وما صح في حكمتنا أن يكون عذاب الاستئصال بجند كثير .

﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ كانت ﴾ أي : الواقعة التي عذبوا بها ﴿ إلا صيحة ﴾ صاحها بهم جبريل عليه السلام فماتوا عن آخرهم وأكد أمرها وحقق وحدتها بقوله تعالى :

﴿ واحدة ﴾ أي : لحقارة أمرهم عندنا ثم زاد في تحقيرهم ببيان الإسراع في الإهلاك بقوله تعالى : ﴿ فإذا هم خامدون ﴾ أي : ثابت لهم الخمود ما كأنهم كانت بهم حركة يوماً من الدهر شبهوا بالنار رمزاً إلى أن الحي كالنار الساطعة والميت كرمادها كما قال لبيد :

*وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ** يصير رماداً بعد إذ هو ساطع*

وقال المعري:

*وكالنار الحياة فمن رماد ** أواخرها وأولها دخان*

قال المفسرون: أخذ جبريل عليه السلام بعضادتي باب المدينة ثم صاح بهم صيحة واحدة فماتوا ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ أي: هؤلاء ونحوهم ممن كذبوا الرسل فأهلكوا وهي شدة التألم ونداؤها مجاز أي: هذا أوانك فاحضري، ثم بين تعالى سبب الحسرة والندامة بقوله تعالى: ﴿ ما يأتيهم من رسول ﴾ أي رسول كان في أي وقت كان ﴿ إلا كانوا به ﴾ أي: بذلك الرسول ﴿ يستهزؤن ﴾ والمستهزئ بالناصحين المخلصين أحق أن يتحسر ويتحسر عليه، وقيل: يقول الله تعالى يوم القيامة ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ حين لم يؤمنوا بالرسل.

ولما بين تعالى حال الأولين قال للحاضرين:



---

﴿ ألم يروا ﴾ أي: أهل مكة القائلين للنبي صلى الله عليه وسلم لست مرسلاً، والاستفهام للتقرير أي: اعلموا وقوله تعالى ﴿ كم ﴾ خبرية بمعنى كثيراً وهو مفعول لأهلكنا تقديره: كثيراً من القرون أهلكنا وهي معمولة لما بعدها معلقة ليروا عن العمل ذهاباً بالخبرية

مذهب الاستفهامية والمعنى : أما ﴿ أهلكنا قبلهم ﴾ كثيراً ﴿ من القرون ﴾ أي : الأمم ، قال البغوي : والقرن أهل كل عصر سموا بذلك لاقترانهم في الوجود ﴿ أنهم ﴾ أي : المهلكين ﴿ إليهم ﴾ أي : إلى أهل مكة ﴿ لا يرجعون ﴾ أي : لا يعودون إلى الدنيا أفلا يعتبرون ، وقيل : لا يرجعون أي : الباقون لا يرجعون إلى المهلكين بسبب ولا ولادة أي : أهلكناهم وقطعنا نسلهم ولا شك أن الإهلاك الذي يكون مع قطع النسل أتم وأعم ، قال ابن عادل : والأول أشهر نقلاً . والثاني : أظهر عقلاً . وقوله تعالى:

﴿ وإن ﴾ نافية أو مخففة وقوله تعالى ﴿ كل ﴾ أي : كل الخلائق مبتدأ وقرأ ﴿ لما ﴾ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد الميم بمعنى إلا ، والباقون بالتخفيف واللام فارقة وما مزيدة وقوله تعالى ﴿ جميع ﴾ أي : مجموعون خبر أول ﴿ لدنيا ﴾ أي : عندنا في الموقف بعد بعثهم وقوله تعالى ﴿ محضرون ﴾ أي : للحساب خبر ثان وما أحسن قول القائل:

*ولو أنا إذا متنا تركنا ** لكان الموت راحة كل حيّ*

*ولكنا إذا متنا بعثنا ** ونسأل بعدها عن كل شيء*

ولما قال ﴿ وإن كل لما جميع ﴾ كان ذلك إشارة إلى الحشر فذكر ما يدل على إمكانه قطعاً لإنكارهم واستبعادهم فقال تعالى:

﴿ وآية ﴾ أي : علامة عظيمة ﴿ لهم ﴾ أي : على قدرتنا على البعث وإيجادنا له ﴿ الأرض ﴾ أي : هذا الجنس الذي هم منه ثم وصفها بما حقق وجه الشبه بقوله تعالى : ﴿ الميتة ﴾ التي لا روح لها ؛ لأنه لا نبات بها أعم من أن يكون بها نبات وفنى أو لم يكن بها شيء أصلاً ، ثم استأنف بيان كونها آية بقوله تعالى : ﴿ أحييناها ﴾ أي : باختراع النبات فيها أو بإعادته بسبب المطر كما كان بعد اضمحلاله ، فإن قيل : الأرض آية مطلقاً فلم خصها بهم حيث قال تعالى : ﴿ وآية لهم ﴾ ؟

أجيب : بأن الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشيء بأبلغ الوجوه ، وأما من عرف الشيء بطريق الرؤية فلا يذكر له دليل فالنبي صلى الله عليه وسلم وعباد الله المخلصين عرفوا الله تعالى قبل الأرض والسماء فليست الأرض معرفة لهم .

تنبيه : آية خبر مقدم ولهم صفتها أو متعلقة بآية ؛ لأنها علامة والأرض مبتدأ ، وأعرب أبو البقاء آية مبتدأ ولهم الخبر والأرض الميتة مبتدأ وصفة وأحييناها خبره فالجملة مفسرة لآية وبهذا بدأ ثم قال : وقيل فذكر الوجه الأول .

ولما كان إخراج الأقوات نعمة أخرى قال ﴿ وأخرجنا منها حباً ﴾ أي : جنس الحب كالحنطة والشعير والأرز ، ثم بين عموم نفعه بقوله ﴿ فمنه ﴾ أي : بسبب هذا الإخراج ﴿ يأكلون ﴾ أي : من ذلك الحب فهو حب حقيقة تعلمون ذلك علم اليقين وعين اليقين

وحق اليقين لا تقدرون تدعون أن ذلك خيال سحري بوجه من الوجوه ، وفي هذه الآية وأمثالها حث عظيم على تدبر القرآن واستخراج ما فيه من المعاني الدالة على جلال الله تعالى وكماله ، وقد أنشد هنا الأستاذ القشيري في تفسيره وعيب على من أهمل ذلك:

*يا من تصدر في دست الإمامة في ** مسائل الفقه إملاء وتدريساً*

*غفلت عن حجج التوحيد تحكمها ** شيدت فرعاً وما مهدت تأسيساً*

ولما ذكر الزرع وهو ما لا ساق له أتبعه بذكر ما له ساق بقوله:



---

﴿ وجعلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ فيها ﴾ أي : الأرض ﴿ جنات ﴾ أي : بساتين ﴿ من نخيل وأعناب ﴾ ذكر هذين النوعين لكثرة نفعهما وقدم النخل ؛ لأنه نفع كله خشبه وسعفه وليفه وخوصه وعراجينه وثمره طلعاً وبسراً ورطباً وتمراً وفيه زينة دائماً لكونه لا يسقط ورقه .

ولما كانت الجنان لا تصلح إلا بالماء قال تعالى ﴿ وفجرنا ﴾ أي : فتحنا سيحاً عظيماً ﴿ فيها ﴾ أي : الأرض ﴿ من العيون ﴾ شيئاً فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه أو العيون ، ومن مزيدة عند الأخفش ، قال البقاعي : والتعريف هنا يدل على أن الأرض

مركبة على الماء فكل موضع منها صالح لأن يتفجر منه الماء ولكن الله تعالى يمنعه من بعض المواضع بخلاف الأشجار ليس فيها شيء غالب على الأرض ، ففي ذلك تذكير بالنعمة في حبس الماء عن بعض الأرض ليكون موضعاً للسكن ولو شاء لفجر الأرض كلها عيوناً كما فعل بقوم نوح فأغرق أهل الأرض كلهم ، وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وحفص برفع العين ، والباقون بالكسر .

ولما كانت حياة كل شيء إنما هي بالماء أشار إلى ذلك بقوله تعالى:

﴿ ليأكلوا من ثمره ﴾ أي : ثمر ما ذكر وهو الجنات ، وقيل : الضمير يعود على الأعناب ؛ لأنها أقرب مذكور وكان من حق الضمير أن يثنى لتقديم شيئين وهما الأعناب والنخيل إلا أنه اكتفى بذكر أحدهما ، وقيل : الضمير لله على طريق الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، وقرأ حمزة والكسائي برفع الثاء والميم وهي لغة فيه أو جمع ثمار ، والباقون بفتحهما .

وقوله تعالى : ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ عطف على الثمر والمراد : ما يتخذ منه كالعصير والدبس مما موصولة ومن الذي عملته أيديهم ويؤيد هذا قراءة حمزة والكسائي وشعبة بحذف الهاء من عملته ، وما نافية على قراءة الباقين بإثباتها أي : وجدوها معمولة ولم تعملها أيديهم ولا صنع لهم فيها ، وقيل : أراد العيون والأنهار التي لم تعملها يد مخلوق مثل دجلة والفرات والنيل .

ثم لما عدد النعم أشار إلى الشكر بقوله تعالى : ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أي : اشكروا فهو أمر بصيغة الاستفهام أي : ادأبوا دائماً في إيقاع الشكر والدوام على تجديده في كل حين بسبب هذه النعم .

ولما أمرهم الله تعالى بالشكر وشكر الله تعالى بالعبادة وهم تركوها وعبدوا غيره وأشركوا قال تعالى:

﴿ سبحان الذي خلق الأزواج ﴾ أي : الأصناف والأنواع ﴿ كلها ﴾ أي : وغيره لم يخلق شيئاً ثم بين ذلك بقوله تعالى : ﴿ مما تنبت الأرض ﴾ دخل فيه كل نجم وشجر ومعدن وغيره من كل ما يتولد منها ﴿ ومن أنفسهم ﴾ من الذكور والإناث وقوله تعالى ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ يدخل فيه ما في أقطار السموات وتخوم الأرضين من المخلوقات العجيبة الغريبة .

ولما استدل تعالى بأحوال الأرض وهو المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي بقوله تعالى:

﴿ وآية لهم الليل ﴾ أي : على إعادة الشيء بعد فنائه ﴿ نسلخ ﴾ أي : نفصل ﴿ منه النهار ﴾ فإن دلالة الزمان والمكان متناسبة ؛ لأن المكان لا يستغني عنه الجواهر ، والزمان لا يستغني عنه الأعراض ؛ لأن كل عرض فهو في زمان .

تنبيه : نسلخ استعارة تبعية مصرحة ، شبه انكشاف ظلمة الليل بكشط الجلد من الشاة والجامع ما يعقل من ترتب أحدهما على الآخر ﴿ فإذا هم ﴾ أي : بعد إزالة ما للنهار الذي سلخناه من الليل ﴿ مظلمون ﴾ أي : داخلون في الظلام بظهور الليل الذي كان الضياء ساتراً له كما يستر الجلد الشاة ، قال الماوردي : وذلك أن ضوء النهار يتداخل في الهواء فيضيء فإذا خرج منه أظلم نقله ابن الجوزي عنه ، وقد أرشد السياق حتماً إلى أن التقدير : والنهار نسلخ منه الليل الذي كان ساتره وغالباً عليه فإذا هم مبصرون .

ولما ذكر الوقتين ذكر آيتيهما مبتدئاً بآية النهار بقوله تعالى:



---

﴿ والشمس ﴾ أي : التي سلخ النهار من الليل بغيبوبتها ﴿ تجري لمستقر لها ﴾ أي : لحد معين ينتهي إليه دورها لا تتجاوزه فشبه بمستقر المسافر إذا قطع سيره ، وقيل : مستقرها بانتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وقيام الساعة ، وقيل : إنها تسير حتى تنتهي إلى أبعد مغاربها ثم ترجع فذلك مستقرها لا تتجاوزه ، وقيل : مستقرها نهاية ارتفاعها في السماء في الصيف ونهاية هبوطها في الشتاء ، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مستقرها تحت العرش" وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر حين غربت الشمس

: "تدري أين تذهب ؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها : ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ " .

ولما كان هذا الجري على نظام لا يختل على ممر السنين وتعاقب الأحقاب عظمه بقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر الباهر للعقول وزاد في عظمه بصيغة التفعيل بقوله تعالى : ﴿ تقدير العزيز ﴾ أي : الذي لا يقدر أحد في شيء من أمره على نوع مغالبة وهو غالب على كل شيء ﴿ العليم ﴾ أي : المحيط علماً بكل شيء الذي يدبر الأمر فيطرد على نظام عجيب ونهج بديع لا يعتريه وهن ولا يلحقه يوماً نوع خلل ، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى المستقر أي : ذلك المستقر تقدير العزيز العليم .

ولما ذكر آية النهار أتبعها آية الليل بقوله تعالى:



---

﴿ والقمر قدرناه ﴾ أي : من حيث سيره ﴿ منازل ﴾ ثمانية وعشرين منزلاً في ثمانية وعشرين ليلة من كل شهر ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوماً وليلة إن كان الشهر تسعة

وعشرين يوماً ، وقد ذكرنا أسامي المنازل في سورة يونس عليه السلام ، فإذا صار القمر في آخر منازله دق فذلك قوله تعالى ﴿ حتى عاد ﴾ أي : بعد أن كان بدراً عظيماً ﴿ كالعرجون ﴾ من النخل وهو عود العذق ما بين شماريخه إلى منتهاه وهو منبته من النخلة رقيقاً منحنياً ثم وصفه بقوله تعالى : ﴿ القديم ﴾ فإنه إذا عتق يبس وتقوس واصفر فيشبه القمر في رقته وصفرته في رأي العين في آخر المنازل ، قال القشيري : إن القمر يبعد عن الشمس ولا يزال يتباعد حتى يعود بدراً ثم يدنو ، فكلما ازداد من الشمس دنواً ازداد في نفسه نقصاناً إلى أن يتلاشى ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والقمر برفع الراء ، والباقون بالنصب والرفع على الابتداء والنصب بإضمار فعل على الاشتغال ، والوجهان مستويان لتقدم جملة ذات وجهين وهي قوله تعالى : ﴿ والشمس تجري ﴾ فإن راعيت صدرها رفعت لتعطف جملة اسمية على مثلها وإن راعيت عجزها نصبت لتعطف فعلية على مثلها .

ولما قرر أن لكل منهما منازل لا يعدوها فلا يغلب ما هو آيته آية الآخر بل إذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان ذاك وإذا جاء ذاك ذهب هذا قال تعالى:

﴿ لا الشمس ﴾ التي هي آية النهار ﴿ ينبغي ﴾ أي : يسهل ﴿ لها ﴾ أي : ما دام هذا الكون موجوداً على هذا الترتيب ﴿ أن تدرك القمر ﴾ أي : تجتمع معه في الليل فما النهار سابق الليل ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ أي : فلا يأتي أحدهما قبل انقضاء الآخر ، فالآية من الاحتباك ؛ لأنه نفى أولاً إدراك الشمس لقوتها القمر ففيه دليل على ما حذف من الثاني من نفي إدراك الشمس للقمر أي : فيغلبها وإن كان يوجد في النهار لكن من غير سلطنة فيه ، بخلاف الشمس فإنها لا تكون في الليل أصلاً ونفى ثانياً سبق الليل النهار وفيه دليل على حذف سبق النهار الليل أولاً كما قدرته . ﴿ وكل ﴾ أي : من الشمس والقمر ﴿ في فلك ﴾ محيط به وهو الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة ؛ لأن أهل اللغة على أن فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها ، وفلكة الخيمة هي : الخشبة المسطحة المستديرة التي توضع على رأس العمود لئلا يمزق العمود الخيمة وهي صفحة مستديرة .

فإن قيل : فعلى هذا تكون السماء مستديرة وقد اتفق أكثر المفسرين على أن السماء مبسوطة لها أطراف على جبال وهي كالسقف المستوي ويدل عليه قوله تعالى

﴿ والسقف المرفوع ﴾ ، (الطور : )

أجاب الرازي : بأنه ليس في النصوص ما يدل دلالة قاطعة على كون السماء مبسوطة غير مستديرة بل الدليل الحسي على كونها مستديرة فوجب المصير إليه والسقف المقبب لا يخرج عن كونه سقفاً وكذلك على جبال .

ومن الأدلة الحسية أن السماء لو كانت مستوية لكان ارتفاع أول النهار ووسطه وآخره مستوياً ، وليس كذلك وذكر غير ذلك من الأدلة وفي هذا كفاية ، ولما ذكر لها فعل العقلاء من كونها على نظام محرر لا يختل وسير مقدر لا يعوج ولا ينحل جمعها جمعهم بقوله تعالى : ﴿ يسبحون ﴾ وقال المنجمون : قوله تعالى ﴿ يسبحون ﴾ يدل على أنها أحياء ؛ لأن ذلك لا يطلق إلا على العاقل قال الرازي : إن أرادوا القدر الذي يكون منه التسبيح فنقول به ؛ لأن كل شيء يسبح بحمده وإن أرادوا شيئاً آخر فلم يثبت ذلك والاستعمال لا يدل كما في قوله تعالى في حق الأصنام ﴿ ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون ﴾ (الصافات : ـ) .

ولما ذكر سبحانه وتعالى ما حد له حدوداً في السباحة في وجه الفلك ذكر ما هيأ به من الفلك للسباحة على وجه الماء بقوله تعالى:

﴿ وآية لهم ﴾ أي : على قدرتنا التامة ﴿ أنا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ حملنا ذريتهم ﴾ أي : آباءهم الأصول ، قال البغوي : واسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الأولاد والألف واللام في قوله تعالى ﴿ في الفلك ﴾ للتعريف أي : فلك نوح عليه الصلاة والسلام وهو مذكور في قوله تعالى ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾ (هود : )

وهو معلوم عند العرب ثم وصف الفلك بقوله تعالى : ﴿ المشحون ﴾ أي : الموقر المملوء حيواناً وناساً وهو يتقلب في تلك المياه التي لم ير أحد قط مثلها ولا يرى أيضاً ومع ذلك فسلمها الله تعالى ، وأيضاً الآدمي يرسب في الماء ويغرق فحمله في الفلك وقع بقدرته تعالى لكن من الطبيعيين من يقول : الخفيف لا يرسب ؛ لأنه يطلب جهة فوق فقال ﴿ الفلك المشحون ﴾ أثقل من الثقال التي ترسب ومع هذا حمل الله الإنسان فيه مع ثقله .

وقال أكثر المفسرين : إن الذرية لا تطلق إلا على الولد وعلى هذا فالمراد : إما أن يكون الفلك المعين الذي كان لنوح عليه الصلاة والسلام وإما أن يكون المراد الجنس كقوله تعالى ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ (الزخرف : )



---

وقوله تعالى ﴿ وترى الفلك فيه مواخر ﴾ (فاطر : )

وقوله تعالى ﴿ فإذا ركبوا في الفلك ﴾ (العنكبوت : )

إلى غير ذلك من استعمال لام التعريف في الفلك لبيان الجنس ، فإن كان المراد : سفينة نوح عليه السلام ففيه وجوه .

الأول : أن المراد حملنا أولادهم إلى يوم القيامة في ذلك الفلك ولولا ذلك ما بقي للأب نسل

ولا عقب وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ حملنا ذريتهم ﴾ إشارة إلى كمال النعمة أي : لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية إلى أعقابكم إلى يوم القيامة وهذا قول الزمخشري قال ابن عادل : ويحتمل أن يقال : إنه تعالى إنما خص الذرية بالذكر ؛ لأن الموجودين كانوا كفاراً لا فائدة في وجودهم فقال تعالى ﴿ حملنا ذريتهم ﴾ أي : لم يكن الحمل حملاً لهم وإنما كان حملاً لما في أصلابهم من المؤمنين كمن حمل صندوقاً لا قيمة له وفيه جواهر قيل : إنه لم يحمل الصندوق وإنما حمل ما فيه .

ثانيها : أن المراد بالذرية الجنس أي : حملنا أجناسهم ؛ لأن ذلك الحيوان من جنسه ونوعه والذرية تطلق على الجنس ولذلك تطلق على النساء لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الذراري أي : النساء لأن المرأة ، وإن كانت صنفاً غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه يقال : ذرارينا أي : أمثالنا .

ثالثها : أن الضمير في قوله تعالى ﴿ وآية لهم الليل ﴾ للعباد وكذا ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم ﴾ وإذا علم هذا فكأنه تعالى قال : وآية للعبادة أنا حملنا ذرية العباد ولا يلزم أن يكون المراد بالضمير في الموضعين أشخاصاً معينين كقوله تعالى ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ (النساء : )

﴿ ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ و (الأنعام : )

لذلك إذا تقاتل قوم ومات الكل في القتال فقال هؤلاء القوم : هم قتلوا أنفسهم فهم في الموضعين يكون عائداً إلى القوم ولا يكون المراد أشخاصاً معينين بل المراد أن بعضهم قتل بعضهم فكذلك قوله تعالى ﴿ وآية لهم ﴾ أي : آية لكل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم أو ذرية بعض منهم وإن قلنا المراد : جنس الفلك قال ابن عادل : وهو الأظهر ؛ لأن سفينة نوح عليه السلام لم تكن بحضرتهم ولم يعلموا من حمل فيها فأما جنس الفلك فإنه ظاهر لكل أحد .

وقوله تعالى في سفينة نوح عليه السلام ﴿ وجعلناها آية للعالمين ﴾ (العنكبوت : )

أي : بوجود جنسها ومثلها ويؤيده قوله تعالى ﴿ ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ (لقمان : ) ، فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى ﴿ وآية لهم الأرض الميتة ﴾ ﴿ وآية لهم الليل ﴾ ولم يقل : وآية لهم الفلك ؟

أجيب : بأن حملهم في الفلك هو العجب أما نفس الفلك فليس بعجيب ؛ لأنه كبيت مبني من خشب وأما نفس الأرض فعجيب ونفس الليل فعجيب لا قدرة لأحد عليهما إلا الله .

فإن قيل : قال تعالى ﴿ وحملناكم في البر والبحر ﴾ (الإسراء : )

ولم يقل : ذريتكم مع أن المقصود في الموضعين بيان النعمة لا دفع النقمة . أجيب : بأنه تعالى لما قال ﴿ في البر والبحر ﴾ عم الخلق جميعاً ؛ لأن ما من أحد إلا وحمل في البر والبحر ،

وأما الحمل في البحر فلم يعم فقال : إن كنا ما حملناكم بأنفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره من الأولاد والأقارب والإخوان والأصدقاء ، وقرأ نافع وابن عامر بألف بعد الياء التحتية وكسر الفوقانية على الجمع ، والباقون بغير ألف وفتح الفوقانية على الإفراد واختلف في تفسير قوله تعالى:

*(252/647)*

---

﴿ وخلقنا لهم من مثله ﴾ أي : من مثل الفلك ﴿ ما يركبون ﴾ فقال ابن عباس : يعني الإبل فالإبل في البر كالسفن في البحر وقيل : أراد به السفن التي عملت بعد سفينة نوح عليه السلام على هيأتها ، وقال قتادة والضحاك وغيرهما : أراد به السفن الصغار التي تجري في الأنهار كالفلك الكبار في البحار .

﴿ وإن نشأ ﴾ أي : لأجل ما لنا من القوة الشاملة والدرة التامة ﴿ نغرقهم ﴾ أي : مع أن هذا الماء الذي يركبونه ليس كالماء الذي حملنا آباءهم ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ أي : مغيث لهم لينجيهم مما نريد بهم من الغرق أو فلا إغاثة كقولهم : أتاهم الصريخ ﴿ ولا هم ﴾ أي : بأنفسهم من غير صريخ ﴿ ينقذون ﴾ أي : يكون لهم إنقاذ أي : خلاص لأنفسهم أو غيرها .

﴿ إلا رحمة ﴾ أي: فنحن ننقذهم إن شئنا رحمة ﴿ منا ﴾ أي: لهم لا وجوباً علينا ولا لمنفعة تعود منهم إلينا ﴿ ومتاعاً ﴾ أي: وتمتيعنا إياهم بلذاتهم ﴿ إلى حين ﴾ أي: إلى انقضاء آجالهم.

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي: من أي: قائل كان ﴿ اتقوا ما بين أيديكم ﴾ أي: من عذاب الدنيا كغيركم ﴿ وما خلفكم ﴾ من عذاب الآخرة ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ تعاملون معاملة المرحوم بالإكرام، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما بين أيديكم يعني: الآخرة فاعملوا لها وما خلفكم يعني: الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها، وقال قتادة ومقاتل: ما بين أيديكم وقائع الله فيمن كان قبلكم من الأمم وما خلفكم عذاب الآخرة.

تنبيهان: أحدهما: ﴿ إلا رحمة ﴾ منصوب على المفعول له وهذا مستثنى مفرغ وقيل: مستثنى منقطع وقيل: على المصدر بفعل مقدر وقيل: على إسقاط الخافض أي: إلا برحمة والفاء في قوله تعالى ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ رابطة لهذه الجملة بما قبلها، فالضمير في لهم عائد على المغرقين.

ثانيهما: جواب إذا محذوف تقديره أعرضوا يدل عليه قوله تعالى بعده ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾ وعلى هذا فلفظ كانوا زائد.

﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم ﴿ إلا كانوا ﴾ أي : مع كونها من عند من غمرهم إحسانه وعمهم فضله وامتنانه ﴿ عنها معرضين ﴾ أي : دائماً إعراضهم .

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي : من أي : قائل كان ﴿ أنفقوا ﴾ أي : على من لا شيء له شكراً لله على ما أعطاكم قال صلى الله عليه وسلم "هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم" "إنما يرحم الله تعالى من عباده الرحماء" .

وبين تعالى أنهم يبخلون بما لا صنع لهم فيه بقوله تعالى : ﴿ مما رزقكم الله ﴾ أي : مما أعطاكم الله الذي له جميع صفات الكمال ﴿ قال الذين كفروا ﴾ أي : ستروا وغطوا ما دلهم عليه أنوار عقولهم من الخيرات ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي : استهزاء بهم ﴿ أنطعم من لو يشاء الله ﴾ أي : الذي له جميع العظمة كما زعمتم في كل وقت يريده ﴿ أطعمه ﴾ وذلك أن المؤمنين قالوا لكفار مكة : أنفقوا على المساكين مما زعمتم من أموالكم أنه لله سبحانه وتعالى ، وهو ما جعلوه لله من حروثهم وأموالهم قالوا ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ لكنا ننظره لا يشاء ذلك ، فإنه لم يطعمهم مما ترى من فقرهم فنحن أيضاً لا نشاء ذلك موافقة لمراد الله تعالى فيه فتركوا لتأدب مع الأمر وأظهروا التأدب مع بعض إرادة الله المنهي عن الجري معها والاستسلام لها ، وهذا مما يتمسك به البخلاء يقولون : لا نعطي من حرمه الله

تعالى وهذا الذي يزعمونه باطل ؛ لأن الله تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم ابتلاء فمنع الدنيا عن الفقير لا بخلاً وأمر الغني بالإنفاق لا حاجة إلى ماله ولكن ليبلوا الغني بالفقير فيما فرض له في مال الغني ، فلا اعتراض لأحد في مشيئة الله وحكمه في خلقه وما كفاهم حتى قالوا لمن أرشدهم إلى الخير ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ أنتم إلا في ضلال ﴾ أي : محيط بكم ﴿ مبين ﴾ أي : في غاية الظهور وما دروا أن الضلال إنما هو لهم .

فإن قيل : قولهم ﴿ من لو يشاء الله أطعمه ﴾ كلام حق فلماذا ذكر في معرض الذم ؟

(254/647)

---

أجيب : بأن مرادهم كان الإنكار لقدرة الله تعالى أو لعدم جواز الأمر بالإنفاق مع قدرة الله تعالى وكلاهما فاسد فبين ذلك تعالى بقوله سبحانه ﴿ مما رزقكم الله ﴾ فإنه يدل على قدرته ويصحح أمره بالإعطاء ؛ لأن من كان له مع الغير مال وله في خزانته مال مخير إن أراد أعطى مما في خزانته وإن أراد أمر من عنده المال بالإعطاء ولا يجوز أن يقول من في يده مال في خزانتك أكثر مما في يدي أعطه منه .

فإن قيل : ما الحكمة في تغيير اللفظ في جوابهم حيث لم يقولوا : أننفق على من لو يشاء الله رزقه ؛ لأنهم أمروا بالإنفاق فكان جوابهم أن يقولوا : أننفق فلم قالوا : أنطعم ؟

أجيب : بأن هذا بيان غاية مخالفتهم ؛ لأنهم إنما أمروا بالإنفاق والإنفاق يدخل فيه الإطعام وغيره فلم يأتوا بالإنفاق ولا بأقل منه وهو الإطعام وهذا كقول القائل لغيره : أعط زيداً ديناراً فيقول : لا أعطيه درهماً مع أن المطابق هو أن يقول : لا أعطيه ديناراً ولكن المبالغة في هذا الوجه أتم فكذلك هنا .

(255/647)

---

تنبيه : إنما وصفوا المؤمنين بأنهم في ضلال مبين لظنّهم أن كلام المؤمنين متناقض ومن تناقض كلامه يكون في غاية الضلال ، قال الرازي : ووجه ذلك أنهم قالوا ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ وهذا إشارة إلى أن الله تعالى إن شاء أن يطعمهم فهو يطعمهم فكان الأمر بإطعامهم أمراً بتحصيل الحاصل ، وإن لم يشأ إطعامهم لا يقدر أحد على إطعامهم لامتناع وقوع ما لم يشأ الله فلا قدرة لنا على الإطعام ، فكيف تأمروننا به ؟ ووجه آخر : وهو أنهم قالوا : إن أراد الله تجويعهم فلو أطعمناهم يكون ذلك سعياً في إبطال فعل الله تعالى وأنه لا يجوز وأنتم تقولون أطعموهم فهو ضلال ، واعلم أنه لم يكن في الضلال إلا هم حيث نظروا إلى المراد ولم ينظروا إلى الطلب والأمر ، وذلك لأن العبد إذا أمره السيد بأمر لا ينبغي الإطلاع على المقصود الذي لأجله أمر به ، مثاله : إذا أراد الملك الركوب للهجوم على عدوه بحيث

لا يطلع عليه أحد وقال للعبد : أحضر المركوب فلو تطلع واستكشف المقصود الذي لأجله الركوب لتسبب إلى أن يريد أن يطلع عدوه على الحذر منه وكشف سره فالأدب في الطاعة : هو امتثال الأمر لا تتبع المراد ، فالله سبحانه إذا قال ﴿ أنفقوا مما رزقكم الله ﴾ لا يجوز أن يقال لم لم يطعمهم الله مما في خزائنه ؟ وقد تقدم ماله بهذا تعلق .

﴿ ويقولون ﴾ أي : عادة مستمرة مضمومة إلى ما تقدم ﴿ متى هذا ﴾ وزادوا في الاستهزاء بتسميته وعداً فقالوا ﴿ الوعد ﴾ أي : البعث الذي تهددوننا به تارة تلويحاً وتارة تصريحاً عجلوه لنا ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيه قال الله تعالى:

(256/647)

---

﴿ ما ينظرون ﴾ أي : ينتظرون ﴿ إلا صيحة ﴾ وبين حقارة شأنهم وتمام قدرته بقوله عز وجل ﴿ واحدة ﴾ وهي نفخة إسرافيل عليه السلام الأولى المميتة ﴿ تأخذهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ وهم يخصمون ﴾ قرأه حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد من خصم يخصم والمعنى : يخصم بعضهم بعضاً فالمفعول محذوف ، وأبو عمرو وقالون بإخفاء فتحة الخاء وتشديد الصاد ، ونافع وابن كثير وهشام كذلك إلا أنهم باختلاس فتحة الخاء ، والباقون بكسر الخاء وتشديد الصاد ، والأصل في القراءات الثلاث يختصمون فأدغمت التاء في

الصاد فنافع وابن كثير وهشام نقلوا فتحها إلى الساكن قبلها نقلاً كاملاً ، وأبو عمرو وقالون اختلسا حركتها تنبيهاً على أن الخاء أصلها السكون ، والباقون حذفوا حركتها فالتقى ساكنان لذلك فكسروا أولهما فهذه أربع قراءات .

ولما كانت هذه هي النفخة المميتة تسبب عنها قوله تعالى:

﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ أي : يوجدون الوصية في شيء من الأشياء ﴿ ولا إلى أهلهم ﴾ أي : فضلاً عن غيرهم ﴿ يرجعون ﴾ أي : فيروا حالهم بل يموت كل واحد في مكانه حيث تفجؤه الصيحة وربما أفهم التعبير بإلى أنهم يريدون الرجوع فيخطون خطوة أو نحوها ، وفي الحديث : "لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد رفع الرجل أكلته إلى فيه فلا يطعمها" . ولما دل ذلك على الموت قطعاً عقبه بالبعث بقوله تعالى:

﴿ ونفخ في الصور ﴾ أي : القرن النفخة الثانية للبعث وبين النفختين أربعون سنة . ولما كان هذا النفخ سبباً لقيامهم عنده من غير تخلف عبر تعالى بما يدل على التعقب والتسبب والفجأة بقوله تعالى : ﴿ فإذا هم ﴾ أي : حين النفخ ﴿ من الأجداث ﴾ أي : القبور واحدها جدث المهيأة هي ومن فيها لسماع ذلك النفخ ، فإن قيل : كيف يكون ذلك الوقت أجداث وقد زلزلت الصيحة الجبال ؟

أجيب : بأن الله تعالى يجمع أجزاء كل ميت في الذي قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدثه ﴿ إلى ربهم ﴾ أي : إلى الموقف الذي أعده لهم من أحسن إليهم بالتربية ﴿ ينسلون ﴾ أي : يسرعون المشي مع تقارب الخطا بقوة ونشاط فيا لها من قدرة شاملة وحكمة كاملة حيث كان صوت واحد يحيي تارة ويميت أخرى . u

فإن قيل : المسيئ إذا توجه إلى من أحسن إليه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى والنسلان سرعة المشي فكيف يوجد منهم ؟

أجيب : بأنهم ينسلون من غير اختيارهم ، فإن قيل : قال في آية أخرى ﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ (الزمر : )

وقال ههنا ﴿ فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ والقيام غير النسلان وقوله تعالى في الموضعين ﴿ إذا هم ﴾ يقتضي أن يكونوا معاً ؟

أجيب : بأن القيام لا ينافي المشي السريع ؛ لأن الماشي قائم ولا ينافي النظر وبأن ذلك لسرعة الأمور كان الكل في زمان واحد كقول القائل:

* ** مكر مفر مقبل مدبر معاً *

واعلم أن النفختين يورثان تزلزلاً وانقلاباً للأجرام فعند اجتماع الأجرام يفرقها وهو المراد بالنفخة الأولى وعند تفرق الأجرام يجمعها وهو المراد النفخة الثانية .

ولما تشوقت النفوس إلى ما يقولون إذا عاينوا ما كانوا ينكرون استأنف قوله تعالى:

﴿ قالوا ﴾ أي: الذين هم من أهل الويل ﴿ يا ﴾ للتنبيه ﴿ ويلنا ﴾ أي: هلاكنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه ﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾ قال أبي بن كعب وابن عباس وقتادة: إنما يقولون هذا؛ لأن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فإذا بعثوا بعد النفخة الأخيرة وعاينوا القيامة دعوا بالويل.

وقال أهل المعاني: إن الكفار إذا عاينوا جهنم وأنواع عذابها دعوا بالويل وصار عذاب القبر في جنبها كالنوم فعدوا مكانهم الذي كانوا فيه مع ما كانوا فيه من عذاب البرزخ مرقداً هيناً بالنسبة إلى ما انكشف لهم من العذاب الأكبر فقالوا: من بعثنا من مرقدنا، فإن قيل: ما وجه تعلق من بعثنا من مرقدنا بقولهم يا ويلنا ؟



---

أجيب: بأنهم لما بعثوا تذكروا ما كانوا يسمعون من الرسل عليهم الصلاة والسلام فقالوا: يا ويلنا أبعثنا الله البعث الموعود به أم كنا نياماً فنبهنا ؟ كما إذا كان الإنسان موعوداً بأن يأتيه عدو لا يطيقه، ثم يرى رجلاً هائلاً يقبل عليه فيرتجف في نفسه ويقول: أهذا ذاك أم لا ؟

ويدل على هذا قولهم ﴿ من مرقدنا ﴾ حيث جعلوا القبور موضع الرقاد إشارة إلى أنهم

شكوا في أنهم كانوا نياماً فتنبهوا أو كانوا موتى فبعثوا ، وكان الغالب على ظنهم هو البعث فجمعوا بين الأمرين وقالوا من مرقدنا إشارة إلى متوهمهم احتمال الانتباه .

وقولهم ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى البعث ﴿ ما ﴾ أي : الذي ﴿ وعد ﴾ أي : به ﴿ الرحمن ﴾ أي : العام الرحمة الذي رحمته مقتضية ولا بد للبعث لينصف المظلوم من ظالمه ويجازي كلاًّ بعمله من غير حيف وقد رحمنا بإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام إلينا بذلك وطالما أنذرونا حلوله وحذرونا صعوبته وطوله ﴿ وصدق ﴾ أي : في أمره ﴿ المرسلون ﴾ أي : الذين أتونا بوعد الله تعالى ووعيده .

تنبيه : في إعراب هذا وجهان : أظهرهما : أنه مبتدأ وما بعده خبره ويكون الوقف تاماً على قوله تعالى ﴿ من مرقدنا ﴾ وهذه الجملة حينئذ فيها وجهان : أحدهما : أنها مستأنفة إما من قول الله تعالى أو من قول الملائكة أو من قول المؤمنين ، الثاني : أنها من كلام الكفار فتكون في محل نصب بالقول الثاني من الوجهين الأولين هذا صفة لمرقدنا وما وعد منقطع عما قبله ، ثم في (ما) وجهان أحدهما : أنها في محل رفع بالابتداء والخبر مقدر أي : الذي وعده الرحمن وصدق المرسلون فيه حق عليكم وإليه ذهب الزجّاج والزمخشري ، والثاني : أنه خبر مبتدأ مضمر أي : في هذا الذي وعد الرحمن .

﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ كانت ﴾ أي : النفخة التي وقع الإحياء بها ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ أي : كما كانت صيحة الإماتة واحدة ﴿ فإذا هم ﴾ أي : فجأة من غير توقف أصلاً ﴿ جميع ﴾ أي : على حالة الاجتماع لم يتأخر منهم أحد ﴿ لدينا ﴾ أي : عندنا ﴿ محضرون ﴾ ثم بين تعالى ما يكون في ذلك اليوم بقوله تعالى:

﴿ فاليوم لا تظلم نفس ﴾ أي : أي نفس كانت مكروهة أو محبوبة ﴿ شيئاً ﴾ أي : لا يقع لها ظلم ما من أحد ما في شيء ما ﴿ ولا تجزون ﴾ أي : على عمل من الأعمال شيئاً من الجزاء من أحد ﴿ إلا ما كنتم تعملون ﴾ ديدناً لكم بما ركز في جبلاتكم ثم بين تعالى حال المحسن بقوله تعالى:

﴿ إن أصحاب الجنة ﴾ أي : الذين لا حظ للنار فيهم ﴿ اليوم ﴾ أي : يوم البعث وهذا يدل على أنه يعجل دخولهم ودخول بعضهم إليها ووقوف الباقين للشفاعات ونحوها من الكرامات عند دخول أهل النار النار ، وعبر بما يدل على أنهم بكلياتهم مقبلون عليه ومطرقون له مع توجههم إليه بقوله ﴿ في شغل ﴾ أي : عظيم جداً لا تبلغ وصفه العقول كما كانوا في الدنيا في أشغل الشغل بالمجاهدات في الطاعات .

وقرأ ابن عامر والكوفيون بضم العين ، والباقون بالإسكان ثم بين ذلك الشغل بقوله ﴿ فاكهون ﴾ أي : متلذذون في النعمة ، واختلف في هذا الشغل فقال ابن عباس رضي

الله تعالى عنهما : في افتضاض الإبكار ، وقال وكيع بن الجراح رضي الله عنهما : في السماع ، وقال الكلبي : في شغل عن أهل النار وما هم فيه لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم ، وقال ابن كيسان : في زيارة بعضهم بعضاً ، وقيل : في ضيافة الله تعالى فاكهون ، وقيل : في شغل عن هول اليوم يأخذون ما آتاهم الله تعالى من الثواب فما عندهم خبر من عذاب ولا حساب .



---

وقوله تعالى ﴿ فاكهون ﴾ متمم لبيان سلامتهم فإنه لو قال : في شغل جاز أن يقال : هم في شغل أعظم من التفكر في اليوم وأهواله فإن من تصيبه فتنة عظيمة ثم يعرض عليه أمر من أموره أو يخبر بخسران وقع في ماله يقول : أنا مشغول عن هذا بأهم منه فقال : فاكهون أي : شغلوا عنه باللذة والسرور لا بالويل والثبور ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : فاكهون : فرحون .

ولما كانت النفس لا يتم سرورها إلا بالقرين الملائم قال تعالى:

﴿ هم ﴾ أي : بظواهرهم وبواطنهم ﴿ وأزواجهم ﴾ أي : أشكالهم الذين لهم في غاية الملاءمة كما كانوا يتركونهم في المضاجع على ألذ ما يكون ويصفون أقدامهم في خدمتنا وهم يبكون من خشيتنا ، وفي هذا إشارة إلى عدم الوحشة ﴿ في ظلال ﴾ أي : يجدون فيها

برد الأكباد وغاية المراد فلا تصيبهم الشمس كما كانوا يشوون أكبادهم في دار العمل بحر الصيام والصبر في مرضاتنا على الآلام ويعرون أيديهم وقلوبهم من الأموال ببذل الصدقات في سبيلنا على ممر الليالي وكر الأيام.

تنبيه: ظلال جمع ظل كشعاب أو ظله كقباب ويؤيده قراءة حمزة والكسائي بضم الظاء ولا ألف بين اللامين وهم مبتدأ وخبره في ظلال كما قاله أبو البقاء.



---

ولما كان التمتع لا يكمل إلا مع العلو الممكن من زيادة العلم الموجب لارتياح النفس وبهجة العين بانفساح البصر عند مد النظر قال تعالى ﴿على الأرائك﴾ أي: السرر المزينة العالية التي هي داخل الحجال قال ثعلب لا تكون أريكة حتى تكون عليها حجلة وقال ابن جرير الأرائك الحجال فيها السرر وروى أبو عبيدة في (الفضائل) عن الحسن قال: كنا لا ندري ما الأرائك حتى لقينا رجل من أهل اليمن، فأخبرنا أن الأريكة عندهم الحجلة فيها السرير وهذا جزاء لما كانوا يلزمون المساجد ويغضون أبصارهم ويضعون نفوسهم لأجلنا ﴿متكئون﴾ كما كانوا يدأبون في الأعمال قائمين بين أيدينا في أغلب الأحوال، والاتكاء الميل على شق مع الاعتماد على ما يريح الاعتماد عليه أو الجلوس مع التمكن على هيئة

المتربع وفي هذا إشارة إلى الفراغ وقوله تعالى:

﴿ لهم ﴾ أي: خاصة بهم ﴿ فيها فاكهة ﴾ أي: لا تنقطع أبداً ولا مانع لهم من تناولها ولا يتوقف ذلك على غير الإرادة إشارة إلى أن لا جوع هناك؛ لأن التفكه لا يكون لدفع الجوع

﴿ ولهم ما يدعون ﴾ أي: يتمنون.

تنبيه: في ما هذه ثلاثة أوجه: موصولة اسمية نكرة موصوفه، والعائد على هذين محذوف مصدرية، ويدعون مضارع ادعى افتعل من دعا يدعو أشرب معنى التمني، وقال الزجاج : هو من الدعاء أي: ما يدعونه أهل الجنة يأتيهم من دعوت غلامي فيكون الافتعال بمعنى: الفعل كالاحتمال بمعنى: الحمل والارتحال بمعنى: الرحل، وقيل: افتعل بمعنى: تفاعل أي : ما يتداعونه كقولهم: ارتموا وتراموا بمعنى واحد، ثم فسر الذي يدعونه أي: يطلبونه بغاية الاشتياق إليه واستأنف الإخبار عنه بقوله تعالى:



---

﴿ سلام ﴾ أي: عظيم جداً عليكم يا أهل الجنة والسلام يجمع جميع النعم ثم بين هذا السلام بما أظهر من عظمه بقوله ﴿ قولاً من رب ﴾ أي: دائم الإحسان ﴿ رحيم ﴾ أي: عظيم الإكرام بما ترضاه الإلهية كما كانوا في الدنيا يفعلون كل ما فيه الرضا فيرحمهم في حال

السلام وسماع الكلام بلذّة الرؤية مع التقوية على الدهش والضعف لعظيم الأمر وبالتأهيل لهذا المقام الأكرم مع قصورهم عنه.

روى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب عز وجل قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم"، وقيل: تسلم عليهم الملائكة من ربهم لقوله تعالى ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ﴾ (الرعد: .)

أي: يقولون: سلام عليكم يا أهل الجنة من ربكم الرحيم وقيل: يعطيهم السلامة الأبدية.

ولما ذكر ما للمؤمنين من النعيم ذكر ما للكافرين من الجحيم بقوله تعالى:

﴿ وامتازوا ﴾ أي: ويقال للمجرمين امتازوا أي: انفردوا ﴿ اليوم أيها المجرمون ﴾ عن المؤمنين عند اختلاطهم بهم قال الضحاك: لكل كافر في النار بيت يدخل ذلك البيت فيردم بابه بالنار فيكون فيه أبد الآبدين لا يرى ولا يرى، وقيل: إن قوله تعالى ﴿ وامتازوا ﴾ أمر تكوين فحين يقول ﴿ امتازوا اليوم ﴾ فيميزون بسيماهم ويظهر على جباههم وفي وجوههم سواد كما قال تعالى ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 107. 123 ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ ﴾

أي : من بعد موته بالشهادة : ﴿ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاء ﴾ أي : لإهلاكهم : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ قال الرازي : إشارة إلى هلاكهم بعده سريعاً ، على أسهل وجه ، فإنه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم .

﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ أي : ما كانت العقوبة إلا صيحة واحدة من السماء هلكوا بها : ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ ميتون كالنار الخامدة ، رمزاً إلى أن الحي كالنار الساطعة في الحركة والالتهاب ، والميت كالرماد ، كما قال لَبيد :

~وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

تنبيهات :

الأول – قال ابن كثير : روي عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية ، وإن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى عليه السلام ، كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذي لم يذكر عن أحد من متأخري المفسرين ، غيره . وفي ذلك نظر من وجوه :

أحدهما - أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل، لا من جهة المسيح عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ ﴾ ولو كان هؤلاء من الحواريين، لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام. والله أعلم. ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم: إن أنتم إلا بشر مثلنا.

(264/647)

---

الثاني - أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح؛ ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللائي فيهن بطاركة، وهن: القدس؛ لأنها بلد المسيح، وأنطاكية؛ لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، والإسكندرية؛ لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البطارقة والأساقفة والشمامسة والرهابين، ثم رومية؛ لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأطده، ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البطرك من رومية إليها - كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم - كسعد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين - فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم.

الثالث - أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر أبو

سعيد الخدري رضي الله عنه وغير واحد من السلف ، أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة ، لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم . بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، ذكروه عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ [ القصص : 43 ] ، فعلى هذا يتعين أن أهل هذه القرية المذكورة في القرآن ، قرية أخرى غير أنطاكية ، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً ، أو تكون أنطاكية – إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة – مدينة أخرى غير المشهورة المعروفة ؛ فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ، ولا قبل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

(265/647)

---

وأقول : إن من محاسن التنزيل الكريم وبلاغته الخارقة ، هو الإيجاز في الأنباء التي يقصها ، والإشارة منها إلى روحها وسرها ، حرصاً على الثمرة من أول الأمر ، واقتصاراً على موضع الفائدة ، وبعداً عن مشرب القصّاص والمؤرخين ؛ لأن القصد من قصصه الاعتبار والذكرى ، وما من حاجة إلى تسمية تلك المبهمات كائنة ما كانت ، ثم إن المفسرين رحمهم الله عنوا بالبحث ، والأخذ ، والتلقي ، فكان من سلف منهم يرون فيما يرون أن من العلم

تفصيل مجملات التنزيل وإبانة مبهماته ، حتى جعل ذلك فنّاً برأسه ، وألف فيه مؤلفات ، ولا بأس في التوسع من العلم والازدياد منه بأي طريقة كانت ، لاسيما وقد رفع عنّا الحرج بالتحدث عن بني إسرائيل ، إلا أنه يؤاخذ من يجزم بتعيين مبهم ما ، إن كان جزمه من غير طريق القواطع ؛ فإن القاطع هو ما تواتر أو صح سنده إلى المعصوم ، صحة لا مغمز فيها ، وهذا مفقود في الأكثر ، ومنه بحثنا المذكور ؛ فإن تعيين أن البلدة أنطاكية وتسمية الرسل ، إنما روي موقوفاً ومنقطعاً ، وفي بعض إسناده متهمون ، ولذا قد يرد على من يقطع بذلك ما لا مخرج له منه ، فالمفسر أحسن أحواله أن يمشي مع التنزيل ، إجمالاً فيما أجمله ، وتفصيلاً فيما فصله ، ولا يأخذ من أيضاح مبهماته إلا بما قام عليه قاطع أو كان لا ينبذه العلم الصحيح ، وإلا فليعرض عن تسويد وجوه الصحف بذلك ، بل عن تشويهها .

والذي حمل السلف على قص ما نحن فيه ، هو تلقيهم له عن مثل كعب ووهب ، وموافقة من في طبقتهما لهما فيه . هذا أولاً .

وثانياً شهرة بلدة أنطاكية في ذلك العهد ، لاسيما وقد أسس فيها معبداً أحد رسل عيسى عليه السلام .

ثالثاً ما جرى في أنطاكية لما قدم ملك الرومان , وتهدد كل من أبى عبادة الأوثان بالقتل ، وكان في مقدمة الآبين رجل مقدم في المؤمنين ، فأراده على الشرك فأبى وجهر بالتوحيد ، فأرسله من أنطاكية موثقاً وأمر بأن يطعم للوحوش ، فألقى في رومية إلى أسدين كبيرين فابتلعاه ، ولما قدم لهما استبشر وتهلل لنيل الشهادة في سبيل الله . وكذلك يؤثر عن رجل مؤمن كان يدافع عن المؤمنين في عهد الرومانيين لغيرته وصلاحه , فطلب منه الحاكم أن يرتد فأبى وجهر بوجوب عبادة الإله الواحد , ونبذ عبادة من لا يضر ولا ينفع . فهدده بأن يضربه من الرأس إلى القدم . فأجاب بأنه مستبشر بنعمة الله وكرامته الأبدية . ثم أمر به الحاكم فقتل مع رفقته , والشواهد في هذا الباب لا تحصى ، معروفة لمن أعار نظره جانباً مما كتب في تواريخ مبدأ ظهور الأديان ، وما كان يلاقيه من أعدائه ومقاوميه ، فللقصة الكريمة هذه مصدقات لا تحصى .

رابعاً شهرة المرسلين برسل عيسى عليه السلام ، وكانوا انبثوا في البلاد لمحو الوثنية , والكف عن الكبائر والشرور التي كانت عليها دولة الرومان وقتئذ . هذا وما ذكره ابن كثير من وقوف عذاب الاستئصال بعد نزول التوراة يحتاج إلى قاطع . وإلا ، فقد خربت كثير من البلاد الأثيمة بعدها ، وتدمرت بتسليط الله من شاء عليها ، والصيحة أعم من أن تكون صيحة سماوية ، أو صيحة أرضية ، وهي صيحة من سلط عليهم للانتقام منهم ، حتى أباد ملكهم وقهر صولتهم ومحا من الوجود سلطانهم ، وإن كان عذاب الصيحة ظاهره

الأول . وبالجملة فنحن يكفينا من النبأ الاعتبار به وفهمه مجملاً ، وأما تعيينه بوقت ما ، وفئة ما ، فهو الذي ينشأ منه ما ينشأ ، وما بنا من حاجة إلى الزيادة عن الاعتبار ، وتخصيص ما لا قاطع عليه .

(267/647)

---

الثاني – ذكر الرازي في قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا ﴾ لطيفة ، إن صح أن الرسل المنوه بهم هم رسل عيسى عليه السلام ، وهي أن إرساله لهم كإرساله تعالى ؛ لأنه بإذنه وأمره ، وبذلك تتمة التسلية للنبي صلوات الله عليه ، لصيرورتهم في حكم الرسل .

ثم قال : وهذا يؤيد مسألة فقهية ؛ وهي أن وكيل الوكيل بإذن الموكل ، وكيل الموكل لا وكيل الوكيل ، حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه ، وينعزل إذا عزله الموكل الأول . انتهى .

الثالث – في قوله تعالى : ﴿ وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ليكونوا في النصح باذلين جهدهم كما فعل .

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون ﴾ أي : يا ندامة عليهم تكون يوم القيامة بسبب استهزائهم وسخريتهم في الدنيا بالناصحين ، حتى أفضى بهم الحال إلى قتلهم كما فعل أصحاب القرية ، أو المراد شدة خسرانهم حتى استحقوا أن

يتحسر عليهم أهل الثقلين، أو التحسر منه تعالى مجازاً، وتقريره أن التحسر ما يلحق المتحسر من الندم حتى يبقى حسيراً، وهو لا يليق به تعالى، فيجعل استعارة، بأن شبه حال العباد بحال من يتحسر عليه الله فرضاً، فيقول، يا حسرة على عبادي، قيل: وهو نظير قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ [الصافات: 12]. على القراءة بضم التاء، فالنداء للحسرة تعجب منه. والمقصود تعظيم جنايتهم، أي: عدّها أمراً عظيماً يتعجب منه. أفاده الشهاب.

(268/647)

---

﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ أي: يخبروا: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ ﴾ أي: من الأمم الخالية: ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ أي: كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة.

﴿ وَإِن كُلٌّ ﴾ أي: من هؤلاء المتفرقين: ﴿ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي: إلا جميعهم محضرون للحساب والجزاء، وإنما أخبر عن كلٍّ، بجميع ومعناها واحد؛ لأن كلاًّ، تفيد الإحاطة حتى لا ينفلت عنهم أحد. وجميع، تفيد الاجتماع، وهو فعيل بمعنى مفعول، وبينهما فرق, ومن ثم وقع أجمع في التوكيد تابعاً لـ: كل؛ لأنه أخص منه، وأزيد معنى.

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ ﴾ أي: عبرة لأهل مكة عظيمة: ﴿ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ أي: بالنبات لتدل على إحياء الموتى: ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي: وليأكلوا مما عملته أيديهم، وهو ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما، على ما استظهره القاضي. وقال الزمخشري: أي: عملته بالغرس، والسقي، والآبار، قيل وهذا التفسير خلاف الظاهر؛ أي: لاحتياجه إلى تجوز، إلا أن فيه تذكيراً بلذة ثمرة العمل، وسرور النفس بعده، وفي الحديث < أفضل الكسب بيع مبرور، وعمل الرجل بيده > رواه الإمام أحمد عن أبي بردة. وجوّز أن تكون: ما، نافية، والمعنى: أن الثمر بخلق الله لا بفعلهم: ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي: خالق هذه النعم الجسام بعبادته وحده، وهو إنكار لعدم قيامهم بواجب الشكر.

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ ﴾ أي: الأصناف كلها: ﴿ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ ﴾ أي: مما ذكر وغيره: ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ يعني الذكر والأنثى: ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: من الأصناف والأنواع الموجودة في البر والبحر. وقوله تعالى:

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ بيان لقدرته تعالى في الزمان، إثر ما بيّنها في المكان، أي: نزيله ونكشفه عن مكانه. استعير لإزالته الضوء، السلخ الذي هو كشط الجلد وإزالته عن الحيوان المسلوخ. وفيه إشارة إلى أن النهار طارئ على الليل، كما أن المسلوخ منه قبل المسلوخ، الذي هو كالغطاء الطارئ على المغطى. قال الشهاب: لأن الليل سابق عرفاً وشرعاً ومعنى: ﴿ مُّظْلِمُونَ ﴾ داخلون في الظلام، يقال أظلمنا، كما يقال: أعتمنا وأدجينا.

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ أي: لحدٍّ لها مؤقت مقدر ينتهي إليه دورها اليومي أو السنوي، شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره. فالمستقر اسم مكان تقطعه في حركتها الدائمة ثم تعود. ووجه الشبه الانتهاء إلى محل معين، واللام تعليلية، أو بمعنى إلى. وقيل مستقرها: منقطع جريها عند خراب [في المطبوع: حراب] العالم. ومستقر عليه اسم زمان: ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أي: ذلك الجري المتضمن للحكم، والمصالح، والمنافع، والمدهش نظام سيره وإحكامه بلا اختلال، تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور، المحيط علماً بكل معلوم.

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ أي: صيرنا له منازل ينزل كل ليلة في واحد منها: ﴿ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ أي: حتى إذا كان في آخر منازله، دق واستقوس وصار كالعذق المقوس اليابس، إذا حال عليه الحول. فالعرجون هو الشمروخ؛ وهو العنقود الذي عليه الرطب، ويسمى العذق، بكسر العين. والقديم: العتيق، وإذا قدم دق وانحنى واصفرّ. فشبه به من ثلاثة أوجه.

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ أي: تجتمع معه في وقت واحد، وتداخله في سلطانه فتطمس نوره: ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ أي: يسبقه بأن يتقدم على وقته فيدخل قبل مضيه. أو المراد بالليل والنهار آيتاهما؛ أي: ولا القمر سابق الشمس فيكون عكساً للأول؛ أي: ولا القمر ينبغي له أن يدرك الشمس. والمعنى على هذا، أن كل واحد منهما لا يدخل على الآخر في سلطانه، فيطمس نوره، بل هما متعاقبان بمقتضى تدبيره تعالى، وعليه فسر إيثار: سابق على مدرك، كما قبله، هو أن السبق مناسب لسرعة سير القمر؛ إذ السبق يشعر بالسرعة، والإدراك بالبطء؛ وكذلك الشمس بطيئة السير تقطع فلكها في سنة. والقمر يقطعه في شهر. فكانت الشمس لبطئها جديرة بأن

توصف بالإدراك ، والقمر لسرعته جديراً بأن يوصف بالسبق .

لطيفة :

قال الناصر في " الانتصاف " : يؤخذ من هذه الآية أن النهار ، تابع لليل ، وهو المذهب المعروف للفقهاء ، وبيانه من الآية أنه جعل الشمس التي هي آية النهار غير مدركة للقمر الذي هو آية الليل .



---

وإنما نفي الإدراك لأنه هو الذي يمكن أن يقع ، وذلك يستدعي تقدم القمر وتبعية الشمس ، فإنه لا يقال : أدرك السابق اللاحق ، ولكن : أدرك اللاحق السابق ، وبحسب الإمكان توقيع النفي ، فالليل إذاً متبوع والنهار تابع . فإن قيل : هل يلزم على هذا أن يكون الليل سابق النهار ، وقد صرحت الآية بأنه ليس سابقاً ؟

فالجواب أن هذا مشترك الإلزام . وبيانه : أن الأقسام المحتملة ثلاثة : إما تبعية النهار لليل وهو مذهب الفقهاء ، أو عكسه وهو المنقول عن طائفة من النحاة ، أو اجتماعهما . فهذا القسم الثالث منفي بالاتفاق . فلم يبق إلا تبعية النهار لليل وعكسه . وهذا السؤال وارد عليهما جميعاً ؛ لأن من قال إن النهار سابق الليل لزمه أن يكون مقتضى البلاغة أن يقال : ولا

الليل يدرك النهار ؛ فإن المتأخر إذا نفي إدراكه كان أبلغ من سابقه . مع أنه يتناءى عن مقتضى قوله : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ تنائياً لا يجمع شمل المعنى باللفظ ، فإن الله تعالى نفى أن تكون مدركة ، فضلاً عن أن تكون سابقة .

(273/647)

---

فإذا أثبت ذلك ، فالجواب المحقق عنه ، أن المنفي السبقية الموجبة لتراخي النهار عن الليل ، وتخلل زمن آخر بينهما ، وحينئذ يثبت التعاقب ، وهو مراد الآية . وأما سبق أول المتعاقبين للآخر منهما ، فإنه غير معتبر . ألا ترى إلى جواب موسى بقوله : ﴿ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي ﴾ [ طه : 84 ] ، فقد قربهم منه عذراً عن قوله تعالى : : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ ﴾ [ طه : 83 ] ، فكأنه سهل أمر هذه العجلة بكونهم على أثره . فكيف لو كان متقدماً وهم في عقبه لا يتخلل بينهم وبينه مسافة ؟ فذاك لو اتفق ، لكان سياق الآية يوجب أنه لا يعد عجلة ولا سبقاً . فحينئذ يكون القول بسبقية النهار لليل ، مخالفاً صدر الآية على وجه لا يقبل التأويل . فإن بين عدم الإدراك الدال على التأخير والتبعية ، وبين السبق بوناً بعيداً ، ومخالفاً أيضاً لبقية الآية ، فإنه لو كان الليل تابعاً ومتأخراً ، لكان أحرى أن يوصف بعدم الإدراك ، ولا يبلغ به عدم السبق ، ويكون القول بتقديم الليل على النهار

مطابقاً لصدر الآية صريحاً ، ولعجزها بوجه من التأويل مناسب لنظم القرآن ، وثبوت ضده أقرب إلى الحق من حبل وريده ، والله الموفق للصواب من القول وتسديده . انتهى .

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي : كل مما ذكر يجرون في مدار عظيم كالسابح في الماء . وتقدم لنا في سورة الأنبياء ، ما قاله بعض علماء الفلك في مثل هذه الآية . فراجعه .



---

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أي : حملنا أولادهم الذين يرسلونهم في تجارتهم . قال الشهاب : ولا يخفى مناسبته لقوله قبله : ﴿ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ وذكر المشحون ، أقوى في الامتنان بسلامتهم فيه ، أو لأنه أبعد عن الخطر ، وقيل المراد فلك نوح عليه السلام . فهو مفرد ، وتعريفه للعهد ، والمعنى حمل آبائهم الأقدمين الذين بهم حفظ بقاء النوع لما عمّ الطوفان ، ونجوا مع نوح في السفينة ، وإنما كان آية ، لأن بقاء نسلهم ونجاتهم بسفينة واحدة ، صنع عجيب ومقدور كبير . وآثر البعض الوجه الأول ؛ لأن الثاني محتاج للتأويل . وأرى جدارة الثاني بالإيثار ؛ لقاعدة الحمل على الأشباه والنظائر ، ما وجد له سبيل ؛ لأنه أقرب وأسدّ ، وقد جاء نظيره آية : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [ الحاقة : 11 - 12 ] . وإن ورد في نظير الأول

الآية : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ [ الرحمن : 24 ] ، وأشباهها ، إلا أن لفظ الحمل اتحد في الآيتين ، فقارب ما بينهما .

﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ ﴾ أي : مثل الفلك : ﴿ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ أي : من الإبل فإنها سفائن البر لكثرة ما تحمل ، حتى شاع إطلاق السفينة عليها ، كما قيل : سفائن برّ والسراب بحارها . أو ما يركبون ؛ أي : من السفن والزوارق على الوجه الثاني ، وهو أن يراد بالفلك سفينة نوح .

(275/647)

---

﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أي : لا مغيث لهم ، أو لا مستغيث منهم ، أو لا استغاثة ، وذلك لأن الصريخ يكون المغيث والمستغيث وهو الصارخ . ومصدراً للثلاثي كالصراخ ، يتجوز به عن الإغاثة ؛ لأن المغيث ينادي من يستغيث به ويصرخ له ، ويقول : جاءك العون والنصر . أنشد المبرد في أول الكامل :

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ كَانَ الصُّرَاخُ لَهُ قَرْعَ الظَّنَابِيبِ

أي إذا أتانا مستغيث ، كانت إغاثته الجد في نصرته .

﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ أي : ينجون من الموت به .

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ أي: لكن رحمناهم ومتعناهم إلى زمن قدر لهم، يموتون فيه بعد النجاة من موت الغرق، ومن هنا أخذ أبو الطيب قوله:

~وإنْ أَسْلَمْ فَمَا أَبْقَى وَلَكِنْ سَلِمْتُ مِنَ الْحِمَامِ إِلَى الْحِمَامْ

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي: من الوقائع الخالية في الأمم المكذبة للرسل ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ أي: من العذاب المعدّ في الآخرة، أو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، أو عكسه، أو ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي: باتقائكم وشكركم، وجواب إذا، محذوف دل عليه قوله:

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: الدالة على صدق الرسل: ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ بالتكذيب والصد عن الإيمان بها.

(276/647)

---

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أي: تصدقوا على الفقراء، من مال الله الذي آتاكم: ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: حيث أمرتمونا بما يخالف مشيئة الله. وقولهم هذا، إما تهكم أو عن اعتقاد. وجوّز أن يكون: ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ جواباً من الله لهم، أو حكاية لجواب المؤمنين. وفي هذه

الآية أبلغ زجر عن اقتصاص ما يحكى عن البخلاء ، في اعتذارهم بمثل ما ضلل به المشركون ومجازاتهم فيه ؛ فإن ذلك من اللؤم ، وشح النفس ، وخبث الطبع ، وإن كان يورده بعضهم للفكاهة أو الإغراب ؛ كما فعل الجاحظ سامحه الله في كتاب " البخلاء " .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يعنون وعد البعث .

﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أي : يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم ؛ أي : أنها تبغتهم وهم في أمنهم وغفلتهم عنها . ويخصمون ، بفتح الياء وكسر الخاء لالتقاء الساكنين . والصادر على الأصل ، وأصله : يختصمون سكّنت التاء وأدغمت ، ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين .

(277/647)

---

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أي : أن يوصوا في شيء من أمورهم توصية : ﴿ وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي : لا يقدرون على الرجوع إلى أهليهم ، ليروا حالهم ، بل يموتون حيث تفجؤهم الصيحة .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ أي : للبعث : ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أي : من القبور : ﴿ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ أي : يعدون مسرعين ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ

الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً ﴾ [ المعارج : 43 ] ، ولا منافاة بين هذا وما في آية : ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ [ الزمر : 68 ] ؛ لأنهما في زمان واحد متقارب .

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ أي : رقادنا أو مكانه . فيقال لهم : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي : المخبرون عن ذلك الوعد .

﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي : بمجرد تلك الصيحة . وفي كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر ، عليه تعالى .

(278/647)

---

﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ أي متنعمون متلذذون ، وفي تنكير : ﴿ شُغُلٍ ﴾ تعظيم ما هم فيه وتفخيمه .

﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ ﴾ أي : في ظلال الأشجار ، أو في مأمن من الحرور : ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ أي : السرر المزينة : ﴿ مُتَّكِؤُونَ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ .

﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ أي : ولهم سلام يقال لهم قولاً كائناً منه تعالى . فيكون : ﴿ سَلَامٌ ﴾ مبتدأ محذوف الخبر ، أو هو بدل من : ﴿ مَّا ﴾ أو خبر محذوف ، أي : هو

سلام ، أو مبتدأ خبره الناصب له : ﴿ قَوْلاً ﴾ أي : سلام يقال لهم قولاً ، أو مبتدأ وخبره : ﴿ مِّن رَّبٍّ ﴾ و : ﴿ قَوْلاً ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة ، وهو مع عامله معترض بين المبتدأ والخبر . والمعنى إنه تعالى يسلم عليهم تعظيماً لهم ، كقوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ﴾ [الأحزاب : 44] .



---

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي : عن المؤمنين في موقفهم . كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : 28] . وقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم : 14] ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : 43] ، أي : يصيرون صدعين فرقتين : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : 22 - 23] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 58.70 ﴾



---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والأربعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والأربعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 60 ﴾ من سورة يس

وحتى الآية ﴿ 76 ﴾ من نفس السورة

(4/648)

---

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أمرهم بالامتياز أمراً إرادياً حكمياً ، فامتازوا في الحال ، وأسروا الندامة وسقط في أيديهم فعضوا الأنامل ، وصروا بالأسنان ، وشخصت منهم الأبصار ، وكلحت الوجوه ، وتقلصت الشفاه ، ونكست الرؤوس وشحبت الألوان ، وسحبوا على الوجوه ، وكان من فنون المساءة وشؤون الحسرة ما تعجز عنه العقول ، وتذوب من ذكره النفوس ، وتنخلع القلوب ، قال سبحانه موبخاً لهم في تلك الحال بهذا المقال معللاً حكمه عليهم بذلك بأنه لم

يتركهم هملاً بل ركب فيهم من العقول ونصب لهم من الدلائل على كماله ما هو كافٍ لهم في النجاة ثم ما وكلهم إلى ذلك ، بل أرسل إليهم رسلاً وأنزل عليهم كتباً : ﴿ ألم أعهد ﴾ أي أوصيكم إيصاء عظيماً بما نصبت من الأدلة ، ومنحت من العقول ، وبعثت من الرسل ، وأنزلت من الكتب ، في بيان الطريق الموصل إلى النجاة ، لافتاً القول عن مظهر الإحسان إلى ما هو أولى به من مظهر التكلم بالوحدة دفعاً للبس ، ثم أشار إلى علوه وجلاله ، وعظمه وسمو كماله فقال : ﴿ إليكم ﴾ .

(5/648)

---

ولما كان المقصود بهذا الخطاب تقريعهم وتوبيخهم وتبكيتهم ، وكانت هذه السورة القلب ، وكان القلب أشرف الأعضاء ، وكان الإنسان أشرف الموجودات ، خصه بالخطاب لأنه خطابه خطاب للجن فقال مؤكداً ما أفهمه حرف الغاية من علو رتبته ، وعظيم منزلته بما أشارت إليه أداة البعد : ﴿ يا بني آدم ﴾ أي فلم أخصكم بذلك عن أبناء غير نوعكم ليكون ذلك التخصيص حاملاً لكم على العصيان بل ليكون موجباً للطاعات والعرفان : ﴿ أن لا تعبدوا الشيطان ﴾ أي البعيد المحترق بطاعتكم له فيما يوسوس لكم به ، ثم علل النهي عن عبادته بما يقتضي شدة النفرة منه بعد أن لوّح إلى ذلك بوصفه فقال : ﴿ إنه

لكم ﴾ والتأكيد لأن أفعالهم أفعال من يعتقد صداقته ﴿ عدو مبين ﴾ أي ظاهر العداوة جداً من جهة عداوته لأبيكم العداوة التي أخرجتكم من الجنة التي لا منزل أشف منها ، ومن جهة أمره لكم بما يبغض الدنيا من التخالف والتخاصم ، ومن جهة تزيينه للفاني الذي لا يرغب فيه عاقل لو لم يكن فيه عيب غير فنائه ، فكيف إذا كان أكثره أكداراً وأدناساً وأوضاراً ، فكيف إذا كان شاغلاً عن الباقي ، فكيف إذا كان عائقاً عن المولى ، فكيف إذا كان مغضباً له حاجباً عنه .

ولما بكتهم بالتذكير بما ارتكبوا مع النهي عن عبادة العدو تقديماً لدرء المفاسد ، وبخهم بالتذكير بما ضيعوا مع أخذ العهود من واجب الأمر بعبادة الولي فقال عاطفاً على " أن لا " : ﴿ وأن اعبدوني ﴾ ولما ذكر سبحانه بالأمر بعبادته ، عرف بحسنها حثاً على لزومها قبل ذلك اليوم قائلاً : ﴿ هذا ﴾ أي الأمر بعبادتي ﴿ صراط مستقيم ﴾ أي بليغ القوم ، وعبادة الشيطان صراط ضيق معوج غاية الضيق والعوج .



---

ولما كان التقدير : فاتبعتموه وسلكتم سبيله مع اعوجاجه ، وتركتم سبيلي مع ظهور استقامته ، عطف عليه قوله : ﴿ ولقد أضل منكم ﴾ أي عن الطريق الواضح السوي بما

سلطته به من الوسوسة ، وأكده إشارة إلى أنه أمر لا يكاد أن يصدق به لما يبعد ارتكابه في العادة من اتضاح أمره وظهور فساده وضره .

ولما كان الآدمي شديد الشكيمة عالي الهمة إذا أراد ، عبر بقوله : ﴿ جبّلاً ﴾ أي أمما كباراً عظاماً كانوا كالجبال في قوة العزائم وصعوبة الانقياد ، ومع ذلك فكان يتلعب بهم تلعباً ، فسبحان من أقدره على ذلك وإلا فهو أضعف كيداً وأحقر أمراً ، قال في القاموس : الجبل - بالضم : الشجر اليابس والجماعة منا كالجبل كعنق وعدل وعتل وطمر وطمرة وأمير ، ثم قال : وبالكسر وبالضم وكطمرة : الأمة والجماعة ، ثم قال : والجبلة مثلثة ومحركة وكطمرة : الخلقة والطبيعة .

ودلت قراءة أبي عمرو وابن عامر بضم الجيم وإسكان الباء وتخفيف اللام على الذين هم في أول مراتب الشدة والقوة ، وقراءة ابن كثير وحمزة والكسائي ورويس عن يعقوب بضمتين وتخفيف على ما فوق ذلك مما يقرب من الوسط مع الظهور والعلو للضم من القوة ، وقراءة روح كذلك مع تشديد على ما فوق الوسط - بما أشارت إليه الحركات والتشديد ، ولكنه مع خفاء ، وكأنه بالمكر بما أشار إليه كون الحركتين بالكسر ، وعظم سبحانه الأمر بقوله : ﴿ كثيراً ﴾ ثم زاد في التوبيخ والإنكار بما أنتجه المقام وسببه إضلاله لهم مع ما أوتوا من العقول من قوله : ﴿ أفلم ﴾ ولما كان سبحانه قد آتاهم عقولاً وأيّ عقول ، عبر بالكون فقال : ﴿ تكونوا تعقلون ﴾ أي لتدلكم على ما فيه النجاة عقولكم بما نصبت من الأدلة ،

ومع ما نبهت عليه الرسل ، وحذرت منه من إهلاك الماضين ، بسبب اتباع الشياطين ، وغير ذلك من كل أمر واضح مبين .

(7/648)

---

ولما أنكر عليهم أن يفعلوا فعل من لا عقل له ، قال متمماً للخزي : ﴿ هذه ﴾ إشارة لحاضر أما حال الوقوف على شفيرها أو الدّع فيها ﴿ جهنم ﴾ أي التي تستقبلكم بالعبوسة والتجهم كما كنتم تفعلون بعبادي الصالحين : ﴿ التي كنتم ﴾ أي كوناً هيأتكم به لقبول ما يمكن كونه بما غرزته فيكم من العقول .

ولما كان المحذور الإيعاد بها ، لا كونه من معين ، قال بانياً للمفعول : ﴿ توعدون ﴾ أي إن لم ترجعوا عن غيّكم ﴿ اصلوها ﴾ أي قاسوا حرها وتوقدها واضطرامها ، وهوّل أمر ذلك اليوم بإعادة ذكره على حد ما مضى فقال : ﴿ اليوم ﴾ لتكونوا في شغل شاغل كما كان أصحاب الجنة ، وشتان ما بين الشغلين ﴿ بما ﴾ أي بسبب ما .

ولما كانوا قد تجلدوا على الطغيان تجلد من هو مجبول عيله ، بيّن ذلك بذكر الكون فقال :

﴿ كنتم تكفرون ﴾ أي تسترون ما هو ظاهر جداً بعقولكم من آياتي مجددين ذلك مستمرين عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 272.274 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) ﴾

لما ذكر الله تعالى حال المؤمنين والمجرمين كان لقائل أن يقول : إن الإنسان كان ظلوماً جهولاً ، والجهل من الأعذار ، فقال الله ذلك عند عدم الإنذار ، وقد سبق إيضاح السبل بإيضاح الرسل ، وعهدنا إليكم وتلونا عليكم ما ينبغي أن تفعلوه وما لا ينبغي ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في اللغات التي في ﴿ أَعْهَدْ ﴾ وهي كثيرة الأولى : كسر همزة إعهد وحروف الاستقبال كلها تكسر إلا الياء فلا يقال يعلم ويعلم الثانية : كسر الهاء من باب ضرب يضرب الثالثة : قلب العين جيما ألم أجهد وذلك في كل عين بعدها هاء الرابعة : إدغام الهاء في الحاء بعد القلب فيقال ألم أحد ، وقد سمع قوم يقولون دحا محا ، أي دعها معها .

المسألة الثانية :

في معنى أعهد وجوه أقربها وأقربها ألم أوص إليكم .

المسألة الثالثة :

في هذا العهد وجوه الأول : أنه هو العهد الذي كان مع أبينا آدم بقوله : ﴿ وَعَهِدْنَا إلى ءَادَمَ ﴾ [ طه : 115 ] الثاني : أنه هو الذي كان مع ذرية آدم بقوله تعالى : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [ الأعراف : 172 ] فإن ذلك يقتضي أن لا نعبد غير الله الثالث : هو الأقوى ، أن ذلك كان مع كل قوم على لسان رسول ، ولذلك اتفق العقلاء على أن الشيطان يأمر بالشر ، وإن اختلفوا في حقيقته وكيفيته .

المسألة الرابعة :

(9/648)

---

قوله : ﴿ لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان ﴾ معناه لا تطيعوه ، بدليل أن المنهي عنه ليس هو السجود له فحسب ، بل الانقياد لأمره والطاعة له فالطاعة عبادة ، لا يقال فنكون نحن مأمورين بعبادة الأمراء حيث أمرنا بطاعتهم في قوله تعالى : ﴿ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول وَأُوْلِي الأمر مِنكُمْ ﴾ [ النساء : 59 ] لأنا نقول طاعتهم إذا كانت بأمر الله ، لا تكون إلا عبادة لله وطاعة له ، وكيف لا ونفس السجود والركوع للغير إذا كان بأمر الله لا يكون إلا عبادة لله ، ألا ترى أن الملائكة سجدوا لآدم ولم يكن ذلك إلا عبادة لله ، وإنما عبادة الأمراء هو

طاعتهم فيما لم يأذن الله فيه ، فإن قيل بماذا تعلم طاعة الشيطان من طاعة الرحمن ، مع أنا لا نسمع من الشيطان خبراً ولا نرى منه أثراً ؟ نقول عبادة الشيطان في مخالفة أمر الله أو الإتيان بما أمر الله لا لأنه أمر به ، ففي بعض الأوقات يكون الشيطان يأمرك وهو في غيرك ، وفي بعض الأوقات يأمرك وهو فيك ، فإذا جاءك شخص يأمرك بشيء ، فانظر إن كان ذلك موافقاً لأمر الله أو ليس موافقاً ، فإن لم يكن موافقاً فذلك الشخص معه الشيطان يأمرك بما يأمرك به ، فإن أطعته فقد عبدت الشيطان ، وإن دعتك نفسك ألى فعل فانظر أهو مأذون فيه من جهة الشرع أو ليس كذلك ، فإن لم يكن مأذوناً فيه فنفسك هي الشيطان ، أو معها الشيطان يدعوك ، فإن اتبعته فقد عبدته ، ثم إن الشيطان يأمر أولاً بمخالفة الله ظاهراً ، فمن أطاعه فقد عبده ومن لم يطعه فلا يرجع عنه ، بل يقول له أعبد الله كي لا تهان ، وليرتفع عند الناس شأنك ، وينتفع بك إخوانك وأعوانك ، فإن أجاب إليه فقد عبده لكن عبادة الشيطان على تفاوت ، وذلك لأن الأعمال منها ما يقع والعامل موافق فيه جنانه ولسانه وأركانه ، ومنها ما يقع والجنان واللسان مخالف للجوارح أو للأركان ، فمن الناس من يرتكب جريمة كارهاً بقلبه لما يقترف من ذنبه ، مستغفراً لربه ، يعترف بسوء ما يقترف

فهو عبادة الشيطان بالأعضاء الظاهرة ، ومنهم من يرتكبها وقلبه طيب ولسانه رطب ، كما أنك تجد كثيراً من الناس يفرح بكون متردداً إلى أبواب الظلمة للسعاية ، ويعد من المحاسن كونه سارياً مع الملوك ويفتخر به بلسانه ، وتجدهم يفرحون بكونهم آمرين الملك بالظلم والملك ينقاد لهم ، أو يفرحون بكونه يأمرهم بالظلم فيظلمون ، فرحين بما ورد عليهم من الأمر ، إذا عرفت هذا فالطاعة التي بالأعضاء الظاهرة ، والبواطن طاهرة مكفرة بالأسقام والآلام ، كما ورد في الأخبار ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم

(11/648)

---

" الحمى من فيح جهنم " وقوله صلى الله عليه وسلم : " السيف محاء للذنوب " أي لمثل هذا الذنوب ، ويدل عليه ما قال صلى الله عليه وسلم في الحدود " إنها كفارات " وما يكون بالقلوب فلا خلاص عنه إلا بالتوبة والندم وإقبال القلب على الرب ، وما يكون باللسان فهو من قبيل ما يكون بالقلب في الظاهر ، والمثال يوضح الحال فنقول إذا كان عند السلطان أمير وله غلمان هم من خواص الأمير وأتباع بعداءهم من عوام الناس ، فإذا صدر من الأمير مخالة ومسارة مع عدو السلطان ومصادقة بينهما ، لا يعفو الملك عن ذلك إلا إذا كان في غاية الصفح ، أو يكون للأمير عنده يد سابقة أو توبة لاحقة ، فإن صدر من خواص

الأمير مخالفة وهو به عالم ولم يزجره ، عدت المخالفة موجودة منه ، وإن كان كارهاً وأظهر الإنكار حسنت معاتبته دون معاقبته ، لأن إقدام خواصه على المخالفة دليل على سوء التربية ، فإن كان الصادر من الحواشي الأباعد وبلغ الأمير ولم يزجره عوتب الأمير ، وإن زجرهم استحق الأمير بذلك الزجر الإكرام ، وحسن من الملك أن يسدي إلى المزجور الإحسان والإنعام إن علم حصول انزجاره ، إذا علمت هذا فالقلب أمير واللسان خاصته والأعضاء خدمه ، فما يصدر من القلب فهو العظيم من الذنب ، فإن أقبل على محبة غير الله فهو الويل العظيم والضلال المبين المستعقب للعقاب الأليم والعذاب المهين ، وما يصدر من اللسان فهو محسوب على القلب ولا يقبل قوله إن لم ينكر فعله وما يصدر من الأعضاء والقلب قد أظهر عليه الإنكار وحصل له الانزجار فهو الذنب الذي حكى النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه أنه قال :

(12/648)

---

" لو لم تذنبوا لخلقت أقواماً يذنبون ويستغفرون فأغفر لهم " وههنا لطيفة : وهي أن الشيطان قد يرجع عن عبد من عباد الله فرحاً فيظن أنه قد حصل مقصوده من الإغواء حيث يرى ذلك العبد ارتكب الذنب ظاهراً ويكون ذلك رافعاً لدرجة العبد ، فإن

بالذنب ينكسر قلب العبد فيتخلص من الإعجاب فنفسه وعبادته ، ويصير أقرب من المقربين ، لأن من يذنب مقرب عند الله كما قال تعالى : ﴿ لَّهُمْ درجات عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [ الأنفال : 4 ] والمذنب التائب النادم منكسر القلب والله عنده كما قال صلى الله عليه وسلم حاكياً عن ربه " أنا عند المنكسرة قلوبهم " وفرق بين من يكون عند الله ، وبين من يكون عنده الله ، ولعل ما يحكى من الذنوب الصادرة عن الأنبياء من هذا القبيل لتحصل لهم الفضيلة على الملائكة حيث تبجحوا بأنفسهم بقولهم : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ ﴾ [ البقرة : 30 ] وقد يرجع الشيطان عن آخر يكون قد أمره بشيء فلم يفعله والشخص يظن أنه غلب الشيطان ورده خائباً فيتبجح في نفسه وهو لا يعلم أن الشيطان رجح عنه محصل المقصود مقبولاً غير مردود .

ومن هذا يتبين أمر أصولي وهو أن الناس اختلفوا في أن المذنب هل يخرج من الإيمان أم لا ؟ وسبب النزاع وقوع نظر الخصمين على أمرين متباينين فالذنب الذي بالجسد لا بالقلب لا يخرج بل قد يزيد في الإيمان والذي بالقلب يخاف منه الخروج عن ربقة الإيمان ولذلك اختلفوا في عصمة الأنبياء من الذنوب ، والأشبه أن الجسدي جائز عليهم والقرآن دليل عليه ، والقلبي لا يجوز عليهم ، ثم إنه تعالى لما نهى عباده عن عبادة الشيطان ذكر ما يحملهم على قبول ما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه بقوله : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مٌّبِينٌ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

من أين حصلت العداوة بين الشيطان والإنسان ؟ فنقول ابتداؤها من الشيطان وسببه تكريم الله بني آدم ، لما رأى إبليس ربه كرم آدم وبنيه عاداهم فعاداه الله تعالى والأولى منه لؤم والثاني من الله كرم ، أما الأول فلأن الملك إذا أكرم شخصاً ولم ينقص من الآخر شيئاً إذ لا ضيق في الخزانة ، فعداوة من يعادي ذلك المكرم لا تكون إلا لؤماً ، وأما الثاني فلأن الملك إذا علم أن إكرامه ليس إلا منه وذلك لأن الضعيف ما كان يقدر أن يصل إلى بعض تلك المنزلة لولا إكرام الملك ، يعلم أن من يبغضه ينكر فعل الملك أو ينسب إلى خزانته ضيقاً ، وكلاهما يحسن التعذيب عليه فيعاديه إتماماً للإكرام وإكمالاً للإفضال ، ثم إن كثيراً من الناس على مذهب إبليس إذا رأوا واحداً عند ملك محترماً بغضوه وسعوا فيه إقامة لسنة إبليس ، فالملك إن لم يكن متخلقاً بأخلاق الله لا يبعد الساعي ويسمع كلامه ويترك إكرام ذلك الشخص واحترامه .

المسألة الثانية :

من أين إبانة عداوة إبليس ؟ نقول لما أكرم الله آدم عاداه إبليس وظن أنه يبقى في منزلته وآدم في منزلته مثل متباغضين عند الملك والله كان عالماً بالضمائر فأبعده وأظهر أمره فأظهر هو

من نفسه ما كان يخفيه لزوال ما كان يحمله على الإخفاء فقال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ﴾ [ الأعراف : 16 ] وقال : ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ [ الإسراء : 62 ] .

المسألة الثالثة :

*(14/648)*

---

إذا كان الشيطان للإنسان عدواً مبيناً فما بال الإنسان يميل إلى مراضيه من الشرب والزنا ، ويكره مساخطه من المجاهدة والعبادة ؟ نقول سبب ذلك استعانة الشيطان بأعوان من عند الإنسان وترك استعانة الإنسان بالله ، فيستعين بشهوته التي خلقها الله تعالى فيه لمصالح بقائه وبقاء نوعه ويجعلها سبباً لفساد حالة ويدعوه بها إلى مسالك المهالك ، وكذلك يستعين بغضبه الذي خلقه الله فيه لدفع المفاسد عنه ويجعله سبباً لوباله وفساد أحواله ، وميل الإنسان إلى المعاصي كميل المريض إلى المضار وذلك حيث ينحرف المزاج عن الاعتدال ، فترى المحموم يريد الماء البارد وهو يريد في مرضه .

ومن به فساد المعدة فلا يهضم القليل من الغذاء يميل إلى الأكل الكثير ولا يشبع بشيء وهو يزيد في معدته فساداً ، وصحيح المزاج لا يشتهي إلا ما ينفعه فالدنيا كالهواء الوبيء لا يستغني الإنسان فيه عن استنشاق الهواء وهو المفسد لمزاجه ولا طريق له غير إصلاح

الهواء بالروائح الطيبة والأشياء الزكية والرش بالخل والماورد من جملة المصلحات ، فكذلك الإنسان في الدنيا لا يستغني عن أمورها وهي المعنيات للشيطان وطريقه ترك الهوى تقليل التأمين وتحريف الهوى بالذكر الطيب والزهد ، فإذا صح مزاج عقله لا يميل إلا إلى الحق ولا يبقى عليه في التكاليف كلفة ويحصل له مع الأمور الإلهية ألفة ، وهنالك يعترف الشيطان بأنه ليس له عليه سلطان .

وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61)

لما منع عبادة الشيطان حمل على عبادة الرحمن والشارع طبيب الأرواح كما أن الطبيب طبيب الأشباح ، وكما أن الطبيب يقول للمريض لا تفعل كذا ولا تأكل من ذا وهي الحمية التي هي رأس الدواء لئلا يزيد مرضه ، ثم يقول له تناول الدواء الفلاني تقوية لقوته المقاومة للمرض ، كذلك الشارع منع من المفسد وهو اتباع الشيطان وحمل على المصالح وهو عبادة الرحمن وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

عند المنع من عبادة الشيطان قال : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [ يس : 60 ] لأن العداوة أبلغ الموانع من الاتباع ، وعند الأمر بعبادة الرحمن لم يقل إنه لكم حبيب لأن المحبة لا توجب متابعة المحبوب بل ربما يورث ذلك الاتكال على المحبة .

فيقول إنه يحبني فلا حاجة إلى تحمل المشقة في تحصيل مراضيه ، بل ذكر ما هو أبلغ الأشياء في الحمل على العبادة وذلك كونه طريقاً مستقيماً ، وذلك لأن الإنسان في دار الدنيا في منزل قفر مخوف وهو متوجه إلى دار إقامة فيها إخوانه ، والنازل في بادية خالية يخاف على روحه وماله ولا يكون عنده شيء أحب من طريق قريب آمن ، فلما قال الله تعالى : ﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ كان ذلك سبباً حاثاً على السلوك ، وفي ضمن قوله تعالى : ﴿ هَذَا صراط ﴾ إشارة إلى أن الإنسان مجتاز لأنه لو كان في دار إقامة فقوله : ﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ لا يكون له معنى لأن المقيم يقول وماذا أفعل بالطريق وأنا من المقيمين .

المسألة الثانية :

ماذا يدل على كونه طريقاً مستقيماً ؟ نقول الإنسان مسافر إما مسافرة راجع إلى وطنه ، وإما مسافرة تاجر له متاع يتجر فيه ، وعلى الوجهين فالله هو المقصد ، وأما الوطن فلأنه لا يوطن في مأمن ولا أمن إلا بملك لا يزول ملكه لأن عند زوال ملك الملوك لا يبقى الأمن والراحة ، والله سبحانه هو الذي ملكه دائم وكل ما عداه فهو فإن ، وأما التجارة فلأن التاجر لا يقصد إلا إلى موضع يسمع أو يعلم أن لمتاعه هناك رواجاً ، والله تعالى يقول إن

العمل الصالح عنده مثاب عليه مقابل بأضعاف ما يستحق ، والله هو المقصد ، وعبادته توجه إليه ، ولا شك أن القاصد لجهة إذا توجه إليها يكون على الطريق المستقيم .

المسألة الثالثة :

(16/648)

---

العبادة تنبىء عن معنى التذلل ، فلما قال لا تعبدوا الشيطان لزم أن يتكبر الإنسان على ما سوى الله ولما قال : ﴿ وَأَنِ اعبدونى ﴾ ينبغي أن لا يتكبر على الله لكن التكبر على ما سوى الله ليس معناه أن يرى نفسه خيراً من غيره ، فإن نفسه من جملة ما سوى الله ، فينبغي أن لا يلتفت إليها ولو كانت متجملة بعبادة الله ، بل معنى التكبر على ما سوى الله أن لا ينقاد لشيء إلا بإذن الله وفي هذا التكبر غاية التواضع فإنه حينئذ لا ينقاد إلى نفسه وحظ نفسه في التفوق على غيره فلا يتفوق فيحصل التواضع التام ولا ينقاد لأمر الملوك إذا خالفوا أمر الله فيحصل التكبر التام فيرى نفسه بهذا التكبر دون الفقير وفوق الأمير .

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62)

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في الجبل ست لغات كسر الجيم والباء مع تشديد اللام وضمهما مع التشديد وكسرهما مع التخفيف وضمهما معه وتسكين الباء وتخفيف اللام مع ضم الجيم ومع كسره .

المسألة الثانية :

في معنى الجبل الجيم والباء واللام لا تخلو عن معنى الاجتماع والجبل فيه اجتماع الأجسام الكثيرة ، وجبل الطين فيه اجتماع أجزاء الماء والتراب ، وشاة لجباء إذا كانت مجتمعة اللبن الكثير ، لا يقال البلجة نقض على ما ذكرتم فإنها تنبىء عن التفرق فإن الأبلج خلاف المقرون لأنا نقول هي لاجتماع الأماكن الخالية التي تسع المتمكنات ، فإن البلجة والبلدة بمعنى والبلد سمي بلداً للاجتماع لا للتفرق ، فالجبل الجمع العظيم حتى قيل إن دون العشرة آلاف لا يكون جبلاً وإن لم يكن صحيحاً .

والمسألة الثالثة :



كيف الإضلال ؟ نقول على وجهين : أحدهما : أن الإضلال توليه عن المقصد وصد عنه فالشيطان يأمر البعض بترك عبادة الله وبعبادة غيره فهو توليه فإن لم يقدر يأمره بعبادة الله لأمر غير الله من رياسة وجاه غيرهما فهو صد ، وهو يفضي إلى التولية لأن مقصوده لو

حصل لترك الله وأقبل على ذلك الغير فتحصل التولية .

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63)

وحال الضال كحال شخص خرج من وطنه مخافة عدوه فوقع في مشقة ولو أقام في وطنه لعل ذلك العدو كان لا يظفر به أو يرحمه ، كذلك حال من لم يتحرك لطاعة ولا عصيان كالمجانين وحال من استعمل عقله فأخطأ الطريق ، فإن المجنون من أهل النجاة وإن لم يكن من أهل الدرجات ، وقد قيل بأن البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء ، وذلك ظاهر في المحسوس فإن من لم يعرف الطريق إذا أقام بمكانه لا يبعد عن الطريق كثيراً ومن سار إلى خلاف المقصد يبعد عنه كثيراً .

اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64)

وفي هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحسرتهم من ثلاثة أوجه أحدها : قوله تعالى : ﴿ اصلوها ﴾ فإنه أمر تنكيل وإهانة كقوله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [ الدخان : 49 ] ، والثاني : قوله : ﴿ اليوم ﴾ يعني العذاب حاضر ولذاتك قد مضت وأيامها قد انقضت وبقي اليوم العذاب الثالث : وقوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فإن الكفر والكفران ينبىء عن نعمة كانت يكفر بها وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام .

ولهذا كثيراً ما يقول العبد المجرم افعلوا بي ما يأمر به السيد ولا تحضروني بين يديه وإلى هذا المعنى أشار القائل :

أليس بكاف لذي نعمة . . حياء المسيء من المحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 84.89 ﴾

(18/648)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بني آدَمَ ﴾

العهد هنا بمعنى الوصية ؛ أي ألم أوصكم وأبلغكم على ألسنة الرسل ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان ﴾ أي لا تطيعوه في معصيتي .

قال الكسائي : لا للنهي ﴿ وَأَنِ اعبدوني ﴾ بكسر النون على الأصل ، ومن ضم كره كسرة بعدها ضمة .

﴿ هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي عبادتي دين قويم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ ﴾ أي أغوى ﴿ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾ أي خلقاً كثيراً ؛ قاله مجاهد .

قتادة : جموعاً كثيرة .

الكلبي : أمما كثيرة ؛ والمعنى واحد .

وقرأ أهل المدينة وعاصم : "جِبِلاّ" بكسر الجيم والباء .

وأبو عمرو وابن عامر "جُبْلاً" بضم الجيم وإسكان الباء .

الباقون "جُبُلاً" بضم الجيم والباء وتخفيف اللام ، وشدّدها الحسن وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وعبد الله بن عبيد والنضر بن أنس .

وقرأ أبو يحيى والأشهب العقيلي "جِبْلاً" بكسر الجيم وإسكان الباء وتخفيف اللام .

فهذه خمس قراءات .

قال المهدوي والثعلبي : وكلها لغات بمعنى الخلق .

النحاس : أبينها القراءة الأولى ؛ والدليل على ذلك أنهم قد أجمعوا على أن قرءوا ﴿ والجبلة الأولين ﴾ [ الشعراء : 184 ] فيكون "جِبِلاّ" جمع جِبِلّةٍ ، والاشتقاق فيه كله واحد .

وإنما هو من جبل الله عز وجل الخلق أي خلقهم .

وقد ذُكِرت قراءة سادسة وهي : "وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلاً كَثِيراً" بالياء .

وحكي عن الضحاك أن الجيل الواحد عشرة آلاف ، والكثير ما لا يحصيه إلا الله عز وجل ؛ ذكره الماوردي .

﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ عدواته وتعلموا أن الواجب طاعة الله .

﴿ هذه جَهَنَّمُ ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم هذه جهنم التي وعدتم فكذبتم بها .

(19/648)

---

وروي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة جمع الله الإنس والجن والأوّلين والآخرين في صعيد واحد ثم أشرف عنق من النار على الخلائق فأحاط بهم ثم ينادي منادٍ ﴿ هذه جَهَنَّمُ التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ اصلوها اليومِ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فحينئذ تجثو الأمم على ركبها وتضع كل ذات حمل حملها ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(20/648)

---

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بنى آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان ﴾

من جُملة ما يُقال لهم بطريق التَّقريعِ والإلزام والتَّبكيتِ بين الأمر بالامتياز وبين الأمر بدخول جهنَّمَ بقوله تعالى : ﴿ اصلوها اليوم ﴾ الخ والعهد هو الوصيَّة والتَّقدُّمُ بأمر فيه خير

ومنفعة والمراد ههنا ما كلَّفهم الله تعالى على ألسنةِ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ من الأوامرِ والنَّواهي التي من جُملتِها قوله تعالى: ﴿ يَذَّكَّرُونَ يا بنى آدمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجنة ﴾ الآيةَ وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خطوات الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ وغيرهما من الآياتِ الكريمةِ الواردة في هذا المعنى، وقيل: هو الميثاقُ المأخوذُ عليهم حين أُخرجوا من ظهور بني آدمَ وأُشهدوا على أنفسهم وقيل: هو ما نُصب لهم من الحُجج العقليَّةِ والسمعيَّةِ الآمرةِ بعبادته تعالى الزَّاجرةِ عن عبادة غيرِه. والمرادُ بعبادة الشَّيطانِ طاعتُه فيما يُوسوس به إليهم ويزيِّنه لهم، عبرَّعنها بالعبادة لزيادة التَّحذيرِ والتَّنفيرِ عنها ولوقوعها في مقابلة عبادته عزَّ وجلَّ. وقُرِىء إِعهد بكسرِ الهمزة، وأعهِد بكسر الهاء، وأحهد بالحاءِ مكان العين، وأحد بالإدغامِ وهي لغة بني تميمٍ ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهرُ العداوةِ وهو تعليل لوجوب الانتهاء عن المنهيِّ عنه وقيل تعليل للنَّهيِ.



---

﴿ وَأَنِ اعبدونى ﴾ عطف على أنْ لا تعبدُوا على أنَّ أنْ فيهما مفسِّرةٌ للعهد الذي فيه معنى القول بالنهي والأمر، أو مصدريَّةٌ حُذف عنها الجارُّ أي ألم أعهد إليكم في ترك عبادةِ الشَّيطانِ وفي عبادتي. وتقديم النَّهي على الأمر لما أنَّ حقَّ التَّخليةِ كما في كلمة التَّوحيدِ

وليتصل به قوله تعالى ﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ فإنَّه إشارة إلى عبادته تعالى التي هي عبارةٌ عن التَّوحيدِ والإسلام، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ هَذَا صراط عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ والمقصود بقوله تعالى: ﴿ لأقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ﴾ والتَّنكيرُ للتَّفخيمِ، واللام في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جبلاًّ كَثِيراً ﴾ جواب قسم محذوف والجملة استئناف مَسوق لتشديد التَّوبيخِ وتأكيد التَّقريعِ ببيان أن جنايا تِهم ليستْ بنقض العهدِ فقط بل به وبعدم الاتّعاظِ بما شاهدوا من العقوبات النَّازلةِ على الأُمم الخاليةِ بسبب طاعتهم للشّيطانِ، فالخطابُ لمتأخّريهم الذين من جُملتهم كُفَّارُ مكَّةَ خُصُّوا بزيادة التَّوبيخِ والتَّقريعِ لتضاعف جناياتهم والجِبِلّ بكسرِ الجيم والباءِ وتشديدِ اللاَّم الخَلْقُ. وقُرِىء بضمَّتينِ وتشديدٍ، وبضمَّتينِ وتخفيفٍ، وبضمَّةٍ وسكونٍ، وبكسرتينِ وتخفيفٍ، وبكسرةٍ وسكونٍ. والكلُّ لغاتٌ. وقُرِىء جِبَلاً جمع جِبْلةٍ كفِطَرٍ وخِلَقٍ في جمعِ فِطْرةٍ وخِلْقةٍ. وقُرِىء جِيْلاً بالياء وهو الصِّنفُ من النَّاسِ أي وبالله لقد أضلَّ منكم خَلْقاً كثيراً أو صِنفاً كثيراً عن ذلك الصِّراطِ المستقيم الذي أمرتُكم بالثَّباتِ عليه فأصابهم لأجلِ ذلك ما أصابَهم من العُقوبات الهائلةِ التي ملأ الآفاقَ أخبارُها وبقي مدى الدَّهرِ آثارُها. والفاءُ في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ للعطفِ على مقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ أي أكنتُم تشاهدونَ آثارَ عقوباتِهم فلم تكونوا تعقلون أنَّها

لضُلاَّلِهم أو فلم تكونُوا تعقلون شيئاً أصلاً حتَّى ترتدعُوا عمَّا كانُوا عليه كيلا يحيقَ بكم العقابُ.

وقوله تعالى: ﴿ هذه جَهَنَّمُ التى كُنُتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ استئنافٌ يخاطبون به بعد تمامِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ والإلزامِ والتَّبكيتِ عند إشرافهم على شفيرِ جهنَّمَ أي كنتم تُوعدونها على ألسنةِ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بمقابلة عبادة الشَّيطانِ مثل قولِه تعالى: ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ منهم أَجْمَعِينَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ قَالَ اذهب فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جزاء مَّوفُورًا ﴾ وقولِه تعالى: ﴿ قَالَ اخرج مِنْهَا مَذْءومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لاملأنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وغيرِ ذلك مِّما لا يُحصى. وقوله تعالى: ﴿ اصلوها اليوم بِمَا كُنُتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أمر تنكيل وإهانة كقولِه تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز ﴾ الخ أي ادخلُوها من فوق وقاسُوا فنونَ عذابِها اليّومَ بكفرِكم المستمرِّ في الدُّنيا. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(23/648)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِى بَنِى ءادَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان ﴾

من جملة ما يقال لهم بطريق لتقريع والإلزام والتبكيت بين الأمر والامتياز والأمر بمقاساة حر جهنم ، والعهد الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنعة ، والمراد به ههنا ما كان منه تعالى على ألسنة الرسل عليهم السلام من الأوامر والنواهي التي من جملتها قوله تعالى : ﴿ يا بنى آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مّنَ الجنة ﴾ [ الأعراف : 27 ] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خطوات الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [ البقرة : 168 ] وغيرهما من الآيات الواردة في هذا المعنى ، وقيل : هو الميثاق المأخوذ عليهم في عالم الذر إذ قال سبحانه لهم : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبّكُمْ ﴾ [ الأعراف : 172 ] وقيل : هو ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادة الله تعالى الزاجرة عن عبادة غيره عز وجل فكأنه استعارة لإقامة البراهين والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم عبر عنها بالعباة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها في مقابلة عبادته عز وجل ، وجوز أن يراد بها عبادة غير الله تعالى من الآلهة الباطل وإضافتها إلى الشيطان لأنه الآمر بها والمزين لها فالتجوز في النسبة ، وقرأ طلحة .

والهذيل بن شرحبيل الكوفي ﴿ أَعْهَدْ ﴾ بكسر الهمزة قاله "صاحب اللوامح" وقال هي لغة تميم ، وهذا الكسر في النون والتاء أكثر من بين أحرف المضارعة ؛ وقال ابن عطية قرأ

الهذيل وابن وثاب ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ ﴾ بكسر الميم والهمزة وفتح الهاء وهي من كسر حرف المضارعة سوى الياء ، وروى عن ابن وثاب ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ ﴾ بكسر الهاء ويقال عهد وعهد اه .

(24/648)

---

ولعله أراد أن كسر الميم يدل على كسر الهمزة لأن حركة الميم هي الحركة التي نقلت إليها الهمزة وحذفت الهمزة بعد نقل حركتها لا إن الميم مكسروة والهمزة بعدها مكسورة أيضاً فتلفظ بها ، وقال الزمخشري : قرىء ﴿ أَعْهَدْ ﴾ بكسر الهمزة وباب فعل كله يجوز في حروف مضارعته الكسر إلا في الياء و﴿ أَعْهَدْ ﴾ بكسر الهاء وقد جوز الزجاج أن يكون من باب نعم ينعم وضرب يضرب و﴿ احهد ﴾ بإبدال العين وحدها حاء مهملة و﴿ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ بإبدالها مع إبدال الهاء وإدغامها وهي لغة تميم ومنه قولهم دحا محا أي دعها معها وما ذكره من قوله : إلا في الياء مبني على بعض اللغات وعن بعض كلب أنهم يكسرون الياء أيضاً فيقولون يعلم مثلاً وقوله في أحد وأحد لغة بني تميم هو المشهور ، وقيل : أحهد لغة هذيل وأحد لغة بني تميم وقولهم دحا محا إما يريدوا به دع هذه القربة مع هذه المرأة أو دع هذه المرأة مع هذه القربة ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر العداوة وهو تعليل

لوجوب الانتهاب ، وقيل : تعليل للنهي وعداوة اللعين جاءت من قبل عداوته لآدم عليه السلام والنداء بوصف النبوة لآدم كالتمهيد لهذا التعليل والتأكيد لعدم جريهم على مقتضى العلم فهم والمنكرون سواء .

﴿ وَأَنِ اعبدونى ﴾ عطف على ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان ﴾ [يس : 60] على أن ﴿ إن ﴾ فيها مفسرة للعهد الذي فيه معنى القول دون حروفه أو مصدرية حذف عنها الجار أي ألم اعهد إليكم في ترك عبادة الشيطان وفي عبادتي وتقديم النهي على الأمر لما أن حق التخلية التقدم على التحلية قيل : وليتصل به قوله تعالى : ﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ بناء على أن الإشارة إلى عبادته تعالى لأنه المعروف في الصراط المستقيم ، وجعل بعضهم الإشارة إلى ما عهد إليهم من ترك عبادة الشيطان وفعل عبادة الله عز وجل .

(25/648)

---

ورجح بأن عبادته تعالى إذا لم تنفرد عن عبادة غيره سبحانه لا تسمى صراطاً مستقيماً فتأمل والجملة استئنافية جيء بها لبيان المقتضى للعهد بعبادته تعالى أو للعهد بشقيه والتنكير للمبالغة والتعظيم أي هذا صراط بليغ في استقامته جامع لكل ما يجب أن يكون عليه واصل لمرتبة يقصر عنها التوصيف والتعريف ولذا لم يقل هذا الصراط المستقيم أو

هذا هو الصراط المستقيم وإن كان مفيداً للحصر ، وجوز أن يكون التنكير للتبعيض على معنى هذا بعض الصرط المستقيمة وهو للهضم من حقه على الكلام المنصف ، وفيه إدماج التوبيخ على معنى أنه لو كان بعض الصراط الموصوفة بالاستقامة لكفى ذلك في انتهاجه كيف وهو الأصل والعدة كما قيل

: وأقول بعض الناس عنك كناية . . .

خوف الوشاة وأنت كل الناس

وفيه أن المطلوب الاستقامة والأمر دائر معها وقليلها كثير .

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جبِلاًّ كَثِيراً ﴾ استئناف مسوق لتشديد التوبيخ وتأكيد التقريع ببيان عدم اتعاظهم بغيرهم إثر بيان نقضهم العهد فالخطاب لمتأخريهم الذين من جملتهم كفار خصوا بزيادة التوبيخ والتقريع لتضاعف جناياتهم ، وإسناد الإضلال إلى ضمير الشيطان لأنه المباشر للإغواء .

والجبل قال الراغب الجماعة العظيمة أطلق عليهم تشبيهاً بالجبل في العظم ، وعن الضحاك أقل الجبل وهي الأمة العظيمة عشرة آلاف ، وفسره بعضهم بالجماعة وبعض بالأمة بدون الوصف وقيل هو الطبع المخلوق عليه الذي لا ينتقل كأنه جبل وهو هنا خلاف الظاهر .

وقرأ العربيان .

والهذيل ﴿ جبِلاًّ ﴾ بضم الجيم وإسكان الباء .

وقرأ ابن كثير .

وحمزة .

والكسائي بضمتين مع تخفيف اللام .

والحسن .

وابن أبي إسحاق .

والزهري .

وابن هرمز .

وعبد الله بن عبيد بن عمير .

وحفص بن حميد بضمتين وتشديد اللام ، والأشهب العقيلي .

واليماني .

(26/648)

---

وحماد بن سلمة عن عاصم بكسر الجيم وسكون الباء ، والأعمش بكسرتين وتخفيف اللام جمع جبلة نحو فطرة وفطر ، وقرأ أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه .

وبعض الخراسانيين ﴿ جيلاً ﴾ بكسر الجيم بعدها ياء آخر الحروف واحد الأجيال وهو

الصنف من الناس كالعرب والروم .

﴿ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام أي أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون أنها لضلالهم أو فلم تكونوا تعقلون شيئاً أصلاً حتى ترتدعوا عما كانوا عليه كيلا يحيق بكم العذاب الأليم .

وقرأ طلحة .

وعيسى .

وعاصم في رواية عبد بن حميد عنه بياء الغيبة فالضمير للجبل .

﴿ هذه جَهَنَّمُ التى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ استئناف يخاطبون به بعد تمام التوبيخ والتقريع والإلزام والتبكيت عند إشرافهم على شفير جهنم أي هذه التي ترونها حهنم التي لم تزالوا توعدون بدخولها على ألسنة الرسل عليهم السلام والمبلغين عنهم بمقابلة عبادة الشيطان .

﴿ اصلوها اليوم ﴾ أمر تحقير وإهانة كقوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ﴾ [ الدخان : 49 ] الخ أي قاسوا حرها في هذا اليوم الذي لم تستعدوا له ، وقال أبو مسلم : أي صيروا صلاها أي وقودها .

وقال الطبرسي : ألزموا العذاب بها وأصل الصلا اللزوم ومنه المصلي الذي يجيء في أثر السابق للزومه أثره .

﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ كفركم المستمر في الدنيا فالباء للسببية وما مصدرية واحتمال كونها موصولة بعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(27/648)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾

إقبال على جميع البشر الذين جَمَعهم المحشر غير أهل الجنة الذين عُجلوا إلى الجنة ، فيشمل هذا جميع أهل الضلالة من مشركين وغيرهم ، ولعله شامل لأهل الأعراف ، وهو إشهاد على المشركين وتوبيخ لهم .

والاستفهام تقريري ، وخوطبوا بعنوان ﴿ بني آدم ﴾ لأن مقام التوبيخ على عبادتهم الشيطان يقتضي تذكيرهم بأنهم أبناء الذي جعله الشيطان عدوّاً له ، كقول النابغة:

لئن كان للقبرين قبرٍ بجلق . . .

وقبر بصيدا الذي عند حارب

وللحارث الجفني سيد قومه . . .

ليلتمس بالجيش دار المحارب

يعني بلاد من حارب أصوله .

والعهد : الوصاية ، ووصاية الله بني آدم بألا يعبدوا الشيطان هي ما تقرر واشتهر في الأمم بما جاء به الرسل في العصور الماضية فلا يسع إنكاره .

وبهذا الاعتبار صح الإِنكار عليهم في حالهم الشبيهة بحال من يجحد هذا العهد .

واعلم أن في قوله تعالى : ﴿ أَعْهَدْ ﴾ توالي العين والهاء وهما حرفان متقاربا المخرج من حروف الحلق إلاّ أن تواليهما لم يحدث ثقلاً في النطق بالكلمة ينافي الفصاحة بموجب تنافر الحروف لأن انتقال النطق في مخرج العين من وسط الحلق إلى مخرج الهاء من أقصى الحلق خفف النطق بهما ، وكذلك الانتقال من سكون إلى حركة زاد ذلك خفة .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وسبحه ﴾ [ الإنسان : 26 ] المشتمل على حاء وهي من وسط الحلق وهاء وهي من أقصاه إلا أن الأولى ساكنة والثانية متحركة وهما متقاربا المخرج ، ولا يعد هذا من تنافر الحروف ، ومثّل له بقول أبي تمام:

كريم متى أَمْدَحْهُ أُمْدَحْهُ والورى . . .

معي وإذا ما لمته لمته وحدي

فإن كلمة ( أَمْدَحْه ) لا تُعَدّ متنافرة الحروف على أن تكريرها أحدث عليها ثقلاً ما فلا يكون ذلك مثل قول امرىء القيس:

غدائرهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إلى العُلى . . .

المجعول مثالاً للتنافر فإن تنافر حروفه انجرّ إليه من تعاقب ثلاثة حروف : السين والشين والزاي ، ولولا الفصل بين السين والشين بالتاء لكان أشد تنافراً .

وموجبات التنافر كثيرة ومرجعها إلى سرعة انتقال اللسان في مخارج حروف شديدة التقارب أو التباعد مع عوارض تعرض لها من صفات الحروف من : جهر وهمس ، أو شدة ورخو ، أو استعلاء واستفال ، أو انفتاح وانطباق ، أو إصمات وانذلاق .

ومن حركاتها وسكناتها وليس لذلك ضابط مطرد ولكنه مما يُرجع فيه إلى ذوق الفصحاء .

وقد حاول ابن سِنان الخفاجي إرجاعه إلى تقارب مخارج الحروف فردّه ابن الأثير عليه بما لا مخلص منه .

وإذا اقتضى الحال من حقّ البلاغة إيثار كلمة بالذكر إذ لا يعدِلُها غيرها فعرض من تصاريفها عارض ثقل لا يكون حقُّ مقتضى الحال البلاغي موجباً إيرادها .

و﴿ أنْ ﴾ تفسيرية ، فسرت إجمال العهد لأن العهد فيه معنى القول دون حروفه ف ﴿ أَنْ ﴾ الواقعة بعده تفسيرية .

وعبادة الشيطان : عبادة ما يأمر بعبادته من الأصنام ونحوها .

وجملة ﴿ لكُم عدوٌّ مُبِينٌ ﴾ تعليل لجملة ﴿ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ ﴾ وقد أغنت ﴿ أن ﴾ عن فاء السببية كما تقدم غير مرة .

و﴿ مُبِينٌ ﴾ اسم فاعل من أبان بمعنى بان للمبالغة ، أي عداوته واضحة ، ووجه وضوحها أن المرء إذا راقب عواقب الأعمال التي توسوسها له نفسه واتهمها وعرضها على وصايا الأنبياء والحكماء وجدها عواقب نحسة ، فوضح له أنها من الشيطان بالوسوسة وأن الذي وسوس بها عدوّ له لأنه لو كان ودوداً لما أوقعه في الكوارث ولا يظن به الإيقاع في ذلك عن غير بصيرة لأن تكرر أمثال تلك الوساوس للمرء ولأمثاله ممن يبوح له بأحواله يدل ذلك التكرر على أنها وساوس مقصودة للإيقاع في المهالك فعلم أن المشير بها عدوّ ألد ، ولعل هذا المعنى هو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ ولقد أضلَّ مِنكم جبلاً كَثِيراً أَفَلَم تكُونوا تَعْقِلون ﴾ .

(29/648)

---

وجملة ﴿ وأنِ اعْبُدُوني ﴾ عطف على ﴿ أن لا تعْبُدُوا الشَّيْطانَ ﴾ بإعادة ﴿ أن ﴾ التفسيرية فهما جملتان مفسرتان لعهدين .

وعدل عن الإتيان بصيغة قصر لأن في الإتيان بهاتين الجملتين زيادة فائدة لأن من أهل الضلالة الدهريين والمعطلين فهم وإن لم يعبدوا الشيطان ولكنهم لم يعبدوا الله فكانوا خاسئين بالعهد .

والإشارة في قوله : ﴿ هذا صِراطٌ مستقيم ﴾ للعهد المفهوم من فعل ﴿ أَعْهَد ﴾ أو للمذكور في "تفسيره" من جملتي ﴿ لا تعبدوا الشيطان ﴾ ﴿ وأنِ اعْبُدُوني ﴾ ، أي هذا المذكور صراط مستقيم ، أي كالطريق القويم في الإبلاغ إلى المقصود .

والتنوين للتعظيم .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد أضَلَّ مِنكم جبِلاًّ كثيراً ﴾ عطف على ﴿ إنَّهُ لكم عدوٌّ مبين ﴾ فعداوته واضحة بدليل التجربة فكانت علة للنهي عن عبادة ما يأمرهم بعبادتهم .

والمعنى : إن عداوته واضحة وضوح الصراط المستقيم لأنها تقررت بين الناس وشهدت بها العصور والأجيال فإنه لم يزل يُضلّ الناس إضلالاً تواتر أمره وتعذر إنكاره .

والجِبِلّ : بكسر الجيم وكسر الموحدة وتشديد اللام كما قرأه نافع وعاصم وأبو جعفر .

وقرأه ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ورويس عن يعقوب بضم الجيم وضم الباء الموحدة وتخفيف اللام .

وقرأه ابن عامر وأبو بكر بضم الجيم وسكون الباء .

والجبلّ : الجمع العظيم ، وهو مشتق من الجَبْل بسكون الباء بمعنى الخلق .

وفرع عليه توبيخهم بقلة العقول بقوله : ﴿ أَفَلَم تكونوا تَعْقِلونَ ﴾ ، فالاستفهام إنكاري عن عدم كونهم يعقلون ، أي يدركون ، إذ لو كانوا يعقلون لتفطنوا إلى إيقاع الشيطان بهم في مهاوي الهلاك .

وزيادة فعل الكون للإيماء إلى أن العقل لم يتكون فيهم ولا هم كائنون به .

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63)

(30/648)

---

إقبال على خطاب الذين عبدوا معبودات يسوّلها لهم الشيطان ، إذ تبدو لهم جهنم بحيث يشار إليها ويعرفون أنها هي جهنّم التي كانوا في الدنيا يُنذرون بها وتُذكر لهم في الوعيد مدة الحياة .

والأمر بقوله : ﴿ اصلَوْهَا ﴾ مستعمل في الإهانة والتنكير .

و﴿ اصلوها ﴾ أمر من صلي يصلى ، إذا استدفأ بحرّ النار ، وإطلاق الصلْي على الإحراق تهكّم .

والتعريف في ﴿ اليومَ ﴾ تعريف العهد ، أي هذا اليوم الحاضر وأريد به جواب ما كانوا يقولون في الحياة الدنيا من استبطاء الوعد والتكذيب إذ يقولون ﴿ متى هذا الوعد إن

كنتم صادقين ﴾ [ يونس : 48 ] .

والباء في ﴿ بِما كنتم تَكْفُرونَ ﴾ سببية ، أي بسبب كفركم في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

(31/648)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾

لو كان هذا القول من مخلوقٍ إلى مخلوقٍ لكَانَ شِبْهَ اعتذار ؛ أي لقد نصحتكم ووعظتُكم ، ومن هذا حَذَّرْتُكم ، وكم أوصلتُ لكم القولَ ، وذَكَّرْتُكم فلم تقبلوا وَعْظِي ، ولم تعملوا بأمري ، فأنْتم خالَفْتُم ، وعلى أنفسكم ظَلَمْتُم ، وبذلك سبَقَت القضيةُ مِنَّا لكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 223 ﴾

(32/648)

---

قوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (67) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان كأنه قيل : هل يحكم فيهم بعلمه أو يجري الأمر على قاعدة الدنيا في العمل بالبينة ، بين أنه على أظهر من قواعد الدنيا ، فقال مهولاً لليوم على النسق الماضي في مظهر العظمة لأنه أليق بالتهويل : ﴿ اليوم نختم ﴾ أي بما لنا من عجيب القدرة المنشعبة من العظمة ، ولفت القول إلى الغيبة إيذاناً بالإعراض لتناهي الغضب فقال : ﴿ على أفواههم ﴾ أي لاجترائهم على الكذب في الأخرى كما كان ديدنهم في الدنيا ، وكان الروغان والكذب والفساد إنما يكون باللسان المعرب عن القلب ، وأما بقية الجوارح فمهما خرق العادة بإقدارها على الكلام لم تنطق إلا بالحق فلذلك قال : ﴿ وتكلمنا أيديهم ﴾ أي بما عملوا إقراراً هو أعظم شهادة ﴿ وتشهد أرجلهم ﴾ أي عليهم بكلام بين هو مع كونه شهادة إقرار ﴿ بما كانوا ﴾ أي في الدنيا بجبلاتهم ﴿ يكسبون ﴾ فالآية من الاحتباك : أثبت الكلام للأيدي أولاً لأنها كانت مباشرة دليلاً على حذفه من حيز الأرجل ثانياً ، وأثبت الشهادة

للأرجل ثانياً لأنها كانت حاضرة دليلاً على حذفها من حيز الأيدي أولاً ، وبقرينه أن قول المباشر إقرار وقول الحاضر شهادة ، روى مسلم في صحيحه عن أنس -رضى الله عنه- قال : "يقول العبد : يا رب ! ألم تجرني من الظلم ، قال : فيقول : بلى ، فيقول : فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقي ، فتنطق بأعماله ، ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل " وبالظاهر أن السر في الختم على فيه منعه من أن يلغط حال شهادتها عليه لئلا يسمع قولها ، وكما هو دأب أهل العناد عند الخصام .

(33/648)

---

ولما أتم بضرب المثل وما بعده الدلالة على مضمون ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر﴾ وما علقت به من إحياء الموتى ، ودل على ذلك بما تركه كالشمس ليس فيه لبس ، وزاد من بحو الفوائد وجميل العوائد ما ملأ الأكوان من موجبات الإيمان ، وذكر ما في فريقي المتبعين والممتنعين يوم البعث ، وختم بالختم على الأفواه بعد البعث ، أتبعه آية الختم بالطمس والمسخ قبل الموت تهديداً عطفاً على ما رجع إليه المعنى مما قبل أول ذلك الخطاب من قوله ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾ الآية ، دفعاً لما ربما وقع في وهم أحد أن القدرة لا تتوجه إلى غير الطمس

في المعاني بضرب السد وما في معناه ، فأخبر أنه كما أعمى البصائر قادر على إذهاب الأبصار ، فقال مؤكداً لما لهم من الإنكار أو الأفعال التي هي فعل المنكر : ﴿ ولو ﴾ وعبر بالمضارع في قوله : ﴿ نشآء ﴾ ليتوقع في كل حين ، فيكون أبلغ في التهديد ﴿ لطمسنا ﴾ وقصر الفعل إشارة إلى أن المعنى : لو نريد لأوقعنا الطمس الذي جعلناه على بصائرهم ﴿ على أعينهم ﴾ فأذهبنا عينها وأثرها ، وجعلناها مساوية للوجه بحيث تصير كأنها لم تكن أصلاً ، وقد تقدم في النساء نقل معنى هذا عن ابن هشام .

ولما كان الجالس مع شخص في مجلس التنازع وهو يهدده إن لم يرجع عن غيه بقارعة يصيبه بها يبادر الهرب إذا فاجأته منه مصيبة كبيرة خوفاً من غيرها جرياً مع الطبع لما ناله من الدهش ، ومسه من عظيم الانزعاج والوجل ، كما اتفق لقوم لوط عليه السلام لما مسح جبريل عليه السلام أعينهم فأغشاها حين بادروا الباب هراباً يقولون : عند لوط أسحر الناس ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فاستبقوا ﴾ أي كلفوا أنفسهم ذلك وأوجدوه .

ولما كان المقصود بيان إسراعهم في الهرب ، عدى الفعل مضمناً له معنى ﴿ ابتدروا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ واستبقوا الخيرات ﴾ [ البقرة : 148 ] فقال : ﴿ الصراط ﴾ أي الطريق الواضح الذي ألفوه واعتادوه ، ولهم به غاية المعرفة .

ولما كان الأعمى لا يمكنه في مثل هذه الحالة المشي بلا قائد فضلاً عن المسابقة، سبب عن ذلك قوله منكراً: ﴿فأنى﴾ أي كيف ومن أين ﴿يبصرون﴾ أي فلم يهتدوا للصراط لعدم إبصارهم بل تصادموا فتساقطوا في المهالك وتهافتوا.

ولما كان هذا كله مع القدرة على الحركة قال: ﴿ولو نشاء﴾ أي أن نمسخهم ﴿لمسخناهم﴾ أي حولناهم إلى الجمادية فأبطلنا منهم الحركة الإرادية.

ولما كان المقصود المفاجأة بهذه المصائب بياناً لأنه سبحانه لا كلفة عليه في شي من ذلك قال: ﴿على مكانتهم﴾ أي المكان الذي كان قبل المسخ كل شخص منه شاغلاً له بجلوس أو قيام أو غيره في ذلك الموضع خاصة قبل أن يتحرك منه، وهو معنى قراءة شعبة عن عاصم "مكانتهم" ودل على أن المراد التحويل إلى أحوال الجمادية بما سبب عن ذلك من قوله: ﴿فما استطاعوا﴾ أي بأنفسهم بنوع معالجة ﴿مضيّاً﴾ أي حركة إلى جهة من الجهات؛ ثم عطف على جملة الشرط قوله: ﴿ولا يرجعون﴾ أي يتجدد لهم بوجه من الوجوه رجوع إلى حالتهم التي كانت قبل المسخ دلالة على أن هذه الأمور حق لا كما يقولون من أنها خيال وسحر، بل ثباتها لا يمكن أحداً من الخلق رفعه ولا تغيره بنوع تغيير هذا المراد إن شاء الله، ولو قيل: ولا رجوعاً - كما قال بعضهم إنه المراد، لم يفد هذا المعنى النفيس.

ولما كانت هذه أموراً فرضية يتأتى لبعض المعاندين اللد الطعن فيها مكابرة ، وكان كونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبي الرحمة مانعاً من المفاجأة بالتعذيب بعذاب الاستئصال بها ، دل عليها بما يشاهدونه من باهر قدرته وغريب حكمته في صنعته ، فقال دالاً بالعاطف على غير معطوف عليه ظاهر على أن التقدير : فقد خلقناهم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم أولدناهم لا يعلمون شيئاً ولا يقدرون على شيء ، ثم درجناهم في أطوار الأسنان معلين لهم في معارج القوى الظاهرة والباطنة إلى أن صاروا إلى حد الأشد – وهو استكمال القوى البشرية – فأوقفنا قواهم الظاهرة والباطنة ، فلم نجر العادة بأن نحدث فيهم إذ ذاك قوة لم تكن أيام الشباب : ﴿ ومن نعمره ﴾ أي نطل عمره إطالة كبيرة منهم بعد ذلك ﴿ ننكسه ﴾ وقراءة عاصم وحمزة بضم أوله وفتح ثانيه وكسر الكاف مشددة دالة على تفاوت الناس في النكس ، ولم يقل " في خلقه " لئلا يظن أن المراد أن المعمر له خلق أنشأه وأبدعه ﴿ في الخلق ﴾ أي فيما أبدعناه من تقدير بدنه وروحه أي نرده على عقبه نازلاً في المدارج التي أصعدناه فيها إلى أن تضمحل قواه الحسية فيكون كالطفل فلا يقدر على شيء والمعنوية فلا يعلم شيئاً ، ومن قدر على مثل هذا التحويل من حالة إلى أخرى لم تكن طرداً

وعكساً قدر على مثل ما مضى من التحويل بلا فرق ، غير أنهم لكثرة إلفهم لذلك صيره عندهم هيناً ، ولقلة وجود الأول صيره عندهم بعيداً ، ولذلك سبب عن الكلام قوله : على الأسلوب الماضي في قراءة الجماعة ولفتاً إلى الخطاب عند المدنيين ويعقوب لأنه أقرب إلى الاستعطاف وإعلاماً بأن الوعظ عام لكل صالح للخطاب : ﴿ أفلا يعقلون ﴾ وقال بعض العارفين : قيد بالخلق احترازاً عن الأمر ، فإن المؤتمر كلما زاد سنّاً ازداد لربه طاعة وبه علماً ، يعني أن النكس في البدن أمر لا بد منه ، وأما في المعارف فتارة وتارة .

*(36/648)*

---

ولما أتم سبحانه الدليل على آية ﴿ لقد حق القول على أكثرهم ﴾ بأن التكذيب بالأصلين التوحيد والحشر ، وبينهما غاية البيان ، رجع إلى تثبيت الأصل الثالث وهو أمر الرسول والتنزيل ، ولما كان من المعلوم أن الله تعالى أجرى العادة في النوع الآدمي أن من استوفى سن الصبا والشباب اثنين وأربعين سنة حسمت غرائزه فلم يزد فيه غريزة ، ووقفت قواه كلها فلم يزد فيها شيء ، أما المعاني الحسية فمطلقاً ، وأما المعنوية فلا تزيد إلا بالتجربة والكسب ، ولذلك قالوا :

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً . . .

فمطلبها كهلاً عليه شديد

وكان من المعلوم أن الأنبياء عليهم السلام تظهر عليهم غرائز العلوم والحكم وغير ذلك مما يجريه الله على أيديهم ، ولا ينقص شيء من قواهم بل تزاد كما روي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يمشي غير مكترث ، وأن الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م ليجهدون أنفسهم ، فيكون جهدهم أن يدركوا مشية الهوينا ، وأنه صارع ركانة الذي كان يضرب بقوته المثل ، وكان واثقاً من نفسه بأنه يصرع من صارعه ، فلم يملكه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه ، وعاد إلى ذلك ثلاث مرات ، كل ذلك لا يستمسك في يده حتى شرع يقول : أن هذا لعجب يا محمد ! أتصرعني ، وحتى أنه دار على نسائه – وهن تسع – كل واحدة منهن تسع مرات في طلق واحد إلى غير ذلك مما يحكى من قواه التي فاق بها الناس ، ولم يحك عن نبي من الأنبياء ممن عاش منهم ألفاً ومن عاش دون ذلك أنه نقص شيء من قواه ، بل قد ورد في الصحيح من حديث أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ



---

"أن ملك الموت عليه السلام أرسل إلى موسى عليه السلام ليقبض روحه فلما جاءه صكه ففقأ عينه فقال لربه : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ، قال : ارجع إليه فقل له : يضع يده

على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة ، قال : أي رب ! ثم ماذا ؟ قال : الموت ، قال فالآن " وفي آخر التوراة : وقضى عبد الله موسى بأرض موآب بأمر الرب ، فدفن حذاء بيت فاغورا ، ولم يعرف أحد أين قضى إلى يومنا هذا ، وكان موسى يوم قضي ابن مائة وعشرين سنة ، لم يضعف سني الوقوف في الغرائز والضعف في القوى خرقاً للعادة إكراماً لهم وتنبيهاً للناس على صدقهم ، علم من العطف على غير معطوف عليه ظاهر ومن الإتيان بضميره. صلى الله عليه وسلم. من غير تقدم ذكر له أن التقدير : لكن نبينا . صلى الله عليه وسلم. عمرناه وما نكسناه بل منحناه غرائز من الفضائل عجز عنها الأولون والآخرون ، فأتى بقرآن أعجز الإنس والجن ، وعلوم وبركات فاتت القوى ، ومعلوم قطعاً أن الذي أتى به ليس بشعر خلافاً لما رموه به بغياً وعدواناً ، وكذباً على جنابه وافتراء وتجاوزاً في البهت وطغياناً ، لأنه قد مضى عليه سن الصبا والشباب جميعاً ولم يقل بيت شعر مع ما يرى لكم ولأمثالكم فيه من المفاخرة ، وبه من المكاثرة ، وقد وصل إلى سن الوقوف المعلوم قطعاً أنه لا يحدث للإنسان فيه غريزة لم تكن أيام شبابه لا شعرية ولا غيرها : ﴿ وما علمناه ﴾ أي نحن ﴿ الشعر ﴾ فيما علمناه وهو أن يتكلف التقيد بوزن معلوم وروي مقصود وقافيه يلتزمها ، ويدير المعاني عليها ويجتلب الألفاظ تكلفاً إليها كما كان زهير في قصائده الحوليات وغيره من أصحاب التكلفات ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ [ ص : 86 ] لأن ذلك وإن كنتم أنتم تعدونه فخراً لا يليق بجنابنا لأنه لا يفرح به إلا من يريد ترويج كلامه وتحليته

بصوغه على وزن معروف مقصود وقافيه ملتزمة لكونه لا يقدر على الإتيان بأحسن منه بما لا يقايس من غير التزام وزن ولا قافية على أن فيه

(38/648)

---

نقيصة أخرى ، وهي أعظم ما يوجب النفرة منه ، وهي أنه لا بد أن يوهي التزامه بعض المعاني ، ولما لم نعلمه هذه الدناءة طبعناه على جميع فنون البلاغة ، ومكناه من سائر وجوه الفصاحة ، ثم أسكنا قلبه ينابيع الحكمة ، ودربناه على إلقاء المعاني الجليلة وإن دقت في الألفاظ الجزلة العذبة السهلة موزونة كانت أو لا ، وذلك بما ألهمناه إياه ثم بما ألقاه إليه جبريل عليه السلام مما أمرنا له به من جوامع الكلم والكلام ، فلا تكلف عنده أصلاً ، ما خير بين الأمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً أو قطيعة رحم ، وهذا البيت الذي أوردته عزاه في الحماسة في أوائل باب الأدب إلى رجل من بني قريع لم يسمه وقبله :

متى ما يرى الناس الغني وجاره . . .

فقير يقولوا عاجز وجليد

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى . . .

ولكن أحاظ قسمت وجدود

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً . . .

فمطلبها كهلاً عليه شديد

وكائن رأينا من غنى مذمم . . .

وصعلوك قوم مات وهو حميد

والمعنى أن كثرة المال وقلته ليست من غريزة من الغرائز ، وإنما هي أمر رباني لا مدخل للغرائز من جلاده ولا غيرها فيه ، بدليل أنا كثيراً ما رأينا من فاته الغنى شاباً جلداً وناله شيخاً ضعيفاً ، وما رأينا من أخطأته المروءة شاباً نالها شيخاً ، وبدليل أنه كم من غني كانت غرائزه ذميمة ، وكم من فقير كانت خلائقه محمودة ، والمروءة هي الإنسانية ، وهي كل أمر هنيء حميد المغبة جميل العاقبة ، وهذا هو السيادة ، يعني أن من كانت المروءة في غريزته حمله طبعه على تعاطيها في شبابه غنياً كان أو فقيراً ، ومن لم يكن عنده لم يقدر على تكلفها في سن الاكتهال ، فلله درهم ! ما كان أحكمهم وأدراهم بالدقائق وأعلمهم ، ولذلك جعل هذا النبي الأمي منهم ، فملأت معارفه الأكوان ، وسمت في رتب المعاني صاعدة فأين منها كيوان . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 6 صـ 275 . 280﴾

(39/648)

فصل

قال الفخر :

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65) ﴾

في الترتيب وجوه الأول : أنهم حين يسمعون قوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنتم تَكْفُرُونَ ﴾ [ يس : 64 ] يريدون ( أن ) ينكروا كفرهم كما قال تعالى عنهم ما أشركنا وقالوا آمنا به فيختم الله على أفواههم فلا يقدرون على الإنكار وينطق الله غير لسانهم من الجوارح فيعترفون بذنوبهم الثاني : لما قال الله تعالى لهم : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ ﴾ [ يس : 60 ] لم يكن لهم جواب فسكتوا وخرسوا وتكلمت أعضاؤهم غير اللسان ، وفي الختم على الأفواه وجوه : أقواها ، أن الله تعالى يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها وينطق جوارحهم فتشهد عليهم ، وإنه في قدرة الله يسير ، أما الإسكات فلا خفاء فيه ، وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة فكما جاز تحركه بها جاز تحرك غيره بمثلها والله قادر على الممكنات والوجه الآخر أنهم لا يتكلمون بشيء لانقطاع أعذارهم وانتهاك أستارهم فيقفون ناكسي الرؤوس وقوف القنوط اليؤوس لا يجد عذراً فيعتذر ولا مجال توبة فيستغفر ، وتكلم الأيدي ظهور الأمور بحيث لا يسع معه الإنكار حتى تنطق به الأيدي والأبصار ، كما يقول القائل : الحيطان تبكي على صاحب الدار ، إشارة إلى ظهور الحزن ، والأول الصحيح وفيه لطائف لفظية ومعنوية .

أما اللفظية فالأولى منها : هي أن الله تعالى أسند فعل الختم إلى نفسه وقال : ﴿ نَخْتِمُ ﴾ وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدي والأرجل ، لأنه لو قال تعالى : نختم على أفواههم وتنطق أيديهم يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبراً وقهراً والإقرار بالإجبار غير مقبول فقال تعالى : ﴿ وتُكَلِّمُنَا أَيدِيهِمْ وتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ﴾ أي باختيارها بعد ما يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم الثانية : منها هي أن الله تعالى قال : ﴿ تُكَلِّمُنَا أَيدِيهِمْ وتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ﴾ جعل الشهادة للأرجل والكلام للأيدي لأن الأفعال تسند إلى الأيدي قال تعالى : ﴿ ومَا عَمِلَتْهُ أَيدِيهِمْ ﴾ [ يس : 35 ] أي ما عملوه وقال : ﴿ ولا تلقوا بِأَيدِيكُمْ ﴾ [ البقرة : 195 ] أي ولا تلقوا بأنفسكم فإذا الأيدي كالعاملة ، والشاهد على العامل ينبغي أن يكون غيره فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود لبعد إضافة الأفعال إليها ، وأما المعنوية فالأولى : منها أن يوم القيامة من تقبل شهادته من المقربين والصديقين كلهم أعداء للمجرمين وشهادة العدو على العدو غير مقبولة ، وإن كان من الشهود العدول وغير الصديقين من الكفار والفساق غير مقبول الشهادة فجعل الله الشاهد عليهم منهم ، لا يقال الأيدي والأرجل أيضاً صدرت الذنوب منها فهي فسقة فينبغي أن لا تقبل شهادتها ،

لأنا نقول في رد شهادتها قبول شهادتها ، لأنها إن كذبت في مثل ذلك اليوم فقد صدر الذنب منها في ذلك اليوم ، والمذنب في ذلك اليوم مع ظهور الأمور ، لا بد من أن يكون مذنباً في الدنيا ، وإن صدقت في ذلك اليوم فقد صدر منها الذنب في الدنيا ، وهذا كمن قال لفاسق : إن كذبت في نهار هذا اليوم فعبدي حر ، فقال الفاسق : كذبت في نهار هذا اليوم عتق العبد ، لأنه إن صدق في قوله كذبت في نهار هذا اليوم فقد وجد الشرط ووجب الجزاء ، وإن كذب في قوله كذبت فقد كذب في نهار ذلك اليوم ، فوجد



---

الشرط أيضاً بخلاف ما لو قال في اليوم الثاني كذبت في نهار اليوم الذي علقت عتق عبدك على كذبي فيه .

المسألة الثانية :

الختم لازم الكفار في الدنيا على قلوبهم وفي الآخرة على أفواههم ، ففي الوقت الذي كان الختم على قلوبهم كان قولهم بأفواههم ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك قَوْلُهُم بأفواههم ﴾ [ التوبة : 30 ] فلما ختم على أفواههم أيضاً لزم أن يكون قولهم بأعضائهم ، لأن الإنسان لا يملك

غير القلب واللسان والأعضاء ، فإذا لم يبق القلب والفم تعين الجوارح والأركان .

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66)

(42/648)

---

قد ذكرنا مراراً أن الصراط المستقيم هو بين الجبر والقدر وهو الطريقة الوسطى ، والله تعالى في كل موضع ذكر ما يتمسك به المجبرة ذكر عقيبه ما يتمسك به القدرية وبالعكس ، وههنا كذلك لما قال الله تعالى : ﴿ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [ يس : 65 ] وقال : ﴿ اصلوها اليوم بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [ يس : 64 ] وكان ذلك متمسك القدرية حيث أسند الله الكفر والكسب إليهم وأحال الخير والشر عليهم ، ذكر عقيبه ما يدل على أن كفرهم وكسبهم بمشيئة الله ، وذلك لأن الكفر يعمي البصيرة ويضعف القوة العقلية ، وعمى البصيرة بإرادة الله ومشيئته ، إذا شاء أعمى البصائر ، كما أنه لو شاء لطمس على أعينهم المبصرة ، وسلب القوة العقلية باختياره ومشيئته ، كما أن سلب القوة الجسمية بمشيئته ، حتى لو شاء لمسخ المكلف على مكانته وأقامه بحيث لا يتحرك يمنة ولا يسرة ، ولا يقدر على المضي والرجوع ، فإعماء البصائر عنده كإعماء الأبصار ، وسلب القوة العقلية كسلب القوة الجسمية ، فقال : ﴿ وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا على أَعْيُنِهِمْ ﴾ إشارة إلى أنه لو شاء

وأراد إعماء بصائرهم فضلوا ، وأنه لو شاء طمس أعينهم لما اهتدوا إلى طريقتهم الظاهرة ، وشاء واختار سلب قوة عقولهم فزلوا ، وأنه لو شاء سلب قوة أجسامهم ومسخهم لما قدروا على تقدم ولا تأخر .

وفي الآيتين أبحاث لفظية :

(43/648)

---

البحث الأول : في قوله : ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ قال الزمخشري فيه وجوه الأول : أنه يكون فيه حذف حرف إلى واتصال الفعل من غير حرف وأصله فاستبقوا إلى الصراط الثاني : أن يكون المراد من الاستباق الابتدار فأعمله أعمال الابتدار الثالث : أن يجعل الصراط مستبقاً لا مستبقاً إليه ، يقال استبقنا فسبقتهم وحينئذٍ يكون مبالغة في الاهتداء إلى الطريق ، كأنه يقول الصراط الذي هو معهم ليسوا طالبين له قاصدين إياه ، وإنما هم عليه إذا طمس الله على أعينهم لا يبصرونه ، فكيف إن لم يكونوا على الصراط .

البحث الثاني : قدم الطمس والإعماء على المسخ والإعجاز ليكون الكلام مدرجاً ، كأنه قال : إن أعماهم لم يروا الطريق الذي هم عليه وحينئذ لا يهتدون إليه ، فإن قال قائل : الأعمى قد يهتدي إلى الطريق بأمارات عقلية أو حسية غير حس البصر كالأصوات

والمشي بحس اللمس ، فارتقى وقال : فلو مسخهم وسلب قوتهم بالكلية لا يهتدون إلى الصراط بوجه من الوجوه .

البحث الثالث : قدم المضي على الرجوع ، لأن الرجوع أهون من المضي ، لأن المضي لا ينبيء عن سلوك الطريق من قبل ، وأما الرجوع فينبيء عنه ، ولا شك أن سلوك طريق قد رؤي مرة أهون من سلوك طريق لم ير فقال : لا يستطيعون مضياً ولا أقل من ذلك وهو الرجوع الذي هو أهون من المضي .

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68)

(44/648)

---

فقد ذكرنا أن قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ ﴾ [ يس : 60 ] قطع للأعذار بسبق الإنذار ، ثم لما قرر ذلك وأتمه شرع في قطع عذر آخر ، وهو أن الكافر يقول لم يكن لبثنا في الدنيا إلا يسيراً ، ولو عمرتنا لما وجدت منا تقصيراً ، فقال الله تعالى : أفلا تعقلون أنكم كلما دخلتم في السن ضعفتم وقد عمرناكم مقدار ما تتمكنون من البحث والإدراك ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ [ فاطر : 37 ] ثم إنكم علمتم أن الزمان كلما يعبر عليكم يزداد ضعفكم فضيعتم زمان الإمكان ، فلو عمرناكم أكثر من ذلك لكان بعده

زمان الإزمان ، ومن لم يأت بالواجب زمان الإمكان ما كان يأتي به زمان الإزمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 91.89 ﴾

(45/648)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اليوم نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : " هل تدرون ممّ أضحك ؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه ، يقول يا رب ألم تُجِرني من الظُّلْم قال يقول بلى فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلاّ شاهداً منّي قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي قال فتنطق بأعماله قال ثم يخلَّى بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكنّ وسُحقاً فعنكنّ كنت أناضِل " خرجه أيضاً من حديث أبي هريرة .

وفيه : " ثم يقال له الآن نبعث شاهدَنا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله

وذلك ليُعذِر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه " وخرج الترمذي عن معاوية بن حَيْدَة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ذكره قال : وأشاره بيده إلى الشام فقال " من هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركباناً ومشاة وتجرّون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفِدَام توفون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول ما يعرِب عن أحدكم فخذه " في رواية أخرى "فخذه وكفّه" الفِدام مصْفاة الكوز والإبريق ؛ قاله الليث .

قال أبو عبيد : يعني أنهم منعوا الكلام حتى تكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالفِدام الذي يجعل على الإبريق .

ثم قيل في سبب الختم أربعة أوجه : أحدها لأنهم قالوا ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [ الأنعام : 23 ] فختم الله على أفواههم حتى نطقت جوارحهم ؛ قاله أبو موسى الأشعري .

الثاني ليعرفهم أهل الموقف فيتميزون منهم ؛ قاله ابن زياد .



---

الثالث لأن إقرار غير الناطق أبلغ في الحجة من إقرار الناطق ؛ لخروجه مخرج الإعجاز ، وإن كان يوماً لا يحتاج إلى إعجاز .

الرابع ليعلم أن أعضاءه التي كانت أعواناً في حق نفسه صارت عليه شهوداً في حق ربه .

فإن قيل : لم قال ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ﴾ فجعل ما كان من اليد كلاماً ، وما كان من الرجل شهادة ؟ قيل : إن اليد مباشرة لعمله والرجل حاضرة ، وقول الحاضر على غيره شهادة ، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما قال أو فعل ؛ فلذلك عبر عما صدر من الأيدي بالقول ، وعما صدر من الأرجل بالشهادة .

وقد روي عن عُقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فَخِذه من الرِّجل اليسرى "

ذكره الماوردي والمهدوي .

وقال أبو موسى الأشعري : إني لأحسب أن أول ما ينطق منه فخذه اليمنى ؛ ذكره المهدوي أيضاً .

قال الماوردي : فاحتمل أن يكون تقدم الفخذ بالكلام على سائر الأعضاء ؛ لأن لذة معاصيه يدركها بحواسه التي هي في الشطر الأسفل منها الفخذ ، فجاز لقربه منها أن يتقدم في الشهادة عليها .

قال : وتقدمت اليسرى ؛ لأن الشهوة في ميامن الأعضاء أقوى منها في مياسرها ؛ فلذلك تقدمت اليسرى على اليمنى لقلة شهوتها .

قلت : أو بالعكس لغلبة الشهوة ، أو كلاهما معاً والكفّ ؛ فإن بمجموع ذلك يكون تمام

الشهوة واللذة .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا على أَعْيُنِهِمْ فاستبقوا الصراط فأنى يُبْصِرُونَ ﴾ حكى الكسائي : طَمَس يَطمِس ويَطمُس .

والمطموس والطَّمِيس عند أهل اللغة الأعمى الذي ليس في عينيه شقّ .

قال ابن عباس : المعنى لأعميناهم عن الهدى ، فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحق .

وقال الحسن والسّدي : المعنى لتركناهم عمياً يترددون .

فالمعنى لأعميناهم فلا يبصرون طريقاً إلى تصرفهم في منازلهم ولا غيرها .

وهذا اختيار الطبري .

(47/648)

---

وقوله : ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ أي استبقوا الطريق ليجوزوا "فَأَنَّى يُبْصِرُونَ" أي فمن أين يبصرون .

وقال عطاء ومقاتل وقتادة وروي عن ابن عباس : ولو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم ، وأعميناهم عن غَيِّهم ، وحوّلنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى ؛ فاهتدوا وأبصروا

رشدَهم، وتبادروا إلى طريق الآخرة.

ثم قال: ﴿ فأنى يُبْصِرُونَ ﴾ ولم نفعل ذلك بهم؛ أي فكيف يهتدون وعين الهدى مطموسة، على الضلال باقية.

وقد روي عن عبد الله بن سلاَم في تأويل هذه الآية غير ما تقدّم، وتأولها على أنها في يوم القيامة.

وقال: إذا كان يوم القيامة ومُدَّ الصراط، نادى منادٍ ليقم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته؛ فيقومون بَرُّهم وفاجرهم يتبعونه ليجوزوا الصراط، فإذا صاروا عليه طمس الله أعين فُجّارهم، فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه.

ثم ينادي منادٍ ليقم عيسى صلى الله عليه وسلم وأمته؛ فيقوم فيتبعونه برّهم وفاجرهم فيكون سبيلهم تلك السبيل، وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام.

ذكره النحاس وقد كتبناه في التذكرة بمعناه حسب ما ذكره ابن المبارك في رقائقه.

وذكره القشيري.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: أخذ الأسود بن الأسود حجراً ومعه جماعة من بني مخزوم ليطرحه على النبي صلى الله عليه وسلم؛ فطمس الله على بصره، وألصق الحجر بيده، فما أبصره ولا اهتدى، ونزلت الآية فيه.

والمطموس هو الذي لا يكون بين جفنيه شَقّ، مأخوذ من طَمَس الريحُ الأثَر؛ قاله الأخفش

والقتبي .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَاهُمْ على مَكَانَتِهِمْ فَمَا استطاعوا مُضِيّاً وَلاَ يَرْجِعُونَ ﴾

المسخ : تبديل الخِلقة وقلبها حجراً أو جماداً أو بهيمة .

قال الحسن : أي لأقعدناهم فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعوا وراءهم .

وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر .

(48/648)

---

وقد يكون المسخ تبديل صورة الإنسان بهيمة ، ثم تلك البهيمة لا تعقل موضعاً تقصده فتتحير ، فلا تقبل ولا تُدبر .

ابن عباس رضي الله عنه : المعنى لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم .

وقيل : المعنى لو نشاء لمسخناهم في المكان الذي اجترءوا فيه على المعصية .

ابن سلام : هذا كله يوم القيامة يطمس الله تعالى أعينهم على الصراط .

وقرأ الحسن والسُّلَمي وزِرُّ بن حُبَيْش وعاصم في رواية أبي بكر : "مَكَانَاتِهِمْ" على الجمع ، الباقون بالتوحيد .

وقرأ أبو حَيْوَة : "فَمَا استطاعوا مَضِيًّا" بفتح الميم .

والمضي بضم الميم مصدر يَمضي مُضيًّا إذا ذهب .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخلق ﴾ قرأ عاصم وحمزة "نُنَكِّسْه" بضم النون الأولى وتشديد الكاف من التنكيس .

الباقون "نَنْكُسْه" بفتح النون الأولى وضم الكاف من نكستُ الشيءَ أنْكسُه نَكْساً قلبته على رأسه فانتكس .

قال قتادة : المعنى أنه يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا .

وقال سفيان في قوله تعالى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخلق ﴾ إذا بلغ ثمانين سنة تغيّر جسمه وضعفت قوّته .

قال الشاعر :

من عاش أخلقتِ الأيامُ جِدّتَهُ . . .

وخانه ثِقَتَاه السَّمْع والبصرُ

فطول العمر يصيِّر الشباب هَرَما ، والقوّة ضعفاً ، والزيادة نقصاً ، وهذا هو الغالب .

وقد تعوّذ صلى الله عليه وسلم من أن يردّ إلى أرذل العمر .

وقد مضى في "النحل" بيانه .

﴿ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أنّ من فعل هذا بكم قادر على بعثكم .

وقرأ نافع وابن ذكوان : "تَعقِلون" بالتاء .

الباقون بالياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(49/648)

---

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى ﴿ اليوم نَخْتِمُ على أفواههم ﴾

(50/648)

---

أي ختماً يمنعُها عن الكلامِ . التفاتٌ إلى الغَيبةِ للإيذانِ بأنَّ ذكر أحوالِهم القبيحةِ استدعى أنْ يُعرض عنهم ويَحكي أحوالَهم الفظيعة لغيرهم مع ما فيه من الإيماءِ إلى أنَّ ذلك من مقتضيات الختم لأنَّ الخطاب لتلقّي الجواب ، وقد انقطع بالكُلِّيةِ ، وقُرِىء تَختم . ﴿ وَتُكَلّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يُروى أنَّهم يجحدون ويُخاصمون فيشهد عليهم جيرانُهم وأهاليهم وعشائرُهم فيحلفون ما كانُوا مشركين فحينئذٍ يُختم على أفواهِهم وتكلم أيديهم وأرجلُهم . وفي الحديث : "يقول العبدُ يوم القيامة إنّي لا أُجيزُ عليَّ

شاهداً إلا من نفسي فيُختم على فيهِ ويقال لأركانِه انطقي فتنطقُ بأعماله ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام فيقول بُعداً لكنَّ وسُحقاً فعنكنّ كنتُ أناضلُ" وقيل: تكليمُ الأركانِ وشهادتُها على أفعالها وظهورُ آثارِ المعاصي عليها. وقُرِئ وتتكلَّمُ أيديهم وقُرِئ ولتكلَّمَنا أيديهم وتشهد بلام كَيْ والنَّصب على معنى ولذلك نختِم على أفواهِهم وقُرِئ ولتكلّمْنا أيديهم لتشهدْ بلام الأمرِ والجزمِ ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ ﴾ الطَّمسُ تعفيةُ شقِّ العينِ حتَّى تعودَ ممسوحةً. ومفعول المشيئة محذوفٌ على القاعدة المستمرَّةَ التي هي وقوعها شرطاً وكون مفعولها مضمون الجزاء أي لو نشاء أنْ نطمسَ على أعينهم لفعلناه. وإيثارُ صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المُضيِّ لإفادة أنَّ عدمَ الطَّمس على أعينهم لاستمرار عدمِ المشيئة، فإنَّ المضارعَ المنفيَّ الواقع موقع الماضي ليس بنصَ في إفادة انتفاء استمرارِ انتفائه بحسب المقام كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير ﴾ ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ أي فأرادوا أنْ يستبقُوا إلى الطَّريقِ الذي اعتادُوا سلوكَه. على أنَّ انتصابه بنزع الجارِّ أو هو بتضمين الاستباقِ معنى الابتدارِ

(51/648)

---

أو بالظَّرفيةِ ﴿ فأنى يُبْصِرُونَ ﴾ الطَّريقَ وجهةَ السلوك.

﴿ وَلَوْ نَشَاء لمسخناهم ﴾ بتغيير صُورِهم وإبطال قواهم ﴿ على مكانتهم ﴾ أي مكانِهم إلاَّ أن المكانة أخصُّ كالمَقامةِ والمَقامِ . وقُرِىء على مكانتهم أي لمسخناهم مسخاً يُجمِّدهم مكانَهم لا يقدرون أنْ يبرحُوه بإقبالٍ ولا إدبارٍ ولا رجوعٍ وذلك قوله تعالى ﴿ فَمَا استطاعوا مُضِيّاً وَلاَ يَرْجِعُونَ ﴾ أي ولا رجوعاً فوُضعَ موضعَه الفعلُ لمراعاةِ الفاصلةِ عن ابن عبَّاسَ رضي الله عنهما قردةً وخنازيرَ ، وقيل : حجارةً وعن قَتادةَ لأقعدناهم على أرجلِهم وأزمنَّاهم . وقُرِىء مِضيّا بكسرِ الميمِ وفتحها . وليسَ مساقُ الشَّرطيتينِ لمجرد بيان قدرته تعالى على ما ذُكر من عقوبة الطَّمسِ والمسخ بل لبيان أنَّهم بما هم عليه من الكُفر ونقص العهد وعدم الاتّعاظِ بما شاهدُوا من آثارِ دمارِ أمثالِهم أحقَّاءُ بأنْ يُفعلَ بهم في الدُّنيا تلك العقوبة كما فُعل بهم في الآخرةِ عقوبةُ الختمِ وأنَّ المانع من ذلك ليس إلاَّ عدمُ تعلُّقَ المشيئةِ الإلهيَّةِ كأنَّه قيل : لو نشاء عقوبتَهم بما ذُكر من الطَّمسِ والمسخ جرياً على موجب جناياتهم المستدعيةِ لها لفعلناها ولكنَّا لم نشأها جرياً على سَنَنِ الرَّحمةِ والحكمة الدَّاعيتينِ إلى إمهالهم ﴿ وَمَن نّعَمّرْهُ ﴾ أي نُطل عمره ﴿ نُنَكّسْهُ فِى الخلق ﴾ أي نقلبْه فيه ونخلقه على عكسِ ما خلقناه أوّلاً ، فلا يزال يتزايدُ ضعفه وتتناقص قُوَّته وتُنتقص بنيتُه

ويتغير شكله وصورته حتَّى يعودَ إلى حالةٍ شبيهةٍ بحال الصبيّ في ضعف الجسدِ وقلَّةِ العقلِ والخلوّ عن الفهمِ والإدراكِ . وقُرِىء نَنكُسْه من الثُّلاثيّ المجرَّدِ ونُنْكِسه من الإنكاس . ﴿ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي أيرون ذلك فلا يعقلون أنَّ مَن قَدَر على ذلك يقدِرُ على ما ذُكر من الطَّمسِ والمسخِ وأنَّ عدم إيقاعِهما لعدم تعلُّقِ مشيئَته تعالى بهما . وقُرِىء تعقلون بالتَّاءِ لجري الخطابِ قبلَه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(53/648)

---

وقال الآلوسى :

﴿ اليوم نَخْتِمُ على أفواههم ﴾

كناية عن منعهم من التكلم ، ولا مانع من أن يكون هناك ختم على أفواههم حقيقة .

وجوز أن يكون الختم مستعاراً لمعنى المنع بأن يشبه إحداث حالة في أفواههم مانعة من التكلم بالختم الحقيقي ثم يستعار له الختم ويشتق منه نختم فالاستعارة تبعية أي اليوم نمنع أفواههم من الكلام منعاً شبيهاً بالختم ، والأول أولى في نظري ﴿ وَتُكَلّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أي بالذي استمروا على كسبه في الدنيا وكأن الجار والمجرور قد تنازع فيه تكلم وتشهد ، ولعل المعنى والله تعالى أعلم تكلمنا أيديهم بالذي استمروا

على عمله ولم يتوبوا عنه وتخبرنا به وتقول إنهم فعلوا بنا وبواسطتنا كذا وكذا وتشهد عليهم أرجلهم بذلك.

ونسبة التكليم إلى الأيدي دون الشهادة لمزيد اختصاصها بمباشرة الأعمال حتى أنها كثر نسبة العمل إليها بطريق الفاعلية كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [ النبأ: 40 ] وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ [ يس: 35 ] وقوله عز وجل: ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ [ الروم: 41 ] وقوله جل وعلا: ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [ الشورى: 30 ] إلى غير ذلك ولا كذلك الأرجل فكانت الشهادة أنسب بها لما أنها لم تضف إليها الأعمال فكانت كالأجنبية، وكان التكليم أنسب بالأيدي لكثرة مباشرتها الأعمال وإضافتها إليها فكأنها هي العاملة، هذا مع ما في جمع التكليم مع الختم على الأفواه المراد منه المنع من التكلم من الحسن.



وكأنه سبحانه لما صدر آية النور وهي قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ﴾ [ النور: 24 ] بالشهادة وذكر جل وعلا الأعضاء من الأعالي إلى الأسافل أسندها إلى الجميع ولم يخص سبحانه الأيدي بالتكليم لوقوعها بين الشهود مع أن ما يصدر

منها شهادة أيضاً في الحقيقة فإن كونها عاملة ليس على الحقيقة بل هي آلة والعامل هو الإنسان حقيقة وكان اعتبار الشهادة من المصدر هناك أوفق بالمقام لسبق قصة الإفك وما يتعلق بها ولذا نص فيها على الألسنة ولم ينص ههنا عليها بل الآية ساكتة عن الإفصاح بأمرها من الشهادة وعدمها ، والختم على الأفواه ليس بعدم شهادتها إذ المراد منه منع الحدث عنهم عن التكلم بألسنتهم وهو أمر وراء تكلم الألسنة أنفسها وشهادتها بأن يجعل فيها علم وإرادة وقدرة على التكلم فتتكلم هي وتشهد بما تشهد وأصحابها مختوم على أفواههم لا يتكلمون .

ومنه يعلم أن آية النور ليس فيها ما هو نص في عدم الختم على الأفواه ، نعم الظاهر هناك أن لا ختم وهنا أن لا شهادة من الألسنة ، وعلى هذا الظاهر يجوز أن يكون المحدث عنه في الآيتين واحداً بأن يختم على أفواههم وتنطق أيديهم وأرجلهم أولاً ثم يرفع الختم وتشهد ألسنتهم إما مع تجدد ما يكون من الأيدي والأرجل أو مع عدمه والاكتفاء بما كان قبل منهما وذلك إما في مقام واحد من مقامات يوم القيامة أو في مقامين ، وليس في كل من الآيتين ما يدل على الحصر ونفي شهادة غير ما ذكر من الأعضاء فلا منافاة بينهما وبين قوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [ فصلت : 20 ] فيجوز أن يكون هناك شهادة السمع والإبصار والألسنة والأيدي والأرجل وسائر الأعضاء كما يشعر بهذا ظاهر قوله تعالى والجلود في آية السجدة لكن لم يذكر بعض من ذلك في بعض من الآيات اكتفاء بذكره في البعض الآخر منها أو دلالته عليه بوجه ، ويجوز أن يكون المحدث عنه في كل طائفة من الناس ، وقد جعل بعضهم المحدث عنه في آية السجدة قوم ثمود ، وحمل أعداء الله عليهم بقوله تعالى بعد ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ [ فصلت : 25 ] ولا يبعد أن يكون المحدث عنه في آية النور أصحاب الإفك من المنافقين والذين يرمون المحصنات ثم إن آية السجدة ظاهرة في أن الشهادة عند المجيء إلى النار وآية النور ليس فيها ما يدل على ذلك ، وأما هذه الآية فيشعر كلام البعض بأن الختم والشهادة فيها بعد خطاب المحدث عنهم بقوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [ يس : 63 ، 64 ] فيكون ذلك عند المجيء إلى النار أيضاً ، قال في إرشاد العقل السليم : إن قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ ﴾ الخ التفات إلى الغيبة للإيذان بأن ذكر أحوالهم القبيحة استدعى أن يعرض عنهم وتحكي أحوالهم الفظيعة لغيرهم مع ما فيه من الإيماء إلى أن ذلك من مقتضيات الختم لأن الخطاب لتلقي الجواب وقد انقطع بالكلية ، لكن قال في موضع آخر : إن الشهادة تتحقق في موقف الحساب لا بعد تمام السؤال والجواب وسوقهم إلى النار ، والأخبار ظاهرة في

ذلك .

أخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم .

(56/648)

---

عن أبي موسى الأشعري من حديث " يدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض ربه عليه عمله فيجحد ويقول أي رب وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل فيقول له الملك أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا فيقول لا وعزتك أي رب ما عملته فإذا فعل ذلك ختم على فيه فإني أحسب أول ما تنطق منه فخذه اليمنى ثم تلا اليوم تختم على أفواههم الآية " وفي حديث أخرجه مسلم .

والترمذي .

والبيهقي عن أبي سعيد .

وأبي هريرة مرفوعاً " إنه يلقى العبد ربه فيقول الله تعالى له أي فل ألم أكرمك إلى أن قال صلى الله عليه وسلم فيقول آمنت بك وبكتابك وبرسولك وصليت وصمت وتصدقت ويثنى بخير ما استطاع فيقول : ألا نبعث شاهدنا عليك فيفكر في نفسه من الذي يشهد على

فيختم على فيه .

ويقال لفخذه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله " .

وفي بعض الأخبار ما يدل على أن العبد يطلب شاهداً منه فيختم على فيه ، أخرج أحمد . ومسلم وابن أبي الدنيا واللفظ له عن أنس في قوله تعالى : ﴿ اليوم نَخْتِمُ على أفواههم ﴾ قال كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه قال : أتدرون مم ضحكت ؟ قلنا : لا يا رسول الله قال : من مخاطبة العبد ربه يقول : يا رب ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى فيقول : إني لا أجيز على ألا شاهداً مني فيقول كفى بنفسك عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل" والجمع بالتزام القول بالتعدد فتارة يكون ذلك عند الحساب وأخرى عند النار والقول باختلاف أحوال الناس فيما ذكر .



---

وما تقدم في حديث أبي موسى من أن الفخذ اليمنى أول ما تنطق على ما يحسب جزم به الحسن ، وأخرج أحمد وجماعة عن عقبة بن عامر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : " إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل الشمال " ثم الظاهر أن التكلم والشهادة بنطق حقيقة وذلك بعد إعطاء الله تعالى الأعضاء حياة وعلماً وقدرة فيرد بذلك على من زعم أن البينة المخصوصة شرط فيما ذكر وإسناد الختم إليه تعالى دون ما بعد قيل لئلا يحتمل الجبر على الشهادة والكلام فدل على أن ذلك باختيار الأعضاء المذكورة بعد إقدار الله تعالى فإنه أدل على تفضيح المحدث عنهم ، وهل يشهد كل عضو بما فعل به أو يشهد بذلك وبما فعل بغيره فيه خلاف والثاني أبلغ في التفظيع ، والعلم بالمشهود به يحتمل أن يكون حصوله بخلق الله تعالى إياه في ذلك الوقت ولا يكون حاصلاً في الدنيا ويحتمل أن يكون حصوله في الدنيا بأن تكون الأعضاء قد خلق الله تعالى فيها الإدراك فهي تدرك الأفعال كما يدركها الفاعل فإذا كان يوم القيامة رد الله تعالى لها ما كان وجعلها مستحضرة لما عملته أولاً وأنطقها نطقاً يفقهه المشهود عليه ، وهذا نحو ما قالوا من تسبيح جميع الأشياء بلسان القال والله تعالى عل كل شيء قدير والعقل لا يحيل ذلك وليس هو بأبعد من خلق الله تعالى فيها العلم والإرادة والقدرة حتى تنطق يوم القيامة فمن يؤمن بهذا فليؤمن بذلك ، والتشبث بذيل الاستبعاد يجر إلى إنكار الحشر بالكلية والعياذ بالله تعالى أو تأويله بما أوله به الباطنية الذين قتل واحد منهم قال حجة الإسلام الغزالي أفضل من قتل مائة كافر ، وعلى هذا تكون الآية من مؤيدات القول بالتسبيح القالي للجمادات

ونحوها ، وعلى الاحتمال الأول يؤيد القول بجواز شهادة الشاهد إذا حصل عنده العلم الذي يقطع به بأي وجه حصل وإن لم يشهد ذلك ولا حضره .

(58/648)

---

وقد أفاد الشيخ الأكبر قدس سره في تفسيره المسمى بإيجاز البيان في ترجمة القرآن أن قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا لّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس ﴾ [ البقرة : 143 ] يفيد جواز ذلك ، وذكر فيه أن الشاهد يأثم إن لم يشهد بعلمه ، ولا يخفى عليك ما للفقهاء في المسألة من الكلام ، وكأن الشهادة على الاحتمال الثاني بعد الاستشهاد بأن يقال للأركان ألم يفعل كذا فتقول بلى فعل .

ويمكن أن تكون بعد أن تؤمر الأركان بالشهادة بأن يقال لها اشهدي بما فعلوا فتشهد معددة أفعالهم ، وهذا إما بأن تذكر جميع أفعالهم من المعاصي وغيرها غير مميزة المعصية عن غيرها ، وكون ذلك شهادة عليهم باعتبار الواقع لتضمنها ضررهم بذكر ما هو معصية في نفس الأمر ، وإما بأن تذكر المعاصي فقط ، وهذا يحتاج إلى التزام القول بأن الأركان تميز في الدنيا ما كان معصية من الأفعال ما لم يكن كذلك ولا أظنك تقول به ولم أسمع أن أحداً يدعيه .

وذهب بعضهم إلى أن تكليم الأركان وشهادتها دلالتها على أفعالها وظهور آثار المعاصي عليها بأن يبدل الله تعالى هيآتها بأخرى يفهم منها أهل الحشر ويستدلون بها على ما صدر منهم فجعلت الدلالة الحالية بمنزلة المقالية مجازاً ، وفيه أنه لا يصار إلى المجاز مع إمكان الحقيقة لا سيما وما يأتي في سورة السجدة من قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الذى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [ فصلت : 21 ] ظاهر جداً في النطق القالي والإخبار أظهر وأظهر ، نعم يهون على هذا القول أمر الاستبعاد ولا يكاد يترك لأجله الظواهر العلماء الأمجاد ، هذا والآية كالظاهرة في تكليف الكفار بالفروع إذ لو لم يكونوا مكلفين بها لا فائدة في شهادة الأعضاء بما كسبوا ، وإتمام الحجة عليهم بها وتخصيص ما كسبوا بالكفر مما لا يكاد يلتفت إليه ولا أظن أن أحداً يقول به بل ربما يدعي تخصيصه بما سوى الكفر بناءً على أنه من أفعال القلب دون الأعضاء التي تشهد لكن الذي يترجح في نظري العموم .

وشهادتها به إما بشهادتها بما يدل عليه من الأفعال البدنية والأقوال اللسانية أو بالعلم الضروري الذي يخلقه الله تعالى لها ذلك اليوم أو بالعلم الحاصل لها بخلق لله تعالى في الدنيا فتعلمه بواسطة الأفعال والأقوال الدالة عليه أو بطريق آخر يعلمه الله تعالى ، وهي ظاهرة

في أن الحشر يكون بأجزاء البدن الأصلية لا ببدن آخر ليس فيه الأجزاء الأصلية للبدن الذي كان في الدنيا إذ أركان ذلك البدن لم تكن الأعمال السيئة معمولة بها فلا يحسن الشهادة بها منها فليحفظ .

وقرىء ﴿ يَخْتِمْ ﴾ للمفعول ﴿ بَاسِطوا أَيْدِيهِمْ ﴾ بتاءين ، وقرىء ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ﴾ بلام الأمر على أن الله تعالى يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة .

(60/648)

---

وروى عبد الرحمن بن محمد بن طلحة عن أبيه عن جده طلحة أنه قرأ ﴿ ولتكلمنا أيديهم ولتشهد ﴾ بلام كي والنصب على معنى لتكليم الأيدي إيانا ولشهادة الأجل نختم على أفواههم .

﴿ وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا على أَعْيُنِهِمْ ﴾

بيان أنهم اليوم في قبضة القدرة ومستحقون للعذاب إلا أنه عز وجل لم يشأ ذلك لحكمته جل وعلا الباهرة ، والطمس إزالة الأثر بالمحو ، والمعنى لو نشاء الطمس على أعينهم وإزالة ضوئها وصورتها بالكلية بحيث تعود ممسوحة لطمسنا عليها وأذهبنا أثرها .

وجوز أن يراد بالطمس إذهاب الضوء من غير إذهاب العضو وأثره أي ولو نشاء لأعميناهم

، وإيثار صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المضي لإفادة أن عدم الطمس على أعينهم لاستمرار عدم المشيئة فإن المضارع المنفي الواقع موقع المضي ليس بنص في إفادة انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه .

*(61/648)*

---

وقوله تعالى : ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ عطف على ﴿ لَطَمَسْنَا ﴾ على الفرض والصراط منصوب بنزع الخافض أي فأرادوا الاستباق إلى الطريق الواضح المألوف لهم ﴿ فأنى يُبْصِرُونَ ﴾ أي فكيف يبصرون ذلك الطريق وجهة السلوك والمقصود إنكاراً أبصارهم ، وحاصله لو نشاء لأذهبنا أحداقهم وأبصارهم فلو أرادوا الاستبقاق وسلوك الطريق الذي اعتادوا سلوكه لا يقدرون عليه ولا يبصرونه ، وتأويل استبقوا بأرادوا الاستباق مما ذهب إليه البعض ، وقيل لا حاجة لتأويله فإن الأعمى يجوز شروعه في السابق ، ونصب ﴿ الصراط ﴾ بنزع الخافض ولم ينصب على الظرفية لأنه كالطريق مكان مختص ومثله لا ينتصب على الظرفية ، وجوز كونه مفعولاً به لتضمين استبقوا معنى ابتدروا ، ونقل عن الأساس في قسم الحقيقة ﴿ سَوَاء الصراط ﴾ ابتدروه ، قال في "الكشف" : فعليه لا تضمين ، وادعى بعضهم توهم دعوى أن ذلك معنى حقيقي

وصاحب الأساس إنما ذكره في آخر قسم المجاز والمعنى لو شئنا لفعلنا ما فعلنا في أعينهم فلو أرادوا الاستباق متبدرين الطريق لا يبصرون ، وقيل يجوز كونه مفعولاً به على أن استبقوا بمعنى سبقوا ويجعل الطريق مسبوقاً على التجوز في النسبة أو الاستعارة المكنية أو على أنه بمعنى جاوزوا ، قال في "القاموس" : استبق الصراط جاوزه وظاهره أنه حقيقة في ذلك ، وقال غير واحد : هو مجاز والعلاقة اللزوم ، والمعنى ولو نشاء لفعلنا ما فعلنا في أعينهم فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذي اعتادوا المشي فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقاً يعني أنهم لا يقدرون إلا على سلوك الطريق المعتاد دون ما وراءه من سائر الطرق والمسالك كما ترى العميان يهتدون فيما ألفوا وضربوا به من المقاصد دون غيرها .

وذهب ابن الطراوة إلى أن الصراط والطريق وما أشبههما من الظروف المكانية ليست مختصة فيجوز انتصابها على الظرفية ، وهذا خلاف ما صرح به سيبويه وجعل انتصابها على الظرفية من الشذوذ وأنشد

: لدن بهز الكف يعسل متنه . . .

فيه كما عسل الطريق الثعلب

والمعنى في الآية لو انتصب على الظرفية لو نشاء لفعلنا ما فعلنا في أعينهم فلو أرادوا أن يمشوا مستبقين في الطريق المألوف كما كان ذلك هجيراهم لم يستطيعوا ، وحمل الأعين على ما هو الظاهر منها أعني الأعضاء المعروفة والصراط على الطريق المحسوس هو المروى عن الحسن .

وقتادة ، وعن ابن عباس حمل الأعين على البصائر والصراط على الطريق المعقول .

أخرج ابن جرير .

وجماعة عنه أنه قال : ولو نشاء لطمسنا على أعينهم أعميناهم وأضللناهم عن الهدى فأنى يبصرون فكيف يهتدون وهو خلاف الظاهر .

وقرأ عيسى ﴿ فَاسْتَبِقُوا ﴾ على الأمر وهو على إضمار القول أي فيقال لهم استبقوا وهو أمر تعجيز إذ لا يمكنهم الاستباق مع طمس الأعين .

﴿ وَلَوْ نَشَاء لمسخناهم ﴾ أي لحولنا صورهم إلى صور أخرى قبيحة .

عن ابن عباس أي لمسخناهم قردة وخنازير ، وقيل : لمسخناهم حجارة وروي ذلك عن أبي صالح ، ويعلم من هذا الخلاف أن في مسخ الحيوان المخصوص لا يشترط بقاء الصورة الحيوانية ، وسمي بعضهم قلب الحيوان جماداً رسخاً وقلبه نباتاً فسخاً وخص المسخ بقلبه حيواناً آخر ، ومفعول المشيئة على قياس السابق أي ولو نشاء مسخهم على مكانتهم

لمسخناهم ﴿ على مكانتهم ﴾ أي مكانهم كالمقامة والمقام .

وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في معنى الآية لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم .

وقال الحسن .

وقتادة .

وجماعة المعنى لو نشاء لأقعدناهم وأزمناهم وجعلناهم كسحاً لا يقومون .

وقرأ الحسن .

(63/648)

---

وأبو بكر ﴿ مكاناتهم ﴾ بالجمع لتعددهم ﴿ مكانتهم فَمَا استطاعوا ﴾ لذلك ﴿ مُضِيّاً ﴾ أي ذهاباً إلى مقاصدهم ﴿ وَلاَ يَرْجِعُونَ ﴾ قيل هو عطف على ﴿ مُضِيّاً ﴾ المفعول به لاستطاعوا وهو من باب تسمع بالمعيدي خير من أن تراه فيكون التقدير فما استطاعوا مضياً ولا رجوعاً وإلا فمفعول استطاعوا لا يكون جملة ، والتعبير بذلك دون الاسم الصريح قيل للفواصل مع الإيماء إلى مغايرة الرجوع للمضي بناءً على ما قال الإمام من أنه أهون من المضي لأنه ينبىء عن سلوك الطريق من قبل والمضي لا ينبي عنه ، وقيل لذلك

مع الإيماء إلى استمرار النفي نظراً إلى ظاهر اللفظ ويكون هناك ترق من جهتين إذا لوحظ ما أومأ إليه الإمام ، وقيل له مع الإيماء إلى أن الرجوع المنفي ما كان عن إرادة واختيار فإن اعتبارهما في الفعل المسند إلى الفاعل أقرب إلى التبادر من اعتبارهما في المصدر .

واقتصر بعضهم في النكتة على رعاية الفواصل ، والإمام بعد الاقتصار على رعاية الفواصل في بيان نكتة العدول عن الظاهر تقصيراً ؛ وقيل هو عطف على جملة ما استطاعوا ، والمراد ولا يرجعون عن تكذيبهم لما أنه قد طبع على قلوبهم ، وقيل هو عطف على ما ذكر ما استطاعوا ، والمراد ولا يرجعون عن تكذيبهم لما أنه قد طبع على قلوبهم ، وقيل هو عطف على ما ذكر إلا أن المعنى ولا يرجعون إلى ما كانوا عليه قبل المسخ وليس بالبعيد .

وعلى القولين المراد بالمضي الذهاب عن المكان ونفي استطاعته مغن عن نفي استطاعة الرجوع ، وأياً ما كان فالظاهر أن هذا وكذا ما قبله لو كان لكان في الدنيا ، وقال ابن سلام : هذا التوعد كله يوم القيامة وهو خلاف الظاهر ولا يكاد يصح على بعض الأقوال .

وأصل ﴿ مُضِيّاً ﴾ مضوي اجتمعت الواو ساكنة مع الياء فقلبت ياء كما هو القاعدة وأدغمت الياء في الياء وقلبت ضمة الضاد كسرة لتخف وتناسب الياء .

وقرأ أبو حيوة .

وأحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائي ﴿ مُضِيّاً ﴾ بكسر الميم إتباعاً لحركة الضاد كالعتي بضم العين والعتي بكسرها .

وقرىء ﴿ مُضِيّاً ﴾ بفتح الميم فيكون من المصادر التي جاءت على فعيل كالرسيم والوجيف والصئي بفتح الصاد المهملة بعدها همزة مكسورة ثم ياء مشددة مصدر صأى الديك أو الفرخ إذا صاح.

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ ﴾ أي نطل عمره .

﴿ نُنَكِّسْهُ فِى الخلق ﴾ نقلبه فيه فلا يزال يتزايد ضعفه وانتقاص بنيته وقواه عكس ما كان عليه بدء أمره ، وفيه تشبيه التنكيس المعنوي بالتنكيس الحسي واستعارة الحسي له ، وعن سفيان أن التنكيس في سن ثمانين سنة ، والحق أن زمان ابتداء الضعف ونتقاص البنية مختلف لاختلاف الأمزجة والعوارض كما لا يخفى .

والكلام عطف على قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا ﴾ [ يس : 66 ] الخ عطف العلة على المعلول لأنه كالشاهد لذلك .

وقرأ جمع من السبعة ﴿ نُنكِّسْهُ ﴾ مخففاً من الإنكاس ﴿ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي أيرون ذلك فلا يعقلون أن من قدر على ذلك يقدر على ما ذكر من الطمس والمسخ وأن عدم إيقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65) ﴾

الجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً وقوله : ﴿ الْيَوْمَ ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿ نَخْتِمُ ﴾ .

والقول في لفظ ﴿ اليوم ﴾ كالقول في نظائره الثلاثة المتقدمة ، وهو تنويه بذكره بحصول هذا الحال العجيب فيه ، وهو انتقال النطق من موضعه المعتاد إلى الأيدي والأرجل .

وضمائر الغيبة في ﴿ أفواههم أيديهم أرجلهم يكسبون عائدة على الذين خوطبوا بقوله : ﴿ هذه جهنَّمُ التي كُنتم توعَدُون ﴾ [ يس : 63 ] على طريقة الالتفات .

وأصل النظم : اليوم نختم على أفواهكم وتكلمنا أيديكم وتشهد أرجلكم بما كنتم تكسبون .

ومواجهتهم بهذا الإِعلام تأييس لهم بأنهم لا ينفعهم إنكار ما أُطلعوا عليه من صحائف أعمالهم كما قال تعالى : ﴿ إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ [ الإسراء : 14 ] .

وقد طوي في هذه الآية ما ورد تفصيله في آي آخر فقد قال تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً

ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام: 2223] وقال: ﴿ وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ [يونس: 2829].

وفي "صحيح مسلم" عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يخاطب العبد ربّه يقول: يا رب ألم تُجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، فيقول الله: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، فيُخْتم على فيه.

فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله ثم يخلّى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكنَّ وسُحْقاً فعنكُنّ كنتُ أناضل " وإنما طُوِي ذكر الداعي إلى خطابهم بهذا الكلام لأنه لم يتعلق به غرض هنا فاقتصر على المقصود.

*(66/648)*

---

وقد يخيل تعارض بين هذه الآية وبين قوله: ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ [النور: 24].

ولا تعارض لأن آية يس في أحوال المشركين وآية سورة النور في أحوال المنافقين.

والمراد بتكلم الأيدي تكلمها بالشهادة، والمراد بشهادة الأرجل نطقها بالشهادة، ففي كلتا الجملتين احتباك.

والتقدير: وتكلمنا أيديهم فتشهد وتكلمنا أرجلهم فتشهد.

ويتعلق ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون ﴾ بكل من فعلي ﴿ تكلمنا وتشهد ﴾ على وجه التنازع.

وما يكسبونه: هو الشرك وفروعه.

وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وما ألحقوا به من الأذى.

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66)

عطف على جملة ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ [يس: 48].

وموقع هاتين الآيتين من التي قبلهما أنه لما ذكر الله إلجاءهم إلى الاعتراف بالشرك بعد إنكاره يوم القيامة كان ذلك مثيراً لأن يهجس في نفوس المؤمنين أن يتمنوا لو سلك الله بهم في الدنيا مِثل هذا الإِلجاء فألجأهم إلى الإِقرار بوحدانيته وإلى تصديق رسوله واتباع دينه، فأفاد الله أنه لو تعلقت إرادته بذلك في الدنيا لفعل، إيماء إلى أن إرادته تعالى تجري تعلقاتها على وفق علمه تعالى وحكمته.

فهو قد جعل نظام الدنيا جارياً على حصول الأشياء عن أسبابها التي وكل الله إليها إنتاج مسبباتها وآثارها وتوالداتِها حتى إذا بَدّل هذا العالم بعالم الحقيقة أجرى الأمور كلها على المهيع الحق الذي لا ينبغي غيره في مجاري العقل والحكمة.

والمعنى أنّا ألجأناهم إلى الإِقرار في الآخرة بأن ما كانوا عليه في الدنيا شرك وباطل ولو نشاء لأريناهم آياتنا في الدنيا ليرتدعوا ويرجعوا عن كفرهم وسوء إنكارهم .

ولما كانت ﴿ لو ﴾ تقتضي امتناعاً لامتناع فهي تقتضي معنى : لكنّا لم نشأ ذلك فتركناهم على شأنهم استدراجاً وتمييزاً بين الخبيث والطيّب .

*(67/648)*

---

فهذا كلام موجه إلى المسلمين ومراد منه تبصرة المؤمنين وإرشادهم إلى الصبر على ما يلاقونه من المشركين حتى يأتي نصر الله .

فالطمس والمسخ المعلقان على الشرط الامتناعي طمس ومسخ في الدنيا لا في الآخرة .

والطمس : مسخ شواهد العين بإزالة سوادها وبياضها أو اختلاطهما وهو العمى أو العَور ، ويقال : طريق مطموسة ، إذا لم تكن فيها آثار السائرين ليقْفُوَهَا السائر .

وحرف الاستعلاء للدلالة على تمكن الطمس وإلا فإن طَمسَ يتعدى بنفسه .

والاستباق : افتعال من السبق والافتعال دال على التكلف والاجتهاد في الفعل أي فبادروا .

و﴿ الصراط ﴾ : الطريق الذي يُمشى فيه ، وتعدية فعل الاستباق إليه على حذف ( إلى

) بطريقة الحذف والإِيصال ، قال الشاعر وهو من شواهد الكتاب:

تَمرُّون الديار ولم تَعُوجُوا

أراد : تمرون على الديار .

أو على تضمين "استبقوا" معنى ابتدروا ، أي ابتدروا الصراط متسابقين ، أي مسرعين لِما دهمهم رجاءَ أن يصلوا إلى بيوتهم قبل أن يهلكوا فلم يبصروا الطريق .

وتقدم قوله تعالى : ﴿ إنا ذهبنا نستبق ﴾ في سورة يوسف ﴿ ( 17 ) .

و"أَنَّى" استفهام بمعنى ( كيف ) وهو مستعمل في الإِنكار ، أي لا يبصرون وقد طمست أعينهم ، أي لو شئنا لعجلنا لهم عقوبة في الدنيا يرتدعون بها فيقلعوا عن إشراكهم .

والمسخ : تصيير جسم الإِنسان في صورة جسم من غير نوعه ، وقد تقدم القول فيه عند قوله تعالى : ﴿ فقلنا لهما كونوا قِرَدة خاسئين ﴾ في سورة البقرة ﴿ ( 65 ) .

وعن ابن عباس أن الممسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام وعليه فلا شيء من الأشياء الموجودة الآن ببقية مسخ .

والمكانة : تأنيث المكان على تأويله بالبقعة كما قالوا : مقام ومقامة ، ودار ودارة ، أي لو نشاء لمسخنا الكافرين في الدنيا في مكانهم الذي أظهروا فيه التكذيب بالرسل فما استطاعوا انصرافاً إلى ما خرجوا إليه ولا رجوعاً إلى ما أتوا منه بل لزموا مكانهم لزوال العقل الإِنساني منهم بسبب المسخ .

وكان مقتضى المقابلة أن يقال : ولا رجوعاً ، ولكن عدل إلى ﴿ ولا يرجِعُونَ ﴾ لرعاية الفاصلة فجعل قوله ﴿ ولاَ يَرْجِعُونَ ﴾ عطفاً على جملة "ما استطاعوا" وليس عطفاً على ﴿ مُضِيّاً ﴾ لأن فعل استطاع لا ينصب الجمل .

والتقدير : فما مضوْا ولا رجعوا فجعلنا لهم العذاب في الدنيا قبل عذاب الآخرة وأرحنا منهم المؤمنين وتركناهم عبرة وموعظة لمن بعدهم .

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68)

قد يلوح في بادىء الرأي أن موقع هذه الآية كالغريب عن السياق فيظن ظانّ أنها كلام مستأنف انتقل به من غرض الحديث عن المشركين وأحوالهم والإملاء لهم إلى التذكير بأمر عجيب من صنع الله حتى يخال أن الذي اقتضى وقوع هذه الآية في هذا الموقع أنها نزلت في تِباع نزول الآيات قبلها لسبب اقتضى نزولها .

فجعل كثير من المفسرين موقعها موقع الاستدلال على أن قدرة الله تعالى لا يستصعب عليها طمس أعينهم ولا مسخهم كما غيّر خلقة المعمرين من قوة إلى ضعف ، فيكون قياس تقريب من قبيل ما يسمى في أصول الفقه بالقياس الخَفيّ وبالأدْوَن ، فيكون معطوفاً على

علة مقدرة في الكلام كأنه قيل : لو نشاء لطمسنا الخ لأنا قادرون على قلب الأحوال ، ألا يرون كيف نقلب خلق الإِنسان فنجعله على غير ما خلقناه أولاً .

وبعد هذا كله فموقع واو العطف غير شديد الانتظام .

وجعلها بعض المفسرين واقعة موقع الاستدلال على المكان البعيد ، أي أن الذي قدر على تغيير خلقهم من شباب إلى هرم قادر على أن يبعثهم بعد الموت فهو أيضاً قياس تقريب بالخفيّ وبالأدون .

ومنهم من تكلم عليها معرضاً عما قبلها فتكلموا على معناها وما فيها من العبرة ولم يبيّنوا وجه اتصالها بما قبلها .

ومنهم من جعلها لقطع معذرة المشركين في ذلك اليوم أن يقولوا : ما لبثنا في الدنيا إلاّ عمراً قليلاً ولو عُمِّرنا طويلاً لما كان منا تقصير ، وهو بعيد عن مقتضى قوله : ﴿ نَنْكُسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ .

(69/648)

---

وكل هذه التفاسير تحوم حول جعل الخلق بالمعنى المصدري ، أي في خلقته أو في أثر خلقه .

وكل هذه التفسيرات بعيد عن نظم الكلام ، فالذي يظهر أن الذي دفع المفسرين إلى ذلك هو

ما أِلفه الناس من إطلاق التعمير على طول عمر المُعمّر ، فلما تأولوه بهذا المعنى ألحقوا تأويل ﴿ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ على ما يناسب ذلك .

والوجه عندي أن لكون جملة ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ ﴾ عطفاً على جملة ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُم عَلَى مَكَانَتِهِم ﴾ [ يس : 67 ] فهي جملة شرطية عطفت على جملة شرطية ، فالمعطوف عليها جملة شرط امتناعي والمعطوفة جملة شرط تعليقي ، والجملة الأولى أفادت إمهالهم والإملاء لهم ، والجملة المعطوفة أفادت إنذارهم بعاقبة غير محمودة ووعيدَهم بحلولها بهم ، أي إن كنا لم نمسخهم ولم نطمس على عيونهم فقد أبقيناهم ليكونوا مغلوبين أذلة ، فمعنى ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ ﴾ من نعمره منهم .

فالتعمير بمعنى الإبقاء ، أي من نُبْقِيه منهم ولا نستأصله منهم ، أي من المشركين فجعله بين الأمم دليلاً ، فالتعمير المرادُ هنا كالتعمير الذي في قوله تعالى : ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ [ فاطر : 37 ] ، بأن معناها : ألم نبقكم مدة من الحياة تكفي المتأمل وهو المقدر بقوله : ﴿ ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ .

وليس المراد من التعمير فيها طول الحياة وإدراك الهرم كالذي في قولهم : فلان من المُعَمَّرين ، فإن ذلك لم يقع بجميع أهل النار الذين خوطبوا بقوله : ﴿ أولم نعمركم .

وقد طويت في الكلام جملة تقديرها : ولو نشاء لأهلكناهم ، يدل عليها قوله : ومن نعمره ﴾ أي نبقه حياً .

والنكس: حقيقته قلب الأعلى أسفل أو ما يقرب من الأسفل، قال تعالى: ﴿ ناكسوا رؤوسهم ﴾ [السجدة: 12].

(70/648)

---

ويطلق مجازاً على الرجوع من حال حسنة إلى سيئة، ولذلك يقال: فلان نِكس، إذا كان ضعيفاً لا يرجى لنجدة، وهو فِعل بمعنى مفعول كأنه منكوس في خلائق الرجولة، ف ﴿ ننكسْهُ ﴾ مجاز لا محالة إلا أنا نجعله مجازاً في الإذلال بعد العزة وسوء الحالة بعد زهرتها.

و﴿ الخلق ﴾: مصدر خلقه، ويطلق على المخلوق كثيراً وعلى الناس.

وفي حديث عائشة عن الكنيسة التي رأتها أم سلمة وأم حبيبة بالحبشة قال النبي صلى الله عليه وسلم "وأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة" أي شرار الناس.

ووقوع حرف ﴿ في ﴾ هنا يعين أن الخلق هنا مراد به الناس، أي تجعله دليلاً في الناس وهو أليق بهذا المعنى دون معنى في خلقته لأن الإنكاس لا يكون في أصل الخلقة وإنما يكون في أطوارها، وقد فسر بذلك قوله تعالى: ﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾ [الأعراف: 69] أي زادكم قوة وسعة في الأمم، أي في الأمم المعاصرة لكم، فهو وعيد لهم ووعد للمؤمنين بالنصر على المشركين ووقوعهم تحت نفوذ المسلمين، فإن أولئك الذين كانوا

رؤوساً للمشركين في الجاهلية صاروا في أسر المسلمين يوم بدر وفي حكمهم يوم الفتح فكانوا يُدْعَون الطلقاء .

وقرأ الجمهور : ﴿ نَنْكُسْه بفتح النون الأولى وسكون النون الثانية وضمّ الكاف مخففة وهو مضارع نكس المتعدّي ، يقال : نكس رأسه .

وقرأه عاصم وحمزة بضم النون الأولى وفتح النون الثانية وكسر الكاف مشددة مضارع نكس المضاعف .

(71/648)

---

وفرّع على الجمل الشرطية الثلاث وما تفرع عليها قوله : أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ استئنافاً إنكارياً لعدم تأملهم في عظيم قدرة الله تعالى الدالة على أنه لو شاء لطمَس على أعينهم ولو شاء لمسخهم على مكانتهم ، وأنه إن لم يفعل ذلك فإنهم لا يسلمون من نصره المسلمين عليهم لأنهم لو قاسوا مقدورات الله تعالى المشاهدة لهم لعلموا أن قدرته على مسخهم فما دونه من إنزال مكروه بهم أيسر من قدرته على إيجاد المخلوقات العظيمة المتقنة وأنه لا حائل بين تعلق قدرته بمسخهم إلا عدم إرادته ذلك لحكمة علمها فإن القدرة إنما تتعلق بالمقدورات على وفق الإرادة .

وقرأ نافع وابن ذكوان عن أبي عامر وأبو جعفر ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ بتاء الخطاب وهو خطاب للذين وجه إليهم قوله : ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾ [ يس : 66 ] الآية .

وقرأ الباقون بياء الغيبة لأن تلك الجمل الشرطية لا تخلو من مواجهة بالتعريض للمتحدث عنهم فكانوا أحرياء أن يعقلوا مغزاها ويتفهموا معناها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

*(72/648)*

---

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى نكس )

نَكَسْتُ الشَّىْءَ أَنْكُسُه نَكْساً : قَلَبْتُه على رأسه .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ قال الفرّاء : أَى رَجَعُوا عمّا عَرَفُوا من الحُجّة لإِبراهيم صَلَوات الله عليه .

وقال الأَزهريّ : أَى قلبوا .

وقرأَ غيرُ عاصِمٍ وحمزة فى قوله تعالى : ﴿ ومَنْ نُعَمِّرْهُ نَنْكُسْه فى الخَلْق ﴾ بفتح النُّون وتخفيف الكاف ، أَى من أَطَلْنا عُمُرَه نَكَسْنا خَلْقَه فصار بعد القُوَّة الضَّعف ، وبعد الشَّباب الهَرَم .

وفى حديث علىّ رضى الله عنه : "إِذا كان القَلْبُ لا يَعْرِفُ مَعْرُوفاً ولا يُنْكِرُ مُنْكَراً نُكِسَ فجُعِل أَعْلاه أَسْفَلَه" .

ونَكَّسه تَنْكِيساً : قلبه مثل نَكَسَه نكساً ، وإِنَّما شُدِّد للمُبالَغة ، وقرأَ عاصم وحمزة : ﴿ ومن نُعَمِّرْه نُنَكِّسْه ﴾ بالتَّشديد .

والنُّكْسُ والنُّكاسُ بالضَمِّ فيهما : عَوْدُ المَرَض بعد النَّقْهِ قال أُمَيَّة بن أَبى عائذ :

*خَيالٌ لِزَيْنَبَ قد هاجَ لِى * نُكاساً من الحُبِّ بعد اندِمالِ*

وقد نُكِسَ الرّجل نُكْساً فهو مَنْكُوسٌ .

والنّاكس : المُطَأْطِئ رأْسَه ، وجُمع فى الشِعْر على نَواكِس ، وهو شاذٌّ .

ونَكَسَ كذا داءَ المريض بعد البُرْءِ ، أَى ردَّه وأَعاده ، قال ذو الرُمَّة :

إِذا قُلْتُ أَسلُوا عنكِ يا مَىَّ لَمْ يَزَلْ * مَحلٌّ لدائى من ديارِكِ ناكِسُ*

والنُّكْسُ بالضَمِّ المُدْرَهِمُّون من الشيوخ بعد الهَرَم .

والنِكْس بالكسر : الضعيف ، والسَّهم يُنْكَسِرُ فُوقُهُ فيُجْعل أَعلاه أَسفله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 122 . 123 ﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65) ﴾

اليوم سَخَّرَ الله أعضاءَ بَدَنِ الإنسان بعضها لبعض ، وغداً ينقض هذه العادة ، فتخرج بعضُ الأعضاء على بعض ، وتجري بينها الخصومة والنزاع ؛ فأمّا الكفار فشهادةُ أَعضائهم عليهم مُبيدةٌ ، وأمّا العُصاةُ من المؤمنين فقد تشهد عليهم بعضُ أعضائهم بالعصيان ، ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضاً بالإحسان ، وكما قيل :

بيني وبينك يا ظلومُ الموقفُ . . . والحاكم العَدْلُ الجوادُ المُنْصِفُ

وفي بعض الأخبار المرويةِ المُسْنَدَةِ أنَّ عَبْداً تشهد عليه أعضاؤه بالزَّلَّة فيتطاير شَعره من جفن عينيه ، فيستأذن بالشهادة له فيقول الحق : تكلمي يا شعرة جَفْنِ عبدي واحتَجِّي عن عبدي ، فتشهد له بالبكاء من خوفه ، فيغفر له ، وينادي منادٍ : هذا عتيقُ الله بشَعْرَة .

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68)

يَرُدُّه إذا استوى شبابُه وقُوَّتُه إلى العكس ، فكما كان يزداد في القوة يأخذ في النقصان إلى أن يبلغَ أرذلَ العمر في السن فيصير إلى مثل حال الطفولية في الضعف . ثم لا يَبْقَى بعد النقصان شيءٌ ، كما قيل :

طوى العصران ما نشراه مني . . . وأبلى جدتي نَشْرٌ وطيٌّ

أراني كلَّ يومٍ في انتقاصٍ . . . ولا يَبْقَى مع النقصان شيءُ

هذا في الجثث والمباني دون الأحوال والمعاني ؛ فإن الأحوال في الزيادة إلى أن يبلغ حَدَّ الخَرَفِ فيَخْتَلَّ رأيُه وعَقْلُه . وأهل الحقائق تشيب ذوائبُهم ولكنَّ محابَّهم ومعانيَهم في عنفوان شبابها ، وطراوة جدَّتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 223 . 224 ﴾

(74/648)

---

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) ﴾

﴿ يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا

يؤمنون . إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . إنما تنذر من اتبع الذكر ، وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم . إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ . .

يقسم الله سبحانه بهذين الحرفين : " يا . سين " كما يقسم بالقرآن الحكيم . وهذا الجمع بين الأحرف المقطعة والقرآن يرجح الوجه الذي اخترناه في تفسير هذه الأحرف في أوائل السور ؛ والعلاقة بين ذكرها وذكر القرآن . وأن آية كونه من عند الله ، الآية التي لا يتدبرونها فيردهم القرآن إليها ، أنه مصوغ من جنس هذه الأحرف الميسرة لهم ؛ ولكن نسقه التفكيري والتعبيري فوق ما يملكون صياغته من هذه الحروف .

ويصف القرآن وهو يقسم به بأنه ﴿ القرآن الحكيم ﴾ . والحكمة صفة العاقل . والتعبير على هذا النحو يخلع على القرآن صفة الحياة والقصد والإرادة . وهي من مقتضيات أن يكون حكيماً . ومع أن هذا مجاز إلا أنه يصور حقيقة ويقربها . فإن لهذا القرآن لروحاً ! وإن له لصفات الحي الذي يعاطفك وتعاطفه حين تصفي له قلبك وتصغي له روحك ! وإنك لتطلع منه على دخائل وأسرار كلما فتحت له قلبك وخلصت له بروحك ! وإنك لتشتاق منه إلى ملامح وسمات ، كما تشتاق إلى ملامح الصديق وسماته ، حين تصاحبه فترة وتأنس به وتستروح ظلاله ! ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمع

تلاوة القرآن من غيره ؛ ويقف على الأبواب ينصت إذا سمع من داخلها من يرتل هذا القرآن . كما يقف الحبيب وينصت لسيرة الحبيب !

(75/648)

---

والقرآن حكيم . يخاطب كل أحد بما يدخل في طوقه . ويضرب على الوتر الحساس في قلبه . ويخاطبه بقدر . ويخاطبه بالحكمة التي تصلحه وتوجهه .

والقرآن حكيم . يربي بحكمة ، وفق منهج عقلي ونفسي مستقيم . منهج يطلق طاقات البشر كلها مع توجيهها الوجه الصالح القويم . ويقرر للحياة نظاماً كذلك يسمح بكل نشاط بشري في حدود ذلك المنهج الحكيم .

يقسم الله سبحانه بياء وسين والقرآن الحكيم على حقيقة الوحي والرسالة إلى الرسول الكريم :

﴿ وإنك لمن المرسلين على صراط مستقيم ﴾ . .

وما به سبحانه من حاجة إلى القسم . ولكن هذا القسم منه جل جلاله بالقرآن وحروفه ، يخلع على المقسم به عظمة وجلالاً ، فما يقسم الله سبحانه إلا بأمر عظيم ، يرتفع إلى درجة القسم به واليمين !

﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ . . والتعبير على هذا النحو يوحي بأن إرسال الرسل أمر مقرر ، له سوابق مقررة . فليس هو الذي يراد إثباته . إنما المراد أن يثبت هو أن محمداً صلى الله عليه وسلم من هؤلاء المرسلين . ويخاطبه هو بهذا القسم ولا يوجهه إلى المنكرين المكذبين ترفعاً بالقسم وبالرسول وبالرسالة عن أن تكون موضع جدل أو مناقشة . إنما هو الإخبار المباشر من الله للرسول .

﴿ إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم ﴾ . .

وهذا بيان لطبيعة الرسالة بعد بيان حقيقة الرسول . وطبيعة هذه الرسالة الاستقامة . فهي قائمة كحد السيف لا عوج فيها ولا انحراف ، ولا التواء فيها ولا ميل . الحق فيها واضح لا غموض فيه ولا التباس . ولا يميل مع هوى ولا ينحرف مع مصلحة . يجده من يطلبه في يسر وفي دقة وفي خلوص .

(76/648)

---

وهي لاستقامتها بسيطة لا تعقيد فيها ولا لف ولا دوران . لا تعقد الأمور ولا توقع في إشكالات من القضايا والتصورات والأشكال الجدلية . وإنما تصدع بالحق في أبسط صورة من صوره ، وأعراها عن الشوائب والأخلاط ، وأغناها عن الشرح ، وتفصيص العبارات

وتوليد الكلمات ، والدخول بالمعاني في الدروب والمنحنيات ! يمكن أن يعيش بها ومعها البادي والحاضر ، والأمي والعالم ، وساكن الكوخ وساكن العمارة ؛ ويجد فيها كل حاجته ؛ ويدرك منها ما تستقيم به حياته ونظامه وروابطه في يسر ولين .

وهي مستقيمة مع فطرة الكون وناموس الوجود ، وطبيعة الأشياء والأحياء حول الإنسان ، فلا تصدم طبائع الأشياء ، ولا تكلف الإنسان أن يصدمها ، إنما هي مستقيمة على نهجها ، متناسقة معها ، متعاونة كذلك مع سائر القوانين التي تحكم هذا الوجود وما فيه ومن فيه .

وهي من ثم مستقيمة على الطريق إلى الله ، واصلة إليه موصلة به ، لا يخشى تابعها أن يضل عن خالقه ، ولا أن يلتوي عن الطريق إليه . فهو سالك درباً مستقيماً واصلاً ينتهي به إلى رضوان الخالق العظيم .

والقرآن هو دليل هذا الصراط المستقيم . وحيثما سار الإنسان معه وجد هذه الاستقامة في تصويره للحق ، وفي التوجيه إليه ، وفي أحكامه الفاصلة في القيم ، ووضع كل قيمة في موضعها الدقيق .

﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ . .

يعرّف الله عباده بنفسه في مثل هذه المواضع ، ليدركوا حقيقة ما نزّل إليهم . فهو العزيز القوي الذي يفعل ما يريد . وهو الرحيم بعباده الذي يفعل بهم ما يفعل ، وهو يريد بهم الرحمة

فيما يفعل.

فأما حكمة هذا التنزيل فهي الإنذار والتبليغ:

﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ ..

(77/648)

---

والغفلة أشد ما يفسد القلوب. فالقلب الغافل قلب معطل عن وظيفته. معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة. تمر به دلائل الهدى أو يمر بها دون أن يحسها أو يدركها. ودون أن ينبض أو يستقبل. ومن ثم كان الإنذار هو أليق شيء بالغفلة التي كان فيها القوم، الذين مضت الأجيال دون أن ينذرهم منذر، أو ينبههم منبه. فهم من ذرية إسماعيل ولم يكن لهم بعده من رسول. فالإنذار قد يوقظ الغافلين المستغرقين في الغفلة، الذين لم يأتهم ولم يأت آباءهم نذير.

ثم يكشف عن مصير هؤلاء الغافلين؛ وعما نزل بهم من قدر الله، وفق ما علم الله من قلوبهم ومن أمرهم. ما كان منه وما سيكون:

﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ ..

لقد قضي في أمرهم، وحق قدر الله على أكثرهم، بما علمه من حقيقتهم، وطبيعة

مشاعرهم . فهم لا يؤمنون . وهذا هو المصير الأخير للأكثرين . فإن نفوسهم محجوبة عن الهدى مشدودة عن رؤية دلائله أو استشعارها .

وهنا يرسم مشهداً حسياً لهذه الحالة النفسية ، يصورهم كأنهم مغلولون ممنوعون قسراً عن النظر ، محال بينهم وبين الهدى والإيمان بالحواجز والسدود ، مغطى على أبصارهم فلا يبصرون :

﴿ إنا جعلنا في أعناقهم إغلالاً ، فهي إلى الأذقان ، فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً . فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ . .

إن أيديهم مشدودة بالأغلال إلى أعناقهم ، موضوعة تحت أذقانهم . ومن ثم فإن رؤوسهم مرفوعة قسراً ، لا يملكون أن ينظروا بها إلى الأمام ! ومن ثم فهم لا يملكون حرية النظر والرؤية وهم في هذا المشهد العنيف ! وهم إلى هذا محال بينهم وبين الحق والهدى بسد من أمامهم وسد من خلفهم ؛ فلو أرخي الشد فنظروا لم تنفذ أبصارهم كذلك من هذه السدود ! وقد سدت عليهم سبيل الرؤية وأغشيت أبصارهم بالكلال !

ومع عنف هذا المشهد الحسي وشدته فإن الإنسان ليلتقي بأناس من هذا النوع ، يخيل إليه وهم لا يرون الحق الواضح ولا يدركونه أن هنالك حائلاً عنيفاً كهذا بينهم وبينه . وأنه إذا لم تكن هذه الأغلال في الأيدي ، وإذا لم تكن الرؤوس مقمحة ومجبرة على الارتفاع ، فإن نفوسهم وبصائرهم كذلك . . مشدودة عن الهدى قسراً وملفوتة عن الحق لفتاً . وبينها وبين دلائل الهدى سد من هنا وسد من هناك . وكذلك كان أولئك الذين واجهوا هذا القرآن بمثل ذلك الإنكار والجحود . وهو يصدع بالحجة ، ويدلي بالبرهان . وهو بذاته حجة ذات سلطان لا يتماسك لها إنسان .

﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم فهم لا يؤمنون ﴾ . .

فلقد قضى الله فيهم بأمره ، بما علمه من طبيعة قلوبهم التي لا ينفذ إليها الإيمان . ولا ينفع الإنذار قلباً غير مهيأ للإيمان ، مشدود عنه ، محال بينه وبينه بالسدود .

فالإنذار لا يخلق القلوب ، إنما يوقظ القلب الحي المستعد للتلقي :

﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ، فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ . .

والذكر يراد به هنا القرآن على الأرجح والذي اتبع القرآن ، وخشي الرحمن دون أن يراه ، هو الذي ينتفع بالإنذار ، فكأنه هو وحده الذي وجه إليه الإنذار . وكأنما الرسول صلى الله عليه وسلم قد خصه به ، وإن كان قد عمم . إلا أن أولئك حيل بينهم وبين تلقيه ، فانحصر في من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب . وهذا يستحق التبشير بعد انتفاعه بالانذار :

﴿ فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ . . المغفرة عما يقع فيه من الخطايا غير مصر . والأجر الكريم على خشية الرحمن بالغيب ، واتباعه لما أنزل الرحمن من الذكر . وهما متلازمان في القلب . فما تحل خشية الله في قلب إلا ويتبعها العمل بما أنزل . والاستقامة على النهج الذي أراد .

وهنا يؤكد وقوع البعث ؛ ودقة الحساب ، الذي لا يفوته شيء :

﴿ إنا نحن نحيي الموتى ، ونكتب ما قدموا وآثارهم ، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ . .

(79/648)

---

وإحياء الموتى هو إحدى القضايا التي استغرقت جدلاً طويلاً . وسيرد منه في هذه السورة أمثلة منوعة . وهو ينذرهم أن كل ما قدمت أيديهم من عمل ، وكل ما خلفته أعمالهم من آثار ، كلها تكتب وتحصى . فلا يند منها شيء ولا ينسى . والله سبحانه هو الذي يحيي الموتى ، وهو الذي يكتب ما قدموا وآثارهم ، وهو الذي يحصي كل شيء ويثبته . فلا بد إذن من وقوع هذا كله على الوجه الذي يليق بكل ما تتولاه يد الله .

والإمام المبين . واللوح المحفوظ . وأمثالها . أقرب تفسير لها هو علم الله الأزلي القديم وهو

بكل شيء محيط .

وبعد عرض قضية الوحي والرسالة ، وقضية البعث والحساب ، في هذه الصورة التقريرية ، يعود السياق ليعرضهما في صورة قصصية . تلمس القلب بما كان من مواقف التكذيب والإيمان وعواقبهما معروضة كالعيان :

﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ، فقالوا : إنا إليكم مرسلون . قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء ، إن أنتم إلا تكذبون . قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين . قالوا : إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم . قالوا : طائركم معكم ، أإن ذكرتم ؟ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ . .

ولم يذكر القرآن من هم أصحاب القرية ولا ما هي القرية . وقد اختلفت فيها الروايات . ولا طائل وراء الجري مع هذه الروايات .

وعدم إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئاً في دلالة القصة وإيحائها . ومن ثم أغفل التحديد ، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها . فهي قرية أرسل الله إليها رسولين .

كما أرسل موسى وأخاه هارون عليهما السلام إلى فرعون وملئه . فكذبهما أهل تلك

القرية، فعززهما الله برسول ثالث يؤكد أنه وأنهما رسل من عند الله. وتقدموا ثلاثتهم بدعواهم ودعوتهم من جديد ﴿ فقالوا: إنا إليكم مرسلون ﴾..

(80/648)

---

هنا اعترض أهل القرية عليهم بالاعتراضات المكرورة في تاريخ الرسل والرسالات:

﴿ قالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾.. ﴿ وما أنزل الرحمن من شيء ﴾.. ﴿ إن أنتم إلا تكذبون ﴾..

وهذا الاعتراض المتكرر على بشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول. فقد كانوا يتوقعون دائماً أن يكون هناك سر غامض في شخصية الرسول وحياته تكمن وراءه الأوهام والأساطير. أليس رسول السماء إلى الأرض فكيف لا تحيط به الأوهام والأساطير؟ كيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها؟! شخصية بشرية عادية من الشخصيات التي تمتلئ بها الأسواق والبيوت؟!

وهذه هي سذاجة التصور والتفكير. فالأسرار والألغاز ليست صفة ملازمة للنبوة والرسالة. وليست في هذه الصورة الساذجة الطفولية. وإن هنالك لسراً هائلاً ضخماً،

ولكنه يتمثل في الحقيقة البسيطة الواقعة . حقيقة إيداع إنسان من هؤلاء البشر الاستعداد اللدني الذي يتلقى به وحي السماء ، حين يختاره الله لتلقي هذا الوحي العجيب . وهو أعجب من أن يكون الرسول ملكاً كما كانوا يقترحون !

والرسالة منهج إلهي تعيشه البشرية . وحياة الرسول هي النموذج الواقعي للحياة وفق ذلك المنهج الإلهي . النموذج الذي يدعو قومه إلى الاقتداء به . وهم بشر . فلا بد أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجاً من الحياة يملكون هم أن يقلدوه .

ومن ثم كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم معروضة لأنظار أمته . وسجل القرآن كتاب الله الثابت المعالم الرئيسية في هذه الحياة بأصغر تفصيلاتها وأحداثها ، بوصفها تلك الصفحة المعروضة لأنظار أمته على مدار السنين والقرون . ومن هذه التفصيلات حياته المنزلية والشخصية . حتى خطرات قلبه سجلها القرآن في بعض الأحيان ، لتطلع عليها الأجيال وترى فيها قلب ذلك النبي الإنسان .

ولكن هذه الحقيقة الواضحة القريبة هي التي ظلت موضع الاعتراض من بني الإنسان !

ولقد قال أهل تلك القرية لرسلهم الثلاثة : ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ . . وقصدوا أنكم لستم برسل . . ﴿ وما أنزل الرحمن من شيء ﴾ . . مما تدعون أنه نزله عليكم من الوحي والأمر بأن تدعونا إليه . ﴿ إن أنتم إلا تكذبون ﴾ . . وتدعون أنكم مرسلون !

وفي ثقة المطمئن إلى صدقه ، العارف بحدود وظيفته أجابهم الرسل :

﴿ قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ . .

إن الله يعلم . وهذا يكفي . وإن وظيفة الرسل البلاغ . وقد أدوه . والناس بعد ذلك أحرار فيما يتخذون لأنفسهم من تصرف . وفيما يحملون في تصرفهم من أوزار . والأمر بين الرسل وبين الناس هو أمر ذلك التبليغ عن الله ؛ فمتى تحقق ذلك فالأمر كله بعد ذلك إلى الله .

ولكن المكذبين الضالين لا يأخذون الأمور هذا المأخذ الواضح السهل اليسير ؛ ولا يطيقون وجود الدعاة إلى الهدى ؛ فتأخذهم العزة بالإثم ؛ ويعمدون إلى الأسلوب الغليظ العنيف في مقاومة الحجة لأن الباطل ضيق الصدر عربيد :

﴿ قالوا : إنا تطيرنا بكم ! لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ، وليمسنكم منا عذاب أليم ﴾ . .

قالوا : إننا نتشاءم منكم ؛ ونتوقع الشر في دعوتكم ؛ فإن لم تنتهوا عنها فإننا لن نسكت عليكم ، ولن ندعكم في دعوتكم : ﴿ لنرجمنكم ، وليمسنكم منا عذاب أليم ﴾ . .

وهكذا أسفر الباطل عن غشمه ؛ وأطلق على الهداة تهديده ؛ وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة ، وعربد في التعبير والتفكير !

ولكن الواجب الملقى على عاتق الرسل يقضي عليهم بالمضي في الطريق :

﴿ قالوا : طائركم معكم ﴾ . .

(82/648)

---

فالقول بالتشاؤم من دعوة أو من وجه هو خرافة من خرافات الجاهلية . والرسل يبينون لقومهم أنها خرافة ؛ وأن حظهم ونصيبهم من خير ومن شر لا يأتيهم من خارج نفوسهم . إنما هو معهم . مرتبط بنواياهم وأعمالهم ، متوقف على كسبهم وعملهم . وفي وسعهم أن يجعلوا حظهم ونصيبهم خيراً أو أن يجعلوه شراً . فإن إرادة الله بالعبد تنفذ من خلال نفسه ، ومن خلال اتجاهه ، ومن خلال عمله . وهو يحمل طائره معه . هذه هي الحقيقة الثابتة القائمة على أساس صحيح . أما التشاؤم بالوجوه ، أو التشاؤم بالأمكنة ، أو التشاؤم بالكلمات . . فهو خرافة لا تستقيم على أصل مفهوم !

وقالوا لهم : ﴿ أإن ذكرتم ؟ ﴾ . .

يعني أترجموننا وتعذبوننا لأننا نذكركم ! أفهذا جزاء التذكير ؟

﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ . .

تتجاوزون الحدود في التفكير والتقدير ؛ وتجازون على الموعظة بالتهديد والوعيد ؛

وتردون على الدعوة بالرجم والتعذيب!

تلك كانت الاستجابة من القلوب المغلقة على دعوة الرسل. وهي مثل للقلوب التي تحدثت عنها السورة في الجولة الأولى؛ وصورة واقعية لذلك النموذج البشري المرسوم هناك.

فأما النموذج الآخر الذي اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب، فكان له مسلك آخر وكانت له استجابة غير هذه الاستجابة:

﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى؛ قال: يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون. ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون؟ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون؟ إني إذاً لفي ضلال مبين. إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾..

إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة. فيها الصدق. والبساطة. والحرارة. واستقامة الإدراك. وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين.

(83/648)

---

فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه. وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره

فلم يطق عليها سكوتاً ؛ ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور ؛ ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره.

سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون. وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين.

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان. ولم يكن في عزوة من قومه أو منعة من عشيرته. ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها..

﴿ قال: يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾..

إن الذي يدعو مثل هذه الدعوة، وهو لا يطلب أجراً، ولا يبتغي مغنماً.. إنه لصادق. وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبي تكليفاً من الله؟ ما الذي يدفعه إلى حمل هم الدعوة؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة؟ والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتنكيلهم، وهو لا يجني من ذلك كسباً، ولا يطلب منهم أجراً؟

﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجراً ﴾.. ﴿ وهم مهتدون ﴾..

وهداهم واضح في طبيعة دعوتهم. فهم يدعون إلى إله واحد. ويدعون إلى نهج واضح. ويدعون إلى عقيدة لا خرافة فيها ولا غموض. فهم مهتدون إلى نهج سليم، وإلى طريق

مستقيم .

ثم عاد يتحدث إليهم عن نفسه هو وعن أسباب إيمانه ، ويناشد فيهم الفطرة التي استيقظت فيه فاقتنعت بالبرهان الفطري السليم :

﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ؟ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟ إني إذاً لفي ضلال مبين ﴾ . .

(84/648)

---

إنه تساؤل الفطرة الشاعرة بالخالق ، المشدودة إلى مصدر وجودها الوحيد . . ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني ؟ ﴾ وما الذي يحيد بي عن هذا النهج الطبيعي الذي يخطر على النفس أول ما يخطر ؟ إن الفطر مجذوبة إلى الذي فطرها ، تتجه إليه أول ما تتجه ، فلا تنحرف عنه إلا بدافع آخر خارج على فطرتها . ولا تلتوي إلا بمؤثر آخر ليس من طبيعتها . والتوجه إلى الخالق هو الأَوْلى ، وهو الأول ، وهو المتجه الذي لا يحتاج إلى عنصر خارج عن طبيعة النفس وانجذابها الفطري . والرجل المؤمن يحس هذا في قرارة نفسه ، فيعبر عنه هذا التعبير الواضح البسيط ، بلا تكلف ولا لف ولا تعقيد !

وهو يحس بفطرته الصادقة الصافية كذلك أن المخلوق يرجع إلى الخالق في النهاية . كما

يرجع كل شيء إلى مصدره الأصيل . فيقول :

﴿ وإليه ترجعون ﴾ . .

ويتساءل لم لا أعبد الذي فطرني ، والذي إليه المرجع والمصير ؟ ويتحدث عن رجعتهم هم إليه . فهو خالقهم كذلك . ومن حقه أن يعبدوه .

ثم يستعرض النهج الآخر المخالف للمنهج الفطري المستقيم . فيراه ضلالاً بيناً : ﴿ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟ ﴾ . .

وهل أضل ممن يدع منطق الفطرة الذي يدعو المخلوق إلى عبادة خالقه ، وينحرف إلى عبادة غير الخالق بدون ضرورة ولا دافع ؟ وهل أضل ممن ينحرف عن الخالق إلى آلهة ضعاف لا يحمونه ولا يدفعون عنه الضر حين يريد به خالقه الضر بسبب انحرافه وضلاله ؟

﴿ إني إذاً لفي ضلال مبين ﴾ .

يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30)

(85/648)

---

بعد الحديث في الدرس الأول عن المشركين الذين واجهوا دعوة الإسلام بالتكذيب ؛ والمثل الذي ضربه لهم في قصة أصحاب القرية المكذبين ؛ وما انتهى إليه أمرهم ﴿ فإذا هم

خامدون ﴾ يبدأ الحديث في هذا الدرس بالتعميم في موقف المكذبين بكل ملة ودين؛ ويعرض صورة البشرية الضالة على مدار القرون، وينادي على العباد نداء الحسرة وهم لا يتعظون بمصارع الهالكين، الذين يذهبون أمامهم ولا يرجعون إلا يوم الدين: ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾..

ثم يأخذ في استعراض الآيات الكونية التي يمرون عليها معرضين غافلين؛ وهي مبثوثة في أنفسهم وفيما حولهم وفي تاريخهم القديم.. وهم مع هذا لا يشعرون؛ وإذا ذكروا لا يذكرون ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾.. وهم يستعجلون بالعذاب غير مصدقين: ﴿ ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾.

وبمناسبة الاستعجال والتكذيب يستعرض مشهداً مطولاً من مشاهد القيامة يرون فيه مصيرهم الذي به يستعجلون، كأنه حاضر تراه العيون.

﴿ يا حسرة على العباد! ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون. ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون؟ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾..

والحسرة انفعال نفسي على حال مؤسفة لا يملك الإنسان شيئاً حيالها، سوى أن يتحسر وتألم نفسه. والله سبحانه وتعالى لا يتحسر على العباد؛ ولكنه يقرر أن حالة هؤلاء العباد مما يستحق حسرة المتحسرين! فهي حال بائسة مؤسفة تنتهي بأصحابها إلى شر وخيم وبلاء عظيم!

يا حسرة على العباد تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها ، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبرونها ولا ينتفعون بها . ويفتح الله لهم أبواب رحمته بإرسال الرسل إليهم الحين بعد الحين ؛ ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة ويسيئون الأدب مع الله : ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ . .

﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ . .

(86/648)

---

ولقد كان في هلاك الأولين الذاهبين لا يرجعون ، على مدار السنين وتطاول القرون . . لقد كان في هذا عظة لمن يتدبر . ولكن العباد البائسين لا يتدبرون . وهم صائرون إلى ذات المصير . فأية حالة تدعو إلى الحسرة كهذا الحال الأسيف ؟ !

إن الحيوان ليرجف حين يرى مصرع أخيه أمامه ؛ ويحاول أن يتوقاه قدر ما يستطيع . فما بال الإنسان يرى المصارع تلو المصارع ، ثم يسير مندفعاً في ذات الطريق ؟ والغرور يملي له ويخدعه عن رؤية المصير المطروق ! وهذا الخط الطويل من مصارع القرون معروض على الأنظار ولكن العباد كأنهم عمي لا يبصرون !

وإذا كان الهالكون الذاهبون لا يرجعون إلى خلفائهم المتأخرين ، فإنهم ليسوا بمتروكين ولا

مفلتين من حساب الله بعد حين . .

﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ .

.

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ؛ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون ؟ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ . .

إنهم يكذبون الرسل ، ولا يتدبرون مصارع المكذبين ، ولا يدركون دلالة كونهم يذهبون ولا يرجعون . والرسل إنما يدعونهم إلى الله . وكل ما في الوجود حولهم يحدثهم عن الله ، ويدل عليه ويشهد بوجوده . وهذه هي الأرض القريبة منهم ، يرونها ميتة لا حياة فيها ، ولا ماء ينشئ الحياة ، ثم يرونها حية تنبت الحب ، وتزدان بالجنات من نخيل وأعناب ، وتتفجر فيها العيون ، فتجري بالحياة حيث تجري .

والحياة معجزة لا تملك يد البشر أن تجريها ؛ إنما هي يد الله التي تجري المعجزات ، وتبث روح الحياة في الموات . وإن رؤية الزرع النامي ، والجنان الوارفة ، والثمر اليانع ، لتفتح العين والقلب على يد الله المبدعة ، وهي تشق التربة عن النبتة المتطلعة للحرية والنور ، وتنضر العود المستشرف للشمس والضياء ، وتزين الغصن اللدن بالورق والثمار ، وتفتح الزهرة وتنضج الثمرة ، وتهيئها للجني والقطاف . . ﴿ ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ﴾ . . ويد الله هي التي أقدرتهم على العمل ، كما أقدرت الزرع على الحياة والنماء ! ﴿ أفلا يشكرون ﴾ .

ويلتفت عنهم بعد هذه اللمسة الرفيقة ليسبح الله الذي أطلع لهم النبت والجنان ، وجعل الزرع أزواجاً ذكراناً وإناثاً كالناس وكغيرهم من خلق الله الذي لا يعلمه سواه :

﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ . .

وهذه التسبيحة تنطلق في أوانها وفي موضعها ؛ وترتسم معها حقيقة ضخمة من حقائق هذا الوجود . حقيقة وحدة الخلق . . وحدة القاعدة والتكوين . . فقد خلق الله الأحياء أزواجاً . النبات فيها كالإنسان . ومثل ذلك غيرهما . . ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ . وإن هذه الوحدة لتشي بوحدة اليد المبدعة . التي توجد قاعدة التكوين مع اختلاف الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس ، والخصائص والسمات ، في هذه الأحياء التي لا يعلم علمها إلا الله . .

ومن يدري فربما كانت هذه قاعدة الكون كله حتى الجماد ! وقد أصبح معلوماً أن الذرة أصغر ما عرف من قبل من أجزاء المادة مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربي ، سالب وموجب يتزاوجان ويتحدان ! كذلك شوهدت ألوف من الثنائيات النجمية . تتألف من نجمين مرتبطين يشد بعضهما بعضاً ، ويدوران في مدار واحد كأنما يوقعان نغمة رتيبة !

تلك آية الأرض الميتة تنبثق فيها الحياة . . ومنها إلى آية السماء وما يتعلق بها من ظواهر يراها العباد رأي العين ، ويد الله تجريها بالخوارق المعجزات :

(88/648)

---

﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون ﴾ .

.

ومشهد قدوم الليل ، والنور يختفي والظلمة تغشى . . مشهد مكرور يراه الناس في كل بقعة في خلال أربع وعشرين ساعة ( فيما عدا بعض المواقع التي يدوم فيها النهار كما يدوم فيها

الليل أسابيع وأشهراً قرب القطبين في الشمال والجنوب ) وهو مع تكراره اليومي عجيبة تدعو إلى التأمل والتفكير .

والتعبير القرآني عن هذه الظاهرة في هذا الموضع تعبير فريد . فهو يصور النهار متلبساً بالليل ؛ ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا هم مظلمون . ولعلنا ندرك شيئاً من سر هذا التعبير الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته . فالأرض الكروية في دورتها حول نفسها في مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس ؛ فإذا هذه النقطة نهار ؛ حتى إذا دارت الأرض وانزوت تلك النقطة عن الشمس ، انسلخ منها النهار ولفها الظلام وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام وكأنما نور النهار ينزع أو يسلخ فيحل محله الظلام . فهو تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير .

﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ . .

والشمس تدور حول نفسها . وكان المظنون أنها ثابتة في موضعها الذي تدور فيه حول نفسها . ولكن عرف أخيراً أنها ليست مستقرة في مكانها . إنما هي تجري . تجري فعلاً . تجري في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية ! والله ربها الخبير بها وبجريانها وبمصيرها يقول : إنها تجري لمستقر لها . هذا المستقر الذي ستنتهي إليه لا يعلمه إلا هو سبحانه . ولا يعلم موعده سواه .

وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه . وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء ، لا يسندها شيء ، ندرك طرفاً من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم :

﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ . .

﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ . .

والعباد يرون القمر في منازله تلك . يولد هلالاً . ثم ينمو ليلة بعد ليلة حتى يستدير بدراً . ثم يأخذ في التناقص حتى يعود هلالاً مقوساً كالعرجون القديم . والعرجون هو العذق الذي يكون فيه البلح من النخلة .

والذي يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة يدرك ظل التعبير القرآني العجيب : ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ . .

وبخاصة ظل ذلك اللفظ ﴿ القديم ﴾ . فالقمر في لياليه الأولى هلال . وفي لياليه الأخيرة هلال . . ولكنه في الأولى يبدو وكأن فيه نضارة وفتوة . وفي الأخيرة يطلع وكأنما يغشاه سهوم ووجوم ، ويكسوه شحوب وذبول . ذبول العرجون القديم ! فليست مصادفة أن يعبر القرآن الكريم عنه هذا التعبير الموحي العجيب !

والحياة مع القمر ليلة بعد ليلة تثير في الحس مشاعر وخواطر ندية ثرية موحية عميقة .

والقلب البشري الذي يعيش مع القمر دورة كاملة، لا ينجو من تأثرات واستجابات، ومن سبحات مع اليد المبدعة للجمال والجلال؛ المدبرة للأجرام بذلك النظام.

سواء كان يعلم سر هذه المنازل والأشكال القمرية المختلفة أو لا يعلم. فالمشاهدة وحدها كفيلة بتحريك القلب، واستجاشة الشعور، وإثارة التدبر والتفكير.

وأخيراً يقرر دقة النظام الكوني الذي يحكم هذه الأجرام الهائلة، ويرتب الظواهر الناشئة عن نظامها الموحد الدقيق:

﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون ﴾..

(90/648)

---

ولكل نجم أو كوكب فلك، أو مدار، لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه. والمسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة. فالمسافة بين أرضنا هذه وبين الشمس تقدر بنحو ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال. والقمر يبعد عن الأرض بنحو أربعين ومائتي ألف من الأميال.. وهذه المسافات على بعدها ليست شيئاً يذكر حين تقاس إلى بعد ما بين مجموعتنا الشمسية وأقرب نجم من نجوم السماء الأخرى إلينا. وهو يقدر بنحو أربع

سنوات ضوئية . وسرعة الضوء تقدر بستة وثمانين ومائة ألف من الأميال في الثانية الواحدة ! (أي إن أقرب نجم إلينا يبعد عنا بنحو مائة وأربعة مليون مليون ميل ! ) .

وقد قدر الله خالق هذا الكون الهائل أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم والكواكب . ووضع تصميم الكون على هذا النحو ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع حتى يأتي الأجل المعلوم فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر . والليل لا يسبق النهار ، ولا يزحمه في طريقه ، لأن الدورة التي تجيء بالليل والنهار لا تختل أبداً فلا يسبق أحدهما الآخر أو يزحمه في الجريان !

﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ . .

وحركة هذه الأجرام في الفضاء الهائل أشبه بحركة السفين في الخضم الفسيح . فهي مع ضخامتها لا تزيد على أن تكون نقطاً سابحة في ذلك الفضاء المرهوب .

وإن الإنسان ليتضاءل ويتضاءل ، وهو ينظر إلى هذه الملايين التي لا تحصى من النجوم الدوارة ، والكواكب السيارة . متناثرة في ذلك الفضاء ، سابحة في ذلك الخضم ، والفضاء من حولها فسيح فسيح وأحجامها الضخمة تائهة في ذلك الفضاء الفسيح ! ! !

﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ، وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون ، إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين ﴾ . .

إن في السياق مناسبة لطيفة بين النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها ، والفلك المشحون السابح في الماء يحمل ذرية بني آدم ! مناسبة في الشكل ، ومناسبة في الحركة ، ومناسبة في تسخير هذا وذلك بأمر الله ، وحفظه بقدرته في السماوات والأرض سواء .

وهذه آية كتلك يراها العباد ولا يتدبرونها . بل هذه أقرب إليهم وأيسر تدبراً لو فتحوا قلوبهم للآيات .

ولعل الفلك المشحون المذكور هنا هو فلك نوح أبي البشر الثاني ؛ الذي حمل فيه ذرية آدم .

ثم جعل الله لهم من مثله هذه السفن التي تمخر بهم العباب .

وهؤلاء وهؤلاء حملتهم قدرة الله ونواميسه التي تحكم الكون وتصرفه ؛ وتجعل الفلك يعوم على وجه الماء ، بحكم خواص الفلك ، وخواص الماء ، وخواص الريح أو البخار ، أو الطاقة المنطلقة من الذرة ، أو غيرها من القوى . وكلها من أمر الله وخلقه وتقديره .

﴿ وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون . إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين ﴾ . . والسفينة في الخضم كالريشة في مهب الريح ، مهما ثقلت وضخمت وأتقن صنعها . وإلا تدركها رحمة الله فهي هالكة هالكة في لحظة من ليل أو نهار . والذين ركبوا البحار سواء عبروها في قارب ذي شراع أو في عابرة ضخمة للمحيط ، يدركون هول البحر المخيف ؛ وضآلة العصمة من خطره الهائل وغضبه الجبار . ويحسون معنى رحمة الله ؛ وأنها

وحدها العاصم بين العواصف والتيارات في هذا الخلق الهائل الذي تمسك يد الرحمة الإلهية عنانه الجامح، ولا تمسكه يد سواها في أرض أو سماء. وذلك حتى يقضي الكتاب أجله، ويحل الموعد المقدور في حينه، وفق ما قدره الحكيم الخبير: ﴿ ومتاعاً إلى حين ﴾..

ومع تلك الآيات الواضحات فالعباد في غفلة، لا تتوجه أنظارهم، ولا تستيقظ قلوبهم؛ ولا يكفون عن سخريتهم وتكذيبهم، واستعجالهم بالعذاب الذي ينذرهم به المرسلون:

(92/648)

---

﴿ وإذا قيل لهم: اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون. وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين. وإذا قيل لهم: أنفقوا مما رزقكم الله، قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه؟ إن أنتم إلا في ضلال مبين. ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ ﴾..

إن تلك الآية بذاتها لا تثير في قلوبهم التطلع والتدبر والحساسية والتقوى. وهي بذاتها كافية أن تثير في القلب المفتوح هزة ورعشة وانتفاضة؛ وأن تخلطه بهذا الوجود. هذا الكتاب المفتوح الذي تشير كل صفحة من صفحاته إلى عظمة الخالق، ولطيف تدبيره

وتقديره. ولكن هؤلاء المطموسين لا يرونها . وإذا رأوها لا يتدبرونها . والله لعظيم رحمته لا يتركهم مع هذا بلا رسول ينذرهم ويوجههم ويدعوهم إلى رب هذا الكون وبارئ هذا الوجود . ويثير في قلوبهم الحساسية والخوف والتقوى ويحذرهم موجبات الغضب والعذاب، وهي محيطة بهم، من بين أيديهم ومن خلفهم، إلا ينتبهوا لها يقعوا فيها في كل خطوة من خطواتهم. وتتوالى عليهم الآيات مضافة إلى الآيات الكونية التي تحيط بهم في حيثما يتجهون. ولكنهم مع هذا يظلون في عمايتهم سادرين :

﴿ وإذا قيل لهم : اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون. وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ . .

وإذا دعوا إلى إنفاق شيء من مالهم لإطعام الفقراء : قالوا ساخرين متعنتين :

﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ ﴾ . .

وتطاولوا على من يدعونهم إلى البر والإنفاق قائلين :

﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ !

وتصورهم للأمر على هذا النحو الآلي يشي بعدم إدراكهم لسنن الله في حياة العباد .

فالله هو مطعم الجميع ، وهو رازق الجميع . وكل ما في الأرض من أرزاق ينالها العباد هي من خلقه ، فلم يخلقوا هم لأنفسهم منها شيئاً ، وما هم بقادرين على خلق شيء أصلاً . ولكن مشيئة الله في عمارة هذه الأرض اقتضت أن تكون للناس حاجات لا ينالونها إلا بالعمل والكد ؛ وفلاحة هذه الأرض ؛ وصناعة خاماتها ؛ ونقل خيراتها من مكان إلى مكان ، وتداول هذه الخيرات وما يقابلها من سلعة أو نقد أو قيم تختلف باختلاف الزمان والمكان . كما اقتضت أن يتفاوت الناس في المواهب والاستعدادات وفق حاجات الخلافة الكاملة في هذه الأرض . وهذه الخلافة لا تحتاج إلى المواهب والاستعدادات المتعلقة بجمع المال والأرزاق وحدها ، إنما تحتاج إلى مواهب واستعدادات أخرى قد تحقق ضرورات أساسية لخلافة الجنس الإنساني في الأرض ، بينما يفوتها جمع المال والأرزاق ويعوزها !

وفي خلال هذا الخضم الواسع لحاجات الخلافة ومطالبها ، والمواهب والاستعدادات اللازمة لها ، وما يترتب على هذه وتلك من تداول للمنافع والأرزاق ، وتصارع وتضارب في الأنصبة والحظوظ . . في خلال هذا الخضم الواسع المترابط الحلقات لا في جيل واحد ، بل في أجيال متعددة قريبة وبعيدة ، ماضية وحاضرة ومستقبلة . . في خلال هذا الخضم تتفاوت الأرزاق في أيدي العباد . . ولكي لا ينتهي هذا التفاوت إلى إفساد الحياة والمجتمع ، بينما هو ناشئ أصلاً من حركة الحياة لتحقيق خلافة الإنسان في الأرض ، يعالج الإسلام

الحالات الفردية الضرورية بخروج أصحاب الثراء عن قدر من مالهم يعود على الفقراء ويكفل طعامهم وضرورياتهم . وبهذا القدر تصلح نفوس كثيرة من الفقراء والأغنياء سواء . فقد جعله الإسلام زكاة . وجعل في الزكاة معنى الطهارة . وجعلها كذلك عبادة . وألف بها بين الفقراء والأغنياء في مجتمعه الفاضل الذي ينشئه على غير مثال .

(94/648)

---

فقولة أولئك المحجوبين عن إدراك حكمة الله في الحياة : ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ ﴾ . . وتطاولهم على الداعين إلى الإنفاق بقولهم : ﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ . . إن هو إلا الضلال المبين الحقيقي عن إدراك طبيعة سنن الله ، وإدراك حركة الحياة ، وضخامة هذه الحركة ، وعظمة الغاية التي تتنوع من أجلها المواهب والاستعدادات ، وتتوزع بسببها الأموال والأرزاق .

والإسلام يضع النظام الذي يضمن الفرص العادلة لكل فرد ، ثم يدع النشاط الإنساني المتنوع اللازم للخلافة في الأرض يجري مجراه النظيف . ثم يعالج الآثار السيئة بوسائله الواقية .

وأخيراً يجيء شكهم في الوعد ، واستهزاؤهم بالوعيد :

﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ ﴾ . .

ووعد الله لا يستقدم لاستعجال البشر ؛ ولا يستأخر لرجائهم في تأخيره . فكل شيء عند الله بمقدار . وكل أمر مرهون بوقته المرسوم . إنما تقع الأمور في مواعيدها وفق حكمة الله الأزلية التي تضع كل شيء في مكانه ، وكل حادث في إبانه ، وتمضي في تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه وفق النظام المقدر المرسوم في إمام مبين .

أما الرد على هذا السؤال المنكر فيجيء في مشهد من مشاهد القيامة يرون فيه كيف يكون ، لا متى يكون . .

﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون . ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا : يا ولينا ! من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ . .

يسأل المكذبون : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ . . فيكون الجواب مشهداً خاطفاً سريعاً . . صيحة تصعق كل حي ، وتنتهي بها الحياة والأحياء :

﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ . .

فهي تأخذهم بغتة وهم في جدالهم وخصامهم في معترك الحياة ، لا يتوقعونها ولا يحسبون لها حساباً . فإذا هم منتهون . كل على حاله التي هو عليها . لا يملك أن يوصي بمن بعده . ولا يملك أن يرجع إلى أهله فيقول لهم كلمة . . وأين هم ؟ إنهم مثله في أماكنهم منتهون !

ثم ينفخ في الصور فإذا هم ينتفضون من القبور . ويمضون سراعاً ، وهم في دهش وذعر يتساءلون : ﴿ من بعثنا من مرقدنا ؟ ﴾ . ثم تزول عنهم الدهشة قليلاً ، فيدركون ويعرفون : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ !

ثم إذا الصيحة الأخيرة . صيحة واحدة . فإذا هذا الشتيت الحائر المذهول المسارع في خطاه المدهوش . يثوب : ﴿ فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ . . وتنتظم الصفوف ، ويتهيأ الاستعراض في مثل لمح البصر ورجع الصدى . وإذا القرار العلوي في طبيعة الموقف ، وطبيعة الحساب والجزاء يعلن على الجميع :

﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ . .

وفي هذه السرعة الخاطفة التي تتم بها تلك المشاهد الثلاثة تناسق في الرد على أولئك الشاكين المرتابين في يوم الوعد المبين !

ثم يطوي السياق موقف الحساب مع المؤمنين ، ويعجل بعرض ما صاروا إليه من نعيم :

﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون . هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك

متكئون. لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون. سلام قولاً من رب رحيم ﴾ . .

إنهم مشغولون بما هم فيه من النعيم، ملتذون متفكهون. وإنهم لفي ظلال مستطابة يستروحون نسيمها . . وعلى أرائك متكئين في راحة ونعيم هم وأزواجهم. لهم فيها فاكهة ولهم كل ما يشاءون؛ وهم ملاك محقق لهم فيها كل ما يدعون. ولهم فوق اللذائذ التأهيل والتكريم: ﴿ سلام ﴾ . . يتلقونه من ربهم الكريم: ﴿ قولاً من رب رحيم ﴾ . .

فأما الآخرون فلا يطوي السياق موقف حسابهم، بل يعرضه ويبرز فيه التبكيت والتنكيل :

﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون. ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين. انتهى انتهى. اهـ ﴿الظلال حـ 5 صـ 2958. 2972﴾

(96/648)

---

فصل

قال القرطبى :

باب ما جاء في شهادة أركان الكافر والمنافق عليهما ولقائهما الله عز وجل

قال الله تعالى : اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون

وقال : يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون وقال : وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا الآية . وذكر أبو بكر بن أبي شيبة من حديث معاوية بن حيدة القرشي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : تجيئون يوم القيامة على أفواهكم الفدام وأول ما يتكلم من الإنسان فخذه وكفه وقد تقدم .

مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نضحك فقال : هل تدرون لم أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : من مخاطبة العبد ربه ، يقول يا رب ألم تجرني من الظلم ؟ قال : يقول : بلا ، قال : فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني قال : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً وبالكرام الكاتبين شهوداً ، قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطق فتنطق بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام قال : فيقول بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل . الترمذي عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً ، وسخرت لك الأنعام ، والحرث وترأس وتربع فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا ؟ فيقول : لا . فيقول : اليوم أنساك كما أنسيتني . قال هذا حديث صحيح غريب ، وأخرجه مسلم عن أبي هريرة بأطول من هذا وقد تقدم .

البخاري عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك ملك الأرض ذهباً كنت تفتدى به ؟ فيقول : نعم . فيقال له : قد

كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك . وأخرجه مسلم وقال بدل قد كنت كذبت قد سئلت

ما هو أيسر من ذلك .

فصل : قوله عليه السلام فأول ما يتكلم من الإنسان فخذه يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون ذلك زيادة في



---

الفضيحة والخزي على ما نطق به الكتب في قوله : هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق لأنه كان

في الدنيا يجاهر بالفواحش ويخلو قلبه عندها من ذكر الله تعالى فلا يفعل ما بفعل خائفاً

مشفقاً فيجزيه الله بمجاهرته بفحشه على رؤوس الأشهاد .

والوجه الآخر : أن يكون هذا فيمن يقرأ كتابه ولا يعرف بما ينطق به بل يجحد فيختم الله

على فيه عند ذلك ، وتنطق منه الجوارح التي لم تكن ناطقة في الدنيا فتشهد عليه سيئاته ،

وهذا أظهر الوجهين يدل عليه أنهم يقولون لجلودهم أي لفروجهم في قول زيد بن أسلم . لم

شهدتم علينا ؟ فتمردوا في الجحود فاستحقوا من الله الفضح والإخزاء . نعوذ بالله

منهما .

فصل : قوله [ وتركتك ترأس وتربع ] أي ترأس على قومك بأن يكون رئيساً عليهم ويأخذ

الربع مما يحصل لهم من الغنائم والكسب ، وكانت عادتهم أن أمراءهم كانوا يأخذون من الغنائم الربع ويسمونه المرباع قال شاعرهم :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

وقال آخر :

منا الذي ربع الجيوش لصلبه عشرون وهو يعد في الأحياء

يقال : ربع الجيش يربعه إذا أخذ ربع الغنيمة . قال الأصمعي : ربع في الجاهلية وخمس في الإسلام .

وقوله : اليوم أنساك كما نسيتني أي اليوم أتركك في العذاب كما تركت عبادتي ومعرفتي .

فإن قيل : فهل يلقى الكافر ربه ويسأله ؟ قلنا : نعم بدليل ما ذكرنا . وقد قال تعالى : فلنسألن الذين أرسل إليهم في أحد التأويلين وقال : ولو ترى إذ وقفوا على ربهم وقال : أولئك يعرضون على ربهم وقال وعرضوا على ربك صفاً الآيتين . وقال : إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم وقال : وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم إلى قوله وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون والآي في هذا المعنى كثير .

فإن قيل : قد قال الله تعالى يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام وقال عليه السلام : ويخرج عنق من

النار فيقول : وكلت بثلاث بكل جبار عنيد وكل من جعل مع الله إلهاً آخر وبالمصورين .

قلنا : هذا يحتمل أن يكون بعد الوزن والحساب وتطاير الكتب في اليمين والشمال وتعظيم الخلق كما تقدم ويدل عليه قوله : وبالمصورين فإنهم كانوا موحدين فلا بد لهم من سؤال وحساب وبعده يكونون أشد الناس عذاباً ، وإن كانوا كافرين مشركين فيكون ذكرهم تكراراً في الكلام على أنا نقول :

قال بعض العلماء : ذكر الله تعالى الحساب جملة وجاءت الأخبار بذلك ، وفي بعضها ما يدل على أن كثيراً من المؤمنين يدخلون الجنة بغير حساب ، فصار الناس إذاً ثلاث فرق : فرقة لايحاسبون أصلاً ، وفرقة تحاسب حساباً يسيراً ، وهما من المؤمنين ، وفرقة تحاسب حساباً شديداً يكون منها مسلم وكافر ، وإذا كان من المؤمنين من يكون أدنى إلى رحمة الله فلا يبعد أن يكون من الكفار من هو أدنى إلى غضب الله فيدخله النار بغير حساب .

وقد ذكر ابن المبارك في دقائقه عن شهر بن حوشب عن ابن عباس أن بعد أخذ النار هؤلاء تنشر الصحف وتوضع الموازين ، وتدعى الخلائق للحساب .

فإن قيل : فقد قال تعالى : كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون وقال : ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون وقال : ولا يكلمهم الله وهذا يتناول بعمومه جميع الكفار .

قلنا : القيامة مواطن فموطن يكون فيه سؤال وكلام وموطن لا يكون ذلك فلا يتناقض الآي ،

والأخبار والله المستعان.

قال عكرمة: القيامة مواطن يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها . وقال ابن عباس: لا يسألون سؤالاً شفا وراحة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ لم عملتم كذا وكذا والقاطع لهذا قوله تعالى: فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون.

قال أهل التأويل عن لا إله إلا الله: وقد قيل إن الكفار يحاسبون بالكفر بالله الذي كان طول العمر دثارهم وشعارهم وكل دلالة من دلائل الإيمان خالفوها وعاندوها ، فإنهم يبكتون عليها و



---

يسألون عنها عن الرسل وتكذيبهم إياهم لقيام الدلائل على صدقهم.

وقال تعالى: وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم، وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء، إنهم لكاذبون * وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون والآي في هذا المعنى كثيرة، ومن تأمل آخر سورة المؤمنين فإذا نفخ في الصور إلى آخرها تبين له الصواب في ذلك والحمد لله على ذلك.

وذكر ابن المبارك، عن شهر بن حوشب، عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن بعد أخذ

النار هؤلاء الثلاثة : تنشر الصحف وتوضع الموازين ويدعى الخلائق للحساب . وشهر : ضغفه مسلم في كتابه وغيره .

فإن قيل : فقد ذكر اللالكائي في سننه عن عائشة رضي الله عنها قالت : لا يحاسب رجل يوم القيامة إلا دخل الجنة قالوا : ولأن الحساب إنما يراد للثواب والجزاء ولا حسنات للكافر فيجازي عليها بحسابه ولأن المحاسب له هو الله تعالى ، وقد قال : ولا يكلمهم الله يوم القيامة .

قلنا : ما روي عن عائشة قد خالفها غيرها في ذلك للآيات والأحاديث الواردة في ذلك وهو الصحيح ، ومعنى [ لا يكلمهم الله ] أي بما يحبونه ، قال الطبري : وفي التنزيل اخسؤوا فيها ولا تكلمون وقد قيل إن معنى قوله تعالى : ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين . أي أن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحداً يوم القيامة أن يقال ما كان دينك وما كنت تصنع في الدنيا حتى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه مان مؤمناً أو كان كافراً . لكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه منشرحي الصدور ، ويكون المشركون سود الوجوه زرقاً مكروبين ، فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار وتميزهم في الموقف كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم ، ومن قال هذا فيحتمل أن يقول إن الأمر يوم القيامة يكون بخلاف ما هو كائن قبله على ما وردت به الأخبار

من سؤال الملكين الميت إذا دفن وانصرف الناس عنه فيسألونه عن ربه ودينه ونبيه . أي إذا كان يوم القيامة لم تسأل الملائكة عند الحاجة إلى تمييز فريق عن هذا لاستغنائهم بمناظرهم عما وراءها ، ومن قاله يحتج بقوله تعالى : فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون أخبر أنهم يسألهم عن أعمالهم وهذه الآية في الكافرين ، ومن قال يسألهم عن أصل كفرهم ثم عن تجريدهم إياه كل وقت باستهزائهم بآيات الله تعالى ورسله ، فقد سألهم عما كانوا يعملون . وذلك هو المراد .

باب ما جاء في شهادة الأرض والليالي والأيام بما عمل فيها وعليها وفي شهادة المال على صاحبه وقوله تعالى : وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد

الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية يومئذ تحدث أخبارها قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبداً أو أمةً بما عمل على ظهرها تقول : عمل يوم كذا كذا وكذا . فهذه أخبارها قال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

أبو نعيم ، عن معاوية بن قرة ، عن معقل بن يسار ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادي فيه : يا ابن آدم أنا خلق جديد ، وأنا فيما تعمل عليك غداً شهيد فاعمل في خيراً أشهد لك به غداً فإني لو قد مضيت لم ترني أبداً . ويقول

الليل مثل ذلك غريب من حديث معاوية تفرد عنه زيد العمى ، ولا أعلمه مرفوعاً عن النبي إلا بهذا الإسناد .

ابن المبارك ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : من سجد في موضع عن شجر أو حجر شهد له عند الله يوم القيامة قال : وأخبرني ابن أبي خالد رضي الله عنه قال : سمعت أبا عيسى يحيى بن رافع يقول : سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه : يقول : وجاءت سكرة الموت بالحق وقال تعالى : وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد قال : سائق يسوقها إلى أمر الله وشاهد يشهد عليها بما عملت .

(101/648)

---

وخرج مسلم من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه : وإن هذا المال خضر حلو ونعم صاحب السلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيداً يوم القيامة ، وقد تقدم أنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر إلا شهد له يوم القيامة رواه أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم . ورواه الأئمة مالك

وغيره .

قال المؤلف : فتفكر يا أخي وإن كنت شاهداً عدلاً بأنك مشهود عليك في كل أحوالك من فعلك ومقالك وأعظم الشهود لديك المطلع عليك الذي لا تخفى عليه خافية عين ولا يغيب عنه زمان ولا أين . قال الله تعالى لا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه فاعمل عمل من يعلم أنه راجع إليه وقادم عليه يجازي على الصغير والكبير والقليل والكثير . سبحانه لا إله إلا هو .

باب لا يشهد العبد على شهادة في الدنيا إلا شهد بها يوم القيامة

ابن المبارك قال : أخبرنا رشدين بن سعد ، عن عمرو بن الحارث ، عن سعيد ابن أبي هلال ، عن سليمان بن راشد أنه بلغه أن امرأً لا يشهد على شهادة في الدنيا إلا شهد بها يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ، ولا يمتدح عبداً في الدنيا إلا امتدحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد . قلت : هذا صحيح ، يدل على صحته من الكتاب قول الحق ستكتب شهادتهم ويسألون . وقوله : ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿التذكرة فى أحوال الموتى صـ 326 . 333﴾

(102/648)

قوله تعالى ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (76) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الشعر مع ما بني عليه من التكلف الذي هو بعيداً جداً عن سجايا الأنبياء فكيف بأشرفهم مما يكتسب به مدحاً وهجواً ، فيكون أكثره كذباً - إلى غير ذلك من معايبه ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وما ينبغي له ﴾ أي وما يصح ولا ينطلب ولا يتأتى أصلاً ، لأن منصبه أجل ، وهمته أعلى من أن يكون مداحاً أو عياباً ، أو أن يتقيد بما قد يجر إلى نقيصة في المعنى ، وجبلته منافية لذلك غاية المنافاة .

ولما تمت الدلالة على أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وتضمنت أن الشعر – وهو تعمد صوغ الكلام على وزن معلوم وقافية ملتزمة – نقيصة لما ذكر ولما يلزمه التقيد بالوزن والروي والقافية من التقديم والتأخير والتحويم على المعاني من غير إفصاح ولا تبيين فيصير عسر الفهم مستعصي البيان ، ونفى عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ تلك النقيصة ، فتضمن ذلك تنزيه ما أنزل عليه عنها – كما أشارت إليه نون العظمة في " علمنا " – أثبت له ما ينبغي له فقال كالتعليل لما قبله : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هو ﴾ أي هذا الذي أتاكم به ﴿ إلا ذكر ﴾ أي شرف وموعظة ﴿ وقرآن ﴾ أي جامع للحكم كلها دنيا وأخرى يتلى في المحاريب ويكرر في المتعبدات ، وينال بتلاوته والعمل به فوز الدارين مع الفصل بين الملبسات ﴿ مبين ﴾ أي ظاهر في ذلك مطلق لكل ما فيه لمن يرومه حق رومه ، ويسومه بأغلى سومه ، بعد أن يشترط في مطلق فهمه ومجرد اللذة به الذكي والغبي والحديد والبليد ، وليس هو بشعر متكلف يتقدم فيه – بحكم التزام الوزن والروي والقافية – الشيء عن حاق موضعه تارة ويتأخر أخرى ، ويبدل بما لا يساويه فتنقص معانيه وتنعقد فتشكل فلا يفهمه إلا ذاك وذاك مع أنه من همزات الشياطين فيا بعد ما بينهما ، ويبين هذا المعنى غاية البيان آخر " ص " ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أي كلهم ذكيهم وغبيهم بخلاف الشعر فإنه مع نزوله عن بلاغته جداً إنما هو ذكر للأذكياء جداً .

ولما ذكر أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما آتاه من غرائز الشرف في سن النكس لغيره ، ذكر علة ذلك فقال : ﴿ لينذر ﴾ أي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدليل ما دل عليه السياق من التقدير ، ويؤيده لفت الكلام في قراءة نافع وابن عامر ويعقوب بالخطاب إشارة إلى أنه لا يفهمه حق فهمه غيره ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(104/648)

---

ولما كان هذا القرآن مبيناً ، وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ متخلقاً به ، فهو مظهره وصورة وسورته ، فكان حاله مقتضياً لئلا يتخلف عن الإيمان حيّ ، قال مظهراً لما كان حقه في بادي الرأي الإضمار إفادة للتعميم مبيناً لأن حكمه سبحانه منع من ذلك ، فانقسم المنذورن إلى قسمين : ﴿ من كان ﴾ كوناً متمكناً ﴿ حياً ﴾ أي حياة كاملة معنوية تكون سبباً للحياة الدائمة ، فإنه لا يتوقف حينئذ عن الإيمان به خوفاً مما يخوف به من الأمور التي لا يتوجه إليها ريب بوجه ، فيرجى له الخير ، فهو مؤمن في الحقيقة وإن ظهر عليه في أول أمره خلاف ذلك ، وأفرد الضمير هنا على اللفظ إشارة إلى قلة السعداء ، وجمع في الثاني على المعنى إعلاماً بكثرة الأشقياء ﴿ ويحق ﴾ أي يجب ويثبت ﴿ القول ﴾ أي بالعذاب ﴿ على الكافرين ﴾ أي العريقين في الكفر فإنهم أموات في الحقيقة وإن رأيتهم أحياء ، فالآية

من الاحتباك: حذف الإيمان أولاً لما دل عليه من ضده ثانياً ، وحذف الموت ثانياً لما دل عليه من ضده أولاً ، فتحقق بهذا أن أعظم منافاة القرآن للشعر وكذا السجع من أجل أنه جد كله ، فمحط أساليبه بالقصد الأول المعاني والألفاظ تابعة ، والشاعر والساجع محط نظرهما بالقصد الأول الروي والقافية والفاصلة حتى أن ذلك ليؤدي إلى ركة المعنى والكلام بغير الواقع ولا بد ، كما قال حسان بن ثابت -رضى الله عنه- وحاله معروف في البلاغة والتفنن في أساليب الكلام وصدق اللهجة وحسن الإسلام في غزوة الغابة وكان أميرها سعد بن زيد الأشهلي -رضى الله عنه-:

أسر أولاد اللقيطة أننا . . .

سلم غداة فوارس المقداد

(105/648)

---

فغضب سعد على حسان -رضى الله عنهما- وحلف: لا يكلمه أبداً ، وقال: انطلق إلى خيلي وفوارسي ، فجعلها للمقداد ، فاعتذر إليه حسان -رضى الله عنهما- ومدحه بأبيات وقال: والله ما أردت ذلك ولكن الروي وافق اسم المقداد ، لأن القصيدة دالية ، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يدور في فكره أبداً قصد اللفظ ، فإنه من باب الترويق ،

وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ جد كله ، فهو لا يعدل عنه لأنه موزون ، بل لأنه لا يؤدي المعنى كما أن العرب تعدل عن اللحن ولا تحسن النطق به ولا تطوع ألسنتها له لكونه لحناً ، لا لكونه حركة ، فإن وافق شيء من الموزون ما أريد من المعنى لأجل أداء المعنى قاله ، كما يقع لكثير من المصنفين الكلام الموزون وما قصده ، وكما وقع كثير من الكلام الموزون من جميع أبحر الشعر في القرآن وإن لم يوافق المعنى لم يقله ، وعلى هذا يتخرج قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

أنا النبي لا كذب . . .

أنا ابن عبد المطلب



---

لو تظاهر الإنس والجن على أن يأتوا بما أداه من المعنى في ألفاظه أو مثلها على غير هذا النظم لم يقدروا ، وإذا تأملت كل بيت تمثل به فكسره لا تجده كسره إلا لمعنى جليل ، لا يتأتى مع الوزن أو يكون لا فرق بين أدائه موزوناً ومكسوراً ، وهكذا السجع سواء ، ومن هنا علم أنه ليس المعنى أنه لا يحسن الوزن ، بل المعنى أن تعمد الوزن والسجع نقيصة لا تليق بمنصبه العالي لأن الشاعر مقيد بوزن وروي وقافية ، فإن إطاعه المعنى مع ما هو

مقيد به كان وإلا احتال في إتمام ما هو مقيد به وإن نقص المعنى ، والساجع قريب من ذلك ، فهذا هو الذي لم يعلمه الله له ، لأنه - صلى الله عليه وسلم - تابع للمعاني والحقائق والحكم التي تفيد الحياة الدائمة ، لأنه مهيأ بالطبع المستقيم لذلك غير مهيأ لغيره من التكلف ، وإذا أنعمت النظر في آخر الآية الذي هو تعليل لما قبله تحققت أن هذا هو المراد ، فوضح أيّ وضوح بهذا أن كلاًّ منهما نقيصة ، فلا يتحرك شيء من أخلاقه الشريفة نحوها ، ولا يكون له بذلك شيء من الاعتناء ، وقد أشبعت الكلام في هذا وأتقنته في كتابي " مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور " وهو كالمدخل إلى هذا الكتاب - والله الموفق للصواب .



---

ولما أخبر سبحانه بإعماء أفكارهم ، وهدد بطمس أبصارهم ، ومسخهم على مقاعدهم وقرارهم ، وأعلم بأن كتابه خاتم بإنذارهم ، ذكرهم بقدرته وقررهم تثبيتاً لذلك ببدائع صنعته ، فقال عاطفاً على ما تقديره : ألم يروا ما قدمناه وأفهمته آية ﴿ ومن نعمره ﴾ وما بعدها من بدائع صنعنا تلويحاً وتصريحاً الدال على علمنا الشامل وقدرتنا التامة ، فمهما صوبنا كلامنا إليه حق القول عليه ولم يمنعه مانع ، ولا يتصور له دافع ﴿ أولم يروا ﴾ أي يعلموا علماً هو كالرؤية ما هو أظهر عندهم دلالة من ذلك في أجل أموالهم ، ولا

يبعد عندي – وإن طال المدى – أن يكون معطوفاً على قوله : ﴿ ألم يروا كما أهلكنا قبلهم من القرون ﴾ فذاك استعطاف إلى توحيده بالتحذير من النقم ، وهذا بالتذكير بالنعم ، ونبههم على ما في ذلك من العظمة بسوق الكلام في مظهرها كما فعل في آية إهلاك القرون فقال : ﴿ أنا خلقنا لهم ﴾ وخصها بنفسه الشريفة محواً للأسباب وإظهاراً لتشريفهم بتشريفها في قوله : ﴿ مما عملت ﴾ .

ولما كان الإنسان مقيداً بالوهم لا ينفك عنه ، ولذلك يرة الأرواح في المنام في صور أجسادنا ، وكانت يده محل قدرته وموضع اختصاصه ، عبر له بما يفهمه فقال : ﴿ أيدينا ﴾ لأي بغير واسطة على علم منا بقواها ومقاديرها ومنافعها وطبائعها وغير ذلك من أمورها ﴿ أنعاماً ﴾ ثم بين كونها لهم بما سبب عن خلقها من قوله : ﴿ فهم لها مالكون ﴾ أي ضابطون قاهرون من غير قدرة لهم على ذلك لولا قدرتنا بنوع التسبب .

(108/648)

---

ولما كان الملك لا يستلزم الطواعية ، قال تعالى : ﴿ وذللناها لهم ﴾ أي يسرنا قيادها ، ولو شئنا لجعلناها وحشية كما جعلنا أصغر منها وأضعف ، فمن قدر على تذليل الأشياء الصعبة جداً لغيره فهو قادر على تطويع الأشياء لنفسه ، ثم سبب عن ذلك قوله : ﴿ فمنها

ركوبهم ﴾ أي ما يركبون ، وهي الإبل لأنها أعظم مركوباتهم لعموم منافعها في ذلك وكثرتها ، ولمثل ذلك في التذكير بعظيم النعمة والنفع واستقلال كل من النعمتين بنفسه أعاد الجار ، وعبر بالمضارع للتجدد بتجدد الذبح بخلاف المركوب فإن صلاحه لذلك ثابت دائم فقال :

﴿ ومنها يأكلون ﴾ .

ولما أشار إلى عظمة نفع الركوب والأكل بتقديم الجار ، وكانت منافعها من غير ذلك كثيرة ، قال : ﴿ ولهم فيها منافع ﴾ أي بالأصواف والأوبار والأشعار والجلود والبيع وغير ذلك ، وخص المشرب من عموم المنافع لعموم نفعه ، فقال جامعاً له لاختلاف طعوم ألبان الأنواع الثلاثة ، وكأنه عبر بمنتهى الجموع لاختلاف طعوم أفراد النوع الواحد لمن تأمل

﴿ ومشارب ﴾ أي من الألبان ، أخرجناها مميزة عن الفرث والدم خالصة لذيذة ، وكل ذلك لا سبب له إلا أن كلمتنا حقت به ، فلم يكن بد من كونه على وفق ما أردنا ، فليحذر من هو أضعف حالاً منها من حقوق أمرنا ومضي حكمنا بما يسوءه .

ولما كانت هذه الأشياء من العظمة بمكان ، لو فقده الإنسان لتكدرت معيشته ، سبب عن ذلك استئناف الإنكار عليهم في تخلفهم عن طاعته بقوله : ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أي يوقعون الشكر ، وهو تعظيم المنعم لما أنعم وهو استفهام بمعنى الأمر .

ولما ذكرهم نعمه ، وحذرهم نقمه ، عجب منهم في سفول نظرهم وقبح أثرهم ، فقال موبخاً ومقرعاً ومبكتاً ومعجباً من زيادة ضلالهم عادلاً عن مظهر العظمة إلى أعظم منه :

﴿ واتخذوا ﴾ أي فعلنا لهم ذلك والحال أنهم كلفوا أنفسهم على غير ما تهدي إليه الفطرة الأولى أن أخذوا ، أو يكون معطوفاً على "كانوا " من قوله : ﴿ إلا كانوا به يستهزءون ﴾ فيكون التقدير : إلا كانوا يجددون الاستهزاء ، واتخذوا قبل إرساله إليهم مع ما رأوا من قدرتنا وتقبلوا فيه من نعمتنا : ﴿ من دون الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة ، فكل شيء دونه ، وما كان دونه كان مقهوراً مربوباً ﴿ آلهة ﴾ أي لا شيء لها من القدرة ولا من صلاحية الإلهية .

ولما تقرر أنها غير صالحة لها أهلوها له ، تشوف السامع إلى السؤال عن سبب ذلك ، فقال جواباً له تعجيباً من حالهم : ﴿ لعلهم ﴾ أي العابدين .

ولما كان مقصودهم حصول النصر من أي ناصر كان ، بني للمفعول قوله : ﴿ ينصرون ﴾ أي ليكون حالهم بزعمهم في اجتماعهم عليها والتئامهم بها حال من ينصر على من يعاديه ويعانده ويناويه .

ولما كان للنصر سببان : ظاهري وهو الاجتماع ، وأصلي باطني وهو الإله المجتمع عليه ، بين غلطهم بتضييع الأمل ، فقال مستأنفاً في جواب من كأنه قال : فهل بلغوا ما أرادوا ؟ :

﴿ لا يستطيعون ﴾ أي الألهة المتخذة ﴿ نصرهم ﴾ أي العابدين ﴿ وهم ﴾ أي العابدون ﴿ لهم ﴾ أي الآلهة ﴿ جند ﴾ ولما كان الجند مشتركاً بين العسكر والأعوان والمدينة ، عين المراد بضمير الجمع ولأنه أدل على عجزهم وحقارتهم فقال : ﴿ محضرون ﴾ أي يفعلون في الاجتماع إليها والمحاماة عنها فعل من يجمعه كرهاً إيالة الملك وسياسة العظمة ، فصارت العبرة بهم خاصة في حيازة السبب الظاهري مع تعبدهم للعاجز وذلهم للضعيف الدون مع ما يدعون من الشهامة والأنفة والضخامة ، فلو جمعوا أنفسهم على الله لكان لهم ذلك ، وحازوا معه السبب الأعظم .

(110/648)

---

ولما بين ما بين من قدرته الباهرة ، وعظمته الظاهرة ، ووهي أمرهم في الدنيا والآخرة ، وكان قد تقدم ما لوح إلى أنهم نسبوه -صلى الله عليه وسلم- إلى الشعر ، وصرح باستهزائهم بالوعد مع ما قبل ذلك من تكذيبهم وإجابتهم للمؤمنين من تسفيههم وتضليلهم ، سبب عن ذلك بعد ما نفى عنهم النصرة قوله تسلية له -صلى الله عليه وسلم- : ﴿ فلا يحزنك ﴾ قراءة الجماعة بفتح الياء وضم الزاي ، ومعناه : يجعل فيك ، وقراءة نافع بضم الياء وكسر الزاي تدل على أن المنهي عنه إنما هو كثرة الحزن والاستغراق فيه ، لا ما يعرض من طبع

البشر من أصله ، فإن معنى أحزن فلاناً كذا ، أي جعله حزيناً ﴿ قولهم ﴾ أي الذي قدمناه تلويحاً وتصريحاً وغير ذلك فيك وفينا ولما كان علم القادر بما يعمل عدوه سبباً لأخذه ، علل ذلك بقوله مهدداً بمظهر العظمة : ﴿ إنا نعلم ما ﴾ أي كل ما ﴿ يسرون ﴾ أي يجددون إسراره ﴿ وما يعلنون ﴾ أي فنحن نجعل ما يسببونه لأذاك سبباً لأذاهم ونفعك إلى أن يصيروا في قبضتك وتحت قهرك وقدرتك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 280.284 ﴾

(111/648)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) ﴾

في الترتيب وجهان ، قد ذكرنا أن الله في كل موضع ذكر أصلين من الأصول الثلاثة ، وهي الوحدانية والرسالة والحشر ، ذكر الأصل الثالث منها ، وههنا ذكر الأصلين الوحدانية والحشر ، أما الوحدانية ففي قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبَنِى آدم أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان ﴾ [ يس : 60 ] وفي قوله : ﴿ وَأَنِ اعبدوني هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [ يس :

61 ] وأما الحشر ففي قوله تعالى : ﴿ اصلوها اليوم ﴾ [ يس : 64 ] وفي قوله : ﴿ اليوم نَخْتِمُ على أفواههم ﴾ [ يس : 65 ] إلى غير ذلك ، فلما ذكرهما وبينهما ذكر الأصل الثالث وهو الرسالة فقال : ﴿ وَمَا علمناه الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَا علمناه الشعر ﴾ إشارة إلى أنه معلم من عند الله فعلمه ما أراد ولم يعلمه ما لم يرد ، وفي تفسير الآية مباحث :

البحث الأول : خص الشعر بنفي التعليم ، مع أن الكفار كانوا ينسبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم أشياء من جملتها السحر ، ولم يقل وما علمناه السحر وكذلك كانوا ينسبونه إلى الكهانة ، ولم يقل وما علمناه الكهانة ، فنقول : أما الكهانة فكانوا ينسبون النبي صلى الله عليه وسلم إليها عندما كان يخبر عن الغيوب ويكون كما يقول .

وأما السحر : فكانوا ينسبونه إليه عندما كان يفعل ما لا يقدر عليه الغير كشق القمر وتكلم الحصى والجذع وغير ذلك .

(112/648)

---

وأما الشعر : فكانوا ينسبونه إليه عندما كان يتلوا القرآن عليهم لكنه صلى الله عليه وسلم ما كان يتحدى إلا بالقرآن ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا فَأْتُواْ

بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [ البقرة : 23 ] إلى غير ذلك ، ولم يقل إن كنتم في شك من رسالتي فأنطقوا الجذوع أو أشبعوا الخلق العظيم أو أخبروا بالغيوب ، فلما كان تحديه صلى الله عليه وسلم بالكلام وكانوا ينسبونه إلى الشعر عند الكلام خص الشعر بنفي التعليم .

البحث الثاني : ما معنى قوله : ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ قلنا : قال قوم ما كان يتأتى له ، وآخرون ما يتسهل له حتى أنه إن تمثل بيت شعر سمع منه مزاحفاً يروى أنه كان يقول صلى الله عليه وسلم : " ويأتيك من لم تزود بالأخبار " .

وفيه وجه أحسن من ذلك وهو أن يحمل ما ينبغي له على مفهومه الظاهر وهو أن الشعر ما كان يليق به ولا يصلح له ، وذلك لأن الشعر يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن ، فالشارع يكون اللفظ منه تبعاً للمعنى ، والشاعر : يكون المعنى منه تبعاً للفظ ، لأنه يقصد لفظاً به يصح وزن الشعر أو قافيته فيحتاج إلى التحيل لمعنى يأتي به لأجل ذلك اللفظ ، وعلى هذا نقول : الشعر هو الكلام الموزون الذي قصد إلى وزنه قصداً أولياً ، وأما من يقصد المعنى فيصدر موزوناً مقفى فلا يكون شاعراً ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [ آل عمران : 92 ] ليس بشعر ، والشاعر إذا صدر منه كلام فيه متحركات وساكنات بعدد ما في الآية تقطيعه بفاعلاتن فاعلاتن يكون شعراً لأنه قصد الإتيان بألفاظ حروفها متحركة وساكنة كذلك والمعنى تبعه ، والحكيم قصد المعنى فجاء على تلك الألفاظ ، وعلى هذا يحصل الجواب عن قول من يقول : إن

النبي صلى الله عليه وسلم ذكر بيت شعر وهو قوله :

أنا النبي لا كذب . . أنا ابن عبد المطلب

(113/648)

---

أو بيتين لأنا نقول ذلك ليس بشعر لعدم قصده إلى الوزن والقافية ، وعلى هذا لو صدر من النبي صلى الله عليه وسلم كلام كثير موزون مقفى لا يكون شعراً ، لعدم قصده اللفظ قصداً أولياً ، ويؤيد ما ذكرنا أنك إذا تتبعت كلام الناس في الأسواق تجد فيه ما يكون موزوناً واقعاً في بحر من بحور الشعر ولا يسمى المتكلم به شاعراً ولا الكلام شعراً لفقد القصد إلى اللفظ أولاً ، ثم قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ يحقق ذلك المعنى أي هو ذكر وموعظة للقصد إلى المعنى ، والشعر لفظ مزخرف بالقافية والوزن وههنا لطيفة : وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن من الشعر لحكمة " يعني : قد يقصد الشاعر اللفظ فيوافقه معنى حكمي كما أن الحكيم قد يقصد معنى فيوافقه وزن شعري ، لكن الحكيم بسبب ذلك الوزن لا يصير شاعراً والشاعر بسبب ذلك الذكر يصير حكيماً حيث سمي النبي صلى الله عليه وسلم شعره حكمة ، ونفى الله كون النبي شاعراً ، وذلك لأن اللفظ قالب المعنى والمعنى : قلب اللفظ وروحه فإذا وجد القلب لا نظر إلى القالب ،

وفيكون الحكيم الموزون كلامه حكيماً ، ولا يخرجه عن الحكمة وزن كلامه ، والشاعر الموعظ كلامه حكيماً .

لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70)

قريء بالتاء والياء ، بالتاء خطاباً مع النبي صلى الله عليه وسلم وبالياء على وجهين أحدهما : أن يكون المنذر هو النبي صلى الله عليه وسلم حيث سبق ذكره في قوله : ﴿ وَمَا علمناه ﴾ [ يس : 69 ] وقوله : ﴿ وَمَا يَنبَغِى لَهُ ﴾ [ يس : 69 ] .

(114/648)

---

وثانيهما : أن يكون المراد أن القرآن ينذر والأول أقرب إلى المعنى والثاني : أقرب إلى اللفظ ، أما الأول : فلأن المنذر صفة للرسل أكثر وروداً من المنذر صفة للكتب وأما الثاني : فلأن القرآن أقرب المذكورين إلى قوله : ﴿ لّيُنذِرَ ﴾ وقوله : ﴿ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ أي : من كان حي القلب ، ويحتمل وجهين أحدهما : أن يكون المراد من كان حياً في علم الله فينذره به فيؤمن الثاني : أن يكون المراد لينذر به من كان حياً في نفس الأمر ، أي من آمن فينذره بما على المعاصي من العقاب وبما على الطاعة من الثواب ﴿ وَيَحِقَّ القول عَلَى الكافرين ﴾ أما قول العذاب وكلمته كما قال تعالى : ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة

والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [ السجدة : 13 ] وقوله تعالى : ﴿ حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب ﴾ [ الزمر : 71 ] وذلك لأن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [ الإسراء : 15 ] فإذا جاء حق التعذيب على من وجد منه التكذيب ، وأما القول المقول في الوحدانية والرسالة والحشر وسائر المسائل الأصولية الدينية فإن القرآن فيه ذكر الدلائل التي بها تثبت المطالب .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71)

ثم إنه تعالى أعاد الوحدانية ودلائل دالة عليها فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أنعاما ﴾ أي من جملة ما عملت أيدينا أي ما عملناه من غير معين ولا ظهير بل عملناه بقدرتنا وإرادتنا .

وقوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَهَا مالكون ﴾ إشارة إلى إتمام الإنعام في خلق الأنعام ، فإنه تعالى لو خلقها ولم يملكها الإنسان ما كان ينتفع بها .



---

وقوله : ﴿ وذللناها لَهُمْ ﴾ زيادة إنعام فإن المملوك إذا كان آبياً متمرداً لا ينفع ، فلو كان الإنسان يملك الأنعام وهي نادة صادة لما تم الإنعام الذي في الركوب وإن كان يحصل الأكل كما

في الحيوانات الوحشية ، بل ما كان يكمل نعمة الأكل أيضاً إلا بالتعب الذي في الاصطياد ، ولعل ذلك لا يتهيأ ( إلا ) للبعض وفي البعض .

وقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ بيان لمنفعة التذليل إذ لولا التذليل لما وجدت إحدى المنفعتين وكانت الأخرى قليلة الوجود .

وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73)

ثم بين تعالى غير الركوب والأكل من الفوائد بقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا منافع ومشارب ﴾ وذلك لأن من الحيوانات ما لا يركب كالغنم فقال : منافع لتعمها والمشارب كذلك عامة ، إن قلنا بأن المراد جمع مشرب وهو الآنية فإن من الجلود ما يتخذ أواني للشرب والأدوات من القرب ( وغيرها ) ، وإن قلنا : إن المراد المشروب وهو الألبان والأسمان فهي مختصة بالإناث ولكن بسبب الذكور فإن ذلك متوقف على الحمل وهو بالذكور والإناث .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ هذه النعم التي توجب العبادة شكراً ، ولو شكرتم لزادكم من فضله ، ولو كفرتم لسلبها منكم ، فما قولكم ، أفلا تشكرون استدامة لها واستزادة فيها ؟ .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74)

إشارة إلى بيان زيادة ضلالهم ونهايتها ، فإنهم كان الواجب عليهم عبادة الله شكراً لأنعمه ، فتركوها وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع ، وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم

الناصرون لهم كما قال عنهم : ﴿ حَرِّقُوهُ وانصروا ءالِهَتَكُمْ ﴾ [ الأنبياء : 68 ] وفي الحقيقة لا هي ناصرة ولا منصورة .

لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75)

*(116/648)*

---

إشارة إلى الحشر بعد تقرير التوحيد ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [ الأنبياء : 98 ] وقوله : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وأزواجهم وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ [ الصافات : 22 ، 23 ] وقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ فِى العذاب محضرون ﴾ [ سبأ : 38 ] وهو يحتمل معنيين أحدهما : أن يكون العابدون جنداً لما اتخذوه آلهة كما ذكرنا الثاني : أن يكون الأصنام جنداً للعابدين ، وعلى هذا ففيه معنى لطيف وهو أنه تعالى لما قال : ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أكدها بأنهم لا يستطيعون نصرهم حال ما يكونون جنداً لهم ومحضرون لنصرتهم فإن ذلك دال على عدم الاستطاعة ، فإن من حضر واجتمع ثم عجز عن النصرة يكون في غاية الضعف بخلاف من لم يكن متأهباً ولم يجمع أنصاره .

وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾

إشارة إلى الرسالة لأن الخطاب معه بما يوجب تسلية قلبه دليل اجتبائه واختياره إياه.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يحتمل وجوهاً أحدها: أن يكون ذلك تهديداً للمنافقين والكافرين فقوله: ﴿ مَا يُسِرُّونَ ﴾ من النفاق ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من الشرك والثاني: ما يسرون من العلم بك وما يعلنون من الكفر بك الثالث: ما يسرون من العقائد الفاسدة وما يعلنون من الأفعال القبيحة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 91.94 ﴾

*(117/648)*

---

وقال ابن العربى:

قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إنْ هُوَ إلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾.

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى كَلَامُ الْعَرَبِ عَلَى أَوْضَاعٍ: مِنْهَا الْخُطَبُ، وَالسَّجْعُ، وَالْأَرَاجِيزُ، وَالْأَمْثَالُ، وَالْأَشْعَارُ ﴿ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْصَحَ بَنِي آدَمَ ﴾، وَلَكِنَّهُ حُجِبَ عَنْهُ الشِّعْرُ؛ لَمَّا كَانَ اللَّهُ قَدْ ادَّخَرَ مِنْ جَعْلِ فَصَاحَةِ الْقُرْآنِ مُعْجِزَةً لَهُ، وَدَلَالَةً عَلَى صِدْقِهِ، لِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ أُسْلُوبِ الْبَلَاغَةِ وَعَجِيبِ الْفَصَاحَةِ الْخَارِجَةِ عَنْ أَنْوَاعِ كَلَامِ الْعَرَبِ اللُّسْنِ

الْبُلَغَاءِ الْفُصَحِ الْمُتَشَدِّقِينَ اللُّدِّ ، كَمَا سَلَبَ عَنْهُ الْكِتَابَةَ وَأَبْقَاهُ عَلَى حُكْمِ الْأُمِّيَّةِ ، تَحْقِيقًا لِهَذِهِ الْحَالَةِ ، وَتَأْكِيدًا ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ ؛ لِأَجْلِ مُعْجِزَتِهِ الَّتِي بَيَّنَّا أَنَّ صِفَتَهَا مِنْ صِفَتِهِ ، ثُمَّ هِيَ زِيَادَةٌ عُظْمَى عَلَى رُتْبَتِهِ .

(118/648)

---

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَدْ بَيَّنَّا فِيمَا سَبَقَ مِنْ أَوْضَاعِنَا فِي الْأُصُولِ وَجْهَ إعْجَازِ الْقُرْآنِ وَخُرُوجِهِ عَنْ أَنْوَاعِ كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَخُصُوصًا عَنْ وَزْنِ الشِّعْرِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ أَخُو أَبِي ذَرٍّ لِأَبِي ذَرٍّ : لَقَدْ وَضَعْت قَوْلَهُ عَلَى أَقْوَالِ الشُّعَرَاءِ فَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا ، وَلَا دَخَلَ فِي بُحُورِ الْعَرُوضِ الْخَمْسَةَ عَشَرَ ، وَلَا فِي زِيَادَاتِ الْمُتَأَخِّرِينَ عَلَيْهَا ؛ لِأَنَّ تِلْكَ الْبُحُورَ تَخْرُجُ مِنْ خَمْسِ دَوَائِرَ :

إحْدَاهَا دَائِرَةُ الْمُخْتَلِفِ يَنْفَكُّ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَبْحُرٍ : وَهِيَ الطَّوِيلُ ، وَالْمَدِيدُ ، وَالْبَسِيطُ ؛ ثُمَّ تَتَشَعَّبُ عَلَيْهَا زِيَادَاتٌ كُلُّهَا مُنْفَكَّةٌ .

الدَّائِرَةُ الثَّانِيَةُ دَائِرَةُ الْمُؤْتَلِفِ يَنْفَكُّ مِنْهَا بَحْرُ الْوَافِرِ ، وَالْكَامِلِ ، ثُمَّ يَزِيدُ عَلَيْهَا زِيَادَاتٌ لَا تَخْرُجُ عَنْهَا .

الدَّائِرَةُ الثَّالِثَةُ دَائِرَةُ الْمُتَّفِقِ ، وَيَنْفَكُّ مِنْهَا فِي الْأَصْلِ الْهَزَجُ ، وَالرَّجَزُ ، وَالرَّمَلُ ، ثُمَّ يَزِيدُ عَلَيْهَا مَا يَرْجِعُ إلَيْهَا .

الدَّائِرَةُ الرَّابِعَةُ دَائِرَةُ الْمُجْتَثِّ يَجْرِي عَلَيْهَا سِتَّةُ أَبْحُرٍ : وَهِيَ السَّرِيعُ ، وَالْمُنْسَرِحُ ، وَالْخَفِيفُ ، وَالْمُضَارِعُ ، وَالْمُقْتَضَبُ ، وَالْمُجْتَثُّ ، وَيَزِيدُ عَلَيْهَا مَا يَجْرِي مَعَهَا فِي أَفَاعِيلِهَا .

الدَّائِرَةُ الْخَامِسَةُ دَائِرَةُ الْمُنْفَرِدِ ، وَيَنْفَكُّ مِنْهَا عِنْدَ الْخَلِيلِ وَالْأَخْفَشِ بَحْرٌ وَاحِدٌ : وَهُوَ الْمُتَقَارِبُ ، وَعِنْدَ الزَّجَّاجِ بَحْرٌ آخَرُ سَمَّوْهُ الْمُجْتَثُّ وَالْمُتَدَارِكُ وَرَكْضُ الْخَيْلِ .

(119/648)

---

وَلَقَدْ اجْتَهَدَ الْمُجْتَهِدُونَ فِي أَنْ يُجْرُوا الْقُرْآنَ أَوْ شَيْئًا مِنْهُ عَلَى وَزْنٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْزَانِ فَلَمْ يَقْدِرُوا ، فَظَهَرَ عِنْدَ الْوَلِيِّ وَالْعَدُوِّ أَنَّهُ لَيْسَ بِشِعْرٍ ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ تَحْقِيقٌ فِي نَفْيِ ذَلِكَ عَنْهُ .

وَقَدْ اعْتَرَضَ جَمَاعَةٌ مِنْ فُصَحَاءِ الْمُلْحِدَةِ عَلَيْنَا فِي نَظْمِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ بِأَشْيَاءَ أَرَادُوا بِهَا التَّلْبِيسَ عَلَى الضَّعَفَةِ ، مِنْهَا قَوْلُهُ ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وَقَالُوا : إنَّ هَذَا مِنْ بَحْرِ الْمُتَقَارِبِ ، عَلَى مِيزَانِ قَوْلِهِ : فَأَمَّا تَمِيمٌ تَمِيمُ بْنُ

مُرٍّ فَأَلْفَاهُمْ الْقَوْمُ رُءُوسًا نِيَامًا وهذا إنَّمَا اعْتَرَضَ بِهِ الْجَاهِلُونَ بِالصِّنَاعَةِ ؛ لِأَنَّ الَّذِي يُلَائِمُ هَذَا الْبَيْتَ مِنْ الْآيَةِ قَوْلُهُ : ( فَلَمَّا ) إِلَى قَوْلِهِ ( كُلِّ ) وَإِذَا وَقَفْنَا عَلَيْهِ لَمْ يَتِمَّ الْكَلَامُ .

وَإِذَا أَتْمَمْنَاهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ خَرَجَ عَنْ وَزْنِ الشِّعْرِ ، وَزَادَ فِيهِ مَا يَصِيرُ بِهِ عَشْرَةَ أَجْزَاءٍ كُلُّهَا عَلَى وَزْنِ فَعُولُنْ ، وَلَيْسَ فِي بُحُورِ الشِّعْرِ مَا يَخْرُجُ الْبَيْتُ مِنْهُ مِنْ عَشْرَةِ أَجْزَاءٍ ، وَإِنَّمَا أَكْثَرُهُ ثَمَانِيَةٌ .

(120/648)

---

وَمِنْهَا قَوْلُهُ : ﴿ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ ادَّعَوْا أَنَّهُ مِنْ بَحْرِ الْوَافِرِ ، وَقَطَّعُوهُ : مَفَاعِيلُ مَفَاعِيلُ فَعُولُنْ مَفَاعِيلُ مَفَاعِيلُ فَعُولُنْ ؛ وَهُوَ عَلَى وَزْنِ قَوْلِ الْأَوَّلِ : لَنَا غَنَمٌ نَسُوقُهَا غِزَارٌ كَأَنَّ قُرُونَ جِلَّتِهَا الْعِصِيُّ وَعَلَى وَزْنِ قَوْلِ الْآخَرِ : طِوَالُ قَنًا يُطَاعِنُهَا قِصَارٌ وَقَطْرُكَ فِي نَدًى وَوَغًى بِحَارُ وَهَذَا فَاسِدٌ مِنْ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ إنَّمَا كَانَتْ تَكُونُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ لَوْ زِدْتَ فِيهَا أَلِفًا بِتَمْكِينِ حَرَكَةِ النُّونِ مِنْ قَوْلِهِ مُؤْمِنِينَ فَتَقُولُ مُؤْمِنِينَا .

الثَّانِي : أَنَّهَا إنَّمَا تَكُونُ عَلَى الرَّوِيِّ بِإِشْبَاعِ حَرَكَةِ الْمِيمِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَيُخْزِهِمْ ﴾ وَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ التَّغْيِيرُ لَمْ يَكُنْ قُرْآنًا ، وَإِذَا قُرِئَ عَلَى وَجْهِهِ لَمْ يَكُنْ شِعْرًا .

وَمِنْهَا قَوْلُهُ : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴾ ؛

زَعَمُوا أَنَّهُ مُوَافِقٌ بَحْرَ الرَّجَزِ فِي الْوَزْنِ ، وَهَذَا غَيْرُ لَازِمٍ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامٍ تَامٍّ ، فَإِنْ ضَمَمْتَ إِلَيْهِ مَا يَتِمُّ بِهِ الْكَلَامُ خَرَجَ عَنْ وَزْنِ الشِّعْرِ .

وَمِنْهَا قَوْلُهُ : ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ ؛ زَعَمُوا أَنَّهُ مِنْ بَحْرِ الرَّجَزِ ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ امْرِئِ الْقَيْسِ : رَهِينٌ مُعْجَبٌ بِالْقَيْنَاتِ وَهَذَا لَا يَلْزَمُ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا إِنَّمَا يَجْرِي عَلَى هَذَا الرَّوِيِّ إِذَا زِدْتَ يَاءً بَعْدَ الْبَاءِ فِي قَوْلِكَ : كَالْجَوَابِي ، فَإِذَا حَذَفْتَ الْيَاءَ فَلَيْسَ بِكَلَامٍ تَامٍّ ، فَيَتَعَلَّقُ بِهِ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى وَزْنِ شَيْءٍ .

(121/648)

---

وَمِنْهَا قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ؛ فَقَالُوا : هَذِهِ آيَةٌ تَامَّةٌ ، وَهِيَ عَلَى وَزْنِ بَيْتٍ مِنْ الرَّمَلِ ؛ وَهَذِهِ مُغَالَطَةٌ ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ كَذَلِكَ بِأَنْ تُحْذَفَ مِنْ قَوْلِكَ لَا تَسْتَأْخِرُونَ قَوْلُهُ : " لَا تَسْ " وَتُوصِلَ قَوْلَكَ يَوْمٍ بِقَوْلِكَ تَأْخِرُونَ ، وَتَقِفُ مَعَ ذَلِكَ عَلَى النُّونِ مِنْ قَوْلِكَ تَأْخِرُونَ ، فَتَقُولُ تَأْخِرُونَا بِالْأَلِفِ ، وَيَكُونُ حِينَئِذٍ مِصْرَاعًا ثَانِيًا ، وَيُتَمُّ الْمِصْرَاعَانِ بَيْتًا مِنْ الرَّمَلِ حِينَئِذٍ ، وَلَوْ قُرِئَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ قُرْآنًا ، وَمَتَى قُرِئَتْ الْآيَةُ عَلَى مَا جَاءَتْ لَمْ تَكُنْ عَلَى وَزْنِ الشِّعْرِ .

وَمِنْهَا قَوْلُهُ : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ .

وَهَذَا مَوْضُوعٌ عَلَى وَزْنِ الْكَامِلِ مِنْ وَجْهٍ ، وَعَلَى رَوِيِّ الرَّجَزِ مِنْ وَزْنٍ آخَرَ ؛ وَهَذَا فَاسِدٌ ؛ لِأَنَّ مَنْ قَرَأَ عَلَيْهِمْ بِإِسْكَانِ الْمِيمِ يَكُونُ عَلَى وَزْنِ فَعُولٌ ، وَلَيْسَ فِي بَحْرِ الْكَامِلِ وَلَا فِي بَحْرِ الرَّجَزِ فَعُولُنْ بِحَالٍ ، وَمَنْ أَشْبَعَ حَرَكَةَ الْمِيمِ فَلَا يَكُونُ بَيْتًا إِلَّا بِإِسْقَاطِ الْوَاوِ مِنْ دَانِيَةً ، وَإِذَا حُذِفَتْ الْوَاوُ بَطَلَ نَظْمُ الْقُرْآنِ .

وَمِنْهَا قَوْلُهُ : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ زَعَمُوا

(122/648)

---

أَرْغَمَهُمْ اللَّهُ أَنَّهَا مِنْ بَحْرِ الرَّمَلِ ، وَأَنَّهَا ثَلَاثَةُ أَبْيَاتٍ كُلُّ بَيْتٍ مِنْهَا عَلَى مِصْرَاعٍ ، وَهُوَ مِنْ مَجْزُوِّهِ عَلَى فَاعِلَاتٍ فَاعِلَاتٍ ، وَيَقُومُ فِيهَا فَعِلَاتٌ مَقَامَهُ ، فَيُقَالُ لَهُمْ : مَا جَاءَ فِي دِيوَانِ الْعَرَبِ بَيْتٌ مِنْ الرَّمَلِ عَلَى جُزْأَيْنِ ، وَإِنَّمَا جَاءَ عَلَى سِتَّةِ أَجْزَاءٍ تَامَّةٍ كُلُّهَا فَاعِلَاتٌ أَوْ فَعْلَاتٌ ، أَوْ عَلَى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ كُلُّهَا فَاعِلَاتٌ أَوْ فَعْلَاتٌ ؛ فَأَمَّا عَلَى جُزْأَيْنِ كِلَاهُمَا فَاعِلَاتٌ فَاعِلَاتٌ فَلَمْ يَرِدْ قَطُّ فِيهَا ؛ وَكَلَامُهُمْ هَذَا يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ عَلَى وَزْنِ بَعْضِ بَيْتٍ ، وَهَذَا مِمَّا لَا نُنْكِرُهُ وَإِنَّمَا نُنْكِرُ أَنْ تَكُونَ آيَةٌ تَامَّةٌ ، أَوْ كَلَامٌ تَامٌّ مِنْ الْقُرْآنِ عَلَى وَزْنِ بَيْتٍ تَامٍّ مِنْ الشِّعْرِ .

فَإِنْ قِيلَ : أَلَيْسَ يَكُونُ الْمَجْزُوءُ وَالْمُرَبَّعُ مِنْ الرَّمَلِ تَارَةً مُصَرَّعًا وَتَارَةً غَيْرَ مُصَرَّعٍ ، فَمَا

أَنْكَرْتُمْ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ مِنَ الْمَجْزُوءِ وَالْمُرَبَّعِ الْمُصَرَّعِ مِنَ الرَّمَلِ.

قُلْنَا: إِنَّ الْبَيْتَ مِنَ الْقَصِيدَةِ إِنَّمَا يَكُونُ مُصَرَّعًا إِذَا كَانَ فِيهِ أَبْيَاتٌ أَوْ بَيْتٌ غَيْرُ مُصَرَّعٍ، فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ أَنْصَافُ أَبْيَاتِهِ كُلُّهَا عَلَى سَجْعٍ وَاحِدٍ وَكُلُّ نِصْفٍ مِنْهَا بَيْتٌ بِرَأْسِهِ فَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ لَيْسَ فِي الرَّمَلِ مَا يَكُونُ عَلَى جُزْأَيْنِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ جُزْآنِ، فَلَمْ يَرِدْ عَلَى شَرْطِ الرَّمَلِ.



---

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ وَهَذَا بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ لَا تَقَعُ فِي أَقْوَالِ الشُّعَرَاءِ إِلَّا بِحَذْفِ اللَّامِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ فَذَلِكَ ﴾ وَبِتَمْكِينِ حَرَكَةِ الْمِيمِ مِنَ الْيَتِيمِ، فَيَكُونُ الْيَتِيمَا.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾.

فَقَوْلُهُ: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا ﴾ بَيْتٌ تَامٌّ، فَقَدْ بَيَّنَّا فَسَادَ هَذَا، وَأَنَّ بَعْضَ آيَةٍ وَجُزْءًا مِنْ كَلَامٍ لَا يَكُونُ شِعْرًا.

فَإِنْ قِيلَ: يَقَعُ بَعْدَ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ إِتْمَامًا لِلْكَلَامِ عَلَى مَعْنَى النَّظْمَيْنِ،

وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ قَالَ النَّابِغَةُ : وَهُمْ وَرَدُوا الْجِفَارَ عَلَى تَمِيمٍ وَهُمْ أَصْحَابُ يَوْمِ عُكَاظٍ إِنِّي شَهِدْتُ لَهُمْ مَوَاطِنَ صَالِحَاتٍ أَنَرْتُهُمْ بِنُصْحِ الْقَوْلِ مِنِّي قُلْنَا : التَّضْمِينُ عَلَى عَيْبِهِ إِنَّمَا يَكُونُ فِي بَيْتٍ عَلَى تَأْسِيسِ بَيْتٍ قَبْلَهُ ، فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ التَّأْسِيسُ بَيْتًا وَالتَّضْمِينُ أَقَلَّ مِنْ بَيْتٍ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِشِعْرٍ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ الْعَرَبِ ، وَلَا يُنْكِرُ أَحَدٌ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ آيَةٍ عَلَى مِثَالِ قَوْلِ الشِّعْرِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ فَهَذَا عَلَى نِصْفِ بَيْتٍ مِنْ الرَّجَزِ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ عَلَى نِصْفِ بَيْتٍ مِنْ الْمُتَقَارِبِ الْمُسْتَمِرِّ ، وَهَذَا كَثِيرٌ .

(124/648)

---

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ وَقَدْ ادَّعَوْهُ فِي كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا : إنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهُوَ فِي كَلَامِ الَّذِي نُفِيَتْ عَنْهُ مَعْرِفَةُ الشِّعْرِ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ .

أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ ﴾ .

قُلْنَا : قَدْ قَالَ الْأَخْفَشُ : إنَّ هَذَا لَيْسَ بِشِعْرٍ ، وَرَوَى ابْنُ الْمُظَفَّرِ عَنْ الْخَلِيلِ فِي كِتَابِ الْعَيْنِ

: إِنَّمَا جاءَ مِنْ السَّجْعِ عَلَى جُزْأَيْنِ لَا يَكُونُ شِعْرًا .

وَرَوَى غَيْرُهُ عَنْهُ أَنَّهُ مِنْ مَنْهُوكِ الرَّجَزِ .

فَعَلَى الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ لَا يَكُونُ شِعْرًا ، وَعَلَى الْقَوْلِ الثَّالِثِ لَا يَكُونُ مَنْهُوكَ رَجَزٍ إِلَّا بِالْوَقْفِ عَلَى الْبَاءِ مِنْ قَوْلِكَ : لَا كَذِبْ ، وَمِنْ قَوْلِهِ : " عَبْدُ الْمُطَّلِبْ " وَلَمْ يُعْلَمْ كَيْفَ قَالَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْأَظْهَرُ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ قَالَ : لَا كَذِبٌ بِتَنْوِينِ الْبَاءِ مَرْفُوعَةً وَبِخَفْضِ الْبَاءِ مِنْ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَى الْإِضَافَةِ ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يُؤْثَرُ عَنْهُ مُتَمَثِّلًا بِقَوْلِ طَرَفَةَ : سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ بِالْأَخْبَارِ وَقَالَ : أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعُبَيْدِ بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعُيَيْنَةَ وَقَالَ : كَفَى الْإِسْلَامُ وَالشَّيْبُ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ فِي ذَلِكَ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، وَقَبَّلَ رَأْسَهُ قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ .

(125/648)

---

قَالُوا : وَمِنْهَا قَوْلُهُ : هَلْ أَنْتَ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتْ وَأَلْزَمُونَا أَنَّ هَذَا شِعْرٌ مَوْزُونٌ مِنْ بَحْرِ السَّرِيعِ .

قُلْنَا : إِنَّمَا يَكُونُ هَذَا شِعْرًا مَوْزُونًا إِذَا كُسِرَتْ التَّاءُ مِنْ دَمِيتْ وَلَقِيتْ ، فَإِنْ سُكِّنَتْ لَمْ

يَكُنْ شِعْرًا بِحَالٍ ؛ لِأَنَّ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ تَكُونُ فَعُولُنْ ، وَلَا مَدْخَلَ لِفَعُولٍ فِي بَحْرِ السَّرِيعِ .

وَلَعَلَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَهَا سَاكِنَةَ التَّاءِ أَوْ مُتَحَرِّكَةَ التَّاءِ مِنْ غَيْرِ إِشْبَاعٍ .

قَالُوا : وَمِنْهَا قَوْلُهُ : ﴿ اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ ﴾ ؛ فَادَّعَوْا أَنَّهُ عَلَى وَزْنِ مَشْطُورِ الرَّجَزِ .

قُلْنَا : إِنَّمَا يَكُونُ شِعْرًا إِذَا تَكَلَّمَ بِهِ الْمُتَكَلِّمُ مَوْصُولًا ، فَإِنْ وَقَفَ عَلَى قَوْلِهِ : اللَّهُ مَوْلَانَا ، أَوْ وَصَلَ وَحَرَّكَ الْمِيمَ مِنْ قَوْلِهِ لَكُمْ لَمْ يَكُنْ شِعْرًا .

وَقَدْ نَقَلَهُ وَوَصَلَهُ بِكَلَامٍ .

وَمِنْهَا قَوْلُهُ : ﴿ الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ ﴾ .

وَهَذَا فَاسِدٌ ؛ لَا يَكُونُ شِعْرًا إِلَّا بَعْدَ تَفْسِيرِ مَا قَالَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتُسَكِّنُ اللَّامَ مِنْ قَوْلِكَ الْوَلَدُ ، وَهَذَا لَا يَقُولُهُ أَحَدٌ .

وَقَدْ أَجَابَ عَنْ ذَلِكَ عُلَمَاؤُنَا بِأَنَّ مَا يَجْرِي عَلَى اللِّسَانِ مِنْ مَوْزُونِ الْكَلَامِ لَا يُعَدُّ شِعْرًا ، وَإِنَّمَا يُعَدُّ مِنْهُ مَا يَجْرِي عَلَى وَزْنِ الشِّعْرِ وَمَعَ الْقَصْدِ إِلَيْهِ .

فَقَدْ

يَقُولُ قَائِلٌ : حَدَّثَنَا شَيْخٌ لَنَا ، وَيُنَادِي يَا صَاحِبَ الْكِسَاءِ ، وَلَا يُعَدُّ هَذَا شِعْرًا .

وَقَدْ كَانَ رَجُلٌ يُنَادِي فِي مَرَضِهِ وَهُوَ مِنْ عُرْضِ الْعَامَّةِ الْعُقَلَاءِ : اذْهَبُوا بِي إلَى الطَّبِيبِ ، وَقُولُوا قَدْ اكْتَوَى ، وَبِهَذَا وَسِوَاهُ يَتَبَيَّنُ صِحَّةُ الْآيَةِ مَعْنًى ، وَبُطْلَانُ مَا مَوَّهُوا بِهِ قَطْعًا .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ إنْشَادِ الشِّعْرِ قَالَ : لَا تُكْثِرْ مِنْهُ ، فَمِنْ عَيْبِهِ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ .

قَالَ : وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَتَبَ إلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنْ اجْمَعْ الشُّعَرَاءَ قِبَلَك وَاسْأَلْهُمْ عَنْ الشِّعْرِ ، وَهَلْ بَقِيَ مَعَهُمْ مَعْرِفَةٌ بِهِ ، وَأَحْضِرْ لَبِيدًا ذَلِكَ .

قَالَ : فَجَمَعَهُمْ وَسَأَلَهُمْ فَقَالُوا : إنَّا لَنَعْرِفُهُ وَنَقُولُهُ .

وَسَأَلَ لَبِيدًا فَقَالَ : مَا قُلْت شِعْرًا مُنْذُ سَمِعْت اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ .

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : هَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَتْ مِنْ عَيْبِ الشِّعْرِ ، كَمَا لَمْ يَكُنْ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنْت تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِك ﴾ مِنْ عَيْبِ الْخَطِّ .

فَلَمَّا لَمْ تَكُنْ الْأُمِّيَّةُ مِنْ عَيْبِ الْخَطِّ كَذَلِكَ لَا يَكُونُ نَفْيُ النَّظْمِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عَيْبِ الشِّعْرِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا حَالَ الشِّعْرِ فِي سُورَةِ الظُّلَّةِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

ثم خاطبهم تعالى لما تميزوا توقيفاً لهم وتوبيخاً على عهده إليهم ومخالفتهم عهده ، وقرأ جمهور الناس " أعهَد " بفتح الهاء ، وقرأ الهذيل وابن وثاب ، " ألمِ إعهَد " بكسر الميم والهمزة وفتح الهاء وهي على لغة من يكسر أول المضارع سوى الياء ، وروي عن ابن وثاب " ألمِ أعهِد " بكسر الهاء ، يقال عهد وعهد ، وعبادة الشيطان هي طاعته والانقياد لإغوائه ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي " أنُ اعبدون " بضم النون من أن أتبعوا بها ضمة الدال واو الجماعة أيضاً ، وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة " وأنِ اعبدون " بكسر النون على أصل الكسر للالتقاء ، وقوله تعالى ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ إشارة إلى الشرائع ، فمعنى هذا أن الله تعالى عهد إلى بني آدم وقت إخراج نسلهم من ظهره أن لا يعبدوا الشيطان وأن يعبدوا الله تعالى وقيل لهم هذه الشرائع موجودة وبعث تعالى آدم إلى ذريته ولم تخل الأرض من شريعة إلى ختم الرسالة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والصراط الطريق ، ويقال إنها دخيلة في كلام العرب وعربتها .

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62)

هذه أيضاً مخاطبة للكفار على جهة التقريع : و" الجبلّ " : الأمة العظيمة ، قال النقاش عن الضحاك ، أقلها عشرة آلاف ، ولا حد لأكثرها ، وقرأ نافع وعاصم " جبَلاًّ " بفتح الباء والجيم والشد وهي قراءة أبي جعفر وشيبة وأهل المدينة وعاصم وأبي رجاء والحسن بخلاف عنه ، وقرأ الأشهب ، العقيلي " جِبْلاً " بكسر الجيم وسكون الباء والتخفيف ، وقرأ الزهري والحسن والأعرج " جُبُلاًّ " بضم الجيم والباء والشد ، وهي قراءة أبي إسحاق وعيسى وابن وثاب وقرأ أبو عمرو وابن عامر والهذيل بن شرحبيل " جُبْلاً " بضم الجيم وسكون الباء والتخفيف ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي " جُبُلاً " بضم الجيم والباء والتخفيف ، وذكر أبو حاتم عن بعض الخراسانيين " جِيلاً " بكسر الجيم وبياء بنقطتين ساكنة ، وقرأ الجمهور " أفلم تكونوا تعقلون " بالتاء ، وقرأ طلحة وعيسى " أفلم يكونوا يعقلون " بالياء ، ثم وقفهم على جهنم التي كانوا يوعدون ويكذبون بها ، و ﴿ جهنم ﴾ أول طبقة من النار ، و ﴿ اصلوها ﴾ معناه باشروا نارها ثم أخبر تعالى محمداً إخباراً تشاركه فيه أمته في قوله ﴿ اليوم نختم على أفواههم ﴾ أي في ذلك اليوم يكون ذلك ، وروي في هذا المعنى أن الله تعالى يجعل الكفرة يخاصمون فإذا لم يأتوا بشيء تقوم به الحجة

رجعوا إلى الإنكار فناكروا الملائكة في الأعمال فعند ذلك يختم الله تعالى على أفواههم فلا ينطقون بحرف، ويأمر تعالى جوارحهم بالشهادة فتشهد، وروى عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم "أن أول ما يتكلم من الكافر فخذه اليسرى"، وقال أبو سعيد اليمني: ثم سائر جوارحه، وروي أن بعض الكفرة يقول يومئذ لجوارحه: تباً لك وسحقاً فعنك كنت أماحل ونحو هذا من المعنى، وقد اختلفت فيه ألفاظ الرواة، وروى عبد الرحمن بن محمد بن طلحة عن أبيه عن جده أنه قرأ "ولتكلمنا أيديهم ولتشهد أرجلهم" بزيادة لام كي والنصب، وهي مخالفة لخط المصحف.

(129/648)

---

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66)

(130/648)

---

الضمير في ﴿ أعينهم ﴾ مراد به كفار قريش، ومعنى الآية تبيين أنهم في قبضة القدرة وبمدرج العذاب إن شاء الله تعالى لهم، وقال الحسن بن أبي الحسن وقتادة: أراد الأعين

حقيقة ، والمعنى لأعميناهم فلا يرون كيف يمشون ، ويؤيد هذا مجانسة المسخ للعمى الحقيقي ، وقال ابن عباس : أراد أعين البصائر ، والمعنى لو شئنا لختمنا عليهم بالكفر فلم يهتد منهم أحد أبداً ، و" الطمس " إذهاب الشيء ، من الآثار والهيئات ، حتى كأنه لم يكن ، أي جعلنا جلود وجوههم متصلة حتى كأنه لم تكن فيها عين قط ، وقوله تعالى : ﴿ فاستبقوا ﴾ معناه على الفرض والتقدير ، كأنه قال : ولو شئنا لأعميناهم فاحسب أو قدر أنهم يستبقون الصراط وهو الطريق ﴿ فأنى ﴾ لهم بالإبصار وقد أعميناهم ، و" أنى " لفظة استفهام فيه مبالغة وقدره سيبويه ، كيف ومن أين ، ﴿ مسخناهم ﴾ ظاهره تبديل خلقتهم بالقردة والخنازير ونحوه مما تقدم في بني إسرائيل وغَيرهم ، وقال الحسن وقتادة وجماعة من المفسرين : معناه لجعلناهم مقعدين مبطلين ، لا يستطيعون تصرفاً ، وقال ابن سلام هذا التوعد كله يوم القيامة ، وقرأ جمهور القراء " على مكانتهم " بإفراد ، وهو بمعنى المكان كما يقال دار ودارة ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر " على مكاناتهم " بالجمع ، وفي قراءة الحسن وابن أبي إسحاق ، وقرأ جمهور القراء " مُضياً " بضم الميم ، وقرأ أبو حيوة " مَضياً " بفتحها ، ثم بين تعالى دليلاً في تنكيسه المعمرين وأن ذلك مما لا يفعله إلا الله تعالى ، وقرأ جمهور الناس " نَنْكُسه " بفتح النون الأولى وسكون الثانية ، وضم الكاف ، وقرأ حمزة وعاصم بخلاف عنه " نُنَكِّسه " بضم النون الأولى وفتح الثانية وشد الكاف المكسورة على المبالغة ، وأنكرها أبو عمرو على الأعمش ، ومعنى الآية نحول خلقه من القوة إلى

الضعف ومن الفهم إلى البله ، ونحو هذا ، وقرأ نافع وأبو عمرو في رواية عياش " تعقلون " بالتاء على معنى قل لهم ، وقرأ

(131/648)

---

الباقون " يعقلون " بالياء على ذكر الغائب ، ثم أخبر تعالى عن حال نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ورد قول من قال من الكفرة إنه شاعر ، وإن القرآن شعر بقوله تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول الشعر ، ولا يزنه ، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلاً كسر وزنه ، وإنما كان يحرز المعنى فقط وأنشد يوماً قول طرفة : [ الطويل ]

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً . . . ويأتيك من لم تزوده بالأخبار

وأنشد يوماً وقد قيل له من أشعر الناس ؟ فقال الذي يقول : [ الطويل ]

ألم ترياني كلما جئت طارقاً . . . وجدت بها وإن لم تطيب طيبا

وأنشد يوماً :

أتجعل نهبي ونهب العبي . . . د بين الاقرع وعيينة

وقد كان صلى الله عليه وسلم ربما أنشد البيت المستقيم في النادر وروي أنه أنشد بيت

ابن رواحة : [ الطويل ]

يبيت يجافي جنبه عن فراشه . . . إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وقال الحسن بن أبي الحسن : أنشد النبي صلى الله عليه وسلم "كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً" ، فقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : نشهد أنك رسول الله إنما قال الشاعر : "كفى الشيب والإسلام إلخ . . . " حكاه الثعلبي .

قال القاضي أبو محمد : وإصابته الوزن أحياناً لا يوجب أنه يعلم الشعر ، وكذلك قد يأتي أحياناً في نثر كلامه ما يدخل في وزن كقوله يوم حنين ، "أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب "كذلك يأتي في آيات القرآن وفي كل كلام وليس كله بشعر ولا هو في معناه .



---

قال القاضي أبو محمد : وهذه الآية تقتضي عندي غضاضة على الشعر ولا بد ، ويؤيد ذلك قول عائشة رضي الله عنها : كان الشعر أبغض الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يتمثل بشعر أخي قيس طرفة فيعكسه ، فقال له أبو بكر : ليس هكذا ، فقال : "ما أنا بشاعر وما ينبغي لي" ، وقد ذهب قوم إلى أن الشعر لا غض عليه ، قالوا وإنما منعه

الله من التحلي بهذه الحلية الرفيعة ليجيء القرآن من قبله أغرب فإنه لو كان له إدراك الشعر لقيل في القرآن إن هذا من تلك القوى .



---

قال القاضي أبو محمد : وليس الأمر عندي كذلك ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم من الفصاحة والبيان في النثر في المرتبة العليا ، ولكن كلام الله تعالى يبين بإعجازه ويبرز برصفه ويخرجه إحاطة علم الله من كل كلام ، وإنما منعه الله تعالى من الشعر ترفيعاً له عما في قول الشعراء من التخييل ، وتزويق القول ، واما القرآن فهو ذكر الحقائق وبراهين ، فما هو بقول شاعر ، وهكذا كان أسلوب كلامه عليه السلام لأنه لا ينطق عن الهوى ، والشعر نازل الرتبة عن هذا كله ، والضمير في ﴿ علمناه ﴾ عائد على محمد صلى الله عليه وسلم قولاً واحداً ، والضمير في ﴿ له ﴾ يحتمل أن يعود على محمد ويحتمل أن يعود على القرآن ، وإن كان لم يذكر لدلالة المجاورة عليه ، ويبن ذلك قوله تعالى : ﴿ إن هو ﴾ وقرأ نافع وابن كثير ، " لتنذر " بالتاء على مخاطبة محمد صلى الله عليه وسلم وقرأ الباقون " لينذر " بالياء أي لينذر القرآن أو لينذر محمد ، واللام في " لينذر " متعلقة ب ﴿ مبين ﴾ ، وقرأ محمد اليماني " لِيُنذَر " بضم الياء وفتح الذال قال أبو حاتم : ولو قرىء " لينذَر " بفتح الياء

والذال أي لتحفظ ويأخذ بحظه لكان جائزاً ، وحكاها أبو عمرو قراءة عن محمد اليماني ، وقوله تعالى : ﴿ من كان حياً ﴾ أي حي القلب والبصيرة ، ولم يكن ميتاً لكفره ، وهذه استعارة قال الضحاك ﴿ من كان حياً ﴾ معناه عاقلاً ، ﴿ ويحق القول ﴾ معناه يحتم العذاب ويجب الخلود ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ حقت كلمة ربك ﴾ [ يونس : 33 ] .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71)

(134/648)

---

هذه مخاطبة في أمر قريش وإعراضهم عن الشرع وعبادتهم الأصنام فنبههم تعالى على الألوهية ، بما لا يحصى من الأدلة كثرة وبياناً ، فنبه بهذه الآية على إنعامه عليهم ببهيمة الأنعام ، وقوله تعالى ﴿ أيدينا ﴾ عبارة عن القدرة عبر عنها بيد وبيدين وبأيد ، وذلك من حيث كان البشر إنما يقيمون القدرة والبطش باليد ، فعبر لهم عن القدرة بالجهة التي قربت في أفهامهم ، والله تعالى منزه عن الجارحة والتشبيه كله ، وقوله ﴿ فهم لها مالكون ﴾ تنبيه على أن النعمة في أن هذه الأنعام ليست بعاتية ولا متبورة ، بل تقتنى وتقرب منافعها ، ﴿ وذللناها ﴾ معناه سخرناها ذليلة ، والركوب والمركوب ، وهذا فعول بمعنى مفعول وليس إلا في ألفاظ محصورة كالركوب والحلوب والقروع ، وقرأ الجمهور " رَكوبهم " بفتح الراء

، وقرأ الحسن والأعمش " رُكوبهم " بضم الراء ، وقرأ أبي بن كعب وعائشة " ركوبتهم " ، و" المنافع " إشارة إلى الأصواف والأوبار وغير ذلك ، و" المشارب " الألبان ، ثم عنفهم في اتخاذ آلهة طلب الاستنصار بها والتعاضد ، ثم أخبر أنهم ﴿ لا يستطيعون ﴾ نصراً ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿ يستطيعون ﴾ للكفار في نصرهم الأصنام ، ويحتمل الأمر عكس ذلك لأن الوجهين صحيحان في المعنى ، كذلك قوله ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ يحتمل أن يكون الضمير الأول للكفار والثاني للأصنام على معنى وهؤلاء الكفار ، متجندون متحزبون لهذه الأصنام في الدنيا لكنهم لا يستطيعون التناصر مع ذلك ، ويحتمل أن يكون الضمير الأول للأصنام والثاني للكفار أي يحضرون لهم في الآخرة عند الحساب على معنى التوبيخ والنقمة ، وسماهم جنداً في هذا التأويل إذ هم عدة للنقمة منهم وتوبيخهم ، وجرت ضمائر الأصنام في هذه الآية مجرى من يعقل إذ نزلت في عبادتها منزل ذي عقل فعملت في العبارة بذلك ، ثم أنس تعالى نبيه ، بقوله ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ وتوعد الكفار بقوله ﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : أخبر تعالى عن حال نبيّه صلى الله عليه وسلم ، وردّ قول من قال من الكفار إنه شاعر ، وإن القرآن شعر ، بقوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول الشعر ولا يزِنه ، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلاً كسر وزنه ، وإنما كان يحرز المعاني فقط صلى الله عليه وسلم .

من ذلك أنه أنشد يوماً قول طرفة :

سَتُبدِي لكَ الأيام ما كنتَ جاهلاً . . .

ويأتيكَ من لم تزوّدْه بالأخبار

وأنشد يوماً وقد قيل له من أشعر الناس فقال الذي يقول :

ألم ترياني كلّما جئت طارقاً . . .

وجدتُ بها وإن لم تطيَّب طيبًا

وأنشد يوماً :

أتجعلُ نَهْبِي ونَهْبَ العب . . .

يدِ بين الأقرعِ وعُيَيْنَة

وقد كان عليه السلام ربما أنشد البيت المستقيم في النادر .

روي أنه أنشد بيت ( عبد الله بن رواحة ) :

يَبيتُ يُجافي جَنْبَهُ عن فراشهِ . . .

إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ

وقال الحسن بن أبي الحسن : أنشد النبي عليه السلام :

كَفَى بالإسلام والشيبِ للمرء ناهياً . . .

فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله إنما قال الشاعر :

هريرةَ ودِّعْ إن تجهزتَ غاديا . . .

كَفَى الشيبُ والإسلامُ للمرء نَاهيَا

فقال أبو بكر أو عمر : أشهد أنك رسول الله ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ .

وعن الخليل بن أحمد : كان الشعر أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام ، ولكن لا يتأَّتى له .

الثانية : إصابته الوزن أحياناً لا يوجب أنه يعلم الشعر ، وكذلك ما يأتي أحياناً من نثر كلامه ما يدخل في وزن ، كقوله يوم حُنين وغيره :

هل أنتِ إلا إصبعٌ دَميتِ . . .

وفي سبيلِ اللَّهِ ما لَقِيتِ

وقوله :

أنا النبيُّ لا كَذِبْ . . .

أنا ابن عبدِ المطلبْ

(136/648)

---

فقد يأتي مثل ذلك في آيات القرآن ، وفي كل كلام ؛ وليس ذلك شعراً ولا في معناه ؛ كقوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : 92] ، وقوله : ﴿ نَصْرٌ مِّن الله وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [الصف : 13] ، وقوله : ﴿ وَجِفَانٍ كالجواب وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ [سبأ : 13] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد ذكر ابن العربي منها آيات وتكلم عليها وأخرجها عن الوزن ، على أن أبا الحسن الأخفش قال في قوله : "أنا النبيّ لا كَذِبْ" ليس بشعر .

وقال الخليل في كتاب العين : إن ما جاء من السجع على جزءين لا يكون شعراً .

وروي عنه أنه من منهوك الرَّجَز .

وقد قيل : لا يكون من منهوك الرجز بالوقف على الباء من قوله : "لا كذب" ، ومن قوله :

"عبد المطلب" .

ولم يعلم كيف قاله النبي صلى الله عليه وسلم .

قال ابن العربي : والأظهر من حاله أنه قال "لا كَذِبُ" الباء مرفوعة ، وبخفض الباء من عبد المطلبِ على الإضافة .

وقال النحاس قال بعضهم : إنما الرواية بالإعراب ، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعراً ؛ لأنه إذا فتح الباء من البيت الأول أو ضمها أو نوّنها ، وكسر الباء من البيت الثاني خرج عن وزن الشعر .

وقال بعضهم : ليس هذا الوزن من الشعر .

وهذا مكابرة العيان ؛ لأن أشعار العرب على هذا قد رواها الخليل وغيره .

وأما قوله : "هل أنتِ إلا إصبعٌ دَمِيتِ" فقيل إنه من بحر السريع ، وذلك لا يكون إلا إذا كسرت التاء من دميت ، فإن سكن لا يكون شعراً بحال ؛ لأن هاتين الكلمتين على هذه الصفة تكون فعول ، ولا مدخل لفعول في بحر السريع .

ولعل النبي صلى الله عليه وسلم قالها ساكنة التاء أو متحركة التاء من غير إشباع .

والمعوّل عليه في الانفصال على تسليم أن هذا شعر ، ويسقط الاعتراض ، ولا يلزم منه أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم عالماً بالشعر ولا شاعر أن التمثل بالبيت النزر وإصابة القافيتين من الرجز وغيره ، لا يوجب أن يكون قائلها عالماً بالشعر ، ولا يسمّى شاعراً باتفاق العلماء ، كما أن من خاط خيطاً لا يكون خياطاً .

قال أبو إسحاق الزجاج : معنى "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ" وما علمناه أن يشعر أي ما جعلناه شاعراً ، وهذا لا يمنع أن ينشد شيئاً من الشعر .

قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل في هذا .

وقد قيل : إنما خبَّر الله عز وجل أنه ما علمه الله الشعر ، ولم يخبر أنه لا ينشد شعراً ، وهذا ظاهر الكلام .

وقيل فيه قول بيِّن ؛ زعم صاحبه أنه إجماع من أهل اللغة ، وذلك أنهم قالوا : كل من قال قولاً موزوناً لا يقصد به إلى شعر فليس بشعر وإنما وافق الشعر .

وهذا قول بيّن .

قالوا : وإنما الذي نفاه الله عن نبيه عليه السلام فهو العلم بالشعر وأصنافه ، وأعاريضه وقوافيه والاتصاف بقوله ، ولم يكن موصوفاً بذلك بالاتفاق .

ألا ترى أن قريشاً تراوضت فيما يقولون للعرب فيه إذا قدموا عليهم الموسم ، فقال بعضهم : نقول إنه شاعر .

فقال أهل الفطنة منهم : والله لتكذبنكم العرب ، فإنهم يعرفون أصناف الشعر ، فوالله ما يشبه شيئاً منها ، وما قوله بشعر .

وقال أنيس أخو أبي ذرّ : لقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم أنه شعر .

أخرجه مسلم ، وكان أنيس من أشعر العرب .

وكذلك عتبة بن أبي ربيعة لما كلمه : والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ؛ على ما يأتي بيانه من خبره في سورة "فصلت" إن شاء الله تعالى .

وكذلك قال غيرهما من فصحاء العرب العرباء ، واللُّسْن البلغاء .

ثم إن ما يجري على اللسان من موزون الكلام لا يعدّ شعراً ، وإنما يعدّ منه ما يجري على وزن الشعر مع القصد إليه ؛ فقد يقول القائل : حدّثنا شيخ لنا وينادي يا صاحب الكسائي ، ولا يعدّ هذا شعراً .



---

وقد كان رجل ينادي في مرضه وهو من عُرض العامة العقلاء : اذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد اكتوى .

الثالثة : روى ابن القاسم عن مالك أنه سئل عن إنشاد الشعر فقال : لا تكثرن منه ؛ فمن

عيبه أن الله يقول : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ قال : ولقد بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى الأشعري : أن اجمع الشعراء قِبلك ؛ وسَلْهم عن الشعر ، وهل بقي معهم معرفة ؛ وأحضر لَبيداً ذلك ؛ قال : فجمعهم فسألهم فقالوا إنا لنعرفه ونقوله .

وسأل لبيداً فقال : ما قلت شعراً منذ سمعت الله عز وجل يقول : ﴿ الم ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [ البقرة : 1 – 2 ] قال ابن العربي : هذه الآية ليست من عيب الشعر ؛ كما لم يكن قوله : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ [ العنكبوت : 48 ] من عيب الكتابة ، فلما لم تكن الأمية من عيب الخط ، كذلك لا يكون نفي النظم عن النبي صلى الله عليه وسلم من عيب الشعر .

روي أن المأمون قال لأبي عليّ المِنْقري : بلغني أنك أميّ ، وأنك لا تقيم الشعر ، وأنك تلحن .

فقال : يا أمير المؤمنين ، أما اللحن فربما سبق لساني منه بشيء ، وأما الأمية وكسر الشعر فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكتب ولا يقيم الشعر .

فقال له : سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعاً وهو الجهل ، يا جاهل ! إن ذلك كان للنبي صلى الله عليه وسلم فضيلة ، وهو فيك وفي أمثالك نقيصة .

وإنما منع النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لنفي الظنة عنه ، لا لعيب في الشعر والكتابة .

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ أي وما ينبغِي له أن يقوله.

وجعل الله جل وعز ذلك علَماً من أعلام نبيه عليه السلام لئلا تدخل الشبهة على من أرسل إليه؛ فيظن أنه قوِي على القرآن بما في طبعه من القوّة على الشعر.



---

ولا اعتراض لملحد على هذا بما يتفق الوزن فيه من القرآن وكلام الرسول؛ لأن ما وافق وزنه وزن الشعر، ولم يقصد به إلى الشعر ليس بشعر؛ ولو كان شعراً لكان كل من نطق بموزون من العامة الذين لا يعرفون الوزن شاعراً؛ على ما تقدم بيانه.

وقال الزجاج: معنى "وَمَا يَنْبَغِي لَهُ" أي ما يتسهل له قول الشعر لا الإنشاء.

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي هذا الذي يتلوه عليكم ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ أي حيّ القلب؛ قاله قتادة.

الضحاك: عاقلاً.

وقيل: المعنى لتنذر من كان مؤمناً في علم الله.

هذا على قراءة التاء خطاباً للنبي عليه السلام، وهي قراءة نافع وابن عامر.

وقرأ الباقون بالياء على معنى لينذر الله عز وجل؛ أو لينذر محمد صلى الله عليه وسلم،

أو لينذر القرآن .

وروي عن ابن السَّمَيْقَع "لِيَنْذَرَ" بفتح الياء والذال .

﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي وتجب الحجة بالقرآن على الكفرة .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم ﴾ هذه رؤية القلب ؛ أي أو لم ينظروا ويعتبروا ويتفكروا .

﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ أي مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة .

و"ما" بمعنى الذي وحذفت الهاء لطول الاسم .

وإن جعلت "ما" مصدرية لم تحتج إلى إضمار الهاء .

﴿ أَنْعَاماً ﴾ جمع نعم والنعم مذكر .

﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ ضابطون قاهرون .

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴾ أي سخرناها لهم حتى يقود الصبي الجمل العظيم ويضربه ويصرّفه كيف شاء لا يخرج من طاعته .

﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ قراءة العامة بفتح الراء ؛ أي مركوبهم ، كما يقال : ناقة حلوب أي محلوب .

وقرأ الأعمش والحسن وابن السَّمَيْقَع : "فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ" بضم الراء على المصدر .

وروي عن عائشة أنها قرأت : "فَمِنْهَا رَكُوبَتُهُمْ" وكذا في مصحفها .

والرَّكوب والرَّكوبة واحد ، مثل الحَلوب والحَلوبة ، والحمَول والحمَولة .

وحكى النحويون الكوفيون : أن العرب تقول : امرأة صَبور وشَكور بغير هاء .

ويقولون : شاة حَلوبة وناقة رَكوبة ؛ لأنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما كان له الفعل وبين ما كان الفعل واقعاً عليه ، فحذفوا الهاء مما كان فاعلاً وأثبتوها فيما كان مفعولاً ؛ كما قال :

فيها اثنتان وأربعون حَلُوبَةً . . .

سُودًا كخافيةِ الغرابِ الأَسْحَمِ

فيجب أن يكون على هذا رَكوبتهم .

فأما البصريون فيقولون : حذفت الهاء على النسب .

والحجة للقول الأول ما رواه الجرمي عن أبي عبيدة قال : الركوبة تكون للواحد والجماعة ، والرَّكُوب لا يكون إلا للجماعة .

فعلى هذا يكون لتذكير الجمع .

وزعم أبو حاتم : أنه لا يجوز "فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ" بضم الراء لأنه مصدر ؛ والرَّكُوب ما يركب .

وأجاز الفرّاء "فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ" بضم الراء ، كما تقول فمنها أكلهم ومنها شربهم .

﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ من لحومها ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها وشحومها ولحومها وغير ذلك .

﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ يعني ألبانها ؛ ولم ينصرفا لأنهما من الجموع التي لا نظير لها في الواحد .

﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ الله على نعمه .

قوله تعالى : ﴿ واتخذوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً ﴾ أي قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا ، ثم اتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل .

﴿ لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي لما يرجون من نصرتها لهم إن نزل بهم عذاب .

ومن العرب من يقول : لعله أن يفعل .

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يعني الآلهة .

وجمعوا بالواو والنون ؛ لأنه أخبر عنهم بخبر الآدميين .

﴿ وَهُمْ ﴾ يعني الكفار ﴿ لَهُمْ ﴾ أي للآلهة ، ﴿ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ قال الحسن : يمنعون منهم ويدفعون عنهم .

وقال قتادة : أي يغضبون لهم في الدنيا .

وقيل : المعنى أنهم يعبدون الآلهة ويقومون بها ؛ فهم لها بمنزلة الجند وهي لا تستطيع أن تنصرهم .

وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى .

وقيل : إن الآلهة جند للعابدين محضرون معهم في النار ، فلا يدفع بعضهم عن بعض .

وقيل : معناه وهذه الأصنام لهؤلاء الكفار جند الله عليهم في جهنم ؛ لأنهم يلعنونهم ويتبرءون من عبادتهم .

وقيل : الآلهة جند لهم محضرون يوم القيامة لإعانتهم في ظنونهم .

وفي الخبر : إنه يمثل لكل قوم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من دون الله فيتبعونه إلى النار ؛ فهم لهم جند محضرون .

قلت : ومعنى هذا الخبر ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ، وفي الترمذي عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ثم يَطَّلِع عليهم ربُّ العالمين فيقول أُلاَ لِيتبعْ كلُّ إنسانٍ ما كان يعبد فيُمثَّل لصاحب الصليب صليبه ولصاحب التصاوير تصاويره ولصاحب النار ناره فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون " وذكر الحديث بطوله .

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ هذه اللغة الفصيحة .

ومن العرب من يقول يُحزِنك .

والمراد تسلية نبيه عليه السلام ؛ أي لا يحزنك قولهم شاعر ساحر .

وتم الكلام ، ثم استأنف فقال : ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من القول والعمل وما يظهرون فنجازيهم بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

*(142/648)*

---

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55) ﴾

لما ذكر تعالى أهوال يوم القيامة ، أعقب ذلك بحال السعداء والأشقياء .

والظاهر أنه إخبار لنا بما يكونون فيه إذا صاروا إلى ما أعد لهم من الثواب والعقاب .

وقيل : هو حكاية ما يقال في ذلك اليوم ، وفي مثل هذه الحكاية زيادة تصوير للموعود له في النفوس ، وترغيب إلى الحرص عليه وفيما يثمره ؛ والظاهر أن الشغل هو النعيم الذي قد شغلهم عن كل ما يخطر بالبال .

وقال قريباً منه مجاهد ، وبعضهم خص هذا الشغل بافتضاض الأبكار ، قاله ابن عباس ؛

وعنه أيضاً : سماع الأوتار .

وعن الحسن : شغلوا عن ما فيه أهل النار .

وعن الكلبي : عن أهاليهم من أهل النار ، لا يذكرونهم لئلا يتنغصوا .

وعن ابن كيسان : الشغل : التزاور .

وقيل : ضيافة الله ، وأفرد الشغل ملحوظاً فيه النعيم ، وهو واحد من حيث هو نعيم .

وقرأ الحرميان ، وأبو عمرو : بضم الشين وسكون الغين ؛ وباقي السبعة بضمها ؛ ومجاهد ، وأبو السمال ، وابن هبيرة فيما نقل ابن خالويه عنه : بفتحتين ؛ ويزيد النحوي ، وابن هبيرة ، فيما نقل أبو الفضل الرازي : بفتح الشين وإسكان الغين .

وقرأ الجمهور : ﴿ فاكهون ﴾ ، بالألف ؛ والحسن ، وأبو جعفر ، وقتادة ، وأبو حيوة ، ومجاهد ، وشيبة ، وأبو رجاء ، ويحيى بن صبيح ، ونافع في رواية : بغير ألف ؛ وطلحة ، والأعمش : فاكهين ، بالألف والياء نصباً على الحال ، وفي شغل هو الخبر .

فبالألف أصحاب فاكهة ، كما يقال لابن وتامر وشاحم ولاحم ، وبغير ألف معناه : فرحون طربون ، مأخوذ من الفكاهة وهي المزحة ، وقرىء : فكهين ، بغير ألف وبالياء .

وقرىء : فكهون ، بضم الكاف .

يقال : رجل فكه وفكه ، نحو : يدس ويدس .

ويجوز في هم أن يكون مبتدأ ، وخبره في ظلال ، ومتكئون خبر ثان ، أو خبره متكئون ، وفي ظلال متعلق به ، أو يكون تأكيداً للضمير المستكن في فاكهون ، وفي ظلال حال ، ومتكئون خبر ثان لأن ، أو يكون تأكيداً للضمير المستكن في شغل ، المنتقل إليه من العامل فيه .

وعلى هذا الوجه والذي قبله يكون الأزواج قد شاركوهم في التفكه والشغل والاتكاء على الأرائك ، وذلك من جهة المنطوق .

وعلى الأول ، شاركوهم في الظلال والاتكاء على الأرائك من حيث المنطوق ، وهن قد شاركنهم في التفكه والشغل من حيث المعنى .

وقرأ الجمهور : ﴿ في ظلال ﴾ .

قال ابن عطية : وهو جمع ظل ، إذ الجنة لا شمس فيها ، وإنما هواؤها سجسج ، كوقت الأسفار قبل طلوع الشمس . انتهى .

وجمع فعل على فعال في الكثرة ، نحو : ذئب وذئاب .

وأما أن وقت الجنة كوقت الأسفار قبل طلوع الشمس ، فيحتاج هذا إلى نقل صحيح .

وكيف يكون ذلك ؟ وفي الحديث ما يدل على حوراء من حور الجنة ، لو ظهرت لأضاءت منها الدنيا ، أو نحو من هذا ؟ قال : ويحتمل أن يكون جمع ظلة .

قال أبو عليّ : كبرمة وبرام .

وقال منذر بن سعيد : جمع ظلة ، بكسر الظاء .

قال ابن عطية : وهي لغة في ظلة . انتهى .

فيكون مثل لقحة ولقاح ، وفعال لا ينقاس في فعلة بل يحفظ .

وقرأ عبد الله ، والسلمي ، وطلحة ، وحمزة ، والكسائي : في ظل جمع ظلة ، وجمع فعلة على فعل مقيس ، وهي عبارة عن الملابس والمراتب من الحجال والستور ونحوها من الأشياء التي تظل .

وقرأ عبد الله : متكئين ، نصب على الحال ؛ ويدعون مضارع ادعى ، وهو افتعل من دعا ، ومعناه : ولهم ما يتمنون .

قال أبو عبيدة : العرب تقول ادع علي ما شئت ، بمعنى تمن عليّ وتقول فلان في خبر ما تمنى .

قال الزجاج : وهو من الدعاء ، أي ما يدعونه أهل الجنة يأتيهم .

وقيل : يدعون به لأنفسهم .

وقيل : يتداعونه لقوله ارتموه وتراموه .

وقرأ الجمهور : سلام بالرفع .

وهو صفة لما ، أي مسلم لهم وخالص . انتهى .

ولا يصح إن كان ما بمعنى الذي ، لأنها تكون إذ ذاك معرفة .

وسلام نكرة ، ولا تنعت المعرفة بالنكرة .

فإن كانت ما نكرة موصوفة جاز ، إلا أنه لا يكون فيه عموم ، كحالها بمعني الذي .

وقيل : سلام مبتدأ ويكون خبره ذلك الفعل الناصب لقوله : ﴿ قولاً ﴾ ، أي سلام يقال ، ﴿ قولاً من رب رحيم ﴾ ، أو يكون عليكم محذوفاً ، أي سلام عليكم ، ﴿ قولاً من رب رحيم ﴾ .

وقيل : خبر مبتدأ محذوف ، أي هو سلام .

وقال الزمخشري : ﴿ سلام قولاً ﴾ بدل من ﴿ ما يدعون ﴾ ، كأنه قال : لهم سلام يقال لهم قولاً من جهة رب رحيم ، والمعنى : أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة ، أو بغير واسطة ، مبالغة في تعظيمهم ، وذلك متمناهم ، ولهم ذلك لا يمنعونه .

قال ابن عباس : والملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين . انتهى .

وإذا كان سلام بدلاً من ما يدعون خصوصاً .

والظاهر أنه عموم في كل ما يدعون ، وإذا كان عموماً ، لم يكن سلام بدلاً منه .

وقيل : سلام خبر لما يدعون ، وما يدعون مبتدأ ، أي ولهم ما يدعون سلام خالص لا شرب فيه ، وقولاً مصدر مؤكد ، كقوله : ﴿ ولهم ما يدعون سلام ﴾ : أي عدة من رحيم .

قال الزمخشري : والأوجه أن ينتصب على الاختصاص ، وهو من مجازه . انتهى .

ويكون لهم متعلقاً على هذا الإعراب بسلام .

وقرأ محمد بن كعب القرظي : سلم ، بكسر السين وسكون اللام ، ومعناه سلام .

وقال أبو الفضل : الرازي : مسالم لهم ، أي ذلك مسالم .

وقرأ أبيّ ، وعبد الله ، وعيسى ، والقنوي : سلاماً ، بالنصب على المصدر .

وقال الزمخشري : نصب على الحال ، أي لهم مرادهم خالصاً .

﴿ وامتازوا اليوم ﴾ : أي انفردوا عن المؤمنين ، لأن المحشر جمع البر والفاجر ، فأمر المجرمون بأن يكونوا على حدة من المؤمنين .

والظاهر أن ثم قولاً محذوفاً لما ذكر تعالى ما يقال للمؤمنين في قوله : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ ، قيل : ويقال للمجرمين : ﴿ امتازوا ﴾ .

(145/648)

---

ولما امتثلوا ما أمروا به ، قال لهم على جهة التوبيخ والتقريع : ﴿ ألم أعهد إليكم ﴾ ؟

وقفهم على عهده إليهم ومخالفتهم إياه .

وعن الضحاك : لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى ولا يرى ، فعلى هذا معناه أن

بعضهم من بعض .

وعن قتادة : اعتزلوا عن كل خير .

والعهد : الوصية ، عهد إليه إذا وصاه .

وعهد الله إليهم : ما ركز فيهم من أدلة العقل ، وأنزل إليهم من أدلة السمع .

وعبادة الشياطين : طاعته فيما يغويه ويزينه .

وقرأ الجمهور : أعهد ، بفتح الهمزة والهاء .

وقرأ طلحة ، والهذيل بن شرحبيل الكوفي : بكسر الهمزة ، قاله صاحب اللوامح ، وقال لغة تميم ، وهذا الكسر في النون والتاء أكثر من بين حروف المضارعة ، يعني : نعهد وتعهد .

وقال ابن خالويه : ألم أعهد ؛ يحيى بن وثاب : ألم أحد ، تميم .

وقال ابن عطية : وقرأ الهذيل ابن وثاب : ألم أعهد ، بكسر الميم والهمزة وفتح الهاء ، وهي على لغة من كسر أول المضارع سوى الياء .

وروي عن ابن وثاب : ألم أعهد ، بكسر الهاء ، يقال : عهد يعهد . انتهى .

وقوله : بكسر الميم والهمزة يعني أن كسر الميم يدل على كسر الهمزة ، لأن الحركة التي في الميم هي حركة نقل الهمزة المكسورة ، وحذفت الهمزة حين نقلت حركتها إلى الساكن قبلها وهو الميم .

اعهد بالهمزة المقطوعة المكسورة لفظاً ، لأن هذا لا يجوز .

وقال الزمخشري : وقرىء أعهد بكسر الهمزة ، وباب فعل كله يجوز في حروف مضارعته الكسر إلا في الياء ؛ وأعهد بكسر الهاء .

وقد جوز الزجاج أن يكون من باب نعم ينعم ، وضرب يضرب ، وأحهد بالحاء وأحد ، وهي لغة تميم ، ومنه قولهم : دحا محا . انتهى .

وقوله : إلا في الياء ، لغة لبعض كلب أنهم يكسرون أيضاً في الياء ، يقولون : هل يعلم ؟ وقوله : دحا محا ، يريدون دعها معها ، أدغموا العين في الحاء ، والإشارة بهذا إلى ما عهد إليهم معصيه الشيطان وطاعة الرحمن .



---

وقرأ نافع ، وعاصم : ﴿ جبلاً ﴾ ، بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، وهي قراءة أبي حيوة ، وسهيل ، وأبي جعفر ، وشيبة ، وأبي رجاء ؛ والحسن : بخلاف عنه .

وقرأ العربيان ، والهذيل بن شرحبيل : بضم الجيم وإسكان الباء ؛ وباقي السبعة : بضمها وتخفيف اللام ؛ والحسن بن أبي إسحاق ، والزهري ، وابن هرمز ، وعبدالله بن عبيد بن عمير ، وحفص بن حميد : بضمتين وتشديد اللام ؛ والأشهب العقيلي ، واليماني ، وحماد بن مسلمة عن عاصم : بكسر الجيم وسكون الباء ؛ والأعمش : جبلاً ، بكسرتين

وتخفيف اللام .

وقرىء : جبلاً بكسر الجيم وفتح الباء وتخفيف اللام ، جمع جبلة ، نحو فطرة وفطر ، فهذه سبع لغات قرىء بها .

وقرأ علي بن أبي طالب وبعض الخراسانيين : جيلاً ، بكسر الجيم بعدها ياء آخر الحروف ، واحد الأجيال ؛ والجبل بالباء بواحدة من أسفل الأمة العظيمة .

وقال الضحاك : أقله عشرة آلاف .

خاطب تعالى الكفار بما فعل معهم الشيطان تقريعاً لهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ أفلم تكونوا ﴾ بتاء الخطاب ؛ وطلحة ، وعيسى : بياء الغيبة ، عائداً على جبل .

ويروى أنهم يجحدون ويخاصمون ، فيشهد عليهم جيرانهم وعشائرهم وأهاليهم ، فيحلفون ما كانوا مشركين ، فحينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم .

وفي الحديث : " يقول العبد يوم القيامة : إني لا أجيز عليّ شاهد إلا من نفسي فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقي فتنطق بأعماله ، ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقال : بعداً لكنّ وسحقاً ، فعنكنّ كنت أناضل "

وقرىء : يختم مبنياً للمفعول ، وتتكلم أيديهم ، بتاءين .

وقرىء : ولتكلمنا أيديهم ولتشهد بلام الأمر والجزم على أن الله يأمر الأعضاء بالكلام

والشهادة .

وروي عبد الرحمن بن محمد بن طلحة عن أبيه عن جده طلحة أنه قرأ : ولتكلمنا أيديهم ولتشهد ، بلام كي والنصب على معنى : وكذلك يختم على أفواهم .

(147/648)

---

والظاهر أن الأعين هي الأعضاء المبصرة ، والمعنى : لأعميناهم فلا يرون كيف يمشون ، قاله الحسن وقتادة ، ويؤيده مناسبة المسخ ، فهم في قبضة القدرة وبروج العذاب إن شاءه الله لهم .

وقال ابن عباس : أراد عين البصائر ، والمعنى : ولو نشاء لختمت عليهم بالكفر فلا يهتدي منهم أحد أبداً .

والطمس : إذهاب الشيء وأثره جملة حتى كأنه لم يوجد .

فإن أريد بالأعين الحقيقة ، فالظاهر أنه يطمس بمعنى يمسخ حقيقة ، ويجوز أن يكون الطمس يراد به العمى من غير إذهاب العضو وأثره .

وقرأ الجمهور : ﴿ فاستبقوا ﴾ ، فعلاً ماضياً معطوفاً على ﴿ لطمسنا ﴾ ، وهو على الفرض والتقدير .

والصراط منصوب على تقدير إلى حذفت ووصل الفعل ، والأصل فاستبقوا إلى الصراط ، أو مفعولاً به على تضمين استبقوا معنى تبادروا ، وجعله مسبوقاً إليه .

قال الزمخشري : أو ينتصب على الظرف ، وهذا لا يجوز ، لأن الصراط هو الطريق ، وهو ظرف مكان مختص .

لا يصل إليه الفعل إلا بوساطة في إلا في شذوذ ، كما أنشد سيبويه :

لدن بهز الكف يعسل متنه . . .

فيه كما عسل الطريق الثعلب

ومذهب ابن الطراوة أن الصراط والطريق والمخرم ، وما أشبهها من الظروف المكانية ليست مختصة ، فعلى مذهبة يسوغ ما قاله الزمخشري .

وقرأ عيسى : فاستبقوا على الأمر ، وهو على إضمار القول ، أي فيقال لهم استبقوا الصراط ، وهذا على سبيل التعجيز ، إذ لا يمكنهم الاستباق مع طمس الأعين .

﴿ فأنى يبصرون ﴾ : أي كيف يبصر من طمس على عينه ؟ والظاهر أن المسخ حقيقة ، وهو تبديل صورهم بصور شنيعة .

قال ابن عباس : ﴿ لمسخناهم ﴾ قردة وخنازير ، كما تقدم في بني إسرائيل ؛ وقيل حجارة .

وقال الحسن ، وقتادة ، وجماعة : لأقعدناهم وأزمناهم ، فلا يستطيعون تصرفاً .

والظاهر أن هذا لو كان يكون في الدنيا .

وقال ابن سلام : هذا التوعد كله يوم القيامة .

وقرأ الحسن : ﴿ على مكانتهم ﴾ ، بالافراد ، وهي المكان ، كالمقامة والمقام .

(148/648)

---

وقرأ الجمهور ، وأبو بكر : بالجمع .

والجمهور : ﴿ مضياً ﴾ ، بضم الميم : وأبو حيوة ، وأحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائي : بكسرها اتباعا لحركة الضاد ، كالعتبى والقتبى ، وزنه فعول . التقت واو ساكنة وياء ، فأبدلت الواو ياء ، وأدغمت في الياء ، وكسر ما قبلها لتصح الياء .

وقرىء : مضياً ، بفتح الميم ، فيكون من المصادر التي جاءت على فعيل ، كالرسيم والوجيف .

ولما ذكر تعالى الطمس والمسخ على تقدير المشبه ، ذكر تعالى دليلاً على باهر قدرته في تنكيس المعمر ، وأن ذلك لا يفعله إلا هو تعالى .

وتنكيسه : قلبه وجعله على عكس ما خلقه أولاً ، وهو أنه خلقه على ضعف في جسد

وخلو من عقل وعلم ، ثم جعله يتزايد وينتقل من حال إلى حال ، إن أن يبلغ أشده وتستكمل قوته ، ويعقل ويعلم ما له وما عليه .

فإذا انتهى نكسه في الخلق ، فيتناقص حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبا في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من الفهم ، كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله ، وفي هذا كله دليل على أن من فعل هذه الأفاعيل قادر على أن يطمس وأن يفعل بهم ما أراد .

وقرأ الجمهور : ﴿ ننكسه ﴾ ، مشدداً ؛ وعاصم ، وحمزة : مخففاً .

وقرأ نافع ، وابن ذكوان ، وأبو عمرو في رواية عباس : تعقلون بتاء الخطاب ؛ وباقي السبعة : بياء الغيبة .

﴿ وما علمناه الشعر ﴾ : الضمير في علمناه للرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، كانوا يقولون فيه شاعر .

وروي أن القائل عقبة بن أبي معيط ، فنفى الله ذلك عنه ، وقولهم فيه شاعر .

أما من كان في طبعه الشعر ، فقوله مكابرة وإيهام للجاهل بالشعر ؛ وأما من ليس في طبعه ، فقوله جهل محض .

وأين هو من الشعر ؟ والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى تنتخبه الشعراء من كثرة التخييل وتزويق الكلام ، وغير ذلك مما يتورع المتدين عن إنشاده ، فضلاً عن إنشائه :

وكان عليه السلام لا يقول الشعر ، وإذا أنشد بيتاً أحرز المعنى دون وزنه ، كما أنشد :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا . . .



---

ويأتيك من لم تزود بالأخبار

وقيل : من أشعر الناس ، فقال الذي يقول :

ألم ترياني كلما جئت طارقا . . .

وجدت بها وإن لم تطيب طيباً

أتجعل نهبي ونهب العبيد . . .

بين الأقرع وعيينة

وأنشد يوماً :

كفى بالاسلام والشيب ناهياً . . .

_@_فقال أبو بكر وعمر : نشهد أنك رسول الله ، إنما قال الشاعر : كفى الشيب والإسلام ، وربما أنشد البيت متزناً في النادر .

وروي عنه أنشد بيت ابن رواحة :

يبيت يجافي جنبه عن فراشه . . .

إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

ولا يدل إجراء البيت على لسانه متزناً أنه يعلم الشعر ، وقد وقع في كلامه عليه السلام ما يدخله الوزن كقوله :

أنا النبي لا كذب . . .

أنا ابن عبد المطلب

وكذلك قوله :

هل أنت إلا أصبع دميت . . .

وفي سبيل الله ما لقيت

وهو كلام من جنس كلامه الذي كان يتكلم به على طبيعته ، من غير صنعة فيه ولا قصد لوزن ولا تكلف .

كما يوجد في القرآن شيء موزون ولا يعد شعراً ، كقوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وقوله : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾

وفي كثير من النثر الذي تنشئه الفصحاء ، ولا يسمى ذلك شعراً ، ولا يخطر ببال المنشي ولا السامع أنه شعر .

﴿ وما ينبغي له ﴾ : أي ولا يمكن له ولا يصح ولا يناسب ، لأنه عليه السلام في طريق جد

محض ، والشر أكثره في طريق هزل ، وتحسين لما ليس حسناً ، وتقبيح لما ليس قبيحاً ومغالاة مفرطة .

جعله تعالى لا يقرض الشعر ، كما جعله أمياً لا يخط ، لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض .

وقيل : في هذه الآية دلالة على غضاضة الشعر ، وقد قال عليه السلام : " ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي " وذهب قوم إلى أنه لا غضاضة فيه ، وإنما منعه الله نبيه عليه الصلاة والسلام . وإن كان حلية جليلة ليجيء القرآن من قبله أغرب ، فإنه لو كان له إدراك الشعر لقيل في القرآن : هذا من تلك القوة .



---

قال ابن عطية : وليس الأمر عندي كذلك ، وقد كان عليه السلام من الفصاحة والبيان في النثر في الرتبة العليا ، ولكن كلام الله يبين بإعجازه ويندر بوصفه ، ويخرجه إحاطة علم الله عن كل كلام ؛ وإنما منع الله نبيه من الشعر ترفيعاً له عن ما في قول الشعراء من التخييل والتزويق للقول .

وأما القرآن فهو ذكر بحقائق وبراهين ، فما هو بقول شاعر ، وهذا كان أسلوب كلامه ، عليه

السلام ، وقولاً واحداً . انتهى .

والضمير في له للرسول ، أي وما ينبغي الشعر لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) .

وأبعد من ذهب إلى أنه عائد على القرآن ، أي وما ينبغي الشعر للقرآن ، ولم يجر له ذكر ، لكن له أن يقول : يدل الكلام عليه ، ويبينه عود الضمير عليه في قوله : ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ : أي كتاب سماوي يقرأ في المحاريب ، وينال بتلاوته والعمل به ما فيه فوز الدارين .

فكم بينه وبين الشعر الذي أكثره من همزات الشياطين ؟ وقرأ نافع ، وابن عامر : لتنذر بتاء الخطاب للرسول ؛ وباقي السبعة : بالياء للغيبة ، فاحتمل أن يعود على الرسول ، واحتمل أن يعود على القرآن .

وقرأ اليماني : ﴿ لينذر ﴾ ، بالياء مبنياً للمفعول ، ونقلها ابن خالويه عن الجحدري .

وقال عن أبي السمال واليماني أنهما قرآ : لينذر ، بفتح الياء والذال مضارع نذر بكسر الذال ، إذا علم بالشيء فاستعد له .

﴿ من كان حياً ﴾ : أي غافلاً ، قاله الضحاك ، لأن الغافل كالميت ؛ ويريد به من حتم عليه بالإيمان ، وكذلك قابله بقوله : ﴿ ويحق القول ﴾ : أي كلمة العذاب ، ﴿ على الكفارين ﴾ المحتوم لهم بالموافاة على الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا علمناه الشعر ﴾

ردٌّ وإبطالٌ لما كانُوا يقولونَه في حقّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من أنَّه شاعرٌ وما يقولُه شعرٌ أي ما علَّمناه الشّعرُ بتعليمِ القُرآنِ على أنَّ القُرآنَ ليسَ بشعرٍ فإنَّ الشّعرَ كلامٌ متكلَّفٌ موضوعٌ ومقالٌ مزخرَفٌ مصنوعٌ منسوجٌ على منوالِ الوزنِ والقافيةِ مبنيٌّ على خيالاتٍ وأوهامٍ واهيةٍ فأين ذلك من التَّنزيلِ الجليلِ الخطِرِ المنزَّهِ عن مماثلةِ كلامِ البشرِ المشحونِ بفُنونِ الحِكَمِ والأحكامِ الباهرةِ الموصِّلةِ إلى سعادةِ الدُّنيا والآخرةِ ، ومن أين اشتَبه عليهم الشؤون واختلطَ بهم الظُّنون قاتلهم الله أنَّى يُؤفكون ﴿ وَمَا يَنبَغِى لَهُ ﴾ وما يصحُّ له الشّعرُ ولا يتأتَّى له لو طلبه أي جعلناه بحيث لو أراد قرضَ الشّعرِ لم يتأتَّ له كما جعلناه أميًّا لا يهتدي للخطِّ لتكون الحجَّةَ أثبتَ والشُّبهةُ أدحضَ . وأما قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام : " أنا النبيُّ لا كذب أنا ابنُ عبد المطَّلب " وقولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " هل أنتِ إلا أصبعٌ دميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ " فمنْ قبيلِ الاتفّاقاتِ الواردةِ من غير قصدٍ إليها وعزمٍ على ترتيبها .

وقيل : الضَّميرُ في له للقُرآنِ أي وما ينبغي للقُرآنِ أنْ يكونَ شِعراً ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما للقرآن

﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ أي عظةٌ من الله عزَّ وجلَّ وإرشادٌ للثَّقلين كما قال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ للعالمين ﴾ ﴿ وَقُرْآنٌ مُّبِين ﴾ أي كتابٌ سماويٌّ بيِّنٌ كونه كذلك أو فارقٌ بين الحقِّ والباطلِ يُقرأ في المحاريبِ ويُتلى في المعابدِ ويُنال بتلاوته والعملِ بما فيه فوزُ الدَّارين فكم بينَهُ وبينَ ما قالُوا .

(152/648)

---

﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ أي القرآنُ أو الرَّسولُ عليه الصلاة والسلام ويُؤيِّده القراءةُ بالتَّاءِ ، وقرىء لينذر من نذر به أي علمه ، ولِيُنذرَ مبنيًا للمفعولِ من الإنذارِ . ﴿ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ أي عاقِلاً متأمِّلاً ، فإنَّ الغافلَ بمنزلةِ الميّتِ ، أو مؤمناً في علمِ الله تعالى فإن الحياةَ الأبديَّةَ بالإيمانِ ، وتخصيصُ الإنذارِ به لأنَّه المنتفعُ به ﴿ وَيَحِقَّ القول ﴾ أي تجبُ كلمةُ العذابِ ﴿ عَلَى الكافرين ﴾ المصرِّين على الكفرِ ، وفي إيرادِهم بمقابلةِ مَن كان حيّاً إشعارٌ بأنَّهم لخلوِّهم عن آثارِ الحياةِ وأحكامِها التي هي المعرفةُ أمواتٌ في الحقيقةِ .

(153/648)

---

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ الهمزةُ للإنكار والتَّعجيب. والواو للعطفِ على جملةٍ منفيّةٍ مقدّرةٍ مستتبعةٍ للمعطوفِ أي ألم يتفكرّوا أو ألم يلاحظوا ولم يعلموا علماً يقينيّاً مُتاخِماً للمُعاينةِ.

﴿ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم ﴾ أي لأجلِهم وانتفاعِهم ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ أي ممَّا تولينا إحداثَه بالذَّاتِ. وذكرُ الأيدي وإسنادُ العمل إليها إستعارةٌ تفيد مبالغةً في الاختصاص والتَّفردِ بالأحداث والاعتناء به. ﴿ أنعاما ﴾ مفعولُ خلقنَا. وتأخيره عن الجارَّينِ المتعلّقين به مع أنَّ حقَّه التَّقدمُ عليهما لما مرَّ مراراً من الاعتناء بالمقدَّمِ والتَّشويق إلى المؤخَّر فإنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّر تبقى النَّفسُ مترقبةً له فيتمكن عند ورودِه عليها فضلَ تمكُّنٍ لا سيَّما عند كونِ المقدَّصصمِ منبئاً عن كونِ المؤخَّر أمراً نافعاً خطيراً كما في النَّظمِ الكريم فإنَّ الجارَّ الأول المُعربَ عن كونِ المؤخَّرِ من منافعهم، والثَّاني المفصح عن كونه من الأمورِ الخطيرةِ يزيدان النَّفسَ شوقاً إليه ورغبةً فيه ولأنَّ في تأخيره جمعاً بينه وبين أحكامِه المتفرّعةِ عليه بقوله تعالى ﴿ فَهُمْ لَهَا مالكون ﴾ الآياتِ الثلاثَ أي ملّكناها إيَّاهمُ. وإيثارُ الجملة الاسميَّةِ على ذلك للدّلالةِ على استقرارِ مالكيتِهم لها واستمرارِها. واللاَّمُ متعلّقةٌ بمالكون مقويَّةٌ لعمله أي فهُم مالِكون لها بتمليكِنا إيصّاهم لهم متصرّفون فيها بالاستقلال مختصُّون بالانتفاع بها لا يُزاحمهم في ذلك غيرُهم أو قادرون على ضبطها متمكّنون من التَّصرُّفِ فيها بأقدارِنا وتمكيننا وتسخيرِنا إيَّاها لهم كما في قولِ مَن قال

أصبحتُ لا أحملُ السّلاحَ ولا . . . أملكُ رأسَ البعيرِ إنْ نَفَرا

والأَوّلُ هو الأظهرُ ليكون قوله تعالى ﴿ وذللناها لَهُمْ ﴾ تأسيساً لنعمةٍ على حيالِها لا تتمّةً لما قبلها أي صيَّرناها منقادةً لهم بحيثُ لا تستعصِي عليهم في شيءٍ مَّما يُريدون بها حتَّى الذَّبح حسبما ينطقُ به قوله تعالى ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ الخ فإنَّ الفاء فيه لتفريع أحكام التَّذليل عليه وتفصيلها أي فبعضٌ منها ركوبهم أي مركوبُهم أي معظم منافعها الرُّكوبُ، وعدم التَّعرضِ للحمل لكونِه من تتمَّاتِ الرُّكوب. وقُرِىء ركوبتُهم وهي بمعناه كالحَلوب والحَلوبةِ وقيل: الرَّكوبةُ اسم جمع. وقُرِىء رُكوبُهم أي ذو رُكوبِهم ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أي وبعضٌ منها يأكلون لحمه.

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا ﴾ أي في الأنعامِ بكِلا قسميها ﴿ منافع ﴾ أُخرُ غيرُ الرُّكوبِ والأكلِ كالجلودِ والأصوافِ والأوبارِ وغيرِها وكالحِراثةِ بالثّيران ﴿ ومشارب ﴾ من اللَّبنِ جمع مَشربٍ وهذا مجمل ما فُصِّل في سورة النَّحلِ ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ أي أيُشاهدون هذه النّعمَ أو أيتنعَّمون بها فلا يشكرونَ المنعمَ بها.

﴿ واتخذوا مِن دُونِ اللهِ ﴾ أي متجاوزينَ اللهَ تعالى الذي شاهدُوا تفرُّدَه بتلك القدرةِ الباهرةِ وتفضُّله عليهم بهاتيك النّعمِ المتظاهرةِ ﴿ ءالِهَةً ﴾ من الأصنامِ وأشركوهَا به تعالى في العبادةِ ﴿ لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ رجاءَ أنْ يُنصروا من جهتِهم فيما حزبَهم من الأمورِ أو يشفعُوا لهم في الآخرةِ وقوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ الخ استئنافٌ سيق لبيانِ بُطلانِ رأيهم وخيبةِ رجائِهم وانعكاسِ تدبيرِهم أي لا تقدرُ آلهتُهم على نصرِهم ﴿ وَهُمْ ﴾ أي المشركون ﴿ لَهُمْ ﴾ أي لآلهتهم ﴿ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ يشيِّعونهم عند مساقِهم إلى النَّارِ ، وقيل : مُعدُّون في الدُّنيا لحفظِهم وخدمتِهم والذبِّ عنهم ، ولا يساعده مساقُ النَّظمِ الكريمِ فإنَّ الفاءَ في قوله تعالى ﴿ فَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ لترتيب النَّهيِ على ما قبله فلا بُدَّ أنْ يكونَ عبارةً عن خسرانِهم وحرمانِهم عمَّا علَّقوا به أطماعَهم الفارغةَ وانعكاسُ الأمرِ عليهم بترتب الشرِّ على ما رتَّبوه لرجاءِ الخيرِ فإن ذلك مما يُهوِّن الخطبَ ويورث السَّلوةَ ، وأما كونُهم معدِّين لخدمتِهم وحفظِهم فبمعزلٍ من ذلكَ والنَّهيُ وإنْ كان بحسبِ الظَّاهرِ متوجِّهاً إلى قولهم لكنه في الحقيقة متوجِّهٌ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ونهيٌ له عليه السَّلامُ عن التَّأثرِ منه بطريقِ الكنايةِ على أبلغِ وجهٍ وآكدِه فإن النَّهيَ عن أسبابِ الشَّيءِ ومبادئهِ المؤدِّيةِ إليه نهيٌ عنه بالطَّريقِ البُرهانِّي وإبطالٌ للسَّببيةِ وقد يُوجَّه النَّهيُ إلى المسبَّبِ ويراد النَّهيُ عن السَّببِ كما في قولِه لا أرينك هَهُنا يريد به نهيَ مخاطبه عن الحضورِ لديهِ والمرادُ بقولِهم ما ينبىءُ عنه ما ذُكر من اتِّخاذهم الأصنامَ آلهةً فإنَّ ذلك مما

لا يخلُو عن التَّفوه بقولِهم هؤلاءِ آلهتُنا وأنهم شركاءُ لله سبحانه في المعبوديةِ وغير ذلك مَّما يُورث الحزنَ.

(156/648)

---

وقُرِىءَ يُحزِنك بضمِّ الياء وكسرِ الزَّاي من أحزنَ المنقولِ من حزنَ اللازمِ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ تعليلٌ صريحٌ للنَّهي بطريقِ الاستئنافِ بعد تعليلِه بطريقِ الإشعارِ فإنَّ العلمَ بما ذُكر مستلزمٌ للمجازاةِ قطعاً أي إنَّا نجازيهم بجميعِ جناياتهم الخافيةِ والباديةِ التي لا يعزُبُ عن علمنا شيءٌ منها وفيه فضلُ تسليةٍ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم وتقديمِ السرِّ على العَلَنِ إمَّا للمبالغةِ في بيانِ شمولِ علمِه تعالى لجميعِ المعلوماتِ كأنَّ علمه تعالى بما يسرُّونه أقدمُ منه بما يعلنونَه مع استوائِهما في الحقيقةِ فإنَّ علمَه تعالى بمعلوماتِه ليس بطريقِ حصولِ صورها بل وجود كلِّ شيءٍ في نفسِه علم بالنِّسبةِ إليه تعالى، وفي هذا المعنى لا يختلفُ الحالُ بين الأشياءِ البارزةِ والكامنةِ وإما لأن مرتبةَ السرِّ متقدمةٌ على مرتبةِ العَلَنِ إذ ما من شيءٍ يعلن إلا وهو أو مباديه مضمرٌ في القلبِ قبل ذلك فتعلق

علمه تعالى بحالته الأولى متقدِّمٍ على تعلقهِ بحالتِهِ الثَّانية حقيقة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(157/648)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا علمناه ﴾ بتعليم الكتاب المشتمل على هذا البيان والتلخيص في أمر المبدأ والمعاد ﴿ الشعر ﴾ إذ لا يخفى على من به أدنى مسكة أن هذا الكتاب الحكيم المتضمن لجميع المنافع الدينية والدنيوية على أسلوب أفحم كل منطيق يباين الشعر ولا مثل الثريا للثرى ، أما لفظاً فلعدم وزنه وتقفيته ، وأما معنى فلأن الشعر تخيلات مرغبة أو منفرة أو نحو ذلك وهو مقر الأكاذيب ، ولذا قيل أعذبه أكذبه ، والقرآن حكم وعقائد وشرائع .

والمراد من نفي تعليمه صلى الله عليه وسلم بتعليم الكتاب الشعر نفى أن يكون القرآن شعراً على سبيل الكناية لأن ما علمه الله تعالى هو القرآن وإذا لم يكن المعلم شعراً لم يكن القرآن شعراً البتة ، وفيه أنه عليه الصلاة والسلام ليس بشاعر إدماجاً وليس هناك كناية تلويحية كما قيل ، وهذا رد لما كانوا يقولونه من أن القرآن شعر والنبي صلى الله عليه وسلم شاعر وغرضهم من ذلك أن ما جاء به عليه الصلاة والسلام من القرآن افتراء وتخيل

وحاشاه ثم حاشاه من ذلك ﴿ وَمَا يَنبَغِى لَهُ ﴾ اعتراض لتقرير ما أدمج أي لا يليق ولا يصلح له صلى الله عليه وسلم الشعر لأنه يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن ولأن أحسنه المبالغة والمجازفة والإغراق في الوصف وأكثره تحسين ما ليس بحسن وتقبيح ما ليس بقبيح وكل ذلك يستدعي الكذب أو يحاكيه الكذب وجل جناب الشارع عن ذلك كذا قيل.

وقال ابن الحاجب: أي لا يستقيم عقلاً أن يقول صلى الله عليه وسلم الشعر لأنه لو كان ممن يقوله لتطرقت التهمة عند كثير من الناس في أن ما جاء به من قبل نفسه وأنه من تلك القوة الشعرية ولذا عقب هذا بقوله تعالى: ﴿ وَيَحِقَّ القولُ عَلَى الكافرين ﴾ [يس: 70] لأنه إذا انتفت الريبة لم يبق إلا المعاندة فيحق القول عليهم.



---

وتعقب بأن الإيجاز يرفع التهمة وإلا فكونه عليه الصلاة والسلام في المرتبة العليا من الفصاحة والبلاغة في النثر ليس بأضعف من قول الشعر في كونه مظنة تطرق التهمة بل ربما يتخيل أنه أعظم من قول الشعر في ذلك فلو كانت علة منعه عليه الصلاة والسلام من الشعر ما ذكر لزم أن يمنع من الكلام الفصيح البليغ سداً لباب الريبة ودحضاً للشبهة وإعظاماً

للحجة فحيث لم يكن ذلك اكتفاءً بالإعجاز وأن التهمة والريب معه مما لا ينبغي أن يصدر من عاقل ولذا نفى الريب مع أنه وقع علم أن العلة في أنه عليه الصلاة والسلام لا ينبغي له الشعر شيء آخر، واختار هذا ابن عطية وجعل العلة ما في قول الشعر من التخييل والتزويق للقول وهو قريب مما سمعت أولاً، وهو الذي ينبغي أن يعول عليه، وفي الآية عليه دلالة على غضاضة الشعر وهي ظاهرة في أنه عليه الصلاة والسلام لم يعط طبيعة شعرية اعتناءً بشأنه ورفعاً لقدره وتبعيداً له صلى الله عليه وسلم من أن يكون فيه مبدأ لما يخل بمنصبه في الجملة.

(159/648)

---

وإنما لم يعط صلى الله عليه وسلم القدرة على الشعر مع حفظه عن إنشائه لأن ذلك سلب القدرة عليه في الإبعاد عما يخل بمنصبه الجليل صلى الله عليه وسلم ونظير ما ذكرنا العصمة والحفظ، ويفهم من كلام المواهب اللدنية أن من الناس من ذهب إلى أنه عليه الصلاة والسلام كان له قدرة على الشعر إلا أنه يحرم عليه أن يشعر وليس بذاك، نعم القول بحرمة إنشاء الشعر مقبول ومعناه على القول السابق على ما قيل حرمة التوصل إليه، وقد يقال: لا حاجة إلى التأويل وحرمة الشيء تجامع عدم القدرة عليه، وهل عدم الشعر خاص به

عليه الصلاة والسلام أو عام لنوع الأنبياء قال بعضهم هو عام لهذه الآية إذ لا يظهر للخصوص نكتة ، وقيل يجوز أن يكون خاصاً والنكتة زيادة التكريم لما أن مقامه صلى الله عليه وسلم فوق مقام الأنبياء عليهم السلام ويكون الثابت لهم الحفظ عن الإنشاء مع ثبوت القدرة عليه وإن صح خبر إنشاء آدم عليه السلام يوم قتل ولده :

تغيرت البلاد ومن عليها . . .

ووجه الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذي طعم ولون . . .

وقل بشاشة الوجه الصبيح

اتضح أمر الخصوص وعلم أن لا حفظ من الإنشاء أيضاً ، ولعل الحفظ حينئذٍ مما فيه ما يشين ويخل بمنصب النبوة مطلقاً ، والنكتة في الخصوص ظاهرة على ما نقل عن ابن الحاجب لأن أعظم معجزاته عليه الصلاة والسلام القرآن فربما تحصل التهمة فيه لو قال صلى الله عليه وسلم الشعر وكذلك معجزات الأنبياء عليهم السلام فتأمل .

وأياً ما كان لا يرد أنه عليه الصلاة والسلام قال يوم حنين وهو على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحرث آخذ بزمامها ولم يبق معه عليه الصلاة والسلام من الناس إلا قليل أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب لأنا لا نسلم أنه شعر فقد عرفوه بأنه الكلام المقفى الموزون على سبيل القصد وهذا مما اتفق له عليه الصلاة والسلام من غير قصد لوزنه ومثله يقع كثيراً في الكلام المنثور ولا يسمى شعراً ولا قائله شاعراً ، ولا يتوهم من انتسابه صلى الله عليه وسلم فيه إلى جده دون أبيه دليل القصد لأن النسبة إلى الجد شائعة ولأنه هو الذي قام بتربيته حيث توفى أبوه عليه الصلاة والسلام وهو حمل فحين ولقد قام بأمره فوق ما يقوم الوالد بأمر الولد ولأنه كان مشهوراً بينهم بالصدق والشرف والعزة فلذا خصه بالذكر ليكون كالدليل على ما قبل أو كمانع آخر من الانهزام ولأن كثيراً من الناس كانوا يدعونه عليه الصلاة والسلام بابن عبد المطلب .

ومنه حديث ضمام بن ثعلبة أيكم ابن عبد المطلب على أن منهم من لم يعد الرجز مطلقاً وأصله ما كان على مستفعلن ست مرات شعراً ولذا يسمى قائله راجزاً لا شاعراً ، وعن الخليل أن المشطور منه وهو ما حذف نصفه فبقي وزنه مستفعلن ثلاث مرات ؛ والمنهوك وهو ما حذف ثلثاه فبقي وزنه مستفعلن مرتين ليسا بشعر ، وفي رواية أخرى عنه أن المجزو وهو ما حذف من كل مصراع منه جزء فبقي وزنه مستفعلن أربع مرات كذلك فقوله صلى الله عليه وسلم أنا النبي لا كذب إن كان نصف بيت فهو مجزو فليس بشعر على هذه الرواية

وأن فرض أن هناك قصداً وإن كان بيتاً تاماً فهو فليس منهوك بشعر أيضاً على الرواية الأولى وكونه ليس بشعر على قول من لا يرى الرجز مطلقاً شعراً ظاهر .

(161/648)

---

وجاء في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام حرك الباء من كذب والمطلب فلا يكون ذلك موزوناً فكونه ليس بشعر أظهر وأظهر ، والقول بأن ضمير ﴿ لَهُ ﴾ للقرآن المعلوم من السياق أي وما يصح للقرآن أن يكون شعراً فيجوز صدور الشعر عنه صلى الله عليه وسلم ولا يحتاج إلى توجيه ليس بشيء فإنه يكفي في نفي الشعر عنه عليه الصلاة والسلام قوله سبحانه : ﴿ وَمَا علمناه الشعر ﴾ مكع أن الظاهر عود الضمير عليه عليه الصلاة والسلام ، وأولى التوجيهات إخراج ذلك من الشعر بانتفاء القصد وبذلك يخرج ما وقع في القرآن من نظائره منه ، وقد ذكرنا لك فيما مر كثيراً منها ، وليس في الآية ما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينبغي له التكلم بشعر قاله بعض الشعراء والتمثل به ، وفي الأخبار ما يدل على وقوع التكلم بالبيت متزناً نادراً كما روي أنه عليه الصلاة والسلام أنشد بيت ابن رواحة :

يبيت يجافي جنبه عن فراشه . . .

إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وإنشاده إياه كذلك مذكور في البحر" ، وروي أنه صلى الله عليه وسلم أصاب أصبعه الشريفة حجر في بعض غزواته فدميت فتمثل بقول الوليد بن المغيرة : على ما قاله ابن هشام في السيرة أو ابن رواحة على ما صححه ابن الجوزي :

ما أنت إلا أصبع دميت . . .

وفي سبيل الله ما لقيت

وقيل : هو له عليه الصلاة والسلام والكلام فيه كالكلام في قوله صلى الله عليه وسلم أنا النبي الخ إلا أن هذا يحتمل أن يكون مشطوراً إذا كان كل من شطريه بيتاً وعلى وقوع التكلم بالبيت غير متزن مع إحراز المعنى كثيراً كما روي أنه عليه الصلاة والسلام أنشد :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا . . .

ويأتيك من لم تزود بالأخبار

فقال أبو بكر .

رضي الله تعالى عنه ليس هكذا يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : "إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي" وفي خبر أخرجه أحمد .

وابن أبي شيبة عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استراث الخبر تمثل ببيت طرفة ويأتيك من لم تزود بالأخبار .

وأخرج ابن سعد .

وابن أبي حاتم عن الحسن أنه صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بهذا البيت

: كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا . . .

فقال أبو بكر : أشهد أنك رسول الله ما علمك الشعر وما ينبغي لك ، وأخرج ابن سعيد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للعباس بن مرداس : أرأيت قولك :

أتجعل نهبي ونهب العبي . . .

د بين الأقرع وعيينة

فقال له أبو بكر : رضي الله تعالى عنه بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما أنت بشاعر ولا رواية ولا ينبغي لك إنما قال بين عيينة والأقرع ، وروي أنه قيل له عليه الصلاة والسلام : من أشعر الناس ؟ فقال : الذي يقول :

ألم ترياني كلما جئت طارقا . . .

وجدت بها وإن لم تطيب طيباً

وأخرج البيهقي في سننه بسند فيه مجهول عن عائشة قالت ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت شعر قط إلا بيتاً واحداً :

تفاءل بما تهوى يكن فلقلما . . .

يقال لشيء كان إلا تحقق

قالت عائشة ولم يقل تحققاً لئلا يعربه فيصير شعراً ، ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع هذا لم يكن يحب الشعر ففي مسند أحمد بن حنبل عن عائشة قالت : كان أبغض الحديث إليه صلى الله عليه وسلم الشعر ، وفي "الصحيحين" وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً " وهذا ظاهر في ذم الإكثار منه ، وما روي عن الخليل أنه قال كان الشعر أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام مناف لما سمعت عن المسند ، ولعل الجمع بالتفصيل بين شعر وشعر ، وقد تقدم الكلام في الشعر مفصلاً في سورة الشعراء فتذكر .



---

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما القرآن ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ ﴾ أي عظة من الله عز وجل وإرشاد للثقلين كما قال سبحانه : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ للعالمين ﴾ [ يوسف : 104 ] ﴿ الرَتْلكَ ﴾ أي كتاب

سماوي ظاهر أنه ليس من كلام البشر لما فيه من الإعجاز الذي ألقم من تصدى للمعارضة الحجر.

﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ أي القرآن أو الرسول عليه الصلاة والسلام، ويؤيده قراءة نافع.

وابن عارم ﴿ لِّتُنذِرَ ﴾ بتاء الخطاب.

وقرأ اليماني ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ مبنياً للمفعول ونقلها ابن خالويه عن الجحدري وقال: عن أبي السمال.

واليماني أنهما قرءا ﴿ ليذنر ﴾ بفتح الياء والذال مضارع نذر بالشيء بكسر الذال إذا علم به.

﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ أي عاقلاً كما أخرج ذلك ابن جرير.

والبيهقي في شعب الإيمان عن الضحاك، وفيه استعارة مصرحة بتشبيه العقل بالحياة أو مؤمناً بقرينة مقابلته بالكافرين، وفيه أيضاً استعارة مصرحة لتشبيه الإيمان بالحياة، ويجوز كونه مجازاً مرسلاً لأنه سبب للحياة الحقيقية الأبدية، والمضي في ﴿ كَانَ ﴾ باعتبار ما في علمه عز وجل لتحققه، وقيل كان بمعنى يكون، وقيل في الكلام مجاز المشارفة ونزلت منزلة المضي وهو كما ترى، وتخصيص الإنذار به لأنه المنتفع بذلك ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ ﴾ أي تجب كلمة العذاب ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ الموسومين بهذا الوسم المصرين على الكفر، وفي إيرادهم بمقابلة من كان حياً إشعار بأنهم لخلوهم عن آثار الحياة وأحكامها كالمعرفة أموات

في الحقيقة ، وجوز أن يكون في الكلام استعارة مكنية قرينتها استعارة أخرى .

وكأنه جيء بقوله سبحانه : ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ الخ رجوعاً إلى ما بدئ به السورة من قوله عز وجل : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ ءابَاؤُهُمْ ﴾ [ يس : 6 ] ولو نظرت إلى هذا التخلص من حديث المعاد إلى حديث القرآن والإنذار لقضيت العجب من حسن موقعه .

(164/648)

---

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ الهمزة للإنكار والتعجيب والواو للعطف على جملة منفية مقدرة مستتبعة للمعطوف أي ألم يتفكروا أو ألم يلاحظوا أو ألم يعلموا علماً يقينياً مشابهاً للمعاينة زعم بعضهم أن هذا عطف على قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ [ يس : 31 ] الخ والأول للحث على التوحيد بالتحذير من النقم وهذا بالتذكير بالنعم المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم ﴾ أي لأجلهم وانتفاعهم ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ أي مما تولينا إحداثه بالذات من غير مدخل لغيرنا فيه لا خلقاً ولا كسباً .

والكلام استعارة تمثيلية فيما ذكر ، وجوز أن يكون قد كني عن الإيجاد بعمل الأيدي فيمن له ذلك ثم بعد الشيوع أريد به ما أريد مجازاً متفرعاً على الكناية ، وقال بعضهم : المراد بالعمل الإحداث وبالأيدي القدرة مجازاً ، وأوثرت صيغة التعظيم والأيدي مجموعة تعظيماً لشأن

الأثر وإنه أمر عجيب وصنع غريب وليس بذاك، وقيل الأيدي مجاز عن الملائكة المأمورين بمباشرة الأعمال حسبما يريده عز وجل في عامل الكون والفساد كملائكة التصوير وملائكة نفخ الأرواح في الأبدان بعد إكمال تصويرها ونحوهم، ولا يخفى ما فيه.

ونحوه ما قيل الأيدي مجاز عن الأسماء فإن كل أثر في العالم بواسطة اسم خاص من أسمائه عز وجل.

(165/648)

---

وأنت تعلم أن الآية من المتشابه عند السلف وهم لا يجعلون اليد مضافة إليه تعالى بمعنى القدرة أفردت ك ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ [ الفتح : 10 ] أو ثنيت ك ﴿ خلقت بيدي ﴾ [ ص : 75 ] أو جمعت كما هنا بل يثبتون اليد له عز وجل كما أثبتها لنفسه مع التنزيه الناطق به قوله سبحانه : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ [ الشورى : 11 ] وارتضاه كثير ممن وفقه الله تعالى من الخلق، ولا أرى الطاعنين عليهم إلا جهلة ﴿ أنعاما ﴾ مفعول ﴿ خَلَقۡنَا ﴾ وأخر عن الجارين المتعلقين به اعتناء بالمقدم وتشويقاً إلى المؤخر وجمعاً بينه وبين ما يتعلق به من أحكامه المتفرعة عليه، والمراد بالأنعام الأزواج الثمانية وخصها بالذكر لما فيها من بدائع القطرة وكثرة المنافع، وهذا كقوله تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف

خلقت ﴾ [ الغاشية : 17 ] ﴿ فَهُمْ لَهَا مالكون ﴾ أي متملكون لها بتمليكنا إياها لهم ، والفاء قيل للتفريع على مقدر أي خلقنا لهم أنعاماً وملكناها لهم فهم بسبب ذلك مالكون لها ، وقيل للتفريع على خلقها لهم وفيه خفاء .

وجوز أن يكون الملك بمعنى القدرة والقهر من ملكت العجيب إذا أجدت عجنه ، ومنه قول الربيع بن منيع الفزاري وقد سئل عن حاله بعد إذ كبر

: أصبحت لا أحمل السلاح ولا . . .

أملك رأس البعير إن نفرا

والأول أظهر ليكون ما بعد تأسيساً لا تأكيداً ، وأياً ما كان فلها متعلق بمالكون واللام مقوية للعمل وقدم لرعاية الفواصل مع الاهتمام ، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على استقرار مالكيتهم لها واستمرارها .

﴿ وذللناها لَهُمْ ﴾ أي وصيرناها سهلة غير مستعصية عليهم في شيء مما يريدون بها حتى الذبح حسبما ينطق به قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ فإن الفاء فيه لتفريع أحكام التذليل عليه وتفصيلها أي فبعض منها مركوبهم فركوب فعول بمعنى مفعول كحصور وحلوب وقزوع وهو مما لا ينقاس .

وقرأ أبي .

وعائشة ﴿ ركوبتهم ﴾ بالتاء وهي فعولة بمعنى مفعولة كحلوبة ، وقيل جمع ركوب ، وتعقب بأنه لم يسمع فعولة بفتح الفاء في الجموع ولا في أسمائها .

وقرأ الحسن .

والأعمش .

وأبو البرهسم ﴿ فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ ﴾ بضم الراء وبغير تاء وهو مصدر كالقعود والدخول فإما أن يؤول بالمفعول أو يقدر مضاف في الكلام إما في جانب المسند إليه أي ذو ركوبهم أو في جانب المسند أي فمن منافعها ركوبهم ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أي وبعض منها يأكلون لحمه ، والتبعيض هنا باعتبار الأجزاء وفيما قيل باعتبار الجزئيات والجملة معطوفة على ما قبلها ، وغير الأسلوب لأن الأكل عام في الأنعام جميعها وكثير مستمر بخلاف الركوب كذا قيل ، وقيل الفعل موضوع موضع المصدر وهو بمعنى المفعول للفاصلة .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا ﴾ أي في الأنعام بكلا قسميها ﴿ منافع ﴾ جمع مشرب مصدر بمعنى المفعول والمراد به اللبن ، وخص مع دخوله في المنافع لشرفه واعتناء العرب به ، وجمع باعتبار أصنافه ولا ريب في تعددها ، وتعميم المشارب للزبد والسمن والجبن والأقط لا يصح إلا بالتغليب أو التجوز لأنها غير مشروبة ولا حاجة إليه مع دخولها في المنافع ، وجوز أن تكون المشارب جمع مشرب موضع الشرب .

قال الإمام : وهو الآنية فإن من الجلود يتخذ أواني الشرب من القرب ونحوها ، وقال الخفاجي : إذا كان موضعاً فالمشارب هي نفسها لقوله سبحانه : ﴿ فِيهَا ﴾ فإنها مقرة ، ولعله أظهر من قول الإمام ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ أي يشاهدون هذه النعم فلا يشكرون المنعم بها ويخصونه سبحانه بالعبادة .

﴿ واتخذوا مِن دُونِ الله ﴾ أي متجاوزين الله تعالى الذي رأوا منه تلك القدرة الباهرة والنعم الظاهرة وعلموا أنه سبحانه المتفرد بها ﴿ ءالِهَةً ﴾ من الأصنام وأشركوها به عز وجل في العبادة ﴿ لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ رجاء أن ينصروا أو لأجل أن ينصروا من جهتهم فيما نزل بهم وأصابهم من الشدائد أو يشفعوا لهم في الآخرة

*(167/648)*

---

﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ الخ

استئناف سيق لبيان بطلان رأيهم وخيبة رجائهم وانعكاس تديرهم أي لا تقدر آلهتهم على نصرهم ، وقول ابن عطية ، يحتمل أن يكون ضمير ﴿ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ للمشركين وضمير ﴿ نَصرَهُمْ ﴾ للأصنام ليس بشيء أصلاً ﴿ وَهُمْ ﴾ أي أولئك المتخذون المشركون ﴿ لَهُمْ ﴾ أي لآلهتهم ﴿ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ أي معدون لحفظهم والذب عنهم

في الدنيا .

أخرجه ابن أبي حاتم .

وابن المنذر .

عن الحسن .

وقتادة ، وقيل : المعنى أن المشركين جند لآلهتهم في الدنيا محضرون للنار في الآخرة ، وجاء بذلك في رواية أخرجها ابن أبي حاتم عن الحسن ، واختار بعض الأجلة أن المعنى والمشركون لآلهتهم جند محضرون يوم القيامة أثرهم في النار وجعلهم جنداً من باب التهكم والاستهزاء .

وكذلك لام لهم الدالة على النفع ، وقيل ﴿ هُمْ ﴾ للآلهة وضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ للمشركين أي وإن الآلهة معدون محضرون لعذاب أولئك المشركين يوم القيامة لأنهم يجعلون وقود النار أو محضرون عند حساب الكفرة إظهاراً لعجزهم وإقناطاً للمشركين عن شفاعتهم وجعلهم جنداً ، والتعبير باللام في الوجهين على ما مر آنفاً ، واختلاف مراجع الضمائر في الآية ليس من التفكيك المحظور ، والواو في قوله سبحانه : ﴿ وَهُمْ ﴾ الخ على جميع ما مر إما عاطفة أو حالية إلا أن الحال مقدرة في بعض الأوجه كما لا يخفى .

والفاء في قوله تعالى :

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ فصيحة أي إذا كان هذا حالهم مع ربهم عز وجل فلا تحزن بسبب قولهم عليك هو شاعر أو إذا كان حالهم يوم القيامة ما سمعت فلا تحزن بسبب قولهم على الله سبحانه إن له شركاء تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً أو عليك هو شاعر أو على الله تعالى وعليك ما لا يليق بشأنه عز وجل وشأنك ، والاقتصار في بيان قولهم عليه صلى الله عليه وسلم بأنه وحاشاه شاعر لأنه الأوفق بما تقدم من قوله تعالى : ﴿ وَمَا علمناه الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ [ يس : 69 ] وقد يعمم فيشمل جميع ما لا يليق بشأنه عليه الصلاة والسلام من الأقوال ، وتفسير الشرط الذي أفصحت عنه الفاء بما ذكرنا أولاً هو المناسب لما روي عن الحسن .

وقتادة .

في معنى قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [ يس : 75 ] وبما ذكرنا ثانياً هو المناسب لما ذكر بعد في معنى ذلك ، وقيل التقدير على الأول إذا كانوا في هذه المرتبة من سخافة العقول حيث اتخذوا رجاء النصر آلهة من دون الله عز وجل لا يقدرون على نصرهم والذب عنهم بل هم يذبون عن تلك الآلهة فلا تحزن بسبب قولهم عليك ما قالوا ولعل الأول أولى ، وأياً ما كان فالنهي وإن كان بحسب الظاهر متوجهاً إلى قولهم لكنه في الحقيقة كما أشرنا إليه متوجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد نهيه عليه الصلاة

والسلام عن التأثر من الحزن بطريق الكناية على أبلغ وجه وأكده كما لا يخفى .

وقرأ نافع ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ ﴾ بضم الياء وكسر الزاي من أحزن المنقول من حزن اللازم وجاء حزنه وأحزنه .

(169/648)

---

﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ تعليل صريح للنهي بطريق الاستئناف بعد تعليلة بطريق الإشعار بناءً على التقدير الثاني في الشرط فإنّ العلم بما ذكر مجاز عن مجازاتهم عليه أو كناية عنها للزومها إياه إذ علم الملك القادر الحكيم بما جرى من عدوه الذي تقتضي الحكمة الانتقام منه مقتض لمجازاته والانتقام منه ، وهو على التقدير الأول قيل استئناف بياني وقع جواب سؤال مقدر كأنه قيل : يا رب فإذا كان حالهم معك ومع نبيك ذلك فماذا تصنع بهم ؟ فقيل : ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ ﴾ الخ أي نجازيهم بجميع جناياتهم ، وقيل هو تعليل لترتيب النهي على الشرط فتأمل ، وما موصلة والعائد محذوف أي نعلم الذي يسرونه من العقائد الزائغة والعداوة لك ونحو ذلك والذي يعلنونه من كلمات الإشراك والتكذيب ونحوها ، وجوز أن تكون مصدرية أي نعلم إسرارهم وإعلانهم والمفعول محذوف أو الفعلان منزلان منزلة اللازم والمتبادر الأول وهو الأولى .

وتقديم السر على العلن لبيان إحاطة علمه سبحانه بحيث أن علم السر عنده تعالى كأنه أقدم من علم العلن ، وقيل : لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شيء يعلن إلا وهو أو مباديه مضمر في القلب قبل ذلك فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقة ، وقيل : للإشارة إلى الاهتمام بإصلاح الباطن فإنه ملاك الأمر ولأنه محل الاشتباه المحتاج للبيان ، وشاع أن الوقف على ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ متعين ، وقيل : ليس به لأنه جوز في ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ ﴾ الخ كونه مقول القول على أن ذلك من باب الإلهاب والتعريض كقوله تعالى :

(170/648)

---

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ [ الأنعام : 14 ] أو على أن المراد فلا يحزنك قولهم على سبيل السخرية والاستهزاء إنا نعلم الخ ، ومنه يعلم أنه لو قرأ قارىء أنا نعلم بالفتح وجعل ذلك بدلاً من ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ لا تنتقض صلاته ولا يكفر لو اعتقد ما يعطيه من المعنى كما لو جعله تعليلاً على حذف حرف التعليل ، والحق أن مثل هذا التوجيه لا بأس بقبوله في درء الكفر ، وأما أمر الوقف فالذي ينبغي أن يقال فيه أنه على قولهم كالمتعين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55) ﴾

لما ذكر الله سبحانه حال الكافرين أتبعه بحكاية حال عباده الصالحين.

وجعله من جملة ما يقال للكفار يومئذٍ زيادة لحسرتهم ، وتكميلاً لجزعهم ، وتتميماً لما نزل بهم من البلاء ، وما شاهدوه من الشقاء ، فإذا رأوا ما أعدّه الله لهم من أنواع العذاب ، وما أعدّه لأوليائه من أنواع النعيم ، بلغ ذلك من قلوبهم مبلغاً عظيماً ، وزاد في ضيق صدورهم زيادة لا يقادر قدرها .

والمعنى : ﴿ إِنَّ أصحاب الجنة ﴾ في ذلك ﴿ اليوم فِى شُغُلٍ ﴾ بما هم فيه من اللذات ، التي هي ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، عن الاهتمام بأمر الكفار ، ومصيرهم إلى النار ، وإن كانوا من قراباتهم .

والأولى عدم تخصيص الشغل بشيء معين .

وقال قتادة ، ومجاهد : شغلهم ذلك اليوم بافتضاض العذارى .

وقال وكيع : شغلهم بالسماع .

وقال ابن كيسان : بزيارة بعضهم بعضاً ، وقيل : شغلهم كونهم ذلك اليوم في ضيافة الله .

قرأ الكوفيون وابن عامر : ﴿ شغل ﴾ بضمتين .

وقرأ الباقون بضم الشين ، وسكون الغين : وهما لغتان كما قال الفراء .

وقرأ مجاهد ، وأبو السماك بفتحتين .

وقرأ النحوي ، وابن هبيرة بفتح الشين ، وسكون الغين .

وقرأ الجمهور ﴿ فاكهون ﴾ بالرفع على أنه خبر إنّ ، و ﴿ في شغل ﴾ متعلق به ، أو في محل نصب على الحال ، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر إنّ ، و ﴿ فاكهون ﴾ خبر ثانٍ .

وقرأ الأعمش ، وطلحة بن مصرف " فاكهين " بالنصب على أنه حال ، و ﴿ في شغل ﴾ هو : الخبر .

وقرأ الحسن ، وأبو جعفر ، وأبو حيوة ، وأبو رجاء ، وشيبة ، وقتادة ، ومجاهد " فكهون " قال الفراء : هما لغتان كالفاره ، والفره ، والحاذر ، والحذر .

وقال الكسائي ، وأبو عبيدة الفاكه : ذو الفاكهة مثل تامر ولابن ، والفكه : المتفكه ، والمتنعم .

وقال قتادة : الفكهون : المعجبون .

وقال أبو زيد : يقال رجل فكه : إذا كان طيب النفس ضحوكاً .

وقال مجاهد والضحاك كما قال قتادة .

وقال السدّي كما قال الكسائي .

﴿ هُمْ وأزواجهم فِى ظلال عَلَى الأرائك مُتَّكِئُونَ ﴾ هذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية شغلهم ، وتفكههم ، وتكميلها بما يزيدهم سروراً ، وبهجة من كون أزواجهم معهم على هذه الصفة من الاتكاء على الأرائك ، فالضمير ، وهو : ﴿ هم ﴾ مبتدأ ، ﴿ وأزواجهم ﴾ معطوف عليه ، والخبر ﴿ متكئون ﴾ ، ويجوز أن يكون هم تأكيداً للضمير في ﴿ فاكهون ﴾ ، وأزواجهم معطوف على ذلك الضمير ، وارتفاع متكئون على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، و ﴿ في ظلال ﴾ متعلق به أو حال ، وكذا على الأرائك ، وجوّز ، أبو البقاء : أن يكون ﴿ فِى ظلال ﴾ هو : الخبر ، و ﴿ على الأرائك ﴾ مستأنف .

قرأ الجمهور : ﴿ في ظلال ﴾ بكسر الظاء ، وبالألف ، وهو : جمع ظلّ .

وقرأ ابن مسعود ، وعبيد بن عمير ، والأعمش ، ويحيى بن وثاب ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف " في ظلل " بضم الظاء من غير ألف جمع ظلة ، وعلى القراءتين ، فالمراد : الفرش ، والستور التي تظللهم كالخيام ، والحجال ، والأرائك جمع أريكة ، كسفائن جمع سفينة ، والمراد بها : السرر التي في الحجال .

قال أحمد بن يحيى ثعلب : الأريكة لا يكون إلا سريراً في قبة .

وقال مقاتل : إن المراد بالظلال أكنان القصور .

وجملة ﴿ لَهُمْ فِيهَا فاكهة ﴾ مبينة لما يتمعون به في الجنة من المآكل ، والمشارب ، ونحوها .

والمراد فاكهة كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ " ما " هذه هي : الموصولة ، والعائد محذوف ، أو موصوفة ، أو مصدرية ، و ﴿ يدّعون ﴾ مضارع ادّعى .

قال أبو عبيدة : يدّعون : يتمنون ، والعرب تقول : ادّع عليّ ما شئت : أي تمنّ ، وفلان في خير ما يدّعي أي : ما يتمنى .

(173/648)

---

وقال الزجاج : هو من الدعاء ، أي : ما يدعونه أهل الجنة يأتيهم ، من دعوت غلامي ، فيكون الافتعال بمعنى : الفعل كالاحتمال بمعنى : الحمل ، والارتحال بمعنى : الرحل .

وقيل : افتعل بمعنى : تفاعل ، أي : ما يتداعونه كقولهم : ارتموا ، وتراموا .

وقيل : المعنى : إن من ادّعى منهم شيئاً ، فهو له ، لأن الله قد طبعهم على أن لا يدّعي أحد منهم شيئاً إلاّ وهو يحسن ويجمل به أن يدّعيه ، " وما " مبتدأ ، وخبرها ﴿ لهم ﴾ ،

والجملة معطوفة على ما قبلها .

وقرئ "يدعون" بالتخفيف ، ومعناها واضح .

قال ابن الأنباري : والوقف على يدّعون وقف حسن ، ثم يبتدئ ﴿ سلام ﴾ على معنى : لهم سلام ، وقيل : إن سلام هو خبر "ما" أي : مسلم خالص ، أو ذو سلامة .

وقال الزجاج : سلام مرفوع على البدل من "ما" أي : ولهم أن يسلم الله عليهم ، وهذا مني أهل الجنة ، والأولى أن يحمل قوله : ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ على العموم ، وهذا السلام يدخل تحته دخولاً أوّلياً ، ولا وجه لقصره على نوع خاص ، وإن كان أشرف أنواعه تحقيقاً لمعنى العموم ، ورعاية لما يقتضيه النظم القرآني .

وقيل : إن سلام مرتفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أي : سلام يقال لهم ﴿ قَوْلاً ﴾ ، وقيل : إن سلام مبتدأ ، وخبره الناصب ل ﴿ قولا ﴾ : أي سلام يقال لهم قولاً ، وقيل : خبره من ربّ العالمين ، وقيل : التقدير : سلام عليكم هذا على قراءة الجمهور ، وقرأ أبيّ ، وابن مسعود ، وعيسى "سلاماً" بالنصب إما على المصدرية ، أو على الحالية بمعنى : خالصاً ، والسلام : إما من التحية ، أو من السلامة .

وقرأ محمد بن كعب القرظي "سلم" كأنه قال : سلم لهم لا يتنازعون فيه ، وانتصاب ﴿ قولاً ﴾ على المصدرية بفعل محذوف على معنى : قال الله لهم ذلك قولاً ، أو يقوله لهم قولاً

، أو يقال لهم قولاً : ﴿ مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ أي : من جهته .

قيل : يرسل الله سحابة إليهم بالسلام .



---

وقال مقاتل : إن الملائكة تدخل على أهل الجنة من كل باب يقولون : سلام عليكم يا أهل الجنة من ربّ رحيم .

﴿ وامتازوا اليوم أَيُّهَا المجرمون ﴾ هو على إضمار القول مقابل ما قيل للمؤمنين أي : ويقال للمجرمين : امتازوا أي : انعزلوا ، من مازه غيره ، يقال : مزت الشيء من الشيء : إذا عزلته عنه ، ونحيته .

قال مقاتل : معناه اعتزلوا اليوم – يعني : في الآخرة – من الصالحين .

وقال السدّي : كونوا على حدة .

وقال الزجاج : انفردوا عن المؤمنين .

وقال قتادة : عزلوا عن كل خير .

وقال الضحاك : يمتاز المجرمون بعضهم من بعض ، فيمتاز اليهود فرقة ، والنصارى فرقة ، والمجوس فرقة ، والصابئون فرقة ، وعبدة الأوثان فرقة .

وقال داود بن الجراح : يمتاز المسلمون من المجرمين إلا أصحاب الأهواء ، فإنهم يكونون مع المجرمين .

ثم وبخهم الله سبحانه ، وقرعهم بقوله : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبَنِى آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ الشيطان ﴾ ، وهذا من جملة ما يقال لهم .

والعهد : الوصية ، أي : ألم أوصكم ، وأبلغكم على ألسن رسلي : أن لا تعبدوا الشيطان أي : لا تطيعوه .

قال الزجاج : المعنى : ألم أتقدّم إليكم على لسان الرسل يا بني آدم .

وقال مقاتل : يعني : الذين أمروا بالاعتزال .

قال الكسائي : لا للنهي ، وقيل : المراد بالعهد هنا : الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهر آدم .



---

وقيل : هو ما نصبه الله لهم من الدلائل العقلية التي في سماواته ، وأرضه ، وجملة ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ تعليل لما قبلها من النهي عن طاعة الشيطان ، وقبول وسوسته ، وجملة ﴿ وَأَنِ اعبدونى ﴾ عطف على ﴿ أن لا تعبدوا ﴾ ، وأن : في الموضعين هي المفسرة للعهد

الذي فيه معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية فيهما أي: لم أعهد إليكم بأن لا تعبدوا بأن اعبدوني، أو ألم أعهد إليكم في ترك عبادة الشيطان، وفي عبادتي ﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي: عبادة الله، وتوحيده، أو الإشارة إلى دين الإسلام.

ثم ذكر سبحانه عداوة الشيطان لبني آدم، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جبلاًّ كَثِيراً ﴾ اللام هي: الموطئة للقسم، والجملة مستأنفة للتقريع والتوبيخ، أي: والله لقد أضلّ إلخ.

قرأ نافع، وعاصم ﴿ جبلاً ﴾ بكسر الجيم، والباء، وتشديد اللام، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر بضم الجيم، وسكون الباء، وقرأ الباقون بضمتين مع تخفيف اللام، وقرأ ابن أبي إسحاق، والزهري، وابن هرمز بضمتين مع تشديد اللام، وكذلك قرأ الحسن، وعيسى بن عمر، والنضر بن أنس، وقرأ أبو يحيى، وحماد بن سلمة، والأشهب العقيلي بكسر الجيم، وإسكان الباء، وتخفيف اللام قال النحاس: وأبينها القراءة الأولى.

والدليل على ذلك أنهم قد قرءوا جميعاً ﴿ والجبلة الأوّلين ﴾ [ الشعراء: 184 ] بكسر الجيم، والباء، وتشديد اللام.

فيكون جبلاً جمع جبلة، واشتقاق الكل من جبل الله الخلق أي: خلقهم، ومعنى الآية: أن الشيطان قد أغوى خلقاً كثيراً كما قال مجاهد.

وقال قتادة: جموعاً كثيرة، وقال الكلبي: أمماً كثيرة.

قال الثعلبي: والقراءات كلها بمعنى: الخلق، وقرىء "جيلاً" بالجيم، والياء التحتية.

قال الضحاك : الجيل الواحد عشرة آلاف ، والكثير ما يحصيه إلا الله عزّ وجلّ ، ورويت هذه القراءة عن عليّ بن أبي طالب ، والهمزة في قوله : ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ للتقريع ، والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدّر يقتضيه المقام كما تقدّم في نظائره أي : أتشاهدون آثار العقوبات ؟ أفلم تكونوا تعقلون ؟ أو أفلم تكونوا تعقلون عداوة الشيطان لكم ؟ أو أفلم تكونوا تعقلون شيئاً أصلاً ؟ قرأ الجمهور : ﴿ أفلم تكونوا تعقلون ﴾ بالخطاب ، وقرأ طلحة ، وعيسى بالغيبة .

﴿ هذه جَهَنَّمُ التى كُنتُمْ توعَدُونَ ﴾ أي : ويقال لهم عند أن يدنوا من النار : هذه جهنم التي كنتم توعدون بها في الدنيا على ألسنة الرسل ، والقائل لهم الملائكة ، ثم يقولون لهم : ﴿ اصلوها اليوم بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : قاسوا حرّها اليوم ، وادخلوها ، وذوقوا أنواع العذاب فيها بما كنتم تكفرون أي : بسبب كفركم بالله في الدنيا ، وطاعتكم للشيطان ، وعبادتكم للأوثان ، وهذا الأمر أمر تنكيل ، وإهانة كقوله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [ الدخان : 49 ] ﴿ اليوم نَخْتِمُ على أفواههم ﴾ اليوم ظرف لما بعده ، وقرىء " يختم " على البناء للمفعول ، والنائب الجار والمجرور بعده .

قال المفسرون : إنهم ينكرون الشرك ، وتكذيب الرسل كما في قولهم : ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [ الأنعام : 23 ] ، فيختم الله على أفواههم ختماً لا يقدرون معه على الكلام ، وفي هذا التفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأن أفعالهم القبيحة مستدعية للإعراض عن خطابهم ، ثم قال : ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي : تكلمت أيديهم بما كانوا يفعلونه ، وشهدت أرجلهم عليهم بما كانوا يعملون .

قرأ الجمهور ﴿ تكلمنا ﴾ و ﴿ تشهد ﴾ ، وقرأ طلحة بن مصرف " ولتكلمنا " و " لتشهد " بلام كي .

وقيل : سبب الختم على أفواههم ليعرفهم أهل الموقف .

*(177/648)*

---

وقيل : ختم على أفواههم لأجل أن يكون الإقرار من جوارحهم ؛ لأن شهادة غير الناطق أبلغ في الحجة من شهادة الناطق لخروجه مخرج الإعجاز .

وقيل : ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعواناً لهم في معاصي الله صارت شهوداً عليهم ، وجعل ما تنطق به الأيدي كلاماً ، وإقراراً ؛ لأنها كانت المباشرة لغالب المعاصي ، وجعل نطق الأرجل شهادة ؛ لأنها حاضرة عند كل معصية ، وكلام الفاعل إقرار ، وكلام الحاضر

شهادة ، وهذا اعتبار بالغالب ، وإلا فالأرجل قد تكون مباشرة للمعصية كما تكون الأيدي مباشرة لها .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا على أَعْيُنِهِمْ ﴾ أي : أذهبنا أعينهم ، وجعلناها بحيث لا يبدو لها شقّ ، ولا جفن .

قال الكسائي : طمس يطمس ، ويطمس ، والمطموس ، والطميس عند أهل اللغة الذي ليس في عينيه شقّ كما في قوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأبصارهم ﴾ [ البقرة : 20 ] .

ومفعول المشيئة محذوف أي : لو نشاء أن نطمس على أعينهم لطمسنا .

قال السدّي ، والحسن : المعنى : لتركناهم عمياً يتردّدون لا يبصرون طريق الهدى ، واختار هذا ابن جرير ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ معطوف على ﴿ لطمسنا ﴾ أي : تبادروا إلى الطريق ليجوزوه ، ويمضوا فيه ، والصراط منصوب بنزع الخافض أي : فاستبقوا إليه ، وقال عطاء ، ومقاتل ، وقتادة : المعنى : لو نشاء لفقأنا أعينهم ، وأعميناهم عن غيهم ، وحوّلنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى ، فأبصروا رشدهم ، واهتدوا ، وتبادروا إلى طريق الآخرة ، ومعنى ﴿ فأنى يُبْصِرُونَ ﴾ أي : كيف يبصرون الطريق ، ويحسنون سلوكه ، ولا أبصار لهم .

وقرأ عيسى بن عمر " فاستبقوا " على صيغة الأمر ، أي : فيقال لهم : استبقوا ، وفي هذا

تهديد لهم .

ثم كرّر التهديد لهم ، فقال : ﴿ وَلَوْ نَشَاء لمسخناهم على مكانتهم ﴾ المسخ : تبديل الخلقة إلى حجر ، أو غيره من الجماد ، أو بهيمة ، والمكانة : المكان ، أي : لو شئنا لبدّلنا خلقهم على المكان الذي هم فيه .

(178/648)

---

قيل : والمكانة أخص من المكان كالمقامة ، والمقام .

قال الحسن : أي : لأقعدناهم ﴿ فَمَا استطاعوا مُضِيّاً وَلاَ يَرْجِعُونَ ﴾ أي : لا يقدرون على ذهاب ، ولا مجيء .

قال الحسن : فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ؛ ولا يرجعوا وراءهم ، وكذلك الجماد لا يتقدّم ، ولا يتأخر .

وقيل : المعنى لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم ، وقيل : لمسخناهم في المكان الذي فعلوا فيه المعصية .

وقال يحيى بن سلام : هذا كله يوم القيامة .

قرأ الجمهور ﴿ على مكانتهم ﴾ بالإفراد .

وقرأ الحسن ، والسلمي ، وزرّ بن حبيش ، وأبو بكر عن عاصم " مكاناتهم " بالجمع .

وقرأ الجمهور ﴿ مضياً ﴾ بضم الميم ، وقرأ أبو حيوة " مضياً " بفتحها ، وروي عنه : أنه قرأ بكسرها ، ورويت هذه القراءة عن الكسائي .

قيل : والمعنى : ولا يستطيعون رجوعاً ، فوضع الفعل موضع المصدر لمراعاة الفاصلة ، يقال : مضى يمضي مضياً : إذا ذهب في الأرض ، ورجع يرجع رجوعاً : إذا عاد من حيث جاء .

﴿ وَمَن نّعَمّرْهُ نُنَكّسْهُ فِى الخلق ﴾ قرأ الجمهور ﴿ ننكسه ﴾ بفتح النون الأولى ، وسكون الثانية ، وضم الكاف مخففة .

وقرأ عاصم ، وحمزة بضم النون الأولى ، وفتح الثانية ، وكسر الكاف مشدّدة .

والمعنى : من نطل عمره نغير خلقه ، ونجعله على عكس ما كان عليه أوّلاً من القوّة والطراوة .

قال الزجاج : المعنى : من أطلنا عمره نكسنا خلقه ، فصار بدل القوّة الضعف ، وبدل الشباب الهرم ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العمر لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ [ الحج : 5 ] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين ﴾ [ التين : 5 ] ، ومعنى ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ : أفلا تعلمون بعقولكم أن من قدر على ذلك قدر على البعث ، والنشور .

قرأ الجمهور : "يعقلون" بالتحتية.

وقرأ نافع، وابن ذكوان بالفوقية على الخطاب.

(179/648)

---

ولما قال كفار مكة : إن القرآن شعر، وإن محمداً شاعر، ردّ الله عليهم بقوله : ﴿ وَمَا علمناه الشعر ﴾ ، والمعنى : نفى كون القرآن شعراً، ثم نفى أن يكون النبيّ شاعراً، فقال : ﴿ وَمَا يَنبَغِى لَهُ ﴾ أي : لا يصح له الشعر، ولا يتأتى منه، ولا يسهل عليه لو طلبه، وأراد أن يقوله، بل كان إذا أراد أن ينشد بيتاً قد قاله شاعر متمثلاً به كسر وزنه، فإنه لما أنشد بيت طرفة بن العبد المشهور، وهو قوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا . . . ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

قال : ويأتيك من لم تزوّده بالأخبار، وأنشد مرّة أخرى قول العباس بن مرداس السلمي :

أتجعل نهبي ونهب العبي . . . د بين عيينة والأقرع

فقال : بين الأقرع وعيينة، وأنشد أيضاً :

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً . . . فقال أبو بكر : يا رسول الله، إنما قال الشاعر :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً . . . فقال : أشهد أنك رسول الله، يقول الله عزّ وجلّ :

﴿ وَمَا علمناه الشعر وَمَا يَنبَغِى لَهُ ﴾ وقد وقع منه صلى الله عليه وسلم كثير من مثل هذا .

قال الخليل : كان الشعر أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام ، ولكن لا يتأتى منه .

انتهى .

ووجه عدم تعليمه الشعر ، وعدم قدرته عليه .

التكميل للحجة ، والدحض للشبهة ، كما جعله الله أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وأما ما روي عنه صلى الله عليه وسلم من قوله :

هل أنت إلا أصبع دميت . . . وفي سبيل الله ما لقيت

وقوله :

أنا النبيّ لا كذب . . . أنا ابن عبد المطلب



---

ونحو ذلك ، فمن الاتفاق الوارد من غير قصد كما يأتي ذلك في بعض آيات القرآن ، وليس بشعر ، ولا مراد به الشعر ، بل اتفق ذلك اتفاقاً كما يقع في كثير من كلام الناس ، فإنهم قد

يتكلمون بما لو اعتبره معتبر لكان على وزن الشعر، ولا يعدّونه شعراً، وذلك كقوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: 92] وقوله: ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ [سبأ: 13] على أنه قد قال الأخفش إن قوله: أنا النبيّ لا كذب... ليس بشعر.

وقال الخليل في كتاب العين: إن ما جاء من السجع على جزأين لا يكون شعراً.

قال ابن العربي: والأظهر من حاله أنه قال: لا كذب برفع الباء من كذب، وبخفضها من عبد المطلب.

قال النحاس: قال بعضهم: إنما الرواية بالإعراب، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعراً، لأنه إذا فتح الباء من الأوّل، أو ضمها، أو نوّنها، وكسر الباء من الثاني خرج عن وزن الشعر.

وقيل: إن الضمير في ﴿ له ﴾ عائد إلى القرآن أي: وما ينبغي للقرآن أن يكون شعراً ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ ﴾ أي: ما القرآن إلا ذكر من الأذكار، وموعظة من المواعظ ﴿ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: كتاب من كتب الله السماوية مشتمل على الأحكام الشرعية ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ أي: لينذر القرآن من كان حياً، أي: قلبه صحيح يقبل الحق، ويأبى الباطل، أو لينذر الرسول من كان حياً.

قرأ الجمهور بالياء التحتية، وقرأ نافع، وابن عامر بالفوقية، فعلى القراءة الأولى المراد:

القرآن ، وعلى الثانية المراد : النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي : وتجب كلمة العذاب على المصرّين على الكفر الممتنعين من الإيمان بالله ، وبرسله .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وابن أبي الدنيا ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ فِى شُغُلٍ فاكهون ﴾ قال : في افتضاض الأبكار .

(181/648)

---

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن ابن مسعود في الآية قال : شغلهم : افتضاض العذارى .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ، وقتادة مثله .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن ابن عمر قال : إن المؤمن كلما أراد زوجة وجدها عذراء .

وقد روي نحوه مرفوعاً عن أبي سعيد ، مرفوعاً عند الطبراني في الصغير ، وأبي الشيخ في العظمة .

وروي أيضاً نحوه عن أبي هريرة مرفوعاً عند الضياء المقدسي في صفة الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فِى شُغُلٍ فاكهون ﴾ قال : ضرب

الأوتار .

قال أبو حاتم : هذا لعله خطأ من المستمع ، وإنما هو افتضاض الأبكار .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه قال : ﴿ فاكهون ﴾ : فرحون .

وأخرج ابن ماجه ، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة ، والبزار ، وابن أبي حاتم ، والأجرّي في الرؤية ، وابن مردويه عن جابر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الربّ قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، وذلك قول الله : ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبّ رَّحِيمٍ ﴾ قال : فينظر إليهم ، وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره ، وبركته عليهم في ديارهم " قال ابن كثير : في إسناده نظر .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : إن الله هو يسلم عليهم .



---

وأخرج أحمد ، ومسلم ، والنسائي ، والبزار ، وابن أبي الدنيا في التوبة ، واللفظ له ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس في قوله : ﴿ اليوم نَخْتِمُ على أفواههم ﴾ قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فضحك حتى بدت نواجذه

، قال : " أتدرون مما ضحكت ؟ " قلنا : لا يا رسول الله ، قال : " من مخاطبة العبد ربه يقول : يا ربّ ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : إني لا أجيز عليّ إلا شاهداً مني ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، فيختم على فيه . ويقال لأركانه : انطقي ، فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه ، وبين الكلام ، فيقول : بعداً لكنّ ، وسحقاً ، فعنكن كنت أناضل "

وأخرج مسلم ، والترمذي ، وابن مردويه ، والبيهقي عن أبي سعيد ، وأبي هريرة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يلقى العبد ربه ، فيقول الله : قل : ألم أكرمك ، وأسوّدك ، وأزوّجك ، وأسخر لك الخيل ، والإبل ، وأذرك ترأس ، وترتع ؟ فيقول : بلى أي ربّ ، فيقول : أفظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول : لا ، فيقول : إني أنساك كما نسيتني .

ثم يلقى الثاني ، فيقول مثل ذلك ، ثم يلقى الثالث ، فيقول له مثل ذلك ، فيقول : آمنت بك ، وبكتابك ، وبرسولك ، وصليت ، وصمت ، وتصدّقت ، ويثني بخير ما استطاع ، فيقول : ألا نبعث شاهدنا عليك ، فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليّ ، فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقي ، فتنطق فخذه ، وفمه ، وعظامه بعمله ما كان ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط عليه " وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم من حديث أبي موسى نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن

عباس في قوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا على أَعْيُنِهِمْ ﴾ قال : أعميناهم ، وأضللناهم عن الهدى ﴿ فأنى يُبْصِرُونَ ﴾ فكيف يهتدون .

(183/648)

---

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لمسخناهم ﴾ قال : أهلكناهم ﴿ على مكانتهم ﴾ قال : في مساكنهم .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم قال : بلغني أنه قيل لعائشة : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت : كان أبغض الحديث إليه ، غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس ، فيجعل أوّله آخره يقول : ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار ، فقال أبو بكر : ليس هكذا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني والله ما أنا بشاعر ، ولا ينبغي لي " وهذا يردًّ ما نقلناه عن الخليل سابقاً أن الشعر كان أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام ، وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استراث الخبر تمثل ببيت طرفة :

ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد . . . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم يتمثل من الأشعار :

ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد . . . وأخرج البيهقي في سننه عن عائشة قالت : ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت شعر قط إلا بيتاً واحداً :

تفاءل بما تهوى يكن فلقلما . . . يقال لشيء : كان ، إلا تحقق

قالت عائشة : ولم يقل تحققاً لئلا يعربه ، فيصير شعراً ، وإسناده هكذا : قال : أخبرنا أبو عبيد الله الحافظ : يعني : الحاكم حدّثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم ، حدّثنا أبو محمد عبد الله بن هلال النحوي الضرير ، حدّثنا علي بن عمرو الأنصاري ، حدّثنا سفيان بن عيينة ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة ، فذكره .

وقد سئل المزّي عن هذا الحديث فقال : هو منكر ، ولم يعرف شيخ الحاكم ، ولا الضرير .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

*(184/648)*

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ ﴾

هذه الآية ترجع إلى ما تضمنه قوله تعالى : ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها

معرضين ﴾ [يس : 46] فقد بيّنا أن المراد بالآيات آيات القرآن، فإعراضهم عن القرآن له أحوالٌ شتى: بعضها بعدم الامتثال لما يأمرهم به من الخير مع الاستهزاء بالمسلمين وهو قوله تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ﴾ [يس : 47] الآية، وبعضها بالتكذيب لما يُنذِرهم به من الجزاء، وهو قوله: ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [يس : 48].

ومن إعراضهم عنه طعنُهم في آيات القرآن بأقوال شتّى منها قولهم: هو قول شاعر، فلما تصدّى القرآن لإبطال تكذيبهم بوعيد بالجزاء يوم الحشر بما تعاقب من الكلام على ذلك عاد هنا إلى طعنهم في ألفاظ القرآن من قولهم: ﴿ بل افتراه بل هو شاعر ﴾ [الأنبياء : 5] ، فقولهم ﴿ بل هو شاعر يقتضي لا محالة أنهم يقولون: القرآن شعر.

فالجملة معطوفة على جملة ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [الأنبياء : 38] ، عطف القصة على القصة والغرضِ على الغرضِ.

ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافاً ابتدائياً ويكون الواو للاستئناف، ولذلك اقتصر هنا على تنزيه القرآن عن أن يكون شعراً والنبي صلى الله عليه وسلم عن أن يكون شاعراً دون التعرض لتنزيهه عن أن يكون ساحراً، أو أن يكون مجنوناً لأن الغَرض الرد على إعراضهم عن القرآن، ألا ترى أنه لما قصد إبطال مقالات لهم في القرآن قال في الآية الأخرى: ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ﴾ [الحاقة : 41، 42

.[

وضمير ﴿ عَلَّمْنَاهُ ﴾ عائد إلى معلوم من مقام الردّ وليس عائداً إلى مذكور إذ لم يتقدم له معاد .

(185/648)

---

وبني الرد عليهم على طريقة الكناية بنفي تعليم النبي صلى الله عليه وسلم الشعر لما في ذلك من إفادة أن القرآن معلَّم للنبيء صلى الله عليه وسلم من قِبَل الله تعالى وأنه ليس بشعر وأن النبي صلى الله عليه وسلم ليس بشاعر .

وانتصب ﴿ الشّعْرَ ﴾ على أن مفعول ثان لفعل ﴿ عَلَّمْنَاهُ ﴾ ، وهذا الفعل من أفعال العلم ، ومُجرَّدُه يتعدّى إلى مفعول واحد غالباً نحو عَلِم المسألَة .

ويتعدّى إلى مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر ، فإذا دخله التضعيف صار متعدياً إلى مفعولين فقط اعتداداً بأن مجرده متعدّ إلى واحد كقوله تعالى : ﴿ وإذ علمتك الكتاب والحكمة ﴾ [ المائدة : 110 ] في سورة العقود ، وقوله : ﴿ وما علَّمناهُ الشعر ﴾ في هذه السورة يس وهذه تفرقة في الاستعمال موكولة إلى اختيار أهل اللسان نبّه عليه الرضيّ في "شرح الكافية" في باب تعدية أفعال القلوب إلى مفعولين بأن أصله متعدّ إلى واحد .

فتقدير المعنى : نحن علمناه القرآن وما علمناه الشعر ، فالقرآن موحىً إليه بتعليم من الله الذي أوحى به إليه ليس بشعر ، وإذن فالمعنى : أن القرآن ليس من الشعر في شيء ، فكانت هاته الجملة ردّاً على قولهم : هو شاعر على طريقة الكناية لأنها انتقال من اللازم إلى الملزوم .

ودل على أن هذا هو المقصود من قوله : ﴿ وما علمناهُ الشعر ﴾ قوله عقبه ﴿ إن هُوَ إلاَّ ذِكرٌ وقُرءانٌ مبين ﴾ ، أي ليس الذي علمناه إياه إلا ذكراً وقرآناً وما هو بشعر .

والتعليم هنا بمعنى الوحي ، أي وما أوحينا إليه الشعر فقد أطلق التعليم على الوحي في قوله تعالى : ﴿ إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ﴾ [ النجم : 4 ، 5 ] وقال : ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ [ النساء : 113 ] .



---

وكيف يكون القرآن شعراً والشعر كلام موزون مقفّى له معان مناسبة لأغراضه التي أكثرها هزل وفكاهة ، فأين الوزن في القرآن ، وأين التقفية ، وأين المعاني التي ينتجها الشعراء ، وأين نظم كلامهم من نظمه ، وأساليبهم من أساليبه .

ومن العجيب في الوقاحة أن يصدر عن أهل اللسان والبلاغة قول مثل هذا ولا شبهة لهم

فيه بمجال، فما قولهم ذلك إلا بهتان.

وما بني عليه أسلوب القرآن من تساوي الفواصل لا يجعلها موازية للقوافي كما يعلمه أهل الصناعة منهم وكل من زاول مبادىء القافية من المولدين، ولا أحسبهم دَعوهُ شعراً إلا تعجلاً في الإِبطال، أو تمويهاً على الإِغفال، فأشاعوا في العرب أن محمداً صلى الله عليه وسلم شاعر، وأن كلامه شعر.

وينبَني عن هذا الظن خبر أنيس بن جُنَادة الغفاري أخي أبي ذرّ، فقد روى البخاري عن ابن عباس، ومسلم عن عبد الله بن الصامت، يزيد أحدهما على الآخر قالا: "قال أبو ذر لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء واستمع من قوله ثم ائتني، فانطلقَ الأخ حتى قدم وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وكلاماً ما هو بالشعر.

قال أبو ذر: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعر كاهن، ساحر.

وكان أُنيس أحد الشعراء، قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون" ثم اقتص الخبر عن إسلام أبي ذر، ويظهر أن ذلك كان في أول البعثة.

ومثله خبر الوليد بن المغيرة الذي رواه البيهقي وابن إسحاق "أنه جمع قريشاً عند حضور الموسم ليتشاوروا في أمر النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم : إن وفود العَرب ترد عليكم فأجمعوا فيه رأياً لا يُكذب بعضكم بعضاً ، فقالوا : نقول كاهن ؟ فقال : والله ما هو بكاهن ، ما هو بزمزمته ولا بسجعه ، قالوا : نقول مجنون ؟ فقال : والله ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته ، فذكر ترددهم في وصفه إلى أن قالوا : نقول شاعر ؟ قال : ما هو بشاعر ، قد عرفت الشعر كله رجزَه وهزجَه وقريضه ومبسوطَه ومقبوضه وما هو بشاعر .

إلى آخر القصة

فمعنى ( وما علمناه الشعر ) : وما أوحينا إليه شعرا علمناه إياه

وليس المراد أن الله لم يجعل في طبع النبي القدرة على نظم الشعر لأن تلك المقدرة لا تسمى تعليما حتى تنفى وإنما يستفاد هذا المعنى من قوله بعده ( وما ينبغي له ) وسنتكلم عليه قريبا

وقد اقتضت الآية نفي أن يكون القرآن شعرا وهذا الاقتضاء قد أثار مطاعن للملحدين ومشاكل للمخلصين وإذ وجدت فقرات قرآنية استكملت ميزان بحور من البحور الشعرية بعضها يلتئم منه بيت كامل وبعضها يتقوم منه مصراع واحد ولا تجد أكثر من ذلك فهذا يلزم منه وقوع الشعر .

في آي القرآن

صلى الله عليه وسلم عليه الصلاة والسلام وقد أثار الملاحدة هذا المطعن فلذلك تعرض أبو بكر الباقلاني إلى دحضه في كتابه إعجاز القرآن وتبعه السكاكي وأبو بكر بن العربي فأما الباقلاني فانفرد برد قال فيه : إن البيت المفرد لا يسمى شعرا بله المصراع الذي لا يكمل به بيت .



---

وأرى هذا غير كاف هنا لأنه لا يستطاع نفي مسمى الشعر عن المصراع وأولى عن وقال السكاكي في آخر مبحث رد المطاعن عن القرآن من كتاب مفتاح العلوم " إنهم يقولون أنتم في دعواكم أن القرآن كلام الله وقد علمه محمدا صلى الله عليه وسلم على أحد أمرين : إما أن الله تعالى جاهل لا يعلم ما الشعر وإما أن الدعوى باطلة وذلك أن في قرآنكم ( وما علمناه الشعر ) وأنه يستدعي أن لا يكون فيما علمه شعر "

ثم إن في القرآن من جميع البحور شعرا : فمن الطويل من صحيحه ( فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر )

ومن مخرومه ( منها خلقناكم وفيها نعيدكم )

ومن بحر المديد ( واصنع الفلك بأعيننا )

ومن بحر الوافر ( ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين )

ومن بحر الكامل : ( والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم )

ومن بحر الهجز من مخزومه : ( تالله لقد آثرك الله علينا )

ومن بحر الرجز ( دانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا )

ومن بحر الرمل ( وجفان كالجواري وقدور راسيات ) ونظيره ( ورفعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك )

ومن بحر المنسرح ( إنا خلقنا الإنسان من نطفة )

ومن بحر الخفيف ( أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ) ومنه ( لا يكادون يفقهون حديثا ) ونحوه ( قال يا قوم هؤلاء بناتي )

ومن بحر المضارع من مخزومه ( يوم التناد يوم تولون مدبرين )

ومن بحر المقتضب ( في قلوبهم مرض )

ومن بحر المتقارب ( وأملي لهم إن كيدي متين )

فيقال لهم من قبل النظر فيها أوردوه : هل حرفوا بزيادة أو نقصان حركة أو حرفا أم لا .

وقبل أن ننظر هل راعوا أحكام علم العروض في الأعاريض والضروب التي سبق ذكرها أم لا .

ومن قَبل أن ننظر هل عملوا بالمنصور من المذهبين في معنى الشعر على نحو ما سبق أم لا (

يعني المذهبين مذهب الذين قالوا لا يكون الشعر شعراً إلا إذا قصد قائله أن يكون موزوناً ، ومذهب الذين قالوا : إن تعمُّد الوزن ليس بواجب بل يكفي أن يلفى موزوناً ولو بدون قصد قائله للوزن وقد نصر المذهب الأول ) يا سبحان الله قدروا جميع ذلك أشعاراً ، أليس يصح بحكم التغليب أن لا يلتفت إلى ما أوردتموه لقلته ، ويُجرى ذلك القرآن مُجرى الخالي عن الشعر فيقال بناء على مقتضى البلاغة : ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ اه .

كلامه ، وقد نحا به نحو أمرين:

أحدهما : أن ما وقع في القرآن من الكلام المتّزن ليس بمقصود منه الوزن ، فلا يكون شعراً على رأي الأكثر من اشتراط القصد إلى الوزن لأن الله تعالى لم يعبأ باتزانه .

الثاني : إن سلمنا عدم اشتراط القصد فإن نفي كون القرآن شعراً جرى على الغالب .

فلا يعدّ قائله كاذباً ولا جاهلاً فلا ينافي اليقين بأن القرآن من عند الله علمه محمداً صلى الله عليه وسلم

ومَال ابن العربي في "أحكام القرآن" إلى أن ما تكلفوه من استخراج فقرات من القرآن على

موازين شعرية لا يستقيم إلا بأحد أمور مثل بتر الكلام أو زيادة ساكن أو نقص حرف أو حرفين ، وذكر أمثلة لذلك في بعضها ما لا يتم له فراجعْهُ .

ولا محيص من الاعتراف باشتمال القرآن على فقرات متزنة يلتئم منها بيت أو مصراع ، فأما ما يقلّ عن بيت فهو كالعدم إذ لا يكون الشعر أقل من بيت ، ولا فائدة في الاستكثار من جلب ما يلفى متزناً فإن وقوع ما يساوي بيتاً تاماً من بحر من بحور الشعر العربي ولو نادراً أو مُزَحَّفاً أو مُعَلاّ كاف في بقاء الإشكال ، فلا حاجة إلى ما سلك ابن العربي في رده ولا كفاية لما سلكه السكاكي في كتابه ، لأن المردود عليهم في سعة من الأخذ بما يلائم نحلتهم من أضعف المذاهب في حقيقة الشعر وفي زحافِه وعلله .

(190/648)

---

وبعد ذلك فإن الباقلاني والسكاكي لم يغوصَا على اقتلاع ما يثيره الجواب الثاني في كلامِهما بعدم القصد إلى الوزن ، من لزوم خفاء ذلك على علم الله تعالى فلماذا لا تُجعل في موضع تلك الفقرات المتزنة فقرات سليمة من الاتّزان .

ولم أر لأحد من المفسرين والخائضين في وجوه إعجاز القرآن التصدي لاقتلاع هذه الشبهة ، وقد مضت عليها من الزمان برهة ، وكنت غير مقتنع بتلك الردود ولا أرضاها ، وأراها

غير بالغة من غاية خيل الحلبة منتهاها .

فالذي بدا لي أن نقول : إن القرآن نزل بأفصح لغات البشر التي تواضعوا واصطلحوا عليها ولو أن كلاماً كان أفصح من كلام العرب أو أمة كانت أسلم طباعاً من الأمة العربية لاختارها الله لظهور أفضل الشرائع وأشرف الرسل وأعز الكتب الشرعية .

ومعلوم أن القرآن جاء معجزاً لبلغاء العرب فكانت تراكيبه ومعانيها بالغَيْن حدًّا يقصر عنه كل بليغ من بلغائهم على مبلغ ما تتسع له اللغة العربية فصاحةً وبلاغة فإذا كانت نهاية مقتضى الحال في مقام من مقامات الكلام تتطلب لإيفاء حقّ الفصاحة والبلاغة ألفاظاً وتركيباً ونظماً فاتفق أن كان لمجموع حركاتها وسكوناتها ما كان جارياً على ميزان الشعر العربي في أعاريضه وضروبه لم يكن ذَلك الكلام معدوداً من الشعر لوْ وقَعَ مثلُه في كلامٍ عن غير قصد فوقوعه في كلام البشر قد لا يتفطن إليه قائله ولو تفطن له لم يعسر تغييره لأنه ليس غاية ما يقتضيه الحال ، اللهم إلاّ أن يكون قصد به تفنناً في الإِتيان بكلام ظاهره نثر وتفكيكه نظم .

فأما وقوعه في كلام الله تعالى فخارج عن ذلك كله من ثلاثة وجوه:

أحدها : أن الله لا يخفى عليه وقوعه في كلام أوحى به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم

الثاني : أنه لا يجوز تبديل ذلك المجموع من الألفاظ بغيره لأن مجموعها هو جميع ما اقتضاه الحال وبلغ حد الإِعجاز .

الثالث : أن الله لا يريد أن يشتمل الكلام الموحَى به من عنده على محسِّن الجمع بين النثر والنظم لأنه أراد تنزيه كلامه عن شائبة الشعر .

واعلم أن الحكمة في أن لا يكون القرآن من الشعر مع أن المتحدَّيْن به بلغاء العرب وجلُّهم شعراء وبلاغتهم مُودَعة في أشعارهم هي الجمع بين الإعجاز وبين سدّ باب الشبهة التي تعرض لهم لو جاء القرآن على موازين الشعر ، وهي شبهة الغلط أو المغالطة بعدِّهم النبي صلى الله عليه وسلم في زمرة الشعراء فيحسب جمهور الناس الذين لا تغوص مدركاتهم على الحقائق أن ما جاء به الرسول ليس بالعجيب ، وأن هذا الجائي به ليس بنبيء ولكنه شاعر ، فكان القرآن معجزاً لبلغاء العرب بكونه من نوع كلامهم لا يستطيعون جحوداً لذلك ، ولكنه ليس من الصنف المسمّى بالشعر بل هو فائق على شعرهم في محاسنه البلاغية وَليس هو في أسلوب الشعر بالأوزان التي ألفوها بل هو في أسلوب الكتب السماوية والذكر .

ولقد ظهرت حكمة علاّم الغيوب في ذلك فإن المشركين لمّا سمعوا القرآن ابتدروا إلى الطعن في كونه منزّلاً من عند الله بقولهم في الرسول : هو شاعر ، أي أن كلامه شعر حتى أفاقهم من

غفلتهم عقلاؤهم مثل الوليد بن المغيرة، وأُنيس بن جُنادة الغفاري، وحتى قرعهم القرآن بهذه الآية: ﴿ وما علمْناهُ الشعر وما ينبغي له إن هُوَ إلاَّ ذِكرٌ وقُرءَانٌ مبينٌ ﴾.

وبعد هذا فإن إقامة الشعر لا يَخلو الشاعر فيها من أن يتصرف في ترتيب الكلام تارات بما لا تقضيه الفصاحة مثل ما وقع لبعض الشعراء من التعقيد اللفظي، ومثل تقديم وتأخير على خلاف مقتضى الحال فيعتذر لوقوعه بعذر الضرورة الشعرية، فإذا جاء القرآن شعراً قصَّر في بعض المواضع عن إيفاء جميع مقتضى الحال حقّه.

وسنذكر عند تفسير قوله تعالى: وما ينبغي له ﴾ وجوهاً ينطبق معظمها على ما أشار إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وما علمناهُ الشّعِر ﴾.



---

وقد قال ابن عطية: إن الضمير المجرور باللام في قوله: ﴿ وما ينبغي له ﴾ يجوز أن يعود على القرآن كما سيأتي.

وقوله: ﴿ وما ينبغي له ﴾ جملة معترضة بين الجملتين المتعاطفتين قصد منها اتباع نفي أن يكون القرآن الموحَى به للنبيء صلى الله عليه وسلم شعراً بنفي أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم شاعراً فيما يقوله من غير ما أوحى به إليه أي فطر الله النبي صلى الله عليه

وسلم على النفرة بين ملكته الكلامية والملكة الشاعرية ، أي لم يجعل له ملكة أصحاب قرض الشعر لأنه أراد أن يقطع من نفوس المكذّبين دابر أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم شاعراً وأن يكون قرآنه شعراً ليتضح بهتانهم عند من له أدنى مسكة من تمييز للكلام وكثير ما هم بين العرب رجالهم وكثير من نسائهم غير زوج عبد الله بن رواحة ونظيراتها ، والواو اعتراضية .

وضمير ﴿ ينبغي ﴾ عائد إلى الشعر ، وضمير ﴿ لَهُ ﴾ يجوز أن يكون عائداً إلى ما عاد إليه ضمير الغائب في قوله : ﴿ علمناه ﴾ وهو الظاهر .

وجوّز ابن عطية أن يعود إلى القرآن الذي يتضمنه فعل ﴿ عَلَّمْنَاهُ ﴾ فجعل جملة ﴿ وما ينبغي له ﴾ بمنزلة التعليل لِجملة ﴿ وما علمْناهُ الشِّعر ﴾ .

ومعنى ﴿ وما ينبغي له ﴾ ما يتأتّى له الشعر ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وما ينبغي للرحمان أن يتخذ ولداً ﴾ [ مريم : 92 ] تفصيل ذلك في سورة مريم ، وتقدم قريباً عند قوله : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ [ يس : 40 ] .

فأصل معنى ﴿ ينبغي ﴾ يستجيب للبغي ، أي الطلب ، وهو يُشعر بالطلب الملحّ .

ثم غلب في معنى يتأتّى ويستقيم فتنوسي منه معنى المطاوعة وصار ﴿ ينبغي ﴾ بمعنى يتأتّى يقال : لا ينبغي كذا ، أي لا يتأتى .

قال الطيبي : روي عن الزمخشري أنه قال في "كتاب سيبويه" "كل فعل فيه علاج يأتي

مطاوعه على الانفعال : كضرب وطلب وعَلِم ، وما ليس فيه علاج : كعَدِم وفقَد لا يأتي في مطاوعه الانفعال البتة" اه .

(193/648)

---

ومعنى كون الشعر لا ينبغي له : أن قول الشعر لا ينبغي له لأن الشعر صنف من القول له موازين وقوافٍ ، فالنبي صلى الله عليه وسلم منزّه عن قرض الشعر وتأليفه ، أي ليست مِن طباع ملكته إقامة الموازين الشعرية ، وليس المراد أنه لا ينشد الشعر لأن إنشاد الشعر غير تعلّمه ، وكم من راوية للأشعار ومن نَقّادٍ للشعر لا يستطيع قول الشعر وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم قد انتقد الشعر ، ونبه على بعض مزايا فيه ، وفضّل بعض الشعراء على بعض وهو مع ذلك لا يقرض شعراً .

وربما أنشد البيت فغفل عن ترتيب كلماته فربما اختلّ وزنه في إنشاده وذلك من تمام المنافرة بين ملكة بلاغته وملكة الشعراء ، ألا ترى أنه لم يكن مطّرداً فربما أنشد البيت موزوناً .

هذا من جانب نظم الشعر وموازينه ، وكذلك أيضاً جانب قوام الشعر ومعانيه فإن للشعر طرائق من الأغراض كالغزل والنسيب والهجاء والمديح والمُلَح ، وطرائق من المعاني كالمبالغة البالغة حدّ الإِغراق وكادّعاء الشاعر أحوالاً لنفسه في غرام أو سير أو شجاعة

هو خِلوٌ من حقائقها فهو كذب مغتفر في صناعة الشعر .

وذلك لا يليق بأرفع مقام لكمالات النفس ، وهو مقام أعظم الرسل صلوات الله عليه وعليهم فلو أن النبي صلى الله عليه وسلم قرض الشعر ولم يأت في شعره بأفانين الشعراء لعدّ غضاضة في شعره وكانت تلك الغضاضة داعية للتناول من حُرمة كماله في أنفس قومه يستوي فيها العدوّ والصديق .

على أن الشعراء في ذلك الزمان كانت أحوالهم غير مرضية عند أهل المروءة والشرف لما فيهم من الخلاعة والإقبال على السُكر والميسر والنساء ونحو ذلك .

وحسبك ما هو معلوم من قضية خلع حُجر الكِندي ابنه امرأ القيس وقد قال تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ [ الشعراء : 224 ] الآية .

(194/648)

---

فلو جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالشعر أو قاله لرمقه الناس بالعين التي لا يرمق بها قدره الجليل وشرفه النبيل ، والمنظور إليه في هذا الشأن هو الغالب الشائع وإلا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " إن من الشعر لحكمة " وقال : " أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد " :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فتنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الشعر من قبيل حياطة معجزة القرآن وحياطة مقام الرسالة مثل تنزيهه عن معرفة الكتابة .

قال أبو بكر بن العربي : هذه الآية ليست من عيب الشعر كما لم يكن قوله تعالى : ﴿ وما كنت تتْلُو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ [ العنكبوت : 48 ] من عيب الخط .

فلما لم تكن الأمية من عيب الخط كذلك لا يكون نفي النظم عن النبي صلى الله عليه وسلم من عيب الشعر .

ومن أجل ما للشعر من الفائدة والتأثير في شيوع دعوة الإسلام أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم حساناً وعبد الله بن رواحة بقوله ، وأظهر استحسانه لكعب بن زهير حين أنشده القصيدة المشهورة : بانت سعادُ .

والقول في ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من كلام موزون مثل قوله يوم أحد :

أنا النبيُ لا كَذِبْ

أنا ابنُ عبد المطلبْ . . .

كالقول فيما وقع في القرآن من شبيه ذلك مما بيناه آنفاً .

وجملة ﴿ إن هو إلا ذِكرٌ وقُرءَانٌ مُبِينٌ ﴾ استئناف بياني لأن نفي الشعر عن القرآن يثير سؤال متطلب يقول : فما هو هذا الذي أوحي به إلى محمد صلى الله عليه وسلم فكان قوله

: ﴿ إن هو إلا ذكر ﴾ جواباً لطلبته .

وضمير ﴿ هُوَ ﴾ للقرآن المفهوم من ﴿ عَلَّمْنَاهُ ﴾ ، أي ليس الذي عُلّمه الرسول إلا ذكراً وقرآناً أو للشيء الذي علمناه ، أي للشيء المعلّم الذي تضمنه ﴿ علمناهُ ﴾ ، أو عائد إلى ﴿ ذِكْرٌ ﴾ في قوله : ﴿ إلاَّ ذِكْرٌ ﴾ الذي هو ﴿ مُبِينٌ ﴾ .

وهذا من مواضع عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة لأن البيان كالبدل .

(195/648)

---

وتقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ في سورة [ المؤمنين : 37 ] .

وجيء بصيغة القصر المفيدة قصر الوحي على الاتصاف بالكون ذكراً وقرآناً قصر قلب ، أي ليس شعراً كما زعمتم .

فحصل بذلك استقصاء الرد عليهم وتأكيدُ قوله : ﴿ ومَا عَلَّمْناهُ الشّعر ﴾ من كون القرآن شعراً .

والذكر : مصدر وصف به الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وصفاً للمبالغة ، أي إن هو إلا مُذكّر للناس بما نسوه أو جهلوه .

وقد تقدم الكلام على الذكر عند قوله تعالى : ﴿ وقالوا يا أيها الذين نزل عليه الذكر إنك

لمجنون ﴾ في سورة [ الحجر : 6 ] .

والقرآن : مصدر قرأ ، أطلق على اسم المفعول ، أي الكلام المقروء ، وتقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ وما تتلو منه من قرآن ﴾ في سورة [ يونس 61 ] .

والمبين : هو الذي أبان المراد بفصاحة وبلاغة .

ويتعلق قوله : ﴿ لِتُنْذِرَ ﴾ بقوله : ﴿ عَلَّمْنَاهُ ﴾ باعتبار ما اتصل به من نفي كونه شعراً ثم إثباتاتِ كونه ذكراً وقرآناً ، أي لأن جملة ﴿ إن هو إلا ذكر ﴾ بيان لما قبلها في قوة أن لو قيل : وما علمناه إلا ذكراً وقرآناً مبيناً لينذر أو لتنذر .

وجعلهُ ابن عطية متعلقاً بـ ﴿ مُبِينٌ ﴾ .

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ﴿ لَتُنْذِرَ ﴾ بتاء الخطاب على الالتفات من ضمير الغيبة في قوله : ﴿ عَلَّمْنَاهُ ﴾ إلى ضمير الخطاب .

وقرأه الباقون بياء الغائب ، أي لينذر النبي الذي علمناه .

والإِنذار : الإِعلام بأمر يجب التوقي منه .

والحيّ : مستعار لكامل العقل وصائب الإِدراك ، وهذا تشبيه بليغ ، أي مَن كان مثل الحي في الفهم .

والمقصود منه : التعريض بالمُعرِضين عن دلائل القرآن بأنهم كالأموات لا انتفاع لهم بعقولهم

كقوله تعالى : ﴿ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴾ [ النمل : 80 ].

(196/648)

---

وعطف ﴿ وَيحِقّ القولُ على الكافِرينَ ﴾ على ﴿ لِتُنذِرَ ﴾ عطفَ المجاز على الحقيقة لأن اللام النائب عنه واو العطف ليس لام تعليل ولكنه لام عاقبة كاللام في قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ [ القصص : 8 ].

ففي الواو استعارة تبعية ، وهذا قريب من استعمال المشترك في معنييه .

وفي هذه العاقبة احتباك إذ التقدير : لتنذر من كان حيّاً فيزداد حياة بامتثال الذكر فيفوز ومن كان ميتاً فلا ينتفع بالإِنذار فيحق عليه القول ، كما قال تعالى في أول السورة ﴿ إنَّما تُنذِرُ مَن اتَّبَعَ الذِّكر وخَشِيَ الرحمن بالغيبِ فبشرْهُ بمغفِرَةٍ وأجْرٍ كَريمٍ ﴾ [ يس : 11 ] ، فجمع له بين الإِنذار ابتداء والبشارة آخراً .

و﴿ القول ﴾ : هو الكلام الذي جاء بوعيد من لم ينتفعوا بإنذار الرسول صلى الله عليه وسلم

والمراد بالكافرين : المستمرون على كفرهم وإلا فإن الإِنذار ورد للناس أول ما ورد وكلهم

من الكافرين.

وفي ذكر الإنذار عوْد إلى ما ابتدئت به السورة من قوله: ﴿لتنذر قوماً ما أُنذِرَ ءَاباؤُهم فهم غافِلُونَ﴾ [يس: 6] فهو كرد العجز على الصدر، وبذلك تمّ مجال الاستدلال عليهم وإبطال شبههم وتخلص إلى الامتنان الآتي في قوله: ﴿أوَلَمْ يروا أنَّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً﴾ [يس: 71] إلى قوله: ﴿أفلا يشكرون﴾ [يس: 73].

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71)

بعد أن انقضى إبطال معاقد شرك المشركين أخذ الكلام يتطرق غرضَ تذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم وكيف قابلوها بكفران النعمة وأعرضوا عن شكر المنعم وعبادته واتخذوا لعبادتهم آلهة زعماً بأنها تنفعهم وتدفع عنهم وأدمج في ذلك التذكير بأن الأنعام مخلوقة بقدرة الله.

فالجملة معطوفة عطف الغرض على الغرض.

(197/648)

---

والاستفهام: إنكار وتعجيب من عدم رؤيتهم شواهد النعمة، فإن كانت الرؤية قلبية كان الإنكار جارياً على مقتضى الظاهر، وإن كانت الرؤية بصرية فالإِنكار على خلاف

مقتضى الظاهر بتنزيل مشاهدتهم تلك المذكورات منزلةَ عدم الرؤية لعدم جريهم على مقتضى العلم بتلك المشاهدات الذي ينشأ عن رؤيتها ورؤية أحوالها ، وعلى الاحتمالين فجملة الفعل المنسبك بالمصدر سادَّة مسدّ المفعولين للرؤية القلبية ، أو المصدر المنسبك منها مفعول للرؤية البصرية .

وفي خلال هذا الامتنان إدماج شيء من دلائل الانفراد بالتصرف في الخلق المبطلة لإشراكهم إياه غيره في العبادة وذلك في قوله : ﴿ أَنَّا خلقنا ﴾ وقوله : ﴿ مما عملت أيدينا ﴾ وقوله : ﴿ وذَلَّلْنَاهَا ﴾ وقوله : ﴿ ولهم فيها منافِعُ ومشَارِبُ ﴾ ، لأن معناه : أودعنا لهم في أضراعها ألباناً يشربونها وفي أبدانها أوباراً وأشعاراً ينتفعون بها .

وقوله : ﴿ لهم ﴾ هو محل الامتنان ، أي لأجلهم ، فإن جميع المنافع التي على الأرض خلقها الله لأجل انتفاع الإِنسان بها تكرمة له ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ في سورة البقرة ﴾ ( 29 ) .

واستعير عمل الأيدي الذي هو المتعارف في الصنع إلى إيجاد أصول الأجناس بدون سابق منشأ من توالد أو نحوه فأسند ذلك إلى أيدي الله تعالى لظهور أن تلك الأصول لم تتولد عن سبب كقوله : ﴿ والسماء بنيناها بأيد ﴾ [ الذاريات : 47 ] ، ف ( من ) في قوله : ﴿ مما عَمِلتْ ﴾ ابتدائية لأن الأنعام التي لهم متولدة من أصول حتى تنتهي إلى أصولها الأصلية التي خلقها الله كما خلق آدم ، فعبر عن ذلك الخلق بأنه بيد الله استعارة تمثيلية لتقريب شأن

الخلق الخفيّ البديع مثل قوله : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ [ ص : 75 ] .

وقرينة هذه الاستعارة ما تقرّر من أن ليس كمثله شيء وأنه لا يشبه المخلوقات ، فذلك من العقائد القطعية في الإسلام .

(198/648)

---

فأما الذين رأوا الإِمساك عن تأويل أمثال هذه الاستعارات فسمّوها المتشابه وإنما أرادوا أننا لم نصل إلى حقيقة ما نعبر عنه بالكنه ، وأما الذين تأوّلوها بطريقة المجاز فهم معترفون بأن تأويلها تقريب وإساغة لغصص العبارة .

فأما الذين أثبتوا وصف الله تعالى بظواهرها فباعثهم فرط الخشية ، وكان للسلف في ذلك عذر لا يسع أهل العصُور التي فشا فيها الإِلحاد والكفر فهم عن إقناع السائلين بمعزل ، وقلم التطويل في ذلك مَغْزِل .

والأنعام : الإِبل والبقر والغنم والمعز .

وفرع على خلقها للناس أنهم لها مالكون قادرون على استعمالها فيما يشاءُون لأن الملك هو أنواع التصرف .

قال الربيع بن ضَبُع الفزاري من شعراء الجاهلية المعمَّرين :

أصبحت لا أحمل السلاح ولا

أملِك رأسَ البعير إن نفرا . . .

وهذا إدماج للامتنان في أثناء التذكير .

وتقديم ﴿ لَهَا ﴾ على ﴿ مالكون ﴾ الذي هو متعلّقه لزيادة استحضار الأنعام عند السامعين قبل سماع متعلّقه ليقع كلاهما أمكن وَقع بالتقديم وبالتشويق ، وقضى بذلك أيضاً رَعي الفاصلة .

وعدل عن أن يقال : فهُم مالكوها ، إلى ﴿ فهم لها مالكون ﴾ ليتأتّى التنكير فيفيدَ بتعظيم المالكين للأنعام الكنايةَ عن تعظيم الملك ، أي بكثرة الانتفاع وهو ما أشار إليه تفصيلاً وإجمالاً قوله تعالى : ﴿ وذللناها لهم ﴾ إلى قوله : ﴿ ولهم فيها منافِعُ ومشارِبُ ﴾ .

وأن إضافة الوصف المُشبه الفعل وإن كانت لا تكسَب المضاف تعريفاً لكنها لا تنسلخ منها خصائص التنكير مثل التنوين .

وجيء بالجملة الاسمية لإفادة ثبات هذا الملك ودوامه .

والتذليل : جعل الشيء ذليلاً ، والذليل ضد العزيز وهو الذي لا يدفع عن نفسه ما يكرهه .

ومعنى تذليل الأنعام خلق مهانتها للإنسان في جبلتها بحيث لا تُقدم على مدافعة ما يريد منها فإنها ذات قُوات يدفع بعضها بعضاً عن نفسه بها فإذا زجرها الإنسان أو أمرها ذلّت له وطاعت مع كراهيتها ما يريده منها ، من سير أو حمل أو حلب أو أخذ نسل أو ذبح .

وقد أشار إلى ذلك قوله : ﴿ فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ .

والرَّكوب بفتح الراء : المركوب مثل الحلوب وهو فعول بمعنى مفعول ، فلذلك يطابق موصوفه يقال : بعير ركوب وناقة حَلوبة .

و﴿ مِن ﴾ تبعيضية ، أي وبعضها غير ذلك مثل الحرث والقتال كما قال : ﴿ ولهم فيها منافِعُ ومشَارِبُ ﴾ والمشارب : جمع مشرب ، وهو مصدر ميمي بمعنى : الشرب ، أريد به المفعول ، أي مشروبات .

وتقديم المجرورَيْن بـ ( مِن ) على ما حقهما أن يتأخرا عنهما للوجه الذي ذكر في قوله : ﴿ فهم لها مالِكُون ﴾ .

وفرع على هذا التذكير والامتنان قوله : ﴿ أفلا يَشْكُرونَ ﴾ استفهاماً تعجيبياً لتركهم تكرير الشكر على هذه النعم العِدّة فلذلك جيء بالمضارع المفيد للتجديد والاستمرار لأن تلك النعم متتالية متعاقبة في كل حين ، وإذ قد عُجِب من عدم تكريرهم الشكر كانت إفادة التعجيب من عدم الشكر من أصله بالفحوى ولذلك أعقبه بقوله : ﴿ واتخذوا من دُونِ

اللهِ ءَالِهَةً ﴾ [يس : 74] .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74)

عطف على جملة ﴿ أو لم يروا أنَّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً ﴾ [يس : 71] ، أي ألم يروا دلائل الوحدانية ولم يتأملوا جلائل النعمة ، واتخذوا آلهة من دون الله المنعِم والمنفرد بالخلق .

ولك أن تجعله عطفاً على الجملتين المفرعتين ، والمقصود من الإِخبار باتخاذهم آلهة من دون الله التعجيب من جريانهم على خلاف حقّ النعمة ثم مخالفةِ مقتضى دليل الوحدانية المدمَج في ذكر النعم .

(200/648)

---

والإِتيان باسم الجلالة العَلَم دون ضميرٍ إظهارٌ في مقام الإِضمار لما يشعر به اسمه العلم من عظمة الإِلهية إيماء إلى أن اتخاذهم آلهة من دونه جراءة عظيمة ليكون ذلك توطئة لقوله بعده ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ [يس : 76] أي فإنهم قالوا ما هو أشد نكراً .

وأما الإِضمار في قوله في سورة الفرقان ( 3 ) : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ﴾ فلأنه تقدم ذكر انفراده بالإِلهية صريحاً من قوله : ﴿ الذي له ملك

السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ [ الفرقان : 2 ] .

وقوله : ﴿ لعلَّهم يُنصرون ﴾ وقعت ( لعلّ ) فيه موقعاً غير مألوف لأن شأن ( لعلّ ) أن تفيد إنشاء رجاء المتكلم بها وذلك غير مستقيم هنا .

وقد أغفل المفسرون التعرض لتفسيره ، وأهمله علماء النحو واللغةِ من استعمال ( لعلّ ) ، فيتعين : إما أن تكون ( لعلّ ) تمثيلية مكنية بأن شبه شأن الله فيما أخبر عنهم بحال من يرجو من المخبرَ عنهم أن يحصُل لهم خبرُ ( لعلّ ) ، وذكر حرف ( لعلّ ) رمز لرديف المشبه به فتكون جملة ﴿ لعلهم ينصرون ﴾ معترضة بين ﴿ ءَالِهَةً ﴾ وبين صفته وهي جملة ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ ، وإما أن يكون الكلام جرى على معنى الاستفهام وهو استفهام إنكاري أو تهكمي والجملة معترضة أيضاً ، وإما أن يجعل الرجاء منصرفاً إلى رجاء المخبر عنهم ، أي راجين أن تنصرهم تلك الآلهة وعلى تقدير قول محذوف ، أي قائلين : لعلنا نُنصر ، وحكي ﴿ يُنصَرون ﴾ بالمعنى على أحد وجهين في حكاية الأقوال تقول : قال أفعَلُ كذا ، وقال يَفعل كُذا ، وتكون جملة ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ استئنافاً للرد عليهم .

وإما أن تجعل ( لعلّ ) للتعليل على مذهب الكسائي فتكون جملة ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ استئنافاً .

والمقصود : الإشارة إلى أن الكفار يزعمون أن الأصنام تشفع لهم عند الله في أمور الدنيا ويقولون : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [ يونس : 18 ] وهم سالكون في هذا الزعم مسلك ما يألفونه من الاعتزاز بالموالاة والحلف بين القبائل والانتماء إلى قادتهم ، فبمقدار كثرة الموالي تكون عزّة القبيلة فقاسوا شؤونهم مع ربهم على شؤونهم الجارية بينهم وقياس أمور الإلهية على أحوال البشر من أعمق مهاوي الضلالة .

وأجري على الأصنام ضمير جمع العقلاء في قوله : ﴿ لا يستطيعون ﴾ لأنهم سموهم بأسماء العقلاء وزعموا لهم إدراكاً .

وضمير ﴿ وهُمْ ﴾ يجوز أن يعود إلى ﴿ ءَالِهَة ﴾ تبعاً لضمير ﴿ لا يستطيعون ﴾ .

وضمير ﴿ لَهُم ﴾ للمشركين ، أي والأصنام للمشركين جند محضَرون ، والجند العدد الكثير .

والمحضر الذي جيء به ليحضر مشهداً .

والمعنى : أنهم لا يستطيعون النصر مع حضورهم في موقف المشركين لمشاهدة تعذيبهم ومع كونهم عدداً كثيراً ولا يقدرون على نصر المتمسكين بهم ، أي هم عاجزون عن ذلك ، وهذا تأييس للمشركين من نفع أصنامهم .

ويجوز العكس ، أي والمشركون جند لأصنامهم محضرون لخدمتها .

ويجوز أن يكون هذا إخباراً عن حالهم مع أصنامهم في الدنيا وفي الآخرة .

وينبغي أن تكون جملة ﴿ وهم لهم جندٌ مُحضرونَ ﴾ في موضع الحال ، والواو واو الحال من ضمير ﴿ يستطيعون ﴾ ، أي ليس عدم استطاعتهم نصرهم لبعد مكانهم وتأخر الصريخ لهم ولكنهم لا يستطيعون وهم حاضرون لهم ، واللام في ﴿ لَهُم ﴾ للأجَل ، أي أن الله يحضر الأصنام حين حشر عبدتها إلى النار ليُري المشركين خطَل رأيهم وخيبة أملهم ، فهذا وعيد بعذاب لا يجدون منه ملجأ .

فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (76)

(202/648)

---

فرّع على قوله : ﴿ واتَّخذوا من دُونِ الله ءَالِهَةً ﴾ [ يس : 74 ] صرفُ أن تحزن أقوالهم النبي صلى الله عليه وسلم أي تحذيره من أن يحزِن لأقوالهم فيه فإنهم قالوا في شأن الله ما هو أفظع .

و ﴿ قولهم ﴾ من إضافة اسم الجنس فيعم ، أي فلا تحزنك أقوالهم في الإِشراك وإنكار البعث والتكذيب والأذى للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، ولذلك حذف المقول ، أي لا يحزنك قولهم الذي من شأنه أن يحزنك .

والنهي عن الحزن نهي عن سببه وهو اشتغال بال الرسول بإعراضهم عن قبول الدين الحق ، وهو يستلزم الأمر بالأسباب الصارفة للحزن عن نفسه من التسلّي بعناية الله تعالى وعقابه من ناووه وعادوه .

﴿ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ .

تعليل للنهي عن الحزن لقولهم .

والخبر كناية عن مؤاخذتهم بما يقولون ، أي إنا محصون عليهم أقوالهم وما تسرّه أنفسهم مما لا يجهرون به فنؤاخذهم بذلك كله بما يكافئه من عقابهم ونصرِك عليهم ونحو ذلك .

وفي قوله : ﴿ ما يُسِرُّونَ وما يُعلنون ﴾ تعميم لجعل التعليل تذييلاً أيضاً .

و"إنّ" مغنية عن فاء التسبب في مقام ورودها لمجرد الاهتمام بالتأكيد المخبر بالجملة ليست مستأنفة ولكنها مترتبة .

وقرأ نافع ﴿ يُحزِنكَ ﴾ بضم الياء وكسر الزاي من أحزنه إذا أدخل عليه حزناً .

وقرأه الباقون بفتح الياء وضم الزاي من حَزَنه بفتح الزاي بمعنى أحزنه وهما بمعنى واحد .

وقدم الإِسرار للاهتمام به لأنه أشدّ دلالة على إحاطة علم الله بأحوالهم ، وذكر بعده الإِعلان لأنه محل الخبر ، وللدلالة على استيعاب علم الله تعالى بجزئيات الأمور وكلياتها .

والوقف عند قوله : ﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ مع الابتداء بقوله : ﴿ إِنَّا نعلم ﴾ أَحسنُ من الوصل لأنه أوضح للمعنى ، وليس بمتعيّن إذ لا يخطر ببال سامع أنهم يقولون : إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، ولو قالوه لما كان مما يحزن النبي صلى الله عليه وسلم فكيف ينهى عن الحزن منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

(204/648)

---

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى الشعر )

الشِّعر : الكلام الموزون المنظوم المقصود ، وجمعه : أَشعار .

وهو فى الأَصل العِلم ، لكن غَلَب على منظوم القول ؛ لشرفه بالوزن والقافية ؛ كما غَلَب الفِقهُ على عِلم الشرع ، والعُودُ على المَنْدَل ، والنَجْم على الثُّريّا ، وغير ذلك من نَمَطه .

وربّما سَمَّوا البيت الواحد شِعرًا ، قاله الأَخفش .

وليس بِقوىّ ، إِلاَّ أَن يكون على تسمية الجزءِ باسم الكلّ ، كقولك : الماء للجزءِ من الماءِ ،

والأَرض للقطعة من الأَرض .

/ والشاعر جمعه الشُّعَراء على غير قياس .

وسمّى شاعرًا لفطنته .

وما كان شاعرًا ولقد شَعُر - بالضّمّ - فهو يَشْعُر شَعَارة .

قال يونس بن حبيب : يقال للشاعر المُفْلق : خِنذيذ ، ولِمَن دونه : شاعر ، ولمن دونه : شُوَيعر ، ولمن دونه شُعْرور .

وشَعَرت بالشىء - بالفتح - أَشعُر به - بالضمّ - شِعْرًا وشِعْرةً وشِعْرَى ، بكسرهنّ ، وشَعْرةً - بالفتح - وشُعورًا ومَشعورًا ومَشعورةً : عَلِمت به وفطِنت له ، ومنه قولهم : ليت شِعْرِى فلانًا ما صنع ، ولفلان ، وعن فلان .

وقوله تعالى عن الكفار : ﴿ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ حمله كثير من المفسّرين على أَنَّهم رمَوه بكونه آتيًا بشعر منظوم مُقفًّى ، حتى تأَوّلوا ما جاءَ فى القرآن من كلّ كلام يشبه الموزون من نحو : ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ .

وقال بعضهم المحصّلين : لم يقصدوا هذا المقصد فيما رمَوه به ؛ وذلك أَنَّه ظاهر من هذا أَنَّه ليس على أَساليب الشعر ، ولا يخفى ذلك على الأَغتام من العجَم ، فضلاً عن بلغاءِ العرب .

وإِنَّما رموه [بالكذب] فإِن الشعر يعبَّر به عن الكذب ، والشّاعر : الكاذب ، حتى سمّوا

الأَدِلَّة الكاذبة الأَدلة الشعريّة ، ولهذا قال تعالى فى وصف عامّة الشعراء : ﴿ وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ إِلى آخر السورة .

ولكون الشعر مقرًّا للكذب قيل : أَحسن الشعر أَكذبه .

(205/648)

---

وقال بعض الحكماءِ : لم يُرَ متديِّن صادقُ اللَّهجة مُفلِقا فى شعره .

قال :

*أَرى الشعر يُحيى الجودَ والنّاس والذى * يبقّيه أَرواح له عطرات*

*وما المجدُ لولا الشعر إِلاَّ مَعاهِد * وما النّاس إِلاَّ أَعظُمٌ نَخِرات*

والمشاعِر : الحواسّ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ ونحو ذلك معناه : لا تدركونه بالحواسّ .

ولو قال فى كثير ممّا جاءَ فيه (لا يشعرون) لا يعقلون لم يكن يجوز ، إِذ كان كثيرا ممّا لا يكون محسوسًا قد يكون معقولاً .

ومشاعر الحجّ : معالمه الظَّاهرة للحواسّ ، الواحد مَشْعَر .

ويقال : شعائر الحجّ ، والواحدة شَعِيرة وشِعارة .

وقال الأَزهرى : الشعائر : المعالم التى نَدَبَ الله إِليها ، وأَمرَ بالقيام بها .

وقوُله تعالى : ﴿ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ ، أَى ما يُهدَى إِلى بيت الله .

وسمّى بذلك لأَنَّها تُشعَرُ أَى تعلّم بأَن تُدْمَى بشَعِيرة ، أَى حديدة يُشعر بها .

والشِّعار : الثَّوب الذى يلى الجَسد ؛ لمماسّة الشَّعَر .

والشِّعار أَيضًا : ما يُشعِر به الإِنسان نفسَه فى الحرب ، أَى يُعلم .

وأَشعره الحُبُّ نحو أَلبسه .

والأَشعر : الطويل الشعر .

وداهية شعراء عظيمة ؛ كقولك داهية وبْراء والشِّعْرَى : نجم يطلع بعد الجوزاء ، وطلوعه فى شدّة الحَرّ .

وهما شِعْرَيَان : الشعرى العَبُور التى في الجوزاءِ ، والشعرى الغُميصاء الَّتى فى الذراع .

تزعم العرب أَنَّها أُختا سُهيل .

وتخصيصه فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾ لكونها معبودة لقوم منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 323 . 325 ﴾

*(206/648)*

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) ﴾

كلامه صلى الله عليه وسلم ، كان خارجاً عن أوزان الشّعر ، والذي أتاهم به من القرآن لم يكن من أنواع الشعر ، ولا من طرق الخطباء .

تَحيَّرَ القومُ في بابه ؛ ولم تكتحل بصائرهم بكحل التوحيد فعموا عن شهود الحقائق .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71)

ذَكَرَ عظيمَ مِنَّتِه عليهم ، وجميلَ نعمته لديهم بما سخر لهم من الأنعام التي ينتفعون بها بوجوه الانتفاع .

ولفظ ﴿ أَيْدِينَا ﴾ تَوَسُّع ؛ أي مما عملنا وخلقنا ، وذلك أنهم ينتفعون بركوبها وبأكل لحومها وشحومها ، وبشرْبِ ألبانها ، وبالحَمْلِ عليها ، وقَطَعَ المسافاتِ بها ، ثم بأصوافها وأوبارها وشَعْرِها ثم بعَظْمِ بعضها . . فطالَبَهم بالشكر عليها ، ووصَفَهم بالتقصير في شُكْرِهم .

ثم أَظْهَرَ - ما إذا كان في صفة المخلوقين لكان شكاية - أنهم مع كل هذه الوجوه من الإحسان : -

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74)

اكتفوا بأمثالهم معبوداتٍ لهم ، ثم سَلَّى نبيَّه - صلى الله عليه وسلم بأنْ قال له : -

﴿ فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

وإذا عَلِمَ العبدُ أنّه بمرأى من الحقّ هَانَ عليه ما يقاسيه ، ولا سيما إذا كان في الله . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 224 . 225 ﴾

(207/648)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

ويُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والأربعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/649)

---

الجزء التاسع والأربعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 77 ﴾ من سورة يس

وحتى الآية ﴿ 83 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/649)

---

قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أثبت سبحانه بهذا الدليل قدرته على ما هدد به أولاً من التحويل من حال إلى أخرى ، فثبتت بذلك قدرته على البعث ، وختم بإحاطة العلم الملزوم لتمام القدرة ، أتبع ذلك دليلاً أبين من الأول فقال عاطفاً على ﴿ ألم يروا ﴾ : ﴿ أولم ير ﴾ أي يعلم علماً هو في ظهوره كالمحسوس بالبصر .

ولما كان هذا المثل الذي قاله هذا الكافر لا يرضاه حمار لو نطق ، أشار إلى غباوته بالتعبير بالإنسان الذي هو - وإن كان أفطن المخلوقات لما ركب فيه سبحانه من العقل - تغلب عليه الإنس بنفسه حتى يصير مثلاً فقال : ﴿ الإنسان ﴾ أي جنسه منهم ومن غيرهم وإن كان الذي نزلت فيه واحداً ﴿ أنا خلقناه ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ من نطفة ﴾ أي شيء يسير حقير من ماء لا انتفاع به بعد إبداعنا أباه من تراب وأمه من لحم وعظام ﴿ فإذا هو ﴾ أي فتسبب عن خلقنا له من ذلك المفاجأة لحالة هي أبعد شيء من حالة المطفة وهي أنه ﴿ خصيم ﴾ أي بالغ الخصومة ﴿ مبين ﴾ أي في غاية البيان عما يريده حتى أنه ليجادل من أعطاء العقل والقدرة في قدرته ، أنشد الأستاذ أبو القاسم القشيري في ذلك :

أعلمه الرماية كل يوم . . .

فلما اشتد ساعده رماني

ولما كان التقدير : فبعد – مع أنا تفردنا بالإنعام عليه – عيرنا وخاصم – بما خلقناه له من اللسان وآتيناه من البيان – رسلنا وجميع أهل ودنا ، عطف عليه قوله مقبحاً إنكارهم البعث تقبيحاً لا يرى أعجب منه ، ولا أبلغ ولا أدل على التمادي ، في الضلال والإفراط في الجحود وعقوق الأيادي : ﴿ وضرب ﴾ أي هذا الإنسان ؛ وسبب النزول أبي بن خلف الجمحي الذي قتله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأحد مبارزة ، فهو المراد بهذا التبكيت بالذات وبالقصد الأول ﴿ لنا ﴾ أي على ما يعلم من عظمتنا ﴿ مثلاً ﴾ أي آلهته التي عبدها لكونها لا تقدر على شيء مكابراً لعقله في أنه لا شيء يشبهنا ﴿ ونسي ﴾ أي هذا الذي تصدى على نهاية أصله لمخاصمة الجبار ، وأبرز صفحته لمجادلته ، والنسيان هنا يحتمل أن يكون بمعنى الذهول ، وأن بكون بمعنى الترك ﴿ خلقه ﴾ أي خلقنا لهذا المخاصم الدال على كمال قدرتنا ، وأن آلهته التي أشرك بها لا تقدر على شيء فافترق الحال الذي جمعه بالمثل أيّ افتراق وصارا مقولاً له : يا قليل الفطنة ! أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ ثم استأنف الإخبار عن هذا المثل بالإخبار عن استحالته لأن يقدر أحد على إحياء الميت كما أن معبوداته لا تقدر على ذلك فقال : ﴿ قال ﴾ أي على سبيل الإنكار : ﴿ من يحيي ﴾ .

ولما كانت العظام أصلب شيء وأبعده عن قبول الحياة لا سيما إذا بليت وأرفتت قال :

﴿ العظام وهي ﴾ ولما أخبر عن المؤنث باسم لما بلي من العظام غير صفة ، لم يثبت تاء التأنيث فقال : ﴿ رميم ﴾ أي صارت ترابا ًيمر مع الرياح.

*(6/649)*

---

ولما كان موطناً يتشوف فيه السامع لهذا الكلام إلى جوابه ، استأنف قوله مخاطباً من لا يفهم هذه المجادلة حق فهمها غيره : ﴿ قل ﴾ أي لهذا الذي ضرب هذا المثل جهلاً منه في قياسه من يقدر على كل شيء على من لا يقدر على شيء ، وأعاد فعل الإحياء نصاً على المراد دفعاً للتعنت ودلالة على الاهتمام فقال : ﴿ يحييها ﴾ أي من بعد أن بليت ثاني مرة ، ولفت القول إلى وصف يدل على الحكم فقال : ﴿ الذي أنشأها ﴾ أي من العدم ثم أحياها ﴿ أول مرة ﴾ أي فإن كل من قدر على إيجاد شيء أول مرة فهو قادر على إعادته ثاني مرة ، وهي شاهدة بأن الحياة تحل العظم فيتنجس بالموت مما يحكم بنجاسة ميتته ﴿ وهو بكل خلق ﴾ أي صنع وتقدير ممكن أن يخلق من ذلك ومن غيره ابتداء وإعادة ﴿ عليم ﴾ أي بالغ العلم ، فلا يخفى عليه أجراء ميت أصلاً وإن تفرقت في البر والبحر ، ولا شيء غير ذلك ، فالآية من بديع الاحتباك : الإحياء أولاً دال على مثله ثانياً ، والإنشاء ثانياً دال على مثله أولاً ، و ﴿ أول مرة ﴾ في الثاني دال على " ثاني مرة " في الأول ، فهو

على كل شيء قدير كما برهن عليه في سورة طه ، فهو يوجد المقتضيات لكل ممكن يريده ، ويرفع الموانع فيوجد في الحال من غير تخلف أصلاً ، فقد بلغ هذا البيان في الدلالة على البعث الجسماني والروحاني معاً النهاية التي ليس وراءها بيان ، بعد أن وطأ له في هذه السورة نفسها بما لا يحتمل طعناً بقوله : ﴿ فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ ﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾ ﴿ فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ﴾ ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ ﴿ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ .

(7/649)

---

ولما كان مآل هذا المثل الذي علق الإنكار فيه بالرميم استبعاد تمييز الشيء - إذا صار تراباً واختلط بالتراب - عن غيره من التراب ، وصف نفسه المقدس بإخراج الشيء الذي هو أخفى ما يكون من ضده ، وذلك بتمييز النار من الخشب الذي فيه الماء ظاهر بأيدي العجزة من خلقه ، فقال معيداً للوصول تنبيهاً على التذكير بالموصوف ليستحضر ما له من صفات الكمال فيبادر إلى الخضوع له من كان حياً : ﴿ الذي جعل لكم ﴾ أي متاعاً واستبصاراً ﴿ من الشجر الأخضر ﴾ الذي تشاهدون فيه الماء ﴿ ناراً ﴾ بأن يأخذ

أحدكم غصنين كالسواكين وهما أخضران يقطر منهما الماء فيسحق المرخ - وهو ذكر - على العفار - وهو أنثى - فتخرج النار ! قال أبو حيان : وعن ابن عباس .رضى الله عنهما . : ليس شجر إلا وفيه نار إلا العناب - انتهى .

ولذلك قالوا في المثل المشهور : في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ﴿ فإذا أنتم ﴾ أي فيتسبب عن ذلك مفاجأتكم لأنكم ﴿ منه ﴾ أي الشجر الموصوف بالخضرة بعينه ﴿ توقدون ﴾ أي توجدون الإيقاد ويتجدد لكم ذلك مرة بعد أخرى ، ما هو بخيال ولا سحر بل حقيقة ثابتة بينة ، وكأنه قدم الجار لكثرة إيقادهم منه ، إيقادهم من غيره لذلك ولعظمته عدماً .

ولما كان ذلك من غير كلفة عليهم ، قدم الجار تخصيصاً له وعداً لغيره كالمعدوم ، فالذي قدر على تمييز النار من الماء والخشب وخبء النار فيهما لا النار تعدو على الخشب فتحرقه ولا الماء يعدو على النار فيطفئها قادر على تمييز تراب العظام من تراب غيرها ، ونفخ الروح كما نفخ روح النار في الحطب المضاد له بالمائية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 284.287 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى لما ذكر دليلاً من الآفاق على وجوب عبادته بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أنعاما ﴾ [ يس : 71 ] ذكر دليلاً من الأنفس .

فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خلقناه مِن نُّطْفَةٍ ﴾ قيل إن المراد بالإنسان أبيّ بن خلف فإن الآية وردت فيه حيث أخذ عظماً بالياً وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إنك تقول إن إلهك يحيي هذه العظام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ويدخلك جهنم ، وقد ثبت في أصول الفقه أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ألا ترى أن قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ التي تجادلك فِي زَوْجِهَا ﴾ [ المجادلة : 1 ] نزلت في واحدة وأراد الكل في الحكم فكذلك كل إنسان ينكر الله أو الحشر فهذه الآية رد عليه إذا علمت عمومها فنقول فيها لطائف :

اللطيفة الأولى : قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ [ يس : 71 ] معناه الكافرون المنكرون التاركون عبادة الله المتخذون من دونه آلهة ، أو لم يروا خلق الأنعام لهم وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان ﴾ كلام أعم من قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ لأنه مع جنس الإنسان وهو مع جمع منهم فنقول سبب ذلك أن دليل الأنفس أشمل وأكمل وأتم وألزم

، فإن الإنسان قد يغفل عن الإنعام وخلقها عند غيبتها ولكن ( لا يغفل ) هو مع نفسه متى ما يكون وأينما يكون .

(9/649)

---

فقال : إن غاب عن الحيوان وخلقه فهو لا يعيب عن نفسه ، فما باله أولم ير أنا خلقناه من نطفة وهو أتم نعمة ، فإن سائر النعم بعد وجوده وقوله : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إشارة إلى وجه الدلالة ، وذلك لأن خلقه لو كان من أشياء مختلفة الصور كان يمكن أن يقال العظم خلق من جنس صلب واللحم من جنس رخو ، وكذلك الحال في كل عضو ، ولما كان خلقه عن نطفة متشابهة الأجزاء وهو مختلف الصور دل على الاختيار والقدرة إلى هذا أشار بقوله تعالى : ﴿ يسقى بِمَاء واحد ﴾ [ الرعد : 4 ] .

وقوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ فيه لطيفة غريبة وهي أنه تعالى قال اختلاف صور أعضائه مع تشابه أجزاء ما خلق منه آية ظاهرة ومع هذا فهنالك ما هو أظهر وهو نطقه وفهمه ، وذلك لأن النطفة جسم ، فهب أن جاهلاً يقول إنه استحال وتكون جسماً آخر ، لكن القوة الناطقة والقوة الفاهمة من أين تقتضيهما النطفة ؟ فإبداع النطق والفهم أعجب وأغرب من إبداع الخلق والجسم وهو إلى إدراك القدرة والاختيار منه أقرب فقوله :

﴿ خَصِيمٌ ﴾ أي ناطق وإنما ذكر الخصيم مكان النطق لأنه أعلى أحوال الناطق ، فإن الناطق مع نفسه لا يبين كلامه مثل ما يبينه وهو يتكلم مع غيره ، والمتكلم مع غيره إذا لم يكن خصماً لا يبين ولا يجتهد مثل ما يجتهد إذا كان كلامه مع خصمه وقوله : ﴿ مُّبِينٌ ﴾ إشارة إلى قوة عقله ، واختار الإبانة لأن العاقل عند الإفهام أعلى درجة منه عند عدمه ، لأن المبين بان عنده الشيء ثم أبانه فقوله تعالى : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إشارة إلى أدنى ما كان عليه وقوله : ﴿ خصيم مبين ﴾ إشارة إلى أعلى ما حصل عليه وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً ﴾ إلى أن قال تعالى :

(10/649)

---

﴿ ثُمَّ أنشأناه خلقاً آخر ﴾ [ المؤمنون : 14 ] فما تقدم من خلق النطفة علقة وخلق العلقة مضغة وخلق المضغة عظاماً إشارة إلى التغيرات في الجسم وقوله : ﴿ ثُمَّ أنشأناه خلقاً آخر ﴾ إشارة إلى ما أشار إليه بقوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ناطق عاقل .

(11/649)

---

ثم قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ إشارة إلى بيان الحشر وفي هذه الآيات إلى آخر السورة غرائب وعجائب نذكرها بقدر الإمكان إن شاء الله تعالى ، فنقول المنكرون للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلاً ولا شبهة واكتفى بالاستبعاد وادعى الضرورة وهم الأكثرون ، ويدل عليه قوله تعالى حكاية عنهم في كثير من المواضع بلفظ الاستبعاد كما قال : ﴿ وَقَالُواْ أإذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلقٍ جديد ﴾ [ السجدة : 10 ] ﴿ أَءذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما أَءنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [ الصافات : 16 ] ﴿ أَئنَّكَ لَمِنَ المصدقين ﴾ [ الصافات : 52 ] ﴿ إئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون ﴾ [ الصافات : 53 ] إلى غير ذلك فكذلك ههنا قال : ﴿ قَالَ مَن يُحىِ العظام وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ على طريق الاستبعاد فبدأ أولاً بإبطال استبعادهم بقوله : ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ أي نسي أنا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الأجزاء ، ثم جعلنا لهم من النواصي إلى الأقدام أعضاء مختلفة الصور والقوام وما اكتفينا بذلك حتى أودعناهم ما ليس من قبيل هذه الأجرام وهو النطق والعقل الذي ( ن ) بهما استحقوا الإكرام فإن كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة قذرة لم تكن محل الحياة أصلاً ، ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محل كانا فيه ، ثم إن استبعادهم كان من جهة ما في المعاد من التفتت والتفرق حيث قالوا : ﴿ مَن يُحىِ العظام وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ اختاروا العظم للذكر لأنه أبعد عن الحياة لعدم الإحساس فيه ووصفوه بما يقوي جانب الاستبعاد من البلى والتفتت والله تعالى دفع

استبعادهم من جهة ما في المعيد من القدرة والعلم فقال : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً ﴾ أي جعل قدرتنا كقدرتهم ونسي خلقه العجيب وبدأه الغريب ، ومنهم من ذكر شبهة وإن كانت في آخرها تعود إلى مجرد الاستبعاد وهي على وجهين أحدهما : أنه بعد العدم لم يبق شيئاً فكيف يصح على

(12/649)

---

العدم الحكم بالوجود ، وأجاب عن هذه الشبهة .

بقوله تعالى :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ يعني كما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً كذلك يعيده وإن لم يبق شيئاً مذكوراً وثانيها : أن من تفرقت أجزاؤه في مشارق العالم ومغاربه وصار بعضه في أبدان السباع وبعضه في جدران الرباع كيف يجمع ؟ وأبعد من هذا هو أن إنساناً إذا أكل إنساناً وصار أجزاء المأكول في أجزاء الآكل فإن أعيد فأجزاء المأكول ، إما أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه ، وإما أن تعاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء .

فقال تعالى في إبطال هذه الشبهة : ﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾ ووجهه هو أن في الآكل

أجزاء أصلية وأجزاء فضلية ، وفي المأكول كذلك ، فإذا أكل إنسان إنساناً صار الأصلي من أجزاء المأكول فضلياً من أجزاء الآكل والأجزاء الأصلية للآكل هي ما كان له قبل الأكل .

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ يعلم الأصلي من الفضلي فيجمع الأجزاء الأصلية للآكل وينفخ فيها روحه ويجمع الأجزاء الأصلية للمأكول وينفخ فيها روحه ، وكذلك يجمع الأجزاء المتفرقة في البقاع ، المبددة في الأصقاع بحكمته الشاملة وقدرته الكاملة .

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80)

ووجهه هو أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به وحياة سارية فيه ، وهي كحرارة جارية فيه فإن استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه ، فإن النار في الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب وأنتم تحضرون حيث منه توقدون ، وإن استبعدتم خلق جسمه فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه فإن الله خلق السموات والأرض فبان لطف قوله تعالى : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشجر الأخضر نَاراً فَإِذَآ أَنتُم مِّنْه تُوقِدُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 96.94 ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تعَالَى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : يُرْوَى أَنَّ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ أَوْ الْعَاصِيَ بْنَ وَائِلٍ مَرَّ بِرِمَّةٍ بَالِيَةٍ فَأَخَذَهَا ، وَقَالَ : الْيَوْمَ أَغْلِبُ مُحَمَّدًا ، وَجَاءَ إلَيْهِ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَنْتَ الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يُعِيدُ هَذَا كَمَا بَدَأَهُ ، وَفَتَّتَهُ بِيَدِهِ ، حَتَّى عَادَ رَمِيمًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ إلَى آخِرِ السُّورَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ فِي الْعِظَامِ حَيَاةً ، وَأَنَّهُ يَنْجَسُ بِالْمَوْتِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَحَلٍّ تَحِلُّ الْحَيَاةُ بِهِ فَيَخْلُفُهَا الْمَوْتُ يَنْجَسُ وَيُحَرَّمُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ ﴾ وَسَاعَدَنَا أَبُو حَنِيفَةَ فِيهِ ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا حَيَاةَ فِيهِ وَلَا يَنْجَسُ بِالْمَوْتِ .

وَقَدْ اضْطَرَبَ أَرْبَابُ الْمَذَاهِبِ فِيهِ ، وَالصَّحِيحُ مَا قَدَّمْنَاهُ .

فَإِنْ قِيلَ : أَرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ ﴾ يَعْنِي أَصْحَابَ الْعِظَامِ ، وَإِقَامَةُ الْمُضَافِ مَقَامَ الْمُضَافِ إلَيْهِ كَثِيرٌ فِي اللُّغَةِ مَوْجُودٌ فِي الشَّرِيعَةِ .

(14/649)

---

قُلْنَا : إنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ إذَا اُحْتِيجَ إلَيْهِ لِضَرُورَةٍ ، وَلَيْسَ هَاهُنَا ضَرُورَةٌ تَدْعُو إلَى هَذَا الْإِضْمَارِ ، وَلَا يُفْتَقَرُ إلَى هَذَا التَّقْدِيرِ ، وَإِنَّمَا يُحْمَلُ الْكَلَامُ عَلَى الظَّاهِرِ ؛ إذْ الْبَارِي سُبْحَانَهُ قَدْ أَخْبَرَ بِهِ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ ، وَالْحَقِيقَةُ تَشْهَدُ لَهُ ؛ فَإِنَّ الْإِحْسَاسَ الَّذِي هُوَ عَلَامَةُ الْحَيَاةِ مَوْجُودٌ فِيهِ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(15/649)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان ﴾

قال ابن عباس : الإنسان هو عبد الله بن أُبَيّ .

وقال سعيد بن جبير : هو العاص بن وائل السَّهْمي .

وقال الحسن : هو أُبَيّ بن خلف الجُمَحي .

وقاله ابن إسحاق، ورواه ابن وهب عن مالك.

﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ وهو اليسير من الماء؛ نطف إذا قطر.

﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أي مجادل في الخصومة مبين للحجة.

يريد بذلك أنه صار بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً خصيماً مبيناً.

وذلك أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم حائل فقال: يا محمد أترى أن الله يحيي هذا بعد ما رم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "نعم ويبعثك الله ويدخلك النار" فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ أي ونسي أنا أنشأناه من نطفة ميتة فركبنا فيه الحياة.

أي جوابه من نفسه حاضر؛ ولهذا قال عليه السلام: "نعم ويبعثك الله ويدخلك النار" ففي هذا دليل على صحة القياس؛ لأن الله جل وعز احتج على منكري البعث بالنشأة الأولى.

﴿ قَالَ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ أي بالية.

رَمَّ العظمُ فهو رَميمٌ ورِمَام.

وإنما قال رميم ولم يقل رميمة ؛ لأنها معدولة عن فاعلة ، وما كان معدولاً عن وجهه ووزنه كان مصروفاً عن إعرابه ؛ كقوله : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ [ مريم : 28 ] أسقط الهاء ؛ لأنها مصروفة عن باغية .

وقيل : إن هذا الكافر قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أرأيت إن سحقتها وأذريتها في الريح أيعيدها الله ! فنزلت : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي من غير شيء فهو قادر على إعادتها في النشأة الثانية من شيء وهو عَجْم الذَّنَب .

ويقال عَجْبُ الذَّنَب بالباء .

(16/649)

---

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أي كيف يبدىء ويعيد .

الثانية : في هذه الآية دليل على أن في العظام حياة وأنها تنجس بالموت .

وهو قول أبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي .

وقال الشافعي رضي الله عنه : لا حياة فيها .

وقد تقدّم هذا في "النحل" .

فإن قيل : أراد بقوله ﴿ مَن يُحيِي العظام ﴾ أصحاب العظام ، وإقامة المضاف مقام

المضاف إليه كثير في اللغة ، موجود في الشريعة .

قلنا : إنما يكون إذا احتيج لضرورة وليس هاهنا ضرورة تدعو إلى هذا الإضمار ، ولا يفتقر إلى هذا التقدير ، إذ الباري سبحانه قد أخبر به وهو قادر عليه والحقيقة تشهد له ؛ فإن الإحساس الذي هو علامة الحياة موجود فيه ؛ قاله ابن العربي .

قوله تعالى : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشجر الأخضر نَاراً ﴾ نبّه تعالى على وحدانيته ، ودل على كمال قدرته في إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج المحرِق اليابس من العود النديّ الرطب .

وذلك أن الكافر قال : النطفة حارة رطبة بطبع الحياة فخرج منها الحياة ، والعظم بارد يابس بطبع الموت فكيف تخرج منه الحياة؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشجر الأخضر نَاراً ﴾ أي إن الشجر الأخضر من الماء والماء بارد رطب ضد النار وهما لا يجتمعان ، فأخرج الله منه النار ؛ فهو القادر على إخراج الضد من الضد ، وهو على كل شيء قدير .

ويعني بالآية ما في المَرْخ والعَفَار ، وهي زنادة العرب ؛ ومنه قولهم : في كل شجر نار واستمجد المَرْخُ والعَفَار ؛ فالعَفَار الزَّنْد وهو الأعلى ، والمَرْخ الزَّنْدة وهي الأسفل ؛ يؤخذ منهما غصنان مثل المسواكين يقطران ماء فيحك بعضهما إلى بعض فتخرج منهما النار .

وقال : ﴿ مِّنَ الشجر الأخضر ﴾ ولم يقل الخضراء وهو جمع ، لأنه رده إلى اللفظ .

ومن العرب من يقول : الشجر الخضراء ؛ كما قال عز وجل : ﴿ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ [ الواقعة : 52 53 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(17/649)

---

وقال أبو السعود :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خلقناه مِن نُّطْفَةٍ ﴾

(18/649)

---

كلام مستأنفٌ مسوق لبيان بطلانِ إنكارِهم البعثِ بعد ما شاهدوا في أنفسِهم أوضحَ دلائلِه وأعدلَ شواهده كما أن ما سبق مسوق لبيان بطلانِ إشراكهم بالله تعالى بعد ما عاينُوا فيما بأيديهم ما يوجب التَّوحيدَ والإسلامَ وأما ما قيلَ من أنَّه تسليةٌ ثانيةٌ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم بتهوينِ ما يقولونَهُ بالنِّسبةِ إلى إنكارِهم الحشرَ فكَلاَّ والهمزةُ للإنكارِ والتَّعجيبِ والواوُ للعطفِ على جملةٍ مقدَّرةٍ هي مستتبعةٌ للمعطوفِ كما مرَّ في الجملة

الإنكارية السابقةِ أي ألم يتفكر الإنسانُ ولم يعلم علماً يقينياً أنا خلقناه من نطفةٍ الخ أو هي عين الجملة السابقةِ أعيدتْ تأكيداً للنكيرِ السَّابق وتمهيداً لإنكارِ ما هو أحقُّ منه بالإنكارِ والتَّعجيبِ لما أنَّ المنكرَ هناك عدمُ علمهم بما يتعلَّقُ بخلقِ أسبابِ معايشهم وهاهنا عدمُ علمهم بما يتعلَّق بخلقِ أنفسهم . ولا ريبَ في أن علمَ الإنسانِ بأحوالِ نفسهِ أهمُّ وإحاطته بها أسهلُ وأكملُ ، فالإنكارُ والتَّعجيبُ من الإخلالِ بذلك أدخلُ كأنَّه قيل ألم يعلمُوا خلقَه تعالى لأسبابِ معايشهم ولم يعلمُوا خلقَه تعالى لأنفسِهم أيضاً مع كونِ العلمِ بذلك في غايةِ الظُّهور ونهايةِ الأهميةِ على معنى أنَّ المنكرَ الأول بعيدٌ قبيحٌ والثاني أبعدُ وأقبحُ ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ لعطفِ الجملةِ الإنكاريَّةِ الثَّانيةِ على الأُولى على أنَّها متقدّمة في الاعتبارِ وأنَّ تقدمَ الهمزة عليها لاقتضائها الصَّدارة في الكلامِ كما هو رأيُ الجمهورِ وإيرادُ الإنسانِ موردَ الضَّميرِ لأنَّ مدارَ الإنكارِ متعلِّقٌ بأحوالِه من حيثُ هو إنسانٌ كما في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أي شديدُ الخُصومةِ والجدالِ بالباطلِ . عطفٌ على الجملةِ المنفيَّةِ داخلٌ في حيِّزِ الإنكارِ

والتَّعجيبِ كأنَّه قيل أولم يَرَ أنَّا خلقناهُ من أخسِّ الأشياءِ وأمهنِها ففاجأ خصومتنا في أمرٍ يشهدُ بصحَّتِهِ وتحقُّقِهِ مبدأُ فطرته شهادةً بيِّنةً. وإيرادُ الجملةِ الاسميَّةِ للدِّلالةِ على استقرارهِ في الخُصومةِ واستمرارهِ عليها. رُوي أنَّ جماعةً من كفَّارِ قُريشٍ منهم أُبيُّ بن خَلَفٍ الجُمحيُّ وأبو جهلٍ والعاص بنُ وائلٍ والوليدُ بنُ المغيرة تكلَّموا في ذلكَ فقال لهم أبيُّ بنُ خلفٍ: ألا ترون إلى ما يقولُ محمدٌ: "إنَّ اللَّهَ يبعثُ الأمواتَ" ثم قال: واللاَّتِ والعُزَّى لأَصيرنَّ إليه ولأخصِمنَّه وأخذ عظماً بالياً فجعل يفتُّه بيدِهِ ويقولُ: يا محمَّدُ أترى اللهُ يُحيي هذا بعدما رُمَّ قال صلى الله عليه وسلم: "نعم ويبعثُك ويُدخلكَ جهنَّم" فنزلتْ. وقيل معنى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ فإذا هُو بعدما كانَ ماءً مَهيناً رجلٌ مميِّزٌ منطيقٌ قادرٌ على الخصامِ مبينٌ مُعربٌ عمَّا في نفسِه فصيحٌ، فهو حينئذٍ معطوفٌ على خلقنا غيرُ داخلٍ تحت الإنكارِ والتَّعجيبِ بل هو من مُتمِّماتِ شواهدِ صحَّةِ البعثِ.



---

فقولُه تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً ﴾ معطوفٌ حينئذٍ على الجُملة المنفيَّةِ داخلٌ في حيِّزِ الإنكارِ والتَّقبيحِ، وأمَّا على التَّقديرِ الأوَّلِ فهو عطفٌ على الجملة الفُجائيَّةِ، والمعنى ففاجأ خصومتنا وضربَ لنا مَثَلاً أي أوردَ في شأننا قصَّةً عجيبةً في نفس الأمرِ هي في

الغرابةِ والبُعدِ عن العقولِ كالمَثَلِ، وهي إنكارُ إحيائنا العظامَ أو قصّةً عجيبةً في زعمه واستبعدَها وعدّها من قبيلِ المَثَلِ وأنكرَها أشدَّ الإنكارِ وهي إحياؤُنا إيّاها وجعلَ لنا مَثَلاً ونظيراً من الخلقِ وقاسَ قُدرتنا على قُدرتهم ونفى الكلَّ على العمومِ. وقوله تعالى: ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ أي خلقَنا إيّاهُ على الوجهِ المذكورِ الدّالّ على بُطلانِ ما ضربه. إمّا عطفٌ على ضربَ داخلٌ في حيّزِ الإنكارِ والتّعجيبِ أو حالٌ من فاعله بإضمارِ قَدْ أو بدونه. وقولُه تعالى: ﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤالٍ نشأ من حكايةِ ضربهِ المثل كأنّه قيل أيّ مَثَلٍ ضربَ أو ماذا قال فقيل قال: ﴿ مَن يُحيِ العظام ﴾ منكِراً له أشدَّ النّكيرِ مؤكّداً له بقوله تعالى: ﴿ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ أي باليةٌ أشدَّ البلى بعيدةٌ من الحياةِ غاية البُعدِ فالمَثَلُ على الأوّلِ هو إنكارُ إحيائهِ تعالى للعظامِ فإنّه أمرٌ عجيبٌ في نفسِ الأمرِ حقيقٌ لغرابتِهِ وبُعدهِ من العقولِ بأنْ يُعدَّ مثلاً ضرورةَ جزمِ العقولِ ببطلانِ الإنكارِ ووقوعِ المنكرِ لكونِهِ كالإنشاءِ بل أهونُ منه في قياسِ العقلِ، وعلى الثّاني هو إحياؤُه تعالى لها فإنّه أمرٌ عجيبٌ في زعمِهِ قد استبعدَهُ وعدّه من قبيلِ المثلِ وأنكرَهُ أشدَّ الإنكارِ مع أنّه في نفسِ الأمرِ أقربُ شيءٍ من الوقوعِ لما سبقَ من كونه مثلَ الإنشاءِ أو أهونَ منه، وأما على الثّالثِ فلا فرقَ بين أنْ يكونَ المَثَلُ هو الإنكارَ أو المنكرَ. وعدمُ تأنيثِ الرّميمِ مع وقوعِهِ خبراً للمؤنّثِ

لأنّه اسمٌ لما بَلِيَ من العظامِ غير صفة كالرُّفاتِ، وقد تمسّك بظاهرِ الآيةِ الكريمةِ من أثبتَ للعظمِ حياةً وبنى عليه الحكم بنجاسةِ عظمِ الميتةِ، وأما أصحابُنا فلا يقولونَ بحياته كالشّعرِ ويقولون المرادُ بإحياءِ العظامِ ردُّها إلى ما كانتْ عليهِ من الغضاضةِ والرُّطوبةِ في بدنٍ حيَ حسّاسٍ ﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً له بتذكيرِ ما نسيَه من فطرته الدالّةِ على حقيقةِ الحال وإرشاده إلى طريقةِ الاستشهادِ بها ﴿ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فإنَّ قدرتَهُ كما هي لاستحالةِ التّغيرِ فيها والمادّةُ على حالِها ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ مبالغٌ في العلمِ بتفاصيلِ كيفيّاتِ الخلقِ والإيجادِ إنشاءً وإعادةً محيطٌ بجميعِ الأجزاءِ المتفتتةِ المتبدّدةِ لكلِّ شخصٍ من الأشخاصِ أصولها وفروعها وأوضاعِ بعضها من بعضٍ من الاتّصالِ والانفصالِ والاجتماعِ والافتراقِ فيعيدُ كلاًّ من ذلك على النّمطِ السّابقِ مع القُوى التي كانتْ قبلُ. والجملةُ إما اعتراضٌ تذييليٌّ مقرّرٌ لمضمونِ الجوابِ أو معطوفةٌ على الصّلةِ.

(22/649)

والعدول إلى الجُملةِ الاسميّةِ للتّنبيهِ على أنّ علمَه تعالى بما ذُكر أمرٌ مستمرٌّ ليسَ كإنشائهِ للمنشآتِ. وقولُه تعالى: ﴿ الذى جَعَلَ لَكُم مّنَ الشجر الاخضر نَاراً ﴾ بدلٌ من الموصول

الأوّل. وعدمُ الاكتفاءِ بعطف صلتهِ على صلتهِ للتّأكيدِ ولتفاوتهما في كيفيّةِ الدّلالةِ. أي خلقَ لأجلكم ومنفعتِكم منه ناراً، على أنَّ الجعلَ إبداعيٌّ. والجارّان متعلّقان به قُدّما على مفعوله الصّريحِ مع تأخُّرهما عنه رتبةً لما مرّ من الاعتناء بالمقدّمِ والتّشويقِ إلى المؤخّرِ. ووصفُ الشّجرِ بالأخضرِ نظراً إلى اللّفظِ. وقد قُرِىء الخضراءِ نظراً إلى المَعْنى. وهو المَرخُ والعفارُ يقطعُ الرّجلُ منهما عُصيّتينِ مثل السّواكينِ وهما خَضْراوانِ يقطرُ منهما الماءُ فيسحقُ المرخَ وهو ذكرٌ على العفارِ وهو أُنثى فتنقدحُ النّارُ بإذنِ الله تعالى وذلك قولُه تعالى: ﴿ فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ فمن قدرَ على إحداثِ النّارِ من الشّجرِ الأخضرِ مع ما فيهِ من المائيّةِ المُضادّةِ لها بكيفيّتِه كان أقدرَ على إعادةِ الغضاضةِ إلى ما كان غضّاً فطرأ عليه اليبوسةُ والبِلى. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(23/649)

---

وقال الآلوسى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خلقناه مِن نُّطْفَةٍ ﴾

كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان إنكارهم البعث بعد ما شاهدوا في أنفسهم ما يوجب التصديق به كما أن ما سبق مسوق لبيان بطلان إشراكهم بالله عز وجل بعدما عاينوا فيما

بأيديهم ما يوجب التوحيد والإسلام ، وقيل : إنه تسلية له عليه الصلاة والسلام كقوله تعالى : ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ [يس : 76] وذلك بتهوين ما يقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر وليس بشيء .

والهمزة للإنكار والتعجب والواو للعطف على جملة مقدرة هي مستتبعة للمعطوف كما مر في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ [يس : 71] الخ أي ألم يتفكر الإنسان ولم يعلم أنا خلقناه من نطفة أو هي عين تلك الجملة أعيدت تأكيداً للنكير السابق وتمهيداً لإنكار هو أحق منه بالإنكار لما أن المنكر عين علمهم بما يتعلق بخلق أنفسهم ، ولا ريب في أن علم الإنسان بأحوال نفسه أهم وإحاطته بها أسهل وأتم فالإنكار والتعجيب من الإخلال بذلك كأنه قيل ألم يعلموا خلقه تعالى لأسباب معايشتهم ولم يعلموا خلقه تعالى لأنفسهم أيضاً مع كون العلم بذلك في غاية الظهور ونهاية الأهمية ، ويشير كلام بعض الأجلة إلى أن العطف على ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ السابق والجامع ابتناء كل منهما على التعكيس فإنه تعالى خلق للإنسان ما خلق ليشكر فكفر وجحد المنعم والنعم وخلقه سبحانه من نطفة قذرة ليكون منقاداً متذللاً فطغى وتكبر وخاصم ، وإيراد الإنسان مورد الضمير لأن مدار الإنكار متعلق بأحواله من حيث هو إنسان .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ أي مبالغ في الخصومة والجدال الباطل ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر متجاهر في ذلك عطف على الجملة المنفية داخل في حيز الإنكار والتعجيب كأنه قيل : أولم يرانا خلقناه من أخس الأشياء وأمهنها ففاجأ خصومتنا في أمر يشهد بصحته مبدأ فطرته شهادة بينة ، وإيراد الجملة اسمية للدلالة على استقراره في الخصومة واستمراره عليها .

وفي "الحواشي الخفاجية" أن تعقيب الإنكار بالفاء وإذا الفجائية على ما يقتضي خلافه مقو للتعجيب ، والمراد بالإنسان الجنس ، والخصيم إنما هو الكافر المنكر للبعث مطلقاً ، نعم نزلت الآية في كافر مخصوص ، أخرج جماعة منهم الضياء في المختارة عن ابن عباس قال : جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ففته بيده فقال : يا محمد أيحيي الله تعالى هذا بعد ما أرم؟ قال : نعم يبعث الله تعالى هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم فنزلت الآيات ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان ﴾ إلى آخر السورة ، وفي رواية ابن مردويه عنه أن الجائي القائل ذلك أبي بن خلف وهو الذي قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بالحربة ، وروي ذلك عن أبي مالك .

ومجاهد .

وقتادة .

والسدي.

وعكرمة.

وغيرهم كما في "الدر المنثور" ، وفي رواية أخرى عن الحبر أنه أبو جهل بن هشام ، وفي أخرى عنه أيضاً أنه عبد الله بن أبي ، وتعقب ذلك أبو حيان بأن نسبة ذلك إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وهم لأن السورة والآية مكية بإجماع ولأن عبد الله بن أبي لم يجاهر قط هذه المجاهرة ، وحكي عن مجاهد .



---

وقتادة أنه أمية بن خلف ، والذي اختاره وادعى أنه أصح الأقوال أنه أبي بن خلف ثم قال : ويحتمل أن كلاً من هؤلاء الكفرة وقع منه ذلك ، وقيل معنى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ فإذا هو بعد ما كان ماءً مهيناً رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما في ضميره فصيح فهو حينئذٍ معطوف على ﴿ خلقناه ﴾ والتعقيب والمفاجأة ناظران إلى خلقه ، و﴿ مُّبِينٌ ﴾ متعد والكلام من متممات شواهد صحة البعث

فقوله تعالى :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً ﴾ معطوف حينئذٍ على الجملة المنفية داخل في حيز الإنكار ، وأما على الأول فهو عطف على الجملة الفجائية ، والمعنى ففاجأ خصومتنا وضرب لنا مثلاً أي أورد في شأننا قصة عجيبة في نفس الأمر هي في الغرابة كالمثل وهي إنكار أحيائنا العظام أو قصة عجيبة في زعمه واستبعدها وعدها من قبيل المثل وأنكرها أشد الإنكار وهي أحياؤنا إياها أو جعل لنا مثلاً ونظيراً من الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم ونفى الكل على العموم ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ أي خلقنا إياه على الوجه المذكور الدال على بطلان ما ضربه إما عطف على ﴿ ضُرِبَ ﴾ داخل في حيز الإنكار والتعجيب أو حال من فاعله بإضمال قد أو بدونه ، ونسيان خلقه بأن لم يتذكره على ما قيل وفيه دغدغة أو ترك تذكره لكفره وعناده أو هو كالناسي لعدم جريه على مقتضى التذكر وقوله سبحانه : ﴿ قَالَ ﴾ استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية ضربه المثل كأنه قيل : أي مثل ضرب أو ماذا قال؟ فقيل : قال : ﴿ مَن يُحيِ العظام وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ منكراً ذلك ناكراً من أحوال العظام ما تبعد معه من الحياة غاية البعد وهو كونها رميماً أي بالية أشد البلى ، والظاهر أن ﴿ رَمِيمٌ ﴾ صفة لا اسم جامد فإن كان من رم اللازم بمعنى بلى فهو فعيل بمعنى فاعل ، وإنما لم يؤنث لأنه غلب استعماله غير جار على موصوف فالحق بالأسماء الجامدة أو حمل على فعيل بمعنى مفعول وهو يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وقال محيي السنة

: لم يقل رميمة لأنه معدول من فاعلة فكل ما كان معدولاً عن وجهه ووزنه كان مصروفاً عن أخواته، ومثله ﴿ بَغِيّاً ﴾ في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَت أُمُّكِ بغياً ﴾ [ مريم : 28 ] أسقط الهاء منها لأنها كانت مصروفة عن باغية، وقال الأزهري: إن عظاماً لكونه بوزن المفرد ككتاب وقراب عومل معاملته فقيل رميم دون رميمة وذكر له شواهد وهو غريب، وإن كان من رم المتعدي بمعنى إبلي يقال رمه أي أبلاه؛

(27/649)

---

وأصل معناه الأكل كما ذكره الأزهري من رمث الإبل الحشيش فكان ما بلى أكلته الأرض فهو فعيل بمعنى مفعول، وتذكيره على هذا ظاهر للإجماع على أن فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث.

وفي المطلع الرميم اسم غير صفة كالرمة والرفات لا فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ولأجل أنه اسم لا صفة لا يقال لم لم يؤنث وقد وقع خبراً لمؤنث؟ ولا يخفى أن له فعلاً وهو رم كما ذكره أهل اللغة وهو وزن من أوزان الصفة فكونه جامداً غير ظاهر.

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79)

﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً له بتذكير ما نسيه من فطرته الدالة على حقيقة الحال وإرشاده إلى طريقة

الاستشهاد بها ﴿ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا ﴾ أي أوجدها ورباها ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي في أول مرة إذ لم يسبق لها إيجاد ولا شك أن الأحياء بعد أهون من الإنشاء قبل فمن قدر على الإنشاء كان على الأحياء أقدر وأقدر ، ولا احتمال لعروض العجز فإن قدرته عز وجل ذاتية لا تقبل الزوال ولا التغير بوجه من الوجوه .

وفي "الحواشي الخفاجية" كان الفارابي يقول وددت لو أن أرسطو وقف على القياس الجلي في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ﴾ الخ وهو الله تعالى أنشأ العظام وأحياها أول مرة وكل من أنشأ شيئاً أولاً قادر على إنشائه وإحيائه ثانياً فيلزم أن الله عز وجل قادر على إنشائها وإحيائها بقواها ثانياً ، والآية ظاهرة فيما ذهب إليه الإمام الشافعي قيل ومالك .

(28/649)

---

وأحمد من أن العظم تحله الحياة فيؤثر فيه الموت كسائر الأعضاء وبنوا على ذلك الحكم بنجاسة عظم الميتة ومسألة حلول الحياة في العظم وعدمه مما اختلف فيه الفقهاء والحكماء ، واستدل من قال منهما بعدم حلولها فيه بأن الحياة تستلزم الحس والعظم لا إحساس له فإنه لا يتألم بقطعه كما يشاهد في القرن ، وما قد يحصل في قطع العظم من التألم إنما هو لما يجاوره ، وقال ابن زهر في كتاب التيسير : اضطرب كلام جالينوس في العظام هل

لها إحساس أم لا والذي ظهر لي أن لها حساً بطيئاً وليت شعري ما يمنعها من التعفن والتفتت في الحياة غير حلول الروح الحيواني فيها انتهى .

وبعض من ذهب من الفقهاء إلى أن العظام لا حياة فيها بني عليه الحكم بطهارتها من الميتة إذ الموت زوال الحياة فحيث لم تحلها الحياة لم يحلها الموت فلم تكن نجسة .

(29/649)

---

وأورد عليهم هذه الآية فقيل المراد بالعظام فيها صاحبها بتقدير أو تجوز أو المراد بإحيائها ردها لما كانت عليه غضة رطبة في بدن حي حساس ، ورجح هذا على إرادة صاحبها بأن سبب النزول لا بد من دخوله وعلى تلك الإرادة لا يدخل ، ويدخل على تأويل إحيائها بإعادتها لما كانت عليه ، ولا يخفى أن حمل الآية على ذلك خلاف الظاهر ، والظاهر مع الشافعية ومن الفقهاء القائلين بعدم نجاسة عظام الميتة من رأى قوة الاستدلال بالآية على أن العظام تحلها الحياة فعلل الطهارة بغير ما سمعت فقال : إن نجاسة الميتة ليست لعينها بل لما فيها من الرطوبة والدم السائل والعظم ليس فيه ذلك فلذا لم يكن نجساً ، ومنع الشافعية كون النجاسة للرطوبة وتمام الكلام في الفروع ﴿ وَهُوَ ﴾ عز وجل ﴿ بِكُلّ خَلْقٍ ﴾ أي مخلوق ﴿ عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في العلم فيعلم جل وعلا بجميع الأجزاء المتفتتة المتبددة لكل شخص من

الأشخاص أصولها وفروعها وأوضاع بعضها من بعض من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق فيعيد كلاً من ذلك على النمط السابق مع القوى التي كانت قبل ، والجملة إما اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما تقدم أو معطوفة على الصلة ، والعدول إلى الاسمية للتنبيه على أن علمه تعالى بما ذكر أمر مستمر ليس كإنشائه للمنشآت .

(30/649)

---

﴿ الذى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشجر الاخضر نَاراً ﴾ بدل من الموصول الأول وعدم الاكتفاء بعطف صلته على صلته للتأكيد ولتفاوتهما في كيفية الدلالة ، والظرفان متعلقان بجعل قدما على ﴿ نَارًا ﴾ مفعوله الصريح للاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، و ﴿ الاخضر ﴾ صفة الشجر وقرىء الخضراء ، وأهل الحجاز يؤنثون الجنس المميز واحده بالتاء مثل الشجر إذ يقال في واحده شجرة ، وأهل نجد يذكرونه إلا ألفاظاً استثنيت في كتب النحو ، وذكر بعضهم أن التذكير لعاية اللفظ والتأنيث لرعاية المعنى لأنه في معنى الأشجار والجمع تؤنث صفته ، وقيل لأنه في معنى الشجرة وكما يؤنث صفته يؤنث ضميره كما في قوله تعالى : ﴿ مِن شَجَرٍ مّن زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ [ الواقعة : 52 ، 53 ] والمشهور أن المراد بهذا الشجر المرخ والعفار يتخذ من المرخ وهو ذكر الزند الأعلى ومن

العفار بفتح العين وهو أنثى الزندة السفلى ويسحق الأول على الثاني وهما خضراوان يقطر منهما الماء فتنقدح النار بإذن الله تعالى ، وكون المرخ بمنزلة الذكر والعفار بمنزله الأنثى هو ما ذكره الزمخشري وغيره واللفظ كالشاهد له ، وعكس الجوهري .

وعن ابن عباس .

والكلبي في كل شجر نار إلا العناب قيل ولذا يتخذ منه مدق القصارين ، وأنشد الخفاجي لنفسه

: أيا شجر العناب نارك أوقدت . . .

بقلبي وما العناب من شجر النار

واشتهر العموم وعدم الاستثناء ففي المثل في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار أي استكثرا من النار من مجدت الإبل إذا وقعت في مرعى واسع كثير ، ومنه رجل ماجد أي مفضال ، واختار بعضهم حمل الشجر الأخضر على الجنس وما يذكر من المرخ والعفار من باب التمثيل ، وخصا لكونهما أسرع ورياً وأكثر ناراً كما يرشد إليه المثل ، ومن إرسال المثل المرخ والعفار لا يلدان غير النار .

﴿ فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ كالتأكيد لما قبله والتحقيق له أي فإذا أنتم من ذلك الشجر الأخضر توقدون النار لا تشكون في أنها نار حقيقة تخرج منه وليست كنار الحباحب ، وأشار سبحانه بقوله تعالى : ﴿ الذى ﴾ الخ إلى أن من قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفيته فإن الماء بارد رطب والنار حارة يابسة كان جل وعلا أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضاً فيبس وبلى ، ثم إن هذه النار يخلقها الله تعالى عند سحق إحدى الشجرتين على الأخرى لا أن هناك ناراً كامنة تخرج بالسحق و﴿ مِّنَ الشجر ﴾ لا يصلح دليلاً لذلك ، وفي كل شجر نار من مسامحات العرب فلا تغفل ، وإياك واعتقاد الكمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(32/649)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) ﴾

لما أُبطلت شبه المشركين في إشراكهم بعبادة الله وإحالتهم قدرته على البعث وتكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم في إنبائه بذلك إبطالاً كليّاً ، عطف الكلام إلى جانب تسفيه أقوال جزئية لزعماء المكذبين بالبعث توبيخاً لهم على وقاحتهم وكفرهم بنعمة ربهم وهم

رجال من أهل مكة أحسب أنهم كانوا يموهون الدلائل ويزينون الجدال للناس ويأتون لهم بأقوال إقناعية جارية على وفق أفهام العامة ، فقيل أريد بـ ﴿ الإِنسان ﴾ أُبيّ بن خلف . وقيل أريد به العاصي بنُ وائل ، وقيل أبو جهل ، وفي ذلك روايات بأسانيد ، ولعل ذلك تكرر مرات تولى كلٌّ واحد من هؤلاء بعضها .

قالوا في الروايات : جاء أحد هؤلاء الثلاثة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده عَظْم إنسان رميم ففتّه وذراه في الريح وقال : يا محمد أتزعم أن الله يُحيي هذا بعد ما أَرَمَّ ( أي بَلِيَ ) فقال له النبي صلى الله عليه وسلم نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم .

فالتعريف في ﴿ الإْنسانُ ﴾ تعريف العهد وهو الإِنسان المعيّن المعروف بهذه المقالة يومئذٍ .

وقد تقدم في سورة مريم ( 66 ) أن قوله تعالى : ﴿ ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حياً ﴾ نزل في أحدِ هؤلاء ، وذُكر معهم الوليد بن المغيرة .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ في سورة القيامة ﴿ ( 3 ) .

ووجه حمل التعريف هنا على التعريف العهدي أنه لا يستقيم حملها على غير ذلك لأن جعله للجنس يقتضي أن جنس الإِنسان ينكرون البعث ، كيف وفيهم المؤمنون وأهلُ الملل

، وحملها على الاستغراق أبعد إلا أن يراد الاستغراق العُرفي وليس مثل هذا المقام من مواقعه .

(33/649)

---

فأما قوله تعالى في سورة النحل ( 4 ) ﴿ : ﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ فهو تعريف الاستغراق ، أي خلق كلَّ إنسان لأن المقام مقام الاستغراق الحقيقي .

والمراد بخَصِيمٌ في تلك الآية : أنه شديد الشكيمة بعد أن كان أصله نطفة ، فالجملة معطوفة على جملة ﴿ أو لم يروا أنَّا خلقنا لهم ﴾ [ يس : 71 ] الآية .

والاستفهام كالاستفهام في الجملة المعطوفِ عليها .

والرؤية هنا قلبية .

وجملة ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ ﴾ سادّة مسدّ المفعولين كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أنَّا خلقنا لهم مما عَمِلت أيدينا أنْعاماً ﴾ [ يس : 71 ] .

و"إذا" للمفاجأة .

ووجه المفاجأة أن ذلك الإنسان خلق ليعبد الله ويعلم ما يليق به فإذا لم يجر على ذلك فكأنه فاجأ بما لم يكن مترقباً منه مع إفادة أن الخصومة في شؤون الإلهية كانت بما بادرَ به حين

عقَل .

والخصيم فعيل مبالغة في معنى مفاعل ، أي مخاصم شديد الخصام .

والمبين : من أبان بمعنى بان ، أي ظاهر في ذلك .

وضرب المثل : إيجاده ، كما يقال : ضَرب خيمة ، وضَرب دينارا ً ، وتقدم بيانه عند قوله تعالى:

﴿ إن اللَّه لا يستحيي أن يضرب مثلاًما ﴾ في سورة البقرة ﴿ ( 26 ) .

والمَثل : تمثيل الحالة ، فالمعنى : وأظهر للناس وأتى لهم بتشبيه حال قدرتنا بحال عجز الناس إذ أحال إحياءنا العظام بعد أن أرَمّت فهو كقوله تعالى : ﴿ فلا تضربوا للَّه الأمثال ﴾ [ النحل : 74 ] ، أي لا تُشبِّهوه بخلقه فتجعلوا له شركاء لوقوعه بعد ﴿ ويعبدون من دون اللَّه ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئًا ﴾ [ النحل : 73 ] .

والاستفهام في قوله : ﴿ من يحي العظام ﴾ إنكاري .

و﴿ من ﴾ عامة في كل من يسند إليه الخبر .

فالمعنى : لا أحد يحيي العظام وهي رميم .

فشمل عمومه إنكارهم أن يكون الله تعالى محيياً للعظام وهي رميم ، أي في حال كونها رميماً .

وجملة ﴿ قال مَن يُحيي العِظَامَ ﴾ بيان لجملة ﴿ ضرب لنا مثلاً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم ﴾ [ طه : 120 ] الآية ، فجملة ﴿ قال يا آدم بيان لجملة وسوس .

والنسيان في قوله : ونَسِيَ خلقه ﴾ مستعار لانتفاء العلم من أصله ، أي لعدم الاهتداء إلى كيفية الخلق الأول ، أي نسي أننا خلقناه من نطفة ، أي لم يهتد إلى أن ذلك أعجب من إعادة عظمه كقوله تعالى : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لَبْس من خلق جديد ﴾ [ ق : 15 ] .

وذكر النطفة هنا تمهيد للمفاجأة بكونه خصيماً مبيناً عقب خلقه ، أي ذلك الهيِّنُ المنشأ قد أصبح خصيماً عنيداً ، وليبني عليه قوله بعد : ﴿ ونَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ أي نسي خلقه الضعيف فتطاول وجاوز ، ولأن خلقه من النطفة أعجب من إحيائه وهو عَظْم مجاراة لزعمه في مقدار الإِمكان ، وإن كان الله يحيي ما هو أضعف من العظام فيحيي الإِنسان من رَماده ، ومن ترابه ، ومن عَجْب ذنَبه ، ومن لا شيء باقياً منه .

والرميم : البالي ، يقال : رَمَّ العظمُ وأَرَمَّ ، إذا بَلِي فهو فعيل بمعنى المصدر ، يقال : رمّ العظمُ رميماً ، فهو خبر بالمصدر ، ولذلك لم يطابق المخبر عنه في الجمعية وهي بلىً .

وأُمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول له ﴿ يحييها الذي أنشأها ﴾ أمر بجواب على

طريقة الأسلوب الحكيم بحمل استفهام القائل على خلاف مراده لأنه لما قال : ﴿ من يُحيي العظامَ وهي رميمٌ ﴾ لم يكن قاصداً تطلب تعيين المحيي وإنما أراد الاستحالة ، فأجيب جواب مَن هو متطلبٌ علماً .

فقيل له : ﴿ يُحيِيهَا الذي أنشأها أوَّلَ مرةٍ ﴾ .

فلذلك بني الجواب على فعل الإحياء مسنداً للمُحيي ، على أن الجواب صالح لأن يكون إبطالاً للنفي المراد من الاستفهام الإنكاري كأنه قيل : بل يحييها الذي أنشأها أول مرة .

(35/649)

---

ولم يُبنَ الجواب على بيان إمكان الإحياء وإنما جعل بيانُ الإمكان في جعل المسند إليه موصولاً لتدل الصلة على الإمكان فيحصل الغرضان ، فالموصول هنا إيماء إلى وجه بناء الخبر وهو يحييها ، أي يحييها لأنه أنشأها أول مرة فهو قادر على إنشائها ثاني مرة كما أنشأها أول مرة .

قال تعالى : ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ [ الواقعة : 62 ] ، وقال : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾

[ الروم : 27 ] .

وذيل هذا الاستدلال بجملة ﴿ وهو بكل خلقٍ علِيمٌ ﴾ أي واسع العلم محيط بكل وسائل الخلق التي لا نعلمها : كالخلق من نطفة ، والخلق من ذرة ، والخلق من أجزاء النبات المغلقة كسُوس الفول وسُوس الخشب ، فتلك أعجب من تكوين الإنسان من عظامه .

وفي تعليق الإحياء بالعظام دلالة على أن عظام الحيّ تحلّها الحياة كلحمه ودمه ، وليست بمنزلة القصب والخشب وهو قول مالك وأبي حنيفة ولذلك تنجس عظام الحيوان الذي مات دون ذكاة .

وعن الشافعي : أنّ العظم لا تحله الحياة فلا ينجس بالموت .

قال ابن العربي : وقد اضطرب أرباب المذاهب فيه .

والصحيح ما ذكرناه ، يعني أن بعضهم نسب إلى الشافعي موافقة قول مالك وهو قول أحمد فيصير اتفاقاً وعلماء الطب يثبتون الحياة في العظام والإحساسَ .

وقال ابن زُهر الحكيم الأندلسي في كتاب "التيسير" : إن جالينوس اضطرب كلامه في العظام هل لها إحساساً والذي ظهر لي أن لها إحساساً بطيئاً .

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80)

بدل من ﴿ الذي أنشأها ﴾ [ يس : 79 ] بدلاً مطابقاً ، وإنما لم تعطف الصلة على الصلة فيكتفى بالعطف عن إعادة اسم الموصول لأن في إعادة الموصول تأكيداً للأول واهتماماً

بالثاني حتى تستشرف نفس السامع لتلّقي ما يرِدُ بعده فيفطن بما في هذا الخلق من الغرابة إذ هو إيجاد الضد وهو نهاية الحرارة من ضده وهو الرطوبة .

(36/649)

---

وهذا هو وجه وصف الشجر بالأخضر إذ ليس المراد من الأخضر اللون وإنما المراد لازمه وهو الرطوبة لأن الشجر أخضر اللون ما دام حياً فإذا جفّ وزالت منه الحياة استحال لونه إلى الغُبرة فصارت الخضرة كناية عن رطوبة النبت وحياته .

قال ذو الرمة :

ولما تمنَّتْ تأكل الرِّمَّ لم تدَعْ

ذَوابل مما يجمعون ولا خضرا . . .

ووصف الشجر وهو اسم جمع شجرة وهو مؤنث المعنى بـ { الأَخْضَرِ } بدون تأنيثٍ مراعاة للفظ الموصوف بخلوّه عن علامة تأنيث وهذه لغة أهل نجد ، وأما أهل الحجاز فيقولون : شَجَرَ خضراء على اعتبار معنى الجمع ، وقد جاء القرآن بهما في قوله : { لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم } [ الواقعة : 5254 ] .

والمراد بالشجر هنا : شجر المَرْخ ( بفتح الميم وسكون الراء ) وشجر العَفَار ( بفتح العين المهملة وفتح الفاء ) فهما شجران يقتدح بأغصانهما يؤخذ غصن من هذا وغصن من الآخر بمقدار المِسواك وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المَرْخ على العفار فتنقدح النار ، قيل : يجعل العَفار أعلى والمَرْخ أسفل ، وقيل العكس لأن الجوهري وابن السيد في "المخصص" قالا : العَفار هو الزّند وهو الذكَر والمَرْخ الأنثى وهو الزندة .

وقال الزمخشري في "الكشاف" : المَرْخ الذكر والعَفَار الأنثى ، والنار هي سِقط الزَّنْد ، وهو ما يخرج عند الاقتداح مشتعلاً فيوضع تحته شيء قابل للالتهاب من تبن أو ثوب به زيت فتخطف فيه النار .

والمفاجأة المستفادة مِن ﴿ فإذا أنتم منه تُوقِدُونَ ﴾ دالة على عجيب إلهام الله البشر لاستعمال الاقتداح بالشجر الأخضر واهتدائهم إلى خاصيته .

والإيقاد : إشعال النار يقال : أَوقد ، ويقال : وَقَد بمعنى .

وجيء بالمسند فعلاً مضارعاً لإفادة تكرر ذلك واستمراره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) ﴾

أي شَدَدْنا أَسْرَهم ، وجمعنا نَشْرَهم ، وسَوَّينا أعضاءهم ، وركَّبْنا أجزاءهم ، وأودعناهم العقل والتمييز . . . ثم إنه ﴿ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ : ينازعنا في خطابه ، ويعترض علينا في أحكامنا بزَعْمِه واستصوابه ، وكما قيل :

أُعَلِّمُه الرماية كُلَّ يومٍ . . . فلمّا اشتدّ ساعِدُه رماني

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78)

مَهَّد لهم سبيل الاستدلال ، وقال إن الإعادة في معنى الإبداء ، فأي إشكالٍ بقي في جواز الإعادة في الانتهاء ؟ وإنّ الذي قدر على خَلْقِ النارِ في الأغصان الرَّطبة من المرْخ والعَفَار قادرٌ على خَلْقِ الحياةِ في الرِّمة البالية ، ثم زاد في البيان بأن قال : إن القدرة على مِثْلِ الشيء كالقدرة عليه لاستوائهما بكلِّ وجه ، وإنه يحيي النفوسَ بعد موتها في العرصة كما يُحْيي الإنسانَ من النطفة ، والطيرَ من البيضة ، ويحيي القلوبَ بالعرفان لأهل الإيمان كما يميت نفوسَ أهل الكفر بالهوى والطغيان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 226.225 ﴾

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(72) الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون *

بقلم الدكتور : زغلول النجار

ذه الآية الكريمة جاءت في خواتيم سورة يس , وهي سورة مكية , وعدد آياتها 83 بعد البسملة , وقد سميت بهذا الاسم الذي قيل إنه من أسماء رسول الله ( صلي الله عليه وسلم ) بدليل توجيه الخطاب إليه في جواب القسم بالقرآن الحكيم مباشرة علي صدق نبوته ورسالته , وذلك بقول الحق ( تبارك وتعالي ) :

يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * علي صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون *

( يس : 6.1)

وقيل إن يس لقب من ألقاب رسول الله ( صلي الله عليه وسلم ) وأن معناها يا سيد البشر

, والله ( تعالي ) أعلم . .

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول قضية العقيدة الإسلامية التي أوردت منها عددا من الركائز المهمة التي نوجزها فيما يلي :

ركائز العقيدة الإسلامية كما أوردتها سورة يس

أ.الشجر الاخضر يستخدم طاقة الشمس فى تثبيت الكربون الجوى على هيئة كربوهيدرات تشكل أساس كل مصادر الطاقة

ب.قطاع مستعرض فى ورقة نبات خضراء يوضح تركيبها الداخلى

ج.قطاع طولى فى ورقة نبات خضراء يوضح تركيبها الداخلى

(1) الإيمان بأن القرآن الحكيم الكريم هو تنزيل من الله العزيز الرحيم لإنذار الخلق أجمعين , لأنه آخر الكتب السماوية , وأتمها وأكملها , والكتاب الوحيد الذي تعهد ربنا ( تبارك وتعالي ) بحفظه فحفظ بنفس لغة وحيه ( اللغة العربية ) .

*(39/649)*

---

(2) الإيمان بأنبياء الله وبرسله أجمعين , وعلي رأسهم إمامهم وخاتمهم , سيد الخلق من الأولين والآخرين : سيدنا محمد بن عبدالله ( صلي الله عليه وسلم ) , صاحب النور المبين

, والصراط المستقيم , والذي قد آتاه الله ( تعالي ) جوامع الكلم , ولم يكن شاعرا , ولا الشعر ينبغي له , وبأنه ما عليه. كما أنه ما علي المرسلين من قبله. إلا البلاغ المبين .

(3) الإيمان بأن الله ( تعالي ) سوف يحيي الموتي . وأنه ( تعالي ) يكتب ما قدموا وآثارهم , وأن كل شيء محصي عنده في إمام مبين .

(4) التسليم بأن الله ( تعالي ) هو خالق كل شيء , وأنه ( سبحانه ) يعلم ما يسر الخلق وما يعلنون , وأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون , وأن بيده ملكوت كل شيء , وأنه ( تعالي ) هو النافع الضار , وأن إليه يرجع الخلق كله ; وأنه ( سبحانه وتعالي ) أحكم الحاكمين ; وأن تقوي الله من مبررات نزول رحماته علي عباده المتقين .

(5) الإيمان بأن الشرك بالله ظلم عظيم , وأنه من وساوس الشيطان , وأن الشيطان للإنسان عدو مبين .

(6) الإيمان بحتمية الموت علي جميع الخلق , وبحتمية البعث والنشور عليهم كذلك .

(7) الإيمان بحقيقة الجنة ونعيمها , وحقيقة النار وجحيمها , إيمانا لا يداخله أدني شك أوريبة .

هذا , وقد أنذرت سورة يس من عواقب التكذيب بوحي السماء , ومن أجل ذلك أوردت قصة أهل القرية التي كذبت رسل ربها , وجحدت نصح الناصحين من أبنائها الذين شرح الله صدورهم للإيمان , وقد بعث الله ( تعالي ) إليهم بثلاثة من رسله الكرام فكذبوهم ,

فأوفد إليهم رجلا منهم ينصحهم

بضرورة الإيمان بالله , والتوحيد المطلق لجلاله فكذبوه وقتلوه , فأدخله الله ( تعالي ) الجنة , ولم يمهل المجرمين من قومه فدمرهم من بعده تدميرا . . . ! !

(40/649)

---

ومن العجيب أن الناس - في القديم والحديث - لايعتبرون بسير الأمم البائدة ( إلا من رحم ربك ) , والقصص القرآني خير شاهد علي ذلك . فقد استعرضت سورة يس عددا من مواقف المعرضين عن الهداية الربانية , والمكذبين بالآخرة , ووصفت جوانب من سلوكياتهم الشاذة ورسمت ملامح لشخصياتهم المهزوزة , ونفسياتهم المريضة , وطرائق تفكيرهم السقيمة , وعرضت لشئ من ضلالاتهم البعيدة , وضياعهم وحيرتهم في الدنيا , ولمصائرهم السوداء في الآخرة , وذلهم ومهانتهم في يوم البعث وما فيه من أهوال , منها نفخة الصور الأولي التي تعرف باسم نفخة الفزع الأكبر , والتي تصدر إعلانا عن نهاية الحياة الدنيا , ثم تليها نفخة الصعق التي يصعق بها كل حي فيموت في الحال , ثم يكون بعد ذلك نفخة البعث والنشور التي يخرج بها الخلق مذهولين من قبورهم , ليعلموا أن وعد الله حق . . . ! !

وتمايز سورة يس بين مصائر أهل الجنة , ومصائر أهل النار في الآخرة , وتؤكد أن طول الأجل في الحياة الدنيا منتكس للإنسان من القوة إلي الضعف , ومن الزيادة إلي النقص , مما يؤكد عجز الإنسان أمام قدرة خالقه , وحتمية الموت عليه .

وتدفع الآيات عن رسول الله ( صلي الله عليه وسلم ) تهمة الشعر التي ادعاها عليه الكفار كذبا , في محاولة لنسبة القرآن الكريم إليه , ويبرئه الله ( تعالي ) من هذه التهمة الباطلة بقوله ( عز من قائل ) : وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لينذر من كان حيا ويحق القول علي الكافرين *(يس :69.70)

وتنبه الآيات ( صلي الله عليه وسلم ) بخطاب من الحق ( تبارك وتعالي ) إليه يقول فيه فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون *(يس :76)

واستعرضت سورة يس في

ثناياها عددا من الآيات الكونية الدالة علي طلاقة القدرة الإلهية المبدعة , وأكدت تمجيد الله الخلاق العليم الذي إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون

(يس :82)

وختمت بهذه الآية الجامعة التي تهز القلوب والعقول والأبدان , ويتحرك لوقعها كل جماد ونبات وحيوان حيث تقول :

فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون *( يس :83)

الآيات الكونية التي استشهدت بها سورة يس

استشهدت سورة يس بعدد كبير من الآيات الكونية علي طلاقة القدرة الإلهية المبدعة , وعلي صدق ما جاء بها من عقائد وقصص وأحداث , وهذه الآيات الكونية يمكن إيجازها فيما يلي :

(1) إحياء الأرض الميتة بإنزال المطر عليها , وإخراج الحب منها وإثرائها بجنات من نخيل وأعناب , وتفجير العيون فيها .

(2) خلق كل شيء في زوجية واضحة , حتي يبقي الله ( تعالي ) متفردا بالوحدانية فوق جميع خلقه .

(3) الإشارة بسلخ النهار من الليل إلي رقة طبقة النهار , وإلي حقيقة أن الظلمة هي الأصل في الكون , وأن النور نعمة عارضة فيه , وأن تبادل الليل والنهار علي نصفي الأرض تأكيد علي دوران الأرض حول محورها أمام الشمس .

(4) جري الشمس إلي مستقر لها حسب تقدير العزيز العليم .

(5) دوران القمر حول الأرض في منازل محددة , متدرجا في مراحل متتالية حتي يعود

هلالا كالعرجون القديم .

(6) جري كل من الأرض والقمر والشمس في مداره المحدد له , وكذلك كل جرم من أجرام السماء .

(7) حمل الأفراد من ذرية آدم الذين نجوا من الطوفان مع نبي الله نوح (علي نبينا وعليه من الله السلام) في الفلك المشحون , الذي أثبتت الدراسات الأثرية حقيقة وجود بقاياه فوق جبل الجودي في جنوب شرقي تركيا ; وخلق وسائل ركوب أخري للإنسان .

(8) شهادة الأيدي والأرجل علي أصحابها يوم القيامة , والعلوم التجريبية تثبت أن لكل خلية حية قدرا من الوعي والإدراك والقدرة علي استيعاب المعلومات وتخزينها .

(9) التأكيد علي ان من طال عمره زادت قوي الهدم في جسده علي قوي البناء , وبدأ الضمور يظهر علي أجهزة هذا الجسد حتي يعمه كله فينتهي بالموت .

(10) خلق الأنعام وتذليلها للإنسان.

(11) خلق الإنسان من نطفة , فإذا هو لخالقه خصيم مبين .

(12) التأكيد علي أن منشيء العظام أول مرة قادر علي أن يحييها وهي رميم , لأنه ( تعالي ) عليم بكل الخلق .

(13) جعل الشجر الأخضر المصدر الرئيسي للتزود في كل يوم بقدر من طاقة الشمس تحتاجه كل صور الحياة علي الأرض , ويبقي المصدر الرئيسي للطاقة المختزنة في أوراق وأنسجة وثمار الشجر الأخضر وزيوته ودهونه , والتي قد تتحول عند الجفاف إلي القش , أو الحطب , أو الخشب الذي قد يتفحم بمعزل عن الهواء إلي أي من الفحم النباتي أو الحجري أو إلي غاز الفحم , وإذا أكلته الحيوانات تحولت فضلاتها إلي مصادر للوقود , وإذا تحللت أجسادها بمعزل عن الهواء أعطت كلا من النفط والغاز الطبيعي ; وهذه حقائق لم يصل إليها علم الإنسان إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين .

(14) أن خالق السماوات والأرض قادر علي أن يخلق مثلهم لأنه هو الخلاق العليم .

(15) أن من صفات الألوهية أن يأمر الله ( تعالي ) الشئ بـ كن فيكون .

(16) أن الله ( تعالي ) بيده ملكوت كل شئ , وأن كل شئ في الوجود غيره عائد إليه ( سبحانه وتعالي ) .

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلي معالجة مستقلة , ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا علي النقطة الثالثة عشرة في القائمة السابقة , والتي تتحدث عن طلاقة القدرة الإلهية في

جعل الشجر الأخضر مصدرا للنار التي يوقد منها الناس , ولكن قبل الوصول إلي ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من كبار المفسرين القدامي والمعاصرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة .

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ( تعالي ):

الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم

منه توقدون *( يس :80)

(43/649)

---

* ذكر ابن كثير ( يرحمه الله ) مانصه : . . . أي الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء , حتي صار خضرا نضرا ذا ثمر وينع , ثم أعاده إلي أن صار حطبا يابسا توقد به النار , كذلك هو فعال لما يشاء , قادر علي مايريد , لا يمنعه شئ ; قال قتادة : يقول : هذا الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر علي أن يبعثه ; وقيل : المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت في أرض الحجاز فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد , فيأخذ منه عودين أخضرين , ويقدح أحدهما بالآخر , فتتولد النار بينهما كالزناد سواء . . . .

* وجاء في تفسير الجلالين ( رحم الله كاتبيه ) مانصه : ( الذي جعل لكم ) في جملة الناس ( من الشجر الأخضر ) المرخ والعفار , أو هو حطب كل شجر . . . ( نارا فإذا أنتم منه توقدون ) تقدحون وتشعلون , وهذا دال علي القدرة علي البعث , فإنه جمع فيه بين الماء والنار والخشب , فلا الماء يطفئ النار , ولا النار تحرق الخشب .

* وذكر صاحب الظلال ( رحمه الله رحمة واسعة ) مانصه : . . . عجيبة أن هذا الشجر الأخضر الريان بالماء , يحتك بعضه ببعض فيولد نارا , ثم يصير هو وقود النار , بعد اللدونة والإخضرار . . والمعرفة العلمية العميقة لطبيعة الحرارة التي يختزنها الشجر الأخضر من الطاقة الشمسية التي يمتصها , ويحتفظ بها وهو ريان بالماء ناضر بالخضرة ; والتي تولد النار عند الاحتكاك , كما تولد النار عند الاحتراق . . . هذه المعرفة العلمية تزيد العجيبة بروزا في الحس ووضوحا , والخالق هو الذي أودع الشجر خصائصه هذه , والذي أعطي كل شئ خلقه ثم هدي . . . .

* وجاء في كل من صفوة البيان لمعاني القرآن ( رحم الله كاتبه برحمته الواسعة ) وصفوة التفاسير ( جزي الله كاتبه خيرا ) كلام مشابه لا حاجة إلي إعادته .

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ( جزاهم الله خيرا ) مانصه : الذي خلق لكم من

الشجر الأخضر ـ بعد جفافه ويبسه ـ نارا وجاء تعليق الخبراء بالهامش علي النحو التالي :

إن طاقة الشمس تنتقل إلي جسم النبات بعملية التمثيل الضوئي , إذ تمتص خلاياه المحتوية علي المادة الخضراء في النبات ( الكلوروفيل ) ثاني أكسيد الكربون من الجو , وبتفاعل هذا الغاز مع الماء الذي يمتصه النبات تنتج المواد ( الكربوهيدراتية ) بتأثير الطاقة المستمدة من ضوء الشمس ومن ثم يتكون الخشب الذي يتركب أساسا من مركبات كيميائية محتوية علي الكربون والهيدروجين والأكسوجين , ومن هذا الخشب يتكون الفحم النباتي المستعمل في الوقود , إذ بإحراق هذا الفحم تنطلق الطاقة المدخرة فيه . . . . وما الفحم الحجري . . . إلا نباتات . . . دفنت بطريقة ما وتحولت بالتحلل الجزئي بعد مضي ملايين السنين إلي الفحم المذكور . . . ويجب أن يلاحظ أن لفظ الإخضرار في الآية ووصف الشجر بهذا اللون . . . إنما هو إشارة إلي مادة الكلوروفيل الخضراء اللازمة لتمثيل غاز ثاني أكسد الكربون .

الدلالة العلمية للآية الكريمة

تستدل الآيات السبع من خواتيم سورة يس علي قدرة الله ( تعالي ) في الخلق بتلك القدرة المذهلة التي وضعها في الشجر الأخضر ومكنه من استخدام طاقة الشمس في تثبيت ذرات الكربون الموجودة في غاز ثاني أكسيد الكربون المكون للغلاف الغازي للأرض علي

هيئة مركبات عضوية تكون أهم مصادر الوقود علي الأرض , حتي يمكن لكل من الإنسان والحيوان الاستفادة بها , واستخدمت الآيات هذا المثل في الاستدلال أيضا علي أن الله ( تعالي ) الذي خلق هذا الكون قادر علي إفنائه وعلي إعادة خلقه من جديد ( أي بعثه )

وفي ذلك تقول الآيات في ختام سورة يس :

أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه



---

توقدون * أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر علي أن يخلق مثلهم بلي وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون *( يس :83.77 ) .

وهذه الآيات المباركات تشير إلي حقيقة علمية مبهرة , وواحدة من أهم العمليات الحيوية الأساسية , ألا وهي عملية البناء الحيوي التي يقوم بها النبات الأخضر والتي عرفت باسم عملية التمثيل الضوئي أو عملية البناء الضوئي .

والنباتات الخضراء قد خصها الخالق ( سبحانه وتعالي ) بصبغ اليخضور ( الكلوروفيل ) الملون لأوراق وأنسجة النباتات ذاتية الاغتذاء باللون الأخضر ; وأعطي هذا الصبغ وغيره من الأصباغ النباتية القدرة علي اصطياد وتخزين جزء من طاقة الشمس التي تصل إلي الأرض , وهي طاقة كهرومغناطيسية تتركب من موجات ذات أطوال متعددة تتحرك من أشعة جاما , إلي الأشعة السينية , إلي الأشعة فوق البنفسجية , إلي الأطياف المرئية ( أو أطياف النور الأبيض ) إلي الأشعة تحت الحمراء , إلي الموجات الراديوية بمختلف أطوالها .

وهناك ثمانية أنواع من هذه الأصباغ الخضراء التي تشبه في تركيبها الكيميائي جزيء الهيموجلوبين ( الذي يعطي لدم الإنسان ولدماء كثير من الحيوانات لونها الأحمر القاني ) تماما , فيما عدا استبدال ذرة الحديد المركزية في جزئ الهيموجلوبين بذرة مغنيسيوم في جزئ اليخضور ; ويشير ذلك إلي وحدة البناء كما يشير إلي وحدة الباني ( سبحانه وتعالي ) .

وتوجد الأصباغ الخضراء ( مادة الكلوروفيل ) في داخل جسيمات دقيقة للغاية تعرف باسم البلاستيدات , ويوجد منها ثلاثة أنواع مميزة هي الخضراء , والملونة بألوان أخري , والبيضاء , ويبدأ تكون كل منها من أجزاء أبسط وأدق كثيرا في الحجم تعرف باسم البلاستيدات الأولية .

والبلاستيدات هي جسيمات متناهية الضآلة في الحجم توجد في داخل الخلايا العمادية الطولية العمودية

*(46/649)*

---

علي جدار الأوراق النباتية , ولها حرية التحرك داخل الخلية لزيادة قدرتها علي اصطياد أشعة الشمس من أية زاوية تسقط بها علي ورقة الشجر . والبلاستيدات جسيمات بويضية الشكل عادة , يحاط كل منها بغشاءين رقيقين , الخارجي منهما أملس , والداخلي متعرج علي هيئة ثنيات داخلية تفصلها صفائح رقيقة جدا ; وتحتوي الثنيات علي الأصباغ الخضراء , بينما تفتقر إليها الصفائح الفاصلة بينها , وتحتوي البلاستيدات بالإضافة إلي الأصباغ النباتية علي العديد من الأحماض الأمينية , والمركبات البروتينية الأخري كالدهون المفسفرة , وغيرها .

ويقوم الصبغ الأخضر ( اليخضور ) في هذه البلاستيدات بالتقاط الطاقة القادمة من الشمس واستخدامها في تأيين الماء إلي الأوكسيجين الذي ينطلق عبر ثغور ورقة النبات إلي الغلاف الغازي للأرض , والإيدروجين الذي يتفاعل مع غاز ثاني أكسيد الكربون الذي يأخذه النبات من الجو لتكوين السكريات والنشويات وغيرهما من الكربوهيدرات ; وغاز

ثاني أكسيد الكربون الموجود في الغلاف الغازي للأرض لا تكاد نسبته تتعدي 0,03% .

وتتم عملية البناء الضوئي التي تقوم بها النباتات الخضراء علي مرحلتين , الأولي منهما تحدث في الضوء , والثانية تحدث في الظلام , والمرحلة الضوئية يتم فيها تأيين الماء إلي مكوناته من الأوكسيجين , ونوي ذرات الإيدروجين , وأعداد من الإليكترونات , وينطلق غاز الأوكسيجين فيها إلي الجو , وتستخدم كل من نوي ذرات الإيدروجين والإليكترونات الطليقة في المرحلة الثانية التي تتم في الظلام والتي من نتائجها تحويل غاز ثاني أكسيد الكربون إلي السكريات والنشويات وغير ذلك من المواد الكربوهيدراتية . وعلي العكس من ذلك فإذا أحرق السكر أو أية مواد كربوهيدراتية في وجود الأوكسيجين فإنه يتحول إلي ثاني أكسيد الكربون والماء , وتنطلق الطاقة , وكأن عملية التمثيل الضوئي هي عملية تكوين السكر بخلط ستة جزيئات من



---

الماء مع ستة جزيئات من ثاني أكسيد الكربون في وجود الطاقة الشمسية ومادة اليخضور , فينتج عن ذلك جزئ واحد من السكر وستة جزيئات من الأوكسجين .

وكما يأخذ النبات من طاقة الشمس بالقدر اللازم لنموه , فيحول تلك الطاقة الضوئية

الحرارية إلي عدد من الروابط الكيميائية بتفاعلها مع كل من الماء وثاني أكسيد الكربون فيكون مختلف المواد الكربوهيدراتية ( أي المكونة من الكربون والإيدروجين ) التي يستخدمها النبات في بناء مختلف خلاياه وأنسجته , ويختزن الفائض عن حاجته علي هيئة النشويات البسيطة والمركبة , والسكريات المتنوعة ; فإن النبات يأخذ كذلك العديد من عناصر الأرض والماء الصاعدين مع العصارة الغذائية التي يمتصها النبات من التربة بواسطة جذوره , وتنتقل هذه العصارة الغذائية إلي كل من الساق والفروع والأوراق عبر أوعية خاصة تعرف باسم الأوعية الخشبية التي تمتد في كل ورقة من أوراق النبات علي هيئة عرق وسطي له تفرعاته العديدة التي تنقل تلك العصارة الغذائية إلي كل خلايا الورقة الخضراء , حيث يعاد تشكيلها علي هيئة العديد من المركبات العضوية التي يحتاجها النبات ; وتعود المركبات المصنعة في الأوراق الخضراء عبر أوعية خاصة تعرف باسم أوعية اللحاء لتقوم بتوزيعها علي جميع خلايا وأنسجة النبات حسب احتياج كل واحد منها .

ومن المركبات العضوية التي تنتجها النباتات الخضراء البروتينات من مثل الزيوت والدهون النباتية , والأحماض الأمينية , والإنزيمات , والهرمونات , والفيتامينات التي تسهم في بناء مختلف الخلايا والأنسجة المتخصصة من مثل الألياف , والأخشاب , والزهور , والثمار , والبذور , والإفرازات النباتية المتعددة كالمواد الصمغية والراتنجية وغيرها .

وباستمرار عملية التمثيل الضوئي تركز بلايين البلايين من ذرات الكربون المكونة لثاني أكسيد الكربون الجوي في داخل خلايا النباتات الخضراء خاصة الأوراق, وبذلك فإننا

(48/649)

---

نجد أن وزن المادة الحية النباتية في تزايد مستمر, ولما كان كل من الإنسان وأعداد من الانواع في مملكة الحيوان يتغذي علي المواد النباتية ومنتجاتها, ويستخدم تلك الطاقة الكيميائية المختزنة فيها في تكوين مركبات كيميائية أخري تختزن أجزاء من تلك الطاقة, وتحول أجزاء منها إلي طاقة حرارية, وحركية, وكهربائية; ولما كان كل من الإنسان وبعض أنواع الحيوان يأكل كلا من النبات والحيوان فإن جزءا من طاقة الشمس ينتقل إلي هؤلاء الآكلين, وبذلك يزداد كم المادة الحية بتكرار تلك العمليات الحياتية والتي يلعب النبات الأخضر فيها دورا أساسيا, ويصل معدل الإنتاج السنوي من المواد العضوية النباتية إلي أكثر من أربعة آلاف تريليون طن .

وتقوم النباتات الخضراء بتثبيت أربعمائة مليار طن من الكربون المستخلص من غاز ثاني أكسيد الكربون الجوي في أجساد النباتات سنويا في المتوسط . وقد لعبت هذه العملية دورا مهما في تكوين بلايين الأطنان من الفحم الحجري عبر تاريخ الأرض الطويل خاصة في

صخور العصر الفحمي ( الكربوني ) .

والمنتجات النباتية هي مصدر الطاقة الحيوية في أجساد بني الإنسان وفي أجساد الحيوانات من آكلات الأعشاب .

ومن فضلات كل من النبات والحيوان والإنسان تتكون جميع أنواع المحروقات , وذلك بعد تجفيفها أو دفنها وتحللها بمعزل عن الهواء .

فالمادة العضوية في كل من النبات والحيوان والإنسان تتكون أصلا من عناصر الأرض الأساسية , والماء والأوكسجين , والنيتروجين , وثاني أكسيد الكربون .

والنبات الأخضر بعملية التمثيل الضوئي يعطي الأوكسجين لكل من الإنسان والحيوان ببثه في جو الأرض , ويأخذ منهما ثاني أكسيد الكربون الذي يبثانه إلي جو الأرض , وكل من النبات والحيوان يعطي الإنسان الغذاء والطاقة ويأخذ منه فضلاته .

والأرض تعطي كل صور الحياة مختلف العناصر التي تحتاجها , والماء الذي يعين علي إتمام كل العمليات

الحيوية .

والشمس تعطي كل هذه الصور الحياتية من نباتية , وحيوانية , وبشرية كل صور الطاقة التي تحتاجها , والله يهب ذلك كله من فضله , وكرمه , وجوده , ومنه , وعطائه , وبديع صنعه , وعظيم حكمته .

فمركبات اليخضور تختزن الطاقة في خلايا الشجر الأخضر , ويقابلها في الخلايا الحيوانية جسيمات الميتوكوندريا (Mytochondria) التي تستهلك الطاقة المأخوذة من أي من النبات أو الحيوان أو منهما معا .

وعند جفاف الشجر الأخضر وغيره من النباتات الخضراء فإنها تتحول إلي أغلب مصادر الطاقة الطبيعية تقريبا ماعدا الطاقة النووية , وطاقة الرياح , وطاقة المد والجزر , والحرارة الأرضية , والطاقة الشمسية المباشرة . والطاقة في الشجر الأخضر أصلها من طاقة الشمس , فعند جفاف النباتات الخضراء تتحول بقاياها إلي الحطب أو القش , أو التبن , أو الخشب , أو الفحم النباتي إذا أحرق ذلك بواسطة الإنسان في معزل عن الهواء .

وإذا دفنت البقايا النباتية في البحيرات الداخلية أو في دالات الأنهار أو في الشواطئ الضحلة للبحار دفنا طبيعيا فإنها تتفحم بمعزل عن الهواء متحولة إلي الفحم الحجري .

وإذا زاد الضغط والحرارة علي الفحم الحجري في باطن قشرة الأرض فإنه يتحول إلي غاز الفحم الطبيعي .

وعندما تتغذي الحيوانات البحرية , خاصة الدقيقة منها , علي النباتات الدقيقة أو علي

فتات النباتات الكبيرة ومنتجاتها الدقيقة فإن طاقة الشمس المختزنة في تلك النباتات وفتاتها تتحول في أجساد الحيوانات إلي مواد بروتينية من الزيوت والدهون الحيوانية التي تتحلل بمعزل عن الهواء إلي النفط, والغاز الطبيعي المصاحب له وكلما زادت الحرارة والضغط علي النفط المخزون في قلب قشرة الأرض تحول بالكامل إلي الغاز الطبيعي. وكل هذه المواد من مصادر الوقود الذي يحرق طلبا للطاقة الحرارية الكامنة فيه, فيتحد أوكسجين الجو مع الكربون المتجمع في تلك المصادر من



---

مصادر الوقود محولا إياه إلي غاز ثاني أكسيد الكربون الذي ينطلق عائدا مرة أخري إلي الغلاف الغازي للأرض.

وبذلك فإن الطاقة التي استمدها الشجر الأخضر من أشعة الشمس الواصلة إلي كوكب الأرض, فانتزع بها ذرة الكربون من جزيئات ثاني أكسيد الكربون الموجود في الغلاف الغازي للأرض, هي نفس الطاقة التي تنطلق علي هيئة اللهب الحار الناتج عن احتراق أي من مصادر الطاقة تلك في أوكسجين الغلاف الغازي للأرض (من مثل الخشب, أو الحطب, أو القش أو التبن أو الفحم النباتي أو الحجري أو الغاز الفحمي أو النفط أو الغاز الطبيعي

, أو غاز الميثين الناتج عن تحلل الفضلات بصفة عامة ) , وبذلك تتحد ذرات الكربون المختزنة في تلك المصادر المتعددة للطاقة بذرات الأوكسجين الموجودة في الغلاف الغازي للأرض لتعود إليه علي هيئة جزيئات ثاني أكسيد الكربون مرة أخري وتنطلق الطاقة .

وعلي ذلك فإن عمليات الاحتراق علي سطح الأرض هي عمليات أكسدة لذرات الكربون المختزنة في المواد العضوية لمختلف أشكال الوقود لتعود مرة أخري علي هيئة ثاني أكسيد الكربون الجوي كما كانت في أول الأمر ; وهي تشبه عملية التنفس في كل من الإنسان والحيوان , حيث يستفاد بالأوكسجين الموجود في الغلاف الغازي للأرض في أكسدة ذرات الكربون الموجودة في المواد الغذائية لتتحول إلي ثاني أكسيد الكربون الذي انتزع أصلا من الغلاف الغازي للأرض بواسطة النباتات الخضراء .

مما سبق يتضح المضمون العلمي للآية الكريمة التي فهمها أهل البادية علي عهد رسول الله ( صلي الله عليه وسلم ) بالخشب أو الحطب , أو بكل من المرخ والعفار , ونفهمها اليوم في إطار كل صور الطاقة ذات الأصل العضوي من النفط والغاز المصاحب له , إلي الفحم الحجري والغازات المصاحبة له , إلي الفحم النباتي , والخشب والحطب والقش والتبن وغير ذلك من الفضلات النباتية والحيوانية التي يلعب الدور الرئيسي في تكوينها الشجر

الأخضر وما وهبه الله ( تعالي ) من قدرة فائقة علي احتباس جزء من طاقة الشمس يعينه علي تأيين الماء , ثم اقتناص ذرات الكربون من غاز ثاني أكسيد الكربون الموجود بنسب ضئيلة جدا في الغلاف الغازي للارض لا تتعدي 0.03%, وذلك بواسطة أيون الإيدروجين الناتج عن تحلل الماء , وإطلاق الأوكسجين إلي الغلاف الغازي للأرض , وكأن حركة الطاقة علي الأرض , أو بالأحري حركة الحياة , تتلخص في تبادل ذرة الكربون بين النبات والحيوان والانسان , يأخذها النبات من الغلاف الغازي للأرض بعملية التمثيل الضوئي ويهبها لكل من الإنسان والحيوان والأرض , ثم يطلقها كل من الإنسان والحيوان إلي الغلاف الغازي للأرض بعملية التنفس , وبين العمليتين يختزن لنا ربنا ( تبارك وتعالي ) كما هائلا من مختلف مصادر الطاقة تختزن فيه ذرات الكربون التي أخذها الشجر الأخضر من الجو واعطاها للأرض إما مباشرة أو عن طريق راقات هائلة من الفحم أو مخزونا ضخما من النفط والغاز حتي يحرقه الإنسان فيرده مرة أخري إلي الغلاف الغازي للأرض .

فسبحان القائل :

الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون *( يس :80)

والقائل : أفرأيتم النار التي تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين * فسبح باسم ربك العظيم *( الواقعة : 71.74)

وصلي الله وسلم وبارك علي النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقي هذا القرآن العظيم , والحمد لله الذي حفظه لنا بنفس لغة وحيه ( اللغة العربية ) , فحفظه لنا بكل إشراقاته النورانية , وصفائه الرباني , وإعجاز آياته لفظا ومحتوي في كل قضية تناولتها , وكل أمر تعرضت له حتي يبقي هذا الوحي الخاتم حجة علي الناس في كل عصر وفي كل حين من وقت نزوله إلي يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(52/649)

---

قوله تعالى ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التقدير : أليس الذي قدر على ذلك بقادر على ما يريد من إحياء العظام وغيرها ،

عطف عليه ما هو أعظم شأناً منه تقديراً على الأدنى بالأعلى فقال : ﴿ أوليس الذي خلق ﴾ أي أوجد من العدم وقدر ﴿ السماوات والأرض ﴾ أي على كبرهما وعظمتهما وعظيم ما فيهما من المنافع والمصانع والعجائب والبدائع ، وأثبت الجار تحقيقاً للأمر وتأكيداً للتقرير فقال : ﴿ بقادر ﴾ أي بثابت له قدرة لا يساويها قدرة ، ومعنى قراءة رويس عن يعقوب بتحتانية مفتوحة وإسكان القاف من غير ألف ورفع الراء أنه يجدد تعليق القدرة على سبيل الاستمرار ﴿ على أن يخلق ﴾ ولفت الكلام إلى الغيبة إيذاناً بأنهم صاروا بهذا الجدل أهلاً لغاية الغضب فقال : ﴿ مثلهم ﴾ أي مثل هؤلاء الأناسي أي يعيدهم بأعيانهم كما تقول : مثلك كذا أي أنت ، وعبر به إفهاماً لتحقيرهم وأن إحياء العظام الميتة أكثر ما يكون خلقاً جديداً ، بل ينقص عن الاختراع بأن له مادة موجودة ، وعبر بضمير الجمع لأنه أدل على القدرة ، قال الرازي : والقدرة عبارة عن المعنى الذي به يوجد الشيء مقدراً بتقدير الإرادة والعلم واقعاً على وفقهما وإن كانت صفات الله تعالى أعلى من أن يطمحها نظر عقل ، وتلحقها العبارات اللغوية ، ولكن غاية القدرة البشرية واللغة العربية هذا .

ولما كان الجواب بعد ما مضى من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة الاعتراف ، قال سبحانه مقرراً لما بعد النفي إشارة إلى أنه تجب المبادرة إليه ، ولا يجوز التوقف فيه ومن توقف فهو معاند : ﴿ بلى ﴾ أي هو قادر على ذلك ﴿ وهو ﴾ مع ذلك أي كونه عالماً بالخلق ﴿ الخلاق ﴾ البالغ في هذه الصفة مطلقاً في تكثير الخلق وتكريره بالنسبة إلى كل شيء ما لا تحيط به الأوهام ، ولا تدركه العقول والأفهام ، ولم ينازع أحد في العلم بالجزئيات بعد كونها ، كما نازعوا في القدرة على إيجاد بعض الجزئيات ، فاكتفى فيه بصيغة فعيل فقيل : ﴿ العليم ﴾ أي البالغ في العلم الذي هو منشأ القدرة ، فلا يخفى عليه كلي ولا جزئي في ماضٍ ولا حال ولا مستقبل شاهد أو غائب .

ولما تقرر ذلك ، أنتج قوله مؤكداً لأجل إنكارهم القدرة على البعث : ﴿ إنما أمره ﴾ أي شأنه ووصفه ﴿ إذا أراد شيئاً ﴾ أي إيجاد شيء من جوهر أو عرض أيّ شيء كان ﴿ أن يقول له كن ﴾ أي أن يريده ؛ ثم عطف على جواب الشرط على قراءة ابن عامر والكسائي بالنصب ، واستأنف على قراءة غيره بالرفع بقوله : ﴿ فيكون ﴾ أي من غير مهلة أصلاً على وفق ما أراد .

ولما كان ذلك ، تسبب عنه المبادرة إلى تنزيهه تعالى عما ضربوه له من الأمثال فلذلك قال : ﴿ فسبحان ﴾ أي تنزه عن كل شائبة نقص تبزها لا تبلغ أفهامكم كنهه ، وعدل عن

الضمير إلى وصف يدل على غاية العظمة فقال : ﴿ الذي بيده ﴾ أي بقدرته وتصرفه خاصة لا بيد غيره ﴿ ملكوت كل شيء ﴾ أي ملكه التام وملكه ظاهراً وباطناً .

(54/649)

---

ولما كان التقدير : فمنه تبدؤون ، عطف عليه قوله : ﴿ وإليه ﴾ أي لا إلى غيره من التراب أو غيره ، ولفت القول إلى خطابهم استصغاراً لهم وإحتقاراً فقال : ﴿ ترجعون ﴾ أي معنى في جميع أموركم وحساً بالبعث لينصف بينكم ، فيدخل بعضاً النار وبعضاً الجنة ، ونبهت قراءة الجماعة بالبناء للمفعول على غاية صغارهم بكون الرجوع قهراً وبأسهل أمر ، وزادت قراءة يعقوب بالبناء للفاعل بأن انقيادهم في الرجوع من شدة سهولته عليه كأنه ناشئ عن فعلهم بأنفسهم اختياراً منهم ، فثبت أنه سبحانه على كل شيء قدير ، فثبت قطعاً أنه حكيم ، فثبت قطعاً أنه لا إله إلا هو ، وأن كلامه حكيم ، وثبت بتمام قدرته أنه حليم لا يعجل على أحد بالعقاب ، فثبت أنه أرسل الرسل للبشارة بثوابه والنذارة من عقابه ، فثبت أنه أرسل هذا النبي الكريم لما أيده به من المعجزات ، وأظهره على يده من الأدلة الباهرات ، فرجع آخر السورة بكل من الرسالة وإحياء الموتى إلى أولها ، واتصل في

كلا الأمرين مفصلها بموصلها ، والله الهادي إلى الصواب وإليه المرجع والمآب . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 287. 288 ﴾

*(55/649)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ قدم ذكر النار في الشجر على ذكر الخلق الأكبر ، لأن استبعادهم كان بالصريح واقعاً على الأحياء حيث قالوا : ﴿ مَن يُحىِ العظام ﴾ [ يس : 78 ] ولم يقولوا من يجمعها ويؤلفها والنار في الشجر تناسب الحياة .

وقوله تعالى : ﴿ بلى وَهُوَ الخلاق ﴾ إشارة إلى أنه في القدرة كامل .

وقوله تعالى : ﴿ العليم ﴾ إشارة إلى أن علمه شامل .

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82)

وهذا إظهار فساد تمثيلهم وتشبيههم وضرب مثلهم حيث ضربوا لله مثلاً وقالوا لا يقدر

أحد على مثل هذا قياساً للغائب على الشاهد فقال في الشاهد الخلق يكون بالآلات البدنية والانتقالات المكانية ولا يقع إلا في الأزمنة الممتدة والله يخلق بكن فيكون ، فكيف تضربون المثل الأدنى وله المثل الأعلى من أن يدرك .

وفي الآية مباحث :

(56/649)

---

البحث الأول : قالت المعتزلة هذه الآية دالة على أن المعدوم شيء لأنه يقول لما أراده : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فهو قبل القول له كن لا يكون وهو في تلك الحالة شيء حيث قال : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً ﴾ والجواب أن هذا بيان لعدم تخلف الشيء عن تعلق إرادته به ، فقوله : ﴿ إِذَا ﴾ مفهوم الحين والوقت والآية دالة على أن المراد شيء حين تعلق الإرادة به ولا دلالة فيها على أنه شيء قبل ما إذا أراد وحينئذٍ لا يرد ما ذكروه لأن الشيء حين تعلق الإرادة به شيء موجود لا يريده في زمان ويكون في زمان آخر بل يكون في زمان تعلق الإرادة ، فإذاً الشيء هو الموجود لا المعدوم لا يقال كيف يريد الموجود وهو موجود فيكون ذلك إيجاداً لموجود ؟ نقول هذا الإشكال من باب المعقولات ونجيب عنه في موضعه ، وإنما

غرضنا إبطال تمسكهم باللفظ ، وقد ظهر أن المفهوم من هذا الكلام أنه يريد ما هو شيء إذا أراد ، وليس في الآية أنه إذا أراد ما كان شيئاً قبل تعلق الإرادة .

(57/649)

---

البحث الثاني : قالت الكرامية لله إرادة محدثة بدليل قوله تعالى : ﴿ إِذَا أَرَادَ ﴾ ووجه دلالته من أمرين أحدهما : من حيث إنه جعل للإرادة زماناً ، فإن إذا ظرف زمان وكل ما هو زماني فهو حادث وثانيهما : هو أنه تعالى جعل إرادته متصلة بقوله : ﴿ كُن ﴾ وقوله : ﴿ كُن ﴾ متصل بكون الشيء ووقوعه لأنه تعالى قال : ﴿ فَيَكُونُ ﴾ بفاء التعقيب لكن الكون حادث ، وما قبل الحادث متصل به حادث ، والفلاسفة وافقوهم في هذا الإشكال من وجه آخر فقالوا إرادته متصلة بأمره وأمره متصل بالكون ولكن إرادته قديمة فالكون قديم فمكونات الله قديمة ، وجواب الضالين من التمسك باللفظ هو أن المفهوم من قوله : ﴿ إِذَا أَرَادَ ﴾ من حيث اللغة إذا تعلقت إرادته بالشي لأن قوله : ﴿ أَرَادَ ﴾ فعل ماض ، وإذا دخلت كلمة إذا على الماضي تجعله في معنى المستقبل ، ونحن نقول بأن مفهوم قولنا أراد ويريد وعلم ويعلم يجوز أن يدخله الحدوث ، وإنما نقول لله تعالى صفة قديمة هي الإرادة وتلك الصفة إذا تعلقت بشيء نقول أراد ويريد ، وقبل التعلق لا نقول أراد وإنما نقول

له إرادة وهو بها مريد ، ولنضرب مثالاً للأفهام الضعيفة ليزول ما يقع في الأوهام السخيفة ، فنقول قولنا فلان خياط يراد به أن له صنعة الخياطة فلو لم يصح منا أن نقول إنه خاط ثوب زيد أو يخيط ثوب زيد لا يلزم منه نفي صحة قولنا إنه خياط بمعنى أن له صنعة بها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة في ثوب زيد في زمان ماض خاط ثوبه ، وبها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة في ثوب زيد في زمان مستقبل يخيط ثوبه ، ولله المثل الأعلى فافهم أن الإرادة أمر ثابت إن تعلقت بوجود شيء نقول أراد وجوده أي يريد وجوده ، وإذا علمت هذا فهو في المعنى من كلام أهل السنة تعلق الإرادة حادث وخرج بما ذكرنا جواب الفريقين .

(58/649)

---

البحث الثالث : قالت المعتزلة والكرامية كلام الله حرف وصوت وحادث لأن قوله : ﴿ كُن ﴾ كلام ﴿ وكُنْ ﴾ من حرفين ، والحرف من الصوت ، ويلزم من هذا أن كلامه من الحروف والأصوات ، وأما أنه حادث فلما تقدم من الوجهين أحدهما : أنه زماني والثاني : أنه متصل بالكون والكون حادث ، والجواب يعلم مما ذكرنا ، وذلك لأن الكلام صفة إذا تعلقت بشيء تقول قال ويقول فتعلق الخطاب حادث والكلام قديم فقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا

أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ فيه تعلق وإضافة لأن قوله تعالى : ﴿ يَقُولَ لَهُ ﴾ باللام للإضافة صريح في التعلق ونحن نقول إن قوله للشيء الحادث حادث لأنه مع التعلق ، وإنما القديم قوله وكلامه لا مع التعلق وكل قديم وحادث إذا نظرت إلى مجموعهما لا تجدهما في الأزل وإنما تجدهما جميعاً فيما لا يزال فله معنى الحدوث ولكن الإطلاق موهم ، فتفكر جداً ولا تقل المجموع حادث من غير بيان مرادك ، فإن ذلك قد يفهم منه أن الجميع حادث ، بل حقق الإشارة وجود العبارة وقل أحد طرفي المجموع قديم والآخر حادث ولم يكن الآخر معه في الأزل ، وأما قوله : ﴿ كُن ﴾ من الحروف ، نقول الكلام يطلق على معنيين أحدهما : ما عند المتكلم والثاني : ما عند السامع ، ثم إن أحدهما يطلق عليه أنه هو الآخر ومن هذا يظهر فوائد .



---

أما بيان ما ذكرناه ، فلأن الإنسان إذا قال لغيره عندي كلام أريد أن أقوله لك غداً ، ثم إن السامع أتاه غداً وسأله عن الكلام لذي كان عنده أمس ، فيقول له : إني أريد أن تحضر عندي اليوم ، فهذا الكلام أطلق عليه المتكلم أنه كان عندك أمس ولم يكن عند السامع ، ثم حصل عند السامع بحرف وصوت ويطلق عليه أن هذا الذي سمعت هو الذي كان عندي

، ويعلم كل عاقل أن الصوت لم يكن عند المتكلم أمس ولا الحرف ، لأن الكلام الذي عنده جاز أن يذكره بالعربي فيكون له حروف ، وجاز أن يذكره بالفارسية فيكون له حروف أخر ، والكلام الذي عنده ووعد به واحد والحروف مختلفة كثيرة ، فإذاً معنى قوله هذا ما كان عندي ، هو أن هذا يؤدي إليك ما كان عندي ، وهذا أيضاً مجاز ، لأن الذي عنده ما انتقل إليه ، وإنما علم ذلك وحصل عنده به علم مستفاد من السمع أو البصر في القراءة والكتابة أو الإشارة ، إذا علمت هذا فالكلام الذي عند الله وصفة له ليس بحرف على ما بان ، والذي يحصل عند السامع حرف وصوت وأحدهما الآخر لما ذكرنا من المعنى وتوسع الإطلاق ، فإذا قال تعالى : (يقول له) حصل قائل وسامع .

فاعتبرها من جانب السامع لكون وجود الفعل من السامع لذلك القول فعبر عنه بالكاف والنون الذي يحدث عند السامع ويحدث به المطلوب .

فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)

(60/649)

---

لما تقررت الوحدانية والإعادة وأنكروها وقالوا : بأن غير الله آلهة ، قال تعالى وتنزه عن الشريك : ﴿ الذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وكل شيء ملكه فكيف يكون المملوك

للمالك شريكاً ، وقالوا : بأن الإعادة لا تكون ، فقال : ﴿ وإليه ترجعون ﴾ رداً عليهم في الأمرين ، وقد ذكرنا ما يتعلق بالنحو في قوله : سبحان ، أي سبحوا تسبيح الذي أو سبح من في السموات والأرض تسبيح الذي ﴿ فسبحان ﴾ علم للتسبيح ، والتسبيح هو التنزيه ، والملكوت مبالغة في الملك كالرحموت والرهبوت ، وهو فعلول أو فعلوت فيه كلام ، ومن قال هو فعلول جعلوه ملحقاً به .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس " وقال الغزالي فيه : إن ذلك لأن الإيمان صحته بالاعتراف بالحشر ، والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه ، فجعله قلب القرآن لذلك ، واستحسنه فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى (1) سمعته يترحم عليه بسبب هذا الكلام .

ويمكن أن يقال بأن هذه السورة ليس فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة بأقوى البراهين فابتداؤها بيان الرسالة بقوله : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ [ يس : 3 ] ودليلها ما قدمه عليها بقوله : ﴿ والقرءان الحكيم ﴾ [ يس : 2 ] وما أخره عنها بقوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً ﴾ [ يس : 6 ] وانتهاؤها بيان الوحدانية والحشر بقوله : ﴿ فسبحان الذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ إشارة إلى التوحيد ، وقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إشارة إلى الحشر ، وليس في هذه السورة إلا هذه الأصول الثلاثة ودلائله وثوابه ، ومن حصل من القرآن هذا القدر فقد حصل نصيب قلبه وهو التصديق الذي بالجنان .

---

(1) قوله: «واستحسنه فخر الدين الرازي إلخ» يفيد أن المتكلم غير المؤلف، فلعل هذا الكلام زيادة علق بها تلميذ المؤلف رحمهما الله.

(61/649)

---

وأما وظيفة اللسان التي هي القول، فكما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً﴾ [الأحزاب: 70] وفي قوله تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً﴾ [فصلت: 33] وقوله تعالى: ﴿بالقول الثابت﴾ [إبراهيم: 27] ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ [الفتح: 26] ﴿وإليه يصعد الكلم الطيب﴾ [فاطر: 10] إلى غير هذه مما في غير هذه السورة ووظيفة الأركان وهو العمل، كما في قوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ [البقرة: 110] وقوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنا . . .

ولا تقتلوا النفس﴾ [الإسراء: 32، 33] وقوله: ﴿واعملوا صالحا﴾ [المؤمنون: 51] وأيضاً مما في غير هذه السورة، فلما لم يكن فيها إلا أعمال القلب لا غير سماها قلباً، ولهذا ورد في الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم ندب إلى تلقين يس لمن دنا منه الموت، وقراءتها عند رأسه، لأن في ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة، والأعضاء الظاهرة ساقطة البنية، لكن القلب يكون قد أقبل على الله ورجع عن كل ما سواه، فيقرأ عند

رأسه ما يزاد به قوة قلبه ، ويشتد تصديقه بالأصول الثلاثة وهي شفاء له وأسرار كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلمها إلا الله ورسوله ، وما ذكرناه ظن لانقطع به ، ونرجو الله أن يرحمنا وهو أرحم الراحمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 97 . 99 ﴾

(62/649)

---

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) ﴾

هذه الآية قال فيها ابن جبير : إنها نزلت بسبب أن المعاصي بن وائل السهمي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم ففته وقال : يا محمد من يحيي هذا ؟ وقال مجاهد وقتادة : إن الذي جاء بالعظم النخر أمية بن خلف ، وقاله الحسن ذكره الرماني ، وقال ابن عباس : الجائي بالعظم هو عبد الله بن أبي ابن سلول .

قال القاضي أبو محمد : وهو وهم ممن نسبه إلى ابن عباس لأن السورة والآية مكية بإجماع ولأن عبد الله بن أبي لم يجاهر قط هذه المجاهرة ، واسم أبي هو الذي خلط على الرواة ، لأن الصحيح هو ما رواه ابن وهب عن مالك ، وقاله ابن إسحاق وغيره ، من أن أبي بن

خلف أخا أمية بن خلف هو الذي جاء بالعظم الرميم بمكة ففته في وجه النبي صلى الله عليه وسلم وحياله ، وقال من يحيى هذا يا محمد ؟ ولأبي مع النبي صلى الله عليه وسلم مقامات ومقالات إلى أن قتله يوم أحد بيده بالحربة بجرح في عنقه ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي حين فت العظم " الله يحييه ويميتك ويحييك ويدخلك جهنم " ثم نزلت الآية مبينة ومقيمة للحجة في أن الإنسان نطفة ثم يكون بعد ذلك خصيماً مبيناً هل هذا إلا إحياء بعد موت وعدم حياة ، وقوله ﴿ ونسي ﴾ يحتمل أن يكون نسيان الذهول ويحتمل أن يكون نسيان الترك ، و" الرميم " البالي المتفتت ، وهو الرفات ثم دلهم تعالى على الاعتبار بالنشأة الأولى ، ثم عقب ذلك تعالى بدليل ثالث في إيجاد النار في العود الأخضر المرتوي ماء ، وهذا هو زناد العرب والنار موجودة في كل عود غير أنها في المتخلخل المفتوح المسام أوجد ، وكذلك هو المرخ والعفار ، وأعاد الضمير على الشجر مذكراً من حيث راعى اللفظ فجاء كالتمر والحصا وغيره .

(63/649)

---

أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى

هذا تقرير وتوقيف على أمر تدل صحته على صحة بعث الأجساد من القبور وإعادة

الموتى وجمع الضمير جمع من يعقل في قوله ﴿ مثلهم ﴾ من حيث كانتا متضمنتين من يعقل من الملائكة والثقلين ، هذا تأويل جماعة من المفسرين ، وقال الرماني وغيره : الضمير في مثلهم عائد على الناس .

قال القاضي أبو محمد : فهم مثال للبعث ، وتكون الآية نظير قوله تعالى : ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ [ غافر : 57 ] وقرأ سلام أبو المنذر وابن أبي إسحاق ويعقوب والأعرج " والأرض يقدر " على يفعل مستقبلاً ، وقرأ جمهور " بقادر " ، وقرأ جمهور الناس " الخلاق " ، وقرأ الحسن " الخالق " ورفع " يكونُ " على معنى فهو يكون ، وهي قراءة الجمهور وقرأ ابن عامر والكسائي " فيكونَ " بالنصب ، قال أبو علي : لا ينصب الكسائي إذا لم تتقدم " أن " وينصب ابن عامر وإن لم تتقدم " أن " ، والنصب ها هنا قراءة ابن محيصن وقول تعالى : ﴿ كن ﴾ أمر للشيء المخترع عند تعلق القدرة به لا قبل ذلك ولا بعده ، وإنما يؤمر تأكيداً للقدرة وإشارة بها ، وهذا أمر دون حروف ولا أصوات بل من كلامه القائم بذاته لا رب سواه ، ثم نزه تعالى نفسه تنزيهاً عاماً مطلقاً ، وقرأ جمهور الناس " ملكوت " ، وقرأ طلحة التيمي والأعمش " ملَكه " بفتح اللام ومعناه ضبط كل شيء والقدرة عليه ، وباقي الآية بين . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

ثم قال تعالى محتجاً ﴿ أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ أي أمثال المنكرين للبعث .

وقرأ سلاّم أبو المنذر ويعقوب الحضرمي : "يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ" على أنه فِعْل .

﴿ بلى ﴾ أي إن خلق السموات والأرض أعظم من خلقهم ؛ فالذي خلق السموات والأرض يقدر على أن يبعثهم .

﴿ وَهُوَ الخلاق العليم ﴾ وقرأ الحسن باختلاف عنه "الْخَالِقُ" .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ قرأ الكسائي "فَيَكُونَ" بالنصب عطفاً على "يقول" أي إذا أراد خلق شيءٍ لا يحتاج إلى تعب ومعالجة .

وقد مضى هذا في غير موضع .

﴿ فَسُبْحَانَ الذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ نزّه نفسه تعالى عن العجز والشرك .

وملَكوتُ ومَلَكُوتَي في كلام العرب بمعنى ملك .

والعرب تقول : جَبَرُوتَي خيرٌ من رَحَمُوتَي .

وقال سعيد عن قتادة : "مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ" مفاتح كل شيء .

وقرأ طلحة بن مصرِّف وإبراهيم التيمي والأعمش ، "مَلَكَةُ" ، وهو بمعنى ملكوت إلا أنه

خلاف المصحف .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي تردّون وتصيرون بعد مماتكم .

وقراءة العامة بالتاء على الخطاب .

وقرأ السُّلَميّ وزِرّ بن حُبيش وأصحاب عبد الله "يَرْجِعُونَ" بالياء على الخبر . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(65/649)

---

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) ﴾

الإخبار وتنبيه الاستفهام لقريش ، وإعراضها عن عبادة الله ، وعكوفها على عبادة الأصنام .

ولما كانت الأشياء المصنوعة لا يباشرها البشر إلا باليد ، عبر لهم بما يقرب من أفهامهم بقوله : ﴿ مما عملت أيدينا ﴾ : أي مما تولينا عمله ، ولا يمكن لغيرنا أن يعمله .

فبقدرتنا وإرداتنا برزت هذه الأشياء ، لم يشركنا فيها أحد ، والباري تعالى منزه عن اليد التى هي الجارحة ، وعن كل ما اقتضى التشبيه بالمحدثات .

وذكر الأنعام لها لأنها كانت جل أموالهم ، ونبه على ما يجعل لهم من منافعها .

﴿ لها مالكون ﴾ : أي ملكناها إياهم ، فهم متصرفون فيها تصرف الملاك ، مختصون بالانتفاع بها ، أو ﴿ مالكون ﴾ : ضابطون لها قاهرونها ، من قوله :

أصبحت لا أحمل السلاح ولا . . .

أملك رأس البعير إن نفرا

أي : لا أضبطه ، وهو من جملة النعم الظاهرة .

فلولا تذليله تعالى إياها وتسخيره ، لم يقدر عليها .

ألا ترى إلى ما ندَّ منها لا يكاد يقدر على ردة ؟ لذلك أمر بتسبيح الله راكبها ، وشكره على هذه النعمة بقوله بقوله : ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ وقرأ الجمهور : ﴿ ركوبهم ﴾ ، وهو فعول بمعنى مفعول ، كالحضور والحلوب والقذوع ، وهو مما لا ينقاس .

وقرأ أبي ، وعائشة : ركوبتهم بالتاء ، وهي فعولة بمعنى مفعولة .

وقال الزمخشري : وقيل الركوبة جمع .

انتهى ، ويعني اسم جمع ، لأن فعولة بفتح الفاء ليس بجمع تكسير .

وقد عد بعض أصحابنا أبنية أسماء الجموع ، فلم يذكر فيها فعولة ، فينبغي أن يعتقد فيها أنها اسم مفرد لا جمع تكسير ولا اسم جمع ، أي مركوبتهم كالحلوبة بمعنى المحلوبة .

وقرأ الحسن ، وأبو البرهسم ، والأعمش : ركوبهم ، بضم الراء وبغير تاء ، وهو مصدر حذف مضافة ، أي ذو ركوبهم ، أو فحسن منافعها ركوبهم ، فيحذف ذو ، أو يحذف منافع .

قال ابن خالويه : العرب تقول : ناقة ركوب حلوب ، وركوبة حلوبة ، وركباة حلباة ، وركبوب حلبوب ، وركبي حلبي ، وركبوتا حلبوتا ، كل ذلك محكي ، وأنشد :

ركبانة حلبانة زفوف . . .

تخلط بين وبر وصوف

وأجمل المنافع هنا ، وفصلها في قوله : ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام ﴾ الآية .

والمشارب : جمع مشرب ، وهو إما مصدر ، أي شرب ، أو موضع الشرب .

ثم عنفهم واستجهلهم في اتخاذهم آلهة لطلب الاستنصار .

﴿ لا يستطيعون ﴾ : أي الآلهة ، نصر متخذيهم ، وهذا هو الظاهر .

لما اتخذوهم آلهة للاستنصار بهم ، رد تعالى عليهم بأنهم ليس لهم قدرة على نصرهم .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿ يستطيعون ﴾ عائد للكفار ، وفي ﴿

نصرهم ﴾ للأصنام. انتهى.

والظاهر أن الضمير في وهم عائد على ما هو الظاهر في ﴿ لا يستطيعون ﴾ ، أي والآلهة للكفار جند محضرون في الآخرة عند الحساب على جهة التوبيخ والنقمة.

وسماهم جنداً ، إذ هم معدون للنقمة من عابديهم وللتوبيخ ، أو محضرون لعذابهم لأنهم يجعلون وقوداً للنار.

قيل : ويجوز أن يكون الضمير في وهم عائداً على الكفار ، وفي لهم عائداً على الأصنام ، أي وهم الأصنام جند محضرون متعصبون لهم متحيرون ، يذبون عنهم ، يعني في الدنيا ، ومع ذلك لا يستطيعون ، أي الكفار التناصر.

وهذا القول مركب على أن الضمير في لا يستطيعون للكفار.

ثم آنس تعالى نبيه بقوله : ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ : أي لا يهمك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم ، وتوعد الكفار بقوله : ﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ ، فنجازيهم على ذلك.

﴿ أوَلَم يرى الإنسان ﴾ : قبح تعالى إنكار الكفرة البعث ، حيث قرر أن عنصره الذي خلق منه هو نطفة ماء مهين خارج من مخرج النجاسة.

أفضى به مهانة أصلة إلى أن يخاصم الباري تعالى ويقول : من يحيى الميت بعد ما رمّ ؟ مع علمه أنه منشأ من موات .

وقائل ذلك العاصي بن وائل ، أو أمية بن خلف ، أو أبي بن خلف ، أقوال أصحها أنه أبي بن خلف ، رواه ابن وهب عن مالك ، وقاله ابن اسحاق وغيره .

والقول أنه أمية ، قاله مجاهد وقتادة ؛ ويحتمل أن كلاً منهم واقع ذلك منه .

وقد كان لأبي مع الرسول مراجعات ومقامات ، جاء بالعظم الرميم بمكة ، ففتته في وجهه الكريم وقال : من يحيى هذا يا محمد ؟ فقال : " الله يحييه ويميتك ويحييك ويدخلك جهنم " ، ثم نزلت الآية .

وأبيّ هذا قتلة رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) بيده يوم أُحُد بالحربة ، فخرجت من عنقه .

ووهم من نسب إلى ابن عباس أن الجائي بالعظم هو عبد الله بن أبي بن سلول ، لأن السورة والآية مكية بإجماع ، ولأن عبد الله بن أبي لم يهاجر قط هذه المهاجرة .

وبين قوله : ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ وبين : ﴿ خلقناه من نطفة ﴾ ، جمل محذوفة تبين أكثرها في قوله في سورة المؤمنون : ﴿ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ وإنما اعتقب قوله : ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ الوصف الذي آل إليه من التمييز والإدراك الذي يتأتى معه

الخصام ، أي فإذا هو بعدما كان نطفة ، رجل مميز منطيق قادر على الخصام ، مبين معرب عما في نفسه .

﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ﴾ : أي نشأته من النطفة ، فذهل عنها وترك ذكرها على طريق اللدد والمكابرة والاستبعاد لما لا يستبعد .

وقرأ زيد بن علي : ونسي خالقه ، اسم فاعل ؛ والجمهور : خلقه ، أي نشأته .

وسمى قوله : ﴿ من يحيي العظام وهي رميم ﴾ لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل ، وهي إنكار قدرة الله على إحياء الموتى ، كما هم عاجزون عن ذلك .

وقال الزمخشري : والرميم اسم لما بلى من العظام غير صفة ، كالرمة والرفاة ، فلا يقال : لم لم يؤنث ؟ وقد وقع خبراً لمؤنث ، ولا هو فعيل أو مفعول . انتهى .



---

واستدل بقوله : ﴿ قل يحييها ﴾ على أن الحياة تحلها ، وهذا الاستدلال ظاهر .

ومن قال : إن الحياة لا تحلها ، قال : المراد بإحياء العظام : ردها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حسن حساس .

﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾ : يعلم كيفيات ما يخلق ، لا يتعاظمه شيء من المنشآت

والمعدات جنساً ونوعاً ، دقة وجلالة .

﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ﴾ : ذكر ما هو أغرب من خلق الإنسان من النطفة ، وهو إبراز الشيء من ضده ، وذلك أبدع شيء ، وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر .

ألا ترى أن الماء يطفى النار ؟ ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء .

والأعراب توري النار من الشجر الأخضر ، وأكثرها من المرخ والعفار .

وفي أمثالهم : في كل شيء نار ، واستمجد المرخ والعفار .

يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين ، وهما أخضران يقطر منهما الماء ، فيستحق المرخ وهو ذكر ، والعفار وهي أنثى ، ينقدح النار بإذن الله عز وجل .

وعن ابن عباس : ليس شجر إلا وفيه نار إلا العنا .

وقرأ الجمهور : الأخضر ؛ وقرىء : الخضراء ؛ وأهل الحجاز يؤنثون الجنس المميز واحده بالتاء ؛ وأهل نجد يذكرون ألفاظاً ، واستثنيت في كتب النحو .

ثم ذكر ما هو أبدع وأغرب من خلق الإنسان من نطفة ، ومن إعادة الموتى ، وهو إنشاء هذه المخلوقات العظيمة الغريبة من صرف العدم إلى الوجود ، فقال : ﴿ أوَليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ ؟ وقرأ الجمهور : بقادر ، بباء الجر داخلة على اسم الفاعل .

وقرأ الجحدري ، وابن أبي إسحاق ، والأعرج ، وسلام ، ويعقوب : يقدر ، فعلاً مضارعاً ، أي من قدر على خلق السموات والأرض من عظم شأنهما ، كان على خلق الأناس قادراً ، والضمير في مثلهم عائد على الناس ، قاله الرماني .

وقال جماعة من المفسرين : عائد على السموات والأرض ، وعاد الضمير عليهما كضمير من يعقل ، من حيث كانت متضمنة من يعقل من الملائكة والثقلين .

(69/649)

---

وقال الزمخشري : ﴿ مثلهم ﴾ يحتمل معنيين : أن يخلق مثلهم في الصغر والقماءة بالإضافة إلى السموات والأرض ، أو أن يعيدهم ، لأن المصادر مثل للمبتدأ وليس به . انتهى .

ويقول : إن المعاد هو عين المبتدأ ، ولو كان مثله لم يسم ذلك إعادة ، بل يكون إنشاء مستأنفاً .

وقرأ الجمهور : ﴿ الخلاق ﴾ نسبة المبالغة لكثرة مخلوقاته .

وقرأ الحسن ، والجحدري ، ومالك بن دينار ، وزيد بن علي : الخالق ، اسم فاعل .

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ : تقدّم شرح مثل هذه الجملة ، والخلاف في فيكون من حيث القراءة نصباً ورفعاً .

﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ : تنزيه عام له تعالى من جميع النقائص .

وقرأ الجمهور : ملكوت ؛ وطحلة ، والأعمش : ملكة على وزن شجرة ، ومعناه : ضبط كل شيء والقدرة عليه .

وقريء : مملكة ، على وزن مفعلة ؛ وقريء : ملك ، والمعنى أنه متصرف فيه على ما أراد وقضى .

والجمهور : ﴿ ترجعون ﴾ ، مبنياً للمفعول ، وزيد بن علي : مبنياً للفاعل . انتهى انتهى .

اهـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(70/649)

---

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ الخ

(71/649)

---

استئنافٌ مسوقٌ من جهته عزَّ وجلَّ لتحقيق مضمون الجوابِ الذي أُمر عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنْ يُخاطبهم بذلك ويُلزمهم الحجَّة. والهمزةُ للإنكارِ والنَّفيِ، والواوُ للعطفِ على مقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ أي أليسَ الذي أنشأها أوَّلَ مرَّةٍ وليس الذي جعل لهم من الشَّجرِ الأخضرِ ناراً وليسَ الذي خلقَ السَّمواتِ والأرضَ مع كِبرِ جرمِهما وعظم شأنهما ﴿ بقادرٍ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ في الصِّغرِ والقَمَاءةِ بالنسبةِ إليهما فإنَّ بديهةَ العقلِ قاضيةٌ بأنَّ مَن قدرَ على خلقهما فهو على خَلْقِ الأناسيِّ أقدرُ كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ وقُرِىء يقدِرُ وقوله تعالى: ﴿ بلى ﴾ جوابٌ من جهته تعالى وتصريحٌ بما أفادهُ الاستفهامُ الإنكاريُّ من تقريرِ ما بعد النَّفيِ وإيذانٌ بتعيُّنِ الجوابِ نطقُوا به أو تلعثمُوا فيه مخافةَ الإلزامِ. وقولُه تعالى: ﴿ وَهُوَ الخلاق العليم ﴾ عطفٌ على ما يفيدُه الإيجابُ أي بَلَى هو قادرٌ على ذلكَ وهو المبالغُ في الخلقِ والعلم كَيْفاً وكمَّاً. ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ ﴾ أي شأنُه ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً ﴾ من الأشياءِ ﴿ أَن يَقُولَ لَهُ كُن ﴾ أي أنْ يعلِّقَ به قدرته ﴿ فَيَكُونُ ﴾ فيحدُثُ من غيرِ توقُّفٍ على شيءٍ آخرَ أصلاً. وهذا تمثيلٌ لتأثيرِ قُدرتهِ تعالى فيما أرادَه بأمرِ الآمرِ المُطاعِ المأمورِ المطيعِ في سرعةِ حصولِ المأمورِ به من غيرِ توقُّفٍ على شيءٍ مَا. وقُرِىء فيكونَ بالنَّصب عطفاً على يقولَ ﴿ فسبحان الذى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلّ شَىْء ﴾ تنزيهٌ له عزَّ وعلا عمَّا وصفُوه تعالى به وتعجيبٌ ممَّا قالوا في شأنِه تعالى وقد مرَّ تحقيقُ معنى سبحانَ. والفاءُ للإشارةِ إلى أنَّ ما فُصِّل من شؤونهِ تعالى

موجبةٌ لتنزُّهه وتنزيهِ أكملَ إيجابٍ كما أنّ وصفَه تعالى بالمالكيةِ الكلّيةِ المُطلقة للإشعارِ بأنَّها مقتضيةٌ لذلك أتمَّ

(72/649)

---

اقتضاءٍ . والملكوتُ مبالغةٌ في المُلكِ كالرّحموتِ والرّهبوتِ . وقُرِئ ملكةُ كلِّ شيءٍ ومملكةُ كلِّ شيءٍ ومُلكُ كلِّ شيءٍ . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ لا إلى غيرِه . وقُرِئ ترجعون بفتحِ التَّاءِ من الرُّجوعِ وفيهِ من الوعدِ والوعيدِ ما لا يَخْفى . عن ابنِ عبّاسٍ رضيَ الله عنهُما : كنتُ لا أعلمُ ما رُوي في فضائلِ ياس وقراءتها كيف خُصَّتْ بذلك فإذا أنه لهذه الآيةِ . قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ لكلِّ شيءٍ قلباً وإنّ قلبَ القرآنِ ياس مَن قرأها يريدُ بها وجه الله تعالى غفرَ اللَّهُ له وأُعطيَ من الأجرِ كأنَّما قرأ القُرآنَ اثنتينِ وعشرينَ مرَّةً " وأيّما مسلمٍ قُرِئ عنده إذا نزل به مَلَكُ الموتِ سورةُ ياس نزل بكلِّ حرفٍ منها عشرةُ أملاكٍ يقومون بين يديهِ صفوفاً يصلُّون عليهِ ويستغفرونَ له ويشهدونَ غسلَهُ ويتبعونَ جنازتَهُ ويصلُّون عليهِ ويشهدون دفنَهُ وأيّما مسلمٍ قرأ ياس وهو في سكراتِ الموتِ لم يقبضْ مَلَكُ الموتِ رُوحَه حتَّى يجيئَه رَضوانُ خازنُ الجَنّةِ بشربةٍ من شرابِ الجنّةِ فيشربها وهو على فراشِه فيقبضُ مَلَكُ الموتِ رُوحَه وهو ريّانُ ويمكثُ في قبرِه وهو ريّانُ ولا يحتاجُ إلى حوضٍ

من حياض الأنبياءِ حتَّى يدخلَ الجنّةَ وهو ريّانُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(73/649)

---

وقال الآلوسى :

﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ الخ

استئناف مسوق من جهته تعالى لتحقيق مضمون الجواب الذي أمر صلى الله عليه وسلم أن يخاطبهم به ويلزمهم الحجة ، والهمزة للإنكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أليس الذي أنشأها أول مرة وليس الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً وليس الذي خلق السموات والأرض مع كبر جرمهما وعظم شأنهما ﴿ بقادر على أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ في الصغر والحقارة بالنسبة إليهما على أن المراد بمثلهم هم وأمثالهم أو على أن المراد به هم أنفسهم بطريق الكناية كما في مثلك يفعل كذا ، وقال بعضهم : مثلهم في أصول الذات وصفاتها وهو المعاد ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تفصيل الكلام في هذا المقام ، وزعم جماعة من المفسرين عود ضمير ﴿ مّثْلُهُمْ ﴾ للسموات والأرض لشمولهما لمن فيهما من العقلاء فلذا كان ضمير العقلاء تغليباً والمقصود بالكلام دفع توهم قدم العالم

المقتضى لعدم إمكان إعادته وهو تكلف ومخالف للظاهر والمشركون لا يقولون بقدم العالم فيما يظهر .

وتعقب أيضاً بأن قدم العام لو فرض مع قدم النوع الإنساني وعدم تناهي أفراده في جانب المبدأ لا يأبى الحشر الجسماني إذ هو بالنسبة إلى المكلفين وهم متناهون .

وزعم أن ما ثبت قدمه استحال عدم غير تام كما قرر في محله فلا تغفل ، وقرأ الجحدري .

وابن أبي إسحاق .

والأعرج .

وسلام .

ويعقوب في رواية ﴿ يُقَدّرُ ﴾ بفتح الياء وسكون القاف فعلاً مضارعاً .

﴿ بلى ﴾ جواب من جهته تعالى وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكاري من تقرير ما بعد النفي من القدرة على الخلق وإيذان بتعيينه للجواب نطقوا به أو تلعثموا فيه مخافة الالتزام ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الخلاق العليم ﴾ عطف على ما يفيده الإيجاب أي بلى هو سبحانه قادر على ذلك وهو جل وعلا المبالغ في الخلق والعلم كيفاً وكماً .

وقرأ الحسن .

والجحدري .

وزيد بن علي .

ومالك بن دينار ﴿ الخالق ﴾ بزنة الفاعل .

(74/649)

---

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ ﴾ أي شأنه تعالى شأنه في الإيجاد ، وجوز فيه أن يراد الأمر القولي فيوافق قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْء ﴾ [ النحل : 40 ] ويراد به القول النافذ .

﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً ﴾ أي إيجاد شيء من الأشياء ﴿ أَن يَقُولَ لَهُ كُن ﴾ أي أوجد ﴿ فَيَكُونُ ﴾ أي فهو يكون ويوجد ، والظاهر أن هناك قولاً لفظياً هو لفظ كن وإليه ذهب معظم السلف وشؤون الله تعالى وراء ما تصل إليه الأفهام فدع عنك الكلام والخصام ، وقيل ليس هناك قول لفظي لئلا يلزم التسلسل ، ويجوز أن يكون هناك قول نفسي وقوله للشيء تعلقه به ، وفيه ما يأباه السلف غاية الإباء ، وذهب غير واحد إلى أنه لا قول أصلاً وإنما المراد تمثيل لتأثير قدرته تعالى في مراده بأمر الآمر المطاع للمأمور المطيع في سرعة حصول المأمور به من غير امتناع وتوقف على شيء .

وقرأ ابن عامر .

والكسائي ﴿ فَيَكُونُ ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ يِقُولُ ﴾ وجوز كونه منصوباً في جواب

الأمر ، وأباه بعضهم لعدم كونه أمراً حقيقة ، وفيه بحث .

﴿ فسبحان الذى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾

تنزيه له عز وجل مما وصفوه به تعالى وتعجيب عما قالوا في شأنه عز شأنه ، والفاء جزائية أي إذا علم ذلك فسبحان أو سببية لأن ما قبل سبب لتنزيهه سبحانه ، والملكوب مبالغة في الملك كالرحموت والرهبوت فهو الملك التام ، وفي تعليق سبحانه بما في حيزه إيماء إلى أن كونه تعالى مالكاً للملك كله قادراً على كل شيء مقتضى للتسبيح ، وفسر الملكوت أيضاً بعالم الأمر والغيب فتخصيصه بالذكر قيل لاختصاص التصرف فيه به تعالى من غير واسطة بخلاف عالم الشهادة .

وقرأ طلحة .



---

والأعمش ﴿ ملكة ﴾ على وزن شجرة أي بيده ضبط كل شيء ، وقرىء ﴿ مملكة ﴾ على وزن مفعلة وقرىء ﴿ لَّهُ مُلْكُ ﴾ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ لا إلى غيره تعالى وهذا وعد للمقرين ووعيد للمنكرين فالخطاب عام للمؤمنين والمشركين ، وقيل هو وعيد فقط على أن الخطاب للمشركين لا غير توبيخاً لهم ولذا عدل عن مقتضى الظاهر وهو وإليه يرجع الأمر

كله ففيه دلالة على أنهم استحقوا غضباً عظيماً .

وقرأ زيد بن علي ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ مبنياً للفاعل .

(76/649)

---

هذا ما لخص من كلامهم في هذه الآيات الكريمة وفيها دلالة واضحة على المعاد الجسماني وإيماء إلى دفع بعض الشبه عنه ، وهذه المسألة من مهمات الدين وحيث أن هذه السورة الكريمة قد تضمنت من أمره ماله كانت عند أجلة العلماء الصدور قلب القرآن لا بأس بأن يذكر في إتمام الكلام فيها ما للعلماء في تحقيق أمر ذلك فأقول طالباً من الله عز وجل التوفيق إلى القول المقبول : اعلم أولاً أن المسلمين اختلفوا في أن الإنسان ما هو فقيل هو هذا الهيكل المحسوس مع أجزاء سارية فيه سريان ماء الورد في الورد والنار في الفحم وهي جسم لطيف نوارني مخالف بالحقيقة والماهية للأجسام التي منها ائتلف هذا الهيكل وإن كان لسريانه فيه بشبهه صورة ولا نعلم حقيقة هذا الجسم وهو الروح المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبّى ﴾ [ الإسراء : 85 ] عند معظم السلف الصالح وبينه وبين البدن علاقة يعبر عنها بالروح الحيواني وهو بخار لطيف إذا فسد وخرج عن الصلاحية لأن يكون علاقة تخرج الروح عن البدن علاقة بعبر عنها بالروح الحيواني وهو بخار لطيف إذا

فسد وخرج عن الصلاحية لأن يكون علاقة تخرج الروح عن البدن خروجاً اضطرارياً وتزول الحياة، وما دام باقياً على الوجه الذي يصلح به لأن يكون علاقة تبقي الروح والحياة، وهذا الجسم المعبر عنه بالروح على ما قال الإمام القرطبي في التذكرة مما له أول وليس له آخر بمعنى أنه لا يفنى وإن فارق البدن المحسوس، وذكر فيها أن من قال إنه يفنى فهو ملحد، وقيل هو هذا الهيكل المحسوس مع النفس الناطقة التي هي جوهر مجرد بل هو الإنسان حقيقة على ما صرح به بعضهم، وإلى إثبات هذا الجوهر ذهب الحليمي.

والغزالي.

والراغب.

وأبو زيد الدبوسي.

ومعمر من قدماء المعتزلة.

وجمهور متأخري الإمامية.

*(77/649)*

---

وكثير من الصوفية وهو الروح الأمرية وليس وليست داخلة البدن ولا خارجة عنه فنسبتها إليه نسبة الله سبحانه وتعالى إلى العالم وهي بعد حدوثها الزماني عندهم لا تفنى أيضاً.

ورد هذا المذهب ابن القيم في كتاب الروح بما لا مزيد عليه ، وكما اختلفوا في ذلك اختلفوا في أن البدن هل يتفرق بعد الموت فقط أم يتفرق وتعدم ذاته بكل قال بعض ، ولعل من قال بالثاني استثنى عجب الذنب لصحة خبر استثنائه من البلى ، وكل هؤلاء المختلفين اتفقوا على القول بالحشر الجسماني إلا أن منهم من قال بالحشر الجسماني فقط بمعنى أنه لا يحشر إلا جسم إذ ليس وراء الجسم عندهم جوهر مجرد يسمى بالنفس الناطقة ، ومنهم من قال بالحشر الجسماني والحشر الروحاني معاً بمعنى أنه يحشر الجسم متعلقاً به أمر ليس بجسم هو النفس الناطقة وكل من أصحاب هذين القولين منهم من يقول بأن البدن إذا تفرق تجمع أجزاؤه يوم القيامة للحشر وتقوم فيها الروح أو تتعلق كما في الدنيا بل القيام أو التعلق هناك أتم إذ لا انقطاع له أصلاً بعد تحققه فالحشر عند هؤلاء يجمع الأجزاء المتفرقة وعود قيام الروح أو تعلقها إليها ، والمراد بالأجزاء الأجزاء الأصلية وهي أجزاء البدن حال نفخ الروح فيه الدنيا لا الذرة التي أخذ عليها العهد يوم ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ [ الأعراف : 172 ] كما قيل : والله تعالى قادر على حفظها من التحلل والتبدل وكذا على حفظها من أن تكون أجزاء بدن آخر وإن تفرقت في أقطار الأرض واختلطت بالعناصر ، وقيل : يجوز أن تكون

الأجزاء الأصلية يقبضها الملك بإذن الله تعالى عند حضور الموت فلا يتعلق بها الأكل ولا تختلط بالتراب ولا يحصل منها نماء أو حيوان ؛ وهو مجرد احتمال لا دليل عليه بل مخالف لقوله سبحانه : ﴿ قَالَ مَنْ يحيي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فإنه ظاهر في أن المحشور أجزاء رميمة مخلوطة بالتراب ، ويجوز أن تكون الأجزاء الأصلية هي الأجزاء الترابية التي ينثرها الملك في الرحم على المنى كما ورى في الحديث الصحيح وهو لا ينثر تراباً واحداً مرتين ويحشر البدن بعد الجمع على أكمل حالاته كما يشير إليه

(79/649)

---

قوله عليه الصلاة والسلام : " يحشر الناس حفاة عراة غرلاً " ثم يزاد في إجساد أهل الجنة فيكون أحدهم كآدم عليه السلام طولاً وعرضاً ، وكذا يزاد في أجساد أهل النار خلافاً للمعتزلة حتى أن سن أحدهم لتكون كجبل أحد ، وجاء كل من الزيادتين في الحديث فالمقطوع أو المجذوع مثلاً لا يحشر إلا كامل كما كان قبل القطع أو الجذع ومن خلق في الدنيا بأربع أيد مثلاً يحشر على ما هو المعتاد المعروف في بني نوعه وكذا من خلق بلا يد أو رجل مثلاً ، والقول بأنه يلزم تعذيب جسد لم يعص وترك تعذيب جسد عصى ناشيء عن غفلة عظيمة إذ المعذب إنما هو الروح وهو الذي عصى ولا يعقل العصيان والتعذيب لنفس

الجسد وحرقه بالنار ليس تعذيباً له نفسه وءلا لكان حرق الخشب تعذيباً له بل هو وسيلة إلى تعذيب الروح وهذا كما لو جعل شخص في صندوق حديد مثلاً ووضع في النار أو لف في ثوب وضرب بالسياط حتى تخرق الثوب فالروح بمنزلة هذا الشخص والجسد بمنزلة الصندوق أو الثوب ، وعلى القول بأن لكل شيء حياة لائقة به لا يلزم التعذيب أيضاً إذ ليس كل حي تؤلمه النار ، واعتبر ذلك بالسمند وبالنعامة وكذا بخزنة جهنم وحياتها وعقاربها والعياذ بالله عز وجل .

ومنهم من يقول : إن البدن يعدم لا أنه تتفرق أجزاؤه فقط ثم يعاد للحشر بعينه ، ومنهم من يقول يعدم ثم يخلق يوم القيامة مثله فتقوم فيه الروح أو تتعلق به .

(80/649)

---

واستدل للقول الأول بقوله تعالى : ﴿ قَالَ مَنْ يحيى العظام وَهِىَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [ يس : 78 ، 79 ] فإنه ظاهر في أن العظام لا تعدم ذواتها في الخارج ولا يكاد يفهم من الرميم أكثر من تفرق الأجزاء وكأن المنكرين استبعدوا جمعها فأشير إلى دفع استبعادهم بأن الإنشاء أبعد وقد وقع ثم دفع ما عسى يتوهم من أن اختلاط الأجزاء بعد تفرقها وعودها إلى عناصرها يوجب عدم تميزها فلا يتيسر جمعها بقوله سبحانه : ﴿

وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 79] ثم أشير إلى دفع ما يتوهم من أن الإنشاء كان تدريجياً نقلت فيه الأجزاء من حالة إلى حالة حتى حصل استعدادها للحياة ومناسبتها للروح ولا كذلك ما يكون يوم القيامة فلا مناسبة بين الأجزاء التي تجمع وبين الروح والحياة فلا يلزم من صحة الإنشاء صحة الحشر بقوله تعالى : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشجر الاخضر نَاراً ﴾ [يس : 80] وحيث كان هذا معروفاً بينهم يشاهده الكبير والصغير منهم أشار سبحانه إلى الدفع به وإلا فإنشاؤه تعالى لما يكون بالتولد من الحيوان كالفار والذباب دافع لذلك.

ومن الناس من زعم أن ما يكون قبيل الساعة من الزلازل وإنزال مطر كمني الرجال ونحو ذلك لتحصيل استعداد للروح في تلك الأجزاء، وهو مما لا يحتاج إلى التزامه، وكذا استدل لذلك القول بما أرشد إليه إبراهيم عليه السلام حين قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ الموتى ﴾ [البقرة : 20] وبقوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ بلى قادرين على أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُ ﴾

[ القيامة : 3 ، 4 ] إلى غير ذلك من الآيات وفي الأخبار ما يقتضيه أيضاً ، واستدل لدعوى أن البدن يعدم ذاتاً في القول الثاني بقوله سبحانه : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [ القصص : 88 ] وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [ الرحمن : 26 ] ورد بأنه يجوز أن يكون التفرق هلاكاً بل قال بعض المحققين : إن معنى الآية كل شيء ليس بموجود في الحال في حد نفسه إلا ذات الواجب تعالى بناء على أن وجود الممكن مستفاد من الغير فلا وجود فيه مع قطع النظر عن الغير بخلاف وجود الواجب تعالى فإنه من ذاته سبحانه بل عين ذاته ، ويقال نظير ذلك في الآية الثانية لو سلم دخول البدن في عموم من ، واستدل لدعوى أنه يخلق يوم القيامة مثله في القول الثالث بقوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بلى ﴾ [ يس : 81 ] وأجيب بأن المراد مثلهم في الصغر والقماة على ما سمعت فيما تقدم ، ولا يراد أنه تعالى قادر على أن يخلق يوم القيامة مثل أبدانهم التي كانت في الدنيا ويعيد أرواحهم إليها إذ لا يكاد يفهم هذا من الآية ولا داعي لالتزام القول بأن الحشر بخلق مثل البدن السابق وإن قيل بأن ذلك البدن تعدم ذاته في الخارج.

ومن الناس من توهم وجوب التزامه إن قيل بذلك لاستحالة إعادة المعدوم .

واستدل على الاستحالة بأنه لو أعيد لزم تخلل العدم بين الشيء ونفسه وهو محال .

ورد بناء على أن الوقت ليس من المشخصات المعتبرة في الوجود بأنا لا نسلم أن التخلل ههنا محال لأن معناه أنه كان موجوداً زماناً ثم زال عنه الوجود في زمان آخر ثم اتصف بالوجود في الزمان الثالث وهو في الحقيقة تخلل العدم وقطع الاتصال بين زماني الوجوي ولا استحالة فيه لوجود الطرفين المتغايرين بالذات إنما المحال تخلل العدم بين ذات الشيء ونفسه بمعنى قطع الاتصال بين الشيء ونفسه بأن يكون الشيء موجوداً ولم يكن نفسه موجوداً ثم يوجد نفسه وههنا ليس كذلك فإن الشيء وجد مع نفسه في الزمان الأول ثم اتصف مع نفسه بالعدم في الزمان الآخر ثم اتصف بالوجود مع نفسه في الزمان الثالث فلم يتحقق قطع الاتصال بين الشيء ونفسه في زمان من الأزمنة وهل هذا إلا كلبس شخص ثوباً معيناً ثم خلعه ثم لبسه .



واستدل أيضاً بأنه لو جاز إعادة المعدوم بعينه لجاز إعادته مع مثله من كل وجه واللازم باطل لأن المتماثلين إما أن يكون أحدهما معاداً دون الآخر وذلك باطل مستلزم للتحكم والترجيح بلا مرجح ، وإما أن يكونا معادين وهو أيضاً باطل مستلزم لاتحاد الإثنين ، وإما أن

لا يكون شيء منهما معاداً وهو أيضاً باطل مستلزم خلاف المفروض إذ قد فرض كون أحدهما معاداً ، وفيه أنه لا يتم إلا باثبات فقدان الذات وبطلان الهوية فيما بين الوجودين السابق واللاحق فإنه مدار لزوم التحكم ، ويجوز أن يقال : الشيء إذا عدم في الخارج بقي في نفس الأمر بحسب وجوده الذهني فيحفظ وحدته الشخصية بحسب ذلك الوجود كما لو كان متميزاً ثابتاً في العدم ثبوتاً منفكاً عن الوجود الخارجي كما ذهب إليه المعتزلة وموافقوهم ، وزعم أن وحدته الشخصية غير محفوظة في الذهن إلا لا وحدة بدون الوجود ولا وجود بدون التشخص سواء كان وجوداً خارجياً أو ذهنياً ، والهوية الذهنية إنما تكون موجودة في الذهن بمشخصاها الذهنية وهي بتلك المشخصات ليست هوية خارجية وإلا لزم اتصاف الهوية الخارجية بالعوارض المختصة بالوجود الذهني وهو ضروري البطلان بل بشرط تجريدها عنها ، وقولهم باتحادها معها بمعنى أنها بعد التجريد عينها فليست إياها مطلقاً بالفعل يتجه عليه أنه ليس معنى تجريد الهوية عن مشخصاتها جعلها خالية عنها في الواقع بل معناه قطع النظر عنها وعدم اعتبارها ولا يلزم من عدم اعتبارها اعتبار عدمها فضلاً عن عدمها في الواقع وقطع النظر لا يمنع من الاتحاد في الواقع ، والقول بأن قولنا : هذا معاذ وهذا مبدأ قضية شخصية خارجية يتوقف صدقها على وجود الموضوع في الخارج لا ذهنية يكفي في صدقها وجود الموضوع في الذهن فقط فلا بد من انحفاظ الوحدة في الخارج ولا يكفي انحفاظها في الذهن يتجه عليه أن صدق الحكم

الذهني كاف في اندفاع التحكم فتدبر ، وقيل : كما أن المعدوم موجود في الذهن كذلك المبتدأ المفروض

(84/649)

---

موجود فيه أيضاً فليست نسبة الموجود الثاني إلى المعدوم السابق أولى من نسبته إلى المبتدأ المفروض .

وتعقب بأن فيه بحثاً ، أما على مذهب الفلاسفة فلأن صورة المعدوم السابق مرتسمة في القوى المنطبقة للأفلاك عندهم بناء على أن صور جميع الحوادث الجسمانية منطبعة فيها بزعمهم فله صورة خيالية جزئية محفوظة الوحدة الشخصية بعد عدمه بخلاف المستأنف فإنه ليس له تلك الصورة قبل وجوده بصورته الجزئية فإذا وجد بتلك الصورة الجزئية كان معاداً وإذا وجد بالصورة الكلية كان مستأنفاً ، وأما على مذهب الأشاعرة من المتكلمين فلأن للمعدوم أيضاً صورة جزئية حاصلة بتعلق صفة البصر من الموجد تعالى شأنه وليس تلك الصورة للمستأنف وجوده فإنها وإن كانت جزئية حقيقية أيضاً إلا أنها لم تترتب على تعلق صفة البصر ، ولا شك أن المرتب على تعلق صفة البصر أكمل من غير المترتب عليه فبين الصورتين تمايز واضح ، وإذا انحفظ وحدة الموجود الخارجي بالصورة الجزئية الخيالية

لنا فانخفاضها بالصورة الجزئية الحاصلة له سبحانه بواسطة تعلق البصر بالطريق الأولى ، والقول بأن نسبة الصورة الخيالية وما هو بمنزلتها إلى كل من المعاد والمستأنف سواء أيضاً فتكون الوحدة المحفوظة نوعية لا شخصية يلزم عليه أن لا تكون الصورة الخيالية جزئية بل كلية وو خلاف ما صرحوا .

واستدل أيضاً بأنه لو جاز إعادة المعدوم بعينه لما حصل القطع بحدوث شيء إذ يجوز أن يكون لكل ما نعتقده حادثا وجود سابق يعدم تارة ويعاد أخرى واللازم باطل باتفاق العقلاء .



---

وتعقب بأن التجويز العقلي لا ينكر إلا أن الأصل عدم الوجود السابق وبه يحصل نوع من العلم ، ولعل ذلك من قبيل علمنا بأن جبل أحد لا ينقلب ذهباً مع تجويز العقل انقلابه وبالجملة أدلة استحالة إعادة المعدوم غير سليمة من القوادح كما لا يخفى على من راجع المطولات من كتب الكلام ، وقد أشير فيما تقدم من الآيات إلى دفع شبهة عدم انخفاض الوحدة الشخصية بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [ يس : 79 ] والذي يترجح من هذه المذاهب أن الحشر بجمع الأجزاء الأصلية الباقية من أول العمر إلى آخره وهي إما

أجزاء عنصرية أكثرها ترجع إلى التراب وتختلط به كما تختلط سائر الأجزاء بعناصرها أو أجزاء ترابية فقط على ما سمعت فيما تقدم غير بعيد ، وهذا هو الذي ينبغي أن يعول عليه إذ حديث العناصر الأربعة وتركب البدن منها لا سيما حديث عنصر النار لم يصح فيه شيء من الشارع صلى الله عليه وسلم ولم يذكر في كتب السلف بل هو شيء ولع فيه الفلاسفة ، على أن أصحاب الفلسفة الجديدة نسمعهم ينكرون كرة النار التي قال بها المتقدمون فالأجزاء الأصلية بعد أن تتفرق وتصير ترابا يجمعها الله تعالى حيث كانت وهو سبحانه بها عليم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [ الملك : 14 ] وهذا إن ضم إليه القول بإعادة الصورة التي هي جزء جوهري من الجسم عند القائلين بتركبه منها ومن الهيولي أو العوارض المختصة بالأنواع التي هي جزء من أفرادا النوع كالصورة النوعية الجوهرية كما هو مذهب النافين لتركب الجسم من الهيولي والصورة من المتكلمين يتوقف القول به على جواز إعادة المعدوم وإذا لم يضم إليه ذلك بل اكتفى بالقول بجمع الأجزاء الأصلية العنصرية وتشكليها بشكل مثل الشكل الأول وتحليتها بعوارض مشابهة للعوارض السابقة لم يتوقف القول به على ذلك أصلاً والمغايرة في الشكل وعدم اتحاد العوارض بالذات مما لا يضر في كون المحشور هو المبدأ شرعاً وعرفاً ، ولا

يلزم على ذلك التناسخ المصطلح كما لا يخفى .

وفي إبكار الأفكار للآمدي بعد التفصيل المشبع بذكر الآيات والأحاديث الدالة على وقوع المعاد الجسماني والأدلة السمعية في ذلك لا يحويها كتاب ولا يحصرها خطاب وكلها ظاهرة في الدلالة على حشر الأجساد ونشرها مع إمكان ذلك في نفسه فلا يجوز تركها من غير دليل لكن هل الإعادة للأجسام بإيجادها بعد عدمها أو بتأليف أجزائها بعد تفرقها فقد اختلف فيه ، والحق إمكان كل واحد من الأمرين والسمع موجب لأحدهما من غير تعيين ، وبتقدير أن تكون الإعادة للأجسام بتأليف أجزائها بعد تفرقها فهل تجب إعادة عين ما تقضي ومضى من التأليفات في الدنيا أو أن الله تعالى يجوز أن يؤلفها بتأليف آخر فذهب أبو هاشم إلى المنع من إعادتها بتأليف آخر مصيراً منه إلى أن جواهر الأشخاص متماثلة وإنما يتميز كل واحد من الأجزاء بتعيينه وتأليف الخاص فإذا لم يعد ذلك التأليف الخاص به فذلك الشخص لا يكون هو العائد بل غيره وهو مخالف حينئذ لما ورد به السمع من حشر أجساد الناس على صورهم ، ومذهب من عداه من أهل الحق أن كل واحد من الأمرين جائز عقلاً ولا دليل على التعيين من سمع وغيره ، وما قيل من أن تعيين كل شخص إنما هو بخصوص تأليفه غير مسلم بل جاز أن يكون بلونه أو بعض آخر مع التأليف .

ومذهب أبي هاشم أنه لا تجب إعادة غير التأليف من الإعراض فما هو جوابه عن غير

التأليف فهو جواب لنا في التأليف وما ورد من حشر الناس على صورهم ليس فيه ما يدل على إعادة عين ما قضي من التأليف ولا مانع أن يكون الإعادة بمثل ذلك التأليف لا عينه اه.

وزعم الإمام إجماع المسلمين على المعاد بجمع الأجزائية بعد افتراقها وليس بذاك لما سمعت من الخلاف في كيفيته وهو مذكور في المواقف وغيره.

ومسألة إعادة الأعراض أكثر خلافاً من مسألة إعادة الجواهر فذهب معظم أهل الحق إلى جواز إعادتها مطلقاً حتى أن منهم من جوز إعادتها في غير محالها.



---

والمعتزلة اتفقوا على جواز إعادة ما كان منها على أصولهم باقياً غير متولد واختلفوا في جواز إعادة ما لا بقاء له كالحرارة والأصوات والإرادات فذهب الأكثرون منهم إلى المنع من إعادتها وجوزها الأقلون كالبلخي وغيره.

وذهب إلى عدم جواز إعادة المعدوم مطلقاً من المسلمين أبو الحسن البصري وبعض الكرامية.

ومن الناس من خص المنع فيما عدم ذاتاً ووجوداً وجوز فيما عدم وجوداً.

وإلى القول بالمعاد الجسماني ذهب اليهود والنصارى على ما نص عليه الدواني لكن ذكر الإمام في المحصل أن سائر الأنبياء سوى نبينا صلى الله عليه وسلم لم يقولوا إلا بالمعاد الروحاني.

(88/649)

---

وقال المحقق الطوسي في "تلخيصه": أما الأنبياء المتقدمون على نبينا صلى الله عليه وسلم فالظاهر من كلام أممهم أن موسى عليه السلام لم يذكر المعاد البدني ولا أنزل عليه في التوراة لكن جاء ذلك في كتب الأنبياء الذين جاؤا بعده كحزقيل وشعيا عليهما السلام ولذا أقر اليهود به، وأما الإنجيل فالأظهر أن المذكور فيه المعاد الروحاني وهو مخالف لما سمعت عن الإمام، ويخالفهما ما قاله حجة الإسلام الغزالي في كتابه الموسوم بالمضنون به على غير أهله من أن في التوراة أن أهل الجنة يمكثون في النعيم خمسة عشر ألف سنة ثم يصيرون ملائكة وأن أهل النار يمكثون بها كذا وأزيد ثم يصيرون شياطين فإنه ظاهر في أن موسى عليه السلام ذكر المعاد الجسماني ونزل عليه في التوراة، والحق أن الأناجيل مملوأة ظاهراً على الإنسان يحشر نفساً وجسماً وأما التوراة فليس ما ذكر فيها على سبيل التصريح على ما نقل لي بعض المطلعين من مسلمين أهل الكتاب على ذلك وأنكره الفلاسفة الإلهيون وقالوا

بالمعاد الروحاني فقط ، وهذا الإنكار مبني إما على زعم استحالة إعادة المعدوم وفيه ما فيه أو على استحالة عدم تناهي الأبعاد فإن منهم من قال : الإسان قديم بالنوع والنفوس الناطقة غير متناهية كالأبدان فلو قيل بالحشر الجسماني يلزم اجتماع الأبدان الغير المتناهية في الوجود إذ لا بد لكل نفس من بدن مستقل فيلزم بعد غير متناه لتجتمع فيه تلك الأبدان الغير المتناهية .

وقال بعضهم : إن الإنسان افراده غير متناهية والعناصر متناهية فأجزاؤها لا تفي بتلك الأبدان فكيف تحشر .

وتعقب بأن القدم النوعي للإنسان وعدم التناهي لإفراده مما لا يتم لهم عليه برهان .



---

وقال ابن الكمال : بناء استحالة الحشر الجسماني على استحالة عدم تناهي الابعاد وهم سبق إليه وهم بعض أجلة الناظرية وليس الأمر كما توهم فإن حشر الأجساد اللازم على تقدير وقوع المعاد الجسماني هو حشر المكلفين من المطيع المستحق للثواب والعاصي المستحق للعقاب لا حشر جميع أفراد البشر مكلفاً كان أو غيره فإنه ليس من ضروريات الدين لأن الاخبار فيه لم تصل إلى حد التواتر ولم ينعقد عليه الإجماع وقد نبه عليه المحقق

الطوسي في التجريد حيث قال : والسمع دل عليه ويتناول في المكلف بالتفريق ، وقال الشارح : يعني لا إشكال في غير المكلفين فإنه يجوز أن ينعدم بالكلية ولا يعاد وأما بالنسبة إلى المكلفين فإنه يتأول العدم بتفريق الأجزاء .

وفي "تلخيص المحصل" أيضاً حيث قال : وقال القائلون بإمكان إعادة المعدوم أن الله تعالى يعدم المكلفين ثم يعيدهم ونبه على ذلك أيضاً الآمدي في إبكار الأفكار حيث قرر الخلاف في إعادة المكلف ولا خفاء في أن عدم تناهي جميع أفراد البشر لا يستلزم عدم تناهي المكلفين منهم ليحتاج أمر حشرهم إلى الابعاد الغير المتناهية اه .

والحق الطعن في قولهم بالقدم النوعي وعدم تناهي أفراد الإنسان وبرهان التطبيق متكفل عندنا بإبطال الغير المتناهي اجتمعت أجزاؤه في الوجود أم لم تجتمع ترتب أم لم تترتب ، وأما قصر الحشر على المكلفين دون غيرهم من المجانين والصغار والذين لم تبلغهم الدعوة ونحوهم فليس بشيء ، والأخبار في ذلك كثيرة ولعلها من قبيل المتواتر المعنوي على أنها لو لم تكن كذلك لا داعي إلى عدم اعتبارها والقول بخلاف ما تدل عليه كما لا يخفى ، وذهب القدماء من الفلاسفة الطبيعيين إلى عدم ثبوت شيء من الحشر الجسماني والحشر الروحاني ، ويحكى ذلك عن التناسخية ما عدا اليهود والتناسخ عندهم غير مستمر بل يقع للنفس الواحدة ثلاث مرات على ما قيل .

وحكى عن جالينوس التوقف في أمر الحشر فإنه قال : لم يتبين لي أن النفس هل هي المزاج الذي ينعدم عند الموت فيستحيل إعادتها أو هي جوهر باقي بعد فساد البنية فيمكن المعاد ، والمشركون في شك منه مريب ولذا ترى كلامهم مضطرباً فيه ، والمسلمون مجمعون على وقوعه إلا أنهم مختلفون كما سمعت في كيفيته وكذا هم مختلفون في وجوبه سمعاً أو عقلاً ، فأهل السنة على وجوبه سمعاً مطلقاً ، والمعتزلة على أنه للمكلفين واجب عقلاً لوجوب الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية عندهم وكل من الأمرين يتوقف على الحشر ، وفيه نظر والله تعالى أعلم .

(91/649)

---

وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على تقرير مطالب علية وتضمنت أدلة جليلة جلية ألا ترى أنه تعالى أقسم على كونه صلى الله عليه وسلم أكمل الرسل وأن طريقه أوضح السبل وأشار سبحانه إلى أن المقصود ما ذكر بقوله تعالى : ﴿ لِّتُنذِرَ ﴾ [يس : 6] الخ ثم بينه إجمالاً أنه اتباع الذكر وخشية الرحمن بالغيب وتممه بضرب المثل مدمجاً فيه التحريض على التمسك بحبل الكتاب والمنزل عليه وتفضيلهما على الكتب والرسل والتنبيه عليه ثانياً بأنه

عبادة من إليه الرجعى وحده ثم أخذ في بيان المقدمات بذكر الآيات وأوثر منها الواضحات الدالة على العلم والقدرة والحكمة والرحمة وضمن فيه أن العبادة شكر المنعم وتلقي النعمة بالصرف في رضاه والحذر من الركون إلى من سواه ثم في بيان المتمم بذكر الوعد والوعيد بما ينال في المعاد وأدرج فيه حديث من سلك ومن ترك وذكر غايتهما ولخص فيه أن الصراط المستقيم هو عبادة الله تعالى بالإخلاص عن شائبتي الهوى والرياء حيث قدم على الأمر بعبادته تعالى التجنب عن عبادة الشيطان وضمن فيه أن أساسها التوحيد وكما أنه ذكر الآيات لئلا يكون الكلام خطابياً في المقدمات ختم بالبرهان على الإعادة ليكون على منواله في المتممات وجعل سبحانه ختام الخاتمة أنه عز وجل لا يتعاظمه شيء ولا ينقص خزائنه عطاء وأنه لا يخرج عن ملكته من قربه قبول أو بعد إباء تحقيقاً لكل ما سلف على الوجه الأتم ، ولما كان كلاماً صادراً عن مقام العظمة والجلال وجب أن يراعى فيه نكتة الالتفات في قوله تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [ يس : 83 ] ليكون إجمالاً لتوضيح التفصيل كذا قرره "صاحب الكشف" والله تعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) ﴾

ثم ذكر سبحانه قدرته العظيمة ، وإنعامه على عبيده ، وجحد الكفار لنعمه ، فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أنعاما ﴾ والهمزة للإنكار ، والتعجيب من حالهم ، والواو للعطف على مقدّر كما في نظائره ، والرؤية هي القلبية أي : أو لم يعلموا بالتفكر ، والاعتبار ﴿ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم ﴾ أي : لأجلهم ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ أي : مما أبدعناه ، وعملناه من غير واسطة ، ولا شركة ، وإسناد العمل إلى الأيدي مبالغة في الاختصاص ، والتفرّد بالخلق كما يقول الواحد منا : عملته بيدي للدلالة على تفرّده بعمله ، " وما " بمعنى : الذي ، وحذف العائد لطول الصلة ، ويجوز أن تكون مصدرية ، والأنعام جمع نعم ، وهي : البقر ، والغنم ، والإبل ، وقد سبق تحقيق الكلام فيها .

ثم ذكر سبحانه المنافع المترتبة على خلق الأنعام ، فقال : ﴿ فَهُمْ لَهَا مالكون ﴾ أي : ضابطون قاهرون يتصرفون بها كيف شاءوا ، ولو خلقناها وحشية لنفرت عنهم ، ولم يقدروا على ضبطها ، ويجوز أن يكون المراد : أنها صارت في أملاكهم ، ومعدودة من جملة أموالهم المنسوبة إليهم نسبة الملك .

﴿ وذللناها لَهُمْ ﴾ أي : جعلناها لهم مسخرة لا تمتنع مما يريدون منها من منافعهم حتى الذبح ، ويقودها الصبيّ ، فتنقاد له ، ويزجرها ، فتنزجر ، والفاء في قوله : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ

﴾ لتفريع أحكام التذليل عليه أي : فمنها مركوبهم الذي يركبونه كما يقال : ناقة حلوب أي : محلوبة .

قرأ الجمهور ﴿ ركوبهم ﴾ بفتح الراء .

وقرأ الأعمش ، والحسن ، وابن السميفع بضم الراء على المصدر .

وقرأ أبيّ ، وعائشة " ركوبتهم " ، والركوب والركوبة واحد ، مثل الحلوب والحلوبة ، والحمول والحمولة .

(93/649)

---

وقال أبو عبيدة : الركوبة تكون للواحدة والجماعة ، والركوب لا يكون إلا للجماعة .

وزعم أبو حاتم : أنه لا يجوز ، فمنها ركوبهم بضم الراء ؛ لأنه مصدر ، والركوب ما يركب ، وأجاز ذلك الفراء كما يقال : فمنها أكلهم ، ومنها شربهم ، ومعنى ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ : ما يأكلونه من لحمها ، و " من " للتبعيض ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أي : لهم في الأنعام منافع غير الركوب لها ، والأكل منها ، وهي ما ينتفعون به من أصوافها ، وأوبارها ، وأشعارها ، وما يتخذونه من الأدهان من شحومها ، وكذلك الحمل عليها ، والحراثة بها ﴿ ومشارب ﴾ أي : ولهم فيها مشارب مما يحصل من ألبانها ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ الله على هذه النعم ،

ويوحدونه، ويخصونه بالعبادة.

ثم ذكر سبحانه جهلهم، واغترارهم، ووضعهم كفران النعم مكان شكرها، فقال: ﴿ واتخذوا مِن دُونِ اللهِ ءالِهَةً ﴾ من الأصنام، ونحوها يعبدونها، ولا قدرة لها على شيء، ولم يحصل لهم منها فائدة، ولا عاد عليهم من عبادتها عائدة ﴿ لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي: رجاء أن ينصروا من جهتهم إن نزل بهم عذاب، أو دهمهم أمر من الأمور، وجملة ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ مستأنفة لبيان بطلان ما رجوه منها، وأملوه من نفعها، وجمعهم بالواو، والنون جمع العقلاء بناء على زعم المشركين أنهم ينفعون، ويضرون، ويعقلون ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ أي: والكفار جند للأصنام محضرون أي: يحضرونهم في الدنيا.

قال الحسن: يمنعون منهم، ويدفعون عنهم، وقال قتادة: أي: يغضبون لهم في الدنيا.

قال الزجاج: ينتصرون للأصنام، وهي لا تستطيع نصرهم.

وقيل: المعنى يعبدون الآلهة، ويقومون بها، فهم لهم بمنزلة الجند، هذه الأقوال على جعل ضمير "هم" للمشركين، وضمير "لهم" للآلهة، وقيل: ﴿ وهم ﴾ أي: الآلهة لهم أي: للمشركين ﴿ جند محضرون ﴾ معهم في النار، فلا يدفع بعضهم عن بعض.

وقيل : معناه وهذه الأصنام لهؤلاء الكفار جند الله عليهم في جهنم ؛ لأنهم يلعنونهم ، ويتبرءون منهم .

وقيل : المعنى : إن الكفار يعتقدون أن الأصنام جند لهم يحضرون يوم القيامة لإعانتهم .

ثم سلى سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ هذا القول هو ما يفيده قوله : ﴿ واتخذوا مِن دُونِ اللهِ ءالِهَةً ﴾ فإنهم لا بدّ أن يقولوا : هؤلاء آلهتنا ، وإنها شركاء لله في المعبودية ، ونحو ذلك .

وهو نهي للرسول صلى الله عليه وسلم عن التأثر بذلك .

وقيل : إنه نهي لهم عن الأسباب التي تحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن النهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن التأثر لما يصدر منهم هو من باب : "لا أرينك ها هنا" فإنه يراد به نهي من خاطبه عن الحضور لديه ، لا نهي نفسه عن الرؤية ، وهذا بعيد ، والأوّل أولى ، والكلام من باب التسلية كما ذكرنا ، ويجوز أن يكون المراد بالقول المذكور هو : قولهم إنه ساحر ، وشاعر ، ومجنون .

وجملة ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ لتعليل ما تقدّم من النهي ، فإن علمه سبحانه بما يظهرون ، ويضمرون مستلزم المجازاة لهم بذلك .

وأن جميع ما صدر منهم لا يعزب عنه سواء كان خافياً ، أو بادياً سرًّا ، أو جهراً مظهراً ، أو

مضمراً .

وتقديم السرّ على الجهر للمبالغة في شمول علمه لجميع المعلومات .

(95/649)

---

وجملة ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خلقناه مِن نُّطْفَةٍ ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث ، وللتعجيب من جهله ، فإن مشاهدة خلقهم في أنفسهم على هذه الصفة من البداية إلى النهاية مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم على ما هو دون ذلك من بعث الأجسام ، وردّها كما كانت ، والإنسان المذكور في الآية المراد به : جنس الإنسان كما في قوله : ﴿ أَوْلاَ يَذْكُرُ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ [ مريم : 67 ] ، ولا وجه لتخصيصه بإنسان معين كما قيل : إنه عبد الله بن أبيّ ، وأنه قيل له ذلك لما أنكر البعث .

وقال الحسن : هو : أمية بن خلف .

وقال سعيد بن جبير : هو : العاص بن وائل السهمي .

(96/649)

وقال قتادة، ومجاهد: هو: أبيّ بن خلف الجمحي، فإن أحد هؤلاء، وإن كان سبباً للنزول، فمعنى الآية: خطاب الإنسان من حيث هو، لا إنسان معين، ويدخل من كان سبباً للنزول تحت جنس الإنسان دخولاً أوّلياً، والنطفة هي: اليسير من الماء، وقد تقدّم تحقيق معناها ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة المنفية قبلها داخلة معها في حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام، و "إذا" هي: الفجائية أي: ألم يرَ الإنسان أنا خلقناه من أضعف الأشياء، ففجأ خصومتنا في أمر قد قامت فيه عليه حجج الله، وبراهينه، والخصيم: الشديد الخصومة الكثير الجدال، ومعنى المبين: المظهر لما يقوله الموضح له بقوّة عارضته، وطلاقة لسانه، وهكذا جملة: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ ﴾ معطوفة على الجملة المنفية داخلة في حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام، فهي تكميل للتعجيب من حال الإنسان، وبيان جهله بالحقائق، وإهماله في نفسه فضلاً عن التفكر في سائر مخلوقات الله، ويجوز أن تكون جملة ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ معطوفة على خلقنا، وهذه معطوفة عليها أي: أورد في شأننا قصة غريبة كالمثل: وهي إنكاره أحياناً للعظام، ونسي خلقه، أي: خلقنا إياه، وهذه الجملة معطوفة على ضرب، أو في محلّ نصب على الحال بتقدير قد.

وجملة ﴿ قَالَ مَن يُحيِي العظام وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ استئناف جواباً عن سؤال مقدّر كأنه قيل:

ما هذا المثل الذي ضربه ؟ فقيل : قال : من يحيي العظام ، وهي رميم ، وهذا الاستفهام للإنكار ؛ لأنه قاس قدرة الله على قدرة العبد ، فأنكر أن الله يحيي العظام البالية حيث لم يكن ذلك في مقدور البشر ، يقال : رمّ العظم يرمّ رماً إذا بلي ، فهو رميم ، ورمام ، وإنما قال : ﴿ رميم ﴾ ، ولم يقل : " رميمة " مع كونه خبراً للمؤنث ؛ لأنه اسم لما بلي من العظام غير صفة كالرمة والرفات .



---

وقيل : لكونه معدولاً عن فاعلة ، وكل معدول عن وجهه يكون مصروفاً عن إعرابه كما في قوله : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [ مريم : 28 ] ؛ لأنه مصروف عن باغية ، كذا قال البغوي ، والقرطبي ، وقال بالأوّل صاحب الكشاف .

والأولى أن يقال : إنه فعيل بمعنى : فاعل ، أو مفعول ، وهو يستوي فيه المذكر ، والمؤنث كما قيل في جريح ، وصبور .

ثم أجاب سبحانه عن الضارب لهذا المثل ، فقال : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي : ابتدأها ، وخلقها أوّل مرة من غير شيء ، ومن قدر على النشأة الأولى قدر على النشأة الثانية ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْء عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه خافية ، ولا يخرج عن علمه

خارج كائناً ما كان.

وقد استدلّ أبو حنيفة، وبعض أصحاب الشافعي بهذه الآية على أن العظام مما تحله الحياة.

وقال الشافعي: لا تحله الحياة، وأن المراد بقوله: ﴿ مَن يُحيِ العظام ﴾ من يحيي أصحاب العظام على تقدير مضاف محذوف، وردّ بأن هذا التقدير خلاف الظاهر ﴿ الذى جَعَلَ لَكُم مّنَ الشجر الأخضر نَاراً ﴾ هذا رجوع منه سبحانه إلى تقرير ما تقدّم من دفع استبعادهم، فنبه سبحانه على وحدانيته، ودل على قدرته على إحياء الموات بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود النديّ الرطب، وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ، والشجر المعروف بالعفار إذا قطع منهما عودان، وضرب أحدهما على الآخر انقدحت منهما النار، وهما أخضران.

وقيل: المرخ هو: الذكر، والعفار هو: الأنثى، ويسمى الأوّل الزند، والثاني الزندة، وقال: ﴿ الأخضر ﴾، ولم يقل: "الخضراء" اعتباراً باللفظ.

وقرىء " الخضر " اعتباراً بالمعنى ، وقد تقرّر أنه يجوز تذكير اسم الجنس ، وتأنيثه كما في قوله : ﴿ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [ القمر : 20 ] وقوله : ﴿ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [ الحاقة : 7 ] فبنو تميم ، ونجد يذكّرونه ، وأهل الحجاز يؤنثونه إلا نادراً ، والموصول بدل من الموصول الأوّل ﴿ فَإِذَا أَنتُم مّنْه تُوقِدُونَ ﴾ أي : تقدحون منه النار ، وتوقدونها من ذلك الشجر الأخضر .

ثم ذكر سبحانه ما هو أعظم خلقاً من الإنسان ، فقال : ﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ والهمزة للإنكار ، والواو للعطف على مقدّر كنظائره ، ومعنى الآية : أن من قدر على خلق السماوات ، والأرض – وهما في غاية العظم ، وكبر الأجزاء – يقدر على إعادة خلق البشر الذي هو صغير الشكل ضعيف القوّة ، كما قال سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [ غافر : 57 ] قرأ الجمهور ﴿ بقادر ﴾ بصيغة اسم الفاعل .

وقرأ الجحدري ، وابن أبي إسحاق ، والأعرج ، وسلام بن المنذر ، وأبو يعقوب الحضرمي " يقدر " بصيغة الفعل المضارع .

ثم أجاب سبحانه عما أفاده الاستفهام من الإنكار التقريريّ بقوله : ﴿ بلى وَهُوَ الخلاق العليم ﴾ أي : بلى هو قادر على ذلك ، وهو المبالغ في الخلق ، والعلم على أكمل وجه ، وأتمه .

وقرأ الحسن، والجحدري، ومالك بن دينار " وهو الخالق " .

ثم ذكر سبحانه ما يدل على كمال قدرته، وتيسر المبدأ، والإعادة عليه، فقال: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي: إنما شأنه سبحانه إذا تعلقت إرادته بشيء من الأشياء أن يقول له: احدث، فيحدث من غير توقف على شيء آخر أصلاً، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة النحل، وفي البقرة.

قرأ الجمهور ﴿ فيكون ﴾ بالرفع على الاستئناف.

وقرأ الكسائي بالنصب عطفاً على ﴿ يقول ﴾ .

(99/649)

---

ثم نزّه سبحانه نفسه عن أن يوصف بغير القدرة، فقال: ﴿ فسبحان الذى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ، والملكوت في كلام العرب لفظ مبالغة في الملك كالجبروت، والرحموت كأنه قال: فسبحان الذي بيده مالكية الأشياء الكلية.

قال قتادة: ملكوت كلّ شيء: مفاتح كلّ شيء.

قرأ الجمهور ﴿ ملكوت ﴾ وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف، وإبراهيم التيمي " ملكة " بزنة شجرة، وقرىء "مملكة" بزنة مفعلة، وقرىء " ملك " ، والملكوت أبلغ من الجميع.

وقرأ الجمهور ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالفوقية على الخطاب مبنياً للمفعول .

وقرأ السلمي ، وزر بن حبيش ، وأصحاب ابن مسعود بالتحتية على الغيبة مبنياً للمفعول أيضاً .

وقرأ زيد بن عليّ على البناء للفاعل أي : ترجعون إليه لا إلى غيره وذلك في الدار الآخرة بعد البعث .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم في معجمه ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ، ففته بيده ، فقال : يا محمد أيحيي الله هذا بعد ما أرم ؟ قال : " نعم يبعث الله هذا ، ثم يميتك ، ثم يحييك ، ثم يدخلك نار جهنم " فنزلت الآيات من آخر ياس ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خلقناه مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إلى آخر السورة .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عنه قال : جاء عبد الله بن أبيّ في يده عظم حائل إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وذكر مثل ما تقدّم قال ابن كثير : وهذا منكر ؛ لأن السورة مكية ، وعبد الله بن أبيّ إنما كان بالمدينة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : جاء أبيّ بن خلف الجمحي ، وذكر نحو ما تقدّم .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال: نزلت في أبي جهل، وذكر نحو ما تقدّم. انتهى ا. هـ ﴿ فتح القدير جـ 4 صـ ﴾

(100/649)

---

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة:

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ [ الكهف: 26 ] وأوضحنا فيه التفصيل بين النظم الوضعية، وفي سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هذا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [ الإسراء: 9 ].

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62)

قوله: ﴿ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾. أي خلقاً كثيراً كقوله تعالى: ﴿ واتقوا الذي خَلَقَكُمْ والجبلة الأولين ﴾ [ الشعراء: 184 ]، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون الشيطان أضل خلقاً كثيراً من بني آدم جاء مذكوراً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ الجن قَدِ استكثرتم مِّنَ الإنس ﴾ [ الأنعام: 128 ] أي قد استكثرتم أيها

الشياطين ، من إضلال الإنس ، وقد قال إبليس : لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ، وقد بيّن تعالى أن هذا الظن الذي ظنه بهم من أنه يضلهم جميعاً إلا القليل ، صدقه عليهم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ سبأ : 20 ] كما تقدّم إيضاحه . وقرأ هذا الحرف نافع وعاصم : ﴿ جِبِلاًّ ﴾ بكسر الجيم والباء ، وتشديد اللام وقرأه ابن كثير وحمزة والكسائي : ﴿ جُبُلاً ﴾ بضم الجيم ، والباء وتخفيف اللام ، وقرأه أبو عمرو وابن عامر : ( جُبْلًا ) بضم الجيم وتسكين الباء مع تخفيف اللام ، وجميع القراءات بمعنى واحد أي خلقاً كثيراً .

*(101/649)*

---

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65)

قوله تعالى : ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

ما ذكره جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة عن شهادة بعض جوارح الكفار عليهم يوم القيامة ، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة النور ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [ النور : 24 ] وقوله تعالى في فصّلت : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ

شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [ فصلت : 2021 ] الآية . وقد قدّمنا الكلام على هذا في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ الله حَدِيثاً ﴾ [ النساء : 42 ] .

وبينا هناك أن آية يس هذه توضح الجمع بين الآيات كقوله تعالى عنهم : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ الله حَدِيثاً ﴾ [ النساء : 42 ] مع قوله عنهم : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [ الأنعام : 23 ] ونحو ذلك من الآيات .

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68)

*(102/649)*

---

قوله تعالى : ﴿ نُنَكِّسْهُ فِي الخلق ﴾ أي نقلبه فيه ، فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل ، وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده ، وخلو من عقل وعلم ، ثم جلعناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ، ويرتقي من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ أشُدّه ويستكمل قوته ويعقل ويعلم ما له وما عليه ، فإذا انتهى نكّسْناه في الخلق ، فجعلناه بتناقص حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم ، وأصل معنى التنكيس : جعل أعلا الشيء أسفله .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ﴾ [ الروم : 54 ] الآية . وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ [ التين : 45 ] الآية على أحد التفسيرين ، وقوله تعالى في الحج : ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ [ الحج : 5 ] وقوله تعالى في النحل : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر لكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ [ النحل : 70 ] وقوله تعالى في سورة المؤمن : ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً ﴾ [ غافر : 67 ] .

وقد قدمنا الكلام على هذا في سورة النحل وقرأ هذا الحرف عاصم ، وحمزة : ﴿ نُنَكِّسْه ﴾ بضم النون الأولى ، وفتح الثانية وتشديد الكاف المكسورة من التنكيس : وقرأه الباقون بفتح النون الأولى ، وإسكان الثانية ، وضم الكاف مخففة مضارع نكسه المجرد وهما بمعنى واحد . وقرأ نافع وابن ذكوان عن ابن عامر : ﴿ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ بتاء الخطاب ؟ وقرأه الباقون : ﴿ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ بياء الغيبة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ والشعرآء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ [ الشعراء : 224 ] وذكرنا الأحكام المتعلقة بذلك هناك .

لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النمل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعآء ﴾ [ النمل : 80 ] الآية . وفي سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأحيآء وَلاَ الأموات ﴾ [ فاطر : 22 ] .

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [ النحل : 4 ] .

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُوَ الخلاق العليم ﴾ .

قد بينا الآيات الموضحة له في سورة البقرة والنحل مع بيان براهين البعث .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [ النحل : 40 ] وبينا هناك أن الآيات المذكورة لا تنافي مذهب أهل السنة في إطلاق اسم الشيء على الموجود دون المعدوم ؟ وقد قدمنا

القراءتين وتوجيههما في قوله : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ هناك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(104/649)

---

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ » .

هو مراجعة لهؤلاء المشركين ، وتنبيه لهم من هذه الغفلة المستولية عليهم . .

وفى هذا الاستفهام التقريرى الموجه إلى الإنسان على إطلاقه ـ دعوة إلى كل إنسان أن ينظر فى نفسه ، وأن يمد بصره ، إلى نقطة الابتداء فى حياته ، ثم ليسير مع نقطة الابتداء هذه فى الطريق الذي سلكه ، حتى صار هذا الإنسان ، الذي يجادل ، ويخاصم ، ويقف من اللّه موقف المحادّ المحارب ! .

ألم يكن هذا الإنسان نطفة ؟ . . إنه لو نظر الإنسان فيها لأنكر نفسه ، وما وقع فى تصوره أنه كان جرثومة من آلاف الجراثيم السابحة فى هذه النطفة . .

وأين تلك النطفة أو هذه الجرثومة العالقة بالنطفة ـ أين هى من هذا الإنسان ، الذي أبدعته يد القدرة هذا الإبداع العظيم الحكيم ؟

ألا ما أضأل شأن الإنسان ، وما أعظمه ! ما أضأله نطفة ، وما أعظمه رجلا . .

ما أضأله ضالا ضائعا ، كضلال هذه النطفة وضياعها . .

وما أعظمه إنسانا رشيدا ، عاقلا مؤمنا ، فى ثوب الإنسانية الرشيدة العاقلة المؤمنة ! .

قوله تعالى : « وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » .

(105/649)

---

هو عطف حدث على حدث ، عطف خلق اللّه سبحانه الإنسان من نطفة ، ثم قيام إنسان من هذه النطفة يجادل اللّه ، ويختصمه ، ويضرب له الأمثال ، احتجاجا وحجة ! .

ففاعل الفعل « ضرب » يعود إلى هذا الإنسان الخصيم المبين ، الذي تولد من النطفة ! .

إنه لم يقف عند هذه الدعوة التي دعاه اللّه سبحانه وتعالى بها إلى أن ينظر فى خلقه ، وأن يعرف من أين جاء ، وكيف كان ، ثم كيف صار. لم يقف عند هذه الدعوة ، بل أقبل يحاجّ اللّه ويجادله ، ويضرب الأمثال له . . « إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » (34 : إبراهيم) . .

والمثل الذي ضربه هذا الكافر ، ليدلل به على معتقده الفاسد ، فى إنكار البعث. هذا المثل ، هو أنه نظر فى هذه العظام البالية التي يراها فى قبور الموتى ، ثم اتخذ منها معرضا يعرضه على الناس ، ويسألهم هذا السؤال الإنكارى الساخر : « مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ

رَمِيمٌ» ؟ أ هذه العظام التي أبلاها البلى تعود ثانية كما كانت ، ويتشكل منها أصحابها الذين كانوا يحيون بها فى الحياة ؟

أهذا معقول ؟ إن محمدا يقول هذا . . فما ذا تقولون أنتم أيها الناس فيمن يقول هذا القول ؟ ألا ترجمونه ؟ ألا تسخرون من جنونه ؟ .

وقوله تعالى : «وَنَسِيَ خَلْقَهُ» جملة حالية ، أي أن هذا الكافر ضرب هذا المثل ناسيا خلقه ، ولو ذكر خلقه وكيف كان بدؤه ، ثم كيف صار ـ لرأى بعينيه ـ قبل أن يرى بعقله ـ إن كان له عقل ـ أن هذه النطفة التي أقامت منه هذا الإنسان الخصيم المبين ، هى أقل من العظام شأنا ، وأبعد منها عن مظنّة الحياة .

إذ كانت النطفة لا تعدو ـ فى مرأى العين ـ أن تكون نقطة ماء قذرة

(106/649)

---

أشبه بالمخاط . . أما العظام فهى تمثل حياة كاملة ، كانت تسكن فى تلك العظام ـ إنها عاشت فعلا حياة كاملة ، وكان منها إنسان كامل ، كهذا الإنسان ، الذي يجادل ، ويضرب الأمثال للّه . .

فهذه العظام ، تمثل حياة لها تاريخ معروف . . أما النطفة ، فلا ترى عين هذا الجهول فيها

أثرا للحياة.

قوله تعالى: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ».

هو الرد المفحم على هذا السؤال الإنكارى.. «مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ»؟ إن الذي يحييها، هو الذي أنشأها أول مرة.. لقد أنشأ هذه العظام من نطفة، وألبسها الحياة، ثم أماتها.. ثم هو الذي يحييها.. إنه إعادة لشىء كان بعد أن لم يكن، وإعادة بناء الشيء، أهون -فى حسابنا- من ابتداعه، واختراعه أصلا..

وفى قوله تعالى: «وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» -إشارة إلى علم الله المحيط بكل شىء، ومن كان هذا علمه فلن يعجزه شىء.. فبالعلم استطاع الإنسان أن يحرك الجماد، وينطقه، وبالعلم استطاع أن ينقل الأصوات، وصور المرئيات من طرف الأرض إلى طرفها الآخر فى لحظة عين، أو خفقة قلب.. وبالعلم يستطيع الإنسان أن يفعل الكثير، مما تعدّ هذه الأشياء من نوافل علمه..

فكيف بعلم الله الذي وسع كل شىء؟ أيعجزه شىء؟ إن من يعجز عن أي شىء لا يستحق أن يضاف إليه العلم كله.. إذ لو كان معه العلم كله لما أعجزه شىء؟ والله سبحانه وتعالى: «بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (29: البقرة)..

قوله تعالى: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ».

هذه بعض آيات من علم الله.. إنه سبحانه خلق الشجر، وقد امتلأ

كيانه بالماء يجرى فى أصوله ، وفروعه وأوراقه . . ثم جعل من طبيعة هذا الشجر أن يجفّ ، وأن يقبل الاحتراق ، وإذا هو فى النار ، قطع من الجمر ! فأين هذا الشجر الأخضر ، من هذا الجمر الملتهب ؟

وكما يخرج اللّه سبحانه النار من الماء ، يخرج سبحانه الميت من الحىّ ، ويخرج الحىّ من الميت . .

هذه صورة من الإبداع فى الخلق ، لا تحتاج فى وضوحها إلى علم ، وتجربة ، وإنما بحسب الإنسان ـ أي إنسان . . أن يقف قليلا بنظره عندها ، فيرى آيات بينات ، من علم اللّه وقدرته . .

قوله تعالى : « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلى . وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » . .

وصورة أخرى للدلالة على قدرة اللّه سبحانه . . هى هذه السموات والأرض . . من خلقها ؟ إنه اللّه سبحانه ، بإقرار الكافرين والمشركين أنفسهم . .

إنهم لا يعرفون لهما خالقا غيره . . كما يقول سبحانه وتعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ

السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » (25 : لقمان) .

وهنا سؤال : أليس الذي خلق السموات والأرض قادرا على أن يخلق سموات كهذه السموات وأرضا كهذه الأرض ؟ وبديهية المنطق تقول : إن ذلك ممكن . . فمن صنع شيئا قادرا على أن يصنع أشياء مثله ، لا شيئا واحدا .

ولهذا جاء الجواب عن هذا السؤال : « بلى » أي بلى قادر . . « وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » . . الخلّاق ، الذي يزيد فى الخلق ما يشاء « العليم » الذي لا يعجزه شىء ! قوله تعالى : « إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

(108/649)

---

أي إنما شأنه سبحانه فى الخلق ، أن يريد ، فيقع ما يريد . . بلا معاناة ولا بحث . . إنه سبحانه يقول للشىء الذي يريد إيجاده « كن » فيكون كما أراد . .

فبالكلمة خلق اللّه كل شىء . . إن الكلمة : « كن » هى مظهر إرادة اللّه . والموجودات هى مظاهر كلمات اللّه . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى « قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً » (109 : الكهف) .

قوله تعالى : « فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

فتسبيحا للّه ، وتنزيها له ، وإجلالا لجلاله . سبحانه . « بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ » أي ملك كل شىء ، ملكا متمكنا ، مستوليا على كل ذرة فيه . .

والملكوت : مبالغة فى الملك ، بالاستيلاء عليه استيلاء مطلقا ، يمسك بكل ذرة ، وبكل ما دون الذرة منه .

وفى قوله تعالى : « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » تقرير للبعث ، وتأكيد له . . وأنه ما دام بيد اللّه ملكوت كل شىء والناس من أشياء هذا الوجود الذي هو ملك للّه ، فإنهم لا بد راجعون إلى اللّه .

وإلى أين يذهب الناس بعد الموت إذا لم يرجعوا إلى اللّه ؟ إنهم إذا لم يرجعوا إليه فليسوا إذن فى ملكه . . وليس هناك شىء غير مملوك للّه ، وهو « الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ » « أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ » . (54 : الأعراف) . انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن ـ 12 صـ 955 ـ 959 ﴾

(109/649)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى ﴾

عطف هذا التقرير على الاحتجاجات المتقدمة على الإِنسان المعني من قوله تعالى : ﴿ أو لم ير الإنسانُ أنَّا خلقناهُ مِن نُطْفَةٍ ﴾ [ يس : 77 ] ، وذلك أنه لما تبيّن الاستدلال بخلق أشياء على إمكان خَلق أمثالها ارتُقِي في هذه الآية إلى الاستدلال بخلق مخلوقات عظيمة على إمكان خلق مَا دونها .

وجيء في هذا الدليل بطريقة التقرير الذي دل عليه الاستفهام التقريري لأن هذا الدليل لوضوحه لا يسع المُقِرّ إلا الإِقرار به فإن البديهة قاضية بأن مَن خلق السماوات والأرض هو على خلق نَاس بعد الموت أقدر .

وإنما وجه التقرير إلى نفي المقرَّر بثبوته توسعة على المقرَّر إن أراد إنكاراً مع تحقق أنه لا يسعه الإِنكار فيكون إقراره بعد توجيه التقرير إليه على نفي المقصود ، شاهداً على أنه لا يستطيع إلا أن يقرّ ، وأمثال هذا الاستفهام التقريري كثيرة .

وقرأ الجمهور ﴿ بقادر ﴾ بالباء الموحدة وبألف بعد القاف وجرّ الاسم بالباء المزيدة في النفي لتأكيده .

وقرأه رويس عن يعقوب بتحتية بصيغة المضارع ﴿ يَقدر ﴾ .

ولكون ذلك كذلك عقب التقرير بجواب عن المقرر بكلمة ﴿ بلى ﴾ التي هي لنقض النفي ، أي بلى هو قادر على أن يخلق مثلهم .

وضمير ﴿ مِثلَهم ﴾ عائد إلى ﴿ الإنْسانُ ﴾ في قوله : ﴿ أولم ير الإنسانُ ﴾ [ يس : 77 ] على تأويله بالناس سواء كان المراد بالإنسان في قوله : ﴿ أولم ير الإنسانُ أنَّا خلقناهُ من نُطْفة ﴾ [ يس : 77 ] شخصاً معيّناً أم غير شخص ، فالمقصود هو وأمثاله من المشايعين له على اعتقاده وهم المشركون بمكة ، أي قادر على أن يخلق أمثالهم ، أي أجساداً على صورهم وشَبههم لأن الأجسام المخلوقة للبعث هي أمثال الناس الذين كانوا في الدنيا مركبين من أجزائهم فإن إعادة الخلق لا يلزم أن تكون بجمع متفرق الأجسام بل يجوز كونها عن عدمها ، ولعل ذلك كيفيات ، فالأموات الباقية أجسادها تُبثّ فيها الحياة ، والأموات الذين تفرقت أوصالهم وتفسخت يعاد تصويرها ، والأجساد التي لم تبق منها باقية تعاد أجساد على صورها لتودع فيها أرواحهم ، ألا ترى أن جسد الإنسان يتغير على حالته عند الولادة ويكبر وتتغير ملامحه ، ويجدّد كل يوم من الدم واللحم بقدر ما اضمحلّ وتبخّر ولا يعتبر ذلك التغير تبديلاً لذاته فهو يُحسّ بأنه هو هو والناس يميّزونه عن غيره بسبب عدم تغير الروح.

وفي آيات القرآن ما يدل على هذه الأحوال للمعاد ، ولذلك اختلف علماء السنّة في أن البعث عن عدم أو عن تفريق كما أشار إليه سيف الدين الآمدي في "أبكار الأفكار" ومودعة فيها أرواحهم التي كانت تدبر أجسامهم فإن الأرواح باقية بعد فناء الأجساد .

وجملة ﴿ وهُوَ الخَلّاقُ العَلِيمُ ﴾ مُعترضة في آخر الكلام ، والواو اعتراضية ، أي هو يخلق خلائق كثيرة وواسع العلم بأحوالها ودقائق ترتيبها .

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82)

(111/649)

---

هذه فذلكة الاستدلال ، وفصل المقال ، فلذلك فصلت عما قبلها كما تفصل جملة النتيجة عن جملتي القياس ، فقد نتج مما تقدم أنه تعالى إذا أراد شيئاً تعلّقت قدرتُه بإيجاده بالأمر التكويني المعبر عن تقريبه بـ ﴿ كُن ﴾ وهو أخصر كلمة تعبر عن الأمر بالكون ، أي الاتصاف بالوجود .

والأمر في قوله : ﴿ إنَّما أمرُهُ ﴾ بمعنى الشأن لأنه المناسب لإِنكارهم قدرته على إحياء الرميم ، أي لا شأن الله في وقت إرادته تكوين كائن إلا تقديره بأن يوجده ، فعبر عن ذلك التقدير الذي ينطاع له المقدور بقول : ﴿ كُن ﴾ ليعلم أن لا يباشر صنعه بيد ولا بآلة ولا بعَجن مادة مَا يخلق منه كما يفعل الصنّاع والمهندسون ، لأن المشركين نشأ لهم توّهم استحالة المعاد من انعدام المواد فضلاً عن إعدادها وتصويرها ، فالقصر إضافي لقلب اعتقادهم أنه يحتاج إلى جمْع مادة وتكييفها ومُضيّ مدة لإِتمامها .

و﴿ إذا ﴾ ظرف زمان في موضع نصب على المفعول فيه، أي حين إرادته شيئاً .

وقرأ الجمهور ﴿ فَيَكُونُ ﴾ مرفوعاً على تقدير: أن يقول له كن فهو يكون .

وقرأه ابن عامر والكسائي بالنصب عطفاً على ﴿ يَقُولَ ﴾ المنصوب .

فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)

الفاء فصيحة، أي إذا ظهر كل ما سمعتم من الدلائل على عظيم قدرة الله وتفرده بالإلهية وأنه يعيدكم بعد الموت فينشأ تنزيهه عن أقوالهم في شأنه المفضية إلى نقص عظمته لأن بيده الملك الأتم لكل موجود .

٧

والملكوت: مبالغة في الملك ( بكسر الميم ) فإن مادة فعلوت وردت بقلة في اللغة العربية .

من ذلك قولهم: رَهبوت ورحَموت، ومن أقوالهم الشبيهة بالأمثال "رَهبوت خير من رحموت" أي لأن يرهبَك الناسُ خير من أن يرحموك، أي لأن تكونَ عزيزاً يُخشى بأسك خير من أن تكون هيّناً يَرِقّ لك الناس، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ﴾ في سورة الأنعام ﴾ ( 75 ) .

وجملة ﴿ وإليهِ تُرجعُونَ ﴾ عطف على جملة التسبيح عطفَ الخبر على الإِنشاء فهو مما شملته الفصيحة .

والمعنى : قد اتضح أنكم صائرون إليه غير خارجين من قبضة ملكه وذلك بإعادة خلقكم بعد الموت .

وتقديم ﴿ إليه ﴾ على ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ للاهتمام ورعاية الفاصلة لأنهم لم يكونوا يزعمون أن ثمة رجعة إلى غيره ولكنهم ينكرون المعاد من أصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 22 صـ ﴾

(113/649)

---

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ ألم أعهد إليكم ﴾ يقول : ألم أنهكم ؟

وأخرج ابن المنذر عن مكحول رضي الله عنه في قوله ﴿ أن لا تعبدوا الشيطان ﴾ قال :

إنما عبادته طاعته .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ جبلاً كثيراً ﴾ قال : خلقاً كثيراً .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ " جبلاً كثيراً " بكسر الجيم مثقلة اللام " أفلم يكونوا يعقلون " بالياء .

وأخرج عبد بن حميد عن هذيل رضي الله عنه أنه قرأ " جبلاً كثيراً " مخففة .

وأخرج الحاكم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ " ولقد أضل منكم جبلاً " مخففة .

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65)

أخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن أبي الدنيا في التوبة واللفظ له وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس رضي الله عنه في قوله ﴿ اليوم نختم على أفواههم ﴾ قال "كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه قال : أتدرون ممن ضحكت ؟ قلنا : لا يا رسول الله قال : من مخاطبة العبد ربه فيقول : يا رب ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : إني لا أجيز عليَّ إلا شاهداً مني فيقول : كفى بنفسك عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقي ، فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول بعداً لكن وسحقاً ، فعنكن كنت أناضل " .

وأخرج مسلم والترمذي وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يلقى العبد ربه فيقول الله : أي قل ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والابل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى أي رب فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا . فيقول : فإني أنساك كما نسيتني . ثم يلقى الثاني ، فيقول : مثل ذلك . ثم يلقى الثالث فيقول له : مثل ذلك فيقول : آمنت بك ، وبكتابك ، وبرسولك ، وصليت ، وصمت ، وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع ، فيقول : ألا نبعث شاهدنا عليك ؟ فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليَّ ، فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقي . فتنطق فخذه ، ولحمه ، وعظامه . بعمله ما كان ذلك يعذر من نفسه ، وذلك بسخط الله عليه " .

وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ؛ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أول عظم من الإِنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه . فخذه من الرجل الشمال " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : يدعى

المؤمن للحساب يوم القيامة ، فيعرض عليه ربه عمله ، فيما بينه وبينه ، ليعترف فيقول : أي رب عملت . . عملت . . عملت ، فيغفر الله له ذنوبه ، ويستره منها قال : فما على الأرض خليقة يرى من تلك الذنوب شيئاً ، وتبدو حسناته فودّ أن الناس كلهم يرونها . ويدعى الكافر والمنافق للحساب ، فيعرض ربه عليه عمله ، فيجحد ويقول : أي رب وعزتك لقد كتب عليّ هذا الملك ما لم أعمل ، فيقول له الملك : أما عملت كذا ، في يوم كذا ، في مكان كذا ؟ فيقول : لا وعزتك . أي رب ما عملته ، فإذا فعل ذلك ختم على فيه ، فأني أحسب أول ما ينطق منه لفخذه اليمنى ، ثم تلا ﴿ اليوم نختم على أفواههم . . . ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم والبيهقي في الأسماء والصفات عن بسرة وكانت من المهاجرات قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم



---

" عليكن بالتسبيح ، والتهليل ، والتقديس ، ولا تغفلن واعقدن بالأنامل ، فإنهن مسؤولات ومستنطقات " .

وأخرج ابن جرير عن الشعبي رضي الله عنه قال : يقال للرجل يوم القيامة : عملت كذا وكذا . . فيقول : ما عملته . فيختم على فيه ، وتنطق جوارحه ، فيقول لجوارحه :

أبعدكن الله ، ما خاصمت إلا فيكن .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أسماء بن عبيد رضي الله عنه قال : يؤتى بابن آدم يوم القيامة ومعه جبل من صحف لكل ساعة صحيفة ، فيقول الفاجر : وعزتك لقد كتبوا عليّ ما لم أعمل ، فعند ذلك يختم على أفواههم ، ويؤذن لجوارحهم في الكلام ، فيكون أول ما يتكلم من جوارح ابن آدم فخذه اليسرى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ نختم على أفواههم ﴾ قال : فلا يتكلمون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : كانت خصومات وكلام ، وكان هذا آخره أن ختم على أفواههم .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه في الآية قال : أول ما ينطق من الإِنسان فخذه اليمنى .

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾ قال : أعميناهم وأضللناهم عن الهدي ﴿ فأنّى يبصرون ﴾ فكيف يهتدون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في

قوله ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ قال: الطريق ﴿ فأنّى يبصرون ﴾ وقد طمسنا على أعينهم.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولو نشاء لمسخناهم ﴾ قال: أهلكناهم ﴿ على مكانتهم ﴾ قال: في مساكنهم.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح رضي الله عنه في قوله ﴿ ولو نشاء لمسخناهم ﴾ يقول: لجعلناهم حجارة.

(116/649)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ ولو نشاء لطمسنا . . . ﴾ . قال: لو شاء الله لتركهم عمياً يترددون ﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ﴾ قال: لو نشاء لجعلناهم كسحاً لا يقومون.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون ﴾ قال: فلم يستطيعوا أن يتقدموا، ولا يتأخروا.

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ومن

نعمره ننكسه في الخلق ﴾ قال : هو الهرم . يتغير سمعه ، وبصره ، وقوته ، كما رأيت .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن نعمره ننكسه في الخلق ﴾ قال : نرده إلى أرذل العمر .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سفيان في قوله ﴿ ومن نعمره ننكسه ﴾ قال : ثمانين سنة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن نعمره ﴾ يقول : من نمد له في العمر ﴿ ننكسه في الخلق ﴾ ﴿ كيلا يعلم من بعد علمٍ شيئاً ﴾ [ الحج : 5 ] يعني الهرم .

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69)

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ، عصمه الله من ذلك ﴿ إن هو إلا ذكر ﴾ قال : هذا القرآن ﴿ لينذر من كان حياً ﴾ قال : حي القلب ، حي البصر ﴿ ويحق القول على الكافرين ﴾ بأعمالهم أعمال السوء .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال : بلغني أنه قيل لعائشة رضي الله عنها هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت : كان أبغض الحديث إليه ، غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس ، يجعل أخره أوله ، وأوله آخره ، ويقول :

ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار . . . فقال له أبو بكر رضي الله عنه : ليس هكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إني والله ما أنا بشاعر ، ولا ينبغي لي" .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استراب الخبر تمثل ببيت طرفه :

ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد . . . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل من الاشعار :

ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد . . . وأخرج ابن سعد وابن أبي حاتم والمرزباني في معجم الشعراء عن الحسن رضي الله عنه ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بهذا البيت :

كفى الإِسلام والشيب للمرء ناهياً . . . فقال أبو بكر رضي الله عنه : أشهد أنك رسول الله ، ما علمك الشعر وما ينبغي لك .

وأخرج ابن سعد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد رضي الله عنه ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم عليه

وسلم قال للعباس بن مرداس : " أرأيت قولك : "

أصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة . ؟ . . . " فقال أبو بكر رضي الله عنه : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما أنت بشاعر ، ولا راوية ، ولا ينبغي لك . إنما قال : بين عيينة والاقرع " .

وأخرج البيهقي في سننه بسند فيه من يجهل حاله عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت شعر قط إلا بيتاً واحداً :

يقال بما نهوى يكن فلقا . . . يقال لشيء كان إلا يحقق

قالت عائشة رضي الله عنها : فقل تحققاً لئلا يعربه فيصير شعراً .

*(118/649)*

---

وأخرج أبو داود والطبراني والبيهقي عن ابن عمرو رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما أبالي ما أتيت إن أنا شربت ترياقاً ، أو تعلقت تميمة ، أو قلت الشعر من قبل نفسي " .

وأخرج ابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ لينذر من كان حياً ﴾ قال : عاقلاً .

وأخرج ابن أبي شيبة عن نوفل بن عقرب قال: سألت عائشة رضي الله عنها هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسامع عنده الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71)

أخرج ابن حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ مما عملت أيدينا ﴾ قال: من صنعتنا.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فهم لها مالكون ﴾ قال: ضابطون ﴿ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ﴾ يركبونها ويسافرون عليها ﴿ ومنها يأكلون ﴾ لحومها ﴿ ولهم فيها منافع ﴾ قال: يلبسون أصوافها ﴿ ومشارب ﴾ يشربون ألبانها ﴿ أفلا يشكرون ﴾.

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن عروة رضي الله عنه قال في مصحف عائشة رضي الله عنها "فمنها ركبوتهم".

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن هارون رضي الله عنه قال في حرف أُبيّ بن كعب رضي الله عنه "فمنها ركبوتهم".

وأخرج ابن أبي حاتم عن هارون رضي الله عنه قال: قراءة الحسن والأعرج وأبي عمرو والعامة ﴿ فمنها ركوبهم ﴾ يعني ركوبتهم حمولتهم.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ﴾

قال : هي الأصنام .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ لعلهم ينصرون ﴾ قال : يمنعون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ قال : لا تستطيع الآلهة نصرهم .

(119/649)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ قال : نصر الآلهة ، ولا تستطيع الآلهة نصرهم ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ قال : المشركون يغضبون للآلهة في الدنيا ، وهي لا تسوق إليهم خيراً ، ولا تدفع عنهم سوءاً ، إنما هي أصنام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ قال : هم لهم جند في الدنيا وهم ﴿ محضرون ﴾ في النار .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ لآلهتهم التي يعبدون ، يدفعون عنهم ، ويمنعونهم .

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والاسمعيلي في معجمه والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ، ففته بيده ، فقال يا محمد : أيحيي الله هذا بعدما أرى ؟ قال : " نعم . يبعث الله هذا ، ثم يميتك ، ثم يحييك ، ثم يدخلك نار جهنم . فنزلت الآيات من آخر يس ، ﴿ أولم ير الإِنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ إلى آخر السورة " " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال " جاء عبد الله بن أُبيّ وفي يده عظم حائل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فكسره بيده ، ثم قال : يا محمد كيف يبعثه الله وهو رميم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يبعث الله هذا ويميتك ، ثم يدخلك جهنم . قال الله ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ " " .



---

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " جاء أُبيّ بن خلف وفي يده عظم حائل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فكسره بيده ، ثم قال : يا محمد كيف يبعثه الله

وهو رميم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يبعث الله هذا ويميتك، ثم يدخلك جهنم. قال الله ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ "".

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "جاء أُبيّ بن خلف الجمحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم نخر فقال: أتعدنا يا محمد إذا بليت عظامنا، فكانت رميماً أن الله باعثنا خلقاً جديداً، ثم جعل يفت العظم ويذره في الريح فيقول: يا محمد من يحيي هذا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نعم. يميتك الله، ثم يحييك، ويجعلك في جهنم، ونزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ﴾ "".

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في البعث عن أبي مالك قال: جاء أُبيّ بن خلف بعظم نخرة، فجعل يفته بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم قال: من يحيي العظام وهي رميم؟ فأنزل الله ﴿ أولم ير الإِنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ إلى قوله ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في أبي جهل بن هشام جاء بعظم حائل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذراه فقال: من يحيي العظام وهي رميم؟ فقال الله: يا محمد ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في

قوله ﴿ وضرب لنا مثلاً . . . ﴾ قال : أُبيّ بن خلف : جاء بعظم فقال : يا محمد أتعدنا انا إذا متنا . فكنا مثل هذا العظم البالي في يده ، ففته وقال : من يحيينا إذا كنا مثل هذا ؟

(121/649)

---

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وضرب لنا مثلاً . . . ﴾ قال : " نزلت في أُبيّ بن خلف جاء بعظم نخر ، فجعل يذره في الريح فقال : أنّى يحيي الله هذا ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : نعم . يحيي الله هذا ، ويدخلك النار " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ أولم ير الإِنسان أنا خلقناه من نطفة ﴾ قال : " نزلت في أُبيّ بن خلف ؛ أتى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه عظم قد دثر ، فجعل يفته بين أصابعه ويقول : يا محمد أنت الذي تحدث أن هذا سيحيا بعد ما قد بلى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعم . ليميتن الآخر ، ثم ليحيينه ، ثم ليدخلنه النار " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه قال : " جاء أُبيّ بن خلف إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفي يده عظم حائل ، فقال : يا محمد أني يحيي الله هذا ؟ فأنزل الله ﴾

وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ﴾ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلقها قبل أن تكون أعجب من إحيائها وقد كانت " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال : لما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : إن الناس يحاسبون بأعمالهم ، ومبعوثون يوم القيامة ، أنكروا ذلك انكاراً شديداً . فعمد أُبيّ بن خلف إلى عظم حائل قد نخر ، ففته ثم ذراه في الريح ، ثم قال : يا محمد إذا بليت عظامنا إنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟ فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من استقباله اياه بالتكذيب والأذى في وجهه وجداً شديداً ، فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة . . . ﴾ .

(122/649)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ﴾ يقول : الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه . وفي قوله ﴿ أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر . . . ﴾ . قال : هذا مثل قوله ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾

قال : ليس من كلام العرب أهون ولا أخف من ذلك . فأمر الله كذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(123/649)

---

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ .

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ قَالَ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ أَبِي إسْحَاقَ عَنْ وَهْبِ بْنِ جَابِرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ قَالَ : ( الشَّمْسُ تَطْلُعُ فَيَرَاهَا بَنُو آدَمَ حَتَّى إذَا كَانَ يَوْمٌ غَرَبَتْ فَتُحْبَسُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُقَالُ : اُطْلُعِي مِنْ حَيْثُ غَرَبْتِ ، فَهُوَ يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إيمَانُهَا .

الْآيَةَ ) .

قَالَ مَعْمَرٌ : وَبَلَغَنِي عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : ( إذَا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي تَطْلُعُ فِيهَا الشَّمْسُ مِنْ حَيْثُ تَغْرُبُ قَامَ الْمُتَهَجِّدُونَ لِصَلَاتِهِمْ فَصَلَّوْا حَتَّى يَمَلُّوا ثُمَّ يَعُودُونَ إلَى مَضَاجِعِهِمْ ، يَفْعَلُونَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَاللَّيْلُ كَمَا هُوَ وَالنُّجُومُ وَاقِفَةٌ لَا تَسْرِي حَتَّى يَخْرُجَ

الرَّجُلُ إِلَى أَخِيهِ وَيَخْرُجُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ) .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَكَانَ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ وُقُوفُهَا عَنِ السَّيْرِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ إِلَى أَنْ تَطْلُعَ مِنْ مَغْرِبِهَا .

(124/649)

---

قَالَ مَعْمَرٌ : وَبَلَغَنِي أَنَّ بَيْنَ أَوَّلِ الْآيَاتِ وَآخِرِهَا سِتَّةُ أَشْهُرٍ ، قِيلَ لَهُ : وَمَا الْآيَاتُ ؟ قَالَ : زَعَمَ قَتَادَةُ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا : طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَالدَّجَّالَ وَالدُّخَانَ وَدَابَّةَ الْأَرْضِ وخويصة أَحَدِكُمْ وَأَمْرَ الْعَامَّةِ ﴾ ؛ قِيلَ لَهُ : هَلْ بَلَغَكَ أَيُّ الْآيَاتِ أَوَّلُ ؟ قَالَ : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالًا يَقُولُونَ : الدَّجَّالُ .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ

عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ .

وَرَوَى قَتَادَةُ : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ قَالَ : ( لِوَقْتٍ وَاحِدٍ لَهَا لَا تَعْدُوهُ ) .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَعْنِي أَنَّهَا اسْتَقَرَّتْ عَلَى سَيْرٍ وَاحِدٍ وَعَلَى مِقْدَارٍ وَاحِدٍ لَا تَخْتَلِفُ .

وَقِيلَ : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ لِأَبْعَدِ مَنَازِلِهَا فِي الْغُرُوبِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ .

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ قَالَ : ( ذَاكَ لَيْلَةَ الْهِلَالِ ) .

(125/649)

---

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهَا لَا تُدْرِكُهُ فَتَسْتُرُهُ بِشُعَاعِهَا حَتَّى تَمْنَعَ مِنْ رُؤْيَتِهِ ؛ لِأَنَّهُمَا مُسَخَّرَانِ مَقْسُورَانِ عَلَى مَا رَتَّبَهُمَا اللَّهُ عَلَيْهِ لَا يُمْكِنُ وَاحِدًا مِنْهُمَا أَنْ يَتَغَيَّرَ عَنْ ذَلِكَ .

وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ : ( لَا يُدْرِكُ أَحَدُهُمَا ضَوْءَ الْآخَرِ ) وَقِيلَ : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ حَتَّى يَكُونَ نُقْصَانُ ضَوْئِهَا كَنُقْصَانِهِ وَقِيلَ : ( لَا تُدْرِكُهُ فِي سُرْعَةِ السَّيْرِ ) .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ قَالَ : وَبَلَغَنِي أَنَّ عِكْرِمَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ قَالَ : وَبَلَغَنِي أَنَّ عِكْرِمَةَ قَالَ : ( لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا سُلْطَانٌ ، لِلْقَمَرِ سُلْطَانٌ

اللَّيْلِ وَلِلشَّمْسِ النَّهَارُ ، فَلَا يَنْبَغِي لِلشَّمْسِ أَنْ تَطْلُعَ بِاللَّيْلِ ) ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ يَقُولُ : " لَا يَنْبَغِي إِذَا كَانَ اللَّيْلُ أَنْ يَكُونَ لَيْلٌ آخَرُ حَتَّى يَكُونَ نَهَارًا " .

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ابْتِدَاءَ الشَّهْرِ نَهَارٌ لَا لَيْلٌ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ فَإِذَا لَمْ يَسْبِقْ اللَّيْلُ النَّهَارَ وَاسْتَحَالَ اجْتِمَاعُهُمَا مَعًا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ النَّهَارُ سَابِقًا لِلَّيْلِ فَيَكُونُ ابْتِدَاءُ الشُّهُورِ مِنْ النَّهَارِ لَا مِنْ اللَّيْلِ .

(126/649)

---

قِيلَ لَهُ : لَيْسَ تَأْوِيلُ الْآيَةِ مَا ذَهَبْتَ إلَيْهِ ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهَا أَحَدُ الْوُجُوهِ الَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا عَنْ السَّلَفِ ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ : إنَّ مَعْنَاهَا أَنَّ ابْتِدَاءَ الشُّهُورِ مِنْ النَّهَارِ ؛ فَهَذَا تَأْوِيلٌ سَاقِطٌ بِالْإِجْمَاعِ .

وَأَيْضًا فَلَمَّا كَانَتْ الشُّهُورُ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِهَا أَحْكَامُ الشَّرْعِ هِيَ شُهُورُ الْأَهِلَّةِ وَالْهِلَالُ أَوَّلُ مَا يَظْهَرُ فَإِنَّمَا يَظْهَرُ لَيْلًا وَلَا يَظْهَرُ ابْتِدَاءَ النَّهَارِ ، وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ابْتِدَاؤُهَا مِنْ اللَّيْلِ ؛ وَلَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ هِيَ مِنْ رَمَضَانَ وَأَنَّ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَوَّالٍ هِيَ مِنْ شَوَّالٍ ، فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ ابْتِدَاءَ الشُّهُورِ مِنْ اللَّيْلِ أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَبْتَدِءُونَ بِصَلَاةِ التَّرَاوِيحِ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْهُ ؟ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ : إذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ

رَمَضَانَ صُفِّدَتْ فِيهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ ، وَجَمِيعُ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ابْتِدَاءَ الشُّهُورِ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ .

وَقَدْ قَالَ أَصْحَابُنَا فِيمَنْ قَالَ : لِلَّهِ عَلَيَّ اعْتِكَافُ شَهْرٍ أَنَّهُ يَبْتَدِئُ بِهِ مِنْ اللَّيْلِ ؛ لِأَنَّ ابْتِدَاءَ الشُّهُورِ مِنْ اللَّيْلِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ .

رُوِيَ عَنْ الضَّحَّاكِ وَقَتَادَةَ أَنَّهُ أَرَادَ سَفِينَةَ نُوحٍ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَنَسَبَ الذُّرِّيَّةَ إلَى الْمُخَاطَبِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ مِنْ جِنْسِهِمْ كَأَنَّهُ قَالَ : ذُرِّيَّةَ النَّاسِ .

(127/649)

---

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ( السُّفُنُ بَعْدَ سَفِينَةِ نُوحٍ ) وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رِوَايَةً أُخْرَى وَعَنْ مُجَاهِدٍ : ( أَنَّ الْإِبِلَ سُفُنُ الْبَرِّ ) .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ .

قَالَ قَتَادَةُ : ( نُصَيِّرُهُ إلَى حَالِ الْهَرَمِ الَّتِي تُشْبِهُ حَالَ الصَّبِيِّ فِي غُرُوبِ الْعِلْمِ وَضَعْفِ الْقُوَى ) .

وَقَالَ غَيْرُهُ : ( نُصَيِّرُهُ بَعْدَ الْقُوَّةِ إِلَى الضَّعْفِ وَبَعْدَ زِيَادَةِ الْجِسْمِ إِلَى النُّقْصَانِ وَبَعْدَ الْجِدَةِ وَالطَّرَاوَةِ إِلَى الْبِلَى ) .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ وَسَمَّاهُ أَرْذَلَ الْعُمُرِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُرْجَى لَهُ بَعْدَهُ عَوْدٌ مِنْ النُّقْصَانِ إِلَى الزِّيَادَةِ وَمِنْ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ كَمَا يُرْجَى مَصِيرُ الصَّبِيِّ مِنْ الضَّعْفِ إِلَى الْقُوَّةِ وَمِنْ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ .

(128/649)

---

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ قَالَ : بَلَغَنِي أَنَّ عَائِشَةَ سُئِلَتْ : هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَمَثَّلُ بِشَيْءٍ مِنْ الشِّعْرِ ؟ فَقَالَتْ : لَا ، إلَّا بِبَيْتِ أَخِي بَنِي قَيْسِ بْنِ طَرَفَةَ : سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْت جَاهِلًا وَيَأْتِيك بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ قَالَ : فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ يَأْتِيك مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ بِالْأَخْبَارِ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَيْسَ هَكَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : إنِّي لَسْت بِشَاعِرٍ وَلَا يَنْبَغِي لِي ﴾ .

قَالَ أَبو بَكْرٍ : لَمْ يُعْطِ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعِلْمَ بِإِنْشَاءِ الشِّعْرِ ، لَمْ يَكُنْ قَدْ عَلَّمَهُ الشِّعْرَ ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي يُعْطِي فِطْنَةَ ذَلِكَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَإِنَّمَا لَمْ يُعْطِ ذَلِكَ لِئَلَّا تَدْخُلَ بِهِ الشُّبْهَةُ عَلَى قَوْمٍ فِيمَا أَتَى بِهِ مِنْ الْقُرْآنِ أَنَّهُ قَوِيٌّ عَلَى ذَلِكَ بِمَا فِي طَبْعِهِ مِنْ الْفِطْنَةِ لِلشِّعْرِ ؛ وَإِذَا كَانَ التَّأْوِيلُ أَنَّهُ لَمْ يُعْطِهِ الْفِطْنَةَ لِقَوْلِ الشِّعْرِ لَمْ يَمْتَنِعْ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُنْشِدَ شِعْرًا لِغَيْرِهِ ، إلَّا أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ مِنْ وَجْهٍ صَحِيحٍ أَنَّهُ تَمَثَّلَ بِشِعْرٍ لِغَيْرِهِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ : هَلْ أَنْتَ إلَّا أُصْبُعٌ دَمِيتَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتَ وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْقَائِلَ لِذَلِكَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ .

(129/649)

---

وَأَيْضًا فَإِنَّ مَنْ أَنْشَدَ شِعْرًا لِغَيْرِهِ أَوْ قَالَ بَيْتًا أَوْ بَيْتَيْنِ لَمْ يُسَمَّ شَاعِرًا وَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ الشِّعْرَ أَوْ قَدْ تَعَلَّمَهُ ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ لَا يُحْسِنُ الرَّمْيَ قَدْ يُصِيبُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ بِرَمْيَتِهِ وَلَا يَسْتَحِقُّ بِذَلِكَ أَنْ يُسَمَّى رَامِيًا

وَلَا أَنَّهُ تَعَلَّمَ الرَّمْيَ ؟ فَكَذَلِكَ مَنْ أَنْشَدَ شِعْرًا لِغَيْرِهِ وَأَنْشَأَ بَيْتًا وَنَحْوَهُ لَمْ يُسَمَّ شَاعِرًا .

قَوْله تَعَالَى : { قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ } فِيهِ مِنْ أَوْضَحِ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الِابْتِدَاءِ كَانَ أَقْدَرَ عَلَى الْإِعَادَةِ ؛ إذْ كَانَ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ أَنَّ إعَادَةَ الشَّيْءِ أَيْسَرُ مِنْ ابْتِدَائِهِ ، فَمَنْ قَدَرَ عَلَى الْإِنْشَاءِ ابْتِدَاءً فَهُوَ عَلَى الْإِعَادَةِ

أَقْدَرُ فِيمَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْبَقَاءُ وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى وُجُوبِ الْقِيَاسِ وَالِاعْتِبَارِ ؛ لِأَنَّهُ أَلْزَمَهُمْ قِيَاسَ النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ عَلَى الْأُولَى .

وَرُبَّمَا احْتَجَّ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ عَلَى أَنَّ الْعَظْمَ فِيهِ حَيَاةٌ فَيَجْعَلُهُ حُكْمَ الْمَوْتِ بِمَوْتِ الْأَصْلِ وَيَكُونُ مَيْتَةً .

وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ إنَّمَا سَمَّاهُ حَيًّا مَجَازًا ؛ إذْ كَانَ عُضْوًا يَحْيَى كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا حَيَاةَ فِيهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(130/649)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) ﴾

قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ : جوابُها محذوفٌ . أي : أعرضوا .

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (46)

قوله : ﴿ إِلَّا كَانُوا ﴾ : في محلِ حالٍ . وقد تقدَّم نظيره .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (47)

قوله : ﴿ مَن لَّوْ يَشَآءُ الله أَطْعَمَهُ ﴾ : مفعول " أنطعمُ " و " أطعمه " جوابُ " لو " . وجاء على أحد الجائزين ، وهو تجرُّده من اللامِ . والأفصحُ أنْ يكونَ بلامٍ نحو ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ [ الواقعة : 65 ] .

مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49)

قوله : ﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾ : قرأ حمزةُ بسكونِ الخاء وتخفيفِ الصادِ مِنْ خَصِم يَخْصَمُ . والمعنى : يَخْصَمُ بعضُهم بعضاً ، فالمفعول محذوفٌ . وأبو عمرو وقالون بإخفاءِ فتحةِ الخاء وتشديدِ الصاد . ونافعٌ وابن كثير وهشام كذلك ، إلاَّ أنَّهم بإخلاص فتحةِ الخاءِ . والباقون بكسرِ الخاء وتشديدِ الصادِ . والأصلُ في القراءاتِ الثلاثِ : يَخْتَصِمون فأُدْغِمت التاءُ في الصاد ، فنافعٌ وابن كثير وهشام نَقَلوا فتحَها إلى الساكنِ قبلَها نَقْلاً كاملاً ، وأبو عمرو وقالون اختلسا حركتَها تنبيهاً على أنَّ الخاءَ أصلُها السكونُ ، والباقون حَذَفُوا حركتَها ، فالتقى ساكنان لذلك ، فكسروا أوَّلَهما ، فهذه أربعُ قراءاتٍ ، قُرِئ بها في المشهور .

ورُوِي عن أبي عمرٍو وقالون سكونُ الخاءِ وتشديدُ الصادِ . والنحاةُ يَسْتَشْكِلونها للجمعِ بَيْن ساكنين على غيرِ حَدِّيْهما . وقرأ جماعةٌ "يِخِصِّمُون" بكسرِ الياءِ والخاءِ وتشديد الصاد وكسروا الياءَ إتباعا . وقرأ أُبَيٌّ "يَخْتَصِمُون" على الأصل . قال الشيخُ : "ورُوِي عنهما – أي عن أبي عمرٍو وقالون – بسكونِ الخاء وتخفيفِ الصاد مِنْ خَصِم" .

قلت : هذه هي قراءةُ حمزةَ ولم يَحْكِها هو عنه وهذا يُشْبِهُ قولَه : ﴿ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ في البقرةِ [الآية : 20] ، و ﴿ لاَّ يهدي ﴾ في يونس [الآية : 35] .

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50)

وقرأ ابن محيصن "يُرْجَعُون" مبنياً للمفعول .

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51)

والأعرج "في الصُّوَر" بفتح الواو .

وقُرِئَ "من الأَجْدافِ" وهي لغةٌ في "الأَجْداث" يُقال : جَدَث وجَدَف كثُمَّ وفُمَّ ، وثُوم وفُوم . وقرأ ابن أبي إسحاق وأبو عمروٍ في روايةٍ "يَنْسُلون" بضم السين . يُقال : نَسَل الثعلبُ يَنْسِل وينسُل أي : أَسْرع في عَدْوِه .

قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52)

قوله : ﴿ ياويلنا ﴾ : العامَّةُ على الإِضافةِ إلى ضمير المتكلمين دون تأنيثٍ . وهو "وَيْل"

مضافٌ لِما بعده . ونقل أبو البقاء عن الكوفيين أنَّ " وَيْ " كلمةٌ برأسِها . و " لنا " جارٌّ ومجرور " . انتهى . ولا معنى لهذا إلاَّ بتأويلٍ بعيدٍ : هو أَنْ يكونَ يا عجبُ لنا ؛ لأنَّ وَي تُفَسَّرُ بمعنى اعجب منا . وابن أبي ليلى : " يا وَيْلتنا " بتاء التأنيث ، وعنه أيضاً " يا وَيْلتا " بإبدال الياءِ ألفاً . وتأويلُ هذه أنَّ كلَّ واحدٍ منهم يقول : يا ويلتي .

(132/649)

---

والعامَّةُ على فتح ميم " مَنْ و " بَعَثَنا " فعلاً ماضياً خبراً ل " مَنْ " الاستفهامية قبلَه . وابن عباس والضحاك ، وأبو نهيك بكسر الميم على أنها حرفُ جر . و " بَعْثِنا " مصدرٌ مجرور ب مِنْ . ف " مِنْ " الأولى تتعلَّق بالوَيْل ، والثانية تتعلَّقُ بالبعث .

والمَرْقَدُ يجوز أَنْ يكونَ مصدراً أي : مِنْ رُقادِنا ، وأن يكونَ مكاناً ، وهو مفردٌ أُقيم مُقامَ الجمعِ . والأولُ أحسنُ ؛ إذ المصدرُ يُفْرَدُ مطلقاً .

قوله : { هَذَا مَا وَعَدَ } في " هذا " وجهان ، أظهرهما : أنه مبتدأٌ وما بعده/ خبرُه . ويكونُ الوقفُ تاماً على قوله " مِنْ مَرْقَدِنا " . وهذه الجملةُ حينئذٍ فيها وجهان ، أحدهما : أنها مستأنفة : إمَّا من قولِ اللَّهِ تعالى ، أو مِنْ قولِ الملائكةِ . والثاني : أنها من كلام الكفارِ فتكون في محلِّ نصب بالقول . والثاني من الوجهين الأولين : " هذا " صفةٌ ل " مَرْقَدِنا " و "

ما وعَد " منقطعٌ عمَّا قبله .

ثم في " ما " وجهان ، أحدُهما : أنها في محلِّ رفعٍ بالابتداء ، والخبرُ مقدرٌ أي : الذي وَعَدَه الرحمنُ وصَدَقَ فيه المرسلون حَقٌّ عليكم . وإليه ذهب الزجَّاج والزمخشري . والثاني : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هذا وَعْدُ الرحمن . وقد تقدَّم لك أولَ الكهف : أنَّ حَفْصاً يقف على " مَرْقَدنا " وَقْفةً لطيفةً دون قَطْعِ نَفَسٍ لئلا يُتَوَهَّمَ أنَّ اسمَ الإِشارةِ تابعٌ ل " مَرْقَدِنا " . وهذان الوجهان يُقَوِّيان ذلك المعنى المذكور الذي تَعَمَّد الوقفَ لأجلِه . و " ما " يَصِحُّ أَنْ تكونَ موصولةً اسميةً أو حرفيةً كما تقدَّم تقريرُه . ومفعولا الوعدِ والصدقِ محذوفان أي : وعَدَناه الرحمن وصَدَقَناه المرسلون . والأصل : صَدَقَنا فيه . ويجوز حَذْفُ الخافض وقد تقدَّم لك نحو " صَدَقني سِنَّ بَكْرِه " أي في سِنِّه . وتقدَّم قراءتا " صيحة واحدة " نصباً ورفعاً .



---

فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54)

قوله : ﴿ فاليوم ﴾ : منصوبٌ ب " لا تُظْلَمُ " . و " شيئاً " : إمَّا مفعولٌ ثانٍ ، وإمَّا مصدرٌ

.

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55)

قوله: ﴿ فِي شُغُلٍ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ خبراً ل "إنَّ" و "فاكهون" خبرٌ ثانٍ، وأَنْ يكون "فاكهون" هو الخبر، و "في شُغُلٍ" متعلِّقٌ به وأَنْ يكونَ حالاً. وقرأ الكوفيون وابنُ عامر بضمتين. والباقون بضمةٍ وسكونٍ، وهما لغتان للحجازيين، قاله الفراء. ومجاهد وأبو السَّمَّال بفتحتين. ويزيد النحوي وابن هُبَيْرَة بفتحةٍ وسكونٍ وهما لغتان أيضاً.

والعامَّةُ على رفع "فاكِهون" على ما تقدَّم. والأعمش وطلحة "فاكهين" نصباً على الحالِ، والجارُّ الخبرُ. والعامَّةُ أيضاً على "فاكهين" بالألف بمعنى: أصحاب فاكهة، كلابنٍ وتامرٍ ولاحمٍ، والحسَنُ وأبو جعفر وأبو حيوةَ وأبو رجاءٍ وشيبةُ وقتادةُ ومجاهدٌ "فَكِهون" بغيرِ ألفٍ بمعنى: طَرِبُوْن فَرِحون، من الفُكاهةِ بالضم. وقيل: الفاكهُ والفَكِهُ بمعنى المتلذِّذُ المتنعِّمُ؛ لأنَّ كلاًّ من الفاكهةِ والفُكاهةِ مِمَّا يُتَلَذَّذُ به ويُتَنَعَّمُ. وقُرِئ "فَكِهِيْن" بالقَصْرِ والياء على ما تَقَدَّمَ. و "فَكُهُوْن" بالقصرِ وضمِّ الكافِ. يُقال: رجل فَكِهٌ وفَكُهٌ كرَجُلٍ نَدِسٍ ونَدُس، وحَذِرٍ وحَذُر.

هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (56)

قوله: ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾: يجوزُ في "هم" أَنْ يكونَ مؤكِّداً للضميرِ المستكِنّ في "فاكهون" ، و "أزواجُهم" عَطْفٌ على المستكِنّ. ويجوز أَنْ يكونَ تأكيداً للضميرِ المستكنّ في "شُغُل" إذا جَعَلْناه خبراً. و "أزواجُهم" عَطْفٌ عليه أيضاً. كذا ذكره الشيخ. وفيه نظرٌ من حيث الفَصْلُ بين المُؤكِّد والمؤكَّد بخبر "إنَّ". ونظيرُه أن تقولَ: "إن زيداً في الدار قائمٌ هو وعمروٌ" على أَنْ يُجْعَلَ "هو" تأكيداً للضمير في قولك "في الدار". وعلى هذين الوجهين يكون قولُه "متكِئُون" خبراً آخر ل "إنَّ"، و "في [ظلال]" متعلِّقٌ به أو حالٌ. و "على الأرائك" متعلقٌ به. ويجوزُ أَنْ يكون "هم" مبتدأً و "متكئون" خبرَه، والجارَّانِ على ما تقدَّمَ. وجوَّزَ أبو البقاءِ أَنْ يكونَ "في ظلالٍ" هو الخبرَ. قال: "وعلى الأرائكِ مستأنفٌ" وهي عبارةٌ مُوْهِمَةٌ غيرَ الصوابِ. ويريد بذلك: أنَّ "متكئون" خبرُ مبتدأ مضمرٍ و "متكئون" مبتدأٌ مؤخرٌ إذ لا معنى له. وقرأ عبد الله "متكئِين" نصباً على الحال.

وقرأ الأخَوان "في ظُلَلٍ" بضم الظاءِ والقصرِ، وهو جمع ظُلَّة نحو: غُرْفَة وغُرَف، وحُلَّة وحُلَل. وهي عبارةٌ عن الفُرُش والسُّتُور. والباقون بكسرِ الظاءِ والألفِ، جمعَ ظُلَّة أيضاً، كحُلَّة وحِلال، وبُرْمة وبِرام، أو جمعَ ظِلَّة بالكسر، إذ يُقال: ظُلَّة وظِلَّة بالضمّ والكسرِ فهو كلِقْحة ولِقاح، إلاَّ أنَّ فِعالاً لا ينقاس فيها، أو جمعَ فِعْل نحو: ذِئْب وذِئاب، ورِيْح ورِياح

.

لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57)

(135/649)

---

قوله : ﴿ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ : في " ما " هذه ثلاثةُ أوجه : موصولةٌ اسميةٌ ، نكرةٌ موصوفةٌ ، والعائد على هذين محذوفٌ ، مصدريةٌ . / ويَدَّعُون مضارعُ ادَّعَى افْتَعَلَ مِنْ دعا يَدْعو . وأُشْرِبَ معنى التمني . قال أبو عبيدة : " العربُ تقول : ادَّعِ عَلَيَّ ما شِئْتَ أي تَمَنَّ " ، وفلانٌ في خيرِ ما يَدَّعي ، أي : ما يتمنى . وقال الزجاج : " هو من الدعاء أي : ما يَدَّعُوْنه ، أهلُ الجنة يأتيهم ، مِنْ دَعَوْتُ غلامي " . وقيل : افْتَعَلَ بمعنى تفاعَلَ . أي : ما يتداعَوْنه كقولهم : ارتَمَوْا وترامَوْا بمعنىً . و " ما " مبتدأةٌ . وفي خبرها وجهان ، أحدهما : - وهو الظاهر - أنه الجارُّ قبلها . والثاني : أنه " سلامٌ " . أي : مُسَلَّمٌ خالِصٌ أو ذو سلامةٍ .

سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58)

قوله : ﴿ سَلاَمٌ ﴾ : العامَّةُ على رفعِه . وفيه أوجهٌ ، أحدها : ما تقدَّم مِنْ كونِه خبرَ " ما يَدَّعون " . الثاني : أنه بدلٌ منها ، قاله الزمخشري . قال الشيخ : " وإذا كان بدلاً كان " ما يَدَّعُون " خصوصاً ، والظاهر أنَّه عمومٌ في كلِّ ما يَدَّعُونه . وإذا كان عموماً لم يكن بدلاً منه

" . الثالث : أنه صفةٌ لـ " ما " ، وهذا إذا جَعَلْتَها نكرةً موصوفةً . أمَّا إذا جَعَلْتَها بمعنى الذي أو مصدريةً تَعَذَّر ذلك لتخالُفِهما تعريفاً وتنكيراً . الرابع : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هو سلامٌ . الخامس : أنه مبتدأٌ خبرُه الناصبُ لـ " قَوْلاً " أي : سلامٌ يُقال لهم قولاً . وقيل : تقديرُه : سلامٌ عليكم . السادس : أنه مبتدأٌ ، وخبرُه " مِنْ ربٍ " . و " قولاً " مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمونِ الجملةِ ، وهو مع عامِلِه معترضٌ بين المبتدأ والخبر .

(136/649)

---

وأُبَيٌّ وعبد الله وعيسى " سَلاماً " بالنصب . وفيه وجهان ، أحدهما : أنه حالٌ . قال الزمخشري : " أي : لهمْ مُرادُهُمْ خالصاً " . والثاني : أنه مصدرٌ يُسَلِّمون سلاماً : إمَّا من التحيةِ ، وإمَّا من السَّلامة . و " قَوْلاً " إمَّا : مصدرٌ مؤكِّدٌ ، وإمَّا منصوبٌ على الاختصاص . قال الزمخشري : " وهو الأَوْجَهُ " . و " مِنْ ربٍ " إمَّا صفةٌ لـ " قَوْلاً " ، وإمَّا خبرُ " سَلامٌ " كما تقدَّم . وقرأ القَرَظِيُّ " سِلْمٌ " بالكسرِ والسكونِ . وتقدَّم الفرق بينهما في البقرة .

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59)

قوله : ﴿ وامتازوا ﴾ : على إضمارِ قولٍ مقابلٍ لما قيل للمؤمنين أي : ويُقال للمجرمين :

امتازُوْا أي: انعَزلوا، مِنْ مازه يَميزه.

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60)

(137/649)

---

قوله: ﴿أَعْهَدْ﴾: العامَّةُ على فتحِ الهمزة على الأصلِ في حرفِ المضارعة. وطلحة والهذيل بن شرحَبيل الكوفي بكسرِها. وقد تقدَّم أنَّ ذلك لغةٌ في حرفِ المضارعةِ بشروطٍ ذُكرت في الفاتحة وتَمَّ حكايةٌ. وقرأ ابنُ وثَّاب "أَحَّدْ" بحاءٍ مشددةَ. قال الزمخشري: "وهي لغةُ تميمٍ، ومنه "دَحَّا مَحَّا" أي: دَعْها معها، فقُلِبَتْ الهاءُ حاءً ثم العينُ حاءً، حين أُريد الإِدغامُ. والأحسنُ أَنْ يُقال: إنَّ العينَ أُبْدِلَتْ حاءً. وهي لغةُ هُذَيلٍ. فلمَّا أُدْغِم قُلِب الثاني للأول، وهو عكسُ بابِ الإِدغامِ. وقد مضى تحقيقُه آخرَ آلِ عمران. وقال ابن خالويه: "وابن وثاب والهذيل "أَلَمْ إِعْهَدْ" بكسر الميم والهمزة وفتح الهاء، وهي على لغةِ مَنْ كسرَ أولَ المضارِعِ سوى الياءِ. ورُوِي عن ابنِ وثَّاب "اعْهِد" بكسرِ الهاءِ. يُقال: عَهِد وعَهَد" انتهى. يعني بكسر الميم والهمزة أنَّ الأصلَ في هذه القراءةِ أَنْ يكونَ كسرَ حَرْفَ المضارعةِ ثم نَقَلَ حركتَه إلى الميمِ فكُسِرَتْ، لا أنَّ الكسرَ موجودٌ في الميمِ وفي الهمزةِ لفظاً، إذ يَلْزَمُ من ذلك قَطْعُ همزةِ الوصلِ وتحريكُ الميمِ مِنْ غيرِ

سبب . وأمَّا كَسْرُ الهاءِ فلما ذُكِرَ من أنه سُمِعَ في الماضي " عَهَدَ " بفتحها . وقولُه : " سوى الياء " وكذا قال الزمخشريُّ هو المشهورُ . وقد نُقِل عن بعضِ كَلْبٍ أنهم يَكْسِرون الياءَ فيقولون : يِعْلَمُ .

(138/649)

---

وقال الزمخشري فيه : " وقد جوَّزَ الزجَّاجُ أن يكون من باب : نَعِمَ يَنْعِمُ ، وضَرَبَ يَضْرِب " يعني أنَّ تخريجَه على أحدِ وجهين : إمَّا الشذوذِ فيما اتَّحد فيه فَعِل يَفْعِلُ بالكسر فيهما ، كنَعِمَ يَنْعِمُ وحَسِب يَحْسِبُ وبَئِس يَبْئِسُ ، وهي ألفاظٌ عَدَدْتُها في البقرة ، وإمَّا أنه سُمِعَ في ماضيه الفتحُ كضَرَبَ ، كما حكاه ابنُ خالَوَيْه . وحكى الزمخشري أنه قُرِئ " أَحْهَدْ " بإبدالِ العينِ حاءً ، وقد تقدَّم أنها لغةُ هُذَيْلٍ ، وهذه تُقَوِّي أنَّ أصلَ " أَحَدَ " : أَحْهَد فأُدْغِمَ كما تقدَّم .

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62)

قوله : ﴿ جِبِلاًّ ﴾ : قرأ نافعٌ وعاصمٌ بكسر الجيم والباء وتشديد اللام . وأبو عمروٍ وابن عامرٍ بضمةٍ وسكونٍ . والباقون بضمتين ، واللامُ مخففةٌ في كلتيهما . وابنُ أبي إسحاق والزهري وابن هرمز بضمتين وتشديد اللام . والأعمش / بكسرتين وتخفيفِ اللام .

والأشهب العقيلي واليماني وحمادُ بن سلمة بكسرةٍ وسكون . وهذه لغاتٌ في هذه اللفظةِ . وقد تقدَّم معناها آخرَ الشعراء . وقُرِئ " جبَلاً " بكسر الجيم وفتح الباء ، جمع جِبْلَة كفِطَر جمع فِطْرَة . وقرأ أمير المؤمنين عليٌّ " جِيْلاً " بالياء ، مِنْ أسفلَ ثنتان ، وهي واضحةٌ .

وقرأ العامة : " أفلَمْ تكونوا " خطاباً لبني آدم . وطلحة وعيسى بياءِ الغَيْبة . والضمير للجبلِّ . ومِنْ حقِّهما أن يَقْرآ ﴿ التي كانوا يُوعَدُونَ ﴾ لولا أَنْ يَعْتَذِرا بالالتفاتِ .

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65)

قوله : ﴿ اليوم نَخْتِمُ ﴾ : " اليومَ " ظرفٌ لِما بعدَه . وقُرِئ " يُخْتَمُ " مبنياً للمفعول ، والجارُّ بعدَه قائمٌ مقامَ فاعِلِه .

(139/649)

---

وقُرِئ " تَتَكَلَّمُ " بتاءَيْن مِنْ فوقُ . وقُرِئ " ولْتَتَكَلَّمْ ولْتَشْهَدْ " بلامِ الأمر . وقرأ طلحةُ " ولِتُكَلِّمَنا ولِتَشهدَ " بلامِ كي ناصبةً للفعل ، ومتعلَّقُها محذوفٌ أي : للتكلُّمِ وللشهادةِ خَتَمْنا . و " بما كانوا " أي : بالذي كانوا أو بكونِهم كاسِبين .

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66)

قوله : ﴿ فاستبقوا ﴾ : عطفٌ على " لَطَمَسْنا " وهذا على سبيل الفَرَضِ والتقديرِ .

وقرأ عيسى " فاسْتَبِقوا " أمراً ، وهو على إضمارِ القول أي : فيُقال لهم : اسْتَبَقَوا . و " الصِّراطَ " ظرفُ مكانٍ مختصٍ عند الجمهور ؛ فلذلك تَأَوَّلوا وصولَ الفعل إليه : إمَّا بأنَّه مفعولٌ به مجازاً ، جعله مسبوقاً لا مسبوقاً إليه ، وتَضَمَّنَ " اسْتَبَقُوا " معنى بادَرُوا ، وإمَّا على حَذْفِ الجارِّ أي : إلى الصِّراط . وقال الزمخشري : " منصوب على الظرف ، وهو ماشٍ على قولِ ابن الطَّراوة ؛ فإن الصراط والطريق ونحوهما ليسَتْ عنده مختصَّةً . إلاَّ أنَّ سيبويهِ : على أن قوله :

3787 لَدْنٌ بهزِّ الكفِّ يَعْسِل مَتْنُهُ . . . فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ

ضرورةٌ لنصبه الطريقَ " .

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (67)

وقرأ أبو بكر " مَكاناتِهم " جمعاً . وتقدَّم في الأنعام . والعامَّةُ على " مُضِيّاً " بضم الميم ، وهو مصدرٌ على فُعُوْل . أصلُه مُضُوْي فأُدْغِمَ وكُسِرَ ما قبل الياءِ لتصِحَّ نحو : لُقِيّا .

وقرأ أبو حيوةَ - ورُوِيَتْ عن الكسائيِّ - بكسر الميم إتباعاً لحركة العين نحو " عِتِيّاً " و " صِلِيّاً " وقُرِئ بفتحها . وهو من المصادر التي وَرَدَتْ على فَعيل كالرَّسيم والذَّميل .

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68)

قوله : ﴿ نُنَكِّسْهُ ﴾ : قرأ عاصمٌ وحمزةُ بضم النون الأُولى وفتحِ الثانيةِ وكسرِ الكافِ مشددةً مِنْ نَكَّسَه مبالغةً . والباقون بفتح الأولى وتسكين الثانيةِ وضمِّ الكافِ خفيفةً ، مِنْ نَكَسَه ، وهي محتملةٌ للمبالغة وعدَمِها . وقد تقدَّمَ في الأنعام أنَّ نافعاً وابنَ ذكوان قرآ " تَعْقِلون " بالخطاب والباقون بالغيبة .

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69)

قوله : ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ : أي : إن القرآن . دَلَّ عليه السِّياق أو إن العِلْمُ إلاَّ ذكرٌ ، يَدُلُّ عليه : " وما عَلَّمْناه " والضمير في " له " للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم . وقيل : للقرآن .

لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70)

قوله : ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ : قرأ نافع وابن عامر هنا ، في الأحقاف " لتنذرَ " خطاباً . والباقون بالغيبة بخلاف عن البزي في الأحقاف : والغيبة تحتمل أن يكون الضمير فيها للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم . وأن تكونَ للقرآن . وقرأ الجحدري واليماني " لِيُنْذَرَ " مبنياً للمفعول . وأبو السَّمَّال واليمانيُّ أيضاً " لِيَنْذَرَ " بفتحِ الياءِ والذال ، مِنْ نَذِر بكسر الدال أي : عَلِمَ ، فتكون " مَنْ " فاعلاً .

وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72)

قوله: ﴿ رَكُوبُهُمْ ﴾: أي: مَرْكوبهم كالحَلُوب والحَصُور بمعنى المَفْعول وهو لا ينقاسُ. وقرأ أُبَيٌّ وعائشة "رَكوبَتُهم" بالتاء. وقد عَدَّ بعضُهم دخولَ التاءِ على هذه الزِّنَةِ شاذاً، وجعلهما الزمخشري: في قولِ بعضِهم جمعاً يعني اسمَ جمع، وإلاَّ فلم يَرِدْ في أبنيةِ التكسير هذه الزِّنَة. وقد عَدَّ ابنُ مالك أيضاً أبنيةَ أسماءِ الجموع، فلم يذكُرْ فيها فَعُولة. والحسن وأبو البرهسم والأعمش "رُكوبُهم" بضم الراء، ولا بدَّ من حذف مضاف: إمَّا من الأولِ، أي: فمِنْ منافعها رُكوبُهم، وإمَّا من الثاني، أي: ذو ركوبهم. قال ابن خالويه: "العربُ تقول: ناقةٌ رَكُوْبٌ ورَكُوْبَةٌ، وحَلوب وحَلوُبَة، ورَكْباةٌ حَلْباةٌ، ورَكَبُوْتٌ حَلَبُوْت، ورَكَبى حَلَبى، ورَكَبُوْتا حَلَبُوْتا [ورَكْبانَةٌ حَلْبانَةٌ]" وأنشد:

3788 رَكْبانَةٍ حَلْبانَةٍ زَفُوْفِ... تَخْلِطُ بينَ وَبَرٍ موصُوْفِ

والمَشارِبُ: جمع مَشْرَب بالفتح مصدراً أو مكاناً. والضميرُ في "لا يَسْتَطيعون" إمَّا للآلهةِ، وإمَّا لعابديها. وكذلك/ الضمائرُ بعده. وتقدَّم قرءاةُ "يَحْزُن" و"يُحزن". وقرأ زيد بن علي "ونسي خالقَه" بزنةِ اسمِ الفاعل.

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78)

قوله : ﴿ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ : قيل : بمعنى فاعِل . وقيل : بمعنى مَفْعول ، فعلى الأولِ عَدَمُ التاءِ غيرُ مَقيسٍ . وقال الزمخشري : " الرَّميمُ اسمٌ لما بَلِيَ من العِظام غيرُ صفةٍ كالرِّمَّةِ والرُّفاتِ فلا يُقال : لِمَ لَمْ يُؤَنَّثْ وقد وقع خبراً لمؤنث ؟ ولا هو فعيل بمعنى فاعِل أو مفعول "

.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80)

(142/649)

---

قوله : ﴿ الأخضر ﴾ : هذه قراءةُ العامَّةُ . وقُرِئ " الخضراء " اعتباراً بالمعنى . وقد تقدَّم أنه يجوز تذكيرُ اسمِ الجنسِ وتأنيثه . قال تعالى : ﴿ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [ القمر : 20 ] و ﴿ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [ الحاقة : 7 ] وقد تقدَّم أنَّ بني تميمٍ ونجداً يُذَكِّرونه ، والحجازَ يؤنِّثونه إلاَّ ألفاظاً اسْتُثْنِيَتْ .

أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81)

قوله : ﴿ بِقَادِرٍ ﴾ : هذه قراءةُ العامَّةِ ، دخلتِ الباءُ زائدةً على اسم الفاعل . والجحدريُّ وابن أبي إسحاق والأعرج " يَقْدِرُ " فعلاً مضارعاً . والضميرُ في " مِثْلهم " قيل

: عائدٌ على الناسِ ؛ لأنهم هم المخاطبونَ . وقيل : على السماواتِ والأرض لتضمُّنِهم مَنْ يَعْقِلُ . و "بَلَى" جوابٌ ل "ليس" وإنْ دَخل عليها الاستفهامُ المصيِّرُ لها إيجاباً . والعامَّة على "الخَلاَّق" صيغةَ مبالغةٍ . والجحدري والحسن ومالك بن دينار "الخالق" اسمَ فاعِل . وتقدَّم الخلافُ في "فيكون" نصباً ورفعاً وتوجيهُ ذلك في البقرة .

فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)

وقرأ طلحة والأعمش "مَلَكَة" بزنةِ شجرَة . وقُرِئ "مَمْلَكَةُ" بزنة مَفْعَلة وقُرِئ "ملك" . والمَلَكُوْتُ أبلغُ الجميع . والعامَّةُ على "تُرْجَعون" مبنياً للمفعول وزيدُ بن علي مبنيٌّ للفاعلِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 9 صـ 273 . 287﴾

(143/649)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) ﴾

﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونَ ﴾ يَخْلقه وقدرته . وأخبرنا أنه تعلَّق بالمكوّن كلمتُه على ما يجب في صفته ، وسيَّان عنده خَلْقُ الكثيرِ في كثرته والقليلِ في قِلَّته .

فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)

أي بقدرته ظهورُ كلِّ شيء : فلا يحدث شيء – قَلَّ أو كَثُرَ – إلا بإبداعه وإنشائه ، ولا يبقى منها شيءٌ إلا بإبقائه ، فمنه ظهور ما يُحْدِث ، وإليه مصير ما يخلق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 226 ﴾

*(144/649)*

---

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

ثم يقول للكفار والمنافقين بعدما امتازوا : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ ﴾

يعني : ألم أتقدم إليكم .

ويقال : ألم أبيّن لكم في القرآن .

ويقال : ألم أوضح لكم ﴿ تَتَّقُونَ وَإِذْ أَخَذَ ﴾ بالكتاب والرسل .

وقال القتبي : العهد يكون لمعان ، يكون للأمانة كقوله : ﴿ إِلَّا الذين عاهدتم مِّنَ المشركين ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يظاهروا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فأتموا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ الله يُحِبُّ المتقين ﴾ [ التوبة : 4 ] ويكون لليقين ، ويكون للميثاق ، ويكون للزمان .

كما يقال : كان ذلك في عهد فلان أي : في زمانه .

ويكون العهد للوصية ، كقوله : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبَنِى أَن لَّا تَعْبُدُواْ الشيطان ﴾ يعني : أن لا تطيعوا الشيطان .

قال ابن عباس : من أطاع شيئاً فقد عبده ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ يعني : بيّن العداوة ﴿ وَأَنِ اعبدونى هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ يعني : أطيعوني ، ووحدوني .

يعني : هذا التوحيد طريق مستقيم .

ويقال : دين الإسلام هو طريق مستقيم لا عوج فيه ، وهو طريق الجنة .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جبلاًّ كَثِيراً ﴾ يعني : خلقاً كثيراً .

وقرأ نافع وعاصم ﴿ جبلاًّ ﴾ بكسر الجيم ، والباء ، والتشديد .

وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ جبلاًّ ﴾ بضم الجيم ، وجزم الباء .

والباقون : بضم الجيم والباء .

ومعنى ذلك كله واحد .

وقال أهل اللغة : الجبل ، والجبلة كله بمعنى واحد يعني : الناس الكثير ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾ ما فعل بمن كان قبلكم ، فتعتبروا فلم تطيعوه ، فلما دنوا من النار قال لهم خزنتها ﴿ هذه جَهَنَّمُ التى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا فلم تصدقوا بها ﴿ اصلوها اليوم بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ يعني : اصلوها اليوم بما كفرتم في الدنيا عقوبة لكم في الدنيا ﴿ اليوم نَخْتِمُ على أفواههم ﴾ وذلك حين قالوا : ﴿ والله رَبّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ وَتُكَلّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ يعني : يعملون من الشرك والمعاصي .

ثم قال : ﴿ وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا على أَعْيُنِهِمْ ﴾ قال مقاتل يعني : لو نشاء لحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ يعني : ولو طمست الكفر ، لاستبقوا الصراط ، أي : لجازوا الطريق ﴿ فأنى يُبْصِرُونَ ﴾ يعني : فمن أين يبصرون الهدى بعد ما جعلت قلوبهم قاسية ، وجعلت على أعمالهم غطاء ، وَأَكِنَّةً على قلوبهم .

قال الكلبي : ﴿ وَلَوْ نَشَاء ﴾ لفقأنا أعين الضلالة ، فأبصروا الهدى ، واستبقوا الطريق فَأَنَّى يُبْصِرُونَ الطريق .

ويقال : فأنى يبصرون .

الهدى وقال بعضهم : ولو نشاء لأعمينا أبصارهم في أسواقهم ، ومجالسهم ، كما فعلنا بقوم لوط عليه السلام حين كذبوه وراودوه عن ضيفه ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ يعني : فابتدروا الطريق هرباً إلى منازلهم ، ولو فعلنا ذلك بهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لمسخناهم على مكانتهم ﴾ يعني : إن شئت لمسختهم حجارة في منازلهم ليس فيها أرواح ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ ولا يتقدمون ، ولا يتأخرون .

وهذا قول مقاتل .

وقال الكلبي : لو نشاء لجعلناهم قردة وخنازير ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا ﴾ يعني : فما قدروا ذهاباً ، ولا يرجعون .

(146/649)

---

قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ ﴾ يعني : من أطلنا عمره في الدنيا ﴿ نُنَكِّسْهُ فِي الخلق ﴾ يعني : نرده إلى أرذل العمر ، فلا يعقل فيه كعقله الأول .

قرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ نُنَكِّسْهُ ﴾ بضم النون الأولى ، ونصب الثانية ، وكسر الكاف مع التشديد .

وقرأ الباقون : ﴿ نُنَكِّسْهُ ﴾ بنصب النون الأولى ، وجزم الثانية ، وضم الكاف ، والتخفيف ، ومعناهما واحد .

يقال : نكسه ونكّسه وأنكسه بمعنى واحد .

ومعناه: من أطلنا عمره، نكسنا خلقه.

فصار بدل القوة ضعفاً.

وبدل الشباب هرماً.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر مكاناتهم وقرأ الباقون ﴿ مكانتهم ﴾ والمكانة والمكان واحد.

مثل المنزل والمنزلة والمكانات جمع المكانة.

ثم قال: ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ يعني: أفلا تفهمون أن الله هو الذي يفعل ذلك، فتوحدوه، وليس لمعبودهم قدرة على ذلك.

قرأ نافع، وابن عامر، وأبو عمرو: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء، على معنى المخاطبة.

وقرأ الباقون بالياء على معنى الخبر.

وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة: ﴿ وَأَنِ اعبدونى ﴾ بالياء.

وقرأ الباقون: بغير ياء.

لأن الكسر يدل عليه.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَمَا علمناه الشعر ﴾ جواباً لقولهم إنه شاعر يعني: أرسلنا إليه القرآن، ولم نرسل إليه الشعر ﴿ وَمَا يَنبَغِى لَهُ ﴾ يعني: لم يكن أهلاً لذلك.

وقال: ما يسهل له، وما يحضره الشعر ﴿ وَمَا علمناه الشعر وَمَا يَنبَغِى لَهُ ﴾ يعني: ما هو

إلا عظة ﴿ الرَتلكَ ﴾ يعني : يبين الحق من الضلالة .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة أنه قال : سألت عائشة رضي الله عنها هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت كان أبغض الحديث إليه الشعر ، ولم يتمثل بشيء من الشعر ، إلا ببيت أخي بني قيس بن طرفة

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلا .

. . وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ



فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ ، مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ بِالأَخْبَارِ " .

فقال أبو بكر : ليس هكذا يا رسول الله .

فقال : " لَسْتُ بِشَاعِرٍ وَلا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَتَكَلَّمَ بِالشِّعْرِ " .

فإن قيل : روي عنه أنه كان يتكلم بالشعر لأنه ذكر أنه قال

أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِب .

. . أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ

وذكر أنه عثر يوماً فدميت أصبعه فقال

هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيت .

. . وفِي كِتَاب ِاللهِ مَا لَقِيت

وذكر أنه قال يوم الخندق

بِسْمِ الإله وبِهِ هُدِينَار .

. . ولَوْ عَبَدْنَا غَيْرَهُ شقِينَا

قيل له : هذه كلمات تكلم بها فصارت موافقة للشعر ، وليست بشعر .

ثم قال عز وجل : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ يعني : من كان مؤمناً ، لأن المؤمن هو الذي يقبل الإنذار .

ويقال : ﴿ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ يعني : عاقلاً راغباً في الطاعة .

قرأ نافع وابن عامر : ﴿ لّتُنذِرَ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة .

يقول : لتنذر يا محمد .

وقرأ الباقون : بالياء على معنى الخبر عنه .

يعني : لتنذر يا محمد .

ويقال : يعني : لتنذر بالقرآن من كان مهتدياً في علم الله تعالى الأزلي ﴿ وَيَحِقَّ القول ﴾ يعني : وجب العذاب ﴿ عَلَى الكافرين ﴾ يعني : قوله : ﴿ قَالَ اخرج مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ الأعراف : 18 ] ثم وعظهم ليعتبروا .

فقال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم ﴾ يعني : أولم ينظروا فيعتبروا فيما أنعم الله عز وجل عليهم .

قوله : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أنعاما ﴾ يعني : أنا خلقنا لهم بقوتنا ، وبقدرتنا ، وبأمرنا ، ﴿ أنعاما ﴾ يعني : الإبل ، والبقر ، والغنم ، ﴿ فَهُمْ لَهَا مالكون ﴾ يعني : الأنعام .

(148/649)

---

وقال قتادة : يعني : ما في بطونها ﴿ وذللناها لَهُمْ ﴾ يعني : سخرناها لهم ، فيحملون عليها ، ويسوقونها حيث شاؤوا ، فلا تمتنع منهم ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ في انتفاعهم وحوائجهم ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلونَ ﴾ من الإبل ، والبقر ، والغنم ، ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا ﴾ يعني : في الأنعام ﴿ منافع ﴾ في الركوب ، والحمل ، والصوف ، والوبر ، ﴿ ومشارب ﴾ يعني : ألبانها ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ رب هذه النعمة ، فيوحدونه .

يعني : اشكروا ، ووحدوا ، ﴿ واتخذوا مِن دُونِ الله ءالِهَةً ﴾ يعني : تركوا عبادة رب هذه النعم ، وعبدوا الآلهة ﴿ لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ يعني : لعل هذه الآلهة تمنعهم من العذاب في ظنهم .

يقول الله عز وجل : ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يعني : منعهم من العذاب ﴿ وَهُمْ لَهُمْ

جُندٌ مُّحۡضَرُونَ ﴾ يعني: الكفار للأصنام جند يتعصبون لها، ويحضرونها في الدنيا للآلهة.

ويقال: ﴿ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٌ مُّحۡضَرُونَ ﴾ يعني: لآلهتهم كالعبيد، والخدم.

قيام بين أيديهم.

وقال الحسن: ﴿ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٌ ﴾ في الدنيا ﴿ مُحۡضَرُونَ ﴾ في النار.

ثم قال عز وجل: ﴿ فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ ﴾ يعني: لا يحزنك يا محمد تكذيبهم إياك ﴿ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ من التكذيب ﴿ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾ يعني: ما يظهرون لك من العداوة.

قوله عز وجل: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ الإنسان أَنَّا خلقناه مِن نُّطۡفَةٍ ﴾ روى سفيان، عن الكلبي، عن مجاهد قال: أتى أبيّ بن خلف الجمحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم بالي، قد أتى عليه حين، فقام ففته بيده، ثم قال: يا محمد أتعدنا أنا إذا متنا وكنا مثل هذا بعثنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ الإنسان ﴾ الآية.



---

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم القرون الماضية أنهم يبعثون بعد الموت، وأنكم يا أهل مكة معهم، فأخذ أبيّ بن خلف

الجمحي عظماً بالياً ، فجعل يفته بيده ، ويذروه في الرياح ، ويقول : عجباً يا أهل مكة إن محمداً يزعم أنا إذا متنا ، وكنا عظاماً بالية مثل هذا العظم ، وكنا تراباً ، أنا نعاد خلقاً جديداً ، وفينا الروح ، وذلك ما لا يكون أبداً ، فنزل ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خلقناه مِن نُّطْفَةٍ ﴾ يعني : أولم يعلم هذا الكافر أنا خلقناه أول مرة من نطفة ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ جدل بالباطل .

ويقال ﴿ خَصِيمٌ ﴾ بيِّن الخصومة فيما يخاصم ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي : بيّن ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً ﴾ يعني : وصف لنا شبهاً في أمر العظام .

ويقال : وصف لنا بالعجز ﴿ وَنَسِىَ خَلْقَهُ ﴾ يعني : وترك ابتداءه حين خلقه من نطفة .

ويقال : ترك النظر في خلق نفسه فلم يعتبر و ﴿ قَالَ مَن يُحىِ العظام وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ يعني : بالية .

والرميم : العظم البالي .

يقال : رمّ العظم إذا بلي .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ يعني : قل يا محمد يحيي العظام الذي خلقها أول مرة يعني : في أول مرة ولم يكن شيئاً .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ يعني : ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بخلقهم ، وبعثهم .

ثم أخبر عن صنعه ليعتبروا في البعث فقال : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُم ﴾ يعني : قل يا محمد

العظام يحييها ﴿ الذى جعل لكم ﴾ ﴿ مّنَ الشجر الاخضر نارا فَإِذَا أَنتُم مّنْه تُوقِدُونَ ﴾ قال الكلبي : كل شجرة يقدح منها النار إلا شجرة العناب ، فمن ذلك القصارون يدقون عليه ﴿ فَإِذَا أَنتُم مّنْه تُوقِدُونَ ﴾ يعني : تقدحون .

يعني : فهو الذي يقدر على أن يبعثكم .

*(150/649)*

---

ثم قال عز وجل : ﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ وهي أعظم خلقاً ﴿ بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ في الآخرة .

والكلام يخرج على لفظ الاستفهام .

ويراد به التقرير .

ثم قال : ﴿ بلى ﴾ هو قادر على ذلك ﴿ وَهُوَ الخلاق العليم ﴾ يعني : الباعث ﴿ العليم ﴾ ببعثهم .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً ﴾ من أمر البعث وغيره ﴿ أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ خلقاً .

قرأ ابن عامر والكسائي : ﴿ فَيَكُونُ ﴾ بالنصب ، وقد ذكرناه في سورة البقرة ﴿

فسبحان الذى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ يعني : خلق كل شيء من البعث وغيره .

ويقال : خزائن كل شيء .

ويقال : له القدرة على كل شيء ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بعد الموت ، فيجازيكم بأعمالكم .

قال : حدّثنا الفقيه أبو الليث رحمه الله .

قال : حدّثنا أبو الحسن أحمد بن حمدان ، بإسناده عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْباً ، وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يس ، فَمَنْ قَرَأَ يس يُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللهِ تَعَالَى غُفِرَ لَهُ ، وَأُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ كَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً .

وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ قُرِئَتْ عِنْدَهُ سُورَةُ يس حِينَ يَنْزِلُ بِهِ مَلَكُ الْمَوْتِ يَنْزِلُ إِلَيْهِ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهَا عَشَرَةُ أَمْلاكٍ يَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفاً ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ ، وَيَشْهَدُونَ قَبْضَهُ ، وَيَشْهَدُونَ غَسْلَهُ ، وَيُشَيِّعُونَ جَنَازَتَهُ ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ ، وَيَشْهَدُونَ دَفْنَهُ .



---

وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ مَرِيضٍ قُرِىءَ عِنْدَهُ سُورَةُ يس وَهُوَ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ ، لا يَقْبِضُ مَلَكَ الْمَوْتِ رُوحَهُ حَتَّى يَجِيءَ رِضْوَانُ خَازِنُ الْجَنَّةِ بِشُرْبَةٍ مِنْ شَرَابِ الْجَنَّةِ فَيَشْرَبُهَا وَهُوَ عَلَى فِرَاشِهِ ، فَيَقْبِضُ مَلَكُ الْمَوْتِ رُوحَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ وَهُوَ رَيَّانٌ ، وَيَدْخُلَ قَبْرَهُ وَهُوَ رَيَّانٌ ،

وَيَمْكُثُ فِي قَبْرِهِ وَهُوَ رَيَّان ، وَيُخْرَجُ مِنَ الْقَبْرِ وَهُوَ رَيَّانُ ، وَيُحَاسَبُ وَهُوَ رَيَّان ، وَلا يَحْتَاجُ إِلَى حَوْضٍ مِنْ حِيَاضِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ حَتَّى يُدْخُلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ رَيَّان " وَالله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأوّاب وعلى آله وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 122. 127 ﴾

*(152/649)*

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولقد أَضَلّ منكم جبلاًّ كثيراً ﴾

فيه ثلاثة أوجه : أحدها : جموعاً كثيرة ، قاله قتادة .

الثاني : أمماً كثيرة ، قاله الكلبي .

الثالث : خلقاً كثيراً ، قاله مجاهد ومطرف . وحكى الضحاك أن الجِبِلّ الواحد عشرة آلاف ، والكثير ما لا يحصيه إلاّ الله تعالى .

قوله عز وجل : ﴿ اليوم نختم على أفواههم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن يكون منعها من الكلام هو الختم عليها .

الثاني : أن يكون ختماً يوضع عليها فيرى ويمنع من الكلام .

وفي سبب الختم أربعة أوجه :

أحدها : لأنهم قالوا ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فختم الله تعالى على أفواههم حتى نطقت جوارحهم ، قاله أبو موسى الأشعري .

الثاني : لِيَعرفهم أهل الموقف فيتميزون منهم ، قاله ابن زياد .

الثالث : لأن إقرار غير الناطق أبلغ في الإلزام من إقرار الناطق لخروجه مخرج الإعجاز وإن كان يوماً لا يحتاج فيه إلى الإعجاز .

الرابع : ليعلم أن أعضاءه التي كانت لهم أعواناً في حق نفسه صارت عليه شهوداً في حق ربه .

﴿ وتُكَلِّمنا أيديهم وتشهدُ أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ وفي كلامها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه يظهر منها سِمة تقوم [ مقام ] كلامها كما قال الشاعر :

وقد قالت العينان سمعاً وطاعة . . . وحَدَّرنا كالدر لما يُثَقَّبِ

الثاني : أن الموكلين بها يشهدون عليها .

الثالث : أن الله تعالى يخلق فيها ما يتهيأ معه الكلام منها . روى الشعبي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقال لأركانه انطقي فتنطق بعمله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بُعداً لكنَّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل " . فإن قيل فلم قال ﴿ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ﴾ فجعل ما كان من اليد . كلاماً ، وما كان من الرجل شهادة ؟

قيل لأن اليد مباشرة لعمله والرجل حاضرة ، وقول الحاضر على غيره شهادة ، وقول الفاعل على نفسه إقرار ، فلذلك عبّر عما صدر من الأيدي بالقول ، وعما صدر من الأرجل بالشهادة. وقد روى شريح بن عبيد عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل اليسرى

" . فاحتمل أن يكون تقدم الفخذ بالكلام على سائر الأعضاء لأن لذة معاصيه يدركها بحواسه التي في الشطر الأعلى من جسده ، وأقرب أعضاء الشطر الأسفل منها الفخذ ، فجاز لقربه منها أن يتقدم في الشهادة عليها ، وتقدمت اليسرى لأن الشهوة في ميامن الأعضاء أقوى منها في مياسرها ، فلذلك تقدمت اليسرى على اليمنى لقلة شهوتها .

قوله عز وجل : ﴿ ولو نشاءُ لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصِّراطَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لأعمينا أبصار المشركين في الدنيا فضلوا عن الطريق فلا يبصرون عقوبة لهم ، قاله قتادة .

الثاني : لأعمينا قلوبهم فضلوا عن الحق فلم يهتدوا إليه ، قاله ابن عباس .

قال الأخفش وابن قتيبة : المطموس هو الذي لا يكون بين جفنيه شق مأخوذ من طمس الريح الأثر .

﴿ ولو نشاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ ﴾ فيه ثلاث تأويلات :

أحدها : لأقعدناهم على أرجلهم ، قاله الحسن وقتادة .

الثاني : لأهلكناهم في مساكنهم ، قاله ابن عباس .

الثالث : لغيّرنا خلْقهم فلا ينقلبون ، قاله السدي .

﴿ فما استطاعوا مُضِيّاً ولا يرجعون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فما استطاعوا لو فعلنا ذلك بهم أن يتقدموا ولا يتأخروا ، قاله قتادة .

الثاني : فما استطاعوا مُضِيّاً في الدنيا ، ولا رجوعاً فيها ، قاله أبو صالح .

قوله عز وجل : ﴿ ومَن نعمِّره ننكِّسهُ في الخَلْق ﴾ في قوله ﴿ نعمره ﴾ قولان :

أحدهما : بلوغ ثمانين سنة ، قاله سفيان .

الثاني : هو الهرم ، قاله قتادة . وفي قوله تعالى ﴿ ننكِّسْه ﴾ تأويلان :

أحدهما : نردُّه في الضعف إلى حال الضعف فلا يعلم شيئاً ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : نغير سمعه وبصره وقوته ، قاله قتادة .

و﴿ في الخلق ﴾ وجهان :

أحدهما : جميع الخلق ويكون معناه : ومن عمرناه من الخلق نكسناه في الخلق .

والوجه الثاني : أنه عنى خلقه ، ويكون معنى الكلام : من أطلنا عمره نكسنا خلقه ، فصار مكان القوة الضعف ، ومكان الشباب الهرم ، ومكان الزيادة النقصان .

﴿ أفلا تعقلون ﴾ أن من فعل هذا بكم قادر على بعثكم .

قوله عز وجل : ﴿ وما علّمْناه الشِّعر وما ينبغي له ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أي ليس الذي علمناه من القرآن شعراً .

الثاني : أي لم نعلم رسولنا أن يقول الشعر .

﴿ وما ينبغي له ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : وما ينبغي له أن يقول شعراً .

الثاني : وما ينبغي لنا أن نعلمه شعراً .

﴿ إنْ هو لا ذكر وقرآن مُبين ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : إنْ علّمناه إلا ذكراً وقرآناً مبيناً .

الثاني : إنْ هذا الذي يتلوه عليكم إلا ذكر وقرآن مبين .

قوله عز وجل : ﴿ لينذر من كان حَيّاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لتنذر يا محمد من كان حياً ، وهذا تأويل من قرأ بالتاء .

الثاني : لينذر القرآن من كان حياً ، وهو تأويل من قرأ بالياء .

وفي ﴿ مَن كان حَيّاً ﴾ ها هنا أربعة تأويلات :

أحدها : من كان غافلاً ، قاله الضحاك .

الثاني : من كان حي القلب حي البصر ، قاله قتادة .

الثالث : من كان مؤمناً ، قاله يحيى بن سلام .

الرابع : من كان مهتدياً ، قاله السدي .

﴿ ويحِقَّ القَوْل على الكافرين ﴾ معناه : ويجب العذاب على الكافرين .

قوله عز جل : ﴿ أو لم يروا أنَا خلقنا لهم مما عَمِلتْ أيدينا أنعاماً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما يعني بقوتنا : قاله الحسن كقوله تعالى ﴿ والسماء بنيناها بأيد ﴾ [ الذاريات : 47 ] أي بقوة .

الثاني : يعني من فعلنا وعملنا من غير أن نكله إلى غيرنا ، قاله السدي . والأنعام : الإبل والبقر والغنم .

﴿ فهم لها مالكون ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ضابطون ، قاله قتادة ، ومنه قول الشاعر :

أصبحت لا أحمل السِّلاح ولا . . . أملِك رأس البعير إن نَفَرا

الثاني : مطبقون رواه معمر .

الثالث : مقتنون وهو معنى قول ابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ وذللناها لهم ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : وطيبناها لهم ؛ قاله ابن عيسى .

الثاني : سخرناها لهم ، قاله ابن زيد .

الثالث : ملكناها لهم .

﴿ فمنها ركوبُهم ﴾ والركوب بالضم مصدر ركب يركب ركوباً ، والركوب بالفتح الدابة التي تصلح أن تركب .

﴿ ومنها يأكلون ﴾ يعني لحوم المأكول منها .

﴿ ولهم فيها منافع ﴾ قال قتادة : هي لبس أصوافها .

﴿ ومشارب ﴾ يعني شرب ألبانها ﴿ أفلا يشكرون ﴾ يعني رب هذه النعمة بتوحيده وطاعته .

قوله عز وجل : ﴿ . . . وهم لهم جندٌ محضرون ﴾ يعني أن المشركين لأوثانهم جند ،

وفي الجند ها هنا وجهان :

أحدهما : شيعة ، قاله ابن جريج .

الثاني : أعوان .

﴿ محضرون ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : محضرون عند الحساب ، قاله مجاهد .

الثاني : محضرون في النار ، قاله الحسن .

الثالث : محضرون للدفع عنهم والمنع منهم ، قاله حميد . قال قتادة : يغضبون لآلهتهم ، وآلهتهم لا تنصرهم .

قوله عز وجل : ﴿ أو لَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خلقناه مِن نطفةٍ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنها نزلت في أبيّ بن خلف الجمحي أتى النبي صلى الله عليه وسلم يجادله في بعث الموتى ، قاله عكرمة ومجاهد والسدي .

الثاني : أنها نزلت في العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتّه بيده ثم قال لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : أيحيي اللَّه هذا بعد ما أرمّ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " نعم ويميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم " فنزلت هذه الآيات فيه ، قاله ابن عباس .

﴿ فإذا هو خصيمٌ مبينٌ ﴾ أي مجادل في الخصومة مبين للحجة ، يريد بذلك أنه صار بعد

أن لم يكن شيئاً خصيماً مبيناً ، فاحتمل ذلك أمرين :

أحدهما : أن ينبهه بذلك على نعمه عليه .

(156/649)

---

الثاني : أن يدله بذلك على إحياء الموتى كما ابتدأه بعد أن لم يكن شيئاً .

قوله عز وجل : ﴿ وضَرب لنا مثلاً ونَسي خلقه ﴾ وهو من قدمنا ذكره ويحتمل وجهين :

أحدهما : أي ترك خلقه أن يستدل به .

الثاني : سها عن الاعتبار به .

﴿ قال مَن يُحْيِ العظَامَ وهي رَميمٌ ﴾ استبعاداً أن يعود خلقاً جديداً . فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبه بما فيه دليل لأولي الألباب .

﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مَرَّة ﴾ أي من قدر عل إنشائها أول مرة من غير شيءٍ فهو قادر على إعادتها في النشأة الثانية من شيء .

﴿ وهو بكل خَلقٍ عليم ﴾ أي كيف يبدىء وكيف يعيد .

قوله عز وجل : ﴿ الذي جعَل لكم مِنَ الشجر الأخضر ناراً ﴾ الآية أي الذي جعل النار المحرقة في الشجر الرطب المطفي وجمع بينهما مع ما فيهما من المضادة ، لأن النار تأكل

الحطب ، وأقدركم على استخراجها هو القادر على إعادة الموتى وجمع الرفات .

ويحتمل ذلك منه وجهين :

أحدهما : أن ينبه الله تعالى بذلك على قدرته التي لا يعجزها شيء .

الثاني : أن يدل بها على إحياء الموتى كما أحييت النار بالإذكاء .

قال الكلبي : كل الشجر يقدح منه النار إلا العناب .

وحكى أبو جعفر السمرقندي عن أحمد بن معاذ النحوي في قوله تعالى ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ﴾ يعني به إبراهيم ، ﴿ ناراً ﴾ أي نوراً يعني محمداً صلى الله عليه وسلم .

﴿ فإذا أنتم منه توقِدون ﴾ أي تقتبسون الدين .

قوله عز وجل : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : معناه أن يأمر فيوجد .

الثاني : ما قاله قتادة أنه ليس شيء أخف في الكلام من ﴿ كن ﴾ ولا أهون على لسان العرب من ذلك ، فجعله الله تعالى مثلاً لأمره في السرعة .

﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كلِّ شيءٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : خزائن كل شيء .

الثاني : ملك كل شيء إلا أن فيه مبالغة .

﴿ وإليه ترجعون ﴾ يعني يوم القيامة ، فيجازي المحسن ويعاقب المسيء .



---

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لكل شيءٍ قلْباً وإنَّ قلْبَ القرآن يس ، ومن قرأها في ليلة أعطي يُسْر تلك الليلة ، ومن قرأها في يوم أعطي يُسْرَ ذلك اليوم ، وإنّ أهل الجنة يرفع عنهم القرآن فلا يقرأون منه شيئاً إلا طه ويس " . انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾



---

وقال الثعلبى :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بني ءَادَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان ﴾

أي لا تطيعوه في معصية الله . ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعبدوني هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ ﴾ أي أغوى بالدعاء إلى المعصية ﴿ جبِلاًّ كَثِيراً ﴾ قرأ علي رضي

الله عنه ( جبلاً ) بالباء مخففاً ، وقرأ أهل المدينة وعاصم وأيوب وأبو عبيد وأبو حاتم بكسر الجيم والباء ، وتشديد اللام ، وقرأ يعقوب بضم الجيم والباء ، وتشديد اللام ، وبه قرأ الحسن وعبيد بن عمير وعيسى بن عمر والأشهب ، وقرأ ابن عامر وأبو عمرو بضم الجيم وجزم الباء مخففاً ، وقرأ الباقون : بضم الجيم والباء وتخفيف اللام ، وكلها لغات . معناه : الخلق والأُمة ، وإنما اختار أبو عبيد وأبو حاتم ضم الجيم والباء والتشديد ؛ لقوله تعالى ﴿ والجبلة الأولين ﴾ [ الشعراء : 184 ] .

﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ * هذه جَهَنَّمُ التي كُنتُمْ توعَدُونَ ﴾ تحذرون ، ﴿ اصلوها ﴾ : ادخلوها ﴿ اليوم بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * اليوم نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ ﴾ فلا يتكلمون . قال قتادة : جرى بينهم خصومات وكلام فكان هذا آخرها .

أخبرني الحسين بن محمد بن الحسين قال : حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان قال : حدّثنا أبو عامر حامد بن سعدان قال : حدّثنا أحمد بن صالح قال : حدّثنا عبد الله بن وهب قال : حدّثني عمرو بن الحرث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله ، فجحد وخاصم ، فيقال له : هؤلاء جيرانك يشهدون . فيقول : كذبوا . فيُقال : أهلك وعشيرتك . فيقول : كذبوا . فيُقال : احلفوا ، فيحلفون . ثم يصمتهم الله عز وجل ويشهد عليهم ألسنتهم ثم يدخلهم النار " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا الفربابي قال : حدّثنا هشام بن عمار قال : حدّثنا إسماعيل بن عياش قال : حدّثني ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن عقبة بن عامر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجْل الشمال " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا القطيعي قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : حدّثنا أُبي قال : حدّثنا يزيد قال : أخبرنا الحريري أبو مسعود عن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يجيئون يوم القيامة على أفواههم الفدام وإنّ أول ما يتكلم من الآدميين فخذه وكفه " .

﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فاستبقوا الصراط ﴾ : فتبادروا إلى الطريق ، ﴿ فأنى يُبْصِرُونَ ﴾ وقد طمسنا أعينهم ؟ قال ابن عباس ومقاتل وعطاء وقتادة : يعني ولو نشاء لتركناهم عمياً يترددون ، فكيف يُبصرون الطريق حينئذ ؟

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ ﴾ ، أي أقعدناهم في منازلهم قردة وخنازير ،

والمسخ تحويل الصورة ، ﴿ فَمَا استطاعوا مُضِيّاً وَلاَ يَرْجِعُونَ ﴾ إلى ما كانوا عليه ، وقيل : لا يستطيعون الذهاب ولا الرجوع .

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ ﴾ ، قرأ الأعمش وعاصم وحمزة بالتشديد . غيرهم بفتح النون وضم الكاف مخففاً . أي يرده إلى أرذل العمر شبه حال الصبي الذي هو أول الخلق ، وقيل : يصيّره بعد القوة إلى الضعف ، وبعد الزيادة إلى النقصان ، وبعد الحدة والطراوة إلى البلى والخلوقة ، فكأنه نكس حاله .

(160/649)

---

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حبيش المقرئ قال : حدّثنا أبو القاسم بن الفضل قال : حدّثنا محمد بن حميد قال : حدّثنا مهران بن أبي عمر عن سفيان : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخلق ﴾ قال : إذا بلغ ثمانين سنة تغيّر جسمه . ﴿ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ * وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ لأنه يورث الشبهة .

أخبرني ابن فنجوية قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن إسحاق قال : حدّثنا حامد بن شعيب عن شريح بن يونس قال : حدّثنا يحيى بن عبد الملك بن أبي عيينة عن أبيه عن الحكم قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بقول العباس بن مرداس : " أتجعل نهبي ونهب

العبيد بين الأقرع وعيينة " . قالوا : يا رسول الله إنما قال : بين عيينة والأقرع . فأعادها وقال : " بين الأقرع وعيينة " . فقام إليه أبو بكر رضي الله عنه فقبل رأسه وقال : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ .

وأخبرنا الحسين بن محمد الحديثي قال : حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان قال : حدّثنا يوسف بن عبد الله بن هامان قال : حدّثنا موسى بن إسماعيل قال : حدّثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بهذا البيت : "كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً " .

فقال أبو بكر : يا نبي الله ، إنما قال الشاعر :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً . . . فقال أبو بكر أو عمر : أشهد أنك رسول الله ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ .



---

أخبرني الحسين قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن إسحاق المسيبي قال : حدّثنا حامد بن شعيب قال : حدّثنا شريح بن يونس قال : حدّثنا أبو سفيان عن معمر عن قتادة : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر ﴾ قال : بلغني أنّ عائشة سُئلت هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

يتمثل بشيء من الشعر ؟ فقالت : كان الشعر أبغض الحديث إليه ، قالت : ولم يتمثل بشيء من الشعر إلاّ ببيت أخي بني قيس طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنتَ جاهلاً . . . ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

فجعل يقول : "من لم تزود بالأخبار" ، فقال أبو بكر : ليس هكذا يا رسول الله . فقال ( صلى الله عليه وآله وسلم ) : "إني لستُ بشاعر ، وما ينبغي لي" .

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ يعني القرآن ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِّيُنذِرَ ﴾ بالتاء ( وهي قراءة ) أهل المدينة والشام والبصرة إلاّ أبا عمرو ، والباقون بالياء ؛ قال : التاء للنبي صلى الله عليه وسلم والياء للقرآن . ﴿ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ أي عاقلاً مؤمناً في علم الله ؛ لأن الكافر والجاهل ميّت الفؤاد ، ﴿ وَيَحِقَّ القول عَلَى الكافرين * أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ يعني عملناه من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة ، ﴿ أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ : ضابطون وقاهرون .

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴾ : سخرناها ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ قرأ العامة بفتح الراء أي مركوبهم ، كما يُقال : ناقة حلوب ، أي محلوب ، وقرأ الأعمش والحسن : بضم الراء على المصدر .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا ابن هامان قال : حدّثنا موسى بن إسماعيل قال : حدّثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن عروة قال : في مصحف

عائشة : ( ركوبتهم ) ، والركوب والركوبة واحد مثل : الحمول والحمولة . ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ لحمانها .

(162/649)

---

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ من أصوافها ولحومها وغير ذلك من المنافع . ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ يعني ألبانها ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * واتخذوا مِن دُونِ الله آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي لتمنعهم من عذاب الله ، ولا يكون ذلك قط .

﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ في النار ؛ لأنهم مع أوثانهم في النار فلا يدفع بعضهم عن بعض النار .

﴿ فَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ يعني تكذيبهم وأذاهم وجفاهم . تم الكلام ها هنا ثم استأنف فقال ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ جدل بالباطل ﴿ مُّبِينٌ ﴾ .

واختلفوا في هذا الإنسان من هو؟ فقال ابن عباس : هو عبد الله بن أُبيّ ، وقال سعيد بن جبير : هو العاص بن وائل السهمي ، وقال الحسن : هو أُمّية بن خلف ، وقال قتادة : أُبي بن خلف الجمحي ؛ وذلك أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم حائل قد بلي فقال : يا

محمد أترى الله يُحيي هذا بعدما قد رمّ؟ فقال صلّى الله عليه وسلم : "نعم ، ويبعثك ويدخلك النار " فأنزل الله هذه الآية : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ بدء أمره ، ﴿ قَالَ مَنْ يُحيِي العظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ بالية ، وإنما لم يقل رميمة ؛ لأنه معدول من فاعله وكل ما كان معدولاً عن وجهه ووزنه كان مصروفاً عن إعرابه كقوله : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ [ مريم : 28 ] أسقط الهاء ؛ لأنها مصروفة عن باغية .

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أنشأها ﴾ : خلقها ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الذي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشجر الأخضر نَاراً ﴾ ، وإنما لم يقل الخضر ، والشجر جمع الشجرة لأنه ردّه إلى اللفظ .

(163/649)

---

قال ابن عباس : هما شجرتان يُقال لإحداهما مرخ ، والأُخرى العفار . فمن أراد منهم النار قطع منها غصنين مثل السواكين ، وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار أُنثى فتخرج منهما النار بإذن الله عز وجل .

يقول العرب : في كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار ، وقال الحكماء : كل شجر فيه نار إلاّ العناب . ﴿ فَإِذَآ أَنتُم مِّنْه تُوقِدُونَ ﴾ النار فذلك زادهم .

﴿ أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ ﴾ قرأ العامة بالألف ، وقرأ يعقوب ( بقدر ) على الفعل ﴿ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ ، ثم قال : ﴿ بلى وَهُوَ الخلاق العليم * إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً ﴾ أي وجود شيء ، ﴿ أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 137.133 ﴾

*(164/649)*

---

وقال الزمخشرى :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) ﴾

العهد : الوصية ، وعهد إليه : إذا وصاه . وعهد الله إليهم : ما ركزه فيهم من أدلة العقل وأنزل عليهم من دلائل السمع . وعبادة الشيطان : طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم .

وقرئ :

اعهد ، بكسر الهمزة . وباب «فعل» كله يجوز في حروف مضارعته الكسر «1» ، إلا في الياء .

وأعهد ، بكسر الهاء . وقد جوز الزجاج أن يكون من باب نعم ينعم وضرب يضرب .

وأحهد :

بالحاء . وأحد : وهي لغة تميم . ومنه قولهم : دحا محا «2» هذا إشارة إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمن ، إذا لا صراط أقوم منه ، ونحو التنكير فيه ما في قول كثير :

لئن كان يهدى برد أنيابها العلا لأفقر منى إنّنى لفقير «3»

أراد : إننى لفقير بليغ الفقر ، حقيق بأن أوصف به لكمال شرائطه فىّ ، وإلا لم يستقم معنى البيت ، وكذلك قوله هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ يريد : صراط بليغ في بابه ، بليغ في استقامته ، جامع لكل شرط يجب أن يكون عليه . ويجوز أن يراد : هذا بعض الصراط المستقيمة ،

---

(1) . قوله «في حروف مضارعته الكسر» لعله مضارعه . (ع)

(2) . قوله «و منه قولهم دحا محا» أى : دعها معها . (ع)

(3) دعوت إلهى دعوة ما جهلتها وربى بما تخفى الصدور بصير

لئن كان يهدى برد أنيابها العلا لأفقر منى إننى لفقير

فما أكثر الأخبار أن قد تزوجت فهل يأتينى بالطلاق بشير

لكثير عزة . وقيل : لمجنون ليلى . وقوله «ما جهلتها» معناه : أنها عن قصد وحضور قلب . وقوله : لئن كان يهدى ، بيان للدعوة ، وما بينهما اعتراض للتأكيد وإفادة أن الدعوة كانت في السر ، أى : لئن كان يعطى برد أسنانها العليا ، خصها لأنها التي تبدو كثيرا . وقيل

: العلا الشريفة ، لأحوج منى إننى لبليغ في الفقر فأنا أحق بها من كل محتاج ، لأنى أحوج الناس إليها . ويجوز أن يرد أنيابها : كناية عن ذاتها كلها ، وإننى لفقير : خبر بمعنى الإنشاء مجازا مرسلا ، لأن إظهار شدة الاحتياج يلزمه الطلب . ويجوز أنه كناية عنه وهو جواب القسم المدلول عليه باللام ، وجواب الشرط محذوف وجوبا لدلالة المذكور عليه ، وما تعجبية ، وأكثر فعل تعجب ، والأخبار مفعوله ، وأن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، وهي على تقدير حرف الجر ، أى : أتعجب من كثرة الأخبار المخبرة بزواجها ، وهل استفهام بمعنى التمني أو التعجب مجازا مرسلا لعلاقة مطلق الطلب ، أى : أتمني ذلك أو أتعجب من عدمه .



---

توبيخا لهم على العدول عنه ، والتفادى عن سلوكه ، كما يتفادى الناس عن الطريق المعوج الذي يؤدى إلى الضلالة والتهلكة ، كأنه قيل : أقل أحوال الطريق الذي هو أقوم الطرق : أن يعتقد فيه كما يعتقد في الطريق الذي لا يضل السالك ، كما يقول الرجل لولده وقد نصحه النصح البالغ الذي ليس بعده : هذا فيما أظنّ قول نافع غير ضار ، توبيخا له على الإعراض عن نصائحه .

[سورة يس (36) : الآيات 62 إلى 64]

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64)

قرئ: جبلا، بضمتين، وضمة وسكون، وضمتين وتشديدة، وكسرتين، وكسرة وسكون، وكسرتين وتشديدة. وهذه اللغات في معنى الخلق. وقرئ: جبلا، جمع جبلة، كفطر وخلق.

وفي قراءة على رضى الله عنه: جيلا واحدا، لا أجيال.

[سورة يس (36) : الآيات 65 إلى 66]

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (65) وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66)

يروى أنهم يجحدون ويخاصمون، فتشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم، فيحلفون ما كانوا مشركين، فحينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم. وفي الحديث: «1» «يقول العبد يوم القيامة: إنى لا أجيز علىّ شاهدا إلا من نفسي، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقى فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعدا لكنّ وسحقا. فعنكن كنت أناضل» «2» وقرئ: يختم على أفواههم، وتتكلم أيديهم. وقرئ: ولتكلمنا أيديهم وتشهد، بلام كى والنصب على معنى: ولذلك نختم على أفواههم:

وقرئ: ولتكلمنا أيديهم ولتشهد ، بلام الأمر والجزم على أنّ اللّه يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة.

[سورة يس (36) : آية 67]

وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ (67)

الطمس: تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ لا يخلو من أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل. والأصل: فاستبقوا إلى الصراط. أو يضمن معنى ابتدروا.

---

(1) . أخرجه مسلم والنسائي من طريق الشعبي عن أنس، ووهم الحاكم فاستدركه،

(2) . قوله «كنت أناضل» أى أجادل. (ع)

(166/649)

---

أو يجعل الصراط مسبوقا لا مسبوقا إليه. أو ينتصب على الظرف. والمعنى: أنه لو شاء لمسح أعينهم، فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المهيع «1» الذي اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم وإلى مقاصدهم المألوفة التي تردّدوا إليها كثيرا - كما كانوا يستبقون إليه ساعين في متصرفاتهم موضعين «2» في أمور دنياهم - لم يقدروا، وتعايى عليهم أن يبصروا ويعلموا جهة السلوك فضلا عن غيره.

أو لو شاء لأعماهم ، فلو أرادوا أن يمشوا مستبقين في الطريق المألوف - كما كان ذلك هجيراهم - لم يستطيعوا . أو لو شاء لأعماهم ، فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذي اعتادوا المشي فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقا ، يعنى أنهم لا يقدرون إلا على سلوك الطريق المعتاد دون ما وراءه من سائر الطرق والمسالك ، كما ترى العميان يهتدون فيما ألفوا وضروا «3» به من المقاصد دون غيرها عَلى مَكانَتِهِمْ وقرئ ، على مكاناتهم . والمكانة والمكان واحد ، كالمقامة والمقام . أى :

لمسخناهم مسخا يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه بإقبال ولا إدبار ولا مضىّ ولا رجوع واختلف في المسخ ، فعن ابن عباس : لمسخناهم قردة وخنازير . وقيل : حجارة . وعن قتادة :

لأقعدناهم على أرجلهم وأزمناهم . وقرئ : مضيا بالحركات الثلاث ، فالمضىّ والمضي كالعتىّ والعتي . والمضىّ كالصبىّ .

[سورة يس (36) : آية 68]

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ (68)

نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ نقلبه فيه فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل ، وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده ، وخلو من عقل وعلم ، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ويرتقى من درجة إلى درجة ، إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته ، ويعقل ويعلم ما له وما عليه

، فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص، حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبىّ في ضعف جسده وقلة عقله وخلوّه من العلم، كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله. قال عزّ وجلّ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً، ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ وهذه دلالة على أنّ من ينقلهم من الشباب إلى الهرم ومن القوّة إلى الضعف ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز ومن العلم إلى الجهل بعد ما نقلهم خلاف هذا النقل وعكسه - قادر على أن يطمس على

---

(1). قوله «إلى الطريق المهيع» الهيوع: الجبن، والهيعة: الذوبان والسيلان وكل ما أفزعك من صوت، كذا في الصحاح. ولعل المراد الذي سهله كثرة سلوكه. (ع)

(2). قوله «موضعين» في الصحاح: وضع البعير وغيره: أسرع من سيره وأوضعه راكبه. (ع)

(3). قوله «وضروا به» أى: مرنوا. (ع)



---

أعينهم ويمسخهم على مكانتهم ويفعل بهم ما شاء وأراد: وقرئ بكسر الكاف «1».

وننكسه وننكسه، من التنكيس والإنكاس أَفَلا يَعْقِلُونَ بالياء والتاء.

[سورة يس (36) : الآيات 69 إلى 70]

وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (70)

كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: شاعر، وروى أنّ القائل: عقبة بن أبى معيط، فقيل وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ أى: وما علمناه بتعليم القرآن الشعر، على معنى: أن القرآن ليس بشعر وما هو من الشعر في شيء. وأين هو عن الشعر، والشعر إنما هو كلام موزون مقفى، يدل على معنى، فأين الوزن؟ وأين التقفية؟ وأين المعاني التي ينتحيها الشعراء عن معانيه؟ وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه؟ فإذا لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت، اللهمّ إلا أنّ هذا لفظه عربى، كما أنّ ذاك كذلك وَما يَنْبَغِي لَهُ وما يصح له ولا يتطلب لو طلبه، أى: جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ولم يتسهل، كما جعلناه أمّيا لا يتهدّى للخط ولا يحسنه، لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض. وعن الخليل: كان الشعر أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام، ولكن كان لا يتأتى له. فإن قلت: فقوله:

أنا النّبي لا كذب أنا ابن عبد المطّلب «2»

وقوله: «3»

هل أنت إلّا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت «4»

---

(1) . قوله «و قرئ بكسر الكاف» يفيد أن القراءة المشهورة بضم الكاف ، وهما من النكس . (ع)

(2) . متفق عليه من حديث البراء بن عازب في حديث .

(3) . متفق عليه من حديث جندب بن سفيان في حديث . [ . . . . . ]

(4) هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل اللّه ما لقيت

يا نفس لا تقنطى بموتى هذى حياض الموت قد صليت

وما تمنيت فقد لقيت إن تفعلي فعلهما هديت

لعبد اللّه بن رواحة حين حمل اللواء بعد قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب فأصيبت أصبعه في الحرب فدميت وروى البخاري عن جندب أنه قال : بينما النبي صلى اللّه عليه وسلم يمشى إذ أصابه حجر ، فعثر ، فدميت أصبعه فقال «هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل اللّه ما لقيت» فأفاد أنه صلى اللّه عليه وسلم يتمثل بشعر غيره ، وهو بكسر التاء على وفق القافية ، وقال الكرماني : التاء في الرجز مكسورة ، وفي الحديث ساكنة . وقال عياض غفل بعض الناس فروى : دميت : ولقيت ، بغير مد وخالف الرواية . وروى أحمد والطيالسي أنه صلى اللّه عليه وسلم قاله حين كان خارجا إلى الصلاة ، ودميت : صفة أصبع ، والمعنى : لم يحصل لك شيء من الأذى إلا أنك دميت ولم يكن ذلك هدرا بل كان في سبيل اللّه ومرضاته لا غير ، أى : الذي لقيته من الأذى في سبيل اللّه ، فلا تحزني ، ونزلها

منزلة العاقل فخاطبها بذلك تسلية وتثبيتا لها ، وهو في الحقيقة لنفسه «ثم صرح بخطاب النفس مثبتا لها . بقوله إن لم تقتلي في الحرب فلا بد لك من الموت وهذه حياضه فلا تفرى منها لأن الوقوع في البلاء أهون من انتظاره وشبه الموت بسيل على سبيل المكنية ، فأثبت له الحياض تخييلا ، وشبهه بالنار كذلك ، فأثبت له الصلى وهو اقتحام النار ، ولا مانع من تشبيه الشيء بأمرين مختفين مع الرمز لكل منهما بما يلائمه ، ويجوز استعارة الحياض للمعرفة تصريحا ، والذي تمنيته من الحرب المؤدى إلى الشهادة فقد لقيته ، إن تفعلي كفعل زيد وجعفر ، هديت إلى طريق الخير .

(168/649)

---

قلت : ما هو إلا كلام من جنس كلامه الذي كان يرمى به على السليقة ، من غير صنعة ولا تكلف ، إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه إليه إن جاء موزونا ، كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة لا يسميها أحد شعرا ولا يخطر ببال المتكلم ولا السامع أنها شعر ، وإذا فتشت في كل كلام عن نحو ذلك وجدت الواقع في أوزان البحور غير عزيز ، على أن الخليل ما كان يعدّ المشطور من الرجز شعرا ، ولما نفى أن يكون القرآن من جنس الشعر قال إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ يعنى

: ما هو إلا ذكر من اللّه تعالى يوعظ به الإنس والجنّ ، كما قال إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ وما هو إلا قرآن كتاب سماوي ، يقرأ في المحاريب ، ويتلى في المتعبدات ، وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين ، فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين ؟ لِيُنْذِرَ القرآن أو الرسول وقرئ : لتنذر ، بالتاء . ولينذر : من نذر به إذا علمه مَنْ كانَ حَيًّا أى عاقلا متأملا ، لأن الغافل كالميت . أو معلوما منه أنه يؤمن فيحيا بالإيمان وَيَحِقَّ الْقَوْلُ وتجب كلمة العذاب عَلَى الْكافِرِينَ الذين لا يتأمّلون ولا يتوقع منهم الإيمان .

[سورة يس (36) : الآيات 71 إلى 73]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (71) وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (73)

مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا مما تولينا نحن إحداثه ولم يقدر على توليه غيرنا ، وإنما قال ذلك لبدائع الفطرة والحكمة فيها ، التي لا يصح أن يقدر عليها إلا هو . وعمل الأيدى : استعارة من عمل من يعملون بالأيدى فَهُمْ لَها مالِكُونَ أى خلقناها لأجلهم فملكناها إياهم ، فهم متصرفون فيها تصرف الملاك ، مختصون بالانتفاع فيها لا يزاحمون . أو فهم لها ضابطون قاهرون ، من قوله :

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا «1»

أى لا أضبطه ، وهو من جملة النعم الظاهرة ، وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذليله وتسخيره لها ، كما قال القائل :

يصرفه الصّبى بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير

وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غير لديه ولا نكير «2»

ولهذا ألزم اللّه سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة ويسبح بقوله : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وقرئ : ركوبهم . وركوبتهم . وهما ما يركب ، كالحلوب والحلوبة . وقيل :

الركوبة جمع . وقرئ : ركوبهم ، أى ذو ركوبهم . أو فمن منافعها ركوبهم مَنافِعُ من الجلود والأوبار والأصواف وغير ذلك وَمَشارِبُ من اللبن ، ذكرها مجملة ، وقد فصلها في قوله تعالى وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً . . . الآية والمشارب : جمع مشرب وهو موضع الشرب ، أو الشرب

[سورة يس (36) : الآيات 74 إلى 76]

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75) فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (76)

(1) أصبح متى الشباب مبتكرا إن ينأ عنى فقد ثوى عصرا

فارقنا قبل أن نفارقه لما قضى من جماعنا وطرا

أصبحت لا أملك السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا

والذئب أخشاه إن مررت به وحدي وأخشى الرياح والمطرا

للربيع بن منيع، قاله حين بلغ مائة وأربعين عاما، عاش بعده مائة وستين. والمبتكر: المسافر أول النهار، فهو تشبيه بليغ، ثم تسلى بقوله: إن ينأ، أى بعد عنى فقد أقام عندي أزمنة طويلة فارقنا، أي: ذهب عنا قبل أن نموت، فقوله «نفارقه» مجاز عن ذلك، أو كناية عنه، أو مجاز عن البغض، والجماع: معناه الاجتماع والمصاحبة، والوطر: الحاجة، وهذا كله ترشيح للتشبيه أول الكلام، ولا يخفى ما في البيت من إيهام ما كان ينبغي الاحتراس منه، فان قضاء الوطر من الجماع اشتهر استعماله في مقام الوطء، ثم قال: صرت لا أضبط السلاح بيدي ولا رأس البعير إن ندمنى ولا أقدر عليهما. ويروى: لا أحمل السلاح، أي: لا أقدر على حمله، وأخشاه: أى أخافه، إن مررت به وحدي وأخاف الرياح والمطر ولو مع غيرى، وكل هذا كناية عن بلوغه غاية الضعف والهرم.

(2) لقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير

يصرفه الصبى بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير

وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غير لديه ولا نكير

لكثير عزة حين رآه عبد الملك بن مروان قصيرا حقيرا ، فقال : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه . وقيل : للعباس ابن مرداس . وقيل : لمعاوية بن مالك الكلابي ، وعظم : ضخم وطال . واللب : العقل ، وأتى بالظاهر موضع المضمر للتهويل في الطول والجسامة ، بكل وجه : في كل جهة . والخسف : الذل . والجرير : حبل غير الزمام يربط به . والهراوى : جمع هراوة وهي العصا ، وجمعها دلالة على كثرة الضرب . والغير - بالتحريك - الغيرة . والنكير : الإنكار ، يعنى أن العبرة بالألباب والعقول ، لا بالغلظ والطول .

*(170/649)*

---

اتخذوا الآلهة طمعا في أن يتقوّوا بهم ويعتضدوا بمكانهم ، والأمر على عكس ما قدّروا ، حيث هم جند لآلهتهم معدّون مُحْضَرُونَ يخدمونهم ويذبون عنهم ، ويغضبون لهم ، والآلهة لا استطاعة بهم ولا قدرة على النصر ، أو اتخذوهم لينصروهم عند اللّه ويشفعوا لهم ، والأمر على خلاف ما توهموا ، حيث هم يوم القيامة جند معدّون لهم محضرون لعذابهم ، لأنهم يجعلون وقودا للنار . وقرئ : فلا يحزنك ، بفتح الياء وضمها ، من حزنه وأحزنه . والمعنى : فلا يهمنك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم ، فإنا عالمون بما يسرون لك من عداوتهم وَما يُعْلِنُونَ وإنا مجازوهم عليه ، فحق مثلك أن يتسلى بهذا الوعيد ويستحضر

في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتى ينقشع عنه الهمّ ولا يرهقه الحزن. فإن قلت: ما تقول فيمن يقول: إن قرأ قارئ: أنا نعلم، بالفتح: انتقضت صلاته، وإن اعتقد ما يعطيه من المعنى: كفر؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما:

أن يكون على حذف لام التعليل، وهو كثير في القرآن وفي الشعر، وفي كل كلام وقياس مطرد، وهذا معناه ومعنى الكسر سواء، وعليه تلبية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: إنّ الحمد والنعمة «1» لك، كسر أبو حنيفة وفتح الشافعي، وكلاهما تعليل. والثاني: أن يكون بدلا من قَوْلُهُمْ كأنه قيل: فلا يحزنك، إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون. وهذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول، فقد تبين أن تعلق الحزن بكون اللّه عالما وعدم تعلقه لا يدوران على كسر إن وفتحها، وإنما يدوران على تقديرك، فتفصل إن فتحت بأن تقدّر معنى التعليل ولا تقدّر البدل، كما أنك تفصل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت ولا تقدّر معنى المفعولية، ثم إن قدّرته كاسرا أو فاتحا على ما عظم فيه الخطب ذلك القائل، فما فيه إلا نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن الحزن على كون اللّه عالما بسرهم وعلانيتهم، وليس النهى عن ذلك مما يوجب شيئا. ألا ترى إلى قوله تعالى فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ، وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ

[سورة يس (36) : الآيات 77 إلى 83]

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ

خَلَقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81)

إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)

---

(1) . متفق عليه من حديث ابن عمر في أثناء حديث .

(171/649)

---

قبح اللّه عزّ وجل إنكارهم البعث تقبيحا لا ترى أعجب منه وأبلغ ، وأدل على تمادى كفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادى ، وتوغله في الخسة وتغلغله في القحة «1» ، حيث قرره بأن عنصره الذي خلقه منه هو أخسّ شيء وأمهنه ، وهو النطفة المذرة الخارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة ، ثم عجب من حاله بأن يتصدّى مثله على مهانة أصله ودناءة أوّله لمخاصمة الجبار ، وشرز صفحته «2» لمجادلته ، ويركب متن الباطل ويلج ، ويمحك ويقول : من يقدر على إحياء الميت بعد ما رمت عظامه ، ثم

يكون خصامه في ألزم وصف له وألصقه به ، وهو كونه منشأ من موات ، وهو ينكر إنشاءه من موات ، وهي المكابرة التي لا مطمح وراءها ، وروى أن جماعة من كفار قريش منهم أبىّ بن خلف الجمحي وأبو جهل والعاصي بزوائل والوليد ابن المغيرة تكلموا في ذلك ، فقال لهم أبىّ : ألا ترون إلى ما يقول محمد ، إنّ اللّه يبعث الأموات ، ثم قال : واللات والعزى لأصيرنّ إليه ولأخصمنه ، وأخذ عظما باليا فجعل يفته بيده وهو يقول :

يا محمد ، أترى اللّه يحيى هذا بعد ما قد رمّ ، قال صلى اللّه عليه وسلم : نعم ويبعثك ويدخلك جهنم «3» وقيل : معنى قوله فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ فإذا هو بعد ما كان ماء مهينا رجل مميز منطبق قادر على الخصام ، مبين : معرب عما في نفسه فصيح ، كما قال تعالى أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ. فإن قلت : لم سمى قوله مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ مثلا ؟ قلت : لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل ، وهي إنكار قدرة اللّه تعالى على إحياء الموتى . أو لما فيه من التشبيه ، لأن ما أنكر من قبيل ما يوصف اللّه بالقدرة عليه ، بدليل النشأة الأولى ، فإذا قيل :

---

(1) . قوله «و تغلغله في القحة» في الصحاح : وقح الرجل قحة ووقاحة ، إذا صار قليل الحياء . (ع)

(2) . قوله «و شرز صفحته . . . الخ» في الصحاح «الشرز» الشرس ، وهو الغلظ . والمحك : اللجاج . (ع)

(3) . هكذا ذكره الحلبي عن قتادة بغير سند ، وأخرجه الحاكم من رواية أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس «أن العاص بن وائل أخذ عظما من البطحاء ، ففتته بيده ، ثم قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أيحيي اللّه هذا بعد ما رم؟ فقال : نعم ، يميتك اللّه - الحديث» وروى البيهقي في الشعب من طريق حصين عن أبى مالك .

قال : جاء أبى بن خلف بعظم نخر - الحديث» وروى ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : «جاء أبو جهل بعظم حائل» .



---

من يحيى العظام على طريق الإنكار لأن يكون ذلك مما يوصف اللّه تعالى بكونه قادرا عليه ، كان تعجيزا للّه وتشبيها له بخلقه في أنهم غير موصوفين بالقدرة عليه . والرميم : اسم لما بلى من العظام غير صفة ، كالرمة والرفات ، فلا يقال : لم لم يؤنث وقد وقع خبر المؤنث؟ ولا هو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ، ولقد استشهد بهذه الآية من يثبت الحياة في العظام ويقول : إن عظام الميتة نجسة لأنّ الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها . وأما أصحاب أبى حنيفة فهي عندهم طاهرة ، وكذلك الشعب والعصب ، ويزعمون أنّ الحياة لا تحلها فلا يؤثر فيها الموت ، ويقولون : المراد بإحياء العظام في الآية ردّها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن

حيّ حساس وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ يعلم كيف يخلق، لا يتعاظمه شيء من خلق المنشآت والمعادات ومن أجناسها وأنواعها وجلائلها ودقائقها. ثم ذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر، مع مضادة النار الماء وانطفائها به وهي الزناد التي تورى بها الأعراض وأكثرها من المرخ والعفار، وفي أمثالهم: في كل شجر نار. واستمجد المرخ والعفار، يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان، يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر، على العفار وهي أنثى فتنقدح النار بإذن اللّه. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما: ليس من شجرة إلا وفيها النار إلا العناب «1». قالوا:

ولذلك تتخذ منه كذينقات القصارين. قرئ: الأخضر، على اللفظ. وقرئ: الخضراء، على المعنى. ونحوه قوله تعالى مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ من قدر على خلق السماوات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خلق الأناسى أقدر، وفي معناه قوله تعالى لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وقرئ: يقدر، وقوله أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ يحتمل معنيين: أن يخلق مثلهم في الصغر والقماءة «2» بالإضافة إلى السماوات والأرض أو أن يعيدهم، لأن المعاد مثل للمبتدإ وليس به وَهُوَ الْخَلَّاقُ الكثير المخلوقات الْعَلِيمُ الكثير المعلومات. وقرئ: الخالق إِنَّما أَمْرُهُ إنما شأنه إِذا أَرادَ شَيْئاً إذا دعاه داعى حكمة إلى تكوينه ولا صارف أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ أن يكونه من غير توقف فَيَكُونُ فيحدث، أى: فهو كائن موجود لا محالة. فإن قلت: ما حقيقة قوله أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ؟ قلت :

هو مجاز من الكلام وتمثيل ، لأنه لا يمتنع عليه شيء من المكونات ، وأنه بمنزلة المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع . فإن قلت : فما وجه القراءتين في فيكون؟ قلت : أما الرفع فلأنها جملة من مبتدإ وخبر ، لأن تقديرها : فهو يكون ، معطوفة على مثلها ، وهي أمره أن يقول له كن . وأما النصب فللعطف على يقول ، والمعنى : أنه لا يجوز عليه شيء مما يجوز على الأجسام

---

(1) . لم أجده .

(2) . قوله «والقماءة» الصغر والذلة . أفاده الصحاح . (ع)



---

إذا فعلت شيئاً مما تقدر عليه ، من المباشرة بمحال القدرة ، واستعمال الآلات ، وما يتبع ذلك من المشقة والتعب واللغوب إنما أمره وهو القادر العالم لذاته أن يخلص داعيه إلى الفعل ، فيتكون فمثله كيف يعجز عن مقدور حتى يعجز عن الإعادة؟ فَسُبْحانَ تنزيه له مما وصفه به المشركون ، وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ هو مالك كل شيء والمتصرف فيه بمواجب مشيئته وقضايا حكمته . وقرئ : ملكة كل شيء .

وملك كل شيء .

والمعنى واحد تُرْجَعُونَ بضم التاء وفتحها . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : كنت لا أعلم ما روى في فضائل يس وقراءتها كيف خصت ، بذلك ، فإذا أنه لهذه الآية .

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «إن لكل شيء قلبا ، وإن قلب القرآن يس ، من قرأ يس يريد بها وجه اللّه ، غفر اللّه تعالى له ، وأعطى من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة ، وأيما مسلم قرئ عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفا يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه ، وأيما مسلم قرأ يس وهو في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيبه رضوان خازن الجنة بشربة من شراب الجنة يشربها وهو على فراشه ، فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ، ويمكث في قبره وهو ريان ، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان «1» . وقال عليه الصلاة والسلام «إن في القرآن سورة يشفع قارئها ويغفر لمستمعها . ألا وهي سورة يس» «2» .

انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 23 . 33﴾

---

(1) . أخرجه ابن مردويه والثعلبي من حديث أبى بن كعب ، وأوله في الترمذي من رواية هرون أبى محمد عن مقاتل بن حيان عن قتادة عن أنس . وقال : غريب . وهرون مجهول «وفي الباب عن أبى بكر وأبى هريرة . فأما حديث أبى هريرة فأخرجه البزار وفيه حميد

المكي مولى آل علقمة . وهو ضعيف . وحديث أبي بكر : أخرجه الحكيم الترمذي .

(2) . أخرجه الثعلبي من طريق محمد بن عمير عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى اللّه عنها .

(174/649)

---

وقال ابن الجوزى :

﴿ ألم أعهد إليكم ﴾ ؟

أي : ألم آمركم ألم أوصِكم ؟ و " تعبُدوا " بمعنى تُطيعوا ، والشيطان هو إبليس ، زيَّن لهم الشِّرك فأطاعوه ﴿ إنَّه لكم عدوٌّ مُبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة ، أخرج أبويكم من الجنة .

﴿ وأنِ اعبُدوني ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، والكسائي : ﴿ وأَنُ اعبُدوني ﴾ بضم النون .

وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة : ﴿ وأَنِ اعبُدوني ﴾ بكسر النون ؛ والمعنى : وحِّدوني ﴿ هذا صراطٌ مستقيمٌ ﴾ يعني التوحيد .

﴿ ولقد أَضَلَّ منكم جِبلاًّ ﴾ قرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف : ﴿ جُبُلاً ﴾ بضم الجيم والباء وتخفيف اللام .

وقرأ أبو عمرو، وابن عامر: "جُبْلًا" بضم الجيم وتسكين الباء مع تخفيف اللام.

وقرأ نافع، وعاصم: "جِبِلًّا" بكسر الجيم والباء مع تشديد اللام.

وقرأ علي بن أبي طالب، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمي، والزهري، والأعمش: ﴿ جُبُلًّا ﴾ بضم الجيم والباء مع تشديد اللام.

وقرأ عبد الله بن عمرو، وابن السميفع: ﴿ جِبْلًا ﴾ بكسر الجيم وسكون الباء وتخفيف اللام.

وقرأ سعيد بن جبير، وأبو المتوكل، ومعاذ القاريء: ﴿ جُبَلًا ﴾ برفع الجيم وفتح الباء وتخفيف اللام.

وقرأ أبو العالية: وابن يعمر: ﴿ جِبَلًا ﴾ بكسر الجيم وفتح الباء وتخفيف اللام.

وقرأ أبو عمران الجوني، وعمرو بن دينار: ﴿ جِبَالًا ﴾ مكسورة الجيم مفتوحة الباء وبألف.



---

ومعنى الكلمة كيف تصرَّفت في هذه اللغات: الخَلْق والجماعة؛ فالمعنى: ولقد أضلَّ منكم خَلْقًا كثيرًا ﴿ أفلم تكونوا تَعْقِلون ﴾ ؟ فالمعنى: قد رأيتم آثار الهالكين قبلكم

بطاعة الشيطان، أفلم تعقلوا ذلك؟! وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن السُّلَمي، وأبو رجاء، ومجاهد، وابن يعمر: ﴿ أفلم يكونوا يعقلون ﴾ بالياء فيهما، فإذا أُدْنُوا إلى جهنم قيل لهم: ﴿ هذه جهنَّمُ التي كنتم توعدون ﴾ بها في الدنيا ﴿ اصْلَوها ﴾ أي: قاسُوا حرَّها.

قوله تعالى: ﴿ اليومَ نَخْتِمُ على أفواهم ﴾ وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء: ﴿ يُخْتَمُ ﴾ بياء مضمومة وفتح التاء ﴿ وتُكَلِّمُنا ﴾ قرأ ابن مسعود: ﴿ ولِتُكَلِّمنَا ﴾ بزيادة لام مكسورة وفتح الميم وواو قبل اللام وقرأ أُبيُّ بن كعب وابن أبي عبلة: ﴿ لِتُكَلِّمَنا ﴾ بلام مكسورة من غير واو قبلها وبنصب الميم؛ وقرأوا جميعا: ﴿ ولِتَشْهَدَ أرجُلُهم ﴾ بلام مكسورة وبنصب الدال.

ومعنى ﴿ نَخْتِمُ ﴾: نَطبع عليها، وقيل: منعُها من الكلام هو الختم عليها، وفي سبب ذلك أربعة أقوال:

أحدها: أنهم لمّا قالوا ﴿ واللهِ ربِّنا ما كُنَّا مشرِكينَ ﴾ [الأنعام: 23] خَتَمَ اللهُ على أفواهم ونطقت جوارحهُم، قاله أبو موسى الأشعري.

والثاني: ليَعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعواناً لهم على المعاصي صارت شهوداً [عليهم].

والثالث: ليعرفهم أهل الموقف، فيتميَّزوا منهم بذلك.

والرابع : لأن إِقرار الجوارح أبلغ في الإِقرار من نُطْق اللسان ، ذكرهنّ الماوردي .

فإن قيل : ما الحكمة في تسمية نُطق اليد كلاماً ونطق الرِّجْل شهادةً ؟ .

فالجواب : أن اليد كانت مباشِرة والرِّجل حاضرة ، وقول الحاضر على غيره شهادة بما رأى وقول الفاعل على نفسه إقرار بما فعل .

قوله تعالى : ﴿ ولو نشاءُ لطَمَسْنا على أعيُنْهم ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

(176/649)

---

أحدها : ولو نشاء لأذهبْنا أعيُنَهم حتى لا يبدوَ لها شَقٌّ ولا جفْن .

والمطموس : الذي لا يكون بين جفنيه شَقّ ، ﴿ فاستَبَقوا الصِّراط ﴾ أي : فتبادروا إلى الطريق ﴿ فأنّى يُبْصِرونَ ﴾ [ أي ] : فكيف يُبْصِرون وقد أعمينا أعيُنَهم ؟ ! وقرأ أبو بكر الصِّدّيق ، وعروة بن الزبير ، وأبو رجاء : ﴿ فاستَبِقوا ﴾ بكسر الباء ﴿ فأَنّى تُبْصِرونَ ﴾ بالتاء وهذا تهديد لأهل مكة ، وهو قول الأكثرين .

والثاني : ولو نشاء لأضلَلْناهم وأعميناهم عن الهُدى ، فأنّى يُبصِرون الحقَّ ؟ ! رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : ولو نشاء لفقأْنا أعيُنَ ضلالَتهم وأعميناهم عن غَيِّهم وحوَّلْنا أبصارهم من

الضلالة إلى الهُدى فأبصروا رشدهم، فأنّى يُبصِرونَ ولم أفعل ذلك، بهم؟! روي عن جماعة منهم مقاتل.

قوله تعالى: ﴿ ولو نشاء لَمَسَخْناهم على مكانتهم ﴾ وروى أبو بكر عن عاصم: ﴿ على مكاناتهم ﴾؛ وقد سبق بيان هذا [البقرة: 65].

وفي المراد بقوله ﴿ لَمَسَخْناهم ﴾ أربعة أقوال.

أحدها: لأهلكْناهم، قاله ابن عباس.

والثاني: لأقعدناهم على أرجلهم، قاله الحسن وقتادة.

والثالث: لجعلْناهم حجارة، قاله أبو صالح، ومقاتل.

والرابع: لجعلْناهم قردةً وخنازيرَ لا أرواح فيها، قاله ابن السائب.

وفي قوله: ﴿ فما استطاعوا مُضِيّاً ولا يَرْجِعونَ ﴾ ثلاثة أقوال.

أحدها: فما استطاعوا أن يتقدّموا ولا أن يتأخروا، قاله قتادة.

والثاني: فما استطاعوا مُضِيّاً عن العذاب، ولا رجوعاً إلى الخِلقة الأُولى بعد المسخ، قاله الضحاك.

والثالث: مُضِيّاً من الدنيا ولا رجوعاً إليها، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

قوله تعالى : ﴿ ومَنْ نُعَمِّرْه ننكِّسْه في الخَلْق ﴾ قرأ حمزة : ﴿ نُنَكِّسْه ﴾ مشددة مع ضم النون الأولى وفتح الثانية ؛ والباقون : بفتح النون الأولى وتسكين الثانية من غير تشديد ؛ وعن عاصم كالقراءتين ، ومعنى الكلام : من نُطِلْ عمره ننكِّس خَلْقَه ، فنجعل مكان القوّةَ الضَّعف ، وبدل الشباب الهرم ، فنردُّه إلى أرذل العمر .

﴿ أفلا يَعْقِلونَ ﴾ قرأ نافع ، وأبو عمرو : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ بالتّاء ، والباقون بالياء .

والمعنى : أفلا يعقلون أنّ مَنْ فعل هذا قادر على البعث ؟ ! .

قوله تعالى : ﴿ وما علَّمْناه الشّعر ﴾ قال المفسرون : إن كفار مكة قالوا : إنّ هذا القرآن شِعْر وإن محمداً شاعر ، فقال الله تعالى : ﴿ وما علّمْناه الشِّعْر ﴾ ﴿ وما ينبغي له ﴾ أي : ما يتسهّل له ذلك .

قال المفسرون : ما كان يَتَّزن له بيتُ شِعر ، حتى إنه " روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه تمثّل يوماً فقال : "

"كَفَى بالإِسلامِ والشّيْبِ لِلمَرْءِ ناهِياً " . . .

" فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إنما قال الشاعر : "

كَفَى الشّيْبُ والإِسلامُ للمَرْءِ نَاهياً . . .

" أَشهدُ أَنَّكَ رسولَ الله ، ما علّمكَ اللهُ الشِّعر ، وما ينبغي لك .

ودعا يوماً بعباس بن مرداس فقال : " أنت القائل : "

أَتَجْعَلُ نَهْبي ونَهْبَ العبي . . .

د بين الأَقْرَعِ وعُيَيْنَة " ؟ . . .

" فقال أبو بكر : بأبي أنت وأمي ، لم يقل كذلك ، فأنشده أبو بكر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يَضرُّكَ بأيِّهما بدأتَ " ، فقال أبو بكر : والله ما أنت بشاعر ، ولا ينبغي لك الشّعر .

وتمثَّل يوماً ، فقال : "

" ويأتِك مَنْ لم تُزَوِّدْهُ بالأَخْبارِ " . . .

*(178/649)*

---

" فقال أبو بكر : ليس هكذا يا رسول الله ، فقال : " إنّي لستُ بشاعر ، ولا ينبغي لي " وإنما مُنِعَ من قول الشّعر ، لئلا تدخُل الشُّبهة على قوم فيما أتى به من القرآن فيقولون : قوي على ذلك بما في طَبْعه من الفطنة للشّعر .

قوله تعالى : ﴿ إنْ هو ﴾ يعني القرآن ﴿ إلاّ ذِكْرٌ ﴾ إلا موعظة ﴿ وقرآنٌ مُبينٌ ﴾ فيه الفرائض والسُّنن [ والأحكام ] .

قوله تعالى : ﴿ لِيُنْذِرَ ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : "لِيُنْذِرَ" بالياء ، يعنون القرآن .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، ويعقوب : "لِتُنْذِرَ" بالتاء ، يعنون النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، أي : لِتُنْذَرَ يا محمَّدُ بما في القرآن .

وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وابن السمفيع : "لِيُنْذَرَ" ياء مرفوعة وفتح الذال والراء جميعاً .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كان حيّاً ﴾ وفيه أربعة أقوال .

أحدها : حيّ القلب حيّ البصر ، قال قتادة .

والثاني : من كان عاقلاً ، قاله الضحاك .

قال الزجاج : من كان يَعْقِل ما يخاطَب به ، فإن الكافر كالميت في ترك النذير .

والثالث : مهتدياً ، قاله السدي وقال مقاتل : من كان مهتدياً في عِلْم الله .

والرابع : من كان مؤمناً ، قال يحيى بن سلام ؛ وهذا على المعنى الذي قد سبق في قوله : ﴿ إِنَّما تُنْذِرُ الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم ﴾ [ فاطر : 18 ] ، ويجوز أن يريد : إِنما يَنفع إِنذارُك مَنْ كان مؤمِناً في علم الله .

قوله تعالى : ﴿ ويحقَّ القول على الكافرين ﴾ معناه : يجب .

وفي المراد بالقول قولان .

أحدهما : أنه العذاب .

والثاني : الحُجَّة .

(179/649)

---

ثم ذكَّرهم قُدرته فقال : ﴿ أوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لهم ممّا عَمِلَتْ أيدينا أَنعاماً ﴾ قال ابن قتيبة : يجوز أن يكون المعنى : ممّا عَمِلْناه بقوّتنا وقدرتنا ، وفي اليد القُدرةُ والقُوَّةُ على العمل ، فتُستعارُ اليدُ فتُوضَع موضعها هذا مَجازٌ للعرب يحتملُه هذا الحرف ، والله أعلم بما أراد .

وقال غيره : ذِكْر الأيدي ها هنا يدلُّ على انفراده بما خَلَق ، والمعنى : لم يشارِكْنا أحد في إِنشائنا ؛ والواحدُ مِنّا إذا قال : عملتُ هذا بيدي ، دلَّ ذلك على انفراده بعمله .

وقال أبو سليمان الدمشقي : معنى الآية : ممّا أَوجدْناه بقُدرتنا وقوّتنا ؛ وهذا إِجماعٌ أنه لم يُرِد هاهنا إلا ما ذكرْنا .

قوله تعالى : ﴿ فهُم لها مالكونَ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : ضابطون ، قاله قتادة ، ومقاتل .

قال الزجاج : ومثله في الشِّعر :

أَصبحتُ لا أَحملُ السِّلاحَ ولا . . .

أملكُ رأسَ البعيرِ إنْ نَفَرا

أي: لا أَضبِط رأس البعير.

والثاني: قادرون عليها بالتسخير لهم، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿ وذلّلناها لهم ﴾ أي: سخَّرْناها، فهي ذليلة لهم ﴿ فمنها رَكُوبُهم ﴾ قال ابن قتيبة: الرَّكُوب: ما يَرْكَبون، والحَلوب: ما يَحْلُبُون.

قال الفراء: ولو قرأ قارئٌ: ﴿ فمنها رُكُوبُهم ﴾، كان وجهاً، كما تقول: منها أكلهم وشُربهم وركوبهم.

وقد قرأ بضم الراء الحسن، وأبو العالية، والأعمش، وابن يعمر في آخرين.

وقرأ أُبيُّ بن كعب، وعائشة: ﴿ رَكُوبَتُهم ﴾ بفتح الراء والباء وزيادة تاء مرفوعة.

قال المفسرون: يركبون من الأنعام الإِبل، ويأكلون الغنم، ﴿ ولهم فيها منَافعُ ﴾ من الأصواف والأوبار والأشعار والنَّسْل ﴿ ومَشاربُ ﴾ [من] ألبانها، ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ ربَّ هذه النِّعم فيوحِّدونه؟!.

ثم ذكر جهلهم فقال: ﴿ واتَّخَذوا مِنْ دون الله آلهةً لعلَّهم يُنْصَرون ﴾ أي: لتمنَعهم من عذاب الله؛ ثم أخبر أن ذلك لا يكون بقوله ﴿ لا يستطيعون نَصْرَهم ﴾ أي: لا تَقْدِرُ الأصنام على منعهم من أَمْرٍ أراده الله بهم ﴿ وهُمْ ﴾ يعني الكفار ﴿ لَهُمْ ﴾ يعني الأصنام ﴿ جُنْدٌ مُحْضَرونَ ﴾ وفيه أربعة أقوال:

أحدها: جُنْدٌ في الدنيا مُحْضَرونَ في النار، قاله الحسن.

والثاني: مُحْضَرونَ عند الحساب، قاله مجاهد.

والثالث: المشركون جُنْدٌ للأصنام، يَغضبون لها في الدنيا، وهي لا تسوق إِليهم خيراً ولا تدفع عنهم شرّاً قاله قتادة.

وقال مقاتل: الكفار يَغضبون للآلهة ويَحْضُرونها في الدنيا.

وقال الزجاج: هم للأصنام ينتصرون، وهي لا تستطيع نصرهم.

والرابع: هم جُنْدٌ مُحْضَرون عند الأصنام يعبدونها، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿ فلا يَحْزُنْكَ قولُهم ﴾ يعني قول كفار مكة في تكذيبك ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ ﴾ في ضمائرهم من تكذيبك ﴿ وما يُعلِنونَ ﴾ بألسنتهم من ذلك؛ والمعنى إِنا نُثيبك ونجازيهم.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسانُ أَنَّا خَلَقْناه مِنْ نُطْفة ﴾ اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية والتي بعدها على خمسة أقوال:

أحدها : " أنه العاص بن وائل السهمي ، أخذ عَظْماً من البطحاء ففتَّه بيده ، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أيُحيي اللهُ هذا بعد ما أرى ؟ فقال : " نعم ، يُميتُكَ الله ثُمَّ يُحْيِيكَ ثم يُدخلكَ نار جهنَّم " ، فنزلت هذه الآيات .

رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أنه عبد الله بن أُبيّ بن سلول ، جرى له نحو هذه القصة ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أنه أبو جهل ابن هشام وأن هذه القصة جرت له ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والرابع : أنه أُميّة بن خَلَف ، قاله الحسن .



---

والخامس : أنه أُبيّ بن خَلَف الجُمَحي ، وهذه القصة جرت له ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والجمهور ، وعليه المفسّرون .

ومعنى الكلام : التعجُّب مِنْ جهل هذا المخاصِم في إنكاره البعث ؛ والمعنى : ألاَ يَعلم أنه مخلوق فيتفكر في بدء خلقه فيترك خصومته ؟ ! وقيل : هذا تنبيه له على نعمة الله عليه حيث أنشأه من نطفة فصار مجادلاً .

﴿ وضرب لنا مثلاً ﴾ في إنكار البعث بالعَظْم البالي حين فتَّه بيده ، وتعجَّب ممن يقول : إن الله يُحْيِيه ﴿ ونَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ أي : نَسِيَ خَلْقَنا له ، أي : ترَكَ النَّظَرَ في خَلْق نفسِه ، إذ خُلِق من نُطْفة .

﴿ قال من يُحْيِي العظامَ وهي رَميمٌ ﴾ ! أي : بالية يقال : رَمَّ العَظْمُ ، إذا بَلِيَ ، فهو رَمِيمٌ ، لأنه معدول عن فاعله ، وكل معدول عن وجهه و وزنه فهو مصروف عن إعرابه كقوله : ﴿ وما كانتْ أُمُّكِ بَغْيّاً ﴾ [ مريم : 28 ] ، فأسقط الهاء لأنها مصروفة عن " باغية " ؛ فقاس هذا الكافر قُدرة الله تعالى بقُدرة الخَلْق ، فأنكر إحياء العظم البالي لأن ذلك ليس في مقدور الخَلْق .

﴿ قُلْ يُحْيِيها الذي أَنشأها ﴾ أي : ابتدأ خَلْقها ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ وهو بكُلِ خَلْقٍ ﴾ من الابتداء والإعادة ﴿ عليمٌ ﴾ .

﴿ الذي جعَلَ لكم مِنَ الشَّجر الأخضر ناراً ﴾ قال ابن قتيبة : أراد الزُّنُودَ التي تُورِي بها الأَعرابُ من شجر المَرْخِ والعَفَار .

فإن قيل : لم قال : " الشَّجَرِ الأَخضرِ " ولم يقل : الشَّجَرِ الخُضْر ؟

فالجواب : أن الشجر جمع ، وهو يؤنَّث ويذكَّر ، قال الله تعالى : ﴿ فمالئون منها البُطونَ ﴾ [ الواقعة : 53 ] ، وقال : ﴿ فإذا أنتم منه توقِدون ﴾ .

ثم ذكر ما هو أعظم من خَلْق الإنسان، فقال: ﴿ أوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضِ بقادِرٍ ﴾ وقرأ أبو بكر الصِّدِّيق، وعاصم الجحدري: ﴿ يَقْدِرُ ﴾ بياء من غير ألف ﴿ على أن يَخْلُقَ مِثْلَهم ﴾ ؟! وهذا استفهام تقرير؛ والمعنى: مَنْ قَدَرَ على ذلك العظيم، قَدَرَ على هذا اليسير.

وقد فسرنا معنى ﴿ أن يَخْلُقَ مِثْلَهم ﴾ في [بني إسرائيل: 99]؛ ثم أجاب هذا الاستفهام فقال: ﴿ بلى وهو الخَلاّقُ ﴾ يخلُق خَلْقاً بَعْدَ خَلْق.

وقرأ أُبَيُّ بن كعب، والحسن، وعاصم الجحدري: ﴿ وهو الخَالِقُ ﴾ ﴿ العليمُ ﴾ بجميع المعلومات.

والمَلَكوتُ والمُلْكُ واحد.

وباقي السورة قد تقدم شرحه [البقرة: 117، 32، الأنعام: 75]. انتهى انتهى. اهـ

﴿زاد المسير حـ 7 صـ 30.43﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ﴾

أي ألم آمركم وأوصيكم يا بني آدم ﴿ أن لا تعبدوا الشيطان ﴾ يعني لا تطيعوه فيما يوسوس ويزين لكم من معصية الله ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ أي ظاهر العداوة .

﴿ وأن اعبدوني ﴾ أي أطيعوني ووحدوني ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ أي لا صراط أقوم منه قوله تعالى : ﴿ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً ﴾ أي خلقاً كثيراً ﴿ أفلم تكونوا تعقلون ﴾ يعني ما أتاكم من هلاك الأمم الخالية بطاعة إبليس ويقال لهم لما دنوا من النار ﴿ هذه جهنم التي كنتم توعدون ﴾ يعني بها في الدنيا ﴿ اصلوها ﴾ يعني ادخلوها ﴿ اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ قوله تعالى : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ معنى الآية أن الكفار ينكرون ويجحدون كفرهم وتكذيبهم الرسل ، ويقولون والله ربنا ما كنا مشركين فيختم الله على أفواههم وتنطق جوارحهم ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت عوناً لهم على المعاصي صارت شاهدة عليهم وذلك أن إقرار الجوارح أبلغ من إقرار اللسان .

فإن قلت ما الحكمة في تسمية نطق اليد كلاماً ونطق الرجل شهادة ؟

قلت إن اليد مباشرة والرجل حاضرة وقول الحاضر على غيره شهادة بما رأى وقول الفاعل إقرار على نفسه بما فعل (م) عن أبي هريرة قال " سأل الناس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال: هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة قالوا لا يا رسول الله قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة قالوا لا قال فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما قال فيلقى العبد ربه فيقول أي فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع فيقول بلى يا رب فيقول أفظننت أنك ملاقي فيقول لا فيقول اليوم أنساك كما نسيتني ثم يلقى الثاني فيقول أي فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع فيقول بلى يا رب فيقول أفظننت أنك ملاقي فيقول لا فيقول اليوم أنساك كما نسيتني ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع فيقول ها هنا إذا قال ثم يقول له الآن نبعث شاهدنا عليك فيتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليَّ فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك الذي يسخط الله عليه " قوله أي فل يعني يا فلان قوله وأسودك أي أجعلك سيداً قوله وأذرك ترأس أي تتقدم على القوم بأن تصير رئيسهم وتربع أي تأخذ المرباع وهو ما يأخذه

رئيس الجيش لنفسه من الغنائم وهو ربعها وروى ترتع بتاءين أي تتنعم وتنبسط من الرتع قوله وذلك ليعذر من نفسه أي ليقيم الحجة عليها بشهادة أعضائه عليه (م) عن أنس بن مالك قال

(185/649)

---

﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾ أي أذهبنا أعينهم الظاهرة بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق والمعنى ولو نشاء لأعمينا أعينهم الظاهرة كما أعمينا قلوبهم ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ أي فبادروا إلى الطريق ﴿ فأنى يبصرون ﴾ أي كيف يبصرون وقد أعمينا أعينهم والمعنى ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى وتركناهم عمياً يترددون فكيف يبصرون الطريق حينئذ وقال ابن عباس يعني لو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم فأعميناهم عن غيهم وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى فأبصروا رشدهم فأنى يبصرون ولم نفعل ذلك بهم ﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ﴾ يعني ولو نشاء لجعلناهم قردة وخنازير في منازلهم وقيل لجعلناهم حجارة لا أرواح فيها ﴿ فما استطاعوا مضياً ﴾ أي لا يقدرون أن يبرحوا ﴿ ولا يرجعون ﴾ أي إلى ما كانوا عليه وقيل لا يقدرون على الذهاب ولا الرجوع ﴿ ومن نعمره ننكسه في الخلق ﴾ أي نرده إلى أرذل العمر شبه الصبي في أول الخلق

وقيل نضعف جوارحه بعد قوتها وننقصها بعد زيادتها وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان في ضعف من جسده وخلو من عقل وعلم في حال صغره ثم جعله يتزايد وينتقل من حال إلى حال إلى أن بلغ أشده واستكمل قوته وعقله وعلم ما له وما عليه فإذا انتهى إلى الغاية واستكمل النهاية رجع ينقص حتى يرد إلى ضعفه الأول فذلك نكسه في الخلق ﴿ أفلا يعقلون ﴾ أي فيعتبرون ويعلمون أن الذي قدر على تصريف أحوال الإنسان قادر على البعث بعد الموت قوله : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ قيل إن كفار قريش قالوا إن محمداً شاعر وما يقوله شعر فأنزل الله تعالى تكذيباً لهم وما علمناه الشعر وما ينبغي له أي ما يسهل له ذلك وما يصلح منه بحيث لو أراد نظم شعر لم يتأت له ذلك كما جعلناه أمياً لا يكتب ولا يحسب لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض قال العلماء ما كان يتزن له بيت شعر وإن تمثل ببيت شعر جرى على لسانه منكسراً كما روي عن الحسن أن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) كان يتمثل بهذا البيت :



---

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه يا نبي الله إنما قال الشاعر : كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً : أشهد أنك رسول الله ( صلى الله عليه

وسلم ) وما علمناه الشعر وما ينبغي له " هذا حديث مرسل وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها وقد قيل لها " هل كان النبي ( صلى الله عليه وسلم ) يتمثل بشيء من الشعر قالت كان يتمثل بشعر ابن رواحة ويقول : ويا تيك بالأخبار من لم تزود " .

أخرجه الترمذي وفي رواية لغيره " أن عائشة رضي الله تعالى عنها سئلت هل كان النبي ( صلى الله عليه وسلم ) يتمثل بشيء من الشعر قالت كان الشعر أبغض الحديث إليه ولم يتمثل إلا بيت أخي بني قيس طرفة :

﴿ لتنذر ﴾ أي يا محمد وقرئ بالياء أي القرآن ﴿ من كان حياً ﴾ يعني مؤمناً حي القلب لأن الكافر كالميت الذي لا يتدبر ولا يتفكر ﴿ ويحق القول ﴾ أي وتجب حجة العذاب ﴿ على الكافرين ﴾ قوله : ﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا ﴾ أي تولينا خلقه بإبداعنا له من غير إعانة أحد في إنشائه كقول القائل عملت هذا بيدي إذا تفرد به ولم يشاركه فيه أحد وقيل عملناه بقوتنا وقدرتنا وإنما قال ذلك لبدائع الفطرة التي لا يقدر عليها إلا هو ﴿ أنعاماً ﴾ إنما خص الأنعام بالذكر وإن كانت الأشياء كلها من خلق الله تعالى وإيجاده لأن النعم أكثر أموال العرب والنفع بها أعم ﴿ فهم لها مالكون ﴾ أي خلقناها لأجلهم فملكناهم إياها يتصرفون فيها تصرف الملاك .

وقيل معناه فهم لها ضابطون قاهرون ومنه قول بعضهم :

أصبحت لا أحمل السلاح ولا . . .

أملك رأس البعير إن نفرا

(187/649)

---

أي لا أضبط رأس البعير والمعنى لم تخلق الأنعام وحشية نافرة من بني آدم لا يقدرون على ضبطها بل خلقناها مذللة مسخرة لهم وهو قوله تعالى : ﴿ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ﴾ أي الإبل ﴿ ومنها يأكلون ﴾ أي الغنم ﴿ ولهم فيها منافع ﴾ أي من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها ونسلها ﴿ ومشارب ﴾ أي من ألبانها ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أي رب هذه النعم ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ﴾ يعني الأصنام ﴿ لعلهم ينصرون ﴾ أي لتمنعهم من عذاب الله ولا يكون ذلك قط ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ قال ابن عباس لا تقدر الأصنام على نصرهم ومنعهم من العذاب ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ أي الكفار جند الأصنام يغضبون لها ويحضرونها في الدنيا وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تستطيع لهم نصراً وقيل هذا في الآخرة يؤتى بكل معبود من دون الله ومعه أتباعه الذين عبدوه في الدنيا كأنهم جند محضرون في النار ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ يعني قول كفار مكة في تكذيبك يا

محمد ﴿ إنا نعلم ما يسرون ﴾ أي في ضمائرهم من التكذيب ﴿ وما يعلنون ﴾ أي من عبادة الأصنام وقيل ما يعلنون بألسنتهم من الأذى .

(188/649)

---

قوله تعالى : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ﴾ أي من نطفة قذرة خسيسة ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ أي جدل بالباطل بين الخصومة والمعنى العجب من جهل هذا المخاصم مع مهانة أصله كيف يتصدى لمخاصمة الجبار ويبرز لمجادلته في إنكاره البعث وكيف لا يتفكر في بدء خلقه وأنه من نطفة قذرة ويدع الخصومة نزلت في أبي بن خلف الجمحي خاصم النبي ( صلى الله عليه وسلم ) في إنكار البعث وأتاه بعظم قد رم وبلي ففتته بيده وقال أترى يحيي الله هذا بعد ما رم فقال النبي ( صلى الله عليه وسلم ) " نعم ويبعثك ويدخلك النار " فأنزل الله تعالى هذه الآيات ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ﴾ أي بدأ أمره ﴿ قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ أي بالية والمعنى وضرب لنا مثلاً في إنكار البعث بالعظم البالي حين فتته بيده وتعجب ممن يقول إن الله تعالى يحييه ونسي أول خلقه وأنه مخلوق من نطفة .

(189/649)

﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ أي خلقها أول مرة وابتدأ خلقها ﴿ وهو بكل خلق ﴾ أي من الابتداء والإعادة ﴿ عليم ﴾ أي يعلم كيف يخلق لا يتعاظمه شيء من خلق المبدأ أو المعاد ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ﴾ قال ابن عباس هما شجرتان يقال لإحداهما المرخ بالراء والخاء المعجمة والأخرى العفار بالعين المهملة فمن أراد النار قطع منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ على العفار فتخرج منهما النار بإذن الله تعالى تقول العرب في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار أي استكثر منها وذلك أن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر ناراً وقال الحكماء في كل شجر نار إلا العناب ﴿ فإذا أنتم منه توقدون ﴾ أي تقدحون فتوقدون النار من ذلك الشجر ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان فقال تعالى: ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى ﴾ أي هو القادر على ذلك ﴿ وهو الخلاق ﴾ يعني يخلق خلقاً بعد خلق ﴿ العليم ﴾ أي بجميع ما خلق ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً ﴾ أي إحداث شيء وتكوينه ﴿ أن يقول له كن ﴾ أن يكونه من غير توقف ﴿ فيكون ﴾ أي فيحدث ويوجد لا محالة ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ أي هو مالك كل شيء والمتصرف فيه ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي تردون بعد الموت والله أعلم. انتهى انتهى.

اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 17.12 ﴾

وقال ابن جزى :

﴿ جبلاًّ كَثِيراً ﴾

الجبِّل الأمة العظيمة ، وقال الضحاك : أقلها عشرة آلاف ولا نهاية لأكثرها ، وقرأ عاصم ونافع ﴿ جبلاًّ ﴾ بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، وبضمها مع التخفيف ، وبضم الجيم وإسكان الباء ، وهي لغات بمعنى واحد .

﴿ اليوم نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي نمنعهم من الكلام فتنطق أعضاؤهم يوم القيامة .

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا على أَعْيُنِهِمْ ﴾ هذا تهديد لقريش ، والطمس على الأعين هو العمى ، و ﴿ الصراط ﴾ الطريق و ﴿ أنى ﴾ استفهام يراد به النفي ، فمعنى الآية لو نشاء لأعميناهم فلو راموا أن يمشوا على الطريق لم يبصروه ، وقيل : يعني عمى البصائر أي : لو نشاء لختمنا على قلوبهم ، فالطريق على هذا استعارة بمعنى الإيمان والخير .

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَاهُمْ ﴾ هذا تهديد بالمسخ ، فقيل : معناه المسخ قردة وخنازير وحجارة ، وقيل : معناه لو نشاء لجعلناهم مقعدين مبطولين لا يستطيعون تصرفاً ، وقيل : إن هذا التهديد كله بما يكون يوم القيامة ، والأظهر أنه في الدنيا ﴿ على مَكَانَتِهِمْ ﴾ المكانة

المكان ، والمعنى لو نشاء لمسخناهم مسخاً يقعدهم في مكانهم ﴿ فَمَا استطاعوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجعُونَ ﴾ أي إذا مسخوا في مكانهم لو يقدروا أن يذهبوا ولا أن يرجعوا .

﴿ وَمَن نّعَمّرْهُ نُنَكّسْهُ فِي الخلق ﴾ أي نحول خلقته من القوة إلى الضعف ، ومن الفهم إلى البله وشبه ذلك كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ﴾ [ الروم : 54 ] وإنما قصد بذكر ذلك هنا للاستدلال على قدرته تعالى على مسخ الكفار ، كما قدر على تنكيس الإنسان إذا هرم .

*(191/649)*

---

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ الضميران لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك ردّ على الكفار في قولهم : إنه شاعر ، وكان صلى الله عليه وسلم لا ينظم الشعر ولا يزنه ، وإذا ذكر بيت شعر كسر وزنه ، فإن قيل : قد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب " وروي أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم : " هل أنت إلا أصبع دميت ، وفي سبيل الله ما لقيت " ، وهذا الكلام على وزن الشعر فالجواب أنه ليس بشعر ، وأنه لم يقصد به الشعر ، وإنما جاء موزوناً بالاتفاق لا بالقصد ، فهو كالكلام المنثور ، ومثل هذا يقال في مثل ما جاء في القرآن من الكلام الموزون ، ويقتضي قوله ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُ

﴿ تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن الشعر لما فيه من الأباطيل وإفراط التجاوز ، حتى يقال : إن الشعر أطيبه أكذبه ، وليس كل الشعر كذلك فقد قال صلى الله عليه وسلم : " إن من الشعر لحكمة " وقد أكثر الناس في ذم الشعر ومدحه ، وإنما الانصاف قول الشافعي الشعر كلام والكلام منه حسن ومنه قبيح ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ ﴾ الضمير للقرآن يعني أنه ذكر الله أو تذكير للناس أو شرفه لهم .

﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ أي حيّ القلب والبصيرة ﴿ وَيَحِقَّ القول عَلَى الكافرين ﴾ أي يجب عليهم العذاب .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعاماً ﴾ مقصد الآية تعديد النعم وإقامة الحجة ، والأيدي هنا عند أهل التأويل عبارة عن القدرة ، وعند أهل التسليم من المتشابة الذي يجب الإيمان به وعلمه عند الله ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ الركوب بفتح الراء هو المركوب ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ يعني الأكل منها والحمل عليها ، والانتفاع بالجلود والصوف وغيره ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ يعني الألبان .

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ الضمير في يستطيعون للأصنام ، وفي نصرهم للمشركين ، ويحتمل العكس ، ولكنّ الأول أرجح ، فإنه لما ذكر أن المشركين اتخذوا الأصنام لينصروهم : أخبر أن الأصنام لا يستطيعون نصرهم فخاب أملهم ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ الضمير الأول للمشركين والثاني للأصنام ؛ يعني أن المشركين يخدمون الأصنام ويتعصبون لهم حتى أنهم لهم كالجند ، وقيل : بالعكس بمعنى أن الأصنام جند محضرون لعذاب المشركين في الآخرة والأول أرجح ، لأنه تقبيح لحال المشركين ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم معللة لما بعدها .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ هذه الآية وما بعدها إلى آخر السورة براهين على الحشر يوم القيامة ، ورد على من أنكر ذلك ، والنطفة هي نطفة المني التي خلق الإنسان منها ، ولا شك أن الإله الذي قدر على خلق الإنسان من نطفة قادر على أن يخلقه مرة أخرى عند البعث وسبب الآية أن العاصي بن وائل جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال : يا محمد من يحيي هذا ؟ وقيل إن الذي جاء بالعظم أمية بن خلف وقيل : أبي بن خلف فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله يحييه ويميتك ثم يحييك ويدخلك جهنم ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أي متكلم قادر على الخصام يبين ما في نفسه بلسانه .

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾ إشارة إلى قول الكافرين : من يحيي هذا العظم ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ

﴾ أي نسي الاستدلال بخلقته الأولى على بعثه ، والنسيان هنا يحتمل أن يكون بمعنى الذهول أو الترك ﴿ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ أي بالية متفتتة ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ استدلال بالخلقة الأولى على البعث ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أي يعلم كيف يخلق كل شيء فلا يصعب عليه بعث الأجساد بعد فنائها ، والخلق هنا يحتمل أن يكون مصدراً أو بمعنى المخلوق .

(193/649)

---

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً ﴾ هذا دليل آخر على إمكان البعث ، وذلك أن الذين أنكروه من الكفار والطبائعيين قالوا كذلك طبع الموت يضاد طبع الحياة فكيف تصير العظام حية ؟ فأقام الله عليهم الدليل من الشجر الأخضر الممتلئ ماء ، مع مضادة طبع الماء للنار . ويعني بالشجر زناد العرب وهو شجر المرخ والعفار ، فإنه يقطع من كل واحد منهما غصناً أخضر يقطر منه الماء ، فيسحق المرخ على العفار فتنقدح النار بينهما : قال ابن عباس : ليس من شجرة إلا وفيها نار إلا العناب ، ولكنه في المرخ والعفار أكثر .
﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السماوات وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بلى ﴾ هذا دليل آخر على البعث ، بأن الإله الذي قدر على خلق السموات والأرض على عظمهما وكبر

أجرامهما قادر على أن يخلق أجساد بني آدم بعد فنائها ، والضمير في مثلهم يعود على الناس ﴿ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ ذكر في هذه الأسمين أيضاً استدلال على البعث ، وكذلك في قوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ لأن هذا عبارة عن قدرته على جميع الأشياء ولا شك أن الخلاق العليم القدير لا يصعب عليه إعادة الأجساد .

﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ في هذا استدلال على البعث ، وتنزيه لله عما نسبه الكفار إليه من العجز عن البعث ، فإنهم ما قدروا الله حق قدره ، وكل من أنكر البعث فإنما أنكره لجهله بقدرة الله سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 3 صـ 167.165 ﴾

(194/649)

---

وقال النسفى :

﴿ألم أعهد إليكم ﴾

وعن الضحاك : لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى ولا يرى أبداً ويقول لهم يوم القيامة ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بنى ءَادَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ العهد الوصية وعهد إليه إذا وصاه وعهد الله إليهم ما ركزه فيهم من أدلة العقل وأنزل عليهم من دلائل

السمع ، وعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم ﴿ وَأَنِ اعبدونى ﴾ وحدوني وأطيعوني ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمن ﴿ صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي صراط بليغ في استقامته ولا صراط أقوم منه ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جبلاًّ ﴾ بكسر الجيم والباء والتشديد : مدني وعاصم وسهل ﴿ جبلاًّ ﴾ بضم الجيم والباء والتشديد : يعقوب ﴿ جُبْلاًّ ﴾ مخففاً : شامي وأبو عمرو.

و ﴿ جُبُلاًّ ﴾ بضم الجيم والباء وتخفيف اللام : غيرهم ، وهذه لغات في معنى الخلق ﴿ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾ استفهام تقريع على تركهم الانتفاع بالعقل ﴿ هذه جَهَنَّمُ التى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ بها ﴿ اصلوها اليوم بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ادخلوها بكفركم وإنكاركم لها.

﴿ اليوم نَخْتِمُ على أفواههم ﴾ أي نمنعهم من الكلام ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ يروى أنهم يجحدون ويخاصمون فتشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم فيحلفون ما كانوا مشركين ، فحينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم ، وفي الحديث " يقول العبد يوم القيامة إني لا أجيز عليّ إلا شاهداً من نفسي فيختم على فيه ويقال لأركانه : أنطقي فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل " ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا على أَعْيُنِهِمْ ﴾ لأعميناهم وأذهبنا أبصارهم.

والطمس تعفيه شق العين حتى تعود ممسوحة ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ على حذف الجار وإيصال الفعل والأصل فاستبقوا إلى الصراط ﴿ فأنى يُبْصِرُونَ ﴾ فكيف يبصرون حينئذ وقد طمسنا أعينهم ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لمسخناهم ﴾ قردة أو خنازير أو حجارة ﴿ على مكانتهم ﴾ ﴿ على مكاناتهم ﴾ أبو بكر وحماد .

والمكانة والمكان واحد كالمقامة والمقام أي لمسخناهم في منازلهم حيث يجترحون المآثم ﴿ فَمَا استطاعوا مُضِيّاً وَلاَ يَرْجِعُونَ ﴾ فلم يقدروا على ذهاب ولا مجيء أو مضياً أمامهم ولا يرجعون خلفهم .

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ ﴾ عاصم وحمزة ، والتنكيس : جعل الشيء أعلاه أسفله ، الباقون ﴿ نَنْكُسه ﴾ ﴿ فِى الخلق ﴾ أي نقلبه فيه بمعنى من أطلنا عمره نكسنا خلقه فصار بدل القوة ضعفاً وبدل الشباب هرماً ، وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده وخلو من عقل وعلم ثم جعلناه يتزايد إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته ويعقل ويعلم ما له وما عليه ، فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقض حتى يرجع إلى حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله قال عز

وجل :

﴿ وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العمرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ [ الحج : 5 ] ﴿ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أن من قدر على أن ينقلهم من الشباب إلى الهرم ومن القوة إلى الضعف ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز ، قادر على أن يطمس على أعينهم ويمسخهم على مكانتهم ويبعثهم بعد الموت .

وبالتاء : مدني ويعقوب وسهل .

وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاعر فنزل ﴿ وَمَا علمناه الشعر ﴾ أي وما علمنا النبي عليه السلام قول الشعراء أو وما علمناه بتعليم القرآن الشعر على معنى أن القرآن ليس بشعر فهو كلام موزون مقفى يدل على معنى ، فأين الوزن وأين التقفية ؟ .

(196/649)

---

فلا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققته ﴿ وَمَا يَنبَغِى لَهُ ﴾ وما يصح له ولا يليق بحاله ولا يتطلب لو طلبه أي جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ولم يتسهل كما جعلناه أمياً لا يهتدي إلى الخط لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض وأما قوله :

أنا النبي لا كذب . . .

أنا ابن عبد المطلب

وقوله :

هل أنت إلا أصبع دميت . . .

وفي سبيل الله ما لقيت

فما هو إلا من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السليقة من غير صنعة فيه ولا تكلف إلا أنه اتفق من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه أن جاء موزوناً كما يتفق في خطب الناس ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة ، ولا يسميها أحد شعراً لأن صاحبه لم يقصد الوزن ولا بد منه ، على أنه عليه السلام قال "لقيت" بالسكون ، وفتح الباء في "كذب" وخفض الباء في "المطلب" ولما نفى أن يكون القرآن من جنس الشعر قال ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي المعلم ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ما هو إلا ذكر من الله يوعظ به الإنس والجن ، وما هو إلا قرآن كتاب سماوي يقرأ في المحاريب ويتلى في المتعبدات وينال بتلاوته والعمل به فوز الدارين ، فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ القرآن أو الرسول ﴿ لِّتُنذِرَ ﴾ مدني وشامي وسهل ويعقوب ﴿ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ عاقلاً متأملاً لأن الغافل كالميت أو حياً بالقلب ، ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ ﴾ وتجب كلمة العذاب ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ الذين لا يتأملون وهم في حكم الأموات .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أنعاما ﴾ أي مما تولينا نحن إحداثه ولم يقدر على توليه غيرنا ﴿ فَهُمْ لَهَا مالكون ﴾ أي خلقناها لأجلهم فملكناها إياهم فهم متصرفون فيها تصرف الملاك مختصون بالانتفاع بها أو فهم لها ضابطون قاهرون ﴿ وذللناها لَهُمْ ﴾ وصيرناها منقادة لهم وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذليله تعالى وتسخيره لها ، ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة ويسبح بقوله ﴿ سبحان الذى سَخَّرَلَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف : 13] ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ وهو ما يركب ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أي سخرناها لهم ليركبوا ظهرها ويأكلوا لحمها ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا منافع ﴾ من الجلود والأوبار وغير ذلك ﴿ ومشارب ﴾ من اللبن وهو جمع مشرب وهو موضع الشرب أو الشراب ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ الله على إنعام الأنعام ﴿ واتخذوا مِن دُونِ الله ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي لعل أصنامهم تنصرهم إذا حزبهم أمر ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي آلهتهم ﴿ نَصْرَهُمْ ﴾ نصر عابديهم ﴿ وَهُمْ لَهُمْ ﴾ أي الكفار للأصنام ﴿ جُندٌ ﴾ أعوان وشيعة ﴿ مُّحْضَرُونَ ﴾ يخدمونهم ويذبون عنهم ، أو اتخذوهم لينصروهم عند الله ويشفعوا لهم والأمر على خلاف ما توهموا حيث هم يوم القيامة جند معدون لهم محضرون لعذابهم لأنهم يجعلون وقود النار ﴿ فَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ وبضم الياء وكسر الزاي : نافع من حزنه وأحزنه يعني فلا يهمك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم .

﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ من عداوتهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وإنا مجازوهم عليه فحق مثلك أن يتسلى بهذا الوعيد ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتى ينقشع عنه الهم ولا يرهقه الحزن .

(198/649)

---

ومن زعم أن من قرأ ﴿ إِنا نعلم ﴾ بالفتح فسدت صلاته وإن اعتقد معناه كفر فقد أخطأ ، لأنه يمكن حمله على حذف لام التعليل وهو كثير في القرآن والشعر وفي كل كلام ، وعليه تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم " أن الحمد والنعمة لك " كسر أبو حنيفة وفتح الشافعي رحمة الله عليهما ، وكلاهما تعليل .

فإن قلت : إن كان المفتوح بدلاً من ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ كأنه قيل : فلا يحزنك أنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ففساده ظاهر .

قلت : هذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول ، فقد تبين أن تعلق الحزن بكون الله عالماً وعدم تعلقه لا يدوران على كسر "إن" وفتحها ، وإنما يدوران على تقديرك فتفصل إن فتحت ب "أن" تقدر معنى التعليل ولا تقدر معنى البدل كما أنك تفصل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت ولا تقدر معنى المفعولية .

ثم إن قدرته كاسراً أو فاتحاً على ما عظم فيه الخطب ذلك القائل فما فيه إلا نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحزن على علمه تعالى بسرهم وعلانيتهم ، والنهي عن حزنه ليس إثباتاً لحزنه بذلك كما في قوله :

﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [ القصص : 86 ] ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [ الأنعام : 14 ] ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ [ القصص : 88 ] .

(199/649)

---

ونزل في أبي بن خلف حين أخذ عظماً بالياً وجعل يفته بيده ويقول : يا محمد أترى الله يحيي هذا بعدما رم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " "نعم ويبعثك ويدخلك جهنم" " ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ مذرة خارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ بين الخصومة أي فهو على مهانة أصله ودناءة أوله يتصدى لمخاصمة ربه وينكر قدرته على إحياء الميت بعد ما رمت عظامه ، ثم يكون خصامه في ألزم وصف له وألصقه به وهو كونه منشأ من موات وهو ينكر إنشاءه من موات وهو غاية المكابرة ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾ بفته العظم ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ من المني فهو أغرب من إحياء العظم ، المصدر مضاف إلى المفعول أي خلقنا إياه ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ

وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ هو اسم لما بلي من العظام غير صفة كالرمة والرفات ولهذا لم يؤنث ، وقد وقع خبراً لمؤنث ومن يثبت الحياة في العظام ويقول إن عظام الميتة نجسة لأن الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها يتشبث بهذه الآية وهي عندنا طاهرة ، وكذا الشعر والعصب لأن الحياة لا تحلها فلا يؤثر فيها الموت .

والمراد بإحياء العظام في الآية ردها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حي حساس ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا ﴾ خلقها ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي ابتداء ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ ﴾ مخلوق ﴿ عَلِيمٌ ﴾ لا تخفى عليه أجزاؤه وإن تفرقت في البر والبحر فيجمعه ويعيده كما كان ﴿ الذى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشجر الأخضر نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْه تُوقِدُونَ ﴾ تقدحون .

(200/649)

---

ثم ذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر مع مضادة النار الماء وانطفائها به وهي الزناد التي تورى بها الأعراب وأكثرها من المرخ والعفار ، وفي أمثالهم "في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار" لأن المرخ شجر سريع الوري ، والعفار شجر تقدح منه النار ، يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهي أنثى فتنقدح النار بإذن الله .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ليس من شجرة إلا وفيها النار إلا العناب لمصلحة الدق للثياب ، فمن قدر على جمع الماء والنار في الشجر قدر على المعاقبة بين الموت والحياة في البشر ، وإجراء أحد الضدين على الآخر بالعقيب أسهل في العقل من الجمع معاً بلا ترتيب .

والأخضر على اللفظ وقريء الخضراء على المعنى .

ثم بين أن من قدر على خلق السماوات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خلق الأناسيّ أقدر بقوله ﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السماوات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ في الصغر بالإضافة إلى السماوات والأرض أو أن يعيدهم لأن المعاد مثل للمبتدأ وليس به ﴿ بلى ﴾ أي قل بلى هو قادر على ذلك ﴿ وَهُوَ الخلاق ﴾ الكثير المخلوقات ﴿ العليم ﴾ الكثير المعلومات ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ ﴾ شأنه ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن ﴾ أن يكونه ﴿ فَيَكُونُ ﴾ فيحدث أي فهو كائن موجود لا محالة .

(201/649)

---

فالحاصل أن المكونات بتخليقه وتكوينه ولكن عبر عن إيجاده بقوله ﴿ كُن ﴾ من غير أن كان منه كاف ونون وإنما هو بيان لسرعة الإيجاد كأنه يقول : كما لا يثقل قول "كن" عليكم

فكذا لا يثقل على الله ابتداء الخلق وإعادتهم ، ﴿ فيكون ﴾ شامي وعلي عطف على ﴿ يقول ﴾ ، وأما الرفع فلأنها جملة من مبتدأ وخبر لأن تقديرها "فهو يكون" معطوفة على مثلها وهي "أمره أن يقول له كن" ﴿ فسبحان ﴾ تنزيه مما وصفه به المشركون وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا ﴿ الذى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي ملك كل شيء . وزيادة الواو والتاء للمبالغة يعني هو مالك كل شيء ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تعادون بعد الموت بلا فوت ، ﴿ تَرجعون ﴾ : يعقوب .

قال عليه الصلاة والسلام "إن لكل شيء قلباً وإن قلب القرآن يس" "من قرأ يس يريد بها وجه الله غفر الله له وأعطي من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة" وقال عليه السلام "من قرأ يس أمام حاجته قضيت له" وقال عليه السلام "من قرأها إن كان جائعاً أشبعه الله ، وإن كان ظمآن أرواه الله ، وإن كان عرياناً ألبسه الله ، وإن كان خائفاً أمنه الله ، وإن كان مستوحشاً آنسه الله ، وإن كان فقيراً أغناه الله ، وإن كان في السجن أخرجه الله ، وإن كان أسيراً خلصه الله ، وإن كان ضالاً هداه الله ، وإن كان مديوناً قضى الله دينه من خزائنه" وتدعى الدافعة والقاضية تدفع عنه كل سوء وتقضي له كل حاجة والله أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 15.11 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي ءَادَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان ﴾

من جملة ما يقال لهم تقريعاً وإلزاماً للحجة ، وعهده إليهم ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادته الزاجرة عن عبادة غيره وجعلها عبادة الشيطان ، لأنه الآمر بها والمزين لها ، وقرىء ﴿ أَعْهَدْ ﴾ بكسر حرف المضارعة و"أحهد" و"أحد" على لغة بني تميم .

﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ تعليل للمنع عن عبادته بالطاعة فيما يحملهم عليه .

﴿ وَأَنِ اعبدونى ﴾ عطف على ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ ﴾ . ﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم أو إلى عبادته ، فالجملة استئناف لبيان المقتضي للعهد بشقيه أو بالشق الآخر ، والتنكير للمبالغة والتعظيم ، أو للتبعيض فإن التوحيد سلوك بعض الطريق المستقيم .

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾ رجوع إلى بيان معاداة الشيطان مع ظهور عداوته ووضوح إضلاله لمن له أدنى عقل ورأي والجبل الخلق ، وقرأ يعقوب بضمتين وابن كثير وحمزة والكسائي بهما مع تخفيف اللام وابن عامر وأبو عمرو بضمة وسكون مع التخفيف والكل لغات ، وقرىء ﴿ جِبِلاًّ ﴾ جمع جبلة كخلقة وخلق و"جيلاً" واحد

الأجيال .

﴿ هذه جَهَنَّمُ التى كُنتُمْ توعَدُونَ ﴾ .

﴿ اصلوها اليوم بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ذوقوا حرها اليوم بكفركم في الدنيا .

﴿ اليوم نَخْتِمُ على أفواههم ﴾ نمنعها عن الكلام . ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ بظهور آثار المعاصي عليها ودلالتها على أفعالها ، أو إنطاق الله إياها وفي الحديث " إنهم يجحدون ويخاصمون فيختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وأرجلهم " .

(203/649)

---

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا على أَعْيُنِهِمْ ﴾ لمسحنا أعينهم حتى تصير ممسوحة . ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ فاستبقوا إلى الطريق الذي اعتادوا سلوكه ، وانتصابه بنزع الخافض أو بتضمين الاستباق معنى الابتدار ، أو جعل المسبوق إليه مسبوقاً على الاتساع أو بالظرف . ﴿ فأنى يُبْصِرُونَ ﴾ الطريق وجهة السلوك فضلاً عن غيره .

﴿ وَلَوْ نَشَاء لمسخناهم ﴾ بتغيير صورهم وإبطال قواهم . ﴿ على مكانتهم ﴾ مكانهم بحيث يجمدون فيه ، وقرأ أبو بكر "مكاناتهم" . ﴿ فَمَا استطاعوا مُضِيّاً ﴾ ذهاباً . ﴿ وَلاَ يَرْجِعُونَ ﴾ ولا رجوعاً فوضع الفعل موضعه للفواصل ، وقيل ﴿ لاَ

يَرْجِعُونَ ﴾ عن تكذيبهم ، وقرئ ﴿ مُضِياً ﴾ بإتباع الميم الضاد المكسورة لقلب الواو ياء كالمعتى والمعتي ومضياً كصبي ، والمعنى أنهم بكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم أحقاء بأن يفعل بهم ذلك لكنا لم نفعل لشمول الرحمة لهم واقتضاء الحكمة إمهالهم .

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ ﴾ ومن نطل عمره . ﴿ نُنَكِّسْهُ فِى الخلق ﴾ نقلبه فيه فلا يزال يتزايد ضعفه وانتقاض بنيته وقواه عكس ما كان عليه بدء أمره ، وابن كثير على هذه يشبع ضمة الهاء على أصله ، وقرأ عاصم وحمزة "نُنَكِّسْهُ" من التنكيس وهو أبلغ والنكس أشهر .

﴿ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أن من قدر على ذلك قدر على الطمس والمسخ فإنه مشتمل عليهما ويزاد غير أنه على تدرج ، وقرأ نافع برواية ابن عامر وابن ذكوان ويعقوب بالتاء لجري الخطاب قبله .

﴿ وَمَا علمناه الشعر ﴾ رد لقولهم إن محمداً شاعر أي ما علمناه الشعر بتعليم القرآن ، فإنه لا يماثله لفظاً ولا معنى لأنه غير مقفى ولا موزون ، وليس معناه ما يتوخاه الشعراء من التخيلات المرغبة والمنفرة ونحوها . ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ وما يصح له الشعر ولا يتأتى له إن أراد قرضه على ما خبرتم طبعه نحواً من أربعين سنة ، وقوله عليه الصلاة والسلام :

"أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب" وقوله :

هَلْ أَنْتَ إلا إِصبعٌ دَميت . . . وفي سَبِيلِ اللهِ مَا لقيتِ

اتفاقيٌ من غير تكلف وقصد منه إلى ذلك ، وقد يقع مثله كثيراً في تضاعيف المنثورات على أن الخليل ما عد المشطور من الرجز شعراً ، هذا وقد روي أنه حرك الباءين وكسر التاء الأولى بلا إشباع وسكن الثانية ، وقيل الضمير لل ﴿ قُرْءانَ ﴾ أي وما يصح للقرآن أن يكون شعراً . ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ ﴾ عظة وإرشاد من الله تعالى . ﴿ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ وكتاب سماوي يتلى في المعابد ، ظاهر أنه ليس من كلام البشر لما فيه من الإِعجاز .

﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ القرآن أو الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده قراءة نافع وابن عامر ويعقوب بالتاء . ﴿ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ عاقلاً فهما فإن الغافل كالميت ، أو مؤمناً في علم الله تعالى فإن الحياة الأبدية بالإِيمان ، وتخصيص الإِنذار به لأنه المنتفع به . ﴿ وَيَحِقَّ القول ﴾ وتجب كلمة العذاب .

﴿ عَلَى الكافرين ﴾ المصرين على الكفر ، وجعلهم في مقابلة من كان حياً إشعاراً بأنهم لكفرهم وسقوط حجتهم وعدم تأملهم أموات في الحقيقة .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ مما تولينا إحداثه ولم يقدر على إحداثه غيرنا ، وذكر الأيدي وإسناد العمل إليها استعارة تفيد مبالغة في الاختصاص ، والتفرد بالإِحداث . ﴿ أنعاما ﴾ خصها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة وكثرة المنافع . ﴿ فَهُمْ

لَهَا مالكون ﴾ متملكون لها بتمليكنا إياها ، أو متمكنون من ضبطها والتصرف فيها بتسخيرنا إياها لهم قال :

أَصْبَحْتُ لاَ أَحْمِلُ السِّلاَحَ ولاَ . . . أَمْلِكُ رَأْسَ البَعِيرِ إِنْ نَفَرَا

﴿ وذللناها لَهُمْ ﴾ وصيرناها منقادة لهم . ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ مركوبهم ، وقرىء "ركوبتهم" ، وهي بمعناه كالحلوب والحلوبة ، وقيل جمعه وركوبهم أي ذو ركوبهم أو فمن منافعها ﴿ رَكُوبُهُمْ ﴾ . ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أي ما يأكلون لحمه .

(205/649)

---

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا منافع ﴾ من الجلود والأصواف والأوبار . ﴿ ومشارب ﴾ من اللبن جمع مشرب بمعنى الموضع ، أو المصدر وأمال الشين ابن عامر وحده برواية هشام . ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ نعم الله في ذلك إذ لولا خلقه لها وتذليله إياها كيف أمكن التوسل إلى تحصيل هذه المنافع المهمة .

﴿ واتخذوا مِن دُونِ الله ءَالِهَةً ﴾ أشركوها به في العبادة بعد ما رأوا منه تلك القدرة الباهرة والنعم المتظاهرة ، وعلموا أنه المتفرد بها . ﴿ لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ رجاء أن ينصروهم فيما حزبهم من الأمور والأمر بالعكس لأنهم .

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ ﴾ لآلهتهم . ﴿ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ معدون لحفظهم والذب عنهم ، أو ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ أثرهم في النار .

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ ﴾ فلا يهمنك ، وقرىء بضم الياء من أحزن . ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ في الله بالإلحاد والشرك ، أو فيك بالتكذيب والتهجين . ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فنجازيهم عليه وكفى ذلك أن تتسلى به ، وهو تعليل للنهي على الاستئناف ولذلك لو قرىء ﴿ أَنَّا ﴾ بالفتح على حذف لام التعليل جاز .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسانُ أَنَّا خلقناه مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ تسلية ثانية بتهوين ما يقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر ، وفيه تقبيح بليغ لإنكاره حيث عجب منه وجعله إفراطاً في الخصومة بينا ومنافاة لجحود القدرة على ما هو أهون مما عمله في بدء خلقه ، ومقابلة النعمة التي لا مزيد عليها وهي خلقه من أخس شيء وأمهنه شريفاً مكرماً بالعقوق والتكذيب . روي "أن أبي بن خلف أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم بال يفتته بيده وقال : أترى الله يحيي هذا بعد ما رم ، فقال عليه الصلاة والسلام : " نعم ويبعثك ويدخلك النار فنزلت" وقيل معنى ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ فإذا هو بعد ما كان ماء مهيناً مميز منطيق قادر على الخصام معرب عما في نفسه .

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً ﴾ أمراً عجيباً وهو نفي القدرة على إحياء الموتى ، أو تشبيهه بخلقه بوصفه بالعجز عما عجزوا عنه . ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ خلقنا إياه . ﴿ قَالَ مَن يُحيِي العظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ منكراً إياه مستبعداً له ، والرميم ما بلي من العظام ، ولعله فعيل بمعنى فاعل من رم الشيء صار اسماً بالغلبة ولذلك لم يؤنث ، أو بمعنى مفعول من رممته . وفيه دليل على أن العظم ذو حياة فيؤثر فيه الموت كسائر الأعضاء .

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فإن قدرته كما كانت لامتناع التغير فيه والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ يعلم تفاصيل المخلوقات بعلمه وكيفية خلقها ، فيعلم أجزاء الأشخاص المتفتتة المتبددة أصولها وفصولها ومواقعها وطريق تمييزها ، وضم بعضها إلى بعض على النمط السابق وإعادة الأعراض والقوى التي كانت فيها أو إحداث مثلها .

﴿ الذي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشجر الأخضر ﴾ كالمرخ والعفار . ﴿ نَارًا ﴾ بأن يسحق المرخ على العفار وهما خضراوان يقطر منهما الماء فتنقدح النار . ﴿ فَإِذَا أَنتُم مِّنْه تُوقِدُونَ ﴾ لا تشكون فإنها نار تخرج منه ، ومن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفيتها كان أقدر على إعادة الغضاضة فيما كان غضاً فيبس وبلي ، وقرىء من "الشجر الخضراء" على المعنى كقوله ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ ﴿ أَوَلَيْسَ

الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ مع كبر جرمهما وعظم شأنهما . ﴿ بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ في الصغر والحقارة بالإضافة إليهما ، أو مثلهم في أصول الذات وصفاتها وهو المعاد ، وعن يعقوب "يقدر" .

﴿ بلى ﴾ جواب من الله تعالى لتقرير ما بعد النفي مشعر بأنه لا جواب سواه . ﴿ وَهُوَ الخلاق العليم ﴾ كثير المخلوقات والمعلومات .

(207/649)

---

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ ﴾ إنما شأنه . ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن ﴾ أي تكون . ﴿ فَيَكُونُ ﴾ فهو يكون أي يحدث ، وهو تمثيل لتأثير قدرته في مراده بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة قطعاً لمادة الشبهة ، وهو قياس قدرة الله تعالى على قدرة الخلق ، ونصبه ابن عامر والكسائي عطفاً على ﴿ يقُولُ ﴾ .

﴿ فسبحان الذى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ تنزيه عما ضربوا له ، وتعجيب عما قالوا فيه معللاً بكونه مالكاً للأمر كله قادراً على كل شيء . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وعد ووعيد للمقرين والمنكرين ، وقرأ يعقوب بفتح التاء . وعن ابن عباس رضي الله عنه : كنت لا أعلم

ما روي في فضل يس كيف خصت به فإذا أنه بهذه الآية . وعنه عليه الصلاة والسلام " إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس ، وأيما مسلم قرأها يريد بها وجه الله غفر الله له وأعطي من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة ، وأيما مسلم قرئ عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً يصلون عليه ويستغفرون له ، ويشهدون غسله ويشيعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه ، وأيما مسلم قرأ يس وهو في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان بشربة من الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبض روحه وهو ريان ، ويمكث في قبره وهو ريان ، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 438 ـ 444 ﴾



---

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) ﴾

التفسير : لما بين الآيات المذكورة حكى أنهم في غاية الجهالة ونهاية الضلالة ، لا مثل العلماء الذين يتبعون البرهان ، ولا كالعوام الذين يبنون أمورهم على الأحوط إذا أنذرهم منذر انتهوا عن ارتكاب المنهي خوفاً من تبعته وطمعاً في منفعته وإليه الإشارة بقوله ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أي في ظنكم فإن الذي لا تفيده الآيات يقيناً فلا أقل من أن يحترز من العذاب ويرجو الثواب أخذاً بطريقة الاحتياط ، ونظير الآية ما مرّ في أوّل سورة سبأ ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ [ الآية : 9 ] وعن مجاهد : اراد ما تقدّم من ذنوبكم وما تأخر . وعن قتادة : ما بين ايديكم من وقائع الأمم وما خلفكم أي من أمر الساعة . وقيل : ما بين أيديكم من أمر الساعة . وقيل : ما بين أيديكم الآخرة فإنهم مستقبلون لها ، وما خلفكم الدنيا فإنهم تاركون لها . أو ما بين أيديكم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم فإنه حاضر عندهم وما خلفكم من أمر فإنكم إذا اتقيتم تكذيب محمد لى الله عليه وسلم والحشر رحمكم الله . أو ما بين أيديكم من أنواع العذاب كالحرق والغرق المدلول عليه بقوله ﴿ وإن نشأ نغرقهم ﴾ ما خلفكم الموت الطالب لكم يدل على قوله ﴿ ومتاعاً إلى حين ﴾ وجواب " إذا " محذوف وهو لا يتقون أو يعرضون ، يدل عليه ما بعده مع زيادة فائدة هي دابهم الإعراض عند كل آية . ويحتمل أن يكون قوله ﴿ وما تأتيهم ﴾ متعلقاً بما قبله وهو قوله ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون

﴾ . ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا مانوا عنها معرضين ﴾ يعني إذا جاءتهم الرسل كذبوهم فإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها . وقوله ﴿ ألم يروا ﴾ إلى قوله ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ اعتراض . ثم أشار إلى أنهم كما يخلون بجانب التعظيم لأمر الله حيث قيل لهم اتقوا فلم يتقوا يخلون بجانب الشفقة على خلق الله ولا ينفقون إذا أمروا بالإنفاق على أنهم خوطبوا بأدنى الدرجات في التعظيم

(210/649)

---

والإشفاق ، فإن أدنى الانقياد الاتقاء من العذاب ، وأدنى الإشفاق هو إنفاق بعض ما في التصرف من مال الله ، فأين هم من معشر أقبلوا بالكلية على الله وبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله ؟ وفي قوله ﴿ مما رزقكم الله ﴾ إشارة إلى أن الله تعالى قادر على إغناء الفقير وإعطائه ولكنه جعل الغني واسطة في الإنفاق على الفقير . فالسعيد من عرف حق التوسيط وانتهز فرصة الإمكان وعلم أن الإنفاق سبب للبركة في الحال ومجلبة للثواب في المآل . وقوله ﴿ قال الذين كفروا ﴾ دون أن يقول " قالوا " تسجيل عليهم بالكفر . وقوله ﴿ للذين آمنوا ﴾ مزيد تصوير لجهالتهم حين قالوا لهؤلاء الأشراف ما قالوا . وقوله ﴿

أطعم ﴾ دون " أننفق " إظهار لغاية خستهم فإن الإطعام أدون من الإنفاق ومن بخل بالأدون فهو بأن يبخل بالأكثر أولى .

(211/649)

---

وقوله ﴿ من لو يشاء الله أطعمه ﴾ كلام في نفسه حسن لكنهم ذكروه في معرض الدفع فلهذا استوجبوا الذم وقد بين الله خطأهم بقوله ﴿ مما رزقكم الله ﴾ فإن من في خزائنه مال وله في يد الغير مال فإنه مخير إن اراد أعطى زيداً مما في خزائنه وإن شاء أعطاه مما في يد الغير وليس لذلك الغير أن يقول لم أحلته عليّ . وقوله ﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ بناء على ما اعتقدوه أن الأمر بالإنفاق ضائع ، لأنه سعي في إبطال مشيئة الله ولم يعلموا أن الضلال لا يتعدّاهم ايه سلكوا ، وذلك أنهم لم ينظروا إلى الأمر والطلب وبادروا إلى الاعتراض ، والطاعة هي اتباع الأمر لا الاستكشاف عن الغرض والغاية . ومن جملة تعنتهم أنهم استبطؤا الموعود على التقاء والإنفاق قائلين ﴿ إن كنتم ﴾ أيها المدّعون للرسالة ﴿ صادقين ﴾ فأخبرونا متى يكون هذا الموعود به من الثواب والعقاب فأجابهم الله تعالى بقوله ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة ﴾ كأنهم بالاستبطاء كانوا منتظرين شيئاً . وتنكير صيحة للتهويل ووصفها بواحدة تعظيم للصيحة وتحقير لشأنهم أي صيحة

لا يحتاج معها إلى ثانية ، وفي قوله ﴿ تأخذهم ﴾ أي تعمهم بالأخذ مبالغة أخرى ، وكذا في قوله ﴿ وهم يخصمون ﴾ أي يشتغلون بمتاجرهم ومعاملاتهم وسائر ما يتخاصمون فيه ومع ذلك يصعقون . وقيل : تأخذهم وهم يختصمون في أمر البعث قائلين إنه لا يكون . ثم بالغ في شدّة الأخذ بقوله ﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ وفي قوله ﴿ لا يستطيعون ﴾ دون أن يقول " فلا يوصون " مبالغة لأن من لا يوصي قد يستطيعها ، وكذلك في تنكير توصية الدال على التقليل ، وكذا في نفس التوصية لأنها بالقول والقول يوجد أسرع من الفعل من أداء الواجبات وردّ المظالم ، وقد تحصل التوصية بالإشارة فالعاجز عنها عاجز عن غيرها . وفي قوله ﴿ ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ بيان لشدّة الحاجة إلى التوصية فإن الذي يقطع بعدم الوصول إلى أهله كان إلى الوصية أحوج . وفيه تنبيه على أن الميت لا رجوع له إلى

*(212/649)*

---

الدنيا ولا اجتماع له بأهله مرة أخرى إلى حين يبعثون . ثم بين حال النفخة الثانية ، والأجداث القبور والنسلان العدو . وكيف صارت النفختان مؤثرتين في أمرين متضادين الإماتة والإحياء ؟ نقول : لا مؤثر إلا الله ، والنفخ علامة على أن الصوت يوجد التزلزل وأنه

قد يصير سبباً لافتراق الأجزاء المجتمعة تارة ولاجتماع المتفرقة أخرى. ثم إن أجزاء كل بدن قد تحصل في موضع هو بمنزلة جدثه، أو أعطى للأكثر حكم الكل. وذكر الرب في هذا الموضع للتخجيل فإن من أساء واضطر إلى الحضور عند من أحسن إليه كان أشدّ ألماً وأكثر ندماً. وقوله ﴿ ينسلون ﴾ لا ينافي قوله في موضع آخر

﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ [ الزمر : 68 ] فلعل ذلك في أول الحالة ثم يحصل لهم سرعة المشي من غير اختيارهم. ويمكن أن يقال : إن هيئة الانتظار ليست بمنافاة للمشي بل مؤكدة له ومعينة عليه. وفي " إذا " المفاجأة إشارة إلى أن الإحياء والتركيب والقيام والعدو كلها تقع في زمان النفخ.

(213/649)

---

ثم بين أنهم قبل النسلان ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ كأنهم شكوا في أنهم كانوا موتى فبعثوا أو كانوا نياماً فتنبهوا فجمعوا في السؤال بين الأمرين : البعث والمرقد. عن مجاهد : للكفار. هجعة يجدون فيها طعم النوم فإذا صيح بأهل القبور قالوا ذلك، ثم أجابهم الملائكة في رواية ابن عباس، والمتقون على قول الحسن ﴿ هذا ما وعد الرحمن ﴾ كأنه قيل : ليس بالبعث الذي عرفتموه وهو بعث النائم من مرقده حتى يهمكم السؤال

عن الباعث أن هذا هو البعث الأكبر الذي وعده الرحمن في كتبه المنزلة على لسان رسله الصادقين. والظاهر أن ﴿ هذا ﴾ مبتدأ ﴿ وما وعد الرحمن ﴾ إلى آخره خبره، و " ما " مصدرية أي هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالمصدر. ويجوز أن يكون " ما " موصولة أي هذا الذي وعده الرحمن وصدقه المرسلون أي صدقوا فيه. وجوّز جار الله أن يكون ﴿ هذا ﴾ صفة للمرقد و ﴿ ما وعد ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا وعد الرحمن، أو مبتدأ محذوف الخبر أي ما وعده الرحمن وصدقه المرسلون حق عليكم. وقيل: إن قوله ﴿ هذا ما وعد الرحمن ﴾ من كلام الكافرين كأنهم تذكروا ما سمعوا من الرسل فأجابوا به انفسهم، أو أجاب بعضهم بعضاً، ثم عظم شأن الصيحة بالنسبة إلى المكلفين وحقر أمرها بالإضافة إلى الجبار قائلاً ﴿ إن كانت إلا صيحة ﴾ الآية. وقد مر نظيره. ثم بين ما يكون في ذلك اليوم قائلاً ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون ﴾ أيها الكافرون ﴿ إلا ما كنتم تعملون ﴾ وفيه إشارة إلى أن عدله عام وفضله خاص بأهل الإيمان وفيه أنهم إذا جمعوا لم يجمعوا إلا للعدل أو الفضل فالفاء فيه كما في قول القائل للوالي أو للقاضي: جلست للعدل فلا تظلم. أي ذلك يقتضي هذا ويستعقبه. وقوله ﴿ ما كنتم تعملون ﴾ إشارة إلى عدم الزيادة فإن الشيء لا يزيد على عينه كقولك: فلان يجازيني حرفاً بحرف. أي لا يترك شيئاً. ويجوز أن يراد الجنس أيّ لا تجزون إلا جنس

العمل حسناً أو سيئاً . ثم فصل حال المحسنين بطريق الحكاية في ذلك اليوم تصويراً للموعود وترغيباً فيه فقال ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل ﴾ لا يكتنه كنهه وفيه وجوه أقواها أنهم مشغولون عن هول ذلك اليوم بما لهم من الكرامات والدرجات . وقوله ﴿ فاكهون ﴾ مؤكد لذلك المعنى أي شغلوا عنه باللذة والسرور با بالويل والثبور .

وثانيها أنه بيان لحالهم ولا يريد أنهم شغلوا عن شيء بل المراد أنهم في عمل ، ثم بين عملهم بأنه ليس بشاق بل هو ملذ محبوب . وثالثها أنهم تصوروا في الدنيا أموراً يطلبونها في الجنة فإذا رأوا فيها ما لم يخطر ببالهم اشتغلوا به عنها . وعن ابن عباس أن الشغل افتضاض الأبكار أو ضرب الأوتار . وقيل : التزاور . وقيل : ضيافة الله . وعن الكلبي : هم في شغل عن أهاليهم من أهل النار لا يهمهم أمرهم لئلا يدخل عليهم تنغيص من تنعمهم . والفاكه والفكه المتنعم المتلذذ ومنه الفاكهة لأنها تؤكل للتلذذ لا للتغذي والفكاهة الحديث لأجل التلذذ لا للضرورة . والأزواج ظاهرها زوج المرأة وزوجة الرجل . وقيل : أراد اشكالهم في الأحساب وأمثالهم في الإيمان كقوله ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ [ص : 58 ] قال أهل العرفان : من شرائط السماع الزمان والمكان والإخوان فقوله ﴿ هم وأزواجهم في

ظلال ﴾ إشارة إلى عدم الوجوه الموحشة وأن لهم في ظل الله ما يمنع الإيذاء كقوله ﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾ [ الدهر : 13 ] وقوله ﴿ على الأرائك متكئون ﴾ دليل على القوة والفراغة والتمكن من أنواع الملاذ . وقوله ﴿ لهم فيها فاكهة ﴾ إشارة إلى سائر أنواع الملاذ الزائدة على قدر الضرورة .

*(215/649)*

---

وقوله ﴿ ولهم ما يدّعون ﴾ إشارة إلى دفع جميع حوائجهم وما يخطر ببالهم . قال الزجاج : هو افتعل من الدعاء أي ما يدعونه أهل الجنة يأتيهم . وقال جار الله : هو للاتخاذ اي ما يدعون به أو ما يدعون به أو ما يدعون لأنفسهم كقولك : يشتوي . أي اتخذ لنفسه شواء . أو هو بمعنى التداعي . وعلى الوجهين إما أن يراد كل ما يدعو به الله أحد أو كل ما يطلبه من صاحبه فإنه يجاب له بذلك ، أو يراد أن كل ما يصح أن يدعى به ويطلب فهو حاصل لهم قبل الطلب . وقيل : معناه يتمنون من قولهم : ادّع عليّ ما شئت أي تمنه عليّ . وقيل : هو من الدعوى وذلك أنهم كانوا يدّعون في الدنيا أن الله هو مولاهم وأن الكافرين لا مولى لهم بينه قوله ﴿ سلام ﴾ يقال لهم ﴿ قولاً من رب رحيم ﴾ أي من جهته بواسطة الملائكة . وقيل : اراد لهم ما يدّعون سالم خالص لا شوب فيه . و ﴿ قولاً ﴾ اي عدة وعلى هذا

يكون قوله ﴿ لهم ﴾ للبيان و ﴿ ما يدعون سلام ﴾ مبتدأ وخبر كقولك : لزيد الشرف متوفر . وقال بعضهم : يحتمل أن يكون ﴿ قولاً ﴾ نصباً على التمييز لأن السلام من الملك قد يكون قولاً وقد يكون إشارة . وقال أهل البيان قوله ﴿ وامتازوا ﴾ معطوف على المعنى كأنه قيل : دوموا أيها المؤمنون في النعيم وامتازوا اليوم أيها المجرمون . أو قلنا لأهل الجنة : إنكم في شغل وقلنا لأهل النار : امتازوا وهو كقوله ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ [ الشورى : 7 ] أو تميزوا في أنفسكم غيظاً وحنقاً فلا دواء لألمكم ولا شفاء لسقمكم كقوله في صفة جهنم

(216/649)

---

﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ [ الملك : 8 ] أو افترقوا خلاف ما للمؤمن من الاجتماع بالإخوان فلا عذاب كفرقة الأخدان يؤيده ما روي عن الضحاك : لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى ولا يُرى . وعن قتادة : اراد اعتزلوا عن كل خير ترجون ، أو امتازوا عن شفعائكم وقرنائكم . أو المراد تميزهم بسواد الوجه وزرقة العين وبأخذ الكتاب بالشمال وبخفة الميزان وغير ذلك . وقال صاحب المفتاح : قوله ﴿ إن أصحاب الجنة ﴾ إلى آخر الآيات خطاب لأهل المحشر بدلالة الفاء في قوله ﴿ فاليوم لا تظلم ﴾ بعد قوله ﴿ إن كانت

إلا صيحة ﴾ وقد جاء في التفاسير أن قوله ﴿ إن أصحاب الجنة ﴾ إنما يقال حين يسار بهم إلى الجنة فيؤل معنى الكلام إلى قول القائل إن اصحاب الجنة منكم يا أهل المحشر يؤل حالهم إلى أسعد حال فليمتازوا عنكم إلى الجنة ، وامتازوا أنتم عنهم أيها المجرمون . ثم كان لسائل أن يقول : إن الإنسان خلق ظلوماً جهولاً والجهل عذر فبين الله تعالى أن الأعذار زائلة قائلاً ﴿ ألم أعهد إليكم ﴾ والآية إلى قوله ﴿ أفلم تكونوا تعقلون ﴾ شبه اعتراض ، فيه توبيخ لأهل النار وما ذلك العهد عن بعضهم أنه الذي مر ذكره في قوله ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ﴾ [ طه : 115 ] وقيل : هو المذكور في قوله ﴿ وإذ خذ ربك من بني آدم من ظهورهم ﴾ [ الأعراف : 172 ] وقيل : هو المبين على لسان الرسل . ومعنى ﴿ لا تعبدوا ﴾ لا تطيعوا ولا تنقادوا وسوسته وتزيينه . وقوله ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم من مخالفته الشيطان وعبادة الرحمن . قال أهل المعاني : التنوين في قوله ﴿ صراط ﴾ للتعظيم إذ لا صراط أقوم منه ، أو للتنويع اي هذا بعض الطرق المستقيمة ، ففيه توبيخ لهم على العدول عنه كما يقول الرجل لولده وقد نصحه النصح البالغ : هذا فيما أظن قول نافع غير ضار . وفي ذكر الصراط ههنا إشارة إلى أن الإنسان في دار التكليف مسافر والمجتاز في بادية يخاف فيها على نفسه وماله لا يكون عنده شيء أهم من معرفة

طريق قريب أمن . ثم بين لهم عدواة الشيطان بقوله ﴿ ولقد أضل منكم جبلاً ﴾ وهو في لغاته كلها بمعنى الخلق من جبله الله على كذا أي طبعه عليه . عن علي رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ جيلاً ﴾ بياء منقوطة من تحت بنقطتين . ثم أشار إلى محل امتياز المجرمين إليه بقوله ﴿ هذه جهنم ﴾ وقوله ﴿ اصلوها ﴾ أمر إهانة وتنكيل نحو ذق . وفي قوله ﴿ اليوم ﴾ إشارة إلى أن اللذات قد مضت وأيامها قد انقضت وليس بعد ذلك إلا العقاب . روى أهل التفسير أنهم يجحدون يوم القيامة كفرهم في الدنيا فحينئذ يختم على أفواههم وتتكلم جوارحهم . وفي الحديث " يقول العبد يوم القيامة إني لا أجيز شاهداً إلا من نفسي فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقي فتنطق بأعماله ثم يُخلى بينه وبين الكلام فيقول بعد الكنّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل "

قال المتكلمون : إنه لا يبعد من الله تعالى إنطاق كل جرم من الأجرام إنطاق اللسان وهو فاعل لما يشاء . قال الحكيم : إنهم لا يتكلمون بشيء لانقطاع أعذارهم وانهتاك أستارهم فيقفون ناكسي الرؤوس وقوف القنوط اليؤس . وتكلم الأعضاء عبارة عن ظهور إمارات الذنوب عليهم بحيث لا يبقى للإنكار مجال كقول القائل : الحيطان تبكي على صاحب الدار إذا ظهر أمارات الحزن وأسبابه . ثم إنه تعالى أسند الختم إلى نفسه وأسند التكلم والشهادة إلى الأيدي والأرجل لكيلا يقال : إن الإقرار بالإجبار غير مقبول . وأيضاً إنه

أسند التكلم إلى الأيدي والشهادة إلى الأرجل لأن الأعمال مستندة إلى الأيدي غالباً كقوله ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ ﴿ فبما كسبت ايديكم ﴾ [ الشورى : 30 ] فهي كالعاملة ، والشاهد على العامل ينبغي أن يكون غيره . وإنما جعلت الشهادة عليهم منهم لأن غيرهم إما صالحون وهم أعداء للمجرمين فلهم أن يقولوا شهادتهم غير مقبولة في حقنا ، وإما فاسقون وشهادة الفسقة غير مقبولة شرعاً .

(218/649)

---

وههنا نكتة وهي أن الختم لازم للكفار في الدارين ، ختم الله على قلوبهم في الدنيا وكان قولهم بأفواههم كما قال ﴿ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴾ [ آل عمران : 167 ] ثم إذا ختم على أفواههم أيضاً في الآخرة لزم أن يكون قولهم بسائر أعضائهم . هذا وقد ذكرنا مراراً أنه تعالى كلما يذكر تمسك الجبرية يذكر عقيبه تمسك القدرية وبالعكس . وكان للقدرية أن تتمسك بقوله ﴿ يكسبون ﴾ ﴿ يكفرون ﴾ حيث اسند الله الكفر والكسب إليهم فلا جرم عقبه بتمسك الجبري وهو قوله ﴿ ولو نشاء لطمسنا ﴾ ووجه التمسك أن إعماء البصائر شبه إعماء الأبصار ، وسلب القوّة العقلية كسلب القوّة الجسمية . فكما أنه لو شاء لطمس على أبصارهم حتى لا يهتدوا إلى الطريق القاهر

الظاهر ولو شاء لسلب قوّة جسومهم بالمسخ حتى لا يقدروا على تقدم ولا تأخر ، فكذلك إذا شاء أعمى البصائر وسلب قواهم العقلية حتى لم يفهموا دليلاً ولم يتفكروا في آية .

والطمس محو أثر شق العين . قال جار الله ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ أصله فاستبقوا إلى الصراط فانتصب بنزع الخافض . والمعنى لو شاء لمسح أعينهم فلو راموا أن يسبقوا إلى الصراط الذي عهدوه واعتادوا على سلوكه إلى مساكنهم لم يقدروا عليه إذ الصراط طريق الاستباق ، والاستباق مضمن معنى الابتدار . فالمراد لو شاء لأعماهم حتى لو ارادوا أن يمشوا مستبقين في الطريق المألوف أو مبتدرين إياه كما كان هجيراهم لم يتسطيعوا . أو يجعل الصراط مسبوقاً لا مسبوقاً إليه ، فالمعنى لو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذي اعتادوه لعجزوا ولم يقدروا إلى على سلوك الطريق المعتاد كالعميان يهتدون فيما ألفوا من المقاصد والجهات دون غيرها . عن ابن عباس : أراد لمسخناهم قردة وخنازير .

(219/649)

---

وقيل : حجارة . عن قتادة : لأقعدناهم على أرجلهم أو أزمناهم على أرجلهم . والمكان والمكانة واحد أراد مسخاً مجمداً بحيث لا يقدرون أن يرجعوا مكانهم . وإنما قدم الطمس على المسخ تدرّجاً من الأهون إلى الأصعب ، فإن الأعمى قد يهتدي إلى وجوه التصرف

بأمارت عقلية أو حسية غير البصر . وأما الممسوخ على مكانه فلا يهتدي إلى شيء أصلاً . ولمثل ما قلنا قدم المضيّ على الرجوع فإن سلوك طريق قد رآه مرة يكون أهون مما لم يره اصلاً ، فنفى أوّلاً استطاعة الصعب ثم نفى استطاعة الأهون أيضاً لأجل المبالغة .

وحين قطع الأعذار بسبق الإنذار وذلك في قوله ﴿ ألم أعهد إليكم ﴾ شرع في قطع عذر آخر للكافر وهو أن يقول : لم يكن لبثنا في الدنيا إلا يسيراً ولو عمرتنا لما وجدت منا تقصيراً فقال الله تعالى ﴿ ومن نعمره ننكسه في الخلق ﴾ كقوله ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ [ الحج : 5 ] ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أنكم كلما دخلتم في السن ضعفتم وقد عمرتم ما تمكنتم فيه أن النظر والعمل ، ومن لم يأت بالواجب في زمان الإمكان لم يأت به في زمن الأزمان . وعن بعضهم :

طوى العصران ما نشراه مني . . . فأبلى جدّتي نشر وطيّ

أراني كل يوم في انتقاص . . . ولا يبقى على النقصان شيّ

وقال آخر :

أرى الأيام تتركني وتمضي . . . وأوشك أنها تبقى وأمضي

علامة ذاك شيب قد علاني . . . وضعف عند إبرامي ونقضي

وما كذب الذي قد قال قبلي . . . إذا ما مر يوم مر بعضي

وحيث بين أصل الوحدانية والحشر في هذه السورة مرات أقربها قوله ﴿ وأن اعبدوني ﴾ وقوله ﴿ هذه جهنم ﴾ إلى آخرها عاد إلى أصل الرسالة بقوله ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ وإنما لم يقل وما علمناه السحر ولا الكهانة مع أنهم ادّعوا أنه ساحر كاهن لأنه ما تحدّاهم إلا بالقرآن . وإنما نسبوه إلى السحر عند إظهار فعل خارق كشق القمر وحنين الجذع إليه ، ونسبوه إلى الكهانة عند إخباره عن الغيوب وهو نوع خاص من الكلام من غير اعتبار الفصاحة اللفظية والمعنوية . قال جار الله معنى قوله ﴿ وما ينبغي له ﴾ أنه لا يتأتى له ولا يتسهل كما جعلنا أمياً لا يهتدي للخط . وروي عن الخليل أن الشعر كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام ولكن كان لا يتأتى له . قال : وما روي أنه صلى الله عليه وسلم .

أنا النبي لا كذب . . . أنا ابن عبد المطلب

وقال

:

هل أنت إلا إصبع دميت . . . وفي سبيل الله ما لقيت

كلام اتفاقي من غير قصد وتعمد ، والشعر كلام موزون مقفى مع تعمد . وقيل : أراد نفي الشعر عن القرآن فقال ﴿ وما علمناه ﴾ بتعليم القرآن ﴿ الشعر وما ينبغي ﴾ القرآن أن

يكون شعراً وأنا أقول : الأحسن أن يقال : ما ينبغي له معناه أنه لا يليق بجلالة منصبه لأن الشعر مادته كلام يفيد تأثيراً دون التصديق وهو التخييل ، وأما الوزن والقافية فهما كالصورة ويفيدانه تروجياً وتزييناً فجلّ رتبته من التخييل الذي هو قريب من المغالطة ، ولهذا لم يؤمر بأن يدعو بهما إلى سبيل ربه .



---

وإنما أمر بأن يدعو إلى الدين بأسرَ أصناف الكلام حيث قيل ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [ النحل : 125 ] ونظيره قوله ههنا ﴿ إن هو إلا ذكر ﴾ أي موعظة ﴿ وقرآن مبين ﴾ ذو البيان أو الإبانة وأنه يشمل البرهان والجدل . أما البرهان فظاهر ، وأما الجدل فلأن النتيجة إذا كانت في نفسها حقة . فالرجل العالم المحق ليس عليه إلا إفحام الخصم الألدّ وإلزامه بمقدّمات مسملة أو مشهورة ، ومما يؤيد ما ذكرنا ما روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ قول طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً . . . ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

هكذا : ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار . ولا ريب أنه كان يتأتى له رواية الشعر إن لم يتأت له

فرصة ، وما ذاك إلا للتنزه عما يشبه ما يشين رتبته ولا يوافق وغزاه . ويروى أنه صلى الله عليه وسلم حين قال :

(222/649)

---

هل أنت إلا إصبع دميت . . . انقطع الوحي أياماً حتى قالت الكفار إن محمداً قد ودعه ربه وقلاه ، وهذا أحد أسباب نزول تلك الآية . ولمثل ما قلنا لم يروَ عنه كلام منظوم وإن كان حقاً وصدقاً كالذي قاله بعض الشعراء في التوحيد والحقائق . وقد اشار إلى نحو ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم "إن من الشعر لحكمة" وقد مر في تفسير قوله سبحانه في آخر الشعراء ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [ الآية : 227 ] وذلك أن الشاعر يقصد لفظاً فيوافقه معنى حكمي . وبالجملة لا يخلو الشعر عن تكلف مّا ، وقد يدعوه النظم إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ ، فأين الشارع من الشاعر ؟ ثم بين كون القرآن منزلاً على هذا الوجه بقوله ﴿ لتنذر ﴾ يا محمد أو لينذر هو أي القرآن ﴿ من كان حياً ﴾ عاقلاً متأملاً . ويجوز أن تكون الحياة عبارة عن الإيمان ، أو المراد بالحي من يؤل حاله إلى الإيمان . أو المراد بالإنذار الانتفاع به مثل ﴿ هدى للمتقين ﴾ [ البقرة : 2 ] ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر ﴾ [ يس : 11 ] وقوله ﴿ ويحق القول ﴾ كقوله في أول السورة ﴿ لقد

حق القول ﴾ وقد مر وهذا كلام مطابق من حيث المعنى كأنه قال : لتنذر من كان حياً ويحق القول على من كان ميتاً لأن الكافر في عداد الموتى . ثم عاد إلى تقرير دلائل الوحدانية مع تعداد النعم فقال ﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت ﴾ أي من جملة ما عملته ﴿ أيدينا ﴾ فاستعار عمل الأيدي لتفرده بالأحداث والإيجاد مع اشتمال المحدث والموجد على غرائب وعجائب حتى قال فيه ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ [ الغاشية : 17 ] وقوله ﴿ فهم لها مالكون ﴾ إشارة إلى اتمام الإنعام في خلق الأنعام . وقوله ﴿ وذللناها لهم ﴾ إشارة إلى ما فوق التمام فقد يملك الشيء ولا يكون مسخراً ، ومن الذي يقدر على تذليل الإبل لولا أمر الله بتسخيرها حتى قال بعضهم :

يصرف الصبيّ بكل وجه . . . ويحبسه على الخسف الجرير

(223/649)

---

وتضربه الوليدة بالهراوي . . . فلا غير لديه ولا نكير

والجرير حبل يجعل للعبير بمنزلة العذار للدابة . ومن زعم أن الملك بمعنى الضبط من قوله : لا أملك رأس البعير أن يفر . يلزمه التكرار . ثم فصل بعض منافعها بقوله ﴿ فمنها ركوبهم ﴾ والركوب والركوبة ما يركب كالحلوب والحلوبة ، والتاء للمبالغة . وقيل : للوحدة والمنافع

كالجلود والأوبار والأصواب ، ذكرها بالاسم العام لما في تفصيلها من الطول . والمشارب جمع مشرب وهو موضع الشرب اي الأواني المتخذة من جلودها ، أو هو الشرب كالألبان والأسمان .

(224/649)

---

وحين وبخهم على عدم الشكر بقوله ﴿ أفلا يشكرون ﴾ زاد في توبيخهم بقوله ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ﴾ أي وضعوا الشرك مكان الشكر فلا أظلم منهم . وفي قوله ﴿ لعلهم ينصرون ﴾ إلى قوله ﴿ محضرون ﴾ وجهان : أحدهما أنهم طمعوا في أن يتقوّوا بهم ويعتضدوا بمكانهم والأمر عكس ذلك حيث هم جند لآلهتهم معدّون يخدمونهم ويذبون عنهم من غير نفع في آلهتهم . وثانيهما اتخذوهم لينصرونهم عند الله بالشفاعة ، والأمر على خلاف ذلك حيث إن آلهتهم يوم القيامة جند محضرون لعذابهم لأنهم يجعلون وقوداً للنار . ووجه ثالث وهو أن يكون قوله ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ تأكيداً لعدم الاستطاعة فإن من حضر واجتمع ثم عجز عن النصرة يكون في غاية الضعف بخلاف من لم يتأهب ولم يجمع أنصاره . ثم عقب دليل التوحيد بالرسالة مسلياً رسوله بقوله ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ باتخاذ الشريك لله أو بالطعن في الرسالة أو بالإيذاء في والتهديد . ثم علل

عدم الحزن بقوله ﴿ إنا نعلم ما يسرون ﴾ من النفاق وسائر العقائل الفاسدة ﴿ وما يعلنون ﴾ من الشرك وسائر الأفعال القبيحة ، أو يسرون من المعرفة بالله ويعلنون من العناد وجوّز جار الله فتح "أن" على تقدير لام التعليل ، بل جوز أن تكون المفتوحة بدلاً من ﴿ قولهم ﴾ والمكسورة مفعولاً ل ﴿ قولهم ﴾ ويكون نهي الرسول عن ذلك كنهيه عن الشرك في قوله و ﴿ تكونن من المشركين ﴾ [ الأنعام : 14 ] ثم اردف الرسالة بالحشر مع أن فيه دليلاً آخر على التوحيد مأخوذاً من الأنفس ، فإن الأول كان مأخوذاً من الآفاق . وفي قوله ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ وجهان : أحدهما فإذا هو بعد ما كان ماء مهيناً رجل مميز منطيق معرب عما في ضميره كقوله ﴿ أو من ينشؤ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ﴾ [ الزخرف : 18 ] فقوله ﴿ من نطفة ﴾ إشارة إلى أدنى ما كان عليه الإنسان وقوله ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ إشارة إلى أعلى ما حصل عليه الآن ، لأن أعلى أحوال الناطق أن يقدر على المخاصمة والذب عن



---

نفسه بالكلام الفصيح .

وثانيهما قول كثير من المفسرين إنها نزلت في جماعة من كفار قريش تكلموا في البعث فقال للهم أبيّ بن خلف الجمحي : واللات والعزى لأصيرن إلى محمد ولأخصمنه . وأخذ عظماً بالياً فجعل يفتته بيده ويقول : يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رمّ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : نعم ويبعثك ويدخلك جهنم . قال أهل البيان : سمى قولهم ﴿ من يحيي العظام وهي رميم ﴾ مثلاً لأن إنكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتى قصة عجيبة . وفيه تشبيه الخالق القادر العليم بالمخلوق العاجز عن خلق أدنى بعوضة الجاهل بما يجري عليه من الأحوال . والرميم اسم لما بلي من العظام كالرمة والرفات ولا يبعد أن يكون صفة . ولم تؤنث بتقدير موصوف محذوف أي شيء رميم ، أو لأنه بمعنى فاعل كقوله ﴿ إن رحمة الله قريب ﴾ [ الأعراف : 56 ] وفي الآية دليل ظاهر على أن عظام الميتة نجسة لأن الموت والحياة يتعاقبان عليها . وقال أصحاب أبي حنيفة : إنها طاهرة وإن الحياة لا تحل فيها فلا يتصور موتها ، وكذا الشعر والعصب . وتأوّلوا الآية بأن المراد بإحياء العظام ردّها على ما كانت عليه غضة طرية في بدن حيّ حساس . واعلم أن المنكرين للحشر منهم من اكتفى في إنكاره بمجرد الاستبعاد كقوله ﴿ من يحيي العظام وهي رميم ﴾ فأزال استبعادهم بتصوير الخلق الأول فإن الذي قدر على جعل النطفة المتشابهة الأجزاء إنساناً مختلف الأبعاض والأعضاء ، مودعاً فيه الفهم والعقل وسائر اسباب المزية والفضل ، فهو على

إعادتها أقدر . ومنهم من ذكر شبهة وهي كقولهم : إن الإنسان بعد العدم لم يبق شيئاً فكيف يصح إعادة المعدوم عقلاً ؟ أو كقولهم : إن الذي تفرقت أجزاؤه في أبدان السباع وجدران الرباع كيف يجمع ويعاد ؟ أو كقولهم إن إنساناً إذا نشأ مغتذياً بلحم إنسان آخر فلا بد أن لا يبقى للآكل وللمأكول جزء يمكن إعادته . فأجاب الله تعالى عن الأول بقوله ﴿ يحييها الذي أنشأها أوّل مرة ﴾ يعني كما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً

(227/649)

---

مذكوراً فإنه يعيده وإن لم يكن شيئاً . وعن الباقيتين بقوله ﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾ فيجمع الأجزاء المتفرقة في البقاع والسباع وهكذا يعلم الأصلي من الفضلي فيجمع الأجزاء الصلية للآكل والمأكول . ثم شبه خلق الإنسان بل الحيوان من قبل إيداع الحرارة الغريزية التي بها قوام الحياة في جوهر رطب طريّ بإنشاء الشجر الخضر الذي تنقدح منه النار . قالت العرب : في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار أي استكثر واستغزر يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ – وهو ذكر على العفار – وهي أنثى – فتنقدح النار بإذن الله عز وجل .

وعن ابن عباس : ليس من شجرة إلا وفيها نار إلا العناب قالوا : ولذلك يتخذ منه كذينقات القصارين .

(228/649)

---

قلت : ويشبه أن يكون كل شجرة في غاية الصلابة هكذا إلا أن يكون له سبب خاص به كما يروى أنه معجزة لموسى عليه السلام فإنه قد رأى النار فيها فلا ينبغي لغيره أن يراها . ثم أكد قدرته الكاملة على خلق الإنسان إبداء وإعادة بتذكر خلق السموات والأرض الذي هو أكبر من خلق الناس . ثم اثبت ما نفاه مستفهماً للتقرير بقوله ﴿ بل وهو الخلاق ﴾ الكثير الخلق الكامل فيه ﴿ العليم ﴾ بكل جوهر وعرض وما يطلق عليه اسم الشيئية . ثم بين أن إيجاده ليس متوقفاً إلا على تعلق الإرادة بالمقدور وقد مر تقريره في أوائل " البقرة " وغيرها . قالت المعتزلة : في الآية دلالة على أن المعدوم شيء . وأجيب بأن الآية دلت على أنه حين تعلق الإرادة به شيء ، أما إنه قبل ذلك شيء فكلا . ثم ختم السورة بتقرير المبدأ والمعاد على الإجمال . فقوله ﴿ بيده ملكوت كل شيء ﴾ إشارة إلى المبدأ . وقوله ﴿ وإليه ترجعون ﴾ إشارة إلى المعاد وإذا تقرر الطرفان فما بينهما الوسط المشتمل على التكاليف والرسالة ، فهذه الآية كالنتيجة للمقدمات السابقة في السورة . عن ابن عباس :

كنت لا أعلم ما روي في فضائل يس وقراءتها كيف خصت بذلك فإذا أنه لهذه الآية. روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: " ان لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس " فذكر الإمام الغزالي رضي الله عنه أن الإيمان صحته بالاعتراف بالحشر وأنه مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه فلذلك سماها قلب القرآن. وقال غيره: إن الأصول الثلاثة التي يتعلق بها نصيب الجنان وهي التوحيد والرسالة والحشر مكررة في هذه السورة. وليس فيها شيء من بيان وظيفة اللسان ولا العمل بالأركان. فلما كان أعمال القلب لا غير سماه قلباً، ولهذا ورد في الأخبار أنه ينبغي أن تقرأ على الميت حالة النزع وذلك ليزداد بها قوة قلبه، فإن الأعضاء الظاهرة وقتئذ ساقطة المنة، والقلب مقبل على الله معرض عما سواه ولنا فيه وجه هو بالتأويل أشبه فلنذكره هناك. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 5 صـ 537. 548﴾

(229/649)

---

وقال الخطيب الشربينى:

ولما أمروا بالامتياز وشخصت منهم الأبصار وكلحت الوجوه وتنكست الرؤوس قال تعالى موبخاً لهم:

﴿ألم أعهد إليكم﴾ أي: أوصيكم إيصاء عظيماً بما نصبت من الأدلة ومنحت من

العقول وبعثت من الرسل عليهم الصلاة والسلام وأنزلت من الكتب في بيان الطريق الموصل إلى النجاة.

ولما كان المقصود بهذا الخطاب تقريعهم وتبكيتهم وكانت هذه السورة قلباً وكان القلب أشرف الأعضاء وكان الإنسان أشرف الموجودات خصه بالخطاب بقوله تعالى: ﴿يا بني آدم﴾ أي: على لسان رسلي عليهم الصلاة والسلام، واختلف في معنى: هذا العهد على وجوه أقواها: ألم أوص إليكم كما مر، وقيل: آمركم، وقيل: غير ذلك، واختلفوا في هذا العهد أيضاً على أوجه:

أظهرها: أنه مع كل قوم على لسان رسلهم كما مر، وقيل: هو العهد الذي كان مع آدم في قوله تعالى ﴿ولقد عهدنا إلى آدم﴾ (طه: )

وقيل: هو الذي كان مع ذريته عليه السلام حين أخرجهم وقال ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ (الأعراف: )

﴿أن لا تعبدوا الشيطان﴾ أي: البعيد المحترق بطاعتكم فيما يوسوس به إليكم والطاعة قد تطلق على العبادة.

ثم علل النهي عن عبادته بقوله تعالى: ﴿إنه لكم﴾ والتأكيد؛ لأن أفعالهم أفعال من يعتقد صداقته ﴿عدو مبين﴾ أي: ظاهر العداوة جداً من جهة عداوته لأبيكم التي أخرجتكم من الجنة التي لا منزل أشرف منها ومن جهة أمركم بما ينغص الدنيا من التخالف

والخصام ، ومن جهة تزيينه للفاني الذي لا يرغب فيه عاقل لو لم يكن فيه عيب غير فنائه فكيف إذا كان أكثره أكداراً وأدناساً ؟ فكيف إذا كان شاغلاً عن الباقي ؟ فكيف إذا كان عائقاً عن المولى ؟ فكيف إذا كان مغضباً له حاجباً عنه ؟ فإن قيل : إذا كان الشيطان عدواً للإنسان فما بال الإنسان يقبل على ما يرضيه من الزنا ، والشرب ، ونحو ذلك ، ويكره ما يسخطه من المجاهدة ، والعبادة ونحو ذلك ؟

(230/649)

---

أجيب : بأنه يستعين عليه بأعوان من عند الإنسان وترك استعانة الإنسان بالله تعالى ، فيستعين بشهوته التي خلقها الله تعالى فيه لمصالح بقائه وبقاء نوعه ويجعلها سبباً لفساد حاله ، ويدعوه بها إلى مسالك المهالك ، وكذا يستعين بغضبه الذي خلقه الله تعالى فيه لدفع المفاسد ويجعله سبباً لوباله وفساد أحواله ، وميل الإنسان إلى المعاصي كميل المريض إلى المضار ، وذلك حيث ينحرف المزاج عن الاعتدال فترى المحموم يريد الماء البارد وهو يزيد في مرضه ومن معدته فاسدة لا تهضم القليل من الغداء يميل إلى الأكل الكثير ولا يشبع بشيء وهو يزيد فساد معدته وصحيح المزاج لا يشتهي إلا ما ينفعه .

ولما منع من عبادة الشيطان أمر بعبادة الرحمن بقوله عاطفاً على أن لا:

﴿ وأن اعبدوني ﴾ أي: وحدوني وأطيعوني ﴿ هذا ﴾ أي: الأمر بعبادتي ﴿ صراط ﴾ أي: طريق ﴿ مستقيم ﴾ أي: بليغ الاستقامة وعبادة الشيطان طريق ضيق معوج غاية الضيق والعوج، وقرأ قنبل بالسين وخلف بالإشمام أي: بين الصاد والزاي والباقون بالصاد.

ثم ذكر ما ينبه لعداوة الشيطان بقوله تعالى:

﴿ ولقد أضل منكم ﴾ أي: عن الطريق الواضح السوي بما سلطه به من الوسوسة ﴿ جبلاً ﴾ أي: أمماً كباراً عظاماً ما كانوا كالجبال في قوة العزائم وصعوبة الانقياد، ومع ذلك كان يلعب بهم كما تلعب الصبيان بالكرة، فسبحان من أقدره على ذلك وإلا فهو أضعف كيداً وأحقر أمراً، وقرأ نافع وعاصم بكسر الجيم والباء الموحدة وتشديد اللام مع التنوين، وقرأ أبو عمرو وابن عامر بضم الجيم وسكون الموحدة، والباقون بضم الجيم والموحدة وكلها لغات ومعناها: الخلق والجماعة أي: خلقاً ﴿ كثيراً ﴾ ثم زاد في التوبيخ والإنكار بقوله تعالى: ﴿ أفلم تكونوا تعقلون ﴾ أي: عداوته وإضلاله، وما حل بهم من العذاب فتؤمنوا ويقال لهم في الآخرة:

﴿ هذه جهنم ﴾ أي : التي تستقبلكم بالعبوسة ، والتجهم كما كنتم تفعلون بعبادي الصالحين ﴿ التي كنتم توعدون ﴾ أي : إن لم ترجعوا عن غيّكم .

﴿ اصلوها ﴾ أي : قاسوا حرها وتوقدها وهول أمر ذلك اليوم فإن ذكره على حد ما مضى بقوله تعالى : ﴿ اليوم ﴾ ليكونوا في شغل شاغل كما كان أصحاب الجنة وشتان ما بين الشغلين ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ كنتم تكفرون ﴾ أي : تسترون ما هو ظاهر جداً بعقولكم من آياتي في دار الدنيا .

تنبيه : في هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحزنهم من ثلاثة أوجه أحدها : قوله تعالى ﴿ اصلوها ﴾ أمر تنكيل وإهانة كقوله تعالى ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ (الدخان : )

ثانيها : قوله تعالى ﴿ اليوم ﴾ يعني : العذاب حاضر ولذاتهم قد مضت وبقي اليوم العذاب . ثالثها : قوله تعالى ﴿ بما كنتم تفكرون ﴾ فإن الكفر والكفران ينبئ عن نعمة كانت فكفر بها وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام كما قيل:

*أليس بكاف لذي همة ** حياء المسيئ من المحسن*

ولما كان كأنه قيل هل يحكم في ذلك اليوم بعلمه ، أو يجري الأمر على قاعدة الدنيا في العمل بالبينة؟ نبه على أظهر من قواعد الدنيا بقوله تعالى مهولاً:

﴿ اليوم ﴾ على النسق الماضي في مظهر العظمة ؛ لأنه أليق بالتهويل ﴿ نختم ﴾ أي : بما لنا

من عظيم القدرة ﴿ على أفواههم ﴾ أي : الكفار لاجترائهم على الكذب كقوله سبحانه ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ (الأنعام : )

﴿ وتكلمنا أيديهم ﴾ أي : بما عملوا إقراراً هو أعظم شهادة ﴿ وتشهد أرجلهم ﴾ أي : عليهم بكلام بين هو مع كونه شهادة إقرار ﴿ بما كانوا ﴾ أي : في الدنيا بجبلاتهم ﴿ يكسبون ﴾ فكل عضو ينطق بما صدر عنه ، فالآية من الاحتباك أثبت الكلام للأيدي أولاً : لأنها كانت مباشرة دليلاً على حذفه من حيز الأرجل ثانياً : وأثبت الشهادة للأرجل ثانياً ؛ لأنها كانت حاضرة دليلاً على حذفها من حيز الأيدي أولاً .

*(232/649)*

---

وتقريبه : أن قول المباشر إقرار وقول الحاضر شهادة ، وفي كيفية هذا الختم وجهان أقواهما أن الله تعالى يسكت ألسنتهم ، وينطلق جوارحهم فتشهد عليهم ، وإن ذلك في قدرة الله تعالى يسير ، أما الإسكات فلا خفاء فيه ، وأما الإنطاق فإن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة فجاز تحريك غيره بمثلها والله سبحانه قادر على كل الممكنات .

والوجه الآخر : أنهم لا يتكلمون بشيء لانقطاع أعذارهم ، وانتهاك أستارهم فيقفون ناكسي الرؤوس لا يجدون عذراً فيعتذرون ، ولا مجال توبة فيستغفرون وتكلم الأيدي هو

ظهور الأمر بحيث لا يسمع منه الإنكار كقول القائل : الحيطان تبكي على صاحب الدار إشارة إلى ظهور الحزن .

والصحيح الأول لما روى أبو هريرة : "أن ناساً سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا : لا يا رسول الله قال : فهل تضارون في رؤية الشمس عند الظهيرة ليست في سحاب قالوا : لا يا رسول الله قال : والذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم كما لا تضارون في رؤيتهما قال : فيلقى العبد فيقول : ألم أكرمك ألم أسودك ألم أزوجك ألم أسخر لك الخيل والإبل وأتركك تتزايد وتترافع قال : بلى يا رب قال : فظننت أنك ملاقي فيقول : لا يا رب فيقول اليوم أنساك كما نسيتني إلى أن قال : ثم يلقى الثالث فيقول : ما أنت فيقول : أنا عبدك آمنت بك وبنبيك وبكتابك وصمت وصليت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع ثم قال : فيقال له : أفلا نبعث عليك شاهدنا قال : فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليه فيختم على فيه ، فيقال لفخذه : انطقي قال : فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل ، قال : وذلك المنافق وذلك ليعذر من نفسه وذلك الذي سخط الله عليه" .

ولما روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: "كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال: هل تدرون مم أضحك قال: قلنا: الله ورسوله أعلم قال: من مخاطبة العبد ربه قال: يقول العبد: يا رب ألم تجرني من الظلم فيقول: بلى فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني فيقول تعالى ﴿كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً﴾ (الإسراء: )

وبالكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه ويقول لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول: بُعداً لكُنَّ أو سحقاً فعنكن كنت أناضل" وقال صلى الله عليه وسلم "أول ما يسأل من أحدكم فخذه وكفه".

تنبيه: ههنا سؤالات: الأول: ما الحكمة في إسناده الختم إلى نفسه وقال ﴿نختم﴾ وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدي والأرجل، الثاني: ما الحكمة في جعل الكلام للأيدي والشهادة للأرجل، الثالث: أن يوم القيامة من تقبل شهادته من المقربين والصديقين كلهم أعداء للمجرمين وشهادة العدو على العدو غير مقبولة وإن كان عدلاً، وغير الصديقين من الكفار والفساق لا تقبل شهادتهم، والأيدي والأرجل صدرت الذنوب عنها فهي فسقة فينبغي أن لا تقبل شهادتهم؟

أجيب: عن الأول: بأنه لو قال: نختم على أفواههم وننطِق أيديهم لاحتمل أن يكون ذلك جبراً وقهراً والإقرار بالإجبار غير مقبول فقال ﴿وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم﴾ أي:

بالاختيار بعدما يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم .

وأجيب عن الثاني : بأن الأفعال تسند إلى الأيدي قال تعالى ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ أي : ما عملوه وقال تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ (البقرة : )

أي : ولا تلقوا أنفسكم فإذن الأيدي كالعاملة والشاهد على العامل ينبغي أن يكون غيره فجعل الأرجل والجلود من الشهود لبعد إضافة الأفعال إليهن .

(234/649)

---

وأجيب عن الثالث : بأن الأيدي والأرجل ليسوا من أهل التكلف ولا ينسب إليها عدالة ولا فسق إنما المنسوب من ذلك إلى العبد المكلف لا إلى أعضائه ، ولا يقال : ورد أن العين تزني وأن الفرج يزني وأن اليد كذلك ؛ لأن معناه أن المكلف يزني بها لا أنها هي تزني ، وأيضاً فإنا نقول : في رد شهادتها قبول شهادتها ؛ لأنها إن كذبت في مثل ذلك اليوم مع ظهور الأمور لابد أن يكون مذنباً في الدنيا وإن صدقت في ذلك اليوم فقد صدر منها الذنب في الدنيا ، وهذا كمن قال لفاسق : إن كذبت في نهار هذا اليوم فعبدي حر فقال الفاسق : كذبت في نهار هذا اليوم عتق العبد ؛ لأنه إن صدق في قوله : كذبت في نهار هذا اليوم فقد وجد الشرط ووقع الجزاء ، وإن كذب في قوله كذبت فقد كذب في نهار ذلك اليوم فقد

وجد الشرط أيضاً بخلاف ما لو قال في اليوم الثاني : كذبت في نهار ذلك اليوم الذي علقت عتق عبدك على كذبي فيه ، ثم بين سبحانه وتعالى أنه قادر على إذهاب الأبصار كما هو قادر على إذهاب البصائر بقوله تعالى:

﴿ ولو نشاء ﴾ وعبر بالمضارع ليتوقع في كل حين فيكون أبلغ في التهديد ﴿ لطمسنا على أعينهم ﴾ أي : الظاهرة بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق وهو معنى الطمس كقوله تعالى

﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ (البقرة : )

يقول : إنا أعمينا قلوبهم ولو شئنا أعمينا أبصارهم الظاهرة وقوله تعالى ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ أي : ابتدروا الطريق ذاهبين كعادتهم عطف على لطمسنا ﴿ فأنى ﴾ أي : فكيف ﴿ يبصرون ﴾ الطريق حينئذ وقد أعمينا أعينهم أي : لو نشاء لأضللناهم عن الهدى وتركناهم عمياً يترددون فلا يبصرون الطريق وهذا قول الحسن والسدي ، وقال ابن عباس ومقاتل : معناه لو نشاء لطمسنا أعين ضلالتهم فأعميناهم عن غيهم وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى فأبصروا رشدهم فأنى يبصرون ولم أفعل ذلك بهم .

ولما كان هذا كله مع القدرة على الحركة قال تعالى:

﴿ ولو نشاء ﴾ أي : مسخهم ﴿ لمسخناهم ﴾ أي : حولناهم عن تلك الحالة فجعلناهم حجارة أو جعلناهم قردة وخنازير .

ولما كان المقصود من المفاجأة بهذه المصائب بيان أنه سبحانه لا كلفة عليه في شيء من ذلك قال تعالى ﴿ على مكانتهم ﴾ أي : المكان الذي كان قبل المسخ كل شخص منهم شاغلاً له بجلوس أو قيام أو غيره في ذلك الموضع خاصة قبل أن يتحرك منه ، وقرأ شعبة بألف بعد النون على الجمع ، والباقون بغير ألف على الإفراد ﴿ فما استطاعوا ﴾ أي : بأنفسهم بنوع معالجة ﴿ مضيا ﴾ أي : إلى جهة من الجهات ثم عطف على جملة الشرط قوله تعالى ﴿ ولا يرجعون ﴾ أي : يتجدد لهم بوجه من الوجوه رجوع إلى حالتهم التي كانت قبل المسخ دلالة على أن هذه الأمور حق لا كما يقولون من أنها خيال وسحر قيل : لا يقدرون على ذهاب ولا رجوع .

(236/649)

---

﴿ ومن نعمره ﴾ أي : نطل عمره إطالة كثيرة ﴿ ننكسه ﴾ قرأه عاصم وحمزة بضم النون الأولى وفتح النون الثانية وتشديد الكاف مكسورة من نكسه مبالغة ، والباقون بفتح النون الأولى وسكون الثانية وتخفيف الكاف مضمومة من نكسه وهي محتملة للمبالغة وعدمها

ومعنى ننكسه : ﴿ في الخلق ﴾ أي : خلقه نرده إلى أرذل العمر يشبه الصبي في الخلق ، وقيل : ننكسه في الخلق أي : ضعف جوارحه بعد قوتها ونقصانها بعد زيادتها ؛ لأن الله تعالى أجرى العادة في النوع الآدمي أن من استوفى سن الصبا والشباب اثنتين وأربعين سنة حسمت غرائزه فلا تزيد فيه غريزة ووقفت قواه كلها فلم يزد فيها شيء هذا في البدن ، وأما في المعارف فتارة وتارة وهذا أيضاً في غير الأنبياء عليهم السلام ، أما هم فلا ينقص شيء من قواهم بل تزداد كما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمشي غير مكترث وأن الصحابة رضي الله عنهم يجهدون أنفسهم فيكون جهدهم أن لا يدركوا مشيته الهوينا و"أنه صلى الله عليه وسلم صارع ركانة" الذي كان يضرب بقوته المثل ، وكان واثقاً من نفسه أنه يصرع من صارعه فلم يملكه النبي صلى الله عليه وسلم نفسه وعاد إلى ذلك ثلاث مرات كل ذلك لا يتمسك في يده حتى خرج يقول : إن هذا لعجب يا محمد تصرعني" ، وحتى : "أنه دار على نسائه وهن تسع كل واحدة منهن تسع مرات في طلق واحد" إلى غير ذلك مما يحكى من قواه التي فاق بها الناس .

ولم يحك عن نبي من الأنبياء عليهم السلام ممن عاش منهم ألفاً وممن عاش دون ذلك أنه نقص شيء من قواه بل قد ورد في الصحيح من حديث أبي هريرة : "أن ملك الموت عليه السلام أرسل إلى موسى عليه السلام ليقبض روحه فلما جاءه صَكَّهُ ففقأ عينه فقال لربه : أرسلتني لعبد لا يريد الموت قال : ارجع إليه فقل له : يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة قال : أي : رب ثم ماذا ؟ قال : الموت قال : فالآن" وكان موسى وقت قبضه ابن مائة وعشرين سنة ﴿ أفلا يعقلون ﴾ أي : أن القادر على ذلك عندهم قادر على البعث فيؤمنون ، وقرأ نافع وابن ذكوان بالتاء على الخطاب ، والباقون بالياء على الغيبة .

ولما منح الله تعالى نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم غرائز من الفضائل مما عجز عنها الأولون والآخرون ، وأتى بقرآن أعجز الأنس والجن ، وعلوم وبركات فاقت القوى ليس بشعر خلافاً لما رموه به بغياً وكذباً وعدواناً قال تعالى:

﴿ وما علمناه ﴾ أي : نحن ﴿ الشعر ﴾ فيما علمناه وهو أن يتكلف التقيد بوزن معلوم ، ورويّ مقصود وقافية يلتزمها ويدير المعاني عليها ويجتلب الألفاظ تكلفاً إليها كما كان زهير وغيره في قصائدهم ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ (ص : )

لأن ذلك ، وإن كنتم أنتم تعدونه فخراً لا يليق بجنابنا ؛ لأنه لا يفرح به إلا من يريد ترويج كلامه وتحليته بصوغه على وزن معروف مقصود وقافية ملتزمة على أن فيه نقيصة أخرى

وهي أعظم ما يوجب النفرة عنه وهي أنه لا بد أن يوهي التزامه بعض المعاني ، ولما لم نعلمه هذه الدناءة طبعناه على جميع فنون البلاغة ومكناه من سائر وجوه الفصاحة ، ثم أسكنا فيه ينابيع الحكمة ودربناه على إلقاء المعاني الجليلة بما ألهمنا إياه ، ثم ألقاه إليه جبريل عليه السلام مما أمرناه به من جوامع الكلم والحكم فلا تكلف عنده أصلاً : "ما خير صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً أو قطيعة رحم" .



---

ولما كان الشعر مع ما يبنى عليه من التكلف الذي هو بعيد جداً عن سجايا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكيف شرفهم بما يكسب مدحاً وهجواً فيكون أكثره كذباً إلى غير ذلك . قال تعالى ﴿ وما ينبغي له ﴾ أي : وما يصح له الشعر ولا يسهل له على ما أختبرتم من طبعه نحواً من أربعين سنة ؛ لأن منصبه أجل وهمته أعلى من أن يكون مداحاً أو عياباً أو أن يتقيد بما قد يجر نقيصة في المعنى وجبلته منافية لذلك غاية المنافاة بحيث لو أراد نظم شعر لم يتأت له ، كما جعلناه أمياً لا يكتب ولا يحسب لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض ، وما كان يتزن له بيت شعر حتى إذا تمثل ببيت شعر جرى على لسانه منكسراً روى الحسن : "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بهذا البيت:

*كفى بالشيب والإسلام للمرء ناهياً*

فقال أبو بكر رضي الله عنه : إنما قال الشاعر:

*كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

فقال عمر رضي الله عنه : أشهد أنك رسول الله يقول الله عز وجل ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ وعن ابن شريح قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر قالت : "كان يتمثل من شعر عبد الله بن رواحة قالت : وربما قال:

*ويأتيك بالأخبار من لم تزود*

وفي رواية قالت : كان الشعر أبغض الحديث إليه قالت : ولم يتمثل بشيء من الشعر إلا ببيت أخي بين قيس طرفة العبدي:

*ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ** ويأتيك بالأخبار من لم تزود*

فجعل يقول : ويأتيك من لم تزود بالأخبار فقال أبو بكر : ليس هكذا يا رسول الله فقال : "إني لست بشاعر ولا ينبغي لي" وقيل : معناه ما كان متأتياً له ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم كما رواه مسلم والبخاري : "أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب" وقوله كما رواه الشيخان أيضاً :

*"هل أنت إلا إصبع دميت ** وفي سبيل الله ما لقيت"*

فاتفاقي من غير تكلف وقصد منه إلى ذلك وقد يقع مثله كثيراً في تضاعيف المنثورات على أن الخليل ما عد المشطور من الرجز شعراً ، هذا وقد روى أنه حرك الباءين في قوله : أنا النبي لا كذب وكسر التاء الأولى بلا إشباع وسكن الثانية من قوله هل أنت إلا إصبع إلخ .

وقيل : الضمير للقرآن أي : وما يصح أن يكون القرآن شعراً ، فإن قيل : لم خص الشعر بنفي التعليم مع أن الكفار كانوا ينسبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم أشياء من جملتها السحر والكهانة ولم يقل : وما علمناه السحر وما علمناه الكهانة ؟

أجيب : بأن الكهانة إنما كانوا ينسبون النبي صلى الله عليه وسلم إليها عندما كان يخبر عن الغيوب وتكون كما يقول وأما السحر فكانوا ينسبونه إليه عندما كان يفعل ما لا يقدر عليه الغير كشق القمر وتكليم الجذع والحجر وغير ذلك ، وأما الشعر فكانوا ينسبونه إليه عندما كان يتلو القرآن عليهم لكنه صلى الله عليه وسلم ما كان يتحدى إلا بالقرآن كما قال تعالى

﴿ إن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ (البقرة : )

إلى غير ذلك ولم يقل : إن كنتم في شك من رسالتي فأخبروا بالغيوب أو أشبعوا الخلق الكثير بالشيء اليسير . فلما كان تحديه صلى الله عليه وسلم بالكلام وكانوا ينسبونه إلى الشعر

عند الكلام خص الشعر بنفي التعليم.

وما نفى أن يكون ما أتى به من جنس الشعر قال تعالى:

﴿ إن ﴾ أي: ما ﴿ هو ﴾ أي: هذا الذي آتاكم به ﴿ إلا ذكر ﴾ أي: شرف وموعظة ﴿ وقرآن ﴾ أي: جامع للحكم كلها دنيا وأخرى يتلى في المحاريب ويكرر في المتعبدات وينال بتلاوته والعمل به فوز الدارين والنظر إلى وجه الله العظيم ﴿ مبين ﴾ أي: ظاهر أنه ليس من كلام البشر لما فيه من الإعجاز ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ (ص: )

كلهم ذكيهم وغبيهم بخلاف الشعر فإنه مع نزوله عن بلاغته جداً إنما ذكر للأذكياء جداً وقوله تعالى:

(240/649)

---

﴿ لينذر ﴾ ضميره للنبي صلى الله عليه وسلم ويدل له قراءة نافع وابن عامر بالتاء الفوقية على الخطاب وقيل: للقرآن ويدل له قراءة الباقين بالياء التحتية على الغيبة، واختلف في قوله تعالى ﴿ من كان حياً ﴾ على قولين: أحدهما: أن المراد به المؤمن؛ لأنه حي القلب والكافر كالميت في أنه لا يتدبر ولا يتفكر قال تعالى ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ (الأنعام:

(

والثاني : المراد به العاقل فهماً فيعقل ما يخاطب به فإن الغافل كالميت ﴿ ويحق ﴾ أي : يجب ويثبت ﴿ القول ﴾ أي : العذاب ﴿ على الكافرين ﴾ أي : الغريقين في الكفر فإنهم أموات في الحقيقة وإن رأيتهم أحياء ، ويمكن أن تكون هذه الآية من الاحتباك حذف الإيمان أولاً لما دل عليه من ضده ثانياً ، وحذف الموت ثانياً لما دل عليه من ضده أولاً ، وأفرد الضمير في الأول على اللفظ إشارة إلى قلة السعداء ، وجمع في الثاني على المعنى إعلاماً بكثرة الأشقياء .

﴿ أو لم يروا ﴾ أي : يعلموا علماً هو كالرؤية ، والاستفهام للتقرير والواو الداخلة عليها للعطف ﴿ أنا خلقنا لهم ﴾ أي : في جملة الناس ﴿ مما عملت أيدينا ﴾ أي : مما تولينا إحداثه ولم يقدر على إحداثه غيرنا ، وذكر الأيدي وإسناد العمل إليها استعارة تفيد المبالغة في الاختصاص والتفرد في الإحداث ، كما يقول القائل : عملت هذا بيدي إذا تفرد به ولم يشاركه فيه أحد ﴿ أنعاماً ﴾ على علم منا بقواها ومقاديرها ومنافعها وطبائعها وغير ذلك من أمورها ، وإنما خص الأنعام بالذكر وإن كانت الأشياء كلها من خلقه وإيجاده ، لأن الأنعام أكثر أموال العرب والنفع بها أعم ﴿ فهم لها مالكون ﴾ أي : خلقناها لأجلهم فملكناهم إياها يتصرفون فيها تصرف الملاك أو فهم لها ضابطون قاهرون ومنه قول بعضهم:

*أصبحت لا أملك السلاح ولا ** أملك رأس البعير إن نفرا*

*والذئب أخشاه إن مررت به ** وحدي وأخشى الرياح والمطرا*



---

والشاهد في قوله : ولا أملك رأس البعير أي : لا أضبطه والمعنى : لم نخلق الأنعام وحشية نافرة من بني آدم لا يقدرون على ضبطها بل خلقناها مذللة كما قال تعالى:

﴿ وذللناها لهم ﴾ أي : يسرنا قيادها ولو شئنا جعلناها وحشية كما جعلنا أصغر منها وأضعف ، فمن قدر على تذليل الأشياء الصعبة جداً لغيره قادر على تطويع الأشياء لنفسه ثم سبب عن ذلك قوله تعالى ﴿ فمنها ركوبهم ﴾ أي : ما يركبون وهي الإبل ؛ لأنها أعظم مركوباتهم لعموم منافعها في ذلك وكثرتها ﴿ ومنها يأكلون ﴾ أي : ما يأكلون لحمه. ولما أشار إلى عظمة نفع الركوب والأكل بتقديم الجار وكانت منافعها لغير ذلك كثيرة قال تعالى:

﴿ ولهم فيها منافع ﴾ أي : من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها ونسلها وغير ذلك ﴿ ومشارب ﴾ أي : من ألبانها جمع مشرب بالفتح ، وخص الشرب من عموم المنافع بعموم نفعه وجمعه لاختلاف طعوم ألبان الأنواع الثلاثة ، ولما كانت هذه الأشياء من العظمة بمكان

لو فقدها الإنسان لتكدرت معيشته تسبب عنها استئناف الإنكار عليهم في تخلفهم عن طاعته بقوله تعالى : ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أي : المنعم عليهم بها فيؤمنون . ولما ذكرهم تعالى نعمه وحذرهم نقمه عجب منهم في سفول نظرهم وقبح أثرهم بقوله تعالى موبخاً لهم:

﴿ واتخذوا من دون ﴾ أي : غير ﴿ الله ﴾ الذي له جميع صفات الكمال والعظمة ﴿ آلهة ﴾ أي : أصناماً يعبدونها بعدما رأوا منه تعالى تلك القدرة الباهرة والنعم المتظاهرة وعلموا أنه المنفرد بها ﴿ لعلهم ينصرون ﴾ أي : رجاء أن ينصروهم فيما أحزنهم من الأمور والأمر بالعكس كما قال تعالى:

(242/649)

---

﴿ لا يستطيعون ﴾ أي : الآلهة المتخذة ﴿ نصرهم ﴾ أي : العابدين ﴿ وهم ﴾ أي : العابدون ﴿ لهم ﴾ أي : للآلهة ﴿ جند محضرون ﴾ أي : الكفار جند الأصنام فيغضبون لها ويحضرونها في الدنيا وهي لا تسوق لهم خيراً ولا تستطيع لهم نصراً ، وقيل : هذا في الآخرة يؤتى بكل معبود من دون الله تعالى ومعه أتباعه الذين عبدوه كأنهم جنده يحضرون في النار وهذا كقوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ (الأنبياء : )

وقوله تعالى: ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ (الصافات: . )

ولما بين تعالى ما تبين من قدرته الظاهرة الباهرة ووهن أمرهم في الدنيا والآخرة ذكر ما يسلي نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:

﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ أي: في تكذيبك كقولهم: ﴿ لست مرسلاً ﴾ (الرعد: )

﴿ إنا نعلم ما ﴾ أي كل ما ﴿ يسرون ﴾ أي: في ضمائرهم من التكذيب وغيره ﴿ وما يعلنون ﴾ أي: يظهرونه بألسنتهم من الأذى وغيره من عبادة الأصنام فنجازيهم عليه.

ولما ذكر تعالى دليلاً على عظم قدرته ووجوب عبادته بقوله تعالى: ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً ﴾ ذكر دليلاً من الأنفس أبين من الأول بقوله تعالى:

﴿ أولم ير ﴾ أي: يعلم ﴿ الإنسان ﴾ علماً هو في ظهوره كالمحسوس بالبصر ﴿ أنا خلقناه ﴾ أي: بما لنا من العظمة ﴿ من نطفة ﴾ أي: شيء حقير يسير من ماء لا انتفاع به بعد إبداعنا إياه من تراب وأنه من لحم وعظام ﴿ فإذا هو ﴾ أي: فتسبب عن خلقنا له من ذلك المفاجأة لحالة هي أبعد شيء من حالة النطفة وهي أنه ﴿ خصيم ﴾ أي: بليغ الخصومة ﴿ مبين ﴾ أي: في غاية البيان عما يريده حتى إنه ليجادل من أعطاه العقل والقدرة في قدرته وأنشد الأستاذ القشيري في ذلك:

*أعلمه الرماية كل يوم ** فلما اشتد ساعده رماني*

*وكم علمته علم القوافي ** فلما قال قافية هجاني*



---

وفي هذا تسلية ثانية بتهوين ما يقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر وفيه تقبيح بليغ لإنكاره ، حيث تعجب منه وجعله إفراطاً في الخصومة بيناً ومنافاته لجحود القدرة على ما هو أهون مما علمه في بدء خلقه ومقابلة النعمة التي لا مزيد عليها وهي خلقه من أخس شيء وأمهنه شريفاً مكرماً بالعقوق والتكذيب .

﴿ وضرب ﴾ أي : هذا الإنسان ﴿ لنا ﴾ أي : على ما يعلم من عظمتنا ﴿ مثلاً ﴾ أي : أمراً عجيباً وهو نفي القدرة على إحياء الموتى ، روي : "أن أبي بن خلف الجمحي وهو الذي قتله النبي صلى الله عليه وسلم بأحد مبارزة ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم بال يفتته بيده فقال : أترى الله يحيي هذا بعدما رم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم نعم ويبعثك ويدخلك النار" فنزلت . وقيل : هو العاصي بن وائل قاله الجلال المحلي وأكثر المفسرين على الأول ﴿ ونسي ﴾ أي : هذا الذي تصدى على مهانة أصله لمخاصمة الجبار ﴿ خلقه ﴾ أي : بدء أمره من المني وهو أغرب من مثله ، والنسيان هنا يحتمل أن

يكون بمعنى الذهول وأن يكون بمعنى الترك ، ثم استأنف الإخبار عن هذا المثل بأن

﴿ قال ﴾ أي : على طريق الإنكار ﴿ من يحيي العظام وهي رميم ﴾ أي : صارت ترابا ً تمرّ مع الرياح ورميم قال البيضاوي : بمعنى فاعل من رم الشيء صار اسماً بالغلبة ولذلك لم يؤنث ، أو اسم مفعول من رممته ، وفيه دليل على أن العظم ذو حياة فيؤثر فيه الموت كسائر الأعضاء ا . ه‍ . قال البغوي : ولم يقل : رميمة ؛ لأنه معدول عن فاعله فكل ما كان معدولاً عن وجهه ووزنه كان مصروفاً عن إعرابه كقوله تعالى ﴿ وما كانت أمك بغيا ﴾ (مريم : ) أسقط الهاء ؛ لأنها مصروفة عن باغية .

تنبيه : هذه الآية وما بعدها إشارة إلى بيان الحشر ؛ لأن المنكرين للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلاً ولا شبهة بل اكتفى بمجرد الاستبعاد وهم الأكثرون ﴿ أءذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد ﴾ (السجدة : )

﴿ أءذا متنا وكنا تراباً وعظاما ً أئنا لمبعوثون ﴾ (المؤمنون : )

*(244/649)*

---

﴿ من يحيي العظام وهي رميم ﴾ قالوا : ذلك على طريق الاستبعاد فأبطل الله تعلى استبعادهم بقوله تعالى : ﴿ ونسي خلقه ﴾ أي : نسي أنا خلقناه من تراب ومن نطفة

متشابهة الأجزاء ثم جعلنا لهم من النواصي إلى الأقدام أعضاء مختلفة الصورة ، وما اكتفينا بذلك حتى أودعناهم ما ليس من قبيل هذه الأجرام وهو النطق والعقل اللذان بهما استحقوا الإكرام ، فإن كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة مذرة لم تكن محلاً للحياة أصلاً ، ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محل كانا فيه واختاروا العظم بالذكر ؛ لأنه أبعد عن الحياة لعدم الإحساس فيه ووصفوه بما يقوى جانب الاستبعاد من البلاء والتفتت .

والله تعالى دفع استبعادهم من جهة ما في العبد من القدرة والعلم فقال : ﴿ وضرب لنا مثلاً ﴾ أي : جعل قدرتنا كقدرتهم ونسي خلقه العجيب وبدأه الغريب ، ومنهم من ذكر شبهة وإن كان في آخرها يعود إلى مجرد الاستبعاد وهي على وجهين : الأول : أنه بعد العدم لم يبق شيئاً فكيف الحكم على العدم بالوجود ؟ فأجاب تعالى عن هذه الشبهة بأن قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم

﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء البعداء البغضاء ﴿ يحييها ﴾ أي : بعد أن أنشأها أول مرة ﴿ الذي أنشأها ﴾ أي : من العدم ثم أحياها ﴿ أول مرة ﴾ فكما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً كذلك يعيده إن لم يبق شيئاً مذكوراً .

الوجه الثاني : أن من تفرقت أجزاؤه في مشارق العالم ومغاربه وصار بعضها في أبدان السباع وبعضها في حواصل الطيور وبعضها في جدران الربوع كيف تجتمع .

وأبعد من هذا لو أكل إنسان إنساناً وصار أجزاء المأكول في أجزاء الآكل فإن أعيدت أجزاء الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تتخلق منها أعضاؤه وإما أن تعاد إلى بدن المأكول فلا يبقى للآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية وفي المأكول كذلك ، فإذا أكل إنسان إنساناً صار الأصلي من أجزاء المأكول فضلياً من أجزاء الآكل والأجزاء الأصلية للآكل هي ما كان قبل الأكل فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله ﴿ وهو بكل خلق ﴾ أي : مخلوق ﴿ عليم ﴾ أي : يجمع الأصل من الفضل فيجمع الأجزاء الأصلية للآكل ويجمع الأجزاء الأصلية للمأكول وينفخ فيه روحه وكذلك يجمع أجزاءه المتفرقة في البقاع المتبددة بحكمته وقدرته .

ثم إنه تعالى عاد إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم وإبطال إنكارهم بقوله تعالى: ﴿ الذي جعل لكم ﴾ أي : في جملة الناس ﴿ من الشجر الأخضر ﴾ أي : الذي تشاهدون فيه الماء ﴿ ناراً ﴾ قال ابن عباس : هما شجرتان يقال لإحداهما : المرخ والأخرى : العفار ، الأول : بفتح الميم والخاء المعجمة شجر سريع الوري أي : القدح ، والثاني : بفتح المهملة وفاء وراء بعد ألف الزند فمن أراد منهما النار قطع منهما غصنين

مثل السواكين وهما أخضران يقطران الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فيخرج منهما النار بإذن الله تعالى وتقول العرب: في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ، وقال الحكماء: في كل شجر نار إلا العناب ﴿ فإذا أنتم ﴾ أي: فتسبب عن ذلك مفاجأتكم لأنه ﴿ منه ﴾ أي: من الشجر الموصوف بالخضرة ﴿ توقدون ﴾ أي: توجدون الإيقاد ويتجدد لكم ذلك مرة بعد أخرى وهذا أدل على القدرة على البعث فإنه جمع فيه بين الماء والنار والخشب فلا الماء يطفئ النار ولا النار تحرق الخشب.

ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان فقال تعالى:

(246/649)

---

﴿ أوليس الذي خلق ﴾ أي: أوجد من العدم ﴿ السموات والأرض ﴾ أي: على كبرهما وعظم ما فيهما من المنافع والمصانع والعجائب والبدائع ، وأثبت الجار تحقيقاً للأمر وتأكيداً للتقرير فقال تعالى ﴿ بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ أي: مثل هؤلاء الأناسي في الصغر أي: يعيدهم بأعيانهم ، وقيل: الضمير يعود على السموات والأرض لتضمنهم من يعقل والأول أظهر ؛ لأنهم المخاطبون وقوله تعالى ﴿ بلى ﴾ جواب ليس وإن دخل عليها الاستفهام المصير لها إيجاباً أي: هو قادر على ذلك أجاب نفسه تعالى ﴿ وهو ﴾ مع ذلك أي: مع

كونه عالماً بالخلق ﴿ الخلاق ﴾ أي : الكثير الخلق ﴿ العليم ﴾ أي : البالغ في العلم الذي هو منشأ القدرة فلا يخفى عليه كلي ولا جزئي في ماض ولا حال ولا مستقبل شاهد أو غائب .

ولما تقرر ذلك أنتج قوله تعالى مؤكداً لأجل إنكارهم القدرة على البعث:

﴿ إنما أمره ﴾ أي : شأنه ووصفه ﴿ إذا أراد شيئاً ﴾ أي : خلق شيء من جوهر أو عرض أي شيء كان ﴿ أن يقول له كن ﴾ أي : أن يريده ﴿ فيكون ﴾ أي : يحدث وهو تمثيل لتأثير قدرته في مراده بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة قطعاً لمادة الشبهة وهو قياس قدرة الله تعالى على قدرة الخلق ، وقرأ ابن عامر والكسائي بنصب النون عطفاً على يقول ، والباقون بالرفع أي : فهو يكون .

ولما كان ذلك تسبب عنه المبادرة إلى تنزيهه تعالى عما ضربوه له من الأمثال فلذلك قال:

﴿ فسبحان ﴾ أي : تنزه عن كل شائبة نقص تنزهاً لا يبلغ أفهامكم كنهه وعدل عن الضمير إلى وصف يدل على غاية العظمة فقال ﴿ الذي بيده ﴾ أي : قدرته وتصرفه خاصة لا بيد غيره ﴿ ملكوت كل شيء ﴾ أي : ملكه التام وملكه ظاهراً وباطناً .

ولما كان التقدير فمنه تبدؤون عطف عليه قوله تعالى ﴿ وإليه ﴾ أي : لا إلى غيره ﴿ ترجعون ﴾ أي : معنى في جميع أموركم وحسّاً بالبعث لينصف بينكم فيدخل بعضاً النار وبعضاً الجنة ، وعن ابن عباس : كنت لا أعلم ما روي في فضل يس كيف خصت به فإذا به لهذه الآية .

وما رواه البيضاوي عنه صلى الله عليه وسلم "إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس" ، و "أيما مسلم قرئ عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون قبض روحه وغسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه" ، و "أيما مسلم قرأ يس وهو في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان بشربة من الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبض روحه وهو ريان ويمكث في قبره وهو ريان ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان" حديث موضوع .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة يس في ليلة أصبح مغفوراً له" وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف عنهم يومئذ وكان له بعدد من فيها حسنات" . وعن يحيى بن أبي

كثير قال : بلغنا أن من قرأ يس حين يصبح لم يزل في فرح حتى يمسي ومن قرأها حين يمسي لم يزل في فرح حتى يصبح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 123 . 138 ﴾

(248/649)

---

وقال القاسمى :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

تقريع منه تعالى للكفرة ، يقال لهم إلزاماً للحجة . وعهده تعالى إليهم هو ميثاق الفطرة . كما قاله القاشاني . أو ما نصبه لهم من الحجج العقلية ، والسمعية ، الآمرة بعبادته وحده ونبذ عبادة غيره .

﴿ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي : وإن أفردوني بالعبادة فإنه السبيل السوي . وفي تنكيره إشعار بأنه صراط بليغ في استقامته ، جامع لكل ما يجب أن يكون عليه ، وأصل لمرتبة يقصر عنها التوصيف ، فالتنوين للتعظيم .

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ ﴾ أي : الشيطان وأغوى بالشرك : ﴿ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً ﴾ أي : خلقاً كثيراً قبلكم . فحاق بهم سوء العذاب : ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ أي : من أولي العقل . إنكار لأن يكونوا منهم ، وقد قامت البراهين والإنذارات .

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : ذوقوا حرها اليوم بكفركم في الدنيا .

(249/649)

---

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي : عندما يجحدون ما اجترموه في الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم ، قال الرازي : وفي الختم على الأفواه وجوه ، أقواها أن الله يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها ، وينطق جوارحهم فتشهد عليهم ، وإنه في قدرة الله يسير ، أما الإسكات فلا خفاء فيه ، وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة . فكما جاز تحركه بها ، جاز تحرك غيره بمثلها ، والله قادر على الممكنات . والوجه الآخر ، أنهم لا يتكلمون بشيء ؛ لانقطاع أعذارهم وانتهاك أستارهم ، فيقفون ناكسي الرؤوس وقوف القنوط اليؤوس ، لا يجد عذراً فيعتذر ، ولا مجال توبة فيستغفر ، وتكلم الأيدي ظهور الأمور بحيث لا يسع معه الإنكار ، حتى تنطق به الأيدي والأبصار . كما يقول القائل : الحيطان تبكي على صاحب الدار . إشارة إلى ظهور الحزن ، والأول صحيح . انتهى . أي : لإمكانه وعدم استحالته ، فلا تتعذر الحقيقة . ويؤيده آية : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ

شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [ فصلت : 21 ] .

ومن لطائف بعض أدباء العصر ما نظمه في الفونغراف ، مستشهداً به في ذلك ، فقال :

يَنْطِقُ الْفُونُغْرَافُ لَنَا دَلِيْلٌ عَلَى نُطْقِ الْجَوَارِحِ وَالْجَمَادِ

وَفِيْهِ لِكُلِّ ذِي نَظَرٍ مِثَالٌ عَلَى بَدْءِ الْخَلِيْقَةِ وَالْمَعَادِ

يُدِيْرُ شُؤُوْنَهُ فَرْدٌ بِصُوْرٍ بِهِ الْأَصْوَاتُ تَجْرِي كَالْمِدَادِ

فَيَثْبُتُ رَسْمُهَا قَلَمٌ بِلَوْحٍ عَلَى وَفْقِ الْمَشِيْئَةِ وَالْمُرَادِ

وَبَعْدَ فَرَاغِهَا تَمْضِي كَبَرْقٍ وَلَا أَثَرٌ لَهَا فِي الْكَوْنِ بَادِي

تَظُنُّ بِأَنَّهَا ذَهَبَتْ جُفَاءً كَمَا ذَهَبَتْ بِرِيحٍ قَوْمُ عَادِ

(250/649)

---

وَأَحْلَى رَنَّهَا فِيْهِ لِتَبْقَى كَأَرْوَاحٍ تَجَرَّدَ عَنْ مُوَادِّ

مَتَى شَاءَ الْمُدِيْرُ لَهَا مَعَادًا وَرَامَ ظُهُوْرُهَا فِي كُلِّ نَادِ

يُدِيْرُ الصُّوَرُ بِالْآلَاتِ قَسْرًا فَيَنْشُرُ مَيِّتَهَا بَعْدَ الرُّقَادِ

وَهَذِي آلَةٌ مِنْ صُنْعِ عَبْدٍ فَكَيْفَ بِصُنْعِ خَلَّاقِ الْعِبَادِ ؟

تَبَارَكَ مَنْ يُعِيْدُ الْخَلْقَ طَرًّا بِنَفْخَةِ صُوْرِهِ يَوْمَ التَّنَادِ .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ أي : لو شاء تعالى ، لمسح أعينهم . فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المسلوك لهم لم يقدروا ، لعماهم .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ ﴾ أي : بتغيير صورهم وإبطال قواهم : ﴿ عَلَى مَكَانَتِهِمْ ﴾ أي : مكانهم : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً ﴾ أي : ذهاباً : ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي : ولا رجوعاً ؛ أي : أنهم لا يقدرون على مفارقة مكانهم . فوضع الفعل موضعه للفواصل .

وإذا كان بمعنى : لا يرجعون عن تكذيبهم ، فهو معطوف على جملة : ما استطاعوا .

والمراد أنهم بكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم ، أحقّاء بأن يفعل بهم ذلك . لكنا لم نفعل لشمول الرحمة ، واقتضاء لحكمه إمهالهم .

*(251/649)*

---

﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ ﴾ أي : نطل عمره : ﴿ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ أي : بتناقض قواه وضعف بنيته حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوّه من العلم ، كما قال عز وجل : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ [ الحج : 5 ] ، ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ [ التين : 5 ] ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي : من قدر على ذلك ، قدر على الطمس والمسخ ، وأن يفعل ما يشاء .

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴾ أي: حتى يأتي بشعر . وهذا رد لقولهم أنه صلوات الله عليه شاعر أتى بشعر . قاسوه على من يشعر بقراءة الدواوين وكثرة حفظها ، وكيف يشابه ما نزل عليه الشعر ، وليس منه لا لفظاً ؛ لعدم وزنه وتقفيته ، ولا معنىً ؛ لأن الشعر تخيلات ، وهذا حكم ، وعقائد ، وشرائع ، وحقائق .

﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ أي: وما يصح لمقامه ؛ لأن منزل النبوة والرسالة يتسامى عن الشعر وقرضه ؛ لما يرمي به الشعراء كثيراً من الكذب ، والمين ، ومجافاة مقاعد الحقيقة ؛ ولذا قال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي: القرآن الذي يتلوه : ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ أي: عظة وإرشاد منه تعالى : ﴿ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: كتاب سماوي بين أمره وحقائقه ، فلا مناسبة بينه وبين الشعر بوجه ما .

﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ أي: عاقلاً متأملاً ؛ لأن الغافل كالميت : ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ ﴾ أي: وتجب كلمة العذاب : ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي: المعرضين عن اتباعه .



---

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ أي: مما تولينا نحن خلقه ، لم يقدر على إحداثه غيرنا ﴿ أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ أي: متصرفون فيها تصرف الملاك ، أو

ضابطون قاهرون لها كما قال :

أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السِّلَاحَ وَلَا أَمْلِكُ رَاسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴾ أي : صيّرناها منقادة غير وحشية : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ أي : مركوبهم

﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أي : ينتفعون بأكل لحمه .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أي : من الجلود ، والأصواف ، والأوبار : ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ أي : من ألبانها : ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي : فيعبدوا المنعم بأصناف هذه النعم الجسيمة .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أي : ينصرونهم فيما نابهم من الكوارث .



---

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ ﴾ أي : لآلهتهم : ﴿ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴾ أي : مُعدّون لخدمتهم والذب عنهم ، فمن أين لهم أن ينصرونهم , وهم على تلك الحال من العجز والضعف ؟ أي : بل الأمر بالعكس . وقيل : المعنى محضرون على أثرهم في النار ، وجعْلُهم – على هذا – جنداً ، تهكمٌ واستهزاءٌ . وكذا لام : ﴿ لَهُمْ ﴾ الدالة على النفع .

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أي : في الله تعالى بالإلحاد والشرك . أو في حقك بالتكذيب والإيذاء : ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي : فنجازيهم عليه . كنى عن مجازاتهم بعلمه تعالى ، للزومه له ؛ إذ علم الملك القادر بما جرى من عدوه الكافر ، مقتضٍ لمجازاته وانتقامه . وتقديم السر ، لبيان إحاطة علمه تعالى بحيث يستوي السر عنده والعلانية . أو للإشارة إلى الاهتمام بإصلاح الباطن ؛ فإنه ملاك الأمر .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : جدل بالباطل ، بيّن الجدال ، وهذه تسلية ثانية ، بتهوين ما يقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر . تأثرت الأولى [ كذا ] وهي قوله : ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ ﴾ الآية ، عنايةً بشأنه صلوات الله عليه .

قال الطيبي : هذا معطوف على : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ قبله . والجامع ابتناء كل منهما على التعكيس ؛ فإنه خلق له ما خلق ليشكر ، فكفر وجحد النعم والمنعم ، وخلقه من نطفة قذرة ليكون منقاداً متذللاً ، فطغى وتكبر وخاصم .



---

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾ أي : في استبعاد البعث وإنكاره : ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ أي : خلقنا إياه : ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ أي : بالية أشد البلى ، بعيدة عن

الحياة غاية البعد . وإنما لم يؤنث لأنه اسم لما بلي من العظام ، جامد غير صفة ، كالرمة والرفات , أو مشتق فعيل بمعنى فاعل ، إلا أنه لما غلب جريانه على غير موصوف ، ألحق بالأسماء فلم يؤنث ، أو بمعنى مفعول من رمّه ، بمعنى أبلاه . وأصله الأكل ، من : رمت الإبل الحشيش . فكأن ما بلي أكلته الأرض . وقال الأزهري : إن عظاماً ، لكونه بوزن المفرد ، ككتاب وقراب ، عومل رميم معاملته ، وذكر له شواهد . قال الشهاب : وهو غريب .

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي : فلا تقاس قدرة الخالق على قدرة المخلوقين . وإنما تقاس إعادته على إبدائه : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : فلا يمتنع عليه جمع الأجزاء بعد تفرقها ، لعلمه بأصولها وفصولها ومواقعها ، وطريق ضمها إلى بعضها .

(255/649)

---

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ أي : الذي خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً فأثمر وينع ، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً يوقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد ، لا يمنعه شيء . قال قتادة : الذي أخرج النار من هذا الشجر ، قادر على أن يبعثه . وقيل : المراد بذلك شجر المرخ ،

والعفار : من شجر البادية ، في أرض الحجاز . فيأتي من أراد قدح نار ، وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء . روي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والعَفار الزند وهو الأعلى . والمرخ الزندة وهو الأسفل بمنزلة الذكر والأنثى . وعكس الجوهري فجعل المرخ ذكراً ، والعفار أنثى ، واللفظ مساعد له ، إلا أن الأول يؤيده قول الشاعر :

~إِذَا الْمُرْخُ لَمْ يُورِ تَحْتَ الْعَفَارِ وَضُنَّ بِقِدْرٍ فَلَمْ تُعْقَبِ

وقال أبو زياد : ليس في الشجر كله أورى ناراً من المرخ ، وربما كان المرخ مجتمعاً ملتفاً ، وهبت الريح ، وجاء بعضه بعضاً فأورى فأحرق الوادي ، ولم نر ذلك في سائر الشجر . وقال الأزهري : العرب تضرب بالمرخ والعفار ، المثل في الشرف العالي . فتقول : في كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار . أي : كثرت فيهما على ما في سائر الشجر . واستمجد : استكثر واستفضل . وذلك أن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر ناراً ، وزنادهما أسرع الزناد ورياً . وفي المثل : اقدح بعفار أو مرخ ، ثم اشدد إن شئت أو أرخ . ويقال : في كل شجر نار إلا العُنّاب .

قال الشهاب : ولذا يتخذ منه مدقّ القصارين . ثم أنشد لنفسه :

~أَيَا شَجَرَ الْعُنَّابِ نَارُكَ أَوْقَدَتْ بِقَلْبِي وَمَا الْعُنَّابُ مِنْ شَجَرِ النَّارِ

انتهى .

والمقصود أنه تعالى لا يمتنع عليه إعادة المزاج الذي به تعلق الروح بعد انعدامه بالكلية ؛ لأن الذي يبدل مزاج الشجر الرطب بمزاج النار ، وهي حارة يابسة بالفعل ، مع ما في الشجر من المائية المضادّة لها ، أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضاً ، تطرأ عليه اليبوسة والبلى .

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أي : مع كبر جرمهما : ﴿ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ أي : في الصغر والضعف ثانياً ، بعد ما خلقهم أولاً : ﴿ بَلَى ﴾ أي : هو القادر : ﴿ وَهُوَ الْخَلَّاقُ ﴾ أي : الكثير الخلق مرة بعد أخرى : ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ أي : الواسع المعلومات .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ ﴾ أي : شأنه الأعلى ، أو قوله النافذ : ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً ﴾ أي : إذا تعلقت إرادته بإيجاد شيء : ﴿ أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي : فيوجد عن أمره .

﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ تنزيه له مما وصفهُ به المشركون, وتعجب من أن يقولوا فيه ما قالوا . وهو مالك كل شيء ، والمتصرف فيه بلا وازع ، ولا منازع ﴿ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ ﴾ أي : بعد الموت ، فيجازيكم بأعمالكم .

فائدة :

(257/649)

---

قال ابن كثير : الملك والملكوت واحد في المعنى ، كرحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت ، وجبر وجبروت . ومن الناس من زعم أن المُلك هو عالم الأجسام ، والملكوت هو عالم الأرواح . والصحيح الأول ، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم . انتهى . ولبعضهم : إن الملكوت صيغة مبالغة من الملك ، فهو بمعنى الملك التام ، والله هو العليم العلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 70.78 ﴾

(258/649)

---

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) ﴾

في هذا القطاع الأخير من السورة تستعرض كل القضايا التي تعالجها السورة . . قضية

الوحي وطبيعته وقضية الألوهية والوحدانية. وقضية البعث والنشور.. تستعرض في مقاطع مفصلة. مصحوبة بمؤثرات قوية في إيقاعات عميقة. كلها تتجه إلى إبراز يد القدرة وهي تعمل كل شيء في هذا الكون وتمسك بمقاليد الأمور كلها. ويتمثل هذا المعنى مركزاً في النهاية في الآية التي تختم السورة: ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾... فهذه اليد القوية المبدعة خلقت الأنعام للبشر وذللتها لهم. وهي خلقت الإنسان من نطفة. وهي تحيي رميم العظام كما أنشأتها أول مرة. وهي جعلت من الشجر الأخضر ناراً. وهي أبدعت السماوات والأرض. وفي النهاية هي مالكة كل شيء في هذا الوجود.. وذلك قوام هذا المقطع الأخير..

﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾..

وردت قضية الوحي في أول السورة: ﴿ يس والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم. لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون... ﴾

والآن تجيء في صورتها هذه للرد على ما كان يدعيه بعضهم من وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر؛ ووصف القرآن الذي جاء به بأنه شعر.

وما كان يخفى على كبراء قريش أن الأمر ليس كذلك. وأن ما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم قول غير معهود في لغتهم. وما كانوا من الغفلة بحيث لا يفرقون بين القرآن

والشعر . إنما كان هذا طرفاً من حرب الدعاية التي شنوها على الدين الجديد وصاحبه صلى الله عليه وسلم في أوساط الجماهير . معتمدين فيها على جمال النسق القرآني المؤثر ، الذي قد يجعل الجماهير تخلط بينه وبين الشعر إذا وجهت هذا التوجيه .

(259/649)

---

وهنا ينفي الله سبحانه أنه علم الرسول الشعر . وإذا كان الله لم يعلمه فلن يعلم . فما يعلم أحد شيئاً إلا ما يعلمه الله . .

ثم ينفي لياقة الشعر بالرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ وما ينبغي له ﴾ فللشعر منهج غير منهج النبوة . الشعر انفعال . وتعبير عن هذا الانفعال . والانفعال يتقلب من حال إلى حال . والنبوة وحي . على منهج ثابت . على صراط مستقيم . يتبع ناموس الله الثابت الذي يحكم الوجود كله . ولا يتبدل ولا يتقلب مع الأهواء الطارئة ، تقلب الشعر مع الانفعالات المتجددة التي لا تثبت على حال .

والنبوة اتصال دائم بالله ، وتلق مباشر عن وحي الله ، ومحاولة دائمة لرد الحياة إلى الله . بينما الشعر في أعلى صوره أشواق إنسانية إلى الجمال والكمال مشوبة بقصور الإنسان وتصوراته المحدودة بحدود مداركه واستعداداته .

فأما حين يهبط عن صوره العالية فهو انفعالات ونزوات قد تهبط حتى تكون صراخ جسد ، وفورة لحم ودم ! فطبيعة النبوة وطبيعة الشعر مختلفتان من الأساس هذه في أعلى صورها أشواق تصعد من الأرض . وتلك في صميمها هداية تتنزل من السماء . .

﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ . .

ذكر وقرآن . . وهما صفتان لشيء واحد . ذكر بحسب وظيفته . وقرآن بحسب تلاوته . فهو ذكر لله يشتغل به القلب ، وهو قرآن يتلى ويشتغل به اللسان . وهو منزل ليؤدي وظيفة محددة :

﴿ لينذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين ﴾ . .

ويضع التعبير القرآني الكفر في مقابل الحياة . فيجعل الكفر موتاً ، ويجعل استعداد القلب للإيمان حياة . ويبين وظيفة هذا القرآن بأنه نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم لينذر من به حياة . فيجدي فيهم الإنذار ، فأما الكافرون فهم موتى لا يسمعون النذير ؛ وظيفة القرآن بالقياس إليهم هي تسجيل الاستحقاق للعذاب ، فإن الله لا يعذب أحداً حتى تبلغه الرسالة ثم يكفر عن بينة ويهلك بلا حجة ولا معذرة !

وهكذا لم يعلم الناس أنهم إزاء هذا القرآن فريقان: فريق يستجيب فهو حي. وفريق لا يستجيب فهو ميت. ويعلم هذا الفريق أن قد حق عليه القول، وحق عليه العذاب!

والمقطع الثاني في هذا القطاع يعرض قضية الألوهية والوحدانية، في إطار من مشاهدات القوم، ومن نعم البارئ عليهم، وهم لا يشكرون:

﴿ أو لم يروا أن خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون؟ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون. ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون؟ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون. لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون. فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ ..

أو لم يروا؟ فآية الله هنا مشهودة منظورة بين أيديهم، ليست غائبة ولا بعيدة، ولا غامضة تحتاج إلى تدبر أو تفكير.. إنها هذه الأنعام التي خلقها الله لهم وملكهم إياها. وذللها لهم يركبونها ويأكلون منها ويشربون ألبانها، وينتفعون بها منافع شتى.. وكل ذلك من قدرة الله وتدبيره؛ ومن إبداعه ما أودع من الخصائص في الناس وفي الأنعام، فجعلهم قادرين على تذليلها واستخدامها والانتفاع بها. وجعلها مذللة نافعة ملبية لشتى حاجات الإنسان. وما يملك الناس أن يصنعوا من ذلك كله شيئاً. وما يملكون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له. وما يملكون أن يذللوا ذبابة لم يركب الله في خصائصها أن تكون ذلولاً لهم!.. ﴿ أفلا يشكرون؟ ﴾ ..

وحين ينظر الإنسان إلى الأمر بهذه العين وفي هذا الضوء الذي يشيعه القرآن الكريم . فإنه يحس لتوه أنه مغمور بفيض من نعم الله . فيض يتمثل في كل شيء حوله . وتصبح كل مرة يركب فيها دابة ، أو يأكل قطعة من لحم ، أو يشرب جرعة من لبن ، أو يتناول قطعة من سمن أو جبن .



---

أو يلبس ثوباً من شعر أو صوف أو وبر . . إلى آخره إلى آخره . . لمسة وجدانية تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ونعمته . ويطرد هذا في كل ما تمس يده من أشياء حوله ، وكل ما يستخدمه من حي أو جامد في هذا الكون الكبير . وتعود حياته كلها تسبيحاً لله وحمداً وعبادة آناء الليل وأطراف النهار . .

ولكن الناس لا يشكرون . وفيهم من اتخذ مع هذا كله آلهة من دون الله : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴾ : وفي الماضي كانت الآلهة أصناماً وأوثاناً ، أو شجراً أو نجوماً ، أو ملائكة أو جناً . . والوثنية ما تزال حتى اليوم في بعض بقاع الأرض . ولكن الذين لا يعبدون هذه الآلهة لم يخلصوا للتوحيد . وقد يتمثل شركهم اليوم في الإيمان بقوى زائفة غير قوة الله ؛ وفي اعتمادهم على

أسناد أخرى غير الله . والشرك ألوان ، تختلف باختلاف الزمان والمكان .

ولقد كانوا يتخذون تلك الآلهة يبتغون أن ينالوا بها النصر . بينما كانوا هم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة أن يعتدي عليها معتد أو يصيبها بسوء ، فكانوا هم جنودها وحماتها المعدين لنصرتها : ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ . . وكان هذا غاية في سخف التصور والتفكير . غير أن غالبية الناس اليوم لم ترتق عن هذا السخف إلا من حيث الشكل . فالذين يؤلهون الطغاة والجبارين اليوم ، لا يبعدون كثيراً عن عباد تلك الأصنام والأوثان . فهم جند محضرون للطغاة . وهم الذين يدفعون عنهم ويحمون طغيانهم . ثم هم في الوقت ذاته يخرون للطغيان راكعين !

إن الوثنية هي الوثنية في شتى صورها . وحيثما اضطربت عقيدة التوحيد الخالص أي اضطراب جاءت الوثنية ، وكان الشرك ، وكانت الجاهلية ! ولا عصمة للبشرية إلا بالتوحيد الخالص الذي يفرد الله وحده بالألوهية . ويفرده وحده بالعبادة . ويفرده وحده بالتوجه والاعتماد . ويفرده وحده بالطاعة والتعظيم .

﴿ فلا يحزنك قولهم . إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ .

الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وهو يواجه أولئك الذين اتخذوا من دون الله آلهة. والذين لا يشكرون ولا يذكرون. ليطمئن بالاً من ناحيتهم. فهم مكشوفون لعلم الله. وكل ما يدبرونه وما يملكونه تحت عينه. فلا على الرسول منهم. وأمرهم مكشوف للقدرة القادرة. والله من ورائهم محيط..

ولقد هان أمرهم بهذا. وما عاد لهم من خطر يحسه مؤمن يعتمد على الله. وهو يعلم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون. وأنهم في قبضته وتحت عينه وهم لا يشعرون!

والمقطع الثالث في هذا القطاع الأخير يتناول قضية البعث والنشور:

﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه. قال: من يحيي العظام وهي رميم؟ قل: يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم.

الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون. أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم؟ بلى وهو الخلاق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن. فيكون ﴾..

ويبدأ هذا المقطع بمواجهة الإنسان بواقعه هو ذاته في خاصة نفسه. وهذا الواقع يصور نشأته وصيرورته مما يراه واقعاً في حياته، ويشهده بعينه وحسه مكرراً معاداً. ثم لا ينتبه إلى دلالته، ولا يتخذ منه مصداقاً لوعد الله ببعثه ونشوره بعد موته ودثوره..

﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ . .

فما النطفة التي لا يشك الإنسان في أنها أصله القريب ؟ إنها نقطة من ماء مهين ، لا قوام ولا قيمة ! نقطة من ماء تحوي ألوف الخلايا . . خلية واحدة من هذه الألوف هي التي تصير جنينا . ثم تصير هذا الإنسان الذي يجادل ربه ويخاصمه ويطلب منه البرهان والدليل ! والقدرة الخالقة هي التي تجعل من هذه النطفة ذلك الخصيم المبين . وما أبعد النقلة بين المنشأ والمصير ! أفهذه القدرة يستعظم الإنسان عليها أن تعيده وتنشره بعد البلى والدثور ؟



---

﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال : من يحيي العظام وهي رميم . قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ . .

يا للبساطة ! ويا لمنطق الفطرة ! ومنطق الواقع القريب المنظور !

وهل تزيد النطفة حيوية أو قدرة أو قيمة على العظم الرميم المفتوت ؟ أو ليس من تلك النطفة كان الإنسان ؟ أو ليست هذه هي النشأة الأولى ؟ أو ليس الذي حول تلك النطفة إنساناً ، وجعله خصيماً مبيناً بقادر على أن يحول العظم الرميم مخلوقاً حياً جديداً ؟

إن الأمر أيسر وأظهر من أن يدور حوله سؤال . فما بال الجدل الطويل ؟ !

﴿ قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة . وهو بكل خلق عليم ﴾ . .

ثم يزيدهم إيضاحاً لطبيعة القدرة الخالقة ، وصنعها فيما بين أيديهم وتحت أعينهم مما يملكون :

﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ . .

والمشاهدة الأولية الساذجة تقنع بصدق هذه العجيبة ! العجيبة التي يمرون عليها غافلين . عجيبة أن هذا الشجر الأخضر الريان بالماء ، يحتك بعضه ببعض فيولد ناراً ؛ ثم يصير هو وقود النار . بعد اللدونة والاخضرار . . والمعرفة العلمية العميقة لطبيعة الحرارة التي يختزنها الشجر الأخضر من الطاقة الشمسية التي يمتصها ، ويحتفظ بها وهو ريان بالماء ناضر بالخضرة ؛ والتي تولد النار عند الاحتكاك ، كما تولد النار عند الاحتراق . . هذه المعرفة العلمية تزيد العجيبة بروزاً في الحس ووضوحاً . والخالق هو الذي أودع الشجر خصائصه هذه . والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . غير أننا لا نرى الأشياء بهذه العين المفتوحة ولا نتدبرها بذلك الحس الواعي .

فلا تكشف لنا عن أسرارها المعجبة . ولا تدلنا على مبدع الوجود . ولو فتحنا لها قلوبنا لباحت لنا بأسرارها , ولعشنا معها في عبادة دائمة وتسبيح !

ثم يستطرد في عرض دلائل القدرة وتبسيط قضية الخلق والإعادة للبشر أجمعين:

(أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ? بلى وهو الخلاق العليم) . .

(265/649)

---

والسماوات والأرض خلق عجيب هائل دقيق . . هذه الأرض التي نعيش عليها ويشاركنا ملايين الأجناس والأنواع , ثم لا نبلغ نحن شيئاً من حجمها , ولا شيئاً من حقيقتها , ولا نعلم عنها حتى اليوم إلا القليل . . هذه الأرض كلها تابع صغير من توابع الشمس التي تعيش أرضنا الصغيرة على ضوئها وحرارتها . . وهذه الشمس واحدة من مائة مليون في المجرة الواحدة التي تتبعها شمسنا , والتي تؤلف دنيانا القريبة ! وفي الكون مجرات أخرى كثيرة . أو دنييات كدنيانا القريبة . عد الفلكيون حتى اليوم منها مائة مليون مجرة بمناظيرهم المحدودة . وهم في انتظار المزيد كلما أمكن تكبير المناظير والمراصد . وبين مجرتنا أو دنيانا والمجرة التالية لها نحو خمسين وسبع مائة ألف سنة ضوئية [ السنة الضوئية

تقدر بستة وعشرين مليون مليون من الأميال ! ] . . وهناك كتل ضخمة من السدم التي يظن أنه من نثارها كانت تلك الشموس . وهذا هو الجزء الذي يدخل في دائرة معارفنا الصغيرة المحدودة !

تلك الشموس التي لا يحصيها العد . لكل منها فلك تجري فيه . ولمعظمها توابع ذات مدارات حولها كمدار الأرض حول الشمس . . وكلها تجري وتدور في دقة وفي دأب . لا تتوقف لحظة ولا تضطرب . وإلا تحطم الكون المنظور واصطدمت هذه الكتل الهائلة السابحة في الفضاء الوسيع . .

هذا الفضاء الذي تسبح فيه تلك الملايين التي لا يحصيها العد , كأنها ذرات صغيرة . لا نحاول تصويره ولا تصوره . . فذلك شيء يدير الرؤوس !

(أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ?) . .

وأين الناس من ذلك الخلق الهائل العجيب ?

(بلى ! وهو الخلاق العليم) . .

ولكن الله - سبحانه - يخلق هذا وذلك ويخلق غيرهما بلا كلفة ولا جهد . ولا يختلف بالقياس إليه خلق الكبير وخلق الصغير:

(إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن . فيكون) . .

يكون هذا الشيء سماء أو أرضا . ويكون بعوضة أو نملة . هذا وذلك سواء أمام الكلمة . . كن . . فيكون !

ليس هناك صعب ولا سهل . وليس هنالك قريب ولا بعيد . . فتوجه الإرادة لخلق الشيء كاف وحده لوجوده كائنا ما يكون . إنما يقرب الله للبشر الأمور ليدركوها بمقياسهم البشري المحدود .

الدرس الرابع:83 تسبيح الله المالك للملك

وعند هذا المقطع يجيء الإيقاع الأخير في السورة . الإيقاع المصور لحقيقة العلاقة بين الوجود وخالق الوجود:

(فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء . وإليه ترجعون) . .

ولفظة ملكوت بصياغتها هذه تضخم وتعظم حقيقة هذه العلاقة . علاقة الملكية المطلقة لكل شيء في الوجود . والسيطرة القابضة على كل شيء من هذا المملوك .

ثم إن إليه وحده المرجع والمصير . .

إنه الإيقاع الختامي المناسب لهذه الجولة الهائلة , وللسورة كلها , ولموضوعاتها المتعلقة بهذه الحقيقة الكبيرة , التي يندرج فيها كل تفصيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 2978.2972﴾

(267/649)

---

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ اتقوا ما بين أيديكم ﴾ من الدنيا وشهواتها ﴿ وما خلفكم ﴾ من نعيم الجنة ولذاتها ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ بمشاهدة الجمال وأنوار الكمال ﴿ ونفخ في الصور ﴾ إشارة إلى نفخ إسرافيل المحبة في صور القلب ، فإذا السر والروح والخفى من أجداث أوصاف البشرية ﴿ إلى ربهم ينسلون ﴾ يرجعون بعضها بالسير وبعضها بالطيران ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل ﴾ شغلهم الله بالمفاكهة عن المشاهدة كما قال بعض الصوفية : والناس يخرجون من مسجد الجامع هؤلاء حشو الجنة . وللمجالسة اقوام آخرون وهم الفارغون من الالتفات إلى الكونين . قال الله تعالى ﴿ فإذا فرغت ﴾ [ الشرح : 7 ] أي من تعلقات الكونين ﴿ فانصب ﴾ [ الشرح : 7 ] لطلب الوصال . ويحكى أن الآية قرئت في مجلس الشبلي رضي الله عنه فشهق شهقة وغاب ، فلما أفاق قال : مساكين لو علموا أنهم عم شغلوا لهلكوا .

(268/649)

ويحتمل أن يقال : إنهم اليوم أي في الدنيا ف شغل بأنواع الطاعات والعبادات من طلب الحق والشوق إلى لقائه كما يحكى عن يحيى بن معاذ أنه قال : رايت رب العزة في منامي فقال لي : ابن معاذ ، كل الناس يطلبون مني إلا أبا يزيد فإنه يطلبني . ويمكن أن يقال : إنهم اليوم في الدنيا في شغل بالطاعات والرضا بما قسم الله عن طلب اللذات والفوائد وارتكاب المحرمات والزوائد . أو يقال : إنه خطاب للعصاة فإن أهل الله هم المستغرقون في بحار عظمة الله ، وأهل الجنة مشتغلون باستيفاء اللذات وليس العصاة إلا رحمتي وكرمي كما قال ﴿ يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ [ الزمر : 53 ] ﴿ وتشهد أرجلهم ﴾ في بعض الأخبار المروية أن عبداً لتشهد عليه أعضاؤه بالذلة فتتطاير شعرة من جفن عينه فتستأذن بالشهادة له فيقول الحق تعالى : تكلمي يا شعرة جفن عين عبدي واحتجي عن عبدي . فتشهد له بالبكاء من خوفه فيغفر له وينادي مناد : هذا عتيق الله بشعرة . ﴿ ومن نعمره ننكسه ﴾ إن السالك إذا عمر صار في آخر الأمر إلى الفناء في الله حتى لا يبقى منه ما يستند الفعل إليه . وفي قوله ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ إشارة إلى أن العلوم والصنائع كلها من الله تعالى وبتعليمه وإلهامه . ﴿ من الشجر الأخضر ﴾ وهو شجرة البشرية نار المحبة ﴿ توقدون ﴾ مصباح قلوبكم . وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم " إن قلب القرآن يس " لأن ذكره صلى الله عليه وسلم رمز إليه في أول السورة وفي

آخرها . أما الأول فقد مر في تفسير لفظ ﴿ يس ﴾ وأما الثاني فلأن قوله ﴿ فسبحان ﴾ إلى آخره يدل على المبدأ والمعاد تصريحاً ، وعلى الرسالة ضمناً ، ولا ريب أن القلب خلاصة كل ذي قلب ، وإنه صلى الله عليه وسلم كان خلاصة المخلوقات وكان خلقه القرآن الذي نزل على قلبه ، وكأن فاتحة السورة وخاتمتها مبنية على ذكره منبئة عن سره كالقلب في جوف صاحبه فلأجل هذه المناسبات أطلق على ﴿ يس ﴾ أنه قلب القرآن والله ورسوله أعلم بأسرار كلامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 549 ﴾

(269/649)

---

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة : قيل إن قوله سبحانه : ﴿ يس ﴾ [ يس : 1 ] إشارة إلى سيادته عليه الصلاة والسلام على جميع المخلوقات فالسيد المتولي للسواد أي الجماعة الكثيرة وهي ههنا جميع الخلق فكأنه قيل : يا سيد الخلق وتوليته عليه الصلاة والسلام عليهم لأنه الواسطة العظمى في الإفاضة والإمداد ؛ وفي الخبر الله تعالى المعطي وأنا القاسم فمنزلته صلى الله عليه وسلم من العالم بأسره بمنزلة القلب من البدن فما ألطف افتتاح قلب القرآن

بقلب الأكوان وفي السين بيناتها وزبرها أسرار لا تحصى وكذا في مجموع

﴿ يس والقرءان ﴾ [ يس : 1 ، 2 ] قد يكون إشارة إليه صلى الله عليه وسلم فقد ذكر الصوفية أنه يشار به إلى الإنسان الكامل وكذا الكتاب المبين وعلى ذلك جاء قول الشيخ الأكبر قدس سره

: إنا القرآن والسبع المثاني . . .

وروح الروح لا روح الأواني

ولا أحد أكمل من النبي عليه الصلاة والسلام ، وطبق بعضهم قصة أهل إنطاكية على ما في الأنفس بجعل القرية إشارة إلى القلب وأصحابها إشارة إلى النفس وصفاتها والإثنين إشارة إلى الخاطر الرحماني والإلهام الرباني والثالث المعزز به إشارة إلى الجذبة والرجل الجائي من أقصى المدينة إشارة إلى الروح ، وطبق كثيراً من آيات هذه السورة على هذا الطرز ، وقيل : في قوله سبحانه : ﴿ طائركم مَّعَكُمْ ﴾ [ يس : 19 ] إنه إشارة إلى استعدادهم السيء الذي طار بهم عنقاء مغربة

: إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم . . .

وقيل: في ﴿ أصحاب الجنة ﴾ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أصحاب الجنة اليوم فِى شُغُلٍ فاكهون وَهُمْ وأزواجهم فِى ظلال عَلَى الارائك ﴾ [ يس: 55، 56 ] إنه إشارة إلى طائفة من المؤمنين كان الغالب عليهم في الدنيا طلب الجنة ولذا أضيفوا إليها وهم دون أهل الله تعالى وخاصته الذين لم يلتفتوا إلى شيء سواه عز وجل فأولئك مشغولون بلذائذ ما طلبوه وهؤلاء جلساء الحضرة المشغولون بمولاهم جل شأنه المتنعمون بوصاله ومشاهدة جماله وفرق بين الحالين وشتان ما بين الفريقين، ولذا قيل: أكثر أهل الجنة البله فافهم الإشارة.

والشيطان في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِى وَإِذْ أَخَذَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان ﴾ [ يس: 60 ] إشارة إلى كل ما يطاع ويذل له غير الله عز وجل كائناً ما كان وعداوته لما أنه سبب الحجاب عن رب الأرباب، وفي قوله تعالى: ﴿ فَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [ يس: 76 ] إشارة إلى أنه لا ينبغي الأكتراث بأذى الأعداء والالتفات إليه فإن الله تعالى سيجازيهم عليه إذا أوقفهم بين يديه، هذا ونسأل الله تعالى أن يحفظنا من شر الأرار وأن ينور قلوبنا بمعرفته كما نور قلوب عباده الأبرار ونصلي ونسلم على حبيبه قلب جسد الأعيان وعلى آله وصحبه ما دامت سورة يس قلب القرآن. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

## فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

### سورة يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يس (1)

. حرفان مقطّعان لا محلّ لهما من الإعراب .

[سورة يس (36) : الآيات 2 إلى 11]

وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (6)

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (7) إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (9) وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11)

الإعراب :

(الواو) واو القسم (القرآن) مجرور بالواو متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم .

جملة : " (أقسم) بالقرآن . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

(3 – 5) (اللام) لام القسم عوض المزحلقة (من المرسلين) متعلّق بخبر (إنّ) (على صراط) متعلّق بالخبر المحذوف " 1 " ، (تنزيل) مفعول مطلق لفعل محذوف (الرحيم) نعت للعزيز مجرور مثله . .

وجملة : " إنّك لمن المرسلين " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " (نزّل) تنزيل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(6) (اللام) للتعليل (تنذر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (ما) نافية " 2 " ، (آباؤهم) نائب الفاعل مرفوع (الفاء) عاطفة . .

والمصدر المؤوّل (أن تنذر . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بالمصدر النائب عن فعله تنزيل .

وجملة : " تنذر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

---

(1) أو متعلّق باسم الفاعل المرسلين .

(2) أو موصولة أو نكرة موصوفة أو زائدة .



---

وجملة : " ما أنذر آباؤهم " في محلّ نصب نعت لـ (قوما) .

وجملة : " هم غافلون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة ما أنذر . . .

(اللام) لام القسم لقسم مقدّر . . (قد) حرف تحقيق (على أكثرهم) متعلّق بـ (حقّ) ،

(الفاء) تعليليّة (لا) نافية .

وجملة : " قد حقّ القول . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . .

وجملة القسم المقدّر استئنافيّة .

وجملة : " هم لا يؤمنون " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " لا يؤمنون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(8) (إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (في أعناقهم) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (الفاء) الأولى زائدة لمطلق الربط (إلى الأذقان) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ هي " 1 " . .

(الفاء) الثانية عاطفة . .

وجملة : " إنّا جعلنا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " جعلنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " هي إلى الأذقان . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هم مقمحون " لا محلّ لها معطوفة على جملة هي الأذقان .

(9) (الواو) عاطفة (من بين) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعلنا ، وكذلك (من خلفهم) فـ (الواو) لعطف المفعول الأول على الأول والمفعول الثاني على الثاني (الفاء) عاطفة في الموضعين . .

وجملة: " جعلنا ... (الثانية) " في محلّ رفع معطوفة على جملة جعلنا (الأولى).

وجملة: " أغشيناهم ... " في محلّ رفع معطوفة على جملة جعلنا (الثانية).

وجملة: " هم لا يبصرون " في محلّ رفع معطوفة على جملة أغشيناهم.

وجملة: " لا يبصرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم).

(10) (الواو) عاطفة (سواء) خبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر المصدر المؤوّل (عليهم) متعلّق بسواء (الهمزة) حرف مصدريّ للتسوية (أم) حرف عطف معادل للهمزة (لا) نافية..

---

(1) هذا الضمير يعود على الأيدي التي وضعت فيها الأغلال، وهي مفهومة من السياق.

*(273/649)*

---

والمصدر المؤوّل (أأنذرتهم) في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر.

وجملة: " سواء عليهم (إنذارك) ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّا جعلنا.

وجملة: " أنذرتهم ... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (الهمزة).

وجملة: " لم تنذرهم ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنذرتهم.

وجملة: " لا يؤمنون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

(11) (إنّما) كافّة ومكفوفة (بالغيب) متعلّق بحال من الفاعل أو المفعول (الفاء) رابطة

لجواب شرط مقدّر (بمغفرة) متعلّق بـ (بشّره) . .

وجملة : " إنما تنذر . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة : " اتّبع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " خشي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اتّبع .

وجملة : " بشّره " جواب شرط مقدّر أي من اتّبع الذكر . . فبشره .

الصرف :

(8) مقمحون : جمع مقمح ، اسم مفعول من (أقمح) الرباعيّ وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين .

البلاغة

1 - الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا " .

مثّل تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم ، بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين ، في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يطأطئون رؤوسهم له ، وكالحاصلين بين سدين ، لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم : في أن لا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله .

2 - الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا " .

فقد شبههم بمن أحاط بهم سدان هائلان فغطيا أبصارهم، بحيث لا يبصرون قدّامهم ووراءهم، في أنهم محبوسون في هذه الجهالة، ممنوعون من النظر في الآيات والدلائل أو كأنهم، وقد حرموا نعمة التفكير في القرون الخالية، والأمم الماضية، والتأمل في المغاب الآتية، والعواقب المستقبلة، قد أحيطوا بسد من أمامهم، وسد من ورائهم، فهم في ظلمة داكنة، لا تختلج العين من جانبها بقبس، ولا تتوسم بصيصا من أمل.

[سورة يس (36) : آية 12]

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (12)

الإعراب:

(إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (نحن) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ " 1 "، (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به، والعائد محذوف (آثارهم) معطوف على الموصول بحرف العطف، منصوب (كلّ) مفعول به لفعل محذوف يفسّره ما بعده (في إمام) متعلّق ب (أحصيناه)..

جملة: " إنّا نحن نحيي... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " نحن نحيي... " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: " نحيي الموتى... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (نحن).

وجملة: "نكتب ... "في محلّ رفع معطوفة على جملة نحيي.

وجملة: "قدّموا ... "لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

---

(1) أو توكيد للضمير المتصل (نا) اسم إنّ، وأستعير لمحل النصب. [.....]

(275/649)

---

وجملة: "(أحصينا) كلّ شيء .. "في محلّ رفع معطوفة على جملة نكتب.

وجملة: "أحصينا ... "لا محلّ لها تفسيريّة.

[سورة يس (36): الآيات 13 إلى 14]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ
فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14)

(14)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة، والخطاب في (اضرب) للرسول عليه السلام (لهم) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (مثلا) مفعول به أول منصوب (أصحاب) بدل من (مثلا) منصوب مثله "1"، (إذ) ظرف مبني في محلّ نصب بدل من أصحاب بدل اشتمال.

وجملة : " اضرب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جاءها المرسلون " في محلّ جرّ مضاف إليه .

(إذ) الثاني بدل من الأول بدل كلّ (إليهم) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (الفاء) عاطفة في المواضع الثلاثة (بثالث) متعلّق بـ (عزّزنا) بحذف مضاف أي برسول ثالث (إليكم) متعلّق بالخبر (مرسلون) .

وجملة : " أرسلنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : "كذّبوهما " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أرسلنا .

وجملة : " عزّزنا . . . " في محلّ جرّ معطوف على جملة كذبوهما .

---

(1) بحذف مضاف أي قصّة أصحاب القرية . . ويجوز أن يكون (أصحاب) مفعولا أوّل و(مثلا) مفعولا ثانيا (لهم) متعلّق بـ (اضرب) .

الجدول ج 22 ، ص : 296

وجملة : " قالوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة عزّزنا .

وجملة : " إنّا إليكم مرسلون " في محلّ نصب مقول القول .

البلاغة

الحذف : في قوله تعالى " فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ " :

فقد حذف مفعول عزّزنا ، والتقدير فعززناهما بثالث وإنما جنح إلى هذا الحذف لأن

الغرض ذكر المعزز به ، وهو شمعون ، وما لطف فيه من التدبير ، حتى عزّ الحق وذلّ الباطل وإذا كان الكلام منصبا إلى غرض من الأغراض ، جعل سياقه له وتوجهه إليه ، كأن سواه مرفوض مطروح. ونظيره قولك : حكم السلطان اليوم بالحق ، الغرض المسوق إليه : قولك بالحق فلذلك رفضت ذكر المحكوم له والمحكوم عليه .

فوائد

(276/649)

---

- أصحاب القرية قال العلماء بأخبار الأنبياء : بعث عيسى عليه الصلاة والسلام رسولين من الحواريين : (صادقا وصدوقا) فلما قربا من المدينة ، رأيا شيخا يرعى غنيمات له ، وهو حبيب النجار ، فسأل عن حالهما ، فقالا : نحن رسولا عيسى ، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن ، فقال : أمعكما آية؟ فقالا : نشفي المريض ونبرئ الأكمه والأبرص ، وكان له ابن مريض مدة سنتين ، فمسحاه فقام ، فآمن حبيب وفشا الخبر ، فشفي على أيديهما خلق كثير ، فدعاهما الملك وقال لهما : ألنا إله سوى آلهتنا ؟ قالا : نعم ، من أوجدك وآلهتك؟ فقال : حتى أنظر في أمركما فتبعهما الناس وضربوهما ، وقيل : حبسوهما . ثم بعث عيسى (صلّى اللّه عليه وسلّم) شمعون ، فدخل متنكرا ، وعاشر

حاشية الملك حتى استأنسوا به ، ورفعوا خبره إلى الملك ، فأنس به ، فقال له ذات يوم : بلغني أنك حبست رجلين ، فهل سمعت قولهما ؟ قال : لا ، فدعاهما ، فقال شمعون : من أرسلكما ؟ قالا : اللّه الذي خلق كل شيء ، ورزق كل حي ، وليس له شريك ، فقال : صفاه وأوجزا ، قالا : يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد . قال : وما آيتكما ؟ قالا : ما يتمنى الملك ، فدعا بغلام أكمه ، فدعوا اللّه فأبصر الغلام . فقال له شمعون : أرأيت ، لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا ، فيكون لك وله الشرف . قال الملك : ليس لي عندك سرّ ، إن إلهنا لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، ثم قال : إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به ، فدعوا بغلام مات من سبعة أيام ، فقام وقال : إني أدخلت في سبعة أودية من النار بسبب موتي على الشرك ، وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا ، وقال : فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة . قال الملك ومن هم ؟ قال :
شمعون وهذان ، فتعجب الملك فلما رأى شمعون أن قوله قد أثّر فيه نصحه فآمن ، وآمن معه قوم ، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام فهلكوا .

[سورة يس (36) : آية 15]

قالُوا ما أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (15)

الإعراب:

(ما) نافية (إلّا) للحصر (مثلنا) نعت لبشر مرفوع، (الواو) عاطفة (ما) نافية (شيء) مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به (إن) حرف نفي (إلّا) مثل الأولى..

وجملة: «قالوا...» لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: «ما أنتم إلّا بشر...» في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: «ما أنزل الرحمن...» في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

وجملة: «إن أنتم إلّا تكذبون» لا محلّ لها استئناف في حيّز القول - أو تعليليّة -.

وجملة: «تكذبون» في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم).

[سورة يس (36) : الآيات 16 إلى 17]

قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَما عَلَيْنا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (17)

الإعراب:

(إليكم) متعلّق بالخبر (مرسلون)، و(اللام) المزحلقة جعلت (إنّ) مكسورة.

جملة: «قالوا...» لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: «ربّنا يعلم...» في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ربّنا) .

وجملة : " إنّا إليكم لمرسلون " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي يعلم المعلّق بإن مكسورة الهمزة .

(17) (الواو) عاطفة (ما) نافية (علينا) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (إلّا) للحصر (البلاغ) مبتدأ مؤخّر مرفوع .

وجملة : " ما علينا إلّا البلاغ . . . " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول .

البلاغة

التأكيد : في قوله تعالى " إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ " .

*(278/649)*

---

في هذه الآيات يبدو التأكيد بأروع صوره للخبر ، فقد قال أولا : " إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما " فأورد الكلام ابتدائي الخبر ، ثم قال : " إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ " فأكده بمؤكدين ، وهو إن واسمية الجملة ، فأورد الكلام طلبيا ، ثم قال : " إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ " فترقى في التأكيد بثلاثة ، وهي : إن ، واللام ، واسمية الجملة فأورد الكلام إنكاري الخبر جوابا عن إنكارهم . قيل وفي قوله " رَبُّنا يَعْلَمُ " تأكيد رابع ، وهو إجراء الكلام مجرى القسم ، في

التأكيد به، وفي أنه يجاب بما يجاب به القسم.

وفي هذه الآية ائتلاف الفاصلة مع ما يدل عليه سائر الكلام، فإن ذكر الرسالة مهد لذكر البلاغ والبيان.

[سورة يس (36) : آية 18]

قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (18)

الإعراب:

(بكم) متعلّق بـ (تطيّرنا) ، (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (تنتهوا) مضارع مجزوم فعل الشرط (اللام) الثانية لام القسم (نرجمنّكم) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع.. و(النون) نون التوكيد، و(كم) مفعول به، والفاعل نحن (ليمسّنكم) مثل لنرجمنّكم (منّا) متعلّق بـ (يمسّنكم) بتضمينه معنى يأتينّكم "1".

جملة: "قالوا... "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "إنّا تطيّرنا... "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "تطيّرنا بكم... "في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "إن لم تنتهوا... "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

وجملة: "نرجمنّكم "لا محلّ لها جواب القسم.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم.

وجملة: "يمسّنّكم منّا عذاب... "لا محلّ لها معطوفة على جملة نرجمنّكم.

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من عذاب.

(279/649)

---

]

سورة يس (36) : آية 19]

قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19)

الإعراب:

(معكم) ظرف منصوب متعلّق بخبر المبتدأ (طائركم) (الهمزة) للاستفهام (ذكّرتم) مبنيّ للمجهول في محلّ جزم فعل الشرط.. و(تم) نائب الفاعل (بل) للإضراب الانتقاليّ.

جملة: "قالوا... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "طائركم معكم... "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "إن ذكّرتم... "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول...

وجواب الشرط محذوف تقديره تطيّرتم.

وجملة: "أنتم قوم... "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

[سورة يس (36) : الآيات 20 إلى 25]

وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (24)

إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من أقصى) متعلّق ب (جاء) ، (قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم المحذوفة للتخفيف ، وهي مضاف إليه .

جملة : " جاء . . . رجل " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يسعى " في محلّ رفع نعت لرجل .

الجدول ج 22 ، ص : 301

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة النداء وجوابها . . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اتّبعوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

(21) (من) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (لا) نافية (أجرا) مفعول به ثان منصوب

(الواو) عاطفة – أو حاليّة – .

وجملة : " اتّبعوا . . . (الثانية) " لا محلّ لها بدل من جملة اتّبعوا (الأولى) .

وجملة : " لا يسألكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " هم مهتدون " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة " 2 " .

(22) (الواو) عاطفة (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (لي) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ ما (لا) نافية (الذي) اسم موصول مفعول به (الواو) عاطفة (إليه) متعلّق بـ (ترجعون) ، والواو فيه نائب الفاعل .

وجملة : " ما لي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء " 3 " وجملة : " لا أعبد . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " فطرني . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " إليه ترجعون " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة " 4 " .

(23) (الهمزة) للاستفهام وفيه معنى النفي – أو الإنكار – (من دونه) متعلّق

---

(1) أو في محلّ نصب حال من رجل – وقد وصف – بتقدير قد .

(2) أو في محلّ نصب حال .

(3) أصل الكلام : ما لكم لا تعبدون ، ولكنّه صرف الكلام عنهم ليكون أسرع قبولا .

(4) أو معطوفة على جملة ما لي لا أعبد .

بمحذوف مفعول به ثان عامله أتّخذ ، (إن) حرف شرط جازم والنون في (يردن) نون الوقاية قبل ياء المتكلّم المحذوفة مراعاة لقراءة الوصل (بضرّ) متعلّق بحال من المفعول أي متلبّسا بضرّ (لا) نافية (تغن) مضارع مجزوم جواب الشرط ، وعلامة الجزم حذف حرف العلّة (عنّي) متعلّق بـ (تغن) ، (شيئا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مبيّن لكميّته " 1 " ، (الواو) عاطفة (لا) نافية (ينقذون) مضارع مجزوم معطوف على (تغن) ، وعلامة الجزم حذف النون ، والواو فاعل ، و(النون) . المذكورة للوقاية ، والياء المحذوفة لمناسبة فواصل الآيات مفعول به .

وجملة : " أتّخذ . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " يردن الرحمن . . . " لا محلّ لها تعليل لما سبق .

وجملة : " لا تغن عنّي شفاعتهم . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " لا ينقذون " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تغن . . .

(24) (إذا) - بالتنوين - حرف جواب " 2 " ، (اللام) المزحلقة للتوكيد (في ضلال) متعلّق بخبر إنّ . . .

وجملة: "إنّي.. لفي ضلال" لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

(25) (بربّكم) متعلّق بـ (آمنت)، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر، والنون في (اسمعون) للوقاية، والياء المحذوفة بسبب فواصل الآيات مفعول به.

وجملة: "إنّي آمنت..." لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

وجملة: "آمنت..." في محلّ رفع خبر إنّ.

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا به بتضمين الفعل معنى تمنع.

(2) أو ظرف شرطي مع تنوين العوض أي إذا عبدت غير اللّه.. والجواب محذوف دلّ عليه مضمون الخبر.



---

وجملة: "اسمعون" في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: فاسمعون

فوائد

- الفروق بين البدل وعطف البيان:

1- البدل هو المقصود بالحكم، وأتي بالمتبوع قبله تمهيدا لذكر البدل، على حين عطف

البيان متبوعه هو المقصود ، وإنما أتي بعطف البيان للتوضيح ، فهو كالصفة .

مثال للبدل : (حرر القائد صلاح الدين بيت المقدس) فالبدل صلاح الدين هو المقصود بالحكم . مثال عطف البيان (جاء أبو زيد عمران) فأبو زيد هو المقصود بالحكم ، لكن (عمران) جاءت أوضح منه .

2 – عطف البيان أوضح من متبوعه ، ولا يشترط ذلك في البدل .

3 – يخصون عطف البيان بالمعارف أو النكرات المختصة (عند بعضهم) ولا يشترط ذلك في البدل .



---

4 – لك في البدل أن تستغني عن التابع أو المتبوع ، فقولك : (جاء الشاعر خالد) يبقى سليما إذا أسقطت البدل أو المبدل منه ، ولا يصح ذلك دائما في عطف البيان مثل : (يا أيها الرجل) . لا يقال : (يا الرجل) و(يا زيد الفاضل) لا يقال (يا الفاضل) و(جارك ماتت زينب أمه) لا يقال : (جارك ماتت زينب) ، ولذا يكون التابع في هذه الجمل ، وفي أمثالها ، عطف بيان ، لعدم صحة حلوله مكان المبدل منه . وحين تبقى الجملة سليمة بإسقاط التابع أو المتبوع صحّ في التابع أن يكون بدلا أو عطف بيان ، لكن الأصح إعرابه عطف بيان

إذا كان أوضح أو أشهر من المتبوع.

5 - إن عطف البيان لا يكون تابعا لجملة بخلاف البدل، كما في قوله تعالى في الآية التي نحن بصددها قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ: اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً فجملة اتبعوا الثانية بدل من جملة اتبعوا الأولى، و(أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ).

6 - البدل يخالف متبوعه في التعريف والتنكير: كقوله تعالى إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ صِراطِ اللَّهِ و(بِالنَّاصِيَةِ ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ). وعطف البيان لا يخالف متبوعه بذلك.

[سورة يس (36): الآيات 26 إلى 27]

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27)

الإعراب:

(يا) حرف تنبيه.

جملة: "قيل..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ادخل الجنّة..." في محلّ رفع نائب الفاعل.

وجملة: "قال..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يا ليت قومي يعلمون" في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "يعلمون..." في محلّ رفع خبر ليت.

(27) (ما) مصدريّ " 1 " ، (لي) متعلّق بـ (غفر) ، (من المكرمين) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان.

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ، والعائد محذوف.

(283/649)

---

والمصدر المؤوّل (ما غفر ...) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (يعلمون).

وجملة: " (غفر) لي ربّي ... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

وجملة: " جعلني ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة غفر لي ربّي.

[سورة يس (36) : الآيات 28 إلى 29]

وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (29)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (على قومه) متعلّق بـ (أنزلنا) ، (من بعده) متعلّق بـ (أنزلنا) ، (جند) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (من السماء) متعلّق بـ (أنزلنا) " 1 " ، (الواو) اعتراضيّة (ما) نافية ...

جملة : " ما أنزلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما كنّا منزلين " لا محلّ لها اعتراضيّة – أو تعليليّة – (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر ، واسم (كانت) محذوف تقديره العقوبة المفهومة من السياق (الفاء) عاطفة (إذا) حرف فجاءة .

وجملة : " إن كانت إلّا صيحة . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هم خامدون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كانت . . .

البلاغة

الاستعارة المكنية : في قوله تعالى " فَإِذا هُمْ خامِدُونَ " :

شبهوا بالنار على سبيل الاستعارة المكنية ، والخمود تخييل ، وفي ذلك رمز إلى الحي كشعلة النار ، والميت كالرماد ، كما قال لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

---

(1) أو بمحذوف نعت لجند .

ويجوز أن تكون الاستعارة تصريحية تبعية في الخمود، بمعنى البرودة والسكون، لأن الروح لفزعها عند الصيحة تندفع إلى الباطن دفعة واحدة، ثم تنحصر فتنطفئ الحرارة الغريزية لانحصارها، ولعل في العدول عن هامدون إلى "خامدون" رمزا خفيفا إلى البعث بعد الموت.

[سورة يس (36) : آية 30]

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (30)

الإعراب:

(يا) للنداء والتحسّر (حسرة) منادى شبيه بالمضاف متحسّر به منصوب (على العباد) متعلّق بحسرة (ما) نافية (رسول) مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل يأتي (إلّا) للحصر (به) متعلّق بـ (يستهزئون)..

جملة: "يا حسرة على العباد..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ما يأتيهم من رسول.." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "كانوا به يستهزئون.." في محلّ نصب حال من مفعول يأتيهم أو فاعله.

وجملة: "يستهزئون" في محلّ نصب خبر كانوا.

البلاغة

الاستعارة: في قوله تعالى "يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ".

والمعنى أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ، ويتلهف على حالهم المتلفهون . أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين . ويجوز أن يكون من اللّه تعالى على سبيل الاستعارة ، في معنى تعظيم ما جنوه على أنفسهم ومحنوها به ، وفرط إنكاره له وتعجيبه منه .

[سورة يس (36) : الآيات 31 إلى 32]

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (31) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (32)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (كم) كناية عن عدد في محلّ نصب مفعول به مقدم (قبلهم) ظرف منصوب متعلّق بحال من القرون " 1 " ، (من القرون) تمييز كم (إليهم) متعلّق ب (يرجعون) المنفي .

---

(1) أو متعلّق ب (أهلكنا) .

جملة: "لم يروا.. " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أهلكنا... " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي يروا المعلّق بـ (كم) الخبريّة - وقد تكون استفهاميّة -.

وجملة: "لا يرجعون... " في محلّ رفع خبر أنّ.

والمصدر المؤوّل (أنّهم إليهم لا يرجعون) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (أهلكناهم) ، أي: أهلكناهم بأنّهم إليهم لا يرجعون أي: أهلكناهم بالاستئصال "1".

(الواو) عاطفة (إن) حرف نفي (كلّ) مبتدأ مرفوع "2" ، (لمّا) للحصر بمعنى إلّا (جميع) خبر المبتدأ مرفوع بمعنى مجموعون (لدينا) ظرف مبنيّ على السكون في محلّ نصب متعلّق بجميع - أو بـ (محضرون) وهو خبر ثان "3".

وجملة: "إن كلّ لمّا جميع.. " في محلّ نصب معطوفة على جملة أهلكنا.

[سورة يس (36) : الآيات 33 إلى 35]

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (35)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (آية) خبر مقدّم مرفوع للمبتدأ (الأرض) (لهم) متعلّق بنعت لآية (منها)

متعلّق بـ (أخرجنا) (الفاء) عاطفة (منه) متعلّق بـ (يأكلون) .

---

(1) قاله ابن هشام ، وردّ قول سيبويه بأنّه بدل من (كم) ، وذلك للزوم تسلّط (أهلكنا) على هذا المصدر . . أي أهلكنا كثيرا من القرون وأهلكنا عدم رجوعهم وهذا لا يصحّ . والزمخشريّ يجعله بدلا من كم على معنى : ألم يعلموا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم . . وبعضهم يجعل المصدر المؤوّل معمولا لفعل محذوف أي قضينا أو حكمنا أنهم لا يرجعون .

(2) دال على عموم والتنوين بنيّة الإضافة .

(3) أو هو نعت لجميع . [. . . . . .]



---

جملة : " آية لهم الأرض . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أحييناها . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " أخرجنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أحييناها .

وجملة : " يأكلون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أخرجنا " 2 " .

(الواو) عاطفة (فيها) متعلّق بمحذوف مفعول ثان و(جنّات) المفعول الأول (من نخيل)

متعلّق بنعت لجنّات (فيها ) الثاني متعلّق بـ (فجّرنا ) ، (من العيون) مثل فيها ، ومن تبعيضيّة .

وجملة : " جعلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أخرجنا .

وجملة : " فجّرنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أخرجنا . .

(اللام) للتعليل (يأكلوا ) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، وعلامة النصب حذف النون ، و(الواو) فاعل (من ثمره) متعلّق بـ (يأكلوا ) ، والضمير في ثمره يعود على المذكور من النخيل والأعناب (ما ) اسم موصول في محلّ جرّ معطوف على ثمره " 3 " ، (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء ) عاطفة (لا) نافية . . .

والمصدر المؤوّل (أن يأكلوا . . . ) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعلنا ) . .

وجملة : " يأكلوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " عملته أيديهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما ) .

وجملة : " لا يشكرون . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : أيجحدون النعم فلا يشكرون .

---

(1) أو حال من الأرض - أو نعت لها -

(2) يظهر من المعنى أن الجملة نعت لـ (حبّا ) ، فالفاء زائدة .

(3) أو حرف نفي ، والجملة اعتراضيّة .

[سورة يس (36) : آية 36]

سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (36)

الإعراب:

(سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف، منصوب (كلّها) توكيد معنوي للأزواج منصوب (ممّا) متعلّق بحال من الأزواج، وكذلك (من أنفسهم، مما ("الثانية") ، (لا) نافية...

جملة: "(نسبّح) سبحان... " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة.

وجملة: "خلق... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة: "تنبت الأرض... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول.

وجملة: "لا يعلمون.. " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني.

البلاغة

فن التناسب: في قوله تعالى "سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها ".

وفن التناسب: هو أن يأتي المتكلم في أول كلامه بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه، فإما أن يكون مجملا يحتاج إلى تفصيل، أو موجها يفتقر إلى توجيه، أو محتملا يحتاج المراد منه

إلى ترجيح لا يحصل إلا بتفسيره وتبيينه ، ووقوع التفسير في الكلام على أنحاء : تارة يأتي بعد الشرط ، أو بعد ما فيه معنى الشرط ، وطورا بعد الجار والمجرور ، وآونة بعد المبتدأ الذي التفسير خبره ، وقد أتت صحة التفسير في هذه الآية مقترنة بصحة التقسيم ، واندمج فيهما الترتيب والتهذيب ، فكان فيها أربعة فنون : فقد قدم سبحانه البنات ، وانتقل على طريق البلاغة إلى الأعلى ، فثنى بأشرف الحيوان وهو الإنسان ليستلزم ذكره بقية الحيوان ، ثم ثلث بقوله " وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ " ، فانتقل من الخصوص إلى العموم ، ليندرج تحت العموم .

الجدول ج 23 ، ص : 11

[سورة يس (36) : الآيات 37 إلى 40]

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (آية لهم . . نسلخ) مثل نظيرها " 1 " ، (منه) متعلّق بـ (نسلخ) ، (الفاء) عاطفة (إذا) فجائية .

جملة : " آية لهم الليل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نسلخ . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " هم مظلمون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نسلخ .

(الواو) عاطفة (الشمس) معطوف على الليل مرفوع " 3 " ، (لمستقرّ) متعلّق بـ (تجري) بتضمينه معنى تنتهي (لها) متعلّق بمستقرّ (ذلك) مبتدأ خبره تقدير (العليم) نعت للعزيز مجرور .

وجملة : " تجري . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 4 " .

وجملة : " ذلك تقدير . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

(الواو) عاطفة (القمر) مفعول به لفعل محذوف يفسّره ما بعده أي أنزلنا - أو خلقنا - (منازل) مفعول به ثان منصوب بتضمين قدّرنا معنى صيّرنا ، وذلك بحذف مضاف أي ذا منازل " 5 " ، (حتّى) حرف غاية وجرّ

---

(1) في الآية (33) من هذه السورة .

(2) انظر إعراب جملة (أحييناها) في الآية 33 ، فهذه نظير تلك .

(3) يجوز أن يكون مبتدأ .

(4) أو هي خبر المبتدأ (الشمس) .

(5) أو حال من ضمير الغائب في (قدّرنا ) بحذف مضاف أي ذا منازل ويجوز أن جملة : " كلّ . . . يسبحون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا الشمس . .

يكون ظرفا متعلّقا بـ (قدّرناه) ، أي قدّرنا سيره في منازل . . وابن هشام يجعل الضمير في (قدّرناه) منصوبا على نزع الخافض ، فثمة حرف جرّ محذوف أي قدّرنا له منازل ، فمنازل مفعول به .



---

(كالعرجون) متعلّق بحال من فاعل عاد .

والمصدر المؤوّل (أن عاد . . . ) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (قدّرناه) .

وجملة : " (أنزلنا ) القمر . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة آية لهم الليل .

وجملة : " قدّرناه . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " عاد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

(لا) نافية مهملة (الشمس) مبتدأ مرفوع خبره جملة ينبغي (لها ) متعلّق بـ (ينبغي) ، (أن)

حرف مصدريّ ونصب .

والمصدر المؤوّل (أن تدرك . . . ) في محلّ رفع فاعل ينبغي .

(الواو) عاطفة (لا الليل) مثل لا الشمس ، والخبر (سابق) ، (كلّ) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (في فلك) متعلّق بـ (يسبحون) .

وجملة : " لا الشمس ينبغي . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ينبغي " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الشمس) .

وجملة : " تدرك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " لا الليل سابق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا الشمس . . .

---

(1) أفاد العموم ، والتنوين فيه على نيّة الإضافة .

الجدول ج 23 ، ص : 13

وجملة : " يسبحون . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (كلّ) .

الصرف :

(37) مظلمون : جمع مظلم أي داخل في الظلام ، اسم فاعل من الرباعيّ أظلم ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين .

(39) العرجون : اسم جامد لعود النخلة أو عنقودها ، وزنه فعلول بضمّ الفاء واللام وسكون العين بينهما .

1 - الاستعارة : في قوله تعالى " نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ " .

وأصل السلخ كشط الجلد عن نحو الشاة ، فاستعير لكشف الضوء عن مكان الليل وملقى ظلمته وظله ، استعارة تبعية مصرحة ، والجامع ما يعقل من ترتب أمر على آخر ، فإنه يترتب ظهور اللحم على كشط الجلد وظهور الظلمة على كشف الضوء عن مكان الليل ، ويجوز أن يكون في النهار استعارة مكنية ، وفي السلخ استعارة تخييلية .

2 - التشبيه المرسل : في قوله تعالى حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ " .



---

فقد مثل الهلال بأصل عذق النخلة ، والعذق بكسر العين هو الكباسة والكباسة عنقود النخل ، وهو تشبيه بديع للهلال ، فإن العرجون إذا قدم دق وانحنى واصفر ، وهي وجوه الشبه بين الهلال والعرجون ، فهو يشبهه في رأي العين في الدقة لا في المقدار ، والاستقواس والاصفرار ، وهذا من تشبيه المحسوس بالمحسوس ، فإن الطرفان وهما القمر والعرجون حسيان .

الفوائد

- حذف حرف الجر:

1- يكثر ذلك ويطرد مع (أنّ) و(أن) كقوله تعالى يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا أي بأن ومثله بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ أي بأن هداكم ووَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي أي بأن يغفر لي. وأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ أي (لأن المساجد لله) (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ) أي بأنكم.

2- وجاء في غيرهما كما في الآية التي نحن بصددها وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ أي قدرنا له.

وَيَبْغُونَها عِوَجاً أي يبغون لها إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ أي يخوفكم بأوليائه.

3- وقد يحذف ويبقى الاسم مجرورا كقول القائل- وقد قيل له كيف أصبحت-" خير" أي بخير.

وقولهم (بكم درهم) أي بكم من درهم. ويقال في القسم" اللّه لأفعلنّ"

[سورة يس (36): الآيات 41 إلى 44]

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41) وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (42) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ (43) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (44)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (آية لهم) مرّ إعرابها" 1"، (أنّا) حرف مشبه بالفعل واسمه (في الفلك) متعلّق بـ (حملنا).

والمصدر المؤوّل (أنّا حملنا..) في محلّ لها رفع مبتدأ مؤخّر.

جملة : " آية لهم أنّا حملنا " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) في الآية (33) من هذه السورة .



---

وجملة : " حملنا " في محلّ رفع خبر أنّ .

(42) (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بـ (خلقنا) ، (من مثله) متعلّق بحال من ما - نعت تقدّم على المنعوت - وجملة : " خلقنا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة حملنا .

وجملة : " يركبون . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(43) - (الواو) عاطفة (الفاء) عاطفة (لا) نافية للجنس (صريخ) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (لهم) متعلّق بخبر لا (لا) نافية ، و(الواو) في (ينقذون) نائب الفاعل .

وجملة : " إن نشأ . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " نغرقهم . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " لا صريخ لهم . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " لا هم ينقذون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا صريخ لهم .

وجملة : " ينقذون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(44) - (إلّا) للاستثناء (رحمة) منصوب على الاستثناء المنقطع " 1 " (منّا) متعلّق برحمة (إلى حين) متعلّق بـ (متاعا) .

الصرف :

(43) صريخ : صفة مشتقّة على وزن فعيل بمعنى فاعل أي مستغيث ، وقد يأتي على معنى المفعول أيضا

البلاغة

سلامة الاختراع : في قوله تعالى " وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ " إلى قوله تعالى " وَمَتاعاً إِلى حِينٍ " وسلامة الاختراع هي : الإتيان بمعنى لم يسبق إليه . فإن نجاتهم من الغرق برحمة منه تعالى هي في حد ذاتها متاع يستمتعون به ، ولكنه على كل حال إلى أجل مقدر يموتون فيه لا مندوحة لهم عنه ، فهم إن نجوا من الغرق فلن ينجوا مما يشبهه أو يدانيه ، والموت لا تفاوت فيه .

[سورة يس (36) : الآيات 45 إلى 46]

---

(1) أي هو مستثنى من أعمّ العلل والأسباب أي : لا ينقذون لأي سبب إلّا سبب الرحمة . . هذا ويجوز أن يكون الاستثناء مفرّغا فهو منصوب بنزع الخافض أي برحمة ، أو هو مفعول مطلق لفعل محذوف ، أو هو مفعول لأجله . .

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (46)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بـ (قيل) ، (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (بين) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (الواو) عاطفة (ما خلفكم) مثل ما بين.. فهو معطوف عليه، و(الواو) في (ترحمون) نائب الفاعل.

جملة الشرط وفعله وجوابه... لا محلّ لها معطوفة على جملة إن نشأ " 1 ".

وجملة: " قيل... " في محلّ جرّ مضاف إليه.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه قوله تعالى في الآية التالية كانوا عنها معرضين أي أعرضوا.

وجملة: " اتّقوا... " في محلّ رفع نائب الفاعل " 2 ".

وجملة: " لعلّكم ترحمون.. " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " ترحمون.. " في محلّ رفع خبر لعلّ.

(46) - (الواو) عاطفة (ما) نافية (آية) مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل تأتي (من آيات)

متعلّق بنعت لآية (إلّا) للحصر (عنها) متعلّق بمعرضين الخبر . .

وجملة: " ما تأتيهم من آية . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن نشأ " 3 " .

وجملة: "كانوا عنها معرضين . . " في محلّ نصب حال من المفعول أو من الفاعل .

[سورة يس (36) : آية 47]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (47)

---

(1 ، 3) في الآية (43) من هذه السورة.

(2) هي في الأصل جملة مقول القول. [. . . . .]

(293/649)

---

الإعراب:

(الواو) عاطفة (إذا قيل لهم أنفقوا) مثل إذا قيل لهم اتّقوا " 1 " ، (ممّا) متعلّق ب (أنفقوا) " 2 " ، (للذين) متعلّق ب (قال) ، (الهمزة) للاستفهام (من) موصول مفعول به (لو) حرف شرط غير جازم (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر (في ضلال) متعلّق بمحذوف خبر أنتم . .

جملة: الشرط وفعله وجوابه . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة الشرط السابقة " 3 " .

وجملة : " قيل . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أنفقوا . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 4 " .

وجملة : " رزقكم اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الاسميّ أو الحرفيّ (ما) .

وجملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) (الثاني) .

وجملة : " أ نطعم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لو يشاء اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " أطعمه . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم (لو) .

وجملة : " إن أنتم إلّا في ضلال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة ، يحتمل أن تكون من كلام المشركين أو من كلام المؤمنين أو هو قول اللّه للمشركين حين ردّوا بهذا الجواب .

---

(1 ، 3) في الآية (45) من هذه السورة .

(2) يجوز في (ما) أن يكون اسم موصول والعائد محذوف وأن يكون حرفا مصدريّا ، والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنفقوا) .

(4) هي في الأصل جملة مقول القول .

الفوائد

- ذم البخل :

نزلت هذه الآية في كفار قريش ، وذلك أن المؤمنين قالوا لهم : أنفقوا على المساكين ما زعمتم أنه للّه تعالى من أموالكم ، وهو ما جعلوه للّه من حرثهم وأنعامهم ، فكانوا يجيبونهم : أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ . قيل كان العاص بن وائل السهمي ، إذا سأله المسكين ، قال له : اذهب إلى ربك فهو أولى مني بك . ويقول : قد منعه اللّه أ فأطعمه أنا ؟ ، وهذا مما يتمسك به البخلاء ، يقولون :

لا نعطي من حرمه اللّه ، وهذا زعم باطل ، لأن اللّه تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم ابتلاء لهم ، فمنع الدنيا من للفقير لا بخلا ، وأعطى الدنيا للغني لا استحقاقا ، وجعل في مال الغني نصيبا للفقير ليبلو الغني بالفقير ، وهكذا اقتضت حكمة اللّه ومشيئته ، فلا اعتراض على أمره ، وذلك ليبلونا فيما آتانا .

[سورة يس (36) : آية 48]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (48)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (متى) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب ظرف زمان متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر هذا (الوعد) بدل من هذا مرفوع (كنتم) فعل ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط . .

جملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . .

وجملة : " متى هذا الوعد . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إن كنتم صادقين . . " لا محلّ لها استئنافيّة ، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

[سورة يس (36) : الآيات 49 إلى 50]

ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50)

الجدول ج 23 ، ص : 19

الإعراب :

(ما) نافية (إلّا) للحصر (الواو) حاليّة . .

جملة : " ما ينظرون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة: " تأخذهم.. " في محلّ نصب نعت لصيحة " 1 " وجملة: " هم يخصّمون.. " في محلّ نصب حال من ضمير المفعول في (تأخذهم).

وجملة: " يخصّمون.. " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم).

(50) - (الفاء) عاطفة (لا) نافية في الموضعين (الواو) عاطفة (إلى أهلهم) متعلّق بـ (يرجعون).

وجملة: " لا يستطيعون.. " في محلّ رفع معطوفة على جملة يخصّمون " 2 ".

وجملة: " لا... يرجعون.. " في محلّ رفع معطوفة على جملة لا يستطيعون.

الصرف:

(يخصّمون)، فيه إبدال، أصله يختصمون.. قلبت التاء صادا بعد تسكينها ثمّ أدغمت الصاد مع الصاد وكسرت الخاء تخلّصا من التقاء الساكنين وهما الخاء والصاد الأولى.. وزنه يفتعلون.

(توصية)، مصدر قياسيّ للرباعيّ وصّى، وزنه تفعلة بكسر العين المخفّفة..

[سورة يس (36): آية 51]

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (في الصور) نائب الفاعل (الفاء) عاطفة (إذا) فجائيّة (من الأجداث) متعلّق بـ (ينسلون) . (إلى ربّهم) متعلّق بحال من فاعل ينسلون بحذف مضاف أي حساب ربّهم .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من صيحة ، وقد وصف .

(2) وهي على المعنى بدل من جملة يخصّمون ، فكأن الفاء زائدة .



---

جملة : " نفخ في الصور . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما ينظرون .

وجملة : " هم . . . ينسلون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نفخ في الصور .

وجملة : " ينسلون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الصرف :

(الأجداث) ، جمع جدث ، اسم جامد بمعنى القبر ، وزنه فعل بفتحتين ، ووزن أجداث أفعال .

[سورة يس (36) : آية 52]

قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52)

الإعراب :

*(297/649)*

---

(يا) أداة تنبيه (ويلنا) مفعول مطلق لفعل محذوف غير مستعمل (من) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة بعثنا (من مرقدنا) متعلّق بـ (بعثنا) ، (ما) اسم موصول في محلّ رفع خبر المبتدأ هذا ، والعائد محذوف أي : وعد به . وصدق فيه . . .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ويلنا . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " من بعثنا . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " بعثنا . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " هذا ما وعد الرحمن . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " وعد الرحمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " صدق المرسلون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

الصرف :

(مرقدنا) ، اسم مكان من الثلاثيّ ، رقد ، وزنه مفعل بفتح الميم والعين ، فهو مضموم العين في المضارع ،

البلاغة

الاستعارة التصريحية الأصلية : في قوله تعالى " مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا " .

فقد شبه الموت بالرقاد ، من حيث عدم ظهور الفعل والاستراحة من الأفعال الاختيارية ، وإنما قلنا : إنها أصلية ، لأن المرقد مصدر ميمي ، أما إذا جعلناه اسم مكان ، فتكون الاستعارة تبعية .

الفوائد

- من : وتأتي على أربعة أوجه :

1 - شرطية : كقوله تعالى مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ 2 - استفهامية : كما في الآية التي نحن بصددها مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ؟ وقوله تعالى وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ فهي استفهامية أشربت معنى النفي ، وإذا قيل : من ذا لقيت ؟ فمن : مبتدأ ، وذا موصولة بمعنى الذي في محل رفع خبر ، ويجوز على قول الكوفيين في زيادة الأسماء كون (ذا) زائدة ، ومن مفعولا به مقدما للفعل لقيت .

والذي عليه الأكثرون أن (من ذا) لا نستطيع اعتبارها جزءا واحدا من الإعراب مثل (ماذا) ، خلافا لبعضهم .

3 - وموصولة بمعنى الذي كقوله تعالى أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ 4 - نكرة موصوفة، ولهذا دخلت عليها (رب) في قول الشاعر

ربّ من أنضجت غيظا قلبه قد تمنّى لي موتا لم يطع

ووصف بالنكرة في نحو قولهم: (مررت بمن معجب لك).

وقال حسان رضي اللّه عنه:

فكفى بنا فضلا على من غيرنا حبّ النبي محمد إيّانا

[سورة يس (36): آية 53]

إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (53)

الإعراب:

(إن كانت.. فإذا هم) مرّ إعرابها " 1 "، والضمير في (كانت) يعود على النفخة الثانية

(جميع لدينا محضرون) مرّ إعرابها " 2 ".

جملة: " إن كانت إلّا صيحة.. " لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة يس (36): آية 54]

فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54)

الإعراب:

(الفاء) عاطفة (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تظلم) المنفيّ (نفس) نائب الفاعل (شيئا) مفعول مطلق نائب عن المصدر " 3 "، (الواو) عاطفة (لا) نافية، ونائب الفاعل هو الضمير في (تجزون)، (إلّا) للحصر (ما) حرف مصدريّ " 4 " والمصدر المؤوّل (ما كنتم...) في محلّ جرّ بياء محذوفة متعلّق بـ (تجزون) أي: تجزون بعملكم.

جملة: " لا تظلم نفس... " في محل نصب معطوفة على مقول قول مقدّر أي: يقال لهم: اليوم يجري الحساب فلا تظلم نفس...

وجملة: " لا تجزون إلّا ما... " معطوفة على جملة لا تظلم نفس.

---

(1) في الآية (29) من هذه السورة.

(2) في الآية (32) من هذه السورة.

(3) أو مفعول به منصوب.

(4) أو اسم موصول في محلّ جرّ بحرف الجرّ المحذوف - أو في محلّ نصب على نزع الخافض - والعائد محذوف.

وجملة: "كنتم تعملون" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

وجملة: "تعملون" في محلّ نصب خبر كنتم.

[سورة يس (36): الآيات 55 إلى 59]

إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (56) لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ (57) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58) وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59)

الإعراب:

(اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (فاكهون)، (في شغل) متعلّق بمحذوف خبر أوّل "1".

جملة: "إنّ أصحاب... فاكهون" لا محلّ لها استئنافيّة.

(56) - (أزواجهم) معطوف بـ (الواو) على المبتدأ (هم)، مرفوع (في ظلال) متعلّق بمحذوف خبر أوّل "2"، (على الأرائك) متعلّق بالخبر الثاني (متّكئون).

وجملة: "هم... متّكئون" لا محلّ لها استئناف بيانيّ "3".

(57) - (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ فاكهة (فيها) متعلّق بحال من فاكهة "4"، (لهم) الثاني خبر للمبتدأ ما "5".

وجملة : " لهم فيها فاكهة . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 6 " .

---

(1) أو متعلّق بـ (فاكهون) على رأي العكبريّ .

(2) أو متعلّق بحال من الضمير في (متكئون) .

(3) أو في محلّ رفع خبر ثالث للحرف المشبّه بالفعل .

(4) أو متعلّق بالاستقرار الذي تعلّق به (لهم) .

(5) وهو اسم موصول ، أو نكرة موصوفة – والعائد محذوف – أو حرف مصدريّ .

[. . . . . .]

(6) أو في محلّ رفع خبر رابع للحرف المشبّه بالفعل .

الجدول ج 23 ، ص : 24

وجملة : " لهم ما يدّعون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لهم فيها فاكهة .

وجملة : " يدّعون . . " لا محلّ لها صلة الموصول " 1 " .

(58) – (سلام) مبتدأ مرفوع " 2 " ، خبره محذوف " 3 " ، (قولا) مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب (من ربّ) متعلّق بنعت لـ (قولا) " 4 " .

وجملة: " سلام قولا .. " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 5 " (59) - (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (امتازوا)، (أيّها) منادى نكرة مقصودة مبني على الضمّ في محلّ نصب .. (المجرمون) بدل من أيّ - أو نعت -، أو عطف بيان عليه - تبعه في الرفع لفظا.

وجملة: " امتازوا ... " لا محلّ لها استئنافيّة " 6 " وجملة: " أيّها المجرمون ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(55) شغل: اسم من (شغل) باب فتح، أو هو مصدر الفعل، وزنه فعل بضمّتين.

(فاكهون)، جمع فاكه، اسم فاعل من الثلاثيّ فكه باب فرح من الفكاهة - بفتح الفاء - وهو التلذذ والتنعم، وزن المفرد فاعل.

---

(1) الاسميّ أو الحرفيّ، أو هي في محلّ رفع نعت لـ (ما) بكونه نكرة موصوفة.

(2) جاز الابتداء بالنكرة لأنه دالّ على عموم وهو المدح .. ويجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هو أي: ما يدّعون، ويجوز أن يكون خبرا لـ (ما) يدّعون .. أو هو بدل من (ما) على رأي الزمخشريّ، أو هو صفة لـ (ما) النكرة الموصوفة.

(3) هو (عليكم)، أو جملة يقال قولا .. هذا ويجوز أن يكون الخبر (من ربّ).

(4) أو نعت لسلام إذا كان خبرا، والجملة بين النعت والمنعوت اعتراضيّة، أو هو خبر

سلام .

(5 ، 6) أو هي مقول القول لقول مقدّر ، في محلّ نصب .



---

(57) فاكهة : اسم جمع بمعنى الثمار ، أو ما يتنعّم بأكله ، جمعه فواكه زنة فواعل ، ووزن فاكهة فاعلة .

(يدّعون) ، مضارع ادّعى ، فيه إعلال بالحذف ، أصله يدّعيون ، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت حركة الياء إلى العين - إعلال بالتسكين - ثمّ حذفت (الياء) لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة - إعلال بالحذف - . . وفي الكلمة إبدال ، ف (ادّعى) أصله ادتعى زنة افتعل ، فلمّا جاءت تاء الافتعال بعد الدال قلبت دالا ، ثمّ أدغمت الدالان معا فأصبح ادّعى مضارعه يدّعي .

البلاغة

التنكير والإبهام: في قوله تعالى "فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ".

التنكير والإبهام للإيذان بارتفاعه عن رتبة البيان، والمراد به ما هم فيه من فنون الملاذ التي تلهيهم عما عداها بالكلية.

[سورة يس (36) : الآيات 60 إلى 64]

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام التقريعي (إليكم) متعلق بـ (أعهد)، (أن) حرف تفسير "1"، (لا) ناهية جازمة (لكم) متعلّق بحال من الخبر عدوّ.

---

(1) أو حرف مصدريّ.. والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ بالباء المقدّرة متعلّق بـ (أعهد).

جملة: "لم أعهد . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يا بني آدم . . . "لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: "لا تعبدوا . . "لا محلّ لها تفسيريّة.

وجملة: "إنّه لكم عدو . . . "لا محل لها تعليليّة.

(61) - (الواو) عاطفة (أن) مثل الأولى . . .

وجملة: "اعبدوني . . "لا محلّ لها معطوفة على التفسيريّة.

وجملة: "هذا صراط . . . "لا محلّ لها تعليل لأمر العبادة.

(62) - (الواو) عاطفة (اللام) لام القسم (قد) حرف تحقيق (منكم) متعلّق بحال من (جبلّا)، (الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة . . .

وجملة: "أضلّ . . . "لا محلّ لها جواب القسم . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها معطوفة على جملة لم أعهد . . .

وجملة: "لم تكونوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي: أفقدتم صوابكم فلم تكونوا تعقلون . . .

وجملة: "تعقلون" في محلّ نصب خبر تكونوا.

(63) - (جهنّم) خبر المبتدأ هذه " 1 " ، (التي) في محلّ رفع نعت لجهنّم . . .

وجملة : " هذه جهنّم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كنتم توعدون . . " لا محل لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " توعدون . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

(64) - (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (اصلوها) ، (ما) حرف مصدريّ " 2 "

. . .

---

(1) أو بدل من هذه ، والخبر جملة اصلوها .

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ بـ (الباء) ، والعائد محذوف .



---

والمصدر المؤوّل (ما كنتم تكفرون . . . ) في محلّ جرّ بـ (الباء) متعلّق بـ (اصلوها) ،

و(الباء) سببيّة .

وجملة : " اصلوها . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كنتم تكفرون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " تكفرون . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف :

(62) جبلّا : اسم جمع بمعنى الطائفة من الخلق ، وزنه فعل بكسر الفاء والعين وتشديد اللام .

(64) اصلوها : فيه إعلال بالحذف أصله في المضارع يصلاونها ، فلمّا انتقل إلى الأمر حذفت النون وحذفت الألف في المضارع والأمر لالتقاء الساكنين وبقي ما قبل الواو مفتوحا دلالة على الألف المحذوفة . .

وزنه افعوها .

البلاغة

1 - تنوين الصراط : في قوله تعالى " هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ " .

وفيه تفخيم وإيجاز ، يشير إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمن ، إذ لا صراط أقوم منه .

2 - التنكير : في قوله تعالى " صِراطٌ " :

التنكير للمبالغة والتعظيم ، أي هذا صراط بليغ في استقامته ، جامع لكل ما يجب أن يكون عليه ، وأصل لمرتبة يقصر عنها التوصيف والتعريف ، ولذا لم يقل هذا الصراط المستقيم ،

أو هذا هو الصراط المستقيم ، وإن كان مفيدا للحصر .

3 - تقديم النهي على الأمر : في قوله تعالى " أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ " .

(306/649)

---

وتقديم النهي على الأمر ، لما أن حق التخلية التقدم على التحلية .

[سورة يس (36) : الآيات 65 إلى 67]

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (65) وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66) وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ (67)

الإعراب :

(اليوم) ظرف منصوب متعلّق بـ (نختم) ، (على أفواههم) متعلّق بـ (نختم) ، (بما كانوا يكسبون) مثل بما كنتم تكفرون " 1 " ، والجارّ والمجرور متعلّق بـ (تشهد) .

جملة : " نختم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تكلّمنا أيديهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة: " تشهد أرجلهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "كانوا يكسبون" لا محلّ لها صلة الموصول الاسميّ أو الحرفيّ (ما).

وجملة: "يكسبون" في محلّ نصب خبر كانوا.

(66) (الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (اللام) رابطة لجواب لو (على أعينهم) متعلّق بـ (طمسنا)، (الفاء) عاطفة في الموضعين (الصراط) منصوب على نزع الخافض أي إلى الصراط "2"، (أنّى) اسم استفهام في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بمحذوف حال - جاء بمعنى كيف - عامله يبصرون.

وجملة: "نشاء . . ." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "طمسنا . . ." لا محلّ لها جواب الشرط غير الجازم.

---

(1) في الآية السابقة (64).

(2) يجوز جعله مفعولا به تجاوزا.



---

وجملة: "استبقوا . . ." لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط.

وجملة: "يبصرون" لا محلّ لها معطوفة على جملة استبقوا.

(67) (الواو) عاطفة (لو نشاء . . مضيّا) مثل لو نشاء . . الصراط ، والجارّ والمجرور متعلّق بـ (مسخناهم) ، (الواو) عاطفة (لا) نافية . . . .

وجملة : " نشاء (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة نشاء (الأولى) .

وجملة : " مسخناهم . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير الجازم .

وجملة : " ما استطاعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " لا يرجعون " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما استطاعوا .

الصرف :

(مضيّا) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ مضى باب ضرب ، وزنه فعول بضمّ الفاء ، وفيه إعلال بالقلب لالتقاء الواو مع الياء - مضوي - ومجيء الأولى ساكنة ، قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الأخرى ثمّ كسرت الضاد لمناسبة الياء ، فأصبح مضيّ .

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى " الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ " :

كناية عن منعهم من التكلم ، ولا مانع من أن يكون هناك ختم على أفواههم حقيقة . ويجوز أن يكون الختم مستعارا لمعنى المنع بأن يشبه إحداث حالة في أفواههم مانعة من التكلم بالختم الحقيقي ، ثم يستعار له الختم ، ويشتق منه نختم ، فالاستعارة تبعية ، أي اليوم نمنع أفواههم من الكلام منعا شبيها بالختم .

[سورة يس (36) : آية 68]

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ (68)

الجدول ج 23، ص: 30

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط مبتدأ (في الخلق) متعلّق ب (ننكسه) ، (الهمزة) للاستفهام..

جملة: «من نعمّره...» لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: «نعمّره» في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) «1» .

وجملة: «ننكّسه...» لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء.

وجملة: «يعقلون..» لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي أيجهلون فلا يعقلون.

[سورة يس (36) : الآيات 69 إلى 70]

وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (70)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية في الموضعين، وفاعل (ينبغي) ضمير يعود على الشعر (له) متعلّق ب (ينبغي) ، (إن) نافية (إلّا) للحصر (ذكر) خبر المبتدأ هو، مرفوع.

جملة: " ما علّمناه الشعر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " ما ينبغي له . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة " 2 " .

وجملة: " إن هو إلّا ذكر " لا محلّ لها تعليليّة.

(70) (اللام) للتعليل (ينذر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، والفاعل ضمير يعود على القرآن (من) موصول في محلّ نصب مفعول به (الواو) عاطفة (يحقّ) مضارع منصوب معطوف على (ينذر)، (على الكافرين) متعلّق بـ (يحقّ).

والمصدر المؤوّل (أن ينذر) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا.

(2) يجوز أن تكون اعتراضيّة.



---

محذوف تقديره (أنزل).

وجملة: " ينذر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: " كان حيّا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: " يحقّ القول . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ينذر . .

الصرف :

(الشعر) ، اسم للكلام الموزون المقفّى ، جمعه أشعار ، ووزن الشعر فعل بكسر فسكون .

الفوائد

- النبي (صلّى اللّه عليه وآله) والشعر :

قيل : إن كفار قريش قالوا : إن محمدا شاعر ، وما يقوله شعر ، فأنزل اللّه تعالى تكذيبا لهم وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ أي ما يسهل له ذلك ، وما يصلح منه ، بحيث لو أراد نظم شعر لم يتأت له ذلك . قال العلماء : ما كان يتزن له بيت شعر ، وإن تمثل بيت شعر جرى على لسانه منكسرا ، كما

روي عن الحسن أن النبي (صلّى اللّه عليه وسلم) كان يتمثل بهذا البيت :

(309/649)

---

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا . فقال أبو بكر رضي اللّه عنه : يا نبي اللّه ، إنما قال الشاعر : كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا . أشهد أنك رسول اللّه (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) . وسئلت السيدة عائشة رضي اللّه تعالى عنها هل كان النبي (صلّى اللّه عليه وسلم) يتمثل الشيء من الشعر ؟ قالت : كان الشعر أبغض الحديث إليه ، ولم يتمثل

إلا ببيت أخي بني قيس طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

فجعل يقول : ويأتيك من لم تزود بالأخبار ، فقال أبو بكر رضي اللّه عنه : ليس هكذا يا رسول اللّه ، فقال : إني لست بشاعر ولا ينبغي لي . لكنه قد صح من حديث جندب بن عبد اللّه ، الذي رواه البخاري ومسلم ، أن النبي (صلّى اللّه عليه وسلم) أصابه حجر فدميت أصبعه فقال :

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل اللّه ما لقيت

وكان يقول في حنين :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

لكن مجيء مثل هذا الكلام على لسانه (صلّى اللّه عليه وسلم) كان من غير صنعة وتكلف ، وقد اتفق له كذلك من غير قصد إليه ، وإن جاء موزونا ، كما يحدث في كثير من كلام الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم كلام موزون يدخل في وزن البحور ، ومع ذلك فإن الخليل لم يعد المشطور من الرجز شعرا ، علما بأن هذا القليل النادر لا يقاس عليه ، وجميع أحاديث النبي (صلّى اللّه عليه وسلم) لم يكن فيها شيء من الشعر .

حكم الشعر في الإسلام :

الإسلام لم يحارب الشعر ، وكان (صلّى اللّه عليه وسلم) يحث حسان رضي اللّه عنه ويقول له :



---

(اهجهم وجبريل معك) . وقد اتفقت كلمة الفقهاء على أن الشعر إنما هو كلام من جملة الكلام ، فإن دعا إلى فضيلة أو خلق كريم فهو لا بأس به ، وشيء حسن ، ولا ينضوي صاحبه تحت قوله تعالى وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ ، لأنه عند نزول هذه الآية برأ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلم) كعبا وحسان وعبد اللّه بن رواحة رضي اللّه عنهم من انطباق حكمها عليهم .

أما إن تضمن منكرا من القول وزورا ، أو سخّر لبعث الأحقاد أو النيل من الأعراض ، أو محاربة الحق ، فهذا هو الشعر المذموم ، والذي ينضوي صاحبه تحت قوله تعالى وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ واللّه أعلم .

[سورة يس (36) : الآيات 71 إلى 73]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (71) وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (73)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (الواو) عاطفة (أنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (لهم) متعلّق بـ (خلقنا)، (ممّا) متعلّق بحال من (أنعاما)،

(الفاء) استئنافيّة (لها) متعلّق بـ (مالكون) الخبر.

والمصدر المؤوّل (أنّا خلقنا ..) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يروا.

جملة: "لم يروا .." لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي: أغفلوا ولم يروا ..

وجملة: "خلقنا ..." في محلّ رفع خبر أنّ.

وجملة: "عملت أيدينا .." لا محلّ لها صلة الموصول (ما)، والعائد محذوف.

وجملة: "هم لها مالكون" لا محلّ لها استئنافيّة" 1 ".

(72) (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بـ (ذلّلناها)، (الفاء) تفريعيّة (منها) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ ركوبهم (منها) الثاني متعلّق بـ (يأكلون).

وجملة: "ذلّلناها ..." في محلّ رفع معطوفة على جملة خلقنا.

---

(1) مضمون الجملة وصف للأنعام فلا مانع من جعل الجملة زائدة لمطلق الربط.

[.....]

وجملة: " منها ركوبهم.. " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يأكلون.. " لا محلّ لها معطوفة على جملة منها ركوبهم.

(73) (الواو) عاطفة (لهم) متعلق بخبر مقدّم (فيها) متعلّق بحال من منافع المبتدأ المؤخّر

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) عاطفة (لا) نافية..

وجملة: " لهم فيها منافع... " لا محلّ لها معطوفة على جملة منها ركوبهم.

وجملة: " لا يشكرون.. " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي: أجحدوا ذلك فلا يشكرون.

الصرف:

(ركوبهم) ، اسم لما يركب من الحيوانات، جمعه ركائب، وزن ركوب فعول بفتح الفاء والجمع فعائل.

[سورة يس (36) : الآيات 74 إلى 76]

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75) فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (76)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة - أو عاطفة (من دون) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان ، و(الواو) في (ينصرون) نائب الفاعل .

جملة : " اتّخذوا . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " لعلّهم ينصرون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " ينصرون . . " في محلّ رفع خبر لعلّ .

(75) (لا) نافية (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بحال من جند ، (محضرون) نعت لجند - أو خبر ثان - وجملة : " لا يستطيعون . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر .

وجملة : " هم . . . جند . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يستطيعون " 3 " .

(76) (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (ما) حرف مصدريّ " 4 " .

والمصدر المؤوّل (ما يسرّون) في محلّ نصب مفعول به .

---

(1) أو معطوفة على استئناف مقدّر أي : ما شكروا واتّخذوا .

(2) أو في محلّ نصب حال من فاعل اتّخذوا والرابط محذوف أي لعلّهم ينصرون بهم . . أو نعت لآلهة .

(3) أو في محلّ نصب حال من الضمير الغائب في (نصرهم) على أحد الأقوال في تفسير

الآية.

(4) أو اسم موصول في محلّ نصب، والعائد محذوف، في الموضعين.

(312/649)

---

والمصدر المؤوّل (ما يعلنون) في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل الأول.

وجملة: "لا يحزنك قولهم..." في محلّ جزم شرط مقدّر أي: إن قالوا ما يؤذيك فلا يحزنك قولهم...

وجملة: "إنّا نعلم..." لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة.

وجملة: "نعلم..." في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "يسرّون.." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

وجملة: "يعلنون" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الثاني.

[سورة يس (36): الآيات 77 إلى 78]

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ التعجّبي (الواو) استئنافيّة (أنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه

(من نطفة) متعلّق بـ (خلقناه) . .

والمصدر المؤوّل (أنّا خلقناه . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعوليّ يرى .

(الفاء) عاطفة (إذا) فجائيّة (مبين) نعت لخصيم مرفوع .

جملة : " لم ير . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلقناه . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " هو خصيم . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(78) (الواو) عاطفة في الموضعين ، وحالية في الثالث (لنا) متعلّق بـ (ضرب) " 1 " ،

(من) اسم استفهام مبتدأ . .

وجملة : " ضرب . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هو خصيم .

---

(1) أو بمحذوف مفعول به ثان بتضمين (ضرب) معنى جعل .

وجملة : " نسي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ضرب " 1 " .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " من يحيي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يحيي . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " هي رميم . . " في محلّ نصب حال .

الصرف :

(رميم) ، صفة مشتقّة بمعنى فاعل أو مفعول ، وزنه فعيل ، ولم تلحقه التاء إمّا لأنه بمعنى مفعول أو لغلبة الاسميّة عليه إذا كان بمعنى فاعل ، وهو من رمّ باب ضرب .

البلاغة

حسن البيان : في قوله تعالى " وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ " :

وحسن البيان هو إخراج المعنى في أحسن الصور الموضحة له ، وإيصاله إلى فهم المخاطب بأقرب الطرق وأسهلها ، وقد تأتي العبارة عنه من طريق الإيجاز ، وقد تأتي من طريق الإطناب ، بحسب ما تقضيه الحال ، وقد أتى بيان الكتاب العزيز في هذه الآية من الطريقين ، فكانت جامعة مانعة في الاحتجاج القاطع للخصم .

الفوائد

- إحياء الموتى :

بينت هذه الآية أن اللّه عز وجل ، الذي خلق الإنسان من نطفة ، قادر على أن يحييه مرة أخرى بعد أن يصبح عظاما بالية ، واللّه عز وجل ، الذي خلق الإنسان - ولم يكن شيئا مذكورا - قادر على أن يعيده مرة أخرى ، و

قد نزلت هذه الآية في أمية بن خلف الجمحي ، خاصم النبي (صلّى اللّه عليه وسلم) في إنكار البعث ، وأتاه بعظم قد رمّ وبلي ففتته بيده وقال : أ ترى يحيي اللّه هذا بعد ما رمّ ، فقال النبي (صلّى اللّه عليه وسلم) : نعم ، ويبعثك ويدخلك

---

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل ضرب .



---

النار . وصدق رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلم) فقد مات أمية على الكفر يوم بدر ، ولم تكتب له الهداية .

[سورة يس (36) : الآيات 79 إلى 80]

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80)

الإعراب :

(أوّل) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو نعت له (الواو) عاطفة (بكلّ) متعلّق بعليم .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يحييها . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنشأها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " هو . . . عليم " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

(80) - (الذي) موصول بدل من الموصول الأول فاعل يحييها (لكم) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (من الشجر) متعلّق بحال من نارا (الفاء) عاطفة (إذا أنتم منه توقدون) مثل إذا هو خصيم مبين " 1 " ، (منه) متعلّق بـ (توقدون) .

وجملة : " جعل . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثاني .

وجملة : " أنتم منه توقدون " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة مربوطة معها برابط السببيّة تابعة لها . .

وجملة : " توقدون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

الصرف :

(الأخضر) ، اسم دال على اللون ويستعمل في مجال الوصف وزنه أفعل .

---

(1) في الآية (77) من هذه السورة .

[سورة يس (36) : الآيات 81 إلى 83]

أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (81) إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام التعجّبيّ الإنكاريّ (الواو) عاطفة (قادر) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ليس (أن) حرف مصدريّ..

والمصدر المؤوّل (أن يخلق...) في محلّ جرّ متعلّق بقادر.



---

(بلى) حرف جواب لإيجاب السؤال المنفيّ أي بلى هو قادر (الواو) عاطفة (العليم) خبر ثان للمبتدأ هو.

جملة: "ليس الذي خلق..." لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أيّ: أليس الذي أنشأ المخلوقات أوّل مرّة، وليس الذي خلق السموات...

وجملة: "خلق...." لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة : " يخلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " هو الخلاق . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي بلى هو قادر على ذلك وهو الخلاق . . .

(82) (إنّما) كافّة ومكفوفة (أن) حرف مصدريّ (له) متعلّق بـ (يقول) ، (كن) فعل أمر تام وفاعله أنت وكذلك المضارع (يكون) والفاعل هو (الفاء) قبل يكون عاطفة - أو استئنافيّة - والمصدر المؤوّل (أن يقول . .) في محلّ رفع خبر المبتدأ (أمره) .

وجملة : " أمره . . أن يقول . . " لا محلّ لها استئنافيّة في حكم التعليل .

وجملة : " أراد شيئا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : فأمره قوله له كن . . والشرط وفعله وجوابه اعتراض .

وجملة : " يقول . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : "كن . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يكون . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، والجملة الاسميّة لا محلّ لها معطوفة على جملة أمره . . أن يقول " 1 " .

(83) (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف (بيده) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر ملكوت (الواو) عاطفة (إليه) متعلّق بـ (ترجعون) ،

و(الواو) فيه نائب الفاعل .

وجملة : " (سبّح) سبحان . . " في محل جزم جواب شرط مقدّر أي إن كان أمره كذلك فسبّحه .

وجملة : " بيده ملكوت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " ترجعون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة . انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 22 صـ 290 : حـ 23 صـ 39 ﴾

---

(1) أو هي استئنافيّة . .

(316/649)

---

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(36) سورة يس

مكيّة وآياتها ثلاث وثمانون

[سورة يس (36) : الآيات 1 إلى 9]

(الْأَذْقانِ) : جمع ذقن بفتح الذال والقاف وبكسر الذال وفتح القاف مجتمع اللحيين من أسفلهما .

(مُقْمَحُونَ) : المقمح هو الذي يرفع رأسه ويغضّ بصره ، يقال قمح البعير فهو قامح إذا رفع رأسه بعد الشرب لارتوائه أو لبرودة الماء أو لكراهة طعمه وفي المختار : " الاقماح : رفع الرأس وغض البصر يقال أقمحه الغل إذا ترك رأسه مرفوعا من ضيقه " وفي القاموس : " وأقمح الغل الأسير ترك رأسه مرفوعا لضيقه " .

(سَدًّا) السد والسد بفتح السين وضمها : الحاجز بين الشيئين والجبل والجمع أسداد قال علي بن أبي طالب " وضرب على قلبه بالأسداد " أي سدت عليه الطرق وعميت عليه المذاهب .

(فَأَغْشَيْناهُمْ) : أي فأغشينا أبصارهم أي غطيناها وجعلنا عليها غشاوة عن أن تطمح إلى مرئي وسيأتي المزيد من هذه الصور في بابي البلاغة والاعراب .

الاعراب :

(

يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) يس تقدم القول في فواتح السور معنى وإعرابا . والواو حرف قسم وجر والقرآن مقسم به والحكيم صفة والجار والمجرور متعلقان بمحذوف تقديره أقسم .

(إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) وان واسمها واللام المزحلقة ومن المرسلين خبرها . (عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) على صراط خبر ثان لإن وقيل حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور وأجاز الزمخشري أن يتعلق بالمرسلين ومستقيم صفة لصراط أي الذين أرسلوا على طريقة

مستقيمة ولا بأس بهذا الاعراب .

(تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) تنزيل مفعول مطلق لفعل محذوف أي نزل القرآن تنزيلا وأضيف لفاعله أو منصوب بفعل محذوف تقديره أعني أو أمدح وقرىء بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، وعبارة الزمخشري : " قرىء تنزيل العزيز الرحيم بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وبالنصب على أعني وبالجر على البدلية من القرآن " .

(317/649)

---

(لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ) اللام للتعليل وتنذر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور

متعلقان بتنزيل أو بمعنى قوله من المرسلين أي مرسل لتنذر ، وقوما مفعول به وما نافية لأن قريشا لم يبعث إليهم نبي قبل محمد صلى اللّه عليه وسلم وأنذر فعل ماض مبني للمجهول وآباؤهم نائب فاعل فالجملة على هذا صفة لقوما أي قوما لم ينذروا ويجوز أن تكون موصولة أو نكرة موصوفة أو مصدرية فتعرب هي وصفتها أو صلتها مفعولا ثانيا لتنذر على الأولين ومفعولا مطلقا على الثالث وسنورد لك التأويلات الثلاثة :

الموصولة : لتنذر قوما الذي أنذره آباؤهم .

النكرة : لتنذر قوما عذابا أنذره آباؤهم .

المصدرية : لتنذر قوما إنذار آبائهم .

الزائدة : وأورد أبو البقاء وجها رابعا وهو أن تكون زائدة وتكون جملة أنذر صفة لقوما .

فهم الفاء تعليلية للنفي إذا جعلت ما نافية أي لم ينذروا فهم غافلون على أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم أو تعليلية للارسال كما تقول أرسلتك إلى فلان لتنذره فإنه غافل وهم مبتدأ وغافلون خبر .

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) اللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وحق القول فعل وفاعل وعلى أكثرهم متعلقان بحق والفاء تعليلية أيضا وهم مبتدأ وجملة لا يؤمنون خبر والمعنى والله لقد ثبت وتحقق عليهم القول بسبب إصرارهم على الكفر والإنكار . (إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ) كلام مستأنف مسوق لتمثيل تصميمهم على الكفر وانه لا سبيل إلى

(318/649)

---

ارعوائهم عن غيهم وان واسمها وجملة جعلنا خبرها وجعلنا فعل وفاعل وفي أعناقهم في محل نصب مفعول جعلنا الثاني وأغلالا مفعول جعلنا الأول فهي الفاء للعطف والتعقيب أو

للعطف والتعليل وسيرد الفرق بين المعنيين ، وهي مبتدأ والى الأذقان متعلقان بمحذوف خبر أي مجموعة أو مرفوعة ، وسيأتي المزيد من أسرار هذا التعبير في باب البلاغة ، فهم الفاء كالفاء الأولى وسماها بعضهم فاء النتيجة وهم مبتدأ ومقمحون خبر .

(وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا) الواو عاطفة وجعلنا فعل وفاعل ومن بين أيديهم في موضع نصب مفعول جعلنا الثاني وسدا مفعول جعلنا الأول ومن خلفهم سدا عطف على من بين أيديهم سدا . (فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ) الفاء عاطفة وأغشيناهم فعل وفاعل ومفعول به والفاء تعليلية وهم مبتدأ وجملة لا يبصرون خبرهم .

البلاغة :

في قوله " إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا " الآية فنون شتى نوردها فيما يلي :

1- الاستعارة التمثيلية :

تقدم القول كثيرا في الاستعارة التمثيلية وهي هنا تمثيل لتصميمهم على الكفر وإصرارهم على العناد بأن جعلهم كالمغلولين المقموحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يثنون أعناقهم نحوه ، لأن

الأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها فلا تخليهم يطأطئون فهم دائما مقمحون رافعون رءوسهم غاضون أبصارهم ، أي شبهت حالتهم وهيئتهم في عدم إتاحة الايمان لهم بهيئة من غلت يده وعنقه فلم يستطع أن يتعاطى ما يريدون ، والجامع مطلق المانع . بقي هناك

مبحث هام وهو هل يعود الضمير وهو قوله فهي إلى الأذقان على الأغلال أو على الأيدي ، وقد رجح الزمخشري عودة الضمير على الأغلال قال :

"

(319/649)

---

فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها وذلك أن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادر من الحلقة إلى الذقن فلا تخليه يطأطىء رأسه ويوطىء قذاله فلا يزال مقمحا " واستطرد الزمخشري داعما رأيه في عودة الضمير على الأغلال فقال : " فإن قلت فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدي وزعم أن الغل لما كان جامعا لليد والعنق ، وبذلك يسمى جامعة ، كان ذكر الأعناق دالا على ذكر الأيدي ؟ قلت : الوجه ما ذكرت لك والدليل عليه قوله : فهم مقمحون ، ألا ترى كيف جعل الأقماح نتيجة قوله فهي إلى الأذقان ولو كان الضمير للأيدي لم يكن معنى التسبب في الاقماح ظاهرا على أن هذا الإضمار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطل الذي يجفو عنه وترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجلج " ولعل الزمخشري قد بلغ الذروة في هذا التقرير الفريد ودل على اطلاعه وتمكنه من علم البيان ، على أن الوجه

الثاني وهو عودة الضمير على الأيدي لا يخلو من وجاهة وسمو بيان وفيها مبالغة في تصوير الهول تتلاءم مع سياق الكلام فإن اليد وإن لم يجر لها ذكر في العبارة فإن الغل يدل عليها بل ويستلزمها ، ولا شك أن ضغط اليد مع العنق في العنق يوجب الاقماح ، أضف إلى ذلك أن اليد متى كانت مرسلة مخلاة كان للمغلول بعض الفرج

بإطلاقها ، ولعله يتحيل بها ويستعين على فكاك الغل وليس الأمر كذلك إذا كانت مغلولة فيضاف إلى ما تقدم من التشبيهات المفرقة أن يكون انسداد باب الحيل عليهم في الهداية والانخلاع من ربقة الكفر المقدر عليهم مشبها بغل الأيدي لأن اليد – كما قلنا – آلة الحيلة والوسيلة إلى الخلاص .

2- استعارة تمثيلية ثانية :



---

وفي قوله " وجعلنا من بين أيديهم سدا الآية " استعارة تمثيلية ثانية فقد شبههم بمن أحاط بهم سدان هائلان فغطيا أبصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم ووراءهم في أنهم محبوسون في وهدة الجهالة ممنوعون من النظر في الآيات والدلائل أو كأنهم وقد حرموا نعمة التفكير في القرون الخالية والأمم الماضية والتأمل في المغاب الآتية والعواقب المستقبلة قد أحيطوا

بسد من أمامهم وسد من ورائهم فهم في ظلمة داكنة لا تختلج العين من جانبها بقبس ولا تتوسم بصيصا من أمل .

3- القلب :

وفي قوله " إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا " القلب وهو من فنون كلام العرب إذ حقيقته جعلنا أعناقهم في الأغلال ، وقال ثعلب : في قوله تعالى : " ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه " ان المعنى اسلكوا فيه سلسلة أي ادخلوا في عنقه سلسلة .

4- التنكير :

وفي تنكير أغلالا مبالغة في تعظيمها وتهويل أمرها .

[سورة يس (36) : الآيات 10 إلى 12]

وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (12)

الإعراب :

)

(وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) كلام مستأنف مسوق لبيان شأنهم بطريق التوبيخ بعد بيانه بطريق التمثيل ولك أن تعطفه على ما قبله فتكون الواو عاطفة ، وسواء خبر مقدم وعليهم متعلقان بسواء والهمزة للاستفهام وهي همزة التسوية وقد تقدم بحثها مفصلا في سورة البقرة المماثلة وهي مع الفعل بعدها في تأويل مصدر مبتدأ مؤخر أي مستو عندك إنذارك إياهم وعدمه ، وأم حرف عطف معادل للهمزة ولم حرف نفي وقلب وجزم وتنذرهم فعل مضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر والهاء مفعول به وجملة لا يؤمنون استئناف مؤكد لما قبله أو حال مؤكدة له أو بدل منه .

(إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ) إنما كافة ومكفوفة وتنذر فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنت ومن مفعول به وجملة اتبع الذكر صلة وجملة خشي الرحمن عطف على اتبع الذكر وبالغيب حال من الفاعل أو من المفعول به ، ونتساءل : ما وجه ذكر الانذار الثاني في معرض المخالفة للأول مع أن الأول إثبات والوجه هو أن البغية المرومة بالإنذار غير حاصلة وهي الايمان فقفّى بقوله إنما تنذر على معنى انما تحصل البغية بإنذارك من غير هؤلاء المنذرين وهم الذين اتبعوا الذكر وهو القرآن والخاشون ربهم فالمحصور إنما هو الانذار النافع فلا ينافيه وجود غيره لمن لم ينتفع به .

)

فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ) الفاء الفصيحة وبشره فعل أمر وفاعل ومفعول به وبمغفرة متعلقان ببشره وأجر عطف على بمغفرة وكريم صفة لأجر . (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ) إن واسمها ونحن مبتدأ أو ضمير فصل وجملة نحيي الموتى خبر نحن والجملة خبر إن أو الجملة خبر إنا ونكتب عطف على نحيي وما مفعول به وجملة قدموا صلة ما وآثارهم عطف على ما والمراد بها ما استن بعدهم وفي الحديث : " من سن سنة حسنة فعمل بها من بعده كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من وزرهم شيء " .

(وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ) نصب كل شيء بفعل محذوف يفسره ما بعده فهو نصب على الاشتغال وأحصيناه فعل وفاعل ومفعول به والجملة مفسرة لا محل لها وفي إمام متعلقان بأحصيناه ومبين نعت إمام أي في كتاب بيّن .

[سورة يس (36) : الآيات 13 إلى 19]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ

فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (17)

قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (18) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19)

اللغة :

)



---

(الْقَرْيَةِ) : القرية بفتح القاف وكسرها : الضيعة والمصر الجامع وجمع الناس والجمع قرى وقرى بضم القاف وكسرها والنسبة إليها قرويّ وقريي والمراد بها هنا انطاكية وسيأتي شيء عنها في باب الفوائد .

(فَعَزَّزْنا) : قوينا .

(طائِرُكُمْ) : تقدم ذكره في هذا الكتاب وفي المختار : " وطائر الإنسان عمله الذي قلده والطير أيضا الاسم من التطير ومنه قولهم :

لا طير إلا طير اللّه كما يقال لا أمر إلا أمر اللّه وقال ابن السكيت :

يقال : طائر اللّه لا طائرك ولا تقل طير اللّه وتطير من الشيء وبالشيء والاسم الطيرة بوزن عنبة وهي ما يتشاءم به من الفأل الرديء .

الإعراب :

)



---

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ) كلام مستأنف مسوق لأمر النبي بأن يضرب لقومه مثلا بأصحاب القرية ، واضرب فعل أمر بمعنى اجعل ولهم متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لمثلا وتقدمت عليه ومثلا مفعول به ثان لاضرب وأصحاب مفعول به أول ، ومن المفيد أن نورد عبارة أبي السعود في تفسيره وهي : " ضرب المثل يستعمل تارة في تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما في قوله تعالى : ضرب اللّه مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، وأخرى في ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيرة لها كما في قوله تعالى : " وضربنا لكم الأمثال " فالمعنى على الأول اجعل أصحاب القرية مثلا لهؤلاء في الغلو في الكفر والإصرار على تكذيب الرسل أي

طبق حالهم بحالهم ، على أن مثلا مفعول ثان لاضرب وأصحاب القرية مفعوله الأول أخر عنه ليتصل به ما هو شرحه وبيانه ، وعلى الثاني اذكر وبيّن لهم قصة هي في الغرابة كالمثل " وعلى هذا تكون اضرب بمعنى اذكر ومثلا مفعول به وأصحاب بدل على حذف مضاف أي مثل أصحاب والأول أولى ، وإذ ظرف لما مضى من الزمن ومحله بدل اشتمال من أصحاب القرية وجملة جاءها المرسلون في محل جر بإضافة الظرف إليها .

(إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما ) إذ ظرف بدل من إذ الأولى أي بدل مفصل من مجمل وهو يدخل في نطاق البدل المطابق أو بدل الكل من الكل وجملة أرسلنا في محل جر بالإضافة وإليهم متعلقان بأرسلنا واثنين مفعول به لأرسلنا والفاء عاطفة وكذبوهما فعل ماض

(325/649)

---

و فاعل ومفعول به . (فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ) الفاء عاطفة وعززنا فعل ماض وفاعل ، بثالث متعلقان بعززنا ، فقالوا عطف على فعززنا وان واسمها وإليكم متعلقان بمرسلون ومرسلون خبر إن والجملة مقول القول ومفعول عززنا محذوف وسيأتي سر حذفه في باب البلاغة . (قالُوا : ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ) قالوا فعل وفاعل وما نافية وأنتم

مبتدأ وإلا أداة حصر وبشر خبر أنتم ومثلنا صفة لبشر والخطاب للثلاثة وجملة ما أنتم مقول القول. (وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ) الواو عاطفة وما نافية وأنزل الرحمن فعل وفاعل ومن حرف جر زائد وشيء مجرور لفظا بمن منصوب محلا على أنه مفعول أنزل وإن نافية وأنتم مبتدأ وإلا أداة حصر وجملة تكذبون خبر.

(قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ) ربنا مبتدأ وجملة يعلم خبر وفاعل يعلم مستتر تقديره هو وإن واسمها وكسرت همزتها لمجيء اللام في خبرها وإليكم متعلقان بمرسلون واللام المزحلقة ومرسلون خبر إنا وجملة إنا إليكم لمرسلون سدت مسد مفعولي يعلم وسيأتي بحث تأكيد الخبر في باب البلاغة. (وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) الواو عاطفة وما نافية وعلينا خبر مقدم وإلا أداة حصر والبلاغ مبتدأ مؤخر والمبين صفة. (قالُوا: إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ) قالوا فعل وفاعل وان واسمها وكسرت همزتها لوقوعها بعد القول وجملة تطيرنا خبرها وبكم متعلقان بتطيرنا وسبب تطيرهم أنهم توقعوا الشرّ وأوجسوه بعد أن كذبوهم وقد ترامت إليهم مصائر الأقوام الهالكة بسبب تكذيبها الأنبياء.

(لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ) لئن اللام موطئة للقسم وإن شرطية ولم حرف نفي وقلب وجزم وتنتهوا فعل

مضارع مجزوم بلم والواو فاعل واللام واقعة في جواب القسم ونرجمنكم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل مستتر تقديره نحن والكاف مفعول به والجملة لا محل لها وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم وفاقا للقاعدة المشهورة وليمسنكم عطف على لنرجمنكم ومنّا متعلقان بيمسنكم وعذاب فاعل وأليم صفته .

(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ) طائركم مبتدأ ومعكم ظرف متعلق بمحذوف خبر والهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي وإن شرطية وذكرتم فعل ماض مبني للمجهول وهو في محل جزم فعل الشرط وجواب الشرط محذوف والقاعدة عند سيبويه أنه إذا اجتمع شرط واستفهام يجاب الاستفهام ويحذف جواب الشرط وذهب غيره إلى إجابة الشرط ، والتقدير عند سيبويه تتطيرون وعند الآخرين تطيروا بالجزم وبل حرف عطف وإضراب أي ليس الأمر كذلك وأنتم مبتدأ وقوم خبر ومسرفون صفة .

البلاغة :

1- الحذف :

في قوله " فعززنا بثالث " فن الإيجاز بالحذف فقد حذف مفعول عززنا والتقدير فعززناهما بثالث وإنما جنح إلى هذا الحذف لانصباب الغرض على المعزز به الثالث وإذا كان الغرض هو المراد وكان الكلام منصبّا عليه كان ما سواه مطروحا ، ونظيره قولك حكم

الحاكم اليوم بالحق والغرض المسوق اليه قولك بالحق فلذلك رفضت ذكر المحكوم له والمحكوم عليه وإنما اهتمامك كله هو مراعاة جانب الحق ، وستأتي أسماء الثلاثة في باب الفوائد .

2- التأكيد :



---

وفي هذه الآيات يبدو التأكيد بأروع صوره للخبر فقد قال أولا " إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما " فأورد الكلام ابتدائي الخبر ثم قال إنا إليكم مرسلون فأكده بمؤكدين وهو إن واسمية الجملة فأورد الكلام طلبيا ثم قال إنا إليكم لمرسلون فترقى في التأكيد بثلاثة وهي إن واللام واسمية الجملة فأورد الكلام إنكاري الخبر جوابا عن إنكارهم ، قيل وفي قوله ربنا يعلم تأكيد رابع وهو اجراء الكلام مجرى القسم في التأكيد به وفي أنه يجاب بما يجاب به القسم . وفي هذه الآية ائتلاف الفاصلة مع ما يدل عليه سائر الكلام فإن ذكر الرسالة مهد لذكر البلاغ والبيان .

الفوائد :

ذكرنا في باب اللغة أن القرية انطاكية بفتح الهمزة وكسرها وسكون النون وكسر الكاف وفتح الياء المخففة ، روى التاريخ ما ملخصه : بعث عيسى عليه السلام رسولين من

الحواريين إلى أهل انطاكية وهما يحيى ويولس بفتح الباء الموحدة ، فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار فسلما عليه فقال لهما الشيخ من أنتما ؟ فقالا رسولا عيسى فقال أمعكما آية فقالا نشفي المرضى ونبرىء الأكمه والأبرص وكان له ولد مريض فمسحاه فقام

على الفور فآمن حبيب وفشا الخبر في المدينة فشفي على أيديهما خلق كثير ورقى حديثهما إلى الملك وقال لهما ألنا إله سوى آلهتنا قالا نعم من أوجدك وآلهتك . فتبعهما الناس وضربوهما وقيل حبسا ، ثم بعث عيسى عليه السلام رأس الحواريين شمعون الصفي على أثرهما فدخل شمعون البلد متنكرا فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه وأنس به فقال له شمعون ذات يوم بلغني أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه ؟ فقال : لا ، حال الغضب بيني وبين ذلك فدعاهما فقال شمعون من أرسلكما ؟ قالا الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك فقال : صفاه وأوجزا . قالا : يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . قال وما آيتكما ؟ قالا ما يتمنى الملك .

فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا اللّه حتى انشق له بصره وأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فكانتا مغلقتين ينظر بهما ، فقال له شمعون : أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف . قال : ليس لي عنك سر ، إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع . وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلي ويتضرع ويحسبونه أنه منهم ، ثم قال : إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به ، فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال : إني أدخلت في سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا ، وقال : فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة . قال الملك : ومن هم ؟ قال : شمعون وهذان . فتعجب الملك ، فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه أخبره بالحال أنه رسول عيسى ودعاه فآمن الملك وآمن معه قوم وكفر آخرون وقيل بل كفر الملك وأجمع على قتل الرسل هو وقومه فبلغ ذلك حبيبا وهو على باب المدينة فجاء يسعى إليهم يذكرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين .

قال وهب : اسمهما يوحنا وبولس وقيل صادق ومصدوق والثالث شمعون .

[سورة يس (36) : الآيات 20 إلى 29]

وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ

دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (24)

*(329/649)*

---

إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27) وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (29)

الإعراب :

(وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى ) الواو عاطفة أو استئنافية وجاء فعل ماض ومن أقصى المدينة متعلقان بجاء وأراد بالمدينة القرية الآنفة الذكر أي انطاكية ورجل فاعل وجملة يسعى صفة والرجل هو حبيب النجار وستأتي لمحة عنه في باب الفوائد . (قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ)

يا حرف نداء وقوم منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة وقد تقدم بحثه واتبعوا فعل أمر وفاعل والمرسلين مفعول به أي الذين هم رسل عيسى عليه السلام . (اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ) اتبعوا تأكيد للأول وهو فعل أمر وفاعل ومن مفعول به وجملة لا

يسألكم صلة والكاف مفعول به أول وأجرا مفعول به ثان والواو واو الحال وهم مبتدأ ومهتدون خبر والجملة نصب على الحال ، وأجاز بعضهم أن تكون من بدلا من المرسلين ولا أدري ما هو مسوغه بعد وجود عامله وكأنهم تصوروا حذف مفعول اتبعوا ولا أرى داعيا إليه ، وسيأتي المزيد من بحث هذا الكلام في باب البلاغة .

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) الواو عاطفة وما اسم استفهام مبتدأ ولي خبره وجملة لا أعبد حالية والفاعل مستتر تقديره أنا والذي مفعوله وجملة فطرني صلة واليه متعلقان بترجعون وترجعون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل .

(330/649)

---

(أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) الهمزة للاستفهام الإنكاري ويجوز أن يكون معنى الاستفهام النفي واتخذ فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا ومن دونه مفعول به ثان وآلهة مفعول به أول .

(إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ) إن شرطية ويردن فعل الشرط والنون للوقاية والياء المحذوفة لاتباع خط المصحف مفعول به والرحمن فاعل وبضر متعلقان بيردن ولا نافية وتغن جواب الشرط وعني متعلقان بتغن وشفاعتهم فاعل وشيئا مفعول مطلق أو مفعول به وقد تقدم ذكرها كثيرا ولا ينقذون عطف على لا تغن وحذفت

الياء أيضا مراعاة لسنة المصحف والجملة الشرط استئنافية ويجوز أن تكون صفة لآلهة .

(إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) إن واسمها وإذن حرف جواب

وجزاء لا عمل لها واللام لام المزحلقة وفي ضلال خبر إن ومبين صفة وسيأتي بحث هام عن

إذن في باب الفوائد .

(331/649)

---

(إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ) إن واسمها وجملة آمنت خبرها وبربكم متعلقان بآمنت

والفاء الفصيحة واسمعون فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والياء المحذوفة

مفعول به ، ومعنى اسمعون اسمعوا قولي واتبعوا المرسلين وفيه دليل على تصلبه لمبدئه

وصدق إيمانه وقيل اسمعوا إيماني تشهدوا لي به . (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي

يَعْلَمُونَ) قيل فعل ماض مبني للمجهول ومتعلقه محذوف أي قيل له عند قتله ورؤيته ما أعد

له جزاء على صدق إيمانه وقال فعل ماض ويا حرف تنبيه أو حرف نداء والمنادى

محذوف وليت واسمها وجملة يعلمون خبرها . (بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) بما

متعلقان بيعلمون وما مصدرية أو موصولة أي بغفران ربي أو بالذي غفره لي ربي من الذنوب

وقال الفراء هي استفهامية ورد عليه بأنها لو كانت كذلك لحذفت ألفها كما هي القاعدة ،

وقيل ان حذف الألف أكثري لا كلي وهبه كذلك لا يسوغ حمل القرآن على الضعيف من الوجوه ، وجعلني فعل ماض والنون للوقاية والياء مفعول به أول ومن المكرمين مفعول به ثان .

(وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ) كلام مستأنف مسوق لاحتقار أمرهم أي لا حاجة إلى إرسال جنود لهم فأقل شيء كاف لإبادتهم واستئصال شأفتهم ، وما نافية وأنزلنا فعل وفاعل وعليهم متعلقان بأنزلنا ومن بعده متعلقان بمحذوف حال ومن حرف جر زائد وجند مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به ومن السماء صفة لجند والواو عاطفة وما نافية وكان واسمها

ومنزلين خبرها . (إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ) إن نافية وكانت فعل ماض ناقص واسمها مضمر والتقدير ما كانت الصيحة إلا صيحة واحدة والفاء عاطفة وإذا فجائية وهم مبتدأ وخامدون خبر .

البلاغة :



---

1- الالتفات في قوله " ومالي لا أعبد الذي فطرني " وفائدته أن انتقاله من مخاطبتهم ومناصحتهم إلى التكلم تلطفا بهم من جهة ووعيدا لهم من جهة ثانية ، فقد صرف الكلام

أولا إلى نفسه وأراهم أنه لا يختار لهم إلا ما يختاره لنفسه ، ثم التفت إلى مخاطبتهم ثانيا مقرعا مهددا بالعواقب التي تنتظرهم ، ثم عاد أخيرا إلى التلطف في النصيحة لأن ذلك أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه ، وقد وضع قوله : " وما لي لا أعبد الذي فطرني " مكان قوله : وما لكم لا تعبدون الذي فطركم ، ألا ترى إلى قوله " وإليه ترجعون " ولولا أنه قصد ذلك لقال الذي فطرني وإليه أرجع وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال : " إني آمنت بربكم فاسمعون " فانظر أيها المتأمل إلى هذه النكت الدقيقة التي تمر عليها في القرآن الكريم وأنت تظن أنك فهمت فحواها واستنبطت رموزها .

2- ائتلاف الفاصلة :

وفي قوله : " قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين " فن ائتلاف الفاصلة مع ما يدل عليه سائر الكلام ، فإن ذكر الجنة مهد لفاصلتها وفي ذلك تنبيه عظيم على

وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي والتشمير فيه ، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته ولمن ترصدوا له وتربصوا به الدوائر ونصبوا له الغوائل والمهالك ، هذا من جهة ثم إن في تمنيه أن يعلموا ليروعوا إلى أنفسهم بعد أن ينجلي الرين عن صدورهم وتنجاب الغواشي عن عيونهم فيبدو الصبح لذي عينين ، وتتبدد حنادس الشك والمين ، وفي ذلك انتصار له وفوز لدعوته وما بعد ذلك

غبطة لمستزيد .

3- التشبيه البليغ في قوله " فإذا هم خامدون " شببهم بالنار الخامدة التي صارت رمادا على حد قول لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا إذ هو ساطع



---

أي ليس حال المرء وحياته وبهجته ثم موته وفناؤه بعد ذلك إلا مثل حال شهاب النار وضوئه يصير رمادا بعد إضاءته . وبعد هذا البيت :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بدّ يوما أن ترد الودائع

شبه مال الشخص وأقاربه بالودائع تشبيها بليغا بجامع أنه لا بد من أخذ كل منها .

4- في قوله : " قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون " وإنما ختم بقوله " وهم مهتدون " مع تمام الكلام بدونه لزيادة الحث على الاتباع ففيه إطناب .

الفوائد :

بحث هام عن إذن :

تحدثنا في هذا الكتاب عن إذن ونضيف إلى ما تقدم ما قاله الرضي ففيه جلاء لموقعها من

الآية ، قال : " إنها اسم وأصلها إذ ، حذفت الجملة المضاف إليها وعوض عنها التنوين

وفتح ليكون في صورة ظرف منصوب وقصد جعله صالحا لجميع الأزمنة بعد ما كان

مختصا بالماضي وضمن معنى الشرط غالبا وإنما قلنا غالبا لأنه لا معنى للشرط في نحو "

قال فعلتها إذن وأنا من الضالين " ثم قال الرضي : وإذا كان بمعنى الشرط في الماضي جاز

اجراؤه مجرى لو في قرن جوابه باللام نحو " إذن لأذقناك " أي لو ركنت شيئًا قليلا لأذقناك ،

وإذا كان بمعنى الشرط في المستقبل جاز قرن جوابه بالفاء كقول النابغة :

ما إن أتيت بشيء أنت تكرهه إذن فلا رفعت سوطي الي يدي

أي إن أتيت ، وقد تستعمل بعد لو وإن توكيدا لهما نحو لو زرتني لأكرمتك وإن جئتني إذن

أزورك " ثم قال : ولما احتملت إذن التي يليها المضارع معنى الجزاء فالمضارع مستقبل

واحتملت معنى مجرد الزمان ، فالمضارع حال وقصد التنصيص على معنى الجزاء في إذن

نصب المضارع بأن المقدرة لأنها تخلصه للاستقبال فتحمل إذن على الغالب فيها من الجزاء

لانتفاء الحالية المانعة من الجزاء بسبب النصب بأن " وقد أطال الرضي في البحث فحسبنا

ما اقتبسناه من كلامه ليضاف إلى ما تقدم عنها .

[سورة يس (36) : الآيات 30 إلى 32]

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (30) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (31) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (32)

الإعراب:

(

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ) في هذا النداء وجهان أولهما أنه منادى شبيه بالمضاف ولذلك نصب وإنما كان شبيها بالمضاف لأنه اتصل به شيء من تمام معناه وهو على العباد ولك أن تجعله منادى نكرة مقصودة كأنما المنادى حسرة معينة وإنما نصبت لأنها وصفت بالجار والمجرور وقد تقدم معنا أن المنادى النكرة المقصودة إذا وصف نصب والوجه الثاني أن المنادى محذوف وحسرة مصدر أي أتحسر حسرة واختلف المفسرون في المتحسر ولا داعي للاختلاف فالحسرة جديرة بهم والمستهزءون بالرسل أحرياء بأن يتحسر عليهم المتحسرون أو يتحسروا على أنفسهم. والنداء هنا مجازي أي يا حسرة احضري فهذا أوانك. (ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) كلام مستأنف مسوق لتعليل التحسر عليهم وما نافية ويأتيهم فعل مضارع ومفعول به ومن حرف جر زائد ورسول مجرور بمن لفظا مرفوع محلا على أنه فاعل وإلا أداة حصر وجملة كانوا استثناء من أعم الأحوال فهي

جملة في محل نصب على الحال من الهاء في يأتيهم وكان واسمها وبه جار ومجرور متعلقان بيستهزئون وجملة يستهزئون خبر كانوا .



---

(أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ) الهمزة للاستفهام التقريري أي لقد علموا ذلك جيدا ولم حرف نفي وقلب وجزم ويروا فعل مضارع مجزوم بلم والواو فاعل وقد علقت يروا عن العمل لأن الرؤية هنا قلبية علمية وكم خبرية في محل نصب مفعول مقدم لأهلكنا والجملة في محل نصب مفعول يروا ويجوز أن تكون كم استفهامية وقبلهم ظرف متعلق بأهلكنا ومن القرون حال وأن وما في حيزها بدل من معنى كم أهلكنا والتقدير : ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم ويجوز أن يكون المصدر المؤول معمولاً لفعل محذوف دل عليه السياق والمعنى تقديره وقضينا وحكمنا أنهم إليهم لا يرجعون وان واسمها وإليهم متعلقان بيرجعون ولا نافية وجملة يرجعون خبر ان وللزمخشري فيها كلام لطيف نورده في باب الفوائد . (وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) الواو عاطفة وإن نافية وكل مبتدأ ولما بمعنى إلا وجميع خبر كل ولدينا ظرف متعلق بجميع أو بمحضرون ومحضرون خبر ثان وسيأتي مزيد من إعراب هذه الآية وقراءاتها .

الفوائد :

1- كلام الزمخشري في الآية :

للمعربين كلام طويل في إعراب قوله تعالى : " ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون " وقد أوردنا لك ما رأيناه أمثل الأوجه في إعرابها ونرى من المفيد أن نورد لك الكلام الذي أورده الزمخشري بهذا الصدد قال : " ألم يروا : ألم يعلموا وهو معلق عن العمل في كم لأن كم لا يعمل فيها عامل قبلها سواء كانت

للاستفهام أو لمضمر لأن أصلها الاستفهام إلا أن معناها نافذ في الجملة كما نفذ في قولك ألم يروا إن زيدا لمنطلق وان لم يعمل في لفظه وانهم إليهم لا يرجعون بدل من كمّ أهلكنا على المعنى لا على اللفظ تقديره ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم "

.



---

هذا وقد قرىء بتخفيف " لما " فتكون إن مخففة من الثقيلة وإن مهملة عن العمل وكل مبتدأ وما بعده خبره ولزمت اللام في الخبر فرقا بين المخففة والنافية وما مزيدة .

2- مناقشة لطيفة :

اعلم أن الزمخشري أورد سؤالا في الآية فقال : كيف أخبر عن كل بجميع مع أن الفارسي نص على أنه لا يجوز : إن الذاهبة جارية صاحبها ، واستشكلوا قوله تعالى " فإن كانتا اثنتين " لأنه أخبر عن ضمير الاثنين بالاثنين فلا فائدة فيه ، وانتقد بعض الناس على الفارسي وقال إن الجارية مضافة والإضافة تكون بأدنى ملابسة فلا تدل إضافة الجارية إليه على أنها ملكه بل قد تكون جارته فأضافها باعتبار الجوار فقط ثم قل صاحبها فأفاد أنها ملكه ، وأجاب الزمخشري عن السؤال بأن كلا لا يقتضي الجمعية بخلاف جميع وهذا قد نصّ عليه ابن عصفور فإنه فرق بين أجمع وجميع بأن أجمع لا يقتضي الجمعية بخلاف جميع لكن إنما ادعى ذلك في حالة النصب نحو جاء الزيدون جميعا أما في الرفع فلا فرق بين جاء الزيدون أجمعون أو جميع فما قاله الزمخشري مشكل لأن جميعا لا يفيد الجمعية إلا إذا انتصب على الحال فيبقى السؤال واردا ، وأجاب عنه الفخر الرازي بجواب حسن وهو أنه إذا كان في الخبر زيادة صفة أو إضافة تقييد صح أن يؤتى بلفظ المبتدأ أو معناه كقولك الرجل رجل صالح.

[سورة يس (36) : الآيات 33 إلى 36]

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (35) سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا

لا يَعْلَمُونَ (36)

الإعراب:

)

(337/649)

---

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ) كلام مستأنف مسوق لإيراد آية على البعث والتوحيد .
وآية خبر مقدم ولهم صفة والأرض مبتدأ مؤخر وجملة أحييناها يجوز فيها أن تكون حالية وأن تكون صفة وسيأتي السر في وصفيتها في باب الفوائد . (وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ) عطف على أحييناها وأخرجنا فعل وفاعل ومنها متعلقان بأخرجنا وحبا مفعول به والفاء استئنافية ومنه متعلقان بيأكلون .
(وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ) وجعلنا فعل وفاعل والجملة عطف على أحييناها وفيها متعلقان بجعلنا أو بمحذوف مفعول به ثان لجعلنا وجنات مفعول به ومن نخيل صفة لجنات وأعناب عطف على نخيل وفجرنا عطف أيضا وفيها متعلقان بفجرنا ومن العيون صفة لمفعول فجرنا المحذوف أي ينابيع كائنة من العيون ، وقدره أبو البقاء بقوله : ما ينتفعون به من العيون فمن للتبعيض . (لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ

أَيدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ) ليأكلوا تعليل لما تقدم ومن ثمره جار ومجرور متعلقان بيأكلوا وما موصولية أو نكرة موصوفة عطف على من ثمره وجملة عملته أيديهم صلة أو صفة ولك أن تجعلها مصدرية أي ومن عمل أيديهم فهو بمعنى ما تقدم ، وإعرابه : قال الزمخشري : " ولك أن تجعل ما نافية على أن الثمر خلق اللّه ولم تعمله أيدي الناس ولا يقدرون عليه " والهمزة للاستفهام الانكاري لأنه لا شيء أقبح من إنكار النعمة وغمط الصنيع والفاء تقدم أنها في مثل هذا المقام عاطفة على محذوف يقتضيه السياق أي أيرون هذه النعم ويستمتعون بها فلا يشكرونها ولا نافية ويشكرون فعل مضارع وفاعل والمفعول به محذوف كما أشرنا .

)

*(338/649)*

---

سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ) سبحان مفعول مطلق لفعل محذوف وقد تقدم القول فيه والجملة مستأنفة مسوقة لتنزيهه تعالى عما لا يليق به والذي مضاف إليه وجملة خلق صلة والأزواج مفعول به وكلها تأكيد ومما متعلقان بمحذوف حال وجملة تنبت الأرض صلة .

(وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ) عطف على قوله مما تنبت الأرض وبهذا استمر في الأمور

الثلاثة التي لا يخرج عنها شيء من أصناف المخلوقات وهي على التوالي :

1- ما تنبته الأرض من الحبوب وأصناف الشجر .

2- ما يتوالده الناس من ذكر وأنثى .

3- من أزواج لم يطلع الله عباده عليها بعد ولم يكتنهوا حقيقتها .

البلاغة :

في قوله : " سبحان الذي خلق الأزواج كلها " الآية فن التناسب بين المعاني أو صحة التفسير وهو أن يأتي المتكلم في أول كلامه بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه ، فإما أن يكون مجملا يحتاج إلى تفصيل أو موجها يفتقر إلى توجيه أو محتملا يحتاج المراد منه إلى ترجيح لا يحصل إلا بتفسيره وتبيينه ، ووقوع التفسير في الكلام على أنحاء تارة يأتي بعد الشرط أو بعد ما فيه معنى الشرط وطورا بعد الجار والمجرور وآونة بعد المبتدأ الذي التفسير خبره ، وقد أتت صحة التفسير في هذه الآية مقترنة بصحة التقسيم واندمج فيهما الترتيب والتهذيب فكان فيها أربعة فنون فقد قدم سبحانه النبات كما ذكرنا في الإعراب وانتقل على طريق البلاغة إلى الأعلى فثنى بأشرف الحيوان وهو الإنسان ليستلزم ذكره بقية الحيوان ثم ثلث بقوله :

" ومما لا يعلمون " فانتقل من الخصوص إلى العموم ليندرج تحت العموم فسبحان منزل القرآن .

الفوائد :

ذكر الزمخشري أن الثمر يجمع على ثمر بفتحتين وثمر بضمتين وثمر بضمة فسكون ولم يذكر غيره الاثنين الأولين .

[سورة يس (36) : الآيات 37 إلى 40]



---

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)

اللغة :

(نَسْلَخُ) : نفصل يقال سلخ جلد الشاة إذا كشطه عنها وأزاله ، وسلخ الحية . وفي معاجم اللغة : سلخ يسلخ من باب نصر وفتح سلخا الخروف كشط جلده وسلخت المرأة درعها : نزعته وسلخت الحية انكشفت عن سلختها وسلخها أي قشرها فاستعير السلخ لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل وملقى ظله .

(العرجون) : بضم العين ويقال له أيضا العرجد والعرجد بتشديد الدال أصل العذق الذي

يعوج ويبقى على النخل يابسا بعد أن تقطع عنه الشماريخ ، والجمع عراجين . وقال الزجاج : هو فعلون من الانعراج وهو الانعطاف . وسيأتي سر تشبيه القمر به في باب البلاغة .

الاعراب :

(وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ) الواو عاطفة وآية خبر مقدم ولهم صفة والليل مبتدأ مؤخر وجملة نسلخ حالية ومنه متعلقان بنسلخ والنهار مفعول والفاء عاطفة وإذا فجائية وهم مبتدأ ومظلمون خبر ومعنى مظلمون أي داخلون في الظلام . يقال أظلمنا كما يقال أعتمنا وأدجينا وأظهرنا وكذلك أصبحنا وأضحينا وأمسينا .

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها) الشمس مبتدأ وجملة تجري خبر ولمستقر متعلقان بتجري وسيرد في باب الفوائد معنى المستقر ولها

(340/649)

---

متعلقان بمحذوف صفة . (ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) ذلك مبتدأ والاشارة إلى جريها وتقدير خبره والعزيز مضاف اليه والعليم صفة ثانية . (وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) الواو عاطفة والقمر مفعول به لفعل محذوف يفسره ما بعده أي فهو منصوب على الاشتغال وجملة قدرناه من الفعل والفاعل والمفعول به مفسرة وقرىء بالرفع

على أنه معطوف على المبتدأ المقدم أو على انه مبتدأ خبره قدرناه ومنازل فيه أوجه :

أحدها أنه حال على حذف مضاف أي ذا منازل لأنه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل وثانيها أنه مفعول ثان لقدرناه أي صيّرناه منازل والثالث انه ظرف أي قدرنا سيره في منازل وقد جنح إلى هذا الوجه الزمخشري والجلال ، وحتى حرف غاية وجر وعاد فعل ماض وفاعله هو أي القمر في آخر منازله ولك أن تجعل عاد ناقصة فيكون الاسم مستترا والكاف اسم بمعنى مثل خبر عاد وان اعتبرتها تامة كانت في محل نصب على الحال والقديم صفة للعرجون وسيأتي سر هذا التشبيه في باب البلاغة .

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ) لا نافية والشمس مبتدأ وجملة ينبغي خبر ولها متعلقان بينبغي وأن وما في حيزها فاعل ينبغي والقمر مفعول ومعنى ادراك الشمس للقمر الإخلال بالسير المقدر والنظام المتبع لئلا يختل تكوين الكون ونظامه . (وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ) عطف على ما تقدم والليل مبتدأ وسابق خبر والنهار مضاف اليه وسيأتي المزيد من معناه . (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) كل مبتدأ ساغ الابتداء به لما فيه من معنى العموم ولأن التنوين عوض عن كلمة مضافة أي كل واحد من الشمس والقمر والنجوم والكواكب ، وفي فلك متعلقان بيسبحون وجملة يسبحون خبر والواو فاعل لأنه نزلها منزلة العقلاء وسيأتي السر في ذلك في باب البلاغة .

البلاغة :

اشتملت هذه الآيات على العديد من فنون البلاغة :



1- الاستعارة :

فأولها الاستعارة المكنية في قوله " وآية لهم الليل نسلخ منه النهار " فقد شبه تبرؤ الليل من النهار بانسلاخ الجلد عن الجسم المسلوخ وذلك انه لما كانت هوادي الصبح عند طلوعه ملتحمة بأعجاز الليل أجرى عليها اسم السلخ وكان ذلك أولى من أن يقال نخرج مثلا لأن السلخ لا يتأتى إلى بجهد ومشقة لفرط التحامه باللحم والعظام ، والجامع بينهما الإزالة والتعرية فكما أن الشاة تتعرى حين يسلخ إهابها كذلك الليل إذا انسلخ عنه النهار زال ضوءه وبدت ظلمته الحالكة تغمر الكون بسوادها .

2- التوشيح :

وفي قوله : " وآية لهم الليل نسلخ منه النهار " الآية فن التوشيح وهو أن يكون في أول الكلام معنى إذا علم علمت منه القافية إن كان شعرا أو السجع إن كان نثرا بشرط أن يكون المعنى المتقدم بلفظه من جنس معنى القافية أو السجعة بلفظه أو من لوازم لفظه فإن من

كان حافظا للسورة متفطنا إلى أن مقاطع آيها النون المردفة وسمع في صدر الآية انسلاخ النهار من الليل علم أن الفاصلة تكون مظلمون لأن من انسلخ النهار عن ليله أظلم أي دخل في الظلمات ما دامت تلك الحال .

3 - التشبيه المرسل :

وذلك في قوله " حتى عاد كالعرجون القديم " فقد مثل الهلال بأصل عذق النخلة والعذق بكسر العين وهو الكباسة والكباسة عنقود النخل وهو تشبيه بديع للهلال فإن العرجون إذا قدم دق وانحنى واصفر وهي وجوه الشبه بين الهلال والعرجون فهو يشبهه في رأي العين في الدقة لا في المقدار والاستقواس والاصفرار .

4- الاستعارة أيضا :

(342/649)

---

واستعار الإدراك للشمس والسبق لليل والنهار ليبين ما هو مقرر في علم الجغرافيا من دورات الشمس والقمر والأرض وتكون الليل والنهار ، وجعل الشمس غير مدركة والقمر غير سابق لأن الشمس ثابتة لا تدور إلا دورة لم تعرف مدتها حول شيء مجهول لنا بالكلية ولها أيضا دورة على محورها كالأرض تقطعها في خمسة وعشرين يوما أو هي بالضبط

خمسة وعشرون يوما وست ساعات وست عشرة دقيقة وثماني ثوان ، أما القمر فله حركتان : إحداهما حول محوره وثانيتهما حول الأرض وكل منهما يتجه من المغرب إلى المشرق ويقطع مداره حول الأرض في تسعة وعشرين يوما ونصف تقريبا وهذا هو المسمى بالشهر القمري فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك لتباطؤ سيرها والقمر خليق بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره .

5- التغليب :

وغلب العقلاء لأنه نزل الشمس والقمر والنجوم والكواكب

منزلتهم والسر فيه انه لما وصفهم بالسباحة وهي من أوصاف العقلاء ساغ له ذلك .

[سورة يس (36) : الآيات 41 إلى 46]

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41) وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (42)

وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ (43) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (44)

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45)

وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (46)

اللغة :

(الْمَشْحُونِ) : شحن السفينة ملأها وأتم جهازها كله " في الفلك المشحون " وبينهما شحناء : عداوة وهو مشاحن لأخيه ويقال للشيء الشديد الحموضة انه ليشحن الذباب

أي يطرده وبابه فتح إذا كان بمعنى الملء وإذا كان بمعنى الطرد فهو من باب فتح ونصر ، يقال :

(343/649)

---

شحنت الكلاب أي أبعدت الطرد ولم تصد شيئًا وإذا كان بمعنى الحقد فهو من باب تعب .

(صَرِيخَ) : مغيث ويطلق أيضا على الصارخ أي المستغيث فهو من الأضداد ويكون مصدرا بمعنى الإغاثة وكل منهما مراد هنا وفي الأساس : " وصرخ يصرخ صراخا وصريخا وهو صارخ وصريخ وقد نقع الصريخ قال :

قوم إذا نقع الصريخ رأيتهم من بين ملجم مهره أو سافع

والصراخ : صوت المستغيث وصوت المغيث إذا صرخ بقومه للإغاثة .

قال سلامة :

إنا إذا ما أتانا صارخ فزع كان الصراخ له قرع الظنابيب

أي كان الغياث له وتقول : جاء فلان صارخا وصريخا ومستصرخا : مستغيثا وأقبل صارخا وصارخة وصريخا ومصرخا :

مغيثا قال :

وكانوا مهلكي الأبناء لولا تداركهم بصارخة شفيق

وفي المثل : " عبد صريخه أمة " أي مغيثه وأصرخته أغثته ، واستصرخني استغاثني

وتصارخوا واصطرخوا : تصايحوا " .

(الذرية) : سيأتي بحثها في باب الإعراب .

الاعراب :

(وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) اختلف في عود الضمير ونرى أن الأصوب أن يكون عاما وأن يكون بمثابة امتنان عليهم بأصناف من النعم منها حملهم في السفن فتكون الألف واللام في الفلك للجنس لا لسفينة نوح خاصة . وآية خبر مقدم ولهم صفة وأنا أن وما في حيزها مبتدأ مؤخر وأن واسمها وجملة حملنا خبرها



---

وحملنا فعل وفاعل وذريتهم مفعول به وفي الفلك متعلقان بحملنا والمشحون صفة وقد أطلقت الذرية على الأصول وهي تطلق أيضا على الفروع لأن لفظ الذرية مشترك بين الضدين لأن الذرية من الذرء أي الخلق والفروع مخلوقون من الأصول والأصول خلقت منها الفروع وقال البغوي : " واسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الأولاد " وفي القاموس : "

ذرأ كجعل خلق والشيء كثره ومنه الذرية مثلثة لنسل الثقلين " واستدرك في التاج فقال : " وقد يطلق على الآباء والأصول قال الله تعالى : أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون والجمع ذراري كسراري " فليس في الآية إشكال كما زعم القرطبي وسيأتي نص عبارته في باب الفوائد .

(وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ) الواو عاطفة وخلقنا فعل وفاعل ولهم متعلقان بخلقنا ومن مثله في محل نصب على الحال من المفعول المؤخر وهو ما وجملة يركبون صلة ما والضمير في مثله يعود على الفلك فإما أن يراد بالمثل ما اصطنعوه بعد ذلك من وسائل الركوب أو أنه مقتصر على الإبل لأنهم كانوا يسمونها سفائن الصحراء وهناك أقوال يرجع إليها في المطولات . (وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ) الواو عاطفة وإن شرطية ونشأ فعل الشرط وفاعله مستتر تقديره نحن ونغرقهم جواب الشرط والفاء عاطفة واختار ابن عطية أن تكون استئنافية وفي ذلك قطع للكلام ، ولا نافية للجنس وصريخ اسمها مبني على الفتح ولهم خبرها والواو عاطفة ولا نافية وهم مبتدأ وجملة ينقذون خبر وينقذون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل . (إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ) إلا أداة حصر ورحمة مفعول لأجله فهو استثناء مفرغ من أعم العلل وقيل هو استثناء منقطع وقيل هو مفعول مطلق لفعل محذوف وقيل منصوب بنزع الخافض ومتاعا عطف على رحمة وإلى حين صفة وسيأتي معنى هذا الكلام في باب البلاغة .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) كلام مستأنف مسوق لبيان إعراضهم عن هذه الآيات الآنفة الذكر وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة قيل في محل جر بإضافة الظرف إليها ولهم متعلقان بقيل وجملة اتقوا مقول القول واتقوا فعل أمر وفاعل وما مفعول به والظرف متعلق بمحذوف صلة ما وأيديكم مضاف إليه وما خلفكم عطف على ما بين أيديكم ولعلكم لعل واسمها وجملة ترحمون خبرها وجواب إذا محذوف مدلول عليه بقوله الآتي والتقدير أعرضوا وأشاحوا . (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) الواو عاطفة وما نافية وتأتيهم فعل مضارع ومفعول به ومن حرف جر زائد وآية مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه فاعل ومن آيات ربهم صفة ومعنى من التبعيض وإلا أداة حصر وجملة كانوا عنها معرضين في محل نصب حال وكان واسمها وعنها متعلقان بمعرضين ومعرضين خبرها .

البلاغة :

في قوله : " وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم " إلى قوله :

" ومتاعا إلى حين " سلامة الاختراع وهي الإتيان بمعنى لم يسبق إليه فإن نجاتهم من الغرق

برحمة منه تعالى هي في حد ذاتها متاع يستمتعون به ولكنه على كل حال إلى أجل مقدر

يموتون فيه لا مندوحة لهم عنه ، فهم إن نجوا من الغرق فلن ينجوا مما يشبهه أو يدانيه ،

والموت

لا تفاوت فيه . وقد رمق أبو الطيب ، كعادته ، سماء هذا المعنى فقال من قصيدة قالها

بمصر يذكر بها حماه التي كانت تغشاه :

وإن أسلم فما أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام

يقول : فإن أسلم من مرض لم أبق خالدا ولكن سلمت من الموت بهذا المرض إلى الموت بمرض

آخر وهذا معنى بديع تداوله الشعراء ، فقال آخر :

إذا بلّ من داء به خال أنه تجاذبه الداء الذي هو قاتله

وقد دندن أبو الطيب لتصوير المتاع المستعجل ببيتين ولم يسم إلى الآية فقال :



---

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام

فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

أراد بثالث الحالين الموت يقول ما دمت حيا تمتع من حالتي النوم والسهاد فإنك لا تنام في القبر

، والموت غير اليقظة والرقاد فلا تحسبن الموت نوما .

الفوائد :

عبارة القرطبي في تفسير الآية :

وعدناك أن ننقل لك عبارة القرطبي وبرا بهذا الوعد نوردها لك : " هذه الآية من أشكل ما في هذه السورة لأنهم هم المحمولون

فقيل : المعنى وآية لأهل مكة أنا حملنا ذرية القرون الماضية في الفلك المشحون فالضميران مختلفان ، ذكره المهدوي وحكاه النحاس عن علي ابن سليمان انه سمعه يقوله وقيل الضميران جميعا لأهل مكة على أن يكون المراد بذرياتهم أولادهم وضعفاءهم فالفلك على القول الأول سفينة نوح وعلى الثاني يكون اسما للجنس أخبر تعالى بلطفه وامتنانه أنه خلق السفن يحمل فيها من يضعف عن المشي والركوب من الذرية والضعفاء فيكون الضميران على هذا متفقين ، وقيل الذرية الآباء والأجداد حملهم اللّه تعالى في سفينة نوح عليه السلام فالآباء ذرية والأبناء ذرية بدليل هذه الآية قاله أبو عثمان وسمي الآباء ذرية لأنه ذرأ منهم الأبناء ، وقول رابع أن الذرية النطف حملها اللّه تعالى في بطون النساء تشبيها بالفلك المشحون قاله علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ، ذكره الماوردي " والقول الصحيح والوجيه ما أسلفناه .

[سورة يس (36) : الآيات 47 إلى 50]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (47) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (48) ما يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50)

اللغة :

(يَخِصِّمُونَ) : بفتح الياء وكسر الخاء وكسر الصاد المشددة وأصله يختصمون فلما حذفت حركة التاء صارت ساكنة فالتقت ساكنة مع الخاء فحركت الخاء بالكسر على أصل التخلص من التقاء الساكنين وهناك قراءات أخرى يرجع إليها في المطولات .

الاعراب :

(وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) عطف على ما تقدم وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة قيل في محل جر بالإضافة وجملة أنفقوا مقول القول ومما جار ومجرور متعلقان بأنفقوا وجملة رزقكم اللّه صلة . (قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ) جملة قال لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم والذين فاعل وجملة كفروا

صلة وللذين متعلقان بقال وجملة آمنوا صلة والهمزة للاستفهام ومعناه الاستهزاء : كان بمكة زنادقة فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا لا واللّه أيفقره اللّه ونطعمه نحن ؟ وقيل نزلت في مشركي قريش حين قال فقراء أصحاب رسول اللّه :

*(348/649)*

---

أعطونا مما زعمتم من أموالكم إنها للّه يعنون قوله : " وجعلوا للّه مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا " فحرموهم وقالوا : لو شاء اللّه لأطعمكم استهزاء منهم بالمؤمنين أي فلا نطعمكم حتى ترجعوا إلى ديننا . ونطعم فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره نحن ومن مفعول به ولو شرطية ويشاء اللّه فعل مضارع وفاعل وجملة أطعمه لا محل لها وجملة لو يشاء اللّه أطعمه لا محل لها لأنها صلة من .

(إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) إما أن يكون تتمة كلام المشركين وإما أن يكون من قول أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم لهم وإما أن يكون من قول اللّه تعالى لهم ، وروى القرطبي أن أبا بكر الصديق رضي اللّه عنه كان يطعم مساكين المسلمين فلقيه أبو جهل فقال : يا أبا بكر أتزعم أن اللّه قادر على إطعام هؤلاء ؟ قال : نعم ، قال : فما باله لم يطعمهم ؟ قال : ابتلى قوما بالفقر وقوما بالغنى وأمر الفقراء بالصبر وأمر الأغنياء بالإعطاء ، فقال أبو جهل :

واللّه يا أبا بكر إن أنت إلا في ضلال أتزعم أن اللّه قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ثم تطعمهم أنت فنزلت الآية . (وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) كلام مستأنف لبيان ضرب آخر من تعسفهم وركوبهم متن الضلالة ويقولون فعل مضارع وفاعل ومتى اسم استفهام في محل نصب على الظرفية والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وهذا مبتدأ مؤخر والوعد بدل من اسم الإشارة وإن شرطية وكنتم صادقين كان واسمها وخبرها وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أي فمتى هذا الوعد ؟

)



---

ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ) ما نافية وينظرون فعل مضارع وفاعل ومعناه ينتظرون : جعلهم منتظرين وقوعها مع أنهم كانوا قاطعين بعدمها محاكاة لكلامهم . وإلا أداة حصر وصيحة مفعول به وواحدة صفة وجملة تأخذهم صفة ثانية أو حالية والواو حالية وهم ضمير منفصل مبتدأ وجملة يخصمون خبر والجملة نصب على الحال والمعنى أنها تبغتهم وهم سادرون في الغفلة مسترسلون في الخصومات حول المتاجر والمعاملات . (فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ) الفاء عاطفة ولا نافية

ويستطيعون فعل

مضارع وفاعل وتوصية مفعول به والواو عاطفة ولا نافية وإلى أهلهم جار ومجرور متعلقان يرجعون والجملة معطوفة على فلا يستطيعون .

[سورة يس (36) : الآيات 51 إلى 54]

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (53) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54)

اللغة :

(الصُّورِ) : هو القرن أو ما يسمى اليوم البوق وهو شيء مجوف مستطيل ينفخ فيه ويزمر ويجمع على أبواق وبيقان وبوقات .

قال أبو الفتح بن جني : عاب على أبي الطيب من لا خبرة له بكلام العرب جمع بوق على بوقات في قوله :

إذا كان بعض الناس سيفا لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول

والقياس يعضده إذ له نظائر كثيرة مثل حمام وحمامات وسرادق وسرادقات وجواب وجوابات وهو كثير في جميع ما لا يعقل من المذكر .

)

الْأَجْداثِ) : القبور جمع جدث كفرس وأفراس وقرىء من الأجداف بالفاء وهي لغة في الأجداث يقال جدث وجدف .

(يَنْسِلُونَ) : يعدون بكسر السين وضمها يقال نسل الذئب ينسل من باب ضرب يضرب وقيل ينسل بالضم أيضا وهو الاسراع في المشي وفي القاموس : " نسل ينسل وينسل بكسر السين وضمها نسلا ونسلا ونسلانا في مشيه أسرع " .

ومنه قول امرئ القيس :

فإن تك ساءتك مني خليقة فسلّي ثيابي من ثيابك تنسل

الاعراب :

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) كلام مستأنف مسوق لتقرير البعث يوم القيامة . ونفخ فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو وفي الصور متعلقان بنفخ والفاء حرف عطف وإذا الفجائية وهم مبتدأ ومن الأجداث متعلقان بينسلون وإلى ربهم متعلقان بينسلون أيضا وجملة ينسلون خبرهم . (قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا

مِنْ مَرْقَدِنا ) قالوا فعل وفاعل ويا حرف تنبيه أو حرف نداء والمنادى محذوف وويلنا مصدر لا فعل له من لفظه ونا مضاف إليه ويجوز أن يكون منادى مضافا من النداء المجازي أي يا ويل احضر فهذا أوانك ، ومن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة بعثنا خبر ومن مرقدنا متعلقان ببعثنا ويجوز في المرقد أن يكون مصدرا ميميا أي من رقادنا ويجوز أن يكون اسم مكان

وقد أقيم المفرد مقام الجمع . (هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) هذا مبتدأ وما اسم موصول خبر وجملة وعد الرحمن فعل وفاعل ومفعول وعد محذوف أي وعدنا وصدق المرسلون فعل وفاعل والمفعول محذوف وعلى هذا الاعراب يكون الوقوف على مرقدنا تاما ، ويجوز أن تكون ما مصدرية وهي مع مدخولها خبر هذا ، وأجاز الزمخشري وغيره أن يكون اسم الاشارة نعتا لمرقدنا فيوقف عليه وما وعد مبتدأ محذوف الخبر أو خبرا لمبتدأ محذوف والتقدير على الأول حق وعلى الثاني هذا أو بعثنا .



---

(إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ) إن نافية وكانت فعل ماض ناقص واسمها مستتر تقديره الصيحة وإلا أداة حصر وصيحة خبر كانت والفاء حرف

عطف وإذا الفجائية وهم مبتدأ وجميع خبر ولدينا ظرف متعلق بمحضرون ومحضرون خبر ثان أو صفة لجميع. (فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الفاء استئنافية واليوم ظرف متعلق بتظلم ولا نافية وتظلم فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وشيئا مفعول مطلق ولا تجزون عطف على لا تظلم على طريق الالتفات وإلا أداة حصر وما مفعول به ثان لتجزون وجملة كنتم صلة وجملة تعملون خبر كنتم.

البلاغة:

في قوله: "قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا" استعارة تصريحية أصلية فقد استعار الرقاد للموت والجامع بينهما عدم ظهور الفعل لأن كلّا من النائم والميت لا يظهر فيه فعل والمراد الفعل الاختياري المعتد به فلا يرد أن النائم يصدر منه فعل وإنما قلنا انها
أصلية لأن المرقد مصدر ميمي كما تقدم وأما إذا جعلناه اسم مكان فتكون الاستعارة تبعية.

[سورة يس (36): الآيات 55 إلى 61]

إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (56) لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ (57) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58)
وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59)
أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي

هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (61)

اللغة:



---

(شُغُلٍ): بسكون الغين وضمها وقد قرىء بهما معا وفي القاموس: " الشغل بالضم وبضمتين وبالفتح وبفتحتين ضد الفراغ وجمعه أشغال وشغول وشغله كمنعه شغلا ويضم، وأشغله لغة جيدة أو قليلة أو رديئة واشتغل به وشغل كعني ويقال منه ما أشغله وهو شاذ لأنه لا يتعجب من المجهول " وأنكر شارح القاموس أشغل وقال:

لا يعرف نقله عن أحد من أئمة اللغة.

(فاكِهُونَ): ناعمون أو متلذذون في النعمة من الفكاهة بالضم وهي التمتع والتلذذ مأخوذ من الفاكهة. قال الجوهري في صحاحه:

الفكاهة بالضم: المزاح والفكاهة بالفتح مصدر فكه الرجل بالكسر فهو فكه إذا كان طيب العيش فرحانا ذا نشاط من التنعم فإذا فسرنا قوله " فاكهون " بأنهم ناعمون كانت من الفكاهة بالفتح وفي القاموس: " الفاكهة: الثمر كله وقول مخرج التمر والعنب والرمان منها مستدلا بقوله تعالى فيهما فاكهة ونخل ورمان باطل مردود وقد بينت ذلك

مبسوطا في اللامع المعلم العجاب، والفاكهاني بائعها وكخجل: آكلها والفاكه صاحبها وفكههم تفكيها أتاهم بها والفاكهة: النخلة المعجبة واسم والحلواء وفكههم بملح الكلام تفكيها أطرفهم بها والاسم: الفكيهة والفكاهة بالضم وفكه كفرح فكها وفكاهة فهو فكه وفاكه طيب النفس ضحوك أو يحدث صحبه فيضحكهم ومنه تعجب كتفكه والتفاكه التمازح".

(

الْأَرائِكِ): جمع أريكة وهي السرير في الحجلة وقيل الفرش الكائن في الحجلة بفتحتين أو بسكون الجيم مع ضم الحاء وقيل مع كسرها والمراد بها نحو قبة تغلق على السرير وتزين به العروس.

(353/649)

---

(يَدَّعُونَ) مضارع ادعى بوزن افتعل من دعا يدعو وقد اشرب معنى التمني، قال أبو عبيدة: "العرب تقول: ادع علي ما شئت أي تمن وفلان في خير ما يدعي أن يتمنى" وقال الزجاج: "هو من الدعاء أي ما يدعونه يأتيهم، وقيل افتعل بمعنى تفاعل أي ما يتداعونه" وقال الزمخشري: "يدعون يفتعلون من الدعاء أي يدعون به لأنفسهم كقولك اشتوى واجتمل إذا

شوى وجمل لنفسه قال لبيد :

وغلام أرسلته أمه بألوك فبذلنا ما سأل

أرسلته فأتاه رزقه فاشتوى ليلة ريح واجتمل "

أي ورب غلام أرسلته أمه إلينا برسالة وهي هنا السؤال فبذلنا ما سأله من الطعام عقب سؤاله وبين ذلك بقوله : أرسلته فأتاه رزقه وفيه دلالة على انه لم يكن عندهم طعام حين أتاهم الغلام أي فأتاه رزقه من الصيد فاشتوى لنفسه من اللحم في ليلة ريح مظلمة يقل فيها الجود واجتمل أي أذاب الشحم ، وفي الصحاح : حميت الشحم واجتملته إذا أذبته .

الاعراب :

)

(354/649)

---

إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ) كلام مستأنف مسوق لتقرير أحوال أهل الجنة إغاظة للكفار وتقريعا لهم وزيادة في ندامتهم وحسرتهم . وإن واسمها واليوم ظرف متعلق بمحذوف حال وفي شغل خبر إن الثاني وفاكهون خبرها الأول ويجوز العكس ، ويجوز أن يتعلق في شغل بفاكهون أو في محل نصب على الحال ، وسيأتي معنى الشغل والفكاهة في

باب البلاغة . (هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ) هم مبتدأ وأزواجهم عطف على هم وفي ظلال خبر أي لا تصيبهم الشمس لانعدامها بالكلية وعلى الأرائك متعلقان بمتكئون ومتكئون خبر ثان لهم ، ويجوز أن يتعلق قوله في ظلال بمحذوف حال . (لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ) لهم خبر مقدم وفيها متعلقان بمحذوف حال وفاكهة مبتدأ مؤخر ولهم خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على الجملة السابقة ويجوز في ما أن تكون موصولة أو نكرة موصوفة أو مصدرية وجملة يدعون لا محل لها أو صفة .

(سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) اختلفت أقوال المعربين في إعراب هذه الآية وأوصل بعضهم القول فيها إلى ستة أوجه ، ونرى أن نثبت نص عبارة الشهاب السمين لوجاهتها قال : " قوله سلام : العامة على رفعه وفيه أوجه أحدها أنه خبر ما يدعون . الثاني أنه بدل من ما ، قاله الزمخشري ، قال الشيخ : وإذا كان بدلا كان ما يدعون خصوصا والظاهر أنه عموم في كل ما يدعونه وإذا كان عموما لم يكن بدلا منه .



---

الثالث أنه صفة لما وهذا إذا جعلتها نكرة موصوفة أما إذا جعلتها بمعنى الذي أو مصدرية تعذر ذلك لتخالفهما تعريفا وتنكيرا ، الرابع أنه خبر ابتداء مضمر أي هو سلام . الخامس

أنه مبتدأ خبره الناصب لقولا أي سلام يقال لهم قولا وقيل تقديره سلام عليكم . السادس أنه مبتدأ وخبره من رب " وقولا مصدر مؤكد لمضمون الجملة وهو مع عامله معترض بين المبتدأ والخبر وقال الزمخشري " والأوجه أن ينتصب على الاختصاص وهو من مجازه " وجعله السيوطي الجلال منصوبا بنزع الخافض وقال آخرون هو مصدر منصوب بفعل محذوف وهو مع عامله صفة لسلام أي يقول لهم وجملة سلام قولا من رب رحيم في محل نصب معموله لقول محذوف ومن رب صفة لقولا ورحيم صفة لرب .

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) وهذه الجملة معمولة لقول محذوف أيضا أي ويقول لهم الله . وامتازوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل أي وانفردوا عن المؤمنين ، واليوم ظرف متعلق بامتازوا وأيها منادى نكرة مقصودة محذوف منه حرف النداء والهاء للتنبيه والمجرمون بدل . (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ) جملة منتظمة في سلك المقول لهم جارية مجرى التقريع والتوبيخ والتبكيت والإلزام .

والهمزة للاستفهام المتضمن هذه المعاني ولم حرف نفي وقلب وجزم وأعهد فعل مضارع مجزوم بلم وفاعله ضمير مستتر تقديره أنا وإليكم متعلق بأعهد ويا حرف نداء وبني منادى مضاف وآدم مضاف إليه .

)

أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) أن مفسرة لأنها وقعت بعد جملة فيها معنى القول دون حروفه ولا ناهية وتعبدوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعل والشيطان مفعول به ويجوز أن تكون أن مصدرية فتكون هي ومدخولها في محل نصب بنزع الخافض ، أي ألم أعهد إليكم بترك عبادة الشيطان . وان واسمها ولكم متعلقان بعدو أو بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفه له وتقدمت وعدو خبر إن ومبين صفة والجملة تعليلية للنهي لا محل لها . (وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ) عطف على أن لا تعبدوا واعبدوني فعل أمر وفاعل ومفعول به وهذا مبتدأ وصراط خبر ومستقيم صفة والجملة تعليلية للأمر وسيأتي سر تقديم النهي على الأمر في باب البلاغة .

البلاغة :

في هذه الآيات ضروب من أفانين البلاغة نشير إليها فيما يلي :

1- تنوين شغل وفيه تنويه بأن ما هم فيه من شغل أعلى من أن ترقى إليه رتبة البيان أو يستطيع وضعه اللسان كما أن في إبهامه إيجازا انطوى تحته مالا يعد ويحصى من ضروب الملاذ التي يستمتعون بها في الجنان ، وأن ما عداها يعتبر كلا شيء كما أن فيه تصويرا لما أعده اللّه لعباده المتقين من ضروب المتعة وأفانين اللذة من افتضاض أبكار ، وسماع أوتار ، وتزاور في العشايا والأسحار ، وقد أكده بأنهم فاكهون ناعمون لا يشغل بالهم ما يشغل بال

أهل الدنيا من تصاريف

الحياة ومشاغل السنين ولا ينغص صفوهم همّ طارئ أو غم نازل ، وان كل ما تمتد إليه الأعين وتسافر نحوه الظنون من صنوف الملاذ حاضر لديهم ينالونه وهم متكئون على الأرائك متمددون تحت الظلال مما ورد وصفه مجسّدا . وذلك كله على طريق الكناية وقد تقدم القول فيها مطولا .

2- تنوين صراط وفيه تفخيم كما تقدم وإيجاز يشير إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمن إذ لا صراط أقوم منه ومن نماذج هذا التنوين في الشعر قول كثير عزة :



---

لئن كان يهدي برد أنيابها العلا لأفقر مني انني لفقير

وقيل هذا البيت من أبيات المجنون وقبله :

دعوت إلهي دعوة ما جهلتها وربي بما تخفي الصدور بصير

وبعده :

فما أكثر الأخبار أن قد تزوجت فهل يأتيني بالطلاق بشير

وقوله لئن كان يهدي بيان للدعوة التي دعاها عن قصد وحضور قلب وما بينهما اعتراض

للتأكيد وإفادة أن الدعوة كانت في السر أي لئن كان يعطي برد أسنانها العليا وخصها بالذكر لأنها أول ما يبدو عند التبسم لأحوج مني إنني لبليغ الفقر حقيق بأن أوصف به لكمال

شرائطه فيّ، ويجوز أن " برد أنيابها " كناية عن ذاتها كلها و" إنني لفقير " خبر مؤكد يدل على شدة الاحتياج وعظم الفاقة وأي فاقة أشد على العاشق من احتياجه إلى من يعشق يداوي أوصابه. وان في قوله " أن قد تزوجت " مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وهي على تقدير حرف الجر أي أتعجب من كثرة الأخبار المخبرة بزواجها وهل استفهام بمعنى التمني أو التعجب مجازا مرسلا لعلاقة مطلق الطلب أي أتمنى ذلك أو أتعجب من عدمه.

3- تقديم النهي على الأمر في قوله " ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وان اعبدوني هذا صراط مستقيم " وذلك لأن حق التخلية التقديم على التحلية كما هو مقرر في علم التوحيد وليتصل به قوله " هذا صراط مستقيم " .

[سورة يس (36) : الآيات 62 إلى 67]

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ

وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (65) وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66)



---

وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ (67)

اللغة :

(جِبِلًّا) : بكسر الجيم والباء وتشديد اللام كسجل ، وجبلا بضم الجيم وسكون الباء وتخفيف اللام ، وجبلا بضم الجيم وسكون الباء ، وجبلا بكسر الجيم وسكون الباء وهذه اللغات في الجبل بمعنى الخلق أو طائفة منه أقلها عشرة آلاف والكثير لا يتناهى .

(اصْلَوْهَا) : ذوقوا حرّها .

(مَكانَتِهِمْ) : المكانة والمكان واحد كالمقامة والمقام والمعنى لمسخناهم مسخا يجمدهم مكانهم لا يقدرون على مبارحته .

الاعراب :

)

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) كلام مستأنف مسوق لتشديد التوبيخ

وتأكيد التقريع واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وأضل فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو ومنكم جار ومجرور متعلقان بأضل وجبلا مفعول به وكثيرا صفة والهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة ولم حرف نفي وقلب وجزم وتكونوا فعل مضارع ناقص مجزوم بلم والواو اسمها وجملة تعقلون خبرها . (هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) كلام مستأنف مسوق لمجابهتهم بالمصير الهائل الذي يصيرون اليه بعد أن بلغ الغاية في توبيخهم وتقريعهم . واسم الاشارة مبتدأ وجهنم خبره والتي صفة وجملة كنتم صلة والتاء اسم كان وجملة توعدون خبرها .

(اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) اصلوها فعل أمر وفاعل ومفعول به واليوم ظرف متعلق باصلوها وبما متعلقان باصلوها أيضا والباء للسببية وما مصدرية أي بسبب كفركم وكنتم تكفرون كان واسمها وخبرها وجملة كنتم تكفرون لا محل لها . (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ) اليوم ظرف زمان متعلق بنختم ونختم فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره نحن وعلى أفواههم متعلقان بنختم أيضا .

(وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ) وتكلمنا أيديهم فعل مضارع ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وسيأتي سر تكليم الأيدي ، وتشهد أرجلهم عطف على تكلمنا أيديهم وبما متعلقان بتكلمنا وما مصدرية أو موصولة وكانوا كان واسمها وجملة يكسبون خبرها .

(

وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ) الواو عاطفة ولو شرطية ونشاء فعل مضارع وفاعل والمفعول به محذوف أي لو نشاء طمسها واللام واقعة في جواب لو وجملة طمسنا لا محل لها وعلى أعينهم متعلقان بطمسنا والطمس شق العين حتى تعود ممسوحة وفي المصباح" طمست الشيء طمسا من باب ضرب محوته " .

(فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ) الفاء عاطفة واستبقوا فعل وفاعل والجملة عطف على لطمسنا والصراط قال الزمخشري : " لا يخلو من أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل ، والأصل فاستبقوا إلى الصراط أو يضمن معنى ابتدروا أو يجعل الصراط مسبوقا لا مسبوقا إليه أو ينتصب على الظرف ، والمعنى أنه لو شاء لمسح أعينهم فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المهيع الذي اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم والى مقاصدهم المألوفة التي ترددوا إليها كثيرا كما كانوا يستبقون إليه ساعين في متصرفاتهم موضعين في أمور دنياهم لم يقدروا وتعايا عليهم أن يبصروا ويعلموا جهة السلوك فضلا عن غيره أو لو شاء

لأعماهم فلو أرادوا أن يمشوا مستبقين في الطريق المألوف كما كان ذلك هجيراهم لم يستطيعوا أو لو شاء لأعماهم فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذي اعتادوا المشي فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقا " وقال السمين : " والصراط ظرف مكان مختص عند الجمهور فلذلك تأولوا وصول الفعل إليه إما بأنه مفعول به مجازا جعله مسبوقا له وتضمين استبقوا معنى بادروا وإما على حذف الجار أي إلى الصراط " والفاء عاطفة وأنى اسم استفهام بمعنى كيف في محل نصب على الحال ويبصرون فعل مضارع وفاعل والاستفهام هنا معناه النفي أي لا يبصرون .

)

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ) عطف على ما ولو شرطية ونشاء فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره نحن ومفعول نشاء محذوف أيضا أي لو نشاء مسخهم واللام واقعة في جواب لو وجملة مسخناهم لا محل لها وعلى مكانتهم حال أي لمسخناهم على حالتهم فهم ممسوخون في محالهم وفي منازلهم ، فما الفاء عاطفة وما نافية واستطاعوا فعل وفاعل ومضيا مفعول به ولا يرجعون عطف أيضا أي فما يبرحون

مكاناتهم ولا يستطيعون الفرار منها بإقبال ولا بإدبار .

[سورة يس (36) : الآيات 68 إلى 76]

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ (68) وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (70) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (71) وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ (72)



وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (73) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75) فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (76)

(نُعَمِّرْهُ) : نطيل أجله ، وعمره اللّه بالتشديد أبقاه وقد تقدم ذكر هذه المادة بتفصيل واف .

(نُنَكِّسْهُ) نقلبه أي فنجعله على عكس ما خلقناه فيتناقص حتى يرجع إلى حال شبيهة بحال الصبي . وفي القاموس وغيره " نكسه تنكيسا بالتشديد بمعنى نكسه ونكسه ينكسه من باب نصر نكسا قلبه على رأسه وجعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره " وفي المصباح :

"

نكسته نكسا من باب قتل قلبته ومنه قيل ولد منكوس إذا خرج رجلاه قبل رأسه لأنه مقلوب مخالف للعادة ، ونكس المريض نكسا بالبناء للمجهول عاوده المرض كأنه قلب إلى المرض " وقد جمع بعضهم معاني هذه المادة فقال :

قلب على رأس فهذا نكس والرجل الفسل الضعيف نكس

رجوع داء بعد برء نكس والناكس المرخي لرأس فادر

ومن ريب أمر النون مع الكاف أنهما إذا وقعتا فاء وعينا للكلمة دلت على أثر في الشيء ويكون مصحوبا بالايلام والايجاع : فنكأ القرحة قشرها قبل أن تبرأ فنكسها قال :

ولم تنسني أوفى المصيبات بعده ولكنّ نكء القرح بالقرح أوجع



---

و نكب عنه عدل ونكب الإناء أراق ما فيه والنكبة المصيبة وأثرها بليغ ومنه الريح النكباء وهي التي تهب بين الصبا والشمال خاصة . ونكت الأرض بقضيبه أو بأصبعه ومرّ الفرس ينكت إذا نبا عن الأرض في عدوه ونكت العظم أخرج مخه وفلان نكّات في الأعراض أي طعّان فما يستعمله العامة قريب من الصحيح . ونكث الحبل والسواك

والسأف في أصول الأظفار وقد انتكث بنفسه أي انتقض واختل وهذه نكاثة الحبل : لما انتكثت من طرفه ونكاثة السواك لما تشعّث من رأسه ، ومن مجازه نكث العهد والبيعة نقضهما وهو نكاث للعهود . ونكح المرأة واستنكحها . قال النابغة :

وهم قتلوا الطائي بالحجر عنوة أبا جابر واستنكحوا أم جابر

واستنكح النوم عيونهم . قال عمر بن أبي ربيعة :

واستنكح النوم الذين تخافهم ورمى الكرى بوّابهم فتجدّلا

ونكد فلانا حاجته منعه إياها أو لم يعطه إلا القليل منها ونكد الغراب استقصى في شحيحه ونكد العيش بكسر الكاف اشتد وعسر ونكد عيشه بالتشديد أي جعله نكدا وعطاء منكود ومنكّد أي قليل غير مهنأ . قال :

وأعط ما أعطيته طيبا لا خير في المنكود والناكد

ونكّد عطاءه بالمنّ . وأنكر الشيء ونكره واستنكره وقيل نكر بالكسر أبلغ من أنكره وهذا غريب وقيل : نكر بالقلب وأنكر بالعين ، قال الأعشى :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

ونكزت الحية تنكز بأنفها ونكز البحر غاض . ونكش البئر نزفها أو أخرج ما فيها من الطين فما تستعمله العامة لا غبار عليه .

ونكص على عقبيه معروف ويقال : فلان حظه ناقص ، وجده ناكص .

ونكف منه بكسر الكاف واستنكف : امتنع وانقبض أنفا وحمية .

(363/649)

---

ونكل عن اليمين وعن العدو نكولا ونكلته عن كذا فطمته ونكلت به بالتشديد أصبته بنازلة أو جعلت غيره ينكل أن يفعل مثل فعله والقعاب النكال . ونكهته تشممت ريح فيه ونكه الشارب في وجهه ولا يخفى ما يحدثه من أثر وقد يأتي بمعنى الطيب يقال هو طيب النكهة وقد

استعملها أبو الشمقمق في المعنيين بقوله يهجو داود بن بكر وكان والي الأهواز :

وله لحية تيس وله منقار نسر

وله نكهة ليث خالطت نكهة صقر

ونكيت في العدو نكاية إذا أكثرت الجراح ، تقول : فلان قليل النكاية طويل الشكاية ، قال :

قليل النكاية أعداءه يراعي الفرار يراخي الأجل

الاعراب :

(وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ) كلام مستأنف مسوق لاستعراض حال

الإنسان كيف يستحيل إلى ضعف بعد قوة وإلى نقص بعد تمام. ومن اسم شرط جازم ونعمره فعل الشرط والفاعل مستتر تقديره نحن والهاء مفعول به وننكسه جواب الشرط والفاعل مستتر تقديره نحن والهاء مفعول به وفي الخلق متعلقان بننكسه أو بمحذوف حال والهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة على محذوف يقتضيه السياق ولا نافية ويعقلون فعل مضارع مرفوع وفاعله. (وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ) كلام مستأنف مسوق للرد على من زعموا أن القرآن شعر. وما نافية وعلمناه فعل ماض وفاعل ومفعول به والشعر مفعول به ثان وما عطف وينبغي فعل مضارع معطوف على علمناه وله متعلقان بينبغي وسيأتي مزيد بيان حول هذا الموضوع.

(364/649)

---

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) إن نافية وهو مبتدأ وإلا أداة حصر وذكر خبر وقرآن عطف على ذكر ومبين صفة. (لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ) اللام للتعليل وينذر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بمحذوف تدل عليه قرينة الكلام أي أنزل عليه لينذر ومن مفعول به وجملة كان صلة واسم كان ضمير مستتر تقديره هو وحيا خبرها ويحق عطف على لينذر والقول فاعل والمراد به العذاب وعلى

الكافرين متعلقان بيحق.

)

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ) الهمزة للاستفهام التقريري وقد تقدم أن في هذا التركيب وجهين صحيحين أولهما أن أصل التركيب وألم يروا ولكن لما كان الاستفهام له الصدارة قدمت الهمزة على الواو، والوجه الثاني أن يكون الكلام على حاله والواو عاطفة على محذوف يقتضيه السياق وقد جرينا على هذا الوجه في أكثر ما قدمناه والتقدير ألم يتفكروا ولم يروا وقد أعدناه هنا لطول العهد به. ولم حرف نفي وقلب وجزم ويروا فعل مضارع مجزوم بلم والواو فاعل والرؤية علمية وأنا وما في حيزها سدت مسد مفعولي يروا وأن واسمها وجملة خلقنا خبرها وخلقنا فعل وفاعل ولهم متعلقان بخلقنا أي لأجلهم وانتفاعهم ومما متعلقان بمحذوف حال وجملة عملت صلة والعائد محذوف أي عملته وأيدينا فاعل وأنعاما مفعول خلقنا والفاء عاطفة وهم مبتدأ ولها متعلقان بمالكون ومالكون خبر هم وهي كالابل والبقر والغنم والخيل والحمير.

(وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ) وذللناها فعل ماض وفاعل ومفعول ولهم متعلقان بذللناها والفاء للتفريع ومنها خبر مقدم

وركوبهم مبتدأ مؤخر وفيها متعلقان بيأكلون ويأكلون فعل مضارع مرفوع وفاعل . (وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ) الواو عاطفة ولهم خبر مقدم وفيها حال ومنافع مبتدأ مؤخر ومشارب عطف على منافع وهو جمع مشرب مصدر ميمي واسم مكان والهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة كما تقدم ولا نافية ويشكرون فعل مضارع وفاعل .

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ) الواو عاطفة على مقدر يستدعيه السياق أي ما فعلوا الشكر . واتخذوا فعل أمر وفاعل ومن دون اللّه في موضع المفعول الثاني لاتخذوا وآلهة مفعوله الأول ولعل واسمها وجملة ينصرون خبرها والواو نائب فاعل وجملة الرجاء حالية أي حال كونهم راجين النصر من آلهتهم .

(لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ) لا نافية ويستطيعون فعل مضارع وفاعل ، أسند ضمير العقلاء إلى آلهتهم تنزيلا لها منزلة العقلاء ونصرهم مفعول به والواو للحال وهم مبتدأ ولهم حال من جند لأنه كان في الأصل صفة له وقدمت عليه وجند خبرهم ومحضرون خبر ثان لهم أو نعت لجند .

(فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ) الفاء الفصيحة أي ان علمت ما تقدم وأيقنت أنهم يعلّقون أطماعهم الفارغة على ما يستوجب الخسران ويستدعي تقويض الأحلام وتبديد الأوهام فلا يحزنك قولهم . ولا ناهية ويحزنك فعل مضارع مجزوم بلا

والكاف مفعول به وقولهم فاعل ثم علل النهي فقال : إنا بكسر الهمزة ولو فتحت لفسد المعنى ، وان واسمها وجملة نعلم خبرها والفاعل مستتر تقديره نحن وما مفعول به وهي موصولة أو مصدرية وجملة

يسرون لا محل لها على كل حال أي الذي يسرونه أو أسرارهم وما يعلنون عطف على ما يسرون أي والذي يعلنون أو واعلانهم وللزمخشري فصل ممتع بين كسر همزة إن وفتحها نورده في باب الفوائد .

الفوائد :



---

حاول بعض المنتصرين للنثر ، الطاعنين على الشعر ، أن يحتج بأن القرآن كلام اللّه تعالى منثور ، وان النبي صلى اللّه عليه وسلم غير شاعر لقوله تعالى : " وما علمناه الشعر وما ينبغي له " ويرى أنه قد أبلغ في الحجة ، ولكن الواقع أن اللّه تعالى لما بعث رسوله أميا غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك حين استوت الفصاحة واشتهرت البلاغة آية للنبوة ، وحجة على الخلق ، وإعجازا للمتعاطين ، وجعله منثورا ليكون أظهر برهانا لفضله على الشعر الذي يترتب على صاحبه أن يكون قادرا على ما يحبه من الكلام ، وتحدي جميع

الناس من شاعر وغيره بمثل مثله فأعجزهم ذلك ، فمن هنا قال اللّه تعالى " وما علمناه الشعر وما ينبغي له " أي لتقوم عليكم الحجة ويصح قبلكم الدليل ، ويدحض أباطيلكم البرهان ، والمعنى : ان القرآن ليس بشعر ، وما هو من الشعر في شيء وأين هو عن الشعر ؟ والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى فأين الوزن ؟ وأين التقفية ؟ وأين المعاني التي ينتحيها الشعراء عن معانيه ؟ وأين نظم كلا منهم عن نظمه وأساليبه ؟

فإذن لا مناسبة بينه وبين الشعر ، قال الزمخشري : " فإن قلت فقوله :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وقوله :

هل أنت إلّا إصبع دميت وفي سبيل اللّه ما لقيت

قلت : ما هو إلا كلام من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السليقة من غير صنعة ولا تكلف إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه إليه أن جاء موزونا كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة لا يسميها أحد شعرا ولا يخطر ببال المتكلم ولا السامع أنها شعر ، وإذا فتشت في كل كلام عن نحو ذلك وجدت الواقع في أوزان البحور غير عزيز ، على أن الخليل ما كان يعد المشطور من الرجز شعرا " .

قلت : وقد تقدم في موضع آخر بحث مستفيض عن الشعر فجدد به عهدا .

يبن كسر همزة إن وفتحها :

(367/649)

---

وقال الزمخشري في صدد قوله تعالى : " فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون " : "

فإن قلت : فما تقول فيمن يقول :

إن قرأ قارئ أنا نعلم بالفتح انتقضت صلاته وإن اعتقد ما يعطيه من المعنى كفر ؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يكون على حذف لام التعليل وهو كثير في القرآن وفي الشعر وفي كل كلام وقياس مطّرد ، وهذا معناه ومعنى الكسر سواء ، وعليه تلبية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ان الحمد والنعمة لك ، كسر أبو حنيفة وفتح الشافعي وكلاهما تعليل .

والثاني أن يكون بدلا من قولهم كأنه قيل فلا

يحزنك أنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ، وهذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول فقد تبين أن تعلّق الحزن بكون اللّه عالما وعدم تعلقه لا يدوران على كسر إن وفتحها وإنما يدوران على تقديرك ، فتفصل إن فتحت بأن تقدر معنى التعليل ولا تقدر البدل كما أنك تفصل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت ولا تقدر معنى المفعولية ثم إن قدرته كاسرا

وفاتحا على ما عظم فيه من الخطب ذلك القائل فما فيه إلا نهي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن الحزن على كون اللّه عالما بسرهم وعلانيتهم وليس النهي عن ذلك مما يوجب شيئا ألا ترى إلى قوله تعالى : " فلا تكونن ظهيرا للكافرين ، ولا تكونن من المشركين ، ولا تدع مع اللّه إلها آخر " .

[سورة يس (36) : الآيات 77 إلى 83]



---

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (81)

إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)

اللغة :

(خَصِيمٌ) : مخاصم مجادل والخصومة الجدل قال في القاموس :

"

(369/649)

---

خاصمه مخاصمة وخصومة فخصمه يخصمه غلبه وهو شاذ لأن فاعلته ففعلته يرد يفعل منه إلى الضم إن لم تكن عينه حرف حلق فإنه بالفتح كفاخره ففخره يفخره وأما المعتل كوجدت وبعت فيرد إلى الكسر إلا ذوات الواو فإنها ترد إلى الضم كراضيته فرضوته أرضوه وخاوفني فخفته أخوفه وليس في كل شيء يقال نازعته لأنهم استغنوا عنه بغلبته واختصموا تخاصموا والخصم المخاصم والجمع خصوم وقد يكون للاثنين والجمع والمؤنث ، والخصيم المخاصم والجمع خصماء وخصمان ورجل خصم كفرح مجادل والجمع خصمون ومن قرأ " وهم يخصمون " أراد يختصمون فقلب التاء صادا فأدغم ونقل حركته إلى الخاء ومنهم من لا ينقل ويكسر الخاء لاجتماع الساكنين وأبو عمرو يختلس حركة الخاء اختلاسا وأما الجمع بين الساكنين فلحن ، والخصم بالضم الجانب والزاوية والناحية وطرف الزاوية الذي بجيال العزلاء في مؤخرها والجمع أخصام وخصوم واخصام العين ما ضمت عليه الأشفار " وإنما نقلنا لك هذه المادة بطولها لفائدتها ولنبين لك مدى الوهم الذي وقع فيه

صاحب المنجد فقد خلط فيها خلطا عجيبا وجعل الأخصام جمعا للخصم والخصيم وهو كما رأيت وهم من أوهام هذا الكتاب العجيب ! ! (رَمِيمٌ) : بالية وفي المختار " رم بالفتح يرم بالكسر إذا بلي وبابه ضرب " فهو اسم لا صفة ولذلك لم يؤنث وقد وقع خبرا لمؤنث ، ولا هو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول . وإيضاح هذا الكلام أن فعيلا بمعنى فاعل لا تلحق التاء في مؤنثه إلا إذا بقيت وصفية وما هنا انسلخ عنها وغلبت عليه الاسمية أي صار بالغلبة اسما لما بلي من العظام .

الاعراب :

)



---

أَ وَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) كلام مستأنف مسوق لتقبيح إنكارهم البعث وقد سما الزمخشري في تقرير هذا المعنى كما سيأتي في باب الفوائد .

والهمزة للاستفهام الإنكاري التعجبي ، والواو عاطفة وقد تقدم القول فيها مسهبا ولم حرف نفي وقلب وجزم وير فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والإنسان فاعل وأنا وما في حيزها سدت مسد مفعولي ير لأن الرؤية هنا علمية وأن واسمها وجملة

خلقناه خبرها وخلقناه فعل وفاعل ومفعول به ومن نطفة جار ومجرور متعلقان بخلقناه والفاء حرف عطف وإذا فجائية وهو مبتدأ وخصيم خبر ومبين صفة وجملة إذا هو خصيم مبين عطف على جملة لم ير الإنسان داخلة معها في حيز الإنكار والتعجب.

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ) الواو عاطفة وضرب فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو ولنا متعلقان بضرب ومثلا مفعول به ونسي عطف على ضرب وخلقه مفعول به والعطف داخل في حيز التعجب والإنكار أو الواو للحال بتقدير قد أي وقد نسي خلقه.

(قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) من اسم استفهام مبتدأ وجملة يحيي العظام خبر والواو حالية وهي مبتدأ ورميم خبر والجملة في موضع نصب على الحال. (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) جملة يحييها مقول القول وهو فعل مضارع ومفعول



---

به والذي فاعل وجملة أنشأها صلة وأول مرة نصب على الظرف متعلق بأنشأها والواو استئنافية أو حالية وهو مبتدأ وبكل متعلقان بعليم وعليم خبر هو. (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ) الذي بدل من الذي الآنفة الذكر وجملة جعل صلة ولكم في موضع المفعول الثاني ومن الشجر الأخضر حالا لأنه كان في الأصل صفة

لنارا ونارا مفعول جعل الأول ، فإذا الفاء عاطفة وإذا فجائية وأنتم مبتدأ ومنه متعلقان بتوقدون وجملة توقدون خبر أنتم .

(أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) الهمزة للاستفهام الإنكاري والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أليس الذي أنشأها أول مرة وليس الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا وليس الذي خلق السموات والأرض بقادر ، وليس فعل ماض ناقص والذي اسمها وجملة خلق السموات والأرض صلة والباء حرف جر زائد وقادر مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ليس وعلى حرف جر وأن وما في حيزها في محل جر بعلى والجار والمجرور متعلقان بقادر وفاعل مستتر تقديره هو ومثلهم مفعول به .

(بَلى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) حرف جواب لإثبات النفي والواو عاطفة على ما يفيده الإيجاب أي بلى هو قادر على ذلك وهو الخلاق ، وهو مبتدأ والخلاق خبر والعليم خبر ثان . (إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) إنما كافة ومكفوفة وأمره مبتدأ وإذا ظرف مستقبل وجملة أراد مضاف إليها الظرف وشيئا مفعول به وأن وما في حيزها خبر أمره وله متعلقان بيقول وجملة كن مقول القول وكن فعل

أمر تام وفاعله مستتر تقديره أنت والفاء عاطفة ويكون فعل مضارع مرفوع لأنه وفاعله

جملة في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف والجملة عطف على أمره وقرىء بالنصب عطفا على يقول .

(372/649)

---

(فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) الفاء الفصيحة وسبحان مفعول مطلق لفعل محذوف والذي مضاف إليه وبيده خبر مقدم وملكوت كل شيء مبتدأ مؤخر والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول وإليه الواو عاطفة وإليه متعلقان بترجعون وترجعون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل .

البلاغة :

حسن البيان :

في قوله : " وضرب لنا مثلا ونسي خلقه " الآيات . حسن البيان ، وحقيقته إخراج المعنى في أحسن الصور الموضحة له وإيصاله إلى فهم المخاطب بأقرب الطرق وأسهلها ، وقد تأتي العبارة عنه من طريق الإيجاز وقد تأتي من طريق الإطناب بحسب ما تقتضيه الحال ، وقد أتى بيان الكتاب العزيز في هذه الآية من الطريقين فكانت جامعة مانعة في الاحتجاج القاطع للخصم ، وقد أتى منفصلا عما قبله لأنه سبحانه ذكر المثل وليس في الكلام كله لا

قبله ولا بعده ما خرج مخرج المثل ولا ما يصح أن يكون مثلا وهو أن أمية بن خلف أتى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بعظم نخر في يده وقال يا محمد أنت تزعم ربك يحيي هذا بعد أن صار إلى هذه الحال فنزلت ، وفي رواية أنه العاصي بن وائل وقيل هو أبي بن خلف الجمحي .

(373/649)

---

وقد آن أن ننقل الفصل البليغ الذي أورده الزمخشري في صدد هذه الآيات قال : " قبح اللّه عز وجل إنكارهم البعث تقبيحا لا ترى أعجب منه وأبلغ وأدل على تمادي كفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادي ، وتوغله في الخسة ، وتغلغله في القحة حيث قرر أن عنصره الذي خلقه منه هو أخس شيء وأمهنه وهو النطفة المذرة الخارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة ثم عجب من حاله بأن يتصدى مثله على مهانة أصله ودناءة أوله لمخاصمة الجبار ، وشرز صفحته لمجادلته ، ويركب متن الباطل ويلج ويمحك ويقول : من يقدر على إحياء الميت بعد ما رمت عظامه ثم يكون خصامه في ألزم وصف له وألصقه به وهو كونه منشأ من موات وهو ينكر إنشاءه من موات وهي المكابرة التي لا مطمح وراءها .

وروي أن جماعة من قريش منهم أبي بن خلف الجمحي وأبو جهل والعاصي بن وائل والوليد

بن المغيرة تكلموا في ذلك فقال لهم أبي ألا ترون إلى ما يقول محمد إن اللّه يبعث الأموات ثم قال : واللات والعزّى لأصيرن إليه ولأخصمنه ، وأخذ عظما باليا فجعل يفته بيده وهو يقول : يا محمد أترى اللّه يحيي هذا بعد ما قد رمّ ! قال صلى اللّه عليه وسلم نعم ويبعثك ويدخلك جهنم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 8 صـ 172. 237 ﴾

(374/649)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وَيُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخمسون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/650)

---

الجزء الخمسون بعد الستمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

( سورة الصافات )

(4/650)

---

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

( سورة الصافات )

(5/650)

---

" فصل فى فضل السورة الكريمة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فضل السّورة

فيه أَحاديث غير مقبولة .

منها حديث أُبىّ : مَن قرأَ (والصّافات) أُعطِى من الأَجر عشرَ حسنات ، بعدد كلّ جنِّى ، وشيطان ، وتباعدت منه مَرَدة الشّياطين ، وبَرِئ من الشرْك ، وشهد له حافظاه يوم القيامة أَنه كان مؤمناً بالمرسلين ، وحديث علىّ : يا علىّ مَن قرأَ (والصَّافَّات) لا يصيبه يوم القيامة جُوع ، ولا عطش ، ولا يفزِع إِذا فزع النَّاس ، وله بكلّ آية قرأَها ثواب الضَّارب بسيفين فى سبيل الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 398 ﴾

*(6/650)*

---

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

مقصودها الاستدلال على آخر يس من التنزه عن النقائص اللازم منه رد العباد للفصل بينهم بالعدل اللازم منه الوحدانية ، وذلك هو المعنى ذلك أشار إليه وسمها بالصافات ( وإنا

لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 6 صـ 289﴾

(7/650)

---

فصل

قال الآلوسى :

سورة الصافات

مكية ولم يحكوا في ذلك خلافا وهي مائة واحدة وثمانون آية عند البصريين ومائة واثنتان وثمانون عند غيرهم وفيها تفصيل أحوال القرون المشار إلى إهلاكها في قوله تعالى في السورة المتقدمة ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون إنهم إليهم لا يرجعون وفيها من تفصيل أحوال المؤمنين وأحوال أعدائهم الكافرين يوم القيامة ما هو كالإيضاح لما في تلك السورة من ذلك وذكر فيها شيء مما يتعلق بالكواكب لم يذكر فيما تقدم ولمجموع ما ذكر ذكرت بعدها وفي البحر مناسبة أول هذه السورة لآخر سورة يس أنه تعالى لما ذكر المعاد وقدرته سبحانه على إحياء الموتى وأنه هو منشئهم وأنه إذا تعلقت إرادته بشيء كان ذكر عز وجل هنا وحدانيته سبحانه إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة إيجادا وإعداما إلا بكون المريد واحدا كما

يشير إليه قوله تعالى لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 23 صـ 64 ﴾

(8/650)

---

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى . . والصافات صفا )

السّورة مكِّيَّة بالاتِّفاق .

عدد آياتها مائة وثمانون وآية عند البصريِّين ، وآيتان عند الباقين .

وكلماتها ثمانمائة واثنتان وستون .

وحروفها ثلاثة آلاف وثمانمائة وستّ وعشرون .

المختلف فيها : آيتان ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴾ مجموع فواصلها (قدم بنا ) سمّيت (والصافات) لافتتاحها بها .

معظم مقصود السّورة : الإخبار عن صَفّ الملائكة والمصلِّين للعبادة ، ودلائل الوحدانية ، ورَجْم الشياطين ، وذُلّ الظَّالمين ، وعِزّ المطيعين فى الجِنَان ، وقهر المجرمين فى النِّيران ،

ومعجزة نوح، وحديث إبراهيم، وفداء إسماعيل فى جزاءِ الانقياد، وبشارة إبراهيم بإسحاق، والمنّة على موسى وهارون بإيتاء الكتاب، وحكاية النّاس فى حال الدّعوة، وهلاك قوم لوط وحبْس يونس فى بطن الحوت، وبيان فساد عقيدة المشركين فى إثبات النسبة، ودرجات الملائكة فى مقام العبادة، وما مَنَح الله الأَنبياء من النُّصرة والتأْييد، وتنزيه حضرة الجلال عن الضدّ والنديد فى قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ إلى آخره.

الناسخ والمنسوخ:

فيها من المنسوخ آية واحدة: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ م آية السّيف ن. انتهى ا. هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 393. 394﴾

(9/650)

---

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة:

سورة الصافات

356 – مسألة:

قوله تعالى : ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ وكذلك جمعها في سورة المعارج فقال : ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ

وَالْمَغَارِبِ﴾ . وفى

سورة الرحمن : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17)﴾ ؟ .

جوابه :

أن المراد بالجمع مشارق الشمس ومغاربها مدة السنة وهي مائة وثمانون مشرقا ومغربا ،

وكذلك مشارق النجوم ومغاربها ، ومشارق القمر ومغاربه كل شهر .

والمراد بالمشرقين والمغربين : مشرق غاية طول النهار وقصر

الليل ومغربه ، ومشرق غاية قصر النهار وطول الليل ومغربه ، وخص المشارق هنا بالذكر

لأنها مطالع الأنوار والضياء والحرص على . ذلك لمظنة الانبساط والمعاش ، ولأن المغارب

يفهم من ذلك عند ذكر المشارق لكل عاقل ، ولأن ذكر السموات والأرض مناسب لذكرها

معها بخلاف سائر

المواضع .

357 - مسألة :

قوله تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ وقال في الحج : ﴿مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وقال :

﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وقال : ﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ .

جوابه :

أما قوله تعالى : من تراب ، ومن صلصال ، ومن طين ، فالمراد : أصلهم وهو آدم عليه السلام لأن أصله من تراب ، ثم جعله طينا ، ثم جعله صلصالا كالفخار ، ثم نفخ فيه الروح.

وقوله تعالى : من نطفة : أي أولاد آدم وذريته كما هو المشاهد .

358 - مسألة :

قوله تعالى : (أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) .

ثم قال بعده : (أَإِنَّا لَمَدِينُونَ)

جوابه :

أن القائل الأول : منكر للبعث في الدنيا .

والقائل الثاني : في الجنة مقرر لثبوت ما كان يدعيه في الدنيا من البعث والحساب وموبخ لمن كان ينكر ذلك في الدنيا .

359 - مسألة :

قوله تعالى : (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (24) وقال تعالى : ( فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39) .

جوابه :

ما تقدم في الحجر : أن يوم القيامة مواقف ، أوان السؤال

(10/650)

---

هنا قوله : (مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (25) .

360 - مسألة :

قوله تعالى : (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) وفى الذاريات : (بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ) ما وجه مجئ كل واحد في موضعه ؟ .

جوابه :

إنما وصفه هنا بالحلم : وهو إسماعيل والله أعلم وهو الأظهر لما ذكر عنه من الانقياد إلى رؤيا أبيه مع ما فيه من أمَرّ الأشياء على النفس وأكرهها عندها ووعدها بالصبر ، وتعليقه بالمشيئة ، وكل ذلك دليل على تمام الحلم والعقل وأما في الذاريات :

فالمراد - والله أعلم - إسحاق ، لأن تبشير إبراهيم بعلمه

ونبوته فيه دلالة على بقائه إلى كبره ، وهذا يدل على أن

الذبيح إسماعيل

361 – مسألة :

قوله تعالى : (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) في سائر الرسل . وقال تعالى في إبراهيم :

(كَذَٰلِكَ) ، ولم يقل ذلك

في شأن لوط ويونس ؟ .

جوابه :

أما قصة إبراهيم : فلأنه تقدم فيها (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) فكفى عن الثانية .

362 – مسألة :

قوله تعالى : (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144)

وقال تعالى في سورة ن : (لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) .

فظاهره : لولا تسبيحه للبث في بطن الحوت إلى الحشر ، ولولا نعمة ربه لنبذ بالعراء إلى

الحشر .

جوابه :

لولا تسبيحه للبث في بطن الحوت ، وحيث نبذ بتسبيحه

فلولا نعمة ربه لنبذ بالعراء مذموما غير مشكور .

363 – مسألة :

قوله تعالى : (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (174) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (175) وقال

تعالى بعد : ﴿وَأَبْصِرْ﴾ بحذف

الضمير .

جوابه :

أن "الحين" في الأولى : يوم بدر ، ثم وأبصرهم كيف حالهم عند بصرك عليهم وخذلانهم .

*(11/650)*

---

"والحين" الثاني : يوم القيامة . ثم قال تعالى : وأبصر حال المؤمنين وما هم فيه من النعم ، وما هؤلاء فيه من الخزي العظيم . فلما كان الأول خاصا بهم : أضمرهم .

ولما كان الثاني عاما : أطلق الأبصار والمبصرين . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿كشف المعاني صـ 305.310﴾

*(12/650)*

---

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ ، وبعده : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ لأَنَّ الأَوّل حكاية كلام الكافرين ، وهم ينكرون البعث ، والثانى قول أَحد القرينين لصاحبه عند وقوع الحساب والجزاءِ ، وحصوله فيه : كان لى قرين ينكر الجزاءَ وما نحن فيه فهل أَنتم تطلعوننى عليه ، فاطَّلع فرآه فى سواءِ الجحيم .

قالَ : تالله فيه فهل أَنتم تطلعوننى عليه ، فاطَّلع فرآه فى سواءِ الجحيم .

قالَ : تالله إن كدت لَتُرْدِين .

قيل : كانا أَخوين ، وقيل : كانا شريكين ، وقيل : هما بطورس الكافر ، ويهوذا المسلم .

وقيل : القرين هو إبليس .

قوله : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ وبعده ﴿ فَأَقْبَلَ ﴾ بالفاءِ .

وكذلك فى ﴿ ن وَالْقَلَمِ ﴾ لأَنَّ الأَوّل لعطف جملة على جملة فحسب ، والثانى لعطف جملة على جملة بينهما مناسبة والتئام ؛ لأَنه حكَى أَحوال أَهل الجنة ومذاكرتهم فيها ما كان يجرى فى الدنيا بينهم وبين أَصدقائهم ، وهو قوله : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أَى يتذاكرون ، وكذلك فى ﴿ ن وَالْقَلَمِ ﴾ هو من كلام أَصحاب الجنَّة بصنعاءَ ، لمَّا رأَوْها كالصَّريم ندموا على ما كان منهم ، وجعلوا يقولون : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ، بعد أَن ذكَّرهم التسبيح

أَوسطُهم ، ثم قال : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾ أى على تركهم الاستثناءَ ومخافتهم أَن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين .

(13/650)

---

قوله : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ وفى المرسلات : ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ ؛ لأَنَّ فى هذه السّورة حِيل بين الضمير وبين (كذلك) بقوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ فأَعاد ، وفى المرسلات متَّصل بالأَول ، وهو قوله : ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ فلم يحتج إِلى إِعادة الضَّمير .

قوله : ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا اله إِلَّا اللَّهُ ﴾ وفى القتال ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا اله إِلَّا اللَّهُ ﴾ بزيادة (أَنَّه) وليس لهما فى القرآن ثالث ؛ لأَنَّ ما فى هذه وقع بعد القول فحكِى ، وفى القتال وقع بعد العِلْم فزيد قبله (أَنَّه) ليصير مفعولَ العلم ، ثمّ يتصل به ما بعده .

قوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ وبعده ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ ثم ﴿ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ وكذلك ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ ﴾ فيمن جعله لغة فى إِلياس ، ولم يقل فى قصّة لوط ولا يونس ولا إِلياس : سلام ؛ لأَنه لمّا قال : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وكذلك ؛ ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ

لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فقد قال : سلام على كلّ واحد منهم ؛ لقوله آخر السّورة ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِيْنَ ﴾ .

قوله : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ وفى قصّة إبراهيم : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ولم يقل : (إنّا) ، لأَنَّه تقدّم فى قصته ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ وقد بقى من قصته شىء ، وفى سائرها وقع بعد الفراغ ، ولم يقل فى قصّتىْ لوط ويونس : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ لأَنَّه لمّا اقتصر من التسليم على ما سبق ذكر اكتفى بذلك .

(14/650)

---

قوله : ﴿ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ وفى الذاريات ﴿ عَلِيمٍ ﴾ وكذلك فى الحِجْر ، لأَنَّ التقدير : بغلام حليم فى صباه ، عليم فى كِبره ، وخُصّت هذه السّورة .

بحليم ؛ لأَنه – عليه السّلام – حلُم فانقاد وأَطاع ، وقال : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ والأَظهر أَنَّ الحليم إِسماعيل ، والعليم إِسحق ؛ لقوله : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ قال مجاهد : الحليم والعليم إِسماعيل .

وقيل : هما فى السّورتين إِسحق .

وهذا عند من زعم أَنَّ الذبيح إِسحق .

قوله : ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ثمّ قال : ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ كرّر وحذف الضمير من الثانى ؛ لأَنه لمَّا نَزَل ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ قالوا : متى هذا الذى تُوعدنا به ؟ فأَنزل الله ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ثم كرّر تأْكيداً .

وقيل : الأُولى فى الدّنيا ، والثانية فى العُقْبى .

والتقدير : أَبصر ما ينالهم ، وسوف يبصرون ذلك .

وقيل : أَبصر حالهم بقلبك فسوف يبصرون معاينةً .

وقيل :

أَبصر ما ضيّعوا من أَمرنا فسوف يبصرون ما (يحل بهم) وحُذِف الضّمير من الثانى اكتفاءً بالأَوّل .

وقيل : التقدير : ترى اليوم (عِيرهم إِلى ذلّ) وترى بعد اليوم ما تحتِقر ما شاهدتهم فيه من عذاب الدّنيا .

وذكر فى المتشابه : ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ بالفاءِ ، وفى الذاريات ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ بغير فاء ؛ لأَنَّ ما فى هذه السّورة ﴿ جملة اتَّصلت ) بخمس جمل كلّها مبدوءَة بالفاءِ على التَّولى ، وهى : ﴿ فَمَا ظَنُّكُم ﴾ الآيات ، والخطاب للأَوثان تقريعاً لمن زعم أَنَّها تأْكل وتشرب ، وفى الذاريات متَّصل بمضمر تقديره : فقرّبه إِليهم ، فلم يأْكلوا فلمّا رآهم لا يأْكلون

، ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ والخطاب للملائكة.

فجاءَ فى كلّ موضع بما يلائمه. انتهى انتهى. اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 394. 398﴾

*(15/650)*

---

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله:

سورة الصافات

426 - قوله تبارك وتعالى أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون 16 وبعدها أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون 53 لأن الأول حكاية كلام الكافرين وهم منكرون للبعث والثاني قول أحد الفريقين لصاحبه عند وقوع الحساب والجزاء وحصوله فيه كان لي قرين ينكر الجزاء وما نحن فيه فهل أنتم تطلعونني عليه فاطلع فرآه في سواء الجحيم قال تالله إن كدت لتردين 5 65 قيل كانا أخوين وقيل كانا شريكين وقيل هما بطروس الكافر ويهوذا مسلم وقيل القرين هو إبليس

427 - قوله وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون 27 وبعده فأقبل 50 بالفاء وكذلك في ن والقلم 30 لأن الأول لعطف جملة على جملة فحسب والثاني لعطف جملة على جملة

بينهما مناسبة والتئام لأنه حكى أحوال أهل الجنة ومذاكرتهم فيها ما كان يجري في الدنيا بينهم وبين أصدقائهم وهو قوله وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون 48 50 أي يتذاكرون

وكذلك في ن والقلم هو من كلام أصحاب الجنة بصنعاء لما رأوها كالصريم وندموا على ما كان منهم وجعلوا يقولون سبحان ربنا إنا كنا ظالمين 29 بعد أن ذكرهم التسبيح أوسطهم ثم قال فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون 30 أي على تركهم الاستثناء وتخافتهم ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين 24

428 - قوله إنا كذلك نفعل بالمجرمين 34 وفي المرسلات كذلك نفعل بالمجرمين 18 لأن في هذه السورة حيل بين الضمير وبين كذلك بقوله فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون 33 فأعاد وفي المرسلات متصل بالأول وهو قوله ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين 17 18 فلم يحتج إلى إعادة الضمير

*(16/650)*

---

429 - قوله وإذا قيل لهم لا إله إلا الله 35 وفي القتال فاعلم أنه لا إله إلا الله 19 بزيادة أنه وليس لهما في القرآن ثالث لأن ما في هذه السورة وقع بعد القول فحكى المقول وفي القتال وقع

بعد العلم فزيد قبله أنه ليصير مفعول العلم ثم يتصل به ما بعده

430 - قوله وتركنا عليه في الآخرين سلام على قوم نوح في العالمين 78 79 وبعده سلام على إبراهيم 109 ثم سلام على موسى وهارون 120 وكذلك سلام على إلياسين 130 فيمن جعله لغة في إلياس ولم يقل في قصة لوط ولا يونس ولا إلياس سلام لأنه لما قال وإن لوطا لمن المرسلين 133 وإن يونس لمن المرسلين 139 وكذلك وإن إلياس لمن المرسلين 123 فقد قال سلام على كل واحد منهم لقوله في آخر السورة وسلام على المرسلين 181

431 - قوله إنا كذلك نجزي المحسنين وفي قصة إبراهيم كذلك 110 لأنه تقدم في قصته إنا كذلك نجزي

المحسنين 105 ولا بقي من قصته شيء وفي سائرها بعد الفراغ ولم يقل في قصتي لوط ويونس إنا كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين لأنه لما اقتصر من التسليم على ما سبق ذكره اكتفى بذلك

432 - قوله بغلام حليم 101 وفي الذاريات عليم 27 وكذلك في الحجر 53 لأن التقدير بغلام حليم في صباه عليم في كبره

وخصت هذه السورة بحليم لأنه عليه السلام حليم فاتقاه وأطاعه وقال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين 102 والأظهر أن الحليم إسماعيل والعليم إسحاق

لقوله فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها 51 28 قال مجاهد العليم والحليم في السورتين إسماعيل وقيل هما في السورتين إسحاق وهذا عند من زعم أن الذبيح إسحاق وذكرت ذلك بشرحه في موضعه

(17/650)

---

433 - قوله وأبصرهم فسوف يبصرون 175 ثم قال وأبصر فسوف يبصرون 179 كرر وحذف الضمير من الثاني لأنه لما نزل وأبصرهم قالوا متى هذا الوعد الذي توعدونا به فأنزل الله أفبعذابنا يستعجلون 176 كرر تأكيدا وقيل الأولى في الدنيا والثانية في العقبى والتقدير أبصر ما ينالهم فسوف يبصرون ذلك

وقيل أبصر حالهم بقلبك فسوف يبصرون معاينة وقيل بعد ما ضيعوا من أمرنا فسوف يبصرون ما يحل بهم

وحذف الضمير من الثاني اكتفاء بالأول وقيل الضمير مضمر تقديره ترى اليوم خيرهم إلى تول وترى بعد اليوم ما تحتقر ما شاهدتهم فيه من عذاب الدنيا

وذكر في المتشابه فقال ألا تأكلون 91 بالفاء وفي الذاريات قال ألا تأكلون 27 بغير فاء لأن ما في هذه السورة اتصلت جملة بخمس جمل مبدوءة بالفاء على التوالي وهي فما ظنكم

الآيات 87 90 والخطاب للأوثان تقريعا لمن زعم أنها تأكل وتشرب

وفي الذاريات متصل بمضمر تقديره فقربه إليهم فلم يأكلوا فلما رآهم لا يأكلون قال ألا تأكلون

والخطاب للملائكة فجاء في كل موضع بما يلائمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار التكرار فى

القرآن صـ 179 .182﴾

(18/650)

---

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

37.سورة الصافات

اسمها المشهور المتفق عليه " الصافات " .

وبذلك سميت في كتب التفسير وكتب السنة وفي المصاحف كلها ، ولم يثبت شيء عن

النبي صلى الله عليه وسلم في تسميتها ، وقال في الإتقان : " رأيت في كلام الجعبري أن سورة

" الصافات " تسمى " سورة الذبيح " وذلك يحتاج إلى مستند من الأثر " .

ووجه تسميتها باسم " الصافات " وقوع هذا اللفظ فيها بالمعنى الذي أريد به أنه وصف

الملائكة وإن كان قد وقع في سورة " الملك " لكن بمعنى آخر إذ أريد هنالك صفة الطير ، على أن الأشهر أن " سورة الملك " نزلت بعد " سورة الصافات " .

وهي مكية بالاتفاق وهي السادسة والخمسون في تعداد نزول السور ، نزلت بعد سورة الأنعام وقبل سورة لقمان .

وعدت آيها مائة واثنتين وثمانين عبد أكثر أهل العدد .

وعدها البصريون مائة وإحدى وثمانين .

أغراضها

إثبات وحدانية الله تعالى ، وسوق دلائل كثيرة على ذلك دلت على انفراده بصنع المخلوقات العظيمة التي لا قبل لغيره بصنعها وهي العوالم السماوية بأجزائها وسكنها ولا قبل لمن على الأرض أن يتطرق في ذلك .

إثبات أن البعث يعقبه الحشر والجزاء .

ووصف حال المشركين يوم الجزاء ووقوع بعضهم في بعض .

ووصف حسن أحوال المؤمنين ونعيمهم .

ومذاكرتهم فيما كان يجري بينهم وبين بعض المشركين من أصحابهم في الجاهلية ومحاولتهم صرفهم عن الإسلام .

ثم انتقل إلى تنظير دعوة محمد صلى الله عليه وسلم قومه

بدعوة الرسل من قبله، وكيف نصر الله رسله ورفع شأنهم وبارك عليهم.

وأدمج في خلال ذلك شيء من مناقبه وفضائلهم وقوتهم في دين الله وما نجاهم الله من الكروب التي حفت بهم.

وخاصة منقبة الذبيحة، والإشارة إلى أنه إسماعيل.

ووصف ما حل بالأمم الذين كذبوهم.

ثم الأنحاء على المشركين فساد معتقداتهم في الله ونسبتهم إليه الشركاء.

وقولهم: الملائكة بنات الله، وتكذيب الملائكة إياهم على رؤوس الأشهاد.

وقولهم في النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن وكيف كانوا يودون أن يكون لهم كتاب.

ثم وعد الله رسوله بالنص كدأب المرسلين ودأب المؤمنين السابقين، وأن عذاب الله نازل بالمشركين، وتخلص العاقبة الحسنى للمؤمنين.

وكانت فاتحتها مناسبة لأغراضها بأن القسم بالملائكة مناسب لإثبات الوحدانية لأن الأصنام لم يدعوا لها ملائكة، والذي تخدمه الملائكة هو الإله الحق ولأن الملائكة من جملة المخلوقات الدال خلقها على عظم الخالق، ويؤذن القسم بأنها أشرف المخلوقات العلوية.

ثم إن الصفات التي لوحظت في القسم بها مناسبة للأغراض المذكورة بعدها ، ف ﴿ الصافات ﴾ يناسب عظمة ربها ، و ﴿ الزاجرات ﴾ يناسب قذف الشياطين عن السماوات ، ويناسب تسيير الكواكب وحفظها من أن يدرك بعضها بعضا ، ويناسب زجرها الناس في المحشر .

و ﴿ التاليات ذكرا ﴾ يناسب أحوال الرسول والرسل عليهم الصلاة والسلام وما أرسلوا به إلى أقوامهم .

هذا وفي الافتتاح بالقسم تشويق إلى معرفة المقسم عليه ليقبل عليه السامع بشراشره .

فقد استكملت فاتحة السورة أحسن وجوه البيان وأكملها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ 6.5 ﴾

(20/650)

---

وقال الشيخ سيد قطب :

مقدمة سورة الصافات

هذه السورة المكية - كسابقتها - قصيرة الفواصل , سريعة الإيقاع , كثيرة المشاهد والمواقف , متنوعة الصور والظلال , عميقة المؤثرات , وبعضها عنيف الوقع , عنيف

التأثير .

وهي تستهدف - كسائر السور المكية - بناء العقيدة في النفوس, وتخليصها من شوائب الشرك في كل صوره وأشكاله . ولكنها - بصفة خاصة - تعالج صورة معينة من صور الشرك التي كانت سائدة في البيئة العربية الأولى . وتقف أمام هذه الصورة طويلاً ; وتكشف عن زيفها وبطلانها بوسائل شتى . . تلك هي الصورة التي كانتجاهلية العرب تستسيغها , وهي تزعم أن هناك قرابة بين الله - سبحانه - وبين الجن . وتستطرد في تلك الأسطورة فتزعم أنه من التزاوج بين الله - تعالى - والجنة ولدت الملائكة . ثم تزعم أن الملائكة إناث , وأنهن بنات الله !

(21/650)

---

هذه الأسطورة تتعرض لحملة قوية في هذه السورة ; تكشف عن تهافتها وسخفها . ونظراً لأنها هي الموضوع البارز الذي تعالجه السورة , فإنها تبدأ بالإشارة إلى طوائف من الملائكة:(والصافات صفاً . فالزاجرات زجراً . فالتاليات ذكراً) . . ويتلوها حديث عن الشياطين المردة , وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة كي لا يقربوا من الملأ الأعلى . ولا يتسمعوا لما يدور فيه ; ولو كانوا حيث تزعم لهم أساطير الجاهلية ما طوردوا هذه

المطاردة ! كذلك يشبه ثمار شجرة الزقوم التي يعذب بها الظالمون في جهنم بأنها كرؤوس الشياطين في معرض التقبيح والتفظيع ! وفي نهاية السورة تأتي الحملة المباشرة على تلك الأسطورة المتهافتة: فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ? أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ? ألا إنهم من إفكهم ليقولون:ولد الله وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ? ما لكم كيف تحكمون ? أفلا تذكرون ? أم لكم سلطان مبين ? فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين . وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون . .

سبحان الله عما يصفون ! . .

وإلى جانب علاج هذه الصورة الخاصة من صور الشرك الجاهلية تتناول السورة جوانب العقيدة الأخرى التي تتناولها السور المكية . فتثبت فكرة التوحيد مستدلة بالكون المشهود:(إن إلهكم لواحد رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق) . . وتنص على أن الشرك هو السبب في عذاب المعذبين في ثنايا مشهد من مشاهد القيامة (فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون . إنا كذلك نفعل بالمجرمين . إنهم كانوا إذا قيل لهم:لا إله إلا الله يستكبرون ; ويقولون:أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ? بل جاء بالحق وصدق المرسلين . إنكم لذائقوا العذاب الأليم . وما تجزون إلا ما كنتم تعملون . .

كذلك تتناول قضية البعث والحساب والجزاء . (وقالوا: إن هذا إلا سحر مبين أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ? أو آباؤنا الأولون ? قل نعم وأنتم داخرون) . . ثم تعرض بهذه المناسبة مشهداً مطولاً فريداً من مشاهد القيامة الحافلة بالمناظر والحركات والانفعالات والمفاجآت !

وتعرض لقضية الوحي والرسالة الذي ورد من قول 1 (أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ? والرد عليهم: (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) . .

وبمناسبة ضلالهم وتكذيبهم تعرض سلسلة من قصص الرسل: نوح وإبراهيم وبنيه . وموسى وهارون . وإلياس . ولوط . ويونس . تتكشف فيها رحمة الله ونصره لرسله وأخذه للمكذبين بالعذاب والتنكيل: (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين . ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين) . .

وتبرز في هذا القصص قصة إبراهيم خاصة مع ابنه إسماعيل . قصة الذبح والفداء وتبرز فيها الطاعة والاستسلام لله في أروع صورها وأعمقها وأرفعها ; وتبلغ الذروة التي لا يبلغها إلا الإيمان الخالص الذي يرفع النفوس إلى ذلك الأفق السامق الوضيء .

والمؤثرات الموحية التي تصاحب عرض موضوعات السور وقضاياها , تتمثل بشكل واضح في:

مشهد السماء وكواكبها وشهبها ورجومها :(إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب .

وحفظاً من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً

ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) . .

وفي مشاهد القيامة ومواقفها المثيرة , ومفاجآتها الفريدة , وانفعالاتها القوية . والمشاهد التي تحويها هذه السورة ذات طابع فريد حقاً سنلمسه عند استعراضه تفصيلاً في مكانه من السورة .

وفي القصص ومواقفه وإيحاءاته . وبخاصة في قصة إبراهيم وولده الذبيح إسماعيل - عليهما السلام , وترتفع المؤثرات الموحية هنا إلى الذروة التي تهز القلوب هزاً عميقاً عنيفاً .

(23/650)

---

ذلك إلى الإيقاع الموسيقي في السورة وهو ذو طابع مميز يتفق مع صورها وظلالها ومشاهدها ومواقفها وإيحاءاتها المتلاحقة العميقة .

ويجري سياق السورة في عرض موضوعاتها في ثلاثة أشواط رئيسية:

الشوط الأول يتضمن افتتاح السورة بالقسم بتلك الطوائف من الملائكة:(والصافات صفا . فالزاجرات زجراً . فالتاليات ذكراً)على وحدانية الله رب المشارق , مزين السماء

بالكواكب . ثم تجيء مسألة الشياطين وتسمعهم للملأ الأعلى ورجمهم بالشهب الثاقبة . يتلوها سؤال لهم: أهم أشد خلقاً أم تلك الخلائق: الملائكة والسماء والكواكب والشياطين والشهب؟ للتوصل من هذا إلى تسفيه ما كانوا يقولونه عن البعث, وإثبات ما كانوا يستبعدونه ويستهزئون بوقوعه . ومن ثم يعرض ذلك المشهد المطول للبعث والحساب والنعيم والعذاب . وهو مشهد فريد . .

والشوط الثاني يبدأ بأن هؤلاء الضالين لهم نظائر في السابقين, الذين جاءتهم النذر فكان أكثرهم من الضالين . ويستطرد في قصص أولئك المنذرين من قوم نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس; وكيف كانت عاقبة المنذرين وعاقبة المؤمنين .

والشوط الثالث يتحدث عن تلك الأسطورة التي مر ذكرها . إسطورة الجن والملائكة . ويقرر كذلك وعد الله لرسله بالظفر والغلبة: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) . . وينتهي بختام السورة بتنزيه الله سبحانه والتسليم على رسله والاعتراف بربوبيته: (سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين) . . وهي القضايا التي تتناولها السورة في الصميم . .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2980. 2982 ﴾

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الصافات

مكية وآياتها ثمان وثمانون آية

بين يدي السورة

* سورة الصافات من السور المكية التي تعني بأصول العقيدة الإسلامية " التوحيد ، الوحي ، البعث والجزاء " شأنها كشأن سائر السور المكية التي تهدف إلي تثبيت دعائم الإيمان . .

*ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الملائكة الأبرار ، الصافات قوائمها في الصلاة ، أو أجنحتها في إرتقاب أمر الله ، الزاجرين للسحاب يسوقونه حيث شاء الله . . ثم تحدثت عن الجن وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة ، ردا علي أساطير أهل الجاهلية في إعتقادهم بأن هناك قرابة بين الله سبحانه وبين الجن ، وتحدثت السورة عن البعث والجزاء لإنكار المشركين له ، واستبعادهم للحياة مرة ثانية بعد أن يصبحوا عظاما ورفاتا [ والصافات صفا فالزاجرات زجرا . . ] الآيات .

*وتأكيدا لعقيدة الإيمان بالبعث ذكرت السورة قصة المؤمن والكافر " والحوار الذي دار بينهما في الدنيا ، ثم النتيجة التي آل إليها أمر كل منهما بخلود المؤمن في الجنة ، وخلود الكافر

في النار [ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قال قائل منهم إني كان لي قرين . يقول أئنك لمن المصدقين . . ] الآيات .

* واستعرضت السورة الكريمة قصص بعض الأنبياء ، بدءا بنوح ، ثم إبراهيم ، ثم إسماعيل ، ثم قصة موسي وهارون ، ثم إلياس ولوط ، وذكرت بالتفصيل قصة (الإيمان والإبتلاء) في حادثة الذبيح (إسماعيل ) وما جري من أمر الرؤيا للخليل إبراهيم حتى أمر بذبح ولده ثم جاءه الفداء ، تعليما للمؤمنين كيف يكون أمر الإنقياد والإستسلام لأمر أحكم الحاكمين [ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . . ] الآيات .

*وختمت السورة الكريمة ببيان نصرة الله لأنبيائه وأوليائه في الدنيا والآخرة ، وإن العاقبة للمتقين [ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون . . ] الآيات إلى خاتمة السورة الكريمة .

التسمية :

سميت السورة (سورة الصافات ) تذكيرا للعباد بالملأ الأعلي من الملائكة الأطهار ، الذين لا ينفكون عن عبادة الله [ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ] وبيان وظائفهم التي كلفوا بها .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 27 ﴾

(26/650)

---

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الصافات

الصافات : هم جماعة الملائكة يقفون صفوفا لكل واحد منهم مرتبة معينة في الشرف والفضيلة ، والزاجرات زجرا : أصل الزجر الدفع عن الشيء بتسلط وصياح ثم استعمل فى السّوق والحث على الشيء ، وفي المنع والنهى والمراد بها هنا الملائكة ، لأن لهم تأثيرا في قلوب بنى آدم بزجرهم عن المعاصي وإلهامهم فعل الخير ، والتاليات ذكرا : هم الملائكة يجيئون بالكتب من عند اللّه إلى أنبيائه ، والمشارق : هى مشارق الشمس بعدد أيام السنة ، فهى في كل يوم تشرق من مشرق وتغرب في مغرب ، والمغارب كذلك متعددة تعدد المشارق ، ولم يذكرها اكتفاء بتعدد المشارق

الدنيا : مؤنثة الأدنى أي أقرب السموات من أهل الأرض والمارد والمريد ، المتعرى عن الخير من قولهم : شجر أمرد : إذا تعرى من الورق ، يسمعون : أي يستمعون ، والملأ : الجماعة يجتمعون على رأى ، والمراد بهم هنا الملائكة ، يقذفون :

يرجمون ، والدحور : الطرد والإبعاد ، واصب : أي دائم ، والخطفة : الاختلاس والأخذ بسرعة على غرّة ، والشهاب : الشعلة الساطعة من النار الموقدة ، والثاقب : المضيء فاستفهم : أي فاستخبر مشركى مكة من قولهم : استفتى فلانا إذا استخبره وسأله عن أمر يريد علمه ، أشد خلقا : أي أصعب خلقا وأشق إيجادا ، لازب : أي ملتصق بعضه ببعض ، وأنشدوا لعلى بن أبى طالب :

تعلّم فإن اللّه زادك بسطة وأخلاق خير كلّها لك لازب

يسخرون : أي يستهزئون ، وإذا ذكروا لا يذكرون : أي وإذا وعظوا لا يتعظون ، آية : أي معجزة ، يستسخرون : أي يبالغون في السخرية والاستهزاء .

قال الزجاج : الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة ، والدين : الجزاء كما جاء فى قولهم "كما تدين تدان"

، والفصل : الفرق بين المحسن والمسيء وتمييز كل منهما عن الآخر ، احشروا : أي اجمعوا ، وأزواجهم : أي أمثالهم وأشباههم ، فيحشر أصحاب الخمر معا ، وأصحاب الزنا كذلك ، واهدوهم : أي دلوهم عليها ، والصراط :

الطريق ، والجحيم : النار ، وقفوهم : أي احبسوهم في الموقف ، مسئولون : أي عن عقائدهم وأعمالهم ، لا تناصرون : أي لا ينصر بعضكم بعضا ، مستسلمون : أي منقادون وأصل الاستسلام : طلب السلامة ويلزمه الانقياد عرفا .

النزل : ما يعدّ للضيف وغيره من الطعام والشراب ، والزقوم : شجرة صغيرة الورق كريهة الرائحة ، سميت بها الشجرة الموصوفة في الآية ، فتنة : أي محنة وعذابا في الآخرة ، وابتلاء في الدنيا ، أصل الجحيم : أي قعر جهنم ، طلعها : أي ثمرها ، رءوس الشياطين : أي في قبح المنظر ونهاية البشاعة ، والعرب تشبه قبيح الصورة بالشيطان فيقولون : وجه كأنه وجه شيطان ، كما يشبهون حسن الصورة بالملك ، والملء : حشو الوعاء بما لا يحتمل الزيادة عليه ، والشّوب : الخلط ، والحميم : الماء الشديد الحرارة ، مرجعهم : أي مصيرهم ، ألفوا : أي وجدوا ، يهرعون : أي يسرعون إسراعا شديدا .

من شيعته : أي ممن سار على دينه ومنهاجه ، سليم : أي سالم من جميع العلل والآفات النفسية كالحسد والغل وغيرهما من النيات السيئة ، والإفك : الكذب ، سقيم : أي مريض ، فراغ : أي فذهب خفية إلى أصنامهم ، وأصل الروغ والروغان : الميل قال

شاعرهم :

ويريك من طرف اللسان حلاوة ويروغ عنك كما يروغ الثعلب

باليمين : أي بقوة وشدة ، يزفون : أي يسرعون من زفّ النعام ، أي أسرع

(28/650)

---

فلما بلغ معه السعى أي فلما بلغ السن التي تساعده على أن يسعى معه في أعماله وحاجات المعيشة ، أسلما : أي استسلما وانقادا لأمر اللّه ، تله : أي كبه على وجهه صدقت الرؤيا : أي حققت ما طلب منك ، البلاء المبين . أي الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلص من غيره ، بذبح : أي حيوان يذبح ، باركنا عليه : أي أفضنا عليه البركات .

أصل الإباق : هرب العبد من سيده ، والمراد هنا أنه هاجر بغير إذن ربه ، المشحون : المملوء ، فساهم : أي فقارع من في الفلك أي عمل قرعة ، المدحضين : أي المغلوبين بالقرعة ، فالتقمه : أي فابتلعه ، مليم : أي آت ما يستحق عليه اللوم ، بالعراء : أي بالمكان الخالي ، يقطين : أي دبّاء (القرع العسلي المعروف الآن) وقيل : الموز وهو أظهر لأن أوراقه أعرض بفاتنين : أي بمضلين من قولهم فتن فلان على فلان امرأته إذا أفسدها عليه ، صال الجحيم : أي داخل في النار ومعذب فيها ، الصافون : أي صافو أنفسهم للعبادة ، ذكرا : أي كتابا

كلمتنا : وعدنا ، المنصورون : أي الغالبون في الحرب وغيرها ، جندنا : أي أتباع رسلنا ، والساحة : المكان الواسع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 23 صـ 41 . 91 ﴾ . باختصار .

(29/650)

---

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الصافات

وهي مكية

1 - من ذلك قوله جل وعز والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات تذكرا (آية 1

روى مسروق عن عبد الله بن مسعود وعكرمة عن ابن عباس قالا في قوله تعالى والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا هذه كلها الملائكة قال أبو جعفر الصافات جمع صافة كأنه جماعة

صافة أي مصطفة تذكر الله جل وعز وتسبحه والزاجرات جمع زاجرة أي التي تزجر السحاب على ما مضى وقال قتادة الزاجرات كل ما زجر عنه كأنه يريد ذوات الزجر

ويجوز أن تكون الزاجرات كل ما يزجر عن معاصي الله جل وعز وأن تكون التاليات كل ما يتلو ذكر الله جل وعز وكتبه 2 - ثم قال جل وعز رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق (آية 5) روى أبو ظيبان عن ابن عباس قال للشمس كل يوم

مشرق وكل يوم مغرب فتلك المشارق والمغارب وللصيف مشرق ومغرب وللشتاء ولا مشرق ومغرب فذلك قوله جل وعز رب المشرقين ورب المغربين 3 - ثم قال جل وعز إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (آية 6) على البدل وبزينة الكواكب قال أبو حاتم أعني الكواكب

قال أبو جعفر وأجود مما قال أن يكون بمعنى بأن زينا الكواكب فيها ويجوز بزينة الكواكب بمعنى بأن زينتها الكواكب أو بمعنى هي الكواكب 4 - وقوله جل وعز وحفظا من كل شيطان مارد (آية 7) أي وحفظناها حفظا من كل شيطان مارد 5 - وقوله جل وعز لا يستمعون إلى الملأ الأعلى (آية 8) يعني الملائكة قال أبو حاتم أي لئلا يسمعوا ثم حذف أن فرفع

الفعل كما قال الشاعر: ألا أيها اللائمي احضر الوغى * وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

6 - ثم قال جل وعز ويقذفون من كل جانب دحورا (آية 9) قال مجاهد ويقذفون أي يرمون دحورا أي مطرودين وقال قتادة دحورا أي رميا في النار قال أبو جعفر يقال دحره إذا طرده وباعده دحورا ودحرا

ويروى عن أبي عبد الرحمن أنه قرأ دحورا بفتح الدال والمصادر على فعول قليلة وقال بعض النحويين ليس بمصدر ولكنه بمعنى بما يدحرهم ولو كان على ما قال لكان بدحور أي بمباعد 7 - ثم قال جل وعز: (ولهم عذاب واصب (الاية 9) قال مجاهد وقتادة أي دائم 8 - ثم قال جل وعز إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب (آية 10) يقال خطف الشئ إذا أخذه بسرعة فأتبعه شهاب ثاقب قال الحسن ومجاهد وقتادة وأبو مجلز ثاقب أي مضئ قال أبو جعفر وهذا مشهور في اللغة كما قال:

وزندك أثقب أزنادها وقوله جل وعز فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا (آية 11) قال مجاهد والضحاك يعني السموات والأرض والبحار قال أبو جعفر يجب أن يكون داخلا في هذا الملائكة وغيرها مع السموات والأرض والبحار لأن من لا يقع لما لا يعقل مفردا ثم قال جل وعز إنا خلقناهم من طين لازب (آية 11) قال مجاهد أي لازم وقال قتادة أي لازق والفراء يذهب إلى أن الباء بدل من الميم وحكي أنه يقال لاتب بمعناه وقال النابغة: فلا تحسبون الخير لا شر بعده * ولا تحسبون الشر ضربة لازب 1 - وقوله جل وعز بل عجبت ويسخرون (آية 12) قال قتادة بل عجبت من الكتاب والوحي ويسخرون مما

جئت به وقيل المعنى بل عجبت من إنكارهم البعث وأنكر شريح أن تقرأ بل عجبت بضم التاء وقال إن الله لا يعجب إنما يعجب من لا يعلم

قال أبو جعفر وهذا الذي قاله لا يلزم وبضم التاء قرأ علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس ومعنى التعجب في اللغة أن ينكر الشئ ويقل في فيتعجب منه فالله جل وعز العالم بالأشياء وبما يكون ولكن لا يقع التعجب إلا بعد الكون فهو منه جل وعلا خلافة من الآدميين لأنه قد علمه قبل وبعد وهو يشبه علم الشهادة كما قال سبحانه لنعلم أي الحزبين ويجوز أن يكون المعنى قل بل عجبت

12 - وقوله جل وعز وإذا رأوا آية يستسخرون (آية 14) قال قتادة أي يسخرون وقال مجاهد أي يسخرون ويستهزئون وقيل يستسخرون يستدعون السخري من غيرهم



---

وهو قول مجاهد وقتادة ونظيره من كلام العرب قد وأستقر وعجب واستعجب بمعنى واحد وقرأ الكوفة كأنهم حمر مستنفرة أي نافرة وقوله جل وعز قل نعم وأنتم داخرون (آية 18) المعنى قل نعم تبعثون وأنتم داخرون قال قتادة أي

صاغرون 13 - ثم أخبر أن ذلك يكون زجرة واحدة فقال جل وعز فإنما هي زجرة

واحدة فإذا هم ينظرون أي قد حيوا ينظرون

14 - وقوله جل وعز وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين (آية 20) قال قتادة أي يوم يدين الله جل وعز العباد بأعمالهم ثم قال جل وعز هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون (آية 21) أي يقال لهم نعم هذا يوم الفصل أي يوم الفصل بين المحسن والمسئ وقال أبو عبيدة يوم الفصل يوم القضاء وقوله جل وعز احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم (آية 23)

أي يقال هذا قال عبد الله بن عباس والنعمان بن بشير عن عمر وأزواجهم أي وأشباههم قال أبو جعفر يقال زوجت الناقة بالناقة أي قرنتهما ابن ومنه قيل للرجل زوج وللمرأة زوج ويقال هديته الطريق أي دللته عليه 17 - وقوله جل وعز ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون (آية 26)

روى سعيد عن قتادة ما لكم لا تناصرون أي لا يدفع بعضكم عن بعض بل هم اليوم مستسلمون قال أي مستسلمون في العذاب

18 - وقوله جل وعز وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين (آية 28) روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال هذا قول الكفار للشياطين وروى سعيد عن قتادة قال هذا قول الإنس للجن قالوا لهم إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين أي من طريق الجنة

تثبطوننا عنها وتصدوننا وقيل هذا قول التابعين للمتبعين قال أبو جعفر وهذا يشبه قوله تعالى وعن أيمانهم روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى

(32/650)

---

وعن أيمانهم قال أشبه عليهم أمر دينهم قال أبو جعفر وحقيقة معنى إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين والله أعلم إنكم كنتم تأتوننا من الجهة التي هي أقوى الجهات وهي جهة الدين فتشككوننا فيه وقد قيل هذا في قوله جل وعز والسموات مطويات بيمينه وهو معروف في كلام العرب والله أعلم بما أراد

قال الشاعر: تلقاها عرابة باليمين فردوا عليهم بأنهم كانوا ضالين فقالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان قال السدي أي من حجة وقوله جل وعز (بل كنتم قوما طاغين) أي ضالين (فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون) أي كلنا في العذاب (فأغويناكم إنا كنا غاوين) (آية 32) أي بالوسوسة والاستدعاء 20 - وقوله جل وعز (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) (آية 35) أي عن توحيد الله جل وعز

21 - وقوله جل وعز (يطاف عليهم بكأس من معين) (آية 45) قال قتادة أي خمر جارية (بيضاء لذة للشاربين) قال الحسن خمر الجنة أشد بياضا من اللبن ثم قال جل وعز (لا فيها

غول ولا هم عنها ينزفون) [آية 47] روى ابن أبي نجيح عن مجاهد (لا فيها غول) قال لا فيها وجع بطن (ولا هم عنها ينزفون) لا تذهب عقولهم وروى معمر عن قتادة (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) قال لا تصدع رؤسهم ولا تذهب محمد عقولهم

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (لا فيها غول) قال يقول ليس فيها صداع (ولا هم عنها ينزفون) قال لا تذهب عقولهم

قال سعيد بن جبير (لا ينزفون) لا تنزف عقولهم قالوا والغول الأذى المكروه قال أبو جعفر وهذا أجمعها أو أولادها يقال غالته غول أي ذهبت به ذاهبة وقد غاله الشراب واغتاله أي ذهب بعقله أو آذاه ومنه اغتال فلان فلانا ومنه قتله قتل غيلة انقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها وأصل نزف نقص والمعنى لا يلحقهم نقصان بسكر ولا غيره فنفى الله جل وعز عنهم السكر لما فيه من الباطل والسفه

(33/650)

---

وجملته النقصان ويقرأ (ولا هم عنها ينزفون) وفي معناه قولان أ - أعرفهما أنه يقال أنزف الرجل إذا نفد شرابه والمعنى أنزف شرابه ب - والقول الآخر أنه حكي انه يقال أنزف الرجل إذا سكر وانشد أبو عبيدة للأبيرد: لعمري لئن أنزفتم أو صحوتم * لبئس الندامى

كنتم آل أبجرا فأما نزف الرجل إذا ذهب عقله من السكر فمعروف مسموع من العرب

23 - وقوله جل وعز (وعندهم قاصرات الطرف عين) (آية 48) قال قتادة قصرن طرفهن على أزواجهن وروى أبو يحيى عن مجاهد قال قصرن أطرافهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال لا يغرن على أزواجهن قال أبو جعفر والقول الأول هو المعروف وأصله من قصرته أي حبسته وقوله تعالى (عين) قال مجاهد أي حسان العيون وقال السدي (عين) أي عظام الأعين وحكى أهل اللغة أنه يقال رجل أعين وامرأة عيناء أي واسع

العين ثم قال جل وعز (كأنهن بيض مكنون) (آية 49) قال قتادة أي لم تمر به الأيدي يشبهن بياضه يعني قتادة الذي داخل القشر قال أبو جعفر يقال كننت الشئ أي صنته والعرب تشبه المرأة ببيضة النعامة كما قال الشاعر: كبكر المقاناة أبو البياض بصفرة * غذاها نمير الماء غير محلل

25 - ثم قال عز وجل (فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون)

(آية 50) يعني أهل الجنة (قال قائل منهم إني كان لي قرين) (آية 51) قال عطاء الخراساني هذان رجلان أخوان تصدق أحدهما بماله فعيره أخوه وقال له ما قصا الله جل وعز وقد روي عن ابن عباس هو الرجل المشرك له صاحب مؤمن قال له هذا قال مجاهد (قرين) أي شيطان 26 - ثم قال جل وعز (يقول أئنك لمن المصدقين) (آية 52) المعنى

يقول أئنك لمن المصدقين بأنا مدينون ثم كسرت إن لمجئ اللام قال مجاهد (مدينون) أي محاسبون (قال هل أنتم مطلعون) أي قال الذي في الجنة هل أنتم مشرفون (فاطلع فرآه) أي فأشرف فرأى قرينه (في سواء



---

الجحيم) أي في وسطها قال الذي في الجنة (تالله إن كدت لتردين) أي تهلكني وفي قراءة عبد الله لتغوين ثم قال جل وعز (ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين) (آية 57)

قال قتادة أي لمن المحضرين في النار ثم قال جل وعز (أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين إن هذا لهو الفوز العظيم) (آية 60) قال قتادة هذا آخر كلامه ثم قال جل وعز (لمثل

هذا فليعمل العاملون) وقوله جل وعز (أذلك خير نزلا) (آية 62) أذلك خير نزلا ونزلا أي رزقا والنزل أيضا الريع والفضل ثم قال تعالى (أم شجرة الزقوم إنا جعلناها فتنة للظالمين) (آية 62) قال مجاهد قال أبو جهل ما نعرف الزقوم إلا التمر بالزبد فنتزقم وقال قتادة فتنوا بهذا فقالوا كيف يكون في النار شجرة والنار تأكل الشجر فقال الله عز وجل (إنها شجرة تخرج في

أصل الجحيم) أي غذاؤها من النار ومنها خلقت 30 - ثم قال جل وعز (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) (آية 65) (طلعها ) أي ثمرها كأنه أول ما يطلع منها ثم قال (كأنه رؤوس الشياطين) قال أبو العباس يقال لم تر الشياطين فكيف وقع التشبيه بها ؟

وهل يجوز أن يقال كأن زيدا فلان وفلان لا يعرف

فالجواب أن المقصود هو ما وقع عليه التعارف من المعاني فإذا قيل فلان شيطان فقد علم أن المعنى فلان قبيح خبيث ومنه قولهم تشيطن إذا تخبث كما قال الشاعر: أيقتلني والمشر في مضاجعي * ومسنونة زرق كأنياب أغوال ولم تر الغول قط ولا أنيابها ولكن العرب إذا قبحت المؤنث شبهته بالغول وإذا قبحت المذكر شبهته بالشيطان فهذا جواب صحيح بين وقد قيل هو نبت باليمن قبيح المنظر شبهت به يقال له الأستن والشيطان وليس ذلك بمعروف عند العرب

(35/650)

---

قال أبو جعفر وقيل الشياطين ضروب من الحيات قباح 31 - وقوله جل وعز (ثم إن له معليه الشوب امن حميم) (آية 67) قال قتادة أي مزاجا قال أبو جعفر يقال شبت الشئ بالشئ أي خلطته به فقيل يراد به ههنا شرب الحميم 32 - وقوله جل وعز (إنهم ألفوا

آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون) (آية 70)

معنى (ألفوا) وجدوا قال مجاهد يهرعون كهيئة الهرولة وقال قتادة يسرعون وقيل كأنهم

يزعجون من الإسراع 33 – وقوله جل وعز (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) (آية

75) قيل بمسألته هلاك قومه فقال (رب لا تذر على

الأرض من الكافرين ديارا) وقيل المعنى دعا بأن ننجيه من الغرق (ونجيناه وأهله من

الكرب العظيم) أي من الغرق 34 – ثم قال جل وعز (وجعلنا ذريته هم الباقين) (آية

76) روى سعيد عن قتادة الناس كلهم من ذرية نوح صلى الله عليه وسلم 35 – ثم قال

جل وعز (وتركنا عليه في الآخرين) (آية 78) قال مجاهد وقتادة أي ثناء وقال محمد بن

زيد المعنى وتركنا عليه في الآخرين

يقال سلام على نوح في العلمين أي تركنا عليه هذه الكلمة باقية 36 – وقوله جل وعز (وإن

من شيعته لإبراهيم) (آية 83)

قال مجاهد أي على منهاجه وسنته وقال قتادة على دينه قال أبو جعفر المعنى وإن من

شيعة نوح قال الفراء المعنى وإن من شيعة محمد صلى الله عليه وسلم

والأول أشبه لأن ذكر نوح قد تقدم 37 – ثم قال جل وعز (وإذ جاء ربه بقلب سليم) (آية

84) قال قتادة أي سليم من الشرك وقال عروة بن الزبير لم يلعن شيئًا قط فقال الله جل وعز

(إذ جاء ربه بقلب سليم) 38 – وقوله جل وعز (أئفكا آلهة دون الله تريدون) (آية 86)

قال قتادة أي أكذبا 39 - ثم قال جل وعز (فما ظنكم برب العالمين) (آية 87) روى سعيد عن قتادة قال أي فما ظنكم برب العالمين وقد

(36/650)

---

عبدتم غيره إذا لقيتموه 40 - وقوله جل وعز (فنظر نظرة في النجوم) (آية 88) في معناه ثلاثة أقوال قال الحسن أي تفكر فيما يعمل إذا كلفوه الخروج قال أبو جعفر والمعنى على هذا القول فنظر فيما نجم له من الرأي أي فيما طلع له يقال نجم القرن والنبت إذا طلعا أي فكر فعلم أنه لبد لكل حي من أن يسقم فقال إني سقيم

قال الخليل يقال للرجل إذا فكر في الشئ كيف يدبره نظر في النجوم وكذلك قال أبو العباس في معنى هذه الاية والقول الثاني أن يكون المعنى فنظر فيما نجم من الأشياء فعلم ان لها خالقا ومدبرا وأنها تتغير وعلم ان ذلك يلحقه فقال إني سقيم والقول الثالث ما رواه سعيد عن قتادة أن سعيد بن المسيب قال نظر إلى نجم فقال إني سقيم فكايد عن دينه قال أبو جعفر والمعنى على هذا القول فعمل ما يعلمون من

النظر في النجوم واستدلالهم بها قال سعيد بن جبير والضحاك (فقال إني سقيم) أي مطعون وكانوا) يهربون من الطاعون قال الله جل وعز (فتولوا عنه مدبرين) 41 - وقوله

جل وعز (فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون) (آية 91) أي مال وعدل ومنه الرواغ ثم قال (ألا تأكلون)

تعجبا

أي فقرب إليها الطعام فقال (ألا تأكلون ؟ فلما لم يرها تأكل قال ألا تنطقون ؟ وقال أبو مالك جاء إلى آلهتهم وكانوا قد جعلوا بين أيديها طعاما فلما لم تكلمه قال مالكم لا تنطقون فأخذ فأسا فضرب به حافتيها ثم علقه في عنق أكبرها 42 - وقوله جل وعز (فراغ عليهم ضربا باليمين) (آية 93) قال أبو جعفر يجوز أن يكون معنى (باليمين) بالقوة كما تقدم ويجوز أن يريد اليد

وقيل بيمينه حين قال (وتالله لأكيدن أصنامكم) 43 - ثم قال جل وعز (فأقبلوا إليه يزفون) (آية 94) قال قتادة أي يمشون قال أبو جعفر يقال زف النعام يزف إذا أسرع وذلك في أول عدوه ويقرأ (يزفون) بضم الياء وأكثر اهل اللغة لا يعرفه وقد يجوز أن يكون أزف صادف الزفيف فيكون هذا منه

وحكى الكسائي أنه قرئ (يزفون) بتخفيف الفاء وأكثر اهل اللغة لا يعرفه أيضا وحكى
بعضهم أنه قال وزف يزف إذا أسرع

44 - ثم قال جل وعز (والله خلقكم وما تعملون) (آية 96) قال أبو عبيد أي وما تعملون
منه الأصنام وتنحتونه عليه وهو الخشب والحجارة وغيرهما قال قتادة وما تعملون بايديكم
ويجوز أن يكون ما نفيا أي وما تعملونه ولكن الله خالقه ويجوز أن يكون بمعنى المصدر أي
وعملكم

ويجوز ان يكون استفهاما فيه معنى التوبيخ 45 - وقوله جل وعز (فأرادوا به كيدا فجعلنا
هم الأسفلين) (آية 98) (الأسفلين) الأذلين حجة قال قتادة ما ناظرهم بعد ذلك حتى
أهلكهم 46 - وقوله جل وعز (وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين) (آية 99) هاجر إلى
الأرض المقدسة

47 - وقوله جل وعز (فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر
ماذا ترى) (آية 102 ) قال مجاهد (بلغ معه السعي) أي العمل أي شب وقال غيره بلغ
ثلاث عشرة سنة قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا
ترى (آية 102 ) أي إني أرى في المنام أني سأذبحك أي أمرت بهذا في المنام وجعل علامة
إذا رأيت ذلك أن أذبحك

ويقرأ (ماذا تري) ؟ من الصبر قال أبو إسحاق لم يقل هذا أحد غيره وإنما قال العلماء

المعنى ماذا تشير وقد روي في الذبيح احاديث عن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بعض أهل العلم الدليل على أنه إسماعيل أن إسماعيل كان بمكة وكان الذبح بمنى

وهذا لا يلزم روي عن ابن عباس انه قال كان الذبح بالشام وقال عبيد بن عمير كان بالشام وإن كان مجاهد قد قال كان بمنى وقال بعضهم في القرآن ما يدل على أنه إسماعيل صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل (فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) فدل بهذا على أن إسحاق سيعيش حتى يولد له فكيف يؤمر بذبحه ؟

قال أبو جعفر وهذا ايضا لا يثبت حجة لأنه يجوز أن

(38/650)

---

يؤمر بذبحه وقد علم أنه يولد له لأنه يجوز أن يحييه الله جل وعز بعد ذلك 48 - وقوله جل وعز (فلما اسلما وتله للجبين) (آية 103)

قال مجاهد أي سلما لأمر الله جل وعز قال أبو جعفر وفي حرف عبد الله بن مسعود (فلما سلما) يقال سلم إذا أعطى بيده ورضي ثم قال تعالى (وتله للجبين) أي صرعه وهما جبينان بين هما الجبهة وجواب (لما) عند البصريين محذوف كأنه قال سعد والواو عند

الكوفيين زائدة كأنه قال ناديناه 49 - وقوله جل وعز (وفديناه بذبح عظيم) (آية 107)

الذبح المذبوح والذبح المصدر روى ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال كبير متقبل قال

أبو جعفر عظيم في اللغة يكون للكبير والشريف وأهل التفسير على أنه ههنا للشريف أي

المتقبل 50 - وقوله جل وعز (ولقد مننا على موسى وهارون ونجيناهما وقومهما من

الكرب العظيم) (آية 115) روى سعيد عن قتادة قال من فرعون

51 - ثم قال جل وعز (ونصرناهم فكانوا هم الغالبين) (آية 116) ولم يقل ونصرناهما

لأن الإثنين في الأصل جمع

ويجوز أن يكون كما يخبر عن الواحد بفعل الجماعة وقيل المعنى ونصرنا موسى وهارون

عليهما السلام وقومهما على فرعون وقومه وهذا هو الصواب لأن قبله (ونجيناهما

وقومهما) 52 - ثم قال جل وعز (وآتيناهما الكتاب المستبين) (آية 117) روى

سعيد عن قتادة قال التوراة قال (وهديناهما الصراط المستقيم) الإسلام 53 - وقوله جل

وعز (وإن إلياس لمن المرسلين) (آية 123)

قيل إلياس هو إدريس وقيل هو من ولد هارون صلى الله عليهما وسلم والله جل وعز أعلم

54 - وقوله جل وعز (أتدعون بعلا وتذرونا لا أحسن الخالقين) (آية 125) قال مجاهد

(أتدعون بعلا) أي ربا وقال الضحاك هو صنم لهم يسمى بعلا قال ابن زيد كانوا ببعلبك

وسئل ابن عباس عن هذا فسكت فسمع رجلا ينشد ضالة فقال له آخر أنا بعلها أي ربها

فقال ابن عباس للسائل

(39/650)

---

هذا مثل قوله تعالى (أتدعون بعلا) أي ربا وحكى ابن إسحاق أن بعلا امرأة كانوا يعبدونها

قال أبو جعفر يقال هذا بعل الدار أي ربها فالمعنى أتدعون ربا اختلقتموه وتذرون أحسن

الخالقين ؟ وأصل هذا أنه يقال لكل ما علا وارتفع بعل ومنه قيل بعل المرأة ومنه قيل لما

شرب بماء السماء بعل 55 - وقوله جل وعز (فكذبوه فإنهم لمحضرون) (آية 127) قال

قتادة أي في العذاب

وقوله جل وعز (سلام على إل ياسين) (آية 130) قال أبو جعفر من قرأ سلام على

إلياسين ففي قراءته قولان أحدهما ان يكون إلياسين وإلياس واحد كما يقال سيناء

وسينين والثاني ويجوز أن يكون جمعه مع أهل دينه كما يقال مهالبة 56 - وقوله جل وعز

(وإن يونس لمن المرسلين إذ ابق إلى الفلك المشحون) (آية 140) أي هرب قال طاووس لما

ركب السفينة ركدت فقالوا إن فيها

رجلا مشئوما فقارعوه فوقعت القرعة عليه ثلاث مرات فرموا به فالتقمه الحوت 57 -

وقوله جل وعز (فساهم فكان من المدحضين) (آية 141) قال مجاهد فكان من المدحضين أي من المسهومين قال أبو جعفر أصل أدحضته أن أزلقته وقال ابن عيينة أي من المقمورين 58 - ثم قال جل وعز (فالتقمه الحوت وهو مليم) (آية 142) قال قتادة أي مسئ

قال أبو جعفر يقال ألام الرجل إذا جاب ما يلام عليه 59 - وقوله جل وعز (فلولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) (آية 144) روى أبو رزين عن ابن عباس (من المسبحين) قال من المصلين ثم قال (للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) (آية 144) قال مجاهد أي في بطن الحوت 60 - ثم قال جل وعز (فنبذناه بالعراء وهو سقيم) (آية 145) قال يعقوب بن إسحاق قال الفراء (العراء)

المكان الخالي ومنه قول الله جل وعز (فنبذناه بالعراء وهو



---

سقيم) قال وقال أبو عبيدة العراء وجه الأرض وأنشد لرجل من خزاعة: رفعت رجلا لا أخاف عثارها * ونبذت بالبلد العراء ثيابي 61 - ثم قال جل وعز (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) (آية 146) روى عمرو بن ميمون عن ابن مسعود قال هي القرع وقال مجاهد

هي كل شجرة على وجه الأرض لا ساق لها

قال أبو جعفر هذا الذي قاله مجاهد هو الذي تعرفه العرب يقع للقرع والحنظل والبطيخ والكل ما لم يكن على ساق وكأن اشتقاقه من قطن بالمكان أي أقام به وانشد سيويه:

قواطنا مكة من ورق الحمي 62 - ثم قال جل وعز (وأرسلناه إلى مائة الف أو يزيدون) (آية 147) قال أبو جعفر في معنى أو أربعة اقوال 1 - قال أبو عبيدة والفراء هي بمعنى بل وهذا خطأ عند أكثر النحويين الحذاق ولو كان كما قالا لكان وارسلناه إلى أكثر من مائة ألف واستغنى عن أو

2 - وقال القتبي أو بمعنى الواو وهذا ايضا خطا لأن فيه بطلان المعاني 3 - وقيل أو للإباحة

4 - وقال محمد بن يزيد أو على بابها والمعنى

أرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لقلتم مائة ألف أو أكثر وروي عن ابن عباس قال أرسل إلى مائة ألف وثلاثين الفا قال أبو مالك اقام في بطن الحوت أربعين يوما قال ابن طاووس أنبت الله عليه شجرة من يقطين وهي الدباء فكانت تظله من الشمس ويأكل منها فلما سقطت بكى عليها فأوحى الله جل وعز إليه أتحزن على شجرة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيد وتابوا فلم أهلكهم قال سعيد بن جبير أرسل الله جل وعز على الشجرة الأرضة فقطعت أصولها فحزن عليها وذكر الحديث قال مجاهد كانت الرسالة قبل أن يلتقمه الحوت

قال أبو جعفر حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرفة قال حدثنا العباس بن محمد قال حدثنا أبو النعمان محمد بن الفضل قال حدثنا أبو هلال قال حدثنا شهر بن حوشب عن ابن عباس قال إنما كانت رسالة يونس صلى الله عليه وسلم بعد ما نبذه الحوت وتلا هذه الآية (وإن يونس لمن المرسلين) حتى بلغ إلى قوله (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) قال كانت الرسالة بعد ذلك 63 - قوله جل وعز (فآمنوا فمتعناهم إلى حين) (آية 148)

روى معمر عن قتادة قال إلى الموت

64 - وقوله جل وعز (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون) (آية 149) أي فاسألهم سؤال توبيخ وروي عن جماعة من القراء انهم قرءوا (اصطفى البنات على البنين) بوصل الألف وانكر أبو حاتم هذه القراءة قال أبو جعفر وهي جائزة على أن يكون مردودا على القول وعلى أنه قد يكون التوبيخ بغير الف استفهام 65 - وقوله جل وعز (أم لكم سلطان مبين فائتو بكتابكم إن كنتم

صادقين) (آية 157) قال السدي (سلطان) أي حجة فائتوا بكتابكم قال بحجتكم أن كتابا جاءكم بهذا 66 - وقوله جل وعز (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) (آية 158) قال

الفراء الجنة ههنا الملائكة أي قالوا الملائكة بنات الله وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال

قالوا يعني كفار قريش الملائكة بنات الله فقال أبو بكر فمن أمهاتهن ؟ قالوا مخدرات الجن

وروى سعيد عن قتادة قال قالوا صاهر الله جل وعز الجن

فولدت الملائكة وروى جويبر عن الضحاك في قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ) قال

قالوا إبليس أخو الرحمن جل وعز 67 - وقوله جل وعز (ولقد علمت الجنة إنهم

لمحضرون) (آية 158) أي ولقد علمت الجنة ان الذين قالوا هذا لمحضرون العذاب كذا

قال السدي وهو صحيح وكذا كل ما في السورة من محضرين

*(42/650)*

---

وقال مجاهد (لمحضرون) الحساب يعني الجن 68 - وقوله جل وعز (فإنكم وما تعبدون ما

أنتم عليه بفاتنين) (آية 162) أي ما أنتم به مضلين (إلا من هو صال الجحيم) قال ابن

عباس أي لا تضلون إلا من سبق في قضائي أنه يضل قال الحسن وإبراهيم ومحمد بن كعب

والضحاك هذا معنى قوله (ما أنتم عليه بفاتنين) أي لن تفتنوا إلا من قضيت عليه بذلك

69 - ثم قال جل وعز (وما منا إلا له مقام معلوم) (آية 164)

قال الشعبي جاء جبرئيل أو ملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال تقوم أدنى من ثلثي

الليل ونصفه وثلثه إن الملائكة لتصلي وتسبح ما في السماء ملك فارغ 70 - وقوله جل وعز (وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون) (آية 166) قال مجاهد وقتادة هذا من قول الملائكة 71 - وقوله جل وعز (وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين) (آية 168) روي عن الضحاك قال هذا قول مشركي مكة فلما جاءهم ذكر الأولين وعلم الآخرين كفروا به فسوف يعلمون

قال أبو إسحاق كان كفار قريش يقولون لو جاءنا ذكر كما جاء غيرنا من الأولين لأخلصنا العبادة لله عز وجل فلما جاءهم كفروا به فسوف يعلمون مغبة كفرهم وما ينزل بهم من العذاب والانتقام منهم في الدنيا والآخرة 72 - قوله جل وعز (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) (آية 171) أي سبق منا القول لرسلنا إنهم لهم المنصورون أي مضى بهذا من القضاء والحكم قال الفراء أي سبقت لهم السعادة وهي في قراءة عبد الله (ولقد سبقت كلمتنا على عبادنا المرسلين) وقيل أراد بالكلمة قوله عز وجل (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي)

73 - وقوله جل وعز (فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين) (آية 177) أي نزل بهم العذاب ومعنى بساحتهم أي بدارهم

والساحة في اللغة فناء الدار الواسع (فساء صباح المنذرين) أي فبئس صباح الذين أنذروا بالعذاب وفيه إضمار أي فساء الصباح صباحهم وفي الحديث (الله أكبر خربت خيبر إنا إذا انزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين) 74 - وقوله جل وعز (سبحانك ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) (آية 182 180) نزه سبحانه نفسه عما أضاف إليه المشركون من الصاحبة والولد (رب العزة) على البدل ويجوز النصب على المدح والرفع بمعنى هو رب العزة وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى سبحان الله فقال هو تنزيه الله عن كل سوء تمت سورة الصافات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿معانى القرآن / للنحاس حـ 6 صـ 70.7﴾

(44/650)

وقال الفراء :

سورة (الصافات)

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾

وقوله: ﴿ وَالصَّافَّاتِ . . . ﴾

تخفض التاء من ﴿ الصافات ﴾ ومن ﴿ التالياتِ ﴾ لأنه قَسَمٌ. وكَانَ ابن مسعودٍ يُدغم ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ وكذلك ﴿ والتاليات ﴾ ﴿ والزاجرات ﴾ يدغم التاء منهن والتبيان أجود ؛ لأن القراءة بنيت عَلَى التفصيل والبيان.

وهذه الأحرف - فيما ذكروا - الملائكة.

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾

قوله: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ. . . ﴾

تضاف الزينة إلى الكواكب. وهى قراءة العَامّة. حدّثنا أبوالعباس، قال حدثنا محمد قال حدّثنا الفراء. قال: وحدّثنى قيس وأبو معاوية عن الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق أنه قرأ (بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ) يخفض الكواكب بالتكرير فيُرَدّ معرفة عَلَى نكرة، كما قال ﴿ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ فردّ نكرة على معرفةٍ. ولو نَصبت ﴿ الكواكب ﴾ إذا نوّنت فى الزينة كان وجهاً صَواباً. تريد: بِتَزْيِيننا الكواكبَ. ولو رفعت ﴿ الكواكب ﴾ تريد: زَيّناهَا بتزيينها الكواكبُ تجعل الكواكب هى التى زيّنت السّماء.

﴿ لاَّ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾

وقوله: ﴿ لاَّ يَسَّمَّعُونَ. . . ﴾

قرأهَا أصْحاب عبدالله بالتّشديد عَلى مَعنى يَتسمّعونَ . وقرأهَا الناسُ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ وكذلك قرأهَا ابن عباس ؛ وقال: هم ﴿يَتسَمَّعُون ولا يَسْمَعُون﴾ .

(45/650)

---

ومَعْنى (لا) كقوله ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لاَ يُؤمنون بِهِ﴾ لو كان فى موضع (لا) (أَنْ) صلح ذلكَ ، كما قال ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ وكمَا قَالَ ﴿وَأَلْقَى فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أن تَمِيدَ بكم﴾ ويصلح فى (لا) عَلى هذا المعْنَى الجزم . العرب تقول: ربطت الفرسَ لا ينفلتْ ، وأوثقتُ عبدى لا يفررْ . وأنشدنى بعض بنى عُقَيلٍ:

وَحتّى رَأينا أحسنَ الوُدّ بيننَا * مساكَتةً لا يَقْرِفِ الشرَّ قَارِفُ

وبعضهم يقول: لا يَقرْفُ الشّر والرفع لغة أهل الحجاز . وبذلكَ جَاء القرآن .

وقوله: ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً . . . (-)﴾

بضمّ الدال . ونَصَبها أبو عبدالرحمن السُلَمِىّ . فمنَ ضمَّها جعَلها مصدرا ؛ كقولك: دَحرته دُحُوراً . ومن فتحها جعَلها اسماً ؛ كأنه قال: يقذفون بداحرٍ وبما يَدْحرُ . ولَستُ أشتهيها ؛ لأنها لو وُجّهت عَلى ذلكَ على صحّةٍ لكانت فيها البَاء: كما تقول: يُقذفون بالحجارة ، ولا تقول يُقذفونَ الحجارةَ . وهوَجائزٍ ؛ قال الشاعر:

نُغَالى اللحم للأضيافِ نِيئاً * وتُرخصه إذا نضِجَ القدورُ

والكلام: نغالى باللحم.

وقوله: ﴿ عَذابٌ واصِبٌ ﴾ ﴿ وَلَهُ الدِّينُ واصِباً ﴾ دائم خالصٌ.

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾

قوله: ﴿ مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ... ﴾

اللازب: اللاصق. وقيس تقول: طين لاتب. أنشدنى بعضهم:

صُدَاعٌ وتَوْصيم العظام وفَتْرة * وغَثْىٌ مع الإشراق فى الجَوْف لاتب

والعرب تقول: ليس هذا بضربةِ لازب ولازم، يبدلون الباء ميماً؛ لتقارب المخرج.

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ... ﴾

(46/650)

---

قرأها الناس بنصب التاء ورفْعها والرفع أحبّ إلىّ لأنها قراءة علىٍّ وابن مسعودٍ وعبدالله بن عبّاسٍ. حدّثنا أبو العباس قال حَدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال: حدّثنى مِنْدَل بن علىّ العَنَزِىّ عن الأعمش قال: قال شقيق: قرأت عند شُرَيْحٍ (بَلْ عجبتُ وَيَسْخَرُونَ)

فقال: إن الله لا يَعْجب منْ شيءٍ ، إنها يَعجب مَن لا يعلم . قال: فذكرت ذلكَ لإبراهيم النَخَعىّ فقال: إن شُريحاً شاعر يعجبُهُ علِمه ، وعبد الله أعلم بذلكَ منه . قرأَهَا (بل عجبتُ ويَسْخَرُونَ) .

قال أبو زكريّا : والعجب ب وإن أُسند إلى الله فليس مَعْنَاه من الله كمعنَاه مِنَ العباد ، ألا ترى أَنه قال ﴿ فيَسْخَرُونَ منهمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ وليسَ السُخْرِىّ من الله كمعناه ﴿ منَ العبَاد ﴾ وكذلك قوله ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بهِمْ ﴾ ﴿ ليس ذلك مِنَ الله كمعنَاه من العباد ﴾ ففى ذَا بيان (لكسر قول) شُرَيح ، وإن كان جَائِزاً لأنّ المفسرينَ قالوا : بل عجبتَ يا محمد ويَسخرونَ هم . فهذا وجهُ النصب .

﴿ قَالُواْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾

وقوله: ﴿ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ . . . ﴾

يَقُول: كنتم تأتوننا من قِبَل الدّين ، أى تأْتوننا تخدعوننا بأقوى الوجوه . واليمين: القدرة والقوّة. وكذلك قوله ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِاليمين ﴾ أى بالقوّة والقدرة .

وقال الشاعر:

إذا مَا غاية رُفِعت لمجدٍ * تلقَّاها عَرَابةُ باليمينِ

بالقُدرة والقوّة. وقد جاء فى قوله ﴿ فَرَاغَ عَليهِمْ ضَرْباً بِاليمينِ ﴾ يقول: ضربهم بيمينه التى قالها ﴿ وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ .

﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾

وقوله: ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ . . . ﴾

لو قلت: لا غَوْلَ فيها كان رفعاً ونصباً . فإذا حُلْت بين لا وبينَ الغول بلامٍ أو بغيرهَا من الصفات لم يكن إلا الرفع . والغَوْل يقول: ليس فيها غِيلة وَغَائِلة وغُول وغَوْل .

(47/650)

---

وقوله: ﴿ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ و ﴿ يُنْزِفُون ﴾ وأصْحَاب عَبْدِ الله يقرءونَ (يُنْزِفُون) وله معنيان . يقال: قد أُنْزِف الرجل إذا فنِيت خَمرُهُ . وأُنْزِفَ إذا ذهبَ عقله . فهذان وجهان . ومن قال ﴿ يُنْزَفونَ ﴾ يقال: لا تذهب تقولهم وهو من نُزِف الرجل فهو مَنْزوف .

﴿ قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ . . . ﴾

هذا رجل مِنْ أهل الجنّة ، قد كان له أخ من أهْل الكفر ، فأحبَّ أن يَرى مَكانَة فيأذَنَ الله له ، فيطّلع فى النار ويخاطبه . فإذا رآه قال ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِين ﴾ وفى قراءة عَبد الله (إنْ كِدْتَ لَتُغْوِين) ، ولولا رحمة ربى ﴿ لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أى معك فى النار مُحْضَرا . يقول الله ﴿ لِمثْلِ هَـذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ وهذا من قول الله .

وقد قرأ بعض القُرّاء ﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونِ فأُطْلِعَ ﴾ فكسر النون . وهو شاذّ ؛ لأنَّ العرب لا تختار على الإضافة إذا أسندوا فاعلاً مجموعاً أو موحّداً إلى اسم مكنّى عنه .

فمن ذلك أن يقولوا : أنت ضاربى . ويقولون للاثنين : أنتما ضارباىَ ، وللجميع : أنتم ضارِبِىَّ ، ولا يقولوا للاثنين : أنتما ضاربانِنى ولا للجميع : ضَاربونَنى . وإنّما تكون هَذه النون فى فعل ويفعل ، مثل (ضربونى ويضربنى وضربنى) . وربما غلِط الشاعر فيذهب إلى المعنى ، فيقول : أنتَ ضاربُنى ، يتوهّم أنه أراد : هَل تضربنى ، فيكون ذلك عَلى غير صحَّة .

قال الشاعر :

هل الله من سَرْو العَلاة مُريحُنِى * ولَمَّا تَقَسَّمْنى النِّبَارُ الكوانِسُ

النِّبْر : دابَّة تشبه القُراد . وقَال آخر :

وما أدرى وظنّى كلُّ ظنٍّ * أمسلِمُنى إلى قَومٍ شَرَاحِ

ا يريد : شراحيل ولم يقل : أمسلِمِىّ . وهو وجه الكلام . وقال آخر :

هم القائِلُون الخيرَ والفاعلونَه * إذا ما خَشُوا من محدَث الأمر مُعْظَمَا

ولم يقل : الفاعلوه . وهو وجه الكلام .

وإنما اختاروا الإضَافة فى الاسم المكنّى لأنَهُ يختلط بمَا قبله . فيصِير الحرفان كالحرف الواحد . فلذلكَ اسْتحبُّوا الإضَافة فى المكنّى ، وقالوا : هما ضاربانِ زيداً ، وضاربَا زيدٍ ؛ لأن زيدا فى ظهوره لا يختلط بمَا قبله ؛ لأنه ليسَ بحرفٍ وَاحِدٍ والمكنّى حرف .

فأمّا قوله ﴿ فأُطْلِعَ ﴾ فإنه يكون عَلى جهة فُعِل ذلكَ به ، كَمَا تقول : دعَا فأجيبَ يَا هذا . ويكون : هَل أنتم مُطْلِعونِ فأَطّلِعَ أنا فيكون منصوباً بجوابِ الفاء .

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾

وقوله : ﴿ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ . . . ﴾

وهى فى قراءة عبد الله (شجرة نابتة فى أصْل الجحيم) .

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾

وقوله : ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ . . . ﴾

فإن فيه فى العربيَّة ثلاثة أوجه . أحدها أن تشبِّه طَلْعها فى قبحه برءوس الشياطين ؛ لأنها موصوفه بالقبح ، وإن كانت لا تُرى . وأنت قائل للرجل : كأنّه شيطان إذا استقبحته . والآخر أن العرب تسمّى بعض الحيّات شيطاناً . وهو حَيّة ذو عُرْف .

قال الشاعر ، وهو يذمّ امرأة له :

عنجرد تحلف حين أحلف * كمِثْل شيطانِ الحَماط أعرف

ويقال : إنه نبت قبيح يسمّى برءوس الشياطين . والأوجه الثلاثة يذهب إلى معنىً وَاحِدٍ

فى القبح .

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾

وقوله: ﴿ لَشَوْباً . . . ﴾

الخَلْط يقال: شاب الرجل طعَامه يشوبُه شَوْباً .

﴿ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ . . . ﴾

أى يسرعونَ بسيرهم . والإهراع: الإسْرَاع فيه ، شبيه بالرِّعدة (ويقال قد أُهْرِع إهراعاً) .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . . . ﴾

(49/650)

---

(يقول: أبقينَا له ثناءً حسَناً فى الآخرينَ) ويقال: ﴿ تركْنَا عَلَيْهِ فى الآخِرِينَ سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ ﴾ أى تركنا عليه هذه الكلمة ؛ كما تقول: قرأت من القرآن ﴿ الحمدُ لله ربّ العالمين ﴾ فيكون فى الجملة فى معنى نصبٍ ترفعها بالكلام . كذلك (سَلام عَلى نوحٍ) ترفعه بِعَلَى ، وهو فى تأويل نَصْبٍ . ولو كان: تركنا عليه سَلاماً كان صوَاباً .

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ . . . ﴾

يقول: إن مِن شيعة مُحَمَّدٍ لإبراهيمَ صَلى الله عليه وسلم. يقول: على دِينه ومنهاجه، فهو من شيعتِهِ، وإن كان إبرهيم سَابقاً له. وهذا مِثْل قوله ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أى ذُرِّيَّة من ﴿ هو منهم ﴾ فجعلها ذرِّيَّتهم وقد سبقتهم.

﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ . . . ﴾

أى مطعون من الطاعون. ويقال: إنها كلمة فيهَا مِعراض، أى إنه كلّ من كان فى عنقه الموت فهو سَقيم، وإن لم يكن به حين قالها سُقْم ظاهر. وهو وجه حسن. حدَّثنا أبو العَبَّاس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدثنى يحيى بن المهلّب أبو كُدَينة عن الحَسَن ابن عُمَارة ب عن المِنهال بن عمرو عن سَعيد بن جُبَيرٍ عن ابن عبّاس عن أُبَىّ بن كعب الأنصارىّ فى قوله ﴿ لا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ ﴾ قال: لم ينس ولكنها من معاريض الكلام وقد قال عُمَر فى قوله: ﴿ إنّ فى مَعَاريض الكلام لَمَا يُغنينا عن الكذب ﴾ .

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾

وقوله: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ . . . ﴾

أى مال عليهم ضرباً، واغتنم خلوتهم من أهل دينهم. وفى قراءة عبد الله (فَرَاغَ عَلَيهم

صَفْقا باليمين) وكأنّ الروغ ها هنا أنّه اعتلّ رَوْغاً ليفعل بآلهتهم ما فعل .

﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ . . . ﴾

(50/650)

---

قرأها الأعمش ﴿ يُزِفُّونَ ﴾ كأنها من أَزففت . ولم نسمعها إلاّ زَفَفْت: تقول للرجل: جاءنا يَزِفّ . ولعلّ قراءة الأعمش من قول العرب: قد أطردْت الرجل أى ، صيّرته طريداً ، وطَردته إذا أنت قلت له: اذهب عنّا فيكون ﴿ يُزِفّون ﴾ أَى جاءوا عَلى هذه الهيئة بمنزلة المزفوفة على هذه الحَال فتدخل الألف ؛ كما تقول للرجل: هو محمودٌ إذا أظهرتَ حمده ، وهو مُحْمَد إذا رأيتَ أمره إلى الحمد ولم تنشُر حمده . قال وأنشدنى المفضّل:

تمَنَّى حُصَين أن يسود جذاعه * فأَمْسَى حُصَين قد أَذَلّ وأَقْهَرَا

فقال: أَقْهَرَ أى صار إلى حَال القهر وإنما هو قُهِرَ . وقرأ الناس بعدُ ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ بفتح اليَاء وكسر الزاى وقد قرأ بعض القراء ﴿ يَزِفون ﴾ بالتخفيف كأنها من وَزَف يَزِف وزعم الكسَائى أنه لا يعرفها . وقال الفراء: لا أعرفها أيضاً إلاّ أن تكون لم تقع إلينا .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

وقوله: ﴿هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. . . ﴾

ولم يقل: صالحاً، فهذا بمنزلة قوله: ادْنُ فأصِبْ من الطعام، وهو كثير: يجتزأ بمن عن المضمر؛ كما قال الله ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ ولم يقل: زاهدين من الزاهدين.

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾

وقوله: ﴿بِغُلَامٍ حَلِيمٍ. . . ﴾

يريد: فى كِبَره.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ. . . ﴾



---

يقول: أطاق أن يعينه على عمله وسَعْيه. وكان إسْماعيل يومئذٍ ابن ثلاث عشرة ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ وتقرأ ﴿تُرِى﴾ حدّثنا أبو العبّاس قال حدّثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدّثنى هُشَيم عن مُغيرة عن إبراهيم أنه قرأ (فَانْظُرْ ماذا تُرِى) قال الفراء: وحدّثنى حفص بن غِيَاث عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن الأسود أنه قرأها (تَرَى) وأنّ يحيى

بن وثّابٍ قرأها (ترُى) وقد رُفع (ترِى) إلى عبد الله بنْ مَسعود قال الفراء ، وحدثنى قيس عن مغيرة عن ابراهيم قال (فانْظرُ ماذا ترُى) : تشير ، وَ ﴿ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ : تَأمر قال أبو زكريا : وأرى – والله أعْلم – أنه لم يستَشره فى أمر الله ، ولكنه قَالَ: فانظر ما ترِينى من صبرك أو جزعك ، فقال ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وقد يكون أنْ يطلع ابنه عَلى مَا أمر به لينظر مَا رأيه وهو مَاضٍ عَلى مَا أُمر به .

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾

وقوله: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ . . . ﴾

يقول: أسْلمَا أى فوّضَا وأطاعَا وفى قراءة عبد الله (سلَّمَا ) يقول سلّمَا من التسليم ، كما تقول: إذا أصابتك مُصيبةٌ فسَلّم لأمر الله أى فارْضَ به .

وقد قال ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ ولم يقل (به) كأنه أراد : افعلِ الأمرَ الذى تؤمره . ولو كانت (به) كان وجهاً جيّدا وفى قراءة عبد الله (إنى أرى فِى المَنَام افعلْ ما أُمِرْت به) . ويقال أين جواب قوله ﴿ فلمّا أسْلما ؟ ﴾ .

وَجَوابها فى قوله ﴿ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ والعرب تدخل الواو فى جواب فلَمّا ﴿ وحتّى إذا ﴾ وتُلْقيها . فمن ذلك قوله الله ﴿ حَتَّى إذَا جاءُوهَا فُتِحَتْ ﴾ وفى موضع آخر ﴿ وفُتِحَتْ ﴾ وكلّ صوَابٌ. وفى قراءة عبد الله (فلَمّا جهّزَهُمْ بجهَازِهِمْ وجعَل

السِّقَايَةَ ﴾ وفى قراءتنا بغير واو وقد فسرناه فى الأنبياء .

﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾

(52/650)

---

وقوله: ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ . . . ﴾

والذِّبْح الكبش وكلّ ما أعددته للذَبْح فهو ذِبْح . ويقال: إنه رعَى فى الجنة أربعين خريفاً فأَعظِمْ به . وقال مجاهد ﴿ عظيمٍ ﴾ متقبّل .

﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ . . . ﴾

فجعلهَا كالجمع ، ثم ذكرهما بعد ذلكَ اثنين وهذا من سعة العربيَّة: أن يُذهَب بالرئيس: النبىِّ والأمير وشبهه إلى الجمع ؛ لجنوده وأتبَاعه ، وإلى التوحيد ؛ لأنه واحد فى الأصل . ومثله ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ﴾ وفى موضع آخر ﴿ وَمَلَئِهِ ﴾ وربّما ذهبت العرب بالاثنين إلى الجمع ؛ كما يُذهب بالواحِد إلى الجمع ؛ ألى ترى أنَك تخاطب الرجل فتقول: مَا أحسنتم ولا أجملتم ، وأنت تريده بعينه ، ويقول الرجل للفُتْيا يُفتى بها : نحن نقول: كذا وكذا وهو يريد نفسه . ومثل ذلكَ قوله فى سورة ص ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إذ

تَسوَّرُوا المِحْرَابَ﴾ ثم أعاد ذكرهما بالتثنية إذْ قال: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ .

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

وقوله: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . . .﴾

ذُكر أنه نبىٌّ ، وأنّ هَذَا الاسمَ اسم من أسماء العبرانيّة ؛ كقولهم: إسماعيل وإسحَاق والألف واللام منه ، ولو جعلته عربيّاً من الأُلْيس فتجعله إفعالاً مثل الإخراج والإدخالِ لَجرَى .

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾

وقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً . . .﴾

ذكروا أَنه كان صنماً من ذهب يُسمَّى بعلاً ، فقَال ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ أى هذا الصَّنم ربّاً .

ويقال: أتدعون بَعلاً ربّاً سوَى الله . وذُكر عن ابن عبّاسٍ أن ضالّةٍ أُنْشِدت ، فجاء صَاحبها فقال: أنا بعلها . فقال ابن عباسٍ: هذا قول الله ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ أى ربّاً .

﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾

وقوله: ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . . . ﴾

تقرأ نصباً ورفعاً . قرأها بالنّصب الربيع بن خَيْثم .

﴿ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴾

وقوله: ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ . . . ﴾

فجعله بالنون . والعجمىُّ من الأسْمَاء قد يفعل به هذا العربُ . تقول: ميكالُ وميكائِيل وميكائل وميكائِينُ بالنون . وهى فى بنى أسَدٍ يقولونَ: هذا إسْمَاعِين قد جاء ، بالنون ، وسَائر العرب باللام . قال:وأنشدنى بعض بنى نُمَير لضب صَاده بعضهم:

يقول أهلُ السوق لما جينا * هذا وَربِّ البيت إسرائينا

فهذا وجه لقوله: إلياسينَ . وإن شئت ذهبت بإلياسين إلى أن تجعله جمعاً . فتجعَل أصحابه داخلين فى اسمه ، كما تقول للقوم رئيسُهم المُهَلّب: قد جاءتكم المهالبة والمهلَّبون ، فيكون بمنزلة قوله: الأشعرين والسَّعْدِين وشبهه . قال الشاعر:

* أنا ابن سعدٍ سَيِّدِ السَّعْدِينا *

وهو فى الاثنين أكثر: أن يضمّ أحدهما إلى صَاحبه إذا كان أَشهر منه اسماً ؛ كقول الشاعر:

جزانى الزَّهدمان جزاء سَوءٍ * وكنتُ المرءَ يُجزَى بالكرامَهْ

واسم أحدهما زَهْدَم . وقال الآخر:

جزى الله فيهَا الأعورَين ذمَامَةً * وفروة ثَغْر الثورَةِ المتضَاجِمِ

واسم أحدهما أَعور:

وقد قرأ بعضهم ﴿ وَإِنّ اليَأْسَ ﴾ يجعَل اسْمَه يَأساً ، أدخل عَليه الألف واللام . ثم يقرءون ﴿ سَلاَمٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ ﴾ جاء التفسير فى تفسير الكلبىّ عَلى آل ياسين: عَلى آلِ محمد صلى الله عليه وسلم . والأوّل أشبه بالصّواب - والله أعلم - لأنها فى قراءة / ب عبدالله ﴿ وَإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ المرسَلِينَ ﴾ ﴿ سَلاَمٌ عَلى إِدْرَاسِينَ ﴾ وقد يَشهد عَلى صوَاب هَذا قوله: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ ثم قَالَ فى موضع آخر ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ وهو معنىً واحدٌ وموضع واحدٌ والله أعلم .

﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾

وقوله: ﴿ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . . . ﴾

(54/650)

---

السَّفينة إذا جُهزّت وملئت وقَع عَليها هَذا الاسم . والفُلْك يذكَّر ويؤنّث ويُذهب بهَا إلى الجمع ؛ قال الله ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ فجعلها جمعاً . هو بمنزلة الطفل يكون واحداً وجمعاً ، والضيفُ والبَشَر مثله .

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾

وقوله: ﴿ الْمُدْحَضِينَ . . . ﴾

المغلوبين . يقال: أدحض الله حُجَّتَك فدحضتْ . وهو في الأصْل أنْ يَزْلَق الرَّجُل .

﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ . . . ﴾

وهو الذى قد اكتسَبَ اللَّوْم وإن لم يُلَمْ . والملوم الذى قد لِيم باللسَان . وهو مثل قول العرب أصبحت مُحْمِقاً مُعْطِشاً أى عندك الحمق والعَطَش . وهو كثير فى الكلام .

﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ مِّن يَقْطِينٍ . . . ﴾

قيل عند ابن عباسٍ: هو ورق القَرْع . فقال: وَمَا جعَل ورق القَرْع من بين الشجر يقطيناً ! كل ورَقةٍ اتسعَتْ وسَترت فهى يَقْطين .

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ . . . ﴾

أو هَا هنا فى مَعنى بل . كذلك فى التفسير مع صحّته فى العربيَّة .

﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ . . . ﴾

وفى قراءة عَبد الله (فمتّعناهم حتَّى حِين) وحَتى وإِلى فى الغايات مع الأَسْمَاءِ سواء .

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ . . . ﴾

أى سَلهم سَلْ أهل مَكّة .

﴿ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾

وقوله: ﴿ لَكَاذِبُونَ . . . ﴾

﴿ أَصْطَفَى . . . ﴾

(55/650)

---

استفهام وفيه توبيخ لهم . وقد تُطرح ألف الاستفهام من التوبيخ . ومثله قوله ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ يُستفهم بهَا ولا يستفهم . ومعناهمَا جميعاً واحِد . وألف (اصْطفى) إذا لم يُستفهم بها تذهب فى اتّصال الكلام ، وتبتدئها بالكسر .

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً . . . ﴾

يقال: الجِنّة هَا هُنَا الملائِكة . جعَلوا بينه وبين خَلْقه نَسَباً . ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ ﴾ أنّ الذين قالوا هَذَا القول ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ فى النارِ .

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ. . . ﴾

يريد: وآلهتكم التى تعبُدون ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴾ بمضِلّينَ.

﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴾

وقوله: ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ. . . ﴾

أى على ذلكَ الدِين بمضلّين. وقوله ﴿ عَلَيه ﴾ و ﴿ بِهِ ﴾ و ﴿ لَهُ ﴾ سواء. وأهل نجدٍ يقولون: بمفْتِنِينَ. أهْل الحجاز فتنت الرجل، وأَهل نجدٍ يقولون: أفتنتهُ.

﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾

وقوله: ﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ. . . ﴾

إلاّ مَن قُدّر له أن يَصْلَى الجحِيم فى السَّابق من علم الله. وقرأ الحَسن (إلاَّ مَنْ هو صَالُ الجحيم) رفعَ اللام فيمَا ذكروا فإن كان أراد واحداً فليسَ بجائِز لأنك لا تقول: هَذا قاضٌ ولا رامٌ. وإن يكن عَرَف فيها لغة مقلوبةً مثل عاثَ وعثا فهو صوَاب. قد قالت العرب. جُرُفٌ هَارٌ وهَارٍ وهو شاكُ السّلاحا وشاكِى السّلاح وأنشدنى بعضهم:

فلو أَنّى رميتك من بَعيد * لعَاقكَ عن دعاء الذئب عَاقِى

يريد: عائِق. فهذا ممّا قُلِب. ومنه ﴿ ولاَ تَعْثَوا ﴾ ولا تعِيثوا لغتان. وقد يكون أن تجعَل

﴿ صَالو ﴾ جمعاً ؛ كما تقول: من الرجال مَنْ هو إخوتك ، تذهب بهو إلى الاسم المجهول ، وتُخرج فعله عَلَى الجمع ؛ كما قال الشاعر:

(56/650)

---

إذا ما حَاتم وُجد ابن عمّى * مَجدنَا مَن تكلّم أجمعينَا

ولم يقل تكلّمُوا . وأجود ذلك فى العربيَّة إذا أَخْرجت الكناية أَن تخرجها عَلَى المعْنى والعدد ؛ لأنك تنوى تحقيق الاسم .

﴿ وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ . . . ﴾

هذا من قول الملائكة . إلى قوله ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ المسَبِّحُونَ ﴾ يريد: ﴿ المصَلُّونَ ﴾ وفى قراءة عَبد الله (وإن كُلّنا لَمَّا له مقام معلوم) .

وفى مريم ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَمَّا أَتَى الرَّحْمَنَ عَبْداً ﴾ ومَعنى إن ضربت لَزيداً كمعنى قولكَ: ما ضربت إلا زيداً ، لذلكَ ذكرتُ هَذا .

﴿ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ . . . ﴾

يعنى أهل مكَّة ﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الأَوَّلِينَ ﴾ يقول: كتاباً أو نُبُوَّةً ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

﴿ فَكَفَرُواْ بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

قال الله: ﴿ فَكَفَرُواْ بِهِ . . . ﴾

والمعْنى: وقد أُرسل إليهم محَّمد بالقرآن، فكفَروا به. وهو مضمر لم يُذكر؛ لأن مَعناهُ معروف؛ مثل قوله ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ ثم قَالَ ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ فوصل قول فرعون بقولهم؛ لأنَّ المعْنَى بيّن .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا . . . ﴾

التى سبَقت لهم السعادة. وهى فى قراءة عبد الله (ولقد سبقت كلمتنا على عبادنا المرسَلين) وعلى تصلح في موضع اللام؛ لأنَّ مَعْنَاهُمَا يرجع إلى شَىء وَاحِدٍ. وكأن المعْنَى: حَقّت عليهم ولهم، كما قَالَ ﴿ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ ومعناه: فى مُلْك سُليمان. فكما أوحِى بين فى وعَلَى إذا اتّفقَ المعنى فكذلك فُعِل هذا .

وقوله: ﴿ فإذا نَزَل بِسَاحَتِهِمْ ﴾ معنَاهُ: بهم . والعرب تجتزئ بالسَّاحَة والعَقوة مِن القوم .

ومعناهما وَاحِدٌ : نزل بك العذاب وبسَاحتك سواء .

وقوله: ﴿ فسَاءَ صَبَاحُ المُنْذَرِينَ ﴾ يريد : بئس صَبَاحُ . وهى فى قراءة عبد الله ﴿ فبئس صَبَاح المُنْذِرين ﴾ وفى قراءة عبد الله آذنتكم بإذانة المرسلينَ لتسألنَّ عن هذا النبأ العَظيم ، قيل له إنما هى واذنت لكم فقال هكذا عندى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 382. 396 ﴾

*(58/650)*

---

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الصافات

(والصافات صفا) [1] الملائكة ، لأنها صفوف في السماء . أو لأنها تصف أجنحتها في الهواء ، حتى يأمرها الله بما خلقوا لها . (فالزاجرات زجرا) [2] بتدركه [القلوب كما [تدرك] وسوسة الشيطان ، وذلك من دواعي التكليف . (فالتاليات ذكرا) [3] وهو تلاوة كتب الله ، أو ذكر تسبيحه وتقديسه . أقسم بثلاثة أصناف من الملائكة ، أو برب الأصناف الثلاثة .

وكل واحد من هذا جمع الجمع، لأن الملائكة ذكور، فنقول في جمعها صافة، ثم يجمع على الصافات. (بزينة الكواكب) [6] الزينة تجوز اسماً فأضيفت إلى الكواكب إضافة محضة، أي: بزينة من الكواكب/، وتجوز مصدراً أضيفت إلى المفعول به. وقيل: الإضافة كانت "بزينة الكواكب" بتنوين الأول ونصب الثاني، كما هو في بعض القراءات، وهو من باب قوله تعالى: (دعاء الخير) و(سؤال نعجتك)، أي: دعائه الخير، وسؤاله نعجتك. (دحورا) [9]

قذفاً في النار. وقيل: دفعاً بعنف. (واصب) [9] دائم مؤلم. (إلا من خطف) [10] استلب السمع واسترق. وعن ابن عباس: "من وثب الوثبة فلا يلحقه الرجم". (شهاب ثاقب) شعلة من النار، يثقب ضوؤها ويستوقد. قال: 997- ليت شعري وليت نبوة أين صار الروح مذ بان الجسد

998- بينما المرء شهاب ثاقب ضرب الدهر سناه فخمد. (أم من خلقنا) [11] أي: من السماء والأرض والجبال. وقيل: من الملائكة. وقيل: من الأمم الماضية الذين أهلكوا. (لازب) لاصق لازق، وبينهما فرق، فاللاصق الذي يلصق بعضه ببعض، واللازق: الذي يلزق [بما] أصابه. وقيل: لازب لازم. فالأربعة الألفاظ متقاربة.

قال النابغة: 999- ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب.

(يستسخرون) [14] يستدعون السخرية. وقيل: ينسبون الآيات إلى السخرية، كما تقول: استحسنته واستقبحته إذا وصفته بهما. (داخرون) [18] أذلاء صاغرون.

(وأزواجهم) [22] أشباههم، يحشر صاحب الزنا مع صاحب الزنا وصاحب الخمر مع صاحب الخمر. (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) [23]

دلوهم. قال ابن كيسان: قدموهم، والهادي: السابق. والهادية: العنق، وهاديات الوحش: أوائلها. قال امرؤ القيس: 1000- كأن دماء الهاديات بنحره/عصارة حناء بشيب مرجل. (وقفوهم) [24] احبسوهم، لازم ومتعد، قال الأعرابي:

1001- رئمت لسلمى بوضيم وإنني قديماً لآبي الضيم وابن أبات 1002- فقد وقفتني بين شك وشبهة وما كنت وقافاً على الشبهات. (تأتوننا عن اليمين) [28] تقهروننا بالقوة. قال الشماخ: 1003- رأيت عرابة الأوسي يسمو إلى الغايات منقطع القرين 1004- إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين. وقال الحسن: اليمين مثل [الدين]، أي: تأتوننا من قبله، فتصدوننا عنه.

(رزق معلوم) [41] لأن النفس إلى المعلوم منه اسكن. كما قال سلمان: "النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت). (بكأس من معين) [45] تسمية الخمر بالمعين على معاني

تسمية الماء: -إما من ظهورها للعين. -[أو] لامتداد العين بها لطول اتصالها، أو عدم انقطاعها. -أو لشدة جريها، من الإمعان في السير. -أو لكثرتها، من المعن، وهو الشيء الكثير، ومنه الماعون لكثرة الانتفاع به.

(لا فيها غول) [47] أي: أذى وغائلة. وقيل: لا تغتال عقولهم. كما قال: 1005- فما زالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأول الأول. (لا ينزفون) بكسر الزاي، أي: لا يسكرون، لئلا يقل حظهم من النعيم واللذات. قال [الأيرد] الرياحي:

*(60/650)*

---

1006- لعمري لئن أنزفتم أو صحوتم لبئس الندامى أنتم آل [أبجرا]. وقيل: لا [ينفد] شرابهم، ولا يعل عقولهم من باب "أقل" و"أعسر" و"أفنى" و"أنفد"، من نزفت الركية إذا استخرجت جميع مائها. ولا ينزفون بفتح الزاي على بناء الفعل للمفعول من هذا. ويقال منه: نزف الرجل فهو نزيف/ومنزوف. وفي الأول نزيف لا غير. قال المخزومي:

1007- قالت: واحق أبي وأكبر إخوتي لأنبهن الحي [إن] لم تخرج 1008- ولثمت فاها آخذاً بقورنها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج. (قاصرات الطرف) [48] يقصرن طرفهن على أزواجهن. قال امرؤ القيس: 1009- من القاصرات الطرف لودب محول

من الذر فوق الإتب منها لأثرا . (كأنهن بيض) [49]

في نقائها واستوائها . وبلغ من جهل ابن الراوندي بأشعار العرب ، ومحاسن التشبيه أن قال: ما في بيض النعام من محاسن [الجمال] ، حتى يصير موضع تشبيهها به ؟ ! والعرب تناقلت ذكره ، والقرآن على لسانهم ، قال الراجز في الجاهلية: 1010- كأن لون البيض في الأدحي 1011- لونك إلا صفرة الجادي . وقال عروة: 1012- وكأنهن [و]قد حسرن لواغباً بيض بأكناف الحطيم مركم . وقال الفرزدق: 1013- فجئن إلي لم يطمثن قبلي وهن أصح من بيض النعام .

(سواء الجحيم) [55] وسطه ، لاستواء البعد إليه من الجوانب . وقال: 1014- وصاحب غير ذي ظل ولا نفس هيجته في سواء البيد فاهتاجا . (شجرة الزقوم) [62] أخبث شجر . (طلعها ) [65] أي: ما يطلع منها وهو الثمر ، وقبح صورة الشيطان متقرر في النفوس ، فجرى التشبيه عليه وإن لم ير ، كما قال امرؤ القيس: 1015- اتقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال .

وقيل: إن الشياطين الحيات ، وأنشد : 1016- تلاعب مثنى حضرمي كأنه تعمج شيطان بذي خروع [قفر]/ . وما يشبه زماماً مضفوراً من أدم بتلوي حية في غيضة . (من حميم) [67] من ماء حار . وقيل: من عرق . وجاء الشعر في معناه ، قال: 1017- وليس بها ريح ولكن وديقة يظل [بها] الساري يهل وينقع .

[وقال]: 1018- بل بمعصور جناحي ضئيلة أفاويق منها هلة ونقوع. (ثم إن مرجعهم [68] معناه معنى الواو، وليس للتراخي، وهو كما قال عبدة بن الطبيب: 1019- لما وردنا رفعنا ظل أخبية وفار باللحم للقوم المراجيل 1020- وردا وأشقر لم يهنئه طابخه ما غير الغلي منه [فهو] مأكول 1021- ثم قمنا إلى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل. لم يريدوا التراخي بدليل أنهم [لم يهنئوا] اللحم، أي: لم ينضجوه، ولم يتفرغوا للتنظف وغسل اليد. (وتركنا عليه في الآخرين) [78] أبقينا له الثناء الحسن. (بقلب سليم) [84] سالم من الشك والرياء. (فما ظنكم برب العالمين) [87] حين خلقكم ورزقكم وعبدتم غيره. (فنظر نظرة في النجوم) [88] للاستدلال بها على الصانع. وقال الحسن: ليس هو نجوم السماء، ولكنه ما نجم في قلبه من [أمر] الأصنام، وقصد إهلاكها.

وقيل: إن علم النجوم كان حقاً، وكان من النبوة ثم نسخ. قال الضحاك: [إن علم النجوم كان] ثابتاً إلى [زمن] عيسى عليه السلام. والنسخ في مثل هذا الموضع بعيد، وإنما النسخ في الأحكام والشرائع، وما كان من علم النجوم ثابتاً من [تصريف] الله على أمور في العالم، فذلك ثابت أبداً.

وما ليس بثابت اليوم من فعلها في العالم بعلمها واختيارها ، فلم يكن ثابتاً ، إلا أن يقال: إن الاشتغال بمعرفتها والتوفر على ضبطها وتحصيلها نسخ ، فيكون/ذلك صحيحاً . وقيل: معناه أنه نبين بها أن الحركات العلوية معدة للتغيرات في السفلية ، ولا بقاء مع دورانها على الأشخاص البالية ، قال أسقف نجران: 1022- منع البقاء تصرف الشمس وطلوعها من حيث لا تمسي 1023- وطلوعها بيضاء صافية وغروبها صفراء كالورس 1024- اليوم يعلم ما يجيء به ومضى [بفصل] قضائه أمس

(62/650)

---

وقال أمية بن أبي [الـ]صلت: 1025- وكيف أعد الشاء مالاً وربما أتى سبع يغدو عليها فتشعب 1026- أو الإبل اللاتي إذا الشمس أشرقت عليها فماتت كلهن حين تغرب . (فقال إني سقيم) [89] أي: خلقت للموت ، فأنا سقيم أبداً . وقيل: إنه استدل بها على حدوث سقم في بدنه . والأولى القول الأول ، وذلك أنه أراد أن يتأخر عن عيد لهم ، ليتم كيده في أصنامهم ، [فاعتذر] بالسقم على تأويل أن المخلوق للموت والأسقام ، سقيم أبداً ، صحته داء ، وسلامته عناء قال لبيد :

1027- كانت قناتي لا [تلين] لغامز فألانها الإصباح والإمساء 1028- ودعوت

ربي بالسلامة جاهداً ليصحني فإذا السلامة داء . وقال حميد بن ثور: 1029- أرى بصري قد رابني بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلما 1030- فلن يلبث العصران يوم وليلة إذا تمما أن يدركا ما تيمما . وقال آخر: 1031- لعمرك [ما الدنيا] بدار إقامة إذا زال عن عين البصير غطاؤها 1032- وكيف بقاء المرء فيها وإنما ينال بأسباب الفناء بقاؤها .

وفي معاني هذه الأبيات ، وفي قولهم: 1033- كل يدور على البقاء بجهده وعلى الفناء يديره الأيام/ . وقولهم: 1034- يميتك ما يحييك في كل ساعة ويحدوك حاد يريد بك الهزءا . وغير ذلك . قالت الحكماء: إن تحلل الرطوبة التي منها خلقنا -وهو المني- والرطوبة الخاصة منها [لغذاء] القلب -وهي رطوبة دهنية لذيذة ملساء هي لنار القلب كالدهن [لشعلة] السراج- دائم أبداً ، بسببين: بالهواء المحلل من خارج ، وبالحرارة الغريزية وبالغريبة من داخل . وهذه الأسباب متعاوذ[نة] على التجفيف أولاً أولاً .



---

بل هذا الجفاف ضرورة الاستكمال ، والبلوغ من تتمة الأفعال . فإنا في أول الأمر ما [نكون] في غاية الرطوبة ، [وبحسب] ذلك كثرة الحرارة ، وإلا عفنت واحتنقت ، فهي تستولي

عليها ، [وتعمل] في أكلها وتجفيفها حتى يبلغ البدن الحد المعتدل ، ثم التجفيف يكون أقوى من الأول ، لأن المادة تهي أقبل فلا يزال يزداد حتى يفني رطوبة القلب بحرارته ، فتصير الحرارة الغريزية بالعرض سبباً لإطفاء نفسها ، وعند ذلك يعرف ، وجعل حياته بالفناء والآفات . فهو -وهو حي- ميت . كما قال عز من قائل: (إنك ميت وإنهم لميتون) . (فراغ عليهم) [93] مال إليهم . والروغ [والروغان] ذهاب في ختل وخفية . (ضرباً باليمين) بالقوة . وقيل: باليمين التي هي خلاف الشمال .

وقيل: بالحلف التي [تألى] بها في قوله: (وتالله لأكيدن أصنامكم) . وقول [الحادرة]:

1035- ولدى أشعث باسط ليمينه قسماً لقد أنضجت لم يتورع . يحتمل اليمينين التي هي خلاف الشمال ، والتي هي القسم . (يزفون) [94] يسرعون . زف يزف زفيفاً ، وأزف يزف إزفافاً . (فلما بلغ معه السعي) [102] أي: أوان/السعي في طاعة الله وعبادته .

(فانظر ماذا ترى) ليس ذلك على المؤامرة ، ولكنه اختبر بذلك أيجزع أم يصبر ، فقال: (ستجدني إن شاء الله من الصابرين) . (وتله) [103] صرعه على جبينه . وقال قطرب: ضرب به على تل . [وجواب] (فلما أسلما) : (وناديناه) فيكون الواو [مقحمة ، ] كما قال: 1036- حتى إذا [قملت] بطونكم ورأيتم أبناءكم شبوا

1037- وقلبتم ظهر المجن لنا إن اللئيم لعاجز [خب] . أي: قلبتم . ويجوز أن يكون

الجواب: (إن هذا لهو البلاء) ، أي: لما بلغ الأمر بهما إلى ما ذكر ، بلغ البلاء غايته . وقيل: إن البلاء ها هنا بمعنى النعمة ، بدليل ما تقدمه من: (وناديناه) وما تعقبه من: (وفديناه) .

وهذا كما قال أوس بن حجر: 1038- وقد غبرت شهري ربيع كليهما بحمل البلايا والخباء الممدد 1039- سنجزيك أو يجزيك عنا مثوب وحسبك أن يثنى عليك وتحمدي .

(64/650)

---

(وبشرناه بإسحاق نبيا) [112] أي: بشرناه بنبوته بعد ما بشرناه فيما مضى بولادته.

(آل ياسين) [130] يجوز أن يكون ياسين محمداً وأمته ، لأنهم أهل سورة يس . ويجوز أن يكون ياسين لغة في ياس على قراءة من قرأ "وإن إلياس" موصولاً . قال خداش بن زهير:

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ، مثل إبراهيم وإبراهام . ويجوز أن يكون لذلك النبي اسمان ، مثل: يعقوب وإسرائيل ، ومحمد وأحمد . وأما من قرأ (الياسين) بكسر الهمزة وسكون اللام ، فيقول أبو عمرو: إن الياسين لغة في إلياس ، مثل (وطور سينين) في (طور سيناء) ،

ويدل عليه ما في أواخر قصص الأنبياء المتقدمة من إعادة ذكرهم بالسلام . وقيل: إنه جمع

إلياس بعينه وأهل دينه بالياء والنون على العدد/بغير إضافة ، كما يقال: المهلبون والأشعرون . قال الراجز: 1040- أنا ابن سعد سيد السعدينا . (أتدعون بعلاً) [125] اسم صنم من ذهب يعبدونه . وبذلك الصنم سمي بعلبك ، كما يقال: بغ داد ، ولذلك غير فسمي مدينة المنصور ، ومدينة السلام ، إذ كان بغ اسم صنم .

وقيل: إذ[ه] الرب والسيد ، ويقال: من بعل هذه الدار . وقيل: إن البعل اسم الله بلغة اليمن ، وتقديره: أتدعون إلهاً غير الله . (مغاضباً) قيل: لقومه ، لاستحالة مغاضبة الله . ولكن قوله: (وهو مليم) يمنع من هذا التأويل ، لأن المليم هو المستحق للملام ، كما قال الأسدي: 1041- وإني أحب الخلد لو أستطيعه وكالخلد عندي أن أموت [ولم] ألم . وليست المغاضبة بمعنى المفاعلة بين الشيئين ، ولكن المتسخط [للشيء] الكئيب به ، يقال له: المغاضب ، كما قال الهذلي: 1042- يبيت إذا ما آنس الليل كانساً مبيت الغريب ذي الكساء المغاضب . ولما ركب السفينة خافوا الغرق من الأمواج . وقيل: من الحوت الذي عارضهم . فقالوا: [ههنا] عبد مذنب لا [ننجوا] أو نلقيه في البحر ، فاقترعوا ، فخرجت القرعة على يونس ، فألقوه وذلك قوله:

(فساهم) [141] أي: قارع بالسهام. (فكان من المدحضين) أي: المقروعين المغلوبين.

(فنبذناه بالعراء) [145] بالفضاء. (وهو سقيم) كالصبي المنفوس. (من يقطين)

[146] قرع. وقيل: إنه كل ما ينبسط ورقه على الأرض، وهو يفعيل من قطن بالمكان.

قال مقاتل: كان تأتي إليه وعلة فيشرب لبنها في مثل تلك الشجرة.

(أو يزيدون) [147] على شك [المخاطبين]، أو للإبهام عليهم، كأنه قيل إلى أحد

العددين. (فئامنوا فمتعناهم إلى حين) [148] أي: إلى حين موتهم. وإنما/آمنوا قبل

حضور العذاب، ولكنهم استدلوا بخروج يونس على العذاب، فآمنوا قبل أن [يبلغوا] إلى

حد اليأس والإلجاء. (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) [158]

قالوا: إن الملائكة بنات الله، حتى قال لهم أبو بكر: فمن أمهاتهم؟ وقيل: إنها الأصنام،

والنسب الشركة، [لأن] الجن [يكلمهم] منها، ويغويهم فيها. وهذا القول أولى، لقوله:

(إنهم لمحضرون) أي: مزعجوم في العذاب. (ما أنتم [عليه] بفاتنين) [162]

مضلين. (إنهم لهم المنصورون) [172] قال الحسن: لم يقتل نبي أمر بالجهاد.

[تمت سورة الصافات]. انتهى انتهى. اهـ ﴿باهر البرهان صـ 1127.1194﴾

وقال الأخفش :

سورة (الصافات)

﴿ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾

قال ﴿ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ على "أَنَّ أَلَهَكُمْ رَبُّ" ونصب بعضهم ﴿ رَبَّ السَّمَاوَاتِ ﴾ ﴿ وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ فجعله صفة للاسم الذي وقعت عليه "إِنَّ" والأول أجود لأن الأول في هذ المعنى وهو متناول بعيد في التفسير.

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾

وقال ﴿ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ فجعل ﴿ الكواكب ﴾ بدلا من "الزينة" وبعضهم يقول ﴿ بزينةِ الكواكبِ ﴾ وليس يعني بعضها ولكن زينتها حسنها .

﴿ وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾

وقال ﴿ وَحِفْظاً ﴾ لأنه بدل من اللفظ بالفعل كانه قال: "وَحَفَظْنَاهَا حِفْظاً" .

﴿ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾

وقال ﴿ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ وثقل بعضهم وليس للتثقيل معنى انما معنى التثقيل "المُتَصَدِّقِين" وليس هذا بذاك المعنى. انما معنى هذا من "التَّصْديق" [و] ليس** من "التَصَدُّقِ" [و] انما تضعّف هذه ويخفف ما سواها [163] "والصَّدَقَةُ" تضعّف صادها وتلك غير هذه. انما سئل رجل من صاحبه فحكى عن قرينه في الدنيا فقال:

﴿ كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ [51] يقول: ﴿ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ انا لنبعث بعد الموت. أي: اتؤمن بهذا ؟ أي: تصدق بهذا.

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾

وقال ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ كما تقول: "أَكَبَّهُ* لوجهه" و"أَكْبَبْتُهُ لِوَجْهِهِ" لأنه في المعنى شبه "أَقْصَيْتُهُ".

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾

وقال ﴿ مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ يقول: كانوا كذاك عندكم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 490. 491 ﴾

*(67/650)*

---

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة الصافات

مكية كلها

2، 3 - قال ابن مسعود «1»: الصَّافَّاتِ صَفًّا، فَالزَّاجِراتِ زَجْراً، فَالتَّالِياتِ ذِكْراً - هم الملائكة.

8 - لا يَسَّمَّعُونَ أي لا يتسمعون . فأدغمت التاء في السين .

إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى : ملائكة الله .

9 - دُحُوراً يعني طردا . يقال : دحرته دحرا ودحورا ، أي دفعته .

وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ أي دائم .

---

(1) هو عبد اللّه بن مسعود الهذلي وهو أحد القراء الأربعة ومن أهل السوابق في الإسلام ومن علماء الصحابة رضي اللّه عنهم أجمعين ، هاجر الهجرتين وصلى القبلتين وشهد له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بالجنة وسبب إسلامه

أنه مر عليه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وهو يرعى غنما لعقبة بن أبي معيط فأخذ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم منها شاة حائلا وصلبها فشرب وسقى أبا بكر ، فقال له ابن مسعود : علمني من هذا القول : فمسح رأسه وقال : «إنك عليم معلم» .

ومن كلامه رضي اللّه عنه : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلّا القرآن ، فإن كان يحب القرآن فهو يحب اللّه وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض اللّه ، وقال رضي اللّه عنه ، الذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت البقل والغنى ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل ، مات سنة إثنين وثلاثين عن نيف وستين سنة ودفن البقيع . (انظر شذرات الذهب ص 39 ج 1) .

10 - فَأَتْبَعَهُ أي لحقه شِهابٌ ثاقِبٌ : كوكب مضيء بين .

يقال : أثقب نارك ، أي أضئها . و«الثقوب» : ما تذكي به النار .

11 - فَاسْتَفْتِهِمْ أي سلهم .

مِنْ طِينٍ لازِبٍ أي لاصق لازم . والباء تبدل من الميم لقرب مخرجيهما .

12 - بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ قال قتادة ، «بل عجبت من وحي اللّه وكتابه ، وهم يسخرون [بما جئت به ]» .

14 - وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ أي يسخرون . يقال : سخر واستسخر ، كما يقال : قر واستقر . ومثله : عجب واستعجب . قال أوس بن حجر :

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زبنته الحرب لم يترمرم

ويجوز أن يكون : يسألون غيرهم - من المشركين - أن يسخروا من النبي صلى اللّه عليه وعلى آله وسلّم . كما تقول : استعتبته : سألته العتبي .

واستوهبته : سألته الهبة . واستعفيته سألته العفو .

22 - احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ أي أشكالهم . تقول العرب : زوجت إبلي ، إذا قرنت واحدا بآخر .

ويقال : قرناؤهم من الشياطين .

28 - كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ أي تخدعوننا وتفتنوننا عن طاعة اللّه. وقد بينت هذا في كتاب «المشكل».

47 - لا فِيها غَوْلٌ أي لا تغتال عقولهم، فتذهب بها. يقال:

«الخمر غول للحلم، والحرب غول للنفوس». وغالني غولا. و«الغول» البعد. وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ أي لا تذهب خمرهم وتنقطع، ولا تذهب



---

عقولهم. يقال: نزف الرجل، إذا ذهب عقله، وإذا نفد شرابه.

ونقرأ: يُنْزَفُونَ. من «أنزف الرجل»: إذا حان منه النزف، أو وقع النزف. كما يقال: أقطف الكرم، [إذا حان قطافه]، وأحصد الزرع [إذا حان حصاده].

48 - قاصِراتُ الطَّرْفِ أي قصرن أبصارهن على الأزواج ولم يطمعن إلى غيرهم، وأصل «القصر»: الحبس. عِينٌ نجل العيون، أي واسعاتها. جمع «عيناء».

49 - كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ العرب تشبه النساء ببيض النعام. قال امرؤ القيس:

كبكر المقانات البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير محلل

و«المكنون»: المصون. يقال: كننت الشيء، إذا صنته، وأكننته أخفيته.

51 - إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ أي صاحب .

53 - أَإِنَّا لَمَدِينُونَ أي مجزيون بأعمالنا . يقال : دنته بما صنع ، أي جزيته .

55 - سَواءِ الْجَحِيمِ : وسطها .

56 - إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ أي لتهلكني . يقال : أرديت فلانا ، أي أهلكته . و«الردي» : الموت والهلاك .

57 - لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ أي من المحضرين [في] النار .

62 - أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا ؟ أي رزقا . ومنه «إقامة الأنزال» . و«إنزال الجنود» . أرزاقها .

63 - إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ أي عذابا .

(70/650)

---

65 - طَلْعُها أي حملها . سمي طلعا لطلوعه في كل سنة .

67 - ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ أي خلطا من الماء الحار يشربونه عليها .

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ أي : وجدوهم كذلك .

70 - فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ أي يسرعون و«الإهراع» :

الإسراع وفيه شبية بالرّعدة.

78 - وَتَرَكْنا عَلَيْهِ أي أبقينا عليه ذكرا حسنا فِي الْآخِرِينَ أي في الباقين من الأمم.

88 و89 - فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ، فَقالَ: إِنِّي سَقِيمٌ مفسر في كتاب «تأويل المشكل».

93 - فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً أي مال عليهم يضربهم بِالْيَمِينِ و«الرواغ» منه.

94 - فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ أي: يسرعون إليه في المشي. يقال:

زفت النعامة.

97 - فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ أي في النار. و«الجحيم»: الجمر. قال عاصم بن ثابت:

وضالة مثل الجحيم الموقد أراد: سهاما مثل الجمر. ويقال: «رأيت جحمة النار» أي

تلهبها، و«للنار جاحم» أي توقد وتلهب.

102 - فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ أي بلغ أن ينصرف معه ويعينه، قالَ: يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي

الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ أي سأذبحك.

(71/650)

---

ولم يرد - فيما يرى أهل النظر - أنه ذبحه في المنام. ولكنه امر في المنام بذبحه فقال: إني أرى

في المنام أني سأذبحك.

ومثل هذا : رجل رأى في المنام انه يؤذن – والأذان دليل الحج – فقال :

إني رأيت في المنام أني أحج ، أي سأحج .

وقوله : يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ . دليل على أنه امر بذلك في المنام .

103 – فَلَمَّا أَسْلَما أي استسلما لأمر اللّه . و«سلما» مثله وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، أي صرعه على جبينه ، فصار أحد جبينيه على الأرض . وهما جبينان والجبهة بينهما . وهي : ما أصاب الأرض في السجود .

وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ : قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا أي حققت الرؤيا أي صدقت الأمر في الرؤيا وعملت به .

106 – إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ أي الاختبار العظيم .

107 – وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ أي بكبش . والذبح : اسم ما ذبح .

والذبح بنصب الذال : مصدر ذبحت .

125 – أَتَدْعُونَ بَعْلًا أي ربا . يقال : أنا بعل هذه الناقة ، أي ربها . وبعل الدار ، أي مالكها .

ويقال : بعل صنم كان لهم .

140 – إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ

أي السفينة المملوءة .

141 - فَسَاهَمَ

أي فقارع، فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ

أي من المقروعين. يقال: أدحض الله حجته فدحضت، أي أزالها فزالت. وأصل الدحض: الزلق.

وقال ابن عيينة: فَسَاهَمَ

أي قامر. فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ

أي المقمورين».

(72/650)

---

142 - وَهُوَ مُلِيمٌ أي مذنب. يقال: ألام الرجل، إذا أذنب ذنبا يلام عليه.

143 - فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ يقال: من المصلين.

145 - فَنَبَذْنَاهُ ألقيناه بِالْعَرَاءِ وهي: الأرض التي لا يتواري فيها بشجر ولا غيره. وكأنه من عرى الشيء.

146 - و(اليقطين): الشجر الذي لا يقوم على ساق. مثل القرع والحنظل والبطيخ. وهو: يفعيل.

147 - وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ أي ويزيدون . و«أو» معنى «الواو» . على ما بينت في «تأويل المشكل» .

149 - فَاسْتَفْتِهِمْ أي سلهم .

156 - أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ أي حجة بينة .

158 - و160 - وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا يقول : جعلوا الملائكة بنات اللّه ، وجعلوهم من الجن .

وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ يريد : الذين جعلوهم بنات الله ، لَمُحْضَرُونَ النار . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ .

162 - ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ أي بمضلين .

163 - إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ أي من قضي عليه أن يصلي الجحيم .

164 - وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ هذا قول الملائكة .

166 - وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ أي المصلون .

167 - وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ يعني : أهل مكة .

170 - فَكَفَرُوا بِهِ، بمحمد صلى اللّه عليه وعلى آله. أي كذبوا بأنه مبعوث. انتهى

انتهى. اهـ ﴿تأويل مشكل القرآن صـ 317.323﴾

*(74/650)*

---

وقال الغزنوى:

ومن سورة الصافات

1 وَالصَّافَّاتِ: الملائكة «1»، لأنها صفوف في السّماء «2»، أو تصفّ أجنحتها حتى يؤمروا بما خلقوا لها.

2 فَالزَّاجِراتِ زَجْراً: أي: زجرا تدركه القلوب كما تدرك وسوسة الشّيطان «3».

---

(1) هذا قول الجمهور، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره: 438 عن ابن مسعود، وقتادة.

وأخرجه الطبري في تفسيره: 23/ 33 عن ابن مسعود، وقتادة، ومجاهد، والسدي.

وأخرجه الحاكم في المستدرك: 2/ 429 عن ابن مسعود رضي اللّه عنه، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 7/ 78، وزاد نسبته إلى الفريابي، وعبد بن حميد،

والطبراني، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود.

وحكى الطبري - رحمه الله تعالى - إجماع أهل التأويل على هذا القول.

(2) نقله الماوردي في تفسيره: 3/ 404 عن مسروق، وقتادة. وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير: 7/ 44 إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(3) ينظر هذا المعنى في تفسير الفخر الرازي: 26/ 115، وتفسير القرطبي: 15/ 62، وروح المعاني: 23/ 65.

(75/650)

---

3 فَالتَّالِياتِ ذِكْراً: تلاوة كتاب الله على أنبيائه «1». أو ذِكْراً [81/ ب] تسبيحه وتقديسه «2»، وهذه/ جمع الجمع، لأنّ الملائكة ذكور فجمعهم «صافّة ثم صافات».

6 بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ: الزينة اسم، أي: بزينة من الكواكب.

7 وَحِفْظاً: حفظناها حفظا.

مارِدٍ: خارج إلى أعظم الفساد «3».

9 دُحُوراً: قذفا في النار «4»، وقيل «5»: دفعا بعنف.

واصِبٌ: دائم «6».

10 إِلَّا مَنْ خَطِفَ : استلب السّمع واسترق .

شِهابٌ ثاقِبٌ : شعلة من النار يثقب ضوؤها .

11 أَمْ مَنْ خَلَقْنا : من السماء والأرض «7» ، أو من الملائكة «8» ، أو

---

(1) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 45 ، وقال : «قاله ابن مسعود ، والحسن ، والجمهور» .

(2) المحرر الوجيز : 12/ 333 .

(3) اللسان : 3/ 400 (مرد) ، وروح المعاني : 23/ 69 .

(4) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 406 عن قتادة .

(5) انظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 369 ، وتفسير الطبري : 23/ 39 ، وتفسير الماوردي :

3/ 406 .

(6) معاني القرآن للفراء : 2/ 383 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 166 ، وغريب القرآن لليزيدي : 314 ، والمفردات للراغب : 524 .

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 23/ 41 عن مجاهد ، وقتادة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 81 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد رحمه اللّه تعالى .

(8) نقله الماوردي في تفسيره: 3/ 407 عن سعيد بن جبير، وأورده السيوطي في الدر المنثور:

7/ 81، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.

(76/650)

---

من الأمم الذين أهلكوا «1».

لازب: لاصق، لازق، لازم: ألفاظ أربعة متقاربة «2».

14 يَسْتَسْخِرُونَ: يستدعون السّخرية «3»، أو ينسبون الآيات إلى السّخرية [كقولك] «4» استحسنته: وصفته به.

18 داخِرُونَ: أذلّاء صاغرون «5».

21 يَوْمُ الْفَصْلِ: يوم يفصل بينكم بالجزاء.

22 وَأَزْواجَهُمْ: أشباههم، يحشر الزاني مع الزاني «6».

23 فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ: دلّوهم وحسنت الهداية فيه لأنّها أوقعت موقع الهداية إلى الجنّة، وهو كقوله «7»: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ.

24 وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ: أي: «عن عمره فيما أفناه، وعن جسده

---

(1) ذكره الماوردي في تفسيره: 3/ 407، وقال: «حكاه ابن عيسى».

(2) انظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 369، ومعاني القرآن للزجاج: 4/ 299، واللسان:

1/ 738 (لزب). [.....]

(3) قال الماوردي في تفسيره: 3/ 408: «هو أن يستدعي بعضهم من بعض السخرية بها لأن الفرق بين «سخر» و«استخسر» كالفرق بين «علم» و«استعلم»..».

(4) في الأصل و«ج»: «كقوله»، والمثبت في النص عن «ك».

(5) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 168، وغريب القرآن لليزيدي: 315، ومعاني الزجاج:

4/ 301، والمفردات للراغب: 166.

(6) ورد هذا المعنى في أثر أخرجه الطبري في تفسيره: 23/ 46 عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأخرجه - أيضا - عن ابن عباس، ومجاهد، وأبي العالية، والسدي، وابن زيد.

وأخرجه الحاكم في المستدرك: 2/ 430 عن عمر بن الخطاب، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 7/ 83، وزاد نسبته إلى عبد الرازق، والفريابي،

وابن أبي شيبة، وابن منيع في مسنده، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث» - كلهم - عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه.

(7) بعض آية 21 من سورة آل عمران، وآية 34 سورة التوبة، وآية 24 سورة الانشقاق.

(77/650)

---

فيما أبلاه، وعن ماله ممّ اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه فيما عمل به» «1».

27 يَتَساءَلُونَ: يقول هذا لذاك: لم غرّرتني؟ وذلك يقول: لم قبلت مني؟.

28 تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ: تقهروننا بالقوة «2»، أو «اليمين» مثل الدّين، أي: تأتوننا من قبله فتصدّوننا عنه «3».

41 رِزْقٌ مَعْلُومٌ: لأنّ النّفس إلى المعلوم أسكن.

45 بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ: سمّيت الخمر ب «المعين» إمّا من ظهورها للعين، أو لامتداد العين بها لبعد اطّرادها، أو لشدّة جريها، من «الإمعان»

---

(1) ورد هذا المعنى في عدة آثار من عدة طرق، منها ما أخرجه الدارمي في سننه: (1/ 144، 145) حديث رقم 537، باب «من كره الشهرة والمعرفة» عن أبي برزة

الأسلمي مرفوعا ، وأخرجه - أيضا - الترمذي في سننه : 4/ 612 ، كتاب صفة القيامة ، باب «في القيامة» عن ابن عباس رضي اللّه عنهما مرفوعا ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وأخرجه - أيضا - عن ابن مسعود رضي اللّه عنه مرفوعا ، وفي إسناده الحسين بن قيس الرّحبي المعروف ب «حنش» ، وهو ضعيف متهم كما في التقريب : 168 .

قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود عن النبي صلى اللّه عليه وسلم إلا من حديث الحسين بن قيس ، وحسين بن قيس يضعّف في الحديث من قبل حفظه .

والحديث أخرجه ابن عدي في الكامل : (2/ 763 ، 764) عن ابن مسعود مرفوعا ، وفي إسناده - أيضا - الحسين بن قيس الرّحبي .

كما أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : 11/ 102 ، حديث رقم (11177) عن ابن عباس رضي اللّه عنهما مرفوعا .

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : 10/ 349 : وفيه حسين بن الحسن الأشقر ، وهو ضعيف جدا ، وقد وثقه ابن حبان مع أنه يشتم السلف .

(2) و «اليمين» في اللغة القوة والقدرة .

انظر معاني القرآن للفراء : 2/ 384 ، وتفسير الطبري : 23/ 49 ، واللسان : 13/

461 (يمن) .

(3) ذكره الفراء في معانيه: 2/ 384، وأخرج - نحوه - الطبري في تفسيره: 23/ 49 عن مجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد .

وانظر معاني القرآن للزجاج: 4/ 302، وتفسير الماوردي: 3/ 411 .

(78/650)

---

في السّير، أو لكثرتها، من «المعن» وهو الكثير، و«الماعون» لكثرة الانتفاع به .

ويقال «شرب معون» لا يكاد ينقطع «1» .

46 بَيْضاءَ: مشرقة منيرة فكأنّها بيضاء .

47 لا فِيها غَوْلٌ: أذى وغائلة «2»، أو لا تغتال عقولهم «3» .

ولا يُنْزِفُونَ «4»: لا يسكرون لئلا يقل حظهم من النّعيم، أو لا ينفد شرابهم، من باب «أقل» و«أعسر» .

48 قاصِراتُ الطَّرْفِ: يقصرن طرفهن على أزواجهن «5» .

49 كَأَنَّهُنَّ/ بَيْضٌ: في نقائها واستوائها .

مَكْنُونٌ: مصون «6»، أو الذي يكنّه ريش النّعام «7» .

(1) راجع ما سبق في تفسير الطبري: 23/ 52، ومعاني القرآن للزجاج: 4/ 303، واللسان:
(13/ 410، 411) (معن).

(2) تفسير الطبري: 23/ 53، وتفسير الماوردي: 3/ 412، واللسان: 11/ 509 (غول).

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 23/ 54 عن السدي، وذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن: 2/ 169، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 371، والزجاج في معانيه: 4/ 303.

(4) قرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي، وقرأ الباقون بفتحها.

قال الزجاج في معانيه: 4/ 303: «فمن قرأ يُنْزَفُونَ فالمعنى: لا تذهب عقولهم بشربها، يقال للسكران نزيف ومنزوف. ومن قرأ ينزفون، فمعناه: لا ينفدون شرابهم، أي: هو دائم أبدا لهم.

ويجوز أيكون يُنْزَفُونَ: «يسكرون».

وانظر معاني القرآن للفراء: 2/ 385، وغريب القرآن لليزيدي: 316، وتفسير الطبري:
23/ 55، والسبعة لابن مجاهد: 547، والكشف لمكي: 2/ 224.

(5) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 371، وتفسير الطبري: 23/ 56، ومعاني القرآن للزجاج:

4/ 56.

(6) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 170، وغريب القرآن لليزيدي: 317، والمفردات للراغب:

442. [.....]

(7) ذكره الزجاج في معانيه: 4/ 304، ونقله الماوردي في تفسيره: 3/ 413 عن الحسن رحمه الله.



---

مدينون «1»: مجزيّون «2».

55 سَواءِ الْجَحِيمِ: وسطها، لاستواء المسافة منه إلى الجوانب «3».

أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ: يقوله المؤمن سرورا بنعمة الله، أو توبيخا لقرينه بما كان ينكره «4».

62 شَجَرَةُ الزَّقُّومِ: أخبث شجر، وتزقّم الطعام: تناوله على كره «5».

65 طَلْعُها: ما يطلع منها، وقبح صورة الشّيطان متقرّر فجرى الشبيه عليه وإن لم ير.

67 مِنْ حَمِيمٍ : ماء حار .

68 ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ : النار الموقدة ، وذلك يدل أنهم في تطعّمهم الزقوم بمعزل عنها ، كما قال «6» : يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ .

77 وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ : النّاس كلّهم من ذرّيّته ، فالعرب والعجم أولاد سام ، والسّودان أولاد حام ، والتّرك والصقالبة أولاد يافث «7» .

78 وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ : أبقينا له الثناء الحسن «8» .

---

(1) قوله تعالى : أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ [آية : 53] .

(2) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 170 ، وغريب القرآن لليزيدي : 316 ، وتفسير الطبري :

23/ 60 .

(3) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 3/ 414 .

(4) ذكره البغوي في تفسيره : 4/ 28 دون عزو ، وكذا الزمخشري في الكشاف : 3/ 342 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 12/ 363 .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 61 ، وقال : «ذكره الثعلبي» .

(5) الصحاح : 5/ 1942 (زقم) ، وتفسير الفخر الرازي : 26/ 141 .

(6) سورة الرحمن : آية : 44 .

(7) انظر تاريخ الطبري: (1/ 201 - 203)، وتفسير الماوردي: 3/ 417، والتعريف والإعلام: 145.

(8) معاني القرآن للفراء: 2/ 387، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 372، وتفسير الطبري:

23/ 68، وتفسير الماوردي: 3/ 417.

(80/650)

---

84 بِقَلْبٍ سَلِيمٍ: سالم من الشّك والرياء.

87 فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ: أنّه [ماذا] «1» يصنع بكم حين خلقكم ورزقكم وعبدتم غيره «2»؟.

88 فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ: للاستدلال بها على الصّانع، أو ليس هو نجوم السّماء، بل ما نجم في قلبه من الأصنام «3»، وقصد إهلاكها.

وقيل: كان علم النّجوم حقا ومن النّبوة، ثم نسخ «4». بل النّسخ في الأحكام وما كان من علم النّجوم ثابتا من تصريف الله على أمور في العالم، فذلك ثابت أبدا وما ليس بثابت اليوم من فعلها في العالم من تلقاء أنفسها فلم يكن قطّ إلّا أن يقال: الاشتغال بمعرفتها نسخ، فيكون

صحيحا .

89 فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ : استدل بها على سقم في بدنه ، أو خلقت للموت فأنا سقيم أبدا «5» .

---

(1) ما بين معقوفين عن «ج» و«ك» .

(2) تفسير الطبري : 23/ 70 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 308 ، وتفسير البغوي : 4/ 30 .

(3) نقل المؤلف - رحمه اللّه تعالى - هذا القول في كتابه وضح البرهان : 2/ 229 عن الحسن رحمه اللّه .

(4) نقله المؤلف في وضح البرهان : 2/ 230 عن الضحاك .

وذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 418 ، والقرطبي في تفسيره : 15/ 92 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وقال ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن : (335 ، 336) : «يريد علم النجوم ، أي في مقياس من مقاييسها ، أو سبب من أسبابها ، ولم ينظر إلى النجوم أنفسها . يدل على ذلك قوله : فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ، ولم يقل : إلى النجوم . وهذا كما يقال : فلان ينظر في النجوم ، إذا كان حسابها ، وفلان ينظر في الفقه والحساب والنحو .

وإنما أراد بالنظر فيها أن يوهمهم أنه يعلم منها ما يعلمون ، ويتعرف في الأمور من حيث

يتعرفون، وذلك أبلغ في المحال، وألطف في المكيدة . . .» .

(5) قال الزجاج في معانيه: 4/ 308: «وإنما قال: إِنِّي سَقِيمٌ، لأن كل واحد وإن كان معافى فلا بد أن يسقم ويموت، قال اللّه تعالى: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ، أي: إنك ستموت فيما يستقبل، كذلك قوله: إِنِّي سَقِيمٌ، أي سأسقم لا محالة» .

وانظر أقوال العلماء في توجيه هذه الآية في تأويل مشكل القرآن: 336، وتفسير الطبري: 23/ 71، وتفسير الماوردي: 3/ 418، وتفسير الفخر الرازي: 26/ 148 .

[. . . . . .]

(81/650)

---

93 فَراغَ عَلَيْهِمْ: مال «1»، ضَرْباً بِالْيَمِينِ: بالقوة «2»، أو باليمين الذي هي خلاف الشّمال «3»، أو بالحلف التي تألّى بها «4»، فمن قوله «5» :

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ .

94 يَزِفُّونَ: يسرعون «6» . زفّ يزفّ زفيفا وأزفّ إزفافا . والزّفيف: ابتداء عدو النعام «7» .

102 فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ: أوان السّعي في عبادة اللّه «8»، أو أطاق أن يسعى معه .

[82/ب] فَانْظُرْ ما ذا تَرى: ليس على/ المؤامرة، ولكن اختبره أيجزع أم يصبر «9».

فقال: سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ.

103 وَتَلَّهُ: أضجعه على جبينه، أو ضرب به على تلّ «10».

---

(1) معاني القرآن للفراء: 2/ 388، وتفسير الطبري: 23/ 73، ومعاني الزجاج: 4/ 409.

(2) معاني الفراء: 2/ 384، وتفسير الطبري: 23/ 73، واللسان: 13/ 461 (يمن).

(3) نقله الماوردي في تفسيره: 3/ 419 عن الضحاك، وقال: «لأنها أقوى والضرب بها أشد».

وانظر تفسير البغوي: 4/ 31، وزاد المسير: 7/ 68، وتفسير ابن كثير: 7/ 22.

(4) ذكره الطبري في تفسيره: 23/ 73، والماوردي في تفسيره: 3/ 419، والبغوي: 4/ 31.

(5) سورة الأنبياء: آية: 57.

(6) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 171، وغريب القرآن لليزيدي: 317، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 372، والمفردات للراغب: 213.

(7) ذكره الزجاج في معانيه: 4/ 309.

وانظر اللسان: 9/ 137، وتاج العروس: 23/ 393 (زفف).

(8) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره: 3/ 421 عن ابن زيد، وكذا البغوي في تفسيره

:

4/ 32، وابن الجوزي في زاد المسير: 7/ 72، والقرطبي في تفسيره: 15/ 99.

(9) عن تفسير الماوردي: 3/ 422، ويريد ب «المؤامرة» هنا: الأمر.

ينظر معاني القرآن للفراء: 2/ 390، وزاد المسير: 7/ 75.

(10) نقل المؤلف- رحمه الله- هذا القول في كتابه وضح البرهان: 2/ 235 عن

قطرب.

(82/650)

---

ويروى «1» أنه كلما اعتمد بالشّفرة عليه انقلبت. ويروى أنه يذبح ويصل الله ما يفرى فلا

فصل.

وإنما قيل للنبيّ إنّه من المؤمنين «2» ترغيبا في الإيمان.

112 وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا: بشرناه بنبوّته بعد ما بشرناه بولادته.

130 «ياسين»: محمد وأمّته لأنّه أهل سورة ياسين «3».

125 أَتَدْعُونَ بَعْلًا : صنم من ذهب ، وبه سمّي بعلبك «4» .

مُغاضِباً «5» : المغاضب المتسخط للشّيء الكئيب به ، ولمّا ركب السّفينة خافوا الغرق ، فقالوا : هنا عبد مذنب لا ننجو أو نلقيه في البحر ، فخرجت القرعة على يونس ، فذلك قوله : فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ

أي : قارع بالسّهام «6» .

---

(1) ذكر نحوه القرطبي في تفسيره : 15/ 102 ، وأورده السيوطي في الدر المنثور : (7/ 109 - 111) ، وعزا إخراجه إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن مجاهد .

ونسبه - أيضا - إلى الخطيب في «تالي التلخيص» عن فضيل بن عياض رضي اللّه عنه .

(2) في قوله تعالى : إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ [آية : 111] .

(3) أورده البغوي في تفسيره : 4/ 41 ، وقال : «وهذا القول بعيد ، لأنه لم يسبق له ذكر» .

وأبطله السهيلي في التعريف والإعلام : 148 وأورد الأدلة على ذلك .

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 23/ 92 عن الضحاك ، وابن زيد .

وذكره الفراء في معانيه : 2/ 392 ، والماوردي في تفسيره : 3/ 425 ، والقرطبي في تفسيره : 15/ 116 . [. . . . .]

(5) هذه اللفظة الكريمة من الآية 87 من سورة الأنبياء ، وقد وردت في سياق قصة يونس

عليه السلام هناك .

(6) ورد ذلك في عدة آثار ، منها ما أخرجه عبد الرازق في تفسيره : 2/ 154 عن طاوس عن أبيه ، والطبري في تفسيره : 23/ 98 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 121 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم عن ابن عباس .

كما عزا إخراجه إلى أحمد في «الزهد» ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر عن طاوس .

وانظر تفسير البغوي : 4/ 42 ، وتفسير ابن كثير : 7/ 33 .

(83/650)

---

مِنَ الْمُدْحَضِينَ

: المقروعين المغلوبين «1» .

145 فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ : بالفضاء .

وَهُوَ سَقِيمٌ : كالصّبي المنفوس «2» .

146 مِنْ يَقْطِينٍ : [من ] «3» قرع «4» ، أو ما يبسط ورقه على الأرض ، «يفعيل» من قطن بالمكان «5» .

147 أَوْ يَزِيدُونَ : على شكّ المخاطبين «6» ، أو للإبهام كأنه قيل أحد العددين «7» .

158 وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً : قالوا : الملائكة بنات اللّه حتى قال لهم أبو بكر : فمن أمهاتهم «8» ؟ .

أو الْجِنَّةِ : الأصنام لأن الجنّ تكلّمهم منها وتغويهم فيها ،

---

(1) معاني القرآن للفراء : 2/ 393 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 374 ، ومعاني الزجاج: 4/ 313 .

(2) في تفسير الطبري : 23/ 101 : «وهو كالصبي المنفوس : لحم نيئ» .

والنفوس : الطفل الصغير حين يولد .

الصحاح : 3/ 985 ، واللسان : 6/ 239 (نفس) .

(3) عن نسخة «ج» .

(4) القرع : بإسكان الراء وتحريكها ، نبات معروف ، وأكثر ما تسميه العرب : الدّباء .

اللسان : 8/ 269 (قرع) .

(5) عن معاني القرآن للزجاج : 4/ 314 ، وانظر الصحاح : 6/ 2183 ، واللسان : 13/ 345 (قطن) ، والتعريف والإعلام للسهيلي : 149 .

(6) تفسير الطبري : 23/ 104 ، ومعاني الزجاج : 4/ 314 ، وزاد المسير : 7/

90، وتفسير القرطبي: 15/ 132.

وهو أولى الأقوال عند الفخر الرازي في تفسيره: 26/ 166.

(7) انظر معاني القرآن للزجاج: 4/ 314، وتفسير الفخر الرازي: 26/ 166.

(8) أخرجه الطبري في تفسيره: 23/ 108 عن مجاهد.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 7/ 133، وزاد نسبته إلى آدم بن إياس، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن مجاهد رحمه الله.

*(84/650)*

---

والنّسب: الشّركة، وهذا أولى لقوله: لَمُحْضَرُونَ أي: مزعجون في العذاب، فيكون على القول الأول لَمُحْضَرُونَ قائلو هذا القول.

بِفاتِنِينَ «1»: مضلّين «2».

164 مَقامٌ مَعْلُومٌ: لا يتجاوزه.

165 لَنَحْنُ الصَّافُّونَ: حول العرش «3».

172 إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ: لم يقتل نبيّ أمر بالجهاد.

وفي الحديث «4»: «من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر فليكن آخر كلامه في

مجلسه: سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ . . . الآيات. انتهى انتهى. ا هـ ﴿معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 695. 705﴾

---

(1) من قوله تعالى: ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ [آية: 162].

(2) معاني القرآن للفراء: 2/ 394، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 375، وتفسير الطبري:

23/ 109، والمفردات للراغب: 372.

(3) وهو معنى قوله تعالى: وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ [الزمر: آية: 75].

وانظر تفسير الماوردي: 3/ 430، وتفسير ابن كثير: 7/ 115.

(4) أخرجه البغوي في تفسيره: 4/ 46 عن علي رضي اللّه تعالى عنه موقوفا.

وأورده ابن كثير في تفسيره: 7/ 42، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم عن الشعبي مرسلا، وأخرجه عبد الرازق في المصنف: 2/ 237، كتاب الصلاة، باب «التسبيح والقول وراء الصلاة» عن علي رضي اللّه عنه بلفظ: «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى فليقل عند فروغه من صلاته . . .». [. . . . .]

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الصافات

عدد 6 - 56 - 37

نزلت بمكة بعد الأنعام ، وهي مئة واثنتان وثمانون آية ، وثمنمئة وستون كلمة ، وثلاثة آلاف وستة وعشرون حرفا ، لا يوجد في القرآن سورة مبدوءة بما بدئت به ، ولا مثلها في عدد الآي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "وَالصَّافَّاتِ" الملائكة المصطفين لعظمة ربهم والخيل المصطفة بالمجاهدين لطاعته ، والحيتان الصافة بالمياه بأمره ، والطيور المصطفة بالهواء بقدرته "صَفًّا" 1 باستقامة واحدة أكثر انتظاما من أهل الدنيا الذين تعلموا هذا الاحترام وغيره من الكتب السماوية ، أخرج أبو داود عن جابر بن سمرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : ألا تصطفوا كما تصطف الملائكة عند ربهم ؟ قلنا وكيف تصطف الملائكة عند ربهم ؟ قال يتممون الصفوف المتقدمة ويتراصون في الصف "فَالزَّاجِراتِ زَجْراً" بالآيات الآمرة بالحق الزاجرة عن الباطل ومعنى الزجر الدفع قال :

زجر أبي عروة السباع إذا اشفق أن يختلطن بالغنم

ويأتي بمعنى السوق الحثيث والحث "فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً" 3 لآيات اللّه تعالى من القرآن العظيم وغيره من الكتب السماوية على الغير ، هذا إذا أريد بالتاليات الملائكة الذين وكل إليهم أمر الوحي إلى الأنبياء ، وإذا أريد الإطلاق فتعم كل قارئ لذكر اللّه تعالى والإطلاق أحسن من التقييد ، وقد أقسم اللّه تعالى بهذا الصنف من الملائكة لما لها من المزية على غيرها بما عهد لها به من ذلك وجواب القسم "إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ" 4 لا رب لكم غيره وهو "رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ" 5 والمغارب أيضا وهي ثلاثمائة وخمسة وخمسون



---

مشرقا ومغربا ، لأن الشمس كل يوم تطلع بحسب ما نراه من أفق وتغيب في أفق أي في طرفه وجهته ، وجاء في الآية الأخرى (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) 17 من سورة الرحمن باعتبار مشرقي الصيف ومغربي الشتاء ، لأنها بحسب ما نراه تبدأ بالطلوع من جهة الأفق وتبقى تتدرج حتى تنتهي لمستقر لها في جهته الأخرى ثم ترجع تدريجيا أيضا حتى تنتهي لمقرها الأول وفي الغروب هكذا دواليك ، فبهذا الاعتبار يكون مشرقين ومغربين ، وباعتبار الآية المفسرة يكون مشارق ومغارب ، وفي قوله تعالى (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)

الآية 18 من سورة الشعراء المارة في ج 1 باعتبار أن المشرق كله جهة واحدة والمغرب كذلك فلا تنافي بين هذه الآيات ووجه الجمع بينها ما ذكرناه ، وفي هذه الآية ردّ لما يقوله الكفار بوجود آلهة متعددة .

مطلب انقضاض الشهب واستراق السمع وما يحصل من الانقضاض ومعنى التعجب :

قال تعالى "إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا" القربى منكم أيها الناس "بِزِينَةٍ" عظيمة بديعة يعجز عن بعضها كل من وما في الكون وهي "الْكَواكِبِ" 6 المنيرة فيها بأنواعها وأشكالها المتناسبة والمختلفة في اللون والحجم والضياء والسير والتسمية ، فهذه الجوزاء وبنات نعش والميزان والثريا ، وتلك القلادة والنثرة والبلدة والزهراء ، وأولئك الجدي وسهيل والعقرب وغيرها مرصعة على زرقة السماء الواسع العظيم .

قال :

فكأن أجرام النجوم لوامعا درر نثرن على بساط أزرق



---

فلا أبدع ولا أحسن من مرآها جل الإله الذي براها ، وللكواكب فوائد جمة غير الزينة والضياء لمعرفة الجهات والمواسم والتأثيرات التي أودعها اللّه فيها مما عرفه الإنسان ومما لم

يعرفه "وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ" 7 عات إذ يرمى منها بشهب محرقة لأجل أن "لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى " من الملائكة الذين يتلقون كلام ربهم المقدس فينقلون ما يسمعونه إلى الكهنة والسحرة فيتكلمون بها إلى الناس ويوهمونهم بأنهم يعلمون الغيب "وَيُقْذَفُونَ" أولئك المتسمعون بشهبها "مِنْ كُلِّ جَانِبٍ 8" من آفاق السماء فيطردونهم طردا ويدحرونهم "دُحُوراً" فيبعدونهم عن مجالس الملائكة ، وهذا عذابهم في الدنيا "وَلَهُمْ" في الآخرة "عَذَابٌ وَاصِبٌ 9" دائم شديد لا ينقطع ، قال أبو الأسود الدؤلي :

لا أشتري الحمد القليل بقاؤه يوما بذم الدهر أجمع واصبا

"إِلَّا مَنْ" أي الشيطان الذي "خَطِفَ الْخَطْفَةَ" منهم بأن أخذ الكلام بسرعة زائدة "فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ" بشدة قوته ، فإما يحرقه فيهلكه أو يخبله ، ومع هذا كله فإنهم يعودون لاستراق السمع الكرة تلو الكرة طمعا في السلامة من إصابة الشهب ورجاء لنيل المقصود ، ولولا الأمل ما خاطر أحد في تجارة برا ولا بحرا ولا في زراعة بعلا ولا سقيا ولبطل عمل ابن آدم فضلا عن الشياطين .

وهنا معجزة من معجزات القرآن إذ لا يعلم أحد أن النجوم الصغار في سماء محيطنا قبل توسع علم الهيئة غير الله تعالى القائل

"فَاسْتَفْتِهِمْ" يا سيد الخلق "أَهُمْ" قومك المعاندون لنا "أَشَدُّ خَلْقاً" أقوى وأعظم "أَمْ مَنْ خَلَقْنا" من الملائكة والسموات والأرض والكواكب والبحار والجبال بل هم أضعف وأحقر "إِنَّا خَلَقْناهُمْ" أي أصلهم آدم عليه السلام "مِنْ طِينٍ لازِبٍ 11" لزج يلصق باليد ويجوز أن تطلق هذه الآية على بني آدم باعتبار أنهم خلقوا من التراب لأن مادتهم المكون منها جسمهم حاصلة من التراب ومن كان أصله من تراب فهو في غاية الضعف بالنسبة للمخلوقات الأخر ومن كان كذلك لا يليق به أن يتكبر ويتعظم وينكر قدرتنا على إعادته من رميم خلقه الأول وهو تراب أيضا قال النابغة :

فلا تحسبون الخير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب

هذا وليعلم أن الشهاب عبارة عن شعلة نارية تنقضّ من الكوكب لا نفس الكوكب لأن أصغر الكواكب عند الإسلاميين كالجبل العظيم ، وعند الفلاسفة أعظم لأن صغار الثوابت عندهم أعظم من الأرض ، وهذه لا تنقض ولو انقضت لسمع لها دوي هائل ، ولم يسبق أن سمع لها صوت ، ولو فرض محالا عدم الصوت لاختلت زينة السماء بنقص ما ينقض منها ولم يكن شيء من ذلك والمشاهدة أكبر برهان ، ولا هو ايضا نور الكواكب ، لأن النور لا أذى به ولا احتراق ، فالأرض مملوءة بنور الشمس ولم ينشأ منها إلا النفع ، ولو كان

المنقض منها نورا لا تنقص ضوءه وسبب انتقاص الزينة أيضا ، ولم يشاهد في شيء منها ذلك أصلا ، ولم ينقل إلينا منه شيء منذ نشأة الكون حتى الآن فثبت من هذا أن المنقض

(89/650)

---

شعلة نارية يخلقها اللّه تبارك وتعالى من قذف شعاع الكواكب عند وصوله إلى محل مخصوص من الجو بما أودعه اللّه فيه من الخاصية التي لا نعلمها (وسيأتي لهذا البحث صلة في الآية 102 من هذه السورة) فيشتعل وتأثيرا لأشعة الحرق فيما هو قابل له من الأشعة لا ينكر ، ألا ترى أن شعاع الشمس إذا قوبل ببعض المناظر على كيفية مخصوصة أحرق ما هو مقابل له ممّا هو قابل للاحتراق ، ولو توسط بين المنظرة وبين قابل الاحتراق إناء بلور مملوء ماء .

وعليه فإن اللّه تعالى يصرف تلك الأشعة المستحيلة نارا والتي تشاهد كحبل أو رمح من نار سريع الحركة إلى الشيطان الذي يسترق السمع فيحرقه ، وقد يحدث ذلك ولو لم يوجد ثمة مسترق أيضا ، واللّه على كل شيء قدير .

وقدمنا ما يتعلق في هذا البحث في الآية 17 من سورة الحجر المارة وفيها ما يرشدك إلى المواضع الأخرى مما يتعلق في هذا البحث فراجعها ، قال تعالى "بَلْ عَجِبْتَ" بفتح التاء

خطاب لسيد المخاطبين أي عجبت من تكذيبهم لك وإنكارهم رسالتك وجحودهم ما أنزلناه عليك وعظمة منزله على القراءة المشهورة في المصاحف المناسبة لسياق ما قبلها وسياق ما بعدها وقرأ بعضهم بضم التاء على إسناد التعجب إلى اللّه والتعجب من اللّه يحمل على تعظيم الشيء المتعجب منه ، فإن كان قبيحا ترتب عليه العقاب الشديد ، وإن كان حسنا ترتب عليه الرضاء الكثير ، وقد يكون منه تعالى على وجه الاستحسان أيضا ، فقد جاء في الحديث : عجب ربكم من شاب ليست له صبوة .

وفي حديث آخر : عجب ربكم من ألّكم بتشديد اللام وضم الكاف (ومعناه القنوط الشديد ورفع الصوت بالبكاء ) وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم .



---

وقال الجنيد : إن اللّه تعالى لا يتعجب من شيء ولكن وافق رسوله ، أما العجب من الناس فيحمل على إنكار الشيء ويكون معناه روعة تعتري الإنسان عند رؤية ما يستعظمه ، أي أن اللّه ورسوله يعجبان من عدم اكتراثهم بذلك "وَ" الحال أنهم "يَسْخَرُونَ 12" به وبمنزله ومن أنزل عليه لغاية جهلهم بحقيقة الأمر وكنه ما اشتمل عليه "وَإِذا ذُكِّرُوا" هؤلاء الساخرون "لا يَذْكُرُونَ 13" اللّه ولا يتعظون بما نصب لهم من الآيات والأدلة على

وحدانية اللّه ، ولا ينتفعون بتذكيرك لهم ، لأن دأبهم عدم الاتعاظ والانتفاع

"وَإِذا رَأَوْا آيَةً" باهرة جليلة أظهرها اللّه على يد رسوله مثل الإخبار بالغيب وإنزال القرآن

وانشقاق القمر والإسراء والمعراج وما وقع فيها من الآيات لا يؤمنون بها ولا يكترثون بمنزلها

ولا يلتفتون إلى من أنزلت عليه ، ولكنهم "يَسْتَسْخِرُونَ 14" يستدعي بعضهم بعضا لأجل

السخرية والاستهزاء بها "وَقالُوا" فضلا عن ذلك "إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ 15" ظاهر يموه

به ويخيل علينا محمد ويرينا ما لم يكن كائنا ، ويزعم أنه قرآن وما هو بقرآن ، وقالوا أيضا

على طريق السّخرية "أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ 16" مرة ثانية كما يخبرنا

محمد فنعود أحياء كما كنا قبل الموت كلا لا يكون ذلك البتة "أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ 17" أيضا

يبعثون ، يقولون هذا على طريق الاستفهام الإنكاري لاستبعادهم الحياة بعد الموت "قُلْ" يا

أكمل الرسل "نَعَمْ" تبعثون "وَأَنْتُمْ داخِرُونَ 18" صاغرون وإذا أراد اللّه ذلك "فَإِنَّما هِيَ

زَجْرَةٌ" صيحة "واحِدَةٌ" من السيّد إسرافيل عليه السلام بأمر ربه "فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ 19"

إلى بعضهم أحياء "وَقالُوا" بعضهم لبعض بعد أن رأوا أنفسهم أحياء في الموقف المهيب

(وجاء الماضي موضع المستقبل

لتحققه) وشاهدوا أعمالهم السيئة وعظيم الجزاء الذي سيحل بهم "يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ 20" الذي يدين اللّه به عباده الذي وعدنا به رسله في الدنيا وهو الحياة بعد الموت والعذاب بعد الحساب

"هذا يَوْمُ الْفَصْلِ" بين الناس الذي يظهر فيه المحسن من المسيء "الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ 21" في الدنيا ولا تصدقون الرسل حين أخبروكم به، وبعد أن اعترفوا وتحقق لهم الهلاك يقول اللّه جل شأنه لصف من الملائكة "احْشُرُوا" اجمعوا هؤلاء "الَّذِينَ ظَلَمُوا" أنفسهم "وَأَزْواجَهُمْ" سوقوهم معهم من قرناء السوء الذين كانوا على دينهم وأشباههم وأمثالهم فيصنّفون طوائف الزناة والسعاة وشربة الخمر وعبدة الأوثان وغيرهم من الكفرة أصنافا ومن المغامرين وتاركي الصلاة والصوم والحج وغيرهم من عصاة المسلمين أصنافا لأن هذه الآية عامة في كل ظالم من كفرة الأمم كلها وعصاتها "وَما كانُوا يَعْبُدُونَ 22" في الدنيا من كل شيء "مِنْ دُونِ اللَّهِ" فيدخل في هذه الآية الأموال والأولاد والنساء الذين

*(92/650)*

---

توغلوا فيهم حتى ألهتهم عن عبادة اللّه، فكأنهم عبدوها أيضا من دونه، والواو في قوله (وَما) واو المعية أي احشروهم مع معبوديهم "فَاهْدُوهُمْ" دلوهم تقول هديته هدى إذا كان

لأمر الدين وهداية إذا كان إلى الطريق كما هنا "إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ 23" طريق جهنم لأنه اسم من أسمائها ليحاسبوا هناك قريبا منها بدليل قوله "وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ 24" عن أعمالهم وإنما كان حساب هذه الطائفة قريبا من جهنم لزيادة عذابهم ، إذ لو كان القصد من قوله اهدوهم أدخلوهم جهنم رأسا كما ذكره بعض المفسرين لما أمر بتوقيفهم لأجل السؤال ، لأن التوقيف يكون أولا ثم الاستنطاق ثم المحكمة ثم القضاء ثم الحبس وكل بحسب جرمه فتقدر مدة حبس العاصي وتخليد الكافر فيها ، ويبرأ البريء ، ومن هنا أخذ أهل الدنيا هذه الأحوال ، لأن اللّه تعالى ضرب لهم الأمثال مما كان من جنسها في الآخرة في الكتب القديمة وفي هذا القرآن ، وهي معلومة عنده قبل وقوعها ، ولهذا سماهم اللّه تعالى في الآية الآتية مجرمين لأن المجرم من يستحق العقاب لأنه أولا يكون مدعى عليه ثم ظنينا إذا ظهرت عليه أمارة الجرم ، ثم متهما إذا تراكمت عليه الأدلة ، ثم مجرما إذا تحقق عليه الفعلة ، ثم يحكم فيسمى محكوما والتوقيف يكون قبل الاستنطاق إذا كان هناك تحقيقات أولية ، وهي صحف الملائكة الحفظة مثلها بلا تشبيه ضبوط الدرك والشرطة ، فإنه يوقف بموجبها ثم يجري استنطاقه أحيانا أخرج الترمذي عن أبي بردة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما (1) أفناه ، وعن علمه ماذا عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه ، وفي رواية وعن شبابه فيم أبلاه .

(1) قوله فيما أفناه إلخ. كذا في النسخ بإثبات ألف ما الاستفهامية وهو قليل.

(93/650)

---

وله عن أنس أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: ما من داع دعي إلى شيء إلا كان موقوفا يوم القيامة لازما له لا يفارقه، وإن دعى رجل رجلا، ثم قرأ: (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ) ثم تقول لهم خزنة الجحيم بعد إدخالهم فيها توبيخا وتقريعا "ما لَكُمْ" أي شيء جرى لكم اليوم أيها الكفرة العتاة لم "لا تَناصَرُونَ 25" لبعضكم كما كنتم في الدنيا تتناصرون على الباطل ولا تفعلون بين إخوانكم وقومكم بالحق بل تنتصرون لقريبكم مهما كان مبطلا قبل أن تقفوا على الحقيقة، ثم يقول

تعالى قوله ذهب عنهم تناصرهم وحان تخاذلهم، فلا يتعاونون الآن كما كانوا قبلا "بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ 26" لأمري خاضعون لحكمي أذلاء منقادون لتنفيذ ما أقضي به عليهم "وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ 27" فيما بينهم بعد أن انقطع أملهم في معبوديهم ورؤسائهم وتبين لهم عجزهم عن المناصرة وصاروا يتلاومون بينهم "قالُوا" الأتباع لرؤسائهم "إِنَّكُمْ كُنْتُمْ" في الدنيا "تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ 28" من طريق الحلف فتقسمون لنا أن دينكم هو الحق، وتمنعوننا عن اتباع الرسل، وتزيفون لنا ما جاءوا به من عند ربهم حتى

أقنعتمونا ، فأين الآن يمينكم وأين ما وعدتمونا به ؟ وهذا أولى من تأويل اليمين بالقوة والقهر أو بالخير والبركة ، أي كنتم تمنعوننا عن الخير وتصدوننا عن الهدى وتضللوننا عن الحق قهرا وقسرا لما لكم علينا من القوة والغلبة ، ووصفت اليمين بالقوة لما يقع فيها من البطش ، ووصفت بالخير لأنها مشتقة من اليمن أي البركة .

*(94/650)*

---

لأنه أنسب بالمقام وما يخطر الذهن أنه بمعنى الجهة لا طائل تحته ، وإن كانت جهة اليمين مرجحة على جهة اليسار ومشرفة عليها جاهلية وإسلاما إلا أن الإخلال الذي جاءهم من قبل رؤسائهم سواء كانوا يتكلمون معهم به من جهة يمينهم أو شمالهم فهو على حد سواء وليس مما يوجب أن يعاتب عليه في مثل هذا المقام "قالُوا" الرؤساء مجاوبين أتباعهم : ليس الأمر كما تقولون "بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ 29" من الأصل وقد أصررتم على الكفر بالرسل باختياركم وطوعكم "وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ" قوة قاهرة كما زعمتم وهذا مما يؤيد التفسير الأول بأن اليمين بمعنى القوة والقهر "بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ 30" فطرة متجاوزين الحد لأنا دعوناكم فتبعتمونا رضا لا كرها

"فَحَقَّ" وجب "عَلَيْنا" نحن وأنتم "قَوْلُ رَبِّنا" وعيده بالعذاب الذي هددنا به رسله في

الدنيا ولذلك "إِنَّا لَذائِقُونَ 31" وبالله الآن لا محالة ثم اعترضوا لهم بقولهم "فَأَغْوَيْنا كُمْ" بالدنيا ودعوناكم لمعصية الرسل وطاعتنا في الضلال حقا ، والسبب : "إِنَّا كُنَّا غاوِينَ 32" ضالين وأردناكم لتكونوا مثلنا .

قال تعالى "فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ" في الآخرة يكونون "فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ 33" كما اشتركوا بالغواية في الدنيا "إِنَّا كَذلِكَ"



---

مثل هذا الفعل الفظيع "نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ 34" وإنما فعلنا بهم ذلك بسبب "إِنَّهُمْ كانُوا" في الدنيا "إِذا قِيلَ لَهُمْ" قولوا "لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ 35" عنها ويمتنعون من قولها ويأنفون من سماعها عتوا وعنادا "وَيَقُولُونَ" أيضا على طريق الإنكار "أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ 36" يعنون أكرم الخلق على اللّه وأفضلهم وأعقلهم قاتلهم اللّه قد جمعوا في هذه الجملة إنكار الوحدانية وإنكار الرسالة ووصم صاحبها قال تعالى ردا عليهم "بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ" من عندنا ليس كما تزعمون أنه ساحر ومجنون فهو أكمل بشر وقد آمن باللّه "وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ 37" قبله بما جاءكم به لأنهم كانوا مثله يدعون لنفى الشرك وإثبات التوحيد وقد وصفهم أمثالكم من الأمم السابقة بما وصفتم به رسولنا محمد الصادق الأمين "إِنَّكُمْ لَذائِقُوا

الْعَذابِ الْأَلِيمِ 38" بتجرؤكم عليه أيها الكفرة "وَما تُجْزَوْنَ" في الآخرة "إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ 39" في الدنيا لأن الجزاء من جنس العمل ولا يستثنى من العذاب الأخروي "إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ 40" بكسر اللام وفتحها كما مر في الآية 84 من سورة ص في ج 1 وقبلها مجادلة أهل النار بعضهم مع بعض في الآية 59 بما يشبه هذا فراجعهما

(96/650)

---

"أُولئِكَ" المخلصون المقبولون عند اللّه "لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ 41" لدينا بكرة وعشيا راجع الآية 62 من سورة مريم من ج 1 ثم أبدل فى هذا الرزق قوله "فَواكِهُ" للتلذذ ليس إلا ، لأنهم بغنى عن الأكل والشرب ، وأن حجتهم محفوظة ، لأن اللّه تكفل بتخليدها في الجنة سالمة منعمة والفاكهة تشمل جميع الثمار رطبها ويابسها ومن الطعام ما يؤكل للتلذذ لا للتقوت "وَهُمْ مُكْرَمُونَ 42" عند بارئهم معظمون "فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ 43" "عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ 44" بوجوههم إلى بعضهم وهو من آداب المجالسة كما مر في الآية 16 من الواقعة في ج 1 "يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ" مملوءة من الخمر الذي لم تمسه الأيدي ولم تطأه الأرجل ، وقد ذكرنا في الآية 18 من سورة الواقعة المذكورة أن لا يقال كأس إلا وهي مملوءة بالشراب وإلا فهي زجاجة أو كوب أو إبريق وهذا الخمر ليس كخمر الدنيا وإنما هو "مِنْ مَعِينٍ" 45 نهر جار

أو ماء ظاهر فوق

الأرض يعانيه الخلق دون تكلف إلى إمعان النظر فيه ولهذا وصفها بقوله "بَيْضاءَ لَذَّةٍ"

عظيمة في شربها "لِلشَّارِبِينَ" 46 منها تكمل فيها لذة الحواس الخمس ، وقاتل اللّه أبا نواس

إذ يقول :

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر

لأنه قصد اشتراك كافة حواسه بالمعصية ، ولأن الشارب جهرا يخشى الخجل من الناس

فلا يتم به السرور ، لأنه لا يكمل إلا بالحرية المطلقة ، ولأن الشارب حينما يتناول الكأس

يلمسه ويشمه وينظره ويذوقه ، فلم تبق إلا حاسة السمع ، فإذا قال له خمر عند تقديمه له

كملت لذة حواسه كلها اللهم أحرم أولياءك منها في الدنيا ومتعهم بها في الآخرة وألحقنا بهم يا

ربنا .

(97/650)

---

وهذه الخمرة "لا فِيها غَوْلٌ" كخمر الدنيا وهو ما يعبر عنه الأطباء بالكحول (اسبيرتو) لأنها

إذا خلت منه لا تسكر كما يقولون ، ويزعمون أنهم عربوها عن الأوربيين الذين يعبرون عنها

بكلمة (الكول) ولا يعلمون أنها عربية في الأصل بحتة ، وأن الأجانب أخذوها منّا وأبدلوا

الغين بالكاف إذ لا توجد في لغتهم ، مطلب ما قاله داود باشا والفرق بين خمر الدنيا والآخرة ونساء أهل الجنة وكلامهم :

ورحم اللّه داود باشا والي العراق في القرن الثاني عشر هجري حينما سمع أولادا يغنون في الطريق ويقولون :

يا بو زيين حمر وامدكك يابره كل الشرائع زلق ، من يمّنا العبرة

صاح بأعلى صوته اللّه اللّه صدقتم يا أولادي بورك فيكم حقا ، واللّه كل الشرائع زلق ، لأنها نسخت ، وأن من يأخذ بها بعد نسخها لا بد أن تزلق رجله فتؤديه إلى النار لذلك لا عبور إلى الجنة إلا باتباع شريعتنا أيها الأخوان فمن عندنا العبرة لأن شريعتنا توصل إلى الجنة وصار يصفّق طربا لذلك ، مع أن الأولاد لا يعرفون هذا المعنى ، وانما يعرفونه لما يتصورونه ، وهكذا فإن من يسمع الصوت الحسن أو ضرب الدف أو الناي أو غيرها يؤولها على ما في قلبه ويصرفها لمحبوبه وهو رحمه اللّه من الأولياء فصرف ما سمعه إلى ما هو في قلبه ، وله أخبار أخرى سنذكرها

فى الآية 34 من سورة المائدة في ج 3 إن شاء اللّه هذا ولا يخفى أن كل الخصال الحسنة أخذها عنا الأجانب ويا حسرتا نحن على العكس قلدناهم في المثالب وهم أخذوا عنا المناقب لأنهم يوم كنا ما كانوا شيا وإلا لما دارت رحانا عليهم واستولينا على بلادهم ولما رجعنا الآن القهقرى دارت لهم الكرة علينا وما ذلك إلا لتركنا أمر ديننا وما سنه لنا منقذنا الأعظم وسلفنا الصالح ولا علاج لاسترداد عزنا إلا بالرجوع إلى ديننا الذي فيه شرفنا وفيه قوتنا وبتركه ذلنا وخذلاننا ولا يصلح آخرنا إلا بما صلح به أولنا اللهم أرشدنا إلى طريق الصواب وألهمنا السداد واهدنا إلى الخير واجمع كلمتنا على الحق ووحد صفوفنا بجاهك على نفسك وحرمة أنبيائك وكتبك، وأعد لنا مجدنا ومهابتنا، إنك على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

واعلم أن اللّه تعالى وصف هذه الخمرة بعروها من الغول الذي هو غول العقل إذ يذهب به ولذلك نهى اللّه عن خمر الدنيا لأنها مملوءة منه فقد تذهب اللب وتوجع البطن وتحرق الحلق وتذيب الأمعاء وتخرش الرئة وتفتت الكبد وتحدث صداعا في الرأس ويعقبها القيء والعربدة والإفساد والسب والشتم وتورث السخرية والاستهزاء والتعيير وأشياء كثيرة لأنها أم الخبائث، وخمرة الآخرة براء من هذا كله ولم يحصل منها إلا السرور والإنشراح ولهذا وصفها اللّه بقوله عز قوله (وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ 47" أي لا تغلبهم على عقولهم فيسكرون منها ويفقدون الوعي، لأن نزف بمعنى فقد وذهب ونزع ونزح، أي أن خمر

الدنيا تأخذ بعقول شاربيها ، أما هذه فلا ، قال الأيرد اليربوعي :

لعمري لئن أنزفتهم أو حموتم لبئس الندامى كنتم آل ابجرا

وعلى هذا فلا اشتراك بين خمر الدنيا والآخرة إلا بالاسم لأن حقيقة هذه غير حقيقة تلك

ويكفي خمر الدنيا سوءا نتن ريحها ودوسها بالأقدام وعصرها بالأيدي الدنسة ، وقيل فيها :

بنت كرم تيموها أهلها ثم هانوها بدوس بالقدم

(99/650)

---

ثم عادوا احكموها فيهموا ويلهم من جور مظلوم حكم

بيد ان خمر الآخرة من معين صاف لم تدنسها الأيدي وتعفسها الأرجل

واعلم أن العرب تعرف الغول الذي برأ اللّه تعالى خمرة الآخرة منه ، قديما قال امرؤ القيس :

رب كأس شربت لا غول فيها وسقيت النديم منها مزاجا

وتقدم ما يتعلق في هذا في الآية 19 من سورة الواقعة في ج 1 وله صلة في الآية 25 من سورة المطففين الآتية إن شاء اللّه القائل "وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ" على أزواجهن فقط لأن نساء الجنة لا ينظرن لغير أزواجهن لفرط محبتهن لهم وعدم ميلهن لغيرهم "عِينٌ" 48

حسان واسعات الأعين "كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ 49" مستور عن النظر مصون عن اللمس

كانت العرب تشبه مخدرات النساء ببيض النعام لانه يحفظه بريشه عن الغبار والريح حتى يبقى محافظا على لونه ولذلك يصفون المخدرات من النساء به فيقولون بيضة خدر في المرأة التي لم يرها أحد غير محارمها ، قال امرؤ القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت في مطويها غير معجل

وكذلك يشبهون النساء بالبيض إذا تناسبت أعضاؤهن لأن البيضة وخاصة بيضة النعام أحسن الأشياء تناسبا وأشدها تقابلا ، قال بعض الأدباء :

تناسبت الأعضاء فيها فلا ترى بهن اختلافا بل أتين على قدر



---

وإن أحب ألوان النساء عند العرب البيض المشرب خداها بحمرة ، الضارب صدغاها وجيدها بصفرة قليلة كبيض النعام فإنه ممزوج بصفار قليل ، واعلم أن النعامة تقسم بيضها ثلاثة أقسام ثلثا تقعد عليه لتفرخه وثلثا تدفنه لتقوت به أفراخها عند خروجها من البيض وثلثا تأكله أثناء قعودها على البيض ، فسبحان من ألهم كلاما يصلحه وأحسن كل شيء خلقه وهداه لما به نفعه قال بعض المفسرين أن البيض المكنون هو الجوهر المصون في صدفه

وليس هو مرادا هنا ، واللّه أعلم ، لنبوّ ظاهر اللفظ عنه ، وقدمنا شيئا من هذا أيضا في الآية 23 من سورة الواقعة في ج 1 وله صلة في الآية 56 فما بعدها من سورة الرحمن في ج 3 قال تعالى "فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ 50" أثناء الشرب كعادة أهل الدنيا قال الشاعر :

وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام

ولكن بلا تشبيه لأنك لا تسمع بمجلس شرب منها إلا وتسمع فيه أنواعا من الشقاق والنزاع والضرب والشتم والسخرية وقد يقع فيه قتل وهم يرون ويعلمون ولا ينتهون ولا يعتبرون



---

"قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ 51" في الدنيا ينكر البعث وكان "يَقُولُ" لي "إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ 52" لما يقوله هذا الذي يزعم أنه رسول اللّه بأنا "أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً" فبلينا "أَإِنَّا لَمَدِينُونَ 53" محاسبون مؤاخذون بما نفعل في هذه الدنيا كلا لا نصدق ، وقد جاء في الحديث العاقل من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والجاهل من أتبع نفسه هواها وتمنى على اللّه الأماني ثم التفت هذا المتكلم وخاطب أصحابه "قالَ" رجل من أهل الإيمان لجماعة معه في الجنة "هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ 54" معي في النار لأريكم ذلك الرجل الذي

كان ينكر الحشر والحساب ؟ قالوا بلى "فَاطَّلَعَ" القائل وتابعه رفاقه "فَرَآهُ" لأنه يعرفه دونهم فإذا هو "فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ 55" وسطها وسمي الوسط سواء لاستواء المسافة بالنسبة للجوانب المحيطة به ثم طفق يخاطبه "قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ" قاربت وأوشكت يا قريني في الدنيا "لَتُرْدِينِ 56" تهلكني في الآخرة وتوقعني بما وقعت فيه الآن "وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي" الذي ثبتني على الإسلام والإيمان "لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ 57" معك في هذه النار التي أنت فيها .

ولم ينبه اللّه تعالى عن هذا القرين ماذا كان يعمل في الدنيا ، فإذا حمل على قرينه من الشياطين يكون قوله ذلك من قبيل الوسوسة والإغواء ، وان كان رفيقا له أو شريكا من الإنس وأخا كافرا أو عاصيا كما نص اللّه في سورة الكهف الآية 32 الآتية وهي (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ) فيكون قوله على ظاهره وهو أولى واللّه أعلم كما سيأتي هناك إن شاء اللّه .



---

ثم يقول أهل الجنة لسدنتها من الملائكة عند رؤيتهم ذلك النعيم المقيم حرصا على بقائهم فيها وخوفا من حرمانهم منه "أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ 58" بعد هذا وهل إنا لا نموت "إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى" التي أحيانا اللّه بعدها ونعمتنا في هذه النعمة الجليلة "وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ 59"

بعدها يقولون هذا على طريق التحدث بالنعمة لأنهم يعلمون أنهم لا يموتون ولا يعذّبون وأنهم فيها خالدون بإخبار اللّه تعالى إياهم بواسطة ملائكته أو أنه كان سرورا منهم بدوام النعم لا على طريق الاستفهام، وعلى هذا فإن الملائكة تقول لهم بل أنتم مخلدون فيما أنتم فيه فيقولون جميعا "إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ 60" الذي لا فوز فوقه ولا سعادة بعده ولا أفضل ولا أجل منه ثم يقولون لبعضهم

"لِمِثْلِ هذا" الذي نحن فيه من الخير "فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ 61" لا للشهوات الدنيوية الدنيئة الفانية قال:

إذا شئت أن تحيا حياة هنيئة فلا تتخذ شيئا تخاف له فقدا



---

لأن زوال النعم عذاب لا يقابله عذاب ولا يعدل الفرح الذي يحصل منه عند وجود النعم شيئا أبدا وهنا انتهى كلام أهل الجنة، قال تعالى "ذلِكَ" المشار إليه من قوله تعالى لهم رزق معلوم إلى هنا "خَيْرٌ نُزُلًا" أيها الناس "أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ 62" التي هي نزل أهل النار وهي شجرة مرة خبيثة الطعم يكره أهل النار على أكلها فيزّقمونها على مضض زيادة في تعذيبهم "إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً" كبيرة ومحنة عظيمة وبلية خطيرة "لِلظَّالِمِينَ 63" المتوغلين في الظلم

الحريصين على فعله ، ثم وصفها اللّه تعالى فقال "إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ 64" في قعرها وأسفل شيء فيها وترفع أغصانها إلى دركات النار وثمرها المعبر عنه بقولها "طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ 65" في البشاعة والقباحة ، واعلم أنه مما لا شك فيه أن أحدا لم ير الشياطين على صورتهم التي خلقهم اللّه عليها لأنه خارج عن طوق البشر وكذلك الملائكة إلا أنه استقر في النفوس حسن الملائكة وقبح الشياطين فصاروا يشبهون كل حسن بالملائكة وكل قبح بالشياطين فيقولون للرجل الطيب كأنه ملك وللخبيث كأنه شيطان ، قال امرؤ القيس :

أتقتلني والمشرفيّ مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فقد شبه سنان الرمح بأنياب الغول من حيث لم يره وقد شبه اللّه ثمر تلك الشجرة برءوس الشياطين لأنها في تقدير البشر قبيحة جدا ، وهي كذلك في الوهم والخيال ووجه الشبه وجامعه وجود النفرة في كل والكراهية لهما "فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا" رغما عنهم لأنه من جملة العذاب المقدر لهم "فَمَالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ 66"

قسرا رهبة من الملائكة الموكلين بعذابهم إذ يلجئونهم إلى أكله بالضرب المبرح الذي لا يقاس بضرب أهل الدنيا وناهيك أن هذا من البشر وذاك من الملائكة الغلاظ الشداد "ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ 67" ماء شديد الغليان يقطع الأمعاء ومعنى الشوب الخلط والمزج تقول شاب اللبن إذا مزجه بالماء والضمير في عليها يعود للشجره أم تلك الثمرة لأنهم يتناولونها منها "ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ" بعد الأكل من الشجرة والشرب من الحميم لأنهما بمكان آخر عن مقرهم المنوه به بقوله "لَإِلَى الْجَحِيمِ 68" ولذلك جاء العطف بالتّراخي ومن هنا أخذ أهل الدنيا تخصيص محل للأكل من دورهم على حدة وخصّصوا لدوابهم مرعى خارجا عن دورهم، قال تعالى في وصفهم أيضا "إِنَّهُمْ أَلْفَوْا" وجدوا "آباءَهُمْ ضالِّينَ 69" فثبطوهم على ضلالهم "فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ 70" يسرعون ويهرولون بشدة منكبين على عمل آبائهم ولم يصغوا لنصّاحهم ولم يتعظوا بمن سلف من الأمم المعذبين بل قلدوا آباءهم طائعين مختارين، لذلك عذبوا معهم

(105/650)

---

"وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ" أي كفار مكة ومن حولها "أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ 71" من الأمم الخالية إذ لم يهتد منهم إلا القليل "وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ 72" ينذرونهم بأسنا ويخوفونهم عذابنا

ويحذرونهم يومنا هذا فلم يمتثلوا ولم يرتدعوا فأهلكناهم بإصرارهم على الكفر "فَانْظُرْ" يا سيد الرسل "كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ 73" الدمار والتتبير الذي عمهم "إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ 74" له والذين استخلصهم لذاته راجع الآية 40 المارة فإن هؤلاء على المعنيين بمعزل عنهم لأنهم في الخيرات رافلون يتمتعون في النعيم "وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ" لتدمير قومه بعد أن أيس من إيمانهم بإعلامنا إياه بذلك وبإنجاء أهله مما ينزل بهم من العذاب فأجبناه وعزتي وجلالي يا حبيبي يا محمد إنا نحن إله الكل "فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ 75" لأوليائنا عند حلول الضيق بهم واللام هذه واقعة في جواب القسم المحذوف المقدر كما ذكرناه والمخصوص بالمدح محذوف أيضا وقد قدّرناه كما بيناه في هذه الآية "وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ" كلهم إلا زوجته الكافرة وابنه كنعان المتمنع عن دخول السفينة مع أبيه لإصراره على كفره ، ولذلك استثنيناهما من الانجاء بقوله تعالى (إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ)



---

الآية 81 وبقوله (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ) الآية 67 من سورة يونس وهود المارتين "مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ 76" وهو الفرق العام الذي أهلكنا به قومه ولا أعظم منه "وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ 77" إلى آخر الدوران فكل الناس الموجودين على وجه الأرض

منهم ولهذا سمي أبا البشر الثاني ، وقال من قال ان الطوفان عم الأرض كلها ولم يبق من البشر على سطح البسيطة إلا ذرية نوح عليه السلام ، وان المراد والله أعلم بالباقين على هذا ، هم أهل السفينة ، إذ لم يثبت بصورة قطعية أن الطوفان عم على الأرض كلها لا سيما وأنه عليه السلام لم يرسل أولا إلى أهل الأرض كافة ولم يثبت خبر وصول دعوته وهو في جزيرة العرب جزيرة ابن عمر إلى الصين وغيرها من أقطار الأرض ونص الآية لا يستلزم عدم بقاء ذرية من لم يكن معه في السفينة وأولاده الثلاثة سام أبو العرب وفارس والروم ويافث أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج وحام أبو القبط والسودان والحبشة أما كنعان الذي غرق مع قومه فلم يثبت له نسل وقد وردت أحاديث في أولاده المذكورين أخرجها الترمذي وابن مسعود واحمد والطبراني وابن المنذر وأبو يعلى وابن أبي حاتم عن سمرة بن جندب وابن مردويه عن أبي هريرة والخطيب في تالي التلخيص والزارعة أيضا ، وقدمنا ما يتعلق بها في الآية 73 من سورة يونس والاية 44 من سورة هود المارتين "وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ 78" ثناء دائما وهو قولنا "سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ 79" فهو يتردد على ألسنة الأنبياء والأمم في زمنه إلى قيام الساعة "إِنَّا كَذلِكَ" مثل هذا الجزاء الحسن "نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ 80" ونكرمهم بمثل هذه الكرامة

"إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ 81" المستحقين للثناء الدائم المستمر ولذلك أجريناه عليه "ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ 82" كفار قومه وإنه وزوجته المذكورين إذ حل عليهم العذاب راجع تفصيل القصة في الآية 44 فما بعدها من سورة هود المارة "إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ 82" لأنه نهج نهجه وسار سيره وتبع دينه وشيعة الرجل أتباعه المقتفون أثره ، قالوا وكان بينهما الفان وستمئة وأربعون سنة ، ولم يكن بينهما نبي إلا هودا وصالحا ، وأرى أن هذا وما قدمناه من نسل

أولاد نوح لا يجوز القطع به ولا إنكاره ، بل نكل فيه العلم إلى العليم الواحد إذ لا طائل تحته ولا يتعلق فيه حكم ولا حد فمثله كمثل بقية الأخبار والقصص والأمثال ، إذ لا آية تنص على ذلك ولا حديثا صحيحا يستند إليه ، لهذا فالأحسن في مثله أن لا يصدق بصورة قطعية ولا يكذب تكذيبا محضا ، هذا ومن قال إن ضمير شيعته يعود إلى سيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم لا مستند له وليس بسديد لأن القاعدة وجوب عود الضمير إلى أقرب مذكور ولا أقرب من نوح ولأن لفظ شيعة لا يقال للمتأخر على المتقدم قال الكميت الأصيفد بن يزيد :

وما لي إلا آل أحمد شيعة وما لي إلا مذهب الحق مذهب

و معلوم أن آل محمد ومذهب الحق متقدمان عليه لا متأخران ، ولم يأت ذكر محمد صلّى اللّه عليه وسلم في هذه الآيات فلا محل للقول بذلك ، قال تعالى في وصف إبراهيم عليه السلام مذكرا رسوله محمد به فكأنه قال واذكر لقومك "إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ 84" من الشك في الوحدانية والريب في البعث والمرية في النبوة "إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ 85" استفهام توبيخ وتقريع لأنه رآهم يعبدون الأصنام والكواكب ، وقد أراده على ذلك ، فأبى وقال "أَ إِفْكاً آلِهَةً" أي تختلقون أشياء وتسمونها آلهة والإفك أسوء الكذب وآلهة بدل من الإفك "دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ 86" قدم المفعول للاعتناء به ، لأن المقصود الاعتراف به أو إنكاره "فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ 87" أن يفعل بكم إذا لقيتموه غدا وأنتم تعبدون غيره ، أخبروني أيها القوم ، وقد شاع قوله هذا لهم حتى بلغ ملكهم فأرسل إليه أن غدا عيدنا فاحضر معنا لزيارة الآلهة ، لأن هذه التشريفات التي تعارفها الناس في الأعياد والأيام الرسمية قديمة اقتبسها الأواخر عن الأوائل ، ولهذا السبب لما طلب فرعون من موسى تعيين يوم للمباراة مع السحرة عين لهم يوم العيد ، راجع الآية 59 من سورة طه في ج 1 ، فلما جاءته دعوة الملك استشعر هطول الفرصة لحصول ما عسى أن يكون سببا لتوحيدهم ،

وأراد أن يعتذر عن الحضور على وجه لا ينكرونه عليه "فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ 88" تأمل نوعا من التأمل في أحوالها وهو في نفس الأمر على طرز تأمل الكاملين في



---

في خلق السموات والأرض وتفكرهم في ذلك ، إذ هو اللائق به عليه السلام ، لكنه أوهم قومه أنه يتفكر في أحوالها من حيث الاتصال والتقابل ونحوهما من الأوضاع التي تدل بزعمهم على الحوادث ليترتب عليها ما يتوصل به إلى غرضه الذي سيكون وسيلة إلى إنقاذهم مما هم فيه فقال "إِنِّي سَقِيمٌ 89" مريض ، وأراد بذلك مرض القلب من كفرهم وعنادهم وتمسكهم بعبادة الأوثان ، أي اني لا أستطيع حضور التشريفات .

مطلب في العدوى وقسم من قصة ابراهيم وتأثير الكواكب وغيرها وكذب المنجمين :

وكانوا يعتقدون العدوى كالمتوهمين وضعاف اليقين من أهل هذا الزمن ، لأن العدوى وإن كانت حقيقة إلا أنها بقدر اللّه وقد حذر الشارع من الاختلاط بالمخدومين لقذارتهم للعدوى ، لأن الذي لا توجد فيه قابلية العدوى لا يعدى ولو أكل وشرب ونام مع المريض ، وهذا ثابت لا ينكر وحذر أيضا الشارع من الدخول على البلد الذي فيه الطاعون لئلا يلزم من قدر عليه أن يصاب بذلك الوباء ، فيقال له لم دخلت القرية الموبوءة حتى أصبت ،

وحذر أيضا من الخروج منها لئلا يلام هو إذا أصيب غيره بسببه ليس إلا ، ويكفيك قول الرسول الأعظم للأعرابي حينما قال له بعد أن سمع منه حديث لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا غول وفرّ من المجذوم فرارك من الأسد .

إنا نرى الجمل الأجرب يختلط بالإبل فيجربها (من أعدى الأول) تدبر هذا هداك اللّه وأزال وساوس قلبك وما تتخيله من الوهم المقضى إلى الأمراض والعلل لضعف قلوبهم "فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ 90" تباعدوا عنه خشية العدوى فتركوه وذهبوا ، فأخبروا الملك بمعذرته وبهذه الوسيلة تخلص من اجابة الدعوى لزيارة الأوثان وقدمنا ما يتعلق في مبادئ هذه القصة في الآية 83 من سورة الأنعام المارة تبعا لذكر اللّه إياها هناك كما أتينا على قسم منها هنا للسبب نفسه وسيأتي تمامها في الآية 51 فما بعدها من سورة الأنبياء الآتية إن شاء اللّه القائل



---

"فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ" بعد أن ولوا عنه وكانوا ذهبوا إلى آلهتهم ووضعوا الأطعمة أمامها لتعود إليها بركتها وليأكلوا بعد رجوعهم من المراسيم المعتادة في الأعياد "فَقالَ" ابراهيم للأوثان "أَلا تَأْكُلُونَ 91" من هذا

الطعام الموضوع أمامكم لتحل عليه بركتكم كما يزعمون فلم يردوا عليه فقال "ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ 92" نزلهم بخطابه منزل العاقل تهكما واستهزاء وتقليد القومة ، ولما لم ير أحدا عندها لأنهم لم يعودوا من المراسم بعد "فَراغَ" ذهب ومال وأصل الروغان ميل الشخص في جانب وهو يريد غيره ليخدع من خلفه وأقبل متعليا "عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ 93" حتى كسرها كلها وترك الفاس عند كبيرها وخرج "فَأَقْبَلُوا" قومه من المعايدة ومحال مراسم العيد إلى زيارة الأوثان "إِلَيْهِ" المعبد الذي كان عند الآلهة المذكورة "يَزِفُّونَ 94" الملك والرؤساء ويمشون خلفهم على تؤدة أخذا من زفاف العروس في موكب عظيم ، وقيل جاؤوا مسرعين حيث أخبروا بما وقع على الآلهة والأول أولى وان كان اللفظ يحتمل المعنى الآخر لأن زف تأتي بمعنى أسرع أيضا ، إلا أن المعنى يأباه لما يأتي في سورة الأنبياء إنهم لم يعلموا من كسرها وانهم سألوا فأخبروا بأنه فتى يقال له ابراهيم ، قالوا ولمّا دخلوا على المعبد ورأوا ما هالهم أمره ولما أحضروا ابراهيم وسألوه وقالوا نحن نعبدها ونعظمها وأنت تكسرها ولما ذا فعلت هذا "قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ 95" بأيديكم من الحجارة والأخشاب "وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ 96" منها ومن غيرها وفي هذه الآية دليل قاطع على أن أفعال العباد مخلوقة للّه تعالى ، وبعد الأخذ والرد معه اتفقوا أن يكون جزاؤه الأحراق بالنار كما سيأتي بيانه في الآية المذكورة آنفا من سورة الأنبياء الآتية بصورة مفصلة "قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ

(111/650)

97" النار للشديدة الالتهاب للتي بعضها فوق بعض ففعلوا وأبى اللّه لأن من كان حافظه لا يسلط عليه أحد ولا يقدر على مضرته أحد قال تعالى "فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ 98" الأذلين الخائبين المقهورين بجعل كلمتهم السفلى وإبطال كيدهم وبقاء كلمة اللّه تبارك وتعالى كما كانت هي العليا بنصرته عليهم وجعل النار بردا وسلاما على إبراهيم وبهذا يعلم أن النار لا تأثير لها إلا بخلق التّأثير فيها من اللّه تعالى إذ لو كان لها تأثيرا بنفسها وطبعها لحرقته ولكن المؤثر الحقيقي هو اللّه تعالى وقال إبراهيم لقومه بعد خروجه من النار وإياسه من إيمانهم "إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ 99" إلى ما فيه خلاص فأرشده اللّه إلى أرض الشام ثم إلى الأراضي المقدسة ولما استقر به الحال سئل ربه الولد ليكون خليفة له في أرضه فقال "رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ 100"

(112/650)

فأجاب اللّه دعاءه بقوله "فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ 101" كامل الخلقة والخلق لولاية عهده ولارشاد الخلق لخالقهم كي يعبدوه واعلم أن هذه الآية انطوت على أربع بشارات حمل زوجته وأن الحمل ذكر وأن يبلغ الحلم وأنه يكون حليما ومن عظيم حلمه ما قص اللّه عنه بقوله "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ" وصار يقدر على المشي والشغل "قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى" وهذه المشورة من إبراهيم عليه السلام لابنه إسماعيل ليعلم ما عنده فيما نزل به من البلاء ليختبر صبره على أمر اللّه وعزيمته على طاعته لا يرجع لأمره ورأيه ، لأنه جازم في تنفيذ ما أمر به في رؤيا لان رؤيا الأنبياء عليهم السلام حق ، فإذا رأوا شيئا فعلوه ، وإنما كان الأمر بالمنام لأنه في نهاية المشقة وغاية الشدة على الذابح والمذبوح فكان كالتوطئة "قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ 102" على تنفيذ أمر اللّه وإنما علق قوله بالمشيئة على سبيل التبرك لا غير ، إذ لا حول عن المصيبة إلا بعصمة اللّه ولا قوة على الصبر عليها إلا بتوفيق اللّه .

واعلم أن هذه الآية الوحيدة التي استدل بها بعض الأصحاب والتابعين على أن الذبيح هو إسحاق ، إلا أن الآيات غيرها تدل على أنه إسماعيل عليهما السلام وهو الصحيح كما سيأتي في القصة .

هذا وأن بعض الناس أنكر أن يكون للكواكب تأثيرا في هذا الكون غير الضياء في المواقع التي تطلع عليها ، وهذا فيه تفريط إذ بعضهم زعم أن لها تأثيرا في السعد والنحس وسعة

العيش وضيقه وطول العمر وقصره ، وهذا فيه إفراط ، وبعضهم قال إن لها تأثيرا ما يجري على الأمر الطبيعي مثل أن يكون البلد القليل العرض .

(113/650)

---

ومزاج مائل عن الاعتدال إلى الحر واليبس وكذلك مزاج أهله ، إذ تكون أجسامهم ضعيفة وألوانهم سودا وخضرا كالنوبة والحبشة وأن يكون البلد الكثير العرض ذا مزاج مائل عن الاعتدال إلى البرد والرطوبة وكذلك مزاج أهله حيث تكون أجسامهم عبلة وألوانهم بيضا وشعورهم شقرا كالترك والصقالبة ، ولها أيضا تأثير في نمو النبات واشتداده ونضج ثمره وتلوينه

(114/650)

---

و طعمه بإشراق الشمس والقمر وبعض الكواكب ، وهذا مما يدرك حسا ولا يكاد ينكر ، ولا بأس في نسبة هذا إلى الكواكب ولكن على معنى أن اللّه تعالى أودع فيها هذه القوة المؤثرة لا بطبعها ولا بتأثيرها بإرادة نفسها كالإحراق بالنار والارواء للماء ، فإن اللّه تعالى لو

لم يجعل فيهما تلك القوى لما حصل في النار إحراق ولا من الماء إرواء كما علمت في حال إبراهيم عليه السلام ، إذ لم تؤثر فيه النار كما أنها لم تؤثر في السندل الذي يفرخ فيها ، وكذلك السكين لا تقطع إلا بتأثير اللّه تعالى ولذلك لم تذبح إسماعيل بعد معالجة أبيه له في ذبحه ، وهذا قول وسط معتدل وخير الأمور أوسطها وعلى هذا السلف الصالح ، وقال به الشيخ إبراهيم الكوراني في جمع الأسباب والمسببات ، وعليه بعض الماتريدية ، هذا وأن المنجمين يكذبون وإن صدقوا في بعض الأحيان على ما جاء في الحديث الشريف وقد دلت عليه التجارب على كذبهم أكثر من صدقهم ، فمن كذبهم ما أجمع عليه حذافهم سنة سبع وثلاثين بأن عليا كرم اللّه وجهه حينما توجه لصفين يقتل ويقهر جيشه وبالعكس فقد انتصر ولم يتخلص منه أهل الشام إلا بالحيلة التي دبرها لهم عمرو بن العاص حينما حملهم على حمل المصاحف على رءوس الرماح وقولهم بلسان واحد إنا الرجوع إلى حكم اللّه وهي كلمة حق أراد بها بطلا حتى أقسر علي على قبول التحكيم وكان ما كان ، وكذلك أجمعوا على قهره عليه السلام لما خرج لقتال الخوارج حيث كان القمر بالعقرب ، لأنهم يزعمون أنها منزلة نحس لا يقع فيها إلا الشر ، فقال نخرج ثقة باللّه وتوكلا عليه ، فانتصر انتصارا باهرا وكذبهم اللّه .

وأجمعوا أيضا سنة ست وسنين على غلبة عبد اللّه بن زياد على المختار بن أبي عبد

خليفة إبراهيم بن الأشتر صاحب المختار في أرض نصيبين ومعه سبعة آلاف فقهره وقتله

وقتل من عسكره ثلاثه وسبعين ألفا ولم يقتل من أصحاب المختار سوى مائة نسمة ،

وأجمعوا أيضا يوم أسّست بغداد سنة مائة وست وأربعين على أن طالعها يقضي أن لا يموت

فيها خليفة فقتل فيها الأمين والواثق والمتوكل والمعتضد والناصر وغيرهم ، وهناك أمور

أخر في كذبهم لا تحصى حتى أنهم سنة 1920 ميلادية أشاعوا بأنه سيطلع نجم مذنب

عظيم قد يلطم ذنبه كرة الأرض فيخرب قسما

عظيما منها ، ولم يقع شيء من ذلك ولما قتل الأمين في شارع باب الأنبار قال بعض الشعراء

في تكذيبهم :

كذب المنجم في مقالته التي كان ادعاها في بنا بغدان

قتل الأمين بها لعمري يقتضي تكذيبهم في سائر الحسبان

ومن هذا القبيل الإبرة الدالة على حدوث الأمطار والهواء والعواصف وغيرها ، فإنها قد

تختلف أيضا باختلاف الجوّ ، فلا يقع ما تشير إليه ، لأن تبدل حالة الجو التي هي بيد مالك

الملك ومقلّب الأحول تحول دون ذلك إذ لا يستطيع مخترع الأبرة وغيره والعالم أجمع أن يبقى

الجو على حالته حينما أشارت إليه الأبرة حتى يقع ما أشارت به ، بل إذا أبقاها اللّه تعالى يقع وإلا فلا ، وهذا محسوس مشاهد .

(116/650)

---

واعلم أن ما احتج به أهل الهيئة من أن اللّه تبارك وتعالى قد فخم من قدر النجوم يحلفه بها تارة ومدحه لها أخرى في القرآن العظيم لا يفهم منه أن اللّه تعالى إنما عدد ذكرها في مواضع كثيرة في القرآن لأن لها تأثيرا ، كلّا ، بل لعظمها وكونها دالة على إلهيته ، واللّه تعالى ذكر الأنبياء في القرآن أكثر من غيرهم ، فهل يقال إنما ذكرهم لما لهم من التأثير بذواتهم المقدسة ، كلا وانما لعظم مقامهم عنده وتعظيما لشأنهم عند أقوامهم ، لأنهم الواسطة لهداية البشر حتى أنهم مع جلالة قدرهم لا يملكون الشفاعة لأنفسهم وأولادهم وأزواجهم إلا بإذن اللّه القائل "فَلَمَّا أَسْلَمَا" خضع الأب وابنه لأمر اللّه وانقادا لتنفيذه وعزما على اجرائه عزما جازما باشره الأب "وَتَلَّهُ" أي جرّه "لِلْجَبِينِ 103" بأن صرع الأب ابنه على الأرض وألصق جبينه بها ووضع السكين على حلقه وأمرها إمرارا قاسيا يقصد ذبحه دون تعذيبه بامرارها كثيرا ، ولكنها لم تذبح رغما لشدة حزّها على محل الذبح منه بقوة وجلادة إطاعة لأمر اللّه ، وكان قبل حدها حرار حتى رآها أنها تقطع حلقوم الجمل بامرارها عليه

مرة واحدة ، وهذا دليل قاطع على أن المؤثر الحقيقي في كل شيء هو اللّه تعالى لأن السكين الحادة لا يعقل أنها لا تقطع اللحم كما أن النار لا يعقل أنها لا تحرقه ، ولكن اللّه تعالى إذا لم يضع فيها قوة الذبح لا تذبح وكذلك لا تحرق ولما رأى الخليل عليه السلام عدم تمكنه

(117/650)

---

من إمضاء عزيمته في تنفيذ أمر ربه ، وقد بذل وسعه بفعل ما يفعل الذابح بالمذبوح فكأنه ذبحه بلا ريب وأن المانع الذي جعله اللّه لا يكون مدار القول بعدم إنفاذ ما جزم به ، وصبر الولد على الألم الذي قاساه في إمرار السكين لا يقاس به صبر وتسليمهما لإمضاء هذا الأمر لا يقابله تسليم ولهذا فان اللّه العالم بانقيادهما لأمره انقيادا جازما حال دون ذلك ، وأظهره ليطلع عليه الناس ، لأنه عالم بما يقع منهما ، ولذلك وهب لهما من فيض جوده كبشا وجعله فداء لصفيه إسماعيل وجزاء لخليله إبراهيم عليهما السلام فخاطبه بقوله "وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ 104" كف عن ذبح ابنك لقيامك بما أمرت به وأنك حقا "قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا" وعملت بالجزم فقبلنا فعلك وان ابنك سلّم وانقاد لأمرنا فقبلنا منه خضوعه دون جزع أو ضجر وقد أظهرنا للناس إنابتكما هذه ليعلموا أن أحدا لا يقدر على ما ابتليتما به "إِنَّا كَذَلِكَ" مثل هذا العفو الذي عفونا به عن ذبحك ولدك ومثل هذا الفداء الذي فديناه به

جزاء الصبر والامتثال منكما "نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ 105" أمثالك وأمثال ابنك ، قال تعالى

"إِنَّ هذا" الامتحان الذي اختبرنا به إبراهيم وابنه وقاما به بنية خالصة وصدق محض "لَهُوَ

الْبَلاءُ الْمُبِينُ 106" الظاهر الذي تبين به حقيقة الإخلاص "وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ 107"

في الجنة والقدر بنسبة المفدى "وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ 108" من بعده ثناء مستمرا إلى

يوم القيامة وهو "سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ 109" من اللّه وملائكته ورسله وعباده كافة

"كَذلِكَ" مثل هذا الجزاء الحسن الدائم "نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ 110" في الدنيا والآخرة

"إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ 111" الكاملي الإيمان "وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ

112" لعبادتنا وخلافتنا في الأرض لإرشاد خلقنا زيادة في جزائه الحسن .

*(118/650)*

---

مطلب من هو الذبيح وأنه لا يلزم من فضل الأب فضل الابن وبالعكس وأن الفرع السيء

والأصل السيء لا يعد عيبا ومعنى خضراء الدمن وبقية القصة :

وهذه الآية مما تدل على أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام دلالة كافية ، لأنه بعد أن قص

اللّه تعالى علينا الابتلاء بالذبح وتنفيذ أمره فيه وفدائه له ذكر

إسحق كما ستقف عليه بعد قليل "وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ" ابنه الثاني من السيدة

سارة بنت عمه والأول إسماعيل من الجارية هاجر "وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما" ذرية إبراهيم وإسحق قالوا أخرج من صلبهما الف نبي أولهم يعقوب وآخرهم عيسى عليهم السلام "مُحْسِنٌ" لنفسه ولغيره أنبياء وأولياء "وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ 113" بين ظلمه بتعديه حدود اللّه أي أن من ذريتهما كفرة ظلمة عصاة أيضا ، ومن هنا يعلم أنه لا يلزم من فضل الأب فضل الابن وبالعكس ، فقد يكون الأب نبيا والولد كافرا كنوح عليه السلام وابنه كنعان ، وإبراهيم عليه السلام وأبيه آزر .

وفيها تنبيه على أن الخبث والطيب لا يجري أمرهما على العرف والعنصر ، فقد يلد البر الفاجر والفاجر البر وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر وأن العقب السيء لم يعد عيبا ولا نقيصة على أصله وإنما ينحصر في النّاقص والعيب بالمعيب ، كما أن الأصل لا يعد عيبا على الفرع من حيث الكفر وغيره ولا ينطبق هذا على قوله صلّى اللّه عليه وسلم إياكم وخضراء الدمن فان العرق دساس فإن هذا خاص بمن ضرب على أصلها بفاحشة خشية أن يقتص منها عنده لقوله صلى اللّه عليه وسلم من زنى زني به ولو بحيطان داره أي لا ينجو من القصاص البتة ألا فليتق اللّه من أراد أن يحافظ على عرضه وأن الشرف يكون فيمن كان آباؤه إسلاما أكثر فهو أشرف ممن آباؤه إسلاما أقل .

وخلاصة هذه القصة على ما قاله الأخباريون هي أنه لما بشر ابراهيم بالولد قال هو ذبيح اللّه فلما شب قيل له أوف بنذرك ، فأخذ سكينا وتعجيلا واستصحب ابنه وهو ابن ثلاث عشرة سنة أو سبع سنين وقال له لنذبح قربانا حتى بلغ به المذبح من منى قال له يا أبت أين القربان ؟ قال يا بني أمرت بذبحك وكان ليلة رأى ليلة الثامن من ذي الحجة ، فلما أصبح تروى أي تفكر هل رؤياه هذه من الله أو من الشيطان فسميت ليلة التروية ثم رآها ثانيا ليلة التاسع منه فعرف أنها من اللّه حقا فسميت ليلة عرفة ثم صمم على نحره ليلة العاشر فسميت ليلة النحر .

فاستسلم الغلام لأمر اللّه وقال يا أبت أفعل ما تؤمر وأشدد رباطي لئلا أضطرب واكفف ثيابي لئلا تتلطخ بالدم فتراه أمي فتحزن فينقص أجرها واستحد الشفرة وأسرع بمر السكين على حلقي ليهون علي الموت وأقرئ أمي مني السلام وأوصها



بالصبر والاستسلام ، فقال إبراهيم نعم العون أنت يا بني على تنفيذ أمر اللّه ، ففعل به ما ذكره وقبله وبكى كل منهما ، ثم أضجعه ووضع السكين على حلقه وأمرّها بشدة وسرعة

فلم تذبح ، فحدها ثانيا وثالثا وأراد الذبح بعزم وحزم فلم تذبح ، قالوا وقد ضرب اللّه تعالى بصفحة من نحاس على حلقه لئلا يحس بإمرار السكين ولا يبعد هذا على اللّه ، إلا أن الحق الحق أعلم أنه تبارك وتعالى لم يرد ذبحه فلم تؤثر السكين فيه لأنه لم يودعها قوة الذبح إذ ذاك وهذا أبلغ في القدرة من خلق النحاس ، قالوا ولما رآه إسماعيل أنه لم يذبحه ظن أن ذلك من شفقته عليه فقال يا أبت كبني على وجهي لئلا تدركك الرحمة علي برؤية وجهي فتمنعك الرأفة والرقة عن تنفيذ أمر اللّه ، والحال لا يوجد شيء من ذلك ، لأن طاعة اللّه عنده أحب إليه من ابنه ونفسه والناس أجمعين ، ولكن اللّه تعالى لم يرد ذبحه وهذا مما يؤيد ما ذكرناه غير مرة بأن الأمر غير الإرادة راجع الآية 148 من سورة الأنعام المارة ، ففعل أيضا ما أشار به عليه ابنه ووضع السكين على رقبته وجرها كالعادة فلم تذبح ، ولما شدد بالجر بها انقلبت على قفاها ، فعلم اللّه كما هو عالم من قبل صدق عزيمته وانقياد ابنه لأمره ففداه بكبش من الجنة وهو الذي قربه هابيل ابن آدم عليه السلام .

مطلب الحيوانات والجمادات التي تحشر وتبقى ورمي الجمار والحكم الشرعي في الأضحية :

وهذا الكبش وحمار عزير وكلب أهل الكهف وعصا موسى وناقة صالح تحشر وتبقى في الجنة كما جاءت بها الأخبار ، أما غيرها من الحيوانات والجمادات عدا التي عبدت من دون اللّه فستكون ترابا واللّه أعلم .

قال ابن عباس لو تمت ذبيحة إسماعيل عليه السلام لصار على الناس ذبح أولادهم سنة ولكن اللّه لطف بعباده ففداه ولهذا صارت الأضاحي سنة أو واجبة على اختلاف فيها بين المذاهب .



---

قالوا وتعرض الشيطان لإبراهيم في المشعر محل الذبح في منى فسابقه فسبقه إبراهيم ثم ذهب إلى جمرة العقبة فتعرض له الشيطان أيضا فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات أيضا حتى ذهب ، ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات أيضا حتى ذهب ، فصار الرمي منذ ذلك الزمن عادة للحاج إلى ظهور البعثة النبوية ، فجعل من سنن الحج ، وهو واجب في مذهب الشافعي ، وفي تركه نسك وعدد الحصى التي يرمي بها سبعون حصاة سبع يوم العيد وثلاث وستون أيام التشريق الثلاث كل يوم واحد وعشرون لكل موقع من مواقع الرمي سبع ، وفي رواية أخرى أن ابراهيم عليه السلام بعد بناء البيت أخذ جبريل عليه السلام يريه مناسكه ويعلمه ما ينبغي لعبادة اللّه وحده وإذا بإبليس عليه اللعنة تمثل له في مواطن الجمرات فقال له جبريل كبر وارمه سبع حصيات ففعل .

فعلى المسلم أن يستشعر هذا بقلبه ويبعد عنه بلسانه عند الرمي فهي حركة صغيرة تعبر عن عاطفة كبيرة يستعين بها أثناء عبادته في درء نزعات الشيطان واخلاص العبادة للرحمن ، وقال الغزالي في الاحياء فليقصد برمي الحجار الانقياد للأمر وإظهار الرق للعبودية وانتهاض الامتثال والتشبه بإبراهيم عليه السلام ، وما قيل إن محل الرجم قبر أبي رغال قيل كاذب لأنه ليس في هذه الأمكنة وقبره معروف في محل واحد والرجم في ثلاث محال فلو كان لكان الرجم في مكان واحد وقدمنا ما فيه في سورة الفيل ج 1 فراجعه ، قالوا ولما ذبح الكبش قال جبريل اللّه أكبر فقال إسماعيل لا إله إلا اللّه واللّه أكبر فقال ابراهيم اللّه أكبر وللّه الحمد فصارت سنة عند الذبح وفي الحج وبعد الصلوات في العيد من زمن ابراهيم إلى يومنا هذا وإلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها ، الحكم الشرعي : وجوب الأضحية على كل من ملك النصاب عند أبي حنيفة ، ومن نذر أن يذبح ابنه لربه ذبح شاة استدلالا بهذه القصة وقال بقية الأئمة بسنيتها ، هذا وقال أهل الكتابين وبعض علماء الإسلام أن الذبيح هو اسحق وبه قال عمر وابن مسعود والعباس من الأصحاب ، ومن التابعين سعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي وقول لابن عباس إذ

كانت هذه الرؤيا بالشام ، وإنه ذهب به إلى النحر في منى وفداه الله كما مر في القصة ، وقال عبد الله بن سلام وأبو بكر وابن عمر وابن عباس من الأصحاب ، ومن التابعين الحسن وسعيد بن المسيب والشعبي ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وفي رواية عن عطاء بن أبي رباح ويوسف بن ماهك عن ابن عباس والمقوس أنه إسماعيل ، وحجة القول الأول أن الله تعالى قال وبشرناه



---

بغلام حليم فلما بلغ معه السعي أمر بذبح من بشر به وليس في القرآن أنه بشر بغير اسحق ، وقال تعالى في سورة هود وبشرناه بإسحاق وقال تعالى في هذه السورة وبشرناه بإسحاق نبيا بعد قصة الذبح بما يدل على أنه تعالى إنما بشره بالنبوة لما تحمل من المشقة في قصة الذبح وأن أول الآية وآخرها يدل على أنه اسحق وقد مر في سورة يوسف أن يعقوب لما كتب الكتاب لعزيز مصر كتب من يعقوب بن اسحق ذبيح الله بما يدل على أنه هو الذبيح ، وحجة القول الثاني أن الله تعالى ذكر البشارة بإسحاق في السور الأخر غير هذه بعد الفراغ من قصة الذبح ، فقال تعالى (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) بما يدل على أن الذبيح غيره ولقوله في سورة هود (فَبَشَّرْنَاها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ) فكيف يأمره

بذبح اسحق وقد وعده بأنه سيأتي منه حفيد له اسمه يعقوب ، وقال تعالى (وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً) الآية

(124/650)

---

74 من سورة الأنبياء الآتية ، وكرر معناها في سور أخرى فلو كان المذبوح اسحق لما بشره ربه بأن يكون له حفيد منه وهذا القول وحده كاف الدلالة على أن الذبيح إسماعيل إذ لو كان الذبيح اسحق لحصل الشك لسيدنا إبراهيم بصحة الرؤيا لأن اللّه وعده بأنه سيتزوج ويأتي له ولد اسمه يعقوب فكيف يأمر بذبحه ؟ هذا وأن وصف إسماعيل بالصبر دون اسحق يدل على أنه هو الذبيح لما فيه من المناسبة الصريحة ولأنه وصف بصدق الوعد بقول تعالى (إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ) الآية 153 من سورة مريم المارة في ج 1 حيث وعد أباه بالصبر والموافقة على ذبحه والامتثال لأمر ربه حين قص عليه رؤياه وقد وفى بذلك ، وهذا كله يدل دلالة كافية على أن الذبيح هو إسماعيل ويؤيد هذا أن قرني الكبش كانتا معلقتين على الكعبة في أيدي ولد إسماعيل ، وبقيت كذلك ، إلى أن احترقت زمن ابن الزبير ، قال الشعبي رأيت قرني الكبش موطنين في الكعبة ، وقال ابن عباس والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام وان رأس الكبش لمعلق بقرنين في ميزاب الكعبة وقد وحش أي

يبس .

وقال الأصمعي سألت أبا عمر بن العلاء عن الذبيح أإسحاق أم إسماعيل ، فقال يا أصمعي أين ذهب عقلك متى كان اسحق بمكة إنما كان إسماعيل ، وان اليهود تعلم ذلك ، ولكن يحسدونكم معشر العرب

على أن يكون أباكم ويدعون أنه اسحق لأنه أبوهم .

(125/650)

---

والقول الفعل ما جاء عن خاتم الرسل أنه قال أنا ابن الذبيحين يعني جده إسماعيل وأباه عبد اللّه ، لأن عبد المطلب كان نذر لأن بلغ عدد بنيه عشرة ليذبحن أحدهم وهو آخرهم ، وقد حقق اللّه له ذلك وبادر بذبحه ثم تحاكم إلى الأزلام فوضع عشرة من الإبل وابنه فوقع على ابنه ثم وضع عشرين وضرب الأزلام فوقعت على ابنه وهكذا حتى بلغت مائة من الإبل فوقعت عليها ففداه بها وذبحها كلها ، ولذلك صارت دية الرجل مائة من الإبل من ذلك اليوم وأقرها الإسلام ، وسئل أبو سعيد الضرير عن ذلك فأنشد :

إن الذّبيح هديت إسماعيل نص الكتاب بذاك والتنزيل

شرف به خصّ الإله نبيّنا وأتى به التفسير والتأويل

إن كنت في أمته فلا تنكر له شرفا به قد خصه التفضيل

(126/650)

---

قال تعالى "وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ 114" بالنبوة والرسالة والنّصر "وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا" المؤمنين "مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ 115" وهو الاستعبار من فرعون وقومه القبط ولا كرب أعظم من الرق والأسر "وَنَصَرْنَاهُمْ" جمع الضمير باعتبار أن النصر لهما ولقومهما المؤمنين بهما على القبط وملوكهم أجمع وإلا ففيه دلالة على أن الجمع يكون على ما فوق الواحد كما سيأتي في الآية 78 من سورة الأنبياء الآتية "فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ 116" عليهم بنصرتنا لهم "وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ 117" البليغ في بيانه المستنير في هدايته وهو التوراة، والإتيان لموسى خاصة ولما كان هرون يعمل معه فكأنه أوتيه لأنه مرسل مثله وقد كذب اليهود بإنكار رسالته وشوهوا التوراة بتحريفها وشطب ذلك منها وغيره مما يتعلق برسالة محمد صلّى اللّه عليه وسلم "وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ 118" الموصل من تمسك به إلى الجنة في الآخرة فكل من سلكه بإحسان ومات على ذلك إلى بعثة عيسى ابن مريم فهو ناج وكل من تمسك بالإنجيل إلى بعثه محمد فهو ناج إذا مات قبل البعثة أو صدق بها

وآمن بمحمد وإلا فهو هالك "وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ 119" ثناء حسنا دائما ما تعاقب الجديدان وهو "سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ 120" في الدنيا والآخرة "إِنَّا كَذلِكَ" مثل هذا الجزاء الذي جزيناهما به "نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ 121" على عملهم من عبادنا أجمع "إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ 122" بنا المخلصين لنا

مطلب قصة إلياس عليه السلام وقسم من قصة لوط عليه السلام :

(127/650)

---

قال تعالى فيما قصة على نبيه أيضا بعد تلك القصص "وَإِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ 123" إلى أهل بعلبك وهو إلياس بن يس وقيل ابن بشير وهو ضعيف جدا بل هو ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هرون عليه السلام بن عمران وما قيل إنه إدريس ضعيف أيضا ومخالف للظاهر ولا مستند له إلا الظن وهو لا يغني شيئا في الاستدلال على الحق إذ بين إدريس وإلياس قرون كثيرة لأنه من آدم وإلياس من نوح وإدريس لم يبعث بعد إلى أهل بعلبك فهو قول مخالف للنص تدبر، وراجع الآية 85 من سورة الأنبياء الآتية بشأن نسبه "إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ" وكانوا من بني إسرائيل ولذلك أضيفوا إليه "أَلا تَتَّقُونَ 124" اللّه وهو في الجملة وما

بعدها مقول قوله عليه السلام "أَتَدْعُونَ" باستغاثتكم وتطلبون في حوائجكم وترجون في مهماتكم "بَعْلًا" هو اسم صنم لهم يعبدونه وقد أول بعضهم تدعون بيعبدون وهو هنا خلافه الظاهر كما ترى في هذه الآية وإلا فانه يأتي دعى بمعنى عبد ، ويصح المعنى في مواضع كثيرة راجع الآية 48 من سورة مريم في ج 1 وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ 125 فلا تسألونه وهو خالقكم والصنم من خلقكم الذي هو من خلق اللّه أيضا لأن العبد مخلوق للّه وصنعه مخلوق للّه أي انكم بفعلكم هذا تتركون "اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ" وهذه كلها بالنصب صفة لأحسن الخالقين المتقدم "آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ 126" هو أحق أن تلجأوا إليه في أموركم وهو أحرى بأن يجيبكم لأن هذا الصنم لا يضر ولا ينفع ولا يعقل ولا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم فكيف ترجون منه ما تأملون فلم يصغوا "فَكَذَّبُوهُ" ولم يلتفتوا إليه ولم يعبأوا بنصحه ولم يعتنوا به قال تعالى مهددا لهم على استخفافهم "فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ 127" يوم القيامة فنحاسبهم ونجازيهم على كفرهم بالنّار التي لا يسلم من عذابها "إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ 128" له الذين استخلصهم

لعبادته "وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ 129" ثناء مستمرا ما بقي الملوان وهو

"سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ 130" أي الياس وقومه كما تقول ، المحمديين واليسوعيين والموسويين

، وهذا مما يؤيد أن أباه يسن كما ذكرنا لا بشر

"إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ 131" في الدنيا إحسانا في الآخرة جزاء إحسانهم ومثل

ذلك الجزاء الحسن نجزي نبينا الياس "إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ 132" بنا المصدقين

لرسلنا .

(129/650)

---

وخلاصة قصته على ما قاله الأخباريون هو أنه لما مات حزقيل عليه السلام كثر الفساد في

بني إسرائيل وعبدوا الأصنام فبعث الله تعالى لهم الياس نبيا وكان الأنبياء بعد موسى

يبعثون بتجديد أحكام التوراة وكان يوشع لما فتح الشام قسمها على بني إسرائيل فأصاب

سبطا منهم بعلبك ونواحيها وهم الذين بعث إليهم الياس وكان ملكهم اسمه آجب ، قد

ضل وأضل وأجبرهم على عبادة الأصنام ، وكان لهم صنم يسمى بعلا مصوغا من

الذهب بطول عشرين ذراعا وله أربعة أوجه وقد فتنوا به وجعلوا له أربعمائة سادن

وسموهم أنبياء ، وكان الشيطان يدخل ويتكلم بما يضللهم فيحفظونه السدنة ويأمرون

الناس به وصار الياس عليه السلام ينهاهم عن عبادته ويأمرهم بعبادة اللّه فلم يذعن لدعوته إلا الملك فإنه آمن به واسترشد برشده وكان له زوجة جبارة يستخلفها عند غيابه فاغتصبت جنينه من رجل كان يتعيش بها فلما عارضها قتلته فأمر اللّه الياس أن يخبر الملك وزوجته بان اللّه غضب عليهما باغتصابهما الجنّة وقتل صاحبها لأن الملك لما لم يردعها عدّ راضيا بفعلها وأن يخبرهما بأنهما إذا لم يردا الجنة لورثته يهلكهما فيها ولا يتمتعان بها إلا قليلا فأخبرهما الياس فاشتد غضب الملك عليه وقال له يا الياس ما أراك تدعو إلا إلى الباطل ، وهمّ بقتله فهرب الياس وارتد الملك عن الإيمان ورجع إلى عبادة الأوثان وبقي الياس مستخفيا بين الجبال سنين وهم يتحرونه ولم يقفوا على أثره ، فضاق صدره عليه السلام ، وسأل اللّه أن يميته ، فقال تعالى له ما هذا وقت إعراء الأرض منك ، لأن صلاحها بك ، فقال يا رب أعطني ثأري من بني إسرائيل ، قال ما تريد ، قال اجعل خزائن المطر بيدي ثلاث سنين ، فإنه لا يذلهم إلا هذا ، فأعطاه اللّه ذلك ومنع عنهم المطر فهلكت الماشية والهوام والشجر وجهد الياس ، وهو لم يزل مستخفيا وقد عرف قومه أن البلاء جاءهم بسببه ، فمر ذات يوم بعجوز منهم فضافها فأخرجت له قليلا

من الدقيق والزيت ، فأكل ودعا لها بالبركة فلم تحس إلا وقد ملئت جربانها دقيقا وخوابيها زيتا ، فاطلع الناس عليها وعلى ما عندها من الخير ، فقالوا لها من أين لك هذا ، قالت ضافني رجل فقدمت إليه ما عندي من دقيق وزيت فأكل ودعا لي بالبركة ، ومنذ فارقني رأيت أجربتي ملئت دقيقا وخوابيّ زيتا ووصفته لهم فعرفوه ، وطفقوا يطلبونه يمينا وشمالا شرقا وغربا فلم يجدوه ، ثم انه أوى إلى بيت عجوز أخرى لها ابن يقال له اليسع بن أخطوب وكان مريضا فدعا له فعوفي بالحال وآمن به ، ثم إنه لما رأى ما حل بقومه من الضيق والضنك رقّ لهم ورأف بهم فأظهر نفسه إليهم مفاديا بها طلبا لإيمانهم به ورجوعهم إلى عبادة اللّه وتركهم الأوثان بعد أن آنس منهم الركون إليه والالتجاء إلى ربه ، وقال لهم قد هلكتم وهلك كل شيء بخطيئتكم فأخرجوا أصنامكم واستسقوا بها ، فإن مطرتم فذلك كما تقولون وإلا فيتحقق لديكم أنكم على باطل فتنزعون عن عبادتها ، ثم إني أدعو اللّه ربي فإذا أفرج عنكم آمنتم به وتركتم الأوثان ، قالوا لقد أنصفت فخرجوا وأخرجوا أصنامهم ، ودعوا فلم يستجب لهم ، ولم يزالوا حتى أظهروا عجزهم وعجز آلهتهم ، وكلفوه بأن يدعو هو إلهه ، فشرع عليه السلام يدعو واليسع يؤمن على دعائه وقد انتهت المدة التي منع اللّه بها السماء أن تجرد عليهم حسب طلبه السابق ، فأغاثهم اللّه تعالى غيثا جلل أراضيهم كلها ، فحييت واخضرت ودبت الحياة بمواشيهم وترعرعوا وتنفسوا من ألم

القحط وتروحوا من الجدب لكثرة ما أفاض اللّه عليهم من الخير الذي أدرّ الضرع وأكثر الزرع ، فنكثوا بعهودهم ونقضوا وعدهم وأصروا على كفرهم ، لأن النعم التي غمرتهم أنستهم ما كانوا عليه من الشدة وصاروا يسخرون بنبيهم كلما يدعوهم إلى الإيمان ويطالبهم بالوفاء بالعهد ، وقد أيس من إيمانهم فدعا اللّه أن يريحه منهم ، فأجاب اللّه دعاءه وقال له أخرج



---

إلى موضع كذا لمكان عيّنه له وما جاءك فاركبه ولا تخف ، فخرج هو واليسع وإذا بفرس من نار دنت منه فوثب

عليها فانطلقت به في الهواء فناداه اليسع بماذا تأمرني فألقى إليه رداءه فاستدل به على استخلافه فلبسه ورجع يدعو الناس إلى طاعة ربه واقتفى آثار دعوة الياس عليهما السلام ، قالوا وان اللّه تعالى قطع عن الياس الحاجة إلى الطعام والشراب

فصار إنسيا ملكيا أرضيا سماويا وكأنه لهذه الحكاية قال بعض المفسرين إنه إدريس عليه السلام لما أشار إليه في الآية 57 من سورة مريم بقوله (وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا) في ج 1 ، مع أن إدريس كان رفعه على غير هذه الصورة راجع قصته في الآية المذكورة ، على أن القصص

كلها ما لم تستند إلى آية أو حديث لا عبرة بها .

هذا ، وقد سلط اللّه على الملك المرتد وقومه عدوا لهم فأرهقهم وقتل الملك وزوجته اربيل في الجنة التي غصبتها كما أخبرهم نبيهم الياس ، وقد نبأ اللّه اليسع وبعثه إليهم فآمنوا به ، قال تعالى "وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ 133" من قبل إلى طائفة من عبادنا فتغلبوا عليه وأرادوا البطش بأضيافه فاذكر يا محمد لقومك "إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ 134" من الإهلاك الذي حل بقومه "إِلَّا عَجُوزاً" هي زوجته واعلة لأنها على دين قومه وليست من عشيرته لأنه غريب عنهم كما تقدم راجع الآية 78 من سورة هود المارة وتطلع على تفصيل قصته في الآية 79 من سورة الأعراف في ج 1 "فِي الْغابِرِينَ 135" الباقين في العذاب "ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ

136" تدميرا فظيعا فلم نبق منهم أحدا "وَإِنَّكُمْ"

يا أهل مكة "لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ"

عند ما تسافرون إلى الشام "مُصْبِحِينَ

137" نهارا "وَبِاللَّيْلِ"

أيضا إذ ترون منازلهم وآثار أطلالهم بذهابكم وإيابكم صباح مساء "أَفَلا تَعْقِلُونَ

138 "كيف كانوا وما حل بهم من العذاب حتى دمروا وأهلكوا بسبب كفرهم وتعندهم مع نبيهم فاتعظوا لئلا ينزل بكم ما نزل بهم من العذاب لأنكم متقمّصون بالأعمال السيئة التي أهلكوا من أجلها من الكفر والتكذيب والاستهزاء ، ولو أنهم آمنوا بنبيهم وصدقوا بما جاءهم به لما أهلكوا ، قال تعالى "وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

139 " إلى أهل نينوى من قبل اللّه تعالى فدعاهم للإيمان فلم يقبلوا ، واذكر لقومك قصته يا محمد "إِذْ أَبَقَ"

هرب من قومه حين رفع اللّه عنهم العذاب غضبا عليهم أو حين استبطأ نزوله بهم وقد نفذ الوقت الذي وعدهم به خوفا من أن يصموه بالكذب فقر منهم "إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ

140 " المملوء ، قالوا لما وصل إلى البحر كان معه زوجته وولداه فجاء المركب فقدم امرأته ليركب بعدها فحال بينهما الموج وذهب المركب وتركه وجاءت موجة أخرى فأخذت ابنه الأكبر ، ثم جاء ذئب وأخذ

ابنه الآخر وبقي فريدا ، فجاء مركب آخر فركبه ، فقال الملاح إن فيكم عاصيا عبدا آبقا من سيده إذ لا موجب لوقوف المركب غير هذا ، فانظروا من هو ، فاقترعوا لمعرفة ذلك الآبق فيما بينهم ، فوقعت القرعة على يونس ، فقالوا له بعد الاعتراف بأنه آبق من سيده وعنى بذلك ربه لا بد من رميك في البحر ، لأن العادة المطردة عندنا كذلك ، ولئن يغرق

واحد خير من أن يغرق الكل ، فاستسلم فأخذوه وزجوه بالماء ،

وذلك قوله تعالى "فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ

(133/650)

---

141 " المغلوبين في القرعة "فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ 142 " فعل فعلا يلام عليه بالنسبة لمقامه وذلك على حد حسنات الأبرار سيئات المقربين لأنه لم يفعل على رأيه ما يعاقب عليه "فَلَوْلا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ 143 " لنا المكثرين لذكرنا الراجعين لأمرنا "لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ" لبقي في جوف الحوت "إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ 144 " من قبورهم الأموات هو وقومه وغيرهم ، وكان تسبيحه عليه السلام كما ذكر ربه في الآية 87 من سورة الأنبياء الآتية (لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) وهذا هو الذي نجاه ، وكان عليه السلام يديم ذكر ربه قبل ذلك لا يفتر عنه أبدا ولهذا عده اللّه من المسبحين ، وجاء في الحديث اذكروا اللّه في الرخاء يذكركم بالشدة "فَنَبَذْناهُ" أجبنا دعاءه وأخرجناه من بطن الحوت وقذفناه "بِالْعَراءِ" الأرض الخالية من النبات والشجر "وَهُوَ سَقِيمٌ 145 " عليل البدن من حرارة بطن الحوت ، جاء في الخبر أن الملائكة لما سمعت تسبيح يونس عليه السلام قالوا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة وقالوا غريبة لأنهم لم يسمعوا بشرا يذكر اللّه فيها قبل ،

وإنما يسمعون الحيتان والديدان وغيرها وهو يختلف عن ذكر البشر ، فقال تعالى ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر ، قالوا ربنا ذلك العبد الصالح الذي كان يصعد عمله الصالح إليك كل يوم وليلة ؟ قال هو ذاك ، قال فيشفعون له ، فأمر اللّه الحوت فقذفته بأرض نصيبين من قاعدة ربيعة وهي مجاورة لديار بكر ويليها من جهة الشرق الشمالي ديار مضر ويسمونها الآن جزيرة ابن عمر ، وهذا مما يدل على أن المراد بالبحر هو دجلة التي تصب في البحر بعد اختلاطه بالفرات بالقرنة قبل البصرة ، فعلى هذا



---

يكون ركوبه في نهر دجلة الواقع عليها بلد نينوى التي بعث لأهلها وقد التقمه الحوت الذي أمره اللّه بأن يأتي من البحر إلى محل ركوبه وسبح به حتى أدخله البحر وطاف به ما شاء اللّه من البحار حتى ألهمه ذلك التسبيح العظيم فعاد به إلى قرب المحل الذي التقمه من أرض نصيبين قالوا وذلك بعد ثلاثة أيام ، قال تعالى "وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ 146" القرع الطويل غير الكوسا وغير المحزق الذي يسبح عليه وهو معروف ، والحكمة من اختيار اللّه تعالى لهذه الشجرة دون غيرها لأنها سريعة النبات والنمو ولأنها لا يقف الذباب عليها فضلا عن الإظلال ، وكان خروجه عليه السلام مثل الفرخ الذي لا ريش له إذ هري لحمه من

سخونة بطن الحوت وكل شيء يؤذيه إذا لمسه ، لذلك لطف اللّه به فأنبت عليه هذه الشجرة ، قالوا وكانت هناك وعلة تختلف إليه فيشرب من لبنها صباح مساء وبقي حتى اشتد لحمه وجمد عظمه وثبت شعره ، فنام ذات ليلة تحت ظلالها ، فلما استيقظ وجدها يابسة فحزن لما فاته من ظلها ودفع الذباب عنه فجاءه جبريل عليه السلام وقال له أتحزن على شجرة يا يونس ولا تحزن على مئة ألف من أمتك قد تابوا وأسلموا ، وذلك قوله تعالى "وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ 147" في نظر الرائي أي إذا رآهم أحد يقول هؤلاء مئة ألف وأكثر لأن الإرسال كان قبل أن يصيبه ما أصابه فذهب إليهم "فَآمَنُوا" به وكان إيمانهم باللّه تعالى عند معاينتهم العذاب بعد أن تركهم راجع القصة في الآية 97 من سورة يونس المارة ، قال تعالى "فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ 148" انقضاء آجالهم فيها حسبما هو مقدر في علمنا ، هذا وإنما لم يختم اللّه تعالى قصتي لوط ويونس عليهما السلام بالسلام كما ختم القصص قبلهما لأنه ختم هذه السورة بالسلام على جميع المرسلين وهما من جملتهم وقد سبق بحث لهذه القصة في الآية 49 من سورة نون في ج 1 فراجعها ، ثم التفت جل

جلاله إلى رسوله محمد صلّى اللّه عليه وسلم وخاطبه بقوله "فَاسْتَفْتِهِمْ" عطف على قوله أول السورة (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً) وذلك بعد أن بين اللّه معايبهم بإنكار البعث طفق يبين مثالبهم مما نسبوه إليه تعالى فقال سلهم يا محمد "أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ" اللاتي يستنكفون عنهن ويقتلونهن خشية العار أو نفقتهن "وَلَهُمُ الْبَنُونَ 149"

الذين يرغبون فيهم ويتفاخرون ويتباهون وهذه الآية على حد قوله تعالى (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى) الآية 11 من سورة والنجم المارة في ج 1، وقوله تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ) الآية 57 من سورة النحل الآتية

، أي كيف يليق بقومك يا حبيبي أن ينسبوا لي ما يكرهون ولأنفسهم ما يحبون وأنا المنزه عن ذلك كله "أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ 150" على ذلك حتى يسمونهم بنات "كلا" يا أكرم الرسل ليسوا بأولاد اللّه بل عباده وهم من أشرف الخلق وأقدسهم عن النقائص ولم يشاهدوا خلقهم ولم يعلموا به ولم يكن لي بنات ولم يولد لي شيء



---

"أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ 151" "وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ 152" في زعمهم ونسبتهم ولم نخلقهم إناثا ولم يشاهدوا خلقهم فهم مبرأون عما وسموهم به لأنهم لا يوصفون بذكورة ولا

بأنوثة لأنهم لا شهوة لهم "أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ 153" اختارهن عليهم وأنتم تعدون الأنوثة من أخس صفات الحيوان أيليق بكم هذا "ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ 154" على اللّه هذا الحكم الجائر الذي لا ترضونه لأنفسكم وهو جهل صادر منكم بذات الربوبية الأقدس "أَ فَلا تَذَكَّرُونَ 155" بمقامه الجليل وترتدعون عما تقولون، وهذا استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع أي لا يكون شيء من ذلك جائز البتة "أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ 156" على زعمكم هذا كلا لا دليل ولا حجة ولا برهان ولا أمارة بذلك فإن كان عندكم به شيء "فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ"

الذي فيه هذا "إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

157" بقولكم، قال تعالى "وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً" إذ قالوا إن اللّه تعالى تزوج من الجن وهم حي على حدة منهم إبليس عليه اللعنة.

مطلب في الجن ونصرة اللّه تعالى أنبياءه وما يستخرج من الآية:

أخرج ابن الياس وعبد بن حميد وابن جرير وغيرهم عن مجاهد قال: قال كفار قريش الملائكة بنات اللّه، تعالى اللّه عن ذلك فقال لهم أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه على سبيل التبكيت فمن أمهاتهم؟ فقالوا بنات سروات الجن أي أشرافهم.

ورواه أيضا ابن أبي حاتم عن عطية وقال ابن عباس هم حي من الملائكة يقال لهم الجن ومنهم إبليس، وقيل إن المراد بالجن الملائكة وسموا جنا لاستتارهم.

والحق أن الجن فصيلة على حدة لقوله تعالى (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ) الآية 27 من سورة الحجر المارة، وقد نسب اللّه تعالى إليهم إبليس بقوله (كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) الآية 50 من سورة الكهف الآتية، وقدمنا ما يتعلق بالجن في الآية الأولى من سورة الجن في ج 1 فراجعه تعلم أن خلقهم كان قبل آدم وألمعنا لهذا البحث في الآية 28 من سورة الحجر المارة بأنهم ليسوا من الملائكة وأنهم سكنوا الأرض قبل آدم وأفسدوا فأهلكهم اللّه وشتتهم راجع الآية 30 من سورة البقرة في ج 3، قال تعالى "وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ" بتعليم اللّه إياهم "إِنَّهُمْ" قائلي هذا القول "لَمُحْضَرُونَ 158" في الآخرة بالموقف العظيم ومزجوجون في نار الجحيم، فلو كانوا مناسبين اللّه أو أصهاره أو شركاءه تعالى اللّه عن ذلك كله لما عذبهم، وقد أخبر وإخباره حق بأنه محاسبهم على إفكهم هذا ومعاقبهم عليه ومجازيهم على بهتهم في النار، ثم إنه نزه نفسه المنزهة بقوله "سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ 159" حضرة الربوبية ويفترون عليه من نسبة الولد والزوجة لذاته المبرأة عن ذلك، ثم أخبر جل إخباره بأن كلا من الجن والإنس القائلين بحق اللّه ما لا يليق محضرون ومحاسبون

على ما تفوهوا به ونائلهم جزاء عملهم القبيح "إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ 160" عملهم إليه منهما فهم ناجون وإن إخلاصهم يوصلهم الجنة ويتنعمون بها واعلموا أيها المشركون

(138/650)

---

"فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ 161" من دون اللّه "ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ" على الذات المقدسة بما تصمونها به "بِفاتِنِينَ 162" مضلين ومفسدين أحدا من خلقه، وأعاد بعض المفسرين ضمير عليه إلى ما فيكون المعنى ما أنتم بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة "إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ 163" حذفت الياء من (صال) وجعلت الكسرة دالة عليها لالتقاء الساكنين على كونه مفردا لأن معناها هنا يدل على المفرد، أما كلمة (صالُوا) الواردة في الآية 59 من سورة ص المارة في ج 1 فقد حذف منها النون للاضافة وللالتقاء الساكنين فيها أيضا لأنه بلفظ الجمع ولهذا لم يكتب هنا بالواو لأنه بلفظ المفرد وقرىء بضم اللام قراءة شاذة على أنه معنى من جمع أي لا يفعل هذا الفعل المنهي عنه إلا من سبقت له الشقاوة من علم اللّه وقدر له دخول النار.

هذا، وقد جاء في هذه الآيات

من الإخبار بسخط اللّه العظيم على هؤلاء الكفرة المتجارئين على اللّه والإنكار الفظيع

لأقاويلهم الكاذبة والاستبعاد الشديد لأباطيلهم وتسفيه أحلامهم وتركيك عقولهم وسخافة أفهامهم مع الاستهزاء بعقولهم والسخرية بأشخاصهم ما لا يخفى على المتأمل . ثم حكى اللّه عن ملائكته فقال "وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ 164" عند اللّه وهذا اعتراف منهم بالعبودية له جل شأنه وقد تمثل بهذا القول سيدنا جبريل عليه السلام ليلة الإسراء عند مفارقته لحضرة الرسول صلى اللّه عليه وسلم حينما صعد للقاء ربه كما مر في الآية الأولى من الإسراء في ج 1 وقال له في مثل هذا المكان يترك الخليل خليله أو الحبيب حبيبه ، فأجابه (وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ) أي في القرب والمعرفة والمشاهدة لا يمكن أن يتعداه خضوعا لعظمة الإله وخشوعا لهيبته وتواضعا لجلاله .

(139/650)

---

هذا ، ومن قال إن المراد بالجنّة هنا الملائكة جعل هذه الجملة من قولهم على الاتصال بكلامهم السابق إلى من قوله سبحان اللّه عما يصفون إلى قوله تعالى "وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ 165" حول العرش في عبادة ربنا كصفوف الإنس في الصلاة أمامه وقوله "وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ 166" له العابدون ولسنا المعبودين ولا منسوبين لحضرته بالمعنى الذي ذكره قومك يا محمد "وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ 167" "لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ 168" وذلك أنهم

يقولون قبل نزول القرآن على رسولهم محمد لو أن عندنا كتابا من كتب الأقدمين مثل اليهود والنصارى "لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ 169" له العبادة واتبعنا ما فيه وانقدنا لأوامره ونواهيه ولما أتاهم هذا الكتاب الجامع لكل الكتب والذي فيه أحسن الذكر على لسان أكمل البشر "فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ 170" غب كفرهم وعاقبة أمرهم ، وهذه الآية على حد قوله تعالى (أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ) الآية 156 من سورة الأنعام المارة ، ويقرب منها بالمعنى (وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى) الآية 133 من سورة طه في ج 1 ،

قال تعالى "وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ 171" التي وعدناهم بها عند ما نرسلهم لهداية الأمم وهي قوله جل قوله (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) الآية 21 من سورة المجادلة في ج 3 وحروفها بحساب الجمل عن السنة الشمسية 1958 "إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ 172" على من خالفهم وناوأهم لأنهم جندنا "وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ



---

173" على غيرهم من جميع الأخبار ، واعلم أن حروف هذه الآية المباركة بحساب الجمل 1360 وحروف الأولى 644 فيكون مجموع حروف هاتين الآيتين 172/

173 بحسب السنة الشمسية أيضا 2004 وحروف الآية 173 وحدها على حساب السنة القمرية 1360 والآية 103 من سورة يونس المارة 1468 أيضا فنسأل الله تعالى تحقيق وعده بنصرة الإسلام وإكمال عزهم ورفع رايتهم على سائر الأمم من الآن حتى يتم كماله فيها وهو على كل شيء قدير وبالإجابة جدير ، وقد سمى الله هاتين الجملتين كلمة لانتظامهما في معنى واحد فكانتا في حكم الكلمة على حد قوله تعالى (إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا) الآية 100 من سورة المؤمنين الآتية وهي إشارة إلى قوله (رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا) وهي كلمات لا كلمة وعليه تعبيره صلّى اللّه عليه وسلم عن لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه بكلمة أيضا .

هذا ، ولا يقال إن من الأنبياء من لم ينصر وقد يغلب ويقتل أيضا لأن النصر إذا لم يكن في الدنيا فهو في الآخرة محقق لكافة الرسل والعبرة في الدنيا للغالب في النصرة الفعلية أما في المحاججة فلا شك أن النصرة لجميع الأنبياء كما هو معلوم من قصصهم التي قصها اللّه علينا ، قال تعالى يا أكرم الرسل "فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ 174" إلى مدة يسيرة فقد قرب نزول العذاب بهم إذ طفح الكيل وبلغ السيل الزبى وهذا من قبيل التهديد والوعيد فمن قال إن هذه الآية منسوخة بآية السيف فقد هفا لأنها من الأخبار وكل ما كان فيه تهديد ووعيد لا يتطرقه النسخ "وَأَبْصِرْهُمْ" إذا حل بهم ما يوعدون به من العذاب "فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ

175" وقوعه فيهم وسوف هنا للوعيد لا للتبعيد تدبر .

ولما هددهم حضرة الرسول بذلك قالوا : ومتى يكون ما توعدنا به يا محمد ؟



---

فقال تعالى مجاوبا لهم عن نبيه "أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ 176" كفرة قومك وهذا استفهام على طريق التوبيخ بسبب استعجالهم ما فيه بؤسهم وشقاؤهم "فَإِذَا نَزَلَ" العذاب "بِسَاحَتِهِمْ" فناء دورهم والساحة المكان المتسع أيضا العرصة الكبيرة أمام الدور "فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ 177" بئس الصباح صباحهم وساء

المساء مساؤهم ، روى البخاري ومسلم عن أنس رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم غزا خيبر فلما دخل القرية قال : اللّه أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ، قالها ثلاثا ، وقد فتح اللّه عليه ففتحها ، قال تعالى "وَتَوَلَّ عَنْهُمْ" يا حبيبي "حَتَّى حِينٍ 178" انقضاء الأجل المقدر لنصرتك عليهم "وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ 179" كررت هذه الجملة تسلية لحضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم على تسليته الأولى وتأكيدا لوقوع الوعد إلى تأكيده الأول وقيل لا تكرار لأن الآية الأولى في عذاب الدنيا وهذه في الآخرة والأول أولى ، ثم نزه ذاته الكريمة ثانيا وهي أهل للتنزيه في كل لحظة فقال "سُبْحَانَ

رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ" الغلبة والعظمة والقدرة والجبروت "عَمَّا يَصِفُونَ 180" هؤلاء الكفرة ربهم وخالقهم ومالك أمرهم ومربيهم مما لا يليق بجنا به العظيم هذا "وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ 181" جميعهم من آدم إلى محمد صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين "وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ 182" على إهلاك الأعداء ونصرة الأولياء ، وفي هذه الآية تعليم لعباده بأن يختموا كلامهم بحمد ربهم في الدنيا لأنه خاتمة كلام أهل الجنة وقد ختمت سورة الزمر الآتية بمثل هذه الآية ، وجاء في سورة يونس المارة الآية 10 (دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ) .

*(142/650)*

---

هذا واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأتباعه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 3 صـ 474.437 ﴾

*(143/650)*

---

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الصافات

مكية

إن الهكم الواحد تام وقال أبو عمرو كاف المشارق تام الكواكب كاف وكذا ما ورد ومن كل جانب وقال قوم إن الوقف على دحورا أحسن وان كان من كل جانب آخر آية وهو حسن شهاب ثاقب حسن أم من خلقنا كاف لازب تام يستسخرون صالح وكذا مبين الأولون كاف وكذا داخرون ولا يوقف على قل نعم وان زعمه بعضهم لان المعنى تبعثون وأنتم صاغرون ينظرون كاف وقالوا ياويلنا تام إن جعل هذا يوم الدين من كلام الملائكة للكفار وان جعل من كلام الكفار فالوقف التام على يوم الدين وهذا يوم الفصل إلى آخره من كلام الملائكة تكذبون حسن الجحيم كاف وكذا وقفوهم ومسؤلون ولا يجمع بينهما لا تناصرون كاف أيضا مستلمون حسن يتساءلون كاف اليمن جائز وكذا مؤمنون طاغين كاف غاوين صالح مشتركون كاف المجرمين حسن يستكبرون صالح مجنون حسن المرسلين كاف الأليم صالح تعملون كاف بجعل إلا بمعنى لكن وخبرها أولئك لهم رزق معلوم وهو كاف وعلى هذا لا يوقف على المخلصين فان بقيت إلا على بابها لم يوقف على تعملون بل على المخلصين وهو كاف فواكه كاف النعيم صالح متقابلين أصلح منه للشاربين كاف وكذا

ينزفون ومكنون ويتساءلون ولمدينون والجحيم لتردين جائز من المحضرين صالح بمعذبين

كاف العظيم تام وكذا العاملون الزقوم حسن وكذا الظالمين الجحيم كاف وكذا الشياطين

البطون صالح لالي الجحيم تام يهرعون حسن أكثر الأولين أحسن منه المخلصين تام المجيبون

كاف وكذا العظيم والباقين في الآخرين تام وكذا في العالمين والمحسنين المؤمنون كاف الآخرين

تام بقلب سليم جائز تعبدون كاف تريدون صالح العالمين كاف وكذا مدبرين ضربا باليمن

صالح يزفون حسن تعملون كاف وكذا إلا سفلين سيهدين حسن وكذا من الصالحين وحليم

ماذا ترى كاف من الصابرين حسن قد صدقت الرؤيا تام وجواب فلما أسلما وناديناه بجعل

الواو صلة وقيل محذوف وعليه فالوقف على الرؤيا أيضا وعلى الجبين حسن نجزى

المحسنين تام المبين كاف وكذا بذبح عظيم إبراهيم



---

المحسنين حسن وكذا المؤمنين ومن الصالحين وعلى اسحق تام وكذا مبين وهرون كاف

وكذا العظيم والغالبين والمستبين والمستقيم في الآخرين تام وكذا وهرون والمحسنين

والمؤمنين لمن المرسلين صالح ألا تتقون كاف أحسن الخالقين تام لمن قرا الله ربكم بالرفع أو

النصب بدلا من احسن الأولين حسن المخلصين كاف في الآخرين تام وكذا الياسين

والمحسنين المؤمنين صالح وكذا المرسلين الآخرين تام وكذا وبالليل وتعقلون المرسلين صالح المدحضين كاف وكذا مليم ويبعثون ويقطين ويزيدون والى حين وهم شاهدون حسن وكذا الكاذبون لمن قرا بقطع همزة اصطفى وليس بوقف لمن قرا بوصلها بإضمار القول أي يقولون اصطفى على البنين تام تحكمون كاف تذكرون صالح لأنه راس آيه مبين مفهوم صادقين حسن نسبا كاف لمحضرون حسن المخلصين كاف صال الجحيم تام معلوم كاف وكذا الصافون والمسبحون والمخلصين يعلمون تام المرسلين حسن المنصورون كاف الغالبون حسن حتى حين مفهوم يبصرون حسن يستعجلون كاف المنذرين حسن حتى مفهوم يبصرون تام يصفون كاف وكذا على المرسلين آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿المقصد صـ 644.653﴾

(145/650)

---

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني:

سورة والصافات

مكية كلمها ثمانمائة وستون كلمة وحروفها ثلاثة آلاف وثمانمائة وستة وعشرون حرفاً وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع موضعان دحوراً وعلى اسحق ولا وقف من أوّلها

إلى لواحد فلا يوقف على صفا ولا على زجراً ولا على ذكراً لأنّ قوله والصافات قسم وجوابه إن إلهكم فلا يفصل بين القسم وجوابه بالوقف

لواحد (تام) إن رفع رب خبر مبتدأ محذوف أي هو رب وكذا إن رفع خبراً ثانياً أو نصب بإضمار أعني وليس بوقف إن نصب نعتاً لقوله إلهكم أو رفع بدلاً من قوله لواحد وكان الوقف على المشارق دون ما بينهما لأن ورب المشارق معطوف على ما قبله

المشارق (تام)

الكواكب (كاف) إن نصب وحفظاً بمضمر من لفظه أي وحفظناها حفظاً وليس بوقف إن عطف على زينا فهو معطوف على المعنى دون اللفظ لأن معنى زينا جعلنا الكواكب زينة وحفظاً

مارد (كاف)

الأعلى (تام) لعدم تعلق ما بعده بما قبله لأنه لا يجوز أن يكون صفة لشيطان إذ يصير التقدير من كل شيطان مارد غير سامع وهو فاسد ورسموا الأعلا بلام ألف كما ترى لا بالياء من كل جانب (حسن) وهو رأس آية

ودحوراً (أحسن) وإن كان هو ليس رأس آية وهو منصوب بفعل مقدر أي يدحرون دحوراً ويقال دحرته إذا طردته ومنه قول أمية بن أبي الصلت

وبإذنه سجدوا لآدم كلهم إلا لعينا خاطئاً مدحورا

وقال أبو جعفر نصب دحوراً على القطع بعيد لأنَّ العامل في قوله دحوراً ما قبله أو معناه

فأتبعه شهاب ثاقب

واصب ليس بوقف لأن بعده حرف الاستثناء والواصب الدائم ومنه قول الشاعر

لله سلمى حبها واصب وأنت لا بكر ولا خاطب

ومثله في عدم الوقف على الخطفة لأن ما بعد الفاء جواب لما قبله

ثاقب (تام) لأنه تمام القصة

أم من خلقنا (كاف) ورسموا أم من مقطوعة أم وحدها ومن وحدها كما ترى

لازب (كاف) وتام عند أبي حاتم ومثله ويسخرون وكذا يذكرون

(146/650)

---

يستسخرون (جائز) ومثله مبين ، لمبعوثون ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله والمعنى

أو تبعث آباؤنا أيضاً استعباداً

الأولون (كاف) ومثله داخرون ولا يوقف على نعم إن جعل ما بعدها جملة حالية أي

تبعثون وأنتم صاغرون وإن جعل مستأنفاً حسن الوقف عليها

ينظرون (كاف) واختلف في يا ويلنا هل هو من كلام الكفار خاطب بعضهم بعضاً وعليه

وقف أبو حاتم وجعل ما بعده من كلام الله أو الملائكة وبعضهم جعل هذا يوم الدين من كلام الكفار فوقف عليه وقوله هذا يوم الفصل من كلام الله وقيل الجميع من كلام الكفار

تكذبون (حسن)

وأزواجهم ليس بوقف لأن قوله وما كانوا يعبدون موضعه نصب بالعطف على وأزواجهم أي أصنامهم ولا يوقف على يعبدون لتعلق ما بعده به ولا على من دون الله لأن المراد بالأمر ما بعد الفاء وذلك أنه تعالى أمر الملائكة أن يلقوا الكفار وأصنامهم في النار

الجحيم (كاف) على استئناف ما بعده لأن المسؤل عنه قوله ما لكم لا تناصرون وهو (كاف) أيضاً

مستسلمون (حسن) ومثله يتسائلون وقيل لا يوقف عليه لأن ما بعده تفسير للسؤال

اليمين (جائز)

مؤمنين (حسن) ومثله من سلطان

طاغين (كاف)

قول ربنا (حسن) للابتداء بإن لمجيئها بعد القول ومثله لذائقون على استئناف ما بعده

غاوين (جائز)

مشتركون (كاف) على استئناف ما بعده

بالمجرمين (كاف) ومثله يستكبرون إن جعل ويقولون مستأنفاً وليس بوقف إن عطف على

يستكبرون

مجنون (كاف) ومثله المرسلين وقرأ عبد الله وصدق بتخفيف الدال المرسلون بالرفع فاعل به

العذاب الأليم (جائز) *تعملون من حيث كونه رأس آية يجوز

المخلصين (صالح) لأن قوله أولئك بيان لحال المخلصين

(147/650)

---

معلوم (كاف) إن جعل فواكه خبر مبتدأ محذوف أي هي فواكه أو ذلك الرزق فواكه وليس بوقف إن جعل فواكه بدلاً من قوله رزق أو بياناً له والوقف على فواكه ثم يبتدىء وهم منكرمون وهكذا إلى متقابلين فلا يوقف على مكرمون لأن الظرف بعده متعلق به ولا على في جنات النعيم لتعلق ما بعده به قرأ العامة مكرمون بإسكان الكاف وتخفيف الراء وقرئ في الشاذ بفتح الكاف وتشديد الراء

متقابلين (كاف) على استئناف ما بعده وجائز إن جعل حالاً

من معين ليس بوقف لأن قوله بيضاء من نعت الكأس وهي مؤنثة

للشاربين (حسن) على استئناف النفي بعده

لا فيها غول (جائز)

ينزفون (كاف)

عين ليس بوقف لأن قوله كأنهن من نعت العين كأنه قال عين مثل بيض مكنون

ومكنون أي مصون وهو (كاف)

يتساءلون (جائز) ولا يحسن لأن ما بعده تفسير للسؤال ولا وقف من قوله قال قائل إلى

لمدينون لاتصال الكلام بعضه ببعض

لمدينون (كاف)

مطلعون (جائز)

الجحيم (كاف) ومثله لتردين وكذا من المحضرين للابتداء بالاستئناف لأن له صدر الكلام

بميتين ليس بوقف لأن قوله إلا موتتنا منصوب على الاستثناء

بمعذبين (كاف)

العظيم (تام) ومثله العاملون

الزقوم (حسن)

للظالمين (كاف) ومثله الجحيم وكذا الشياطين

البطون (جائز) ومثله من حميم

لإلى الجحيم (كاف) ورسموا لا إلى بألف بعد لام ألف لأنهم يرسمون ما لا يتلفظ به

ضالين (جائز)

يهرعون (كاف)

أكثر الأولين (حسن) ومثله منذرين الأوّل و المنذرين الثاني ليس بوقف للاستثناء بعده

المخلصين (تام)

المجيبون (كاف) ومثله العظيم وكذا الباقين

في الآخرين (تام) وقال الكسائي ليس بتام لأن التقدير عنده وتركنا عليه في الآخرين هذا السلام وهذا الثناء قاله النكزاوي وهو توجيه حسن

(148/650)

---

في العالمين والمحسنين رسمهما العماني بالتام وفيه نظر لأن ما بعد كل واحد منهما يغلب على الظن أنه تعليل لما قبله ولعود الضمير في قوله إنه من عبادنا المؤمنين والأجود ما أشار إليه شيخ الإسلام من أنهما كافيان ومثلهما المؤمنين

الآخرين (تام) لأنه آخر القصة

لإبراهيم ليس بوقف لأن قوله إذ جاء ربه بقلب ظرف لما قبله ومثله في عدم الوقف بقلب سليم لأن الذي بعده ظرف لما قبله وإن نصبت إذ بفعل مقدر كان كافياً

تعبدون (كاف) للابتداء بالاستئناف بعده

تريدون (جائز) وقيل لا وقف من قوله وإن من شيعته لإبراهيم إلى برب العالمين لتعلق الكلام

بعضه ببعض من جهة المعنى

برب العالمين (تام)

في النجوم (حسن) على استئناف ما بعده ويكون النظر في النجوم حيلة لأن ينصرفوا عنه

سقيم (جائز) وقول إبراهيم إني سقيم تعريض لأنه يلم بشيء من الكذب لأن من كان الموت

منوطاً بعنقه فهو سقيم

مدبرين (كاف)

تأكلون (جائز) ومثله تنطقون وكذا ضرباً باليمين

يزفون (كاف) تنحتون (حسن)

وما تعملون (كاف)

في الجحيم (جائز) ومثله الأسفلين

سيهدين (حسن) ومثله من الصالحين ومثله حليم و ماذا ترى

ما تؤمر (جائز) على استئناف ما بعده

من الصابرين (تام)

الرؤيا (تام) عند أبي حاتم وجواب فلما قوله وناديناه بجعل الواو زائدة وقيل جوابها

محذوف وقدره بعضهم بعد الرؤيا والواو ليست زائدة أي كان ما كان مما ينطق به الحال والوصف مما يدرك كنهه وقيل تقديره فلما أسلما أسلما وقيل جوابها وتله بجعل الواو زائدة وعليه يحسن الوقف على الجبين وقيل نادته الملائكة من الجبل أو كان من الأمر ما كان أو قبلنا منه أو همّ بذبحه عند أهل السنة لا أنه أمر السكين كما تقول المعتزلة قبل لما قال إبراهيم لولده إسماعيل إني أرى في المنام أني أذبحك فقال يا أبت هذا جزاء من نام عن حبيبه لو لم تنم ما أمرت بذلك وقيل لو كان في النوم خير لكان في الجنة

المحسنين (تام)

(149/650)

---

البلواء المبين (كاف) ورسموا البلواء بواو وألف كما ترى

بذبح عظيم (كاف) وصف بعظيم لأنه متقبل لأنه هو الذي قرّبه هابيل بن آدم حين أهبط من الجنة وقيل وصف بعظيم لأنه فداء عبد عظيم

في الآخرين (تام)

على إبراهيم (جائز)

المحسنين (حسن) ومثله المؤمنين وقيل تام لأنه آخر قصة الذبيح

من الصالحين (حسن)

وعلى إسحق (تام) وليس رأس آية

مبين (تام) والوقف على هرون و العظيم و الغالبين و المستبين و المستقيم و في الآخرين و

هرون و المحسنين كلها وقوف كافية

المؤمنين (تام) لأنه آخر قصتهما عليهما الصلاة والسلام

لمن المرسلين (كاف) إن علق إذ بمحذوف وجائز إن علق بما قبله

ألا تتقون (كاف)

الخالقين (تام) لمن قرأ الله بالرفع خبر مبتدأ محذوف أي هو الله أو الله مبتدأ وربكم خبره

وعلى القراءتين لا يوقف على ربكم لأن قوله ورب آبائكم معطوف على ما قبله وقرأ حمزة

والكسائي وحفص عن عاصم بنصب الثلاثة على المدح أو البدل من أحسن أو البيان

وليس بوقف لمن نصب الله والباقون بالرفع وروي عن حمزة أنه كان إذا وصل نصب وإذا

وقف رفع وهو حسن جداً وفيه جمع بين الروايتين

الأولين (كاف) على القراءتين

لمحضرون ليس بوقف لحرف الاستثناء

المخلصين (كاف) الآخرين (تام) لأنه آخر قصة

الياسين (كاف) وهو بهمزة مكسورة واللام موصولة بياسين جمع المنسوبين إلى إلياس معه

وقرأ نافع وابن عامر آل ياسين بقطع اللام وبالمد في آل وفتح الهمزة وكسر اللام كذا في الإمام آل منفصلة عن ياسين فيكون ياسين نبياً سلم الله على آله لأجله فيكون ياسين والياس اسمين لهذا النبي الكريم أو أراد بآل ياسين أصحاب نبينا أو أراد بياسين السورة التي تتلوها وهذه الإرادة ضعيفة لأن الكلام في قصة الياس وفي بعض المصاحف سلام على إدريس وعلى إدراسين والباقون بغير مد وإسكان اللام وكسر الهمزة جعلوه اسما واحداً لنبي مخصوص فيكون السلام على هذه القراءة على من اسمه الياس أصله الياسي كأشعري استثقل تضعيفها فحذفت إحدى ياءي النسب فلما جمع جمع سلامة التقى ساكنان إحدى الياءين وياء الجمع فحذفت أولاهما للالتقاء الساكنين فصار الياسين ومثله الأشعريون

المحسنين (كاف)

المؤمنين (تام) لأنه آخر قصة إلياس

لمن المرسلين (كاف) إن علق إذ بمحذوف وجائز إن علق بما قبله

أجمعين ليس بوقف للاستثناء بعده

في الغابرين (جائز)

الآخرين (تام) على استئناف ما بعده

مصبحين (جائز) ورأس آية وله تعلق بما بعده من جهة المعنى لأنه معطوف على المعنى أي تمرون عليهم في الصبح وبالليل

والوقف على وبالليل (تام) وعلى أتم لأنه آخر القصة

لمن المرسلين (كاف) إن أفلا تعقلون نصب إذ بمقدر وإلا فلا يجوز

المشحون (جائز)

المدحضين (كاف) ومثله مليم وكذا يبعثون و سقيم و يقطين و أو يزيدون كلها وقوف تامة



---

إلى حين (تام) لأنه آخر قصة يونس عليه السلام زعم بعضهم أن قوله فاستفتهم عطف على قوله فاستفتهم أهم أشد خلقاً أول السورة قال وإن تباعد ما بينهما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعث أولاً ثم ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض ثم أمره ثانياً باستفتائهم عن جعلهم الملائكة بنات الله ولا شك أن حكم المعطوف أن يكون داخلاً فيما دخل عليه المعطوف عليه وعلى هذا فلا يكون بين فاستفتهم الأولى والثانية وقف لئلا يفصل بين المعطوف والمعطوف عليه والعطف يصير الأشياء كالشيء

الواحد والمعتمد ما صرح به أرباب هذا الشأن أن يين فاستفتهم الأولى والثانية وقوفاً تامة وكافية وحسنة على ما تراها إذا اعتبرتها

البنون

(حسن) إن جعلت أم منقطعة بمعنى بل وليس بوقف إن عطفت على ما قبلها

شاهدون (كاف)

ولد الله (جائز) لأنه آخر كلامهم وما بعده من مقول الله 0

لكاذبون (حسن) لمن قرأ أصطفى بقطع الهمزة مستفهماً على سبيل الإنكار والدليل على ذلك مجيء أم بعدها في قوله أم لكم سلطان مبين والأصل أأصطفى وليس بوقف لمن قرأ بوصل الهمزة من غير تقدير همزة الاستفهام يكون اصطفى داخلاً في القول فكأنه قال إلا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله ويقولون اصطفى البنات على البنين فاصطفى بدل من ولد الله وهي مروية عن ورش وهي ضعيفة فلا يوقف على لكاذبون لأنه محكي من قولهم 0

على البنين (تام)

تحكمون (كاف) على استئناف ما بعده 0

تذكرون (جائز) ومثله مبين

صادقين (كاف) ومثله نسباً

لمحضرون (كاف)

عما يصفون ليس بوقف للاستثناء بعده 0

المخلصين (تام)

بفاتنين ليس بوقف للاستثناء

الجحيم (تام) عند الأخفش وأبي حاتم

معلوم (كاف) ومثله المسبحون وكذا عباد الله المخلصين 0

فكفروا به (حسن) للابتداء بالتهديد

يعلمون (تام)

المرسلين (جائز) لأن ما بعده تفسير للكلمة 0

المنصورون (كاف) على استئناف ما بعده 0

الغالبون (كاف)

حتى حين (جائز)



---

يبصرون (كاف) ومثله يستعجلون وكذا صباح المنذرين

حتى حين (جائز)

يبصرون (تام)

سبحان ربك ليس بوقف لأن ما بعده بدل منه

يصفون (كاف) ومثله المرسلين للابتداء بالحمد الذي يبتدأ به الكلام وبه يختم

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 644.653 ﴾

(153/650)

---

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الصافات :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دَحُورًا" 1 . السلمي .

قال أبو الفتح : في فتح هذه الدال وجهان :

إن شئت على ما جاء من المصادر على فَعُول - بفتح الفاء - على ما فيه من خلاف أبي

بكر فيه ، وقد بيناه فيما مضى من هذا الكتاب2 وغيره .

وإن شئت : أراد وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ بِدَاحِرٍ ، أو بِما يَدْحَرُ ، وهذا كأنه الثاني من

الوجهين ، لما فيه من حذف حرف الجر وإرادته . وأكثر ما يأتي في الشعر ، كما قال :

نُغَالِي اللَّحْمَ للأضْيافِ نِيئًا ونُرْخِصُه إذا نَضِجَ القَدِيرُ3

أي : باللحم ، ومثله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ 4 أي : أعلم به ، فيمن قدر ذلك .

ومن ذلك قراءة ابن عباس وأبي سراج وابن أبي عمار عبد الرحمن – ويقال عمار بن أبي عمار – وأبي عمرو – بخلاف – وابن محيصن : "هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ فَأُطْلِعَ"5 .

قال أبو الفتح : يقال طَلَعَ : إذا بدا ، وأَطْلَعَ : أَقْبَلَ . فهو على هذا : هل أنتم مقبلون .

---

1 سورة الصافات : 9 .

2 انظر الصفحة 63 من الجزء الأول .

3 غالى بالشيء : اشتراه بثمن غال . والقدير : ما يطبخ في القدور ، وفي الأصل القدور مكان القدير ، وهو تحريف . وانظر اللسان "غلا" .

4 سورة الأنعام : 117 .

5 من قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُون ، فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ . [سورة الصافات : 54 ، 55] وفي البحر "7 ، 361" : "فَأُطْلِعَ" ، بضم الهمزة ، وسكون الطاء ، وكسر اللام ، فعلا ماضيا مبنيا للمفعول .

فأقبل؟ فالفعل إذاً الذي هو "فَأُطْلِعَ" مسند إلى مصدره، أي: فَأُطْلِعَ الإطلاعُ، كقولك: قد قِيمَ، أي: قِيمَ القيامُ، وقد قُعِدَ، أي: قُعِدَ القعود.

قال أبو الفتح: قال أبو حاتم: لا يجوز إلا فتح النون من "مطلعونَ"، مشددة الطاء كانت، أو مخففة. قال: وقد شكلها بعض الجهال بالحضرة مكسورة النون1، قال: وهذا خطأ. لو كان كذلك لكان مُطْلِعِيّ، تقلب واو مُطْلِعُون ياء، يعني لوقوع ياء المتكلم بعدها، والأمر على ما ذهب إليه أبو حاتم، إلا أن يكون على لغة ضعيفة، وهو أن يُجري اسم الفاعل مجرى الفعل المضارع؛ لقربه منه، فيُجْرَى "مُطْلِعُونِ" مجرى يُطْلِعُونِ. وعليه قال بعضهم:

أَرَيْتَ إِنْ جِئْتُ بِهِ أُمْلُودَا مُرَجَّلا وَيَلْبَسُ البُرُودَا

أَقَائِلُنَّ أَحْضِرِ الشُّهُودَا2

فوكد اسم الفاعل بالنون، وإنما بابها الفعل، كقول الله "تعالى": ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ 3، وقوله "تعالى": ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ 4، ونحو ذلك. ومنه قول الآخر:

وما أَدْرِي وَظَنِّي كُلُّ ظَنٍّ أَمُسْلِمُنِي إِلَى قَوْمِي شَرَاحِي5

يريد: أمسلمي، وهذا شاذ كما ترى، فلا حاجة للقياس عليه.

ومن ذلك قراءة شيبان النحوي6 : "لَشُوبًا"7 .

---

1 ذكر في البحر "7 : 361"ممن قرأ بها عمار بن أبي عمار ، فيما ذكره خلف عن عمار .

2 انظر الصفحة 193 من الجزء الأول.

3 سورة التكاثر : 6 .

4 سورة الانشقاق : 19 .

5 البيت ليزيد بن محمد الحارثي . و"شراحي" مرخم شراحيل لغير نداء . وانظر الدرر اللوامع : 1 : 43 ، والبحر المحيط : 7 : 361 .

6 هو شيبان بن معاوية أبو معاوية النحوي المؤدب . روى حروفا عن عاصم ، وروى عن أبان بن يزيد العطار . وروى عنه الحروف عبد الرحمن بن أبي حماد وغيره . مات سنة 164 طبقات القراء لابن الجزري : 1 : 329 .

7 سورة الصافات : 67 .

قال أبو الفتح : الشَّوبُ : الخلط ، بفتح الشين . ولم يمرر بنا الضم ، ولعله لغة فيه كالفَقر والفُقر ، والضَّر والضُّر ، ونحو ذلك .

ومن ذلك قراءة الحسن "فَرَاغَ عَلَيْهِمْ سَفْقًا بِالْيَمِينِ"1 .

قال أبو الفتح : قد قالوا : صفقْتُ البابَ ، وسَفَقْتُه ، والصاد أعلى . وقالوا أيضا : أَسْفَقْتُه إسْفاقًا ، وقالوا في التَّصْفِيق : التَّصْفَاق ، إذا كثر ذلك ، كالتَّضْراب والتَّلْمَاح والتَّمْشَاء

وروي عن الحسن أيضا : "صَفْقًا" .

ومن ذلك قراءة عبد الله بن يزيد : "يَزِفُونَ"2 ، خفيفة .

قال أبو الفتح : المسموع في هذا زَفَّ القوم يَزِفُّونَ زَفِيفًا ، وقالوا أيضا : أَزَفُّوا يُزِفُّونَ ، كما قالوا : زَفَفْتُ العروس ، وقالوا [137ظ] أَزْفَفْتُها أيضا . فأما "يَزِفُونَ" بالتخفيف فذهب قطرب إلى أنها تخفيف يَزِفُّونَ ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ 3 ، أي : اقْرِرْنَ .

قال الهذلي :

وَزَفَّتِ الشَّوْلُ مِن بَرْدِ العَشِيِّ كَمَا زَفَّ النَّعَامُ إلى حَفَّانِهِ الرُّوحُ4

إلا أن ظاهر "يَزِفُونَ" أن يكون من وَزَفَ5 ، كيَعِدون من وعد . ويؤنِّس بذلك قربه من لفظ الوَفز6 ، وهو واحد الأَوْفَاز ، من قولهم : أنا على أَوْفَاز . إذا كان كذلك فهو

---

1 سورة الصافات : 93 .

2 سورة الصافات : 94 .

3 سورة الأحزاب : 33 .

4 البيت لأبي ذؤيب الهذلي . وزفت : أسرعت ، وأصل الزفيف : خطو مقارب ، وسرعة وضع الأخفاف ورفعها . والشول : جمع شائلة ، وهي من الإبل : التي خف لبنها ، وأتى على نتاجها سبعة أشهر أو ثمانية . وخص الشول لأنه أراد أنها خفيفة البطون فلا تقوى على البرد ، وليست كالمخاض . وحفانه : صغاره ، المفرد حفانة . والروح : جمع الروحاء ، وهي : التي بها روح ، وهو انفتاح في الرجل يميل إلى الشق الوحشي . وكل نعامة روحاء . يقول : إن الإبل التي أتى على نتاجها سبعة أشهر وخفت بطونها مما كان فيها قد ألجأتها شدة هذا البرد إلى مكان تستدفئ فيه ، فأسرعت إليه كما يسرع النعام إلى فراخه . وانظر ديوان الهذليين : 1 : 106 ، واللسان "ورح" .

5 وزف : أسرع .

6 الوفز : بالسكون ويحرك : العجلة .

قريب من لفظ وَزَفَ ، أي : أسرع ، وقريب من معناه . ولم يثبت الكسائي ولا الفراء : "وَزَفَ" ، إلا أن ظاهر اللفظ مقتضٍ لها على ما مضى . وعلى أن أحمد بن يحيى قد أثبت وَزَفَ : إذا أسرع ، وشاهده عنده هذه القراءة : "يَزِفُونَ" أي : يسرعون .

ومن ذلك قراءة الأعمش والضحاك : "فَانْظُرْ مَاذَا تُرَى" 1 ، بضم التاء .

قال أبو الفتح : رُوِّينا عن قطرب : "مَاذَا تُرَى" ، و"تُرِي" بفتح الراء وكسرها .

فَتُرَى ، أي : يُلْقَى إليك ، ويُوقَعُ في خاطرك .

وأما "تُرِي" فتشير به ، وتدعو إلى العمل بحسبه .

و"تَرَى" هذه ليست من معنى الرؤية بالبصر ؛ لأن الرأي ليس مما تدركه حاسة البصر ، ولا هي من معنى العلم أيضا ؛ لأنه ليس يكلفه هنا أن يقطع له بصريح الحق وجَلِيّة اليقين ، وإنما يسأله عما يُحضره إياه رأيه ، فهي إذاً من قولك : ما رأيك في هذا ؟ وما الذي يَحْضُرُكَ في كذا ؟

ومنه قول الله "تعالى" : ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ 2 ، أي : بما يُحْضِرُكَ إياه الرأي والخاطر . وفيه شاهد لجواز اجتهاد النبي "صلى الله عليه وسلم" . ومنه قولهم : فلان يرى رأي الخوارج ، ويرى رأي أبي حنيفة ، أي : يذهب مذهبه ويعتقد اعتقاده ، ليس أنه يُبصر بصرَه ، ولا يعلم يقينا علمَه ، وإنما هو أن يعتقد رأيه ، صوابًا كان ، أو خطأً .

ومن ذلك قراءة علي بن أبي طالب وابن عباس وابن مسعود ومجاهد والضحاك والأعمش

والثوري وجعفر بن محمد : "فَلَمَّا سَلَّمَا"3 ، بغير ألف ولام مشددة .

قال أبو الفتح : أما "أَسْلَمَا" ففوضا وأطاعا ، وأما "سَلَّمَا" فمن التسليم ، أي : سلما أنفسهما وآراءهما كالتسليم باليد 4 لما أُمِرَا به ، ولم يخالفا ما أُرِيدَ منهما من إجماع إبراهيم "عليه السلام" الذبح ، وإسحاقَ الصبر .

---

1 سورة الصافات : 102 .

2 سورة النساء : 105 .

3 سورة الصافات : 103 .

4 سقطت في ك .



---

ومن ذلك قراءة ابن محيصن وعكرمة -بخلاف- والحسن -بخلاف- وأبي رجاء : "وَإِنَّ الْيَاسَ"1 ، بغير همز . "سَلامٌ عَلَى الْيَاسِينَ"2 ، بغير همز .

قال أبو الفتح : أما "الياسَ" موصول الألف فإن الاسم منه "يَاسٌ" ، بمنزلة باب ودار ، ثم لحقه لام التعريف ، فصار "الياس" ، بمنزلة الباب والدار .

و"الْيَاسِين" على هذا كأنه على إرادة ياء النسب ، كأنه الياسيِّين ، كما حكى عنهم

صاحب الكتاب: الأشْعَرُون والنُّمَيْرُون، يريد الأشعريّين والنُّمَيْريّين. ورُوينا عن قطرب عنهم: هؤلاء زيدون, منسوبون إلى زيد بغير ياء النسبة. وقال أبو عمرو: هلك اليَزِيدُون، يريد ثلاثةً يزيديّين.

وقد يجوز أن يكون جعل كل واحد من أهل "الياس" ياسًا، فقال: "الياسِين"، كقوله:

[138و].

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الخُبَيْبِينَ قَدِي3

يريد أبا خبيب وأصحابه، كأنه جعل كل واحد منهم خُبَيْبًا. ونحو منه قولهم: شابَتْ مَفَارِقُه4، جعل كل جزء من مفرِقه مفرقًا، ثم جمعه على ذلك. وكذلك: امرأةٌ واضحةُ اللبّات5، جعل كل جزء يجاور اللبة لبة. وقال:

يُطِفْنَ بِجَمَّاءِ المَرَافِقِ مِكسال6

---

1 سورة الصافات: 123.

2 سورة الصافات: 130.

3 لحميد الأرقط، وبعده:

ليس أميري بالشحيح الملحد

ويروى: الخبيبين بالتثنية، يريد عبد الله بن الزبير وابنه خبيبا، وقيل: يريد عبد الله وأخاه مصعبا. وكان عبد الله يكنى بأبي بكر وأبي خبيب، والأول أكثر، ولا يكنيه بالآخر إلا

من يريد ذمه. وقدني: لأكتف. ويريد بأميره عبد الملك بن مروان، نفى عنه الشح والإلحاد تعريضا بعبد الله بن الزبير. وكانوا يرمونه بالشح، ويقولون له: الملحد. الكتاب: 1 : 387، والدر اللوامع: 1 : 42.

4 المفارق: جمع مفرق، وهو هنا: موضع افتراق الشعر.

5 اللبات: جمع لبة، وهي موضع القلادة من الصدر.

6 لامرئ القيس، وصدره:

ويبت عذارى يوم دجن ولجته

وقبله:

وماذا عليه إن ذكرت أوانسا كغزلان رمل في محاريب أقيال؟

وخص غزلان الرمل لأنه أحسن من غيرها. والمحاريب: الغرف. والأقيال: الملوك. والدجن: الباس الغيم السماء. والجماء: الغائبة المرافق لكثرة لحمها ونعمتها. وانظر الديوان: 34.

جمع مرفقيها بما حولها ، ومثله ما رويناه عن أبي علي من قوله :

مَرَّتْ بنا أوَّلَ مِن أُمُوسِ تَمِيسُ لينا مِشْيَةَ الْعَرُوسِ1

فسَمَّى كل جزء من أمسِ أمسًا ، ثم جمع عليه . ويشهد لوصل ألف الياس قوله :

أُمَّهَتي خِنْدِفُ وَالْيَاسُ أَبِي2

وتكون لام التعريف هنا – بمنزلتها في اليسع – زائدة ؛ لأن الاسم علم وليس بصفة ، فيجري مجرى العباس والحارث . قال أبو عثمان : سألت الأصمعي عن قول الشاعر :

وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُؤًا وَعَساقِلا وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَن بَناتِ الأَوْبَرِ3

فقال : الألف واللام هنا زيادة . ولذلك نظائر كثيرة ، ولو قيل : إنها لحقت هنا لأنه4 مصدر ، فَشُبِّهَ بالصفة ، كالعلاء والفضل لكان وجها .

ومن ذلك قراءة ابن مسعود ويحيى والأعمش ، والمنهال بن عمرو5 والحكم بن عتيبة : " وإنَّ إِدْرِيس " ، "سَلامٌ عَلَى إِدْرَاسِينَ"6 .

---

1 روى غير منسوب في اللسان "أمس" ، والدرر اللوامع : 1 : 176 .

2 لقصي بن كلاب جد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقبله :

إني لدى الحرب رخى اللبب عند تناديهم بهال وهب

معتزم الصولة عالي النسب أمهتي خندف والياس أبي

والرخى : المرتخى . واللبب : ماء يشد على ظهر الدابة ليمنع السرج والرحل عن

الاستئخار ، وإنما يكون الارتخاء عن كثرة جري الدابة . يكنى بذلك عن كثرة مبارزته للأقران . وهال : اسم فعل لزجر الخيل ، وهب : اسم فعل لدعائها . وأمهتي خندف ، أي أمي ، ويريد أم جده مدركة بن الياس بن مضر . وكذا يريد بقوله : والياس أبي ، جده الياس بن مضر . وخندف : هي بنت عمران بن الحارث بن قضاعة ، امرأة من اليمن . شواهد الشافية : 301 .

3 جنيتك : جنيت لك . والأكمؤ : جمع الكمء ، وهو من النبات . والعساقل : الكبار البيض الجياد من الكمأة ، وبنات أوبر : كمأة لها زغب ، وهي رديئة . وانظر الخصائص : 3 : 58 .

4 يريد الياس .

5 هو المنهال بن عمرو الأنصاري ، ويقال : الأسدي الكوفي . ثقة مشهور كبير ، عرض على سعيد بن جبير ، وعرض عليه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، وروى عنه منصور والأعمش وشعبة والحجاج . طبقات ابن الجزري : 2 : 315 .

6 قراءة أخرى في الآية 130 من سورة الصافات . وانظر في البحر "7 : 372" ما يرويه أبو حيان وما يقوله عن إدريس والياس .

قال أبو الفتح : روينا عن قطرب عن ابن مسعود : "وإنَّ إدْرَاسَ" ، و"سَلامٌ عَلَى إدراسِينَ" : قال : وجاء عنه : "إِدْرَسِينَ" ، وكذلك عن قتادة . وقال : وفي بعض القراءة : "إِدْرِيسِينَ" .

قال أبو الفتح : أما ما رواه ابن مجاهد عن ابن مسعود من "إدْرِيسَ" و"إدْرَاسِينَ" فيجب أن يكون من تحريف العرب الكلمَ الأعجمي لأنه ليس من لغتها ، فَتَقِلُّ الحَفْل به ، وقد ذكرنا مثله1 .

وقياسه سلام على إدْرِيسِينَ ، كما حكاه قطرب ، إلا أنه حكاه : "وإن إدْرِيسِينَ" ، كما ترى .

وأما ما رواه قطرب من "إدْرَاسَ" و"إدْرَاسِينَ" فجمع الصحة ، كالياس والياسين . ولو كان جمع تكسير لقال : سلام على الأَدَارِيس ، كقولك في قرطاس : قَرَاطِيس ، لكنه جمع صحة للتذكير ، كالزيدين والقاسمين .

فأما "إِدْرِسِين" فيشبه أن يكون أراد "إدْرَاسِينَ" ، إلا أنه استطال الاسم ، وجَفَتْ عليه أيضا عجمته ؛ فحذف الألف تخفيفا . وإذا كانوا قد حذفوها للتخفيف من نفس كلامهم وسِرّ لغتهم في قولهم في اصْفَارَّ ، واحْمَارَّ ، واسْوَادَّ ، وابْيَاضَّ : اصْفَرَّ ، واحمَرَّ ، واسودَّ ، وابيضَّ ، فهم بحذف هذه الألف فيما ليس من لغتهم ، ولا ينصرف إليه محاماتهم عنه أجدر

بجواز ذلك فيه. نعم، وقد يمكن مع هذا أن تكون هذه الألف في نحو احْمَارَّ واسْوَادَّ إنما حذفت لالتقاء الساكنين، كما زيد في مدها في أكثر اللغة لالتقائهما، وكما همزت في نحو قولهم:

إذَا مَا العَوَالِي بالْعَبِيطِ احْمَأَرَّتِ2

فتارة يُسْتَرْوَح من اجتماعها إلى إطالةِ المدّ، وأُخرى إلى الحذف، وأُخرى إلى الهمز، وكل هذا تَفَادٍ من التقاء الساكنين.

وحكى أبو حاتم عن أُبَيّ: "وإن إِبليسَ"، و"على إِبليسِينَ".

---

1 انظر الصفحة 79 من الجزء الأول.

2 انظر الصفحة 47 من الجزء الأول.



---

قال: وقال خارجة1: بلغنا أن اسمه كان إبليسَ، وإدريس [138ظ].

ومن ذلك قراءة جعفر بن محمد: "وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ وَيَزِيدُونَ"2، وهكذا هي، ليس فيها "أو".

قال أبو الفتح: في هذه الآية إعراب حسن، وصنعة صالحة؛ وذلك أنْ يقال: هل لقوله:

"ويزيدون" موضع من الإعراب ، أو هو مرفوع اللفظ . لوقوعه موقع الاسم حَسْبُ ، كقولك مبتدئا : يزيدون ؟

والجواب أن له موضعا من الإعراب ، وهو الرفع ؛ لأنه خبر مبتدإ محذوف ، أي : وهم يزيدون على المائة . والواو لعطف على جملة ، فهو كقولك : مررت برجل مثل الأسد ، وهو والله أشجعُ . ولقيت رجلا جوادا ، وهو والله فوق الجواد .

فإن قلت : فقد تقول : لقيت من زيد رجلا كالأسد وأشجعَ منه ، فهل يجوز على هذا أن يكون تقديره : وأرسلناه إلى مائة ألف ويزيدون ، فيعطف يزيدون على المائة ؟ قيل : يفسد هذا ؛ لأن "إلى" لا تعمل في "يزيدون" ، فلا يجوز أن يعطف على ما تعمل فيه "إلى" فكما لا تقول : مررت بيزيدون على المائة فكذلك لا تقول ذلك .

فإن قلت : فقد يجوز في المعطوف ما لا يجوز في المعطوف عليه ، كقولنا : رب رجل وأخيه ، وكلُّ شاةٍ وسَخْلِتهَا3 ، ومررت برجل صالح أبوه لا طالِحَيْن ، ومررت بزيد القائم أبواه لا القاعدين ونحو ذلك . قيل قَدْر المتجوَّز في هذا ونحوه لا يبلغ ما رُمْتَه من تقدير حرف الجر مباشرا للفعل . ألا تراك لا تجيز مررت بقائم يقعد وأنت تريد مررت بقائم وبقاعد ؟

---

1 هو خارجة بن مصعب أبو الحجاج الضبعي السرخسي ، أخذ القراءة عن نافع وأبي عمرو ، وله شذوذ كثير عنهما لم يتابع عليه . وروى أيضا عن حمزة حروفا . وروى القراءة عنه العباس بن الفضل وغيره . توفي سنة 168 . طبقات القراء : 1 : 268 .

2 سورة الصافات : 147 .

3 السخلة : ولد الشاة ما كان .

(161/650)

---

فإن قيل : فقدِّر هناك موصوفا محذوفا مجرورا ليكون تقديره : وأرسلناه إلى مائة ألف وجمع يزيدون ، على قول الراجز :

جَادَتْ بِكَفَّيْ كانَ مِنْ أَرْمَى الْبَشَرْ 1

أي : بكفَّيْ إنسان كان من أرمى البشر قيل : تقدير مباشرةِ حرف الجر للفعل أشد من تقدير الإضافة إليه . ألا ترى أنه على كل حال قد يضاف إلى الفعل ظروف الزمان وغيره ، على كثرة ذلك في أسماء الزمان ؟ وينضاف إلى ذلك إفساد المعنى وذلك أنه يصير معناه إلى أنه كأنه قال : وأرسلناه إلى جَمْعَيْن : أحدهما مائة ألف ، والآخر زائد على مائة ألف .

وليس الغرض والمراد هنا هذا ، وإنما الغرض – والله أعلم – وأرسلناه إلى جمع لو رأيتموهم لقلتم أنتم : هؤلاء مائة ألف ، وهم أيضا يزيدون . فالجمع إذاً واحد لا جمعان اثنان .

وكذلك قراءة الجماعة : ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ ، وتقديره أو : هم يزيدون ، فحذف المبتدأ لدلالة الموضع عليه كما مضى مع الواو 2 ، وأما قول الآخر :

ألا فَالْبَثَا شَهْرَيْنِ أو نِصْفَ ثَالِثٍ إلَى ذاكُما ما غَيَّبَتْنِي غَيَابِيَا 3

فقالوا : معناه أو شهرين ونصف ثالث ؛ وذلك أن قوله : أو نصفَ ثالثٍ لا يكون ثالثا حتى يتقدمه شهران ، إلا أنه هنا حَذف المعطوف عليه مع حرف العطف جميعا .

وفي قوله "سبحانه" : ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ وعلى قراءة جعفر بن محمد : "يَزِيدُونَ" إنما حُذف اسم مفرد ، وهو هم . وعلى أنه قد جاء عنهم حَذف الاسم ومعه حرف العطف ، وذلك قولهم فيما رُوِّيناه عن أبي بكر محمد بن الحسن عن أحمد بن يحيى : راكب الناقة طَلِيحَان ، أي : راكب الناقة والناقة طليحان 4 ، فحذف الناقة وحرف 5 العطف معهما . وعلى أنه قد يحتمل

---

1 صدره :

مالك عندي غير سهم وحجر وغير كبداء شديدة الوتر

ويروى "ترمي" مكان "جادت" . وكبداء ، أي : قوس كبداء ، وهي التي يملأ الكف مقبضها و"بكفي" متعلق بمحذوف حال . وانظر الخزانة : 2 : 312 ، والخصائص 2 : 367 .

2 في هامش الأصل بعد كلمة "الواو" عبارة قصيرة لم نستطع قراءتها . وفي ك بعد "الواو" : ومثله أو .

3 البيت لابن أحمر . وانظر الخصائص : 2 : 460 .

4 الطليحان : مثنى الطليح ، وهو المجهد .

5 في ك : وحذف ، وهو تحريف .

(162/650)

---

ذلك تأويلا آخر ، وهو أن يكون أراد : راكب الناقة أحد طليحين ، فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه .

والذي عندي في قوله :

أَلا فَالْبَثَا شَهْرَيْنِ أَو نِصْفَ ثَالِثٍ [139و]

أن يكون على حذف المضاف ، أي : ألا فالبثا شهرين أو شهرَيْ نصف ثالث ، أي : والشهرين اللذين يتبعهما نصف ثالثهما ؛ لأنه ليس كل شهرين يؤمر بلبثهما لابد أن يصحبهما نصف ثالثهما ، لكن البثا أنتما شهرين ، أو الشهرين اللذين يتبعهما في اللبث نصف ثالثهما . وصحت 1 الإضافة فيهما هذا القدر من الوُصلة بينهما . وقد أضافت العرب الأول إلى الثاني لأقلّ وأخفضَ من هذه الشبْكة بينهما . أنشدنا أبو علي :

إذا كَوْكَبُ الخَرْقَاءِ لَاحَ بِسُحْرَةٍ سُهَيْلٌ أَذَاعَتْ غَزْلَهَا فِي الغرائب 2

قال : فأضاف سهيلا إليها لجِدها في عملها عند طلوعه ، وقريب من هذا قول الرجلين

بجملان الخشبة – أحدهما لصاحبه – : خذ أنت طرفك ، ولآخذ أنا طرفي . وإنما الطرف للخشبة ، لا لحاملها ، فاعرف كلام القوم تر العجب منه والحكمة البالغة فيه بإذن الله تعالى .

ومن ذلك قراءة الحسن : "إِلَّا مَنْ هُوَ صَالُ الْجَحِيمِ[3]" ، بضم اللام .

قال أبو الفتح : كان شيخنا أبو علي يحمله على أنه حذف لام "صال" تخفيفا ، وأعرب اللام بالضم ، كما حذفت لام البالة من قولهم : ما باليت به بالة ، وهي البالية ، كالعافية والعاقبة .

وذهب قطرب فيه إلى أنه أراد جمع "صال" ، أي : صالون ، فحذف النون للإضافة وبقي الواو في صالو ، فحذفها من اللفظ لالتقاء الساكنين ، وحمل على معنى "من" لأنه جمع ، فهو كقوله : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ[4]﴾ ، وهذا حسن عندي ، وقول أبي علي وجه مأخوذ به .

---

1 صحت الإضافة : سوغها ، وأبرأها من الضعف . من قولهم : صح الله فلانا : اذهب مرضه . وأنث "القدر" ذهابا به – كعادته – إلى المعنى ، إذ هو قدر من الوصلة .

2 ورد البيت في اللسان "غرب" غير منسوب .

3 سورة الصافات : 163 .

4 سورة يونس : 42 .

ومن ذلك قراءة ابن مسعود : "فَإِذَا نُزِلَ بِسَاحَتِهِم" 1 .

قال أبو الفتح : لفظ هذا الموضع على الاستفهام2 ، ومعناه الوضوح والاختصاص ؛ وذلك أن الغرض فيه إنما هو : فإذا نزل العذاب بساحتهم ، يدل عليه قوله قبله معه : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ؟ فإذا قال : ﴿ فَإِذَا نُزِلَ بِسَاحَتِهِم ﴾ فلا محالة أن معناه : فإذا نزل عذابنا بساحتهم ، فأبهم الفاعل واعتمد ذكر المكان المنزول فيه .

ومثله في المعنى قول الله "سبحانه" : ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ 3 ، ونحن نعلم أن الله "تعالى" خالقه . وكذلك ﴿ خُلِقَ الْأِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ 4 ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ 5 ، وقوله "عز اسمه" : ﴿ خَلَقَ الْأِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ 6 ، وقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ 7 ، ونظائره كثيرة :

فكذلك قوله "تعالى" : ﴿ فَإِذَا نُزِلَ بِسَاحَتِهِم ﴾ على ما شرحناه من حاله ، وهذا أحد ما يدلك على أن إسناد الفعل إلى المفعول نحو : ضرب زيد ، لم يكن لجهل المتكلم بالفاعل من هو؟ البتة ، لكن قد يسند إلى المفعول ، ويطرح ذكر الفاعل لأن الغرض إنما هو الإعلام بوقوع

الضرب بزيد ، ولا غرض معه في إبانة الفاعل من هو ؟ فاعرفه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿المحتسب حـ 2 صـ 218. 228﴾

---

1 سورة الصافات : 177 .

2 المراد بالاستفهام هنا التطلع والتساؤل عن الفاعل ، لبناء الفعل للمفعول .

3 سورة النساء : 28 .

4 سورة الأنبياء : 37

5 سورة العلق : 1 ، 2 .

6 سورة الرحمن : 3 ، 4 .

7 سورة ق : 16 .



---

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الصافات

مكية وآيها مائة وثمانون وآية بصري وأبو جعفر واثنان في غيره خلافها أربع من كل جانب

غير حمصي دحورا له وما كانوا يعبدون غير بصري وإن كانوا ليقولون غير أبي جعفر مشبه

الفاصلة ستة الملأ الأعلى أمن خلقنا ماذا ترى ما تؤمر وعلى إسحاق الجنة نسبا وعكسه ثلاثة للجبين يا إبراهيم كيف تحكمون القرآت أدغم التاء في الصاد والزاي والذال من ( ) والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ( ) أبو عمرو بخلفه وحمزة وكذا يعقوب من المصباح

(165/650)

---

واختلف في ( ) بزينة الكواكب ( ) الآية 6 فأبو بكر بزينة منونا ونصب ( الكواكب ) فيحتمل أن تكون الزينة مصدرا والكواكب مفعول به كقوله تعالى أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما والفاعل محذوف أي بأن زين الله الكواكب في كونها مضيئة حسنة في أنفسها أو أن الزينة اسم لما يزان به كالليقة اسم لما تلاق به الدواة فالكواكب حينئذ بدل منها على المحل أو نصب باعني أو بدل من السماء الدنيا بدل اشتمال أي كواكب السماء وقرأ حفص وحمزة بتنوين زينة وجر الكواكب على أن المراد بالزينة ما يتزين به وقطعها عن الإضافة والكواكب عطف بيان أو بدل بعض ويجوز أن تكون مصدرا وجعلت الكواكب نفس الزينة مبالغة وافقهما الحسن والأعمش والباقون بحذف التنوين على إضافة زينة للكواكب إضافة الأعم إلى الأخص فهي للبيان كثوب خز أو من إضافة المصدر إلى مفعوله أي بأن زينا الكواكب

فيها كما مر أو لا أو إلى فاعله أي بأن زينتها الكواكب واختلف في ( ) لا يسمعون ( الآية 8 فحفص وحمزة والكسائي وخلف بتشديد السين والميم والأصل يتسمعون فأدغمت التاء وافقهم الأعمش والباقون بالتخفيف فيهما وأمال الأعلى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وعن الحسن ( خطف ) الآية 10 بفتح الخاء وتشديد الطاء مكسورة وعنه كسر الخاء أيضا والأصل اختطف فلما أريد الإدغام أسكنت التاء وقبلها الخاء ساكنة فكسرت الخاء لالتقاء الساكنين ثم كسرت الطاء تبعا لكسرة الخاء وبذلك يعلم إشكال قراءته الأولى لأن كسر الطاء إنما كان لكسر الخاء وهو مفقود وقد وجهت على التوهم مع شذوذه بأنهم لما نقلوا حركة التاء إلى

(166/650)

---

الخاء ففتحت توهموا كسرها للساكنين على ما مر فاتبعوا الطاء لحركة الخاء المتوهمة واختلف فيعجبت ) الآية 12 فحمزة والكسائي وخلف بتاء المتكلم المضمومة أي قل يا محمد بل عجبت أنا أو أن هؤلاء من رأى حالهم يقول عجبت لأن العجب لا يجوز عليه تعالى على الحقيقة لأنه انفعال النفس من أمر عظيم خفي سببه وإسناده له تعالى في بعض الأحاديث مؤول بصفة تليق بكماله مما يعلمه هو كالضحك والتبشبش ونحوهما فاستحالة

إطلاق ما ذكر عليه تعالى محمولة على تشبيهها بصفات المخلوقين وحينئذ فلا إشكال في إبقاء التعجب هنا على ظاهره مسندا إليه تعالى على ما يليق به منزها عن صفات المحدثين كما هو طريق السلف الأسلم الأسهل وافقهم الأعمش والباقون بفتحها والضمير للرسول أي بل عجبت من قدرة الله تعالى هذه الخلائق العظيمة وهم يسخرون منك مما تريهم من آثار قدرة الله تعالى أو من إنكارهم البعث مع اعترافهم بالخالق وقرأ ﴿ أإذا متنا ﴾ ﴿ أإنا لمبعوثون ﴾ الآية 16 بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني نافع والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وقرأ ابن عامر بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني والباقون بالاستفهام فيهما وكل من استفهم فهو على أصله فقالون وأبو عمرو وأبو جعفر بالتسهيل والفصل بالألف وورش وابن كثير ورويس كذلك لكن بلا فصل والباقون بالتحقيق بلا فصل غير أن أكثر الطرق عن هشام على الفصل كما مر وجواب أئذا على الاستفهام محذوف أي نبعث ويدل عليه لمبعوثون قاله في البحر وقرأ ( متنا ) معا بكسر الميم نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف كما مر بآل عمران واختلف في أو آباؤنا هنا والواقعة فقالون وابن عامر وأبو جعفر بإسكان الواو فيهما على أنها العاطفة التي لأحد الشيئين وقرأ الأصبهاني كذلك فيهما إلا أنه ينقل حركة الهمزة بعدها إلى الواو على قاعدته والباقون بفتحها فيهما على أن العطف بالواو أعيدت معها همزة الإنكار وآباؤنا عليهما مبتدأ خبره محذوف أي مبعوثون

لدلالة ما قبله عليه قاله أبو حيان وتعقب الزمخشري حيث جعله عطفا على محل أن

واسمها أو على ضمير مبعوثون وقرأ ( نعم ) بكسر العين الكسائي ومر بالأعراف وقرأ (

صراط ) الآية 23 بالسين قنبل بخلفه ورويس وبالإشمام خلف عن حمزة ويوقف لحمزة

على مسؤولون بوجه واحد وهو نقل حركة الهمزة إلى السين وأما بين بين فضعيف جدا كما

في النشر وقرأ ) لا تناصرون ( ) بتشديد التاء وصلا البزي بخلفه وأبو جعفر كما مرت

موافقته للبزي بالبقرة كرويس في نارا تلظى بالليل ويشبع المد للساكنين وقرأ قيل بالإشمام

هشام والكسائي ورويس وسهل الثانية من ( ) أئنا لتاركوا ( ) مع الفصل قالون وأبو عمرو

وأبو جعفر وبلا فصل رويس وورش وابن كثير والباقون بالتحقيق بلا فصل ما عدا هشاما

من طريق الحلواني من طريق

ابن عبدان فبالفصل وكذا الحكم في ( ) أئنك لمن ( ) أئفكا ( ) إلا أن ابن بليمة وابن شريح في

جماعة ذكروا الفصل فيهما عن هشام من طريق الحلواني بلا خلاف فيهما من السبعة وعن

الحسن وصدق بتخفيف الدال المرسلون رفعا بالواو فاعلا به وقرأ ( المخلصين ) بفتح اللام

نافع وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف وأبدل همز بكأس أبو عمرو بخلفه وأبو

جعفر ولم يبدلها ورش من طريقيه

وأمال للشاربين ابن ذكوان من طريق الصوري وفتحها من طريق الأخفش كالباقين

(168/650)

---

واختلف في (ينزفون) الآية 47 هنا والواقعة الآية 19 فحمزة والكسائي وخلف بضم الياء وكسر الزاي في الموضعين من أنزف الرجل ذهب عقله من السكر أو نفد شرابه وافقهم الأعمش وقرأ عاصم كذلك في الواقعة فقط للأثر والباقون بضم الياء وفتح الزاي فيهما من نزف الرجل ثلاثيا مبنيا للمفعول بمعنى سكر وذهب عقله أيضا أو من قولهم نزفت الركية نزحت ماءها أي لا تذهب خمورهم بل هي باقية أبدا وبه قرأ عاصم هنا وقرأ ( ) أئذا متنا ( ) أئنا لمدينون ( ) الآية 36 بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني نافع والكسائي ويعقوب وقرأ ابن عامر وأبو جعفر بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني والباقون بالاستفهام فيهما والمستفهم على أصله فقالون أبو عمرو وأبو جعفر بالتسهيل والفصل وورش وابن كثير ورويس بالتسهيل بلا فصل والباقون بالتحقيق بلا فصل إلا أن أكثر الطرق عن هشام على الفصل وعن ابن محيصن مطلعون بسكون الطاء فأطلع بقطع الهمزة مضمومة وسكون الطاء وكسر اللام مبنيا للمفعول وأما حكم إمالة فرآه فسبق قريبا أول

فاطر عند فرآه حسنا وأثبت الياء وصلا في لتردين ورش وفي الحالين يعقوب ويوقف لحمزة

على رؤوس بالتسهيل بين بين وبالحذف وهو الأولى عند الآخذين بالرسم وعلى مالئون

بثلاثة أوجه التسهيل كالواو والحذف مع ضم اللام وإبدال الهمزة ياء وغير ذلك لا يصح كما

مر قريبا في متكوون بيس وقرأ بحذفها مع ضم اللام كالوجه الثاني أبو جعفر وأدغم دال و

لقد ضل ورش وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ومر حكم المخلصين آنفا

وآمال نادينا حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وأدغم ذال إذ جاء أبو عمرو

وهشام وتقدم قريبا حكم أئفكا واختلف في ( يزفون ) الآية 94 فحمزة الياء من أزف

الظليم وهو ذكر النعام دخل في الزفيف وهو الإسراع فالهمزة ليست للتعدية وافقه الأعمش

والباقون بفتحها من زف الظليم عدا بسرعة وأثبت الياء في سيهدين في الحالين يعقوب وقرأ

يا بني بفتح

(169/650)

---

الياء حفص ومر بهود وفتح ياءي ) إني أرى ( ) أني أذبحك ( ) نافع وابن كثير وأبو عمر وأبو

جعفر

واختلف في ( ) ماذا ترى ( الآية 102 فحمزة والكسائي وخلف بضم التاء وكسر

الراء وبعدها ياء أي ماذا تريه من صبرك أو أي شيء الذي ترينه أي ماذا تحملني عليه من الاعتقاد فالمفعولان محذوفان وافقهم الأعمش والباقون بفتح الياء والراء وألف بعدها من رأى اعتقد أو أمر لا من رأى أبصر ولا علم ويتعدى لواحد فما استفهام ركبت مع ذا مفعوله أو ما بمعنى أي شيء مبتدأ واذا بمعنى الذي خبره وترى صلته والعائد محذوف أي شيء الذي تراه

وأمال فتحة الراء أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه وقلله الأزرق وقرأ ( ) يا أبت (الآية 102 بفتح التاء ابن عامر وابو جعفر ومر بيوسف ووقف عليه بالهاء ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب وفتح ياء ستجدني إن نافع وأبو جعفر وعن الحسن والمطوعي أسلما بحذف الألف الأولى وتشديد اللام أي فوضا وأدغم دال وقد صدقت أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وأمال الرؤيا الكسائي فقط وقلله أبو عمرو والأزرق بخلفهما وقرأ أبو جعفر بقلب همزة ياء وإدغامها في الياء بعدها وأبدل همزة واوا ساكنة الأصبهاني وأبو عمرو بخلفه كوقف حمزة على القياسي وعلى الرسمي بالقلب والإدغام كقراءة أبي جعفر ونقل جوازه في النشر عن الهذلي وغيره ثم رجح الإظهار وأما الحذف فضعيف ويوقف له كهشام بخلفه على لهو البلؤا ونحوه مما رسم بالواو باثني عشر وجها بينت أول الأنعام وقرأ نبيئا بالهمز نافع وضم الهاء من عليهما يعقوب

واختلف في ( ) وإن إلياس ( ) الآية 123 فابن عامر بخلاف عنه بوصل همزة إلياس فيصير اللفظ بلام ساكنة بعد إن ويبتدىء بهمزة مفتوحة وافقه ابن محيصن من المفردة والحسن والباقون بقطع الهمزة مكسورة بدا ووصلا وبه قرأ ابن عامر في وجهه الثاني وروى الوجهين الكارزيني عن المطوعي عن محمد بن القاسم عن ابن ذكوان وذكرهما في الشاطبية له كذلك وكذا رواه أبو الفضل الرازي عن ابن عامر بكماله وأكثرهم على استثناء الحلواني فقط عن هشام وأطلق الخلاف عن هشام وابن ذكوان في الطيبة قال في النشر وبهما أي الوصل والقطع آخذ في رواية ابن عامر اعتمادا على نقل الثقات واستنادا إلى وجهه في العربية وثبوته بالنص انتهى ووجه القراءتين أن إلياس اسم أعجمي سرياني تلاعبت به العرب فقطعت همزته تارة ووصلتها أخرى والأكثر على وجه الوصل أن أصله ياس دخلت عليه أل المعرفة كما دخلت على اليسع ويبنى على الخلاف حكم الابتداء فعلى الأول يبتدأ بهمزة مكسورة وعلى الثاني بهمزة مفتوحة وهو الصواب كما في النشر قال لأن وصل همزة القطع لا يجوز إلا ضرورة ولنصبهم على الفتح دون غيره واختلف في نصب ( ) الله ربكم ورب ( الآية 126 فحفص وحمزة والكسائي ويعقوب

وخلف بنصب الأسماء الثلاثة فالأول بدل من أحسن وربكم نعته ورب عطف عليه

وافقهم الأعمش والباقون برفع الثلاثة على أن الجلالة الكريمة مبتدأ وربكم خبره ورب عطف عليه أو خبر هو ومر ذكر المخلصين في السورة

(171/650)

---

واختلف في ( ) إل ياسين ( الآية 130 فنافع وابن عامر ويعقوب بفتح الهمزة وكسر اللام وألف بينهما وفصلها عما بعدها فأضافوا آل إلى ياسين فيجوز قطعها وقفا والمراد ولد ياسين وأصحابه والباقون بكسر الهمزة وسكون اللام بعدها ووصلها بما بعدها كلمة واحدة في الحالين جمع الياس المتقدم باعتبار أصحابه كالمهالبة في المهلب وبنيه أو على جعله اسما للنبي المذكور وهي لغة كطور سيناء وسينين وهي حينئذ كلمة واحدة وإن انفصلت رسما فلا يجوز قطع أحديهما عن الأخرى ويمتنع اتباع الرسم فيها وقفا ولم يقع لها نظير

واختلف في ( أصطفى ) الآية 153 فالأصبهاني عن ورش وابو جعفر بوصل الهمزة في الوصل على حذف همزة الاستفهام للعلم بها والابتداء في هذه القراءة بهمزة مكسورة والباقون بهمزة مفتوحة في الحالين على الاستفهام الإنكاري وأماله وقفا حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وقرأ ( تذكرون ) بتخفيف الذال حفص وحمزة والكسائي

وخلف ووقف على صال الجحيم بالياء يعقوب وعن الحسن صال بضم اللام بلا واو وعنه بالواو ومر حكم المخلصين وأدغم دال ولقد سبقت أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف

المرسوم اتفقوا على حذف ألف يهرعون وعلى كتابة إيتا بالياء وفي العراقية أيفكا بالياء

واتفقوا على كتابة لهو البلؤا بواو وألف بعدها وعلى كتابة آل ياسين بقطع اللام من الياء

واتفقوا على قطع أم عن من في أم من خلقنا ياءات الإضافة ثلاث ( ) إني أرى (الآية 102 ( ) أني أذبحك ( ) الآية 102 ( ) ستجدني إن (الآية 102 وزائدتان (سيهدين ) الآية 99 (لتردين ) الآية 56 . انتهى انتهى . اهـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ 471 . 475﴾

(172/650)

---

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

"سورة الصافات"

" فالزاجرات" ذكرا ، من خطف ، ذكروا من خلقنا يستخسرون ، سحر داخرون ، كله واضح .

" بزينة الكواكب " قرأ شعبة بتنوين زينة ونصب باء الكواكب وحفص وحمزة بالتنوين والجر والباقون بترك التنوين والجر .

" يسمعون " قرأ حفص والأخوان وخلف بفتح السين والميم وتشديدها والباقون بإسكان السين وتخفيف الميم .

" فاستفتهم " ضم رويس الهاء وصلا ووقفا وكسرها غيره كذلك .

" عجبت " ضم التاء الأخوان وخلف وفتحها غيرهم .

" ءأذا متنا " أئنا ، قرأ المدنيان والكسائي ويعقوب بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني وابن عامر بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني والباقون بالاستفهام فيهما وكل على أصله من التسهيل وغيره ولا تنس أن هشاما ليس له إلا الإدخال وكسر ميم متنا نافع وحفص والأخوان وخلف وضمها غيرهم .

" أو آباونا " قرأ قالون وأبو جعفر وابن عامر بإسكان واو أو وغيرهم بفتحها .

" نعم " كسر العين الكسائي وفتحها غيره .

" تكذبون " آخر الربع .

الممال

فأنى بالإمالة للأصحاب والتقليل للدورى عن البصري وورش بخلف عنه . الكافرين بالإمالة للبصري والدوري ورويس والتقليل لورش .

" ومشارب " بالإمالة لهشام وحده ، بلى والأعلى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . الدنيا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

المدغم

*(173/650)*

---

" الكبير " لا يستطيعون نصرهم ، نعلم ما ، جعل لكم ، يقول له ، والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ووافقه حمزة على إدغام التاء في هذه المواضع الثلاثة إلا أن هنا فرقا بين حمزة والسوسي من جهتين: الأولى أنه لا يجوز الإشارة إلى حركة التاء لحمزة بل لا بد عنده من الإدغام المحض من غير إشارة بخلاف السوسي فتجوز له الإشارة إلى حركة التاء . الجهة الثانية أنه لا يجوز لحمزة التوسط والقصر بل لا بد من المد المشبع بخلاف السوسي فتجوز له الأوجه الثلاثة . والسبب في هذا الفرق أنه عند حمزة من الساكن اللازم المدغم مثل دابة فلابد من المد المشبع وعند السوسي من الساكن العارض فتجوز له الإشارة كما تجوز له الأوجه الثلاثة ولا إدغام في يحزنك قولهم لإخفاء النون قبل الكاف .

" ظلموا " صراط ، قيل يستكبرون ، عليهم ، بكأس ، قاصرات ، فاطلع ، خير ، رءوس ، فيهم . لا يخفى .

" لا تناصرون " شدد البزي وأبو جعفر التاء وصلا مع المد المشبع للساكنين وخففها الباقون مع القصر في الحالين وكذلك البزي وأبو جعفر ابتداء .

" أئنا " قرأ قالون وأبو جعفر وأبو عمرو بالتسهيل والإدخال وورش والمكي ورويس بالتسهيل من غير إدخال وهشام بالتحقيق مع الإدخال وتركه والباقون بالتحقيق بلا إدخال .

" المخلصين معا " قرأ بفتح اللام المدنيان والكوفيون وبكسرها غيرهم .

" ينزفون " قرأ الأخوان وخلف بكسر الزاي وغيرهم بفتحها .

" أئنك " مثل أئنا السابق غير أن هشاما ليس له فيه إلا الإدخال .

" أءذا متنا أئنا " هو مثل الأول غير أن أبا جعفر قرأ هنا بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني كابن عامر .

" لتردين " أثبت الياء وصلا وحذفها وقفا ورش وأثبتها في الحالين يعقوب وحذفها الباقون مطلقا .

" فمالئون " هو مثل مستهزءون ، لورش وأبي جعفر وحمزة .

" الآخرين " آخر الربع .

الممال

جاء لابن ذكوان وخلف وحمزة ، فرآه سبق مثله قريبا ، الأولى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . آثارهم بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، نادانا بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " ولقد ضل لورش والبصري والشامي والأخوين وخلف .

" الكبير " اليوم مستسلمون ، قول ربنا ، قيل لهم ، ذريته هم .

" أئفكا " مثل أئنك ، لسائر القراء .

" عنه " عليهم إليه ، وفديناه عليه ، وبشرناه ، نبيا ، الصراط ، عليهما ، المخلصين ، نجيناه ، عليهم ، كله واضح .

" يزفون " قرأ حمزة بضم الياء وغيره بفتحها .

" سيهدين " أثبت الياء في الحالين يعقوب وحذفها غيره كذلك .

" يا بني " فتح الياء حفص وكسرها غيره .

" إني أرى أني أذبحك " فتح الباء فيهما المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" ماذا ترى " قرأ الأخوان وخلف بضم التاء وكسر الراء وبعدها ياء ساكنة مدية والباقون بفتح التاء والراء وبعدها ألف .

" يا أبت " فتح التاء ابن عامر وأبو جعفر وكسرها غيرهما ووقف بالهاء المكي والشامي وأبو جعفر ويعقوب وبالتاء غيرهم .

" ستجدني إن شاء الله " فتح الياء المدنيان وأسكنها سواهما .

" الرؤيا " أبدل السوسي همزة واوا ساكنة مدية مع أظهارها وأبدلها أبو جعفر كذلك ولكن مع إبدال الواو ياء وإدغامها في الياء بعدها فينطق بياء مشددة مفتوحة بعدها ألف ولحمزة في الوقف عليه وجهان أحدهما كالسوسي والآخر كأبي جعفر .

" لهو " أسكن الهاء قالون وأبو جعفر وأبو عمرو والكسائي وضمها غيرهم .

" البلؤا " رسمت الهمزة على واو ففيه لحمزة وهشام وقفا اثنا عشر وجها ، وسبق بيانها غير مرة .

" وإن إلياس " قرأ ابن ذكوان بخلف عنه بوصل همزة إلياس ، فيصير اللفظ بلام ساكنة بعد إن . فإن وقف على إن ابتدأ بهمزة مفتوحة لأن الأصل ياس دخلت عليه أل وغيره بهمزة قطع مكسورة في الحالين ، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان ، والوجهان عنه صحيحان .

" الله ربكم ورب " قرأ حفص والأخوان ويعقوب وخلف بنصب الهاء من لفظ الجلالة ، والباء من ربكم ورب ، والباقون برفع الثلاثة .

" إلياسين " قرأ نافع والشامي ويعقوب بفتح الهمزة ومدها ، وبعدها لام مكسورة مفصولة من ياسين كفصل اللام من العين في آل عمران ؛ وعلى هذا تكون آل كلمة وياسين كلمة ، فيجوز قطع آل عن ياسين ، والوقف على آل عند الاضطرار أو الاختبار بالباء الموحدة ، والباقون بكسر الهمزة وبعدها لام ساكنة فتكون كلها كلمة واحدة ، فلا يجوز فصل بعضها من بعض ، فيجب الوقف على آخرها .

" إذ أبق " لا يخفى نقل حركة الهمزة إلى الذال وحذف الهمزة لورش مطلقا ، ولحمزة في الوقف له مع الوجهين الآخرين . السكت وتركه .

" يبعثون " آخر الربع .

الممال

شاء وجاء لابن ذكوان وخلف وحمزة أرى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش موسى معا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . ترى: بالإمالة للبصري وحده والتقليل لورش ولا إمالة للأخوين وخلف لأن قراءتهم بكسر الراء .

" الرؤيا " بالإمالة للكسائي وخلف في اختياره وبالتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " إذ جاء للبصري وهشام . قد صدقت للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " قال لأبيه . خلقكم . قال لقومه .

" فاستفتهم " مائة . المخلصين . يبصرون . ذكرا . جلي .

" اصطفى " قرأ أبو جعفر بوصل الهمزة فيسقطها في الدرج ويكسرها في الابتداء وغيره بهمزة قطع مفتوحة وصلا وابتداء .

" تذكرون " خفف الذال حفص والأخوان وخلف وشددها غيرهم .

" صال " وقف يعقوب عليه بالياء وغيره بحذفها . انتهى انتهى . اهـ ﴿البدور الزاهرة صـ 277.273﴾

*(176/650)*

---

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الصافات

قوله تعالى ﴿ والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ﴾ يقرأن بإدغام التاء في الصاد والزاي والذال وإظهارها فالحجة لمن أدغم قرب مخرج التاء منهن والحجة لمن أظهر

أن التاء متحركة والألف ساكنة قبلها فالإظهار أحسن من الجمع بين ساكنين

فإن قيل ما وجه قوله ﴿ فالتاليات ذكرا ﴾ ولم يقل تلوا كما قال صفا وزجرا فقل إن تلوت له في الكلام معنيان تلوت الرجل معناه اتبعته وجئت بعده ودليله قوله ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ وتلوت القرآن إذا قرأته فلما التبس لفظهما أبان الله عز وجل بقوله ذكرا أن المراد ها هنا التلاوة لا الاتباع

فإن قيل ما وجه التأنيث في هذه الألفاظ فقل ليدل بذلك على معنى الجمع وقيل التاليات ها هنا جبريل وحده كما قال في قوله ﴿ فنادته الملائكة ﴾

قوله تعالى ﴿ بزينة الكواكب ﴾ يقرأ بالتنوين والنصب والخفض معا وبترك التنوين والإضافة فالحجة لمن نون ونصب أنه عند أهل البصرة شبيه بالمصدر لأن المصدر عندهم إذا نون عمل عمل الفعل وكذلك إذا أضيف إلى الفاعل أو المفعول وهو عند أهل الكوفة منصوب بمشتق من المصدر

والحجة لمن نون وخفض أنه أبدل الكواكب من الزينة لأنها هي الزينة وهذا يدل الشيء من الشيء وهو هو في المعنى والحجة لمن حذف التنوين وأضاف أنه اتى بالكلام على أصل ما وجب له لأن الاسم إذا ألفى الاسم بنفسه ولم يكن الثاني وصفا للأول ولا بدلا منه ولا مبتدأ بعده أزال التنوين وعمل فيه الخفض لأن التنوين معاقب للإضافة فلذلك لا يجتمعان في الاسم

قوله تعالى ﴿ لا يسمعون ﴾ يقرأ بتشديد السين والميم وبإسكان السين والتخفيف فالحجة لمن شدد أنه اراد يتسمعون فأسكن التاء وأدغمها في السين فصارتا سينا مشددة والحجة لمن خفف أنه أخذه من سمع يسمع ومعناه أن الشياطين كانت تسرق السمع من السماء فتلقيه إلى أوليائها من الإنس قبل مولد محمد عليه السلام فتبديه فلما ولد صلى الله عليه وسلم رجموا بالنجوم فامتنعوا من الاستماع وهذا من أدل دليل على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم

قوله تعالى ﴿ بل عجبت ﴾ يقرأ بضم التاء وفتحها فالحجة لمن ضم أنه من إخبار الله تعالى عن نفسه ودليله قوله النبي صلى الله عليه وسلم عجب ربكم من ألكم وقنوطكم فالعجب من الله عز وجل إنكار لأفعالهم من إنكارهم البعث وسخرياتهم من القرآن وازدرائهم بالرسول جرأة على الله وتمردا وعدوانا وتكبرا فهذا العجب من الله عز وجل والفرق بينه وبين عجب المخلوقين أن المخلوق لا يعجب إلا عند نظره إلى ما لم يكن في علمه ولا جرت العادة بمثله فبهره ما رأى من ذلك فيتعجب من ذلك وقد جاء في القرآن ما يقارب معنى ذلك كقوله تعالى ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ وكقوله

﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ وكقوله ﴿ فاتبعوني يحببكم الله ﴾ فالمكر من الله والاستهزاء والمحبة على غير ما هي من الخلق وبخلافها فكذلك العجب منه بخلاف ما هو من المخلوقين لأنها منه على طريق المجازاة بأفعالهم وإتيان اللفظ مردودا على اللفظ والحجة لمن فتح أنه جعل التاء للنبي صلى الله عليه وسلم

ومعناه بل عجبت يا محمد من وحي الله إليك وهم يسخرون



---

قوله تعالى ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ يقرأ ها هنا وفي الواقعة بكسر الزاي وفتحها فالحجة لمن قرأه بالكسر أنه اراد لا ينفد شرابهم والحجة لمن فتح أنه أراد لا تزول عقولهم إذا شربوها بالسكر وفرق عاصم بينهما فقرأها هنا بالفتح وفي الواقعة بالكسر فقيل إنه جمع بين اللغتين ليعلم بجوازهما وفرق بعضهم بين ذلك فقال إنما فتح ها هنا لقوله ﴿ لا فيها غول ﴾ وهو كل ما اغتال الإنسان فأهلكه وذهب بعقله وكسر في الواقعة لأن الله تعالى وصف الجنة وفاكهتها وجعل شرابها من معين والمعين لا ينفد فكان ذهاب العقل في الصافات أشبه ونفاد الشراب في الواقعة أشكل

قوله تعالى ﴿ فأقبلوا إليه يزفون ﴾ إجماع القراء على فتح الياء إلا ما قرأه حمزة من ضمها

فمن فتح أخذه من زف يزف ومن ضم أخذه من أزف يزف وهما لغتان معناهما الإسراع في المشي

قوله تعالى ﴿ ماذا ترى ﴾ يقرأ بفتح التاء وإمالة الراء وتفخيمها وبضم التاء وكسر الراء بياء الأمالة فالحجة لمن فتح التاء أنه أراد به معنى الروية والرأي وقد ذكر وجه الإمالة والتفخيم فيما سلف والحجة لمن ضم وكسر الراء أنه أراد به المشورة والأصل فيه ترائي فنقل كسرة الهمزة إلى الراء وحذف الهمزة لسكونها

وسكون الياء واشتقاق المشورة من قولهم شرت العسل إذا أخرجته من الخلية ومعناه استخراج الرأي

قوله تعالى ﴿ وإن إلياس ﴾ أجمع القراء على فتح النون وقطع الألف بعدها إلا ابن عامر فإنه وصلها فالحجة لمن قطع أنه شاكل بهذه الألف أخواتها في أوائل الأسماء الأعجمية والحجة لمن وصلها أنها الداخلة مع اللام للتعريف فكان الاسم عنده قبل دخولها عليه ياس



---

قوله تعالى ﴿ سلام على إل ياسين ﴾ يقرأ بكسر الهمزة وقصرها وإسكان اللام بعدها وبفتح الهمزة ومدها وكسر اللام بعدها فالحجة لمن كسر الهمزة أنه اراد إلياس فزاد في آخره

الياء والنون ليساوي به ما قبله من رؤوس الآي ودليله ما قرأه ابن مسعود سلام على إدراسين يريد إدريس والحجة لمن فتح الهمزة أنه جعله اسمين أحدهما مضاف إلى الآخر معناه سلام على آل محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم لأنه قيل في تفسير قوله يس يريد يا محمد واختلف الناس في قولهم آل محمد فقيل معناه من آل إليه بنسب أو قرابة وقيل من كان على دينه ودليله قوله تعالى ﴿ وأغرقنا آل فرعون ﴾ وقيل آله أصحابه واهله وذريته

فأما أهل صناعة النحو فأجمعوا أن الأصل في آل أهل فقلبت الهاء همزة ومدت ودليلهم على صحة ذلك أنك لو صغرت آلا لقلت أهيلا ولم تقل أويلا لأنهم صغروه على أصله لا على لفظه

وقال حذاق النحويين الحجة لمن قرأ إدراسين وإلياسين فإنما جمع لأنه أراد بذلك اسم النبي صلى الله عليه وسلم وضم إليه من تابعه على دينه كما قالوا المسامعة والمهالبة

قوله تعالى ﴿ الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ يقرأ بالنصب والرفع فالحجة لمن نصب أنه جعله بدلا من قوله ﴿ وتذرون أحسن الخالقين ﴾ الله ربكم ورب آبائكم الأولين يحتمل أن يكون أضمر فعلا كالذي أظهر فنصب به أو أضمر أعني فإن العرب تنصب بإضماره مدحا وتعظيما والحجة لمن رفع أنه أضمر اسما ابتدأ به وجعل اسم الله تعالى خبرا له لأن الكلام الذي قبله قد تم فكأنه قال هو الله ربكم ودليله قوله ﴿ سورة أنزلناها ﴾ و ﴿

براءة من الله ﴾ يريد بهما هذه سورة وهذه براءة من الله أو يبتدئ باسم الله عز وجل مستأنفا له فيرفعه ويجعل قوله ربكم الخبر ويعطف عليه ما بعده. انتهى. اهـ

﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 300. 304 ﴾

(180/650)

---

وقال ابن زنجلة :

37 – سورة الصافات

إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب 6

قرأ حمزة وحفص بزينة منون الكواكب جر جعلا الكواكب هي الزينة وهي بدل منها لأنها هي هي كما تقول مررت بأبي عبد الله زيد المعنى أنا زينا السماء بالكواكب وبدل المعرفة من النكرة جيد ونظير هذا في القرآن وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله فأبدل المعرفة من النكرة

وقرأ أبو بكر عن عاصم بزينة بالتنوين الكواكب نصب مفعول بها أعمل الزينة في الكواكب المعنى أنا زينا الكواكب فيها كقولك عجبت لعمرو من ضرب زيد أي من أن يضرب زيدا فهذا مجرى المصادر كما قال أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ومثله ما لا يملك لهم رزقا من

السموات تقديره ما لا يملك أن يرزق شيئًا وقرأ الباقون بزينة الكواكب مضافا أضافوا المصدر إلى المفعول به كقوله من دعاء الخير و بسؤال نعجتك المعنى بأن زينا الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب 7 و 8



---

قرأ حمزة والكسائي وحفص لا يسمعون بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف وحجتهم ما روي عن ابن عباس أنه قرأ لا يسمعون وقال هم يسمعون ولكن لا يسمعون والدليل على صحة قول ابن عباس أنهم يسمعون و لكن لا يسمعون قوله وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا وقوله بعدها إلا من خطف الخطفة 10 فعلم بذلك انهم يقصدون للاستماع ومن حجتهم أيضا إجماع الجميع على قوله إنهم عن السمع لمعزولون وهو مصدر سمع والقصة واحدة وتأويل الكلام وحفظا من كل شيطان مارد لئلا يسمعوا بمعنى أنهم ممنوعون بالحفظ عن السمع فكفت لا من أن كما قال كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به بمعنى لئلا يؤمنوا به فكفت لا من أن كما كفت أن من لا في قوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا فإن قال قائل فلو كان هذا هو الوجه لم يكن في الكلام إلى ولكان الوجه أن يقال لا يسمعون الملأ الأعلى قلت العرب تقول سمعت زيدا وسمعت إلى زيد فكذلك قوله لا

يسمعون إلى الملأ الأعلى وقد قال جل وعز وإذا قريء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا وقال

ومنهم من يستمع إليك فيعدي الفعل مرة ب إلى ومرة باللام

كقوله وهداه إلى صراط مستقيم و الحمد لله الذي هدانا لهذا وأوحى ربك إلى النحل وقال

أن ربك أوحى لها

ومن قرأ يسمعون الأصل يتسمعون فأدغم التاء في السين لقرب المخرجين وحجتهم في أنهم منعوا من التسمع الأخبار التي وردت عن أهل التأويل بأنهم كانوا يتسمعون الوحي فلما بعث رسول الله صلى الله عليه رموا بالشهب ومنعوا فإذا كانوا عن التسمع ممنوعين كانوا عن السمع أشد منعا وأبعد منه لأن المتسمع يجوز أن يكون غير سامع والسامع قد حصل له الفعل قالوا فكان هذا الوجه أبلغ في زجرهم لأن الإنسان قد يتسمع ولا يسمع فإذا نفي التسمع عنه فقد نفى سمعهم من جهة التسمع ومن جهة غيره فهو أبلغ

بل عجبت ويسخرون 12



---

قرأ حمزة والكسائي بل عجبت ويسخرون بضم التاء وقرأ الباقون بفتح التاء أي بل عجبت يا محمد من نزول الوحي عليك ويسخرون ويجوز أن يكون بل عجبت من إنكارهم البعث

وحجتهم قوله وإن تعجب فعجب قولهم أي إن تعجب يا محمد من قولهم فعجب قولهم عند من سمعه ولم يرد فإنه عجب عندي

قال أبو عبيد قوله بل عجبت بالنصب بل عجبت يا محمد من جهلهم وتكذيبهم وهم يسخرون منك ومن قرأ عجبت فهو إخبار عن الله جل وعز وحجتهم ما روي في الحديث إن الله قد عجب من فتى لا صبوة له وقال صلى الله عليه

عجب ربكم من إلكم وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم

قال أبو عبيد والشاهد لها مع هذه الأخبار قوله تعالى وإن تعجب فعجب قولهم فأخبر جل جلاله أنه عجيب ومما يزيده تصديقا الحديث المرفوع عجب الله البارحة من فلان وفلانة قال الزجاج وقد أنكر قوم هذه القراءة وقالوا إن الله جل وعز لا يعجب وإنكار هذا غلط لأن القراءة والرواية كثيرة فالعجب من الله خلاف العجب من الآدميين هذا كما قال جل وعز ويمكر الله ومثل قوله سخر الله منهم و هو خادعهم فالمكر

من الله والخداع خلافه من الآدميين وأصل العجب في اللغة أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقل مثله قال قد عجبت من كذا وكذا فكذلك إذا فعل الآدميون ما ينكره الله جاز أن يقول فيه عجبت والله قد علم الشيء قبل كونه ولكن الإنكار إنما يقع والعجب الذي تلزم به الحجة عند وقوع الشيء

أو ءاباؤنا الأولون 17

قرأ نافع وابن عامر أوآباؤنا الأولون بإسكان الواو وقرأ الباقون بفتح الواو وهي واو نسق دخلت عليها همزة الاستفهام كما يقال فلان ينظر في النحو فتقول أو هوممن ينظر في النحو معناه كنظره في غيره ومن سكن الواو فكأنه شك منه فيقولون أنحن نبعث أوآباؤنا الأولون وهم منكرون للبعث أي لا نبعث نحن ولا آباؤنا

لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون 47



---

قرأ حمزة والكسائي ولا هم عنها ينزفون بكسر الزاي من أنزف ينزف إذا سكر ويجوز أن يكون من أنزف إذا أنفد شرابه فقوله ينزفون أي لا يسكرون من شربها ويجوز أن يراد لا ينفد شرابهم كما ينفد شراب أهل الدنيا وإذا كان معنى لا فيها غول لا تغتال عقولهم حمل قوله لا ينزفون على لا ينفد شرابهم لأنك إن حملته على أنهم لا يسكرون صرت كأنك كررت يسكرون مرتين وإن حملت لا فيها غول على لا تغتال صحتهم ولا

تصيبهم عنها العلل التي تحدث من شربه في الدنيا حملت ينزفون على أنهم لا يسكرون

وقرأ الباقون ينزفون بفتح الزاي أي لا تذهب عقولهم لشربها يقال نزف الرجل إذا ذهب عقله ويقال للسكران نزيف

فأقبلوا إليه يزفون 94

قرأ حمزة فأقبلوا إليه يزفون بضم الياء وقرأ الباقون يزفون بفتح الياء من زففت وهو الاختيار والعرب تقول زف يزف زفيفا إذا أسرع ويقال زفت الإبل تزف إذا أسرعت وأما حمزة فإنه جعله لغتين زف وأزف ويجوز أن يكون زف الرجل بنفسه وأزف غيره فيكون المعنى فأقبلوا إليه يزفون أنفسهم ويجوز أن يكون المعنى يحملون غيرهم على الزفيف

فانظر ماذا ترى 102

قرأ حمزة والكسائي فانظر ماذا تري بضم التاء وكسر الراء أي ما تشير كذا قال الزجاج قال الفراء معناه ما تريني من صبرك والأصل ترئي فنقلنا كسرة الهمزة إلى الراء فصار تري وقرأ الباقون ماذا ترى أي ما الذي عندك من الرأي فيما أخبرتك به

وإن إلياس لمن المرسلين 23

قرأ ابن عامر وإن الياس بغير همز قال الفراء من قرأ

وإن الياس بوصل الألف جعل اسمه ياسا ثم أدخل عله الألف واللام للتعريف

وقرأ الباقون وإن إلياس بالهمز جعلوا أول الاسم على هذه القراءة الألف كأنه من نفس الكلمة تقول إلياس كما تقول إسحاق وإبراهيم وحجته قوله بعدها سلام على إلياسين أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب ءابائكم الأولين 125 و126

قرأ حمزة والكسائي وحفص الله ربكم ورب آبائكم بفتح الهاء والباء على البدل المعنى

وتذرون الله ربكم و ربكم صفة لله و الله نصب على البدل

وقرأ الباقون الله ربكم ورب بالرفع على الابتداء والخبر وحسن الابتداء به لتمام الكلام

الأول

سلم على إل ياسين 130

قرأ نافع وابن عامر سلام على آل ياسين بفتح الألف وكسر اللام قال ابن عباس سلام على آل

ياسين أي على آل محمد صلى الله عليه وآله كما قيل في ياسين يا محمد وآل محمد صلى الله

عليه كل من آل إليه بحسب أو بقرابة وقال قوم آل محمد

كل من كان على دينه ومثله كما قال أدخلوا آل فرعون أشد العذاب يريد من كان على دينه

وقال صلى الله عليه

آل محمد كل تقي وأجمع النحويون على أن الآل اصله أهل فقلبوا الهاء همزة وجعلوها مدة

لئلا تجتمع همزتان

وقرأ الباقون سلام على إلياسين بكسر الألف ساكنة اللام قال الفراء إن شئت ذهبت ب

إلياسين إلى أن تجعله جمعا فتجعل أصحابه داخلين في اسمه كما تقول لقوم رئيسهم المهلب

جاءتكم المهالبة والمهلبون تريد المهلب ومن معه كما تقول رأيت المحمدين تريد محمدا وأمته

صلى الله عليه وسلم قال الشاعر . . . قدني من نصر الخبيبين قدي . . .

هكذا رواه ثعلب أراد أبا خبيب وهو ابن الزبير ومن تابعه فجمع على ذلك وفيها وجه آخر يكون لغتين إلياس وإلياسين كما قالوا ميكال وميكائيل وجبريل وجبرئيل وحجة هذه القراءة أنه ذكره في صدر لآية فقال في آخر الآية سلام على إلياسين كما ذكر نوحا في صدر الآية ثم قال في آخر القصة سلام على نوح وكذلك إبراهيم وموسى وهارون إنما قال في آخر قصصهم سلام على فلان

ولد الله وإنهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين 152 و153

قرأ إسماعيل لكاذبون اصطفى البنات بوصل الألف على أن يكون حكاية عن قولهم ليقولون اصطفى ويجوز أن يكون المعنى وإنهم لكاذبون قالوا اصطفى البنات فحذف قالوا

(185/650)

---

وقرأ الباقون أصطفى بفتح الألف وهو الاختيار لأن المعنى سلهم هل اصطفى البنات على البنين فالألف ألف استفهام ومعناها التوبيخ دخلت على ألف وصل والأصل أاصطفى فسقطت ألف الوصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 612.604 ﴾

(186/650)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة والصافات

مكية ولا نظير لها في عددها

وكلمها ثماني مئة وستون كلمة

وحروفها ثلاثة آلاف وثماني مئة وستة وعشرون حرفا

وهي مئة وثمانون آية في البصري وأبي جعفر القارىء وآيتان في عدد الباقين

اختلافها آيتان ( ﴿ وما كانوا يعبدون ﴾ ) لم يعدها البصري وعدها الباقون ( ﴿ وإن كانوا ليقولون ﴾ ) وهو الثاني لم يعدها أبو جعفر وعدها الباقون وشيبة وكلهم عد ( ﴿ من إفكهم ليقولون ﴾ ) وهو الأول

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع موضعان ( ﴿ دحورا ﴾ وعلى إسحاق )

ورؤوس الآي

صفا

1 زجرا

2 ذكرا

3 لواحد

4 المشارق

5 الكواكب

6 مارد

7 جانب

8 واصب

9 ثاقب

10 لازب

11 ويسخرون

12 لا يذكرون

13 يستسخرون

14 مبين

15 لمبعوثون

16 الأولون

17 داخرون

18 ينظرون

19 الدين

20 تكذبون

21 يعبدون

22 الجحيم

23 مسؤولون

24 لا تناصرون

25 مستسلمون

26 يتساءلون

27 اليمين

28 مؤمنين

29 طاغين

30 لذائقون

31 غاوين

32 مشتركون

33 بالمجرمين

34 يستكبرون

35 مجنون

36 المرسلين

37 الأليم

38 تعملون

39 المخلصين

40 معلوم

41 مكرمون

42 النعيم

43 متقابلين

44 معين

45 للشاربين

46 ينزفون

47 عين

48 مكنون

49 يتساءلون

50 قرين

51 المصدقين

52 لمدينون

53 مطلعون

54 الجحيم

55

لتردين

56 المحضرين

57 بميتين

58 بمعذبين

59 العظيم

60 العاملون

61 الزقوم

62 للظالمين

63 الجحيم

64 الشياطين

65 البطون

66حميم

67الجحيم

68ضالين

69يهرعون

70الأولين

71منذرين

72المنذرين

73المخلصين

74المجيبون

75العظيم

76الباقين

77الآخرين

78العالمين

79المحسنين

80المؤمنين

81الآخرين

82 لإبراهيم

83 سليم

84 تعبدون

85 تريدون

86 العالمين

87 في النجوم

88 سقيم

89 مدبرين

90 تأكلون

91 تنطقون

92 باليمين

93 يزفون

94 تنحتون

95 تعملون

96 الجحيم

97 الأسفلين

98 سيهدين

99 الصالحين

100 حليم

101 الصابرين

102 للجبين

103 يا إبراهيم

104 المحسنين

105 المبين

106 عظيم

*(187/650)*

---

107 الآخرين

108 إبراهيم

109 المحسنين

110 المؤمنين

111 الصالحين

112 مبين

113 وهارون

114 العظيم

115 الغالبين

116 المستبين

117 المستقيم

118 الآخرين

119 وهارون

120 المحسنين

121 المؤمنين

122 المرسلين

123 ألا تتقون

124 الخالقين

125 الأولين

126 لمحضرون

127 المخلصين

128 الآخرين

129 إل ياسين

130 المحسنين

131 المؤمنين

132 المرسلين

133 أجمعين

134 الغابرين

135 الآخرين

136 مصبحين

137 تعقلون

138 المرسلين

139 المشحون

140 المدحضين

141 مليم

142 المسبحين

143 يبعثون

144 سقيم

145 يقطين

146 أو يزيدون

147 إلى حين

148 البنون

149 شاهدون

150 ليقولون

151 لكاذبون

152 البنين

153 تحكمون

154 تذكرون

155 مبين

156 صادقين

157 لمحضرون

158 يصفون

159 المخلصين

160 وما تعبدون

161 بفاتنين

162 الجحيم

163 معلوم

164 الصافون

165 المسبحون

166 ليقولون

167 الأولين

168 المخلصين

169 يعلمون

170 المرسلين

171 المنصورون

172 الغالبون

173 حين

174 يبصرون

175 يستعجلون

176 المنذرين

177 حين

178 يبصرون

179 يصفون

180 المرسلين

181 العالمين

182 . انتهى انتهى . اهـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 212.213﴾

(188/650)

---

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الواو للقسم ، وجواب القسم إن إلهكم ، و (صفا ) مصدر مؤكد وكذلك (زجرا ) وقيل

صفا مفعول به ، لأن الصف قد يقع على المصفوف ، و (رب السموات) بدل من واحد ، أو خبر مبتدأ محذوف: أي هو رب .

قوله تعالى (بزينة الكواكب) يقرأ بالإضافة .

وفيه وجهان: أحدهما أن يكون من إضافة النوع إلى الجنس كقولك باب حديد فالزينة كواكب .

والثانى أن تكون

الزينة مصدرا أضيف إلى الفاعل ، وقيل إلى المفعول: أي زينا السماء بتزييننا الكواكب ، ويقرأ بتنوين الأول ونصب الكواكب ، وفيه وجهان: أحدهما إعمال المصدر منونا في المفعول .

والثانى بتقدير أعنى ، ويقرأ بتنوين الأول ، وجر الثاني على البدل .

وبرفع الثاني بالمصدر: أي بأن زينتها الكواكب أو بأن زينت الكواكب أو على تقدير هي الكواكب .

قوله تعالى (وحفظا) أي وحفظناها حفظا ، و (من) يتعلق بالفعل المحذوف .

قوله تعالى (لا يسمعون) جمع على معنى كل ، وموضع الجملة جر على الصفة أو نصب على الحال أو مستأنف ، ويقرأ بتخفيف السين وعداه بإلى حملا على معنى يصغون .

وبتشديدها والمعنى واحد ، و (دحورا) يجوز أو يكون مصدرا من معنى يقذفون ، أو

مصدرا في موضع الحال ، أو مفعولا له ، ويجوز أن يكون جمع داحر مثل قاعد وقعود ، فيكون حالا (إلا من) استثناء من الجنس : أي لا يستمعون الملائكة إلا مخالسة ، ثم يتبعون بالشهب ، وفي (خطف) كلام قد ذكر في أوائل البقرة ، و (الخطفة) مصدر ، والألف واللام فيه للجنس أو للمعهود منهم .

قوله تعالى (بل عجبت) بفتح التاء على الخطاب ، وبضمها ، قيل الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل هو عن الله تعالى ، والمعنى عجب عباده ، وقيل المعنى أنه بلغ حدا يقول القائل في مثله عجبت .

قوله تعالى (وأزواجهم) الجمهور على النصب : أي واحشروا أزواجهم ،

(189/650)

---

أو هو بمعنى مع ، وهو في المعنى أقوى ، وقرئ شاذا بالرفع عطفا على الضمير في ظلموا (لا تناصرون) في موضع الحال ، وقيل التقدير : في أن لا تناصرون ، و (يتساءلون) حال .

قوله تعالى (لذائقوا العذاب) الوجه الجر بالإضافة ، وقرئ شاذا بالنصب

وهو سهو من قارئه ، لأن اسم الفاعل تحذف منه النون ، وينصب إذا كان فيه الألف واللام .

قوله تعالى (فواكه) هو بدل من رزق أو على تقدير هو ، و (مكرمون) بالتخفيف والتشديد للتكثير ، و (في جنات) يجوز أن يكون ظرفا وأن يكون حالا وأن يكون خبرا ثانيا ، وكذلك (على سرر) ويجوز أن تتعلق على ب (متقابلين) ويكون متقابلين حالا من مكرمون أو من الضمير في الجار و (يطاف عليهم) يجوز أن يكون مستأنفا ، وأن يكون كالذى قبله وأن يكون صفة لمكرمون ، و (من معين) نعت لكأس وكذلك (بيضاء) و (عنها) يتعلق ب (ينزفون) .

قوله تعالى (مطلعون) يقرأ بالتشديد على مفتعلون ، ويقرأ بالتخفيف: أي مطلعون أصحابكم ، ويقرأ بكسر النون وهو بعيد جدا ، لأن النون إن كانت للوقاية فلا تلحق الأسماء ، وإن كانت نون الجمع فلا تثبت في الإضافة .

قوله تعالى (إلا موتتنا) هو مصدر من اسم الفاعل ، وقيل هو استثناء و (نزلا) تمييز ، و (شوبا) يجوز أن يكون بمعنى مشوب ، وأن يكون مصدرا على بابه .

قوله تعالى (كيف كان عاقبة) قد ذكر في النمل (فلنعم الميجيبون) المخصوص بالمدح محذوف: أي نحن ، و (هم) فصل و (سلام على نوح) مبتدأ وخبر في موضع نصب بتركنا ، وقيل هو تفسير مفعول محذوف: أي تركنا عليه ثناء هو سلام ، وقيل معنى تركنا قلنا ، وقيل القول مقدر ، وقرئ شاذا بالنصب وهو وهو مفعول تركنا ، وهكذا ما في هذه السورة من الآى ، و (كذلك) نعت لمصدر محذوف: أي جزاء كذلك .

قوله تعالى (إذ جاء) أي اذكر إذ جاء ، ويجوز أن يكون ظرفا لعامل فيه من شيعته ، و (إذ

قال) بدل من إذا الإولى ، ويجوز أن يكون ظرفا لسليم أو لجاء .

قوله تعالى (ماذا تعبدون) هو مثل " ماذا تنفقون " وقد ذكر في البقرة (أئفكا)

(190/650)

---

هو منصوب ب (تريدون) وآلهة بدل منه ، والتقدير : وعبادة آلهة لإن الأفك مصدر فيقدر البدل منه كذلك والمعنى عليه ، وقيل إفكا مفعول له ، وآلهة مفعول تريدون

و(ضربا ) مصدر من فراغ لأن معناه ضرب ، ويجوز أن يكون في موضع الحال ، و (يزفون) بالتشديد والكسر مع فتح الياء ويقرأ بضمها وهما لغتان ، ويقرأ بفتح الياء وكسر الزاى والتخفيف وماضيه وزف مثل وعد ، ومعنى المشدد والمخفف والأسراع .

قوله تعالى (وما تعملون) هي مصدرية ، وقيل بمعنى الذى ، وقيل نكرة موصوفة ، وقيل استفهامية على التحقير لعملهم ، وما منصوبة بتعملون ، و (بنيانا ) مفعول به .

قوله تعالى (ماذا ترى) يجوز أن يكون ماذا اسما واحدا ينصب بترى : أي أي شئ ترى ، وترى من الرأى لا من رؤية العين ولا المتعدية إلى مفعولين ، بل كقولك هو يرى رأى الخوارج ، فهو متعد إلى واحد ، وقرئ ترى بضم التاء وكسر الراء ، وهو من الرأى أيضا إلا أنه نقل بالهمزة فتعدى إلى اثنين فماذا أحدهما والثانى محذوف أي ترينى ، ويجوز أن تكون ما

استفهاما وذا بمعنى الذى ، فيكون مبتدأ وخبر: أي أي شئ الذى تراه أو الذى ترينيه .

قوله تعالى (فلما ) جوابها محذوف تقديره نادته الملائكة أو ظهر فضلها .

وقال الكوفيون الواو زائدة أي تله أو ناديناه ، و (نبيا ) حال من إسحق .

قوله تعالى (إذ قال) هو ظرف لمرسلين ، وقيل بإضمار أعنى .

قوله تعالى (الله ربكم ورب) يقرأ الثلاثة بالنصب بدلا من أحسن أو على إضمار أعنى .

قوله تعالى (الياسين) يقرأ آل بالمد : أي أهله ، وقرئ بالقصر وسكون اللام

وكسر الهمزة ، والتقدير: الياسين واحدهم الياسى ثم خفف الجمع كما قالوا الأشعرون ،

ويقرأ شاذا إدراسين منسوبون إلى إدريس .

قوله تعالى (وبالليل) الوقف عليه تام .

قوله تعالى (في بطنه) حال أو ظرف (إلى يوم يبعثون) متعلق بلبث أو نعت لمصدر محذوف:

أي لبثا إلى يوم .



---

قوله تعالى (أو يزيدون) أي يقول الرائى لهم هم مائة ألف أو يزيدون ، وقيل بعضهم يقول: مائة

ألف ، وبعضهم يقول أكثر ، وقد ذكرنا في قوله " أو كصيب " وفى مواضع وجوها أخر .

قوله تعالى (أصطفى) بفتح الهمزة ، وهى للاستفهام ، وحذفت همزة الوصل استغناء بهمزة الاستفهام ، ويقرأ بالمد وهو بعيد جدا ، وقرئ بكسر الهمزة على لفظ الخبر ، والاستفهام مراد كما قال عمر بن أبى ربيعة: ثم قالوا تحبها قلت بهرا * عدد الرمل والحصى والتراب أي أتحبها ، وهو شاذ في الاستعمال والقياس ، فلا ينبغى أن يقرأ به (مالكم كيف) استفهام بعد استفهام (إلا عباد الله) يجوز أن يكون مستثنى من جعلوا ، ومن محضرون ، وأن يكون منفصلا .

قوله تعالى (وما تعبدون) الواو عاطفة ، ويضعف أن يكون بمعنى مع ، إذ لافعل هنا ، و (ما أنتم) نفى ، و (من) في موضع نصب بفاتنين ، وهى بمعنى الذى ، أو نكرة موصوفة ، و (صال) يقرأ شاذا بضم اللام ، فيجوز أن يكون جمعا على معنى "من" وأن يكون قلب فصار صايلا ثم حذفت الياء فبقى صال ، ويجوز أن يكون غير مقلوب على فعل كما قالوا يوم راح ، وكبش صاف: أي روح وصوف (وما منا إلا له) أي أحد إلا وقيل إلا من له ، وقد ذكر في النساء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 205. 208 ﴾

(192/650)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الصافات

[سورة الصافات (37) : الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِراتِ زَجْراً (2) فَالتَّالِياتِ ذِكْراً (3)

"وَالصَّافَّاتِ" الواو حرف قسم وجر الصافات اسم مجرور والجار والمجرور متعلقان بمحذوف تقديره أقسم "صَفًّا" مفعول مطلق "فَالزَّاجِراتِ" الفاء حرف عطف والزاجرات معطوف على الصافات "زَجْراً" مفعول مطلق "فَالتَّالِياتِ ذِكْراً" الفاء حرف عطف والتاليات اسم معطوف على ما قبله وذكرا مفعول مطلق .

[سورة الصافات (37) : آية 4]

إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ (4)

"إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ" إن واسمها واللام المزحلقة وواحد خبر إن والجملة جواب القسم لا محل لها .

[سورة الصافات (37) : آية 5]

رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ (5)

"رَبُّ" بدل من واحد "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَما" عطف على السموات "بَيْنَهُما"

ظرف مكان "وَرَبُّ" عطف على رب الأولى "الْمَشارِقِ" مضاف إليه.

[سورة الصافات (37) : آية 6]

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (6)

"إِنَّا" إن واسمها "زَيَّنَّا" ماض وفاعله "السَّماءَ" مفعول به والجملة خبر "الدُّنْيا" صفة "بِزِينَةٍ" متعلقان بزينا "الْكَواكِبِ" عطف بيان والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها.

[سورة الصافات (37) : آية 7]

وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ (7)

"وَحِفْظاً" الواو حرف عطف وحفظا مفعول مطلق لفعل محذوف حفظناها حفظا "مِنْ كُلِّ" متعلقان بحفظا "شَيْطانٍ" مضاف إليه "مارِدٍ" صفة.

[سورة الصافات (37) : آية 8]

لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ (8)



---

"لا يَسَّمَّعُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "إِلَى الْمَلَإِ" متعلقان بيسمعون "الْأَعْلى" صفة "وَيُقْذَفُونَ" الواو حرف عطف ومضارع مرفوع

بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "مِنْ كُلِّ" متعلقان بيقذفون "جانِبٍ" مضاف إليه.

[سورة الصافات (37) : آية 9]

دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (9)

"دُحُوراً" حال "وَلَهُمْ" الواو حرف عطف وخبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر "واصِبٌ" صفة لعذاب.

[سورة الصافات (37) : آية 10]

إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (10)

"إِلَّا" حرف استثناء "مَنْ" اسم الموصول في محل نصب على الاستثناء "خَطِفَ" ماض والجملة صلة "الْخَطْفَةَ" مفعول مطلق "فَأَتْبَعَهُ" الفاء حرف عطف وماض ومفعوله "شِهابٌ" فاعل مؤخر "ثاقِبٌ" صفة لشهاب والجملة معطوفة.

[سورة الصافات (37) : آية 11]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (11)

"فَاسْتَفْتِهِمْ" الفاء حرف استئناف وأمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر وجوبا تقديره أنت والهاء مفعوله "أَهُمْ" الهمزة حرف استفهام وهم مبتدأ "أَشَدُّ" خبر "خَلْقاً" تمييز والجملة الفعلية استئنافية لا محل لها والجملة الاسمية في محل نصب مفعول به

ثان لاستفتهم "أَمْ" حرف عطف "مَنْ" اسم موصول معطوف على الضمير هم "خَلَقْنا" ماض وفاعله والجملة صلة لا محل لها "إِنَّا" إن واسمها "خَلَقْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر إنا والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "مِنْ طِينٍ" متعلقان بخلقناهم "لازِبٍ" صفة لطين.

[سورة الصافات (37) : آية 12]

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12)

(194/650)

---

"بَلْ" حرف إضراب "عَجِبْتَ" ماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "وَيَسْخَرُونَ" الواو حالية ومضارع مرفوع وفاعله وجملة يسخرون خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم يسخرون والجملة الاسمية في محل نصب على الحال.

[سورة الصافات (37) : آية 13]

وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (13)

"وَإِذا" الواو حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "ذُكِّرُوا" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "لا" نافية "يَذْكُرُونَ" مضارع مرفوع

وفاعله والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها .

[سورة الصافات (37) : آية 14]

وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (14)

"وَإِذا" عطف على ما سبق "رَأَوْا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "آيَةً" مفعول به "يَسْتَسْخِرُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها .

[سورة الصافات (37) : آية 15]

وَقالُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (15)

"وَقالُوا" الواو حرف عطف قالوا ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنْ" نافية "هذا" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "سِحْرٌ" خبر والجملة مقول القول "مُبِينٌ" صفة لسحر .

[سورة الصافات (37) : آية 16]

أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16)

"أَإِذا" الهمزة حرف استفهام إنكاري وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "مِتْنا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "وَكُنَّا" ماض ناقص واسمه والجملة معطوفة على ما قبلها "تُراباً" خبرها "وَعِظاماً" معطوف على ترابا "أَإِنَّا" الهمزة حرف استفهام إنكاري وإن واسمها "لَمَبْعُوثُونَ" اللام المزحلقة وخبر .

[سورة الصافات (37) : آية 17]

أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17)

"أَوَ" الهمزة حرف استفهام والواو عاطفة "آباؤُنَا" اسم معطوف على ما سبق "الْأَوَّلُونَ" نعت لآباؤنا .

[سورة الصافات (37) : آية 18]

قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ (18)

(195/650)

---

"قُلْ" أمر وفاعل مستتر تقديره أنت والجملة استئنافية لا محل لها "نَعَمْ" حرف جواب "وَأَنْتُمْ" الواو للحال أنتم مبتدأ "داخِرُونَ" خبر والجملة في محل نصب حال .

[سورة الصافات (37) : آية 19]

فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (19)

"فَإِنَّما" الفاء الفصيحة "إنما" كافة ومكفوفة "هِيَ" مبتدأ "زَجْرَةٌ" خبر "واحِدَةٌ" صفة والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها من الإعراب "فَإِذا" الفاء حرف عطف وإذا فجائية "هُمْ" مبتدأ "يَنْظُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة خبر للمبتدأ

[سورة الصافات (37) : آية 20]

وَقالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (20)

"وَقالُوا" الواو حرف استئناف وماض ومفعوله والجملة استئنافية لا محل لها "يا وَيْلَنا" يا حرف نداء ومنادى مضاف والجملة مقول القول "هذا" مبتدأ "يَوْمُ" خبر "الدِّينِ" مضاف إليه والجملة استئنافية.

[سورة الصافات (37) : آية 21]

هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21)

"هذا" مبتدأ "يَوْمُ" خبر "الْفَصْلِ" مضاف إليه والجملة مقول القول "الَّذِي" صفة اليوم "كُنْتُمْ" كان واسمها "بِهِ" متعلقان بتكذبون "تُكَذِّبُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم صلة لا محل لها.

[سورة الصافات (37) : آية 22]

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ (22)

"احْشُرُوا" أمر مبني على حذف النون وفاعله والجملة مقول القول لمحذوف "الَّذِينَ" مفعول به "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَأَزْواجَهُمْ" الواو حرف عطف واسم معطوف على الاسم الموصول "وَما" عطف "كانُوا" كان واسمها "يَعْبُدُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة خبر كان.

[سورة الصافات (37) : آية 23]

مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ (23)



---

"مِنْ دُونِ" متعلقان بمحذوف حال "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "فَاهْدُوهُمْ" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله ومفعوله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "إِلى صِراطِ" متعلقان باهدوهم "الْجَحِيمِ" مضاف إليه.

[سورة الصافات (37) : آية 24]

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (24)

"وَقِفُوهُمْ" الواو حرف عطف وأمر وفاعله ومفعوله "إِنَّهُمْ" إن واسمها "مَسْؤُلُونَ" خبر إن والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها لا محل لها والجملة الاسمية تعليل للأمر.

[سورة الصافات (37) : آية 25]

ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (25)

"ما لَكُمْ" ما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ والجار والمجرور خبره والجملة مقول القول لمحذوف "لا" نافية "تَناصَرُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة في محل نصب حال.

[سورة الصافات (37) : آية 26]

بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (26)

"بَلْ" حرف عطف وإضراب "هُمُ" مبتدأ "الْيَوْمَ" ظرف زمان "مُسْتَسْلِمُونَ" خبر المبتدأ هم.

[سورة الصافات (37) : آية 27]

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (27)

"وَأَقْبَلَ" الواو حرف استئناف وماض والجملة استئنافية لا محل لها "بَعْضُهُمْ" فاعل "عَلى بَعْضٍ" متعلقان بأقبل "يَتَساءَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة حال.

[سورة الصافات (37) : آية 28]

قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (28)

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة حال "إِنَّكُمْ" إن واسمها والجملة مقول القول "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَأْتُونَنا" مضارع مرفوع وفاعله ومفعوله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم خبر إن "عَنِ الْيَمِينِ" متعلقان بمحذوف حال.

[سورة الصافات (37) : آية 29]

قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29)

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "بَلْ" حرف إضراب "لَمْ تَكُونُوا" مضارع ناقص مجزوم بلم والواو اسمه والجملة مقول القول "مُؤْمِنِينَ" خبر تكونوا .

[سورة الصافات (37) : آية 30]

وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (30)

"وَما" ما نافية "كانَ" ماض ناقص "لَنا" خبر مقدم "عَلَيْكُمْ" متعلقان بمحذوف خبر ثان "مِنْ" حرف جر زائد "سُلْطانٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا اسم كان "بَلْ" حرف عطف وإضراب "كُنْتُمْ" كان واسمها "قَوْماً" خبرها "طاغِينَ" صفة لقوم .

[سورة الصافات (37) : آية 31]

فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (31)

"فَحَقَّ" الفاء حرف عطف وماض والجملة معطوفة على ما قبلها "عَلَيْنا" متعلقان بحق "قَوْلُ" فاعل "رَبِّنا" مضاف إليه "إِنَّا" إن واسمها "لَذائِقُونَ" اللام المزحلقة وذائقون خبر إن والجملة الاسمية تعليل لما سبق .

[سورة الصافات (37) : آية 32]

فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (32)

"فَأَغْوَيْناكُمْ" الفاء حرف عطف وأغوينا فعل ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على

ما قبلها "إِنَّا" إن واسمها "كُنَّا" كان واسمها والجملة خبر إن "غاوِينَ" خبر كنا والجملة الاسمية تعليل لما سبق.

[سورة الصافات (37) : آية 33]

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (33)

"فَإِنَّهُمْ" الفاء حرف استئناف "إنهم" إن واسمها "يَوْمَئِذٍ" يوم ظرف زمان أضيف إلى مثله والتنوين عوض عن جملة محذوفة "فِي الْعَذابِ" متعلقان بمشتركون "مُشْتَرِكُونَ" خبر إنهم.

[سورة الصافات (37) : آية 34]

إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34)

"إِنَّا" إن واسمها "كَذلِكَ" صفة لمفعول مطلق محذوف "نَفْعَلُ" مضارع والجملة خبر إن "بِالْمُجْرِمِينَ" متعلقان بنفعل والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها.



---

[سورة الصافات (37) : آية 35]

إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35)

"إِنَّهُمْ" إن واسمها "كانُوا" كان واسمها والجملة خبر إن "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة

"قِيلَ" ماض مبني للمجهول والجملة في محل جر بالإضافة "لَهُمْ" متعلقان بقيل "لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ" سبق إعرابها والجملة مقول قول محذوف "يَسْتَكْبِرُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة خبر كانوا وجواب الشرط محذوف.

[سورة الصافات (37) : آية 36]

وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (36)

"وَيَقُولُونَ" الواو عطف ومضارع مرفوع وفاعله والجملة معطوفة على يستكبرون "أَإِنَّا" الهمزة حرف استفهام إنكاري وإن واسمها "لَتارِكُوا" اللام المزحلقة وخبر إن والجملة مقول القول "آلِهَتِنا" مضاف إليه ونا مضاف إليه "لِشاعِرٍ" متعلقان بتاركوا. "مَجْنُونٍ" صفة.

[سورة الصافات (37) : آية 37]

بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37)

"بَلْ" حرف إضراب "جاءَ" ماض والفاعل مستتر تقديره هو "بِالْحَقِّ" متعلقان بجاء "وَصَدَّقَ" ماض والجملة معطوفة على جاء "الْمُرْسَلِينَ" مفعول به.

[سورة الصافات (37) : آية 38]

إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ (38)

"إِنَّكُمْ" إن واسمها "لَذائِقُوا" اللام المزحلقة وخبر إن "الْعَذابِ" مضاف إليه "الْأَلِيمِ" صفة للعذاب والجملة استئنافية لا محل لها.

[سورة الصافات (37) : آية 39]

وَما تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39)

"وَما تُجْزَوْنَ" الواو حرف عطف ما نافية تجزون مضارع مبني للمجهول ونائب فاعل "إِلَّا" حرف حصر "ما" مفعول به ثان "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة خبر كنتم وجملة الفعل الناقص صلة.

[سورة الصافات (37) : آية 40]

إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40)



"إِلَّا" حرف استثناء "عِبادَ" مستثنى "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "الْمُخْلَصِينَ" صفة لعباد الله.

[سورة الصافات (37) : آية 41]

أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41)

"أُولئِكَ" مبتدأ "لَهُمْ" خبر مقدم "رِزْقٌ" مبتدأ مؤخر والجملة استئنافية لا محل لها "مَعْلُومٌ" صفة لرزق والجملة الاسمية خبر أولئك.

[سورة الصافات (37) : آية 42]

فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (42)

"فَواكِهُ" بدل كل من كل "وَهُمْ" الواو حالية هم مبتدأ "مُكْرَمُونَ" خبر والجملة حال.

[سورة الصافات (37) : آية 43]

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43)

"فِي جَنَّاتِ" متعلقان بمكرمون "النَّعِيمِ" مضاف إليه.

[سورة الصافات (37) : آية 44]

عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (44)

"عَلى سُرُرٍ" متعلقان بمتقابلين "مُتَقابِلِينَ" حال.

[سورة الصافات (37) : آية 45]

يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45)

"يُطافُ" مضارع مبني للمجهول والجملة استئنافية لا محل لها "عَلَيْهِمْ" متعلقان بيطاف "بِكَأْسٍ" متعلقان بيطاف أيضا "مِنْ مَعِينٍ" صفة لكأس.

[سورة الصافات (37) : آية 46]

بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46)

"بَيْضاءَ" صفة ثانية لكأس "لَذَّةٍ" صفة ثالثة لكأس "لِلشَّارِبِينَ" متعلقان بلذة.

[سورة الصافات (37) : آية 47]

لا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (47)

"لا" نافية "فِيها" خبر مقدم "غَوْلٌ" مبتدأ مؤخر "وَلا" عطف على لا الأولى "هُمْ" مبتدأ "عَنْها" متعلقان بينزفون "يُنْزَفُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع ونائب فاعل والجملة خبر المبتدأ هم والجملة معطوفة على ما قبلها وجملة لا فيها غول صفة لكأس.

[سورة الصافات (37) : آية 48]

وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48)

*(200/650)*

---

"وَعِنْدَهُمْ" الواو حرف عطف وظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم "قاصِراتُ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "الطَّرْفِ" مضاف إليه "عِينٌ" صفة لقاصرات.

[سورة الصافات (37) : آية 49]

كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49)

"كَأَنَّهُنَّ" كأن واسمها "بَيْضٌ" خبرها والجملة صفة لقاصرات "مَكْنُونٌ" صفة.

[سورة الصافات (37) : آية 50]

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (50)

"فَأَقْبَلَ" الفاء حرف عطف وفعل ماض "بَعْضُهُمْ" فاعل "عَلى بَعْضٍ" متعلقان بأقبل "يَتَساءَلُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة حالية.

[سورة الصافات (37) : آية 51]

قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (51)

"قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ" ماض وفاعله والجار والمجرور صفة لقائل "إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ" إن واسمها وكان ماض ناقص والجملة خبر إن والجملة الاسمية وخبرها مقول القول ولي جار ومجرور خبر كان المقدم وقرين اسمها المؤخر.

[سورة الصافات (37) : الآيات 52 الى 53]

يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (53)

"يَقُولُ" مضارع مرفوع والجملة صفة لقرين "أَإِنَّكَ" الهمزة حرف استفهام إنكاري وإن واسمها "لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ" اللام المزحلقة والجار والمجرور خبر إن والجملة مقول القول "أَإِذا مِتْنا" الهمزة حرف

استفهام وظرف للمستقبل تضمن معنى الشرط وماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "وَكُنَّا" ماض ناقص واسمه "تُراباً" خبره "وَعِظاماً" اسم معطوف على ترابا "أَإِنَّا" الهمزة حرف استفهام وإن واسمها "لَمَدِينُونَ" اللام المزحلقة ومدينون خبر مرفوع

بالواو .

[سورة الصافات (37) : الآيات 54 الى 59]

*(201/650)*

---

قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ (55) قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57) أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59)

"قالَ" ماض فاعله مستتر "هَلْ" حرف استفهام "أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ" مبتدأ وخبره المرفوع بالواو والجملة مقول القول "فَاطَّلَعَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "فَرَآهُ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر والهاء مفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "فِي سَواءِ" متعلقان برآه "الْجَحِيمِ" مضاف إليه مجرور "قالَ" ماض فاعله مستتر "تَاللَّهِ" التاء حرف قسم وجر ولفظ الجلالة مجرور به وهما متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم "إِنْ" مخففة من الثقيلة "كِدْتَ" ماض وجملته جواب القسم لا محل لها "لَتُرْدِينِ" اللام الفارقة ومضارع مرفوع فاعله مستتر تقديره أنت والياء المحذوفة مفعوله "وَلَوْلا" الواو حرف عطف ولولا حرف شرط غير جازم "نِعْمَةُ" مبتدأ والخبر محذوف وجوبا "رَبِّي" مضاف

إليه "لَكُنْتُ" اللام واقعة في جواب لولا وكان واسمها "مِنَ الْمُحْضَرِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف "أَفَما" الهمزة حرف استفهام والفاء حرف عطف وما نافية "نَحْنُ" اسم ما "بِمَيِّتِينَ" الباء حرف جر زائد ميتين مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما . والجملة معطوفة على محذوف مقدر . "إِلَّا" أداة حصر "مَوْتَتَنَا" مفعول مطلق "الْأُولى" صفة "وَما" الواو حرف عاطف وما نافية "نَحْنُ" اسمها "بِمُعَذَّبِينَ" الباء حرف جر زائد ومعذبين مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما والجملة معطوفة.

[سورة الصافات (37) : الآيات 60 الى 70]

*(202/650)*

---

إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ (61) أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (63) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (65) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (66) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ (69)

فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (70)

"إِنَّ هذا" إن واسمها "لَهُوَ" اللام المزحلقة والضمير مبتدأ "الْفَوْزُ" خبر "الْعَظِيمُ" صفة والجملة خبر إن "لِمِثْلِ" جار مجرور متعلقان بيعمل "هذا" ها للتنبيه واسم الإشارة مضاف إليه "فَلْيَعْمَلِ" الفاء الفصيحة واللام لام الأمر ومضارع مجزوم "الْعامِلُونَ" فاعل مرفوع بالواو "أَذلِكَ" الهمزة حرف استفهام



---

إنكاري واسم الإشارة مبتدأ "خَيْرٌ" خبر "نُزُلًا" تمييز "أَمْ" حرف عطف "شَجَرَةُ" اسم معطوف على ذلك "الزَّقُّومِ" مضاف إليه والجملة مقول قول محذوف "إِنَّا" إن واسمها "جَعَلْناها" ماض وفاعله ومفعوله الأول "فِتْنَةً" مفعول به ثان "لِلظَّالِمِينَ" متعلقان بصفة محذوفة لفتنة وجملة جعلناها خبر إن "إِنَّها شَجَرَةٌ" إن واسمها وخبرها "تَخْرُجُ" مضارع مرفوع "فِي أَصْلِ" متعلقان بتخرج وجملة إن واسمها وخبرها استئنافية وجملة تخرج صفة لشجرة "الْجَحِيمِ" مضاف إليه "طَلْعُها" مبتدأ والها مضاف إليه "كَأَنَّهُ" كأن واسمها "رُؤُسُ" خبرها "الشَّياطِينِ" مضاف إليه والجملة خبر طلعها "فَإِنَّهُمْ" الفاء حرف عطف وإن واسمها "لَآكِلُونَ" اللام المزحلقة وخبر والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "مِنْها" متعلقان بآكلون "فَمالِؤُنَ" الفاء حرف عطف ومالئون اسم معطوف على آكلون "مِنْها"

متعلقان بمالئون "الْبُطُونَ" مفعول به لاسم الفاعل مالئون "ثُمَّ" حرف عطف. "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "لَهُمْ" متعلقان بخبرها المقدم "عَلَيْها" متعلقان بمحذوف حال "لَشَوْباً" اللام المزحلقة واسمها المؤخر "مِنْ حَمِيمٍ" متعلقان بمحذوف صفة شوبا والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "ثُمَّ" حرف عطف "إِنَّ مَرْجِعَهُمْ" إن واسمها "لَإِلَى الْجَحِيمِ" اللام المزحلقة والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر إن "إِنَّهُمْ" إن واسمها "أَلْفَوْا" ماض وفاعله والجملة خبر إنّ "آباءَهُمْ" مفعول به أول "ضالِّينَ" مفعول به ثان "فَهُمْ" الفاء حرف عطف والضمير مبتدأ "عَلى آثارِهِمْ" متعلقان بيهرعون "يُهْرَعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر المبتدأ هم.

[سورة الصافات (37) : الآيات 71 الى 80]

(204/650)

---

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (71) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (72) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (74) وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75)

وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (77) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي

الْآخِرِينَ (78) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80)

"وَلَقَدْ" الواو حرف عطف اللام جواب القسم المحذوف وقد حرف تحقيق "ضَلَّ" ماض "قَبْلَهُمْ" ظرف "أَكْثَرُ" فاعل ضل "الْأَوَّلِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء "وَلَقَدْ" الواو حرف عطف اللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله "فِيهِمْ" متعلقان بأرسلنا "مُنْذِرِينَ" مفعول به منصوب بالياء "فَانْظُرْ" الفاء حرف استئناف وأمر فاعله مستتر "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب خبر كان المقدم "عاقِبَةُ" اسمها المؤخر "الْمُنْذَرِينَ" مضاف إليه وجملة انظر استئنافية "إِلَّا" حرف استثناء "عِبادَ" مستثنى منصوب "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "الْمُخْلَصِينَ" صفة عباد "وَلَقَدْ" الواو حرف استئناف واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق "نادانا" ماض ومفعوله "نُوحٌ" فاعل مؤخر والجملة استئنافية لا محل لها "فَلَنِعْمَ" الفاء حرف عطف واللام جواب قسم محذوف وماض جامد



---

"الْمُجِيبُونَ" فاعل مرفوع بالواو والجملة معطوفة لا محل لها "وَنَجَّيْناهُ" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على القسم لا محل لها "وَأَهْلَهُ" الواو حرف عطف

واسم معطوف على الهاء في نجيناه "مِنَ الْكَرْبِ" متعلقان بنجيناه "الْعَظِيمِ" صفة الكرب "وَجَعَلْنا" الواو حرف عطف وماض وفاعله "ذُرِّيَّتَهُ" مفعول به "هُمُ" ضمير فصل لا محل له "الْباقِينَ" مفعول به ثان لجعلنا "وَتَرَكْنا" الواو حرف عطف وماض وفاعله "عَلَيْهِ" متعلقان بتركنا "فِي الْآخِرِينَ" متعلقان بمحذوف صفة المفعول المقدر ثناء وجملة تركنا معطوفة على ما قبلها "سَلامٌ" مبتدأ "عَلى نُوحٍ" متعلقان بخبر محذوف والجملة تفسيرية "فِي الْعالَمِينَ" متعلقان بخبر محذوف "إِنَّا" إن واسمها "كَذلِكَ" نعت لمفعول مطلق محذوف "نَجْزِي" مضارع والجملة خبر إنّ "الْمُحْسِنِينَ" مفعول به والجملة الاسمية تعليل.

[سورة الصافات (37) : الآيات 81 الى 90]

إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (82) وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (83) إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (85)
أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (87) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90)

"إِنَّهُ" إن واسمها "مِنْ عِبادِنَا" الجار والمجرور خبرها "الْمُؤْمِنِينَ" صفة "ثُمَّ" حرف عطف "أَغْرَقْنَا" ماض وفاعله "الْآخَرِينَ" مفعوله منصوب بالياء والجملة معطوفة على نجيناه لا محل لها "وَإِنَّ" الواو حرف استئناف وإن حرف مشبه بالفعل "مِنْ شِيعَتِهِ" الجار والمجرور خبر إن المقدم "لَإِبْراهِيمَ" اللام المزحلقة وإبراهيم اسمها المؤخر والجملة استئنافية لا محل لها "إِذْ" ظرف زمان "جاءَ" ماض فاعله مستتر "رَبَّهُ" مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة "بِقَلْبٍ" متعلقان بجاء "سَلِيمٍ" صفة لقلب "إِذْ" بدل من الظرف الأول "قالَ" ماض فاعله مستتر "لِأَبِيهِ" متعلقان بقال "وَقَوْمِهِ" معطوف على أبيه "ما ذا" اسم استفهام مفعول مقدم لتعبدون "تَعْبُدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون وفاعله وجملة الاستفهام مقول القول "أَإِفْكاً" الهمزة حرف استفهام إنكاري توبيخي وإفكا مفعول لأجله "آلِهَةً" مفعول به "دُونَ" ظرف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "تُرِيدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون وفاعله والجملة مقول القول "فَما" الفاء حرف استئناف وما استفهامية للإنكار والتوبيخ في محل رفع مبتدأ "ظَنُّكُمْ" خبره "بِرَبِّ" متعلقان بظنكم "الْعالَمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء والجملة استئنافية لا محل لها "فَنَظَرَ" الفاء حرف استئناف ونظر ماض فاعله مستتر "نَظْرَةً" مفعول به. "فِي النُّجُومِ" متعلقان بنظر والجملة مستأنفة "فَقالَ" حرف عطف وماض فاعله مستتر "إِنِّي" إن واسمها "سَقِيمٌ" خبرها والجملة مقول القول وجملة قال معطوفة على ما قبلها لا محل لها "فَتَوَلَّوْا" حرف عطف وماض وفاعله "عَنْهُ" متعلقان بتولوا

"مُدْبِرِينَ" حال منصوبة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الصافات (37) : الآيات 91 الى 95]

*(207/650)*

---

فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ (91) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (92) فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (93) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94) قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (95)

"فَراغَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "إِلى آلِهَتِهِمْ" متعلقان براغ "فَقالَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "أَلا" الهمزة للاستفهام ولا نافية "تَأْكُلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة مقول القول وجملة راغ معطوفة على ما قبلها لا محل لها "ما لَكُمْ" ما استفهامية مبتدأ لكم جار ومجرور خبر "لا" نافية "تَنْطِقُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة في محل نصب حال والجملة الاسمية مقول قول محذوف تقديره فلم ينطقوا فقال ما لكم لا تنطقون . "فَراغَ" سبق إعرابها "عَلَيْهِمْ" متعلقان براغ "ضَرْباً" مفعول مطلق والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "بِالْيَمِينِ" متعلقان بضربا "فَأَقْبَلُوا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله "إِلَيْهِ" متعلقان بأقبلوا والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "يَزِفُّونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة حال "قالَ" ماض فاعله

مستتر "أَتَعْبُدُونَ" الهمزة حرف استفهام إنكاري توبيخي ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "ما" مفعول به "تَنْحِتُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله وجملة تنحتون صلة وجملة تعبدون مقول القول وجملة قال مستأنفة.

[سورة الصافات (37) : الآيات 96 الى 100]

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ (96) قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98) وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100)



---

"وَاللَّهُ" الواو حرف استئناف ولفظ الجلالة مبتدأ مرفوع "خَلَقَكُمْ" ماض ومفعوله والجملة خبر "وَما" الواو حرف عطف وما موصولية "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة والجملة الاسمية استئنافية "قالُوا" ماض وفاعله والجملة استئنافية "ابْنُوا" أمر وفاعله والجملة مقول القول "لَهُ" متعلقان بابنوا "بُنْياناً" مفعول به "فَأَلْقُوهُ" الفاء حرف عطف وأمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ابنوا "فِي الْجَحِيمِ" متعلقان بألقوه "وَقالَ" الواو حرف عطف وماض "إِنِّي ذاهِبٌ" إن واسمها وخبرها والجملة الاسمية

مقول القول وجملة قال معطوفة على ما قبلها لا محل لها "إِلى رَبِّي" متعلقان بذاهب "سَيَهْدِينِ" السين حرف استقبال ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء والنون للوقاية والياء المحذوفة مفعوله أي سيهديني "رَبِّ" منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة "هَبْ" فعل دعاء فاعله مستتر "لِي" متعلقان بهب والجملة مقول القول "مِنَ الصَّالِحِينَ" متعلقان بمحذوف صفة لمفعول به محذوف أي هب لي ولدا من الصالحين.

[سورة الصافات (37) : الآيات 101 الى 102]

فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102)



---

"فَبَشَّرْناهُ" الفاء حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله "بِغُلامٍ" متعلقان ببشرناه "حَلِيمٍ" صفة والجملة معطوفة على قال لا محل لها "فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف ولما ظرفية شرطية غير جازمة "بَلَغَ" ماض فاعله مستتر "مَعَهُ" ظرف متعلق بحال محذوفة "السَّعْيَ" مفعول به "قالَ" ماض فاعله مستتر "يا بُنَيَّ" يا حرف نداء وبني منادى مضاف وجملة قال لا محل لها لأنها جواب الشرط وجملة بلغ في محل جر بالإضافة "إِنِّي" إن واسمها والجملة مقول القول

"أَرى" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر إني "فِي الْمَنامِ" متعلقان بأرى "إِنِّي" أن واسمها "أَذْبَحُكَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر أني وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي أرى "فَانْظُرْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "ما ذا" استفهامية في محل نصب مفعول ترى "تَرى" مضارع مرفوع "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة استئنافية "يا أَبَتِ" يا حرف نداء ومنادى مضاف إلى ياء المتكلم التي عوضت بالتاء والجملة مقول القول "افْعَلْ" أمر فاعله مستتر "ما" موصولية مفعول به "تُؤْمَرُ" مضارع مبني للمجهول ونائبه مستتر والجملة صلة الموصول لا محل لها "سَتَجِدُنِي" السين حرف استقبال ومضارع مرفوع ومفعوله والفاعل مستتر "إِنْ" حرف شرط جازم "شاءَ" ماض "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل. "مِنَ الصَّابِرِينَ" متعلقان بمحذوف حال.

[سورة الصافات (37) : الآيات 103 الى 107]

فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107)

"فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف ولما ظرفية شرطية غير جازمة "أَسْلَما" ماض وفاعله

"وَتَلَّهُ" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر والهاء مفعول به "لِلْجَبِينِ" متعلقان بتله

وجملة أسلما في محل جر بالإضافة "وَنادَيْناهُ" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله

"أَنْ" مفسرة "يا إِبْراهِيمُ" يا حرف نداء إبراهيم منادى مبني على الضم "قَدْ" حرف تحقيق

"صَدَّقْتَ" ماض وفاعله "الرُّؤْيا" مفعول به "إِنَّا" إن واسمها "كَذلِكَ" نعت لمفعول مطلق

محذوف مقدم على الفعل "نَجْزِي" مضارع مرفوع فاعله مستتر "الْمُحْسِنِينَ" مفعول به

منصوب بالياء والجملة خبر وجملة إنا تعليلية. "إِنَّ هذا" إن واسمها "لَهُوَ" اللام المزحلقة

ومبتدأ "الْبَلاءُ" خبر "الْمُبِينُ" صفة البلاء والجملة الاسمية خبر إن "وَفَدَيْناهُ" الواو حرف

عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ناديناه "بِذِبْحٍ" متعلقان بفديناه

"عَظِيمٍ" صفة.

[سورة الصافات (37) : الآيات 108 الى 115]

وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ (109) كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

(110) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112)

وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113) وَلَقَدْ مَنَنَّا

عَلى مُوسى وَهارُونَ (114) وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115)

"وَتَرَكْنا" الواو حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "عَلَيْهِ" متعلقان بمحذوف صفة للموصوف المحذوف "فِي الْآخِرِينَ" متعلقان بتركنا "سَلامٌ" مبتدأ "عَلى إِبْراهِيمَ" متعلقان بمحذوف خبر والجملة مقول القول المحذوف "كَذلِكَ" اسم الإشارة نعت لمفعول مطلق محذوف "إِنَّهُ" إن واسمها "مِنْ عِبادِنَا" متعلقان بمحذوف خبر "الْمُؤْمِنِينَ" صفة لعبادنا والجملة تعليلية لا محل لها "وَبَشَّرْناهُ" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله "بِإِسْحاقَ" متعلقان ببشرناه "نَبِيًّا" حال "مِنَ الصَّالِحِينَ" الجار والمجرور صفة لنبيا "وَبارَكْنا" الواو حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "عَلَيْهِ" متعلقان بباركنا "وَعَلى إِسْحاقَ" عطف على الجار والمجرور السابقين "وَمِنْ" الواو حرف استئناف ومن حرف جر "مِنْ ذُرِّيَّتِهِما" متعلقان بخبر مقدم "مُحْسِنٌ" مبتدأ مؤخر "وَظالِمٌ" معطوف على محسن "لِنَفْسِهِ" متعلقان بظالم "مُبِينٌ" صفة ظالم والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "وَلَقَدْ" الواو حرف استئناف واللام واقعة في جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق "مَنَنَّا" ماض وفاعله "عَلى مُوسى" متعلقان بمننا "وَهارُونَ" معطوف على ما قبله والجملة جواب القسم لا محل لها "وَنَجَّيْناهُما" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على مننا لا محل لها "وَقَوْمَهُما" مفعول معه منصوب "مِنَ الْكَرْبِ" متعلقان بنجيناهما "الْعَظِيمِ" صفة.

[سورة الصافات (37) : الآيات 116 الى 120]

وَنَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (116) وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (118) وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ (119) سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ (120)



---

"وَنَصَرْناهُمْ" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "فَكانُوا" الفاء حرف عطف وكان واسمها "هُمُ" توكيد لواو الجماعة "الْغالِبِينَ" خبر كانوا "وَآتَيْناهُمَا" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله الأول "الْكِتابَ" مفعوله الثاني "الْمُسْتَبِينَ" صفة للكتاب "وَهَدَيْناهُمَا" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله الأول "الصِّراطَ" مفعوله الثاني "الْمُسْتَقِيمَ" صفة للصراط "وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ" تقدم إعرابها في الآية 108 "سَلامٌ" مبتدأ "عَلى مُوسى" متعلقان بالخبر المحذوف "وَهارُونَ" معطوفة على ما سبق.

[سورة الصافات (37) : الآيات 121 الى 124]

إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122) وَإِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ

الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (124)

"إِنَّا" إن واسمها "كَذلِكَ" نعت لمفعول مطلق محذوف "نَجْزِي" مضارع مرفوع "الْمُحْسِنِينَ" مفعول به والجملة خبر إن "إِنَّهُما" إن واسمها "مِنْ عِبادِنَا" متعلقان بالخبر المحذوف "الْمُؤْمِنِينَ" صفة "وَإِنَّ" الواو حرف استئناف وإن حرف مشبه بالفعل "إِلْياسَ" اسم إن "لَمِنَ" اللام المزحلقة وحرف جر "الْمُرْسَلِينَ" اسم مجرور وهما متعلقان بالخبر المحذوف والجملة استئنافية لا محل لها "إِذْ" ظرف زمان "قالَ" ماض فاعله مستتر "لِقَوْمِهِ" متعلقان بقال والجملة في محل جر بالإضافة "أَلا" حرف تحضيض "تَتَّقُونَ" مضارع وفاعله والجملة مقول القول.

[سورة الصافات (37) : الآيات 125 الى 132]

(213/650)

---

أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ (125) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (126)
فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (127) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (128) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي
الْآخِرِينَ (129)
سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ (130) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ

(132)

"أَتَدْعُونَ" الهمزة حرف استفهام إنكاري ومضارع وفاعله "بَعْلًا" مفعول به "وَتَذَرُونَ" حرف عطف ومضارع وفاعله "أَحْسَنَ" مفعول به "الْخالِقِينَ" مضاف إليه وجملة تدعون مقول القول وجملة تذرون معطوفة على ما قبلها "اللَّهَ" لفظ الجلالة بدل من أحسن منصوب مثله "رَبَّكُمْ" بدل من لفظ الجلالة "وَرَبَّ" عطف على ما قبله "آبائِكُمُ" مضاف إليه "الْأَوَّلِينَ" صفة "فَكَذَّبُوهُ" الفاء حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على جملة قال في محل جر مثلها "فَإِنَّهُمْ" الفاء الفصيحة وإن واسمها "لَمُحْضَرُونَ" اللام المزحلقة وخبر إن مرفوع بالواو والجملة الاسمية لا محل لها "إِلَّا" حرف استثناء "عِبادَ" مستثنى بإلا منصوب "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "الْمُخْلَصِينَ" صفة لعباد "وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ" سبق إعرابها "سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ" سبق إعرابها "إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ" سبق إعرابها "إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ" سبق إعرابها .

[سورة الصافات (37) : الآيات 133 الى 137]

وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137)

"وَإِنَّ لُوطاً" الواو حرف استئناف وإن واسمها "لَمِنَ" اللام المزحلقة وحرف جر

"الْمُرْسَلِينَ" متعلقان بمحذوف خبر إن والجملة استئنافية "إِذْ" ظرف زمان "نَجَّيْناهُ" ماض

وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "وَأَهْلَهُ" مفعول معه "أَجْمَعِينَ" توكيد "إِلَّا"

حرف استثناء "عَجُوزاً" مستثنى بإلا منصوب "فِي الْغابِرِينَ" متعلقان بصفة "ثُمَّ"

حرف عطف "دَمَّرْنَا"

ماض وفاعله "الْآخَرِينَ"

مفعول به والجملة معطوفة على نجيناه

"وَإِنَّكُمْ"

الواو حالية وإن واسمها "لَتَمُرُّونَ"

اللام المزحلقة ومضارع مرفوع بثبوت النون وفاعله وجملة إنكم في محل نصب حال "عَلَيْهِمْ"

متعلقان بتمرون والجملة الفعلية خبر إن "مُصْبِحِينَ"

حال.

[سورة الصافات (37) : الآيات 138 الى 142]

وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (138) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ

(140) فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142)

"وَبِاللَّيْلِ"

الواو حرف عطف والجار والمجرور عطف على مصبحين "أَفَلَا"

الهمزة حرف استفهام توبيخي والفاء حرف عطف ولا نافية "تَعْقِلُونَ"

مضارع مرفوع بثبوت النون وفاعله والجملة معطوفة على محذوف تقديره تشاهدون ذلك

"وَإِنَّ يُونُسَ"

الواو حرف استئناف وإن واسمها "لَمِنَ"

اللام المزحلقة ومن حرف جر "الْمُرْسَلِينَ"

اسم مجرور والجار والمجرور خبر إن "إِذْ"

ظرف زمان "أَبَقَ"

ماض فاعله مستتر "إِلَى الْفُلْكِ"

متعلقان بأبق "الْمَشْحُونِ"

صفة والجملة في محل جر بالإضافة "فَسَاهَمَ"

الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "فَكَانَ"

حرف عطف وماض ناقص اسمه مستتر تقديره هو "مِنَ الْمُدْحَضِينَ"

متعلقان بخبر كان المقدر "فَالْتَقَمَهُ" حرف عطف وماض ومفعوله "الْحُوتُ" فاعل مؤخر "وَهُوَ" الواو حالية وهو مبتدأ "مُلِيمٌ" خبر والجملة حال.

[سورة الصافات (37) : الآيات 143 الى 146]

فَلَوْلا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146)

"فَلَوْلا" الفاء حرف استئناف ولولا حرف شرط غير جازم "أَنَّهُ" أن واسمها "كانَ" ماض ناقص "مِنَ الْمُسَبِّحِينَ" الجار والمجرور خبر كان وأن وما بعدها في تأويل مصدر مبتدأ خبره محذوف وجوبا وجملة كان خبر أن "لَلَبِثَ" اللام واقعة في جواب لولا وماض فاعله مستتر "فِي بَطْنِهِ" متعلقان بلبث "إِلى يَوْمِ" متعلقان بلبث أيضا "يُبْعَثُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "فَنَبَذْناهُ" الفاء حرف عطف على محذوف مقدر وماض وفاعله ومفعوله "بِالْعَراءِ" متعلقان بنبذناه "وَهُوَ" الواو حالية ومبتدأ "سَقِيمٌ" خبر والجملة الاسمية حال "وَأَنْبَتْنا" حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على نبذناه "عَلَيْهِ" متعلقان بأنبتنا "شَجَرَةً" مفعول به "مِنْ يَقْطِينٍ" الجار والمجرور صفة شجرة.

[سورة الصافات (37) : الآيات 147 الى 151]

وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (148) فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (150) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151)

(216/650)

---

"وَأَرْسَلْنَاهُ" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله "إِلَى مِائَةِ" متعلقان بأرسلناه "أَلْفٍ" مضاف إليه "أَوْ" حرف عطف "يَزِيدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله وجملة يزيدون في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم يزيدون "فَآمَنُوا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله "فَمَتَّعْنَاهُمْ" الفاء حرف عطف وماض وفاعله والهاء مفعوله "إِلَى حِينٍ" متعلقان بمتعناهم "فَاسْتَفْتِهِمْ" الفاء حرف استئناف وأمر ومفعوله وفاعل مستتر "أَلِرَبِّكَ" الهمزة حرف استفهام إنكاري والجار والمجرور متعلقان بخبر مقدم محذوف "الْبَنَاتُ" مبتدأ مؤخر "وَلَهُمُ" حرف عطف وجار ومجرور متعلقان بخبر مقدم محذوف "الْبَنُونَ" مبتدأ مؤخر مرفوع بالواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "أَمْ خَلَقْنَا" أم حرف عطف وماض وفاعله "الْمَلَائِكَةَ" مفعول به أول "إِنَاثًا" مفعول به ثان "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ "شَاهِدُونَ" خبر مرفوع بالواو والجملة في محل نصب حال "أَلَا" أداة تنبيه

واستفتاح "إِنَّهُمْ" إن واسمها "مِنْ إِفْكِهِمْ" متعلقان بفعل يقولون "لَيَقُولُونَ" اللام المزحلقة ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر إنهم.

[سورة الصافات (37) : الآيات 152 الى 156]

وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (152) أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (153) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (155) أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ (156)



---

"وَلَدَ" ماض "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل والجملة مقول القول "وَإِنَّهُمْ" الواو حالية وإن واسمها "لَكاذِبُونَ" اللام المزحلقة وخبر مرفوع بالواو والجملة الاسمية حال "أَصْطَفَى" حرف استفهام إنكاري وماض فاعله مستتر "الْبَناتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "عَلَى الْبَنِينَ" متعلقان باصطفى والجملة مقول قول محذوف "ما لَكُمْ" ما استفهامية مبتدأ ولكم متعلقان بالخبر المحذوف والجملة استئنافية لا محل لها "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب حال "تَحْكُمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة استئنافية أيضا "أَفَلا" الهمزة حرف استفهام إنكاري والفاء حرف عطف ولا نافية "تَذَكَّرُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة معطوفة على جملة محذوفة لا محل لها "أَمْ" حرف عطف "لَكُمْ" جار

ومجرور خبر مقدم "سُلْطانٌ" مبتدأ مؤخر "مُبِينٌ" نعت للسلطان والجملة معطوفة على ما

قبلها .

[سورة الصافات (37) : الآيات 157 الى 161]

فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (157) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ

إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158) سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (159) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ

(160) فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ (161)

"فَأْتُوا"

الفاء الفصيحة وأمر وفاعله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "بِكِتابِكُمْ"

متعلقان بالفعل "إِنْ"

شرطية "كُنْتُمْ صادِقِينَ"



---

كان واسمها وخبرها المنصوب بالياء والجملة ابتدائية لا محل لها "وَجَعَلُوا" الواو حرف

استئناف وماض وفاعله والجملة استئنافية "بَيْنَهُ" ظرف "وَبَيْنَ" ظرف معطوف على بينه

"الْجِنَّةِ" مضاف إليه "نَسَباً" مفعول جعلوا الأول ومفعوله الثاني محذوف "وَلَقَدْ" الواو

حالية واللام واقعة في جواب القسم المحذوف وقد حرف تحقيق "عَلِمَتِ" ماض "الْجِنَّةُ" فاعل "إِنَّهُمْ" إن واسمها "لَمُحْضَرُونَ" اللام المزحلقة وخبرها المرفوع بالواو وإن وما بعدها سدت مسد مفعولي علم "سُبْحانَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "عَمَّا" متعلقان بسبحان "يَصِفُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة وجملة المصدر اعتراضية لا محل لها

"إِلَّا" حرف استثناء "عِبادَ" مستثنى منصوب "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "الْمُخْلَصِينَ" صفة عباد "فَإِنَّكُمْ" الفاء حرف استئناف وإن واسمها "وَما" الواو المعية وما موصولية مفعول معه "تَعْبُدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون وفاعله والجملة صلة ما والجملة الاسمية استئنافية.

[سورة الصافات (37) : الآيات 162 الى 167]

ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ (162) إِلاَّ مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ (163) وَما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ (164) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (166)
وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ (167)

"ما" نافية تعمل عمل ليس "أَنْتُمْ" اسمها "عَلَيْهِ" متعلقان بفاتنين "بِفاتِنِينَ" حرف جر زائد وفاتنين مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما والجملة مستأنفة "إِلَّا" أداة حصر "مَنْ" موصولية مفعول به لفاتنين "هُوَ" مبتدأ "صالِ" خبره "الْجَحِيمِ" مضاف إليه والجملة الاسمية صلة لا محل لها "وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "مِنَّا" متعلقان بمحذوف صفة المبتدأ المحذوف والخبر الجملة الاسمية الواقعة بعد إلا "إِلَّا" أداة حصر "لَهُ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "مَقامٌ" مبتدأ مؤخر "مَعْلُومٌ" صفة "وَإِنَّا" الواو حرف عطف وإن واسمها "لَنَحْنُ" اللام المزحلقة ونحن ضمير فصل "الصَّافُّونَ" خبر إنا والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ" إعرابها كالآية السابقة "وَإِنْ" الواو استئنافية وإن مخففة من الثقيلة مهملة "كانُوا" ماض ناقص واسمه "لَيَقُولُونَ" اللام الفارقة ومضارع مرفوع وفاعله الواو وجملة يقولون خبر كان وجملة كان استئنافية لا محل لها .

[سورة الصافات (37) : الآيات 168 الى 173]

لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (168) لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (169) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172)

وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (173)

"لَوْ" شرطية غير جازمة "أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "عِنْدَنا" ظرف مكان "ذِكْراً" اسم أن المؤخر وخبر أن مقدم محذوف وأن وما بعدها فاعل لفعل محذوف أي لو ثبت والجملة المحذوفة ابتدائية لا محل لها "مِنَ الْأَوَّلِينَ" صفة ذكرا "لَكُنَّا" اللام واقعة في جواب لو وكان واسمها "عِبادَ" خبرها منصوب "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "الْمُخْلَصِينَ" صفة عباد والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "فَكَفَرُوا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله "بِهِ" متعلقان بكفروا "فَسَوْفَ" الفاء حرف استئناف وسوف حرف استقبال "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة "وَلَقَدْ" الواو حرف استئناف واللام واقعة في جواب القسم المحذوف وقد حرف تحقيق "سَبَقَتْ" ماض "كَلِمَتُنا" فاعله والجملة جواب القسم لا محل لها "لِعِبادِنَا" متعلقان بسبقت "الْمُرْسَلِينَ" صفة لعبادنا "إِنَّهُمْ" إن واسمها "لَهُمُ" اللام المزحلقة وهم ضمير فصل "الْمَنْصُورُونَ" خبر إنهم والجملة بدل من كلمتنا "إِنَّ جُنْدَنا"

الواو حرف عطف وإن واسمها "هُمُ"

اللام المزحلقة وهم ضمير فصل "لْغالِبُونَ"

خبر إن مرفوع بالواو والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها .

[سورة الصافات (37) : الآيات 174 الى 177]

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (174) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (175) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (177)

*(221/650)*

---

"فَتَوَلَّ" الفاء حرف استئناف وأمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر "عَنْهُمْ" متعلقان بتول "حَتَّى" حرف غاية وجر "حِينٍ" اسم مجرور بحتى والجار والمجرور متعلقان بتول والجملة مستأنفة "وَأَبْصِرْهُمْ" الواو حرف عطف وأمر وفاعله المستتر والهاء مفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "فَسَوْفَ" الفاء رابطة لجواب الطلب وسوف حرف استقبال "يُبْصِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة تعليل لا محل لها "أَفَبِعَذَابِنَا" الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء حرف استئناف والجار والمجرور متعلقان بيستعجلون "يَسْتَعْجِلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة "فَإِذَا" الفاء حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "نَزَلَ" ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "بِسَاحَتِهِمْ" متعلقان بنزل "فَسَاءَ" الفاء رابطة لجواب الشرط وماض جامد "صَبَاحُ" فاعل مرفوع "الْمُنْذَرِينَ" مضاف إليه والجملة جواب الشرط لا محل لها .

[سورة الصافات (37) : الآيات 178 الى 182]

وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (178) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (179) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (182)

(222/650)

---

"وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ" الواو حرف عطف والآية سبق إعرابها "وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ" وإعرابها واضح كما تقدم "سُبْحَانَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "رَبِّكَ" مضاف إليه "رَبِّ" بدل "الْعِزَّةِ" مضاف إليه "عَمَّا" متعلقان بسبحان "يَصِفُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة ما لا محل لها "وَسَلَامٌ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "عَلَى الْمُرْسَلِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة استئنافية "وَالْحَمْدُ" الواو حرف عطف ومبتدأ "لِلَّهِ" متعلقان بمحذوف خبر "رَبِّ" بدل من لفظ الجلالة "الْعَالَمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / د دعاس حـ 3 صـ 102. 118﴾

(223/650)

---

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الصافات

ذكر فِيهَا أحد عشر حَدِيثا

## 1083 - الحَدِيث الأول

فِي الحَدِيث عجب ربكُم من إلّكُمْ وقُنُوطِكُمْ وَسُرْعَة إجَابَته إيّاكُمْ

قلت غَرِيب وَقَالَ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي غَرِيب الحَدِيث يرْوى عَن عبد الْعَزِيز بن عبد الله بن أبي سَلمَة الْمَاجشون عَن مُحَمَّد بن عَمْرو يرفعهُ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه قَالَ (عجب ربكُم من إلّكُمْ وقُنُوطِكُمْ وَسُرْعَة أجَابَتْهُ إيّاكُمْ) ثمَّ قَالَ وَهُوَ أَن يرفع الرجل صَوته بِالدُّعَاءِ قَالَ وَبَعض الْمُحدثين يرويهِ من أزْلكُم قَالَ وَالْأَزْلُ الشدَّة قَالَ وأراهُ الْمَحْفُوظ انْتَهى كَلَامه

## 1084 - الحَدِيث الثَّانِي

كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب التَّيَامُن فِي كل شَيْء

قلت رَوَاهُ الْأَئِمَّة السِّتَّة فِي كتبهمْ فَالْبُخَارِي وَمُسلم وَالتِّرْمِذِيّ فِي الصَّلَاة وَأَبُو دَاوُد فِي اللبَاس وَالْبَاقِي فِي الطَّهَارَة من حَدِيث مَسْرُوق وَعَن عَائِشَة قَالَت كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب التَّيَمُّن مَا اسْتَطَاعَ فِي شَأْنه كُله وَطُهُوره وَترجله وَنَعله وَلَفظ التَّيَامُن

من عِنْد النّسَائِيّ

1085 - الحَدِيث الثَّالث

فِي الحَدِيث الْعَاقِل من دَان نَفسه

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَالْمَوْجُود الْكيس من دَان نَفسه رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَه فِي الزّهْد من حَدِيث أبي بكر بن أبي مَرْيَم عَن ضَمرَة بن حبيب

(224/650)

---

عَن شَدَّاد بن أَوْس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (الْكيس من دَان نَفسه وَعمل لما بعد الْمَوْت وَالْعَاجِز من اتبع نَفسه هَواهَا وَتَمَنَّى عَلَى الله الْأَمَانِي) انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن قَالَ وَمَعْنى دَان نَفسه أَي حَاسَبَهَا فِي الدُّنْيَا قبل يَوْم الْقِيَامَة انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْإِيمَان وَقَالَ فِيهِ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط البُخَارِيّ وَمُسلم قَالَ الذَّهَبِيّ فِي مُخْتَصره لَا وَالله لَيْسَ عَلَى شَرط وَاحِد مِنْهُمَا قَالَ فَأَبُو بكر بن أبي مَرْيَم واه انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ وَالْبَزَّار وَأَبُو يعْلى الْموصِلِي والْحَارث ابْن أبي أُسَامَة فِي مسانيدهم

وَمن طَرِيق الطَّيَالِسِيّ رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة شَدَّاد بن أَوْس

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه

قَالَ الْبَزَّار لَا نعلمهُ يُرْوى إِلَّا عَن شَدَّاد بن أَوْس وَلَا طَرِيق لَهُ غير هَذَا الطَّرِيق انْتَهَى

وَالْمُصَنّف احْتج بِهِ عَلَى أَن دَان بِمَعْنى سَاس

وَقَالَ ابْن طَاهِر وَهُوَ حَدِيث مَدَاره عَلَى أبي بكر بن أبي مَرْيَم وَهُوَ ضَعِيف انْتَهَى

1086 - قَوْله

عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لَو تمت تِلْكَ الذَّبْحَة لصارت سنة وَذبح النَّاس أَبْنَاءَهُم

1087 - الحَدِيث الرَّابِع

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (اسْتَشْرِفُوا ضَحَايَاكُمْ فَإِنَّهُم عَلَى الصِّرَاط مَطَايَاكُمْ)

(225/650)

---

قلت غَرِيب وَبِمَعْنَاهُ مَا رَوَاهُ أَبُو الْفَتْح سليم بن أَيُّوب الْفَقِيه الرَّازِيّ الشَّافِعِي فِي كتاب التَّرْغِيب لَهُ أخبرنَا أَبُو سعد أَحْمد بن مُحَمَّد بن أَحْمد أَنا أَبُو بكر عبد الله ابْن مُحَمَّد الْقَتَّات ثَنَا أَبُو بكر أَحْمد بن يَحْيَى بن الْحجَّاج بن سعيد الشَّيْبَانِيّ ثَنَا عَبَّاس ابْن يزِيد الْيَشْكُرِي ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة الضَّرِير عَن الْأَعْمَش عَن أبي صَالح عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ عَن

النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ ( اسْتَفْرِهُوا أُضْحِيتكم فَإِنَّكُم يَوْم الْقِيَامَة لَا تَرْكَبُونَ شَيْئا من الدَّوَابّ إِلَّا الْبدن وَالْأُضْحِيَّة ) انْتَهَى

والْحَدِيث بِلَفْظ الْكتاب فِي الفردوس من رِوَايَة أبي هُرَيْرَة ذكره فِي أَوَائِله

1088 - الحَدِيث الْخَامِس

رُوِيَ أَنه لما ذبحه قَالَ جِبْرِيل الله أكبر فَقَالَ الذَّبِيح لَا إِلَه إِلَّا الله وَالله أكبر فَقَالَ إِبْرَاهِيم الله أكبر وَللَّه الْحَمد فَبَقيت سنة

1089 - الحَدِيث السَّادِس

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( أَنا ابْن الذبيحين )

قلت غَرِيب

1090 - الحَدِيث السَّابِع

رُوِيَ أَن أَعْرَابِيًا قَالَ للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَا ابْن الذبيحين فَتَبَسَّمَ النَّبِي عَلَيْهِ السَّلَام فَسئلَ عَن ذَلِك فَقَالَ ( إِن عبد الْمطلب لما حفر بِئْر زَمْزَم نذر لله لَئِن سهل لَهُ أمرهَا لَيَذْبَحَن أحد وَلَده فَخرج السهْم عَلَى عبد الله فَمَنعه أَخْوَاله وَقَالُوا لَهُ أفد ابْنك بِمِائَة من الْإِبِل فَفَدَاهُ بِمِائَة من الْإِبِل وَالثَّانِي إِسْمَاعِيل )

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي فَضَائِل الْأَنبيَاء من حَدِيث عبد الله بن مُحَمَّد الْعُتْبِي من ولد عَتبه بن أبي سُفْيَان عَن أَبِيه قَالَ حَدثنِي عبد الله بن سعيد عَن الصنَابحِي قَالَ كُنَّا عِنْد مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَان فتذاكر الْقَوْم الذَّبِيح فَقَالَ بَعضهم هُوَ إِسْمَاعِيل وَقَالَ بَعضهم هُوَ إِسْحَاق فَقَالَ مُعَاوِيَة عَلَى الْخَبِير سقطتم كُنَّا يَوْمًا عِنْد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَاهُ أَعْرَابِي فَقَالَ يَا رَسُول الله خلفت الْبِلَاد يابسا وَالْمَاء عابسا هلك الْعِيَال وضاع المَال فعد عَليّ بِمَا أَفَاء الله عَلَيْك يَا بن الذبيحين قَالَ فَتَبَسَّمَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلم يُنكر عَلَيْهِ

فَقُلْنَا يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ وَمَا الذبيحان قَالَ إِن عبد الْمطلب لما أَمر بحفر زَمْزَم نذر لله إِن سهل لَهُ أمرهَا أَن ينْحَر بعض وَلَده فَأخْرجهُمْ فأسهم بينهم فَخرج السهْم عَلَى عبد الله فَأَرَادَ ذبحه فَمَنعه أَخْوَاله من بني مَخْزُوم وَقَالُوا ارْض رَبك وافد ولدك قَالَ ففداه بمائة نَاقَة قَالَ فَهُوَ الذَّبِيح وَإِسْمَاعِيل الثَّانِي انْتَهَى وَسكت عَنهُ

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره وَابْن مرْدَوَيْه سندا ومتنا

قَالَ الذَّهَبِيّ فِي مُخْتَصره وَإِسْنَاده واه

وَتَفْسِيره الذبيحين من كَلَام مُعَاوِيَة كَمَا ترَاهُ فَيكون قَول المُصَنّف فَسئل عَن ذَلِك أَي سُئِلَ رجل عَن ذَلِك مَعَ احْتِمَال عوده عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعوده عَلَى الْأَعرَابِي أَيْضا وَهُوَ مُصَرح بِهِ فِي تَفْسِير الثَّعْلَبِيّ من كَلَام النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذكر بِالْإِسْنَادِ الْمَذْكُور وَفِيه فَقيل يَا رَسُول الله وَمَا الذبيحان قَالَ (إِن عبد الْمطلب) الحَدِيث

وَفِي غَرِيب الحَدِيث لِلسَّرَقُسْطِيّ تركت الْبِلَاد يَابسا أَي ذَاهِبَة المَاء وَالْمَاء عَابسا أَي نَاشِفًا يُقَال عبس عَلَيْهِ الْوَسخ أَي نشف انْتَهَى

1091 - الحَدِيث الثَّامِن

حَدِيث كتاب يَعْقُوب إِلَى يُوسُف قَالَ المُصَنّف رَحمَهُ اللَّهُ وَمِمَّا يدل عَلَى أَن الذَّبِيح إِسْحَاق كتاب يَعْقُوب إِلَى يُوسُف بن يَعْقُوب

إِسْرَائِيل الله بن إِسْحَاق ذبيح الله بن إِبْرَاهِيم خَلِيل الله



قلت رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي كِتَابه غرائب مَالك من حَدِيث إِسْحَاق بن وهب الجُمَحِي الطهرمسي ثَنَا عبد الله بن وهب عَن مَالك عَن نَافِع عَن ابْن عمر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( أُوحِي اللهُ إِلَى ملك الْمَوْت إِن رَأَيْت يَعْقُوب بن إِسْرَائِيل فَسلم عَلَيْهِ فَأَتَاهُ

فَسلم فَرد عَلَيْهِ وَقَالَ من أَنْت يَرْحَمك الله قَالَ أَنا ملك الْمَوْت قَالَ مرْحَبًا بِمن كنت أَتَمَنَّى

لقياه وَلَو بعد حِين أَسأَلك يَا ملك الْمَوْت بِالَّذِي ملكك قبض روح ابْن آدم هَل قبضت روح

يُوسُف قَالَ لَا وَإِنَّهُ لحي عَلَى الأَرْض قَالَ فَدَعَا بنيه وَبني بنيه فَقَالَ ائْتُونِي بدواه وَقِرْطَاس

فَاكْتُبُوا بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم من يَعْقُوب إِسْرَائِيل الله بن إِسْحَاق ذبيح الله بن إِبْرَاهِيم

خَلِيل الله إِلَى عَزِيز مصر أما بعد فَإنَّا أهل بَيت مُوكل بِنَا أَسبَاب الْبلَاء أما جدي إِبْرَاهِيم

فَأَبْلَاهُ الله بالنَّار حَتَّى فدَاه وَأما إِسْحَاق فَأَبْلَاهُ الله بِالذبْحِ حَتَّى فدَاه وَأما أَنا فَكَانَ لي ولد

قُرَّة عَيْنِي وَأحب إِلَيّ من ملْء الدُّنْيَا ذَهَبا وَفِضة فارْحَمْ الْيَوْم كبر سني وَانْحِنَاء ظَهْري

وَذَهَاب بَصرِي فَرد عَلّي وَلَدي فَأَوْحَى الله إِلَى يَعْقُوب أَتَشْكُونِي إِلَى عوادك فَقَالَ يَا إِلَه

إِبْرَاهِيم أَسأَلك بِحَق إِبْرَاهِيم خَلِيلك عَلَيْك وَإِسْحَق ذبيحك عَلَيْك وَأَنا إسرائيلك إِلَّا

رحمت الْيَوْم كبر سني وَانْحِنَاء ظَهْري وَذَهَاب بَصرِي رد عَلَى وَلَدي فَأَوْحَى الله إِلَى

جِبْرِيل إِن رَأَيْت عَبدِي يُوسُف فَسلم عَلَيْهِ قَالَ فَدخل عَلَيْهِ السجْن فَقَالَ السَّلَام عَلَيْك أَيهَا

الصّديق فَقَالَ من أَنْت يَرْحَمك الله قَالَ أما تعرفنِي قَالَ لَا وَإِنِّي أرَى صُورَة حَسَنَة وَأَشَمّ

رَائِحَة طيبَة لَا تشبه

رَوَائِح الْخَطَّائِينَ قَالَ أَيهَا الصّديق إِن الله طهر إِسْحَاق بِالنُّبُوَّةِ بِأَطْهَرِ الْأَطْهَار ذكر كلمة قيد لَك الزَّمَان بِملك مصر وَأَهْلهَا تملك مُلُوكهَا وتخدمك أَشْرَافهَا يَا أَيهَا الصّديق قل اللَّهُمَّ يَا كَبِير كل كَبِير وَيَا من لَا ند لَهُ وَلَا شريك وَلَا وَزِير وَيَا خَالق الشَّمْس وَالْقَمَر الْمُنِير يَا منزل التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل وَالزَّبُور وَالْقُرْآن الْعَظِيم وَيَا مُجيب دَعْوَة الْمُضْطَرين وَرَجَاءَهُمْ وَيَا رَاحِم الطِّفْل الصَّغِير وَيَا مُطلق الْأَسير وَيَا رَازِق الْفَقِير اكْفِنَا اللَّهُمَّ من أَمر دُنْيَانَا وَآخِرَتنَا وَالسَّلَام عَلَيْك وَرَحْمَة الله وَبَرَكَاته انْتهى ثمَّ قَالَ الدَّارَقُطْنِيّ هَذَا حَدِيث مَوْضُوع بَاطِل وَإِسْحَاق بن وهب الطهرمسي يضع الحَدِيث عَلَى ابْن وهب وَغَيره حدث عَنهُ بِهَذَا الْإِسْنَاد أَحَادِيث لَا أصل لَهَا انْتهى

وَرَوَاهُ أَبُو عبد الله التِّرْمِذِيّ الْحَكِيم فِي كِتَابه نَوَادِر الْأُصُول فِي الأَصْل الْحَادِي وَالْعِشْرين بعد الْمِائَتَيْنِ حَدثنَا عمر بن أبي عمر ثَنَا عِصَام بن الْمثنى الْحِمصِي عَن أَبِيه عَن وهب بن مُنَبّه قَالَ كتب يَعْقُوب كتابا فِيهِ بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم من يَعْقُوب نَبِي الله ابْن إِسْحَاق ذبيح الله إِلَى آخِره

وَذكره الْمُصَنّف فِي سُورَة يُوسُف بِأَلْفَاظ لَيست فِي هَذَا وَقد تقدم

1092 - قَوْله

عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كل تَسْبِيح فِي الْقُرْآن فَهُوَ صَلَاة

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره فِي سُورَة النُور عِنْد قَوْله تَعَالَى يسبح لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوّ وَالْآصَال رجال فَقَالَ الْمُعَافى بن عمرَان عَن سُفْيَان عَن عمار الذَّهَبِيّ عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كل تَسْبِيح فِي الْقُرْآن فَهُوَ صَلَاة انْتهى

(230/650)

---

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره فِي سُورَة الْحَدِيد من حَدِيث الْمعَافى بن عمرَان بِهِ سندا ومتنا وَزَاد كل سُلْطَان فِي الْقُرْآن فَهُوَ حجَّة

وَرَوَاهُ عبد الرازق فِي تَفْسِيره فِي سُورَة غَافِر من قَول قَتَادَة فَقَالَ أخبرنَا معمر عَن قَتَادَة فِي قَوْله تَعَالَى وَسبح بِحَمْد رَبك بالْعَشي وَالْإِبْكَار قَالَ هِيَ صَلَاة الصُّبْح وَصَلَاة الْعَصْر وكل شَيْء فِي الْقُرْآن من التَّسْبِيح فَهُوَ صَلَاة انْتَهَى

1093 - الحَدِيث التَّاسِع قيل لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّك لتحب القرع قَالَ أجل هِيَ شَجَرَة أخي يُونُس

قلت غَرِيب وَفِي تَفْسِير ابْن مرْدَوَيْه فِي سُورَة الْأَنْبِيَاء من حَدِيث الْحسن ابْن عمَارَة ثَنَا أَبُو إِسْحَاق عَن عَمْرو بن مَيْمُون ثَنَا عبد الله بن مَسْعُود عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ( الْتَقم يُونُس عَلَيْهِ السَّلَام الْحُوت فَنَادَى فِي الظُّلُمَات أَن لَا إِلَه إِلَّا أَنْت سُبْحَانَك إِنِّي كنت من

الظَّالمين قَالَ فَرَمَى بِهِ عَلَى شاطئ النّهر لَيْسَ لَهُ جلد وَلَا شعر فَصَارَ كَأَنَّهُ فرج قَالَ وَأَنْبت الله عَلَيْهِ شَجَرَة من يَقْطِين) قَالَ عبد الله عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (واليقطين القرع) مُخْتَصر

1094 - الحَدِيث الْعَاشِر عَن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْه لما أَتَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَر وَكَانُوا خَارجين إِلَى مَزَارِعهمْ وَمَعَهُمْ المساحِي قَالُوا مُحَمَّد وَالْخَمِيس وَرَجَعُوا إِلَى حصنهمْ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الله أكبر خربت خَيْبَر إِنَّا إِذا نزلنَا بِسَاحَة قوم) الْآيَة

(231/650)

---

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي الْمَغَازِي وَمُسلم فِي النِّكَاح وَاللَّفْظ لِلْبُخَارِيِّ عَن ثَابت عَن أنس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى خَيْبَر لَيْلًا وَكَانَ إِذا أَتَى بلَيْل لم يقربهُمْ حَتَّى يصبح فَلَمَّا خرجت الْيَهُود بمساحِيهِمْ وَمَكَاتِلهمْ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا مُحَمَّد بساحة قوم فسَاء صباح الْمُنْذرين انْتهى

وَطوله مُسلم وَفِيه تَزْوِيج صَفِيَّة

الحَدِيث التَّاسِع

قيل لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِنَّك لتُحبّ القرع قَالَ أجل هِيَ شَجَرَة أخي يُونُس

قلت غَرِيب وَفِي تَفْسِير ابْن مرْدَوَيْه فِي سُورَة الْأَنْبِيَاء من حَدِيث الْحسن ابْن عمَارَة ثَنَا أَبُو إِسْحَاق عَن عَمْرو بن مَيْمُون ثَنَا عبد الله بن مَسْعُود عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ ( الْتَقم يُونُس عَلَيْهِ السَّلَام الْحُوت فَنَادَى فِي الظُّلُمَات أَن لَا إِلَه إِلَّا أَنْت سُبْحَانَكَ إِنِّي كنت من الظَّالِمين قَالَ فَرَمَى بِهِ عَلَى شاطئ النَّهر لَيْسَ لَهُ جلد وَلَا شعر فَصَارَ كَأَنَّهُ فرخ قَالَ وَأنْبت الله عَلَيْهِ شَجَرَة من يَقْطِين ) قَالَ عبد الله عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ( واليقطين القرع ) مُخْتَصر

## 1094 - الحَدِيث الْعَاشِر

عَن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْه لما أَتَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خَيْبَر وَكَانُوا خَارِجين إِلَى مَزَارِعهمْ وَمَعَهُمْ الْمساحِي قَالُوا مُحَمَّد وَالْخَمِيس وَرَجَعُوا إِلَى حصنهمْ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ( الله أكبر خربَتْ خَيْبَر إِنَّا إِذا نزلنَا بسَاحَة قوم ) الْآيَة

(232/650)

---

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي الْمَغَازِي وَمُسلم فِي النِّكَاح وَاللَّفْظ للْبُخَارِيّ عَن ثَابت عَن أنس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَتَى خَيْبَر لَيْلًا وَكَانَ إِذا أَتَى بلَيْل لم يقربهمْ

حَتَّى يصبح فَلَمَّا أصبح خرجت الْيَهُود بمساحيهمْ ومكاتلهمْ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا مُحَمَّد وَالْخَمِيس وَرَجَعُوا إِلَى حصنهمْ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الله أكبر خربَتْ خَيْبَر إِنَّا إِذا نزلنَا بِسَاحَة قوم فسَاء صباح الْمُنْذرين انْتهى وَطوله مُسلم وَفِيه تَزْوِيج صَفِيَّة

1095 - قَوْله

عَن عَلّي قَالَ من أحب أَن يكتال بالمكيال الأوفى من الْأجر يَوْم الْقِيَامَة فَلْيَكُن آخر كَلَامه إِذا قَامَ من مَجْلِسه سُبْحَانَ رَبك رب الْعِزَّة عَمَّا يصفونَ إِلَى آخر السُّورَة

قلت رَوَاهُ عَن الرَّزَّاق فِي مُصَنفه فِي الصَّلَاة أخبرنَا ابْن عُيَيْنَة عَن حَمْزَة الثمالِي عَن الْأَصْبَغ بن نباتة قَالَ قَالَ عَلّي بن أبي طَالب من سره أَن يكتال بالمكيال الأوفى فَلْيقل حِين يفرغ من صلَاته سُبْحَانَ رَبك رب الْعِزَّة إِلَى آخرهَا

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره والواحدي فِي الْوَسِيط عَن الْأَصْبَغ بن نباتة وَقَالَ فِيهِ فَلْيَكُن آخر كَلَامه من مَجْلِسه

وَمن طَرِيق الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الْبَغَوِيّ

وَرَوَاهُ ابْن أبي حَاتِم فِي تَفْسِيره مُسْندًا مُرْسلا فَقَالَ ثَنَا عمار بن خَالِد الوَاسِطِيّ عَن شَبابَة عَن يُونُس عَن أبي إِسْحَاق عَن الشّعبِيّ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من سره أَن يكتال بالمكيال الأوفى) إِلَى آخِره

1096 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

(233/650)

---

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من قَرَأَ والصَّافَّات أعْطى من الْأجر عشر حَسَنَات بِعَدَد كل جني وَشَيْطَان وَتَبَاعَدَتْ عَنهُ مَرَدَة الشَّيَاطِين وبرئ من الشّرك وَشهد لَهُ حافظاه يَوْم الْقِيَامَة أَنه آمن بِالْمُرْسلين

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من قَرَأَ سُورَة الصافات) إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس. انْتهى انتهى. اهـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 175.182﴾

(234/650)

---

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الصافات

قوله تعالى : (إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) ، الآية/ 102 ، ظاهره أنه كان مأمورا بذبح الولد ، ويجوز أن لا يكون في المأمور به سوى التل للجبين ، ولكن ظن إبراهيم عليه السلام أنه يتعقبه الأمر بالذبح فقال : (إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) .

أي ما يدل على أني أذبحك .

ويحتمل أن يكون قد أمر بذبحه حقيقة «1» ، ولكنه لو قدر ذلك ، فلا يصح نسخه عند من لا يجوز النسخ ، قبل إمكان الأمر ، لأن الذبح متى كان حسنا في وقت ، فلا يجوز أن يصير في ذلك الوقت قبيحا عندهم ، فيصعب عليهم الخروج عند ذلك .

ويحتمل أن يكون قد ذبح ولكنه كان يلتئم ويبرأ ، وهذا أبعد الاحتمالات ، لأنه لو كان جرى ذلك ، لكان قد نبه اللّه تعالى عليه تعظيما لرتبة إبراهيم وإسماعيل صلوات اللّه عليهما ، وكان أولى بالشأن من هذا ، ولو حصل الفراغ من امتثال الأمر الأول ما تحقق الفداء .

---

(1) انظر تفسير الفخر الرازي وتفسير الطبري لسورة الصافات وكتب التفسير الأخرى .

إذا ثبت ذلك ، فقد احتج قوم من أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية في مصيرهم ، إلى من نذر ذبح ولده لزمه ذبح شاة عندهم ، وقالوا : إن اللّه تعالى جعل الأمر بذبح الولد ، في حالة حرم ذبح الولد سببا لوجوب ذبح شاة ، فيجوز أن يكون إيجاب الواحد منا ذبح ولده على نفسه سببا لذبح شاة ، ويجعل اللفظ عبارة عن ذبح شاة «1» .

وهذا إغفال منهم ، فإنه إن ثبت أن إبراهيم كان مأمورا بذبح الولد ، فقد ارتفع الأمر إلى بدل جعل فداء ، فكان الأمر متقررا في الأصل ، ثم أزيل ونسخ إلى بدل ، وفيما نحن فيه لا أمر بذبح الولد ، بل هو معصية قطعا ، فلم يكن للأمر تعلق بذبح الولد بحال ، فإذا لم يتعلق به بحال ، فلا يجوز أن يجعل له فداء وخلفا ، وقد استقصينا هذا في كتب الفقه وهو مقطوع به .

قوله تعالى : (فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ)

، الآية/ 141 .

يحتج به من يرى للقرعة أثرا في تعيين المستحق بعد تردد الحق في أعيان لا سبيل إلى نفيه عنها ، ولا إثباته في جميعها ، فتدعو الحاجة إلى القرعة ، وهذا بين .

نعم في مثل واقعة يونس لا تجرى القرعة ، لأن إلقاء مسلم في البحر لا يجوز ، وفي ذلك الزمان جاز ، فرجع الإختلاف إلى نفس الحق .

وأما قولنا الحق تردد في محال وأعيان فلا يجوز إخراجه منها ، فذلك شيء ثابت ، وهو موضع احتجاجنا . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 357. 358﴾

---

(1) انظر أحكام القرآن للجصاص ج 5 [. . . . .]

(236/650)

---

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الصّافات» (37)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله : «وَالصَّافَّاتِ» (1) كل شىء بين السماء والأرض لم يضمّ قتريه «1» فهو صافّ . .

«فَالتَّالِياتِ ذِكْراً» (3) أي القارئات والتالي القارئ. «ذكرا» :

كتابا والتالي المتّبع فى موضع آخر . .

«وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ» (7) لم تعمل الباء فيها التي هى فى «بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ»

(6) فمجازها: وحفظناها قال كعب بن زهير:

يسعى الوشاة جنابيها وقيلهم إنك يا ابن أبى سلمى لمقتول

(147) قيلهم بالنصب: ويقولون..

«دُحُوراً» (9) مصدر «دحرت» تقول العرب: ادحر عنك الشيطان:

أبعد عنك الشيطان. «عَذابٌ واصِبٌ» (9) أي دائم «2» قال أبو الأسود الدّؤلي:

---

(1). - 3 «القتر»: الناحية والجانب لغة فى القطر وهى الاقتار والأقطار (اللسان).

(2). - 12 «واصب... دائم»: قال ابن حجر فى تفسير هذه الآية وغيرها: وقال

أبو عبيدة فى قوله: ولهم عذاب واصب أي دائم وفى قوله من طين لازب هى بمعنى لازم

قال النابغة...

(فتح الباري 8/ 147).



---

لا أشترى الحمد القليل بقاؤه يوما بذمّ الدهر أجمع واصبا

(422).

«ثاقِبٌ» (10) الثاقب البيّن المضيء ، يقال : أثقب نارك ، وحسب ثاقب أي كثير مضىء مشهور وقال أبو الأسود :

أذاع به فى الناس حتى كأنه بعلياء نار أوقدت بثقوب

(160) .

«فَاسْتَفْتِهِمْ» (11) أي فسلهم . .

«مِنْ طِينٍ لازِبٍ» (11) مجازها مجاز «لازم» قال نابغة بنى ذبيان :

ولا يحسبون الخير لا شرّ بعده ولا يحسبون الشرّ ضربة لازب

«1» [768] وقال النّجاشىّ :

بنى اللوم بيتا فاستقرت عماده عليكم بنى النّجّار ضربة لازب

«2» [769] .

«يَسْتَسْخِرُونَ» (14) ويسخرون سواء «3» «4» .

---

(1) . - 768 : ديوانه من الستة ص 3 والطبري 23/ 25 والقرطبي 15/ 49 .

(2) . - 769 : «النجاشي» : هو قيس بن عمر بن مالك أحد بنى الحارث بن كعب نسب إلى أمه وكانت من الحبشة له ترجمة فى الشعراء ص 188 والسمط 890 والإصابة 3/ 169 . - والبيت فى الطبري 23/ 25 والقرطبي 15/ 69 .

(3) . - 770 : ديوانه 1/ 100 وأمالى القالي 1/ 178 والسمط ص 441 ومعجم

ما استعجم 2/ 360 ومعجم البلدان 2/ 12 واللسان (جبى) .

(4) . - 771 : ديوانه ص 54 والقرطبي 15/ 68 .

(238/650)

---

«أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ» (16 - 17) الواو متحركة لأن مجازها : وآباؤنا ، فأدخل فيها ألف الاستفهام وليست بواو التي تنتقل بها من شىء إلى شىء أو تجرى مجرى «أم» . .

«وَأَنْتُمْ داخِرُونَ» (18) صاغرون أشدّ الصغر ، صاغر : داخر . .

«هذا يَوْمُ الدِّينِ» (20) الثواب والحساب ، تقول العرب : كما تدين تدان . .

«هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ» (21) الفصل قطع القضاء .

ثم خرجت «احْشُرُوا الَّذِينَ» (22) مخرج المختصر . .

«فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ» (23) تقول العرب : هديت المرأة إلى زوجها أي دللتها ومنهم من يقول : أهديتها ، جعلها من الهدية إليه . .

«مُسْتَسْلِمُونَ» (26) المستسلم الذي يعطى بيديه . .

«إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» (35) مجازها : إذا قيل لهم : قولوا لا إله إلا اللّه . .

«إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ . . . ، إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ «1»» (38 - 40) تقول العرب: إنكم لذاهبون إلا زيدا . «2»

---

(1) . - 12 «إنكم . . . المخلصين» : أصل الآية: إنكم . . . الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون إلا عباد اللّه . . .

(2) . - 772 : ديوانه ص 275 .

(239/650)

---

«عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ» (44) مضموم الأول والثاني وبعض العرب يفتحون الحرف الثاني من أشباه هذا من باب المضاعف . .

«بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ» (45) الكأس الإناء بما فيه والمعين الماء الطاهر الجاري . .

«لا فِيها غَوْلٌ» (47) مجازه: ليس فيها غول والغول «1» أن تغتال عقولهم قال الشاعر:

وما زالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأول الأول

«2» [773] .

«وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ «3»» (47) تقول العرب: لا يقطع عنه وينزف سكرا قال الأبيرد الرّياحىّ من بنى محجل :

لعمرى لئن أنزفتم أو صحوتم لبئس النّدامى كنتم آل أبجرا

«4» [774] أبجر من بنى عجل . .

«قاصِراتُ الطَّرْفِ» (48) راضيات ، اقتصر فلان على كذا .

---

(1) . - 4 «قال . . . ضبة» الذي ورد فى الفروق : قال أبو زيد فى مسائيته (ص 240 :

وسمعت من بنى ضبة «سرير وسرر . . . يكرهون الضمتين .

(2) . - 773 : فى الطبري 23/ 31 والقرطبي 15/ 79 وهو منسوب لمطيع بن إياس فى نسخة .

«مطيع» الذي ورد اسمه فى الفروق : مطيع بن إياس بن أبى قزعة ويكنى مطيع أبا سلم أدرك الدولتين وكان شاعرا ظريفا . انظر السمط ص 600 والأغانى 13/ 70 .

(3) . - 8 «لا يسكرون» الذي ورد فى الفروق : رواه ابن دريد عن أبى عبيدة (الجمهرة 3/ 13) .

(4) . - 774 : «الأيبرد» انظر ترجمته فى المعمرين رقم 58 والأغانى 12/ 9 . - والبيت فى الطبري 23/ 32 والصحاح واللسان والتاج (نزف) وهو فى القرطبي (15/ 79) منسوب إلى الحطيئة .

«عِينٌ» (48) العيناء واسعة العين . .

«بَيْضٌ مَكْنُونٌ» (49) أي مصون كل لؤلؤ أو بيض أو متاع صنته فهو مكنون وكل شىء

أضمرته فى نفسك فقد أكننته قال أبو دهبل :

وهى زهراء مثل لؤلؤة الغوّاص ميزت من جوهر مكنون

«1» [775] .

«أَإِنَّا لَمَدِينُونَ» (53) أي مجزيّون ، يقال : دنته أي جزيته بكذا وكذا .

«فِي سَواءِ الْجَحِيمِ» (55) فى وسط الجحيم ، قال أبو عبيدة : سمعت عيسى ابن عمر

يقول : كنت وأنا شاب أقعد بالليل فأكتب حتى ينقطع سوائى ، أي وسطى «2» . .

«إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ» (56) أرديته أهلكته وردى هو أي هلك . .

«أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا» (63) النزل والنزل واحد وهو الفضل يقال : هذا طعام لا نزل ونزل أي

ريع . .

«ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ» (67) تقول العرب : كل شىء خلطته بغيره فهو

مشوب . «3»

---

(1) . - 775 : من الأبيات المختلف فى عزوها قديما وكانوا يرونها تارة لأبى دهبل وتارة أخرى لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت فى خبر مع ابنة معاوية يطول ذكره انظره فى الأغانى فى 13/ 143 والخزانة 3/ 280 . والاصفهانى لم يذكر أبا دهبل ، والكلمة فى الكامل ص 168 والصحاح واللسان (سنن) والأمالى للقالى 3/ 188 وانظر السمط (الذيل ص 88) والبيت فى الطبري 23/ 43 والقرطبي 15/ 81 .

(2) . - 7 - 8 «قال أبو عبيدة . . . وسطى» : قد مر هذا الكلام وانظره أيضا فى القرطبي 15/ 81 . [. . . . .]

(3) . - 776 : ديوانه ص 300 .

(241/650)

---

«أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ» (69) وجدوا . .

«يُهْرَعُونَ» (70) يستحثون من خلفهم «1» ويعطف أوائلهم . .

«فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» (73 - 74) نصبها للاستثناء ، من «المنذرين» . .

«فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ» (93) أي أجال عليهم ضربا للآلهة . .

«فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ» (94) تقول العرب للنعامة: تزفّ وهو أول عدوها وآخر مشيها «2» وجاءنى الرجل يزفّ زفيف النعامة أي من سرعته..

«فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ» (102) أي أدرك ما أن يسعى على أهله أدرك وأعانه..

«فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ» (103) أي صرعه وللوجه جبينان والجبهة بينهما قال ساعدة بنى جوءيّة الهذلي:

وطلّ تليلا للجبين

«3» «4» «5» [777]

---

(1) . - 2 «يهرعون... خلفهم»: روى القرطبي (15/ 88) هذا الكلام عنه.

(2) . - 6 - 7 «تقول... مشيها»: هذا الكلام فى الطبري 23/ 42.

(3) . - 777: ديوان الهذليين 1/ 234.

(4) . - 778: فى اللسان (تلل).

(5) . - 779: من قصيدة مفضلية لجابر بن حتى التغلبي وهى مختلف فى عزوها انظر الشرح 421 - 442 وهذا البيت مع آخرين فى النقائض ص 458، 887، والاقتضاب ص 439 وشواهد المغني ص 191، وشواهد الكشاف 286.

«وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ» (107) الذبح المذبوح والذّبح الفعل تقول العرب:

قد كان بين بنى فلان وبين بنى فلان ذبح عظيم قتلى كثيرة..

«وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ» (119) حكاية أي تركناهم «1» يقال لهم فى الآخرين

..

«سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ» (120) أي يقال لهم هذا..

«أَتَدْعُونَ بَعْلًا» (125) أي ربا يقال: أنا بعل هذه الدابة أي ربّها، والبعل الزوج ويقال:

لما استبعل واستغنى بماء السماء من النخل ولم يكن سقيا فهو بعل والبعل هو العذىّ أيضا

ما لم يسق «2»..

«فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ» (127) مجازها: لمهلكون..

«إِلَّا عِبادَ اللَّهِ» (128) استثناء.

«سلام على آل ياسين» (130) أي سلام على الياسين وأهله وأهل دينه جمعهم بغير

إضافة الياء على العدد فقال سلام على الياسين قال الشاعر:

---

(1). - 3 «تركناهم»: ويرجع الضمير إلى قوم موسى وهارون.

(2). - 7 - 8 «استبعل..... يسق»: هذا الكلام فى الطبري (23/ 53)

ببعض نقص وزيادة وقال ابن دريد : وذكر أبو عبيدة أنه صنم قال ابن عباس رضى : لم أدر ما البعل فى القرآن حتى رأيت أعرابيا فقلت لمن هذه الناقة فقال أنا بعلها ، أي ربها والبعل النخل الذي يشرب بعروقه ويستغنى عن المطر (الجمهرة 3/ 314) .

«العذي» : قال ابن سيدة العذي اسم للموضع الذي ينبت فى الصيف والشتاء من غير نبع ماء والعذي بالتسكين الزرع الذي لا يسقى إلا من ماء المطر لبعده من المياه وكذلك النخل وقيل العذي من النخيل ما سقته السماء والبعل ما شرب بعروقه من عيون الأرض من غير سماء ولا سقى وقيل العذي البعل نفسه (اللسان – عذا) .

(243/650)

---

قدنى من نصر الخبيبين قدمى ليس أميرى بالشّحيح الملحد

«1» [780] فجعل عبد الله بن الزّبير أبا خبيب ومن كان على رأيه عددا ولم يضفهم بالياء فيقول الخبيبيّون قال أبو عبيدة يعنى بالخبيبين أبا خبيب ومصعبا أخاه وقال أبو عمرو بن العلاء : نادى مناد يوم الكلاب : هلك اليزيدون يعنى يزيد ابن عبد المدار ويزيد بن هوبر ويزيد بن مخرّم : الحارثيون ويقال جاءتك الحارثون والأشعرون وكذلك يقال فى الاثنين وأسمائهما شتى قال قيس بن زهير :

جزانى الزّهدمان جزاء سوء وكنت المرء يجزى بالكرامه

«2» [781] وإنما هما زهدم وكردم «3» العبسيّان أخوان. وقيل لعلى بن أبى طالب: نسلك فينا سنة العمرين، يعنون أبا بكر وعمر فإن قيل: كيف بدىء بعمر قبل أبى بكر وأبو بكر أفضل منه وهو قبله؟ فإن العرب تفعل هذا تقول: ربيعة ومضر وسليم

---

(1). - 780: لحميد بن الأرقط فى الكتاب 1/ 339 والكامل ص 83، 623 ر إصلاح المنطق ص 377، 444 والسمط 649، والشنتمرى 1/ 387 والقرطبي 15/ 118 وابن يعيش 1/ 442 والخزانة 2/ 449 وشواهد الكشاف 92 وقال بعضهم إنه لأبى بجدلة له خبر طويل فى الخزانة ومنه فى الكامل، وقال البغدادي: ومنهم أبو عبيدة نقله عنه أبو الحسن الأخفش فيما كتبه على نوادر أبى زيد ومنهم أبو جعفر النحاس فى تفسير القرآن قال إنما يريد أبا خبيب عبد اللّه بن الزبير فجمعه على أنه من كان معه على مذهبه داخل معه.

وقال القرطبي: أبو عبيدة يذهب إلى أنه جمع جمع التسليم على أنه وأهل بيته سلم عليه وأنشد الشطر. يقال قدمى وقدى لغتان بمعنى حسب وإنما يريد عبد اللّه بن الزبير فجمعه على من كان على مذهبه داخل معه وغير أبى عبيدة الخبيبين على التثنية يريد عبد اللّه ومصعبا.

(2) . - 781 : فى الطبري 23/ 54 واللسان (زهدم) .

(3) . - 8 «هما . . . كردم» : رواها عن أبى عبيدة فى اللسان .

(244/650)

---

يبدءون بالأخسّ وقيس وخندق ، ولم يترك قليلا ولا كثيرا وزعم أن أهل المدينة يقولون :

سلام على آل ياسين أي على أهل آل ياسين وقال أصحاب سعد ابن أبى وقاص وابن عمر

وأهل الشام هم قومه ومن كان على دينه واحتجوا بالقرآن .

«أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ» (40/ 46) فقال هم قومه ومن كان على دينه ،

وقالت الشيعة آل محمد أهل بيته واحتجّوا بأنك تصغر «آل» فتجعله «أهيل» . .

«إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ»

(140) فزع إلى الفلك . .

«فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ»

(141) تقول العرب : أدحض اللّه حجته أي أبطلها والدّحض الماء والزّلق قال ذو

الإصبع :

لبئس المرء فى شىء من الإمرار والنقض

غدوا ورواحا وهو فى مزلقة دحض

«1» [782] .

«وَهُوَ مُلِيمٌ» (142) تقول العرب: ألام فلان فى أمره وذلك إذا أتى أمرا يلام عليه قال لبيد

بن ربيعة:

سفها عذلت ولمت غير مليم وهداك قبل اليوم غير حكيم

«2» [783]

---

(1) . - 782: ذو الإصبع: هو حرثان من عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان وكان

جاهليا وسمى ذو الإصبع لأن حية نهشته فى إصبعه فقطعها، ترجمته فى الشعراء ص

445 والمعمرين ص 90 والاشتقاق ص 163 والأغانى ص 3/ 2 والسمط ص

289 . - والبيتان لعلهما من كلمة فى الأصمعيات ص 37 والشعراء ص 445 .

(2) . - 783: ديوانه 1/ 81 والطبري 23/ 57 واللسان (لوم) .

(245/650)

---

«فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ «1»» (145) تقول العرب: نبذته بالعراء أي الأرض الفضاء قال

الخزاعىّ:

رفعت رجلا لا أخاف عثارها ونبذت بالبلد العراء ثيابى

«2» [784] البلد العراء الذي لا يواريه شىء من شجر ولا من غيره . .

«شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ» (146) كل شجرة لا تقوم على ساق فهى يقطين نحو الدبّا والحنظل والبطّيخ «3» . .

«إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ» (147) أو هاهنا ليس بشكّ وهى فى موضع آخر «بل يزيدون» وفى القرآن «قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» (51/ 52) ليس بشكّ وقد قالوهما جميعا فهى فى موضع الواو التي للموالاة وقال جرير :

ا ثعلبة الفوارس أو رياحا عدلت بهم طهيّة والخشابا

(738) والمعنى ثعلبة الفوارس ورياحا عدلت بهم طهيّة والخشابا وقال آخر :

إنّ بها أكتل أو رزاما خويربين ينفقان إلهاما

«4» [785] ولو كان شكا أو اسما واحدا لما قال «خويربين ينفقان» إنما هو أكتل ورزام. انتهى انتهى. اهـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 166. 175﴾

---

(1) . - 4 «بالعراء» روى ابن حجر تفسير أبى عبيدة لهذه الكلمة فى فتح الباري 6/ 324. [.....]

(2) . - 884 : فى الطبري 23/ 58 واللسان (عرا) والقرطبي 15/ 129 والعجر فقط فى فتح الباري 6/ 324.

(3) . - 5 - 6 «شجرة . . . والبطيخ» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 6/ 334 .

(4) . - 785 : الرجز للمرار الأسدى ، فى الكتاب 1/ 248 والكامل ص 454 والشنتمرى 1/ 287 وابن الشجري : 2/ 318 وشواهد المغني ص 72 .

قال ابن الشجري : وأبطل البصريون الاحتجاج بهذا الشعر يقول الخليل إن خوير يين نصب على الشتم قال سيبويه وسألت الخليل عن قول الأسدى . . . فزعم أن خوير يين نصب على الشتم . . .

اكثل ورزام لصان كانا يقطعان الطريق بأرمام ويثقفان هام من يمر بها وخويرب تحقير خارب والخارب لص الإبل .

*(246/650)*

---

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الصافات»

[سورة الصافات (37) : الآيات 48 الى 49]

وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49)

قوله تعالى : وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ ، كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ [48 ، 49] وهذه استعارة . والمراد بالقاصرات الطّرف هاهنا : اللواتى جعلن نظرهن مقصورا على أزواجهنّ . أي حبسن النظر عليهم ، فلا يتعدينهم إلى غيرهم . وجىء بذكر الطّرف على طريق المجاز . وإلا فحقيقة المعنى أنهن حبسن الأنفس على الأزواج عفّة ودينا ، وخلقا وصونا .

وإنما وقعت الكناية عن هذا المعنى بقصر الطّرف ، لأن طماح الأعين فى الأكثر يكون سببا لتتبّع النفوس وتطرّب القلوب ، وعلى هذا قول الشاعر :

وإنّك إن أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر «1»

والطرف هاهنا واحد فى تأويل الجميع : ونظيره قوله سبحانه : خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ «2» . أي على أسماعهم ، أو مواضع استماعهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تلخيص البيان صـ 277 ﴾

---

(1) البيت هو أحد بيتين أنشدتهما امرأة أمام أبى الغصن الأعرابى ، وكان قد خرج حاجا ، فمر بقباء ، وإذا جارية كأن وجهها سيف صقيل . . . والقصة كاملة فى الجزء الرابع من «عيون الأخبار» لابن قتيبة ص 22 . وفى «شرح شواهد الكشاف» للعلامة محب الدين ص 134 أنه من أبيات «الحماسة» . وفى «شرح الحماسة» للمرزوقى ج 3 ص

1238 لم يذكر اسم قائله . وإنما اكتفى بقوله : وقال آخر . ولم يتعرض العلامة المرزوقي لتحقيق اسم هذا الشاعر أو الشاعرة ، وإنما اكتفى بشرح البيتين شرحا أديبا . وهما : وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

(2) سورة البقرة . الآية رقم 7 . [ . . . . . ]

(247/650)

---

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الصافات

" والصافات صفا * فالزاجرات زجرا * فالتاليات ذكرا " . هذا وصف لموكب الوحى وهو نازل على قلب خاتم الرسل يقوده جبريل الأمين وتحفه الملائكة الكرام . . وهو قسم لتوكيد الحقيقة الكبرى فى هذا الوحى : وحدانية الله سبحانه . ومع أن جبريل هو المسئول عن الوحى ، فإن ملائكة كثيرين تنزل معه تشريفا للرسالة وتنويها بخطرها " ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون " . وهى إلى

جانب ذلك تطرد الشياطين المتطفلة على أخبار الوحى ليبتعدوا عن مساره ! ويبدأ الذكر من عند الرحمن تبارك اسمه كما جاء فى الحديث "إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها ، خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان – أى يسمع لخفق أجنحتها صوت كصلصلة الحديد على الحجر ! "حتى إذا فزع عن قلوبهم" – ذهبت الرهبة – "قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير" . ووصف الإله الواحد بأنه " رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق" . أى مطالع الشمس ، وهى تختلف زمانا ومكانا فى فصول السنة الأربعة. وقد تضمن صدر السورة حقيقتين: الأولى التوحيد والأخرى البعث ، وكلتاهما مرفوضة للمشركين "إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون" ؟ وتكذيب الحقيقة لا يجدى ، فالحق فارض نفسه حتما . وفى تقرير الجزاء الأخير يرسم القرآن صورتين من مشاهد القيامة ، ويعجل بعرضهما فى الدنيا لعل المنكرين يعتبرون "وقفوهم إنهم مسؤلون * ما لكم لا تناصرون * بل هم اليوم مستسلمون * وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين * قالوا بل لم تكونوا مؤمنين" .

إن السادة والأتباع يتخاصمون فى الآخرة، ويرمى كل منهم بالتبعة على الآخر. يقول الضعاف خدعتمونا بقوتكم وسلطتكم، ويقول السادة لهم بل كنتم أغبياء لا تبصرون الحق! فتحملوا مسئوليتكم معنا.. " فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون * إنا كذلك نفعل بالمجرمين ". تلك هى الصورة الأولى. أما الثانية، فترى ملامحها فى قوله تعالى: " فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قال قائل منهم إني كان لي قرين * يقول أئنك لمن المصدقين * أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون * قال هل أنتم مطلعون * فاطلع فرآه في سواء الجحيم * قال تالله إن كدت لتردين ". والمنظر مألوف فى دنيا الناس، يحاول كل صديق أن يجر صاحبه إلى مذهبه. ولولا أن المؤمن كان قويا لانزلق وضاع، ولذلك يقول وهو يرى صاحبه فى وسط النار " ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين * أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين * إن هذا لهو الفوز العظيم * لمثل هذا فليعمل العاملون ".

والتعجيل بمشهد من عالم الغيب يتدبره الناس فى عالم الشهادة مألوف فى القرآن الكريم، وقد سبق مثل ذلك فى سورة الأعراف على نطاق واسع. وإنك لترى هنا الفرحة بالنجاة تغمر أعطاف الرجل المؤمن، بعدما أنقذه إيمانه من عاقبة السوء التى التهمت صاحبه. إنه فى الجنة يمرح فى نعيمها مع إخوانه، لكنه يتذكر رجلا كان ينكر الله واليوم الآخر ويريد أن يتعرف حاله، فلما رآه تضاعف شعوره بما هو فيه من نجاة ونعماء. ثم يقول الحق " أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم * إنا جعلناها فتنة للظالمين * إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم

* طلعها كأنه رءوس الشياطين " . وشجرة الزقوم جاء ذكرها فى عدة مواضع ، فى الواقعة عند قوله تعالى: " ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم " . وفى الدخان فى قوله تعالى: " إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون * كغلي الحميم " . وفى الإسراء " . . . والشجرة الملعونة في القرآن " .



---

قيل إنها من أشجار الصحارى ، تظهر بالأماكن المجدبة كريهة الرائحة صغيرة الورق مسمومة ذات لبن إذا أصاب جلد الإنسان تورم ومات منه غالبا . . وهذا من باب التمثيل . فإن أشجار

جهنم لن تكون ذات نضرة وظل وجنى طيب ، بل ستكون خبيثة المطعم والمنظر على نحو مايتسامع الناس به من شجر البوادى . والواقع أن الشجر المعجب عندما ييبس مايصلح إلا حطبا . ومن عجائب قدرة الله أن تجعل الأغصان والأوراق والجذوع مخازن للوقود ، وأن تجعل من الشجر الأخضر نارا . . وقد جعل الله شجر الزقوم طعام أهل النار ! " فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم " . لم هذا العذاب الأليم ؟ " إنهم ألفوا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون " . إن التقليد الأعمى

والسير وراء ما خلف الآباء من أعراف ومبادئ وراء هذا العذاب الموجع . والحقيقة أن أغلب الناس يلتزمون مواريثهم على ما بها ، ويهاجمون ما يخالفها من دعوات ونظم ولا يفكرون فى موازنة ولا تمحيص ، وقد يقتلون معارضيهم تعصبا وظلما ، أو ينتصبون لمشاكستهم والقضاء على "ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين * ولقد أرسلنا فيهم منذرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذرين" . فى وسط سورة الصافات ذكر لست رسالات ساقها الوحى إلى النبى عليه الصلاة والسلام تسلية له وتثبيتا لفؤاده . أول المرسلين نوح وهو أول أولى العزم ، وقد تحمل فى ذات الله بلاء طويلا ؟ وإبراهيم وهو الذى سمانا المسلمين من قبل ، ووضع أصول الفطرة ؟ وموسى وهو صاحب الكتاب الذى قدم الدين عقيدة وشريعة ودينا ودولة ، وفيه من رسالة محمد شبه . وهؤلاء الثلاثة أصول ، تفرع منهم ثلاثة آخرون: لوط على ملة إبراهيم ، وهو ابن أخيه . وإلياس ويونس وهما من أنبياء بنى إسرائيل ، وكتابهما التوراة التى نزلت على موسى . . ومن اللطيف أن قصة نوح هنا تبدأ من نهايتها ! فقد ظل يدعو قومه تسعة قرون ونصفا فلا يجد إلا الصدود والضيق ، فلما شعر بالهزيمة صاح: رب إنى مغلوب

فانتصر ، فجاءته النجدة ! والقصة فى سورة الصافات تبدأ من هذا الدعاء " ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم * وجعلنا ذريته هم الباقين * وتركنا عليه في الآخرين * سلام على نوح في العالمين " .

والمقصود أن الله خلد لنوح الذكر الحسن ، وقال له بعدما أهلك أعداءه " اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك " . وقد شرحنا أن نوحا كان رسولا لقومه ، وأن الطوفان الذى أهلكهم محك ، فلا صلة لمصر وفارس به ، بله أوروبا وإفريقيا وغيرهما ! أما إبراهيم فقد نهض بعقيدة التوحيد التى جاهد من أجلها نوح ، وساق الأدلة لقومه على خطئهم فى عبادة الأصنام ، وبدأ الحديث عن كفاحه بقوله تعالى: "فنظر نظرة في النجوم * فقال إني سقيم * فتولوا عنه مدبرين * فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون * ما لكم لا تنطقون " . والآية تحكى أنه فكر فى عمل يبطل به هذه الوثنية ، فتظاهر بالمرض فتركوه وحده ، فذهب إلى الأصنام فى مجمعها وجعلها حطاما " فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون " . وجعل الفأس فى عنق الصنم الكبير لينسب إليه أنه هو الذى هشم إخوانه من الآلهة ! ! وظاهر أن إبراهيم مثل هذه الخطة ليفضح بها غباء قومه وسؤ رأيهم فى عبادة أخشاب أو أحجار لا تملك لنفسها شيئًا ! ! وعندما يسخر إبراهيم من قومه فيقول لهم: إن كبير الآلهة ارتكب هذه الفعلة ، فهو لا يكذب بداهة ، وإنما يبكت ويؤدب .

وما روى من أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات فى هذه القصة وغيرها ، فهو عجز فى الرأى

وحمق فى الفهم . وقد بدأ أهل الكتاب بهذه الأوهام ، ثم تسللت إلى مروياتنا ، وهى مستبعدة عند المحققين . فإبراهيم أشرف من أن يكذب ، والقصة المروية عنه لا تتحمل هذا اللغو ! ! ولعل أروع ما فى سيرة إبراهيم موقفه من ابنه وموقف ابنه منه . لقد رزقنى به على كبر وبعد دعاء . فلما شب وأضحى غلاما وقرت به عينه ، أوحى الله إليه أن يذبحه قربانا إليه ! ! " فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني



---

أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى" . ما حال هذا الشيخ وهو يكلف بذبح ابنه أحب أهل الأرض إليه بعد ما فرح به وأمل الخير فى صحبته ؟ إنه لو فجعه أحد فيه لقتله الغم ، فكيف وهو الذى يكلف بالإجهاز عليه ؟ ولكن إبراهيم عبد الله ورسوله وخليله ، وهو لا يعرف الحياة إلا فى رضاه ، وما يستطيع أن يعصى له أمرا مهما كان شاقا ، فحدث ابنه بما كان ، وكان غلاما صالحا لا يقل عن أبيه يقينا وصدقا

قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين " ! ! سلم الأب فى ابنه وسلم الابن فى نفسه . وعندما بدأ التنفيذ ووضع السكين على العنق ، جاءت النجدة ونزل الفداء " وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين * إن هذا

لهو البلاء المبين" ! والقصة شاهد على أن الاختبار الإلهى للبشر جاد وطويل ، وأن الإيمان ليس لغوا على الألسنة ولكنه صبر وتسليم . . ونتجاوز القصص الأخرى فى السورة لنقف عند قوله تعالى: " فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون " ؟ إن هذا ثانى أمر بالاستفتاء . أما الأمر الأول " فاستفتهم أهم أشد خلقا أمن خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب" . وهذا الاستفتاء بعد حديث استعرض آفاق الكون ومشارقه ومغاربه ، مبينا سعة الملكوت وعظمة الخالق . وظاهر أن فكرة الألوهية عند المشركين كانت هزيلة ضيقة ، فما قدروا الله حق قدره ، بل جعلوه فى ضعف أبى البنات ! ! وكان أحدهم يعاف أن تولد له بنت ، فيئدها ، ومع ذلك فهو يجعل الملائكة إناثا وينسبهن إلى الله . . "أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون" . إن الله ليس له أولاد لا من الجن ولا من الإنس ولا من الملائكة ، كما أنه ليس هناك إله للخير وإله للشر "إنما هو إله واحد " . والزعم بأن إله الشر أخ لإله الخير كذب ، ولا تشيع هذه الخرافات إلا بين الضالين . وقد كان العرب يزعمون أنهم لو أوتوا كتبا مثل ما أوتى اليهود والنصارى ، لكانوا خيرا منهم "وإن كانوا ليقولون * لو أن عندنا ذكرا من

الأولين * لكنا عباد الله المخلصين " . فلما آتاهم الله الكتاب كفروا به . . وقد آمن السابقون بعد لأى ، وسادوا العالمين بالكتاب المبين . ثم انحرفت خلوف عن هداياته فوقع لهم ما وقع " ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون " .

ولكن النصر الموعود يجىء بعد زمان يتم فيه التمحيص وتستوى فيه الزروع ، ولذلك قال " فتول عنهم حتى حين * وأبصرهم فسوف يبصرون * أفبعذابنا يستعجلون * فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين " . وأكد هذا الزمن مرة أخرى ، فقال " وتول عنهم حتى حين " . إنه لابد من الصبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 345 .

350﴾

(253/650)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والخمسون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾



---

الجزء الحادى والخمسون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الصافات

وحتى الآية ﴿ 49 ﴾ من نفس السورة



---

(5/651)

---

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الصافات

أقول هذه السورة بعد (يس) كالأعراف بعد الأنعام، وكالشعراء بعد الفرقان، في تفصيل أحوال القرون المشار إلى إهلاكهم، كما أن يتنك السورتين تفصيل لمثل ذلك كما تقدم.

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 128﴾

(6/651)

---

قوله تعالى ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (4) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (5) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (7) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى

وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (8) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

( بسم الله ) أي الذي له الكمال المطلق فلا يدنو من جنابه نقص ( الرحمن ) الذي منّ برحمةٍ العدل في الدارين ( الرحيم ) الذي يمنّ على من يريد بالطاعة بالثواب والمتاب لإسقاط العقاب .

لما كان الإنفراد بالملكوت لا يكون إلا مع الوحدانية بالذات ، وفي ذلك استحقاق الاختصاص بالإلهية ، وكان ذلك - مع أنه بحيث لا يخفى على ذي لب - عندهم في غاية البعد ، ولذلك لا يسلمون ما يتعلق بالملكوت وينكرونه غاية الإنكار ، ناسب أن يقسم عليه .

*(7/651)*

---

ولما كان من البلاغة أن يناسب بين القسم والمقسم عليه ، وكان الاصطفاف دالاً على اتحاد القصد كما في صفوف القتال والصلاة ، وكان الملائكة لا قصد لهم إلا الله من غير

عائق عن ذلك فكانوا أحق الخلق بالاصطفاف ، تارة للصلاة ، وتارة للتسبيح والتقديس ، وتارة لتدبير الأرزاق ، وتارة لتعذيب أهل الشقاق - إلى غير ذلك من الأمور التي لا تسعها الصدور ، وكانوا بعد زجرة الإحياء المصرح بهما في السورة الماضية ثم زجرتي الصعق والإفاقة الآتيتين في الزمر حين تشقق السماء بالغمام وتكون وردة كالدهان ، وتنفطر بسطوة المليك الديان ، ويتكرر ما فيها من أجرام ومعان ، تنزل ملائكة كل سماء فتصير صفاً مستديراً ، ملائكة الأولى حول أهل الأرض ، وملائكة الثانية حول ملائكة الأولى وهكذا ، ثم يصيرون إذا قيل ( يا معشر الجن والإنس إن

استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا )

[ الرحمن : 33 ] فماج العباد بعضهم في بعض من شدة الزحام ، وطول القيام ، كلما مالوا على جهة من جهاتهم زجروهم زجراً ردوهم به عن النفوذ ، مع أن انتظام المدبرات الناشئ عن اصطفافهم في التدبير في طاعة الملك القدير دال على الوحدانية ،

(8/651)

---

قال تعالى : ﴿ والصافات ﴾ أي الجماعات من الملائكة والمصلين والمجاهدين المكملين أنفسهم بالاصطفاف في الطاعة ، فهو صفة لموصوف محذوف مؤنث اللفظ ، وعدل عن أن

يقول : " الصافين " القاصر على الذكور العقلاء ليشمل الجماعات من الملائكة والجن والإنس والطير والوحش وغيرها ، إشارة إلى أنه لا يؤلف بين شيء منها ليتحد قصده إلا واحد قهار ، وأنه ما اتحد قصد شيء منها إلا استوى صفة ، ولا اعتدل صفة إلا اتحد زجره وهو صياحه ، ولا اتحد زجره إلا اتحد ما يذكره بصوته ، ولا اتحد منه ذلك إلا نجح قصده واتضح رشده بدليل المشاهدة ، وأدلها أن الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م لما اتحد قصدهم في إعلاء الدين وهم أضعف الأمم وأقلها عدداً لم يقم لهم جمع من الناس الذين لا نسبة لهم إليهم في قوة ولا كثرة ، ولم ينقص صفهم ، وجرح القلوب وأبارها زجرهم ، وشرح الصدور وأنارها ذكرهم ، كما أشار إليه تعالى آخر هذه السورة بقوله ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ وكذا غير الآدميين من الحيوانات كما يرى من الفار والجراد إذا أراد الله تعالى اتحاد قصده في شيء فإنه يغلب فيه من يغالبه ، ويقهر من يقاويه أو يقالبه ، فبان أن الخير كله ما أريد بالقسم ، واتحد جداً بالمقسم عليه والتأم والتحم به أيّ التحام ، وانتظم معناهما كل الانتظام .

ولما كان التأكيد بالمصدر أدل على الوحدة المرادة قال : ﴿ صفاً ﴾ وهو ترتيب الجمع على خط .

ولما كان توحد القصد موجباً للقوة المهيئة للزجر ، وكان تكميل الغير مسبباً عن تكميل النفس ، ومرتباً عليه ، وأشرف منه لو تجرد عن التكميل ، وكان التكميل إنما يتم أمره

ويعظم أثره مع الهيبة " فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد " قال عاطفاً بالفاء :

﴿ فالزاجرات ﴾ أي المنتهرات عقب الصف كل من خرج عن أمر الله ﴿ زجراً ﴾ أي انتهاراً بالمواعظ وغيرها تكميلاً لغيرهم .

(9/651)

---

ولما كانت الإفاضة مسببة عن حسن التلقي المسبب عن تفريغ البال المسبب عن هيبة المفيد ، وكان فيض التلاوة أعظم الفيض قال : ﴿ فالتاليات ﴾ أي التابعات استدلالاً على قولهم وفعلهم وتمهيداً لعذرهم وتشريفاً لقدرهم ، وتكميلاً لغيرهم : ﴿ ذكراً ﴾ أي موعظة وتشريفاً وتذكيراً من ذكر ربهم إفاضة على غيرهم من روح العلم وإدغام التاء في الصاد والزاي والذال إشارة إلى أن ذلك مع هوله وعظمه قد يخفى عن غير من يريد الله إطلاعه عليه ، فقد قطعت الصيحة قلوب الكفرة من ثمود وغيرهم ، ولم تؤثر فيمن آمن منهم ، وقد كان جبريل عليه السلام ينزل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يأتي به من القرآن والصحابة ـ رضى الله عنه ـ م حوله لا يستمعون شيئاً منه – والله الموفق ﴿ إن إلهكم ﴾ أي الذي اتخذتم من دونه آلهة ﴿ لواحد ﴾ أي فإن التفرق لا يأتي بخير ، لما يصحبه من العجز البعيد جداً عن الكمال الذي لا تكون الإلهية أصلاً إلا معه ، فإليه لا إلى

غيره ترجعون ليفصل بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ، وهو الذي أنزل هذا الكتاب بعزته ورحمته وحرسه من اللبس وغيره بما سيذكر من كبريائه وعظمته ولو لم يكن واحداً لاختل أمر هذا الاصطفاف والزجر والتلاوة ، وما يترتب عليها ، فاختل نظام هذا الوجود الذي نشاهده كما نشاهد في أحوال الممالك عند اختلاف الملوك في تغيير العوائد ونسخ الشرائع التي كان من قبلها أطدها وجميع ما له من الآثار والخصائص ، ونحن نشاهد هذا الوجود على ما أحكمه سبحانه وتعالى لا يتغير شيء منه عن حاله الذي حده له ، فعلمنا أنه واحد لا محالة متفرد بالعظمة ، لا كفوء له من غير شك .

(10/651)

---

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تضمنت سورة يس من جليل التنبيه وعظيم الإرشاد وما يهتدي الموفق باعتبار بعضه ، ويشتغل المعتبر به في تحصيل مطلوبه وفرضه ، ويشهد بأن الملك بجملته لواحد ، وإن رغم أنف المعاند والجاحد ، أتبعها تعالى بالقسم علة وحدانيته فقال تعالى ﴿ والصافات ﴾ -الآية إلى قوله تعالى ﴿ إن إلهكم لواحد ﴾ إلى قوله ﴿ ورب المشارق ﴾ ثم عاد الكلام إلى التنبيه لعجيب مصنوعاته فقال تعالى ﴿ إنا رأينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ إلى قوله ﴿ شهاب ثاقب ﴾ ثم أتبع بذكر عناد من

جحد مع بيان الأمر ووضوحه وضعف ما خلقوا منه ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ ثم ذكر استبعادهم العودة الأخروية وعظيم حيرتهم وندمهم إذا شاهدوا ما به كذبوا ، والتحمت الآي إلى ذكر الرسل مع أممهم وجريهم في العناد والتوقف والتكذيب على سنن متقارب ، وأخذ كل بذنبه ، وتخليص رسل الله وحزبه ، وإبقاء جميل ذكرهم باصطفائهم وقربه ، ثم عاد الكلام إلى تعنيف المشركين وبيان إفك المعتدين إلى ختم السورة - انتهى .

ولما ثبت أنه واحد ، أنتج وصفه بقوله : ﴿ رب ﴾ أي موجد ومالك وملك ومدبر ﴿ السماوات ﴾ أي الأجرام العالية ﴿ والأرض ﴾ أي الأجرام السافلة ﴿ وما بينهما ﴾ أي من الفضاء المشحون من المرافق والمعاون بما تعجز عن عدة القوى ، وهذا - مع كونه نتيجة ما مضى - يصلح أن يكون دليلاً عليه لما أشار إليه من انتظام التدبير الذي لا يتهيأ مع التعدد كما أن المقسم به هنا إشارة إلى دليل الوحدانية أيضاً بكونه على نظام واحد دائماً في الطاعة التي أشير إليها بالصف والزجر والتلاوة ، فسبحان من جعل هذا القرآن معجز النظام ، بديع الشأن بعيد المرام .

ولما كان السياق للإفاضة بالتلاوة وغيرها ، وكانت جهة الشروق جهة الإفاضة بالتجلي الموجد للخفايا الموجب للتنزه عن النقائص ، وكان الجميع أليق بالاصطفاف الناظر إلى القهر بالأئتلاف قال : ﴿ ورب المشارق ﴾ أي الثلاثمائة والستين التي تجلى عليكم كل يوم فيها الشمس والقمر وسائر الكواكب السيارة على كر الدهور والأعوام ، والشهور والأيام ، على نظام لا ينحل ، ومسير لا يتغير ولا يختل ، وذكرها يدل قطعاً على المغارب لأنها تختلف بها ، وأعاد الصفة معها تنبيهاً على وضوح دلالتها بما فيها مما السياق من الاصطفاف الدال على حسن الائتلاف ، وللدلالة على البعث بالآيات بعد الغياب .

ولما كانت المشارق تقتضي الفيض والإظهار ، أتبع ذلك نتيجته بما من شأنه الشروق والغروب ولو بمجرد الخفاء والظهور ، فقال مؤكداً مع لفت الكلام إلى التكلم في مظهر العظمة تنبيهاً على أن فعلهم فعل من ينكر ما للنجوم من الزينة وما تدل عليه من عظمته سبحانه وتعالى ، وفخم التعبير عن الزينة بتضعيف الفعل لمثل ذلك : ﴿ إنا زينا ﴾ أي بعظمتنا التي لا تدانى ﴿ السماء ﴾ ولما كانوا لا يرون إلا ما يليهم من السماوات ، وكانت زينة النجوم ظاهرة فيها قال : ﴿ الدنيا ﴾ أي التي هي أدنى السماوات إليكم .

(12/651)

ولما أشير إلى أن الصف زينة في الباطن باتحاد القصد كما أنه زينة في الظاهر بحسن الشكل وبديع الرصف ، زيد في التنبيه على ذلك بإعادة ما فهم من " زينا " في قوله : ﴿ بزينة الكواكب ﴾ أي بالزينة التي للنجوم النيرة البراقة المتوقدة الثابتة في محالها - قارة أو مارة - المرصعة في السماء ترصيع المسامير الزاهرة كزهر النور المبثوث في خضرة الرياض الناضرة ، فهي مع عدم التنوين والخفض إضافة بيانية كثوب خز ، ومن نوّن الزينة فإن خفض الكواكب فعلى البدل ، أي بالكواكب التي هي زينة ، وإن نصب فعلى المدح بتقدير أعني ، أو على أنه بدل اشتمال من السماء ، أي كواكبها ، إما بكونها فيما دونها من الجو فيظن أنها فيها ، أو بكونها فيها من جانبها الذي يلينا ، أو بكونها تشف عنها وإن كان بعضها فيما هو أعلى منها ، وزينتها انتظامها وارتسامها على هذا النظم البديع في أشكال متنوعة وصور مستبدعة ما بين صغار وكبار ، منها ثوابت ومنا سيارة وشوارق وغوارب - إلى غير ذلك من الهيئات التي لا تحصى ، ولا حد لها عند العباد العجزة فيستقصى .

ولما كان كون الشيء الواحد لأشياء متعددة أدل على القدرة وأظهر في العظمة ، قال دالاً بالعطف على غير معطوف عليه ظاهر على مقدر يدل على أن الزينة بالنجوم أمر مقصود لا اتفاقي : ﴿ وحفظاً ﴾ أي زيناها بها للزينة وللحفظ ﴿ من كل شيطان ﴾ أي بعيد عن الخير محترق .

ولما كان القصد التعميم في الحفظ من كل عاتٍ سواءٍ كان بالغاً في العتو أو لا قال :

﴿ مارد ﴾ أي مجرد عن الخيرعاتٍ في كل شر سواء كان بالغاً في ذلك أقصى الغايات أو كان في أدنى الدرجات كضارب وضراب .

(13/651)

---

ولما كان المراد في سورتي النساء والحج ذم الكفرة بفعل ما ليس في كونه شراً لبس ، وبوضع النفس باتباع ما لا شك في دناءته ببعده عن الخير بعد الإخفاء به ، عبر بالمريد للمبالغة ، وكما أنه حرس السماء المحسوسة بما ذكره سبحانه وتعالى فكذلك زين عز وجل قلوب الأولياء التي هي كالسماء لأراضي أجسامهم بنجوم المعارف ، فإذا مسهم طيف من الشيطان تذكروا فرشقته شهب أحوالهم ومعارفهم وأقوالهم .

ولما تشوف السامع إلى معرفة هذا الحفظ وثمرته وبيان كيفيته ، استأنف قولاً : ﴿ لا يسمعون ﴾ أي الشياطين المفهومون من كل شيطان ، لا يتجدد لهم سمع أصلاً ، قال ابن الجوزي : قال الفراء : ﴿ لا ﴾ هنا كقوله "كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به " ويصلح في ﴿ لا ﴾ على هذا المعنى الجزم ، والعرب تقول : ربطت في شيء لا ينفلت - انتهى .

ويؤخذ من التسوير بكل ثم الجمع نظراً إلى المعنى ، والإفراد لضمير الخاطف وللخطفة أنهم

معزولون عن السمع جمعهم ومفردهم من الجمع، وأن الخطف يكون - إن اتفق - في الواحد لا الجمع ومن الواحد لا الجمع، وللكلمة وما حكمها لا أكثر، وإليه يشير حديث الصحيح " تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني " وأكد بعدهم بإثبات حرف الغاية، فقال مضمناً ﴿سمع﴾ بعد قصره معنى " انتهى " أو " أصغى " ليكون المعنى : لا ينتهي سمعهم أو تسمعهم أو إصغاؤهم ﴿إلى الملإ﴾ أي الجمع العظيم الشريف، وأوضحت هذا المعنى قراءة من شدد السين والميم بمعنى يتسمعون، أي بنوع حيلة، تسمعاً منتهياً إلى ذلك، وهو يفهم أنهم يتسمعون، ولكن لا ينتهي تسمعهم إلى ما ذكر، بما أشار إليه الإدغام، ويشير أيضاً إلى أنهم يجتهدون في إخفاء أمرهم، وأفرد الوصف دلالة أيضاً على أن العطف يكون من واحد لا من جمع فقال : ﴿الأعلى﴾ أي مكاناً ومكانة بحيث يلمؤون العيون بهجة والصدور هيبة.



---

ولما كان التقدير : لأنهم يطردون طرداً قوياً، دل عليه بالعاطف في قوله : ﴿ويقذفون﴾ أي الشياطين يرمون رمياً وحياً شديداً يطردون به، وبني للمفعول لأن النافع قذفهم لا تعيين قاذفهم، مع أنه أدل على القدرة الإلهية عزت وجلت ﴿من كل جانب﴾ أي من جوانب

السماوات بالشهب إذا قصدوا السماع بالاستراق ﴿ دحوراً ﴾ أي قذفاً يردهم مطرودين صاغرين مبعدين ، فهو تأكيد للقذف بالمعنى أو مفعول له أو حال .

ولما كان هذا ربما سبباً لأن يظن ظان أنهم غير مقدور عليهم في غير هذه الحالة بغير هذا النوع أخبر أنهم في قبضته ، وإنما جعل حالهم هذا فتنة لمن أراد من عباده ، فقال معبراً باللام التي يعبر بها غالباً عن النافع تهكماً بهم : ﴿ ولهم عذاب ﴾ أي في الدنيا بهذا وبغيره ، وفي الآخرة يوم الجمع الأكبر ﴿ واصب ﴾ أي دائم ممرض موجع كثير الإيجاع مواظب على ذلك ثابت عليه وإن افترق الدوامان في الاتصال والعظم والشدة والألم .

(15/651)

---

ولما ثبت بهذا حراسة القرآن بقدرة الملك الديان عن لبس الجان ، وكان بعضهم مع هذا يسمع في بعض الأحايين ما أراد الله أن يسمعه ليجعله فتنة لمن أراد من عباده مع تميز القرآن بالإعجاز ، استثنى من فاعل ﴿ يسمعون ﴾ قوله : ﴿ إلا من خطف ﴾ ودل على قلة ذلك بعد إفراد الضمير بقوله : ﴿ الخطفة ﴾ أي اختلس الكلمة أو أكثر ، مرة من المرات منهم ، ودل على قوة انقضاض الكواكب في أثره بالهمزة في قوله : ﴿ فأتبعه ﴾ مع تعديه بدونها ، أي تبعه بغاية ما يكون من السرعة حتى كأنه يسوق نفسه ويتبعها له كأن الله

سبحانه وعز شأنه هيأها لئلا تنقض إلا في أثر من سمع منهم حين سماعه سواء لا يتخلف ﴿ شهاب ﴾ أي شعلة النار من الكوكب أو غيره ﴿ ثاقب ﴾ أي يثقب ما صادفه من جني وغيره وإن كان الجني من نار فإنه ليس ناراً خالصة ، وعلى التنزل فربما كان الشيء الواحد أنواعاً بعضها أقوى من بعض ، فيؤثر أقواه في أضعفه كالحديد ، وتارة يخطئ الجني وتارة يصيبه ، وإذا أصابه فتارة يحرقه فيتلفه وتارة يضعفه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 289.294 ﴾

(16/651)

---

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ والصافات صفاً ﴾ وما بعدهما مدغماً : حمزة وأبو عمرو غير عباس ﴿ بزينة ﴾ منوناً : حمزة وعاصم غير المفضل ﴿ الكواكب ﴾ بالنصب : أبو بكر وحماد . الباقون : بالجر ﴿ لا يسمعون ﴾ بتشديد السين والميم وأصله " يتسمعون " : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد . الآخرون : بسكون السين وتخفيف الميم . ﴿ بل عجبت ﴾ بالضم : حمزة وعلي وخلف . الآخرون : بالفتح على الخطاب ﴿ آيذا ﴾

بالمد والياء ﴿ إنا ﴾ بهمزة واحدة مكسورة : يزيد وقالون وزيد . الباقون : مثل التي في " الرعد " وأما الثانية فمثل التي في " الرعد " ﴿ أو آباؤنا ﴾ مثل ﴿ أو أمن أهل القرى ﴾ [ الأعراف : 98 ] وكذلك في " الواقعة " ﴿ لا تناصرون ﴾ بالتشديد البزي وابن فليح ﴿ أئنا ﴾ ﴿ أئنك ﴾ ﴿ أئفكا ﴾ مثل ﴿ ائنكم ﴾ في " الأنعام " ﴿ ينزفون ﴾ بضم الياء وكسر الزاي : حمزة وعلي وخلف والمفضل . الآخرون : بفتح الزاي ﴿ لتردين ﴾ بالياء في الحالين : يعقوب وافق ورش وسهل وعباس في الوصل .

(17/651)

---

الوقوف : ﴿ صفا ﴾ 5 لا ﴿ زجراً ﴾ 5 لا ﴿ لواحد ﴾ 5 ط ﴿ المشارق ﴾ 5 ط ﴿ الكواكب ﴾ 5 لا ﴿ مارد ﴾ 5 ج لاحتمال ما بعده الوصف والاستئناف قاله السجاوندي . وعليه بحث يجيء في التفسير ﴿ واصب ﴾ 5 لا ﴿ ثاقب ﴾ 5 ج ﴿ خلقنا ﴾ ط ﴿ لازب ﴾ 5 ﴿ ويسخرون ﴾ 5 ص ﴿ لا يذكرون ﴾ 5 ص ﴿ يستسخرون ﴾ 5 ص ﴿ مبين ﴾ 5 ج ﴿ لمبعوثون ﴾ 5 لا ﴿ الأوّلون ﴾ 5 ط ﴿ داخرون ﴾ 5 ﴿ ينظرون ﴾ 5 ﴿ الدين ﴾ 5 ﴿ تكذبون ﴾ 5 ﴿ يعبدون ﴾ 5 لا ﴿ الجحيم ﴾ 5 ﴿ مسؤولون ﴾ 5 لا لأن المسؤول عنه قوله ﴿ ما لكم لا تناصرون

﴾ 5 ﴿ مستسلمون ﴾ 5 ﴿ يتساءلون ﴾ 5 ﴿ اليمين ﴾ 5 ﴿ مؤمنين ﴾ 5ج

﴿ سلطان ﴾ج للعدول مع اتفاق الجملتين ﴿ طاغين ﴾ 5 ﴿ لذائقون ﴾ 5 ﴿

غاوين ﴾ 5 ﴿ مشتركون ﴾ 5 ﴿ بالمجرمين ﴾ 5 ﴿ يستكبرون ﴾ 5 ﴿ مجنون

﴾ 5ط ﴿ المرسلين ﴾ 5 ﴿ الأليم ﴾ 5ج ﴿ تعملون ﴾ 5لا ﴿ المخلصين ﴾ 5

﴿ معلوم ﴾ 5 ﴿ فواكه ﴾ج لاحتمال الواو الحال والاستئناف ﴿ مكرمون ﴾ 5لا

﴿ النعيم ﴾ 5لا ﴿ متقابلين ﴾ج ﴿ معين ﴾ 5لا ﴿ للشاربين ﴾ 5ج لأن ما بعده

يصلح وصفاً واستئنافاً ﴿ ينزفون ﴾ 5 ﴿ عين ﴾ ط ﴿ مكنون ﴾ج ﴿ يتساءلون

﴾ 5 ﴿ قرين ﴾ 5 ﴿ المصدّقين ﴾ 5 ﴿ لمدينون ﴾ 5 ﴿ مطلعون ﴾ 5 ﴿

الجحيم ﴾ 5 ﴿ لتردين ﴾ 5 ﴿ المحضرين ﴾ 5 ﴿ بميتين ﴾ 5لا ﴿ بمعذبين ﴾ 5

﴿ العظيم ﴾ 5 ﴿ العاملون ﴾ 5 ﴿ الزقوم ﴾ 5 ﴿ للظالمين ﴾ 5 ﴿ الجحيم ﴾

5لا لأن ما بعده صفة لشجرة ﴿ الشياطين ﴾ 5 ﴿ البطون ﴾ 5لا لأن "ثم" لترتيب

الأخبار ﴿ حميم ﴾ 5 ﴿ الجحيم ﴾ 5ج ﴿ ضالين ﴾ 5لا للعطف مع اتصال

المعنى ﴿ يهرعون ﴾ 5 ﴿ الأوّلين ﴾ 5 ﴿ منذرين ﴾ 5 ﴿ المنذرين ﴾ 5لا ﴿

المخلصين ﴾ 5 ﴿ المجيبون ﴾ 5ز ﴿ العظيم ﴾ 5ز ﴿ الباقين ﴾ 5ز ﴿ في

الآخرين ﴾ 5لا لأن ما بعده مفعول تركنا على سبيل الحكاية ﴿ العالمين ﴾ 5 ﴿

المحسنين ﴾ 5 ﴿ المؤمنين ﴾ 5 ﴿ الآخرين ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 552.551 ﴾

(18/651)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ أبو عمرو وحمزة ﴿ والصافات صَفَّا ﴾ بإدغام التاء فيما يليه ، وكذلك في قوله : ﴿ فالزجرات زَجْراً فالتاليات ذِكْراً ﴾ والباقون بالإظهار ، وقال الواحدي رحمه الله : إدغام التاء في الصاد حسن لمقاربة الحرفين ، ألا ترى أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا يسمعان في الهمس ، ولامدغم فيه يزيد على المدغم بالإطباق والصفير ، وإدغام الأنقص في الأزيد حسن ، ولا يجوز أن يدغم الأزيد صوتاً في الأنقص ، وأيضاً إدغام التاء في الزاي في قوله : ﴿ فالزجرات زَجْراً ﴾ حسن لأن التاء مهموسة والزاي مجهورة وفيها زيادة صفير

كما كان في الصاد ، وأيضاً حسن إدغام التاء في الذي في قوله : ﴿ فالتاليات ذِكْراً ﴾ لاتفاقهما في أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا ، وأما من قرأ بالإظهار وترك الإدغام فذلك لاختلاف المخارج ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

في هذه الأشياء الثلاثة المذكورة المقسم بها يحتمل أن تكون صفات ثلاثة لموصوف واحد ، ويحتمل أن تكون أشياء ثلاثة متباينة ، أما على التقدير الأول ففيه وجوه الأول : أنها صفات الملائكة ، وتقديره أن الملائكة يقفون صفوفاً .

إما في السموات لأداء العبادات كما أخبر الله عنهم أنهم قالوا : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافون ﴾ [ الصافات : 165 ] وقيل إنهم يصفون أجنحتهم في الهواء يقفون منتظرين وصول أمر الله إليهم ، ويحتمل أيضاً أن يقال معنى كونهم صفوفاً أن لكل واحد منهم مرتبة معينة ودرجة معينة في الشرف والفضيلة أو في الذات والعلية وتلك الدرجة المرتبة باقية غير متغيرة وذلك يشبه الصفوف .

وأما قوله : ﴿ فالزجرات زَجْراً ﴾ فقال الليث : يقال زجرت البعير فأنا أزجره زجراً إذا حثثته ليمضي ، وزجرت فلاناً عن سوء فانزجر أي نهيته فانتهى ، فعلى هذا الزجر للبعير كالحث وللإنسان كالنهي ، إذا عرفت هذا فنقول في وصف الملائكة بالزجر وجوه الأول : قال ابن عباس يريد الملائكة الذي وكلوا بالسحاب يزجرونها بمعنى أنهم يأتون بها من موضع إلى موضع الثاني : المراد منه أن الملائكة لهم تأثيرات في قلوب بني آدم على سبيل الإلهامات فهم يزجرونهم عن المعاصي زجراً الثالث : لعل الملائكة أيضاً يزجرون الشياطين عن التعرض لبني آدم بالشر والإيذاء ، وأقول قد ثبت في العلوم العقلية أن الموجودات على ثلاثة أقسام مؤثر لا يقبل الأثر وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الموجودات ومتأثر لا يؤثر وهم عالم الأجسام وهو أخس الموجودات وموجود يؤثر في شيء ويتأثر عن شيء آخر وهو عالم الأرواح وذلك لأنها تقبل الأثر عن عالم كبرياء الله ، ثم إنها تؤثر في عالم الأجسام ، واعلم أن الجهة التي باعتبارها تقبل الأثر من عالم كبرياء الله غير الجهة التي باعتبارها تستولي على عالم الأجسام وتقدر على التصرف فيها وقوله : ﴿ فالتاليات ذِكْراً ﴾ إشارة إلى الأشرف من الجهة التي باعتبارها تقوى على التأثير في عالم الأجسام إذا عرفت هذا فقوله : ﴿ والصافات صَفَّا ﴾ إشارة إلى وقوفها صفاً صفاً في مقام العبودية والطاعة بالخشوع والخضوع وهي الجهة التي باعتبارها تقبل تلك الجواهر القدسية أصناف الأنوار الإلهية والكمالات الصمدية وقوله تعالى : ﴿ فالزجرات زَجْراً ﴾ إشارة إلى تأثير

الجواهر الملكية في تنوير الأرواح القدسية البشرية وإخراجها من القوة إلى الفعل ، وذلك لما ثبت أن هذه الأرواح النطقية البشرية بالنسبة إلى أرواح الملائكة كالقطرة بالنسبة إلى البحر وكالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، وأن هذه الأرواح البشرية بالنسبة إلى أرواح الملائكة كالقطرة بالنسبة إلى البحر وكالشعلة

(20/651)

---

بالنسبة إلى الشمس ، وأن هذه الأرواح البشرية إنما تنتقل من القول إلى الفعل في المعارف الإلهية والكمالات الروحانية بتأثيرات جواهر الملائكة ونظيره قوله تعالى :

(21/651)

---

﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [ النحل : 2 ] وقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ ﴾ [ الشعراء : 192 ، 193 ] وقوله تعالى : ﴿ فالملقيات ذِكْراً ﴾ [ المرسلات : 5 ] إذا عرفت هذا فنقول في هذه الآية دقيقة أخرى وهي أن الكمال المطلق للشيء إنما يحصل إذا كان تاماً وفوق التام والمراد بكونه تاماً أن تحصل جميع

الكمالات اللائقة به حصولاً بالفعل والمراد بكونه فوق التام أن تفيض منه أصناف الكمالات والسعادات على غيره ، ومن المعلوم أن كونه كاملاً في ذاته مقدم على كونه مكملاً لغيره ، إذا عرفت هذا فقوله : ﴿ والصافات صَفًّا ﴾ إشارة إلى استكمال جواهر الملائكة في ذواتها وقت وقوفها في مواقف العبودية وصفوف الخدمة والطاعة وقوله تعالى : ﴿ فالزجرات زَجْراً ﴾ إشارة إلى كيفية تأثيراتها في إزالة ما لا ينبغي عن جواهر الأرواح البشرية وقوله تعالى : ﴿ فالتاليات ذِكْراً ﴾ إشارة إلى كيفية تأثيراتها في إفاضة الجلايا القدسية والأنوار الإلهية على الأرواح الناطقة البشرية ، فهذه مناسبات عقلية واعتبارات حقيقية تنطبق عليها هذه الألفاظ الثلاثة ، قال أبو مسلم الأصفهاني : لا يجوز حمل هذه الألفاظ على الملائكة لأنها مشعرة بالتأنيث والملائكة مبرءون عن هذه الصفة ، والجواب من وجهين الأول : أن الصافات جمع الجمع فإنه يقال جماعة صافة ثم يجمع على صافات والثاني : أنهم مبرءون عن التأنيث المعنوي ، أما التأنيث في اللفظ فلا ، وكيف وهم يسمون بالملائكة مع أن علامة التأنيث حاصلة في هذا الوجه الثاني : أن تحمل هذه الصافات على النفوس البشرية الطاهرة المقدسة المقبلة على عبودية الله تعالى الذين هم ملائكة الأرض وبيانه من وجهين الأول : أن قوله تعالى : ﴿ والصافات صَفًّا ﴾ المراد الصفوف الحاصلة عند أداء الصلوات بالجماعة وقوله : ﴿ فالزجرات زَجْراً ﴾ إشارة إلى قراءة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كأنهم بسبب

(22/651)

---

قراءة هذه الكلمة يزجرون الشياطين عن إلقاء الوساوس في قلوبهم في أثناء الصلاة وقوله :

﴿ فالتاليات ذِكْراً ﴾ إشارة إلى قراءة القرآن في الصلاة وقيل : ﴿ فالزجرات زَجْراً ﴾ إشارة إلى رفع الصوت بالقراءة كأنه يزجر الشيطان بواسطة رفع الصوت ، روى أنه صلى الله عليه وسلم طاف على بيوت أصحابه في الليالي فسمع أبا بكر يقرأ بصوت منخفض وسمع عمر يقرأ بصوت رفيع فسأل أبا بكر لم تقرأ هكذا ؟ فقال : المعبود سميع عليم وسأل عمر : لم تقرأ هكذا ؟ فقال : أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان الوجه الثاني : في تفسير هذه الألفاظ الثلاث في هذه الآية أن المراد من قوله : ﴿ والصافات صَفَّا ﴾ الصفوف الحاصلة من العلماء المحقين الذين يدعون إلى دين الله تعالى والمراد من قوله : ﴿ فالزجرات زَجْراً ﴾ اشتغالهم بالزجر عن الشبهات والشهوات ، والمراد من قوله تعالى : ﴿ فالتاليات ذِكْراً ﴾ اشتغالهم بالدعوة إلى دين الله والترغيب في العمل بشرائع الله الوجه الثالث : في تفسير هذه الألفاظ الثلاثة أن نحملها على أحوال الغزاة والمجاهدين في سبيل الله فقوله : ﴿ والصافات صَفَّا ﴾ المراد منه صفوف القتال لقوله تعالى :

(23/651)

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ [ الصف : 4 ] وأما ( الزاجرات زجراً ) فالزجرة والصيحة سواء ، والمراد منه رفع الصوت بزجر الخيل ، وأما ( التاليات ذكراً ) فالمراد اشتغال الغزاة وقت شروعهم في محاربة العدو بقراءة القرآن وذكر الله تعالى بالتهليل والتقديس الوجه الرابع : في تفسير هذه الألفاظ الثلاثة أن نجعلها صفات لآيات القرآن فقوله : ( والصافات صفاً ) المراد آيات القرآن فإنها أنواع مختلفة بعضها في دلائل التوحيد وبعضها في دلائل العلم والقدرة والحكمة وبعضها في دلائل النبوة وبعضها في دلائل المعاد وبعضها في بيان التكاليف والأحكام وبعضها في تعليم الأخلاق الفاضلة ، وهذه الآيات مرتبة ترتيباً لا يتغير ولا يتبدل فهذه الآيات تشبه أشخاصاً واقفين في صفوف معينة قوله : ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾ المراد منه الآيات الزاجرة عن الأفعال المنكرة وقوله : ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ المراد منه الآيات الدالة على وجوب الإقدام على أعمال البر والخير وصف الآيات بكونها تالية على قانون ما يقال شعر شاعر وكلام قائل قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [ الإسراء : 9 ] وقال : ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ [ يس : 1 ، 2 ] قيل الحكيم بمعنى الحاكم فهذه جملة الوجوه المحتملة على تقدير أن تجعل هذه الألفاظ الثلاثة صفات لشيء واحد وأما الاحتمال الثاني : وهو أن يكون المراد بهذه الثلاثة أشياء متغايرة فقيل المراد بقوله : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ الطير من قوله تعالى : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾ [

النور : 41 ] ( والزاجرات ) كل ما زجر عن معاصي الله ( والتاليات ) كل ما يتلى من كتاب الله وأقول فيه وجه آخر وهو أن مخلوقات الله إما جسمانية وإما روحانية ، أما الجسمانية فإنها مرتبة على طبقات ودرجات لا تتغير ألبتة ، فالأرض وسط العالم وهي محفوفة بكرة الماء والماء محفوف بالهواء ، والهواء محفوف بالنار ، ثم هذه الأربعة محفوفة بكرات

*(24/651)*

---

الأفلاك إلى آخر العالم الجسماني فهذه الأجسام كأنها صفوف واقفة على عتبة جلال الله تعالى ، وأما الجواهر الروحانية فهي على اختلاف درجاتها وتباين صفاتها مشتركة في صفتين أحدهما التأثير في عالم الأجسام بالتحريك والتصريف وإليه الإشارة بقوله :

﴿ فالزجرات زَجْراً ﴾ فإنا قد بينا أن المراد من هذا الزجر السوق والتحريك ، والثاني الإدراك والمعرفة والاستغراق في معرفة الله تعالى والثناء عليه ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

﴿ فالتاليات ذِكْراً ﴾ ولما كان الجسم أدنى منزلة من الأرواح المستقلة فالتصرف في الجسمانيات أدون منزلة من الأرواح المستغرقة في معرفة جلال الله المقبلة على تسبيح الله كما قال :

﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ [الأنبياء : 19] لا جرم بدأ في المرتبة الأولى بذكر الأجسام فقال : ﴿ والصافات صَفًّا ﴾ ثم ذكر في المرتبة الثانية الأرواح المدبرة لأجسام هذا العالم ثم ذكر في هذه المرتبة الثالثة أعلى الدرجات وهي الأرواح المقدسة المتوجهة بكليتها إلى معرفة جلال الله والاستغراق في الثناء عليه ، فهذه احتمالات خطرت بالبال ، والعالم بأسرار كلام الله تعالى ليس إلا الله .

المسألة الثالثة :

(25/651)

---

للناس في هذا الموضع قولان الأول : قول من يقول المقسم به ههنا خالق هذه الأشياء لا أعيان هذه الأشياء ، واحتجوا عليه بوجوه الأول : أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الحلف بغير الله فكيف يليق بحكمة الله أن يحلف بغير الله والثاني : أن الحلف بالشيء في مثل هذا الموضع تعظيم عظيم للمحلوف به ، ومثل هذا التعظيم ﴿ والسماء وَمَا بناها * والأرض وَمَا طحاها * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [الشمس : 5 - 7] ، والقول الثاني : قول من يقول إن القسم واقع بأعيان هذه الأشياء واحتجوا عليه بوجوه الأول : أن القسم وقع بهذه الأشياء بحسب ظاهر اللفظ فالعدول عنه خلال الدليل والثاني : أنه تعالى قال :

﴿ والسماء ومَا بناها ﴾ فعلق لفظ القسم بالسماء ، ثم عطف عليه القسم بالباني للسماء ، فلو كان المراد من القسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار في موضع واحد وأنه لا يجوز الثالث : أنه لا يبعد أن تكون الحكمة في قسم من الله تعالى بهذه الأشياء التنبيه على شرف ذواتها وكمال حقائقها ، لا سيما إذا حملنا هذه الألفاظ على الملائكة فإنه تكون الحكمة في القسم بها التنبيه على جلالة درجاتها وكمال مراتبها ، والله أعلم ، فإن قيل ذكر الحلف في هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجوه الأول : أن المقصود من هذا القسم إما إثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو عند الكافر والأول باطل لأن المؤمن مقر به سواء حصل الحلف أو لم يحصل ، فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات الثاني : أنه تعالى حلف في أول هذه السورة على أن الإله واحد ، وحلف في أول سورة والذاريات على أن القيامة حق فقال : ﴿ والذريات ذَرْواً ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لصادق * وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ ﴾

(26/651)

---

[ الذاريات : 1 – 6 ] وإثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف واليمين لا يليق بالعقلاء ، والجواب من وجوه الأول : أنه تعالى قرر التوحيد

وصحة البعث والقيامة في سائر السور بالدلائل اليقينية ، فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيداً لما تقدم لا سيما والقرآن إنما أنزل بلغة العرب وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب والوجه الثاني : في الجواب أنه تعالى لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ ذكر عقيبه ما هو كالدليل اليقيني في كون الإله واحداً ، وهو قوله تعالى : ﴿ رَبُّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشارق ﴾ وذلك لأنه تعالى بين في قوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [ الأنبياء : 22 ] أن انتظام أحوال السموات والأرض يدل على أن الإله واحد ، فههنا لما قال : ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ أردفه بقوله : ﴿ رَبُّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشارق ﴾ كأنه قيل قد بينا أن النظر في انتظام هذا العالم دل على كون الإله واحداً فتأملوا في ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد الوجه الثالث : في الجواب أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الأصنام في قولهم بأنها آلهة فكأنه قيل هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة إلى حيث يكفي في إبطاله مثل هذه الحجة ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

أما دلالة أحوال السموات والأرض على وجود الإله القادر العالم الحكيم ، وعلى كونه واحداً منزهاً عن الشريك فقد سبق تقريرها في هذا الكتاب مراراً وأطواراً وأما قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّ المشارق ﴾ فيحتمل أن يكون المراد مشارق الشمس قال السدي : المشارق ثلاثمائة وستون مشرقاً وكذلك المغارب فإنه تطلع الشمس كل يوم من مشرق وتغرب كل يوم في مغرب ، ويحتمل أن يكون المراد مشارق الكواكب لأن لكل كوكب مشرقاً ومغرباً ، فإن قيل لم أكتفى بذكر المشارق ؟ قلنا لوجهين الأول : أنه اكتفى بذكر المشارق كقوله : ﴿ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [ النحل : 81 ] والثاني أن الشرق أقوى حالاً من الغروب وأكثر نفعاً من الغروب فذكر الشرق تنبيهاً على كثرة إحسان الله تعالى على عباده ، ولهذه الدقيقة استدل إبراهيم عليه السلام بالمشرق فقال : ﴿ فَإِنَّ الله يَأْتِى بالشمس مِنَ المشرق ﴾ [ البقرة : 258 ] .

المسألة الخامسة :

احتج الأصحاب بقوله تعالى : ﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ على كونه تعالى خالقاً لأعمال العباد ، قالوا : لأن أعمال العباد موجود فيما بين السموات والأرض ، وهذه الآية دالة على أن كل ما حصل بين السموات والأرض فالله ربه ومالكه ، فهذا يدل على أن فعل العبد حصل بخلق الله ، وإن قالوا : الأعراض لا يصح وصفها بأنها حصلت بين السموات والأرض لأن هذا الوصف إنما يليق بما يكون حاصلاً في حيز وجهة والأعراض

ليست كذلك ، قلنا : إنها لما كانت حاصلة في الأجسام الحاصلة بين السموات والأرض فهي أيضاً حاصلة بين السماء والأرض .

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6)

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(28/651)

---

قرأ حمزة وحفص عن عاصم زينة منونة الكواكب بالجر وهو قراءة مسروق بن الأجدع ، قال الفراء وهو رد معرفة على نكرة كما قال : ﴿ بالناصية نَاصِيَةٍ ﴾ [ العلق : 15 ، 16 ] فرد نكرة على معرفة وقال الزجاج : الكواكب بدل من الزينة ، لأنها هي كما تقول مررت بأبي عبد الله زيد .

وقرأ عاصم بالتنوين في الزين ونصب الكواكب قال الفراء : يريد زينا الكواكب ، وقال الزجاج : يجوز أن تكون الكواكب في النصف بدلاً من قوله بزينة ، لأن بزينة في موضع نصب وقرأ الباقون ( بزينة الكواكب ) بالجر على الإضافة .

المسألة الثانية :

بين تعالى أنه زين السماء الدنيا ، وبين أنه إنما زينها لمنفعتين إحداهما : تحصيل الزينة والثانية : الحفظ من الشيطان المارد ، فوجب أن نحقق الكلام في هذه المطالب الثلاثة أما الأول : وهو تزيين السماء الدنيا بهذه الكواكب ، فلقائل أن يقول إنه ثبت في علم الهيئة أن هذه الثوابت مركوزة في الكرة الثامنة ، وأن السيارات الستة مركوزة في الكرات الست المحيطة بسماء الدنيا فكيف يصح قوله : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السماء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ والجواب أن الناس الساكنين على سطح كرة الأرض إذا نظروا إلى السماء فإنهم يشاهدونها مزينة بهذه الكواكب ، وعلى أنا قد بينا في علم الهيئة أن الفلاسفة لم يتم لهم دليل في بيان أن هذه الكواكب مركوزة في الفلك الثامن ، ولعلنا شرحنا هذا الكلام في تفسير سورة ﴿ تَبَارَكَ الذى بِيَدِهِ الملك ﴾ [ الملك : 1 ] في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ [ الملك : 5 ] ، وأما المطلوب الثاني : وهو كون هذه الكواكب زينة السماء الدنيا ففيه بحثان :

(29/651)

---

البحث الأول : أن الزينة مصدر كالنسبة واسم لما يزن به ، كالليقة اسم لما تلاق به الدواة قال صاحب الكشاف وقوله : ﴿ بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ يحتملها فإن أردت المصدر فعلى

إضافته إلى الفاعل أي بأن زينتها الكواكب أو على إضافته إلى المفعول أي بأن زان الله الكواكب وحسنها ، لأنها إنما زينت السماء بحسنها في أنفسها ، وإن أردت الاسم فللإضافة وجهان أن تقع الكواكب بياناً للزينة ، لأن الزينة قد تحصل بالكواكب وبغيرها ، وأن يراد ما زينت به الكواكب .

البحث الثاني : في بيان كيفية كون الكواكب زينة للسماء وجوه الأول : أن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها ، فإن تحصل هذه الكواكب المشرقة المضيئة في سطح الفلك لا جرم بقي الضوء والنور في جرم الفلك بسبب حصول هذه الكواكب فيها قال ابن عباس : ﴿ بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ أي بضوء الكواكب الوجه الثاني : يجوز أن يراد أشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها الوجه الثالث : يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوعها وغروبها الوجه الرابع : أن الإنسان إذا نظر في الليلة الظلماء إلى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الأزرق ، فلا شك أنها أحسن الأشياء وأكملها في التركيب والجوهر ، وكل ذلك يفيد كون هذه الكواكب زينة وأما المطلوب الثالث : وهو قوله : ﴿ وَحِفْظاً مّن كُلّ شيطان مَّارِدٍ ﴾ ففيه بحثان :

البحث الأول : فيما يتعلق باللغة فقوله : ﴿ وَحِفْظاً ﴾ أي وحفظناها ، قال المبرد : إذا ذكرت فعلاً ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لأنه قد دل على فعله ، مثل قولك أفعل وكرامة لأنه لما قال أفعل علم أن الأسماء لا تعطف على الأفعال ، فكان المعنى أفعل ذلك وأكرمك كرامة ، قال ابن عباس يريد حفظ السماء بالكواكب و ﴿ مّن كُلّ شيطان مَّارِدٍ ﴾ يريد الذي تمرد على الله قيل إنه الذي لا يتمكن منه ، وأصله من الملاسة ومنه قوله : ﴿ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ ﴾ [ النمل : 44 ] ومنه الأمرد : وذكرنا تفسير المارد عند قوله : ﴿ مَرَدُواْ عَلَى النفاق ﴾ [ التوبة : 101 ] .

البحث الثاني : فيما يتعلق بالمباحث العقلية في هذا الموضع ، فنقول الاستقصاء فيه مذكور في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ [ الملك : 5 ] قال المفسرون الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب ، وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم أنهم يعلمون الغيب فمنعهم الله تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب فإنه تعالى يرميهم بها فيحرقهم بها ، وبقي ههنا سؤالات :

السؤال الأول : هذه الشهب هل هي من الكواكب التي زين الله السماء بها أم لا ؟ والأول باطل لأن هذه الشهب تبطل وتضمحل فلو كانت هذه الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير من أعداد كواكب السماء ، ومعلوم أن هذا المعنى لم يوجد ألبتة فإن أعداد كواكب السماء باقية في حالة واحدة من غير تغير ألبتة ، وأيضاً فجعلها رجوماً للشياطين مما يوجب وقوع النقصان في زينة السماء فكأن الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض ، وأما القسم الثاني : وهو أن يقال إن هذه الشهب جنس آخر غير الكواكب المركوزة في الفلك فهذا أيضاً مشكل لأنه تعالى قال في سورة : ﴿ تَبَارَكَ الذى بِيَدِهِ الملك ﴾ [ الملك : 1 ] ، ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ [ الملك : 5 ] فالضمير في قوله : ﴿ وجعلناها ﴾ عائد إلى المصابيح ، فوجب أن تكون تلك المصابيح هي الرجوع بأعيانها من غير تفاوت ، والجواب أن هذه الشهب غير تلك الثواقب الباقية ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ [ الملك : 5 ] فنقول كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصابيح لأهل الأرض إلا أن تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد ، ومنها ما لا يكون كذلك ، وهي هذه الشهب التي يحدثها الله تعالى ويجعلها رجوماً للشياطين ، وبهذا التقدير فقد زال الإشكال ، والله أعلم .

السؤال الثاني : كيف يجوز أن تذهب الشياطين إلى حيث يعلمون بالتجويز ، أن الشهب تحرقهم ولا يصلون إلى مقصودهم ألبتة ، وهل يمكن أن يصدر مثل هذا الفعل عن عاقل ، فكيف من الشياطين الذين لهم مزيّة في معرفة الحيل الدقيقة والجواب : أن حصول هذه الحالة ليس له موضع معين وإلا لم يذهبوا إليه ، وإنما يمنعون من المصير إلى مواضع الملائكة ومواضعها مختلفة ، فربما صاروا إلى موضع تصيبهم فيه الشهب ، وربما صاروا إلى غيره ولا يصادفون الملائكة فلا تصيبهم الشهب ، فلما هلكوا في بعض الأوقات ، وسلموا في بعض الأوقات ، جاز أن يصيروا إلى مواضع يغلب على ظنونهم أنه لا تصيبهم الشهب فيها ، كما يجوز فيمن يسلك البحر أن يسلكه في موضع يغلب على ظنه حصول النجاة ، هذا ما ذكره أبو علي الجبائي من الجواب عن هذا السؤال في تفسيره .

ولقائل أن يقول : إنهم إذا صعدوا فإما أن يصلوا إلى مواضع الملائكة ، أو إلى غير تلك المواضع ، فإن وصلوا إلى مواضع الملائكة احترقوا ، وإن وصلوا إلى غير مواضع الملائكة لم يفوزوا بمقصودهم أصلاً ، فعلى كلا التقديرين المقصود غير حاصل ، إذا حصلت هذه التجربة وثبت بالاستقراء أن الفوز بالمقصود محال وجب أن يمتنعوا عن هذا العمل وأن لا

يقدموا عليه أصلاً بخلاف حال المسافرين في البحر ، فإن الغالب عليهم السلامة والفوز بالمقصود ، أما ههنا فالشيطان الذي يسلم من الاحتراق إنما يسلم إذا لم يصل إلى مواضع الملائكة ، وإذا لم يصل إلى تلك المواضع لم يفز بالمقصود ، فوجب أن لا يعود إلى هذا العمل ألبتة ، والأقرب في الجواب أن نقول هذه الوقعة إنما تتفق في الندرة ، فلعلها لا تشتهر بسبب كونها نادرة بين الشياطين ، والله أعلم .

(33/651)

---

السؤال الثالث : قالوا : دلت التواريخ المتواترة على أن حدوث الشهب كان حاصلاً قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم بزمان طويل ذكروا ذلك وتكلموا في سبب حدوثه ، إذا ثبت أن ذلك كان موجوداً قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم امتنع حمله على مجيء النبي صلى الله عليه وسلم ، أجاب القاضي بأن الأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي صلى الله عليه وسلم لكنها كثرت في زمان النبي صلى الله عليه وسلم فصارت بسبب الكثرة معجزة .

السؤال الرابع : الشيطان مخلوق من النار ، قال تعالى حكاية عن إبليس ﴿ خَلَقْتَنِي مِن

نَّارٍ ﴾ [ الأعراف : 12 ] وقال : ﴿ والجآن خلقناه مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم ﴾ ( الحجر : 27 ) ولهذا السبب يقدر على الصعود إلى السموات ، وإذا كان كذلك فكيف يعقل إحراق النار بالنار ؟ والجواب يحتمل أن الشياطين وإن كانوا من النيران إلا أنها نيران ضعيفة ، فإن وصلت نيران الشهب إليهم ، وتلك النيران أقوى حالاً منهم لا جرم صار الأقوى مبطلاً للأضعف ، ألا ترى أن السراج الضعيف إذا رجع في النار القوية فإنه ينطفىء فكذلك ههنا .

(34/651)

---

السؤال الخامس : أن مقر الملائكة هو السطح الأعلى من الفلك ، والشياطين لا يمكنهم الوصول إلا إلى الأقرب من السطح الأسفل من الفلك ، فيبقى جرم الفلك مانعاً من وصول الشياطين إلى القرب من الملائكة ، ولعل الفلك عظيم المقدار دفع حصول هذا المانع العظيم ، كيف يعقل أن تسمع الشياطين كلام الملائكة ، فإن قلتم إن الله تعالى يقوي سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة ، فنقول فعلى هذا التقدير إذا كان الله تعالى يقوي سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة ، وجب أن لا ينفي سمع الشيطان ، وإن كان لا يريد منع الشيطان من العمل فما الفائدة في رميه بالرجوم ؟ فالجواب : مذهبنا أن أفعال الله تعالى غير معللة ،

فيفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله ، فهذا ما يتعلق بمباحث هذا الباب ، وإذا أضيف ما كتبناه ههنا إلى ما كتبناه في سورة الملك ، وفي سائر الآيات المشتملة على هذه المسألة بلغ تمام الكفاية في هذا الباب ، والله أعلم .

وأما قوله : ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الملإ الأعلى ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(35/651)

---

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ بتشديد السين والميم وأصله يتسمعون ، فأدغمت التاء في السين لاشتراكهما في الهمس ، والتسمع تطلب السماع يقال تسمع سمع أو لم يسمع ، والباقون بتخفيف السين ، واختار أبو عبيد التشديد في يسمعون ، قال : لأن العرب تقول تسمعت إلى فلان ويقولون سمعت فلاناً ، ولا يكادون يقولون سمعت إلى فلان ، وقيل في تقوية هذه القراءة إذا نفى التسمع ، فقد نفى سمعه ، وحجة القراءة الثانية قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ [ الشعراء : 212 ] وروى مجاهد عن ابن عباس : أن الشياطين يسمعون إلى الملأ الأعلى ، ثم يمنعون فلا يسمعون ، وللأولين أن يجيبوا فيقولون التنصيص على كونهم معزولين عن السمع لا يمنع من كونهم معزولين أيضاً عن

التسمع بدلالة هذه الآية ، بل هو أقوى في ردع الشياطين ومنعهم من استماع أخبار السماء ، فإن الذي منع من الاستماع فبأن يكون ممنوعاً من السمع أولى .

المسألة الثانية :

الفرق بين قولك سمعت حديث فلان ، وبين قولك سمعت إلى حديثه ، بأن قولك سمعت حديثه يفيد الإدراك ، وسمعت إلى حديثه يفيد الإصغاء مع الإدراك .

المسألة الثالثة :

في قوله : ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ ﴾ قولان الأول : وهو المشهور أن تقدير الكلام لئلا يسمعوا ، فلما حذف الناصب عاد الفعل إلى الرفع كما قال : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ [ النساء : 176 ] وكما قال : ﴿ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [ لقمان : 10 ] قال صاحب "الكشاف" : حذف أن واللام كل واحد منهما جائز بانفراده .

أما اجتماعهما فمن المنكرات التي يجب صوت القرآن عنها والقول الثاني : وهو الذي اختاره صاحب "الكشاف" أنه كلام مبتدأ منقطع عما قبله ، وهو حكاية حال المسترقة للسمع وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة ويتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب ، مدحورون عن ذلك المقصود .

المسألة الرابعة :

الملأ الأعلى الملائكة لأنهم يسكنون السموات .

وأما الإنس والجن فهم الملأ الأسفل لأنهم سكان الأرض .

واعلم أنه تعالى وصف أولئك الشياطين بصفات ثلاثة الأولى : أنهم لا يسمعون الثانية : أنهم يقذفون من كل جانب دحوراً وفيه أبحاث :

الأول : قد ذكرنا معنى الدحور في سورة الأعراف عند قوله : ﴿ اخرج مِنْهَا مَذْءومًا مَّدْحُورًا ﴾ [ الأعراف : 18 ] قال المبرد الدحور أشد الصغار والذل وقال ابن قتيبة دحرته دحراً ودحوراً أي دفعته وطردته .

البحث الثاني : في انتصاب قوله : ﴿ دُحُوراً ﴾ وجوه الأول : أنه انتصب بالمصدر على معنى يدحرون دحوراً ، ودل على الفعل قوله تعالى : ﴿ وَيَقْذِفُونَ ﴾ الثاني : التقدير ويقذفون للدحور ثم حذف اللام الثالث : قال مجاهد دحوراً مطرودين ، فعلى هذا هو حال سميت بالمصدر كالركوع والسجود والحضور .

البحث الثالث : قرأ أبو عبد الرحمن السلمي دحوراً بفتح الدال قال الفراء كأنه قال يقذفون يدحرون بما يدحر ، ثم قال ولست أشتهي الفتح ، لأنه لو وجد ذلك على صحة لكان فيها الباء كما تقول يقذفون بالحجارة ولا تقول يقذفون الحجارة إلا أنه جائز في الجملة كما قال الشاعر :

تعال اللحم للأضياف نيئاً . . أي تعالى باللحم الصفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ ﴾ والمعنى أنهم مرجومون بالشهب وهذا العذاب مسلط عليهم على سبيل الدوام ، وذكرنا تفسير الواصب في سورة النحل عند قوله تعالى : ﴿ وله الدين واصباً ﴾ [ النحل : 52 ] قالوا كلهم إنه الدائم ، قال الواحدي ومن فسر الواصب بالشديد والموجع فهو معنى وليس بتفسير .

(37/651)

---

ثم قال تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة ﴾ ذكرنا معنى الخطف في سورة الحج قال الزجاج وهو أخذ الشيء بسرعة ، وأصل خطف اختطف قال صاحب "الكشاف" ﴿ مِنْ ﴾ في محل الرفع بدل من الواو في لا يسمعون أي لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي خطف الخطفة أي اختلس الكلمة على وجه المسارقة ﴿ فَأَتْبَعَهُ ﴾ يعني لحقه وأصابه يقال تبعه وأتبعه إذا مضى في أثره وأتبعه إذا لحقه وأصله من قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشيطان ﴾ [ الأعراف : 175 ] وقد مر تفسيره وقوله تعالى : ﴿ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ قال الحسن ثاقب أي مضيء وأقول سمي ثاقباً لأنه يثقب بنوره الهواء ، قال ابن عباس في تفسير قوله : ﴿ والنجم الثاقب ﴾ [ الطارق : 3 ] قال : إنه رجل سمي بذلك لأنه يثقب بنوره سمك

سبع سموات ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 100 .

108 ﴾

(38/651)

---

وقال ابن عطية :

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) ﴾

أقسم تعالى في هذه الآية بأشياء من مخلوقاته واختلف الناس في معناها ، فقال ابن مسعود ومسروق وقتادة : هي الملائكة التي تصف في السماء في عبادة الله وذكره صفوفاً وقالت فرقة : أراد كل من يصف من بني آدم في قتال في سبيل الله ، أو في صلاة وطاعة ، والتقدير والجماعات الصافات .

(39/651)

---

قال القاضي أبو محمد : واللفظ يحتمل أن يعم هذه المذكورات كلها ، ومما أقسم به عز وجل ﴿ الزاجرات ﴾ واختلف الناس في معناها أيضاً فقال مجاهد والسدي : هي الملائكة

التي تزجر السحاب وغير ذلك من مخلوقات الله تعالى ، وقال قتادة : ﴿ الزاجرات ﴾ هي آيات القرآن المتضمنة النواهي الشرعية ، وقوله ﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ معناه القارئات ، وقال مجاهد والسدي : أراد الملائكة التي تتلو ذكره ، وقال قتادة : أراد بني آدم الذين يتلون كتبه المنزلة وتسبيحه وتكبيره ونحو ذلك ، وقرأ أبو عمرو وحمزة بإدغام التاء في الذال ، وهي قراءة ابن مسعود ومسروق والأعمش ، وقرأ الباقون وجمهور الناس بالإظهار ، وكذلك في كلها ، قال أبو حاتم : والبيان اختيارنا وأما الحاملات وقرا والجاريات يسراً ، فلا يجوز فيها الإدغام لبعد التاء من الحرفين ، ثم بين تعالى المقسم عليه أنه توحيده وأنه واحد أي متحد في جميع الجهات التي ينظر فيها المفكر ، ثم وصف تعالى نفسه بربوبيته جميع المخلوقات ، وذكر ﴿ المشارق ﴾ لأنها مطالع الأنوار والعيون بها أكلف ، وفي ذكرها غنية عن ذكر المغارب إذ معادلتها لها مفهومة عند كل ذي لب ، وأراد تعالى مشارق الشمس وهي مائة وثمانون في السنة فيما يزعمون من أطول أيام السنة إلى أقصرها ، ثم أخبر تعالى عن قدرته من تزيين السماء بالكواكب وانتظم في ذلك التزيين أن جعلها ﴿ حفظاً ﴾ وحرزاً من الشياطين المردة وهم مسترقو السمع ، وقرأ جمهور القراء " بزينةِ الكواكب " بإضافة الزينة إلى " الكواكب " ، وقرأ حمزة وحفص عن عاصم " بزينةٍ الكواكبِ " بتنوين " زينة " وخفض " الكواكبِ " على البدل من الزينة وهي قراءة ابن مسعود ومسروق بخلاف عنه وأبي زرعة بن عمر وابن جرير وابن وثاب وطلحة ، وقرأ أبو بكر عن عاصم " بزينةٍ "

بالتنوين " الكواكبَ " بالنصب وهي قراءة ابن وثاب وأبي عمرو والأعمش ومسروق ، وهذا في الإعراب نحو قوله عز وجل : ﴿ أو إطعام في يوم ذي

(40/651)

---

مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ﴾ [ البلد : 14 ] .

وحكى الزهراوي قراءة " بزينةٍ " بالتنوين " الكواكبُ " بالرفع ، و" المارد " المتجرد للشر ومنه شجرة مرداء لا ورق عليها ، ومنه الأمرد وخص تعالى السماء الدنيا بالذكر لأنها التي تباشر بأبصارنا وأيضاً فالحفظ من الشيطان إنما هو فيه وحدها ، ﴿ وحفظاً ﴾ نصب على المصدر وقيل مفعول من أجله والواو زائدة .

لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (8)

(41/651)

---

﴿ الملأ الأعلى ﴾ أهل السماء الدنيا فما فوقها ، ويسمى الكل منهم أعلى بالإضافة إلى ملإ الأرض الذي هو أسفل ، والضمير في ﴿ يسمعون ﴾ للشياطين ، وقرأ جمهور القراء

والناس "يسْمعون" بسكون السين وتخفيف الميم ، وقرأ حمزة وعاصم في رواية حفص وابن عباس بخلاف عنه وابن وثاب وعبد الله بن مسلم وطلحة والأعمش "لا يسّمّعون" بشد السين والميم بمعنى لا يتسمعون فينتفي على القراءة الأولى سمعهم وإن كانوا يستمعون وهو المعنى الصحيح ، ويعضده قوله تعالى ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ [ الشعراء : 212 ] وينتفي على القراءة الآخرة أن يقع منهم استماع أو سماع ، وظاهر الأحاديث أنهم يستمعون حتى الآن لكنهم لا يسمعون وإن سمع منهم أحد شيئاً لم يفلت الشهاب قبل أن يلقي ذلك السمع إلى الذي تحته ، لأن من وقت محمد صلى الله عليه وسلم ملئت السماء حرساً شديداً وشهباً ، وكان الرجم في الجاهلية أخف ، وروي في هذا المعنى أحاديث صحاح مضمنها أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء فتقعد للسمع واحداً فوق آخر يتقدم الأجسر نحو السماء ثم الذي يليه ثم الذي يليه فيقضي الله تعالى الأمر في الأمور في الأرض ، فيتحدث به أهل السماء ، فيسمعه منهم ذلك الشيطان الأدنى ، فيلقيه إلى الذي تحته ، فربما أحرقه شهاب وقد ألقى الكلام ، وربما لم يحرقه جملة فينزل تلك الكلمة إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة ، فتصدق تلك الكلمة ، فيصدق الجاهلون الجميع ، فلما جاء الله تعالى بالإسلام حرست السماء بشدة فلم يفلت شيطان سمع بتة ، ويروى أنها لا تسمع شيئاً الآن ، والكواكب والراجمة هي التي يراها الناس تنقض منقضية ، قال النقاش

ومكي: وليست بالكواكب الجارية في السماء لأن تلك لا ترى حركتها وهذه الراجمة ترى حركتها لقربها منا .

(42/651)

---

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا نظر، ﴿ ويقذفون ﴾ معناه ويرجمون، و" الدحور " الإصغار والإهانة لأن الدحر الدفع بعنف، وقال مجاهد مطرودين، وقرأ الجمهور " دُحوراً "، بضم الدال، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، " دَحوراً " بفتح الدال، و" الواصب " الدائم، قاله مجاهد وقتادة وعكرمة، وقال السدي وأبو صالح " الواصب " الموجع، ومنه الوصب، والمعنى هذه الحال الغالبة على جميع الشياطين، إلا من شذ فخطف خبراً ونبأً ﴿ فأتبعه شهاب ﴾ فأحرقه، وقرأ جمهور القراء " خَطِف " بفتح الخاء وكسر الطاء وتخفيفها، وقرأ الحسن وقتادة " خِطِّف " بكسر الخاء والطاء وتشديد الطاء، قال أبو حاتم: يقال إنها لغة بكر بن وائل وتميم بن مر، وروي عن ابن عباس " خِطِف " بكسر الخاء والطاء مخففة، و" الثاقب " النافذ بضوئه وشعاعه المنير، قاله قتادة والسدي وابن زيد، وحسب ثاقب إذا كان سنياً منيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(43/651)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والصافات صَفًّا * فالزاجرات زَجْراً * فالتاليات ذِكْراً ﴾

هذه قراءة أكثر القرّاء .

وقرأ حمزة بالإدغام فيهنّ .

وهذه القراءة التي نفر منها أحمد بن حنبل لما سمعها .

النحاس : وهي بعيدة في العربية من ثلاث جهات : إحداهن أن التاء ليست من مخرج الصاد ، ولا من مخرج الزاي ، ولا من مخرج الذال ، ولا من أخواتهن ، وإنما أختاها الطاء والدال ، وأخت الزاي الصاد والسين ، وأخت الذال الظاء والثاء .

والجهة الثانية أن التاء في كلمة وما بعدها في كلمة أخرى .

والجهة الثالثة أنك إذا أدغمت جمعت بين ساكنين من كلمتين ، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة واحدة ؛ نحو دابة وشابة .

ومجاز قراءة حمزة أن التاء قريبة المخرج من هذه الحروف .

"وَالصَّافَّاتِ" قسم ؛ الواو بدل من الباء .

والمعنى برب الصَّافَّات و "الزَّاجِرَاتِ" عطف عليه .

﴿ إِنَّ إلهكم لَوَاحِدٌ ﴾ جواب القسم .

وأجاز الكسائي فتح إن في القسم.

والمراد ب "الصَّافَّاتِ" وما بعدها إلى قوله: ﴿ فالتاليات ذِكْراً ﴾ الملائكة في قول ابن عباس وابن مسعود وعِكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة.

تُصَفّ في السماء كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة.

وقيل: تصفّ أجنحتها في الهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله بما يريد.

وهذا كما تقوم العبيد بين أيدي ملوكهم صفوفاً.

وقال الحسن: "صَفًّا" لصفوفهم عند ربهم في صلاتهم.

وقيل: هي الطير؛ دليله قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ﴾ [الملك: 19].

والصف ترتيب الجمع على خط كالصفّ في الصلاة.

"وَالصَّافَّاتِ" جمع الجمع؛ يقال: جماعة صافة ثم يجمع صافّات.

وقيل: الصّافات جماعة الناس المؤمنين إذا قاموا صفًّا في الصلاة أو في الجهاد؛ ذكره القشيري.

"فَالزَّاجِرَاتِ" الملائكة في قول ابن عباس وابن مسعود ومسروق وغيرهم على ما ذكرناه.

إما لأنها تزجر السحاب وتسوقه في قول السدّي.

وإما لأنها تزجر عن المعاصي بالمواعظ والنصائح .

وقال قتادة : هي زواجر القرآن .

﴿ فالتاليات ذِكْراً ﴾ الملائكة تقرأ كتاب الله تعالى ؛ قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جُبير والسّدي .

وقيل : المراد جبريل وحده فذكر بلفظ الجمع ؛ لأنه كبير الملائكة فلا يخلو من جنود وأتباع .

وقال قتادة : المراد كل من تلا ذكر الله تعالى وكتبه .

وقيل : هي آيات القرآن وصفها بالتلاوة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يَقُصُّ على بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [ النمل : 76 ] .

ويجوز أن يقال لآيات القرآن تاليات ؛ لأن بعض الحروف يتبع بعضاً ؛ ذكره القشيري .

وذكر الماوردي : أن المراد بالتّاليات الأنبياء يتلون الذكر على أممهم .

فإن قيل : ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصفات ؟ قيل له : إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود ؛ كقوله :

يَالَهْفَ زَيَّابَةَ للحارثِ الص . . .

ابِحِ فالغَانِم فالآيِبِ

كأنه قال : الذي صَبَّحَ فغَنِم فآب .

وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك : خذ الأفضل فالأكمل ، واعمل الأحسن فالأجمل .

وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك كقوله : رحم الله المحلِّقين فالمقصِّرين .

فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة في الصفات ؛ قاله الزمخشري .

"إِنَّ إلهاكم لَوَاحِدٌ" جواب القسم .

قال مقاتل : وذلك أن الكفار بمكة قالوا اجعل الآلهة إلها واحداً ، وكيف يسع هذا الخلق فرد إله ! فأقسم الله بهؤلاء تشريفاً .

ونزلت الآية .

قال ابن الأنباري : وهو وقف حسن ، ثم تبتدىء ﴿ رَبُّ السماوات والأرض ﴾ على معنى هو رب السموات .

النحاس : ويجوز أن يكون "رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ" خبراً بعد خبرٍ ، ويجوز أن يكون بدلاً من "وَاحِدٌ" .

قلت : وعلى هذين الوجهين لا يوقف على "لَوَاحدٌ" .

وحكى الأخفش : "رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْمَشَارِقِ" بالنصب على النعت لاسم إن .

بيّن سبحانه معنى وحدانيّته وألوهيته وكمال قدرته بأنه "رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ" أي خالقهما ومالكهما ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشارق ﴾ أي مالك مطالع الشمس.

ابن عباس: للشمس كل يوم مشرق ومغرب؛ وذلك أن الله تعالى خلق للشمس ثلثمائة وخمس وستين كوّة في مطلعها، ومثلها في مغربها على عدد أيام السنة الشمسية، تطلع في كل يوم في كوّة منها، وتغيب في كوّة، لا تطلع في تلك الكوّة إلا في ذلك اليوم من العام المقبل.

ولا تطلع إلا وهي كارهة فتقول: ربّ لا تطلعني على عبادك فإني أراهم يعصونك.

ذكره أبو عمر في كتاب التمهيد، وابن الأنباري في كتاب الرد عن عكرمة؛ قال: قلت لابن عباس أرأيت ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في أمية بن أبي الصَّلْت "آمن شعرهُ وكفر قلبُه" قال: هو حق فما أنكرتم من ذلك؟ قلت: أنكرنا قوله:

والشمسُ تطلُعُ كلَّ آخِرِ ليلةٍ . . .

حمراءَ يُصبحُ لونُها يتورَّدُ

ليست بطالعةٍ لَهم في رِسْلِهَا . . .

إلاَّ مُعَذَّبَةً وَإلاَّ تُجْلَدُ

ما بالُ الشمس تُجْلَد؟ فقال: والذي نفسي بيده ما طلعت شمس قط حتى ينخسها سبعون ألف مَلَك، فيقولون لها اطلعي اطلعي، فتقول لا أطلع على قوم يعبدونني من دون

الله ، فيأتيها ملك فيستقلّ لضياء بني آدم ، فيأتيها شيطان يريد أن يصدّها عن الطلوع

فتطلعُ بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها ، فذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما

طلعت إلا بين قرني شيطان ولا غربت إلا بين قرني شيطان وما غربت قط إلا خرّت لله

ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصدّها عن السجود فتغرُب بين قرنيه فيحرقه الله تعالى

تحتها " لفظ ابن الأنباري .

وذكر عن عكرمة عن ابن عباس قال : صدّق رسول الله صلى الله عليه وسلم أميّة بن أبي

الصَّلْت في هذا الشعر :

زُحَلٌ وثَوْرٌ تحتَ رِجلِ يَمينِهِ . . .

والنّسر للأخرى وليثٌ مُرْصِدُ

والشمسُ تَطلعُ كلَّ آخِرِ ليلةٍ . . .

(46/651)

---

حمراء يصبِحُ لونُها يَتَورَّدُ

ليست بطالعة لهم في رِسْلِها . . .

إلاّ مُعذبَّةً وإلاّ تجْلَدُ

قال عكرمة : فقلت لابن عباس : يا مولاي أتجلد الشمس ؟ فقال : إنما اضطره الرويّ إلى الجلد لكنها تخاف العقاب .

ودلّ بذكر المطالع على المغارب ؛ فلهذا لم يذكر المغارب ، وهو كقوله : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [ النحل : 81 ] .

وخصّ المشارق بالذكر ؛ لأن الشروق قبل الغروب .

وقال في سورة "الرحمن" : ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ [ الرحمن : 17 ] أراد بالمشرقين أقصى مطلع تطلع منه الشمس في الأيام الطوال ، وأقصر يوم في الأيام القصار على ما تقدّم في "يس" والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السمآء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ قال قتادة : خلقت النجوم ثلاثاً ؛ رجوماً للشياطين ، ونوراً يهتدى بها ، وزينة لسماء الدنيا .

وقرأ مسروق والأعمش والنخعي وعاصم وحمزة : "بِزِينَةٍ" مخفوض منوّن "الْكَوَاكِبِ" خفض على البدل من "زينة" لأنها هي .

وقرأ أبو بكر كذلك إلا أنه نصب "الْكَوَاكِب" بالمصدر الذي هو زينة .

والمعنى بأن زينا الكواكب فيها .

ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني ؛ كأنه قال : إنا زيناها "بِزينة" أعني "الكواكِبَ" .

وقيل : هي بدل من زينة على الموضع .

ويجوز "بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبُ" بمعنى بأن زينتها الكواكبُ.

أو بمعنى هي الكواكب.

الباقون "بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ" على الإضافة.

والمعنى زينا السماء الدنيا بتزيين الكواكِب؛ أي بحسن الكواكب.

ويجوز أن يكون كقراءة من نوّن إلا أنه حذف التنوين استخفافا.

﴿ وَحِفْظاً ﴾ مصدر؛ أي حفظناها حفظاً.

﴿ مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ لما أخبر أن الملائكة تنزل بالوحي من السماء، بيّن أنه حرس السماء عن استراق السمع بعد أن زيّنها بالكواكب.

والمارد: العاتي من الجن والإنس، والعرب تسميه شيطاناً.

*(47/651)*

---

قوله تعالى: ﴿ لاَّ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى ﴾ قال أبو حاتم: أي لئلا يسمعوا ثم حذف "أن" فرفع الفعل.

الملأ الأعلى: أهل السماء الدنيا فما فوقها، وسمّي الكل منهم أعلى بالإضافة إلى ملإ الأرض.

الضمير في "يَسَّمَّعُون" للشياطين .

وقرأ جمهور الناس "يَسْمَعُونَ" بسكون السين وتخفيف الميم .

وقرأ حمزة وعاصم في رواية حفص "لاَ يَسَّمَّعُونَ" بتشديد السين والميم من التسميع .

فينتفي على القراءة الأولى سماعهم وإن كانوا يستمعون ، وهو المعنى الصحيح ، ويعضده قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ [ الشعراء : 212 ] .

وينتفي على القراءة الأخيرة أن يقع منهم استماع أو سماع .

قال مجاهد : كانوا يتسمَّعون ولكن لا يسمعون .

وروي عن ابن عباس "لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ" قال : هم لا يسمَّعون ولا يتسمعون .

وأصل "يَسَّمَّعُونَ" يتسمعون فأدغمت التاء في السين لقربها منها .

واختارها أبو عبيد ؛ لأن العرب لا تكاد تقول : سمعت إليه وتقول تسمّعت إليه .

﴿ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ أي يُرمَون من كل جانب ؛ أي بالشُّهب .

﴿ دُحُوراً ﴾ مصدر ؛ لأن معنى "يُقْذَفُونَ" يُدحَرون .

دحرته دَحْراً ودُحُورا أي طردته .

وقرأ السُّلَمي ويعقوب الحضرمي "دَحُوراً" بفتح الدال يكون مصدراً على فعول .

وأما الفرّاء فإنه قدّره على أنه اسم الفاعل .

أي ويقذفون بما يدحرهم أي بدحور ثم حذف الباء ؛ والكوفيون يستعملون هذا كثيراً كما

أنشدوا :

تَمُّرونَ الديارَ ولَمْ تَعوجُوا . . .

واختلف هل كان هذا القذف قبل المبعث ، أو بعده لأجل المبعث ؛ على قولين .

وجاءت الأحاديث بذلك على ما يأتي من ذكرها في سورة "الجن" عن ابن عباس .

(48/651)

---

وقد يمكن الجمع بينهما أن يقال : إن الذين قالوا لم تكن الشياطين ترْمى بالنجوم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ثم رميت ؛ أي لم تكن ترُمَى رمياً يقطعها عن السمع ، ولكنها كانت ترُمَى وقتاً ولا ترُمَى وقتاً ، وترُمى من جانب ولا ترُمَى من جانب .

ولعل الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ إلى هذا المعنى ، وهو أنهم كانوا لا يقذفون إلا من بعض الجوانب فصاروا يرمون واصباً .

وإنما كانوا من قبل كالمتجسسة من الإنس ، يبلغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره ، وَيسلَم واحد ولا يَسلَم غيره ، بل يقبض عليه ويعاقب وينكّل .

فلما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم زِيد في حفظ السماء ، وأعدّت لهم شُهُب لم تكن من قبل ؛ ليُدْحَروا عن جميع جوانب السماء ، ولا يُقَرُّوا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم

منها ؛ فصاروا لا يقدرون على سماع شيء مما يجري فيها ، إلا أن يختطف أحد منهم بخفّة حركته خطفة ، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض فيلقيها إلى إخوانه فيحرقه ؛ فبطلت من ذلك الكهانة وحصلت الرسالة والنبوّة .

فإن قيل : إن هذا القذف إن كان لأجل النبوّة فَلِمَ دام بعد النبي صلى الله عليه وسلم ؟

فالجواب أنه دام بدوام النبوّة ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبر ببطلان الكهانة فقال : " ليس منا من تكهّن " فلو لم تحرس بعد موته لعادت الجنّ إلى تسمّعها ؛ وعادت الكهانة .

ولا يجوز ذلك بعد أن بطل ، ولأنّ قطع الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوّة فعادت الكهانة دخلت الشبهة على ضعفاء المسلمين ، ولم يُؤمَن أن يظنوا أن الكهانة إنما عادت لتناهي النبوّة ، فصحّ أن الحكمة تقضي دوام الحراسة في حياة النبي عليه السلام ، وبعد أن توفاه الله إلى كرامته صلى الله عليه وعلى آله ﴿ وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ ﴾ أي دائم ؛ عن مجاهد وقتادة .

وقال ابن عباس : شديد .

الكلبي والسدّي وأبو صالح : موجع ؛ أي الذي يصل وجعه إلى القلب ؛ مأخوذ من الوصب وهو المرض ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الخطفة ﴾ استثناء من قوله : ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ وقيل : الاستثناء يرجع إلى غير الوحي ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ فيسترق الواحد منهم شيئاً مما يتفاوض فيه الملائكة ، مما سيكون في العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض ؛ وهذا لخفة أجسام الشياطين فيُرجمون بالشُّهب حينئذ .

وروي في هذا الباب أحاديث صحاح ، مضمّنها : أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء ، فتقعد للسمع واحداً فوق واحد ، فيتقدّم الأجسر نحو السماء ثم الذي يليه ثم الذي يليه ، فيقضي الله تعالى الأمر من أمر الأرض ، فيتحدّث به أهل السماء فيسمعه منهم الشيطان الأدنى ، فيلقيه إلى الذي تحته فربما أحرقه شهاب ، وقد ألقى الكلام ، وربما لم يحرقه على ما بيّناه .

فتنزل تلك الكلمة إلى الكهّان ، فيكذبون معها مائة كذبة ، وتصدق تلك الكلمة فيصدّق الجاهلون الجميع كما بيّناه في "الأنعام" .

فلما جاء الله بالإسلام حُرست السماء بشدة ، فلا يفلت شيطان سمع بَتّةً .

والكواكب الراجمة هي التي يراها الناس تنقضّ .

قال النقاش ومكي : وليست بالكواكب الجارية في السماء ؛ لأن تلك لا ترى حركتها ، وهذه الراجمة ترى حركتها ؛ لأنها قريبة منا .

وقد مضى في هذا الباب في سورة "الحجر" من البيان ما فيه كفاية.

وذكرنا في "سبإ" حديث أبي هريرة.

وفيه.

" والشياطين بعضهم فوق بعض " وقال فيه الترمذي حديث حسن صحيح.

وفيه عن ابن عباس: " ويختطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونه إلى أوليائه فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يحرّفونه ويزيدون " قال هذا حديث حسن صحيح.

والخطف: أخذ الشيء بسرعة؛ يقال: خَطَفَ وخَطِفَ وخَطَّفَ وخِطَّفَ وخِطِّفَ.

والأصل في المشدّدات اختطف فأدغم التاء في الطاء لأنها أختها، وفتحت الخاء؛ لأن حركة التاء ألقيت عليها.

(50/651)

---

ومن كسرها فلالتقاء الساكنين.

ومن كسر الطاء أتبع الكسر الكسر.

﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ أي مضيء؛ قاله الضحاك والحسن وغيرهما.

وقيل: المراد كواكب النار تتبعهم حتى تسقطهم في البحر.

وقال ابن عباس في الشهب : تحرقهم من غير موت .

وليست الشُّهُب التي يرجم الناس بها من الكواكب الثوابت .

يدلّ على ذلك رؤية حركاتها ، والثابتة تجري ولا ترى حركاتها لبعدها .

وقد مضى هذا .

وجمع شهاب شهب ، والقياس في القليل أشهِبة وإن لم يُسمع من العرب .

و"ثَاقِبٌ" معناه مضيء ؛ قاله الحسن ومجاهد وأبو مِجْلَز .

ومنه قوله :

وَزَنْدُكَ أَثْقَبُ أزنادِها . . .

أي أضوأ .

وحكى الأخفش في الجمع : شُهُبٌ ثُقُبٌ وثواقب وثقاب .

وحكى الكسائي : ثَقَبتِ النارُ تَثقُب ثَقابةً وثقوباً إذا اتقدت ، وأثقبتها أنا .

وقال زيد بن أسلم في الثاقب : إنه المستوقد ؛ من قولهم : أَثْقِب زِنْدَكَ أي استوقد نارك ؛

وقاله الأخفش .

وأنشد قول الشاعر :

بينما المرءُ شِهابٌ ثاقبٌ . . .

ضربَ الدهرُ سَناهُ فَخَمدْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) ﴾

هذه السورة مكية ، ومناسبة أولها لآخر يس أنه تعالى لما ذكر المعاد وقدرته على إحياء الموتى ، وأنه هو منشئهم ، وإذا تعلقت إرادته بشيء ، كان ذكر تعالى وحدانيته ، إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة وجوداً وعدماً إلا بكون المريد واحداً ، وتقدم الكلام على ذلك في قوله : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ وأقسم تعالى بأشياء من مخلوقاته فقال : ﴿ والصافات ﴾ .

قال ابن مسعود ، وقتادة ، ومسروق : هم الملائكة ، تصف في السماء في العبادة والذكر صفوفاً ؛ وقيل : تصف أجنحتها في الهواء واقفة منتظرة لأمر الله .

وقيل : من يصف من بني آدم في قتال في سبيل الله ، أو في صلاة وطاعة .

وقيل : والطير صافات .

والزاجرات ، قال مجاهد ، والسدي : الملائكة تزجر السحاب وغيرها من مخلوقات الله تعالى .

وقال قتادة : آيات القرآن لتضمنه النواهي الشرعية ؛ وقيل : كل ما زجر عن معاصي الله .

والتاليات : القارئات .

قال مجاهد : الملائكة يتلون ذكره .

وقال قتادة : بنو آدم يتلون كلامه المنزل وتسبيحه وتكبيره .

وقال مجاهد : الملائكة يتلون ذكره .

قال الزمخشري : ويجوز أن يقسم بنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها في التهجد وسائر الصلوات وصفوف الجماعات ، فالزاجرات بالموعظة والنصائح ، فالتاليات آيات الله ، والدارسات شرائعه ؛ أو بنفوس قراء القرآن في سبيل الله التي تصف الصفوف ، وتزجر الخيل للجهاد ، وتتلوا الذكر مع ذلك لا يشغلها عنه تلك الشواغل . انتهى .

وقال ما معناه : إن الفاء العاطفة في الصافات ، إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود كقوله :

يا لهف زيابة للحارث الصابح ، فالغانم ، فالآيب . . .

، أي الذي صبح فغنم فآب ؛ وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه ، كقولك : خذ الأفضل فالأفضل ، واعمل الأحسن فالأجمل ؛ وإما على ترتيب موصوفاتها في ذلك ، كقولك : رحم الله المحلقين فالمقصرين .

فأما هنا ، فإن وحدت الموصوف كانت للدلالة على ترتيب الصافات في التفاضل ، فإذا كان الموحد الملائكة ، فيكون الفضل للصف ، ثم الزجر ، ثم التلاوة ؛ وإما على العكس ، وإن تليت الموصوف ، فترتب في الفضل ، فتكون الصافات ذوات فضل ، والزاجرات أفضل ، والتاليات أبهر فضلاً ، أو على العكس . انتهى .

ومعنى العكس في المكانين : أنك ترتقي من أفضل إلى فاضل إلى مفضول ؛ أو تبدأ بالأدنى ، ثم بالفاضل ، ثم بالأفضل .

وأدغم ابن مسعود ، ومسروق ، والأعمش ، وأبو عمرو ، وحمزة : التاآت الثلاثة .

والجملة المقسم عليها تضمنت وحدانيته تعالى ، أي هو واحد من جميع الجهات التي ينظر فيها المتفكرون خبر بعد خبر ، على مذهب من يجيز تعداد الأخبار ، أو خبر مبتدأ محذوف ، وهو أمدح ، أي هو رب .

وذكر المشارق لأنها مطالع الأنوار ، والإبصار بها أكلف ، وذكرها يغني عن ذكر المغارب ، إذ ذاك مفهوم من المشارق ، والمشارق ثلاثمائة وستون مشرقاً ، وكذلك المغارب .

تشرق الشمس كل يوم من مشرق منها وتغرب في مغرب ، ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين .

وثني في ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ باعتبار مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما .

وقال ابن عطية : أراد تعالى مشارق الشمس ومغاربها ، وهي مائة وثمانون في السنة ، فيما يزعمون ، من أطول أيام السنة إلى أقصرها .

ثم أخبر تعالى عن قدرته بتزيين السماء بالكواكب ، وانتظام التزيين أن جعلها حفظاً وحذراً من الشيطان . انتهى .

والزينة مصدر كالسنة ، واسم لما يزان به الشيء ، كالليقة اسم لما يلاق به الدواة .

وقرأ الجمهور : ﴿ بزينة الكواكب ﴾ بالإضافة ، فاحتمل المصدر مضافاً للفاعل ، أي بأن زانت السماء الكواكب ، ومضافاً للمفعول ، أي بأن زين الله الكواكب .

واحتمل أن يكون ما يزان به ، والكواكب بيان للزينة ، لأن الزينة مبهمة في الكواكب وغيرها مما يزان به ، أو مما زينت الكواكب من إضاءتها وثبوتها .

(53/651)

---

وقرأ ابن مسعود ، ومسروق : بخلاف عنه ؛ وأبو زرعة ، وابن وثاب ، وطلحة : بزينة منوناً ، الكواكب بالخفض بدلاً من زينة .

وقرأ ابن وثاب ، ومسروق : بخلاف عنهما ؛ والأعمش ، وطلحة ، وأبو بكر : بزينه منوناً ، الكواكب نصباً ، فاحتمل أن يكون بزينة مصدراً ، والكواكب مفعول به ، كقوله : ﴿ أو

إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ﴾ واحتمل أن يكون الكواكب بدلاً من السماء ، أي زينا كواكب السماء .

وقرأ زيد بن علي بتنوين زينة ، ورفع الكواكب على خبر مبتدأ ، أي هو الكواكب ، أو على الفاعلية بالمصدر ، أي بأن زينت الكواكب .

ورفع الفاعل بالمصدر المنون ، زعم الفراء أنه ليس بمسموع ، وأجاز البصريون ذلك على قلة .

وقال ابن عباس : ﴿ بزينة الكواكب ﴾ : بضوء الكواكب ؛ قيل : ويجوز أن يراد أشكالها المختلفة ، كشكل الثريا ، وبنات نعش ، والجوزاء ، وغير ذلك ، ومطالعها ومسايرها .

وخص ﴿ السماء الدنيا ﴾ بالذكر ، لأنها التي تشاهد بالأبصار ؛ والحفظ من الشياطين ، إنما هو فيها وحدها .

وانتصب ﴿ وحفظاً ﴾ على المصدر ، أي وحفظناها حفظاً ، أو على المفعول من أجله على زيادة الواو ، أو على تأخير العامل ، أي ولحفظها زيناها بالكواكب ، وحملاً على معنى ما تقدم ، لأن المعنى : إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً : وكل هذه الأقوال منقولة ، والمارد تقدم شرحه في قوله : ﴿ شيطاناً مريداً ﴾ في النساء ، وهناك جاء ﴿ مريداً ﴾ ، وهنا ﴿ مارد ﴾ ، مراعاة للفواصل .

﴿ لا يسمعون إلا الملأ الأعلى ﴾ : كلام منقطع مبتدأ اقتصاصاً لما عليه حال المسترقة

للسمع ، وأنهم لا يقدرون أن يستمعوا أو يسمعوا ، وهم مقذوفون بالشهب مبعدون عن ذلك ، إلا من أمهل حتى خطف الخطفة واسترق استراقة ، فعندها تعاجله الملائكة باتباع الشهاب الثاقب .

*(54/651)*

---

ولا يجوز أن يكون لا يسمعون صفة ولا استئنافاً جواباً لسائل سأل لم يحفظ من الشياطين ، لأن الوصف كونهم لا يسمعون ، أو الجواب لا معنى للحفظ من الشياطين على تقديرهما ، إذ يصير المعنى مع الوصف : وحفظاً من كل شيطان مارد غير سامع أو مسمع ، وكذلك لا يستقيم مع كونه جواباً .

وقول من قال : إن الأصل لأن لا يسمعوا ، فحذفت اللام وإن ، فارتفع الفعل ، قول متعسف يصان كلام الله عنه .

وقرأ الجمهور : لا يسمعون : نفي سماعهم ، وإن كانوا يسمعون بقوله : ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ وعداه بإلى لتضمنه معنى الإصغاء .

وقرأ ابن عباس بخلاف عنه ؛ وابن وثاب ، وعبد الله بن مسلم ، وطلحة ، والأعمش ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص : بشد السين والميم بمعنى لا يتسمعون ، أدغمت التاء في

السين ، وتقتضي نفي التسمع .

وظاهر الأحاديث أنهم يتسمعون حتى الآن ، لكنهم لا يسمعون ؛ وإن سمع أحد منهم شيئاً لم يفلت حرساً وشهباً من وقت بعثة رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) .

وكان الرجم في الجاهلية أحق ، فأما كانت ثمرة التسمع هو السمع ، وقد انتفى السمع بنفي التسمع في هذه القراءة لانتفاء ثمرته ، وهو السمع .

و ﴿ الملأ الأعلى ﴾ يعم الملائكة ، والإنس والجن هم الملأ الأسفل لأنهم سكان الأرض .

وقال ابن عباس : هم أشراف الملائكة ، وعنه كتابهم .

﴿ ويقذفون ﴾ : يرمون ويرجمون ، ﴿ من كل جانب ﴾ : أي من كل جهة يصعدون إلى السماء منها ، والمرجوم بها هي التي يراها الناس تنقض ، وليست بالكواكب الجارية في السماء ، لأن تلك لا ترى حركتها ، وهذه الراجمة ترى حركتها لقربها منا ، قاله مكي والنقاش .

وقرأ محبوب عن ابن عمرو : ويقذفون مبنياً للفاعل ، ودحوراً مصدر في موضع الحال .

قال مجاهد : مطرودين ، أو مفعول من أجله ، أي ولو يقذفون للطرد ، أو مصدر ليقذفون ، لأنه متضمن معنى الطرد ، أي ويدحرون من كل جانب دحوراً ، ويقذفون من كل جانب قذفاً .

فإما أن يكون التجوز في ويقذفون ، وإما في دحوراً .

وقرأ عليّ ، والسلمي ، وابن أبي عبلة ، والطبراني عن رجاله عن أبي جعفر : دحوراً ، بنصب الدال ، أي قذفاً دحوراً ، بنصب الدال .

ويجوز أن يكون مصدراً ، كالقبول والولوغ ، إلا أن هذه ألفاظ ذكر أنها محصورة .

والواصب : الدائم ، قاله السدّي وأبو صالح ، وتقدّم في سورة النحل .

ويقال : وصب الشيء وصوباً : دام .

وقال مجاهد : الموجع ، ومنه الوصب ، كأن المعنى : أنهم في الدنيا مرجومون ، وفي الآخرة معذبون .

ويجوز أن يكون هذا العذاب الدائم لهم في الدنيا ، وهو رجمهم دائماً ، وعدم بلوغهم ما يقصدون من استراق السمع .

﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ : من بدل من الضمير في لا يسمعون ، ويجوز أن يكون منصوباً على الاستثناء ، أي لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي خطف .

وقرأ الجمهور : خطف ثلاثياً بكسر الطاء .

وقرأ الحسن ، وقتادة : بكسر الخاء والطاء مشددة .

قال أبو حاتم : ويقال هي لغة بكر بن وائل وتميم بن مرة .

وقرىء : خطّف بفتح الخاء وكسر الطاء مشددة ، ونسبها ابن خالويه إلى الحسن وقتادة وعيسى ، وعن الحسن أيضاً التخفيف .

وأصله في هاتين القراءتين اختطف ، ففي الأول لما سكنت للإدغام ، والخاء ساكنة ، كسرت لالتقاء الساكنين ، فذهبت ألف الوصل وكسرت الطاء اتباعاً لحركة الخاء .

وعن ابن عباس : خطف بكسر الخاء والطاء مخففة ، اتبع حركة الخاء لحركة الطاء ، كما قالوا نعم .

وقرىء : فاتبعه ، مخففاً ومشدداً .

والثاقب ، قال السدي وقتادة : هو النافذ بضوئه وشعاعه المنير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

*(56/651)*

---

وقال أبو السعود :

( سورة الصافات مكية وآياتها مائة واثنتان وثمانون آية )

﴿ بِسْمِ الله الرحمن الرحيم ﴾

*(57/651)*

﴿ والصافات صفًّا ﴾ إقسامٌ من اللّهِ عزّ وجلّ بطوائفَ الملائكةِ الفاعلاتِ للصُّفوفِ على أنّ المرادَ إيقاعُ نفسِ الفعلِ من غيرِ قصدٍ إلى المفعولِ أو الصّافّاتُ أنفسُها أي النّاظمات أنفسَها أي النّاظمات لها في سلك الصُّفوفِ بقيامها في مقاماتِها المعلومةِ حسبما ينطقُ به قولُه تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ وعلى هذينِ المعنيينِ مدارُ قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافون ﴾ وقيل الصّافاتُ أقدامها في الصّلاةِ وقيل أجنحتها في الهواءِ ﴿ فالزجرات زَجْراً ﴾ أي الفاعلاتِ للزّجرِ أو الزّاجراتِ لما نيطَ بها زجرُه من الأجرامِ العلويّةِ والسُّفليّةِ وغيرِها على وجهٍ يليقُ بالمزجورِ . ومن جُملة ذلك زجرُ العبادِ عن المعاصي وزجرُ الشّياطينِ عن الوسوسةِ والإغواءِ وعن استراقِ السّمعِ كما سيأتي ، وصفًّا وزَجْراً مصدرانِ مؤكّدانِ لما قبلهما أي صفًّا بديعاً وزَجْراً بليغاً ، وأمّا ذِكراً في قولِه تعالى : ﴿ فالتاليات ذِكْراً ﴾ فمفعولُ التّالياتِ ذكراً عظيمَ الشّأنِ من آياتِ اللّهِ تعالى وكتبِه المنزّلةِ على الأنبياءِ عليهم الصّلاةُ والسّلامُ وغيرِها من التّسبيحِ والتّقديسِ والتّحميدِ والتّمجيدِ وقيل هو أيضاً مصدرٌ مؤكّد لما قبلَه فإنّ التّلاوةَ من بابِ الذكرِ ثم إنّ هذه الصّفاتِ إنْ أُجريتْ على الكلّ فعطفُها بالفاءِ للدّلالةِ على ترتّبها في الفضلِ إمّا بكونِ الفضلِ للصّفِ ثمّ للزّجرِ ثمّ للتّلاوةِ أو على العكسِ ، وإن أُجريت كلٌّ واحدة منهنّ على طوائفَ معيّنةٍ فهو للدّلالةِ على ترتُّبِ الموصوفاتِ في مراتب الفضل بمعنى أنّ طوائفَ الصّافّاتِ ذواتُ فضل والزّاجراتُ

أفضلُ والتَّالياتُ أبهرُ فضلاً أو على العكس. وقيل المرادُ بالمذكوراتِ نفوسُ العلماءِ العمَّالِ الصَّافَّاتُ أنفسَها في صفوف الجماعاتِ وأقدامها في الصَّلَواتِ

(58/651)

---

الزَّاجراتُ بالمواعظ والنَّصائحِ التَّالياتُ آياتِ الله تعالى الدَّارساتُ شرائعه وأحكامَه.

وقيل طوائفُ الغُزاة الصَّافَّات أنفسَهم في مواطنِ الحروبِ كأنَّهم بنيانٌ مرصوصٌ. أو طوائفُ قُوَّادِهم الصَّافَّاتُ لهم فيها الزَّاجراتُ الخيلَ للجهادِ سوقاً والعدوَّ في المعارك طَرْداً التَّالياتُ آياتِ اللَّهِ تعالى وذكره وتسبيحَه في تضاعيفِ ذلك. والكلامُ في العطفِ ودلالتِه على ترتُّبِ الصِّفاتِ في الفضلِ أو ترتُّب موصوفاتِها فيه كالذي سلفَ، وأمَّا الدِّلالةُ على التَّرتُّبِ في الوجودِ كما في قوله

يا لهفَ زيَّابةَ للحارث ال . . . صابحِ فالغانمِ فالآيبِ

فغيرُ ظاهرةٍ في شيءٍ من الطَّوائفِ المذكورة، فإنَّه لو سُلِّم تقدُّمُ الصَّفِ على الزَّجرِ في الملائكةِ والغزاةِ فتأخُّرُ التِّلاوةِ عن الزَّجرِ غيرُ ظاهرٍ. وقيل الصَّافَّاتُ الطَّيرُ من قوله تعالى: ﴿ والطير صافات ﴾ والزَّاجراتُ كلُّ ما يزجرُ عن المعاصِي، والتَّالياتُ كلُّ مَن يتلو كتابَ اللَّهِ تعالى. وقيل الزَّاجراتُ القوارعُ القرآنية. وقُرىء بإدغامِ التَّاءِ في الصَّادِ والزاي والذَّالِ.

﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ جوابٌ للقسمِ . والجملةُ تحقيقٌ للحقِّ الذي هو التَّوحيدُ بما هو المألوفُ في كلامِهم من التَّأكيدِ القسميِّ وتمهيد لما يعقبُه من البُرهانِ النَّاطقِ به أعني قوله تعالى ﴿ رَبُّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشارق ﴾ فإنَّ وجودَها وانتظامَها على هذا النَّمطِ البديعِ من أوضحِ دلائلِ وجودِ الصَّانعِ وعلمِه وقُدرتِه وأعدلُ شواهدِ وحدتهِ كما مرَّ في قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا ﴾ وربُّ خبرٌ ثانٍ لأنَّ ، أو خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ أي مالكُ السموات والأرضِ وما بينهما من الموجوداتِ ومربِّيها ومبلِّغها إلى كمالاتِها . والمرادُ بالمشارقِ مشارقُ الشَّمسِ . وإعادةُ الربِّ فيها لغايةِ ظهورِ آثارِ الرُّبوبيَّةِ فيها وتجدُّدِها كلَّ يومٍ فإنَّها ثلاثمائة وستُّون مشرقاً تشرقُ كُلَّ يومٍ من مشرقٍ منها وبحسبها تختلفُ المغاربُ وتغربُ كلَّ يومٍ في مغربٍ منها وأما قولُه تعالى : ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ فهما مشرقا الصَّيفِ والشِّتاءِ ومغرباهُما ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السماء الدنيا ﴾ أي القُربى منكم ﴿ بِزِينَةٍ ﴾ عجيبة بديعة ﴿ الكواكب ﴾ بالجرِّ بدلٌ من زينةٍ على أن المرادَ بها الاسمُ ، أي ما يُزان به لا المصدرُ فإنَّ الكواكبَ بأنفسها وأوضاعِ بعضِها من بعضٍ زينةٌ وأيُّ زينةٍ . وقُرىء بالإضافةِ على أنَّها بيانيَّةٌ لما أنَّ الزِّينةَ مبهمة صادقة على كلِّ ما يُزان

به فتقع الكواكب بياناً لها ويجوز أنْ يُراد بزينةِ الكواكبِ ما زُيِّنت هي به وهو ضوؤها .

ورُوي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما : بزينةِ الكواكبِ بضوءِ الكواكبِ . هذا وإمَّا على تقديرِ كونِ الزِّينةِ مصدراً فالمعنى على تقدير إضافتها إلى الفاعل بأنْ زانتِ الكواكبُ إيَّاها ، وأصله بزينة الكواكب . وعلى تقدير إضافتها إلى المفعولِ بأنْ زانَ اللَّهُ الكواكبَ وحسَّنها ، وأصله بزينة

(60/651)

---

الكواكب . والمرادُ هو التَّزيينُ في رأي العينِ فإنَّ جميع الكواكب من الثَّوابتِ والسَّياراتِ تبدو للنَّاظرينَ كأنَّها جواهرُ مُتلالئةٌ في سطحِ سماء الدُّنيا بصورٍ بديعةٍ وأشكال رائعة ولا يقدحُ في ذلك ارتكازُ الثَّوابتِ في الفلك الثَّامنِ وما عدا القمرَ في السنةِ المتوسطة إنْ ثبتَ ذلك .

﴿ وَحِفْظاً ﴾ منصوبٌ إمَّا بعطفه على زينةٍ باعتبار المعنى كأنَّه قيل إنَّا خلقنا الكواكبَ زينةً للسَّماءِ وحِفظاً ﴿ مّن كُلّ شيطانٍ مَّارِدٍ ﴾ أي خارجٍ عن الطَّاعةِ برمي الشُّهبِ . وإمَّا بإضمار فعلِه ، وإمَّا بتقدير فعلٍ مؤخَّرٍ معلَّلٍ به كأنَّه قيل وحِفظاً من كلِّ شيطانٍ ماردٍ زيَّناها بالكواكب ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لاَّ يَسَّمَّعُونَ إلى الملإ الاعلى ﴾ كلامٌ مبتدأٌ مسوقٌ لبيان

حالهم بعد بيانِ حفظِ السَّماءِ عنهم من التَّنبيهِ على كيفيةِ الحفظِ وما يعتريهم في أثناء ذلك من العذابِ ، ولا سبيلَ إلى جعلِه صفةً لكلِّ شيطانٍ ولا جواباً عن سؤالٍ مقدَّرٍ لعدمِ استقامةِ المعنى ولا علَّةً للحفظِ على أن يكونَ الأصلُ لئلاَّ يسمعُوا فحُذفتِ اللاَّمُ كما حُذفتْ من قولك جئتُك أنْ تكرمني فبقي أَنْ لا يسمعُوا ثم يحذفُ أنْ ويُهدرُ عملُها كما في قولِ مَن قال

(61/651)

---

أَلا أَيُّهذا الزَّاجِري أحْضرَ الوَغَى . . . لما أنَّ كلَّ واحدٍ من ذينكَ الحذفينِ غيرُ منكرٍ بانفرادِه ، فأمَّا اجتماعُهما فمنْ أنكرِ المنكراتِ التي يجبُ تنزيهُ ساحةِ التَّنزيلِ الجليلِ عن أمثالها . وأصلُ يسمَّعون يتسمَّعُون . والملأُ الأعلى : الملائكةُ . وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما : هم الكَتَبةُ . وعنه أشرافُ الملائكةِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ أي لا يتطلَّبون السَّماعَ والإصغاءَ إليهم . وقُرىء يسمعُون بالتَّخفيفِ ﴿ وَيَقْذِفُونَ ﴾ يُرمَون ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ من جميع جوانبِ السَّماءِ إذا قصدوا الصُّعودَ إليها ﴿ دُحُوراً ﴾ علَّةً للقذفِ أي للدُّحورِ وهو الطَّردُ . أو حالٌ بمعنى مدحورينَ أو مصدرٌ مؤكِّدٌ له لأنَّهما من وادٍ واحدٍ . وقُرىء دَحُوراً بفتح الدَّالِ أي قَذْفاً دَحُوراً مبالغاً في الطَّردِ . وقد جوِّزَ أنْ يكونَ مصدراً كالقَبُولِ والوَلُوعِ

﴿ وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ ﴾ أي ولهم في الآخرة غيرُ ما في الدُّنيا من عذاب الرَّجمِ بالشُّهبِ عذابٌ شديد دائمٌ غيرُ منقطعٍ كقوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السعير ﴾ ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة ﴾ استثناءٌ من واوِ يسمَّعون . ومَن بدلٌ منه والخطفُ الاختلاسُ والمرادُ اختلاسُ كلامِ الملائكةِ مسارقةً كما يُعرب عنه تعريفُ الخَطفةِ . وقُرىء بكسرِ الخاءِ والطَّاءِ المشدَّدةِ وبفتحِ الخاء وكسرِ الطَّاءِ وتشديدها ، وأصلُهما اختطفَ ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ﴾ أي تبعه ولحقه . وقُرىء فأتبعه . والشِّهابُ ما يُرى منقضاً من السَّماءِ ﴿ ثَاقِبٌ ﴾ مضيءٌ في الغايةِ كأنَّه يثقبُ الجوَّ بضوئِه يُرجم به الشَّياطينُ إذا صعدُوا لاستراقِ السَّمعِ فيقتلهم أو يحرقُهم أو يخبلُهم . قالُوا : وإنَّما يعودُ من يَسلم منهم حيًّا طمعاً في السَّلامةِ ونيلِ المُرادِ كراكبِ السَّفينةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(62/651)

---

وقال الآلوسى :

بسْمِ الله الرحمن الرَّحيم

﴿ والصافات صَفَّا ﴾

إقسام من الله تعالى بالملائكة عليهم السلام كما روى عن ابن عباس .

وابن مسعود .

ومسروق .

ومجاهد .

وعكرمة .

وقتادة .

والسدي ، وأبى أبو مسلم ذلك وقال : لا يجوز حمل هذه اللفظ وكذا ما بعد على الملائكة لأن اللفظ مشعر بالتأنيث والملائكة مبرؤن عن هذه الصفة ، وفيه أن هذا في معنى جمع الجمع فهو جمع صافة أي طائفة أو جماعة صافة ، ويجوز أن يكون تأنيث المفرد باعتبار أنه ذات ونفس والتأنيث المعنوي هو الذي لا يحسن أن يطلق عليهم وأما اللفظ فلا مانع منه كيف وهم المسمون بالملائكة ، والوصف المذكور منزل منزلة اللازم على أن المراد إيقاع نفس الفعل من غير قصد إلى المفعول أي الفاعلان للصفوف أو المفعول محذوف أي الصافات أنفسها أي الناظمات لها في سلك الصفوف بقيامها في مقاماتها المعلومة حسبما ينطق به قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [ الصافات : 164 ] وذلك باعتبار تقديم الرتبة والقرب من حظيرة القدس أو الصافات أنفسها القائمات صفوفاً للعبادة ، وقيل : الصافات أقدامها للصلاة ، وقيل : الصافات أجنحتها في الهواء منتظرات أمر الله تعالى ، وقيل : المراد بالصافات الطير من قوله تعالى : ﴿ والطير صافات ﴾ [ النور : 41 ] ولا

يعول على ذلك ، و﴿ صَفًّا ﴾ مصدر مؤكد وكذا ﴿ زَجْرًا ﴾ في قوله تعالى :

﴿ فالزجرات زَجْرًا ﴾ وقيل : صفا مفعول به وهو مفرد أريد به الجمع أي الصافات صفوفها وليس بذاك ، والمراد بالزاجرات الملائكة عليهم السلام أيضاً عند الجمهور ، والزجر في الأصل الدفع عن الشيء بتسلط وصياح وأنشدوا

: زجر أبي عروة السباع إذا . . .

أشفق أن يختلط بالغنم

(63/651)

---

ويستعمل بمعنى السوق والحث وبمعنى المنع ، والنهي وإن لم يكن صياح والوصف منزل منزلة اللازم أو مفعوله محذوف أي الفاعلات للزجر أو الزاجرات ما نيط بها زجره من الأجرام العلوية والسفلية وغيرها على وجه يليق بالمزجور ، ومن جملة ذلك زجر العباد عن المعاصي بالهام الخير وزجر الشياطين عن الوسوسة والإغواء وعن استراق السمع كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ، وعن قتادة المراد بالزاجرات آيات القرآن لتضمنها النواهي الشرعية ، وقيل كل ما زجر عن معاصي الله عز وجل ، والمعول عليه ما تقدم ، وكذا المراد كما روي عن ابن عباس .

وابن مسعود .

وغيرهما في قوله تعالى :

﴿ فالتاليات ذِكْراً ﴾ الملائكة عليهم السلام .

و﴿ ذِكْراً ﴾ نصب على أنه مفعول وتنوينه للتفخيم ، وهو بمعنى المذكور المتلو وفسر بكتاب الله عز وجل .

(64/651)

---

قال أبو صالح : هم الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله عز وجل إلى الناس فالمراد بتلاوته تلاوته على الغير ، وفسره بعضهم بالآيات والمعارف الإلهية والملائكة يتلونهما على الأنبياء والأولياء ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب الإشارة ما يتعلق بتلاوة الملائكة ذلك على الأولياء قدس الله تعالى أسرارهم ، وقال بعض : أي فالتاليات آيات الله تعالى وكتبه المنزلة على الأنبياء عليهم السلام وغيرها من التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد ، ولعل التلاوة على هذا أعم من التلاوة على الغير وغيرها ، وقيل ﴿ ذِكْراً ﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد على غير اللفظ لتكون المنصوبات على نسق واحد ، وقال قتادة : التاليات ذكراً بنو آدم يتلون كتابه تعالى المنزل وتسبيحه وتكبيره ، وجوز أن يكون الله تعالى

أقسم بنفوس العلماء العمال الصافات أنفسها في صفوف الجماعات أو أقدامها في الصلوات الزاجرات بالمواعظ والنصائح التاليات آيات الله تعالى الدارسات شرائعه وأحكامه أو بطوائف قواد الغزاة في سبيل الله تعالى التي تصف الصفوف في مواطن الحروب الزاجرات الخيل للجهاد سوقاً أو العدو في المعارك طرداً التاليات آيات الله سبحانه وذكره وتسبيحه في تضاعيف ذلك .

وجوز أيضاً أن يكون أقسم سبحانه بطوائف الأجرام الفلكية المرتبة كالصفوف المرصوصة بعضها فوق بعض والنفوس المدبرة لتلك الأجرام بالتحريك ونحوه والجواهر القدسية المستغرقة في بحار القدس يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهم الملائكة الكروبيون ونحوهم ؛ وهذا بعيد بمراحل عن مذهب السلف الصالح بل عن مذهب أهل السنة مطلقاً كما لا يخفى ، والفاء العاطفة للصفات قد تكون لترتيب معانيها الوصفية في الوجود الخارجي إذا كانت الذات المتصفة بها واحدة كما في قوله

: يا لهف زيابة للحادث الس . . .

ابح فالغانم فالآيب

أي الذي صبح فغنم فآب ورجع أو لترتيب معانيها في الرتبة إذا كانت الذات واحدة أيضاً

كما في قولك : أتم العقل فيك إذا كنت شاباً فكهلاً أو لترتيب الموصوفات بها في الوجود كما

في قولك : وقفت كذا على بني بطنا فبطنا أو في الرتبة نحو رحم الله تعالى المحلقين فالمقصرين

، وكلاهما مع تعدد الموصوف والترتيب الرتبي إما باعتبار الترقي أو باعتبار التدلي ، وهي

إذا كانت الذات المتصفة بالصفات هنا واحدة وهم الملائكة عليهم السلام بأسرهم تحتمل

أن تكون للترتيب الرتبي باعتبار الترقي فالصف في الرتبة الأولى لأنه عمل قاصر والزجر

أعلى منه لما فيه من نفع الغير والتلاوة أعلى وأعلى لما فيها من نقع الخاصة الساري إلى نفع

العامة بما فيه صلاح المعاش والمعاد أو للترتيب الخارجي من حيث وجود ذوات الصفات

فالصف يوجد أولاً لأنه كمال للملائكة في نفسها ثم يوجد بعده الزجر للغير لأنه تكميل للغير

يستعد به الشخص ما لم يكمل في نفسه لا يتأهل لأن يكمل غيره ثم توجد التلاوة بناءً على

أنها إفاضة على الغير يستعد به الشخص ما لم يكمل في نفسه لا يتأهل لأن يكمل غيره ثم

توجد التلاوة بناءً على أنها إفاضة على الغير المستعد لها وذا لا يتحقق إلا بعد حصول

الاستعداد الذي هو من آثار الزجر ، وإذا كانت الذات المتصفة بها من الملائكة عليهم

السلام متعددة بمعنى أن صنفاً منهم كذا وصنفاً آخر كذا فالظاهر أنها للترتيب الرتبي

باعتبار الترقي كما في الشق الأول فالجماعات الصافات كاملون والزاجرات أكمل منها

والتاليات أكمل وأكمل كما يعلم مما سبق ، وقيل يجوز أن يكون بعكس ذلك بأن يراد

بالصافات جماعات من الملائكة صافات من حول العرش قائمات في مقام العبودية وهم الكروبيون المقربون أو ملائكة آخرون يقال لهم كما ذكر الشيخ الأكبر قدس الله سره المهيمون مستغرقون بحبه تعالى لا يدري أحدهم أن الله عز وجل خلق غيره وذكر أنهم لم يؤمروا بالسجود لآدم عليه السلام لعدم شعورهم

(66/651)

---

باستغراقهم به تعالى وأنهم المعنيون بالعالين في قوله تعالى :

(67/651)

---

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ [ ص : 75 ] وبالزاجرات جماعات أخر أمرت بتسخير العلويات والسفليات وتدبيرها لما خلقت له وهي في الفضل على ما لها من النفع للعباد دون الصافات وبالتاليات ذكراً جماعات أخر أمرت بتلاوة المعارف على خواص الخلق وهي لخصوص نفعها دون الزاجرات أو المراد بالزاجرات الزاجرات الناس عن القبيح بالهام جهة قبحه وما ينفر عن ارتكابه وبالتاليات ذكراً المهمات للخير والجهات المرغبة فيه

، ولكون دفع الضر أولى من جلب الخير ودرء المفاسد أهم من جلب المصالح ولذا قيل التخلية بالخاء مقدمة على التحلية كانت التاليات دون الزاجرات ، وحال الفاء على سائر الأقوال السابقة في السفات لا يخفى على من له أدنى تأمل ويجوز عندي والله تعالى أعلم أن يراد بالصافات المصطفون للعبادة من صلاة ومحاربة كفرة مثلاً ملائكة كانوا أم أناسى أم غيرهما وبالزاجرات الزاجرون عن ارتكاب المعاصي بأقوالهم أو أفعالهم كائنين من كانوا وبالتاليات ذكراً التالون لآيات الله تعالى على الغير للتعليم أو نحو كذلك ، ولا عناد بين هذه الصفات فتجتمع في بعض الأشخاص ، ولعل الترتيب على سبيل الترقي باعتبار نفس الصفات فالاصطفاف للعبادة كمال والزجر عن ارتكاب المعاصي أكمل والتلاوة لآيات الله تعالى للتعليم لتضمنه الأمر بالطاعات والنهي عن المعاصي والتخلي عن الرذائل والتحلي بالمعارف إلي أمور أخر أكمل وأكمل ؛ وجعل الصفات المذكورة لموصوف واحد من الملائكة على ما مر بأن تكون جماعات منهم صافات بمعنى صافات أنفسها في سلك الصفوف بالقيام في مقاماتها المعلومة أو القائمات صفوفاً للعبادة وتاليات ذكراً بمعنى تاليات الآيات بطريق الوحي على الأنبياء عليهم السلام لا يخلو عن بعد فيما أرى على أن تعدد الملائكة التالين للوحي سواء كان صنفاً مستقلاً أم لا مما يشكل عليه ما ذكره غير واحد أن الأمين على الوحي التالي للذكر على الأنبياء هو جبريل عليه السلام

لا غير ، نعم من الآيات ما ينزل مشيعاً بجمع من الملائكة عليهم السلام ونطق الكتاب الكريم بالرصد عند إبلاغ الوحي وهذا أمر والتلاوة على الأنبياء عليهم السلام أمر آخر فتأمل جميع ذلك ، وفي المراد بالصفات المتناسقة احتمالات غير ما ذكر فلا تغفل .

وأياً ما كان فالقسم بتلك الجماعات أنفسها ولا حجر على الله عز وجل فله سبحانه أن يقسم بما شاء فلا حاجة إلى القول بأن الكلام على حذف مضاف أي ورب الصافات مثلاً ، والآية ظاهرة الدلالة على مذهب سيبويه .

والخليل في مثل ﴿ والليل إِذَا يغشى والنهار إِذَا تجلى ﴾ [ الليل : 1 ، 2 ] من أن الواو الثانية وما بعدها للعطف خلافاً لمذهب غيرهما من أنها للقسم لوقوع الفاء فيها موقع الواو إلا أنها تفيد الترتيب .

وأدغم ابن مسعود .

ومسروق .

والأعمش وأبو عمرو .

وحمزة التاآت الثلاث فيما يليها للتقارب فإنها من طرف اللسان وأصول الثنايا .

﴿ إِنَّ إلهكم لَوَاحِدٌ ﴾ جواب للقسم وقد جرت عادتهم على تأكيد ما يهتم به بتقديم القسم ولذا قدم ههنا فلا يقال : إنه كلام مع منكر مكذب فلا فائدة في القسم ، وما قيل من

أن وحدة الصانع قد ثبتت بالدليل النقلي بعد ثبوتها بالعقل ففائدته ظاهرة هنا غير تام لأن الكلام مع من لا يعترف بالتوحيد ، وقد أشير إلى البرهان

في قوله سبحانه :

﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشارق ﴾ فإن وجودها على هذا النمط البديع أوضح دليل على وحدته عز وجل بل في كل ذرة من ذرات العالم دليل على ذلك .

وفي كل شيء له آية . . .

تدل على أنه واحد

ورب خبر ثان لأن على مذهب من يجوز تعدد الأخبار أو خبر مبتدأ محذوف أو هو رب السموات الخ .

وجوز أبو البقاء .



---

وغيره كونه بدلاً من ﴿ واحد ﴾ فهو المقصود بالنسبة أي خالق السموات والأرض وما بينهما من الموجودات ويدخل في عموم الموصول أفعال العباد فتدل الآية على أنها مخلوقة له تعالى ولا ينافي ذلك كون قدرة العبد مؤثرة بإذنه عز وجل كما ذهب إليه معظم السلف

حتى الأشعري نفسه في آخر الأمر على ما صرح به بعض الأجلة ، وفسر بعضهم الرب هنا بالمالك وبالمربي ، ولعل الأول أظهر .

(70/651)

---

وفي دلالة الآية على كون أفعال العباد مخلوقة له على ذلك بحث ، والمراد ب المشارق عند جمع مشارق الشمس لأنها المعروفة الشائعة فيما بينهم وهي بعدد أيام السنة فإنها في كل يوم تشرق من مشرق وتغرب في مغرب فالمغارب متعددة تعدد المشارق ، وكأن الاكتفاء بها لاستلزامها ذلك مع أن الشروق أدل على القدرة وأبلغ في النعمة ، ولهذا استدل به إبراهيم عليه السلام عند محاجة النمروذ ، وعن ابن عطية أن مشارق الشمس مائة وثمانون ، ووفق بعضهم بين هذا وما يقتضيه ما تقدم من مضاعفة العدد بأن مشارقها من رأس السرطان وهو أول بروج الصيف إلى رأس الجدي وهو أول بروج الشتاء متحدة معها من رأس الجدي إلى رأس السرطان وهو أول بروج الصيف إلى رأس الجدي وهو أول بروج الشتاء متحدة معها من رأس الجدي إلى رأس السرطان فإن اعتبر ما كانت عليه وما عادت إليه واحداً كانت مائة وثمانين وإن نظر إلى تغايرهما كانت ثلثمائة وستين ، وفي هذا إسقاط الكسر فإن السنة الشمسية تزيد على ذلك العدد بنحو ستة أيام على ما بين في

موقعه، وفسرت المشارق أيضاً بمشارق الكواكب، ورجح بأنه المناسب لقوله تعالى بعد ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ﴾ [الصافات: 6] الخ، وهي للسيارات منها متفاوتة في العدد، وأكثرها مشارق على ما هو المعروف عند المتقدمين زحل ومشارقه إلى أن يتم دورته أكثر من مشارق الشمس إلى أن تتم دورتها بألوف، ومشارق الثوابت إلى أن تتم الدورة أكثر وأكثر فلا تغفل وتبصر، وتثنية المشرق والمغرب في قوله تعالى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [الرحمن: 17] على إرادة مشرق الصيف ومشرق الشتاء ومغربيهما، وإعادة ﴿ رَبّ ﴾ هنا مع المشارق لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجددها كل يوم.

(71/651)

---

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السماء الدنيا ﴾ أي أقرب السموات من أهل الأرض فالدنيا هنا مؤنث أدنى بمعنى أقرب أفعل تفضيل ﴿ بِزِينَةٍ ﴾ عجيبة بديعة ﴿ الكواكب ﴾ بالجر بدل من ﴿ زِينَةُ ﴾ بدل كل على أن المراد بها الاسم أي ما يزان به لا المصدر فإن الكواكب بأنفسها وأوضاع بعضها من بعض زينة وأي زينة

: فكأن أجرام النجوم لوامعا . . .

درر نثرن على بساط أزرق

وجوز أن تكون عطف بيان .

وقرأ الأكثرون ﴿ بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ بالإضافة على أنها بيانية لما أن الزينة مبهمة صادقة على كل ما يزان به فتقع الكواكب بياناً لها ، ويجوز أن تكون لامية على أن الزينة للكواكب أضواؤها أو أوضاعها ، وتفسيرها بالأضواء منقول عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وجوز أن تكون الزينة مصدراً كالنسبة وإضافتها من إضافة المصدر إلى مفعوله أي زينا السماء الدنيا بتزييننا الكواكب فيها أو من إضافة المصدر إلى فاعله أي زيناها بأن زينتها الكواكب ، وقرأ ابن وثاب .

ومسروق .

بخلاف عنهما .

والأعمش .

وطلحة .

وأبو بكر ﴿ بِزِينَةٍ ﴾ منوناً ﴿ الكواكب ﴾ نصباً فاحتمل أن يكون زينة مصدراً والكواكب مفعول به كقوله تعالى : ﴿ أَوْ طَعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ﴾ [ البلد : 14 ، 15 ] وليس هذا من المصدر المحدود كالضربة حتى يقال لا يصح إعماله كما نص عليه ابن مالك لأنه وضع مع التاء كالكتابة والإصابة وليس كل تاء في المصدر للوحدة ، وأيضاً ليست هذه الصيغة صيغة الوحدة ، واحتمل أن يكون ﴿ الكواكب ﴾ بدلاً من ﴿

السماء ﴾ بدل اشتمال واشتراط الضمير معه للمبدل منه إذا لم يظهر اتصال أحدهما بالآخر كما قرروه في قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصحاب الاخدود النار ﴾ [ البروج : 4 ، 5 ] .

وقيل : اللام بدل منه ، وجوز كونه بدلاً من محل الجار والمجرور أو المجرور وحده على القولين ، وكونه منصوباً بتقدير أعني .

(72/651)

---

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ بِزِينَةٍ ﴾ منوناً ﴿ الكواكب ﴾ رفعاً على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي الكواكب أو فاعل المصدر ورفعه الفاعل قد أجازه البصريون على قلة ، وزعم الفراء أنه ليس بمسموع .

وظاهر الآية أن الكواكب في السماء الدنيا ولا مانع من ذلك وإن اختلفت حركاتها وتفاوتت سرعة وبطأ لجواز أن تكون في أفلاكها وأفلاكها في السماء الدنيا وهي ساكنة ولها من الثخن ما يمكن معه نضد تلك الأفلاك المتحركة بالحركات المتفاوتة وارتفاع بعضها فوق بعض .

وحكى النسيا بوري في تفسير سورة التكوير عن الكلبي أن الكواكب في قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور وتلك السلاسل بأيدي الملائكة عليهم السلام ، وهو مما

يكذبه الظاهر ولا أراه إلا حديث خرافة .

وأما ما ذهب إليه جل الفلاسفة من أن القمر وحده في السماء الدنيا وعطارد في السماء الثانية والزهرة في الثالثة والشمس في الرابعة والمريخ في الخامسة والمشتري في السادسة وزحل في السابعة والثوابت في فلك فوق السابعة هو الكرسي بلسان الشرع فمما لا يقوم عليه برهان يفيد اليقين ، وعلى فرض صحته لا يقدح في الآية لأنه يكفي لصحة كون السماء الدنيا مزينة بالكواكب كونها كذلك في رأي العين .

﴿ وَحِفْظاً ﴾ نصب على أنه مفعول مطلق لفعل معطوف على ﴿ زَيَّنَّا ﴾ [ الصافات : 6 ] أي وحفظناها حفظاً أو عطف على ﴿ زِينَةُ ﴾ باعتبار المعنى فإنه معنى مفعول له كأنه قيل : إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً لها ، والعطف على المعنى كثير وهو غير العطف على الموضع وغير عطف التوهم وجوز كونه مفعولاً له بزيادة الواو أو على تأخير العامل أي ولحفظها زيناها .

وقوله تعالى :

﴿ مِّن كُلِّ شيطان مَّارِدٍ ﴾ متعلق بحفظنا المحذوف أو بحفظا ، والمارد كالمريد المتعري عن الخيرات من قولهم شجر أمرد إذا تعرى من الورق ، ومنه قيل رملة مرداء إذا لم تنبت شيئاً ، ومنه الأمرد لتجرده عن الشعر ، وفسر هنا أيضاً بالخارج عن الطاعة وهو في معنى التعري عنها

﴿ لاَّ يَسَّمَّعُونَ إلى الملإ الاعلى ﴾ أي لا يتسمعون وهذا أصله فأدغمت التاء في السين ، وضمير الجمل لكل شيطان لأنه بمعنى الشياطين .

وقرأ الجمهور ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ بالتخفيف ، والملأ في الأصل جماعة يجتمعون على رأي فيملؤن العيون رواء والنفوس جلالة وبهاء ، ويطلق على مطلق الجماعة وعلى الأشراف مطلقاً ، والمراد بالملأ الإلا على الملائكة عليهم السلام كما روي عن السدي لأنهم في جهة العلو ويقابله الملأ الأسفل وهم الإنس والجن لأنهم في جهة السفل .

وقال ابن عباس : هم أشراف الملائكة عليهم السلام ، وفي رواية أخرى عنه أنهم كتابهم ، وفسر العلو على الروايتين بالعلو المعنوي .

وتعدية الفعل على قراءة الجمهور بإلى لتضمينه معنى الإصغاء أي لا يسمعون مصغين إلى الملأ الأعلى ، والمراد نفي سماعهم مع كونهم مصغين ، وفيه دلالة على مانع عظيم ودهشة تذهلهم عن الإدراك ، وكذا على القراءة الأخرى وهي قراءة ابن عباس بخلاف عنه .

وابن وثاب .

وعبد الله بن مسلم .

وطلحة .

والأعمش .

وحمزة .

والكسائي .

(74/651)

---

وحفص بناءً على ما هو الظاهر من أن التفعل لا يخالف ثلاثيه في التعدية ، واستعمال تسمع مع إلى لا يقتضي كونه غير مضمن ، وقيل لا يحتاج إلى اعتبار التضمين عليها والتفعل مؤذن بالطلب فتسمع بمعنى طلب السماع ، قيل : ويشعر ذلك بالإصغاء لأن طلب السماع يكون بالإصغاء فتتوافق القراءتان وإن لم يقل بالتضمين في قراءة التشديد ، ولعل الأولى القول بالتضمين ونفي طلبهم السماع مع وقوعه منهم حتى قيل : إنه يركب بعضهم بعضاً لذلك إما ادعائي للمبالغة في نفي سماعهم أو هو على ما قيل بعد وصولهم إلى محل الخطر لخوفهم من الرجم حتى يدهشوا عن طلب السماع ، وقال أبو حيان : إن نفي التسمع لانتفاء ثمرته وهو السمع .

وقال ابن كمال: عدي الفعل في القراءتين بإلى لتضمنه معنى الانتهاء أي لا ينتهون بالسمع أو التسمع إلى الملأ الأعلى وليس بذاك كما لا يخفى على المتأمل الصادق، والجملة في المشهور مستأنفة استئنافاً نحوياً ولم يجوز كونها صفة لشيطان قالوا إذ لا معنى للحفظ من شياطين لا تسمع أو لا تسمع مع إيامه لعدم الحفظ عمن عداها.

وكذا لم يجوز كونها استئنافاً بيانياً واقعاً جواب سؤال مقدر إذ المتبادر أن يؤخذ السؤال من فحوى ما قبله فتقديره حينئذٍ لم تحفظ فيعود محذور الوصفية، وكذا كونها حالاً مقدرة لأن الحال كذلك يقدرها صاحبها والشياطين لا يقدرون عدم السماع أو عدم التسمع ولا يريدونه، وجوز ابن المنير كونها صفة والمراد حفظ السموات ممن لا يسمع أو لا يسمع بسبب هذا الحفظ، وهو نظير ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾ [المؤمنون: 44] ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾

[النحل: 12] ومن هنا لم يجعل بعض الأجلة قوله عليه الصلاة والسلام: " من قتل قتيلاً فله سلبه " من مجاز الأول.

وتعقب بأن ذلك خلاف المتبادر ولا يكاد يفهم من أضرب الرجل المضروب كونه مضروباً بهذا الضرب المأمور به لا بضرب آخر قبله ، وكذا جوز صاحب الكشف كونها صفة وكونها مستأنفة استئنافاً بيانياً أيضاً ودفع المحذور وأبعد في ذلك المغزى كعادته في سائر تحقيقاته فقال : المعنى لا يمكنون من السماع مع الإصغاء أولاً يمكنون من التسمع مبالغة في نفي السماع كأنهم مع مبالغتهم في الطلب لا يمكنهم ذلك ، ولا بد من ذلك جعلت الجملة وصفاً ولا جمعاً بين القراءتين وتوفية لحق الإصغاء المدلول عليه بإلى وحينئذٍ يكون الوصف شديد الطباق ؛ ورد الاستئناف البياني وارد على تقدير السؤال لم تحفظ ؟ وليس كذلك بل السؤال عما يكون عند الحفظ وعن كيفيته لأن قوله سبحانه : ﴿ وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شيطانٍ مَّارِدٍ ﴾ [ الصافات : 7 ] مما يحرك الذهن له فقيل ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ جواباً عما يكون عنده ﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾ لكيفية الحفظ ، وهذا أولى من جعلها مبدأ اقتصاص مستطرد لئلا ينقطع ما ليس بمنقطع معنى انتهى .

واستدقه الخفاجي واستحسنه وذكر أن حاصله أنه ليس المنفي هنا السماع المطلق حتى يلزم ما ظنوه من فساد المعنى لأنه لما تعدى بإلى وتضمن معنى الإصغاء صار المعنى حفظناها من شياطين لا تنصت لما فيها إنصاتاً تاماً تضبط به ما تقوله الملائكة عليهم السلام ، ومآله حفظناها من شياطين مسترقة للسمع ، وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ ﴾ [ الصافات : 10 ] الخ ينادي على صحته ، والمناقشة بحديث الأوصاف قبل العلم

بها أخبار إن جاءت لا تتم فالحديث غير مطرد ، وقيل : إن الأصل لأن لا يسمعوا على أن الجار متعلق بحفظاً فحذفت اللام كما في جئتك أن تكرمني ثم حذفت أن ورفع الفعل كما في قوله

: ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى . . .

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

وفيه أن حذف اللام وحذف أن ورفع الفعل وإن كان كل منهما واقعاً في الفصيح إلا أن اجتماع الحذفين منكر يصان كلام الله تعالى عنه .

(76/651)

---

وأبو البقاء يجوز كون الجملة صفة وكونها استئنافاً وكونها حالاً فلا تغفل .

﴿ وَيَقْذِفُونَ ﴾ أي يرمون ويرجمون ﴿ مِن كُلّ جَانِبٍ ﴾ من جوانب السماء إذا قصدوا الصعود عليها ، وليس المراد أن كل واحد يرمي من كل جانب بل هو على التوزيع أي كل من صعد من جانب رمى منه .

وقرأ محبوب عن أبي عمرو ﴿ يقذفون ﴾ بالبناء للفاعل ولعل الفاعل الملائكة ، وجوز أن يكون الكواكب ، وأمر ضمير العقلاء سهل

دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9)

﴿ دُحُوراً ﴾ مفعول له وعلة للقذف أي للدحور وهو الطرد والإبعاد أو مفعول مطلق ليقذفون كقعدت جلوساً لتنزيل المتلازمين منزلة المتحدين فيقام دحوراً مقام قذفاً أو ﴿ يقذفون ﴾ مقام يدحرون ، وعلى التقديرين هو مصدر مؤكد أو حال من ضمير ﴿ يقذفون ﴾ [ الصافات : 8 ] على أنه مصدر باسم المفعول على القراءة الشائعة وهو في معنى الجمع لشموله للكثير أي مدحورين ، وجوز كونه جمع داحر بمعنى مدحور كقاعد وقعود ، وكونه جمع داحر من غير تأويل بناءً على القراءة الأخرى ، وجوز أن يكون منصوباً بنزع الخافض وهو الباء على أنه جمع دحر كدهر ودهور وهو ما يدحر به أي يقذفون بدحور .

وقرأ السلمي .

وابن أبي عبلة .

والطبراني عن أبي جعفر ﴿ جَانِبِ دُحُوراً ﴾ بفتح الدال فاحتمل كونه نصباً بنزع الخافض أيضاً وهو على هذه القراءة أظهر لأن فعولاً بالفتح بمعنى ما يفعل به كثير كطهور وغسول لما يتطهر ويغسل به ، واحتمل أن يكون صفة كصبور لموصوف مقدر أي قذفاً دحوراً طارداً لهم ، وأن يكون مصدراً كالقبول وفعول في المصادر نادر ولم يأت في كتب التصريف منه إلا خمسة أحرف الوضوء والطهور والولوع والوقود والقبول كما حكي عن

سيبويه وزيد عليه الوزوع بالزاي المعجمة والهوى بفتح الهاء بمعنى السقوط والرسول بمعنى الرسالة.

﴿ وَلَهُمْ ﴾ أي في الآخرة ﴿ عَذَابِ ﴾ آخر غير ما في الدنيا من عذاب الرجم بالشهب ﴿ وَاصِبٌ ﴾ أي دائم كما قال قتادة.

وعكرمة.

(77/651)

---

وابن عباس، وأنشدوا لأبي الأسود:

لا أشتري الحمد القليل بقاؤه...

يوماً بذم الدهر أجمع واصبا

وفسره بعضهم بالشديد، قيل والأول حقيقة معناه وهذا تفسير له بلازمه.

والآية على ما سمعت كقوله تعالى: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السعير ﴾ [ الملك: 5 ]

وجوز أبو حيان أن يكون هذا العذاب في الدنيا وهو رجمهم دائماً وعدم بلوغهم ما يقصدون من استراق السمع.

﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة ﴾ استثناء متصل من واو ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ [ الصافات: 8 ]

و﴿ مِنْ ﴾ بدل منه على ما ذكره الزمخشري ومتابعوه ، وقال ابن مالك : إذا فصل بين المستثنى والمستثنى منه فالمختار النصب لأن الإبدال للتشاكل وقد فات بالتراخي ، وذكره في "البحر" هنا وجهاً ثانياً ، وقيل : هو منقطع على أن ﴿ مِنْ ﴾ شرطية جوابها الجملة المقرونة بالفاء بعد وليس بذاك ، والخطف الاختلاس والأخذ بخفة وسرعة على غفلة المأخوذ منه ، والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقة كما يعرب عنه تعريف الخطفة بلام العهد لأن المراد بها أمر معين معهود فهي نصب على المصدرية ، وجوز أن تكون مفعولاً به على إرادة الكلمة .

وقرأ الحسن وقتادة ﴿ خَطِفَ ﴾ بكسر الخاء والطاء مشددة ، قال أبو حاتم : ويقال هي لغة بكر بن وائل .

وتميم بن مر والأصل اختطف فسكنت التاء للإدغام وقبلها خاء ساكنة فالتقى ساكنان فحركت الخاء بالكسر على الأصل وكسرت الطاء للاتباع وحذفت ألف الوصل للاستغناء عنها .

وقرىء ﴿ خَطِفَ ﴾ بفتح الخاء وكسر الطاء مشددة ونسبها ابن خالويه إلى الحسن . وقتادة .

وعيسى ، واستشكلت بأن فتح الخاء سديد لإلقاء حركة التاء عليها ، وأما كسر الطاء فلا وجه له ، وقيل في توجيهها : إنهم نقلوا حركة الطاء إلى الخاء وحذفت ألف الوصل ثم قلبوا التاء وأدغموا وحركوا الطاء بالكسر على أصل التقاء الساكنين وهو كما ترى ، وعن ابن عباس ﴿ خَطِفَ ﴾ بكسر الخاء والطاء مخففة أتبع على ما في "البحر" حركة الخاء لحركة الطاء كما قالوا نعم ﴿ فَأَتْبَعَهُ ﴾ أي تبعه ولحقه على أن أتبع من الأفعال بمعنى تبع الثلاثي فيتعدى لواحد ﴿ شِهَابٌ ﴾ هو في الأصل الشعلة الساطعة من النار الموقدة ، والمراد به العارض المعروف في الجو الذي يرى كأنه كوكب منقض من السماء ﴿ ثَاقِبٌ ﴾ مضيء كما قال الحسن .

وقتادة كأنه ثقب الجو بضوئه ، وأخرج ابن أبي شيبة .

وعبد بن حميد .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن يزيد الرقاضي أنه قال : يثقب الشيطان حتى يخرج من الجانب الآخر فذكر ذلك لأبي مجلز فقال : ليس ذاك ولكن ثقوبه ضوؤه ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ الثاقب ﴾ المتوقد وهو قريب مما تقدم .

وأخرج عن السدي ﴿ الثاقب ﴾ المحرق ، وليست الشهب نفس الكواكب التي زينت بها

السماء فإنها لا تنقض وإلا لانتقصت زينة السماء بل لم تبق ، على أن المنقض إن كان نفس الكواكب بمعنى أنه ينقلع عن مركزه ويرمي به الخاطف فيرى لسرعة الحركة كرمح من نار لزم أن يقع على الأرض وهو إن لم يكن أعظم منها فلا أقل من أن ما انقض من الكواكب من حين حدث الرمي إلى اليوم أعظم منها بكثير فيلزم أن تكون الأرض اليوم مغشية بإجرام الكواكب والمشاهدة تكذب ذلك بل لم نسمع بوقوع جرم كوكب أصلاً .

(79/651)

---

وأصغر الكواكب عند الإسلاميين كالجبل العظيم ، وعند الفلاسفة أعظم وأعظم بل صغار الثوابت عندهم أعظم من الأرض وإن التزم أنه يرمي به حتى إذا تم الغرض رجع إلى مكانه قيل عليه : إنه حينئذٍ يلزم أن يسمع لهويه صوت هائل فإن الشهب تصل إلى محل قريب من الأرض ، وأيضاً عدم مشاهدة جرم كوكب هابطاً أو صاعداً يأبى احتمال انقلاع الكوكب والرمي به نفسه ، وإن كان المنقض نوره فالنور لا أذى فيه فالأرض مملوءة من نور الشمس وحشوها الشياطين ، على أنه إن كان المنقض جميع نوره يلزم انتقاص الزينة أوذهابها بالكلية ، وإن كان بعض نوره يلزم أن تتغير أضواء الكواكب ولم يشاهد في شيء منها ذلك ، وأمر انقضاضه نفسه أو انفصال ضوئه على تقدير كون الكواكب الثوابت في

الفلك الثامن المسمى بالكرسي عند بعض الإسلاميين وأنه لا شيء في السماء الدنيا سوى القمر أبعد وأبعد .

*(80/651)*

---

والفلاسفة يزعمون استحالة ذلك لزعمهم عدم قبول الفلك الخرق والالتئام إلى أمور أخر ، ويزعمون في الشهب أنها أجزاء بخارية دخانية لطيفة وصلت كرة النار فاشتعلت وانقلبت ناراً ملتهبة فقد ترى ممتدة إلى طرف الدخان ثم ترى كأنها طفئت وقد تمكث زماناً كذوات الأذناب وربما تتعلق بها نفس على ما فصلوه ، وهم مع هذا لا يقولون بكونها ترمي بها الشياطين بل هم ينكرون حديث الرمي مطلقاً ، وفي النصوص الإلهية رجوم لهم ، ولعل أقرب الاحتمالات في أمر الشهب أن الكوكب يقذف بشعاع من نوره فيصل أثره إلى هواء متكيف بكيفية مخصوصة يقبل بها الاشتعال بما يقع عليه من شعاع الكوكب بالخاصية فيشتعل فيحصل ما يشاهد من الشهب ، وإن شئت قلت : إن ذلك الهواء المتكيف بالكيفية المخصوصة إذا وصل إلى محل مخصوص من الجو أثرت فيه أشعة الكواكب بما أودعه الله تعالى فيها من الخاصية فيشتعل فيحصل ما يحصل ، وتأثير الأشعة الحرق في القابل له مما لا ينكر فإنا نرى شعاع الشمس إذا قوبل ببعض المناظر على كيفية مخصوصة

أحرق قابل الإحراق ولو توسط بين المنظرة وبين القابل إناء بلور مملوء ماء ، ويقال : إن الله تعالى يصرف ذلك الحاصل إلى الشيطان المسترق للسمع وقد يحدث ذلك وليس هناك مسترق ، ويمكن أن يقال : إنه سبحانه يخلق الكيفية التي بها يقبل الهواء الإحراق في الهواء الذي في جهة الشيطان ، ولعل قرب الشيطان من بعض أجزاء مخصوصة من الهواء معد بخاصية أحدثها الله تعالى فيه لخلقه عز وجل تلك الكيفية في ذلك الهواء القريب منه مع أنه عز وجل يخلق تلك الكيفية في بعض أجزاء الهواء الجوية حيث لا شيطان هناك أيضاً .

(81/651)

---

وإن شئت قلت : إنه يخرج شؤبوب من شعاع الكوكب فيتأذى به المارد أو يحترق ، والله عز وجل قادر على أن يحرق بالماء ويروى بالنار والمسببات عند الأسباب لا بها وكل الأشياء مسندة إليه تعالى ابتداءً عند الأشاعرة ، ولا يلزم على شيء مما ذكر انتقاص ضوء الكوكب ، ولو سلم أنه يلزم انتقاص على بعض الاحتمالات قلنا : إنه عز وجل يخلق بلا فصل في الكوكب بدل ما نقص منه وأمره سبحانه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

ولا ينافي ما ذكرنا قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ [ الملك : 5 ] لأن جعلها رجوماً يجوز أن يكون لأنه بواسطة وقوع أشعتها

على ما ذكرنا من الهواء تحدث الشهب فهي رجوم بذلك الاعتبار ولا يتوقف جعلها رجوماً على أن تكون نفسها كذلك بأن تنقلع عن مراكزها ويرجم بها ، وهذا كما تقول : جعل الله تعالى الشمس يحرق بها بعض الأجسام فإنه صادق فيما إذا أحرق بها بتوسيط بعض المناظر وانعكاس شعاعها على قابل الإحراق .

وزعم بعضالناس أن الشهب شعل نارية تحدث من أجزاء متصاعدة إلى كرة النار وهي الرجوم ولكونها بواسطة تسخين الكواكب للأرض قال سبحانه : ﴿ وجعلناها رُجُوماً ﴾ على التجوز في إسناد الجعل إليها أو في لفظها ، ولا يخفى أن كرة النار مما لم تثبت في كلام السلف ولا ورد فيها عن الصادق عليه والصلاة والسلام خبر ، وقيل : يجوز أن تكون المصابيح هي الشهب وهي غير الكواكب وزينة السماء بالمصابيح لا يقتضي كونها فيها حقيقة إذ يكفي كونها في رأي العين كذلك ، وقيل : يجوز أن يراد بالسماء جهة العلو وهي مزينة بالمصابيح والشهب كما مزينة بالكواكب .

وتعقب هذا بأن وصف السماء بالدنيا يبعد إرادة الجهة منها .

وتعقب ما قبله بأن المتبادر أن المصابيح هي الكواكب ولا يكاد يفهم من قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السماء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ [ الصافات : 6 ] وقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ [ الملك : 5 ] إلا شيء واحد ، وأن كون الشهب المعروفة زينة السماء مع سرعة تقضيها وزوالها وربما دهش من بعضها مما لا يسلم ، والقول بأنه يجوز اطلاق الكوكب على الشهاب للمشابهة فيجوز أن يراد بالكواكب ما يشمل الشهب وزينة السماء على ما مر آنفاً زيد فيه على ما تقدم ما لا يخفى ما فيه ، نعم يجوز أن يقال : إن الكوكب ينفصل منه نور إذا وصل إلى محل مخصوص من الجو انقلب ناراً ورؤي منقضاً ولا يعجز الله عز وجل شيء ، وقد يقال : إن في السماء كواكب صغاراً جداً غير مرئية ولو بالأرصاد لغاية الصغر وهي التي يرمي بها أنفسها ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ [ الملك : 5 ] من باب عندي درهم ونصفه و

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السماء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب وَحِفْظاً ﴾ [ الصافات : 6 ، 7 ] الآية ان كان على معنى وحفظاً بها فهو من ذلك الباب أيضاً وإلا فالأمر أهون فتدبر .

(83/651)

واختلف في أن المرجوم هل يهلك بالشهاب إذا أصابه أو يتأذي به من غير هلاك فعن ابن عباس أن الشياطين لا تقتل بالشهاب ولا تموت ولكنها تحرق وتخبل أي يفسد منها بعض أعضائها ، وقيل تهلك وتموت ومتى أصاب الشهاب من اختطف منهم كلمة قال للذي يليه كان كذا وكذا قبل أن يهلك ، ولا يأبى تأثير الشهاب في كونهم مخلوقين من النار لأنهم ليسوا من النار الصرفة كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة استهلكتها ، وأياً ما كان لا يقال : إن الشياطين ذوو فطنة فكيف يعقل منهم العود إلى استراق السمع مرة بعد مرة مع أن المسترق يهلك أو يتأذى الأذى الشديد واستمرار انقضاض الشهب دليل استمرار هذا الفعل منهم لأنا نقول : لا نلسم استمرار هذا الفعل منهم واستمرار الانقضاض ليس دليلاً عليه لأن الانقضاض يكون للاستراق ويكون لغيره فقد أشرنا فيما سبق أن الهواء قد يتكيف بكيفية مخصوصه فيحترق بسبب أشعة الكواكب وإن لم يكن هناك مسترق ، وقيل : يجوز أن ترى الشهب لتعارض في الأهوية واصطكاك يحصل منه ما ترى كما يحصل البرق باصطكاك السحاب على ما روي عن بعض السلف وحوادث الجو لا يعلمها إلا الله تعالى فيجوز أن يكونوا قد استرقوا أولاً فشاهدوا ما شاهدوا فتركوا واستمرت الشهب تحدث لما ذكر لا لاستراق الشياطين ، ويجوز أن يقع أحياناً مم حدث منهم ولم يعلم بما جرى على رؤوس المسترقين قبله أو ممن لا يبالي بالأذى ولا بالموت حباً لأن يقال ما أجسره أو ما أشجعه مثلاً كما يشاهد في كثير من

الناس يقدمون في المعارك على ما يتيقنون هلاكهم به حباً لمثل ذلك ، ولعل في وصف الشياطين بالمارد ما يستأنس به لهذا الاحتمال ، وأما ما قيل : إن الشهاب قد يصيب الصاعد مرة وقد لا يصيب كالموج لراكب السفينة ولذلك لا يرتدعون عنه رأساً فخلاف المأثور ، فقد أخرج ابن أبي حاتم .

(84/651)

---

وأبو الشيخ في العظمة عن ان عباس رضي الله تعالى عنهما قال : إذا رمي بالشهاب لم يخطىء من رمي به ، ثم إن ما ذكر من احتمال أنهم قد تركوا بعد أن صحت عندهم التجربة لا يتم إلا على ما روي عن الشعبي من أنه لم يقذف بالنجوم حتى ولد النبي صلى الله عليه وسلم فلما قذف بها جعل الناس يسيبون أنعامهم ويعتقون رقيقهم يظنون أنه القيامة فأتوا عبد ياليل الكاهن وقد عمي وأخبروه بذلك فقال : انظروا إن كانت النجوم المعروفة من السيارة والثوابت فهو قيام الساعة وإلا فهو أمر حادث فنظروا فإذا هي غير معروفة فلم يمض زمن حتى أتى خبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ووافق على عدم حدوثه قبل ابن الجوزي في المنتظم لكنه قال : إنه حدث بعد عشرين يوماً من مبعثه ، والصحيح أن القذف كان قبل ميلاده عليه الصلاة والسلام ، وهو كثير في أشعار الجاهلية إلا انه يحتمل انه لم يكن

طارداً للشياطين وأن يكون طارداً لهم لكن لا بالكلية وان يكون طارداً لهم بالكلية ، وعلى هذا لا يتأتى الاحتمال السابق ، وعلى الاحتمال الأول من هذه الاحتمالات يكون الحادث يوم الميلاد طردهم بذلك ، وعلى الثاني طردهم بالكلية وتشديد الأمر عليهم لينحسم أمرهم وتخليطهم ويصح الوحي فتكون الحجة أقطع ، والذي يترجح أنه كان قبل الميلاد طارداً لكن لا بالكلية فكان يوجد استراق على الندرة وشدد في بدء البعثة ، وعليه يراد بخبر لم يقذف بالنجوم حتى ولد النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يكثر القذف بها ، وعلى هذا يخرج غيره إذا صح كالخبر المنقول في السير أن إبليس كان يخترق السموات قبل عيسى عليه السلام فلما بعث أو ولد حجب عن ثلاث سموات ولما ولد النبي صلى الله عليه وسلم حجب عنها كلها وقذفت الشياطين بالنجوم فقال قريش : قامت الساعة فقال عتبة بن ربيعة : انظروا إلى العيوق فإن كان رمي به فقد آن قيام الساعة وإلا فلا ، وقال بعضهم : اتفق المحدثون على أنه كان قبل لكن كثر وشدد لما جاء الإسلام ولذا

(85/651)

---

قال تعالى :

﴿ مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ﴾ [ الجن : 8 ] ولم يقل حرست ، وبالجملة لا جزم عندنا

بأن ما يقع من الشهب في هذه الاعصار ونحوها رجوم للشياطين والجزم بذلك رجم بالغيب هذا وقد استشكل أمر الاستراق بأمور ، منها إن الملائكة في السماء مشغولون بأنواع العبادة أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد فماذا تسترق الشياطين منهم ؟ وإذا قيل : إن منهم من يتكلم بالحوادث الكونية فهم على ﴿ محدبها ﴾ والشياطين تسترق تحت مقعرها وبينهما كما صح في الأخبار خمسمائة عام فكيف يتأتى السماع لا سيما والظاهر أنهم لا يرفعون أصواتهم إذا تكلموا بالحوادث إذ لا يظهر غرض برفعها ، وعلى تقدير أن يكون هناك رفع صوت فالظاهر أنه ليس بحيث يسمع من مسيرة خمسمائة عام .

وعلى تقدير أن يكون بهذه الحيثية فكرة الهواء تنقطع عند كرة النار ولا يسمع صوت بدون هواء .

وأجيب بأن الاستراق من ملائكة العنان وهم يتحدثون فيما بينهم بما أمروا به من السماء من الحوادث الكونية ، و﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السماء ﴾ [ الجن : 8 ] طلبنا خبرها أو من الملائكة النازلين من السماء بالأمر فإن ملائكة على أبواب السماء ومن حيث ينزلون يسألونهم بماذا تذهبون ؟ فيخبونهم ، وليس الاستراق من الملائكة الذين على محدب السماء ، وأمر كرة النار لا يصح ، والهواء غير منقطع وهو كلما رق ولطف كان أعون على السماع ، على أن وجود الهواء مما لا يتوقف عليه السماع على أصول الأشاعرة ومثله عدم

البعد المفرط، وظاهر خبر أخرجه ابن أبي حاتم.

عن عكرمة أن الاستراق من الملائكة في السماء قال: "إذا قضي الله تعالى أمراً تكلم تبارك وتعالى فتخر الملائكة كلهم سجداً فتحسب الجن أن أمراً يقضي فتسترق فإذا عن قلوب الملائكة عليهم السلام ورفعوا لأرؤوسهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا جميعاً: الحق وهو العلي الكبير" وجاء في خبر أخرجه ابن أبي شيبة.

(86/651)

---

وعبد بن حميد.

وابن المنذر عن إبراهيم التيمي: "إذا أراد ذو العرش أمراً سمعت الملائكة كجر السلسلة على الصفا فيغشى عليهم فإذا قاموا قالوا: ماذا قال ربكم؟ قال من شاء الله: الحق وهو العلي الكبير ولعله بعد هذا الجواب يذكر الأمر بخصوصه فيما بين الملائكة عليهم السلام، وظاهر ما جاء في بعض الروايات عن ابن عباس من تفسير الملأ الأعلى بكتبة الملائكة عليهم السلام أيضاً أن الاستراق من ملائكة في السماء إذ الظاهر أن الكتبة في السماء، ولعله يتلى عليهم من اللوح ما يتلى فيكتبونه لأمر ما فتطمع الشياطين باستراق شيء منه، وأمر البعد كأمر الهواء لا يضر في ذلك على الأصول الأشعرية، ويمكن أن يدعى أن جرم

السماء لا يحجب الصوت وإن كثف ، وكم خاصية أثبتها الفلاسفة للافلاك ليس عدم الحجب أغرب منها .

ومنها أنه يغني عن الحفظ من استراق الشياطين عدم تمكينهم من الصعود إلى حيث يسترق السمع ، أو أمر الملائكة عليهم السلام بإخفاء كلامهم بحيث لا يسمعونه ، أو جعل لغتهم مخالفة للغتهم بحيث لا يفهمون كلامهم .

وأجيب بأن وقوع الأمر على ما وقع من باب الابتلاء ، وفيه أيضاً من الحكم ما فيه ، ولا يخفى أن مثل هذا الاشكال يجري في أشياء كثيرة إلا أن كون الصانع حكيماً وأنه جل شأنه قد راعى الحكمة فيما خلق وأمر على أتم وجه حتى قيل : ليس في الإمكان أبدع مما كان يحل ذلك ولا يبقى معه سوى تطلب وجه الحكمة وهو مما يتفضل الله تعالى به على من يشاء من عباده ، والكلام في هذا المقام قد مر شيء منه فارجع إليه ، ومما هنا وما هناك يحصل ما يسر الناظرين ويرضي العلماء المحققين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

*(87/651)*

وقال صاحب روح البيان :

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾

الواو للقسم والصافات جمع صافة بمعنى جمع صافية بمعنى جماعة صافة فالصافات بمعنى الجماعات الصافات ولو قيل والصافين وما بعدها بالتذكير لم يحتمل الجماعات .

والصف أن يجعل الشيء على خط مستقيم كالناس والأشجار تقول صففت القوم من باب ردّ فاصطفوا إذا أقمتم على خط مستو لأداء الصلاة أو لأجل الحرب .

أقسم الله سبحانه بالملائكة الذين يصفون للعبادة في السماء ويتراصون في الصف أي : بطوائف الملائكة الفاعلات للصفوف على أن المراد إيقاع نفس الفعل من غير قصد إلى المفعول واللاتي يقفن صفاً صفاً في مقام العبودية والطاعة ، أو الصافات أنفسها أي : الناظمات لها في سلك الصفوف بقيامها في مواقف الطاعة ومنازل الخدمة وفي الحديث :

"ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم" قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال :

"يتمون الصفوف المقدّمة ويتراصون في الصف"

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أراد أن يفتتح بالناس الصلاة قال استووا تقدم يا فلان تأخر يا فلان إن الله عز وجل يرى لكم بالملائكة إسوة .

يقول : والصافات صفاً يعني : والصافات صفاً .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ترد الملائكة صفوفاً صفوفاً لا يعرف كل ملك منهم من إلى

جانبه لم يلتفت منذ خلقه الله تعالى .

وفي "القاموس" والصافات صفاً الملائكة المصطفون في الهواء يسبحون ولهم مراتب يقومون عليها صفوفاً كما يصطف المصلون انتهى .

وقال بعضهم : الصافات أجنحتها في الهواء منتظرة لأمر الله تعالى فيما يتعلق بالتدبير وقيل غير ذلك وقوله تعالى في أواخر هذه السورة ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ ﴾ يحتمل الكل .

(88/651)

---

قال بعض الكبار : الملائكة على ثلاثة أصناف مهيمون في جلال الله تعالى تجلى لهم في اسمه الجليل فهيمهم وأفناهم عنهم فلا يعرفون نفوسهم ولا من هاموا فيه وصنف مسخرون ورأسهم القلم الأعلى سلطان عالم التدوين والتسطير وصنف أصحاب التدبير للأجسام كلها من جميع الأجناس كلها وكلهم صافون في الخدمة ليس لهم شغل غير ما أمروا به وفيه لذتهم وراحتهم .

وفي الآية بيان شرف الملائكة حيث أقسم بهم وفضل الصفوف وقد صح أن الشيطان يقف في فرجة الصف فلا بد من التلاصق والإنضمام والاجتماع ظاهراً وباطناً .

﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾ يقال زجرت البعير إذا حثثته ليمضي وزجرت فلاناً عن سوء

فانزجر أي: نهيته فانتهى فزجر البعير كالحث له وزجر الإنسان كالنهي.

وفي "كشف الأسرار" الزجر الصرف عن الشيء بتخويف.

وفي "المفردات": الزجر طرد بصوت ثم يستعمل في الطرد تارة وفي الصوت أخرى.

(89/651)

---

وفي "تاج المصادر": أي: الفاعلات للزجر والزاجرات لما نيط بها زجره من الأجرام العلوية والسفلية وغيرها على وجه يليق بالمزجور ومن جملة ذلك زجر العباد عن المعاصي وزجر الشيطان عن الوسوسة والإغواء وعن استراق السمع كما يأتي.

قال بعضهم: يعني الملائكة الذين يزجرون السحاب ويؤلفونه ويسوقونه إلى البلد الذي لا مطر به ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ مفعول التاليات وأما صفاً وزجراً فمصدران مؤكدان لما قبلهما بمعنى صفاً بديعاً وزجراً بليغاً أي: التاليات ذكراً عظيم الشأن من آيات الله وكتبه المنزلة على الأنبياء عليهم السلام وغيرهما من التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد.

أو المراد بالمذكورات نفوس العلماء العمال الصافات أنفسها في صفوف الجماعات وإقدامها في الصلاة الزاجرات بالمواعظ والنصائح التاليات آيات الله الدارسات شرائعه وأحكامه.

أو طوائف الغزاة الصافات أنفسهم في مواطن الحرب كأنهم بنيان مرصوص.

أو طوائف قوادهم الصافات لهم فيها الزاجرات الخيل للجهاد سوقاً والعدو في المعارك طرداً التاليات آيات الله وذكره وتسبيحه في تضاعيف ذلك لا يشغلهم عن الذكر مقابلة العدوّ وذلك لكمال شهودهم وحضورهم مع الله وفي الحديث : "ثلاثة أصوات يباهي الله بهن الملائكة : الأذان والتكبير في سبيل الله ورفع الصوت بالتلبية" .

أو نفوس العابدين الصافات عند أداء الصلاة بالجماعة الزاجرات الشياطين بقراءة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم التاليات القرآن بعدها .

ويقال ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ أي : الصبيان يتلون في الكتاب فإن الله تعالى يحول العذاب عن الخلق ما دامت تصعد هذه الأربعة إلى السماء أولها أذان المؤذنين .

والثاني : تكبير المجاهدين .

والثالث : تلبية الملبين .

(90/651)

---

والرابع : صوت الصبيان في الكتاب (صاحب تأويلات فرموده كه سوكند ميخورد بنفوس سالكان طريق توحيد كه در مواقف مشاهده صف بركشيده دواعي شيطاني ونوازع شهوات نفساني را زجرى نمايند وبأنواع ذكر لساني يا قلبي يا سري يا روحي بحسب

أحوال خود اشتغال ميفرمايند ) .

وفي "التأويلات النجمية" : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ يشير إلى صفوف الأرواح وجاء أنهم لما خلقوا قبل الأجساد كانوا في أربعة صفوف .

كان الصف الأول أرواح الأنبياء والمرسلين .

وكان الصف الثاني أرواح الأولياء والأصفياء .

وكان الصف الثالث أرواح المؤمنين والمسلمين .

وكان الصف الرابع أرواح الكفار والمنافقين ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾ هي الإلهامات الربانية الزاجرات للعوام عن المناهي والخواص عن رؤية الطاعات والأخص عن الالتفات إلى الكونين ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ هم الذاكرون الله تعالى كثيراً والذاكرات انتهى وهذه الصفات إن أجريت على الكل فعطفها بالفاء للدلالة على ترتيبها في الفضل إما بكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة أو على العكس وإن أجريت كل واحدة منهن على طوائف معينة فهو للدلالة على ترتب الموصوفات في مراتب الفضل بمعنى أن طوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل والتاليات أبهر فضلاً أو على العكس .

وفي "تفسير الشيخ" وغيره وجاء بالفاء للدلالة على أن القسم بمجموع المذكورات ﴿ إِنَّ إِلَاهَكُمْ ﴾ يا أهل مكة فإن الآية نزلت فيهم إذ كانوا يقولون بطريق التعجب أجعل الآلهة إلهاً واحداً أو يا بني آدم وبالفارسية : (وبدرستى كه خداى شما درذات وحدانيت خود)

﴿ لَوَاحِدٌ ﴾ لا شريك له فلا تتخذوا آلهة من الأصنام والدنيا والهوى والشيطان .

والجملة جواب للقسم والفائدة فيه مع أن المؤمن مقر من غير حلف والكافر غير مقرّ ولو بالحلف تعظيم المقسم به وإظهار شرفه وتأكيد المقسم عليه على ما هو المألوف في كلامهم وقد أنزل القرآن على لغتهم وعلى أسلوبهم في محاوراتهم .

(91/651)

---

وقيل تقدير الكلام فيها وفي مثلها ورب الصافات ورب التين والزيتون .

وفي "المفردات" : الوحدة الانفراد والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة ثم يطلق على كل موجود حتى أنه ما من عدد إلا ويصح وصفه به فيقال عشرة واحدة ومائة واحدة .

فالواحد لفظ مشترك يستعمل في خمسة أوجه :

الأول : ما كان واحداً في الجنس أو في النوع كقولنا الإنسان والفرس واحد في الجنس وزيد وعمرو واحد في النوع .

والثاني : ما كان واحداً بالاتصال إما من حيث الخلقة كقولك شخص واحد وإما من حيث الصناعة كقولك حرفة واحدة .

"والثالث" ما كان واحداً لعدم نظيره إما في الخلقة كقولك الشمس واحدة وإما في دعوى الفضيلة كقولك فلان واحد دهره وكقولك هو نسيج وحده .

"والرابع" : ما كان واحد الامتناع التجزي فيه إما لصغره كالهباء وإما لصلابته كالماس .

*(92/651)*

---

"والخامس" للمبتدأ إما لمبدأ العدد كقولك واحد اثنين وإما لمبدأ الخط كقولك النقطة الواحدة والوحدة في كلها عارضة فإذا وصف الله عز وجل بالواحد فمعناه هو الذي لا يصح عليه التجزي ولا التكثر ولصعوبة هذه الوحدة قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ (الزمر : 45) انتهى .

قال الغزالي رحمه الله : الواحد هو الذي لا يتجزىء ولا يثنى .

أما الذي لا يتجزىء فكالجوهر الواحد الذي لا ينقسم فيقال إنه واحد بمعنى أنه لا جزء له وكذا النقطة لا جزء لها والله تعالى واحد بمعنى أنه يستحيل تقدير الانقسام على ذاته .

وأما الذي لا يثنى فهو الذي لا نظير له كالشمس مثلاً فإنها وإن كانت قابلة للقسمة بالوهم متجزئة في ذاتها لأنها من قبيل الأجسام فهي لا نظير لها إلا أنه يمكن لها نظير فما في الوجود موجود ينفرد بخصوص وجود إلا ويتصور أن يشاركه فيه غيره إلا الله تعالى فإنه الواحد

المطلق أزلاً أبداً فالعبد إنما يكون واحداً إذا لم يكن في أبناء جنسه نظير له في خصلة من خصال الخير وذلك بالإضافة إلى أبناء جنسه وبالإضافة إلى الوقت إذ يمكن أن يظهر في وقت آخر مثله وبالإضافة إلى بعض الخصال دون الجميع فلا وحدة على الإطلاق إلا تعالى انتهى.

ولا يوحده تعالى حق توحيده إلا هو إذ كل شيء وحده أي: أثبت وجوده وفعله بتوحيده فقد جحده بإثبات وجود نفسه وفعله وإليه الإشارة بقول الشيخ أبي عبد الله الأنصاري قدس سره تعالى:

ما وحد الواحد من واحد

إذ كل من ينعته جاحد

فإذا أفنى الوجود المجازي صح التوحيد الحقيقي الذاتي وكل شيء من الأشياء عين مرآة توحيده كما قالوا:

ففي كل شيء له آية

تدل على أنه واحد

وذلك لأن كل شيء واحد بهويته أو بانتهائه إلى الجزء الذي لا يتجزى أو بغير ذلك:

قال الشيخ الزروقي في "شرح الأسماء" : من عرف أنه الواحد أفرد قلبه له فكان واحداً به وقد فسر قوله عليه السلام "إن الله وتر يحب الوتر" يعني : القلب المنفرد له .

وخاصة هذا الاسم الواحد إخراج الكون من القلب فمن قرأه ألف مرة خرج الخلائق من قلبه فكفى خوف الخلق وهو أصل كل بلاء في الدنيا والآخرة وسمع عليه السلام رجلاً يقول في دعائه : "اللهم إني أسألك باسمك الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد فقال : "سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى" .

وفي "الأربعين الإدريسية" يا واحد الباقي أول كل شيء وآخره .

قال السهرودي يذكره من توالت عليه الأفكار الرديئة فتذهب عنه وإن قرأه الخائف من السلطان بعد صلاة الظهر خمسمائة مرة فإنه يأمن ويفرج همه ويصادقه أعداؤه ﴿ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ خبر ثانٍ لأن أي : مالك السموات والأرض وما بينهما من الموجودات ومربيها ومبلغها إلى كمالاتها ﴿ وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ أي : مشارق الشمس وهي ثلاثمائة وستون مشرقاً تشرق كل يوم من مشرق منها وبحسبها تختلف المغارب ولذلك اكتفى بذكرها يعني إذا كانت المشارق بهذا العدد تكون المغارب أيضاً بهذا العدد فتغرب في كل يوم من مغرب منها وأما قوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾

(الرحمن : 17) فهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما وقوله : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ أراد به الجهة فالمشرق جهة والمغرب جهة وإعادة الرب في المشارق لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجددها كل يوم كما ذكر آنفاً .

تلخيصه هو رب جميع الموجودات وربوبيته لذاته لا لنفع يعود إليه بخلاف

(94/651)

---

تربية الخلق والربوبية بمعنى المالكية والخالقية ونحوهما عامة وبمعنى التربية خاصة بكل نوع بحسبه فهو مربي الأشباح بأنواع نعمه ومربي الأرواح بلطائف كرمه ومربي نفوس العابدين بأحكام الشريعة ومربي قلوب المشتاقين بآداب الطريقة ومربي أسرار المحبين بأنوار الحقيقة والرب عنوان الأدعية فلا بد للداعي من استحضاره لساناً وقلباً حتى يستجاب في دعائه اللهم ربنا إنك أنت الواحد وحدة حقيقية ذاتية لا انقسام لك فيها فاجعل توحيدنا توحيداً حقانياً ذاتياً سرياً لا مجازية فيه وإنك أنت الرب الكريم الرحيم فكما أنك ربنا وخالقنا فكذا مربينا وموليننا فاجعلنا في تقلبات أنواع نعمك شاغلين بك فارغين عن غيرك وأوصل إلينا من كل خيرك

(95/651)

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا ﴾ أي : القربى منكم ومن الأرض وأما بالنسبة إلى العرش فهي البعدي .

والدنيا تأنيث الأدنى بمعنى الأقرب ﴿ بِزِينَةٍ ﴾ عجيبة بديعة ﴿ الْكَوَاكِبِ ﴾ بالجر بدل من زينة على أن المراد بها الاسم أي : يزان به لا المصدر فإن الكواكب بأنفسها وأوضاع بعضها عن بعض زينة وأي زينة .

وفيه إشارة إلى أن الزينة التي تدرك بالبصر يعرفها الخاصة والعامة وإلى الزينة التي يختص بمعرفتها الخاصة وذلك أحكامها وسيرها والكواكب معلقة في السماء كالقناديل أو مكوكبة عليها كالمسامير على الأبواب والصناديق وكون الكواكب زينة للسماء الدنيا لا يقتضي كونها مركوزة في السماء الدنيا ولا ينافي كون بعضها مركوزة فيما فوقها من السموات لأن السموات إذا كانت شفاعة وأجراماً صافية فالكواكب سواء كانت في السماء الدنيا أو في سماوات أخرى فهي لا بد وأن تظهر في السماء الدنيا وتلوح منها فتكون سماء الدنيا مزينة بالكواكب .

"والحاصل" : أن المراد هو التزيين في رأي العين سواء كانت أصول الزينة في سماء الدنيا أو في غيرها وهذا مبني على ما ذهب إليه أهل الهيئة من أن الثوابت مركوزة في الفلك الثامن وما عدا القمر في السنة المتوسطة وإن لم يثبت ذلك فحقيقة العلم عند الله تعالى

﴿ وَحِفْظًا ﴾ منصوب بعطفه على زينة باعتبار المعنى كأنه قيل إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً برمي الشهب ﴿ مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ أي : خارج عن الطاعة متعر عن الخير من قولهم شجر أمرد إذا تعرى من الورق ومنه الأمرد لتجرده عن الشعر .

(96/651)

---

وفي "التأويلات النجمية" بقوله : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ﴾ إلخ يشير إلى الرأس فإنه بالنسبة إلى البدن كالسماء مزين ﴿ بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ الحواس وأيضاً زين سماء الدنيا بالنجوم وزين قلوب أوليائه بنجوم المعارف والأحوال وكما حفظ السموات بأن جعل النجوم للشياطين رجوماً كذلك زين القلوب بأنوار التوحيد فإذا قرب منها الشياطين رجموهم بنور معارفهم كما قال : ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ يعني : من شياطين الإنس .

وحكي أن أبا سعيد الخراز قدس سره رأى إبليس في المنام فأراد أن يضربه بالعصا فقال : يا أبا سعيد أنا لا أخاف العصا وإنما أخاف من شعاع شمس المعرفة :

﴿ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإ الأعْلَى ﴾ أصل يسمعون يتسمعون فأدغمت التاء في السين وشددت والتسمع وتعديته بإلى لتضمنه معنى الإصغاء .

والملأ جماعة يجتمعون على رأي فيملأون العيون رواء والنفوس جلالة وبهاء والملأ الأعلى

الملائكة أو أشرافهم أو الكتبة وصفوا بالعلو لسكونهم في السموات العلى ، والجن والإنس هم الملأ الأسفل لأنهم سكان الأرض وهذا كلام مبتدأ مسوق لبيان حالهم بعد بيان حفظ السماء منهم مع التنبيه على كيفية الحفظ وما يعتريهم في أثناء ذلك من العذاب .

(97/651)

---

والمعنى : لا يتطلبون السماء والإصغاء إلى الملائكة الملكوتية يعني : (ملائكه كه مطلع اند بر بعضى از اسرار لوح بايكديكر ميكويند ايشانرا نمى شنوند بلكه طاقت شنودن وكوش فرانهادن ندارند ) ﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾ القذف الرمي البعيد ولاعتبار البعد فيه قيل منزل قذف وقذيف وقذفته بحجر رميت إليه حجراً منه قذفه بالفجور أي : يرمون ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ من جميع جوانب السماء إذا قصدوا الصعود إليها ﴿ دُحُورًا ﴾ علة للقذف أي : للدحور وهو الطرد يقال دحره دحراً ودحوراً إذا طرده وأبعده ﴿ وَلَهُمْ ﴾ في الآخرة غير ما في الدنيا من عذاب الرجم بالشهب ﴿ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ دائم غير منقطع من وصب الأمر وصوباً إذا دام .

(98/651)

قال في "المفردات" : الوصب السقم اللازم ﴿إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ استثناء من واو يسمعون ومن بدل منه .

والخطف الاختلاس بسرعة والمراد اختلاس الكلام أي : كلام الملائكة مسارقة كما يعرب عنه تعريف الخطفة أي : لا يسمع جماعة الشياطين إلا الشيطان الذي خطف أي : اختلس الخطفة أي : المرة الواحدة يعني كلمة واحدة من كلام الملائكة

﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ أي : طبعه ولحقه .

قال ابن الكمال : الفرق بين اتبعه وتبعه أنه يقال اتبعه اتباعاً إذا طلب الثاني اللحوق بالأول وتبعه تبعاً إذا مر به ومضى معه ﴿شِهَابٌ﴾ .

قال في "القاموس" : الشهاب ككتاب شعلة من نار ساطعة انتهى والمراد هنا ما يرى منقضاً من السماء ﴿ثَاقِبٌ﴾ .

قال في "المفردات" : الثاقب النير المضيىء يثقب بنوره وإضاءته ما يقع عليه انتهى أي : مضى في الغاية كأنه يثقب الجو بضوئه يرجم به الشياطين إذا صعدوا لاستراق السمع .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بينما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جالس في نفر من أصحابه إذ رمى بنجم فاستنار فقال عليه السلام : "ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية" فقالوا : يموت عظيم أو يولد عظيم فقال : "إنه لا يرمى لموت أحد ولا لحياته ولكن

الله إذا قضى أمراً يسبحه حملة العرش وأهل السماء السابعة يقولون" أي: أهل السماء السابعة "لحملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم فيستخبر أهل كل سماء أهل سماء حتى ينتهي الخبر إلى السماء الدنيا فيتخطف الجن فيرمون فما جاءوا به على وجهه هو حق ولكنهم يزيدون فيه ويكذبون فما ظهر صدقه فهو من قسم ما سمع من الملائكة وما ظهر كذبه فهو من قسم ما قالوه".

قيل: كان ذلك في الجاهلية أيضاً لكن غلظ المنع وشدّد حين بعث النبي عليه السلام.

(99/651)

---

قيل: هيئة استراقهم أن الشياطين يركب بعضهم بعضاً إلى السماء الدنيا فيسمع من فوقهم الكلام فيلقيه إلى من تحته ثم هو يلقيه إلى الآخر حتى إلى الكاهن فيرمون بالكوكب فلا يخطىء أبداً فمنهم من يقتل ومنهم من يحرق بعض أعضائه وأجزائه ومنهم من يفسد عقله وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيه وربما ألقاه قبل أن يدركه ولأجل أن يصيبهم مرة ويسلمون أخرى لا يرتدعون عن الاستراق بالكلية كراكب البحر للتجارة فإنه قد يصيبه الموج وقد لا يصيبه فلذا يعود إلى ركوب البحر رجاء السلامة.

ولا يقال إن الشيطان من النار فلا يحترق لأنه ليس من النار الصرف كما أن الإنسان ليس من

التراب الخالص مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة استهلكتها ثم إن المراد بالشهاب شعلة نار تنفصل من النجم لا أنه النجم نفسه لأنه قار في الفلك على حاله .

"وقالت الفلاسفة" : إن الشهب إنما هي أجزاء نارية تحصل في الجو عند ارتفاع الأبخرة المتصاعدة واتصالها بالنار التي دون الفلك انتهى .

وقال بعض كبار أهل الحقيقة : لولا الأثير الذي هو بين السماء والأرض ما كان حيوان ولا نبات ولا معدن في الأرض لشدة البرد الذي في السماء الدنيا فهو يسخن العالم لتسري فيه الحياة بتقدير العزيز العليم وهذا الأثير الذي هو ركن النار متصل بالهواء والهواء حار رطب ولما في الهواء من الرطوبة إذا اتصل بهذا الأثير أثر فيه لتحركه اشتعالاً في بعض أجزاء الهواء الرطبة فبدت الكواكب ذوات الأذناب لأنها هواء محترق لا مشتعل وهي سريعة الاندفاع وإن أردت تحقيق هذا فانظر إلى شرر النار إذا ضرب الهواء النار بالمروحة يتطاير منها شرر مثل الخيوط في رأى العين ثم تنطفىء كذلك هذه الكواكب وقد جعلها الله رجوماً للشياطين الذين هم كفار الجن كما قال الله تعالى انتهى كلامه قدس سره .

قال بعضهم: لما كان كل نير يحصل في الجو مصابيح لأهل الأرض فيجوز أن تنقسم إلى ما تكون باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد وهي الكواكب المركوزة في الأفلاك وإلى ما لا تبقى بل تضمحل وهو الحادث بالبخار الصاعد على ما ذهب إليه الفلاسفة أو بتحريك الهواء الأثير وإشعاله على ما ذهب إليه بعض الكبار فلا يبعد أن يكون هذا الحادث رجماً للشيطان.

يقول الفقير أغناه الله القدير: قول بعض الكبار يفيد حدوث بعض الكواكب ذوات الأذناب من التحريك المذكور وهي الكواكب المنقضة سواء كانت ذوات أذناب أو لا وهذا لا ينافي ارتكاز الكواكب الغير الحادثة في أفلاكها أو تعليقها في السماء أو بأيدي الملائكة كالقناديل المعلقة في المساجد أو كونها ثقباً في السماء أو عروقاً نيرة من الشمس على ما ذهب إلى كل منها طائفة من أهل الظاهر والحقيقة.



---

قال قتادة: جعل الله النجوم لثلاث زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به، فعلى طالب الحق أن يرجم شيطانه

بنور التوحيد والعرفان كيلا يحوم حول جنانه ويكون كالملأ الأعلى في الاشتغال بشأنه.

انتهى انتهى. ا هـ ﴿ روح البيان حـ 7 صـ 522. 529 ﴾

(102/651)

---

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب:

سورة الصّافات

نزولها: مكية.. باتفاق عدد آياتها: مائة واثنتان وثمانون آية..

عدد كلماتها: ثمانمائة واثنتان وستون.. كلمة عدد حروفها: ثلاثة آلاف وثمانمائة وستة وعشرون حرفا.

مناسبتها لما قبلها

ختمت سورة «يس» بقوله تعالى: «فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

وبدئت سورة الصافات بهذا القسم الذي يقسم به ـ سبحانه ـ على تلك الحقيقة، وهى وحدانية الألوهية، التي هى من مقتضى ملكية اللّه لكلّ شىء.. فإذا كان اللّه هو مالك لكل شىء، كان من مقتضى هذا أن ينفرد بالألوهية، وألا يشاركه فى هذا الوجود أحد،

وإلا كانت ملكينه له غير تامة . . وأما وملكيته سبحانه ملكية مطلقة لهذا الوجود ، فهو ـ وحده سبحانه ـ صاحب الأمر فيه ، وإليه وحده يكون ولاء كل موجود .

(103/651)

---

قوله تعالى : « وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِراتِ زَجْراً فَالتَّالِياتِ ذِكْراً » .

اختلف فى المراد بالصافات . . فقيل هم الملائكة باعتبارهم جماعات وفرقا . .

وقيل هم جماعات المؤمنين ، الصّافين فى الصلاة . . بمعنى أنهم قائمون صفوفا ساجية ساكنة ، خاشعة فى الصلاة . .

وقيل هى جماعات الطير تسبح فى جوّ السماء صافة أجنحتها ، أي باسطة لها من غير حركة ، وأن الزاجرات هى جماعة الملائكة التي تنزل بالمهلكات ، وأن التاليات ذكرا ، هن جماعات المؤمنين فى الصلاة . . وعلى هذا التأويل يكون القسم بثلاثة أصناف ، لا بصنف واحد ، له ثلاثة أوصاف . .

والذي يقول بأن الصافات هم جماعة الملائكة ، يقول كذلك إن الزاجرات ، والتاليات هم جماعات الملائكة فى أحوال غير أحوالهم وهم صافّون ، أو هم جماعات غير تلك الجماعة الصافة . . فالزاجرات زجرا ، هى جماعات الملائكة التي تحمل نذر الهلاك إلى المكذبين

باللّه ، والتاليات ذكرا ، هى جماعات الملائكة التي تحمل إلى رسل اللّه آياته وكلماته . .

والذي يقول إن المراد بالصافات صفّا ، هم جماعة المؤمنين فى مواقف الصلاة. يقول إن الزاجرات زجرا ، هنّ الآيات التي يتلوها المصلون فى صلاة الجهر ، والتاليات ذكرا هن الآيات التي تتلى فى صلاة السرّ . .

والذي نرجحه من هذه الآراء هو. واللّه أعلم. القول بأن هذه الأوصاف هى للملائكة . . وذلك :

(104/651)

---

أولا : أن اللّه سبحانه ذكر فى أول سورة « فاطر » قوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ » . .

وفى هذا إشارة إلى أن الملائكة يصفّون كما تصف الطير بأجنحتها .

وثانيا : أن اللّه سبحانه ذكر فى آخر هذه السورة « الصافات » قول الملائكة :

« وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ » . (166.165)

والقرآن الكريم يفسر بعضه بعضا ، وتقوم دلالات بعض آياته شواهد على بعض . .

فالصافات صفّا ، جماعات الملائكة ، الذين يصفون أجنحتهم فى ولاء وخشوع دائم ،

وفى عبادة متصلة للّه رب العالمين . .

والزاجرات زجرا . . جماعات من الملائكة ، يسلطهم اللّه على أعدائه فى الدنيا والآخرة ، يرجمونهم بالمهلكات . .

والتاليات ذكرا ، جماعات من الملائكة ، هم حملة كلمات اللّه إلى عباده . .

يتلونها على رسله ، لينذروا بها أقوامهم . .

قوله تعالى : « إِنَّ إِلَهَكُمْ لَواحِدٌ » . . هو جواب القسم ، « والصافات » ، وهو يقرر هذه الحقيقة ويؤكدها ، . . تلك الحقيقة التي يشهد بها كل موجود ، وهى أن إله الموجودات جميعها ، إله واحد ، هو الذي أوجدها ، وهو الذي قام بسلطانه عليها . .

قوله تعالى : « رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ » .

فهذا الإله الواحد ، هو رب السموات والأرض ، وما بين السموات



والأرض ، وما فى السموات والأرض . . إنه ربّ كل شىء وبيده ملكوت كل شىء ، وله الحكم ، وإليه يرجع الأمر كله . . وهو رب المشارق . .

والمشارق ، يمكن أن يكون معناها ، المنازل التي تنزلها الشمس فى شروقها . .

فهى تطلع كل يوم من مطلع غير الذي طلعت منه ، على مدار السنة . . وكذلك الشأن فى مغربها . . كما هو معروف فى علم الفلك ، وكما هو ظاهر للعين من مطلع الشمس ومشرقها فى الفصول الأربعة ، وفى فصلى الصيف والشتاء بخاصة . .

ويمكن أن تكون المشارق ، والمغارب مشارق الأرض ومغاربها ، أي جهة الشرق والغرب فيها ، . ويكون المراد بذلك ، هو لفت الأنظار إلى اتساع آفاق الأرض ، وأنه كلما اتجه الإنسان فى هذين الاتجاهين ـ الشرق والغرب ـ وجد مشارق ومغارب ، وقد أصبح الشرق اليوم ـ فى التقسيم السياسى والجغرافى للعالم ـ شرقا أدنى ، وشرقا أوسط ، وشرقا أقصى . . وإلى هذا المعنى ـ وهو اتساع آفاق الأرض ـ يشير قوله تعالى : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها » (137 : الأعراف) .

وقد جاء فى القرآن الكريم : « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » (17 : الرحمن) وجاء فى القرآن الكريم كذلك : « رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ » (9 : المزمل) . .

وعلى كلا المعنيين يمكن أن يحمل تأويل كل من الآيتين . . وهذا ظاهر . .

واختص المشارق بالذكر ، لأنها هى مطلع النور ، ومن الشرق تطلع الشمس ، التي هى مصدر النور ، والدفء والحياة ! .

قوله تعالى : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ » .

الكواكب : بدل من زينة . . والتقدير إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب . .

والكواكب ، جمع كوكب . . والكواكب غير النجوم فى اصطلاح علماء الفلك . . إذ أن الكواكب متحركة تدور حول النجوم ، على حين أن النجوم ثابتة تدور حول نفسها . .

وكل نجم له مجموعة كواكب تدور حوله . .

كالشمس ، والكواكب السيارة التي تدور حولها ، ومنها الأرض والقمر ، والمشرق وزحل ، والمريخ ، وعطارد ، والزهرة . .

والسماء الدنيا ، هى أقرب السموات إلينا ، وأدناها من عالمنا الأرضى ، وهى هذه السماء التي تطل علينا منها الشمس ، والقمر ، والنجوم . . وهناك سموات أخرى فوق هذه السماء ، لم يبلغها علمنا ، ولا تصل إليها أدوات الرصد التي نرصد بها ما فى السماء الدنيا من كواكب ونجوم . . وأن هذه السماء الدنيا ، وما فيها من نجوم يصل ضوءها إلى الأرض فى أكثر من مليون سنة ضوئية. هذه السماء وما فيها من نجوم وكواكب ، ليست إلا سطرا فى كتاب الوجود الذي لا نهاية له . . فما أعظم قدرة الخالق ، وما أروع ما أبدع وصور . . ! وما أضأل شأن هذا الإنسان ، وما أصغر قدره إلى هذه الوجود العظيم ،

الذي لا يعدو أن يكون هذا الإنسان فيه، هباءة سابحة فى الهواء، لا تراها عين، ولا تمسك بها يد..

لقد طارت الإنسانية طربا، واهتزت زهوا وغرورا، أن وصلت بمراكبها إلى القمر، وأن مشت بأقدامها فوقه!!.

وما القمر هذا؟ وما مكانه فى هذا الوجود؟ إنه ليس إلا ذرة من رمل فى السماء الدنيا! فكيف بالقمر هذا فى مواجهة الوجود كله، وسمواته جميعها؟

إن الإنسان لم يقطع من صفحة السماء الدنيا، فى رحلته هذه إلى القمر، إلا كما تقطع النملة رحلة العمر، من جذر شجرة إلى ورقة من أوراقها! إنه انتصار للنملة



---

لا شك، ولكنه نصر محسوب بحسابها، مقدور بقدرها..

قوله تعالى: «وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ». معطوف على قوله تعالى زينا، أي زيناها بالكواكب وحفظناها حفظا من كل شيطان مارد.

والمارد، والمريد، هو المجرد من كل خير.. وشجرة مرداء، لا ورق ولا ثمر عليها..

قوله تعالى: «لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ

واصِبٌ» .

أي إن هؤلاء الشياطين المردة، وقد حفظت السماء من أن يقربوا منها، أو يطوفوا بها. لا يستطيعون أن يصغوا إلى الملأ الأعلى، وما يجرى فيه، فإذا حاولوا ذلك قذفوا من كل جانب بالشهب، ورموا من كل مكان بالرجوم، فيرجعون مدحورين مقهورين، لم يحصلوا على شىء . . «وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ» أي خالص وتام، كما فى قوله تعالى: «وَلَهُ الدِّينُ واصِباً» (25: النحل) .

قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ». هو استثناء من الفاعل فى قوله تعالى «لا يَسَّمَّعُونَ» . . أي إن هؤلاء الشياطين لا يسمعون إلى الملأ الأعلى إلا خطفا من بعضهم، ممن يلقى بنفسه منهم فى سبيل ذلك إلى التهلكة، حيث يرمى بشهاب راصد لكل من حام حول هذا الحمى . .



---

ويسّمّعون: أصله يتسمعون . . وقد ضمن معنى الفعل يصغون أو يدنون، ولهذا عدّى بحرف الجر «إلى» . . أي لا يستطيعون أن يتسمعوا إلى الملأ الأعلى، وهم فى إصغاء شديد حالة التسمع .

والآية الكريمة ، ترد على المشركين معتقدهم الفاسد ، فى أن الشياطين يعلمون الغيب ، وأنهم يتلقون ذلك باتصالهم بالملأ الأعلى ، واستماعهم إلى ما يدور بين الملائكة هناك ، مما يتصل بالعالم الأرضى ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً » . . (6 : الجن) . .

والحديث عن الجن والشياطين ، وإن كان ينكره الماديون ، ويعدّونه ضربا من الخرافات ، قد أصبح اليوم من مقررات العلم الذي يقوم على التجربة والاختبار ، حتى إن كثيرا من الماديين الذين كانو ينكرون عالم « الروح » لم يجدوا أمام الشواهد الكثيرة الملموسة ، إلا أن يعترفوا به . . ولسوف يكشف العلم لهم يوما أن الجن والشياطين ، هى من تلك الأرواح التي تسكن هذا العالم الأرضى ، وتعيش مع الإنسان فيه . . فهذا مما تحدث به القرآن ، وما حديث القرآن إلا الحقّ المطلق ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 12 صـ 960.966 ﴾

(109/651)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) ﴾

القسم لتأكيد الخبر مَزيدَ تأكيد لأنه مقتضى إنكارهم الوحدانية، وهو قسم واحد والمقسم به نوع واحد مختَلف الأصناف، وهو طوائف من الملائكة كما يقتضيه قوله: ﴿ فالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ﴾.

وعطف "الصِّفات" بالفاء يقتضي أن تلك الصفات ثابتة لموصوف واحد باعتبار جهة ترجع إليها وحدته، وهذا الموصوف هو هذه الطوائف من الملائكة فإن الشأن في عطف الأوصاف أن تكون جارية على موصوف واحد لأن الأصل في العطف بالفاء اتصال المتعاطفات بها لما في الفاء من معنى التعقيب ولذلك يعطفون بها أسماء الأماكن المتصللِ بعضها ببعض كقول امرىء القيس:

بسِقط اللِّوَى بين الدَّخول فحَوْمَل . . .

فتُوضِحَ فالمقرة . . .

البيت

وكقول لبيد:

بمشارق الجبليين أو بمحجر . . .

فتضمنتها فَردَه فمرخاها

فصدائق إن أُيمَنت فمظنة . . . . . . . . . . . . . . . البيت

ويعطفون بها صفاتِ موصوف واحد كقول ابن زيَّابة:

يا لهف زيَّابة للحارث ال . . .

صابح فالغَانم فالآيب

يريد صفات للحارث ، ووصفه بها تهكماً به .

فعن جماعة من السلف : أن هذه الصفات للملائكة .

وعن قتادة أن "التاليات ذكراً" الجماعة الذين يتلون كتاب الله من المسلمين .

وقسَمُ الله بمخلوقاته يُومىء إلى التنويه بشأن المقسم به من حيث هو دَالّ على عظيم قدرة الخالق أو كونه مشرّفاً عند الله تعالى .

وتأنيث هذه الصفات باعتبار إجرائها على معنى الطائفة والجماعة ليدل على أن المراد أصناف من الملائكة لا آحادٌ منهم .

و﴿ الصافات ﴾ جمع : صافة ، وهي الطائفة المصطفّ بعضها مع بعض .

يقال : صف الأمير الجيش ، متعدياً إذا جعله صفاً واحداً أو صفوفاً ، فاصطفوا .

ويقال : فَصَفُّوا ، أي صاروا مصطفّين ، فهو قاصر .

وهذا من المطاوع الذي جاء على وزن فعله مثل قول العجاج:

قد جَبر الدينَ الإله فجَبَر . . .

وتقدم قوله : ﴿ فاذكروا اسم اللَّه عليها صَوافّ ﴾ في سورة [ الحج : 36 ] ، وقوله : ﴿ والطير صافات ﴾ [ النور : 41 ] .

ووصف الملائكة بهذا الوصف يجوز أن يكون على حقيقته فتكون الملائكة في العالم العلوي مصطفّة صفوفاً ، وهي صفوف متقدم بعضها على بعض باعتبار مراتب الملائكة في الفضل والقرب .

ويجوز أن يكون كناية عن الاستعداد لامتثال ما يلقى إليهم من أمر الله تعالى قال تعالى ، حكاية عنهم في هذه السورة ﴿ وإنَّا لنحن الصَّافونَ وإنَّا لنحنُ المُسَبِحُونَ ﴾ [ الصافات : 165 ، 166 ] .

والزجرُ : الحث في نهي أو أمر بحيث لا يُترك للمأمور تباطؤ في الإتيان بالمطلوب ، والمراد به : تسخير الملائكة المخلوقاتِ التي أمرهم الله بتسخيرها خلقاً أو فعلاً ، كتكوين العناصر ، وتصريف الرياح ، وإزجاء السحاب إلى الآفاق .

و"التاليات ذكراً" المترددون لكلام الله تعالى الذي يتلقونه من جانب القدس لتبليغ بعضهم بعضاً أو لتبليغه إلى الرسل كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾ [ سبأ : 23 ] .

وبيّنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " إذا قضى الله الأمر في السماء ضَربت الملائكةُ

بأجنحتها خُضْعَاناً لقوله كأنَّه سلسلة على صفوان فإذا فُزِع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا : الذي قال الحق "

والمراد ب"التاليات" ما يتلونه من تسبيح وتقديس لله تعالى لأن ذلك التسبيح لما كان ملقناً من لدن الله تعالى كان كلامهم بها تلاوة .

والتلاوة : القراءة ، وتقدمت في قوله تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ﴾ في [ البقرة : 102 ] ، وقوله : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته في ﴾ [ الأنفال : 2 ] .

والذكر ما يتذكر به مِن القرآن ونحوه ، وتقدم في قوله : ﴿ وقالوا يا أيها الذي نُزّل عليه الذكر ﴾ في سورة [ الحجر : 6 ] .

*(111/651)*

---

( وما تفيده الفاء من ترتيب معطوفها يجوز أن يكون ترتيباً في الفضل بأن يراد أن الزجر وتلاوة الذكر أفضل من الصَّف لأن الاصطفاف مقدمة لها ووسيلة والوسيلة دون المتوسَّل إليه ، وأن تلاوة الذكر أفضل من الزجر باعتبار ما فيها من إصلاح المخلوقات المزجورة بتبليغ الشرائع إن كانت التلاوة تلاوة الوحي الموحَى به للرسل ، أو بما تشتمل عليه التلاوة من

تمجيد الله تعالى فإن الأعمال تتفاضل تارة بتفاضل متعلقاتها .

وقد جعل الله الملائكة قِسْماً وسَطاً من أقسام الموجودات الثلاثة باعتبار التأثير والتأثر .

فأعظم الأقسام المؤثر الذي لا يتأثر وهو واجب الوجود سبحانه ، وأدناها المتأثر الذي لا يُؤثر وهو سائر الأجسام ، والمتوسط الذي يؤثر ويتأثر وهذا هو قسم المجرَّدات من الملائكة والأرواح فهي قابلة للأثر عن عالم الكبرياء الإلهية وهي تباشر التأثير في عالم الأجسام .

وجِهةُ قابليتها الأثر من عالم الكبرياء مغايِرةٌ لجهة تأثيرها في عالم الأجسام وتصرفها فيها ، فقوله : فالزاجراتِ زَجْراً ﴿ إشارة إلى تأثيرها ، وقوله : ﴿ فالتالياتِ ذِكراً ﴾ إشارة إلى تأثرها بما يلقى إليها من أمر الله فتتلوه وتتعبّد بالعمل به .

وجملة ﴿ إنَّ إلهكم لَواحِدٌ ﴾ جواب القسم ومناط التأكيد صفة "واحد" لأن المخاطبين كانوا قد علموا أن لهم إلها ولكنهم جعلوه عدة آلهة فأبطل اعتقادهم بإثبات أنه واحد غير متعدد ، وهذا إنما يقتضي نفي الإلهية عن المتعددين وأما اقتضاؤه تعيين الإلهية لله تعالى فذلك حاصل بأنهم لا ينكرون أن الله تعالى هو الربّ العظيم ولكنهم جعلوا له شركاء فحصل التعدد في مفهوم الإله فإذا بطل التعدد تعيّن انحصار الإلهية في ربّ واحد هو الله تعالى .

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (5)

أتبع تأكيد الإخبار عن وحدانية الله تعالى بالاستدلال على تحقيق ذلك الإخبار لأن القسم لتأكيده لا يُقنع المخاطبين لأنهم مكذِّبون مَن بلّغ إليهم القَسَم، فالجملة استئناف بياني لبيان الإله الواحد مع إدماج الاستدلال على تعيينه بذكر ما هو من خصائصه المقتضي تفرده بالإلهية.

فقوله: ﴿ رَبُّ السموات والأرض ﴾ خبر لمبتدأ محذوف.

والتقدير: هو ربّ السماوات، أي إلهكم الواحد هو الذي تعرفونه بأنه ربّ السماوات والأرض إلى آخره.

فقوله: ﴿ رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف جرَى حذفه على طريقة الاستعمال في حذف المسند إليه من الكلام الوارد بعد تقدم حديث عنه كما نبّه عليه صاحب "المفتاح".

فإن المشركين مع غلوّهم في الشرك لم يتجرّأوا على ادعاء الخالقية لأصنامهم ولا التصرف في العوالم العلوية، وكيف يبلغون إليها وهم لَقىً على وجه الأرض فكان تفرد الله بالخالقية أفحمَ حجةٍ عليهم في بطلان إلهية الأصنام.

وشمل ﴿ السَّماواتِ والأرضِ وما بينهُمَا ﴾ جميع العوالم المشهودة للناس بأجرامها وسكّانها والموجودات فيها.

وتخصيص ﴿ المَشارِقِ ﴾ بالذكر من بين ما بين السماوات والأرض لأنها أحوال مشهودة كل يوم .

وجمعْ ﴿ المَشارِقِ ﴾ باعتبار اختلاف مطلع الشمس في أيام نصف سنة دورتها وهي السنة الشمسية وهي مائة وثمانون شرقاً باعتبار أطولِ نهار في السنة الشمسية وأقصرَه مكررة مرتين في السنة ابتداء من الرجوع الشّتوي إلى الرجوع الخَريفي ، وهي مطالع متقاربة ليست متّحدة ، فإن المشرق اسم لمكان شروق الشمس وهو ظهورها فإذا راعَوا الجهة دون الفصْل قالوا : المشرق ، بالإِفراد ، وإذا روعي الفصلان الشتاء والصيف قيل : رب المشرقين ، على أن جمع المشارق قد يكون بمراعاة اختلاف المطالع في مبادىء الفصول الأربعة .

والآية صالحة للاعتبارين ليعتبر كل فريق من الناس بها على حسب مبالغ علمهم .

(113/651)

---

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6)

هذه الجملة تتنزل من جملة ﴿ رَبُّ السماواتت والأرض وما بينهما ﴾ [ الصافات : 5 ] منزلة الدليل على أنه رب السماوات .

واقتصر على ربوبية السماوات لأن ثبوتها يقتضي ربوبية الأرض بطريق الأَوْلى .

وأدمج فيها منة على الناس بأن جعل لهم في السماء زينة الكواكب تروق أنظارهم فإن محاسن المناظر لذّة للناظرين قال تعالى : ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ [ النحل : 6 ] ، ومنة على المسلمين بأن جعل في تلك الكواكب حفظاً من تلقّي الشياطين للسمع فيما قضى الله أمره في العالم العلوي لقطع سبيل اطلاع الكهان على بعض ما سيحدث في الأرض فلا يفتنوا الناس في الإِسلام كما فتنوهم في الجاهلية ، وليكون ذلك تشريفاً للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن قطعت الكهانة عند إرساله وللإِشارة إلى أن فيها منفعة عظيمة دينية وهي قطع دابر الشك في الوحي ، كما أن فيها منفعة دنيوية وهي للزينة والاهتداء بها في ظلمات البر والبحر .

و﴿ الكواكب ﴾ : الكريات السماوية التي تلمع في الليل عَدا الشمس والقمر .

وتسمى النجوم ، وهي أقسام : منها العظيم ، ومنها دونه ، فمنها الكواكب السيارة ، ومنها الثوابت ، ومنها قِطع تدور حول الشمس .

وفي الكواكب حِكم منها أن تكون زينة للسماء في الليل فالكواكب هي التي بها زينت السماء .

فإضافة ﴿ زينة ﴾ إلى ﴿ الكواكِبِ ﴾ إن جعلتَ ﴿ زينة ﴾ مصدراً بوزن فِعلة مثل نِسبة كانت من إضافة المصدر إلى فاعله ، أي زانتها الكواكب أو إلى المفعول ، أي بزينة الله

الكواكب ، أي جعلها زَيْناً .

وإن جعلتَ ﴿ زينة ﴾ اسماً لما يتزين به مثل قولنا : لِيقة لما تُلاق به الدَّواة ، فالإضافة حقيقية على معنى "من" الابتدائية ، أي زينة حاصلة من الكواكب .

(114/651)

---

وأيًّا مّا كان فإقحام لفظ ﴿ زينة ﴾ تأكيد ، والباء للسببية ، أي زيَّنا السماء بسبب زينة الكواكب فكأنه قيل : إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب تزييناً فكان ﴿ بزِينةٍ الكواكب ﴾ في قوّة : بالكواكب تزيينا ، فقوله : ﴿ بِزِينَةٍ ﴾ مصدر مؤكد لفعل ﴿ زَيَّنَّا ﴾ في المعنى ولكنْ حُوِّل التعليق فجعل ﴿ زينة ﴾ هو المتعلق بـ ﴿ زَيَّنَّا ﴾ ليفيد معنى التعليل ومعنى الإضافة في تركيب واحد على طريقة الإيجاز ، لأنه قد علم أن الكواكب زينة من تعليقه بفعل ﴿ زَيَّنَّا ﴾ من غير حاجة إلى إعادة ﴿ زينة ﴾ لولا ما قصد من معنى التعليل والتوكيد .

و ﴿ الدنيا ﴾ : أصله وصف هو مؤنث الأدنى ، أي القربى .

والمراد : قربها من الأرض ، أي السماء الأولى من السماوات السبع .

ووصفها بالدنيا : إمّا لأنها أدنى إلى الأرض من بقية السماوات ، والسماء الدنيا على هذا

هي الكرة التي تحيط بكرة الهواء الأرضية وهي ذات أبعاد عظيمة.

ومعنى تزيينها بالكواكب والشهب على هذا أن الله جعل الكواكب والشهب سابحة في مقعّر تلك الكرة على أبعاد مختلفة ووراء تلك الكرة السماوات السبع محيط بعضها ببعض في أبعاد لا يعلم مقدار سعتها إلا الله تعالى.

ونظام الكواكب المعبر عنه بالنظام الشمسي على هذا من أحوال السماء الدنيا، ولا مانع من هذا لأن هذه اصطلاحات، والقرآن صالح لها، ولم يأت لتدقيقها ولكنه لا ينافيها.

والسماء الدنيا على هذا هي التي وصفت في حديث الإِسراء بالأولى.

وإمّا لأن المراد بالسماء الدنيا الكرة الهوائية المحيطة بالأرض وليس فيها شيء من الكواكب ولا من الشهب وأن الكواكب والشهب في أفلاكها وهي السماوات الست والعرش، فعلى هذا يكون النظام الشمسي كله ليس من أحوال السماء الدنيا.



---

ومعنى تزيين السماء الدنيا بالكواكب والشهب على هذا الاحتمال أن الله تعالى جعل أديم السماء الدنيا قابلاً لاختراق أنوار الكواكب في نصف الكرة السماوية الذي يغشاه الظلام من تباعد نور الشمس عنه فتلوح أنوار الكواكب متلألئة في الليل فتكون تلك الأضواء زينة

للسماء الدنيا تزدان بها .

والآية صالحة للاحتمالين لأنها لم يثبت فيها إلا أن السماء الدنيا تزدان بزينة الكواكب ، وذلك لا يقتضي كون الكواكب سابحة في السماء الدنيا .

فالزينة متعلقة بالناس ، والأشياء التي يزدان بها الناس مغايرة لهم منفصلة عنهم ومثله قولنا : ازدان البحر بأضواء القمر .

وقرأ الجمهور ﴿ بِزِينَةِ الكَواكِبِ ﴾ بإضافة ﴿ زينة ﴾ إلى ﴿ الكَواكِبِ .

﴾ وقرأ حمزة ﴿ بزينةٍ الكواكب ﴾ بتنوين ﴿ زينة ﴾ وجر ﴿ الكَواكِبِ ﴾ على أن ﴿ الكواكب ﴾ بدل من ﴿ زينة ﴾ .

وقرأه أبو بكر عن عاصم بتنوين ﴿ زينةٍ ﴾ ونصب ﴿ الكَواكِبَ ﴾ على الاختصاص بتقدير : أعني .

وقد تقدم الكلام على زينة السماء بالكواكب وكونها حفظاً من الشياطين عند قوله تعالى : ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ في سورة [ الحجر : 16 ، 17 ] .

وتقدم ذكر الكواكب في قوله : ﴿ رأى كوكباً ﴾ في سورة [ الأنعام : 76 ] .

وانتصب حفظاً ﴾ بالعطف على ﴿ بِزِينَةٍ الكواكِبِ ﴾ عطفاً على المعنى كما ذهب إليه في "الكشاف" وبَيّنه ما بيّناه آنفاً من أن قوله : ﴿ بِزِينَةٍ الكواكِبِ ﴾ في قوة أن يقال :

بالكواكب زينةً ، وعامله ﴿ زَيَّنَّا ﴾ .

والحفظ من الشياطين حكمة من حكم خلق الكواكب في علم الله تعالى لأن الكواكب خُلقت قبل استحقاق الشياطين الرجم فإن ذلك لم يحصل إلا بعد أن أُطرد إبليس من عالم الملائكة فلم يحصل شرط اتحاد المفعول لأجْله مع عامله في الوقت ، وأبو علي الفارسي لا يرى اشتراط ذلك .



---

ولعل الزمخشري يتابعه على ذلك حيث جعله مفعولاً لأجله وهو الحق لأنه قد يكون على اعتباره علّة مقدرة كما جوز في الحال أن تكون مقدرة .

ولك أن تجعل حفظاً ﴾ منصوباً على المفعول المطلق الآتي بدلاً من فعله فيكون في تقدير : وحَفِظنا ، عطفاً على ﴿ زَيَّنَّا ، ﴾ أي حفظنا بالكواكب من كل شيطان مارد .

وهذا قول المبرد .

والمحفوظ هو السماء ، أي وحفظناها بالكواكب من كل شيطان .

وليس الذي به الحفظ هو جميع الذي به التزيين بل العلة موزعة فالذي هو زينة مشاهَد بالأبصار ، والذي هو حفظ هو المبين بقوله : ﴿ فأتْبعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [ الصافات :

10 ] .

ومعنى كون الكواكب حفظاً من الشياطين أن من جملة الكواكب الشهبَ التي تُرجم بها الشياطين عند محاولتها استراق السمع فتفرّ الشياطين خشية أن تصيبها لأنها إذا أصابت أشكالها اخترقتها فتفككت فلعلها تزول أشكالها بذلك التفكك فتنعدم بذلك قوام ماهيتها أو تتفرق لحظة لم تلتئم بعد فتتألَّم من ذلك الخرق والالتئام فإن تلك الشهب التي تلوح للناظر قطعاً لامعة مثل النجوم جارية في السماء إنما هي أجسام معدنية تدور حول الشمس وعندما تقرب إلى الأرض تتغلب عليها جاذبية الأرض فتنزعها من جاذبية الشمس فتنقضّ بسرعة نحو مركز الأرض ولشدة سرعة انقضاضها تولد في الجو الكروي حرارة كافية لإحراق الصغار منها وتَحمَى الكبار منها إلى درجة من الحرارة توجب لمعانها وتسقط حتى تقع على الأرض في البحر غالباً وربما وقعت على البَر ، وقد يعثر عليها بعض الناس إذ يجدونها واقعة على الأرض قطعاً معدنية متفاوتة وربما أحرقت ما تصيبه من شجر أو منازل .

وقد أرخ نزول بعضها سنة ( 616 ) قبل ميلاد المسيح ببلاد الصين فكسر عدة مركبات وقتل رجالاً ، وقد ذكرها العرب في شعرهم قبل الإسلام قال دَوس بن حَجر يصف ثوراً وحشياً :

فانقضّ كالدَّريّ يتبعه . . .

نقع يثور تخالُه طُنبا

وقال بشر بن خازم أبي خازم أنشده الجاحظ في "الحيوان

: "

(117/651)

---

والعَيْرُ يُرهقها الخَبَارَ وَجَحْشُها

ينقض خلفهما انقاضا الكواكب . . .

وفي سنة ( 944 ) سجل مرور كريات نارية في الجو أحرقت بيوتاً عدة .

وسقطت بالقطر التونسي مرتين أو ثلاث مرات ، منها قطعة سقطت في أوائل هذا القرن وسط المملكة أحسب أنها بجهات تالة ورأيت شظيّة منها تشبه الحديد ، والعامة يحسبونها صاعقة ويسمّون ذلك حجر الصاعقة ، وتساقطها يقع في الليل والنهار ولكنا لا نشاهد مرورها في النهار لأن شعاع الشمس يحجبها عن الأنظار .

ومما علمت من تدحرج هذه الشهب من فلك الشمس إلى فلك الأرض تبين لك سبب كونها من السماء الدنيا وسبب اتصالها بالأجرام الشيطانية الصاعدة من الأرض تتطلب الاتصال بالسماوات .

وقد سُميت شهباً على التشبيه بقبس النار وهو الجمر، وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿ أو آتيكم بشهاب قبس ﴾ في سورة [النمل: 7].

والمارد: الخارج عن الطاعة الذي لا يلابس الطاعة ساعة قال تعالى: ﴿ ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ﴾ [التوبة: 101].

وفي وصفه بالمارد إشارة إلى أن ما يصيب إخوانه من الضرّ بالشهب لا يعظه عن تجديد محاولة الاستراق لما جبل عليه طبعه الشيطاني من المداومة على تلك السجايا الخبيثة كما لا ينزجر الفراش عن التهافت حول المصباح بما يصيب أطراف أجنحته من مسّ النار.

لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (8)

اعتراض بين جملة ﴿ إنَّا زيّنا السماء الدّنيا ﴾ [الصافات: 6] وجملة ﴿ فاستفتِهم أهُم أشدّ خلقاً ﴾ [الصافات: 11] قصد منه وصف قصة طرد الشياطين.

(118/651)

---

وعلى تقدير قوله: ﴿ وَحِفْظاً ﴾ [الصافات: 7] مصدراً نائباً مناب فعله يجوز جعل جملة ﴿ لاَ يسمعُونَ ﴾ بياناً لكيفية الحفظ فتكون الجملة في موقع عطف البيان من جملة ﴿ وحِفْظَاً ﴾ على حد قوله تعالى: ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك ﴾ [

طه : 120 ] الآية ، أي انتفى بذلك الحفظ سَمع الشياطين للملأ الأعلى .

وحرف ﴿ إلى ﴾ يشير إلى تضمين فعل ﴿ يَسَّمَّعُونَ ﴾ معنى ينتهون فيسمعون ، أي لا يتركهم الرمي بالشهب منتهين إلى الملأ الأعلى انتهاء الطالب المكان المطلوب بل تدحرهم قبل وصولهم فلا يتلقفون من عِلم ما يجري في الملأ الأعلى الأشياء محظوفة غير متبينة ، وذلك أبعد لهم من أن يسمعوا لأنهم لا ينتهون فلا يسمعون .

وفي "الكشاف" : أن سمعت المعدّى بنفسه يفيد الإدراك ، وسمعت المعدّى بـ ﴿ إلى ﴾ يفيد الإصغاء مع الإدراك .

وقرأ الجمهور : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ بسكون السين وتخفيف الميم .

وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف ﴿ لا يسَّمَّعون ﴾ بتشديد السين وتشديد الميم مفتوحتين على أن أصله : لا يَتسمعون فقلبت التاء سيناً توصلاً إلى الإدغام ، والتسمع : تطلب السمع وتكلفه ، فالمراد التسمع المباشر ، وهو الذي يتهيأ له إذا بلغ المكان الذي تصل إليه أصوات الملأ الأعلى ، أي أنهم يدحرون قبل وصولهم المكان المطلوب ، والقراءتان في معنى واحد .

وما نقل عن أبي عبيد من التفرقة بينهما في المعنى والاستعمال لا يصح .

وحاصل معنى القراءتين أن الشهب تحول بين الشياطين وبين أن يسمعوا شيئاً من الملأ الأعلى وقد كانوا قبل البعثة المحمدية ربما اختطفوا الخطفة فألقوها إلى الكهان فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم قدر زيادة حراسة السماء بإرداف الكواكب بعضها ببعض حتى لا يرجع من خطف الخطفة سالماً كما دلّ عليه قوله : ﴿ إلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ ﴾ ، فالشهب كانت موجودة من قبل وكانت لا تحول بين الشياطين وبين تلقف أخبار مقطعة من الملأ الأعلى فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حرمت الشياطين من ذلك .

و﴿ الملأ ﴾ : الجماعة أهل الشأن والقدر .

والمراد بهم هنا الملائكة .

ووصف ﴿ المَلإِ ﴾ بـ ﴿ الأعلى ﴾ لتشريف الموصوف .

والقذف : الرجم ، والجانب : الجهة ، والدُّحور : الطرد .

وانتصب على أنه مفعول مطلق لـ ﴿ يقذفون ﴾ .

وإسناد فعل ﴿ يُقذفون ﴾ للمجهول لأن القاذف معلوم وهم الملائكة الموكّلون بالحفظ المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشُهُباً ﴾ [الجن : 8] .

والعذاب الواصب : الدائم يقال : وصب يصب وصوباً ، إذا دام .

والمعنى : أنهم يطردون في الدنيا ويحقرون ولهم عذاب دائم في الآخرة فإن الشياطين للنار ﴿ فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً ﴾ في سورة [ مريم : 68 ] ، ويجوز أن يكون المراد عذاب القذف وأنه واصب ، أي لا ينفكّ عنهم كلما حاولوا الاستراق لأنهم مجبولون على محاولته .

وجملة ولهم عذابٌ واصِبٌ ﴾ معترضة بين الجملة المشتملة على المستثنى منه وهي جملة ﴿ لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ﴾ وبين الاستثناء .

و ﴿ من خطف الخطفة ﴾ مستثنى من ضمير ﴿ لا يسمعونَ ﴾ فهو في محل رفع على البدلية منه .

والخطف : ابتدار تناول شيء بسرعة ، و ﴿ الخطفة ﴾ المرة منه .

(120/651)

---

فهو مفعول مطلق ل ﴿ خَطِفَ ﴾ لبيان عدد مرات المصدر ، أي خطفة واحدة ، وهو هنا مستعار للإِسراع بسمع ما يستطيعون سمعه من كلام غير تام كقوله تعالى : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ في سورة [ البقرة : 20 ] .

وأتبعه بمعنى تبعه فهمزته لا تفيده تعدية ، وهي كهمزة أبان بمعنى بان .

والشهاب : القبس والجمر من النار .

والمراد به هنا ما يُسمّى بالنيزك في اصطلاح علم الهيئة ، وتقدم في قوله : ﴿ فأتبعه شهاب مبين ﴾ في سورة [ الحجر : 18 ] .

( والثاقب : الخارق ، أي الذي يترك ثَقباً في الجسم الذي يصيبه ، أي ثاقب له .

وعن ابن عباس : الشهاب لا يقتل الشيطان الذي يصيبه ولكنه يحترق ويَخْبِل ، أي يفسُد قِوامه فتزول خصائصه ، فإن لم يضمحل فإنه يصبح غير قادر على محاولة اسْتراق السمع مرة أخرى ، أي إلا من تمكّن من الدنوّ إلى محل يسمع فيه كلمات من كلمات الملأ الأعلى فيُردف بشهاب يثقبه فلا يرجع إلى حيث صدر ، وهذا من خصائص ما بعد البعثة المحمدية .

وقد تقدم الكلام على استراق السمع عند قوله تعالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم ﴾ في سورة [ الشعراء : 210 ، 211 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(121/651)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

سورة الصافات

قوله جل ذكره : ( بسم الله الرحمن الرحيم )

" بسم الله " كلمة إذا استولتن على قلب أزالت عنه أولا من الدارين أربه ، ثن ألزمت على وجه التبعية حربه ، ثم شرقت من حيث الهمة طلبه .

قوله جل ذكره : ( والصافات صفا )

افتتح اللَّهُ هذه السورة بالقَسَم بالصافات ، وهم الملائكة المصطفَّة في السماء وفي الهواء ، وفي أماكنهم على ما أمرهم الحق – سبحانه – من المكان يلازمونه ، والأمر يعانقون ؛ يُسَبِّحونه ويُقَدّسونه ، وبما يأمرهم به يطيعونه .

فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2)

عَطَفهم على ما تَقَدَّمَ بحرف الفاء وهم الملائكة الذين يزجرون السحابَ . ويقال يزجرون الناس عن المعاصي . ويقال هي الخواطرُ الزاجرةُ عن المناهي .

فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3)

يقال " الصافات " الطيورُ المصطفَّةُ في السماء ، ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ﴾ الملائكة يتلون كتاب الله ، ويتلون الوحيَ على الأنبياء عليهم السلام .

إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (4)

هذا هو المقسومُ عليه.

أخبر أنه واحدٌ في مُلْكِه، وذلك أنهم تَعَجَّبُوا أن يقوم الواحِدُ بجميع أحوال العالم. ومعنى كونه واحدا تفرُّده في حقّه عن القسمة، وتقدُّسه في وجوده عن الشيبة، وتَنَزُّهُه في مُلْكِه عن الشريك؛ واحد في جلاله، واحدٌ في استحقاق جماله، واحدٌ في أفعاله، واحدٌ في كبريائه بنعت علائه، ووصف سنائه.

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (5)

مالِكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما، وخالقهما، وأكسابُ العبادِ داخِلةٌ في هذا ﴿ وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ مشارق النجوم والشمس والقمر، ومشارق القلوب بشموسها وأقمارها ونجومها.

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (7)



---

زَيَّنَ السماءَ الدنيا بالنجوم، وقلوبَ أوليائه بنجوم المعارف والأحوال، وحفظ السمواتِ بأَنْ جعل النجومَ للشياطين رجوماً، وكذلك زيَّن القلوبَ بأنوار التوحيد، فإذا

قَرُبَ منها الشيطان رَجَمها بنجوم معارفهم .

إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (10)

كذلك إذا اغتنم الشيطانُ من الأولياء أن يُلْقِيَ إليهم شيئاً من وساوسه تذكَّروا ، فإذا هم مُبْصِرون ، ورجعوا . . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا ﴾ [ الأعراف : 201 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 228.227﴾

*(123/651)*

---

قوله تعالى ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (11) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (13) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (14) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (15) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (18) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (19) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (20) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان المقصود من هذا الكتاب الأعظم بيان الأصول الأربعة : التوحيد والنبوة والمعاد وإثبات القضاء والقدر ، ودل سبحانه بهذه المذكورات على وجوده وكمال علمه وتمام قدرته على الأفعال الهائلة وبديع حكمته اللازم منه إثبات وحدانيته تفصيلاً لبعض إجمال ﴿ أو ليس الذي خلق السماوات والأرض ﴾ فكان ما دونها من الأفعال أولى ، سبب عن ذلك لإثبات الحشر الذي أخبر به هذا القرآن الذي حرسه عن تلبيس الجان بزينة الكواكب التي أنشأ منها الشهب الثواقب قوله تهكماً بهم : ﴿ فاستفتهم ﴾ أي سلهم أن يفتوا بأن يبينوا لك ما تسألهم عنه من إنكارهم البعث ، وأصله من الفتوة وهي الكرم : ﴿ أهم أشد ﴾ أي أقوى وأشق وأصعب ﴿ خلقاً ﴾ أي من جهة إحكام الصنعة وقوتها وعظمها ﴿ أم من ﴾ ولما كان المراد الإعلام بأنه لا شيء من الموجودات إلا وهو خلقه سبحانه ، عبر بما يدل على ذلك دون ذكرنا ، وليكون أعم ، وحذف المفعول لأنه مفهوم ، ولئلا يلبس إذا ذكر ضمير المستفتين ، فقال : ﴿ خلقنا ﴾ أي من هذه الأشياء التي عددناها من الحي وغيره من الجن الذين أعطيناهم قدرة التوصل إلى الفلك وغيرهم ، وعبر ب " من " تغليباً للعاقل من الملائكة وغيرهم مما بين السماوات والأرض .

ولما كان الجواب قطعاً أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم وأنهم هم من أضعف الخلائق خلقاً ، قال دالاً على إرادة التهكم بهم في السؤال ، مؤكداً إشارة إلى أن إنكارهم البعث

لاستبعادهم تمييز التراب من التراب يلزم منه إنكار ابتداء الخلق على هذا الوجه : ﴿ إنا خلقناهم ﴾ أي على عظمتنا ﴿ من طين ﴾ أي تراب رخو مهين ﴿ لازب ﴾ أي شديد اختلاط بعضه ببعض فالتصق وضمر وتضايق وتلازم بعضه لبعض ، وقل واشتد ودخل بعض التراب المنتثر من بعض ، قال ابن الجوزي : قال ابن عباس -رضى الله عنهما- : هو الطين الحر الجيد اللزق .

(124/651)

---

وإنما كانوا من طين لأن أباهم آدم كان منه من غير أب ولا أم ، فصاروا بهذا التقدير بعض الطين الذي هو بعض خلقه الذي عدده قبل ذلك سبحانه الذاتية التي لا يمتنع عليها مقدور ، ولا يعجزها مأمور ، فدل ابتداء خلقهم وخلق ما هو أشد منهم وأعظم على القدرة على إعادتهم قطعاً بل بطريق الأولى من غير وجه ، وحسن هذا الاستقتاء كل الحسن ختم الكلام قبله بمن بلغوا السماء تكبراً وعلواً ، وهموا بما لم ينالوا تجبراً وعلواً ، وسلط عليهم ما يردهم مقهورين مبعدين مدحورين ، واستثنى منهم من ﴿ خطف ﴾ ليعلم أنه غير محال ما تعلقت به منهم الآمال ، هذا مع ذكره في خلقهم من الطين اللازب الذي من شأنه الرسوب لثقله والسفول كما أن من شأن من ختم بهم ما قبله العلو لخفتهم والصعود .

ولما كان من المعلوم قطعاً أن المراد بهذا الأمر بالاستفتاء إنما هو التبكيت لأن من المعلوم قطعاً أن الجواب : ليسوا أشد خلقاً من ذلك ، فليس بعثهم ممتنعاً ، وليست غلبتهم لرسول الواحد القهار - الذي حكمه في هذا الوحي بإظهاره على الدين كله - بجائزة أصلاً ، نقلاً ولا عقلاً ، بوجه من الوجوه ، فلا شبهة لهم في إنكاره ولا في ظنهم أنهم يغلبون رسولنا ، بل هم في محل عجب شديد في إنكاره وظنهم أنهم غالبون في الدنيا ، عبر عن ذلك بقوله ، مسنداً العجب إلى أجلّ الموجودات أو أجلّ المخلوقات تعظيماً لم بمعنى أنه قول يستحق أن يقال فيه : أنه لا يدري ما الذي أوقع فيه وكان سبباً لارتكابه ، فقال : ﴿ بل عجبت ﴾ بضم التاء على قراءة حمزة والكسائي لفتاً للقول من مظهر العظمة للتصريح بإسناد التعجب إليه سبحانه إشارة إلى تناهي هذا العجب إلى حد لا يوصف لإسناده إلى من هو منزه عنه ، وبفتحها عند الباقين أي من جرأتهم في إنكارهم البعث ولا سيما وقد دل عليه القرآن في هذه الأساليب الغريبة والوجوه البديعة العجيبة التي لا يشك فيها من له أدنى تصور ، وقد كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ظن كما هو اللائق أنه لا يسمع القرآن أحد إلا آمن به ، قال القشيري : وحقيقة التعجب تغير النفس بما خفي فيه السبب مما لم تجر العادة بحدوث مثله

، ومثل هذا حديث الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأم سليم وأبي طلحة ـ رضى الله عنهما ـ :



---

" ضحك – وفي رواية : عجب – الله من فعالكما الليلة " ، وحديث البخاري رحمه الله عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أيضاً : " عجب ربنا من أقوام يقادون إلى الجنة في السلاسل " ومثله كثير ، والمعنى في الكل التنبيه على عظم الفعل وأنه خارق للعادة ، ويجوز أن يكون المعنى أنهم لم ينكروه لقلة الدلائل عليه ، بل قد أتى من دلائله ما يعجب إعجاباً عظيماً من كثرته وطول الأناة في مواترته ﴿ ويسخرون ﴾ أي حصل لك العجب والحال أنهم يجددون السخرية كلما جئتهم بحجة ﴿ وإذا ذكروا ﴾ أي وعظوا من أيّ واعظ كان بشيء هم به عارفون جداً يدلهم على البعث مثل ما يذكرون به من القدرة ، مع أنه لا يجوز في عقل عاقل منهم أن أحداً يدع مَن تحت يده بلا محاسبة ﴿ لا يذكرون ﴾ أي لا يعملون بموجب التذكير .

ولما ذكر إعراضهم عن المسموع ، أتبعه إعراضهم عن المرئي فقال : ﴿ وإذا رأوا آية ﴾ أي

علامة على صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وغيره ﴿ يستسخرون ﴾ أي يطلبون السخرية بها بأن يدعو بعضهم بعضاً لذلك من شدة استهزائهم .

(127/651)

---

ولما كان إنكارهم للبعث ولو صدر مرة واحدة في الشناعة والعظم والقباحة مثل تجديدهم للسخرية كلما سمعوا آية والمبالغة فيها لأن دلائله من الظهور والوضوح بمكان هو في غاية البعد عن الشكوك ، دل على ذلك بالتعبير بالماضي فقال : ﴿ وقالوا ﴾ أي ما هو غاية في العجب : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هذا ﴾ أي الذي أتانا به من أمر البعث وغيره مما شاهدناه أو أخبرنا به ﴿ إلا سحر ﴾ أي خيال وأمور مموهة لا حقائق لها ﴿ مبين ﴾ أي ظاهر في نفسه ومظهر لسخريته ثم خصوا البعث بالإنكار : ﴿ أإذ متنا ﴾ وعطفوا عليه ما هو موجب عندهم لشدة الإنكار فقالوا : ﴿ وكنا ﴾ أي كوناً هو في غاية التمكن ﴿ تراباً ﴾ قدموه لأنه أدل على مرادهم لأنه أبعد عن الحياة ﴿ وعظاماً ﴾ كأنهم جعلوا كل واحد من الموت والكون إلى الترابية المحضة والعظامية المحضة أو المختلطة منهما مانعاً من البعث ، وهذا بعد اعترافهم أن ابتداء خلقهم كان من التراب مع أن هذا ظاهر جداً " ولكن عقول ضلها باريها " ثم كرروا الاستفهام الإنكاري على قراءة من قرأ به زيادة في الإنكار فقالوا :

﴿أإنا لمبعوثون﴾ .

ولما كان المعنى : أيثبت بعثنا ، عطفوا عليه قولهم مكررين للاستفهام الإنكاري تأكيداً لزيادة استبعادهم حتى أنهم قاطعون بأنه محال فقالوا قولاً واهياً : ﴿أو آباؤنا﴾ أي يثبت بعثنا وكذا آباؤنا وزادوا في الاستبعاد بقولهم : ﴿الأولون﴾ اي الذين طال مكثهم في الأرض تحت أطباق الثرى وانمحقت أجزاؤهم بحيث لم يبق لهم أثر ما ، ومرت الدهور ولم يبعث أحد منهم يوماً من الأيام ، يدلنا بعثه على ما يدعي من ذلك .

ولما بالغوا هذه المبالغات في إنكاره بعد قيام البراهين في هذه السورة وغيرها على جوازه بل وجوبه عادة ، أمره بأن يجيبهم بما يقابل ذلك فقال تعالى : ﴿قل نعم﴾ أي تبعثون على كل تقدير قدرتموه ، وذكر حالهم بقوله : ﴿وأنتم داخرون﴾ أي مكرهون عليه صاغرون ذليلون حقيرون .

(128/651)

---

ثم سبب عن الوعد بتحتم كونه ما يدل على أنه غاية في الهوان فقال : ﴿فإنما﴾ أي يكون ذلك بسبب أنكم تزجرون فتقومون ، والزجرة التي يقومون بها إنما ﴿هي زجرة﴾ أي صيحة ، وأكد ما يفهمه من الوحدة لأجل إنكارهم تصريحاً بذلك وتحقيراً لأمر البعث في

جنب قدرته سبحانه وتعالى فقال : ﴿ واحدة ﴾ وهي الثانية التي كانت الإماتة لجميع الأحياء في آن واحد بمثلها ، وأصل الزجر الانتهار ويكون لحث أو منع ، وإنما يكون ذلك للمقدور عليه فعل ما يغضب الزاجر ، فلذلك سمى الصيحة زجرة .

ولما كان هذا الكلام مؤذناً بالغضب ، حققه بصرف الكلام عن خطابهم جعلاً لهم بمحل البعد وتعميماً لغيرهم ، فقال معبراً بالفاء المسببة المعقبة وأداة المفاجأة : ﴿ فإذا هم ﴾ أي جميع الأموات بضمائرهم وظواهرهم القديم منهم والحديث أحياء ﴿ ينظرون ﴾ أي في الحال من غير مهلة أصلاً ، ولا فرق بين من صار كله تراباً ومن لم يتغير أصلاً ، ومن هو بين ذلك ، ولعله خص النظر بالذكر لأنه لا يكون إلا مع كمال الحياة ، ولذلك قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إذا قبض الروح تبعه البصر " وأما السمع فقد يكون لغير الحي لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال في الكفار من قتلى بدر : " ما أنتم بأسمع لما أقول منهم " وشاهدت أنا في بلاد العرقوب المجاروة لبانياس من بلاد الشام شجرة شوك يقال لها الغبيراء متى قيل عندها " هات لي المنجل لأقطع هذه الشجرة " أخذ ورقها في الحال في الذبول – فالله أعلم ما سبب ذلك .

ولما حصل الغرض من تصوير حالهم بهذا الفعل المضارع ، عطف عليه بصيغة المضي التي معناها الاستقبال إعلاماً بتحقق الأمر تحقق ما مضى وكان ، وتحققه مع القيام سواء من غير تخلف ولا تخلل زمان أصلاً فقال : ﴿ وقالوا ﴾ أي كل من جمعه البعث من الكفرة

معلمين بما انكشف لهم من أنه لا ملازم لهم غير الويل : ﴿ يا ويلنا ﴾ اي يا من ليس لنا نديم غيره ﴿ هذا يوم الدين ﴾ أي الجزاء لكل عامل .

(129/651)

---

ولما كان قولهم هذا إنما هو للتحسر على ما فاتهم من التصديق النافع به ، زادوا في ذلك بقولهم يخاطب بعضهم بعضاً بدلاً أو وصفاً بعد وصف دالين بإعادة اسم الإشارة على ما داخلهم من الهول : ﴿ هذا يوم الفصل ﴾ أي الذي يفصل فيه بين الخصوم ، ثو زادوا تأسفاً وتغمماً وتلهفاً بقولهم ، لافتين القول عن التكلم إلى الخطاب لأنه أدل على ذم بعضهم لبعض وأبعد عن الإنصاف بالاعتراف : ﴿ الذي كنتم ﴾ أي يا دعاة الويل جبلة وطبعاً ﴿ به تكذبون ﴾ وقدموا الجار إشارة إلى عظيم تكذيبهم به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 294.299 ﴾

(130/651)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في بيان النظم اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصد الأقصى من هذا الكتاب الكريم إثبات الأصول الأربعة وهي الإلهيات والمعاد والنبوة وإثبات القضاء والقدر .

فنقول إنه تعالى افتتح هذه السورة بإثبات ما يدل على وجود الصانع ويدل على وحدانيته وهو خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب ، فلما أحكم الكلام في هذا الباب فرع عليها إثبات القول بالحشر والنشر والقيامة .

واعلم أن الكلام في هذه المسألة يتعلق بطرفين أولهما إثبات الجواز العقلي وثانيهما إثبات الوقوع أما الكلام في المطلوب الأول فاعلم أن الاستدلال على الشيء يقع على وجهين أحدهما : أن يقال إنه قدر على ما هو أصعب وأشد وأشق منه فوجب أيضاً أن يقدر عليه والثاني : أن يقال إنه قدر عليه في إحدى الحالتين والفاعل والقابل باقيين كما كانا ، فوجب أن تبقى القدرة عليه في الحالة الثانية والله تعالى ذكر هذين الطريقين في بيان أن القول بالبعث والقيامة أمر جائز ممكن .

أما الطريق الأول : فهو المراد من قوله : ﴿ فاستفتهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ والتقدير كأنه تعالى يقول : استفت يا محمد هؤلاء المنكرين أهم أشد خلقاً من خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب وخلق الشياطين الذين يصعدون الفلك ، ولا شك أنهم يعترفون بأن خلق هذا القسم أشق وأشد في العرف من خلق القسم الأول ، فلما ثبت بالدلائل المذكورة في إثبات التوحيد كونه تعالى قادراً على هذا القسم الذي هو أشد وأصعب ، فبأن يكون قادراً على إعادة الحياة في هذه الأجساد كان أولى ، ونظير هذه الدلالة قوله تعالى في آخر يس ﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [ يس : 81 ] وقوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [ غافر : 57 ] وأما الطريق الثاني : فهو المراد من قوله : ﴿ إِنَّا خلقناهم مّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾ والمعنى أن هذه الأجسام قابلة للحياة إذ لو لم تكن قابلة للحياة لما صارت حية في المرة الأولى والإله قادر على خلق هذه الحياة في هذه الأجسام ، ولولا كونه تعالى قادراً على هذا المعنى لما حصلت الحياة في المرة الأولى ، ولا شك أن قابلية تلك الأجسام باقية وأن قادرية الله تعالى باقية لأن هذه القابلية وهذه القادرية من الصفات الذاتية فامتنع زوالها فثبت

بهذين الطريقين أن القول بالبعث والقيامة أمر ممكن ، ولما بين تعالى إمكان هذا المعنى بهذين الطريقين بين وقوعه بقوله : ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخرون ﴾ [ الصافات : 18 ] وذلك لأنه ثبت صدق الرسول صلى الله عليه وسلم لأجل ظهور المعجزات عليه والصادق إذا أخبر عن أمر ممكن الوقوع وجب الاعتراف بوقوعه فهذا تقرير نظم هذه الآية وهو في غاية الحسن ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

(132/651)

---

في تفسير ألفاظ هذه الآية ، أما قوله : ﴿ فاستفتهم ﴾ يعني أنه لما ثبت بالدلائل القاطعة كونه تعالى خالقاً للسموات والأرض وما بينهما فاستفت هؤلاء المنكرين وقل لهم ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ أم هذه الأشياء التي بينا كونه تعالى خالقاً لها ولم يحك عنهم أنهم أقروا أن خلق هذه الأشياء أصعب لأجل أن ظهور ذلك كالمعلوم بالضرورة فلا حاجة أن يحكى عنهم صحة أن الأمر كذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا خلقناهم مّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾ يعني أنا لما قدرنا على خلق الحياة في ذواتهم أولاً وجب أن نبقى قادرين على خلق الحياة فيهم ثانياً ، لما بينا أن حال القابل

وحال الفاعل ممتنع التغير .

وفيه دقيقة أخرى وهي أن القوم قالوا كيف يعقل تولد الإنسان لا من النطفة ولا من الأبوين ؟ فكأنه قيل لهم إنكم لما أقررتم بحدوث العالم واعترفتم بأن السموات والأرض وما بينهما إنما حصل بتخليق الله تعالى وتكوينه فلا بد وأن تعترفوا بأن الإنسان الأول إنما حدث لا من الأبوين ؟ فإذا عقلتم ذلك واعترفتم به فقد سقط قولكم الإنسان كيف يحدث من غير النطفة ومن غير الأبوين ، وأيضاً قد اشتهر عند الجمهور أن آدم مخلوق من الطين اللازب ومن قدر على خلق الحياة في الطين اللازب فكيف يعجز عن إعادة الحياة إلى هذه الذوات .

(133/651)

---

وأما كيفية خلق الإنسان من الطين اللازب فهي مذكورة في السورة المتقدمة ، واعلم أن هذا الوجه إنما يحسن إذا قلنا المراد من قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خلقناهم مّن طِينٍ لاَّزِبِ ﴾ هو أنا خلقنا أباهم آدم من طين لازب ، وفيه وجوه أخر وهو أن يكون المراد أنا خلقنا كل إنسان من طين لازب ، وتقريره أن الحيوان إنما يتولد من المني ودم الطمث والمني يتولد من الدم فالحيوان إنما يتولد من الدم والدم إنما يتولد من الغذاء ، والغذاء إما حيواني وإما نباتي أما تولد الحيوان الذي صار غذاء فالكلام في كيفية تولده كالكلام في تولد الإنسان ، فثبت أن

الأصل في الأغذية هو النبات والنبات إنما يتولد من امتزاج الأرض بالماء وهو الطين اللازب وإذا كان الأمر كذلك فقد ظهر أن كل الخلق متولدون من الطين اللازب ، وإذا ثبت هذا فنقول إن هذه الأجزاء التي منها تركب هذا الطين اللازب قابلة للحياة والله تعالى قادر عليها ، وهذه القابلية والقادرية واجبة البقاء فوجب بقاء هذه الصحة في كل الأوقات وهذه بيانات ظاهرة واضحة ، وأما اللازب فقيل اللاصق ، وقيل اللزج وقيل الحتد ، وأكثر أهل اللغة على أن الباء في لازب بدل من الميم يقال لازب ولازم .

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

تقرير الكلام أن يقال إن هؤلاء المنكرين أقروا بأنه تعالى قادر على تكوين أشياء أصعب من إعادة الحياة إلى هذه الأجساد ، وقد تقرر في صرائح العقول أن القادر على الأشق الأشد يكون قادراً على الأسهل الأيسر ، ثم مع قيام هذه الحجة البديهية بقي هؤلاء الأقوام مصرين على إنكار البعث والقيامة وهذا في موضع التعجب الشديد فإن مع ظهور هذه الحجة الجلية الظاهرة كيف يعقل بقاء القوم على الإصرار فيه .

فأنت يا محمد تتعجب من إصرارهم على الإنكار وهم في طرف الإنكار وصلوا إلى حيث يسخرون منك في قولك بإثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة ، فهذا هو المراد من قوله :

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخُرُونَ ﴾ .

المسألة الثانية :

(135/651)

قرأ حمزة والكسائي ﴿ عَجِبْتَ ﴾ بضم التاء والباقون بفتحها قال الواحدي : والضم قراءة ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم ويحيى بن وثاب والأعمش وقراءة أهل الكوفة واختيار أبي عبيدة ، أما الذين قرأوا بالفتح فقد احتجوا بوجوه الأول : أن القراءة بالضم تدل على إسناد العجب إلى الله تعالى وذلك محال ، لأن التعجب حالة تحصل عند الجهل بصفة الشيء ومعلوم أن الجهل على الله محال والثاني : أن الله تعالى أضاف التعجب إلى محمد صلى الله عليه وسلم في آية أخرى في هذه المسألة فقال : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً ﴾ [ الرعد : 5 ] ، والثالث : أنه تعالى قال : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخُرُونَ ﴾ والظاهر أنهم إنما سخروا لأجل ذلك التعجب فلما سخروا منه وجب أن

يكون ذلك التعجب صادراً منه ، وأما الذين قرأوا بضم التاء ، فقد أجابوا عن الحجة الأولى من وجوه الأول : أن القراءة بالضم لا نسلم أنها تدل على إسناد التعجب إلى الله تعالى ، وبيانه أنه يكون التقدير قل يا محمد ( بل عجبت ويسخرون ) ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ [ مريم : 38 ] معناه أن هؤلاء ما تقولون فيه أنتم هذا النحو من الكلام ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النار ﴾ [ البقرة : 175 ] الثاني : سلمنا أن ذلك يقتضي إضافة التعجب إلى الله تعالى فلم قلتم إن ذلك محال ؟ ويروى أن شريحاً كان يختار القراءة بالنصب ويقول العجب لا يليق إلا بمن لا يعلم ، قال الأعمش : فذكرت ذلك لإبراهيم فقال : إن شريحاً يعجب بعلمه وكان عبد الله أعلم ، وكان يقرأ بالضم وتحقيق القول فيه أن نقول : دل القرآن والخبر على جواز إضافة العجب إلى الله تعالى ، أما القرآن فقوله تعالى : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ﴾ [ الرعد : 5 ] والمعنى إن تعجب يا محمد من قولهم ، فهو أيضاً عجب عندي ، وأجيب عنه أنه لا يمتنع أن يكون المراد وإن تعجب فعجب قولهم عندكم ، وأما الخبر فقوله صلى الله عليه وسلم :

"عجب ربكم من إلكم وقنوطكم ، وعجب ربكم من شاب ليست له صبوة" وإذا ثبت هذا فنقول العجب من الله تعالى خلاف العجب من الآدميين كما قال : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ ﴾ [ الأنفال : 30 ] وقال : ﴿ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ [ التوبة : 79 ] وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [ النساء : 142 ] والمكر والخداع والسخرية من الله تعالى بخلاف هذه الأحوال من العباد ، وقد ذكرنا أن القانون في هذا الباب أن هذه الألفاظ محمولة على نهايات الأعراض لا على بدايات الأعراض .

وكذلك ههنا من تعجب من شيء فإنه يستعظمه فالتعجب في حق الله تعالى محمول على أنه تعالى يستعظم تلك الحالة إن كانت قبيحة فيترتب العقاب العظيم عليه ، وإن كانت حسنة فيترتب الثواب العظيم عليه ، فهذا تمام الكلام في هذه المناظرة ، والأقرب أن يقال القراءة بالضم إن ثبتت بالتواتر وجب المصير إليها ويكون التأويل ما ذكرناه وإن لم تثبت هذه القراءة بالتواتر كانت القراءة بفتح التاء أولى ، والله أعلم .

وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (13)

اعلم أنه تعالى لما قرر الدليل القاطع في إثبات إمكان البعث والقيامة حكى عن المنكرين أشياء أولها : أن النبي صلى الله عليه وسلم يتعجب من إصرارهم على الإنكار وهم يسخرون منه في إصراره على الإثبات ، وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم مع أولئك الأقوام كانوا في غاية التباعد وفي طرفي النقيض وثانيها قوله : ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ ، وثالثها قوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ ويجب أن يكون المراد من هذا الثاني والثالث غير الأول لأن العطف يوجب التغاير ولأن التكرير خلاف الأصل ، والذي عندي في هذا الباب أن يقال القوم كانوا يستبعدون الحشر والقيامة ويقولون : من مات وصار ترابا ً وتفرقت أجزاؤه في العالم كيف يعقل عوده بعينه ؟ وبلغوا في هذا الاستبعاد إلى حيث كانوا يسخرون ممن يذهب إلى هذا المذهب وإذا كان كذلك فلا طريق إلى إزالة هذا الاستبعاد عنهم إلا من وجهين أحدهما : أن يذكر لهم الدليل الدال على صحة الحشر والنشر مثل أن يقال لهم : هل تعلمون أن خلق السموات والأرض أشد وأصعب من إعادة إنسان بعد موته ؟ وهل تعلمون أن القادر على الأصعب الأشق يجب أن يكون قادراً على الأسهل الأيسر ؟ فهذا الدليل وإن كان جلياً قوياً إلا أن أولئك المنكرين إذا عرض على عقولهم هذه المقدمات لا يفهمونها ولا يقفون عليها ، وإذا ذكروا لم يذكروها لشدة بلادتهم وجهلهم ، فلا جرم لم ينتفعوا بهذا النوع من البيان .

الطريق الثاني : أن يثبت الرسول صلى الله عليه وسلم جهة رسالته بالمعجزات ثم يقول لما ثبت بالمعجز كوني رسولاً صادقاً من عند الله فأنا أخبركم بأن البعث والقيامة حق ، ثم إن أولئك المنكرين لا ينتفعون بهذا الطريق أيضاً لأنهم إذا رأوا معجزة قاهرة وآية باهرة حملوها على كونها سحراً وسخروا بها واستهزؤا منها وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وإذ رأوا آية يستسخرون ﴾ فظهر بالبيان الذي ذكرناه أن هذه الألفاظ الثلاثة منبهة على هذه الفوائد الجليلة .

واعلم أن أكثر الناس لم يقفوا على هذه الدقائق ، فقالوا إنه تعالى قال : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ [ الصافات : 12 ] .

(139/651)

ثم قال : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا ءايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ فوجب أن يكون المراد من قوله : ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ غير ما تقدم ذكره من قوله : ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ فقال هذا القائل المراد من قوله : ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ إقدامهم على السخرية والمراد من قوله : ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ طلب كل واحد منهم من صاحبه أن يقدم على السخرية وهذا التكليف إنما لزمهم لعدم

وقوفهم على الفوائد لتي ذكرناها ، والله أعلم والرابع : من الأمور التي حكاها الله تعالى عنهم أنهم قالوا : ﴿إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يعني أنهم إذا رأوا آية ومعجزة سخروا منها ، والسبب في تلك السخرية اعتقادهم أنها من باب السحر وقوله : ﴿مُّبِينٌ﴾ معناه أن كونه سحراً أمر بين لا شبهة لأحد فيه ، ثم بين تعالى أن السبب الذي يحملهم على الاستهزاء بالقول بالبعث وعلى عدم الالتفات إلى الدلائل الدالة على صحة القول وعلى الاستهزاء بجميع المعجزات هو قولهم إن الذي مات وتفرقت أجزاؤه في جملة العالم فما فيه من الأرضية اختلط بتراب الأرض وما فيه من المائية والهوائية اختلط ببخارات العالم فهذا الإنسان كيف يعقل عوده بعينه حياً فاهماً ؟ فهذا الكلام هو الذي يحملهم على تلك الأحوال الثلاثة المتقدمة ، ثم إنه تعالى لما حكى عنهم هذه الشبهة قال : قل يا محمد نعم وأنتم داخرون وإنما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب لأنه ذكر في الآية المتقدمة بالبرهان اليقيني القطعي أنه أمر ممكن وإذا ثبت الجواز القطعي فلا سبيل إلى القطع بالوقوع إلا بإخبار المخبر الصادق ، فلما قامت المعجزات على صدق محمد صلى الله عليه وسلم كان واجب الصدق فكان مجرد قوله : ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ دليلاً قاطعاً على الوقوع .

ومن تأمل في هذه الآيات علم أنها وردت على أحسن وجوه الترتيب ، وذلك لأنه بين الإمكان بالدليل العقلي وبين وقوع ذلك الممكن بالدليل السمعي ، ومن المعلوم أن الزيادة على هذا البيان كالأمر الممتنع .

أما قوله : ﴿ أَوَ ءابَاؤُنَا ﴾ فالمعنى أو تبعث آباؤنا وهذه ألف الاستفهام دخلت على حرف العطف وقرأ نافع وابن عامر ههنا ، وفي سورة الواقعة ساكنة الواو وذكرنا الكلام في هذا في سورة الأعراف عن قوله : ﴿ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾ [ الأعراف : 98 ] .

أما قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾ فنقول قرأ الكسائي وحده ( نعم ) بكسر العين .

أما قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ داخرون ﴾ أي صاغرون ، قال أبو عبيد الدخور أشد الصغار ، وذكرنا تفسير هذه اللفظة عند قوله : ﴿ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ داخرون ﴾ [ النحل : 48 ] .

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (19)

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة ما يدل على إمكان البعث والقيامة ، ثم أردفه بما يدل على وقوع القيامة ، ذكر في هذه الآيات بعض تفاصيل أحوال القيامة ، وأنه تعالى ذكر في هذه الآية أنواعاً من تلك الأحوال فالحالة الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ واحدة فَإِذَا هُمْ ينظرون ﴾ وفيه أبحاث :

البحث الأول : قوله : ﴿ فَإِنَّمَا ﴾ جواب شرط مقدر والتقدير إذا كان كذلك فما هي إلا زجرة واحدة .

البحث الثاني : الضمير في قوله : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ ﴾ ضمير على شريطة التفسير ، والتقدير فإنما البعث زجرة واحدة .

البحث الثالث : الزجرة في اللغة الصيحة التي يزجر بها كالزجرة بالنعم والإبل عند البحث ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة وإن لم يكن فيها معنى الزجر كما في هذه الآية وأقول لا يبعد أن يقال إن تلك الصيحة إنما سميت زجرة لأنها تزجر الموتى عن الرقود في القبور وتحثهم على القيام من القبور والحضور في موقف القيامة ، فإذا عرفت هذا فنقول المراد من هذه الزجرة ما ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [ الزمر : 68 ] فبالنفخة الأولى يموتون وبالنفخة الثانية يحيون ويقومون ، وههنا سؤالات :



السؤال الأول : ما الفائدة في هذه الصيحة فإن القوم في تلك الساعة أموات لأن النفخة جارية مجرى السبب لحياتهم فتكون مقدمة على حصول حياتهم فثبت أن هذه الصيحة إنما حصلت حال كون الخلق أمواتاً ، فتكون تلك الصيحة عديمة الفائدة فهي عبث والعبث لا يجوز في فعل الله والجواب : أما أصحابنا فيقولون يفعل الله ما يشاء ، وأما المعتزلة فقال

القاضي فيه وجهان الأول : أن تعتبر بها الملائكة الثاني : أن تكون الفائدة التخويف والإرهاب .

السؤال الثاني : هل لتلك الصيحة تأثير في إعادة الحياة ؟ الجواب : لا ، بدليل أن الصيحة الأولى استعقبت الموت والثانية الحياة وذلك يدل على أن الصيحة لا أثر لها في الموت ولا في الحياة ، بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال : ﴿ الذى خَلَقَ الموت والحياة ﴾ [ الملك : 2 ] .

السؤال الثالث : تلك الصيحة صوت الملائكة أو الله تعالى يخلقها ابتداء ؟ الجواب : الكل جائز إلا أنه روي أن الله تعالى يأمر إسرافيل حتى ينادي : أيتها العظام النخرة والجلود البالية والأجزاء المتفرقة اجتمعوا بإذن الله تعالى : اللفظ الرابع : من الألفاظ المذكورة في هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ فيحتمل أن يكون المراد ينظرون ما يحدث بهم ويحتمل ينظر بعضهم إلى بعض وأن يكون المراد ينظرون إلى البعث الذي كذبوا به الحالة الثانية : من وقائع القيامة ما أخبر الله عنهم أنهم بعد القيام من القبور قالوا : ﴿ يا ويلنا هذا يَوْمُ الدين ﴾ قال الزجاج : الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة والمقصود أنهم لما شاهدوا القيامة قالوا : ﴿ هذا يَوْمُ الدين ﴾ أي يوم الجزاء هذا ، والمقصود أن الله تعالى ذكر في آيات كثيرة من القرآن ، أنا نرى في الدنيا محسناً ومسيئاً وعاصياً وصديقاً وزنديقاً ، ورأينا أنه لم يصل إليهم في الدنيا ما يليق بهم من الجزاء فوجب القول بإثبات القيامة :

(142/651)

﴿ لِيَجْزِىَ الذين أَسَاءواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيِجْزِى الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى ﴾ [ النجم : 31 ] وبالجملة فهذا يدل على أن الجزاء إنما يحصل بعد الموت ، والكفار وإن سمعوا هذا الدليل القوي لكنهم أنكروا وتمردوا ثم إنه تعالى إذا أحياهم يوم القيامة فإذا شاهدوا القيامة يذكرون ذلك اليوم ويقولون : ﴿ هذا يَوْمُ الدين ﴾ أي يوم الجزاء الذي ذكر الله الدلائل الكثيرة عليه في القرآن فكفرنا بها ، ونظيره أن من خوف بشيء ولم يتلفت إليه ، ثم عاينه بعد ذلك فقد يقول هذا يوم الواقعة الفلانية فكذا ههنا ، وفيه احتمال آخر وهو أنه تعالى قال في سورة الفاتحة ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [ الفاتحة : 4 ] فبين أنه لا مالك في ذلك اليوم إلا الله فقولهم هذا يوم الدين ، إشارة إلى أن هذا هو اليوم الذي لا حكم فيه لأحد إلا لله ، وإنما ذكروه لما حصل في قلوبهم من الخوف الشديد .

أما قوله تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل الذى كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ ففيه بحثان :

الأول : اختلفوا في أن هذا هو من بقية كلام الكفار أو يقال تم كلامهم عند قوله تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ الدين ﴾ .

(143/651)

وأما قوله : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل ﴾ فهو كلام غيرهم ، فبعضهم قال بالأول وزعم أن قوله : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل ﴾ الآية من كلام بعضهم لبعض ، والأكثرون على القول الثاني واحتجوا بوجهين : الأول : أن قوله : ﴿ كُنتُمْ بِهِ تُكَذّبُونَ ﴾ من كلام بعضهم لبعض خطاب مع جميع الكفار فقائل هذا القول لا بد وأن يكون غير الكفار الثاني : أن قوله : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ [ الصافات : 22 ] منسوق على قوله : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل الذى كُنتُمْ بِهِ تُكَذّبُونَ ﴾ فلما كان قوله : ﴿ احشروا الذين ظلموا ﴾ كلام غير الكفار فكذلك قوله : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل الذى كُنتُمْ بِهِ تُكَذّبُونَ ﴾ يجب أن يكون كلام غير الكفار ، وعلى هذا التقدير فقوله : ﴿ هذا يَوْمُ الدين ﴾ من كلام الكفار ، وقوله : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل ﴾ من كلام الملائكة جواباً لهم ، والوجه في كونه جواباً لهم أن أولئك الكفار ، إنما اعتقدوا في أنفسهم كونهم محقين في إنكار دعوة الأنبياء عليهم السلام وكونهم محقين في تلك الأديان الفاسدة فقالوا : ﴿ هذا يَوْمُ الدين ﴾ أي هذا اليوم الذي يصل فيه إلينا جزاء طاعتنا وخيراتنا ، فالملائكة يقولون لهم إنه لا اعتبار بظواهر الأمور في هذا اليوم فإن هذا اليوم يفصل فيه الجزاء الحقيقي عن الجزاء الظاهري وتميز فيه الطاعات الحقيقية عن الطاعات المقرونة بالرياء والسمعة فبهذا الطريق صار هذا الكلام من الملائكة جواباً لما ذكره الكفار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 109 . 114 ﴾

(144/651)

وقال ابن عطية :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾

(145/651)

الاستفتاء نوع من أنواع السؤال وكأنه سؤال من يهتبل بقوله ويجعل حجة ، وكذلك هي أقوالهم في هذا الفصل لأنهم لا يمكنهم أن يقولوا إلا أن خلق من سواهم من الملائكة والجن والسماوات والأرض والمشارق وغير ذلك هو أشد هؤلاء المخاطبين ، وبأن الضمير في ﴿ خلقنا ﴾ يراد به ما تقدم ذكره ، قال مجاهد وقتادة وغيرهما وفي مصحف ابن مسعود " أم من عددنا " يريد من ﴿ الصافات ﴾ وغيرها ﴾ والسماوات والأرض وما بينهما ﴾ [ الصافات : 1 ] ، وكذلك قرأ الأعمش " أَمَن " مخففة الميم دون ﴿ أم ﴾ ، ثم أخبر تعالى إخباراً جزماً عن خلقه لآدم الذي هو أبو البشر وأضاف الخلق من الطين إلى جميع الناس من حيث الأب مخلوق منه ، وقال الطبري : خلق آدم من تراب وماء ونار وهواء

وهذا كله إذا خلط صار طيناً لازباً ، واللازب أي يلزم ما جاوره ويلصق به ، وهو الصلصال كالفخار ، وعبر ابن عباس وعكرمة عن " اللازب " بالجر الكريم الجيد وحقيقة المعنى ما ذكرناه ، يقال ضربه لازم وضربة لازب بمعنى واحد ، وقرأ جمهور القراء " بل عجبتَ " بفتح التاء ، أي عجبت يا محمد عن إعراضهم عن الحق وعماهم عن الهدى وأن يكونوا كافرين مع ما جئتهم به من عند الله ، وقرأ حمزة والكسائي " بل عجبتُ " بضم التاء ، ورويت عن علي وابن مسعود وابن عباس وابن وثاب والنخعي وطلحة وشقيق والأعمش وذلك على أن يكون تعالى هو المتعجب ، ومعنى ذلك من الله أنه صفة فعل ، ونحوه قول النبي صلى الله عليه وسلم " يعجب الله تعالى إلى قوم يساقون إلى الجنة في السلاسل " ، وقوله عليه السلام " يعجب الله من الشاب ليست له صبوة " ، فإنما هي عبارة عما يظهره تعالى في جانب المتعجب منه من التعظيم والتحقير حتى يصير الناس متعجبين منه ، فمعنى هذه الآية بل عجبت من ضلالتهم وسوء نحلتهم ، وجعلتها للناظرين ، وفيما اقترن معها من شرعي وهداي متعجباً ، وروي عن شريح أنه أنكر هذه القراءة وقال إن الله تعالى لا يعجب ، وقال الأعمش :

فذكرت ذلك لإبراهيم ، فقال إن شريحاً كان معجباً بعلمه وإن عبد الله أعلم منه ، وقال مكي وعلي بن سليمان في كتاب الزهراوي : هو إخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه كأن المعنى قل بل عجبت ، وقوله ﴿ يسخرون ﴾ أي وهم يسخرون من نبوءتك والحق الذي عندك ، وقوله تعالى ﴿ وإذا رأوا آية يستسخرون ﴾ ، يريد بالآية العلامة والدلالة ، وروي أنها نزلت في ركانة وهو رجل من المشركين من أهل مكة لقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في جبل خال وهو يرعى غنماً له وهو أقوى أهل زمانه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم



" يا ركانة أرأيت إن صرعتك أتؤمن بي ؟ " قال : نعم ، فصرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ثم عرض عليه آيات من دعاء شجرة وإقبالها ونحو ذلك مما اختلف فيه العلماء وألفاظ الحديث ، فلما فرغ من ذلك كله لم يؤمن وجاء إلى مكة فقال : يا بني هاشم ساحروا بصاحبكم أهل الأرض فنزلت هذه الآية فيه وفي نظرائه ، وقوله ﴿ يستسخرون ﴾ معناه يطلبون أن يكونوا ممن يسخر ، ويجوز أن يكون بمعنى يسخرون كقوله تعالى : ﴿ واستغنى الله ﴾ [ التغابن : 6 ] فيكون فعل واستفعل بمعنى ، وب " يسخرون " فسره مجاهد

وقتادة، وفي بعض القراءات القديمة "يستسحرون" بالحاء غير منقوطة، وهذه عبارة عما قال ركانة لأنه استسحر النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ "مُتنا" بضم الميم أبو جعفر وابن أبي إسحاق وعاصم وأبو عمرو والعامة، وقرأ بكسر الميم الحسن والأعرج وشيبة ونافع، وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة أيضاً "أوْ آباؤنا" بسكون الواو وهي "أو" التي هي للقسمة والتخيير، وقرأ الجمهور "أوَآباؤنا" بفتح الواو وهي واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام، ثم أمره تعالى أن يجيب تقريرهم ب ﴿ نعم ﴾ وأن يزيدهم في الجواب أنهم مع البعث في صغار وذلة واستكانة، وقرأ ابن وثاب "نِعم" بكسر العين، و"الداخر" الصاغر الذليل وقد تقدم غير مرة ذكر القراءات في قوله ﴿ أئذا ﴾ على الخبر والاستفهام وما يلحقها من مد وتركه وإظهار همز وتسهيله.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (19)

(148/651)

---

هذا استئناف إخبار جره ما قبله، فأخبر تعالى أن بعثهم من قبورهم إنما هو ﴿ زجرة واحدة ﴾، وهي نفخة البعث في الصور، وقوله ﴿ ينظرون ﴾، يحتمل أن يريد بالأبصار أي ينظرون ما هم فيه وصدق ما كانوا يكذبون به، ويحتمل أن يكون بمعنى

ينتظرون، أي ما يفعل بهم ويؤمرون به، ثم أخبر عنهم أنهم في تلك الحال يقولون ﴿ يا ويلنا ﴾ ينادون الويل بمعنى هذا وقت حضورك وأوان حلولك، وروى أبو حاتم الوقف ها هنا وجعل قوله ﴿ هذا يوم الدين ﴾ من قول الله تعالى لهم أو الملائكة، ورأى غيره أن قوله تعالى: ﴿ هذا يوم الدين ﴾ هو من قول الكفرة الذين قالوا ﴿ يا ويلنا ﴾ ، و﴿ الدين ﴾ الجزاء والمقارضة كما يقولون كما تدين تدان، وأجمعوا أن قوله ﴿ هذا يوم الفصل ﴾ إلى آخر الآية ليس من قول الكفرة وإنما المعنى يقال لهم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(149/651)

---

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ فاستفتهم ﴾

أي سلهم يعني أهل مكة؛ مأخوذ من استفتاء المفتى.

﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ قال مجاهد: أي من خلقنا من السموات والأرض والجبال والبحار.

وقيل: يدخل فيه الملائكة ومن سلف من الأمم الماضية.

يدلّ على ذلك أنه أخبر عنهم "بمَن" قال سعيد بن جبير : الملائكة .

وقال غيره : "مَنْ" الأمم الماضية وقد هلكوا وهم أشدّ خلقاً منهم .

نزلت في أبي الأشد بن كَلَدَة ، وسمي بأبي الأشد لشدّة بطشه وقوّته .

وسيأتي في "البلد" ذكره .

ونظير هذه : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [ غافر : 57 ] وقوله : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء ﴾ [ النازعات : 27 ] .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾ أي لاصق ؛ قاله ابن عباس .

ومنه قول عليّ رضي الله عنه :

تَعَلَّمْ فإنّ الله زادكَ بَسطةً . . .

وأخلاقَ خيرٍ كلُّها لكَ لاَزِبُ

وقال قتادة وابن زيد : معنى "لاَزِبٍ" لازق .

الماوردي : والفرق بين اللاّصق واللاّزق أن اللاّصق : هو الذي قد لُصق بعضه ببعض ، واللاّزق : هو الذي يلتزق بما أصابه .

وقال عِكرمة : "لاَزِبٍ" لزج .

سعيد بن جبير : أي جيد حرّ يلصق باليد .

مجاهد : "لاَزِب" لازم .

والعرب تقول : طينٌ لازِب ولازِم ، تبدل الباء من الميم .

ومثله قولهم : لاتب ولازِم .

على إبدال الباء بالميم .

واللازب الثابت ؛ تقول : صار الشيء ضَرْبَةَ لازبٍ ، وهو أفصح من لازم .

قال النابغة :

ولا تَحْسَبُونَ الخيرَ لا شرَّ بعدهُ . . .

ولا تَحْسَبُونَ الشرَّ ضربةَ لازبِ

وحكى الفرّاء عن العرب : طين لاتب بمعنى لازم .

واللاتِب الثابت ؛ تقول منه : لَتَبَ يَلْتُب لَتْباً ولُتُوباً ، مثل لَزَبَ يَلْزُب بالضم لزوباً ؛ وأنشد أبو الجرّاح في اللاتب :

فإن يَكُ هذا من نبيذٍ شرِبْتُهُ . . .

فإنّي من شرب النّبيذِ لَتَائِبُ

صُداعٌ وتَوْصيمُ العِظامِ وفَتْرَةٌ . . .

وغَمٌّ مع الإشْرَاقِ في الْجَوفِ لاَتِبُ

واللاتب أيضاً : اللاصق مثل اللازب ، عن الأصمعي حكاه الجوهري .

وقال السدي والكلبي في اللازب : إنه الخالص .

مجاهد والضحاك : إنه المنتن .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم بفتح التاء خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي بل عجبت مما نزل عليك من القرآن وهم يسخرون به .

وهي قراءة شُرَيح وأنكر قراءة الضم وقال : إن الله لا يعجب من شيء ، وإنما يعجب من لا يعلم .

وقيل : المعنى بل عجبت من إنكارهم للبعث .

وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بضم التاء .

واختارها أبو عبيد والفرّاء ، وهي مروية عن عليّ وابن مسعود ؛ رواها شعبة عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ : "بَلْ عجِبْتُ" بضم التاء .

ويروى عن ابن عباس .

قال الفرّاء في قوله سبحانه : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ قرأها الناس بنصب التاء ورفعها ، والرفع أحبّ إليّ ؛ لأنها عن علي وعبد الله وابن عباس .

وقال أبو زكريا الفراء : العجب إن أسند إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد ؛ وكذلك قوله :

﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [ البقرة : 15 ] ليس ذلك من الله كمعناه من العباد .

وفي هذا بيان الكسر لقول شُرَيْح حيث أنكر القراءة بها .

روى جرير والأعمش عن أبي وائل شَقِيق بن سَلَمة قال : قرأها عبد الله يعني ابن مسعود "بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ" قال شريح : إن الله لا يعجب من شيء إنما يعجب مَن لا يعلم .

قال الأعمش : فذكرته لإبراهيم فقال : إن شريحاً كان يعجبه رأيه ، إن عبد الله كان أعلم من شُرَيح وكان يقرؤها عبد الله "بَلْ عَجِبْتُ" .

(151/651)

---

قال الهرويّ : وقال بعض الأئمة : معنى قوله ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ بل جازيتهم على عجبهم ؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم في غير موضع بالتعجب من الحق ؛ فقال : ﴿ وعجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [ ص : 4 ] ، وقال : ﴿ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ ص : 5 ] ، ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ [ يونس : 2 ] فقال تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ بل جازيتهم على التعجُّب .

قلت : وهذا تمام معنى قول الفرّاء واختاره البيهقي .

وقال عليّ بن سليمان : معنى القراءتين واحد ، التقدير : قل يا محمد بل عجبت ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم مخاطب بالقرآن .

النحاس : وهذا قول حسن وإضمار القول كثير .

البيهقي : والأول أصح .

المهدوي : ويجوز أن يكون إخبار اللَّهِ عن نفسه بالعجب محمولاً على أنه أظهر من أمره وسخطه على من كفر به ما يقوم مقام العجب من المخلوقين ؛ كما يُحْمَل إخباره تعالى عن نفسه بالضحك لمن يرضى عنه على ما جاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم على أنه أظهر له من رضاه عنه ما يقوم له مقام الضحك من المخلوقين مجازاً واتساعا .

قال الهرويّ : ويقال معنى "عَجبَ رَبُّكُم" أي رضي وأثاب ؛ فسمّاه عجباً وليس بعجب في الحقيقة ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُ اللهُ ﴾ [ الأنفال : 30 ] معناه ويجازيهم الله على مكرهم ، ومثله في الحديث :

"عَجبَ رَبُّكُمْ مِنْ إِلّكُمْ وقُنوطكم" وقد يكون العجب بمعنى وقوع ذلك العمل عند الله عظيماً .

فيكون معنى قوله : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ أي بل عَظُم فعلهم عندي .

قال البيهقي : ويشبه أن يكون هذا معنى حديث عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " عَجَب ربك من شاب ليست له صَبْوة " وكذلك ما خرجه البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل " قال البيهقي : وقد يكون هذا الحديث وما ورد من أمثاله أنه يُعجِّب ملائكته من كرمه ورأفتِه بعباده ، حين حملهم على الإيمان به بالقتال والأسر في السلاسل ، حتى إذا آمنوا أدخلهم الجنة .

وقيل : معنى "بَلْ عَجِبْتُ" بل أنكرت .

حكاه النقاش .

وقال الحسين بن الفضل : التعجب من الله إنكار الشيء وتعظيمه ، وهو لغة العرب .

وقد جاء في الخبر " عجب ربكم من إِلّكم وقُنوطكم " ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ قيل : الواو واو الحال ؛ أي عجبت منهم في حال سخريتهم .

وقيل : تم الكلام عند قوله : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ ثم استأنف فقال : ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أي مما جئت به إذا تلوتَه عليهم .

وقيل : يسخرون منك إذا دعوتَهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ ﴾ أي وُعظوا بالقرآن في قول قتادة .

﴿ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ لا ينتفعون به.

وقال سعيد بن جبير: أي إذا ذُكر لهم ما حل بالمكذبين من قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبروا.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ أي معجزة ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أي يسخرون في قول قتادة.

ويقولون إنها سحر.

واستسخر وسخر بمعنًى مثل استقر وقرّ، واستعجب وعجب.

وقيل: ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أي يستدعون السخرى من غيرهم.

وقال مجاهد: يستهزئون.

وقيل: أي يظنون أن تلك الآية سخرية.

﴿ وقالوا إِن هاذآ إِلآَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي إذا عجزوا عن مقابلة المعجزات بشيء قالوا هذا سحر وتخييل وخداع.

﴿ أَإِذَا مِتْنَا ﴾ أي أنبعث إذا متنا؟.

فهو استفهام إنكار منهم وسخرية ﴿ أَوَآبَآؤُنَا الأولون ﴾ أي أوَ تبعث آباؤنا.

دخلت ألف الاستفهام على حرف العطف.

وقرأ نافع: "أَوْ آبَاؤُنا" بسكون الواو.

وقد مضى هذا في سورة "الأعراف" .

في قوله تعالى : ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾ [ الأعراف : 98 ] .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾ أي نعم تبعثون .

﴿ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي صاغرون أذلاء ؛ لأنهم إذا رأوا وقوع ما أنكروه فلا محالة يذلون .

وقيل : أي ستقوم القيامة وإن كرهتم ، فهذا أمر واقع على رغمكم وإن أنكرتموه اليوم بزعمكم .

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أي صيحة واحدة ؛ قاله الحسن .

وهي النفخة الثانية .

وسمّيت الصيحة زجرة ؛ لأن مقصودها الزجر ؛ أي يزجر بها كزجر الإبل والخيل عند السَّوق .

﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ قِيَامٌ ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ أي ينظر بعضهم إلى بعض .

وقيل : المعنى ينتظرون ما يفعل بهم .

وقيل : هي مثل قوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ ﴾ [ الأنبياء : 97 ] .

وقيل : أي ينظرون إلى البعث الذي أنكروه .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يا ويلنا هذا يَوْمُ الدين ﴾ نادوا على أنفسهم بالويل ؛ لأنهم يومئذ يعلمون ما حلّ بهم .

وهو منصوب على أنه مصدر عند البصريين .

وزعم الفرّاء أن تقديره : ياويْ لَنَا ، ووَيْ بمعنى حُزْن .

النحاس : ولو كان كما قال لكان منفصلاً وهو في المصحف متصل ، ولا نعلم أحداً يكتبه إلا متصلاً .

و"يَوْمُ الدِّين" يوم الحساب .

وقيل : يوم الجزاء .

﴿ هذا يَوْمُ الفصل الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ قيل : هو من قول بعضهم لبعض ؛ أي هذا اليوم الذي كذبنا به .

وقيل : هو من قول الله تعالى لهم .

وقيل : من قول الملائكة ؛ أي هذا يوم الحكم بين الناس فيبين المحق من المبطل .

ف ﴿ فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ﴾ [ الشورى : 7 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾

الاستفتاء نوع من السؤال ، والهمزة ، وإن خرجت إلى معنى التقرير ، فهي في الأصل لمعنى الاستفهام ، أي فاستخبرهم ، والضمير لمشركي مكة .

وقيل : نزلت في أبي الأشد بن كلدة ، وكني بذلك لشدة بطشه وقوته .

وعادل في هذا الاستفهام التقريري في الأشدية بينهم وبين من خلق من غيرهم من الأمم والجن والملائكة والأفلاك والأرضين .

وفي مصحف عبد الله : أم من عددنا ، وهو تفسير لمن خلقنا ، أي من عددنا من الصافات وما بعدها من المخلوقين .

وغلب العاقل على غيره في قوله : ﴿ من خلقنا ﴾ ، واقتصر على الفاعل في ﴿ خلقنا ﴾ ، ولم يذكر متعلق الخلق اكتفاء ببيان ما تقدمه ، وكأنه قال : أم من خلقنا من غرائب المصنوعات وعجائبها .

وقرأ الأعمش : أمن بتخفيف الميم دون أم ، جعله استفهاماً ثانياً تقريراً أيضاً ، فهما جملتان مستقلتان في التقرير ، ومن مبتدأ ، والخبر محذوف تقديره أشد .

فعلى أم من هو تقرير واحد ونظيره : ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء ﴾ قال الزمخشري :

وأشد خلقاً يحتمل أقوى خلقاً ، من قولهم : شديد الخلق ، وفي خلقه شدة ، وأصعب خلقاً .

وأشد خلقاً وأشقه يحتمل أقوى خلقاً من قولهم : شديد الخلق ، وفي خلقه شدة ، على معنى الرد ، لإنكارهم البعث والنشأة الأخرى .

وإن من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة ، ولم يصعب عليه اختراعها ، كان خلق الشر عليه أهون .

وخلقهم من طين لازب ، إما شهادة عليهم بالضعف والرخاوة ، لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة ؛ أو احتجاج عليهم بأن الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب .

فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله ؟ قالوا : ﴿ أئذا كنا تراباً ﴾ ، وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث . انتهى .

والذي يظهر الاحتمال الأول .



---

وقيل : ﴿ أم من خلقنا ﴾ من الأمم الماضية ، كقوله : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً ﴾ وقوله : ﴿ وكانوا أشد منكم قوة ﴾ وأضاف : الخلق من الطين إليهم

، والمخلوق منه هو أبوهم آدم ، إذ كانوا نسله .

وقال الطبري : خلق ابن آدم من تراب وماء ونار وهواء ، وهذا كله إذا خلط صار طيناً لازباً يلزم ما جاوره .

وعن ابن عباس : اللازب بالجر ، أي الكريم الجيد .

وقرأ الجمهور : ﴿ بل عجبت ﴾ ، بتاء الخطاب ، أي من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة ، وهم يسخرون منك ومن تعجبك ، ومما تريهم من آثار قدرة الله ، أو عجبت من إنكارهم البعث ، وهم يسخرون من أمر البعث .

أو عجبت من إعراضهم عن الحق وعماهم عن الهدى ، وأن يكونوا كافرين مع ما جئتم به من عند الله .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن سعدان ، وابن مقسم : بياء المتكلم .

ورويت عن عليّ ، وعبد الله ، وابن عباس ، والنخعي ، وابن وثاب ، وطلحة ، وشقيق ، والأعمش .

وأنكر شريح القاضي هذه القراءة .

وقال : الله لا يعجب ، فقال إبراهيم : كان شريح معجباً بعلمه ، وعبد الله أعلم منه ، يعني عبد الله ابن مسعود .

والظاهر أن ضمير المتكلم هو لله تعالى ، والعجب لا يجوز على الله تعالى ، لأنه روعة

تعتري المتعجب من الشيء .

وقد جاء في الحديث إسناد العجب إلى الله تعالى ، وتؤول على أنه صفة فعل يظهرها الله تعالى في صفة المتعجب منه من تعظيم أو تحقير حتى يصير الناس متعجبين منه .

فالمعنى : بل عجبت من ضلالتهم وسوء عملهم ، وجعلتها للناظرين فيها وفيما اقترن فيها من شرعي وهداي متعجباً .

وقال الزمخشري : أي بلغ من عظيم آياتي وكثرة خلائقي أني عجبت منها ، فكيف بعبادي وهؤلاء ، لجهلهم وعنادهم ، يسخرون من آياتي ؟ أو عجبت من أن ينكروا البعث ممن هذه أفعاله ، وهم يسخرون بمن يصف الله بالقدرة عليه ، قال : ويجرد العجب لمعنى الاستعظام ، أو يخيل العجب ويفرض .

وقيل : هو ضمير الرسول ، أي قل بل عجبت .



---

قال مكي ، وعليّ بن سليمان : وهم يسخرون من نبوتك والحق الذي عندك .

﴿ وإذا ذكروا ﴾ ووعظوا ، ﴿ لا يذكرون ﴾ ، ولا يتعظون .

وذكر جناح بن حبيش : ذكروا ، بتخفيف الكاف .

روي " أن ركانة رجلاً من المشركين من أهل مكة ، لقيه الرسول في جبل خال يرعى غنماً له ، وكان من أقوى الناس ، فقال له : "يا ركانة ، أرأيت إن صرعتك أتؤمن من بي" ؟ قال : نعم ، فصرعه ثلاثاً ، ثم عرض عليه آيات من دعاء شجرة وإقبالها ، فلم يؤمن ، وجاء إلى مكة فقال : يا بني هاشم ، ساحروا بصاحبكم أهل الأرض " ، فنزلت فيه وفي نظرائه : ﴿ وإذا رأوا آية يستسخرون ﴾ .

قال مجاهد ، وقتادة : يسخرون ، يكون استفعل بمعنى المجرد .

وقيل : فيه معنى الطلب ، أي يطلبون أن يكونوا ممن يسخرون .

وقال الزمخشري : يبالغون في السخرية ، أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها .

وقرىء : يستسحرون ، بالحاء المهملة ، وهو عبارة عن ما قال ركانة لأسحر الرسول .

والإشارة بهذا إلى ما ظهر على يديه ، عليه السلام ، من الخارق المعجز .

وتقدم الخلاف في كسر ميم ﴿ متنا ﴾ وضمها .

ومن قرأ : ﴿ أئذا ﴾ بالاستفهام ، فجواب إذا محذوف ، أي نبعث ، ويدل عليه إنا لمبعوثون ، أو يعرى عن الشرط ويكون ظرفاً محضاً ، ويقدر العامل : أنبعث إذا متنا ؟ وقرأ الجمهور : ﴿ أو آباؤنا ﴾ بفتح الواو في أو .

وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، وابن عامر ، ونافع في رواية قالون : بالسكون ، فهي حرف عطف ، ومن فتح قالوا وحرف عطف دخلت عليه همزة الاستفهام .

قال الزمخشري : ﴿ أو آباؤنا ﴾ معطوف على محل إن واسمها ، أو على الضمير في مبعوثون .

والذي جوز العطف عليه الفصل بهمزة الاستفهام ، والمعنى : أيبعث أيضاً آباؤنا ؟ على زيادة الاستبعاد ، يعنون أنهم أقدم ، فبعثهم أبعد وأبطل . انتهى .

أما قوله معطوف على محل إن واسمها فمذهب سيبويه خلافه ، لأن قولك : إن زيداً قائم وعمرو ، فيه مرفوع على الابتداء ، وخبره محذوف .

(157/651)

---

وأما قوله : أو على الضمير في ﴿ مبعوثون ﴾ إلى آخره ، فلا يجوز عطفه على الضمير ، لأن همزة الاستفهام لا تدخل إلا على الجمل ، لا على المفرد ، لأنه إذا عطف على المفرد كان الفعل عاملاً في المفرد بوساطة حرف العطف ، وهمزة الاستفهام لا يعمل فيما بعدها ما قبلها .

فقوله : ﴿ أو آباؤنا ﴾ مبتدأ ، خبره محذوف تقديره مبعوثون ، ويدل عليه ما قبله .

فإذا قلت : أقام زيد أو عمرو ، فعمرو مبتدأ محذوف الخبر لما ذكرنا ، واستفهامهم تضمن إنكاراً واستبعاداً ، فأمر الله نبيه أن يجيبهم بنعم .

﴿ وأنتم داخرون ﴾ : أي صاغرون ، وهي جملة حالية ، العامل فيها محذوف تقديره نعم تبعثون ، وزادهم في الجواب أن بعثهم وهم ملتبسون بالصغار والذل .

وقرأ ابن وثاب : نعم بكسر العين ، وتقدم الخلاف فيها في سورة الأعراف ، وهي كناية عن البعثة ، فإنما بعثتهم ﴿ زجرة ﴾ : أي صيحة ، وهي النفخة الثانية .

لما كانت بعثتهم ناشئة عن الزجرة جعلت إياها مجازاً .

وقال الزمخشري : هي مبهمة يوضحها خبرها . انتهى .

وكثيراً ما يقول هو وابن مالك أن الضمير يفسره الخبر ، وجعل من ذلك ابن مالك ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ وتكلمنا معه في ذلك في شرح التسهيل .

وقال الزمخشري : فإنما جواب شرط مقدر ، وتقديره : إذا كان ذلك ، فما هي إلا زجرة واحدة . انتهى .

وكثيراً ما تضمن جملة الشرط قبل فاء إذا ساغ ، تقديره : ولا ضرورة تدعو إلى ذلك ، ولا يحذف الشرط ويبقى جوابه إلا إذا انجزم الفعل في الذي يطلق عليه أنه جواب الأمر والنهي ، وما ذكر معهما على قول بعضهم ، أما ابتداء فلا يجوز حذفه .

و ﴿ ينظرون ﴾ : من النظر ، أي فإذا هم بصراء ينظرون ، أو من الانتظار ، أي فإذا هم ينتظرون ما يفعل بهم وما يؤمرون به .

والظاهر أن قوله : ﴿ يا ويلنا ﴾ من كلام بعض الكفار لبعض ، إلى آخر الجملتين ، أقروا بأنه يوم الجزاء ، وأنه يوم الفصل ، وخاطب بعضهم بعضاً .



---

ووقف أبو حاتم على قوله : ﴿ يا ويلنا ﴾ ، وجعل ﴿ هذا يوم الدين ﴾ إلى آخره من قول الله لهم أو الملائكة .

وقيل : ﴿ هذا يوم الدين ﴾ من كلام الكفرة ، و ﴿ هذا يوم الفصل ﴾ ليس من كلامهم ، وإنما المعنى يقال لهم هذا يوم الفصل .

ويوم الدين : يوم الجزاء والمعاوضة ، ويوم الفصل : يوم الفرق بين فرق الهدى وفرق الضلال .

وفي ﴿ الذي كنتم به تكذبون ﴾ توبيخ لهم وتقريع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾



---

وقال أبو السعود :

﴿ فاستفتهم ﴾ فاستخبر مُشركي مكَّة ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ أي أقوى خِلقةً وأمتنُ بنيةً أو أصعبُ خَلْقاً وأشقُّ إيجاداً ﴿ أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴾ من الملائكةِ والسَّماءِ والأرضِ وما بينهما . والمشارقُ والكواكبُ والشُّهبُ الثَّواقبُ ومن لتغليبِ العُقلاءِ على غيرِهم ويدلُّ عليه إطلاقُه . ومجيئُه بعد ذلك لا سيَّما قراءةُ مَن قرأ أمْ مَن عددنا . وقولُه تعالى : ﴿ إنَّا خلقناهم مّن طِينٍ لاَّزِبِ ﴾ فإنَّه الفارقُ بينهم وبينها لا بينهم وبين من قبلهم من الأممِ كعادٍ وثمود ، ولأنَّ المرادَ إثباتُ المعادِ وردُّ استحالتهم . والأمرُ فيه بالإضافةِ إليهم وإلى مَن قبلهم سواء . وقُرِىء لازمٍ ولاتبٍ ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ أي من قُدرة الله تعالى على هذه الخلائقِ العظيمة وإنكارِهم للبعث ﴿ وَيَسْخُرُونَ ﴾ من تعجُّبكَ وتقريرِك للبعث . وقُرِىء بضمِّ التَّاءِ ، على معنى أنَّه بلغ كمالُ قدرتي وكثرةُ مخلوقاتي إليَّ حيث عجبتُ منها ، وهؤلاءِ لجهلهم يسخرونَ منها . أو عجبتُ من أنْ ينكرُوا البعثَ ممَّن هذه أفاعيلُه ويسخرُوا ممَّن يجوزُه . والعجبُ من اللَّهِ تعالى إمَّا على الفرضِ والتَّخييلِ ، أو على معنى الاستعظامِ اللاَّزمِ له فإنَّه روعةٌ تعتري الإنسانَ عند استعظامِ الشَّيءِ . وقيل إنَّه مقدَّرٌ بالقولِ أي قُل يا محمدُ بل عجبتُ ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ ﴾ أي ودأبهم المستمرُّ أنَّهم إذا وُعظوا بشيءٍ من المواعظِ . ﴿

لاَ يَذْكُرُونَ ﴾ لا يتّعظون ، وإذا ذُكر لهم ما يدلُّ على صحّةِ البعثِ لا ينتفعُون به لغايةِ بلادتهم وقصورِ فكرهم ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ ءايَةً ﴾ أي معجزةً تدلُّ على صدقِ القائلِ به ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ يُبالغون في السُّخريةِ ، ويقُولون إنَّه سحرٌ أو يستدعي بعضُهم من بعضٍ أنْ يسخرَ منها ﴿ وَقَالُواْ إِنْ هذا ﴾ أي ما يَرونه من الآياتِ الباهرة ﴿ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهرٌ سحريَّتَهُ ﴿ أَءذَا مِتْنَا وَكُنَّا

(161/651)

---

تُرَاباً وعظاما ﴾ أي كان بعضُ أجزائنا تُراباً وبعضُها عظاماً . وتقديمُ التُّرابِ لأنَّه منقلبٌ من الأجزاءِ الباديةِ . والعاملُ في إذا ما دلَّ عليه مبعوثونَ في قوله تعالى : ﴿ أَءنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أي نُبعث لا نفسه لأنَّ دونَه خطوباً لو تفرَّدَ واحدٌ منها لكفى في المنعِ . وتقديمُ الظَّرفِ لتقويةِ الإنكارِ للبعث بتوجيهِه إلى حالةٍ منافيةٍ له غايةَ المُنافاةِ وكذا تكريرُ الهمزةِ في أئنا للمبالغةِ والتَّشديدِ في ذلك وكذا تحليةُ الجملةِ بأنْ واللاَّمِ لتأكيدِ الإنكارِ لا لإنكارِ التَّأكيدِ كما يُوهمه ظاهرُ النَّظمِ الكريمِ فإنَّ تقديمَ الهمزةِ لاقتضائها الصَّدارةَ كما في مثلِ قولِه تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ على رأيِ الجمهورِ ، فإنَّ المعنى عندَهُم تعقيبُ الإنكارِ لا إنكارُ التَّعقيبِ كما هُو المشهورُ . وقُرىء بطرحِ الهمزةِ الأُولى وبطرحِ الثَّانيةِ فَقَطْ .

﴿ أَوَ ءابَاؤُنَا الاولون ﴾ رُفع على الابتداءِ ، وخبرُه محذوفٌ عند سيبويهِ أي وآباؤنا الأَوَّلُون أيضاً مبعوثُون . وقيل عطفٌ على محلِ إنَّ واسمِها ، وقيل على الضَّميرِ في مبعوثُون للفصلِ بهمزةِ الإنكارِ الجاريةِ مجرى حرفِ النَّفيِ في قوله تعالى : ﴿ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا ﴾ وأيًّا ما كانَ فمرادُهم زيادةُ الاستبعادِ بناءً على أنَّهم أقدمُ فبعثهم أبعدُ على زعمهم . وقُرىء أو آباؤُنا .

(162/651)

---

﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم ﴿ نِعَمَ ﴾ والخطابُ في قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ داخرون ﴾ لهم ولآبائِهم بطريقِ التَّغليبِ . والجملةُ حالٌ من فاعلِ ما دلَّ عليه نعم أي كلُّكم مبعوثون والحالُ أنَّكم صاغرونَ أذلاَّءُ . وقُرىء نَعِم بكسرِ العينِ وهي لغةٌ فيه . ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ واحدة ﴾ هي إمَّا ضميرٌ مبهمٌ يفسِّرهُ خبرُه ، أو ضميرُ البعثةِ . والجملةُ جوابُ شرطٍ مضمرٍ أو تعليلٌ لنهيَ مقدَّرٍ أي إذا كانَ كذلك فإنَّما هي الخ . أو لا تستصعبُوه فإنَّما هي الخ . والزَّجرةُ الصَّيحةُ من زجرَ الرَّاعي غنمه إذا صاحَ عليها وهي النَّفخةُ الثَّانيةُ ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ قائمونَ من مراقدِهم أحياءً ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ يُبصرون كما كانُوا أو ينتظرون ما يُفعل بهم ﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي المبعوثونَ . وصيغةُ الماضي للدِّلالةِ على التَّحققِ والتَّقررِ ﴿ ياويلنا ﴾ أي هلاكنا

احضرُ فهذا أوانُ حضورِك . وقولُه تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ الدين ﴾ تعليلٌ لدعائهم الويلَ بطريق الاستئنافِ أي اليوم الذي نُجازى فيه بأعمالنا ، وإنَّما علموا ذلك لأنَّهم كانوا يسمعون في الدُّنيا أنَّهم يُبعثون ويُحاسبون ويُجزَون بأعمالهم فلمَّا شاهدوا البعثَ أيقنُوا بما بعدَه أيضاً . وقولُه تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل الذى كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ كلامُ الملائكةِ جواباً لهم بطريقِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ . وقيل هُو أيضاً من كلامِ بعضِهم لبعضٍ ، والفصلُ القضاءُ أو الفرقُ بين فِرقِ الهُدى والضَّلالِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(163/651)

---

وقال الآلوسى :

﴿ فاستفتهم ﴾ أي فاستخبرهم ، وأصل الاستفتاء الاستخبار عن أمر حدث ، ومنه الفتى لحداثة سنه ، والضمير لمشركي مكة ، قيل : والآية نزلت في أبي الأشد بن كلدة الجمحي وكني بذلك لشدة بطشه وقوته واسمه أسيد ، والفاء فصيحة أي إذا كان لنا من المخلوقات ما سمعت أو إذا عرفت ما مر فاستخبر مشركي مكة واسألهم على سبيل التبكيت ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ أي أقوى خلقة وأمتن بنية أو أصعب خلقاً وأشق إيجاداً ﴿ أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴾ من الملائكة والسموات والأرض وما بينهما والمشارق والكواكب

والشياطين والشهب الثواقب ، وتعريف الموصول عهدي أشير به إلى ما تقدم صراحة ودلالة وغلب العقلاء على غيرهم والاستفهام تقريري ، وجوز أن يكون انكارياً ، وفي مصحف عبد الله ﴿ أَم مَّنْ ﴾ وهو مؤيد لدعوى العهد بل قاطع بها .

وقرأ الأعمش ﴿ إِلَيْهِ مِن ﴾ بتخفيف الميم دون أم جعله استفهاماً ثانياً تقريرياً فمن مبتدأ خبره محذوف أي أمن خلقنا أشد ﴿ إِنَّا خلقناهم مّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾ أي ملتصق كما أخرج ذلك ابن جرير .

وجماعة عن ابن عباس ، وفي رواية أخرى بلفظ ملتزق وبه أجاب ابن الأزرق وأنشد له قول النابغة

فلا تحسبون الخير لا شر بعده . . .

ولا تحسبون الشر ضربة لازب

قيل : والمراد ملتزق بعضه ببعض ، وبذلك فسره ابن مسعود كما أخرجه ابن أبي حاتم ويرجع إلى حسن العجن جيد التخمير ، وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن قتادة أنه يلزق باليد إذا مس بهاد وقال الطبري : خلق آدم من تراب وماء وهواء ونار وهذا كله إذا خلط صار طيناً لازباً يلزم ما جاوره ، واللازب عليه بمعنى اللازم وهو قريب مما تقدم ، وقد قرىء ﴿ لازم ﴾ بالميم بدل الباء و﴿ لاتب ﴾ بالتاء بدل الزاي والمعنى واحد .

وحكي في البحر عن ابن عباس أنه عبر عن اللازب بالحر أي الكريم الجيد ، وفي رواية أنه قال : اللازب الجيد .

وأخرج عبد بن حيمد .

(164/651)

---

وابن المنذر عن مجاهد أنه قال : لازب أي لازم منتن ، ولعل وصفه بمنتن مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [ الحجر : 26 ] لكن أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال : اللازب والحماء والطين واحد كان أوله ترابا ً ثم صار حمأ منتنا ثم صار طينا ً لازبا ً فخلق الله تعالى منه آدم عليه السلام .

وأيا ً ما كان فخلقهم من طين لازب إما شهادة عليهم بالضعف والرخاوة لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة أو احتجاج عليهم في أمر البعث بأن الطين اللازب الذي خلقوا منه في ضمن خلق أبيهم آدم عليه السلام تراب فمن أين استنكروا أن يخلقوا منه مرة ثانية حيث قالوا : ﴿ أَءذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وعظاما أَءنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [ الصافات : 16 ] ويعضد هذا على ما في الكشاف ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث .

﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وجوز أن يكون لكل من يقبله .

﴿ وبل ﴾ للاضراب إما عن مقدر يشعر به ﴿ فاستفتهم ﴾ [ الصافات : 11 ] الخ أي هم لا يقرون ولا يجيبون بما هو الحق بل مثلك ممن يذعن ويتعجب من تلك الدلائل أو عن الأمر بالاستفتاء أي لا تستفتهم فإنهم معاندون لا ينفع فيهم الاستفتاء ولا يتعجبون من تلك الدلائل بل مثلك ممن يتعجب منها ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أي وهم يسخرون منك ومن تعجبك ومما تريهم من الآيات ، وجوز أن يكون المعنى بل عجبت من إنكارهم البعث مع هذه الآيات وهم يسخرون من أمر البعث ، واختير أن يكون المعنى بل عجبت من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم البعث وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث ، وزعم بعضهم أن المراد بمن خلقنا الأمم الماضية وليس بشيء إذ لم يسبق لهذه الأمم ذكر وإنما سبق الذكر للملائكة عليهم السلام وللسموات والأرض وما سمعت مع أن حرف التعقيب مما يدل على خلافه ، ومن قال كصاحب الفرائد عليه جمهور المفسرين سوى الإمام ووجهه بأنه لما احتج عليهم بما هم مقرون به من كونه رب السموات والأرض ورب المشارق وألزمهم بذلك وقابلوه بالعناد قيل لهم : فانتظروا الإهلاك كمن قبلكم لأنكم لستم أشد خلقاً منهم فوضع موضعه ﴿ فاستفتهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ [ الصافات : 11 ] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا

خلقناهم ﴾ [ الصافات : 11 ] تعليل لأنهم ليسوا أشد خلقاً أو دليل لاستكبارهم المنتج للعناد .

وأيده بدلالة الإضراب واستبعاد البعث بعده لدلالته على أنه غير متعلق بما قبل الاضراب فقد ذهب عليه أن اللفظ خفي الدلالة على ما ذكر من العناد واستحقاق الاهلاك كسالف الأمم ؛ وتعليل نفي الأشدية بما علل ليس بشيء لوضوح أن السابقين أشد في ذلك ، وكم من ذلك في الكتاب العزيز ، وأما الاضراب فعن الاستفتاء إلى أن مثلك ممن يذعن ويتعجب من تلك الدلائل ولذا عطف عليه ﴿ وَيَسْخُرُونَ ﴾ وجعل ما أنكروه من البعث من بعض مساخرهم قاله صاحب الكشف فلا تغفل .

وقرأ حمزة .

والكسائي .

وابن سعدان .

(166/651)

---

وابن مقسم ﴿ عَجِبْتَ ﴾ بتاء المتكلم ورويت عن علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس .

وابن مسعود .

والنخعي .

وابن وثاب .

وطلحة وشقيق .

والأعمش .

وأنكر شريح القاضي هذه القراءة وقال : إن الله تعالى لا يعجب من شيء وإنما يعجب من لا يعلم ، وانكار هذا القاضي مما أفتى بعدم قبوله لأنه في مقابل بينة متواترة ، وقد جاء أيضاً في الخبر عجب ربكم من الكم وقنوطكم .

وأولت القراءة بأن ذلك من باب الفرض أي لو كان العجب مما يجوز عليّ لعجبت من هذه الحال أو التخييل فيجعل تعالى كأنه لانكاره لحالهم يعدها أمراً غريباً ثم يثبت له سبحانه العجب منها ، فعلى الأول تكون الاستعارة تخييلية تمثيلية كما في قولهم : قال الحائط للوتد لم تشقني فقال سل من يدقني ، وعلى الثاني تكون مكنية وتخييلية كما في نحن لسان الحال ناطق بكذا والمشهور في أمثاله الحمل على اللازم فيكون مجازاً مرسلاً فيحمل العجب على الاستعظام وهو رؤية الشيء عظيماً أي بالغا الغاية في الحسن أو القبح ، والمراد هنا رؤية ما هم عليه بالغا الغاية في القبح ، وليس استعظام الشيء مسبوقاً بانفعال يحصل في الروع عن مشاهدة أمر غريب كما توهم ليقال : إن التأويل المذكور لا يحسم مادة الاشكال .

وقال أبو حيان : يؤول على أنه صفة فعل يظهرها الله تعالى في صفة المتعجب منه من تعظيم أو تحقير حتى يصير الناس متعجبين منه فالمعنى بل عجبت من ضلالتهم وسوء نحلتهم وجعلتها للناظرين فيها وفيما اقترن بها من شرعي وهداي متعجباً ، وقال مكي .

وعلي بن سليمان : ضمير ﴿ عَجِبْتَ ﴾ للنبي عليه الصلاة والسلام والكلام بتقدير القول أي قب بل عجبت ، وعندي لو قدر القول بعد بل كان أحسن أي بل قل عجبت ، والذي يقتضيه كلام السلف ان العجب فينا انفعال يحصل للنفس عند الجهل بالسبب ولذا قيل : إذ ظهر السبب بطل العجب وهو في الله تعالى بمعنى يليق لذاته عز وجل هو سبحانه أعلم به فلا يعينون المراد والخلف يعينون .

(167/651)

---

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لاَ يَذْكُرُونَ ﴾ أي ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون به أو أنهم إذا ذكر لهم ما يدل على صحة الحشر لا ينتفعون به لبلادتهم وقلة فكرهم ، واستفادة الاستمرار من مقام الذم ، ولعل في إذا والعطف على الماضي ما يؤيده ، وقرأ ابن حبيش ﴿ ذَكَرُواْ ﴾ بتخفيف الكاف .

﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ ءايَةً ﴾ أي معجزة تدل على صدق من يعظهم ويدعوهم إلى ترك ما هم فيه

إلى ما هو خير أو معجزة تدل على صدق القائل بالحشر ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أي يبالغون في السخرية ويقولون إنه سحر أو يطلب بعضهم من بعض أن يسخر منها ، روي أن ركانة رجلاً من المشركين من أهل مكة لقيه الرسول صلى الله عليه وسلم في جبل خال يرعى غنماً له وكان من أقوى الناس فقال له : يا ركانة أرأيت أن صرعتك أتؤمن بي ؟ قال : نعم فصرعه ثلاثاً ثم عرض له بعض الآيات دعا عليه الصلاة والسلام شجرة فاقبلت فلم يؤمن وجاء إلى مكة فقال : يا بني هاشم ساحروا بصاحبكم أهل الأرض فنزلت فيه وفي اضرابه .

وقرىء ﴿ يستسحرون ﴾ بالحال المهملة أي يعدونها سحراً .

﴿ يوَقَالُوا إِنْ هذا ﴾ ما يرونه من الآيات الباهرة ﴿ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر سحريته في نفسه .

(168/651)

---

﴿ أَءذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما ﴾ أي كان بعض أجزائنا تراباً وبعضها عظاماً وتقديم التراب لأنه منقلب عن الأجزاء البادية ، وإذا إما شرطية وجوابها محذوف دل عليه قوله تعالى : ﴿ أَءنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أي نبعث وفي عاملها الكلام المشهور ، وإما متمحضة للظرفية فلا جواب لها ومتعلقها محذوف يدل عليه ذلك أيضاً لا هو لأن ما بعد إن واللام لا يعمل فيما

قبله أي انبعث إذا متنا ، وإن شئت فقدره مؤخراً فتقديم الظرف لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إلى حالة منافية لع غاية المنافاة ، وكذا تكرير الهمزة للمبالغة والتشديد في ذلك وكذا تحلية الجملة بأن ، واللام لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم فإن تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة .

وقرأ ابن عامر بطرح الهمزة الأولى .

وقرأ نافع .

والكسائي .

ويعقوب بطرح الثانية .

﴿ أَوَ ءابَاؤُنَا الأولون ﴾ مبتدأ حذف خبره لدلالة خبر إن عليه أي أو آباؤنا الأولون مبعوثون أيضاً والجملة معطوفة على الجملة قبلها .

وهذا أحد مذاهب في نحو هذا التركيب .

وظاهر كلام أبي حيان في شرح التسهيل أن حذف الخبر واجب فقد قال : قال من نحا إلى هذا المذهب الأصل في هذه المسألة عطف الجمل إلا أنهم لما حذفوا الخبر لدلالة ما قبل عليه أنابوا حرف العطف مكانه ولم يقدروا إذ ذاك الخبر المحذوف في اللفظ لئلا يكون جمعاً بين العوض والمعوض عنه فأشبه عطف المفردات من جهة أن حرف العطف ليس بعده في اللفظ إلا مفرد .

وثاني المذاهب أن يكون معطوفاً على الضمير المستتر في خبر إن إن كان مما يتحمل الضمير وكان الضمير مؤكداً أو كان بينه وبين المعطوف فاصل ما وإلا ضعف العطف.

ونسب ابن هشام هذا المذهب والذي قبله إلى المحققين من البصريين.

(169/651)

---

وفي تأتيه هنا من غير ضعف للفصل بالهمزة بحث فقد قال أبو حيان: إن همزة الاستفهام لا تدخل على المعطوف إلا إذا كان جملة لئلا يلزم عمل ما قبل الهمزة فيما بعدها وهو غير جائز لصدارتها.

والجواب بأن الهمزة هنا مؤكدة للاستبعاد فهي في النية مقدمة داخلة على الجملة في الحقيقة لكن فصل بينهما بما فصل قد بحث فيه بأن الحرف لا يكرر للتوكيد بدون مدخوله والمذكور في النحو أن الاستفهام له الصدر من غير فرق بين مؤكد ومؤسس مع أن كون الهمزة في نية التقديم يضعف أمر الاعتداد بالفصل بها لا سيما وهي حرف واحد فلا يقاس الفصل بها على الفصل بلا في قوله تعالى: ﴿ مَا أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَاؤُنَا ﴾ [الأنعام: 148].

وثالثها أن يكون عطفاً على محل إن مع ما عملت فيه، والظاهر أنه حينئذ من عطف الجمل في الحقيقة، ورابعها أن يكون عطفاً على محل اسم إن لأنه كان قبل دخولها في موضع رفع،

والظاهر أنه حينئذ من عطف المفردات .

واعترض بأن الرفع كان بالابتداء وهو عامل معنوي ، وقد بطل بالعامل اللفظي .

وأجيب بأن وجوده كلا وجود لشبهة بالزائد من حيث أنه لا يغير معنى الجملة وإنما يفيد التأكيد فقط .

واعترض أيضاً بأن الخبر المذكور كمبعوثون في الآية يكون حينئذ خبراً عنهما وخبر المبتدأ رافعه الابتداء أو المبتدأ أو هما وخبر إن رافعه إن فيتوارد عاملان على معمول واحد .

وأجيب بأن العوامل النحوية ليست مؤثرات حقيقية بل هي بمنزلة العلامات فلا يضر تواردها على معمول واحد وهو كما ترى ، وتمام الكلام في محله ، وعلى كل حال الأولى ما تقدم من كونه مبتدأ حذف خبره ؛ وقد قال أبو حيان : إن أرباب الأقوال الثلاثة الأخيرة متفقون على جواز القول الأول وهو يؤيد القول بأولويته ، وأياً ما كان فمراد الكفرة زيادة استبعاد بعث آبائهم بناء على أنهم أقدم فبعثهم أبعد على عقولهم القاصرة .

وقرأ أبو جعفر .

وشيبة .

وابن عامر .

ونافع في رواية .

وقالوا : ﴿ أَوْ ﴾ بالسكون على أنها حرف عطف وفيه الاحتمالات الأربعة إلا أن العطف على الضمير على هذه القراءة ضعيف لعدم الفصل بشيء أصلاً .

﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾ أي تبعثون أنتم وآباؤكم الأولون والخطاب في قوله سبحانه : ﴿ وَأَنتُمْ داخرون ﴾ لهم ولآبائهم بطريق التغليب ، والجملة في موضع الحال من فاعل ما دل عليه ﴿ نِعْمَ ﴾ أي تبعثون كلكم والحال إنكم صاغرون أذلاء ، وهذه الحال زيادة في الجواب نظير ما وقع في جوابه عليه الصلاة والسلام لأبي بن خلف حين جاء بعظم قد رم وجعل يفته بيده ويقول : يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما رم فقال صلى الله عليه وسلم له على ما في بعض الروايات " نعم ويبعثك ويدخلك جهنم " وقال غير واحد : إن ذلك من الأسلوب الحكيم .

وتعقب بأن عد الزيادة منه لا توافق ما قرر في المعاني وإن كان ذلك اصطلاحاً جديداً فلا مشاحة في الاصطلاح واكتفى في جواب عن إنكارهم البعث على هذا المقدار ولم يقم دليل عليه اكتفاء بسبق ما يدل على جواز في قوله سبحانه ﴿ فاستفتهم ﴾ [ الصافات : 11 ] الخ مع أن المخبر قد علم صدقه بمعجزاته الواقعة في الخارج التي دل عليها قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا ءايَةً ﴾ [ الصافات : 41 ] الآية .

وهزؤهم وتسميتهم لها سحراً لا يضر طالب الحق ، والقول بأن ذلك للاكتفاء بقيام الحجة

عليهم في القيامة ليس بشيء .

وقرأ ابن وثاب .

والكسائي ﴿ نِعْمَ ﴾ بكسر العين وهي لغة فيه .

وقرىء ﴿ قَالَ ﴾ أي الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ واحدة ﴾ الضمير راجع إلى البعثة المفهومة مما قبل ، وقيل للبعث والتأنيث باعتبار الخبر .

والزجرة الصيحة من زجر الراعي غنمه صاح عليها .

والمراد بها النفخة الثانية في الصور ولما كانت بعثتهم ناشئة عن الزجرة جعلت إياها مجازاً .

والفاء واقعة في جواب شرط مقدر أو تعليلية لنهي مقدر أي إذا كان كذلك فإنما البعثة زجرة واحدة أو لا تستصعبوها فإنما هي زجرة .

(171/651)

---

وجوز الزجاج أن تكون للتفسير والتفصيل وما بعدها مفسر للبعث .

وتعقب بأن تفسير البعث الذي في كلامهم لا وجه له والذي في الجواب غير مصرح به .

وتفسير ما كني عنه بنعم مما لم يعهد .

والظاهر أنه تفسير لما كني عنه بنعم وهو بمنزلة المذكور لا سيما وقد ذكر ما يقوى إحضاره من الجملة الحالية .

وعدم عهد التفسير في مثل ذلك مما لا جزم لي به .

وأبو حيان نازع في تقدير الشرط فقال : لا ضرورة تدعو إليه ولا يحذف الشرط ويبقى جوابه إلا إذا انجزم الفعل في الذي يطلق عليه أنه جواب الأمر والنهي وما ذكر معهما على قول بعضهم أما ابتداء فلا يجوز حذفه والجمهور على خلافه والحق معهم ، وهذه الجلمة اما من تتمة المقول وإما ابتداء كلام من قبله عز وجل .

﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ أي فإذا هم قيام من مراقدهم أحياء يبصرون كما كانوا في الدنيا أو ينتظرون ما يفعل بهم وما يؤمرون به .

وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (20)

﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي المبعوثون ، وصيغة الماضي لتحقق الوقوع ﴿ يَا وَيْلَنَا ﴾ أي يا هلاكنا احضر فهذا أوان حضورك ﴿ وَقَالُواْ ياويلنا هذا يَوْمُ الدين ﴾ استئناف منهم لتعليل دعائهم الويل .

والدين بمعنى الجزاء كما في كما تدين تدان أي هذا اليوم الذي نجازي فيه بأعمالنا ، وإنما علموا ذلك لأنهم كانوا يسمعون في الدنيا أنهم يبعثون ويحاسبون ويجزون بأعمالهم فلما شاهدوا البعث أيقنوا بما بعده أيضاً

﴿ هذا يَوْمُ الفصل الذى كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ كلام الملائكة جواباً لهم بطريق التوبيخ والتقريع ، وقيل : هو من كلام بعضهم لبعض أيضاً ، ووقف أبو حاتم على ﴿ يا ويلنا ﴾ وجعل ما بعده كلام الله تعالى أو كلام الملائكة عليهم السلام لهم كأنهما أجابوهم بأنه لا تنفع الولولة والتلهف ، والفصل القضاء أو الفرق بين المحسن والمسيء وتمييز كل عن الآخر بدون قضاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(172/651)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ والصافات صَفّاً ﴾

قرأ أبو عمرو ، وحمزة ، وقيل : حمزة فقط ، بإدغام التاء من الصافات في صاد صفاً ، وإدغام التاء من الزاجرات في زاي زجراً ، وإدغام التاء من التاليات في ذال ذكراً ، وهذه القراءة قد أنكرها أحمد بن حنبل لما سمعها .

قال النحاس : وهي بعيدة في العربية من ثلاثة جهات : الجهة الأولى أن التاء ليست من مخرج الصاد ، ولا من مخرج الزاي ، ولا من مخرج الدال ، ولا من أخواتهن .

الجهة الثانية أن التاء في كلمة ، وما بعدها في كلمة أخرى .

الثالثة أنك إذا أدغمت جمعت بين ساكنين من كلمتين ، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة واحدة .

وقال الواحدي : إدغام التاء في الصاد حسن لمقاربة الحرفين ، ألا ترى أنهما من طرف اللسان .

وقرأ الباقون بإظهار جميع ذلك ، والواو للقسم ، والمقسم به : الملائكة : الصافات ، والزاجرات ، والتاليات .

والمراد بـ ﴿ الصافات ﴾ : التي تصفّ في السماء من الملائكة كصفوف الخلق في الدنيا ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة .

وقيل : إنها تصفّ أجنحتها في الهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله بما يريد .

وقال الحسن : صفاً كصفوفهم عند ربهم في صلاتهم .

وقيل : المراد بالصافات هنا : الطير كما في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صافات ﴾ [ الملك : 19 ] والأوّل أولى ، والصفّ : ترتيب الجمع على خطّ كالصفّ في الصلاة .

وقيل : الصافات جماعة الناس المؤمنين إذا قاموا صفاً في الصلاة ، أو في الجهاد ، ذكره القشيري .

والمراد بـ ﴿ الزاجرات ﴾ الفاعلات للزجر من الملائكة ، إما لأنها تزجر السحاب كما قال السدّي ، وإما لأنها تزجر عن المعاصي بالمواعظ ، والنصائح .

وقال قتادة : المراد بالزاجرات : الزواجر من القرآن ، وهي كل ما ينهى ، ويزجر عن القبيح ، والأوّل أولى .

(173/651)

---

وانتصاب ﴿ صفا ﴾ و ﴿ زجراً ﴾ على المصدرية لتأكيد ما قبلهما .

وقيل : المراد بالزاجرات : العلماء ؛ لأنهم هم الذين يزجرون أهل المعاصي .

والزجر في الأصل : الدفع بقوّة ، وهو هنا قوّة التصويت ، ومنه قول الشاعر :

زجر أبي عروة السباع إذا . . . أشفق أن يختلطن بالغنم

ومنه زجرت الإبل ، والغنم : إذا أفزعتها بصوتك ، والمراد ب ﴿ التاليات ذِكْراً ﴾ الملائكة التي تتلو القرآن كما قال ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وابن جبير ، والسدّي .

وقيل : المراد : جبريل وحده ، فذكر بلفظ الجمع تعظيماً له مع أنه لا يخلو من أتباع له من الملائكة .

وقال قتادة : المراد كل من تلا ذكر الله ، وكتبه .

وقيل : المراد : آيات القرآن ، ووصفها بالتلاوة ، وإن كانت متلوّة كما في قوله : ﴿ إِنَّ هذا

القرءان يَقُصُّ على بَنِى إسراءيل ﴾ [ النمل : 76 ] .

وقيل : لأن بعضها يتلو بعضاً ، ويتبعه .

وذكر الماوردي : أن التاليات هم : الأنبياء يتلون الذكر على أممهم ، وانتصاب ﴿ ذكراً ﴾ على أنه مفعول به ، ويجوز أن يكون مصدراً كما قبله من قوله ﴿ صفاً ﴾ ، و ﴿ زجراً ﴾ .

قيل : وهذه الفاء في قوله : ﴿ فالزاجرات ﴾ ، ﴿ فالتاليات ﴾ إما لترتب الصفات أنفسها في الوجود ، أو لترتب موصوفاتها في الفضل ، وفي الكلّ نظر .

وقوله : ﴿ إِنَّ إلهكم لَوَاحِدٌ ﴾ جواب القسم ، أي : أقسم الله بهذه الأقسام إنه واحد ليس له شريك .

وأجاز الكسائي فتح " إن " الواقعة في جواب القسم ﴿ رَبّ السموات والأرض ﴾ يجوز أن يكون خبراً ثانياً ، وأن يكون بدلاً من ﴿ لواحد ﴾ ، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف .

قال ابن الأنباري : الوقف على ﴿ لواحد ﴾ وقف حسن ، ثم يبتدىء ﴿ ربّ السماوات ، والأرض ﴾ على معنى : هو ربّ السماوات ، والأرض .

قال النحاس : ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿ لواحد ﴾ .

والمعنى في الآية : أن وجود هذه المخلوقات على هذا الشكل البديع من أوضح الدلائل على وجود الصانع ، وقدرته ، وأنه ربّ ذلك كله ، أي : خالقه ، ومالكه .

والمراد بما بينهما : ما بين السماوات ، والأرض من المخلوقات .

والمراد ب ﴿ المشارق ﴾ مشارق الشمس .

قيل : إن الله سبحانه خلق للشمس كل يوم مشرقاً ، ومغرباً بعدد أيام السنة ، تطلع كل يوم من واحد منها ، وتغرب من واحد ، كذا قال ابن الأنباري ، وابن عبد البرّ .

وأما قوله في سورة الرحمن : ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ [ الرحمن : 17 ] فالمراد بالمشرقين : أقصى مطلع تطلع منه الشمس في الأيام الطوال ، وأقصر يوم في الأيام القصار ، وكذلك في المغربين .

وأما ذكر المشرق ، والمغرب بالإفراد ، فالمراد به : الجهة التي تشرق منها الشمس ، والجهة التي تغرب منها ، ولعله قد تقدّم لنا في هذا كلام أوسع من هذا .

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السماء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ المراد بالسماء الدنيا : التي تلي الأرض ، من الدنوّ ، وهو : القرب ، فهي أقرب السموات إلى الأرض .

قرأ الجمهور ﴿ بزينة الكواكب ﴾ بإضافة زينة إلى الكواكب .

والمعنى : زيناها بتزيين الكواكب ، أي : بحسنها .

وقرأ مسروق ، والأعمش ، والنخعي ، وحمزة بتنوين ﴿ زينة ﴾ ، وخفض ﴿ الكواكب ﴾ على أنها بدل من الزينة : على أن المراد بالزينة الاسم لا المصدر .

والتقدير بعد طرح المبدل منه : إنا زينا السماء بالكواكب ، فإن الكواكب في أنفسها زينة عظيمة ؛ فإنها في أعين الناظرين لها كالجواهر المتلألئة .

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه بتنوين " زينة " ، ونصب " الكواكب " على أن الزينة مصدر ، وفاعله محذوف .



---

والتقدير : بأن الله زين الكواكب بكونها مضيئة حسنة في أنفسها ، أو تكون الكواكب منصوبة بإضمار أعني ، أو بدلاً من السماء بدل اشتمال ، وانتصاب ﴿ حفظاً ﴾ على المصدرية بإضمار فعل ، أي : حفظناها حفظاً ، أو على أنه مفعول لأجله ، أي : زيناها بالكواكب للحفظ ، أو بالعطف على محل زينة كأنه قال : إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء .

﴿ وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شيطان مَّارِدٍ ﴾ أي : متمرّد خارج عن الطاعة يرمى بالكواكب ، كقوله : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ [ الملك : 5 ] .

وجملة ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ﴾ مستأنفة لبيان حالهم بعد حفظ السماء منهم.

وقال أبو حاتم: أي: لئلا يسمعوا، ثم حذف "إن" فرفع الفعل، وكذا قال الكلبي، والملأ الأعلى: أهل السماء الدنيا فما فوقها، وسمى الكلّ منهم أعلى بإضافته إلى ملإ الأرض، والضمير في ﴿ يسمعون ﴾ إلى الشياطين.

وقيل: إن جملة ﴿ لا يسمعون ﴾ صفة لكل شيطان، وقيل: جواباً عن سؤال مقدّر كأنه قيل: فما كان حالهم بعد حفظ السماء عنهم؟ فقال: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَا الْمَلَإِ الْأَعْلَى ﴾ قرأ الجمهور "يسمعون" بسكون السين، وتخفيف الميم.

وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص عنه بتشديد الميم، والسين، والأصل يتسمعون، فأدغم التاء في السين، فالقراءة الأولى تدلّ على انتفاء سماعهم دون استماعهم، والقراءة الثانية تدلّ على انتفائهما، وفي معنى القراءة الأولى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء: 212] قال مجاهد: كانوا يتسمعون، ولكن لا يسمعون.

واختار أبو عبيدة القراءة الثانية ، قال : لأن العرب لا تكاد تقول : سمعت إليه ، وتقول : تسمعت إليه ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُوراً ﴾ أي : يرمون من كلّ جانب من جوانب السماء بالشهب إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع ، وانتصاب ﴿ دحوراً ﴾ على أنه مفعول لأجله .

والدحور : الطرد ، تقول : دحرته دحراً ، ودحوراً : طردته .

قرأ الجمهور ﴿ دحوراً ﴾ بضم الدال ، وقرأ عليّ ، والسلمي ، ويعقوب الحضرمي ، وابن أبي عبلة بفتحها .

وروي عن أبي عمرو : أنه قرأ "يقذفون" مبنياً للفاعل ، وهي قراءة غير مطابقة لما هو المراد من النظم القرآني ، وقيل : إن انتصاب ﴿ دحوراً ﴾ على الحال ، أي : مدحورين ، وقيل : هو جمع داحر نحو قاعد ، وقعود ، فيكون حالاً أيضاً .

وقيل : إنه مصدر لمقدّر ، أي : يدحرون دحوراً .

وقال الفراء : إن المعنى : يقذفون بما يدحرهم ، أي : بدحور ، ثم حذفت الباء ، فانتصب بنزع الخافض .

واختلف هل كان هذا الرمي لهم بالشهب قبل المبعث ، أو بعده؟ فقال بالأوّل طائفة . وبالآخر آخرون .

وقالت طائفة بالجمع بين القولين : إن الشياطين لم تكن ترمى قبل المبعث رمياً يقطعها عن

السمع ، ولكن كانت ترمى وقتاً ، ولا ترمى وقتاً آخر ، وترمى من جانب ، ولا ترمى من جانب آخر ، ثم بعد المبعث رميت في كلّ وقت ، ومن كلّ جانب حتى صارت لا تقدر على استراق شيء من السمع إلا من اختطف الخطفة ، فأتبعه شهاب ثاقب ، ومعنى ﴿ وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ ﴾ : ولهم عذاب دائم لا ينقطع ، والمراد به : العذاب في الآخرة غير العذاب الذي لهم في الدنيا من الرمي بالشهب .

وقال مقاتل : يعني : دائماً إلى النفخة الأولى ، والأوّل أولى .

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الواصب : الدائم .



---

وقال السدّي ، وأبو صالح ، والكلبي : هو الموجع الذي يصل وجعه إلى القلب ، مأخوذ من الوصب ، وهو : المرض ، وقيل : هو الشديد ، والاستثناء في قوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة ﴾ هو من قوله : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ ، أو من قوله : ﴿ وَيَقْذِفُونَ ﴾ .

وقيل : الاستثناء راجع إلى غير الوحي لقوله : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ [ الشعراء : 212 ] بل يخطف الواحد منهم خطفة مما يتفاوض فيه الملائكة ، ويدور بينهم مما سيكون في العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض .

والخطف: الاختلاس مسارقة، وأخذ الشيء بسرعة.

قرأ الجمهور ﴿ خطف ﴾ بفتح الخاء، وكسر الطاء مخففة، وقرأ قتادة، والحسن بكسرهما، وتشديد الطاء، وهي لغة تميم بن مرّ، وبكر بن وائل.

وقرأ عيسى بن عمر بفتح الخاء، وكسر الطاء مشددة.

وقرأ ابن عباس بكسرهما مع تخفيف الطاء، وقيل: إن الاستثناء منقطع ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ أي: لحقه، وتبعه شهاب ثاقب: نجم مضيء، فيحرقه، وربما لا يحرقه فيلقي إلى إخوانه ما خطفه، وليست الشهب التي يرجم بها هي من الكواكب الثوابت بل من غير الثوابت، وأصل الثقوب: الإضاءة.

قال الكسائي: ثقبت النار تثقب ثقابة، وثقوباً: إذا اتقدت، وهذه الآية هي كقوله: ﴿ إِلاَّ مَنِ استرق السمع فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحجر: 18].

*(178/651)*

---

﴿ فاستفتهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴾ أي: اسأل الكفار المنكرين للبعث أهم أشدّ خلقاً، وأقوى أجساماً، وأعظم أعضاء، أم من خلقنا من السماوات، والأرض، والملائكة؟ قال الزجاج: المعنى: فاسألهم سؤال تقرير أهم أشدّ خلقاً، أي: أحكم

صنعة أم من خلقنا قبلهم من الأمم السالفة؟ يريد أنهم ليسوا بأحكم خلقاً من غيرهم من الأمم، وقد أهلكناهم بالتكذيب فما الذي يؤمنهم من العذاب؟ ثم ذكر خلق الإنسان، فقال: ﴿ إِنَّا خلقناهم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ أي: إنا خلقناهم في ضمن خلق أبيهم آدم من طين لازب، أي: لاصق، يقال: لزب يلزب لزوباً: إذا لصق.

وقال قتادة، وابن زيد: اللازب: اللازق.

وقال عكرمة: اللازب: اللزج.

وقال سعيد بن جبير: اللازب: الجيد الذي يلصق باليد.

وقال مجاهد: هو اللازم، والعرب تقول: طين لازب، ولازم تبدل الباء من الميم، واللازم: الثابت كما يقال: صار الشيء ضربة لازب، ومنه قول النابغة:

ولا تحسبون الخير لا شرّ بعده... ولا تحسبون الشرّ ضربة لازب

وحكى الفراء عن العرب: طين لاتب بمعنى: لازم، واللاتب الثابت.

قال الأصمعي: واللاتب اللاصق مثل اللازب.

والمعنى في الآية: أن هؤلاء كيف يستبعدون المعاد، وهم مخلوقون من هذا الخلق الضعيف، ولم ينكره من هو مخلوق خلقاً أقوى منهم، وأعظم، وأكمل، وأتمّ.

وقيل: اللازب هو: المنتن قاله مجاهد، والضحاك.

قرأ الجمهور ﴿ أم من خلقنا ﴾ بتشديد الميم، وهي: أم المتصلة، وقرأ الأعمش

بالتخفيف ، وهو استفهام ثان على قراءته .

قيل : وقد قرىء لازم ، ولاتب ، ولا أدري من قرأ بذلك .

ثم أضرب سبحانه عن الكلام السابق ، فقال : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ يا محمد من قدرة الله سبحانه ﴿ وَيَسْخُرُونَ ﴾ منك بسبب تعجبك ، أو ويسخرون منك بما تقوله من إثبات المعاد .

قرأ الجمهور بفتح التاء من ﴿ عجبت ﴾ على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

(179/651)

---

وقرأ حمزة ، والكسائي بضمها .

ورويت هذه القراءة عن عليّ ، وابن مسعود ، وابن عباس ، واختارها أبو عبيد ، والفراء .

قال الفراء : قرأها الناس بنصب التاء ، ورفعها ، والرفع أحبّ إليّ ؛ لأنها عن عليّ ، وعبد الله ، وابن عباس .

قال : والعجب أن أسند إلى الله ، فليس معناه من الله كمعناه من العباد .

قال الهروي : وقال بعض الأئمة : معنى قوله : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ بل جازيتهم على عجبهم

؛ لأن الله أخبر عنهم في غير موضع بالتعجب من الخلق كما قال : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [ ص : 4 ] وقالوا : ﴿ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ ص : 5 ] ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ [ يونس : 2 ] وقال عليّ بن سليمان : معنى القراءتين واحد ، والتقدير : قل : يا محمد : بل عجبت ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم مخاطب بالقرآن .

قال النحاس : وهذا قول حسن ، وإضمار القول كثير .

وقيل : إن معنى الإخبار من الله سبحانه عن نفسه بالعجب أنه ظهر من أمره ، وسخطه على من كفر به ما يقوم مقام العجب من المخلوقين .

قال الهروي : ويقال : معنى عجب ربكم ، أي : رضي ربكم وأثاب ، فسماه عجباً ، وليس بعجب في الحقيقة ، فيكون معنى ﴿ عجبت ﴾ هنا : عظم فعلهم عندي .

وحكى النقاش : أن معنى ﴿ بل عجبت ﴾ : بل أنكرت .

قال الحسن بن الفضل : التعجب من الله : إنكار الشيء وتعظيمه ، وهو لغة العرب ، وقيل : معناه : أنه بلغ في كمال قدرته ، وكثرة مخلوقاته إلى حيث عجب منها ، وهؤلاء لجهلهم يسخرون منها ، والواو في ﴿ وَيَسْخُرُونَ ﴾ للحال ، أي : بل عجبت ، والحال أنهم يسخرون ، ويجوز أن تكون للاستئناف .

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾ أي : وإذا وعظوا بموعظة من مواعظ الله ، أو مواعظ رسوله لا يذكرون ، أي : لا يتعظون بها ، ولا ينتفعون بما فيها .

(180/651)

---

قال سعيد بن المسيب ، أي : إذا ذكر لهم ما حلّ بالمكذبين ممن كان قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبروا ﴿ وَإِذَا رَأَوْا ءايَةً ﴾ أي : معجزة من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أي : يبالغون في السخرية .

قال قتادة : يسخرون ، ويقولون : إنها سخرية ، يقال : سخر ، واستسخر بمعنى : مثل قرّ واستقرّ ، وعجب واستعجب .

والأوّل أولى ، لأن زيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى .

وقيل : معنى ﴿ يستسخرون ﴾ : يستدعون السخرى من غيرهم .

وقال مجاهد : يستهزئون ﴿ وَقَالُواْ إِن هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : ما هذا الذي تأتينا به إلا سحر واضح ظاهر ﴿ أَءذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما ﴾ الاستفهام للإنكار ، أي : أنبعث إذا متنا ؟ ، فالعامل في " إذا " هو ما دلّ عليه ﴿ أَءنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ ، وهو أنبعث ، لأنفس مبعوثون ، لتوسط ما يمنع من عمله فيه ، وهذا الإنكار للبعث منهم هو السبب الذي لأجله

كذبوا الرسل ، وما نزل عليهم ، واستهزءوا بما جاءوا به من المعجزات ، وقد تقدّم تفسير معنى هذه الآية في مواضع .

﴿ أَوَ ءابَاؤُنَا الأولون ﴾ هو مبتدأ ، وخبره محذوف ، أي : أو آباؤنا الأوّلون مبعوثون ، وقيل : معطوف على محل إن واسمها ، وقيل : على الضمير في ﴿ مبعوثون ﴾ لوقوع الفصل بينهما ، والهمزة للإنكار داخلة على حرف العطف ، ولهذا قرأ الجمهور بفتح الواو ، وقرأ ابن عامر ، وقالون بسكونها على أن ، " أو " هي العاطفة ، وليست الهمزة للاستفهام .

ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب عنهم تبكيتاً لهم ، فقال : ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ داخرون ﴾ أي : نعم تبعثون ، وأنتم صاغرون ذليلون .

قال الواحدي : والدخور أشدّ الصغار ، وجملة ﴿ وأنتم داخرون ﴾ في محل نصب على الحال .

(181/651)

---

ثم ذكر سبحانه : أن بعثهم يقع بزجرة واحدة ، فقال : ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ واحدة ﴾ الضمير للقصة ، أو البعثة المفهومة مما قبلها ، أي : إنما قصة البعث ، أو البعثة زجرة واحدة ، أي : صيحة واحدة من إسرافيل بنفخه في الصور عند البعث : ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾

أي يبصرون ما يفعل الله بهم من العذاب .

وقال الحسن : هي : النفخة الثانية ، وسميت الصيحة زجرة ؛ لأن المقصود منها الزجر ،

وقيل : معنى ﴿ ينظرون ﴾ : ينتظرون ما يفعل بهم .

والأوّل أولى .

وقد أخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن مسعود ﴿ والصافات صَفًّا ﴾ قال : الملائكة ﴿ فالزجرات زَجْراً ﴾ قال : الملائكة ﴿ فالتاليات ذِكْراً ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد ، وعكرمة مثله .

وأخرج ابن المنذر ، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس مثله .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه أنه كان يقرأ " لاَّ يَسَّمَّعُونَ إلى الملإ الأعلى " مخففة ، وقال : إنهم كانوا يتسمعون ، ولكن لا يسمعون .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله : ﴿ عَذابٌ وَاصِبٌ ﴾ قال : دائم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عنه أيضاً : إذا رمي الشهاب لم يخط من رمي به ، وتلا ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ قال : لا يقتلون بالشهاب ، ولا يموتون ، ولكنها تحرق وتخبل وتجرح في غير قتل .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ مِن طينٍ لاَّزِبٍ ﴾ قال : ملتصق .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿ مّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾ قال : اللزج الجيد .

(182/651)

---

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : اللازب ، والحمأ ، والطين واحد : كان أوّله تراباً ، ثم صار حماً منتناً ، ثم صار طيناً لازباً ، فخلق الله منه آدم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : اللازب : الذي يلصق بعضه إلى بعض .

وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود : أنه كان يقرأ "بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخُرُونَ" بالرفع للتاء من عجبت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(183/651)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾

الفاء تفريع على قوله : ﴿ إِنَّا زَيَّنا السَّماء الدنيا بزينةٍ الكواكب ﴾ [ الصافات : 6 ] باعتبار ما يقتضيه من عظيم القدرة على الإِنشاء ، أي فسَلْهُم عن إنكارهم البعث وإحالتِهم إعادةَ خلقهم بعد أن يصيروا عظاماً ورفاتاً ، أَخَلْقُهم حينئذٍ أشدّ علينا أم خلق تلك المخلوقات العظيمة ؟

وضمير الغيبة في قوله : ﴿ فَاستفتِهم ﴾ عائد إلى غير مذكور للعلم به من دلالة المقام وهم الذين أحالوا إعادة الخلق بعد الممات .

وكذلك ضمائر الغيبة الآتية بعده وضمير الخطاب منه موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أي فسَلْهم ، وهو سؤال محاجة وتغليط .

والاستفتاء : طلب الفَتوى بفتح الفاء وبالواو ، ويقال : الفُتْيَا بضم الفاء وبالياء .

وهي إخبار عن أمر يخفَى عن غير الخواصّ في غرض مّا .

وهي:

إمّا إخبار عن علم مختص به المخبِر قال تعالى : ﴿ يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات ﴾ [ يوسف : 46 ] الآية ، وقال : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ﴾ [ النساء : 176 ] ، وتقدم في قوله : ﴿ الذي فيه تستفتيان ﴾ في سورة [ يوسف : 41 ] .

وإمّا إخبار عن رأي يطلب من ذي رأي موثوق به ومنه قوله تعالى : ﴿ قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ﴾ في سورة [ النمل : 32 ] .

والمعنى : فاسألهم عن رأيهم فلما كان المسؤول عنه أمراً محتاجاً إلى إعمال نظر أطلق على الاستفهام عنه فعل الاستفتاء .

وهمزة : أهُم أشدُّ خَلْقاً ﴾ للاستفهام المستعمل للتقرير بضعف خلق البشر بالنسبة للمخلوقات السماوية لأن الاستفهام يؤول إلى الإقرار حيث إنه يُلجىء المستفهم إلى الإقرار بالمقصود من طرفي الاستفهام ، فالاستفتاء في معنى الاستفهام فهو يستعمل في كل ما يستعمل فيه الاستفهام .

و﴿ أشدّ ﴾ بمعنى : أصعب وأعسر .

و﴿ خَلْقاً ﴾ تمييز ، أي أخلقهم أشدّ أم خَلْق من خلقنا الذي سمعتم وصفه .



---

والمراد بـ ﴿ مَن خلَقْنا ﴾ ما خَلَقَه الله من السماوات والأرض وما بينهما الشامل للملائكة والشياطين والكواكب المذكورة آنفاً بقرينة إيراد فاء التعقيب بعد ذكر ذلك ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء ﴾ [ النازعات : 27 ] ونحوه .

وجيء باسم العاقل وهو ﴿ مَن ﴾ الموصولة تغليباً للعاقلين من المخلوقات .

وجملة ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ في موضع العلة لما يتولد من معنى الاستفهام في قوله : ﴿ أهم أشد خلقاً أم من خلقنا ﴾ من الإِقرار بأنهم أضعف خلقاً من خلق السماوات وعوالمها احتجاجاً عليهم بأن تأتِّي خلقهم بعد الفناء أهون من تَأتي المخلوقات العظيمة المذكورة آنفاً ولم تكن مخلوقة قبلُ فإنهم خلقوا من طين لأن أصلهم وهو آدم خلق من طين كما هو مقرر لدى جميع البشر فكيف يحيلون البعث بمقالاتهم التي منها قولُهم : ﴿ أَإذَا مِتنا وكنا تُراباً وعِظاماً أَءِنَّا لَمَبْعُوثونَ ﴾ [ الصافات : 16 ] .

والطينُ : التراب المخلوط بالماء .

واللازب : اللاصق بغيره ومنه أطلق على الأمر الواجب "لازب" في قول النابغة:

ولا يحسبون الشر ضَرَبَة لازب . . .

وقد قيل : إن باء لازب بدل من ميم لازم ، والمعنى : أنه طين عتيق صار حَمْأة .

وضمير ﴿ إنَّا خلقناهُم ﴾ عائد إلى المشركين وهو على حذف مضاف ، أي خلقنا أصلهم وهو آدم فإنه الذي خلق من طين لازب ، فإذا كان أصلهم قد أنشىء من تراب فكيف ينكرون إمكان إعادة كل آدمي من تراب .

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12)

﴿ بَلْ ﴾ للإِضراب الانتقالي من التقرير التوبيخي إلى أن حالهم عجب .

وقرأ الجمهور ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ بفتح التاء للخطاب.

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم المخاطبِ بقوله: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ [ الصافات: 11 ].

وفعل المضيّ مستعمل في معنى الأمر وهو من استعمال الخبر في معنى الطلب للمبالغة كما يستعمل الخبر في إنشاء صيغ العقود نحو: بعتِ.

والمعنى: اعجَبْ لهم.

(185/651)

---

ويجوز أن يكون العجب قد حصل من النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى إعْراضهم وقلة إنصافهم فيكون الخبر مستعملاً في حقيقته.

ويجوز أن يكون الكلام على تقدير همزة الاستفهام، أي بل أعجبت.

والمعنى على الجميع: أن حالهم حرية بالتعجب كقوله تعالى: ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد ﴾ في سورة [ الرعد: 5 ].

وقرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ بَلْ عَجِبْتُ ﴾ بضم التاء للمتكلم فيجوز أن يكون المراد: أن الله أسند العجب إلى نفسه.

ويُعرَف أنه ليس المراد حقيقةَ العجب المستلزمة الروعة والمفاجأة بأمر غير مترقب بل المراد التعجيب أو الكناية عن لازمه ، وهو استعظام الأمر المتعجب منه .

وليس لهذا الاستعمال نظير في القرآن ولكنه تكرر في كلام النبوءة منه قوله صلى الله عليه وسلم " إن الله ليعجب من رجلين يَقتُل أحدهُما الآخرَ يدخلان الجنة يقاتل هذا في سبيل الله فيُقتل ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد " رواه النسائي بهذا اللفظ .

يعني ثم يسلم القاتل الذي كان كافراً فيقاتل فيستشهد في سبيل الله .

وقولُه في حديث الأنصاري وزوجه إذ أضافا رجلاً فأطعماه عشاءهما وتركا صبيانهما "عجِب الله من فعالكما" .

ونزل فيه ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ﴾ [ الحشر : 9 ] .

وقوله : "عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل" .

وإنما عدل عن الصريح وهو الاستعظام لأن الكناية أبلغ من التصريح ، والصارف عن معنى اللفظ الصريح في قوله : ﴿ عَجِبْتُ ﴾ ما هو معلوم من مخالفته تعالى للحوادث .

ويجوز أن يكون أطلق ﴿ عجبت ﴾ على معنى المجازاة على عَجبهم لأن قوله : ﴿ فاستفتهم أهم أشدُّ خلقاً ﴾ [ الصافات : 11 ] دلّ على أنهم عجبوا من إعادة الخلق فتوعدهم الله بعقاب على عَجبهم .

وأطلق على ذلك العقاب فعل ﴿ عجبت ﴾ كما أطلق على عقاب مكرهم المكرُ في قوله : ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ [آل عمران : 54 ] .

(186/651)

---

والواو في ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ واو الحال ، والجملة في موضع الحال من ضمير ﴿ عَجِبْتَ ﴾ أي كان أمرهم عجباً في حال استسخارهم بك في استفتائهم .

وجيء بالمضارع في ﴿ يسخرون ﴾ لإِفادة تجدد السخرية ، وأنهم لا يرعوون عنها .

والسخرية : الاستهزاء ، وتقدمت في قوله تعالى : ﴿ فحاق بالذين سخروا منهم ﴾ في سورة [ الأنعام : 10 ] .

والتذكير بأن يذكروا ما يغفلون عنه من قدرة الله تعالى عليهم ، ومن تنظير حالهم بحال الأمم التي استأصلها الله تعالى فلا يتعظوا بذلك عناداً فأطلق ﴿ لاَ يَذْكُرُونَ ﴾ على أثر الفعل ، أي لا يحصل فيهم أَثَر تذكر ما يذكَّرون به وإن كانوا قد ذُكَروا ذلك .

ويجوز أن يراد لا يذكرون ما ذكروا به ، أي لشدة إعْراضهم عن التأمل فيما ذكِّروا به لاستقرار ما ذُكِّروا به في عقولهم فلا يذكرون ما هم غافلون عنه ، على حد قوله تعالى : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام ﴾ [ الفرقان : 44 ] .

و ﴿ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً ﴾ أي خارق عادة أظهره الرسول صلى الله عليه وسلم دالاً على صدقه لأن الله تعالى لا يغير نظام خلقته في هذا العالم إلا إذا أراد تصديق الرسول لأن خرق العادة من خالق العادات وناظم سنن الأكوان قائم مقام قوله : صدق هذا الرسول فيما أخبر به عني .

وقد رأوا انشقاق القمر ، فقالوا : هذا سحر ، قال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشقّ القمر وإن يروا آية يُعرِضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ [ القمر : 1 ، 2 ] .

و ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ مبالغة في السخرية فالسين والتاء للمبالغة كقوله : ﴿ فاستجاب لهم ربهم ﴾ [ آل عمران : 195 ] وقوله : ﴿ فاستمسِك بالذي أوحي إليك ﴾ [ الزخرف : 43 ] .

فالسخرية المذكورة في قوله : ﴿ ويسخرون ﴾ سخرية من محاجّة النبي صلى الله عليه وسلم إياهم بالأدلة .



---

والسخرية المذكورة هنا سخرية من ظهور الآيات المعجزات ، أي يزيدون في السخرية بمن ظنّ منهم أن ظهور المعجزات يحول بهم عن كفرهم ، ألا ترى أنهم قالوا : ﴿ إن كاد ليضلنا

عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ [ الفرقان : 42 ] .

وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (15)

عطف على جملة ﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقاً ﴾ [ الصافات : 11 ] الآية .

والإِشارة في قوله : ﴿ إنْ هذا إلاَّ سِحْرٌ مبينٌ ﴾ إلى مضمون قوله : ﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقاً ﴾ وهو إعادة الخلق عند البعث ، ويبينه قوله : ﴿ أءِذَا مِتْنا وكنا تراباً وعِظاماً إنا لمبْعُوثون ﴾ ، أي وقالوا في رد الدليل الذي تضمنه قوله : ﴿ أهُم أشد خلقاً أم مَّنْ خلقنا ﴾ [ الصافات : 11 ] أي أجابوا بأن ادعاء إعادة الحياة بعد البِلَى كلام سحر مبين ، أي كلام لا يفهم قصد به سحر السامع .

هذا وجه تفسير هذه الآية تفسيراً يلتئم به نظمها خلافاً لما درج عليه المفسرون .

وقرأ نافع وحده ﴿ إنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ بهمزة واحدة هي همزة ﴿ إنْ ﴾ باعتبار أنه جواب ﴿ إذا ﴾ الواقعة في حيّز الاستفهام فهو من حيز الاستفهام .

وقرأ غير نافع ﴿ أَإِنا ﴾ بهمزتين : إحداهما همزة الاستفهام مؤكدة للهمزة الداخلة على ﴿ إذا ﴾ .

وقوله : ﴿ أَوْ ءَابَاؤُنَا ﴾ قرأه قالون عن نافع وابن عامر وأبو جعفر بسكون واو ﴿ أوْ على أن الهمزة مع الواو حرف واحد هو أو ﴾ العاطفة المفيدة للتقسيم هنا ووجه العطف بـ ﴿ أو ﴾ هو جعلهم الآباء الأولين قسماً آخر فكان عطفه ارتقاء في إظهار استحالة إعادة

هذا القسم لأن آباءهم طالت عصور فنائهم فكانت إعادة حياتهم أوغل في الاستحالة.

وقرأ الباقون بفتح الواو على أن الواو واو العطف والهمزة همزة استفهام فهما حرفان.

وقدمت همزة الاستفهام على حرف العطف حسب الاستعمال الكثير.

والتقدير: وآباؤنا الأولون مثلنا.

(188/651)

---

وعلى كلتا القراءتين فرفعه بالعطف على محل اسم ﴿ إنّ الذي كان مبتدأ قبل دخول إنّ،

والغالب في العطف على اسم إن يرفع المعطوف اعتباراً بالمحل كما في قوله تعالى: ﴿ أن اللَّه بريء من المشركين ورسولُه ﴾ [التوبة: 3] أو يجعل معطوفاً على الضمير المستتر في خبر ﴿ إن وهو هنا مرفوع بالنيابة عن الفاعل ولا يضر الفصل بين المعطوف عليه الذي هو ضمير متصل وبين حرف العطف، أو بين المعطوف عليه والمعطوف بالهمزة المفضِي إلى إعمال ما قبل الهمزة فيما بعدها وذلك ينافي صدارة الاستفهام لأن صدارة الاستفهام بالنسبة إلى جملته فلا ينافيها عمل عامل من جملة قبله لأن الإِعمال اعتبار يعتبره المتكلم ويفهمه السامع فلا ينافي الترتيب اللفظي.

والاستفهام في قوله: أإذا متنا ﴾ إنكاري كما تقدم فلذلك كان قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾

جواباً لقولهم ﴿ أءِذَا مِتْنَا ﴾ على طريقة الأسلوب الحكيم بصرف قصدهم من الاستفهام إلى ظاهر الاستفهام فجعلوا كالسائلين : أيبعثون ؟ فقيل لهم : نعم ، تقريراً للبعث المستفهم عنه ، أي نعم تبعثون .

وجيء بـ ﴿ قل ﴾ غير معطوف لأنه جار على طريقة الاستعمال في حكاية المحاورات كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ في سورة [ البقرة : 30 ] .

و﴿ أنتم داخرون ﴾ جملة في موضع الحال .

والداخر : الصاغر الذليل ، أي تبعثون بعث إهانة مؤذنة بترقب العقاب لا بعث كرامة .

وفُرّع على إثبات البعث الحاصل بقوله : ﴿ نَعَمْ ﴾ ، أن بعثهم وشيك الحصول لا يقتضي معالجة ولا زمناً إن هي إلا إعادة تنتظر زجرة واحدة .

والزجرة : الصيحة ، وقد تقدم آنفاً قوله تعالى : ﴿ فالزاجرات زجراً ﴾ [ الصافات : 2 ] .

و﴿ واحِدةٌ ﴾ تأكيد لما تفيده صيغة الفعلة من معنى المرة لدفع توهم أن يكون المراد من الصيحة الجنس دون الوجود لأن وزن الفعلة يجيء لمعنى المصدر دون المرة .

وضمير ﴿ هِيَ ﴾ ضمير القصة والشأن وهو لا معادَ لهُ إنما تفسره الجملة التي بعده .

وفُرّع عليه ﴿ فإذا هم ينظرون ﴾ ودل فاء التفريع على تعقيب المفاجأة ، ودل حرف المفاجأة على سرعة حصول ذلك .

وقد تقدم ذلك في قوله تعالى : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ في سورة [ يس : 53 ] .

وكُني عن الحياة الكاملة التي لا دهش يخالطها بالنظر في قوله : ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ لأن النظر لا يكون إلا مع تمام الحياة .

وأوثر النظر من بين بقية الحواس لمزيد اختصاصه بالمقام وهو التعريض بما اعْتراهم من البهت لمشاهدة الحشر .

وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (20)

يجوز أن تكون الواو للحال ، أي قائلين ﴿ يا ويلنا ﴾ أي يقول جميعهم : يا ويلنا يقوله كل أحد عنه وعن أصحابه .

ويجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ [ الصافات : 19 ] .

والمعنى : ونظروا وقالوا .

والويل : سوء الحال .

وحرف النداء للاهتمام.

وقد تقدم نظيره في قوله تعالى: ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ في سورة [يس: 30].

والإشارة إلى اليوم المشاهد.

و﴿ الدّين ﴾: الجزاء، وتقدم في سورة الفاتحة.

هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21)

يجوز أن يكون هذا كلاماً موجهاً إليهم من جانب الله تعالى جواباً عن قولهم: ﴿ يا ويْلنا هذا يومُ الدينِ ﴾ [الصافات: 20]، والخبر مستعمل في التعريض بالوعيد، ويجوز أن يكون من تمام قولهم، أي يقول بعضهم لبعض ﴿ هذا يومُ الفَصْلِ ﴾.

و﴿ الفصل ﴾: تمييز الحق من الباطل، والمراد به الحكم والقضاء، أي هذا يوم يفضي عليكم بما استحققتموه من العقاب. انتهى انتهى. ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

*(190/651)*

---

لطيفة

قال في ملاك التأويل:

قوله تعالى: (وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

(الصافات : 15 – 16) ، وقال فيما بعد : (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ) (الصافات : 51 – 53) ، للسائل أن يسأل عن قوله أولاً : (أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) وثانياً : (أَإِنَّا لَمَدِينُونَ) لم اختلفا مع أن مرادهم في الموضوعين إنكار البعث بعد الموت ؟

(191/651)

---

والجواب : أن االموضع الأول لم يتقدمه شيء يوجد عدولهم عن التعبير عن معتقداتهم (في إنكار الإحياء بعد الموت فورد على ما يطابق معتقادهم) ، وأما الآية الأخرى فقد تمهد قبلها ذكر الجزاء الأخراوي وذكر السؤال ، فأول ذلك ذكر ما يقال لهم إذا حشروا قال تعالى : (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) (الصافات : 24) وقول بعد : (وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الصافات : 39) ، وقوله بعد : (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) (الصافات : 27) ، وهذا في الأخرة إلى قوله : (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ) (الصافات : 51 – 52) ، وهذا قول الكافر وقد باشر العذاب ، فأخبر عن قرينه الذي قيد له المشار إليه بقوله : (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (الزخرف : 36) ، فأخبر عنه سبحانه أنه كان يقول له في دنياه : (أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا

وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ) (الصافات : 52 – 53) أي لم لمجزيون بأعمالهم وما إجترحناه في دنيانا ، وفي طي قولهم : (أَإِنَّا لَمَدِينُونَ) إنكار للبعث لإنكارهم ما ينبني عليه ويترتب بعده من الجزاء ، وقد تقدم ذكر الجزاء فناسبه ذكر تعجبهم منكرين وقوعه ، ولم يكن ليحسن وقوع (لَمَدِينُونَ) في الآية الأولى إذا كان يكون هناك غير مفصح بإنكارهم البعث ولا ورد قبلهم ما يستدعيه ، فجاء كل على ما يجب ويناسبه ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 410 ﴾

*(192/651)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾

عَرّفهم عَجْزَهم عن الإثبات ، وضعفهم في كل حال ، ثم ذكرهم نسبتهم أنها إلى الطين اللازب .

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12)

حقيقة التعجب تغير النفس مما لم تجر العادةُ بحدوث مثله . وتَقرأ ﴿ عَجِبْتَ ﴾ بالفتح

خطاباً بالرسول صلى الله عليه وسلم – وبالضم فكأن الحقّ يقول ذلك مِنْ قبل نَفسه بل عجبتُ، ويَقال ذلك بمعنى إكبار ذلك الشيء، إما في القدر، أو الإكثار في الذمّ أو في المدح.

وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (13)

إذا ذُكروا بآياته يُعرضون عن الإيمان بها والتفكّر فيها، ويقولون: ليس هذا الذي أتى به محمدٌ إلا سحراً ظاهراً.

أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17)

قالوا: أئذا متنا، تفرّقت أجزاؤنا، وَصرنا رميماً.. أئنا لمبعوثون؟ أَوَ آباؤنا الأولون يُبعثون كذلك؟ قالوه على جهة الاستبعاد؛ فالمعرفة لهم مفقودة، والبصائر لهم مسدودة، وقلوبهم عن التوحيد مصدودة.

قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (18) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (19)

قل لهم يا محمد؛ نعم، وعلى وصْف الصغر ما يبعثكم، وبزجرة واحدة يحشركم، بعد أن يُقيم القيامة على جميعكم.

وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (20) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21)

دَوا بالويل على أنفسهم! ويقال لهم: هذا يَومُ الفصل الذي كنتم تكذبون به، وقد عاينتموه اليومَ. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 228. 230﴾

قوله تعالى ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (23) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (24) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (25) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (26) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فبينما هم في هذا التأسف إذ برز النداء بما يهدىء قواهم ، ويقر قلوبهم وكلاهم ، لمن لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون من الملائكة الشداد الغلاظ بإذلالهم وإصغارهم ، ولبيان السرعة لذلك من غير تنفيس أسقط ما يدل على النداء من نحو قوله : فقيل الملائكة ، أو فقلنا ، أو فبرز النداء من جانب سلطاننا - ونحو هذا : ﴿ احشروا ﴾ أي اجمعوا بكره وصغار وذل أيها الموكلون بالعباد من الأجناد ، وأظهر تعريفاً بوصفهم الموجب لحتفهم فقال : ﴿ الذين ظلموا ﴾ أي بما كانوا فيه في الدنيا بوضع الأشياء في غير محالها من الخبط الذي لا يفعله إلا من هو في أشد الظلام ﴿ وأزواجهم ﴾ أي أتباعهم الذين استنوا بهم في ذلك الضرب من الظلم وأشباههم فيه من الجن وغيرهم ومن أعانهم ولو بشطر كلمة أو

رضى فعلهم لتصير كل طائفة على حدة فيصير بعضهم يبكت بعضاً وبعضهم يشتم بعضاً ﴿ وما كانوا ﴾ أي بما دعتهم إليه طباعاتهم المعوجة ﴿ يعبدون ﴾ أي مواظبين على عبادته رجاء منفعته تحقيقاً لخسارتهم بتحقق اعتمادهم على غير معتمد ، وهو يعم المعبود حقيقة أو مجازاً بالتزيين " ومن سبقت له الحسنى " مستثنى بآية الأنبياء ، وأشار إلى سفول رتبة معبوداتهم وتسفيه آرائهم بانتحال الأذى بقوله صارفاً الأسلوب من المتكلم ولو بمظهر العظمة إلى أعظم منه : ﴿ من دون الله ﴾ أي الذي تفرد بنعوت العظمة وصفات الكمال ، والمراد الذين رضوا بعبادتهم لهم ولم ينكروا عليهم ذلك ويأمروهم بتوحيد الله .

(194/651)

---

ولما كانوا قد سلكوا في الدنيا طريق الشقاء المعنوية استحقوا أن يلزموا في القيامة سلوك طريقه الحسية ، فلذلك سبب عن الأمر بحشرهم قوله تهكماً بهم وتحسيراً لهم :

﴿ فاهدوهم ﴾ أي دلوهم دلالة لا يرتابون معها ليعرفوا - مع ما هم فيه من الإكراه على سلوكها - مآلهم ، فيكون ذلك أعظم في نكدهم ؛ قال الرازي : وأصل الهداية التقدم ، والعرب تسمي السابق هادياً ، يقال : أقبلت هوادي الخيل أي أعناقها ، والهادية : العصى - لأنها تتقدم ممسكها ، ونظر فلان هدى أمره أي جهته .

ثم أشار إلى طول وقوفهم وسوء مقامهم بقوله بأداة الانتهاء : ﴿ إلى صراط الجحيم ﴾ أي طريق النار الشديدة التوقد الواضح الذي لا لبس عندهم بأنه يشترطهم فيؤديهم إليها ، وخص هذا الاسم إعلاماً بشديد توقدها وعظيم تأججها ، وبعد قعرها وضخامة غمرتها ، بتراكم بعضها فوق بعض وقوة اضطرامها ، وعلو شأنها واصطلاحها ، وصلابة اضطرابها وتحرقها واشتمالها على داخليها وتضايقها ، وفيه تهكم بهم في كونهم على غير ما كانوا عليه في الدنيا من التناصر والتعاضد .

ولما كان المقصود من تعريفهم طريق النار أولاً ازدياد الحسرة ، صرح بما أفهمه حرف الغاية من طول الحبس فقال : ﴿ وقفوهم ﴾ أي احبسوهم واقفين بعد ترويعهم بتلك الهداية التي سببها الضلال ، فكانت ثمرتها الشقاوة ، وإيقافهم يكون عند الصراط - نقله البغوي عن المفسرين ، قال : لأن السؤال عند الصراط .

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنهم مسؤولون ﴾ وجمع عليهم الهموم بهذه الكلمة لتذهب أوهامهم كل مذهب ، فلا تبقى حسرة إلا حضرتهم ، ولا مصيبة إلا علت قلوبهم فقهرتهم ، فإن المكلف كله ضعف وعورة ، فموقف السؤال عليه أعظم حسرة .

ولما أوقفوا هذا الموقف الذليل ، قد شغلهم ما دهمهم من الأسف عن القال والقيل ، نودوا من مقام السطوة ، وحجاب الجبروت والعزة ، زيادة في تأسيفهم و توبيخهم وتعنيفهم لفتاً عن سياق الغيبة إلى الخطاب دلالة على أعظم خيبة : ﴿ ما لكم ﴾ أي أيّ شيء حصل لكم فشغلكم وألهاكم حال كونكم ﴿ لا تناصرون ﴾ أي ينصر بعضكم بعضاً ، ويتسابقون في ذلك تسابق المتناظرين فيه أولي الجد والشكيمة والنخوة والحمية ولو بأدنى التناصر - بما يفهمه إسقاط التاء ، أو بعد تمكث وإعمال حيلة - بما أشارت إليه قراءة البزي عن ابن كثير بالمد والإدغام : أين قولكم في بدر ﴿ نحن جميع منتصر ﴾ معبرين بما دل على ثبات المناصرة .

ولما كان قد دهمهم من الأمر ما أوجب إبلاسهم ، وأحدّ إدراكهم وإحساسهم ، أشار إلى ذلك بإحلالهم في محل الغيبة المؤذنة بالإبعاد بأن قال مضرباً عما تقديره : إنهم لا يتناصرون : ﴿ بل هم ﴾ وزاد في تعظيم ذلك الوقت والتذكير به فقال : ﴿ اليوم مستسلمون ﴾ أي ثابت لهم استسلامهم ثباتاً لا زوال له ، قد خذل بعضهم بعضاً موجدين الإسلام أي الانقياد إيجاد من كأنه يطلبه ويعظم فيه رغبته رجاء أن يخفف ذلك عنهم . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 299 . 300 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾

وفي الآية أبحاث :

البحث الأول : اعلم أنه لا نزاع في أن هذا من كلام الملائكة فإن قيل ما معنى : ﴿ احشروا ﴾ مع أنهم قد حشروا من قبل وحضروا في محفل القيامة وقالوا : ﴿ هذا يَوْمُ الدين ﴾ [ الصافات : 20 ] وقالت الملائكة لهم بل : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل ﴾ [ الصافات : 21 ] أجاب القاضي عنه ، فقال المراد احشروهم إلى دار الجزاء وهي النار ، ولذلك قال بعده : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ أي خذوهم إلى ذلك الطريق ودلوهم عليه ثم سأل نفسه فقال : كيف يصح ذلك وقد قال بعده ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مسئُولون ﴾ ومعلوم أن حشرهم إلى الجحيم ، إنما يكون بعد المسألة ، وأجاب أنه ليس في العطف بحرف الواو ترتيب فلا يمتنع أن يقال احشروهم وقفوهم ، مع أنا بعقولنا نعلم أن الوقوف كان قبل الحشر إلى النار ، هذا ما قاله القاضي ، وعندي فيه وجه آخر وهو أن يقال إنهم إذا قاموا من قبورهم لم يبعد أن يقفوا هناك بحيرة تلحقهم بسبب معاينة أهوال القيامة ، ثم إن الله تعالى يقول للملائكة : احشروا الذين ظلموا واهدوهم إلى صراط الجحيم ، أي سوقوهم إلى

طريق جهنم وقفوهم هناك وتحصل المسألة هناك ثم من هناك يساقون إلى النار وعلى هذا التقدير فظاهر النظم موافق لما عليه الوجه.

البحث الثاني: الآمر في قوله تعالى: ﴿احشروا الذين ظَلَمُواْ﴾ هو الله فهو تعالى أمر الملائكة أن يحشروا الكفار إلى موقف السؤال والمراد من الحشر أن الملائكة يسوقونهم إلى ذلك الموقف.

البحث الثالث: أن الله أمر الملائكة بحشر ثلاثة أشياء: الظالمين، وأزواجهم، والأشياء التي كانوا يعبدونها.

وفيه فوائد:

*(197/651)*

---

الفائدة الأولى: أنه تعالى قال: ﴿احشروا الذين ظَلَمُواْ﴾ ثم ذكر من صفات الذين ظلموا كونهم عابدين لغير الله وهذا يدل على أن الظالم المطلق هو الكافر وذلك يدل على أن كل وعيد ورد في حق الظالم فهو مصروف إلى الكفار ومما يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿والكافرون هُمُ الظالمون﴾ [البقرة: 254].

الفائدة الثانية: اختلفوا في المراد بأزواجهم وفيه ثلاثة أقوال الأول: المراد بأزواجهم

أشباههم أي أحزابهم ونظراؤهم من الكفر فاليهودي مع اليهودي والنصراني مع النصراني

والذي يدل على جواز أن يكون المراد من الأزواج الأشباه وجوه الأول : قوله تعالى :

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثلاثة ﴾ [ الواقعة : 7 ] أي أشكالاً وأشباهاً الثاني : أنك تقول عندي من هذا أزواج أي أمثال وتقول زوجان من الخف لكون كل واحد منهما نظير الآخر وكذلك الرجل والمرأة سميا زوجين لكونهما متشابهين في أكثر أحكام النكاح وكذلك العدد الزوج سمي بهذا الاسم لكون كل واحد من سميه مثالاً للقسم الثاني في العدد الصحيح ، قال الواحدي فعلى هذا القول يجب أن يكون المراد بالذين ظلموا الرؤساء لأنك لو جعلت الذين ظلموا عاماً في كل من أشرك لم يكن للأزواج معنى القول الثاني : في تفسير الأزواج أن المراد قرناؤهم من الشياطين لقوله تعالى :

﴿ وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ﴾ [ الأعراف : 202 ] ، والقول الثالث : أن المراد نساؤهم اللواتي على دينهم .

(198/651)

---

أما قوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ الله ﴾ ففيه قولان الأول : المراد ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان والطواغيت ، ونظيره قوله : ﴿ فاتقوا النار التى وَقُودُهَا الناس

والحجارة ﴾ [ البقرة : 24 ] قيل المراد بالناس عباد الأوثان والمراد بالحجارة الأصنام التي هي أحجار منحوتة ، فإن قيل إن تلك الأحجار جمادات فما الفائدة في حشرها إلى جهنم ؟ أجاب القاضي بأنه ورد الخبر بأنها تعاد وتحيا لتحصل المبالغة في توبيخ الكفار الذين كانوا يعبدونها ولقائل أن يقول هب أن الله تعالى يحيي تلك الأصنام إلا أنه لم يصدر عنها ذنب ، فكيف يجوز من الله تعالى تعذيبها ؟ والأقرب أن يقال إن الله تعالى لا يحيي تلك الأصنام بل يتركها على الجمادية .

ثم يلقيها في جهنم لأن ذلك مما يزيد في تخجيل الكفار القول الثاني : أن المراد من قوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ الشياطين الذين دعوهم إلى عبادة ما عبدوا فلما قبلوا منهم ذلك الدين صاروا كالعابدين لأولئك الشياطين وتأكد هذا بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدم أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان ﴾ [ يس : 60 ] والقول الأول أولى لأن الشياطين عقلاء وكلمة ما لا تليق بالعقلاء ، والله أعلم .

ثم قال : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ قال ابن عباس : دلوهم يقال هديت الرجل إذا دللته وإنما استعملت الهداية ههنا ، لأنه جعل بدل الهداية إلى الجنة ، كما قال : ﴿ فَبَشّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [ آل عمران : 21 ] فوقعت البشارة بالعذاب لهؤلاء بدل البشارة بالنعيم لأولئك ، وعن ابن عباس ﴿ فاهدوهم ﴾ سوقوهم وقال الأصم : قدموهم ، قال الواحدي : وهذا وهم .

لأنه يقال هدى إذا تقدم ومنه الهداية والهوادي والهاديات الوحش ، قال ولا يقال هدى بمعنى قدم ، ثم قال ﴿ وَقِفُوهُمْ ﴾ يقال : وقفت الدابة اقفها وقفاً فوقفت هي وقوفاً ، والمعنى احبسوهم وفي الآية قولان أحدهما : على التقديم والتأخير ، والمعنى قفوهم واهدوهم ، والأصوب أنه لا حاجة إليه ، بل كأنه قيل : فاهدوهم إلى صراط الجحيم فإذا انتهوا إلى الصراط قيل ﴿ وَقِفُوهُمْ ﴾ فإن السؤال يقع هناك وقوله : ﴿ أَنَّهُمْ مسؤولون ﴾ قيل عن أعمالهم في الدنيا وأقوالهم ، وقيل المراد سألتهم الخزنة ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مّنكُمْ .

..

قَالُواْ بلى ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ [ الزمر : 71 ] ويجوز أن يكون هذا السؤال ما ذكر بعد ذلك وهو قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تناصرون ﴾ أي أنهم يسألون توبيخاً لهم ، فيقال : ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تناصرون ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا ، وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر : نحن جميع منتصر فقيل لهم يوم القيامة ما لكم غير متناصرين ، وقيل يقال لكفار ما لشركائكم لا يمنعونكم من العذاب .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ يقال استسلم للشيء إذا انقاد له وخضع ،

ومعناه في الأصل طلب السلامة بترك المنازعة ، والمقصود أنهم صاروا منقادين لا حيلة لهم في دفع تلك المضار لا العابد ولا المعبود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 116.115 ﴾

(200/651)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾

هو من قول الله تعالى للملائكة : ﴿ احشروا ﴾ المشركين ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ أي أشياعهم في الشرك ، والشرك الظلم ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [ لقمان : 13 ] فيحشر الكافر مع الكافر ؛ قاله قتادة وأبو العالية .

وقال عمر بن الخطاب في قول الله عز وجل : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ قال : الزاني مع الزاني ، وشارب الخمر مع شارب الخمر ، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة .

وقال ابن عباس : "وَأَزْوَاجَهُمْ" أي أشباههم .

وهذا يرجع إلى قول عمر .

وقيل : "وَأَزْوَاجَهُمْ" نساؤهم الموافقات على الكفر ؛ قاله مجاهد والحسن ، ورواه النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب .

وقال الضحاك : "وَأَزْوَاجَهُمْ" قرناءهم من الشياطين .

وهذا قول مقاتل أيضاً : يحشر كل كافر مع شيطانه في سلسلة .

﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ أي من الأصنام والشياطين وإبليس .

﴿ فاهدوهم إلى صِرَاطِ الجحيم ﴾ أي سوقوهم إلى النار .

وقيل : "فاهدوهم" أي دُلّوهم .

يقال : هديته إلى الطريق ، وهديته الطريق ؛ أي دللته عليه .

وأهديتُ الهديّةَ وهَديتُ العروسَ ، ويقال أهديتها ؛ أي جعلتها بمنزلة الهديّة .

قوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾ وحكى عيسى بن عمر "أَنَّهُمْ" بفتح الهمزة .

قال الكسائي : أي لأنهم وبأنهم ، يقال : وَقفتُ الدابَةَ أقفها وَقْفاً فوقفت هي وقوفاً ، يتعدى ولا يتعدى ؛ أي احبسوهم .

وهذا يكون قبل السَّوق إلى الجحيم ؛ وفيه تقديم وتأخير ، أي قفوهم للحساب ثم سوقوهم إلى النار .

وقيل : يساقون إلى النار أولاً ثم يحشرون للسؤال إذا قربوا من النار .

"إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ" عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم ؛ قاله القرظي والكلبي .

الضحاك: عن خطاياهم.

ابن عباس: عن لا إله إلا الله.

وعنه أيضاً: عن ظلم الخلق.

(201/651)

---

وفي هذا كله دليل على أن الكافر يحاسب.

وقد مضى في "الحجر" الكلام فيه.

وقيل: سؤالهم أن يقال لهم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴾ [الأنعام: 130] إقامة للحجة.

ويقال لهم: ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ ﴾ على جهة التقريع والتوبيخ؛ أي ينصر بعضكم بعضاً فيمنعه من عذاب الله.

وقيل: هو إشارة إلى قول أبي جهل يوم بدر: ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ [القمر: 44].

وأصله تتناصرون فطُرحت إحدى التاءين تخفيفاً.

وشدّد الْبَزِّي التاء في الوصل.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ قال قتادة: مستسلمون في عذاب الله عز

وجل .

ابن عباس : خاضعون ذليلون .

الحسن : منقادون .

الأخفش : ملقون بأيديهم .

والمعنى متقارب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(202/651)

---

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ ﴾

خطابٌ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ للملائكةِ أو من بعضِهم لبعضٍ بحشر الظَّلمةِ من مقامهم إلى الموقفِ . وقيل من الموقفِ إلى الجحيمِ ﴿ وأزواجهم ﴾ أي أشباهَهم ونظراءَهم من العُصاةِ ، عابدُ الصَّنمِ مع عبدته وعابدُ الكوكبِ مع عَبَدتِه ، كقوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثلاثة ﴾ وقيل قرناءَهم من الشَّياطينِ وقيل نساءَهم اللاَّتي على دينهم ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ .

(203/651)

﴿ مِن دُونِ اللهِ ﴾ من الأصنامِ ونحوِها زيادةً في تحسيرِهم وتخجيلِهم . قيل هو عامٌ مخصوصٌ بقوله تعالى : ﴿ إنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ الآيةَ الكريمةَ وأنت خبيرٌ بأنَّ الموصولَ عبارةٌ عن المشركين خاصَّةً جيء به لتعليل الحكمِ بما في حيِّزِ صلتِهِ فلا عمومَ ولا تخصيصَ . ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ أي عرِّفُوهم طريقها ووجِّهوهم إليها وفيه تهكُّمٌ بهم ﴿ وَقِفُوهُمْ ﴾ احبِسُوهم في الموقف كأنَّ الملائكة سارعُوا إلى ما أُمروا به من حشرِهم إلى الجحيم فأُمروا بذلك وعُلِّل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾ إيذاناً من أوَّلِ الأمرِ بأنْ ذلك ليس للعفو عنهم ولا ليستريحُوا بتأخيرِ العذابِ في الجملة بل لِيُسألُوا لكن لا عن عقائدِهم وأعمالهم كما قيل فإنَّ ذلك قد وقع قبل الأمرِ بهم إلى الجحيم بل عمَّا ينطقُ به قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تناصرون ﴾ بطريقِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ والتَّهكُّمِ ، أي لا ينصرُ بعضُكم بعضاً كما كنتُم تزعمون في الدُّنيا . وتأخيرُ هذا السُّؤالِ إلى ذلك الوقتِ لأنَّه وقتُ تنجُّزِ العذابِ وشدَّةِ الحاجةِ إلى النُّصرةِ وحالةِ انقطاعِ الرَّجاءِ عنها بالكُلِّيةِ ، فالتَّوبيخُ والتَّقريعُ حينئذٍ أشدُّ وقعاً وتأثيراً . قُرِئ لا تَتَناصرون ، ولا تَنَّاصرُون بالإدغامِ ﴿ بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ مُنقادون خاضعُون لظهورِ عجزِهم وانسدادِ بابِ الحِيَلِ عليهم أو أسلم بعضُهم بعضاً وخذله عن عجزٍ فكلُّهم غيرُ منتصرٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ ﴾

خطاب من الله تعالى للملائكة أو من الملائكة بعضهم لبعض .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تقول الملائكة للزبانية : احشروا الخ ، وهو أمر بحشر الظالمين من أماكنهم المختلفة إلى موقف الحساب ؛ وقيل من الموقف إلى الجحيم ، والسباق والسياق يؤيدان الأول ﴿ وأزواجهم ﴾ أخرج عبد الرزاق .

وابن أبي شيبة .

وابن منيع في مسنده .

والحاكم وصححه .

وجماعة من طريق النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال :

أزواجهم أمثالهم الذين هم مثلهم يحشر أصحاب الربا من أصحاب الربا وأصحاب الزنا مع أصحاب الزنا وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر .

وأخرج جماعة عن ابن عباس في لفظ أشباههم وفي آخر نظراءهم .

وروي تفسير الأزواج بذلك أيضاً عن ابن جبير .

ومجاهد .

وعكرمة ، وأصل الزوج المقارن كزوجي النعل فأطلق على لازمه وهو المماثل .

وجاء في رواية عن ابن عباس أنه قال : أي نساءهم الكافرات ورجحه الرماني .

وقيل قرناءهم من الشياطين وروي هذا عن الضحاك .

والواو للعطف وجوز أن تكون للمعية .

وقرأ عيسى بن سليمان الحجازي دوأزواجهم ﴾ بالرفع عطفاً على ضمير ﴿ ﴾ بالرفع عطفاً على ضمير ﴿ ظَلَمُواْ ﴾ عل ما في البحر أي وظلم أزواجهم .

وأنت تعلم ضعف العطف على الضمير المرفوع في مقله ، والقراءة شاذة ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ .

﴿ مِن دُونِ الله ﴾ من الأصنام ونحوها ، وحشرهم معهم لزيادة التحسير والتخجيل ، و﴿ مَا ﴾ قيل عام في كل معبود حتى الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام لكن خص منه البعض بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مّنَّا الحسنى ﴾ [ الأنبياء : 101 ] الآية .

وقيل ﴿ مَا ﴾ كناية عن الأصنام والأوثان فهي لما لا يعقل فقط لأن الكلام في المشركين عبدة ذلك ، وقيل ﴿ مَا ﴾ على عمومها والأصنام ونحوها غير داخلة لأن جميع المشركين إنما عبدوا الشياطين التي حملتهم على عبادتها ، ولا يناسب هذا تفسير ﴿ أزواجهم ﴾ [ الصافات : 22 ] بقرنائهم من الشياطين ، ومع هذا التخصيص أقرب ، وفي هذا العطف دلالة على أن الذين ظلموا المشركون وهم الأحقاء بهذا الوصف فإن الشرك لظلم عظيم ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ فعرفوهم طريقها وأروهم إياه ، والمراد بالجحيم النار ويطلق على طبقة من طبقاتها وهو من الجحمة شدة تأجج النار ، والتعبير بالصراط والهداية للتهكم بهم .

﴿ وَقِفُوهُمْ ﴾ أي احبسوهم في الموقف ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ عن عقائدهم وأعمالهم ، وفي الحديث ﴿ لا تزول قدما عبد حتى يسئل عن خمس عن شبابه فيما أبلاه وعن عمره فيما أفناه وعن ماله مما كسبه وفيما أنفقه وعن علمه ماذا عمل به وعن ابن مسعود يسألون عن لا إله إلا الله ، وعنه أيضاً يسألون عن شرب الماء البارد على طريق الهزء بهم .

وروي بعض الأمامية عن ابن جبير عن ابن عباس يسألون عن ولاية علي كرم الله تعالى وجهه ، ورووه أيضاً عن أبي سعيد الخدري وأولي هذه الأقوال أن السؤال عن العقائد والأعمال .

ورأس ذلك لا إله إلا الله ، ومن أجله ولاية علي كرم الله تعالى وجهه وكذا ولاية إخوانه الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

وظاهر الآية أن الحبس للسؤال بعد هدايتهم إلى صراط الجحيم بمعنى تعريفهم إياه ودلالتهم عليه لا بمعنى إدخالهم فيه وإيصالهم إليه ، وجوز أن يكون صراط الجحيم طريقهم له من قبورهم إلى مقرهم وهو ممتد فيجوز كون الوقف في بعض منه مؤخراً عن بعض ، وفيه من البعد ما فيه ، وقيل : إن الوقف للسؤال قبل الأمر المذكور والواو لا تقتضي الترتيب ، وقيل الوقف بعد الأمر عند مجيئهم النار والسؤال عما ينطق به قوله تعالى :



---

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ أي لا ينصر بعضكم بعضاً ، والخطاب لهم وآلهتهم أو لهم فقط أي ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم تزعمون في الدنيا ، فقد روي أن أبا جهل قال يوم بدر : نحن جميع منتصر ، وتأخير هذا السؤال إلى ذلك الوقت لأنه وقت تنجيز العذاب وشدة الحاجة إلى النصرة وحالة انقطاع الرجال والتقريع والتوبيخ حينئذ أشد وقعاً وتأثيراً ، وقيل : السؤال عن هذا في موقف المحاسبة بعد استيفاء حسابهم والأمر بهدايتهم إلى الجحيم كأن الملائكة عليهم السلام لما أمروا بهدايتهم إلى النار وتوجيههم إليها سارعوا إلى

ما أمروا به فقيل لهم قفوهم أنهم مسؤولون ، والذي يترجح عندي أن الأمر بهدايتهم إلى الجحيم إنما هو بعد إقامة الحجة عليهم وقطع أعذارهم وذلك بعد محاسبتهم ، وعطف ﴿ اهدوهم ﴾ [ الصافات : 23 ] على ﴿ احشروا ﴾ [ الصافات : 22 ] بالفاء إشارة إلى سرعة وقوع حسابهم ، وسؤالهم ما لكم لا تناصرون الأليق أن يكون بعد تحقق ما يقتضي التناصر وليس ذلك إلا بعد الحساب والأمر بهم إلى النار فلعل الوقف لهذا السؤال في ابتداء توجههم إلى النار والله تعالى أعلم .

وقرأ عيسى ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ بفتح الهمزة بتقدير لأنهم ، وقرأ البزي عن ابن كثير ﴿ لا ﴾ بتاءين بلا إدغام إحداهما في الأخرى .

﴿ بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ منقادون لعجزهم وانسداد الحيل عليهم ، وأصل الاستسلام طلب السلامة والانقياد لازم لذلك عرفاً فلذا استعمل فيه أو متسالمون كأنه يسلم بعضهم بعضاً للهلاك ويخذله ، وجوز في الإضراب أن يكون عن مضمون ما قبله أي لا ينازعون في الوقوف وغيره بل ينقادون أو يخذلون أو عن قوله سبحانه : ﴿ لاَ تناصرون ﴾ [ الصافات : 25 ] أي لا يقدر بعضهم على نصر بعض بل هم منقادون للعذاب أو مخذولون . انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾

تخلُّص من الإنذار بحصول البعث إلى الإخبار عما يحلّ بهم عقبه إذا ثبتوا على شركهم وإنكارهم البعث والجزاء .

و﴿ احْشُرُوا ﴾ أمر ، وهو يقتضي آمراً ، أي ناطقاً به ، فهذا مقول لقول محذوف لظهور أنه لا يصلح للتعلق بشيء مما سبقه ، وحَذْفُ القول من حديث البحر ، وظاهر أنه أمر من قبل الله تعالى للملائكة الموكّلين بالناس يوم الحساب .

والحشر : جمع المتفرقين إلى مكان واحد .

و﴿ الذين ظلموا ﴾ : المشركون ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [ لقمان : 13 ] .

والأزواج ظاهره أن المراد به حلائلهم وهو تفسير مجاهد والحسن .

وروي عن النعمان بن بشير يرويه عن عمر بن الخطاب وتأويله : أنهن الأزواج الموافقات لهم في الإشراك ، أما من آمن فهن ناجيات من تبعات أزواجهن وهذا كذكر أزواج المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ هم وأزواجهم في ظلال ﴾ [ يس : 56 ] فإن المراد أزواجهم المؤمنات فأطلق حملاً على المقيّد في قوله : ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ [ الرعد : 23 ]

وذكر الأزواج إبلاغ في الوعيد والإِنذار لئلا يحسبوا أن النساء المشركات لا تبعة عليهن.

وذلك مثل تخصيصهن بالذكر في قوله تعالى: ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ في سورة [ البقرة: 178 ].

وقيل: الأزواج: الأصناف، أي أشياعهم في الشرك وفروعه قاله قتادة وهو رواية عن عمر بن الخطاب وابن عباس.

وعن الضحاك: الأزواج المقارنون لهم من الشياطين.

وضمير ﴿ يَعْبُدُونَ ﴾ عائد إلى ﴿ الذين ظلموا وأزواجَهُم ﴾.

ومَا صدَقُ ﴿ ما ﴾ غير العقلاء، فأما العقلاء فلا تزِرُ وازرة وزر أخرى.

والضمير المنصوب في ﴿ فَاهْدُوهم ﴾ عائد إلى ﴿ الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله، ﴾ أي الأصنام.

وعطف ﴿ فَاهدُوهُم ﴾ بفاء التعقيب إشارة إلى سرعة الأمر بهم إلى النار عقب ذلك الحشر فالأمر بالأصالة في القرآن.

والهداية والهَدي : الدلالة على الطريق لمن لا يعرفه ، فهي إرشاد إلى مرغوب وقد غلبت في ذلك ، لأن كون المهديّ راغباً في معرفة الطريق من لوازم فعل الهداية ولذلك تقابل بالضلالة وهي الحيرة في الطريق ، فذكر ﴿ اهدوهم ﴾ هنا تهكّم بالمشركين ، كقول عمرو بن كلثوم:

قريناكم فعجلنا قراكم . . .

قُبيل الصبح مِرادة طَحونا

والصراط : الطريق ، أي طريق جهنم .

ومعنى : ﴿ وَقِفُوهُم ﴾ أمر بإيقافهم في ابتداء السير بهم لما أفاده الأمر من الفور بقرينة فاء التعقيب التي عطفته ، أي احبسوهم عن السير قَليلاً ليُسألوا سؤال تأييس وتحقير وتغليظ ، فيقال لهم : ﴿ ما لكم لا تناصرون ﴾ ، أي ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً فيدفع عنه الشقاء الذي هو فيه ، وأين تناصركم الذي كنتم تتناصرون في الدنيا وتتألبون على الرسول وعلى المؤمنين .

فالاستفهام في ﴿ ما لكم لا تناصرونَ ﴾ مستعمل في التعجيز مع التنبيه على الخطأ الذي كانوا فيه في الحياة الدنيا .

]

وجملة ﴿ ما لكم لا تناصرون ﴾ مبيّنة لإبهام ﴿ مَسْؤُولُونَ ﴾ وهو استفهام مستعمل في

التعجيب للتذكير بما يسوءهم، فظهر أن السؤال ليس على حقيقته وإنما أريد به لازمه وهو التعجيب، والمعنى: أيّ شيء اختص بكم، ف ﴿ ما الاستفهامية مبتدأ ولكم ﴾ خبر عنه.

وجملة ﴿ لا تَنَاصَرُونَ ﴾ حال من ضمير ﴿ لكم ﴾ وهي مناط الاستفهام، أي أن هذه الحالة تستوجب التعجب من عدم تناصركم.

وقرأ الجمهور ﴿ لاَ تَنَاصَرُونَ ﴾ بتخفيف المثناة الفوقية على أنه من حذف إحدى التاءين.

وقرأه البَزِّي عن ابن كثير وأبو جعفر بتشديد المثناة على إدغام إحدى التاءين في الأخرى.

والإِضراب المستفاد من ﴿ بَل ﴾ إضراب لإِبطال إمكان التناصر بينهم وليس ذلك مما يتوهمه السمع، فلذلك كان الإِضراب تأكيداً لما دل عليه الاستفهام من التعجيز.

والاستسلام: الإِسلام القوي، أي إسلام النفس وترك المدافعة فهو مبالغة في أسلم.

(209/651)

---

وذكر ﴿ اليَوْمَ ﴾ لإِظهار النكاية بهم، أي زال عنهم ما كان لهم من تناصر وتطاول على المسلمين قبل اليوم، أي في الدنيا إذ كانوا يقولون: ﴿ نحن جميع منتصر ﴾ [ القمر: 44 ]

وقد قالها أبو جهل يوم بدر ، أي نحن جماعة لا تغلب فكان لذكر اليوم وقع بديع في هذا المقام. انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(210/651)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

أراد بأزواجهم قرناءَهم وأشكالهم ومَنْ عمل مثل أعمالهم ، ومن أعانهم على ظلمهم بقليل أو كثير . . وكذلك في هذه الطريقة : من أعان صاحبَ فترة في فترته ، أو صاحب زلَة على زلته - كان مُشركاً له في عقوبته ، واستحقاق طرده وإهانته .

قوله : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ : مقامُ السؤالِ مقامٌ صعبٌ ؛ قوم يسألهم المَلَكُ وقومٌ يسألهم المِلِكُ ؛ فالذين تسألهم الملائكة أقوامٌ لهم أعمالٌ صالحةٌ تصلح للعرض والكشف ، وأقوامٌ لهم أعمالٌ لا تصلح للكشف ، وهم قسمان : الخواصّ يسترهم الحقّ عن اطلاع الخلق عليهم في الدنيا والآخرة ، وأقوامٌ هم أربابُ الزلات يرحمهم اللَّهُ فلا يفضحهم ، ثم إنهم يكونون في بعض أحوالهم بنعت الهيبة ، وفي بعض أحوالهم بنعت البسط والقربة ، وفي الخبر

: " أن قوماً يسترهم بيده ويقول تذكر غداً ربك " وهؤلاء أصحاب الخصوص في التحقيق :

فأما الأغيار والأجانب والكفار فيقال لهم : ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [ الإسراء : 14 ] ، فإذا قرؤوا كتابهم يقال لهم : من عمل هذا ؟ وما جزاؤه ؟ فيقولون : جزاؤه النار . فيقال لهم : أدخلوها بحكمكم .

ثم يقال لهم في بعض أحوال استيلاء الفزع عليهم :

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (25) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (26)

يُورِّك بعضُهم الذنبَ على بعض ؛ فهذا يتبرأ من صاحبه ، وصاحبه يتبرأُ منه ، إلى أن يحكم الله عليهم بالخزي والهوان ويجمعهم في اللعن والإبعاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 230 . 231 ﴾

(211/651)

---

قوله تعالى ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (27) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (28) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (30) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (31) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (32) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ

إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (36) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37) إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (38) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر بأنهم سئلوا فلم يجيبوا ، كان ربما ظن أنهم أخرسوا فنبه على أنهم يتكلمون بما يزيد نكدهم ، فقال عاطفاً على قوله ﴿ وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين ﴾ إشارة إلى إقبالهم على الخصام ، حين تمام القيام ، والأخذ في تحريك الأقدام ، بالسير على هيئة الاجتماع والازدحام ، إلى مواطن النكد والاغتمام ، ولم يعطفه بالفاء لأنه ليس مسبباً عن القيام ، ولا عن الإيقاف للسؤال ، بخلاف ما يأتي عن أهل الجنة : ﴿ وأقبل بعضهم ﴾ أي الذين ظلموا ﴿ على بعض ﴾ أي بعد إيقافهم وتوبيخهم ، وعبر عن خصامهم تهكماً بهم بقوله : ﴿ يتساءلون ﴾ أي سؤال خصومة .

ولما كان كأنه قيل : عما ذا ؟ أجيب بقوله : ﴿ قالوا ﴾ أي الأتباع لرؤسائهم مشيرين بأداة الكون إلى المداومة على إضلالهم مؤكدين لأجل تكذيب الرؤساء لهم : ﴿ إنكم كنتم ﴾ ولما كانوا يستغوونهم ويغرونهم بما تقبله عقولهم على ما جرت به عوائدهم بحيث يقطعون بذلك قطع من كان يريد الذهاب إلى أمر فتطير بالسانح والبارح ، فرأى ما يحب فأقدم عليه

وهو قاطع بحصوله ، أشاروا إلى ذلك بقوله : ﴿ تأتوننا ﴾ مجاوزين لنا ﴿ عن اليمين ﴾ أي عن القوة والقهر والغلبة والسلطان في حملكم لنا على الضلال ، ففعلنا في طاعتكم فعل من خرج لحاجة ، فرأى ما أوجب إقدامه عليها ، فهذا كان سبب كفرنا ، وكان هذا التفاؤل مما نسيت العرب كيفيته لما نسخه الشرع كما وقع في الميسر فاضطرب كلام أهل اللغة في تفسيره ، قال صاحب القاموس : البارح من الصيد ما مر من ميامنك إلى مياسرك ، وسنح الظبي سنوحاً ضد برح.



وقال ابن القطاع في كتاب الأفعال : وسنح الشيء سنوحاً : تيسر ، والطائر والظبي : جرى عن يمينك إلى يسارك وهو يتيمن به ، وقال في مادة " برح " : وبرح الطائر والظبي وغيرهما ضد سنح ، وهو ما أراك ميامنه ، وأهل الحجاز يتشاءمون به ، وغيرهم يتيمنون به ويتشاءمون بالسانح ، وقال ابن مكتوم في الجمع بين العباب والمحكم في مادة " برح " : والبارح خلاف السانح ، وقد برح الظبي - إذا ولاك مياسره يمر من ميامنك إلى مياسرك ، والعرب يتطير بالبارح وفي مادة " سنح " : والسانح ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك والبارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك وقيل : السانح ما ولاك ميامنه والبارح ما ولاك

مياسره وقيل السانح ما يجيء عن يمينك فتلي مياسره مياسرك والعرب تختلف في عيافة ذلك ، فمنهم من يتيمن بالسانح ويتشاءم بالبارح ، وعلى هذا المثل : من لي بالسانح بعد البارح ، قال في القاموس : أي بالمبارك بعد المشؤوم ، ومنهم من يتشاءم بالسانح ، وقال الإمام أبو عبد الله القزاز في مادة " سنح " : والسانح من الطير والظباء وغيرهما هو الذي يأتيك عن يمينك أخذاً على يسارك فيوليك مياسره فيمكنك رميه وأكثر العرب يتيمن به وقال في مادة " برح " : والبارح من الطير والظبي هو خلاف السانح وهو الذي يلقاك وشمائله عن شمائلك ، وهو مما يتيمن به أهل العالية ، ويتشاءمون بالسانح ، والسانح هو الذي يلقاك وميامنه عن ميامنك ، وهو مما يتيمن به أهل نجد ويتشاءمون بالبارح ، والبارح أبين في التشاؤم من السانح ، لأن البارح هو الذي يأخذ عن يسارك إلى يمينك فلا يمكنك طعنه ، فيتشاءم به لتعذره على الطاعن أو الرامي ، ولذلك قال أبو داود : قلت : لما برز أمن فيه كذب العير وإن كان برح ، يقول : كذب إذ طمع أن ينجو ، وإن كان قد برح وصعب على إمكان طعنه ، وتطير ومن تيمن به بسلامته وخلاصة من الطاعن ، وتطير من تيمن بالسانح بأنه يأتي من ميامنك إلى مياسرك ، فيمكنك من طعنه

، ومن تشاءم به تطير بقلة سلامته ووقوعه فيما يكره ، ومن الطير الجابه وهو الذي يلقاك مواجهة ، ومنه الناطح أيضاً ومنه القعيد ، وهو الذي يأتيك من خلفك – انتهى ما وقفت عليه من كلام أهل اللغة في ذلك فافهم ، والظاهر كما تفهمه الآية أن العرب مطبقة على أن ما أتى عن اليمين كان مباركاً سواء كان أتى من قدام مواجهاً لك ومر إلى جهة الخلف فوليتك ميامنه ، أو أتى من الجانب الأيمن سواء كان ابتداء إتيانه من خلف أو لا فمر من قدامك عرضاً إلى جهة اليسار ، فوليتك في الحالتين مياسره ، وما أتى من جهة اليسار على ضد ذلك كان مشؤوماً ، وكأنهم اختلفوا في التسيمة فأكثرهم سمى الأول سانحاً من السنح بالضم وهو اليمن والبركة ، وهو من قولهم : سنح لي رأي : تيسر – لشهرة معنى اليمن عندهم في ذلك ، والثاني بارحاً من البرح ، وهو الشدة والشر لشهرة هذا المعنى عندهم في مادة برح ، وبعهضم عكس فسمى الأول بارحاً من البرحة ، وهي الناقة تكون من خيار الإبل لشهرة ذلك عندهم ، وسمى الثاني سانحاً من قولهم : سنحه عما أراد : صرفه ، وسنح بالرجل وعليه : أخرجه أو أصابه بشر ، فمن الاختلاف في التسمية أتى الخلاف ، ولذلك عبر سبحانه وتعالى بالمعنى دون الاسم ، لأن كلامه سبحانه لا يخص قوماً دون غيرهم ، وأما التعليل بإمكان الطعن والرمي فلا معنى له لأن الإنسان ينفتل عن هيئة وقوفه بأدنى حركة فينعكس بالنسبة إليه أمر المياسر والميامن ، ويتغير حال الطعن والرمي ، هذا إذا سلم أن الطعن والرمي يعسر من جهة المياسر على أنه غير مسلم ، ولو كان المعنى دائراً

عليه لما اختلف فيه إلا بالنسبة إلى الأعسر وغيره ، لا بالنسبة إلى أهل العالية وغيرهم ، وأما البيت الذي استدل به فيمكن حمله على أن قائله كان في حاجة له لا بد له منها ، فرأى البارح فلم يتطير منه ولج في أمره ذلك تكذيباً له فيما دل عليه عند العرب ، وأما الجابه وغيره فأسماء أخر لبعض أنواع كل من السانح

(214/651)

---

والبارح – والله أعلم ، وقال أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي في كتابه الزينة : العيافة والقيافة والزجر نوع من الكهانة إلا أنه أخف في الكراهة وذلك أن الكاهن كان بمنزلة الحاكم وكان من الكهان من يعبد كما يعبد الصنم ، وكانوا سدنة الأصنام ، قلت : والكاهن في اللغة من يقضي بالغيب وذلك هو غاية العلم ، فهو وصف يدل على التوغل في العلم – انتهى ، قال أبو حاتم : وسمعت بعض أهل الأدب قال : الكاهن بالعبرانية العالم ، وكانوا يسمون هارون عليه السلام كهناً رباً ، معناه عالم الرب ، ثم قال : إن الكهانة والسحر كان عند المتقدمين نوعاً من العلم ، فكان الساحر والكاهن اسمين محمودين ، فلما جاء الله بالإسلام صار هذان الاسمان مذمومين عند المسلمين لما كشف لهم ما في ذلك من الشر ، ثم قال : فأما العائف والقائف والزاجر فلم يكن سبيلهم كذلك – يعني كالكاهن في أنه ربما عبد ،

قال : وإنما كره لأنه كان يخبر بشيء غائب فكره كما كره أمر النجوم توقياً أن يكون مثل الدعوى في علم الغيب ، والعائف هو الذي يعيف الطير ويزجرها ويعتبر بأسمائها وأصواتها ومساقطها ومجاريها ، فإذا سمع صوت طائر أو جرى من يمينه إلى شماله أو من شماله إلى يمينه قضى في ذلك بخير أو بشر في الأمر الذي يريد أن يفعله ، فإذا قضى فيه بشر تجنب ذلك الأمر ، يقال : عاف يعيف – إذا فعل ذلك ، ومعنى عاف أي امتنع وتجنب ، يقال : عافت الإبل الماء – إذا لم تشرب ، وكذلك يقال في غير الإبل الزاجر أيضاً : هو مثل العائف ، يقال : يزجر أيضاً زجراً ، وذلك أنه ينظر إلى الطير فيقضي فيها مثل العائف ، فإذا رأى شيئاً كرهه رجع عن أمر يريد أن يشرع فيه أو حاجة يريد قضاءها ، والزاجر معناه الناهي ، فكأن الطير قد زجره عن ذلك الفعل ، أو أن من عاف له زجره عن ذلك ، ويكون المعنى الزجر أيضاً أنه إذا رأى منها شيئاً صاح بها وطردها ، فكان طرده إياها زجراً لها ، ومنه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :



---

" أقروا الطير على مكناتها " ، قلت : إنهم كانوا إذا لم يروا سانحاً ولا بارحاً نفروا الطير لينظروا إلى أيّ جهة تطير – والله أعلم ، وقال أبو حاتم : والأصل في هذا انهم كانوا

يزجرون الطير ثم كانوا يزجرون الظبي والثعلب ، وبصوت الإنسان يستدلون بلفظه وبغير ذلك ، ثم نسبت كلها إلى الطير فقيل : يتطير ، أي يستدل بالطير ، وروي عن الأصعمي قال : سألت ابن عون : ما الفال ؟ فقال : هو أن تكون مريضاً فتسمع : يا سالم ، وتكون باغياً فتسمع يا واجد ، قال : وكان ابن سيرين يكره الطيرة ويحب الفال ، وفي الحديث : " أصدق الطير الفال " والفال مأخوذ من الفيال ، وهي لعبة يتقامرون بها ، كانوا يأخذون الدراهم فيخلطونها بالتراب ثم يجمعونه طويلاً ثم يقسمونه بنصفين ويتقارعون عليه ، فمن أصابه القرعة اختار من القسمين واحداً ، فلما كان المفايل يختار منهما ما أحب سمي الفال ، لأنه يتفاءل بما يحبه ، وكان هذا في العرب كثيراً ، وأكثره في بني أسد ، قال الأصمعي : أخبرني سعد بن نصر أن نفراً من الجن تذاكروا عيافة بني أسد فأتوهم فقالوا : ضلت لنا ناقة ، فلو أرسلتم معنا من يعيف ، فقالوا لغليم لهم : انطلق معهم ، فاستردفه أحدهم ، ثم ساروا فلقيتهم عقاب كاسرة إحدى جناحيها ، فاقشعر الغليم فبكى فقالوا له : ما لك ؟ فقال : كسرت جناحاً ، ورفعت جناحاً ، وحلفت بالله صراحاً ، ما أنت بإنسي ولا تبغي لقاحاً .

وكانوا يسمون الذي يجيء عن يمينك فيأخذ إلى شمالك سانحاً ، والذي يجيء عن يسارك فيأخذ غلى يمينك بارحاً ، والذي يستقبلك ناطحاً وكافحاً ، والذي يجيء من خلفك قعيداً ، والذي يعرض في كل وجه متيحاً ، فمنهم من كان يتشاءم بالبارح ويتيمن بالسانح ،

ومنهم من كان يتيمن بالبارح ويتشاءم بالسانح ، قال زهير :

جرت سنحاً فقلت لها أجيزي . . .

نوى مشمولة فمتى اللقاء

وقال الكميت :

ولا السانحات البارحات عشية . . .

أمر سليم القرن أم مر أعضب

(216/651)

---

وكانوا يزجرون بعضب القرن وصحته ، والأعضب الذي له قرن واحد ، وأما القائف فهو الذي يتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبه الرجل في ولده ، ويروى عن عوسجة ابن معقب القائف : قال : كنا تسرق نخلنا فنعرف آثارهم ، فركبوا الحمر فعرفنا بمس أيديهم والعذوق ، فكان القائف سمي قائفاً لأنه يقفو الأثر ، يقال : قفا الأثر وقاف الأثر أي تبعه ، قال الأصمعي عن أبي طرفة الهذلي قال : رأى قائفان أثر بعير وهما منصرفان من عرفة بعد الناس بيوم أو يومين فقال أحدهما : ناقة ، وقال الآخر : جمل ، فاتبعاه فإذا هما به ، فاطافا به فإذا هو خنثى ، ويقال للرجل إذا كان فطناً عارفاً بالأمور : هو عائف وقائف ، وكان

قوم من العرب لا يتطيرون ولا يتهيبون الطيرة ويفتخرون بتركه ويعدون تركه شجاعة

وإقداماً ، قال بعض شعرائهم :

ولقد غدوت وكنت لا . . .

أغدو على واق وحاتم

فإذا الأشائم كالأيا . . .

من والأيامن كالأشائم

وقال آخر :

ولست بهياب إذا اشتد رحله . . .

يقول عداني اليوم واق وحاتم

ولكنه يمضي على ذاك مقدماً . . .

إذا صد عن تلك الهناة الخثارم



---

الخثارم : المطير ، وقيل : العيافة والقيافة ، الطرق والخط ، وهو أيضاً نوع من الكهانة ، وهو أن يخط في الأرض خططاً في الطول ، ثم يخط عليها خططاً في العرض ، ثم يطرق بالحصى

او بالشعير أو بخشبات ، ولا يزال يخط ويمحو ويعيد ثم يتكهن عليه ، ومن هذا الباب أيضاً علم الكتف وهو أن ينظر في كتف شاة فيحدث بأشياء تكون في العالم مثل الحروب والأمطار والرياح والجدب والخصب وغير ذلك ، وهذا يقال له : الكتاف ، كأنه أشتق له اسم من الكتف مثل العراف لأن العراف من جنس العيافة ، والعيافة والعرافة ، سواء ، فهذه الأشياء كلها من السحر والكهانة والقيافة والعيافة والخط والطرق والكتف وما أشبهها ، قد جاءت فيها الأخبار والروايات ، ويطول الخطب بها ، وهي كلها مكروهة حرام ، فمنها ما جاء فيها التشديد مثل السحر ، والكهانة ، ومنها ما جاء في القليل منها الرخص والتخفيف مثل القيافة والعيافة والكتف – انتهى .

وهو مسلم له في القيافة ، وأما غيرها فمنازع فيه ، ثم قال : فأكثر هذه الأشياء أصولها من الأنبياء عليهم السلام ، فإذا استعملت بعد النسخ وبعد ما جاء فيها النهي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت حراماً تدعو إلى الكفر والتعطيل وغير ذلك من أنواع الفساد ، ثم قال : وما كان من أمر مشركي العرب فقد درس دروساً لا يعرف ولا يحتاج إلى ذكر كيفيته إذ كان متلاشياً لا أثر له ، ولكن لا يستغني الفقهاء والعلماء عن معرفته إذ كان له في القرآن ذكر ، وإذ كان واجباً على العلماء تعلم ما في القرآن على حسب طاقتهم ، والجهل به نقص عليهم – والله أعلم بالصواب .

ولما أشار سبحانه بتسمية كلامهم هذا سؤالاً إلى أن مرادهم : فهل أنتم مغنون عنا شيئاً أو حاملون عنا جزءاً من العذاب ؟ وكان كأنه قيل : بم أجاب الرؤساء بعد هذا القول من الأتباع ؟ قيل : ﴿ قالوا بل ﴾ أي لم يكن كفرهم سبباً بل : ﴿ لم تكونوا مؤمنين ﴾ أي عريقين في هذا الوصف بجبلاتكم فلذلك تابعتمونا فيما أمرناكم به لأنه كان في طبعكم ، وهذا دليل على أن من لم يكن راسخاً في الإيمان كان منهم ، ثم أكدوا هذا المعنى بقوله نافين لما أشاروا باليمين إليه : ﴿ وما كان ﴾ أي كوناً ثابتاً ﴿ لنا عليكم ﴾ وأعرقوا في النفي بقولهم : ﴿ من سلطان ﴾ أي فأكرهنا بذلك السلطان ، إنما تبعتمونا باختياركم وهو معنى ﴿ بل كنتم ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ قوماً ﴾ أي ذوي قوة وكفاية لما تحاولونه من الأمور ﴿ طاغين ﴾ أي مجاوزين لمقاديركم غالين في الكفر مسرفين في المعاصي والظلم ، ولذلك أنكم خلق لا تحتاجون فيه إلى كبير تحرك ﴿ فحق علينا ﴾ أي كلنا نحن وأنتم بسبب ذلك ، وعبروا بما يدل على ندمهم فقالوا : ﴿ قول ربنا ﴾ أي الذي قابلنا إحسانه إلينا وتربيته لنا بالكفران ، وقوله هو الحكم بالضلال لما في قلوبنا من القابلية له والإباء للإيمان ، فالحكم بالعذاب .

ولما تصوروا ما صاروا إليه من الخطأ الفاحش عن الطريق الواضح ، وعلموا أن مثل ذلك لا يتركه أحد إلا بقهر قاهر فتصوروا أنه ما قسرهم عليه إلا حقوق الكلمة العليا علموا أنهم

مثل ما صاروا إلى حكمها في الكفر يصيرون إلى حكمها في العذاب ، فقالوا لما دهمهم من التحسر مريدين بالتأكيد قطع أطماع الأتباع عما أفهمه كلامهم من أن الرؤساء يغنون عنهم شيئاً : ﴿ إنا ﴾ أي جميعاً ﴿ لذائقون ﴾ أي ما وقع لنا به الوعيد من سوء العذاب .

(219/651)

---

ولما قضوا علالة التحسر والتأسف والتضجر ، رجعوا إلى إتمام ذلك الكلام فقالوا : ﴿ فأغويناكم ﴾ أي أضللناهم وأوقعناكم في الغي بسبب حقوق ذلك القول علينا ، ثم عللوا ذلك بقولهم مؤكدين أيضاً لرد ما ادعاه الأتباع من أنه ما كان سبب إغوائهم إلا الرؤساء : ﴿ إنا ﴾ أي جميعاً ﴿ كنا غاوين ﴾ أي في طبعنا الغواية ، وهي العدول عن الطريق المثلى إلى المهالك .

(220/651)

---

ولما قال لهم الرؤساء ما هو الحق من أمرهم مما أوجب الحكم باشتراكهم ، سبب عنه قوله تعالى مؤكداً دفعاً لمن يتوهم اختصاص العذاب بالسبب : ﴿ فإنهم ﴾ أي الفريقين بسبب

ما ذكروا عن أنفسهم ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم إذ كان هذا التقاول بينهم ﴿ في العذاب ﴾ أي الأكبر ﴿ مشتركون ﴾ أي في أصله ، وهم مع ذلك متفاوتون في وصفه على مقادير كفرهم كما كانوا متشاركين في السبب متفاوتين في شدتهم فيه ولينهم – هذا وقد قال البخاري في صحيحه في تفسير حم السجدة : وقال المنهال عن سعيد : قال رجل لابن عباس - رضى الله عنهما - : إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي قال ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فقد كتموا في هذه الآية ، وقال : ﴿ السماء بناها ﴾ إلى قوله : ﴿ دحاها ﴾ فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ، ثم قال ﴿ أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴾ إلى ﴿ طائعين ﴾ فذكر في هذه الآية خلق الأرض قبل السماء ، وقال : ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ ﴿ عزيزاً حكيماً ﴾ ﴿ سميعاً بصيراً ﴾ فكأنه كان ثم مضى ، فقال : ﴿ فلا أنساب بينهم ﴾ في النفخة الأولى ثم ينفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض ، إلا من شاء الله فلا أنساب عند ذلك ولا يتساءلون ، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، وأما قوله ﴿ ما كنا مشركين ﴾ ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم ، وقال المشركون : تعالوا نقول : لم نكن مشركين ، فنختم على أفواههم فتنطق أيديهم ، فعند ذلك عرف أن الله لا يكتم حديثاً ، وعنده يود الذين كفروا – الآية ، وخلق الأرض في يومين ثم

خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحا الأرض ، و

﴿ دحاها ﴾ أي أخرج منها الماء والمرعى ، وخلق الجبال والآكام وما بينهما في يومين

آخرين ، فذلك قوله ﴿ دحاها ﴾ وقوله : خلق الأرض في يومين ، فجعلت الأرض وما فيها

من



---

شيء في أربعة أيام وخلقت السماوات في يومين ، وكان الله غفوراً رحيماً ، سمى نفسه ذلك

، وذلك قوله ، أي لم يزل كذلك ، فإن الله لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد ، فلا يختلف

عليك القرآن فإن كلاًّ من عند الله .

وقال في سورة المرسلات : وسئل ابن عباس -رضى الله عنهما - ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾

﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ﴿ اليوم نختم على أفواههم ﴾ فقال : إنه ذو ألوان ، مرة

ينطقون ومرة يختم عليهم .



---

ولما أخبر سبحانه باشتراكهم ، استأنف الإخبار بما يهول أمر عذابهم ويشير إلى عمومه في الدارين لكل من شاركهم في الإجرام ، فقال مؤكداً دفعاً لظن من ينكر القيامة وظن من يرى الإملاء للمجرم في الدنيا نعمة وينفي كونه نقمة ، أو يفعل في التمادي في الإجرام فعل المنكر : ﴿ إنا ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا يفوتها شيء ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الفعل العظيم الشأن ﴿ نفعل ﴾ بهم – هكذا كان الأصل ، ولكنه علق بالوصف تعميماً وتعليلاً فقال : ﴿ بالمجرمين ﴾ أي كل قاطع لما أمر الله به أن يوصل في الدنيا والآخرة ، نمهل ثم نأخذ أخذاً عنيفاً يصير به المشتركون في الظلم أعداء يتخاصمون ، ويحيل بعضهم على بعض ثم لا ينفعهم ذلك ، بل نشارك بينهم في العقوبة ، ثم علل تعذيبه لهم بقوله مؤكداً للتعجب منهم لأن فعلهم هذا أهل لأن ينكر لأن هذه الكلمة لا يصدق عاقل أن أحداً يستكبر عليها لأنه لا شيء أعدل منها : ﴿ إنهم كانوا ﴾ أي دائماً ﴿ إذ قيل لهم ﴾ أي من أيّ قائل كان : ﴿ لا إله ﴾ أي يمكن ، وإذا نفي الممكن كان الموجود أولى فإنه لا يوجد إلا ما يمكن وجوده وإن كان واجباً ﴿ إلا الله ﴾ أي الملك الأعلى المباين لجميع الموجودات في ذاته وصفاته وافعاله كما هو الحق ليفردوه بالإلهية كما تفرد بالخالقية كما لا يخفى على من له أدنى مسكة بصفات الكمال ، وقدم النفي لأن التحلية لا تكون إلا بعد التخلية ﴿ يستكبرون ﴾ أي يوجدون الكبر عن الإقرار بهذا الحق الذي لا أعدل منه وعن متابعة الداعي إليه ، استكبار من هو طالب للكبر من نفسه ومن غيره لما فيه من العراقة والعتو ، فلم يكن لهم

مانع من أبواب جهنم السبعة التي جعلت كل كلمة من هذه الكلمة مع قرينتها الشاهدة بإرساله مانعة من باب منها وإلا كان في شيء من ساعات أيامهم - التي هي بعدد حروفهما أربعة وعشرون - خير ينجيهم من المكارة.

(223/651)

---

ولما أخبر أنهم استكبروا على توحيد الإله، أتبعه الإخبار بأنهم تكلموا في رسوله.صلى الله عليه وسلم.بما لا يرضاه: فقال: ﴿ ويقولون ﴾ أي كل حين ما دلوا به على بعدهم عن الإيمان كل البعد بسوقهم لقولهم ذلك في استفهام إنكاري مؤكداً: ﴿ إئنا لتاركوا آلهتنا ﴾ أي عبادتها، وكان تأكيد أصل الكلام للإشارة إلى أن تكذيبهم صادر منهم مع علمهم بأن كل عالم بحالهم يراهم جديرين بترك ما هم عليه لما جاء به.صلى الله عليه وسلم.، ولذلك أعلم بأن ما هم عليه عناد بسوق تكذيبهم على وجه معلوم التناقض بالبديهة بقوله:

﴿ لشاعر مجنون ﴾ فإن المجنون لا نظام معه، والشعر يحتاج إلى عقل رصين وقصد قويم، وطبع في الوزن سليم، أو للإشارة إلى أن إنكار المؤكد إنكار لغيره بطريق الأولى.

ولما كان مرادهم بذلك أن كلامه باطل، فإن أكثر كلام الشاعر غلو وكذب وكلام المجنون تخليط، كان كأنه قال في جوابهم: إنه لم يجىء بشرع ولا بجنون: ﴿ بل جاء بالحق ﴾ أي

الكامل في الحقية .

ولما كان ما جاء به أهلاً لكونه حقاً لأن يقبل وإن خالف جميع أهل الأرض ، وكان موافقاً مع ذلك لمن تقرر صدقهم واشتهر اتباع الناس لهم ، فكان أهلاً لأن يقبله هؤلاء الذين أنزلوا أنفسهم عن أوج معرفة الرجال بالحق إلى حضيض معرفة الحق على زعمهم بالرجال ، فكان مآل أمرهم التقليد قال : ﴿ وصدق المرسلين ﴾ أي الذين علم كل ذي لب أنهم أكمل بدور أضاء الله بهم الإكوان في كل أوان ، وتقدم في آخر سورة فاطر أنهم عابوا من كذبهم ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم أحد منهم ليؤمنن به فكذبوا ﴾ بأن كذبوا سيدهم بهذا الكلام المتناقض .

*(224/651)*

---

ولما وصلوا إلى هذا الحد من الطغيان ، والزور الظاهر والبهتان ، تشوف السامع إلى جزائهم فاستأنف الإخبار بذلك مظهراً له في أسلوب الخطاب إيذاناً بتناهي الغضب ، فقال في قالب التأكيد نفياً لما يترجمونه من العفو بشفاعة من ادعوا أنهم يقربونهم زلفى ، ووعظاً لهم ولأمثالهم في الدنيا فيما ينكرونه حقيقة أو مجازاً : ﴿ إنكم ﴾ أي أيها المخاطبون على وجه التحقير المجرمين ﴿ لذائقوا ﴾ أي بما كنتم تضيقون أولياء الله ﴿ العذاب الأليم ﴾ .

ولما كان سبحانه الحكم العدل فلا يظلم أحداً مثقال ذرة فلا يزيد في جزائه شيئاً على ما يستحق مع أن له أن يفعل ما يشاء ولا يكون فعله - كيفما كان - إلا عدلاً قال : ﴿ وما ﴾ أي والحال أنكم ما ﴿ تجزون ﴾ أي جزءاً من الجزاء ﴿ إلا ما ﴾ أي مثل ما .

ولما كانوا مطبوعين على تلك الخلال السيئة ، بين أنها كانت خلقاً لهم لا يقدرون على الانفكاك عنها بالتعبير بأداة الكون فقال : ﴿ كنتم تعملون ﴾ نفياً لوهم من قد يظن أنهم فعلوا شيئاً بغير تقديره سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 300.

309 ﴾

(225/651)

---

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾

قيل هم والشياطين ، وقيل الرؤساء والأتباع .

﴿ يَتَسَاءلُونَ ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً ، وهذا التساؤل عبارة عن التخاصم وهو سؤال التبكيت يقولون غررتمونا ، ويقول : أولئك لم قبلتم منا ، وبالجملة فليس ذلك تساؤل

المستفهمين ، بل هو تساؤل التوبيخ واللوم ، والله أعلم .

قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (28)

(226/651)

---

واعلم أن الله تعالى لما حكى عنهم أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون شرح كيفية ذلك التساؤل فقال : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين ﴾ وهذا قول الأتباع لمن دعاهم إلى الضلالة ، وفي تفسير اليمين وجوه الأول : أن لفظ اليمين ههنا استعارة عن الخيرات والسعادات ، وبيان كيفية هذه الاستعارة ، أن الجانب الأيمن أفضل من الجانب الأيسر لوجوه أحدها : اتفاق الكل على أن أشرف الجانبين هو اليمين والثاني : لا يباشرون الأعمال الشريفة إلا باليمين مثل مصافحة الأخيار والأكل والشرب وما على العكس منه يباشرونه باليد اليسرى الثالث : أنهم كانوا يتفاءلون وكانوا يتيمنون بالجانب الأيمن ويسمونه بالبارح الرابع : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب التيامن في كل شيء الخامس : أن الشريعة حكمت بأن الجانب الأيمن لكاتب الحسنات والأيسر لكاتب السيئات السادس : أن الله تعالى وعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه ، والمسيء أن يؤتى كتابه بيساره ، فثبت أن الجانب الأيسر ، وإذا كان كذلك لا جرم ، استعير لفظ اليمين للخيرات والحسنات والطاعات ، فقوله :

﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين ﴾ يعني أنكم كنتم تخدعوننا وتوهمون لنا أن مقصودكم من الدعوة إلى تلك الأديان نصرة الحق وتقوية الصدق والوجه الثاني : في التأويل أنه يقال فلان يمين فلان ، إذا كان عنده بالمنزلة الحسنة ، فقال هؤلاء الكفار لأئمتهم الذين أضلوهم وزينوا لهم الكفر : إنكم كنتم تخدعوننا وتوهمون لنا ، أننا عندكم بمنزلة اليمين ، أي بالمنزلة الحسنة ، فوثقنا بكم وقبلنا عنكم الوجه الثالث : أن أئمة الكفار كانوا قد حلفوا لهؤلاء المستضعفين أن ما يدعونهم إليه هو الحق ، فوثقوا بإيمانهم وتمسكوا بعهودهم التي عهدوها لهم ، فمعنى قوله : ﴿ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين ﴾ أي من ناحية المواثيق والأيمان التي قدمتموها لنا الوجه الرابع : أن لفظ اليمين مستعار من القوة والقهر ، لأن



---

اليمين موصوفة بالقهر وبها يقع البطش ، والمعنى أنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر ، وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتعيرونا عليه ، ثم حكى الله تعالى عن الرؤساء أنهم أجابوا الأتباع من وجوه الأول : أنهم قالوا لهم ﴿ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ يعني أنكم ما كنتم موصوفين بالإيمان حتى يقال إنا أزلناكم عنه الثاني : قولهم : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مّن سلطان ﴾ يعني لا قدرة لنا عليكم حتى نقهركم ونجبركم الثالث :

﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طاغين ﴾ أي ضالين غالين في معصية الله الرابع : قولهم : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ والمعنى أن الله تعالى لما أخبر عن وقوعنا في العذاب ، فلو لم يحصل وقوعنا في العذاب لما كان خبر الله حقاً ، بل كان باطلاً ، ولما كان خبر الله أمراً واجباً لا جرم ، كان الوقوع في العذاب الأليم لازماً ، قال مقاتل قوله تعالى : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ﴾ إشارة إلى قول الله لإبليس :

(228/651)

---

﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ ص : 85 ] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ يعني لما وجب أن يحق علينا قول ربنا وجب أن نكون ذائقين لهذا العذاب الخامس قولهم : ﴿ فأغويناكم إِنَّا كُنَّا غاوين ﴾ والمعنى أنا إنما أقدمنا على إغوائكم لأنا كنا موصوفين في أنفسنا بالغواية ، وفيه دقيقة أخرى ، كأنهم قالوا : إن اعتقدتم أن غوايتكم بسبب إغوائنا فغوايتنا إن كانت بسبب إغواء غاوٍ آخر ولزم التسلسل وذلك محال ، فعلمنا أن حصول الغواية والرشاد ليس من قبلنا ، بل من قبل غيرنا ، وذلك الغير هو الذي ذكره فيما قبل ، وهو قوله : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ﴾ ولما حكى الله تعالى كلام الأتباع للرؤساء وكلام الرؤساء للأتباع قال بعده : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ يعني فالمتبوع

والتابع والمخدوم والخادم مشتركون في الوقوع في العذاب كما كانوا في الدنيا مشتركين في الغواية ، ثم قال أيضاً : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ وعنى بالمجرمين ههنا الكفار بدليل أنه تعالى قال بعد هذه الكلمة : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ والضمير في قوله : ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ عائد إلى المذكور السابق وهو قوله : ﴿ بالمجرمين ﴾ وهذا يدل على أن لفظ المجرم المطلق مختص في القرآن بالكافر ، ثم بين تعالى أنهم إنما وقعوا في ذلك العذاب لأنهم كانوا مكذبين بالتوحيد وبالنبوة ، أما التكذيب بالتوحيد فهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يعني ينكرون ويتعصبون لإثبات الشرك ويستنكفون عن الإقرار بالتوحيد .

(229/651)

---

وأما التكذيب بالنبوة فهو قولهم : ﴿ أئنا لَتَارِكُوا ءالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ ويعنون محمداً ، ثم إنه تعالى كذبهم في ذلك الكلام فقال : ﴿ بَلْ جَاء بالحق وَصَدَّقَ المرسلون ﴾ وتقرير هذا الكلام أنه جاء بالدين الحق لأنه ثبت بالعقل أنه تعالى منزه عن الضد والند والشريك فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم بتقرير هذه المعاني كان مجيئه بالدين الحق ، قرأ ابن كثير ﴿ أَيِّنَا لتاركوا ءالِهَتِنَا ﴾ بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد ، وقرأ نافع في رواية

قالون وأبو عمرو على هذا التفسير يمدان والباقون بهمزتين بلا مد وقوله تعالى : ﴿ وَصَدَقَ المرسلون ﴾ (1) يعني صدقهم في مجيئهم بالتوحيد ونفي الشريك ، وهذا تنبيه على أن القول بالتوحيد دين لكل الأنبياء ، ولما حكى الله عنهم تكذيبهم بالتوحيد والنبوة نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور فقال : ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا العذاب الأليم ﴾ كأنه قيل فكيف يليق بالرحيم الكريم المتعالي عن النفع والضر أن يعذب عباده فأجاب عنه بقوله : ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ والمعنى أن الحكم يقتضي الأمر بالحسن والطاعة والنهي عن القبيح والمعصية والأمر والنهي لا يكمل المقصود منهما إلا بالترغيب في الثواب والترهيب بالعقاب وإذا وقع الإخبار عنه وجب تحقيقه صوناً للكلام عن الكذب ، فلهذا السبب وقعوا في العذاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 116. 118 ﴾

---

(1) وصدق المرسلون في المصحف مرفوعة بالواو والنون . ولكن المفسر جرى في تفسيره على أنها منصوبة بالياء والنون ومعنى قراءة الرفع أن المرسلين صدقوا في كل ما أخبروا به وإنما شدد الدال من صدق للمبالغة في وصفهم بالصدق .

وقراءة الرفع عامة تشمل جميع الأنبياء ومنهم محمد – صلى الله عليه وسلم – ، وأما قراءة النصب فلا تشمل نبينا عليه السلام إذ يكون الخطاب عنه .

وقال القرطبى :

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾

يعني الرؤساء والأتباع ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ يتخاصمون .

ويقال لا يتساءلون فسقطت لا .

النحاس : وإنما غلط الجاهل باللغة فتوهّم أن هذا من قوله : ﴿ فَلَاأَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [ المؤمنون : 101 ] إنما هو لا يتساءلون بالأرحام ، فيقول أحدهم : أسألك بالرحم الذي بيني وبينك لما نفعتني ، أو أسقطت لي حقاً لك عليّ ، أو وهبت لي حسنة .

وهذا بيّن ؛ لأن قبله "فَلَاأَنسَابَ بَيْنَهُمْ" .

أي ليس ينتفعون بالأنساب التي بينهم ؛ كما جاء في الحديث : " إن الرجل لَيُسَرّ بأن يصح له على أبيه أو على ابنه حق فيأخذه منه لأنها الحسنات والسيئات " ، وفي حديث آخر : " رحم الله امرءا كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فأتاه فاستحله قبل أن يطالبه به فيأخذ من حسناته فإن لم تكن له حسنات زِيد عليه من سيئات المطالب " و "يَتَسَاءَلُونَ" هاهنا إنما هو أن يسأل بعضهم بعضاً ويوبخه في أنه أضلّه أو فتح له باباً من المعصية ؛ يبيّن ذلك أن بعده ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين ﴾ قال مجاهد : هو قول الكفار للشياطين .

قتادة : هو قول الإنس للجن .

وقيل: هو من قول الأتباع للمتبوعين؛ دليله قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ القول ﴾ [سبأ: 31] الآية.

قال سعيد عن قتادة: أي تأتوننا عن طريق الخير وتصدوننا عنها.

وعن ابن عباس نحو منه.

وقيل: تأتوننا عن اليمين التي نحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك من جهة النصح.

والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين وتسميه السانح.

وقيل: "تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ" تأتوننا مجيء من إذا حلف لنا صدّقناه.

وقيل: تأتوننا من قِبل الدِّين فتهوِّنون علينا أمر الشريعة وتنفِّروننا عنها.



---

قلت: وهذا القول حسن جداً؛ لأن من جهة الدِّين يكون الخير والشر، واليمين بمعنى الدّين؛ أي كنتم تزينون لنا الضلالة.

وقيل: اليمين بمعنى القوّة؛ أي تمنعوننا بقوّة وغلبة وقهر؛ قال الله تعالى: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً باليمين ﴾ [الصافات: 93] أي بالقوّة وقوّة الرجل في يمينه؛ وقال الشاعر:

إذا ما رَايةٌ رُفِعتْ لمجدٍ . . .

تَلَقّاها عَرَابَةُ باليمين

أي بالقوّة والقدرة .

وهذا قول ابن عباس .

وقال مجاهد : "تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ" أي من قبل الحق أنه معكم ؛ وكله متقارب المعنى .

﴿ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قال قتادة : هذا قول الشياطين لهم .

وقيل : من قول الرؤساء ؛ أي لم تكونوا مؤمنين قط حتى ننقلكم منه إلى الكفر ، بل كنتم على الكفر فأقمتم عليه للإلف والعادة .

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ ﴾ أي من حجة في ترك الحق .

﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ﴾ أي ضالين متجاوزين الحد .

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ﴾ هو أيضاً من قول المتبوعين ؛ أي وجب علينا وعليكم قول ربنا ، فكلنا ذائقو العذاب ، كما كتب الله وأخبر على ألسنة الرسل ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [ السجدة : 13 ] .

وهذا موافق للحديث : " إن الله جل وعز كتب للنار أهلا وللجنة أهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم " ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴾ أي زيّنا لكم ما كنتم عليه من الكفر ﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ بالوسوسة والاستدعاء .

ثم قال خبراً عنهم : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ الضال والمضل .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ أي مثل هذا الفعل ﴿ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ أي المشركين.

﴿ إِنَّهُمْ كانوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إله إِلاَّ الله يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي إذا قيل لهم قولوا فأضمر القول.

و"يَسْتَكْبِرُونَ" في موضع نصب على خبر كان.

(232/651)

---

ويجوز أن يكون في موضع رفع على أنه خبر إنّ، وكان ملغاة.

ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب عند موته واجتماع قريش: "قولوا لا إله إلا الله تملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم" أبَوْا وأنِفُوا من ذلك.

وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أنزل الله تعالى في كتابه فذكر قوماً استكبروا فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كانوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إله إِلاَّ الله يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ " وقال تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ الذين كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الحمية حَمِيَّةَ الجاهلية فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ على رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى وكانوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [ الفتح: 26 ] وهي (لا إله إلا الله محمد رسول الله) استكبر عنها المشركون يوم الْحُدَيْبِيَة يوم كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قضية المدّة؛ ذكر هذا الخبر البيهقي، والذي قبله القشيري.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لتاركوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ أي لقول شاعر مجنون؛ فردّ

الله جل وعز عليهم فقال : ﴿ بَلْ جَآءَ بالحق ﴾ يعني القرآن والتوحيد ﴿ وَصَدَّقَ المرسلين ﴾ فيما جاءوا به من التوحيد .

إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا العذاب الأليم ﴾ الأصل لذائقون فحذفت النون استخفافا وخفضت للإضافة .

ويجوز النصب كما أنشد سيبويه :

فألْفيتُهُ غيرَ مُسْتَعْتِبٍ . . .

ولَا ذَاكِرِ اللهَ إلاّ قليلا

وأجاز سيبويه "وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةَ" على هذا .

﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي إلا بما عملتم من الشرك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(233/651)

---

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) ﴾

﴿

احشروا ﴾ : خطاب من الله للملائكة ، أو خطاب الملائكة بعضهم لبعض ، أي اجمعوا الظالمين ونساءهم الكافرات ، قاله ابن عباس ، ورجحه الرماني .

وأنواعهم وضرباؤهم ، قاله عمرو ابن عباس أيضاً ، أو أشباههم من العصاة ، وأهل الزنا مع أهل الزنا ، وأهل السرقة ، أو قرناؤهم الشياطين .

وقرأ عيسى بن سليمان الحجازي : ﴿ وأزواجهم ﴾ ، مرفوعاً عطفاً على ضمير ظلموا ، أي وظلم أزواجهم .

﴿ فاهدوهم ﴾ : أي عرفوهم وقودوهم إلى طريق النار حتى يصطلوها ، والجحيم طبقة من طبقات جهنم .

﴿ وقفوهم ﴾ ، كما قال : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار ﴾ وهو توبيخ لهم ، ﴿ إنهم مسؤولون ﴾ .

وقرأ عيسى : أنهم ، بفتح الهمزة .

قال عبد الله : يسألون عن شرب الماء البارد على طريق الهزء بهم ، وعنه أيضاً : يسألون عن لا إله إلا الله .

وقال الجمهور : وعن أعمالهم ، ويوقفون على قبحها .

وفي الحديث : " لا تزول قد ما عبد حتى يسأل عن خمس شبابه فيما أبلاه ، وعن عمره فيما أفناه ، وعن ماله كيف اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن ما عمل فيما علم " وقال ابن عطية

: ويحتمل أن يكون المعنى على نحو ما فسره بقوله : ﴿ ما لكم لا تنصرون ﴾ ، أي إنهم مسئولون عن امتناعهم عن التناصر ، وهذا على سبيل التوبيخ في الامتناع .

وقال الزمخشري : هذا تهكم بهم وتوبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعد ما كانوا على خلاف ذلك في الدنيا متعاضدين متناصرين .

وقال الثعلبي : ﴿ ما لكم لا تنصرون ﴾ ، جواب أبي جهل حين قال في بدر : ﴿ نحن جميع منتصر ﴾ وقرىء : لا تناصرون ، بتاء واحدة وبتاءين ، وبإدغام إحداهما في الأخرى .

﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ : أي قد أسلم بعضهم بعضاً ، وخذله عن عجز ، وكل واحد منهم مستسلم غير منتصر .

(234/651)

---

﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ ، قال قتادة : هم جن وإنس ، وتساؤلهم على معنى التقريع والندم والسخط .

قالوا : أي قالت الإنس للجن .

قال مجاهد ، وابن زيد : أو ضعفة الإنس الكفرة لكبرائهم وقادتهم .

و ﴿ اليمين ﴾ : الجارحة ، وليست مرادة هنا .

فقيل : استعيرت لجهة الخير ، أو للقوة والشدة ، أو لجهة الشهوات ، أو لجهة التمويه والإغواء وإظهار أنها رشد ، أو الحلف .

ولكل من هذه الاستعارات وجه .

فأما استعارتها لجهة الخير ، فلأن الجارحة أشرف العضوين وأيمنها ، وكانوا يتمنون بها حتى في السانح ، ويصافحون ويماسخون ويناولون ويزاولون بها أكثر الأمور ، ويباشرون بها أفاضل الأشياء ، وجعلت لكاتب الحسنات ، ولأخذ المؤمن كتابه بها ، والشمال بخلاف ذلك .

وأما استعارتها للقوة والشدة ، فإنها يقع بها البطش ، فالمعنى : أنكم تعروننا بقوتكم وتحملوننا على طريق الضلال .

وأما استعارتها لجهة الشهوات ، فلأن جهة اليمين هي الجهة الثقيلة من الإنسان وفيها كبده ، وجهة شماله فيها قلبه ومكره ، وهي أخف ، والمنهزم يرجع على شقه الأيسر ، إذ هو أخف شقيه .

وأما استعارتها لجهة التمويه والإغواء ، فكأنهم شبهوا أقوال المغوين بالسوانح التي هي عندهم محمودة ، كأن التمويه في إغوائهم أظهر ما يحمدونه .

وأما الحلف ، فإنهم يحلفون لهم ويأتونهم إتيان المقسمين على حسن ما يتبعونهم فيه .

﴿ قالوا ﴾ ، أي المخاطبون ، إما الجن وإما قادة الكفر : ﴿ بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ : أي لم نقركم على الكفر ، بل أنتم من ذواتكم أبيتم الإيمان .

وقال الزمخشري : وأعرضتم مع تمكنكم واختباركم ، بل كنتم قوماً على الكفر غير ملجئين ، وما كان لنا عليكم من تسلط نسلبكم به تمكنكم واختباركم ، بل كنتم قوماً مختارين الطغيان . انتهى .

ولفظة التمكن والاختيار ألفاظ المعتزلة جرياً على مذهبهم .

﴿ فحق علينا قول ربنا ﴾ : أي لزمنا قول ربنا ، أي وعيده لنا بالعذاب .

*(235/651)*

---

والظاهر أن قوله : ﴿ إنا لذائقون ﴾ ، إخبار منهم أنهم ذائقون العذاب جميعهم ، الرؤساء ، والأتباع .

وقال الزمخشري : فلزمنا قول ربنا : ﴿ إنا لذائقون ﴾ ، يعني وعيد الله بأنا ذائقون لعذابه لا محالة ، لعلمه بحالنا واستحقاقنا بها العقوبة .

ولو حكى الوعيد كما هو لقال : إنكم لذائقون ، ولكنه عدل به إلى لفظ المتكلم ، لأنهم متكلمون بذلك عن أنفسهم ، ونحوه قول القائل :

لقد زعمت هوازن قل مالي . . .

ولو حكى قولها لقال : قل مالك ، ومنه قول المحلف للحالف : لأخرجن ، ولنخرجن الهمزة لحكاية لفظ الحالف ، والتاء لإقبال المحلف على الحلف . انتهى .

﴿ فأغويناكم ﴾ : دعوناكم إلى الغي ، فكانت فيكم قابلية له فغويتم .

﴿ إنا كنا غاوين ﴾ : فأردنا أن تشاركونا في الغي .

﴿ فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون ﴾ : أي يوم إذ تساؤلوا وتراجعوا في القول ، وهذا إخبار منه تعالى ، كما اشتركوا في الغي ، اشتركوا فيما ترتب عليه من العذاب .

﴿ إنا كذلك ﴾ : أي مثل هذا الفعل بهؤلاء نفعل بكل مجرم ، فيترتب على إجرامه عذابه .

ثم أخبر عنهم بأكبر إجرامهم ، وهو الشرك بالله ، واستكبارهم عن توحيده ، وإفراده بالآلهية .

ثم ذكر عنهم ما قدحوا به في الرسول ، وهو نسبته إلى الشعر والجنون ، وأنهم ليسوا بتاركي آلهتهم له ولما جاء به ، فجمعوا بين إنكار الوحدانية وإنكار الرسالة .

وقولهم : ﴿ لشاعر مجنون ﴾ : تخليط في كلامهم ، وارتباك في غيهم .

فإن الشاعر هو عنده من الفهم والحذق وجودة الإدراك ما ينظم به المعاني الغريبة ويصوغها في قالب الألفاظ البديعة ، ومن كان مجنوناً لا يصل إلى شيء من ذلك .

ثم أضرب تعالى عن كلامهم ، وأخبر بأن جاء الحق ، وهو إثبات الذي لا يلحقه إضمحلال ، فليس ما جاء به شعراً ، بل هو الحق الذي لا شك فيه .

ثم أخبر أنه صدق من تقدمه من المرسلين ، إذ هو وهم على طريقة واحدة في دعوى الأمم إلى التوحيد وترك عبادة غيره .

(236/651)

---

وقرأ عبد الله : وصدق بتخفيف الدال ، المرسلون بالواو رفعاً ، أي وصدق المرسلون في التبشير به وفي أنه يأتي آخرهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ لذائقو العذاب ﴾ ، بحذف النون للإضافة ؛ وأبو السمال ، وأبان ، عن ثعلبة ، عن عاصم : بحذفها لالتقاء لام التعريف ونصب العذاب .

كما خذف بعضهم التنوين لذلك في قراءة من قرأ أحد الله ، ونقل ابن عطية عن أبي السمال أنه قرأ : لذائق منوناً ، العذاب بالنصب ، ويخرج على أن التقدير جمع ، وإلا لم يتطابق المفرد وضمير الجمع في ﴿ إنكم ﴾ ، وقول الشاعر :

فألفيته غير مستعتب . . .

ولا ذاكر الله إلا قليلاً

وقرئ : لذائقون بالنون ، العذاب بالنصب ، وما ترون إلا جزاء مثل عملكم ، إذ هو ثمرة عملكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(237/651)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَقْبَلَ ﴾ حينئذٍ ﴿ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾ هم الأتباعُ والرؤساء أو الكفرةُ والقُرناء ﴿ يَتَسَاءلُونَ ﴾ يسأل بعضُهم بعضاً سؤالَ توبيخٍ بطريقِ الخصومةِ والجدالِ ﴿ قَالُواْ ﴾ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤالٍ نشأ من حكايةِ تساؤلهم كأنَّه قيل كيفَ تساءلون فقيل قالوا أي الأتباعُ للرُّؤساء أو الكلُّ للقرناءِ ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا ﴾ في الدُّنيا ﴿ عَنِ اليمين ﴾ عن أقوى الوجوهِ وأمتنِها أو عن الدِّينِ أو عن الخيرِ كأنَّكم تنفعوننا نفعَ السَّانحِ فتبعناكم فهلكنا ، مستعارٌ من يمينِ الإنسانِ الذي هو أشرفُ الجانبينِ وأقواهما وأنفعُهما ولذلك سُمِّي يميناً ويُتيمَّن بالسَّانحِ أو عن القوَّةِ والقَسْرِ فتقسروننا على الغيِّ وهو الأوفقُ للجوابِ أو عن الحلفِ حيث كانُوا يحلفون أنَّهم على الحقِّ .

(238/651)

﴿ قَالُواْ ﴾ استئنافٌ كما سبق أي قالَ الرُّؤساءُ أو القُرناءُ ﴿ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي لم نمنعكُم من الإيمانِ بل لم تؤمنوا باختيارِكم وأعرضتُم عنه مع تمكُّنِكم منه وآثرتُم الكفرَ عليه ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّن سلطانٍ ﴾ من قهرٍ وتسلُّطٍ نسلبكم به اختيارَكم ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طاغين ﴾ مُختارين للطُّغيانِ مُصرِّين عليه ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا ﴾ أي لزمنا وثبتَ علينا ﴿ قَوْلُ رَبّنَا ﴾ وهو قولُه تعالى : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ أي العذابَ الذي وردَ به الوعيدُ ﴿ فأغويناكم ﴾ فدعوناكم إلى الغيِّ دعوةً غيرَ مُلجئةٍ فاستجبتُم لنا باختيارِكم واستحبابكم الغيَّ على الرُّشدِ ﴿ إِنَّا كُنَّا غاوين ﴾ فلا عتبَ علينا في تعرُّضِنا لإغوائِكم بتلك المرتبةِ من الدَّعوةِ لتكونُوا أمثالَنا في الغوايةِ . ﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ أي الأتباعُ والمتبوعينَ ﴿ يَوْمَئِذٍ فِى العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ حسبما كانُوا مشتركينَ في الغوايةِ ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ أي مثلَ ذلك الفعلِ البديعِ الذي تقتضيهِ الحكمةُ التَّشريعيَّةُ ﴿ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ المتناهينَ في الإجرامِ وهم المُشركون كما يُعرب عنه التَّعليلُ بقولِه تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ بطريقِ الدَّعوةِ والتَّلقينِ ﴿ لاَ إله إِلاَّ الله يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن القبولِ ﴿ وَيَقُولُونَ أَءنَّا لَتَارِكُوءالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ بَلْ جَاء بالحق وَصَدَّقَ المرسلين ﴾ ردٌّ عليهم وتكذيبٌ لهم ببيانِ أنَّ ما جاء به من التَّوحيدِ هو الحقُّ الذي قام به البُرهانُ وأجمعَ

عليه كافَّةُ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ فأينَ الشّعرُ والجنونُ من ساحتِهِ الرَّفيعةِ ﴿ إِنَّكُمْ بما فعلتُم من الإشراكِ وتكذيبِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والاستكبارِ ﴾

(239/651)

---

لَذَائِقُو العذاب الاليم ﴾ والالتفاتُ لإظهارِ كمالِ الغضبِ عليهم. وقُرىء بنصبِ العذابِ على تقديرِ النُّون كقولِه

ولا ذاكرُ اللَّهَ إلا قليلاً. . . . وقُرىء لذائقونَ العذابَ على الأصلِ.

﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي الإجزاءَ ما كنتُم تعملونَه من السَّيِّئاتِ أو إلاَّ بما كنتُم تعملونَه منها. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(240/651)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾

هم الأتباع والرؤساء المضلون أو الكفرة من الإنس وقرناؤهم من الجن، وروى هذا عن

مجاهد .

وقتادة .

وابن زيد ﴿ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ يسأل بعضهم بعضاً سؤال تقريع بطريق الخصومة والجدال .

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : كيف يتساءلون ؟ فقيل : قالوا أي الأتباع للرؤساء أو الكفرة مطلقاً للقرناء ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا ﴾ في الدنيا ﴿ عَنِ الْيَمِينِ ﴾ أي من جهة الخير وناحيته فتنهونا عنه وتصدونا قاله قتادة ، ولشرف اليمين جاهلية وإسلاماً دنيا وأخرى استعيرت لجهة الخير استعارة تصريحية تحقيقية ، وجعلت اليمين مجازاً عن جهة الخير مع أنه مجاز في نفسه فيكون ذلك مجازاً على المجاز لأن جهة الخير لشهرة استعماله التحق بالحقيقة فيجوز فيه المجاز على المجاز كما قالوا في المسافة فإنها موضع الشم في الأصل لأنه من ساف التراب إذا شمه فإن الدليل إذا اشتبه عليه الطريق أخذ تراباً فشمه ليعرف أنه مسلوك أولاً ثم جعل عبارة عن البعد بين المكانين ثم استعير لفرق ما بين الكلامين ولا بعد هناك ، واستظهر بعضهم حمل الكلام على الاستعارة التمثيلية واعتبار التجوز في مجموع ﴿ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ لمعنى تمنعوننا وتصدوننا عن الخير فيسلم الكلام من دعوى المجاز على المجاز ؛ وكأن المراد بالخير الايمان بما يجب الايمان به ، وجوز أن يكون المراد به الخير الذي يزعمه المضلون خيراً وأن المعنى تأتوننا من جهة الخير وتزعمون ما أنتم عليه خيراً ودين حق فتخدعوننا وتضلوننا وحكى هذا عن الزجاج .

وقال الجبائي : المعنى كنتم تأتوننا من جهة النصيحة واليمن والبركة فترغبوننا بما أنتم عليه فتضلوننا وهو قريب مما قبله ، وجوزوا أن تكون اليمين مجازاً مرسلاً عن القوة والقهر فإنها موصوفة بالقوة وبها يقع البطش فكأنه أطلق المحل على الحال أو السبب على المسبب ، ويمكن أن يكون ذلك بطريق الاستعارة وتشبيه القوة بالجانب الأيمن في التقدم ونحوه ، والمعنى إنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتقسرونا عليه وإليه ذهب الفراء ، وأن يكون اليمين حقيقة بمعنى القسم ومعنى إتيانهم عنه أنهم يأتونهم مقسمين لهم على حقية ما هم عليه من الباطل ، والجار والمجرور في موضع الحال ، وعن بمعنى الباء كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ [ النجم : 3 ] أو هو ظرف لغو ، وفيه بعد ، وأبعد منه أن يفسر اليمين بالشهوة والهوى لأن جهة اليمين موضع الكبد ، وهو مخالف لما حكى عن بعض من أن من أتاه الشيطان من جهة اليمين أتاه من قبل الدين فلبس عليه الحق ومن أتاه من جهة الشمال أتاه من قبل الشهوات ومن أتاه من بين يديه أتاه من قبل التكذيب بالقيامة والثواب والعقاب ومن أتاه من خلفه خوفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده فلم يصل رحماً ولم يؤد زكاة .

قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29)

﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف على طرز السابق أي قال الرؤساء أو قال القرناء في جوابهم بطريق الإضراب عما قالوه لهم ﴿ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وهو إنكار لإضلالهم إياهم أي أنتم أضللتم أنفسكم بالكفر ولم تكونوا مؤمنين في حد ذاتكم لا أنا نحن أضللناكم

وقولهم :

(242/651)

---

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مّن سلطان ﴾ أي من قهر وتسلط نسلبكم به اختياركم ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طاغين ﴾ مجاوزين الحد في العصيان مختارين له مصرين عليه جواب آخر تسليمي على فرض إضلالهم بأنهم لم يجبروهم عليه وإنما دعوهم له فأجابوا باختيارهم لموافقة ما دعوا له هواهم ، وقيل : الكل جواب واحد محصله إنكم اتصفتم بالكفر من غير جبر عليه

وقولهم :

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ تفريع على صريح ما تقدم من عدم إيمان أولئك المخاصمين لهم وكونهم قوماً طاغين في حد ذاتهم وعلى ما اقتضاه وأشعر به خصامهم من

كفر هؤلاء المجيبين لأولئك الطاغين وغوايتهم في أنفسهم ، وضمائر الجمع للفريقين فكأنهم قالوا : ولأجل أنا جميعاً في حد ذاتنا لم نكن مؤمنين وكنا قوماً طاغين لزمنا قول ربنا وخالقنا العالم بما نحن عليه وبما يقتضيه استعدادنا وثبت علينا وعيده سبحانه بأنا ذائقون لا محالة لعذابه عز وجل ، ومرادهم أن منشأ الخصام في الحقيقة الذي هو العذاب أمر مقضي لا محيص عنه وأنه قد ترتب على كل منا بسبب أمر هو عليه في نفسه وقد اقتضاه استعداده وفعله باختياره فلا يلومن بعضنا بعضاً ولكن ليلم كل منا نفسه ، ونظموا أنفسهم معهم في ذلك للمبالغة في سد باب اللوم والخصام من أولئك القوم ، والفاء في قولهم :

(243/651)

---

﴿ فأغويناكم ﴾ أي فدعوناكم إلى الغي لتفريع الدعاء المذكور على حقية الوعيد عليهم لا لمجرد التعقيب كما قيل ، وعلية ذلك للدعاء باعتبار أن وجوده الخارجي متعلقاً بهم كان متفرعاً عن ذلك في نفس الأمر لا باعتبار أن إصداره وإيقاعه منهم على المخاطبين كان بملاحظة ذلك كما تلاحظ العلل الغائية في الأفعال الاختيارية لأن الظاهر أن رؤساء الكفر لم يكونوا عالمين في الدنيا حقية الوعيد عليهم ، نعم لا يبعد أن يكون القرناء من الشياطين عالمين بذلك من أبيهم ، وكذا تسمية دعائهم إياهم إلى ما دعوهم إليه إغواء أي دعاء إلى

الغي بناء على أن الكلام المذكور من الرؤساء باعتبار نفس الأمر التي ظهرت لهم يوم القيامة ، ومثل هذا يقال في قولهم : ﴿ إِنَّا كُنَّا غاوين ﴾ بناء على أنهم إنما علموا ذلك يوم التساؤل والخصام ، والجملة مستأنفة لتعليل ما قبلها ، وكأن ما أشعر به التفريع باعتبار تعلق الإغواء بالمخاطبين وهذا باعتبار صدور الإغواء نفسه منهم ، وهو تصريح بما يستفاد من التفريع السابق .

ويجوز أن يكون إشارة إلى وجه ترتب إغوائهم إياهم على حقية الوعيد عليهم وهو حب أن يتصف أولئك المخاطبون بنحو ما اتصفوا به من الغي ويكونوا مثلهم فيه .



---

وملخص كلامهم أنه ليس منافي حقكم على الحقيقة سوى حب أن تكونوا مثلنا وهو غير ضار لكم وإنما الضار سوء اختياركم وقبح استعدادكم فذلك الذي ترتب عليه حقية الوعيد عليكم وثبوت هذا العذاب لكم ، وجوز أن يقال : إنهم نفوا عنهم الايمان والاعتقاد الحق وأثبتوا لهم الطغيان ومجاوزة الحد في العصيان حيث لم يلتفتوا إلى ما يوجب الاعتقاد الصحيح مع كثرته وظهوره ورتبوا على ذلك مع ما يقتضيه البحث حقية الوعيد وفرعوا على مجموع الأمرين أنهم دعوهم إلى الغير مراداً به الكفر لاعتقاد أمر فاسد لا مجرد عدم

الايمان أي عدم التصديق بما يجب التصديق به بدون اعتقاد أمر آخر يكفر باعتقاده ، وأشاروا إلى وجه ترتب ذلك على ما ذكر وهو محبة أن يكونوا مثلهم فكأنهم قالوا : كنتم تاركين الاعتقاد الحق غير ملتفتين إليه مع ظهور أدلته وكثرتها وكنا جميعاً قد حق علينا الوعيد فدعوناكم إلى ما نحن عليه من الاعتقاد الفاسد حباً لأن تكونوا أسوة أنفسنا وهذا كقولهم ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاء الذين أَغْوَيْنَا أغويناهم كَمَا غَوَيْنَا ﴾ [ القصص : 63 ] قال الراغب : هو إعلام منهم أنا قد فعلنا بهم غاية ما كان في وسع الإنسان أن يفعل بصديقه ما يريد بنفسه أي أفدناهم ما كان لنا وجعلناهم أسوة أنفسنا وعلى هذا فأغويناكم إنا كنا غاوين انتهى ، وجوز على هذا التقدير أنيكون ﴿ فأغويناكم ﴾ مفرعاً على شرح حال المخاطبين من انتفاء كونهم مؤمنين وثبوت كونهم طاغين وعن الآيات معرضين ، وقولهم :

(245/651)

---

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا ﴾ [ الصافات : 31 ] الخ اعتراض لتعجيل بيان أن ما الفريقان فيه أمر مقضي لا ينفع فيه القيل والقال والخصام والجدال ، ويجوز على هذاأن يراد بضمير الجمع في ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا ﴾ الخ الرؤساء أو القرناء لا ما يعمهم والمخاذيين وأشاروا بذلك إلى أن ما هم فيه يكفي عن اللوم ويومىء إلى زيادة عذابهم ، ولا يخفى أن تجويز الاعتراض لا يخلو عن

اعتراض ، وتجويز كون الضمير في ﴿ عَلَيْنَا ﴾ الخ للرؤساء أو القرناء يجري على غير هذا الاحتمال فتدبر .

وأياً ما كان فقولهم ﴿ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ هو قول ربهم عز وجل ووعيده سبحانه إياهم ، ولو حكى كما قيل لقيل إنكم لذائقون ولكنه عدل إلى لفظ المتكلم لأنهم متكلمون بذلك من أنفسهم .

ونحوه قول القائل

: لقد زعمت هوزان قل مالي . . .

وهل لي غير ما أنفقت مال

ولو حكى قولها لقال قل مالك ومنه قول المحلف للحالف احلف لأخرجن ولتخرجن الهمزة لحكاية لفظ الحالف والتاء لإقبال المحلف على المحلف .

وقال بعض الأجلة : قول الرب عز وجل هو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ ص : 85 ] والربط على ما تقدم أظهر .

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33)

﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ أي الفريقين المتسائلين ، والكلام تفريع على ما شرح من حالهم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ يتساءلون والمراد يوم القيامة ﴿ فِى العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية .

واستظهر أن المغوين أشد عذاباً وذلك في مقابلة أوزارهم وأوزار مثل أوزارهم فالشركة لا تقتضي المساواة.

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الفعل البديع الذي تقتضيه الحكمة التشريعية ﴿ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ أي بالمشركين

لقوله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ بطريق الدعوة والتلقين ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن القبول.

(246/651)

---

وفي إعراب هذه الكلمة الطيبة أقوال.

الأول: أن يكون الاسم الجليل مرفوعاً على البدلية من اسم لا باعتبار المحل الأصلي وهو الرفع على الابتداء بدل بعض من كل وإلا مغنية عن الربط بالضمير.

وإذا قلنا أن البدل في الاستثناء قسم على حدة مغاير لغيره من الإبدال اندفع عن هذا الوجه كثير من القيل والقال وهو الجاري على ألسنة المعربين والخبر عليه عند الأكثرين مقدر والمشهور تقديره موجود، والكلمة الطيبة في مقابلة المشركين وهم إنما يزعمون وجود آلهة

متعددة ولا يقولون بمجرد الإمكان .

على أن الوجود في هذا المقام يستلزم نفي الإمكان وكذا نفي الامكان عمن عدان عز وجل يستلزم ثبوت الوجود بالفعل له تعالى .

وجوز تقديره مستحق للعبادة ونفي استحقاقها يستلزم نفي التعدد لكن لا يتم هذا التقدير على تفسير الإله بالمستحق بالعبادة كما لا يخفى .

واختار البازلي تقدير الخبر مؤخراً عن إلا الله بناء على أن تقديره مقدماً يوهم كون الاسم مستثنى مفرغاً من ضمير الخبر وهو لا يجوز عند المحققين وأجازه بعض وهو القول الثاني ، والثالث ونسب إلى الكوفيين أن إلا عاطفة والاسم الجليل معطوف على الإله باعتبار المحل وهي عندهم بمنزلة لا العاطفة في أن ما بعدها يخالف ما قبلها إلا أن لا لنفي الإيجاب وإلا لإيجاب النفي ، والرابع أن الاسم الكريم هو الخبر ولا عمل لها فيه على رأي سيبويه من أن الخبر مرفوع بما كان مرفوعاً به قبل دخولها فلا يلزم عملها في المعارف على رأيه وهو لازم على رأي غيره ، وضعف هذا القول به وكذا بلزوم كون الخاص خبراً عن العام .

وكون الكلام مسوقاً لنفي العموم والتخصيص بواحد من أفراد ما دل عليه العام لا يجدي نفعاً ضرورة أن لا هذه عند الجمهور من نواسخ المبتدأ والخبر ، والخامس أن إلا بمعنى غير وهي مع اسمه عز اسمه صفة لاسم لا باعتبار المحل أي لا إله غير الله تعالى في الوجود ، ولا خلل فيه صناعة وإنما الخلل فيه كما قيل معنى لأن المقصود نفي الألوهية عن غيره تعالى وإثباتها له سبحانه وعلى الاستثناء يستفاد كل من المنطوق وعلى هذا لا يفيد المنطوق إلا نفي الألوهية من غيره تعالى دون إثباتها له عز وجل ، واعتبار المفهوم غير مجمع عليه لا سيما مفهوم اللقب فإنه لم يقل به إلا الدقاق وبعض الحنابلة ، والسادس ونسب إلى الزمخشري أن لا إله في موضع الخبر وإلا الله في موضع المبتدأ والأصل الله إله فلما أريد قصر الصفة على الموصوف قدم الخبر وقرن المبتدأ بإلا إذ المقصور عليه هو الذي يلي إلا والمقصور هو الواقع في سياق النفي والمبتدأ إذا قرن بإلا وجب تقديم الخبر عليه كما هو مقرر في موضعه ، وفيه تمحل مع أنه يلزم عليه أن يكون الخبر مبنياً مع لا وهي لا يبني معها إلا المبتدأ وأنه لو كان الأمر كما ذكر لم يكن لنصب الاسم الواقع بعد الأوجه وقد جوزه جماعة في هذا الترتيب وترك كلامهم لواحد إن التزمته لا تجد لك ثانياً فيه ، والسابع أن الاسم المعظم مرفوع بإله كما هو حال المبتدأ إذا كان وصفاً فإن إلهاً بمعنى مألوه من أله إذا عبد فيكون قائماً مقام الفاعل وساداً مسد الخبر كما في مضروب العمران .

وتعقب بمنع أن يكون إله وصفاً وإلا لوجب إعرابه وتنوينه ولا قائل به .

ثم إن هذه الكلمة الطيبة يندرج فيها معظم عقائد الايمان لكن المقصود الأهم منا التوحيد ولذا كان المشركون إذا لقنوها أو لا يستكبرون وينفرون .

﴿ وَيَقُولُونَ أَءِنَّا لَتَارِكُوا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴾ يعنون بذلك قاتلهم الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم .

(248/651)

---

وقد جمعوا بين إنكار الوحدانية وإنكار الرسالة .

ووصفهم الشاعر بالمجنون قيل تخليط وهذيان لأن الشعر يقتضي عقلاً تاماً به تنظم المعاني الغريبة وتصاغ في قوالب الألفاظ البديعة .

وفيه نظر وكم رأينا شعراء ناقصي العقول ومنهم من يزعم أنه لا يحسن شعره حتى يشرب المسكر فيسكر ثم يقول ، نعم كل من الوصفين هذيان في حقه صلى الله عليه وسلم .

﴿ بَلْ جَاء بالحق وَصَدَّقَ المرسلين ﴾ رد عليهم وتكذيب لهم ببيان إن ما جاء به عليه الصلاة والسلام من التوحيد هو الحق الثابت الذي قام عليه البرهان وأجمع عليه كافة المرسلين فأين الشعر والجنون من ساحته صلى الله عليه وسلم الرفيعة الشأن .

وقرأ عبد الله ﴿ وَصَدَقَ ﴾ بتخفيف الدال ﴿ المرسلون ﴾ بالواو رفعاً أي وصدق

المرسلون في التبشير به وفي أنه يأتي آخرهم .

إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (38)

﴿ إِنَّكُمْ ﴾ بما فعلتم من الإشراك وتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام والاستكبار

﴿ يَرَوُاْ العذاب الاليم ﴾ والالتفات لإظهار كمال الغضب عليهم بمشافهتهم بهذا الوعيد

وعدم الاكتراث بهم وهو اللائق بالمستكبرين .

وقرأ أبو السماء .

وأبان رواية عن عاصم ﴿ يَرَوْنَ العذاب ﴾ بالنصب على أن حذف النون للتخفيف كما

حذف التنوين لذلك في قول أبي الأسود

: فالفيته غير مستعتب . . .

ولا ذاكر الله إلا قليلا

بجر ذاكر بلا تنوين ونصب الاسم الجليل .

وهذا الحذف قليل في غير ما كان صلة لأل .

أما فيما كان صلة لها فكثير الورود لاستطالة الصلة الداعية للتخفيف نحو قوله

: الحافظو عورة العشيرة لا . . .

يأتيهم من ورائهم نطف

ونقل ابن عطية عن أبي السمال أنه قرأ ﴿ لذائق ﴾ بالأفراد والتنوين ﴿ يَرَوْنَ العذاب ﴾

بالنصب ، وخرج الأفراد على أن التقدير لجمع ذائق ، وقيل : على تقدير إن جمعكم لذائق .

وقرىء ﴿ لَذَائِقُونَ ﴾ بالنون ﴿ العذاب ﴾ بالنصب على الأصل .

﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

أي الأجزاء ما كنتم تعملونه من السيآت أو إلا بما كنتم تعملونه منها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(249/651)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (27) ﴾

عطف على ﴿ مستسلمون ﴾ [ الصافات : 26 ] أي استسلموا وعاد بعضهم على بعض باللائمة والمتسائلون : المتقاولون وهم زعماء أهل الشرك ودهماؤهم كما تبينه حكاية تحاورهم من قوله : ﴿ وما كان لنا عليكم من سُلطانٍ ﴾ وقوله : ﴿ فأغْوَيْناكُم ﴾ الخ .

وعبر عن إقبالهم بصيغة المضي وهو مما سيقع في القيامة ، تنبيهاً على تحقيق وقوعه لأن لذلك مزيد تأثير في تحذير زعمائهم من التغرير بهم ، وتحذيرِ دهمائهم من الاغترار بتغريرهم ،

مع أن قرينة الاستقبال ظاهرة من السياق من قوله : ﴿ فإذا هم يَنظُرُون ﴾ [ الصافات : 19 ] الآية .

والإقبال : المجيء من جهة قُبُل الشيء ، أي من جهة وجهه وهو مجيء المتجاهر بمجيئه غير المتختّل الخائف .

واستعير هنا للقصد بالكلام والاهتمام به كأنه جاءه من مكان آخر .

فحاصل المعنى حكاية عتاب ولوم توجه به الذين اتبعوا على قادتهم وزعمائهم ، ودلالةُ التركيب عليه أن يكون الإتيان أطلق على الدعاية والخطابة فيهم لأن الإتيان يتضمن القصد دون إرادة مجيء ، كقول النابغة:

آتاك امرؤ مسْتبطن لي بغضَة . . .

وقد تقدم استعماله واستعمال مرادفه وهو المجيء معاً في قوله تعالى : ﴿ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيْناك بالحَقّ ﴾ الآية في سورة [ الحجر : 63 - 64 ] .

أو أن يكون اليمين مراداً به جهة الخير لأن العرب تضيف الخير إلى جهة اليمين .

وقد اشتقت من اليُمن وهو البركة ، وهي مؤذنة بالفوز بالمطلوب عندهم .

وعلى ذلك جرت عقائدهم في زجر الطير والوحش من التيمّن بالسانح ، وهو الوارد من جهة يمين السائر ، والتشاؤم ، أي ترقب ورود الشر من جهة الشِمال .

وكان حقّ فعل ﴿ تأْتُوننا ﴾ أن يعدّى إلى جهة اليمين بحرف "مِن" فلما عُدّي بحرف ﴿ عن ﴾ الذي هو للمجاوزة تعين تضمين ﴿ تأْتُونَنا ﴾ معنى "تصدوننا" ليُلائم معنى المجاوزة، أي تأتوننا صادِّيننا عن اليمين، أي عن الخير.

فهذا وجه تفسير الآية الذي اعتمده ابن عطية والزمخشري وقد اضطرب كثير في تفسيرها.

قال ابن عطية ما خلاصته: اضطرب المتأولون في معنى قولهم: ﴿ عَنِ اليمين ﴾ فعبر عنه ابن زيد وغيره بطريق الجنة ونحو هذا من العبارات التي هي تفسير بالمعنى ولا تختص بنفس اللفظة، وبعضهم أيضاً نحا في تفسيره إلى ما يخص اللفظة فتحصل من ذلك معان منها: أن يريد باليمين القوة والشدة (قلتُ وهو عن ابن عباس والفرّاء) فكأنهم قالوا إنكم كنتم تغْزوننا بقوة منكم، ومن المعاني التي تحتملها الآية أن يريدوا: تأتوننا من الجهة التي يحسنها تمويهكم وإغواؤكم وتُظهرون فيها أنها جهة الرشد (وهو عن الزجاج والجبّائي) ومما تحتمله الآية أن يريدوا: إنكم كنتم تأتوننا، أي تقطعون بنا عن أخبار الخير واليُمْن، فعبروا عنها باليمين، ومن المعاني أن يريدوا: أنكم تجيئُون من جهة الشهوات وعدم النظر لأن جهة يمين الإنسان فيها كبده وجهة شماله فيها قلبه وأن نظر الإنسان في قلبه وقيل: تحلفون لنا ا.

وجواب الزعماء بقولهم : ﴿ بَل لَمْ تَكُونوا مؤمِنينَ ﴾ إضراب إبطال لزعم الأتباع أنهم الذين صدّوهم عن طريق الخير أي بل هم لم يكونوا ممن يقبل الإيمان لأن تسليط النفي على فعل الكون دون أن يقال : بل لم تؤمنوا ، مشعر بأن الإيمان لم يكن من شأنهم ، أي بل كنتم أنتم الآبين قبول الإيمان .

*(251/651)*

---

و ﴿ ما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ أي من قهر وغلبة حتى نُكرهكم على رفض الإيمان ، ولذلك أكدوا هذا المعنى بقولهم : ﴿ بل كنتم قوماً طاغِينَ ﴾ ، أي كان الطغيان وهو التكبر عن قبول دعوة رجل منكم شأنكم وسجيتكم ، فلذلك أقحموا لفظ ﴿ قوماً ﴾ بين "كان" وخبرها لأن استحضارهم بعنوان القومية في الطغيان يؤذن بأن الطغيان من مقومات قوميتهم كما قدمنا عند قوله تعالى : ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة [ البقرة : 164 ] .

وفرّعوا على كلامهم اعترافهم بأنهم جميعاً استحقُّوا العذاب فقولهم : ﴿ فحَقّ علينا قولُ ربنا إنَّا لذائِقُونَ ﴾ ، تفريعَ الاعتراض ، أي كان أمر ربنا بإذاقتنا عذاب جهنم حقّاً .

وفعل "حقّ" بمعنى ثبت .

وجملة ﴿ إنّا لذائقون ﴾ بيان ل ﴿ قَوْلُ رَبِّنا .

﴾ وحكي القول بالمعنى على طريقة الالتفات ولولا الالتفات لقال : إنكم لذائقون أو إنهم لَذَاَئِقُونَ .

ونكتة الالتفات زيادة التنصيص على المعنيّ بذوق العذاب .

وحذف مفعول "ذائقون" لدلالة المقام عليه وهو الأمر بقوله تعالى : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ [ الصافات : 23 ] .

وفرعوا على مضمون ردهم عليهم من قولهم : ﴿ بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ إلى ﴿ قوماً طاغِينَ ﴾ قولهم : ﴿ فأغْوَيْناكُمْ ﴾ ، أي ما أكرهناكم على الشرك ولكنّا وجدناكم متمسكين به وراغبين فيه فأغويناكم ، أي فأيدناكم في غوايتكم لأنّا كنّا غاوين فسوّلنا لكم ما اخترناه لأنفسنا فموقع جملة ﴿ إنّا كُنّا غاوِينَ ﴾ موقع العلة .

و"إن" مغنية غناء لام التعليل وفاء التفريع كما ذكرناه غير مرة .



---

وزيادة ﴿ كنّا ﴾ للدلالة على تمكين الغواية من نفوسهم ، وقد استبان لهم أن ما كانوا عليه غواية فأقرّوا بها ، وقد قدمنا عند قوله تعالى في سورة [ المؤمنين : 101 ] : ﴿ فإذا نفخ

في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون ﴾ أن تساؤلهم المنفي هنالك هو طلب بعضهم مِن بعض النجدة والنصرة وأن تساؤلهم هنا تساؤل عن أسباب ورطتهم فلا تعارض بين الآيتين .

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33)

هذا الكلام من الله تعالى موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ويشبه أن يكون اعتراضاً بين حكاية حِوار الله أهل الشرك في القيامة وبين توبيخ الله إياهم بقوله : ﴿ إنَّكم لذائِقُوا العذَابِ الأليمِ ﴾ [ الصافات : 38 ] .

والفاء للفصيحة لأنها وردت بعد تقرير أحوال وكان ما بعد الفاء نتيجة لتلك الأحوال فكانت الفاء مفصحة عن شرط مقدّر ، أي إذا كان حالهم كما سمعتم فإنهم يوم القيامة في العذاب مشتركون لاشتراكهم في الشرك وتمالئهم ، أي لا عذر للكلام للفريقين لا للزعماء بتسويلهم ولا للدهماء بنصرهم .

وقد يكون عذاب الدعاة المغوين أشدّ من عذاب الآخرين وذلك لا ينافي الاشتراك في جنس العذاب كما دلت عليه أدلة أخرى ، لأن المقصود هنا بيان عدم إجداء معذرة كلا الفريقين وتنصّله .

وهذه الجملة معترضة بين جمل حكاية موقفهم في الحساب .

وجملة ﴿ إنَّا كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ تعليل لما اقتضته جملة ﴿ فإنَّهم يومئذٍ في العذاب

مشتركون ﴾ أي فإن جزاء المجرمين يكون مثل ذلك الجزاء في مؤاخذة التابع المتبوع.

والمراد بالمجرمين: المشركون، أي المجرمين مثلَ جرمهم، وقد بينته جملة ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ [الصافات: 35].

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35)

(253/651)

---

استئناف بياني أفاد تعليل جزائهم وبيان إجرامهم بذكر ما كانوا عليه من التكبر عن الاعتراف بالوحدانية لله ومن وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بما هو منزه عنه وصفاً يرمون به إلى تكذيبه فيما جاء به.

فحرف (إنّ) هنا ليس للتأكيد لأن كونهم كذلك مما لا منازع فيه وإنما هو للاهتمام بالخبر فلذلك تفيد التعليل والربط وتغني غناء فاء التفريع.

وذكر فعل الكون ليدل على أن ما تضمنه الخبر وصف متمكن منهم فهو غير منقطع ولا هُم حائدون عنه.

ومعنى ﴿ قيل لهم لا إله إلا الله ﴾ أنه يقال لهم على سبيل الدعوة والتعليم.

وفاعل القول المبنيّ فعله للنائب هو النبي صلى الله عليه وسلم فحذف للعلم به.

والاستكبار : شدة الكبر ، فالسين والتاء للمبالغة ، أي يتعاظمون عن أن يقبلوا ذلك من رجل مثلهم ، ولك أن تجعل السين والتاء للطلب ، أي إظهار التكبر ، أي يبدو عليهم التكبر والاشمئزاز من هذا القول .

ويقارن استكبارهم أن يقول بعضهم لبعض : لا نترك آلهتنا لشاعر مجنون ، وأتوا بالنفي على وجه الاستفهام الإنكاري إظهاراً لكون ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم أمر منكر لا يُطمع في قبولهم إياه ، تحذيراً لمن يسمع مقالتهم من أن يجول في خاطره تأمل في قول الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ لا إله إلا الله ﴾ .

وقوّوا هذا التحذيرَ بجعل حرف الإنكار مسلّطاً على الجملة المؤكَّدة بحرف التوكيد للدلالة على أنهم إذا أتوا ما أنكروه كانوا قد تحقَّق تركُهم آلهتهم تنزيلاً لبعض المخاطبين منزلة من يشك في أن الإيمان بتوحيد الإله يفضي إلى ترك آلهتهم ليسدّوا على المخاطبين منافذ التردد أن يتطرق منها إلى خواطرهم .

واللام في ﴿ لِشَاعِرٍ ﴾ لام العلة والأجْل ، أي لأجْل شاعر ، أي لأجْل دعوته .

وقولهم : "شاعر مجنون" قول موزع ، أي يقول بعضهم : هو شاعر ، وبعضهم : هو مجنون ، أو يقولون مرة : شاعر ، ومرة : مجنون ، كما في الآية الأخرى ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ [ الذاريات : 52 ] .

بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37)

اعتراض في آخر الاعتراض قُصدت منه المبادرة بتنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عما قالوه .

و﴿ بل ﴾ إضراب إبطال لقولهم : ﴿ لِشاعر مجنون ﴾ [ الصافات : 36 ] وبإثبات صفته الحقِّ لبيان حقيقة ما جاء به .

وفي وصف ما جاء به أنه الحق ما يكفي لنفي أن يكون شاعراً ومجنوناً ، فإن المشركين ما أرادوا بوصفه بشاعر أو مجنون إلا التنفير من اتِّباعه فمثلوه بالشاعر من قبيلة يهجو أعداء قبيلته ، أو بالمجنون يقول ما لا يقوله عقلاء قومه ، فكان قوله تعالى : ﴿ بل جاءَ بالحقِ ﴾ مثبتاً لكون الرسول على غير ما وصفوه إثباتاً بالبينة .

وأتبع ذلك بتذكيرهم بأنه ما جاء إلا بمثل ما جاءت به الرسل من قَبله ، فكان الإنصاف أن يلحقوه بالفريق الذي شابههم دون فريق الشعراء أو المجانين .

وتصديق المرسلين يجمع ما جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إجمالاً وتفصيلاً ، لأن ما جاء به لا يعدو أن يكون تقريراً لما جاءت به الشرائع السالفة فهو تصديق له ومصادقة

عليه، أو أن يكون نسخاً لما جاءت به بعض الشرائع السالفة، والإنباءُ بنسخه وانتهاءِ العمل به تصديق للرسل الذين جاءوا به في حين مجيئهم به، فكل هذا مما شمله معنى التصديق، وأول ذلك هو إثبات الوحدانية بالربوبية لله تعالى.

فالمعنى: أن ما دعاكم إليه من التوحيد قد دعت إليه الرسل من قبله، وهذا احتجاج بالنقل عقب الاحتجاج بأدلة النظر.

إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (38) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39)

(255/651)

---

هذا من كلام الله يومَ القيامة الموجّه إلى المشركين عقب تساؤلهم وتحاورهم فيكون ما بين هذا وبين محاورتهم المنتهية بقولهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ ﴾ [الصافات: 32] اعتراضاً، أي فلما انتهوا من تحاورهم خوطبوا بما يقطع طمعهم في قبول تنصل كِلا الفريقين من تبعات الفريق الآخَر ليزدادوا تحققاً من العذاب الذي عَلموه من قولهم: ﴿ فحق علينا قول ربنا إنَّا لذائقون ﴾ [الصافات: 31]، وهذا ما تقتضيه دلالة اسم الفاعل في قوله: ﴿ لذائِقُوا العَذَابِ ﴾ لأن اسم الفاعل حقيقة في الحال، أي حال التلبس، فإنه لما قيل لهم هذا كانوا مشرفين على الوقوع في العذاب وذلك زمن حَالٍ في العرف العربي.

ولما وصف عذابهم بأنه أليم عُطف عليه إخبارهم بأن ذلك المقدار لا حيف عليهم فيه لأنه على وفاق أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا من آثار الشرك ، والحَظُّ الأكبر من ذلك الجزاءِ هو حظ الشرك ولكن كني عن الشرك بأعماله وأما هو فهو أمر اعتقادي .

وفي هذا دليل على أن الكفار مجازَوْن على أعمالهم السيئة من الأقوال والأعمال كتمجيد آلهتهم والدعاءِ لها ، وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وأذاه وأذى المؤمنين ، وقولِهم في أصنامهم إنهم شفعاء عند الله ، وفي الملائكة إنهم بنات الله ، ومن قتل الأنفس والغارة على الأموال ووأد البنات والزنا فإن ذلك كله مما يزيدهم عذاباً ، وهو يؤيد قول الذين ذهبوا إلى أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة وأن ذلك واقع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

*(256/651)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34) ﴾

يشتركون في العذاب ولكن تتفاوت أنصباؤهم ، كما أنهم يشتركون في الزّلة ولكن تختلف

مقادير زلاتهم .

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35)

احتجابهم بقلوبهم أوقعهم في وهدة عذابهم ؛ ذلك لأنهم استكبروا عن الإقرار بربوبيته .

ولو عرفوه لافتخروا بعبوديته ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ [ الأعراف : 206 ] ، وقال : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [ النساء : 173 ] فإنّ مَنْ عرف اللَّه فلا لذة له إلا في طاعته ، قال قائلهم :

ويظهر في الهوى عزُّ الموالي . . . فيلزمني له ذلُّ العبيد

وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (36)

لمَّا لم يحتشموا من وصفه – سبحانه – بما لا يليق بجلاله لم يُبالوا بما أطلقوه من المثالب في وصف أنبيائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 231. 232 ﴾

(257/651)

---

قوله تعالى ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (42) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (44) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ

مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (47) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان في المخاطبين بهذا من علم الله أنه سيؤمن ، واستثنى من واو " ذائقوا " قوله مرغباً لهم في الإيمان مشيراً إلى أنهم لا يحملهم على الثبات على ما هم عليه من الضلال إلا غش الضمائر بالرياء وغيره ، فهو استثناء متصل بهذا الاعتبار الدقيق : ﴿ إلا عباد الله ﴾ فرغبهم بوصف العبودية الذي لا أعز منه ، وأضافهم زيادة في الاستعطاف إلى الاسم الأعظم الدال على جميع صفات الكمال ، وزاد رغباً بالوصف الذي لا وصف أجلّ منه فقال : ﴿ المخلصين ﴾ .

ولما خلصهم منهم ، ذكر ما لهم فقال معظماً لهم بأداة البعد : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو القدر بما صفوا أنفسهم عن أكدار الأهوية ﴿ لهم رزق معلوم ﴾ أي يعلمون غائبه وكائنه وآتيه وطعمه ونفعه وقدره وغبّه وجميع ما يمكن علمه من أموره ، وليسوا مثل ما هم عليه في هذه الدار من كدر الأخطار ﴿ لا تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ لأن النفس إلى المعلوم أسكن ، وبالأنس إليه أمكن .

ولما كان أهل الجنة لا يأكلون تقوتاً واحتياجاً ، بل تنعماً والتذاذاً وابتهاجاً ، لأن أجسامهم

محكمة مخلوقة للأبد ، فهي غير محتاجة إلى حفظ الصحة قال : ﴿ فواكه ﴾ أي يتنعمون بها بما كدروا من عيشهم في الدنيا .

ولما كان الذي هو نعيم الجسم لا يحمد غاية الحمد إلا مع العز الذي هو غذاء الروح قال : ﴿ وهم مكرمون ﴾ بناه للمفعول إشارة إلى أن وجود إكرامهم من كل شيء أمر حتم لا يكون غيره أصلاً .

ولما كان الإكرام لا يتم إلا مع طيب المقام قال : ﴿ في جنات النعيم ﴾ أي التي لا يتصور فيها غيره .

ولما كان التلذذ لا يكمل إلا مع الأحباب ، وكانت عادة الملوك الاختصاص بالمحل الأعلى ، بين أنهم كلهم ملوك فقال : ﴿ على سرر متقابلين ﴾ أي ليس فيهم أحد وجهه إلى غير وجه الآخر على كثرة العدد .



---

ولما كان ذلك لا يكمل إلا بالشراب ، وكان المقصود الطواف فيه ، لا كونه من معين ، قال : ﴿ يطاف ﴾ بالبناء للمفعول وكأنها يدلى إليهم من جهة العلو ليكون أشرف لها وأصون ، فنبه على ذلك بأداة الاستعلاء فقال : ﴿ عليهم ﴾ أي وهم فوق أسرتهم كالملوك

﴿ بكأس ﴾ أي إناء فيه خمر، قالوا: وإن لم يكن في الزجاجة خمر فهي قدح، ولا تسمى كأساً إلا والخمر فيها ﴿ من معين ﴾ أي من خمر جارية في أنهارها، ظاهرة للعيون تنبع كما تنبع الماء لا يعالجونها بعصير، ولا يحملهم على الرفق بها والتقصير فيها نوع تقصير، قال الرازي: إنما سميت به إما من ظهورها للعين أو لشدة جريها من الإمعان في السير أو لكثرتها من المعن، وهو الكثير، وسمي الماعون لكثرة الانتفاع به، ويقال: مشرب ممعون: لا يكاد ينقطع.

ولما كان أول ما يختار في الشراب لونه ثم طعمه، قال واصفاً ما في الكأس من الخمر استخداماً: ﴿ بيضاء ﴾ أي مشرقة صافية هي في غاية اللطافة تتلألأ نوراً، وأعرق في وصفها بالطيب بجعلها تفسيراً للمعنى في قوله: ﴿ لذة للشاربين ﴾ بما كانوا يتجرعون من كأسات الأحزان والأنكاد، وأظهر موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف، وجمع إشارة إلى أنهم لا يعلونها إلا كذلك بما فيه من مزيد اللذة.



---

ولما كان قد أثبت لها الكمال، نفى عنها النقص فقال: ﴿ لا فيها غول ﴾ أي فساد من تصديع رأس أو إرخاء مفصل أو إخماء كبد أو غير ذلك مما يغتال أي يهلك، أو يكون سبباً

للهلاك ﴿ ولا هم عنها ﴾ أي عادة بعد شربها ﴿ ينزفون ﴾ أي يذهب شيء من عقولهم وإن طال شربهم وكثر لئلا ينقص نعيمهم ولا ينفذ شرابهم أو ما عندهم من الجدة لكل ما يسر به - على قراءة حمزة والكسائي بكسر الزاي من أنزف - مبنياً للفاعل مثل أقل وأعسر - إذا صار قليل المال ، أو ذهب عقله ، وقراءة الجماعة بالبناء للمفعول يحتمل أن تكون من نزف ، وحينئذ يحتمل أن تكون من نفاذ الشراب من قولهم : نزفت الركية ، اي ذهب ماؤها ، وأن تكون من ذهاب العقل من قولهم : نزف الرجل بالبناء للفاعل ونزف بالبناء للمفعول بمعنى : ذهب عقله بالسكر ويحتمل أن تكون من أنزف وحينئذ يحتمل أن تكون من ذهاب العقل من أنزف الرجل - إذا ذهب عقله بالسكر ، وأن تكون من عدم الشراب من قولهم : نزف الرجل الخمرة - سواء كان مبنياً للفاعل أو للمفعول - إذا أفناها .

ولما كان ذلك كله لا يكمل إلا بالجماع ، والخمر أدعى شيء إليه ، وهو لا يكمل النعيم به إلا بالاختصاص قال : ﴿ وعندهم ﴾ نساء من أهل الدنيا وغيرها ﴿ قاصرات الطرف ﴾ أي لا تطرف واحدة منهن إلى غير زوجها ولا يدعه تناهي حسنها وفرط جمالها طرفها يطرف إلى غيرها ﴿ عين ﴾ أي نجل العيون ، جمع عيناء ، كسرت عينه لمناسبة الياء .

ولما كان أحسن الألوان لا سيما عند العرب الأبيض الأحمر المشرب صفرة أكسبته صفاء وإشراقاً وبهاء ، قال : ﴿ كأنهن بيض ﴾ أي بيض نعام ﴿ مكنون ﴾ أي مصون من دنس يلحقه ، وغبار يرهقه ، ولمحبة العرب لهذا اللون كانت تقول عن النساء بيضات الخدور لأنه

لونه أبيض مشرباً صفرة صافية ، وقد صرح امرؤ القيس بهذا في لاميته المشهورة فقال :

كبكر مقاناة البياض بصفرة . . .

غذاها نمير الماء غير المحلل

أي مخالطة البياض المائل إلى الحمرة بصفرة ، وهو أصفى الألوان واعدلها ، يشا به لون نور القمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 309 . 311 ﴾

*(260/651)*

---

فصل

قال الفخر :

ثم قال : ﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ يعني ولكن عباد الله ( المخلصين ناجون وهو ) من الاستثناء المنقطع .

أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41)

اعلم أنه تعالى لما وصف أحوال المتكبرين عن قبول التوحيد المصرين على إنكار النبوة أردفه بذكر حال المخلصين في كيفية الثواب ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكرنا في فتح اللام وكسرها من المخصلين قراءتين فالفتح أن الله تعالى أخلصهم بلطفه واصطفاهم بفضله والكسر هو أنهم أخلصوا الطاعة لله تعالى .

المسألة الثانية :

*(261/651)*

---

اعلم أنه تعالى وصف رزقهم بكونه معلوماً ، ولم يبين أن أي الصفات منه هو المعلوم فلذلك اختلفت الأقوال ، فقيل معناه إن ذلك الرزق معلوم الوقت وهو مقدار غدوة وعشية وإن لم يكن ثمة لا بكرة ولا عشية ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [ مريم : 62 ] ، وقيل معناه أن ذلك الرزق معلوم الصفة لكونه مخصوصاً بخصائص خلقها الله فيه من طيب طعم ورائحة ولذة حسن منظر ، وقيل معناه أنهم يتيقنون دوامه لا كرزق الدنيا الذي لا يعلم متى يحصل ولا متى ينقطع ، وقيل معناه : القدر الذي يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله وكرامته عليهم ، وقد بين الله تعالى أنه يعطيهم غير ذلك على سبيل التفضل ، ثم لما ذكر تعالى أن لهم رزقاً بين أن ذلك الرزق ما هو فقال : ﴿ فواكه ﴾ وفيه قولان الأول : أن الفاكهة عبارة عما يؤكل لأجل التلذذ لا لأجل الحاجة ، وأرزاق أهل الجنة كلها فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات فإنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد ، فكل ما يأكلونه

فهو على سبيل التلذذ والثاني : أن المقصود من ذكر الفاكهة التنبيه بالأدنى على الأعلى ، يعني لما كانت الفاكهة حاضرة أبداً كان الأدام أولى بالحضور ، والقول الأول أقرب إلى التحقيق ، واعلم أنه تعالى لما ذكر الأكل بين أن ذلك الأكل حاصل مع الإكرام والتعظيم فقال : ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ لأن الأكل الخالي عن التعظيم يليق بالبهائم .

(262/651)

---

ولما ذكر تعالى مأكولهم وصف تعالى مساكنهم فقال : ﴿ فِي جنات النعيم * على سُرُرٍ متقابلين ﴾ ومعناه أنه لا كلفة عليهم في التلاقي للأنس والتخاطب ، وفي بعض الأخبار أنهم إذا أرادوا القرب سار السرير تحتهم ، ولا يجوز أن يكونوا متقابلين إلا مع حصول الخواطر والسرائر ولن يكونوا كذلك إلا مع الفسحة والسعة ، ولا يجوز أن يسمع بعضهم خطاب بعض ويراه على بعد إلا بأن يقوي الله أبصارهم وأسماعهم وأصواتهم ، ولما شرح الله صفة المأكل والمسكن ذكر بعده صفة الشراب فقال : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مّن مَّعِينٍ ﴾ يقال للزجاجة التي فيها الخمر كأس وتسمى الخمرة نفسها كأساً قال :

وكأس شربت على لذة . . [ وأخرى تداويت منها بها ]

وعن الأخفش : كل كأس في القرآن فهي الخمر ، وقوله : ﴿ مّن مَّعِينٍ ﴾ أي من شراب معين

، أو من نهر معين ، المعين مأخوذ من عين الماء أي يخرج من العيون كما يخرج الماء وسمي معيناً لظهوره يقال عان الماء إذا ظهر جارياً ، قاله ثعلب فهو مفعول من العين نحو مبيع ومكيل ، وقيل سمي معيناً لأنه يجري ظاهر العين ، ويجوز أن يكون فعيلاً من المعين وهو الماء الشديد الجري ومنه أمعن في المسير إذا اشتد فيه ، وقوله : ﴿ بَيْضَاء ﴾ صفة للخمر ، قال الأخفش ، خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ، وقوله : ﴿ لَذَّةٍ ﴾ فيه وجوه أحدها : أنها وصفت باللذة كأنها نفس اللذة وعينها كما يقال فلان جود وكرم إذا أرادوا المبالغة في وصفه بهاتين الصفتين وثانيها : قال الزجاج أي ذات لذة فعلى هذا حذف المضاف وثالثها : قال الليث : اللذ واللذيذ يجريان مجرى واحداً في النعت ويقال شراب لذ ولذيذ قال تعالى : ﴿ بَيْضَاء لَذَّةٍ للشاربين ﴾ وقال تعالى :

﴿ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ للشاربين ﴾ [ محمد : 15 ] ولذلك سمي النوم لذاً لاستلذاذه ، وعلى هذا لذة بمعنى لذيذة ، والأقرب من هذه الوجوه الأول .

ثم قال تعالى : ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ وفيه أبحاث :

البحث الأول : قال الفراء العرب تقول ليس فيها غيلة وغائلة وغول سواء ، وقال أبو عبيدة الغول أن يغتال عقولهم ، وأنشد قول مطيع بن إياس :

وما زالت الكأس تغتالهم . . وتذهب بالأول الأول

وقال الليث : الغول الصداع والمعنى ليس فيها صداع كما في خمر الدنيا ، قال الواحدي رحمه الله وحقيقته الإهلاك ، يقال غاله غولاً أي أهلكه ، والغول والغائل المهلك ، ثم سمي الصداع غولاً لأنه يؤدي إلى الهلاك .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ وقرىء بكسر الزاي قال الفراء من كسر الزاي فله معنيان يقال أنزف الرجل إذا نفدت خمرته ، وأنزف إذا ذهب عقله من السكر ومن فتح الزاي فمعناه لا يذهب عقولهم أي لا يسكرون يقال نزف الرجل فهو منزوف ونزيف ، والمعنى ليس فيها قط نوع من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من صداع أو خمار أو عربدة ولا هم يسكرون أيضاً ، وخصه بالذكر لأنه أعظم المفاسد في شرب الخمر ، ولما ذكر الله تعالى صفة مشروبهم ذكر عقيبه صفة منكوحهم من ثلاثة أوجه الأول : قوله : ﴿ وَعِندَهُمْ قاصرات الطرف ﴾ ومعنى القصر في اللغة الحبس ومنه قوله تعالى : ﴿ حُورٌ مقصورات فِى الخيام ﴾ [ الرحمن : 72 ] والمعنى أنهن يحبسن نظرهن ولا ينظرن إلى غير أزواجهن .

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ عِينٌ ﴾ قال الزجاج : كبار الأعين حسانها واحدها

عيناء .

الصفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ المكنون في اللغة المستور يقال كننت الشيء وأكننته ، ومعنى هذا التشبيه أن ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة ، فإذا كان مكنوناً كان مصوناً عن الغبرة والقترة ، فكان هذا اللون في غاية الحسن والعرب كانوا يسمون النساء بيضات الخدور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 119 . 120 ﴾

*(264/651)*

---

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ وأزواجهم ﴾

معناه وأنواعهم وضرباؤهم ، قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن عباس وقتادة ومنه قوله تعالى : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ [ الواقعة : 7 ] ، وقوله تعالى : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ [ التكوير : 7 ] أي نوعت ، وروي أنه يضم عند هذا الأمر كل شكل وصاحبه من الكفرة إلى شكله وصاحبه ومعهم ﴿ ما كانوا يعبدون من دون الله ﴾ من آدمي رضي بذلك ومن صنم ووثن توبيخاً لهم وإظهاراً لسوء حالهم ، وقال الحسن :

المعنى وأزواجهم المشركات من النساء وروي ذلك عن ابن عباس ورجحه الرماني ، وقوله تعالى ﴿ فاهدوهم ﴾ . معناه قوموهم واجعلوهم على طريق الجحيم ، و ﴿ الجحيم ﴾ طبقة من طبقات جهنم يقال إنها الرابعة ، ثم يأمر تعالى بوقفهم ، و" وقف " يتعدى بنفسه تقول وقفت ووقفت زيداً ، وأمره بذلك على جهة التوبيخ لهم والسؤال واختلف الناس في الشيء الذي يسألون عنه فروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : يسألون هل يحبون شرب الماء البارد ، وهذا على طريق الهزء بهم ، وقال ابن عباس : يُسألون عن لا إله إلا الله ، وقال جمهور المفسرين : يُسألون عن أعمالهم ويوقفون على قبحها .

(265/651)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول متجه عام في الهزء وغيره وروى أنس بن مالك عن النبي عليه السلام أنه قال " إيما رجل دعا رجلاً إلى شيء كان لازماً له " ، وقرأ ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ ، وروى ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " لا تزول قدما عبد من بين يدي الله تعالى حتى يسأله عن خمس ، عن شبابه فيما أبلاه ، وعن عمره فيما أفناه ، وعن ماله فيما أنفقه ، وكيف كسبه ، وعما عمل فيما علم " ، ويحتمل عندي أن

يكون المعنى على نحو ما فسره بقوله ﴿ ما لكم لا تناصرون ﴾ أي أنكم مسؤولون عن امتناعهم عن التناصر ، وهذا على جهة التوبيخ في هذا الفصل خاصة أعني الامتناع من التناصر ، وقرأ " تناصرون " بتاء واحدة خفيفة ، شيبة ونافع ، وقرأ خلق " لا تتناصرون " ، وكذلك في حرف عبد الله ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع " لا تناصرون " بإدغام التاء من قراءة عبد الله بن مسعود وقال الثعلبي قوله : ﴿ ما لكم لا تناصرون ﴾ جواب أبي جهل حين قال في بدر نحن جميع منتصر ، ثم أخبر تعالى عن أنهم في ذلك اليوم في حلة الاستسلام والإلقاء باليد .

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (27)

*(266/651)*

---

هذه الجماعة التي يقبل بعضها على بعض هي إنس وجن ، قاله قتادة ، وتساؤلهم هو على معنى التقريع واللوم والتسخط ، والقائلون ﴿ إنكم كنتم تأتونا عن اليمين ﴾ إما أن يكون الإنس يقولونها للشياطين وهذا قول مجاهد وابن زيد ، وإما أن يكون ضعفة الإنس يقولونها للكبراء والقادة ، واضطرب المتأولون في معنى قولهم ﴿ عن اليمين ﴾ وعبر ابن زيد وغيره عنه بطريقة الجنة والخير ونحو هذا من العبارات التي هي تفسير بالمعنى لا تختص

باللفظة وبعضهم أيضاً نحا في تفسير الآية إلى ما يخصها ، والذي يتحصل من ذلك معان منها أن يريد ب ﴿ اليمين ﴾ القوة والشدة فكأنهم قالوا إنكم كنتم تغووننا بقوة منكم وتحملوننا على طريق الضلالة بمتابعة منكم في شدة فعبر عن هذا المعنى ب ﴿ اليمين ﴾ كما قالت العرب " بيدين ما أورد " ، وكما قالوا " اليد " في غير موضع عن القوة ، وقد ذهب بعض الناس ببيت الشماخ هذا المذهب وهو قوله : ﴿ الوافر ]

إذا ما راية رفعت لمجد . . . تلقاها عرابة باليمين

فقالوا معناه بقوة وعزمة ، وإلا فكل أحد كان يتلقاها بيمينه ، لو كانت الجارحة ، وأيضاً فإنما استعار الراية للمجد فكذلك لم يرد باليمين الجارحة ، ومن المعاني التي تحتملها الآية أن يريدوا ﴿ إنكم كنتم تأتوننا ﴾ من الجهة التي يحسنها تمويهكم وإغواؤكم ويظهر فيها أنها جهة الرشد والصواب ، فتصير عندنا كاليمين التي بيمين السانح الذي يجيء من قبلها .

(267/651)

---

قال القاضي أبو محمد : فكأنهم شبهوا أقوال هؤلاء المغوين بالسوانح التي هي عندهم محمودة ، كأن التمويه في هذه الغوايات قد أظهر فيها ما يوشك أن يحمد به ، ومن المعاني التي تحتملها الآية أن يريدوا إنكم كنتم تأتوننا أي تقطعون بنا عن أخبار الخير واليمن معبر عنها

ب ﴿ اليمين ﴾ ، إذ اليمين هي الجهة التي يتيمن بكل ما كان منها وفيها ، ومن المعاني التي تحتملها الآية أن يريدوا أنكم كنتم تجيئون من جهة الشهوات وعدم النظر ، والجهة الثقيلة من الإنسان وهي جهة اليمين منه لأن كبده فيها ، وجهة شماله فيها قلبه وهي أخف ، وهذا معنى قول الشاعر : " تركنا لهم شق الشمال " ، أي زلنا لهم عن طريق الهروب ، لأن المنهزم إنما يرجع على شقه الأيسر إذ هو أخف شقيه ، وإذا قلب الإنسان في شماله وثم نظره فكأنه هؤلاء كانوا يأتون من جهة الشهوات والثقل .

قال القاضي أبو محمد : وأكثر ما يتمكن هذا التأويل مع إغواء الشياطين وهو قلق مع إغواء بني آدم ، وقيل المعنى تحلفون لنا وتأتوننا إتيان من إذا حلف صدقناه .

قال القاضي أبو محمد : فاليمين على هذا القسم ، وقد ذهب بعض الناس في ذكر إبليس جهات بني آدم في قوله



---

﴿ من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ [ الأعراف : 17 ] إلى ما ذكرناه من جهة الشهوات فقال ما بين يديه هي مغالطته فيما يراه ، وما خلفه هو ما يسارق فيه الخفاء ، وعن يمينه هو جانب شهواته ، وعن شماله هو موضع نظره بقلبه وتحرزه فقد

يغلبه الشيطان فيه ، وهذا فيمن جعل هذا في جهات ابن آدم الخاصة بيديه ، ومن الناس من جعلها في جهات أموره وشؤونه فيتسع التأويل على هذا ، ثم أخبر تعالى عن قول الجن المجيبين لهؤلاء ﴿ بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ أي ليس الأمر كما ذكرتم بل كان لكم اكتساب الكفر به والبصيرة فيه وإنما نحن حملنا عليه أنفسنا وما كان لنا عليكم حجة ولا قوة إلا طغيانكم وإرادتكم الكفر فقد حق القول على جميعنا وتعين العذاب لنا وإنا جميعاً ﴿ لذائقون ﴾ ، والذوق هنا مستعار وبنحو هذا فسر قتادة وغيره أنه قول الجن إلى ﴿ غاوين ﴾ ، ثم أخبر تعالى عن أنهم اشتركوا جميعاً في العذاب وحصل كلهم فيه وأن هذا فعله بأهل الجرم واحتقاب الإثم والكفر .

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35)

*(269/651)*

---

هؤلاء أهل الجرم الذين جهلوا الله تعالى ، وعظموا أصناماً وأوثاناً ف ﴿ إذا قيل لهم لا إله إلا الله ﴾ وهي كلمة الحق والعروة الوثقى أصابهم كبر وعظم عليهم أن يتركوا أصنامهم وأصنام آبائهم ، ونحو هذا كان فعل أبي طالب حين قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله" ، فقال أبو جهل : أترغب عن ملة

عبد المطلب ، فقال آخر ما قال : أنا على ملة عبد المطلب ، وبعرض قول ﴿ لا إله إلا الله ﴾ جرت السنة في تلقين الموتى المحتضرين ليخالفوا الكفرة ويخضعوا لها ، وأما الطائفة التي قالت ﴿ أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ فهي من قريش ، وإشارتهم بالشاعر المجنون هي إلى محمد صلى الله عليه وسلم فرد الله تعالى عليهم أي ليس الأمر كما قالوا من أنه شاعر ﴿ بل جاء بالحق ﴾ من عند الله وصدق الرسل المتقدمة له كموسى وعيسى وإبراهيم وغيرهم عليهم الصلاة والسلام ، ثم أخبر تعالى مخاطباً لهم ويجوز أن يكون التأويل قل لهم يا محمد ﴿ إنكم لذائقو العذاب الأليم ﴾ وقرأ قوم " لذائقو العذابَ " نصباً ووجهها أنه أراد لذائقون فحذف النون تخفيفاً وهي قراءة قد لحنت ، وقرأ أبو السمال " لذائقٌ " بالتنوين " العذابَ " نصباً ، و﴿ الأليم ﴾ المؤلم ، ثم أعلمهم أن ذلك جزاء لهم بأعمالهم واكتسابهم ، ثم استثنى عباد الله استثناء منقطعاً وهم المؤمنون الذين أخلصهم الله تعالى لنفسه ، وقرأ الجمهور " المخلَصين " بفتح اللام ، وقرأ الحسن وقتادة وأبو رجاء وأبو عمرو بكسر اللام ، وقد رويت هذه التي في الصافات عن الحسن بفتح اللام .

أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41)

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى العباد المخلصين ، وقوله تعالى : ﴿ معلوم ﴾ ، معناه عندهم فقد قرت عيونهم بعلم ما يستدر عليهم من الرزق وبأن شهواتهم تأتيهم لحينها ، وإلا فلو كان ذلك معلوماً عند الله تعالى فقط لما تخصص أهل المدينة بشيء وقوله ﴿ وهم مكرمون ﴾ تتميم بليغ للنعيم لأنه رب مرزوق غير مكرم ، وذلك أعظم التنكيد ، و" السرر " جمع سرير ، وقرأ أبو السمال " على سرَر " بفتح الراء الأولى ، وفي هذا التقابل حديث مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في أحيان " وترفع عنهم ستور فينظر بعضهم إلى بعض ، ولا محالة أن بعض أحيانهم فيها متخيرون في قصورهم ، و﴿ يطاف ﴾ معناه يطوف الولدان حسبما فسرته آية أخرى ، و" الكأس " قال الزجاج والطبري وغيرهما : هو الإناء الذي فيه خمر أو ما يجري مجراه من الأنبذة ونحوها ، ولا تسمى كأساً إلا وفيها هذا المشروب المذكور ، وقال الضحاك : كل كأس في القرآن فهو خمر ، وذهب بعض الناس إلى أن الكأس آنية مخصوصة في الأواني وهو كل ما اتسع فمه ولم يكن له مقبض ، ولا يراعى في ذلك كونه بخمر أم لا ، وقوله تعالى : ﴿ من معين ﴾ يريد من جار مطرد ، فالميم في ﴿ معين ﴾ أصلية لأنه من الماء المعين ، ويحتمل أن يكون من العين فتكون الميم زائدة أي مما يعين بالعين مستور ولا في خزن ، وخمر الدنيا إنما هي معصورة مختزنة ، وخمر الآخرة جارية أنهاراً ، وقوله ﴿ بيضاء ﴾ يحتمل أن يعود على الكأس ويحتمل أن يعود على الخمر وهو الأظهر ، وقال الحسن بن أبي الحسن : خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ، وفي قراءة عبد الله بن

مسعود " صفراء " فهذا موصوف به الخمر وحدها ، وقوله تعالى ﴿ لذة ﴾ أي ذات لذة فوصفها بالمصدر اتساعاً ، وقد استعمل هذا حتى قيل لذ بمعنى لذيذ ، ومنه قول الشاعر : [ الكامل ]

بحديثك اللذ الذي لو كلّمت . . . أسد الفلاة به أتين سراعا

(271/651)

---

وقوله ﴿ ولا فيها غول ﴾ ، لم تعمل ﴿ لا ﴾ لأن الظرف حال بينها وبين ما شأن التبرية أن تعمل فيه و" الغول " اسم عام في الأذى ، يقال غاله كذا إذا أضره في خفاء ، ومنه الغيلة في القتل وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الرضاع " لقد هممت أن أنهى عن الغيلة " ومن اللفظة قول الشاعر : [ الطويل ]

مضى أولونا ناعمين بعيشهم . . . جميعاً وغالتني بمكة غول

أي عاقتني عوائق ، فهذا معنى من معاني الغول ، ومنه قول العرب ، في مثل من الأمثال ، " ماله غيل " ما أغاله يضرب للرجل الحديد الذي لا يقوم لأمر إلا أغنى فيه ، أو الرجل يدعى له بأن يؤذي ما آذاه ، وقال ابن عباس ومجاهد وابن زيد في الآية " الغول " وجع في البطن ، وقال ابن عباس أيضاً وقتادة : هو صداع في الرأس .

قال القاضي أبو محمد : والاسم أعم من هذا كله فنفى عن خمر الجنة جميع أنواع الأذى إذا هي موجودة في خمر الدنيا ، نحا إلى هذا العموم سعيد بن جبير ، ومنه قول الشاعر : [ المتقارب ]

وما زالت الخمر تغتالنا . . . وتذهب بالأول الأول

أي تؤذينا بذهاب العقل ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر " ينزَفون " بفتح الزاي وكذلك في سورة الواقعة من قوله " نزف الرجل إذا سكر ونزفته الخمر " ، والنزيف السكران ومنه قول الشاعر [ جميل بن معمر ] : [ الكامل ]

فلثمت فاها آخذاً بقرونها . . . شرب النزيف لبرد ماء الحشرج

وبذهاب العقل فسر ابن عباس وقتادة ﴿ ينزفون ﴾ ، وقرأ حمزة والكسائي " ينزِفون " بكسر الزاي وكذلك في الواقعة من أنزف ينزف ويقال أنزف بمعنيين أحدها سكر ومنه قال الأبيرد الرياحي . [ الطويل ]

لعمري لئن أنزفتمُ أو صحوتمُ . . . لبيس الندامى أنتمُ آل أبجرا

والثاني : نزف شرابه يقال أنزف الرجل إذا تمّ شرابه فهذا كله منفي عن أهل الجنة ، وقرأ عاصم هنا بفتح الزاي وفي الواقعة بكسر الزاي ، وقرأ ابن أبي إسحاق "يَنزِفون" بفتح الياء وكسر الزاي ، و ﴿ قاصرات الطرف ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد وقتادة على أزواجهن أي لا ينظرن إلى غيرهم ولا يمتد طرف إحداهن إلى أجنبي ، فهذا هو قصر الطرف ، و ﴿ عين ﴾ جمع عيناء وهي الكبيرة العينين في جمال ، وأما قوله ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ فاختلف الناس في الشيء المشبه به ما هو ، فقال السدي وابن جبير شبه ألوانهن بلون قشر البيضة من النعام وزهو بياض قد خالطته صفرة حسنة ، قالوا : و" البيض " نفسه في الأغلب هو المكنون بالريش ومتى شدت به حال فلم يكن مكنوناً خرج عن أن يشبه به ، وهذا قول الحسن وابن زيد ، ومنه قول امرىء القيس : [ الطويل ]

كبكر مقاناة البياض بصفرة . . . غذاها نمير المال غير محلل

وهذه المعنى كثير في أشعار العرب ، وقال ابن عباس فيما حكى الطبري ، " البيض المكنون " أراد به الجوهر المصون .

قال القاضي أبو محمد : وهذا لا يصح عندي عن ابن عباس لأنه يرده اللفظ من الآية ، وقالت فرقة إنما شبههن تعالى ب " البيض المكنون " تشبيهاً عاماً جملة المرأة بجملة البيضة وأراد بذلك تناسب أجزاء المرأة وأن كل جزاء منها نسبته في الجودة إلى نوعه نسبة الآخر من أجزائه إلى نوعه فنسبة شعرها إلى عينها مستوية إذ هما غاية في نوعهما ، والبيضة أشد

الأشياء تناسب أجزاء ، لأنك من حيث جئتها فالنظر فيها واحد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(273/651)

---

وقال القرطبى :

﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾

استثناء ممن يذوق العذاب .

وقراءة أهل المدينة والكوفة "الْمُخْلَصِينَ" بفتح اللام ؛ يعني الذين أخلصهم الله لطاعته ودينه وولايته .

الباقون بكسر اللام ؛ أي الذين أخلصوا لله العبادة .

وقيل : هو استثناء منقطع ؛ أي إنكم أيها المجرمون ذائقو العذاب لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب .

قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ يعني المخلصين ؛ أي لهم عطية معلومة لا تنقطع .

قال قتادة : يعني الجنة .

وقال غيره : يعني رزق الجنة .

وقيل : هي الفواكه التي ذكر .

قال مقاتل : حين يشتهونه .

وقال ابن السائب : إنه بمقدار الغداة والعشي ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [ مريم : 62 ] .

﴿ فَوَاكِهُ ﴾ جمع فاكهة ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ ﴾ [ الطور : 22 ] وهي الثمار كلها رطبها ويابسها ؛ قاله ابن عباس .

﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ أي ولهم إكرام من الله جل وعز برفع الدرجات وسماع كلامه ولقائه .

﴿ فِي جَنَّاتِ النعيم ﴾ أي في بساتين يتنعمون فيها .

وقد تقدّم أن الجنان سبع في سورة "يونس" منها النعيم .

قوله تعالى : ﴿ على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ قال عكرمة ومجاهد : لا ينظر بعضهم في قفا بعض تواصلاً وتحاباً .

وقيل : الأسِرَّة تدور كيف شاءوا فلا يرى أحد قفا أحد .

وقال ابن عباس : على سرر مكلّلة بالدرّ والياقوت والزبرجد ؛ السرير ما بين صنعاء إلى الجابية ، وما بين عدن إلى أيلة .

وقيل : تدور بأهل المنزل الواحد .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ لما ذكر مطاعمهم ذكر شرابهم .

والكأس عند أهل اللغة اسم شامل لكل إناء مع شرابه ؛ فإن كان فارغاً فليس بكأس .

قال الضحاك والسدي : كل كأس في القرآن فهي الخمر ، والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر كأس ، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا إناء وقدح .

*(274/651)*

---

النحاس : وحكى من يوثق به من أهل اللغة أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر : كأس ؛ فإذا لم يكن فيه خمر فهو قدح ؛ كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام : مائدة ؛ فإذا لم يكن عليه طعام لم تقل له مائدة .

قال أبو الحسن بن كيسان : ومنه ظعينة للهودج إذا كان فيه المرأة .

وقال الزجاج : "بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ" أي من خمر تجري كما تجري العيون على وجه الأرض .

والمعين : الماء الجاري الظاهر .

﴿ بَيْضَآءَ ﴾ صفة للكأس .

وقيل : للخمر .

﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ قال الحسن : خمر الجنة أشدّ بياضاً من اللبن .

"لَذَّةٍ" قال الزجاج: أي ذات لذة فحذف المضاف.

وقيل: هو مصدر جعل اسما أي بيضاء لذيذة؛ يقال شراب لذٌّ ولذيذ، مثل نبات غَضٌّ وغضيض.

فأما قول القائل:

ولذٍ كطَعْمِ الصَّرْخَدِيّ تركتُهُ . . .

بأرض العِدا مِنْ خَشيةِ الحَدَثانِ

فإنه يريد النوم.

وقيل: "بَيْضَاءَ" أي لم يعتصرها الرجال بأقدامهم.

﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أي لا تغتال عقولهم، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع.

﴿ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ أي لا تذهب عقولهم بشربها؛ يقال: الخمر غَوْل للحِلْم، والحرب غول للنفوس؛ أي تذهب بها.

ويقال: نُزِف الرجل يُنْزَف فهو منزوفٌ ونزيفٌ إذا سكر.

قال امرؤ القيس:

وإذ هي تمشِي كمشي النَّزي . . .

فِ يَصْرَعُه بالكثيب البَهَرْ

وقال أيضاً:

نَزيفٌ إذا قامتْ لِوجهٍ تمايلت . . .

تُراشِي الفؤادَ الرَّخْصَ ألَّا تَخَتَّرَا

وقال آخر :

فلثمتُ فاهَا آخِذاً بقرونها . . .

شُرْبَ النَّزِيفِ ببرد ماءِ الحَشْرَجِ

وقرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي ؛ من أنزف القومُ إذا حان منهم النَّزْف وهو السّكر .

يقال : أحصدَ الزرعُ إذا حان حَصادُه ، وأَقطفَ الكرمُ إذا حان قِطافُه ، وأركبَ المهرُ إذا حان ركوبه .

وقيل : المعنى لا ينفدون شرابهم ؛ لأنه دأبهم ؛ يقال : أَنزف الرجل فهو منزوف إذا فنيت خمره .

قال الحطيئة :



---

لَعَمْرِي لئن أَنزفتمُ أو صَحَوْتُمُ . . .

لبئس النّدامَى كنتمُ آلَ أَبجرَا

النحاس : والقراءة الأولى أبين وأصح في المعنى ؛ لأن معنى "يُنْزَفُونَ" عند جِلة أهل التفسير منهم مجاهد لا تذهب عقولهم ؛ فنفى الله عز وجل عن خمر الجنة الآفات التي تلحق في الدنيا من خمرها من الصداع والسكر .

ومعنى "يُنْزِفُونَ" الصحيح فيه أنه يقال : أنزف الرجل إذا نفد شرابه ، وهو يبعد أن يوصف به شراب الجنة ؛ ولكن مجازه أن يكون بمعنى لا ينفد أبداً .

وقيل : "لَاَ يُنْزِفُونَ" بكسر الزاي لا يسكرون ؛ ذكره الزجاج وأبو علي على ما ذكره القُشَيري .

المهدوي : ولا يكون معناه يسكَرون ؛ لأن قبله "لاَ فِيهَا غَوْلٌ" .

أي لا تغتال عقولهم فيكون تكراراً ؛ ويسوغ ذلك في "الواقعة" .

ويجوز أن يكون معنى "لاَ فِيهَا غَوْلٌ" لا يمرضون ؛ فيكون معنى "وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ" لا يسكَرون أو لا ينفد شرابهم .

قال قتادة : الغول وجع البطن .

وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد "لاَ فِيهَا غَوْلٌ" قال لا فيها وجع بطن .

الحسن : صداع .

وهو قول ابن عباس "لاَ فِيهَا غَوْلٌ" لا فيها صداع .

وحكى الضحاك عنه أنه قال : في الخمر أربع خصال : السكر والصداع والقيء والبول ؛

فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال .

مجاهد : داء .

ابن كيسان : مغص .

وهذه الأقوال متقاربة .

وقال الكلبي : "لَا فِيهَا غَوْلٌ" أي إثم ؛ نظيره : ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [ الطور : 23 ] .

وقال الشعبي والسدي وأبو عبيدة : لا تغتال عقولهم فتذهب بها .

ومنه قول الشاعر :

وما زالتِ الكأسُ تغتالُنا . . .

وتَذهبُ بالأولِ الأولِ

أي تصرع واحداً واحداً .

وإنما صرف الله تعالى السكر عن أهل الجنة لئلا ينقطع الالتذاذ عنهم بنعيمهم .

وقال أهل المعاني : الغول فساد يلحق في خفاء .

يقال : اغتاله اغتيالا إذا أفسد عليه أمره في خفية .

ومنه الغَوْل والغِيلة : وهو القتل خفية .

قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف ﴾ أي نساء قد قصَرْن طرفهنّ على أزواجهنّ فلا ينظرن إلى غيرهم ؛ قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغيرهم.

عكرمة : ﴿ قَاصِرَاتُ الطرف ﴾ [ الرحمن : 56 ] أي محبوسات على أزواجهنّ.

والتفسير الأوّل أبين ؛ لأنه ليس في الآية مقصورات ولكن في موضع آخر ﴿ مَّقْصُورَاتٌ ﴾ يأتي بيانه.

و"قاصرات" مأخوذ من قولهم : قد اقتصر على كذا إذا اقتنع به وعدل عن غيره ؛ قال امرؤ القيس :

من القاصراتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ . . .

من الذَّرِّ فَوْقَ الإتْب منها لأَثَّرا

ويروى : فوق الخد.

والأوّل أبلغ.

والإتب القميص ، والمحول الصغير من الذر.

وقال مجاهد أيضاً : معناه لا يَغَرْنَ.

﴿ عِينٌ ﴾ عظام العيون الواحدة عيناء ؛ وقاله السّدي.

مجاهد : "عِينٌ" حسان العيون.

الحسن : الشديدات بياض العين ، الشديدات سوادها .

والأوّل أشهر في اللغة .

يقال : رجل أعين واسع العين بيِّن العَيَن ، والجمع عِين .

وأصله فعل بالضم فكسرت العين ؛ لئلا تنقلب الواو ياء .

ومنه قيل لبقر الوحش عِين ، والثور أعين ، والبقرة عيناء .

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ أي مصون .

قال الحسن وابن زيد : شُبِّهن ببيض النعام ، تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار ، فلونها أبيض في صفرة وهو أحسن ألوان النساء .

وقال ابن عباس وابن جبير والسدي : شبهن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدي .

وقال عطاء : شبهن بالسِّحاء الذي يكون بين القشرة العليا ولباب البيض .

وسَحَاءَةُ كل شيء : قشره والجمع سَحاً ؛ قاله الجوهري .

ونحوه قول الطبري ، قال : هو القشر الرقيق ، الذي على البيضة بين ذلك .

وروي نحوه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

والعرب تشبه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها ؛ قال امرؤ القيس :

وبيضةِ خِدْرٍ لا يرامُ خِباؤها . . .

تَمتعت من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ

(277/651)

---

وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن والنظافة : كأنه بيض النعام المغطَّى بالريش .

وقيل : المكنون المصون عن الكسر ؛ أي إنهن عذارى .

وقيل : المراد بالبيض اللؤلؤ ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللؤلؤ المكنون ﴾ [ الواقعة : 22 23 ] أي في أصدافه ؛ قاله ابن عباس أيضاً .

ومنه قول الشاعر :

وهي بيضاءُ مِثل لُؤْلُؤة الغ . . .

وّاص مِيزَتْ مِن جَوْهَرٍ مَكْنونِ

وإنما ذكر المكنون والبيض جمع ؛ لأنه ردّ النعت إلى اللفظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(278/651)

---

وقال أبو السعود :

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللهِ المخلصين ﴾

(279/651)

---

استثناءٌ منقطعٌ من ضمير ذائقو وما بينهما اعتراضٌ جيء به مسارعة إلى تحقيق الحقِّ ببيان أنَّ ذوقهم العذاب ليس إلاَّ من جهتهم لا من جهة غيرهم أصلاً وجعله استثناء من ضمير تُجزون على معنى أنَّ الكفرة لا يُجزون إلا بقدر أعمالهم دون عباد الله المُخلصين فإنَّهم يجزون أضعافاً مضاعفة ممَّا لا وجه له أصلاً لا سيَّما جعله استثناء متَّصلاً بتعميم الخطاب في تُجزون لجميع المكلَّفين فإنَّه ليس في حيِّزِ الاحتمال فالمعنى إنَّكم لذائقون العذاب الأليم لكنْ عباد الله المُخلصين الموحِّدين ليسُوا كذلك وقوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إليهم للإيذان بأنَّهم ممتازون بما اتَّصفوا به من الإخلاص في عبادة الله تعالى عمَّن عداهم امتيازاً بالغاً منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة ، وما فيه من معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلوِّ طبقتهم وبُعد منزلتهم في الفضل ، وهو مبتدأٌ وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ ﴾ إمَّا خبرٌ له وقوله تعالى : ﴿ رِّزْقِ ﴾ مرتفعٌ على الفاعلية بما فيه من الاستقرارِ ، أو مبتدأٌ ولهم خبرٌ مقدَّمٌ والجملة خبرٌ لأولئك ، والجملةُ الكُبرى استئناف مبيِّنٌ لما أفاده

الاستثناء إجمالاً بياناً تفصيليًّا ، وقيل هي خبر للاستثناء المنقطع على أنَّه متأوَّلٌ بالمبتدأ

وقوله تعالى : ﴿ مَّعْلُومٌ ﴾ أي معلومُ الخصائصِ من حُسن المنظر ولذَّةِ الطَّعمِ وطيب

الرَّائحةِ ونحوها من نعوت الكمال وقيل معلوم الوقتِ كقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً

وَعَشِيّاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فواكه ﴾ إمَّا بدل من رزقٌ أو خبرُ مبتدأٍ مضمرٍ ، أي ذلك

الرزقُ فواكهُ ، وتخصيصُها بالذِّكر لأنَّ أرزاق أهل الجنَّة كلَّها فواكه أي ما يُؤكل لمجرَّدِ التَّلذُّذِ

دون الاقتياتِ لأنَّهم مستغنون عن القوت لكون خِلقتِهم مُحكمةً محفوظة من التَّحلُّلِ المُحوجِ

إلى البدل وقيل لأنَّ الفواكه من أتباع سائرِ الأطعمةِ فذكرُها مُغنٍ

(280/651)

---

عن ذكرها ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ عند الله عزَّ وجلَّ لا يلحقُهم هوانٌ وذلك أعظم المثوباتِ

وأليقها بأُولي الهممِ وقيل مكرمون في نيله حيث يُصل إليهم بغير تعبٍ وسؤالٍ كما هو شأنُ

أرزاقِ الدُّنيا . وقُرىء مكرَّمون بالتَّشديدِ ﴿ فِي جنات النعيم ﴾ أي في جناتٍ ليس فيها

إلاَّ النَّعيمُ وهو ظرف أو حال من المستكنِّ في مكرمون ، أو خبر ثانٍ لأولئك .

وقوله تعالى : ﴿ على سُرُرٍ ﴾ محتمل للحاليَّةِ والخبريَّةِ . فقولُه تعالى : ﴿ متقابلين ﴾

حالٌ من المستكنِّ فيه أو في مُكرمون . وقوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ إمَّا استئنافٌ

مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من حكاية تكامُلِ مجالسِ أُنسهم أو حال من الضَّميرِ في متقابلين أو في أحد الجارَّينِ وقد جُوِّزَ كونه صفةً لمكرمون ﴿ بِكَأْسٍ ﴾ بإناء فيه خمر أو بخمرٍ، فإنَّ الكأس تُطلق عن نفس الخمر كما في قول مَن قال

وكَأْسٍ شَرِبْتُ على لذَّة . . . وأخرى تَدَاويتُ منها بها

﴿ مِّن مَّعِينٍ ﴾ متعلِّقٌ بمضمرٍ هو صفة لكأس أي كائنةٌ من شراب مَعينٍ أو من نهرٍ مَعينٍ وهو الجاري على وجه الأرض الظَّاهرُ للعُيونِ أو الخارجُ من العُيونِ من عان الماءُ إذا نبعَ، وصف به الخمرُ وهو للماءِ لأنَّها تجري في الجَنَّةِ في أنهارٍ كما يجري الماءُ قال تعالى وأنهارٌ من خمرٍ ﴿ بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ صفتانِ أيضاً لكأسٍ، ووصفها بلذَّةٍ إمَّا للمُبالغةِ كأنَّها نفسُ اللَّذةِ أو لأنَّها تأنيثُ اللَّذِّ بمعنى اللَّذيذِ ووزنه فعل قال

ولذٍّ كطعمِ الصَّرخديِّ تركتُه . . . بأرضِ العِدا مِنْ خيفةِ الحدَثانِ

(281/651)

---

يريد النَّومَ ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أي غائلةٌ كما في خمور الدُّنيا من غاله إذا أفسدَه وأهلكه ومنه الغُول. ﴿ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ يسكَرُون من نزف الشَّاربُ فهو نَزِيفٌ ومنزوفٌ إذا ذهب عقلُه ويقال للمطعونِ نُزِفَ فماتَ إذا جُرح دمُه كلُّه. أفرد هذا بالنَّفي مع اندراجه

فيما قبله من نفي الغَول عنها لما أَنَّه من معظم مفاسد الخمرِ كأَنَّه جنس برأسهِ والمعنى لا فيها نوعٌ من أنواع الفسادِ من مغصٍ أو صُداعٍ أو خُمارٍ أو عَربدةٍ أو لغوٍ أو تأثيمٍ ولا هم يسكرون. وقُرِىء يُنزِفون بكسر الزَّاي، من أنزفَ الشَّاربُ إذا نفد عقلُه أو شرابه.

وقُرِىء ينزفون بضمِّ الزَّاي من نَزَف يَنزُف بضمِّ الزَّاي فيهما ﴿ وَعِندَهُمْ قاصرات الطرف ﴾ قصرن أبصارَهنَّ على أزواجهنَّ لا يمددن طَرَفاً إلى غيرهم ﴿ عِينٌ ﴾ نُجُل العُيونِ جمع عَيْناءَ والنَّجَل سعةُ العينِ ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ شُبِّهن ببيض النَّعامِ المصونِ من الغبارِ ونحوه في الصَّفاءِ والبياض المخلوطِ بأدنى صُفرةٍ فإن ذلك أحسنُ ألوانِ الأبدانِ. انتهى

انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(282/651)

---

وقال الآلوسى :

﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللهِ المخلصين ﴾

استثناء منقطع من ضمير ﴿ ذائقو ﴾ [ الصافات : 38 ] وما بينهما اعتراض جيء به مسارعة إلى تحقيق الحق ببيان أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهتهم لا من جهة غيرهم أصلاً فإلا مؤولة بلكن وما بعد كخبرها فيصير التقدير لكن عباد الله المخلصين أولئك لهم

رزق وفواكه الخ .

ويجوز إن يكون المعنى لكن عباد الله المخلصين ليسوا كذلك ، وقيل : استثناء منقطع من ضمير ﴿ تُجْزَوْنَ ﴾ [ الصافات : 39 ] على أن المعنى تجزون بمثل ما عملتم لكن عباد الله المخلصين يجزون أضعافاً مضاعفة بالنسبة إلى ما عملوا ، ولا يخفى بعده ، وأبعد منه جعل الاستثناء من ذلك متصلاً بتعميم الخطاب في ﴿ تُجْزَوْنَ ﴾ لجميع المكلفين لما فيه مع احتياجه إلى التكلف الذي في سابقه من تفكيك الضمائر ، و ﴿ المخلصين ﴾ صفة مدح حيث كانت الإضافة للتشريف .

أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41)

﴿ أولئك ﴾ أي العباد المذكورون ، وفيه إشارة إلى أنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص في عبادته تعالى عمن عداهم امتيازاً بالغاً ، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل .

(283/651)

---

وهو مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ ﴾ أما خبر له وقوله سبحانه : ﴿ رّزْقٍ ﴾ مرتفع على الفاعلية للظرف وإما خبر مقدم و ﴿ رّزْقٍ ﴾ مبتدأ مؤخر والجملة خبر المبتدأ والمجموع

كالخبر للمستثنى المنقطع على ما أشرنا إليه أو استئناف لما أفاده الاستثناء إجمالاً بياناً تفصيلياً وقوله تعالى : ﴿ مَّعْلُومٌ ﴾ أي معلوم الخصائص ككونه غير مقطوع ولا ممنوع حسن المنظر لذيذ الطعم طيب الرائحة إلى غير ذلك من الصفات المرغوبة ، فلا يقال إن الرزق لا يكون معلوماً إلا إذا كان مقدراً بمقدار وقد جاء في آية أخرى ﴿ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ غافر : 40 ] وما لا يدخل تحت الحساب لا يحد ولا يقدر فلا يكون معلوماً ، وقيل المراد معلوم الوقت لقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [ مريم : 62 ] وعن قتادة الرزق المعلوم الجنة ، وتعقب بأن ﴿ فِي جنات ﴾ [ الصافات : 43 ] بعد يأباه .

واعترض بأنه إذا كان المعنى وهم مكرمون فيها لم يكن به بأس .

وأجيب بأن جعلها مقر المرزوقين لا يلائم جعلها رزقاً وأما إذا كان قيداً للرزق فهو ظاهر الإباء ، وكون المساكن رزقاً للساكن فإذا اختلف العنوان لم يكن به بأس لا يدفع ما قرر كما لا يخفى على المنصف

فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (42) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43)

وقوله تعالى: ﴿ فواكه ﴾ بدل من ﴿ رِّزْقٍ ﴾ بدل كل من كل، وفيه تنبيه على أنه مع تميزه بخواصه كله فواكه أو خبر مبتدأ محذوف والجملة مستأنفة أي ذلك الرزق فواكه والمراد بها ما يؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات وجميع ما يأكله أهل الجنة كذلك حتى اللحم لكونهم مستغنين عن القوت لأحكام خلقتهم وعدم تحلل شيء من أبدانهم بالحرارة الغريزية ليحتاجوا إلى بدل يحصل من القوت، فالمراد بالفاكهة هنا غير ما أريد بها في قوله تعالى: ﴿ وفاكهة مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة: 20، 21] وهي هناك بالمعنى المعروف فلا منافاة.

وجوز أن يكون عطف بيان للرزق المعلوم فوجه الاختصاص ما علم به من بين الأرزاق أنه فواكه، وقيل: هو بدل بعض من كل، وتخصيصها بالذكر لأنها من أتباع سائر الأطعمة فتدل على تحقق غيرها ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ عند الله تعالى لا يلحقهم هوان وذلك أعظم المثوبات وأليقها بأولى الهمم، ولعل هذا إشارة إلى النعيم الروحاني بعد النعيم الجسماني الذي هو بواسطة الأكل.

وقيل مكرمون في نيل الرزق حيث يصل إليهم من غير كسب وكد وسؤال كما هو شأن أرزاق الدنيا.

وقرىء ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ بالتشديد.

﴿ على سُرُرٍ ﴾ يحتمل أن يكون حالاً من المستكن في ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ أو في الظرف قبله

وأن يكون خبراً فيكون قوله سبحانه : ﴿ متقابلين ﴾ حالاً من المستكن في أو في ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ أو في الظرف أعني ﴿ فِي جنات ﴾ وأن يتعلق بمتقابلين فيكون حالاً من المستكن في غيره.

وأشير بتقابلهم إلى استئناف بعضهم ببعض فبعضهم يقابل بعضاً للاستئناف والمحادثة.

(285/651)

---

وفي بعض الأحاديث أنه ترفع عنهم الستور أحياناً فينظر بعضهم إلى بعض، وقرأ أبو السمال ﴿ سُرُرٍ ﴾ بفتح الراء وهي لغة بعض تميم وكلب يفتحون ما كان جمعاً على فعل من المضعف إذا كان اسماً، واختلف النحويون في الصفة فمنهم من قاسها على الاسم ففتح فيقول ذلل بفتح اللام على تلك اللغة.

ومنهم من خص ذلك بالاسم وهو مورد السماع.

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم ﴾ إما استئناف لبيان ما يكون فهم في مجالس أنسهم أو حال من الضمير في ﴿ متقابلين ﴾ [ الصافات : 44 ] أو في أحد الجارين : وجوز كونه صفة لمكرمون.

وفاعل الطواف على ما قيل من مات من أولاد المشركين قبل التكليف.

ففي "الصحيح" أنهم خدم أهل الجنة.

وقد صرح به في موضع آخر وهو قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ [ الواقعة : 17 ] وقوله سبحانه : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ [ الطور : 24 ] ﴿ بِكَأْسٍ ﴾ أي بخمر كما روى عن ابن عباس .

وأخرج ابن أبي شيبة .

وابن جرير .

وغيرهما عن الضحاك قال : كل كأس ذكره الله تعالى في القرآن إنما عني به الخمر .

ونقل ذلك أيضاً عن الحبر .

والأخفش وهو مجاز مشهور بمنزلة الحقيقة .

وعليه قول الأعشى :

وكأس شربت على لذة . . .

وأخرى تداويت منها بها

ويدل على أنه أراد بها الخمر إطلاقاً للمحل على الحال قوله شربت .

وتقدير شربت ما فيها تكلف .

والقرينة ههنا ما يأتي بعد .

وجوز تفسيره بمعناه الحقيقي وهو إناء فيه خمر ، وأكثر اللغويين على أن إناء الخمر لا يسمى كأساً حقيقة إلا وفيه خمر فإن خلا منه فهو قدح ، والخمر ليس بمتعين ، قال في "البحر" الكأس ما كان من الزجاج فيه خمر أو نحوه من الأنبذة ولا يسمى كأساً إلا وفيه ذلك ، وقال الراغب : الكأس الإناء بما فيه من الشراب ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأساً يقال كأس خال ويقال شربت كأساً وكأس طيبة ، ولعل كلامه أظهر في أن تسمية الخالي كأساً مجاز ، وحكى عن بعضهم أنه قال : الكأس من الأواني كل ما اتسع فمه ولم يكن مقبض ولا يراعى كونه لخمر أو لغيره ﴿ مّن مَّعِينٍ ﴾ في موضع الصفة لكأس أي كائنة من شراب معين أو نهر معين أي ظاهر للعيون جار على وجه الأرض كما تجري الأنهار أو خارج من العيون والمنابع .

وأصله معيون من عان الماء إذا ظهر أو نبع على أن ميمه زائدة أو هو من معن فهو فعيل على أن الميم أصلية .

ووصف به خمر الجنة تشبيهاً لها بالماء لكثرتها حتى تكون أنهاراً جارية في الجنان .

ويؤذن ذلك برقتها ولطافتها وأنها لم تدس بالأقدام كخمر الدنيا كما ينبىء عن دوسها بها قوله :

بنت كرم يتموها أمها . . .

ثم هانوها بدوس بالقدم

ثم عادوا حكموها فيهم . . .

ويلهم من جور مظروم حكم

وقول الآخر :

وشمولة من عهد عاد قد غدت . . .

صرعى تداس بأرجل العصار

لانت لهم حتى انتشوا فتمكنت . . .

منهم فصاحب فيهم بالثار

وهذا مبني على أنها خمر في الحقيقة ، وجوز أن تكو ماء فيه لذة الخمر ونشأته فالوصف بذلك ظاهر ، وتفيد الآية وصف مائهم باللذة والنشأة ، وما ذكر أولاً هو الظاهر نعم قال غير واحد : لا اشتراك بين ما في الدنيا وما في الجنة إلا بالأسماء فحقيقة خمر الجنة غير حقيقة خمر الدنيا وكذا سائر ما فيهما .

﴿ بَيْضَاء ﴾ وصف آخر للكاس يدل على أنها مؤنثة .

وعن الحسن أن خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن .

وأخرج ابن جرير عن السدي أن عبد الله قرأ ﴿ صَفْرَاء ﴾ وقد جاء وصف خمر الدنيا بذلك كما في قول أبي نواس :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها . . .

لو مسها حجر مسته سراء

والمشهور أن هذا بعد المزج وإلا فهي قبله حمراء كما قال الشاعر :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده . . .

أتت في ثيابي نرجس وشقائق

حكت وجنة المحبوب صرفاً فسلطوا . . .

عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق

﴿ لَذَّةٍ للشاربين ﴾ وصفت بالمصدر للمبالغة بجعلها نفس اللذة ، وجوز أن تكون لذة تأنيث لذ بمعنى لذيذ كطب بمعنى طبيب حاذق ، وأنشدوا قوله :

ولذا كطعم الصرخدي تركته . . .

بأرض العدا من خشية الحدثان

يريد وعيش لذيذ كطعم الخمر المنسوب لصرخد بلد بالشام ، وفسره الزمخشري بالنوم وأراد أنه بمعنى لذيذ غلب على النوم لا أنه اسم جامد ، وقوله :

بحديثك اللذ الذي لو كلمت . . .

أسد الفلاة به أتين سراعا

وفي قوله تعالى : ﴿ لِلشَّارِبِينَ ﴾ دون لهم إشارة إلى أنها يلتذ بها الشارب كائناً من كان .

﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أي غائلة كما في خمر الدنيا من غاله يغوله إذا أفسده ، وقال الراغب : الغول إهلاك الشيء من حيث لا يحسن به يقال غاله يغوله غولاً واغتاله اغتيالاً ، ومنه سمي السعلاة غولاً ، والمراد هنا نفي أن يكون فيها ضرر أصلاً .

وروى البيهقي .

وجماعة عن ابن عباس أنه قال في ذلك ليس فيها صداع ؛ وفي رواية ابن أبي حاتم عنه لا تغول عقولهم من السكر ، وأخرج الطستي عنه أن نافع بن الأرزق قال : أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ فقال : ليس فيها نتن ولا كراهية كخمر الدنا قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ فقال : نعم أما سمعت قول امرىء القيس

: رب كأس شربت لا غول فيها . . .

وسقيت النديم منها مزاجا

وفي رواية أخرى عنه أنه فسر ذلك بوجع البطن ، وروى ذلك عن مجاهد .

وابن زيد .

وابن جبير .

واختير التعميم وإن التنصيص على مخصوص من باب التمثيل ، وتقديم الظرف على ما قيل للتخصيص ، والمعنى ليس فيها ما في خمور الدنيا من الغول ، وفيه كلام في كتب المعاني ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ أي لا يسكرون كما روى عن ابن عباس وغيره ، وهو بيان لحاصل المعنى ، وأصل النزف نزع الشيء وإذها به بالتدريج يقال نزفت الماء من البئر إذا نزحته ونزعته كله منها شيئاً بعد شيء ، ونزف الهم دمعه نزعه كله ، ويقال شارب نزيف أي نزفت الخمر عقله بالسكر وأذهبته كما ينزف الرجل البئر وينزع ماءها فكأن الشارب ظرف للعقل فنزع منه ، فلا ينزفون مبنياً للمفعول كما قرأ الحرميان .

والعربيان معناه لا تنزع عقولهم أي لا تنزع الخمر عقولهم ولا تذهبها أو الفاعل هو الله تعالى وتعدية الفعل بعن قيل لتضمينه معنى يصدرون ، وقيل عن للتعليل والسببية ، وأفرد هذا الفساد بالنفي وعطف على ما يعمه لأنه من عظم فساده كأنه جنس برأسه ، وله سميت الخمر أم الخبائث ، والمراد استمرار النفي لا نفي الاستمرار وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ يُنزِفُونَ ﴾ بضم الياء وكسر الزاي وتابعهما عاصم في الواقعة على أنه من أنزف الشارب إذا صار ذا نزف أي عقل أو شراب نافد ذاهب فالهمزة فيه للصيرورة ،

وقيل للدخول في الشيء ولذا صار لازماً فهو مثل كبه فأكب ، وهو أيضاً بمعنى السكر لنفاد عقل السكران أو نفاد شرابه لكثرة شربه فيلزمه عليهما السكر ثم صار حقيقة فيه ، قال الأبيرد اليربوعي

: لعمري لئن أنزفتم أو صحوتم . . .

لبئس الندامى كنتم آل أبجرا

وفي "البحر" أنزف مشترك بين سكر ونفد فيقال أنزف الرجل إذا سكر وأنزف إذا نفد شربه ، وتعدية الفعل للتضمين كما سبق ، وجوز إرادة معنى النفاد من غير إرادة معنى السكر أي لا ينفد ولا يفنى شرابهم حتى ينغص عيشهم وليس بذاك .

(289/651)

---

وقرأ ابن أبي إسحاق ﴿ يُنزَفُونَ ﴾ بفتح الياء وكسر الزاي ، وطلحة بفتح الياء وضم الزاي ، والمراد في جميع ذلك نفي السكر على ما هو عن الجمهور .

ومن الغريب ما أخرج ابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن ابن عباس قال : في الخمر أربع خصال السكر والصداع والقيء والبول فنزه الله تعالى خمر الجنة عنها لا فيها غول لا تغول عقولهم من السكر ولا هم عنها ينزفون لا

يقيئون عنها كما يقيء صاحب خمر الدنيا عنها ، وهو أقرب لاستعمال النزف في الأمور الحسية كنزف البئر والركية وما أشبه القيء وإخراج الفضلات من الجوف بنزف البئر وإخراج مائها عند نزحها ، ولولا أن الجمهور على ما سمعت أولاً حتى ابن عباس في أكثر الروايات عنه لقلت : إن هذا التفسير هو الأولى .

﴿ وَعِندَهُمْ قاصرات الطرف ﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمددن طرفاً إلى غيرهم قاله ابن عباس .

ومجاهد .

وابن زيد فمتعلق القصر محذوف للعلم به ، والكلام إما على ظاهره أو كناية عن فرط محبتهن لأزواجهن وعدم ميلهن إلى سواهم ، وقيل المراد لا يفتحن أعينهن دلالاً وغنجاً ، والوصف على القولين متعد ، وجوز كونه قاصراً على أن المعنى ذابلات الجفن مراضه ، وما أحيل ذبول الأجفان في الغواني الحسان ، ولذا كثر التغزل بذلك قديماً وحديثاً ، ومنه قول ابن الأزدي

: مرضت سلوتي وصح غرامي . . .

من لحاظ هي المراض الصحاح

والطرف في كل ذلك طرفهن ، وجوز أن يكون الوصف متعدياً والطرف طرف غيرهن ، والمعنى قاصرات طرف غيرهن عن التجاوز إلى سواهن لغاية حسنهن فلا يتجاوزهن

طرف الناظر إليهن كقول المتنبي :

وخصر تثبت الأبصار فيه . . .

كأن عليه من حدق نطاقاً

وقد ذكر هذا المعنى أيضاً ابن رشيق في قول امرىء القيس

: من القاصرات الطرف لو دب محول . . .

من الذر فوق الأتب منها لأثرا



---

وهو لعمري رشيق بيد أني أقول : الظاهر هنا أن العندية في مجالس الشرب إتماماً للذة فلعل الأوفق للغيرة وإن كانت الحظيرة حظيرة قدس المعنى الأول ، والجمهور قد قصروا الطرف عليه ولا يظن بهم أنهم من القاصرين ، والجملة قيل عطف على ما قبلها ، وقيل : في موضع الحال أي يطاف عليهم بكأس والحال عندهم نساء قاصرات الطرف ﴿ عِينٌ ﴾ جمع عيناء وهي الواسعة العين في جمال ، ومنه قيل للبقر الوحشي عين ، وقيل : العيناء واسعة العين أي كثيرة محاسن عينها ، والحق أن السعة اتساع الشق والتقييد بالجمال يدفع ما عسى أن يقال ، وما ألطف وأظرف ذكر عين بعد قاصرات الطرف .

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ البيض معروف وهو اسم جنس الواحدة بيضة ويجمع على بيوض كما في قوله

: بتيهاء قفر والمطي كأنها . . .

قطاء الحزن قد كانت فراخاً بيوضها

والمراد تشبيههن بالبيض الذي كنه الريش في العش أو غيره في غيره فلم تمسه الأيدي ولم يصبه الغبار في الصفاء وشوب البياض بقليل صفرة مع لمعان كما في الدر ، والأكثرون على تخصيصه ببيض النعام في الأداحي لكونه أحسن منظراً من سائر البيض وأبعد عن مس الأيدي ووصول ما يغير لونه إليه ، والعرب تشبه النساء بالبيض ويقولون لهن بيضات الخدور ، ومنه قول امرىء القيس

: وبيضة خدر لا يرام خباؤها . . .

تمتعت من لهو بها غير معجل

والبياض المشوب بقليل صفرة في النساء مرغوب فيه جداً ؛ قيل وكذا البياض المشوب بقليل حمرة في الرجال وأما البياض الصرف فغير محمود ولذا ورد في الحلية الشريفة أبيض ليس بالأمهق .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس وهو وغيره عن ابن جبير .

وابن أبي حاتم .

وابن جرير عن السدي أن البيض المكنون ما تحت القشر الصلب بينه وبين اللباب الأصفر والمراد تشبيههن بذلك بعد الطبخ في النعومة والطراوة فالبيضة إذا طبخت وقشرت ظهر ما تحت القشرة على أتم نعومة وأكمل طراوة ، ومن هنا تسمع العامة يقولون في مدح المرأة : كأنها بيضة مقشرة ، ورجح ذلك الطبري بأن الوصف بمكنون يقتضيه دون المشهور لأن خارج قشر البيضة ليس بمكنون ، وفيه أن المتبادر من البيض مجموع القشر وما فيه وأكلت كذا بيضة الأكل فيه قرينة إرادة ما في القشر دون المجموع إذ لا يؤكل عادة وحينئذٍ لا يتم ما قاله الطبري فالأول هو المقبول ، ومعنى المكنون فيه ظاهر على ما سمعت ، وقد نقل الخفاجي هذا المعنى عن بعض المتأخرين وتعقبه بأنه ناشىء من عدم معرفة كلام العرب وكأنه لم يقف على روايته عن الحبر ومن معه وإلا لا يتسنى له ما قال ، ولعل الرواية المذكورة غير ثابتة وكذا ما حكاه أبو حيان عن الحبر من أن البيض المكنون الجوهر المصون لنبو ظاهر اللفظ عن ذلك ، وقالت فرقة : المراد تشبيههن بالبيض في تناسب الأجزاء والبيضة أشد الأشياء تناسب أجزاء والتناسب ممدوح ، ومن هنا قال بعض الأدباء متغزلاً : تناسبت الأعضاء فيه فلا ترى . . .

بهن اختلافاً بل أتين على قدر

وأنت تعلم بعد فرض تسليم أن تناسب الأجزاء في البيضة معروف بينهم أن الوصف بالمكنون مما لا يظهر له دخل في التشبيه ، واستشكل التشبيه على ما تقدم بآية عروس القرآن ﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ [ الرحمن : 58 ] فإنها ظاهرة في أن في ألوانهن حمرة وأين هذا من التشبيه بالبيض المكنون على ما سمعت قبل فيتعين أن يراد التشبيه من حيث النعومة والطراوة كما روي ثانياً أو من حيث تناسب الأجزاء كما قيل أخيراً .

(292/651)

---

وأجيب بأنه يجوز أن يكون المشبهات بالبيض المكنون غير المشبهات بالياقوت والمرجان ، وكون البياض المشوب بالصفرة أحسن الألوان في النساء غير مسلم بل هو حسن ومثله في الحسن البياض المشوب بحمرة على أن الأحسنية تختلف باختلاف طباع الرائي

: وللناس فيما يعشقون مذاهب . . .

والجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

وقيل يجوز أن يكون تشبيههن بالبيض المكنون بالنظر إلى بياض أبدانهن المشوب بصفرة ما عدا وجوههن وتشبيههن بالياقوت والمرجان بالنظر إلى بياض وجوههن المشوب بحمرة ،

وقيل تشبيههن بهذا ليس من جهة أن بياضهن مشوب بحمرة بل تشبيههن بالياقوت من حيث الصفاء وبالمرجان من حيث الأملاس وجمال المنظر .

وإذا أريد بالمرجان الدرر الصغار كما ذهب إليه جمع دون الخرز الأحمر المعروف يجوز أن يكون التشبيه من حيث البياض المشوب بصفرة فلا إشكال أصلاً . انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(293/651)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (20) ﴾

قوله : ﴿ وَقَالُواْ يا ويلنا ﴾ أي : قال أولئك المبعوثون لما عاينوا البعث الذي كانوا يكذبون به في الدنيا : يا ويلنا ، دعوا بالويل على أنفسهم .

قال الزجاج : الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة ، وقال الفراء : إن أصله : يا وي لنا ، ووي بمعنى : الحزن كأنه قال : يا حزن لنا .

قال النحاس : ولو كان كما قال لكان منفصلاً ، وهو في المصحف متصل ، ولا نعلم أحداً يكتبه إلا متصلاً ، وجملة ﴿ هذا يَوْمُ الدين ﴾ تعليل لدعائهم بالويل على أنفسهم ، والدين

: الجزاء ، فكأنهم قالوا : هذا اليوم الذي نجازى فيه بأعمالنا من الكفر ، والتكذيب للرسل ، فأجاب عليهم الملائكة بقولهم : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل الذى كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ ، ويجوز أن يكون هذا من قول بعضهم لبعض ، والفصل : الحكم ، والقضاء ؛ لأنه يفصل فيه بين المحسن ، والمسيء .

وقوله : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وأزواجهم ﴾ هو أمر من الله سبحانه للملائكة بأن يحشروا المشركين ، وأزواجهم ، وهم : أشباههم في الشرك ، والمتابعون لهم في الكفر ، والمشايعون لهم في تكذيب الرسل ، كذا قال قتادة ، وأبو العالية .

وقال الحسن ، ومجاهد : المراد بأزواجهم : نساؤهم المشركات الموافقات لهم على الكفر ، والظلم .

(294/651)

---

وقال الضحاك : أزواجهم قرناؤهم من الشياطين يحشر كلّ كافر مع شيطانه ، وبه قال مقاتل ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ من الأصنام ، والشياطين ، وهذا العموم المستفاد من " ما " الموصولة ، فإنها عبارة عن المعبودين ، لا عن العابدين ، كما قيل - مخصوص ؛ لأن من طوائف الكفار من عبد المسيح ، ومنهم من عبد الملائكة ، فيخرجون

بقوله : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [ الأنبياء : 101 ] ، ووجه حشر الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل هو زيادة التبكيت لعابديها ، وتخجيلهم ، وإظهار أنها لا تنفع ، ولا تضرّ .

﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ أي : عرّفوا هؤلاء المحشورين طريق النار ، وسوقوهم إليها ، يقال : هديته الطريق ، وهديته إليها ، أي : دللته عليها ، وفي هذا تهكم بهم .

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾ أي : احبسوهم ، يقال : وقفت الدابة أقفها وقفاً ، فوقفت هي وقوفاً يتعدّى ، ولا يتعدّى ، وهذا الحبس لهم يكون قبل السوق إلى جهنم ، أي : وقفوهم للحساب ، ثم سوقوهم إلى النار بعد ذلك ، وجملة ﴿ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾ تعليل للجملة الأولى .

قال الكلبي : أي : مسئولون عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم .

وقال الضحاك : عن خطاياهم ، وقيل : عن لا إله إلاّ الله ، وقيل : عن ظلم العباد ، وقيل : هذا السؤال هو المذكور بعد هذا بقوله : ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تناصرون ﴾ أي : أيّ شيء لكم لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا ، وهذا توبيخ لهم ، وتقريع وتهكم بهم ، وأصله تتناصرون ، فطرحت إحدى التاءين تخفيفاً .

قرأ الجمهور ﴿ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾ بكسر الهمزة ، وقرأ عيسى بن عمر بفتحها .

قال الكسائي : أي : لأنهم ، أو بأنهم ، وقيل : الإشارة بقوله : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تناصرون ﴾ إلى قول أبي جهل يوم بدر : ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ [ القمر : 44 ] .

(295/651)

---

ثم أضرب سبحانه عما تقدّم إلى بيان الحالة التي هم عليها هنالك ، فقال : ﴿ بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ أي : منقادون لعجزهم عن الحيلة .

قال قتادة : مستسلمون في عذاب الله .

وقال الأخفش : ملقون بأيديهم ، يقال : استسلم للشيء : إذا انقاد له وخضع .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ أي : أقبل بعض الكفار على بعض يتساءلون .

قيل : هم الأتباع ، والرّؤساء يسأل بعضهم بعضاً سؤال توبيخ وتقريع ومخاصمة .

وقال مجاهد : هو قول الكفار للشياطين .

وقال قتادة : هو قول الإنس للجنّ ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ قَالُواْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين ﴾ أي : كنتم تأتوننا في الدنيا عن اليمين ، أي : من جهة الحقّ ، والدين ، والطاعة ، وتصدّونا عنها .

قال الزجاج : كنتم تأتوننا من قبل الدين ، فترونا أن الدين ، والحق ما تضلوننا به ، واليمين

عبارة عن الحق ، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن إبليس : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أيمانهم ﴾ [ الأعراف : 17 ] قال الواحدي : قال أهل المعاني : إن الرّؤساء كانوا قد حلفوا لهؤلاء الأتباع أن ما يدعونهم إليه هو الحق ، فوثقوا بأيمانهم : فمعنى ﴿ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين ﴾ أي : من ناحية الأيمان التي كنتم تحلفونها ، فوثقنا بها .

قال : والمفسرون على القول الأوّل .

وقيل : المعنى : تأتوننا عن اليمين التي نحبها ، ونتفاءل بها ، لتغرّونا بذلك عن جهة النصح ، والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين ، وتسميه السانح .

(296/651)

---

وقيل : اليمين بمعنى : القوّة ، أي : تمنعوننا بقوّة ، وغلبة ، وقهر كما في قوله : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً باليمين ﴾ [ الصافات : 93 ] أي : بالقوّة ، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، وكذلك جملة ﴿ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فإنها مستأنفة جواب سؤال مقدّر ؛ والمعنى : أنه قال الرؤساء ، أو الشياطين لهؤلاء القائلين : كنتم تأتوننا عن اليمين بل لم تكونوا مؤمنين ، ولم نمنعكم من الإيمان .

والمعنى : أنكم لم تكونوا مؤمنين قطّ حتى ننقلكم عن الإيمان إلى الكفر ، بل كنتم من الأصل

على الكفر ، فأقمتم عليه .

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّن سلطان ﴾ من تسلط بقهر ، وغلبة حتى ندخلكم في الإيمان ، ونخرجكم من الكفر ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طاغين ﴾ أي : متجاوزين الحدّ في الكفر ، والضلال ، وقوله : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ من قول المتبوعين ، أي : وجب علينا ، وعليكم ، ولزمنا قول ربنا ، يعنون قوله تعالى : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ ص : 85 ] إنا لذائقو العذاب ، أي : إنا جميعاً لذائقو العذاب الذي ورد به الوعيد .

قال الزجاج : أي : إن المضلّ ، والضّال في النار ﴿ فأغويناكم ﴾ أي : أضللناكم عن الهدى ، ودعوناكم إلى ما كنا فيه من الغيّ ، وزينا لكم ما كنتم عليه من الكفر ﴿ إِنَّا كُنَّا غاوين ﴾ فلا عتب علينا في تعرّضنا لإغوائكم ؛ لأنا أردنا أن تكونوا أمثالنا في الغواية ؛ ومعنى الآية : أقدمنا على إغوائكم لأنا كنا موصوفين في أنفسنا بالغواية ، فأقرّوا ها هنا بأنهم تسببوا لإغوائهم ، لكن لا بطريق القهر ، والغلبة ، ونفوا عن أنفسهم فيما سبق أنهم قهروهم ، وغلبوهم ، فقالوا : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّن سلطان ﴾ .

ثم أخبر الله سبحانه عن الأتباع، والمتبوعين بقوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ أي: إنا نفعل مثل ذلك الفعل بالمجرمين، أي: أهل الإجرام، وهم المشركون كما يفيده قوله سبحانه: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إله إِلاَّ الله يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي: إذا قيل لهم: قولوا: لا إله إلاّ الله يستكبرون عن القبول، ومحل يستكبرون النصب على أنه خبر كان، أو الرفع على أنه خبر إن، وكان ملغاة ﴿ وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُوا ءالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ يعنون: النبي صلى الله عليه وسلم، أي: لقول شاعر مجنون، فردّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿ بَلْ جَاء بالحق ﴾ يعني: القرآن المشتمل على التوحيد، والوعد، والوعيد ﴿ وَصَدَّقَ المرسلين ﴾ أي: صدّقهم فيما جاءوا به من التوحيد، والوعيد، وإثبات الدار الآخرة، ولم يخالفهم، ولا جاء بشيء لم تأت به الرسل قبله ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو العذاب الأليم ﴾ أي: إنكم بسبب شرككم، وتكذيبكم لذائقوا العذاب الشديد الألم.

قرأ الجمهور ﴿ لذائقوا ﴾ بحذف النون، وخفض العذاب، وقرأ أبان بن ثعلب عن عاصم، وأبو السماك بحذفها، ونصب العذاب، وأنشد سيبويه في مثل هذه القراءة بالحذف للنون، والنصب للعذاب قول الشاعر:

فألفيته غير مستعتب... ولا ذاكر الله إلا قليلاً

وأجاز سيبويه أيضاً: "والمقيمي الصلاة" بنصب الصلاة على هذا التوجيه.

وقد قرئ بإثبات النون ، ونصب العذاب على الأصل .

ثم بيّن سبحانه : أن ما ذاقوه من العذاب ليس إلا بسبب أعمالهم ، فقال : ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : إلا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر ، والمعاصي ، أو إلا بما كنتم تعملون .

ثم استثنى المؤمنين فقال : ﴿ إِلَّا عِبَادَ الله المخلصين ﴾ .

(298/651)

---

قرأ أهل المدينة ، والكوفة ﴿ المخلصين ﴾ بفتح اللام ، أي : الذين أخلصهم الله لطاعته ، وتوحيده .

وقرأ الباقون بكسرها ، أي : الذين أخلصوا لله العبادة ، والتوحيد ، والاستثناء إما متصل على تقدير تعميم الخطاب في ﴿ تجزون ﴾ لجميع المكلفين .

أو منقطع ، أي : لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى المخلصين ، وهو : مبتدأ ، وخبره قوله : ﴿ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أي : لهؤلاء المخلصين رزق يرزقهم الله إياه معلوم في حسنه ، وطيبه ، وعدم انقطاعه .

قال قتادة : يعني : الجنة ، وقيل : معلوم الوقت ، وهو أن يعطوا منه بكرة ، وعشية كما في

قوله : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [ مريم : 62 ] وقيل : هو المذكور في قوله بعده : ﴿ فواكه ﴾ فإنه بدل من ﴿ رزق ﴾ ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو فواكه ، وهذا هو الظاهر .

والفواكه جمع الفاكهة ، وهي : الثمار كلها رطبها ، ويابسها ، وخصص الفواكه بالذكر ؛ لأن أرزاق أهل الجنة كلها فواكه كذا قيل .

والأولى أن يقال : إن تخصيصها بالذكر ؛ لأنها أطيب ما يأكلونه ، وألذّ ما تشتهيه أنفسهم .

وقيل : إن الفواكه من أتباع سائر الأطعمة ، فذكرها يغني عن ذكر غيرها ، وجملة : ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : ولهم من الله عزّ وجلّ إكرام عظيم برفع درجاتهم عنده ، وسماع كلامه ، ولقائه في الجنة .

قرأ الجمهور ﴿ مكرمون ﴾ بتخفيف الراء .

وقرأ أبو مقسم بتشديدها ، وقوله : ﴿ فِي جنات النعيم ﴾ يجوز أن يتعلق ب ﴿ مكرمون ﴾ ، وأن يكون خبراً ثانياً ، وأن يكون حالاً ، وقوله : ﴿ على سُرُرٍ ﴾ يحتمل أن يكون حالاً ، وأن يكون خبراً ثالثاً ، وانتصاب ﴿ متقابلين ﴾ على الحالية من الضمير في ﴿ مكرمون ﴾ ، أو من الضمير في متعلق على ﴿ سرر ﴾ .

قال عكرمة ، ومجاهد : معنى التقابل : أنه لا ينظر بعضهم في قفا بعض ، وقيل : إنها تدور بهم الأسرّة كيف شاءوا ، فلا يرى بعضهم قفا بعض .

قرأ الجمهور ﴿ سرر ﴾ بضم الراء .

وقرأ أبو السماك بفتحها ، وهي لغة بعض تميم .

ثم ذكر سبحانه صفة أخرى لهم ، فقال : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ ، ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة جواباً عن سؤال مقدّر ، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من ضمير ﴿ متقابلين ﴾ ، والكأس عند أهل اللغة اسم شامل لكلّ إناء فيه الشراب ، فإن كان فارغاً ، فليس بكأس .

وقال الضحاك ، والسدّي : كل كأس في القرآن ، فهي الخمر .

قال النحاس : وحكى من يوثق به من أهل اللغة : أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر : كأس ، فإذا لم يكن فيه خمر ، فهو قدح كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام : مائدة ، فإذا لم يكن عليه طعام : لم يقل له مائدة ، و ﴿ من معين ﴾ متعلق بمحذوف هو : صفة لكأس .

قال الزجاج : ﴿ بكأس من معين ﴾ ، أي : من خمر تجري كما تجري العيون على وجه الأرض .

والمعين : الماء الجاري ، وقوله : ﴿ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ صفتان لكأس .

قال الزجاج : أي : ذات لذّة ، فحذف المضاف ، ويجوز أن يكون الوصف بالمصدر لقصد المبالغة في كونها لذّة ، فلا يحتاج إلى تقدير المضاف .

قال الحسن : خمر الجنة أشدّ بياضاً من اللبن له لذّة لذيذة ، يقال : شراب لذّ ، ولذيذ كما يقال : نبات غضّ وغضيض ، ومنه قول الشاعر :

بحديثها اللذّ الذي لو كلمت . . . أسد الفلاة به أتين سراعا

واللذيذ : كل شيء مستطاب ، وقيل : البيضاء : هي التي لم يعتصرها الرجال .

ثم وصف هذه الكأس من الخمر بغير ما يتصف به خمر الدنيا ، فقال : ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أي : لا تغتال عقولهم ، فتذهب بها ، ولا يصيبهم منها مرض ، ولا صداع ﴿ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ أي : يسكرون ، يقال : نزف الشارب ، فهو منزوف ، ونزيف إذا سكر ، ومنه قول امرىء القيس :



---

وإذا هي تمشي كمشي النزي . . . ف يصرعه بالكثيب البهر

وقال أيضاً :

نزيف إذا قامت لوجه تمايلت . . . ومنه قول الآخر :

فلثمت فاها آخذاً بقرونها . . . شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

قال الفراء : العرب تقول : ليس فيها غيلة ، وغائلة ، وغول سواء .

وقال أبو عبيدة : الغول أن تغتال عقولهم ، وأنشد قول مطيع بن إياس :

وما زالت الكأس تغتالهم . . . وتذهب بالأوّل الأوّل

وقال الواحدي : الغول حقيقته : الإهلاك ، يقال : غاله غولاً ، واغتاله ، أي : أهلكه ، والغول كل ما اغتالك ، أي : أهلكك .

قرأ الجمهور ﴿ ينزفون ﴾ بضم الياء ، وفتح الزاي مبنياً للمفعول .

وقرأ حمزة ، والكسائي بضم الياء ، وكسر الزاي من أنزف الرجل : إذا ذهب عقله من السكر فهو : نزيف ، ومنزوف ، ومنزف ، يقال : أحصد الزرع : إذا حان حصاده ، وأقطف الكرم : إذا حان قطافه .

قال الفراء : من كسر الزاي ، فله معنيان ، يقال : أنزف الرجل : إذا فنيت خمره ، وأنزف : إذا ذهب عقله من السكر ، وتحمل هذه القراءة على معنى : لا ينفد شرابهم لزيادة الفائدة .

قال النحاس : والقراءة الأولى أبين ، وأصحّ في المعنى ؛ لأن معنى ﴿ لا ينزفون ﴾ عند جمهور المفسرين : لا تذهب عقولهم ، فنفى الله عزّ وجلّ عن خمر الجنة الآفات التي تلحق في الدنيا من خمرها من الصداع ، والسكر .

وقال الزجاج، وأبو علي الفارسي : معنى لا ينزفون بكسر الزاي : لا يسكرون .

قال المهدوي : لا يكون معنى ينزفون : يسكرون ، لأن قبله ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أي : لا تغتال عقولهم ، فيكون تكريراً ، وهذا يقوّي ما قاله قتادة : إن الغول وجع البطن ، وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد .

وقال الحسن : إن الغول الصداع .

وقال ابن كيسان : هو : المغص ، فيكون معنى الآية : لا فيها نوع من أنواع الفساد المصاحبة لشرب الخمر في الدنيا من مغص ، أو وجع بطن ، أو صداع ، أو عربدة ، أو لغو ، أو تأثيم ، ولا هم يسكرون منها .



---

ويؤيد هذا أن أصل الغول : الفساد الذي يلحق في خفاء ، يقال : اغتاله اغتيالاً : إذا أفسد عليه أمره في خفية ، ومنه الغول ، والغيلة القتل خفية .

وقرأ ابن أبي إسحاق " ينزفون " بفتح الياء ، وكسر الزاي .

وقرأ طلحة بن مصرّف بفتح الياء وضم الزاي .

ولما ذكر سبحانه صفة مشروبهم ذكر عقبه صفة منكوحهم ، فقال : ﴿ وَعِندَهُمْ

قاصرات الطرف ﴾ أي : نساء قصرن طرفهنّ على أزواجهنّ ، فلا يردن غيرهم ،

والقصر : معناه الحبس ، ومنه قول امرىء القيس :

من القاصرات الطرف لو دب محول . . . من الذرّ فوق الأتب منها لأثرا

والمحول الصغير من الذرّ ، والأتب القميص ، وقيل : القاصرات : المحبوسات على أزواجهنّ

، والأوّل أولى ؛ لأنه قال : قاصرات الطرف .

ولم يقل : مقصورات .

والعين : عظام العيون جمع عيناء ، وهي : الواسعة العين .

قال الزجاج : معنى ﴿ عِينٌ ﴾ كبار الأعين حسناها .

وقال مجاهد : العين : حسان العيون .

وقال الحسن : هنّ : الشديدات بياض العين الشديدات سوادها .

والأوّل أولى ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ قال الحسن ، وأبو زيد : شبههنّ ببيض النعام تكنها

النعامة بالريش من الريح ، والغبار .

فلونه أبيض في صفرة ، وهو أحسن ألوان النساء .

وقال سعيد بن جبير ، والسدّي : شبههنّ ببطن البيض قبل أن يقشر ، وتمسه الأيدي ، وبه

قال ابن جرير ، ومنه قول امرىء القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها . . . تمتعت من لهو بها غير معجل

قال المبرد : وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن ، والنظافة كأنه بيض النعام المغطى بالريش .

وقيل : المكنون : المصون عن الكسر ، أي : إنهنّ عذارى ، وقيل : المراد بالبيض : اللؤلؤ كما في قوله : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ * كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ [ الواقعة : 22 ، 23 ] ومثله قول الشاعر :

وهي بيضاء مثل لؤلؤة الغوّا . . . ص ميزت من جوهر مكنون

والأوّل أولى ، وإنما قال : ﴿ مكنون ﴾ ، ولم يقل : مكنونات ؛ لأنه وصف البيض باعتبار اللفظ .

(302/651)

---

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وأزواجهم ﴾ قال : تقول الملائكة للزبانية هذا القول .

وأخرج عبد الرّزاق ، والفريابي ، وابن أبي شيبة ، وابن منيع في مسنده ، وعبد بن حميد ، وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث من طريق النعمان بن بشير ، عن عمر بن الخطاب في قوله : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ

وأزواجهم ﴾ قال : أمثالهم الذين هم مثلهم ، يجيء أصحاب الرّبا مع أصحاب الرّبا ، وأصحاب الزّنا مع أصحاب الزّنا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر ، أزواج في الجنة ، وأزواج في النار .

وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وأزواجهم ﴾ قال : أشباههم ، وفي لفظ : نظراءهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ قال : وجهوهم ، وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال : دلوهم ﴿ إلى صراط الجحيم ﴾ قال : طريق النار .

وأخرج عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾ قال : احبسوهم إنهم محاسبون .

وأخرج البخاري في تاريخه ، والدارمي ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً معه يوم القيامة لازماً به لا يفارقه ، وإن دعا رجل رجلاً " ثم قرأ ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُون ﴾ .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ قال : ذلك إذا بعثوا في النفخة الثانية .

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في قوله: ﴿ كَانُوا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ قال: كانوا إذا لم يشرك بالله يستنكفون، ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ لا يعقل، قال: فحكى الله صدقه، فقال: ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله، ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله " وأنزل الله في كتابه، وذكر قوماً استكبروا، فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾، وقال: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [الفتح: 26] وهي: لا إله إلا الله محمد رسول الله، استكبر عنها المشركون يوم الحديبية يوم كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قضية الهدنة.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله

: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ قال : الخمر ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ قال : ليس فيها صداع ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ قال : لا تذهب عقولهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه قال : في الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقيء ، والبول ، فنزّه الله خمر الجنة عنها ، فقال : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ لا تغول عقولهم من السكر ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ قال : يقيئون عنها كما يقيء صاحب خمر الدنيا عنها .

(304/651)

---

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ قال : هي : الخمر ليس فيها وجع بطن .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في البعث عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَعِندَهُمْ قاصرات الطرف ﴾ يقول : من غير أزواجهنّ ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ قال : اللؤلؤ المكنون .

وأخرج ابن المنذر عنه في قوله : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ قال : بياض البيضة ينزع عنها فوفها ، وغشاؤها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(305/651)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40) ﴾

استثناء منقطع في معنى الاستدراك ، والاستدراك تعقيب الكلام بما يضاده ، وهذا الاستدراك تعقيب على قوله : ﴿ فإنَّهم يومئذٍ في العذابِ مشتركونَ ﴾ [ الصافات : 33 ] فإن حال عبَاد الله المخلصين تام الضدية لحال الذين ظلموا ، وليس يلزم في الاستدراك أن يكون رفعَ توهّم وإنما ذلك غالب ، فقول بعض العلماء في تعريفه هو : تعقيب الكلام برفع ما يُتوهم ثبوتُه أو نفيُه ، تعريف أغلبي ، أو أريد أدنى التوهم لأن الاستثناء المنقطع أعمّ من ذلك ، فقد يكون إخراجاً من حكم لا من محكوم عليه ضرورة أنهم صرحوا بأن حرف الاستثناء في المنقطع قائم مقام لكن ، ولذلك يقتصرون على ذكر حرف الاستثناء والمستثنى بل يردفونه بجملة تُبين محلّ الاستدراك كقوله تعالى : ﴿ فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ [ الأعراف : 11 ] وقوله : ﴿ إلا إبليس أبى ﴾ [ البقرة : 34 ] ، وكذلك قوله هنا : ﴿ إلاَّ عِبَادَ الله المُخلصين أُولَئِكَ لهم رزقٌ معلومُ ﴾ .

ولو كان المعنى على الاستثناء لما أتبع المستثنى بأخبار عنه لأنه حينئذٍ يثبت له نقيض حكم المستثنى منه بمجرد الاستثناء ، فإن ذلك مُفاد ﴿ إلا ، ونظيره مع لكن قولُه تعالى :

﴿ أفأنت تنقذ من في النار لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف ﴾ الآية في سورة [ الزُّمَر : 19 - 20 ].

(306/651)

---

وذِكر المؤمنين بوصف العبودية المضافة لله تعالى تنويه بهم وتقريب، وذلك اصطلاح غالب في القرآن في إطلاق العبدِ والعبادِ مضافاً إلى ضميره تعالى كقوله : ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾ [ ص : 17 ] ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ [ ص : 45 ] ﴿ يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ [ الزخرف : 68 ] ، وربما أطلق العبد غير مضاف مراداً به التقريب أيضاً كقوله : ﴿ ووهبنا لداوود سليمان نعم العبد ﴾ [ ص : 30 ] ، أي العبد لله ، ألا ترى أنه لما أريد ذكر قوم من عباد الله من المشركين لم يؤت بلفظ العباد مضافاً كما في قوله تعالى : ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ﴾ [ الإسراء : 5 ] إلاّ بقرينة مقام التوبيخ في قوله : ﴿ أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ﴾ [ الفرقان : 17 ] لأن صفة الإضلال قرينة على أن الإضافة ليست للتقريب ، وقوله : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [ الحجر : 42 ] فقرينة التغليب هي مناط استثناء الغاوين من قوله ﴿ عبادي وينسب إلى الشافعي:

وممّا زادني شَرَفاً وفخراً . . .

وكِدْتُ بأَخْمَصي أَطأُ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي . . .

وأن أرسلتَ أحمدَ لي نبيا

والمراد بهم هنا الذين آمنوا بالنبي فإنهم الذين يخطرون بالبال عند ذكر أحوال المشركين الذين كفروا به وقالوا فيه ما هو منه بريء خطورَ الضد بذكر ضده .

والمُخلَصين ﴾ صفة عباد الله وهو بفتح اللام إذا أريد الذين أخلصهم الله لولايته ، وبكسرها أي الذين أخلصوا دينهم لله .

فقرأه نافع وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بفتح اللام .

وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بكسر اللام .

و﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى ﴿ عِبادَ الله ﴾ قصد منه التنبيه على أنهم استحقوا ما بعد اسم الإِشارة لأجل مما أُثبت لهم من صفة الإِخلاص كما ذلك من مقتضيات تعريف المسند إليه بالإِشارة كقوله تعالى:

﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [ البقرة : 5 ] بعد قوله : ﴿ هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ﴾ الآية في سورة [ البقرة : 2 – 3 ] .

والرزق : الطعام قال تعالى : ﴿ وجد عندها رزقاً ﴾ [ آل عمران : 37 ] ، وقال : ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه ﴾ [ يوسف : 37 ] .

والمعلوم : الذي لا يتخلف عن ميعاده ولا ينتظره أهله .

و ﴿ فَوَاكِهُ ﴾ عطف بيان من ﴿ رِزْقٌ ﴾ .

﴿ والمعنى : أن طعامهم كله من الأطعمة التي يتفكه بها لا مما يؤكل لأجل الشبع .

والفواكه : الثمار والبقول اللذيذة .

﴿ وَهُم مُكْرَمُونَ ﴾ عطف على ﴿ لهم رزق معلوم ، ﴾ أي يعاملون بالحفاوة والبهجة فإنه وسط في أثناء وصف ما أعد لهم من النعيم الجسماني أن لهم نعيم الكرامة وهو أهم لأن به انتعاش النفس مع ما في ذلك من خلوص النعمة مما يكدرها وذلك لأن الإِحسان قد يكون غير مقترن بمدح وتعظيم ولا بأذى وهو الغالب ، وقد يكون مقترناً بأذى وذلك يكدِّر من صَفوه ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ [ البقرة : 264 ] فإذا كان الإِحسان مع عبارات الكرامة وحسن التلقّي فذلك الثواب .

و ﴿ سُرر ﴾ : جمع سرير وهو ككرسيّ واسع يمكن الاضطجاع عليه ، وكان الجلوس على السرير من شعار الملوك وأضرابهم ، وذلك جلوس أهل النعيم لأن الجالس على السرير

لا يجد مَللاً لأنه يُغيّر جِلسته كيف تيسّر له .

و ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ كل واحد قُبالة الآخر .

وهذا أتم للأُنس لأن فيه أنس الاجتماع وأنس نظر بعضهم إلى بعض فإن رؤية الحبيب والصديق تؤنس النفس .

والظاهر : أن معنى كونهم متقابلين تقابل أفراد كل جماعة مع أصحابهم ، وأنهم جماعات على حسب تراتيبهم في طبقات الجنة ، وأن أهل كل طبقة يُقسمون جماعات على حسب قرابتهم في الجنة كما قال تعالى : ﴿ هم وأزواجهم في ظلال ﴾ [ يس : 56 ] وكثرة كل جماعة لا تنافي تقابلهم على السرر والأرائك وتحادثهم لأن شؤون ذلك العالم غير جارية على المتعارف في الدنيا .

*(308/651)*

---

ومعنى ﴿ يُطَافُ ﴾ يدار عليهم وهم في مجالسهم .

والكأس ( بهمزة بعد الكاف ) : إناء الخمر ، مؤنث ، وهي إناء بلا عُروة ولا أنبوب واسعة الفم ، أي محل الصب منها ، تكون من فضة ومن ذهب ومن خزف ومن زجاج ، وتسمى قَدَحاً وهو مذكر .

وجمع كأس : كاسات وكؤوس وأكؤس .

وكانت خاصة بسقي الخمر حتى كانت الكأس من أسماء الخمر تسمية باسم المحلّ ،

وجعلوا منه قول الأعشى :

وكأسٍ شربتُ على لَذة . . .

وأخرى تداوَيت منها بها

وقد قيل : لا يسمى ذلك الإناء كأساً إلا إذا كانت فيه الخمر وإلا فهو قَدَح .

والمعنيُّ بها في الآية الخمرُ لأنه أفرد الكأس مع أن المَطُوف عليهم كثيرون ، ولأنها وُصفت

بأنها ﴿ من مَعين ﴾ .

وروى ابن أبي شيبة والطبري عن الضحّاك أنه قال : كل كأس في القرآن إنما عني بها الخمر .

وروي مثله عن ابن عباس وقال به الأخفش .

و﴿ مَعِين ﴾ بفتح الميم ، قيل أصله : مَعْيون .

فقيل : ميمه أصلية ، وهو مشتق من مَعَن يقال : ماء مَعْنٌ ، فيكون ﴿ مَعِين ﴾ بوزن فَعيل

مثال مبالغة من المَعْن وهو الإبعاد في الفعل شبّه جريه بالإبعاد في المشي ، وهذا أظهر في

الاشتقاق .

وقيل : ميمه زائدة وهو مشتق من عانَهُ ، إذا أبصره لأنه يظهر على وجه الأرض في سيلانه

فوزنه مَفْعول ، وأصله مَعْيُون فهو مشتق من اسم جامد وهو اسم العَين ، وليس فعل عَانَ

مستعملاً استغنوا عنه بفعل عَايَن .

و﴿ بَيْضَاءَ ﴾ صفة ل"كأس" .

وإذ قد أريد بالكأس الخمر الذي فيها كان وصف ﴿ بَيْضَاءَ ﴾ للخمر .

وإنما جرى تأنيث الوصف تبعاً للتعبير عن الخمر بكلمة كأس ، على أن اسم الخمر يذكر ويؤنث وتأنيثها أكثر .

روى مالك عن زيد بن أسلم : لونها مشرق حسن فهي لا كخمر الدنيا في منظرها الرديء من حُمرة أو سواد .

واللذة : اسم معناه إدراك ملائم نفس المدرك ، يقال : لذّه ولذّ به ، والمصدر : اللذة واللذاذة .



وفعله من باب فرح ، تقول : لذذت بالشيء ويقال : شيء لَذٌّ ، أي لذيذ فهو وصف بالمصدر فإذا جاء بهاء التأنيث كما في هذه الآية فهو الاسم لا محالة لأن المصدر الوصف لا يؤنث بتأنيث موصوفه ، يقال : امرأة عدل ولا يقال : امرأة عدلة .

ووصف الكأس بها كالوصف بالمصدر يفيد المبالغة في تمكن الوصف ، فقوله تعالى : ﴿

لَذَّةٍ ﴾ هو أقصى مما يؤدي شدة الالتذاذ بكلمة واحدة ، لأنه عُدل به عن الوصف الأصلي لقصد المبالغة ، وعُدل عن المصدر إلى الاسم لما في المصدر من معنى الاشتقاق .

وجملة ﴿ لا فِيها غَوْلٌ ﴾ صفة رابعة لكأس باعتبار إطلاقه على الخمر .

والغَول ، بفتح الغيْن : ما يعتري شارب الخمر من الصداع والألم ، اشتق من الغَول مصدرِ غاله ، إذا أهلكه .

وهذا في معنى قوله تعالى : ﴿ لا يصدعون عنها ﴾ [ الواقعة : 19 ] .

وتقديم الظرف المسند على المسند إليه لإِفادة التخصيص ، أي هو منتفٍ عن خمر الجنة فقط دونَ ما يعرف من خمر الدنيا ، فهو قصر قلب .

ووقوع ﴿ غَوْلٌ ﴾ وهو نكرة بعد ﴿ لا ﴾ النافية أفاد انتفاء هذا الجنس من أصله ، ووجب رفعه لوقوع الفصل بينه وبين حرف النفي بالخبر .

وجملة ﴿ ولا هم عنها يُنزفون ﴾ معطوفة على جملة ﴿ لا فيها غَوْلٌ .

وقدّم المسند عليه على المسند ، والمسند فعل ليفيد التقديم تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلي ، أي بخلاف شاربي الخمر من أهل الدنيا .

ويُنزَفُونَ ﴾ مبني للمجهول في قراءة الجمهور يقال : نُزف الشارب ، بالبناء للمجهول إذا كان مجرداً ( ولا يُبنى للمعلوم ) فهو منزوف ونزيف ، شبهوا عقل الشارب بالدم يقال : نُزف دمُ الجريح ، أي أُفرغ .

وأصله من : نَزفَ الرجُل مَاءَ البئر متعدياً ، إذا نَزحه ولم يُبق منه شيئًا .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف ﴿ يُنزِفُونَ ﴾ بضم اليَاء وكسر الزاي من أُنْزِف الشاربُ ، إذا ذهب عقله ، أي صار ذا نَزَف ، فالهمزة للصيرورة لا للتعدية .

(310/651)

---

و ﴿ قاصِراتُ الطَّرْفِ ﴾ أي حابسات أنظارهن حياء وغَنجاً .

والطرف : العين ، وهو مفرد لا جمع له من لفظه لأن أصل الطرف مصدر : طَرَفَ بعينه من باب ضَرب ، إذا حرّك جفنيه ، فسُميّت العين طرفاً ، فالطرف هنا الأعين ، أي قاصرات الأعين ، وتقدم عند قوله تعالى:

﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ في سورة [ إبراهيم : 43 ] ، وقوله : ﴿ قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ في سورة [ النمل : 40 ] .

وذكر "عند" لإِفادة أنهن ملابسات لهم في مجالسهم التي تُدار عليهم فيها كأس الجنة ، وكان حضور الجواري مجالس الشراب من مكملات الأنس والطرب عند سادة العرب ، قال طرفة:

نَداماي بيض كالنجوم وقَينة . . .

تروحُ علينا بين برد ومِجْسَد

و ﴿ عِينٌ ﴾ جمع : عَيْنَاء ، وهي المرأة الواسعة العين النجلاوتها .

والبَيْض المكنون : هو بيض النعام ، والنعام يُكنّ بيضَه في حُفر في الرمل ويفرش لها من دقيق ريشه ، وتسمى تلك الحُفر : الأَداحِيّ ، واحدتها أُدّحية بوزن أُثفية .

فيكون البَيض شديد لمعان اللون وهو أبيض مشوب بياضه بصفرة وذلك اللون أحسن ألوان النساء ، وقديماً شبهوا الحسان ببيض النعام ، قال امرؤ القيس :

وبيضةِ خدر لا يُرام خباؤها . . .

تمتعت من لَهْوبها غيرَ مُعْجَل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

*(311/651)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40) ﴾

الاستثناء راجعٌ إلى قوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ .

ويقال الإخلاصُ إفرادُ الحقِ – سبحانه – بالعبودية ، والذي يشوبُ عمله رياءٌ فليس

بمخلص.

ويقال: الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، وفي الخبر: "يا معاذ، أخلص العملَ يكفيك القليل منه".

ويقال: الإخلاص فقدُ رؤية الأشخاص.

ويقال: هو أن يلاحظ محل الاختصاص.

ويقال: هو أن تنظر إلى نفسك بعين الانتقاص.

أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (42)

لهم رزقٌ معلومٌ لأوقاتٍ مُعينه، وفي وقت الرسول عليه السلام: "مَنْ كان له رزقٌ معلومٌ كان من جملة المياسير، وهذه صفة أهل الجنة؛ فلهُمْ في الآخرة رزقٌ معلوم لأبشارهم ولأسرارهم، فالأغنياء لهم رزقٌ معلوم لأَنفسهم والفقراء لهم رزق معلوم لقلوبهم وأسرارهم.

﴿ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾: من ذلك ورود الرسول عليهم من قِبَلِ الله في كل وقت، وكذلك اليومَ الخطابُ واردٌ من الله على قلوب الخواص في كل وقت بكلّ أمر.

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (44)

يستأنِسُ بعضُهم برؤية بعضٍ، ويستروح بعضُهم إلى لقاء بعض.

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46)

شراب يوجِبُ لهم الطَّرْدَ ولا وحشةَ هناك ، شرابًا يُحْضِرهم ولا يُسْكِرُهم ، لأَنه قال :

لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (47)

فلا تغتال عُقولَهم ولا تُزِيل حِشْمَتَهم ، ولا تَرْفَعُ عنهم هَيْبَتَهم ؛ فقومٌ يشربون وهم بوصف الستر ، وآخرون يُسْقَوْن في الحضور - وهم على نعت القُرْب .

وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49)

(312/651)

---

لا يَنْظُرْنَ إلى غير الوليّ ، ثم الوليُّ قد ينظر إليهن ، وفيهم مَنْ لا ينظر إليهن :

جُنِنَّا بِلَيْلَى وهي جُنَّتْ بغيرنا . . . وأخرى بنا مجنونةٌ لا نريدها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 232.233 ﴾

(313/651)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والخمسون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾



---

الجزء الثانى والخمسون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 50 ﴾ من سورة الصافات

وحتى الآية ﴿ 82 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (53) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (55) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ذلك الاجتماع إنما هو للسرور ، وكان السرور لا يتم إلا بالمنادمة ، وكان أحلى المنادمة ما يذكر بحلول نعمة أو انحلال نقمة ، تسبب عن ذلك ولا بد قوله إشارة إلى فراغ البال وصحة العقل بالإصابة في المقال : ﴿ فأقبل بعضهم ﴾ أي أهل الجنة بالكلام ، وأشار إلى أن مجرد الإقبال بالقصد يلفت القلوب إلى سماعه بأداة الاستعلاء فقال : ﴿ على بعض ﴾ أي لأجل الكلام الذي هو روح ذلك المقام ، وأما المواجهة فقد تقدم أنها دائمة ، وبين حال هذا الإقبال فقال : ﴿ يتساءلون ﴾ أي يتحدثون حديثاً بيناً لا خفاء بشيء منه بما أشار إليه الإظهار بما حقه أن يهتم به ويسأل عنه من أحوالهم التي خلصوا منها بعد أن

كادت ترديهم ، وسماه سؤالاً لأنه مع كونه أهلاً لأن يسأل عنه - لا يخلو عن سؤال أدناه سؤال المحادث أن يصغي إلى الحديث ، وعبر عنه بالماضي إعلاماً بتحققه تحقق ما وقع .

(5/652)

---

ولما تشوف السامع إلى سماع شيء منها يكون نموذجاً للباقي ، أشار إلى ذلك بقوله مستأنفاً : ﴿ قال قائل منهم ﴾ أي في هذا التساؤل ، وشتان ما بينه وبين ما مضى خبره من تساؤل أهل النار .

ولما كان ظنه أنه لا يخلص من شر ذلك القرين الذي يحدث عنه فنجاه الله منه على خلاف الظاهر ، فكان ذلك إحدى النعم الكبرى ، نبه عليه بالتأكيد فقال : ﴿ إني كان لي قرين ﴾ أي جليس من الناس كأنه شيطان مبين ﴿ يقول ﴾ أي مكذباً بالبعث مستبعداً له غاية الاستبعاد مجدداً لقوله في كل وقت ، يريد أن يخدعني بلطافة قياده إلى سوء اعتقاده : ﴿ أإنك لمن المصدقين ﴾ أي بالبعث - يوبخني بذلك ويستقصر باعي في النظر استثارة لهمتي وإلهاباً لنخوتي وحميتي ، ويكرر الإنكار بقوله : ﴿ أإذ متنا ﴾ أي فذهبت أوراحنا ﴿ وكنا ﴾ أي كوناً راسخاً ﴿ تراباً وعظاماً ﴾ أي فانمحقت أجسامنا التي هي مراكب الأرواح ﴿ أإنا لمدينون ﴾ أي لمجزيون بعد ذلك بما عملنا بأن نبعث ونجازى ، وكان تأكيده

للإشارة منه إلى كل عاقل جدير بأن يكذب بما أقررت به لبعده ، أو إلى أنه مكذب به ولو كان مؤكداً .

ولما كان هذا المقال سبباً لعظيم تشوف السامع إلى ما يكون بعده ، وكان أهل الجنة من علو المكان والمكانة وصحة الأجسام وقوة التركيب ونفوذ الأبصار بحيث ينظرون ما شاؤوا من النار وغيرها مما دونهم متى شاؤوا ، استانف قوله مشيراً إلى أن حاله هذت معلم أنه من أهل النار : ﴿ قال ﴾ أي هذا القائل لشربه هؤلاء الذين هم كما قال بعضهم في موشح :

رب شرب كالعقد قد نظموا . . .

في ثياب طرازها الكرم

فاغتنمت الهنا كما اغتنموا . . .

وظننت الكووس بينهمو

أنجماً في سما الهناء ترى . . .

كل نجم يغيب في بدر

﴿ هل أنتم مطلعون ﴾ أي شافون قلبي بأن تتركوا ما أنتم فيه من تمام اللذة وتكلفوا أنفسكم النظر معي في النار لتسروني بذلك .

ولما كان المحدث عنه المخلصين ، وهم أهل الجنة كلهم أو جلهم ، وكان الضمير يعود لما سبقه بعينه ، وكان مخاطبو هذا القائل إنما هم شربه ، وكان من المعلوم مما مضى من التقابل والتواد والتواصل بالمنادمة والتساؤل أنهم ينتدبون ندبهم إليه ويقبلون قطعاً عليه ، وكان النافع لنا إنما هو قوله فقط في توبيخ عدوه وتغبيط نفسه ووليه ، لم يجمع الضمير لئلا يلبس فيوهم أنه للجميع ، وأعاده عليه وحده لنعتبر بمقاله ، ونتعظ بما قص علينا من حاله فقال :

﴿ فاطلع ﴾ أي بسبب ما رأى لنفسه في ذلك من عظيم اللذة إلى أهل النار ﴿ فرآه ﴾ أي ذلك القرين السوء ﴿ في سواء الجحيم ﴾ أي في وسطها وغمرتها تضطرم عليه أشد اضطرام بما كان يضرم في قلبه في الدنيا من الحر كلما قال له ذلك المقال ، وسمي الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلى الجوانب كمركز الدائرة ، ثم استأنف الإخبار عن مكافأته له بما كان من تقريعه وتوبيخه على التصديق بالآخرة بقوله : ﴿ قال ﴾ أي لقرينه ذلك .

ولما كان لا يقع في فكر أنه كان يتلفت إلى قوله هذا نوع التفاف لأنه ظاهر البطلان ، ولأن هذا القائل محكوم بأنه من أهل الجنة ، أكد قوله إشارة إلى أنه كان يؤثر فيه قوله في كثير من الأوقات بما يزينه به الشيطان وتحسنه النفوس بالشهوات ، والراحة من كلف الطاعات ، وساقه في أسلوب القسم تنبيهاً على التعجب من سلامته منه فقال : ﴿ تالله ﴾ وزاد التأكيد بعم ما علقه بالاسم الأعظم بالمخففة من المثقلة فقال : ﴿ إن كدت لتردين ﴾ أي إنك قاربت أن

تهلكني وتجعلني في أردأ ما يكون من الأماكن ، وفي هذا التأكيد غاية الترغيب في الثبات لمن كان قريباً من التزلزل وفي المباعدة لقرناء السوء .

(7/652)

---

ولما ذكر سوء ما كان يأتي إليه ، ذكر حسن أثر الله سبحانه عنده ، فقال لافتاً الكلام إلى صفة الإحسان لأنه مقامه : ﴿ ولولا نعمة ربي ﴾ أي المحسن إليّ بما رباني به من تثبيتي عن أتباعك والتجاوز عني في مخالطتك ﴿ لكنت ﴾ كوناً ثابتاً ﴿ من المحضرين ﴾ أي المكرهين على حضور هذا الموطن الضنك الذي أنت فيه ، فيالله ما أعظم إحسان هذه الآية في التنفير من العشرة لقرناء السوء لأنها شديدة الخطر قبيحة الأثر ، ولقد أبان نظره هذا عن أنه لم يكن أعلى لذة مما كان فيه فليس بأدنى منه ، فإنه لا شيء ألذ من رؤية العدو الماكر الذي طالما أحرق الأكباد وشوش الأفكار ، في مثل دلك من الإنكار ، وعظائم الأكدار ، من غمرات النار .

ولما رأى ذاك فيما هو فيه من الجحيم ، ورأى نفسه فيما هي فيه من النعيم ، ما ملك نفسه أن قال كما يعرض لمن يكون في شدة فيأتيه الفرج فجأة فيصير كأنه في منام أو أضغاث أحلام ، لا يصدق ما صار إليه سروراً : ﴿ أفما ﴾ أي أنحن يا إخواني منعمون مخلدون فيتسبب

عن ذلك أنا ما ﴿ نحن بميتين ﴾ أي بعد حالتنا هذه ، وأكده لأن مثله لأجل نفاسته لا يكاد يصدق ، ثم أعرق في العموم بما هو معياره فقال : ﴿ إلا موتتنا الأولى ﴾ أي التي كانت في الدنيا .

ولما ذكر نعمة الخلاص من الموت ، ذكر نعمة الإنقاذ من الأكدار فقال : ﴿ وما ﴾ ﴿ نحن ﴾ وأكد النفي فقال : ﴿ بمعذبين ﴾ .

ولما تذكر هذا فاستفزه السرور ، وازدهته الغبطة والحبور ، لم يملك نفسه أن قال في أسلوب التأكيد لما له في ذلك من النشاط لما له من خرق العادة منبهاً على عظمته لتعظيم الغبطة : ﴿ إن هذا ﴾ أي الملك الذي نحن فيه ﴿ لهو ﴾ أي وحده ﴿ الفوز العظيم ﴾ أي الذي لا شيء يعدله .

(8/652)

---

ولما دل هذا السياق على عظيم ما نالوه ، زاد في تعظيمه بقوله : ﴿ لمثل هذا ﴾ أي الجزاء ﴿ فليعمل العاملون ﴾ أي لينالوه فإنهم يغتنون غنى لا فقر بعده بخلاف ما يتنافسون فيه ويتدالجون عليه من أمور الدنيا ، فإنه مع سرعة زواله منغض بكدره وملاله . انتهى .

اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 312.314 ﴾

فصل

قال الفخر :

ولما تمم الله صفات أهل الجنة قال : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ فإن قيل على أي شيء عطف قوله : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ ؟ قلنا على قوله : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ والمعنى يشربون ويتحادثون على الشراب قال الشاعر :

وما بقيت من اللذات إلا . . محادثة الكرام على المدام

والمعنى فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا .

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51)

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى كما ذكر في أهل الجنة أنهم يتساءلون عند الاجتماع على شرب خمر الجنة فإن محادثة العقلاء بعضهم مع بعض على الشرب من الأمور اللذيذة ، وتذكر الخلاص عند اجتماع أسباب الهلاك من الأمور اللذيذة ، ذكر تعالى في هذه الآية أن أهل الجنة إذا اجتمعوا

على الشرب وأخذوا في المكالمة والمساءلة كان من جملة تلك الكلمات أنهم يتذكرون أنهم كان قد حصل لهم في الدنيا ما يوجب لهم الوقوع في عذاب الله ، ثم إنهم تخلصوا عنه وفازوا بالسعادة الأبدية ، والمقصود من ذكر هذه الأشياء أن أهل الجنة يتكامل سرورهم وبهجتهم .

(10/652)

---

أما قوله : ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾ أي قال قائل : من أهل الجنة إني كان لي قرين في الدنيا ﴿ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ المصدقين ﴾ أي كان يوبخني على التصديق بالبعث والقيامة ويقول تعجبا : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وعظاما أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أي لمحاسبون ومجازون ، والمعنى أن ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الاستنكار ، ثم إن ذلك الرجل الذي هو من أهل الجنة يقول لجلسائه يدعوهم إلى كمال السرور بالاطلاع إلى النار لمشاهدة ذلك القرين ومخاطبته ﴿ هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ * فاطَّلَعَ ﴾ والأقرب أنه تكلف أمراً اطلع معه لأنه لو كان مطلعاً بلا تكلف لم يكن إلى اطلاعه حاجة فلذلك قال بعضهم إنه ذهب إلى بعض أطراف الجنة فاطلع عندها إلى النار ﴿ فَرَءاهُ فِى سَوَاء الجحيم ﴾ أي في وسط الجحيم قال له موبخاً : ﴿ تالله إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ أي لتهلكني بدعائك إياي إلى إنكار

البعث والقيامة ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى ﴾ بالإرشاد إلى الحق والعصمة عن الباطل ﴿ لَكُنتُ مِنَ المحضرين ﴾ في النار مثلك ، ولما تمم ذلك الكلام مع الرجل الذي كان في الدنيا قريناً له وهو الآن من أهل النار عاد إلى مخاطبة جلسائه الذين هم من أهل الجنة فقال : ﴿ أفما نحن بميتين ﴾ وفيه قولان الأول : أن أهل الجنة لا يعلمون في أول دخولهم في الجنة أنهم لا يموتون ، فإذا جيء بالموت على صورة كبش أملح وذبح فعند ذلك يعلمون أنهم لا يموتون ، فلعل هذا الكلام حصل قبل ذبح الموت والثاني : أن الذي يتكامل خيره وسعادته فإذا عظم تعجبه بها قد يقول أيدوم هذا لي ؟ أفيبقى هذا لي ؟ وإن كان على يقين من دوامه ، ثم عند فراغهم من هذه المباحثات يقولون : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ الفوز العظيم ﴾ .

وأما قوله : ﴿ لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾ فقيل إنه من بقية كلامهم ، وقيل إنه ابتداء كلام من الله تعالى أي لطلب مثل هذه السعادات يجب أن يعمل العاملون .

(11/652)

---

المسألة الثانية :

قال بعضهم المراد من هذا القائل ومن قرينه ما ذكره الله تعالى في سورة الكهف ( 32 ) في قوله : ﴿ واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾ إلى آخر الآيات ، وروي أن رجلين كانا شريكين

فحصل لهما ثمانية آلاف دينار فقال أحدهما للآخر أقاسمك فقاسمه واشترى داراً بألف ديناراً فأراها صاحبه وقال : كيف ترى حسنها فقال : ما أحسنها فخرج وقال : اللهم إن صاحبي هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار وإني أسألك داراً من دور الجنة ، فتصدق بألف دينار ، ثم إن صاحبه تزوج بامرأة حسناء بألف دينار فتصدق هذا بألف دينار لأجل أن يزوجه الله من الحور العين ، ثم إن صاحبه اشترى بساتين بألفي دينار فتصدق هذا بألفي دينار ، ثم إن الله أعطاه في الجنة ما طلب فعند هذا قال : ﴿ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ فاطلع فَرَءاهُ فِى سَوَاءِ الجحيم ﴾ [ الصافات : 55 ] .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ أَءنَّكَ لَمِنَ المصدقين * أَءذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما أَءنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ اختلف القراء في هذه الاستفهامات الثلاثة قرأ نافع الأولى والثانية بالاستفهام بهمزة غير ممدودة والثالثة بكسر الألف من غير استفهام ، ووافقه الكسائي إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين ، وقرأ ابن عامر الأولى والثالثة بالاستفهام بهمزتين والثانية بكسر الألف من غير استفهام ، وقرأ الباقون بالاستفهام في جميعها ، ثم اختلفوا فإبن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة وبعدها ياء ساكنة خفيفة ، وأبو عمرو مطولة ، وعاصم وحمزة بهمزتين .

وأما قوله : ﴿ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ قرأ نافع برواية ورش لترديني بإثبات الياء في الوصل والباقون بحذفها .

(12/652)

---

المسألة الرابع : احتج أصحابنا على أن الهدى والضلال من الله تعالى بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ الْمحضرين ﴾ وقالوا : مذهب الخصم أن كل ما فعله الله تعالى من وجوه الإنعام في حق المؤمن فقد فعله في حق الكافر ، وإذا كان ذلك الإنعام مشتركاً فيه امتنع أن يكون سبباً لحصول الهداية للمؤمن .

وأن يكون سبباً لخلاصه من الكفر والردى فوجب أن تكون تلك النعمة المخصوصة أمراً زائداً على تلك الإنعامات التي حصل الاشتراك فيها ، وما ذلك إلا بقوة الداعي إلى الإيمان وتكميل الصارف عن الكفر .

المسألة الخامسة :

احتج نفاة عذاب القبر بقول الرجل الذي من أهل الجنة ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الأولى ﴾ فهذا يدل على أن الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة ولو حصلت الحياة في القبر لكان الموت حاصلاً مرتين والجواب : أن قوله : ﴿ إِلَّا مَوْتَتَنَا الأولى ﴾ المراد منه كل ما وقع في الدنيا ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 120 . 122 ﴾

(13/652)

وقال ابن عطية :

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50) ﴾

هذا التساؤل الذي بين أهل الجنة هو تساؤل راحة وتنعم يتذكرون أمورهم في الجنة وأمر الدنيا وحال الطاعة والإيمان فيها ، ثم أخبر الله تعالى عن قول ﴿ قائل منهم ﴾ في قصته فهو مثال لكل من له ﴿ قرين ﴾ سوء يعطي هذا المثال التحفظ من قرناء السوء ، واستشعار معصيتهم وعبر عن قول هذا الرجل بالمضي من حيث كان أمراً متيقناً حاصلاً لا محالة ، وقال ابن عباس وغيره كان هذان من البشر مؤمن وكافر ، وقالت فرقة : هما اللذان ذكر الله تعالى في قوله ﴿ يا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ [ الفرقان : 28 ] وقال مجاهد كان إنسياً وجنياً من الشياطين الكفرة .

قال القاضي أبو محمد : والأول أصوب ، وقرأ جمهور الناس " من المصدقين " بتخفيف الصاد من التصديق ، وقرأت فرقة " من المصّدقين " بشد الصاد من التصدق ، وقال فرات بن ثعلبة البهراني في قصص هذين إنهم كانا شريكين بثمانية آلاف دينار فكان أحدهما يعبد الله ويقصد من التجارة والنظر وكان الآخر كافراً مقبلاً على ماله فحل الشركة مع المؤمن وبقي وحده لتقصير المؤمن ثم إنه جعل كلما اشترى شيئاً من دار وجارية وبستان ونحوه عرضه على ذلك المؤمن وفخر عليه به فيمضي المؤمن عند ذلك ويتصدق بنحو ذلك الثمن

ليشتري به من الله في الجنة فكان من أمرهما في الآخرة ما تضمنته هذه الآية ، قال الطبري : وهذا الحديث يؤيد قراءة من قرأ " من المصّدّقين " بتشديد الصاد ، و ﴿ مدينون ﴾ معناه مجازون محاسبون قاله ابن عباس وقتادة والسدي ، والدين الجزاء وقد تقدم.

قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54)

(14/652)

---

في الكلام حذف تقديره فقال لهذا الرجل حاضرون من الملائكة إن قرينك هذا في جهنم يعذب فقال عند ذلك ﴿ هل أنتم مطلعون ﴾ ، ويحتمل أن يخاطب ب ﴿ أنتم ﴾ الملائكة ، ويحتمل أن يخاطب رفقاءه في الجنة ، ويحتمل أن يخاطب خدمته وكل هذا ، حكى المهدوي وقرأ جمهور القراء " مطَّلعون " بفتح الطاء وشدها ، وقرأ أبو عمرو في رواية حسين " مطْلعونَ " بسكون الطاء وفتح النون ، وقرأ أبو البرهسم بسكون الطاء وكسر النون علي أنها ضمير المتكلم ورد هذه القراءة أبو حاتم وغيره ولحنوها ، وذلك أنها جمعت بين ياء الإضافة ونون المتكلم ، والوجه أن يقال " مطلعي " ، ووجه القراءة أبو الفتح بن جني وقال : أنزل الفاعل منزل الفعل المضارع ، وأنشد الطبري : [ الوافر ]

وما أدري وظن كل ظن . . . أمسلمني إلى قومي شراحي

وقال الفراء : يريد شراحيل ، وقرأ الجمهور " فاطّلع " بصلة الألف وشد الطاء المفتوحة ، وقرأ أبو عمرو في رواية حسن " فأُطْلِع " بضم الألف وسكون الطاء وكسر اللام ، وهي قراءة أبي البرهسم ، قال الزجاج هي قراءة من قرأ " مطلِعون " بكسر اللام ، وروي أن لأهل الجنة كوى وطاقات يشرفون منها على أهل النار إذا شاؤوا على جهة النقمة والعبر لأنهم لهم في عذاب أهل الناس وتوبيخهم سرور وراحة ، حكاه الرماني عن أبي علي ، و ﴿ سواء الجحيم ﴾ وسطه قال ابن عباس والحسن : والناس ، وسمي ﴿ سواء ﴾ لاستواء المسافة منه إلى الجوانب ، و ﴿ الجحيم ﴾ متراكم جمر النار ، وروي عن مطرف بن عبد الله وخليد العصري أنه رآه قد تغير خبره وسيره أي تبدلت حاله ولولا ما عرفه الله إياه لم يميزه ، فقال له المؤمن عند ذلك ﴿ تالله إن كدت لتردين ﴾ أي لتهلكني بإغوائك ، والردى الهلاك ومنه قول الأعشى : [ المتقارب ]

أفي الطوف خفت علي الردى . . . وكم من رد أهله لم يرم

(15/652)

---

وفي مصحف عبد الله بن مسعود " إن كدت لتُغوين " بالواو من الغي ، وذكرها أبو عمرو الداني بالراء من الإغراء والتاء في هذا كله مضمومة ، ورفع ﴿ نعمةُ ربي ﴾ بالابتداء

وهو إعراب ما كان بعد ﴿ لولا ﴾ عند سيبويه والخبر محذوف تقديره تداركته ونحوه ، و﴿ المحضرين ﴾ معناه في العذاب ، وقوله المؤمن ﴿ أفما نحن ﴾ إلى قوله ﴿ بمعذبين ﴾ يحتمل أن يكون مخاطبة لرفقائه في الجنة لما رأى ما نزل بقرينه ، ونظر إلى حاله في الجنة وحال رفقائه قدر النعمة قدرها فقال لهم على جهة التوقيف على النعمة ﴿ أفما نحن بميتين ﴾ ولا معذبين ، ويجيء على هذا التأويل قوله ﴿ إن هذا لهو الفوز العظيم ﴾ إلى قوله ﴿ العاملون ﴾ ، متصلاً بكلامه خطاباً لرفقائه ، ويحتمل قوله ﴿ أفما نحن ﴾ إلى قوله ﴿ بمعذبين ﴾ أن تكون مخاطبة لقرينه على جهة التوبيخ ، كأنه يقول أين الذي كنت تقول من أنا نموت وليس بعد الموت عقاب ولا عذاب ، ويكون قوله تعالى : ﴿ إن هذا لهو الفوز ﴾ إلى ﴿ العاملون ﴾ يحتمل أن يكون من خطاب المؤمن لقرينه ، وإليه ذهب قتادة ، ويحتمل أن يكون من خطاب الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته ويقوى هذا لأن قول المؤمن لمثل هذا فليعمل ، والآخرة ليست بدار عمل يقلق إلا على تجوز كأنه يقول لمثل هذا كان ينبغي أن يعمل ﴿ العاملون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾

أي يتفاوضون فيما بينهم أحاديثهم في الدنيا .

وهو من تمام الأُنس في الجنة .

وهو معطوف على معنى "يُطَافُ عَلَيْهِم" المعنى يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشُّراب .

قال بعضهم :

وما بَقِيتْ من اللّذاتِ إلا . . .

أحاديثُ الكِرامِ على المُدامِ

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا ؛ إلا أنه جيء به ماضياً على عادة الله تعالى في إخباره .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي من أهل الجنة ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ أي صديق ملازم ﴿ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ المصدقين ﴾ أي بالمبعث والجزاء .

وقال سعيد بن جبير : قرينه شريكه .

وقد مضى في "الكهف" ذكرهما وقصتهما والاختلاف في اسميهما مستوفًى عند قوله تعالى : ﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾ [ الكهف : 32 ] وفيهما أنزل الله جل وعز : ﴿ قَالَ

قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ إلى ﴿ مِنَ المحضرين ﴾ وقيل : أراد بالقرين قرينه من الشيطان كان يوسوس إليه بإنكار البعث .

وقرىء : "أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ" بتشديد الصاد .

رواه عليّ بن كيسة عن سليم عن حمزة .

قال النحاس : ولا يجوز "أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ" لأنه لا معنى للصدقة هاهنا .

وقال القشيري : وفي قراءة عن حمزة "أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ" بتشديد الصاد .

واعترض عليه بأن هذا من التصديق لا من التصدّق .

والاعتراض باطل ؛ لأن القراءة إذا ثبتت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فلا مجال للطعن فيها .

فالمعنى "أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ" بالمال طلباً في ثواب الآخرة .

﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أي مجزيون محاسبون بعد الموت ف ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى لأهل الجنة : ﴿ هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴾ .

(17/652)

وقيل : هو من قول المؤمن لإخوانه في الجنة هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين .

وقيل : هو من قول الملائكة .

وليس "هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ" باستفهام ، إنما هو بمعنى الأمر ، أي اطلعوا ؛ قاله ابن الأعرابي وغيره .

ومنه لما نزلت آية الخمر ، قام عمر قائماً بين يدي النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، ثم قال : يا رب بياناً أشفى من هذا في الخمر .

فنزلت : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [ المائدة : 91 ] قال : فنادي عمر انتهينا يا ربّنا .

وقرأ ابن عباس : "هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ" بإسكان الطاء خفيفة "فَأُطْلِعَ" بقطع الألف مخفّفة على معنى هل أنتم مقبلون فأقبل .

قال النحاس : "فَأُطْلِعَ فَرَآهُ" فيه قولان : أحدهما أن يكون فعلاً مستقبلاً معناه فأطلع أنا ، ويكون منصوباً على أنه جواب الاستفهام .

والقول الثاني أن يكون فعلاً ماضياً ويكون اطلع وأُطْلِعَ واحداً .

قال الزجاج : يقال طَلَع وأَطْلَعَ واطلع بمعنًى واحد .

وقد حكي "هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونِ" بكسر النون وأنكره أبو حاتم وغيره .

النحاس : وهو لحن لا يجوز ؛ لأنه جمع بين النون والإضافة ، ولو كان مضافاً لكان هل أنتم

مُطْلِعيّ ، وإن كان سيبويه والفرّاء قد حكيا مثله ، وأنشدا :

هُمُ القائلونَ الخيرَ والآمِرونَهُ . . .

إذا ما خَشَوا مِن مُحْدَثِ الأمرِ مُعْظَما

وأنشد الفراء : والفاعلونه .

وأنشد سيبويه وحده :

ولم يَرْتفِق والناس محتضِرونه . . .

وهذا شاذٌ خارج عن كلام العرب ، وما كان مثل هذا لم يحتجّ به في كتاب الله عز وجل ، ولا يدخل في الفصيح .

وقد قيل في توجيهه : إنه أجرى اسم الفاعل مجرى المضارع لقربه منه ، فجرى "مُطْلِعُون" مجرى يطلعون .

ذكره أبو الفتح عثمان بن جني وأنشد :

أرأيتَ إن جئتُ به أمْلودا . . .

مُرَجّلاً ويَلْبسُ البُرُودا

أقائِلُنّ أحضِروا الشُّهُودَا . . .

فأجرى أقائلُنّ مجرى أتقولن .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ فاطلع فَرَآهُ ﴾ إنّ في الجنة كُوًى ينظر أهلها منها إلى النار وأهلها .

وكذلك قال كعب فيما ذكر ابن المبارك ، قال : إن بين الجنة والنار كُوًى ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له في الدنيا اطلع من بعض الكوى ؛ قال الله تعالى : ﴿ فاطلع فَرَآهُ فِي سَوَآءِ الجحيم ﴾ أي في وسط النار والحسَكُ حواليه ؛ قاله ابن مسعود .

ويقال : تعبت حتى انقطع سَوَائي : أي وسطي .

وعن أبي عبيدة : قال لي عيسى بن عمر : كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سَوَائي .

وعن قتادة قال قال بعض العلماء : لولا أن الله جل وعز عرّفه إياه لما عرفه ، لقد تغيّر حِبْرُهُ وسِبْرُهُ .

فعند ذلك يقول : ﴿ تالله إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ "إِن" مخففة من الثقيلة دخلت على كاد كما تدخل على كان .

ونحوه "إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا" واللام هي الفارقة بينها وبين النافية .

﴿ وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ المحضرين ﴾ في النار .

وقال الكسائي : "لَتُرْدِينِ" أي لتهلكني ، والردى الهلاك .

وقال المبرد : لو قيل "لتردِينِ" لتوقعني في النار لكان جائزاً .

"وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي" أي عصمته وتوفيقه بالاستمساك بعروة الإسلام والبراءة من القرين السوء .

وما بعد لولا مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف .

"لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ" قال الفراء : أي لكنت معك في النار محضراً .

وأحضر لا يستعمل مطلقاً إلا في الشر ؛ قاله الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ وقرىء "بِمائِتِين" والهمزة في "أَفَمَا" للاستفهام دخلت على فاء العطف ، والمعطوف محذوف معناه أنحن مخلَّدون منعَّمون فما نحن بميتين ولا معذبين .

﴿ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى ﴾ يكون استثناء ليس من الأول ويكون مصدراً ؛ لأنه منعوت .

*(19/652)*

---

وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يُذبَح الموت ، ويقال : يأهل الجنة خلود ولا موت ، ويأهل النار خلود ولا موت .

وقيل : هو من قول المؤمن على جهة الحديث بنعمة الله في أنهم لا يموتون ولا يعذّبون ؛ أي هذه حالنا وصفتنا .

وقيل : هو من قول المؤمن توبيخاً للكافر لما كان ينكره من البعث ، وأنه ليس إلا الموت في الدنيا .

ثم قال المؤمن مشيراً إلى ما هو فيه ، ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ الفوز العظيم ﴾ يكون "هو" مبتدأ وما بعده خبر عنه والجملة خبر إنّ .

ويجوز أن يكون "هو" فاصلاً .

﴿ لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾ يحتمل أن يكون من كلام المؤمن لما رأى ما أعدّ الله له في الجنة وما أعطاه قال : ﴿ لِمِثْلِ هذا ﴾ العطاء والفضل "فَلْيَعْمَلِ العاملون" .

نظير ما قال له الكافر : ﴿ أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ [ الكهف : 34 ] .

ويحتمل أن يكون من قول الملائكة .

وقيل : هو من قول الله عز وجل لأهل الدنيا ؛ أي قد سمعتم ما في الجنة من الخيرات والجزاء ، و "لِمِثْلِ هَذَا" الجزاء ﴿ فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾ .

النحاس : وتقدير الكلام والله أعلم فليعمل العاملون لمثل هذا .

فإن قال قائل : الفاء في العربية تدل على أن الثاني بعد الأول ، فكيف صار ما بعدها ينوى به التقديم ؟ فالجواب أن التقديم كمثل التأخير ؛ لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

*(20/652)*

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40) ﴾

﴿ إلا عباد الله ﴾ : استثناء منقطع .

لما ذكر شيئاً من أحوال الكفار وعذابهم ذكر شيئاً من أحوال المؤمنين ونعيمهم .

و﴿ المخلصين ﴾ : صفة مدح ، لأن كونهم عباد الله ، يلزم منه أن يكونوا مخلصين .

ووصف ﴿ رزق ﴾ بمعلوم ، أي عندهم .

فقد قرت عيونهم بما يستدر عليهم من الرزق ، وبأن شهواتهم تأتيهم بحسبها .

وقال الزمخشري : معلوم بخصائص خلق عليها من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر .

وقيل : معلوم الوقت كقوله : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ وعن قتادة : الرزق المعلوم : الجنة .

وقوله : ﴿ في جنات النعيم ﴾ يأباه . انتهى .

﴿ فواكه ﴾ بدل من ﴿ رزق ﴾ ، وهي ما يتلذذ به ولا يتقوت لحفظ الصحة ، يعني أن رزقهم كله فواكه لاستغنائهم عن حفظ الصحة بالأقوات لأنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد ، فكل ما يأكلونه فهو على سبيل التلذذ .

وقرأ ابن مقسم : مكرمون ، بفتح الكاف مشدد الراء .

ذكر أولاً الرزق ، وهو ما يتلذذ به الأجسام .

وثانياً الإكرام ، وهو ما يتلذذ به النفوس ، ورزق بإهانة تنكيد .

ثم ذكر المحل الذي هم فيه ، وهو جنات النعيم .

ثم أشرف المحل ، وهو السرر .

ثم لذة التآنس بأن بعضهم يقابل بعضاً ، وهو أتم السرور آنسة .

ثم المشروب ، وأنهم لا يتناولون ذلك بأنفسهم ، بل يطاف عليهم بالكؤوس .

ثم وصف ما يطاف عليهم به من الطيب وانتفاء المفاسد .

ثم ذكر تمام اللذة الجسمانية ، وختم بها كما بدأ باللذة الجسمانية من الرزق ، وهي أبلغ الملاذ ، وهي التآنس بالنساء .

وقرأ الجمهور : ﴿ على سرر ﴾ ، بضم الراء ؛ وأبو السمال : بفتحها ، وهي لغة بعض تميم ؛ وكلب يفتحون ما كان جمعاً على فعل من المضعف إذا كان اسماً .

واختلف النحويون في الصفة ، فمنهم من قاسها على الاسم ففتح ، فيقول ذلك بفتح اللام على تلك اللغة الثانية في الاسم .

ومنهم من خص ذلك بالاسم ، وهو مورد السماع في تلك اللغة .

وقيل : التقابل لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض .

وفي الحديث : " أنه في أحيان ترفع عنهم ستور فينظر بعضهم إلى بعض ولا محالة أن أكثر أحيانهم فيها قصورهم " و﴿ يطاف ﴾ : مبني للمفعول وحذف الفاعل ، وهو المثبت في آية أخرى في قوله : ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ ﴿ ويطوف عليهم غلمان لهم ﴾ ولعلهم من مات من أولاد المشركين قبل التكليف .

ففي صحيح البخاري أنهم خدم أهل الجنة .

والكاس : ما كان من الزجاجة فيه خمر أو نحوه من الأنبذة ، ولا يسمى كأساً إلا وفيه ذلك .

وقد سمى الخمر نفسها كأساً ، تسمية للشيء باسم محله ، قال الشاعر :

وكأس شربت على لذة . . .

وأخرى تداويت منها بها

وقال ابن عباس ، والضحاك ، والأخفش : كل كأس في القرآن فهو خمر .

وقيل : الكأس هيئة مخصوصة في الأواني ، وهو كل ما اتسع فمه ولم يكن له مقبض ، ولا يراعى كونه لخمر أولاً .

﴿ من معين ﴾ : أي من شراب معين ، أو من ثمد معين ، وهو الجاري على وجه الأرض

كما يجري الماء .

و﴿ بيضاء ﴾ : صفة للكأس أو للخمر .

وقال الحسن : خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن .

وفي قراءة عبد الله : صفراء ، كما قال بعض المولدين :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها . . .

لو مسها حجر مسته سراء

و﴿ لذة ﴾ : صفة بالمصدر على سبيل المبالغة ، أو على حذف ، أي ذات لذة ، أو على تأنيث لذ بمعنى لذيذ .

﴿ لا فيها غول ﴾ ، قال ابن عباس ، وقتادة : هو صداع في الرأس .

وقال ابن عباس أيضاً ، ومجاهد ، وابن زيد : وجع في البطن . انتهى .

والاسم يشمل أنواع الفساد الناشئة عن شرب الخمر ، فينتفي جميعها من مغص ، وصداع ، وخمار ، وعربدة ، ولغو ، وتأثيم ، ونحو ذلك .

ولما كان السكر أعظم مفاسدها ، أفرده بالذكر فقال : ﴿ ولا هم ينزفون ﴾ .

وقرأ الحرميان ، والعربيان : بضم الياء وفتح الزاي هنا ، وفي الواقعة : وبذهاب العقل ، فسره ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وحمزة ، والكسائي : بكسرها فيهما ؛ وعاصم : بفتحها هنا وكسرها في الواقعة ؛ وابن أبي إسحاق : بفتح الياء وكسر الزاي.

وطلحة : بفتح الياء وضم الزاي.

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد : ﴿ قاصرات الطرف ﴾ : قصرن الطرف على أزواجهن ، لا يمتد طرفهن إلى أجنبي بقوله تعالى : ﴿ عُرُباً ﴾ وقال الشاعر :

من القاصرات الطرف لو دب محول . . .

من الذر فوق الخد منها لأثرا

والعين : جمع عيناء ، وهي الواسعة العين في جمال.

﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ : شبههن ، قال الجمهور : ببيض النعام المكنون في عشه ، وهو الأدحية ولونها بياض به صفرة حسنة ، وبها تشبه النساء فقال :

مضيئات الخدود . . .

ومنه قول امرىء القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها . . .

تمتعت من لهو بها غير معجل

كبكر مغاناة البياض بصفرة غذاها . . .

نمير الماء غير المحلل

وقال السدي ، وابن جبير : شبه ألوانهن بلون قشر البيضة الداخل ، وهو غرقىء البيضة ، وهو المكنون في كن ، ورجحه الطبري وقال : وأما خارج قشر البيضة فليس بمكنون .

وعن ابن عباس ، البيض المكنون : الجوهر المصون ، واللفظ ينبو عن هذا القول .

وقالت فرقة : هو تشبيه عام جملة المرأة بجملة البيضة ، أراد بذلك تناسب أجزاء المرأة ، وأن كل جزء منها نسبته في الجودة إلى نوعه نسبة الآخر من أجزائها إلى نوعه ؛ فنسبة شعرها إلى عينها مستوية ، إذ هما غاية في نوعها ، والبيضة أشد الأشياء تناسب أجزاء ، لأنها من حيث حسنها في النظر واحد ، كما قال بعض الأدباء يتغزل :

تناسبت الأعضاء فيه فلا ترى . . .

بهن اختلافاً بل أتين على قدر

وتساؤلهم في الجنة سؤال راحة وتنعم ، يتذاكرون نعيمهم وحال الدنيا والإيمان وثمرته .

و﴿ فأقبل ﴾ : معطوف على ﴿ يطاف عليهم ﴾ ، والمعنى : يشربون فيتحدثون على الشراب ، كعادة الشراب في الدنيا .

قال الشاعر :

وما بقيت من اللذات إلا . . .

أحاديث الكرام على المدام

وجيء به ماضياً لصدق الإخبار به ، فكأنه قد وقع .

ثم حكى تعالى عن بعضهم ما حكى ، يتذكر بذلك نعمه تعالى عليه ، حيث هداه إلى الإيمان واعتقاد وقوع البعث والثواب والعقاب ، وهو مثال للتحفظ من قرناء السوء والبعد منهم .

قال ابن عباس وغيره : كان هذا القائل وقرينه من البشر .

وقالت فرقة : هما اللذان في قوله : ﴿ ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ وقال مجاهد : كان إنسياً وجنياً من الشياطين الكفرة .

وقرأ الجمهور : ﴿ من المصدقين ﴾ ، بتخفيف الصاد ، من التصديق ؛ وفرقة : بشدها ، من التصدق .

قال قرة بن ثعلبة النهراني : كانا شريكين بثمانية آلاف درهم ، يعبد الله أحدهما ، ويقصر في التجارة والنظر ؛ والآخر كان مقبلاً على ماله ، فانفصل من شريكه لتقصيره ، فكلما اشترى داراً أو جارية أو بستاناً ونحوه ، عرضه على المؤمن وفخر عليه ، فيتصدق المؤمن بنحو من ذلك ليشتري به في الجنة ، فكان من أمرهما في الآخرة ما قصد الله .

وقال الزمخشري : نزلت في رجل تصدق بماله لوجه الله ، فاحتاج ، فاستجدى بعض إخوانه ، فقال : وأين مالك ؟ فقال : تصدقت به ليعوضني الله في الآخرة خيراً منه ، فقال : ﴿ أئنك لمن المصدقين ﴾ بيوم الدين ، أو من المتصدقين لطلب الثواب ؟ والله لا أعطيك شيئاً .

﴿ أئنا لمدينون ﴾ ، قال ابن عباس ، وقتادة والسدي : لمجازون محاسبون ؛ وقيل : لمسوسون مديونون .

يقال : دانه : ساسه ، ومنه الحديث : " العاقل من دان نفسه " والظاهر أن الضمير في ﴿ قال هل أنتم ﴾ عائد على قائل في قوله : ﴿ قال قائل ﴾ .

قيل : وفي الكلام حذف تقديره : فقال لهذا القائل حاضروه من الملائكة : إن قرينك هذا في جهنم يعذب ، فقال عند ذلك : ﴿ هل أنتم مطلعون ﴾ .

والخطاب في ﴿ هل أنتم مطلعون ﴾ يجوز أن يكون للملائكة ، وأن يكون لرفقائه في الجنة الذين كان هو وإياهم يتساؤلون ، أو لخدمته ، وهذا هو الظاهر .

لما كان قرينه ينكر البعث ، علم أنه في النار فقال : ﴿ هل أنتم مطلعون ﴾ إلى النار لأريكم ذلك القرين ؟ وعلى هذا القول لا يحتاج الكلام إلى حذف ، ولا لقول الملائكة : إن قرينك في جهنم يعذب .

قيل : إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار .

وقيل : القائل ﴿ هل أنتم مطلعون ﴾ الله تعالى .

وقيل : بعض الملائكة يقول لأهل الجنة : بل تحبون أن تطلعوا فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار .

وقرأ الجمهور : ﴿ مطلعون ﴾ ، بتشديد الطاء المفتوحة وفتح النون ، واطلع بشد الطاء فعلاً ماضياً .

وقرأ أبو عمرو في رواية حسين الجعفي : مطلعون ، بإسكان الطاء وفتح النون ، فأطلع بضم الهمزة وسكون الطاء وكسر اللام فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول ، وهي قراءة ابن عباس وابن محيصن وعمار بن أبي عمار وأبي سراج .

وقرىء : فأطلع ، مشدداً مضارعاً منصوباً على جواب الاستفهام .

وقرىء : مطلعون ، بالتخفيف ، فاطلع مخففاً فعلاً ماضياً ، وفاطلع مخففاً مضارعاً منصوباً .

وقرأ أبو البرهسم ، وعمار بن أبي عمار فيما ذكره خلف عن عمار : مطلعون ، بتخفيف

الطاء وكسر النون، فاطلع ماضياً مبنياً للمفعول؛ ورد هذه القراءة أبو حاتم وغيره.

لجمعها بين نون الجمع وياء المتكلم.

والوجه مطلعي، كما قال، أو مخرجي هم، ووجهها أبو الفتح على تنزيل اسم الفاعل منزلة المضارع، وأنشد الطبري على هذا قول الشاعر:

وما أدري وظني كل ظن . . .

أمسلمني إلى قومي شراحي

قال الفراء: يريد شراحيل.

وقال الزمخشري: يريد مطلعون إياي، فوضع المتصل موضع المنفصل كقوله:

هم الفاعلون الخير والآمرونه . . .

أو شبه اسم الفاعل في ذلك بالمضارع لتآخ بينهما، كأنه قال: تطلعون، وهو ضعيف لا يقع إلا في الشعر. انتهى.



---

والتخريج الثاني تخريج أبي الفتح، وتخريجه الأول لا يجوز، لأنه ليس من مواضع الضمير المنفصل، فيكون المتصل وضع موضعه، لا يجوز هند زيد ضارب إياها، ولا زيد ضارب

إياي ، وكلام الزمخشري يدل على جوازه ، فالأولى تخريج أبي الفتح ، وقد جاء منه _@_ :

أمسلمني إلى قومي شراحي . . .

وقول الآخر :

فهل فتى من سراة القوم يحملني . . .

وليس حاملني إلا ابن خَمال

وقال الآخر :

وليس بمعييني . . .

فهذه أبيات ثبت التنوين فيها مع ياء المتكلم ، فكذلك ثبتت نون الجمع معها إجراء للنون مجرى التنوين ، لاجتماعهما في السقوط للإضافة .

ويقال : طلع علينا فلان واطلع بمعنى واحد .

ومن قرأ : فاطلع مبنياً للمفعول ، فضميره القائل الذي هو المفعول الذي لم يسم فاعله ، وهو متعد بالهمزة ، إذ يقول : طلع زيد وأطلعه غيره .

وقال صاحب اللوامح : طلع واطلع ، إذا بدا وظهر ؛ واطلع اطلاعاً ، إذا أقبل وجاء مبنياً ، ومعنى ذلك : هل أنتم مقبلون ؟ فأقبل .

وإن أقيم المصدر فيه مقام الفاعل بتقديره فاطلع الاطلاع ، أو حرف الجر المحذوف ، أي فاطلع به ، لأنه اطلع لازم ، كما أن أقبل كذلك . انتهى .

وقد ذكرنا أن أطلع عدى بالهمزة من طلع اللازم ، وأما قوله : أو حرف الجر المحذوف ، أي فاطلع ، به فهذا لا يجوز ، لأن مفعول ما لم يسم فاعله لا يجوز حذفه ، لأنه نائب عن الفاعل . فكما أن الفاعل لا يجوز حذفه دون عامله ، فكذلك هذا .

لو قلت : زيد ممدود أو مغضوب ، تريد به أو عليه ، لم يجز .

و﴿ سواء الجحيم ﴾ : وسطها ، تقول : تعبت حتى انقطع سوائي .

قال ابن عباس : سمي سواء لاستواء المسافة منه إلى الجوانب ، يعني سواء الجحيم .

وقال خليل العصري : رآه : تبدلت حاله ، فلولا ما عرفه الله به لم يعرفه ، قال له عند ذلك :

﴿ تالله إن كدت لتردين ﴾ : أي لتهلكني بإغوائك .

وإن مخففة من الثقيلة ، يلقي بها القسم ؛ وتالله قسم فيه التعجب من سلامته منه إذا كان قرينه قارب أن يرديه .

(26/652)

---

﴿ ولولا نعم ربي ﴾ : وهي توفيقه للإيمان والبعد من قرين السوء ، ﴿ لكنت من المحضرين ﴾ للعذاب ، كما أحضرته أنت .

﴿ أفما نحن بميتين ﴾ ، قرأ زيد بن عليّ : بمائتين ، والظاهر أنه من كلام القائل : يسمع قرينه

على جهة التوبيخ له ، أي لسنا أهل الجنة بميتين ، لكن الموتة الأولى كانت لنا في الدنيا ، بخلاف أهل النار ، فإنهم في كل ساعة يتمنون فيها الموت .

﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ ، كحال أهل النار ، بل نحن منعمون دائماً .

ويكون في خطابه ذلك منكلاً له ، مقرعاً محزناً له أنعم الله به عليه من دخول الجنة ، معلماً له بتباين حاله في الآخرة بحاله .

كما كانتا تتباينان في الدنيا من أنه ليس بعد الموت جزاء ظهر له خلافه ، يعذب بكفره بالله وإنكار البعث .

ويجوز أن يكون خطاباً من القائل لرفقائه ، لما رأى ما نزل بقرينه ، وقفهم على نعمه تعالى في ديمومة خلودهم في الجنة ونعيمهم فيها .

ويتصل قوله : ﴿ إن هذا ﴾ إلى قوله : ﴿ العاملون ﴾ بهذا التأويل أيضاً ، لا واضحاً خطاباً لرفقائه .

ويجوز أن يكون تم كلامه عند قوله : ﴿ لتردين ﴾ ، ويكون ﴿ أفما نحن ﴾ إلى ﴿ بمعذبين ﴾ من كلامه وكلام رفقائه ، وكذلك ﴿ إن هذا ﴾ إلى ﴿ العاملون ﴾ : أي إن هذا الأمر الذي نحن فيه من النعيم والنجاة من النار .

وقيل : هو من قول الله تعالى ، تقريراً لقولهم وتصديقاً له وخطاباً لرسول الله وأمّته ، ويقوي هذا قوله : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ ، والآخرة ليست بدار عمل ، ولا يناسب

ذلك قول المؤمن في الآخرة إلا على تجوز، كأنه يقول: لمثل هذا ينبغي أن يعمل العاملون.

وقال الزمخشري: الذي عطف عليه الفاء محذوف معناه: أنحن مخلدون؟ أي منعمون، فما نحن بميتين ولا معذبين. انتهى.



---

وتقدم من مذهبه أنه إذا تقدمت همزة الاستفهام، وجاء بعدها حرف العطف بضمير ما، يصح به إقرار الهمزة والحرف في محليهما اللذين وقعا فيهما، ومذهب الجماعة أن حرف العطف هو المقدم في التقدير، والهمزة بعده، ولكنه لما كانت الهمزة لها صدر الكلام قدمت، فالتقدير عند الجماعة.

فأما وقد رجع الزمخشري إلى مذهب الجماعة، وتقدم الكلام معه في ذلك. انتهى انتهى. ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾



---

وقال أبو السعود :

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾

معطوف على يُطاف أي يشربون فيتحادثُون على الشَّراب كما هو عادة الشرب قال

وَمَا بَقِيَتْ مِن اللَّذاتِ إلا . . . أحاديثُ الكرامِ على المُدامِ

فيقبل بعضُهم على بعضٍ يتساءلون عن الفضائلِ والمعارفِ وعمَّا جرى لهم وعليهم في الدُّنيا . فالتَّعبيرُ عنه بصيغة الماضي للتَّأكيدِ والدِّلالةِ على تحقُّقِ الوقوع حتماً .

(29/652)

---

﴿ قَالَ قَائِلٌ مّنْهُمْ ﴾ في تضاعيف محاوراتهم ﴿ إِنّى كَانَ لِى ﴾ في الدُّنيا ﴿ قَرِينٌ ﴾ مصاحب ﴿ يَقُولُ ﴾ لي على طريقة التَّوبيخ بما كنت عليه من الإيمان والتَّصديقِ بالبعث ﴿ أَءنَّكَ لَمِنَ المصدقين ﴾ أي بالبعث . وقُرِىء بتشديدِ الصَّادِ من التَّصدُّقِ ، والأوَّلُ هو الأوفقُ لقولِه تعالى : ﴿ أَءذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما أَءنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أي لمبعوثون ومجزِّيون من الدِّينِ بمعنى الجزاء أو لمسوسُون يقال دانَه أي ساسَه ، ومنه الحديثُ : " العاقلُ من دانَ نفسَه " وقيل كان رجلٌ تصدَّقَ بماله لوجه الله تعالى فاحتاج فاستجدى بعضَ إخوانِه فقال : أين مالكُ ، قال : تصدَّقتُ به ليعوضني الله تعالى في الآخرة خيراً منه فقال : أئنَّك لمن

المُصدّقين بيوم الدّين ، أو المتصدّقين لطلب الثّواب والله لا أُعطيك شيئاً فيكون التّعرُّضُ لذكر موتهم وكونِهم تُراباً وعظاماً حينئذٍ لتأكيدِ إنكار الجزاءِ المبني على إنكار البعث ﴿ قَالَ ﴾ أي ذلك القائلُ بعدما حكى لجلسائه مقالَ قرينهِ في الدُّنيا ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴾ أي إلى أهل النّارِ لأُريكم ذلك القرينَ يريد بذلك بيانَ صدقهِ فيما حكاه وقيل القائلُ هو اللّهُ تعالى أو بعضُ الملائكة يقول لهم هل تُحبُّون أنْ تطّلعوا على أهل النّارِ لأريكم ذلك القرينَ فتعلموا أين منزلتُكم من منزلتهم قيل إنّ في الجنّة كُوى ينظر منها أهلُها إلى أهل النّارِ ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ أي عليهم ﴿ فَرَءَاهُ ﴾ أي قرينه ﴿ فِى سَوَاءِ الجحيم ﴾ أي في وسطها .

وقُرىء فأطّلِعَ على لفظ المضارع المنصوب . وقرىء مُطّلعون فأطّلع وفأُطْلِعَ بالتّخفيف على لفظ الماضي والمضارعِ المنصوبِ يقال طلعَ علينا فلانٌ وأطّلع وبمعنى واحد والمعنى هل أنتُم مطّلعون إلى القرين فأطّلع أنا أيضاً أو عوضَ عليهم الاطِّلاعَ فقبلوا ما عرضَه فاطّلع هو بعد ذلك وإن جُعل الاطِّلاعُ



متعدِّياً فالمعنى أنَّه لما شرط في إطّلاعه إطّلاعهم كما هو ديدن الجُلساءِ فكأنَّهم مُطْلِعُوه ، وقيل الخطاب على هذا للملائكةِ . وقُرىء مُطّلعونِ بكسر النُّونِ أراده مطلعونَ إيّاي فوضع

المتَّصل موضعَ المنفصلِ ، كقوله :

هم الفاعلونَ الخيرَ والآمرونه . . . أو شُبِّه اسمُ الفاعل بالمضارع لما بينهما من التَّآخِي .

﴿ قَالَ ﴾ أي القائلُ مخاطباً لقرينهِ ﴿ تاللهِ إن كِدتَّ لَتُرْدِين ﴾ أي لتُهلكني بالإغواءِ .

وقُرِىء لتُغوين والتَّاءُ فيه معنى التَّعجُّب وإنْ هي المخففةُ من أنَّ وضميرُ الشَّأنِ الذي هو اسمُها محذوفٌ واللاَّمُ فارقةٌ أي تاللَّهِ إنَّ الشَّأنَ كدت لتردينِ .

(31/652)

---

﴿ وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبّى ﴾ بالهدايةِ والعصمة ﴿ لَكُنتُ مِنَ المحضرين ﴾ أي من الذين أُحضروا العذابَ كما أُحضِرْته أنتَ وأضرابُك وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيّتِينَ ﴾ رجوعٌ إلى محاورةِ جلسائه بعد إتمامِ الكلامِ مع قرينه تبجُّحاً وابتهاجاً بما أتاحَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهم من الفضلِ العظيمِ والنَّعيمِ المقيمِ . والهمزة للتَّقريرِ وفيها معنى التَّعجُّبِ والفاء للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه نظمُ الكلامِ أي أنحنُ مخلَّدون منعَّمون فما نحنُ بميّتين أي بمن شأنه الموت .

وقُرِىء بمائتينَ ﴿ إِلاَّ مَوْتَتَنَا الاولى ﴾ التي كانت في الدُّنيا وهي متناولةٌ لما في القبر بعد الإحياء للسُّؤالِ قاله تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الاولى ﴾ وقيل إنَّ أهلَ الجنّةِ أوَّلَ ما دخلوا الجنَّةَ لا يعلمون أنَّهم لا يموتون فإذا جِيء بالموت على صُورة

كبشٍ أملحَ فذُبح ونُودي يا أهلَ الجنَّةِ خلود فلا موتَ ويا أهلَ النّارِ خلود فلا موتَ يعلمونه فيقولون ذلك تحدُّثاً بنعمة الله تعالى واغتباطاً بها ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ كالكُفَّار فإنَّ النَّجاةَ من العذاب أيضاً نعمة جليلة مستوجبة للتَّحدثِ بها ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي الأمرُ العظيم الذي نحن فيه ﴿ لَهُوَ الفوز العظيم ﴾ وقيل هو من قولُ اللَّهِ عزَّ وجلّ تقريراً لقولهم وتصديقاً له. وقرىء : لهو الرِّزقُ العظيم وهو ما رُزقوه من السَّعادةِ العظمى. ﴿ لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾ أي لنيل هذا المرامِ الجليل يجب أنْ يعمل العاملون لا للحظوظِ الدُّنيويَّةِ السَّريعةِ الانصرام المشُوبةِ بفنون الآلام وهذا أيضاً يحتمل أُن يكونَ من كلام ربِّ العزَّة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(32/652)

---

وقال الآلوسى :

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾

معطوف على ﴿ يُطَافُ ﴾ [ الصافات : 45 ] وما بينهما معترض أو من متعلقات الأول أي يشربون فيتحادثون على الشرب كما هو عادة المجتمعين عليه قال محمد بن فياض :

وما بقيت من اللذات إلا . . .

محادثة الكرام على الشراب

ولثمك وجنتي قمر منير . . .

يجول بوجهه ماء الشباب

وعبر بالماضي مع أن المعطوف عليه مضارع للإشعار بالاعتناء بهذا المعطوف بالنسبة إلى المعطوف عليه فكيف لا يقبلون على الحديث وهو أعظم لذاتهم التي يتعاطونها مع ما في ذلك من الإشارة إلى تحقق الوقوع حتماً وتساؤلهم عن المعارف والفضائل وما جرى لهم وعليهم في الدنيا ، وما أحلى تذكر ما فات عند رفاهية الحال وفراغ البال .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ في تضاعيف محاورتهم ﴿ إِنِّى كَانَ لِى ﴾ في الدنيا ﴿ قَرِينٌ ﴾ مصاحب .

﴿ يَقُولُ ﴾ لي على طريق التوبيخ بما كنت عليه من الإيمان والتصديق بالبعث المفضي إلى ما أنا عليه اليوم ﴿ أَءِنَّكَ لَمِنَ المصدقين ﴾ أي بالبعث

كما ينبىء عنه قوله سبحانه :

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾

أي لمبعوثون ومجازون من الدين بمعنى الجزاء ؛ وقيل لمسوسون مربوبون من دانه إذا ساسه ومنه الحديث " العاقل من دان نفسه " وقرىء ﴿ المصدقين ﴾ بتشديد الصاد من

التصدق ، واعترضت هذه القراءة بأن الكلام عليها لا يلائم قوله سبحانه : ﴿ أَءذَا مِتْنَا ﴾ الخ ، وتعقب بأن فيه غفلة عن سبب النزول ، أخرج عبد الرزاق .

(33/652)

---

وابن المنذر عن عطاء الخراساني قال : كان رجلان شريكان وكان لهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها فعمد أكبرهما فاشترى بألف دينار أرضاً فقال صاحبه : اللهم إن فلاناً اشترى بألف دينار أرضاً وإني أشتري منك بألف دينار أرضاً في الجنة فتصدق بألف دينار ثم ابتنى صاحبه داراً بألف دينار فقال : اللهم إن فلاناً قد ابتنى داراً بألف دينار وإني أشتري منك في الجنة داراً بألف دينار فتصدق بألف دينار ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار فقال : اللهم إن فلاناً تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار وإني أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بألف دينار ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار فقال : اللهم إن فلاناً اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار وإني أشتري منك خدماً ومتاعاً في الجنة بألف دينار فتصدق بألف دينار ثم أصابته حاجة شديدة فقال لو أتيت صاحبي هذا لعله ينالني منه معروف فجلس على طريقه حتى مر به في حشمه وأهله فقام إليه فنظر الآخر فعرفه فقال : فلان قال : نعم فقال : ما شأنك ؟ فقال : أصابتني بعدك حاجة فأتيتك لتصيبني بخير قال :

فما فعلت بمالك ؟ فقص عليه القصة فقال : أئنك لمن المصدقين بهذا اذهب فوالله لا أعطيك شيئاً فرده فقضى لهما أن توفيا فكان مآل المتصدق الجنة ومآل الآخر النار وفيهما نزلت الآية ، وقيل هما أخوان ورثا ثمانية آلاف دينار واقتسماها فكان من خبرهما ما كان ، وكان الاثنان من بني إسرائيل وهذا السبب يدل على أن أحدهما كان مصدقاً ومتصدقاً أيضاً والآخر وهو القرين أنكر عليه أنه أنفق ليجازي على إنفاقه بما هو أعظم وأبقى فقد ضيع بزعمه ماله فيما لا أصل له وهو الجزاء الأخروي ولا يكون هذا بدون البعث فلذا أنكره ، وليت شعري كيف يتوهم عدم الملاءمة مع قوله تعالى : ﴿ أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ ولعله أنسب بتلك القراءة ، وحاصل المعنى أنت المتصدق طلباً للجزاء في الآخرة فهل نحن بعد ما نفني نبعث ونجازي ، وذكر العظام مع التراب مع

(34/652)

---

أن ذكر التراب يكفي ويغني عن ذلك لتصوير حال ما يشاهده ذلك الشخص من الأجساد البالية من مصير اللحم وغيره تراباً عليه عظام نخرة ليذكره ويخطر بباله ما ينافي مدعاه ، وكونه للتنزل في الإنكار أو للتأكيد لا يرجحه بل يجوزه .

قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54)

﴿ قَالَ ﴾ أي ذلك القائل الذي كان قرين لجلسائه بعد ما حكى لهم مقالة قرينة له في الدنيا ﴿ هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴾ على أهل النار لأريكم ذلك القرين الذي قال لي ما حكيت لكم، والمراد من الاستفهام العرض أو الأمر على ما قيل، والغرض من ذلك إراءتهم سوء حال القرين ليؤنسهم نوع إيناس وقيل يريد بذلك بيان صدقه فيما حكاه، ولا يخفى أن ظن الكذب في غاية البعد واطلاع أهل الجنة على أهل النار ومعرفة من فيها مع ما بينهما من التباعد غير بعيد بأن يخلق الله تعالى فيهم حدة نظر ويعرفهم من أرادوا الاطلاع عليه، ولعلهم إذا أرادوا ذلك وقفوا على الأعراف فاطلعوا على من أرادوا من أهل النار؛ وقيل إن لهم طاقات في الجنة ينظرون منها من علو إلى أهل النار وعلم القائل بأن القرين من أهل النار لعلمه بأنه كان ينكر البعث ومنكره منهم قطعاً والأصل بقاؤه على الكفر وقيل علم ذلك بأخبار الملائكة عليهم السلام إياه، وقيل قائل ﴿ هَلْ أَنتُمْ ﴾ الخ هو الله تعالى أو بعض الملائكة عليهم السلام يقول للمتحادثين من أهل الجنة هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم، وقيل القائل من كان له قرين والمخاطبون بأنتم الملائكة عليهم السلام وفي الكلام حذف كأنه قيل: فقال لهذا القائل حاضروه من الملائكة قرينك هذا يعذب في النار فقال للملائكة الذين أخبروه: هل أنتم مطلعون ولا يخفى ما فيه.

﴿ فَأَطَّلَعَ ﴾ أي على أهل النار ﴿ فَرَءَاهُ ﴾ أي فرأى قرينه ﴿ فِى سَوَاءِ الجحيم ﴾ أي في وسطها ، ومنه قول عيسى بن عمر لأبي عبيدة كنت أكتب حتى ينقطع سوائي ، وسمي الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلى الجوانب .

وقرأ أبو عمرو في رواية حسين الجعفي ﴿ مُّطَّلِعُونَ ﴾ بإسكان الطاء وفتح النون ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ بضم الهمزة وسكون الطاء وكسر اللام فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول ، وهي قراءة ابن عباس .

وابن محيصن .

وعمار ابن أبي عمار .

وأبي سراج ، وقرىء ﴿ مُّطَّلِعُونَ ﴾ مشدداً ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ مشدداً أيضاً مضارعاً منصوباً على جواب الاستفهام .

وقرىء مطلعون بالتخفيف ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ مخففاً فعلاً ماضياً و﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ مخففاً مضارعاً منصوباً .

وقرأ أبو البرهسم .

وعمار بن أبي عمار فيما ذكره خلف عنه ﴿ مُّطَّلِعُونَ ﴾ بتخفيف الطاء وكسر النون ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ ماضياً مبنياً للمفعول .

ورد هذه القراءة أبو حاتم وغيره لجمعها بين نون الجمع وياء المتكلم والوجه مطلعي كما قال عليه الصلاة والسلام : " أو مخرجي هم " ووجهها أبو الفتح على تنزيل اسم الفاعل منزلة المضارع فيقال عنده ضاربونه مثلاً كما يقال يضربونه وعليه قوله

: هم الآمرون الخير والفاعلونه . . .

إذا ما خشوا من محدث الدهر معظماً

وأنشد الطبري قول الشاعر

: وما أدري وظني كل ظن . . .

أمسلمني إلى قومي شراحي

ومثله قول الآخر

: فهل فتى من سراة الحي يحملني . . .

وليس حاملني إلا ابن حمال

وهذه النون عند جمع نون الوقاية ألحقت مع الوصف حملاً له على الفعل وليست مثل النون في القراءة ، وفي البيت وإن كان إلحاق كل للحمل .

وقال بعضهم : إنها نون التنوين وحركت لالتقاء الساكنين ، ورد بأنه سمع إلحاقها مع أل كقوله

:

وليس الموافيني ومع أفعل التفضيل كما وقع في الحديث غير الدجال أخوفني عليكم .

ويعلم من هذا عدم اختصاص إلحاقها بالشعر نعم هو في غيره قليل ، وضعف بعضهم ما وجه به أبو الفتح وقال : إن ذلك لا يقع إلا في الشعر وخرجت أيضاً على أنها من وضع المتصل موضع المنفصل وأريد بذلك أن الأصل مطلعون إياي ثم جعل المنفصل متصلاً فقيل مطلعوني ثم حذفت الياء واكتفى عنها بالكسرة كما في قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [ الحج : 44 ] ومثله يقال في الفاعلونه في البيت السابق ، ورد ذلك أبو حيان بأن ما ذكر ليس من محال المنفصل حتى يدعي أن المتصل وقع موقعه وادعى أولوية تخريج أبي الفتح ، والبيت قيل مصنوع لا يصح الاستشهاد به ، وقيل إن الهاء هاء السكت حركت للضرورة وهو فرار من ضرورة لأخرى إذ تحريكها وإثباتها في الوصل غير جائز ، وللنحاة في مسألة إثبات النون مع إضافة الوصف إلى الضمير كلام طويل ، حاصله أن نحو ضاربك وضارباك وضاربوك ذهب سيبويه إلى أن الضمير فيه في محل جر بالإضافة ولذا حذف التنوين ونون التثنية والجمع ، وذهب الأخفش .

وهشام إلى أن الضمير في محل نصب وحذفهما للتخفيف حتى وردتا ثابتين كما في الفاعلونه وأمسلمني فالنون عندهما في الأخير ونحوه تنوين حرك لالتقاء الساكنين وقد سمعت ما فيه ، وحديث الحمل على الفعل على العلات أحسن ما قيل في التوجيه ، هذا وطلع واطلع بالتشديد وأطلع بالتخفيف بمعنى واحد والكل لازم ويجيء الاطلاع متعدياً يقال أطلعه على كذا فاطلع ، و ﴿ مُّطَّلِعُونَ ﴾ في قراءة أبي عمرو بمعنى مطلعون بالتشديد ونائب فاعل أطلع ضمير القائل والفاعل هم المخاطبون واطلاعهم إياه باعتبار التسبب كأنه لما أراد الاطلاع وأحب أن لا يستبد به أدباً عرض عليهم أن يطلعوا فرغبوا وأطلعوا فكان ذلك وسيلة إلى اطلاعه فكأنهم هم الذين أطلعوه ففاء ﴿ فَٱطَّلَعَ ﴾ فصيحة والعطف على مقدر ، والمعنى على القراءة التي بعدها هل أنتم مطلعون حتى أطلع أنا أيضاً فاطلعوا وأطلع هو بعد ذلك فرآه في سواء الجحيم ولا بد من تقدير اطلع بعد ذلك ليصلح ترتب ﴿ فَرَءَاهُ ﴾ على ما قبله و ﴿ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ عليه بمعنى الأمر تأدباً ومبالغة وعلى القراءة الثانية وهي قراءة التخفيف في الكلمتين والثانية فعل ماض المعنى كما في قراءة الجمهور ، وكذا على القراءة التي بعدها ، وعلى قراءة أبي البرهسم ومن معه هل أنتم مطلعي فاطلعوه فرآه الخ ، واطلاعهم إياه إذا كان الخطاب للجلساء بطريق التسبب كأنه طلب أن يطلعوا ليوافقهم فيطلع وهو إذا كان الخطاب للملائكة عليهم السلام على ما يتبادر إلى الذهن ، وعن صاحب اللوامح أن طلع واطلع اطلاعاً بمعنى أقبل وجاء والقائم مقام

الفاعل على قراءة أطلع مبنياً للمفعول ضمير المصدر أو جار ومجرور محذوفان أي أطلع به لأن أطلع لازم كأقبل وقد علمت أن أطلع يجيء متعدياً كأطلعت زيداً.

ورد أبو حيان الاحتمال الثاني بأن نائب الفاعل لا يجوز حذفه كالفاعل فتأمل جميع ما ذكرنا ولا تغفل.

قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (56)

(38/652)

---

﴿ قَالَ ﴾ أي القائل لقرينه ﴿ تالله إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ أي لتهلكني، وفي قراءة عبد الله ﴿ لتغوين ﴾، و﴿ إن ﴾ مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة.

وفي "البحر" أن القسم فيه التعجب من سلامته منه إذ كان قرينه قارب أن يرديه.

﴿ وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّى ﴾ علي وهي التوفيق والعصمة ﴿ لَكُنتُ مِنَ المحضرين ﴾ للعذاب كما أحضرته أنت وأضرابك.

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيّتِينَ ﴾ الخ رجوع إلى محاورة جلسائه بعد إتمام الكلام مع قرينه تبجحاً وابتهاجاً بما أتاح الله تعالى له من الفضل العظيم والنعيم المقيم وتعريضاً للقرين بالتوبيخ، وجوز أن يكون من كلام المتسائلين جميعاً وأن يكون من تتمة كلام القائل يسمع قرينه على

جهة التوبيخ له ، واختير الأول ، والهمزة للتقرير وفيها معنى التعجب والفاء للعطف على مقدر يقتضيه نظم الكلام على ما ذهب إليه الزمخشري ومتبعوه أي أنحن مخلدون فما نحن بميتين أي ممن شأنه الموت كما يؤذن به الصفة المشبهة .

وقرىء ﴿ بمائتين ﴾ .

إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59)

(39/652)

---

﴿ إِلَّا مَوْتَتَنَا الأولى ﴾ التي كانت في الدنيا وهي متناولة عند أهل السنة لما في القبر بعد الإحياء للسؤال لعدم الاعتداد بالحياة فيه لكونها غير تامة ولا قارة وزمانها قليل جداً ، والاستثناء مفرغ من مصدر مقدر كأنه قيل أفما نحن بميتين موتة إلا موتتنا الأولى ، وجوز أن يكون منقطعاً أي لكن الموتة الأولى كانت لنا في الدنيا وعلمهم بأنهم لا يموتون ناشىء من إخبار أنبيائهم لهم في الدنيا وإعلامهم إياهم بأن أهل الجنة لا يموتون أو من قول الملائكة عليهم السلام لهم حين دخول الجنة ﴿ طبتم فادخلوها خالدين ﴾ [ الزمر : 73 ] وقولهم : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءامِنِينَ ﴾ [ الحجر : 46 ] وقيل إن أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت فحينئذٍ يعلمونه فيقولون ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى

واغتباطاً بها ، ولا يخفى أن كون هذا القول المحكي هنا عند علمهم بعدم الموت من ذبحه بعيد في هذا المقام والظاهر أن هذا بعد الاطلاع والكلام مع القرين ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ كأصحاب النار ، والمراد استمرار النفي وتأكيده وكذا فيما تقدم واستمرار هذا النفي نعمة جليلة وهو متضمن نفي زوال نعيمهم المحكي في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [ الصافات : 41 ] الآيات فإن زوال النعيم نوع من العذاب بل هو من أعظم أنواعه بل تصور الزوال عذاب أيضاً لا يلذ معه عيش ، ولذا قيل

: إذا شئت أن تحيا حياة هنية . . .

فلا تتخذ شيئاً تخاف له فقدا

وكذا يتضمن نفي الهرم واختلال القوي الذي يوهمه نفي الموت فإن ذلك نوع من العذاب أيضاً ، وأنه إنما اختير التعرض لاستمرار نفي العذاب دون إثبات استمرار النعيم لأن نفي العذاب أسرع خطوراً ببال من لم يعذب عند مشاهدة من يعذب ، وقيل إن ذاك لأن درء الضرر أهم من جلب المنفعة .

﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ الفوز العظيم ﴾ الظاهر أن الإشارة إلى ما أخبروا به من استمرار نفي الموت واستمرار نفي التعذيب عنهم ، ويجوز أن تكون إشارة إلى ما هم فيه من النعيم مع استمرار النفيين فإذا كان الكلام من تتمة كلام القائل ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ [ الصافات : 58 ] الخ فهو متضمن إشارة ذلك القائل إلى ظهور النعيم ويكون ترك التعرض للتصريح به للاستغناء بذلك الظهور .

وجوز أن يكون هذا كلامه تعالى قاله سبحانه تقريراً لقول ذلك القائل وتصديقاً له مخاطباً جل وعلا به حبيبه عليه الصلاة والسلام وأمته والتأكيد للاعتناء بشأن الخبر .

وقرىء ﴿ لَهُوَ الرزق العظيم ﴾ وهو ما رزقوه من السعادة العظمى .

﴿ لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾

أي لنيل مثل هذا الأمر الجليل ينبغي أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية السريعة الانصرام المشوبة بفنون الآلام فتقديم الجار والمجرور للحصر وهذا إن كان إشارة إلى مشخص من حيث تشخصه فمثل غير مقحمة وإن كان إشارة إلى الجنس فهي مقحمة كما في مثلك لا يبخل والكلام يحتمل أن يكون من تتمة كلام القائل ولا يعكر عليه أن الآخرة ليست بدار عمل إذ ليس المراد الأمر بالعمل فيها ويحتمل أن يكون من كلامه عز وجل . انتهى ا . هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50) ﴾

الفاء للتفريع لأن شأن المتجالسين في مسرّة أن يشرعوا في الحديث فإن في الحديث مع الأصحاب والمنتدمين لذة كما قال محمد بن فياض:

وما بقيتْ من اللذات إلا . . .

أحاديثُ الكرام على الشراب

فإذا استشعروا أن ما صاروا إليه من النعيم كان جزاء على ما سبق من إيمانهم وإخلاصهم تذكر بعضُهم مَن كان يجادله في ثبوت البعث والجزاء فحمِد الله على أن هداَه لعدم الإِصغاء إلى ذلك الصّادِّ فحدث بذلك جلساءه وأراهم إياه في النار ، فلذلك حكي إقبال بعضهم على بعض بالمساءلة بفاء التعقيب .

وهذا يدلّ على أن الناس في الآخرة تعود إليهم تذكراتهم التي كانت لهم في الدنيا مصفاة من الخواطر السيّئة والأكدار النفسانية مدركة الحقائق على ما هي عليه .

وجيء في حكاية هذه الحالة بصيغ الفعل الماضي مع أنها مستقبلة لإِفادة تحقيق وقوع ذلك حتى كأنه قد وقع على نحو قوله تعالى : ﴿ أتى أمر اللَّه ﴾ [ النحل : 1 ] ، والقرينة هي التفريع على الأخبار المتعلقة بأحوال الآخرة .

والتساؤل : أن يسأل بعضهم بعضاً ، وحُذف المتساءل عنه لدلالة ما بعده عليه ، وقد بَين نحواً منه قولهُ تعالى : ﴿ في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر ﴾ [ المدثر : 40 – 42 ] .

وجملة ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنهم ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ، ﴾ أي قال أحدهم في جواب سؤال بعضهم ، فإن معنى التساؤل يشتمل على معنى الجواب فلذلك جعلناه بدل اشتمال لا بدل بعض ولا عطف بيان ، والقرين مراد به الجنس ، فإن هذا القول من شأنه أن يقوله كثير من خلطاء المشركين قبل أن يُسْلموا .

*(42/652)*

---

والقرين : المصاحب الملازم شبهت الملازمة الغالبة بالقرْن بين شيئين بحيث لا ينفصلان ، أي يقول له صاحبه لما أَسلم وبقي صاحبه على الكفر يجادله في الإسلام ويحاول تشكيكه في صحته رجاء أن يرجع به إلى الكفر كما قال سعيد بن زيد : "لقد رأيتُني وأنَّ عُمر لمُوثقي على الإسلام" أي جاعلني في وثاق لأجل أني أسلمت ، وكان سعيد صهر عُمر زوْجَ أخته .

والاستفهام في ﴿ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِقِينَ ﴾ مستعمل في الإِنكار ، أي ما كان يحق لك أن

تصدّق بهذا ، وسلط الاستفهام على حرف التوكيد لإفادة أنه بلغه تأكُّد إسلام قرينه فجاء ينكر عليه ما تحقق عنده ، أي أن إنكاره إسلامه بعدَ تحقق خبره ، ولولا أنه تحققه لما ظنّ به ذلك .

والمصدّق هو : الموقن بالخبر .

وجملة ﴿ أَإِذَا مِتْنَا ﴾ بيان لجملة ﴿ أَإِنَّكَ لمن المُصَدقين ﴾ بينت الإِنكار المجمل بإنكار مفصل وهو إنكار أن يبعث الناس بعد تفرق أجزائهم وتحوُّلها تراباً بعد الموت ثم يجازَوا .

وجملة ﴿ إِنَّا لَمَدِينُون ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ .

وقرنت بحرف التوكيد للوجه الذي علمته في قوله : ﴿ أَإِنَّكَ لِمَنَ المُصَدقين .

والمدين : المجازَى يقال : دانه يدينه ، إذا جازاه ، والأكثر استعماله في الجزاء على السوء ، والدين : الجزاء كما في سورة الفاتحة .

وقيل هنا أَإِنا لَمَدِينون ﴾ وفي أول السورة

﴿ إِنَّا لَمَبْعُوثون ﴾ [ الصافات : 16 ] لاختلاف القائلين .

وقرأ الجميع ﴿ أَإِنك ﴾ بهمزتين .

وقرأ من عدا ابن عامر ﴿ أَإذَا مِتْنَا ﴾ بهمزتين وابن عامر بهمزة واحدة وهي همزة ﴿ إذا ﴾ اكتفاء بهمزة ﴿ أَإنا لمدينون ﴾ في قراءته .

وقرأ نافع ﴿ إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ بهمزة واحدة اكتفاء بالاستفهام الداخل على شرطها .

وقرأه الباقون بهمزتين .

وجملة ﴿ قالَ هل أنتُم مُطَّلِعون ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ قالَ قَائِلٌ منهم ﴾ لأن قوله : ﴿ هل أنتم مطلعون ﴾ المحكي بها هو مما اشتمل عليه قوله الأول إذ هو تكملة للقول الأول .

(43/652)

---

والاستفهام بقوله ﴿ هل أنتم مُطَّلعون ﴾ مستعمل في العرض ، عرض على رفقائه أن يتطلعوا إلى رؤية قرينه وما صار إليه ، وذلك : إمّا لأنه علم أن قرينه مات على الكفر بأن يكون قد سبقه بالموت ، وإمّا لأنه ألقي في رُوعه أن قرينه صار إلى النار ، وهو موقن بأن خازن النار يطلعهم على هذا القرين لعلمهم بأن لأهل الجنة ما يتساءلون قال تعالى : ﴿ ولهم ما يدَّعون ﴾ [ يس : 57 ] .

وحذف متعلق ﴿ مُطَّلعون ﴾ لدلالة آخر الكلام عليه بقوله : ﴿ في سَوَاءِ الجَحِيم .

﴾ فالتقدير : هل أنتم مطلعون على أهل النار لننظُره فيهم .

وفي قوله : ﴿ فاطَّلعَ ﴾ اكتفاء ، أي فاطّلع واطّلعوا فرآه ورأوه في سواء الجحيم إذ هو إنما عرض عليهم الاطّلاع ليعلموا تحقيق ما حدّثهم عن قرينه .

واقتصر على ذكر اطلاعه هو دون ذكر اطلاع رفقائه لأنه ابتدأ بالاطّلاع ليميز قرينه فيريه لرفقائه.

و﴿ سَوَاءِ الجَحِيمِ ﴾ وسطها قال بلعاء بن قيس:

عضباً أصاب سواء الرأس فانفلقا

وجملة ﴿ قالَ تاللهِ إنْ كِدتَ لَتُرْدِينِ ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانيّاً لأن وصف هذه الحالة يثير في نفس السامع أن يسأل: فماذا حصل حين اطلع؟ فيجاب بأنه حين رأى قرينه أخذ يوبخه على ما كان يحاوله منه حتى كاد أن يلقيه في النار مثله.

وهذا التوبيخ يتضمن تنديمه على محاولة إرجاعه عن الإسلام.

والقَسَم بالتاء من شأنه أن يقع فيما جواب قسَمِه غريب، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ قالوا تاللَّه لقد علمتم ﴾ في سورة [يوسف: 73]، وقوله: ﴿ وتاللَّهِ لأكيدن أصنامكم ﴾ في سورة [الأنبياء: 57].

ومحل الغرابة هو خلاصُهُ من شبكة قرينه واختلاف حال عاقبتيهما مع ما كانا عليه من شدة الملازمة والصحبة وما حفّه من نعمة الهداية وما تورط قرينه في أوحال الغواية.

و﴿ إنْ ﴾ مخففة من الثقيلة واتصل بها الفعل الناسخ على ما هو الغالب في أحوالها إذا أُهملت.

واللام الداخلة على خبر كاد هي الفارقة بين ﴿ إن ﴾ المخففة والنافية.

و "ترديني" تُوقِعُني في الرَّدَى وهو الهلاك ، وأصل الردى : الموت ثم شاعت استعارته لسوء الحال تشبيهاً بالموت لما شاع من اعتبار الموت أعظم ما يصاب به المرء .

والمعنى : أنك قاربت أن تفضي بي إلى حال الردى بإلحاحك في صرفي عن الإِيمان بالبعث لفرط الصحبة .

ولولا نعمة هداية الله وتثبيته لكنت من المحضَرين معك في العذاب .

وقرأ الجمهور ﴿ لَتُرْدِينِ ﴾ بنون مكسورة في آخره دون ياء المتكلم على التخفيف ، وهو حذف شائع في الاستعمال الفصيح وهو لغة أهل نجد .

وكتب في المصاحف بدون ياء .

وقرأه ورش عن نافع بإثبات الياء ولا يُنافي رسم المصحف لأن كثيراً من الياءات لم تكتب في المصحف ، وقرأ القراء بإثباتها فإن كتّاب المصحف قد حذفوا مدوداً كثيرة من ألفات وياءات .

والمحضرون : أريد بهم المحضرون في النار ، أي لكنت من المحضرين معك للعذاب .

وقد كثر إطلاق المُحْضَر ونحوه على الذي يُحضر لأجل العقاب .

وقد فسر بعض المفسرين القرين هنا بالشيطان الذي يلازم الإِنسان لإِضلاله وإغوائه.

وطريقُ حكاية تصدّي القائل من أهل الجنة لإِخبار أهل مجلسه بحاله يبطل هذا التفسير لأنه لو كان المراد الشيطان لكان إخباره به غير مفيد فما من أحد منهم إلا كان له قرين من الشياطين، وما منهم إلا عالم بأن مصير الشياطين إلى النار.

وقيل: نزلت في شريكين هما المشار إليهما في قوله تعالى: ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ﴾ في سورة [الكهف: 32].

وروي عن عطاء الخراساني: أنها نزلت في أخوين مؤمن وكافر، كانا غنيين، وكان المؤمن ينفق ماله في الصدقات وكان الكافر ينفق ماله في اللذات.

وفي هذه الآية عبرة من الحذر من قرناء السوء ووجوب الاحتراس مما يدعون إليه ويزّينونه من المهالك.

أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58)

*(45/652)*

---

عَطفت الفاء الاستفهامَ على جملة ﴿ قالَ هل أنتُم مُطَّلعون ﴾ [الصافات: 54]، فالاستفهام موجه من هذا القائل إلى بعض المتسائلين.

وهو مستعمل في التقرير المراد به التذكير بنعمة الخلود فإنه بعد أن أطلعهم على مصير قرينه السوء أقبل على رفاقه بإكمال حديثه تحدثاً بالنعمة واغتباطاً وابتهاجاً بها ، وذكراً لها فإن لذكر الأشياء المحبوبة لذة فما ظنك بذكر نعمة قد انغمسوا فيها وأيقنوا بخلودها .

ولعل نظم هذا التذكر في أسلوب الاستفهام التقريري لقصد أن يسمع تكرر ذكر ذلك حين يجيبه الرفاق بأن يقولوا : نعم ما نحن بميتين .

والاستثناء في قوله : ﴿ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى ﴾ منقطع لأن الموت المنفي هو الموت في الحال ، أو الاستقبال كما هو شأن اسم الفاعل فتعيّن أن المستثنى غير داخل في المنفي فهو منقطع ، أي لكن الموتة الأولى .

وذلك الاستدراك تأكيد للنفي .

وانتصابه لأجل الانقطاع لا لأجل النفي .

وعطف ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ ليتمحّض الاستفهام للتحدث بالنعمة لأن المشركين أيضاً ما هم بميتين ولكنهم معذّبون فحالهم شرّ من الموت .

قيل لبعض الحكماء : ما شرّ من الموت ؟ فقال : الذي يُتمنى فيه الموت .

والظاهر أن جملة ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ حكاية لبقية كلام القائل لرفاقه ، فهي بمنزلة التذييل والفذلكة لحالتهم المشاهدِ بعضُها والمتحدثِ عن بعضها بقوله : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ .

والفوز ﴾ : الظفر بالمطلوب ، أي حالنا هو النجاح والظفر العظيم .

وقد أُبدع في تصوير حسن حالهم بحصر الفوز فيه حتى كان كل فوز بالنسبة إليه ليس بفوز ، فالحصر للمبالغةِ لعدم الاعتداد بغيره ثم ألحقوا ذلك الحصر بوصفه بـ ﴿ العظيم .

لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61)

(46/652)

---

هذا تذييل لحكاية حال عباد الله المخلصين فهو كلام من جانب الله تعالى للتنويه بما فيه عباد الله المخلصون ، وللتحريض على العمل بمثل ما عمِلوه مما أوجب لهم إخلاصَ الله إياهم ، فالإشارة في قوله : ﴿ لِمثلِ هذا ﴾ إلى ما تضمنه قوله : ﴿ أولئك لهم رِزقٌ معلوم ﴾ [ الصافات : 41 ] الآيات ، أي لمثل نعيمهم وأنسهم ومسرتهم ولذّاتهم وبهجتهم وخلود ذلك كله .

والمراد بمثله : نظيره من نعيمٍ لمخلصين آخرين .

والمراد بالعاملين : الذين يعملون الخير ويسيرون على ما خطّت لهم شريعة الإسلام ، فحذف مفعول "يعمل" اختصاراً لظهوره من المقام .

واللام في ﴿ لِمثْلِ ﴾ لام التعليل .

وتقديم المجرور على عامله لإفادة القصر ، أي لا لعمل غيره ، وهو قصر قلب للرد على المشركين الذين يحسبون أنهم يعملون أعمالاً صالحة يتفاخرون بها من الميْسر ، قال تعالى :

﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ [ الكهف : 103 - 104 ] .

والمعنى : لنوال مثل هذا ، فحذف مضاف لدلالة اللام على معناه .

والفاء للتفريع على مضمون القصة المذكورة قبلها من قوله : ﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المُخلصين ﴾ [ الصافات : 40 ] الآيات .

والأمر في ﴿ فليعمل ﴾ للإرشاد الصادق بالواجبات والمندوبات . انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

*(47/652)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50) ﴾

يتذاكرون فيما بينهم ، ويذكرون مِنْ معارفهم مَنْ لا يُؤْمن بالله ، وما آمن به

المؤمنون فيخلق الله لهم إطلاعاً عليه وهم في النار يحترقون .

قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57)

نَطَقَ الوليُّ بالحقِّ ولكنه لم يُصرِّح بعين التوحيد ؛ إذ جعَلَ الفَضْلَ واسطةً ، والأَوْلى أن يقول : ولولا ربي لكنتُ من المحضرين .

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61)

يقال : بل الملائكةُ يقولون لهم هذا ، ويقال : الحقُّ -سبحانه- إذا أراهم مقامَهم في الجنة يقول لهم : ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ .

ويقال إنْ كان العابدُ يقول هذا ، أو يقال له هذا إذا ظهرت الجنة فإنه إذا بَدَتْ شظيةٌ من الحقائق وتباشير الوصلة ، أو ذرَّةٌ من نسيم القربة فبالحريِّ أن يقولَ القائلون : لِمِثْلِ هذه الحالة تُبْذَلُ الأرواح .

على مِثْلِ سَلْمَى يَقْتُلُ المرءُ نَفْسَه . . . وإن بات من سَلْمى على اليأس طاويا

وها هنا تضيق العبارات ، وتتقاصر الإشارات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 233. 234 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (63) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (65) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (66) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (69) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (70) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (71) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (72) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (74) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما فات الوصف هذا التشويق إلى هذا النعيم ، رمى في نعته رمية أخرى سبقت العقول وتجاوزت حد الإدراك وعلت عن تخيل الوهم في استفهام منفر من ضده بمقدار الترغيب فيه لمن كان له لب فقال : ﴿ أذلك ﴾ الجزاء البعيد المنال البديع المثال ﴿ خير نزلاً ﴾ فأشار بذلك إلى أنه إنما هو شيء يسير كما يقدم للضيف عند نزوله على ما لاح في جنب ما لهم وراء ذلك مما لا تسعه العقول ولا تضبطه الفهوم : ﴿ أم شجرة الزقوم ﴾ أي التي تعرفها بأنها في غاية النتن والمرارة ، من قولهم : تزقم الطعام – إذا تناوله على كره ومشقة شديدة ، وعادل بين ما لا معادلة بينهما بوجه تنبيهاً على ذلك ، ولأنهم كانوا يرون ما سبب

ذلك من الأعمال خيراً من أعمال المؤمنين التي سببت لهم النعيم ، فكأنهم كانوا يقولون : إن هذا العذاب خير من النعيم ، فسيق ذلك كذلك توبيخاً لهم على سوء اختيارهم .

(49/652)

---

ولما كان قد أخبر أن نباتها في النار ، فكان ذلك سبباً لزيادة تكذيبهم لأن عدم إيمانهم كان سبباً لضيق عقولهم ، قال مؤكداً رداً على من يظن أن سبحانه لا يفتن عباده لأنه غني عن ذلك : ﴿ إنا جعلناها ﴾ أي الشجرة بما لنا من العظمة ﴿ فتنة للظالمين ﴾ أي الذين يضعون الأشياء في غير مواضعها كمن هو في الظلام بكونها عذاباً لهم في الأخرى وسبباً لزيادة ضلالهم في الدنيا ، ولو وضعوها مواضعها لعلموا أن من جعل في الشجر الأخضر ناراً لا تحرقه يستخرجونها هم متى شاؤوا فيحرقون بها ما شاؤوا من حطب وغيره قادر على أن ينبت في النار شجراً أخضر لا تحرقه النار ، ثم نبه على أن محل الفتنة جعلها فيما ينكرونه ، فقال تعالى مؤكداً لأجل إنكارهم معللاً لجعلها فتنة تخالطهم فتحيلهم في الدنيا بجرها وفي الأُخرى بأثرها : ﴿ إنها ﴾ وحقق أمر نباتها بقوله : ﴿ شجرة ﴾ وزاد الأمر بياناً بقوله : ﴿ تخرج ﴾ وأكده بالظرف فقال : ﴿ في أصل ﴾ أي ثابت وقعر ومعظم وقرار ﴿ الجحيم ﴾ أي النار الشديدة الاضطرام وفروعها ترتفع إلى دركاتها ، ثم زاد ذلك

وضوحاً وتصويراً بقوله : ﴿ طلعها ﴾ أي الذي هو مثل طلع النخل في نموه ثم تشققه عن ثمرة ﴿ كأنه رءوس الشياطين ﴾ فيما هو مثل عند المخاطبين فيه ، وهو القباحة التي بلغت النهاية ، وهذا المثل واقع في أتم مواقعه سواء كان الشيطان عندهم أسماً للحية أو لغيرها ، لأن قبح الشياطين وما يتصل بهم في أنهم شر محض لا يخلطه خير مقرر في النفوس ، ولهذا كان كل من استقبح منظر إنسان أو فعله يقول : كأنه شيطان ، كما انطبع في النفوس حسن الملائكة وجلالتهم فشبهوا لهم الصور الحسان ، ولذلك سمت العرب ثمر شجر يقال له الأستن بهذا الاسم ، وهو شجر خشن مر منتن منكر الصورة .



---

ولما أثبت أمرها بما هو في غاية الفتنة لها واللطف للمؤمنين ، سبب عن الفتنة بها قوله : رادا لإنكارهم أن يأكلوا مما لا يشتهونه ومكذباً لما كانوا يدعون من المدافعة : ﴿ فإنهم ﴾ أي بسبب كفرانهم بها وبغيرها مما أمرهم الله ﴿ لآكلون منها ﴾ أي من هذه الشجرة من شوكها وطلعها وما يريد الله بما يؤلم منها .

ولما كانوا قد زادوا في باب التهكم في أمرها ، زاد التأكيد في مقابلة ذلك بقوله : ﴿ فمالئون منها ﴾ ومن غيرها في ذلك الوقت الذي يريد الله أكلهم منها ﴿ البطون ﴾ قهراً على ذلك

وإجباراً .

ولما أحرق أكبادهم من شديد الجوع زيادة في العذاب ، ولما جرت العادة بأن الآكل المتنعم يتفكه بعد أكله بما يبرد غلة كبده ، قال مشيراً إلى تناهي شناعة متفكههم ، وطويل تلهبهم من عطشهم ، بأداة التراخي وآلة التأكيد لما لهم في ذلك من عظيم الإنكار : ﴿ ثم إن لهم عليها ﴾ أي على أكلهم منها ﴿ لشوباً ﴾ أي خلطاً عظيم الإحراق ﴿ من حميم ﴾ أي ماء حار كأنه مجمع من مياه من عصارات شتى من قيح وصديد ونحوهما - نسأل الله العافية .

ولما كان ما ذكر للفريقين إنما هو النزل الذي مدلوله ما يكون في أول القدوم على حين غفلة ، وكانوا يريدون الحميم كما يورد الإبل الماء ، وكان قوله تعالى ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ [ الرحمن : 44 ] يدل على أن ذلك خارجها أو خارج غمرتها ، كما تكون الأحواض في الحيشان خارج الأماكن المعدة للإبل ، قال مبيناً أن لهم ما هو أشد شناعة من ذلك ملوحاً إليه بأداة التراخي : ﴿ ثم إن مرجعهم ﴾ أي بعد خروجهم من دار ضيافتهم الزقومية ﴿ لإلى الجحيم ﴾ أي ذات الاضطرام الشديد ، والزفير والبكاء والاغتمام الطويل المديد ، كما أن حزب الله يتقلبون من جنات النعيم إلى جنات المأوى مثلاً إلى جنات عدن إلى الفردوس التي لا يبغون عنها حولاً كما ينقل أهل السعة والأكابر من أهل الدنيا ضيوفهم في البساتين المتواصلة والمناظر ، وينزهونهم في القصور العالية والدساكر .

ولما أخبر عن عذابهم هذا ، وكان سببه الجمود مع العادة الجارية على غير الحق ، والتقيد بما ألفته النفس ومال إليه الطباع ، مما أصّله من يعتقدون أنه أكبر منهم وأتم عقلاً ، علل ذلك تحذيراً من مثله لأنه كان سبب هلاك أكثر الخلق ، وأكده لأنهم ينكرون ضلال من أصّل لهم ، فتلك العوائد من آبائهم وغيرهم فقال : ﴿ إنهم ألفوا ﴾ أي وجدوا وجدانا ألفوه ﴿ آباءهم ضالين ﴾ أي عريقين في الضلال ، فما هم فيه لا يخفى على أحد أنه ضلال يتسبب عنه النفرة عن صاحبه ﴿ فهم ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ على آثارهم ﴾ أي التي لا تكاد تبين لأحد لخفاء مذاهبها لوهيها وشدة ضعفها وانطماس معالمها ، لا على غيرها ﴿ يهرعون ﴾ أي كأنهم يلجئهم ملجئ إلى الإسراع ، فهم في غاية المبادرة إلى ذلك من غير توقف على دليل ولا استضاءة بحجة بحيث يلحق صاحب هذا الإسراع من شدة تكالبه عليه شيء هو كالرعدة ، وذلك ضد توقفهم وجمودهم فيما أتاهم به رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ من شجرة الزقوم وغيرها مما هو في غاية الوضوح والجلاء ، فأمعنوا في التكذيب به والاستهزاء ، وأصروا بعد قيام الدلائل ، فكانوا كالجبال ثباتاً على ضلالهم ، والحجارة الصلاب الثقال رسوخاً في لازب أوحالهم .

ولما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- شديد المحبة لهداهم والحزن على ضلالهم، والأسف على غيهم ومحالهم، وكان الضلال مع العقل أولاً، ثم مع وجود الرسل الذين هم من الصدق والمعجزات والأمور الملجئة إلى الهدى ثانياً كالمحال، سلاه سبحانه بقوله على سبيل التأكيد لزيادة التحقيق: ﴿ولقد ضل قبلهم﴾ أي قبل من يدعوهم في جميع الزمان الذي تقدمهم ﴿أكثر الأولين﴾ بحيث إنه لم يمض قرن بعد آدم عليه السلام إلا وكله أو جله ضلال.

(52/652)

---

ولما كان ربما ظن أنه لعدم الرسل، نفى ذلك بقوله مؤكداً لنحو ذلك: ﴿ولقد أرسلنا﴾ أي على ما لنا من العظمة التي توجب الإتيان بما لا ريب فيه من البيان ﴿فيهم منذرين﴾ أي فأنذروهم بأس الله وبينوا لهم أحسن البيان، ومع ذلك فغلب عليهم الضلال، وعناد أهل الحق بالمحال، حتى أهلكهم الله بما له من شديد المجال، وهو معنى قوله: ﴿فانظر﴾ أي فتسبب عن الإرسال أنا فعلنا في إهلاكهم من العجائب ما يستحق التعجيب به والتحذير من مثله بأن يقال لمن تخلف عنهم: انظر ﴿كيف﴾ ولما كان ذلك عادة مستمرة لم تختلف أصلاً قال: ﴿كان عاقبة﴾ أي آخر امر ﴿المنذرين﴾ أي في إنا أهلكناهم

لتكذيبهم ، فاصبر على الشدائد كما صبروا ، واستمر على الدعاء بالبشارة والنذارة حتى يأتيك أمر الله .

ولما أفهم الحكم على الأكثر بالضلال أن الأقل على غير حالهم ، نبه على حال الطائعين بقوله مستثنياً من ضمير المنذرين : ﴿ إلا عباد الله ﴾ أي الذين استخلصهم سبحانه بما له من صفات الكمال ، فاستحقوا الإضافة إلى اسمه الأعظم ﴿ المخلصين ﴾ أي الذين أخلصهم له فأخلصوا هم أعمالهم فلم يجعلوا فيها شوباً لغيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 317.314 ﴾

*(53/652)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال بعد ذكر أهل الجنة ووصفها ﴿ لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾ [ الصافات : 61 ] أتبعه بقوله : ﴿ أذلك خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزقوم ﴾ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يورد ذلك على كفار قومه ليصير ذلك زاجراً لهم عن الكفر ، وكما

وصف من قبل مآكل أهل الجنة ومشاربهم وصف أيضاً في هذه الآية مآكل أهل النار ومشاربهم .

أما قوله : ﴿ أذلك خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزقوم ﴾ فالمعنى أن الرزق المعلوم المذكور لأهل الجنة ﴿ خَيْرٌ نُّزُلاً ﴾ أي خير حاصلاً ﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزقوم ﴾ وأصل النزل الفضل الواسع في الطعام يقال طعام كثير النزل ، فاستعير للحاصل من الشيء ، ويقال أرسل الأمير إلى فلان نزلاً وهو الشيء الذي يصلح حال من ينزل بسببه ، إذا عرفت هذا فنقول حاصل الرزق المعلوم لأهل الجنة اللذة والسرور ، وحاصل شجرة الزقوم الألم والغم ، ومعلوم أنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر في الخيرية إلا أنه جاء هذا الكلام ، إما على سبيل السخرية بهم أو لأجل أن المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم إلى الرزق الكريم ، والكافرين اختاروا ما أوصلهم إلى العذاب الأليم فقيل لهم ذلك توبيخاً لهم على سوء اختيارهم ، وأما ﴿ الزقوم ﴾ فقال الواحدي رحمه الله لم يذكر المفسرون .

للزقوم تفسيراً إلا الكلبي فإنه روي أنه لما نزلت هذه الآية قال ابن الزبعري أكثر الله في بيوتكم الزقوم ، فإن أهل اليمن يسمون التمر والزبد بالزقوم ، فقال أبو جهل لجاريته زقمينا فأتته بزبد وتمر ، وقال : تزقموا .

ثم قال الواحدي ومعلوم أن الله تعالى لم يرد بالزقوم ههنا الزبد والتمر ، قال ابن دريد لم يكن

للزقوم اشتقاق من التزقم وهو الإفراط من أكل الشيء حتى يكره ذلك يقال بات فلان يتزقم .

(54/652)

---

وظاهر لفظ القرآن يدل على أنها شجرة كريهة الطعام منتنة الرائحة شديدة الخشونة موصوفة بصفات كل من تناولها عظم من تناولها ، ثم إنه تعالى يكره أهل النار على تناول بعض أجزائها .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جعلناها فِتْنَةً للظالمين ﴾ ففيه أقوال : الأول : أنها إنما صارت فتنة للظالمين ، من حيث إن الكفار لما سمعوا هذه الآية ، قالوا : كيف يعقل أن تنبت الشجرة في جهنم مع أن النار تحرق الشجرة ؟ والجواب عنه أن خالق النار قادر على أن يمنع النار من إحراق الشجر ، ولأنه إذا جاز أن يكون في النار زبانية والله تعالى يمنع النار عن إحراقهم فلم لا يجوز مثله في هذه الشجرة ؟ إذا عرفت هذا السؤال والجواب فمعنى كون شجرة الزقوم فتنة للظالمين هو أنهم لما سمعوا هذه الآية وقعت تلك الشبهة في قلوبهم وصارت تلك الشبهة سبباً لتماديهم في الكفر فهذا هو المراد من كونها فتنة لهم والوجه الثاني : في التفسير أن يكون المراد صيرورة هذه الشجرة فتنة لهم في النار لأنهم إذا كلفوا تناولها وشق ذلك عليهم

، فحينئذ يصير ذلك فتنة في حقهم الوجه الثالث : أن يكون المراد من الفتنة الامتحان والاختبار ، فإن هذا شيء بعيد عن العرف والعادة مخالف للمألوف والمعروف ، فإذا ورد على سمع المؤمن فوض علمه إلى الله وإذا ورد على الزنديق توسل به إلى الطعن في القرآن والنبوة .

(55/652)

---

ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وصفها بصفات الصفة الأولى : قوله إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم قيل منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها الصفة الثانية : قوله : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءوسُ الشياطين ﴾ قال صاحب "الكشاف" : الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها ، إما استعارة لفظية أو معنوية ، وقال ابن قتيبة سمي ( طلعاً ) لطلوعه كل سنة ، ولذلك قيل طلع النخل لأول ما يخرج من ثمره ، وأما تشبيه هذا الطلع برؤوس الشياطين ففيه سؤال ، لأنه قيل إنا ما رأينا رؤوس الشياطين فكيف يمكن تشبيه شيء بها ؟ وأجابوا عنه من وجوه : الأول : وهو الصحيح أن الناس لما اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في الصورة والسيرة واعتقدوا في الشياطين نهاية القبح والتشويه في الصورة والسيرة ، فكما حسن التشبيه بالملك عند إرادة تقرير الكمال والفضيلة في قوله :

﴿ إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [ يوسف : 31 ] فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برؤوس الشياطين في القبح وتشويه الخلقة ، والحاصل أن هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس بل بالمتخيل ، كأنه قيل إن أقبح الأشياء في الوهم والخيال هو رؤوس الشياطين فهذه الشجرة تشبهها في قبح النظر وتشويه الصورة ، والذي يؤكد هذا أن العقلاء إذا رأوا شيئاً شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة ، قالوا إنه شيطان ، وإذا رأوا شيئاً حسن الصورة والسيرة ، قالوا إنه ملك ، وقال امرؤ القيس :

أتقتلني والمشرفي مضاجعي . . ومسنونة زرق كأنياب أغوال

(56/652)

---

والقول الثاني : أن الشياطين حيات لها رؤوس وأعراف ، وهي من أقبح الحيات ، وبها يضرب المثل في القبح ، والعرب إذا رأت منظراً قبيحاً قالت : كأنه شيطان الحماطة ، والحماطة شجرة معينة والقول الثالث : أن رؤوس الشياطين ، نبت معروف قبيح الرأس ، والوجه الأول هو الجواب الحق ، واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وذكر صفتها بين أن الكفار ﴿ لآَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ واعلم أن إقدامهم على ذلك الأكل يحتمل وجهين : الأول : أنهم أكلوا منها لشدة الجوع ، فإن قيل وكيف يأكلونها مع نهاية خشونتها

ونتنها ومرارة طعمها ؟ قلنا : إن الواقع في الضرر العظيم ربما استروح منه إلى ما يقاربه في الضرر ، فإذا جوعهم الله الجوع الشديد فزعوا في إزالة ذلك الجوع إلى تناول هذا الشيء وإن كان بالصفة التي ذكرتموها الوجه الثاني : أن يقال الزبانية يكرهونهم على الأكل من تلك الشجرة تكميلاً لعذابهم .

واعلم أنهم إذا شبعوا فحينئذ يشتد عطشهم ويحتاجون إلى الشراب ، فعند هذا وصف الله شرابهم ، فقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴾ [ الصافات : 67 ] قال الزجاج : الشوب اسم عام في كل ما خلط بغيره ، والحميم الماء الحار المتناهي في الحرارة ، والمعنى أنه إذا غلبهم ذلك العطش الشديد سقوا من ذلك الحميم ، فيحنئذ يشوب الزقوم بالحميم نعوذ بالله منهما .

*(57/652)*

---

واعلم أن الله وصف شرابهم في القرآن بأشياء منها كونه غساقاً ، ومنها قوله : ﴿ وَسُقُواْ مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴾ [ محمد : 15 ] ومنها ما ذكره في هذه الآية ، فإن قيل ما الفائدة في كلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ في قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴾ ؟ قلنا فيه وجهان الأول : أنهم يملأون بطونهم من شجرة الزقوم وهو حار يحرق بطونهم فيعظم عشطهم ، ثم

إنهم لا يسقون إلا بعد مدة مديدة والغرض تكميل التعذيب ، والثاني : أنه تعالى ذكر الطعام بتلك البشاعة والكراهة ، ثم وصف الشراب بما هو أبشع منه ، فكان المقصود من كلمة ثم بيان أن حال المشروب في البشاعة أعظم من حال المأكول ، ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الجحيم ﴾ قال مقاتل : أي بعد أكل الزقوم وشرب الحميم ، وهذا يدل على أنهم عند شرب الحميم لم يكونوا في الجحيم ، وذلك بأن يكون الحميم من موضع خارج عن الجحيم ، فهم يوردون الحميم لأجل الشرب كما تورد الإبل إلى الماء ، ثم يوردون إلى الجحيم ، فهذا قول مقاتل ، واحتج على صحته بقوله تعالى : ﴿ هذه جَهَنَّمُ التى يُكَذّبُ بِهَا المجرمون * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءانٍ ﴾ [ الرحمن : 43 ، 44 ] وذلك يدل على صحة ما ذكرناه ، ثم إنه تعالى لما وصف عذابهم في أكلهم وشربهم قال : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءابَاءهُمْ ضَالّينَ * فَهُمْ على ءاثارهم يُهْرَعُونَ ﴾ قال الفراء : الإهراع الإسراع يقال هرع وأهرع إذا استحث ، والمعنى أنهم يتبعون آباءهم اتباعاً في سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم ، والمقصود من الآية أنه تعالى علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين وترك اتباع الدليل ، ولو لم يوجد في القرآن آية غير هذه الآية في ذم التقليد لكفى .

ثم إنه تعالى ذكر لرسوله ما يوجب التسلية له في كفرهم وتكذيبهم ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأولين * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنذِرِينَ ﴾ فبين تعالى أن إرساله للرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف ، ويجب أن يكون له صلى الله عليه وسلم أسوة بهم حتى يصبر كما صبروا ، ويستمر على الدعاء إلى الله وإن تمردوا ، فليس عليه إلا البلاغ .

ثم قال تعالى : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ وهذا وإن كان في الظاهر خطاباً مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلا أن المقصود منه خطاب الكفار لأنهم سمعوا بالأخبار جميع ما جرى من أنواع العذاب على قوم نوح وعلى عاد وثمود وغيرهم ، فإن لم يعلموا ذلك فلا أقل من ظن وخوف يصلح أن يكون زاجراً لهم عن كفرهم .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ فيه قولان أحدهما : أنه استثناء من قوله : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأولين ﴾ والثاني : أنه استثناء من قوله : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ [ يونس : 73 ] فإنها كانت أقبح العواقب وأفظعها إلا عاقبة عباد الله المخلصين ، فإنها كانت مقرونة بالخير والراحة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 123 . 125 ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) ﴾

الألف من قوله ﴿ أذلك ﴾ للتقرير ، والمراد تقرير قريش والكفار ، وجاء بلفظة التفضيل بين شيئين لا اشتراك بينهما من حيث كان الكلام تقريراً ، والاحتجاج يقتضي أن يوقف المتكلم خصمه على قسمين : أحدهما فاسد ويحمله بالتقرير على اختيار أحدهما ولو كان الكلام خبراً لم يجز ولا أفاد أن يقال الجنة خير من ﴿ شجرة الزقوم ﴾ وأما قوله تعالى ﴿ خير مستقراً ﴾ [ الفرقان : 24 ] فهذا على اعتقادهم في أن لهم مستقراً جيداً وقد تقدم إيعاب هذا المعنى .

قال القاضي أبو محمد : وفي بعض البلاد الجدبة المجاورة للصحارى شجرة مرة مسمومة لها لبن إن مس جسم أحد تورهم ، ومات منه في أغلب الأمر تسمى شجرة الزقوم ، والتزقم في كلام العرب البلع على شدة وجهد ، وقوله تعالى : ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ قال قتادة والسدي ومجاهد : يريد ابا جهل ونظراءه وذلك أنه لما نزلت ﴿ أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم ﴾ ، قال الكفار ، وكيف يخبر محمد عن النار أنها تنبت الأشجار وهي تأكلها وتذهبها ففتنوا بذلك أنفسهم وجهلة من أتباعهم ، وقال أبو جهل : إنما الزقوم التمر بالزبد ونحن نتزقمه ، وقوله ﴿ في أصل الجحيم ﴾ معناه ملاصق نهاياتها التي لها

كالجدرات ، وفي قراءة ابن مسعود " إنها شجرة ثابتة في أصل الجحيم " ، وقوله تعالى : ﴿ كأنه رؤوس الشيطان ﴾ اختلف الناس في معناه ، فقالت فرقة : شبه بثمر شجرة معروفة يقال لها ﴿ رؤوس الشياطين ﴾ وهي بناحية اليمن يقال لها الأستق ، وهو الذي ذكر النابغة في قوله : " تحيد من أستق سوداً أسافله " . ويقال إنه الشجرة الذي يقال له الصوم وهو الذي يعني ساعدة بن جوبة في قوله :

موكل بشدوق الصوم يرقبها . . . من المغارب مخطوف الحشا زرم

وقالت فرقة : شبه ب ﴿ رؤوس ﴾ صنف من الحيات يقال لها الشياطين وهي ذوات أعراف ومنه قول الشاعر : [ الرجز ]

*(60/652)*

---

عجيز تحلف حين أحلف . . . كمثل شيطان الحماط اعرف

وقالت فرقة : شبه بما استقر في النفوس من كراهة ﴿ رؤوس الشياطين ﴾ وقبحها ، وإن كانت لم تر ، وهذا كما تقول لكل شعث المنتفش الشعر الكريه المنظر هذا شيطان ونحو هذا قول امرىء القيس : [ الطويل ]

أيقتلني والمشرفي مضاجعي . . . ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فإنما شبه بما استقر في النفوس من هيبتها ، و" الشوب " المزاج والخلط ، قاله ابن عباس وقتادة ، وقرأ شيبان النحوي " لشُوباً " بضم الشين ، قال الزجاج : فتح الشين المصدر ، وضمه الاسم ، و" الحميم " السخن جداً من الماء ونحوه ، فيريد به ها هنا شرابهم الذي هو طينة الخبال صديدهم وما ينماع منهم ، هذا قول جماعة من المفسرين ، وقوله تعالى :

﴿ ثم إن مرجعهم ﴾ يحتمل أن يكون لهم انتقال أجساد في وقت الأكل والشرب ، ثم يرجعون إلى معظم الجحيم وكثرته ، ذكره الرماني وشبه بقوله تعالى :

﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ [ الرحمن : 44 ] ، ويحتمل أن يكون الرجوع إنما هو من حال ذلك الأكل المعذب إلى حال الاحتراق دون أكل ، وبكل احتمال قيل ، وفي مصحف ابن مسعود " وأن منقلهم لإلى الجحيم " ، وفي كتاب أبي حاتم عنه " مقيلهم " ، من القائلة وقوله تعالى : ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ﴾ إلى آخر الآية تمثيل لقريش و ﴿ يهرعون ﴾ قال قتادة والسدي وابن زيد : معناه يسرعون كأنهم يساقون بعجلة وهذا تكسبهم للكفر وحرصهم عليه ، والإهراع سير شديد قال مجاهد : كهيئة الهرولة .

قال القاضي أبو محمد : فيه شبه رعدة وكأنه أيضاً شبه سير الفازع .

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (71)

مثل تعالى لقريش في هذه الآية بالأمم التي ضلت قديماً وجاءها الإنذار وأهلكها الله بعذابه ، وقوله تعالى : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ ، يقتضي الإخبار بأنه عذبهم ،

ولذلك حسن الاستثناء في قوله ﴿ إلا عباد الله ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(61/652)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ ﴾

مبتدأ وخبر ، وهو من قول الله جل وعز .

﴿ نُّزُلاً ﴾ على البيان ؛ والمعنى أنعيم الجنة خير نزلاً ﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزقوم ﴾ خير نزلاً .

والنُّزُل في اللغة الرزق الذي له سعة النحاس وكذا النُّزْل إلا أنه يجوز أن يكون النُّزْل بإسكان الزاي لغة ، ويجوز أن يكون أصله النُّزُل ؛ ومنه أقيم للقوم نُزُلهم ، واشتقاقه أنه الغِذاء الذي يصلح أن ينزلوا معه ويقيموا فيه .

وقد مضى هذا في آخر سورة "آل عمران" .

وشجرة الزقوم مشتقة من التزقم وهو البلع على جهد لكراهتها ونَتْنها .

قال المفسرون : وهي في الباب السادس ، وأنها تحيا بلهب النار كما تحيا الشجرة ببرد الماء ؛ فلا بد لأهل النار من أن ينحدر إليها مَن كان فوقها فيأكلون منها ، وكذلك يصعد إليها من

كان أسفل .

واختلف فيها هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب أم لا على قولين : أحدهما أنها معروفة من شجر الدنيا .

ومن قال بهذا اختلفوا فيها ؛ فقال قطرب : إنها شجرة مُرَّة تكون بتهامة من أخبث الشجر .

وقال غيره : بل هو كل نبات قاتل .

القول الثاني : إنها لا تعرف في شجر الدنيا .

فلما نزلت هذه الآية في شجرة الزقوم قالت كفار قريش : ما نعرف هذه الشجرة .

فقدم عليهم رجل من إفريقية فسألوه فقال : هو عندنا الزُّبْد والتّمر .

فقال ابن الزِّبَعْرى : أكثر الله في بيوتنا الزقوم .

فقال أبو جهل لجاريته : زَقّمينا ؛ فأتته بزبد وتمر .

ثم قال لأصحابه : تزَقّموا ؛ هذا الذي يخوّفنا به محمد ؛ يزعم أن النار تنبت الشجر ، والنار تحرق الشجرا

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴾ أي المشركين ، وذلك أنهم قالوا : كيف تكون في النار شجرة وهي تحرق الشجر ؟ وقد مضى هذا المعنى في "سبحان" واستخفافهم في هذا كقولهم في قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [ المدثر : 30 ] .

ما الذي يخصص هذا العدد ؟ حتى قال بعضهم : أنا أكفيكم منهم كذا فاكفوني الباقين .

فقال الله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [المدثر : 31 ] والفتنة الاختبار ، وكان هذا القول منهم جهلاً ، إذ لا يستحيل في العقل أن يخلق الله في النار شجراً من جنسها لا تأكله النار ، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والعقارب وخزنة النار .

وقيل : هذا الاستبعاد الذي وقع للكفار هو الذي وقع الآن للملحدة ، حتى حملوا الجنة والنار على نعيم أو عقاب تتخلله الأرواح ، وحملوا وزن الأعمال والصراط واللوح والقلم على معاني زوّروها في أنفسهم ، دون ما فهمه المسلمون من موارد الشرع ، وإذا ورد خبر الصادق بشيء موهوم في العقل ، فالواجب تصديقه وإن جاز أن يكون له تأويل ، ثم التأويل في موضع إجماع المسلمين على أنه تأويل باطل لا يجوز ، والمسلمون مجمعون على الأخذ بهذه الأشياء من غير مصير إلى علم الباطن .

وقيل إنها فتنة أي عقوبة للظالمين ؛ كما قال : ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذا الذي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الذاريات : 14 ] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجحيم ﴾ أي قعر النار ومنها منشؤها ثم هي متفرّعة في جهنم .

﴿ طَلْعُهَا ﴾ أي ثمرها ؛ سمي طلعاً لطلوعه .

﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشياطين ﴾ قيل : يعني الشياطين بأعيانهم شبهها برؤوسهم لقبحهم ، ورؤوس الشياطين متصوَّر في النفوس وإن كان غير مرئيّ .

ومن ذلك قولهم لكل قبيح هو كصورة الشيطان ، ولكل صورة حسنة هي كصورة مَلَك .

ومنه قوله تعالى مخبراً عن صواحب يوسف : ﴿ مَا هذا بَشَراً إِنْ هاذآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ وهذا تشبيه تخييلي ؛ روي معناه عن ابن عباس والقُرَظي .

ومنه قول امرىء القيس :

ومَسْنُونة زُرْقٌ كأنيابِ أَغْوَالِ . . .

وإن كانت الغول لا تعرف ؛ ولكن لما تصوّر من قبحها في النفوس .

(63/652)

---

وقد قال الله تعالى : ﴿ شَيَاطِينَ الإنس والجن ﴾ [ الأنعام : 112 ] فمردة الإنس شياطين مرئية .

وفي الحديث الصحيح : " ولكأنّ نخلها رؤوس الشياطين " وقد ادعى كثير من العرب رؤية الشياطين والغيلان .

وقال الزجاج والفرّاء : الشياطين حيات لها رؤوس وأعراف ، وهي من أقبح الحيات وأخبثها وأخفها جسماً .

قال الراجز وقد شبه المرأة بحية لها عُرْف :

عَنْجَرِدٌ تَحْلِفُ حين أحلِف . . .

كمثْلِ شيطانِ الحمَاطِ أَعْرَفُ

الواحدة حمَاطة .

والأعرف الذي له عُرْف .

وقال الشاعر يصف ناقته :

تُلاعِبُ مَثْنى حَضْرَميٍّ كأنّه . . .

تَعَمُّجُ شيطانٍ بذي خِرْوعٍ قَفْرِ

التَّعَمُّج : الاعوجاج في السير .

وسهم عَمُوج : يتلوّى في ذهابه .

وتَعَمَّجت الحية : إذا تلوّت في سيرها .

وقال يصف زمام الناقة :

تُلاعِبُ مَثْنَى حَضْرَمِيٍّ كأنه . . .

تَعَمُّجُ شيطانٍ بذي خِرْوِعٍ قَفْرِ

وقيل : إنما شبه ذلك بنبت قبيح في اليمن يقال له الأَسْتَن والشيطان .

قال النحاس : وليس ذلك معروفاً عند العرب .

الزمخشري : هو شجر خشن منتن مُرّ منكر الصورة يسمى ثمره رؤوس الشياطين .

النحاس : وقيل الشياطين ضرب من الحيات قباح .

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة .

وقال في "الغاشية" : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ [ الغاشية : 6 ] وسيأتي .

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ أي بعد الأكل من الشجرة ﴿ لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ الشوب الخلط ، والشَّوْب والشُّوب لغتان كالفَقْر والفُقْر والفتح أشهر .

قال الفراء : شاب طعامه وشرابه إذا خلطهما بشيء يشوبهما شوبا وشيابة .

فأخبر أنه يشاب لهم .

والحميم : الماء الحار ليكون أشنع ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [ محمد : 15 ] .

السّدي : يشاب لهم الحميم بغسّاق أعينهم وصديد من قيحهم ودمائهم .

وقيل : يمزج لهم الزقوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم ؛ تغليظاً لعذابهم وتجديداً لبلائهم .

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الجحيم ﴾ قيل : إن هذا يدل على أنهم كانوا حين أكلوا الزقوم في عذاب غيرِ النار ثم يردّون إليها ، وقال مقاتل : الحميم خارج الجحيم فهم يوردون الحميم لشربه ثم يردّون إلى الجحيم ؛ لقوله تعالى : ﴿ هذه جَهَنَّمُ التي يُكَذِّبُ بِهَا المجرمون يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [ الرحمن : 43 44 ] .

وقرأ ابن مسعود : "ثُمَّ إِنَّ مُنْقَلَبَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ" وقال أبو عبيدة : يجوز أن تكون "ثم" بمعنى الواو .

القشيري : ولعل الحميم في موضع من جهنم على طرف منها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ آبَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴾ أي صادفوهم كذلك فاقتدوا بهم .

﴿ فَهُمْ على آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ أي يسرعون ؛ عن قتادة .

وقال مجاهد : كهيئة الهرولة .

قال الفراء : الإهراع الإسراع برعدة .

وقال أبو عبيدة : "يُهْرَعُونَ" "يستحثون من خلفهم .

ونحوه قول المبرّد .

قال : المُهْرَع المستحث ؛ يقال : جاء فلان يُهْرَع إلى النار إذا استحثه البرد إليها .

وقيل : يُزعَجون من شدّة الإسراع ؛ قاله الفضل .

الزجاج : يقال هُرِع وأُهْرِع إذا استحث وأزعج .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأولين ﴾ أي من الأمم الماضية .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنذِرِينَ ﴾ أي رسلاً أنذروهم العذاب فكفروا .

﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ أي آخر أمرهم .

﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ أي الذين استخلصهم اللّه من الكفر .

وقد تقدّم .

ثم قيل : هو استثناء من "الْمُنْذَرِينَ" .

وقيل هو من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأولين ﴾ [ الصافات : 71 ] . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ أذلك خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزقوم ﴾

أصل النُّزِلِ الفضل والرَّيعُ فاستُعير للحاصل من الشَّيءِ فانتصابُه على التَّمييزِ أي أذلك الرِّزقُ المعلومُ الذي حاصلُه اللَّذةُ والسُّرورُ خيرٌ نزلاً أم شجرةُ الزَّقومِ التي حاصلها الألم والغمُّ. ويقال النُّزل لما يقامُ ويهيَّأُ من الطَّعامِ الحاضر للنَّازلِ فانتصابُه على الحاليَّةِ. والمعنى أنَّ الرِّزقَ المعلوم نزلُ أهلِ الجنَّةِ، وأهلُ النَّارِ نزلهم شجرةُ الزَّقُّوم فأيُّهما خيرٌ في كونه نزلاً.

والزَّقُّومُ اسم شجرةٍ صغيرةِ الورقِ دفرةٍ مُرَّةٍ كريهةِ الرَّائحةِ تكون في تِهامة سمِّيتْ به الشَّجرةُ الموصوفةُ.

﴿ إنَّا جعلناها فِتْنَةً للظالمين ﴾ محنةً وعذاباً لهم في الآخرة وابتلاء في الدُّنيا فإنَّهم لمَّا سمعوا أنَّها في النَّار قالوا كيف يمكن ذلك والنَّارُ تحرق الشَّجرَ ولم يعلموا أن من قدَرَ على خلق حيوانٍ يعيش في النَّارِ ويتلذَّذُ بها أقدرُ على خلق الشَّجرِ في النَّار وحفظِه من الاحتراق.

(66/652)

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الجحيم ﴾ منبتُها في قعر جهنَّم وأغصانها ترتفعُ إلى دركاتِها . وقُرِىء نابتةٌ في أصل الجحيم ﴿ طَلْعُهَا ﴾ أي حملُها الذي يخرج منها مستعارٌ في طلع النَّخلةِ لمشاركته له من الشَّكلِ والطُّلوعِ عن الشَّجرِ . قالوا : أوَّلُ التَّمرِ طَلْعٌ ثم خِلالٌ ثم بَلَحٌ ثم رُطَبٌ ثم تمرٌ ﴿ كَأَنَّهُ رُءوسُ الشياطين ﴾ في تناهي القُبحِ والهَول . وهو تشبيه بالمخيَّل كتشبيه الفائق في الحُسنِ بالمَلَك . وقيل الشَّياطينُ الحيَّاتُ الهائلةُ القبيحةُ المنظر ، لها أعرافٌ وقيل إنَّ شجراً يقال له الأستنُ خشناً مُنتناً مُرًّا منكر الصُّورةِ يسمَّى ثمرُه رؤوسَ الشَّياطينِ ﴿ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا ﴾ أي من الشَّجرةِ أو من طلعِها فالتَّأنيثُ مكتسب من المضافِ إليه ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ لغلبة الجوعِ أو للقسرِ على أكلِها وإنْ كرهوها ليكونَ ذلك باباً من العذابِ .

(67/652)

---

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ على الشَّجرةِ التي ملأوا منها بطونَهم بعد ما شبِعُوا منها وغلبهم العطشُ وطال استسقاؤهم كما يُنبىء عنه كلمة ثُمَّ ويجوز أنْ تكونَ لما في شرابهم من مزيدِ الكراهة والبشاعةِ ﴿ لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ لشراباً من غسَّاقٍ أو صديدٍ مشُوباً بماءٍ حميمٍ يُقطِّع أمعاءهم . وقُرِىء بالضَّمِّ وهو اسم لما يُشاب به ، والأوَّلُ مصدر سُمِّي به ﴿ ثُمَّ إِنَّ

مَرْجِعَهُمْ ﴾ أي مصيرَهم . وقد قُرِئ كذلك . ﴿ لإِلَى الجحيم ﴾ لإلى دَرَكاتِها أو إلى نفسها فإنَّ الزَّقُّومَ والحميمَ نزلٌ يقدَّمُ إليهم قبل دخولها وقيل الحميمُ خارجٌ عنها لقوله تعالى : ﴿ هذه جَهَنَّمُ التى يُكَذّبُ بِهَا المجرمون يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ أن ﴾ يذهب بهم عن مقارِّهم ومنازلهم في الجحيمِ إلى شجرة الزَّقُّومِ فيأكلون منها إلى أنْ يمتلئُوا ثم يُسقون من الحميم ثم يردُّون إلى الجحيم . ويُؤيِّده أنَّه قُرِئ ثمَّ إنَّ منقلبَهم .

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءابَاءهُمْ ضَالّينَ ﴾ تعليل لاستحقاقِهم ما ذُكر من فنون العذاب بتقليد الآباء في الدِّينِ من غير أنْ يكونَ لهم ولا لآبائِهم شيءٌ يتمسَّكُ به أصلاً ، أي وجدوهم ضالِّين في نفس الأمر ليس لهم ما يصلُح شبهةً فضلاً عن صلاحيةِ الدَّليلِ .

﴿ فَهُمْ على ءاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ من غير أنْ يتدبروا أنَّهم على الحقِّ أولاً مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمُّلٍ . والإهراعُ : الإسراع الشَّديدُ ، كأنَّهم يُزعجون ويحثُّون حثًّا على الإسراع على آثارِهم وقيل هو إسراعٌ فيه شبه رعدةٍ .

(68/652)

---

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبل قومِك قريش ﴿ أَكْثَرُ الاولين ﴾ من الأمم السَّالفةِ وهو جواب قسم محذوف . وكذا قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنذِرِينَ ﴾ أي أنبياءَ أولي

عددٍ كثيرٍ وذوي شأنٍ خطيرٍ بيّنوا لهم بُطلانَ ما هم عليه وأنذرُوهم عاقبته الوَخِيمَة

وتكريرُ القَسَمِ لإبراز كمالِ الاعتناء بتحقيقِ مضمونِ كلَ من الجملتين ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ من الهول والفظاعةِ لمَّا لم يلتفتُوا إلى الإنذار ولم يرفعُوا له رأساً .

والخطابُ إمَّا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكلّ أحدٍ ممَّن يتمكَّنُ من مشاهدة آثارهم وحيث كان المعنى أنَّهم أُهلكوا إهلاكاً فظيعاً استُثني منهم المُخلصون بقوله تعالى : ﴿ إلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ أي الذين أخلصَهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمانِ والعملِ بموجب الإنذارِ . وقُرىء المخلِصين بكسر اللاَّمِ ، أي الذين أخلصُوا دينَهم لله تعالى . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(69/652)

---

وقال الآلوسى :

﴿ أذلك خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزقوم ﴾

فمن كلامه جل وعلا عند الأكثرين وهو متعلق بقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [ الصافات : 62 ] والقصة بينهما ذكرت بطريق الاستطراد فالإشارة إلى الرزق المعلوم .

وزعم بعضهم جواز كونه من كلام القائل السابق وما هو من كلامه عز وجل قطعاً هو ما يأتي

إن شاء الله تعالى.

وأصل النزل الفضل والريع في الطعام ويستعمل في الحاصل من الشيء ومنه العسل ليس من إنزال الأرض أي مما يحصل منها، وقول الشافعي لا يجب في العسل العشر لأنه نزل طائر ويقال لما يعد للنازل من الرزق.

والزقوم اسم شجرة صغيرة الورق مرة كريهة الرائحة ذات لبن إذا أصاب جسد إنسان تورم تكون في تهامة وفي البلاد المجدبة المجاورة للصحراء سميت بها الشجرة الموصوفة بما في الآية، وكلا المعنيين للنزل محتمل هنا بيد أنه يتعين على الأول انتصابه على التمييز أي أذلك الرزق المعلوم الذي حاصله اللذة والسرور خير نزلاً وحاصلاً أم شجرة الزقوم التي حاصلها الألم والغم، ومعنى التفاضل بين النزلين التوبيخ والتهكم وهو أسلوب كثير الورود في القرآن، والحمل على المشاكلة جائز، وعلى الثاني الظاهر انتصابه على الحال، والمعنى أن الرزق المعلوم نزل أهل الجنة وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم فأيهما خير حال كونه نزلاً، وفيه ما مر من التهكم.

والحمل على التمييز لا مانع منه لفظاً كما في نحوهم أكفاهم ناصراً ولكن المعنى على الحال أسد لأن المعنى المفاضلة بين تلك الفواكه وهذا الطعام في هذه الحال لا التفاضل بينهما في الوصف وأن ذلك في النزلية أدخل من الآخر فافهم.

﴿ إِنَّا جعلناها فِتْنَةً للظالمين ﴾ محنة وعذاباً لهم في الآخرة وابتلاء في الدنيا فإنهم سمعوا أنها في النار قالوا كيف يمكن ذلك والنار تحرق الشجر وكذا قال أبو جهل ثم قال استخفافاً بأمرها لا إنكاراً للمدلول اللغوي : والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فتزقموا ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش في النار ويتلذذ بها أقدر على خلق الشجر في النار وحفظه من الإحراق فالنار لا تحرق إلا بإذنه أو أن الإحراق عندها لا بها .

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الجحيم ﴾ منبتها في قعر النار وأغصانها ترتفع إلى دركاتها .

وقرىء ﴿ نابتة ﴾ في أصل الجحيم .

طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (65)

أي حملها ، وأصله طلع النخل وهو أول ما يبدو وقبل أن تخرج شماريخه أبيض غض مستطيل كاللوز سمي به حمل هذه الشجرة إما لأنه يشابهه في الشكل أو الطلوع ولعله الأولى لمكان التشبيه بعد فيكون استعارة تصريحية أو لاستعماله بمعنى ما يطلع مطلقاً فيكون كالمرسل للأنف فهو مجاز مرسل .

﴿ كَأَنَّهُ هَمَزَاتِ الشياطين ﴾ أي في تناهي الكراهة وقبح المنظر والعرب تشبه القبيح الصورة بالشيطان فيقولون كأنه وجه شيطان أو رأس شيطان وإن لم يروه لما أنه مستقبح

جداً في طباعهم لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير فيرتسم في خيالهم بأقبح صورة ، ومن ذلك قول امرىء القيس :

أتقتلني والمشرفي مضاجعي . . .

ومسنونة زرق كأنياب أغوال

(71/652)

---

فشبه بأنياب الأغوال وهي نوع من الشياطين ولم يرها لما ارتسم في خياله ، وعلى عكس هذا تشبيههم الصورة الحسنة بالملك وذلك أنهم اعتقدوا فيه أنه خير محض لا شر فيه فارتسم في خيالهم بأحسن صورة ، وعليه قوله تعالى : ﴿ مَا هذا بَشَرًا إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [ يوسف : 31 ] وبهذا يرد على بعض الملاحدة حيث طعن في هذا التشبيه بأنه تشبيه بما لا يعرف ، وحاصله أنه لا يشترط أن يكون معروفاً في الخارج بل يكفي كونه مركوزاً في الذهن والخيال .

وحمل التشبيه في الآية على ما ذكر هو المروي عن ابن عباس .

ومحمد بن كعب القرظي .

وغيرهما ، وزعم الجبائي أن الشياطين حين يدخلون النار تشوه صورهم جداً وتستبشع

أعضاؤهم فالمراد كأنه رؤوس الشياطين الذين في النار ، وفيه أن التشبيه عليه أيضاً غير معروف في الخارج عند النزول ، وقيل : رؤوس الشياطين شجرة معروفة تكون بناحية اليمن منكرة الصورة يقال لها الاستن وإياها عنى النابغة بقوله :

تحيد عن استن سود أسافله . . .

مثل الإماء الغوادي تحمل الحزما

قال الأصمعي : ويقال لها الصوم وأنشد

موكل بشدوف الصوم يرقبه . . .

من المغارب مهضوم الحشا زرم

وقيل : الشياطين جنس من الحيات ذوات أعراف ، وأنشد الفراء :

عجيز تحلف حين أحلف . . .

كمثل شيطان الحماط أعرف

أي له عرف ، وأنشد المبرد :

وفي البقل إن لم يدفع الله شره . . .

شياطين يعدو بعضهن على بعض

فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (66)

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا ﴾ تفريع على جعلها فتنة أي محنة وعذاباً للظالمين ، وضمير المؤنث

للشجرة ، ومن ابتدائية أو تبعيضية وهناك مضاف مقدر أي من طلعها ، وقيل : من تبعيضية والضمير للطلع وأنث لإضافته إلى المؤنث أو لتأويله بالثمرة أو للشجرة على التجوز ، ولا يخلو كل عن بعد ما ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ لغلبة الجوع وإن كرهوها أو للقسر على أكلها .

(72/652)

---

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ أي على الشجرة التي ملؤا منها بطونهم ﴿ لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي لشرابا ممزوجاً بماء شديد الحرارة وهذا الشراب هو الغساق أي ما يقطر من جراح أهل النار وجلودهم ، وقيل : هذا هو الصديد وأما الغساق فعين في النار تسيل إليها سموم الحيات والعقارب أو دموع الكفرة فيها ، وشربهم ذلك لغلبة عطشهم بما أكلوا من الشجرة فإذا شربوا تقطعت أمعاؤهم .

وقرىء ﴿ لَشَوْبًا ﴾ بضم الشين وهو اسم لما يشاب به ، وعلى الأول هو مصدر سمي به ، وكلمة ثم قيل للتراخي الزماني وذلك أنه بعد أن يملؤا البطون من تلك الشجرة يعطشون ويؤخر سقيهم زماناً ليزداد عطشهم فيزداد عذابهم .

واعترض بأنه يأباه عطف الشرب بالفاء في قوله تعالى : ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون فشاربون

عَلَيْهِ مِنَ الحميم ﴾ [ الواقعة : 53 ، 54 ] فلا بد من عدم توسط زمان .

وأجيب بأنه يجوز أن يكون شرب الشراب الممزوج بالحميم متأخراً بزمان عن ملئهم البطون دون شرب الحميم وحده ، وكذا يجوز أن يكون الحال مختلفاً فتارة يتآخر الشرب مطلقاً زماناً وأخرى لا يتأخر كذلك ، وقال بعضهم : ملؤهم البطون أمر ممتد فباعتبار ابتدائه يعطف بثم وباعتبار انتهائه بالفاء .

وجوز كون ثم للتراخي الرتبي لأن شرابهم أشنع من مأكولهم بكثير ، وعطف ملئهم البطون بالفاء لأنه يعقب ما قبله ، ولا يحسن فيه اعتبار التفاوت الرتبي حسنه في شرب الشراب المشوب بالحميم مع الأكل .

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68)

(73/652)

---

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ ﴾ أي مصيرهم ، وقد قرىء كذلك ، وقرىء أيضاً ﴿ ثُمَّ إِنَّ ﴾ ﴿ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الجحيم ﴾ أي إلى مقرهم من النار فإن في جهنم مواضع أعد في كل موضع منها نوع من البلاء فالقوم يخرجون من محل قرارهم حيث تأجج النار ويساقون إلى موضع آخر مما دارت عليه جهنم فيه ذلك الشراب ليردوه ويسقوا منه ثم يردون إلى محلهم كما تخرج

الدواب إلى مواضع الماء في البلد مثلاً لترده ثم ترد إلى محلها ، وإلى هذا المعنى أشار قتادة ثم تلا قوله تعالى : ﴿ هذه جَهَنَّمُ التى يُكَذِّبُ بِهَا المجرمون يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [ الرحمن : 43 ، 44 ] [ الرحمن : 34 ، 44 ] ويؤيده قراءة ابن مسعود ﴿ ثُمَّ إِنَّ ﴾ إذ الانقلاب أظهر في الرد أو المراد ثم إن مرجعهم إلى دركات الجحيم فهم يرددون في الجحيم من مكان إلى آخر أدنى منه ، وقيل : إن الشراب يقدم إليهم قبل دخول النار فيشربون ويصيرون إلى الجحيم ، وهذا يحتاج إلى توقيف وإلا فهو خلاف الظاهر ، وكأن بين خروج القوم للشرب وعودهم إلى مساكنهم زماناً غير يسير يتجرعون فيه ذلك الشراب ولذا جيء بثم ، وهذا الشراب في مقابلة ما لأهل الجنة من الشراب المدلول عليه بقوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مّن مَّعِينٍ بَيْضَاء لَذَّةٍ للشاربين ﴾ [ الصافات : 45 ، 46 ] الخ كما أن الزقوم في مقابلة ما لهم من الفواكه .

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لو أن قطرة من زقوم جهنم أنزلت إلى الأرض لأفسدت على الناس معايشهم أخرجه ابن أبي شيبة فكيف بمن هو طعامه وشرابه الغساق والصديد مع الحميم ، نسأل الله تعالى رضاه والجنة ونعوذ به عز وجل من غضبه والنار

وقوله سحبانه :

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَاءَهُمْ ضَاۤلِّينَ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ تعليل لاستحقاقهم ما ذكر من فنون العذاب بتقليد الآباء في أصول الدين من غير أن يكون لهم ولا لآبائهم شيء يتمسك به أصلاً أي وجدوهم ضالين في نفس الأمر ليس لهم ما يصلح شبهة فضلاً عن صلاحية كونه دليلاً فهم من غير أن يتدبروا أنهم على الحق أولاً مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمل ، والإهراع الإسراع الشديد ، وقيل : هو إسراع فيه شبه رعدة .

وفي بناء الفعل للمفعول إشارة إلى مزيد رغبتهم في الإسراع على آثارهم كأنهم يزعجون ويحثون حثاً عليه .

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبل هؤلاء الظالمين الذين جعلت شجرة الزقوم فتنة لهم وهم قريش ﴿ أَكْثَرُ الاولين ﴾ من الأمم السابقة ، وهو جواب قسم محذوف

وكذا قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنذِرِينَ ﴾ أنبياء أنذروهم سوء عاقبة ما هم عليه من الباطل ، وتكرير القسم لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من الجملتين .

﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ من الهول والفظاعة لما لم يلتفتوا إلى الإنذار ولم يرفعوا إليه رأساً .

والخطاب إما لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى منه مشاهدة آثارهم

، وحيث كان المعنى أنهم أهلكوا إهلاكاً فظيعاً استثنى عنهم المخلصين بقوله عز وجل :

﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي الذين أخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للايمان والعمل بموجب الإنذار .

وقرىء ﴿ المخلصين ﴾ بكسر اللام أي الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وتعالى ، والاستثناء على القراءتين إما منقطع إن خصص المنذرين وإما متصل أن عمم . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(75/652)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50) ﴾

قوله : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ معطوف على يطاف ، أي : يسأل هذا ذاك ، وذاك هذا حال شربهم عن أحوالهم التي كانت في الدنيا ، وذلك من تمام نعيم الجنة ، والتقدير : فيقبل بعضهم على بعض ، وإنما عبر عنه بالماضي للدلالة على تحقق وقوعه ﴿ قَالَ قَائِلٌ مّنْهُمْ ﴾ أي : قال قائل من أهل الجنة في حال إقبال بعضهم على بعض بالحديث ، وسؤال بعضهم لبعض ﴿ إِنّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾ أي : صاحب ملازم لي في الدنيا كافر

بالبعث منكر له كما يدلّ عليه قوله : ﴿ أَءنَّكَ لَمِنَ المصدقين ﴾ يعني : بالبعث ، والجزاء ، وهذا الاستفهام من القرين لتوبيخ : ذلك المؤمن ، وتبكيته بإيمانه ، وتصديقه بما وعد الله به من البعث ، وكان هذا القول منه في الدنيا .

ثم ذكر ما يدلّ على الاستبعاد للبعث عنده ، وفي زعمه ، فقال : ﴿ أَءذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما أَءنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أي : مجزيون بأعمالنا ، ومحاسبون بها بعد أن صرنا ترابا ، وعظاماً ، وقيل : معنى مدينون : مسوسون ، يقال دانه : إذا ساسه .

قال سعيد بن جبير : قرينه شريكه ، وقيل : أراد بالقرين الشيطان الذي يقارنه ، وأنه كان يوسوس إليه بإنكار البعث ، وقد مضى ذكر قصتهما في سورة الكهف ، والاختلاف في اسميهما ، قرأ الجمهور ﴿ لمن المصدقين ﴾ بتخفيف الصاد من التصديق ، أي : لمن المصدّقين بالبعث ، وقرىء بتشديدها ، ولا أدري من قرأ بها ، ومعناها بعيد ؛ لأنها من التصدّق لا من التصديق ، ويمكن تأويلها بأنه أنكر عليه التصدّق بماله لطلب الثواب ، وعلل ذلك باستبعاد البعث .

وقد اختلف القراء في هذه الاستفهامات الثلاثة ، فقرأ نافع الأولى ، والثانية بالاستفهام بهمزة ، والثالثة بكسر الألف من غير استفهام .

ووافقه الكسائي إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين ، وابن عامر الأولى ، والثالثة بهمزتين ، والثانية بكسر الألف من غير استفهام ، والباقون بالاستفهام في جميعها .

ثم اختلفوا ، فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطوّلة ، وبعده ساكنة خفيفة ، وأبو عمرو مطوّلة ، وعاصم ، وحمزة بهمزتين .

﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ القائل : هو المؤمن الذي في الجنة بعد ما حكى لجلسائه فيها ما قاله له قرينه في الدنيا ، أي : هل أنتم مطلعون إلى أهل النار ؟ لأريكم ذلك القرين الذي قال لي تلك المقالة كيف منزلته في النار ؟ قال ابن الأعرابي : والاستفهام هو : بمعنى الأمر أي : اطلعوا ، وقيل القائل : هو الله سبحانه ، وقيل : الملائكة ، والأوّل أولى ﴿ فاطلع فَرَءَاهُ فِى سَوَاءِ الجحيم ﴾ أي : فاطلع على النار ذلك المؤمن الذي صار يحدث أصحابه في الجنة بما قال له قرينه في الدنيا ، فرأى قرينه في وسط الجحيم .

قال الزجاج : سواء كل شيء وسطه .

قرأ الجمهور ﴿ مطلعون ﴾ بتشديد الطاء مفتوحة ، وبفتح النون ، فاطلع ماضياً مبنياً للفاعل من الطلوع .

وقرأ ابن عباس ، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو " مطلعون " بسكون الطاء ، وفتح النون " فأطلع " بقطع الهمزة مضمومة ، وكسر اللام ماضياً مبنياً للمفعول .

قال النحاس : فأطلع فيه قولان على هذه القراءة : أحدهما : أن يكون فعلاً مستقبلاً ، أي : فأطلع أنا ، ويكون منصوباً على أنه جواب الاستفهام .

والقول الثاني : أن يكون فعلاً ماضياً ، وقرأ حماد بن أبي عمار " مطلعون " بتخفيف الطاء ، وكسر النون ، فاطلع مبنياً للمفعول ، وأنكر هذه القراءة أبو حاتم ، وغيره .

قال النحاس : هي : لحن ، لأنه لا يجوز الجمع بين النون ، والإضافة ، ولو كان مضافاً لقال : هل أنتم مطلعيّ ، وإن كان سيبويه ، والفراء قد حكيا مثله ، وأنشدا :

هم القائلون الخير والآمرونه . . . إذا ما خشوا من محدث الدهر معظما



---

ولكنه شاذ خارج عن كلام العرب ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ أي : قال ذلك الذي من أهل الجنة لما اطلع على قرينه ، ورآه في النار : ﴿ تالله إن كدت لتردين ﴾ أي : لتهلكني بالإغواء .

قال الكسائي : لتردين : لتهلكني ، والردي : الهلاك .

قال المبرد : لو قيل : لتردين : لتوقعني في النار لكان جائزاً .

قال مقاتل : المعنى : والله لقد كدت أن تغويني ، فأنزل منزلتك ، والمعنى متقارب ، فمن

أغوى إنساناً ، فقد أهلكه ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ المحضرين ﴾ أي : لولا رحمة ربي ، وإنعامه عليّ بالإسلام ، وهدايتي إلى الحقّ ، وعصمتي عن الضلال لكنت من المحضرين معك في النار .

قال الفراء : أي : لكنت معك في النار محضراً .

قال الماوردي : وأحضر لا يستعمل إلا في الشرّ .

ولما تمم كلامه مع ذلك القرين ، الذي هو في النار عاد إلى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة ، فقال : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ ، والهمزة للاستفهام التقريري ، وفيها معنى : التعجيب ، والفاء للعطف على محذوف كما في نظائره ، أي : أنحن مخلدون منعمون ، فما نحن بميتين ﴿ إِلَّا مَوْتَتَنَا الأولى ﴾ التي كانت في الدنيا ، وقوله هذا كان على طريقة الابتهاج ، والسرور بما أنعم الله عليهم من نعيم الجنة الذي لا ينقطع ، وأنهم مخلدون لا يموتون أبداً ، وقوله : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ هو من تمام كلامه ، أي : وما نحن بمعذبين كما يعذب الكفار .

ثم قال مشيراً إلى ما هم فيه من النعيم : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ الفوز العظيم ﴾ أي : إن هذا الأمر العظيم ، والنعيم المقيم ، والخلود الدائم الذي نحن فيه لهو الفوز العظيم الذي لا يقادر قدره ، ولا يمكن الإحاطة بوصفه ، وقوله : ﴿ لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾ من تمام كلامه ، أي : لمثل هذا العطاء ، والفضل العظيم ، فليعمل العاملون ، فإن هذه هي التجارة الرابحة ، لا العمل للدنيا الزائلة ، فإنها صفقة خاسرة نعيمها منقطع ، وخيرها زائل ، وصاحبها عن قريب منها راحل .

وقيل : إن هذا من قول الله سبحانه ، وقيل : من قول الملائكة ، والأوّل أولى .

قرأ الجمهور ﴿ بميتين ﴾ ، وقرأ زيد بن عليّ "بمايتين" ، وانتصاب ﴿ إلا موتتنا ﴾ على المصدرية ، والاستثناء مفرّغ ، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً .

أي : لكن الموتة الأولى التي كانت في الدنيا ﴿ أذلك خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزقوم ﴾ الإشارة بقوله ذلك : إلى ما ذكره من نعيم الجنة ، وهو : مبتدأ ، وخبره ﴿ خير ﴾ ، و ﴿ نزلاً ﴾ تمييز ، والنزل في اللغة : الرزق الذي يصلح أن ينزلوا معه ، ويقيموا فيه ، والخيرية بالنسبة إلى ما اختاره الكفار على غيره .

قال الزجاج : المعنى : أذلك خير في باب الإنزال التي يبقون بها نزلاً ، أم نزل أهل النار ، وهو قوله : ﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزقوم ﴾ ، وهو ما يكره تناوله .

قال الواحدي : وهو شيء مرّ كريه يكره أهل النار على تناوله ، فهم يتزقمونه ، وهي على

هذا مشتقة من التزقم، وهو البلع على جهد لكراهتها، ونتنها .

واختلف فيها هل هي من شجر الدنيا التي يعرفها العرب أم لا ؟ على قولين : أحدهما : أنها معروفة من شجر الدنيا، فقال قطرب : إنها شجرة مرّة تكون بتهامة من أخبث الشجر .

وقال غيره : بل هو كلّ نبات قاتل .

القول الثاني : أنها غير معروفة في شجر الدنيا .

قال قتادة : لما ذكر الله هذه الشجرة افتتن بها الظلمة، فقالوا : كيف تكون في النار شجرة .

(79/652)

---

فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا جعلناها فِتْنَةً للظالمين ﴾ قال الزجاج : حين افتتنوا بها، وكذبوا بوجودها .

وقيل : معنى جعلها فتنة لهم : أنها محنة لهم لكونهم يعذبون بها، والمراد بالظالمين هنا : الكفار، أو أهل المعاصي الموجبة للنار .

ثم بين سبحانه أوصاف هذه الشجرة ردّاً على منكريها، فقال : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الجحيم ﴾ أي : في قعرها، قال الحسن : أصلها في قعر جهنم، وأغصانها ترفع إلى دركاتها، ثم قال : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءوسُ الشياطين ﴾ أي : ثمرها، وما تحمله كأنه في

تناهي قبحه، وشناعة منظره رؤوس الشياطين، فشبه المحسوس بالمتخيل، وإن كان غير مرئيّ، للدلالة على أنه غاية في القبح كما تقول في تشبيه من يستقبحونه: كأنه شيطان، وفي تشبيه من يستحسنونه: كأنه ملك، كما في قوله: ﴿ مَا هذا بَشَرًا إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: 31]، ومنه قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي . . . ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وقال الزجاج، والفراء: الشياطين: حيات لها رءوس، وأعراف، وهي من أقبح الحيات، وأخبثها، وأخفها جسماً.

وقيل: إن رؤوس الشياطين اسم لنبت قبيح معروف باليمن يقال له: الأستن، ويقال له: الشيطان.

قال النحاس: وليس ذلك معروفاً عند العرب.

وقيل: هو شجر خشن منتن مرّ منكر الصورة يسمى ثمره رؤوس الشياطين.

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا ﴾ أي: من الشجرة، أو من طلعها، والتأنيث لاكتساب الطلع التأنيث من إضافته إلى الشجرة ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ وذلك أنهم يكرهون على أكلها حتى تمتلىء بطونهم، فهذا طعامهم، وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ بعد الأكل منها ﴿ لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ الشوب: الخلط.

قال الفراء : يقال : شاب طعامه ، وشرابه : إذا خلطهما بشيء يشوبهما شوباً وشيابة ، والحميم : الماء الحارّ .

(80/652)

---

فأخبر سبحانه : أنه يشاب لهم طعامهم من تلك الشجرة بالماء الحارّ ، ليكون أفظع لعذابهم ، وأشنع لحالهم كما في قوله : ﴿ وَسُقُواْ مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴾ [ محمد : 15 ]

قرأ الجمهور ﴿ شوباً ﴾ بفتح الشين ، وهو : مصدر ، وقرأ شيبان النحوي بالضم .

قال الزجاج : المفتوح مصدر ، والمضموم اسم بمعنى : المشوب ، كالنقص بمعنى : المنقوص .

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الجحيم ﴾ أي : مرجعهم بعد شرب الحميم ، وأكل الزقوم إلى الجحيم ، وذلك أنهم يوردون الحميم لشربه ، وهو خارج الجحيم كما تورد الإبل ، ثم يردّون إلى الجحيم كما في قوله سبحانه : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءانٍ ﴾ [ الرحمن : 44 ] .

وقيل : إن الزقوم ، والحميم نزل يقدّم إليهم قبل دخولها .

قال أبو عبيدة : ثم بمعنى : الواو ، وقرأ ابن مسعود " ثم إن منقلبهم لإلى الجحيم " ، وجملة ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ﴾ أي : وجدوا ﴿ آباءهم ضالين ﴾ تعليل لاستحقاقهم ما تقدّم ذكره ، أي

: صادفوهم كذلك، فاقتدوا بهم تقليداً، وضلالة لا لحجة أصلاً ﴿ فَهُمْ على ءاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ الإهراع: الإسراع.

قال الفراء: الإهراع: الإسراع برعدة.

وقال أبو عبيدة: ﴿ يهرعون ﴾: يستحثون من خلفهم، يقال: جاء فلان يهرع إلى النار: إذا استحثه البرد إليها.

وقال المفضل يزعجون من شدّة الإسراع.

قال الزجاج: هرع، وأهرع: إذا استحثّ، وانزعج، والمعنى: يتبعون آباءهم في سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأولين ﴾ أي: ضلّ قبل هؤلاء المذكورين أكثر الأوّلين من الأمم الماضية ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنذِرِينَ ﴾ أي: أرسلنا في هؤلاء الأوّلين رسلاً أنذروهم العذاب، وبينوا لهم الحقّ، فلم ينجع ذلك فيهم ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ أي: الذين أنذرتهم الرسل، فإنهم صاروا إلى النار.



---

قال مقاتل: يقول: كان عاقبتهم العذاب، يحذر كفار مكة، ثم استثنى عباده المؤمنين، فقال: ﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ أي: إلا من أخلصهم الله بتوفيقهم إلى الإيمان،

والتوحيد ، وقرىء " المخلصين " بكسر اللام ، أي : الذين أخلصوا لله طاعاتهم ، ولم يشوبوها بشيء مما يغيرها .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وهناد ، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله : ﴿ فاطلع فَرَءَاهُ فِى سَوَاءِ الجحيم ﴾ قال : اطلع ، ثم التفت إلى أصحابه ، فقال : لقد رأيت جماجم القوم تغلي .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : قول الله لأهل الجنة : ﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئَاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [ الطور : 19 ] قال ﴿ هنيئاً ﴾ أي : لا تموتون فيها ، فعند ذلك قالوا : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيّتِينَ * إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأولى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هذا لَهُوَ الفوز العظيم ﴾ قال : هذا قول الله : ﴿ لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال : "كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في يدي ، فرأى جنازة فأسرع المشي حتى أتى القبر ، ثم جثى على ركبتيه ، فجعل يبكي حتى بلّ الثرى ، ثم قال : ﴿ لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : دخلت مع النبي صلى الله عليه وسلم على مريض يجود بنفسه ، فقال : ﴿ لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : مرّ أبو جهل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو جالس ، فلما بعد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ أولى لَكَ فأولى * ثُمَّ أولى لَكَ فأولى ﴾ [ القيامة : 34 ، 35 ] ، فلما سمع أبو جهل قال : من توعد يا محمد ؟ قال : " إياك " قال : بما توعدني ؟ قال : " أوعدك بالعزيز الكريم " فقال أبو جهل : أليس أنا العزيز الكريم ؟ فأنزل الله : ﴿ شَجَرَةُ الزقوم * طَعَامُ الأثيم ﴾ إلى قوله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [ الدخان : 43-49 ] فلما بلغ أبا جهل ما نزل فيه جمع أصحابه ، فأخرج إليهم زبداً ، وتمراً ، فقال : تزقموا من هذا ، فوالله ما يتوعدكم محمد إلا بهذا ، فأنزل الله ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الجحيم ﴾ إلى قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عنه قال : لو أن قطرة من زقوم جهنم أنزلت إلى الأرض لأفسدت على الناس معايشهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً ﴾ قال : لمزجاً .

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال : في قوله : ﴿ لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ يخالط طعامهم ، ويشاب بالحميم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ، ويقيل هؤلاء أهل الجنة ، وأهل النار ، وقرأ : " ثم إن منقلبهم لإلى الجحيم " .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءابَاءهُمْ ضَالّينَ ﴾ قال : وجدوا آباءهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(83/652)

---

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) ﴾

أكثر أهل العلم على أن المراد بالصافات هنا ، والزاجرات ، والتاليات : جماعات الملائكة ، وقد جاء وصف الملائكة بأنهم صافون ، وذلك في قوله تعالى عنهم : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافّون وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون ﴾ [ الصافات : 165166 ] ومعنى كونهم صافين : أن يكونوا صفوفاً متراصين بعضهم جنب بعض في طاعة الله تعالى ، من صلاة وغيرها . وقيل : لأنهم يصفون أجنحتهم في السماء ، ينتظرون أمر الله ، ويؤيد القول الأول حديث حذيفة الذي قدمنا في أول سورة المائدة في صحيح مسلم : وهو قوله صلى الله عليه وسلم " فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً ، وجعلت لنا تربتها طهوراً إذا لم نجد الماء " ، وهو دليل صحيح على أن الملائكة يصفون كصفوف المصلين في صلاتهم ، وقد جاء في بعض الآيات ما يدل على أنهم يلقون

الذكر على الأنبياء ، لأجل الإعذار والإنذار به كقوله تعالى : ﴿ فالملقيات ذِكْراً عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ [ المرسلات : 56 ] ، فقوله : فالملقيات ذكراً كقوله هنا : فالتاليات ذكراً ، لأن الذكر الذي تتلوه تلقيه إلى الأنبياء كما كان جبريل ينزل بالوحي ، على نبيّنا وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه على الجميع ، وقوله : عذراً أو نذراً : أي لأجل الإعذار والإنذار ، أي بذلك الذكر الذي تتلوه وتلقيه ، والإعذار : قطع العذر بالتبليغ .

والإنذار قد قدمنا إيضاحه وبيّنا وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه على الجميع ، وقوله : عذراً أو نذراً : أي لأجل الإعذار والأنذار ، أي بذلك الذكر الذي تتلوه وتلقيه ، والإعذار : قطع العذر بالتبليغ .

(84/652)

---

والإنذار قد قدمنا إيضاحه وبيّنا أنواعه في أول سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ المص كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ الأعراف : 12 ] وقوله في هذه الآية : ﴿ فالزاجرات زَجْراً ﴾ الملائكة تزجر السحاب ، وقيل تزجر الخلائق عن معاص الله بالذكر الذي تتلوه ، وتلقيه إلى الأنبياء .

وممن قال بأن الصافات والزاجرات والتاليات في أول هذه السورة الكريمة هي جماعات

الملائكة: ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد وقتادة؛ كما قاله القرطبي وابن كثير وغيرهما، وزاد ابن كثير وغيره ممن قال به: مسروقاً والسدي والربيع بن أنس، وقد قدمنا أنه قول أكثر أهل العلم.

وقال بعض أهل العلم: الصافات في الآية الطير تصف أجنحتها في الهواء. واستأنس لذلك بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرحمن ﴾ [ الملك: 19 ] الآية. وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السماوات والأرض والطير صَآفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [ النور: 41 ] الآية.

وقال بعض العلماء: المراد بالصافات جماعات المسلمين يصفون في مساجدهم للصلاة، ويصفون في غزوهم عند لقاء العدو، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ الذين يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾

[ الصف: 4 ].

وقال بعض العلماء أيضاً المراد بالزاجرات زجراً، والتاليات ذكراً: جماعات العلماء العاملين يلقون آيات الله على الناس، ويزجرون عن معاص الله بآياته، ومواعظه التي أنزلها على رسله.

وقال بعضهم: المراد بالزاجرات زجراً جماعات الغزاة يزجرون الخيل، لتسرع إلى الأعداء، والقول الأول أظهر وأكثر قائلاً، ووجه توكيده تعالى قوله: ﴿ إِنَّ إلهكم لَوَاحِدٌ ﴾ بهذه الأقسام، و "بإنَّ" و "اللام" هو أن الكفار أنكروا كون الإله واحداً إنكاراً شديداً وتعجبوا من ذلك تعجباً شديداً، كما قال تعالى عنهم: ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها وَاحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾، [ص: 5] ولما قال تعالى: ﴿ إِنَّ إلهكم لَوَاحِدٌ ﴾ أقام الدليل على ذلك بقوله: ﴿ رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشارق ﴾، فكونه خالق السماوات والأرض الذي جعل فيها المشارق والمغارب، برهان قاطع على أنه المعبود وحده.

وهذا البرهان القاطع الذي أقامه هنا على أنه هو الإله المعبود وحده، أقامه على ذلك أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وإلهكم إله وَاحِدٌ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ الرحمن الرحيم ﴾ [البقرة: 163]، فقد أقام البرهان على ذلك بقوله بعده متَّصلاً به: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تَجْرِي فِي البحر بِمَا يَنفَعُ الناس وَمَآ أَنزَلَ الله مِنَ السمآء مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرياح والسحاب المسخر بَيْنَ السمآء والأرض لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: 164].

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة : فإن قلتُ : ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصفات ؟ قلتُ : إمّا أن تدلّ على ترتب معانيها في الوجود كقوله :

يا لهف زيابة للحارث . . . الصابح فالغانم فالآئب

(86/652)

---

كأنه قيل : الذي صبح فغنم فآب ، وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك : خذ الأفضل فالأكمل ، واعمل الأحسن فالأجمل ، وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك كقوله : رحم الله المحلقين فالمقصرين ، فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة في الصفات .

فإن قلت : فعلى أي هذه القوانين هي فيما أنت بصدده ؟

قلت : إن وحدت الموصوف كانت للدلالة على ترتب الصفات في التفاضل ، وإن ثلثه فهي للدلالة على ترتب الموصوفات فيه .

بيان ذلك : أنك إذا أجريت هذه الأوصاف على الملائكة ، وجعلتهم جامعين لها فطفها بالفاء يفيد ترتباً لها في الفضل ، إما أن يكون الفضل للصف ، ثم للزجر ثم للتلاوة . وإما على العكس ، وكذلك إن أردت العلماء وقوّاد الغزاة . وإن أجريت الصفة الأولى على

طوائف والثانية والثالثة على أخر ، فقد أفادت ترتب الموصوفات في الفضل أعني أن الطوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل ، والتاليات أبهر فضلاً أو على العكس ، وكذلك إذا أردت بالصافات الطير ، وبالزاجرات كل ما يزجر عن معصية ، وبالتاليات كل نفس تتلو الذكر ، فإن الموصوفات مختلفة . انتهى كلام الزمخشري في الكشاف .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : كلام صاحب الكشاف هذا نقله عنه أبو حيان ، والقرطبي وغيرهما ، ولم يتعقبوه ، والظاهر أنه كلام لا تحقيق فيه ، ويوضح ذلك اعتراف الزمخشري نفسه بأنه لا يدري ما ذكره : هل هو كذا أو على العكس ، وذلك صريح في أنه ليس على علم مما يقوله ، لأن من جرم بشيء ثم جوز فيه النقيضين دل على أنه ليس على علم مما جزم به .

والأظهر الذي لا يلزمه إشكال أن الترتيب بالفاء لمجرد الترتيب الذِّكري والإتيان بأداة الترتيب لمجرد الترتيب الذِّكري فقط ، دون إرادة ترتيب الصفات أو الموصوفات أسلوب عربي معروف جاء في القرآن في مواضع ، وهو كثير في كلام العرب .

ومن أمثلته في القرآن العظيم قوله تعالى : ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة وَمَآ أَدْرَاكَ مَا العقبة فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين آمَنُواْ ﴾ [ البلد : 1117 ] الآية ، فلا يخفى أن ثم حرف ترتيب وأن المرتب به الذي هو كونه من الذين آمنوا لا ترتب له على ما قبله إلا مطلق الترتيب الذّكري ، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذلكم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب تَمَاماً عَلَى الذي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [ الأنعام : 153154 ] الآية ، كما لا يخفى أن الترتيب فيه ذِكْري .

وقد قدمنا الكلام على هذا في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ الناس ﴾ [ البقرة : 199 ] . ومن أمثلة ذلك في كلام العرب قوله :

إن من ساد ثم ساد أبوه . . . ثم قاد ساد قبل ذلك جده

وقوله تعالى : في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَرَبُّ المشارق ﴾ ، لم يذكر في هذه الآية إلا المشارق وحدها ، ولم يذكر فيها المغارب .

وقد بيّنا في كتابنا " دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب " : وجه اختلاف ألفاظ الآيات في ذلك . فقلنا فيه في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ المشرق والمغرب ﴾ [ البقرة : 115 ] ما لفظه أفرد في هذه الآية الكريمة المشرق والمغرب ، وثناهما في سورة الرحمن في قوله تعالى : ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ [ الرحمن : 17 ] وجمعهما في سورة " سَأَلَ

سَائِل " في قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ المشارق والمغارب ﴾ [ المعارج : 40 ] وجمع المشارق في سورة الصافات في قوله تعالى : ﴿ رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ المشارق ﴾ [ الصافات : 5 ] .

(88/652)

---

والجواب : أن قوله هنا : ﴿ وَلِلَّهِ المشرق والمغرب ﴾ المراد به جنس المشرق والمغرب ، فهو صادق بكل مشرق من مشارق الشمس التي هي ثلاثمائة وستون ، وكل مغرب من مغاربها التي هي كذلك كما رُوِي عن ابن عباس وغيره .

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه : وإنما معنى ذلك : ولله المشرق الذي تشرق منه الشمس كل يوم ، والمغرب الذي تغرب فيه كل يوم .

فتأويله إذا كان ذلك معناه : ولله ما بين قطري المشرق وقطري المغرب إذا كان شروق الشمس كل يوم من موضع منه لا تعود لشروقها منه إلى الحول الذي بعده ، وكذلك غروبها .

انتهى منه بلفظه .

وقوله : ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ [ الرحمن : 17 ] يعين مشرق الشتاء ، ومشرق الصيف ، ومغربهما كما عليه الجمهور ، وقيل : مشرق الشمس والقمر

ومغربهما .

وقوله : ﴿ بِرَبِّ المشارق والمغارب ﴾ [ المعارج : 40 ] أي مشارق الشمس ومغاربها كما تقدم . وقيل : مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها . والعلم عند الله تعالى .

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النجوم لِتَهْتَدُواْ بِهَا ﴾ [ الأنعام : 97 ] الآية . وقرأ هذا الحرف السبعة غير عاصم وحمزة ، بإضافة ( زينة ) إلى ( الكواكب ) أي بلا تنوين في ( زينة ) ، مع خفض الباء في ( الكواكب ) . وقرأه حمزة وحفص عن عاصم : بتنوين ( زينة ) ، وخفض ( الكواكب ) على أنه بدل من ( زينة ) . وقرأه أبو بكر عن عاصم : ( بزينة الكواكب ) بتنوين ( زينة ) ، ونصب ( الكواكب ) ، وأعرب أبو حيان ( الكواكب ) على قراءة إعرابين .

(89/652)

---

أحدهما : أن ( الكواكب ) بدل من ( السماء ) في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السمآء ﴾

والثاني : أنّه مفعول به لزينة بناء على أنه مصدر منكر ، كقوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ [ البلد : 17 ] ﴿ يَتِيماً ﴾ [ البلد : 15 ] الآية .

والأظهر عندي : أنّه مفعول فعل محذوف تقديره أعني ( الكواكب ) على حد قوله في الخلاصة :

ويحذف الناصبها إن علما . . . وقد يكون حذفه ملتزما

قوله تعالى : { وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ } إلى قوله : { شِهَابٌ ثَاقِبٌ } .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في الكلام على قوله تعالى : { وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ إِلاَّ مَنِ استرق السمع } [ الحجر : 1718 ] الآية في سورة الحجر .

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (11)

ذكر في هذه الآية الكريمة برهانين من براهين البعث ، التي قدمنا أنها يكثر في القرآن العظيم الاستدلال بها على البعث .

الأول : هو المراد بقوله : { فاستفتهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ } لأنّ معنى ( فاستفتهم ) : استخبرهم والأصل في معناه : اطلب منهم الفتوى : وهي الأخبار بالواقع فيما تسألهم عنه أهم أشدّ خلقاً أي أصعب إيجاداً واختراعاً ، أم من خلقنا من المخلوقات التي هي أعظم وأكبر منهم ، وهي ما تقدّم ذكره من الملائكة المعبر عن جماعاتهم بالصافات ، والزاجرات ، والتاليات ، والسماوات ، والأرض ، الشمس والقمر ، ومردة الشياطين كما ذكر ذلك كله في قوله تعالى : { رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشارق إِنَّا زَيَّنَّا السمآء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ } [ الصافات : 57 ] .

وجواب الاستفتاء المذكور الذي لا جواب له غيره هو أن يقال : من خلقت يا ربنا من الملائكة ، ومردة الجن والسماوات ، والأرض ، والمشارق ، والمغارب ، والكواكب ، أشد خلقاً منا ، لأنها مخلوقات عظام أكبر ، وأعظم منا فيتضح بذلك البرهان القاطع على قدرته جل وعلا على البعث بعد الموت ، لأن من المعلوم بالضرورة أن من خلق الأعظم الأكبر كالسماوات والأرض ، وما ذكر معهما قادر على أن يخلق الأصغر الأقل كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [ غافر : 57 ] أي ومن قدر على خلق الأكبر فلا شك أنه قادر على خلق الأصغر ، كخلق الإنسان خلقاً جديداً بعد الموت . وقال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ على أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بلى وَهُوَ الخلاق العليم ﴾ [ يس : 81 ] وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ على أَنْ يُحْيِيَ الموتى بلى إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [ الأحقاف : 33 ] وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض قَادِرٌ على أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ [ الإسراء : 99 ] وقال تعالى في النازعات موضحاً الاستفتاء المذكور الصافات هذه : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء

بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا والجبال أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [ النازعات : 2733 ] .

وقد علمت أن وجه العبارة بمن التي هي للعالم في قوله تعالى : ﴿ أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ عن السماوات والأرض والكواكب هو تغليب ما ذكر معها من العالم كالملائكة على غير العالم ، وذلك أسلوب عربي معروف .

(91/652)

---

وأما البرهان الثاني : فهو في قوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾ لأن من خلقهم أولاً من طين ، وأصله التراب المبلول بالماء لا يشك عاقل في قدرت على خلقهم مرة أخرى بعد أن صاروا ترابات ، لأن الإعادة لا يعقل أن تكون أصعب من البدء والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة جداً كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [ يس : 79 ] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ ﴾
عليه [ الروم : 27 ] وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ [ الحج : 5 ] .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذين البرهانين وغيرهما ، من براهين البعث في سورة البقرة والنحل والحج وغير ذلك .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ اللازب : هو ما يلزق باليد مثلاً إذا لاقته ، وعبارات المفسرين فيه تدور حول ما ذكرنا ، والعرب تطلق اللازب واللاتب واللازم ، بمعنى واحد ، ومنه في اللازب قول علي رضي الله عنه :

تَعَلَّم فإنّ الله زادك بَسطةً . . . وأخلاق خيرٍ كُلُّها لَك لازب

وقول نابغة ذبيان :

ولا يحسبون الخير لا شر بعده . . . ولا يحسبون الشر ضربة لازب

فقوله : ضربة لازب : أي شيئاً ملازماً لا يفارق ، ومنه في اللاتب قوله :

فإن يك هذا من نبيذ شربته . . . فإني من شرب النبيذ لتائب

صداع وتوصيم العظام وفترة . . . وغم مع الإشراق في الجوف لاتب

والبرهانان المذكوران على البعث يلقمان الكفار حجراً في إنكارهم البعث المذكور بعدهما قريباً منهما في قوله تعالى : ﴿ وقالوا إن هاذآ إلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ آبَآؤُنَا الأولون قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [ الصافات : 1519 ] .

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12)

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حمزة والكسائي : عجبت بالتاء المفتوحة وهي تاء الخطاب ، المخاطب بها النبي صلى الله عليه وسلم . وقرأ حمزة والكسائي : بل عجبت بضم التاء المتكلم ، وهو الله جل وعلا .

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن القراءتين المختلفتين يحكم لهما بحكم الآيتين .

وبذلك تعلم أن هذه الآية الكريمة على قراءة حمزة والكسائي فيها إثبات العجب لله تعالى ، فهي إذاً من آيات الصفات على هذه القراءة .

وقد أوضحنا طريق الحق التي هي مذهب السلف في آيات الصفاتن وأحاديثها في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ [ الأعراف : 54 ] فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (20) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الروم ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم والإيمان لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ الله إلى يَوْمِ البعث فهذا يَوْمُ البعث ﴾ [ الروم : 56 ] الآية .

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى

صِرَاطِ الْجَحِيمِ (23)

المراد بالذين ظلموا الكفار كما يدلّ عليه قوله بعده : ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ .

وقد قدمنا إطلاق الظلم على الشرك في آيات متعددة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [ لقمان : 13 ] . وقوله تعالى : ﴿ والكافرون هُمُ الظالمون ﴾ [ البقرة : 254 ] . وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظالمين ﴾ [ يونس : 106 ] .

(93/652)

---

وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فسر الظلم بالشرك في قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ [ الأنعام : 82 ] . وقوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ جمهور أهل العلم منهم : عمر وابن عباس ، على أن المراد به أشباههم ونظراؤهم ، فعابد الوثن مع عابد الوثن ، والسارق مع السارق ، والزاني مع الزاني ، واليهودي مع اليهودي ، والنصراني مع النصراني ، وهكذا وإطلاق الأزواج على الأصناف مشهور في القرآن ، وفي كلام العرب كقوله تعالى : ﴿ والذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا ﴾ [ الزخرف : 12 ] الآية . وقوله

تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَق الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [ يس : 36 ] ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شتى ﴾ [ طه : 53 ] الآية . وقوله تعالى : ﴿ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ ﴾ [ الحجر : 88 ] إلى غير ذلك من الآيات .

(94/652)

---

فقوله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ أي اجمعوا الظالمين وأشباههم ونظراءهم ، فاهدوهم إلى النار ليدخلها جيمعهم ، وبذلك تعلم أن قول من قال : المراد بأزواجهم نساؤهم اللاتي على دينهم خلاف الصواب . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ أي احشروا مع الكفار الشركاء التي كانوا يعبدونها من دون الله ليدخل العابدون والمعبودات جميعاً النار كما أوضح ذلك بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هؤلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [ الأنبياء : 9899 ] وقد بيّن تعالى أن الذين عبدوا من دون الله من الأنبياء ، والملائكة ، والصالحين كعيسى وعزير خارجون عن هذا ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [ الأنبياء : 101 ] إلى قوله : ﴿ هذا يَوْمُكُمُ

الذي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 103] ، وأشار إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وقالوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاَ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف : 5759] الآية. وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء : 57] الآية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فاهدوهم ﴾ من الهدي العام : أي دلّوهم وأرشدوهم إلى الصراط الجحيم أي طريق النار ليسلكوها إليها ، والضمير في قوله تعالى : ﴿ فاهدوهم ﴾ راجع إلى الثلاثة أعني الذين ظلموا ، وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله.

(95/652)

---

وقد دلت هذه الآية أن الهدي يستعمل في الإرشاد والدلالة على الشر ، ونظير ذلك في القرآن قوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إلى عَذَابِ السعير ﴾ [الحج : 4] ولذلك كان للشرِّ أئمة يؤتم بهم فيه كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا هُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النار ﴾ [القصص : ] الآية.

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (24) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (25)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ [ الأعراف : 6 ] ، وبيّنا هناك وجه الجمع بين الآيات في نحو قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ [ القصص : 78 ] ، وقوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [ الرحمن : 39 ] ، مع قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [ الحجر : 9293 ] وقوله تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [ الأعراف : 6 ] الآية . وقوله هنا : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾ .

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (27)

قد قدمنا الآيات الموضحة له مع التعرض لإزالة إشكالين في بعض الآيات المتعلقة بذلك ، في سورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [ المؤمنون : 1 ] في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [ المؤمنون : 101 ]

فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (31) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (32)

قد قدمنا الآيات المبيّنة للمراد بالقول الذي حق عليهم في سورة يس في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ ﴾ [ يس : 7 ] الآية ، وما ذكره جل وعلا عنهم من أنهم قالوا : إنه لما حقّ عليهم القول الذي هو : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [ هود : 119 ] فكانوا غاوين أغووا أتباعهم لأنّ متّبع الغاوي في غيّه ، لا بد أن يكون غاوياً مثله ، ذكره تعالى في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة القصص : ﴿ قَالَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول رَبَّنَا هؤلاء الذين أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ [ القصص : 63 ] الآية ، والإغواء الإضلال .

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33)

ذكر جلّ وعلا في هذه الآية أن الضالين والمضلين ، مشتركون في العذاب يوم القيامة ، وبين في سورة الزخرف أن ذلك الاشتراك ليس بنافعهم شيئاً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ اليوم إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ [ الزخرف : 39 ] وبيّن في مواضع أخر أن الأتباع يسألون الله ، أن يعذب المتبوعين عذاباً مضاعفاً لإضلالهم إياهم ، كقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ [ الأعراف : 38 ] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا رَبَّنَآ آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب والعنهم لَعْناً كَبِيراً ﴾ [ الأحزاب : 6768 ] .

وقد قدمنا الكلام على تخاصم أهل النار وسيأتي إن شاء الله له زيادة إيضاح في سورة ص في الكلام على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص: 64].

(97/652)

---

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35)

بيّن جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن ذلك العذاب الذي فعله بهؤلاء المعذبين المذكورين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ [الصافات: 31] أي العذاب الأليم، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الصافات: 33] أنه يفعل مثله من التعذيب والتنكيل بالمجرمين والمجرمون جمع مجرم، وهو مرتكب الجريمة وهي الذنب الذي يستحقه صاحبه عليه التنكيل الشديد، ثم بيّن العلة لذلك التعذيب، لأنها هي امتناعهم من كلمة التوحيد التي هي لا إله إلا الله إذا طلب منهم الأنبياء وأتباعهم أن يقولوا ذلك في دار الدنيا.

فلفظة (إن) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كانوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إله إلاّ الله يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات: 35] من حروف التعليل، كما تقرر في الأصول في مسلك الإيماء والتنبيه.

وعليه فالمعنى: كذلك نفعل بالمجرمين لأجل أنهم كانوا في دار الدنيا ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إله إلاّ الله يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ اي يتكبرون عن قبولها ولا يرضون أن يكونوا أتباعاً للرسل.

وهذا المعنى الذي دلّت عليه هذه الآية الكريمة من كون ذلك هو سبب تعذيبهم بالنار ، دلت عليه آيات كقوله تعالى مبيناً دخولهم النار : ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالحكم للّهِ العلي الكبير ﴾ [ غافر : 12 ] وقوله تعالى في ذكر صفات الكفار وهم أهل النار : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشمأزت قُلُوبُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة وَإِذَا ذُكِرَ الذين مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [ الزمر : 45 ] .

وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (36)

(98/652)

---

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ والشعرآء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ [ الشعراء : 224 ] .

لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (47)

قد قدمنا تفسيره مع ذكر الآيات الدالة على معناه في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [ المائدة : 90 ] وبينا هنا كلام أهل العلم في نجاسة عين خمر الدنيا دون خمر الآخرة وأن ذلك يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾

[الإنسان : 21 ] .

وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ثلاث صفات من صفات نساء أهل الجنة .

الأولى : أنهن قاصرات الطرف ، وهو العين أي عيونهن قاصرات على أزواجهن ، لا ينظرن إلى غيرهم لشدة اقتناعهن واكتفائهن بهم .

الثانية : أنهن عين ، والعين جمع عيناء ، وهي واسعة دار العين ، وهي النجلاء .

الثالثة : أن ألوانهن بيض بياضاً مشرباً بصفرة ، لأن ذلك هو لون بيض النعام الذي شبههن به ، ومنه قول امرئ القيس في نحو ذلك :

كبكر المقانات البياض بصفرة . . . غذاها غير الماء نمير المحلل

لأن معنى قوله : كبكر المقانات البياض بصفرة ، أنلون المرأة المذكورة كلون البيضة البكر المخالط بياضها بصفرة ، وهذه الصفات : الثلاث المذكورة هنا ، جاءت موضحة في غير هذا الموضع مع غيرها من صفاتهن الجميلة ، فبين كونهن قاصرات الطرف على أزواجهن بقوله تعالى في ص : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف أَتْرَابٌ ﴾ [ ص : 52 ] وكون المرأة قاصرة الطرف من صفاتها الجميلة ، وذلك معروف في كلام العرب ، ومنه قول امرئ القيس :

من القاصرات الطرف لو دب محمول . . . من الذر فوق الأتب منها لأثرا

وذكر كونهن عيناً في قوله تعالى فيهن : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ [ الواقعة : 22 ] ، وذكر صفاء ألوانهن وبياضها في قوله تعالى : ﴿ كَأَمْثَالِ اللؤلؤ المكنون ﴾ [ الواقعة : 23 ] . وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ [ الرحمن : 58 ] وصفاتهن كثيرة معروفة في الآيات القرآنية .

واعلم أن الله أثنى عليهن بنوعين من أنواع القصر :

أحدهما : أنهن قاصرات الطرف ، والطرف العين ، وهو لا يجمع ولا يثنى لأن أصله مصدر ، ولم يأت في القرآن إلا مفرداً كقوله تعالى : ﴿ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [ إبراهيم : 43 ] . وقوله تعالى : ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [ الشورى : 45 ] : ومعنى كونهن قاصرات الطرف هو ما قدمنا من أنهن لا ينظرن إلى غير أزواجهن بخلاف نساء الدنيا .

والثاني من نوعي القصر : كونهن مقصورات في خيامهن ، لا يخرجن منها كما قال تعالى لأزواج نبيّه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [ الأحزاب : 33 ] ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الخيام ﴾ [ الرحمن : 72 ] ، وكون المرأة مقصورة

في بيتها لا تخرج منه من صفاتها الجميلة ، وذلك معروف معروف في كلام العرب ومنه قوله :

من كان حرباً للنساء . . . فإنني سلم لهنه

فإذا عثرن دعونني . . . وإذا عثرت دعوتهنه

وإذا برزن لمحفل . . . فقصارهن ملاحهنه

فقوله : قصارهن يعني المقصورات منهن في بيوتهن اللاتي لا يخرجن إلا نادراً ، كما أوضح ذلك كثير عزة في قوله :

وأنت التي حببت كل قصيره . . . إلي وما تدري بذاك القصائر

عنيت قصيرات الحجال ولم أرد . . . قصار الخطا شر النساء البحاتر

والحجال : جمع حجلة وهي البيت الذي يزين للعروس ، فمعنى قصيرات الحجال : المقصورات في حجالهن . وذكر بعضهم أن رجلاً سمع آخر ، قال : لقد أجاد الأعشى في قوله :

غراء فرعاء مصقول عوارضها . . . تمشي الهوينا كما يمشي الوجى الوحل

كأن مشيتها من بيت جارتها . . . مرا السحابة لا ريث ولا عجل

ليست كمن يكره الجيران طلعتها . . . ولا تراها لسر الجار تختتل

فقال له : قاتلك الله ، تستحسن غير الحسن هذه الموصوفة خراجة ولاجة ، والخراجة الولاجة لا خير فياه ولا ملاحة لها ، فهل لا قال كما قال أبو قيس بن الأسلت :

وتكسل عن جاراتها فيزنها . . . وتعتل من إنيانهن فتعذر

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62)

قد قدمنا إيضاحه بالقرآن في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلْ أذلك خَيْرٌ أَمْ جنَّةُ الخلد التي وَعِدَ المتقون ﴾ [ الفرقان : 15 ] .

إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (63) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64)

قد قدمنا إيضاحه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ والشجرة الملعونة فِي القرآن ﴾ [ الإسراء : 60 ] .

فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (66) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (67)

ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أن الكفار في النار يأكلون من شجرة الزقوم ، فيملؤون منها بطونهم ، ويجمعون معها شوباً من حميم . أي خلطاً من الماء البالغ غاية الحرارة ، جاء موضحاً في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى في الواقعة : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضآلون المكذبون لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الحميم

فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهيم ﴾ [ الواقعة : 5155 ] ، وقوله شرب الهيم ، الهيم : جمع أهيم وهيماء وهي الناقة مثلاً التي أصابها الهيام ، وهو شدة العطش بحيث لا يرويها كثرة شراب الماء فهي تشرب كثيراً من الماء ، ولا تزال مع ذلك في شدة العطش . ومنه قول غيلان ذي الرمة :

(101/652)

---

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد . . . صداها ولا يقضي عليها هيامها

وقوله تعالى في الواقعة : ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الحميم فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهيم ﴾ [ الواقعة : 5455 ] يدل على أن الشوب أي الخلط من الحميم المخلوط لهم بشجرة الزقوم المذكور هنا في الصافات ، أنه شوب كثير من الحميم لا قليل .

وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسير هذه الآية : لشوبا من حميم . الشوب : الخلط ، والشوب والشوب لغتان ، كالفقر والفقر ، والفتح أشهر . قال الفراء شاب طعامه وشرابه إذا خلطهما بشيء يشوبهما شوباً وشيابة انتهى منه .

فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (70)

ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الكفار الذين أرسل إليهم نبينا صلى الله عليه وسلم ،

ألفوا آباءهم ضالين : أي وجدوهم على الكفر ، وعبادة الأوثان ، فهم على آثارهم يهوعون : أي يتبعونهم في ذلك الضلال والكفر ، مسرعين فيه ، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى عنهم : ﴿ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [ البقرة : 170 ] وقوله عنهم : ﴿ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [ المائدة : 104 ] وقوله عنهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَآءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [ الزخرف : 23 ] . وقوله عنهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا ﴾ [ إبراهيم : 10 ] الآية ، ورد الله عليهم في الآيات القرآنية معروف كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [ البقرة : 170 ] وقوله : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [ المائدة : 104 ] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ [ الزخرف : 24 ] .

(102/652)

---

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَهُمْ على آثَارِهِمْ ﴾ أي فهم على أتباعهم ، والاقتداء بهم في الكفر والضلال ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [ الزخرف : 23 ] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ يُهْرَعُونَ ﴾ ، قد قدمنا في سورة هود أن معنى ﴿ يُهْرَعُونَ ﴾ : يسرعون ويهرولون ، وأن منه قول مهلهل :

فجاءوا يهرعون وهم أسارى . . . تقودهم على رغم الأنوف

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (71)

وقد قدمنا الآيات التي بمعناه في سورة يس في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [ يس : 7 ] . وفي سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ الأنعام : 116 ] الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(103/652)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) ﴾

استئناف بعد تمام قصة المؤمن ورفاقه قصد منه التنبيه إلى البون بين حال المؤمن والكافر جرى على عادة القرآن في تعقيب القصص والأمثال بالتنبيه إلى مغازيها ومواعظها .

فالمقصود بالخبر هو قوله : ﴿ إنَّا جعلناهَا ، ﴾ أي شجرة الزقوم ﴿ فتنة للظالمين ﴾ إلى

آخرها .

وإنما صيغ الكلام على هذا الأسلوب للتشويق إلى ما يرد فيه .

والاستفهام مكنى به عن التنبيه على فضل حال المؤمن وفوزه وخسار الكافر .

وهو خطاب لكل سامع .

والإشارة بـ ﴿ أذلك ﴾ إلى ما تقدم من حال المؤمنين في النعيم والخلود ، وجيء باسم الإشارة مفرداً بتأويل المذكور ، بعلامة بُعد المشار إليه لتعظيمه بالبعد ، أي بعد المرتبة وسُموّها لأن الشيء النفيس الشريف يتخيل عالياً والعالي يلازمه البُعد عن المكان المعتاد وهو السفل ، وأين الثريا من الثرى .

والنزُل : بضمتين ، ويقال : نُزْل بضم وسكون هو في أصل اللغة : المكان الذي ينزل فيه النازل ، قاله الزجاج.

وجرى عليه صاحب "اللسان" وصاحب "القاموس" ، وأُطلق إطلاقاً شائعاً كثيراً على الطعام المهيّأ للضيف لأنه أعدّ له لنزوله تسمية باسم مكانه نظير ما أطلقوا اسم السكن بسكون الكاف على الطعام المعدّ للساكن الدار إذ المسكن يقال فيه : سَكْن أيضاً .

واقتصر عليه أكثر المفسرين ولم يذكر الراغب غيره .

ويجوز أن يكون المراد من النزل هنا طعام الضيافة في الجنة .

ويجوز أن يراد به مكان النزول على تقدير مضاف في قوله : ﴿ أَمْ شجرة الزقوم ﴾ بتقدير :

أم مكان شجرة الزقوم .

وعلى الوجهين فانتصاب ﴿ نُزُلاً ﴾ على الحال من اسم الإشارة ومتوجه الإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما يناسب الوجهين مما تقدم من قوله : ﴿ رزق معلومٌ فواكه وهم مُكْرَمُونَ في جَنَّاتِ النَّعِيم ﴾ [ الصافات : 41 – 43 ] .

*(104/652)*

---

ويجري على الوجهين معنى معادل الاستفهام فيكون إمّا أن تُقدّر : أم منزلُ شجرة الزقوم على حدّ قوله تعالى : ﴿ أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ [ مريم : 73 ] فقد ذَكَرَ مكانين ، وإما أن نقدر : أم نزل شجرة الزقوم ، وعلى هذا الوجه الثاني تَكون المعادلة مشاكَلة تهكماً لأن طعام شجرة الزقوم لا يحق له أن يسمى نزلاً .

وشجرة الزقوم ذكرت هنا ذِكر ما هو معهود من قبلُ لورودها معرِفة بالإضافة ولوقوعها في مقام التفاوت بين حالي خير وشر فيناسب أن تكون الحوالة على مِثلين معروفين ، فأما أن يكون اسماً جعله القرآن لشجرة في جهنم ويكون سبق ذكرها في ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم ﴾ في سورة [ الواقعة : 51 – 52 ] ، وكان نزولها قبل نزول سورة الصافات .

ويبين هذا ما رواه الكلبي أنه لما نزلت هذه الآية ( أي آية سورة الواقعة ) قال ابن الزِّبَعْرَى :

أكثر الله في بيوتكم الزقوم ، فإن أهل اليمن يسمّون التمر والزبد بالزقوم .

فقال أبو جهل لجاريته : زقمينا فأتته بزُبد وتمر فقال : تزقموا .

وعن ابن سيده : بلغنا أنه لما نزلت:

﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ أي في سورة [ الدخان : 43 44 ] لم يعرفها قريش .

فقال أبو جهل : يا جارية هاتي لنا تمراً وزبداً نزدقمه ، فجعلوا يأكلون ويقولون : أفبها ذا يخوفنا محمد في الآخرة .

٥.

والمناسب أن يكون قولهم هذا عندما سمعوا آية سورة الواقعة لا آية سورة الدخان وقد جاءت فيها نكرة .

وإمّا أن يكون اسماً لشجر معروف هو مذموم ، قيل : هو شجر من أخبث الشجر يكون بتهامة وبالبلاد المجدبة المجاورة للصحراء كريهة الرائحة صغيرة الورق مسمومة ذات لبن إذا أصاب جلد الإنسان تورّم ومات منه في الغالب .

قاله قطرب وأبو حنيفة .

وتصدّي القرآن لوصفها المفصّل هنا يقتضي أنها ليست معروفة عندهم فذكرها مُجملة في سورة الواقعة فلما قالوا ما قالوا فصّل أوصافها هنا بهذه الآية وفي سورة الدخان بقوله : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل تغلِي في البطون كغلْي الحميم ﴾ [ الدخان : 43 – 46 ] .

وقد سماها القرآن بهذه الإِضافة كأنها مشتقة من الزقمة بضم الزاء وسكون القاف وهو اسم الطاعون ، وقال ابن دريد : لم يكن الزقوم اشتقاقاً من التزقم وهو الإِفراط في الأكل حتى يكرهه .

وهو يريد الرد على من قال : إنها مشتقة من التزقم وهو البلْع على جَهد لكراهة الشيء .

واستأنف وصفها بأن الله جعلها ﴿ فتنة للظالمين ﴾ ، أي عذاباً مثل ما في قوله : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ [ البروج : 10 ] ، أي عذبوهم بأخدود النار .

وفسرت الفتنة أيضاً بأن خبر شجرة الزقوم كان فتنة للمشركين إذ أغراهم بالتكذيب والتهكم فيكون معنى ﴿ جَعَلْنَاهَا ﴾ جعلنا ذكرها وخبرها ، أي لما نزلت آية سورة الواقعة ، أي جعلنا ذكرها مثيراً لفتنتهم بالتكذيب والتهكم دون تفهم ، وذلك مثل قوله : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ [ المدثر : 31 ] ، فإنه لما نزل قوله تعالى في وصف جهنم : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ [ المدثر

: 30 ] قال أبو جهل لقريش : ثَكِلتكم أمهاتُكم إن ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدُّهم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ( أي من خزنة النار ) فقال أبو الأشد الجمحي : أنا أكفيكم سبعةَ عشر فاكْفوني أنتم اثنين فأنزل الله تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ [ المدثر : 31 ] أي فليس الواحد منهم كواحد من الناس ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ [ المدثر : 31 ] .

واستأنف لوصفها استئنافاً ثانياً مكرراً فيه كلمة ﴿ إنَّهَا ﴾ للتهويل .

(106/652)

---

ومعنى ﴿ تَخْرُجُ ﴾ تنبت كما قال تعالى : ﴿ والبلد الطيب يخرجُ نباته بإذن ربه ﴾ [ الأعراف : 58 ] .

ومن عجيب قدرة الله تعالى أن جعل من النار شجرة وهي نارية لا محالة .

صور الله في النار شجرة من النار ، وتقريب ذلك ما يصور في الشماريخ النارية من صور ذات ألوان كالنخيل ونحوه .

وجعَل لها طلعاً ، أي ثمراً ، وأطلق عليه اسم الطلع على وجه الاستعارة تشبيهاً له بطلع النخلة لأن اسم الطلع خاصّ بالنخيل .

قال ابن عطية : عن السدي ومجاهد قال الكفار : كيف يخبر محمد عن النار أنها تنبت الأشجار ، وهي تأكلها وتذهبها ، فقولهم هذا ونحوه من الفتنة لأنه يزيدهم كفراً وتكذيباً .

و﴿ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ يجوز أن يكون مراداً بها رؤوس شياطين الجنّ جمع شيطان بالمعنى المشهور ورؤوس هذه الشياطين غير معروفة لهم ، فالتشبيه بها حوالة على ما تصوّر لهم المخيّلة ، وطلع شجرة الزقوم غير معروف فوُصف للناس فَظيعاً بَشِعاً ، وشبهت بشاعته ببشاعة رؤوس الشياطين ، وهذا التشبيه من تشبيه المعقول بالمعقول كتشبيه الإِيمان بالحياة في قوله تعالى : ﴿ لتنذر من كان حياً ﴾ [ يس : 70 ] والمقصود منه هنا تقريب حال المشبّه فلا يمتنع كون المشبه به غير معروف ولا كون المشبه كذلك .

ونظيره قول امرىء القيس:

ومسنونة زرق كأنياب أغوال . . .

وقيل : أريد برؤوس الشياطين ثمر الأسْتن ، والأسْتَن ( بفتح الهمزة وسكون السين وفتح التاء ) شجرة في بادية اليمن يشبه شخوص الناس ويسمى ثمره رؤوس الشياطين ، وإنما سمّوه كذلك لبشاعة مرآه ثم صار معروفاً ، فشبه به في الآية .

وقيل : ﴿ الشياطِينِ : ﴾ جمع شيطان وهو من الحيات ما لرؤوسه أعراف ، قال الراجز يشبه امرأته بحية منها :

عَنْجَرِدٌ تَحلف حينَ أحلف . . .

كمثل شيطانِ الحَمَاط أعْرَفُ

الحماط: جمع حَمَاطة بفتح الحاء: شجر تكثر فيه الحيات، والعنجرِد بكسر الراء: المرأة السليطة.

*(107/652)*

---

وهذه الصفات التي وصفت بها شجرة الزقوم بالغة حداً عظيماً من الذم وذلك الذم هو الذي عبّر عنه بالملعونة في قوله تعالى: ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ في سورة [ الإِسراء: 60 ]، وكذلك في آية ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل تغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ في سورة [ الدخان: 43 - 46 ].

( وقد أنذروا بأنهم آكلون منها إنذاراً مؤكداً، أي آكلون من ثمرها وهو ذلك الطلع.

وضمير ﴿ منها ﴾ للشجرة جرى على الشائع من قول الناس أكلت من النخلة، أي من ثمرها.

والمعنى: أنهم آكلون منها كرهاً وذلك من العذاب، وإذا كان المأكول كريهاً يزيده كراهة سوءُ منظره، كما أن المشتهَى إذا كان حسن المنظر كان الإِقبال عليه بشَرَه لظهور الفرق بين تناول تفاحة صفراء وتناول تفاحة مورّدة اللون، وكذلك محسنات الشراب، ألاَ ترَى إلى

كعب بن زهير كيف أطال في محسنات الماء الذي مزجت به الخمر في قوله:

شُجَّت بذي شَبَم من ماء مَجْنية . . .

صافٍ بأبطحَ أضحَى وهو مشمول

تنفي الرياح القذَى عنه وأفرطه . . .

من صوب سارية بيضٌ يعاليل

ومَلْءُ البطون كناية عن كثرة ما يأكلون منها على كراهتها .

وإسناد الأكل ومَلْءِ البطون إليهم إسناد حقيقي وإن كانوا مكرهين على ذلك الأكل والملْءِ .

والفاء في قوله : ﴿ فَمَالِئُونَ ﴾ فاء التفريع ، وفيها معنى التعقيب ، أي لا يلبثون أن تمتلىء بطونهم من سرعة الالتقام ، وذلك تصوير لكراهتها فإن الطعام الكريه كالدواء إذا تناوله آكله أسرع ببلعه وأعظم لقمه لئلا يستقر طعمه على آلة الذوق .

(108/652)

---

و ﴿ ثُم ﴾ في قوله : ﴿ ثُمَّ إنَّ لهم عليها لشوْباً من حميمٍ ﴾ للتراخي الرتبي لأنها عطفت جُملة ، وليس للتراخي في الإِخبار معنى إلا إفادة أن ما بعد حرف التراخي أهم أو أعجب

مما قبله بحيث لم يكن السامع يرقبه فهو أعلى رتبة باعتبار أنه زيادة في العذاب على الذي سبقه فوقْعه أشدّ منه ، وقد أشعر بذلك قوله ﴿ عليها ﴾ ، أي بعدها أي بعد أكلهم منها .

والشَّوب : أصله مصدر شاب الشيءَ بالشيء إذا خلَطه به ، ويطلق على الشيء المشوب به إطلاقاً للمصدر على المفعول كالخلْق على المخلوق .

وكلا المعنيين محتمل هنا .

وضمير ﴿ عليها ﴾ عائد إلى ﴿ شَجَرَةَ الزقُّومِ ﴾ بتأويل ثمرها .

و( على ) بمعنى ( مع ) ، ويصح أن تكون للاستعلاء لأن الحميم يشربونه بعد الأكل فينزل عليه في الأمعاء .

والحميم : القيح السائل من الدُّمَّل ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ لهم شراب من حميم ﴾ في سورة [ الأنعام : 70 ] .

والقول في عطف ﴿ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ كالقول في عطف ﴿ ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم .

والمرجع : مكان الرجوع ، أي المكان الذي يعود إليه الخارج منه بعد أن يفارقه .

وقد يستعار للانتقال من حالة طارئة إلى حالة أصلية تشبيهاً بمغادرة المكان ثم العود إليه كقول عُمر بن الخطاب في كلامه مع هُنَيْءٍ صاحب الحِمَى فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعان إلى نَخْل وزرع ، يعني عثمان بن عفان وعبد الرحمان بنَ عوف ، فإنه إنما عَنى أنهما ينتقلان من الانتفاع بالماشية إلى الانتفاع بالنخل والزرع وكذلك ينبغي أن يفسر الرجوع في الآية لأن المشركين حين يطعمون من شجرة الزقوم ويشربون الحميم لم يفارقوا الجحيم فأريد التنبيه على أن عذاب الأكل من الزقوم والشراب من الحميم زيادةٌ على عذاب الجحيم ، ألاَ ترى إلى قوله : إنها شجرة تخرجُ في أصللِ الجحيمِ ﴾ فليس ثمة مغادرة للجحيم حتى يكون الرجوع حقيقة ، مثله قول النبي صلى الله عليه وسلم حين رجوعه من إحدى مغازيه " رجعْنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " يريد مجاهدة النفس فإنه لم يعْننِ أنهم حين اشتغالهم بالجهاد قد تركوا مجاهدة أنفسهم وإنما عنى أنهم كانوا في جهاد زائد فصاروا إلى الجهاد السابق .

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (69)

تعليل لما جازاهم الله به من العذاب وإبداء للمناسبة بينه وبين جُرمهم ، فإن جرمهم كان تلقياً لما وجدوا عليه آباءهم من الشرك وشُعَبه بدون نظر ولا اختيار لما يختاره العاقل ، فكان من جزائهم على ذلك أنهم يطعمون طعاماً مؤلماً ويسقَون شراباً قذِراً بدون اختيار

كما تلَقوا دين آبائهم تقليداً واعتباطاً .

فموقع (إنَّ) موقع فاء السببية ، ومعناها معنى لام التعليل ، وهي لذلك مفيدة ربط الجملة بالتي قبلها كما تربطها الفاء ولام التعليل كما تقدم غير مرة .

والمراد : المشركون من أهل مكة الذين قالوا : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ [ الزخرف : 22 ] .

وفي قوله : ﴿ أَلْفَوا ءَابَآءَهُم ضَالِينَ ﴾ إيماء إلى أن ضلالهم لا يخفى عن الناظر فيه لو تُركوا على الفطرة العقلية ولم يغشوها بغشاوة العناد .

(110/652)

---

والفاء الداخلة على جملة ﴿ فهم على آثارِهِم يُهرعُون ﴾ فاء العطف للتفريع والتسبب ، أي متفرّع على إلفائهم آباءهم ضالّين أنْ اقتفوا آثارهم تقليداً بلا تأمل ، وهذا ذَمّ لهم .

والآثار : ما تتركه خُطَى الماشِين من مَوطىء الأقدام فيَعلم السائر بعدَهم أن مواقعها مسلوكة موصلة إلى معمور ، فمعنى ﴿ على الاستعلاء التقريبي ، وهو معنى المعية لأنهم يسيرون معها ولا يلزم أن يكونوا مُعْتَلِين عليها .

ويُهرَعُونَ ﴾ بفتح الراء مبنيّاً للمجهول مضارع : أهرعه ، إذا جعله هارعاً ، أي حمله على

الهرع وهو الإِسراع المفرط في السير ، عبر به عن المتابعة دون تأمل ، فشبه قبولُ الاعتقاد بدون تأمل بمتابعة السائر متابعة سريعة لقصد الالتحاق به .

وأسند إلى المجهول للدلالة على أن ذلك ناشىء عن تلقين زعمائهم وتعاليم المضلّلين ، فكأنهم مدفوعون إلى الهرع في آثار آبائهم فيحصل من قوله : ﴿ يُهْرَعُونَ ﴾ تشبيه حال الكفرة بحال من يُزْجَى ويدفع إلى السير وهو لا يعلم إلى أين يُسار به .

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (71)

عُقّب وصفُ حال المشركين في الآخرة وما علّل به من أنهم أَلْفَوْا آباءهم ضالّين فاتبعوا آباءهم بتنظيرهم بمن سلفوا من الضالّين وتذكيراً للرسول صلى الله عليه وسلم بذلك مسلاة له على ما يلاقيه من تكذيبهم ، واستقصاء لهم في العبرة والموعظة بما حلّ بالأمم قبلهم ، فهَذه الجملة معطوفة على مضمون الجملة التي قبلها إكمالاً للتعليل ، أي اتبعوا آثار آبائهم واقتدوا بالأمم أشياعهم .

ووصف الذين ضلّوا قبلهم بأنهم ﴿ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ ﴾ لئلا يَغترّ ضعفاء العقول بكثرة المشركين ولا يعْتزّوا بها ، ليعلموا أن كثرة العدد لا تبرّر ضلال الضالّين ولا خطأ المخطئين ، وأن الهدى والضلال ليسا من آثار العدد كثرة وقلة ولكنهما حقيقتان ثابتتان مستقلتان فإذا عرضت لإِحداهما كثرة أو قلة فلا تكونان فتنة لقصار الأنظار وضعفاء التفكير .

قال تعالى : ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ [ المائدة : 100 ] .

وأكملت العلة والتسلية والعبرة بقوله : ﴿ ولقد أرسلنا فيهم مُنذرين ﴾ أي رسلاً ينذرونهم ، أي يحذرونهم ما سَيحل بهم مثل ما أرسلناك إلى هؤلاء .

وخصّ المرسلين بوصف المنذرين لمناسبة حال المتحدث عنهم وأمثالهم .

وضمير ﴿ فِيهِم ﴾ راجع إلى ﴿ الأَوَّلِينَ ﴾ أي أرسلنا في الأول منذِرين فاهتدى قليل وضلّ أكثرهم .

وفرّع على هذا التوجيه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ترشيحاً لما في الكلام السابق من جانب التسلية والتثبيت مع التعريض بالكلام لتهديد المشركين بذلك ، ويجوز أن يكون الخطاب لكل من يسمع القرآن فشمل النبي صلى الله عليه وسلم

والأمرُ بالنظر مستعمل في التعجيب والتهويل فإن أريد بالعاقبة عاقبتهم في الدنيا فالنظر بصريّ ، وإن أريد عاقبتهم في الآخرة كما يقتضيه السياق فالنظر قلبي ، ولا مانع من إرادة الأمرين واستعمال المشترك في المعنيين .

والتعريف في قوله : ﴿ المُنذَرِينَ ﴾ تعريف العهد ، وهم المنذَرون الذين أرسل إليهم المنذِرون ، أي فهم الضالّون المعبر عنهم بأنهم ﴿ أَكْثَرُ الأَوَّلِين .

﴿ فالمعنى : فانظر كيف كان عاقبة الضالّين الذين أنذرناهم فلم يتذروا كما فعل هؤلاء الذين أَلْفَوْا آباءهم ضالّين فاتبعوهم ، فقد تحقق اشتراك هؤلاء وأولئك في الضلال ، فلا جرم أن تكون عاقبة هؤلاء كعاقبة أولئك .

وفعل النظر معلق عن معموله بالاستفهام ، والاستفهام تعجيبي للتفظيع .

واستثني ﴿ عِبَادَ اللهِ المُخلصين ﴾ من ﴿ الأَوَّلِينَ ﴾ استثناءً متّصلاً فإن عباد الله المخلصين كانوا من جملة المنذَرين فصدّقوا المنذِرين ولم يشاركوا المنذَرين في عاقبتهم المنظور فيها وهي عاقبة السوء .

(112/652)

---

وتقدم اختلاف القراء في فتح اللام وكسرها من قوله : ﴿ المخلصين ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ وما تجزون إلا ما كنتم تعملون إلا عباد الله المخلصين ﴾ [ الصافات : 39 – 40 ] .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(113/652)

---

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) ﴾

أخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه من طرق عن ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ والصافات صفاً ﴾ قال : الملائكة ﴿ فالزاجرات زجراً ﴾ قال : الملائكة ﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد وعكرمة رضي الله عنه ، مثله .

وأخرج سعيد بن منصور عن مسروق رضي الله عنه قال : كان يقال في الصافات ، والمرسلات ، والنازعات هي الملائكة .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ والصافات صفاً ، فالزاجرات زجراً ﴾ قال : هم الملائكة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس رضي الله عنه في قوله ﴿ فالزاجرات زجراً ﴾ قال : ما زجر الله عنه في القرآن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح رضي الله عنه في قوله ﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ قال : الملائكة يجيئون بالكتاب ، والقرآن ، من عند الله إلى الناس .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ والصافات صفاً ﴾ قال : الملائكة صفوف في السماء ﴿ فالزاجرات زجراً ﴾ قال : ما زجر الله عنه في القرآن ﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ قال : ما يتلى في القرآن من أخبار الأمم السالفة ﴿ إن إلهكم لواحد ﴾ قال : وقع القسم على هذا .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ورب المشارق ﴾ قال : المشارق ثلاثمائة وستون مشرقاً ﴿ والمغارب ﴾ ثلاثمائة وستون مغرباً في السنة قال " والمشرقان " مشرق الشتاء ، ومشرق الصيف ، " والمغربان " مغرب الشتاء ، ومغرب الصيف .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال ﴿ المشارق ﴾ ثلاثمائة وستون مشرقاً ﴿ والمغارب ﴾ مثل ذلك ، تطلع الشمس كل يوم من مشرق ، وتغرب في مغرب .

(114/652)

---

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ورب المشارق ﴾ قال : عدد أيام السنة ، كل يوم مطلع ، ومغرب .

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6)

أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ " بزينة الكواكب " منونة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي بكر بن عياش قال : قال عاصم رضي الله عنه من قرأها " بزينة الكواكب " مضافاً ، ولم ينون ، فلم يجعلها زينة للسماء ، وإنما جعل الزينة للكواكب .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وحفظا ﴾ قال : جعلناها حفظاً ﴿ من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ﴾ قال : منعوا بها . يعني بالنجوم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ ﴿ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ﴾ مخففة وقال : إنهم كانوا يتسمعون ، ولكن لا يسمعون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ويقذفون من كل جانب ﴾ قال : يرمون من كل مكان ﴿ دحوراً ﴾ قال : مطرودين ﴿ ولهم عذاب واصب ﴾ قال : دائم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ويقذفون من كل جانب دحوراً ﴾ قال : قذفاً بالشهب ﴿ ولهم عذاب واصب ﴾ قال : دائم .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ عذاب واصب ﴾ قال : دائم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ يقول : إلا من استرق السمع من أصوات الملائكة ﴿ فأتبعه شهاب ﴾ يعني الكواكب .

(115/652)

---

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا رمي الشهاب لم يخطىء من رمى به وتلا ﴿ فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ قال : إن الجني يجيء ، فيسترق ، فإذا سرق السمع ، فرمي بالشهاب ، قال للذي يليه : كان كذا وكذا . . .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن يزيد الرقاشي في قوله

﴿ شهاب ثاقب ﴾ قال : يثقب الشيطان حتى يخرج من الجانب الآخر ، فذكر ذلك لأبي مجلز رضي الله عنه فقال : ليس ذاك ، ولكن ثقوبه ضوءه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ شهاب ثاقب ﴾ قال : ضوءه إذا نقض ، فأصاب الشيطان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال ﴿ الثاقب ﴾ المتوقد .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة والحسن في قوله ﴿ ثاقب ﴾ قالا : مضيء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال ﴿ الثاقب ﴾ المحرق .

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (11)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ أهم أشدّ خلقاً أم من خلقنا ﴾ قال : السموات ، والأرض ، والجبال .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أم من خلقنا ﴾ قال : أم من عددنا عليك من خلق السموات والأرض قال الله تعالى ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ [ غافر : 57 ] .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه أنه قرأ " أهم أشدّ خلقاً أم من عددنا " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ أم من خلقنا ﴾ قال : من الأموات والملائكة .

(116/652)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ من طينٍ لازب ﴾ قال : ملتصق .

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما . أن نافع بن الأزرق سأله قال له : أخبرني عن قوله ﴿ من طين لازب ﴾ قال : الملتزق قال : وهل تعرف العرب ذلك؟ قال : نعم . أما سمعت النابغة وهو يقول :

فلا تحسبون الخير لا شر بعده . . . ولا تحسبون الشر ضربة لازب

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ من طين لازب ﴾ قال : اللزب الجيد .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ من طين لازب ﴾ قال : لازج .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ من طين لازب ﴾ قال :

اللازب ، والحمأ ، والطين واحد . كان أوله تراباً ، ثم صار حمأ منتناً ، ثم صار طيناً لازباً فخلق الله منه آدم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال ﴿ اللازب ﴾ الذي يلزق بعضه إلى بعض .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال : اللازب الذي يلزق باليد .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ طين لازب ﴾ قال : لازم منتن .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ " بل عجبت ويسخرون " بالرفع .

وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق الأعمش عن شقيق بن سلمة عن شريح رضي الله عنه أنه كان يقرأ هذه الآية " بل عجبت ويسخرون " بالنصب ، ويقول إن الله لا يعجب من الشيء ، إنما يعجب من لا يعلم قال الأعمش : فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي رضي الله عنه ، فقال : إن شريحاً كان معجباً برأيه ، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان أعلم منه ، كان يقرأها ﴿ بل عجبت ﴾ .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ ﴿ بل عجبت ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ قال : عجبت من كتاب الله ووحيه ﴿ ويسخرون ﴾ بما جئت به .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ بل عجبت ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم : "عجبت بالقرآن حين أنزل ، ويسخر منه ضلال بني آدم " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ بل عجبت ﴾ قال : عجب محمد صلى الله عليه وسلم من هذا القرآن حين أعطيه ، وسخر منه أهل الضلالة ﴿ ويسخرون ﴾ يعني أهل مكة ﴿ وإذا ذكروا لا يذكرون ﴾ أي لا ينتفعون ، ولا يبصرون ﴿ وإذا رأوا آية يستسخرون ﴾ أي يسخرون منه ويستهزؤون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ يستسخرون ﴾ قال : يستهزؤون . وفي قوله ﴿ فإنما هي زجرة ﴾ قال : صيحة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ قال : نفخة واحدة ، وهي النفخة الآخرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ هذا يوم الدين ﴾ قال : يدين الله فيه العباد بأعمالهم ﴿ هذا يوم الفصل ﴾ يعني يوم القيامة .

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ قال : تقول الملائكة للزبانية ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ .

(118/652)

---

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وابن منيع في مسنده وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث من طريق النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ قال : أمثالهم الذين هم مثلهم ، يجيء أصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر . أزواج في

الجنة ، وأزواج في النار .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ قال : أشباههم . وفي لفظ نظراءهم .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير وعكرمة رضي الله عنهما ، مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم رضي الله عنه في قوله ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ قال : أزواجهم في الأعمال وقرأ ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ [ الواقعة : 7 ] الآية ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ [ الواقعة : 8 ] زوج ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ [ الواقعة : 9 ] زوج ﴿ والسابقون ﴾ [ الواقعة : 10 ] زوج .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ قال : أمثالهم . القتلة مع القتلة ، والزناة مع الزناة ، وأكلة الربا مع أكلة الربا .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ قال : أشباههم من الكفار مع الكفار ﴿ وما كانوا يعبدون من دون الله ﴾ قال : الأصنام .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿

فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ قال : سوقوهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فاهدوهم ﴾ قال : دلوهم ﴿ إلى صراط الجحيم ﴾ قال : طريق النار .

(119/652)

---

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (24)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ قال : احبسوهم إنهم محاسبون .

وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي والدارمي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً يوم القيامة لازماً به لا يفارقه ، وإن دعا رجل رجلاً . ثم قرأ ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ " .

وأخرج ابن المنذر عن عطية رضي الله عنه في قوله ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ قال : يقفون يوم القيامة حتى يسألوا عن أعمالهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عثمان بن زائدة رضي الله عنه قال : كان يقال أن أول ما يسأل

عنه العبد يوم القيامة عن جلسائه .

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (25)

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ما لكم لا تناصرون ﴾ قال : لا تمانعون منا ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ مسخرون ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ أقبل بعضهم يلوم بعضاً قال : الضعفاء للذين استكبروا ﴿ إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ تقهروننا بالقدرة عليكم ﴿ قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ في علم الله ﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين ﴾ مشركين في علم الله ﴿ فحق علينا قول ربنا ﴾ فوجب علينا قضاء ربنا لأنا كنا أذلاء ، وكنتم أعزة ﴿ فإنهم يومئذٍ ﴾ قال : كلهم ﴿ في العذاب مشتركون ﴾ .

(120/652)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ما لكم لا تناصرون ﴾ قال : لا يدفع بعضكم بعضاً ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ في عذاب الله ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ قال : الانس على الجن قالت الانس للجن ﴿ إنكم تأتوننا عن اليمين ﴾ قال : من قبل الخير أفتنهونا عنه . قالت الجن

للانس ﴿ بل لم تكونوا مؤمنين ، فحق علينا قول ربنا ﴾ قال : هذا قول الجن ﴿ فأغويناكم إنا كنا غاوين ﴾ هذا قول الشياطين لضلال بني آدم ﴿ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ أي صدق من كان قبله من المرسلين ﴿ إنكم لذائقوا العذاب الأليم ، وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ، إلا عباد الله المخلصين ﴾ قال : هذه ثنية الله ﴿ أولئك لهم رزق معلوم ﴾ قال : الجنة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ قال : ذلك إذا بعثوا في النفخة الثانية .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ قال : كانوا يأتونهم عند كل خير ليصدوهم عنه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ تأتوننا عن اليمين ﴾ قال : عن الحق الكفار تقوله للشياطين .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ لم تكونوا مؤمنين ﴾ قال : لو كنتم مؤمنين منعتم منا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ فأغويناكم ﴾ قال : الشياطين

تقول ﴿ أغويناكم ﴾ في الدنيا ﴿ إنا كنا غاوين ﴾ ﴿ فإنهم يومئذ ﴾ ومن أغووا في الدنيا ﴿ في العذاب مشتركون ﴾ .

(121/652)

---

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ قال : كانوا إذا لم يشرك بالله يستنكفون ﴿ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ لا يعقل قال : فحكى الله صدقه فقال ﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ، ونفسه ، إلا بحقه ، وحسابه على الله . وأنزل الله في كتابه ، وذكر قوماً استكبروا فقال ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ وقال ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ [ الفتح : 26 ] وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله . استكبر عنها المشركون يوم الحديبية . يوم

كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قضية الهدنة" .

وأخرج البخاري في تاريخه عن وهب بن منبه رضي الله عنه أنه قيل له : أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟ قال : بلى . ولكن ليس من مفتاح إلا وله أسنان ، فمن جاء بأسنانه فتح له ، ومن لا ، لم يفتح له .

وأخرج سعيد بن منصور عن مجاهد رضي الله عنه أنه كان يقرأ ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ أولئك لهم رزق معلوم ﴾ قال : في الجنة .

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46)

أخرج ابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه قال : كل كأس ذكره الله في القرآن إنما عني به الخمر .

*(122/652)*

---

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ بكأس من معين ﴾ قال : كأس من خمر لم تعصر والمعين هي

الجارية ﴿ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾ قال : لا تذهب عقولهم ، ولا تصدع رؤوسهم ، ولا توجع بطونهم .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ بكأس من معين ﴾ هو الجاري .

وأخرج ابن جرير عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ بيضاء ﴾ قال : في قراءة عبد الله "صفراء " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يطاف عليهم بكأس من معين ﴾ قال : الخمر ﴿ لا فيها غول ﴾ قال : ليس فيها صداع ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ قال : لا تذهب عقولهم .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : في الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقيء ، والبول . فنزه الله خمر الجنة عنها ﴿ لا فيها غول ﴾ لا تغول عقولهم من السكر ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ لا يقيئون عنها كما يقيء صاحب خمر الدنيا عنها ، والقيء مستكره .

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ لا فيها غول ﴾ قال : ليس فيها نتن ، ولا كراهية كخمر الدنيا قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت امرؤ القيس وهو يقول :

رب كاس شربت لا غول فيها . . . وسقيت النديم منها مزاجا

قال أخبرني عن قوله ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ قال : لا يسكرون قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وهو يقول :

ثم لا ينزفون عنها ولكن . . . يذهب الهم عنهم والغليل

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ لا فيها غول ﴾ قال : هي الخمر ، ليس فيها وجع بطن .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ لا فيها غول ﴾ قال : وجع بطن ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ قال : لا تذهب عقولهم .

(123/652)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ بكأس من معين ﴾ قال : المعين الخمر ﴿ لا فيها غول ﴾ قال : وجع بطن ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ لا مكروه فيها ولا أذى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ يقول : عن غير أزواجهن ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ قال : اللؤلؤ المكنون .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ يقول : عن غير أزواجهن قال : قصرن طرفهن على أزواجهن ﴿ عين ﴾ قال : حسان العيون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ عين ﴾ قال : العين العظام الاعين .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ قال : بياض البيضة ينزع عنها فوقها ، وغشاؤها الذي يكون في العرف .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ قال : كأنهن بطن البيض .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ قال : بياض البيض حين ينزع قشره .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني رضي الله عنه في قوله ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ قال : هو السخاء الذي يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ قال : البيض في عشه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ قال : قصرن طرفهن على أزواجهن . فلا يردن غيرهم

﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ قال: البيض الذي لم تلوثه الأيدي.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ قال: محصون، لم تمرته الأيدي.

(124/652)

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم رضي الله عنه في قوله ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ قال: البيض الذي يكنه الريش، مثل بيض النعام الذي أكنه الريش من الريح، فهو أبيض إلى الصفرة، فكانت تترقرق فذلك المكنون.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ قال: أهل الجنة.

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إني كان لي قرين ﴾ قال: شيطان.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن عطاء الخراساني رضي الله عنه قال: كان رجلان شريكين، وكان لهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها، فعمد أحدهما فاشترى بألف دينار

أرضاً ، فقال صاحبه : اللهم إن فلاناً اشترى بألف دينار أرضاً ، وإني أشتري منك بألف دينار أرضاً في الجنة . فتصدق بألف دينار ، ثم ابتنى صاحبه داراً بألف دينار ، فقال هذا : اللهم إن فلاناً ابتنى داراً بألف دينار ، وإني أشتري منك داراً في الجنة بألف دينار .
فتصدق بألف دينار ، ثم تزوج صاحبه امرأة ، فانفق عليها ألف دينار فقال : اللهم إن فلاناً تزوج امرأة ، فانفق عليها ألف دينار ، وإن أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار .
فتصدق بألف دينار ، ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار ، وإني أشتري منك خدماً ومتاعاً بألف دينار . فتصدق بألف دينار .

(125/652)

---

ثم أصابته حاجة شديدة فقال : لو أتيت صاحبي هذا لعله ينالني معروف ، فجلس على طريقه ، فمر به في حشمه وأهله ، فقام إليه الآخر ، فنظر فعرفه فقال فلان . . . ؟ ! فقال : نعم . فقال : ما شأنك ؟ فقال : أصابتني بعدك حاجة ، فأتيتك لتصيبني بخير قال : فما فعل فقد اقتسمناه مالاً واحداً ، فأخذت شطره . فقال : اشتريت داراً بألف دينار ، ففعلت أنا كذلك ، وفعلت أنا كذلك . فقص عليه القصة فقال : إنك لمن المصدقين بهذا ، اذهب فوالله لا أعطيك شيئاً ، فرده فقضى لهما أن توفيا ، فنزلت فيهما ﴿ فأقبل بعضهم

على بعض يتساءلون ﴾ حتى بلغ ﴿ أئنا لمدينون ﴾ قال : لمحاسبون .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن فرات بن ثعلبة البهراني رضي الله عنه في قوله ﴿ إني كان لي قرين ﴾ قال : ذكر لي أن رجلين كان شريكين ، فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار ، فكان أحدهما ليس له حرفة ، والآخر له حرفة فقال : إنه ليس لك حرفة ، فما أراني إلا مفارقك ومقاسمك ، فقاسمه ثم فارقه . ثم إن أحد الرجلين اشترى داراً كانت لملك بألف دينار ، فدعا صاحبه ثم قال : كيف ترى هذه الدار ابتعتها بألف دينار ؟ فقال : ما أحسنها ! فلما خرج قال : اللهم إن صاحبي قد ابتاع هذه الدار ، وإني أسألك داراً من الجنة . فتصدق بألف دينار .

ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم تزوّج امرأة بألف دينار ، فدعاه وصنع له طعاماً ، فلما أتاه قال : إني تزوّجت هذه المرأة بألف دينار قال : ما أحسن هذا ؟ فلما خرج قال : اللهم إن صاحبي تزوّج امرأة بألف دينار وإني أسألك امرأة من الحور العين .

فتصدق بألف دينار ، ثم أنه مكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم اشترى بستانين بألفي دينار ، ثم دعاه فأراه وقال : إني قد ابتعت هذه البستانين بألفي دينار فقال : ما أحسن هذا ؟ فلما خرج قال : يا رب إن صاحبي قد ابتاع بستانين بألفي دينار ، وإني أسألك بستانين في الجنة . فتصدق بألفي دينار .

ثم إن الملك أتاهما فتوفاهما ، فانطلق بهذا المتصدق ، فأدخله داراً تعجبه ، فإذا امرأة يضيء ما تحتها من حسنها ، ثم أدخله البستانين وشيئاً الله به عليم فقال عند ذلك : ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا . وكذا . . قال : فإنه ذلك ، ولك هذا المنزل ، والبستانان ، والمرأة فقال ﴿ إني كان لي قرين يقول أئنك لمن المصدقين ﴾ قيل له : فإنه في الجحيم قال ﴿ فهل أنتم مطلعون ، فاطلع فرآه في سواء الجحيم ﴾ فقال عند ذلك ﴿ تالله إن كدت لتردين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في الآية قال : كانا شريكين في بني إسرائيل . أحدهما مؤمن . والآخر كافر ، فافترقا على ستة آلاف دينار ، كل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار . ثم افترقا فمكثا ما شاء الله أن يمكثا ، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن ما صنعت في مالك ، أضربت به شيئاً اتجرت به في شيء ؟ قال له المؤمن : لا . فما صنعت أنت ؟ قال : اشتريت به نخلاً ، وأرضاً ، وثماراً ، وأنهاراً ، بألف دينار فقال له المؤمن : أو فعلت ؟ قال : نعم . فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل ، فصلى ما شاء الله أن يصلي ، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه ، ثم قال : اللهم إن فلاناً – يعني شريكه الكافر – اشترى أرضاً ، ونخلاً ، وثماراً ، وأنهاراً ، بألف دينار ، ثم يموت ويتركها غداً . اللهم وإني

اشتري منك بهذه الألف دينار أرضاً ، ونخلاً ، وثماراً ، وأنهاراً ، في الجنة . ثم أصبح فقسمها للمساكين .

(127/652)

---

ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا ، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن : ما صنعت ، أضربت به في شيء ، اتجرت به ؟ قال : لا . قال : فما صنعت أنت ؟ قال : كانت ضيعتي قد اشتد على مؤنتها ، فاشتريت رقيقاً بألف دينار ، يقومون لي ، ويعملون لي فيها . فقال المؤمن : أو فعلت ؟ قال : نعم . فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل ، صلى ما شاء الله أن يصلي ، فلما انصرف أخذ ألف دينار ، فوضعها بين يديه ثم قال : اللهم إن فلاناً اشترى رقيقاً من رقيق الدنيا بألف دينار ، يموت غداً فيتركهم ، أو يموتون فيتركونه ، اللهم وإني أشتري منك بهذه الألف دينار رقيقاً في الجنة . ثم أصبح فقسمها بين المساكين .

ثو مكثا ما شاء الله أن يمكثا ، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن : ما صنعت في مالك ، أضربت به في شيء ، اتجرت به في شيء ؟ قال : لا .

فما صنعت أنت ؟ قال : كان أمري كله قد تم إلا شيئًا واحداً ، فلانة مات عنها زوجها فأصدقتها ألف دينار ، فجاءتني بها وبمثلها معها فقال له المؤمن : أو فعلت ؟ قال له نعم .

فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلي ، فلما انصرف أخذ الألف دينار الباقية ، فوضعها بين يديه ، وقال : اللهم إن فلاناً تزوّج زوجة من أزواج الدنيا بألف دينار ، ويموت عنها فيتركها أو تموت فتتركه ، اللهم وإني أخطب إليك بهذه الألف دينار حوراء عيناء في الجنة . ثم أصبح فقسمها بين المساكين ، فبقي المؤمن ليس عنده شيء . فلبس قميصاً من قطن ، وكساء من صوف ، ثم جعل يعمل ويحفر بقوته فقال رجل : يا عبد الله أتؤجر نفسك مشاهرة ؛ شهراً بشهر ، تقوم على دواب لي ؟ قال : نعم . فكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه ، فإذا رأى منها دابة ضامرة أخذ برأسه فوجأ عنقه ، ثم يقول له : سرقت شعير هذه البارحة . فلما رأى المؤمن الشدة قال : لآتين شريكي الكافر ، فلأعملن في أرضه ، يطعمني هذه الكسرة يوماً بيوم ، ويكسيني هذين الثوبين إذا بليا .



---

فانطلق يريده ، فانتهى إلى بابه ، وهم مُمْسٍ ، فإذا قصر في السماء ، وإذا حوله البوابون فقال لهم : استأذنوا لي صاحب هذا القصر ، فإنكم إن فعلتم ذلك سره فقالوا له : انطلق فإن كنت صادقاً فنم في ناحية فإذا أصبحت فتعرض له . فانطلق المؤمن فألقى نصف

كسائه تحته ونصفه فوقه ثم نام ، فلما أصبح أتى شريكه ، فتعرض له ، فخرج شريكه وهو راكب ، فلما رآه عرفه ، فوقف فسلم عليه وصافحه ، ثم قال له : ألم تأخذ من المال مثل ما أخذت فأين مالك ؟ قال : لا تسألني عنه قال : فما جاء بك ؟ قال : جئت أعمل في أرضك هذه ، تطعمني هذه الكسرة يوماً بيوم ، وتكسوني هذين الثوبين إذا بليا قال : لا ترى مني خيراً حتى تخبرني ما صنعت في مالك قال : أقرضته من الملأ الوفي قال : من ؟ قال : الله ربي ، وهو مصافحه ، فانتزع يده ثم قال ﴿ أئنك لمن المصدقين ، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون ﴾ وتركه ، فلما رآه المؤمن لا يلوي عليه رجع ، وتركه يعيش المؤمن في شدة من الزمان ، ويعيش الكافر في رخاء من الزمان .

(129/652)

---

فإذا كان يوم القيامة ، وأدخل الله المؤمن الجنة يمر فإذا هو بأرض ، ونخل ، وأنهار ، وثمار ، فيقول : لمن هذا ؟ فيقال : هذا لك فيقول : أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا ؟ ثم يمر فإذا هو برقيق لا يحصى عددهم فيقول : لمن هذا ؟ فيقال : هؤلاء لك فيقول : أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا ؟ ثم يمر فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة فيها حوراء عيناء فيقول : لمن هذه ؟ فيقال : هذه لك فيقول : أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل

هذا ؟ ثم يذكر شريكه الكافر فيقول ﴿ إني كان لي قرين ، يقول أئنك لمن المصدقين ﴾ فالجنة عالية ، والنار هاوية ، فيريه الله شريكه في وسط الجحيم ، من بين أهل النار ، فإذا رآه عرفه المؤمن فيقول ﴿ تالله إن كدت لتردين ، ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ، أفما نحن بميتين ، إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ، إن هذا لهو الفوز العظيم ، لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ بمثل ما قدمت عليه قال : فيتذكر المؤمن ما مر عليه في الدنيا من الشدة فلا يذكر أشد عليه من الموت .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ أئنا لمدينون ﴾ قال : لمحاسبون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ، مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ هل أنتم مطلعون ﴾ يقول : مطلعون إليه حتى أنظر إليه في النار .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ سواء الجحيم ﴾ قال : وسط الجحيم .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ في سواء الجحيم ﴾ قال : وسط الجحيم قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم .

أما سمعت قول الشاعر :

رماهم بسهم فاستوى في سوائها . . . وكان قبولاً للهوى والطوارق

(130/652)

---

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن المنذر عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ فاطلع فرآه في سواء الجحيم ﴾ قال : اطلع ، ثم التفت إلى أصحابه ، فقال : لقد رأيت جماجم القوم تغلي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال : ذكر لنا أن كعب الأحبار رضي الله عنه قال : في الجنة كوى ، فإذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه في النار ، اطلع فازداد شكراً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ هل أنتم مطلعون ﴾ قال : سأل ربه أن يطلعه ، ﴿ فاطلع فرآه في سواء الجحيم ﴾ يقول : في وسطها ، فرأى جماجمهم تغلي فقال : فلان . . ! فلولا أن الله عرفه إياه لما عرفه . لقد تغير خبره وسبره . فعند ذلك قال ﴿ تالله إن كدت لتردين ﴾ يقول : لتهلكني لو أطعتك ﴿ ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ﴾ قال : في النار ﴿ أفما نحن

بميتين ﴾ إلى قوله ﴿ الفوز العظيم ﴾ قال : هذا قول أهل الجنة يقول الله ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال : علموا أن كل نعيم بعد الموت يقطعه فقالوا ﴿ أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾ قيل : لا . قالوا ﴿ إن هذا لهو الفوز العظيم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : يقول الله تعالى لأهل الجنة : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ [ المرسلات : 43 ] قال : قول الله ﴿ هنيئاً ﴾ أي لا تموتون فيها . فعندها قالوا ﴿ أفما نحن بميتين ، إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ، إن هذا لهو الفوز العظيم ، لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال : كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في يدي ، فرأى جنازة ، فأسرع المشي حتى أتى القبر ، ثم جثا على ركبتيه ، فجعل يبكي حتى بل الثرى ، ثم قال ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ .

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال : لما ذكر الله شجرة الزقوم افتتن بها الظلمة فقال أبو جهل : يزعم صاحبكم هذا أن في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر ، وانا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر ، والزبد ، فتزقموا ، فأنزل الله حين عجبوا أن يكون في النار شجر ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ ، أي غذيت بالنار ، ومنها خلقت ، ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ قال : يشبهها بذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إنّا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ قال : قول أبي جهل : إنما الزقوم التمر ، والزبد أتزقمه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه رضي الله عنه في قوله ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ قال : شعور الشياطين ، قائمة إلى السماء .

وأخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد الزهد وابن المنذر عن أبي عمران الجوني رضي الله عنه قال : بلغنا أن ابن آدم لا ينهش من شجرة الزقوم نهشة إلا نهشت منه مثلها .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " مر أبو جهل برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس ، فلما نفد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ﴾ [ القيامة : 34-35 ] فسمع أبو جهل فقال : من توعد يا محمد ؟ قال : إياك فقال : بم توعدني ؟ فقال : أوعدك بالعزيز الكريم فقال أبو جهل : أليس أنا العزيز الكريم ؟ فأنزل الله ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ [ الدخان : 43 ] إلى قوله ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ فلما بلغ أبا جهل ما نزل فيه ، جمع أصحابه ، فأخرج إليهم زبداً وتمراً فقال : تزقموا من هذا ، فوالله ما يتوعدكم محمداً إلا بهذا ، فأنزل الله ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ إلى قوله ﴿ ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ﴾ فقال : في الشوب إنها تختلط باللبن ، فتشوبه بها ﴿ فإن لهم ﴾ على ما يأكلون ﴿ لشوباً من حميم ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لو أن قطرة من زقوم جهنم أنزلت إلى الأرض لأفسدت على الناس معايشهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ثم إن لهم عليها لشوباً ﴾ قال : لمزجا .

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ ثم إن لهم عليهم لشوباً من حميم ﴾ قال : يختلط الحميم والغساق قال له : وهل

تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول الشاعر :

تلك المكارم لا قعبان من لبن . . . شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لشوباً من حميم ﴾ قال : يخلط طعامهم ، ويشاب بالحميم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقبل هؤلاء وهؤلاء ، أهل الجنة وأهل النار ، وقرأ " ثم إن مقيلهم لإِلى الجحيم " .

(133/652)

---

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه قال : في قراءة ابن مسعود رضي الله عنه " ثم إن مقيلهم لإِلى الجحيم " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ﴾ قال : مزجاً ﴿ ثم إن مرجعهم لإِلى الجحيم ﴾ قال : فهم في عناء وعذاب بين نار وحميم . وتلا هذه الآية ﴿ يطوفون بينها وبين حميمٍ آن ﴾ [ الرحمن : 44 ] .

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (69)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ﴾ قال : وجدوا آباءهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ﴾ قال : وجدوا آباءهم ﴿ ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون ﴾ أي مسرعين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ﴾ قال : جاهلين ﴿ فهم على آثارهم يهرعون ﴾ قال : كهيئة الهرولة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ قال : كيف عذب الله قوم نوح ، وقوم لوط ، وقوم صالح ، والأمم التي عذب الله .

وأخرج ابن جرير عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ قال : الذين استخلصهم الله سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) ﴾

ذَكَرَ صفة هوان الأعداء ، وما هم به من صفة المذلة والعذاب في النار ؛ من أَكْلِ الضريع ، ومن شراب الزقوم التي هي في قُبْح صورة الشياطين ، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم . . . إلى آخر القصة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 234 ﴾

*(135/652)*

---

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (77) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (82) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان مقصود السورة التنزيه الذي هو الإبعاد عن النقائص ، ولذلك كان أنسب الأشياء

الإقسام أولها بالملائكة هم أنزه الخلق ، وكان أعلى الخلق من جرد نفسه عن الحظوظ بما يؤتيه الله من المجاهدات والمنازلات والمعالجات حتى يلحق بهم فيجوز مع فضلهم معالي الجهاد ، فكان أحق الأنبياء بالذكر من كان أكثر تجريداً لنفسه من الشواغل سيراً إلى مولاه وتعريجاً عن كل ما سواه ، وكان الأب الثاني من أحقهم بذلك لأنه تجرد في الجهاد بالدعاء إلى الله ألف عام ثم تجرد عن كل شيء على ظهر الماء بين الأرض والسماء ، فقال تعالى مؤكداً لما تقدم من أنه دعا إلى التأكيد من أن مكثه في قومه المدة الطويلة مبعد لأن يكونوا وافقوه ومالوا معه وتابعوه ، ولأن فعل العرب في التكذيب مع ترادف المعجزات وتواتر العظات عمل من هو مكذب بوقوع النصرة للمرسلين ، والعذاب للمكذبين ، عطفاً على تقديره : فقاسى الرسل من الشدائد ما لا تسعه الأوراق ، وجاهدوهم بأنفسهم والتضرع إلى الله تعالى في أمرهم : ﴿ ولقد نادانا ﴾ لما لنا من العظمة ﴿ نوح ﴾ بقوله ﴿ رب إني مغلوب فانتصر ﴾ [ القمر : 10 ] ونحوه مما أخبر الله عنه به بعد أمور عظيمة لقيها منهم من الكروب ، والشدائد والخطوب ، لنكشف عنه ما أعياه من أمرهم .

ولما أغنت هذه الجملة عن شرح القصة وتطويلها ، وكان قد تسبب عن دعائه إجابته ، قال بالتأكيد بالاسمية والإشارة إلى القسم والأداة الجامعة لكل مدح وصيغة العظمة إلى أن هول عذابهم وعظم مصابهم بلغ إلى أنه مع شهرته لا يكاد يصدق ، فهو يحتاج إلى اجتهاد كبير وشدة اعتناء ، فكانت الإجابة إجابة من يفعل ذلك وإن كانت الإفعال بالنسبة إليه

سبحانه على حد سواء ، لا تحتاج إلى غير مطلق الإرادة : ﴿ فلنعم المجيبون ﴾ أي كنا بما لنا من العظمة له ولغيره ممن كان نعم المجيب لنا ، هذه صفتنا لا تغير لها .

(136/652)

---

ولما كان معنى هذا : فأجبناه إجابة هي النهاية في استحقاق على الممادح من إيصاله إلى مراده من حمله وحمل من آمن به والانتقام ممن كذبه كما هي عادتنا دائماً ، عطف عليه قوله : ﴿ ونجيناه ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ وأهله ﴾ أي الذين وافقوه في الدين ﴿ من الكرب العظيم ﴾ وهو الأذى من الغرق ﴿ وجعلنا ذريته هم ﴾ أي خاصة ﴿ الباقين ﴾ لأن جميع أهل الأرض غرقوا فلم يبق منهم أحد أصلاً ، وأهل السفينة لم يعقب منهم أحد غير أولاده ، فأثبناه على نزاهته إن كان هو الأب الثاني ، فالعرب والعجم أولاد سام ، والسودان أولاد حام ، والترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج أولاد يافث ، فكل من تبع سنته في الخير كان له مثل أجره .

ولما ذكر لأنه بارك في نسله ، أعلم أنه أدام ذكره بالخير في أهله فقال : ﴿ وتركنا عليه ﴾ أي ثناء حسناً ، لكنه حذف المفعول وجعله لازماً ، فصار المعنى : أوقعنا عليه الترك بشيء هو من عظمته وحسن ذكره بحيث يعز وصفه ﴿ في الآخرين ﴾ أي كل من تأخر عن زمانه

إلى يوم الدين .

ولما كان قد كتب الله في القدم سلامته من كل سوء على كثرة الأعداء وطول الإقامة فيهم وشدة الخلاف قال تعالى مستأنفاً مادحاً : ﴿ سلام ﴾ أي عظيم ﴿ على نوح ﴾ من كل حي من الجن والأنس والملائكة لسلام الله عليه .

ولما كان لسان جميع أهل الأرض في زمانه عليه السلام واحداً ، فكانوا كلهم قومه ، ولم يكن في زمانه نبي ، فكانت نبوته قطب دائرة ذلك الوقت ، فكان رسالته عامة لأهله ، وكان غير الناس من الخلق لهم تبعاً ، خصه في السلام بأن قال : ﴿ في العالمين ﴾ أي مذكور فيهم كلهم لفظاً ومعنى يسلم عليه دائماً إلى أن تقوم الساعة ، وخصوصية نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه أرسل إلى جميع الخلق مع اختلاف الألسنة ومع استمرار الرسالة أبد الآباد ، وكون شريعته ناسخة غير منسوخة ، وكون جميع الخلق في القيامة تحت لوائه ، فهناك يظهر تمام ما أوتيه من عموم البعثة إلى ما ظهر منه في الدنيا .

(137/652)

---

ولما كان التقدير : فعلنا به ذلك لإحسانه ، وكان الضالون ينكرون أن تنجو الدعاء إلى الله وأتباعهم منهم ، أخبر في سياق التأكيد أنه يفعل بكل محسن ما فعل به فقال ﴿ إنا ﴾ أي

على عظمتنا ﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الجزاء بالذكر الحسن والنجاة من كل سوء ﴿نجزي المحسنين﴾ أي الذين يتجردون من الظلمات النفسانية إلى الأنوار الملكية بحيث لا يغفلون عن المعبود، ولا ينفكون لحظة عن الشهود.

ولما أفهمت هذه الجملة - ولا بد - إحسانه إلى المحسن، علل ما أفهمته بقوله: مؤكداً إظهاراً للإقبال عليه بأن ذكره مما يرغب فيه، وتكذيباً لمن كذبه: ﴿إنه من عبادنا﴾ أي الذين هم أهل لأن نضيفهم إلى مقام عظمتنا ﴿المؤمنين﴾ أي الراسخين في هذا الوصف، المتمكنين فيه، فعلم أن الإيمان هو المراد الأقصى من الإنسان لأنه علل الإنجاء بالإحسان والإحسان بالبيان، ولما أفهم تخصيص ذريته بالبقاء إهلاك غيرهم، وقدم ما هو أهل له من مدحه اهتماماً به وترغيباً في مثله، أخبر عن أعدائه بأنه أوقع بهم لأنهم لم يتحلوا بما كان سبب سعادته من الإيمان بقوله: مشيراً إلى العظمة التي أوجدها سبحانه في إغراقهم بأداة التراخي: ﴿ثم أغرقنا﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا يقوم لها شيء ﴿الآخرين﴾ أي الذي غايروه في الأقوال والأفعال فاستحقوا أضداد أفعالنا معه وهو أهل الأرض كلهم غير أهل السفينة وكلهم قومه كما هو ظاهر الآيات إذا تؤمل تعبيرها عن الدعوة والإغراق ودعائه عليه السلام عليهم، وظاهر ما رواه الشيخان وغيرهما عن أنس -رضى الله عنه- في حديث الشفاعة أن الناس يقولون:

" ائتوا نوحاً أول نبي بعثه الله إلى أهل الأرض " ، وإنما كانوا قوماً لا أكثر ، لأنهم كانوا على لسان واحد قبل بلبلة الألسن باتفاق أهل التأريخ ، وذلك كما أن العرب يطلق عليهم كلهم على انتشارهم واتساع بلادهم أنهم قوم ، لاجتماعهم في اللسان مع أنهم قبائل لا يحصيهم العد ، ولا يجمعهم نسب واحد إلا في إسماعيل عليه السلام ، وقيل فيما فوقه ، فإن النسابين أجمعوا على أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام ، قالوا : هو من ولد عدنان ، واختلفوا في قحطان أبي اليمن وكذا ثقيف ، فقيل : هما من ولد إسماعيل عليه السلام ، وقيل لا ، ثم من قال : إن ثقيفاً من ولد إسماعيل عليه السلام ، قالوا : هو من ولد عدنان ، وقال بعضهم : لا ، ثم إن من ولد عدنان ربيعة ومضر ، ومن دون مضر كنانة وهذيل والقارة وخزاعة وأسد وتميم ومزينة والرباب وضبة وقيس ، ودون ذلك باهله وأشجع وفزارة وكنانة وقريش وخلائق ، ومن دون ربيعة بكر بن وائل وغيرهم ، ومن دون ذلك شيبان وعبد القيس والنمر وخلائق ، ودون قحطان أبي اليمن لخم وجذام وعائلة وغسان وكندة وهمدان والأزد ، ومنهم الأنصار وخلائق غير ذلك ، فهؤلاء كلهم – على هذا التشعب والانتشار والاختلاف في الأديان ، بل وفي بعض اللغة – يسمون أمة واحدة وقوماً لجمع اللسان لهم في أصل العربية ، وبنو إسحاق ليسوا منهم بلا خلاف ، مع أنهم أولاد عمهم لمخالفتهم لهم في اللسان على أنهم أقرب من قحطان وثقيف في النسب عند من قال إنهم

ليسوا من ولد إسماعيل عليه السلام ، وكذا بنو إسحاق عليه السلام افترقوا بافتراق اللسان فبنوا إسماعيل قوم وبنو العيص – وهم الروم – قوم وكذا سائر الأمم إنما يفرق بينهم اللسان وعموم دعوته لبني آدم عليه السلام على هذا الوجه لا يقدح في خصوصية نبينا . صلى الله عليه وسلم . بعموم الدعوة والأرسال إلى غير قومه ، أما العموم فإنه أرسل إلى كل من ينوس من الإنس والملائكة والجن ، وأما دعاء الأقوام فالمراد



---

أنه أرسل إلى الموافق في اللسان والمخالف فيه ، وأما غيره فما أرسل إلى من خالفه في اللسان ولا إلى غير جنسه وإن كان يندب له أنه يأمر بالمخالفين في اللسان وينها هم من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير وجوب ، ولو سلمنا في نوح عليه السلام أنه لم يبعث إلى جميع أهل الأرض انتقض بآدم عليه السلام فإنه نبي مرسل ، كما روى ذلك الإمام أحمد وأبو داود الطيالسي ومحمد بن يحيى بن أبي عمر وأبو بكر بن أبي شيبة والحارث بن أبي أسامة وأبو يعلى الموصلي وإسحاق بن راهويه في مسانيدهم والطبراني في معجمه الأوسط عن أبي أمامة الباهلي وأبي ذر . رضى الله عنهما . وفي بعض طرق أبي ذر التصريح بالإرسال ولا يشك أحد أنه كان رسولاً إلى جميع من أدركه من أولاده ، وهم جميع

أهل الأرض ، وكذلك نوح عليه السلام ، لا يشك أحد أنه كان بعد الغرق رسولاً إلى جميع أهل السفينة كما كان قبل ذلك : وهم جميع أهل الأرض ، فما قدمت من أن الخصوصية بالإرسال إلى ذوي الألسن المختلفة من جميع بني آدم ، وإلى المخالف في الجنس من كل من ينوس هو المزيل للإشكال – والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 317 321. ﴾

(140/652)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال من قبل : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأولين ﴾ [ الصافات : 71 ] وقال : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ [ الصافات : 73 ] أتبعه بشرح وقائع الأنبياء عليهم السلام فالقصة الأولى : حكاية حال نوح عليه السلام وقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ المجيبون ﴾ فيه مباحث :

الأول : أن اللام في قوله : ﴿ فَلَنِعْمَ المجيبون ﴾ جواب قسم محذوف والمخصوص بالمدح

محذوف ، أي فلنعم المجيبون نحن .

البحث الثاني : أنه تعالى ذكر أن نوحاً نادى ولم يذكر أن ذلك النداء في أي الوقائع كان ؟ لا جرم حصل فيه قولان الأول : وهو المشهور عند الجمهور أنه نادى الرب تعالى في أن ينجيه من محنة الغرق وكرب تلك الواقعة والقول الثاني : أن نوحاً عليه السلام لما اشتغل بدعوة قومه إلى الدين الحق بالغوا في إيذائه وقصدوا قتله ، ثم إنه عليه السلام نادى ربه واستنصره على كفار قومه ، فأجابه الله تعالى ومنعهم من قتله وإيذائه ، واحتج هذا القائل على ضعف القول الأول بأنه عليه السلام إنما دعا عليهم لأجل أن ينجيه الله تعالى وأهله ، وأجاب الله دعاءه فيه فكان حصول تلك النجاة كالمعلوم المتيقن في دعائه ، وذلك يمنع من أن يقال المطلوب من هذا النداء حصول هذه النجاة .

ثم إنه تعالى لما حكى عن نوح أنه ناداه قال بعده : ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ وهذه اللفظة تدل على أن تلك الإجابة كانت من النعم العظيمة ، وبيانه من وجوه الأول : أنه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ والقادر العظيم لا يليق به إلا الإحسان العظيم والثاني : أنه أعاد صيغة الجمع في قوله : ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ وذلك أيضاً يدل على تعظيم تلك النعمة .

لا سيما وقد وصف تلك الإجابة بأنها نعمت الإجابة والثالث : أن الفاء في قوله :

﴿ فَلَنِعْمَ المجيبون ﴾ يدل على أن حصول هذه الإجابة مرتب على ذلك النداء ، والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضي كونه معللاً به ، وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص سبب لحصول الإجابة ، ثم إنه تعالى لما بين أنه سبحانه نعم المجيب على سبيل الإجمال ، بين أن الإنعام حصل في تلك الإجابة من وجوه الأول : قوله تعالى : ﴿ ونجيناه وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ وهو على القول الأول الكرب الحاصل بسبب الخوف من الغرق ، وعلى الثاني الكرب الحاصل من أذى قومه والثاني : قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ يفيد الحصر وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته فقد فنوا ، قال ابن عباس : ذريته بنوه الثلاثة : سام وحام ويافث ، فسام أبو العرب وفارس والروم ، وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك .

النعمة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الأخرين * سلام على نُوحٍ فِى العالمين ﴾ يعني يذكرون هذه الكلمة ، فإن قيل فما معنى قوله : ﴿ فِى العالمين ﴾ قلنا معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً أي لا يخلو أحد منهم منها ، كأنه قيل أثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين فيسلمون عليه بكليتهم ، ثم إنه تعالى لما شرح تفاصيل إنعامه عليه قال : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ والمعنى أنا إنما خصصنا نوحاً عليه السلام

بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوأة من ذريته ومن تبقية ذكره الحسن في ألسنة جميع العالمين لأجل أنه كان محسناً ، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً لله مؤمناً ، والمقصود منه بيان أن أعظم الدرجات وأشرف المقامات الإيمان بالله والانقياد لطاعته . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 126.127 ﴾

(142/652)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾

من النداء الذي هو الاستغاثة ؛ ودعا قيل بمسألة هلاك قومه .

فقال : ﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [ نوح : 26 ] .

﴿ فَلَنِعْمَ المجيبون ﴾ قال الكسائي : أي "فَلَنِعْمَ الْمُجِيبونَ" له كنا .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ يعني أهل دينه ، وهم من آمن معه ، وكانوا ثمانين على ما تقدّم .

﴿ مِنَ الكرب العظيم ﴾ وهو الغرق .

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ قال ابن عباس : لما خرج نوح من السفينة مات مَن معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه ؛ فذلك قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ .

وقال سعيد بن المسيّب: كان ولد نوح ثلاثة والناس كلّهم من ولد نوح: فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى.

وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب: السند والهند والنوب والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم.

ويافث أبو الصقالبة والترك (واللان) والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك.

وقال قوم: كان لغير ولد نوح أيضا نسل؛ بدليل قوله: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ [الإسراء: 3].

وقوله: ﴿ قِيلَ يا نوح اهبط بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وعلى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: 48] فعلى هذا معنى الآية: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ دون ذرية من كفر فإنا أغْرَقنا أولئك.

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين ﴾ أي تركنا عليه ثناءً حسناً في كل أمة، فإنه مُحبَّب إلى الجميع؛ حتى إن في المجوس من يقول إنه أفريدون.

روي معناه عن مجاهد وغيره.

وزعم الكسائي أن فيه تقديرين: أحدهما "وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ" يقال: "سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ" أي تركنا عليه هذا الثناء الحسن.

وهذا مذهب أبي العباس المبرّد.

أي تركنا عليه هذه الكلمة باقية؛ يعني يسلمون عليه تسليماً ويدعون له؛ وهو من الكلام المحكي؛ كقوله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا ﴾ [النور: 1].

والقول الآخر أن يكون المعنى وأبقينا عليه؛ وتم الكلام ثم ابتدأ فقال: "سَلامٌ عَلَى نُوحٍ" أي سلامة له من أن يذكر بسوء "فِي الآخِرِينَ".

قال الكسائي: وفي قراءة ابن مسعود "سلاماً" منصوب ب"تركنا" أي تركنا عليه ثناء حسناً سلاماً، وقيل: "فِي الآخِرِينَ" أي في أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وقيل: في الأنبياء إذ لم يبعث بعده نبيّ إلا أمر بالاقتداء به؛ قال الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً ﴾ [الشورى: 13].

وقال سعيد بن المسيّب: وبلغني أنه من قال حين يمسي ﴿ سَلامٌ على نُوحٍ فِي العالمين ﴾ لم تلدغه عقرب.

ذكره أبو عمر في التمهيد.

وفي الموطأ عن خولة بنت حكيم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من نزل منزلاً فليقل أعوذ بكلمات اللّه التامّاتِ من شر ما خلق فإنه لن يضره شيء حتى يرتحل"

وفيه عن أبي هريرة " أن رجلاً من أسلم قال : ما نمت هذه الليلة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من أي شيء " فقال : لدغتني عقرب ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَما إنك لو قلت حين أمسيت أعوذ بكلمات اللّه التامات من شر ما خلق لم تضرّك"
"

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ أي نبقي عليهم الثناء الحسن .

والكاف في موضع نصب ؛ أي جزاء كذلك .

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ هذا بيان إحسانه .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين ﴾ أي من كفر .

وجمعه أُخر .

والأصل فيه أن يكون معه "مِن" إلا أنها حذفت ؛ لأن المعنى معروف ، ولا يكون آخراً إلا وقبله شيء من جنسه .

"ثمّ" ليس للتراخي ها هنا بل هو لتعديد النعم ؛ كقوله : ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين آمَنُوا ﴾ [ البلد : 16-17 ] أي ثم أخبركم أني قد أغرقت الآخرين ، وهم الذين تأخروا عن الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(145/652)

---

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) ﴾

لما انقضت قصة المؤمن وقرينه ، وكان ذلك على سبيل الاستطراد من شيء إلى شيء ، عاد إلى ذكر الجنة والرزق الذي أعده الله فيها لأهلها فقال : أذلك الرزق ﴿ خير نزلاً ﴾ ؟ والنزل ما يعد للأضياف ، وعادل بين ذلك الرزق وبين ﴿ شجرة الزقوم ﴾ .

فلاستواء الرزق المعلوم يحصل به اللذة والسرور ، وشجرة الزقوم يحصل بها الألم والغم ، فلا اشتراك بينهما في الخيرية .

والمراد تقرير قريش والكفار وتوقيفهم على شيئين ، أحدهما فاسد .

ولو كان الكلام استفهاماً حقيقة لم يجز ، إذ لا يتوهم أحد أن في شجرة الزقوم خيراً حتى يعادل بينهما وبين رزق الجنة .

ولكن المؤمن ، لما اختار ما أدّى إلى رزق الجنة ، والكافر اختار ما أدّى إلى شجرة الزقوم ، قيل ذلك توبيخاً للكافرين وتوقيفاً على سوء اختيارهم .

﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ ، قال قتادة ، ومجاهد ، والسدي : أبو جهل ونظراؤه ، لما نزلت قال للكفار ، يخبر محمد عن النار أنها تنبت الأشجار ، وهي تأكلها وتذهبها ، ففتنوا بذلك أنفسهم وجملة أتباعهم .

وقال أبو جهل : إنما الزقوم : التمر بالزبد ، ونحن نتزقمه .

وقيل : منبتها في قعر جهنم ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها .

واستعير الطلع ، وهي النخلة ، لما تحمل هذه الشجرة ، وشبه طلعها بثمر شجرة معروفة يقال لثمرها رؤوس الشياطين ، وهي بناحية اليمن يقال لها الاستن ، وذكرها النابغة في قوله :

تحيد من استن سود أسافله . . .

مشي الإماء الغوادي تحمل الحزما

وهو شجر خشن مر منكر الصورة ، سمت ثمره العرب بذلك تشبها برؤوس الشياطين ، ثم صار أصلاً يشبه به .

وقيل : هو شجرة يقال لها الصوم ، ذكرها ساعدة بن حوية الهذلي في قوله :

موكل بشدوف الصوم يرقبها . . .

من المناظر مخطوف الحشا زرم

وقيل : الشياطين صنف من الحيات ذوات أعراف ، ومنه :

عجيز تحلف حين أحلف . . .

(146/652)

---

كمثل شيطان الحماط أعرف

وقيل : شبه بما اشتهر في النفوس من كراهة رؤوس الشياطين وقبحها ، وإن كانت غير مرئية ، ولذلك يصورون الشيطان في أقبح الصور .

وإذا رأوا أشعث منتفش الشعر قالوا : كأنه وجه شيطان ، وكأن رأسه رأس شيطان ، وهذه بخلاف الملك ، يشبهون به الصورة الحسنة .

وكما شبه امرؤ القيس المسنونة الزرق بأنياب الغول في قوله :

ومسنونة زرق كأنياب أغوال . . .

وإن كان لم يشاهد تلك الأنياب ، وهذا كله تشبيه تخييلي .

والضمير في منها يعود على الشجرة ، أي من طلعها .

وقرأ الجمهور : ﴿ لشوباً ﴾ بفتح الشين ؛ وشيبان النحوي : بضمها .

وقال الزجاج : الفتح للمصدر والضم للاسم ، يعني أنه فعل بمعنى مفعول ، أي مشوب ، كالنقص بمعنى المنقوص .

وفسر بالخلط والحميم الماء السخن جداً ، وقيل : يراد به هنا شرابهم الذي هو طينة الخبال صديدهم وما ساح منهم .

ولما ذكر أنهم يملأُون بطونهم من شجرة الزقوم للجوع الذي يلحقهم ، أو لإكراههم على الأكل وملء البطون زيادة في عذابهم ، ذكر ما يسقون لغلبة العطش ، وهو ما يمزج لهم من الحميم .

ولما كان الأكل يعتقبه ملء البطن ، كان العطف بالفاء في قوله : ﴿ فمالئون ﴾ .

ولما كان الشرب يكثر تراخيه عن الأكل ، أتي بلفظ ثم المقتضية المهلة ، أو لما امتلأت بطونهم من ثمرة الشجرة ، وهو حار ، أحرق بطونهم وعطشهم ، فأخر سقيهم زماناً ليزدادوا بالعطش عذاباً إلى عذابهم ، ثم سقوا ما هو أحر وآلم وأكره .

﴿ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ : لما ذهب بهم من منازلهم التي أسكنوها في النار إلى شجرة الزقوم للأكل والتملؤ منها والسقي من الحميم ونواحي رجوعهم إلى منازلهم ، دخلت ثم لدلالة على ذلك ، والرجوع دليل على الانتقال في وقت الأكل والشرب إلى مكان غير مكانهما ، ثم ذكر تعالى حالهم في تقليد آبائهم .

والضمير لقريش وأن ذلك التقليد كان سبباً لاستحقاقهم تلك الشدائد ، أي وجدوا آباءهم ضالين ، فاتبعوهم على ضلالتهم ، مسرعين في ذلك لا يثبطهم شيء .

ثم أخبر بضلال أكثر من تقدم من الأمم ، هذا وما خلت أزمانهم من إرسال الرسل ، وإنذارهم عواقب التكذيب .

وفي قوله : ﴿ فانظر ﴾ ما يقتضي إهلاكهم وسوء عاقبتهم ، واستثنى المخلصين من عباده ، وهم الأقل المقابل لقوله : ﴿ أكثر الأولين ﴾ ، والمعنى : إلا عباد الله ، فإنهم نجوا .

ولما ذكر ضلال الأولين ، وذكر أولهم شهرة ، وهم قوم نوح ، عليه السلام ، تضمن أشياء منها : الدعاء على قومه ، وسؤاله النجاة ، وطلب النصرة .

وأجابه تعالى في كل ذلك إجابة بلغ بها مراده .

واللام في ﴿ فلنعم ﴾ جواب قسم كقوله :

يميناً لنعم السيدان وجدتما . . .

والمخصوص بالمدح محذوف تقديره : فلنعم المجيبون نحن ، وجاء بصيغة الجمع للعظمة والكبرياء لقوله : ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾ و﴿ الكرب العظيم ﴾ ، قال السدي : الغرق ، ومنه تكذيب الكفرة وركوب الماء ، وهوله ، وهم فصل متعين للفصيلة لا يحتمل

غيره .

قال ابن عباس ، وقتادة : أهل الأرض كلهم من ذرية نوح .

وفي الحديث : " أنه عليه السلام قرأ ﴿ وجعلنا ذريتهم هم الباقين ﴾ فقال : سام وحام ويافث " وقال الطبري : العرب من أولاد سام ، والسودان من أولاد حام ، والترك وغيرهم من أولاد يافث .

وقالت فرقة : أبقى الله ذرية نوح ومد في نسله ، وليس الناس منحصرين في نسله ، بل في الأمم من لا يرجع إليه .

﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ : أي في الباقين غابر الدهر ؛ ومفعول تركنا محذوف تقديره ثناء حسناً جميلاً في آخر الدهر ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وسلام . رفع بالابتداء مستأنف ، سلم الله عليه ليقتدي بذلك البشر ، فلا يذكره أحد من العالمين بسوء .

سلم تعالى عليه جزاء على ما صبر طويلاً ، من أقوال الكفرة وإذايتهم له .

وقال الزمخشري : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ ، هذه الكلمة ، وهي ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ يعني : يسلمون عليه تسليماً ، ويدعون له ، وهو الكلام المحكي ، كقولك : قرأت سورة أنزلناها . انتهى .

وهذا قول الفراء وغيره من الكوفيين ، وهذا هو المتروك عليه ، وكأنه قال : وتركنا على نوح تسليماً يسلم به عليه إلى يوم القيامة . انتهى .

وفي قراءة عبد الله : سلاماً بالنصب ، ومعنى في العالمين : ثبوت هذه التحية مثبوتة فيهم جميعاً ، مدامة عليه في الملائكة ، والثقلين يسلمون عليه عن آخرهم .

ثم علل هذه التحية بأنه كان محسناً ، ثم علل إحسانه بكونه مؤمناً ، فدل على جلاله الإيمان ومحله عند الله .

﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ : أي من كان مكذباً له من قومه ، لما ذكر تحياته ونجاة أهله ، إذ كانوا مؤمنين ، ذكر هلاك غيرهم بالغرق . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(149/652)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾

نوعُ تفصيلٍ لما أُجمل فيما قبل ببيان أحوال بعض المرسلين وحسنِ عاقبتهم متضمّنٍ لبيان سوء عاقبة بعض المُنذرين حسبما أُشير إليه بقوله تعالى : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ كقوم نوحٍ وآل فرعونَ وقوم لوطٍ وقوم إلياسَ ولبيان حُسن عاقبةِ بعضهم الذين أخلصُهم الله تعالى ووفَّقهم للإيمان كما أشار إليه الاستثناء كقوم يونسَ عليه السَّلامُ ووجه تقديم قصَّةِ نوحٍ على سائر القصص غنيٌّ عن البيان . واللاَّمُ جواب قسم محذوفٍ وكذا ما في قوله تعالى : ﴿ فَلَنِعْمَ المجيبون ﴾ أي وباللَّهِ لقد دعانا نوحٌ حين يئسَ من إيمان قومه بعدما دعاهُم إليه أحقاباً ودُهُوراً فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً ونُفوراً فأجبناه أحسنَ الإجابةِ فواللَّهِ لنعم المُجيبون نحن فحُذف ما حُذف ثقةً بدلالة ما ذُكر عليه والجمع دليل العظمةِ والكبرياءِ .

﴿ ونجيناه وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ أي من الغرَقِ وقيل من أذيةِ قومه .

(150/652)

---

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ فحسب حيث أُهلكنا الكفرة بموجب دعائه ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ وقد رُوي أنَّه مات كلُّ من كانَ معه في السَّفينةِ غير أبنائه وأزواجهم أو هم الذين بقوا مُتناسلين إلى يوم القيامة . قال قتادة : النَّاسُ كلُّهم من ذُرِّيةِ

نوحٍ عليه السَّلامُ وكان له ثلاثة أولادٍ سامٌ وحامٌ ويافثٌ ، فسامٌ أبو العربِ وفارسَ والرُّومِ ، وحامٌ أبو السودانِ من المشرق إلى المغربِ ويافثٌ أبو التُّركِ ويأجوجَ ومأجوجَ ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الاخرين ﴾ من الأمم ﴿ سلامٌ على نُوحٍ ﴾ أي هذا الكلامُ بعينه وهو واردٌ على الحكاية كقولك قرأتُ سورةَ أنزلناها والمعنى يُسلّمون عليه تسليماً ويدعُون له على الدَّوام أمّةً بعد أمّةٍ . وقيل ثمة قولٌ مقدّرٌ أي فقلنا وقيل ضُمّن تركنا معنى قلنا . وقوله تعالى : ﴿ فِى العالمين ﴾ متعلّقٌ بالجارّ والمجرورِ . ومعناهُ الدُّعاء بثباتِ هذه التَّحيةِ واستمرارِها أبداً في العالمين من الملائكة والثَّقلينِ جميعاً . وقوله تعالى : ﴿ إنّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ تعليلٌ لما فُعل به عليه الصّلاةُ والسّلامُ من التّكرمةِ السَّنيةِ من إجابةِ دُعائِه أحسنَ إجابةٍ وإبقاء ذُرّيته وتَبقيةِ ذكره الجميلِ وتسليم العالمين عليه إلى آخرِ الدَّهرِ بكونه من زُمرة المعروفين بالإحسانِ الرّاسخينَ فيه وأنَّ ذلك من قبيل مُجازاة الإحسانِ بالإحسانِ وذلك إشارة إلى ما ذُكر من الكرامات السَّنيةِ التي وقعتْ جزاءً له عليه الصّلاةُ والسّلامُ وما فيه من معنى البُعد مع قُربِ العهد بالمشارِ إليه للإيذانِ بعلوِ رُتبته وبُعد منزلتِه في الفضل والشَّرفِ . والكافُ متعلّقةٌ بما بعدها أي مثلَ ذلك الجزاءِ الكامل نجزي الكاملينَ في الإحسانِ لا جزاءً أدنى منه . وقوله تعالى : ﴿ إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ تعليل لكونِهِ من المحسنين

بخلوصِ عبوديته وكمال إيمانه وفيه من الدِلالةِ على جلالة قدرهما ما لا يخفى . ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الاخرين ﴾ أي المغايرين لنوحٍ وأهله وهُم كُفَّارُ قومه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(152/652)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾

نوع تفصيل لما أجمل فيما قبل ببيان أحوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم متضمن لبيان سوء عاقبة بعض المنذرين كقوم نوح عليه السلام ولبيان حسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله تعالى أو أخلصوا دينهم على القراءتين كقوم يونس عليه السلام ، وتقديم قصة نوح عليه السلام على سائر القصص غني عن البيان ، ونداؤه عليه السلام يتضمن الدعاء على كفار قومه وسؤاله النجاة وطلب النصرة ، واللام واقعة في جواب قسم محذوف ، وكذا ما في قوله تعالى : ﴿ فَلَنِعْمَ المجيبون ﴾ والمخصوص بالمدح فيه محذوف والفاء فصيحة أي وتالله لقد دعانا نوح حين أيس من إيمان قومه بعد أن دعاهم أحقاباً ودهوراً فلم

يزدهم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً فأجبناه أحسن الإجابة فوالله لنعم المجيبون نحن فحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه، والجمع للعظمة والكبرياء وفيه من تعظيم أمر الإجابة ما فيه؛ وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى في بيتي فمر بهذه الآية ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ قال: صدقت ربنا أنت أقرب من دعى وأقرب من بغي فنعم المدعو ونعم المعطى ونعم المسؤل ونعم المولى أنت ربنا ونعم النصير".

وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76)

الغرق على ما روى عن السدي، وقيل: أذى قومه ولا مانع من الجمع، والكرب على ما قال الراغب: الغم الشديد، وأصل ذلك من كرب الأرض وهو قلبها بالحفر فالغم يثير النفس إثارة ذلك، ويصح أن يكون من كربت الشمس إذا دنت للمغيب وقولهم إناء كربان نحو قربان أي قريب من الملء أو من الكرب وعو عقد غليظ في رشاء الدلو، وقد يوصف الغم بأنه عقدة على القلب.

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ فحسب حيث أهلكنا الكفرة بموجب دعائه ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [ نوح : 26 ] وقد روى أنه مات كل من في السفينة ولم يعقبوا عقباً باقياً غير أبنائه الثلاث سام وحام ويافث وأزواجهم فإنهم بقوا متناسلين إلى يوم القيامة .

أخرج الترمذي وحسنة .

وابن سعد .

وأحمد .

وأبو يعلى .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والطبراني .

والحاكم وصححه عن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم " وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه ، نعم أخرج البزار .

وابن أبي حاتم .

والخطيب في تالي التلخيص عنه قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد نوح ثلاثة :

سام وحام ويافث فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم وولد حام القبط والسودان" ولا أعرف حال الخبر ، والأكثرون على أن الناس كلهم في مشارق الأرض ومغاربها من ذرية نوح عليه السلام ولذا قيل له آدم الثاني .

وإن صح أن لكنعان المغرب ولداً في السفينة لا يبعد إدراجه في الذرية فلا يقتصر على الأولاد الثلاثة ، وعلى كون الناس كلهم من ذريته عليه السلام استدل بعضهم بالآية .

وقالت فرقة : أبقى الله تعالى ذرية نوح عليه السلام ومد في نسله وليس الناس منحصرين في نسله بل من الأمم من لا يرجع إليه حكاه في البحر ، وكأن هذه الفرقة لا تقول بعموم الغرق ، ونوح عليه السلام إنما دعا على الكفار وهو لم يرسل إلى أهل الأرض كافة فإن عموم البعثة ابتداء من خواص خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم ووصول خبر دعوته وهو في جزيرة العرب إلى جميع الأقطار كقطر الصين وغيره غير معلوم .



---

والحصر في الآية بالنسبة إلى من في السفينة ممن عدا أولاده وأزواجهم فكأنه قيل : وجعلنا ذريته هم الباقين لا ذرية من معه في السفينة وهو لا يستلزم عدم بقاء ذرية من لم يكن معه

وكان في بعض الأقطار الشاسعة التي لم تصل إليها الدعوة ولم يستوجب أهلها الغرق كأهل الصين فيما يزعمون ، ويجوز أن تكون قائلة بالعموم وتجعل الحصر بالنسبة إلى المغرقين وتلتزم القول بأنه لم يبق عقب لأحد من أهل السفينة هو من ذرية أحد من المغرقين أي وجعلنا ذريته هم الباقين لا ذرية أحد غيره من المغرقين ، وولد كنعان إن صح وصح بقاء نسله داخل في ذريته والله تعالى أعلم .

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78)

في الباقين غابر الدهر .

﴿ سلام على نُوحٍ ﴾ مبتدأ وخبر وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من معنى الدعاء ، والكلام وارد على الحكاية كقولك : قرأت ﴿ سُورَةٌ أنزلناها ﴾ [ النور : 1 ] وهو على ما قال الفراء وغيره من الكوفيين محكى بترك في موضع نصب بها أي تركنا عليه هذا الكلام بعينه .

وقال آخرون : هو محكي بقول مقدر أي تركنا عليه في الآخرين قولهم سلام على نوح ، والمراد أبقينا له دعاء الناس وتسليمهم عليه أمة بعد أمة ، وقيل : هذا سلام منه عز وجل لا من الآخرين ، ومفعول ﴿ تَّرَكْنَا ﴾ محذوف أي تركنا عليه الثناء الحسن وأبقيناه له فيمن بعده إلى آخر الدهر ، ونسب هذا إلى ابن عباس .

ومجاهد .

وقتادة.

والسدي؛ وجملة ﴿ سلام على نُوحٍ ﴾ معمول لقول مقدر على ما ذكر الخفاجي أي وقلنا سلام الخ، وقال أبو حيان: مستأنفة سلم الله تعالى عليه عليه السلام ليقتدي بذلك البشر فلا يذكره أحد بسوء، وقرأ عبد الله ﴿ سَلاَماً ﴾ بالنصب على أنه مفعول ﴿ تَّرَكْنَا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فِى العالمين ﴾ متعلق بالظرف لنيابته عن عامله أو بما تعلق الظرف به.

(155/652)

---

وجوز كونه حالاً من الضمير المستتر فيه، وأياً ما كان فهو من تتمة الجملة السابقة وجيء به للدلالة على الاعتناء التام بشأن السلام من حيث أنه أفاد الكلام عليه ثبوته في العالمين من الملائكة والثقلين أو أنه حال كونه في العالمين على نوح.

وهذا كما تقول سلام على زيد في جميع الأمكنة وفي جميع الأزمنة.

وزعم بعضهم جواز جعله بدلاً من قوله تعالى: ﴿ فِى الاخرين ﴾ ويوشك أن يكون غلطاً كما لا يخفى.

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ تعليل لما فعل به مما قصه الله عز وجل بكونه عليه السلام من زمرة المعروفين بالإحسان الراسخين فيه فيكون ما وقع من قبيل مجازاة الإحسان

بالإحسان ، وإحسانه مجاهدته أعداء الله تعالى بالدعوة إلى دينه والصبر الطويل على أذاهم ونحو ما ذكر وذلك إشارة إلى ما ذكر من الكرامات السنية التي وقعت جزاء له عليه السلام ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته في الفضل والشرف ، والكاف متعلقة بما بعدها أي مثل ذلك الجزاء الكاملين في الإحسان لإجزاء أدنى ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تعليل لكونه عليه السلام محسناً المفهوم من الكلام بخلوص عبودتيه وكمال إيمانه ، وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما ما لا يخفى وإلا فمنصب الرسالة منصب عظيم والرسول لا ينفك عن الخلوص بالعبودية وكمال الايمان فالمقصود بالصفة مدحها نفسها لا مدح موصوفها .

ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (82)

أي المغايرين لنوح عليه السلام وأهله وهم كفار قومه أجمعين ، وثم للتراخي الذكري إذ بقاؤه عليه السلام ومن معه متأخر عن الإغراق ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أي ممن شايع نوحاً وتابعه في أصول الدين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(156/652)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ » .

فى هذه الآية والآيات التي بعدها ، تفصيل لما أجملته الآيتان السابقتان عليها ، وهما قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ » .

فهذا نوح عليه السلام ، قد أرسله اللّه سبحانه ، نذيرا إلى قومه ، كما يقول سبحانه : « إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ » (1 : نوح) .

(157/652)

---

ولقد أنذر نوح قومه ، وبالغ فى إنذارهم ، فلم يستمعوا له ، ولم يقبلوا منه قولا . . فلما يئس منهم لجأ إلى ربه شاكيا : « قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً » (7.5 : نوح) .

فلما بلغ به اليأس مداه ، دعا ربه أن يأخذهم بعاجل ذنوبهم : « وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً » (26. 27 : نوح) .

وقد استجاب اللّه لنوح ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ » أي نادانا نوح مستغيثا بنا ، فأجبناه . . فنعم المجيبون نحن ، حيث يجد من يجيبه إلى طلبه . . ويمنحه نصرا عزيزا وفتحا مبينا .

فتباركت يا اللّه وتعاليت . . وخاب من طرق بابا غير بابك ، ووجه وجها إلى غير وجهك ! .

« وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » .

معطوف على قوله تعالى : « وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ » أي دعانا نوح ، فاستجبنا له ، « وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » أي من البلاء العظيم ، الذي أخذ الظالمين ، وهو الطوفان ! .

« وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ » .

وإذ كان المؤمنون هم أهله ، وهم الذين نجوا من هذا الطوفان ، فقد كان منهم ذريته التي بقي بها نسله ، جيلا بعد جيل . .



---

« وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ » .

أي وتركنا عليه ثناء طيبا ، باقيا فى الأجيال من بعده . .

«سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ» .

هو سلام من اللّه سبحانه وتعالى على نوح فى مجتمعات الإنسانية كلها ، يردده كل مؤمن باللّه ، وبرسل اللّه . .

«إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ» .

أي بمثل هذا الجزاء الحسن نجزى أهل الإحسان من عبادنا ، الذين آمنوا باللّه وعملوا الصالحات . .

«ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ» .

أي بعد أن نجينا نوحا ومن معه ، أغرقنا الذين حق عليهم القول منّا . .

وقدّم نجاة نوح ومن معه ، إظهارا للعناية به وبالمؤمنين . . إذ المطلوب أولا هو نجاتهم من هذا الكرب العظم . .

هذا ، والطوفان الذي أهلك به قوم نوح ، ليس طوفانا عامّا شمل الدنيا كلها ، وغطى وجه الأرض ، كما يذهب إلى ذلك أكثر المفسرين . .

وإنما هو ـ كما قلنا ـ طوفان إقليمى محدود . . وقد عرضنا لهذا الأمر بالتفصيل فى سورة «هود» . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التفسير القرآنى للقرآن ـ 12 صـ 992 ـ 994﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) ﴾

أتبع التذكير والتسلية من جانب النظر في آثار ما حلّ بالأمم المرسَل إليهم ، وما أخبر عنه من عاقبتهم في الآخرَة ، بتذكير وتسلية من جانب الإِخبار عن الرسل الذين كذّبهم قومهم وآذَوهم وكيف انتصر الله لهم ليزيد رسول صلى الله عليه وسلم تثبيتاً ويُلْقِم المشركين تبْكيتاً .

وذكر في هذه السورة ست قصص من قصص الرسل مع أقوامهم لأن في كل قصة منها خاصيةً لها شبَهٌ بحال الرسول صلى الله عليه وسلم مع قومه وبحاله الأكمل في دعوته ، ففي القِصص كلّها عبرة وأسوة وتحذير كما سيأتي تفصيله عند كل قصة منها ، ويجمعها كلّها مقاومة الشرك ومقاومة أهلها .

واختير هؤلاء الرسل الستة : لأن نوحاً القدْوة الأولى ، وإبراهيم هو رسول الملة الحنيفية التي هي نواة الشجرة الطيبة شجرة الإِسلام ، وموسى لشبه شريعته بالشريعة الإِسلامية في التفصيل والجمع بين الدين والسلطان ، فهؤلاء الرسل الثلاثة أصول .

ثم ذكر ثلاثة رسل تفرّعوا عنهم وثلاثتهم على ملّة رسل من قبلهم .

فأما لوط فهو على ملة إبراهيم ، وأما إلياس ويونس فعلى ملة موسى .

وابتدى بقصة نوح مع قومه فإنه أول رسول بعثه الله إلى الناس وهو الأسوة الأولى والقدوة المثلى .

وابتداء القصة بذكر نداء نوح ربه موعظة للمشركين ليحذروا دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ربه تعالى بالنصر عليهم كما دعا نوح على قومه وهذا النداء هو المحكي في قوله : ﴿ قال رب انصرني بما كذبون ﴾ [ المؤمنون : 26 ] ، وقوله : ﴿ قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ﴾ الآيات من سورة [ نوح : 21 ] .

والفاء في قوله : ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ تفريع على ﴿ نادَانَا ﴾ ، ﴿ أي نادانا فأجبناه ، فحذف المفرّع لدلالة ﴿ فلنعم المجيبون ﴾ عليه لتضمنه معنى فأجبناه جواب من يقال فيه : نعم المجيب .

والمخصوص بالمدح محذوف ، أي فلَنِعْم المجيبون نحن .

(160/652)

---

وضمير المتكلم المشارك مستعمل في التعظيم كما هو معلوم .

وتأكيد الخبر وتأكيد ما فرع عليه بلام القسم لتحقيق الأمرين تحذيراً للمشركين بعد تنزيلهم منزلة من ينكر أن نوحاً دعا فاستجيب له .

والتنجية: الإنجاء وهو جعل الغير ناجياً.

والنجاة: الخلاص من ضر واقع.

وأطلقت هنا على السلامة من ذلك قبل الوقوع فيه لأنه لما حصلت سلامته في حين إحاطة الضر بقومه نُزلت سلامته منه مع قربه منه بمنزلة الخلاص منه بعد الوقوع فيه تنزيلاً لمقاربة وقوع الفعل منزلة وقوعه، وهذا إطلاق كثير للفظ النجاة بحيث يصح أن يقال: النجاة خلاص من ضر واقع أو متوقع.

والمراد بأهله: عائلته إلاّ مَن حق عليه القول منهم، وكذلك المؤمنون من قومه، قال تعالى: ﴿ قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴾ [هود: 40].

فالاقتصار على أهله هنا لقلة من آمن به من غيرهم، أو أريد بالأهل أهل دينه كقوله تعالى: ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتّبعوه ﴾ [آل عمران: 68].

وأشعر قوله: ﴿ ونجّيناهُ وأهلَهُ ﴾ أن استجابة دعاء نوح كانت بأن أهلك قومه.

و﴿ الكرب ﴾: الحزن الشديد والغمّ.

ووصفه بـ﴿ العظيم ﴾ لإفادة أنه عظيم في نوعه فهو غمّ على غم.

والمعنيّ به الطوفان، وهو كرب عظيم على الذين وقعوا فيه، فإنجاء نوح منه هو سلامته من الوقوع فيه كما علمت لأنه هول في المنظر، وخوف في العاقبة والواقع فيه موقن بالهلاك.

ولا يزال الخوف يزداد به حتى يغمره الماء ثم لا يزال في آلام من ضيق النفَس ورعدة القَرّ والخوف وتحقق الهلاك حتى يغرق في الماء .

وإنجاء الله إياه نعمة عليه ، وإنجاء أهله نعمة أخرى ، وإهلاك ظالميه نعمة كبرى ، وجُعل عمران الأرض بذريته نعمة دائمة لأنهم يدعون له ويُذكر بينهم مصالح أعماله وذلك مما يرحمه الله لأجله ، وستأتي نعم أخرى تبلغ اثنتي عشرة .

*(161/652)*

---

وضمير الفصل في قوله : ﴿ هُمُ الباقِينَ ﴾ للحصر ، أي لم يبق أحد من الناس إلا من نجّاه الله مع نوح في السفينة من ذريته ، ثُم مَن تناسل منهم فلم يبق من أبناء آدم غيرُ ذرية نوح فجميع الأمم من ذرية أولاد نوح الثلاثة .

وظاهر هذا أن من آمن مع نوح من غير أبنائه لم يكن لهم نسل .

قال ابن عباس : لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا وُلده ونساءه .

وبذلك يندفع التعارض بين هذه الآية وبين قوله في سورة هود ﴿ قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلَك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴾ [ هود : 40

] ، وهذا جار على أن الطوفان قد عمّ الأرض كلها واستأصل جميع البشر إلا مَن حملهم نوح في السفينة وقد تقدم خبره في سورة هود .

وعمومُ الطوفان هو مقتضى ظواهر الكتاب والسنة ، ومن قالوا إن الطوفان لم يعمّ الأرض فإنما أقدموا على إنكاره من جهة قصر المدة التي حددت بها كتب الإسرائيليين ، وليس يلزم الاطمئنان لها في ضبط عُمر الأرض وأَحداثها وذلك ليس من القواطع ، ويكون القصر إضافياً أي لم يبق من قومه الذين أرسل إليهم .

وقد يقال : نسلّم أن الطوفان لم يعمّ الأرض ولكنه عم البشر لأنهم كانوا منحصرين في البلاد التي أصابها الطوفان ولئن كانت أدلة عموم الطوفان غير قطعية فإن مستندات الذين أنكروه غير ناهضة فلا تُترك ظواهر الأخبار لأجلها .

وزاد الله في عداد كرامة نوح عليه السلام قوله : ﴿ وتَركنا عليه في الآخِرينَ ﴾ ، فتلك نعمة خامسة .

والتَرك : حقيقته تخليف شيء والتخلي عنه .

وهو هنا مراد به الدوام على وجه المجاز المرسل أو الاستعارة ، لأن شأن النعم في الدنيا أنها متاع زائل بعدُ ، طال مُكثها أو قصر ، فكأنّ زوالَها استرجاعٌ من معطيها كما جاء في الحديث : " لله ما أخذ وله ما أعطى "

فشرَف الله نوحاً بأن أبقى نعمهُ عليه في أمم بعده .

وظاهر ﴿ الآخِرِينَ ﴾ أنها باقية في جميع الأمم إلى انقضاء العالم، وقرينة المجاز تعليق ﴿ عَلَيْهِ ﴾ بـ ﴿ تركنا ﴾ لأنه يناسب الإبقاء، يقال: أبقى على كذا، أي حافظ عليه ليبقى ولا يندثر، وعلى هذا لا يكون لـ ﴿ تركنا ﴾ مفعول، وبعضهم قدّر له مفعولاً يدل عليه المقام، أي تركنا ثناء عليه، فيجوز أن يراد بهذا الإبقاء تعميره ألف سنة، فهو إبقاء أقصى ما يمكن إبقاء الحيّ إليه فوق ما هو متعارف.

ويجوز أن يراد بقاء حسن ذكره بين الأمم كما قال إبراهيم: ﴿ واجعل لي لسانَ صدْقٍ في الآخرين ﴾ [الشعراء: 84] فكان نوح مذكوراً بمحامد الخصال حتى قيل: لا تجهل أمة من أمم الأرض نوحاً وفضله وتمجيده وإن اختلفت الأسماء التي يسمونه بها باختلاف لغاتهم.

فجاء في "سفر التكوين" الإصحاح التاسع: كان نوح رجلاً بارّاً كاملاً في أجياله وسار نوح مع الله.

وورد ذكره قبل الإسلام في قول النابغة:

فألفيتَ الأمانةَ لم تخنها . . .

كذلكَ كان نوح لا يخون

وذكره لبني إسرائيل في معرض الاقتداء به في قوله : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾ [الإسراء : 3] .

وذكر ابن خلدون : أن بعضهم يزعم أن نوحاً هو (أفريدون) ملك بلاد الفرس ، وبعضهم يزعم أن نوحاً هو (أوشهنك) ملك الفرس الذي كان بعد (كيومرث) بمائتي سنة وهو يوافق أن نوحاً كان بعد آدم وهو كيومرث بمائتي سنة حسب كتب الإسرائيلين .

على أن كيومرث يقال : إنه آدم كما تقدم في سورة البقرة .

ومتعلق ﴿ عَلَيْهِ ﴾ من قوله : ﴿ وتركنا عليه ﴾ لم يَحُم أحد من المفسرين حوله فيما اطلعت ، والوجه أن يتعلق ﴿ عليه ﴾ بفعل ﴿ تركنا ﴾ بتضمين هذا الفعل معنى (أنعمنا) فكان مقتضى الظاهر أن يعدّى هذا الفعل باللام ، فلما ضمّن معنى أنعمنا أفاد بمادته معنى الإبقاء له ، أي إعطاء شيء من الفضائل المدخرة التي يشبه إعطاؤها ترك أحد متاعاً نفيساً لمن يُخليه هو له ويخلفه فيه .

وأفاد بتعليق حرف ( على ) به أن هذا الترك من قبيل الإنعام والتفضيل ، وكذلك شأن التضمين أن يفيد المضمَّن مفاد كلمتين فهو من ألطف الإيجاز .

ثم إن مفعول ﴿ تركنا ﴾ لما كان محذوفاً وكان فعل ( أنعمنا ) الذي ضُمِّنه فعل ﴿ تركنا ﴾ مما يحتاج إلى متعلق معنى المفعول ، كان محذوفاً أيضاً مع عامله فكان التقدير : وتركنا له ثناء وأنعمنا عليه ، فحصل في قوله : ﴿ تركنا عليه ﴾ حذفُ خمس كلمات وهو إيجاز بديع .

ولذلك قدر جمهور المتقدمين من المفسرين ﴿ وتَركنا ﴾ ثناء حسناً عليه .

وجملة ﴿ سَلامٌ على نُوحٍ في العالَمِينَ ﴾ إنشاء ثناء الله على نوح وتحية له ومعناه لازم التحية وهو الرضى والتقريب ، وهو نعمة سادسة .

وتنوين ﴿ سَلامٌ ﴾ للتعظيم ولذلك شاع الابتداء بالنكرة لأنها كالموصوف .

والمراد بالعالمين : الأمم والقرون وهو كناية عن دوام السلام عليه كقوله تعالى : ﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾ [ مريم : 15 ] في حق عيسى عليه السلام وكقوله:

﴿ سلام على آلْ يَاسينَ ﴾ [ الصافات : 130 ] ﴿ سلام على إبراهيم ﴾ [ الصافات : 109 ] .

وفي ﴿ العالَمِينَ ﴾ حال فهو ظرف مستقر أو خبر ثان عن ﴿ سَلامٌ ﴾ .

وذهب الكسائي والفراء والمبرد والزمخشري إلى أن قوله : سَلامٌ على نوحٍ في العالمين ﴾ في محلّ مفعول ﴿ تركنا ﴾ ، أي تركنا عليه هذه الكلمة وهي ﴿ سلامٌ على نوحٍ في العالَمِينَ ﴾ وهو من الكلام الذي قصدت حكايته كما تقول قرأت ﴿ سورة أنزلناها وفرضناها ﴾ [ النور : 1 ] ، أي جعلنا الناس يسلمون عليه في جميع الأجيال ، فما ذكروه إلا قالوا : عليه السلام .

ومثل ذلك قالوا في نظائرها في هذه الآيات المتعاقبة .

وزيد في سَلام نوح في هذه السورة وصْفُه بأنه في العالمين دون السلام على غيره في قصة إبراهيم وموسى وهارون وإلياس للإشارة إلى أن التنويه بنوح كان سائراً في جميع الأمم لأنهم كلهم ينتمون إليه ويذكرونه ذكر صدق كما قدمناه آنفاً .

(164/652)

---

وجملة ﴿ إنّا كذلك نجزي المُحسنين ﴾ تذييل لما سبق من كرامة الله نوحاً .

و( إنّ ) تفيد تعليلاً لمجازاة الله نوحاً بما عده من النعم بأن ذلك لأنه كان محسناً ، أي متخلقاً بالإِحسان وهو الإِيمان الخالص المفسّر في قول النبي صلى الله عليه وسلم " الإِحسانُ أن تعبدَ الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " ، وأي دليل على إحسانه أجلى من مصابرته

في الدعوة إلى التوحيد والتقوى وما ناله من الأذى من قومه طول مدة دعوته .

والمعنى : إنا مثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين .

وفي هذا تنويه بنوح عليه السلام بأن جزاءه كان هو المثال والإمامَ لجزاء المحسنين على مراتب إحسانهم وتفاوت تقارُبها من إحسان نوح عليه السلام وقوته في تبليغ الدعوة .

فهو أول من أوذي في الله فسَنّ الجزاءَ لمن أوذي في الله ، وكان على قَالَب جزائه ، فلعله أن يكون له كفل من كل جزاء يُجزاه أحد على صبره إذا أوذي في الله ، فثبت لنوح بهذا وصف الإحسان ، وهو النعمة السابعة .

وثبت له أنه مَثَل للمحسنين في جزائهم على إحسانهم ، وهي النعمة الثامنة .

وجملة ﴿ إنَّه من عِبادنَا المُؤمنين ﴾ تعليل لاستحقاقه المجازاة الموصوفة بقوله : ﴿ كذلك نَجزي المحسنين ﴾ فاختلف معلول هذه العلة ومعلول العلة التي قبلها .

وأفاد وصفه بـ ﴿ إنَّه من عِبَادِنَا ﴾ أنه ممن استحق هذا الوصف ، وقد علمت غير مرة أن وصف ( عبد ) إذا أضيف إلى ضمير الجلالة أشعر بالتقريب ورفع الدرجة ، اقتصر على وصف العباد بالمؤمنين تنويهاً بشأن الإيمان ليزداد الذين آمنوا إيماناً ويقلع المشركون عن الشرك .

وهذه نعمة تاسعة .

وأقحم معها من ﴿ عبادنا ﴾ لتشريفه بتلك الإضافة على نحو ما تقدم آنفاً في قوله تعالى :

﴿ إلا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم ﴾ [ الصافات : 40 - 41 ] وهذه نعمة عاشرة ، وفي ذلك تنبيه على عظيم قدر الإِيمان .

(165/652)

---

وفي هذه القصة عبرة للمشركين بما حلّ بقوم نوح وتسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم وجعل نوح قدوة له ، وإيماء إلى أن الله ينصره كما نصر نوحاً على قومه وينجّيه من أذاهم وتنويه بشأن المؤمنين .

و﴿ ثم ﴾ التي في قوله : ﴿ ثم أغرقنا الآخرينَ ﴾ للترتيب والتراخي الرتبيين لأن بعض ما ذكر قبلها في الكلام هو مما حصل بعد مضمون جملتها في نفس الأمر كما هو بيّن ، ومعنى التراخي الرتبي هنا أن إغراق الذين كذّبوه مع نجاته ونجاة أهله ، أعظم رتبة في الانتصار له والدلالة على وجاهته عند الله تعالى وعلى عظيم قدرة الله تعالى ولطفه .

ومعنى ﴿ الآخرِينَ ﴾ مَن عَداهُ وعدا أهله ، أي بقية قومه ، وفي التعبير عنهم بالآخرين ضرب من الاحتقار .

ومما في الحديث أنه جاءه رجل فقال : " إن الآخر قد زنى " يعني نفسه على رواية الآخر بمدّ الهمزة وهي إحدى روايتين في الحديث .

وتقدم ذكر نوح وقصته عند قوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً ﴾ في [ آل عمران : 33 ] ، وفي الأعراف ، وفي سورة هود ، وذكرُ سفينته في أول سورة العنكبوت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

*(166/652)*

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى في ختام قصة نوح، عليه السلام : (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (الصافات : 80) ثم أعقب القصص الثلاث بمثل هذا ، أعني قصة إبراهيم وقصة موسى وهارون وقصة إلياس ، إلا أنه ورد في قصة إبراهيم عليه السلام : (سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (الصافات : 109 – 110 ) ، فسقط منه لفظ

(إن) وثبت في القصص الأخر ، فيسأل عن وجه القصاص في قصة إبراهيم دون غيرها بذلك ؟

والجواب ، والله أعلم : أنه تقدم في قصة إبراهيم بعينها قوله : (وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (الصافات : 104 – 105) ، ثم لما كرر

ليبني عليه قوله : ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصافات : 111) ، كما في نظائره من ختام القصص الآخر كرر قوله ﴿كذلك﴾ لبناء علة الجزاء وموجبه عليه ، كما تكرر قوله : ﴿أنكم﴾ في قوله : ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ (المؤمنون : 35) ، (فكرر) ﴿أنكم﴾ تأكيداً ليبني عليه الخبر فكذلك كررت هنا الجملة (بأسرها) وهي قوله ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ليبني عليها ما ورد علة موجبه لجزائهم لتجري هذه القصة مجرى نظائرها ، ولم يكرر حرف التأكيد والضمير المنصوب به إيجازاً واختصاراً لذكره فيما تقدم في القصة نفسها ، فوضح أنه لا فرق بينها وبين ما اكتنفها من القصص الوارد فيها ذكر ﴿إن﴾ بوجه .

*(167/652)*

---

فإن قيل : ولم آخر قوله : ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصافات : 111) ، عن قوله أولاً ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الصافات : 105) من الجمل الوارده مورد جمل الإعتراض إشادة بجلالة إبراهيم وإعلاماً بعظيم (جلاله فقال تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ (الصافات : 106) ، ثم أكد ) عظيم الإعتناء به فقال : ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الصافات : 107 - 109) ، ولما طال الكلام

بما ورد تتميماً وتكميلاً لحاله، عليه السلام، وبعد عن قوله: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أعيد منه الجملة الواقعة خبراً لأن ينبني عليه ما بني على نظائره من قوله ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ فقصة إبراهيم عليه السلام، أوفى هذه القصص تعريفاً بكمال الحال، ولم ينقص منها شيء من الأخبار بصفة الجزاء وسببه كما في غيرها زاد فيها ما ورد اعتراضاً كما تبين وذلك لما زاد في قصته من عظيم ابتلاءه زياده والله أعلم بما أراد. انتهى. اهـ

﴿ ملاك التأويل صـ 410.411 ﴾

*(168/652)*

---

فائدة

قال ابن القيم:

قوله تعالى عن نوح عليه السلام ﴿ وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾

وقال تعالى عن إبراهيم خليله ﴿ وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم ﴾ الصافات 108 و 109

وقال تعالى في موسى وهارون ﴿ وتركنا عليهما في الآخرين سلام على موسى وهارون

﴾ الصافات 119 و 120

وقال تعالى ﴿ سلام على إلياسين ﴾ الصافات 130 فالذي تركه سبحانه على رسله في الآخرين هو السلام عليهم المذكور

وقد قال جماعة من المفسرين منهم مجاهد وغيره وتركنا عليهم في الآخرين الثناء الحسن ولسان الصدق للانبياء كلهم وهذا قول قتادة أيضا ولا ينبغي أن يحكى هذا قولين للمفسرين كما يفعله من له بحكاية الأقوال بل هما قول واحد فمن قال إن المتروك هو السلام عليهم في الآخرين نفسه فلا ريب أن قوله سلام على نوح جملة في موضع نصب ب تركنا والمعنى أن العالمين يسلمون على نوح ومن بعده من الأنبياء ومن فسره بلسان الصدق والثناء الحسن نظر إلى لازم السلام وموجبة وهو الثناء عليهم وما جعل لهم من لسان الصدق الذي لاجله إذا ذكروا سلم عليهم

وقد زعمت طائفة منهم ابن عطية وغيره أن من قال تركنا عليه ثناء حسنا ولسان صدق كان سلام على نوح في العالمين جملة ابتدائية لا محل لها من الاعراب وهو سلام من الله سلم به عليه قالوا فهذا السلام من الله امنة لنوح في العالمين أن يذكره أحد بشر قاله الطبري

وقد يقوي هذا القول انه سبحانه اخبر أن المتروك عليه هو في الآخرين وان السلام عليه في العالمين وبأن ابن عباس رضي الله عنهما قال ابقى الله عليه ثناء حسنا

وهذا القول ضعيف لوجوه

أحدها انه يلزم منه حذف المفعول ل تركنا ولا يبقى في الكلام فائدة على التقدير فإن المعنى يؤول إلى انا تركنا عليه في الآخرين امرا مالا ذكر له في اللفظ لان السلام عند هذا القائل منقطع مما قبله لا تعلق له بالفعل

(169/652)

---

الثاني انه لو كان المفعول محذوفا كما ذكروه لذكره في موضع واحد ليدل على المراد منه حذفه ولم يطرد في جميع من اخبر انه ترك عليه في الآخرين الثناء الحسن وهذه طريقة القرآن بل وكان فصيح أن يذكر الشيء في موضع ثم يحذفه في موضع اخر لدلالة المذكور على المحذوف واكثر ما تجده مذكورا

وحذفه قليل واما أن يحذف حذفا مطردا ولم يذكره في موضع واحد ولا في اللفظ ما يدل عليه فهذا لا يقع في القرآن

الثالث أن في قراءة ابن مسعود وتركنا عليه في الآخرين سلاما بالنصب وهذا وهذا يدل على أن المتروك هو السلام نفسه

الرابع انه لو كان السلام منقطعا مما قبله لاخل ذلك بفصاحة الكلام وجزالته ولما حسن الوقوف على ما قبله وتأمل هذا بحال السامع إذا سمع قوله وتركنا عليه في الآخرين كيف

يجد قلبه متشوقا متطلعا إلى تمام الكلام واجتناء الفائدة منه ولا يجد فائدة الكلام انتهت

وتمت ليطمئن عندها بل يبقى طالبا لتمامها وهو المتروك فالوقف على الآخرين ليس بوقف

تام

فإن قيل فيجوز حذف المفعول من هذا الباب لان ترك هنا بمعنى اعطى لانه اعطاه ثناءا

حسنا ابقاه عليه في الآخرين ويجوز في باب اعطى ذكر المفعولين وحذفهما والاقتصار على

أحدهما وقد وقع ذلك في القرآن كقوله انا اعطيناك الكوثر فذكرهما

وقال تعالى فأما من اعطى الليل 5 فحذفهما

وقال تعالى ولسوف يعطيك ربك الضحى فحذف الثاني واقتصر على الأول

وقال يؤتون الزكاة فحذف الأول واقتصر على الثاني قيل فعل الاعطاء فعل مدح فلفظه دليل

على أن المفعول المعطى قد ناله عطاء المعطي والاعطاء احسان ونفع وبر فجاز ذكر

المفعولين وحذفهما والاقتصار على أحدهما بحسب الغرض المطلوب من الفعل فإن كان

المقصود ايجاد ماهية الاعطاء

المخرجة للعبد من البخل والشح والمنع المنافي للاحسان ذكر الفعل مجردا كما قال تعالى

فأما من اعطى واتقى ولم يذكر ما أعطى ولا من اعطى وتقول فلان يعطي ويتصدق ويهب

ويحسن

وقال النبي اللهم لا مانع لما اعطيت ولا معطي لما منعت لما كان المقصود بهذا تفرد الرب سبحانه بالعطاء والمنع لم يكن لذكر المعطى ولا لحظ المعطى معنى بل المقصود أن حقيقة العطاء والمنع اليك لا إلى غيرك بل أنت المتفرد بها لا يشركك فيها أحد فذكر المفعولين هنا يخل بتمام المعنى وبلاغته وإذا كان المقصود ذكرهما ذكرا معا كقوله تعالى انا اعطيناك الكوثر الكوثر 1 فإن المقصود اخباره لرسوله بما خصه به واعطاه اياه من الكوثر ولا يتم هذا إلا بذكر المفعولين وكذا قوله تعالى ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا الانسان 8 وإذا كان المقصود أحدهما فقط اقتصر عليه كقوله تعالى ويؤتون الزكاة المقصود به انهم يفعلون هذا الواجب عليهم ولا يهملونه فذكره لانه هو المقصود وقوله عن أهل النار لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين المدثر 43 44 لما كان المقصود الإخبار عن المستحق للاطعام انهم بخلوا عنه ومنعوه حقه من الاطعام وقست قلوبهم عنه كان ذكره هو المقصود دون المطعوم

وتدبر هذه الطريقة في القرآن وذكره للاهم المقصود وحذفه

لغيره يطلعك على باب من ابواب اعجازه وكمال فصاحته

واما فعل الترك فلا يشعر بشيء من هذا ولا يمدح به فلو قلت فلان يترك لم يكن مفيدا فائدة اصلا بخلاف قولك يطعم ويعطي ويهب ونحوه بل لا بد أن تذكر ما يترك ولهذا لا يقال فلان

تارك ويقال معط ومطعم ومن اسمائه سبحانه المعطي فقياس ترك على اعطى من افسد القياس و سلام على نوح في العالمين الصافات 79 جملة محكية

قال الزمخشري وتركنا عليه في الآخرين الصافات 78 من الامم هذه الكلمة وهي سلام على نوح يعني يسلمون عليه تسليما ويدعون له وهو من الكلام المحكي كقولك قرأت سورة انزلناها



---

الخامس انه قال سلام على نوح في العالمين فأخبر سبحانه أن هذا السلام عليه في العالمين ومعلوم أن هذا السلام فيهم هو سلام العالمين عليه كلهم يسلم عليه ويثني عليه ويدعو له فذكره بالسلام عليه فيهم واما سلام الله سبحانه وتعالى عليه فليس مقيدا بهم ولهذا لا يشرع أن يسأل الله تعالى مثل ذلك فلا يقال السلام على رسول الله في العالمين ولا اللهم صل وسلم على رسولك في العالمين ولو كان هذا هو سلام الله لشرع أن يطلب من الله على الوجه الذي سلم به

واما قولهم أن الله سلم عليه في العالمين وترك عليه في الآخرين فالله سبحانه وتعالى ابقى على انبيائه ورسله سلاما وثناء حسنا فيمن تأخر بعدهم جزاء على صبرهم وتبليغهم

رسالات ربهم

واحتمالهم للاذى من امهم في الله واخبر أن هذا المتروك على نوح هو عام في العالمين وان هذه التحية ثابتة فيهم جميعا لا يخلون منها فادامها عليه في الملائكة والثقلين طبقا بعد طبق وعالما بعد عالم مجازاة لنوح عليه السلام بصبره وقيامه بحق ربه وبأنه أول رسول ارسله الله إلى أهل الأرض وكل المرسلين بعده بعثوا بدينه كما قال تعالى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا الشورى 13

وقولهم أن هذا قول ابن عباس فقد تقدم أن ابن عباس وغيره إنما ارادوا بذلك أن السلام عليه من الثناء الحسن ولسان الصدق فذكروا معنى السلام عليه وفائدته والله سبحانه اعلم. انتهى. اهـ ﴿ جلاء الأفهام صـ 345.349 ﴾

*(172/652)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿ والصافات صَفًّا ﴾: قرأ أبو عمرو وحمزة بإدغامِ التاء من الصافَّاتِ،

والزَّاجراتِ والتّاليات ، في صاد " صَفًّا " وزاي " زَجْرا " وذال " ذِكْرا " ، وكذلك فعلا في ﴿ والذاريات ذَرْوا ﴾ [الذاريات : 1 ] وفي ﴿ فالملقيات ذِكْرا ﴾ [المرسلات : 5 ] وفي ﴿ العاديات ضَبْحا ﴾ [العاديات : 1 ] بخلافٍ عن خلاَّد في الأخيرين . وأبو عمروٍ جارٍ على أصلِه في إدغام المتقاربَيْن كما هو المعروفُ مِنْ أصلِه . وحمزةُ خارجٌ عن أصلِه ، والفرقُ بين مَذْهَبَيْهما أنَّ أبا عمروٍ يُجيز الرَّوْمَ ، وحمزةَ لا يُجيزه . وهذا كما اتفقا في إدغام ﴿ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ ﴾ في سورة النساء [ الآية : 81 ] ، وإن كان ليس من أصلِ حمزةَ إدغامُ مثلِه . وقرأ الباقون بإظهارِ جميعِ ذلك .

ومفعولُ " الصَّافَّات " و " الزَّاجراتِ " غيرُ مرادٍ ؛ إذ المعنى : الفاعلات لذلك . وأعرب أبو البقاء " صَفًّا " مَفْعولاً به على أنه قد يَقَعُ على المصفوفِ . قلت : وهذا ضعيفٌ . وقيل : هو مرادٌ . والمعنى : والصافاتِ أنفسَها وهم الملائكةُ أو المجاهدون أو المُصَلُّون ، أو الصافَّاتِ أجنحتَها وهي الطيرُ ، كقوله : ﴿ والطير صَآفَّاتٍ ﴾ [النور : 41 ] ، والزاجراتِ السحابَ أو العُصاةَ إنْ أُريد بهم العلماءُ . والزَّجْرُ : الدَّفْعُ بقوةٍ وهو قوةُ التصويتِ . وأنشد :

3789 زَجْرَ أَبي عُرْوَةَ السِّباعَ إذا . . . أَشْفَقَ أَنْ يَخْتَلِطْنَ بالغَنَم

وزَجَرْتُ الإِبلَ والغنمَ : إذا فَزِعَتْ مِنْ صوتِك . وأمّا " والتّاليات " فَيجوز أَنْ يكونَ " ذِكْراً " مفعولَه . والمرادُ بالذِّكْر : القرآنُ وغيرُه مِنْ تسبيحٍ وتحميدٍ . ويجوز أَنْ يكونَ " ذِكْراً " مصدراً أيضاً مِنْ معنى التاليات . وهذا أوفقُ لما قبلَه . قال الزمخشري : " الفاءُ في فالزّاجراتِ " " فالتالياتِ " : إمّا أَنْ تدلَّ على ترتُّبِ معانيها في الوجودِ كقولِه :

3790أ يا لَهْفَ زَيَّابةَ للحارثِ الصَّا . . . بحِ فالغانِمِ فالآيِب

كأنه قال : الذي صَبَحَ فغنِمَ فآبَ ، وإمّا على ترتُّبِهما في التفاوتِ من بعضِ الوجوه ، كقوله : خُذِ الأفضلَ فالأكملَ ، واعمل الأحسنَ فالأجملَ ، وإمّا على ترتُّبِ موصوفاتِها في ذلك كقولك : " رَحِمَ اللَّهُ المحلِّقين فالمقصِّرين " فأمَّا هنا فإنْ وحَّدْتَ الموصوفَ كانت للدلالةِ على ترتُّبِ الصفاتِ في التفاضُلِ . فإذا كان الموحَّدُ الملائكةَ فيكون الفضلُ للصفِّ ثم للزَّجْرِ ثم للتلاوةِ ، وإمّا على العكس . وإنْ ثَلَّثْتَ الموصوفَ فترتَّبَ في الفضل ، فتكون الصافَّاتُ ذواتَ فضلٍ ، والزاجراتُ أفضلَ ، والتالياتُ أَبْهرَ فضلاً ، أو على العكس " يعني بالعكس في الموضعين أنك ترتقي من أفضلَ إلى فاضلٍ إلى مَفْضولٍ ، أو يُبْدأُ بالأدنى ثم بالفاضل ثم بالأفضل .

والواوُ في هذه للقسمِ ، والجوابُ/ قولُه : ﴿ إِنَّ إِلهكم لَوَاحِدٌ ﴾ . وقد عرَفْتَ الكلامَ في

الواو الثانية والثالثة : هل هي للقسم أو للعطف ؟

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (5)

(174/652)

---

قوله : ﴿ رَبُّ السماوات ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ خبراً ثانياً ، وأن يكون بدلاً مِنْ " لَواحدٌ " ، وأن يكونَ خبرَ مبتدأ مضمر . وجَمْعُ المشارقِ والمغارب باعتبار جميع السنة ، فإنَّ للشمسِ ثلاثمئةٍ وستين مشرقاً ، وثلاثمئة وستين مَغْرباً . وأمَّا قولُه : " المَشْرِقَيْن والمغربين " فباعتبار الصيف والشتاء .

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6)

قوله : ﴿ بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ : قرأ أبو بكر بتنوين " زينة " ونصب " الكواكب " وفيه وجهان ، أحدهما : أَنْ تكونَ الزينة مُصدراً ، وفاعلُه محذوفٌ ، تقديره : بأنْ زَيَّنَ اللَّهُ الكواكبَ ، في كونِها مضيئةً حَسَنَةً في أنفسها . والثاني : أنَّ الزينةَ اسمٌ لما يُزان به كاللِّيْقَةِ : اسمٌ لما تُلاق به الدَّواةُ ، فتكون " الكواكبُ " على هذا منصوبةً بإضمار " أَعْني " ، أو تكون بدلاً مِنْ سماء الدنيا بدلَ اشتمالٍ أي : كواكبها ، أو من محل " بزينة " .

وحمزةُ وحفص كذلك ، إلاَّ أنهما خَفَضا الكواكب على أنْ يُرادَ بزينة : ما يُزان به ،

والكواكب بدلٌ أو بيانٌ للزينة .

والباقون بإضافةِ " زينة " إلى " الكواكب " . وهي تحتمل ثلاثةَ أوجهٍ ، أحدها : أَنْ تكونَ إضافةَ أعمَّ إلى أخصَّ فتكونَ للبيان نحو : ثوبُ خزّ . الثاني : أنها مصدرٌ مضافٌ لفاعِله أي : بأن زَيَّنَتِ الكواكبُ السماءَ بضوئِها . والثالث : أنه مضافٌ لمفعولِه أي : بأَنْ زَيَّنها اللَّهُ بأَنْ جَعَلها مشرِقةً مضيئةً في نفسِها .

(175/652)

---

وقرأ ابن عباس وابن مسعود بتنوينها ، ورفعِ الكواكب . فإنْ جَعَلْتَها مصدراً ارتفع " الكواكب " به ، وإنْ جَعَلْتَها اسماً لِما يُزان به فعلى هذا ترتفع " الكواكبُ " بإضمار مبتدأ أي : هي الكواكبُ ، وهي في قوة البدلِ . ومنع الفراءُ إعمالَ المصدرِ المنوَّن . وزعمَ أنه لم يُسْمَعْ . وهو غلَطٌ لقولِه تعالى : { أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ } [ البلد : 14 ] كما سيأتي إن شاء الله .

وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (7)

قوله : { وَحِفْظاً } : منصوبٌ على المصدر بإضمار فعلٍ أي : حَفِظْناها حِفْظاً ، وإمَّا على المفعولِ مِنْ أجله على زيادة الواوِ . والعاملُ فيه " زَيَّنَّا " ، أو على أَنْ يكونَ العاملُ

مقدراً أي : لِحفظِها زَيَّنّاها ، أو على الحَمْلِ على المعنى المتقدم أي : إنَّا خَلَقْنا السماءَ الدنيا زينةً وحِفظاً . و " من كلِّ " متعلقٌ ب " حِفْظاً " إنْ لم يكنْ مصدراً مؤكّداً ، وبالمحذوفِ إنْ جُعِل مصدراً مؤكداً . ويجوزُ أَنْ يكونَ صفةً ل " حِفْظاً " .

لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (8)

قوله : { لاَّ يَسَّمَّعُونَ } : قرأ الأخوان وحفصٌ بتشديد السين والميم . والأصل : يَتَسَمَّعون فأدغم . والباقون بالتخفيف فيهما . واختار أبو عبيد الأُوْلى وقال : " لو كان مخففاً لم يتعَدَّ ب " إلى " . وأُجيب عنه : بأنَّ معنى الكلامِ : لا يُصْغُون إلى الملأ . وقال مكي : " لأنه جرى مَجْرى مُطاوِعِه وهو يَتَسمَّعُون ، فكما كان تَسَمَّع يتعدَّى ب " إلى " تَعَدَّى سَمِع ب " إلى " وفَعِلْتُ وافتعلْتُ في التعدِّي سواءٌ ، فتَسَمَّع مطاوعٌ سمعَ ، واستمع أيضاً مطاوعٌ سَمِع فتعدَّى سَمِعَ تعدِّيَ مطاوعِه " .

(176/652)

---

وهذه الجملةُ منقطعةٌ عَمَّا قبلها ، ولا يجوزُ فيها أَنْ تكونَ صفةً لشيطان على المعنى ؛ إذ يصيرُ التقدير : مِنْ كلِّ شيطانٍ ماردٍ غيرِ سامعٍ أو مستمعٍ . وهو فاسدٌ . ولا يجوزُ أيضاً أَنْ تكونَ جواباً لسؤالِ سائلٍ : لِمَ تُحْفَظُ من الشياطين؟ إذ يَفْسُد معنى ذلك . وقال بعضهم :

أصلُ الكلامِ : لئلا يَسْمَعوا ، فَحُذِفت اللامُ ، وأَنْ ، فارتفع الفعلُ . وفيه تَعَسُّفٌ . وقد وَهِم أبو البقاء فجوَّز أَنْ تكون صفةً ، وأنْ تكونَ حالاً ، وأنْ تكونَ مستأنفةً ، فالأولان ظاهرا الفسادِ ، والثالثُ إن عنى به الاستئنافَ البيانيَّ فهو فاسدٌ أيضاً ، وإنْ أرادَ الانقطاعَ على ما قدَّمْتُه فهو صحيحٌ .

دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9)

قوله : ﴿ دُحُوراً ﴾ : العامَّةُ على ضم الدال . وفيه أوجهٌ ، المفعولُ له ، أي : لأجل الطَّرْد . الثاني : أنه مصدرٌ ل "يُقْذَفُون" أي : يُدْحَرون دُحوراً أو يُقْذَفُون قَذْفاً . فالتجوُّز : إمَّا في الأول ، وإمَّا في الثاني . الثالث : أنه مصدرٌ لمقدرٍ أي : يُدْحَرون دُحوراً . الرابع : أنه في موضع الحال أي ذوي دُحورٍ أو مَدْحورين . وقيل : هو جمعُ داحِرٍ نحو : قاعِد وقُعود . فيكون حالاً بنفسه من غيرِ تأويلٍ . ورُوِي عن أبي عمروٍ أنه قرأ " ويَقْذِفُون " مبنياً لفاعل .

وقرأ علي والسلمي وابن أبي عبلة " دَحورا " بفتح الدال ، وفيها وجهان ، أحدهما : أنها صفةٌ لمصدرٍ مقدرٍ ، أي : قذفاً دَحُورا ، وهو كالصَّبور والشَّكور . والثاني : أنه مصدرٌ كالقَبول والوَلوع . وقد تقدَّم أنه محصورٌ في أُلْفاظ .

إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (10)

قوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنه مرفوعُ/ المحلِّ بدلاً مِنْ ضميرِ " لا يَسَّمَّعون " وهو أحسنُ ؛ لأنه غيرُ موجَب . والثاني : أنه منصوبٌ على أصلِ الاستثناء . والمعنى : أنَّ الشياطينَ لا يَسمعون الملائكةَ إلاَّ مَنْ خَطِف . قلت : ويجوز أَنْ تكون " مَنْ " شرطيةً ، وجوابُها " فَأَتْبَعَه " ، أو موصولةً وخبرُها " فَأَتْبَعَه " وهو استثناءٌ منقطعٌ . وقد نَصُّوا على أنَّ مثلَ هذه الجملةِ تكونُ استثناءً منقطعاً كقوله : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلاَّ مَن تولى وكَفَرَ ﴾ [ الغاشية : 22 – 23 ] . والخَطْفَةُ مصدرٌ معرفٌ بأل الجنسيةِ أو العهدية .

وقرأ العامَّةُ " خَطِفَ " بفتح الخاء وكسرِ الطاءِ مخففةً . وقتادة والحسن بكسرهما وتشديد الطاء ، وهي لغةُ تميمِ بنِ مُرٍّ وبكرِ بن وائل . وعنهما أيضاً وعن عيسى بفتح الخاء وكسر الطاء مشددةً . وعن الحسن أيضاً خَطِفَ كالعامَّة . وأصل القراءَتَيْن : اخْتَطَفَ ، فلمَّا أُريد الإِدغامُ سَكَنت التاءُ وقبلها الخاءُ ساكنةً ، فكُسِرت الخاءُ لالتقاءِ الساكنين ، ثم كُسِرت الطاءُ إتْباعاً لحركةِ الخاء . وهذه واضحةٌ . وأمَّا الثانية فمُشْكِلَةٌ جداً ؛ لأنَّ كَسْرَ الطاء إنما كان لكسرِ الخاء وهو مفقودٌ . وقد وُجِّه على التوهُّم . وذلك أنهم لَمَّا أرادوا الإِدغام نقلوا حركةَ التاء إلى الخاء ففُتِحَتْ وهم يتوهَّمون أنها مكسورةٌ لالتقاءِ الساكنين كما تقدَّم تقريرُه ، فأتبعوا الطاءَ لحركةِ الخاءِ المتوهَّمة . وإذا كانوا قد فعَلوا ذلك في

مقتضياتِ الإِعرابِ فَلأَنْ يَفْعلوه في غيرِه أَوْلَى . وبالجملة فهو تعليل شُذوذٍ .

وقرأ ابن عباس " خَطِفَ " بكسر الخاء والطاء خفيفةً ، وهو إتْباعٌ كقولِهم : نِعِمَ بكسر النون والعين . وقُرِئ " فاتَّبَعْه " بالتشديد .

(178/652)

---

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (11)

قوله : ﴿ أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ : العامَّةُ على تشديدِ الميم ، الأصلُ : أم مَنْ وهي أم المتصلةُ ، عُطِفَتْ " مَنْ " على " هم " . وقرأ الأعمش بتخفيفها ، وهو استفهامٌ ثانٍ . فالهمزةُ للاستفهام أيضاً و " مَنْ " مبتدأ ، وخبره محذوفٌ أي : ألذين خَلَقْنا هم أشدُّ؟ فهما جملتان مستقلتان وغَلَّبَ مَنْ يَعْقل على غيره فلذلك أتى ب " مَنْ " . ولازِبٌ ولازِمٌ بمعنىً . وقد قُرِئ " لازم " .

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12)

قوله : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ : قرأ الأخوان بضمِّ التاء ، والباقون بفتحها . فالفتحُ ظاهرٌ . وهو ضميرُ الرسولِ أو كلِّ مَنْ يَصِحُّ منه ذلك . وأمَّا الضمُّ فعلى صَرْفه للمخاطب أي : قُلْ يا محمدُ بل عَجِبْتُ أنا ، أو على إسنادِه للباري تعالى على ما يَليقُ به ، وقد تقدَّم تحريرُ هذا

في البقرة، وما وَرَدَ منه في الكتاب والسنَّة . وعن شُرَيْحٍ أنه أنكرها ، وقال : " إنَّ اللهَ لا يَعْجَبُ " فبلغَتْ إبراهيمَ النخعي فقال : " إن شريحاً كان مُعْجَباً برأيه ، قرأها مَنْ هو أعلمُ منه " يعني عبد الله بن مسعود .

قوله : " ويَسْخَرون " يجوزُ أَنْ يكونَ استئنافاً وهو الأظهرُ ، وأن يكونَ حالاً . وقرأ جناح بن حبيش " ذُكِروا " مخففاً .

أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17)

(179/652)

---

قوله : ﴿ أَوَآبَآؤُنَا ﴾ : قرأ ابن عامر وقالون بسكونِ الواوِ على أنَّها " أو " العاطفةُ المقتضيةُ للشكِّ . والباقون بفتحِها على أنها همزةُ استفهامٍ دخلَتْ على واوِ العطفِ . وهذا الخلافُ جارٍ أيضاً في الواقعة . وقد تقدَّم مثلُ هذا في الأعراف في قولِه : ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾ [ الأعراف : 98 ] فمَنْ فتح الواوَ جاز " في آباؤنا " وجهان ، أحدهما : أَنْ يكونَ معطوفاً على مَحَلِّ " إنَّ " واسمِها . والثاني : أَنْ يكونَ معطوفاً على الضمير المستترِ في " لَمَبْعوثون " واستغنى بالفصلِ بهمزةِ الاستفهامِ . ومَنْ سَكَّنها تعيَّن فيه الأولُ دون الثاني على قولِ الجمهور لعَدَمِ الفاصل .

وقد أوضح هذا الزمخشريُّ حيث قال : " آباؤنا " معطوفٌ على محل " إنَّ " واسمِها ، أو على الضميرِ في " مَبْعوثون " . والذي جوَّز العطفَ عليه الفصلُ بهمزةِ الاستفهام " . قال الشيخُ : أمَّا قولُه : " معطوفٌ على محلِّ إنَّ واسمها " فمذهبُ سيبويه خلافُه ؛ فإنَّ قولَك " إن زيداً قائمٌ وعمروٌ " " عمروٌ " فيه مرفوعٌ بالابتداء وخبرُه محذوفٌ . وأمَّا قولُه : " أو على الضميرِ في " مبعوثون " إلى آخره فلا يجوز أيضاً لأنَّ همزةَ الاستفهامِ لا تدخل إلاَّ على الجملِ لا على المفرد ؛ لأنه إذا عُطِف / على المفردِ كان الفعلُ عاملاً في المفرد بوساطة حرفِ العطفِ ، وهمزةُ الاستفهام لا يَعْمَلُ ما قبلها فيما بعدها . فقوله : " أو آباؤنا " مبتدأٌ محذوفُ الخَبرِ ، تقديرُه : أو آباؤنا مبعوثون ، يَدُلُّ عليه ما قبله . فإذا قلتَ : " أقام زيدٌ أو عمروٌ " فعمروٌ مبتدأ محذوفُ الخبرِ لما ذكرنا " .

(180/652)

---

قلت : أمَّا الردُّ الأولُ فلا يَلْزَمُ ؛ لأنه لا يلتزمُ مذهبَ سيبويه . وأمَّا الثاني فإنَّ الهمزةَ مؤكِّدة للأولى فهي داخلةٌ في الحقيقةِ على الجملةِ ، إلاَّ أنه فَصَلَ بين الهمزتين ب " إنَّ " واسمها وخبرها . يَدُلُّ على هذا ما قاله هو في سورةِ الواقعة ، فإنه قال : " دَخَلَتْ همزةُ الاستفهامِ على حَرْفِ العطفِ . فإنْ قلت : كيف حَسُنَ العطفُ على المضمر " لَمبعوثون " من غيرِ

تأكيدٍ ب " نحن " ؟ قلتُ : حَسُنَ للفاصلِ الذي هو الهمزةُ كما حَسُنَ في قولِه : ﴿ مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا ﴾ [الأنعام : 148] لفَصْلِ المؤكِّدةِ للنفي " . انتهى . فلم يَذْكُرْ هنا غيرَ هذا الوجهِ ، وتشبيهَه بقوله : لفَصْلِ المؤكِّدةِ للنفي ، لأنَّ " لا " مؤكِّدةٌ للنفي المتقدِّمِ ب " ما " . إلاَّ أنَّ هذا مُشْكِلٌ : بأنَّ الحرفَ إذا كُرِّر للتوكيد لم يُعَدْ في الأمر العام إلاَّ بإعادة ما اتصل به أولاً أو بضميرِه . وقد مضى القولُ فيه . وتحصَّل في رفع " آباؤنا " ثلاثةُ أوجهٍ : العطفُ على محلِّ " إن " واسمِها ، العطفُ على الضمير المستكنِّ في " لَمبعوثون " ، الرفعُ على الابتداء ، والخبرُ مضمرٌ . والعامل في " إذا " محذوفٌ أي : أُنْبْعَثُ إذا مِتْنا . هذا إذا جَعَلْتَها ظرفاً غيرَ متضمنٍ لمعنى الشرطِ . فإنْ جَعَلْتَها شرطيةً كان جوابُها عاملاً فيها أي : أإذا مِتْنا بُعِثْنا أو حُشِرْنا .

وقُرِئَ " إذا " دونَ استفهامٍ . وقد مضى القولُ فيه في الرعد .

قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (18)

قوله : ﴿ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ : جملةٌ حاليةٌ . العاملُ فيها الجملةُ القائمةُ مَقامَها " نعم " أي : تُبْعَثون وأنتم صاغرون أذلاَّءُ . قال الشيخ : " وقرأ ابنُ وثاب " نَعِمْ " بكسر العين . قلت : وقد تقدم في الأعراف أنَّ الكسائيَّ قرأها كذلك حيث وقعَتْ ، وكلامُه هنا مُوْهِمٌ أنَّ ابنَ وثَّاب منفردٌ بها .

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (19)

قوله : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ ﴾ : قال الزمخشري : " فإنما هي جوابُ شرطٍ مقدر تقديرُه : إذا كان ذلك فما هي إلاَّ زَجْرَةٌ واحدةٌ " . قال الشيخ : " وكثيراً ما تُضْمَرُ جملةُ الشرطِ قبل فاءٍ إذا ساغ تقديرُه ، ولا ضرورةَ تَدْعُوْ إلى ذلك ، ولا يُحْذَف الشرطُ ويبقى جوابُه ، إلاَّ إذا انجزم الفعلُ في الذي يُطْلَقُ عليه أنه جوابٌ للأمرِ والنهي وما ذُكِر معهما . أمَّا ابتداءً فلا يجوزُ حَذْفُه " .

قوله : " هي " ضميرُ البعثةِ المدلولِ عليها بالسِّياق لَمَّا كانَتْ بعثتُهم ناشئةً عن الزَّجْرَة جُعِلَتْ إياها مجازاً . وقال الزمخشري : " هي مبهمةٌ يُوَضِّحها خبرُها " . قال الشيخ : " وكثيراً ما يقول هو وابنُ مالك : إن الضميرَ يُفَسِّره خبرُه " .

وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (20)

ووقف أبو حاتمٍ على " وَيْلَنا " وجعل ما بعده من قول الباري تعالى . وبعضُهم جَعَلَ ﴿ هذا يَوْمُ الدين ﴾ مِنْ كلامِ الكفرة فيقف عليه . وقوله : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل ﴾ مِنْ قولِ الباري تعالى . وقيل : الجميعُ مِنْ كلامهم ، وعلى هذا فيكونُ قولُه " تُكَذِّبون " : إمَّا التفاتاً من التكلم إلى الخطاب ، وإمَّا مخاطبةُ بعضِهم لبعض .

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22)

قوله : ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ : العامَّةُ على نصبِه ، وفيه وجهان ، أحدهما : العطفُ على الموصول . والثاني : أنه مفعولٌ معه . قال أبو البقاء : " وهو في المعنى أقوى " . قلت : إنما قال في المعنى لأنَّه في الصناعةِ ضعيفٌ ؛ لأنه أمكن العطفُ فلا يُعْدَلُ عنه . وقرأ عيسى بن سليمان الحجازي بالرفعِ عَطْفاً على ضمير " ظَلَموا " وهو ضعيفٌ لعدمِ العاملِ . وقوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ لا يجوز فيه هذا لأنه لا يُنْسَبُ إليهم ظلمٌ ، إنْ لم يُرَدْ بهم الشياطينُ : وإن أُريد بهم ذلك جاز فيه الرفعُ أيضاً على ما تقدَّم .

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (24)

قوله : ﴿ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾ : العامَّةُ على الكسرِ على الاستئناف المفيدِ للعلة . وقُرِئ بفتحها على حَذْفِ لامِ العلةِ أي : قِفُوهم لأجل سؤال اللَّهِ إياهم .

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (25)

قوله : ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ منقطعاً عَمَّا قبله والمسؤولُ عنه غيرُ مذكورٍ ، ولذلك قَدَّره بعضُهم : عن أعمالهم . ويجوز أَنْ يكونَ هو المسؤولَ عنه في المعنى ، فيكونَ معلِّقاً للسؤال . و " لا تناصَرون " جملةٌ حالية . العاملُ فيها الاستقرارُ في " لكم " . وقيل : بل

هي على حَذْفِ حرفِ الجرِّ ، و " أنْ " الناصبة ، فلمَّا حُذِفَتْ " أن " ارتفع الفعلُ .

والأصل : في أنْ لا ، وتقدَّمَتْ قراءةُ البزي " لا تَّناصرون " بتشديد التاء . وقُرِئ " تَتَناصرون " على الأصلِ .

قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (28)

قوله : ﴿ عَنِ اليمين ﴾ : حالٌ من فاعل " تَأْتُونَنا " . واليمينُ : إمَّا الجارحةُ عَبَّر بها عن القوةِ ، وإمَّا الحَلْفُ ؛ لأنَّ المتعاقِدَيْن بالحَلْفِ يَمْسَح كلٌّ منهما يمينَ الآخرِ ، فالتقديرُ على الأول : تأتوننا أقوياءَ ، وعلى الثاني مُقْسِمين حالفين . /

(183/652)

---

فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (31)

قوله : ﴿ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾ : الظاهر أنه مِنْ إخبارِ الكَفَرةِ المتبوعين أو الجنّ بأنَّهم ذائِقون العذابَ . ولا عدولَ في هذا الكلامِ . وقال الزمخشري : " فَلَزِمَنا قولُ ربِّنا إنَّا لَذائقون . يعني وعيدَ اللَّهِ بأنَّا لذائقون لعذابه لا مَحالةَ . ولو حكى الوعيدَ كما هو لقال : إنَّكم لذائقون ، ولكنه عَدَلَ به إلى لفظِ المتكلم ؛ لأنهم متكلِّمون بذلك عن أنفسِهم . ونحوُه قولُ القائلِ :

3790ب لقد عَلِمَتْ هوازِنُ قَلَّ مالي . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

. . . . .

ولو حكى قولَها لقال : قَلَّ مالُك . ومنه قولُ المُحَلِّفِ للحالِف : احْلِفْ " لأَخْرُجَنَّ " و " لَتَخْرُجَنَّ " الهمزةُ لحكايةِ الحالفِ ، والتاءُ لإِقبالِ المحلِّف على المحلَّف " .

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33)

قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ : أي : يومَ إذ يَسْأَلوا ويُراجِعوا الكلامَ فيما بينهم .

بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37)

قوله : ﴿ وَصَدَّقَ المرسلين ﴾ : أي : صَدَّقهم محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم . وقرأ عبد الله " صَدَقَ " خفيفةَ الدالِ . " المُرْسلون " فاعلاً به أي : صَدَقوا فيما جاؤوا به مِنْ بشارتهم به عليه السلام .

إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (38)

قوله : ﴿ لَذَآئِقُو العذاب ﴾ : العامة على حذفِ النونِ والجرِّ . وقرأ بعضُهم بإثباتِها ، والنصبِ ، وهو الأصلُ . وقرأ أبان بن تغلب عن عاصم وأبو السَّمَّال في روايةٍ بحذف النون والنصبِ ، أَجْرى النون مُجْرى التنوين في حَذْفِها لالتقاء الساكنين كقولِه : ﴿ أَحَدُ الله الصمد ﴾ [ الإخلاص : 1-2 ] [ وقولِه ] :

3791 . . . . . . . . . . . . . . . . . . ولا ذاكرَ اللَّهَ إلاَّ قليلا

وقال أبو البقاء : " وقُرِئ شاذّاً بالنصب ، وهو سهوٌ من قارئه لأنَّ اسمَ الفاعلِ تُحْذَفُ منه النونُ ويُنْصَبُ إذا كان فيه الألفُ واللامُ " . قلت : وليس بسَهْوٍ لما ذَكَرْتُه لك . وقرأ أبو السَّمَّال أيضاً " لَذائِقٌ " بالإِفراد والتنوين ، " العذابَ " نصباً . تخريجُه على حَذْفِ اسمِ جمعٍ هذه صفتُه ، أي : إنكم لَفريقٌ أو لجمعٌ ذائِقٌ ؛ ليتطابقَ الاسمُ والخبرُ في الجمعيَّةِ .

وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39)

وقوله : { إِلاَّ مَا كُنْتُمْ } : أي : إلاَّ جزاءَ ما كنتم .

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40)

قوله : { إِلاَّ عِبَادَ الله } : استثناءٌ منقطعٌ .

أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41)

وقوله : { أُوْلَئِكَ } : إلى آخره بيانٌ لحالِهم .

فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (42)

قوله : { فَوَاكِهُ } : يجوزُ أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ " رزق " ، وأن يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ أي : ذلك الرزقُ فواكهُ .

عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (44)

وقوله : ﴿ على سُرُرٍ ﴾ : العامَّةُ على ضمِّ الراءِ . وأبو السَّمَّال بفتحها ، وهي لغةُ بعضِ كلبٍ وتميمٍ : يفتحون عينَ فُعُل إذا كان اسماً مضاعفاً . وأمَّا الصفةُ نحو " ذُلُل " ففيها خلافٌ : الصحيحُ أنه لا يجوز ؛ لأنَّ السَّماعَ وَرَدَ في الجوامد دونَ الصفات .

قوله : " في جنات " يجوز أَنْ يتعلَّقَ ب " مُكْرَمون " ، وأَنْ يكونَ خبراً ثانياً ، وأَنْ يكونَ حالاً ، وكذلك " على سُرُرٍ " . و " متقابلين " حالٌ . ويجوزُ أَنْ يتعلَّق " على سرر " بمتقابلين ، و " يُطافُ " صفةٌ ل " مُكْرَمُون " ، أو حالٌ من الضمير في " متقابلين " ، أو من الضميرِ في أحدِ الجارَّين إذا جعلناه حالاً .

والكأسُ من الزُّجاج ما دام فيها خمرٌ أو نبيذٌ وإلاَّ فهي قَدَحٌ . وقد تُطْلَق الكأسُ على الخمرِ نفسِها ، وهو مجازٌ سائغٌ . وأُنْشِدَ :



---

3792 وكأسٍ شَرِبْتُ على لَذَّةٍ . . . وأخرى تَداوَيْتُ منها بها

و " من مَعين " صفةٌ ل " كأس " وتقدَّم الكلامُ على " معين " .

بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46)

قوله : ﴿ بَيْضَآءَ ﴾ : صفةٌ ل " كَأْس " . وقال الشيخ : " صفةٌ ل كأس أو للخمرِ " . قلت : لم تُذْكَرِ الخمرُ ، اللَّهم إلاَّ أَنْ يَعْنِيَ بالمَعين الخمرَ وهو بعيدٌ جداً .

وقرأ عبد الله " صفراءَ " وهي مخالِفَةٌ للسَّواد ، إلاَّ أنه قد جاء وَصْفُها بهذا اللونِ . وأنشد لبعض المُوَلَّدين :

3793 صَفْراءُ لا تَنْزِلُ الأحزانُ ساحتَها . . . لو مَسَّها حَجَرٌ مَسَّتْه سَرَّاءُ

و " لَذَّةٍ " صفةٌ أيضاً . وُصِفَتْ بالمصدرِ مبالغةً أو على حَذْفِ المضاف أي : ذات لذةٍ ، أو على تأنيثِ لَذّ بمعنى لذيذ فيكون وصفاً على فَعْل كصَعْبٍ . يُقال : لَذَّ الشيءُ يَلَذُّ لَذاًّ فهو لَذيذ ولَذٌّ . وأنشد :

3794 بحديثِها اللَّذِّ الذي لو كَلَّمَتْ . . . أُسْدَ الفَلاةِ به أَتَيْنَ سِراعا

وقال آخر :

3795 ولَذٍّ كطَعْمِ الصَّرْخَدِيِّ تَرَكْتُه . . . بأَرضِ العِدا مِنْ خَشْيَةِ الحَدَثانِ

واللذيذُ : كلُّ شيءٍ مُسْتَطاب . وأُنْشِد :

3796 تَلَذُّ لِطَعْمِه وتَخالُ فيه . . . إذا نَبَّهْتَها بعدَ المَنامِ

و " للشاربين " صفةٌ ل " لَذَّةٍ " .

لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (47)

و : ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ : صفةٌ أيضاً . وبَطَل عَمَلُ " لا " وتكرَّرت لتقدُّمِ خبرِها . وقد

تقدَّم أولَ البقرةِ فائدةُ تقديمَ مثلِ هذا الخبرِ وردُّ الشيخِ له والبحثُ معه، فعليك بالالتفات إليه.

(186/652)

---

قوله: "يُنْزَفُون" قرأ الأخوان "يُنْزِفون" هنا وفي الواقعة بضمِّ الياءِ وكسرِ الزاي. وافقهما عاصمٌ على ما في الواقعة فقط. والباقون بضم الياءِ وفتحِ الزاي. وابنُ أبي إسحاق بالفتح والكسر. وطلحة بالفتح والضمِّ. فالقراءةُ الأولى مِنْ أَنْزَفَ الرجلُ إذا ذهب عقلُه من السُّكْرِ فهو نَزِيْفٌ ومَنْزُوْف. وكان قياسُه مُنْزَفٌ كمُكْرَم. ونَزَفَ الرجلُ الخمرةَ فأَنْزَف هو، ثلاثيُّه متعدٍ، ورباعيُّه بالهمزة قاصرٌ، وهو نحو: كَبَبْتُه فأَكَبَّ وقَشَعَتِ الريحُ السَّحابَ فأَقْشَع/ أي: دخلا في الكَبِّ والقَشْع. وقال الأسودُ:

3797 لَعَمْري لَئِنْ أُنْزِفْتُمُ أو صَحَوْتُمُ ... لبِئْسَ النَّدامى أنتمُ آلَ أَبْجرا

ويقال: أَنْزَفَ أيضاً أي: نَفِدَ شرابُه. وأمَّا الثانية فمِنْ نُزِف الرجلُ ثلاثياً مبنياً للمفعول بمعنى: سَكِر وذَهَبَ عَقْلُه أيضاً. ويجوزُ أَنْ تكونَ هذه القراءةُ مِنْ أُنْزِف أيضاً بالمعنى المتقدِّم. وقيل: هو مِنْ قولِهم: نَزَفْتُ الرَّكِيَّةَ أي: نَزَحْتُ ماءَها. والمعنى: أنهم لا تَذْهَبُ خمورُهم بل هي باقيةٌ أبداً. وضَمَّنَ "يُنْزَفُوْن" معنى يَصُدُّون عنها بسبب النزيف

. وأمّا القراءتان الأخيرتان فيقال : نَزِف الرجلُ ونَزُف بالكسر والضم بمعنى : ذَهَبَ عَقْلُه بالسُّكْر .

والغَوْلُ : كلُّ ما اغتالك أي : أَهْلَكك . ومنه الغُوْل بالضم : شيءٌ تَوَهَّمَتْه العربُ . ولها فيه أشعارٌ كالعَنْقاءِ يُقال : غالني كذا . ومنه الغِيْلَة في القَتْل والرَّضاع قال :

3798 مَضَى أَوَّلُونا ناعِمِيْنَ بعيشِهِمْ . . . جميعاً وغالَتْني بمكةَ غُوْلُ

وقال آخر :

وما زالَتِ الخَمْرُ تَغْتالنا . . . وتَذْهَبُ بالأولِ الأولِ

فالغَوْل اسمٌ عامٌّ لجميع الأَذَى .

وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48)

(187/652)

---

و : ﴿ قَاصِرَاتُ الطرف ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ من باب الصفةِ المشبهةِ أي : قاصراتٌ أطرافُهنّ كمُنْطَلِق اللسان ، وأَنْ يكونَ من باب اسم الفاعل على أصلِه . فعلى الأولِ المضافُ إليه مرفوعُ المحلِّ ، وعلى الثاني منصوبُه أي : قَصُرَتْ أطرافُهُنّ على أزواجِهِنَّ وهو مدحٌ عظيمٌ . قال امرؤ القيس :

3800 من القاصِراتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ . . . من الذَّرِّ فوق الإِتْبِ منها لأَثَّرا

والعِيْنُ : جمع عَيْناء وهي الواسعةُ العينِ . والذَّكَرُ أَعْيَنُ ، والبَيْضُ جمعُ بَيْضَة وهو معروفٌ . والمرادُ به هنا بَيْضُ النَّعام . والمَكْنون المصُون مِنْ كَنَنْتُه أي : جَعَلْتُه في كِنّ . والعربُ تُشَبِّه المرأَةَ بها في لَوْنِها ، وهو بياضٌ مُشْرِبُ بعض صُفْرَةٍ . والعربُ تُحبُّه . قال امرؤ القيس :

3801 وبَيْضَةِ خِدْرٍ لا يُرام خِباؤُها . . . تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ

كبِكْرِ مُقاناةِ البَياضِ بصُفْرَةٍ . . . غَذاها نَميْرُ الماءِ غيرَ المُحَلَّلِ

وقال ذو الرمة :

3802 بيضاءُ في بَرَجٍ صَفْراءُ في غَنَجٍ . . . كأنها فِضَّةٌ قد مَسَّها ذَهَبُ

وقال بعضُهم : إنما شُبِّهَتِ المرأةُ بها في أجزائِها ، فإنَّ البيضةَ من أيِّ جهةٍ أتيتَها كانَتْ في رأي العينِ مُشْبِهةً للأخرى وهو في غاية المدح . وقد لَحَظ هذا بعضُ الشعراءِ حيث قال :

3803 تناسَبَتِ الأعضاءُ فيها فلا تَرَى . . . بهنَّ اختلافاً بل أَتَيْنَ على قَدْرِ

ويُجْمع البَيْضُ على بُيُوْض قال :

3804 بتَيْهاءَ قفرٍ والمَطِيِّ كأَنَّها . . . قطا الحَزْنِ قد كانَتْ فِراخاً بُيوضُها

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50)

قوله : ﴿ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ : حالٌ من فاعل " أَقْبَلَ " و " أقبل " معطوفٌ على " يُطاف " أي : يَشْرَبون فيتحدثون . وكذا حالُ الشَّرْبِ حيث يَجْلسون كما قال :

(188/652)

---

3805 وما بَقِيَتْ من اللَّذَّاتِ إلاَّ . . . محادثة الكِرامِ على المُدامِ

وأتى بقوله : " فأَقْبَلَ " ماضياً لتحقُّقِ وقوعِه كقولِه : ﴿ ونادى أَصْحَابُ الجنة ﴾ [ الأعراف : 44 ] ﴿ ونادى أَصْحَابُ النار ﴾ [ الأعراف : 50 ] .

يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52)

قوله : ﴿ لَمِنَ المصدقين ﴾ : العامَّةُ على تخفيفِ الصادِ من التصديق أي : لَمِنَ المُصَدِّقين بلقاءِ الله . وقُرِئ بتشديدِها من الصَّدَقة .

قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54)

وقرأ العامَّةُ " مُطَّلِعُوْنَ " بتشديد الطاءِ مفتوحةً وبفتح النونِ . " فاطَّلَع " ماضياً مبنياً للفاعل ، افْتَعَلَ من الطُّلوع .

وقرأ ابنُ عباس في آخرين - ويُرْوَى عن أبي عمروٍ - بسكونِ الطاءِ وفتح النون " فأُطْلِعَ " بقطعِ همزةٍ مضمومةٍ وكسرِ اللامِ ماضياً مبنياً للمفعول . و " مُطْلِعُوْنَ " على هذه القراءة

يحتمل أَنْ يكونَ قاصراً أي: مُقْبِلون مِنْ قولِك: أَطْلَعَ علينا فلانٌ أي: أَقْبَلَ، وأَنْ يكونَ متعدياً، ومفعولُه محذوفٌ أي: أصحابَكم.

وقرأ أبو البرهسم وعَمَّار بن أبي عمار "مُطْلِعُوْنِ" خفيفةَ الطاء مكسورةَ النون، "فَأُطْلِعَ" مبنياً للمفعول. وقد ردَّ الناسُ - أبو حاتم وغيرُه - هذه القراءةَ من حيث الجمعُ بين النونِ وضميرِ المتكلم؛ إذ كان قياسُها مُطْلِعيَّ، والأصل: مُطْلِعُوْي، فأُبْدِل وأُدْغِمَ نحو: جاء مُسْلِميَّ العاقلون، وقوله عليه السلام "أوَمُخْرِجِيَّ هم" وقد وَجَّهها ابنُ جني على أنَّه أُجْرِيَ فيها اسمُ الفاعل مُجْرى المضارع، يعني في إثباتِ النونِ فيه مع الضميرِ. وأَنْشَدَ الطبريُّ على ذلك:

3806 وما أَدْري وظَنِّي كلَّ ظنٍّ... أَمُسْلِمُني إلى قومي شَرُاحِ

(189/652)

---

/وإليه نحا الزمخشريُّ قال: "أو شَبَّه اسمَ الفاعلِ في ذلك بالمضارعِ لتآخي بينِهما كأنَّه قال: "يُطْلِعُونِ". وهو ضعيفٌ لا يقع إلا في شِعْرٍ. وذكر فيه توجيهاً آخرَ فقال: "أراد مُطْلِعون إياي فوضع المتصلَ موضعَ المنفصلِ، كقوله:

3807 هم الفاعلونَ الخيرَ والآمِرُوْنَه........................

. . . . . .

وردّه الشيخ : بأنّ هذا ليس مِنْ مواضِع المنفصل حتى يدّعِي أن المتصل وَقَعَ موقِعه . لا يجوز : " هندُ زيدٌ ضاربٌ إياها ، ولا زيدٌ ضاربٌ إياي " قلت : إنما لم يَجُزْ ما ذَكَرَ ؛ لأنه إذا قُدِرَ على المتصلِ لم يُعْدَلْ إلى المنفصلِ . ولقائلٍ أنْ يقولَ : لا نُسَلِّمُ أنه يُقْدَرُ على المتصلِ حالةَ ثبوتِ النونِ والتنوينِ قبل الضميرِ ، بل يصيرُ الموضعُ موضعَ الضميرِ المنفصلِ ؛ فيَصِحُّ ما قاله الزمخشريُّ . وللنحاةِ في اسمِ الفاعلِ المنونِ قبل ياءِ المتكلمِ نحوَ البيتِ المتقدمِ ، وقولِ الآخر :

3808 فهلْ فتىً مِنْ سَراةِ القَوْمِ يَحْمِلُني . . . وليس حامِلَني إلاَّ ابنُ حَمَّالِ

وقول الآخر :

3809 وليس بمُعْيِيْنِي وفي الناسِ مُمْتِعٌ . . . صديقٌ إذا أعْيا عليَّ صديقُ

قولان ، أحدُهما : أنَّه تنوينٌ ، وأنه شَذَّ تنوينُه مع الضميرِ ، وإنْ قلنا : إن الضمير بعده في محلِّ نصبٍ . والثاني : أنه ليس تنويناً ، وإنما هو نونُ وقايةٍ . واستدلَّ ابنُ مالكٍ على هذا بقولِه :

وليس بمُعْيِيْنِي . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . . . . .

وبقوله أيضاً :

3810 وليس المُوافِيني لِيُرْفَدَ خائباً . . . فإنَّ له أَضْعافَ ما كان أَمَّلا

ووَجْهُ الدلالةِ من الأول: أنَّه لو كان تنويناً لكان ينبغي أن يحذفَ الياءَ قبلَه؛ لأنه منقوصٌ منونٌ، والمنقوص المنونُ تُحذف ياؤه رفعاً وجرَّاً لالتقاء الساكِنَيْن.

(190/652)

---

ووجهُها من الثاني: أنَّ الألفَ واللامَ لا تُجامِعُ النونَ والذي يُرَجِّح القولَ الأول ثبوتُ النونِ في قوله: "والآمِرُوْنَه" وفي قولِه:

3811 ولم يَرْتَفِقْ والناسُ مُحْتَضِرُونَه ... جميعاً وأَيْدي المُعْتَفِيْنَ رواهِقُهْ

فإنَّ النونَ قائمةٌ مقامَ التنوينِ تثنيةً وجمعاً على حدِّها. وقال أبو البقاء: "ويُقْرأ بكسرِ النونِ، وهو بعيدٌ جداً؛ لأنَّ النونَ إنْ كانت للوقايةِ فلا تَلْحَقُ الأسماءَ، وإنْ كانَتْ نونَ الجمعِ فلا تَثْبُتُ في الإِضافةِ". قلت: وهذا الترديدُ صحيحٌ لولا ما تقدَّم من الجوابِ عنه مع تَكَلُّفٍ فيه، وخروجٍ عن القواعد، ولولا خَوْفُ السَّآمةِ لاسْتَقْصَيْتُ مذاهبَ النحاةِ في هذه المسألة.

وقُرِئ "مُطَّلِعُوْن" بالتشديد كالعامَّة، "فأَطَّلِعَ" مضارعاً منصوباً بإضمار "أَنْ" على جواب الاستفهامِ. وقُرِئ "مُطْلِعون" بالتخفيف "فَأَطْلَعَ" مخففاً ماضياً ومخففاً مضارعاً منصوباً على ما تقدَّم. يُقال: طَلَع علينا فلانٌ وأَطْلع، كأَكْرم، واطَّلَع بالتشديد بمعنًى

واحد .

وأمّا قراءةُ مَنْ بنى الفعلَ للمفعولِ في القائمِ مقامَ الفاعلِ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه مصدرُ الفعلِ أي : أُطْلِعَ الإِطلاعُ . الثاني : الجارُّ المقدرُ . الثالث - وهو الصحيح - أنه ضميرُ القائلِ لأصحابِه ما قاله ؛ لأنه يُقال : طَلَعَ زيدٌ وأَطْلعه غيرُه ، فالهمزةُ فيه للتعدية . وأمّا الوجهان الأوَّلان فذهب إليهما أبو الفضل الرازيُّ في " لوامحه " فقال : " طَلَعَ واطَّلع إذا بدا وظَهَر ، وأَطْلَع إطلاعاً إذا جاء وأَقْبَلَ . ومعنى ذلك : هل أنتم مُقْبِلون فأُقْبِل . وإنما أُقيم المصدرُ فيه مُقامَ الفاعلِ بتقدير : فأُطْلِعَ الإِطلاعُ ، أو بتقديرِ حرفِ الجر المحذوف أي : أُطْلِعَ به ؛ لأن أَطْلَعَ لازم كما أنَّ أَقْبَلَ كذلك " .

(191/652)

---

وقد رَدَّ الشيخُ عليه هذين الوجهين فقال : " قد ذكرْنا أنَّ أَطْلَعَ بالهمزة مُعَدَّى مِنْ طَلَعَ اللازمِ . وأمّا قولُه : " أو حرف الجرِّ المحذوف أي : أُطِلع به " فهذا لا يجوزُ ؛ لأنَّ مفعولَ ما لم يُسَمَّ فاعلُه لا يجوز حَذْفُه لأنه نائبٌ عنه ، فكما أنَّ الفاعلَ لا يجوز حَذْفُه دونَ عامِله فكذلك هذا . لو قلت : " زيدٌ ممرورٌ أو مغضوبٌ " تريد : به أو عليه لم يَجُزْ " . قلت : أبو الفضل لا يَدَّعي أنَّ النائبَ عن الفاعل محذوفٌ ، وإنما قال : بتقدير حرفِ الجرِّ المحذوفِ . ومعنى

ذلك: أنه لَمَّا حُذِفَ حرفُ الجرِّ اتّساعاً انقلبَ الضميرُ مرفوعاً فاستتر في الفعلِ، كما يُدَّعى ذلك في حَذْفِ عائد الموصولِ المجرورِ عند عَدَمِ شروطِ الحذفِ/ ويُسَمَّى الحذفَ على التدريج.

فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (55)

قوله: ﴿ فَرَآهُ ﴾: عطفٌ على "فاطَّلَعَ". وسواءُ الجحيمِ وَسَطُها. وأحسنُ ما قيل فيه ما قاله ابنُ عباس: سُمِّي بذلك لاستواءِ المسافةِ منه إلى الجوانبِ. وعن عيسى بن عمر أنه قال لأبي عبيدة: "كنت أَكْتُبُ حتى ينقطعَ سَوائي".

قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (56)

قوله: ﴿ تاللهِ ﴾: قَسَمٌ فيه [معنى] تعجُّبٍ، و "إنْ" مخففةٌ أو نافية، واللام فارقةٌ أو بمعنى "إلاَّ"، وعلى التقديرين فهي جوابُ القسمِ أعني إنْ وما في حَيِّزها.

أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58)

قوله: ﴿ بمَيِّتِينَ ﴾: قرأ زيد بن علي "بمائِتين" وهما مثلُ: ضيِّق وضائق. وقد تقدَّم.

وقوله: "أفما" فيه الخلافُ المشهورُ: فقدَّره الزمخشري: أنحن مُخَلَّدون مُنَعَّمون فما نحن بميِّتين. وغيرُه يجعلُ الهمزةَ متقدمةً على الفاءِ.

إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59)

قوله : ﴿ إِلَّا مَوْتَتَنَا ﴾ : منصوبٌ على المصدر . والعاملُ فيه الوصفُ قبلَه ، ويكون استثناءً مفرَّغاً . وقيل : هو استثناءٌ منقطعٌ ، أي : لكنْ الموتةُ الأولى كانت لنا في الدنيا . وهذا قريبٌ في المعنى مِنْ قولِه تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ [ الدخان : 56 ] وفيها بَحْثٌ حَسَنٌ وهناك إنْ شاء اللَّهُ يأتي تحقيقُه .

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61)

وقوله : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ ﴾ : إلى قوله : " العامِلون " يحتملُ أنْ يكونَ مِنْ كلامِ القائلِ ، وأَنْ يكونَ مِنْ كلامِ الباري تعالى .

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62)

قوله : ﴿ نُزُلاً ﴾ : تمييزٌ ل " خيرٌ " ، والخيريَّةُ بالنسبة إلى ما اختاره الكفارُ على غيرِه . والزَّقُّوم : شجرةٌ مَسْمومةٌ يَخْرج لها لبنٌ ، متى مَسَّ جسمَ أحدٍ تَوَرَّمَ فمات . والتَزَقُّمُ البَلْعُ بشِدةٍ وجُهْدٍ للأشياءِ الكريهة . وقولُ أبي جهلٍ - وهو من العرب العَرْباء - " لا نعرفُ الزَّقُّومَ إلاَّ التمرَ بالزُّبْدِ " من العِناد والكذب البَحْتِ .

طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (65)

قوله : ﴿ رُءُوسُ الشياطين ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنه حقيقةٌ ، وأنَّ رؤوسَ الشياطينِ شجرٌ بعينِه بناحيةِ اليمن يُسَمَّى " الأَسْتَن " وقد ذكره النابغةُ :

3812 تَحِيْدُ عن أَسْتَنٍ سُوْدٍ أسافِلُها . . . مثلَ الإِماءِ الغوادي تَحْمِلُ الحُزَمَا

وهو شجرٌ مُرٌّ منكَرُ الصورةِ ، سَمَّتْه العربُ بذلك تشبيهاً برؤوس الشياطين في القُبْحِ ثم صار أصلاً يُشَبَّه به . وقيل : الشياطين صِنْفٌ من الحَيَّاتِ ، ولهنَّ أَعْراف . قال :

3813 عُجَيِّزٌ تَحْلِفُ حينَ أَحْلِفُ . . . كمثلِ شيطانِ الحَماطِ أَعْرَفُ

وقيل : وهو شجرٌ يقال له الصَّوْمُ ، ومنه قول ساعدةَ بن جُؤَيَّة :

(193/652)

---

3814 مُوَكَّلٌ بشُدُوْفِ الصَّوْمِ يَرْقُبها . . . من المَغَارِبِ مَخْطوفُ الحَشَا زَرِمُ

فعلى هذا قد خُوْطِبَ العربُ بما تَعْرِفُه ، وهذه الشجرةُ موجودةٌ فالكلامُ حقيقةٌ .

والثاني : أنَّه من بابِ التَّخْييل والتمثيل . وذلك أنّ كلَّ ما يُسْتَنْكَرُ ويُسْتَقْبَحُ في الطِّباعِ والصورةِ يُشَبَّه بما يتخيَّله الوهمُ ، وإن لم يَرَه . والشياطين وإن كانوا موجودين غيرَ مَرْئِيِّيْن للعرب ، إلاَّ أنه خاطبهم بما أَلِفوه من الاستعارات التخييلية ، كقوله :

3815 . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

ومَسْنُوْنَةٌ زُرْقٌ كأَنْيابِ أَغْوالِ

ولم يَرَ أنيابَها ، بل ليسَتْ موجودةً البتةَ .

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (67)

قوله : ﴿ لَشَوْباً ﴾ : العامَّةُ على فتح الشين ، وهو مصدرٌ على أصلِه . وقيل : يُرادُ به اسمُ المفعولِ ، ويَدُلُّ له قراءةُ شيبانَ النحويِّ " لَشُوباً " بالضمِّ . قال الزجاج : " المفتوحُ مصدرٌ والمضومُ اسمٌ بمعنى المَشُوْب " كالنَّقض بمعنى المنقوض . وعَطَفَ بـ " ثمَّ " لأحدِ معنيين : إمَّا لأنه يُؤَخِّر ما يظنُّونه يَرْوِيهم مِنْ عَطَشهم زيادةً في عذابهم ، فلذلك أتى بـ " ثم " المقتضيةِ للتراخي ، وإمَّا لأنَّ العادة تقضي بتراخي الشُّرْبِ عن الأكلِ ، فعَمِل على ذلك المِنْوال . وأمَّا مَلْءُ البطنِ فيَعْقُبُ الأكلَ ، فلذلك عَطَفَ على ما قبلَه بالفاءِ و " مِنْ حميمٍ " صفةٌ لـ " شَوْباً " . والشَّوْبُ : الخَلْط والمَزْجُ ومنه : شابَ اللبنَ يَشُوبُه أي : خَلَطه ومَزَجَه .

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (74)

قوله : ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ : /استثناءٌ مِن المُنْذَرين استثناءً منقطعاً لأنه وعيدٌ ، وهم لم يَدْخُلوا في هذا الوعيدِ .

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75)

قوله : ﴿ فَلَنِعْمَ ﴾ : جوابُ لقسَمٍ مقدَّرٍ أي : فواللَّهِ . ومثلُه قوله :

3816 لَعَمْري لَنِعْمَ السَّيِّدانِ وُجِدْتُما . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . .

والمخصوصُ بالمدحِ محذوفٌ أي : نحن .

سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79)

قوله : ﴿ سَلاَمٌ على نُوحٍ ﴾ : مبتدأٌ وخبرٌ ، وفيه أوجهٌ ، أحدها : أنَّه مُفَسِّرٌ ل " تَرَكْنا " . والثاني : أنه مُفَسِّرٌ لمفعولِه أي : تركْنا عليه ثناءً وهو هذا الكلامُ . وقيل : ثَمَّ قولٌ مقدَّرٌ أي : فقُلْنا سلامٌ . وقيل : ضَمَّن معنى تركْنا معنى قلنا . وقيل : سَلَّط " تَرَكْنا " على ما بعده . قال الزمخشري : " وتركنا عليه في الآخِرين هذه الكلمةَ وهي : ﴿ سَلاَمٌ على نُوحٍ ﴾ ، بمعنى : يُسَلِّمون عليه تسليماً ، ويَدْعُوْن له ، وهو من الكلام المحكيِّ كقولك : قرأْتُ سورةٌ أَنْزَلْناها " وهذا الذي قاله قولُ الكوفيين : جعلوا الجملةَ في محلِّ نصبٍ مفعولاً ب " تَرَكْنا " ، لا أنه ضُمِّنَ معنى القولِ بل هو على معناه بخلافِ الوجهِ قبلَه ، وهو أيضاً مِنْ أقوالِهم . وقرأ عبد الله " سَلاماً " وهو مفعولٌ به ب " تَركْنا " و " كذلك " نعتُ مصدرٍ ، أو حالٌ مِنْ ضميرِه كما تقدَّمَ تحريرُه غيرَ مرَّة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 318.289 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) ﴾

لمَّا أَصَابه مِنْ الأذى مِنْ قومه حِين كذَّبوه، ولم يسمعوا منه ما كان يقول مِن حَديثنا.. رَجَعَ إلينا، فخاطبنا وخاطبناه، وكلمنا وكلمناه، ونادانا فناديناه، وكان لنا فكنَّا له، وأجابنا فأجبناه.. فَلَنِعْمَ المجيبُ كان لنا ولنعمَ المجيبون كُنَّا له!

﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾: شتان بين كَرْب نوحٍ وبيْن كَرْب أهله!

وما يبكون مثل أخي ولكن... أُعزّي النّفْس عنه بالتّأسي

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (77)

لأنَّ الناس كلهم مِن أَولاد نوح، فإنَّ مَنْ كان معه في السفينة لم يتناسلوا.

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78)

يريدُ به قول الناس عنه إلى يوم القيامة. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 235﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ والصافات صَفًّا ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ والصافات صَفًّا ﴾ قال : أقسم الله تعالى بصفوف الملائكة الذين في السموات ، كصفوف المؤمنين في الصلاة .

ويقال : يعني : صفوف الغزاة في الحرب ، كقوله عز وجل :

﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذين يقاتلون فِى سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بنيان مَّرْصُوصٌ ﴾ [ الصف : 4 ]

ويقال : بصفوف الأمم يوم القيامة لقوله عز وجل : ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبّكَ صَفَّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِداً ﴾ [ الكهف : 48 ] ويقال : صف الطيور بين السماء والأرض صافات بأجنحتها لقوله : ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ فأولئك مَا عَلَيْهِمْ مّن سَبِيلٍ ﴾ [ النور : 41 ] ويقال : صفوف الجماعات في المساجد .

وفي الآية بيان فضل الصفوف ، حيث أقسم الله بهن .

ثم قال عز وجل : ﴿ فالزجرات زَجْراً ﴾ يعني : الملائكة الذين يزجرون السحاب ، ويؤلفونه ، ويسوقونه إلى البلد الذي لا مطر بها .

ويقال : ﴿ فالزجرات ﴾ يعني : فالدافعات وهم الملائكة الذين يدفعون الشر عن بني آدم ،

موكلون بذلك .

ويقال : ﴿ الزاجرات ﴾ يعني : ما زجر الله تعالى في القرآن بقوله : ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : 130 ] ﴿ وَءَاتُوا اليتامى أموالهم وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الخبيث بالطيب وَلاَ تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً ﴾ [ النساء : 2 ] ويقال : هي التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان ، وما كان من عند الله من كتب .

(197/652)

---

ويقال : ﴿ صَفًّا فالزجرات زَجْراً ﴾ يعني : هم الأنبياء ، والرسل ، والعلماء ، يزجرون الناس عن المعاصي ، والمناهي ، والمناكر ﴿ فالتاليات ذِكْراً ﴾ يعني : الملائكة وهو جبريل يتلو القرآن على الأنبياء .

ويقال : هم المؤمنون الذين يقرؤون القرآن .

ويقال : ﴿ فالتاليات ذِكْراً ﴾ قال : هم الصبيان يتلون في الكتاب من الغدوة إلى العشية .

كان الله تعالى يحول العذاب عن الخلق ، ما دامت تصعد هذه الأربعة إلى السماء .

أولها أذان المؤذنين ، والثاني تكبير المجاهدين ، والثالث تلبية الملبين ، والرابع صوت

الصبيان في الكتاب.

وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ﴿ والصافات صَفًّا ﴾ قال: الملائكة ﴿ فالزجرات زَجْرًا ﴾ قال: الملائكة ﴿ فالتاليات ذِكْرًا ﴾ قال: الملائكة وهكذا قال مجاهد: قد أقسم الله بهذه الأشياء ﴿ إِنَّ إلهكم لَوَاحِدٌ ﴾ ويقال: أقسم بنفسه فكأنه يقول: وخالق هذه الأشياء ﴿ إِنَّ إلهكم لَوَاحِدٌ ﴾ يعني: ربكم، وخالقكم، ورازقكم، لواحد.

﴿ رَب السموات ﴾ يعني: الذي خلق السموات ﴿ والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ من خلق ﴿ وَرَبُّ المشارق ﴾ يعني: مشرق كل يوم.

وقال في آية أخرى: ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الاولين ﴾ [الرحمن: 17] أي: مشرق الشتاء، ومشرق الصيف.

وقال في هذه السورة ﴿ ربّ المشارق ﴾ أي: مشرق كل يوم.

ثم قال ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السماء الدنيا ﴾ يعني: الأدنى.

وإنما سميت الدنيا لأنها أقرب إلى الأرض ﴿ بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ أي: بضوء الكواكب.

قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص ﴿ بِزِينَةٍ ﴾ بالتنوين ﴿ الكواكب ﴾ بالكسر بغير تنوين، بكسر الباء.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ بِزِينَةٍ ﴾ بالتنوين ﴿ الكواكب ﴾ بالنصب، والباقون

﴿ بِزِينَةٍ ﴾ بالكسر بغير تنوين ﴿ الكواكب ﴾ بكسر الباء .

فمن قرأ ﴿ بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ بالكسر جعل الكواكب بدلاً من الزينة .

(198/652)

---

والمعنى : إنّا زينا السماء الدنيا بالكواكب .

ومن قرأ بالنصب ، أقام الزينة مقام التزيين .

فكأنه قال : إنّا زينا السماء الدنيا بتزييننا الكواكب ، فيكون الكواكب على معنى التفسير .

ومن قرأ بغير تنوين ، فهو على إضافة الزينة إلى الكواكب .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : الكواكب معلقة بالسماء ، كالقناديل .

ويقال : إنها مركبة عليها ، كما تكون في الصناديق والأبواب .

ثم قال : ﴿ وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شيطان مَّارِدٍ ﴾ يعني : حفظ الله تعالى السماء بالكواكب من كل شيطان متمرد .

يعني : شديد يقال : مرد يمرد إذا اشتد .

ثم قال : ﴿ لاَّ يَسَّمَّعُونَ ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ، في رواية حفص : ﴿ لاَ يَسَّمَّعُونَ ﴾ بنصب السين والتشديد .

والباقون : ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ بنصب الياء ، وجزم السين ، مع التخفيف .

فمن قرأ : بجزم السين فهو بمعنى يسمعون .

ومن قرأ بالتشديد فأصله يتسمعون ، فأدغمت التاء في السين ، وشددت .

يعني : لكيلا يستمعون ﴿ إلى الملإ الاعلى ﴾ يعني : إلى الكتبة ﴿ وَيَقْذِفُونَ ﴾ يعني : يرمون ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً ﴾ يعني : طرداً من كل ناحية من السماء ، وكانوا من قبل يستمعون إلى كلام الملائكة عليهم السلام قال : حدّثنا الخليل بن أحمد .

قال : حدّثنا إسحاق بن إبراهيم .

قال : حدّثنا عبد الرزاق .

قال : أخبرنا معمر عن الزهري ، عن علي بن الحسن ، عن ابن عباس .

قال : بَيْنَمَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم جَالِسٌ فِي نَفَرٍ من أصحابه ، إذ رمي بنجم فاستنار فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : "مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ لِمِثْلِ هذا فِي الجَاهِلِيَّةِ"

قالوا : يموت عظيم ، أو يولد عظيم فقال عليه السلام : "إِنَّهُ لاَ يُرْمَى لِمَوْتِ أَحَدٍ ، وَلاَ لِحيَاتِهِ ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ إِذَا قَضَى أمراً يُسَبِّحُهُ حَمْلَةُ العَرْشِ ، وَأَهْلُ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ .

يَقُولُ : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ فَيَخْبِرُونَهُمْ فَيَسْتَخْبِرَ أَهْلَ كُلِّ سَمَاءٍ أَهْلَ السَّمَاءِ الأُخْرَى ، حَتَّى يَنْتَهِي الخَبَرُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَتَخْطَفُ الجِنُّ ، وَيَرْمُونَ فِيمَا جَاؤُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ ، فَهُوَ حَقٌّ .

ولكنهم يَزِيدُونَ فِيهِ وَيَكْذِبُونَ" قال معمر : قلت للزهري : أو كان يرمى به في الجاهلية .

قال : نعم .

قال : قالت الجن لرسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مقاعدِ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ [ الجن : 9 ] قال : غلظ وشدد أمرها ، حيث بعث النبي صلى الله عليه وسلم وقوله : ﴿ دُحُوراً ﴾ يعني طرداً بالشهب فيعيدونهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ يعني : دائم .

يعني : الشياطين لمن استمع ، ولمن لم يستمع في الآخرة .

وقال مقاتل : في الآية تقديم ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ ﴾ من الشياطين ﴿ الخطفة ﴾ يختطف يعني : يستمع إلى الملأ الأعلى من كلام الملائكة عليهم السلام ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ والشهاب في اللغة كل أبيض ذي نور ، والثاقب المضيء ، ﴿ فاستفتهم ﴾ يعني : سل أهل مكة .

وهذا سؤال تقدير لا سؤال استفهام .

وقال تعالى : ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ بالبعث ﴿ أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴾ يعني : ما خلقنا من

السموات ، وما ذكر من المشارق والمغارب .

ويقال : ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ بالبعث .

يعني : بعثهم أشد ﴿ أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴾ يعني : أم خلقهم في الابتداء .

ثم ذكر خلقهم في الابتداء فقال : ﴿ إِنَّا خلقناهم مّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾ يعني : خلقنا آدم وهم من نسله من طين حمئة .

ويقال : ﴿ لاَّزِبٍ ﴾ أي : لاصق .

ويقال : ﴿ لاَّزِبٍ ﴾ يعني : لازم .

إِلاَّ أن الباء تبدل من الميم ، لقرب مخرجهما ، كما يقال سمد رأسه ، وسبد إذا استأصله ، واللازب واللاصق واحد .

(200/652)

---

ثم قال : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخُرُونَ ﴾ قرأ حمزة والكسائي : ﴿ عَجِبْتَ ﴾ بضم التاء .

وقرأ الباقون : بالنصب .

فمن قرأ بالنصب ، فالمعنى بل عجبت يا محمد من نزول الوحي عليك ، والكافرون يسخرون ، مكذبين لك .

ومن قرأ ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ بالضم ، فهو إخبار عن الله تعالى .

وقد أنكر قوم هذه القراءة ، وقالوا : إن الله تعالى لا يعجب من شيء ، لأنه علم الأشياء قبل كونها ، وإنما يتعجب من سمع أو رأى شيئاً لم يسمعه ، ولم يره ، ولكن الجواب أن يقال : العجب من الله عز وجل بخلاف العجب من الآدميين .

ويكون على وجه التعجب ، ويكون على وجه الإنكار والاستعظام لذلك القول .

كما قال في آية أخرى ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أولئك الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الاغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ [ الرعد : 5 ] وروى الأعمش عن سفيان بن سلمة أن شريحاً كان يقرأ ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ بالنصب .

ويقول : إنما يعجب من لا يعلم .

وقال الأعمش : فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي ، فقال إبراهيم النخعي : إن شريحاً كان معجباً برأيه ، وعبد الله بن مسعود كان أعلم منه ، وكان يقرؤها ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ بالضم .

وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ هكذا بالضم ، وهو اختيار أبي عبيدة .

ثم قال : ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ يعني : يسخرون حين سمعوا ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لاَ يَذْكُرُونَ ﴾

يعني : إذا وعظوا بالقرآن ، لا يتعظون ﴿ وَإِذَا رَأَوْا ءايَةً ﴾ يعني : علامة مثل انشقاق القمر ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ يعني : يستهزئون ، ويسخرون .

(201/652)

---

وقال أهل اللغة سخر واستسخر بمعنى واحد ، مثل قرأ واستقرأ ﴿ وَقَالُواْ إِن هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : يبين قوله عز وجل : ﴿ أَءذَا مِتْنَا ﴾ يعني : يقولون إذا متنا ﴿ وَكُنَّا تُرَابًا وعظاما أَءنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ يعني : لمحيون بعد الموت ﴿ أَوَ ءابَاؤُنَا الاولون قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ نَعَمْ وَأَنتُمْ داخرون ﴾ يعني : صاغرون .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ واحدة ﴾ يعني : صيحة ونفخة واحدة ، ولا يحتاج إلى الأخرى ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ يعني : الخلائق ﴿ يُنظَرُونَ ﴾ يعني : يخرجون من قبورهم ، وينظرون إلى السماء كيف غيرت ؟ والأرض كيف بدلت ؟ فلما عاينوا البعث ، ذكروا قول الرسل : إن البعث حق .

﴿ وَقَالُواْ ياويلنا هذا يَوْمُ الدين ﴾ يعني : يوم الحساب .

ويقال : يوم الجزاء .

فردت عليهم الحفظة .

ويقولون : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل الذى كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أنه لا يكون .

ثم ينادي المنادي : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ ﴾ يعني : سوقوا الذين كفروا ﴿ وأزواجهم ﴾ يعني : وأشباههم .

ويقال : وقرناءهم ، وضرباءهم .

ويقال : وأشياعهم ، وأعوانهم .

ويقال : وأمثالهم ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ يعني : من الشياطين الذين أضلوهم .

ويقال : كل معبود ، وكل من يطاع في المعصية ﴿ فاهدوهم ﴾ يعني : ادعوهم جميعاً .

ويقال : اذهبوا بهم ، وسوقوهم جميعاً ﴿ إلى صراط الجحيم ﴾ يعني : إلى طريق الجحيم ، والجحيم ما عظم من النار .

ويقال : إلى وسط الجحيم .

فلما انطلق بهم إلى جهنم أرسل الله عز وجل ملكاً يقول : ﴿ وَقِفُوهُمْ ﴾ أي : احبسوهم ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ عن ترك قول لا إله إلاَّ الله .

ويقال : في الآية تقديم .

يعني : يقال لهم قفوا قبل ذلك .

فحبسوا ، أو سئلوا .

ثم يساق بهم إلى الجحيم فيقال لهم : ﴿ مَّسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لاَ تناصرون ﴾ يعني : لم ينصر بعضكم بعضاً ، ولا يدفع بعضكم عن بعض كما كنتم تفعلون في الدنيا .

(202/652)

---

قوله عز وجل : ﴿ بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ أي : خاضعون ذليلون ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ يعني : يسأل ويخاصم بعضهم بعضاً القادة والسفلة ، والعابد ، والمعبود ، ومتابعي الشيطان للشيطان .

ويقال : ﴿ يَتَسَاءلُونَ ﴾ يعني : يتلاومون ﴿ قَالُواْ ﴾ يعني : السفلة للرؤساء ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين ﴾ يعني : من قبل الحق أي : الدين فزينتم لنا ضلالتنا .

وروي عن الفراء أنه قال : ﴿ اليمين ﴾ في اللغة القوة والقدرة .

ومعناه ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا ﴾ بأقوى الحيل ، وكنتم تزينون علينا أعمالنا .

وقال الضحاك : تقول السفلة للقادة : إنكم قادرون وظاهرون علينا .

ونحن ضعفاء أذلاء في أيديكم .

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : ﴿ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين ﴾ عن الحق .

يعني : الكفار يقولون : للشيطان .

وقال القتبي : إنما يقول هذا : المشركون لقرنائهم من الشياطين ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ يعني : عن أيماننا لأن إبليس قال : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [ الأعراف : 17 ] وقال المفسرون :

من أتاه الشيطان من قبل اليمين ، أتاه من قبل الدين ، وليس عليه الحق .

ومن أتاه من قبل الشمال ، أتاه من قبل الشهوات ، ومن أتاه من بين يديه ، أتاه من قبل التكذيب بالقيامة ، ومن أتاه من خلفه خوفه الفقر على نفسه ، وعلى من يخلف بعده ، فلم يصل رحماً ، ولم يؤد زكاة .

وقال المشركون لقرنائهم : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ في الدنيا من جهة الدين يعني : أضللتمونا ﴿ قَالُواْ ﴾ لهم قرناؤهم ﴿ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : لم تكونوا على حق ، فتشبه عليكم ، ونزيلكم عنه إلى الباطل ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ ﴾ يعني : من قدرة فنقهركم .



ويقال : من ملك فنجبركم عليه ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ﴾ يعني : كافرين عاصين ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا ﴾ يعني : وجب علينا جميعاً ﴿ قَوْلُ رَبِّنَا ﴾ وهو السخط .

ويقال: ﴿ قَوْلُ رَبِّنَا ﴾ يوم قال لإبليس ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: 85] ﴿ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ يعني: العذاب جميعاً في النار.

قوله عز وجل: ﴿ فأغويناكم ﴾ يعني: أضللناكم عن الهدى ﴿ إِنَّا كُنَّا غاوين ﴾ يعني: ضالين.

يقول الله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ يعني: الكفار والشياطين ﴿ يَوْمَئِذٍ فِى العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ يعني: شركاء في النار، وفي العذاب يوم القيامة ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ يعني: هكذا نفعل بمن أشرك، فنجمع بينهم وبين الذين أضلّوهم في النار.

ثم أخبر عنهم فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ ﴾ يعني: في الدنيا ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إله إِلاَّ الله ﴾ يعني: قولوا لا إله إلا الله ﴿ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عنها، ولا يقولونها ﴿ وَيَقُولُونَ اعتراك بَعْضُ ءالِهَتِنَا ﴾ يعني: أنترك عبادة آلهتنا ﴿ لِشَاعِرٍ ﴾ يعني: لقول شاعر ﴿ مَّجْنُونٍ ﴾ أي: مغلوب على عقله.

يقول الله تعالى: ﴿ بَلْ جَاء بالحق ﴾ يعني: بالقرآن.

ويقال: بأمر التوحيد.

ويقال: جاء ببيان الحق ﴿ وَصَدَّقَ المرسلين ﴾ الذين قبله.

قال مقاتل: يعني: صدق محمد صلى الله عليه وسلم بالمرسلين الذين قبله.

وقال الكلبي: وبتصديق المرسلين الذين قبله.

ومعناهما واحد .

ويقال : معناه جاء محمد عليه السلام بموافقة المرسلين عليهم السلام ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ يعني : العابد والمعبود ﴿ يَرَوُاْ العذاب الاليم ﴾ يعني : لتصيبوا العذاب الوجيع الدائم ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ ﴾ في الآخرة ﴿ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني : إلا بما كنتم تعملون في الدنيا من المعاصي والشرك .

(204/652)

---

ثم استثنى المؤمنين فقال عز وجل : ﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ يعني : الموحدين ويقال : ﴿ إِلا ﴾ بمعنى لكن ﴿ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ .

ثم قال ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ يعني : طعام معلوم معروف حين يشتهونه على قدر غدوة وعشية .

ثم بيّن الرزق فقال : ﴿ فواكه ﴾ يعني : ألوان الفاكهة ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ بالثواب .

ويقال : منعمون ﴿ فِي جنات النعيم على سُرُرٍ متقابلين ﴾ في الزيارة ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم ﴾ يعني : يطوف عليهم خدمهم ﴿ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ خمراً جارياً من معين .

يعني : الطاهر الجاري ﴿ بَيْضَاء ﴾ .

يعني : بخمرة توجب اللذة ﴿ بَيْضَاء لَذَّةٍ ﴾ يعني : شهوة ﴿ لِلشَّارِبِينَ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ يعني : ليس فيها إثم .

ويقال : لا غائلة لها ، ولا يوجع منها الرأس .

وروى شريك عن سالم قال : ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أي : لا مكروه فيها ، ولا أذى .

وقال القتبي : ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أي : لا تغتال عقولهم ، فتذهب بها .

يقال : الخمر غول للحلم ، والحرب غول للنفوس ، والغول البعد ﴿ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ يُنزَفُونَ ﴾ بكسر الزاي .

وقرأ الباقون : بالنصب فمن قرأ بالنصب فمعناه : لا يذهب عقولهم شربها .

ويقال للسكران : نزيف ومنزوف إذا زال عقله .

ومن قرأ بالكسر ، فله معنيان : أحدهما لا ينفد شرابهم أبداً ، والثاني أنهم لا يسكرون .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَعِندَهُمْ قاصرات الطرف عِينٌ ﴾ يعني : غاضات الأعين عن غير أزواجهن .

يعني : قصرن طرفهن على أزواجهن ، وقنعن بهم ، ولا يبغين بهم بدلاً .

ثم قال : ﴿ عِينٌ ﴾ أي : حسان الأعين شدة البياض في شدة السواد .

يقال لواحدة العين : عيناء .

يعني : كبيرة العين .

ويقال: الحسن العيناء التي سواد عينها أكثر من بياضها.

ثم قال: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ يعني: إنهن أحسن بياضاً من بيض النعم، والعرب

تشبه النساء ببيض النعام.

(205/652)

---

يقال: لا يكون لون البياض في شيء أحسن من بيض النعام.

وقال قتادة: البيض التي لم تلوثه الأيدي.

ويقال: البيض أراد به القشر الداخل من البيض المكنون قد خبأ، وكنّ من البرد والحر ﴿

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ يعني: يسأل بعضهم بعضاً عن حاله في الدنيا.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مّنْهُمْ ﴾ يعني: من أهل الجنة ﴿ إِنّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾ وهو

الذي بيّن الله تعالى أمرهما في سورة الكهف ﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا

جَنَّتَيْنِ مِنْ أعناب وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ [الكهف: 32] فكانا

أخوين وشريكين، وأنفق أحدهما ماله في أمر الآخرة، واتخذ الآخر لنفسه ضياعاً،

وخدماً، واحتاج المؤمن إلى شيء، فجاء إلى أخيه الكافر يسأله، فقال له الكافر ما

صنعت بمالك، فأخبره أن قدمه إلى الآخرة، فقال له الكافر: ﴿ يِقُولُ أَءنَّكَ لَمِنَ المصدقين

﴾ يعني : إنك ممن يصدق بالبعث .

وطلب منه أن يدخل في دينه ، ولم يقض حاجته ، فذلك قوله : ﴿ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾

يعني : بالبعث بعد الموت .

قوله عز وجل : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ يعني : لمحاسبون .

فيقول المؤمن لأصحابه في الجنة : ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ حتى ننظر إلى حاله ، وإلى منزله ، فيقول أصحابه : اطلع أنت ، فإنك أعرف به منا ﴿ فَاطَّلَعَ ﴾ يعني : فنظر في النار ﴿ فاطلع فَرَءَاهُ فِى سَوَاءِ ﴾ يعني : رأى أخاه في وسط الجحيم ، أسود الوجه ، مزرق العين ، فيقول المؤمن عند ذلك قوله : ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ يعني : والله لقد هممت لتغويني ، ولتضلني .

ويقال : ﴿ لَتُرْدِينِ ﴾ أي : لتهلكني يقال : أرديت فلان أي : أهلكته .

والردى : الموت والهلاك .

وقال القتبي في قوله : ﴿ أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أي : مجازون بأعمالنا .

يقال: دنته بما عمل أي جازيته.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى ﴾ يعني: لولا ما أنعم الله عليَّ بالإسلام ﴿ لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ معك في النار ثم أقبل المؤمن على أصحابه في الجنة فقال: يا أهل الجنة ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الاولى ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به النفي.

يعني: لا نموت أبداً سوى موتتنا الأولى.

وذلك حين يذبح الموت، فيأمنوا من الموت ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ يعني: لم نكن من المعذبين مثل أهل النار.

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ الفوز العظيم ﴾ يعني: النجاة الوافرة، فازوا بالجنة، ونجوا من النار ﴿ لِمِثْلِ هذا ﴾ يعني: لمثل هذا الثواب، والنعم، والخلود، ﴿ فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾ أي فليبادر المبادرون.

ويقال: فليجتهد المجتهدون.

ويقال: فليحتمل المحتملون الأذى، لأنه فد حفّت الجنة بالمكاره ﴿ أذلك خَيْرٌ نُزُلاً ﴾ يعني: الذي وصفت في الجنة خير ثواباً.

ويقال رزقاً.

ويقال: منزلاً ﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزقوم ﴾ للكافرين ﴿ إِنَّا جعلناها فِتْنَةً للظالمين ﴾ يعني: ذكر الشجرة بلاء للمشركين.

قال قتادة : زادتهم تكذيباً ، فقالوا : يخبركم محمد أن في النار شجرة ، والنار تحرق الشجر .

وقال مجاهد : ﴿ إِنَّا جعلناها فِتْنَةً ﴾ قول أبي جهل : إنما الزقوم التمر ، والزبد .

فقال لجاريته : زقمينا فزقمته .

وذكر أن ابن الزبعري قال : الزقوم بلسان البربر ، وإفريقيا التمر والزبد .

فأخبر الله تعالى عن الزقوم أنه لا يشبه النخل ، ولا طلعها كطلع النخل ، فقال : ﴿ أذلك خَيْرٌ نُّزُلاً ﴾ يعني : نعيم الجنة ، وما فيها من اللذات ﴿ خَيْرٌ نُّزُلاً ﴾ أي : طعاماً ﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزقوم ﴾ لأهل النار .



---

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا جعلناها فِتْنَةً للظالمين ﴾ ثم وصف الشجرة فقال : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الجحيم ﴾ يعني : في وسط الجحيم ﴿ طَلْعِهَا ﴾ يعني : ثمرتها ﴿ كَأَنَّهُ رؤوس الشياطين ﴾ يعني : رؤوس الحيات ، قبيح في النظر .

ويقال : هو نبت لا يكون شيء من النبات أقبح منه ، وهو يشبه الحسك ، فيبقى في الحلق .

ويقال : هي رؤوس الشياطين بعينها ، وذلك أن العرب إذا وصفت الشيء بالقبح ، تقول :

كأنه شيطان .

ثم وصف أكلهم فقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا ﴾ يعني : من ثمرها ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ وهو جماعة المالىء .

يعني : يملؤون منها البطون .

قال : حدّثنا أبو الليث رحمه الله قال : حدّثنا الفقيه أبو جعفر .

قال : حدّثنا محمد بن عقيل .

قال : حدّثنا عباس الدوري .

قال : حدّثنا وهب بن جرير ، عن شعبة ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ وَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . فَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ فِي الأَرْضِ ، لأَمَرَّتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعِيشَتَهُمْ ، فَكَيْفَ بِمَنْ هُوَ طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ مِنْهُ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ غَيْرُهُ" .

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ يعني : خلطاً من حميم من ماء حار في جهنم ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الجحيم ﴾ يعني : مصيرهم إلى النار .

ثم بيّن المعنى الذي به يستوجبون العقوبة فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ﴾ يعني : وجدوا ﴿ ضَالِّينَ فَهُمْ ﴾ عن الهدى ﴿ فَهُمْ على ءاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ يعني : يسعون في مثل أعمال

آبائهم ، والإهراع في اللغة المشي بين المشيتين .

وقال مجاهد : كهيئة الهرولة .

(208/652)

---

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ ﴾ يعني : أضلّ إبليس قبلهم ﴿ أَكْثَرُ الاولين ﴾

يعني : من الأمم الخالية .

ولم يذكر إبليس لأن في الكلام دليلاً عليه ، فاكتفى بالإشارة .

ومثل هذا كثير في القرآن .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنذِرِينَ ﴾ يعني : رسلاً ينذرونهم كما أرسلناك إلى قومك ، فكذبوهم بالعذاب كما كذبك قومك ، فعذبهم الله تعالى في الدنيا ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ يعني : آخر أمر من أنذر فلم يؤمن ﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ يعني : الموحدين ، المطيعين ، فإنهم لم يعذبوا .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ يعني : دعا نوح ربه على قومه ، وهو قوله : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فانتصر ﴾ [ القمر : 10 ] ﴿ فَلَنِعْمَ المجيبون ﴾ يعني : نعم المجيب أنا ﴿ ونجيناه وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ يعني : من الهول الشديد ، وهو الغرق .

قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ لأن الذي حمل معه من الناس ثمانون رجلاً وامرأة غرقوا كلهم ، ولم يبق إلا ولده سام وحام ويافث قال الفقيه أبو الليث رحمه الله : حدّثنا أبو جعفر .

قال : حدّثنا أبو القاسم الصفار بإسناده عن سمرة بن جندب .

قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سَام أَبُو العَرَبِ ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم " .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الاخرين ﴾ يعني : أبقينا عليه ذكراً حسناً في الباقين من الأمم ، وهذا قول القتبي : وقال مقاتل : يعني : أثنينا على نوح بعد موته ثناء حسناً .

(209/652)

---

ثم قال عز وجل : ﴿ سلام على نُوحٍ فِى العالمين ﴾ يعني : السعادة والبركة على نوح من بين العالمين ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ يعني : هكذا نجزي كل من أحسن ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ يعني : المصدقين بالتوحيد ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين ﴾ يعني : قومه الكافرين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 128.137 ﴾

(210/652)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ والصافات صفّاً ﴾

فيها ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم الملائكة ، قاله ابن مسعود وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة .

الثاني : أنهم عبّاد السماء ، قاله الضحاك ورواه عن ابن عباس .

الثالث : أنهم جماعة المؤمنين إذا قاموا في صفوفهم للصلاة ، حكاه النقاش لقوله تعالى ﴿ صفّاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ [ الصف : 4 ] .

ويحتمل رابعاً : أنها صفوف المجاهدين في قتال المشركين .

واختلف من قال الصافات الملائكة في تسميتها بذلك على ثلاثة أقاويل :

أحدها : لأنها صفوف في السماء ، قاله مسروق وقتادة .

الثاني : لأنها تصف أجنحتها في الهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله تبارك وتعالى بما يريد ، حكاه ابن عيسى .

الثالث : لصفوفهم عند ربهم في صلاتهم ، قاله الحسن .

قوله عز وجل : ﴿ فالزاجرات زجراً ﴾ فيه ثلاثة أقاول :

أحدها : الملائكة ، قاله ابن مسعود ومسروق وقتادة وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد .

الثاني : آيات القرآن ، قاله الربيع .

الثالث : الأمر والنهي الذي نهى الله تعالى به عباده عن المعاصي ، حكاه النقاش .

ويحتمل رابعاً : أنها قتل المشركين وسبيهم .

واختلف من قال إن الزاجرات الملائكة في تسميتها بذلك على قولين :

أحدهما : لأنها تزجر السحاب ، قاله السدي .

الثاني : لأنها تزجر عن المعاصي قاله ابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ أي فالقارئات كتاباً ، وفيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : الملائكة تقرأ كتب الله تعالى ، قاله ابن مسعود والحسن وسعيد بن جبير والسدي .

الثاني : ما يتلى في القرآن من أخبار الأمم السالفة ، قاله قتادة .

الثالث : الأنبياء يتلون الذكر على قومهم ، قاله ابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ إنَّ إلهكم لواحد ﴾ كل هذا قَسَم أن الإِله واحد ، وقيل إن القسم بالله تعالى على تقدير ورب الصافات ولكن أضمره تعظيماً لذكره .

ثم وصف الإله الواحد فقال :

﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : خالق السموات والأرض وما بينهما ، قاله ابن إسحاق .

الثاني : مالك السموات والأرض وما بينهما .

الثالث : مدبر السموات والأرض وما بينهما .

﴿ ورب المشارق ﴾ فيه وجهان :

الأول : قال قتادة : ثلاثمائة وستون مشرقاً ، والمغارب مثل ذلك ، تطلع الشمس كل يوم من مشرق ، وتغرب في مغرب ، قاله السدي .

الثاني : أنها مائة وثمانون مشرقاً تطلع كل يوم في مطلع حتى تنتهي إلى آخرها ثم تعود في تلك المطالع حتى تعود إلى أولها ، حكاه يحيى بن سلام ، ولا يذكر المغارب لأن المشارق تدل عليها ، وخص المشارق بالذكر لأن الشروق قبل الغروب .

قوله عز وجل : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكب ﴾ يحتمل تخصيص سماء الدنيا بالذكر وجهين :

أحدهما : لاختصاصها بالدنيا .

الثاني : لاختصاصها بالمشاهدة ، وقوله بزينة الكواكب لأن من الكواكب ما خلق للزينة ، ومنها ما خلق لغير الزينة .

حكى عقبة بن زياد عن قتادة قال : خلقت النجوم لثلاث : رجوماً للشياطين ونوراً يهتدى

به ، وزينة لسماء الدنيا .

﴿ وحفظاً مِن كُلِّ شيطان مارِدٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني من الكواكب حفظاً من كل شيطان ، قاله السدي .

الثاني : أن الله سبحانه حفظ السماء من كل شيطان مارد ، قاله قتادة .

وفي المارد ثلاثة أوجه :

أحدها : الممتنع ، قاله ابن بحر .

الثاني : العاتي مأخوذ من التمرد وهو العتو .

الثالث : أنه المتجرد من الخير ، من قولهم شجرة مرداء ، إذا تجردت من الورق .

قوله عز وجل : ﴿ لا يسمعون إلى الملإِ الأعلى ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنهم منعوا بها أن يسمعوا أو يتسمعوا ، قاله قتادة .

الثاني : أنهم يتسمعون ولا يسمعون ، قاله ابن عباس .

وفي الملإ الأعلى قولان :

أحدهما : السماء الدنيا ، قاله قتادة .

الثاني : الملائكة ، قاله السدي .

﴿ ويُقذفون من كل جانب ﴾ قال مجاهد : يرمون من كل مكان من جوانبهم ، وقيل من جوانب السماء .

﴿ دُحوراً ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : قذفاً في النار ، قاله قتادة .



---

الثاني : طرداً بالشهب ، وهو معنى قول مجاهد .

قال ابن عيسى : والدحور : الدفع بعنف .

﴿ ولهم عذابٌ واصبٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : دائم .

الثاني : أنه الذي يصل وجعه إلى القلوب ، مأخوذ من الوصب .

قوله عز وجل : ﴿ إلا من خَطِفَ الخطفَة ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : إلا من استرق السمع ، قاله سعيد بن جبير ، مأخوذ من الاختطاف وهو الاستلاب بسرعة ، ومنه سمي الخطاف .

الثاني : من وثب الوثبة ، قاله علي بن عيسى . ﴿ فأتبعه شهابٌ ثاقب ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه الشعلة من النار .

الثاني : أنه النجم .

وفي الثاقب ستة أوجه :

أحدها : أنه الذي يثقب ، قاله زيد الرقاشي .

الثاني : أنه المضيء ، قاله الضحاك .

الثالث : أنه الماضي ، حكاه ابن عيسى .

الرابع : أنه العالي ، قاله الفراء .

الخامس : أنه المحرق ، قاله السدي .

السادس : أنه المستوقد ، من قولهم : اثقب زندك أي استوقد نارك ، قاله زيد بن أسلم والأخفش ، وأنشد قول الشاعر :

بينما المرء شهابٌ ثاقب . . . ضَرَبَ الدَّهر سناه فخمد

و ﴿ إلا ﴾ ها هنا بمعنى لكن عند سيبويه . وقيل : إن الشهاب يحرقهم ليندفعوا عن استراق السمع ولا يموتون منه .

قوله عز وجل : ﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فسلهم قال قتادة ، مأخوذ من استفتاء المفتي .

الثاني : فحاجِّهم أيهم أشد خلقاً ، قاله الحسن .

﴿ أم مَنْ خلقنا ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : من السموات والأرض والجبال ، قاله مجاهد .

الثاني : من الملائكة ، قاله سعيد بن جبير .

الثالث : من الأمم الماضية فقد هلكوا وهم أشد خلقاً منهم ، حكاه ابن عيسى .

﴿ إِنَّا خلقناهم مِن طينٍ لازبٍ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : لاصق ، قاله ابن عباس منه قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

تعلم فإن الله زادك بسطة . . . وأخلاق خير كلها لك لازب

الثاني : لزج ، قاله عكرمة .

الثالث : لازق ، قاله قتادة .



---

والفرق بين اللاصق واللازق أن اللاصق هو الذي قد لصق بعضه ببعض ، واللازق هو الذي يلزق بما أصابه .

الرابع : لازم ، والعرب تقول طين لازب ولازم ، وقال النابغة :

ولا تحسبون الخير لا شر بعده . . . ولا تحسبون الشر ضربة لازب

نزلت هذه الآية في ركانة بن زيد بن هاشم بن عبد مناف وأبي الأشد ابن أسيد بن كلاب الجمحي .

قوله عز وجل : ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ وفي ﴿ عجبت ﴾ قراءتان :

إحداهما : بضم التاء ، قرأ بها حمزة والكسائي ، وهي قراءة ابن مسعود ، ويكون التعجب مضافاً إلى الله تعالى ، وإن كان لا يتعجَّبُ من شيء لأن التعجب من حدوث العلم بما لم يعلم ، والله تعالى عالم بالأشياء قبل كونها .

وفي تأويل ذلك على هذه القراءة وجهان :

أحدهما : يعني بل أنكرت حكاه النقاش .

الثاني : هو قول علي بن عيسى أنهم قد حلّوا محل من يتعجب منه .

والقراءة الثانية : بفتح التاء قرأ بها الباقون ، وأضاف التعجب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قال : بل عجبت يا محمد ، قاله قتادة .

وفيما عجبت منه قولان :

أحدهما : من القرآن حين أعطيه ، قاله قتادة .

الثاني : من الحق الذي جاءهم به فلم يقبلوه ، وهو معنى قول ابن زياد . وفي قوله ﴿ وتسخرون ﴾ وجهان :

أحدهما : من الرسول إذا دعاهم .

الثاني : من القرآن إذا تلي عليهم .

قوله عز وجل : ﴿ وإذا ذكِّروا لا يذكرون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وإذا ذكروا بما نزل من القرآن لا ينتفعون ، وهو معنى قول قتادة .

والثاني : وإذا ذكروا بمن هلك من الأمم لا يبصرون ، وهو معنى ما رواه سعيد .

قوله عز وجل : ﴿ وإذا رأوا آيةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ وفي هذه الآية قولان : أحدهما : أنه انشقاق القمر ، قاله الضحاك .

الثاني : ما شاهدوه من هلاك المكذبين ، وهو محتمل .

وفي قوله ﴿ يستسخِرون ﴾ وجهان :

أحدهما : يستهزئون ، قاله مجاهد .

الثاني : هو أن يستدعي بعضهم من بعض السخرية بها لأن الفرق بين سخر واستسخر كالفرق بين علم واستعلم .

(214/652)

---

وقيل إن ذلك في ركانة بن زيد وأبي الأشد بن كلاب .

قوله عز وجل : ﴿ فانما هي زجرةٌ واحدةٌ ﴾ أي صيحة واحدة ، قاله الحسن : وهي النفخة الثانية وسميت الصيحة زجرة لأن مقصودها الزجر .

﴿ فإذا هم ينظرون ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : البعث الذي كذبوا به .

الثاني : ينظرون سوء أعمالهم .

الثالث : ينتظرون حلول العذاب بهم ، ويكون النظر بمعنى الانتظار .

قوله عز وجل : ﴿ وقالوا يا ويلنا هذا يومُ الدين ﴾ الآية . فيه وجهان :

أحدهما : يوم الحساب ، قاله ابن عباس .

الثاني : يوم الجزاء ، قاله قتادة .

﴿ هذا يوم الفصل ﴾ الآية . فيه وجهان :

أحدهما : يوم القضاء بين الخلائق ، قاله يحيى .

الثاني : يفصل فيه بين الحق والباطل ، قاله ابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ احشروا الذين ظلموا ﴾ الآية . فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : المكذبون بالرسل .

الثاني : هم الشُرَط ، حكاه الثوري .

الثالث : هم كل من تعدى على الخالق والمخلوق .

وفي ﴿ وأزواجهم ﴾ أربعة أوجه :

أحدها : أشباههم فيحشر صاحب الزنى مع صاحب الزنى ، وصاحب الخمر مع صاحب الخمر ، قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

الثاني : قرناؤهم ، قاله ابن عباس .

الثالث : أشياعهم ، قاله قتادة ، ومنه قول الشاعر :

فكبا الثور في وسيل وروض . . . موتق النبت شامل الأزواج

الرابع : نساؤهم الموافقات على الكفر ، رواه النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

﴿ وما كانوا يعبدون من دون الله ﴾ وفيهم ثلاثة أقاويل :

أحدها : إبليس ، قاله ابن زياد .

الثاني : الشياطين ، وهو مأثور .

الثالث : الأصنام ، قاله قتادة وعكرمة .

﴿ فاهدُوهم إلى صراط الجحيم ﴾ أي طريق النار .

وفي قوله تعالى : ﴿ فاهدوهم ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : فدلوهم ، قاله ابن .

الثاني : فوجهوهم ، رواه معاوية بن صالح .

الثالث : فادعوهم ، قاله السدي .

قوله عز وجل : ﴿ وقفُوهم إنَّهم مسئُولون ﴾ أي احبسوهم عن دخول النار .

﴿ إنهم مسئُولون ﴾ فيه ستة أوجه :

أحدها : عن لا إله إلا الله ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : عما دعوا إليه من بدعة ، رواه أنس مرفوعاً .

الثالث : عن ولاية علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، حكاه أبو هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري .

الرابع : عن جلسائهم ، قاله عثمان بن زيادة .

الخامس : محاسبون ، قاله ابن عباس .

السادس : مسئولون .

﴿ ما لكم لا تناصرون ﴾ على طريق التوبيخ والتقريع لهم ، وفيهم ثلاثة أوجه :

أحدها : لا ينصر بعضكم بعضاً ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : لا يمنع بعضكم بعضاً من دخول النار ، قاله السدي .

الثالث : لا يتبع بعضكم بعضاً في النار يعني العابد والمعبود ، قاله قتادة .

فإن قيل : فهلا كانوا مسئولين قبل قوله ﴿ فاهْدوهم . . . ﴾ الآية ؟

قيل : لأن هذا توبيخ وتقريع فكان نوعاً من العذاب فلذلك صار بعد الأمر بالعذاب .

قال مجاهد : ولا تزول من بين يدي الله تعالى قدم عبد حتى يُسأل عن خصال أربع : عمره فيهم أفناه ، وجسده فيم أبلاه ، وماله مم اكتسبه وفيم أنفقه ، وعلمه ما عمل فيه .

قوله عز وجل : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنه أقبل الإنس على الجن ، قاله قتادة .

الثاني : بعضهم على بعض ، قاله ابن عباس .

ويحتمل ثالثاً : أقبل الاتباع على المتبوعين .

وفي ﴿ يتساءلون ﴾ وجهان :

أحدهما : يتلاومون ، قاله ابن عباس .

الثاني : يتوانسون ، وهذا التأويل معلول لأن التوانس راحة ، ولا راحة لأهل النار .

ويحتمل ثالثاً : يسأل التابع متبوعه أن يتحمل عنه عذابه .

قوله عز وجل : ﴿ إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ وفي تأويل ذلك قولان :

أحدهما : قاله الإنس للجن . قاله قتادة .

الثاني : قاله الضعفاء للذين استكبروا ، قاله ابن عباس .

وفي قوله : ﴿ تأتوننا عن اليمين ﴾ ثمانية تأويلات :

أحدها : تقهروننا بالقوة ، قاله ابن عباس ، واليمين القوة ، ومنه قول الشاعر :

اذا ما رايةٌ رفعت لمجدٍ . . . تلقاها عَرابةُ باليمين

أي بالقوة والقدرة .

(216/652)

---

الثاني : يعني من قبل ميامنكم ، قاله ابن خصيف .

الثالث : من قبل الخير فتصدوننا عنه وتمنعوننا منه ، قاله الحسن .

الرابع : من حيث نأمنكم ، قاله عكرمة .

الخامس : من قبل الدين أنه معكم ، وهو معنى قول الكلبي .

السادس : من قبل النصيحة واليمين ، والعرب تتيمن بما جاء عن اليمين ويجعلونه من دلائل الخير ويسمونه السانح ، وتتطير بما جاء عن الشمال ويجعلونه من دلائل الشر ويسمونه البارح ، وهو معنى قول عليّ بن عيسى .

السابع : من قبل الحق أنه معكم ، قاله مجاهد .

الثامن : من قبل الأموال ترغبون فيها أنها تنال بما تدعون إليه فتتبعون عليه ، وهو معنى قول الحسن .

قوله عز وجل : ﴿ يُطاف عليهم بكأسٍ من مَعينٍ ﴾ أي من خمر معين وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه الجاري ؛ قاله الضحاك .

الثاني : الذي لا ينقطع ، حكاه جويبر .

الثالث : أنه الذي لم يعصر ، قاله سعيد بن أبي عروبة .

ويحتمل رابعاً : أنه الخمر بعينه الذي لم يمزج بغيره .

وفي المعين من الماء خمسة أوجه :

أحدها : أنه الظاهر للعين ، قاله الكلبي .

الثاني : ما مدّته العيون فاتصل ولم ينقطع ، قاله الحسن .

الثالث : أنه الشديد الجري من قولهم أمعن في كذا إذا اشتد دخوله فيه .

الرابع : أنه الكثير مأخوذ من المعين وهو الشيء الكثير .

الخامس : أنه المنتفع به مأخوذ من الماعون ، قاله الفراء .

﴿ بيضاء لذةٍ للشاربين ﴾ يعني أن خمر الجنة بيضاء اللون ، وهي في قراءة ابن مسعود صفراء .

ويحتمل أن تكون بيضاء الكأس صفراء اللون فيكون اختلاف لونهما في منظرهما قال الشاعر :

فكأن بهجتها وبهجة كأسها . . . نار ونور قيّدا بوعاء .

قوله عز وجل : ﴿ لا فيها غَوْلٌ ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أي ليس فيها صداع ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

الثاني : ليس فيها وجع البطن ، قاله مجاهد .

الثالث : ليس فيها أذى ، قاله الفراء وعكرمة وهذه الثلاثة متقاربة لاشتقاق الغول من الغائلة .

الرابع : ليس فيها إثم ، قاله الكلبي .



---

الخامس : أنها لا تغتال عقولهم ، قاله السدي وأبو عبيدة ، ومنه قول الشاعر :

وهذا من الغيلة أن . . . يصرع واحد واحدا

﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : لا تنزف العقل ولا تذهب الحلم بالسكر ، قاله عطاء ، ومنه قول الشاعر :

لعمري لئن أنزفتم أو صحوتمُ . . . لبئس الندامى كنتم آل أبجرا

الثاني : لا يبولون ، قاله ابن عباس ، وحكى الضحاك عنه أنه قال : في الخمر أربع خصال : السكر والصداع والقيء والبول ، فذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال .

الثالث : أي لا تفنى مأخوذ من نزف الركية ، قاله أبو عمرو بن العلاء ، ومنه قول الشاعر :

دعيني لا أبا لك أن تطيقي . . . لحاك الله قد أنزفت ريقي

وقد يختلف هذا التأويل باختلاف القراءة ، فقرأ حمزة والكسائي ، ينزفون بكسر الزاي ، وقرأ الباقون يُنزَفون بفتح الزاي ، والفرق بينهما أن الفتح من نزف فهو منزوف إذا ذهب عقله بالسكر ، والكسر من أنزف فهو منزوف إذا فنيت خمره ، وإنما صرف الله تعالى السكر عن أهل الجنة لئلا ينقطع عنهم التذاذ نعيمهم .

قوله عز وجل : ﴿ وعندهم قاصِراتُ الطّرفِ عينٌ ﴾ يعني بقاصرات الطرف النساء اللاتي قصرن أطرافهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم مأخوذ من قولهم : قد اقتصر على كذا إذا اقتنع به وعدل عن غيره ، قال امرؤ القيس :

من القاصرات الطرف لو دب مُحولٌ . . . من الذرّ فوق الخد منها لأثّرا

وفي العين وجهان :

أحدهما : الحسان العيون ، قاله مجاهد ومقاتل .

الثاني : العظام الأعين ، قاله الأخفش وقطرب .

﴿ كأنهن بيضٌ مكنون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني اللؤلؤ في صدفه ، قاله ابن عباس ، ومنه قول الشاعر :

وهي بيضاء مثل لؤلؤة الغوا . . . ص ميزت من جوهر مكنون

الثاني : يعني البيض المعروف في قشره ، والمكنون المصون .

وفي تشبيههم بالبيض المكنون أربعة أوجه :

أحدها : تشبيهاً ببيض النعام يُكنّ بالريش من الغبار والريح فهو أبيض إلى الصفرة ، قاله الحسن .

(218/652)

---

الثاني : تشبيهاً ببطن البيض إذا لم تمسه يد ، قاله سعيد بن جبير .

الثالث : تشبيهاً ببياض البيض حين ينزع قشرة ، قاله السدي .

الرابع : تشبيهاً بالسحاء الذي يكون بين القشرة العليا ولباب البيض ، قاله عطاء .

قوله عز وجل : ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ يعني أهل الجنة كما يسأل أهل النار .

﴿ قال قائلٌ منهم ﴾ يعني من أهل الجنة .

﴿ إني كان لي قرين ﴾ يعني في الدنيا ، وفيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الشيطان كان يغويه فلا يطيعه ، قاله مجاهد .

الثاني : شريك له كان يدعوه إلى الكفر فلا يجيبه ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنهما اللذان في سورة الكهف ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين ﴾ إلى آخر قصتهما ،

فقال المؤمن منهما في الجنة للكافر في النار .

﴿ يقول أئنك لمن المصدقين ﴾ يعني بالبعث .

﴿ أئذا مِتْنَا وكُنَّا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : لمحاسبون ، قاله مجاهد وقتادة والسدي .

الثاني : لمجازون ، قاله ابن عباس ومحمد بن كعب من قوله : كما تدين تدان .

قوله عز وجل : ﴿ قال هل أنتم مطلعون ﴾ وهذا قول صاحب القرين للملائكة وقيل لأهل الجنة ، هل أنتم مطلعون يعني في النار . يحتمل ذلك وجهين :

أحدهما : لاستخباره عن جواز الاطلاع .

الثاني : لمعاينة القرين .

﴿ فاطّلَعَ ﴾ يعني في النار . ﴿ فرآه ﴾ يعني قرينه ﴿ في سواءِ الجحيم ﴾ قال ابن عباس في وسط الجحيم ، وإنما سمي الوسط سواءً لاستواء المسافة فيه إلى الجوانب قال قتادة : فوالله لولا أن الله عَرّفه إياه ما كان ليعرفه ، لقد تغير حبْرُهُ وسبرُهُ يعني حسنه وتخطيطه .

قوله عز وجل : ﴿ قال تالله إن كِدْتَ لَتُرْدين ﴾ هذا قول المؤمن في الجنة لقرينه في النار ، وفيه وجهان :

أحدهما : لتهلكني لو أطعتك ، قاله السدي .

الثاني : لتباعدني من الله تعالى ، قاله يحيى .

﴿ ولولا نعمة ربي ﴾ يعني بالإيمان ﴿ لكنت من المحْضَرين ﴾ يعني في النار ، لأن أحضر لا يستعمل مطلقاً إلا في الشر .

(219/652)

---

قوله عز وجل : ﴿ أذلك خيرٌ نزلاً أم شجرة الزقوم ﴾ والنُزل العطاء الوافر ومنه إقامة الإنزال ، وقيل ما يعد للضيف والعسكر . وشجرة الزقوم هي شجرة في النار يقتاتها أهل النار ، مرة الثمر خشنة اللمس منتنة الريح .

واختلف فيها هل هي من شجر الدنيا التي يعرفها العرب أولا ؟ على قولين :

أحدهما : أنها معروفة من شجر الدنيا ، ومن قال بهذا اختلفوا فيها فقال قطرب : إنها شجرة مرّة تكون بتهامة من أخبث الشجر ، وقال غيره بل كل نبات قاتل .

القول الثاني : أنها لا تعرف في شجر الدنيا ، فلما نزلت هذه الآية في شجرة الزقوم قال كفار قريش : ما نعرف هذه الشجرة ، فقال ابن الزبعرى : الزقوم بكلام البربر : الزبد والتمر فقال أبو جهل لعنه الله : يا جارية ابغينا تمراً وزبداً ثم قال لأصحابه تزقموا هذا الذي يخوفنا به محمد يزعم أن النار تنبت الشجر ، والنار تحرق الشجر .

﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن النار تحرق الشجر فكيف ينبت فيها الشجر وهذا قول أبي جهل إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه فكان هذا هو الفتنة للظالمين ، قاله مجاهد .

الثاني : أن شدة عذابهم بها هي الفتنة التي جعلت لهم ، حكاه ابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ فكان المقصود بهذا الذكر أمرين :

أحدهما : وصفها لهم لاختلافهم فيها .

الثاني : ليعلمهم جواز بقائها في النار لأنها تنبت من النار .

قال يحيى بن سلام : وبلغني أنها في الباب السادس وانها تحيا بلهب النار كما يحيا شجركم ببرد الماء .

﴿ طلعها كأنه رؤُوس الشياطين ﴾ يعني بالطلع الثمر ، فإن قيل فكيف شبهها برؤوس الشياطين وهم ما رأوها ولا عرفوها ؟

قيل عن هذا أربعة أجوبة :

أحدها : أن قبح صورتها مستقر في النفوس ، وإن لم تشاهد فجاز أن ينسبها بذلك لاستقرار قبحها في نفوسهم كما قال امرؤ القيس :

ايقتُلني والمشرفيّ مضاجعي . . . ومسنونةٍ زرُقٍ كأنياب أغوال

فشبهها بأنياب الأغوال وإن لم يرها الناس .

الثاني : أنه أراد رأس حية تسمى عند العرب شيطاناً وهي قبيحة الرأس .

الثالث : أنه أراد شجراً يكون بين مكة واليمن يسمى رؤوس الشياطين ، قاله مقاتل .

قوله عز وجل : ﴿ ثم إنّ لهم عليها لشوباً من حميم ﴾ يعني لمزاجاً من حميم والحميم الحار الداني من الإحراق قال الشاعر :

كأن الحميم على متنها . . . إذا اغترفته بأطساسها

جُمان يجول على فضة . . . عَلَتْه حدائد دوّاسها

ومنه سمي القريب حميماً لقربه من القلب ، وسمي المحموم لقرب حرارته من الإحراق ، قال الشاعر :

أحم الله ذلك من لقاءٍ . . . آحاد آحاد في الشهر الحلال

أي أدناه فيمزج لهم الزقوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم تغليظاً لعذابهم وتشديداً لبلائهم .

قوله عز وجل : ﴿ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ فيه أربعة أوجه : أحدها : يعني بأن

مأواهم لإلى الجحيم ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

الثاني : أن منقلبهم لإلى الجحيم ، قاله سفيان .

الثالث : يعني أن مرجعهم بعد أكل الزقوم إلى عذاب الجحيم ، قاله ابن زياد .

الرابع : أنهم فيها كما قال الله تعالى ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ ثم يرجعون إلى مواضعهم ، قاله يحيى بن سلام .

قوله عز وجل : ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ﴾ أي دعانا ، ودعاؤه كان على قومه عند إياسه من إيمانهم ، وإنما دعا عليهم بالهلاك بعد طول الاستدعاء لأمرين :

أحدهما : ليطهر الله الأرض من العصاة .

الثاني : ليكونوا عبرة يتعظ بها من بعدهم من الأمم .

وقوله : ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : فلنعم المجيبون لنوح في دعائه .

الثاني : فلنعم المجيبون لمن دعا لأن التمدح بعموم الإجابة أبلغ .

﴿ ونجيناه وأهله ﴾ قال قتادة : كانوا ثمانية : نوح وثلاثة بنين ونساؤهم ، أربعة [ أي ] رجال وأربعة نسوة .

﴿ من الكرب العظيم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من غرق الطوفان ، قاله السدي .

(221/652)

الثاني : من الأذى الذي كان ينزل من قومه ، حكاه ابن عيسى .

﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ قال ابن عباس : والناس كلهم بعد نوح من ذريته وكان بنوه ثلاثة : سام وحام ويافث ، فالعرب والعجم أولاد سام ، والروم والترك والصقالبة أولاد يافث والسودان من أولاد حام ، قال الشاعر :

عجوز من بني حام بن نوح . . . كأن جبينها حجر المقام

قوله عز وجل : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه أبقى الله الثناء الحسن في الآخرين ، قاله قتادة .

الثاني : لسان صدق للأنبياء كلهم ، قاله مجاهد .

الثالث : هو قوله سلام على نوح في العالمين ، قاله الفراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

(222/652)

وقال الثعلبي :

﴿ والصافات صَفًّا ﴾

قال ابن عباس ومسروق والحسن وقتادة : يعني صفوف الملائكة في السماوات كصفوف الخلق في الدُّنيا للصلاة ، وقيل : هم الملائكة تصف أجنحتها في الهواء واقفة فيه حتى يأمرها بما يريد ، وقيل : هي الطير ، دليله قوله : ﴿ والطير صَآفَّاتٍ ﴾ [ النور : 41 ] وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ﴾ [ الملك : 19 ] .

والصف : ترتيب الجمع على خط كالصف في الصلاة والحرب .

﴿ فالزاجرات زَجْراً ﴾ يعني الملائكة تزجر السحاب وتسوقه ، وقال قتادة : هي زواجر القرآن .

﴿ فالتاليات ذِكْراً ﴾ يعني جبرائيل والملائكة تتلو كتب الله ، عن مجاهد والسدي ، وقيل : هي جماعة قرّاء القرآن ، وهي كلها جمع الجمع ، فالصافة جمع الصاف ، والصافات جمع الصافة وكذلك أُختاها ، وقيل : هو قسم بالله تعالى على تقدير : وربّ الصافات .

﴿ إِنَّ إلهكم لَوَاحِدٌ ﴾ موضع القسم قال مقاتل : لأنّ كفار مكة قالوا : أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ فأقسم الله تعالى بهؤلاء : ﴿ إِنَّ إلهكم لَوَاحِدٌ ﴾ ، وقرأ الأعمش وأبو عمرو وحمزة كلّهم بالإدغام ، والباقون بالبيان .

﴿ رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشارق ﴾ أي مطالع الشمس ؛ وذلك أنّ

الله تعالى خلق للشمس ثلاثمئة وستين كوة في المشرق ، وثلثمائة وستين كوة في المغرب على عدد أيام السنة تطلع كل يوم من كوة منها وتغرب في كوة منها فهي المشارق والمغارب .

(223/652)

---

حدّثنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي إملاءً قال : حدّثنا أبو العباس محمّد بن إسحاق بن إبراهيم الثقفي إملاءً قال : حدّثني إسحاق بن إبراهيم بن عبد الرَّحْمن بن عمر بن منيع صدوق ثقة قال : حدّثنا ابن عليه عن عمارة بن أبي حفصة عن عكرمة قال : قال ابن عباس : إنّ الشمس تطلع كل سنة في ثلاثمائة وستين كوة تطلّع كل يوم في كوة ولا ترجع إلى تلك الكوة إلاّ ذلك اليوم من العام القابل ، ولا تطلع إلاّ وهي كارهة ، فتقول : ربّ لا تطلعني على عبادك ؛ فإني أراهم يعصونك ويعملون بمعاصيك أراهم . قال : أولم تسمعوا إلى ما قال أُمية بن أبي الصلت : حتى تجر وتجلد ؟

قلت : يا مولاي وتجلد الشمس ؟ قال : عضضت بهن أبيك ، إنما اضطره الروي إلى الجلد .

وقيل : وكل موضع شرقت عليه الشمس فهو مشرق ، وكل موضع غربت عليه فهو مغرب ، كأنه أراد ربّ جميع ما شرقت عليه الشمس .

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السمآء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ قرأ عاصم برواية أبي بكر ( بزينة ) منونة ( الكواكب ) نصباً ، يعني بتزييننا الكواكب ، وقيل : أعني الكواكب ، وقرأ حمزة وعاصم في سائر الروايات ( بزينة ) منونة . ﴿ الكواكب ﴾ خفضاً على البدل ، أي بزينة الكواكب . وقرأ الباقون ﴿ بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ مضافة . قال ابن عباس : يعني بضوء الكواكب .

﴿ وَحِفْظاً ﴾ أي وحفظناها حفظاً ، أو وجعلناها أيضاً حفظاً ، وذلك شائع في اللغة ﴿ مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ : خبيث خال عن الخير .

﴿ لاَّ يَسَّمَّعُونَ إلى الملإ الأعلى ﴾ كأنه قال : فلا يسمعون . قرأ أهل الكوفة ﴿ يَسَّمَّعُونَ ﴾ بالتشديد ، أي يتسمعون ، قال مجاهد : كانوا يتسمعون ولكن لا يسمعون ، وهو اختيار أبي عبيد ، وقرأ الآخرون بالتخفيف ، وهو اختيار أبي حاتم ، ﴿ إلى الملإ الأعلى ﴾ يعني الكتبة من الملائكة في السماء ﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾ ، ويرمون ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ من آفاق السماء .



---

﴿ دُحُوراً ﴾ يبعدونهم عن مجالس الملائكة ، والدحر والدحور : الطرد والإبعاد ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ : دائم ، نظيره قوله سبحانه : ﴿ وَلَهُ الدين وَاصِباً ﴾ [ النحل :

52 ] ، وقال ابن عباس : شديد . الكلبي : موجع ، وقيل : خالص .

﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الخطفة ﴾ : مسارق فسمع الكلمة ، ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ : تبعه ولحقه كوكب مضيء قوي لا يخطئه يقتل أو يحرق أو يحيل ، وإنما يعودون إلى استراق السمع مع علمهم بأنهم لا يصلون إليه ؛ طمعاً في السلامة ونيل المراد كراكب البحر .

﴿ فاستفتهم ﴾ فسلهم ، يعني : أهل مكة ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ يعني : من الأُمم الخالية ، وقد أهلكناهم بذنوبهم ، وقيل : يعني السماوات والأرض وما بينهما . نزلت في أبي الأسد بن كلدة ، وقيل : أُبيّ بن أسد ، وسُمّي بالأسدين ؛ لشدة بطشه وقوته ، نظيرها : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [ غافر : 57 ] وقوله سبحانه ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء ﴾ [ النازعات : 27 ] .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾ أي جيد حر يلصق ويعلق ، باليد ومعناه اللازم تبدل الميم كأنه يلزم اليد ، وقال السدي : خالص . قال مجاهد والضحاك : [ الرمل ] .



---

﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف ( عجبتُ ) بضم التاء - وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس على معنى أنهم قد حلّوا محل من تعجّب منهم ، وقال الحسين بن الفضل

: العجب من الله ، إنكار الشيء وتعظيمه وهو لغة العرب ، وقد جاء في الخبر : عجب ربكم من إلّكم وقنوطكم والخبر الآخر : إنّ الله ليعجب من الشاب إذا لم يكن له صبوة ونحوها ، وسمعت أبا القاسم الحسن بن محمد النيسابوري يقول : سمعت أبا عبد الله محمد بن علي البغدادي يقول : سُئل جنيد عن هذه الآية فقال : إنّ الله لا يعجب من شيء ، ولكنّ الله وافق رسوله لمّا عجب رسوله ، فقال : ف ﴿ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ [ الرعد : 5 ] . أي هو لما يقوله .

وقرأ الآخرون بفتح التاء على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم وهي قراءة شريح القاضي . قال : إنما يعجب من لا يعلم ، والله عنده علم كلّ شيء ، ومعناه ، بل عجبت من تكذيبهم إياك . ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ وهم يسخرون من تعجبّك .

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لاَ يَذْكُرُونَ ﴾ وإذا وعظوا لا يتعظون .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ يعني انشقاق القمر ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ يسخرون وقيل : يستدعي بعضهم بعضاً إلى أن يسخر .

﴿ وقالوا إن هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ * أَإِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَآؤُنَا ﴾ يعني : وآباؤنا ﴿ أَوَ ﴾ بمعنى الواو ﴿ الأولون * قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ : صاغرون . ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ ﴾ يعني : النفخة والقيامة ﴿ زَجْرَةٌ ﴾ : صيحة ﴿ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ أحياء .

﴿ وَقَالُوا يا ويلنا هذا يَوْمُ الدين * هذا يَوْمُ الفصل الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * احشروا الذين ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ أخبرني الحسن بن محمد المدني قال : حدّثنا محمد بن علي الحسن الصوفي قال : حدّثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة قال : حدّثنا عمّي أبو بكر قال : حدّثنا وكيع عن سفيان عن سماك ، عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ قال : " ضرباءهم " ، وقال ابن عباس : أشباههم . ضحاك ومقاتل : قرناءهم من الشياطين ، كل كافر معه شيطانه في سلسلة . قتادة والكلبي : كل من عمل مثل عملهم ، فأهل الخمر مع أهل الخمر ، وأهل الزنا مع أهل الزنا ، وقال الحسن : وأزواجهم المشركات .

﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ الله ﴾ في الدنيا ﴿ فاهدوهم ﴾ : فادعوهم ، قاله الضحاك ، وقال ابن عباس : دلّوهم ، وقال ابن كيسان : فدلوهم ، والعرب تسمي السائق هادياً ، ومنه قيل : الرقبة هادية السائق ، قال امرؤ القيس :

كأن دماء الهاديات بنحره . . . عصارة حنا بشيب مرجّل

﴿ إلى صِرَاطِ الجحيم ﴾ : طريق النار .

﴿ وَقِفُوهُمْ ﴾ واحبسوهم ، يُقال : وقفته وقفاً فوقف وقوفاً . ﴿ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾ قال ابن عباس : عن لا إله إلاّ الله . ضحاك : عن خطاياهم . القرظي : عن جميع أقوالهم وأفعالهم . أخبرني الحسين بن محمد الدينوري قال : حدّثنا عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندي قال : حدّثنا محمد بن أيوب قال : أخبرنا محمد بن عقبة قال : حدّثنا أبو حصين بن نمير الهمداني قال : حدّثنا حسين بن قيس الرحبي وزعم أنه شيخ صدوق قال : حدّثنا عطاء عن أبي عمر عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن خمس خصال : عن شبابه فيما أبلاه ، وعن عمره فيما أفناه ، وعن ماله من أين كسبه ، وفيما أنفقه ، وما عمِلَ فيما علم " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا محمد بن الحسن بن صقلاب قال : حدّثنا محمد بن أحمد بن عبد الرَّحْمن بطرسوس قال : حدّثنا أحمد بن خليد قال : حدّثنا يوسف بن يونس الأخطف الأقطس قال : حدّثنا سليمان بن بلال عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة دعا الله سبحانه بعبد من عبيده فيوقفه بين يديه فيسائله عن جاهه كما يسائله عن ماله " .

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ أي لا تنتقمون ولا ينصر بعضهم بعضاً ، يقوله خزنة النار للكفار ، وهذا جواب أبي جهل حين قال يوم بدر : نحن جميع منتصر .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ قال ابن عباس : خاضعون . الحسن : منقادون . الأخفش : ملقون بأيديهم ، وقال أهل المعاني : مسترسلون لما لا يستطيعون له دفعاً ولا منه امتناعاً كحال الطالب السلامة في نزل المنازعة .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾ يعني : الرؤساء والأتباع ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ : يتخاصمون .

(228/652)

---

﴿ قالوا ﴾ يعني : الأتباع للرؤساء : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين ﴾ أي من قِبَل اليمين فتضلوننا عنه ، قاله الضحاك ، وقال مجاهد : عن الصراط الحق : وقال أهل المعاني : أي من جهة النصيحة والبركة والعمل الذي يتيمن به ، والعرب تتيمن بما جاء عن اليمين ، وقال بعضهم : أي عن القوة والقدرة كقول الشماخ .

إذا ما راية رفعت لمجد . . . تلقاها عرابة باليمين

أي بالقوة وغرابة اسم ملك اليمن .

﴿ قَالُواْ ﴾ يعني : الرؤساء ﴿ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بَلْ

﴿ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا ﴾ وعليكم ﴿ قَوْلُ رَبِّنَآ ﴾ يعنون قوله سبحانه : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [ السجدة : 13 ] .

﴿ إِنَّا ﴾ جميعاً ﴿ لَذَآئِقُونَ ﴾ العذاب .

﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴾ : فأضللناكم لأنا كنّا ﴿ غَاوِينَ ﴾ ضالين ، قال الله سبحانه : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي العذاب مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين * إِنَّهُمْ كانوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إله إِلاَّ الله يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لتاركوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ يعني النبي صلّى الله عليه وآله وسلم .

قال الله سبحانه رداً عليهم : ﴿ بَلْ جَآءَ بالحق وَصَدَّقَ المرسلين * إِنَّكُمْ لَذَآئِقُو العذاب الأليم * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين * أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ يعني : بكرة وعشية ، كقوله : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [ مريم : 62 ] .

*(229/652)*

---

﴿ فَوَاكِهُ ﴾ : جمع الفاكهة ، وهي كلّ طعام يؤكل للتلذذ لا للقوت الذي يحفظ الصحة ، يُقال : فلان يتفكه بهذا الطعام ، ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النعيم * على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ ﴾ : إناء فيه شراب ، ولا يكون كأساً حتى يكون فيه

شراب ، وإلاّ فهو إناء ، قال الأخفش : كل كأس في القرآن فهو خمر ﴿ مِّن مَّعِينٍ ﴾ : خمر جارية في أنهار طاهرة العيون ، ويجوز أن يكون فعيلاً من ( المعن ) وهو الإسراع والشدة من ( أمعن في الأمر ) إذا اشتدّ دخوله فيه . يعني : خمراً شديدة الجري سريعته .

﴿ بَيْضَآءَ ﴾ أي صافية في نهاية اللطافة و ﴿ لَذَّةٍ ﴾ : لذيذة ﴿ لِّلشَّارِبِينَ * لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أي إثم عن الكلبي ، نظيره ﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ ﴾ [ الطور : 23 ] . قتادة : وجع البطن . الحسن : صداع . مجاهد : داء . ابن كيسان : مغص . الشعبي : لا تغتال عقولهم فتُذهب بها ، وقال أهل المعاني : الغول : فساد يلحق في خفاء ، يُقال : اغتاله اغتيالاً إذا فسد عليه أمره في خفية ، ومنه الغول والغيلة وهو القتل خفية .

﴿ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف : بكسر الزاي هاهنا وفي سورة الواقعة ، وافقهم عاصم في الواقعة . الباقون : بفتح الزاي فيهما . فمن فتح الزاي ، فمعناه : لا تغلبهم على عقولهم ولا يسكرون ، يقال : نزف الرجل فهو منزوف ونزيف ، إذا سكر وزال عقله ، قال الشاعر :

فلثمتُ فاها آخذاً بقرونها . . . شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

أي السكران ، ومن كسر الزاي فمعناه : لا ينفد شرابهم . يُقال : أنزف الرجل فهو منزوف إذا فنيت خمره .

قال الحطيئة :

لعمري لئن أنزفتمُ أو صحوتمُ . . . لبئس الندامى كنتمُ آل أبجرا

(230/652)

---

﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف ﴾ : حابسات الأعين ، غاضّات الجفون ، قصرن أعينهن عن غير أزواجهن ، فلا ينظرن إلاّ إلى أزواجهنّ ﴿ عِينٌ ﴾ نجل العيون حسانها ، واحدتها : عيناء ، يُقال : رجل أعين وامرأة عيناء ورجال ونساء عين .

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ ﴾ : جمع البيضة ﴿ مَّكْنُونٌ ﴾ مستور مصون . قال الحسن وابن زيد شبههن ببيض النعامة تكنها بالريش من الريح والغبار ، وقيل : شبههن ببطن البيض قبل أن يُقشر ، وهو معنى قول ابن عباس ، وإنما ذكّر المكنون والبيض جمع ؛ لأنه ردّه إلى اللفظ .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ في الجنة . ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ في الدنيا . قال مجاهد : كان شيطاناً ، وقال آخرون : كان من الإنس . قال مقاتل : كانا أخوين ، وقال الباقون : كانا شريكين : أحدهما فطروس وهو الكافر ، والآخر يهوذا وهو المؤمن ، وهما اللذان قصّ الله حديثهما في سورة الكهف .

﴿ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ المصدقين ﴾ بالبعث ؟ ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾

: مجزيون ومحاسبون ومملوكون ﴿ قَالَ ﴾ الله سبحانه لأهل الجنة : ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴾ إلى النار ؟ أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حبيش قال : حدّثنا أبو القاسم بن الفضل قال : حدّثنا أحمد ابن يزيد المقرئ عن جلاد عن الحكم بن طاهر ، عن السدي ، عن أبي ملك عن ابن عباس أنه قرأ ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ * فاطلع ﴾ بخفضهما وبكسر اللام ، قال : رافعون فرفع ، قال ابن عباس : وذلك أنّ في الجنة كوىً فينظر أهلها منها إلى النار وأهلها .

﴿ فاطلع ﴾ هذا المؤمن ﴿ فَرَآهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ ﴾ فرأى قرينه في وسط النار .

﴿ قَالَ تَاللهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ ما أردت إلاّ أن تهلكوا وأصله من التردّي . ﴿ وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي ﴾ : عصمته ورحمته ﴿ لَكُنتُ مِنَ الْمُحضَرِينَ ﴾ معك في النار .

(231/652)

---

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ ، فتقول لهم الملائكة : لا ، وقيل : إنما يقولونه على جهة الحديث بنعمة الله سبحانه عليهم في أنّهم لا يموتون ولا يعذّبون ، وقيل : يقوله المؤمن على جهة التوبيخ لقرينه بما كان ينكره .

﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ الفوز العظيم * لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾

﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً ﴾ : رزقاً ﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزقوم ﴾ ، والزقوم ثمرة شجرة كريهة الطّعم جداً ، من قولهم : يزقم هذا الطعام ، إذا تناوله على كره ومشقة شديدة .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴾ : للكافرين ، وذلك أنهم قالوا : كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر ؟ وقال ابن الزبعرى لصناديد قريش : إنّ محمداً يخوفنا بالزقوم وإنّ الزقوم بلسان بربر وأفريقية الزبد والتمر ، فأدخلهم أبو جهل بيته وقال : يا جارية زقّمينا . فأتتهم بالزبد والتمر ، فقال : تزقّموا فهذا ما يوعدكم به محمد ، فقال الله سبحانه : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجحيم ﴾ : قعر النار . قال الحسن : أصلها في قعر جهنم ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها .

﴿ طَلْعُهَا ﴾ ثمرها ، سمّي طلعها لطلوعه ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشياطين ﴾ قال بعضهم : هم الشياطين بأعيانهم ، شبهّه بها لقبحه ؛ لأن الناس إذا وصفوا شيئاً بعاهة القبح قالوا : كأنه شياطين ، وإن كانت الشياطين لا تُرى ؛ لأن قبح صورتها متصوّر في النفس ، وهذا معنى قول ابن عباس والقرظي ، وقال بعضهم : أراد بالشياطين الحيّات ، والعرب تُسمي الحية القبيحة الخفيفة الجسم شيطاناً ، قال الشاعر :

تلاعب مثنى حضرمّي كأنه . . . تعمج شيطان بذي خروع قفر

وقال الراجز :

عنجرد تحلف حين أحلف . . . كمثل شيطان الحماط أعرف

والأعرف : الذي له عرق ، وقيل : هي شجرة قبيحة خشنة مرة منتنة ، تنبت في البادية تسميها العرب رؤوس الشياطين .

(232/652)

---

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ ، والملء : حشو الوعاء بما لا يحتمل زيادة عليه ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا ﴾ : خلطاً ومزاجاً ، وقال مقاتل : شراباً ﴿ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ : ماء حار شديد الحرارة ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الجحيم ﴾ ثم بمعنى قبل ، مجازه : وقبل ذلك مرجعهم لإلى الجحيم ، كقول الشاعر :

إنّ من ساد ثم ساد أبوه . . . ثم قد ساد قبل ذلك جده

أي قبل ذلك ساد أبوه ، ويجوز أن تكون بمعنى الواو .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا أبو علي المقري قال : حدّثني علي بن الحسن بن سعد الهمداني قال : حدّثنا عباس بن يزيد بن أبي حبيب قال : حدّثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا سفيان عن ميسرة عن المنهال عن أبي عبيدة عن عبد الله أنه قرأ ( ثم إنّ مقتلهم لإلى الجحيم ) .

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ﴾ : وجدوا ﴿ آبَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ على آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ يسرعون .

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأولين * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنذِرِينَ ﴾ : مرسلين ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين * إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين * وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ ، نظيره : ﴿ وَنُوحاً إِذْ نادى مِن قَبْلُ ﴾ [ الأنبياء : 76 ] ، وهو قوله : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فانتصر ﴾ [ القمر : 10 ] .

﴿ فَلَنِعْمَ المجيبون ﴾ على التعظيم ، ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ ، وهو الغرق ، ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ ، أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا الفضل بن الفضل الكندي قال : حدّثنا زكريا بن يحيى الساجي قال : حدّثنا بندار قال : حدّثنا محمد بن خالد بن غيمة قال : حدّثنا سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ قال : "سام وحام ويافث " .



---

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا محمد بن عمران بن هارون قال : حدّثنا أبو عبد الله المخزومي قال : حدّثنا سفيان بن عيينة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيّب قال : كان وُلْد نوح ثلاثة : سام وحام ويافث ، فسام أبو العرب وفارس

وروم ، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب ، ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج وما هنالك .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا مخلد بن جعفر الباقرحى قال : حدّثنا الحسن بن علوية قال : حدّثنا إسماعيل بن عيسى قال : حدّثنا إسحاق بن بشر قال : أخبرنا جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : لما خرج نوح عليه السلام من السفينة مات مَن معه من الرجال والنساء إلاّ ولده ونساءهم ، فذلك قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين ﴾ ، أي لقينا له ثناء حسناً وذكراً جميلاً فيمن بعده من الأنبياء والأُمم .

﴿ سَلاَمٌ على نُوحٍ فِي العالمين * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 138 . 148 ﴾

(234/652)

---

وقال الزمخشرى :

سورة الصافات

مكية ، وهي مائة وإحدى وثمانون آية ، وقيل : واثنتان وثمانون [نزلت بعد الأنعام ] بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الصافات (37) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِراتِ زَجْراً (2) فَالتَّالِياتِ ذِكْراً (3) إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ (4) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ (5)

أقسم اللّه سبحانه بطوائف الملائكة أو بنفوسهم الصافات أقدامها في الصلاة، من قوله تعالى وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ أو أجنحتها في الهواء واقفة منتظرة لأمر اللّه فَالزَّاجِراتِ السحاب سوقا فَالتَّالِياتِ لكلام اللّه من الكتب المنزلة وغيرها. وقيل الصَّافَّاتِ: الطير، من قوله تعالى وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ والزاجرات: كل ما زجر عن معاصى اللّه. والتاليات: كل من تلا كتاب اللّه. ويجوز أن يقسم بنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها في التهجد وسائر الصلوات وصفوف الجماعات، فالزاجرات بالمواعظ والنصائح، فالتاليات آيات اللّه والدارسات شرائعه. أو بنفوس قواد الغزاة في سبيل اللّه التي تصف الصفوف وتزجر الخيل للجهاد، وتتلو الذكر «1» مع ذلك لا تشغلها

---

(1). قال محمود: «المقسم به طوائف الملائكة أو نفوسهم، والمراد صفهم في الصلاة وزجرهم السحاب أى سوقهم وتلاوتهم ذكر اللّه أو العلماء والمراد تصافف أقدامهم في الصلاة وزجرهم بالمواعظ عن المعاصي وتلاوتهم الذكر ...... إلى أن قال: ... «و

يكون التفاصل بين الطوائف إما على أن الأول هو الأفضل أو على العكس» قال أحمد : قد جوز أن يكون ترتيبها في التفاضل على أن الأول وهو الأفضل وعلى العكس ، ولم يبين وجه كل واحد منهما من حيث صنعة البديع ، ونحن نبينه فنقول : وجه البداءة بالأفضل الاعتناء بالأهم . فقدم ، ووجه عكس هذا الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، ومنه قوله :

بها ليل منهم جعفر وابن أمه علي ومنهم أحمد المنخير

ولا يقال : إن هذا إنما ساغ لأن الواو لا تقتضي رتبة ، فان هذا غايته أنه عذر ، وما ذكرناه بيان لما فيه من مقتضى البديع والبلاغة ، وفي هذه الآية دلالة على مذهب سيبويه والخليل في مثل وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى فإنهما يقولان : الواو الثانية وما بعدها عواطف ، وغيرهما يذهب إلى أنها حروف قسم ، فوقوع الفاء في هذه الآية موقع الواو والمعنى واحد ، إلا أن ما تزيده الفاء من ترتيبها دليل واضح على أن الواو الواقعة في مثل هذا السياق للعطف لا للقسم .

(235/652)

---

عنه تلك الشواغل ، كما يحكى عن عليّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه . فإن قلت : ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصفات ؟ قلت : إما أن تدل على ترتب معانيها في

الوجود ، كقوله :

يا لهف زيّابة للحرث الصّابح فالغانم فالآيب «1»

كأنه قيل : الذي صبح فغنم فآب . وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه ، كقولك : خذ الأفضل فالأكمل ، واعمل الأحسن فالأجمل . وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك ، كقوله :

رحم اللّه المحلقين فالمقصرين ، فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة في الصفات .

فإن قلت : فعلى أى هذه القوانين هي فيما أنت بصدده ؟ قلت : إن وحدت الموصوف كانت للدلالة على ترتب الصفات في التفاضل ، وإن ثلثته ، فهي للدلالة على ترتب الموصوفات فيه ، بيان ذلك : أنك إذا أجريت هذه الأوصاف على الملائكة وجعلتهم جامعين لها ، فعطفها بالفاء يفيد ترتبا لها في الفضل : إما إن يكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة ، وإما على العكس ، وكذلك إن أردت العلماء وقواد الغزاة . وإن أجريت الصفة الأولى على طوائف والثانية والثالثة على أخر ، فقد أفادت ترتب الموصوفات في الفضل ، أعنى أن الطوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل ، والتاليات أبهر فضلا ، أو على العكس ، وكذلك إذا أردت بالصافات :

الطير ، وبالزاجرات : كل ما يزجر عن معصية . وبالتاليات : كل نفس تتلو الذكر ، فإن

الموصوفات مختلفة. وقرئ بإدغام التاء في الصاد والزاى والذال رَبُّ السَّماواتِ خبر بعد خبر. أو خبر مبتدإ محذوف. والْمَشارِقِ ثلاثمائة وستون مشرقا، وكذلك المغارب: تشرق الشمس كل يوم في مشرق منها وتغرب في مغرب، ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين. فإن قلت:

فما ذا أراد بقوله رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ؟ قلت: أراد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما.

[سورة الصافات (37): الآيات 6 إلى 7]

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (6) وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ (7)

الدُّنْيا القربى منكم. والزينة: مصدر كالنسبة، واسم لما يزان به الشيء، كالليقة اسم لما تلاق به الدواة، ويحتملهما قوله بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ فإن أردت المصدر، فعلى إضافته إلى الفاعل، أى: بأن زانتها الكواكب، وأصله: بزينة الكواكب: أو على إضافته إلى المفعول، أى: بأن زان الله الكواكب وحسنها، لأنها إنما زينت السماء لحسنها في أنفسها، وأصله بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ وهي قراءة أبى بكر والأعمش وابن وثاب، وإن أردت الاسم فللإضافة وجهان:

أن تقع الكواكب بيانا للزينة، لأن الزينة مبهمة في الكواكب وغيرها مما يزان به، وأن يراد

---

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 41 فراجعه إن شئت اه مصححه.

ما زينت به الكواكب. وجاء عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : بزينة الكواكب : بضوء الكواكب : ويجوز أن يراد أشكالها المختلفة، كشكل الثريا وبنات نعش والجوزاء ، وغير ذلك، ومطالعها ومسايرها . وقرئ على هذا المعنى : بزينة الكواكب ، بتنوين زينة وجر الكواكب على الإبدال. ويجوز في نصب الكواكب : أن يكون بدلا من محل بزينة وَحِفْظاً مما حمل على المعنى لأنّ المعنى : إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظا من الشياطين، كما قال تعالى وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ ويجوز أن يقدر الفعل المعلل، كأنه قيل : وحفظا مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ زيناها بالكواكب ، وقيل : وحفظناها حفظا . والمارد :

الخارج من الطاعة المتملس «1» منها .

[سورة الصافات (37) : الآيات 8 إلى 10]

لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ (8) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (9)
إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (10)

الضمير في لا يَسَّمَّعُونَ لكل شيطان، لأنه في معنى الشياطين. وقرئ بالتخفيف والتشديد

، وأصله : يتسمعون. والتسمع : تطلب السماع. يقال : تسمع فسمع ، أو فلم يسمع.

وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هم يتسمعون ولا يسمعون ، وبهذا ينصر التخفيف على التشديد ، فإن قلت : لا يسمعون كيف اتصل بما قبله؟ قلت : لا يخلو من أن يتصل بما قبله على أن يكون صفة لكل شيطان ، أو استئنافا فلا تصحّ الصفة لأنّ الحفظ من شياطين لا يسمعون ولا يستمعون لا معنى له ، وكذلك الاستئناف لأنّ سائلا لو سأل : لم تحفظ من الشياطين؟

فأجيب بأنهم لا يسمعون : لم يستقم ، فبقى أن يكون كلاما منقطعا مبتدأ اقتصاصا ، لما عليه حال المسترقة للسمع «2» ، وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة. أو يتسمعوا وهم

---

(1) . قوله «من الطاعة المتملس منها» في الصحاح : يقال : انملس من الأمر ، إذا أفلت منه. (ع) [.....]

(2) . أبطل الزمخشري أن يكون لا يَسَّمَّعُونَ صفة لأن الحفظ من شيطان لا يسمع لا معنى له وأبطل أن يكون أصله لئلا يسمعوا ، فحذف اللام وحذفها كثير ، ثم حذف أن وأهدر عملها مثل :

ألا أيها ذا الزاجري أحضر الوغي وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

واستبعد اجتماع هذين الحذفين ، وإن كان كل واحد منهما بانفراده سائغا ، ولما أبطل

هذين الوجهين تعين عنده أن يكون ابتداء كلام اقتصاصا لما عليه أحوال المسترقة للسمع»

قال أحمد : كلا الوجهين مستقيم ، والجواب عن إشكاله الوارد على الوجه الأول : أن عدم سماع الشيطان سببه الحفظ منه ، فحال الشيطان حال كونه محفوظا منه هي حاله حال كونه لا يسمع ، وإحدى الحالين لازمة للأخرى ، فلا مانع أن يجتمع الحفظ منه ، وكونه موصوفا بعدم السماع في حالة واحدة لا على أن عدم السماع ثابت قبل الحفظ بل معه وقسيمه ، ونظير هذه الآية على هذا التقدير قوله تعالى وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ فقوله تعالى مُسَخَّرَاتٌ حال مما تقدمه العامل فيه الفعل الذي هو سخر . ومعناه مستقيم ، لأن تسخيرها يستلزم كونها مسخرة ، فالحال التي سخرت فيها هي الحال التي كانت فيها مسخرة ، لا على معنى تسخيرها مع كونها مسخرة قبل ذلك ، وما أشار له الزمخشري في هذه الآية قريب من هذا التفسير ، إلا أنه ذكر معه تأويلا آخر كالمستشكل لهذا الوجه ، فجعل مسخرات جمع مسخر مصدر كممزق ، وجعل المعنى : وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر أنواعا من التسخير ، وفيما ذكرناه كفاية ، ومن هذا النمط ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا وهم ما كانوا رسلا إلا بالإرسال ، وهؤلاء ما كانوا لا يسمعون إلا بالحفظ . وأما الجواب عن إشكاله الثاني فورود حذفين في مثل قوله تعالى يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وأصله لئلا تضلوا ، فحذف اللام و«لا» جميعا من محليهما .

مقذوفون بالشهب مدحورون عن ذلك ، إلا من أمهل حتى خطف خطفة واسترق استراقة ، فعندها تعاجله الهلكة بإتباع الشهاب الثاقب . فإن قلت : هل يصح قول من زعم أن أصله :

لئلا يسمعوا فحذفت اللام كما حذفت في قولك : جئتك أن تكرمني ، فبقى أن لا يسمعوا فحذفت أن وأهدر عملها ، كما في قول القائل :

ألا أيها ذا الزّاجرى أحضر الوغى «1»

قلت : كل واحد من هذين الحذفين غير مردود على انفراده ، فأما اجتماعهما فمنكر من المنكرات ، على أن صون القرآن عن مثل هذا التعسف واجب . فإن قلت : أى فرق بين سمعت فلانا يتحدّث ، وسمعت إليه يتحدّث ، وسمعت حديثه ، وإلى حديثه ؟ قلت : المعدّى بنفسه يفيد الإدراك ، والمعدى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك ، والملأ الأعلى : الملائكة ، لأنهم يسكنون السماوات . والإنس والجن : هم الملأ الأسفل ، لأنهم سكان الأرض . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هم الكتبة من الملائكة . وعنه : أشراف الملائكة مِنْ كُلِّ جانِبٍ من جميع جوانب السماء من أى جهة صعدوا للاستراق دُحُوراً مفعول له ، أى : ويقذفون للدحور وهو الطرد ، أو مدحورين على الحال . أو لأنّ القذف والطرد متقاربان في المعنى ، فكأنه قيل :

يدحرون أو قذفا . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى بفتح الدال على : قذفا دحورا طرودا .

أو على أنه قد جاء مجيء القبول والولوع. والواصب : الدائم ، وصب الأمر وصوبا ، يعنى أنهم في الدنيا مرجومون بالشهب ، وقد أعدّ لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم غير منقطع مَنْ في محل الرفع بدل من الواو في لا يسمعون ، أى : لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي خَطِفَ الْخَطْفَةَ وقرئ : خطف بكسر الخاء والطاء وتشديدها ، وخطف بفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها ، وأصلهما : اختطف . وقرئ : فأتبعه ، وفاتبعه .

[سورة الصافات (37) : آية 11]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (11)

الهمزة وإن خرجت إلى معنى التقرير فهي بمعنى الاستفهام في أصلها ، فلذلك قيل

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 159 فراجعه إن شئت اه مصححه .



---

فَاسْتَفْتِهِمْ أى استخبرهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ولم يقل : فقرّرهم ، والضمير لمشركي مكة . قيل

:

نزلت في أبى الأشد بن كلدة ، وكنى بذلك لشدّة بطشه وقوته أَمْ مَنْ خَلَقْنا يريد : ما ذكر من خلائقه : من الملائكة ، والسماوات والأرض ، والمشارق ، والكواكب ، والشهب الثواقب ، والشياطين المردة ، وغلب أولى العقل على غيرهم ، فقال : من خلقنا ، والدليل عليه قوله بعد عدّ هذه الأشياء : فاستفتهم أهم أشدّ خلقا أم من خلقنا ، بالفاء المعقبة . وقوله : أم من خلقنا ، مطلقا من غير تقييد بالبيان ، اكتفاء ببيان ما تقدّمه ، كأنه قال : خلقنا كذا وكذا من عجائب الخلق وبدائعه ، فاستفتهم أهم أشدّ خلقا أم الذي خلقناه من ذلك ، ويقطع به قراءة من قرأ : أم من عددنا ، بالتخفيف والتشديد . وأشدّ خلقا : يحتمل أقوى خلقا من قولهم :

شديد الخلق . وفي خلقه شدّة ، وأصعب خلقا وأشقه ، على معنى الرد لإنكارهم البعث والنشأة الأخرى ، وأنّ من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة ولم يصعب عليه اختراعها كان خلق البشر عليه أهون . وخلقهم مِنْ طِينٍ لازِبٍ إما شهادة عليهم بالضعف والرخاوة لأنّ ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوّة ، أو احتجاج عليهم بأنّ الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب ، فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله حيث قالوا : أئذا كنا ترابا . وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث . وقيل : من خلقنا من الأمم الماضية ، وليس هذا القول بملائم . وقرئ : لازب ولاتب ، والمعنى واحد ، والثاقب : الشديد الإضاءة .

[سورة الصافات (37) : الآيات 12 إلى 14]

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12) وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (13) وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (14)

بَلْ عَجِبْتَ من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة وَهم يَسْخَرُونَ منك ومن تعجبك ومما تريهم من آثار قدرة الله، أو من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث.

وقرئ بضم التاء، أى: بلغ من عظم آياتي وكثرة خلائقى أنى عجبت منها، فكيف بعبادي وهؤلاء بجهلهم وعنادهم يسخرون من آياتي أو عجبت من أن ينكروا البعث ممن هذه أفعاله، وهم يسخرون ممن يصف الله بالقدرة عليه. فإن قلت: كيف يجوز العجب على الله تعالى، وإنما هو روعة تعترى الإنسان عند استعظامه الشيء، والله تعالى لا يجوز عليه الروعة؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يجرد العجب لمعنى الاستعظام: والثاني: أن يتخيل العجب ويفرض.

وقد جاء في الحديث: عجب ربكم من ألكم «1» وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم «2». وكان شريح

---

(1). قوله «من ألكم وقنوطكم» الأل: يأتى بمعنى السرعة والأنين والفساد. أفاده الصحاح. (ع)

(2) . أخرجه أبو عبيد في الغريب عن محمد بن عمرو يرفعه ، ثم قال : فقال : الأل رفع الصوت بالدعاء . وقال بعضهم : يرويه الأول ، وهو الشدة .

(239/652)

---

يقرأ بالفتح ويقول : إنّ اللّه لا يعجب من شيء ، وإنما يعجب من لا يعلم ، فقال إبراهيم النخعي :

إنّ شريحا كان يعجبه علمه وعبد اللّه أعلم ، يريد عبد اللّه بن مسعود ، وكان يقرأ بالضم .

وقيل معناه : قل يا محمد بل عجبت . وَإِذا ذُكِّرُوا ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون به وَإِذا رَأَوْا آيَةً من آيات اللّه البينة كانشقاق القمر ونحوه يَسْتَسْخِرُونَ يبالغون في السخرية .

أو يستدعى بعضهم من بعض أن يسخر منها .

[سورة الصافات (37) : الآيات 15 إلى 19]

وَقالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (15) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16) أَوَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ (18) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (19)

وَآباؤُنَا معطوف على محل إِنْ واسمها . أو على الضمير في مبعوثون ، والذي جوّز العطف

عليه الفصل بهمزة الاستفهام. والمعنى: أيبعث أيضا آباؤنا على زيادة الاستبعاد، يعنون أنهم أقدم، فبعثهم أبعد وأبطل. وقرئ أو آباؤنا قُلْ نَعَمْ وقرئ: نعم بكسر العين وهما لغتان. وقرئ: قال نعم، أى الله تعالى أو الرسول صلى الله عليه وسلم. والمعنى: نعم تبعثون وَأَنْتُمْ داخِرُونَ صاغرون فَإِنَّما جواب شرط مقدّر تقديره: إذا كان ذلك فما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ وهي لا ترجع إلى شيء، إنما هي مبهمة موضحها خبرها. ويجوز: فإنما البعثة زجرة واحدة وهي النفخة الثانية. والزجرة: الصيحة، من قولك: زجر الراعي الإبل أو الغنم: إذا صاح عليها فريعت لصوته. ومنه قوله:

زجر أبى عروة السباع إذا أشفق أن يختلطن بالغنم «1»

يريد تصوينه بها فَإِذا هُمْ أحياء بصراء يَنْظُرُونَ.

[سورة الصافات (37): الآيات 20 إلى 21]

وَقالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (20) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21)

يحتمل أن يكون هذا يَوْمُ الدِّينِ إلى قوله احْشُرُوا من كلام الكفرة بعضهم مع بعض

---

(1). للنابغة الجعدي. وأبو عروة: كنية العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، كانوا يزعمون أنه يصيح بالسباع فينفق مرارة الأسد في جوفه، وروى أن غارة أتتهم يوم حنين فصاح: يا صباحاه فأسقطت الحوامل، وكان يسمع صوته من مسافة ثمانية أميال.

وزجره يزجره، إذا صاح بمنعه، أى: كزجر أبى عروة السباع عن الغنم إذا خاف اختلاطهن بها في البادية.

(240/652)

---

وأن يكون من كلام الملائكة لهم، وأن يكون يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ كلام الكفرة. وهذا يَوْمُ الْفَصْلِ من كلام الملائكة جوابا لهم. ويوم الدين: اليوم الذي ندان فيه، أى نجازى بأعمالنا. ويوم الفصل: يوم القضاء، والفرق بين فرق الهدى والضلالة.

[سورة الصافات (37) : الآيات 22 إلى 26]

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ (23) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (24) ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (25) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (26)

احْشُرُوا خطاب اللّه للملائكة، أو خطاب بعضهم مع بعض وَأَزْواجَهُمْ وضرباءهم عن النبي صلى اللّه عليه وسلم: وهم نظراؤهم وأشباههم من العصاة: أهل الزنا مع أهل الزنا، وأهل السرقة مع أهل السرقة. وقيل: قرناؤهم من الشياطين. وقيل: نساؤهم اللاتي على دينهم فَاهْدُوهُمْ فعرّفوهم طريق النار حتى يسلكوها. هذا تهكم بهم وتوبيخ لهم

بالعجز عن التناصر بعد ما كانوا على خلاف ذلك في الدنيا متعاضدين متناصرين بَلْ هُمُ

الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ قد أسلم بعضهم بعضا وخذله عن عجز، فكلهم مستسلم غير منتصر.

وقرئ: لا تتناصرون ولا تناصرون، بالإدغام.

[سورة الصافات (37) : الآيات 27 إلى 35]

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (27) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (28) قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29) وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (30) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (31)

فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (32) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (33) إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34) إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35)

اليمين لما كانت أشرف العضوين وأمتنهما وكانوا يتيمنون بها، فبها يصافحون ويماسحون ويناولون ويتناولون، ويزاولون أكثر الأمور، ويتشاءمون بالشمال، ولذلك سموها: الشؤمى،

كما سموا أختها اليمنى ، وتيمنوا بالسانح ، «1» وتطيروا بالبارح ، وكان الأعسر معيبا عندهم ، وعضدت الشريعة ذلك ، فأمرت بمباشرة أفاضل الأمور باليمين ، وأراذلها بالشمال . وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يحب التيامن في كل شيء «2» .

وجعلت اليمين لكاتب الحسنات ، والشمال لكاتب السيئات ، ووعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه ، والمسيء أن يؤتاه بشماله :

استعيرت لجهة الخير وجانبه ، فقيل : أتاه عن اليمين ، أى : من قبل الخير وناحيته ، فصدّه عنه وأضله . وجاء في بعض التفاسير : من أتاه الشيطان من جهة اليمين : أتاه من قبل الدين فلبس عليه الحق . ومن أتاه من جهة الشمال : أتاه من قبل الشهوات . ومن أتاه من بين يديه : أتاه من قبل التكذيب بالقيامة وبالثواب والعقاب . ومن أتاه من خلفه : خوّفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده ، فلم يصل رحما ولم يؤد زكاة . فإن قلت : قولهم : أتاه من جهة الخير وناحيته : مجاز في نفسه ، فكيف جعلت اليمين مجازا عن المجاز ؟ قلت : من المجاز ما غلب في الاستعمال حتى لحق بالحقائق ، وهذا من ذاك ، ولك أن تجعلها مستعارة للقوّة والقهر ، لأنّ اليمين موصوفة بالقوة ، وبها يقع البطش . والمعنى : أنكم كنتم تأتوننا عن القوّة والقهر ، وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتقسرونا عليه .

وهذا من خطاب الأتباع لرؤسائهم ، والغواة لشياطينهم بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ بل أبيتم أنتم الإيمان وأعرضتم عنه ، مع تمكنكم منه مختارين له على الكفر . غير ملجئين إليه وَما كانَ

لَنا عَلَيْكُمْ من تسلط نسلبكم به تمكنكم واختياركم بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً مختارين الطغيان فَحَقَّ عَلَيْنا فلزمنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ يعنى : وعيد اللّه بأنا ذائقون لعذابه لا محالة ، لعلمه بحالنا واستحقاقنا بها العقوبة ، ولو حكى الوعيد كما هو لقال : إنكم لذائقون ، ولكنه عدل به إلى لفظ المتكلم ، لأنهم متكلمون بذلك عن أنفسهم . ونحوه قول القائل :

لقد زعمت هوازن قلّ مالى «3»

---

(1) . قوله «و تيمنوا بالسانح» السانح : المار من اليسار إلى اليمين . والبارح عكسه . أفاده الصحاح. (ع)

(2) . متفق عليه من حديث عائشة رضى اللّه عنها أتم من هذا .

(3) ألا زعمت هوازن قل مالى وهل لي غير ما أنفقت مال

أسربه نعم ونعم قديما على ما كان هن مال وبال

ألا استفتاحية ، وهوازن : امرأته ، وضمن زعمت معنى قالت ، فعداه إلى الجملة ، ولو حكى قولها بلفظه لقال : قل مالك ، ولكن جاء بياء المتكلم لجواز الحكاية بالمعنى ، وهل : استفهام إنكارى ، وغير : حال مقدمة ، أى : ليس لي مال غير ما أنفقته في المكارم ، وأسربه . مبنى للمجهول صفة لمال ، أى : لا يسرني غير ما أنفقته ، وبين جهة الإنفاق بقوله : نعم ونعم ، أى جوابي للسائلين بذلك من قديم الزمان : هو وبال ومضرة على ما كان لي من

مال ، ويجوز أن أسر مبنى للفاعل . ونعم الأولى مفعوله ، أى : هل لي مال أسربه من يجاب بنعم ، والحال أن نعم وبال على المال ، ومهلكة له قديما ، حيث أخيب السائل بها .

(242/652)

---

ولو حكى قولها لقال : قل مالك . ومنه قول المحلف للحالف : احلف لأخرجنّ ، ولتخرجنّ :

الهمزة لحكاية لفظ الحالف ، والتاء لإقبال المحلف على المحلف فَأَغْوَيْناكُمْ فدعوناكم إلى الغى دعوة محصلة للبغية ، لقبولكم لها واستحبابكم الغىّ على الرشد إِنَّا كُنَّا غاوِينَ فأردنا إغواءكم لتكونوا أمثالنا فَإِنَّهُمْ فإنّ الأتباع والمتبوعين جميعا يَوْمَئِذٍ يوم القيامة مشتركون في العذاب كما كانوا مشتركين في الغواية إِنَّا مثل ذلك الفعل نَفْعَلُ بكل مجرم ، يعنى أنّ سبب العقوبة هو الإجرام ، فمن ارتكبه استوجبها إِنَّهُمْ كانُوا إذا سمعوا بكلمة التوحيد نفروا أو استكبروا عنها وأبوا إلا الشرك .

[سورة الصافات (37) : الآيات 36 إلى 39]

وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (36) بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37)
إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ (38) وَما تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39)

لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ يعنون محمدا صلى اللّه عليه وسلم بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ رد على المشركين وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ كقوله مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وقرئ : لذائقو العذاب ، بالنصب على تقدير النون ، كقوله :

ولا ذاكر اللّه إلّا قليلا «1»

بتقدير التنوين . وقرئ على الأصل : لذائقون العذاب إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إلا مثل ما عملتم جزاء سيئا بعمل سيئ .

[سورة الصافات (37) : الآيات 40 إلى 49]

إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40) أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41) فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (42) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43) عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (44)

يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46) لا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (47) وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49)

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 448 فراجعه إن شئت اه مصححه .

إِلَّا عِبادَ اللَّهِ ولكن عباد اللّه ، على الاستثناء المنقطع . فسر الرزق المعلوم بالفواكه : وهي كل ما يتلذذ به ولا يتقوّت لحفظ الصحة ، يعنى أنّ رزقهم كله فواكه ، لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات ، بأنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد ، فكل ما يأكلونه يأكلونه على سبيل التلذذ . ويجوز أن يراد : رزق معلوم منعوت بخصائص خلق عليها : من طيب طعم ، ورائحة ، ولذة ، وحسن منظر . وقيل : معلوم الوقت ، كقوله وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا وعن قتادة : الرزق المعلوم الجنة . وقوله فِي جَنَّاتِ بأباه ، وقوله وَهُمْ مُكْرَمُونَ هو الذي يقوله العلماء في حد الثواب على سبيل المدح والتعظيم ، وهو من أعظم ما يجب أن تتوق إليه نفوس ذوى الهمم ، كما أنّ من أعظم ما يجب أن تنفر عنه نفوسهم هوان أهل النار وصغارهم .

التقابل : أتم للسرور وآنس . وقيل : لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض .

يقال للزجاجة فيها الخمر : كأس ، وتسمى الخمر نفسها كأسا ، قال :

وكاس شربت على لذّة «1»

وعن الأخفش : كل كأس في القرآن فهي الخمر ، وكذا في تفسير ابن عباس مِنْ مَعِينٍ من شراب معين . أو من نهر معين ، وهو الجاري على وجه الأرض ، الظاهر للعيون : وصف بما يوصف به الماء ، لأنه يجرى في الجنة في أنهار كما يجرى الماء ، قال اللّه تعالى وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ .

بَيْضاءَ صفة للكأس لَذَّةٍ إمّا أن توصف باللذة كأنها نفس اللذة وعينها : أو هي تأنيث اللذ ، يقال : لذ الشيء فهو لذ ولذيذ . ووزنه : فعل ، كقولك : رجل طب ، قال :

ولذ كطعم الصّرخدى تركته بأرض العدا من خشية الحدثان «2»

---

(1) وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

لكي يعلم الناس أنى امرؤ أتيت المعيشة من بابها

للأعشى ، والكأس تطلق على الزجاجة فيها الخمر ، وعلى الخمر فيها : مجازا مشهورا ، وهي مؤنثة بدليل تأنيث صفتها وضميرها . يقول : ورب كأس شربتها مع لذة ، أو لأجل لذة فضرتنى ، فشربت كأسا أخرى تداويت من الأولى بها ، ليعلم الناس أنى مجرب للأمور ، وكنى عن ذلك بقوله : أتيت المعيشة من بابها ، وشبه المعيشة مع أسبابها المناسبة لها بدار لها باب على طريق المكنية وإثبات الباب تخييل ، أى : كما داويت الداء من بابه أدرك المعيشة وأحصلها من الأسباب التي تناسبها . ويروى : بدل الشطر الثاني من البيت الأول

دهاق يرنح من ذاقها

ودهقه :

كسره وغمزه غمزا شديدا ، وكأس داهق : ممتلئة ، ودهاق : مملوءة . وترنح : تميل ، لكن هذا من قافية أخرى .

(2) . اللذ : وصف ، واللذة : مؤنثة ، وهي اسم للكيفية القائمة بالنفس ، واسم للشيء

اللذيذ . والصرخد :

موضع من الشام ينسب إليه الشراب . والحدثان : مصدر كالحدث ، إلا أنه يدل على التجدد والتكرر ، يقول :

ورب شيء لذيذ يعنى النوم ، طعمه كطعم الشراب الطيب ، تركته بأرض الأعداء خوف نزول المكاره بى . ويروى بدل الشطر الثاني

عشية خمس القوم والعين عاشقة

وخمست القوم أخمسهم - بالضم - : أخذت خمس أموالهم .

(244/652)

---

يريد النوم . الغول : لمن غاله يغوله غولا إذا أهلكه وأفسده . ومنه : الغول الذي في تكاذيب العرب . وفي أمثالهم : الغضب غول الحلم ، ويُنْزَفُونَ على البناء للمفعول ، من نزف الشارب «1» إذا ذهب عقله . ويقال للسكران : نزيف ومنزوف . ويقال للمطعون : نزف فمات إذا خرج دمه كله . ونزحت الركية حتى نزفتها : إذا لم تترك فيها ماء . وفي أمثالهم : أجبن من المنزوف ضرطا . وقرئ : ينزفون ، من أنزف الشارب إذا ذهب عقله أو شرابه . قال :

لعمري لئن أنزفتمو أو صحوتمو لبئس النّدامى كنتمو آل أبجرا «2»

ومعناه : صار ذا ترف . ونظيره : أقشع السحاب ، وقشعته الريح ، وأكب الرجل وكببته .

وحقيقتهما : دخلا في القشع والكب . وفي قراءة طلحة بن مصرف : وينزفون : بضم الزاى ، من نزف ينزف كقرب يقرب ، إذا سكر . والمعنى : لا فيها فساد قط من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من مغص أو صداع أو خمار «3» أو عربدة أو لغو أو تأثيم أو غير ذلك ، ولا هم يسكرون «4» ، وهو أعظم مفاسدها فأفرزه وأفرده بالذكر قاصِراتُ الطَّرْفِ قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ ، لا يمددن طرفا إلى غيرهم ، كقوله تعالى عُرُباً «5» والعين :

النجل العيون «6» شبههنّ ببيض النعام المكنون في الأداحى ، وبها تشبه العرب النساء وتسميهنّ بيضات الخدور .

[سورة الصافات (37) : الآيات 50 إلى 57]

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (50) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (53) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54)

فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ (55) قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57)

---

(1) . قوله «من نزف الشارب في الصحاح : نزفت ماء البئر نزفا ، إذا نزحته كله . ونزفت

هي : يتعدى ولا يتعدى . . . ونزفت أيضا على ما لم يسم فاعله . (ع)

(2) . للأبيرد . ونزف دمه : خرج منه حتى ضعف وانقطعت حركته . ونزف الرجل في الخصومة : انقطعت حجته ، وأنزف : صار ذا نزف ، فنزف وأنزف لا زمان . وقوله : لئن أنزفتم ، أى سكرتم وبطلت حركتكم ، أو انقطع شرابكم ، ولبئس الندامى : جواب القسم ، وجواب الشرط مثله محذوف ، وأنتم : هو المخصوص بالذم .

وآل أبجر : منادى ، وفيه نوع من التهكم والاستخفاف بهم .

(3) . قوله «في الصحاح : الخمار : بقية السكر . (ع) [ . . . . . ]

(4) . قوله «ولا هم يسكرون» لعله : ولا هم عنها يسكرون . (ع)

(5) . قوله «كقوله تعالى : عربا» أى متحببات إلى أزواجهن كما يأتى . (ع)

(6) . قوله «النجل العيون» في الصحاح : النجل - بالتحريك : كشف العين . والرجل أنجل ، والعين نجلاء ، والجمع نجل . وفيه : مدحى النعامة : موضع بيضها . وأدحيها موضعها ، وهو أفعول من دحوت ، لأنها تدحوه برجلها ثم تبيض فيه اه والأداحى : جمعه . (ع)

فإن قلت : علام عطف قوله فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ ؟ قلت : على يطاف عليهم .

والمعنى :

يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشرب «1» ، قال :

وما بقيت من اللّذّات إلّا أحاديث الكرام على المدام «2»

فيقبل بعضهم على بعض يَتَساءَلُونَ عما جرى لهم وعليهم في الدنيا ، إلا أنه جيء به ماضيا على عادة اللّه في أخباره . قرئ : من المصدّقين ، من التصديق . ومن المصّدّقين مشدّد الصاد ، من التصدّق ، وقيل : نزلت في رجل تصدّق بماله لوجه اللّه ، فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه ، فقال : وأين مالك ؟ قال : تصدقت به ليعوضنى اللّه به في الآخرة خيرا منه ، فقال :

أإنك لمن المصدّقين بيوم الدين . أو من المتصدّقين لطلب الثواب . واللّه لا أعطيك شيئا لَمَدِينُونَ لمجزيون ، من الدين وهو الجزاء . أو لمسوسون مربوبون . يقال : دانه ساسة .

ومنه الحديث : «العاقل من دان نفسه ، «3» . قالَ يعنى ذلك القائل هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ إلى النار لأريكم ذلك القرين . قيل : إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار . وقيل : القائل هو اللّه عز وجل : وقيل بعض الملائكة يقول لأهل الجنة : هل تحبون أن تطلعوا فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار . وقرئ . مطلعون ، فاطلع . وفأطلع بالتشديد ، على لفظ الماضي والمضارع المنصوب : ومطلعون فاطلع ، وفأطلع بالتخفيف ، على لفظ الماضي

والمضارع المنصوب . يقال : طلع علينا فلان ، واطلع ، وأطلع بمعنى واحد ، والمعنى : هل أنتم مطلعون إلى القرين فأطلع أنا أيضا . أو عرض عليهم الاطلاع فاعترضوه ، فاطلع هو بعد ذلك .

وإن جعلت الإطلاع من أطلعه غيره ، فالمعنى : أنه لما شرط في اطلاعه اطلاعهم ، وهو من

---

(1) . قوله «كعادة الشرب» جمع شارب ، كالصحب جمع صاحب ، كذا في الصحاح . (ع)

(2) . الفرزدق ، يقول : وما بقيت لذة من اللذات إلا لذة أحاديث الكرام ، أو ما بقيت شهوة من الشهوات اللذيذة إلا أحاديث الكرام على الخمر ، وأتى بحرف الاستعلاء لأن الشراب يكون بين أيديهم والحديث من أفواههم فوقه ، وكان الظاهر : وما بقي من اللذات ، لكن أنث الفعل لأنه مفرغ لما بعد إلا ، أو للتأويل المتقدم .

(3) . أخرجه الترمذي وابن ماجة ، والحاكم وأحمد والبزار وأبو يعلى والحرث والطبراني كلهم من رواية أبى بكر ابن أبى مريم عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس .

آداب المجالسة. أن لا يستبد بشيء دون جلسائه، فكأنهم مطلعوه. وقيل: الخطاب على هذا للملائكة. وقرئ: مطلعون بكسر النون، أراد: مطلعون إياى، فوضع المتصل موضع المنفصل، كقوله:

هم الفاعلون الخير والآمرونه «1»

أو شبه اسم الفاعل في ذلك بالمضارع لتآخ بينهما، كأنه قال: تطلعون، وهو ضعيف لا يقع إلا في الشعر فِي سَواءِ الْجَحِيمِ في وسطها، يقال: تعبت حتى انقطع سوائى، وعن أبى عبيدة:

قال لي عيسى بن عمر: كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سوائى إِنْ مخففة من الثقيلة، وهي تدخل على «كاد» كما تدخل على «كان» ونحوه إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، والإرداء: الإهلاك. وفي قراءة عبد اللّه: لتغوين نِعْمَةُ رَبِّي هي العصمة والتوفيق في الاستمساك بعروة الإسلام، والبراءة من قرين السوء. أو إنعام اللّه بالثواب وكونه من أهل الجنة مِنَ الْمُحْضَرِينَ من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأمثالك.

[سورة الصافات (37): الآيات 58 إلى 59]

أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59)

الذي عطفت عليه الفاء محذوف، معناه: أنحن مخلدون منعمون، فما نحن بميتين ولا

معذبين.

وقرئ بمائتين. والمعنى أنّ هذه حال المؤمنين وصفتهم وما قضى اللّه به لهم للعلم بأعمالهم أن لا يذوقوا إلا الموتة الأولى، بخلاف الكفار، فإنهم فيما يتمنون فيه الموت كل ساعة، وقيل لبعض الحكماء:

ما شر من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت.

[سورة الصافات (37) : الآيات 60 إلى 61]

إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ (61)

يقوله المؤمن تحدثا بنعمة اللّه واغتباطا بحاله وبمسمع من قرينه، ليكون توبيخا له يزيد به تعذبا، وليحكيه اللّه فيكون لنا لطفا وزاجرا. ويجوز أن يكون قولهم جميعا، وكذلك قوله إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أى إن هذا الأمر الذي نحن فيه. وقيل: هو من قول اللّه عزّ وجلّ تقريرا لقولهم وتصديقا له. وقرئ: لهو الرزق العظيم، وهو ما رزقوه من السعادة.

[سورة الصافات (37) : الآيات 62 إلى 70]

أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (63) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (65) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (66)

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا

آباءَهُمْ ضالِّينَ (69) فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (70)

---

(1) هم الفاعلون الخير والآمرونه إذا ما خشوا من حادث الدهر معظما

الخير : نصب على المفعولية . ويقال : أمرتك الخير وأمرتك به ، فالآمرونه : اسم فاعل متعد للمفعول الثاني بنفسه ، وكان حقه الفصل فوصل ، وربما كان في البيت أوقع منه في اسم الفاعل المجرد من اللام ، وما زائدة : أى إذا خافوا من حادث الدهر أمرا معظما .

ويروى : مفظعا ، أى : مخيفا فحقه في حرف العين .

(247/652)

---

تمت قصة المؤمن وقرينه ، ثم رجع إلى ذكر الرزق المعلوم فقال أَذلِكَ الرزق خَيْرٌ نُزُلًا أى خير حاصلا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ وأصل النزل : الفضل والريع في الطعام ، يقال :

طعام كثير النزل ، فاستعير للحاصل من الشيء ، وحاصل الرزق المعلوم : اللذة والسرور ، وحاصل شجرة الزقوم : الألم والغم ، وانتصاب نزلا على التمييز ، ولك أن تجعله حالا ، كما تقول :

أثمر النخلة خير بلحا أم رطبا ؟ يعنى أنّ الرزق المعلوم نزل أهل الجنة . وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم ، فأيهما خير في كونه نزلا . والنزل : ما يقال «1» للنازل بالمكان من الرزق .

ومنه إنزال الجند لأرزاقهم ، كما يقال لما يقام لساكن الدار : السكن «2» . ومعنى الأوّل : أنّ للرزق المعلوم نزلا ، ولشجر الزقوم نزلا ، فأيهما خير نزلا . ومعلوم أنه لا خير في شجرة الزقوم ، ولكن المؤمنين لما اختاروا ما أدى إلى الرزق المعلوم ، واختار الكافرون ما أدى إلى شجرة الزقوم ، قيل لهم ذلك توبيخا على سوء اختيارهم فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ محنة وعذابا لهم في الآخرة . أو ابتلاء لهم في الدنيا ، وذلك أنهم قالوا : كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر ، فكذبوا . وقرئ :

نابتة فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ قيل : منبتها في قعر جهنم ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها : والطلع للنخلة ، فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها : إما استعارة لفظية ، أو معنوية ، وشبه برءوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر ، لأنّ الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس ، لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير ، فيقولون في القبيح الصورة : كأنه وجه شيطان ، كأنه رأس شيطان . وإذا صوّره المصورون : جاءوا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله ، كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه ، فشبهوا به الصورة الحسنة . قال اللّه تعالى ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ وهذا تشبيه تخييلى . وقيل : الشيطان حية عرفاء لها صورة قبيحة المنظر هائلة جدا . وقيل : إنّ شجرا يقال له الأستن خشنا منتنا مرا منكر الصورة ، يسمى ثمره :

(1) . قوله «ما يقال للنازل بالمكان» لعله «ما يقام» كعبارة النسفي . (ع)

(2) . قوله «لساكن الدار السكن» في الصحاح «السكن» : كل ما سكنت إليه . (ع)

*(248/652)*

---

رؤوس الشياطين . وما سمت العرب هذا الثمر برءوس الشياطين إلا قصدا إلى أحد التشبيهين ، ولكنه بعد التسمية بذلك رجع أصلا ثالثا يشبه به مِنْها من الشجرة ، أى من ظلعها فَمالِؤُنَ بطونهم ، لما يغلبهم من الجوع الشديد ، أو يقسرون على أكلها وإن كرهوها ، ليكون بابا من العذاب ، فإذا شبعوا غلبهم العطش فيسقون شرابا من غساق أو صديد ، شوبه : أى مزاجه مِنْ حَمِيمٍ يشوى وجوههم ويقطع أمعاءهم ، كما قال في صفة شراب أهل الجنة وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ وقرئ : لشوبا ، بالضم ، وهو اسم ما يشاب به ، والأوّل تسمية بالمصدر . فإن قلت :

ما معنى حرف التراخي في قوله ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً وفي قوله ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ ؟ قلت : في الأوّل وجهان ، أحدهما : أنهم يملئون البطون من شجر الزقوم ، وهو حارّ يحرق بطونهم ويعطشهم ، فلا يسقون إلا بعد ملىّ تعذيبا بذلك العطش ، ثم يسقون ما هو احرّ وهو الشراب المشوب بالحميم . والثاني : أنه ذكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة ، ثم ذكر

الشراب بما هو أكره وأبشع ، فجاء بثم للدلالة على تراخى حال الشراب عن حال الطعام ومباينة صفته لصفته في الزيادة عليه . ومعنى الثاني : أنهم يذهب بهم عن مقارّهم ومنازلهم في الجحيم ، وهي الدركات التي أسكنوها إلى شجرة الزقوم ، فيأكلون إلى أن يتملئوا ، ويسقون بعد ذلك ، ثم يرجعون إلى دركاتهم ، ومعنى التراخي في ذلك بين : وقرئ : ثم إن منقلبهم ، ثم إن مصيرهم ، ثم إن منفذهم إلى الجحيم : علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين ، واتباعهم إياهم على الضلال ، وترك اتباع الدليل . والإهراع : الإسراع الشديد ، كأنهم يحثون حثا . وقيل : إسراع فيه شبه بالرعدة .

[سورة الصافات (37) : الآيات 71 إلى 74]

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (71) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (72) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (74)

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ قبل قومك قريش . مُنْذِرِينَ أنبياء حذروهم العواقب . الْمُنْذَرِينَ الذين أنذروا وحذروا ، أى أهلكوا جميعا إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الذين آمنوا منهم وأخلصوا دينهم لله ، أو أخلصهم الله لدينه على القراءتين .

[سورة الصافات (37) : الآيات 75 إلى 82]

وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنا

ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (77) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (82)



---

لما ذكر إرسال المنذرين في الأمم الخالية وسوء عاقبة المنذرين ، أتبع ذلك ذكر نوح ودعائه إياه حين أيس من قومه ، واللام الداخلة على نعم جواب قسم محذوف ، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره : فو اللّه لنعم المجيبون نحن ، والجمع دليل العظمة والكبرياء . والمعنى :

إنا أجبناه أحسن الإجابة ، وأوصلها إلى مراده وبغيته من نصرته على أعدائه والانتقام منهم بأبلغ ما يكون هُمُ الْباقِينَ هم الذين بقوا وحدهم وقد فنى غيرهم ، فقد روى أنه مات كل من كان معه في السفينة غير ولده . أو هم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة . قال قتادة : الناس كلهم من ذرية نوح . وكان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد : سام ، وحام ، ويافث . فسام أبو العرب ، وفارس ، والروم . وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب . ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ من الأمم هذه الكلمة ، وهي : سَلامٌ عَلى نُوحٍ يعنى يسلمون عليه تسليما ، ويدعون له ، وهو من الكلام المحكي ، كقولك : قرأت

سورة أنزلناها . فإن قلت : فما معنى قوله فِي الْعالَمِينَ؟ قلت : معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعا ، وأن لا يخلو أحد منهم منها ، كأنه قيل : ثبت اللّه التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين يسلمون عليه عن آخرهم . علل مجازاة نوح عليه السلام بتلك التكرمة السنية من تبقية ذكره ، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسنا ، ثم علل كونه محسنا بأنه كان عبدا مؤمنا ، ليريك جلالة محل الإيمان ، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم ، ويرغبك في تحصيله والازدياد منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 48.33﴾

(250/652)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والصّافّاتِ صَفّاً ﴾

فيها قولان :

أحدهما : أنها الملائكة ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، والجمهور .

قال ابن عباس : هم الملائكة صفوفٌ في السماء ، لا يَعْرِفُ مَلَكٌ منهم مَنْ إلى جانبه ، لم

يَلْتَفِتْ منذ خَلَقَه اللهُ عزّ وجلّ .

وقيل : هي الملائكة تصُفُّ أجنحتها في الهواء واقفة إلى أن يأمرها الله عز وجل بما يشاء .

والثاني : أنها الطَّير ، كقوله : ﴿ والطَّيْرُ صافّاتٍ ﴾ [ النور : 41 ] حكاه الثعلبي .

وفي الزاجرات قولان :

أحدهما : أنها الملائكة التي تزجُر السَّحاب ، قاله ابن عباس ، والجمهور .

والثاني : أنها زواجر القرآن وكلُّ ما ينهى ويزجُر عن القبيح ، قاله قتادة .

وفي التّاليات ذِكْراً ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها الملائكة تقرأ كتب الله تعالى ، قاله ابن مسعود ، [ والحسن ] ، والجمهور .

والثاني : أنهم الرسل ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : ما يُتلى في القرآن من أخبار الأمم ، قاله قتادة .

وهذا قَسَم بهذه الأشياء ، وجوابه : ﴿ إِنَّ إِلهكم لَواحِدٌ ﴾ وقيل : معناه : ورب هذه الأشياء إِنه واحد .

قوله تعالى : ﴿ وربُّ المَشارق ﴾ قال السدي : المَشارق ثلاثمائة وستونَ مَشْرِقاً ، والمغارب مِثْلُها ، على عدد أيام السَّنة .

فإن قيل : لِمَ ترك ذِكْر المَغارب ؟

فالجواب : أن المشارق تَدُلُّ على المَغارب ، لأن الشُّروق قَبْل الغُروب .

قوله تعالى : ﴿ إنّا زَيَّنّا السَّماء الدُّنيا ﴾ يعني التي تلي الأرض ، وهي أدنى السموات إلى الأرض ﴿ بزينةٍ الكواكب ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، والكسائي : ﴿ بزينةِ الكواكب ﴾ مضافاً ، أي : بحُسنها وضوئها .

(251/652)

---

وقرأ حمزة ، وحفص عن عاصم : ﴿ بزينةٍ ﴾ منونة وخفض " الكواكبِ " [ وجعل " الكواكب " ] بدلاً من الزينة لأنها هي ، كما تقول : مررتُ بأبي عبد الله زيدٍ ؛ [ فالمعنى : إنا زَيَّنّا السماء الدّنيا بالكواكب .

وقرأ أبو بكر عن عاصم : " بزينةٍ " بالتنوين وبنصب " الكواكبً " ] ؛ والمعنى : زيَّنّا السَّماء الدّنيا بأن زيَّنّا الكواكب فيها حين ألقيناها في منازلها وجعلناها ذات نور .

قال الزجاج : ويجوز أن يكون " الكواكبَ " في النَّصْب بدلاً من قوله : ﴿ بزينة ﴾ لأن قوله : ﴿ بزينة ﴾ في موضع نصب .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، ومعاذ القارئ ، وأبو نهيك ، وأبو حصين الأسدي في آخرين : ﴿ بزينةٍ ﴾ بالتنوين ﴿ الكواكبُ ﴾ برفع الباء ؛ قال الزجاج : والمعنى : إنّا زيّنّا السَّماء الدُّنيا بأن زيّنتْها الكواكبُ وبأن زيّنتِ الكواكب .

﴿ وحِفْظاً ﴾ أي: وحَفِظْناها حفْظاً.

فأمّا المارد، فهو العاتي، وقد شرحنا هذا في قوله تعالى: ﴿ شيطاناً مريداً ﴾ [النساء: 117].

قوله تعالى: ﴿ لا يَسْمَعُونَ ﴾ قال الفراء: "لا" هاهنا كقوله ﴿ كذلكَ سَلَكْناهُ في قُلوب المُجْرِمينَ. لا يؤمِنونَ به ﴾ [الشُّعراء: 200 201]؛ ويصلح في "لا" على هذا المعنى الجزم، فإن العرب تقول: ربطتُ الفرس لا يَنْفَلِتْ.

وقال غيره: لكي لا يَسَّمَّعوا إلى المَلإِ الأعلى، وهم الملائكة الذين في السماء.

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف: ﴿ لا يَسَّمَّعُونَ ﴾ بتشديد السين، وأصله: يتسمَّعون، فأُدغمت التاء في السين.

وإنما قال: ﴿ إلى المَلإِ الأعلى ﴾ لأن العرب تقول: سمعتُ فلاناً، وسمعتُ من فلان، وإلى فلان.

﴿ ويُقْذَفون مِنْ كُلِّ جانب ﴾ بالشُّهُب ﴿ دُحُوراً ﴾ قال قتادة: أي قذفاً بالشُّهُب.

وقال ابن قتيبة: أي: طَرْداً، يقال: دَحَرْتُه دَحْراً ودُحوراً، أي: دفعتُه.

وقرأ عليّ بن أبي طالب ، وأبو رجاء ، وأبو عبد الرحمن ، والضحاك ، وأيوب السختياني ، وابن أبي عبلة : ﴿ دَحُوراً ﴾ بفتح الدال .

وفي ﴿ الواصب ﴾ قولان :

أحدهما : أنه الدائم ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والفراء ، وابن قتيبة .

والثاني : أنه المُوجِع ، قاله أبو صالح والسدي .

وفي زمان هذا العذاب قولان :

أحدهما : أنه في الآخرة .

والثاني : [ أنه ] في الدنيا ، فهم يُخْرَجون بالشُّهُب ويُخبَلُون إلى النَّفْخة الأولى في الصُّور .

قوله تعالى : ﴿ إلاّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفة ﴾ قرأ ابن السميفع : ﴿ خَطِّفَ ﴾ بفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها .

وقرأ أبو رجاء ، والجحدري : بكسر الخاء والطاء جميعا والتخفيف .

قال الزجاج : خَطَفَ وخَطِفَ ، بفتح الطاء وكسرها ، يقال : خَطَفْتُ أَخْطِفُ ، وخَطِفْتُ أَخْطَفُ : إذا أخذت الشيء بسرعة .

ويجوز ﴿ إلاّ مَنْ خَطَّف ﴾ بفتح الخاء وتشديد الطاء ، ويجوز ﴿ خِطَفَ ﴾ بكسر

الخاء وفتح الطاء ؛ والمعنى : اختطف فأدغمت التاء في الطاء ، وسقطت الألف لحركة الخاء ؛ فمن فتح الخاء ، ألقى عليها فتحة التاء التي كانت في " اختطف " ، ومن كسر الخاء ، فلِسكونها وسُكون الطاء .

فأما من روى [ " خِطِف " ] بكسر الخاء والطاء ، فلا وجه لها إلا وجهاً ضعيفاً جداً ، وهو أن يكون على إِتباع الطاء كسرة الخاء .

قال المفسرون : والمعنى : إلا مَن اختطف الكلمة من كلام الملائكة مُسارقَةً ﴿ فأَتْبَعَهُ ﴾ أي : لَحِقَهُ ﴿ شِهابٌ ثاقبٌ ﴾ قال ابن قتيبة : أي كوكبٌ مُضيءٌ ، يقال : أَثْقِبْ نارَك ، أي : أَضِئْها ، والثَّقُوب : ما تُذْكَى به النّارُ .

قوله تعالى : ﴿ فاسْتَفْتِهِمْ ﴾ أي : فَسَلْهُمْ سؤالَ تقرير ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ أي : أَحْكَمُ صَنْعةً ﴿ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن المعنى : أَمْ مَنْ عددْنا خَلْقه من الملائكة والشياطين والسموات والأرض ، قاله ابن جرير .

والثاني : أَمْ مَنْ خَلَقْنا قبلهم من الأمم السالفة ، والمعنى : إنهم ليسوا بأقوى من أولئك وقد أهلكناهم بالتكذيب ، فما الذي يؤمن هؤلاء ؟ ! .

ثم ذكر خَلْق الناس فقال : ﴿ إِنّا خَلَقْناهم مِنْ طينٍ لازِبٍ ﴾ قال الفراء ، وابن قتيبة : أي : لاصقٍ لازمٍ ، والباء تُبدَل من الميم لقُرب مَخْرَجَيْهما .

قال ابن عباس : هو الطّين الحُرُّ الجيِّد اللَّزِق .

وقال غيره : هو الطِّين الذي يَنْشَف عنه الماءُ وتبقى رطوبتُه في باطنه فيَلْصَق باليد كالشمع .

وهذا إخبار عن تساوي الأصل في خَلْقهم وخَلْق مَن قَبْلَهم ؛ فمن قدَر على إهلاك الأقوياء ، قَدَرَ على إهلاك الضُّعفاء .

قوله تعالى : ﴿ بل عَجِبْتَ ﴾ " بل " معناه : تركُ الكلام الأول والأخذُ في الكلام الآخر ، كأنه قال : دع يا محمد ما مضى .

وفي ﴿ عَجِبْتَ ﴾ قراءتان : قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ بل عَجِبْتَ ﴾ بفتح التاء .

وقرأ عليّ بن أبي طالب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وعكرمة ، وقتادة ، وأبو مجلز ، والنخعي ، وطلحة بن مصرف ، والأعمش ، وابن أبي ليلى ، وحمزة ، والكسائي في آخرين : ﴿ بل عَجِبْتُ ﴾ بضم التاء ، [ واختارها الفراء ] .

فمن فتح أراد : بل عَجِبْتَ يا محمد ﴿ وَيَسْخَرونَ ﴾ هم .

قال ابن السائب : أنت تَعْجَبُ منهم ، وهم يَسْخَرون منك .

وفي ما عجبَ منه قولان :

أحدهما : من الكفار إذ لم يؤمنوا بالقرآن .

والثاني : إذ كفروا بالبعث .

ومن ضَمَّ ، أراد الإِخبار عن الله عز وجل أنه عَجِبَ ، قال الفراء : وهي قراءة عليّ ، وعبد الله ، وابن عباس ، وهي أحبُّ إليّ ، وقد أنكر هذه القراءة قوم ، منهم شريح القاضي ، فإنه قال : إن الله لا يَعْجَب إنما يَعْجَب مَنْ لا يَعْلَم .



---

قال الزجاج : وإنكار هذه القراءة غلط ، لأن العَجَبَ من الله خلاف العَجَب من الآدميين ، وهذا كقوله ﴿ وَيَمْكُرُ اللهُ ﴾ [ الأنفال : 30 ] وقوله ﴿ سَخِرَ اللهُ منهم ﴾ [ التوبة : 79 ] وأصل العَجَب في اللغة : أن الإنسان إذا رأى ما يُنْكِرُه ويَقِلُّ مِثْلُه ، قال : قد عَجِبتُ من كذا ، وكذلك إذا فَعَلَ الآدميُّون ما يُنْكِرُه اللهُ عز وجل ، جاز أن يقول : عَجِبْتُ ، واللهُ قد عَلِم الشيءَ قبل كونه .

وقال ابن الأنباري : المعنى : جازيتُهم على عجبهم من الحق فسمّى الجزاء على الشيء باسم الشيء الذي له الجزاء ، فسمّى فعله عَجَباً وليس بعَجَب في الحقيقة ، لأن المتعَجّب يدهش ويتحيَّر ، والله عز وجَلَّ قد جَلّ عن ذلك ؛ وكذلك سُمِّي تعظيم الثواب عَجَباً ، لأنه إنما يُتعجَّب من الشيء إذا كان في النهاية ، والعرب تسمي الفعل باسم الفعل إذا داناه من بعض وجوهه ، وإن كان مخالفاً له في أكثر معانيه ، قال عديّ :

ثُمَّ أَضْحَوْا لَعِبَ الدَّهْرُ بِهِمُ . . .

[ وكَذاكَ الدَّهْرُ يُودِي بالرِّجالِ ]

فجعل إهلاك الدهر وإفساده لَعِباً .

وقال ابن جرير : من ضم التاء ، فالمعنى : بل عَظُم عندي وكَبُر اتّخاذُهم لي شريكاً وتكذيبُهم تنزيلي .

وقال غيره : إضافة العَجَب إلى الله على ضربين :

أحدهما : بمعنى الإنكار والذمِّ ، كهذه الآية .

والثاني : بمعنى الاستحسان والإخبار عن تمام الرضى ، كقوله عليه السلام : " عَجِبَ ربُّكَ مِنْ شابٍ ليست له صَبوةٌ "

قوله تعالى : ﴿ وإذا ذُكِّروا لا يَذْكُرونَ ﴾ أي : إذا وُعِظوا بالقرآن لا يَذْكُرون ولا يَتَّعظون .

وقرأ سعيد بن جبير ، والضحاك ، وأبو المتوكل ، وعاصم الجحدري ، وأبو عمران : ﴿

ذُكِروا ﴾ بتخفيف الكاف.

﴿ وإذا رَأَوْا آيةً ﴾ قال ابن عباس: يعني انشقاق القمر ﴿ يَسْتَسْخِرونَ ﴾ قال أبو عبيدة: يَسْتَسْخِرونَ ويَسْخَرونَ سواء.

(255/652)

---

قال ابن قتيبة: يقال سَخِرَ واسْتَسْخَرَ، كما يقال: قَرَّ واسْتَقَرَّ، وعَجِبَ واسْتَعْجَبَ، ويجوز أن يكون: يسألون غيرهم من المشركين أن يَسْخَروا من رسول الله كما يقال: اسْتَعْتَبْتُه، أي: سألْتُه العُتْبَى، واسْتَوْهَبْتُه، أي: سألْتُه الهِبَة، واسْتَعْفَيْتُه: سألْتُه العَفْوَ.

﴿ وقالوا إِنْ هذا ﴾ يعنون انشقاق القمر ﴿ إلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أي: بَيِّنٌ لِمَنْ تأمَّله أنه سِحْر.

﴿ أإذا مِتْنا ﴾ قد سبق بيان [ هذه ] الآية [ مريم: 66 ].

﴿ أوَآباؤنا ﴾ هذه ألف الاستفهام دخلت على حرف العطف، كقوله: ﴿ أوَأَمِنَ أَهْلُ القُرى ﴾ [ الاعراف: 98 ].

وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿ أوْ آباؤنا الأَوَّلُونَ ﴾ بسكون الواو هاهنا وفي [ الواقعة: 48 ].

﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾ أي: نَعَمْ تُبْعَثُون ﴿ وأَنتُمْ داخِرونَ ﴾ أي: صاغِرونَ.

﴿ فإنّما هي زَجْرَةٌ واحدةٌ ﴾ أي: فإنّما قِصَّةَ البعث صيحةٌ واحدة من إسرافيل، وهي نفخة البعث، وسُمِّيتْ زجرةً، لأن مقصودها الزَّجْر ﴿ فإذا هُمْ يَنْظُرونَ ﴾ قال الزجاج: أي: يُحْيَوْنَ ويُبعَثونَ بُصَراءَ ينْظرون، فإذا عايَنوا بعثهم، ذكروا إخبار الرُّسل عن البعث، ﴿ وقالوا يا ويلَنا هذا يومُ الدِّينِ ﴾ أي: يوم الحساب والجزاء، فتقول الملائكة: ﴿ هذا يومُ الفَصْلِ ﴾ أي: يوم القضاء الذي يُفْصَل فيه بين المُحْسِنِ والمُسيء؛ ويقول الله عز وجل يومئذ للملائكة: ﴿ أُحشُروا ﴾ أي: اجْمَعوا ﴿ الذين ظَلَموا ﴾ من حيث هم، وفيهم قولان:

أحدهما: أنهم المشركون.

والثاني: أنه عامٌّ في كل ظالم.

وفي أزواجهم أربعة أقوال:

أحدها: أمثالهم وأشباههم، وهو قول عمر، وابن عباس، والنعمان بن بشير، ومجاهد في آخرين.

وروي عن عمر قال: يُحْشَر صاحبُ الرِّبا مع صاحب الرِّبا، وصاحبُ الزِّنا مع صاحب الزِّنا وصاحب الخمر مع صاحب الخمر.

والثاني: أن أزواجَهم: المشركاتُ، قاله الحسن.

والثالث : أشياعهم ، قاله قتادة .

والرابع : قُرَناؤهم من الشيّاطين الذين أضلُّوهم ، قاله مقاتل .

وفي قوله : ﴿ وما كانوا يعبُدون ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : الأصنام ، قاله عكرمة ، وقتادة .

والثاني : إبليس وحده ، قاله مقاتل .

والثالث : الشياطين ، ذكره الماوردي وغيره .

قوله تعالى : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ أي : دُلُّوهم على طريقها ؛ والمعنى : اذهبوا بهم إليها .

قال الزجاج : يقال : هَدَيْتُ الرَّجُل : إذا دَلَلْتَه ، وهَدَيْتُ العروس إلى زوجها ، وأهديتُ الهديَّة ، فإذا جعلتَ العروس كالهدية ، قلتَ أهديتُها .

قوله تعالى : ﴿ وقِفُوهُمْ ﴾ أي : احْبِسوهم ﴿ إِنَّهم مسؤولونَ ﴾ وقرأ ابن السميفع : ﴿ أَنَّهم ﴾ بفتح الهمزة .

قال المفسرون : لمَّا سِيقوا إلى النار حُبِسوا عند الصراط ، لأن السؤال هناك .

وفي هذا السؤال ستة أقوال :

أحدها : أنهم سئلوا عن أعمالهم وأقوالهم في الدنيا .

الثاني : عن " لا إله إلا الله " ، رويا جميعاً عن ابن عباس .

والثالث : عن خطاياهم ، قاله الضحاك .

والرابع : سَأَلَهُمْ خزنَة جهنم ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُم نَذِيرٌ ﴾ [ الملك : 8 ] ونحو هذا ، قاله مقاتل .

والخامس : أنهم يُسألون عمّا كانوا يعبُدون ، ذكره ابن جرير .

والسادس : أن سؤالهم قوله ﴿ ما لكم لا تَنَاصَرونَ ﴾ ؟ ! [ ذكره الماوردي ] .

قال المفسِّرون : المعنى : مالكم لا ينصُر بعضُكم بعضاً كما كنتم في الدنيا ؟ ! وهذا جواب أبي جهل حين قال يوم بدر : ﴿ نَحْنُ جميعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ [ القمر : 44 ] فقيل لهم ذلك يومئذ توبيخاً ، والمُسْتَسْلِم المُنقاد الذَّليل ؛ والمعنى : أنهم منقادون لا حيلة لهم .

قوله تعالى : ﴿ وأَقْبَلَ بَعْضُهم على بَعْضٍ ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : الإِنس على الشياطين .

والثاني : الأتباع على الرؤساء ﴿ يتساءَلُونَ ﴾ تسآل توبيخ وتأنيب ولَومْ فيقول الأتباع للرؤساء : [لِمَ] غررتمونا ؟ ويقول الرؤساء : لِمَ قَبْلْتُمْ مِنّا ؟ فذلك قوله ﴿ قالوا ﴾ يعنى الأتباع للمتبوعين ﴿ إنَّكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : كنتم تَقْهَروننا بقُدرتكم علينا ، لأَنَّكم كنتم أعزَّ مِنّا ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : من قِبَل الدِّين فتُضِلونّا عنه ، قاله الضحاك .

وقال الزجاج : تأتوننا من قِبَل الدِّين فتخدعونا بأقوى الأسباب .

والثالث : كنتم تُوثِّقون ما كنتم تقولون بأيمانكم ، فتأتوننا من قِبَل الأيمان التي تَحْلِفونها . حكاه عليّ بن أحمد النيسابوري .

فيقول المتبوعون لهم : ﴿ بل لم تكونوا مؤمِنينَ ﴾ أي : لم تكونوا على حَقّ فنُضِلّكم عنه ، إنما الكفر من قِبَلكم .

﴿ وما كان عليكم من سُلطان ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه القَهْر .

والثاني : الحُجّة .

فيكون المعنى على الأول : وما كان لنا عليكم من قُوَّة نَقْهَركم بها ونُكْرِهكم على مُتابعتنا .

وعلى الثاني : لم نأتكم بحُجّة على ما دعَوْناكم إليه كما أتت الرُّسل .

قوله تعالى : ﴿ فَحَقَّ علينا قولُ ربِّنا ﴾ أي : فوجبت علينا كلمةُ العذاب ، وهي قوله ﴿ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ ﴾ [ الاعراف : 18 ] ﴿ إنَّا لذائقونَ ﴾ العذاب جميعاً نحن وأنتم ، ﴿ فأَغويناكم ﴾ أي ، أضلَلْناكم عن الهُدى بدعائكم إلى ما نحن عليه ، وهو قوله ﴿ إنّا كُنّا غاوِينَ ﴾ .

(258/652)

---

ثم أخبر عن الأَتباع والمتبوعين بقوله : ﴿ فإنَّهم يومَئذٍ في العذاب مُشْتِركونَ ﴾ ، والمجرِمون هاهنا : المشركون ، ﴿ إنَّهم كانوا ﴾ في الدُّنيا ﴿ إذا قيل لهم لا إله إلا اللهُ ﴾ أي : قولوا هذه الكلمة ﴿ يَسْتَكْبِرون ﴾ أي : يَتَعَظَّمُون عن قولها ﴿ ويقولون أئنّا لَتَارِكوا آلِهتنا ﴾ المعنى : أَنَتْرُكُ عبادة آلهتنا ﴿ لِشاعرٍ ﴾ أي : لاتِّباع شاعر ؟ ! يعنون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فردَّ الله عليهم فقال : ( بل ) أي : ليس الأمر على ما قالوا ، بل ﴿ جاءَ بالحَقّ ﴾ وهو التوحيد والقرآن .

﴿ وصدَّق المُرسَلينَ ﴾ الذين كانوا قبله ؛ والمعنى : أنه أتى بما أَتَوْا به .

ثم خاطب المُشركين بما بعد هذا إلى قوله : ﴿ إلاّ عبادَ الله المُخْلَصِينَ ﴾ يعني الموحِّدين .

قال أبو عبيدة : والعرب تقول : إنَّكم لَذاهبون إلاّ زيداً ، وفي ما استثناهم منه قولان :

أحدهما : من الجزاء على الأعمال ، فالمعنى : إنّا لا نؤاخذهم بسوء أعمالهم ، بل نَغْفِرُ لهم ، قاله ابن زيد .

والثاني : من دون العذاب ؛ فالمعنى : فإنهم لا يذوقون العذاب ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ أولئك لهم رِزْقٌ معلومٌ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه الجنة ، قاله قتادة .

والثاني : أنه الرِّزق في الجنة ، قاله السدي .

فعلى هذا ، في معنى ﴿ معلوم ﴾ قولان :

أحدهما : أنه بمقدار الغَداة والعَشِيّ ، قاله ابن سائب .

والثاني : أنهم حين يشتهونهُ يؤتَون به ، قاله مقاتل .

ثم بيَّن الرِّزق فقال : ﴿ فواكهُ ﴾ [ وهي جمع فاكهة ] وهي الثِّمار كلُّها ، رَطْبها ويابسها ﴿ وهم مُكْرَمون ﴾ بما أعطاهم الله .

وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [ الحجر : 47 ] إلى قوله ﴿ يُطافُ عليهم بكأسٍ مِنْ مَعينٍ ﴾ قال الضحاك : كلُّ كأس ذُكِرتْ في القرآن ، فإنما عُنِيَ بها الخمر ، [ قال أبو عبيدة : الكأس الإناء بما فيه ، والمَعين : الماء الطّاهر الجاري .

قال الزجاج: الكأس الإِناء الذي فيه الخمر ]، ويقع الكأسُ على كل إناءٍ مع شرابه، فإن كان فارغاً فليس بكأس، والمَعين: الخمر تجري كما يجري الماء على وجه الأرض من العُيون.

قوله تعالى: ﴿ بيضاءَ ﴾ قال الحسن: خمر الجنة أشدُّ بياضاً من اللَّبَن.

قال أبو سليمان الدمشقي: ويدل على أنه أراد بالكأس الخمر، أنه قال "بيضاءَ" فأنَّث، ولو أراد الإناء على انفراده، أو الإِناء والخمر، لقال أبيض.

وقال ابن جرير: إنما أراد بقوله "بيضاءَ" الكأس، ولتأنيث الكأس أنِّثت البيضاء.

قوله تعالى: ﴿ لَذَّةٍ ﴾ قال ابن قتيبة: أي: لذيذة، يقال: شراب لِذاذ: إذا كان طَيِّباً.

وقال الزجاج: أي: ذات لَذَّة.

﴿ لا فيها غَوْلٌ ﴾ فيه سبعة أقوال:

أحدها: ليس فيها صُداع، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثاني: ليس فيها وجع بطن، [ رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وابن زيد ].

والثالث: ليس فيها صُداع رأس، قاله قتادة.

والرابع: ليس فيها أذى ولا مكروه، قاله سعيد بن جبير.

والخامس: لا تَغتال عقولهم، قاله السدي.

وقال الزجاج: لا تَغْتَالُ عقولَهم فتذهب بها ولا يُصيبهم منها وجع.

والسادس: ليس فيها إثم، حكاه ابن جرير.

والسابع: ليس فيها شيء من هذه الآفات، لأن كُلَّ مَنْ ناله شيء من هذه الآفات، قيل: قد غالَتْه غُوْل، فالصواب أن يكون نفي الغَوْل عنها يَعُمُّ جميع هذه الأشياء، هذا اختيار ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿ ولاهم عنها يُنْزَفونَ ﴾ قرأ حمزة، والكسائي: بكسر الزاي هاهنا وفي [الواقعة: 19].

وفتح عاصم الزاي هاهنا، وكسرها في [الواقعة: 19].

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: بفتح الزّاي في السُّورتين، قال الفراء: فمن فتح، فالمعنى: لا تِذهبُ عقولهم بُشربها، يقال للسكران: نَزِيف ومَنزوف؛ [ومن] كسر، ففيه وجهان:

أحدهما: لا يُنْفِدون شرابهم، أي: هو دائم أبداً.

والثاني : لا يَسْكَرون ، قال الشاعر :

لَعَمْري لِئِنْ أَنْزَفْتُمُ أو صَحَوْتُمُ . . .

لَبِئْسَ النَّدامى كُنْتُمُ آلَ أَبْجَرَا

قوله تعالى : ﴿ وعندهم قاصراتُ الطَّرْفِ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنهنَّ النِّساءُ قد قصرن طَرْفهنَّ على أزواجهنَّ فلا يَنْظُرْنَ إلى غيرهم ، وأصل القَصْر : الحبس ، قال ابن زيد : إنَّ المرأة منهنَّ لَتقول لزوجها : وعِزَّة ربِّي ما أرى في الجنَّة شيئاً أحسنَ منكَ ، فالحمد لله الذي جعلني زوجكَ وجعلكَ زوجي .

والثاني : أنهنَّ قد قَصَرن طَرْف الأزواج عن غيرهنَّ ، لكمال حُسنهنّ ، سمعتُه من الشيخ أبي محمد ابن الخشّاب النحوي .

وفي العِين ثلاثة أقوال :

أحدها : حِسانُ العُيون ، قاله مجاهد .

والثاني : عِظام الأعيُن ، قاله السدي ، وابن زيد .

والثالث : كِبار العُيون حِسانُها ، وواحدتُهنَّ عَيْناء ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ كأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنونٌ ﴾ في المراد بالبَيْض هاهنا ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه اللؤلؤ ، رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال أبو عبيدة .

والثاني : بَيْضُ النَّعام ، قاله الحسن ، وابن زيد ، والزجاج .

قال جماعة من أهل اللغة : والعرب تُشَبِّه المرأةَ الحسناءَ في بياضها وحُسْن لونها بِبَيْضَة النَّعامة ، وهو أحسن ألوان النساء ، وهو أن تكون المرأة بيضاءَ مُشَرَّبَةٍ صُفْرَةً .

والثالث : أنه البَيْض حين يُقْشَر قبل أن تَمَسَّه الأيدي ، قاله السدي ، وإلى هذا المعنى ذهب سعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن جرير .

فأما المكنون ، فهو المصون .

فعلى القول الأول : هو مكنون في صَدَفِهِ ، وعلى الثاني : هو مكنون بريش النَّعام ، وعلى الثالث هو مكنون بقشرة .

قوله تعالى : ﴿ فأَقْبَلَ بعضُهم على بعض ﴾ يعني أهل الجنة ﴿ يتساءلون ﴾ عن أحوال كانت في الدنيا .

﴿ قال قائل منهم إِنِّي كان لي قَرِينٌ ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه الصّاحب في الدنيا .



والثاني : أنه الشريك رويا عن ابن عباس .

والثالث : أنه الشيطان ، قاله مجاهد .

والرابع : أنه الأخ ؛ قال مقاتل : وهما الأَخوان المذكوران في سورة [ الكهف : 32 ] في قوله : ﴿ واضْرِب لهم مَثَلاً رَجُلَينِ ﴾ والمعنى : كان لي صاحب أو أخ يُنْكِر البعث ، ﴿ يقول أَئنّكَ لَمِنَ المُصَدِّقِينَ ﴾ قال الزجاج : هي مخففة الصاد ، من صدَّق يصدِّق فهو مصدِّق ، ولا يجوز هاهنا تشديد الصاد .

قال المفسرون : والمعنى : أئنّك لَمِن المُصَدِّقِين بالبعث ؟ وقرأ بكر بن عبد الرحمن القاضي عن حمزة ﴿ المُصَّدِّقِينَ ﴾ بتشديد الصاد .

قوله تعالى : ﴿ أئنا لَمَدِينُونَ ﴾ أي : مَجْزِيُّون بأعمالنا ؛ يقال : دِنْتُهُ بما صنع ، أي : جازيته ، فأَحَبَّ المؤمنُ أن يرى قرينه الكافر ، فقال لأهل الجنّة ، ﴿ هل أنتم مُطّلِعُونَ ﴾ أي : هل تحبُّون الاطِّلاع إلى النّار لتَعْلَمُوا أين منزلتُكم من منزلة أهلها ؟ وقرأ ابن عباس ، والضحاك ، وأبو عمران ، وابن يعمر : ﴿ هل أنتم مُطْلِعُونَ ﴾ بإسكان الطاء وتخفيفها ﴿ فأُطْلِعَ ﴾ بهمزة مرفوعة وسكون الطاء .

وقرأ أبو رزين ، وابن أبي عبلة : ﴿ مُطلِعونِ ﴾ بكسر النون .

قال ابن مسعود : اطَّلع ثم التفت إلى أصحابه فقال : لقد رأيتُ جماجم القوم تغلي ؛ قال ابن عباس : وذلك أن في الجنة كُوىً ينظُر منها أهلُها إلى النار .

قوله تعالى : ﴿ فرآه ﴾ يعني قرينة الكافر ﴿ في سَواءِ الجحيم ﴾ أي : في وسَطها .

وقيل : إنما سمي الوسَط سَواءً ، لاستواء المسافة منه إلى الجوانب .

قال خُليد العَصْري : والله لولا أنّ الله عرّفه إيّاه ، ما عرفه ، لقد تغيّر حَبْرُه وسِبْرُه .

فعند ذلك ﴿ قال تالله إنْ كِدْتَ لَتُرْدِين ﴾ قال المفسرون : معناه : والله ما كِدْتَ إلاّ تُهْلكني ؛ يقال : أرديتُ فلاناً أي : أهلكْته ﴿ ولولا نِعْمةُ ربّي ﴾ أي : إنعامه عليّ بالإسلام ﴿ لَكُنْتُ مِنَ المُحْضَرِين ﴾ معك في النّار .

(262/652)

---

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه إذا ذُبح الموت ، قال أهل الجنة : ﴿ أَفَمَا نحن بمَيِّتِينَ ، إلاّ مَوْتَتَنا الأُولى ﴾ التي كانت في الدنيا ﴿ وما نحن بمعذَّبِينَ ﴾ ؟ فيقال لهم : لا ؛ فعند ذلك قالوا : ﴿ إنْ هذا لَهُوَ الفَوْزُ العظيمُ ﴾ ، فيقول الله تعالى ﴿ لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العامِلونَ ﴾ ، قاله ابن السائب .

وقيل : يقول ذلك للملائكة .

والثاني : أنه قول المؤمن لأصحابه ، فقالوا له : إنك لا تموت ، فقال : ﴿ إنْ هذا لَهُوَ الفَوْزُ العظيمُ ﴾ ، قاله مقاتل .

وقال أبو سفيان الدمشقي : إنما خاطب المؤمنُ أهلَ الجنة بهذا على طريق الفرح بدوام النّعيم ، لا على طريق الاستفهام ، لأنه قد عَلِمَ أَنَّهم ليسوا بميّتين ، ولكن أعاد الكلام ليزداد

بتكراره على سمعه سروراً .

والثالث : أنه قول المؤمن لقرينه الكافر على جهة التوبيخ بما كان يُنْكِره ، ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ لِمِثْلِ هذا ﴾ يعنى النعيم الذي ذَكَره في قوله ﴿ أولئك لهم رزق معلوم ﴾ [ الصافات : 41 ] ﴿ فَلْيَعْمَلِ العامِلُونَ ﴾ ، وهذا ترغيب في طلب ثواب الله عز وجل بطاعته .

﴿ أذَلكَ خَيْرٌ ﴾ يشير إلى ما وصف لأهل الجنة ﴿ نُزُلاً ﴾ قال ابن قتيبة : أي رزقاً .

ومنه : إقامةُ الأَنْزال ، وأنزال الجنود : أرزاقُها .

وقال الزجاج : النُّزل هاهنا الرَّيع والفضل ، يقال : هذا طعام له نُزْل ونُزُل ، بتسكين الزاي وضمها ؛ والمعنى : أذلك خير في باب الأنزال التي تُتَقوَّت ويمكن معها الإِقامة ، أم نُزُل أهل النار ؟ ! وهو قوله ﴿ أَمْ شجرةُ الزَّقُّوم ﴾ .

واختلف العلماء هل هذه الشجرة في الدنيا ، أم لا ؟ .

فقال قطرب : هي شجرة مُرَّة تكون بأرض تهامة من أخبث الشجر .

وقال غيره : الزَّقُّوم ثمرة شجرة كريهة الطَّعم .

وقيل : إنها لا تُعرف في شجر الدنيا ، وإنما هي في النار ، يُكرَه أهلُ النار على تناولها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جعلْناها فتنة للظالمين ﴾ يعني للكافرين .

وفي المراد بالفتنة ثلاثة أقْوال :

أحدها : أنه لما ذكر أنها في النار ، افتُتنوا وكذَّبوا ، فقالوا : كيف يكون في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر ؟ ! فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة .

وقال السدي : فتنة لأبي جهل وأصحابه .

والثاني : أن الفتنة بمعنى العذاب ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : أن الفتنة بمعنى الاختبار اختُبروا بها فكذَّبوا ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ تَخْرُجُ في أَصْلِ الجَحيمِ ﴾ أي : في قَعْر النّار .

قال الحسن : أصلُها في قَعْر النّار ، وأغصانها ترتفع إلى دَرَكاتها ﴿ طَلْعُها ﴾ أي : ثمرها ، وسُمِّي طَلْعاً ، لطلوعة ﴿ كأَنَّهُ رُؤوس الشياطينِ ﴾ .

فإن قيل : كيف شبَّهها بشيءٍ لم يُشاهَد ؟ فعنه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه قد استقرَّ في النفوس قُبح الشياطين وإن لم تُشاهَد فجاز تشبيهها بما قد عُلِمَ قُبحه .

قال امرؤ القيس :

أيَقْتُلُنِي والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي . . .

ومَسْنُونَة زُرْق كأَنْيَاب أغْوالِ

قال الزجاج: هو لم ير الغُول ولا أنيابها، ولكن التمثيل بما يُستقبَح أبلغ في باب المذكّر أن يُمثَّل بالشياطين، وفي باب المؤنَّث أن يشبَّه بالغُول.

والثاني: أن بين مكة واليمن شجر يسمى: رؤوس الشياطين، فشبَّهها بها، قاله ابن السائب.

والثالث: أنه أراد بالشياطين: حيّات لها رؤوس ولها أعراف، فشبَّه طلعها برؤوس الحيّات، ذكره الزجاج.

قال الفراء: والعرب تسمِّي بعض الحيّات شيطاناً، وهو حيّة ذو عُرْف قبيحُ الوجه.

قوله تعالى: ﴿ فإنَّهم لآكلون منها ﴾ أي: من ثمرها ﴿ فمالئون منها البُطونَ ﴾ وذلك أنهم يُكْرَهون على أكلها حتى تمتلىء بطونهم.

﴿ ثُمَّ إنَّ لَهُمْ عليها لَشَوْباً من حَمِيمٍ ﴾ قال ابن قتيبة: أي: لَخلْطاً من الماء الحارِّ يشربونه عليها.

قال أبو عبيدة: تقول العرب كلُّ شيء خَلَطْتَه بغيره فهو مشوب.

قال المفسرون : إذا أَكلوا الزَّقُّوم ثم شربوا عليه الحميم ، شابَ الحميمُ الزَّقُّوم في بطونهم فصار شَوْباً له .

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعهم ﴾ أي : بعد أكل الزَّقُّوم وشُرب الحميم ﴿ لإلى الجحيم ﴾ وذلك أن الحميم خارج الجحيم ، فهُم يوردَونه كما تورَد الإبلُ الماءَ ، ثم يُردُّونَ إلى الجحيم ؛ ويدُلُّ على هذا قولُه : ﴿ يطُوفون بَيْنَها وبَيْنَ حَميمٍ آنٍ ﴾ [ الرحمن : 44 ] ، و ﴿ أَلْفَوْا ﴾ بمعنى وَجَدوا و ﴿ يُهْرَعُون ﴾ مشروح في [ هود : 78 ] ، والمعنى : أنهم يتَّبعون آباءَهم في سرعة ﴿ ولقد ضَلَّ قَبْلَهم ﴾ أي : قَبْلَ هؤلاء المشركين ﴿ أكثرُ الأوَّلِينَ ﴾ من الأمم الخالية .

قوله تعالى : ﴿ إلاّ عِبادَ اللهِ المُخْلَصِينَ ﴾ يعني الموحِّدين ، فإنهم نجوا من العذاب .

قال ابن جرير : وإنما حَسُن الاستثناء ، لأن المعنى : فانْظُر كيف أهلكْنا المُنْذَرِين إلا عباد الله .

﴿ ولقد نادانا نوحٌ ﴾ أي : دعانا .

وفي دعائه ، قولان :

أحدهما : أنه دعا مستنصِراً على قومه .

والثاني : أن ينجيَه من الغرق ﴿ فَلَنِعْمَ المُجِيبونَ ﴾ نحن ؛ والمعنى : إنَّا أَنجيناه وأهلكنا قومه .

وفي ﴿ الكَرْب العظيم ﴾ قولان :

أحدهما : [ أنه ] الغرق .

والثاني : أذى قومه .

﴿ وجعلْنا ذُرِّيَّتَه هُمُ الباقين ﴾ [ وذلك ] أن نسل [ أهل ] السفينة انقرضوا غير نسل ولده ، فالناس كلُّهم من ولد نوح ، ﴿ وتَرَكْنا عليه ﴾ أي : تَرَكْنا عليه ذِكْراً جميلاً ﴿ في الآخِرين ﴾ وهم الذين جاؤوا بعده إلى يوم القيامة .

قال الزجاج : وذلك الذِّكْر الجميل قولُه ﴿ سلامٌ على نوحٍ في العالَمِينَ ﴾ وهم الذين جاؤوا من بعده .

والمعنى : تَرَكْنا عليه أن يُصَلَّى عليه في الآخِرين إلى يوم القيامة ﴿ إنَّا كذلك نَجْزي المُحسنِينَ ﴾ قال مقاتل : جزاه الله بإحسانه الثَّناءَ الحَسَنَ في العالمين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 43. 66 ﴾

(265/652)

---

وقال الخازن :

قوله : ﴿ والصافات صفاً ﴾

قال ابن عباس هم الملائكة يصفون كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة (م) عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم قال يتمون الصفوف المتقدمة ويتراصون في الصف" لفظ أبي داود وقيل هم الملائكة تصف أجنحتها في الهواء واقفة حتى يأمرها الله تعالى بما يريد وقيل أراد بالصافات الطير تصف أجنحتها في الهواء ﴿ فالزاجرات زجراً ﴾ يعني الملائكة تزجر السحاب وتسوقه وقيل هي زواجر القرآن تنهى وتزجر عن القبيح ﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ يعني الملائكة يتلون ذكر الله تعالى وقيل هم قرّاء القرآن وهذا كله قسم أقسم الله بهذه الأشياء وقيل فيه إضمار تقديره ورب الصافات والزاجرات والتاليات وجواب القسم قوله تعالى: ﴿ إن إلهكم لواحد ﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً فأقسم الله تعالى بهذه الأشياء للتنبيه على شرف ذواتها وكمال مراتبها والرد على عبدة الأصنام في قولهم ثم وصف نفسه فقال تعالى: ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ يعني أنه المالك القادر العالم المنزه عن الشريك.

وقوله ﴿ ورب المشارق ﴾ قيل أراد والمغارب فاكتفى بأحدهما قال السدي المشارق ثلاثمائة وستون مشرقاً وكذلك المغارب فإن الشمس تطلع كل يوم في مشرق وتغرب في مغرب.

فإن قلت قد قال في موضع آخر رب المشرق ورب المغربين وقال رب المشرق والمغرب

فكيف وجه الجمع بين هذه الآيات .

قلت أراد بالمشرق والمغرب الجهة التي تطلع فيها الشمس وتغرب وأراد بالمشرقين مشرق الصيف ومشرق الشتاء ، وبالمغربين مغرب الصيف ومغرب الشتاء وبالمشارق والمغارب ما تقدم من قول السدي وقيل كل موضع شرقت عليه الشمس فهو مشرق وكل موضع غربت عليه فهو مغرب وقيل أراد مشارق الكواكب .



---

قوله تعالى : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا ﴾ يعني التي تلي الأرض وهي أدنى السموات إلى الأرض ﴿ بزينة الكواكب ﴾ قال ابن عباس بضوء الكواكب لأن الضوء والنور من أحسن الصفات وأكملها ولو لم تحصل هذه الكواكب في السماء لكانت شديدة الظلمة عند غروب الشمس وقيل زينتها أشكالها المتناسبة والمختلفة في الشكل كشكل الجوزاء وبنات نعش وغيرها .

وقيل إن الإنسان إذا نظر في الليلة المظلمة إلى السماء ورأى هذه الكواكب الزواهر مشرقة متلألئة على سطح أزرق نظر غاية الزينة .

﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾ أي وحفظنا السماء من كل شيطان متمرد عات

يرمون بالشهب ﴿ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ﴾ يعني إلى الملائكة والكتبة لأنهم سكان السماء وذلك أن شياطين يصعدون إلى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة فيخبرون به أولياءهم الإنس ويوهمون بذلك أنهم يعلمون الغيب فمنعهم الله من ذلك بهذه الشهب وهو قوله تعالى : ﴿ ويقذفون ﴾ أي يرمون بها ﴿ من كل جانب ﴾ أي آفاق السماء ﴿ دحوراً ﴾ أي يبعدونهم عن مجالس الملائكة ﴿ ولهم عذاب واصب ﴾ أي دائم ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ أي اختلس الكلمة من كلام الملائكة ﴿ فأتبعه ﴾ أي لحقه ﴿ شهاب ثاقب ﴾ أي كوكب مضيء قوي لا يخطئه بل يقتله ويحرقه أو يخبله .

وقيل سمي النجم الذي ترمى به الشياطين ثاقباً لأنه يثقبهم .

فإن قلت كيف يمكن أن تذهب الشياطين إلى حيث يعلمون أن الشهب تحرقهم ولا يصلون إلى مقصودهم ثم يعودون إلى مثل ذلك .

قلت إنما يعودون إلى استراق السمع مع علمهم أنهم لا يصلون إليه طمعاً في السلامة ورجاء نيل المقصود كراكب البحر يغلب على ظنه حصول السلامة .

وقوله : ﴿ فاستفتهم ﴾ يعني سل أهل مكة ﴿ أهم أشد خلقاً أم من خلقنا ﴾ يعني من السموات والأرض والجبال وهو استفهام تقرير أي هذه الأشياء أشد خلقاً وقيل ﴿ أم من خلقنا ﴾ يعني من الأمم الخالية والمعنى أن هؤلاء ليسوا بأحكم خلقاً من غيرهم من الأمم وقد أهلكناهم بذنوبهم فما الذي يؤمن هؤلاء من العذاب .

ثم ذكر مم خلقوا فقال الله تعال : ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ يعني آدم من طين جيد حر لاصق لزج يعلق باليد وقيل من طين نتن .

﴿ بل عجبت ﴾ قرىء بالضم على إسناد التعجب إلى الله تعالى وليس هو كالتعجب من الآدميين لأن العجب من الناس محمول على إنكار الشيء وتعظيمه والعجب من الله تعالى محمول على تعظيم تلك الحالة فإن كانت قبيحة فيترتب عليها العقاب وإن كانت حسنة فيترتب عليها الثواب وقيل قد يكون بمعنى الإنكار والذم وقد يكون بمعنى الاستحسان والرضا كما جاء في الحديث " عجب ربكم من شاب ليست له صبوة " وفي حديث آخر " عجب ربكم من إلكم وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم " ، وقوله من إلكم الإل أشد القنوط وقيل هو رفع الصوت بالبكاء .

وسئل الجنيد رحمه الله تعالى عن هذه الآية فقال إن الله لا يعجب من شيء ولكن وافق رسوله ولما عجب رسوله قال : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ﴾ أي هو كما تقوله وقرئ بفتح التاء على أنه خطاب للنبي ( صلى الله عليه وسلم ) أي عجبت من تكذيبهم إياك

وهم يسخرون من تعجبك وقيل عجب نبي الله ( صلى الله عليه وسلم ) من هذا القرآن حين أنزل وضلال بني آدم وذلك أن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) كان يظن أن كل من يسمع القرآن يؤمن به فلما سمع المشركون القرآن وسخروا منه ولم يؤمنوا به عجب من ذلك النبي ( صلى الله عليه وسلم ) فقال الله تعالى ﴿ بل عجبت ويسخرون وإذا ذكروا لا يذكرون ﴾ أي وإذا وعظوا لا يتعظون ﴿ وإذا رأوا آية ﴾ قال ابن عباس يعني انشقاق القمر ﴿ يستسخرون ﴾ أي يستهزئون .

(268/652)

---

وقيل يستدعي بعضهم بعضاً إلى أن يسخر ﴿ وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أي بيّن ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون قل نعم وأنتم داخرون ﴾ أي صاغرون ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ أي صيحة واحدة وهي نفخة البعث ﴿ فإذا هم ينظرون ﴾ يعني أحياء .

﴿ وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين ﴾ يعني يوم الحساب والجزاء ﴿ هذا يوم الفصل ﴾ أي القضاء وقيل بين المحسن والمسيء ﴿ الذي كنتم به تكذبون ﴾ أي في الدنيا ﴿ احشروا ﴾ أي اجمعوا ﴿ الذين ظلموا ﴾ أي أشركوا وقيل هو عام في كل ظالم ﴿ وأزواجهم ﴾

أي أشباههم وأمثالهم فكل طائفة مع مثلها فأهل الخمر مع أهل الخمر وأهل الزنا مع أهل الزنا وقيل أزواجهم أي قرناءهم من الشياطين يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة وقيل أزواجهم المشركات ﴿ وما كانوا يعبدون من دون الله ﴾ أي في الدنيا يعني الأصنام والطواغيت وقيل إبليس وجنوده ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ قال ابن عباس أي دلوهم إلى طريق النار ﴿ وقفوهم ﴾ أي احبسوهم ﴿ إنهم مسؤولون ﴾ لما سيقوا إلى النار حبسوا عند الصراط للسؤال قال ابن عباس عن جميع أقوالهم وأفعالهم ويروى عنه عن لا إله إلا الله وروى عن أبي برزة أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) قال " لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه وعن علمه ماذا عمل به وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه " وفي رواية .

" عن شبابه فيما أبلاه " أخرجه الترمذي وله عن أنس أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " قال ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً يوم القيامة لازماً به لا يفارقه وإن دعا رجل رجلاً " ثم قرأ ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ما لكم لا تناصرون ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم توبيخاً لهم ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً وهذا جواب لأبي جهل حيث قال يوم بدر نحن جميع منتصر قال الله تعالى : ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ قال ابن عباس خاضعون .

وقيل منقادون والمعنى هم اليوم أذلاء منقادون لا حيلة لهم .

﴿ وأقبل بعضهم على بعض ﴾ يعني الرؤساء والأتباع ﴿ يتساءلون ﴾ يعني يتخاصمون ﴿ قالوا ﴾ يعني الرؤساء للأتباع ﴿ إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ يعني من قبل الدين فتضلوننا وتروننا أن الدين ما تضلوننا به .

وقيل كان الرؤساء يحلفون لهم أن الدين الذي يدعونهم إليه هو الحق والمعنى أنكم حلفتم لنا فوثقنا بأيمانكم وقيل عن اليمين أي عن العزة والقدرة والقول الأول أصح ﴿ قالوا ﴾ يعني الرؤساء للأتباع ﴿ بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ يعني لم تكونوا على حق حتى نضلكم عنه بل كنتم على الكفر ﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ يعني من قوة وقدرة فنقهركم على متابعتنا ﴿ بل كنتم قوماً طاغين ﴾ يعني ضالين ﴿ فحق علينا ﴾ يعني وجب علينا جميعاً ﴿ قول ربنا ﴾ يعني كلمة العذاب وهي قوله ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ ﴿ إنا لذائقون ﴾ يعني أن الضال والمضل جميعاً في النار ﴿ فأغويناكم ﴾ فأضللناكم عن الهدى ودعوناكم إلى ما كنا عليه ﴿ إنا كنا غاوين ﴾ أي ضالين قال الله تعالى : ﴿ فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون ﴾ يعني الرؤساء والأتباع ﴿ إنا كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ قال ابن عباس الذين جعلوا لله شركاء ثم بين تعالى أنهم إنما وقعوا في ذلك العذاب باستكبارهم عن التوحيد فقال تعالى : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله

يستكبرون ﴾ أي يتكبرون عن كلمة التوحيد ويمتنعون منها ﴿ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ يعنون محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) قال الله تعالى رداً عليهم ﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ يعني أنه أتى بما أتى به المرسلون قبله من الدين والتوحد ونفي الشرك .

(270/652)

---

﴿ إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ أي في الدنيا من الشرك والتكذيب ﴿ إلا ﴾ أي لكن وهو استثناء منقطع ﴿ عباد الله المخلصين ﴾ أي الموحدين ﴿ أولئك لهم رزق معلوم ﴾ يعني بكرة وعشياً وقيل حين يشتهونه يؤتون به وقيل إنه معلوم الصفة من طيب طعم ولذة ورائحة وحسن منظر ثم وصف ذلك الرزق فقال تعالى : ﴿ فواكه ﴾ جمع فاكهة وهي الثمار كلها رطبها ويابسها وكل طعام يؤكل للتلذذ لا للقوت .

وقيل إن أرزاق أهل الجنة كلها فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات لأن أجسادهم خلقت للأبد فكل ما يأكلونه على سبيل التلذذ ثم إن ذلك حاصل مع الإكرام والتعظيم كما قال تعالى : ﴿ وهم مكرمون ﴾ أي بثواب الله تعالى ثم وصف مساكنهم

فقال تعالى : ﴿ في جنات النعيم على سرر متقابلين ﴾ يعني لا يرى بعضهم قفا بعض ثم وصف شرابهم فقال تعالى : ﴿ يطاف عليهم بكأس من معين ﴾ كل إناء فيه شراب يسمى كأساً وإذا لم يكن فيه شراب فهو إناء وقد تسمى الخمر نفسها كأساً قال الشاعر :

وكأساً شربت على لذة . . .



---

ومعنى معين أي من خمر جارية في الأنهار ظاهرة تراها العيون ﴿ بيضاء ﴾ يعني أن خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ﴿ لذة ﴾ أي لذيذة ﴿ للشاربين لا فيها غول ﴾ أي لا تغتال عقولهم فتذهب بها وقيل لا إثم فيها ولا وجع البطن ولا صداع وقيل الغول فساد يلحق في خفاء وخمر الدنيا يحصل منها أنواع من الفساد ومنها السكر وذهاب العقل ووجع البطن وصداع الرأس والبول والقيء والخمار والعربدة وغير ذلك ولا يوجد شيء من ذلك في خمر الجنة ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ أي لا تغلبهم على عقولهم ولا يسكرون وقيل معناه لا ينفد شرابهم ثم وصف أزواجهم فقال تعالى : ﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ أي حابسات الأعين غاضات العيون قصرن أعينهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم ﴿ عين ﴾ أي حسان الأعين عظامها ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ أي مصون مستور شبههن ببيض النعام

لأنها تكنها بالريش من الريح والغبار فيكون لونها أبيض في صفرة ويقال هذا من أحسن ألوان النساء وهو أن تكون المرأة بيضاء مشوبة بصفرة والعرب تشبه المرأة ببيض النعامة وتسميهن ببيضات الخدور .

(272/652)

---

قوله : ﴿ فأقبل بعضهم على بعض ﴾ يعني أهل الجنة في الجنة ﴿ يتساءلون ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً عن حاله في الدنيا ﴿ قال قائل منهم ﴾ أي من أهل الجنة ﴿ إني كان لي قرين ﴾ أي في الدنيا ينكر البعث قيل كان قرينه شيطاناً وقيل كان من الإنس قيل كانا أخوين وقيل كانا شريكين أحدهما كافر اسمه قطروس والآخر مؤمن اسمه يهوذا وهما اللذان قص الله خبرهما في سورة الكهف في قوله : ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين ﴾ يقول أئنك لمن المصدقين ﴾ أي بالبعث ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون ﴾ أي مجزيون ومحاسبون وهذا استفهام إنكاري ﴿ قال ﴾ الله تعالى لأهل الجنة ﴿ هل أنتم مطلعون ﴾ أي إلى النار وقيل يقول المؤمن لإخوانه من أهل الجنة هل أنتم مطلعون أي لننظر كيف منزلة أخي في النار فيقول أهل الجنة أنت أعرف به منا ﴿ فاطلع ﴾ أي المؤمن قال ابن عباس إن في الجنة كوى ينظر منها أهلها إلى النار ﴿ فرآه في سواء الجحيم ﴾ أي فرأى

قرينه في وسط النار سمي وسط الشيء سواء لاستواء الجوانب منه ﴿ قال تالله إن كدت لتردين ﴾ أي والله لقد كدت أن تهلكني وقيل تغويني ومن أغوى إنساناً فقد أرداه وأهلكه ﴿ ولولا نعمة ربي ﴾ أي رحمة ربي وإنعامه علي بالإسلام ﴿ لكنت من المحضرين ﴾ أي معك في النار ﴿ أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى ﴾ أي في الدنيا ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ قيل يقول هذا أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت فتقول الملائكة لهم لا فيقولون ﴿ إن هذا لهو الفوز العظيم ﴾ وإنما يقولونه على جهة التحدث بنعمة الله عليهم في أنهم لا يموتون ولا يعذبون ليفرحوا بدوام النعيم لا على طريق الاستفهام لأنهم قد علموا أنهم ليسوا بميتين ولا معذبين ولكن أعادوا الكلام ليزدادوا سروراً بتكراره وقيل يقوله المؤمن لقرينه على جهة التوبيخ بما كان ينكره قال الله تعالى : ﴿ لمثل هذا ﴾ أي المنزل والنعيم الذي ذكره في قوله : ﴿ أولئك لهم رزق معلوم ﴾ ﴿ فليعمل العاملون ﴾ هذا ترغيب في ثواب



---

الله تعالى وما عنده بطاعته.

قوله تعالى : ﴿ أذلك ﴾ أي الذي ذكره لأهل الجنة من النعيم ﴿ خير نزلاً أي رزقاً ﴾ أم شجرة الزقوم ﴾ التي هي نزل أهل النار والزقوم شجرة خبيثة مرة كريهة الطعم يكره أهل

النار على تناولها فهم يتزقمونه على أشد كراهة وقيل هي شجرة تكون بأرض تهامة من أخبث الشجر .

﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ أي للكافرين وذلك أنهم قالوا كيف تكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر وقال ابن الزبعرى لصناديد قريش إن محمداً يخوفنا بالزقوم والزقوم بلسان بربر الزبد والتمر وقيل هو بلغة أهل اليمن فأدخلهم أبو جهل بيته وقال يا جارية زقمينا فأتتهم بالزبد والتمر فقال أبو جهل تزقموا فهذا ما يوعدكم به محمد فقال الله تعالى :

﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ أي في قعر النار وأغصانها ترتفع إلى دركاتها ﴿ طلعها ﴾ أي ثمرها سمي طلعاً لطلوعه ﴿ كأنه رؤوس الشياطين ﴾ قال ابن عباس هم الشياطين بأعيانهم شبهها لقبحهم عند الناس .

فإن قلت قد شبهها بشيء لم يشاهد فكيف وجه التشبيه .

قلت إنه قد استقر في النفوس قبح الشياطين وإن لم يشاهدوا فكأنه قيل إن أقبح الأشياء في الوهم والخيال رؤوس الشياطين فهذه الشجرة تشبهها في قبح المنظر والعرب إذا رأت منظراً قبيحاً قالت كأنه رأس شيطان قال امرؤ القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي . . .

ومسنونة زرق كأنياب أغوال

شبّه سنان الرمح بأنياب الغول ولم يرها وقيل إن بين مكة واليمن شجرة قبيحة منتنة تسمى رؤوس الشياطين فشبهها بها وقيل أراد بالشياطين الحيات والعرب تسمي الحية القبيحة المنظر شيطاناً ﴿ فإنهم لآكلون منها ﴾ أي من ثمرها ﴿ فمالئون منها البطون ﴾ وذلك أنهم يكرهون على أكلها حتى تمتلئ بطونهم ﴿ ثم إن لهم عليها لشوباً ﴾ أي خلطاً ومزاجاً ﴿ من حميم ﴾ أي من ماء شديد الحرارة يقال إنهم إذا أكلوا الزقوم وشربوا عليه الحميم شاب الحميم الزقوم في بطونهم فصار شوباً لهم ﴿ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ وذلك أنهم يردون إلى الجحيم بعد شراب الحميم ﴿ إنهم ألفوا ﴾ أي وجدوا ﴿ آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون ﴾ أي يسرعون وقيل يعملون مثل عملهم ﴿ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ﴾ أي من الأمم الخالية ﴿ ولقد أرسلنا فيهم منذرين ﴾ أي وأرسلنا فيهم رسلاً منذرين ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أي الكافرين وكانت عاقبتهم العذاب ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أي الموحدين نجوا من العذاب والمعنى انظر كيف أهلكنا المنذرين إلا عباد الله المخلصين.

قوله : ﴿ ولقد نادانا نوح ﴾ أي دعا ربه على قومه وقيل دعا ربه أن ينجيه من الغرق ﴿ فلنعم المجيبون ﴾ نحن أي دعانا فأجبناه وأهلكنا قومه ﴿ ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ أي من الغم الذي لحق قومه وهو الغرق ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ يعني أن الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام قال ابن عباس لما خرج نوح من السفينة مات من كان معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءهم عن سمرة بن جندب عن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) في قول الله ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ قال " هم سام وحام ويافث " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وفي رواية أخرى سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم وقيل سام أبو العرب وفارس والروم وحام أبو السودان ويافث أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ أي أبقينا له حسناً وذكراً جميلاً فيمن بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ أي سلام عليه منا في العالمين وقيل تركنا عليه في الآخرين أن يصلي عليه إلى يوم القيامة ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي جزاه الله بإحسانه الثناء الحسن في العالمين ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ثم أغرقنا الآخرين ﴾ يعني الكفار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 17.24 ﴾

وقال ابن جزى :

﴿ والصافات صَفًّا ﴾

تقديره والجماعات الصافات ثم اختلف فيها فقيل : هي الملائكة التي تصف في السماء صفوفاً لعبادة الله ، وقيل : هو من يصف من بني آدم في الصلوات والجهاد ، والأول أرجح لقوله حكاية عن الملائكة [ الآية : 165 ] ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافّون ﴾ ﴿ فالزاجرات زَجْراً ﴾ هي الملائكة تزجر السحاب وغيرها ، وقيل : الزاجرون بالمواعظ من بني آدم ، وقيل : هي آيات القرآن المتضمنة للزجر عن المعاصي ﴿ فالتاليات ذِكْراً ﴾ هي الملائكة تتلو القرآن والذكر ، وقيل : هم التالون للقرآن والذكر من بني آدم ، وهي كلها أشياء أقسم الله بها على أنه واحد .

﴿ وَرَبُّ المشارق ﴾ يعني مشارق الشمس ، وهي ثلاثمائة وستون مشرقاً ، وكذلك المغارب فإنها تشرق كل يوم من أيام السنة في مشرق منها وتغرب في مغرب ، واستغنى بذكر المشارق عن ذكر المغارب لأنها معادلة لها ، فتفهم من ذكرها .

﴿ بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ وقرأ نافع وغيره بإضافة الزينة إلى الكواكب ، والزينة تكون مصدراً واسماً لما يزان به ، فإن كان مصدراً فهو مضاف إلى الفاعل تقديره : بأن زينة الكواكب أسماً أو مضاف إلى المفعول تقديره : بأن زينا الكواكب ، وإن كانت اسماً فالإضافة بيان للزينة ،

وقرأ حفص وحمزة بتنوين زينة وخفض الكواكب على البدل ، ونصب الكواكب على أنها مفعول بزينة أو بدل من موضع زينة .

﴿ وَحِفْظاً ﴾ منصوب على المصدر تقديره : وحفظناها حفظاً ، أو مفعول من أجله ، والواو زائدة أو محمول على المعنى ، لأن المعنى إنا جعلنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً ﴿ مَّارِدٍ ﴾ أي شديد الشر .

(277/652)

---

﴿ لاَّ يَسَّمَّعُونَ إِلَى المَلإِ الأعلى ﴾ الضمير في يسمعون للشياطين ، والملأ الأعلى هم الملائكة الذين يسكنون في السماء ، والمعنى أن الشياطين منعت من سماع أحاديث الملائكة . وقرأ حفص وعاصم وحمزة يسمعون بتشديد السين والميم ووزنة يتفعلون والسمع طلب السماع ، فنفى السماع على القراءة الأولى ، ونفى طلبه على القراءة بالتشديد ، والأول أرجح لقوله ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ [ الشعراء : 212 ] ولأن ظاهر الأحاديث أنهم يستمعون ، لكنه لا يسمعون شيئاً ، منذ بعث محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم يرجمون بالكواكب ﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾ أي يرجمون يعني بالكواكب وهي التي يراها الناس تقتضّ ، قال النقاش ومكي : ليست الكواكب الراجمة للشياطين بالكواكب الجارية

في السماء ؛ لأن تلك لا ترى حركتها وهذه الراجمة ترى حركتها لقربها منا . قال ابن عطية : وفي هذا نظر ﴿ دُحُوراً ﴾ أي طرداً وإبعاداً وإهانة ؛ لأن الدحر الدفع بعنف .

وإعرابه مفعول من أجله أو مصدر من يقذفون على المعنى أو مصدر في موضع الحال تقديره : مدحورين ﴿ عَذابٌ وَاصِبٌ ﴾ أي دائم ، لأنهم يرجمون بالنجوم في الدنيا ، ثم يقذفون في جهنم ، ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة ﴾ ﴿ مَنْ ﴾ في وضع رفع بدل من الضمير في قوله : ﴿ لاَّ يَسَّمَّعُونَ ﴾ والمعنى لا تسمع الشياطين أخبار السماء إلا الشيطان الذي خطف الخطفة ﴿ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ أي شديد الإضاءة .

(278/652)

---

﴿ فاستفتهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ الضمير لكفار قريش ، والاستفتاء نوع من السؤال ، وكأنه سؤال من يعتبر قوله ويجعل حجة ؛ لأن جوابهم عن السؤال مما تقوم به الحجة عليهم و ﴿ مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ يراد به ما تقدم ذكره من الملائكة والسموات والأرض والمشارق والكواكب ، وقيل : يراد به ما تقدم من الأمم والأول أرجح ؛ لقراءة ابن مسعود أم من عددنا ومقصد الآية : إقامة الحجة عليهم في إنكارهم البعث في الآخرة كأنه يقول : هذه المخلوقات أشد خلقاً منكم ، فكما قدرنا على خلقهم كذلك نقدر على إعادتكم بعد

فنائكم ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ اللازب اللازم أي يلزم ما جاوره ويلصق به ، ووصفه بذلك يراد به ضعف خلقة بني آدم .

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أي عجب يا محمد من ضلالهم وإعراضهم عن الحق ، أو عجبت من قدرة الله على هذه المخلوقات العظام المذكورة ، وقرأ حمزة والكسائي عجبتُ بضم التاء وأشكال ذلك على من يقول : إن التعجيب مستحيل على الله فتأولوه بمعنى : أنه جعله على حال يتعجب منها الناس وقيل : تقديره قل يا محمد عجبت وقد جاء التعجب من الله في القرآن والحديث كقوله صلى الله عليه وسلم : "يعجب ربك من شاب ليس له صبوة" وهي صفة فعل وإنما جعلوه مستحيلاً على الله ، لأنهم قالوا إن التعجب استعظام خفي سببه ، والصواب أنه لا يلزم أن يكون خفّي السبب بل هو لمجرد الاستعظام ؛ فعلى هذا لا يستحيل على الله ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ تقديره وهم يسخرون منكم أو من العبث .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ الآية هنا العلامة كانشاق القمر ونحوه ، وروي أنها نزلت في مشرك اسمه ركانة ، أراه النبي صلى الله عليه وسلم آيات فلم يؤمن و ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ معناه : يسخرون فيكون فعل واستعمل بمعنى واحد وقيل : معناه يستدعي بعضهم بعضاً لأن يسخر ، وقيل يبالغون في السخرية .

﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ الآية : معناها استبعادهم البعث وقد تقدم الكلام على الاستفهامين في الرعد ﴿ أَوَآبَآؤُنَا ﴾ بفتح الواو دخلت همزة الإنكار على واو العطف ، وقرئ بالإسكان عطفاً بأو .

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي قل : تبعثون . والداخر الصاغر الذليل .

﴿ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ هي النفخة في الصور للقيام من القبور ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ يحتمل أن يكون من النظر بالأبصار ، أو من الانتظار أي : ينتظرون ما يفعل بهم .

﴿ هذا يَوْمُ الدين ﴾ يحتمل أن يكون من كلامهم مثل الذي قبله ، أو مما يقال لهم مثل الذي بعده .

﴿ احشروا ﴾ الآية : خطاب للملائكة خاطبهم به الله تعالى أو خاطب به بعضهم بعضاً ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ يعني نساءهم المشركات وقيل يعني أصنامهم وقرناءهم من الجن والإنس ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ يعني الأصنام والآدميين الذي كانوا يرضون بذلك .

﴿ فاهدوهم إلى صِرَاطِ الجحيم ﴾ أي دلوهم على طريق جهنم ليدخلوها .

﴿ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾ يعني إنهم يسألون عن أعمالهم ، توبيخاً لهم وقيل : يسألون عن قول : لا إله إلا الله والأول أرجح ، لأنه أهم ويحتمل أن يسألوا عن عدم تناصرهم ، على وجه التهكم بهم ، فيكون ﴿ مَّسْئُولُونَ ﴾ عاملاً فيما بعده والتقدير ؛ يقال لهم : ما لكم لا ينصر

بعضكم بعضاً وقد كنتم في الدنيا تقولون : ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ [ القمر : 44 ] ﴿ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ أي منقادون عاجزون عن الانتصار .

*(280/652)*

---

﴿ قالوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين ﴾ الضمير في ﴿ قالوا ﴾ ، للضعفاء من الكفار خاطبوا الكبراء منهم في جهنم ، أو للإنس خاطبوا الجنّ ، واليمين هنا يحتمل ثلاث معان : الأول أن يراد بها طريق الخير والصواب وجاءت العبارة عن ذلك بلفظ اليمين كما أن العبارة عن الشر بالشمال ، والمعنى أنهم قالوا لهم : إنكم كنتم تأتوننا عن طريق الخير فتصدوننا عنه والثاني أن يراد به القوة ، والمعنى على هذا أنكم كنتم تأتوننا بقوتكم وسلطانكم فتأمروننا بالكفر وتمنعوننا من الإيمان والثالث أن يراد بها اليمين التي يحلف بها أي كنتم تأتوننا بأن تحلفوا لنا أنكم على الحق فنصدقكم في ذلك ونتبعكم .

﴿ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ الضمير في قالوا للكبراء من الكفار ، أو للشياطين والمعنى أنهم قالوا لأتباعهم : ليس الأمر كما ذكرتم ، بل كفرتم باختياركم .

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾ أي وجب العذاب علينا وعليكم ، و ﴿ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾ : معمول القول وحذف معمول ذائقون تقديره ، وجب القول بأنا ذائقو العذاب

.

﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ أي دعوناكم إلى الغي ، لأنا كنّا على غي .

﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ أي إن المتبوعين والأتباع مشتركون في عذاب النار .

﴿ وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لتاركوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ الضمير في يقولون لكفار قريش ، ويعنون بشاعر مجنون : محمد صلى الله عليه وسلم ، فردّ الله عليهم بقوله : ﴿ بَلْ جَآءَ بالحق ﴾ أي جاء بالتوحيد والإسلام ، وهو لحق ﴿ وَصَدَّقَ المرسلين ﴾ الذين جاؤوا قبله : لأنه جاء بمثل ما جاؤوا به ، ويحتمل أن يكون صدقهم لأنهم أخبروا بنبوّته فظهر صدقه لما بعث عليه الصلاة ولسلام .

(281/652)

---

﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ استثناء منقطع بمعنى لكن ، وقرئ مخلصين بفتح اللام وكسرها في كل موضع ، وقد تقدّم تفسيره .

﴿ على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ السرر جمع سرير ، وتقابلهم في بعض الأحيان للسرور بالأنس ، وفي بعض الأحيان ينفرد كل واحد بقصره .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ الذين يطوفون عليهم الولدان ، حسبما ورد في الآية الآخرى ، والكأس الإناء الذي فيه خمر قاله ابن عباس : وقيل : الكأس إناء واسع الفم ، ليس له مقبض ، سواء كان فيه خمر أم لا ، والمعين : الجاري الكثير ، لأنه فعيل ، والميم فيه أصلية ، وقيل : هو مشتق من العين والميم زائدة ، ووزنه مفعول .

﴿ لَذَّةٍ ﴾ أي ذات لذة ، فوصفها بالمصدر اتساعاً .

﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ الغول : اسم عام في الأذى والضير ، ومنه يقال : غاله يغوله ؛ إذا أهلكه ، وقيل : الغول وجع في البطن ، وقيل : صداع في الرأس ، وإنما قدم المجرور هنا تعريضاً بخمر الدنيا لأن الغول فيها ﴿ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ أي لا يسكرون من خمر الجنة ، ومنه النزيف ، وهو السكران ، وعن هنا سببية ، كقولك فعلته عن أمرك ، أي لا ينزفون بسبب شربها .

﴿ قَاصِرَاتُ الطرف ﴾ معناه أنهن قصرن أعينهن على النظر إلى أزواجهن ، فلا ينظرن إلى غيرهن ﴿ عِينٌ ﴾ جمع عيناء ، وهي الكبيرة العينين في جمال ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ قيل شبههن في اللون ببيض النعام ، فإنه بياض خالطه صفرة حسنة ، وكذلك قال امرؤ القيس :

كبكر مقناة البياض بصفرة . . . وقيل : إنما التشبيه بلون قشر البيضة الداخلي الرقيق ، وهو المكنون المصون تحت القشرة الأولى ، وقيل : أراد الجوهر المصون .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ هذا إخبار عن تحدّث أهل الجنة . قال الزمخشري : هذه الجملة معطوفة على ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ ، والمعنى : أنهم يشربون فيتحدّثون على الشراب ، بما جرى لهم في الدنيا .

(282/652)

---

﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ قيل : إن هذا القائل وقرينه من البشر ، مؤمن وكافر ، وقيل : إن قرينه كان من الجن .

﴿ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ المصدقين ﴾ معناه أنه كان يقول له على وجه الإنكار : أتصدق بالدنيا والآخرة ؟

﴿ لَمَدِينُونَ ﴾ أي مجازون ومحاسبون على الأعمال ، ووزنه مفعول ، وهو من الدين ، بمعنى الجزاء والحساب .

﴿ قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴾ أي قال ذلك القائل لرفقائه في الجنة ، أو الملائكة أو لخدامه : هل أنتم مطلعون على النار لأريكم ذلك العزيز فيها ؟ ورُوي أن في الجنة كوى ينظرون أهلها منها إلى النار .

﴿ فِي سَوَآءِ الجحيم ﴾ أي في وسطها .

﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ أي تهلكني بإغوائك ، والردى الهلاك ، وهذا خطاب خاطب به المؤمن قرينه الذي في النار .

﴿ المحضرين ﴾ في العذاب .

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ هذا من كلام المؤمن ، خطاب لقرينه ، أو خطاباً لرفقائه في الجنة ولهذا قال نحن فأخبر عن نفسه وعنهم ، ويحتمل أن يكون من كلامه وكلامهم جميعاً .

﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ الفوز العظيم ﴾ يحتمل أن يكون من كلام المؤمن ، أو من كلامه وكلام رفقائه في الجنة أو من كلام الله تعالى ، وكذلك يحتمل هذه الوجود في قوله : ﴿ لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾ والأول أرجح فيه أن يكون من كلام الله تعالى ، لأن الذي بعده من كلام الله فيكون متصلاً به ، ولأن الأمر بالعمل إنما هو حقيقة في الدنيا ففيه تحضيض على العمل الصالح .

﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزقوم ﴾ الإشارة بذلك إلى نعيم الجنة ، وكل ما ذكر من وصفها ، وقال الزمخشري : الإشارة إلى قوله : ﴿ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ ، والنزل الضيافة ، وقيل : الرزق الكثير وجاء التفضيل هنا بين شيئين ، ليس بينهما اشتراك ، لان الكلام تقرير وتوبيخ .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴾ قيل : سببها أن أبا جهل وغيره لما سمعوا ذكر شجرة الزقوم ، قالوا : كيف يكون في النار شجرة ، والنار تحرق الشجر ، فالفتنة على هذا الابتلاء في الدنيا وقيل : معناه ، عذاب الظالمين في الآخرة والمراد بالظالمين هنا الكفار .

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ أي تنبت في قعر جهنم وترتفع أغصانها إلى دركاتها .

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ الطلع ثمر النخل فاستعير لشجرة الزقوم ، وشبه برؤوس الشياطين مبالغة في قبحه وكراهته ، لأنه قد تقرر في نفوس الناس كراهتها وإن لم يروها ، ولذلك يقال للقبيح المنظر : وجه شيطان وقيل : رؤوس الشياطين شجرة معروفة باليمن ، وقيل : هو صنف من الحيات .

﴿ لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي مزاجاً من ماء حار ، فإن قيل : لم عطف هذه الجملة بثم ، فالجواب من وجهين : أحدهما أنه لترتيب تلك الأحوال في الزمان ، فالمعنى أنهم يملؤون البطون من شجرة الزقوم ، وبعد ذلك يشربون الحميم والثاني أنه لترتيب مضاعفة العذاب ، فالمعنى أن شربهم للحميم أشدّ مما ذكر قبله .

﴿ يُهْرَعُونَ ﴾ الإهراع الإسراع الشديد .

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ أي دعانا فالمعنى دعاؤه بالإهلاك قومه ونصرته عليهم ﴿ مِنَ الكرب العظيم ﴾ يعني الغرق ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ أهل الأرض كلهم من ذرية نوح ، لأنه لما غرق الناس في الطوفان ونجا نوح ومن كان معه في السفينة ، تناسل الناس من أولاده الثلاثة ، سام وحام ويافث ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين ﴾ معناه أبقينا عليها ثناء جميلاً في الناس إلى يوم القيامة ﴿ سَلاَمٌ على نُوحٍ فِي العالمين ﴾ هذا التسليم من الله على نوح عليه السلام ، وقيل : إن هذه الجملة مفعول تركنا ، وهي محكية أي تركنا هذه الكلمة ، تقال له يعني أن الخلق يسلمون عليه فيبتدأ بالسلام على القول الأول ، لا على الثاني والأول أظهر ، و معنى ﴿ فِي العالمين ﴾ على القول الأول تخصيصه بالسلام عليه بين العالمين ، كما تقول : أحب فلاناً في الناس : أي أحبه خصوصاً من بين الناس ومعناه على القول الثاني : أن السلام عليه ثابت في العالمين ، وهذا الخلاف يجري حيث ما ذكر ذلك في هذه السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 168 . 172 ﴾

وقال النسفى :

﴿ والصافات صَفًّا فالزجرات زَجْراً فالتاليات ذِكْراً ﴾

أقسم سبحانه وتعالى بطوائف الملائكة ، أو بنفوسهم الصافات أقدامها في الصلاة .

فالزاجرات الحساب سوقاً أو عن المعاصي بالإلهام ، فالتاليات لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها وهو قول ابن عباس وابن مسعود ومجاهد ؛ أو بنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها في التهجد وسائر الصلوات ، فالزاجرات بالمواعظ والنصائح ، فالتاليات آيات الله والدارسات شرائعه .

أو بنفوس الغزاة في سبيل الله التي تصف الصفوف وتزجر الخيل للجهاد وتتلو الذكر مع ذلك .

و﴿ صَفًّا ﴾ مصدر مؤكد وكذلك ﴿ زَجْراً ﴾ والفاء تدل على ترتيب الصفات في التفاضل فتفيد الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة أو على العكس .

وجواب القسم ﴿ إِنَّ إلهكم لوَاحِدٌ ﴾ قيل : هو جواب قولهم ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها واحدا ﴾ [ص : 5 ] ﴿ ربُّ السماوات والأرض ﴾ خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف أي هو رب ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشارق ﴾ أي مطالع الشمس وهي ثلثمائة وستون مشرقاً ، وكذلك المغارب تشرق الشمس كل يوم في مشرق منها وتغرب في مغرب منها ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين .

وأما ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ [الرحمن : 17] فإنه أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما ، وأما ﴿ رَّبُّ المشرق والمغرب ﴾ [المزمل : 9] فإنه أراد به الجهة فالمشرق جهه والمغرب جهة .

(286/652)

---

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السمآءَ الدنيا ﴾ القربى منكم تأنيث الأدنى ﴿ بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ حفص وحمزة على البدل من ﴿ زينة ﴾ والمعنى إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب ، ﴿ بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ أبو بكر على البدل من محل ﴿ بزينة ﴾ أو على إضمار أعني أو على إعمال المصدر منوناً في المفعول ، ﴿ بِزِينَةِ الكواكب ﴾ غيرهم بإضافة المصدر إلى الفاعل أي بأن زانتها الكواكب وأصله بزينةٍ الكواكبُ أو على إضافته إلى المفعول أي بأن زان الله الكواكب وحسنها ، لأنها إنما زينت السماء لحسنها في أنفسها وأصله ﴿ بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ لقراءة أبي بكر ﴿ وَحِفْظاً ﴾ محمول على المعنى لأن المعنى إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً من الشياطين كما قال ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ [الملك : 5] أو الفعل المعلل مقدر كأنه قيل : وحفظاً من كل شيطان قد زيناها بالكواكب ، أو معناه حفظناها حفظاً ﴿ مِّن كُلِّ شيطان مَّارِدٍ ﴾ خارج من

الطاعة .

والضمير في ﴿ لاَ يَسَّمَّعُونَ ﴾ لكل شيطان لأنه في معنى الشياطين ، ﴿ يَسَّمَّعون ﴾ كوفي غير أبي بكر ، وأصله "يتسمعون" والتسمع تطلب السماع يقال : تسمع فسمع أو فلم يسمع .

وينبغي أن يكون كلاماً منقطعاً مبتدأ اقتصاصاً لما عليه حال المسترقة للسمع وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة أو يتسمعوا .

وقيل : أصله لئلا يسمعوا فحذفت اللام كما حذفت في "جئتك أن تكرمني" فبقي أن لا يسمعوا فحذفت أن وأهدر عملها كما في قوله :

> . . .

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى

وفيه تعسف يجب صون القرآن عن مثله ، فإن كل واحد من الحذفين غير مردود على انفراده ولكن اجتماعهما منكر .

والفرق بين "سمعت فلاناً" يتحدث و "سمعت إليه يتحدث" و "سمعت حديثه" و "إلى حديثه" ، أن المعدى بنفسه يفيد الإدراك ، والمعدى ب "إلى" يفيد الإصغاء مع الإدراك ﴿ إلى الملإ الأعلى ﴾ أي الملائكة لأنهم يسكنون السماوات ، والإنس والجن هم الملأ الأسفل لأنهم سكان الأرض ﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾ يرمون بالشهب ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ من جميع جوانب السماء من أي جهة صعدوا للإستراق ﴿ دُحُوراً ﴾ مفعول له أي ويقذفون للدحور وهو الطرد ، أو مدحورين على الحال ، أو لأن القذف والطرد متقاربان في المعنى فكأنه قيل : يدحرون أو قذفاً ﴿ وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ ﴾ دائم من الوصوب أي أنهم في الدنيا مرجومون بالشهب وقد أعد لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم غير منقطع .

و"من" في ﴿ إِلاَّ مَنْ ﴾ في محل الرفع بدل من الواو في ﴿ لا يسمعون ﴾ أي لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي ﴿ خَطِفَ الخطفة ﴾ أي سلب السلبة يعني أخذ شيئاً من كلامهم بسرعة ﴿ فَأَتْبَعَهُ ﴾ لحقه ﴿ شِهَابٌ ﴾ أي نجم رجم ﴿ ثَاقِبٌ ﴾ مضيء .

﴿ فاستفتهم ﴾ فاستخبر كفار مكة ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ أي أقوى خلقاً من قولهم شديد الخلق وفي خلقه شدة ، أو أصعب خلقاً وأشقه على معنى الرد لإنكارهم البعث ، وأن من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة ولم يصعب عليه اختراعها كان خلق البشر عليه أهون ﴿ أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴾ يريد ما ذكر من خلائقه من الملائكة والسماوات والأرض وما بينهما .

وجيء ب "من" تغليباً للعقلاء على غيرهم ويدل عليه قراءة من قرأ "أم من" عددنا بالتشديد والتخفيف .

(288/652)

---

﴿ إِنَّا خلقناهم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾ لاصق أو لازم وقرىء به ، وهذا شهادة عليهم بالضعف لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة ، أو احتجاج عليهم بأن الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله حيث قالوا أئذا كنا تراباً ؟ وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ من تكذيبهم إياك ﴿ وَيَسْخُرُونَ ﴾ هم منك ومن تعجبك ، أو عجبت من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث ، ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ حمزة وعلي أي استعظمت ، والعجب روعة تعتري الإنسان عند استعظام الشيء فجرد لمعنى الاستعظام في حقه تعالى لأنه لا يجوز عليه الروعة ، أو معناه قل يا محمد بل عجبتُ ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لاَ يَذْكُرُونَ ﴾ ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون به .

﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً ﴾ معجزة كانشقاق القمر ونحوه ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ يستدعي بعضهم بعضاً أن يسخر منها أو يبالغون في السخرية .

﴿ وَقَالُواْ إِن هذا ﴾ ما هذا ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر ﴿ أَءِذَا ﴾ استفهام إنكار ﴿ مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أي أنبعث إذا كنا تراباً وعظاماً ﴿ أَوَ آبَاؤُنَا ﴾ معطوف على محل "ان" واسمها ، أو على الضمير في ﴿ مَّبْعُوثُونَ ﴾ والمعنى أيبعث أيضاً آباؤنا على زيادة الاستبعاد يعنون أنهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل .

﴿ أَو آباؤنا ﴾ بسكون الواو : مدني و شامي أي أيبعث واحد منا على المبالغة في الإنكار ﴿ الأولون ﴾ الأقدمون ﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾ تبعثون ﴿ نِعْم ﴾ علي وهما لغتان ﴿ وَأَنتُمْ داخرون ﴾ صاغرون ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ ﴾ جواب شرط مقدر تقديره إذا كان كذلك فما هي إلا ﴿ زَجْرَةٌ واحدة ﴾ و "هي" لا ترجع إلى شيء إنما هي مبهمة موضحها خبرها ، ويجوز فإنما البعثة زجرة واحدة وهي النفخة الثانية .

(289/652)

---

والزجرة الصيحة من قولك زجر الراعي الإبل أو الغنم إذا صاح عليها ﴿ فإذاهم ﴾ أحياء بصراء ﴿ هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ إلى سوء أعمالهم أو ينتظرون ما يحل بهم ﴿ وَقَالُواْ ياويلنا ﴾ الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة ﴿ هذا يَوْمُ الدين ﴾ أي اليوم الذي ندان فيه أي نجازي بأعمالنا ﴿ هذا يَوْمُ الفصل ﴾ يوم القضاء والفرق بين فرق الهدى والضلال

﴿ الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ ثم يحتمل أن يكون ﴿ هذا يَوْمُ الدين ﴾ إلى قوله ﴿ احشروا ﴾ من كلام الكفرة بعضهم مع بعض ، وأن يكون من كلام الملائكة لهم ، وأن يكون ﴿ ياويلنا هذا يَوْمُ الدين ﴾ من كلام الكفرة و ﴿ هذا يَوْمُ الفصل ﴾ من كلام الملائكة جواباً لهم .

﴿ احشروا ﴾ خطاب الله للملائكة ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ كفروا ﴿ وأزواجهم ﴾ أي وأشباههم وقرناءهم من الشياطين أو نساءهم الكافرات ، والواو بمعنى "مع" وقيل : للعطف .

وقرىء بالرفع عطفاً على الضمير في ﴿ ظَلَمُواْ ﴾ ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ أي الأصنام ﴿ فاهدوهم ﴾ دلوهم ، عن الأصمعي : هديته في الدين هدىً وفي الطريق هداية ﴿ إلى صراط الجحيم ﴾ طريق النار ﴿ وَقِفُوهُمْ ﴾ احبسوهم ﴿ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾ عن أقوالهم وأفعالهم ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تناصرون ﴾ أي لا ينصر بعضكم بعضاً ، وهذا توبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعدما كانوا متناصرين في الدنيا .

وقيل : هو جواب لأبي جهل حيث قال يوم بدر نحن جميع منتصر ، وهو في موضع النصب على الحال أي ما لكم غير متناصرين ﴿ بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ منقادون أو قد أسلم بعضهم بعضاً وخذله عن عجز وكلهم مستسلم غير منتصر .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾ أي التابع على المتبوع ﴿ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ يتخاصمون ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي الأتباع للمتبوعين ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين ﴾ عن القوة والقهر إذ اليمين موصوفة بالقوة وبها يقع البطش أي أنكم كنتم تحولننا على الضلال وتقسروننا عليه .

﴿ قالوآ ﴾ أي الرؤساء ﴿ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي بل أبيتم أنتم الإيمان وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه مختارين له على الكفر غير ملجئين ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّن سلطان ﴾ تسلط نسلبكم به تمكنكم واختياركم ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طاغين ﴾ بل كنتم قوماً مختارين الطغيان ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا ﴾ فلزمنا جميعاً ﴿ قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾ يعني وعيد الله بأنا ذائقون لعذابه لا محالة لعلمه بحالنا ، ولو حكى الوعيد كما هو لقال إنكم لذائقون ولكنه عدل به إلى لفظ المتكلم لأنهم متكلمون بذلك عن أنفسهم ونحوه قوله

: فقد زعمت هوازن قل ما لي . . .

ولو حكى قولها لقال "قل مالك" ﴿ فأغويناكم ﴾ فدعوناكم إلى الغي ﴿ إِنَّا كُنَّا غاوين ﴾ فأردنا إغواءكم لتكونوا أمثالنا ﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ فإن الأتباع والمتبوعين جميعاً ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة ﴿ فِى العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ أي بالمشركين إنا مثل ذلك الفعل نفعل بكل مجرم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إله إِلاَّ الله يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ إنهم كانوا إذا سمعوا بكلمة التوحيد استكبروا وأبو إلا الشرك ﴿

وَيَقُولُونَ أَئِنَّا ﴾ بهمزتين : شامي وكوفي ﴿ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ بَلْ ﴾ يعنون محمداً عليه السلام ﴿ بَلْ جَاءَ بالحق ﴾ رد على المشركين ﴿ وَصَدَّقَ المرسلين ﴾ كقوله : ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [ البقرة : 97 ] .

(291/652)

---

﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا العذاب الأليم وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بلا زيادة ﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ بفتح اللام : كوفي ومدني ، وكذا ما بعده أي لكن عباد الله على الاستثناء المنقطع ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فواكه ﴾ فسر الرزق المعلوم بالفواكه وهي كل ما يتلذذ به ولا يتقوت لحفظ الصحة يعني أن رزقهم كله فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات لأن أجسادهم محكمة مخلوقة للأبد فما يأكلونه للتلذذ ، ويجوز أن يراد رزق معلوم منعوت بخصائص خلق عليها من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر .

وقيل : معلوم الوقت كقوله : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [ مريم : 62 ] والنفس إليه أسكن ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ منعمون ﴿ فِي جنات النعيم ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً وأن يكون حالاً وأن يكون خبراً بعد خبر ، وكذا ﴿ على سُرُرٍ متقابلين ﴾ التقابل أتم للسرور وآنس ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ ﴾ بغير همز : أبو عمرو وحمزة في الوقف ،

وغيرهما بالهمزة .

يقال للزجاجة فيها الخمر كأس وتسمى الخمر نفسها كأساً .

وعن الأخفش : كل كأس في القرآن فهي الخمر ، وكذا في تفسير ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ مِّن مَّعِينٍ ﴾ من شراب معين أو من نهر معين وهو الجاري على وجه الأرض الظاهر للعيون ، وصف بما وصف به الماء لأنه يجري في الجنة في أنهار كما يجري الماء قال الله تعالى : ﴿ وأنهار مِّنْ خَمْرٍ ﴾ [ محمد : 15 ] ﴿ بَيْضَآءَ ﴾ صفة للكأس ﴿ لَذَّةٍ ﴾ وصفت باللذة كأنها نفس اللذة وعينها أو ذات لذة ﴿ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ .

(292/652)

---

﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أي لا تغتال عقولهم كخمور الدنيا وهو من غاله يغوله غولاً إذا أهلكه وأفسده ﴿ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ يسكرون من نزف الشارب إذا ذهب عقله ويقال للسكران نزيف ومنزوف ، ﴿ يُنزِفُونَ ﴾ علي وحمزة أي لا يسكرون أو لا ينزِف شرابهم من أنزف الشارب إذا ذهب عقله أو شرابه ﴿ وَعِندَهُمْ قاصرات الطرف ﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمددن طرفاً إلى غيرهم ﴿ عِينٌ ﴾ جمع عيناء أي نجلاء واسعة العين ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ مصون شبههن ببيض النعام المكنون في الصفاء

وبها تشبه العرب النساء وتسميهن بيضات الخدور .

وعطف ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ ﴾ يعني أهل الجنة .

﴿ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ عطف على ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ والمعنى يشربون ويتحادثون على الشراب كعادة الشّرب قال :

وما بقيت من اللذات إلا . . .

أحاديث الكرام على المدام

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا إلا أنه جيء به ماضياً على ما عرف في أخباره .

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ يَقُولُ أَءِنَّكَ ﴾ بهمزتين : شامي وكوفي ﴿ لَمِنَ المصدقين ﴾ بيوم الدين ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ لمجزيون من الدين وهو الجزاء ﴿ قَالَ ﴾ ذلك القائل ﴿ هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴾ إلى النار لأريكم ذلك القرين قيل : إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار .

أو قال الله تعالى لأهل الجنة : هل أنتم مطلعون إلى النار فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار ﴿ فَأَطَّلَعَ ﴾ المسلم ﴿ فَرَءَاهُ ﴾ أي قرينة ﴿ فِى سَوَآءِ الجحيم ﴾ في وسطها ﴿ قَالَ تالله إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ "إن" مخففة من الثقيلة وهي تدخل على "كاد" كما تدخل على "كان" ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية والإرداء الإهلاك .

وبالياء في الحالين : يعقوب ﴿ وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّى ﴾ وهي العصمة والتوفيق في الاستمساك بعروة الإسلام ﴿ لَكُنتُ مِنَ المحضرين ﴾ من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأمثالك ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيّتِينَ إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأولى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ الفاء للعطف على محذوف تقديره أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين ، والمعنى أن هذه حال المؤمنين وهو أن لا يذوقوا إلا الموتة الأولى بخلاف الكفار فإنهم فيما يتمنون فيه الموت كل ساعة .

وقيل لحكيم : ما شر من الموت؟ قال : الذي يتمنى فيه الموت .

وهذا قول يقوله المؤمن تحدثاً بنعمة الله يسمع من قرينه ليكون توبيخاً له وزيادة تعذيب .

و ﴿ موتتنا ﴾ نصب على المصدر والاستثناء متصل تقديره ولا نموت إلا مرة ، أو منقطع وتقديره لكن الموتة الأولى قد كانت في الدنيا .

ثم قال لقرينه تقريعاً له ﴿ إِنَّ هذا ﴾ أي الأمر الذي نحن فيه ﴿ لَهُوَ الفوز العظيم ﴾ .

ثم قال الله عز وجل ﴿ لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾ وقيل : هو أيضاً من كلامه .

﴿ أذلك خَيْرٌ نُّزُلاً ﴾ تمييز ﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزقوم ﴾ أي نعيم الجنة وما فيها من اللذات

والطعام والشراب خير نزلاً أم شجرة الزقوم خير نزلاً ؟ والنزل ما يقام للنازل بالمكان من الرزق ، والزقوم : شجرة مر يكون بتهامة ﴿ إِنَّا جعلناها فِتْنَةً للظالمين ﴾ محنة وعذاباً لهم في الآخرة أو ابتلاء لهم في الدنيا ، وذلك أنهم قالوا : كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر فكذبوا ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الجحيم ﴾ قيل منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءوسُ الشياطين ﴾ الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها ، وشبه برءوس الشياطين للدلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر ، لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض .

(294/652)

---

وقيل : الشيطان حية عرفاء قبيحة المنظر هائلة جداً .

﴿ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا ﴾ من الشجرة أي من طلعها ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ فمالئون بطونهم لما يغلبهم من الجوع الشديد ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ على أكلها ﴿ لَشَوْباً ﴾ لخلطاً ولمزاجاً ﴿ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ ماء حار يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم كما قال في صفة شراب أهل الجنة ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ [ المطففين : 27 ] والمعنى ثم إنهم يملئون البطون من شجرة الزقوم وهو حار يحرق بطونهم ويعطشهم فلا يسقون إلا بعد مليء تعذيباً

لهم بذلك العطش ثم يسقون ما هو أحر وهو الشراب المشوب بالحميم.

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الجحيم ﴾ أي أنهم يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم في الجحيم وهي الدركات التي أسكنوها إلى شجرة الزقوم فيأكلون إلى أن يمتلئوا ويسقون بعد ذلك ثم يرجعون إلى دركاتهم، ومعنى التراخي في ذلك ظاهر ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ فَهُمْ على ءَاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد بتقليد الآباء في الدين واتباعهم إياهم في الضلال وترك اتباع الدليل.

والإهراع: الإسراع الشديد كأنهم يحثون حثاً ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ ﴾ قبل قومك قريش ﴿ أَكْثَرُ الأولين ﴾ يعني الأمم الخالية بالتقليد وترك النظر والتأمل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنذِرِينَ ﴾ أنبياء حذروهم العواقب ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ أي الذين أنذروا وحذروا أي أهلكوا جميعاً ﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ أي إلا الذين آمنوا منهم وأخلصوا لله دينهم أو أخلصهم الله لدينه على القراءتين.

ولما ذكر إرسال المنذرين في الأمم الخالية وسوء عاقبة المنذرين أتبع ذلك ذكر نوح ودعاءه إياه حين أيس من قومه بقوله ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ دعانا لننجيه من الغرق.

وقيل : أريد به قوله ﴿ أَنِّى مَغْلُوبٌ فانتصر ﴾ [ القمر : 10 ] ﴿ فَلَنِعْمَ المجيبون ﴾ اللام الداخلة على "نعم" جواب قسم محذوف ، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره ولقد نادانا نوح فوالله لنعم المجيبون نحن ، والجمع دليل العظمة والكبرياء .

والمعنى إنا أجبناه أحسن الإجابة ونصرناه على أعدائه وانتقمنا منهم بأبلغ ما يكون ﴿ ونجيناه وَأَهْلَهُ ﴾ ومن آمن به وأولاده ﴿ مِنَ الكرب العظيم ﴾ وهو الغرق ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ وقد فنى غيرهم .

قال قتادة : الناس كلهم من ذرية نوح وكان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد : سام وهو أبو العرب وفارس والروم ، وحام وهو أبو السودان من المشرق إلى المغرب ، ويافث وهو أبو الترك ويأجوج ومأجوج .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخرين ﴾ من الأمم هذه الكلمة وهي ﴿ سلام على نُوحٍ ﴾ يعني يسلمون عليه تسليماً ويدعون له وهو من الكلام المحكي كقولك "قرأت سورة أنزلناها" ﴿ فِى العالمين ﴾ أي ثبت هذه التحية فيهم جميعاً ولا يخلو أحد منهم منها كأنه قيل : ثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين يسلمون عليه عن آخرهم ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ علل مجازاته بتلك التكرمة السنية بأنه كان محسناً ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً ليريك جلالة محل الإيمان وأنه القصارى من

صفات المدح والتعظيم ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الأخرين ﴾ أي الكافرين. انتهى انتهى. اهـ

﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 23.16 ﴾

(296/652)

---

وقال البيضاوى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والصافات صَفًّا * فالزجرات زَجْراً * فالتاليات ذِكْراً ﴾ أقسم بالملائكة الصافين في مقام العبودية، على مراتب باعتبارها تفيض عليهم الأنوار الإلهية، منتظرين لأمر الله الزاجرين الأجرام العلوية والسفلية بالتدبير المأمور به فيها، أو الناس عن المعاصي بإلهام الخير، أو الشياطين عن التعرض لهم التالين آيات الله وجلايا قدسه على أنبيائه وأوليائه، أو بطوائف الأجرام المرتبة كالصفوف المرصوصة والأرواح المدبرة لها والجواهر القدسية المستغرقة في بحار القدس ﴿ يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ أو بنفوس العلماء الصافين في العبادات الزاجرين عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح التالين آيات الله وشرائعه، أو بنفوس الغزاة الصافين في الجهاد الزاجرين الخيل، أو العدو التالين ذكر الله لا يشغلهم عنه مباراة العدو والعطف لاختلاف الذوات، أو الصفات والفاء لترتيب الوجود

كقوله

:

يا لهف زيابة للحارث الص . . . ابح فالغانم فالآيب

فإن الصف كمال والزجر تكميل بالمنع عن الشر ، أو الإشاقة إلى قبول الخير والتلاوة إفاضته أو الرتبة كقوله عليه الصلاة والسلام " رحم الله المحلقين فالمقصرين " غير أنه لفضل المتقدم على المتأخر وهذا للعكس ، وأدغم أبو عمرو وحمزة التاءات فيما يليها لتقاربها فإنها من طرف اللسان وأصول الثنايا .

﴿ إِنَّ إِلَهكم لَوَاحِدٌ ﴾ جواب للقسم والفائدة فيه تعظيم المقسم به وتأكيد المقسم عليه على ما هو المألوف في كلامهم ، وأما تحقيقه فبقوله تعالى .



---

﴿ رَبُّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشارق ﴾ فإن وجودها وانتظامها على الوجه الأكمل مع إمكان غيره دليل على وجود الصانع الحكيم ووحدته على ما مر غير مرة ، ﴿ وَرَبُّ ﴾ بدل من واحد أو خبر ثان أو خبر محذوف وما بينهما يتناول أفعال العباد فيدل على أنها من خلقه ، و ﴿ المشارق ﴾ مشارق الكواكب أو مشارق الشمس في

السنة وهي ثلاثمائة وستون مشرقاً ، تشرق كل يوم في واحد وبحسبها تختلف المغارب ، ولذلك اكتفى بذكرها مع أن الشروق أدل على القدرة وأبلغ في النعمة ، وما قيل إنها مائة وثمانون إنما يصح لو لم تختلف أوقات الانتقال .

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السماء الدنيا ﴾ القربى منكم . ﴿ بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ بزينة هي ﴿ الكواكب ﴾ والإضافة للبيان ، ويعضده قراءة حمزة ويعقوب وحفص بتنوين "زينة" وجر ﴿ الكواكب ﴾ على إبدالها منه ، أو بزينة هي لها كأضوائها وأوضاعها ، أو بأن زينا ﴿ الكواكب ﴾ فيها على إضافة المصدر إلى المفعول فإنها كما جاءت اسماً كالليقة جاءت مصدراً كالنسبة ويؤيده قراءة أبي بكر بالتنوين ، والنصب على الأصل أو بأن زينتها ﴿ الكواكب ﴾ على إضافته إلى الفاعل وركوز الثوابت في الكرة الثامنة وما عدا القمر من السيارات في الست المتوسطة بينها وبين السماء الدنيا أن تحقق لم يقدح في ذلك ، فإن أهل الأرض يرونها بأسرها كجواهر مشرقة متلألئة على سطحها الأزرق بأشكال مختلفة .

﴿ وَحِفْظاً ﴾ منصوب بإضمار فعله ، أو العطف على "زينة" باعتبار المعنى كأنه قال إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء الدنيا وحفظاً . ﴿ مِّن كُلِّ شيطان مَّارِدٍ ﴾ خارج من الطاعة برمي الشهب .

﴿ لاَّ يَسَّمَّعُونَ إلى الملإ الأعلى ﴾ كلام مبتدأ لبيان حالهم بعد ما حفظ السماء عنهم ،

ولا يجوز جعله صفة لكل شيطان فإنه يقتضي أن يكون الحفظ من شياطين لا يسمعون ، ولا علة للحفظ على حذف اللام كما في جئتك أن تكرمني ثم حذف أن وأهدرها كقوله :

(298/652)

---

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى . . . فإن اجتماع ذلك منكر والضمير ل ﴿ كُلِّ ﴾ باعتبار المعنى ، وتعدية السماع بإلى لتضمنه معنى الإِصغاء مبالغة لنفيه وتهويلاً لما يمنعهم عنه ، ويدل عليه قراءة حمزة والكسائي "وحفص" بالتشديد من التسمع وهو طلب السماع و﴿ الملأ الأعلى ﴾ الملائكة وأشرافهم . ﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾ ويرمون . ﴿ مِن كُلّ جَانِبٍ ﴾ من جوانب السماء إذا قصدوا صعوده .

﴿ دُحُوراً ﴾ علة أي للدحور وهو الطرد أو مصدر لأنه والقذف متقاربان ، أو حال بمعنى مدحورين أو منزوع عنه الباء جمع دحر ، وهو ما يطرد به ويقويه القراءة بالفتح وهو يحتمل أيضاً أن يكون مصدراً كالقبول أو صفة له أي قذفاً دحوراً . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ ﴾ أي عذاب آخر . ﴿ وَاصِبٌ ﴾ دائم أو شديد وهو عذاب الآخرة .

(299/652)

﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الخطفة ﴾ استثناء من واو ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ ومن بدل منه ، والخطف الاختلاس والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقة ولذلك عرف الخطفة ، وقرىء "خَطِفَ " بالتشديد مفتوح الخاء ومكسروها وأصلهما اختطف . ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ﴾ أتبع بمعنى تبع ، والشهاب ما يرى كأن كوكباً انقض ، وما قيل إنه بخار يصعد إلى الأثير فيشتعل فتخمين إن صح لم يناف ذلك إذ ليس فيه ما يدل على أنه ينقض من الفلك ولا في قوله ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ فإن كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصباح لأهل الأرض وزينة للسماء من حيث إنه يرى كأنه على سطحه ، ولا يبعد أن يصير الحادث كما ذكر في بعض الأوقات رجماً لشياطين تتصعد إلى قرب الفلك للتسمع ، وما روي أن ذلك حدث بميلاد النبي عليه الصلاة والسلام إن صح فلعل المراد كثرة وقوعه ، أو مصيره ﴿ دُحُوراً ﴾ . واختلف في أن المرجوم يتأذى به فيرجع أو يحترق به لكن قد يصيب الصاعد مرة وقد لا يصيب كالموج لراكب السفينة ولذلك لا يرتدعون عنه رأساً ، ولا يقال إن الشيطان من النار فلا يحترق ، لأنه ليس من النار الصرف كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة استهلكتها .

﴿ ثَاقِبٌ ﴾ مضيء كأنه يثقب الجو بضوئه .

﴿ فاستفتهم ﴾ فاستخبرهم والضمير لمشركي مكة أو لبني آدم. ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴾ يعني ما ذكر من الملائكة والسماء والأرض وما بينهما والمشارق والكواكب والشهب الثواقب، و﴿ مِنْ ﴾ لتغليب العقلاء ويدل عليه إطلاقه ومجيئه بعد ذلك، وقراءة من قرأ "أم من عددنا"، وقوله: ﴿ إِنَّا خلقناهم مّن طِينٍ لاَّزِبِ ﴾ فإنه الفارق بينهم وبينها لا بينهم وبين من قبلهم كعاد وثمود، وإن المراد إثبات المعاد ورد استحالته والأمر فيه بالإضافة إليهم وإلى من قبلهم سواء، وتقريره أن استحالة ذلك إما لعدم قابلية المادة ومادتهم الأصلية هي الطين اللازب الحاصل من ضم الجزء المائي إلى الجزء الأرضي وهما باقيان قابلان للانضمام بعد، وقد علموا أن الإنسان الأول إنما تولد منه إما لاعترافهم بحدوث العالم أو بقصة آدم وشاهدوا تولد كثير من الحيوانات منه بلا توسط مواقعة، فلزمهم أن يجوزوا إعادتهم كذلك، وإما لعدم قدرة الفاعل ومن قدر على خلق هذه الأشياء قدر على ما لا يعتد به بالإضافة إليها سيما ومن ذلك بدؤهم أولاً وقدرته ذاتية لا تتغير.

﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ من قدرة الله تعالى وإنكارهم للبعث. ﴿ وَيَسْخُرُونَ ﴾ من تعجبك

وتقريرك للبعث ، وقرأ حمزة والكسائي بضم التاء أي بلغ كمال قدرتي وكثرة خلائقي أن تعجبت منها ، وهؤلاء لجهلهم يسخرون منها . أو عجبت من أن ينكر البعث ممن هذه أفعاله وهم يسخرون ممن يجوزه . والعجب من الله تعالى إما على الفرض والتخييل أو على معنى الاستعظام اللازم له فإنه روعة تعتري الإنسان عند استعظامه الشيء ، وقيل إنه مقدر بالقول أي : قال يا محمد بل عجبت .

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ وإذا وعظوا بشيء لا يتعظون به ، أو إذا ذكر لهم ما يدل على صحة الحشر لا ينتفعون به لبلادتهم وقلة فكرهم .

(301/652)

---

﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً ﴾ معجزة تدل على صدق القائل به . ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ يبالغون في السخرية ويقولون إنه سحر ، أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها .

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هذا ﴾ يعنون ما يرونه . ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر سحريته .

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وعظاما أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أصله انبعث إذا متنا فبدلوا الفعلية بالاسمية وقدموا الظرف وكرروا الهمزة مبالغة في الإنكار ، وإشعاراً بأن البعث مستنكر في نفسه وفي هذه الحالة أشد استنكاراً ، فهو أبلغ من قراءة ابن عامر بطرح الهمزة الأولى

وقراءة نافع والكسائي ويعقوب بطرح الثانية .

﴿ أَوَءَابَاؤُنَا الأولون ﴾ عطف على محل ﴿ إن ﴾ واسمها ، أو على الضمير في "مبعوثون" فإنه مفصول منه بهمزة الاستفهام لزيادة الاستبعاد لبعد زمانهم ، وسكن نافع برواية قالون بن عامر والواو على معنى الترديد .

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ داخرون ﴾ صاغرون ، وإنما اكتفى به في الجواب لسبق ما يدل على جوازه وقيام المعجز على صدق المخبر عن وقوعه ، وقرىء "قال" أي الله أو الرسول وقرأ الكسائي وحده "نِعَمَ" بالكسر وهو لغة فيه .

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ واحدة ﴾ جواب شرط مقدر أي إذا كان ذلك فإنما البعثة ﴿ زَجْرَةٌ ﴾ أي صيحة واحدة ، وهي النفخة الثانية من زجر الراعي غنمه إذا صاح عليها وأمرها في الإعادة كأمر ﴿ كُنْ ﴾ في الإبداء ولذلك رتب عليها . ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ فإذا هم قيام من مراقدهم أحياء يبصرون ، أو ينتظرون ما يفعل بهم .

﴿ وَقَالُواْ يا ويلنا هذا يَوْمُ الدين ﴾ اليوم الذي نجازى بأعمالنا وقد تم به كلامهم وقوله : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل الذى كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ جواب الملائكة ، وقيل هو أيضاً من كلام بعضهم لبعض والفصل القضاء ، أو الفرق بين المحسن والمسيء .

﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ ﴾ أمر الله للملائكة، أو أمر بعضهم لبعض بحشر الظلمة من مقامهم إلى الموقف. وقيل منه إلى الجحيم. ﴿ وأزواجهم ﴾ وأشباههم عابد الصنم مع عبدة الصنم وعابد الكوكب مع عبدته كقوله تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثلاثة ﴾ أو نساءهم اللاتي على دينهم أو قرناءهم من الشياطين. ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ من الأصنام وغيرها زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم، وهو عام مخصوص بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مّنَّا الحسنى ﴾ الآية، وفيه دليل على أن ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ هم المشركون. ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ فعرفوهم طريقاً ليسلكوها.

﴿ وَقِفُوهُمْ ﴾ احبسوهم في الموقف. ﴿ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾ عن عقائدهم وأعمالهم والواو لا توجب الترتيب مع جواز أن يكون موقفهم متعدداً.

﴿ مَا لَكُمْ لاَ تناصرون ﴾ لا ينصر بعضكم بعضاً بالتخليص، وهو توبيخ وتقريع.

﴿ بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ منقادون لعجزهم وانسداد الحيل عليهم، وأصل الاستسلام طلب السلامة أو متسالمون كأنه يسلم بعضهم بعضاً ويخذله.

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾ يعني الرؤوساء والأتباع أو الكفرة والقرناء. ﴿ يَتَسَاءلُونَ ﴾ يسأل بعضهم بعضاً للتوبيخ ولذلك فسر ب ﴿ يتخاصمون ﴾.

﴿ قَالُواْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين ﴾ عن أقوى الوجوه وأيمنها، أو عن الدين أو عن الخير

كأنكم تنفعوننا نفع السانح فتبعناكم وهلكنا ، مستعار من يمين الإِنسان الذي هو أقوى الجانبين وأشرفهما وأنفعهما ولذلك سمي يميناً وتيمن بالسانح ، أو عن القوة والقهر فتقسروننا على الضلال ، أو على الحلف فإنهم كانوا يحلفون لهم إنهم على الحق .

﴿ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

(303/652)

---

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سلطان بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طاغين ﴾ أجابهم الرؤساء أولاً بمنع إضلالهم بأنهم كانوا ضالين في أنفسهم ، وثانياً بأنهم ما أجبروهم على الكفر إذ لم يكن لهم عليهم تسلط وإنما جنحوا إليه لأنهم كانوا قوماً مختارين الطغيان .

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ .

﴿ فأغويناكم إِنَّا كُنَّا غاوين ﴾ ثم بينوا أن ضلال الفريقين ووقوعهم في العذاب كان أمراً مقضياً لا محيص لهم عنه ، وإن غاية ما فعلوا بهم أنهم دعوهم إلى الغي لأنهم كانوا على الغي فأحبوا أن يكونوا مثلهم ، وفيه إيماء بأن غوايتهم في الحقيقة ليست من قبلهم إذ لو كان كل غواية لإِغواء غاو فمن أغواهم .

﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ فإن الأتباع والمتبوعين . ﴿ يَوْمَئِذٍ فِى العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ كما كانوا

مشتركين في الغواية .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ مثل ذلك الفعل . ﴿ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ بالمشركين لقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إله إِلاَّ الله يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي عن كلمة التوحيد ، أو على من يدعوهم إليه .

﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوءِالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ يعنون محمداً عليه الصلاة والسلام .

﴿ بَلْ جَاءَ بالحق وَصَدَّقَ المرسلين ﴾ رد عليهم بأن ما جاء به من التوحيد حق قام به البرهان وتطابق عليه المرسلون .

﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا العذاب الأليم ﴾ بالإِشراك وتكذيب الرسل ، وقرىء بنصب "العذاب" ، على تقرير النون كقوله

:

وَلاَ ذَاكِرُ الله إِلاَّ قَلِيلاً . . . وهو ضعيف في غير المحلى باللام وعلى الأصل .

﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ إلا مثل ما عملتم .

﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ استثناء منقطع إلا أن يكون الضمير في ﴿ تُجْزَوْنَ ﴾ لجميع المكلفين فيكون استثناؤهم عنه باعتبار المماثلة ، فإن ثوابهم مضاعف والمنقطع أيضاً بهذا الاعتبار .

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ خصائصه من الدوام ، أو تمحض اللذة ولذلك فسره بقوله :

﴿ فواكه ﴾ فإن الفاكهة ما يقصد للتلذذ دون التغذي والقوت بالعكس ، وأهل الجنة لما أعيدوا على خلقة محكمة محفوظة عن التحلل كانت أرزاقهم فواكه خالصة . ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ في نيله يصل إليهم من غير تعب وسؤال كما عليه رزق الدنيا .

﴿ فِي جنات النعيم ﴾ في جنات ليس فيها إلا النعيم ، وهو ظرف أو حال من المستكن في ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ ، أو خبر ثان ﴿ لأولئك ﴾ وكذلك :

﴿ على سُرُرٍ ﴾ يحتمل الحال أو الخبر فيكون : ﴿ متقابلين ﴾ حالاً من المستكن فيه أو في ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ ، وأن يتعلق ب ﴿ متقابلين ﴾ فيكون حالاً من ضمير ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ .

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ ﴾ بإناء فيه خمر أو خمر كقوله :

وَكَأْسٌ شُرِبَتْ عَلَى لَذَّةٍ . . . ﴿ مِّن مَّعِينٍ ﴾ من شراب معين أو نهر معين أي ظاهر للعيون ، أو خارج من العيون وهو صفة للماء من عان الماء إذا نبع . وصف به خمر الجنة لأنها تجري كالماء ، أو للإشعار بأن ما يكون لهم بمنزلة الشراب جامع لما يطلب من أنواع الأشربة لكمال اللذة ، وكذلك قوله :

﴿ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ للشاربين ﴾ وهما أيضاً صفتان لكأس ، ووصفها ب ﴿ لَذَّةٍ ﴾ إما

للمبالغة أو لأنها تأنيث لذ بمعنى لذيذ كطب ووزنه فعل قال :

وَلَذٍّ كَطَعْمِ الصَرخديّ تَرَكْتُه . . . بأَرْضِ العِدَا مِنْ خَشْيَةِ الحَدَثَانِ

﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ غائلة كما في خمر الدنيا كالخمار من غاله يغوله إذا أفسده ومنه الغول .

﴿ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ يسكرون من نزف الشارب فهو نزيف ومنزوف إذا ذهب عقله ، أفرده بالنفي وعطفه على ما يعمه لأنه من عظم فساده كأنه جنس برأسه ، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي وتابعهما عاصم في "الواقعة" من أنزف الشارب إذا نفد عقله أو شرابه ، وأصله للنفاد يقال نزف المطعون إذا خرج دمه كله ونزحت الركية حتى نزفتها .



---

﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف ﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن . ﴿ عِينٌ ﴾ نجل العيون جمع عيناء .

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ شبههن ببيض النعام المصون عن الغبار ونحوه في الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة فإنه أحسن ألوان الأبدان .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ معطوف على ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي يشربون فيتحادثون على الشراب قال :

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَّاتِ إلا . . . أَحَادِيثُ الكِرَامِ عَلَى المُدَامِ

والتعبير عنه بالماضي للتأكيد فيه فإنه ألذ تلك اللذات إلى العقل ، وتساؤلهم عن المعارف والفضائل وما جرى لهم وعليهم في الدنيا .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ في مكالمتهم . ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ جليس في الدنيا . . .

﴿ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ المصدقين ﴾ يوبخني على التصديق بالبعث ، وقرىء بتشديد الصاد من التصدق .

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ لمجزيون من الدين بمعنى الجزاء .

﴿ قَالَ ﴾ أي ذلك القائل . ﴿ هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴾ إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين ، وقيل القائل هو الله سبحانه وتعالى أو بعض الملائكة يقول لهم : هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم ؟ وعن أبي عمرو "مُّطَّلِعُونَ فَأَطَّلَعَ" بالتخفيف وكسر النون وضم الألف على أنه جعل اطلاعهم سبب اطلاعه من حيث أن أدب المجالسة يمنع الاستبداد به ، أو خاطب الملائكة على وضع المتصل موضع المنفصل كقوله :

هُمُ الآمِرُونَ الخَيْرَ وَالفَاعِلُونَهُ . . . أو شبه اسم الفاعل بالمضارع .

﴿ فَأَطَّلَعَ ﴾ عليهم . ﴿ فَرَءَاهُ ﴾ أي قرينه . ﴿ فِى سَوَاءِ الجحيم ﴾ وسطه .

﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ لتهلكني بالإِغواء ، وقرىء "لتغوين" و﴿ إِن ﴾ هي المخففة واللام هي الفارقة .

(306/652)

---

﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي ﴾ بالهداية والعصمة . ﴿ لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ معك فيها .

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ عطف على محذوف أي أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ، أي بمن شأنه الموت وقرىء "بمائتين" .

﴿ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى ﴾ التي كانت في الدنيا وهي متناولة لما في القبر بعد الإِحياء للسؤال ، ونصبها على المصدر من اسم الفاعل . وقيل على الاستثناء المنقطع . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ كالكفار ، وذلك تمام كلامه لقرينه تقريعاً له أو معاودة إلى مكالمة جلسائه تحدثاً بنعمة الله ، أو تبجحاً بها وتعجباً منها وتعريضاً للقرين بالتوبيخ .

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ يحتمل أن يكون من كلامهم وأن يكون كلام الله سبحانه وتعالى لتقرير قوله والإِشارة إلى ما هم عليه من النعمة والخلود والأمن من العذاب .

﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ أي لنيل مثل هذا يجب أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية المشوبة بالآلام السريعة الانصرام ، وهو أيضاً يحتمل الأمرين .

﴿ أذلك خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزقوم ﴾ شجرة ثمرها نزل أهل النار ، وانتصاب ﴿ نُزُلاً ﴾ على التمييز أو الحال وفي ذكره دلالة على أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يقال للنازل ولهم وراء ذلك ما تقصر عنه الأفهام ، وكذلك الزقوم لأهل النار ، وهو : اسم شجرة صغيرة الورق ذفرة مرة تكون بتهامة سميت به الشجرة الموصوفة .

﴿ إِنَّا جعلناها فِتْنَةً للظالمين ﴾ محنة وعذاباً لهم في الآخرة ، أو ابتلاء في الدنيا فإنهم لما سمعوا أنها في النار قالوا كيف ذلك والنار تحرق الشجر ، ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش في النار ويلتذ بها فهو أقدر على خلق الشجرة في النار وحفظه من الإِحراق .

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الجحيم ﴾ منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها .

(307/652)

---

﴿ طَلْعِهَا ﴾ حملها مستعار من طلع التمر لمشاركته إياه في الشكل ، أو الطلوع من الشجر . ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشياطين ﴾ في تناهي القبح والهول ، وهو تشبيه بالمتخيل كتشبيه الفائق الحسن بالملك . وقيل ﴿ الشياطين ﴾ حيات هائلة قبيحة المنظر لها أعراف ، ولعلها سميت بها لذلك .

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا ﴾ من الشجرة أو من طلعها . ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ لغلبة الجوع أو الجبر على أكلها .

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ أي بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش وطال استسقاؤهم ، ويجوز أن يكون ثم لما في شرابهم من مزيد الكراهة والبشاعة . ﴿ لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ لشراباً من غساق ، أو صديد مشوباً بماء حميم يقطع أمعاءهم ، وقرىء بالضم وهو اسم ما يشاب به والأول مصدر سمي به .

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ ﴾ مصيرهم . ﴿ لإِلَى الجحيم ﴾ إلى دركاتها أو إلى نفسها ، فإن الزقوم والحميم نزل يقدم إليهم قبل دخولهم ، وقيل الحميم خارج عنها لقوله تعالى : ﴿ هذه جَهَنَّمُ التى يُكَذّبُ بِهَا المجرمون يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ يوردون إليه كما تورد الإِبل إلى الماء ثم يردون إلى الجحيم ، ويؤيده أنه قرىء "ثم إن منقلبهم" .

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَاءهُمْ ضَالّينَ فَهُمْ على ءاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ تعليل لاستحقاقهم تلك الشدائد بتقليد الآباء في الضلال ، والإِهراع : الإِسراع الشديد كأنهم يزعجون على الإِسراع على ﴿ آثارهم ﴾ ، وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى ذلك من غير توقف على نظر وبحث .

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ ﴾ قبل قومك . ﴿ أَكْثَرُ الأولين ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنذِرِينَ ﴾ أنبياء أنذروهم من العواقب .

﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ من الشدة والفظاعة .

(308/652)

---

﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ إلا الذين تنبهوا بإنذارهم فأخلصوا دينهم لله ، وقرىء بالفتح أي الذين أخلصهم الله لدينه والخطاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمقصود خطاب قومه فإنهم أيضاً سمعوا أخبارهم ورأوا آثارهم .

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ شروع في تفصيل القصص بعد إجمالها ، أي ولقد دعانا حين أيس من قومه . ﴿ فَلَنِعْمَ المجيبون ﴾ أي فأجبناه أحسن الإجابة فوالله لنعم المجيبون نحن ، فحذف منها ما حذف لقيام ما يدل عليه .

﴿ ونجيناه وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ من الغرق أو أذى قومه .

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ إذ هلك من عداهم وبقوا متناسلين إلى يوم القيامة ، إذ روي أنه مات كل من كان معه في السفينة غير بنيه وأزواجهم .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الأخرين ﴾ من الأمم .

﴿ سلام على نُوحٍ ﴾ هذا الكلام جيء به على الحكاية والمعنى يسلمون عليه تسليماً .

وقيل هو سلام من الله عليه ومفعول ﴿ تَرَكْنَا ﴾ محذوف مثل الثناء . ﴿ فِى العالمين ﴾ متعلق بالجار والمجرور ومعناه الدعاء بثبوت هذه التحية في الملائكة والثقلين جميعاً .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ تعليل لما فعل بنوح من التكرمة بأنه مجازاة له على إحسانه .

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ تعليل لإحسانه بالإيمان إظهاراً لجلالة قدره وأصالة أمره .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين ﴾ يعني كفار قومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 17.3 ﴾

(309/652)

---

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) ﴾

(310/652)

---

التفسير : إنه سبحانه بدأ في أوّل هذه السورة بالتوحيد كما ختم السورة المتقدمة بذكر المعاد وأقسم على المطلوب بثلاثة أشياء ، أما الحكمة في القسم فكما مرّ في أول سورة يس ، وأما الإقسام بغير الله وصفاته فلا نسلم أنه لا يجوز لله سبحانه ، أو هو على عادة العرب ، أو المراد تعظيم هذه الأشياء وتشريفها ، أو المراد رب هذه الأشياء فحذف المضاف . قال الواحدي : إدغام التاء في الصاد حسن وكذا التاء في الزاي وفي الذال لتقارب مخارجها ، الا ترى أن التاء والصاد هما من طرف اللسان وأوصل الثنايا ويجتمعان في الهمس ، والمدغم فيه يزيد على المدغم في الإطباق والصفير وإدغام الأنقص في الأزيد حسن ؟ وايضاً الزاي مجهورة وفيها زيادة صفير . ثم المقسم بها في الآيات إما أن تكون صفات ثلاثاً لموصوف واحد أو صفات لموصوفات متباينة . وأما التقدير الأوّل ففيه وجوه الأوّل : أنها صفة الملائكة لأنهم صفوف في السماء كصفوف المصلين في الأرض ، أو أنهم يصفون أجنحتهم في الهواء واقفين منتظرين لأمر الله تعالى . والصف ترتيب الشيء على نسق . الفاعل صاف ، والجماعة صافة ، والصافات جمع الجمع ولولا ذلك لقيل والصافين . قال الحكيم : يشبه أن يكون معنى كونهم صفوفاً أن لكل منهم مرتبة معينة في الشرف أو بالغلبة . والزجر سوق السحاب . قال ابن عباس : يعني الملائكة الموكلين بالسحاب . وقال آخرون : أراد زجرهم الناس عن المعاصي بالخواطر والإلهامات ، أو بدفع تعرض الشياطين عن بني آدم . والتاليات الذين يتلون كتاب الله على الأنبياء . والحاصل أن كونهم

صافين إشارة إلى استكمال جواهر الملائكة في ذواتها أعني وقوفهم في مواقف العبودية والطاعة ، وكونهم زاجرين إشارة إلى كيفية تأثيراتها في إزالة ما لا ينبغي من جواهر الأرواح البشرية ، وكونهم تالين إشارة إلى كيفية تأثيراتها في إفاضة الجلايا القدسية والأنوار الإلهية على الأرواح الإنسانية . الوجه الثاني أنها صفات النفوس الإنسانية

(311/652)

---

المقبلة على عبودية الله وعبادته وهم ملائكة الأرض ، أقسم بنفوس المصلين بالجماعات الزاجرين أنفسهم عن الشهوات أو عن إلقاء وساوس الشيطان في قلوبهم أثناء الصلوات بتقديم الاستعاذة أو برفع الأصوات ، التالين للقرآن في الصلاة وغيرها . أو أقسم بنفوس العلماء الصافات لأجل الدعوة إلى دين الله الزاجرات عن الشبهات والمنهيات بالمواعظ والنصائح الدارسات شرائع الله وكتبه لوجه الله ، أو أقسم بنفوس المجاهدين في سبيل الله كقوله ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ [ الصف : 4 ] والزجرة والصيحة سواء . والمراد رفع الصوت بزجر الخيل . وأما التاليات فذلك أنهم يشتغلون وقت المحاربة بقراءة القرآن وذكر الله . يحكى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يخرج من الصف وسيفه ينطف دماً فإذا رقى ربوة يأتي بالخطبة الغراء . الوجه الثالث أنها صفات

آيات القرآن وذلك أنها أنواع مختلفة بعضها دلائل التوحيد ، وبعضها دلائل العلم والقدرة ، وبعضها دلائل النبوة ، وبعضها دلائل المعاد ، وبعضها بيان التكاليف والأحكام ، وبعضها تعليم الأخلاق الفاضلة ، وكلها مترتبة ترتيباً لا يتغير ولا يتبدل فكأنها أجرام واقفة في صفوف معينة ، ولا ريب أنها تزجر المكلفين عن المناهي والمنكرات .

وأما نسبة التلاوة إليهن فمجاز كما يقال : شعر شاعر . والفاء في هذه الوجوه لترتب الصفات في الفضل فالفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة أو بالعكس فلكل وجه . ويحتمل وإن لم يذكره جار الله أن تكون لترتيب معانيها في الوجود كقوله :

الصابح فالغانم فالآيب . . . كأنه قال : الذي صبح فغنم فآب . مثاله المصلون يقفون أوّلاً صفوفاً ثم يزجرون الوساوس عنهم بالاستعاذة ثم يشتغلون بالقراءة .



---

وأما التقدير الثاني وهو أن يكون المراد بهذه الأمور الثلاثة موصوفات متغايرة ؛ فالصافات الطير من قوله ﴿ والطير صافات ﴾ [ النور : 41 ] والزاجرات كل ما زجر عن معاصي الله ، والتاليات كل من تلا كتاب الله . أو الصافات طائفة من الملائكة أو من الأشخاص الإنسانية ، وكل من الزاجرات والتاليات طائفة أخرى . وقيل : الصافات العالم الجسماني

المنضود كرة فوق كرة من الأرض إلى الفلك الأعظم ، والزاجرات الأرواح المدبرة للأجسام بالتحريك والتصريف ، والتاليات الأرواح المستغرقة في بحار معرفة الله تعالى والثناء عليه . والفاء على هذه المعاني لترتب الموصوفات في الفضل . ثم إنه سبحانه لو يقتصر في إثبات التوحيد على الحلف ولكنه عقبه بالدليل الباهر فقال ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ﴾ فلكل كوكب مشرق ومغرب بل للشمس ولسائر السيارات وللثوابت في كل يوم مشرق آخر بحسب تباعدها عن منطقة المعدل وتقاربها منها . وإنما اقتصر على ذكر المشارق لشرفها ولدلالتها على البغارب كقوله ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [ النحل : 81 ] . ثم بين أنه جعل الكواكب بحيث يشاهدها الناس من السماء الدنيا وهي تأنيث الأدنى لمنفعتين : الأولى تحصيل الزينة ، والثانية الحفظ من الشيطان . والزنية مصدر كالنسبة أو اسم لما يزان به الشيء كالليقة لما تلاق به الدواة . ثم قرأ بالإضافة فلها وجوه : أن يكون مصدراً مضافاً إلى الفاعل أي بأن زانتها الكواكب وإلى المفعول أي بأن زان الله تعالى الكواكب وحسنها في أنفسها ، فإن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها ، وكذا أشكالها المختلفة كشكل الثريا وبنات النعش والجوزاء وسائر الصور المتوهمة من الخطوط التي تنظم طائفة منها ، وقد ترتقي إلى نيف وأربعين منها صور البروج الاثني عشر .

وبالجملة إشراق الجواهر الزواهر وتلألؤها على بسيط أزرق بنظام مخصوص مما يروق الناظر ، ويجوز أن يقع ﴿ الكواكب ﴾ بياناً للزينة وهي اسم لأن الزينة مبهمة في

الكواكب وغيرها مما يزان به فيكون كخاتم فضة. ويجوز أن يراد بالزينة ما زينت به الكواكب كما روي عن ابن عباس أنه فسر الزينة بالضوء. ومن قرأ با تنوين ﴿ زينة ﴾ وجر ﴿ الكواكب ﴾ فعلى الإبدال، ومن قرأ بتنوين ﴿ زينة ﴾ ونصب ﴿ الكواكب ﴾ فعلى أنه بدل من محل ﴿ بزينة ﴾ أو من السماء، أو على أن المراد بتزيينها الكواكب كما في أحد وجوه الإضافة.



قوله ﴿ وحفظاً ﴾ فيه وجوه أحدها : أنه محمول على المعنى والتقدير : إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً من الشياطين. وثانيها أن يقدر مثل الفعل المتقدم للتعليل كأنه قيل : وحفظاً من كل شيطان زيناها بالكواكب. وثالثها قال المبرد : إذا ذكرت فعلاً ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لأنه قد دل على فعله بما تقدم. تقول : افعل ذلك كرامة أي وأكرمك كرامة، وذلك لما علم أن الأسماء لا تعطف على الأفعال فالتقدير :

وحفظناها حفظاً . قال المفسرون : الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب فأخبروا صنعاءهم ، فجعل الله الكواكب في زمن محمد صلى الله عليه وسلم بحيث تحرقهم وتحفظ أهل السماء في إصغائهم . قال الحكيم : ليس المراد بالكواكب الحافظة أنفس الكواكب المركوزة في الأفلاك وإلا لوقع نقصان ظاهر في أعدادها ، بل المراد ما يضاهيها من الشهب الحادثة عند كرة النار من الأبجرة المرتفعة ، وقد مر تحقيق ذلك في أول سورة الحجر . قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله : إن الشياطين لهم حذق كامل في استخراج الصنائع الدقيقة فإذا عرفوا هذه الحالة بالتجربة فلم لا يمنعون منه . وأيضاً إنهم مخلوقون من النار والنار كيف تؤثر في النار ؟ وأيضاً مقر الملائكة السطح الظاهر من الفلك الأعلى وإنهم لا يصعدون إلا إلى قريب من الفلك الأدنى فكيف يسمعون كلام الملائكة ؟ والجواب أنا لا نسلم حذقهم في كل الأمور ولهذا جاء في وجوه تسخيرهم ما جاء على أن موضع الاستراق والاحتراق غير متعين ، ووقوع هذه الحالة أيضاً كالنادر . فلعل المسترق يكون غير واقف عليه ، والنيران بعضها أقوى من البعض وليس الشيطان ناراً صرفاً ، ولكن الناري غالب عليه . ولا نسلم أن الملائكة لا ينزلون إلى الفلك الأخير بإذن الله . والمارد الخارج من الطاعة وقد مر اشتقاقه في قوله مردوا على النفاق .

والضمير في قوله ﴿ لا يسمعون ﴾ لكل شيطان لأنه في معنى الجمع . والتسمع تكلف السماع سمع أو لم سمع وقد ضمن معنى الإصغاء فلذلك عدّي بإلى . وقيل : معنى سمعت إليه صرفت إلى جهته سمعي . قال جار الله : هذه الجملة لا يصح أن تكون صفة لأن الحفظ من شياطين غير سامعين أو مستمعين لا معنى له ، ولا يصح أن يكون استئنافاً لأن سائلاً لو سأل : لم يحفظ من الشياطين ؟ فأجيب بأنهم لا يسمعون . لم يستقم فبقي أن يكون كلاماً منقطعاً مبتدأ به لاقتصاص حال المسترقة للسمع . قلت : لو كان صفة باعتبار ما يؤول إليه حالهم جاز ، وكذا إن كان مستأنفاً كأنه قيل : لم يحفظ فأجيب لأنهم يؤلون إلى كذا .

ومن هنا زعم بعضهم أن أصله لئلا يسمعوا لهم فحذفت اللام ثم " أن " وأهدر عملها كما في قول القائل :

(316/652)

ألا ايهذا الزاجري أحضر الوغى . . . ورد عليه في الكشاف أن حذف اللام في قولك " جئتك أن تكرمني " وحذف " أن " في قول الشاعر جائز ، فأما اجتماعهما فمنكر من المنكرات . قلت : إن القرآن حجة على غيره مع أن قول الشاعر أيضاً لا يصح إلا بتقدير

اللام أو " من " مع " أن " . والملأ الأعلى الملائكة لأنهم يسكنون السموات . وعن ابن عباس : أراد أشراف الملائكة . وعنه : الكتبة من الملائكة . والقذف الرمي بحجر تقول : قذفته بحجر أي رميت إليه حجراً . وقوله ﴿ من كل جانب ﴾ أي مرة من هذا الجانب ومرة من هذا الجانب . وقيل : من كل الجوانب . ﴿ دحوراً ﴾ أي طرداً مع صغار مصدر من غير لفظ الفعل ، لأن القذف والطرد متغايران كأنه قيل : يقذفون قذفاً أو يدحرون دحوراً . ويجوز أن يكون مفعولاً له اي لأجل الدحور أو مصدراً في موضع الحال أي مدحورين كقوله ﴿ مذموماً مدحوراً ﴾ [ الإسراء : 18 ] ﴿ ولهم ﴾ أي للشياطين ﴿ عذاب واصب ﴾ دائم وقد مر في النحل في قوله ﴿ وله الدين واصباً ﴾ [ النحل : 52 ] يعني أنهم في الدنيا مرجومون بالشهب ولهم في الآخرة نوع من العذاب غير منقطع ﴿ إلا من خطف ﴾ في محل الرفع بدلاً من الواو في ﴿ لا يسمعون ﴾ أي لا يسمع إلا الشيطان الذي اختلس الكلمة مسارقة . وقيل : وثب وثبة . وقيل : الاستثناء منقطع خبره ﴿ فأتبعه ﴾ أي أتبعه ورمى في أثره ﴿ شهاب ثاقب ﴾ مضيء أو ماض فإذا قذفوا احترقوا . وقيل : تصيبهم آفة فلا يعودون . وقيل : لا يقتلون بالشهب بل يحس بذلك فلا يرجع ولهذا لا يمتنع غيره من ذلك . وقيل : يصيبهم مرة ويسلمون مرة فصاروا في ذلك كراكبي السفينة للتجارة . وحين بين الوحدانية ودلائلها في أول هذه السورة أراد أن يذكر ما يدل على الحشر والكلام فيه من طريقين : الأوّل أن يقال : قدر على الأصعب فيقدر على الأسهل بالأولى ،

الثاني قدر في أول الأمر فيقدر في الحالة الثانية . أما الطريق الأوّل فاشار إليه بقوله ﴿ فاستفتهم ﴾ أي سل قومك أو صاحبهم



---

وأراد بمن خلقنا ما ذكرنا من الملائكة والسموات والأرض والمشارق والكواكب والشهب والشياطين ، وغلب أولي العقل على غيرهم . وقيل : اراد عاداً وثمود ومن قبلهم من الأمم الخالية . والقول الأول اقوى بدليل فاء التعقيب ولإطلاق قوله ﴿ خلقنا ﴾ إكتفاء ببيان ما تقدمه كأنه قال : خلقنا كذا وكذا من عجائب الخلق ، فاستخبرهم أهم أشد خلقاً أم هذه الخلائق ، ومن هان عليه هذه كان خلق البشر بل إعادته عليه أهون . وأما الطريق الثاني فإليه الإشارة بقوله ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ أي لازم والباء بدل من الميم عند أكثرهم ولهذا قال ابن عباس : هو الملتصق من الطين الحر .



---

وقال مجاهد والضحاك : هو المنتن . ووجه الاستدلال أن هذا الجسم لو لم يكن قابلاً للحياة لم يقبلها من أول الأمر ، وإذا قبلها أوّلاً فلا يبقى ريب في قبولها ثانياً ، وقادرية الله تعالى باقية على حالها فالإعادة أمر ممكن ، وقد أخبر الصادق عن وقوعها فيجب وقوعها . وفي هذا الطريق الثاني تقوية للطريق الأوّل ، فإن خلقهم من الطين شهادة عليهم بالضعف والرخاوة . ثم بين أنهم مع قيام الحجج الضرورية عليهم مصرون على الإنكار فقال ﴿ بل عجبت ﴾ من قرأ بفتح التاء فظاهر أي عجبت يا محمد من تكذيبهم وإنكارهم البعث ﴿ و ﴾ هم ﴿ يسخرون ﴾ من تعجبك ، أو عجبت من القرآن حين أعطيته ويسخر أهل الكفر منه . ومن قرأ بالضم فأورد عليه أن التعجب على الله غير جائز لأنه روعة تعتري الشخص عند استعظام الشيء . وقيل : هذه حالة تحصل عند الجهل بصفة الشيء . وأجيب بأن معناه : قل يا محمد بل عجبت . سلمنا لكن العجب هو أن يرى الإنسان ما ينكره الكافر والإنكار من الله تعالى غير منكر . سلمنا لكن هذه الألفاظ في حقه تعالى محمولة على النهايات كالمكر والستهزاء والمعنى : بلغ من عظم آياتي وكثرة خلائقي أني استعظمتها فكيف بعبادي وهؤلاء بجهلهم وعنادهم يسخرون منها ، أو استعظمت إنكارهم البعث ممن هذه أفعاله وهم يسخرون ممن يصف الله تعالى بالقدرة عليه نظيره الآية ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ﴾ [ الرعد : 5 ] . عند من يرى أن العجب من الله . وقد جاء في الحديث " يعجب ربك من الشاب ليس له صبوة " وقال أيضاً : " عجب ربكم من

ألكم وقنوطكم وسرعة إجابته " والألّ التضرع . ثم حكى عنهم أنه كما أن دأبهم السخرية عند إيراد البراهين فكذلك دأبهم أنهم إذا وعظوا لا يتعظون .

(319/652)

---

﴿ وإذا رأوا آية ﴾ بينة كانشقاق القمر وغيره من المعجزات ﴿ يستسخرون ﴾ يبالغون في السخرية أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها ونسبوا ما رأوه إلى السحر . فالحصال أنه لا تفيد معهم البراهين الضرورية ولا المقدمات الوعظية ولا المعجزات الدالة على صدق إخبارك بالبعث . قوله ﴿ أو آباؤنا ﴾ من قرأ بسكون الواو فمعطوف على محل اسم " أن " ، ومن قرأ بفتحها فعليه ، أو على الضمير في ﴿ مبعوثون ﴾ وحسن الفصل بهمزة الاستفهام والمعنى : أيبعث أيضاً آباؤنا ؟ يعنون أنهم أقدم فبعثهم أبعد . وعلى الأوّل أرادوا إنكار أن يبعث واحد منهم أو من آبائهم فأرغمهم الله سبحانه بقوله ﴿ قل نعم ﴾ تبعثون ﴿ وأنتم داخرون ﴾ صاغرون أذلاء . وإذا كان كذلك ﴿ فإنما هي ﴾ أي البعثة أو هو مبهم يوضحه خبره ﴿ زجرة ﴾ واحدة يعني صيحة النفخة الثانية ﴿ فإذا هم ينظرون ﴾ أراد أنهم أحياء بصراء أو أراد أنهم ينظرون أمر الله فيهم . ﴿ وقالوا يا ويلنا ﴾ الظاهر أن كلامهم يتم عند قوله ﴿ تكذبون ﴾ بقوله الكفرة فيما بينهم .

وقيل : إن كلامهم يتم عند قوله ﴿ يا ويلنا ﴾ ثم قال الله أو الملائكة ﴿ هذا يوم الدين ﴾ الجزاء والحساب ﴿ هذا يوم الفصل ﴾ القضاء والفرق بين المحسن والمسيء ﴿ احشروا الذين ظلموا ﴾ بالكفر أو بالفسق يعني رؤساءهم . وهذا الحشر بمعنى الجمع لأنه بعد البعث اي اجمعوهم ﴿ وأزواجهم ﴾ أي أشكالهم الذي على دينهم وسيرتهم ؛ الزاني مع الزاني ، والسارق مع السارق ، والشارب مع الشارب . وقيل : قرناءهم من الشياطين . وقيل : نساءهم اللاتي على ملتهم . ﴿ وما كانوا يعبدون من دون الله ﴾ من الأصنام ﴿ فاهدوهم ﴾ ادعوهم أو قدموهم والسابق يسمى الهادي أو دلوهم ﴿ إلى صراط الجحيم ﴾ وسطها أو طريقها لأنه قال بعد ذلك ﴿ وقفوهم ﴾ اي احبسوهم للسؤال كأنهم إذا انتهوا إلى الجحيم سئلوا تهكماً وتوبيخاً بالعجز عن التناصر ﴿ ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون ﴾ قد أسلم بعضهم بعضاً وخذله . وحقيقته طلب كل منهم سلامة نفسه فقال المفسرون : إن أبا جهل قال يوم بدر : نحن جميع منتصر فيوبخ على ذلك يوم القيامة . ثم حكى أنهم في جهنم يتساءلون تساؤل التخاصم وذلك أن اتباعهم ﴿ قالوا ﴾ لرؤسائهم ﴿ إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ وفيه وجوه ، الأول : أنها استعارة

عن الخيرات والسعادات وذلك أن الجانب الأيمن أشرف من الأيسر شرعاً وعرفاً . كان رسول الله يحب التيامن في كل شيء ولهذا أمرت الشريعة بمباشرة أفاضل الأمور باليمين وأراطلها بالشمال ، وجعلت اليمين لكاتب الحسنات والشمال لكاتب السيآت ، ووعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه والمسيء بالضد ، وما جعلت يمنى إلا للتيمن بها ولذلك تيمنوا بالسانح وتطيروا بالبارح . فقيل : أتاه عن اليمين أي من قبل الخير وناحيته فصدّه عنه وأضله . قال جار الله : من المجاز ما غلب عليه الاستعمال حتى لحق بالحقيقة وهذا من ذاك لأن اليمين كالحقيقة في الخير . ثم صار قولك "أتاه عن اليمين" مجازاً في المعنى المذكور . الثاني : أن يقال : فلان يمين فلان

(321/652)

---

إذا كان عنده بمنزلة رفيعة فكأنهم قالوا : إنكم كنتم تخدعوننا وتوهمون أننا عندكم بمحل رفيع فوثقنا بكم وقبلنا عنكم . الثالث : اليمين الحلف ، كان الكفار قد حلفوا لهؤلاء الضعفة أن ما يدعونهم إليه هو الحق فوثقوا بأيمانهم وتمسكوا بعهودهم . الرابع : أن اليمين القوة والقهر فبها يقع البطش غالباً أي كنتم تأتوننا عن القهر والغلبة حتى حملتمونا على الضلال . وكما أن الضمير في ﴿ قالوا ﴾ الأول كان عائداً إلى الأتباع بقرينة الخطاب ،

فالضمير في ﴿ قالوا ﴾ الثاني يعود إلى الرؤساء لمثل تلك القرينة . والمعنى بل أبيتم أنتم الإيمان وأعرضتم عنه كما أعرضنا . ﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً ﴾ مختارين الطغيان وهذا مثل محاجة إبليس ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم ﴾ [ إبراهيم : 22 ] ﴿ فحق علينا قول ربنا إنا لذاقون ﴾ قال مقاتل : أراد قوله :

(322/652)

---

﴿ لأملأن جهنم ﴾ [ الأعراف : 18 ] والمعنى أنه لما أخبر عن وقوعنا في العذاب وكان خبر الله حقاً فلا جرم وجب وقوعنا في العذاب . قال جار الله : لو حكى الوعيد كما هو لقال " إنكم لذائقون " ولكنه عدل به إلى لفظ المتكلم لأنهم يتكلمون بذلك عن أنفسهم وكلا الاستعمالين شائع ﴿ فأغويناكم إنا كنا غاوين ﴾ أي أقدمنا على أغوائكم لأنا كنا موصوفين في أنفسنا بالغواية كأنهم قالوا : إن اعتقدتم أن غوايتكم بسبب أغوائنا فغوايتنا إن كانت بسبب إغواء غاوٍ آخر لزم التسلسل فعلمنا أن غوايتنا أيضاً من الله كما مر في قوله ﴿ فحق علينا قول ربنا ﴾ هذا تفسير أهل السنة . وأما المعتزلة فيفسرون الآيات هكذا قالوا : ﴿ بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ أي كنتم مختارين الكفر على الإيمان ، وما سلبنا تمكنكم

من تسلط بل اخترتم أنتم الطغيان فحق علينا وعيد الله بأنا ذائقون لعذابه لا محالة لعلمه بحالنا واستحقاقنا بها العقوبة ﴿ فأغويناكم ﴾ فدعوناكم إلى الغي لأنا كنا غاوين فاردنا إغواءكم لتكونوا أمثالنا . وحين حكى كلام الأتباع والمتبوعين أنتج من ذلك قوله ﴿ فإنهم ﴾ جميعاً ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ في العذاب مشتركون ﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية . ولعل للمتبوعين عذاباً زائداً للإغواء ولكن الزيادة لا تنافي الاشتراك في أصل الشيء ﴿ إنا كذلك ﴾ أي مثل ذلك الفعل ﴿ نفعل ﴾ بكل مجرم أي كافر بدليل قوله ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ يابون من قبوله ، والجملة الشرطية خبر " كان " وهو مع الاسم والخبر خبر " إن " وإن ألغيت " كان " فالخبر ﴿ يستكبرون ﴾ و " إذا " ظرفه .



---

﴿ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ عنوا محمداً صلى الله عليه وسلم يين أنهم منكرون للتوحيد وللنبوّة جميعاً فردّ عليهم بقوله ﴿ بل جاء ﴾ متلبساً ﴿ بالحق وصدّق المرسلين ﴾ وفيه تنبيه على أن التوحيد دين كل الأنبياء ثم صدقهم في قولهم ﴿ فحق علينا قول ربنا ﴾ ونقل الكلام من الغيبة إلى الحضور للمبالغة قائلاً ﴿ إنكم لذائقوا العذاب

الأليم ﴾ ثم كان لقائل أن يقول : كيف يليق بالرحيم الكريم المتعالي عن النفع والضر أن يعذب عبيده فقال ﴿ وما تجوزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ فالحكمة اقتضت الأمر بالخير والطاعة ، والنهي عن القبيح والمعصية ، والأمر والنهي لا يكمل المقصود بهما إلا بالترغيب والترهيب ، وإذا وقع الإخبار عنه وجب تحققه صوناً للكلام عن الكذب هذا بتفسير المعتزلة اشبه . والسنّي يقول : لا اعتراض عليه في شيء ولا يسأل عما يفعل . قال جار الله ﴿ إلا عباد الله ﴾ استثناء منقطع أي لكن عباد الله ﴿ المخلصين أولئك لهم رزق ﴾ قلت : يجوز أن يكون الاسثناء متصلاً والمعنى : وما تجزون إلا ما كنتم تعملون من غير زيادة إلا المخلصين فإن جزاءهم بالأضعاف .

(324/652)

---

ويحتمل أن يكون الخطاب في قوله ﴿ إنكم ﴾ للمكلفين جميعاً فيصح الاستثناء المتصل مطلقاً أي تذوقون العذاب الأليم . قوله ﴿ معلوم ﴾ قيل : أي معلوم الوقت كقوله ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ [ مريم : 62 ] وقيل : معلوم الصفة لكونه مخصوصاً بخصائص خلق عليها من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر . وقيل : معلوم القدر على حسب استحقاقهم . وقيل : أراد أنهم يتيقنون دوامه لا كرزق الدنيا الذي لا يعلم متى يحصل ومتى

يقطع. ثم فسر ذلك الرزق بأنه ﴿ فواكه ﴾ فقيل: إن الفاكهة عبارة عما يؤكل لأجل التلذذ لا لأجل الحاجة، وأرزاق أهل الجنة كلها كذلك لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات فإنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد فلذلك سمي رزقهم فاكهة. وقيل: أراد به التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإذا كانت الفاكهة حاضرة أبداً كان الطعام أولى بالحضور. وحيث بين الأكل ذكر أن ذلك حاصل مع الإكرام والتعظيم فقال ﴿ وهم مكرمون ﴾ إذ الأكل الخالي عن التعظيم يليق بالبهائم. وحين ذكر مأكولهم وصف مسكنهم وهيئة جلوسهم فقال ﴿ في جنات النعيم على سرر متقابلين ﴾ وقد مر في "الحجر". ثم وصف مشروبهم. قال أهل اللغة: لا يسمى الإناء كاساً إلا إذا كان فيها خمر، وقد تسمى الخمر نفسها كأساً. عن الأخفش:

(325/652)

---

كل كأس في القرآن فهي الخمر... وكذا في تفسير ابن عباس: والمعين النهر الجاري على وجه الأرض وأصله معيون لأنه الظاهر للعيون أو من عين الماء. وقد يقال: عان الماء يعين إذا ظهر جارياً قاله ثعلب. وقيل: "فعيل" من المعن وهو المنفعة أو الماء الشديد الجري ومنه أمعن في السير أي بالغ فيه. واشتدّ وصف الخمر بما يوصف به الماء لأنها تجري في

الجنة في أنهار كما يجري الماء . وبيضاء صفة للكأس : قال الحسن : خمر الجنة أشدّ بياضاً من اللبن . ﴿ ولذة ﴾ إما مصدر وصف بها للمبالغة كأنها نفس اللذة ، أوصي تأنيث . اللذ واللذ اللذيذ واحد كالطب والطبيب ثم بين أن خمر الجنة لا تغتال العقول . يقال : غاله يغوله غولاً إذا أهلكه وافسده ، وفيه تعريض بخمر الدنيا ولهذا قدم الظرف وبنى الكلام على الاسم في قوله ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ أي يسكرون . وخص هذا الوصف بالذكر لأنه أعظم المفاسد في شرب الخمر . يقال : نزف الشارب على البناء للمفعول إذا ذهب عقله . والتركيب يدور على الفناء والنفاد ومنه نزحت الركية حتى نزفتها إذا لم تترك فيها ماء . وأنزف مثله ومعناه صار ذا نزف . وعن بعضهم أن معنى قوله ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ هو أن الشراب لا ينقطع عنهم لئلا يلزم نوع من التكرار . والأوّلون حملوه على المبالغة . ثم وصف منكوحهم بقوله ﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ أي حابساتها عن غير أزواجهن كقوله ﴿ عرباً ﴾ [ الواقعة : 37 ] والعين جمع العيناء مؤنث الأعين وهو كبير العين . ثم شبههن ببيض النعام المكنون في وكناتها ، وذلك لأن فيها بياضاً يشوبه قليل من الصفرة ، وإذا كانت مستورة في أماكنها كانت مصونة عن الغبرة والتغير فكانت في غاية الحسن ، وبها تشبه العرب النساء وتسميهن بيضات الخدور .

ثم عطف على قوله ﴿ يطاف ﴾ قوله قوله ﴿ فاقبل ﴾ وهو مضارع في المعنى إلا أنه على عادة الله تعالى في الأخبار . ولعل هذا التذاكر عقيب إطافة الكأس فلهذا جيء بالفاء بخلاف ما مر في تخاصم أهل النار . والمراد أنهم يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة أهل المنادمة والعشرة . قال بعضهم :

وما بقيت من اللذات إلا . . . أحاديث الكرام على المدام

(327/652)

---

وقد حكى من جملة مكالماتهم تذكرهم أنه كان قد حصل لهم في الدنيا ما يوجب لهم الوقوع في عذاب الله ، ثم إنهم تخلصوا عنه وفازوا بالنعيم المقيم وهذا ابتداء الحكاية ﴿ قال قائل منهم ﴾ أي من أهل الجنة ﴿ إني كان لي قرين ﴾ جليس أو شريك في الدنيا ﴿ يقول أئنك لمن المصدقين ﴾ أي بيوم الدين ﴿ أئنا لمدينون ﴾ لمجزيون من دان يدين إذا جزى . وقيل : لمسوسون مقهورون من دانه إذا ساسه ومنه الحديث " الكيس من دان نفسه " وعن بعضهم : اراد بالمتحادثين الرجلين المذكورين في الكهف في قوله ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين ﴾ [ الآية : 32 ] ﴿ قال ﴾ يعني ذلك القائل أو الله أو بعض الملائكة ﴿ هل أنتم

مطلعون ﴾ إلى النار اي هل تحبون أن تطلعوا فتعلموا أين منزلتكم منها . عن ابن عباس : إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى النار ﴿ فاطلع ﴾ على أهل النار فرأى قرينه ﴿ في سواء الجحيم ﴾ وسطها ﴿ قال ﴾ لقرينه ﴿ تالله إن كدت لتردين ﴾ "إن" مخففة واللام فارقة . والإرداء الإِهلاك ، وبخه على أنه كان يدعوه في الدنيا إلى إنكار البعث المتضمن للكفر المؤدّي إلى الهلاك الحقيقي . والخطاب مع القرين إما أن يكون بحيث يسمعه حقيقة وذلك لرفع الحجاب وتقريب المسافة أو كما أراد الله بقدرته ، وإما أن يخاطبه وإن لم يمكنه السماع لبعده كما يخاطب الموتى ومن في حكمهم ، نظيره ما مر في قصة صالح ﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم ﴾ [ الأعراف : 79 ] إلى آخر الآية والله أعلم . ثم شكر الله تعالى على أن وفقه لنعمة الإسلام وأرشده إلى الحق وعصمه عن الباطل فقال ﴿ ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ﴾ في النار مثلك أطلق إطلاقاً لأن الإِحضار يستعمل في الشر غالباً ولا سيما في اصطلاح القرآن . وحين تم كلامه مع الرجل الذي كان قريناً له في الدنيا وهو الآن من أهل النار عاد إلى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة قائلاً ﴿ افما نحن بميتين ﴾ وفيه قولان أحدهما : إن أهل الجنة لا يعلمون في أوّل

دخولهم الجنة أنهم لا يموتون فيستفهمون عن ذلك فيما بينهم ، أو يسالون الملائكة فإذا جيء بالموت على صورة كبش أملح وذبح فعند ذلك يعلمون أنهم لا يموتون والتقدير : نحن مخلدون منعمون فما من شأننا أن نموت ولا أن نعذب .

(329/652)

---

وثانيهما أن هذا مما يقوله المؤمن تحدثاً بنعمة الله سبحانه واغتباطاً بحاله ، فإن الذي يتكامل خيره وسعادته إذا عظم تعجبه بها قد يقول . أفيدوم هذا لي ؟ وإن كان على يقين من دوامه . وايضاً إنه قال ذلك بمسمع من قرينه ليكون توبيخاً له وليحكيه الله فيكون لنا لطفاً وزجراً . احتج نفاة عذاب القبر بقوله ﴿ إلا موتتنا الأولى ﴾ فإنه يدل على أن الإنسان لا يموت إلا موتة واحدة ولو حصلت الحياة في القبر لكان الموت حاصلاً مرتين . وأجيب بأن المراد بالموتة الأولى كل ما يقع في الدنيا . وقوله ﴿ إن هذا لهو الفوز العظيم ﴾ يجوز أن يكون من تمام كلامه لقرينه تقريعاً له وتوبيخاً وأن يكون من قول أهل الجنة فيما بينهم أي إن هذا الأمر الذي نحن فيه أو هو قول الله تصديقاً لهم ، وكذا قوله ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ ولا خلاف أن قول ذلك خير من كلام الله عز وجل كأنه لما تمم قصة المؤمن رجع إلى ذكر الرزق المعلوم فاستفهم للتقرير أن ذلك الرزق ﴿ خير نزلاً أم شجرة الزقوم ﴾ قال

جار الله : أصل النزل الفضل والريع في الطعام يقال : طعام كثير النزل . فاستعير للحاصل من الشيء ، وحاصل الرزق المعلوم اللذة والسرور ، وحاصل تلك الشجرة الألم والغم . ويمكن أن يقال : النزل ما يقدّم للضيف ، ومعلوم أنه لا خير في شجرة الزقوم ولكنهم وبخوا على ذلك . وظاهر القرآن يدل على أنها شجرة كريهة الطعم والرائحة مؤلمة التناول صعبة الابتلاع إلا أن المفسرين اختلفوا في ماهيتها ، فذكر قطرب أنها شجرة مرة تكون بتهامة . وقال غيره : إنها ليس لها في الدنيا وجود بدليل قوله ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ وذلك أنها خلاف المألوف والمعتاد فإذا ورد على سمع المؤمن فوض علمه إلى الله تعالى وإذا ورد على الزنديق توسل به إلى الطعن في القرآن ويزيد في شبهته كقوله ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ [ التوبة : 125 ] وقيل : إنما كانت فتنة لهم لأنهم إذا كلفوا تناولها شق ذلك عليهم فهو كقوله ﴿

(330/652)

---

يوم هم على النار يفتنون ﴾ [ الذاريات : 13 ] وذكر المفسرون أن ابن الزبعري قال لصناديد قريش إن محمداً يخوّفنا بالزقوم وإن الزقوم بلسان بربر وإفريقية الزبد والتمر . وذكروا أيضاً أن أبا جهل أدخلهم بيته وقال : يا جارية زقمينا فأتتهم بالزبد والتمر فقال :

تزقموا فهذا الذي يوعدكم محمد به فأنزل الله صفة الزقوم .

وذكر بقية أوصاف الشجرة منها ﴿ إنها تخرج في أصل الجحيم ﴾ اي منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها . وفيه تكذيب للطاعنين فيه كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر . ومنها ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ قال جار الله : الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها إما استعارة لفظية وذلك أن يكون وجه الاستعارة مجرد الطلوع أي الظهور ، أو معنوية وذلك إذا كان يشبه الطلع شكلاً ولوناً .



---

وفي تشبيه ثمرتها برؤوس الشياطين أقوال أحدها وهو الأقوى : إنه تمثيل وتخييل وذلك أن الشيطان مثل في القبح ونفرة الطباع عنه كما أن الملك مثل في الحسن وميل النفوس أليه ، وإذا كان الشيطان كله مستقبحاً فراسه كذلك ، وتشبيه الثمرة براسه أولى للاستدارة وللتوسط في الجحيم . الثاني أن الشيطان ههنا نوع من الحيات تعرفها العرب ، خفاف لها أعراف ورؤوس قباح . الثالث أنه شجر معروف عند العرب قبيح الأعالي يسمى الأستن وثمره يسمى رؤوس الشياطين . الرابع قال مقاتل : رؤوس الشياطين حجارة سود تكون حول مكة . ولعل هذا بل الثالث والثاني أيضاً يعود إلى الأول إلا أنه بعد التسمية كأنه صار

أصلاً يشبه به . ثم علل جعل الشجرة فتنة للظالمين بقوله ﴿ فإنهم لآكلون منها ﴾ أي من طلعها ﴿ فمالؤن منها البطون ﴾ أي بطونهم إما لأن شدّة الجوع تحملهم على تناول ذلك الشيء الكريه ، وإما لأن الزبانية يقسرونهم على أكلها ليكون باباً من العذاب ، فإذا شبعوا غلبهم العطش أو أخذتهم الغصة فيسقون من حميم وهو الماء الشديد الحرارة ، وقد وصفه الله سبحانه في قوله ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾ [ الكهف : 29 ] والشوب المزج كما قال في صفة شراب أهل الجنة ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ [ المطففين : 27 ] وهو تسمية بالمصدر والمراد أن الطعام مزج بالحميم أو يسقون صديداً أو شراباً حاراً ممزوجاً بما هو أحر وهو الحميم . ومعنى " ثم " التراخي في الزمان كأنهم لا يسقون إلا بعد مدة مديدة تكميلاً للتعذيب ، أو التراخي بالرتبة لأن الشراب ابشع من الطعام بكثير . قال مقاتل : معنى " ثم " في قوله ﴿ ثم إن مرجعهم ﴾ أنهم يخرجون من الجحيم ودركاتها إلى موضع فيه الزقوم والحميم ، وبعد الأكل والشرب يردّون إلى موضعهم أي من الجحيم فكأنهم في وقت الأكل والشرب لا يعذبون بالنار . وقيل : هو كقولهم " فلان يرجع إلى مال ونعمة " أي هو فيها . وقيل : " ثم " لتراخي الأخبار أي فقد صح أن مرجع

الكفار إلى النار . وقيل : " ثم " مع الجملة قد تدل على التقديم أي قبل ذلك كان مرجعهم إلى الجحيم . ثم بين أن سبب وقوعهم في أصناف العذاب المذكور هو التقليد . والإهراع الإسراع الشديد كأنهم يساقون سوقاً ولو لم يوجد في ذم التقليد إلا هذه الآية لكفى . ثم اراد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم إجمالاً بقوله ﴿ ولقد ضل قبلهم ﴾ أي قبل قومك ﴿ اكثر الأوّلين ﴾ ثم استثنى من قوله ﴿ ولقد ضل ﴾ أو ﴿ من المنذرين ﴾ المهلكين عباده المخلصين فإن عاقبتهم كانت حميدة .

*(333/652)*

---

ثم سلاه بوقائع الأمم الخالية تفصيلاً وقدّم قصة نوح عليه السلام لكونه أباً ثانياً ونداؤه في قوله ﴿ رب انصرني بما كذبون ﴾ [ المؤمنون : 26 ] أو قوله ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ [ نوح : 26 ] واللام الداخلة على ﴿ نعم ﴾ جواب قسم محذوف أو لبتداء ، والمخصوص بالمدح وهو نحن محذوف ، والجمع لتصوير العظمة والكبرياء ، وفيه وفي فاء التعقيب في ﴿ فلنعم ﴾ دليل على أن نداء العظيم الكبير حقيق بأن يكون مقروناً بإجابة . والكرب العظيم ما هو فيه من مخاوف الطوفان أو من إيذاء قومه مع الياس من إيمانهم وهذا أقرب . وفي قوله ﴿ هم الباقين ﴾ بصيغة الحصر دلالة على أن كل ما سواه

وسوى ذريته فقد فنوا . روي أنه مات كل من كان معه في السفينة غير ذرّيته وهم سام وحام ويافث . فسام أبو العرب وفارس والروم ، وحام أبو السودان شرقاً وغرباً ، ويافث أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج وتركنا عليه في المتأخرين من الأمم هذه الكلمة وهي ﴿ سلام على نوح ﴾ ومعنى ﴿ في العالمين ﴾ أن هذه التحية ثبتها الله فيهم فيسلم الثقلان عليه إلى يوم القيامة . ثم بين أن سبب هذه التشريفات هو كونه محسناً وهذا جزاء كل محسن . ثم بين أن إحسانه كان مسبوقاً بإيمانه فعلى كل مؤمن أن يجتهد حتى يصير محسناً . وحين تمم ما آل إليه أمر نوح وذريته ذكر عاقبة سائر قومه فقال ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ أعاذنا الله من الإغراق والإحراق وجعل فلكنا فلك نوح وسفرنا متضمناً للنصر والفتوح. انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 5 صـ 552.564 ﴾

*(334/652)*

---

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الصافات

مكية وهي مائة واثنان وثمانون آية ، وثمان مئة وستون كلمة ، وثلاثة آلاف وثمان مئة وستة وعشرون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي له الكمال المطلق ﴿ الرحمن ﴾ الذي من رحمته العدل في الدارين ﴿ الرحيم ﴾ الذي لا يدنو من جنا به نقص واختلف في تفسير قوله تعالى:

﴿ والصافات صفا ﴾ أي: وهو ترتيب الجمع على خط ، فقال ابن عباس والحسن وقتادة : هم الملائكة في السماء يصفون كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة ، وعن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ألا تصفون كصفوف الملائكة عند ربهم" قلنا : وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال : "يتمون الصفوف المتقدمة ويتراصون في الصف" . وقيل : هي الملائكة تصف أجنحتها في الهواء واقفة حتى يأمرها الله تعالى بما يريد ، وقيل : هي الطير تصف أجنحتها في الهواء لقوله تعالى : ﴿ والطير صافات ﴾ (النور : )

. واختلف أيضاً في قوله تعالى:

﴿ فالزاجرات زجراً ﴾ فأكثر المفسرين على أنها الملائكة تزجر السحاب وتسوقه ، وقال قتادة: هي زواجر القرآن تنهي وتزجر عن القبيح ، واختلف أيضاً في قوله تعالى:

﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ فالأكثر أيضاً ، أنهم الملائكة عليهم السلام يتلون ذكر الله تعالى ، وقيل : هم جماعة قراء القرآن .

فإن قيل : قال أبو مسلم الأصفهاني : لا يجوز حمل هذه الألفاظ على الملائكة ؛ لأنها مشعرة بالتأنيث والملائكة عليهم السلام مبرؤون من هذه الصفة . أجيب بوجهين:

الأول : أن الصافات جمع الجمع فإنه يقال : جماعة صافة ثم تجمع على صافات .

والثاني : أنهم مبرؤون من التأنيث المعنوي وأما التأنيث اللفظي فلا ، وكيف وهم يسمون بالملائكة مع أن علامة التأنيث حاصلة .

تنبيه : اختلف الناس ههنا في المقسم به على قولين:



---

أحدهما : أن المقسم به خالق هذه الأشياء لنهيه صلى الله عليه وسلم عن الحلف بغير الله تعالى ، ولأن الحلف في مثل هذا الموضع تعظيم للمحلوف به ، ومثل هذا التعظيم لا يليق إلا بالله تعالى ، ففي ذلك إضمار تقديره ورب الصافات ورب الزاجرات ورب التاليات ، ومما يؤيد هذا أنه تعالى صرح به في قوله تعالى : ﴿ والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها ﴾ (الشمس : - )

والثاني : وعليه الأكثر أن المقسم به هذه الأشياء لظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل ، وأما النهي عن الحلف بغير الله تعالى فهو نهي للمخلوق عن ذلك ، وأما قوله تعالى : ﴿ وما بناها ﴾ فإنه علق لفظ القسم بالسماء ثم عطف عليه القسم بالباني للسماء ولو كان المراد بالقسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار في موضع واحد ، وهو لا يجوز ، وأيضاً

لا يبعد أن تكون الحكمة في قسم الله تعالى بهذه الأشياء ، التنبيه على شرف ذواتها .

وقال البيضاوي : أقسم بالملائكة الصافين في مقام العبودية على مراتب باعتبارها تفيض عليهم أنوار الهيبة منتظرين لأمر الله الزاجرين ، للأجرام العلوية والسفلية بالتدبير المأمور فيها ، أو الناس عن المعاصي بإلهام الخير ، أو الشياطين عن التعرض لهم التالين لآيات الله وجلايا قدسه على أنبيائه وأوليائه أو بطوائف الأجرام المترتبة كالصفوف المرصوصة والأرواح المدبرة لها والجواهر القدسية المستغرقة في بحار القدس يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، أو بنفوس العلماء الصادقين في العبارات الزاجرين عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح التالين آيات الله وشرائعه ، أو بنفوس الغزاة الصادقين في الجهاد الزاجرين للخيل والعدو التالين ذكر الله لا يشغلهم عنه مباراة العدو ، وقال الزمخشري : الفاء في ، فالزاجرات والتاليات إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود كقوله:

*يا لهف زيابة للحرث ** الصابح فالغانم فالآيب*



---

أي : الذي صبح فغنم فآب ، وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك : خذ الأفضل فالأكمل واعمل الأحسن فالأجمل ، وإما على ترتب موصوفاتها كقوله : " رحم الله

المحلقين فالمقصرين" ، والبيضاوي ذكر هذا حديثاً قال شيخنا القاضي زكريا : لم أره بهذا

اللفظ ا . ه ، لكنه لفضل المتقدم على المتأخر وهذا للعكس ، وقرأ أبو عمرو وحمزة بالإدغام

فيما ذكر ، والباقون بالإظهار ؛ وجواب القسم .

﴿ إن إلهكم ﴾ أي : الذي اتخذتم من دونه آلهة ﴿ لواحد ﴾ إذ لو لم يكن واحداً لاختل

هذا الاصطفاف والزجر والتلاوة وما يترتب عليها فكان غير حكيم ، فإن قيل : ذكر

الحلف في هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجهين:

الأول : أن المقصود من هذا القسم إما إثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو الكافر ، فالأول

باطل ؛ لأن المؤمن مقرّ به من غير حلف .

والثاني : باطل أيضاً ؛ لأن الكافر لا يقرّ به سواء حصل الحلف أو لم يحصل فهذا الحلف

عديم الفائدة على كل تقدير ، الثاني : أنه يقال أقسم في أول هذه السورة على أن الإله واحد

وأقسم في أول سورة الذاريات على أن القيامة حق ، فقال : ﴿ والذاريات ذرواً ﴾

(الذاريات : )

إلى قوله ﴿ إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع ﴾ (الذاريات : )

وإثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف لا يليق

بالعقلاء ؟

أجيب : عن ذلك بأوجه:

أولها : أنه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة في غالب السور بالدلائل اليقينية ، فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها بذكر القسم تأكيداً لما تقدم لاسيما والقرآن أنزل بلغة العرب وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب .

ثانيها : أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الأصنام في قولهم بأنها آلهة فكأنه قيل : إن هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة إلى حيث يكفي في إبطاله مثل هذه الحجة .

ثالثها : أنه تعالى لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله تعالى : ﴿ إن إلهكم لواحد ﴾ (الصافات : )



---

عقبه بما هو الدليل اليقيني في كون الإله واحد ، وهو قوله تعالى:

﴿ رب ﴾ أي : موجد ومالك ومدبر ﴿ السموات ﴾ أي : الأجرام العالية ﴿ والأرض ﴾ أي : الأجرام السافلة ﴿ وما بينهما ﴾ أي : من الفضاء المشحون بما يعجز عن عده القوي ، وذلك ؛ لأنه تعالى بين في قوله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (الأنبياء : ) أن انتظام أحوال السموات والأرض يدل على أن الإله واحد فههنا لما قال ﴿ إن إلهكم لواحد ﴾ أردفه بقوله ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ كأنه قيل : بينا أن النظر في

انتظام هذا العالم يدل على أن الإله واحد فتأملوا ليحصل لكم العلم بالتوحيد .

تنبيه : علم من قوله تعالى ﴿ وما بينهما ﴾ أنه تعالى خالق لأعمال العباد ؛ لأن أعمالهم موجودة فيما بين السماء والأرض وهذه الآية دلت على أن كل ما حصل بين السماء والأرض ، فالله ربه ومالكه وهذا يدل على أن فعل العبد حصل بخلق الله تعالى ، فإن قيل : الأعراض لا يصح وصفها بأنها حصلت بين السماء والأرض ؛ لأن هذا الوصف إنما يكون حاصلاً في حيز وجهة والأعراض ليست كذلك ؟

أجيب : بأنها لما كانت حاصلة في الأجسام الحاصلة بين السماء والأرض فهي أيضاً حاصلة بين السموات والأرض ﴿ ورب المشارق ﴾ أي : والمغارب وجمعها باعتبار جميع السنة فإن الله تعالى خلق للشمس ثلاث مئة وستين كوة في المشرق وثلاثمئة وستين كوة في المغرب على عدد أيام السنة ، تطلع الشمس كل يوم من كوة منها وتغرب في كوة منها لا ترجع إلى الكوة التي تطلع منها إلى ذلك اليوم من العام المقبل .

وقيل : كل موضع أشرقت عليه الشمس فهو مشرق وكل موضع غربت عليه فهو مغرب كأنه أراد جميع ما أشرقت عليه الشمس .

وقيل : المراد بالمشارق مشارق الكواكب ومغاربها ؛ لأن لكل كوكب مشرقاً ومغرباً ، فإن قيل : إن الله تعالى قال في موضع ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ (الشعراء : )

وقال في موضع آخر ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ (الرحمن : )

فما الجمع بين هذه المواضع ؟

(338/652)

---

أجيب : بأن المراد بقوله ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ الجهة فالمشرق جهة والمغرب جهة وبقوله تعالى : ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ مشرقا الشتاء والصيف ومغربا الشتاء والصيف وأما موضع الجمع فقد مر . فإن قيل : لم اكتفى بذكر المشارق ؟

أجيب : بوجهين .

الأول : أنه اكتفى به كقوله تعالى ﴿ تقيكم الحر ﴾ (النحل : )

والثاني : أن الشروق أقوى حالاً من الغروب وأكثر نفعاً منه فذكر المشرق تنبيهاً على كثرة إحسان الله تعالى على عباده ولهذه الدقيقة استدل إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام بقوله ﴿ إن الله يأتي بالشمس من المشرق ﴾ (البقرة : )

:

﴿ إنا زينا ﴾ أي : بعظمتنا التي لا تدانى ﴿ السماء ﴾ ولما كانوا لا يرون إلا ما يليهم من السموات وكانت زينة النجوم ظاهرة فيها قال تعالى ﴿ الدنيا ﴾ أي : التي هي أدنى

السموات إليكم ﴿ بزينة الكواكب ﴾ أي : بضوئها كما قاله ابن عباس أو بها ، وقرأ عاصم وحمزة بزينة بالتنوين ، والباقون بغير تنوين والإضافة للبيان كقراءة تنوين بزينة المبينة بالكواكب ونصب الياء الموحدة من الكواكب شعبة ، وكسرها الباقون .

فإن قيل : قد ثبت في علم الهيئة أن هذه الكواكب الثوابت مركوزة في الكرة الثامنة وأن السيارات مركوزة في الكرات الستة المحيطة بسماء الدنيا فكيف يصح قوله تعالى ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ ؟

أجيب : بأن الناس الساكنين على سطح كرة الأرض إن نظروا إلى السماء الدنيا فإنهم يشاهدونها مزينة بهذه الكواكب فصح قوله تعالى ﴿ إنا زينا السماء بزينة الكواكب ﴾

وقوله تعالى:

﴿ وحفظاً ﴾ منصوب بفعل مقدر أي : حفظناها بالشهب أو معطوف على زينة باعتبار المعنى ، كأنه قال : إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء الدنيا وحفظاً ﴿ من كل شيطان ﴾ أي : بعيد عن الخير محترق ﴿ مارد ﴾ أي : عات خارج عن الطاعة .

ولما تشوف السامع إلى معرفة هذا الحفظ وثمرته وبيان كيفيته استأنف قوله تعالى:

﴿ لا يسمعون ﴾ أي : الشياطين المفهومون من كل شيطان ﴿ إلى الملأ الأعلى ﴾ أي : الملائكة أو أشرافهم في السماء ، وعدى السماع بإلى لتضمنه معنى الإصغاء مبالغة لنفيه وتهويلاً لما يمنعهم عنه ، ويدل عليه قراءة حمزة والكسائي وحفص بفتح السين وتشديدها وتشديد الميم من التسمع وهو طلب السماع ، وقرأ الباقون بسكون السين وتخفيف الميم ﴿ ويقذفون ﴾ أي : الشياطين يرمون بالشهب ﴿ من كل جانب ﴾ أي : من آفاق السماء وقوله تعالى:

﴿ دحوراً ﴾ مصدر دحره أي : طرده وأبعده وهو مفعول له ، وقيل : هو جمع داحر نحو قاعد وقعود فيكون حالاً بنفسه من غير تأويل ، وقيل : غير ذلك ﴿ ولهم ﴾ أي : في الآخرة ﴿ عذاب ﴾ غير هذا ﴿ واصب ﴾ أي : دائم ، وقال مقاتل : أي : دائم في الدنيا إلى النفخة الأولى وقوله تعالى:

﴿ إلا من خطف ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أنه مرفوع المحل بدلاً من ضمير لا يسمعون وهو أحسن ؛ لأنه غير موجب . والثاني : أنه منصوب على أصل الاستثناء ، والمعنى : أن الشياطين لا يسمعون الملائكة إلا من خطف ، وقوله تعالى : ﴿ الخطفة ﴾ مصدر معرف بأل الجنسية أو المعرفة ومعنى اختطف اختلس الكلمة من كلام الملائكة مسارقة ﴿ فاتبعه ﴾ أي : لحقه ﴿ شهاب ﴾ أي : كوكب ﴿ ثاقب ﴾ أي : مضيء قوي لا يخطئه

يقتله أو يحرقه أو يثقبه أو يخبله .

تنبيه : ههنا سؤالات:



---

أولها : أن هذه الشهب التي يرمى بها هل هي من الكواكب التي زين الله السماء بها أم لا ؟ والأول : باطل ؛ لأنها تبطل وتضمحل فلو كانت تلك الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير في أعداد كواكب السماء ولم يوجد ذلك فإن أعداد كواكب السماء باقية لم تتغير البتة ، وأيضاً فجعلها رجوماً للشياطين مما يوجب وقوع النقصان في زينة السماء الدنيا فكان الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض ، وإن كانت هذه الشهب جنساً آخر غير الكواكب المركوزة في الفلك فهو أيضاً مشكل ؛ لأنه تعالى قال في سورة الملك ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشيطانين ﴾ (الملك : ) فالضمير في قوله ﴿ وجعلناها ﴾ عائد على المصابيح فوجب أن تكون تلك المصابيح هي المرجوم بها بأعيانها .

ثانيها : كيف يجوز أن تذهب الشياطين حيث يعلمون أن الشهب تحرقهم ولا يصلون إلى مقصودهم البتة ؟ وهل يمكن أن يصدر هذا الفعل من عاقل ؟ فكيف من الشياطين الذين

لهم مزية في معرفة الحيل الدقيقة ؟ .

ثالثها : دلت التواريخ المتواترة على أن حدوث الشهب كان حاصلاً قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك ترى الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم بزمان طويل ذكروا ذلك وتكلموا في سبب حدوثه ، وإذا ثبت أن ذلك كان موجوداً قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم امتنع حمله على مجيء النبي صلى الله عليه وسلم

رابعها : الشيطان مخلوق من النار كما حكى عن قول إبليس لعنه الله تعالى ﴿ خلقتني من نار ﴾ (الأعراف : )

وقال تعالى ﴿ والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ (الحجر : )

ولهذا السبب يقدر على الصعود إلى السموات وإذا كان كذلك فكيف يعقل إحراق النار بالنار ؟ .

أجيب عن الأول : بأن هذه الشهب غير تلك الكواكب الثابتة وأما قوله تعالى ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ (الملك : )

فنقول : كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصباح لأهل الأرض إلا أن تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد ومنها ما لا يكون كذلك وهي هذه الشهب التي يحدثها الله تعالى ويجعلها رجوماً للشياطين إلى حيث يعلمون وبها يزول الإشكال .

وعن الثاني : بأن هذه الواقعة إنما تتفق في الندرة فلعلها لا تشتهر بسبب ندرتها بين الشياطين وأجاب أبو علي الجبائي : بأن حصول هذه الحالة ليس له موضع معين وإلا لم يذهبوا إليه وإنما يمنعون من المصير إلى موضع الملائكة ومواضعها مختلفة ، فربما صاروا إلى موضع تصيبهم الشهب ، وربما صاروا إلى غيره ولا صادفوا الملائكة ولا تصيبهم الشهب ، فلما هلكوا في بعض الأوقات وسلموا في بعض الأوقات جاز أن يصيروا إلى مواضع يغلب على ظنونهم أنها لا تصيبهم الشهب فيها ، كما يجوز فيمن سلك البحر أن يسلكه في موضع يغلب على ظنه حصول النجاة ، وفي جواب أبي علي نظر : إذ ليس في السماء موضع قدم إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد .

وعن الثالث : بأن الأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي صلى الله عليه وسلم لكن بقلة ، ولما جاء النبي صلى الله عليه وسلم وقعت بكثرة فصارت بسبب الكثرة معجزة .

وعن الرابع : بأن الشياطين ليسوا من نار خالصة وعلى التنزل بأنهم من النيران الخالصة إلا أنها نيران ضعيفة ونيران الشهب أقوى حالاً منهم فلا جرم صار الأقوى مبطلاً للأضعف ، ألا ترى أن السراج الضعيف إذا وضع في النار القوية فإنه ينطفئ ؟ فكذلك ههنا .

ولما كان المقصود الأعظم من القرآن إثبات الأصول الأربعة وهي الإلهيات والمعاد والنبوات وإثبات القضاء والقدر افتتح الله سبحانه هذه السورة بإثبات ما يدل على الصانع وعلى علمه وقدرته وحكمته ووحدانيته ، وهو خالق السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق والمغارب ، ثم فرع عليها إثبات الحشر والنشر والقيامة وهو أن من قدر على ما هو أشق وأصعب وجب أن يقدر على ما هو دونه ، وهو قوله تعالى:



---

﴿ فاستفتهم ﴾ أي : سل كفار مكة أن يفتوك بأن يبينوا لك ما تسألهم عنه من إنكارهم البعث وأصله من الفتوة وهي الكرم ﴿ أهم أشد ﴾ أي : أقوى وأشق وأصعب ﴿ خلقاً ﴾ أي : من جهة إحكام الصنعة وقوتها وعظمها ﴿ أم من خلقنا ﴾ أي : من الملائكة والسموات والأرض وما بينهما والمشارق والكواكب والشهب الثواقب .

تنبيه : في الإتيان بمن تغليب للعقلاء وهو استفهام بمعنى التقرير أي : هذه الأشياء أشد خلقاً كقوله تعالى ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ (غافر : ) وقوله تعالى ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ﴾ (النازعات : )

وقيل : معنى أم من خلقنا أي : من الأمم الماضية ؛ لأن لفظ من يذكر لمن يعقل ؛ والمعنى : أن

هؤلاء الأمم ليسوا بأحكم خلقاً من غيرهم من الأمم الخالية وقد أهلكناهم بذنوبهم فمن الذي يؤمن هؤلاء من العذاب ﴿ إنا خلقناهم ﴾ أي: أصلهم آدم بعظمتنا ﴿ من طين ﴾ أي: تراب رخو مهين ﴿ لازب ﴾ أي: شديد اختلاط بعضه ببعض فالتصق وخمر بحيث يعلق باليد وقال مجاهد والضحاك: منتن فهو مخلوق من غير أب ولا أم وقرأ حمزة والكسائي:

﴿ بل عجبت ﴾ بضم التاء والباقون بفتحها، أما بالضم فبإسناد التعجب إلى الله تعالى وليس هو كالتعجب من الآدميين كما قال تعالى ﴿ فيسخرون منهم سخر الله منهم ﴾ (التوبة: )

وقال تعالى ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ (التوبة: )

فالعجب من الآدميين إنكاره وتعظيمه، والعجب من الله تعالى قد يكون بمعنى الإنكار والذم وقد يكون بمعنى الاستحسان والرضا كما في الحديث: "عجب ربكم من شاب ليست له صبوة" وفي حديث آخر: "عجب ربكم من الكم وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم" قوله الكم الألّ أشد القنوط. p

وقيل: هو رفع الصوت بالبكا، وسئل الجنيد عن هذه الآية فقال: إن الله تعالى لا يعجب من شيء ولكن وافق رسوله صلى الله عليه وسلم فلما عجب رسوله قال تعالى ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ﴾ (الرعد: )

أي : هو كما تقوله ، وأما الفتح فعلى أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي : عجبت من تكذيبهم إياك .

﴿ ويسخرون ﴾ أي : وهم يسخرون من تعجبك قال قتادة : عجب نبي الله صلى الله عليه وسلم من هذا القرآن حين أنزل ومن ضلال بني آدم ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يظن أن كل من سمع القرآن يؤمن به فلما سمع المشركون القرآن سخروا منه ولم يؤمنوا به عجب من ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال تعالى ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ .

﴿ وإذا ذكروا ﴾ أي : وعظوا بالقرآن ﴿ لا يذكرون ﴾ أي : لا يتعظون .

﴿ وإذا رأوا آية ﴾ قال ابن عباس وقتادة : يعني انشقاق القمر ﴿ يستسخرون ﴾ أي : يستهزئون بها وقيل : يستدعي بعضهم من بعض السخرية .

﴿ وقالوا إن ﴾ أي : ما ﴿ هذا إلا سحر مبين ﴾ أي : ظاهر في نفسه ومظهر لسخريته ثم خصّوا البعث بالإنكار إعلاماً بأنه أعظم مقصود بالنسبة إلى السحر فقالوا مظهرين له في مظهر الإنكار :

﴿ أءذا متنا ﴾ وعطفوا عليه ما هو موجب عندهم لشدة الإنكار فقالوا ﴿ وكنا ﴾ أي : كوناً في غاية التمكن ﴿ ترابا ﴾ وقدموه ؛ لأنه أدل على مرادهم ؛ لأنه أبعد عن الحياة ﴿ وعظاماً ﴾ كأنهم جعلوا كل واحد من الموت أو الكون إلى الترابية المحضة والعظامية المحضة والمختلطة بهما مانعاً من البعث ، وهذا بعد اعترافهم بأن ابتداء خلقهم كان من التراب ، ثم كرروا الاستفهام الإنكاري على قراءة من قرأ به كما سيأتي بيانه زيادة في الإنكار فقالوا ﴿ أئنا لمبعوثون ﴾ .



---

وقولهم ﴿ أو آباؤنا الأولون ﴾ عطف على محل إن واسمها أو على الضمير في مبعوثون فإنه مفصول عنه بهمزة الاستفهام لزيادة الاستبعاد لبعد زمانهم ، وهذا بيان للسبب الذي حملهم على الاستهزاء بجميع المعجزات وهو اعتقادهم أن من مات وتفرقت أجزاؤه في العالم فما فيه من الأرض اختلط بالأرض وما فيه من المائية والهوائية اختلط ببخارات العالم ، فهذا الإنسان كيف يعقل عوده بعينه حياً ؟ ثم إنه تعالى لما حكى عنهم هذه الشبهة قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء البعداء البغضاء ﴿ نعم ﴾ أي : تبعثون على كل تقدير قدرتموه

﴿ وأنتم داخرون ﴾ أي : مكرهون عليه صاغرون ذليلون وإنما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب ؛ لأنه ذكر في الآية المتقدمة البرهان القطعي على أنه أمر ممكن وإذا ثبت الجواز القطعي فلا سبيل إلى القطع بالوقوع إلا بإخبار المخبر الصادق ، فلما قامت المعجزة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم كان واجب الصدق فكان مجرد قوله ﴿ نعم ﴾ دليلاً قاطعاً على الوقوع ، وقرأ ﴿ متنا ﴾ بضم الميم ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة ، وكسرها الباقون .

وأما ﴿ أءذا ﴾ و ﴿ أئنا ﴾ فقرأ نافع والكسائي بالاستفهام في الأول والخبر في الثاني وابن عامر بالخبر في الأول والاستفهام في الثاني ، والباقون بالاستفهام فيهما وسهل الهمزة الثانية في الاستفهام نافع وابن كثير وأبو عمرو وحقق الباقون ، وأدخل في الاستفهام الفاء بين الهمزتين قالون وأبو عمرو وهشام ، والباقون بغير إدخال ، وقرأ قالون وابن عامر أو آباؤنا بسكون الواو على أنها أو العاطفة المقتضية للشك ، والباقون بفتحها على أنها همزة الاستفهام دخلت على واو العطف ، وقرأ الكسائي ﴿ نعم ﴾ بكسر العين وهو لغة فيه ، وقوله تعالى:

﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ جواب شرط مقدر أي : إذا كان كذلك فإنما البعثة زجرة أي : صيحة واحدة هي النفخة الثانية من زجر الراعي غنمه إذا صاح عليها ، وأمرها في الإعادة كأمرها بكن في الابتداء ولذلك رتب عليها ﴿ فإذا هم ينظرون ﴾ أي : أحياء في الحال من غير مهلة ينظر بعضهم بعضاً ، وقيل : ينظرون ما يحدث لهم أو ينظرون إلى البعث الذي كذبوا به ، ولا فرق بين من صار كله تراباً ومن لم يتغير أصلاً ومن هو بين ذلك ، قال البقاعي : ولعله خص بالذكر ؛ لأنه لا يكون إلا مع كمال الحياة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم "إذا قبض الروح تبعه البصر" وأما السمع فقد يكون لغير الحي ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال في الكفار من قتلى بدر : "ما أنتم بأسمع لما أقول منهم" قال : وشاهدت أنا في بلاد العرب المجاورة لنا بلس شجرة لها شوك يقال لها : الغبيرا متى قيل عندها : هات لي المنجل لأقطع هذه الشجرة أخذ ورقها في الحال في الذبول فإنه سبحانه أعلم ما سبب ذلك .

تنبيه : لا أثر للصيحة في الموت ولا في الحياة بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال تعالى ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ (الملك : )

روي أن الله تعالى يأمر الملك إسرافيل فينادي : أيها العظام النخرة والجلود البالية والأجزاء المتفرقة اجتمعوا بإذن الله تعالى .

﴿ وقالوا ﴾ أي : كل من جمعه البعث من الكفرة بعد القيام من القبور معلنين بما انكشف

لهم من أنه لا ملازم لهم غير الويل ﴿ يا ويلنا ﴾ أي : هلاكنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه وقال الزجّاج : الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة وتقول لهم الملائكة : ﴿ هذا يوم الدين ﴾ أي : الحساب والجزاء .

﴿ هذا يوم الفصل ﴾ أي : بين الخلائق ﴿ الذي كنتم به تكذبون ﴾ وقيل : هو أيضاً من كلام بعضهم لبعض وقوله تعالى :



---

﴿ احشروا ﴾ أي : اجمعوا بكره وصغار ﴿ الذين ظلموا ﴾ أي : ظلموا أنفسهم بالشرك أمر من الله تعالى للملائكة عليهم السلام ، وقيل : أمر من بعضهم لبعض أي : احشروا الظلمة من مقامهم إلى الموقف ، وقيل : منه إلى جهنم ﴿ وأزواجهم ﴾ أي : وأشباههم عابدوا الصنم مع عبدة الصنم وعابدو الكواكب مع عبدتها كقوله تعالى ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ (الواقعة : )

أي : أشكالاً وأشباهاً ، وقال الحسن : وأزواجهم المشركات ، وقال الضحاك ومقاتل : قرناؤهم من الشياطين وعلى هذا اقتصر الجلال المحلي أي : يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة ﴿ وما كانوا يعبدون من دون الله ﴾ أي : غيره في الدنيا من الأوثان والطواغيت

زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم ، ومثل الأوثان الذين رضوا بعبادتهم لهم ولم ينكروا عليهم ذلك ويأمروهم بعبادة الله تعالى الذي تفرد بنعوت العظمة وصفات الكمال ، وقال مقاتل : يعني إبليس وجنوده واحتج بقوله تعالى : ﴿ أن لا تعبدوا الشيطان ﴾ (يس : )

﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ قال ابن عباس : دلوهم إلى طريق النار ، وقال ابن كيسان : قدموهم ، قال البغوي : والعرب تسمي السائق هادياً ، قال الواحدي : هذا وهم ؛ لأنه يقال : هدى إذا تقدم ومنه الهادية والهوادي وهاديات الوحوش ولا يقال : هدى بمعنى قدم .

﴿ وقفوهم ﴾ أي : احبسوهم قال البغوي : قال المفسرون : لما سيقوا إلى النار حبسوا عند الصراط فقيل لهم : قفوهم ﴿ إنهم مسؤولون ﴾ قال ابن عباس : عن جميع أقوالهم وأفعالهم ، وروي عنه عن لا إله إلا الله ، وقيل : تسألهم خزنة جهنم عليهم السلام ﴿ ألم يأتكم نذير ﴾ (الملك : )



---

أي : رسل منكم جاؤكم بالبينات ﴿ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ (الزمر : ) ، وروي عن أبي برزة الأسلمي قال : "لا تزول قدما عبد يوم القيامة

حتى يسأل عن أربع عن عمره فيم أفناه وعلمه ماذا عمل به وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه" . وفي رواية و"عن شبابه فيم أبلاه" ، وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً يوم القيامة لازماً به وإن دعا رجل رجلاً ثم قرأ ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ ويقال لهم توبيخاً :

﴿ ما لكم ﴾ أي : أي شيء حاصل لكم شغلكم وألهاكم حال كونكم ﴿ لا تناصرون ﴾ قال ابن عباس : لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا ، وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر : نحن جميع منتصر ، فقيل لهم يوم القيامة ما لكم لا تناصرون ، وقيل : يقال للكفار ما لشركائكم لا يمنعونكم من العذاب ويقال عنهم:

﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ قال ابن عباس : خاضعون وقال الحسن : منقادون يقال : استسلم للشيء إذا انقاد له وخضع ، والمعنى : هم اليوم أذلاء منقادون لا حيلة لهم في دفع تلك المضار .

ولما أخبر سبحانه وتعالى عنهم بأنهم سئلوا فلم يجيبوا ربما كان يظن أنهم أخرسوا فنبه على أنهم يتكلمون بما يزيد تكذيبهم فقال عاطفاً على قوله تعالى : ﴿ وقالوا يا ويلنا ﴾

(الصافات : )

﴿ وأقبل بعضهم ﴾ أي : الذين ظلموا ﴿ على بعض ﴾ أي : بعد إيقافهم لتوبيخهم وعبر عن خصامهم تهكماً بقوله تعالى : ﴿ يتساءلون ﴾ أي : يتلاومون ويتخاصمون .

﴿ قالوا ﴾ أي : الأتباع منهم للمتبوعين ﴿ إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ قال الضحاك : أي : من قبل الدين فتضلوننا عنه ، وقال مجاهد : عن الصراط الحق واليمين عبارة الدين الحق كما أخبر الله تعالى عن إبليس لعنه الله تعالى ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ (الأعراف : )



---

فمن أتاه الشيطان من قبل اليمين أتاه من قبل الدين فلبس عليه الحق واليمين ههنا استعارة عن الخيرات والسعادات ، لأن الجانب الأيمن أفضل من الجانب الأيسر ، قال ابن عادل : لا تباشر الأعمال الشريفة إلا باليمين ويتفاءلون بالجانب الأيسر و "كان صلى الله عليه وسلم يحب التيامن في شأنه كله" ، وكاتب الحسنات من الملائكة على اليمين ، ووعد الله تعالى المؤمن أن يعطيه الكتاب باليمين ، وقيل : إن الرؤساء كانوا يحلفون للمستضعفين أن ما يدعونهم إليه هو الحق فوثقوا بأيمانهم ، وقيل : عن اليمين عن القوة والقدرة كقوله تعالى : ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ (الحاقة : )

﴿ قالوا ﴾ أي : المتبوعون لهم ﴿ بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ أي : وإنما يصدق الإضلال منا أن لو كنتم مؤمنين فرجعتم عن الإيمان إلينا وإنما الكفر من قبلكم .

﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ أي : قوة وقدرة حتى نقهركم ونجبركم على متابعتنا

﴿ بل كنتم قوماً طاغين ﴾ أي : ضالين مثلنا .

﴿ فحق ﴾ أي : وجب ﴿ علينا ﴾ جميعاً ﴿ قول ربنا ﴾ أي : كلمة العذاب وهو قوله تعالى ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (هود : )

﴿ إنا ﴾ أي : جميعاً ﴿ لذائقون ﴾ أي : العذاب بذلك القول ونشأ عنه قولهم:

﴿ فأغويناكم ﴾ أي : فأضللناكم عن الهدى ودعوناكم إلى ما كنا عليه ﴿ إنا كنا غاوين ﴾ أي : ضالين فأحببتم أن تكونوا مثلنا ، وفيه إيماء بأن غوايتهم في الحقيقة ليست من قبلهم إذ لو كان كل غواية بإغواء غاوٍ فمن أغوى الأول قال الله تعالى:

﴿ فإنهم ﴾ أي : المتبوعين والأتباع ﴿ يومئذ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ في العذاب مشتركون ﴾ أي : كما كانوا مشتركين في الغواية .

﴿ إنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة والقدرة ﴿ كذلك ﴾ أي : كما نفعل بهؤلاء ﴿ نفعل بالمجرمين ﴾ غير هؤلاء أي : نعذبهم التابع منهم والمتبوع ثم وصفهم الله تعالى بقوله:

﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ أي : يتكبرون عن كلمة التوحيد أو عمن يدعوهم إليها .

﴿ ويقولون أئنا ﴾ في الهمزتين ما مر ﴿ لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم ثم إن الله تعالى كذبهم في ذلك الكلام بقوله تعالى:

﴿ بل جاء بالحق ﴾ أي: الدين الحق ﴿ وصدق المرسلين ﴾ أي: صدقهم في مجيئهم بالتوحيد فأتى بما أتى به المرسلون من قبله ثم التفت من الغيبة إلى الحضور فقال تعالى:

﴿ إنكم لذائقو العذاب الأليم ﴾ ثم كأنه قيل: كيف يليق بالرحيم الكريم المتعالي الغني عن الضر والنفع أن يعذب عباده؟ فأجاب بقوله تعالى:

﴿ وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ أي: جزاء عملكم وقوله تعالى:

﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أي: المؤمنين استثناء منقطع، وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام بعد الخاء أي: إن الله تعالى أخلصهم واصطفاهم بفضله، والباقون بالكسر أي: إنهم أخلصوا الطاعة لله تعالى وقوله:

﴿ أولئك لهم ﴾ أي: في الجنة ﴿ رزق معلوم ﴾ أي: بكرة وعشياً بيان لحالهم وإن لم يكن ثم بكرة ولا عشية فيكون المراد منه معلوم الوقت وهو مقدار غدوة أو عشية، وقيل: معلوم الصفة أي: مخصوص بصفات من طيب طعم ولذة وحسن منظر، وقيل معناه: أنهم يتقينون دوامه لا كرزق الدنيا الذي لا يعلم متى يحصل ومتى ينقطع، وقيل: معلوم القدر الذي يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله تعالى وقوله:

﴿ فواكه ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من رزق ، وأن يكون خبر مبتدأ مضمر أي : ذلك الرزق فواكه وفي الفواكه جمع فاكهة قولان:

أحدهما : أنها عبارة عما يؤكل للتلذذ لا للحاجة وأرزاق أهل الجنة كلها فواكه ؛ لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات فإن أجسامهم محكمة مخلوقة للأبد فكل ما يأكلونه فعلى سبيل التلذذ .

والثاني : أن المقصود بذكر الفاكهة التنبيه بالأدنى على الأعلى أي : لما كانت الفاكهة حاضرة أبداً كان المأكول للغذاء أولى بالحضور .

﴿ وهم مكرمون ﴾ أي : في نيله يصل إليهم من غير تعب وسؤال لا كما عليه رزق الدنيا .

ولما ذكر مأكلهم ذكر مسكنهم بقوله تعالى:



---

﴿ في جنات النعيم ﴾ أي : في جنات ليس فيها إلا النعيم وهو متعلق بمكرمون أو خبر ثان لأولئك أو حال من المستكن في مكرمون وقوله تعالى:

﴿ على سرر متقابلين ﴾ أي : لا يرى بعضهم قفا بعض حال ، ويجوز أن يتعلق على سرر بمتقابلين ، ولما ذكر سبحانه وتعالى المأكل والمسكن ذكر بعد ذلك صفة المشرب بقوله

تعالى:

﴿ يطاف عليهم ﴾ أي: على كل منهم ﴿ بكأس ﴾ أي: بإناء فيه خمر فهو اسم للإناء بشرابه فلا يكون كأساً حتى يكون فيه شراب وإلا فهو إناء، وقيل: المراد بالكأس: الخمر كقول الشاعر:

*وكأس شربت على لذة ** وأخرى تداويت منها بها

أي: رب كأس شربت لطلب اللذة وكأس شربت للتداوي من خمارها، والكأس مؤنثة كما قاله الجوهري، وقوله تعالى ﴿ من معين ﴾ أي: من شراب معين أو من نهر معين مأخوذ من عين الماء أي: يخرج من العيون كما يخرج الماء وسمي عيناً لظهوره يقال: عان الماء إذا ظهر جارياً وقوله تعالى:

﴿ بيضاء ﴾ أي: أشد بياضاً من اللبن قاله الحسن صفة لكأس، وقال أبو حيان: صفة لكأس أو للخمر، واعترض بأن الخمر لم يذكر، وأجيب عنه: بأن الكأس إنما سميت كأساً إذا كان فيها الخمر وقوله تعالى ﴿ لذة ﴾ صفة أيضاً وصفه بالمصدر مبالغة كأنها نفس اللذة وعينها كما يقال: فلان جود وكرم إذا كان المراد المبالغة، وقال الزجاج: أو على حذف المضاف أي: ذات لذة وقوله تعالى ﴿ للشاربين ﴾ أي: بخلاف خمر الدنيا فإنها كريهة عند الشرب صفة للذة، وقال الليث: اللذة واللذيذة يجريان مجرى واحد في النعت يقال: شراب لذ ولذيذ وقوله تعالى:

﴿ لا فيها غول ﴾ صفة أيضاً ، واختلف في الغول فقال الشعبي أي : لا تغتال عقولهم فتذهب بها وقال الكلبي : معناه الإثم أي : لا إثم فيها ، وقال قتادة : وجع البطن ، وقال الحسن : صداع ، وقال أهل المعاني الغول : فساد يلحق في خفاء يقال : اغتاله اغتيالاً إذا أفسد عليه أمره في خفية ، وخمر الدنيا يحصل منها أنواع الفساد منها السكر وذهاب العقل ووجع البطن والصداع والقيء والبول ولا يوجد شيء من ذلك في خمر الجنة ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ أي : يسكرون ، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي من أنزف الشارب إذا نزف عقله من السكر ، والباقون بفتحها من نزف الشارب نزيفاً إذا ذهب عقله أفرده بالذكر وعطفه على ما يعمه ؛ لأنه من عظم فساده كأنه جنس برأسه .

ولما ذكر تعالى صفة مشروبهم ذكر عقبه صفة منكوحهم بقوله تعالى:

﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ أي : حابسات الأعين غاضات الجفون قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم لحسنهم عندهن وقوله تعالى ﴿ عين ﴾ جمع عيناء وهي الواسعة العين والذكر أعين قال الزجاج : كبار الأعين حسانها يقال : رجل أعين وامرأة عيناء ورجال ونساء عين .

﴿ كأنهن ﴾ أي: في اللون ﴿ بيض ﴾ للنعام ﴿ مكنون ﴾ أي: مستور بريشه لا يصل إليه غبار ولونه وهو البياض في صفرة يقال: هذا أحسن ألوان النساء تكون المرأة مشربة بصفرة قال ذو الرمة في ذلك:

*بيضاء في ترح صفراء في غنج ** كأنها فضة قد مسها ذهب*

قال المبرد: والعرب تشبه المرأة الناعمة في بياضها وحسن لونها ببيضة النعامة، وقال بعضهم: إنما شبهت المرأة بها في أجزائها فإن البيضة من أي جهة أتيتها كانت في رأي العين مشبهة للأخرى وهو في غاية المدح وقد لحظ هذا بعض الشعراء فقال:

*تناسبت الأعضاء فيها فلا ترى ** بهن اختلافاً بل أتين على قدر*

ويجمع البيض على بيوض قال الشاعر:

*بتيهاء قفر والمطي كأنها ** قطا الحزن قد كانت فراخاً بيوضها*



---

﴿ فأقبل بعضهم ﴾ أي: بعض أهل الجنة ﴿ على بعض يتساءلون ﴾ معطوف على يطاف عليهم أي: يشربون فيتحادثون على الشراب قال القائل:

*وما بقيت من اللذات إلا ** محادثة الكرام على المدام*

وأتى بقوله تعالى : ﴿ فأقبل ﴾ ماضياً لتحقق وقوعه كقوله تعالى ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ (الأعراف : )

وقوله تعالى ﴿ يتساءلون ﴾ حال من فاعل أقبل وتساؤلهم عن المعارف والفضائل وما جرى لهم وعليهم في الدنيا .

ولما ذكر تعالى أن أهل الجنة يتساءلون عند اجتماعهم على الشراب ويتحدثون كان من جملة كلماتهم أنهم يتذكرون ما كان حصل لهم في الدنيا مما يوجب الوقوع في عذاب الله تعالى ثم إنهم تخلصوا منه وهو ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله:

﴿ قال قائل منهم ﴾ أي : من أهل الجنة في الجنة في مكالمتهم ﴿ إني كان لي قرين ﴾ أي : في الدنيا ينكر البعث .

﴿ يقول أءِنك لمن المصدقين ﴾ أي : كان يوبخني على التصديق بالبعث ويقول تعجباً .

﴿ أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنا لمدينون ﴾ أي : مجزيون ومحاسبون من الدين بمعنى الجزاء وهذا استفهام إنكار .

تنبيه : اختلف في ذلك القرين فقال مجاهد : كان شيطاناً ، وقيل : كان من الإنس ، وقال مقاتل : كانا أخوين ، وقيل : كانا شريكين حصل لهما ثمانية آلاف دينار فتقاسماها واشترى أحدهما داراً بألف دينار فأراها صاحبه ، وقال : كيف ترى حسنها ؟ فقال : ما أحسنها ثم خرج فتصدق بألف دينار وقال : اللهم إن صاحبي قد ابتاع هذه الدار بألف دينار وإني

أسألك داراً من دور الجنة ، ثم إن صاحبه تزوج امرأة حسناء بألف دينار ، فتصدق صاحبه بألف دينار لأجل أن يزوجه الله تعالى من الحور العين ، ثم إن صاحبه اشترى بساتين بألفي دينار ، فتصدق هذا بألفي دينار ثم إن الله تعالى أعطاه ما طلبه في الجنة ، وقيل : كان أحدهما كافراً اسمه ينطاوس والآخر مؤمن اسمه يهودا وهما اللذان قص الله تعالى خبرهما في سورة الكهف في قوله تعالى ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين ﴾ (الكهف : )

(353/652)

---

﴿ قال ﴾ أي : ذلك القائل لإخوته ﴿ هل أنتم مطلعون ﴾ أي : معي إلى النار لننظر حاله فيقولون : لا .

﴿ فاطلع ﴾ ذلك القائل من بعض كوى الجنة قال ابن عباس رضي الله عنهما : أن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى النار ﴿ فرآه ﴾ أي : رأى قرينه ﴿ في سواء الجحيم ﴾ أي : وسط النار وإنما يسمى وسط الشيء سواء لاستواء الجوانب منه .

﴿ قال ﴾ له توبيخاً مقسماً بقوله ﴿ تالله إن كدت ﴾ أي : قاربت وإن مخففة من الثقيلة ﴿ لتردين ﴾ أي : لتهلكني بإغوائك إياي بإنكار البعث والقيامة .

﴿ ولولا نعمة ربي ﴾ أي : إنعامه علي بالإيمان والهداية والعصمة ﴿ لكنت من

المحضرين ﴾ معك في النار .

تنبيه : أثبت الياء بعد النون في ﴿ لتردين ﴾ ورش ، والباقون بالتخفيف .

ولما تم الكلام مع قرينه الذي هو في النار عاد إلى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة وقال:

﴿ أفما نحن بميتين ﴾ وهذا عطف على محذوف أي : أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين أي : ممن شأنه الموت ، وقال بعضهم : إن أهل الجنة لا يعلمون في أول دخولهم الجنة أنهم لا يموتون فإذا جيء بالموت على صورة كبش أملح وذبح يقول أهل الجنة للملائكة : أفما نحن بميتين ؟ فتقول الملائكة : لا فعند ذلك يعلمون أنهم لا يموتون ، وعلى هذا فالكلام حصل قبل ذبح الموت ، وقيل : إن الذي تكاملت سعادته إذا عظم تعجبه بها يقول ذلك على جهة التحديث بالنعمة التي أنعم الله تعالى بها عليه ، وقيل : يقوله المؤمن لقرينه توبيخاً له بما كان ينكره ، وقوله:

﴿ إلا موتتنا الأولى ﴾ منصوب على المصدر والعامل فيه الوصف قبله ويكون استثناء مفرغاً ، وقيل : هو استثناء منقطع أي : لكن الموتة الأولى كانت لنا في الدنيا وهي متناوله لما في القبر بعد الإحياء للسؤال وهذا قريب في المعنى من قوله تعالى ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ (الدخان : )

﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ هو استفهام تلذذ وتحدث بنعمة الله تعالى من تأبيد الحياة وعدم التعذيب .

﴿ إن هذا ﴾ أي : الذي ذكر لأهل الجنة ﴿ لهو الفوز العظيم ﴾ هو قول أهل الجنة عند فراغهم من هذه المحادثات وقوله تعالى:

﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ قيل : إنه من بقية كلامهم ، وقيل : إنه ابتداء كلام من الله تعالى أي : لنيل مثل هذا يجب أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية المشوبة بالآلام السريعة الإنصرام .

ولما ذكر تعالى ثواب أهل الجنة ووصفها وذكر مآكل أهل الجنة ومشاربهم وقال ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ أتبعه بقوله تعالى:

﴿ أذلك ﴾ أي : المذكور لأهل الجنة ﴿ خير نزلاً ﴾ وهو ما يعد للنازل من ضيف أو غيره ﴿ أم شجرة الزقوم ﴾ أي : المعدة لأهل النار نزلاً ، وانتصاب نزلاً على التمييز أو الحال وفي ذكره دلالة على أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يقدم للنازل ولهم ما وراء ذلك مما تقصر عنه الأفهام ، وكذا الزقوم لأهل النار وهي : اسم شجرة صغيرة الورق زفرة مرة تكون بتهامة ثم سميت به : الشجرة الموصوفة ، وإذا عرف هذا فالحاصل من الرزق المعلوم لأهل الجنة اللذة والسرور وحاصل شجرة الزقوم الألم والغم ، ومعلوم أنه لا نسبة لأحدهما إلى

الآخر في الخيرية إلا أنه جاء هذا الكلام على سبيل السخرية بهم أو لأجل أن المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم إلى الرزق الكريم والكافرون اختاروا ما أوصلهم إلى العذاب الأليم قيل لهم ذلك توبيخاً لهم على اختيارهم .

﴿ إنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة والقدرة البالغة ﴿ جعلناها فتنة ﴾ أي : محنة وعذاباً ﴿ للظالمين ﴾ أي : الكافرين قال الكلبي : في الآخرة وابتلاء في الدنيا لما سمعوا بأنها في النار قالوا : كيف ذلك والنار تحرق الشجر ولم يعلموا أن من قدر على خلق يعيش في النار ويتلذذ بها فهو أقدر على خلقه الشجر في النار وحفظه من الإحراق .



---

ولما نزلت هذه الآية قال ابن الزبعرى : أكثر الله في بيوتكم الزقوم فإن أهل اليمن يسمون التمر والزبد الزقوم ، ثم أدخلهم أبو جهل بيته وقال لجاريته : زقمينا فأتته بزبد وتمر وقال : تزقموا فهذا ما يوعدكم به محمد ، وهذا عناد منه وكذب فإنه من العرب العرباء وهم إنما يطلقونه على شجرة مسمومة يخرج لها لبن متى مس جسم أحد تورم فمات ، والتزقم البلع الشديد للأشياء الكريهة وأما الزبد بالرطب فيسمى : ألوقة قاله ابن الكلبي وأنشد :

*وإني لمن سالمتهم لألوقة ** وإني لمن عاديتهم سم أسود *

ثم إن الله تعالى وصف هذه الشجرة بصفتين : الأولى : قوله تعالى:

﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ قال الحسن : أصلها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها .

الصفة الثانية قوله تعالى:

﴿ طلعها ﴾ أي : ثمرها قال الزمخشري : الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها إما استعارة لفظية أو معنوية قال ابن قتيبة : سمي طلعاً لطلوعه كل سنة فكذلك قيل : طلع النخل لأول ما يخرج من ثمره ثم وصف ذلك الطلع بقوله تعالى : ﴿ كأنه رؤوس الشياطين ﴾ وفيه وجهان : أحدهما : أنه حقيقة وأن رؤوس الشياطين شجرة معينة بناحية اليمن وتسمى : الأستن قال النابغة:

*تحيد عن أستن سود أسافله ** مثل الإماء الغوادي تحمل الحزما *

وهو شجر منكر الصورة مر ، تسميه العرب بذلك تشبيهاً برؤوس الشياطين في القبح ثم صار أصلاً يشبه به ، وقيل : الشياطين صنف من الحيات لهن أعراف قال الراجز:

*عنجرد تحلف حين أحلف ** كمثل شيطان الحماط أعرف*

وقيل : شجرة يقال لها : الصوم ومنه قول ساعدة بن حربة:

*موكل بسروف الصوم يرقبها ** من المعارف محفوظ الحشا ورم*

فعلى هذا خوطب العرب بما تعرفه وهذه الشجرة موجودة فالكلام حقيقة .

والثاني : أنه من باب النخيل والتمثيل ، وذلك أن كل ما يستنكر ويستقبح في الطباع والصورة يشبه بما يتخيله الوهم وإن لم يكن يراه ، والشياطين وإن كانوا موجودين غير مرئيين للعرب إلا أنه خاطبهم بما ألفوه من الاستعارات التخيلية وذلك كقول امرئ القيس:

*أيقتلني والمشرفي مضاجعي ** ومسنونة زرق كأنياب أغوال*

ولم ير أنيابها بل ليست موجودة البتة قال الرازي : وهذا هو الصحيح وذلك أن الناس لما اعتقدوا في الملائكة عليهم السلام كمال الفضل في الصورة والسيرة فكما حسن تشبيه يوسف عليه السلام بالملك عند إرادة الكمال والفضيلة في قول النسوة ﴿ إن هذا إلا ملك كريم ﴾ (يوسف : )

فكذلك حسن التشبيه برؤوس الشياطين في القبح وتشويه الخلقة ، ويؤكد هذا أن العقلاء إذا رأوا شيئاً شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة قالوا : إنه شيطان وإذا رأوا شيئاً حسنا قالوا : إنه ملك من الملائكة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هم الشياطين بأعيانهم .

﴿ فإنهم ﴾ أي : الكفار ﴿ لآكلون منها ﴾ أي : من الشجرة أو من طلعها ﴿ فمالئون منها

البطون ﴾ والملء حشو الوعاء بما لا يحتمل الزيادة عليه ، فإن قيل : كيف يأكلونها مع نهاية خشونتها ونتنها ومرارة طعمها ؟

أجيب : بأن المضطر ربما استروح من الضرر بما يقاربه في الضرر فإذا جوعهم الله تعالى الجوع الشديد فزعوا إلى إزالة ذلك الجوع بتناول هذا الشيء ، أو يقال : إن الزبانية يكرهونهم على الأكل من تلك الشجرة لعذابهم .

ولما ذكر الله تعالى طعامهم بتلك الشناعة والكراهية وصف شرابهم بما هو أشنع منه بقوله تعالى:



---

﴿ ثم إن لهم عليها ﴾ أي : بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش ﴿ لشوباً من حميم ﴾ أي : ماء حار يشربونه فيختلط بالمأكول منها فيصير شوباً ، وعطف بثم لأحد معنيين : إما لأنه يؤخر ما يظنونه يرويهم من عطشهم زيادة في عذابهم فلذلك أتى بثم المقتضية للتراخي ، وإما لأن العادة تقتضي تراخي الشرب عن الأكل فعمل على ذلك المنوال ، وأما ملء البطن فيعقب الأكل فلذلك عطف على ما قبله بالفاء قال الزجاج : الشراب اسم عام في كل ما خلط بغيره والشوب الخلط والمزج ومنه شاب اللبن يشوبه أي : خلطه ومزجه .

﴿ ثم إن مرجعهم ﴾ أي: مصيرهم ﴿ لإلى الجحيم ﴾ قال مقاتل: أي: بعد أكل الزقوم وشرب الحميم وهذا يدل على أنهم عند شرب الحميم لم يكونوا في الجحيم وذلك بأن يكون الحميم في موضع خارج عن الجحيم فهم يردون الحميم لأجل الشرب كما ترد الإبل الماء ويدل عليه قوله تعالى ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ (الرحمن: )

وقوله تعالى:

﴿ إنهم ألفوا ﴾ أي: وجدوا ﴿ آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون ﴾ تعليل لاستحقاقهم تلك الشدائد قال الفراء: الإهراع الإسراع يقال: هرع وأهرع إذا استحث والمعنى: أنهم يتبعون آباءهم في سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم، وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى ذلك من غير توقف على نظر وبحث، ثم إنه تعالى ذكر لرسوله صلى الله عليه وسلم ما يسليه في كفرهم وتكذيبهم بقوله سبحانه:

﴿ ولقد ضل قبلهم ﴾ أي: قبل قومك ﴿ أكثر الأولين ﴾ أي: من الأمم الماضية.

﴿ ولقد أرسلنا فيهم منذرين ﴾ أي: أنبياء أنذروهم من العواقب فبين تعالى أن إرسال الرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف فوجب أن يكون له صلى الله عليه وسلم أسوة بهم حتى يصبر كما صبروا ويستمر على الدعاء إلى الله تعالى وإن تمردوا فليس عليه إلا البلاغ، وقرأ قالون وابن كثير وعاصم بإظهار الدال، والباقون بالإدغام ثم قال تعالى:

﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أي : الكافرين كان عاقبتهم العذاب وهذا خطاب وإن كان ظاهره مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن المقصود منه خطاب الكفار ؛ لأنهم سمعوا بالأخبار ما جرى على قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من أنواع العذاب فإن لم يعلموا ذلك فلا أقل من ظن وخوفه يحتمل أن يكون زاجراً لهم عن كفرهم وقوله تعالى:

﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ استثناء من المنذرين استثناء منقطع ؛ لأنه وعيد وهم لا يدخلون في هذا الوعيد ، وقيل : استثناء من قوله تعالى ﴿ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ﴾ والمراد بالمخلصين : الموحدون نجوا من العذاب وتقدمت القراءة في المخلصين ، ثم شرع تعالى في تفصيل القصص بعد إجمالها بقوله تعالى:

﴿ ولقد نادانا نوح ﴾ أي : نادى ربه أن ينجيه مع من نجي من الغرق بقوله : رب إني مغلوب فانتصر فأجاب الله تعالى دعاءه وقوله تعالى ﴿ فلنعم المجيبون ﴾ جواب قسم مقدر أي : فوالله ومثله : لعمري لنعم السيدان وجدتما ، والمخصوص بالمدح محذوف أي : نحن أجبنا دعاءه وأهلكنا قومه .

﴿ ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ أي : من الغرق وأذى قومه وهذه الإجابة كانت من النعم العظيمة وذلك من وجوه أولها : أنه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال : ﴿ ولقد نادانا نوح ﴾ فالقادر العظيم لا يليق به إلا الإحسان العظيم .

وثانيها : أنه تعالى أعاد صيغة الجمع فقال تعالى ﴿ فلنعم المجيبون ﴾ وفي ذلك أيضاً ما يدل على تعظيم تلك النعمة لا سيما وقد وصف الله تعالى تلك الإجابة بأنها نعمت الإجابة.

وثالثها : أن الفاء في قوله تعالى ﴿ فلنعم المجيبون ﴾ تدل على أن حصول تلك الإجابة مرتب على ذلك النداء وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص سبب لحصول الإجابة وقوله تعالى:



---

﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ يفيد الحصر ، وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته قد فنوا فالناس كلهم من نسله عليه السلام قال ابن عباس رضي الله عنه : ذريته بنوه الثلاثة سام وحام ويافث ، فسام أبو العرب وفارس وحام أبو السودان ويافث أبو الترك والخزرج ويأجوج ومأجوج وما هنالك قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما خرج نوح من السفينة مات كل من كان معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءهم.

﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ أي : أبقينا له ثناء حسناً وذكراً جميلاً فيمن بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة ، وقيل : أن نصلي عليه إلى يوم القيامة وقوله تعالى:

﴿ سلام على نوح ﴾ مبتدأ وخبر وفيه أوجه أحدها : أنه مفسر لتركنا ، والثاني : أنه

مفسر لمفعوله أي : تركنا عليه ثناء وهو هذا الكلام ، وقيل : ثم قول مقدر أي : فقلنا سلام وقيل : ضمن تركنا معنى قلنا ، وقيل : سلط تركنا على ما بعده ﴿ في العالمين ﴾ متعلق بالجار والمجرور ومعناه الدعاء بثبوت هذه التحية في الملائكة والثقلين جميعاً وقوله تعالى:

﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ تعليل لما فعل بنوح عليه السلام من التكرمة بأنه مجازاة له أي : إنما خصصناه بهذه التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوءة من ذريته ومن ترقية ذكره الحسن في ألسنة العالمين لأجل كونه محسناً وقوله تعالى:

﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ تعليل لإحسانه بالإيمان إظهاراً لجلالة قدره وأصالة أمره.

﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ كفار قومه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿السراج المنيرحـ 6 صـ 139. 161﴾

(360/652)

---

وقال القاسمى :

سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفّاً فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾

افتتح تعالى هذه السورة بالقسم ببعض مخلوقاته ، إظهاراً لعظم شأنها وكبر فوائدها ،
وتنبيهاً إلى الاعتبار بصفتها وما تستدعيه من سمتها . والصافات : جمع صافة ، أي :
طائفة صافة ، أو جماعة صافة .

فيكون في المعنى جمع الجمع ، أو على تأنيث مفرده ، باعتبار أنه ذات ونفس . والمراد
بالصافات الملائكة ؛ لقيامها مصطفة في مقام العبودية لمالك الملك . من قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا
لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ [ الصافات : 165 ] ، أو لصفها أجنحتها في الهواء واقفة منتظرة لأمر
الله تعلى . و : ﴿ الزَّاجِرَاتِ ﴾ أي : الناس عن المعاصي ، بإلهام الخير ، من الزجر بمعنى
المنع والنهي ، أو الزاجرات الأجرام العلوية والسفلية بالتدبير المأمور به . من الزجر بمعنى
السوق والحث . والتاليات ، أي : آياته تعالى على أنبيائه عليهم السلام .
وقيل : الصافات الطير . من قوله تعالى : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾ [ النور : 41 ]
والزاجرات : كل ما زجر عن معاصي الله . والتاليات : كل من تلا كتاب الله .
أو هم العلماء الصافون في العبادات أقدامهم ، الزاجرون عن الكفر ، والفسوق بالحجج ،
والنصائح ، التالون آيات الله وشرائعه .

أو هم الغزاة الصافون في الجهاد , والزاجرون الخيل أو العدو ، التالون لذكر الله ، لا يشغلهم فيها عنه مبارزة العدو . وقد ذكر غير هذا ، مما يشمله اللفظ ولا يأباه . وبالجملة ، فالعطف إما لاختلاف الذوات أو الصفات . وإيثار الفاء على الواو ؛ لقصد الترتيب والتفاضل طرداً أو عكساً ، أما الأول فاعتناء بالأهم فالأهم . وأما الثاني فالترقي إلى الأعلى . وصفاً ، وزجراً ، مصدر مؤكد ، وكذا ذكراً ، ويجوز فيه كونه مفعولاً به . قال الناصر : وفي هذه الآية دلالة على مذهب سيبويه ، والخليل في مثل : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ [الليل : 1 – 2 ] ، فإنهما يقولان : الواو الثانية وما بعدها عواطف . وغيرهما يذهب إلى أنها حروف قسم . فوقوع الفاء في هذه الآية موقع الواو . والمعنى واحد ، إلا أن ما تزيده الفاء من ترتيبها ، دليل واضح على أن الواو الواقعة في مثل هذا السياق ، للعطف لا للقسم . انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ الجواب للقسم ، وفي تأكيد المقسم عليه بتقديم الإقسام وتوكيد الجملة ، اهتمام به بتحقيق الحق فيه الذي هو التوحيد ، وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق به ، وهو قوله تعالى :

﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ فإن وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع ، من أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته ، وأعدل شواهد وحدته ، أي : مالك السماوات والأرض ، وما بينهما من الموجودات ، ومربّيها ، ومبلغها إلى كمالاتها . والمراد بالمشارق مشارق الشمس . وإعادة ذكر الرب فيها ، لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجددها كل يوم . فإنها ثلاث مائة وستون مشرقاً ، تشرق كل يوم من مشرق منها ، وبحسبها تختلف المغارب ، وتغرب كل يوم في مغرب منها . وأما قوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ فهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما . أفاده أبو السعود .

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ﴾ أي : الجهة العليا القربى من كرة الأرض : ﴿ بِزِينَةٍ ﴾ أي : عجيبة بديعة : ﴿ الْكَوَاكِبِ ﴾ بالجر ، بدل من زينة . وقرئ بالإضافة ، على أنها بيانية ، أو على معنى ما زينت هي به ، وهو ضوؤها ، والمراد التزيين في رأي العين ؛ فإن الكواكب تبدو للناظرين كأنها جواهر متلألئة .

﴿ وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ أي : خارج عن الطاعة ، يقذفه بشهبها ، كيما يتطاول إلى استراق السمع من جهتها و : ﴿ حِفْظاً ﴾ إما منصوب بإضمار فعله ؛ أي : حفظناهما حفظاً ، أو بعطفه على : ﴿ زِينَةٍ ﴾ من حيث المعنى ؛ أي : خلقنا الكواكب للسماء زينة وحفظاً ، أو على المفعول لأجله بزيادة الواو ، والعامل فيه : ﴿ زَيَّنَّا ﴾ .

﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد . وأصله يستمعون ؛ أي : يتطلبون السماع . والضمير لكل شيطان ؛ لأنه في معنى الشياطين . والجملة مستأنفة لبيان ما عليه حال المسترقة للسمع من أنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة الخ . أو هي علة للحفظ ؛ أي : لئلا يسمعوا . فحذفت اللام ثم أنْ ، وأهدر عملها . وضعفوه بلزوم اجتماع حذفين ، وهو منكر . كما ذكروه في قوله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾ [ النساء : 176 ] ، أي : لئلا تضلوا ، وقد يقال : إنما ينكر حذف شيئين فيما يخل بانسجام الكلام . أما في تقدير أمر له نظائر ، ومرجعه إلى تحليل معنى لا يأباه اللفظ - فلا وجه للتعصيب في رده ، لمجرد أن الكوفيين ، مثلاً ، ذهبوا إليه أو غيرهم . وشاهد المعنى أعدل من حكم القواعد ، وتحكيمها : ﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾ أي : يرمون : ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ أي : من جميع جوانب السماء ، إذا قصدوا الصعود إليها .

﴿ دُحُوراً ﴾ أي : للدحور وهو الطرد : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أي : شديد غير منقطع .

﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ أي : اختلس الكلمة : ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ﴾ أي : لحقه

شعلة نارية تنقضّ من السماء : ﴿ ثَاقِبٌ ﴾ أي : مضيء ، كأنه يثقب الجوّ بضوئه .

تنبيه :

ذكر المفسرون أن الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء ، فربما سمعوا كلام الملائكة ، وعرفوا به ما سيكون من الغيوب ، وكانوا يخبرونهم به ، ويوهمونهم أنهم يعلمون الغيب ، فمنعهم الله تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب ، فإنه تعالى يرميهم بها فيحرقهم .



---

قال ابن كثير : يعني إذا أراد الشيطان أن يسترق السمع ، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه ؛ ولهذا قال جل جلاله : ﴿ لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ﴾ أي : لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى ، وهي السماوات , ومن فيها من الملائكة ، إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى بما يقوله من شرعه وقدره ؛ كما وردت الأخبار بذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [ سبأ : 23 ] ، انتهى .

قال بعض علماء الفلك : كما أن العرش تحفّة الأرواح الغيبية – حسبما تقدم بيانه في آية : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [ الأعراف : 54 ] ، في الأعراف – فكذلك الكواكب

الأخرى مسكونة مع الحيوانات ، والدواب بأرواح ، منها الصالح : الملك ، ومنها الطالح : الشيطان ، وكذلك أرضنا هذه ، فيها من الملائكة ، ومن الشياطين مالا نبصره : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [ الأعراف : 27 ] .

ولا يخفى أن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود ، فعدم إدراكنا لهذه الأرواح لا يدل على عدم وجودها ؛ كما أن عدم معرفة القدماء للميكروبات وللكهرباء التي تشاهد الآن آثارها العظيمة ، لم يكن يدل على عدم وجودها إذ ذاك في العالم ، فمن الجهل الفاضح إنكار الشيء لعدم معرفته أو العثور عليه ، على أن لنا الآن من مسألة استحضار الأرواح أكبر دليل على وجود أرواح في هذه الأرض ، لا نبصرها ولا نشعر بها .

*(365/652)*

---

وقد قدّر الله تعالى أن الحيوانات في هذه الأرض ، إذا خرجت عنها إلى حيث ينقطع الهواء ويبطل التنفس ، تموت في الحال . وكذلك قدر أن الأرواح الطالحة التي في أرضنا هذه ، إذا أرادت الصعود إلى السماء ، والاختلاط بالأرواح التي في الكواكب الأخرى ، انقضّ عليها ، قبل أن تخرج من جوّ الأرض ، شهاب من هذه الكواكب ، أو من غيرها ، فأحرقها وأهلكها ، بإفساد تركيبها ومادتها ، حتى لا يحصل اتصال بين هذه وتلك ، ولا تطلع على

أسرار العوالم الأخرى ، وهذه الشهب التي تنقضّ ، إن كانت صادرة من أجرام ملتهبة ، كانت ملتهبة ، وإن كانت صادرة من أجرام غير ملتهبة ، التهبت فيما بعد لشدة سرعتها واحتكاكها بالغازات التي تمر فيها في جونا هذا . ولعل في مادة الشياطين ما يجتذب إلى هذه الشهب ويتحدُبها . كما تجتذب العناصر الكيماوية بعضها بعضاً .

مثال ذلك عنصر الصوديوم فإنه يجتذب إليه الأكسجين من الماء فيحلله . ولا نقول إن جميع الشهب تنقضّ لهذا السبب ، بل منها ما ينقضّ لأسباب أخرى . كاجتذاب بعض الأجرام السماوية له ، ومنها ما ينقض لإهلاك الشياطين ، كما بيّنا هنا . والشياطين مخلوقة من مواد غازية كانت ملتهبة : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ [ الحجر : 27 ] ، والمراد بالسماء الدنيا في هذه الآية الفضاء المحيط بنا القريب منا ؛ أي : هذا الجو الذي نشاهده وفيه العوالم كلها . أما ما وراءه من الجواء البعيدة عنا ، التي لا يمكن أن نصل إليها بأعيننا ولا بمناظيرنا ، فهو فضاء محض لا شيء فيه . فلفظ السماء له معان كثيرة كلها ترجع إلى معنى السمو ، وتُفسَّر في كل مقام بحسبه .

ثم قال : فكل مسألة جاء بها القرآن حق ، لا يوجد في العلم الطبيعي ما يكذبها ؛ لأنه وحي الله حقاً ، والحق لا يناقضه الحق : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [ فصلت : 53 ] .

وقال أيضاً : يعتقد الآن علماء الفلك أن أكثر الشهب تنشأ من ذوات الأذناب ، ويحتمل أن بعضها ناشئ من بعض الشموس المنحلّة ، أو الباقية الملتهبة ، أو من براكين بعض السيارات ، أو مما لم ينطفئ من السيارات للآن ، ومتى علمنا أن ذوات الأذناب والسيارات جميعاً مشتقة من الشموس ، كان مصدر جميع الشهب هو الشموس ، أو النجوم . قال : وهذا يفهمنا معنى هذه الآية . اهـ كلامه .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [ الملك : 5 ] ، وقوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾ [ الحجر : 16 – 18 ] ، وقوله سبحانه إخباراً عن الجن : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً ﴾ [ الجن : 8 – 9 ] .

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ أي : فاستخبر مشركي مكة : ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ أي : أقوى خلقة وأمتن بنية : ﴿ أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴾ أي : من السماوات ، والأرض ، والجبال ، كقوله تعالى : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ ﴾ [ النازعات : 27 ] الآية ، وقوله : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [ غافر : 57 ] ، وفي اضطرارهم إلى الجواب بصغر خلقهم وتضاؤله عما ذكر ، اعتراف بأنه لا يتعالى عليه أمر بعد هذا ، كشأن البعث وغيره ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ أي : لزج ضعيف لا قوة فيه .

﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ أي : من إنكارهم للبعث بعد اضطرارهم للاعتراف بما يحققه : ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أي : من تقرير أمر البعث ، والاحتجاج عليه .

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا ﴾ أي : بما يؤيده ، أو وعظوا ، وخوفوا من المخالفة : ﴿ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ أي : ما يقتضيه ؟ لتعنتهم وعنادهم ، أو لا يخافون ، ولا يتعظون .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ أي : برهاناً واحتجاجاً على مصداقه ، من آيات الكائنات في أنفسهم ، أو في الآفاق : ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أي : يبالغون في السخرية ، بدل الاعتبار ، والتدبر ، والتفكر .

﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا ﴾ أي : ادعاء ما ذكر ، والاستدلال عليه ، والصدع بشأنه ، والقراع فيه : ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .



---

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ قُلْ ﴾ أي : تبكيتاً لهم . :

﴿ نَعَمْ ﴾ أي : تبعثون : ﴿ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي : ذليلون ، لا جدل منكم يدفعه ولا قدرة .

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ ﴾ أي : البعثة : ﴿ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أي : صيحة واحدة : ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ أي : قيام من مراقدهم أحياء ، أولو قوة مدركة ، بها يبصرون ، أو ينتظرون ما يفعل بهم .

﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أي : يوم الجزاء .

﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي : أنفسهم بالكفر ، والمعاصي ، والسعي بالفساد : ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ أي : وأشباههم من الفجرة ، أو نساءهم الكافرات : ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ .

﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : من الأصنام وغيرها ، زيادة في تحسيرهم ، وتخجيلهم : ﴿

فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ أي : فعرفوهم طريقها ليسلكوها . والتعبير بـ : الهداية والصراط ؛ للتهكم بهم .

(369/652)

---

﴿ وَقِفُوهُمْ ﴾ أي : احبسوهم في الموقف : ﴿ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ أي : عن عقائدهم ، وأعمالهم .

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ : أي لا ينصر بعضكم بعضا , وقد كان شأنكم التعاضد في الحياة الأولى . وهو توبيخ لهم و تقريع .

﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ أي : منقادون مخذولون .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ أي : عن القهر والغلبة ؛ أي : كنتم تضطرونا إلى ما تدعونا إليه ، كما في آية : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ [ سبأ : 33 ] ، وقيل عن الحلف والقسم . وقيل عن جهة الخير وناحية الحق ، من اليمن ضد الشؤم ؛ أي : توهمونا وتخدعونا ؛ أن ما أنتم عليه أمر ميمون فيه الخير والفوز ، فأين مصداقه وقد نزل ما نزل ؟

(370/652)

---

﴿ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي: عن الاستجابة للداعي إليها .

﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ أي: لقول من يقول بالمقدمات الخيالية عن الجنون ، فرد عليهم بأنه لم يأت بكلام مخيل .

﴿ بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي: الذين هم أعقل الأمم ، وأحكم الحكماء ، فمتى يتفقون على قول مصدره الجنون ؟

﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أي: بافترائكم: ﴿ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ أي: في الصف مترائين ، لا يحجب بعضهم عن بعض ، ولا يتفاضلون في المقاعد .

(371/652)

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ ﴾ أي : شراب معين ، جار كالنهر لا ينقطع .

﴿ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أي : ما يغتال العقل ، ولا فساد من فساد خمر الدنيا : ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ أي : تذهب عقولهم .

﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أي : على أزواجهن أو مبيضاته تشبيهاً بالثواب المقصور ، وهو المحوَّر : ﴿ عِينٌ ﴾ أي : كبار الأعين : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ أي : بيض نعام في الصفاء ، مستور لم يركب عليه غبار . قال الشهاب : وهذا على عادة العرب في تشبيه النساء بها ، وخصت ببيض النعام ؛ لصفائه وكونه أحسن منظراً من سائره ، ولأنها تبيض في الفلاة ، وتبعد ببيضها عن أن يمس . ولذا قالت العرب للنساء : بيضات الخدور . ولأن بياضه يشوبه قليل صفرة مع لمعان ، كما في الدرّ ، وهو لون محمود جداً ؛ إذ البياض الصرف غير محمود ، وإنما يحمد إذا شابه قليل حمرة في الرجال ، وصفرة في النساء . انتهى .

وحكى ابن جرير عن ابن عباس أنه عنى بالبيض المكنون : اللؤلؤ .

ثم قال : والعرب تقول لكل مصون : مكنون ، لؤلؤاً كان أو غيره . كما قال أبو دهبل :

وَهِيَ زَهْرَاءَ مِثْلُ لُؤْلُؤَةِ الْغَوَّاصِ مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونِ

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ معطوف على يطاف ، والمعنى : يشربون فيتحادثون على الشراب ، كعادة أهل الشرب ، عما جرى لهم وعليهم .

(372/652)

---

وقال القاشاني : أي : يتحادثون أحاديث أهل الجنة والنار ، ومذاكرة أحوال السعداء والأشقياء ، مطلعين على كلا الفريقين وما هم فيه من الثواب والعقاب ، كما ذكر في وصف أهل الأعراف .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي : في المحادثة : ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ أي : جليس في الدنيا :

﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أي : لمبعوثون فمجزيّون ؛ أي : يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب ، والمعنى : فهنا قد صدقنا ربنا وعده ، وأحل بالقرين وعيده ، كما أشار بقوله :

﴿ قَالَ ﴾ أي : ذلك القائل : ﴿ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ أي : إلى أهل النار من كوى الجنة ، ومطالّها ، لأريكم ذلك القرين .

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ ﴾ أي : في وسطه : ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ أي

: لتهلكني بالإغواء : ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي ﴾ أي : بالهداية ، واللطف بي : ﴿ لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أي : معك في النار . وقوله :

(373/652)

---

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ من تتمة كلامه لقرينه ، تقريعاً له ، أو معاودة على محادثة جلسائه ، تحدثاً بنعمة الله تعالى .

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ أي : لنيل مثله ، فليجدّ المجدون ، ولما وصف ملاذّ أهل الجنة ، تأثره بمطاعم أهل النار ، بقوله سبحانه :

﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ وهي شجرة كريهة المنظر والطعم ، كما ستذكر صفتها .

(374/652)

---

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً ﴾ أي : محنة وعذاباً : ﴿ لِّلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا ﴾ أي : حملها : ﴿ كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ أي : مثل ما يتخيل ويتوهم

من قبح رؤوس الشياطين ، فهي قبيحة الأصل ، والثمر ، والمنظر ، والملمس . قال الزمخشري : وشبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهية ، وقبح المنظر ؛ لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس ، لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير ، فيقولون في القبيح الصورة : كأنه وجه شيطان ، كأنه رأس شيطان . وإذا صوره المصوّرون جاءوا بصورته على أقبح ما يقدّر ، وأهوله . كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه . فشبهوا به الصورة الحسنة . قال الله تعالى : ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [ يوسف : 31 ] ، وهذا تشبيه تخييلي . انتهى . أي : لأمر مركوز في الخيال . وبه يندفع ما يقال إنه تشبيه بما لا يعرف ، وذلك لأنه لا يشترط أن يكون معروفاً في الخارج . بل يكفي كونه مركوزاً في الذهن والخيال ، ألا ترى امرأ القيس – وهو ملك الشعراء – يقول :

ومَسْنُونَة زرْق كأَنْيَابِ أَغْوَالِ

وهو لم ير الغول ، والغول نوع من الشياطين ؛ لأنه في خيال كل أحد مرتسم بصورة قبيحة ، وإن كان قابلاً للتشكل .

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا ﴾ أي : من طلعها : ﴿ فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ أي : لغلبة الجوع ، أو الإكراه على أكلها .

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ أي : لشراباً كالصديد ، أو الغساق ، ممزوجاً من ماء متناه في الحرارة ، يقطع أمعاءهم .

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ ﴾ أي: مصيرهم: ﴿ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ أي: إلى دركاتها، أو إلى نفسها لا مفر لهم ولا محيص كيفما تحولوا. قال ابن كثير: أي: ثم إن مردّهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج وسعير توهج، فتارة في هذا، وتارة في هذا. كما قال تعالى: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن: 44]، هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية. وهو تفسير حسن قوي. انتهى.

ومن لطائف الإشارات في هذه الآية، ما قاله القاشاني، وعبارته: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ وهي شجرة النفس الخبيثة المحجوبة النابتة في قعر جهنم المتشعبة أغصانها في دركاتها القبيحة الهائلة ثمراتها من الرذائل والخبائث، كأنها من غاية القبح والتشوه والخبث بالتنفر: ﴿ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ أي: تنشأ منها الدواعي المهلكة، والنوازع المردية الباعثة على الأفعال القبيحة، والأعمال السيئة، فتلك أصول الشيطنة، ومبادئ الشر والمفسدة، فكانت رؤوس الشياطين: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا ﴾ يستمدون منها ويتغذون ويتقوون، فإن الأشرار غذاؤهم من الشرور، ولا يتلذذون إلا بها: ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ بالهيئات الفاسقة، والصفات المظلمة، كالممتلئ غضباً، وحقداً

، وحسداً ، وقت هيجانها : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ الأهواء الطبيعية ، والمُنى السيئة الرديئة ، ومحبات الأمور السفلية ، وقصور الشرور الموبقة ، التي تكسر بعض غلة الأشرار : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ لغلبة الحرص والشره ، بالشهوة ، والحقد ، والبغض وأمثالها ، واستيلاء دواعيها مع امتناع حصول مباغيها . انتهى .



---

وهذه الإشارات من المجازات التي تتسع لها اللغة ؛ لأنها لا تنحصر في الحقيقة ، ولا يقال إنها المرادة هنا ، لنبوؤها عن نظائرها من آيات الوعيد ، والله أعلم .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ تعليل لاستحقاقهم تلك الشدائد بتقليد الآباء في الضلال . والإهراع : الإسراع الشديد كأنهم يزعجون على الإسراع على آثارهم ، وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى ذلك من غير نظر وبحث ، بل مجرد تقليد وترك اتباع دليل . قال الرازي : ولو لم يوجد في القرآن آية غير هذه الآية في ذم التقليد ، لكفى .

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أي : أنبياء حذروهم العواقب .

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أي : الذين أُنذروا وخُوّفوا ، فقد أُهلكوا جميعاً .

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي : الذين أخلصوا دينهم لله ، أو الذين أخلصهم تعالى لدينه ، على القراءتين ؛ أي : فإنه تعالى نصرهم وجعل العاقبة لهم . ثم أشار تعالى إلى أنبائهم ، تثبيتاً لفؤاده صلوات الله عليه ، وتبشيراً لأتباعه ، بقوله :

(377/652)

---

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ أي : بقوله : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ [ نوح : 26 ] ، ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ أي : نحن بهلاك قومه ؛ لأنه لا يجيب المضطر غيره : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : من الغرق والطوفان . والمراد بأهله ، من آمن معه : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ أي : في الأرض بعد هلاك قومه .

: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أي : أبقينا عليه في الأمم بعده ثناء حسناً ، فمفعول تركنا محذوف ، أو ما حكاه تعالى بقوله : ﴿ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ أي : أن يسلموا عليه إلى يوم القيامة ؛ أي : أن يقولوا هذه الجملة . قال السمين : قوله : ﴿ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ ﴾ مبتدأ وخبر ، وفيه أوجه :

أحدها أنه مفسر لـ : تركنا . والثاني أنه مفسر لمفعوله . أي : تركنا عليه شيئاً وهو هذا

الكلام . أو ثَمّ قول مقدر ؛ أي : فقلنا سلام . أو ضمن تركنا معنى قلنا ، أو سلط تركنا على ما بعده . وقرئ سلاماً ، وهو مفعول به لـ : تركنا .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليل لما أثيب به من التكرمة ، بأنه مجازاة له على إحسانه ، وهو مجاهدته في إعلاء كلمة الله ، والدعوة إلى الحق ليلاً ونهاراً ، سراً وجهاراً .



---

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : المصدقين ، وتعليل إحسانه بالإيمان ، إظهار لفضل الإيمان ومزيته ، حيث مدح من هو من كبار الرسل به ، فالمقصود بالصفة مدحها نفسها ، لا مدح موصوفها ، وذلك لأن الإيمان أساس لكل خير يوجد ، ومركز لدائرته ، ومسك خاتمته .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أي : من كفار قومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿محاسن التأويل حـ 14 صـ 80.96﴾



---

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ والصافات ﴾ إشارة إلى ما جاء أن الأرواح خلقت قبل الأجساد في أربعة صفوف : الأول للأنبياء ، والثاني للأولياء ، والثالث للمؤمنين ، والرابع لأهل الكفر ﴿ فالزاجرات ﴾ هي الإلهامات الربانية للعوام عن المناهي ، وللخواص عن رؤية الأعمال ، وللأخص عن الالتفات إلى غير الله ﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ هم الذين يذكرون الله في الخلوات بخلوص النيات . رب سموات القلوب وأرض النفوس وما بينهما من صفاتهما ورب مشارق القلوب يطلع منها شموس الشواهد واقمار الطوالع ونجوم اللوامع . السماء الدنيا هي الرأس ، وكواكبها الحواس ، والشهب هي الخواطر الرحمانية تدفع بها الوساوس الشيطانية ﴿ طين لازب ﴾ أي لاصق بكل ما يصادفه فقوم لصقوا بالدنيا وقوم لصقوا بالآخرة وقوم لصقوا بنفحات ألطاف الحق ، فأذابتهم وجذبتهم عن أنانيتهم بهويتها كما تذيب الشمس الثلج وتجذبه عنه : ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ للسالك في كل مقام وقفة تناسب ذلك المقام وهو مسؤول عن أداء حقوق ذلك المقام . فقوم يسألهم الملك وقوم يسألهم الملك ، والأوّلون أقوام لهم أعمال صالحة تصلح للعرض والكشف . والآخرون قسمان : قوم لهم أعمال يسترها الحق عن اطلاع الخلق عليهم في الدنيا والآخرة كما قال " أوليائي تحت قبابي لا

يعرفهم غيري " وقوم لهم ذنوب لا يطلع عليها إلا الله فيسترها عليهم كما جاء ذكره في الحديث

(380/652)

---

" إن الله يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه يستره من الناس فيقول : أي عبدي تعرف ذنب كذا وكذا ؟ فيقول : نعم أي رب . ثم يقول : أي عبدي تعرف ذنب كذا ! وكذا ! ؟ فيقول : نعم . ثم يقول : اي عبدي تعرف ذنب كذا وكذا ؟ فيقول : نعم أي رب . حتى إذا قرره بذنوبه ورأى نفسه أنه قد هلك قال : فإني سترتها عليك في الدنيا وقد غفرتها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته " ﴿ إلا موتتنا الأولى ﴾ وهي الموتة الإرادية عن الصفات النفسانية وبعد ذلك لا موت ، بل ينتقل من دار إلى دار . ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ بل لمثل هذه الأمور تبذل الأرواح وتفدى الاشباح كما قيل : ( شعر )

على مثل ليلى يقتل المرء نفسه . . . وإن بات من ليلى على اليأس والصدّ

ثم أخبر بعد قصة الأولياء عن قصة الأعداء بقوله ﴿ أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم ﴾ وفي قوله ﴿ كأنه رؤوس الشياطين ﴾ دليل على أن أفعالهم كانت في قبح صفات الشياطين فكانت مكافأتهم من جنس صورة الشياطين ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾

أنه تعالى سلم على نوح الروح لأنه يحتاج إلى سلام الله ليعبر على الصراط المستقيم الذي هو أدقَ من الشعر وأحدّ من السيف ، ولهذا يكون دعوة الرسل حينئذ رب " سلم سلم " .

وإنما اختصوا بالصراط والعبور عليه ليؤدّوا الأمانة التي حملوها إلى أهلها وهو الله سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 5 صـ 564.565﴾

(381/652)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والخمسون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/653)

---

الجزء الثالث والخمسون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 83 ﴾ من سورة الصافات

وحتى الآية ﴿ 102 ﴾ من نفس السورة

(4/653)

---

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (87) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (93) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96)

قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98)

﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان لإبراهيم عليه السلام من التجرد عن النعوت البشرية والعلائق النفسانية إلى الأحوال الملكية ما لم يكن لمن بينهما من النبيين من المصارحة بالمعارضة لقومه ، والإبلاغ فيها بكسر الأوثان ، وتوهية مذهب الكفران ، والانفراد عما سوى الله في غمرات النيران ، حتى عن الدعاء بقلب أو لسان فناء عن جميع الأكوان ، ثم الهجرة عن الأوطان ، ثم بالخروج عن الأحباب والأخوان ، بوضع ابنه بكره وسريته في ذلك المكان ، الذي ليس به إنس ولا جان ، ثم بمعالجة ذبحه بأتم قوة وأقوى جنان ، ثم ببناء البيت ذوي الأركان ، قبلة للمتجردين من أهل الإيمان في كل أوان ، عما سوى الملك الديان ، يصفون عند كل صلاة مثل صفوف الملائكة الكرام ، وكان موافقاً لنوح عليه السلام مع ما تقدم في البركة في نسله بحيث إنهم قريب نصف أهل الأرض الآن ، وكان أشهر أمره في النار التي هي ضد أشهر أمر نوح عليه السلام في الماء ، تلاه به فقال مؤكداً إظهاراً أيضاً لما له من الكرامة والمنزلة العالية في الإمامة ، المقتضية للنشاط في الثناء عليه ، المنبهة على ما ينبغي من إتمام العزم في متابعته ، وتكذيباً لمن ادعى أنه ابتدع وخالف من كان قبله : ﴿ وإن من شيعته ﴾ أي الذين

خالط سره سرهم ووافق أمره أمرهم ، في التصلب في الدين والمصابرة للمفسدين ﴿ لإبراهيم ﴾ ثم علق بمعنى المشايعة بياناً لما كانت به المتابعة قوله على تقدير سؤال من قال : متى شايعه ؟ ﴿ إذا ﴾ أي حين ﴿ جاء ربه ﴾ أي المحسن في تربيته ﴿ بقلب سليم ﴾ أي بالغ السلامة عن حب غيره ، والمجيء مجاز عن الإخلاص الذي لا شائبة فيه كما أن الآتي إليك لا يكون شيء من بدنه عند غيرك ، ثم أبدل من ذلك ما هو دليل عليه فقال : ﴿ إذ قال لأبيه ﴾ أي الذي هو أعظم الناس عنده وأجلهم في غينه وأعزهم لديه ﴿ وقومه ﴾ أي الذين لهم من القوة والجدود ما تهابهم به الأسود : ﴿ ماذا ﴾ أي ما الذي ﴿ تعبدون ﴾ تحقيراً لأمرهم وأمر معبوداتهم منبهاً على أنه لا علة لهم

(5/653)

---

في الحقيقة تحمل على عبادتها غير مكترث بكثرتهم ولا هائب لقوتهم ولامراع لميل الطبع البشري إلى مودتهم .

ولما لوح لهم بالإنكار ، صرح فقال مقدماً للمفعول تخصيصاً : ﴿ أئفكاً ﴾ أي صرفاً للحق عن وجهه إلى قفاه .

ولما جعل معبوداتهم نفس الإفك ، أبدل منه قوله : ﴿ آلهة ﴾ ثم حقر شأنهم بقوله :

﴿ دون الله ﴾ أي الذي لا كفوء له ﴿ تريدون ﴾ ولما كان قد غلب عليه الشهود عند تحقيره لهم ، سبب عن ذلك تهديداً على فعلهم عظيماً ، فقال مشيراً إلى أنه يكفي العاقل في النهي ظن العطب : ﴿ فما ظنكم ﴾ ولما كان كفران الإحسان شديداً ، ذكرهم بإحسانه حافظاً لسياق التهديد بالإشارة إلى أنه يكفي في ذلك الخوف من قطع الإحسان فقال :

﴿ برب العالمين ﴾ اي الذي توحد بخلق جميع الجواهر والأعراض وتربيتهم فهو مستحق لتوحيدهم إياه في عبادتهم ، أتظنون أنه لا يعذبكم وقد صرفتم ما أنعم به عليكم إلى عبادة غيره ، إشارة إلى إنكار تجويز مثل هذا ، وأن المقطوع به أن محسناً لا يرضى بدوام إدرار إحسانه إلى من ينسبه إلى غيره .

(6/653)

---

ولما أفهم السياق شدة عداوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان الله تعالى قد أجرى عادته بأن جعل في النجوم أدلة على بعض المسائل الظنية لا سيما البحرانات في أنواع الأسقام ، وكان أهل تلك البلاد وهم الكسدانيون كما تقدم في الأنعام وكما قاله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وكما دلت عليه كتب الفتوحات ـ من أشد الناس نظراً في النجوم والاستدلال بها على أحوال هذا العالم في بعض ما كان وبعض ما يكون ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد

أن يتخلف عن الذهاب معهم إلى المحل الذي يجتمعون فيه للعيد ليكسر الأصنام ويريد إخفاء وقت الكسر عليهم ليتمكن من ذلك ، قال تعالى حاكياً عنه مشيراً إلى ذلك بالتسبب عما مضى : ﴿ فنظر نظرة ﴾ أي واحدة ﴿ في النجوم ﴾ حين طلبوا منه أن يخرج معهم إلى عيدهم لئلا ينكروا تخلفه عنهم موهماً لهم أنه استدل بتلك النظرة على مرض باطني يحصل له ، لأنهم ربما أنكروا كونه مريضاً إذا أخبرهم بغير النظر في النجوم لأن الصحة ظاهرة عليه ﴿ فقال ﴾ أي عقب هذه النظرة موهماً أنها سببه .

ولما كان بدنه صحيحاً فكان بصدد أن يتوقف في خبره ، أكد فقال : ﴿ إني سقيم ﴾ فأوهم أن مراده أنه مريض الجسد وأراد أنه مريض القلب بسبب آلهتهم ، مقسم الفكر في أمرهم لأنه يريد أمراً عظيماً وهو كسرها ، ومادة " سقم " بتقاليبها الخمسة : سقم سمق قسم قمس مقس ، تدور على القسم ، فالسقام كسحاب وجبل وقفل : المرض ، أي لأنه يقسم القوة والفكر ، وقال ابن القطاع : سقم : طاولة المرض .

(7/653)

---

وقسمه جزأه ، والدهر القوم : فرقهم ، والقسم - بالكسر : النصيب والقسم أي بالفتح : العطاء ، ولا يجمع ، والرأي والشك والعيب والماء والقدر والخلق والعادة ، ويكسر فيهما ،

والتفريق ظاهر في ذلك كله ، أما العطاء فيفرق المال ويقسمه ، والرأي يقسم الفكر والشك كذلك والعيب يقسم العرض والماء في غاية ما يكون من سهولة القسم ، والقدر يفصل صاحبه من غيره ، وكذا الخلق والعادة ، والمقسم كمعظم : المهموم – لتوزع فكره ، والجميل – لأنه يقسم القول في وصفه ، والقسم محركة : اليمين بالله ، وقد أقسم ، أي أزال تقسيم الفكر ، والقسامة : الحسن – لأنه يوزع فكر الناظر وجونة العطار – كذلك لطيب ريحها والقسام – كسحاب : شدة الحر – لأنها تزعج الفكر فتقسمه ، أو هو أول وقت الهاجرة أو وقت ذرور الشمس ، وهي حينئذ أحسن ما تكون مرآة – فينقسم الفكر فيها لحسنها إذ ذاك وما يطرأ عليها بعده .

والقمس : الغوص – لأن الغائص قسم الماء بغوصه ، والقمس أيضاً اضطراب الولد في البطن لأنه يقسم الفكر ، ويكاد أن يقسم البطن باضطرابه ، والقاموس : معظم البحر – لأن البحر قسم الأرض ، ومعظمه أحق بهذا الاسم ، والقوامس : الدواهي – لتقسيمها الفكر ، وانقمس النجم : غرب ، أي أخذ قسمه من الغروب كما أخذه من الشروق ، أو أزال التقسيم بالسير ، ومقسه في الماء : غطه – فانقسم الماء بغمسه فيه ، والقربة : ملأها ، فصير فيها من الماء ما يسهل قسمه ، وأخذه الماء الذي وضعه فيها تقسيم للماء المأخوذ منه ، ومقس الشيء : كسره ، والماء : جرى – فانقسم وقسم الأرض ، وهو يمقس الشعر كيف شاء ، أي بقوله فيقسمه من باقي الكلام ، والتمقيس في الماء : الإكثار من صبه ، فإن

ذلك تقسيم له، وسمق سموقاً: علا وطال فصار بطوله يقبل من القسمة ما لا يقبله ما هو دونه.

(8/653)

---

ولما فهموا عنه ظاهر قوله، وظنوا فيه ما يظهر من حاله، ولكنهم لم يسعهم لعظمته فيهم إلا التسليم، تركوه فقال تعالى مسبباً عن قوله مشيراً إلى استبعادهم مرضه بصيغة التفعل: ﴿فتولوا﴾ أي عالجوا أنفسهم وكلفوها أن انصرفوا ﴿عنه﴾ إلى محل اجتماعهم وإقامة عيدهم وأكد المعنى ونص عليه بقوله: ﴿مدبرين﴾ أي إلى معبدهم فخلا له الوقت من رقيب ﴿فراغ﴾ أي ذهب في خفية برشاقة وخفة، ونشاط وهمة، قال البيضاوي: وأصله الميل بحيلة ﴿إلى آلهتهم﴾ أي أصنامهم التي زعموها آلهة، وقد وضعوا عندها طعاماً، فخاطبها مخاطبة من يعقل لجعلهم إياها بذلك في عداد من يعقل ﴿فقال﴾ منكراً عليها متهكماً بها ظاهراً وموبخاً لقومه حقيقة: ﴿ألا تأكلون﴾ ثم زاد في إظهار الحق والاستهزاء بانحطاطها عن رتبة عابديها فقال: ﴿ما﴾ أي أيّ شيء حصل ﴿لكم﴾ في أنكم ﴿لا تنطقون﴾.

ولما أخبر تعالى أنه أظهر ما يعرفه باطناً من الحجة فقال: ﴿فراغ﴾ أي سبب عن إقامته

الحجة أنه أقبل مستعلياً ﴿ عليهم ﴾ بغاية النشاط والخفة والرشاقة يضربهم ﴿ ضربا باليمين ﴾ أي بغاية القوة ، وجعل السياق للمصدر إشارة إلى قوة الهمة بحيث صار كله ضرباً .

ولما تسبب عن ذلك أنهم لما علموا بكسرها ظنوا فيه لما كانوا يسمعونه منه من ذمها وحلفه بأنه ليكيدنها فأتوه ، أخبر عن ذلك بقوله مسبباً : ﴿ فأقبلوا ﴾ ودل على أنه من مكان بعيد بقوله : ﴿ إليه يزفون ﴾ أي يسرعون ، وقراءة حمزة بالبناء للمفعول أدل على شدة الإسراع لدلالتها على أنهم جاؤوا على حالة كان حاملاً يحملهم فيها على الإسراع وقاهراً يقهرهم عليه من شدة ما في نفوسهم من الوجد .

(9/653)

---

ولما كان من المعلوم أنهم كلموه في ذلك فطال كلامهم ، وكان تشوف النفس إلى جوابه أكثر ، استأنف الخبر عنه في قوله : ﴿ قال ﴾ غير هائب لهم ولا مكترث بهم لرؤيته لهم فانين منكراً عليهم : ﴿ أتعبدون ﴾ وندبهم بالمضارع إلى التوبة والرجوع إلى الله ، وعبر بأداة ما لا يعقل كما هو الحق فقال : ﴿ ما تنحتون ﴾ أي إن كانت العبادة تحق لأحد غير الله فهم أحق أن يعبدوكم لأنكم صنعتموهم ولم يصنعوكم .

ولما كان المتفرد بالنعمة وهو المستحق للعبادة ، وكان الإيجاد من أعظم النعم ، وكان قد بين أنهم إنما عبدوها لأجل عملهم الذي عملوه فيها فصيرها إلى ما صارت إليه من الشكل ، قال تعالى مبيناً أنه هو وحده خالقهم وخالق أعمالهم التي ما عبدوا في الحقيقة إلا هي ، وأنه لا مدخل لمنحوتاتهم في الخلق فلا مدخل لها في العبادة : ﴿ والله ﴾ أي والحال أن الملك الأعظم الذي لا كفوء له ﴿ خلقكم ﴾ أي أوجدكم على هذه الأشكال ﴿ وما تعملون ﴾ أي وخلق عملكم ومعمولكم ، فهو المتفرد بجميع الخلق من الذوات والمعاني ، ومعلوم أنه لا يعبد إلا من كان كذلك لأنه لا يجوز لعاقل أن يشكر على النعمة إلا ربها .

ولما كان السامع يعلم أنهم لا بد وأن لا يجيبوه بشيء ، فتشوف إلى ذلك ، أجيب بقوله : ﴿ قالوا ابنوا له ﴾ أي لأجله ﴿ بنياناً ﴾ أي من الأحطاب حتى تصير كالجبل العظيم ، فاحرقوها حتى يشتد لهبها جداً فيصير جحيماً ﴿ فألقوه في ﴾ ذلك ﴿ الجحيم ﴾ أي معظم النار ، وهي على أشد ما يكون إيقاداً .

(10/653)

---

ولما كان هذا مسبباً عن إرادتهم لإهانته قال : ﴿ فأرادوا به ﴾ أي إبراهيم عليه السلام بسبب هذا الذي عملوه ﴿ كيداً ﴾ أي تدبيراً يبطل أمره ليعلوا أمرهم ولا يبطل بما أظهر

عن عجزهم دينهم ﴿ فجعلناهم ﴾ أي بعظمتنا بسبب عملهم ﴿ الأسفلين ﴾ المقهورين بما أبطلنا من نارهم وجعلناها عليه برداً وسلاماً بضد عادتها في العمل ، فنفذ عملنا وهو خارق للعادة وبطل عملهم الذي هو على مقتضى العادة ، فظهر عجزهم في فعلهم كما ظهر عجزهم في قولهم ، بما أظهرناه من الحجة على لسان خليلنا عليه السلام ، وظهرت قدرتنا واختيارنا ، وإنما فسرت الكيد بما ذكرت لأنه المكر والخبث والاحتيال والخديعة والتدبير بحق أو باطل والحرب والخوف ، فكل هذه المعاني - كما ترى - تدور على التدبير وإعمال الفكر وإدارة الرأي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 321 . 325 ﴾

(11/653)

---

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ يزفون ﴾ بضم الياء وكسر الزاي : حمزة . الباقون : بفتح الياء ﴿ إني أرى ﴾ ﴿ إني أذبحك ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وابو عمرو . ﴿ وترى ﴾ بضم التاء وكسر الراء : علي وخلف وحمزة . ﴿ ستجدني ﴾ بفتح ياء المتكلم : أبو جعفر ونافع ﴿ وإن إلياس ﴾ موصولاً كهمزة الوصل : ابن مجاهد والنقاش عن ابن

ذكوان. الآخرون: بكسر الهمزة ﴿ الله ربكم ورب ﴾ بالنصب في ثلاثتها على البدل: سهل ويعقوب وحمزة وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد والمفضل. الباقون: برفعها على الابتداء والخبر. ﴿ آل ياسين ﴾ ابن عامر ونافع ورويس. الآخرون ﴿ إلياسين ﴾ كأنه جمع إلياس ﴿ لكاذبون اصطفى ﴾ موصلاً والابتداء بكسر الهمزة: يزيد وإسماعيل والأصبهاني عن ورش الباقون: بفتحها في الحالين.

(12/653)

---

الوقوف: ﴿ لإبراهيم ﴾ 5 ط لأن التقدير "واذكر". وجوز في الكشاف أن يتعلق الظرف بما في الشيعة من معنى المتابعة فلا وقف ﴿ سليم ﴾ 5 ﴿ تعبدون ﴾ 5ج للابتداء بالاستفهام مع اتحاد المقول ﴿ تريدون ﴾ 5 ط لاستفهام آخر ﴿ العالمين ﴾ 5 ﴿ في النجوم ﴾ 5 لا للفاء واتحاد المعنى ﴿ سقيم ﴾ 5 ﴿ مدبرين ﴾ 5 ﴿ تأكلون ﴾ 5ج للاستفهام مع الاتحاد كما مر ﴿ لا تنطقون ﴾ 5 ﴿ باليمين ﴾ 5 ﴿ يزفون ﴾ 5 ﴿ تنحتون ﴾ 5 لا لأن الواو للحال ﴿ تعملون ﴾ 5 ﴿ في الجحيم ﴾ 5 ﴿ الأسفلين ﴾ 5 ﴿ سيهدين ﴾ 5 ﴿ الصالحين ﴾ 5 ﴿ حليم ﴾ 5 ﴿ ماذا ترى ﴾ ط ﴿ ما تؤمر ﴾ ز للسين مع اتصال المقول ﴿ الصابرين ﴾ 5 ﴿ للجبين ﴾ 5ج

لاحتمال أن الواو مقحمة ﴿ وناديناه ﴾ جواب " لما " ، ولاحتمال أن الجواب محذوف أي قبلنا منه وناديناه ﴿ يا إبراهيم ﴾ 5 لا ﴿ الرؤيا ﴾ ج لاحتمال أن ما بعده داخل في حكم النداء أو مستأنف ﴿ المحسنين ﴾ 5 ﴿ المبين ﴾ 5 ﴿ عظيم ﴾ 5 ﴿ في الآخرين ﴾ 5 لا ﴿ إبراهيم ﴾ 5 ﴿ المحسنين ﴾ 5 ﴿ المؤمنين ﴾ 5 ﴿ الصالحين ﴾ 5 ﴿ إسحق ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ وهارون ﴾ 5 ج للآية مع العطف ﴿ العظيم ﴾ 5 ج لذلك ﴿ الغالبين ﴾ 5 لا ﴿ المستبين ﴾ 5 ج ﴿ المستقيم ﴾ 5 ج ﴿ في الآخرين ﴾ 5 لا ﴿ وهارون ﴾ 5 ﴿ المحسنين ﴾ 5 ﴿ المؤمنين ﴾ 5 ﴿ المرسلين ﴾ 5 لا وجه صحيح وإن لم يكن مقصوداً فلهذا لم يكن الوقف لازماً . ﴿ تتقون ﴾ 5 ﴿ الخالقين ﴾ 5 لا لمن قرأ ﴿ الله ﴾ بالنصب ﴿ الأوّلين ﴾ 5 ﴿ لمحضرون ﴾ 5 ﴿ المخلصين ﴾ 5 ﴿ في الآخرين ﴾ 5 لا ﴿ الياسين ﴾ 5 ﴿ المحسنين ﴾ 5 ﴿ المؤمنين ﴾ 5 ﴿ المرسلين ﴾ 5 ﴿ أجميعن ﴾ 5 لا ﴿ الغابرين ﴾ 5 ﴿ الآخرين ﴾ 5 ﴿ مصبحين ﴾ 5 لا ﴿ وبالليل ﴾ ط ﴿ تعقلون ﴾ 5 ﴿ المرسلين ﴾ 5 لا ﴿ المشحون ﴾ 5 لا ﴿ المدحضين ﴾ 5 ج لحق المحذوف مع الفاء ﴿ مليم ﴾ 5 ﴿ من المسبحين ﴾ 5 لا ﴿ يبعثون ﴾ 5 ﴿ سقيم ﴾ 5 ج ﴿ يقطين ﴾ 5 ج ﴿ أو يزيدون ﴾ 5 ط ﴿ إلى حين ﴾ 5 ط ﴿ البنون ﴾ 5 ط ﴿ شاهدون ﴾ 5 ﴾

ليقولون ﴾ 5 لا ﴿ ولد الله ﴾ لا تعجيلاً لتكذيبهم ﴿ لكاذبون ﴾ 5 ﴿ البنين ﴾ 5 ط لابتداء استفهام آخر ﴿ تحكمون ﴾ 5 ﴿ تذكرون ﴾ 5 ج لأن "أم" تصلح استئنافاً ﴿ مبين ﴾ 5 لا لتعجيل أمر التعجيز ﴿ صادقين ﴾ 5 ﴿ نسباً ﴾ ط ﴿ لمحضرون ﴾ 5 لا لتعلق الاستثناء و ﴿ سبحان الله ﴾ معترض ﴿ يصفون ﴾ 5 ﴿ المخلصين ﴾ 5 ﴿ تعبدون ﴾ 5 لا ﴿ بفاتنين ﴾ 5 لا ﴿ الجحيم ﴾ 5 ﴿ معلوم ﴾ 5 ﴿ الصافون ﴾ 5 ج للعطف مع الاتفاق ﴿ المسبحون ﴾ 5 ج ﴿ ليقولون ﴾ 5 لا ﴿ من الأوّلين ﴾ 5 لا ﴿ المخلصين ﴾ 5 ﴿ يعلمون ﴾ 5 ﴿ المرسلين ﴾ 5 لأن ما بعده يصلح ابتداء مقولاً للكلمة ﴿ المنصورون ﴾ 5 ص لعطف الجملتين المفقتين ﴿ الغالبون ﴾ 5 ﴿ حين ﴾ 5 لا للعطف ولشدة اتصال المعنى ﴿ يبصرون ﴾ 5 ﴿ يستعجلون ﴾ 5 ﴿ المنذرين ﴾ 5 ﴿ حين ﴾ 5 لا ﴿ يبصرون ﴾ 5 ﴿ عما يصفون ﴾ 5 ج لعطف جملتين مختلفتين ﴿ المرسلين ﴾ 5 ج للابتداء بالحمد الذي به يبتدأ الكلام وإليه ينتهي مع اتفاق الجملتين ﴿ العالمين ﴾ 5. انتهى انتهى. ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 5 صـ 566.567 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

الضمير في قوله من شيعته إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان : الأول : وهو الأظهر أنه عائد إلى نوح عليه السلام أي من شيعة نوح أي من أهل بيته وعلى دينه ومنهاجه لإبراهيم ، قالوا : وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان هود وصالح ، وروى صاحب "الكشاف" أنه كان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة الثاني : قال الكلبي المراد من شيعة محمد لإبراهيم بمعنى أنه كان على دينه ومنهاجه فهو من شيعته وإن كان سابقاً له والأول أظهر ، لأنه تقدم ذكر نوح عليه السلام ، ولم يتقدم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فعود الضمير إلى نوح أولى .

المسألة الثانية :

العامل في ﴿ إِذْ ﴾ ما دل عليه قوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ من معنى المشايعة يعني وإن ممن

شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم .

أما قوله : ﴿ إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

في قوله : ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ قولان : الأول : قال مقاتل والكلبي يعني خالص من الشرك ، والمعنى أنه سلم من الشرك فلم يشرك بالله والثاني : قال الأصوليون المراد أنه عاش ومات على طهارة القلب من كل دنس من المعاصي ، فيدخل فيه كونه سليماً عن الشرك وعن الشك وعن الغل والغش والحقد والحسد .

(15/653)

---

عن ابن عباس أنه كان يحب للناس ما يحب لنفسه ، وسلم جميع الناس من غشه وظلمه وأسلمه الله تعالى فلم يعدل به أحداً ، واحتج الذاهبون إلى القول الأول بأنه تعالى ذكر بعد هذه الكلمة إنكاره على قومه الشرك بالله ، وهو قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ واحتج الذاهبون إلى القول الثاني بأن اللفظ مطلق فلا يقيد بصفة دون صفة ، ويتأكد هذا بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عالمين ﴾ [ الأنبياء : 51 ] مع أنه تعالى قال : ﴿ الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [ الأنعام : 124 ] وقال :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبراهيم مَلَكُوتَ السموات والأرض وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ [ الأنعام : 75 ] فإن قيل ما معنى المجيء بقلبه ربه ؟ قلنا معناه أنه أخلص لله قلبه ، فكأنه أتحف حضرة الله بذلك القلب ، ورأيت في التوراة أن الله قال لموسى أجب إلهك بكل قلبك .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن إبراهيم جاء ربه بقلب سليم ذكر أن من جملة آثار تلك السلامة أن دعا أباه وقومه إلى التوحيد فقال : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ والمقصود من هذا الكلام تهجين تلك الطريقة وتقبيحها .

ثم قال : ﴿ أئفكاً آلِهَةً دُونَ الله تُرِيدُونَ ﴾ قال صاحب "الكشاف" أئفكا مفعول له تقديره أتريدون آلهة من دونه إفكاً ، وإنما قدم المفعول على الفعل للعناية وقدم المفعول له على المفعول به لأنه كان الأهم عنده أن يقرر عندهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم ، ويجوز أن يكون إفكاً مفعولاً به يعني أتريدون إفكاً ، ثم فسر الإفك بقوله : ﴿ آلهة دُونَ الله ﴾ على أنها إفك في أنفسها ، ويجوز أن يكون حالاً بمعنى تريدون آلهة من دون الله آفكين .

(16/653)

---

ثم قال : ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين ﴾ وفيه وجهان أحدهما : أتظنون برب العالمين أنه يجوز جعل هذه الجمادات مشاركة له في المعبودية وثانيها : أتظنون برب العالمين أنه من

جنس هذه الأجسام حتى جعلتموها مساوية له في المعبودية فنبههم بذلك على أنه ليس كمثله شيء .

ثم قال : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النجوم * فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ عن ابن عباس أنهم كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم على مقتضى عادتهم ، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه فأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خالياً في بيت الأصنام فيقدر على كسرها وههنا سؤالان الأول : أن النظر في علم النجوم غير جائز فكيف أقدم عليه إبراهيم والثاني : أنه عليه السلام ما كان سقيماً فلما قال إني سقيم كان ذلك كذباً ، واعلم أن العلماء ذكروا في الجواب عنهما وجوهاً كثيرة الأول : أنه نظر نظرة في النجوم في أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه سقامة كالحمى في بعض ساعات الليل والنهار ، فنظر ليعرف هل هي في تلك الساعة وقال : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ فجعله عذراً في تخلفه عن العيد الذي لهم وكان صادقاً فيما قال ، لأن السقم كان يأتيه في ذلك الوقت ، وإنما تخلف لأجل تكسير أصنامهم الوجه الثاني : في الجواب أن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الأمور ، فلذلك نظر إبراهيم في النجوم أي في علوم النجوم وفي معانيه لا أنه نظر بعينه إليها ، وهو كما يقال فلان نظر في الفقه وفي النحو وإنما أراد أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون حتى إذا قال : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ سكنوا إلى قوله .

أما قوله : ﴿ إِنّى سَقِيمٌ ﴾ فمعناه سأسقم كقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيّتٌ ﴾ [ الزمر : 30 ] أي ستموت الوجه الثالث : أن قوله : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النجوم ﴾ هو قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل رَأَى كَوْكَباً ﴾ [ الأنعام : 76 ] إلى آخر الآيات وكان ذلك النظر لأجل أن يتعرف أحوال هذه الكواكب هل هي قديمة أو محدثة ، وقوله : ﴿ إِنّى سَقِيمٌ ﴾ يعني سقيم القلب غير عارف بربي وكان ذلك قبل البلوغ الوجه الرابع : قال ابن زيد كان له نجم مخصوص ، وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض إبراهيم ولأجل هذا الاستقراء لما رآه في ذلك الوقت طالعاً على تلك الصفة المخصوصة قال : ﴿ إِنّى سَقِيمٌ ﴾ أي هذا السقم واقع لا محالة الوجه الخامس : أن قوله : ﴿ إِنّى سَقِيمٌ ﴾ أي مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك ، قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ ﴾ [ الشعراء : 3 ] الوجه السادس : في الجواب أنا لا نسلم أن النظر في علم النجوم والاستدلال بمقايستها حرام ، لأن من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بقوة وبخاصية لأجلها يظهر منه أثر مخصوص ، فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل .

وأما الكذب فغير لازم لأنه ذكر قوله : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ على سبيل التعريض بمعنى أن الإنسان لا ينفك في أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة ، إما في بدنه وإما في قلبه وكل ذلك سقم .

(18/653)

---

الوجه السابع : قال بعضهم ذلك القول عن إبراهيم عليه السلام كذبة ورووا فيه حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات " قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغي أن يقبل لأن نسبة الكذب إلى إبراهيم لا تجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول ؟ فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب إلى الراوي وبين نسبته إلى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة أن نسبته إلى الراوي أولى ، ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد بكونه كذباً خبراً شبيهاً بالكذب ؟ والوجه الثامن : أن المراد من قوله ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النجوم ﴾ أي نظر في نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم ، فإن الأشياء التي تحدث قطعة قطعة يقال إنها منجمة أي متفرقة ومنه نجوم الكتابة ، والمعنى أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها كي يستخرج منها حيلة يقدر بها على إقامة عذر لنفسه في التخلف عنهم فلم يجد عذراً أحسن من قوله : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ والمراد أنه لا بد من أن

أصير سقيماً كما تقول لمن رأيته على أوقات السفر إنك مسافر .

واعلم أن إبراهيم عليه السلام لما قال : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ تولوا عنه معرضين فتركوه وعذروه في أن لا يخرج اليوم فكان ذلك مراده ﴿ فَرَاغَ إلى ءالِهَتِهِمْ ﴾ يقال : راغ إليه إذا مال إليه في السر على سبيل الخفية ، ومنه روغان الثعلب .

وقوله : ﴿ أَلا تَأْكُلُونَ ﴾ يعني الطعام الذي كان بين أيديهم ، وإنما قال ذلك استهزاء بها ، وكذا قوله : ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً ﴾ فأقبل عليهم مستخفياً كأنه قال فضربهم ضرباً لأن راغ عليهم في معنى ضربهم أو فراغ عليهم ضرباً بمعنى ضارباً .

(19/653)

---

وفي قوله : ﴿ باليمين ﴾ قولان الأول : معناه بالقوة والشدة لأن اليمين أقوى الجارحتين والثاني : أنه أتى بذلك الفعل بسبب الحلف ، وهو قوله تعالى عنه : ﴿ وتالله لأَكِيدَنَّ أصنامكم ﴾ [ الأنبياء : 57 ] ثم قال : ﴿ فَأَقْبَلُواْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ قرأ حمزة ﴿ يُزِفُّونَ ﴾ بضم الياء والباقون بفتحها وهما لغتان ، قال ابن عرفة من قرأ بالنصب فهو من زف يزف ، ومن قرأ بالضم فهو من أزف يزف ، قال الزجاج : يزفون يسرعون وأصله من زفيف النعامة وهو ابتداء عدوها ، وقرأ حمزة يزفون أي يحملون غيرهم على الزفيف ، قال الأصمعي

يقال أزففت الإبل إذا حملتها على أن تزف ، قال وهو سرعة الخطوة ومقاربة المشي والمفعول محذوف على قراءته كأنهم حملوا دوابهم على الإسراع في المشي ، فإن قيل مقتضى هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام لما كسرها عدوا إليه وأخذوه ، وقال في سورة أخرى في عين هذه القصة

﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظالمين * قالوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبراهيم ﴾ [ الأنبياء : 59 ، 60 ] وهذا يقتضي أنهم في أول الأمر ما عرفوه فبين هاتين الآيتين تناقض ؟ قلنا لا يبعد أن يقال إن جماعة عرفوه فعمدوا إليه مسرعين .

والأكثرون ما عرفوه فتعرفوا أن ذلك الكاسر من هو ، والله أعلم .

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95)

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(20/653)

---

اعلم أن القوم لما عاتبوا إبراهيم على كسر الأصنام فهو أيضاً ذكر لهم الدليل الدال على فساد المصير إلى عبادتها فقال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾

ووجه الاستدلال ظاهر وهو أن الخشب والحجر قبل النحت والإصلاح ما كان معبوداً للإنسان ألبتة ، فإذا نحته وشكله على الوجه المخصوص لم يحدث فيه إلا آثار تصرفه ، فلو صار معبوداً عند ذلك لكان معناه أن الشيء الذي ما كان معبوداً لما حصلت آثار تصرفاته فيه صار معبوداً عند ذلك ، وفساد ذلك معلوم ببديهة العقل .

المسألة الثانية :

(21/653)

---

احتج جمهور الأصحاب بقوله : ﴿ والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى فقال النحويون : اتفقوا على أن لفظ ما مع ما بعده في تقدير المصدر فقوله : ﴿ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ معناه وعملكم ، وعلى هذا التقدير صار معنى الآية والله خلقكم وخلق عملكم ، فإن قيل هذه الآية حجة عليكم من وجوه الأول : أنه تعالى قال : ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ أضاف العبادة والنحت إليهم إضافة الفعل إلى الفاعل ولو كان ذلك واقعاً بتخليق الله لاستحال كونه فعلاً للعبد الثاني : أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية توبيخاً لهم على عبادة الأصنام ، لأنه تعالى بين أنه خالقهم وخالق لتلك الأصنام والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق ، فلما تركوا عبادته سبحانه وهو خالقهم وعبدوا الأصنام لا جرم أنه

سبحانه وتعالى وبخهم على هذا الخطأ العظيم فقال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ولو لم يكونوا فاعلين لأفعالهم لما جاز توبيخهم عليها سلمنا أن هذه الآية ليست حجة عليكم لكن لا نسلم أنها حجة لكم ، قوله لفظة ما مع ما بعدها في تقدير المصدر ، قلنا هذا ممنوع وبيانه أن سيبويه والأخفش اختلفا في أنه هل يجوز أن يقال أعجبني ما قمت أي قيامك فجوزه سيبويه ومنعه الأخفش وزعم أن هذا لا يجوز إلا في الفعل المتعدي وذلك يدل على أن ما مع ما بعدها في تقدير المفعول عند الأخفش ، سلمنا أن ذلك قد يكون بمعنى المصدر ، لكنه أيضاً قد يكون بمعنى المفعول ويدل عليه وجوه الأول : قوله : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ والمراد بقوله : ﴿ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ المنحوت لا النحت لأنهم ما عبدوا النحت وإنما عبدوا المنحوت فوجب أن يكون المراد بقوله : ﴿ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ المعمول لا العمل حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر والثاني : أنه تعالى قال : ﴿ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [ الأعراف : 117 ] وليس المراد أنها تلقف

*(22/653)*

---

نفس الإفك بل أراد العصي والحبال التي هي متعلقات ذلك الإفك فكذا ههنا الثالث : أن العرب تسمي محل العمل عملاً يقال في الباب والخاتم هذا عمل فلان والمراد محل عمله فثبت

بهذه الوجوه الثلاثة أن لفظة ما مع بعدها كما تجيء بمعنى المصدر فقد تجيء أيضاً بمعنى المفعول فكان حمله ههنا على المفعول أولى لأن المقصود في هذه الآية تزييف مذهبهم في عبادة الأصنام لا بيان أنهم لا يوجدون أفعال أنفسهم ، لأن الذي جرى ذكره في أول الآية إلى هذا الموضع هو مسألة عبادة الأصنام لا خلق الأعمال ، واعلم أن هذه السؤالات قوية وفي دلائلنا كثيرة ، فالأولى ترك الاستدلال بهذه الآية ، والله أعلم .

واعلم أن إبراهيم عليه السلام لما أورد عليهم هذه الحجة القوية ولم يقدروا على الجواب عدلوا إلى طريق الإيذاء فقالوا : ابنوا له بنياناً واعلم أن كيفية ذلك البناء لا يدل عليها لفظ القرآن ، قال ابن عباس : بنو حائطاً من حجر طوله في السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وملأوه ناراً فطرحوه فيها ، وذلك هو قوله تعالى : ﴿ فَأَلْقُوهُ فِى الجحيم ﴾ وهي النار العظيمة ، قال الزجاج : كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم ، والألف واللام في الجحيم يدل على النهاية والمعنى في جحيمه ، أي في جحيم ذلك البنيان ، ثم قال تعالى : ﴿ فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ والمعنى أن في وقت المحاجة حصلت الغلبة له ، وعندما ألقوه في النار صرف الله عنه ضرر النار ، فصار هو الغالب عليهم . انتهى . ا . هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 127 . 131 ﴾

(23/653)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾

ونداء نوح عليه السلام قد تضمن أشياء منها الدعاء على قومه ، ومنها سؤال النجاة ومنها طلب النصرة ، وفي جميع ذلك وقعت الإجابة ، وقوله تعالى : ﴿ فلنعم المجيبون ﴾ يقتضي الخبر أن الإجابة كانت على أكمل ما أراد نوح عليه السلام ، و ﴿ الكرب العظيم ﴾ قال السدي : هو الغرق .

قال القاضي أبو محمد : ومن ﴿ الكرب ﴾ تكذيب الكفرة وركوب الماء وهوله قال الرماني : ﴿ الكرب ﴾ : الحر الثقيل على القلب ، وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ قال ابن عباس وقتادة : أهل الأرض كلهم من ذرية نوح ، قال الطبري : والعرب من أولاد سام ، والسودان من أولاد حام ، والترك والصقلب وغيرهم من أولاد يافث ، وروي عن سمرة بن جندب أن النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ فقال : " سام وحام ويافث " ، وقالت فرقة : إن الله تعالى أبقى ذرية نوح ومد نسله وبارك في ضئضئه وليس الأمر بأن أهل الأرض انحصروا إلى نسله بل في الأمم من لا يرجع إليه ، والأول أشهر عند علماء الأمة وقالوا ﴿ نوح ﴾ هو آدم الأصغر ، وقوله ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ معناه ثناء حسناً جميلاً آخر الدهر ، قاله ابن عباس ومجاهد

وقتادة والسدي ، وقوله ﴿ سلام ﴾ عل هذا التأويل رفع بالابتداء مستأنف سلم الله به عليه ليقتدي بذلك البشر ، قال الطبري : هذه أمانة منه لنوح في العالمين أن يذكره أحد بسوء .

(24/653)

---

قال القاضي أبو محمد : هذا جزاء ما صبر طويلاً على أقوال الكفرة الفجرة ، وقال الفراء وغيره من الكوفيين : قوله ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ جملة في موضع نصب ب ﴿ تركنا ﴾ وهذا هو المتروك عليه ، فكأنه قال وتركنا على نوح تسليماً يسلم به عليه إلى يوم القيامة ، وفي قراءة عبد الله " سلاماً على نوح " على النصب ب ﴿ تركنا ﴾ صلى الله على نوح وعلى أهله وسلم تسليماً وشرف وكرم على جميع أنبيائه و ﴿ في الآخرين ﴾ معناه في الباقين غابر الدهر ، والقراءة بكسر الخاء وما كان من إهلاك فهو بفتحها .

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80)

قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى إنعامه على نوح بالإجابة كما اقترح ، وأثنى تعالى على نوح بالإحسان ، لصبره على أذى قومه ومطاولته لهم وغير ذلك من عبادته وأفعاله صلى الله عليه وسلم ، وقوله تعالى : ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ يقتضي أنه أغرق قوم نوح وأمته

ومكذبيه، وليس في ذلك نص على أن الغرق عم جميع أهل الأرض، ولكن قد قالت جماعة من العلماء وأسندت أحاديث بأن الغرق عم جميع الناس إلا من كان معه في السفينة، وعلى هذا ترتب القول بأن الناس اليوم من ذريته، وقالوا لم يكن الناس حينئذ بهذه الكثرة لأن عهد آدم كان قريباً، وكانت دعوة نوح ونبوءته قد بلغت جميعهم لطول المدة واللبث فيهم فكان الجميع كفرة عبدة أوثان لم يثنهم الحق إلى نفسه فلذلك أغرق جميعهم، وقوله تعالى:

﴿ من شيعته ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي: الضمير عائد على نوح، والمعنى في الدين والتوحيد، وقال الطبري وغيره عن الفراء: الضمير عائد على محمد صلى الله عليه وسلم والإشارة إليه.

قال القاضي أبو محمد: وذلك كله محتمل لأن " الشيعة " معناها الصنف الشائع الذي يشبه بعضه بعضاً والشيع الفرق وإن كان الأعرف أن المتأخر في الزمن هو شيعة للمتقدم ولكن قد يجيء من الكلام عكس ذلك قال الشاعر [ الكميت ]:



---

وما لي إلا آل أحمد شيعة . . . وما لي إلا مشعب الحق مشعب

فجعلهم شيعة لنفسه، وقوله تعالى: ﴿ بقلب سليم ﴾ قال المفسرون: يريد من الشرك

والشك وجميع النقائص التي تلحق قلوب بني آدم كالغل والحسد والكبر ونحوه قال عروة بن الزبير : لم يلعن شيئاً قط ، وقوله ﴿ أئفكاً ﴾ استفهام بمعنى التقرير أي أكذباً ومحالاً ﴿ آلهة دون الله تريدون ﴾ ، ونصب ﴿ آلهة ﴾ على البدل من قوله ﴿ أئفكاً ﴾ وسهلت الهمزة الأصلية من الإفك وقوله تعالى : ﴿ فما ظنكم ﴾ توبيخ وتحذير وتوعد ، ثم أخبر تعالى عن نظرة إبراهيم عليه السلام في النجوم ، وروي أن قومه كان لهم عيد يخرجون إليه فدعوا إبراهيم عليه السلام إلى الخروج معهم فنظر حينئذ واعتذر بالسقم وأراد البقاء خلافهم إلى الأصنام ، وقال ابن زيد عن أبي أرسل إليه ملكهم أن غداً عيد فاحضر معنا فنظر إلى نجم طالع فقال إن هذا يطلع مع سقمي ، فقالت فرقة معنى " نظر في النجوم " أي فيما نجم إليه من أمور قومه وحاله معهم ، وقال الجمهور نظر نجوم السماء ، وروي أن علم النجوم كان عندهم منظوراً فيه مستعملاً فأوهمهم هو من تلك الجهة ، وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة ، وهاتان المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظر في النجوم ، واختلف أيضاً في قوله ﴿ إني سقيم ﴾ ، فقالت فرقة هي كذبة في ذات الله تعالى أخبرهم عن نفسه أنه مريض وأن الكوكب أعطاه ذلك ، وقال ابن عباس وغيره : أشار لهم إلى مرض وسقم يعدي كالطاعون ولذلك تولوا ﴿ مدبرين ﴾ أي فارين منه ، وقال بعضهم بل تولوا ﴿ مدبرين ﴾ لكفرهم واحتقارهم لأمره .

قال القاضي أبو محمد : وعلى هذا التأويل في أنها كذبة يجيء الحديث لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : قوله ﴿ إني سقيم ﴾ ، وقوله ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ [ الأنبياء : 63 ] وقوله في سارة هي أختي ، وقالت فرقة : ليست بكذبة ولا يجوز الكذب عليه ولكنها من المعاريض أخبرهم بأنه سقيم في المثال وعلى عرف ابن آدم لا بد أن يسقم ضرورة ، وقيل أراد على هذا ﴿ إني سقيم ﴾ النفس أي من أموركم وكفركم فظهر لهم من كلامه أنه أراد سقماً بالجسد حاضراً وهكذا هي المعاريض .

قال القاضي أبو محمد : وهذا التأويل لا يرده الحديث وذكر الكذبات لأنه قد يقال لها كذب على الاتساع بحسب اعتقاد المخبر ، والكذب الذي هو قصد قول الباطل ، والإخبار بضد ما في النفس بغير منفعة شرعية ، هو الذي لا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم .

فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91)

" راغ " معناه مال ، ومنه قول عدي بن زيد : [ الخفيف ]

حيث لا ينفع الرياغ ولا . . . ينفع إلا المصلق النحرير

وقوله تعالى : ﴿ ألا تأكلون ﴾ هو على جهة الاستهزاء بعبدة تلك الأصنام ، وروي أن عادة أولئك كانت أنهم يتركون في بيوت الأصنام طعاماً ، ويعتقدون أنها تصيب منه شميماً ونحو هذا من المعتقدات الباطلة ، ثم كان خدم البيت يأكلونه ، فلما دخل إبراهيم وقف على الأكل ، والنطق والمخاطبة للأصنام والقصد الاستهزاء بعابدها ، ثم مال عند ذلك إلى ضرب تلك الأصنام بفأس حتى جعلها جذاذاً واختلف في معنى قوله ﴿ باليمين ﴾ فقال ابن عباس : أراد يمنى يديه ، وقيل : أراد بقوته لأنه كان يجمع يديه معاً بالفأس ، وقيل أراد يمين القسم في قوله ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ [ الأنبياء : 57 ] و﴿ ضرباً ﴾ نصب على المصدر بفعل مضمر من لفظه ، وفي مصحف عبد الله عليهم " صفعاً باليمين " ، والضمير في ﴿ أقبلوا ﴾ لكفار قومه ، وقرأ جمهور الناس "يَزفون" بفتح الياء من زف إذا أسرع وزفت الإبل إذا أسرعت ، ومنه قول الفرزدق : [ الطويل ]

فجاء قريع الشول قبل افالها . . . يزف وجاءت خلفه وهي زفف

ومنه قول الهذلي :

وزفت الشول من برد العشيّ كما . . . زفت النعام إلى حفانه الروح

وقرأ حمزة وحده "يُزفزن" بضم الياء من أزف إذا دخل في الزفيف وليست بهمزة تعدية هذا قول ، وقال أبو علي : معناه يحملون غيرهم على الزفيف ، وحكاه عن الأصمعي وهي قراءة مجاهد وابن وثاب والأعمش ، وقرأ مجاهد وعبد الله بن زيد "يَزفزن" بفتح

الياء وتخفيف الفاء من وزف وهي لغة منكرة ، قال الكسائي والفراء : لا نعرفها بمعنى زف ، وقال مجاهد : الزفيف النسلان ، وذهبت فرقة إلى أن ﴿ يزفون ﴾ معناه يتمهلون في مشيهم كزفاف العروس ، والمعنى أنهم كانوا على طمأنينة من أن ينال أحد آلهتهم بسوء لعزتهم فكانوا لذلك متمهلين .

(28/653)

---

قال القاضي أبو محمد : وزف بمعنى أسرع هو المعروف ، ثم إن إبراهيم عليه السلام قال لهم في جملة محاورة طويلة قد تضمنتها الآية ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ أي تجعلون إلهاً معظماً شيئاً صنعتموه من عود أو حجر وعملتموه بأيديكم أخبرهم بخبر لا يمكنهم إنكاره وهو قوله ﴿ والله خلقكم ﴾ واختلف المتأولون في قوله ﴿ وما تعملون ﴾ ، فمذهب جماعة من المفسرين أن ﴿ ما ﴾ مصدرية والمعنى أن الله خلقكم وأعمالكم ، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أفعال العباد وذلك موافق لمذهب أهل السنة في ذلك ، وقالت ﴿ ما ﴾ بمعنى الذي ، وقالت فرقة ﴿ ما ﴾ استفهام ، وقالت فرقة هي نفي بمعنى وأنتم لا تعملون شيئاً في وقت خلقكم ولا قبله ، ولا تقدرون على شيء .

قال القاضي أبو محمد : والمعتزلة مضطرة إلى الزوال عن أن تجعل ﴿ ما ﴾ مصدرية ، و"

البنيان " قيل كان في موضع إيقاد النار ، وقيل بل كان للمنجنيق الذي رمي عنه وقد تقدم قصص نار إبراهيم وجعلهم الله ﴿ الأسفلين ﴾ ، بأن غلبوا وذلوا ونالتهم العقوبات . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(29/653)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾

قال ابن عباس : أي من أهل دينه .

وقال مجاهد : أي على منهاجه وسنته .

قال الأصمعي : الشيعة الأعوان ، وهو مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذي يوقد مع الكبار حتى يستوقد .

وقال الكلبي والفراء : المعنى وإن من شيعة محمد لإبراهيم .

فالهاء في "شيعته" على هذا لمحمد عليه السلام .

وعلى الأوّل لنوح وهو أظهر ؛ لأنه هو المذكور أوّلا ، وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان هود وصالح ، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة ؛ حكاه الزمخشري .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أي مخلص من الشرك والشك .

وقال عوف الأعرابي : سألت محمد بن سيرين ما القلب السليم ؟ فقال : الناصح للّه عز وجل في خلقه .

وذكر الطبري عن غالب القطان وعوف وغيرهما عن محمد بن سيرين أنه كان يقول للحجاج : مسكين أبو محمد ! إن عذبه اللّه فبذنبه ، وإن غفر له فهنيئاً له ، وإن كان قلبه سليماً فقد أصاب الذنوب من هو خير منه .

قال عوف : فقلت لمحمد ما القلب السليم ؟ قال : أن يعلم أن اللّه حق ، وأن الساعة قائمة ، وأن اللّه يبعث من في القبور .

وقال هشام بن عروة : كان أبي يقول لنا : يا بَنِيّ لا تكونوا لَعَّانِين ، ألم تروا إلى إبراهيم لم يلعن شيئاً قط ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

ويحتمل مجيئه إلى ربه وجهين : أحدهما عند دعائه إلى توحيده وطاعته ، الثاني عند إلقائه في النار .

﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ ﴾ وهو آزر ، وقد مضى الكلام فيه .

﴿ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ تكون "ما" في موضع رفع بالابتداء و"ذا" خبره .

ويجوز أن تكون "ما" و"ذا" في موضع نصب ب"تعبدون" .

﴿ أَإِفْكاً ﴾ نصب على المفعول به ؛ بمعنى أتريدون إفكا .

قال المبرّد : والإفك أسوأ الكذب ، وهو الذي لا يثبت ويضطرب ، ومنه ائتفكت بهم الأرض .

(30/653)

---

﴿ آلِهَةً ﴾ بدل من إفك ﴿ دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ﴾ أي تعبدون .

ويجوز أن يكون حالاً بمعنى أتريدون آلهة من دون الله آفكين .

﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين ﴾ أي ما ظنكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟ فهو تحذير ، مثل قوله : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ [ الانفطار : 6 ] .

وقيل : أي شيء أوهمتموه حتى أشركتم به غيره .

قوله تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النجوم فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ قال ابن زيد عن أبيه : أرسل إليه ملكهم إنّ غداً عيدنا فاخرج معنا ، فنظر إلى نجم طالع فقال : إن هذا يطلع مع سقمي .

وكان علم النجوم مستعملاً عندهم منظوراً فيه ، فأوهمهم هو من تلك الجهة ، وأراهم من معتقدهم عذراً لنفسه ؛ وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة ، وهاتان المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظر في النجوم .

وقال ابن عباس : كان علم النجوم من النبوّة ، فلما حبس اللّه تعالى الشمس على يوشع بن

نون أبطل ذلك، فكان نظر إبراهيم فيها عِلماً نبويّاً.

وحكى جُوَيبر عن الضحاك: كان علم النجوم باقياً إلى زمن عيسى عليه السلام، حتى دخلوا عليه في موضع لا يطلع عليه منه، فقالت لهم مريم: من أين علمتم بموضعه؟ قالوا: من النجوم.

فدعا ربه عند ذلك فقال: اللهم لا تفهمهم في علمها، فلا يعلم علم النجوم أحد؛ فصار حكمها في الشرع محظوراً، وعلمها في الناس مجهولاً.

قال الكلبي: وكانوا في قرية بين البصرة والكوفة يقال لها هرمزجرد، وكانوا ينظرون في النجوم.

فهذا قول.

وقال الحسن: المعنى أنهم لما كلّفوه الخروج معهم تفكر فيما يعمل.

فالمعنى على هذا أنه نظر فيما نجم له من الرأي؛ أي فيما طلع له منه، فعلم أن كل حيّ يَسْقَم فقال: "إِنِّي سَقِيمٌ".

الخليل والمبرّد: يقال للرجل إذا فكّر في الشيء يدبّره: نظر في النجوم.

وقيل: كانت الساعة التي دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعة تغشاه فيها الحمّى.

وقيل : المعنى فنظر فيما نجم من الأشياء فعلم أن لها خالقاً ومدبِّراً ، وأنه يتغير كتغيرها فقال : "إِنِّي سَقِيمٌ" .

وقال الضحاك : معنى "سَقِيمٌ" سأسقم سقم الموت ؛ لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت ، وهذا تورية وتعريض ؛ كما قال للملِك لما سأله عن سارّة هي أختي ؛ يعني أخوّة الدين .

وقال ابن عباس وابن جبير والضحاك أيضاً : أشار لهم إلى مرض وسقم يُعدي كالطاعون ، وكانوا يهربون من الطاعون ، "فـَ"لذلك ﴿ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أي فارّين منه خوفاً من العدوى .

وروى الترمذيّ الحكيم قال : حدثنا أبي قال حدثنا عمرو بن حماد عن أسباط عن السّديّ عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس ، وعن سَمُرة عن الهمذاني عن ابن مسعود قال : قال إبراهيم : إن لنا عيداً لو خرجت معنا لأعجبك ديننا .

فلما كان يوم العيد خرجوا إليه وخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه ، وقال إني سقيم أشتكي رجلي ، فوطئوا رجله وهو صريع ، فلما مضوا نادى في آخرهم ﴿ وتالله لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ [ الأنبياء : 57 ] .

قال أبو عبد اللّه : وهذا ليس بمعارِضٍ لما قال ابن عباس وابن جبير ؛ لأنه يحتمل أن يكون

قد اجتمع له أمران .

قلت : وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : " لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام إلا ثلاث كذبات " الحديث .

وقد مضى في سورة "الأنبياء" .

وهو يدل على أنه لم يكن سقيماً وإنما عرض لهم .

وقد قال جل وعز : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ [ الزمر : 30 ] .

فالمعنى إني سقيم فيما أستقبل فتوهموا هم أنه سقيم الساعة .

وهذا من معاريض الكلام على ما ذكرنا ، ومنه المثل السائر : "كَفَى بالسلامة داءً" وقول لبيد :

فدعوتُ ربّي بالسلامةِ جاهِداً . . .

لِيُصِحّني فإذا السَّلامَةُ داءُ

(32/653)

---

وقد مات رجل فجأة فالتّف عليه الناس فقالوا : مات وهو صحيح ! فقال أعرابي :

أصحيح من الموت في عنقها فإبراهيم صادق ، لكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم

واصطفائهم عُدَّ هذا ذنباً ؛ ولهذا قال : ﴿ والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين ﴾ [ الشعراء : 82 ] وقد مضى هذا كله مبيّناً والحمد للّه .

وقيل : أراد سقيم النفس لكفرهم .

والنجوم يكون جمع نجم ويكون واحداً مصدراً .

قوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ ﴾ قال السّدي : ذهب إليهم .

وقال أبو مالك : جاء إليهم .

وقال قتادة : مال إليهم .

وقال الكلبي : أقبل عليهم .

وقيل : عدل .

والمعنى متقارب .

فراغ يرُوغ رَوْغاً ورَوَغاناً إذا مال .

وطريق رائغ أي مائل .

وقال الشاعر :

ويُرِيكَ مِن طَرَفِ اللسانِ حَلاوة

ويَرُوغ عنك كما يَرُوغ الثعلبُ

فقال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ فخاطبها كما يخاطب من يعقل ؛ لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة .

وكذا ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ .

قيل : كان بين يدي الأصنام طعام تركوه ليأكلوه إذا رجعوا من العيد ، وإنما تركوه لتصيبه بركة أصنامهم بزعمهم .

وقيل : تركوه للسَّدَنَة .

وقيل : قرَّب هو إليها طعاماً على جهة الاستهزاء ؛ فقال : "أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ" .

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً باليمين ﴾ خصّ الضرب باليمين لأنها أقوى والضرب بها أشد ؛ قاله الضحاك والربيع بن أنس .

وقيل : المراد باليمين اليمين التي حلَفها حين قال : ﴿ وتالله لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ .

وقال الفراء وثعلب : ضرباً بالقوة واليمين القوة .

وقيل : بالعدل واليمين ها هنا العدل .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ﴾ [ الحاقة : 44 45 ] أي العدل ، فالعدل لليمين والجور للشمال .

ألا ترى أن العدوّ عن الشمال والمعاصي عن الشمال والطاعة عن اليمين ؛ ولذلك قال : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين ﴾ [ الصافات : 28 ] أي من قِبل الطاعة .

فاليمين هو موضع العدل من المسلم ، والشمال موضع الجور .

ألا ترى أنه بايع اللّه بيمينه يوم الميثاق ، فالبيعة باليمين ؛ فلذلك يُعطى كتابه غداً بيمينه ؛ لأنه وفّى بالبيعة ، ويُعطَى الناكث للبيعة الهارب برقبته من اللّه بشماله ؛ لأن الجور هناك .

فقوله : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً باليمين ﴾ أي بذلك العدل الذي كان بايع اللّه عليه يوم الميثاق ثم وفّى له ها هنا .

فجعل تلك الأوثان جُذَاذاً ، أي فُتَاتاً كالجذِيذة وهي السَّوِيق وليس من قبيل القوة ، قاله الترمذي الحكيم .

﴿ فأقبلوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ قرأ حمزة : "يُزِفُّونَ" بضم الياء .

الباقون بفتحها .

أي يسرعون ؛ قاله ابن زيد .

قتادة والسدي : يمشون .

وقيل : المعنى يمشون بجمعهم على مهل آمنين أن يصيب أحد آلهتهم بسوء .

وقيل : المعنى يتسللون تسللاً بين المشي والعَدْو ؛ ومنه زَفِيف النعامة .

وقال الضحاك : يسعون .

وحكى يحيى بن سلاّم : يُرعَدون غضباً .

وقيل : يختالون وهو مشي الخيلاء ؛ قاله مجاهد .

ومنه أُخِذ زِفاف العروس إلى زوجها .

وقال الفرزدق :

وجاء قَرِيعُ الشَّوِلِ قبل إِفَالِهَا . . .

يَزِفُّ وجاءت خَلْفَه وهي زُفَّفُ

ومن قرأ "يُزِفُّون" فمعناه يزفون غيرهم أي يحملونهم على التزفيف .

وعلى هذا فالمفعول محذوف .

قال الأصمعي : أزففت الإبل أي حملتها على أن تزِف .

وقيل : هما لغتان يقال : زَفَّ القوم وأزفُّوا ، وزففت العروسَ وأزففتها وازدففتها بمعنىً ،

والمِزفّة : المِحفّة التي تزَفُّ فيها العروس ؛ حكي ذلك عن الخليل .

النحاس : "يُزِفُّون" بضم الياء .

زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هذه اللغة ، وقد عرفها جماعة من العلماء منهم الفراء وشبّهها

بقولهم : أطردت الرجل أي صيّرته إلى ذلك .

وطردته نحيته ؛ وأنشد هو وغيره :

تَمنّى حُصينٌ أن يسودَ جذَاعةً . . .

فأمسى حُصينٌ قد أُذِلَّ وأُقِهَرا

أي صُيِر إلى ذلك ؛ فكذلك "يُزِفّون" يصيرون إلى الزفيف .

قال محمد بن يزيد : الزفيف الإسراع .

وقال أبو إسحق : الزفيف أول عَدْو النعام .

وقال أبو حاتم : وزعم الكسائي أن قوماً قرءوا "فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ" خفيفة ؛ من وَزَف يَزِف ، مثل وَزَن يَزِن .

قال النحاس : فهذه حكاية أبي حاتم وأبو حاتم لم يسمع من الكسائي شيئاً .

وروى الفراء وهو صاحب الكسائي عن الكسائي أنه لا يعرف "يَزِفُون" مخففة .

قال الفراء : وأنا لا أعرفها .

قال أبو إسحق : وقد عرفها غيرهما ( أنه يقال ) وَزَف يَزِف إذا أسرع .

قال النحاس : ولا نعلم أحداً قرأ "يَزِفون" .

قلت : هي قراءة عبد الله بن يزيد فيما ذكر المهدوي .

الزمخشري : و"يُزَفُّون" على البناء للمفعول .

و"يُزْفُونَ" من زَفَاه إذا حَدَاه ؛ كأنّ بعضهم يزفو بعضاً لتسارعهم إليه .

وذكر الثعلبي عن الحسن ومجاهد وابن السَّمَيْقع : "يَرْفُون" بالراء (من) رفيف النعام ، وهو ركض بين المشي والطيران .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ فيه حذف ؛ أي قالوا من فعل هذا بآلهتنا ، فقال محتجاً : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أي أتعبدون أصناماً أنتم تنحتونها بأيديكم تَنجرُونها .

والنّحت النجر والبري ؛ نحته ينحته بالكسر نحتاً أي براه .

والنُّحَاتة البُرَاية والمِنحَت ما ينحت به .

﴿ واللّه خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ "ما" في موضع نصب أي وخلق ما تعملونه من الأصنام ، يعني الخشب والحجارة وغيرهما ؛ كقوله : ﴿ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السماوات والأرض الذي فطَرَهُنَّ ﴾ [الأنبياء : 56] وقيل : إن "ما" استفهام ومعناه التحقير لعملهم .

(35/653)

---

وقيل : هي نفي ، والمعنى وما تعملون ذلك لكن اللّه خالقه ، والأحسن أن تكون "ما" مع الفعل مصدراً ، والتقدير واللّه خلقكم وعملكم وهذا مذهب أهل السنة : أن الأفعال

خلقٌ لله عز وجل واكتساب للعباد .

وفي هذا إبطال مذاهب القَدَرية والجَبْرية ، وروى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن اللّه خالق كل صانع وصنعته " ذكره الثعلبي .

وخرّجه البيهقي من حديث حُذَيفة قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : " إن اللّه عز وجل صنع كل صانع وصنعته فهو الخالق وهو الصانع سبحانه " وقد بيناهما في الكتاب الأسنى في شرح أسماء اللّه الحسنى .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ابنوا لَهُ بُنْيَاناً ﴾ أي تشاوروا في أمره لما غلبهم بالحجة حسب ما تقدّم في "الأنبياء" بيانه .

ف"قَالُوا ابنوا لَهُ بُنْيَاناً" تملأونه حطباً فتضرمونه ، ثم ألقوه فيه وهو الجحيم .

قال ابن عباس : بَنْوا حائطاً من حجارة طوله في السماء ثلاثون ذراعاً ، وملأوه ناراً وطرحوه فيها .

وقال عبد اللّه بن عمرو بن العاص : فلما صار في البنيان قال : حسبي اللّه ونعم الوكيل .

والألف واللام في "الجحِيمِ" تدل على الكناية ؛ أي في جحيمه ؛ أي في جحيم ذلك البنيان .

وذكر الطبري : أن قائل ذلك اسمه الهِيزن رجل من أعراب فارس وهم الترك ، وهو الذي جاء فيه الحديث : " بينما رجل يمشي في حُلّة له يتبختر فيها فخسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة " واللّه أعلم .

﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ﴾ أي بإبراهيم.

والكيد المكر؛ أي احتالوا لإهلاكه.

﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الأسفلين ﴾ المقهورين المغلوبين إذ نفذت حجته من حيث لم يمكنهم دفعها، ولم ينفذ فيه مكرهم ولا كيدهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(36/653)

---

وقال أبو حيان:

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) ﴾

والظاهر عود الضمير في ﴿ من شعيته ﴾ على نوح، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، أي ممن شايعه في أصول الدين والتوحيد، وان اختلفت شرائعهما، أو اتفق أكثرهما، أو ممن شايعه في التصلب في دين الله ومصابرة المكذبين.

وكان بين نوح وإبراهيم ألفا سنة وستمائة وأربعون سنة، وبينهما من الأنبياء هود وصالح، عليهما السلام.

وقال الفراء: الضمير فى ﴿ من شعيته ﴾ يعود على محمد (صلى الله عليه وسلم) والأعرف أن المتأخر في الزمان هو شيعة للمتقدم، وجاء عكس ذلك في قول الكميت:

وما لي إلا آل أحمد شيعة . . .

وما لي إلا مشعب الحق مشعب

جعلهم شيعة لنفسه .

وقال الزمخشري : فإن قلت : بم يتعلق الظرف ؟ قلت : بما في الشيعة من معنى المشايعة ، يعني : وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم ، أو بمحذوف ، وهو اذكر . انتهى .

أما التخريج الأول فلا يجوز ، لأن فيه الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي ، وهو قوله : ﴿ لإبراهيم ﴾ ، لأنه أجنبي من شيعته ومن إذ ، وزاد المنع ، إذ قدره ممن شايعه حين جاء لإبراهيم .

وأيضاً فلام التوكيد يمنع أن يعمل ما قبلها فيما بعدها .

لو قلت : إن ضارباً بالقادم علينا زيداً ، وتقديره : ضارباً زيداً لقادم علينا ، لم يجز .

وأما تقديره اذكر ، فهو المعهود عند المعربين .

ومجيئه ربه بقلب سليم : إخلاصه الدين لله ، وسلامة قلبه : براءته من الشرك والشك والنقائص التي تعتري القلوب من الغل والحسد والخبث والمكر والكبر ونحوها .

قال عروة بن الزبير : لم يعلن شيئاً قط .

وقيل : سليم من الشرك ولا معنى للتخصيص .

وأجازوا في نصب ﴿ أئفكاً ﴾ وجوها : أحدها : أن يكون مفعولاً بتريدون ، والتهديد لأمته ، وهو استفهام تقرير ، ولم يذكر ابن عطية غير هذا الوجه ، وذكره الزمخشري قال : فسر الإفك بقوله : آلهة من دون الله ، على أنها إفك في أنفسهم .

(37/653)

---

والثاني : أن يكون مفعولاً من أجله أي : تريدون آلهة من دون الله فكاً ، وآلهة مفعول به ، وقدمه عناية به ، وقدم المفعول له على المفعول به ، لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم ، وبدأ بهذا الوجه الزمخشري .

والثالث : أن يكون حالاً ، أي أتريدون آلهة من دون الله آفكين ؟ قاله الزمخشري ، وجعل المصدر حالاً لا يطرد إلا مع أما في نحو : أما علماً فعالم .

﴿ فما ظنكم برب العالمين ﴾ : استفهام توبيخ وتحذير وتوعد ، أي : أي شيء ظنكم بمن هو يستحق لأن تعبدوه ، إذ هو رب العالمين حتى تركتم عبادته وعدلتم به الأصنام ؟ أي : أيّ شيء ظنكم بفعله معكم من عقابكم ، إذ قد عبدتم غيره ؟ كما تقول : أسأت آل فلان ، فما ظنك به أن يوقع بك خيراً ما أسأت إليه ؟ ولما وبخهم على عبادة غير الله ، أراد أن يريهم أن أصنامهم لا تنفع ولا تضر ، فعهد إلى ما يجعله منفرداً بها حتى يكسرها ويبين لهم

حالها وعجزها .

﴿ فنظر نظرة في النجوم ﴾ ، والظاهر أنه أراد علم الكواكب ، وما يعزي إليها من التأثيرات التي جعلها الله لها .

والظاهر أن نظره كان فيها ، أي في علمها ، أو في كتابها الذي اشتمل على أحوالها وأحكامها .

قيل : وكانوا يعانون ذلك ، فأتاهم من الجهة التي يعانونها ، وأوهمهم بأنه استدل بأمارة في علم النجوم أنه سقيم ، أي يشارف السقم .

قيل : وهو الطاعون ، وكان أغلب الأسقام عليهم إذ ذاك ، وخافوا العدوى وهربوا منه إلى عيدهم ، ولذلك قال : ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ ، قال معناه ابن عباس ، وتركوه في بيت الأصنام ففعل ما فعل .

وقيل : كانوا أهل رعاية وفلاحة ، وكانوا يحتاجون إلى علم النجوم .

وقيل : أرسل إليهم ملكهم أن غداً عيدنا ، فاحضر معنا ، فنظر إلى نجم طالع فقال : إن يطلع مع سقمي .

وقيل : معنى ﴿ فنظر نظرة في النجوم ﴾ ، أي فيما نجم إليه من أمور قومه وحاله معهم ، ومعنى : ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ ، أي لكفرهم به واحتقارهم له ، وقوله : ﴿ إني سقيم ﴾ ، من المعاريض ، عرض أنه يسقم في المآل ، أي يشارف السقم .

قيل : وهو الطاعون ، وكان أغلب ، وفهموا منه أنه ملتبس بالسقم ، وابن آدم لا بد أن يسقم ، والمثل : كفى بالسلامة داء .

قال الشاعر :

فدعوت ربي بالسلامة جاهداً . . .

ليصحني فإذا السلامة داء

ومات رجل فجأة ، فاكتنف عليه الناس فقالوا : مات وهو صحيح ، فقال أعرابي : أصحيح من الموت في عنقه ؟ ﴿ فراغ إلى آلهتهم ﴾ : أي أصنامهم التي هي في زعمهم آلهة ، كقوله : ﴿ أين شركائي ﴾ وعرض الأكل عليها .

واستفهامها عن النطق هو على سبيل الهزء ، لكونها منحطة عن رتبة عابديها ، إذ هم يأكلون وينطقون .

وروي أنهم كانوا يضعون عندها طعاماً ، ويعتقدون أنها تصيب منه شيئاً ، وإنما يأكله خدمتها .

﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ : أي أقبل عليهم مستخفياً ضارباً ، فهو مصدر فى

موضع الحال ، أو يضربهم ضرباً ، فهو مصدر فعل محذوف ، أو ضمن فراغ عليهم معنى ضربهم ، وباليمين : أي يمين يديه .

قال ابن عباس : لأنها أقوى يديه أو بقوته ، لأنه قيل : كان يجمع يديه في الآلة التي يضربها بها وهي الفأس .

وقيل : سبب الحلف الذي هو : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ وقرأ الجمهور : ﴿ يزفون ﴾ ، بفتح الياء ، من زف : أسرع ، أو من زفاف العروس ، وهو التمهل في المشية ، إذ كانوا في طمأنينة أن ينال أصنامهم شيء لعزتهم .

وقرأ حمزة ، ومجاهد ، وابن وثاب ، والأعمش : بضم الياء ، من أزف : دخل في الزفيف ، فهي للتعدي ، قاله الأصمعي .

وقرأ مجاهد أيضاً ، وعبد الله بن يزيد ، والضحاك ، ويحيى بن عبد الرحمن المقري ، وابن أبي عبلة : يزفون مضارع زف بمعنى أسرع .

وقال الكسائي ، والفراء : لا نعرفها بمعنى زف .

وقال مجاهد : الوزيف : السيلان .

وقرىء : يزفون مبنياً للمفعول .

وقرىء : يزفون بسكون الزاى ، من زفاه إذا حداه ، فكان بعضهم يزفو بعضاً لتسارعهم إليه .

وبين قوله : ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ وبين قوله : ﴿ فأقبلوا عليه يزفون ﴾ جمل محذوفة هي مذكورة في سورة اقترب ، ولا تعارض بين قوله : ﴿ فأقبلوا عليه يزفون ﴾ وبين سؤالهم ﴿ من فعل هذا بآلهتنا ﴾ وأخبار من عرض بأنه إبراهيم كان يذكر أصنامهم ، لأن هذا الإقبال كان يقتضي تلك الجمل المحذوفة ، أي فأقبلوا إليه ، أي إلى الإنكار عليه في كسر أصنامهم وتأنيبه على ذلك .

وليس هذا الإقبال من عندهم ، بل بعد مجيئهم من عندهم جرت تلك المفاوضات المذكورة في سورة اقترب .

واستسلف الزمخشري في كلامه أشياء لم تتضمنها الآيات ، صارت الآيات عنده بها كالمتناقضة .

قال ، حيث ذكر ههنا : إنهم أدبروا عنه خيفة العدوى ، فلما أبصروه يكسر أصنامهم ، أقبلوا إليه متبادرين ليكفوه ويقعوا به .

وذكرتم أنهم سألوا عن الكاسر حتى قيل : سمعنا إبراهيم يذمهم ، فلعله هو الكاسر .

ففي إحداهما أنهم شاهدوه يكسرها ، وفي الآخرى أنهم استدلوا بذمه على أنه الكاسر .

انتهى .

ما أبدى من التناقض ، وليس في الآيات ما يدل على أنهم أبصروه يكسرهم ، فيكون فيه كالتناقض .

ولما قرر أنه كالتناقض قال : قلت فيه وجهان : أحدهما : أن يكون الذين أبصروه وزفوا إليه نفراً منهم دون جمهورهم وكبرائهم ، فلما رجع الجمهور والعلية من عندهم إلى بيت الأصنام ليأكلوا الطعام الذي وضعوه عندها لتبرك عليه ورأوها مكسورة ، اشمأزوا من ذلك وسألوا من فعل هذا بها ؟ لم ينم عليه أولئك النفر نميمة صريحة ، ولكن على سبيل التورية والتعريض بقولهم : سمعنا فتى يذكرهم لبعض الصوارف .

والثاني : أن يكسرها ويذهب ولا يشعر بذلك أحد ، ويكون إقبالهم إليه يزفون بعد رجوعهم من عيدهم ، وسؤالهم عن الكاسر ، وقولهم : ﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس ﴾ انتهى .

وهذا الوجه الثاني الذي ذكر هو الصحيح .

﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ﴾ : استفهام توبيخ وإنكار عليهم ، كيف هم يعبدون صوراً صوّروها بأيديهم وشكلوها على ما يريدون من الأشكال ؟ ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ : الظاهر أن ما موصولة بمعنى الذي معطوفة على الضمير في خلقكم ، أي أنشأ ذواتكم وذوات ما تعملون من الأصنام ، والعمل هنا هو التصوير والتشكيل ، كما يقول : عمل الصائغ الخلخال ، وعمل الحداد القفل ، والنجار الخزانة ؛ ويحمل ذلك على أن ما بمعنى الذي يتم الاحتجاج عليهم ، بأن كلاً من الصنم وعابده هو مخلوق لله تعالى ، والعابد هو المصور ذلك المعبود ، فكيف يعبد مخلوق مخلوقاً ؟ وكلاهما خلق الله ، وهو المنفرد بإنشاء ذواتهما .

والعابد مصور الصنم معبوده .

و" ما " في : ﴿ وما تنحتون ﴾ بمعنى تأذى ، فكذلك في ﴿ وما تعملون ﴾ ، لأن نحتهم هو عملهم .

وقيل : ما مصدرية ، أي خلقكم وعملكم ، وجعلوا ذلك قاعدة على خلق الله أفعال العباد .

وقد بدد الزمخشري تقابل هذه المقالة بما يوقف عليه في كتابه .

وقيل : ما استفهام إنكاري ، أي : وأي شيء تعملون في عبادتكم أصناماً تنحتونها ؟ أي لا عمل لكم يعتبر .

وقيل : ما نافية ، أي وما أنتم تعملون شيئاً في وقت خلقكم ولا تقدرون على شيء .

وكون ما مصدرية واستفهامية ونعتاً ، أقوال متعلقة خارجة عن طريق البلاغة .

ولما غلبهم إبراهيم ، عليه السلام ، بالحجة ، مالوا إلى الغلبة بقوة الشوكة والجمع فقالوا : ﴿ ابنوا له بنياناً ﴾ ، أي في موضع إيقاد النار .

وقيل : هو المنجنيق الذي رمي عنه .

وأرادوا به كيداً ، فأبطل الله مكرهم ، وجعلهم الأخسرين الأسفلين ، وكذا عادة من غلب بالحجة رجع إلى الكيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(41/653)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ ﴾

أي ممَّن شايعه في أصول الدِّينِ ﴿ لإبراهيم ﴾ وإنِ اختلفتْ فروعُ شرائعهما . ويجوزُ أنْ يكونَ بين شريعتيهما اتِّفاقٌ كليٌّ أو أكثر . وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما : من أهل دينهِ وعلى سنَّتهِ أو ممَّن شايعه على التَّصلُّبِ في دينِ الله ومصابرةِ المكذِّبين وما كان بينهما إلا

نبيّانِ هما هودٌ وصالحٌ عليهم الصلاة والسلام وكان بين نوح وإبراهيمَ ألفانِ وستمائةٍ وأربعون سنةً.

(42/653)

---

﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ ﴾ منصوب باذكرُ أو متعلّقٌ بما في الشّيعةِ من معنى المُشايعةِ ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أي من آفات القلوب أو من العلائقِ الشّاغلةِ عن التَّبتلِ إلى الله عزَّ وجلَّ. ومعنى المجيء به ربَّه إخلاصُه له كأنَّه جاء به متحفاً إيّاه بطريق التّمثيلِ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ بدلٌ من الأولى أو ظرفٌ لجاء أو لسليمٍ أي أيَّ شيء تعبدونه ﴿ أَئِفْكًا ءالِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ أي أتريدون آلهةً من دون الله إفكاً أي للإفكِ فقدَّم المفعولَ على الفعل للعنايةِ ثمَّ المفعولَ له على المفعولِ به لأنَّ الأهمَّ مكافحتُهم بأنَّهم على إفكٍ وباطلٍ في شركهم. ويجوزُ أن يكونَ إفكاً مفعولاً به بمعنى أتريدون إفكاً ثم يفسِّر الإفكُ بقوله آلهةً من دون الله دلالةً على أنَّها إفكٌ في نفسها للمبالغةِ أو يراد بها عبادتُها بحذفِ المضافِ، ويجوزُ أنْ يكون حالاً بمعنى آفكينَ ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين ﴾ أي بمن هو حقيقٌ بالعبادة لكونه ربًّا للعالمين حتَّى تركتُم عبادته خاصّةً وأشركتُم به أخسَّ مخلوقاته أو فما ظنُّكم به أي شيء هو من الأشياء حتى جعلتُم الأصنام له أنداداً أو فما ظنُّكم به ماذا يفعل بكم وكيفَ

يعاقبكم بعد ما فعلتم من الإشراكِ به ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النجوم ﴾ قيل كانت له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حُمَّى لها نوبةٌ معيَّنةٌ في بعض ساعات اللَّيلِ فنظر ليعرفَ هل هي تلك السَّاعةُ فإذا هي قد حضرتْ ﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ وكان صادقاً في ذلك فجعله عُذراً في تخلُّفهِ عن عيدهم وقيل أرادَ إنِّي سقيمُ القلب لكفرِكم وقيل نظر في علمِها أو في كتبها أو في أحكامها ولا منعَ من ذلك حيث كان قصدُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إيهامَهم حين أرادُوا أنْ يخرجُوا به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى معبدِهم ليتركُوه فإنَّ القومَ كانوا نجَّامين فأوهمهم أنَّه قد استدلَّ

(43/653)

---

بأمارةٍ في علم النُّجوم على أنَّه سقيمٌ أي مشارف للسقمِ وهو الطَّاعُونُ وكان أغلبَ الأسقامِ عليهم وكانوا يخافون العدوى ليتفرَّقوا عنه فهرُبوا منه إلى معيدِهم وتركوه في بيت الأصنامِ وذلك قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أي هاربين مخافةَ العَدْوى.

﴿ فَرَاغَ إلى ءالِهَتِهِمْ ﴾ أي ذهب إليها في خُفْيةٍ وأصله الميل بحيلةٍ ﴿ فَقَالَ ﴾ للأصنام استهزاءً ﴿ أَلا تَأْكُلُونَ ﴾ أي من الطَّعامِ الذي كانوا يصنعونَه عندها لتبرّكَ عليه ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ ﴾ أي بجوابي ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾ فمالَ مستعلياً عليهم وقوله تعالى : ﴿ ضَرْباً

باليمين ﴾ مصدر مؤكِّدٌ لراغ عليهم فإنَّه بمعنى ضربَهم ، أو لفعلٍ مضمرٍ هو حال من فاعله ، أي فراغ عليهم يضربُهم ضرباً ، أو هو الحالُ منه على أنَّه مصدرٌ بمعنى الفاعلِ أي فراغَ عليهم ضارباً باليمين أي ضرباً شديداً قويًّا وذلك لأنَّ اليمينَ أقوى الجارحتينِ وأشدُّهما ، وقوَّةُ الآلةِ تقتضي قوَّةَ الفعلِ وشدَّته ، وقيل بالقُوَّةِ والمتانةِ كما في قوله

إذَا مَا رايةٌ رُفعتْ لمجد . . . تلقَّاها عُرابةُ باليمينِ

(44/653)

---

أي بالقُوَّة وعلى ذلك مدارُ تسميةِ الحلفِ باليمينِ لأنَّه يُقوِّي الكلامَ ويؤكِّدُه وقيل بسبب الحلفِ وهو قولُه تعالى : ﴿ وتاللهِ لأَكِيدَنَّ أصنامكم . ﴾ ﴿ فَأَقْبَلُواْ إِلَيْهِ ﴾ أي المأمورون بإحضاره عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعدما رجعوا من عيدهم إلى بيت الأصنام فوجدُوها مكسورةً فسألوا عن الفاعلِ فظنُّوا أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فعلَه فقيل فأْتُوا به ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ حالٌ من واو أقبلُوا أي يُسرعون من زَفيفِ النَّعام . وقُرِىء يَزِفُون من أزفَ إذا دخلَ في الزَّفيف . أو من أزفّه أي حملَه على الزَّفيفِ أي يزف بعضُهم بعضاً ويُزَفُّون على البناء للمفعولِ أي يُحملون على الزَّفيف ويَزِفون من وزَف يزِف إذا أسرع ويُزَفُّون من زفّاه إذا حداه كأنَّ بعضَهم يزفو بعضاً لتسارُعهم إليه عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَ ﴾ أي بعدما أَتَوا

به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وجرى بينه صلى الله عليه وسلم وبينهم من المحاوراتِ ما نطقَ به قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ءأَنتَ فَعَلْتَ هذا بِئَالِهَتِنَا يإبراهيم ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ ﴾ ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ ما تنحتونَه من الأصنام وقوله تعالى : ﴿ والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ حالٌ من فاعل تعبدون مؤكدةٌ للإنكار والتَّوبيخِ أي والحالُ أنَّه تعالى خلقكم وخلقَ ما تعملونَهُ فإنَّ جواهرَ أصنامِهم ومادتها بخلقه تعالى وشكلها وإن كان بفعلهم لكنَّه بإقداره تعالى إيَّاهم عليه وخلقه ما يتوقَّفُ عليه فعلُهم من الدَّواعي والعدد والأسباب ، وما تعملون إمَّا عبارةٌ عن الأصنامِ فوضعه موضعَ ضميرِ ما تنحِتون للإيذان بأنَّ مخلوقيَّتَها لله عزَّ وجل ليس من حيثُ نحتُهم لها فقط بل من حَيثُ سائرُ أعمالهم أيضاً من التَّصويرِ والتَّحليةِ والتَّزيينِ ونحوها ، وإمَّا على عمومهِ فينتظمُ الأصنامَ انتظاماً أوليّاً مع ما فيه من تحقيقِ

(45/653)

---

الحقِّ ببيانِ أنَّ جميع ما يعملونَهُ كائناً ما كان مخلوقٌ له سبحانه . وقيل ما مصدريةٌ أي عملكم على أنَّه بمعنى المفعولِ وقيل بمعناه فإنَّ فعلَهم إذا كان بخلقِ اللَّهِ تعالى كان مفعولهم المتوقِّفُ على فعلهم أولى بذلك .

﴿ قَالُوا ابنوا لَهُ بنيانا فَأَلْقُوهُ فِى الجحيم ﴾ أي في النّارِ الشّديدةِ الاتّقادِ من الجحمةِ وهي شدّةُ التّأجّجِ ، واللاّمُ عوضٌ من المضاف إليه أي جحيم ذلك البنيانِ وقد ذكر كيفية بنائهم له في سورة الأنبياء ﴿ فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً ﴾ فإنّه عليه الصّلاةُ والسّلام لمّا قهرهم بالحجّةِ وألقمهم الحجرَ قصدُوا ما قصدُوا لئلاّ يظهرَ للعامّةِ عجزُهم ﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ الأذلّين بإبطالِ كيدِهم وجعله برهاناً نيّراً على علوّ شأنِهِ عليه الصّلاةُ والسّلامُ بجعل النّارِ عليه بَرْداً وسَلاماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

*(46/653)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) ﴾

﴿ لإبراهيم ﴾ وإن اختلفت فروع شريعتيهما أو ممن شايعه في التصلب في دين الله تعالى ومصابرة المكذبين ونقل هذا عن ابن عباس ، وجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق كلي أو أكثري وللأكثر حكم الكل ، ورأيت في بعض الكتب ولا أدري الآن أي كتاب هو أن نوحاً عليه السلام لم يرسل إلا بالتوحيد ونحوه من أصول العقائد ولم يرسل بفروع ، قيل : وكان بين إبراهيم وبينه عليهما السلام نبيان هود وصالح لا غير ، ولعله أريد بالنبي الرسول لا ما هو

أعم منه ، وهذا بناء على أن ساما كان نبياً وكان بينهما على ما في "جامع الأصول" ألف سنة ومائة واثنتان وأربعون سنة ، وقيل ألفان وستمائة وأربعون سنة .

وذهب الفراء إلى أن ضمير ﴿ شِيعَتِهِ ﴾ لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، والظاهر ما أشرنا إليه وهو المروي عن ابن عباس .

ومجاهد .

وقتادة.

والسدي ، وقلما يقال للمتقدم هو شيعة للمتأخر ، ومنه قول الكميت الأصغر بن زيد : وما لي إلا آل أحمد شيعة. . .

وما لي إلا مشعب الحق مشعب

وذكر قصة إبراهيم عليه السلام بعد قصة نوح لأنه كآدم الثالث بالنسبة إلى الأنبياء والمرسلين بعده لأنهم من ذريته إلا لوطاً وهو بمنزلة ولده عليهما السلام ، ويزيد حسن الإرداف أن نوحاً نجاه الله تعالى من الغرق وإبراهيم نجاه الله تعالى من الحرق .

﴿ إِذْ جَاء رَبَّهُ ﴾ منصوب باذكر كما هو المعهود في نظائره ، وجوز تعلقه بفعل مقدر يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ ﴾ [ الصافات : 83 ] كأنه قيل : متى شايعه ؟ فقيل : شايعه إذ جاء ربه ، وقيل : هو متعلق بشيعة لما فيه من معنى المشايعة .

ورد بأنه يلزم عمل ما قبل لام الابتداء فيما بعدها وهم لا يجوزون ذلك للصدارة فلا يقال : إن ضارباً لقادم علينا زيداً ، وكذا يلزم الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي وهو لا يجوز .



---

وأجيب بأنه لا مانع من كل إذا كان المعمول ظرفاً لتوسعهم فيه ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أي سالم من جميع السلامة من الشرك ، والتعميم الذي ذكرناه أولى أو سالم من العلائق الدنيوية بمعنى أنه ليس فيه شيء من محبتها والركون إليها وإلى أهلها ، وقيل سليم أي حزين وهو مجاز من السليم بمعنى اللديغ من حية أو عقرب فإن العرب تسميه سليماً تفاؤلاً بسلامته وصار حقيقة فيه ، وما تقدم أنسب بالمقام ، والباء قيل للتعدية .

والمراد بمجيئه ربه بقلبه إخلاصه قلبه له تعالى على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية ، ومبناها تشبيه إخلاصه قلبه له عز وجل بمجيئه إليه تعالى بتحفة في أنه سبب للفوز بالرضا ، ويكتفي بامتناع الحقيقة مع كون المقام مقام المدح قرينة ، فحاصل معنى التركيب إذ أخلص عليه السلام لله تعالى قلبه السليم من الآفات أو المنقطع عن العلائق أو الحزين المنكسر .

وتعقب بأن سلامة القلب عن الآفات لا تكون بدون الإخلاص وكذا الانقطاع عن العلائق

لا يكون بدونه .

وأجيب بأنهما قد يكونان بدون ذلك كما في القلوب البله .

(48/653)

---

وفي المطلع معنى مجيئه ربه بقلبه أنه أخلص قلبه لله تعالى وعلم سبحانه ذلك منه كما يعلم الغائب وأحواله بمجيئه وحضوره فضرب المجيء مثلاً لذلك اه ، وجعل في الكلام عليه استعارة تمثيلية بأن تشبه الهيئة المنتزعة من إخلاص إبراهيم عليه السلام قلبه لربه تعالى وعلمه سبحانه ذلك الإخلاص منه موجوداً بالهيئة المنتزعة من إخلاص إبراهيم عليه السلام قلبه لربه تعالى وعلمه سبحانه ذلك الإخلاص منه موجوداً بالهيئة المنتزعة من المجيء بالغائب بمحضر شخص ومعرفته إياه وعلمه بأحواله ثم يستعار ما يستعار ، ولتأدية هذا المعنى عدل عن جاء ربه سليم القلب إلى ما في النظم الجليل ، وقيل الباء للملابسة ولعله المتبادر ، والمراد بمجيئه ربه حلوله في مقام الامتثال ونحوه ، وذكر أن نكتة العدول عما سمعت إلى ما في النظم سلامته من توهم أن الحال منتقلة لما أن الانتقال أغلب حاليها مع أنه أظهر في أن سلامة القلب كانت له عليه السلام قبل المجيء أيضاً فليتدبر .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ بدل من إذ الأولى أو ظرف لجاء أو لسليم أي أي

شيء تعبدون ؟ .

أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86)

﴿ ءالِهَةً دُونَ الله تُرِيدُونَ فَمَا ﴾ أي أتريدون آلهة من دون الله تعالى إفكاً أي للإفك فقدم المفعول به على الفعل للعناية لأن إنكاره أو التقرير به هو المقصود وفيه رعاية الفاصلة أيضاً ثم المفعول لأجله لأن الأهم مكافحتهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم .

ويجوز أن يكون ﴿ إِفْكاً ﴾ مفعولاً به بمعنى أتريدون ﴿ إِفْكاً ﴾ وتكون آلهة بدلاً منه بدل كل من كل ، وجعلها عين الإفك على المبالغة أو الكلام على تقدير مضاف أي عبادة آلهة وهي صرف للعبادة عن وجهها .

وجوز كونه حالاً من ضمير تريدون أي آفاكين أو مفعوله أي مأفوكة .

وتعقب بأن جعل المصدر حالاً لا يطرد إلا مع أما نحو إما علماً فعالم .



---

﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين ﴾ أي أي شيء ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة لكونه رباً للعالمين أشككتم فيه حتى تركتم عبادته سبحانه بالكلية أو أعلمتم أي شيء هو حتى جعلتم الأصنام شركاءه سبحانه وتعالى أو أي شيء ظنكم بعقابه عز وجل حتى اجترأتم على

الإفك عليه تعالى ولم تخافوا ، وكان قومه عليه السلام يعظمون الكواكب المعروفة ويعتقدون السعود والنحوس والخير والشر في العالم منها ويتخذون لكل كوكب منها هيكلاً ويجعلون فيها أصناماً تناسب ذلك الكوكب بزعمهم ويجعلون عبادتها وتعظيمها ذريعة إلى عبادة تلك الكواكب واستنزال روحانياتها وكانوا يستدلون بأوضاعها على الحوادث الكونية عامة أو خاصة فاتفق إن دنا يوم عيد لهم يخرجون فيه فأرسل ملكهم إلى إبراهيم عليه السلام أن غداً عيدنا فأحضر معنا فاستشعر حصول الفرصة لحصول ما عسى أن يكون سبباً لتوحيدهم فأراد أن يعتذر عن الحضور على وجه لا ينكرونه عليه .

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النجوم ﴾ أي فتأمل نوعاً من التأمل في أحوالها وهو في نفس الأمر على طرز تأمل الكاملين في خلق السموات والأرض وتفكرهم في ذلك إذ هو اللائق به عليه السلام لكنه أوهمهم أنه تفكر في أحوالها من الاتصال والتقابل ونحوهما من الأوضاع التي تدل بزعمهم على الحوادث ليرتب عليه ما يتوصل به إلى غرضه الذي يكون وسيلة إلى إنقاذهم مما هم فيه ، والظاهر بعد اعتبار الإيهام أنه إيهام التفكر في أحكام طالع ولادته عليه السلام وما يدل عليه بزعمهم ما تجدد له من الأوضاع في ذلك الوقت ، وهذا من معاريض الأفعال نظير ما وقع في قصة يوسف عليه السلام من تفتيش أوعية إخوته بني علاته قبل وعاء شقيقه فإن المفتش بدأ بأوعيتهم مع علمه أن الصاع ليس فيها وأخر تفتيش وعاء أخيه مع علمه بأنه فيها تعريضاً بأنه لا يعرف في أي وعاء هو ونفياً للتهمة عنه لو بدأ بوعاء

الأخ.

فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89)

(50/653)

---

﴿ فَقَالَ ﴾ أي لهم ﴿ إِنِى سَقِيمٌ ﴾ أراد أنه سيسقم ولقد صدق عليه السلام فإن كل إنسان لا بد أن يسقم وكفى باعتلال المزاج أول سريان الموت في البدن سقاماً ، وقيل أراد مستعد للسقم الآن أو خارج المزاج عن الاعتدال خروجاً قل من يخلو عنه أو سقيم القلب لكفركم والقوم توهموا أنه أراد قرب اتصافه بسقم لا يستطيع معه الخروج معهم إلى معيدهم ، وهو على ما روى عن سفيان وابن جبير سقم الطاعون فإنهما فسرا ﴿ سَقِيمٌ ﴾ بمطعون وكان كما قيل أغلب الأسقام عليهم وكانوا شيدي الخوف منه لاعتقادهم العدوى فيه ، وهذا وكذا قوله عليه السلام ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ [ الأنبياء : 63 ] وقوله في زوجته سارة هي أختي من معاريض الأقوال كقول نبينا صلى الله عليه وسلم لمن قال له في طريق الهجرة : ممن الرجل ؟ من ماء حيث أراد عليه الصلاة والسلام ذكر مبدأ خلقه ففهم السائل أنه بيان قبيلته وكقول صاحبه الصديق وقد سئل عنه عليه الصلاة والسلام في ذاك أيضاً : هو هاد يهديني حيث أراد شيئاً وفهم السائل آخر ولا يعد ذلك كذباً في الحقيقة .

وتسميته به في بعض الأحاديث الصحيحة بالنظر لما فعم الغير منه لا بالنسبة إلى ما قصده المتكلم وجعله ذنباً في حديث الشفاعة قيل لأنه ينكشف لإبراهيم عليه السلام أنه كان منه خلاف الأولى لا أن كل تعريض هو كذلك فإنه قد يجب والإمام لضيق محرابه ومجاله ينكر الحديث الوارد في ذلك وهو في الصحيحين ويقول : إسناد الكذب إلى راويه أهون من إسناده إلى الخليل عليه السلام ، وقد مر الكلام في ذلك ، وقيل : كانت له عليه السلام حمى لها نوبة معينة في بعض ساعات الليل فنظر ليعرف هل هي تلك الساعة فإذ هي قد حضرت فقال لهم إني سقيم ، وليس شيء من ذلك من المعاريض ، ونحوه ما أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : أرسل إليه عليه السلام ملكهم فقال : إن غداً عيدنا فاخرج معنا فنظر إلى نجم فقال إن ذا النجم لم يطلع قط إلا طلع بسقم لي .

(51/653)

---

وأنت تعلم أن النظر المعدي بفي بمعنى التأمل والتفكر والنظر المشار إليه لا يحتاج إلى تفكر ، وعن أبي مسلم أن المعنى نظر وتفكر في النجوم ليستدل بأحوالها على حدوثها وأنها لا تصلح أن تكون آلهة فقال إني سقيم أي سقيم النظر حيث لم يحصل له كمال اليقين انتهى ، وهذا لعمري يسلب فيما أرى عن أبي مسلم الإسلام وفيه من الجهل بمقام الأنبياء لا سيما

الخليل عليه وعليهم السلام ما يدل على سقم نظره نعوذ بالله تعالى من خذلانه ومكره .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أن ﴿ نَظَرَ نَظْرَةً فِى النجوم ﴾ كلمة من كلام العرب تقول إذا تفكر الشخص : نظر في النجوم وعليه فليس هو من المعاريض بل قوله : ﴿ إِنّى سَقِيمٌ ﴾ فقط منها وهذا إن أيده نقل من أهل اللغة حسن جداً ، وقيل : المعنى نظر في أحوال النجوم أو في علمها أو في كتبها وأحكامها ليستدل على ما يحدث له والنظر فيها للاستدلال على بعض الأمور ليس بممنوع شرعاً إذا كان باعتقاد أن الله تعالى جعلها علامة عليه والممنوع الاستدلال باعتقاد أنها مؤثرة بنفسها والجزم بكلية أحكامها ، وقد ذكر الكرماني في مناسكه على ما قال الخفاجي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل أراد السفر في آخر الشهر أتريد أن تخسر صفقتك ويخيب سعيك اصبر حتى يهل الهلال انتهى .

وهذا البحث من أهم المباحث فإنه لم يزل معترك العلماء والفلاسفة الحكماء ، وقد وعدنا بتحقيق الحق فيه وبيان كدره وصافيه فنقول وبالله تعالى التوفيق إلى سلوك أقوم طريق .

(52/653)

---

اعلم أن بعض الناس أنكروا أن يكون للكواكب تأثير في هذا العالم غير وجود الضياء في المواضع التي تطلع عليها الشمس والقمر وعدمه فيما غابا عنه وما جرى هذا المجرى ،

وهذا خروج عن الإنصاف وسلوك في مسالك الجور والاعتساف ، وبعضهم قالوا : إن لها تأثيراً ما يجري على الأمر الطبيعي مثل أن يكون البلد القيل العرض ذا مزاج مائل عن الاعتدال إلى الحر واليبس وكذا مزاج أهله وتكون أجسامهم ضعيفة وألوانهم سود وصفر كالنوبة والحبشة ، وأن يكون البلد الكثير العرض ذا مزاج مائل عن الاعتدال إلى البرد والرطوبة وكذا مزاج أهله وتكون أجسامهم عبلة وألوانهم بيض وشعورهم شقر مثل الترك والصقالبة ، ومثل نمو النبات واشتداده ونضج ثمره بالشمس والقمر ونحو ذلك مما يدرك بالحس ، ولا بأس في نسبته إلى الكوكب على معنى أن الله تعالى أودع فيه قوة مؤثرة فاثر بإذن الله تعالى كما ينسب الإحراق إلى النار والري إلى الماء مثلاً على معنى ذلك وهو مذهب السلف على ما قال الشيخ إبراهيم الكوراني في جميع الأسباب والمسببات وصرح به بعض الماتريدية ، أو على معنى أن الله تعالى أودع فيه قوة مؤثرة فاثر بإذن الله تعالى كما ينسب الإحراق إلى النار والري إلى الماء مثلاً على معنى ذلك وهو مذهب السلف على ما قال الشيخ إبراهيم الكوراني في جميع الأسباب والمسببات وصرح به بعض الماتريدية ، أو على معنى أن الله تعالى خلق ذلك عنده وليس فهي قوة مؤثرة مطلقاً على ما يقوله الأشاعرة في كل سبب ومسبب فلا فرق بين الماء والنار مثلاً عندهم في أنه ليس في كل ثوة يترتب عليها ما يترتب وإنما الفرق في أنه جرت عادة الله تعالى بأن يخلق الإحراق دون الري عند

النار دون الماء ويخلق الري دون الإحراق عند الماء دون النار وليس للنار والماء مدخل في الأثر من الإحراق والري سوى أن كلا مقارن لخلق الله تعالى الأثر بلا واسطة .

(53/653)

---

وظواهر الأدلة مع الأولين ولا ينافي مذهبهم توحيد الأفعال وأنه عز وجل خالق كل شيء كما حقق في موضعه .

وبعضهم زعم أن لها تأثيراً يعرفه المنجم غير ذلك كالسعادة والنحوسة وطول العمر وقصره وسعة العيش وضيقه إلى غير ذلك مما لا يخفى على من راجع كتب أحكام طوالع المواليد وطوالع السنين والكسوف والخسوف والأعمال ونحوها ، وهو مما لا ينبغي أن يعول عليه أو يلتفت إليه فليس له دليل عقلي أو نقلي بل الأدلة قائمة على بطلانه متكفلة بهدم أركانه ، والقائلون به بعد اتفاقهم على أن الخير والشر والإعطاء والمنع وما أشبه ذلك يكون في العالم بالكواكب على حسب السعود والنحوس وكونها في البروج المنافرة لها أو الموافقة وحسب نظر بعضها إلى بعض بالتسديس والتربيع والتثليث والمقابلة وحسب كونها في شرفها وهبوطها ووبالها ورجعتها واستقامتها وإقامتها اختلفوا في كثير من الأصول وتكلموا بكلام يضحك منه أرباب العقول ، وذلك أنهم اختلفوا في أنه على أي وجه يكون ذلك ؟

فزعم قوم منهم أن فعلها بطبائعها ، وزعم آخرون أن ذلك ليس فعلاً لها لكنها تدل عليه بطبائعها ، وزعم آخرون أنها تفعل في البعض بالعرض وفي البعض بالذات ، وزعم آخرون أنها تفعل بالاختيار لا بالطبع إلا أن السعد منها لا يختار إلا الخير والنحس لا يختار إلا الشر وهذا مع قولهم إنها قد تتفق على الخير وقد تتفق على الشر مما يتعجب منه ، وزعم آخرون أنها لا تفعل بالاختيار بل تدل به وهو كلام لا يعقل معناه .

واختلفوا أيضاً فقالت فرقة : من الكواكب ما هو سعد ومنها ما هو نحس وهي تسعد غيرها وتنحسه .



وقالت أخرى : هي في أنفسها طبيعة واحدة وإنما تختلف دلالتها على السعود والنحوس ، وهذا قول من يقول منهم إن للفلك طبيعة مخالفة لطبيعة الاستقصات الكائنة الفاسدة وأنها لا حارة ولا باردة ولا يابسة ولا رطبة ولا سعد ولا نحس فيها وإنما يدل بعض أجرامها وبعض أجزائها على الخير والبعض على الشر وارتباط الخير والشر والسعد والنحس بها ارتباط المدلولات بأدلتها لا ارتباط المعلولات بعللها وهو أعقل من أصحاب القول

بالاقتضاء الطبيعي والعلية وإن كان قوله أيضاً عند بعض الأجلة ليس بشيء لأن الدلالة الحسية لا تختلف ولا تتناقض .



---

واختلفوا أيضاً فقالت فرقة تفعل في الأبدان والأنفس جميعاً وهو قول بطليموس وأتباعه ، وقال الأكثرون : تفعل في الأنفس دون الأبدان ، ولعل الخلاف لفظي ، واختلف رؤساؤهم بطليموس ودوروسوس وانطيقوس وريمس وغيرهم من علماء الروم والهند وبابل في الحدود وغيرها وتضادوا في المواضع التي يأخذون منها دليلهم ، ومن ذلك اختلافهم في أمر سهم السعادة فزعم بطليموس أنه يعلم بأن يؤخذ أبداً العدد الذي يحصل من موضع الشمس إلى موضع القمر ويبتدىء من الطالع فيرصد منه مثل ذلك العدد على التوالي فمنتهى العدد موضع السهم ، وزعم بعضهم أنه يبتدىء من الطالع فيعد مثل ذلك على خلاف التوالي ، وزعم بعض الفرس أن سهم السعادة يؤخذ بالليل من القمر إلى الشمس وبالنهار من الشمس إلى القمر ، وزعم أهل مصر في الحدود أنها تؤخذ من أرباب البيوت وزعم الكلدانيون أنها تؤخذ من مدبري المثلثات ، واختلفوا أيضاً فرتبت طائفة البروج المذكرة والمؤنثة من الطالع فعدوا واحداً مذكراً وآخر مؤنثاً وصيروا الابتداء بالمذكر ، وقسمت طائفة أخرى البروج

أربعة أجزاء وجعلوا المذكرة هي التي من الطالع إلى وسط السماء والتي تقابلها من الغارب إلى وتد الأرض وجعلوا الربعين الباقيين مؤنثين ، ومما يضحك العقلاء أنهم جعلوا البروج قسمين حار المزاج وبارده وجعلوا الحار منها ذكراً والبارد أنثى وابتدؤا بالحمل فقالوا : هو ذكر حار والذي بعده مؤنث بارد وهكذا إلى آخرها فصارت ستة ذكوراً وستة إناثاً .

وقال بعضهم : الأول ذكر والثلاثة بعده إثاه والخامس ذكر والثلاثة بعده إناث والتاسع ذكر وما بعده إناث فالذكور ثلاثة وبعد كل ذكر إناث ثلاث مخالفة له في الطبيعة ، ثم إن هذه القسمة للمذكر والمؤنث ذاتية للبروج ولها قسمة ثانية بالعرض وهي أنهم يبدؤن من الطالع إلى الثاني عشر فيأخذون واحداً ذكراً وآخر أنثى .

(56/653)

---

وبعضهم يقول هي أربعة أقسام فمن وتد المشرق إلى وتد العاشر ذكر شرقي مجفف سريع ، ومن وتد العاشر إلى وتد الغارب مؤنث جنوبي محرق وسط ، ومن وتد الغارب إلى وتد الرابع ذكر معتل رطب غربي بطيء ، ومن وتد الرابع إلى الطالع مؤنث ذليل مبرد شمالي وسط ، وبعض الأوائل منهم لم يقتصر على ذلك بل ابتدأ بالدرجة الأولى من الحمل فقال هي ذكر والدرجة الثانية أنثى وهكذا إلى آخر الحوت ، ولبطليموس هذيان آخر فإنه ابتدأ بأول

درجة كل برج ذكر فنسب منها إلى تمام اثنتي عشرة درجة ونصف إلى الذكورية ومنه إلى تمام خمس وعشرين درجة إلى الأنوثية ثم قسم باقي البروج إلى قسمين فنسب النصف الأول إلى الذكر والآخر إلى الأنثى وفعل مثل ذلك في كل برج أنثى ، ولدوروسوس هذيان فإنه يقسم البروج كل برج ثمانية وخمسين دقيقة ومائة وخمسين دقيقة ثم ينظر إلى الطالع فإن كان برجاً ذكراً أعطى القسمة الأولى للذكر ثم الثانية للأنثى إلى أن يأتي على البروج كلها وإن كان أنثى أعطى القسمة الأولى للأنثى ثم الثانية للذكر إلى أن يأتي على آخرها ، وما لهم في شيء من ذلك دليل مع أن قولهم ببساطة الفلك يأبى اختلاف أجزائه بالحرارة والبرودة والذكورة والأنوثة ، ومثل هذيانهم في قسمة الأجزاء الفلكية إلى ما ذكر قسمتهم الكواكب إلى ذلك فزعموا أن القمر والزهرة مؤنثان وأن الشمس وزحل والمشتري والمريخ مذكرة وإن عطارد ذكر أنثى وإن سائر الكواكب تذكر وتؤنث بسبب الأشكال التي تكون لها بالقياس إلى الشمس وذلك أنها إذا كانت مشرقة متقدمة على الشمس فهي مذكرة وإن كانت مغربة تابعة كانت مؤنثة وإن ذلك يكون لها بالقياس إلى أشكالها من الأفق ، وذلك أنها إذا كانت في الأشكال التي من المشرق إلى وسط السماء مما تحت الأرض فهي مذكرة وإذا كانت في الربعين الباقيين فهي مؤنثة ، ويلزم عليه انقلاب المذكر مؤنثاً والمؤنث مذكراً .

وأجاب بعضهم عن هذا الهذيان أنه لا مانع من اتصاف شيء بأمر بالقياس إلى شيء وبضده بالقياس إلى آخر وهو في نفسه غير متصف بشيء منهما كالأدكن فإنه يقال فيه أبيض بالقياس إلى الأسود وأسود بالقياس إلى الأبيض وهو في نفسه لا أسود ولا أبيض فكذا الكواكب يقال إنها ذكران وإناث بالقياس إلى الأشكال أعني الجهات والجهات إلى الرياح كالصبا والدبور والرياح إلى الكيفيات لا أنها ذكران وإناث في أنفسها ، وهو تلبيس فإن الأدكن فيه شائبة بياض وسواد فمقتضى التشبيه يلزم أن يكون في الكوكب شائبة ذكورة وأنوثة ، وأيضاً الظاهر أن الانقسام المذكور بحسب الطبيعة والتأثير والتأثر ولا يكاد يعرف انقلاب الحقيقة والطبيعة بحسب الموضع والقرب والبعد ، ومنه يعلم فساد ما قالوا : إن القمر من أولى ما يهل إلى وقت انتصافه الأول في الضوء يكون فاعلاً للرطوبة خاصة ومن ذلك إلى وقت الامتلاء يكون فاعلاً للحرارة ومنه إلى وقت الانتصاف الثاني في الضوء يكون فاعلاً لليبس ومن ذلك إلى وقت خفائه يكون فاعلاً للبرودة وقاسوا ذلك على تأثيرات الشمس في الفصول والفرق مثل الشمس ظاهر ، ويلزم عليه كون الشهر الواحد ذا فصول والحس يدفعه ، وأيضاً كلامهم هذا يخالف ما قالوه من أن قوة القمر الترطيب لقرب فلكه من الأرض وقبوله للبخارات الرطبة التي ترتفع منها إليه ، ثم إن هذا الوقل باطل في نفسه لما أنه يلزم عليه ازدياد رطوبة القمر في كل يوم لو سلم تصاعد البخارات الرطبة إليه

وتأثره منها ، وكذا القول بأن قوة زحل أن يبرد ويجفف تجفيفاً يسيراً لبعده عن حرارة الشمس والبخارات الرطبة ، وأن قوة المريخ مجففة محرقة لمشاكلة لونه لون النار ولقربه من الشمس ، وكوكب الدب الأكبر كالمريخ ، وأن عطارداً معتدل في التجفيف والترطيب لأنه لا يبعد عن الشمس بعداً كثيراً ولا وضعه فوق كرة القمر .

*(58/653)*

---

ومن العجائب استدلال فضلائهم على اختلاف طبائع الكواكب باختلاف ألوانها حيث قالوا : لما كان لون زحل الغبرة والكمودة حكموا بأنه على طبع السوداء وهو البرد واليبس فإن لها من الألوان الغبرة ، ولما كان لون المريخ كلون النار قلنا طبعه حار يابس والحرارة واليبس في الشمس ظاهرتان ، ولما كان لون الزهرة كالمركب من البياض والصفرة والبياض أظهر فيها قلنا طبعها البرودة والرطوبة كالبلغم ، ولما كان صفرة المشتري أكثر مما في الزهرة كانت سخونته أكثر من سخونة الزهرة وكان في غاية الاعتدال ، وأما القمر فهو أبيض وفيه كمودة فيدل بياضه على البرودة .

*(59/653)*

وأما عطارد فتختلف ألوانه فربما رأيناه أخضر وربما رأيناه أغبر وربما رأيناه على خلاف هذين اللونين وذلك في أوقات مختلفة مع كونه من الأفق على ارتفاع واحد فلا جرم يكون له طبائع مختلفة إلا أنا لما وجدناه في الأغلب أغبر كالأرض قلنا هو مثلها في الطبع ، ويرد عليه أن المشاركة في بعض الصفات لا تقتضي المشاركة في الطبيعة ولا في صفة أخرى ، وأن دلالة مجرد اللون على الطبيعة ضعيفة جداً لاشتراك الكثير في لون مع اختلاف الطبائع ، وأيضاً الزرقة أظهر في الزهرة واختلاف ألوان عطارد لأنا نراه قريب الأفق فيكون بيننا وبينه بخارات مختلفة ، وقال أبو معشر : إن القمر لا ينسب لونه إلى البياض إلا من عدم قوة الحس البصري وفيه بعد ما فيه ولو سلم جميع ما قالوه من اختلاف طبائع البروج والكواكب بالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فقصارى ما يترتب على ذلك ما نجده من اختلاف الأقاليم حرارة وبرودة مثلاً واختلاف أشجارها وأثمارها واختلاف أجسام أهلها وألوانهم واختلاف حيواناتها إلى غير ذلك من الاختلافات ، ومع هذا نقول : إن الكواكب جزء السبب في ذلك لكن من أين لهم القول بأن جميع الحوادث في هذا العالم خيرها وشرها وصلاحها وفسادها وجميع أشخاصه وأنواعه وصوره وقواه ومدد بقاء أشخاصه وجميع أحوالها العارضة لها وتكون الجنين ومدة لبثه في بطن أمه وخروجه إلى الدنيا وعمره ورزقه وشقاوته وحسنه وقبحه وأخلاقه وحذقه وبلادته وجهله وعلمه إلى ما لا يحصى من

أحواله وانقسام الحيوان إلى الطير وأصنافه وإلى الحيوان البحري وأنواعه والبري وأقسامه واختلاف صور الحيوانات وأفعالها وأخلاقها وثبت العداوة بين أفراد نوع وأفراد نوع آخر منها كالذئاب والغنم وثبوت الصداقة كذلك وكذا ثبوت العداوة أو الصداقة بين أفراد النوع الواحد إلى غير ذلك مما يكون في العالم لا يكون إلا بتأثير الكواكب وهو مما لا يكاد يصح لأن طريق صحته إما الخبر الصادق أو الحس الذي يشترك فيه الناس

(60/653)

---

أو ضرورة العقل أو نظيره وشيء من هذا كله غير موجود ، ولا يمكن الأحكاميين أن يدعوا واحداً من الثلاثة الأول وغايتهم أن يدعوا أن التجربة قادتهم إلى ذلك ، ولا شك أن أقل ما لا بد منه فيها أن يحصل ذلك الشيء على حالة واحدة مرتين والوضع المعين لمجموع الكواكب لا يتكرر أصلاً أو يتكرر بعد ألوف ألوف من السنين وعمر الإنسان الواحد بل عمر البشر لا تفي به .

وزعم بعضهم لذلك أن مجموع الاتصالات ونسب الكواكب بعضها إلى بعض غير شرط في التأثير لتتوقف التجربة على تكراره بل يكفي بعض الاتصالات وقد يكفي واحد منها وذلك يتكرر في أزمنة قليلة فتتأتى التجربة ، مثلاً رداءة السفر وقد نزل القمر برج العقرب

يستند إلى هذا النزول بالتجربة فإنا وجدنا تكرر ذلك وترتب الرداءة عليه كل مرة وهذا هو التجربة وكذا يقال في نظائره .

وأنت تعلم أن التجارب التي دلت على كذب ما يقولون بوقوع خلافه أضعاف التجارب التي دلت على صدقه ، فقد أجمع حذاقهم سنة سبع وثلاثين عام خروج علي كرم الله تعالى وجهه إلى صفين على أنه يقتل ويقهر جيشه فانتصر على أهل الشام ولم يقدروا على التخلص إلا بالحيلة ، وإن لم يسلم هذا الإجماع فإجماعهم على مثله في خروجه كرم الله تعالى وجهه لحرب الخوارج حيث كان القمر في العقرب وقوله رضي الله تعالى عنه : نخرج ثقة بالله تعالى وتوكلاً عليه سبحانه وتكذيباً لقول المنجم ، ونصرته الخارجة عن القياس مما شاع وذاع ولو قيل بتواتره لم يبعد ، وأجمعوا سنة ست وستين على غلبة عبيد الله بن زياد وقد سار بنحو من ثمانين ألف مقاتل على المختار بن أبي عبيد فلقيه إبراهيم بن الأشتر صاحب المختار بأرض نصيبين فيما دون سبعة آلاف مقاتل فقتل من عسكره نحواً من ثلاثة وسبعين ألفاً وضربه وهو لا يعرفه فقتله ولم يقتل من أصحابه أكثر من مائة .

وأجمعوا يوم أسست بغداد سنة ست وأربعين ومائة على أن طالعها يقضي بأنه لا يموت فيها خليفة وشاع ذلك حتى قال بعض شعراء المنصور مهنئاً له :

يهنيك منها بلدة تقضي لنا . . .

أن الممات بها عليك حرام

لما قضت أحكام طالع وقتها . . .

أن لا يرى فيها يموت امام

فأول ما ظهر كذب ذلك بقتل الأمين بشارع باب الأنبار فقال بعض الشعراء :

كذب المنجم في مقالته التي . . .

كان أدعاها في بنا بغدان

قتل الأمين بها لعمري يقتضي . . .

تكذيبهم في سائر الحسبان

ثم مات فيها جماعة من الخلفاء كالواثق .

والمتوكل .

والمعتضد .

والناصر .

وغيرهم إلى أمور أخر لا تكاد تحصى أجمعوا فيها على حكم وتبين كذبهم فيه ، على أنه

قد يقال لهم: المؤثر في السعود والنحوس ونحوهما هل هو الكوكب وحده أو البرج وحده أو الكوكب بشرط حصوله في البرج؟ فإن قالوا بأحد الأمرين الأولين لزمهم دوام الأثر لدوام المؤثر، وإن قالوا بالثالث لزمهم القول باختلاف البروج في الطبيعة وإلا لاتحدت آثار الكوكب فيها وكلهم مجموعون على أن الفلك بسيط لا تركيب فيه، والتزام التركيب من طبائع مختلفة ينافي قولهم بامتناع الانحلال.

(62/653)

---

وزعم بعضهم أنها تفعل ما تفعل بالاختيار يستدعي إلغاء أمر الاتصال والانفصال والمقارنة والهبوط ونحو ذلك؛ وكون ما ذكر شرطاً للاختيار لا يخفى حاله، والقول بأنها تستدعي من حيث طبيعة أشعتها التسخين مثلاً يقتضي حرارة وحدة في المزاج يفعل بها شخص غاية الخير والأفعال الحميدة وآخر غاية الشر والأفعال الخبيثة فلا بد لهذا الاختلاف من موجب غير التسخين، وأيضاً هم يقولون: جميع الحوادث الكونية مستند إلى الكواكب وحديث التسخين والتبريد واستلزامهما اختلاف أفعال النفس لا يتم به هذا الغرض، وذكر الإمام الرازي عليه الرحمة أن المثبتين لعلم الأحكام والتأثيرات أي من الإسلاميين احتجوا من كتاب الله تعالى بآيات وهي أنواع، الأول: الآيات الدالة على تعظيم الكواكب

فمنها قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ الجوار الكنس ﴾ [ التكوير : 15 ، 16 ] وأكثر المفسرين على أن المراد هو الكواكب التي تصير راجعة تارة ومستقيمة أخرى ، ومنها قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بمواقع النجوم وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾ [ الواقعة : 75 ، 76 ] وقد صرح سبحانه بتعظيم هذا القسم وذلك يدل على غاية جلالة مواقع النجوم ونهاية شرفها ، ومنها قوله تعالى : ﴿ والسماء والطارق وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطارق النجم الثاقب ﴾ [ الطارق : 1-3 ] قال ابن عباس : الثاقب هو زحل لأنه يثقب بنوره سمك السموات السبع ، ومنها قوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين ﴾ [ الأعراف : 54 ] فقد بين سبحانه إلهيته بكون هذه الكواكب تحت تدبيره وتسخيره ، النوع الثاني : ما يدل على وصفه تعالى بعض الأيام بالنحوسة كقوله سبحانه : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [ فصلت : 16 ] النوع الثالث : الآيات الدالة على أن لها تأثيراً في هذا العالم كقوله تعالى : ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾

*(63/653)*

---

[ النازعات : 5 ] وقوله تعالى : ﴿ فالمدبرات امراً ﴾ [ الذاريات : 4 ] وقوله تعالى : ﴿ فالمقسمات أمرا ﴾ [ الذاريات : 4 ] قال بعضهم المراد هذه الكواكب .

الرابع : الآيات الدالة على أنه تعالى جعل حركات هذه الأجرام وخلقها على وجه ينتفع بها في مصالح هذا العالم كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ الشمس ضِيَاء والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب مَا خَلَقَ الله ذلك إِلاَّ بالحق ﴾ [ يونس : 5 ] وقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذى جَعَلَ فِى السماء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ [ الفرقان : 61 ] .

النوع الخامس : أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه تمسك بعلم النجوم فقال سبحانه : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النجوم فَقَالَ إِنّى سَقِيمٌ ﴾ [ الصافات : 88 ، 89 ]

السادس : أنه تعالى قال : ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [ غافر : 57 ] ولا يكون المراد كبر الجثة لأن كل أحد يعلمه فوجب أن يكون المراد كبر القدر والشرف ، وقال سبحانه : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السموات والأرض رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا باطلا ﴾ [ آل عمران : 191 ] ولا يجوز أن يكون المراد أنه تعالى خلقها ليستدل بتركيبها وتأليفها على وجود الصانع لأن هذا القدر حاصل في تركيب البعوضة ودلالة حصول الحياة في بنية الحيوانات على وجود الصانع أقوى من دلالة تركيب الأجرام الفلكية عليه لأن الحياة لا يقدر عليها غيره تعالى وجنس التركيب يقدر عليه الغير فلما خصها سبحانه وتعالى بهذا التشريف المستفاد من قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا باطلا ﴾ [آل عمران: 191] علمنا أن في تخليقها أسراراً عالية وحكماً بالغة تتقاصر عقول البشر عن إدراكها، ويقرب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ذلك ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ [ص: 27] ولا يمكن أن يكون المراد أنه تعالى خلقها على وجه يمكن الاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم لأن كونها دالة على الافتقار إلى الصانع أمر ثابت لها لذاتها لأن كل متحيز محدث وكل محدث مفتقر إلى الفاعل فثبت أن دلالة المتحيزات على وجود الفاعل أمر ثابت لها لذواتها وأعيانها وما كان كذلك لم يكن سبب الفعل والجعل فلم يمكن حمل الآية على هذا الوجه فوجب حملها على الوجه الذي ذكر.

النوع السابع: روي أن عمر بن الخيام كان يقرأ كتاب المجسطي على أستاذه فدخل عليهم واحد من المتفقهة فقال: ما تقرءون؟ فقال عمر: نحن في تفسير آية من كتاب الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السماء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بنيناها وزيناها وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق: 6] فنحن ننظر كيف خلق السماء وكيف بناها وكيف صانها عن الفروج.

الثامن : أن إبراهيم عليه السلام لما استدل على إثبات الصانع تعالى بقوله : ﴿ رَبِّيَ الذى يُحْيِ وَيُمِيتُ ﴾ [ البقرة : 258 ] قال له نمروذ : أتدعي أنه يحيي ويميت بواسطة الطبائع والعناصر أولاً بواسطتها فإن ادعيت الأول فذلك مما لا تجده البتة لأن كل ما يحدث في هذا العالم فهو بواسطة العناصر والحركات الفلكية وإن ادعيت الثاني فمثل هذا الإحياء والإماتة حاصل مني ومن كل أحد وهو المراد بقوله : ﴿ أنا أحي وأميت ﴾ [ البقرة : 258 ] ثم إن إبراهيم عليه السلام لم ينازع في كون هذه الحوادث السفلية مرتبطة بالحركات الفلكية بل أجاب بأن الله تعالى هو المبدأ لتلك الحركات فيكون الفعل منه سبحانه حقيقة والواحد منا لا يقدر على تحريك الأفلاك على خلاف التحريك الإلهي وهذا هو المراد بقوله : ﴿ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب ﴾ [ البقرة : 258 ] وإذا عرفت نهج الكلام في هذا الباب عرفت أن القرآن العظيم مملوء من تعظيم الأجرام الفلكية وتشريف الكرات الكوكبية ، وأما الأخبار فكثيرة منها ما روي أنه عليه الصلاة والسلام نهي عن استقبال الشمس والقمر واستدبارهما عند قضاء الحاجة ، ومنها أنه لما مات ولده صلى الله عليه وسلم إبراهيم انكسفت الشمس فقال الناس إنما انكسفت لموت إبراهيم فقال عليه الصلاة والسلام :

"إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة" ومنها ما روى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا وإذا ذكر النجوم فأمسكوا" ومن الناس من يروي أنه صلى الله عليه وسلم قال: "لا تسافروا والقمر في العقرب" ومنهم من يرويه عن علي كرم الله تعالى وجهه وإن كان المحدثون لا يقبلونه، وأما الآثار فكثيرة أيضاً فعن علي كرم الله تعالى وجهه أن رجلاً أتاه آخر الشهر فقال: أريد الخروج في تجارة فقال: تريد أن يمحق الله تعالى تجارتك استقبل هلال الشهر بالخروج.

وعن عكرمة أن يهودياً منجماً قال له ابن عباس: ويحك تخبر الناس بما لا تدري فقال: إن لك ابناً في المكتب يحم غداً ويموت في اليوم العاشر فقال ابن عباس: ومتى تموت أنت؟ قال: على رأس السنة ثم قال له: ولا تموت أنت حتى تعمى فكان كل ذلك.

وعن الشعبي قال: "قال أبو الدرداء لقد فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركنا ولا طائر يطير بجناحيه إلا ونحن ندعي فيه علما" وليست الكواكب موكلة بالفساد والصلاح ولكن فيها دليل بعض الحوادث عرف ذلك بالتجربة، وجاء في الآثار أن أول من أعطى هذا العلم آدم عليه السلام وذلك أنه عاش حتى أدرك من ذريته أربعين ألف أهل بيت وتفرقوا عنه في الأرض وكان يغتم لخفاء خبرهم فأكرمه الله تعالى بهذا العلم فكان إذا أراد أن يعرف

حال أحدهم نظر في النجوم فعرفه .

وعن ميمون بن مهران أنه قال : إياكم والتكذيب بالنجوم فإنه من علم النبوة ، وروي عن الشافعي أنه كان عالماً بالنجوم ، وجاء لبعض جيرانه ولد فحكم له بأن هذا الولد ينبغي أن يكون على عضوه الفلاني خال صفته كذا وكذا فوجد الأمر كما قال ، وروى ابن إسحاق أن المنجمين أخبروا فرعون أنه سيجيء ولد من بني إسرائيل يكون هلاكه على يده .

*(67/653)*

---

وكذا كان كما قص الله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءهُمْ ﴾ [ القصص : 4 ] وأما المعقول فهو أن هذا العلم ما خلت عنه ملة من الملل ولا أمة من الأمم ولم يزالوا مشتغلين به معولين عليه في معرفة المصالح ، ولو كان فاسداً بالكلية لاستحال إطباق أهل المشرق والمغرب من أول بناء العالم إلى آخره عليه ، والتجارب في هذا الباب أكثر من أن تحصى اه كلامه .

ولعمري لقد نثر الكنانة ونفض الجعبة واستفرغ الوسع وبذل الجهد وروج وبهرج وقعقع وفرقع ومن غير طحن جعجع وجمع بين ما يعلم بالضرورة أنه كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وما يعلم بالضرورة أنه خطأ في تأويل كلام الله تعالى ومعرفة

مراده سبحانه ، ولا يروج ما ذكره إلا على مفرط في الجهل أو مقلد لأهل الباطل من المنجمين ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُّمُ ﴾ فاسمع لما نقول : ما ذكره من الاستدلالات أو هي من بيوت العناكب وأشبه شيء بنار الحباحب ؛ فأما الاستدلال بقوله تعالى :

(68/653)

---

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالخنس الجوار الكنس ﴾ [ التكوير : 15 ، 16 ] ففيه أنا لا نسلم أن هناك قسماً بالنجوم فقد روي عن ابن مسعود أن المراد بالخنس بقر الوحش وهي رواية عن ابن عباس واختاره ابن جبير ، وحكى الماوردي أنها الملائكة ، وإذا سلم ذلك بناءً على أنه الذي ذهب إليه الجمهور فأي دلالة فيه على التأثير وقد أقسم سبحانه بالليل والنهار والضحى ومكة والوالد وما ولد والفجر وليال عشر والشفع والوتر والسماء والأرض واليوم الموعود وشاهد ومشهود والمرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والنازعات والناشطات والسابحات والسابقات والتين والزيتون وطور سينين إلى غير ذلك فلو كان الإقسام بشيء دليلاً على تأثيره لزم أن يكون جميع ما أقسم به تعالى مؤثراً وهم لا يقولون به وإن لم يكن دليلاً فالاستدلال به باطل ، ومثله في ذلك الاستدلال بقوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بمواقع النجوم ﴾ [ الواقعة : 75 ] وقد فسر غير واحد مواقع النجوم بمنازل

القرآن ونجومه التي نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم في مدة ثلاث وعشرين سنة ،

وكذا الاستدلال بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ والسماء والطارق ﴾ [ الطارق : 1 ] .

[ وأما قوله تعالى : ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ [ النازعات : 5 ] فلم يقل أحد من الصحابة

والتابعين وعلماء التفسير أنه إقسام بالنجوم فهذا ابن عباس .

وعطاء .

وعبد الرحمن بن سابط .

وابن قتيبة .

وغيرهم قالوا : إن المراد بالمدبرات أمراً الملائكة حتى قال ابن عطية : لا أحفظ خلافاً في

ذلك ، وكذلك ﴿ المقسمات أمْراً ﴾ [ الذاريات : 4 ] فتفسيرهما بالنجوم تفسير

المنجمين ومن سلك سبيلهم وهو تفسير بالرأي والعياذ بالله تعالى ، وأما وصفه تعالى بعض

الأيام بالنحوسة كما في الآية التي ذكرها فليس ذلك لتأثير الكواكب ونحوستها بحسب ما

يزعم المنجم بل لأن الله تعالى عذب أعداءه فيها فهي أيام مشائيم على الأعداء فوصف

تلك الأيام بنحسات كوصف يوم القيامة بأنه عسير على الكافرين .

وكذا يقال في قوله تعالى : ﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ [ القمر : 19 ] وليس ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ فيه صفة ﴿ يَوْمٍ ﴾ بل هو صفة ﴿ نَحْسٍ ﴾ أي نحس دائم لا يقلع عنهم كما تقلع مصائب الدنيا عن أهلها ، والقول بأنه صفة ﴿ يَوْمٍ ﴾ وأن المراد به يوم أربعاء آخر الشهر وأنه نحس أبداً غلط ولا يكاد المنجم يزعم نحوسة يوم أربعاء آخر الشهر ولو شهر صفر أبداً بل كثيراً ما يحكم بغاية سعده حسبما تقتضيه الأوضاع الفلكية فيه بزعمه .

وأما استدلاله بالآيات الدالة على أنه سبحانه وضع حركات هذه الأجرام على وجه ينتفع بها في مصالح هذا العالم فمن الطرائف إذ الأليق لو صح زعم المنجم أن يذكر في الآية ما تقتضيه النجوم من السعد والنحس وتعطيه من السعادة والشقاوة وتهبه من الأعمار والأرزاق والعلوم والمعارف وسائر ما في العالم من الخير والشر فإن العبرة بذلك أعظم من العبرة بمجرد الضياء والنور ومعرفة عدد السنين والحساب ، وأما ما ذكره عن إبراهيم عليه السلام من أنه تمسك بعلم النجوم حين قال : ﴿ إِنّى سَقِيمٌ ﴾ فسقيم جيداً وقد سمعت ما قيل في الآية ، ولا ينبغي أن يظن بإمام الحنفاء وشيخ الأنبياء وخليل رب الأرض والسماء أنه كان يتعاطى علم النجوم ويأخذ منه أحكام الحوادث ولو فتح هذا الباب على الأنبياء عليهم السلام لاحتمل أن يكون جميع أخبارهم عن المستقبلات من أوضاع النجوم لا من الوحي وهو كما ترى ، وأما الاستدلال بقوله تعالى :

﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [ غافر : 57 ] وإن المراد به كبر القدر والشرف لا كبر الجثة ففي غاية الفساد فإن المراد من الخلق ههنا الفعل لا المفعول ، والآية للدلالة على المعاد أي إن الذي خلق السموات والأرض وخلقهما أكبر من خلقكم كيف يعجزه أن يعيدكم بعد الموت ، ونظيرها قوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [ يس : 81 ] وأين هذا من بحث أحكام النجوم وتأثيراتها ، ومثل هذا الاستدلال بقوله تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السموات والأرض رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا باطلا ﴾ [ آل عمران : 191 ] فإن خلق السموات والأرض من أعظم الأدلة على وجود فاطرهما وكمال قدرته وحكمته وعلمه وانفراده بالربوبية ومن سوى بينهما وبين البقة فقد كابر ، ولذا ترى الأشياء الضعيفة كالبعوضة والذباب والعنكبوت إنما تذكر في سياق ضرب الأمثال مبالغة في الاحتقار والضعف ولا تذكر في سياق الاستدلال على عظمة ذي الجلال جل شأنه ، على أن الآية لو دلت على أن للكواكب تأثيراً لدلت على أن للأرض تأثيراً أيضاً كالكواكب وهم لم يقولوا به ، وما ذكره بعد من أن دلالة حصول الحياة في أبدان الحيوانات أقوى من دلالة السموات والأرض إلى آخر ما قال في حيز المنع ، ونظير ذلك الاستدلال بقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ﴾ [ ص : 27 ] فإنه لا يدل أيضاً على أن للكواكب تأثيراً ، وغاية ما تدل

عليه هذه الآية ونظائرها أن تلك المخلوقات فيها حكم ومصالح وليست باطلة أي خالية عن ذلك ، ونحن نقول بما تدل عليه ولكن لا نقول بأن تلك الحكم هي الإسعاد والإشقاء وهبة الأعمار والأرزاق إلى غير ذلك مما يزعمه المنجمون بل هي الآثار الظاهرة في عالم الطبيعة على ما سمعت ونحوها كالدلالة على وجود الصانع وكثير من صفاته جل شأنه التي ينكرها الكفرة ولا مانع من أن يقال خلق

(71/653)

---

الله تعالى كذا لتظهر دلالته على كذا ، ولا تتعين العبارة التي ذكرها على أنه لا بأس بها عند تدقيق النظر ، ولعل ما قاله من فروع كون الماهيات غير مجعولة والكلام فيه شهير ، وأما ما ذكره عن عمر بن الخيام فهو على طرف الثمام ، وأما ما ذكره في محاجة إبراهيم عليه السلام وتقرير المناظرة على ما قرره فلم يقل به أحد من المفسرين سلفهم وخلفهم بل قد يقطع بأنه لم يخطر بقلب المشرك المناظر وما هو إلا تفسير بالرأي والتشهي نعوذ بالله تعالى من ذلك ، وأما استدلاله بما روي من نهيه عليه الصلاة والسلام عن استقبال الشمس والقمر عند قضاء الحاجة فبعيد عن حاجته بل لا دلالة للنهي المذكور على تأثير الكواكب الذي يزعمونه وإلا لدل النهي عن استقبال الكعبة عند قضاء الحاجة على أن لها تأثيراً ، على أن

بعض الأجلة قد ذكر أن ذلك النهي لم ينقل فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة واحدة لا بإسناد صحيح ولا ضعيف ولا متصل ولا مرسل وإنما قال بعض الفقهاء في آداب التخلي ولا يستقبل الشمس والقمر فقيل لأن ذلك أبلغ في التستر ، وقيل : لأن نورهما من نوره تعالى ، وقيل : لأن اسم الله تعالى مكتوب عليهما .

(72/653)

---

وأما ما ذكر من حديث كسوف الشمس يوم موت إبراهيم وقوله عليه الصلاة والسلام ما قال فصحيح لكن لا يدل على ما يزعمه المنجمون ، وصدر الحديث يدل على أن الشمس والقمر آيتان وليسا بربين ولا إلهين ففيه إشارة إلى نفي التصرف عنهما ، وفي قوله عليه الصلاة والسلام لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته قولان ، أحدهما : أن موت أحد وحياته لا يكونان سبباً لانكسافهما ، وثانيهما : أنه لا يحصل عن انكسافهما موت ولا حياة وإنما ذلك تخويف من الله تعالى لعباده أجرى العادة بحصوله في أوقات معلومة بالحساب لطلوع الهلال وإبداره وسراره ، فأما سبب كسوف الشمس فتوسط القمر بين جرم الشمس وأبصارنا كسحابة تمر تحتها فإن لم يكن للقمر عرض ستر عنا كل الشمس وإن كان له عرض فبقدر ما يوجبه عرضه ، وأما سبب خسوف القمر فهو توسط الأرض بينه وبين الشمس

حتى يصير ممنوعاً من اكتساب النور من الشمس ويبقى ظلام ظل الأرض المخروط في ممره فقد يقع كله في المخروط وقد يقع بعضه فيه ويبقى بعضه الآخر خارجاً إلى آخر ما قرر في موضعه وليس في الشرع ما يأباه والوقوف على وقت الكسوف والخسوف ومقدارهما أمر سهل ولا يلزم من صدق المنجم في ذلك صدقه فيما يزعم من التأثيرات وما الأخبار بهما إلا كالأخبار بوقت طلوع الشمس في يوم كذا في ساعة كذا وكالأخبار بوقت الهلال والإبدار والسرار ، ثم إنا لا ننكر أن الله تعالى يحدث عند الكسوفين من أقضيته وأقداره ما يكون بلاء لقوم ومصيبة لهم ويجعل الكسوف سبباً لذلك ولهذا أمر صلى الله عليه وسلم عند الكسوف بالفزع إلى ذكر الله تعالى والصلاة والعتاقة والصدقة لأن هذه الأشياء تكون سبباً لدفع موجب الكسف الذي جعله الله تعالى سبباً لما جعله فلولا انعقاد سبب التخويف لما أمر عليه الصلاة والسلام بدفع موجبه بهذه العبادات ، ولله تعالى في أيام دهره أوقات يحدث فيها ما يشاء من البلاء والنعماء ويقضي من الأسباب بما يدفع موجب تلك الأسباب لمن قامت به أو

يقلله أو يخففه فمن فرغ إلى تلك الأسباب أو بعضها اندفع عنه الشر الذي جعل الله تعالى الكسوف سبباً له أو بعضه ، ولهذا قل ما يسلم أطراف الأرض حيث يخفى الإيمان وما جاءت به الرسل فيها من شر عظيم يحصل بسبب الكسوف ويسلم منه الأماكن التي يظهر فيها نور النبوة والقيام بما جاءت به الرسل أو يقل فيها جداً .

وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم لما كسفت الشمس في عهده قام فزعاً مسرعاً يجر رداءه ونادى في الناس الصلاة جامعة وخطبهم بتلك الخطبة البليغة وأخبر أنه لم ير كيومه ذلك في الخير والشر وأمرهم عند حصول مثل تلك الحالة بالعتاقة والصدقة والصلاة والتوبة وما ذلك إلا لكونه عليه الصلاة والسلام أعلم الخلق بالله تعالى وبأمره وشأنه وتصريفه أمور مخلوقاته وتدبيره وأنصحهم للأمة وأشفقهم على العباد ولم يبين لهم عليه الصلاة والسلام أسباب الكسوفين وحسابهما لأن الجهل بذلك لا يضر والعلم به لا ينفع نفع العلم بما جاءت به الرسل عليهم السلام .

وقد يقال : الأمر بالصلاة عندهما كالأمر بالصلاة عند طلوع الفجر والغروب والزوال مع تضمن ذلك رفع موجبهما الذي جعلهما الله تعالى سبباً له ، ومن الناس من أنكر أن يكون الكسوفان سببين لشيء من البلاء أصلاً وأن سبب حصولهما ليس ما أطال الكلام فيه المنجمون ومر بعضه بل السبب هو تجلي الله تعالى عليهما لما أخرجه ابن ماجه في سننه . والإمام أحمد .

والنسائي من حديث النعمان بن بشير قال : "انكسفت الشمس على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فخرج فزعاً يجر ثوبه حتى أتى المسجد فلم يزل يصلي حتى انجلت ثم قال : إن ناساً يزعمون أن الشمس والقمر لا ينكسفان إلا لموت عظيم من العظماء وليس كذلك إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا تجلى الله تعالى لشيء من خلقه خشع له وأن الأمر بالصلاة لظهور آثار تجلي الجلال في هذين الجرمين العظيمين أو هو كالأمر بالصلاة عند غروب الشمس وطلوع الفجر مثلاً وحكمته كحكمته والقائلون بهذا مكابرون للفلاسفة في أشياء لا ينبغي المكابرة فيها ولعلها تضر بالدين وتصير سبباً لطعن الملحدين فيكابرون في كون الأفلاك مستديرة والأرض كرية وأن نور القمر مستفاد من ضياء الشمس وأن الكسوف القمري عبارة عن انمحاء نور القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس من حيث أن نوره مقتبس منها وأن الكسوف الشمسي عبارة عن وقوع جرم القمر بين الناظر والشمس عند اجتماعهما في العقدتين على دقيقة واحدة وقولهم بتأثير الأسباب المحسوسة في مسبباتها وإثبات القوى والطبائع والأفعال والانفعالات إلى غير ذلك مما تقوم عليه الأدلة اليقينية ولا تعارضه النصوص الشرعية القطعية ، وما ذكروه من الحديث تعقبه

حجة الإسلام الغزالي فقال : إن زيادة فإن الله الخ لم يصح نقلها فيجب تكذيب قائلها ولو صحت لكان تأويلها أهون من مكابرة أمور قطعية فكم من ظواهر أولت بالأدلة العقلية التي لم تبلغ في الوضوح إلى هذا الحد وأعظم ما يفرح به الملحدة أن يصرح ناصر الشرع بأن هذا وأمثاله على خلاف الشرع فيسهل عليه إبطال الشرع إن كان شرطه أمثال ذلك اه وليس الأمر في هذه كما قال من عدم الصحة فإن إسنادها لا مطعن فيه ، فابن ماجه يروي الحديث بهذه الزيادة عن محمد بن المثنى .

وأحمد بن ثابت .

(75/653)

---

وحميد بن الحسن وهم يروونه عن عبد الوهاب عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن النعمان بن بشير وكل هؤلاء ثقات حفاظ ، نعم الحديث الخالي عنها رواه بضعة عشر صحابياً منهم علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس .

وعائشة .

وأسماء أختها .

وأبي بن كعب .

وجابر بن عبد الله .

وسمرة بن جندب .

وقبيصة الهلالي .

وعبد الله بن عمرو ، ومن هنا خاف بعض الأجلة أن تكون مدرجة في الحديث لكنه خلاف الظاهر وحينئذٍ يقال : إن كسوف الشمس والقمر يوجب لهما ضعف سلطانهما وبهائهما وذلك يوجب لهما من الخشوع والخضوع لرب العالمين وعظمته وجلاله سبحانه ما يكون سبباً لتجليه عز وجل لهما ، ولا يستنكر أن يكون تجلي الله سبحانه لهما في وقت معين كما يدنو سبحانه من أهل الموقف عشية عرفة وكما ينزل تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا عند مضي نصف الليل فيحدث لهما ذلك التجلي خشوعاً آخر ليس هو الكسوف فإنه إنما حدث بالسبب الذي عرفت ولم يقل النبي صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى إذا تجلى لهما انكسفا بل قال فإذا تجلى الله لشيء من خلقه خشع له .

وفي رواية الإمام أحمد "إذا بدا الله لشيء من خلقه خشع له" فههنا خشوعان خشوع أوجبه كسوفهما الحادث من وضعهما الخاص وخشوع أوجبه تجليه تعالى لهما لذلك الخشوع الذي أوجبه الكسوف ، وهذا توجيه لطيف المنزع يقبله العقل المستقيم والفطرة السليمة إن شاء الله تعالى .

وأما استدلاله بحديث ابن مسعود ففيه على ما قيل أن الحديث لو ثبت لكان حجة عليه لا له إذ لو كان علم النجوم حقاً لم يأمر صلى الله عليه وسلم بالإمساك عند ذكر النجوم فالظاهر أنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر بذلك إلا لأن الخوض في ذلك خوض فيما لا علم للخائض به فتأمل .



---

وأما حديث النهي عن السفر والقمر في العقرب فصحيح من كلام المنجمين دون رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم ، وروايته عن علي كرم الله تعالى وجهه كذب أيضاً والمشهور عنه خلاف ذلك كما سمعت في قصة خروجه لقتال الخوارج ، وأما ما احتج به من الأثر عن علي كرم الله تعالى وجهه أن رجلاً أتاه الخ فلا يعلم ثبوته عنه رضي الله تعالى عنه ، والكذابون كثيراً ما ينفقون سلعهم الباطلة بنسبتها إليه أو إلى أهل بيته ، ثم لو صح عنه فليس فيه تعرض لثبوت أحكام النجوم بوجه ، وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : " اللهم بارك لأمتي في بكورها " ونسبة أول الشهر إليه كنسبة أول النهار إليه ، وكان صخر راوي الحديث إذا بعث تجارة له بعثها في أول النهار فأثرى وكثر ماله ولا يبعد أن يكون أول السنة كأول النهار أيضاً فللأوائل مزية القوة كما هو مشاهد في الشباب والشيوخة

، ولله تعالى تجليات في الأزمنة والأمكنة والأشخاص وليس ذلك من تأثير الكواكب في شيء ، ومثل هذا يقال فيما ذكره الكرماني وقد مر ، وأما ما ذكره عن اليهودي الذي أخبر ابن عباس رضي الله تعالى عنه فلا نسلم صحته ، وإن سلم ذلك فهو من جنس إخبار الكهان بشيء من المغيبات ، وقد أخبر ابن الصياد النبي صلى الله عليه وسلم بما أخبر فقال عليه الصلاة والسلام له " إنما أنت من إخوان الكهان " وعلم مقدمة المعرفة لا يختص بما ذكر المنجمون بل له عدة أسباب يصدق الحكم معها ويكذب منها الكهانة ومنها المنامات ومنها الفأل والزجر وضرب الحصى والخط والكتف والكشف المستند إلى الرياضة وهو كشف جزئي عن بعض الحوادث ويشترك فيه المؤمن والكافر ومنها غير ذلك ، وللعمال في البحر والسعاة ونحوهم في البلا علامات يعرفون بها أوقات المطر والصحو والبرد والريح وغيرها وقلما يخطؤون في أخبارهم بل صوابهم في ذلك أكثر من صواب المنجم .



---

وأما ما ذكره من حديث أبي الدرداء فالمحفوظ فيه "توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركنا وما طائر يقلب جناحيه إلا وقد ذكر لنا منه علماً" وفيه روايات أخر صحيحة

أيضاً وكلها ليس فيها وليست الكواكب الخ فهو من أعظم الأدلة على بطلان دعوى المنجمين إذ لم يذكر عليه الصلاة والسلام من أحكام النجوم شيئاً البتة وقد علمهم علم كل شيء حتى الخرأة، وأما قوله إنه جاء في الآثار أن أول من أعطى هذا العلم آدم عليه السلام الخ فكذب وافتراء على آدم عليه السلام، وقد عمل هذا الكاذب المفتري بالمثل السائر إذا كذبت فأبعد شاهدك، ونحوه ما روي عن ميمون بن مهران، وأما ما نسب إلى الشافعي فهو بعض من حكاية ذكرها أبو عبد الله الحاكم فيما ألفه في مناقبه والحكايات التي ذكرت عنه في أحكام النجوم ثلاث.

(78/653)

---

احداها قال الحاكم: قرىء على أبي يعلى حمزة بن محمد العلوي وأكثر ظني أني حضرته ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن العباس الأزدي في آخرين قالوا ثنا محمد بن أبي يعقوب الجوال الدينوري ثنا عبد الله بن محمد البلوي حدثني خالي عمارة بن زيد قال: كنت صديقاً لمحمد بن الحسن فدخلت معه يوماً على هارون الرشيد فسأله ثم إني سمعت محمد بن الحسن وهو يقول: إن محمد بن إدريس يزعم أنه للخلافة أهل قال فاستشاط هارون من قوله غضبا ثم قال: علي به فلما مثل بين يديه أطرق ساعة ثم رفع رأسه إليه فقال: أيها قال

الشافعي : ما أيها يا أمير المؤمنين أنت الداعي وأنا المدعو وأنت السائل وأنا المجيب فذكر حكاية طويلة سأله فيها عن العلوم ومعرفته بها إلى أن قال : كيف علمك بالنجوم؟ قال : أعرف الفلك الدائر والنجم السائر والقطب الثابت والمائي والناري وما كانت العرب تسميه الأنواء ومنازل النيرين والاستقامة والرجوع والنحوس والسعود وهيآتها وطبائعها وما استدل به في بري وبحري وأستدل في أوقات صلاتي وأعرف ما مضي من الأوقات في إمسائي وأصباحي وظعني في أسفاري ثم ساق العلوم على هذا النحو ، ومن له علم بالمنقولات يعلم أن هذه الحكاية كذب مختلق وافك مفتري على الشافعي والبلاء فيها من عند محمد بن عبد الله البلوي فإنه كذاب وضاع وهو الذي وضع رحلة الشافعي وذكر فيها مناظرته لأبي يوسف بحضرة الرشيد ولم ير الشافعي أبا يوسف ولا اجتمع به قط وإنما دخل بغداد بعد موته ويشهد بكذبها أنها تدل على أن محمداً وشى بالشافي إلى الرشيد وأراد قتله ومحمد أجل من أن ينسب إليه ذلك وتعظيمه للشافعي ومحبته إياه هو المعروف كتعظيم الشافعي له وثنائه عليه ، وفيها شواهد أخر على الكذب يعرفها العالم بالمنقول إذا اطلع عليها كلها ، وثانيتها وهي التي أخذت منها ما ذكرها الإمام ، قال الحاكم : أخبرنا أبو الوليد الفقيه قال حدثت عن الحسن بن سفيان عن حرملة : قال : كان الشافعي يديم

النظر في كتب النجوم وكان له صديق وعنده جارية قد حبلت فقال : إنها تلد إلى سبعة وعشرين يوماً ويكون في فخذ الولد الأيسر خال أسود ويعيش أربعة وعشرين يوماً ثم يموت فكان الأمر كما قال فاحرق بعد ذلك تلك الكتب وما عاود النظر في شيء منها ، وهذا الإسناد رجاله ثقات لكن الشأن فيمن حدث أبا الوليد عن الحسن بن سفيان أو فيمن حدث الحسن عن حرملة ، ويدل على كذب الحكاية أنها لو صحت لوجب أن تثنى الخناصر على هذا العلم وتشد به الأيدي لا أن تحرق كتبه ولا يعاود النظر في شيء منها ، وإن الطالع عند المنجمين طالعان طالع مسقط النطفة وهو الطالع الأصلي الذي يزعمون دلالته على وقت الولادة والحكاية لم تتضمن أن الشافعي نظر فيه ولو كان لتضمنته وطالع الولادة وإخبار الشافعي قبلها ضرورة أنه قال : إنها تلد إلى سبعة وعشرين يوماً ، وثالثها قال الحاكم : أنبأني عبد الرحمن بن الحسن القاضي أن زكريا بن يحيى الساجي حدثهم قال أخبرني أحمد بن محمد بن بنت الشافعي قال سمعت أبي يقول : كان الشافعي وهو حدث ينظر في النجوم وما نظر في شيء إلا فاق فيه فجلس يوماً وامرأة تلد فحسب فقال : تلد جارية عوراء على فرجها خال أسود وتموت إلى كذا وكذا فولدت فكان كما قال فجعل على نفسه أن لا ينظر فيه أبداً ، وأمر هذه الحكاية كالتي قبلها فإن ابن بنت الشافعي لم يلق الشافعي ولا رآه والشأن فيمن حدث بها عنه ، وأيضاً طالع مسقط النطفة لم يؤخذ والخبر

قبل تحقق طالع الولادة ، ثم إن تحقق هذه الحكاية إن كان قبل تحقق الحكاية التي قبلها لم تكد تحقق وإن كان تحقق تلك قبل لم تكد هذه تحقق كما لا يخفى على المنصف ، والذي صح عن الشافعي في أمر النجوم أنه كان يعرف ما كانت العرب تعرفه من علم المنازل والاهتداء بالنجوم في الطرقات وأما غير ذلك من الأحكام التي زعمها المنجمون فلا ، وكان رضي الله تعالى عنه شديد الإنكار على المتكلمين مزريا بهم حكمه فيهم أن يضربوا بالجريد ويطاف



---

بهم في القبائل فما تراه يرى في المنجمين الذين شاع هذيانهم وقبح عند ذوي العقول السليمة شأنهم ، نعم كان له رضي الله تعالى عنه اليد الطولي في علم الفراسة وقد خرج إلى اليمن لجمع كتبه فجمع منها ما جمع وله فيها حكايات يقضي منها العجب ، ولعل إخباره بأمر المولود لو صح من ذلك العلم والناقل لجهله أو لأمر آخر أسنده للنظر في أحكام النجوم وقال ما قال : وأما ما ذكر عن ابن إسحاق من أن فرعون كان يقتل أبناء بني إسرائيل لأخبار المنجمين إياه بأنه سيولد لهم مولود يكون هلاكه على يده فهو كما قال بعض الأجلة من أخبار أهل الكتاب ومخالف لروايات أكثر المفسرين فإنهم أحالوا ذلك على إخبار الكهان .

وروي بعضهم أن قومه أخبروه بأن بني إسرائيل يزعمون أنه يولد منهم مولود يكون هلاكه على يديه وفي أخبار الكهان ما هو أعجب من ذلك .

*(81/653)*

---

ومنها خبرهم بظهور خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم وانتشار أمره ، ونحن لا ننكر علم تقدمة المعرفة بأسباب مفضية إلى مثل ذلك يختلف قوى الناس في إدراكها وتحصيلها وإنما كلامنا مع المنجمين في أصول علم الأحكام وبيان فسادها وكذب أكثر الأحكام التي يسندونها إليها ، وأما ما ذكره في الاستدلال بالمعقول من أنه ما خلت عن هذا العلم ملة من الملل ولا أمة من الأمم وأنهم لم يزالوا مشتغلين به معولين في معرفة المصالح عليه إلى آخر ما قال ففرية من غير مرية ، ويا عجبا من دعواه إطباق أهل المشرق والمغرب من أول بناء العالم إلى آخره عليه وهم يقولون إنما أسست أصوله وأوضاعه في زمن هرمس الهرامس يعنون به إدريس عليه السلام وهو بعد بناء العالم بكثير ، وأيضاً قد رده كثير من الفلاسفة وجمع غفير من أساطين الإسلام حتى أنه قد ألف ما يزيده على مائة مصنف في رده وأبطاله ، وقد قال أبو نصر الفارابي : اعلم أنك لو قلبت أوضاع المنجمين فجعلت الحار بارداً والبارد حاراً والسعد نحسا والنحس سعداً والذكر أنثى والأنثى ذكراً ثم حكمت لكانت

أحكامك من جنس أحكامهم تصيب تارة وتخطىء تارات ، وقد زيف أمرهم ابن سينا في كتابيه الشفاء والنجاة ، وكذا أبو البركات البغدادي في كتاب "التعبير له" ، هذا ما اختاره بعض المحققين في الرد على المنجمين وأعود فأقول : الذي أراه في هذا المقام ويترجح عندي من كلام العلماء الأعلام أن الله عز وجل لم يخلق شيئاً باطلاً خالياً عن حكمة ومنفعة بل خلق الأشياء علويها وسفليها جليلها ودنيها مشتملة على حكم لا تحصى ومنافع لا تستقصى وإن تفاوتت في أفرادها قلة وكثرة وخص كلا منها بخاصة لا توجد في غيرها مع اشتراك الكل في الدلالة على وجوده تعالى ووحدته وعلمه وقدرته :

ولله في كل تحريكة . . .

وتسكينة أبداً شاهد

وفي كل شيء له آية . . .

تدل على أنه واحد

(82/653)

---

فالاجرام العلوية مشتركة في هذه الدلالة مختص كل منها بخاصة وشأن الكواكب في خواصها وتأثيراتها كشأن النباتات والمعدنيات والحيوانيات في خواصها وتأثيراتها ، فمنها

ما خاصته في نفسه غير متوقفة على ضم شيء آخر إليه ، ومنها ما خاصته متوقفة على ضم شيء آخر ، ومنها ما إذا ضم إليه شيء أسقط خاصته ، وأبطل منفعته ومنها ما يعقل وجه تأثيره ومنها ما لا يعقل ، ومنها ما يؤثر في مكان دون مكان وزمان دون زمان ، ومنها ما يؤثر في جميع الأزمنة والأمكنة إلى غير ذلك من الأحوال ، وكونها زينة للسماء لا يستدعي نفي أنه يكون فيها منفعة أخرى على حد ما في الأرض فقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ [ الكهف : 7 ] مع اشتمال الأزهار وغيرها على ما تعلم وما لا تعلم من المنافع ، وكذلك كونها علامات يهتدي بها في ظلمات البر والبحر وكونها رجوماً للشياطين .

(83/653)

---

ولا أقول ببساطة الأفلاك ولا ببساطة الكواكب ولا بانحصارها فيما يشاهد ببصر أو رصد ولا بذكورة بعض وأنوثة آخر إلى كثير مما يزعمه المنجمون ، وأقول : إن الله تعالى أودع في بعضها تأثيراً حسبما أودع في أزهار الأرض ونحوها وانها لا تؤثر إلا باذنه عز وجل كما هو مذهب السلف في سائر الأسباب العادية وإن شئتقل كما قال الأشاعرة فيها ، وأنه لا يبعد أن يكون بعضها علامات لاحداثه تعالى أموراً لا بواسطتها في أحد العاملين العلوي

والسفلي يعرفها من يوقفه الله تعالى عليها من ملائكته وخواص عباده ، وارتباط كثير من السفليات بالعلويات مما قال به الأكابر ولا ينكره إلا مكابر ، ولا أنسب أثراً من الآثار إلى كوكب بخصوصه على القطع لاحتمال شركة كوكب أو أمر آخر ، نعم الظاهر يقتضي كثرة مدخلية بعض الكواكب في بعض الآثار كالقمر في مد البحار وجزرها فإن منها ما يأخذ في الازدياد حين يفارق القمر الشمس إلى وقت الامتلاء ثم إنه يأخذ في الانتقاص ولا يزال نقصانه يستمر بحسب نقصان القمر إلى المحاق ومنها ما يحصل فيه المد في كل يوم وليلة مع طلوع القمر وغروبه كبحر فارس وبحر الهند وبحر الصين ، وكيفيته إنه إذا بلغ القمر مشرقاً من مشارق البحر ابتدأ البحر بالمد ولا يزال كذلك إلى أن يصير القمر في وسط سماء ذلك الموضع فإذا زال عن مغرب ذلك الموضع ابتدأ المد من تحت الأرض ولا يزال زائداً إلى أن يصل القمر إلى وتد الأرض فحينئذ ينتهي المد منتهاه ثم يبتدىء الجزر ثانياً ويرجع الماء كما كان ، ومثل المد والجزر بحرانات الأمراض فإنها بحسب زيادة القمر ونقصانه على معنى كثرة مدخلية ذلك ظاهراً فيها إلى أمور كثيرة ، ولا أقول : إن لكوكب تأثيراً في السعادة والشقاوة ونحوهما ، ولا يبعد أن يكون كوكب أو كواكب باعتبار بعض الأحوال علامة لنحو ذلك يعرفها بعض الخواص ، ولا وثوق بما قاله الأحكاميون وكل ما يقولونه ظن وتخمين لا دليل لهم عليه وهم فيما أسسوا عليه

أحكامهم متناقضون وفي المذاهب مختلفون فللبابليين مذهب وللفرس مذهب ولأهل الهند مذهب ولأهل الصين مذهب وقد رد بعضهم على بعض وشهد بعض على بعض بفساد أصولهم ومبني أحكامهم فقد كان أوائلهم من الأقدمين وكبار رصادهم من عهد بطليموس وطيموحارس ومانالارس قد حكموا حكماً في الكواكب واتفقوا على صحته وأقام الناس على تقليدهم وبناء الأمر على ما قالوه أكثر من سبعمائة سنة فجاء من بعدهم خالد بن عبد الملك المروزي.

وحسن صاحب الزيج المأموني.

ومحمد بن الجهم.

ويحيى بن أبي منصور فامتحنوا ما قالوا فوجدوهم غالطين وأجمعوا على غلطهم وسموا رصدهم الرصد الممتحن.

ثم حدث ويحيى بن أبي منصور فامتحنوا ما قالوا فوجدوهم غالطين وأجمعوا على غلطهم وسموا رصدهم الرصد الممتحن.

ثم حدث بعدهم بنحو ستين سنة طائفة أخرى زعيمهم أبو معشر محمد بن جعفر فرد عليهم وبين خطاهم كما ذكره أبو سعيد شاذان المنجم في كتاب "أسرار النجوم" له وفيه قلت لأبي معشر الذنب بارد يابس فلم قلتم إنه يدل على التأنيث؟ فقال: هكذا قالوا قلت

: فقد قالوا انه ليس بصادق اليبس لكنه بارد عفن ملتوي كل الأعراض الغائية توهم لا يكون شيء منها يقينياً وإنما يكون توهم أقوى من توهم .

(85/653)

---

ومن تأمل أحوال القوم علم أن ما معهم تفرس يصيبون معه ويخطؤون ، ثم حدثت بعدهم طائفة أخرى بنحو سبعين سنة منهم أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر المعروف بالصوفي فرد على من قبله وغلطه وألف كتاباً بين فيه من الأغلاط ما بين وحمله إلى عضد الدولة ابن بويه فاستحسنه وأجزل ثوابه ، ثم جاءت بعد نحو ثلاثين سنة طائفة أخرى منهم كوشيار الديلمي فألف المجمل في الأحكام وجهل فيه من يحتج للأحكام من الأحكاميين ، وقال عن صناعة التنجيم : هي صناعة غير مبرهنة وللخواطر والظنون فيها مجال إلى أن قال : ومن المنفردين بعلم الأحكام من يأتي على جزئياته بحجج على سبيل النظر والجدل فيظن أنها براهيم لجهله بطريق البرهان وطبيعته ، ثم حدثت طائفة أخرى منهم منجم الحاكم بالديار المصرية المعروف بالفكري فوضع هو وأصحابه رصداً آخر سموه الرصد الحاكمي فخالفوا فيه أصحاب الرصد الممتحن وبنوا أمر الأحكام عليه .

ثم حدثت طائفة أخرى منهم أبو الريحان البيروني مؤلف كتاب "التفهيم إلى صناعة

التنجيم" وكان بعد كوشيار بنحو أربعين سنة فخالف من تقدمه وأتي من مناقضاتهم والرد عليهم بما هو دال على فساد صناعتهم وختم كتابه بقوله في الخبء والضمير ما أكثر افتضاح المنجمين فيه وما أكثر إصابة الزاجرين بما يستعمل من الكلام وقت السؤال ويرونه بادياً من الآثار والأفعال على السائل إلى آخر ما قال ، ثم حدثت طائفة أخرى منهم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي وكان بعد البيروتي بنحو ثمانين عاماً وكان رأساً في الصناعة ومع هذا اعترف بأن قول المنجمين هذيان ، ثم حدثت طائفة أخرى بالمغرب منهم أبو اسحق الزرقال وأصحابه وكان بعد أبي الصلت بنحو مائة سنة فخالف الأوائل والأواخر في الصناعتين الرصدية والأحكامية .

وآخر ما نعلم حدوثه زيج لالنت والقسيني وفيه من المخالفة لما قبله من الإزياح ما فيه .

(86/653)

---

وقد ذكر فيه تقويم هرشل ومقدار حركته وهو كوكب سيار ظفر به هرشل أحد فلاسفة الإفرنج وسماه باسمه ولم يظفر به أحد قبله ، وهذا الزيج أضبط الأزياج فيما يزعم المنجمون اليوم ، والافرنج وسماه باسمه ولم يظفر به أحد قبله ، وهذا الزيج أضبط الأزياج فيما يزعم المنجمون اليوم ، والإفرنج على مهارة كثير منهم بعلم الرصد لا يقولون بشيء مما يقول به

الأحكاميون الأوائل والأواخر ويسخرون منهم ، وقد ذكر من يوثق به وجوهاً تدل على فساد ما بأيديهم من العلم وأنه لا يوثق به ، الأول ان معرفة جميع المؤثرات الفلكية مما لا تتأتى ، اما أولاً فلأنه لا سبيل إلى معرفة الكواكب إلا بواسطة القوى الباصرة وإذا كان المرئى صغيراً أو في غاية البعد يتعذر رؤيته فإن أصغر الكواكب التي في فلك الثوابت وهو الذي به قوة البصر مثل كرة الأرض بضعة عشر مرة وكرة الأرض أعظم من كرة عطارد كذا مرة فلو قدرنا أنه حصل في الفلك الأعظم كواكب كثيرة كل منها كعطارد حجماً فكيف ترى ، ونفي هذا الاحتمال لا بدله من دليل ومع قيامه لا يحصل الجزم بمعرفة جميع المؤثرات ، وان قالوا : جاز ذلك إلا أن آثار هذا الكوكب لصغره ضعيفة فلا تصل إلى هذا العالم ، قلنا : صغر الجرم لا يوجب ضعف الأثر فقد أثبتم لعطارد آثاراً قوية مع صغره بالنسبة إلى سائر السيارات بل أثبتم للرأس والذنب وسهم السعادة وسهم الغيب آثاراً قوية وهي أمور وهمية ، وأما ثانياً فالمرصود من الكواكب المرئية أقل قليل بالنسبة إلى غير المرصود فمن أين لهم الوقوف على طبيعة غير المرصود ؟ وأما ثالثاً فلأنه لم يحصل الوقوف على طبائع جميع المرصود أيضاً وقلما تكلموا في معرفة غير الثوابت التي من القدر الأول والثاني ، وأما رابعاً فآلات الرصد لا تفي بضبط الثواني والثوالث فما فوق ولا شك أن الثانية الواحدة مثل الأرض كذا ألف مرة أو أقل أو أكثر ، ومع هذا التفاوت العظيم كيف الوصول إلى الغرض وقد قيل إن الإنسان الشديد الجري

بين رفعه رجله ووضعه الأخرى يتحرك جرم الفلك الأقصى ثلاثة آلاف ميل فإذا كان كذلك فكيف ضبط هذه المؤثرات ؟ وأما خامساً فبتقدير انهم عرفوا طبائع هذه الكواكب حال بساطتها فهل وقفوا على طبائعها حال امتزاج بعضها ببعض والامتزاجات الحاصلة من طبائع ألف كوكب أو أكثر بحسب الأجزاء الفلكية تبلغ في الكثرة إلى حيث لا يقدر العقل على ضبطها .

وأما سادساً فيقال : هب أنا عرفنا تلك الامتزاجات الحاصلة في ذلك الوقت فلا ريب أنه لا يمكننا معرفة الامتزاجات التي كانت حاصلة قبله مع أنا نعلم قطعاً ان الاشكال السالفة ربما كانت عائقة ومانعة عن مقتضيات الاشكال الحاصلة في الحال ، ولا ريب إنا نساهد أشخاصاً كثيرة من النبات والحيوان والإنسان تحدث مقارنة لطالع واحد مع أن كل واحد منها مخالف للآخر في أكثر الأمور ، وذلك أن الأحوال السابقة في حق كل واحد تكون مخالفة للأحوال السابقة في حق الآخر وذلك يدل على أنه لا اعتماد على مقتضى طالع الوقت بل لا بد من الإحاطة بالطوالع السالفة وذلك مما لا وقوف عليه فإنه ربما كانت تلك الطوالع دافعة ، مقتضيات هذا الطالع الحاضر ، وعلى هذا الوجه عول ابن سينا في كتابيه

"الشفاء والنجاة" في إبطال هذا العلم ، الثاني أن تأثير الكواكب يختلف باختلاف أقدارها فما كان من القدر الأول أثر بوقوعه على الدرجة وان لم تضبط الدقيقة ، وما كان من القدر الأخير لم يؤثر إلا بضبط الدقيقة ، ولا ريب بجهالة مقادير جميع الكواكب فكيف تضبط الآثار ، الثالث فساد أصولهم وتناقض آرائهم واختلافهم اختلافاً عظيماً من غير دليل ومتى تعارضت الأقوال وتعذر الترجيح فيما بينها لا يعول على شيء منها .

(88/653)

---

الرابع أن أرصادهم لا تنفك عن نوع خلل وهي مبني أحكامهم ، وقد صنف أبو علي بن الهيثم رسالة بليغة في أقسام الخلل الواقع في آلات الرصد وبين أن ذلك ليس في وسع الإنسان دفعه وإزالته وإصابتهم في أوقات الخسوف والكسوف مع ذلك الخلل لا تستدعي إصابتهم في غيرها معه ، الخامس أنا نشاهد عالماً كثيراً يقتلون في ساعة واحدة في حرب وخلقاً كثيراً يغرقون في ساعة واحدة مع اختلاف طوالعهم واقتضائها أحوالاً مختلفة عندكم وهذا يدل على عدم اعتبار ما اعتبرتموه أولاً ، فإن قلتم : إن الطوالع قد يكون بعضها أقوى من بعض فلعل طالع الوقت أقوى من طالع الأصل فكان الحكم ، قلنا : هذا بعينه يبطل عليكم اعتبار طالع المولود فإن الطوالع بعده مختلفة كثيرة ولعل بعضها أقوى منه فلا يفيد اعتباره

شيئاً ، السادس ان العقل لا مساغ له في اقتضاء كوكب معين أو وضع معين تأثيراً خاصاً والتجربة على قصورها معارضة بتجربة اقتضت خلافها إلى غير ذلك من الوجوه ، وأبو البركات البغدادي وإن زيف ما هم عليه إلا أنه يقر بقبول بعض الأحكام فإنه قال بعد ذكر شيء من أقوالهم التي لا دليل لهم عليها : وهذه أقوال قالها قائل فقبلها قابل ونقلها ناقل فحسن بها ظن السامع واغتربها من لا خبرة له ولا قدرة له على النظر ثم حكم بحسبها الحاكمون بجيد ورديء وسلب وإيجاب وسعد ونحوس فصادف بعضه موافقة الوجود فصدق فاغتر به المغترون ولم يلتفتوا إلى كذب فيه بل عذروه وقالوا : هو منجم ما هو نبي حتى يصدق في كل ما يقول واعتذروا له بأن العلم أوسع من أن يحيط به ولو أحاط به لصدق في كل شيء ، ولعمر الله تعالى أنه لو أحاط به علماً صادقاً لصدق والشأن أن يحيط به على الحقيقة لا على أن يفرض فرضاً ويتوهم وهماً فينقله إلى الوجود ويثبته في الموجود وينسب إليه ويقيس عليه ، والذي يصح منه ويلتفت إليه العقلاء هي أشياء .



---

غير هذه الخرافات التي لا أصل لها مما حصل بتوقيف أو تجربة حقيقية كالقرانات والانتقالات والمقابلة ومر كوكب من المتحيرة تحت كوكب من الثابتة وام يعرض للمتحيرة من

رجوع واستقامة ورجوع في شمال وانخفاض في جنوب وغير ذلك ، وكأني أريد أن أختصر الكلام ههنا وأوافق إشارتك وأعمل بحساب اختيارك رسالة في ذلك أذكر ما قيل فيها من علم أحكام النجوم من أصول حقيقية أو مجازية أو وهمية أو غليطة وفروع نتائج أنتجت عن تلك الأصول وأذكر الجائز من ذلك والممتنع والقريب والبعيد فلا أرد علم الأحكام من كل وجه كما رده من جهله ولا أقبل فيه كل قول كما قبله من لم يعقله بل أوضح موضع القبول والرد وموضع التوقيف والتجويز والذي من المنجم والذي من التنجيم والذي منهما وأوضح لك أنه لو أمكن الإنسان أن يحيط بشكل كل ما في الفلك علماً لأحاط بكل ما يحويه الفلك لأن منه مبادىء الأسباب لكنه لا يمكن ويبعد عن الإمكان بعداً عظيماً والبعض الممكن منه لا يهدي إلى بعض الحكم لأن البعض الآخر المجهول قد يناقض المعلوم في حكمه ويبطل ما يوجبه فنسبة المعلوم إلى المجهول من الأحكام كنسبة المعلوم إلى المجهول من الأسباب وكفى بذلك بعداً انتهى ، وفيه من التأييد لبعض ما تقدم من الأوجه ما فيه .

(90/653)

---

وأنا أقول : إن الإحاطة بالأسرار المودعة في الأجرام لا يبعد أن تحصل بعض الخواص ذوي النفوس القدسية لكن بطريق الكشف أو نحوه دون الاستدلال الفكري والأعمال الرصدية

مثلاً وهو الذي يقتضيه كلام الشيخ الأكبر قدس سره قال في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات : ومن الأولياء النقباء وهم اثنا عشر نقيباً في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون على عدد البروج الأثنى عشر كل نقيب عالم بخاصية كل برج وبما أودع الله تعالى في مقامه من الأسرار والتأثيرات وما يعطي للنزلاء فيه من الكواكب السيارة والثوابت ثم قال : ومنهم النجباء وهم ثمانية في كل زمان إلى أن قال : ولهم القدم الراسخة في علم تسيير الكواكب من جهة الكشف والاطلاع لا من جهة الطريقة المعلومة عند العلماء بهذا الشأن ، والنقباء هم الذين حازوا علم الفلك التاسع والنجباء حازوا علم الثمانية الأفلاك التي دونه وهي كل فلك فيه كوكب ، ويفهم من هذا القول بالتأثيرات وأنها مفاضة من البرج على النازل فيه من الكواكب .

وقد تكررت الإشارة منه إلى ذلك ففي الفصل الثالث من الباب الحادي والسبعين والثلثمائة من الفتوحات أن الله تعالى خلق في جوف الكرسي جسماً شفافاً مستديراً يعني الفلك الأطلس قسمه اثنى عشر قسماً هي البروج وأسكن كل برج منها ملكاً إلى أن قال : وجعل لكل نائب من هؤلاء الأملاك الاثنى عشر في كل برج ملكه إياه ثلاثين خزانة تحتوي كل خزانة منها على علوم شتى يهبون منها لمن نزل بهم ما تعطيه مرتبته وهي الخزائن التي قال الله تعالى فيها

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [ الحجر : 21 ] وهذه الخزائن تسمى عند أهل التعاليم درجات الفلك والنازلون بها هم الجواري والمنازل وعيوقاتها من الثوابت والعلوم الحاصلة من هذه الخزائن الإلهية هي ما يظهر في عالم الأركان من التأثيرات بل ما يظهر في مقعر فلك الثوابت إلى الأرض ، وجعل لهؤلاء الأثنى عشر نظراً في الجنان وأهلها وما فيها مخلصاً من غير حجاب فما في الجنان من حكم فهو تولى هؤلاء بنفوسهم تشريفاً لأهل الجنة وأما أهل الدنيا وأهل النار فما يباشرون ما لهم من الحكم إلا بالنواب وهم النازلون عليهم الذين ذكرناهم ، وقال قدس سره : في الفصل الرابع إن الله تعالى جعل لكل كوكب من هذه الكواكب قطعاً في الفلك الأطلس ليحصل من تلك الخزائن التي في بروجه وبأيدي ملائكته الأثنى عشر من علوم التأثير ما تعطيه حقيقة كل كوكب وجعلها على حقائق مختلفة .

انتهى المراد منه .

وله قدس سره كلام غير هذا أيضاً وقد صرح بنحو ما صرح به المنجمون من اختلاف طبائع البروج وأن كل ثلاثة منها على مرتبة واحدة في المزاج وأنا لا أزيد على القول بأن للإجرام العلوية كواكبها وأفلاكها أسراراً وحكماً وتأثيرات غير ذاتية بل مفاضة عليها من جانب الحق والفياض المطلق جل شأنه وعظم سلطانه ومنها ما هو علامة لما شاء الله

تعالى ولا يتم دليل على نفي ما ذكر ولا يعلم كمية ذلم ولا كيفيته ولا أن تأثير كذا من كوكب كذا أو كوكب كذا علامة لكذا في نفس الأمر إلا الله تعالى العليم البصير ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ [ الملك : 14 ] إلا أنه سبحانه قد يطلع بعض خواص عباده من البشر والملك على شيء من ذلك ، ولا يبعد أن يطلع سبحانه البعض على الكل ووقوع ذلك لنبينا صلى الله عليه وسلم مما لا أكاد أشك فيه .

(92/653)

---

وقد نص بعض ساداتنا الصوفية قدست أسرارهم وأشرقت علينا أنوارهم على أن علومه عليه الصلاة والسلام التي وهبت له ثلاثة أنواع نوع أوجب عليه إظهاره وتبليغه وهو علم الشريعة والتكاليف الالهية وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [ المائدة : 67 ] ناظر إلى ذلك دون العموم المطلق أو خصوص خلافة علي كرم الله تعالى وجهه كما يقوله الشيعة ، ونوع أوجب عليه كتمانه وهو علم الأسرار الإلهية التي لا تحملها قوة غير قوته القدسية عليه الصلاة والسلام فكما أن لله تعالى علما استأثر به دون أحد من خلقه كذلك لحبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم علم استأثر به بعد ربه سبحانه لكنه مفاض منه تعالى عليه ولعله أشير إليه في قوله تعالى :

﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ [ النجم : 10 ] وقد يكون بين المحب والمحبوب من الأسرار ما يضمن به على الأغيار ، ومن هنا قيل :

ومستخبر عن سر ليلى تركته . . .

بعمياء من ليلى بغير يقين

يقولون خبرنا فأنت أمينها . . .

وما أنا إن خبرتهم بامين

(93/653)

---

ونوع خيره الله تعالى فيه بين الأمرين ، وهذا منها ما أظهره لمن رآه أهلاً له ومنه ما لم يظهره لأمر ما فلعل ما وهب له عليه الصلاة والسلام من العلم بدقائق أسرار الإجرام العلوية وحكمها وما أراد الله تعالى بها مما لم يظهره للناس كعلم الشريعة لأنه مما لا يضبط بقاعدة وتفصيل الأمر فيه لا يكاد يتيسر والبعض مرتبط بالبعض ومع هذا لا يستطيع العالم به أن يجعل الإقامة سفراً ولا الهزيمة ظفراً ولا العقد فلا ولا الإبرام نقضاً ولا اليأس رجاء والعدو صديقاً ولا البعيد قريباً ولا ولا ويوشك لو انتشر أمره وظهر حلوه ومره أن يضعف توكل كثير من العوام على الله تعالى والانقطاع إليه والرغبة فيما عنده وأن يلهوا به عن غيره وينبذوا ما

سواه من العلوم النافعة لأجله فكل يتمنى أن يعلم الغيب ويطلع عليه ويدرك ما يكون في غد أو يجد سبيلاً إليه بل ربما يكون ذلك سبباً لبعض الأشخاص مفضياً إلى الاعتقاد القبيح والشرك الصريح ، وقد كان في العرب شيء من ذلك فلو فتح هذا الباب لا تسع الخرق وعظم الشر ، وقد ترك صلى الله عليه وسلم هدم الكعبة وتأسيسها على قواعد إبراهيم عليه السلام لنحو هذه الملاحظة ، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لعائشة رضي الله تعالى عنها : " لولا قومك حديثو عهد بكفر لهدمت الكعبة وأسستها على قواعد إبراهيم " ولا يبعد أيضاً أن يكون في علم الله تعالى أظهار ذلك وعلم الناس به سبباً لتعطل المصالح الدنيوية ومنافياً للحكمة الإلهية فأوجب على رسوله صلى الله عليه وسلم كتمه وترك تعلميه كما علم الشرائع .

(94/653)

---

ويمكن أن يكون قد علم صلى الله عليه وسلم أن العلم بذلك من العلوم الوهبية التي يمن الله تعالى بها على من يشاء من عباده وأن من وهب سبحانه له من أمته قوة قدسية يهب سبحانه له ما تتحمله قوته منه ، وقد سمعت ما سمعت في النقباء والنجباء ، ويمكن أن يكون قد علم عليه الصلاة والسلام ذلك أمثالهم ومن هو أعلى قدراً منهم كالأمير علي كرم

الله تعالى وجهه وهو باب مدينة العلم بطريق من طرق التعليم ومنها الإفاضة التي يذكرها بعض أهل الطرائق من الصوفية ، ويجوز أن يقال : إن سر البعثة إنما هو إرشاد الخلق إلى ما يقربهم إليه سبحانه زلفى ، وليس في معرفة التأثيرات الفلكية والحوادث الكونية قرب إلى الله تعالى والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأل جهداً في دعوة الخلق وإرشادهم إلى ما يقربهم لديه سبحانه وينفعهم يوم قدومهم عليه جل شأنه وما يتوقف عليه من أمر النجوم أمور دياناتهم كمعرفة القبلة وأوقات العبادات قد أرشد إليه من أرشد منهم وترك ما يحتاجون إليه من ذلك في أمور دنياهم كالزراعة إلى عاداتهم وما جربه كل قوم في أماكنهم وأشار إشارة إجمالية إلى بعض الحوادث الكونية لبعض الكواكب في بعض أحوالها كما في حديث الكسوف والخسوف السابق وأرشدهم إلى ما ينفعهم إذا ظهر مثل ذلك ويتضمن الإشارة الإجمالية أيضاً أمره تعالى بالاستعاذة من شر القمر في بعض حالاته وذلك في قوله تعالى :



---

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ [ الفلق : 1-3 ]

على ما جاء في حديث عائشة رضي الله تعالى عنها ويقرب في بعض الوجوه من شأنه صلى الله عليه وسلم شأنه عليه الصلاة والسلام في أمر النباتات ونحوها فبين لهم ما يحل

ويحرم من ذلك وأشار منفعة بعض الأشياء من نبات وغيره ولم يفصل القول في الخواص وترك الناس فيما يأكلون ويشربون مما هو حلال على عاداتهم إلا أنه قال: ﴿ كُلُواْ واشربوا وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ [الأعراف: 31] نعم نهى صلى الله عليه وسلم عن الخوض في علم النجوم لطلب معرفة الحوادث المستقبلة بواسطة الأوضاع المتوقف بزعم المنجمين على معرفة الطبائع سداً لباب الشر والوقوع في الباطل لأن معرفة ذلك على التحقيق ليست كسبية كمعرفة خواص النباتات ونحوها والمعرفة الكسبية التي يزعمها المنجمون ليست بمعرفة وإنما هي ظنون لا دليل لهم عليها كما تقدم وصار به أرسطاليس أيضاً فإنه قال في أول كتابه السماع الطبيعي: إنه لا سبيل إلى اليقين بمعرفة تأثير الكواكب وحكى نحوه عن بطليموس، وكون المنهي عنه ذلك هو الذي صرح به بعض الأجلة وعليه حمل خبر أبي داود.

(96/653)

---

وابن ماجه "من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر" وأما الخوض في علم النجوم لتحصيل ما يعرف به أوقات الصلوات وجهة القبلة وكم مضى من الليل أو النهار وكم بقي وأوائل الشهور الشمسية ونحو ذلك ومنه فيما أرى ما يعرف به وقت الكسوف والخسوف فغير منهي عنه بل العلم المؤدى لبعض ما ذكر من فروض الكفاية بل إن كان علم

النجوم عبارة عن العلم الباحث عن النجوم باعتبار ما يعرض لها من المقارنة والمقابلة والتثليث والتسديس وكيفية سيرها ومقدار حركاتها ونحو ذلك مما يبحث عنه في الزيج أو كان عبارة عما يعم ذلك والعلم الذي يتوصل به إلى معرفة ارتفاع الكوكب وانخفاضه ومعرفة الماضي من الليل والنهار ومعرفة الأطوال والأعراض ونحو ذلك مما تضمنه علم الأسطرلاب والربع المجيب ونحوهما فهو مما لا أرى بأساً في تعلمه مطلقاً وإن كان عبارة عن العلم الباحث عن أحكامها وتأثيراتها التي تقتضيها باعتبار أوضاعها وطبائعها على ما يزعمه الإحكاميون .

فهذا الذي اختلف في أمره فقال بعضهم بحرمة تعلمه لحديث أبي داود .

وابن ماجه السابق والقائل بهذا قائل بحرمة تعلم السحر وهو أحد أقوال في المسألة فيها الإفراط والتفريق ، ثانيها أنه مكروه ، ثالثها أنه مباح ، رابعها أنه فرض كفاية ، خامسها أنه كفر والجمهور على الأول ولأن فيه ترويج الباطل وتعريض الجهلة لاعتقاد أن أحكام النجوم المعروفة بين أهلها حق والكواكب مؤثرة بنفسها ، وقيل : يحرم تعلمه لأنه منسوخ فقد قال الكرماني في عجائبه : كان علم النجوم علماً نبوياً فنسخ .

وتعقب هذا بأنه لا معنى لنسخ العلم نفسه وإن حمل الكلام على معنى كان تعلمه مباحاً فنسخ ذلك إلى التحريم كان في الاستدلال مصادرة، وقال بعضهم: لا حرمة في تعلمه إنما الحرمة في اعتقاد صحة الأحكام وتأثيرات الكواكب على الوجه الذي يقوله جهلة الإحكاميين لا مطلقاً، وأجيب عن الخبر السابق بأنه محمول على تعلم شيء من علم النجوم على وجه الاعتناء بشأنه كما يرمز إليه اقتبس وذلك لا يتم بدون اعتقاد صحة حكمه وأن الكواكب مؤثرات، وتعلمه على هذا الوجه حرام وبدون مباح وفيه بحث.



---

وقيل: في الجواب أن الخبر فيمن ادعى علماً بحكم من الأحكام آخذاً له من النجوم قائلاً الأمر كذا ولا بد لأن النجم يقتضيه البتة وهو لا شك في إثمه وحرمة دعواه التي قامت الأدلة على كذبها وهو كما ترى، وكلام بعض أجلة العلماء صريح في إباحة تعلمه متى اعتقد أن الله تعالى أجرى العادة بوقوع كذا عند حلول الكوكب الفلاني منزلة كذا مثلاً مع جواز التخلف، واستظهر بعض حرمة التعلم مطلقاً متى كان فيه إغراء الجهلة بذلك العلم وإيقاعهم في محذور اعتقاد التأثير أو كان فيه غير ذلك من المفاسد وكراهته إن سلم من ذلك لما فيه من تضييع الأوقات فيما لا فائدة فيه ومبناه ظنون وأوهام وتخيلات، ولا يبعد

القول بأنه يباح للعالم الراسخ النظر في كتبه للإطلاع على ما قالوا والوقوف على مناقضاتهم واختلافاتهم التي سمعت بعضاً منها لينفر عنها الناس ويرد العاكفين عليها كما يباح له النظر في كتب سائر أهل الباطل كاليهود والنصارى لذلك بل لو قيل بسنيته لهذا الغرض لم يبعد لكن أنت تعلم أن السلف الصالح لم يحوموا حول شيء منه بسوى ذمه وذم أهله ولم يتطلبوا كتاباً من كتبه لينظروا فيه على أي وجه كان النظر ؛ ونسبة خلاف ذلك إلى أحد منهم لا تصح فالحزم اتباعهم في ذلك وسلوك مسلكهم فهو لعمري أقوم المسالك ، هذا واعترض القول بإطلاعه صلى الله عليه وسلم على ما ذكر من شأن الأجرام العلوية بأن فيه فتح باب الشبهة في كون أخباره صلى الله عليه وسلم بالغيوب من الوحي لجواز أن تكون من أحكام النجوم على ذلك القول .



---

وأجيب بأن الشبهة إنما تتأتى لو ثبت أنه عليه الصلاة والسلام رصد ولو مرة كوكباً من الكواكب وحقق منزلته وأخبر بغيب إذ مجرد العلم بأن لكوكب كذا حكم كذا إذا حل بمنزلة كذا لا يفيد بدون معرفة أنه حل في تلك المنزلة فحيث لم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم فعل ذلك لا يفتح باب الشبهة وفيه بحث ظاهر ، وبأن علمه صلى الله عليه وسلم بما

تدل عليه الأوضاع عند القائلين به ليس إلا عن وحي فغاية ما يلزم على تلك الشبهة أن يكون خبره بالغيب بواسطة علم أحكام النجوم الذي علمه بالوحي وأي خلل يحصل من هذا في نبوته عليه الصلاة والسلام بل هذه الشبهة تستدعي كونه نبياً كما أن عدمها كذلك .

وتعقب بأنه متى سلم أن للأوضاع الفلكية دلالة على الأمور الغيبية وأنه صلى الله عليه وسلم يعلم ما تدل عليه يقع الاشتباه بينه وبين غيره من علماء ذلك العلم المخبرين بالغيب إذا وقع كما أخبروا والتفرقة بأنه عليه الصلاة والسلام قد أوحى إليه بذلك دون الغير فرع كونه نبياً وهو أول المسألة ، واختير في الجواب أن يقال : إن أخباره صلى الله عليه وسلم بالغيب إن كان بعد ثبوت نبوته بمعجز غير ذلك لا تتأتى الشبهة إن أفهم أن خبره بواسطة الوحي ولا تضر إن لم يفهم إذ غاية ما في الباب أنه نبي لظهور المعجز على يده قبل أن أخبر بغيب بواسطة وضع فلكي وشاركه غيره في ذلك ، وإن كان قبل ثبوت نبوته بمعجز غيره بأن كان التحدي بذلك الخبر ووقوع ما أخبر به فالذي يدفع الشبهة حينئذ عدم القدرة على المعارضة فلا يستطيع منجم أن يخبر صادقاً بمثل ذلك بمقتضى علمه بالأوضاع ومقتضياتها فتدبر ، ثم الظاهر على ما ذكره الشيخ الأكبر قدس سره في النقباء والنجباء أن لكل من الأنبياء عليهم السلام اطلاعاً على ذلك إذ رتبة النبي فوق رتبة الولي وعلمه فوق علمه إذ هو الركن الأعظم في الفضل .

ولا حجة في قصة موسى والخضر عليهما السلام على خلافه ، أما على القول بنبوة الخضر عليه السلام فظاهر وكذا على القول بولايته وأنه فعل ما فعل عن أمر الله تعالى بواسطة نبي ، وأما على القول بولاسته وأنه فعل ذلك لعلم أوتيه بلا واسطة نبي فلأنه لا يدل إلا على فقدان موسى عليه السلام العلم بتلك الأمور الثلاثة وعلم الخضر بها ولا يلزم من ذلك أن يكون الخضر أعلم منه مطلقاً وهو ظاهر ، وعلى هذا جوز إبقاء الآية على ظاهرها فيكون إبراهيم عليه السلام قد نظر في النجوم حسبما علمه الله تعالى من أحوال الملكوت الأعلى واستدل على أنه سيسقم بما استدل ، ولعل نظره كان في طالع الوقت أو نحوه أو طالع ولادته أو طالع سقوط النطفة التي خلق منها والعلم به بالوحي أو بواسطة العلم بطالع الولادة ؛ والاعتراض على ذلك بأنه يلزم عليه تقويته عليه السلام ما هم عليه من الباطل في أمر النجوم وارد أيضاً على حمل ما في الآية على التعريض والجواب هو الجواب ، هذا وإذا أحطت خبراً بجميع ما ذكرت لك في هذا المقام فأحسن التأمل فيما تضمنه من النقض والإبرام وقد جمعت لك ما لم أعلم أنه جمع في تفسير ولا أبرىء نفسي عن الخطأ والسهو والتقصير والله سبحانه ولي التوفيق وبيده عز وجل أزمة التحقيق

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90)

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾

تفريع على قوله عليه السلام : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [ الصافات : 89 ] أي أعرضوا وتركوا قربه ، والمراد أنهم ذهبوا إلى معيدهم وتركوه ، و ﴿ مُّدْبِرِينَ ﴾ إما حال مؤكدة أو حال مقيدة بناء على أن المراد بسقيم مطعون أو أنهم توهموا مرضاً له عدوى مرض الطاعون أو غيره فإن المرض الذي له عدوى بزعم الأطباء لا يختص بمرض الطاعون فكأنه قيل : فاعرضوا عنه هاربين مخافة العدوى .

فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91)



---

﴿ فَرَاغَ إِلَى ءالِهَتِهِمْ ﴾ فذهب بخفية إلى أصنامهم التي يعبدونها ، وأصل الروغان ميل الشخص في جانب ليخدع من خلفه فتجوز به عما ذكر لأنه المناسب هنا ﴿ فَقَالَ ﴾ للأصنام استهزاء ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ من الطعام الذي عندكم ، وكان المشركون يضعون في أيام أعيادهم طعاماً لدى الأصنام لتبرك عليه ، وأتى بضمير العقلاء لمعاملته عليه السلام إياهم معاملتهم .

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ بجوابي .

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾ فمال مستعلياً عليهم وقوله تعالى : ﴿ ضَرْباً ﴾ مصدر لراغ عليهم باعتبار المعنى فإن المراد منه ضربهم أو لفعل مضمر هو مع فاعله حال من فاعله أي فراغ عليهم يضربهم ضرباً أو هو حال منه على أنه مصدر بمعنى الفاعل أي ضارباً أو مفعول له أي لأجل ضرب .

وقرأ الحسن ﴿ سفقا وصفقا ﴾ أيضاً ﴿ عَلَيْهِمْ ضَرْباً باليمين ﴾ أي باليد اليمين كما روى عن ابن عباس ، وتقييد الضرب باليمين للدلالة على شدته وقوته لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما في الغالب وقوة الآلة تقتضي شدة الفعل وقوته أو بالقوة على أن اليمين مجاز عنها .

روى أنه عليه السلام كان يجمع يديه في الآلة التي يضربها بها وهي الفأس فيضربها بكمال قوته ، وقيل المراد باليمين الحلف ، وسمي الحلف يميناً إما لأن العادة كانت إذا حلف شخص لآخر جعل يمينه بيمينه فحلف أو لأن الحلف يقوي الكلام ويؤكده ، وأريد باليمين قوله عليه السلام ﴿ تالله لأكِيدَنَّ أصنامكم ﴾ [ الأنبياء : 57 ] والباء عليه للسببية أي ضرباً بسبب اليمين الذي حلفه قبل وهي على ما تقدم للاستعانة أو للملابسة .

﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى إبراهيم عليه السلام بعد رجوعهم من عيدهم وسؤالهم عن الكاسر وقولهم ﴿ فأتوا بهم على أعين الناس ﴾ [ الأنبياء : 61 ] ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ حال من واو أقبلوا أي يسرعون من زف النعام أسرع لخلطه الطيران بالمشي ومصدره الزف والزفيف ، وقيل : ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ أي يمشون على تؤدة ومهل من زفاف العروس إذا كانوا في طمأنينة من أن ينال أصنامهم بشيء لعزتها ، وليس بشيء .

وقرأ حمزة .

ومجاهد .

وابن وثاب .

والأعمش ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ بضم الياء من أزف دخل في الزفيف فالهمزة ليس للتعدية أو حمل غيره على الزفيف فهي لها قاله الأصمعي .

وقرأ مجاهد أيضاً .

وعبد الله بن يزيد .

والضحاك ويحيى بن عبد الرحمن المقري .

وابن أبي عبلة ﴿ يَزِفُونَ ﴾ مضارع وزف بمعنى أسرع ، قال الكسائي ، والفراء : لا نعرف وزف بمعنى زف وقد أثبته الثقات فلا يضر عدم معرفتهما .

وقرئ ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ بالبناء للمفعول ، وقرئ ﴿ يَزِفُونَ ﴾ بسكون الزاي من زفاه إذا حداه كأن بعضهم يزفو بعضاً لتسارعهم إليه .

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95)

﴿ قَالَ ﴾ بعد أن أتوا به عليه السلام وجرى ما جرى من المحاورة على سبيل التوبيخ والإنكار عليهم ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أي الذي تنحتونه من الأصنام فما موصولة حذف عائدها وهو الظاهر المتبادر ، وجوز كونها مصدرية أي أتعبدون نحتكم ، وتوبيخهم على عبادة النحت مع أنهم يعبدون الأصنام وهي ليست نفس النحت للإشارة إلى أنهم في الحقيقة إنما عبدوا النحت لأن الأصنام قبله حجارة ولم يكونوا يعبدونها وإنما عبدوها بعد أن نحتوها ففي الحقيقة ما عبدوا إلا نحتهم ، وفيه ما فيه .

*(103/653)*

---

﴿ واللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ تَعْبُدُونَ ﴾ [ الصافات : 95 ] لتأكيد الإنكار والتوبيخ والاحتجاج على أنه لا ينبغي تلك العبادة ، وما موصولة حذف عائدها أيضاً أي خلقكم وخلق الذي تعملونه أي من الأصنام كما هو الظاهر ، وهي عبارة عن مواد وهي الجواهر الحجرية وصور حصلت لها بالنحت ؛ وكون المواد

مخلوقة له عز وجل ظاهر ، وكون الصور والأشكال كذلك مع أنها بفعلهم باعتبار أن الأقدار على الفعل وخلق ما يتوقف عليه من الدواعي والأسباب منه تعالى ، وكون الأصنام وهي ما سمعت معمولة لهم باعتبار جزئها الصوري فهو مع كونه معمولاً لهم مخلوق لله تعالى بذلك الاعتبار فلا إشكال .

وفي المتمة للمسألة المهمة تأليف الشيخ إبراهيم الكوراني عليه الرحمة صريح الكلام دال على أن الله تعالى خالق للأصنام بجميع أجزائها التي منها الأشكال ، ومعلوم أن الأشكال إنما حصلت بتشكيلهم فتكون الأشكال مخلوقة لله تعالى معمولة لهم لكون نحتهم وتشكيلهم عين خلق الله تعالى الأشكال بهم .

ولا استحالة في ذلك لأن العبد لا قوة له إلا بالله تعالى بالنص ومن لا قوة له إلا بغيره فالقوة لذلك الغير لإله فلا قوة حقيقة إلا لله تعالى ، ومن المعلوم أنه لا فعل للعبد إلا بقوة فلا فعل له إلا بالله تعالى فلا فعل حقيقة إلا لله تعالى ، وكل ما كان كذلك كان النحت والتشكيل عين خلق الله سبحانه الأشكال بهم وفيهم بالذات وغيره بالاعتبار فيكون المعمول عين المخلوق بالذات وغيره بلاعتبار فإن إيجاد الله عز وجل يتعلق بذات الفعل من حيث هو وفعل العبد بالمعنى المصدري يتعلق بالفعل بمعنى الحاصل بالمصدر من حيث كونه طاعة أو معصية أو مباحاً لكونه مكلفاً والله تعالى له الإطلاق ولا حاكم عليه سبحانه انتهى فافهم .

والزمخشري جعل أيضاً ما موصولة إلا أنه جعل المخلوق له تعالى هو الجواهر ومعمولهم هو الشكل والصورة إما على أن الكلام على حذف مضاف أي وما تعملون شكله وصورته ، وإما على أن الشائع في الاستعمال ذلك فإنهم يقولون عمل النجار الباب والصائغ الخلخال والبناء البناء ولا يعنون إلا عمل الشكل بدون تقدير شكل في النظم كأن تعلق العمل بالشيء هو هذا التعلق لا تعلق التكوين ، وهو مبني على اعتقاده الفاسد من أن أفعال العباد مخلوقة لهم ، والاحتجاج في الآية على الأول بأن يقال : إنه تعالى خلق العابد والمعبود مادة وصورة فكيف يعبد المخلوق المخلوق ؟ وعلى الثاني بأنه تعالى خلق العابد ومادة المعبود فكيف يعبد المخلوق المخلوق على أن العابد منهما هو الذي عمل صورة المعبود ، والأول أظهر وعدل عن ضمير ﴿ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [ الصافات : 95 ] أو الإتيان به دون ما تعملون للإيذان بأن مخلوقية الأصنام لله عز وجل ليس من حيث نحتهم لها فقط بل من حيث سائر أعمالهم أيضاً من التصوير والتحلية والتزيين .

وفي "الكشف" فائدة العدول الدلالة على أن تأثيرهم فيها ليس النحت ثم العمل يقع على النحت والأثر الحاصل منه ولا يقع النحت على الثاني فلا بد من العدول لهذه النكتة وبه يتم

الاحتجاج أي الذي قيل على اعتبار الزمخشري.

وجوز أن يكون الموصول عاماً للأصنام وغيرها وتدخل أولياً ولا يتأتى عليه حديث العدول، وقيل ما مصدرية والمصدر مؤول باسم المفعول ليطابق ﴿ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ على ما هو الظاهر فيه ويتحد المعنى مع ما تقدم على احتمال الموصولية، وجوز بقاء المصدر على مصدريته والمراد به الحاصل بالمصدر أعني الأثر وكثيراً ما يراد به ذلك حتى قيل: إنه مشترك بينه وبين التأثير والإيقاع أي خلقكم وخلق عملكم، واحتج بالآية على المعتزلة.

(105/653)

---

وتعقب بأنه لا يصح لأن الاستدلال بذلك على أن العابد والمعبود جميعاً خلق الله تعالى فكيف يعبد المخلوق مخلوقاً ولو قيل: إن العابد وعمله من خلق الله تعالى لفات الملاءمة والاحتجاج، ولأن ﴿ مَا ﴾ في الأول موصولة فهي في الثاني كذلك لئلا ينفك النظم، وما قاله القاضي البيضاوي من أنه لا يفوت الاحتجاج بل أنه أبلغ فيه لأن فعلهم إذا كان بخلق الله تعالى كان مفعولهم المتوقف على فعلهم أولى بذلك، وأيد بأن الأسلوب يصير من باب الكناية وهو أبلغ من التصريح ولا فائدة في العدول عن الظاهر إلا هذا فيجب صوناً لكلام الله تعالى عن العبث تعقبه في "الكشف" بأنه لا يتم لأن الملازمة ممنوعة عند القوم ألا ترى

أنهم معترفون بأن العبد وقدرته وإرادته من خلق الله تعالى ثم المتوقف عليهما وهو الفعل يجعلونه خلق العبد ، والتحقيق أنه يفيد التوقف عليه تعالى وهم لا ينكرونه إنما الكلام في الإيجاد والأحداث ثم قال : وأظهر منه أن يقال : لأن المعمول من حيث المادة كانوا لا ينكرون أنه من خلق الله تعالى فقيل هو من حيث الصورة أيضاً خلقه فهو مخلوق من جميع الوجوه مثلكم من غير فرق فلم تسوونه بالخالق وما ازداد بفعلكم إلا بعد استحقاق عن العبادة ولما كان هذا المعنى في تقرير الزمخشري على أبلغ وجه كان هذا البناء متداعياً كيفما قرر ، على أن فائدة العدول قد اتضحت حق الوضوح فبطل الحصر أيضاً ، وقد قيل عليه : إن المراد بالفعل الحاصل بالمصدر لأنه بالمعنى الآخر أعني الإيقاع من النسب التي ليست بموجودة عندهم ، وتوقف الحاصل بالإيقاع على قدرة العبد وإرادته توقف بعيد بخلاف توقفه على الإيقاع الذي لا وجود له فيكون ما ذكره في معرض السند مجتمعاً مع المقدمة الممنوعة فلا يصلح للسندية ، والمراد بمفعولهم أشكال الأصنام المتوقف على ذلك المعنى القائم بهم .

إذا كان ذاك بخلقه تعالى فلأن يكون الذي لا يقوم بهم بل بما يباينهم بخلقه تعالى أولى .

ولا مجال للخصم أن يمنع هذه الملازمة إذ قد أثبت خلق المتولدات مطلقاً للعباد بواسطة خلقهم لما يقوم بهم، وانتفاء الأول ملزوم لانتفاء الثاني فتأمل، وقال في "التقريب" انتصاراً لمن قال بالمصدرية: إن الجواهر مخلوقة له تعالى وفاقاً والأعمال مخلوقة أيضاً لعموم الآية فكيف يعبد ما لا مدخل له في الخلق فدعوى فوات الاحتجاج باطلة وكذلك فك النظم والتبتير، وتعقبه في "الكشف" أيضاً فقال فيه: إن المقدمة الوفاقية إذا لم يكن بد منها ولم تكن معلومة من هذا السياق يلزم فوات الاحتجاج، وأما الحمل على التغليب في الخطاب فتوجيه لا ترجيح والكلام في الثاني.

ثم قال: وأما أن المصدرية أولى لئلا يلزم حذف الضمير فمعارض بأن الموصولة أكثر استعمالاً وهي أنسب بالسياق السابق على أنه لا بد من تقدير عملهم في المنحوت فيزداد الحذف.

واعترض بانا لا نسلم الأكثرية وكذا لا نسلم أنها أنسب بالسياق لما سمعت من أن الأسلوب على ذلك من باب الكناية وهو أبلغ من التصريح والتقدير المذكور ليس بلازم لجواز إبقاء الكلام على عمومه الشامل للمنحوت بالطريق الأولى أو يقدر بمصدر مضاف إضافة عهدية، وبعضهم جعلها موصولة كناية عن العمل لئلا ينفك النظم ويظهر احتجاج الأصحاب على خلق أفعال العباد.

وتعقبه أيضاً بأنه أفسد من الأول لما فيه من التعقيد وفوات الاحتجاج، وكون الموصول في

الأول عبارة عن الأعيان وفي الثاني كناية عن المعاني وانفكاك النظم ليس لخصوص الموصولية والمصدرية بل لتباين المعنيين وهو باق .

(107/653)

---

و"صاحب الانتصاف" قال بتعين حملها على المصدرية لأنهم لم يعبدوا الأصنام من حيث كونها حجارة وإنما عبدوها من حيث أشكالها فهم في الحقيقة إنما عبدوا عملهم وبذلك تبتلج الحجة عليهم بأنهم وعملهم مخلوقان لله تعالى فكيف يعبد المخلوق مخلوقاً مثله مع أن المعبود كسب العابد وعمله ، وأجاب عن حديث لزوم انفكاك النظم بأن لنا أن نحمل الأولى على المصدرية أيضاً فإنهم في الحقيقة إنما عبدوا نحتهم ، وفي دعوى التعين بحث ، وجوز كون ما الثانية استفهامية للإنكار والتحقير أي وأي شيء تعملون في عبادتكم أصناماً تنحتوها أي لا عمل لكم يعتبر ، وكونها نافية أي وما أنتم تعملون شيئاً في وقت خلقكم ولا تقدرون على شيء ، ولا يخفى أن كلا الاحتمالين خلاف الظاهر بل لا ينبغي أن يحمل عليه التنزيل ، وأظهر الوجوه كونها موصولة وتوجيه ذلك على ما يقوله الأصحاب ثم كونها مصدرية ، والاستدلال بالآية عليه ظاهر ، وقول "صاحب الكشف" :

والانصاف أن استدلال الأصحاب بهذه الآية لا يتم إن أراد به ترجيح احتجاج المعتزلة

خارج عن دائرة الإنصاف ، ثم إنها على تقدير أن لا تكون دليلاً لهم لا تكون دليلاً للمعتزلة أيضاً كما لا يخفى على المنصف ، هذا ولما غلبهم إبراهيم عليه السلام بالحجة مالوا إلى الغلبة بقوة الشوكة .

﴿ قَالُواْ ابنوا لَهُ بنيانا ﴾ حائطاً توقدون فيه النار ، وقيل : منجنيقاً .

﴿ فَأَلْقُوهُ فِى الجحيم ﴾ في النار الشديد من الجحمة وهي شدة التأجج والاتقاد ، واللام بدل عن المضاف إليه أو للعهد ، والمراد جحيم ذلك البنيان التي هي فيه أو عنده .

(108/653)

---

﴿ فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً ﴾ سوأ باحتيال فإنه عليه السلام لما قهرهم بالحجة قصدوا تعذيبه بذلك لئلا يظهر للعامة عجزهم ﴿ فجعلناهم الاسفلين ﴾ الأذلين بإبطال كيدهم وجعله برهاناً ظاهراً ظهور نار القرى ليلاً على علم على علو شأنه عليه السلام حيث جعل سبحانه النار عليه برداً وسلاماً ، وقيل : أي الهالكين ، وقيل : أي المعذبين في الدرك الأسفل من النار والأول أنسب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(109/653)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) ﴾

تخلص إلى حكاية موقف إبراهيم عليه السلام من قومه في دعوتهم إلى التوحيد وما لاقاه منهم وكيف أيده الله ونجّاه منهم ، وقع هذا التخلص إليه بوصفه من شيعة نوح ليفيد بهذا الأسلوب الواحِد تأكيد الثناء على نوح وابتداءَ الثناء على إبراهيم وتخليد منقبة لنوح إن كان إبراهيم الرسول العظيم من شيعته وناهيك به .

وكذلك جَمع محامد لإبراهيم في كلمة كونه من شيعة نوح المقتضي مشاركته له في صفاته كما سيأتي ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ [ الإسراء : 3 ] .

والشيعة : اسم لمن يناصر الرجل وأتباعِه ويتعصب له فيقع لفظ شيعة على الواحد والجمع .

وقد يجمع على شِيع وأشياع إذا أريد : جماعات كلُّ جماعة هي شيعة لأحد .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك في شِيَع الأولين ﴾ في سورة [ الحجر : 10 ] ، وعند قوله تعالى : ﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾ في سورة [ القصص : 4 ] .

وكان إبراهيم من ذرية نوح وكان دينه موافقاً لدين نوح في أصله وهو نبذ الشرك .

وجعل إبراهيم من شيعة نوح لأن نوحاً قد جاءت رسل على دينه قبل إبراهيم منهم هود

وصالح فقد كانا قبل إبراهيم لأن القرآن ذكرهما غير مرة عقب ذكر نوح وقبل ذكر لوط معاصر إبراهيم .

ولقول هود لقومه : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاءَ من بعد قوم نوح ﴾ [ الأعراف : 69 ] ،

ولقول صالح لقومه : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ [ الأعراف : 74 ] ،

وقول شعيب لقومه : ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ [ هود : 89 ] .

فجعل قوم لوط أقرب زمناً لقومه دون قوم هود وقوم صالح .

وكان لوط معاصر إبراهيم فهؤلاء كلهم شيعة لنوح وإبراهيم من تلك الشيعة وهذه نعمة حادية عشرة .

(110/653)

---

وتوكيد الخبر بـ ﴿ إنّ ﴾ ولام الابتداء للردّ على المشركين لأنهم يزعمون أنهم على ملة إبراهيم وهذا كقوله تعالى : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ [ البقرة : 135 ] .

و﴿ إذ ﴾ ظرف للماضي وهو متعلق بالكون المقدَّر للجار والمجرور الواقعين خبراً عن ﴿ إنَّ ﴾ في قوله : ﴿ وإنَّ من شيعته لإبراهيم ، ﴾ أو متعلق بلفظ شيعة لما فيه من

معنى المشايعة والمتابعة، أي كان من شيعته حين جاء ربه بقلب سليم كما جاء نوح، فذلك وقتُ كونه من شيعته، أي لأن نوحاً جاء ربه بقلب سليم.

وفي ﴿ إذْ ﴾ معنى التعليل لكونه من شيعته فإن معنى التعليل كثير العروض ل ﴿ إذْ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ [الزخرف: 39].

وهذه نعمة على نوح وهي ثانية عشرة.

والباء في ﴿ بِقَلبٍ سليمٍ ﴾ للمصاحبة، أي جاء معه قلب صفته السلامة فيؤول إلى معنى: إذ جاء ربه بسلامة قلب، وإنما ذكر القلب ابتداء ثم وصف بـ ﴿ سليمٍ ﴾ لما في ذكر القلب من إحضار حقيقة ذلك القلب النزيه، ولذلك أوثر تنكير "قلب" دون تعريف.

و ﴿ سَلِيمٍ: ﴾ صفة مشبهة مشتقة من السلامة وهي الخلاص من العلل والأدواء لأنه لما ذكر القلب ظهر أن السلامة سلامته مما تصاب به القلوب من أدوائها فلا جائز أن تعني الأدواء الجسدية لأنهم ما كانوا يريدون بالقلب إلا مقرّ الإدراك والأخلاق.

فتعين أن المراد: صاحب القلب مع نفسه بمثل طاعة الهوى والعجب والغرور، ومع الناس بمثل الكبر والحقد والحسد والرياء والاستخفاف.

وأطلق المجيء على معاملته به في نفسه بما يرضي ربه على وجه التمثيل بحال من يجيء أحداً ملقياً إليه مَا طلبه من سلاح أو تحف أو ألطاف فإن الله أمره بتزكية نفسه فامتثل

فأشبه حال من دعاه فجاءه .

وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ أجيبوا داعي الله ﴾ [ الأحقاف : 31 ] .

وقد جمع قوله : ﴿ بِقَلْبٍ سليمٍ ﴾ جوامع كمال النفس وهي مصدر محامد الأعمال .

(111/653)

---

وفي الحديث : " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " .

وقد حكي عن إبراهيم قوله : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ [ الشعراء : 88 - 89 ] ، فكان عماد ملة إبراهيم هو المتفرّع عن قوله : ﴿ بقلب سليم ﴾ ، وذلك جُماع مكارم الأخلاق ولذلك وصف إبراهيم بقوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ [ هود : 75 ] ، فكان منزهاً عن كل خلق ذميم واعتقاد باطل .

ثم إن مكارم الأخلاق قابلة للازدياد فكان حظ إبراهيم منها حظاً كاملاً لعله أكمل من حظ نوح بناء على أن إبراهيم أفضل الرسل بعد محمد صلى الله عليه وسلم وادخر الله منتهى كمالها لِرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فلذلك قال : " إنما بعثت لأُتمم مكارم الأخلاق " ، ولذلك أيضاً وصفت ملة إبراهيم بالحنيفية ووصف الإِسلام بزيادة ذلك في قول النبي

صلى الله عليه وسلم "بُعِثت بالحنيفية السمحة" وتعليق كونه من شيعة نوح بهذا الحِين المضاف إلى تلك الحالة كناية عن وصف نوح بسلامة القلب أيضاً يحصل من قوله : ﴿ وإنَّ من شيعتِه لإبراهيم ﴾ إثبات مثل صفات نوح لإِبراهيم ومن قوله : ﴿ إذ جاءَ ربَّهُ بقلْبٍ سليمٍ ﴾ إثبات صفة مثل صفة إبراهيم لنوح على طريق الكناية في الإثباتين ، إلا أن ذلك أثبت لإِبراهيم بالصريح ويثبت لنوح باللزوم فيكون أضعف فيه من إبراهيم .

و﴿ إذ قال لأبيهِ ﴾ بدل من ﴿ من جاء ربه بقلب سليم ﴾ بدلَ اشتمال فإن قوله هذا لما نشأ عن امتلاء قلبه بالتوحيد والغضب لله على المشركين كان كالشيء المشتمل عليه قلبه السليم فصدر عنه .

و﴿ ماذا تعبدون ﴾ استفهام إنكاري على أن يعبدوا ما يعبدونه ولذلك أتبعه باستفهام آخر إنكاري وهو ﴿ أئفكاً ءَالهةً دونَ الله تريدون .

(112/653)

---

﴾ وهذا الذي اقتضى الإِتيان باسم الإِشارة بعد "ما" الاستفهامية الذي هو مُشرَب معنى الموصول المشار إليه ، فاقتضى أن ما يعبدونه مشاهد لإِبراهيم فانصرف الاستفهام بذلك إلى معنىً دون الحقيقي وهو معنى الإِنكار ، بخلاف قوله:

﴿ إذْ قالَ لأبيهِ وقومهِ ماذا تعبدون ﴾ في سورة [ الشعراء : 70 ] فإنه استفهام على معبوداتهم ولذلك أجابوا عنه ﴿ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ﴾ [ الشعراء : 71 ] وإنما أراد بالاستفهام هنالك التمهيد إلى المحاجّة فصوره في صورة الاستفهام لسماع جوابهم فينتقلَ إلى إبطاله ، كما هو ظاهر من ترتيب حجاجه هنالك ، فذلك حكاية لقول إبراهيم في ابتداء دعوته قومه ، وأما ما هنا فحكاية لبعض أقواله في إعادة الدعوة وتأكيدها .

وجملة ﴿ أئِفكاً ءَالهة دون الله تريدون ﴾ بيان لجملة ﴿ ماذا تعبدون ﴾ بين به مصبّ الإنكار في قوله : ﴿ ماذا تعبدون ﴾ وإيضاحَه ، أي كيف تريدون آلهة إفكاً .

وإرادة الشيء : ابتغاؤه والعزم على حصوله ، وحَقّ فعلها أن يتعدى إلى المعاني قال ابن الدمينة:

تريدين قَتلي قد ظَفِرتِ بذلك . . .

فإذا عدي إلى الذوات كان على معنى يتعلق بتلك الذوات كقول عمرو بن شاس الأسدي:

أرادتْ عِراراً بالهوان ومن يُرِد . . .

عِراراً لعمري بالهوان فقد ظَلَم

فلذلك كانت تعدية فعل ﴿ تُريدونَ ﴾ إلى ﴿ ءَالهة ﴾ على معنى : تريدونها بالعبادة أو بالتأليه ، فكان معنى ﴿ ءَالهة ﴾ دليلاً على جانب إرادتها .

فانتصب ﴿ ءَالِهَةً ﴾ على المفعول به وقدم المفعول على الفعل للاهتمام به ولأن فيه دليلاً على جهة تجاوز معنى الفعل للمفعول .

وانتصب ﴿ إفكاً ﴾ على الحال من ضمير ﴿ تُرِيدونَ ﴾ أي آفكين .

والإِفك : الكذب .

ويجوز أن يكون حالاً من آلهة ، أي آلهة مكذوبة ، أي مكذوب تأليهها .

والوصف بالمصدر صالح لاعتبار معنى الفاعل أو معنى المفعول .

وقدمت الحال على صاحبها للاهتمام بالتعجيل بالتعبير عن كذبهم وضلالهم .



---

وقوله : ﴿ دُونَ اللَّهِ ﴾ أي خلاف الله وغيره ، وهذا صالح لاعتبار قومه عبدة أوثان غير معترفين بإله غير أصنامهم ، ولاعتبارهم مشركين مع الله آلهة أخرى مثل المشركين من العرب لأن العرب بقيت فيهم أثارة من الحنيفية فلم ينسوا وصف الله بالإلهية وكان قوم إبراهيم وهم الكلدان يعبدون الكواكب نظير ما كان عَليه اليونان والقبط .

وفرع على استفهام الإِنكار استفهام آخر وهو قوله : ﴿ فما ظنكم برب العالمين ﴾ وهو استفهام أريد به الإِنكار والتوقيف على الخطأ ، وأريد بالظن الاعتقاد الخطأ .

وسمي ظناً لأنه غير مطابق للواقع ولم يسمه علماً لأن العلم لا يطلق إلا على الاعتقاد المطابق للواقع ولذلك عرفوه بأنه : "صفة توجِب تمييزاً لا يحتمل النقيض" ولا ينتفي احتمال النقيض إلا متى كان موافقاً للواقع .

وكثر إطلاق الظن على التصديق المخطىء والجهل المركب كما في قوله تعالى : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ في سورة [ الأنعام : 116 ] .

وقوله : ﴿ إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ [ يونس : 36 ] .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث "

والمعنى : أن اعتقادكم في جانب رب العالمين جهل منكَر .

وفعل الظن إذا عدّي بالباء أشعر غالباً بظن صادق قال تعالى : ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ [ الأحزاب : 10 ] وقال : ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾ [ فصلت : 23 ] .

ومنه إطلاق الظنين على المتهم فإن أصله : ظنين بِه ، فحذفت الباء ووصل الوصف ، وذلك أنه إذا عدي بالباء فالأكثر حذف مفعوله وكانت الباء للإِلصاق المجازي ، أي ظن ظناً ملصقاً بالله ، أي مدّعى تعلقه بالله وإنما يناسب ذلك ما ليس لائقاً بالله .

وتقدمت الإِشارة إليه عند قوله تعالى : ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ في سورة [ الأحزاب : 10 ] .

والمعنى : فما ظنكم السيّىء بالله ، ولما كان الظن من أفعال القلب فتعديته إلى اسم الذات دون إتباع الاسم بوصف متعينة لتقدير وصف مناسب .

(114/653)

---

وقد حذف المتعلق هنا لقصد التوسع في تقدير المحذوف بكل احتمال مناسب تكثيراً للمعاني فيجوز أن تعتبر من ذاتتِ ربّ العالمين أوصافُه .

ويجوز أن يعتبر منها الكنهُ والحقيقة ، فاعتبار الوصف على وجهين:

أحدهما : المعنى المشتق منه الرب وهو الربوبية وهي تبليغ الشيء إلى كماله تدريجاً ورفقاً فإن المخلوق محتاج إلى البقاء والإمداد وذلك يوجب أن يَشكر المُمَدّ فلا يصد عن عبادة ربه ، فيكون التقدير : فما ظنكم أن له شركاء وهو المنفرد باستحقاق الشكر المُتَمثل في العبادة لأنه الذي أمدكم بإنعامه .

وثانيهما : أن يعتبر فيه معنى المالكية وهي أحد معنيي الربّ وهو مستلزم لمعنى القهر والقدرة على المملوك ، فيكون التقدير : فما ظنكم ماذا يفعل بكم من عقاب على كفرانه وهو مالِككم ومالك العالمين .

وأما جواز اعتبار حقيقة رب العالمين وكنهه .

فالتقدير فيه: فما ظنكم بكنهِ الربوبية فإنكم جاهلون الصفات التي تقتضيها وفي مقدمتها الوحدانية.

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88)

مفرع على جملة ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ﴾ [الصافات: 85] تفريع قصص بعطف بعضها على بعض.

والمقصود من هذه الجمل المتعاطفة بالفاءات هو الإِفضاء إلى قوله ﴿ فَرَاغَ إلى آلهتهم ﴾ وأما ما قبلها فتمهيد لها وبيان كيفية تمكنه من أصنامهم وكسرها ليظهر لعبدتها عجزها.

وقال ابن كثير في "تفسيره" "قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم، يعني قتادة: أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يُلهيهم به" اه.

وفي "تفسير القرطبي" عن الخليل والمبرد: يقال للرجل إذا فكر في شيء يدبره: نظر في النجوم، أي أنه نظر في النجوم، مما جرى مجرى المثل في التعبير عن التفكير لأن المتفكر يرفع بصره إلى السماء لئلا يشتغل بالمرئيات فيخلو بفكره للتدبر فلا يكون المراد أنه نظر في النجوم وهي طالعة ليلاً بل المراد أنه نظر للسماء التي هي قرار النجوم وذكر النجوم جرى على المعروف من كلامهم.

وجنح الحسن إلى تأويل معنى النجوم بالمصدر أنه نظر فيما نجم له من الرأي ، يعني أن النجوم مصدر نَجَم بمعنى ظهر .

وعن ثعلب : نظر هنا تفكر فيما نجم من كلامهم لما سألوه أن يخرج معهم إلى عيدهم ليدبر حجة .

والمعنى : ففكر في حيلة يخلو له بها بدّ أصنامهم فقال : ﴿ إني سقيمٌ ﴾ ليلزم مكانه ويفارقوه فلا يريهم بقاؤه حول بدّهم ثم يتمكن من إبطال معبوداتهم بالفعل .

والوجه : أن التعقيب الذي أفادته الفاء من قوله : ﴿ فنظَرَ ﴾ تعقيب عرفي ، أي لكل شيء بحسبه فيفيد كلاماً مطوياً يشير إلى قصة إبراهيم التي قال فيها : ﴿ إني سقيم ﴾ والتي تفرع عليها قوله تعالى : ﴿ فراغ إلى أهله ﴾ [ الذاريات : 26 ] الخ .

وتقييد النظرة بصيغة المرة في قوله : ﴿ نظرةً ﴾ إيماء إلى أن الله ألهمه المكيدة وأرشده إلى الحجة كما قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده ﴾ [ الأنبياء : 51 ] .

وقوله : ﴿ إني سقيمٌ ﴾ عذر انتحله ليتركوه فيخلو ببيت الأصنام ليخلص إليها عن كثب فلا يجد من يدفعه عن الإيقاع بها .

وليس في القرآن ولا في السنة بيان لهذا لأنه غني عن البيان .

وذكر المفسرون أنه اعتذر عن خروجه مع قومه من المدينة في يوم عيد يخرجون فيه فزعم

أنه مريض لا يستطيع الخروج فافترض إبراهيم خروجهم ليخلو ببدّ الأصنام وهو الملائم لقوله : ﴿ فتولوا عنه مُدبرينَ .

والسقيم : صفة مشبهة وهو المريض كما تقدم في قوله : ﴿ بقلبٍ سليمٍ ﴾ [ الصافات : 84 ] .

يقال : سَقِم بوزن مرِض ، ومصدره السَّقَم بالتحريك ، فيقال : سقام وسقم بوزن قُفْل .

والتولي : الإِعراض والمفارقة .

لم ينطق إبراهيم فإن النجوم دلته على أنه سقيم ولكنه لما جعل قوله : ﴿ إني سقيمٌ ﴾ مقارناً لنظره في النجوم أوهم قومه أنه عرف ذلك من دلالة النجوم حسب أوهامهم .

و ﴿ مُدبرينَ ﴾ حال ، أي ولّوه أدبارهم ، أي : ظهورهم .

والمعنى : ذهبوا وخلفوه وراء ظهورهم بحيث لا ينظرونه .

(116/653)

---

وقد قيل : إن ﴿ مُدْبرينَ ﴾ حال مؤكدة وهو من التوكيد الملازم لفعل التولي غالباً لدفع توهّم أنه تولّي مخالفة وكراهة دون انتقال .

وما وقع في التفاسير في معنى نظره في النجوم وفي تعيين سقمه المزعوم كلام لا يمتع بين موازين

المفهوم ، وليس في الآية ما يدل على أن للنجوم دلالة على حدوث شيء من حوادث الأمم ولا الأشخاص ومن يزعم ذلك فقد ضلّ ديناً ، واختل نظراً وتخميناً .

وقد دوّنوا كذباً كثيراً في ذلك وسموه علم أحكام الفلك أو النجوم .

وقد ظهر من نظم الآية أن قوله : ﴿ إني سقيمٌ ﴾ لم يكن مرضاً ولذلك جاء الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم " لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كَذَبَات اثنتين منهن في ذات الله عزّ وجلّ " قوله : ﴿ إني سقيم ، ﴾ وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ [ الأنبياء : 63 ] ، وبينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبّار من الجبابرة فسأله عن سارة فقال : "هي أختي" الحديث ، فورد عليه إشكال من نسبة الكذب إلى نبيء .

ودفع الإشكال : أن تسمية هذا الكلام كذباً منظور فيه إلى ما يُفهمه أو يعطيه ظاهر الكلام وما هو بالكذب الصراح بل هو من المعاريض ، أي أني مثل السقيم في التخلف عن الخروج ، أو في التألم من كفرهم وأن قوله : "هي أختي" أراد أخوّةَ الإيمان ، وأنه أراد التهكم في قوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ [ الأنبياء : 63 ] لظهور قرينة أن مراده التغليط .

وهذه الأجوبة لا تدفع إشكالاً يتوجه على تسمية النبي صلى الله عليه وسلم هذا الكلام بأنه كذبات .

وجوابه عندي : أنه لم يكن في لغة قوم إبراهيم التشبيه البليغ ، ولا المجازُ ، ولا التهكّم ، فكان ذلك عند قومه كذباً وأن الله أذِن له فعل ذلك وأعلمه بتأويله كما أذن لأيوب أن يأخذ

ضغثاً من عِصيّ فيضرب به ضربةً واحدة ليُبرّ قسَمَه إذ لم تكن الكفارة مشروعة في دين أيوب عليه السلام.

(117/653)

---

وفعل "راغ" معناه: حاد عن الشيء، ومصدره الرَّوَغ والروغان، وقد أطلق هنا على الذهاب إلى أصنامهم مخاتلة لهم ولأجل الإشارة إلى تضمينه معنى الذهاب عدّي بـ ﴿ إلى ﴾.

وإطلاق الآلهة على الأصنام مراعىً فيه اعتقاد عبدتها بقرينة إضافتها إلى ضميرهم، أي إلى الآلهة المزعومة لهم.

ومخاطبة إبراهيم تلك الأصنام بقوله: ﴿ ألا تأكلونَ ما لكم لا تَنطقونَ ﴾ وهو في حال خلوة بها وعلى غير مسمع من عَبَدَتِها قصد به أن يثير في نفسه غضباً عليها إذ زعموا لها الإلهية ليزداد قوة عزم على كسرها.

فليس خطاب إبراهيم للأصنام مستعملاً في حقيقته ولكنه مستعمل في لازمه وهو تذكُّر كذب الذين ألَّهوها والذين سَدَنوا لها وزعموا أنها تأكل الطعام الذي يضعونه بين يديها ويزعمون أنها تكلمهم وتخبرهم.

ولذلك عقب هذا الخطاب بقوله : ﴿ فراغَ عليهم ضرباً باليمينِ .

﴾ وقد استعمل فعل ( راغ ) هنا مضمّناً معنى ( أقبل ) من جهة مائلة عن الأصنام لأنه كان مستقبلها ثم أخذ يضربها ذات اليمين وذات الشمال نظير قوله تعالى:

﴿ فيميلون عليكم ﴾ [ النساء : 102 ] .

وانتصب ﴿ ضَرْباً باليمين ﴾ على الحال من ضمير ﴿ فراغَ ﴾ أي ضاربا .

وتقييد الضرب باليمين لتأكيد ﴿ ضَرْباً ﴾ أي ضرباً قوياً ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ [ الحاقة : 45 ] وقول الشماخ:

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجد . . .

تَلَقَّاها عَرابَةُ باليمين

فلما علموا بما فعل إبراهيم بأصنامهم أرسلوا إليه من يُحضره في ملِئهم حول أصنامهم كما هو مفصّل في سورة الأنبياء وأجمل هنا .

فالتعقيب في قوله : ﴿ فأقبلوا إليه ﴾ تعقيب نسبي وجاءه المرسلون إليه مسرعين ﴿ يزفون ﴾ أي يعْدون ، والزّف : الإِسراع في الجري ، ومنه زفيف النعامة وزفها وهو عَدْوها الأول حين تنطلق .

وقرأ الجمهور ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ بفتح الياء وكسر الزاي على أنه مضارع زفّ .

وقرأه حمزة وخلف بضم الياء وكسر الزاي ، على أنه مضارع أزفّ ، أي شرعوا في الزفيف ، فالهمزة ليست للتعدية بل للدخول في الفعل ، مثل قولهم : أَدنف ، أي صار في حال الدنف ، وهو راجع إلى كون الهمزة للصيرورة .

وجملة ﴿ قال أتعبدون ما تَنْحِتون ﴾ استئناف بيانيّ لأن إقبال القوم إلى إبراهيم بحالة تنذر بحنقهم وإرادة البطش به يثير في نفس السامع تساؤلاً عن حال إبراهيم في تلقّيه بأولئك وهو فاقد للنصير معرّض للنكال فيكون ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ﴾ جواباً وبياناً لما يسأل عنه ، وذلك منبىء عن رباطة جأش إبراهيم إذ لم يتلق القوم بالاعتذار ولا بالاختفاء ، ولكنه لقِيهم بالتهكّم بهم إذ قال : ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ هذا كما في سورة [ الأنبياء : 63 ] .

ثم أنحى عليهم باللائمة والتوبيخ وتسفيه أحْلامهم إذ بلغوا من السخافة أن يعبدوا صوراً نحتوها بأيديهم أو نحتها أسلافهم ، فإسناد النحت إلى المخاطبين من قبيل إسناد الفعل إلى القبيلة إذا فعله بعضها كقولهم : بَنو أسد قتلوا حُجْر بنَ عَمْرو أبا امرىء القيس .

والنحت : بري العُود ليصير في شكل يُراد ، فإن كانت الأصنام من الخشب فإطلاق النحت حقيقة ، وإن كانت من حجارة كما قيل ، فإطلاق النحت على نقشها وتصويرها مجاز .

والاستفهام إنكاري والإِتيان بالموصول والصلة لما تشتمل عليه الصلة من تسلط فعلهم على معبوداتهم ، أي أن شأن المعبود أن يكون فاعلاً لا منفعلاً ، فمن المنكر أن تعبدوا أصناماً أنتم نحتموها وكان الشأن أن تكون أقلّ منكم .

والواو في ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ واو الحال ، أي أتيتم منكراً إذ عبدتم ما تصنعونه بأيديكم والحال أن الله خلقكم وما تعملون وأنتم مُعرِضون عن عبادته ، أو وأنتم مشركون معه في العبادة مخلوقاتٍ دونكم .

والحال مستعملة في التعجيب لأن في الكلام حذفاً بعد واو الحال إذ التقدير : ولا تعبدون الله وهو خلقكم وخلق ما نحتموه .

(119/653)

---

و ﴿ ما ﴾ موصولة و ﴿ تَعمُلونَ ﴾ صلة الموصول ، والرابط محذوف على الطريقة الكثيرة ، أي وما تعملونها .

ومعنى ﴿ تعملون ﴾ تنحتون .

وإنما عدل عن إعادة فعل ﴿ تنحتون ﴾ لكراهية تكرير الكلمة فلما تقدّم لفظ ﴿ تَنْحِتُونَ ﴾ علم أن المراد بـ ﴿ ما تعملون ﴾ ذلك المعمول الخاص وهو المعمول للنحت لأن

العمل أعمّ .

يقال : عملت قميصاً وعملتُ خاتماً .

وفي حديث صنع المنبر "أرسل رسوُل الله صلى الله عليه وسلم لامرأة من الأنصار أنْ مُري غلامك النجّار يَعمَلْ لي أعوادا أُكَلّم عليها الناس"

وخلق الله إياها ظاهر ، وخلقه ما يعملونها : هو خلق المادة التي تصنع منها من حجر أو خشب ، ولذلك جمع بين إسناد الخلق إلى الله بواو العطف ، وإسنادِ العمل إليهم بإسناد فعل ﴿ تعملُونَ .

وقد احتج الأشاعرة على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى بهذه الآية على أن تكون ما ﴾ مصدرية أو تكون موصولة ، على أن المراد : ما تعملونه من الأعمال .

وهو تمسك ضعيف لما في الآية من الاحتمالين ولأن المقام يرجح المعنى الذي ذكرناه إذ هو في مقام المحاجّة بأن الأصنام أنفسها مخلوقة لله فالأولى المصير إلى أدلة أخرى .

قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97)

﴿ الجحيم ﴾ : النار الشديدة الوقود ، وكلّ نار على نار وجمر فوق جمر فهو جحيم .

وتقدمت هذه القصة ونظير هذه الآية في سورة الأنبياء ، وعبر هنا بـ ﴿ الأَسْفَلِينَ ﴾ وهنالك بـ ﴿ الأَخسرين ﴾ [ الأنبياء : 70 ] والأسفل هو المغلوب لأن الغالب يُتخيل

معتلياً على المغلوب فهو استعارة للمغلوب ، والأخسر هنالك استعارة لمن لا يحصل من سعيه على بغيته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

*(120/653)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) ﴾

يعني أَنَّ إبراهيم مِنْ شيعة نوح عليه السلام في التوحيد - وإنْ اختلفنا في فروع شرعيهما .

﴿ قلب سليم ﴾ : لا آفة فيه . ويقال لديغ مِنَ المحبة . ويقال : سليم من محبة الأغيار .

ويقال سليم من حُظوظ نفسه وإرادته . ويقال : مستسلم لله في قضائه واختياره .

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85)

سألهم على جهة الإنكار عليهم ، والتنبيه لهم على موضع غلطتهم .

فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (87)

إذا لقيتموه - وقد عَبْدتم غيرَه . . فما الذي تقُولون له ؟ وكيف بكم في مقام الخجلة مما بين أيديكم وإن كنتم اليوم - غافلين عنه ؟

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89)

قيل أراد " إلى " النجوم فأقام " في " مقامَ " إلى " .

﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ : كانت تأتيه الحمَّى في وقت معلوم ، فقال : قرُبَ الوقتُ الذي أسقم فيه مَنْ أخذِ الحمَّى إياي ، فكأنه تعلل بذلك ليتأخرَ عنهم عند ذهابهم إلى عيدهم لتمشية ما كان في نَفْسه من كسر الأصنام .

ويقال كان ذلك من جملة المعاريض . وقيل أرى من نفسه موافقة قَوْلهم في القول بالنجوم لأنهم كانُوا يقولون بالنجوم ، فتأخر بهذا السبب عنهُم .

وكان إبراهيم في زمان النبوة فلا يبعد أنّ اللَّهَ – عزّ وجلّ – قد عرّفه بطريق الوحي أنه يخلق – سبحانه – باختياره أفعالاً عند حركات الكواكب .

ثم لمَّا ذَهبوا إلى عيدهم كَسَّرَ أصنامهم ، فلمّا رجعوا قالوا ما قالوا ، وأجابَهُمْ بما أجابهم به إلى قوله :

قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97)

ردّ اللَّهُ كيدهُم إلى نُحورهم . وقد تعرَّضَ له جبريلُ –عليه السلام– وهُوَ في الهواء وقَد رُمي من المنجنيق فعرَضَ عليه نفسه قائلاً : هل مِنْ حاجة ؟

فأجابَ : أمَّا إليكَ . . . فلا ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 235 .

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التقدير : فأجمع النزوح عن بلادهم لأنهم عدلوا عن الحجة إلى العناد ، عطف عليه قوله : ﴿ وقال ﴾ أي إبراهيم عليه السلام لمن يتوسم فيه أن كلامه يحييه من موت الجهل مؤكداً لأن فراق الإنسان لوطنه لا يكاد يصدق به : ﴿ إني ذاهب ﴾ أي مهاجر من غير تردد ، قالوا : وهو أول من هاجر من الخلق ﴿ إلى ربي ﴾ أي إلى الموضع الذي أمرني المحسن إليّ بالهجرة إليه ، فلا يحجر عليّ أحد في عبادته فيه .

ولما كان حال سامعه جديراً بأن يقول : من لك بالمعرفة بما يحصل قصدك هذا من التعريف بالموضوع وبما تفعل فيه مما يكون به الصلاح ، وما تفعل في التوصل إليه ؟ قال :

﴿ سيهدين ﴾ أي إلى جميع ذلك بوعد لا خلف فيه إلى كل ما فيه تربية لي في أمر الهجرة لأنه أمرني بها ، وهو لا يأمر بشيء إلا نصب عليه دليلاً يهدي إليه ، ويسهل لقاصدة المجتهد في أمره سبيله ، وقد اختلفت العبارات عن سير الأصفياء إلى الحضرات القدسية ، فهذه العبارة عن أمر الخليل عليه السلام ، وعبر عن أمر الكليم عليه السلام بقوله ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ [ الأعراف : 143 ] وعن أمر الحبيب عليه السلام بقوله ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ [ الأسراء : 1 ] قال الأستاذ أبو القاسم القشيري وفصل بين هذه المقامات : إبراهيم عيله السلام كان بعين الفرق – يعني أنه بعد ما كان فيه من الجمع حين كسر الأصنام من الفناء عما سوى الله رجع إلى حال الفرق لأنه لا بد من ذلك – وموسى عيله السلام بعين الجمع لأنه أخبر عن فعله من غير أن ينسب إليه قولاً ، ثم أخبر أنه قال ﴿ رب أرني ﴾ فلم ير غيره سبحانه فطلب أن يريه وهذا هو الفناء ، ونبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعين جمع الجمع – لأن لم ينسب إليه قول ولا فعل ، بل هو المراد إلى أن قال ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ فهذا هو الفناء حتى عن الفناء ، ثم قال : ﴿ أنه هو السميع البصير ﴾ فأثبت له مع ذلك الكمال .

ولما لم يجد له معيناً على الهجرة غير لوط ابن أخيه عليهما السلام ، قال منادياً مناداة

الخواص بإسقاط الأداة : ﴿ رب ﴾ أي أيها المحسن إلي ﴿ هب لي من ﴾ أي ولداً من ﴿ الصالحين ﴾ وأسقط الموصوف لأن لفظ الهبة غلب في الولد ، فتسبب عن دعوته أنا استجبناها له ﴿ فبشرناه بغلام ﴾ أي بذكر في غاية القوة التي ينشأ عنها الغلمة .



---

ولما كان هذا الوصف ربما أفهم الطيش ، وصفه بما أبقى صفاءه ونفى كدره فقال : ﴿ حليم ﴾ أي لا يعجل بالعقوبة مع القدرة ، لأنه في غاية الرزانة والثبات ، فيكون ذلك إشارة إلى حصول بلاء ما يتبين به أنه سر أبيه أن إبراهيم لحليم ، والحلم لا يكون إلا بعد العلم ، ورسوخ العلم سبب لوجود الحلم ، وهو اتساع الصدر لمساوئ الخلق ومدانىء أخلاقهم ، وهذا الولد هو إسماعيل عليه السلام بلا شك لوجوه : منها وصفه بالحليم ، ووصف إسحاق عليه السلام في سورة الحجر بالعليم ، ومنها أن هذا الدعاء عند الهجرة حيث كان شاباً يرجو الولد ، وهو بكره الذي ولد له بهذه البشرى ، وهو الذي كان بمكة موضع الذبح ، فجعلت أفعاله في ذبحه مناسك للحج في منى كما جعلت أفعال أمه في مكة المشرفة أول أمره عندما أشرف على الموت من العطش مناسك ومعالم هناك ، وأما إسحاق عليه السلام فأتته البشرى فجاءة وهو لا يرجو الولد لكبره ويأس امرأته ، ولذلك

راجع في أمره ولم ينقل أنه فارق أمه من بيت المقدس ، ولو كان هو الذبيح لذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- بوصفه حين سئل عن الأكرم فقال : " يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله " ، والرواية التي وردت بالإشارة إلى أنه الذبيح ضعيفة ، بل صرح شيخنا ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف بأن في سندها وضاعاً ، ولأن هذه السورة سورة التنزيه ، فأحق الناس بالذكر فيها - كما سلف - أعرق الناس في قدم التجريد ، وهو أولى الناس بذلك من حين كان حملاً إلى أن عولج ذبحه ، ولم يذكر ظاهراً ، فلو لم يكن المراد بهذا الكلام لكان ترك في هذه السورة - التي حالها هذا - من هو أرسخ الناس في الوصف المقصود بها ، وذلك خارج عن نهج البلاغة التي هي مطابقة المقال لمقتضى الحال ، بل هذا الحال لا يقتضي ذكر إسحاق عليه السلام ، لأنه لم يعلم له تجرد متفق عليه ، وما كان ذكره إلا لبيان جزاء إبراهيم عليه السلام لما اقتضاه مقامه في الاحسان في باب



---

التجريد والفناء - والله الموفق .

ولما كانت البشرى من الله لا تتخلف ، كان التقدير : فولد له غلام كما قلنا ﴿ فلما بلغ ﴾ أن يسعى كائناً ﴿ معه ﴾ أي مع أبيه خاصة ومصاحباً له ﴿ السعي ﴾ الذي يرضى به

الأب ويوطن نفسه عنده على الولد ويثق به ، ولا يتعلق مع مبلغ لاقتضائه بلوغهما معاً حد السعي ، ولا معنى لذلك في حق إبراهيم عليه السلام ولا بالسعي ، لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه ، ولو أخر عنه لم يفد الاختصاص المفهم لصغر سنه المفيد للإعلام بأن يبلغ في ذلك معه ما لا يبلغه مع غيره لعظيم شفقة الأب ، واستحكام ميل الابن الموجب لطاعته ، واختلف العلماء في تقدير ذلك بالسن فقال بعضهم : ثلاث عشرة سنة ، وبعضهم : سبع سنين ، ولذلك قيده بالأب لأن غيره لا يشفق على الولد فيكلفه ما ليس في وسعه ، وهو لم يبلغ كمال السعي ﴿ قال ﴾ أي إبراهيم عليه السلام : ﴿ يا بني ﴾ منادياً له بصيغة التعطف والشفقة والتحبب ، ذاكراً له بالمضارع الحال الذي رآه عليه ومصوراً له ، لا لتكرار الرؤيا فإنه غير محتاج إلى التكرار ولا إلى التروي ، فإن الله تعالى أراه ملكوت السماوات والأرض ، وأكد لما في طباع البشر من إحالة أن يقال ذلك على حقيقته ، وإعلاماً بأنه منام وحي لا أضغاث أحلام : ﴿ إني أرى في المنام ﴾ أي وأنت تعلم أن رؤيا الأنبياء وحي ﴿ أني أذبحك ﴾ أي أعالج ذبحك في اليقظة بأمر من الله تعالى ولذلك كان كما قال ، ولو عبر بالماضي لمضى وتم ، وإنما كان في المنام في هذا الأمر الخطر جداً ليعلم وثوق الأنبياء عليهم السلام بما يأتيهم عن الله في كل حال .

ولما كان الأنبياء عليهم السلام أشفق الناس وأنصحهم ، أحب أن يرى ما عنده ، فإن كان على ما يحب سر وثبته وإلا سعى في جعله على ما يحب فيلقى البلاء وهو أهون عليه ، ويكون ذلك أعظم لأجره لتمام انقياده ، ولتكون المشاورة سنة ، فإنه " ما ندم من استشار " سبب عن ذلك قوله : ﴿ فانظر ﴾ بعين بصيرتك ﴿ ماذا ﴾ أي ما الذي ﴿ ترى ﴾ أي في هذه الرؤيا ، فهو اختبار لصبره ، لا مؤامرة له ﴿ قال ﴾ تصديقاً لثناء الله عليه بالحلم : ﴿ يا أبت ﴾ تأدباً معه بما دل على التعظيم والتوفير ﴿ افعل ما تؤمر ﴾ أي كل شيء وقع لك به أمر من الله تعالى ويتجدد لك به أمر منه سبحانه لأني لا أتهمك في شفقتك وحسن نظرك ، ولا أتهم الله في قضائه ، والقصة دليل على وقوع الأمر بالممتنع لغيره ولأكثر الأوامر منه ، وقد تقدم ذلك في البقرة عند ﴿ ءأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ [ البقرة : 6 ] .

ولما علم طاعته ، تشوف السامع إلى استسلامه وصبره ، فاستأنف قوله :

﴿ ستجدني ﴾ أي بوعد جازم لا تردد فيه صادق كما أخبر الله تعالى عنه ، لا خلف فيه ، وكان صادق الوعد .

ولما كان من أخلاق الكمل عدم القطع في المستقبلات لما يعلمون من قدرة الله تعالى على نقض العزائم بالحيلولة بين المرء وقلبه قال : ﴿ إن شاء الله ﴾ أي الذي اختص بالإحاطة بصفات الكمال ؛ وأكد وعده بهذا الأمر الذي لا يكاد يصدق مثله بقوله : ﴿ من

الصابرين ﴾ أي العريقين في الصبر البالغين فيه حد النهاية ، وهو من أعظم ما أريد بقوله ﴿ وكان صادق الوعد ﴾ [ مريم : 54 ] .

ولو بيد الحبيب سقيت سماً . . .

لكان السم من يده يطيب



---

وجعل هذا الأمر العظيم في المنام دلالة على صدق أحوال الأنبياء نوماً ويقظة ، وصدق عزائمهم وانقيادهم لجميع الأوامر في جميع الأحوال ، وروي أن الشيطان وسوس له في ذبحه فعرفه فرماه بسبع حصيات فصار ذلك شريعة في الجمار ، ومن ألطف ما في ذلك أنهم لما كانوا في نهاية التجرد عن علائق الشواغل جعلت أفعالهم شعائر وشرائع لعبادة الحج التي روحها التجرد للوفود إلى الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 325 . 328 ﴾



---

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه لما انقضت هذه الواقعة قال إبراهيم : ﴿ إِنّى ذَاهِبٌ إلى رَبّى سيهدين ﴾ ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ [ العنكبوت : 26 ] وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

دلت هذه الآية على أن الموضع الذي تكثر فيه الأعداء تجب مهاجرته ، وذلك لأن إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه ، مع أن الله سبحانه خصه بأعظم أنواع النصرة ، لما أحس منهم بالعداوة الشديدة هاجر من تلك الديار ، فلأن يجب ذلك على الغير كان أولى .

المسألة الثانية :

في قوله ﴿ إِنّى ذَاهِبٌ إلى رَبّى ﴾ قولان الأول : المراد منه مفارقة تلك الديار ، والمعنى إني ذاهب إلى مواضع دين ربي والثول الثاني : قال الكلبي : ذاهب بعبادتي إلى ربي ، فعلى القول الأول المراد بالذهاب إلى الرب هو الهجرة من الديار ، وبه اقتدى موسى حيث قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِىَ رَبّى سَيَهْدِينِ ﴾ [ الشعراء : 62 ] وعلى القول الثاني المراد رعاية أحوال القلوب ، وهو أن لا يأتي بشيء من الأعمال إلا لله تعالى ، كما قال : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السموات والأرض ﴾ [ الأنعام : 79 ] قيل إن القول الأول أولى ، لأن المقصود من هذه الآية بيان مهاجرته إلى أرض الشام ، وأيضاً يبعد حمله على الهداية في الدين ، لأنه

كان على الدين في ذلك الوقت إلا أن يحمل ذلك على الثبات عليه ، أو يحمل ذلك على الاهتداء إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في أمر الدين .

المسألة الثالثة :

(128/653)

---

قوله : ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ يدل على أن الهداية لا تحصل إلا من الله تعالى ، كما يقول أصحابنا ولا يمكن حمل هذه الهداية على وضع الأدلة وإزاحة الأعذار ، لأن كل ذلك قد حصل في الزمان الماضي ، وقوله : ﴿ سيهدين ﴾ يدل على اختصاص تلك الهداية بالمستقبل ، فوجب حمل الهداية في هذه الآية على تحصيل العلم والمعرفة في قلبه ، فإن قيل إبراهيم عليه السلام جزم في هذه الآية بأنه تعالى سيهديه ، وأن موسى عليه السلام لم يجزم به ، بل قال : ﴿ قَالَ عسى رَبّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السبيل ﴾ [ القصص : 22 ] فما الفرق ؟ قلنا العبد إذا تجلى له مقامات رحمة الله فقد يجزم بحصول المقصود ، وإذا تجلى له مقامات كونه غنياً عن العالمين ، فحينئذٍ يستحقر نفسه فلا يجزم ، بل لا يظهر إلا الرجاء والطمع .

المسألة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ إِنّى ذَاهِبٌ إلى رَبّى ﴾ يدل على فساد تمسك المشبهة بقوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ

يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ [ فاطر : 10 ] لأن كلمة إلى موجودة في قوله : ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إلى رَبّى ﴾ مع أنه لم يلزم أن يكون الإله موجوداً في ذلك المكان ، فكذلك ههنا .

واعلم أنه صلوات الله عليه لما هاجر إلى الأرض المقدسة أراد الولد فقال : ﴿ هَبْ لِى مِنَ الصالحين ﴾ أي هب لي بعض الصالحين ، يريد الولد ، لأن لفظ الهبة غلب في الولد ، وإن كان قد جاء في الأخ في قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هارون نَبِيّاً ﴾ [ مريم : 53 ] وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ [ الأنبياء : 72 ] ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى ﴾ [ الأنبياء : 90 ] وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهم حين هنأه بولده : على أبي الأملاك شكرت الواهب ، وبورك لك في الموهوب ، ولذلك وقعت التسمية بهبة الله تعالى وبهبة الوهاب وبموهوب ووهب .

*(129/653)*

---

واعلم أن هذا الدعاء اشتمل على ثلاثة أشياء : على أن الولد غلام ذكر ، وأنه يبلغ الحلم ، وأنه يكون حليماً ، وأي حلم يكون أعظم من ولد حين عرض عليه أبوه الذبح ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِى إِن شَاء الله مِنَ الصابرين ﴾ [ الصافات : 102 ] ثم استسلم لذلك ، وأيضاً فإن إبراهيم عليه السلام كان موصوفاً بالحلم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ إبراهيم لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [

التوبة : 114 ] ﴿ إِنَّ إبراهيم لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [ هود : 75 ] فبين أن ولده موصوف بالحلم ، وأنه قائم مقامه في صفات الشرف والفضيلة ، واعلم أن الصلاح أفضل الصفات بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه ، فقال : ﴿ رَبّ هَبْ لِى حُكْماً وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ [ الشعراء : 83 ] وطلبه للولد فقال : ﴿ رَبّ هَبْ لِى مِنَ الصالحين ﴾ وطلبه سليمان عليه السلام بعد كمال درجته في الدين والدنيا ، فقال : ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصالحين ﴾ [ النمل : 19 ] وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد .

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى

(130/653)

---

واعلم أن سبحانه وتعالى لما قال : ﴿ فبشرناه بغلام حَلِيمٍ ﴾ [ الصافات : 101 ] أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به وبلغه ، فقال : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعى ﴾ ومعناه فلما أدرك وبلغ الحد الذي يقدر فيه على السعي ، وقوله : ﴿ مَعَهُ ﴾ في موضع الحال والتقدير كائناً معه ، والفائدة في اعتبار هذا المعنى أن الأب أرفق الناس بالولد ، وغيره ربما عنف به في الاستسعاء فلا يحتمله لأنه لم تستحكم قوته ، قال بعضهم : كان في ذلك الوقت ابن ثلاث

عشرة سنة ، والمقصود من هذا الكلام أن الله تعالى لما وعده في الآية الأولى بكون ذلك الغلام حليماً ، بين في هذه الآية ما يدل على كمال حلمه ، وذلك لأنه كان به من كمال الحلم وفسحة الصدر ما قواه على احتمال تلك البلية العظيمة ، والإتيان بذلك الجواب الحسن .

أما قوله : ﴿ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

في تفسير هذه اللفظة وجهان الأول : قال السدي : كان إبراهيم حين بشر بإسحق قبل أن يولد له قال : هو إذن لله ذبيح فقيل لإبراهيم قد نذرت نذراً فف بنرك فلما أصبح ﴿ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ ﴾ .



---

وروي من طريق آخر أنه رأى ليلة التروية في منامه ، كأن قائلاً يقول له إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلما أصبح تروى في ذلك من الصباح إلى الرواح ، أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان ؟ فمن ثم سمي يوم التروية ، فلما أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من الله فسمي يوم عرفة ، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره فسمي يوم النحر وهذا هو قول أهل التفسير وهو يدل على أنه رأى في المنام ما يوجب أن يذبح ابنه في اليقظة ، وعلى هذا

فتقدير اللفظ : إني أرى في المنام ما يوجب أن أذبحك والقول الثاني : أنه رأى في المنام أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء عليهم السلام من باب الوحي ، وعلى هذا القول فالمرئي في المنام ليس إلا أنه يذبح ، فإن قيل إما أن يقال إنه ثبت بالدليل عند الأنبياء عليهم السلام أن كل ما رآه في المنام فهو حق حجة أو لم يثبت ذلك بالدليل عندهم ، فإن كان الأول فلم راجع الولد في هذه الواقعة ، بل كان من الواجب عليه أن يشتغل بتحصيل ذلك المأمور ، وأن لا يراجع الولد فيه ، وأن لا يقول له : ﴿ فانظر مَاذَا ترى ﴾ وأن لا يوقف العمل على أن يقول له الولد ﴿ افعل مَا تُؤمَرُ ﴾ ؟ ، وأيضاً فقد قلتم إنه بقي في اليوم الأول متفكراً ، ولو ثبت عنده بالدليل أن كل ما رآه في النوم فهو حق لم يكن إلى هذا التروي والتفكر حاجة ، وإن كان الثاني ، وهو أنه لم يثبت بالدليل عندهم أن ما يرونه في المنام حق ، فكيف يجوز له أن يقدم على ذبح ذلك الطفل بمجرد رؤيا لم يدل الدليل على كونها حجة ؟ والجواب : لا يبعد أن يقال إنه كان عند الرؤيا متردداً فيه ثم تأكدت الرؤيا بالوحي الصريح ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

اختلفوا في أن هذا الذبيح من هو ؟ فقيل إنه إسحق وهذ قول عمر وعلي والعباس بن عبد المطلب وابن مسعود وكعب الأحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهري والسدي ومقاتل رضي الله عنهم ، وقيل إنه إسماعيل وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبي ومجاهد والكلبي ، واحتج القائلون بأنه إسماعيل بوجوه : الأول : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أنا ابن الذبيحين " وقال له أعرابي : " يا ابن الذبيحين فتبسم فسئل عن ذلك فقال : إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهل الله له أمرها ليذبحن أحد ولده ، فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له افد ابنك بمائة من الإبل ، ففداه بمائة من الإبل ، والذبيح الثاني إسماعيل " .

الحجة الثانية : نقل عن الأصمعي أنه قال سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال : يا أصمعي أين عقلك ، ومتى كان إسحق بمكة وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة ؟ .

الحجة الثالثة : أن الله تعالى وصف إسماعيل بالصبر دون إسحق في قوله : ﴿ وإسماعيل وَإِدْرِيسَ وَذَا الكفل كُلٌّ مّنَ الصابرين ﴾ [ الأنبياء : 85 ] وهو صبره على الذبح ، ووصفه أيضاً بصدق الوعد في قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صادق الوعد ﴾ [ مريم : 54 ] لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به .

الحجة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فبشرناها بإسحاق وَمِن وَرَاء إسحاق يَعْقُوبَ ﴾ [ هود : 71 ] فنقول لو كان الذبيح إسحق لكان الأمر بذبحه إما أن يقع قبل ظهور يعقوب ، منه أو بعد ذلك فالأول : باطل لأنه تعالى لما بشرها بإسحق ، وبشرها معه بأنه يحصل منه يعقوب فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الأمر بذبحه ، وإلا حصل الخلف في قوله : ﴿ وَمِن وَرَاء إسحاق يعقوب ﴾ والثاني : باطل لأن قوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعى قَالَ يا بنى إِنّى أرى فِى المنام أَنّى أَذْبَحُكَ ﴾ يدل على أن ذلك الابن لما قدر على السعي ووصل إلى حد القدرة على الفعل أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه ، وذلك ينافي وقوع هذه القصة في زمان آخر ، فثبت أنه لا يجوز أن يكون الذبيح هو إسحق .

الحجة الخامسة : حكى الله تعالى عنه أنه قال : ﴿ إِنّى ذَاهِبٌ إلى رَبّى سَيَهْدِينِ ﴾ [ الصافات : 99 ] ثم طلب من الله تعالى ولداً يستأنس به في غربته فقال :

﴿ رَبّ هَبْ لِى مِنَ الصالحين ﴾ [ الصافات : 100 ] وهذا السؤال إنما يحسن قبل أن يحصل له الولد ، لأنه لو حصل له ولد واحد لما طلب الولد الواحد ، لأن طلب الحاصل محال وقوله : ﴿ هَبْ لِى مِنَ الصالحين ﴾ لا يفيد إلا طلب الولد الواحد ، وكلمة من للتبعيض وأقل درجات البعضية الواحد فكأن قوله : ﴿ مّنَ الصالحين ﴾ لا يفيد إلا طلب الولد الواحد فثبت أن هذا السؤال لا يحسن إلا عند عدم كل الأولاد فثبت أن هذا السؤال

وقع حال طلب الولد الأول ، وأجمع الناس على أن إسماعيل متقدم في الوجود على إسحق ، فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء وهو إسماعيل ، ثم إن الله تعالى ذكر عقيبه قصة الذبيح فوجب أن يكون الذبيح هو إسماعيل .

الحجة السادسة : الأخبار الكثيرة في تعليق قرن الكبش بالكعبة ، فكأن الذبيح بمكة .

*(134/653)*

---

ولو كان الذبيح إسحق كان الذبح بالشام ، واحتج من قال إن ذلك الذبيح هو إسحق بوجهين : الوجه الأول : أن أول الآية وآخرها يدل على ذلك ، أما أولها فإنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام قبل هذه الآية أنه قال : ﴿ إِنّى ذَاهِبٌ إلى رَبّى سَيَهْدِينِ ﴾ وأجمعوا على أن المراد منه مهاجرته إلى الشام ثم قال : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ [ الصافات : 101 ] فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلا إسحق ، ثم قال بعده : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعى ﴾ وذلك يقتضي أن يكون المراد من هذا الغلام الذي بلغ معه السعي هو ذلك الغلام الذي حصل في الشام ، فثبت أن مقدمة هذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسحق ، وأما آخر الآية فهو أيضاً يدل على ذلك لأنه تعالى لما تمم قصة الذبيح قال بعده : ﴿ وبشرناه بإسحاق نَبِيّاً مّنَ الصالحين ﴾ ومعناه أنه بشره بكونه نبياً من الصالحين ، وذكر هذه البشارة

عقيب حكاية تلك القصة يدل على أنه تعالى إنما بشره بهذه النبوة لأجل أنه تحمل هذه الشدائد في قصة الذبيح ، فثبت بما ذكرنا أن أول الآية وآخرها يدل على أن الذبيح هو إسحق عليه السلام .

الحجة الثانية : على صحة ذلك ما اشتهر من كتاب يعقوب إلى يوسف عليه السلام من يعقوب إسرائيل نبي الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله فهذا جملة الكلام في هذا الباب ، وكان الزجاج يقول : الله أعلم أيهما الذبيح ، والله أعلم .

واعلم أنه يتفرع على ما ذكرنا اختلافهم في موضع الذبح فالذين قالوا الذبيح هو إسماعيل قالوا : كان الذبح بمنى ، والذين قالوا : إنه إسحق قالوا هو بالشام وقيل ببيت المقدس ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :



---

اختلف الناس في أن إبراهيم عليه السلام كان مأموراً بهذا بما رأى ، وهذا الاختلاف مفرع على مسألة من مسائل أصول الفقه ، وهي أنه هل يجوز نسخ الحكم قبل حضور مدة الامتثال فقال أكثر أصحابنا إنه يجوز ، وقالت المعتزلة وكثير من فقهاء الشافعية والحنفية

إنه لا يجوز ، فعلى القول الأول أنه سبحانه وتعالى أمره بالذبح ، ثم إنه تعالى نسخ هذا التكليف قبل حضور وقته ، وعلى القول الثاني أنه تعالى ما أمره بالذبح ، وإنما أمره بمقدمات الذبح وهذه مسألة شريفة من مسائل باب النسخ ، واحتج أصحابنا على أنه يجوز نسخ الأمر قبل مجيء مدة الامتثال بأن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ، ثم إنه تعالى نسخه عنه قبل إقدامه عليه وذلك يفيد المطلوب إنما قلنا إنه تعالى أمره بذبح الولد لوجهين الأول : أنه عليه السلام قال لولده إني أرى في المنام أني أذبحك فقال الولد افعل ما تؤمر وهذا يدل على أنه عليه السلام كان مأموراً بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح ، ثم إنه أتى بمقدمات الذبح وأدخلها في الوجود ، فحينئذٍ يكون قد أمر بشيء وقد أتى به ، وفي هذا الموضع لا يحتاج إلى الفداء ، لكنه احتاج إلى الفداء بدليل قوله تعالى : ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ فدل هذا على أنه أتى بالمأمور به ، وقد ثبت أنه أتى بكل مقدمات الذبح ، وهذا يدل على أنه تعالى كان قد أمره بنفس الذبح ، وإذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى نسخ ذلك الحكم قبل إثباته وذلك يدل على المقصود ، وقالت المعتزلة : لا نسلم أن الله أمره بذبح الولد بل نقول إنه تعالى أمره بمقدمات الذبح ، ويدل عليه وجوه الأول : أنه ما أتى بالذبح وإنما أتى بمقدمات الذبح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 131.135 ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تعَالَى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى اُخْتُلِفَ فِي الذَّبِيحِ ، هَلْ هُوَ إِسْحَاقُ أَوْ إِسْمَاعِيلُ ؟ وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا قَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَسْأَلَةِ تَبْيِينِ الصَّحِيحِ فِي تَعْيِينِ الذَّبِيحِ ، وَلَيْسَتْ الْمَسْأَلَةُ مِنْ الْأَحْكَامِ وَلَا مِنْ أُصُولِ الدِّينِ ؛ وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ وَتَوَابِعِهَا وَمُتَمِّمَاتِهَا لَا أُمَّهَاتِهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تعَالَى : ﴿ إنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُك ﴾ وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ وَشَرْحِ الْحَدِيثِ ؛ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ فِي التَّخْيِيلِ سَبِيلٌ ، وَلَا لِلِاخْتِلَاطِ عَلَيْهِمْ دَلِيلٌ ؛ وَإِنَّمَا قُلُوبُهُمْ صَافِيَةٌ ، وَأَفْكَارُهُمْ صَقِيلَةٌ ، فَمَا أُلْقِيَ إلَيْهِمْ ، وَنَفَثَ بِهِ الْمَلَكُ فِي رَوْعِهِمْ ، وَضَرَبَ الْمَثَلَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَهُوَ حَقٌّ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : وَمَا كُنْت أَظُنُّ أَنَّهُ يَنْزِلُ فِي قُرْآنٍ يُتْلَى ، وَلَكِنْ رَجَوْت أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا . .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَدْ بَيَّنَّا فِي كُتُبِ الْأُصُولِ وَالْحَدِيثِ حَقِيقَةَ الرُّؤْيَا ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ نُبْذَةً مِنْهَا ، وَأَنَّ الْبَارِي تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَلَهَا أَسْمَاءٌ وَكُنًى ، فَمِنْهَا رُؤْيَا تَخْرُجُ بِصِفَتِهَا ، وَمِنْهَا رُؤْيَا تَخْرُجُ بِتَأْوِيلِهَا وَهُوَ كُنْيَتُهَا .

وَفِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِعَائِشَةَ : أُرِيتُك فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ .

فَقَالَ الْمَلَكُ : هَذِهِ زَوْجُك ، فَاكْشِفْ عَنْهَا ، فَإِذَا هِيَ أَنْتِ .

فَقُلْت : إنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمْضِهِ ﴾ .

وَلَمْ يَشُكَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ لِقَوْلِهِ : فَقَالَ لِي الْمَلَكُ ، وَلَا يَقُولُ الْمَلَكُ إلَّا حَقًّا ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ احْتَمَلَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَكُونَ الرُّؤْيَا بِاسْمِهَا أَوْ تَكُونَ بِكُنْيَتِهَا ، فَإِنْ كَانَتْ بِاسْمِهَا فَتَكُونُ هِيَ الزَّوْجَةَ ، وَإِنْ كَانَتْ الرُّؤْيَا مُكَنَّاةً فَتَكُونُ فِي أُخْتِهَا أَوْ قَرَابَتِهَا أَوْ جَارَتِهَا ، أَوْ مَنْ يُسَمَّى بِاسْمِهَا ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ التَّشْبِيهَاتِ فِيهَا ؛ وَهَذَا أَصْلٌ تَقَرَّرَ فِي الْبَابِ فَلْيُحْفَظْ وَلْيُحَصَّلْ ، فَإِنَّهُ أَصْلُهُ . .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَدْ جَرَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ غَرِيبَةٌ قَدْ بَيَّنَّاهَا حَيْثُ وَقَعَتْ مِنْ كَلَامِنَا ، ذَكَرَهَا

جَمِيعُ عُلَمَائِنَا مَعَ أَحْزَابِ الطَّوَائِفِ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ النَّسْخِ قَبْلَ الْفِعْلِ؛ لِأَنَّهُ رَفَعَ الْأَمْرَ بِالذَّبْحِ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ الذَّبْحُ، وَلَوْ لَمْ يُتَصَوَّرْ رَفْعُهُ.

(138/653)

---

وَقَالَ الْمُخَالِفُونَ: إنَّهُ لَمْ يُنْسَخْ، وَلَكِنَّهُ نَفَذَ الذَّبْحُ، وَكَانَ كُلَّمَا قَطَعَ جُزْءًا الْتَأَمَ، فَاجْتَمَعَ الذَّبْحُ وَالْإِعَادَةُ لِمَوْضِعِهَا حَسْبَمَا كَانَتْ.

(139/653)

---

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: وَجَدَ حَلْقَهُ نُحَاسًا أَوْ مُغَشًّى بِنُحَاسٍ، فَكَانَ كُلَّمَا أَرَادَ قَطْعًا وَجَدَ مَنْعًا؛ وَذَلِكَ كُلُّهُ جَائِزٌ فِي الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ؛ وَلَكِنْ يَفْتَقِرُ إلَى نَقْلٍ صَحِيحٍ، فَإِنَّهُ لَا يُدْرَكُ بِالنَّظَرِ؛ وَإِنَّمَا طَرِيقُهُ الْخَبَرُ، وَكَانَ الذَّبْحُ وَالْتِئَامُ الْأَجْزَاءِ بَعْدَ ذَلِكَ أَوْقَعَ فِي مَطْلُوبِهِمْ مِنْ وَضْعِ النُّحَاسِ مَوْضِعَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ، وَكُلُّهُ أَمْرٌ بَعِيدٌ مِنْ الْعِلْمِ؛ وَبَابُ التَّحْقِيقِ فِيهَا وَمَسْلَكُهُ مَا بَيَّنَّاهُ وَاخْتَرْنَاهُ، فَأَوْضَحْنَا لِبَابِهِ الَّذِي لَمْ نُسْبَقْ إلَيْهِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى: قَالَ مُخْبِرًا عَنْ إبْرَاهِيمَ: إنَّهُ قَالَ لِوَلَدِهِ: ﴿ يَا بُنَيَّ إنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُك فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا

أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ ؛ لِأَنَّ الرُّؤْيَا إِمَّا أَنْ تَكُونَ مِنْ غَلَبَةِ الْأَخْلَاطِ كَمَا تَقُولُ الْفَلَاسِفَةُ وَتِلْكَ أَخْلَاطٌ ، وَأَيُّهَا فَلَيْسَ لَهَا بِالْأَنْبِيَاءِ أَخْلَاطٌ ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَلَمْ يُحَدِّثْ إِبْرَاهِيمُ قَطُّ نَفْسَهُ بِذَبْحِ وَلَدِهِ ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مِنْ تَلَاعُبِ الشَّيْطَانِ ، فَلَيْسَ لِلشَّيْطَانِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ سَبِيلٌ فِي تَخْيِيلٍ وَلَا تَلَاعُبٍ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ وَقَرَّرْنَاهُ

وَمَهَّدْنَاهُ وَبَسَّطْنَاهُ .

(140/653)

---

فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِابْنِهِ : رَأَيْتُ أَنِّي أَذْبَحُكَ فِي الْمَنَامِ ، فَأَخَذَ الْوَالِدُ وَالْوَلَدُ الرُّؤْيَا بِظَاهِرِهَا وَاسْمِهَا ، وَقَالَ لَهُ : ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ ؛ إِذْ هُوَ أَمْرٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى ، لِأَنَّهُمَا عَلِمَا أَنَّ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيُ اللَّهِ ، وَاسْتَسْلَمَا لِقَضَاءِ اللَّهِ ؛ هَذَا فِي قُرَّةِ عَيْنِهِ ، وَهَذَا فِي نَفْسِهِ أُعْطِيَ ذِبْحًا فِدَاءً وَقِيلَ لَهُ : هَذَا فِدَاؤُكَ ، فَامْتَثِلْ فِيهِ مَا رَأَيْتَ فَإِنَّهُ حَقِيقَةُ مَا خَاطَبْنَاكَ فِيهِ ، وَهُوَ كِنَايَةٌ لَا اسْمٌ ، وَجَعَلَهُ مُصَدِّقًا لِلرُّؤْيَا بِمُبَادَرَتِهِ الِامْتِثَالَ ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ اعْتِقَادِ الْوُجُوبِ وَالتَّهَيُّؤِ لِلْعَمَلِ .

فَلَمَّا اعْتَقَدَا الْوُجُوبَ ، وَتَهَيَّآ لِلْعَمَلِ ، هَذَا بِصُورَةِ الذَّابِحِ ، وَهَذَا بِصُورَةِ الْمَذْبُوحِ ، أُعْطِيَ مَحَلًّا لِلذَّبْحِ فِدَاءً عَنْ ذَلِكَ الْمَرْئِيِّ فِي الْمَنَامِ ، يَقَعُ مَوْضِعَهُ بِرَسْمِ الْكِنَايَةِ وَإِظْهَارِ الْحَقِّ الْمَوْعُودِ فِيهِ .

فَإِنْ قِيلَ : قَدْ قَالَ لَهُ الْوَلَدُ : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ فَأَيْنَ الْأَمْرُ ؟ قُلْنَا : هُمَا كَلِمَتَانِ إِحْدَاهُمَا مِنْ الْوَالِدِ إِبْرَاهِيمَ ، وَالثَّانِيَةُ مِنْ الْوَلَدِ إِسْمَاعِيلَ .



---

فَأَمَّا كَلِمَةُ إِبْرَاهِيمَ فَهِيَ قَوْلُهُ أَذْبَحُك ، وَهُوَ خَبَرٌ لَا أَمْرٌ ، وَأَمَّا كَلِمَةُ إِسْمَاعِيلَ : ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ وَهُوَ أَمْرٌ ، وَقَوْلُ إِبْرَاهِيمَ : ﴿ إنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُك ﴾ وَإِنْ كَانَتْ [ صِيغَتُهُ ] صِيغَةَ الْخَبَرِ فَإِنَّ مَعْنَاهَا الْأَمْرُ ضَرُورَةً ؛ لِأَنَّ لَوْ كَانَ عِبَارَةً عَنْ خَبَرٍ وَاقِعٍ لَمَا كَانَ لَهُ تَأْوِيلٌ يُنْتَظَرُ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِصِيغَةِ الْخَبَرِ ، وَمَعْنَاهُ الْأَمْرُ ضَرُورَةً .

فَقَالَ إِسْمَاعِيلُ لِأَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ : ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ ؛ فَعَبَّرَ عَنْ نَفْسِهِ بِالِانْقِيَادِ إِلَى مَعْنَى خَبَرِ أَبِيهِ ، وَهُوَ الْأَمْرُ ، وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ صَدَّقْت الرُّؤْيَا ﴾ حِينَ تَيَسَّرَا لِلْعَمَلِ ، وَأَقْبَلَا عَلَى الْفِعْلِ ؛ فَكَانَ صِدْقُهَا

ذَبْحُهَا مَكَانَهَا ، وَهُوَ الْفِدَاءُ ، وَكَانَ ذَلِكَ أَمْرًا فِي الْمَعْنَى ضَرُورَةً ، فَكَانَ مَا كَانَ مِنْ

إِبْرَاهِيمَ امْتِثَالًا ، وَمِنْ إِسْمَاعِيلَ انْقِيَادًا ، وَوُضِّحَتْ الْمَعَانِي بِحَقِيقَتِهَا ، وَجَرَتْ الْأَلْفَاظُ عَلَى نِصَابِهَا لِصَوَابِهَا ، وَلَمْ يُحْتَجْ إلَى تَأْوِيلٍ فَاسِدٍ يَقْلِبُ الْجِلْدَ نُحَاسًا أَوْ غَيْرَهُ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ لَمَّا قَرَّرْنَا حَظَّ التَّفْسِيرِ وَالْأُصُولِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَرَكَّبَتْ عَلَيْهَا مَسْأَلَةٌ مِنْ الْأَحْكَامِ ، وَهُوَ إذَا نَذَرَ الرَّجُلُ ذَبْحَ وَلَدِهِ .

فَقَالَ الشَّافِعِيُّ : هِيَ مَعْصِيَةٌ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْهَا .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : هِيَ كَلِمَةٌ يَلْزَمُهُ بِهَا ذَبْحُ شَاةٍ .

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ إمَامُ دَارِ الْهِجْرَةِ : يَلْزَمُهُ ذَبْحُ شَاةٍ فِي تَفْصِيلٍ بَيَّنَّاهُ فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ .

(142/653)

---

وَالَّذِي ذَكَرْنَاهُ هُوَ الَّذِي نَنْظُرُهُ الْآنَ .

وَدَلِيلُنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ ذَبْحَ الْوَلَدِ عِبَارَةً عَنْ ذَبْحِ الشَّاةِ شَرْعًا ، فَأَلْزَمَ اللَّهُ إبْرَاهِيمَ ذَبْحَ الْوَلَدِ ، وَأَخْرَجَهُ عَنْهُ بِذَبْحِ الشَّاةِ ، وَكَذَلِكَ إذَا نَذَرَ الْعَبْدُ ذَبْحَ وَلَدِهِ يَجِبُ أَنْ يَلْزَمَهُ ذَبْحُ شَاةٍ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبْرَاهِيمَ ﴾ .

وَالْإِيمَانُ إلْزَامٌ أَصْلِيٌّ .

وَالنَّذْرُ إلْزَامٌ فَرْعِيٌّ ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ مَحْمُولًا .

فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ يُؤْمَرُ إِبْرَاهِيمُ بِذَبْحِ الْوَلَدِ وَهِيَ مَعْصِيَةٌ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْصِيَةِ لَا يَجُوزُ ؟ قُلْنَا : هَذَا اعْتِرَاضٌ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ، فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ الْإِسْلَامَ ، فَكَيْفَ مِمَّنْ يُفْتِي فِي الْحَلَالِ مِنْهُ وَالْحَرَامِ ؟ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ .

وَالَّذِي يَجْلُو الِالْتِبَاسَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَعَاصِيَ وَالطَّاعَاتِ لَيْسَتْ بِأَوْصَافٍ ذَاتِيَّةٍ لِلْأَعْيَانِ ؛ وَإِنَّمَا الطَّاعَةُ عِبَارَةٌ عَمَّا تَعَلَّقَ بِهِ الْأَمْرُ مِنْ الْأَفْعَالِ ، وَالْمَعْصِيَةُ عِبَارَةٌ عَمَّا تَعَلَّقَ بِهِ النَّهْيُ مِنْ الْأَفْعَالِ ، فَلَمَّا تَعَلَّقَ الْأَمْرُ بِذَبْحِ الْوَلَدِ إسْمَاعِيلَ مِنْ إبْرَاهِيمَ صَارَ طَاعَةً وَابْتِلَاءً ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ ؛ أَيْ الصَّبْرُ عَلَى ذَبْحِ الْوَلَدِ وَالنَّفْسِ .

وَلَمَّا تَعَلَّقَ النَّهْيُ بِنَا فِي ذَبْحِ أَبْنَائِنَا صَارَ مَعْصِيَةً .

فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ يَصِيرُ نَذْرًا



---

وَهُوَ مَعْصِيَةٌ ؟ قُلْنَا : إنَّمَا يَصِيرُ مَعْصِيَةً لَوْ كَانَ هُوَ يَقْصِدُ ذَبْحَ وَلَدِهِ بِنَذْرِهِ وَلَا يَنْوِي الْفِدَاءَ .

فَإِنْ قِيلَ : فَإِنْ وَقَعَ ذَلِكَ وَقَصَدَ الْمَعْصِيَةَ وَلَمْ يَنْوِ الْفِدَاءَ ؟ قُلْنَا : لَوْ قَصَدَ ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ فِي قَصْدِهِ ، وَلَا أَثَرَ فِي نَذْرِهِ ، لِأَنَّ ذَبْحَ الْوَلَدِ صَارَ عِبَارَةً عَنْ ذَبْحِ الشَّاةِ شَرْعًا .

فَإِنْ قِيلَ : فَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ عِبَارَةً عَنْهُ وَكِنَايَةً فِيهِ ، وَإِنَّمَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ كِنَايَةً عَنْ الشَّيْءِ بِأَحَدِ وَجْهَيْنِ ؛ إمَّا بِاشْتِبَاهِهِمَا فِي الْمَعْنَى الْخَاصِّ ، وَإِمَّا بِنِسْبَةٍ تَكُونُ بَيْنَهُمَا ، وَهَا هُنَا لَا نِسْبَةَ بَيْنَ الطَّاعَةِ وَهُوَ النَّذْرُ ، وَلَا بَيْنَ الْمَعْصِيَةِ وَهِيَ ذَبْحُ الْوَلَدِ ، وَلَا تَشَابُهَ أَيْضًا بَيْنَهُمَا ، فَإِنَّ ذَبْحَ الْوَلَدِ لَيْسَ بِسَبَبٍ لِذَبْحِ الشَّاةِ .

قُلْنَا : هُوَ سَبَبٌ لَهُ شَرْعًا ؛ لِأَنَّهُ جُعِلَ كِنَايَةً عَنْهُ فِي الشَّرْعِ .

وَالْأَسْبَابُ إنَّمَا تُعْرَفُ عَادَةً أَوْ شَرْعًا ، وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا بَاقِيَ الْكَلَامِ عَلَى الْمَسْأَلَةِ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ وَمَسَائِلِ الْخِلَافِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(144/653)

---

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي أَنَّ الذَّبِيحَ إسْمَاعِيلُ أَوْ إِسْحَاقُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَرَجَّحَ جَمَاعَةٌ أَنَّهُ إسْمَاعِيلُ وَاحْتَجُّوا لَهُ بِأَدِلَّةٍ مِنْهَا وَصْفُهُ بِالْحِلْمِ وَذِكْرُ الْبِشَارَةِ بِإِسْحَاقَ بَعْدَهُ ، وَالْبِشَارَةُ بِيَعْقُوبَ مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَهِيَ أُمُورٌ ظَاهِرَةٌ لَا قَطْعِيَّةٌ ، وَتَأَمَّلْتُ الْقُرْآنَ فَوَجَدْتُ فِيهِ مَا يَقْتَضِي الْقَطْعَ أَوْ يَقْرُبُ مِنْهُ . وَلَمْ أَرَ مَنْ سَبَقَنِي إِلَى اسْتِنْبَاطِهِ ؛ وَهُوَ أَنَّ الْبِشَارَةَ مَرَّتَيْنِ مَرَّةً فِي قَوْلِهِ ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ فَهَذِهِ الْآيَةُ قَاطِعَةٌ فِي أَنَّ هَذَا الْمُبَشَّرَ بِهِ هُوَ الذَّبِيحُ . وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ صَرَّحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْمُبَشَّرَ بِهِ فِيهَا إِسْحَاقُ ، وَلَمْ تَكُنْ بِسُؤَالٍ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَلْ قَالَتْ امْرَأَتُهُ : إِنَّهَا عَجُوزٌ ، وَإِنَّهُ شَيْخٌ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ فِي الشَّامِ لَمَّا جَاءَتْ الْمَلَائِكَةُ إِلَيْهِ بِسَبَبِ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهُوَ فِي أَوَاخِرِ أَمْرِهِ .

وَأَمَّا الْبِشَارَةُ الْأُولَى فَكَانَتْ لَمَّا انْتَقَلَ مِنْ الْعِرَاقِ إِلَى الشَّامِ حِينَ كَانَ سِنُّهُ لَا يُسْتَغْرَبُ فِيهِ الْوَلَدُ .

وَلِذَلِكَ سَأَلَهُ فَعَلِمْنَا بِذَلِكَ أَنَّهُمَا بِشَارَتَانِ فِي وَقْتَيْنِ بِغُلَامَيْنِ .

إِحْدَاهُمَا بِغَيْرِ سُؤَالٍ وَهِيَ بِإِسْحَاقَ صَرِيحًا ، وَالثَّانِيَةُ كَانَتْ بِسُؤَالٍ وَهِيَ بِغَيْرِهِ ، فَقَطَعْنَا بِأَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ الذَّبِيحُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

وَلَا يَرُدُّ هَذَا قَوْلُهُ ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا

فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ وَوَجْهُ الْإِيرَادِ ذِكْرُ هِبَةِ إِسْحَاقَ بَعْدَ الْإِنْجَاءِ .

لِأَنَّا نَقُولُ لَمَّا ذَكَرَ لُوطًا وَإِسْحَاقَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ هُوَ الْمُبَشَّرُ بِهِ فِي قِصَّةِ لُوطٍ نَاسَبَ ذِكْرُهُ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى التَّعْقِيبِ ، وَالْبِشَارَةُ الْأُولَى لَمْ يَكُنْ لِلُوطٍ فِيهَا ذِكْرٌ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 102 . 103 ﴾

(146/653)

---

وقال القرطبى :

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة .

وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام ، وذلك حين خلصه الله من النار "قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي" أي مهاجر من بلد قومي ومولدي إلى حيث أتمكن من عبادة ربي فإنه "سَيَهْدِينِ" فيما نويت إلى الصواب .

قال مقاتل : هو أوّل من هاجر من الخلق مع لوط وسارّة ، إلى الأرض المقدّسة وهي أرض الشام .

وقيل : ذاهب بعملي وعبادتي ، وقلبي ونيتي .

فعلى هذا ذهابه بالعمل لا بالبدن .

وقد مضى بيان هذا في "الكهف" مستوفى .

وعلى الأوّل بالمهاجرة إلى الشام وبيت المقدس .

وقيل : خرج إلى حرّان فأقام بها مدّة .

ثم قيل : قال ذلك لمن فارقه من قومه ؛ فيكون ذلك توبيخاً لهم .

وقيل : قاله لمن هاجر من أهله ؛ فيكون ذلك منه ترغيباً .

وقيل : قال هذا قبل إلقائه في النار .

وفيه على هذا القول تأويلان : أحدهما إني ذاهب إلى ما قضاه عليّ ربي .

الثاني إني ميّت ؛ كما يقال لمن مات : قد ذهب إلى الله تعالى ؛ لأنه عليه السلام تصوّر أنه يموت بإلقائه في النار ، على المعهود من حالها في تلف ما يلقى فيها ، إلى أن قيل لها : ﴿ كُونِي بَرْداً وَسَلاَمَا ﴾ [ الأنبياء : 69 ] فحينئذٍ سلم إبراهيم منها .

وفي قوله : ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ على هذا القول تأويلان : أحدهما "سَيَهْدِينَ" إلى الخلاص منها .

الثاني إلى الجنة.

وقال سليمان بن صُرَد وهو ممن أدرك النبيّ صلى الله عليه وسلم: لما أرادوا إلقاء إبراهيم في النار جعلوا يجمعون له الحطب؛ فجعلت المرأة العجوز تحمل على ظهرها وتقول: أذهب به إلى هذا الذي يذكر آلهتنا؛ فلما ذُهِب به ليطرح في النار ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي ﴾.

(147/653)

---

فلما طرح في النار قال: (حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيل) فقال الله تعالى: ﴿ يانار كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا ﴾ فقال أبو لوط وكان ابن عمه: إن النار لم تحرقه من أجل قرابته مني.

فأرسل الله عُنُقاً من النار فأحرقه.

الثانية قوله تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين ﴾ لما عرّفه الله أنه مخلّصه دعا الله ليعضُده بولد يأنس به في غُرْبته.

وقد مضى في "آل عمران" القول في هذا.

وفي الكلام حذف؛ أي هب لي ولداً صالحاً من الصالحين، وحذف مثل هذا كثير.

قال الله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ ﴾ أي إنه يكون حليماً في كبره فكأنه بُشِّر ببقاء

ذلك الولد ؛ لأنّ الصغير لا يوصف بذلك ، فكانت البشرى على ألسنة الملائكة كما تقدّم في "هود" .

ويأتي أيضاً في "الذاريات" .

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى

فيها سبع عشرة مسألة :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعي ﴾ أي فوهبنا له الغلام ؛ فلما بلغ معه المبلغ الذي يسعى مع أبيه في أمور الدنيا معيناً على أعماله "قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ" .

وقال مجاهد : "فَلَمَا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ" أي شبّ وأدرك سعيُه سعيَ إبراهيم .

وقال الفراء : كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة .

وقال ابن عباس : هو الاحتلام .

قتادة : مشى مع أبيه .

الحسن ومقاتل : هو سعي العقل الذي تقوم به الحجة .

ابن زيد : هو السعي في العبادة .

ابن عباس : صام وصلّى ، ألم تسمع الله عز وجل يقول : ﴿ وسعى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ [ الإسراء : 19 ] .

واختلف العلماء في المأمور بذبحه .

فقال أكثرهم: الذبيح إسحاق.

وممن قال بذلك العباس بن عبد المطلب وابنه عبد اللّه وهو الصحيح عنه.

روى الثوريّ وابن جريج يرفعانه إلى ابن عباس قال: الذبيح إسحاق.

(148/653)

---

وهو الصحيح عن عبد اللّه بن مسعود أن رجلاً قال له: يا بن الأشياخ الكرام.

فقال عبد اللّه: ذلك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح اللّه بن إبراهيم خليل اللّه صلى اللّه عليهم وسلم.

وقد روى حماد بن زيد يرفعه إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: "إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم صلى الله عليه وسلم" وروى أبو الزبير عن جابر قال: الذبيح إسحاق.

وذلك مروي أيضاً عن عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه.

وعن عبد اللّه بن عمر: أن الذبيح إسحاق.

وهو قول عمر رضي اللّه عنه.

فهؤلاء سبعة من الصحابة.

وقال به من التابعين وغيرهم عَلْقَمة والشّعبي ومجاهد وسعيد بن جُبير وكعب الأحبار وقتادة ومسروق وعِكرمة والقاسم بن أبي بَزّة وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط والزهريّ والسديّ وعبد الله بن أبي الهذيل ومالك بن أنس، كلهم قالوا: الذبيح إسحاق. وعليه أهل الكتابين اليهود والنصارى، واختاره غير واحد منهم النحاس والطبري وغيرهما.

قال سعيد بن جبير: أُرِيَ إبراهيمُ ذبح إسحاق في المنام، فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة، حتى أتى به المنحر من مِنىً؛ فلما صرف الله عنه الذبح وأمره أن يذبح الكبش فذبحه، وسار به مسيرة شهر في رَوْحة واحدة طويت له الأودية والجبال.

وهذا القول أقوى في النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين.

وقال آخرون: هو إسماعيل.

وممن قال ذلك أبو هريرة وأبو الطفيل عامر بن واثلة.

وروي ذلك عن ابن عمر وابن عباس أيضاً، ومن التابعين سعيد بن المسيّب والشّعبي ويوسف بن مِهْران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القُرَظيّ والكلبي وعلقمة.

وسئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فأنشد:

إنّ الذبيح هُدِيتَ إسمعيلُ . . .

نَطقَ الكتابُ بذاك والتنزيلُ

شرفٌ به خصّ الإله نبيّنا . . .

وأتى به التفسيرُ والتأويلُ

إن كنت أُمَّتَه فلا تُنْكِرْ لَهُ . . .



---

شرفاً به قد خَصّه التفضيلُ

وعن الأصمعي قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال : يا أصمعي أين عَزَبَ عنك عقلك ! ومتى كان إسحاق بمكة ؟ وإنما كان إسماعيل بمكة ، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الذبيح إسماعيل والأوّل أكثر عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وعن التابعين .

واحتجوا بأن اللّه عز وجل قد أخبر إبراهيم حين فارق قومه ، فهاجر إلى الشام مع امرأته سارّة وابن أخيه لوط فقال : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [ الصافات : 99 ] أنه دعا فقال : "رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ" فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [ مريم : 49 ] ؛ ولأن اللّه قال : "وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ

عَظِيمٍ" فذكر أن الفداء في الغلام الحليم الذي بُشّر به إبراهيم وإنما بُشّر بإسحاق ؛ لأنه قال : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾ ، وقال هنا : "بِغُلامٍ حَلِيمٍ" وذلك قبل أن يتزوّج هاجر وقبل أن يولد له إسماعيل ، وليس في القرآن أنه بُشر بولد إلا إسحاق .

احتج من قال إنه إسماعيل : بأن اللّه تعالى وصفه بالصبر دون إسحاق في قوله تعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الكفل كُلٌّ مِّنَ الصابرين ﴾ [ الأنبياء : 85 ] وهو صبره على الذبح ، ووصفه بصدق الوعد في قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوعد ﴾ [ مريم : 54 ] ؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفّى به ؛ ولأن اللّه تعالى قال : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً ﴾ فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبيًّا ، وأيضاً فإن اللّه تعالى قال : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [ هود : 71 ] فكيف يؤمر بذبح إسحق قبل إنجاز الوعد في يعقوب .

(150/653)

---

وإيضاً ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة ، فدلّ على أن الذبيح إسماعيل ، ولو كان إسحاق لكان الذبح يقع ببيت المقدس .

وهذا الاستدلال كله ليس بقاطع ؛ أما قولهم : كيف يأمره بذبحه وقد وعده بأن يكون نبيّاً ،

فإنه يحتمل أن يكون المعنى : وبشرناه بنبوّته بعد أن كان من أمره ما كان ؛ قاله ابن عباس . وسيأتي .

ولعله أُمِر بذبح إسحاق بعد أن ولد لإسحق يعقوب .

ويقال : لم يرد في القرآن أن يعقوب يولد من إسحق .

وأما قولهم : ولو كان الذبيح إسحق لكان الذبح يقع ببيت المقدس ، فالجواب عنه ما قاله سعيد بن جبير على ما تقدّم .

وقال الزجاج : اللّه أعلم أيهما الذبيح .

وهذا مذهب ثالث .

الثانية قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا بنِي إنِي أرى فِي المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ فانظر مَاذَا ترى ﴾ قال مقاتل : رأى ذلك إبراهيم عليه السلام ثلاث ليال متتابعات .

وقال محمد بن كعب : كانت الرسل يأتيهم الوحي من اللّه تعالى أيقاظاً ورقوداً ، فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم .

وهذا ثابت في الخبر المرفوع ، قال صلى الله عليه وسلم : " إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا " وقال ابن عباس : رؤيا الأنبياء وَحْيٌ واستدل بهذه الآية .

وقال السّدي : لما بُشّرِ إبراهيم بإسحاق قبل أن يولد قال هو إذاً للّه ذبيح .

فقيل له في منامه : قد نذرت نذراً فَفِ بنذرك .

ويقال : إن إبراهيم رأى في ليلة التروية كأن قائلاً يقول : إن اللّه يأمرك بذبح ابنك ؛ فلما أصبح رَوّى في نفسه أي فَكَّر أهذا الحُلْم من اللّه أم من الشيطان ؟ فسمّي يوم التَّرْوية .

فلما كانت الليلة الثانية رأى ذلك أيضاً وقيل له الوعد ، فلما أصبح عرف أن ذلك من اللّه فَسُمِّيَ يوم عرفة .

ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهَمَّ بنحره فسُمِّي يوم النَّحْر .

وروي أنه لما ذبحه قال جبريل : اللّه أكبر اللّه أكبر .

فقال الذبيح : لا إله إلا اللّه واللّه أكبر .

فقال إبراهيم : اللّه أكبر والحمد للّه ؛ فبقي سُنة .

(151/653)

---

وقد اختلف الناس في وقوع هذا الأَمر وهي :

الثالثة فقال أهل السنة : إن نفس الذبح لم يقع ، وإنما وقع الأمر بالذبح قبل أن يقع الذبح ، ولو وقع لم يُتصوَّر رفعه ، فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل ؛ لأنه لو حصل الفراغ من امتثال الأمر بالذبح ما تحقق الفِداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(152/653)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى ﴾

أي مهاجرٌ إلى حيثُ أمرني ربِّي كما قال إنِّي مهاجرٌ إلى ربِّي وهو الشَّامُ أو إلى حيث أتجرَّدُ فيه لعبادته تعالى ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ أي إلى ما فيه صلاحُ ديني أو إلى مقصدي وبت القول بذلك لسبقِ الوعدِ أو لفرط توكّله أو للبناء على عادته تعالى معه ولم يكُن كذلك حالُ موسى عليه السَّلامُ حيث قال : ﴿ عسى رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السبيل ﴾ ولذلك أتى بصيغة التَّوقُّع .

﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصالحين ﴾ أي بعضَ الصَّالحينَ يعينني على الدَّعوةِ والطَّاعةِ ويؤنسني في الغُربةِ يعني الولد لأن لفظَ الهبة على الإطلاقِ خاصٌّ به وإن كان قد وردَ مقيّدًا بالأخوةِ في قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هارون نَبِيّاً ﴾ ولقوله تعالى : ﴿ فبشرناه بغلام حَلِيمٍ ﴾ فإنَّه صريح في أنَّ المبشَّر به عينُ ما استوهبه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ولقد جمع فيه بشاراتٌ ثلاثٌ : بشارةُ أنَّه غلامٌ وأنَّه يبلغ أُوانَ الحُلُم وأنَّه يكونُ حليماً ، وأيُّ حِلْمٍ يُعادل حلمَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حين عرضَ عليه أبوه الذَّبحَ فقال : ﴿ قَالَ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ الله مِنَ الصابرين ﴾ وقيل ما نعتَ اللَّهُ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ

بأقلَّ مِمَّا نعتهم بالحِلْمِ لعزَّةِ وجودِهِ غيرَ إبراهيمَ وابنه فإنَّه تعالى نعتهما به وحالهما المحكيَّةُ بعد أعدلُ بينةٍ بذلك .

(153/653)

---

والفاءُ في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعي ﴾ فصيحةٌ معربة عن مقدَّر قد حُذف تعويلاً على شهادةِ الحال وإيذاناً بعدمِ الحاجة إلى التَّصريح به لاستحالةِ التَّخلُّفِ والتَّأخُّرِ بعد البشارة كما مرَّ في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءاهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ ﴾ أي فوهبناه له فنشأ فلمَّا بلغ رتبةَ أنْ يسعى معه في أشغالهِ وحوائجِهِ . ومعه متعلِّق بمحذوفٍ يُنبىء عنه السَّعيُ لا بنفسِه لأنَّ صلة المصدرِ لا تتقدَّمُه ولا يبلغ لأنَّ بلوغَهما لم يكن معاً كأنَّه لما ذُكر السَّعيُ قيل مع مَن فقيل مَعَه وتخصيصُه لأنَّ الأبَ أكملُ في الرِّفقِ والاستصلاحِ فلا يستسيغه قبل أوانِه أو لأنَّه استوهبه لذلك وكان له يومئذٍ ثلاثَ عشرة سنةً .

﴿ قَالَ ﴾ أي إبراهيمُ عليه السَّلامُ ﴿ قَالَ يا بنى إِنّى أرى فِى المنام أَنّى أَذْبَحُكَ ﴾ أي أرى هذه الصُّورة بعينها أو ما هذه عبارتُه وتأويلُه وقيل إنه رأى ليلةَ التَّرويةِ كأنَّ قائلاً يقول له : إنَّ اللهَ يأمرك بذبحِ ابنِك هذا فلمَّا أصبح رَوَّى في ذلك من الصَّباحِ إلى الرَّواحِ أمنَ اللَّهِ هذا

الحُلُم أم من الشّيطانِ ، فمن ثمة سُمّي يوم التَّرويةِ فلمّا أمسى رأى مثلَ ذلك فعرفَ أنَّه من اللَّهِ تعالى فمن ثمَّة سمِّي يومَ عرفة ثم رأى مثله في اللَّيلةِ الثَّالثةِ فهمَّ بنحرهِ فسمِّي اليوم يومَ النَّحرِ .

(154/653)

---

وقيل إنَّ الملائكةَ حين بشَّرته بغلامٍ حليمٍ قال : إذن هو ذبيح الله فلمّا وُلد وبلغ حدَّ السَّعيِ معه قيل له : أوفِ بنذرك . والأظهرُ الأشهرُ أنَّ المخاطَب إسماعيلُ عليه السّلامُ إذ هُو الذي وُهب إثرَ المُهاجرةِ ولأنَّ البشارة بإسحاق بعده معطوفٌ على البشارةِ بهذا الغلام ولقوله عليه الصّلاة والسَّلامُ : " أنا ابنُ الذَّبيحين " فأحدُهما جدُّه إسماعيلُ عليه السَّلامُ والآخرُ أبوه عبدُ اللَّهِ فإنَّ عبد المطَّلبِ نذر أنْ يذبحَ ولداً أنْ سهَّل الله تعالى له حفرَ بئرِ زمزمٍ أو بلغ بنوه عشرةً فلمَّا حصل ذلك وخرجَ السَّهمُ على عبدِ اللَّهِ فداه بمائةٍ من الإبلِ ولذلك سُنَّت الدِّية مائةً ولأنَّ ذلك كان بمكَّة . وكان قَرْنا الكبشِ معلَّقين بالكعبةِ حتَّى احترقا في أيَّام ابن الزُّبيرِ ولم يكن إسحاق ثُمَّة ولأنَّ بشارة إسحاق كانت مقرونةً بولادةِ يعقوبَ منه فلا يُناسبه الأمرُ بذبحِهِ مُراهقاً . وما رُوي أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلامُ سُئل أيُّ النَّسب أشرفُ ؟ فقال يوسفُ صدِّيقُ اللَّهِ ابنُ يعقوبَ إسرائيلَ اللَّهِ ابنِ إسحاقَ ذبيحِ اللَّهِ ابنِ إبراهيمَ خليلِ اللَّهِ فالصَّحيحُ أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال يوسفُ بنُ إسحاق بن إبراهيم والزَّوائدُ من

الرَّاوي ، وما رُوي من أنَّ يعقوبَ كَتب إلى يوسفَ مثل ذلك لم يثبت : وقُرِئ إِنّيَ بفتح الياءِ فيهما .

(155/653)

---

﴿ فانظر مَاذَا ترى ﴾ من الرَّأيِ وإنَّما شاوره فيه وهو أمرٌ محتومٌ ليعلمَ ما عنده فيما نَزلَ من بلاءِ اللَّهِ تعالى فيُثبِّت قدمَه إنْ جَزِعَ ويأمن عليه إنْ سلَّم وليُوطِّنَ نفسَه عليه فيُهون ويكتسبُ المثوبة عليه بالانقيادِ له قبل نزولِه . وقُرِىء ماذا تُري بضمِّ التَّاءِ وكسرِ الرَّاءِ وبفتحِها مبنياً للمفعولِ ﴿ قَالَ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ ﴾ أي تؤمر بِه فحذف الجارُّ أوّلاً على القاعدةِ المُطَّردةِ ثم حُذف العائدُ إلى الموصولِ بعد انقلابه منصوباً بإيصاله إلى الفعلِ أو حُذفا دفعةً أو افعل أمرك على إضافة المصدر إلى المفعولِ وتسمية المأمورِ به أمراً . وقُرِىء ما تؤمر به ، وصيغة المضارعِ للدّلالةِ على أنّ الأمرَ متعلّقٌ به متوجّهٌ إليه مستمرٌّ إلى حينِ الامتثال به ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاء الله مِنَ الصابرين ﴾ على الذَّبحِ أو على قضاء الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(156/653)

وقال الآلوسي :

﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى ﴾

إلى حيث أمرني أو حيث أتجرد فيه لعبادته عز وجل جعل الذهاب إلى المكان الذي أمره ربه تعالى بالذهاب إليه ذهاباً إليه وكذا الذهاب إلى مكان يعبده تعالى فيه لا أن الكلام بتقدير مضاف ، والمراد بذلك المكام الشام ، وقيل مصر وكأن المراد إظهار اليأس من إيمانهم وكراهة البقاء معهم أي إني مفارقكم ومهاجر منكم إلى ربي ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ إلى ما فيه صلاح ديني أو إلى مقصدي .

والسين لتأكيد الوقوع لأنها في مقابلة لن المؤكد للنفي كما ذكره سيبويه ، وبت عليه السلام القول لسبق وعده تعالى إياه بالهداية لما أمره سبحانه بالذهاب أو لفرط توكله عليه السلام أو للبناء على عادته تعالى معه وإنما لم يقل موسى عليه السلام مثل ذلك بل قال : ﴿ عسى رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السبيل ﴾ [ القصص : 22 ] بصيغة التوقع قيل : لعدم سبق وعد وعدم تقدم عادة واقتضاء مقامه رعاية الأدب معه تعالى بأن لا يقطع عليه سبحانه بأمر قبل وقوعه ، وتقديمه على رعاية فرط التوكل ومقامات الأنبياء متفاوتة وكلها عالية ، وقيل لأن موسى عليه السلام قال ما قال قبل البعثة وإبراهيم عليه السلام قال ذلك بعدها ، وقيل لأن إبراهيم كان بصدد أمر ديني فناسبه الجزم وموسى كان بصدد أمر دنيوي فناسبه عدم

الجزم ، ومن الغريب ما قيل ونحا إليه قتادة أنه لم يكن مراد إبراهيم عليه السلام بقوله : إني الخ الهجرة وإنما أراد بذلك لقاء الله تعالى بعد الإحراق ظاناً إنه يموت في النار إذا ألقى فيها وأراد بقوله : ﴿ سيهديني ﴾ الهداية إلى الجنة ، ويدفع هذا القول دعاؤه بالولد حيث قال :

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100)

(157/653)

---

بعض الصالحين يعينني على الدعوة والطاعة ويؤنسني في الغربة ، والتقدير ولداً من الصالحين وحذف لدلالة الهبة عليه فإنها في القرآن وكلام العرب غلب استعمالها مع العقلاء في الأولاد ، وقوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَخَاهُ هارون نَبِيّاً ﴾ [ مريم : 53 ] من غير الغالب أو المراد فيه هبة نبوته لا هبة ذاته وهو شيء آخر

ولقوله تعالى :

فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101)

فإنه ظاهر في أن ما بشر به عين ما استوهبه مع أن مثله إنما يقال عرفاً في حق الأولاد ، ولقد جمع بهذا القول بشارات أنه ذكر لاختصاص الغلام به وأنه يبلغ أو أن البلوغ بالسن المعروف

فإنه لازم لوصفه بالحليم لأنه لازم لذلك السن بحسب العادة إذ قلما يوجد في الصبيان سعة صدر وحسن صبر وإغضاء في كل أمر ، وجوز أن يكون ذلك مفهوماً من قوله تعالى : ﴿ غُلاَمٌ ﴾ فإنه قد يختص بما بعد البلوغ وإن كان ورد عاماً وعليه العرف كما ذكره الفقهاء وأنه يكون حليماً وأي حلم مثل حلمه عرض عليه أبوه وهو مراهق الذبح فقال : ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاء اللهُ مِنَ الصابرين ﴾ [ الصافات : 102 ] فما ظنك به بعد بلوغه ، وقيل ما نعت الله تعالى نبياً بالحلم لعزة وجوده غير إبراهيم وابنه عليهما السلام ، وحالهما المذكورة فيما بعد تدل على ما ذكر فيهما .

والفاء في قوله تعالى :

(158/653)

---

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعى ﴾ فصيحة تعرب عن مقدر قد حذف تعويلاً على شهادة الحال وإيذاناً بعدم الحاجة إلى التصريح به لاستحالة التخلف أي فوهبناه له ونشأ فلما بلغ رتبة أن يسعى معه في أشغاله وحوائجه ، و﴿ مَّعَ ﴾ ظرف للسعي وهي تدل على معنى الصحبة واستحداثها ، وتعلقها بمحذوف دل عليه المذكور لأن صلة المصدر لا تتقدمه لأنه عند العمل مؤول بأن المصدرية والفعل ومعمول الصلة لا يتقدم على الموصول لأنه كتقدم جزء

الشيء المرتب الأجزاء عليه أو لضعفه عن العمل فيه بحث ، أما أولاً : فلأن التأويل المذكور على المشهور في المصدر المنكر دون المعرف ، وأما ثانياً : فلأنه إذا سلم العموم فليس كل ما أول بشيء حكمه حكم ما أول به ، وأما ثالثاً : فلأن المقدم هنا ظرف وقد اشتهر أنه يغتفر فيه ما لا يغتفر في غيره .

(159/653)

---

وصرحوا بأنه يكفيه رائحة الفعل وبهذا يضعف حديث المنع لضعف العامل عن العمل فالحق أنه لا حاجة في مثل ذلك إلى التقدير معرفاً كان المصدر أو منكراً كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ ﴾ [ النور : 2 ] وهو الذي ارتضاه الرضى وقال به العلامة الثاني ، واختار "صاحب الفرائد" كونها متعلقة بمحذوف وقع حالاً من ﴿ السعى ﴾ أي فلما بلغ السعي حال كون ذلك السعي كائناً معه ، وفيه أن السعي معه معناه اتفاقهما فيه فالصحبة بين الشخصين فيه ، وما قدره يقتضي الصحبة بين السعي وإبراهيم عليه السلام ولا يطابق المقام ، وجوز تعلقه ببلغ ، ورد بأنه يقتضي بلوغهما معاً حد السعي لما سمعت من معنى مع وهو غير صحيح ، وأجيب بأن مع على ذلك لمجرد الصحبة على أن تكون مرادفة عند نحو فلان يتغنى مع السلطان أي عنده ويكون حاصل المعنى بلغ عند أبيه وفي

صحبته متخلقاً بأخلاقه متطبعاً بطباعه ويستدعي ذلك كمال محبة الأب إياه ، ويجوز على هذا أن تتعلق بمحذوف وقع حالاً من فاعل ﴿ بَلَغَ ﴾ ومن مجيء مع لمجرد الصحبة قوله تعالى حكاية عن بلقيس : ﴿ أَسْلَمْتُ مَعَ سليمان لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [ النمل : 44 ] فلتكن فيما نحن فيه مثلها في تلك الآية .

*(160/653)*

---

وتعقب بأن ذاك معنى مجازي والحمل على المجاز هنالك للصارف ولا صارف فيما نحن فيه فليحمل على الحقيقة على أنه لا يتعين هنالك أن تكون لمعية الفاعل لجواز أن يراد أسلمت لله ولرسوله مثلاً ، وتقديم ﴿ مَّعَ ﴾ إشعاراً منها بأنها كانت تظن أنها على دين قبل وأنها مسلمة لله تعالى فيما كانت تعبد من الشمس فدل على أنه إسلام يعتد به من أثر متابعة نبيه لا إسلام كالأول فاسد ، قال "صاحب الكشف" : وهذا معنى صحيح حمل الآية عليه أولى وإن حمل على معية الفاعل لم يكن بد من محذوف نحو مع بلوغ دوعته وإظهار معجزته لأن فرق ما بين المقيد ومطلق الجمع معلوم بالضرورة ، وزعم بعض أنه لا مانع من إرادة الحقيقة واستحداث إسلامهما معاً على معنى أنه عليه السلام وافقها أو لقنها وليس بشيء كما لا يخفى .

وقيل يراد بالسعي على تقدير تعلق مع ببلغ المسعى وهو الجبل المقصود إليه بالمشي وهو تكلف لا يصار إليه.

(161/653)

---

وبالجملة الأولى تعلقها بالسعي، والتخصيص لأن الأب أكمل في الرفق وبالاستصلاح له فلا يستسعيه قبل أو أنه أو لأنه عليه السلام استوهبه لذلك، وفيه على الأول بيان أوانه وأنه في غضاضة عوده كان فيه ما فيه من رصانة العقل ورزانة الحلم حتى أجاب بما أجاب، وعلى الثاني بيان استجابة دعائه عليه السلام وكان للغلام يومئذ ثلاث عشرة سنة والولد أحب ما يكون عند أبيه في سن يقدر فيه على إعانة الأب وقضاء حاجة ولا يقدر فيه على العصيان ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ يحتمل أنه عليه السلام رأى في منامه أنه فعل ذبحه فحمله على ما هو الأغلب في رؤيا الأنبياء عليهم السلام من وقوعها بعينها، ويحتمل أنه رأى ما تأويل ذلك لكن لم يذكره وذكر التأويل كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب في سفينة رأيت في المنام أني ناج من هذه المحنة، وقيل إنه رأى معالجة الذبح ولم ير إنهار الدم فأني أذبحك إني أعالج ذبحك، ويشعر صنيع بعضهم اختيار أنه عليه السلام أتى في المنام فقيل له اذبح ابنك ورؤيا الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة، وفي رواية أنه رأى ليلة

التروية كأن قائلاً يقول إن الله تعالى يأمرك بذبح ابنك فلما أصبح روأ في ذلك وفكر من الصباح إلى الرواح أمن الله تعالى هذا الحلم أم من الشيطان فمن ثم سمي يوم التروية فلما أمسى رأي مثل ذلك فعرف أنه من الله تعالى فمن ثم سمي يوم عرفة ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره فسمي يوم النحر ، وقيل إن الملائكة حين بشرته بغلام حليم قال هو إذن ذبيح الله فلما ولد وبلغ حد السعي معه قيل له أوف بنذرك ، ولعل هذا القول كان في المنام وإلا فما يصنع بقوله : ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ وفي كلام التوراة التي بأيدي اليهود اليوم ما يرمز إلى أن الأمر بالذبح كان ليلاً فإنه بعد أن ذكر قول الله تعالى له عليه السلام خذ ابنك وامض إلى بلد العبادة وأصعده ثم قرباناً على

(162/653)

---

أحد الجبال الذي أعرفك به قيل فأدلج إبراهيم بالغداة الخ فالأمر إما مناماً وإما يقظة لكن وقع تأكيداً لما في المنام إذ لا محيص عن الايمان بما قصه الله تعالى علينا فيما أعجز به الثقلين من القرآن والحزم الجزم بكونه في المنام لا غير إذ لا يعول على ما في أيدي اليهود وليس في الأخبار الصحيحة ما يدل على وقوعه يقظة أيضاً .

ولعل السر في كونه مناماً لا يقظة أن تكون المبادرة إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد

والإخلاص .

وقيل : كان ذلك في المنام دون اليقظة ليدل على أن حالتي الأنبياء يقظة ومناماً سواء في الصدق ، والأول أولى ، والتأكيد لما في تحقق المخبر به من الاستبعاد ، وصيغة المضارع في الموضعين قيل لاستحضار الصورة الماضية لنوع غرابة ، وقيل : في الأول لتكرر الرؤية وفي الثاني للاستحضار المذكور أو لتكرر الذبح حسب تكرر الرؤيا أو للمشاكلة ؛ ومن نظر بعد ظهر له غير ذلك .

﴿ فانظر مَاذَا ترى ﴾ من الرأي ؛ وإنما شاوره في ذلك وهو حتم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله عز وجل فيثبت قدمه إن جزع ويأمن عليه إن سلم وليوطن نفسه عليه فيهون عليه ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى قبل نزوله وليكون سنة في المشاورة ، فقد قيل : لو شاور آدم الملائكة في أكله من الشجرة لما فرط منه ذلك ، وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ مَاذَا ترى ﴾ بضم التاء وكسر الراء خالصة أي ما الذي تريني إياه من الصبر وغيره أو أي شيء تريني على أن ما مبتدأ وذا موصول خبره ومفعولي ترى محذوفان أو ماذا كالشيء الواحد مفعول ثان لترى والمفعول الأول محذوف ، وقرىء ﴿ مَاذَا ترى ﴾ بضم التاء وفتح الراء على البناء للمفعول أي ماذا تريك نفسك من الرأي ، و ﴿ أَنظُرْ ﴾ في جميع القراءات معلقة عن العمل وفي ﴿ مَاذَا ﴾ الاحتمالان فلا تغفل .

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ ﴾ أي الذي تؤمر به فحذف الجار والمجرور دفعة أو حذف الجار أولاً فعدى الفعل بنفسه نحو أمرتك الخير ثم حذف المجرور بعد أن صار منصوباً ثانياً ، والحذف الأول شائع مع الأمر حتى كاد يعد متعدياً بنفسه فكأنه لم يجتمع حذفان أو افعل أمرك على أن ما مصدرية والمراد بالمصدر الحاصل بالمصدر أي المأمور به ، ولا فرق في جواز إرادة ذلك من المصدر بين أن يكون صريحاً وأن يكون مسبوكاً .

وإضافته إلى ضمير إبراهيم إضافة إلى المفعول ولا يخفى بعد هذا الوجه ، وهذا الكلام يقتضي تقدم الأمر وهو غير مذكور فإما أن يكون فهم من كلامه عليه السلام أنه رأى أنه يذبحه مأموراً أو علم أن رؤيا الأنبياء حق وأن مثل ذلك لا يقدمون عليه إلا بأمر ، وصيغة المضارع للإيذان بغرابة ذلك مثلها في كلام إبراهيم على وجه وفيه إشارة إلى أن ما قاله لم يكن إلا عن حلم غير مشوب بجهل بحال المأمور به ، وقيل : للدلالة على أن الأمر متعلق به متوجه إليه مستمر إلى حين الامتثال به ، وقيل : لتكرر الرؤيا ، وقيل : جيء بها لأنه لم يكن بعد أمر وإنما كانت رؤيا الذبح فأخبره بها فعلم لعلمه بمقام أبيه وأنه ممن لا يجد الشيطان سبيلاً بإلقاء الخيالات الباطلة إليه في المنام أنه سيكون ذلك ولا يكون إلا بأمر إلهي فقال له افعل ما تؤمر بعد من الذبح الذي رأيته في منامك ، ولما كان خطاب الأب ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ على سبيل الترحم قال هو ﴿ يا أبت ﴾ على سبيل التوقير والتعظيم ومع ذلك أتى بجواب

حكيم لأنه فوض الأمر حيث استشاره فأجاب بأنه ليس مجازها وإنما الواجب إمضاء الأمر .

(164/653)

---

﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصابرين ﴾ على قضاء الله تعالى ذبحاً كان أو غيره ، وقيل : على الذبح والأول أولى للعموم ويدخل الذبح دخولاً أولياً ، وفي قوله : ﴿ مّنَ الصابرين ﴾ دون صابراً وإن كانت رؤوس الآي تقتضي ذلك من التواضع ما فيه ، قيل ولعله وفق للصبر ببركته مع بركة الاستثناء وموسى عليه السلام لما لم يسلك هذا المسلك من التواضع في قوله : ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ الله صَابِرًا ﴾ [ الكهف : 69 ] حيث لم ينظم نفسه الكريمة في سلك الصابرين بل أخرج الكلام على وجه لا يشعر بوجود صابر سواه لم يتيسر له الصبر مع أنه لم يهمل أمر الاستثناء .

وفيه أيضاً إغراء لأبيه عليه السلام على الصبر لما يعلم من شفقته عليه مع عظم البلاء حيث أشار إلى أن لله تعالى عباداً صابرين وهي زهرة ربيع لا تحمل الفرك . انتهى .

اهـ ﴿روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(165/653)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) ﴾

لما نجا إبراهيم من نارهم صمّم على الخروج من بلده ( أُور الكلدانيين ) .

وهذه أول هجرة في سبيل الله للبعد عن عبادة غير الله .

والتوراة بعد أن طوت سبب أمر الله إياه بالخروج ذكر فيها أنه خرج قاصداً بلاد حَران في أرض كنعان ( وهي بلاد الفينيقيين ) .

والظاهر : أن هذا القول قاله علناً في قومه ليكفوا عن أذاهُ ، وكان الأمم الماضون يُعدّون الجلاء من مقاطع الحقوق ، قال زهير:

وإن الحق مقطعه ثلاث . . .

يَمين أو نِفار أو جَلاء

ولذلك لما أُمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة من مكة لم يتعرض له قريش في بادىء الأمر ثم خافوا أن تنتشر دعوته في الخارج فراموا اللحاق به فحبسهم الله عنه .

ويحتمل أن يكون قال ذلك في أهله الذين يريد أن يخرج بهم معه فمعنى ﴿ ذاهبٌ إلى ربي ﴾ مهاجر إلى حيث أعبد ربّي وحده ولا أعبد آلهة غيره ولا أفتَن في عبادته كما فتنت في بلدهم .

ومراد الله أن يفضي إلى بلوغ مكة ليقيم هنالك أول مسجد لإعلان توحيد الله فسلك به المسالك التي سلكها حتى بلغ به مكة وأودع بها أهلاً ونسلاً ، وأقام بها قبيلة دينُها التوحيد ، وبنى لله معبداً ، وجعل نسله حفظة بيت الله ، ولعلّ الله أطلعه على تلك الغاية بالوحي أو سترها عنه حتى وجد نفسه عندها فلذلك أنطقه بأن ذهابه إلى الله نطقاً عن علم أو عن توفيق .

(166/653)

---

وجملة ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ يجوز أن تكون حالاً وهو الأظهر لأنه أراد إعلام قومه بأنه واثق بربه وأنه لا تردد له في مفارقتهم ، ويجوز أن تكون استئنافاً ؛ فعلى الأول هي حال من اسم الجلالة ، ولا يمنع من جعل الجملة حالاً اقترانها بحرف الاستقبال فإن حرف الاستقبال يدل على أنها حال مقدّرة ، والتقدير : أني ذاهب إلى ربّي مقدّرا ، كما لم يمتنع مجيء الحال معمولاً لعامل مستقبل كما في قوله تعالى : ﴿ سيدخلون جهنم داخرين ﴾ [ غافر : 60 ] وقوله تعالى : ﴿ إن معي ربي سيهدين ﴾ [ الشعراء : 62 ] وقول سعد بن ناشب:

سأغسل عني العار بالسيف جالباً . . .

علي قضاءُ الله ما كان جالباً

وامتناع اقتران جملة الحال بعلامة الاستقبال في الإِثبات أو النفي مذهب بصري ، وهو ناظر إلى غالب أحوال استعمال الحال ، وجوازه مذهب كوفي كما ذكره ابن الأنباري في "الإنصاف" ، والحق في جانب نحاة الكوفة .

وقد تلقّف المذهب البصري معظمُ علماء العربية وتحيّر المحققون منهم في تأييده فلجأوا إلى أن علته استبشاع الجمع بين كون الكلمة حالاً وبين اقترانها بعلامة الاستقبال .

ونُبينُه بأن الحال ما سميت حالاً إلا لأن المراد منها ثبوت وصف في الحال وهذا ينافي اقترانها بعلامة الاستقبال تنافياً في الجملة .

هذا بيان ما وجّه به الرضيّ مذهب البصريين وتبعه التفتازاني في مبحث الحال من شرحه المطوّل على "تلخيص المفتاح" .

وفي مبحث الاستفهام بـ ( هل ) منه .

وقد زيف السيد الجرجاني في "حاشية المطوّل" ذلك التوجيه في مبحث الحال تزييفاً رشيقاً .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ سيهدينِ ﴾ مستأنفة وبذلك أجاب نحاة البصرة عن تمسك نحاة الكوفة بالآية في جواز اقتران الحال بعلَم الاستقبال ، فالاستئناف بياني بياناً لسبب هجرته .

وجملة ﴿ ربّ هب لي من الصالِحِينَ ﴾ بقية قوله فإنه بعد أن أخبر أنه مهاجر استشعر قلة أهله وعقم امرأته وثار ذلك الخاطر في نفسه عند إزماع الرحيل لأن الشعور بقلة الأهل عند مفارقة الأوطان يكون أقوى لأن المرء إذا كان بين قومه كان له بعض السلوّ بوجود قرابته وأصدقائه .

ومما يدل على أنه سأل النسل ما جاء في سفر التكوين ( الاصحاح الخامس عشر ) "وقال أبرام إنك لم تعطني نسلاً وهذا ابن بيتي ( بمعنى مولاه ) وارث لي ( أنهم كانوا إذا مات عن غير نسل ورثه مواليه ) " .

وكان عمر إبراهيم حين خرج من بلاده نحواً من سبعين سنة .

وقال في "الكشاف" : لفظ الهبة غلب في الولد .

لعله يعني أن هذا اللفظ غلب في القرآن في الولد : ولا أحسبه غلب فيه في كلام العرب لأني لم أقف عليه وإن كان قد جاء في الأخ في قوله تعالى : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ [ مريم : 53 ] .

فحذف مفعول الفعل لدلالة الفعل عليه .

ووصفه بأنه من الصالحين لأن نعمة الولد تكون أكمل إذا كان صالحاً فإن صلاح الأبناء قُرة عين للآباء ، ومن صلاحهم برُّهم بوالديهم .

فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101)

الفاء في ﴿ فبشَّرناهُ ﴾ للتعقيب، والبشارة: الإخبار بخير وارد عن قرب أو على بعد؛ فإن كان الله بشّر إبراهيم بأنه يولد له ولد أو يوجد له نسل عقب دعائه كما هو الظاهر وهو صريح في سفر التكوين في الإصحاح الخامس عشر فقد أخبره بأنه استجاب له وأنه يهبه ولداً بعد زمان، فالتعقيب على ظاهره؛ وإن كان الله بشره بغلام بعد ذلك حين حملت منه هاجر جاريته بعد خروجه بمدة طويلة، فالتعقيب نسبي، أي بشرناه حين قدّرنا ذلك أول بشارة بغلام فصار التعقيب آئلاً إلى المبادرة كما يقال: تزوج فولد له؛ وعلى الاحتمالين فالغلام الذي بشر به هو الولد الأول الذي ولد له وهو إسماعيل لا محالة.

والحليم: الموصوف بالحلم وهو اسم يجمع أصالة الرأي ومكارم الأخلاق والرحمة بالمخلوق.

(168/653)

---

قيل: ما نَعَتَ الله الأنبياء بأقلّ مما نعتهم بالحلم.

وهذا الغلام الذي بشر به إبراهيم هو إسماعيل ابنه البكر وهذا غير الغلام الذي بشره به الملائكة الذين أرسلوا إلى قَوم لوط في قوله تعالى: ﴿ قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾ [

الذاريات : 28 ] فذلك وُصف بأنه ﴿ عليم ﴾ .

وهذا وصُف بـ ﴿ حَلِيمٍ ﴾ .

وأيضاً ذلك كانت البشارة به بمحضر سَارَة أمِّه وقد جُعلت هي المبشرة في قوله تعالى :

﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت : يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ﴾ [ هود : 72 ] ، فتلك بشارة كرامة والأُولى بشارة استجابة دعائه ، فلما ولد له إسماعيل تحقق أمل إبراهيم أن يكون له وارث من صلبه .

فالبشارة بإسماعيل لما كانت عقب دعاء إبراهيم أن يهب الله له من الصالحين عطفت هنا بفاء التعقيب ، وبشارته بإسحاق ذكرت في هذه السورة معطوفة بالواو عطف القصة على القصة .

والفاء في ﴿ فلمَّا بلغَ معهُ السَّعي ﴾ فصيحة لأنها مفصحة عن مقدر ، تقديره : فولد له ويفع وبلغ السعي فلما بلغ السعي قال يا بنيّ الخ ، أي بلغ أن يسعى مع أبيه ، أي بلغ سنّ من يمشي مع إبراهيم في شؤونه .

فقوله : ﴿ معه ﴾ متعلق بالسعي والضمير المستتر في ﴿ بلغ ﴾ للغلام ، والضمير المضاف إليه ﴿ معه ﴾ عائد إلى إبراهيم .

و ﴿ السعي ﴾ مفعول ﴿ بلغ ﴾ ولا حجة لمن منع تقدم معمول المصدر عليه ، على أن الظروف يتوسع فيها ما لا يتوسع في غيرها من المعمولات .

وكان عمُر إسماعيل يومئذٍ ثلاث عشرة سنة وحينئذٍ حدّث إبراهيم ابنه بما رآه في المنام ورؤيا الأنبياء وحي وكان أول ما بُدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة ولكن الشريعة لم يوح بها إليه إلا في اليقظة مع رؤية جبريل دون رؤيا المنام ، وإنما كانت الرؤيا وحياً له في غير التشريع مثل الكشف على ما يقع وما أعد له وبعض ما يحل بأمته أو بأصحابه ، فقد رأى في المنام أنه يهاجِر من مكة إلى أرض ذات نخل فلم يهاجر حتى أُذن له في الهجرة كما أخبر بذلك أبا بكر رضي الله عنه ، ورأى بَقراً تُذبح فكان تأويل رؤياه مَن استشهد من المسلمين يوم أحد ، ولقد يُرجَّح قول القائلين من السلف بأن الإِسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقظة وبالجسد على قول القائلين بأنه كان في المنام وبالروح خاصة ، فإن في حديث الإِسراء أن الله فرَض الصلاة في ليلته والصلاة ثاني أركان الإِسلام فهي حقيقة بأن تفرض في أكمل أحوال الوحي للنبيء صلى الله عليه وسلم وهو حال اليقظة فافهم .

وأمر الله إبراهيم بذبح ولده أمراً ابتلاء .

وليس المقصود به التشريع إذ لو كان تشريعاً لما نسخ قبل العمل به لأن ذلك يفيت الحكمة من

التشريع بخلاف أمر الابتلاء .

والمقصود من هذا الابتلاء إظهار عزمه وإثبات علوّ مرتبته في طاعة ربّه فإن الولد عزيز على نفس الوالد ، والولد الوحيد الذي هو أمل الوالد في مستقبله أشدّ عزّة على نفسه لا محالة ، وقد علمتَ أنه سأل ولداً لِيرثه نسله ولا يرثه مواليه ، فبعد أن أقرّ الله عينه بإجابة سؤله وترعرع ولده أمره بأن يذبحه فينعدم نسله ويخيب أمله ويزول أنسه ويتولى بيده إعدام أحب النفوس إليه وذلك أعظم الابتلاء .

فقابَل أمر ربه بالامتثال وحصلت حكمة الله من ابتلائه ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ إنَّ هذا لهو البلاء المبينُ ﴾ [ الصافات : 106 ] .

(170/653)

---

وإنما برز هذا الابتلاء في صورة الوحي المنامي إكراماً لِإبراهيم عن أن يزعج بالأمر بذبح ولده بوحي في اليقظة لأن رُؤَى المنام يعقبها تعبيرها إذ قد تكون مشتملة على رموز خفيّة وفي ذلك تأنيس لنفسه لتلقّي هذا التكليف الشاقّ عليه وهو ذبح ابنه الوحيد .

والفاء في قوله : ﴿ فانظر ماذا ترى ﴾ فاء تفريع ، أو هي فاء الفصيحة ، أي إذا علمت هذا فانظر ماذا ترى .

والنظر هنا نظر العقل لا نظر البصر فحقه أن يتعدّى إلى مفعولين ولكن علّقه الاستفهام عن العمل.

والمعنى: تأمل في الذي تقابل به هذا الأمر، وذلك لأن الأمر لما تعلق بذات الغلام كان للغلام حظ في الامتثال وكان عرض إبراهيم هذا على ابنه عرض اختبار لمقدار طواعيته بإجابة أمر الله في ذاته لتحصل له بالرضى والامتثال مرتبة بذل نفسه في إرضاء الله وهو لا يرجو من ابنه إلا القبول لأنه أعلم بصلاح ابنه وليس إبراهيم مأموراً بذبح ابنه جبراً، بل الأمر بالذبح تعلق بمأمورين: أحدهما بتلقي الوحي، والآخر بتبليغ الرسول إليه، فلو قدر عصيانه لكان حاله في ذلك حال ابن نوح الذي أبى أن يركب السفينة لما دعاه أبوه فاعتُبر كافراً.

وقرأ الجمهور ﴿ ماذا ترى ﴾ بفتح التاء والراء.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء وكسر الراء، أي مَاذا تُريني من امتثال أو عدمه.

وحكى جوابه فقال: ﴿ يأبتِ افعل ما تُؤمرُ ﴾ دون عطف، جرياً على حكاية المقاولات كما تقدم عند قوله تعالى:

﴿ قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ﴾ في سورة [ البقرة: 30 ].

( وابتداء الجواب بالنداء واستحضار المنادى بوصف الأبوة وإضافة الأب إلى ياء المتكلم المعوض عنها التاء المشعر تعويضها بصيغة ترقيق وتحنن.

والتعبير عن الذبح بالموصول وهو ﴿ ما تُؤمَرُ ﴾ دون أن يقول: اذْبَحني، يفيد وحده إيماء إلى السبب الذي جَعل جوابه امتثالاً لذبحه.

وحُذف المتعلق بفعل ﴿ تُؤمرُ ﴾ لظهور تقديره: أي ما تؤمر به.

(171/653)

---

وبقي الفعل كأنه من الأفعال المتعدية، وهذا الحذف يسمى بالحذف والإِيصال، كقول عمرو بن معد يكرب:

أمرتك الخيرَ فافعل ما أمرتَ به . . .

فقد تركتُكَ ذا مال وذا نشَب

وصيغة الأمر في قوله: ﴿ افْعَل ﴾ مستعملة في الإِذن.

وعدل عن أن يقال: اذبحني، إلى ﴿ افعل ما تؤمرُ ﴾ للجمع بين الإِذن وتعليله، أي أذنت لك أن تذبحني لأن الله أمرك بذلك، ففيه تصديق أبيه وامتثال أمر الله فيه.

وجملة ﴿ ستَجِدُني ﴾ هي الجواب لأن الجمل التي قبلها تمهيد للجواب كما علمت فإنه بعد أن حثّه على فعل ما أُمر به وَعَده بالامتثال له وبأنه لا يجزع ولا يهلع بل يكون صابراً، وفي ذلك تخفيف من عبْء ما عسى أن يعرض لأبيه من الحزن لكونه يعامل ولده بما يكره.

وهذا وعد قد وفّى به حين أمكن أباه من رقبته ، وهو الوعد الذي شكره الله عليه في الآية الأخرى في قوله : ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد ﴾ [ مريم : 54 ] ، وقد قرن وعده بـ ﴿ إن شاء الله ﴾ استعانةً على تحقيقه .

وفي قوله : ﴿ مِنَ الصابِرِينَ ﴾ من المبالغة في اتصافه بالصبر ما ليس في الوصف : بصابر ، لأنه يفيد أنه سيجده في عِداد الذين اشتهروا بالصبر وعرفوا به ، ألاَ ترى أن موسى عليه السلام لما وعد الخضر قال : ﴿ ستجدني إن شاء الله صابِراً ﴾ [ الكهف : 69 ] لأنه حُمل على التصبر إجابة لمقترح الخضر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(172/653)

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

فقوله تعالى : (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ) (الصافات : 101) ، وفي الذاريات : (قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) (الذاريات : 28) والمبشر به واحد والقصة واحدة . فللسائل أن يسأل عن موجب إختلاف الصفتين في السورتين ؟

والجواب أن موجب تخصيص الآية الأولى بصفة الحلم ما اقترن بها من قوله تعالى : (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى) (الصافات : 102) ، وجواب أبنه ، عليهما السلام ، بقوله : (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) (الصافات : 102) وأتباعه ذلك تسلية لأبنه وامتثالاً لأمر ربه : ( (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) (الصافات : 102) ، فلما دل جوابه على عظيم حاله) وتلقيه عظيم هذا الأبتلاء بالرضا والصبر التام إمتثالاً لأمر ربه (وإرضاء لأبنه ، كان ذلك مبيناً لجليل حلمه ووفور كماله) في حاله ما وصفه في سنه بالأولية والابتداء . أما آية سورة الذاريات فلم يقع فيها ذكر هذه القصة ، فورد فيها وصفه بالعلم المحرز بجليل نبوته ، ولو ورد في السورتين عكس الوصف الوارد لما ناسب هذه المناسبة الحاصلة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 412.411 ﴾

(173/653)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) ﴾

يقال إنه طلبَ هداية مخصوصة ؛ لأنه كان صاحب هداية ، إذ لو لم تكن له هداية لَمَا ذَهبَ إلى ربِّه . ويحتمل أنه كان صاحبَ هدايةٍ في الحال وطلبَ الهداية في الاستقبال أي زيادةً في الهداية . ويقال طلبَ الهداية على كيفية مراعاة الأدب في الحضور ، ويقال طلبَ الهداية إلى نفسه لأنه فقدَ فيه قلبه ونفسه فقال سيهديني إليَّ لأقومَ بحقِّ عبوديته ؛ فإن المستهلكَ في حقائق الجمع لا يصحُّ منه أداء العبادة إلاَّ بأن يُردَّ إلى حالة التفرقة والتمييز .

ومعنى ﴿ إِلَى رَبِّى ﴾ أي إلى المكان الذي يُعْبدُ فيه ربي .

ويقال أخبر عن إبراهيم أنه قال : ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى ﴾ : فأخْبر عن قوله .

وأخبر عن موسى فقال : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنا ﴾ [ الأعراف : 143 ] ، فأخبر عن صفته لا عن قوله . .

وقال في صفة نبينا صلى الله عليه وسلم : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ . . . ﴾ [ الإسراء : 1 ] . [ فأخبر عن ذاته سبحانه ] .

وفصلٌ بَينَ هذِه المقامات ؛ فإبراهيم كان بعينِ الفرق ، وموسى بعينِ الجمع ؛ ونبينا كان بعين جمع الجمع .

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101)

لّما قال " حليم " نبَّهَ على أنه سيلقى من البلاء ما يحتاج إلى الحلم في تحمله .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ ﴾ إشارة إلى وقت توطين القلب عَلَى الوَلد ، رأى إبراهيم – عليه

السلام – أنه يُؤمرُ بذبح ابنه إسماعيل ليلةَ التروية ، وسميت كذلك لأنه كان يُروّي في ذلك طولَ يومه . هَلْ هُو حقٌّ أم لا ؟ ثم إنه رأى في الليلة التالية مثل ذلك فعرف أن رؤياه حق ، فسمي يوم عرفة .

وكان إسماعيل ابنَ ثلاث عشرة سنة ، ويقال إنه رأى ذلك في النوم ثلاث مرات .

(174/653)

---

أن اذبح ابنك ، فقال لإسماعيل : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ؟ ﴾ فقال إسماعيل : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ : أي لا تحكم فيه بحكم الرؤيا ، فإنها قد تصيب وقد يكون لها تأويل ، فإن كان هذا أمراً فافعل بمقتضاه ، وإن كان له تاويل فتثبت ، فقد يمكنك ذبح ابنك كل وقتٍ لوكن لا يمكنك تلافيه .

ويقال بل قال : أُتركْ حديثَ الرؤيا واحمله عَلَى الأمر ، وأحملْ الأمر عَلَى الوجوب ، ثم احمله عَلَى الفور ولا تُقصّرْ .

ويقال قال له : إن كان يطيب قلبكَ بأن تذبح ابنك لأجل الله فأنا يطيب قلبي أن يذبحنى أبي لأجل الله .

ويقال قال إسماعيل لأبيه : انت خليلَ الله وتنام . . أَلَمْ تعلمْ أن الخليلَ إذا نام عن خليله يُؤْمَرُ

بِذَبْح ابنه ؟ مَالَكَ يا أَبَتِ والنوم ؟

ويقال في القصة : إنه رآه ذات يوم راكباً على فَرَسٍ أشهب فاستحسنه ، ونَظَرَ إليه بقلبه ، فأُمِرَ بذَبْحِه ، فلمَّا أخرجه عن قلبه ، واستسلم لذبحه ظَهَرَ الفداء ، وقيل له كان المقصودُ من هذا فراغَ قلبك عنه .

ويقال في القصة : أَمَرَ إسماعيلُ أباه أن يَشُدَّ يديه ورِجْلَيه لئلا يضطربَ إذا مَسَّهُ أَلمُ الذَّبح فَيُعاتَب ، ثم لمَّا همَّ بذَبْحِه قال : افتحْ القيدَ عني حتى لا يقال لي : أمشدودَ اليد جئتني ؟ وإني لن أتحرك :

ولو بيدِ الحبيب سُقِيتُ سُمّاً . . . لكان السُّمُّ من يدِهِ يطيب

ويقال أيهما كان أشدَّ بلاءً ؟ قيل : إسماعيل ؛ لأنه وَجَد الذَّبحَ من يد أبيه ، ولم يتعوَّد من يده إلاَّ التربية بالجميل ، وكان البلاءُ عليه أشدَّ لأنه لم يتوقع منه ذلك .

ويقال بل كان إبراهيم أشدَّ بلاءً لأنه كان يحتاج أن يذبح ابنه بيده ويعيش بعدَه .

﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ فلم يأتِ إسماعيل بالدعوى بل تأدَّب بلفظ الاستثناء .

ويقال لو قال إسماعيل إمّا لا تَقُلْ : " يا بُنَيَّ " بهذه اللطافة ، وإمّا لا تَقُلْ : ﴿ أَنِّى أَذْبَحُكَ ﴾ فإنَّ الجمعَ بينهما عجيب ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 237 ـ 239 ﴾.

(176/653)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

ويُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والخمسون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/654)

---

الجزء الرابع والخمسون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 103 ﴾ من سورة الصافات

وحتى الآية ﴿ 113 ﴾ من نفس السورة

(4/654)

---

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ

وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وثق منه ، بادر إلى ما أمر به ، ودل على قرب زمنه من زمن هذا القول بالفاء فقال :

﴿ فلما أسلما ﴾ أي ألقيا بالفعل على غاية الإخلاص حين المباشرة بجميع قواهما في يد الأمر ، ولم يكن عند أحد منهما شيء من إباء ولا امتناع ولا حديث نفس في شيء من ذلك ﴿ وتلّه ﴾ أي صرعه إبراهيم عليهما السلام صرعاً جيداً سريعاً مع غاية الرضا منه والمطاوعة من إسماعيل عليه السلام ، ودل على السرعة باللام الواقعة موقع " على " فقال : ﴿ للجبين ﴾ أي أحد شقي الجبهة ، وهي هيئة إضجاع ما يذبح ، وهذا من قولهم : تله - إذا صرعه ، وبه سمي التل من التراب ، وتلك فلاناً في يدك أي دفعته سلماً ، والجبين - قال في الصحاح : فوق الصدغ ، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها .

ولما كان من الواضح أن التقدير جواباً لما عالج ذبحه بعزم أمضى من السنان ، وجنان في ثباته أيما جنان ، فمنعناه من التأثير بقدرتنا ، ورددنا شفرته الماضية عن عنقه اللينة بأيدينا وقوتنا ، عطف عليه قوله : ﴿ وناديناه ﴾ وفخم هذا النداء بحرف التفسير فقال : ﴿ إن يا إبراهيم ﴾ ولما كان محل التوقع الثناء عليه قال : ﴿ قد صدقت ﴾ أي تصديقاً عظيماً

﴿ الرؤيا ﴾ في أنك تذبحه ، فإنك قد عالجت ذلك ، وبذلت الوسع فيه ، وفعلت ما رأيته في المنام ، فما انذبح لأنك لم تر أنك ذبحته ، فاكفف عن معالجة الذبح بأزيد من هذا .

(5/654)

---

ولما كان التقدير : فجزيناك على ذلك لإحسانك فوق ما تحب ، وجعلناك إماماً للمتقين ، ووهبناك لسان صدق في الآخرين ، وجعلنا آلك هم المصطفين ، وملأنا منهم الخافقين ، علله بأن ذلك سنته دائماً قديماً وحديثاً فقال ما يأتي .

ولما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ في همة الذبح وعزمه ، فكانت تلك الهمة التي تقصر عنها رتبها السها والسماك ، والعزمة التي تتضاءل دون عليّ مكانتها وسني عظمتها عوالي الأفلاك ، لا تسكن عن ثورانها ، ولا تبرد عن غليانها وفورانها ، إلا بأمر شديد ، وقول جازم أكيد ، قال مؤكداً تنبيهاً على أن همته قد وصلت إلى هذا حده ، وأن امتثال الأمر أيسر من الكف بعد المباشرة بالنهي : ﴿ إنا كذلك ﴾ أي مثل هذا الجزاء العظيم ﴿ نجزي المحسنين ﴾ .

ولما كان جزاءه عظيماً جداً ، دل على عظمه بأن علل إكرامه به بقوله معجباً ومعظماً مؤكداً تنبيهاً على أنه خارق للعادة : ﴿ إن هذا ﴾ أي الأمر والطاعة فيه ﴿ لهو البلاؤا ﴾

أي الاختبار الذي يحيل ما خولط به كائناً ما كان ﴿ المبين ﴾ أي الظاهر في بابه جداً المظهر لرائيه انه بلاء .

(6/654)

---

ولما قدم ما هو الأهم من نهيه عن علاجه ، ومن البشارة بالجزاء ، ذكر فداءه بما جعله سنة باقية يذكر بها الذكر الجميل على مر الأيام وتعاقب السنين ، ولما كان المفتدى منه من كان الأسير في يده ، وكان إسماعيل في يد إبراهيم عليهما السلام ، وهو يعالج إتلافه ، جعل تعالى نفسه المقدس فادياً لأن الفادي من أعطى الفداء ، وهو ما يدفع لفكاك الأسير ، وجعل إبراهيم عليه السلام مفتدى منه تشريفاً له وإن كان في الحقيقة كالآلة التي لا فعل لها ، والله تعالى هو المفتدى منه حقيقة فقال : ﴿ وفديناه ﴾ أي الذبيح عن إنفاذ ذبحه وإتمامه تشريفاً له ﴿ بذبح ﴾ أي بما ينبغي أن يذبح ويكون موضعاً للذبح ، وهو كبش من الجنة ، قيل : إنه الذي قربه هابيل فتقبله الله منه ﴿ عظيم ﴾ أي في الجثة والقدر والرتبة لأنه مقبول ومستن به ومجعول ديناً إلى آخر الدهر .

ولما كان سبحانه إذا منّ بشيء علم أنه عظيم ، فإذا ذكر الفعل وترك المفعول أراد فخامته وعظمته ، قال : ﴿ وتركنا عليه ﴾ أي على الذبيح شيئاً هو في الحسن بحيث يطول

وصفه.

ولما كان بحيث لا ينسى قال: ﴿في الآخرين﴾ ومن هذا الترك ما تقدم من وصفه بصدق الوعد، لأنه وعد بالصبر على الذبح فصدق.

*(7/654)*

---

ولما عظم الغلام، استأنف تعظيم والده بما يدل مع تشريفه على سلامته بقوله: ﴿سلام على إبراهيم﴾ أي سلامة له ولولده وتسليم وتحية وتكريم في الدارين ولما كان هذا خطاباً لمن بعده عليه السلام وهم كلهم محبون مجلون معظمون مبجلون لم يكن هناك حال يحوج إلى تأكيد فقال: ﴿كذلك﴾ أي مثل هذا الجزاء العظيم ﴿نجزي المحسنين﴾ من غير أن يذكر "أن" المؤكدة، ولما كانت أهل الملل كلها متفقة على حبه، وكان كلهم يدعي اتباعه ورتبة قربه، قال معللاً لجزائه بهذا المدح في سياق التأكيد استعطافاً لهم إلى اتباعه في الإيمان وتكذيباً لمن ينكر أن يكون الإيمان موجباً للإحسان: ﴿إنه من عبادنا﴾ أي الذين يستحقون الإضافة في العبودية والعبادة إلينا ﴿المؤمنين﴾ فلا يطمع أحد عري عن الإيمان في رتبة أتباعه، قال الرازي: الإيمان المطلق الحقيقي شهود جلال الله ووحدانيته والطمأنينة إليه في كل محبوب ومكروه، وترك المشيئة لمشيئته والانقياد لأمره في جميع

أحواله.

ولما أتم قصته في أمر الذبيح، وشرع في ذكر ما جازاه به على ذلك، جعل منه أمر إسحاق عليه السلام فقال: ﴿ وبشرناه ﴾ أي جزاء على صبره في المبادرة إلى امتثال الأمر في إعدام إسماعيل عليه السلام ﴿ بإسحاق ﴾ مولوداً زيادة له بعد ما سلمنا إسماعيل عليه السلام حال كونه ﴿ نبياً ﴾ أي في قضائنا أو بوجوده مقدرة نبوته.

ولما كان هذا اللفظ قد يطلق على المتنبىء، أزال إشكال هذا الاحتمال وإن كان واهياً بقوله: ﴿ من الصالحين ﴾ أي العريقين في رتبة الصلاح ليصلح لأكثر الأوصاف الصالحة.

(8/654)

---

ولما أثنى على إبراهيم عيله السلام بما عالج مما لم يحصل لغيره مثله، وكان من أعظم جزاء الإنسان البركة في ذريته قال: ﴿ وباركنا عليه ﴾ أي على الغلام الحليم وهو الذبيح المحدث عنه الذي جر هذا الكلام كله الحديث عنه، وكان آخر ضمير محقق عاد عليه الهاء في " وفديناه " ثم في " وتركنا عليه في الآخرين " وهذا عندي أولى من إعادة الضمير على إبراهيم عليه السلام لأنه استوفى مدحه، ثم رأيت حمزة الكرماني صنع هكذا وقال: حتى كان محمد - صلى الله عليه وسلم - والعرب من صلبه.

﴿ وعلى إسحاق ﴾ أي أخيه ، قال حمزة الكرماني : حتى كان إسرائيل الله والأسباط من صلبه ، وقال غيره : خرج من صلبه ألف نبي أولهم يعقوب وآخرهم عيسى عليه السلام .

﴿ ومن ذريتهما ﴾ أي الأخوين ولا شك أن هذا أقرب وأقعد من أن يكون الضمير للأب والابن لأن قران الأخوين في الإخبار عن ذريتهما أولى من قران الابن مع أبيه في ذلك ، فيكون الابن حينئذ من جملة المخبر عنه بذرية الأب ﴿ محسن وظالم لنفسه ﴾ حيث وضعها بما سبب عن المعاصي في غير موضعها الذي يحبه ، وهذا مما يهدم أمر الطبائع حيث كان البر يوجد من الفاجر والفاجر يوجد من البر .

ولما كان الإنسان ، وإن اجتهد في الإحسان ، لا بد أن يحتاج إلى الغفران ، لما له من النقصان ، لأن رتبة الإلهية لا تصل إلى القيام بحقها العوائق البشرية ، بين أن الظلم المراد هنا إنما هو التجاوز في الحدود بغاية الشهوة فقال : ﴿ مبين ﴾ وأما غير ذلك فمغفور كما قرر في نحو ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ " ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة " ﴿ وأن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ [ النساء : 31 ] .

قصة ذبح إبراهيم لولده عليهما السلام من التوارة وبيان أنهم بدلوها ، قال مترجمهم : فغرس إبراهيم ببئر سبع غرساً ، وبنى هنالك باسم الرب إله العالمين ، وسكن إبراهيم أرض فلسطين – يعني عند تلك البئر – أياماً كثيرة .

ولما كان من بعد هذه الخطوب امتحن الله إبراهيم ، وقال له : يا إبراهيم ! فقال : لبيك ، فقال له : انطلق بابنك الوحيد إسحاق الذي تحبه إلى أرض الأمورانيين – وفي نسخة : إلى بلدة العبادة – وأصعده إليّ قرباناً على أحد تلك الجبال الذي أقول لك ، فأدلج إبراهيم باكراً فأسرج حماره وانطلق بغلاميه وإسحاق ابنه ، وشق حطباً للقربان ونهض وانطلق إلى الموضع الذي قال الله له ، وفي اليوم الثالث رفع إبراهيم بصره ونظر إلى ذلك الموضع من بعيد فقال لغلاميه : امكثا هاهنا عند الحمار ، وأنا والغلام ننطلق إلى هاهنا نصل ونرجع إليكما ، فأخذ إبراهيم حطب القربان ، وحمله إسحاق ابنه ، وأخذ معه ناراً وسكيناً ، وانطلقا كلاهما جميعاً ، وقال إسحاق لأبيه إبراهيم : يا أبة ، فقال له : لبيك ، فقال له : هذه النار والحطب ، أين حمل القربان ، فقال إبراهيم : الله يعد لنا حملاً للقربان يا بني ، فانطلقا جميعاً حتى انتهيا إلى الموضع الذي قال الله ، فبنى هنالك إبراهيم مذبحاً ونضد عليه الحطب وكتف إسحاق فوضعه في أعلى المذبح على الحطب ، ومد يده إبراهيم فأخذ السكين ليذبح ابنه ، فدعاه ملاك الرب من السماء وقال : يا إبراهيم يا إبراهيم ، فقال : لبيك ! فقال : لا تبسط يدك على الغلام ولا تصنع به شيئاً لأنك قد أظهرت الآن أنك تتقي الله إذا لم

تمنعني ابنك الوحيد ، فمد إبراهيم بصره فإذا كبش معلق في شجرة بقرنيه ، فانطلق إبراهيم فأخذ الكبش فأصعده قرباناً بدل ابنه اسحاق ، فسمى إبراهيم ذلك الموضع " الله يتجلى "كما يقال : الله في هذا الجبل ، الله يتجلى ، فدعا ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال : بي أقسمت ، يقول الرب : بدل ما صنعت هذا الصنيع ولم تمنعني ابنك الوحيد لأباركنك بركة تامة ولأكثرن نسلك مثل كواكب السماء ، ومثل الرمل الذي على شاطئ البحر ويرث زرعك أراضي أعدائي وفي نسخة : أعداءه - ويتبارك بنسلك جميع الشعوب لأنك أطعتني ، فرجع إبراهيم إلى



---

غلاميه وانصرفوا جميعاً إلى بئر السبع وأقام ثمَّ - وفي نسخة : وسكن إبراهيم بئر السبع - انتهى ما عندهم بلفظه فانظر إليه واجمع بينه وبين ما تقدم في البقرة من قصة إسماعيل وإسحاق عليهما السلام تجدهم قد بدلوها بلا شك ، لأن الكلام ينقض بعضه بعضاً ، وذلك أنه قال في هذه القصة " انطلق بابنك الوحيد " وكرر وصفه بالوحيد في غير موضع ، وهذا الوصف إنما يكون حقيقة لإسماعيل عليه السلام وهو دون البلوغ ، وأما إسحاق عليه السلام فلم يكن وحيداً ساعة من الدهر ، بل ولد وإسماعيل عليه السلام ابن ثلاث

عشرة سنة ونيف بشهادة ما عندهم من التوراة ، وقوله في آخر القصة " ويتبارك بنسلك جميع الشعوب " لا يكون في غاية الملاءمة إلا لإسماعيل عليه السلام ، وأما إسحاق عليه السلام فإنما بورك بنسله الأراضي المقدسة فقط ، ولم يتبعهم من غيرهم إلا قليل ، بل كانوا هم في كل قليل يتبعون غيرهم على عبادة أوثانهم بشهادة توراتهم وأسفار أنبيائهم يوشع بن نون ومن بعده عليهم السلام ، وأما نسل إسماعيل عليه السلام فتبعهم على الدين الحق من جميع الأمم ما لا يحصى عدده ولم يتبعوا هم بعد محمد .صلى الله عليه وسلم.أحداً من الأمم على عبادة غير الله - هذا وفي المتقدم في سورة البقرة أن هبة سارة أمتها هاجر.

رضى الله عنه.ا لإبراهيم عليه السلام كان بعد أن سكن كنعان بعشر سنين ، وأن إسماعيل عليه السلام ولد لإبراهيم عليه السلام وهو ابن ست وثمانين سنة ، وأن الله تعالى أمره بالختان وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وأنه في ذلك الوقت بشر بإسحاق عليه السلام ، فختن إسماعيل عليه السلام وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وثم ولد له إسحاق عليه السلام وقد أتى عليه مائة سنة ، ثم قال ما نصه : وصنع إبراهيم يوم فطم إسحاق ابنه مأدبة عظيمة فأبصرت سارة ابن هاجر المصرية المولود لإبراهيم عليه السلام لاعباً ، فقالت لإبراهيم عليه السلام : أخرج هذه الأمة عني ، لأن ابن الأمة لا يرث مع

إسحاق ابني ، فشق هذا الأمر على إبراهيم لمكان ابنه ، فقال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام : لا يشقن عليك حال الصبي وأمتك ، أطع سارة في جميع ما تقول لأن نسلك إنما يذكر بإسحاق ، وابن الأمة أجعله لشعب كثير لأنه من ذريتك ، فغدا إبراهيم عليه السلام باكراً وأخذ خبزاً وإداوة من ماء ، فأعطاها هاجر وحملها الصبي والطعام – إلى آخر ما في البقرة فقوله " إن هاجر طردت بعد فطام إسحاق وابنها تحمل " لا يصح ، وقد تقدم أن عمره يوم فطام إسحاق خمس عشرة سنة ، وتقدم أيضاً أن سارة أمرته بطردها وهي حبلى ، وأنه سلمها لها فطردتها ، وان الملك لقيها فبشرها بإسماعيل ولم يذكر في نسختي – وهي قديمة جداً – شيئاً يدل على رجوعها ، وأما في نسخة عندهم فقال : إن الملك قال لها : ارجعي إلى سيدتك واستكدي تحت يدها – ولم يذكر أنها رجعت ، وقد صح الخبر عندنا بقول نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن إبراهيم عليه السلام وضع هاجر وابنها إسماعيل عليه السلام ، عند البيت الحرام وهو يرضع ، واستمرا هناك إلى أن ماتت هاجر ـ رضى الله عنه ـ ا ، وتزوج إسماعيل عليه السلام وبنى البيت مع أبيه عليهما السلام ، وقوله " لأن نسلك إنما يذكر بإسحاق عليه السلام " غير مطابق للواقع ، فإن شهرة العرب بإبراهيم عليه السلام أن لم تكم أن أكثر من شهرة بني إسحاق بذلك فهي مثلها ، وخبر الله لا يتخلف ، فدل هذا كله أنهم بدلوا القصة وحرفوها ، فلا متمسك فيها لهم ، ودلالتها على

أن الذبيح إسماعيل عليه السلام أولى من دلالتها على غير ذلك لوصفه بالوحيد - والله أعلم كيف كانت القصة قبل التبديل ؟ ومما يدل على ما فهمت من تبديلهم لها ما قال البغوي : قال القرظي يعني محمد بن كعب - : سأل عمر بن عبد العزيز رجلاً كان من علماء اليهود أسلم وحسن إسلامه : أي ابني إبراهيم عليه السلام أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل يا أمير المؤمنين ! إن اليهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن



---

يكون أباكم الذي كان من أمر الله بذبحه ما كان ، ويزعمون أنه أبوهم ، ومن الدليل على أنه إسماعيل عليه السلام أن الله تعالى لما بشر بإسحاق بشر بأنه يولد له يعقوب ، فلا يليق الامتحان به بعد علمه بأنه لا يموت حتى يولد له ، ومن الدليل على ذلك أن قرني الكبش كانا منوطين بالكعبة في أيدي بني إسماعيل عيله السلام إلى أن احترق البيت واحترق القرنان في زمان ابن الزبير والحجاج ، قال الشعبي : رأيت قرني الكبش منوطين بالكعبة ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : والذين نفسي بيده ! لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة ، وقال الأصمعي : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح : إسحاق كان أو إسماعيل ؟ فقال : يا أصيمع ! أين ذهب عقلك ؟ متى كان

إسحاق بمكة ؟ إنما كان إسماعيل بمكة وهو الذي بني البيت مع أبيه – انتهى ما قال البغوي .

(13/654)

---

وفي كتاب الحج من سنن أبي داود أن النبي .صلى الله عليه وسلم. قال لعثمان – وهو الحجبي .رضى الله عنه. : " إني نسيت أن آمرك أن تخمر القرنين فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي " ورواه عبد الرزاق في جامعه ولفظه أن عثمان بن شيبة .رضى الله عنه. قال : إن النبي .صلى الله عليه وسلم. قال له : " إني رأيت قرني الكبش فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل مصلياً " – هكذا قال : عثمان بن شيبة ، ولعله ابن طلحة ، فيكون المتقدم ويكون تسمية أبيه شيبة وهما ، أو يكون شيبة بن عثمان وهو ابن عم الذي عند أبي داود فأنقلب – والله أعلم ، وروى عبد الرزاق أيضاً عن ابن جريج قال : أخبرنا عبد الله بن شيبة بن عثمان ، وسألته هل كان في البيت قرنا كبش ؟ قال : نعم ، كانا فيه ، قلت : أرأيتهما ؟ قال : حسبت ، ولكن أخبرني عبد الله بن بابيه أن قد رآهما ، قال : وغيره قد رآهما فيه ، قال : ويقولون : إنهما قرنا الكبش الذي ذبح إبراهيم عليه السلام ، قال ابن جريج وقالت صفية ابنة شيبة :

كان فيه قرنا الكبش ، قال ابن جريج : وحدثت أن ابن عباس -رضى الله عنهما - قال : كانا فيه .

(14/654)

---

قال : وحدثت عن عجوز قلت : رأيتهما فيه ، ومما يؤيد القول بأنه إسماعيل عليه السلام وصف الله تعالى له بأنه صادق الوعد ، ولا صدق في وعد أعظم من صدقه في وعده بالصبر على الذبح ، وممن قال من بني إسرائيل أنه إسماعيل عليه السلام عبد الله بن سلام -رضى الله عنه- -حكاه عن ابن الجوزي ، وعد القائلين بكل من القولين من الصحابة وغيرهم فقال : إن القائلين بأنه إسحاق : عمر وعلي والعباس وابن مسعود وأبو موسى وأبو هريرة وأنس -رضى الله عنه-م ، وبأنه إسماعيل : ابن عمر ، وأن الرواية اختلفت عن ابن عباس -رضى الله عنهما - ، فروى عنه عكرمة أنه إسحاق ، وعطاء ومجاهد والشعبي وأبو الجوزاء ويوسف بن مهران أنه إسماعيل ، فعلم من هذا رجحان القول بأنه إسماعيل ، لأن ابن عمر وابن عباس -رضى الله عنهما - تأخرا بعد من ذكر من أكابر الصحابة -رضى الله عنه-م أجمعين ، فلولا أنه رجح عندهما ما خالفا أبويهما ، ونقل عكرمة عن ابن عباس بموافقة أبيه لا يقدح في ذلك بل يؤيده لأن الأكثر كما ترى رووا عنه

الثاني، فلولا أنه صح عنده ما رجع عن الأول الذي هو موافق لرأي أبيه، ولأجل ثباته عليه اشتهر عنه - والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 6 صـ 328. 334﴾

(15/654)

---

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة:

الإسرائيليات والموضوعات فى حديث: أنا ابن الذبيحين

ومن ذلك: ما ذكره الزمخشري في كشافه، وتبعه النسفي في تفسيره، وغيرهما، عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ الآيات1 فقد ذكرا في الاستدلال على أن الذبيح: إسماعيل؛ ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أنا ابن الذبيحين" يعني جده الأعلى: إسماعيل، وأباه: عبد الله بن عبد المطلب.

وهذا الحديث لا يثبت عند المحدثين، قال الإمامان: الزيلعي، وابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: لم نجده بهذا اللفظ، وقال الحافظ العراقي: إنه لم يقف عليه، ولا يعرف بهذا اللفظ، وأما حديث الأعرابي الذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم طالبا

العطاء : فقال فيما قال : "فعد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليه" ، فهو حديث حسن ، بل صححه الحاكم ، وقد ورد من طرق عدة يقوي بعضها بعضا2 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات صـ 331 ﴾

---

1 الصافات 101-107 .

2 كشف الخفاء ومزيل الإلباس ج 1 ص 199 .

*(16/654)*

---

فصل

قال الفخر :

ثم إن الله تعالى أخبر عنه بأنه أتى بما أمر به بدليل قوله تعالى : ﴿ وناديناه أَن يا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ وذلك يدل على أنه تعالى إنما أمره في المنام بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح وتلك المقدمات عبارة عن إضجاعه ووضع السكين على حلقه ، والعزم الصحيح على الإتيان بذلك الفعل إن ورد الأمر الثاني : الذبح عبارة عن قطع الحلقوم فلعل إبراهيم عليه السلام قطع الحلقوم إلا أنه كلما قطع جزءاً أعاد الله التأليف إليه ، فلهذا السبب لم يحصل

الموت والوجه الثالث : وهو الذي عليه تعويل القوم أنه تعالى لو أمر شخصاً معيناً بإيقاع فعل معين في وقت معين ، فهذا يدل على أن إيقاع ذلك الفعل في ذلك الوقت حسن ، فإذا أنهاه عنه فذلك النهي يدل على أن إيقاع ذلك الفعل في ذلك الوقت قبيح ، فلو حصل هذا النهي عقيب ذلك الأمر لزم أحد أمرين ، لأنه تعالى إن كان عالماً بحال ذلك الفعل لزم أن يقال إنه أمر بالقبيح أو نهى عن الحسن ، وإن لم يكن عالماً به لزم جهل الله تعالى الحسن ، وإن لم يكن عالماً به لزم جهل الله تعالى وإنه محال ، فهذا تمام الكلام في هذا الباب والجواب : عن الأول أنا قد دللنا على أنه تعالى إنما أمره بالذبح .

أما قوله تعالى : ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ فهذا يدل على أنه اعترف بكون تلك الرؤيا واجب العمل بها ولا يدل على أنه أتى بكل ما رآه في ذلك المنام .

وأما قوله ثانياً كلما قطع إبراهيم عليه السلام جزءاً أعاد الله تعالى التأليف إليه ، فنقول هذا باطل لأن إبراهيم عليه السلام لو أتى بكل ما أمر به لما احتاج إلى الفداء وحيث احتاج إليه علمنا أنه لم يأت بما أمر به .

وأما قوله ثالثاً إنه يلزم ، إما الأمر بالقبيح وإما الجهل ، فنقول هذا بناءً على أن الله تعالى لا يأمر إلا بما يكون حسناً في ذاته ولا ينهى إلا عما يكون قبيحاً في ذاته ، وذلك بناءً على تحسين العقل وتقبيحه وهو باطل ، وأيضاً فهب أنا نسلم ذلك إلا أنا نقول لم لا يجوز أن يقال إن الأمر بالشيء تارة يحسن لكون المأمور به حسناً وتارة لأجل أن ذلك الأمر يفيد صحة مصلحة من المصالح وإن لم يكن المأمور به حسناً ألا ترى أن السيد إذا أراد أن يروض عبده ، فإنه يقول له إذا جاء يوم الجمعة فافعل الفعل الفلاني ، ويكون ذلك الفعل من الأفعال الشاقة ، ويكون مقصود السيد من ذلك الأمر ليس أن يأتي ذلك العبد بذلك الفعل ، بل أن يوطن العبد نفسه على الانقياد والطاعة ، ثم إن السيد إذا علم منه أنه وطن نفسه على الطاعة فقد يزيل الألم عنه ذلك التكليف ، فكذا ههنا ، فما لم تقيموا الدلالة على فساد هذا الاحتمال لم يتم كلامكم .

المسألة الرابعة :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الله تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه ، والدليل عليه أنه أمر بالذبح وما أراد وقوعه ، أما أنه أمر بالذبح فلما تقدم في المسألة الأولى .

وأما أنه ما أراد وقوعه فلأن عندنا أن كل ما أراد الله وقوعه فإنه يقع ، وحيث لم يقع هذا الذبح علمنا أنه تعالى ما أراد وقوعه ، وأما عند المعتزلة فلأن الله تعالى نهى عن ذلك الذبح ، والنهي عن الشيء يدل على أن الناهي لا يريد وقوعه فثبت أنه تعالى أمر بالذبح ، وثبت

أنه تعالى ما أراده ، وذلك يدل على أن الأمر قد يوجد بدون الإرادة ، وتمام الكلام في أن الله تعالى أمر بالذبح ما تقدم في المسألة المتقدمة ، والله أعلم .

المسألة الخامسة :

(18/654)

---

في بيان الحكمة في ورود هذا التكليف في النوم لا في اليقظة وبيانه من وجوه الأول : أن هذا التكليف كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح ، فورد أولاً في النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق ، ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة ، فحينئذٍ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة بل شيئاً فشيئاً الثاني : أن الله تعالى جعل رؤيا الأنبياء عليهم السلام حقاً ، قال الله تعالى في حق محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرؤيا بالحق لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام ﴾ [ الفتح : 27 ] وقال عن يوسف عليه السلام : ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴾ [ يوسف : 4 ] وقال في حق إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّى أرى فِى المنام أَنِّى أَذْبَحُكَ ﴾ [ الصافات : 102 ] والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين ، لأن الحال إما حال يقظة وإما حال منام ، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق ، كان ذلك

هو النهاية في بيان كونهم محقين صادقين في كل الأحوال ، والله أعلم .

ثم نقول مقامات الأنبياء عليهم السلام على ثلاثة أقسام منها ما يقع على وفق الرؤية كما في قوله تعالى في حق رسولنا صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام ﴾ ثم وقع ذلك الشيء بعينه ، ومنها ما يقع على الضد كما في حق إبراهيم عليه السلام فإنه رأى الذبح وكان الحاصل هو الفداء والنجاة ، ومنها ما يقع على ضرب من التأويل والمناسبة كما في رؤيا يوسف عليه السلام ، فلهذا السبب أطبق أهل التعبير على أن المنامات واقعة على هذه الوجوه الثلاثة .

المسألة السادسة :

قرأ حمزة والكسائي : ﴿ ترَى ﴾ بضم التاء وكسر الراء ، أن ما ترى من نفسك من الصبر والتسليم ؟ وقيل ما تشير ، والباقون بفتح التاء ، ثم منهم من يميل ومنهم من لا يميل .

المسألة السابعة :



---

الحكمة في مشاورة الإبن في هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره في طاعة الله فتكون فيه قرة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ في الحلم إلى هذا الحد العظيم ،

وفي الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة والثناء الحسن في الدنيا ، ثم إنه تعالى حكى عن ولد إبراهيم عليه السلام أنه قال : ﴿ افعل مَا تُؤْمَرُ ﴾ ومعناه افعل ما تؤمر به ، فحذف الجار كما حذف من قوله :

أمرتك الخبر فافعل ما أمرت [ به ] . . ثم قال : ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصابرين ﴾ وإنما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتيمن ، وأنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله .

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ يقال سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد ، وقد قرىء بهن جميعاً إذ انقاد له وخضع ، وأصلها من قولك سلم هذا لفلان إذا خلص له ، ومعناه سلم من أن ينازع فيه ، وقولهم سلم لأمر الله وأسلم له منقولان عنه بالهمزة ، وحقيقة معناها أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة ، وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه لله وعن قتادة في أسلما أسلم هذا ابنه وهذا نفسه ، ثم قال تعالى : ﴿ وتله للجبين ﴾ أي صرعه على شقه فوقع أحد جبينيه على الأرض وللوجه جبينان ، والجبهة بينهما ، قال ابن الأعرابي التليل والمتلول المصروع والمتل الذي يتل به أي يصرع ، فالمعنى أنه صرعه على جبينه ، وقال مقاتل كبه على جبهته ، وهذا خطأ لأن الجبين غير الجبهة .

ثم قال تعالى : ﴿ وناديناه أَن يا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ وفيه قولان الأول : أن هذا جواب فلما عند الكوفيين والفراء والواو زائدة والقول الثاني : أن عند البصريين لا يجوز ذلك والجواب مقدر والتقدير : فلما فعل ذلك وناداه الله أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، سعد سعادة عظيمة وآتاه الله نبوة ولده وأجزل له الثواب ، قالوا : وحذف الجواب ليس بغريب في القرآن والفائدة فيه أنه إذا كان محذوفاً كان أعظم وأفخم ، قال المفسرون لما أضجعه للذبح نودي من الجبل : ﴿ يا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ قال المحققون : السبب في هذا التكليف كمال طاعة إبراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذا التكليف الشاق الشديد وظهر منه كمال الطاعة وظهر من ولده كمال الطاعة والانقياد ، لا جرم قال قد صدقت الرؤيا ، يعني حصل المقصود من تلك الرؤيا .

وقوله : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ ابتداء إخبار من الله تعالى ، وليس يتصل بما تقدم من الكلام ، والمعنى أن إبراهيم وولده كانا محسنين في هذه الطاعة ، فكما جزينا هذين المحسنين فكذلك نجزي كل المحسنين .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين ﴾ أي الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم أو المحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ الذبح مصدر ذبحت والذبح أيضاً ما يذبح وهو المراد في هذه الآية ، وههنا مباحث تتعلق بالحكايات فالأول : حكي في قصة الذبيح أن إبراهيم عليه السلام لما أراد ذبحه قال : يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب ، فلما توسطا شعب ثبير أخبره بما أمر به ، فقال : يا أبت اشدد رباطي فيّ كيلا أضطرب ، واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن ، واستحد شفرتك وأسرع إمرارها على حلقي ليكون أهون فإن الموت شديد ، واقرأ على أمي سلامي وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسهل لها ، فقال إبراهيم عليه السلام : نعم العون أنت يا بني على أمر الله ، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان ثم وضع السكين على حلقه فقال : كبني على وجهي فإنك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة وقد تحول بينك وبين أمر الله سبحانه وتعالى ففعل ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت السكين ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا .

البحث الثاني : اختلفوا في ذلك الكبش فقيل إنه الكبش الذي تقرب به هابيل بن آدم إلى الله تعالى فقبله ، وكان في الجنة يرعى حتى فدى الله تعالى به إسماعيل ، وقال آخرون أرسل الله كبشاً من الجنة قد رعى أربعين خريفاً ، وقال السدي : نودي إبراهيم فالتفت فإذا هو بكبش أملح انحط من الجبل ، فقام عنه إبراهيم فأخذه فذبحه ، وخلى عن ابنه ، ثم اعتنق ابنه وقال : يا بني اليوم وهبت لي ، وأما قوله : ﴿ عَظِيمٍ ﴾ فقيل سمي عظيماً لعظمه وسمنه ، وقال سعيد بن جبير حق له أن يكون عظيماً وقد رعى في الجنة أربعين خريفاً ، وقيل سمي عظيماً لعظم قدره حيث قبله الله تعالى فداء عن ولد إبراهيم ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الضمير في قوله : ﴿ إِنَّهُ ﴾ عائد إلى إبراهيم ، ثم قال تعالى : ﴿ وبشرناه بإسحاق نَبِيّاً مِّنَ الصالحين ﴾ فقوله : ﴿ نَبِيّاً ﴾ حال مقدرة أي بشرناه بوجود إسحاق مقدرة نبوته ، ولمن يقول إن الذبيح هو إسماعيل أن يحتج بهذه الآية ، وذلك لأن قوله : ﴿ نَبِيّاً ﴾ حال ولا يجوز أن يكون المعنى فبشرناه بإسحاق حال كون إسحق نبياً لأن البشارة به متقدمة على صيرورته نبياً ، فوجب أن يكون المعنى وبشرناه بإسحاق حال ما قدرناه نبياً ، وحال ما حكمنا عليه فصبر ، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذٍ كانت هذه البشارة بشارة بوجود إسحاق حاصلة بعد قصة الذبيح ، فوجب أن يكون الذبيح غير إسحاق ، أقصى ما في الباب أن يقال لا يبعد أن يقال هذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة

عن قصة الذبيح إلا أنها كانت متقدمة عليها في الوقوع والوجود ، إلا أنا نقول الأصل رعاية الترتيب وعدم التغيير في النظم ، والله أعلم بالصواب .

(23/654)

---

ثم قال تعالى : ﴿ وباركنا عَلَيْهِ وعلى إسحاق ﴾ وفي تفسير هذه البركة وجهان الأول : أنه تعالى أخرج جميع أنبياء بني إسرائيل من صلب إسحاق والثاني : أنه أبقى الثناء الحسن على إبراهيم وإسحاق إلى يوم القيامة ، لأن البركة عبارة عن الدوام والثبات ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وظالم لّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ وفي ذلك تنبيه على أنه لا يلزم من كثرة فضائل الأب فضيلة الابن ، لئلا تصير هذه الشبهة سبباً لمفاخرة اليهود ، ودخل تحت قوله : ﴿ مُحْسِنٌ ﴾ الأنبياء والمؤمنين وتحت قوله : ﴿ ظَالِمٌ ﴾ الكافر والفاسق ، والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 135 . 138 ﴾

(24/654)

---

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) ﴾

قالت فرقة : إن قول إبراهيم ﴿ إني ذاهب ﴾ كان بعد خروجه من النار ، وإنه أشار بذهابه إلى هجرته من أرض بابل حيث كانت مملكة نمرود فخرج إلى الشام ويروى إلى بلاد مصر ، وقالت فرقة : قوله ﴿ إني ذاهب ﴾ ليس مراده به الهجرة كما في آية أخرى وإنما مراده لقاء الله بعد الاحتراق ولأنه ظن أن النار سيموت فيها ، فقال هذه المقالة قبل أن يطرح في النار ، فكأنه قال إني سائر بهذا العمل إلى ربي ، وهو سيهديني إلى الجنة ، نحا إلى هذا المعنى قتادة ، وللعارفين بهذا الذهاب تمسك واحتجاج في الصفاء وهو محمل حسن في ﴿ أني ذاهب ﴾ وحده ، والأول أظهر من نمط الآية بما بعده ، لأن الهداية معه تترتب ، والدعاء في الولد كذلك ، ولا يصح مع ذهاب الفناء ، وقوله ﴿ من الصالحين ﴾ ﴿ من ﴾ للتبعيض أي ولداً يكون في عداد الصالحين ، وقوله ﴿ فبشرناه ﴾ قال كثير من العلماء منهم العباس بن عبد المطلب وقد رفعه وعلي وابن عباس وابن مسعود وكعب وعبيد بن عمرو هي البشارة المعروفة بإسحاق وهو الذبيح وكان أمر ذبحه بالشام ، وقال عطاء ومقاتل ببيت المقدس ، وقال بعضهم بل بالحجاز ، جاء مع أبيه على البراق وقال ابن عباس والبشارة التي بعد هذه في هذه الآية هي بشارة بنبوته كما قال تعالى في موسى ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيّاً ﴾ [ مريم : 53 ] وهو قد كان وهبه له قبل ذلك ، فإنما أراد

النبوءة ، فكذلك هذه ، وقالت هذه الفرقة في قول الأعرابي : يا بن الذبيحين أراد إسحاق والعم أب ، وقيل إنه أمر بذبحه بعدما ولد له يعقوب ، فلم يتعارض الأمر بالذبح مع البشارة بولده وولده ولده ، وقالت فرقة : هذه البشارة هي بإسماعيل وهو الذبيح وأمر ذبحه كان بالحجاز بمنى رمى إبراهيم الشيطان بالجمرات وقبض الكبش حين أفلت له وسن السنن .

(25/654)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول ابن عباس أيضاً وابن عمرو وروي عن الشعبي والحسن ومجاهد ومعاوية بن سفيان ورفعه معاوية إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومحمد بن كعب وبه كان أبي رضي الله عنه يقول ، ويستدل بقول الأعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم : يا بن الذبيحين ، وبقوله صلى الله عليه وسلم " أنا ابن الذبيحين " يعني إسماعيل وعبد الله أباه ، ويستدل بأن بالبشارة اقترنت بأن من ورائه يعقوب ، فلو قيل له في صباه اذبحه لناقض ذلك البشارة بيعقوب ، ويستدل بظاهر هذه الآية أنه بشر بإسماعيل ، وانقضى أمر ذبحه ثم بشر بإسحاق بعد ذلك ، وسمعته رضي الله عنه يقول كان إبراهيم صلى الله عليه وسلم يجيء من الشام إلى مكة على البراق زائراً ويعود من يومه وقد ذكر ذلك الثعلبي عن سعيد بن جبير ولم يذكر إن ذلك على البراق وذكر القصة عن ابن إسحاق ، وفيها ذكر البراق كما

سمعت أبي يحكي وذكر الطبري أن ابن عباس قال : الذبيح إسماعيل ، وتزعم اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود وذكر أيضاً أن عمر بن عبد العزيز سأل رجلاً يهودياً كان أسلم وحسن إسلامه فقال : الذبيح إسماعيل : وإن اليهود تعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب أن تكون هذه الآية والفضل والله في أبيكم .

*(26/654)*

---

و ﴿ السعي ﴾ في هذه الآية العمل والعبادة والمعونة ، هذا قول ابن عباس ومجاهد وابن زيد ، وقال قتادة ﴿ السعي ﴾ على القدم يريد سعياً متمكناً وهذا في المعنى نحو الأول ، وقرأ الضحاك " معه السعي وأسر في نفسه حزناً " قال وهكذا في حرف ابن مسعود وهي قراءة الأعمش ، قوله ﴿ إني أرى في المنام أني أذبحك ﴾ يحتمل أن يكون رأى ذلك بعينه ورؤيا الأنبياء وحي ، وعين له وقت الامتثال ، ويحتمل أن أمر في نومه بذبحه فعبر هو عن ذلك أي ﴿ إني رأيت في المنام ﴾ ما يوجب أن ﴿ أذبحك ﴾ ، وقرأ جمهور الناس " ماذا تَرَى " بفتح والراء ، وقرأ حمزة والكسائي " تُرِي " بضم التاء وكسر الراء ، على معنى ما يظهر منك من جلد أو جزع ، وهي قراءة ابن مسعود والأسود بن يزيد وابن وثاب وطلحة والأعمش ومجاهد ، وقرأ الأعمش والضحاك " تُرَى " بضم التاء وفتح الراء على بناء

الفعل للمفعول ، فأما الأولى فهي من رؤية الرأي ، وهي رؤية تتعدى إلى مفعول واحد ، وهو في هذه الآية إما ﴿ ماذا ﴾ ، بجملتها على أن تجعل " ما " و" ذا " بمنزل اسم واحد ، وإما " ذا " على أن تجعله بمعنى الذي ، وتكون " ما " استفهاماً وتكون الهاء محذوفة من الصلة ، وأما القراءة الثانية فيكون تقدير مفعولها كما مر في هذه ، غير أن الفعل فيها منقول من رأى زيد الشيء وأريته إياه ، إلا أنه من باب أعطيت فيجوز أن يقتصر على أحد المفعولين ، وأما القراءة الثانية فقد ضعفها أبو علي وتتجه على تحامل ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود " افعل ما أمرت به " .

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103)

(27/654)

---

قرأ جمهور الناس " أسلما " أي أنفسهما واستسلما لله تعالى ، وقرأ علي وعبد الله وابن عباس ومجاهد والثوري " سلما " والمعنى فوضا إليه في قضائه وقدره وانحملا على أمره ، فأسلم إبراهيم ابنه وأسلم الابن نفسه واختلف النحاة في جواب ﴿ لما ﴾ ، فقال الكوفيون الجواب ﴿ ناديناه ﴾ ، والواو زائدة ، وقالت فرقة الجواب ﴿ وتله ﴾ والواو زائدة كزيادتها في قوله : ﴿ وفتحت السماء ﴾ [ النبأ : 19 ] وقال البصريون : الجواب

محذوف تقديره " فلما أسلم وتله " ، وهذا قول الخليل وسيبويه ، وهو عندهم كقول امرىء القيس :

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى . . . بنا بطن حقف ذي ركام عقنقل

(28/654)

---

التقدير فلما أجزنا ساحة الحي أجزنا وانتحى ، وقال بعض البصريين : الجواب محذوف وتقديره ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ أجزل أجرهما أو نحو هذا مما يقتضيه المعنى ، ﴿ وتله ﴾ وضعه بقوة ومنه الحديث في القدح ، فتله رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده أي وضعه بقوة ، والتل من الأرض مأخوذ من هذه كأنه تل في ذلك الموضع ، و﴿ للجبين ﴾ معناه لتلك الجهة وعليها وكما يقولون في المثل لليدين والفم وكما تقول سقط لشقه الأيسر ، وقال ساعدة بن جوية " وظل تليلاً للجبين والجبينان ما اكتنف الجبهة من هنا وهنا " ، وروي في قصص هذه الآية أن الذبيح قال لأبيه اشدد رباطي بالحبل لئلا أضطراب واصرف بصرك عني ، لئلا ترحمني ورد وجهي نحو الأرض ، قال قتادة كبه لفيه وأخذ الشفرة ، والتل للجبين ليس يقتضي أن الوجه نحو الأرض بل هي هيئة من ذبح للقبلة على جنبه ، وقوله ﴿ أن يا إبراهيم ﴾ ، ﴿ أن ﴾ مفسرة لا موضع لها من الإعراب وقوله ،

﴿ قد صدقت ﴾ يحتمل أن يريد بقلبك على معنى كانت عندك رؤياك صادقة وحقاً من الله فعملت بحسبها حين آمنت بها واعتقدت صدقها ، ويحتمل أن يريد صدقت بعملك ما حصل عن الرؤيا في نفسك كأنه قال قد وفيتها حقها من العمل ، و ﴿ الرؤيا ﴾ اسم لما يرى من قبل الله تعالى ، والمنام والحلم اسم لما يرى من قبل الشيطان ، ومنه الحديث الصحيح " الرؤيا من الله والحلم من الشيطان " ، وقوله ﴿ إنا كذلك ﴾ إشارة إلى ما عمل إبراهيم ، كأنه يقول إنا بهذا النوع من الإخلاص والطاعة ﴿ نجزي المحسنين ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ إن هذا لهو ﴾ يشير إلى ما في القصة من امتحان واختبار وسير معتقد ، فيكون ﴿ البلاء ﴾ على هذا المعنى الاختبار بالشدة ، ويحتمل أن يشير إلى ما في القصة من سرور بالفدية وإنقاذ من تلك الشدة في إنفاذ الذبح ، فيكون ﴿ البلاء ﴾ بمعنى النعمة .

*(29/654)*

---

قال القاضي أبو محمد : وإلى كل احتمال قد أشارت فرقة من المفسرين ، وفي الحديث أن الله تعالى أوحى إلى إسحاق أني قد أعطيتك فيها ما سألت فسلني فقال يا رب أيما عبد لقيك من الأولين والآخرين لا يشرك بك شيئاً فأدخله الجنة ، والضمير في ﴿ فديناه ﴾ عائد على الذبح ، و" الذبح " اسم لما يذبح ووصفه بالعظم لأنه متقبل يقيناً قاله مجاهد ،

وقال عمر بن عبيد : " الذبح " الكبش و " العظيم " لجري السنة ، وكونه ديناً باقياً آخر الدهر ، وقال الحسن بن الفضل : عظم لأنه كان من عند الله ، وقال أبو بكر الوراق : لأنه لم يكن عن نسل بل عن التكوين ، وروي عن ابن عباس وعن سعيد بن جبير : أن كونه عظيماً هو أنه من كباش الجنة ، رعى فيها أربعين خريفاً ، وقال ابن عباس : هو الكبش الذي قرب ولد آدم ، وقال ابن عباس والحسن : كان وعلاً أُهبط عليه من ثبير ، وقال الجمهور : إنه كبش أبيض أقرن أعين وجده وراءه مربوطاً بسمرة .

قال القاضي أبو محمد : وروي أنه انفلت لإبراهيم فاتبعه ورماه بحصيات في مواضع الجمرات فبذلك مضت السنة ، وقال ابن عباس رجم الشيطان عند جمرة العقبة وغيرها وقد قدم هذا .

قال القاضي أبو محمد : وأهل السنة أن هذه القصة نسخ فيها العزم على الفعل ، والمعتزلة التي تقول إنه لا يصح نسخ إلا بعد وقوع الفعل افترقت في هذه الآية على فرقتين ، فقالت فرقة وقع الذبح والتأم بعد ذلك .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كذب صراح ، وقالت فرقة منهم : بل كان إبراهيم لم ير في منامه إلا أمارة الشفرة فقط ، فظن أنه ذبح فجهز ، فنفذ لذلك فلما وقع الذي رآه وقع النسخ .

قال القاضي أبو محمد : والاختلاف أن إبراهيم عليه السلام أمر الشفرة على حلق ابنه فلم تقطع ، وروي أن صفيحة نحاس اعترضته فحز فيها والله أعلم كيف كان ، فقد كثر الناس في قصص هذه الآية بما صحته معدومة ، فاختصرته ، وقد تقدم تفسير مثل قوله ﴿ وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم ﴾ وقوله ﴿ كذلك نجزي المحسنين ﴾ معناه أي هذا الفعل وباقي الآية بين .

قال القاضي أبو محمد : وما يستغرب في هذه الآية أن عبيد بن عمير قال : ذبح في المقام ، وذكر الطبري عن جماعة لم يسمها أنها قالت : كان الأمر وإذاعة الذبح والقصة كلها بالشام ، وقال الجمهور : ذبح بمنى ، وقال الشعبي : رأيت قرني كبش إبراهيم معلقة في الكعبة .

وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112)

من قال إن الذبيح هو إسماعيل جعل هذه البشارة بولادة إسحاق وهي البشارة المترددة في غير ما سورة ، ومن جعل الذبيح إسحاق جعل هذه البشارة بنفس النبوءة فقط ، وقوله تعالى ﴿ وظالم لنفسه ﴾ توعد لمن كفر من اليهود بمحمد صلى الله عليه وسلم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيآ ﴾ : أي حققت ما نبهناك عليه ، وفعلت ما أمكنك ثم امتنعت لما منعناك .

هذا أصح ما قيل به في هذا الباب .

وقالت طائفة : ليس هذا مما ينسخ بوجه ؛ لأن معنى ذبحت الشيء قطعته .

واستدل على هذا بقول مجاهد : قال إسحاق لإبراهيم لا تنظر إليّ فترحمني ، ولكن اجعل وجهي إلى الأرض ؛ فأخذ إبراهيم السكين فأَمَرَّها على حلقه فانقلبت .

فقال له مالَكَ ؟ قال : انقلبت السكين .

قال اطعني بها طعناً .

وقال بعضهم : كان كلما قطع جزءاً التأم .

وقالت طائفة : وجد حَلقه نحاساً أو مغشًّى بنحاس ، وكان كلما أراد قطعاً وجد منعاً .

وهذا كله جائز في القدرة الإلّهية ، لكنه يفتقر إلى نقل صحيح ، فإنه أمْر لا يدرك بالنظر وإنما طريقه الخبر .

ولو كان قد جرى ذلك لبيَّنه اللّه تعالى تعظيماً لرتبة إسماعيل وإبراهيم صلوات اللّه عليهما ، وكان أولى بالبيان من الفِداء .

وقال بعضهم: إن إبراهيم ما أُمر بالذبح الحقيقي الذي هو فَرْي الأوداج وإنهار الدم، وإنما رأى أنه أضجعه للذبح فتوهم أنه أمر بالذبح الحقيقي، فلما أتى بما أمر به من الإضجاع قيل له: "قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا" وهذا كله خارج عن المفهوم.

ولا يظن بالخليل والذبيح أن يفهما من هذا الأمر ما ليس له حقيقة حتى يكون منهما التوهم.

وأيضاً لو صحت هذه الأشياء لما احتيج إلى الفداء.

الرابعة قوله تعالى: ﴿ فانظر مَاذَا ترى ﴾ قرأ أهل الكوفة غير عاصم "مَاذَا تُرِي" بضم التاء وكسر الراء من أرِي يُرِي.

قال الفرّاء: أي فانظر ماذا ترى من صبرك وجزعك.

قال الزجاج: لم يقل هذا أحد غيره، وإنما قال العلماء ماذا تشير؛ أي ما تريك نفسك من الرأي.

وأنكر أبو عبيد: "تُرِي" وقال: إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة.

وكذلك قال أبو حاتم.

النحاس : وهذا غلط ، وهذا يكون من رؤية العين وغيرها وهو مشهور ، يقال : أريت فلاناً الصواب ، وأريته رشده ، وهذا ليس من رؤية العين.

الباقون "تَرَى" مضارع رأيت.

وقد روي عن الضحاك والأعمش "تُرَى" غير مسمى الفاعل.

ولم يقل له ذلك على وجه المؤامرة في أمر اللّه ، وإنما شاوره ليعلم صبره لأمر اللّه ؛ أو لتقرّ عينه إذا رأى من ابنه طاعة في أمر اللّه ف ﴿ قَالَ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ ﴾ أي ما تؤمر به فحذف الجار كما حذف من قوله :

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعل مَا أُمِرتَ بِهِ . . .

فوصل الفعل إلى الضمير فصار تؤمره ثم حذفت الهاء ؛ كقوله : ﴿ وَسَلاَمٌ على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾ [ النمل : 59 ] أي اصطفاهم على ما تقدّم.

و"ما" بمعنى الذي.

﴿ ستجدني إِن شَآءَ الله مِنَ الصابرين ﴾ قال بعض أهل الإشارة : لما استثنى وفقه اللّه للصبر.

وقد مضى الكلام في "يا أَبتِ" وكذلك في "يا بُنَيّ" في "يوسف" وغيرها.

الخامسة قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ أي انقادا لأمر اللّهِ.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس وعليّ رضوان اللّه عليهم "فَلَمَّا سَلَّمَا" أي فوّضا أمرهما إلى

الله.

وقال ابن عباس: استسلما.

وقال قتادة: أسلم أحدهما نفسه لله عز وجل وأسلم الآخر ابنه.

﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ قال قتادة: كبّه وحوّل وجهه إلى القبلة.

وجواب "لما" محذوف عند البصريين تقديره "فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلجَبِينِ" فديناه بكبش.

وقال الكوفيون: الجواب "نَادَيْنَاهُ" والواو زائدة مقحمة؛ كقوله: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وأجمعوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الجب وَأَوْحَيْنَا ﴾ [يوسف: 15] أي أوحينا.

وقوله: ﴿ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ واقترب ﴾ [الأنبياء: 96] أي اقترب.

وقوله: ﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ ﴾ [الزمر: 73] أي قال لهم.

وقال امرؤ القيس:

*(33/654)*

---

فلمّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وانتحى . . .

أي انتحى، والواو زائدة.

وقال أيضاً:

حتّى إذا حَمَلتْ بُطُونُكُمُ . . .

ورأيتُم أبناءَكم شَبُّوا

وَقَلَبْتُمُ ظهرَ المِجنّ لنا . . .

إن اللّئِيمَ الفاجِرَ الخِبُّ

أراد قلبتم .

النحاس : والواو من حروف المعاني لا يجوز أن تزاد .

وفي الخبر : إن الذبيح قال لإبراهيم عليه السلام حين أراد ذبحه : يا ابت اشدد رباطي حتى لا أضطرب ، واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن ، وأسرعْ مَرَّ السكين على حَلْقي ليكون الموت أهون عليّ واقذفني للوجه ؛ لئلا تنظر إلى وجهي فترحمني ، ولئلا أنظر إلى الشفرة فأجزع ، وإذا أتيت إلى أمي فأقرئها مني السلام .

فلما جرَّ إبراهيم عليه السلام السكين ضرب الله عليه صفيحة من نحاس ، فلم تعمل السكين شيئاً ، ثم ضرب به على جبينه وحزَّ في قفاه فلم تعمل السكين شيئاً ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ كذلك قال ابن عباس : معناه كبه على وجهه فنودي "يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا" فالتفت فإذا بكبش ؛ ذكره المهدوي .

وقد تقدّمت الإشارة إلى عدم صحته ، وأن المعنى لما اعتقد الوجوب وتهيأ للعمل ؛ هذا بهيئة الذبح ، وهذا بصورة المذبوح ، أعطيا محلاًّ للذبح فِداء ولم يكن هناك مرّ سكين .

وعلى هذا يتصوّر النسخ قبل الفعل على ما تقدّم.

واللّه أعلم.

قال الجوهري: "وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ" أي صرعه؛ كما تقول: كَبّه لوجهه.

الهروي: والتَّلُّ الدفع والصرع؛ ومنه حديث أبي الدرداء رضي اللّه عنه: "وتركوك لِمَتَلّك" أي لمصرعك.

وفي حديث آخر: "فجاء بناقة كَوْمَاء فَتَلَّها" أي أناخها.

وفي الحديث: "بينا أنا نائم أُتِيت بمفاتيح خزائن الأرض فتُلَّت في يدي" قال ابن الأنباري: أي فألقيت في يدي؛ يقال: تَلَلْت الرجل إذا ألقيته.

(34/654)

---

قال ابن الأعرابي: فصبّت في يدي؛ والتَّلُّ الصبّ؛ يقال: تلّ يتُلُّ إذا صبّ، وتَلّ يَتِلّ بالكسر إذا سقط.

قلت: وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد الساعدي "أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ؛ فقال للغلام: "أتأذن لي أن أعطي هؤلاء" فقال الغلام: لا واللّه، لا أوثر بنصيبي منك أحداً.

قال : فتلَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده " ؛ يريد جعله في يده .

وقال بعض أهل الإشارة : إن إبراهيم ادعى محبة اللّه ، ثم نظر إلى الولد بالمحبة ، فلم يرض حبيبه محبة مشتركة ؛ فقيل له : يا إبراهيم اذبح ولدك في مرضاتي ، فشمَّر وأخذ السكين وأضجع ولده ، ثم قال : اللهم تقبله مني في مرضاتك .

فأوحى اللّه إليه : يا إبراهيم لم يكن المراد ذبح الولد ، وإنما المراد أن تردّ قلبك إلينا ، فلما رددت قلبك لكُلِّيَّتِه إلينا رددنا ولدك إليك .

وقال كعب وغيره : لما أري إبراهيم ذبح ولده في منامه ، قال الشيطان : واللّه لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحداً أبداً .

فتمثل الشيطان لهم في صورة الرجل ، ثم أتى أم الغلام وقال : أتدرين أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت لا .

قال : إنه يذهب به ليذبحه .

قالت : كلا هو أرأف به من ذلك .

فقال : إنه يزعم أن ربه أمره بذلك .

قالت : فإن كان ربه قد أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه .

ثم أتى الغلام فقال : أتدري أين يذهب بك أبوك ؟ قال : لا .

قال : فإنه يذهب بك ليذبحك .

قال ولم؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك .

قال : فليفعل ما أمره اللّه به ، سمعاً وطاعة لأمر اللّه .

ثم جاء إبراهيم فقال : أين تريد ؟ واللّه إني لأظن أن الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك .

فعرفه إبراهيم فقال : إليك عني يا عدوّ اللّه ؛ فواللّه لأمضين لأمر ربي .

فلم يصب الملعون منهم شيئاً .



---

وقال ابن عباس : لما أمر إبراهيم بذبح ابنه عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حَصَيَات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الأخرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى إبراهيم لأمر اللّه تعالى .

واختلف في الموضع الذي أراد ذبحه ( فيه ) فقيل : بمكة في المقام .

وقيل : في المنحر بمنى عند الجمار التى رمى بها إبليس لعنه اللّه ؛ قاله ابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب وسعيد بن المسيّب .

وحكي عن سعيد بن جُبير : أنه ذبحه على الصخرة التي بأصل ثَبِير بِمنىً .

وقال ابن جريج : ذبحه بالشام وهو من بيت المقدس على ميلين .

والأول أكثر ؛ فإنه ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة ، فدل على أنه ذبحه بمكة .

وقال ابن عباس : فوالذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام ، وإن رأس الكبش لمعلّق بقرنيه من ميزاب الكعبة وقد يبس .

أجاب من قال بأن الذبح وقع بالشام : لعل الرأس حمل من الشام إلى مكة .

واللّه أعلم .

السادسة قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ أي نجزيهم بالخلاص من الشدائد في الدنيا والآخرة .

﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين ﴾ أي النعمة الظاهرة ؛ يقال : أبلاه اللّه إبْلاءً وبَلاَءً إذا أنعم عليه .

وقد يقال بَلاهُ .

قال زهير :

فأَبْلاهما خَيْرَ البلاءِ الذي يَبْلو . . .

فزعم قوم أنه جاء باللغتين .

وقال آخرون : بل الثاني من بَلاهُ يَبْلُوهُ إذا اختبره ، ولا يقال من الاختبار إلا بَلاه يَبْلوه ، ولا

يقال من الابتلاء يبلوه.

وأصل هذا كله من الاختبار أن يكون بالخير والشر؛ قال اللّه عز وجل: ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: 35].

وقال أبو زيد: هذا من البلاء الذي نزل به في أن يذبح ابنه؛ قال: وهذا من البلاء المكروه.

السابعة قوله تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ الذِّبح اسم المذبوح وجمعه ذبوح، كالطحن اسم المطحون.

(36/654)

---

والذَّبح بالفتح المصدر.

"عظِيمٍ" أي عظيم القدر ولم يرِد عظيم الجثة، وإنما عظم قدره لأنه فدى به الذبيح؛ أو لأنه متقبَّل.

قال النحاس: عظيم في اللغة يكون للكبير وللشريف.

وأهل التفسير على أنه هاهنا للشريف، أو المتقَّبل.

وقال ابن عباس: هو الكبش الذي تقرّب به هابيل، وكان في الجنة يرعى حتى فدى اللّه به إسماعيل.

وعنه أيضاً : أنه كبش أرسله اللّه من الجنة كان قد رعى في الجنة أربعين خريفاً .

وقال الحسن : ما فدِي إسماعيل إلا بتيس من الأَرْوَى هبط عليه من ثبِير ، فذبحه إبراهيم فداء عن ابنه ، وهذا قول علي رضي اللّه عنه .

فلما رآه إبراهيم أخذه فذبحه وأعتق ابنه .

وقال : يا بني اليوم وُهِبت لي .

وقال أبو إسحاق الزجاج : قد قيل إنه فَدِي بوَعْل ، والوَعْل : التيس الجبلي .

وأهل التفسير على أنه فُدِي بكبش .

الثامنة في هذه الآية دليل على أن الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر .

وهذا مذهب مالك وأصحابه .

قالوا : أفضل الضحايا الفحول من الضأن ، وإناث الضأن أفضل من فحل المعز ، وفحول المعز خير من إناثها ، وإناث المعز خير من الإبل والبقر .

وحجتهم قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ أي ضخم الجثة سمين ، وذلك كبش لا جمل ولا بقرة .

وروى مجاهد وغيره عن ابن عباس أنه سأله رجل : إني نذرت أن أنحر ابني ؟ فقال : يجزيك كبش سمين ، ثم قرأ "وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ" .

وقال بعضهم : لو علم اللّه حيواناً أفضل من الكبش لفدى به إسحق .

وضحّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين .

وأكثر ما ضحّى به الكباش .

وذكر ابن أبي شيبة عن ابن عُلَيَّة عن الليث عن مجاهد قال : الذِّبح العظيم الشاة .

التاسعة واختلفوا أيما أفضل : الأضحية أو الصدقة بثمنها .

فقال مالك وأصحابه : الضحية أفضل إلا بمنىً ؛ لأنه ليس موضع الأضحية ؛ حكاه أبو عمر .

(37/654)

---

وقال ابن المنذر : روينا عن بلال أنه قال : ما أبالي ألا أضحي إلا بديك ولأن أضعه في يتيم قد تَرِب فيه هكذا قال المحدث أحب إليّ من أن أضحي به .

وهذا قول الشعبي إن الصدقة أفضل .

وبه قال مالك وأبو ثور .

وفيه قول ثانٍ : إن الضحية أفضل ؛ هذا قول ربيعة وأبي الزناد .

وبه قال أصحاب الرأي .

زاد أبو عمر وأحمد بن حنبل قالوا : الضحية أفضل من الصدقة ؛ لأن الضحية سنة مؤكدة

كصلاة العيد .

ومعلوم أن صلاة العيد أفضل من سائر النوافل .

وكذلك صلوات السنن أفضل من التطوّع كله .

قال أبو عمر : وقد روي في فضل الضحايا آثار حسان ؛ فمنها ما رواه سعيد بن داود بن أبي زنْبَر عن مالك عن ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من نفقة بعد صلة الرحم أفضل عند اللّه من إهراق الدم " قال أبو عمر : وهو حديث غريب من حديث مالك .

وعن عائشة قالت : يا أيها الناس ضحُّوا وطِيبوا أنفساً ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من عبد توجّه بأضحيته إلى القبلة إلا كان دمها وقرنها وصوفها حسنات محضراتٍ في ميزانه يوم القيامة فإن الدم إن وقع في التراب فإنما يقع في حِرْز اللّه حتى يوفيه صاحبه يوم القيامة " ذكره أبو عمر في كتاب التمهيد .

وخرجه الترمذي أيضاً عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" ما عمِل آدميٌّ من عملٍ يوم النحرِ أحبّ إلى اللّه من إهراق الدم إنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها ، وإنّ الدم ليقعُ من اللّه بمكانٍ قبل أن يقع إلى الأرض فطِيبوا بها نفساً " قال : وفي الباب عن عِمْران بن حُصَين وزيد بن أَرْقَم .

وهذا حديث حسن .

العاشرة إن الضحية ليست بواجبة ولكنها سنّة ومعروف .

وقال عكرمة : كان ابن عباس يبعثني يوم الأضحى بدرهمين أشتري له لحماً ، ويقول : من لقيتَ فقل هذه أضحية ابن عباس .

(38/654)

---

قال أبو عمر : ومحمل هذا وما روي عن أبي بكر وعمر أنهما لا يضحيان عند أهل العلم ؛ لئلا يعتقد في المواظبة عليها أنها واجبة فرض ، وكانوا أئمة يقتدي بهم من بعدهم ممن ينظر في دينه إليهم ؛ لأنهم الواسطة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أمته ، فساغ لهم من الاجتهاد في ذلك ما لا يسوغ اليوم لغيرهم .

وقد حكى الطحاوي في مختصره : وقال أبو حنيفة : الأضحية واجبة على المقيمين الواجدين من أهل الأمصار ، ولا تجب على المسافر .

قال : ويجب على الرجل من الأضحية على ولده الصغير مثل الذي يجب عليه عن نفسه .

وخالفه أبو يوسف ومحمد فقالا : ليست بواجبة ولكنها سنة غير مرخص لمن وجد السبيل إليها في تركها .

قال : وبه نأخذ .

قال أبو عمر : وهذا قول مالك ؛ قال : لا ينبغي لأحد تركها مسافراً كان أو مقيماً ، فإن تركها فبئس ما صنع إلا أن يكون له عذر إلا الحاج بمنىً .

وقال الإمام الشافعي : هي سنة على جميع الناس وعلى الحاج بمنىً وليست بواجبة .

وقد احتج من أوجبها بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أبا بُرْدة بن نِيَار أن يعيد ضحية أخرى ؛ لأن ما لم يكن فرضاً لا يؤمر فيه بالإعادة .

احتج آخرون بحديث أمّ سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا دخل العشر وأراد أحدكم أن يضحي " قالوا : فلو كان ذلك واجباً لم يجعل ذلك إلى إرادة المضحِّي .

وهو قول أبي بكر وعمر وأبي مسعود البدريّ وبلال .

الحادية عشرة والذي يضحى به بإجماع المسلمين الأزواج الثمانية : وهي الضأن والمعز والإبل والبقر .

قال ابن المنذر : وقد حكي عن الحسن بن صالح أنه قال : يضحى ببقرة الوحش عن سبعة ، وبالظبي عن رجل .

وقال الإمام الشافعي : لو نزا ثور وحشي على بقرة إنسيّة ، أو ثور أنسي على بقرة وحشية لا يجوز شيء من هذا أضحية .

وقال أصحاب الرأي : جائز ؛ لأن ولدها بمنزلة أمه .

وقال أبو ثور : يجوز إذا كان منسوباً إلى الأنعام .

الثانية عشرة قد مضى في سورة "الحج" الكلام في وقت الذبح والأكل من الأضحية مستوفى.

وفي صحيح مسلم عن أنس قال:

" ضحى النبي صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمّى وكبّر ووضع رجله على صِفَاحهما " وفي رواية قال: " ويقول بسم اللّه واللّه أكبر " وقد مضى في آخر "الأنعام" حديث عِمران بن حُصَين، ومضى في "المائدة" القول في التذكية وبيانها وما يُذَكَّى به، وأن ذكاة الجنين ذكاة أمّه مستوفىً.

وفي صحيح مسلم عن عائشة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمر بكبش أقرن يطأ في سواد ويبرك في سواد وينظر في سواد فأتى به ليضحي به" فقال لها: "يا عائشة هَلُمِّي المدية" ثم قال: "اشحذيها بحجر" ففعلت، ثم أخذها وأخذ الكبش فأضجعه ثم ذبحه، ثم قال: "بسم اللّه اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد" ثم ضحى به " وقد اختلف العلماء في هذا فكان الحسن البصري يقول في الأضحية: بسم اللّه واللّه أكبر هذا منك ولك تقبل من فلان.

وقال مالك : إن فعل ذلك فحسن ، وإن لم يفعل وسمى اللّه أجزأه .

وقال الشافعي : والتسمية على الذبيحة بسم اللّه ، فإن زاد بعد ذلك شيئاً من ذكر اللّه ، أو صلّى على محمد عليه السلام لم أكرهه ، أو قال اللهم تقبل مني ، أو قال تقبل من فلان فلا بأس .

وقال النعمان : يكره أن يذكر مع اسم اللّه غيره ؛ يكره أن يقول : اللهم تقبل من فلان عند الذبح .

وقال : لا بأس إذا كان قبل التسمية وقبل أن يضجع للذبح .

وحديث عائشة يردّ هذا القول .

وقد تقدم أن إبراهيم عليه السلام قال لما أراد ذبح ابنه : اللّه أكبر والحمد للّه .

فبقي سنة .

(40/654)

---

الثالثة عشرة روى البَرَاء بن عازِب "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : ماذا يُتّقَى من الضحايا ؟ فأشار بيده وقال : "أربعاً وكان البراء يشير بيده ويقول يدي أقصر من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم العرجاء البيّن ظَلَعُها والعوراء البيِّن عَوَرُها والمريضة البيّن

مرضُها والعجفاء التي لا تُنْقى " لفظ مالك ولا خلاف فيه .

واختلف في اليسير من ذلك .

وفي الترمذيّ عن عليّ رضي اللّه عنه قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستَشرِف العين والأذن وألاّ نضحّي بمقابلة ولا مُدابَرة ولا شَرْقاء ولا خَرْقاء .

قال : والمقابلة ما قطع طرف أذنها ، والمدابَرة ما قطِع من جانب الأذن ، والشَّرقاء المشقوقة ، والخرقاء المثقوبة ؛ قال هذا حديث حسن صحيح .

وفي الموطإ عن نافع : أن عبد اللّه بن عمر كان يَتَّقي من الضحايا والبدن التي لم تُسْنن والتي نقص من خَلْقها .

قال مالك : وهذا أحبّ ما سمعت إلي .

قال القتبي : لم تُسنن أي لم تنبت أسنانها كأنها لم تُعَط أسناناً .

وهذا كما يقال : فلان لم يُلْبَن أي لم يُعط لبناً ، ولم يُسمَن أي لم يعط سمناً ، ولم يعُسَل أي لم يُعَط عسلاً .

وهذا مثل النهي في الأضاحي عن الهتماء .

قال أبو عمر : ولا بأس أن يضحي عند مالك بالشاة الهتماء إذا كان سقوط أسنانها من الكبر والهرم وكانت سمينة ؛ فإن كانت ساقطة الأسنان وهي فتية لم يجز أن يضحي بها ؛ لأنه عيب غير خفيف .

والنقصان كله مكروه ، وشرحه وتفصيله في كتب الفقه .

وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم .

" استشرقوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم " ذكره الزمخشري .

الرابعة عشرة ودلّت الآية على أن من نذر نحر ابنه أو ذبحه أنه يفديه بكبش كما فدى به إبراهيم ابنه ؛ قاله ابن عباس .

وعنه رواية أخرى : ينحر مائة من الإبل كما فدى بها عبد المطلب ابنه ؛ روى الروايتين عنه الشعبي .

وروى عنه القاسم بن محمد : يجزيه كفارة يمين .

وقال مسروق : لا شيء عليه .

(41/654)

---

وقال الشافعي : هو معصية يستغفر الله منها .

وقال أبو حنيفة : هي كلمة يلزمه بها في ولده ذبح شاة ولا يلزمه في غير ولده شيء .

قال محمد : عليه في الحلف بنحر عبده مثل الذي عليه في الحلف بنحر ولده إذا حنث .

وذكر ابن عبد الحكم عن مالك فيمن قال : أنا أنحر ولدي عند مقام إبراهيم في يمين ثم حنث

فعليه هديٌ .

قال : ومن نذر أن ينحر ابنه ولم يقل عند مقام إبراهيم ولا أراده فلا شيء عليه .

قال : ومن جعل ابنه هَدْياً أهدى عنه ؛ قال القاضي ابن العربي : يلزمه شاة كما قال أبو حنيفة ؛ لأن الله تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعاً ، فألزم الله إبراهيم ذبح الولد ، وأخرجه عنه بذبح شاة .

وكذلك إذا نذر العبد ذبح ولده يلزمه أن يذبح شاة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [ الحج : 78 ] والإيمان التزام أصليّ ، والنذر التزام فرعيّ ؛ فيجب أن يكون محمولاً عليه .

فإن قيل : كيف يؤمر إبراهيم بذبح الولد وهو معصية والأمر بالمعصية لا يجوز .

قلنا : هذا اعتراض على كتاب الله ، ولا يكون ذلك ممن يعتقد الإسلام ، فكيف بمن يفتي في الحلال والحرام ، وقد قال الله تعالى : "افعل مَا تُؤْمَرُ" والذي يجلو الإلباس عن قلوب الناس في ذلك : أن المعاصي والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للأعيان ، وإنما الطاعات عبارة عما تعلق به الأمر من الأفعال ، والمعصية عبارة عما تعلق به النهي من الأفعال ؛ فلما تعلق الأمر بذبح الولد إسماعيل من إبراهيم صار طاعة وابتلاء ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين ﴾ [ الصافات : 106 ] في الصبر على ذبح الولد والنفس ، ولما تعلق النهي

بنا في ذبح أبنائنا صار معصية .

فإن قيل : كيف يصير نذراً وهو معصية .

(42/654)

---

قلنا : إنما يكون معصية لو كان يقصد ذبح الولد بنذره ولا ينوي الفداء ؟ فإن قيل : فلو وقع ذلك وقصد المعصية ولم ينو الفداء ؟ قلنا : لو قصد ذلك لم يضره في قصده ولا أثر في نذره ؛ لأن نذر الولد صار عبارة عن ذبح الشاة شرعاً .

الخامسة عشرة قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين ﴾ أي على إبراهيم ثناء جميلاً في الأمم بعده ؛ فما من أمة إلا تصلي عليه وتحبه .

وقيل : هو دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿ واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ [ الشعراء : 84 ] .

وقال عكرمة : هو السلام على إبراهيم أي سلاماً منا .

وقيل : سلامة له من الآفات مثل "سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ" حسب ما تقدّم .

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ أي من الذين أعطوا العبودية حقها حتى استحقوا الإضافة إلى الله تعالى .

السادسة عشرة قوله تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين ﴾ قال ابن عباس : بشر بنبوّته وذهب إلى أن البشارة كانت مرتين ؛ فعلى هذا الذبيح هو إسحاق بشر بنبوّته جزاء على صبره ورضاه بأمر ربه واستسلامه له .

﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وعلى إِسْحَاقَ ﴾ أي ثَنَّينا عليهما النعمة وقيل كثرنا ولدهما ؛ أي باركنا على إبراهيم وعلى أولاده ، وعلى إسحاق حين أخرج أنبياء بني إسرائيل من صلبه .

وقد قيل : إن الكناية في "عَلَيْهِ" تعود على إسماعيل وأنه هو الذبيح .

(43/654)

---

قال المفضل : الصحيح الذي يدلّ عليه القرآن أنه إسماعيل ، وذلك أنه قص قصّة الذبيح ، فلما قال في آخر القصّة : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ ثم قال : ﴿ سَلاَمٌ على إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ قال : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي على إسماعيل "وَعَلَى إِسْحَاقَ" كنى عنه ؛ لأنه قد تقدّم ذكره ثم قال : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا ﴾ فدلّ على أنها ذرية إسماعيل وإسحاق ، وليس تختلف الرواة في أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة .

قلت : قد ذكرنا أوّلاً ما يدل على أن إسحاق أكبر من إسماعيل ، وأن المبشَّر به ، هو

إسحاق بنص التنزيل ؛ فإذا كانت البشارة بإسحاق نصّا فالذبيح لا شك هو إسحاق ، وبُشِّر به إبراهيم مرتين ؛ الأولى بولادته والثانية بنبوّته ؛ كما قال ابن عباس .

ولا تكون النبوّة إلا في حال الكبر و "نَبِيًّا" نصب على الحال والهاء في "عليهِ" عائدة إلى إبراهيم وليس لإسماعيل في الآية ذكر حتى ترجع الكناية إليه .

وأما ما روى عن طريق معاوية قال : سمعت رجلاً يقول للنبي صلى الله عليه وسلم : يا ابن الذبيحين ؛ فضحك النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم قال معاوية : إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم ، نذر لله إن سهّل عليه أمرها ليذبحن أحدَ ولده لله ، فسهّل الله عليه أمرها ، فوقع السهم على عبد الله ، فمنعه أخواله بنو مخزوم ؛ وقالوا : افد ابنك ؛ ففداه بمائة من الإبل وهو الذبيح ، وإسماعيل هو الذبيح الثاني فلا حجة فيه ؛ لأن سنده لا يثبت على ما ذكرناه في كتاب "الأعلام في معرفة مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام" ؛ ولأن العرب تجعل العم أباً ؛ قال الله تعالى :

﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [ البقرة : 133 ] وقال تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش ﴾ [ يوسف : 100 ] وهما أبوه وخالته .

وكذلك ما روي عن الشاعر الفرزدق عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم لو صح إسناده فكيف والفرزدق في نفسه مقال .

السابعة عشرة قوله تعالى ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ ﴾ لما ذكر البركة في الذرية والكثرة قال : منهم محسن ومنهم مسيء ، وأن المسيء لا تنفعه بنوة النبوّة ؛ فاليهود والنصارى وإن كانوا من ولد إسحاق ، والعرب وإن كانوا من ولد إسماعيل ، فلا بد من الفرق بين المحسن والمسيء والمؤمن والكافر ، وفي التنزيل : ﴿ وَقَالَتِ اليهود والنصارى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [ المائدة : 18 ] الآية ؛ أي أبناء رسل اللّه فرأوا لأنفسهم فضلاً .

وقد تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

*(45/654)*

---

وقال ابن كثير :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) ﴾

يقول تعالى مخبرا عن خليله إبراهيم [عليه السلام] : إنه بعد ما نصره الله على قومه وأيس من

إيمانهم بعدما شاهدوا من الآيات العظيمة ، هاجر من بين أظهرهم ، وقال : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ يعني : أولادا مطيعين عوضًا من قومه وعشيرته الذين فارقهم . قال الله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام ، فإنه أولُ ولد بشر به إبراهيم ، عليه السلام ، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ، بل في نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم ، عليه السلام ، ست وثمانون سنة ، وولد إسحاق وعمْر إبراهيم تسع وتسعون سنة . وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده ، وفي نسخة : بكْره ، فأقحموا هاهنا كذبا وبهتانا "إسحاق" ، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم ، وإنما أقحموا "إسحاق" لأنه أبوهم ، وإسماعيل أبو العرب ، فحسدوهم ، فزادوا ذلك وحَرّفوا وحيدك ، بمعنى الذي ليس عندك غيره ، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب مكة وهذا تأويل وتحريف باطل ، فإنه لا يقال : "وحيد" إلا لمن ليس له غيره ، وأيضا فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد ، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار .

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق ، وحكي ذلك عن طائفة من السلف ، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضا ، وليس ذلك في كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تُلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب ، وأخذ ذلك مسلما من غير حجة . وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم ، وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر : 53] . وقال تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : 71] ، أي : يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب ، فيكون من ذريته عقب ونسل . وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير ؛ لأن الله [تعالى] قد وعدهما بأنه سيعقب ، ويكون له نسل ، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرا ، وإسماعيل وصف هاهنا بالحليم ؛ لأنه مناسب لهذا المقام .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أي : كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه . وقد كان إبراهيم ، عليه السلام ، يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد "فاران" وينظر في أمرهما ، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعا إلى هناك ، فالله أعلم .

وعن ابن عباس ومجاهد وعِكْرِمة ، وسعيد بن جُبَيْر ، وعطاء الخراساني ، وزيد بن أسلم ، وغيرهم : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ يعني : شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من

السعي والعمل، ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وَحْي، ثم تلا هذه الآية: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾

(47/654)

---

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو عبد الملك الكرندي، حدثنا

سفيان بن عيينة، عن إسرائيل بن يونس، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رؤيا الأنبياء في المنام وَحْي" ليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه (1).

وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه.

﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أي: امض لما أمرك الله من ذبحي، ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل. وصدق، صلوات الله وسلامه عليه، فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ

كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: 54، 55].

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أي: فلما تشهدا وذكرا الله تعالى إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت.

وقيل: ﴿ أَسْلَمَا ﴾، [يعني]: استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمْرَ الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه. قاله مجاهد، وعكرمة والسدي، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم.

ومعنى ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أي: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه، قال ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة: ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾: أكبه على وجهه.

---

(1) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (6/12) من وجه آخر عن سماك: فرواه من طريق الفريابي عن سفيان عن سماك بن حرب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

*(48/654)*

---

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج ويونس قالا حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي عاصم الغَنَويّ، عن أبي الطفيل، عن ابن عباس أنه قال: لما أمر إبراهيم بالمناسك عَرَض له

الشيطان عند السعي، فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، وثَمّ تَلَّه للجبين، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفنني فيه. فعالجه ليخلعه، فنُودِيَ من خلفه: ﴿ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين. قال ابن عباس: لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكباش.

وذكر تمام الحديث في "المناسك" بطوله (1). ثم رواه أحمد بطوله عن يونس، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكر نحوه إلا أنه قال: "إسحاق" (2). فعن ابن عباس في تسمية الذبيح روايتان، والأظهر عنه إسماعيل، لما سيأتي بيانه.

---

(1) المسند (297/1)

(2) المسند (306/1).

وقال محمد بن إسحاق ، عن الحسن بن دينار ، عن قتادة ، عن جعفر بن إياس ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : خرج عليه كبش من الجنة . قد رعى قبل ذلك أربعين خريفًا ، فأرسل إبراهيم ابنه واتبع الكبش ، فأخرجه إلى الجمرة الأولى ، فرماه بسبع حصيات فأفلَتَه عندها ، فجاء الجمرةَ الوسطى فأخرجه عندها ، فرماه بسبع حصيات ثم أفلته فأدركه عند الجمرة الكبرى ، فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها . ثم أخذه فأتى به المنحر من منى فذبحه ، فوالذي نفسُ ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام ، وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة قد حَشّ ، يعني : يبس .

(50/654)

---

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن الزهري ، أخبرنا القاسم قال : اجتمع أبو هريرة وكعب ، فجعل أبو هريرة يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعل كعب يحدث عن الكُتُب ، فقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن لكل نبي دعوة مستجابة ، وإني قد خَبَأْتُ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة" . فقال له كعب : أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قال : فداك أبي وأمي -أو : فداه أبي وأمي- أفلا أخبرك عن إبراهيم عليه السلام ؟ إنه لما أُرِيَ ذبح ابنه إسحاق قال الشيطان : إن لم

أفتن هؤلاء عند هذه لم أفتنهم أبدا . فخرج إبراهيم بابنه ليذبحه ، فذهب الشيطان فدخل على سارة ، فقال : أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت : غدا به لبعض حاجته . قال : لم يغد لحاجة ، وإنما ذهب به ليذبحه . قالت : ولِمَ يذبحه ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك . قالت : فقد أحسن أن يطيع ربه . فذهب الشيطان في أثرهما فقال للغلام : أين يذهب بك أبوك ؟ قال : لبعض حاجته . قال : إنه لا يذهب بك لحاجة ، ولكنه يذهب بك ليذبحك . قال : ولم يذبحني ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك . قال : فوالله لئن كان الله أمره بذلك ليفعلن . قال : فيئس منه فلحق بإبراهيم ، فقال : أين غدوت بابنك ؟ قال لحاجة . قال : فإنك لم تغد به لحاجة ، وإنما غدوت به لتذبحه قال : وَلِمَ أذْبحه ؟ قال : تزعم أن ربك أمرك بذلك . قال : فوالله لئن كان الله أمرني بذلك لأفعلن . قال : فتركه ويئس أن يطاع (1) .

وقد رواه ابن جرير عن يونس ، عن ابن وَهْب ، عن يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب ، أن عمرو بن أبي سفيان بن أسيد بن جَارِيَةَ الثقفي أخبره ، أن كعبا قال لأبي هريرة . . . فذكره بطوله ، وقال في آخره : وأوحى الله إلى إسحاق أني أعطيتك دعوة أستجيب لك فيها . قال إسحاق : اللهم ، إني أدعو أن تستجيب لي : أيُّما عَبْد لقيك من الأولين والآخرين ، لا يشرك بك شيئًا ، فأدخله الجنة .

---

(1) تفسير عبد الرزاق (123/2)

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة [رضي الله عنه] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله خيرني بين أن يغفر لنصف أمتي ، وبين أن أختبئ شفاعتي ، فاختبأت شفاعتي ، ورجوت أن تكفر الجَمْ لأمتي ، ولولا الذي سبقني إليه العبد الصالح لتعجلت فيها دعوتي ، إن الله لما فرج عن إسحاق كُرْبَ الذبح قيل له : يا إسحاق ، سل تعطه . فقال : أما والذي نفسي بيده لأتعجلنها قبل نزغات الشيطان ، اللهم من مات لا يشرك بك شيئًا فاغفر له وأدخله الجنة" .

هذا حديث غريب منكر (1) . وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث ، وأخشى أن يكون في الحديث زيادة مُدْرَجَة ، وهي قوله : "إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق" إلى آخره ، والله أعلم . فهذا إن كان محفوظا فالأشبه أن السياق إنما هو عن "إسماعيل" ، وإنما حرفوه بإسحاق ؛ حَسَدًا منهم كما تقدم ، وإلا فالمناسك والذبائح إنما محلها بمنى من أرض مكة ، حيث كان إسماعيل لا إسحاق [عليهما السلام] ، فإنه إنما كان ببلاد كنعان من أرض الشام .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ أي : قد حصل المقصودُ من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح

وذكر السدي وغيره أنه أمرّ السكين على رقبته فلم تقطع شيئًا ، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس ونودي إبراهيم ، عليه السلام ، عند ذلك : ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾

---

(1) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (3603) وابن عدي في الكامل (272/4) من طريق الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم به ، وذكره ابن أبي حاتم في العلل (219/2) وقال : "سألت أبي ، فقال : هذا حديث منكر" .

*(52/654)*

---

وقوله : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : 2 ، 3] .

وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل ، خلافا لطائفة من المعتزلة ، والدلالة من هذه ظاهرة ، لأن الله تعالى شرع

لإبراهيم ذَبْحَ ولده ، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء ، وإنما كان المقصود من شرعه أولا إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴾ أي : الاختبار الواضح الجلي ؛ حيث أمر بذبح ولده ، فسارع إلى ذلك مستسلما لأمر الله ، منقادا لطاعته ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم : 37] .

*(53/654)*

---

وقوله : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ قال سفيان الثوري ، عن جابر الجُعْفي ، عن أبي الطفيل ، عن علي ، رضي الله عنه : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : بكبش أبيض أعين أقرن ، قد ربط بسمرة - قال أبو الطفيل وجدوه مربوطًا بسَمُرَة في ثَبِير

وقال الثوري أيضا ، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفًا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار ، حدثنا داود العطار ، عن ابن خثيم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : الصخرة التي بمنى بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه ، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء ،

فذبحه ، وهو الكبش الذي قَرّبه ابن آدم فتقبل منه ، فكان مخزونا حتى فدي به إسحاق .

وروي أيضا عن سعيد بن جبير أنه قال : كان الكبش يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبير ، وكان عليه عِهْن أحمر .

وعن الحسن البصري : أنه كان اسم كبش إبراهيم : جرير .

وقال ابن جريج : قال عبيد بن عمير : ذبحه بالمقام . وقال مجاهد : ذبحه بمنى عند المنحر .

وقال هُشَيْم ، عن سيار ، عن عكرمة ؛ أنّ ابن عباس كان أفتى الذي جعل عليه نذرًا أن ينحر نفسه ، فأمره بمائة من الإبل . ثم قال بعد ذلك : لو كنت أفتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشا ، فإن الله تعالى قال في كتابه : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه فُدي بكبش . وقال الثوري ، عن رجل ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : وَعْلٌ .

وقال محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن أنه كان يقول : ما فدي إسماعيل إلا بتيس من الأرْوَى ، أهبط عليه من ثبير .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، حدثنا منصور ، عن خاله مُسافع ، عن صفية بنت شيبة قالت : أخبرتني امرأة من بني سليم – ولَدت عامة أهل دارنا – أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة – وقال مرة : إنها سألت عثمان : لم دعاك النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : قال : "إني كنتُ رأيت قرني الكبش ، حين دخلت البيت ، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما ، فَخَمِّرْهما ، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي" . قال سفيان : لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت ، فاحترقا (1) .

---

(1) المسند (68/4) .

(55/654)

---

وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل ، عليه السلام ، فإن قريشا توارثوا قرني الكبش الذي فدي به إبراهيم خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل ، إلى أن بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم .

فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو ؟ :

ذكر من قال : هو إسحاق [عليه السلام] :

قال حمزة الزيات ، عن أبي ميسرة ، رحمه الله ، قال : قال يوسف ، عليه السلام ، للملك في وجهه : ترغب أن تأكل معي ، وأنا – والله – يوسف بن يعقوب نبي الله ، ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله .

وقال الثوري ، عن أبي سنان ، عن ابن أبي الهذيل : إن يوسف ، عليه السلام ، قال للملك كذلك أيضا .

وقال سفيان الثوري ، عن زيد بن أسلم ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير ، عن أبيه قال : "قال موسى : يا رب ، يقولون : يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فبم قالوا ذلك ؟ قال : إن إبراهيم لم يعدل بي شيء قط إلا اختارني عليه . وإن إسحاق جاد لي بالذبح ، وهو بغير ذلك أجود . وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادني حسن ظن" .

وقال شعبة ، عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص قال : افتخر رجل عند ابن مسعود فقال : أنا فلان بن فلان ، ابن الأشياخ الكرام . فقال عبد الله : ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله [صلوات الله وسلامه عليهم] .

وهذا صحيح إلى ابن مسعود ، وكذا روى عكرمة ، عن ابن عباس أنه إسحاق . وعن أبيه العباس ، وعلي بن أبي طالب مثل ذلك . وكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، والشعبي ، وعبيد بن عمير ، وأبو ميسرة ، وزيد بن أسلم ، وعبد الله بن شقيق ، والزهري ، والقاسم بن أبي بزة ، ومكحول ، وعثمان بن حاضر ، والسدي ، والحسن ،

وقتادة، وأبو الهذيل، وابن سابط. وهو اختيار ابن جرير. وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق.

(56/654)

---

وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر، عن الزهري، عن أبي سفيان بن العلاء، بن جارية، عن أبي هريرة، عن كعب الأحبار، أنه قال: هو إسحاق (1). وهذه الأقوال - والله أعلم - كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر، رضي الله عنه عن كتبه، فربما استمع له عمر، رضي الله عنه، فترخص الناس في استماع ما عنده، ونقلوا عنه غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة - والله أعلم - حاجة إلى حرف

---

(1) ورواه الطبري في تفسيره (52/23).

(57/654)

---

واحد مما عنده . وقد حكى البغوي هذا القول بأنه إسحاق عن عمر ، وعلي ، وابن مسعود ، والعباس ، ومن التابعين عن كعب الأحبار ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، ومسروق ، وعكرمة ، ومقاتل ، وعطاء ، والزهري ، والسدي – قال : وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس (1) . وقد ورد في ذلك حديث – لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين ، ولكن لم يصح سنده – قال ابن جرير :

حدثنا أبو كريب ، حدثنا زيد بن حباب ، عن الحسن بن دينار ، عن علي بن زيد بن جدعان ، عن الحسن ، عن الأحنف بن قيس ، عن العباس بن عبد المطلب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ذكره قال : هو إسحاق (2) .

ففي إسناده ضعيفان ، وهما الحسن بن دينار البصري ، متروك . وعلي بن زيد بن جدعان منكر الحدث . وقد رواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن مسلم بن إبراهيم ، عن حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد بن جدعان ، به مرفوعا . ثم قال : قد رواه مبارك بن فضالة ، عن الحسن ، عن الأحنف ، عن العباس قوله ، وهذا أشبه وأصح .

[ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل – عليه السلام – وهو الصحيح المقطوع به] .

قد تقدمت الرواية عن ابن عباس أنه إسحاق . قال سعيد بن جبير ، وعامر الشعبي ، ويوسف بن مهران ، ومجاهد ، وعطاء ، وغير واحد ، عن ابن عباس ، هو إسماعيل عليه لسلام .

وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن قيس ، عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال : المفدى إسماعيل ، عليه السلام ، وزعمت اليهود أنه إسحاق ، وكذبت اليهود (3) .

وقال إسرائيل ، عن ثور ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : الذبيح إسماعيل .

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : هو إسماعيل . وكذا قال يوسف بن مهران .

وقال الشعبي : هو إسماعيل ، عليه السلام ، وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة .

---

(1) معالم التنزيل للبغوي (46/7) .

(2) تفسير الطبري (52/23) .

(3) تفسير الطبري (52/23) .



---

وقال محمد بن إسحاق ، عن الحسن بن دينار ، وعمرو بن عبيد ، عن الحسن البصري : أنه كان لا يشك في ذلك : أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل .

قال ابن إسحاق : وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول : إن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه

من ابنيه إسماعيل . وإنا لنجد ذلك في كتاب الله ، وذلك أن الله حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . يقول الله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ ، يقول بابن وابن ابن ، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من [الله] الموعد بما وعده ، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل .

وقال ابن إسحاق ، عن بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي ، عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم ؛ أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام ، فقال له عمر : إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه ، وإني لأراه كما قلت . ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام ، كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علمائهم ، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك – قال محمد بن كعب : وأنا عند عمر بن عبد العزيز – فقال له عمر : أيّ ابني إبراهيم أُمِر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وإن يهود لتعلم بذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب ، على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه ، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ، ويزعمون أنه إسحاق ، بكون إسحاق أبوهم ، والله أعلم أيهما كان ، وكل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل . (1)

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: سألت أبي عن الذبيح، من هو؟ إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل. ذكره في كتاب الزهد.

وقال ابن أبي حاتم: وسمعت أبي يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل، عليه السلام. قال: وروي عن علي، وابن عمر، وأبي هريرة، وأبي الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي جعفر محمد بن علي، وأبي صالح أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل.

---

(1) رواه الطبري في تفسيره (23/54).



---

وقال البغوي في تفسيره: وإليه ذهب عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، والسدي، والحسن البصري، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي، وهو رواية عن ابن عباس، وحكاه أيضا عن أبي عمرو بن العلاء (1).

وقد روى ابن جرير في ذلك حديثا غريبا فقال: حدثني محمد بن عمار الرازي، حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي، عن عبيد الله بن محمد العتبي - من ولد عتبة بن أبي سفيان - عن أبيه: حدثني عبد الله بن سعيد، عن

الصنابجي قال : كنا عند معاوية بن

---

(1) معالم التنزيل للبغوي (47/7) .

(61/654)

---

أبي سفيان ، فذكروا الذبيح : إسماعيل أو إسحاق ؟ فقال على الخبير سقطتم ، كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه رجل فقال : يا رسول الله ، عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، وما الذبيحان ؟ فقال : إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله أمرها عليه ، ليذبحن أحد ولده ، قال : فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا : افد ابنك بمائة من الإبل . ففداه بمائة من الإبل ، وإسماعيل الثاني (1) .

وهذا حديث غريب جدا . وقد رواه الأموي في مغازيه : حدثنا بعض أصحابنا ، أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة ، حدثنا عمر بن عبد الرحمن القرشي ، حدثنا عبيد الله بن محمد العتبي – من ولد عتبة بن أبي سفيان – حدثنا عبد الله بن سعيد ، حدثنا الصنابجي قال : حضرنا مجلس معاوية ، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق ، وذكره . كذا كتبته من نسخة مغلوطة .

وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى : : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ ، فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : 28] . وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي ، أي العمل . ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا . قال : وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد الشام . قال : وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك . هذا ما اعتمد عليه في تفسيره ، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم ، بل هو بعيد جدا ، والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى ، والله أعلم .

---

(1) تفسير الطبري (54/23) .

*(62/654)*

---

وقوله : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، لما تقدمت البشارة بالذبيح - وهو إسماعيل - عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق ، وقد ذكرت في سورتي هود" و"الحجر" .

وقوله : ﴿ نَبِيًّا ﴾ حال مقدرة ، أي : سيصير منه نبي من الصالحين .

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، رضي الله عنهما: الذبيح إسحاق. قال: وقوله: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ قال: بشر بنبوته. قال: وقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: 53] قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته.

وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت داود يحدث، عن عكرمة، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ قال: إنما بشر به نبيا حين فداه الله من الذبح، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده (1).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان الثوري، عن داود، عن عكرمة،

---

(1) تفسير الطبري (57/23).



---

عن ابن عباس: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ قال: بشر به حين ولد، وحين نبئ.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

قال : بعد ما كان من أمره ، لما جاد لله بنفسه ، وقال الله : ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ ﴾

وقوله : ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود : 48] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 7 صـ 26.36 ﴾

*(64/654)*

---

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) ﴾

تل الرجلُ الرجَل : صرعه على شقه ، وقيل : وضعه بقوة .

وقال ساعدة بن حوية : وتل تليلاً للجبين وللفم . . . .

والجبينان : ما اكتف من هنا ومن هنا ، وشذ جمع الجبين على أجبن ، وقياسه في القلة أجبنة ، ككثيب وأكثبة ، وفي الكثرة : جبنات وجبن ، ككثبات وكثب .

الذبح : اسم ما يذبح ، كالرعي اسم ما يرعى .

أبق : هرب .

ساهم : قارع .

المدحض : المقلوب .

الحوت : معروف .

ألام : أتى بما يلام عليه ، قال الشاعر :

وكم من ميلم لم يصب بملامة . . .

ومتبع بالذنب ليس له ذنب

﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ، رب هب لي من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام إن أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا بأبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على إبراهيم ، كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ، وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ .

لما سلمه الله منهم ومن النار التي ألقوه فيها ، عزم على مفارقتهم ، وعبر بالذهاب إلى ربه عن هجرته إلى أرض الشام .

كما قال : ﴿ إني مهاجر إلى ربي ﴾ ليتمكن من عبادة ربه ويتضرع له من غير أن يلقي من يشوش عليه ، فهاجر من أرض بابل ، من مملكة نمرود ، إلى الشأم .

وقيل : إلى أرض مصر .

ويبعد قول من قال : ليس المراد بذهابه الهجرة ، وإنما مراده لقاء الله بعد الإحراق ، ظاناً منه أنه سيموت في النار ، فقالها قبل أن يطرح في النار .

(65/654)

---

و ﴿ سيهدين ﴾ : أي إلى الجنة ، نحا إلى هذا قتادة ، لأن قوله : ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ يدفع هذا القول ، والمعتقد أنه يموت في النار لا يدعو بأن يهب الله له ولداً صالحاً .

﴿ سهيدين ﴾ : يوفقني إلى ما فيه صلاحي .

﴿ من الصالحين ﴾ : أي ولداً يكون في عداد الصالحين .

ولفظ الهبة غلب في الولد ، وإن كان قد جاء في الأخ ، كقوله : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ واشتملت البشارة على ذكورية المولود وبلوغه سن الحلم ووصفه بالحلم ، وأي حلم أعظم من قوله ، وقد عرض عليه أبوه الذبح : ﴿ ستجدني إن شاء الله

من الصابرين ﴾ ؟

﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ ، بين هذه الجملة والتي قبلها محذوف تقديره : فولد له وشب .

﴿ فلما بلغ ﴾ : أي أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد : والسعى هنا : العمل والعبادة والمعونة .

وقال قتادة : السعي على القدم ، يريد سعياً متمكناً ، وفيه قال الزمخشري : لا يصح تعلقه ببلغ به بلوغهما معاً حد السعي ولا بالسعي ، لأن أصله المصدر لا يتقدم عليه ، فنفى أن يكون بياناً ، كأنه لما قال : ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ ، أي الحد الذي يقدر فيه على السعي ، قيل : مع من ؟ فقال : مع أبيه ، والمعنى في اختصاص الأب أنه أرفق الناس وأعطفهم عليه وعلى غيره وبما عنف عليه في الاستسعاء ، فلا يحتمله ، لأنه لم يستحكم قوله ، ولم يطلب عوده ، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة .

انتهى .

﴿ قـ يا بني ﴾ : نداء شفقة وترحم .

﴿ إني أرى في المنام إني أذبحك ﴾ : أي بأمر من الله ، ويدل عليه : ﴿ افعل ما تؤمر ﴾ .

ورؤيا الأنبياء وحي كاليقظة ، وذكره له الرؤيا تجسير على احتمال تلك البلية العظيمة .

وشاوره بقوله : ﴿ فانظر ماذا ترى ﴾ ، وإن كان حتماً من الله ليعلم ما عنده من تلقي هذا الامتحان العظيم ، ويصبره إن جزع ، ويوطن نفسه على ملاقاة هذا البلاء ، وتسكن نفسه لما لا بد منه ، إذ مفاجأة البلاء قبل الشعور به أصعب على النفس ، وكان ما رآه في المنام ولم يكن في اليقظة ، كرؤيا يوسف عليه السلام ، ورؤيا رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) دخول المسجد الحرام ، ليدل على أن حالتي الأنبياء يقظة ومناماً سواء في الصدق متظافرتان عليه .

قيل : إنه حين بشرت الملائكة بغلام حليم قال : هو إذن ذبيح الله .

فلما بلغ حد السعي معه قيل له : أوف بنذرك .

قيل : رأى ليلة التروية قائلاً يقول له : إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا .

فلما أصبح ، روّى في ذلك من الصباح إلى الرواح .

أمن الله هذا الحلم ، فمن ثم سمي يوم التروية .

فلما أمس رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من الله ، فمن ثم سمي يوم عرفة .

ثم رأى مثله في الليلة الثالثة ، فهمّ بنحرة ، فسمي يوم النحر .

وقرأ الجمهور : ﴿ ترى ﴾ ، بفتح التاء والراء ؛ وعبد الله ، والأسود بن يزيد ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، ومجاهد ، وحمزة ، والكسائي : بضم التاء وكسر الراء ؛

والضحاك ، والأعمش أيضاً بضم التاء وفتح الراء .

فالأول من الرأي ، والثاني ماذا ترينيه وما تبديه لأنظر فيه ؟ والثالث ما الذي يخيل إليك ويوقع في قلبك ؟ وانظر معلقة ، وماذا استفهام .

فإن كانت ذا موصولة بمعنى الذي ، فما مبتدأ ، والفعل بعد ذا صلة .

وإن كانت ذا مركبة ، ففي موضع نصب بالفعل بعدها .

والجملة ، واسم الاستفهام الذي هو معمول للفعل بعده في موضع نصب لانظر .

ولما كان خطاب الأب ﴿ يا بنيّ ﴾ ، على سبيل الترحم ، قال : هو ﴿ يا أبت ﴾ ، على سبيل التعظيم والتوقير .

﴿ افعل ما تؤمر ﴾ : أي ما تؤمره ، حذفه وهو منصوب ، وأصله ما تؤمر به ، فحذف الحرف ، واتصل الضمير منصوباً ، فجاز حذفه لوجود شرائط الحذف فيه .



---

وقال الزمخشري : أو أمرك ، على إضافة الصدر إلى المفعول الذي لم يسم فاعله ، وفي ذلك خلاف ؛ هل يعتقد في المصدر العامل أن يجوز أن يبنى للمفعول ، فيكون ما بعده مفعولاً لم يسم فاعله ، أم يكون ذلك ؟ ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ : كلام من أوتي

الحلم والصبر والامتثال لأمر الله ، والرضا بما أمر الله .

﴿ فلما أسلما ﴾ : أي لأمر الله ، ويقال : استسلم وسلم بمعناه .

وقرأ الجمهور : أسلما .

وقرأ عبد الله ، وعلي ، وابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وجعفر بن محمد ، والأعمش ، والثوري : سلما : أي فوضا إليه في قضائه وقدره .

وقرىء : استسلما ، ثلاث قراءآت .

وقال قتادة في أسلما : أسلم هذا ابنه ، وأسلم هذا نفسه ، فجعل أسلما متعدياً ، وغيره جعله لازماً بمعنى : انقاذ الأمر الله وخضعا له .

﴿ وتله للجبين ﴾ : أي أوقعه على أحد جنبيه في الأرض مباشراً الأمر بصبر وجلد ، وذلك عند الصخرة التي بمنى ؛ وعن الحسن : في الموضع المشرف على مسجد منى ؛ وعن الضحاك : في المنحر الذي ينحر فيه اليوم .

وجواب لما محذوف يقدر بعد ﴿ وتله للجبين ﴾ ، أي أجزلنا أجرهما ، قاله بعض البصريين ؛ او بعد ﴿ الرؤيا ﴾ ، أي كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما وحمدهما الله على ما أنعم به إلى ألفاظ كثيرة ذكرها الزمخشري على عادته في خطابته ؛ أو قبل ﴿ وتله ﴾ تقديره : ﴿ فلما أسلما وتله ﴾ .

قال ابن عطية : وهو قول الخليل وسيبويه ، وهو عندهم كقول امرىء القيس_@_ :

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحي . . .

وقال الكوفيون : الجواب مثبت ، وهو : ﴿ وناديناه ﴾ على زيادة الواو .

وقالت فرقة : هو ﴿ وتله ﴾ على زيادة الواو .

وذكر الزمخشري في قصة إبراهيم وابنه ، وما جرى بينهما من الأقوال والأفعال فصولاً ، الله أعلم بصحتها ، يوقف عليها في كتابة .

وأن مفسرة ، أي ﴿ قد صدّقت ﴾ .

وقرأ زيد ابن علي : وناديناه قد صدقت ، بحذف أن ؛ وقرىء : صدقت ، بتخفيف الدال .



---

وقرأ فياض : الريا ، بكسر الراء والإدغام وتصديق الرؤيا .

قال الزمخشري : بذل وسعه وفعل ما يفعل الذابح من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه ، لكن الله سبحانه جاء بما منع الشفرة أن تمضي فيه ، وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم . ألا ترى أنه لا يسمى عاصياً ولا مفرطاً ؟ بل يسمى مطيعاً ومجتهداً ، كما لو مضت فيه الشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم .

وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل ، ولا قبل أوان الفعل في شيء ، كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام فيه .

وقال ابن عطية : ﴿ قد صدّقت ﴾ ، يحتمل أن يريد بقلبك على معنى : كانت عندك رؤياك صادقة حقاً من الله فعلمت بحسبها حين آمنت بها ، واعتقدت صدقها .

ويحتمل أن يريد : صدقت بقلبك ما حصل عن الرؤيا في نفسك ، كأنه قال : قد وفيتها حقها من العمل . انتهى .

﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ : تعليل لتخويل ما خولهما الله من الفرج بعد الشدة ، والظفر بالبغية بعد اليأس .

﴿ إن هذا ﴾ : أي ما أمر به إبراهيم من ذبح ابنه ، ﴿ لهو البلاء المبين ﴾ : أي الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون وغيرهم ، أو المحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها .

﴿ وفدنياه بذبح ﴾ ، قال ابن عباس : هو الكبش الذي قربه هابيل فقبل منه ، وكان يرعى في الجنة حتى فدى به إسماعيل .

وقال أيضاً هو والحسن : فدي بوعل أهبط عليه من سرو .

وقال الجمهور : كبش أبيض أقرن أقنى ، ووصف بالعظم .

قال مجاهد : لأنه متقبل يقيناً .

وقال عمرو بن عبيد : لأنه جرت السنة به ، وصار ديناً باقياً إلى آخر الدهر .

وقال الحسن بن الفضل : لأنه كان من عند الله .

وقال أبو بكر الوراق : لأنه لم يكن عن نسل ، بل عن التكوين .

وقال ابن عباس ، وابن جبير : عظمته كونه من كباش الجنة ، رعى فيها أربعين خريفاً .

وفي قوله : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ دليل على أن إبراهيم لم يذبح ابنه ، وقد فدي .

وقالت فرقة : وقع الذبح وقام بعد ذلك .



---

قال ابن عطية : وهذا كذب صراح .

وقالت فرقة : لم ير إبراهيم في منامه الإمرار بالشفرة فقط ، فظن أنه ذبح مجهز ، فنفذ لذلك .

فلما وقع الذي رآه وقع النسخ ، قال : ولا اختلاف ، فإن إبراهيم عليه السلام ، أمرّ الشفرة على حلق ابنه فلم تقطع . انتهى .

والذي دل عليه القرآن أنه ﴿ تله للجبين ﴾ فقط ، ولم يأت في حديث صحيح أنه أمرّ الشفرة على حلق ابنه .

﴿ وتركنا عليه ﴾ إلى : ﴿ المؤمنين ﴾ ، تقدم تفسير نظيره في آخر قصة نوح ، قبل قصة إبراهيم هنا ، وقال هنا كذلك دون إنا ، اكتفاء بذكر ذلك قبل وبعد .

﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾ : الظاهر أن هذه بشارة غير تلك البشارة ، وأن الغلام الحليم المبشر به إبراهيم هو إسماعيل ، وأنه هو الذبيح لا إسحاق ؛ وهو قول ابن عباس ، وابن عمر ، ومعاوية بن أبي سفيان ، ومحمد بن كعب القرظي ، والشعبي ، والحسن ، ومجاهد ، وجماعة من التابعين ؛ واستدلوا بظاهر هذه الآيات وبقوله عليه السلام : أنا ابن الذبيحين ، وقول الأعرابي له : يا ابن الذبيحين : فتبسم عليه السلام ، يعني إسماعيل ، وأباه عبد الله .

وكان عبد المطلب نذر ذبح أحد ولده ، فخرج السهم على عبد الله ، فمنعه أخواله وقالوا له : افد ابنك بمائة من الإبل ، ففداه بها .

وفيما أوحي الله لموسى في حديث طويل .

وأما إسماعيل ، فإنه جاد بدم نفسه .

وسأل عمر بن عبد العزيز يهودياً أسلم عن ذلك فقال : إن يهودياً ليعلم ، لكنهم يحسدونكم معشر العرب ، وكان قرنا الكبش منوطين في الكعبة .

وسأل الأصمعي أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصمعي ، أين عزب عنك عقلك ؟ ومتى كان إسحاق بمكة ؟ وهو الذي بنى البيت مع أبيه ، والمنحر بمكة ؟ انتهى .

ووصفه تعالى بالصبر في قوله : ﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصا برين ﴾ وهو صبره على الذبح ؛ وبصدق الوعد في قوله :

﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به .

(70/654)

---

وذكر الطبري أن ابن عباس قال : الذبيح إسماعيل ، ويزعم اليهود أنه إسحاق ، وكذبت اليهود .

ومن أقوى ما يستدل به أن الله تعالى بشر إبراهيم بإسحاق ، وولد إسحاق يعقوب .

فلو كان الذبيح إسحاق ، لكان ذلك الإخبار غير مطابق للواقع ، وهو محال في إخبار الله تعالى .

وذهبت جماعة إلى أن الذبيح هو إسحاق ، منهم : العباس بن عبد المطلب ، وابن مسعود ، وعلي ، وعطاء ، وعكرمة ، وكعب ، وعبيد بن عمير ، وابن عباس في رواية ، وكان أمر ذبحه بالشأم .

وقال عطاء ومقاتل : ببيت المقدس ؛ وقيل : بالحجاز ، جاء مع أبيه على البراق .

وقال عبيد بن عمير ، وابن عباس في رواية : وكان أمر ذبحه بالشأم ، كان بالمقام .

وقال ابن عباس : والبشارة في قوله : ﴿ وبشرناه بإسحاق ﴾ ، هي بشارة نبوته .

وقالوا : أخبر تعالى عن خليله إبراهيم حين هاجر إلى الشام بأنه استوهبه ولداً ، ثم أتبع تلك البشارة بغلام حليم ، ثم ذكر رؤياه بذبح ذلك الغلام المبشر به ، ويدل عليه كتاب يعقوب إلى يوسف ، عليهما السلام : من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله إبن إبراهيم خليل الله .

ومن جعل الذبيح إسحاق ، جعل هذه البشارة بشارة بنبوته ، كما ذكرنا عن ابن عباس .

وقالوا : لا يجوز أن يبشره الله بولادته ونبوته معاً ، لأن الامتحان بذبحه لا يصح مع علمه بأنه سيكون نبياً .

ومن جعله إسماعيل ، جعل البشارة بولده إسحاق .

وانتصب نبياً على الحال ، وهي حال مقدرة .

فإن كان إسحاق هو الذبيح ، وكانت هذه البشارة بولادة إسحاق ، فقد جعل الزمخشري ذلك محل سؤال .

فإن قلت : فرق بين هذا وقوله : ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ وذلك أن المدخول موجود مع وجود الدخول ، والخلود غير موجود معهما ، فقدرت مقدرين للخلود ، فكان مستقيماً .
وليس كذلك المبشر به ، فإنه معلوم وقت وجود البشارة ، وعدم المبشر به أوجب عدم حاله ، لأن الحال حلية لا تقوم إلا بالمحلي .

وهذا المبشر به الذي هو إسحاق ، حين وجد لم توجد النبوة أيضاً بوجوده ، بل تراخت عنه مدة طويلة ، فكيف يجعل نبياً حالاً مقدرة ؟ والحال صفة للفاعل والمفعول عند وجود الفعل منه أو به .

فالخلود ، وإن لم يكن صفتهم عند دخول الجنة ، فتقديرها صفتهم ، لأن المعنى : مقدرين الخلود .

وليس كذلك النبوة ، فإنه لا سبيل إلى أن تكون موجودة وقت وجود البشارة بإسحاق لعدم إسحاق .

قلت : هذا سؤال دقيق السلك ضيق المسلك ، والذي يحل الإشكال أنه لا بد من تقدير مضاف محذوف وذلك قوله : ﴿ وبشرناه ﴾ بوجود إسحاق نبياً ، أي بأن يوجد مقدرة نبوته ، فالعامل في الحال الوجود ، لا فعل البشارة ؛ وبذلك يرجع نظير قوله تعالى : ﴿ فادخولها خالدين ﴾ ﴿ من الصالحين ﴾ حال ثانية ، وورودها على سبيل الثناء والتقريظ ، لأن كل نبي لا بد أن يكون من الصالحين . انتهى .

﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ﴾ : أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا ، وبأن أخرجنا

أنبياء بني إسرائيل من صلبه .

﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم ﴾ : فيه وعيد لليهود ومن كان من ذريتهما لم يؤمن بمحمد ( صلى الله عليه وسلم ) ، وفيه دليل على أن البر قد يلد الفاجر ، ولا يلحقه من ذلك عيب ولا منقصة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

*(72/654)*

---

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾

أي استسلما لأمرِ الله تعالى وانقادا وخَضَعا له يقال سَلَّم لأمرِ الله وأسلَم واستسلَم بمعنى واحدٍ . وقُرِىء بهنَّ جميعاً . وأصلُها من قولك سَلِمَ هذا لفلانٍ إذا خلُص له ومعناه سَلِمَ من أنْ يُنازعَ فيهِ وقولُهم سلَّم لأمرِ الله وأسلمَ له منقولانِ منه ومعناهما أخلص َنفسَه لله وجعلها سالمةً له وكذلك معنى استسلَم استخلص َنفسَه له تعالى . وعن قتادة رضي الله عنه في أسلما : أسلَمَ إبراهيمُ ابنَه وإسماعيلُ نفسَه . ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ صرعَه على شقِّه فوقع جبينُه على الأرض وهو أحدُ جانبَيْ الجبهةِ وقيل كبَّه على وجههِ بإشارتهِ كيلا يرى

منه ما يُورِث رِقَّةً تحولُ بينه وبين أمرِ الله تعالى وكان ذلك عند الصَّخرةِ من مِنَى . وقيل في الموضعِ المُشرف على مسجدِ مِنَى وقيل في المنحرِ الذي يُنحر اليوم فيه .

(73/654)

---

﴿ وناديناه أَن يا إبراهيم ﴾ ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ بالعزم على الإتيانِ بالمأمور به وترتيبِ مقدماتِه . وقد رُوي أنه أَمَّر السِّكِّينَ بقوَّتِه على حلقهِ مراراً فلم يقطعْ ثم وضع السِّكِّينَ على قفاه فانقلبَ السِّكِّينُ فعند ذلك وقع النِّداءُ . وجوابُ لمَّا محذوفٌ إيذاناً بعدم وفاءِ التَّعبيرِ بتفاصيله كأنَّه قيل كان ما كانَ مما لا يحيطُ به نطاقُ البيانِ من استبشارِهما وشكرِهما لله تعالى على ما أنعمَ به عليهما من دفعِ البلاء بعد حلولِه والتَّوفيقِ لما لم يُوفَّقْ أحدٌ لمثله ، وإظهارِ فضلهما بذلك على العالمين مع إحرازِ الثَّوابِ العظيمِ إلى غيرِ ذلك ﴿ إنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ تعليلٌ لتفريجِ تلك الكُربةِ عنهما بإحسانهما واحتجَّ به من جوَّزَ النَّسخَ قبل وقوعِ المأمور به فإنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان مأموراً بالذَّبحِ لقوله تعالى : ﴿ افعل مَا تُؤمَرُ ﴾ ولم يحصلْ ﴿ إنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين ﴾ الذي يتميَّز فيه المخلِصُ عن غيره أو المحنةُ البيِّنةُ الصُّعوبةِ إذ لا شيءَ أصعبُ منها . ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ ﴾ بما يُذبح بدله فيتمُّ به الفعل ﴿ عظِيمٌ ﴾ أي عظيمِ الجثَّةِ سمينٍ أو عظيمِ القدرِ لأنَّه يَفدي به اللهُ نبيًّا ابنِ

نبيَ من نسله سيّدُ المُرسلينَ. قيل كان ذلك كبشاً من الجنّةِ. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أَنَّه الكبشُ الذي قرّبه هابيل فتُقُبّل منه وكان يَرْعى في الجنّةِ حتَّى فُدي به إسماعيلُ عليه السَّلامُ. وقيل فُدي بوعلٍ أُهبط عليه من ثَبير. ورُوي أنه هربَ من إبراهيمَ عليه السَّلامُ عند الجمرةِ فرماه بسبع حصياتٍ حتَّى أخذه فبقي سنّةً في الرَّمي. ورُوي أَنَّه رَمَى الشَّيطان حين تعرّضَ له بالوسوسةِ عند ذبحِ ولده. ورُوي أَنَّه لمَّا ذبحه قال جبريلُ عليه السَّلامُ: اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبرُ فقال الذَّبيحُ: لا إله إلاَّ اللَّهُ واللَّهُ أكبرُ فقالَ

(74/654)

---

إبراهيمُ: اللَّهُ أكبرُ ولِلَّهِ الحمدُ فبقي سُنَّةً. والفادي في الحقيقة هو إبراهيمُ وإنَّما قيل وفديناهُ لأَنَّه تعالى هو المُعطي له والآمرُ به على التَّجوز في الفداءِ أو الإسنادِ ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الاخرين سلام على إبراهيم ﴾ قد سلف بيانُه في خاتمةِ قصّةَ نوحٍ عليه السَّلامُ.

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ ذلك إشارةٌ إلى إبقاءِ ذكره الجميل فيما بين الأممِ لا إلى ما أُشير إليه فيما سبق فلا تكرارَ. وعدم تصديرِ الجملةِ بإنا للاكتفاءِ بما مرّ آنفاً ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ الراسخين في الإيمان على وجهة الإيقان والاطمئنان.

﴿ وبشرناه بإسحاق نَبِيّاً مّنَ الصالحين ﴾ أي مقضيًّا بنبُوتهِ مقدّراً كونه من الصَّالحينَ

وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا حاجة إلى وجود المبشّر به وقت البشارةِ فإنّ وجود ذي الحالِ ليس بشرطٍ وإنّما الشّرط مقارنة تعلُّق الفعل به لاعتبار معنى الحالِ فلا حاجة إلى تقدير مضافٍ يجعل عاملاً فيهما مثل وبشّرناه بوجودِ إسحاق بأنْ يُوجدَ إسحاق نبيًّا من الصَّالحين ، ومع ذلك لا يصير نظيرَ قوله تعالى : ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ فإنّ الدَّاخلين كانوا مقدّرين خلودهم وقت الدُّخولِ وإسحاقُ عليه السَّلامُ لم يكن مقدّرًا نبُوّةً نفسه وصلاحَها حين ما يُوجد ، ومن فسّر الغلامَ بإسحاق جعل المقصودَ من البشارةِ نبوّته عليه الصّلاةُ والسّلامُ وفي ذكر الصّلاحِ بعد تعظيمٍ لشأنِه وإيماءً إلى أنّه الغايةُ لها لتضمُّنها معنى الكمالِ والتّكميلِ بالفعلِ على الإطلاقِ .

(75/654)

---

﴿ وباركنا عَلَيْهِ ﴾ على إبراهيمَ في أولادِه ﴿ وعلى إسحاق ﴾ بأنْ أخرجنا من صلبهِ أنبياءَ بني إسرائيل وغيرَهم كأيُّوبَ وشُعيبَ عليهم السَّلامُ أو أفضْنا عليهما بركاتِ الدّين والدُّنيا . وقُرِىء وبرَّكنا . ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ ﴾ في عملِه أو لنفسِه بالإيمانِ والطَّاعةِ ﴿ وظالمٌ لّنَفْسِهِ ﴾ بالكفرِ والمَعاصي ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ظاهرٌ ظلمُه وفيه تنبيهٌ على أنّ

النَّسبَ لا تأثيرَ له في الهدايةِ والضَّلالِ وأنَّ الظُّلمَ في أعقابهما لا يعودُ عليهما بنقيصةٍ ولا عيبٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(76/654)

---

وقال الآلوسي :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾

أي استسلما وانقادا لأمر الله تعالى فالفعل لازم أو سلم الذبيح نفسه وإبراهيم ابنه على أنه متعد والمفعول محذوف .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس .

وعبد الله .

ومجاهد .

والضحاك .

وجعفر بن محمد .

والأعمش .

والثوري ﴿ سلاما ﴾ وخرجت على ما سمعت ، ويجوز أن يكون المعنى فوضاً إليه تعالى في قضائه وقدره ، وقرىء ﴿ استسلما ﴾ وأصل الأفعال الثلاثة سلم هذا لفلان إذا خلص له فإنه سلم من أن ينازع فيه ﴿ أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ صرعه على شقه فوقع جبينه على الأرض ، وأصل التل الرمي على التل وهو التراب المجتمع ثم عمم في كل صرع ، والجبين أحد جانبي الجبهة وشذ جمعه على أجبن وقياسه في القلة أجبنة ككثيب وأكثبة وفي الكثرة جبنان وجبن ككثبان وكثب ، واللام لبيان ما خر عليه كما في قوله تعالى : ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ ﴾ [ الإسراء : 107 ] وقوله

: وخر صريعاً لليدين وللفم . . .

وليست للتعدية ، وقيل المراد كبه على وجهه وكان ذلك بإشارة منه .

أخرج غير واحد عن مجاهد أنه قال لأبيه : لا تذبحني وأنت تنظر إلى وجهي عسى أن ترحمني فلا تجهز علي اربط يدي إلى رقبتي ثم ضع وجهي للأرض ففعل فكان ما كان ، ولا يخفى أن إرادة ذلك من الآية بعيد ، نعم لا يبعد أن يكون الذبيح قال هذا .

وفي الآثار حكاية أقوال غير ذلك أيضاً ، منها ما في خبر للسدي أنه قال لأبيه عليهما السلام : يا أبت اشدد رباطي حتى لا اضطرب واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء فتراه أمي فتحزن وأسرع مر السكين على حلقي فيكون أهون للموت علي فإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني فأقبل عليه إبراهيم يقبله .

وكل منهما يبكي ، ومنها ما في حديث أخرجه أحمد .

وجماعة عن ابن عباس أنه قال لأبيه وكان عليه قميص أبيض يا أبت ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره فاخلعه حتى تكفنني فيه فعالجه ليخلعه فكان ما قص الله عز وجل .

*(77/654)*

---

وكان ذلك عند الصخرة التي بمنى ، وعن الحسن في الموضع المشرف على مسجد منى ، وعن الضحاك في المنحر الذي ينحر فيه اليوم ، وقيل كان ببيت المقدس وحكي ذلك عن كعب ، وحكى الإمام مع هذا القول أنه كان بالشام .

وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105)

﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ قيل ناداه من خلفه ملك من قبله تعالى بذلك ، و﴿ إن ﴾ مفسرة بمعنى أي وقرأ زيد بن علي قد صدقت بحذفها ، وقرىء ﴿ صَدَّقْتَ ﴾ بالتخفيف ، وقرأ فياض ﴿ الريا ﴾ بكسر الراء والإدغام ، وتصديقه عليه السلام الرؤيا توفيته حقها من العمل وبذل وسعه في إيقاعها وذلك بالعزم والإتيان بالمقدمات ولا يلزم فيه وقوع ما رآه بعينه ، وقيل هو إيقاع تأويلها وتأويلها ما وقع ، ويفهم من كلام الإمام أنه الاعتراف بوجوب العمل بها ، ولا يدل على الإتيان بكل ما رآه في المنام ، وهل أمر عليه

السلام الشفرة على حلقه أم لا قولان ذهب إلى الثاني منهما كثير من الأجلة ، وقد أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس أنه عليه السلام لما أخذ الشفرة وأراد أن يذبحه نودي من خلفه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، وأخرج هو .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم .

والطبراني .

وابن مردويه .

والبيهقي في "شعب الإيمان" عنه أنه عالج قميصه ليخلعه فنودي بذلك .

وأخرج ابن المنذر .

والحاكم وصححه من طريق مجاهد عنه أيضاً فلما أدخل يده ليذبحه فلم يحمل المدية حتى نودي أن يا أبراهيم قد صدقت الرؤيا فأمسك يده ، وأخرج عبد بن حميد .

وغيره عن مجاهد فلما أدخل يده ليذبحه نودي أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا فأمسك يده ورفع رأسه فرأى الكبش ينحط إليه حتى وقع عليه فذبحه ، وفي رواية أخرى عنه أخرجها عبد بن حميد أيضاً .

وابن المنذر أنه أمر السكين فانقلبت ، وإلى عدم الإمرار ذهبت اليهود أيضاً لما في توراتهم مد إبراهيم يده فأخذ السكين فقال له ملاك الله من السماء قائلاً : يا إبراهيم يا إبراهيم قال : لبيك قال : لا تمد يدك إلى الغلام ولا تصنع به شيئاً ، وذهب إلى الأول طائفة فمنهم من قال : أنه أمرها ولم تقطع مع عدم المانع لأن القطع بخلق الله تعالى فيها أو عندها عادة وقد لا يخلق سبحانه ، ومنهم من قال : أنه أمرها ولم تقطع مع عدم المانع لأن القطع بخلق الله تعالى فيها أو عندها عادة وقد لا يخلق سبحانه ، ومنهم من قال : أنه أمرها ولم تقطع لمانع ، فقد أخرج سعيد بن منصور .

وابن المنذر عن عطاء بن يسار أنه عليه السلام قام إليه بالشفرة فبرك عليه فجعل الله تعالى ما بين لبته إلى منحره نحاساً لا تؤثر فيه الشفرة ، وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن السدي أنه عليه السلام جر السكين على حلقه فلم ينحر وضرب الله تعالى على حلقه صفيحة من نحاس ، وأخرج الخطيب في تالي التلخيص عن فضيل بن عياض قال : أضجعه ووضع الشفرة فقلبها جبريل عليه السلام ، وأخرج الحاكم بسند فيه الواقدي عن عطاء أنه نحر في حلقه فإذا هو قد نحر في نحاس فشحذ الشفرة مرتين أو ثلاثاً بالحجر ، وضعف جميع ذلك .

وقيل إنه عليه السلام ذبح لكن كان كلما قطع موضعاً من الحق أوصله الله تعالى ، وزعموا ورود ذلك في بعض الأخبار ولا يكاد يصح ، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما يتعلق بهذا المقام من الكلام ، وجواب لما محذوف مقدر بعد ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ أي كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به المقال من استبشارهما وشكرهما الله تعالى على ما أنعم عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق لما لم يوفق غيرهما لمثله وإظهار فضلهما مع إحراز الثواب العظيم إلى غير ذلك ؛ وهو أولى من تقدير فإذا ونحوه ، وقدره بعض البصريين بعد ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [ الصافات : 103 ] أي أجزلنا أجرهما ، وعن الخليل .

وسيبويه تقديره قبل ﴿ وَتَلَّهُ ﴾ قال في "البحر" : والتقدير فلما أسلما أسلما وتله ، وقال ابن عطية : وهو عندهم كقول امرىء القيس

: فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى . . .

أي أجزنا وانتحى ، وهو كما ترى ، وقال الكوفيون : الجواب مثبت وهو ﴿ وناديناه ﴾ على زيادة الواو ، وقالت فرقة : هو و﴿ تله ﴾ على زيادتها أيضاً ، ولعل الأولى ما تقدم .

وقوله تعالى : ﴿ العالمين إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ ابتداء كلام غير داخل في النداء وهو

تعليل لإفراج تلك الشدة المفهوم من الجواب المقدر أو من الجواب المذكور أعني نادينا الخ على القول بأنه الجواب أو منه وإن لم يكن الجواب والعلة في المعنى إحسانهما ، وكونه تعليلاً لما انطوى عليه الجواب من الشكر ليس بشيء .

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106)

﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين ﴾ أي الابتلاء والاختبار البين الذي يتميز فيه المخلص من غيره أو المحنة البينة وهي المحنة الظاهرة صعوبتها وما وقع لا شيء أصعب منه ولا تكاد تخفى صعوبته على أحد ولله عز وجل أن يبتلي من شاء بما شاء وهو سبحانه الحكيم الفعال لما يريد .

(80/654)

---

ولعل هذه الجملة لبيان كونهما من المحسنين ، وقيل لبيان حكمة ما نالهما ، وعلى التقديرين هي مستأنفة استئنافاً بيانياً فليتدبر .

وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107)

﴿ وفديناه بِذِبْحٍ ﴾ بحيوان يذبح بدله ﴿ عظِيمٌ ﴾ قيل أي عظيم الجثة سمين وهو كبش أبيض أقرن أعين وفي رواية أملح بدل أبيض ، وعن الحسن أنه وعل أهبط عن ثبير ،

والجمهور على الأول ووافقهم الحسن في رواية رواها عنه ابن أبي حاتم وفيها أن اسمه حرير ، واليهود على أنه كبش أيضاً .

وفسر المعظم العظيم بعظيم القدر وذلك على ما روي عن ابن عباس لأنه الكبش الذي قربه هابيل فتقبل منه وبقي يرعى في الجنة إلى يوم هذا الفداء ، وفي رواية عنه وعن ابن جبير أنهما قالا : عظمه كونه من كباش الجنة رعى فيها أربعين خريفاً .

وقال مجاهد وصف بالعظم لأنه متقبل يقيناً ، وقال الحسن بن الفضل : لأنه كان من عند الله عز وجل ، وقال أبو بكر الوراق : لأنه لم يكن عن نسل بل عن التكوين ؛ وقال عمرو بن عبيد : لأنه جرت السنة به وصار ديناً باقياً آخر الدهر ، وقيل لأنه فدى به نبي وابن نبي ، وهبوطه من ثبير كما قال الحسن في الوعل وجاء ذلك في رواية عن ابن عباس .

وفي رواية عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه وجده عليه السلام قد ربط بسمرة في أصل ثبير .

وعن عطاء بن السائب أنه قال : كنت قاعداً بالمنحر فحدثني قرشي عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : إن الكبش نزل على إبراهيم في هذا المكان .

وفي رواية عن ابن عباس أنه خرج عليه كبش من الجنة قد رعى فيها أربعين خريفاً فأرسل إبراهيم عليه السلام ابنه واتبعه فرماه بسبع حصيات وأحرجه عند الجمرة الأولى فأفلت ورماه بسبع حصيات وأحرجه عند الجمرة الوسطى فأفلت ورماه بسبع حصيات وأحرجه عند الجمرة الكبرى فأتى به المنحر من منى فذبح قيل وهذا أصل سنية رمي الجمار ، والمشهور أن أصل السنية رمي الشيطان هناك ففي خبر عن قتادة أن الشيطان أراد أن يصيب حاجته من إبراهيم وابنه يوم أمر بذبحه فتمثل بصديق له فأراد أن يصده عن ذلك فلم يتمكن فتعرض لابنه فلم يتمكن فأتى الجمرة فانتفخ حتى سد الوادي ومع إبراهيم ملك فقال له : ارم يا إبراهيم فرمى بسبع حصيات يكبر في أثر كل حصاة فافرج له عن الطريق ثم انطلق حتى أتى الجمرة الثانية فسد الوادي أيضاً فقال الملك : ارم يا إبراهيم فرمى كما في الأولى وهكذا في الثالثة ، وظاهر الآية أن الفداء كان بحيوان واحد وهو المعروف .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس أنه فدى بكبشين أملحين أقرنين أعينين ولا أعرف له صحة ، ويراد بالذبح عليه لو صح الجنس ، والفادي على الحقيقة إبراهيم عليه السلام ، وقال سبحانه : ﴿ فديناه ﴾ على التجوز في الفداء أي أمرنا أو أعطينا أو في إسناده إليه تعالى ، وجوز أن يكون هناك استعارة مكنية أيضاً ، وفائدة العدول عن الأصل التعظيم .

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109)

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الاخرين سلام على إبراهيم ﴾ سبق ما يعلم منه بيانه عند تفسير

نظيره في آخر قصة نوح، ولعل ذكر ﴿ في العالمين ﴾ [ الصافات : 79 ] هناك وعدم ذكره هنا لما أن لنوح عليه السلام من الشهرة لكونه كآدم ثان للبشر ونجاة من نجا من أهل الطوفان ببركته ما ليس لإبراهيم عليه السلام.

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110)

*(82/654)*

---

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ ذلك إشارة إلى إبقاء ذكره الجميل فيما بين الأمم لا إلى ما يشير إليه فيما سبق فلا تكرار وطرح هنا ﴿ أَنَّا ﴾ قيل مبالغة في دفع توهم اتحاده مع ما سبق كيف وقد سيق الأول تعليلاً لجزاء إبراهيم وابنه عليهما السلام بما أشير إليه قبل وسيق هذا تعليلاً لجزاء إبراهيم وحده بما تضمنه قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ ﴾ الخ وما ألطف الحذف هنا اقتصاراً حيث كان فيما قبله ما يشبه ذلك من عدم ذكر الابن والاقتصار على إبراهيم.

وقيل لعل ذلك اكتفاءً بذكر ﴿ أَنَّا ﴾ مرة في هذه القصة، وقال بعض الأجلة : إنه للإشارة إلى أن قصة إبراهيم عليه السلام لم تتم فإن ما بعد من قوله تعالى : ﴿ وبشرناه بإسحاق ﴾ [ الصافات : 112 ] الخ من تكملة ما يتعلق به عليه السلام بخلاف سائر القصص التي

جعل ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ [ الصافات : 80 ، 105 ] مقطعاً لها فإن ما بعد ليس مما يتعلق بما قبل ومع هذا لم تخل القصة من مثل تلك الجملة بجميع كلماتها وسلك فيها هذا المسلك اعتناءً بها فتأمل

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ الكلام فيه كما تقدم .

﴿ وبشرناه بإسحاق نَبِيّاً ﴾ حال من إسحاق ، وكذا قوله تعالى : ﴿ مّنَ الصالحين ﴾ وفي ذلك تعظيم شأن الصلاح ، وفي تأخيره إيماءً إلى أنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل ، والمقصود منهما الإتيان بالأفعال الحسنة السديدة وهو في الاستعمال يختص بها .

(83/654)

---

وجوز كون ﴿ مّنَ الصالحين ﴾ حالاً وكون ﴿ نَبِيّاً ﴾ حالاً من الضمير المستتر فيه ، وقدم في اللفظ للاهتمام ولئلا تختل رؤوس الآي وفيه من البعد ما فيه ، على أن في جواز تقديم الحال مطلقاً أو إطراده في مثل هذا التركيب كلاماً لا يخفى على من راجع الألفية وشروحها وفيه ما فيه بعد ، وجوز أيضاً كونه في موضع الصفة لنبياً والكلام على الأول وهو الذي عليه الجمهور أمدح كما لا يخفى ، والمراد كونه نبياً وكونه من الصالحين في قضاء

الله تعالى وتقديره أي مقضياً كونه نبياً مقضياً كونه من الصالحين وإن شئت فقل مقدراً ولا يكونان بذلك من الحال المقدرة التي تذكر في مقابلة المقارنة بل هما بهذا الاعتبار حالان مقارنان للعامل وهو فعل البشارة أو شيء آخر محذوف أي بشرناه بوجود إسحاق نبياً الخ ، وأوجب غير واحد تقدير ذلك معللاً بأن البشارة لا تتعلق بالأعيان بل بالمعاني .

وتعقب بأنه إن أريد أنها لا تستعمل إلا متعلقة بالأعيان فالواقع خلافه ك ﴿ بشر أحدهم بالأنثى ﴾ ، [ النحل : 58 ] فإن قيل إنما يصح بتقدير ولادة ونحوه من المعاني فهو محل النزاع فلا وجه له ، والذي يميل إليه القلب أن المعنى على إرادة ذلك ، وربما يدعى أن معنى البشارة تستدعي تقدير معنى من المعاني ، وقيل هما حالان مقدران كقوله تعالى : ﴿ ادخلوها خالدين ﴾ [ الزمر : 73 ] وفيه بحث .

﴿ وباركنا عَلَيْهِ ﴾ أي على إبراهيم عليه السلام ﴿ وعلى إسحاق ﴾ أي أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا بأن كثرنا نسلهما وجعلنا منهم أنبياء ورسلاً .

وقرىء ﴿ بركنا ﴾ بالتشديد للمبالغة ﴿ إسحاق وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ ﴾ في عمله أو على نفسه بالإيمان والطاعة .

﴿ وظالمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ بالكفر والمعاصي ويدخل فيها ظلم الغير ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر ظلمه ، وفي ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال وأن الظلم في الأعقاب لا يعود على الأصول بنقيصة وعيب ، هذا وفي الآيات بعد أبحاث ﴿ الأول ﴾ أنهم اختلفوا في الذبيح فقال على ما ذكره الجلال السيوطي في رسالته القول الفصيح في تعيين الذبيح علي .

وابن عمر ، وأبو هريرة .

وأبو الطفيل .

وسعيد بن جبير .

ومجاهد .

والشعبي .

ويوسف بن مهران .

والحسن البصري .

ومحمد بن كعب القرظي .

وسعيد بن المسيب .

وأبو جعفر الباقر .

وأبو صالح .

والربيع بن أنس .

والكلبي .

وأبو عمرو بن العلاء .

وأحمد بن حنبل وغيرهم أنه إسماعيل عليه السلام لا إسحاق عليه السلام وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس ورجحه جماعة خصوصاً غالب المحدثين وقال أبو حاتم : هو الصحيح ، وفي الهدى أنه الصواب عند علماء الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، وسئل أبو سعيد الضرير عن ذلك فأنشد :

إن الذبيح هديت إسماعيل . . .

نص الكتاب بذاك والتنزيل

شرف به خص الإله نبينا . . .

وأتى به التفسير والتأويل

إن كنت أمته فلا تنكر له . . .

شرفاً به قد خصه التفضيل

وفي دعواه النص نظر وهو المشهور عند العرب قبل البعثة أيضاً كما يشعر به أبيات نقلها الثعالبي في تفسير عن أمية بن أبي الصلت واستدل له بأنه الذي وهب لإبراهيم عليه السلام أثر الهجرة وبان البشارة بإسحاق بعد معطوفة على البشارة بهذا الغلام ، والظاهر التغاير فيتعين كونه إسماعيل وبأنه بشر بأن يوجد وينبأ فلا يجوز ابتلاء إبراهيم عليه السلام بذبحه لأنه علم أن شرط وقوعه منتف ، والجواب بأن الأول بشارة بالوجود وهذا بشارة بالنبوة ولكن بعد الذبح قال صاحب الكشف ضعيف لأن نظم الآية لا يدل على أن البشارة بنبوته بل على أن البشارة بأمر مقيد بالنبوة فإما أن يقدر بوجود إسحاق بعد الذبح ولا دلالة في اللفظ عليه وإما أن يقدر الوجود مطلقاً وهو المطلوب ، فإن قلت : يكفي الدلالة تقدم البشارة بالوجود أولاً قلت : ذاك عليك لا لك ومن يسلم أن المتقدم بشارة بإسحاق حتى يستتب لك المرام وبأن البشارة به وقعت مقرونة بولادة يعقوب منه على ما هو الظاهر في قوله تعالى في هود : ﴿ فبشرناها بإسحاق وَمِن وَرَاءِ إسحاق يَعْقُوبَ ﴾ [ هود : 71 ] ومتى بشر بالولد وولد الولد دفعة كيف يتصور الأمر بذبح الولد مراهقاً قبل ولادة ولده ، ومنع كونه إذ ذاك مراهقاً لجواز أن يكون بالغاً كما ذهب إليه اليهود قد ولد له يعقوب وغيره مكابرة لا يلتفت إليها وبأنه تعالى وصف إسماعيل عليه السلام بالصبر في قوله سبحانه :

﴿ وإسماعيل وَإِدْرِيسَ وَذَا الكفل كُلٌّ مّنَ الصابرين ﴾ [ الأنبياء : 85 ] وبأنه عز وجل وصفه بصدق الوعد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صادق الوعد ﴾ [ مريم : 54 ] ولم يصف سبحانه إسحاق بشيء منهما فهو الأنسب دونه بأن يقول القائل : ﴿ قَالَ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاء الله مِنَ الصابرين ﴾ [ الصافات : 102 ] المصدق قوله بفعله وبأن ما وقع كان بمكة وإسماعيل هو الذي كان فيها وبأن قرني الكبش كانا معلقين في الكعبة حتى احترقا معها أيام حصار الحجاج بن الزبير رضي الله تعالى عنه وكانا قد توارثهما قريش خلفاً عن سلف ، والظاهر أن ذاك لم يكن منهم إلا للفخر ولا يتم لهم إذا كان الكبش فدى لإسحاق دون أبيهم إسماعيل ، وبأنه روى الحاكم في "المستدرك" وابن جرير في تفسيره.

والأموي في مغازيه.

(87/654)

والخلعي في فوائده من طريق إسماعيل بن أبي كريمة عن عمر بن أبي محمد الخطابي عن العتبي عن أبيه عن عبد الله بن سعيد الصنابحي قال : حضرنا مجلس معاوية فتذاكر القوم

إسماعيل وإسحاق أيهما الذبيح ؟ فقال بعض القوم : إسماعيل وقال بعضهم : بل إسحاق فقال معاوية : على الخبير سقطتم كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه أعرابي فقال : يا رسول الله خلفت الكلأ يابساً والماء عابساً هلك العيال وضاع المال فعد على مما أفاء الله تعالى عليك يا ابن الذبيحين فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليه فقال القوم : من الذبيحان يا أمير المؤمنين ؟ قال : إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله تعالى إن سهل أمرها أن ينحر بعض بنيه فلما فرغ أسهم بينهم فكانوا عشرة فخرج السهم على عبد الله فأراد أن ينحره فمنعه أخواله بنو مخزوم وقالوا : أرض ربك وافد ابنك ففداه بمائة ناقة قال معاوية : هذا واحد والآخر إسماعيل وبأنه ذكر في التوراة أن الله تعالى امتحن إبراهيم فقال له : يا إبراهيم فقال : لبيك قال : خذ ابنك وحيدك الذي تحبه وامض إلى بلد العبادة وأصعده ثم قربانا على أحد الجبال الذي أعرفك به فإن معنى وحيدك الذي ليس لك وغيره لا يصدق ذلك على إسحاق حين الأمر بالذبح لأن إسماعيل كان موجوداً إذ ذاك لأنه ولد لإبراهيم على ما في التوراة وهو ابن ست وثمانين سنة وولد إسحاق على ما فيها أيضاً وهو ابن مائة سنة ، وأيضاً قوله تعالى الذي تحبه أليق بإسماعيل لأن أول ولد له من المحبة في الأغلبة ما ليس لمن بعده من الأولاد ، ويعلم مما ذكر أن ما في التوراة الموجودة بأيدي اليهود اليوم من ذكر هو إسحاق بعد الذي تحبه من زياداتهم وأباطيلهم التي أدرجوها في كلام الله تعالى إذ لا يكاد يلتئم مع ما قبله ، وأجاب بعض اليهود عن ذلك بأن إطلاق الوحيد

على إسحاق لأن إسماعيل كان إذ ذاك بمكة وهو تحريف وتأويل باطل لأنه لا يقال الوحيد وصفاً للابن إلا إذا

*(88/654)*

---

كان واحداً في البنوة ولم يكن له شريك فيها ، وقال لي بعض منهم : إن إطلاق ذلك عليه لأنه كان واحداً لأمه ولم يكن لها ابن غيره فقلت : يبعد ذلك كل التبعيد إضافته إلى ضمير إبراهيم عليه السلام ، ويؤيد ما قلنا ما قاله ابن إسحاق ذكر محمد بن كعب أن عمر بن عبد العزيز أرسل إلى رجل كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وكان من علمائهم فسأله أي ابن إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال إسماعيل : والله يا أمير المؤمنين وأن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب ، وذكر ابن كثير أن في بعض نسخ التوراة بكرك بدل وحيدك وهو أظهر في المطلوب ، وقيل : هو إسحاق ونسبه القرطبي للأكثرين وعزاه البغوي .

وغيره إلى عمر .

وعلي .

وابن مسعود .

والعباس .

وعكرمة.

وسعيد بن جبير.

ومجاهد.

والشعبي.

وعبيد بن عمير.

وأبي ميسرة.

وزيد بن أسلم.

وعبد الله بن شقيق.

والزهري.

والقاسم بن يزيد.

ومكحول.

وكعب.

وعثمان بن حاضر.

والسدي.

والحسن.

وقتادة.

وأبي الهذيل .

وابن سابط .

ومسروق .

وعطاء .

ومقاتل وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس واختاره أبو جعفر بن جرير الطبري وجزم به القاضي عياض في الشفاء .

والسهيلي في التعريف والأعلام واستدل له بأنه لم يذكر الله تعالى أنه بشر بإسماعيل قبل كونه فهو إسحاق لثبوته بالنص ولأنه لم تكن تحته هاجر أم إسماعيل فالمدعو ولد من سارة ، وأجيب بأنه كفى هذه الآية دليلاً على أنه مبشر به أيضاً لأن قوله تعالى : ﴿ وبشرناه بإسحاق ﴾ [ الصافات : 112 ] بعد استيفاء هذه القصة وتذييلها بما ذيل ظاهر الدلالة على أن هنالك بشارتين متغايرتين ثم عدم الذكر لا يدل على عدم الوجود ولا يلزم أن يكون طلب ولد من سارة ولا علم أنه عليه السلام دعا بذلك قبل أن وهبت هاجر منه لأنها أهديت إليه في حران قبل الوصول إلى الشام على أن البشارة بإسحاق كانت في الشام نصاً فظاهر هذه الآية أنها قبل الوصول إليها لأن البشارة عقيب الدعاء وكان قبل الوصول إلى الشام قاله في "الكشف" .

وبما رواه ابن جرير عن أبي كريب عن زيد بن حباب عن الحسن بن دينار عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الذبيح إسحاق "

وتعقب بأن الحسن بن دينار متروك وشيخه منكر الحديث ، وبما أخرج الديلمي في مسند الفردوس من طريق عبد الله بن ناجية عن محمد بن حرب النسائي عن عبد المؤمن بن عباد عن الأعمش عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن داود سأل ربه مسألة فقال اجعلني مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب فأوحى الله تعالى إليه إني ابتليت إبراهيم بالنار فصبر وابتليت إسحاق بالذبح فصبر وابتليت يعقوب فصبر " وبما أخرجه الدارقطني .

والديلمي في مسند الفردوس من طريقه عن محمد بن أحمد بن إبراهيم الكاتب عن الحسين بن فهم عن خلف بن سالم عن بهز بن أسد عن شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذبيح إسحاق " وبما أخرجه الطبراني في الأوسط .

وابن أبي حاتم في تفسيره من طريق الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى خيرني بين أن يغفر لنصف أمتي أو شفاعتي فاخترت شفاعتي ورجوت أن تكون أعم لأمتي ولولا الذي سبقني إليه العبد الصالح لعجلت دعوتي إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق كرب الذبح قيل له: يا إسحاق سل تعطه قال: أما والله لأتعجلنها قبل نزغات الشيطان اللهم من مات لا يشرك بك شيئاً قد أحسن فاغفر له " وتعقب هذا بأن عبد الرحمن ضعيف، وقال ابن كثير الحديث غريب منكر وأخشى أن يكون فيه زيادة مدرجة وهي قوله: إن الله تعالى لما فرج الله الخ وإن كان محفوظاً فالأشبه أن السياق عن إسماعيل وحرفوه بإسحاق إلى غير ذلك من الأخبار وفيها من الموقوف والضعيف والموضوع كثير، ومتى صح حديث مرفوع في أنه إسحاق قبلناه ووضعناه على العين والرأس.

والذاهبون إلى هذا القول يدعون صحة شيء منها في ذلك.

وأجيب عن بعض ما استدل به للأول بأن وقوع القصة بمكة غير مسلم بل كان ذلك بالشام وتعليق القرنين في الكعبة لا يدل على وقوعها بمكة لجواز أنهما نقلا من بلاد الشام إلى مكة فعلقا فيها ، وعلى تسليم الوقوع بمكة لا مانع من أن يكون إبراهيم قد سار به من الشام إليها بل قد روي القول به ، أخرج عبد الله بن أحمد في "زوائد الزهد" عن سعيد بن جبير قال : لما رأى إبراهيم في المنام ذبح إسحاق سار به من منزله إلى المنحر بمنى مسيرة شهر في غداة واحدة فلما صرف عنه الذبح وأمر بذبح الكبش ذبحه ثم راح به رواحاً إلى منزله في عشية واحدة مسيرة شهر طويت له الأودية والجبال ، وأمر الفخر لو سلم ليس بالاستدلال به كثير فخر ، والخبر الذي فيه يا ابن الذبيحين غريب وفي إسناده من لا يعرف حاله وفيه ما هو ظاهر الدلالة على عدم صحته من قوله فلما فرغ أسهم بينهم فكانوا عشرة فخرج السهم على عبد الله فإن عبد الله بإجماع أهل الإخبار لم يكن مولوداً عند حفر زمزم ، وقصة نذر عبد المطلب ذبح أحد أولاده تروى بوجه آخر وهو أنه نذر الذبح إذا بلغ أولاده عشراً فلما بلغوها بولادة عبد الله كان ما كان .

وما شاع من خبر أنا ابن الذبيحين قال العراقي : لم أقف عليه ، والخبر السابق بعد ما عرف حاله لا يكفي لثبوته حديثاً فلا حاجة إلى تأويله بأنه أريد بالذبيحين فيه إسحاق وعبد الله بناءً على أن الأب قد يطلق على العم أو أريد بهما الذابحان وهما إبراهيم وعبد المطلب يحمل فعيل على معنى فاعل لا مفعول ، وحمل هؤلاء ﴿ وبشرناه بإسحاق نَبِيّاً ﴾ [ الصافات : 112 ] على البشارة بنبوته وما تقدم على البشارة بأن يوجد قبل ولما كان التبشير هناك قبل الولادة والتسمية إنما تكون بعدها في الأغلب لم يسم هناك وسماه هنا لأنه بعد الولادة واستأنس للاتحاد بوصفه بكونه من الصالحين لأن مطلوبه كان ذلك فكأنه قيل له هذا الغلام الذي بشرت به أولاً هو ما طلبته بقولك : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصالحين ﴾ [ الصافات : 100 ] وأنت تعلم أن حمله على البشارة بالنبوة خلاف الظاهر إذ كان الظاهر أن يقال لو أريد ذلك بشرناه بنبوته ونحوه .

وتقدير أن يوجد نبياً لا يدفعه كما لا يخفى وكذا وصفه بالصلاح الذي طلبه فتأمل .

ومن العلماء من رأى قوة الأدلة من الطرفين ولم يترجح شيء منها عنده فتوقف في التعيين كالجلال السيوطي عليه الرحمة فإنه قال في آخر رسالته السابقة : كنت ملت إلى القول بأن الذبيح إسحاق في التفسير وأنا الآن متوقف عن ذلك ، وقال بعضهم كما نقله الخفاجي : إن في الدلالة على كونه إسحاق أدلة كثيرة وعليه جملة أهل الكتاب ولم ينقل في الحديث ما يعارضه فلعله وقع مرتين مرة بالشام لإسحاق ومرة بمكة لإسماعيل عليهما السلام ،

والتوقف عندي خير من هذا القول ، والذي أميل أنا إليه أنه إسماعيل عليه السلام بناءً على أن ظاهر الآية يقتضيه وأنه المروى عن كثير من أئمة أهل البيت ولم أتيقن صحة حديث مرفوع يقتضي خلاف ذلك ، وحال أهل الكتاب لا يخفى على ذوي الألباب .

(93/654)

---

البحث الثاني : أنه استدل بما في القصة على جواز النسخ قبل الفعل وهو مذهب كثير من الأصوليين وخالف فيه المعتزلة والصيرفي ، ووجه الاستدلال على ما قرره بعض الأجلة أن إبراهيم عليه السلام أمر بذبح ولده بدليل قوله :

﴿ افعل مَا تُؤمَرُ ﴾ [ الصافات : 102 ] ولأنه عليه السلام أقدم على الذبح وترويع الولد ولو لم يكن مأموراً به لكان ذلك ممتنعاً شرعاً وعادة ونسخ عنه قبل الفعل لأنه لم يفعل ولو كان ترك الفعل مع حضور الوقت لكان عاصيا .

واعترض عليه بانا لا نسلم أنه لو لم يفعل وقد حضر الوقت لكان عاصياً لجواز أن يكون الوقت موسعاً فيحصل التمكن فلا يعصى بالتأخير ثم ينسخ .

وأجيب أما أولاً فبأنه لو كان موسعاً لكان الوجوب متعلقاً بالمستقبل لأن الأمر باق عليه قطعاً فإذا نسخ فقد نسخ تعلق الوجوب بالمستقبل وهو المانع من النسخ عندهم فإنه يقولون

: إذا تعلق الوجوب بالمستقبل مع بقاء الأمر عليه امتنع رفع ذلك التعلق بالنهي عنه والإلزم توارد الأمر والنهي على شيء واحد وهو محال ، فإذا جوزوا النسخ في الواجب الموسع في وقته قبل فعله مع أن الوجوب فيه تعلق بالمستقبل والأمر باق عليه فقد اعترفوا بجواز ما منعوه وهو المطلوب ، وأما ثانياً فبأنه لو كان موسعا لأخر الفعل ولم يقدم على الذبح وترويع الولد عادة إما رجاء أن ينسخ عنه وإما رجاء أن يموت فيسقط عنه لعظم الأمر ومثله ما يؤخر عادة .

(94/654)

---

وتعقب هذا بأن عادة الأنبياء عليهم السلام المبادرة إلى امتثال أمر الله تعالى على خلاف عادة أكثر الناس ولا تستبعد منهم خوارق العادات وإبراهيم من أجلهم قدراً سلمنا أن العادة ولو بالنسبة إلى الأنبياء تقتضي التأخير لكن من أين علم أنه عليه السلام لم يؤخر إلى آخر الوقت اتباعاً للعادة فالمعول عليه الجواب الأول وبه يتم الاستدلال ، وربما دفعوه بوجوه أخر ، منها أنه لم يؤمر بشيء وإنما توهم ذلك توهماً بإراءة الرؤيا ولو سلم فلم يؤمر بالذبح إنما أمر بمقدماته من إخراج الولد وأخذه المدية وتله للجبين ، وتعقب هذا بأنه ليس بشيء لما مر من قوله : ﴿ افعل مَا تُؤمَرُ ﴾ وأقدامه على الذبح والترويع المحرم لولا الأمر كيف ويدل

على خلافه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين ﴾ [ الصافات : 106 ] وقوله سبحانه : ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [ الصافات : 107 ] ولولا الأمر لما كان بلاء مبيناً ولما احتاج إلى الفداء ، وكون الفداء عن ظنه أنه مأمور بالذبح لا يخفى حاله ، وعلى أصل المعتزلة هو توريط لإبراهيم عليه السلام في الجهل بما يظهر أنه أمر وليس بأمر وذلك غير جائز ، ومن لا يجوز الظن الفاسد على الأنبياء عليهم السلام فهذا عنده أدنى من لا شيء ، ومنها أنا لا نسلم أنه لم يذبح بل روي أنه ذبح وكان كلما قطع شيئاً يلتحم عقيب القطع وأنه خلق صفيحة نحاس أو حديد تمنع الذبح ، وتعقب بأن هذا لا يسمع ، أما أولا فلأنه خلاف العادة والظاهر ولم ينقل نقلاً معتبراً .

وأجيب بأن الرواية سند للمنع والضعف لا ينافيه والاحتمال كاف في المقام ولا ريب في جوازه كإرسال الكبش من الجنة ، وأما ثانياً فلأنه لو ذبح لما احتيج إلى الفداء ، وكونه لأن الازهاق لم يحصل ليس بشيء ، ولو منع الذبح بالصفيحة مع الأمر به لكان تكليفاً بالمحال وهو لا يجوزونه ثم قد نسخ عنه وإلا لأثم بتركه فيكون نسخاً قبل التمكن فهو لنا لا علينا .

ومن السادة الحنفية من قال : ما نحن فيه ليس من النسخ لأنه رفع الحكم لا إلى بدل وهنا له بدل قائم مقامه كالفدية للصوم في حق الشيخ الفاني فعلم أنه لم يرفع حكم المأمور به .

وفي التلويح فإن قيل : هب أن الخلف قام مقام الأصل لكنه استلزم حرمة الأصل أي ذبحه وتحريم الشيء بعد وجوبه نسخ لا محالة لرفع حكمه ، قيل : لا نسلم كونه نسخاً وإنما يلزم للو كان حكماً شرعياً وهو ممنوع فإن حرمة ذبح الولد ثابتة في الأصل فزالت بالوجوب ثم عادت بقيام الشاة الولد فلا تكون حكماً شرعياً حتى يكون ثبوتها نسخاً للوجوب انتهى ، وتعقب بأن هذا بناء على ما تقرر من أن رفع الإباحة الأصلية ليس نسخاً أما على أنه نسخ كما التزمه بعض الحنفية إذ لا إباحة ولا تحريم إلا بشرع كما قرروه يكون رفع الحرمة الأصلية نسخاً وإذا كان رفعها نسخاً أيضاً يبقى الإيراد المذكور من غير جواب على ما قرر في "شرح التحرير" ، هذا وتمام الكلام في حجة الفريقين مفصل في أصول الفقه وهذا المقدار كاف لغرض المفسر .

البحث الثالث : أنه استدل أبو حنيفة بالقصة على أن لو نذر أن يذبح ولده فعليه شاة ، ووافقه في ذلك محمد ، ونقله الإمام القرطبي عن مالك .

وفي تنوير الأبصار وشرحه الدر المختار نذر أن يذبح ولده فعليه شاة لقصة الخليل عليه السلام وألغاه الثاني والشافعي كنذره قتله ونقل الجصاص أن نذر القتل كنذر الذبح ، واعترض على الإمام بأنه نذر معصية وجاء لا نذر في معصية الله تعالى ، وقال هو : إن ذلك

في شرع إبراهيم عليه السلام عبارة عن ذبح شاة ولم يثبت نسخه فليس معصية ، وقال بعض الشافعية : ليس في النظم الجليل ما يدل على أنه كان نذراً من إبراهيم عليه السلام حتى يستدل به .

*(96/654)*

---

وأجيب بأنه ورد في التفسير المؤثور أنه نذر ذلك وهو في حكم النص ولذا قيل له لما بلغ معه السعي : أوف بنذرك ، وبأنه إذا قامت الشاة مقام ما أوجبه الله تعالى عليه علم قيامها مقام ما يوجبه على نفسه بالطريق الأولى فيكون ثابتاً بدلالة النص ، والانصاف أن مدرك الشافعي .

وأبي يوسف عليهما الرحمة أظهر وأقوى من مدرك الإمام الأعظم رضي الله تعالى عنه في هذه المسألة فتأمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

*(97/654)*

---

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) ﴾

لما ذكر سبحانه أنه أرسل في الأمم الماضية منذرين : ذكر تفصيل بعض ما أجمله ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ واللام هي : الموطئة للقسم ، وكذا اللام في قوله : ﴿ فَلَنِعْمَ المجيبون ﴾ أي : نحن ، والمراد : أن نوحاً دعا ربه على قومه لما عصوه ، فأجاب الله دعاءه ، وأهلك قومه بالطوفان .

فالنداء هنا هو : نداء الدعاء لله ، والاستغاثة به ، كقوله : ﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [ نوح : 26 ] ، وقوله : ﴿ أَنِّى مَغْلُوبٌ فانتصر ﴾ [ القمر : 10 ] قال الكسائي : أي : فلنعم المجيبون له كنا ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ المراد بأهله : أهل دينه ، وهم من آمن معه ، وكانوا ثمانين ، والكرب العظيم هو : الغرق ، وقيل : تكذيب قومه له ، وما يصدر منهم إليه من أنواع الأذايا ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ وحدهم دون غيرهم كما يشعر به ضمير الفصل ، وذلك لأن الله أهلك الكفرة بدعائه ، ولم يبق منهم باقية ، ومن كان معه في السفينة من المؤمنين ماتوا كما قيل ، ولم يبق إلا أولاده .

قال سعيد بن المسيب : كان ولد نوح ثلاثة ، والناس كلهم من ولد نوح ، فسام أبو العرب ، وفارس ، والروم ، واليهود ، والنصارى .

وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب : السند .

والهند، والنوب، والزنج، والحبشة، والقبط، والبربر وغيرهم.

ويافث أبو الصقالب، والترك، والخزر، ويأجوج، ومأجوج وغيرهم.

(98/654)

---

وقيل: إنه كان لمن مع نوح ذرّية كما يدلّ عليه قوله: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ [الإسراء: 3]، وقوله: ﴿ قِيلَ يا نوح اهبط بسلام مّنّا وبركات عَلَيْكَ وعلى أُمَمٍ مّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: 48]، فيكون على هذا معنى ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾، وذرّيته وذرّية من معه دون ذرّية من كفر، فإن الله أغرقهم، فلم يبق لهم ذرّية.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخرين ﴾ يعني: في الذين يأتون بعده إلى يوم القيامة من الأمم، والمتروك هذا هو قوله: ﴿ سلام على نُوحٍ ﴾ أي: تركنا هذا الكلام بعينه، وارتفاعه على الحكاية، والسلام هو: الثناء الحسن، أي: يثنون عليه ثناءً حسناً، ويدعون له، ويترحمون عليه.

قال الزجاج: تركنا عليه الذكر الجميل إلى يوم القيامة، وذلك الذكر هو قوله: ﴿ سلام على نُوحٍ ﴾.

قال الكسائي : في ارتفاع ﴿ سلام ﴾ ، وجهان : أحدهما وتركنا عليه في الآخرين يقال : سلام على نوح.

والوجه الثاني أن يكون المعنى : وأبقينا عليه ، وتمّ الكلام ، ثم ابتدأ ، فقال : سلام على نوح ، أي : سلامة له من أن يذكر بسوء في الآخرين .

قال المبرد : أي : تركنا عليه هذه الكلمة باقية ، يعني : يسلمون عليه تسليماً ، ويدعون له ، وهو من الكلام المحكي كقوله : ﴿ سُورَةٌ أنزلناها ﴾ [ النور : 1 ] ، وقيل : إنه ضمن تركنا معنى : قلنا .

قال الكوفيون : جملة ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ في محل نصب مفعول ﴿ تركنا ﴾ ، لأنه ضمن معنى قلنا .

قال الكسائي : وفي قراءة ابن مسعود " سلاماً " منصوب بتركنا ، أي : تركنا عليه ثناءً حسناً ، وقيل : المراد بالآخرين : أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

*(99/654)*

---

و ﴿ في العالمين ﴾ متعلق بما تعلق به الجار والمجرور الواقع خبراً ، وهو على نوح ، أي : سلام ثابت ، أو مستمرّ ، أو مستقرّ على نوح في العالمين من الملائكة ، والجنّ ، والإنس ،

وهذا يدل على عدم اختصاص ذلك بأمة محمد صلى الله عليه وسلم كما قيل : ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها من التكرمة لنوح بإجابة دعائه ، وبقاء الثناء من الله عليه ، وبقاء ذريته ، أي : إنا كذلك نجزي من كان محسناً في أقواله ، وأفعاله راسخاً في الإحسان معروفاً به ، والكاف في ﴿ كذلك ﴾ نعت مصدر محذوف ، أي : جزاء كذلك الجزاء ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ هذا بيان لكونه من المحسنين ، وتعليل له بأنه كان عبداً مؤمناً مخلصاً لله ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين ﴾ أي : الكفرة الذين لم يؤمنوا بالله ، ولا صدّقوا نوحاً .

ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم ، وبيّن : أنه ممن شايع نوحاً ، فقال : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإبراهيم ﴾ أي : من أهل دينه ، وممن شايعه ، ووافقه على الدعاء إلى الله ، وإلى توحيده ، والإيمان به .

قال مجاهد : أي : على منهاجه ، وسنّته .

قال الأصمعي : الشيعة : الأعوان ، وهو مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذي يوقد مع الكبار حتى يستوقد ، وقال الفراء : المعنى : وإن من شيعة محمد لإبراهيم ، فالهاء في شيعته على هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكذا قال الكلبي .

ولا يخفى ما في هذا من الضعف ، والمخالفة للسياق .

والظرف في قوله : ﴿ إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ منصوب بفعل محذوف ، أي : اذكر ، بما

في الشيعة من معنى المتابعة.

قال أبو حيان: لا يجوز؛ لأن فيه الفصل بين العامل، والمعمول بأجنبيّ، وهو: إبراهيم، والأولى أن يقال: إن لام الابتدء تمنع ما بعدها من العمل فيما قبلها، والقلب السليم المخلص من الشرك، والشك.

(100/654)

---

وقيل: هو الناصح لله في خلقه، وقيل: الذي يعلم أن الله حقّ، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور.

ومعنى مجيئه إلى ربه يحتمل وجهين: أحدهما: عند دعائه إلى توحيده، وطاعته.

الثاني: عند إلقائه في النار.

وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ بدل من الجملة الأولى، أو ظرف لسليم، أو ظرف لجاء، والمعنى: وقت قال لأبيه آزر، وقومه من الكفار: أيّ شيء تعبدون ﴿ أَإِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ فَمَا ﴾ انتصاب "إفكاً" على أنه مفعول لأجله، وانتصاب ﴿ آلهة ﴾ على أنه مفعول ﴿ تريدون ﴾ ، والتقدير: أتريدون آلهة من دون الله للإفك، و ﴿ دون ﴾ ظرف ل ﴿ تريدون ﴾ ، وتقديم هذه المعمولات للفعل عليه للاهتمام.

وقيل : انتصاب " إفكاً " على أنه مفعول به ل ﴿ تريدون ﴾ ، و ﴿ آلهة ﴾ بدل منه ، جعلها نفس الإفك مبالغة ، وهذا أولى من الوجه الأوّل .

وقيل : انتصابه على الحال من فاعل ﴿ تريدون ﴾ أي : أتريدون آلهة آفكين ، أو ذوي إفك .

قال المبرد : الإفك : أسوأ الكذب ، وهو الذي لا يثبت ويضطرب ، ومنه ائتفكت بهم الأرض ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين ﴾ أي : ما ظنكم به إذا لقيتموه ، وقد عبدتم غيره ، وما ترونه يصنع بكم ؟ وهو تحذير مثل قوله : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ [ الانفطار : 6 ] وقيل : المعنى : أيّ شيء توهمتموه بالله حتى أشركتم به غيره ؟

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النجوم * فَقَالَ إِنّى سَقِيمٌ ﴾ قال الواحدي : قال المفسرون : كانوا يتعاطون علم النجوم ، فعاملهم بذلك لئلا ينكروا عليه ، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ؛ لتلزمهم الحجة في أنها غير معبودة ، وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه ، وأراد أن يتخلف عنهم ، فاعتلّ بالسقم : وذلك أنهم كلفوه أن يخرج معهم إلى عيدهم ، فنظر إلى النجوم يريهم أنه مستدلّ بها على حاله ، فلما نظر إليها قال : إني سقيم ، أي : سأسقم .

وقال الحسن : إنهم لما كلفوه أن يخرج معهم تفكر فيما يعمل ، فالمعنى على هذا : أنه نظر فيما نجم له من الرأي ، أي : فيما طلع له منه ، فعلم أن كلّ شيء يسقم ﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ .

قال الخليل ، والمبرد : يقال للرجل إذا فكر في الشيء يدبره : نظر في النجوم .

وقيل : كانت الساعة التي دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعة تعتاده فيها الحمى .

وقال الضحاك : معنى : ﴿ إني سقيم ﴾ : سأسقم سقم الموت ، لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ، ثم يموت ، وهذا تورية ، وتعريض كما قال للملك لما سأله عن سارّة : هي أختي يعني : أخوّة الدين .

وقال سعيد بن جبير : أشار لهم إلى مرض يسقم ، ويعدي ، وهو : الطاعون ، وكانوا يهربون من ذلك ، ولهذا قال : ﴿ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أي : تركوه ، وذهبوا مخافة العدوى ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾ يقال : راغ يروغ روغاً ، وروغاناً : إذا مال ، ومنه طريق رائغ ، أي : مائل .

ومنه قول الشاعر :

فيريك من طرف اللسان حلاوة . . . ويروغ عنك كما يروغ الثعلب

وقال السدّي : ذهب إليهم ، وقال أبو مالك : جاء إليهم ، وقال الكلبي : أقبل عليهم ،

والمعنى متقارب ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي : فقال إبراهيم للأصنام التي راغ إليها استهزاء ، وسخرية : ألا تأكلون من الطعام الذي كانوا يصنعونه لها ، وخاطبها كما يخاطب من يعقل ؛ لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة .

وكذا قوله : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ ، فإنه خاطبهم خطاب من يعقل ، والاستفهام للتهكم بهم ؛ لأنه قد علم أنها جمادات لا تنطق .

قيل : إنهم تركوا عند أصنامهم طعامهم للتبرك بها ، وليأكلوه إذا رجعوا من عيدهم .

وقيل : تركوه للسدنة ، وقيل : إن إبراهيم هو الذي قرب إليها الطعام مستهزئاً بها .

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا باليمين ﴾ أي : فمال عليهم يضربهم ضرباً باليمين ، فانتصابه على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف ، أو هو مصدر لراغ ، لأنه بمعنى : ضرب .



---

قال الواحدي : قال المفسرون : يعني : بيده اليمنى يضربهم بها .

وقال السدي : بالقوة ، والقدرة ؛ لأن اليمين أقوى اليدين .

قال الفراء ، وثعلب : ضرباً بالقوة ، واليمين القوة .

وقال الضحاك ، والربيع بن أنس : المراد باليمين : اليمين التي حلفها حين قال : ﴿ وتالله

لأَكِيدَنَّ أصنامكم ﴾ [ الأنبياء : 57 ] وقيل : المراد باليمين هنا : العدل كما في قوله : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ﴾ [ الحاقة : 44 ، 45 ] أي : بالعدل ، واليمين كناية عن العدل كما أن الشمال كناية عن الجور ، وأول هذه الأقوال أولاها .

﴿ فَأَقْبَلُواْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ أي : أقبل إليه عبدة تلك الأصنام يسرعون لما علموا بما صنعه بها ، ويزفون في محل نصب على الحال من فاعل أقبلوا .

قرأ الجمهور ﴿ يزفون ﴾ بفتح الياء من زف الظليم يزف إذا عدا بسرعة ، وقرأ حمزة بضم الياء من أزف يزف ، أي : دخل في الزفيف ، أو يحملون غيرهم على الزفيف .

قال الأصمعي : أزففت الإبل ، أي : حملتها على أن تزف .

وقيل : هما لغتان ، يقال : زف القوم ، وأزفوا ، وزفت العروس ، وأزففتها ، حكي ذلك عن الخليل .

قال النحاس : زعم أبو حاتم : أنه لا يعرف هذه اللغة ، يعني : يزفون بضم الياء ، وقد عرفها جماعة من العلماء منهم الفراء ، وشبهها بقولهم : أطردت الرحل ، أي : صيرته إلى ذلك ،

وقال المبرد : الزفيف : الإسراع .

وقال الزجاج : الزفيف : أوّل عدو النعام .

وقال قتادة ، والسدّي : معنى يزفون : يمشون .

وقال الضحاك : يسعون .

وقال يحيى بن سلام : يرعدون غضباً .

وقال مجاهد : يختالون ، أي : يمشون مشيء الخيلاء ، وقيل : يتسللون تسللاً بين المشي ، والعدو ، والأولى تفسير يزفون بيسرعون ، وقرىء " يزفون " على البناء للمفعول ، وقرىء " يزفون "كيرمون .

وحكى الثعلبي عن الحسن ، ومجاهد ، وابن السميفع : أنهم قرءوا " يرفون " بالراء المهملة ، وهي : ركض بين المشي والعدو .

(103/654)

---

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ لما أنكروا على إبراهيم ما فعله بالأصنام ، ذكر لهم الدليل الدال على فساد عبادتها ، فقال مبكتاً لهم ، ومنكراً عليهم : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أي : أتعبدون أصناماً أنتم تنحتونها ، والنحت : النجر ، والبري ، نحته ينحته بالكسر نحتاً ، أي : براه ، والنحاتة البراية ، وجملة ﴿ والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تعبدون ، و "ما" في ﴿ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ موصولة ، أي : وخلق الذي تصنعونه على العموم ويدخل فيها الأصنام التي ينحتونها دخولاً أولياً ، ويكون معنى العمل

هنا : التصوير ، والنحت ، ونحوهما ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أي : خلقكم ، وخلق عملكم ، ويجوز أن تكون استفهامية ، ومعنى الاستفهام : التوبيخ ، والتقريع ، أي : وأي شيء تعملون ، ويجوز أن تكون نافية ، أي : إن العمل في الحقيقة ليس لكم ، فأنتم لا تعملون شيئاً ، وقد طول صاحب الكشاف الكلام في رد قول من قال : إنها مصدرية ، ولكن بما لا طائل تحته ، وجعلها موصولة أولى بالمقام وأوفق بسياق الكلام .

(104/654)

---

وجملة ﴿ قَالُواْ ابنوا لَهُ بنيانا فَألْقُوهُ فِى الجحيم ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كالجملة التي قبلها ، قالوا هذه المقالة لما عجزوا عن جواب ما أورده عليهم من الحجة الواضحة ، فتشاوروا فيما بينهم أن يبنوا له حائطاً من حجارة ، ويملؤوه حطباً ويضرموه ، ثم يلقوه فيه ، والجحيم : النار الشديدة الاتقاد : قال الزجاج ، وكل نار بعضها فوق بعض ، فهي : جحيم ، واللام في الجحيم عوض عن المضاف إليه ، أي : في جحيم ذلك البنيان ، ثم لما ألقوه فيها نجاه الله منها ، وجعلها عليه برداً وسلاماً ، وهو معنى قوله : ﴿ فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ الكيد : المكر ، والحيلة ، أي : احتالوا لإهلاكه ، فجعلناهم الأسفلين المقهورين المغلوبين ؛ لأنها قامت له بذلك عليهم الحجة التي لا يقدرون على دفعها

، ولا يمكنهم جحدها ، فإن النار الشديدة الاتقاد العظيمة الاضطرام المتراكمة الجمار إذا صارت بعد إلقائه عليها برداً وسلاماً ، ولم تؤثر فيه أقل تأثير كان ذلك من الحجة بمكان يفهمه كل من له عقل ، وصار المنكر له سافلاً ساقط الحجة ظاهر التعصب واضح التعسف ، وسبحان من يجعل المحن لمن يدعو إلى دينه منحاً ، ويسوق إليهم الخير بما هو من صور الضير .

ولما انقضت هذه الوقعة وأسفر الصبح لذي عينين ، وظهرت حجة الله لإبراهيم ، وقامت براهين نبوته ، وسطعت أنوار معجزته ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى ﴾ أي : مهاجر من بلد قومي ، الذين فعلوا ما فعلوا تعصباً للأصنام ، وكفراً بالله ، وتكذيباً لرسله إلى حيث أمرني بالمهاجرة إليه ، أو إلى حيث أتمكن من عبادته ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ أي : سيهديني إلى المكان الذي أمرني بالذهاب إليه ، أو إلى مقصدي .

(105/654)

---

قيل : إن الله سبحانه أمره بالمصير إلى الشام ، وقد سبق بيان هذا في سورة الكهف مستوفى ، قال مقاتل : فلما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد ، فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصالحين ﴾ أي : ولداً صالحاً من الصالحين يعينني على طاعتك ، ويؤنسني في الغربة

هكذا قال المفسرون ، وعللوا ذلك بأن الهبة قد غلب معناها في الولد ، فتحمل عند الإطلاق عليه ، وإذا وردت مقيدة حملت على ما قيدت به كما في قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [ مريم : 53 ] ، وعلى فرض أنها لم تغلب في طلب الولد ، فقوله : ﴿ فبشرناه بغلام حَلِيمٍ ﴾ يدل على أنه ما أراد بقوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصالحين ﴾ إلا الولد ، ومعنى حليم : أن يكون حليماً عند كبره ، فكأنه بشر ببقاء ذلك الغلام حتى يكبر ، ويصير حليماً ، لأن الصغير لا يوصف بالحلم .

قال الزجاج : هذه البشارة تدل على أنه مبشر با بن ذكر ، وأنه يبقى حتى ينتهي في السن ، ويوصف بالحلم ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعى ﴾ في الكلام حذف كما تشعر به هذه الفاء الفصيحة ، والتقدير : فوهبنا له الغلام ، فنشأ حتى صار إلى السن التي يسعى فيها مع أبيه في أمور دنياه .

قال مجاهد : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعى ﴾ أي : شبّ ، وأدرك سعيه سعي إبراهيم .

وقال مقاتل : لما مشى معه .

قال الفراء : كان يومئذٍ ابن ثلاث عشرة سنة .

وقال الحسن : هو سعي العقل الذي تقوم به الحجة .

وقال ابن زيد : هو السعي في العبادة ، وقيل : هو الاحتلام ﴿ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنّى أرى فِى المنام أَنّى أَذْبَحُكَ ﴾ قال إبراهيم لابنه لما بلغ معه ذلك المبلغ : إني رأيت في المنام هذه الرؤيا .

قال مقاتل : رأى إبراهيم ذلك ثلاث ليال متتابعات .

قال قتادة : رؤيا الأنبياء حقّ ، إذا رأوا شيئًا فعلوه .

(106/654)

---

وقد اختلف أهل العلم في الذبيح : هل هو إسحاق ، أو إسماعيل ؟ قال القرطبي : فقال أكثرهم : الذبيح إسحاق ، وممن قال بذلك العباس بن عبد المطلب ، وابنه عبد الله ، وهو الصحيح عن عبد الله بن مسعود ، ورواه أيضاً عن جابر ، وعليّ بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر ، وعمر بن الخطاب ، قال : فهؤلاء سبعة من الصحابة .

قال : ومن التابعين ، وغيرهم : علقمة ، والشعبي ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وكعب الأحبار ، وقتادة ، ومسروق ، وعكرمة ، والقاسم بن أبي برزة ، وعطاء ، ومقاتل ، وعبد الرحمن بن سابط ، والزهري ، والسدّي ، وعبد الله بن أبي الهذيل ، ومالك بن أنس كلهم قالوا : الذبيح إسحاق ، وعليه أهل الكتابين اليهود ، والنصارى ، واختاره غير واحد ، منهم النحاس ، وابن جرير الطبري ، وغيرهما .

قال : وقال آخرون : هو إسماعيل ، وممن قال بذلك : أبو هريرة ، وأبو الطفيل عامر ابن واثلة ، وروي ذلك عن ابن عمر ، وابن عباس أيضاً ، ومن التابعين : سعيد بن المسيب ،

والشعبي ، ويوسف بن مهران ، ومجاهد ، والربيع بن أنس ، ومحمد بن كعب القرظي ، والكلبي ، وعلقمة ، وعن الأصمعي قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال : يا أصمعي أين عزب عنك عقلك ، ومتى كان إسحاق بمكة ؟ وإنما كان إسماعيل بمكة .

قال ابن كثير في تفسيره : وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق ، وحكي ذلك عن طائفة من السلف حتى يقال عن بعض الصحابة ، وليس في ذلك كتاب ، ولا سنّة ، وما أظنّ ذلك تلقي إلا عن أخبار أهل الكتاب ، وأخذ مسلماً من غير حجة ، وكتاب الله شاهد ، ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم ، وذكر أنه الذبيح ، وقال بعد ذلك ﴿ وبشرناه بإسحاق نَبِيّاً مِّنَ الصالحين ﴾ اهـ .

*(107/654)*

---

واحتجّ القائلون بأنه إسحاق بأن الله عزّ وجلّ قد أخبرهم عن إبراهيم حين فارق قومه ، فهاجر إلى الشام مع امرأته سارّة ، وابن أخيه لوط ، فقال : ﴿ إِنّى ذَاهِبٌ إلى رَبّى سَيَهْدِينِ ﴾ أنه دعا ، فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصالحين ﴾ ، فقال تعالى :

﴿ فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله وَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ [ مريم : 49 ] .

ولأن الله قال : ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ ، فذكر أنه في الغلام الحليم الذي بشر به إبراهيم

، وإنما بشر بإسحاق ، لأنه قال : ﴿ وبشرناه بإسحاق ﴾ ، وقال هنا : ﴿ بغلام حَلِيمٍ ﴾ وذلك قبل أن يعرف هاجر ، وقبل أن يصير له إسماعيل ، وليس في القرآن أنه بشر بولد إلا إسحاق .

قال الزجاج : الله أعلم أيهما الذبيح اه .

وما استدلّ به الفريقان يمكن الجواب عنه ، والمناقشة له .

ومن جملة ما احتجّ به من قال إنه إسماعيل بأن الله وصفه بالصبر دون إسحاق كما في قوله : ﴿ وإسماعيل واليسع وَذَا الكفل كُلٌّ مّنَ الصابرين ﴾ [ الأنبياء : 85 ] ، وهو : صبره على الذبح ، ووصفه بصدق الوعد في قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صادق الوعد ﴾ [ مريم : 54 ] ؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح ، فوفى به ، ولأن الله سبحانه قال : ﴿ وبشرناه بإسحاق نَبِيّاً ﴾ فكيف يأمره بذبحه ، وقد وعده أن يكون نبياً ، وأيضاً فإن الله قال : ﴿ فبشرناها بإسحاق وَمِن وَرَاء إسحاق يَعْقُوبَ ﴾ [ هود : 71 ] ، فكيف يؤمر بذبح إسحاق قبل إنجاز الوعد في يعقوب ، وأيضاً ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة ، فدل على أن الذبيح إسماعيل ، ولو كان إسحاق لكان الذبح واقعاً ببيت المقدس ، وكل هذا أيضاً يحتمل المناقشة ﴿ فانظر مَاذَا ترى ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي " ترى " بضم الفوقية ، وكسر الراء ، والمفعولان محذوفان ، أي : انظر ماذا تريني إياه من صبرك ، واحتمالك .

وقرأ الباقون من السبعة بفتح التاء ، والراء من الرأي ، وهو : مضارع رأيت ، وقرأ الضحاك ، والأعمش ، " ترى " بضم التاء ، وفتح الراء مبنياً للمفعول ، أي : ماذا يخيل إليك ، ويسنح لخاطرك .

قال الفراء في بيان معنى القراءة الأولى : انظر ماذا ترى من صبرك ، وجزعك .

قال الزجاج : لم يقل هذا أحد غيره .

وإنما قال العلماء ماذا تشير ، أي : ما تريك نفسك من الرأي ، وقال أبو عبيد : إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة ، وكذا قال أبو حاتم ، وغلطهما النحاس وقال : هذا يكون من رؤية العين ، وغيرها ، ومعنى القراءة الثانية ظاهر واضح ، وإنما شاوره ليعلم صبره لأمر الله ، وإلا فرؤيا الأنبياء وحي ، وامتثالها لازم لهم متحتم عليهم .

﴿ قَالَ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ ﴾ أي : ما تؤمر به مما أوحي إليك من ذبحي ، و " ما " موصولة ، وقيل : مصدرية على معنى : افعل أمرك ، والمصدر مضاف إلى المفعول ، وتسمية المأمور به أمراً ، والأوّل أولى ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاء الله مِنَ الصابرين ﴾ على ما ابتلاني به من الذبح ، والتعليق بمشيئة الله سبحانه تبركاً بها منه ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ أي : استسلما لأمر

الله ، وأطاعاه ، وانقادا له .

قرأ الجمهور " أسلمنا " ، وقرأ عليّ ، وابن مسعود ، وابن عباس " فلما سلما " أي : فوضا أمرهما إلى الله ، وروي عن ابن عباس : أنه قرأ " استسلما " قال قتادة : أسلم أحدهما نفسه لله ، وأسلم الآخر ابنه ، يقال : سلم لأمر الله ، وأسلم ، واستسلم بمعنى واحد .

وقد اختلف في جواب " لما " ماذا هو ؟ فقيل : هو محذوف ، وتقديره : ظهر صبرهما ، أو أجزلنا لهما أجرهما ، أو فديناه بكبش ، هكذا قال البصريون .

(109/654)

---

وقال الكوفيون : الجواب هو : ﴿ ناديناه ﴾ ، والواو زائدة مقحمة ، واعترض عليهم النحاس بأن الواو من حروف المعاني ، ولا يجوز أن تزاد ، وقال الأخفش : الجواب ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ ، والواو زائدة ، وروي هذا أيضاً عن الكوفيين ، واعتراض النحاس يرد عليه كما ورد على الأوّل ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ التلّ : الصرع والدفع ، يقال : تللت الرجل : إذا ألقيته ، والمراد أنه أضجعه : على جبينه على الأرض ، والجبين : أحد جانبي الجبهة ، فللوجه جبينان ، والجبهة بينهما ، وقيل : كبه على وجهه كيلا يرى منه ما يؤثر الرّقة لقلبه .

واختلف في الموضع الذي أراد ذبحه فيه ، فقيل : هو مكة في المقام .

وقيل: في المنحر بمنى عند الجمار.

وقيل: على الصخرة التي بأصل جبل ثبير، وقيل: بالشام.

﴿ وناديناه أَن يا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ أي: عزمت على الإتيان بما رأيته.

قال المفسرون: لما أضجعه للذبح نودي من الجبل يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا، وجعله مصدّقاً بمجرد العزم، وإن لم يذبحه؛ لأنه قد أتى بما أمكنه، والمطلوب استسلامهما لأمر الله، وقد فعلا.

قال القرطبي: قال أهل السنّة: إن نفس الذبح لم يقع، ولو وقع لم يتصور رفعه، فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل؛ لأنه لو حصل الفراغ من امتثال الأمر بالذبح ما تحقق الفداء.

قال: ومعنى: ﴿ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ فعلت ما أمكنك ثم امتنعت لما منعناك، هذا أصح ما قيل في هذا الباب.

وقالت طائفة: ليس هذا مما ينسخ بوجه؛ لأن معنى ذبحت الشيء: قطعته، وقد كان إبراهيم يأخذ السكين، فيمرّ بها على حلقه، فتنقلب كما قال مجاهد.

وقال بعضهم: كان كلما قطع جزءًا التأم، وقالت طائفة منهم السدّي: ضرب الله على عنقه صفيحة نحاس، فجعل إبراهيم يحزّ، ولا يقطع شيئاً.

وقال بعضهم : إن إبراهيم ما أمر بالذبح الحقيقي الذي هو فري الأوداج ، وإنهار الدم ، وإنما رأى أنه أضجعه للذبح ، فتوهم أنه أمر بالذبح الحقيقي ، فلما أتى بما أمر به من الإضجاع قيل له : ﴿ قد صَدَّقْتَ الرؤيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ أي : نجزيهم بالخلاص من الشدائد ، والسلامة من المحن ، فالجملة كالتعليل لما قبلها .

قال مقاتل : جزاه الله سبحانه بإحسانه في طاعته ، العفو عن ذبح ابنه .

﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين ﴾ البلاء ، والابتلاء : الاختبار ، والمعنى : إن هذا هو الاختبار الظاهر حيث اختبره الله في طاعته بذبح ولده .

وقيل : المعنى : إن هذا لهو النعمة الظاهرة حيث سلم الله ولده من الذبح ، وفداه بالكبش ، يقال : أبلاه الله إبلاءً وبلاء : إذا أنعم عليه والأوّلى أولى ، وإن كان الابتلاء يستعمل في الاختبار بالخير ، والشرّ ، ومنه

﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [ الأنبياء : 35 ] ، ولكن المناسب للمقام المعنى الأول .

قال أبو زيد : هذا في البلاء الذي نزل به في أن يذبح ولده .

قال : وهذا من البلاء المكروه ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ الذبح : اسم المذبوح ، وجمعه ذبوح كالطحن اسم للمطحون ، وبالفتح المصدر ، ومعنى عظيم : عظيم القدر ، ولم يرد عظم الجثة ، وإنما عظم قدره ؛ لأنه فدى به الذبيح ، أو لأنه متقبل .

قال النحاس : العظيم في اللغة يكون للكبير ، وللشريف ، وأهل التفسير على أنه ها هنا للشريف ، أي : المتقبل .

قال الواحدي : قال أكثر المفسرين : أنزل عليه كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً .

وقال الحسن : ما فدي إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير ، فذبحه إبراهيم فداء عن ابنه .

(111/654)

---

قال الزجاج : قد قيل : إنه فدي بوعل ، والوعل : التيس الجبلي ، ومعنى الآية : جعلنا الذبح فداء له ، وخلصناه به من الذبح ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخرين * سلام على إبراهيم ﴾ أي : في الأمم الآخرة التي تأتي بعده ، والسلام : الثناء الجميل .

وقال عكرمة : سلام منا ، وقيل : سلامة من الآفات ، والكلام في هذا كالكلام في قوله ﴿ سلام على نُوحٍ فِى العالمين ﴾ وقد تقدم في هذه السورة بيان معناه ، ووجه إعرابه .

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من انقاد لأمر الله .

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ أي : الذين أعطوا العبودية حقها ، ورسخوا في الإيمان بالله ، وتوحيده : ﴿ وبشرناه بإسحاق نَبِيّاً مّنَ الصالحين ﴾ أي : بشرنا إبراهيم بولد يولد له ،

ويصير نبياً بعد أن يبلغ السن التي يتأهل فيها لذلك ، وانتصاب ﴿ نبياً ﴾ على الحال ، وهي : حال مقدرة .

قال الزجاج : إن كان الذبيح إسحاق ، فيظهر كونها مقدرة ، والأولى أن يقال : إن من فسر الذبيح بإسحاق جعل البشارة .

هنا خاصة بنبوته .

وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه ، ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة ، فإن وجود ذي الحال ليس بشرط ، وإنما الشرط المقارنة للفعل ، و ﴿ مِّنَ الصالحين ﴾ كما يجوز أن يكون صفة لنبياً ، يجوز أن يكون حالاً من الضمير المستتر فيه ، فتكون أحوالاً متداخلة ﴿ وباركنا عَلَيْهِ وعلى إسحاق ﴾ أي : على إبراهيم ، وعلى إسحاق بمرادفة نعم الله عليهما .

(112/654)

---

وقيل : كثرنا ولدهما ، وقيل : إن الضمير في ﴿ عليه ﴾ يعود إلى إسماعيل ، وهو بعيد ، وقيل : المراد بالمباركة هنا : هي : الثناء الحسن عليهما إلى يوم القيامة ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وظالم لّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ أي : محسن في عمله بالإيمان ، والتوحيد ، وظالم لها بالكفر ،

والمعاصي لما ذكر سبحانه البركة في الذرية بيّن أن كون الذرية من هذا العنصر الشريف ، والمحتد المبارك ليس بنافع لهم ، بل إنما ينتفعون بأعمالهم لآبائهم ، فإن اليهود ، والنصارى ، وإن كانوا من ولد إسحاق ، فقد صاروا إلى ما صاروا إليه من الضلال البين ، والعرب ، وإن كانوا من ولد إسماعيل ، فقد ماتوا على الشرك إلا من أنقذه الله بالإسلام .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ يقول : لم يبق إلا ذرية نوح ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخرين ﴾ يقول : يذكر بخير .

وأخرج الترمذي وحسنه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن سمرة بن جندب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ قال : حام ، وسام ، ويافث .

وأخرج ابن سعد ، وأحمد ، والترمذي وحسنه ، وأبو يعلى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه عن سمرة أيضاً : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم " والحديثان هما من سماع الحسن عن سمرة ، وفي سماعه منه مقال معروف ، وقد قيل : إنه لم يسمع منه إلا حديث العقيقة فقط ، وما عداه فبواسطة .

قال ابن عبد البرّ : وقد روي عن عمران بن حصين ، عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله .

وأخرج البزار ، وابن أبي حاتم ، والخطيب في تالي التلخيص عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ولد نوح ثلاثة : سام ، وحام ، ويافث ، فولد سام العرب ، وفارس ، والروم ، والخير فيهم ، وولد يافث يأجوج ، ومأجوج ، والترك ، والصقالبة ، ولا خير فيهم ، وولد حام القبط ، والبربر ، والسودان " وهو من حديث إسماعيل بن عياش ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب عنه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإبراهيم ﴾ قال : من أهل دينه .

وأخرج عبد بن حميد عنه في قوله : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ قال : مريض .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : مطعون .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ قال : يخرجون .

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلى رَبِّى ﴾ قال : حين هاجر .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعى ﴾ قال : العمل .

وأخرج الطبراني عنه أيضاً قال : لما أراد إبراهيم أن يذبح إسحاق قال لأبيه : إذا ذبحتني ،

فاعتزل لا أضطرب، فينتضح عليك دمي، فشده، فلما أخذ الشفرة، وأراد أن يذبحه نودي من خلفه ﴿ أَن يا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ وأخرج أحمد عنه أيضاً مرفوعاً مثله مع زيادة.

وأخرجه عنه موقوفاً.

وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه من طريق مجاهد عنه أيضاً في قوله: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإبراهيم ﴾ قال: من شيعة نوح على منهاجه، وسننه ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعى ﴾ قال: شب حتى بلغ سعيه سعي أبيه في العمل ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ سلما ما أمر به ﴿ وَتَلَّهُ ﴾ وضع وجهه إلى الأرض.

فقال: لا تذبحني، وأنت تنظر عسى أن ترحمني، فلا تجهز علي.

وأن أجزع، فأنكص، فأمتنع منك.

(114/654)

---

ولكن اربط يدي إلى رقبتي، ثم ضع وجهي إلى الأرض، فلما أدخل يده ليذبحه، فلم تصل المدية حتى نودي: أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، فأمسك يده، قوله: ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ بكبش عظيم متقبل.

وزعم ابن عباس : أن الذبيح إسماعيل .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رؤيا الأنبياء وحي " وأخرجه البخاري ، وغيره من قول عبيد بن عمير ، واستدل بهذه الآية .

وأخرج ابن جرير ، والحاكم من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : المفدى إسماعيل ، وزعمت اليهود أنه إسحاق ، وكذبت اليهود .

وأخرج الفريابي ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق الشعبي ، عن ابن عباس قال : الذبيح : إسماعيل .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق مجاهد ، ويوسف بن ماهك عن ابن عباس قال : الذبيح : إسماعيل .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير من طريق يوسف بن ماهك ، وأبي الطفيل ، عن ابن عباس قال : الذبيح : إسماعيل .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن ابن عمر في قوله : ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : إسماعيل ذبح عنه إبراهيم الكبش .

وأخرج عبد بن حميد من طريق الفرزدق الشاعر قال : رأيت أبا هريرة يخطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول : إن الذي أمر بذبحه : إسماعيل .

وأخرج البزار ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه عن العباس بن عبد

المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال نبي الله داود : يا رب أسمع الناس يقولون : رب إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، فاجعلني رابعاً ، قال : إن إبراهيم ألقي في النار ، فصبر من أجلي ، وإن إسحاق جاد لي بنفسه ، وإن يعقوب غاب عنه يوسف ، وتلك بلية لم تنلك " وفي إسناده الحسن بن دينار البصري ، وهو متروك عن علي بن زيد بن جدعان ، وهو ضعيف .

(115/654)

---

وأخرج الديلمي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه .

وأخرج الدارقطني في الأفراد ، والديلمي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الذبيح إسحاق " وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن العباس بن عبد المطلب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الذبيح إسحاق " وأخرج ابن مردويه ، عن أبي هريرة مرفوعاً مثله .

وأخرج ابن مردويه عن بهار ، وكانت له صحبة ، قال : إسحاق ذبيح الله .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عن ابن مسعود قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم : من أكرم الناس ؟ قال : " يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله " وأخرج عبد الرزاق ،

والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : الذبيح : إسحاق .

وأخرج عبد بن حميد ، والبخاري في تاريخه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن العباس بن عبد المطلب قال : الذبيح : إسحاق .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، والحاكم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : الذبيح : إسحاق .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ قال : أكبه على وجهه .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه قال : صرعه للذبح .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : كبش أعين أبيض أقرن قد ربط بسمرة في أصل ثبير .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً .

وأخرج عبد بن حميد عنه قال : فدي إسماعيل بكبشين أملحين أقرنين أعينين .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس : أن رجلاً قال : نذرت لأنحر نفسي ، فقال ابن عباس : لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، ثم تلا ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ ، فأمره بكبش ، فذبحه .

وأخرج الطبراني من طريق أخرى عنه نحوه .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله : ﴿ وبشرناه بإسحاق نَبِيّاً مِّنَ الصالحين ﴾ قال : إنما بشر به نبياً حين فداه الله من الذبح ، ولم تكن البشارة بالنبوّة عند مولده .

وبما سقناه من الاختلاف في الذبيح هل هو إسحاق ، أو إسماعيل ؟ وما استدل به المختلفون في ذلك تعلم أنه لم يكن في المقام ما يوجب القطع ، أو يتعين رجحانه تعيناً ظاهراً ، وقد رجح كل قول طائفة من المحققين المنصفين كابن جرير ، فإنه رجح أنه إسحاق ، ولكنه لم يستدل على ذلك إلا ببعض مما سقناه ها هنا ، وكابن كثير فإنه رجح أنه إسماعيل ، وجعل الأدلة على ذلك أقوى ، وأصح ، وليس الأمر كما ذكره ، فإنها إن لم تكن دون أدلة القائلين بأن الذبيح إسحاق لم تكن فوقها ، ولا أرجح منها ، ولم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك شيء .

وما روي عنه ، فهو إما موضوع ، أو ضعيف جدًّا .

ولم يبق إلا مجرّد استنباطات من القرآن كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق ، وهي محتملة ، ولا تقوم حجة بمحتمل ، فالوقف هو الذي لا ينبغي مجاوزته ، وفيه السلامة من الترجيح ، بلا مرجح ، ومن الاستدلال بما هو محتمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

وقال الشيخ المراغى فى الآيات السابقة :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) ﴾ ﴿

تفسير المفردات

فلما بلغ معه السعى أي فلما بلغ السن التي تساعده على أن يسعى معه في أعماله وحاجات المعيشة ، أسلما : أي استسلما وانقادا لأمر اللّه ، تله : أي كبه على وجهه صدقت الرؤيا : أي حققت ما طلب منك ، البلاء المبين . أي الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلص من غيره ، بذبح : أي حيوان يذبح ، باركنا عليه : أي أفضنا عليه البركات .

المعنى الجملي

اعلم أنه بعد أن قال سبحانه : فبشرناه بغلام حليم – أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به وبلوغه سن المراهقة بقوله : فلما بلغ معه السعى ، إذ هو لا يقدر على الكد والعمل إلا بعد بلوغ هذه السن ، ثم أتبعه بقص الرؤيا عليه وإطاعته في تنفيذ ما أمر به وصبره عليه ، ولما حان موعد التنفيذ كبه على وجهه للذبح فأوحى إليه ربه أنه فداه بذبح عظيم ، ثم بشره

بإسحاق نبيا من الصالحين ، وبارك عليه وعلى إسحاق وأنه سيكون من ذريتهما من هو محسن فاعل للخيرات ، ومنهم من هو ظالم لنفسه مجترح للسيئات .

الإيضاح

(118/654)

---

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ماذا تَرى ؟ ) أي فلما كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويسعى في أشغاله وقضاء حوائجه - قال له يا بنى إنى رأيت في المنام أنى أذبحك فما رأيك ؟ وقد قص عليه ذلك ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء اللّه ، فيثبت قدمه إن جزع ، وليوطن نفسه على الذبح ، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر اللّه .

ثم بين أنه كان سميعا مطيعا منقادا لما طلب منه .

(قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ) أي قال يا أبت سميعا دعوت ، ومن مجيب طلبت ، وإلى راض ببلاء اللّه وقضائه توجهت ، فما عليك إلا أن تفعل ما تؤمر به ، وما على إلا الانقياد وامتثال الأمر ، وعلى اللّه المثوبة ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

ولما خاطبه بقوله يا بنى عنى سبيل الترحم ، أجابه بقوله يا أبت على سبيل التوقير

والتعظيم وفوض الأمر إليه حيث استشاره ، وأن الواجب عليه إمضاء ما رآه .

ثم أكد امتثاله للأمر بقوله :

(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) أي سأصبر على القضاء ، وأحتمل هذه اللأواء ، غير ضجر ولا برم بما قضى وقدر ، وقد صدق فيما وعد ، وبر في الطاعة لتنفيذ ما طلب منه ، ومن ثم قال سبحانه في شأنه مادحا له « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ » .

ثم ذكر طريق تنفيذ الرؤيا فقال :

(فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ) أي فلما استسلما وانقادا لأمر اللّه وفوضا إليه سبحانه الأمر في قضائه وقدره ، وأكب إبراهيم ابنه على وجهه باشارة منه ، حتى لا يرى وجهه فيشفق عليه :

وروى عن مجاهد أنه قال لأبيه : لا تذبحنى وأنت تنظر إلى وجهى ، عسى أن ترحمنى فلا تجهز على ، اربط يدى إلى رقبتى ، ثم ضع وجهى للأرض ، ففعل .

(وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا) أي ناداه من خلفه ملك من قبله تعالى : أن قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح . فقد بان امتثالك للأمر ، وصبرك على القضاء : وحينئذ استبشرا وشكرا للّه على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء بعد حلوله ، والتوفيق لما لم يوفق غيرهما لمثله ، مع إظهار فضلهما ، وإحراز المثوبة من ربهما .

ثم علل رفعه لذلك البلاء وإزالته لتلك الغمة بقوله :

(إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) أي إنا كما عفونا عن ذبحه لولده ، بعد استبانة إخلاصه في عمله ، حين أعد العدّة ، ولم تتغلب عليه عاطفة البنوة ، فرضى بتنفيذ القضاء منقادا صاغرا - نجزى كل محسن على طاعته ، ونوفيه من الجزاء ما هو له أهل ، وبمثله جدير .

ثم ذكر عظيم صبره على امتثال أمر ربه مع ما فيه من كبير المشقة في مجرى العادة فقال :

(إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ) أي إن هذا الذي كان لهو محنة أيما محنة ، واختبار لعباده لا يعدله اختبار ، وللّه عز اسمه أن يبتلى من شاء من عباده بما شاء من التكاليف وهو الفعال لما يريد ، لا رادّ لقضائه ولا مانع لقدره ، وكثير من التكاليف قد تخفى علينا أسرارها وحكمها ، وهو العليم بها وبما لأجله شرعها .

(وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) أي وفديناه بوعل أهبط عليه من جبل ثبير قاله الحسن البصري ، ولا علينا أن نزيد على ما جاء به الكتاب ، ومكان نزوله لا يهم في بيان هذه المنة التي امتن بها

عليه .

ثم ذكر أنه منّ عليه بمنة أخرى فقال :

(120/654)

---

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ) أي وأبقينا له ذكرا حسنا بين الناس في الدنيا فصار محبّبا بين الناس جميعا من كل ملة ومذهب ، فاليهود يجلّونه ، والنصارى يعظمونه ، والمسلمون يبّجلونه ، والمشركون يحترمونه ، ويقولون إنا على ملة إبراهيم أبينا ، وذلك استجابة لدعوته حين قال : « وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ . وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ » .

ثم ذكر أنه منّ عليه بمنة ثالثة فقال :

(سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ) أي وقلنا له : عليك السلام في الملائكة والإنس والجن .

ثم أعقب ذلك بنعمة رابعة وهى نعمة الولد فقال :

(وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) أي وآتيناه إسحاق ومننّا عليه بنعمة النبوة له وللكثير من حفدته كفاء امتثاله أمرنا وصبره على بلوانا .

(وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ) أي وأفضنا عليهما بركات الدنيا والآخرة ، فكثّرنا نسلهما

وجعلنا منه أنبياء ورسلا ، وطلبنا من المسلمين في صلواتهم أن يدعوا لهم بالبركة فيقولوا : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين .

(وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ) أي ومن ذريتهما من أحسن في عمله فآمن بربه وامتثل أوامره واجتنب نواهيه ، ومن ظلم نفسه ودساها بالكفر والفسوق والمعاصي .

وفي ذلك تنبيه إلى أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال ، وأن الظلم في الأعقاب لا يعود إلى الأصول بنقيصة ، ولا عيب عليهم في شيء منه كما قال : « وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى » .

من الذبيح ؟ أإسحاق أم إسماعيل ؟

ليس في هذه المسألة دليل قاطع من سنة صحيحة ولا خبر متواتر ، بل روايات منقولة عن بعض أهل الكتاب وعن جماعة من الصحابة والتابعين ، ومن ثم حدث الخلاف فيها .

1 - فمن قائل إنه إسحاق ، ويؤيده :



---

(ا) ما روى عن يوسف عليه السلام أنه قال لفرعون مصر في وجهه : أترغب عن أن تأكل معى وأنا واللّه يوسف بن يعقوب نبى اللّه ابن إسحاق ذبيح اللّه ابن إبراهيم خليل اللّه .

(ب) ما روى عن أبى الأحوص قال : افتخر رجل عند ابن مسعود فقال أنا فلان ابن فلان ابن الأشياخ الكرام ، فقال ابن مسعود : ذلك يوسف بن يعقوب ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله .

(ح) ما حكاه البغوي عن عمر وعليّ وابن مسعود والعباس أنه إسحاق .

ولكعب الأحبار ضلع في هذه الأخبار وأمثالها التي تلقاها المسلمون عنه ، وكان يحدّث بها عن الكتب القديمة وهى جامعة بين الغثّ والسمين ثقة بأن عمر رضى الله عنه قد استمع منه ، ومن ثم احتاج الثقات إلى تمحيصها ، وعزل جيدها من بهرجها وصحيحها من سقيمها .

2 - ومن قائل إنه إسماعيل وهو الذي يساوقه صحيح النظر ونصوص القرآن ويؤيده .

ا - رواية ذلك عن ابن عباس ، فقد روى عطاء بن أبى رباح عنه أنه قال : المفدى هو إسماعيل عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود .

(ب) روى مجاهد عن ابن عمر أنه قال : الذبيح إسماعيل .

(ح) أن ابن إسحاق قال : سمعت محمد بن كعب القرظي يقول : إن الذي أمر الله ذبحه من ابنيه هو إسماعيل ، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى فإنه بعد أن فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » وقال :

« فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ » فلم يكن يأمره بذبح إسحاق وله فيه من

الموعد ما وعده ، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل - قال ابن إسحاق سمعته يقول ذلك كثيرا .

وعلى الجملة فظاهر نظم الآية والروايات التي يروونها يؤيد أنه إسماعيل ، ولكن اليهود حسدوا العرب على أن يكون أباهم هو الذي كان من أمر اللّه فيه ما كان ومن

*(122/654)*

---

الفضل الذي ذكره اللّه له لصبره لما أمر به ، فجحدوا ذلك وزعموا أنه إسحاق لأنه أبوهم واللّه أعلم أيهما كان ، وكل قد كان طاهرا مطيعا لربه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 1 صـ 78.73 ﴾

*(123/654)*

---

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب فى الآيات السابقة :

« وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ » .

أي أن من شيعة نوح وأنصاره ، والقائمين على دعوته من بعده ، إبراهيم

وشيعة المرء ، أولياؤه وأنصاره . .

وحسب إبراهيم ـ عليه السلام ـ من شيعة نوح ، لأنه كان على الإيمان ، بفطرته ، فلم تستحب فطرته لعبادة صنم . . فكأنه بهذا كان ممن آمن مع نوح ، وركب معه السفينة ، وكان من الناجين . . ثم إن إبراهيم قد اعتزل قومه ، وتركهم لضلالهم يتخبطون فيه حتى يهلكوا ، كما فعل نوح باعتزاله قومه بركوب السفينة تاركا إياهم للبلاء الذي حلّ بهم . .

ولهذا كان إبراهيم أمة وحده ، كما يقول اللّه تعالى : « إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » (120 : النحل) .

« إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

أي أن إبراهيم كان على نهج نوح وطريقته ، حين جاء ربه ، أي أقبل على ربه « بقلب سليم » أي قلب قد سلم من آفات الشرك والضلال ، فلم تعلق بفطرته شائبة ، بل ظل على الفطرة التي فطره اللّه عليها ، لم يدخل عليها شيء من غبار الشّرك ، الذي كان يسدّ وجه الأرض . .

« إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ » ـ بدل من قول اللّه تعالى : « إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » . . أي أن إبراهيم كان شبيها بنوح ، حين قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟ أي منكرا عليهم تلك المعبودات التي يعبدونها من دون اللّه . . فهو ونوح على طريق سواء . .

« أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ » .

الإفك : الباطل والمفترى من الأمور . .

وآلهة : بدل من « إفكا » . .

*(124/654)*

---

والاستفهام إنكارى ، أي أتطلبون آلهة من واردات الإفك والافتراء ، بدلا من اللّه رب العالمين ؟ أليس ذلك سفها وجهلا ، وكفرا ؟ .

« فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ » .

أي فما معتقدكم فى رب العالمين ؟ وما تصوركم له ؟ وما حسابه عندكم ؟

أهو واحد من آلهتكم تلك ؟ أم هو على هيئة ملك أو أمير ، أو سيد من ساداتكم ؟ . .

« وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ » .

(23 : فصلت) .

فاللّه سبحانه وتعالى : « لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »

(103 : الأنعام) . . إن اللّه ـ سبحانه ـ هو مبدع هذا الوجود ، وهو القائم عليه ، وبيده ملكوت كل شىء . . فكيف تعبدون إلها غيره ؟ وكيف ترضون لعقولكم أن تقبل هذه الأحجار آلهة ، تتعامل معها ، وتتخاضع بين يديها ، وتجعلها شريكة للّه فى الملك والتدبير

؟ .

« فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ » .

النظرة التي نظرها إبراهيم فى النجوم ، هى ، ما أشار إليه سبحانه فى قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ

(125/654)

---

وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ . . حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

(75ـ79 : الأنعام) .

وسقم إبراهيم هنا ، هو سقم نفسى ، لما اعتراه من حيرة خلال تلك التجربة التي عاناها مع هذه الكواكب ، التي ظل يرصدها ليلة بعد ليلة ، ويرعى مسيرتها ، ويتأمل وجهها مشرقة وغاربة . . فإذا أشرق واحد منها لقيه حفيّا به ، راجيا أن يكون الوجه الذي يرى فيه ربه الذي يعبده ، ثم إذا رآه يغرب خاب ظنه فيه ، فنفض يديه منه ، كما ينفض المرء يديه من

ميت دفنه فى التراب . . وهكذا ظل إبراهيم يستقبل وجوه الكواكب ، كوكبا كوكبا ، ويدفنها واحدا واحدا ، وهكذا أيقن ـ بفطرته ، وتجربته ـ أن إلهه ليس من عالم المنظور فى الأرض أو فى السماء . . إنه ـ سبحانه ـ القوة القائمة على هذا الوجود ، والسلطان المتصرف فيه ، والإله الذي لا يتحول ولا يتبدل ، ولا يقع فى حدود النظر .

وهذه النظرة التي نظر بها إبراهيم إلى النجوم هنا ، غير تلك النظرة التي جاء ذكرها فى الآيات السابقة ، والتي كانت نظرة متسائلة متطلعة ، سأل فيها النجم والقمر والشمس ، وإنما كانت نظرته هنا نظرة مذكرة له بما كان منه وهو فى سبيل البحث عن اللّه ، قبل أن تأتيه الرسالة ، وكأنه يدعو بهذه النظرة قومه إلى أن يسلكوا الطريق الذي سلك ، وأن يهتدوا إلى اللّه بعقولهم كما اهتدى ، إن كانوا يستنكفون من اتباعه ، والأخذ بما يدعوهم إليه . . ولكن لم تكن لهم عقول تعقل ، ولا آذان تسمع . . فولّوا عنه مدبرين .

وقد أقام أكثر المفسرين تأويلهم ، لقوله تعالى : « فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ » على أن ذلك النظر كان فى مواجهة قومه ، وفى معرض

حديثه إليهم حين جاء يدعوهم إلى عبادة اللّه، وترك ما يعبدون من أصنام . .

والذي أقام المفسرين على هذا الرأى - فى نظرنا - هو هذا العطف بالفاءات، المتلاحقة . . « فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ. فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ. فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ » . . ولأن فاء العطف تفيد الترتيب والتعقيب - هكذا يقول النحاة - فقد جعلوا هذه الأحداث، حدثا واحدا، يضمها مجلس واحد، ويحتويها ظرف واحد من الزمان، لا تتخلله أحداث ! .

ولو نظر المفسرون إلى أبعد من مقررات القواعد النحوية الضيقة، لرأوا أن بين الحدث والحدث هنا أزمانا ممتدة، قد تكون أياما، وقد تكون سنين . . فالتعقيب هنا ليس هو التعقيب الفوري، ولو كان ذلك لكانت رؤية إبراهيم للنجم، وللقمر، وللشمس، فى ليلة واحدة، مع أن هذا غير وارد ولا معقول . . فقد يكون إبراهيم رأى النجم، ورصد تحركاته ليالى كثيرة، ثم تركه وصحب القمر أياما وشهورا . . وكذلك الشمس . . حتى وصل إلى هذا الحكم الذي قضى به فى شأنها جميعا . .

قوله تعالى : «فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ» .

ليس التولّي هنا، بعد نظرة إبراهيم نظرته فى النجوم - كما يذهب إلى ذلك أكثر المفسرين - وإنما كان توليهم عنه هو نهاية المطاف فى دعوته لهم، ومحاجّتهم له . . فقد انتهى الأمر

بينه وبين قومه إلى اليأس منهم أن يؤمنوا ، وإلى اليأس منه أن يعبد ما يعبدون . . « فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ » .

(127/654)

---

قوله تعالى : « فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ ؟ ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ ؟ » .

أي تسلل إلى آلهتهم ، ودخل عليها بيتها المعدّ لها ، من غير أن يراه أحد . . ثم رأى بين يدى تلك الآلهة كثيرا من صنوف المأكولات والمشروبات ، وألوان الهدايا التي كان يتقرب بها القوم إليها ، فقال ساخرا هازئا : « أَلا تَأْكُلُونَ » ؟ فلما لم يسمع جوابا قال متابعا سخريته : « ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ » ؟

قوله تعالى : « فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ » .

أي فنزل عليهم يضربهم بيده اليمنى ، ويحطمهم حطما « فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً . . إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ » (58 : الأنبياء) .

والتعبير بقوله تعالى « فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً » بدلا من : فأقبل عليهم ضربا للإشارة إلى أنه كان يفعل ما يفعل فى حذر ، وفى غير جلبة ، حتى لا يحدث صوتا يكشف للقوم عما يجرى هنا ! .

فالروغ ، والرّوغان ، ضرب من العمل ، فى ذكاء وحذر .

وقوله : « بِالْيَمِينِ » إشارة إلى الإرادة القوية التي كان يعمل بها فى تحطيم هذه الأصنام ، إذ كانت اليد اليمنى هى القوة العاملة فى تنفيذ هذه الإرادة .

قوله تعالى : « فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ » .

(128/654)

---

أي حين رأى القوم ما حل بآلهتهم ، ووقع ما وقع من اضطراب وبلبلة ، وانتهى الأمر بينهم إلى أن إبراهيم هو الذي فعل هذه الفعلة بآلهتهم ـ أقبلوا إليه مسرعين ، فى خفة وطيش ، ليمسكوا به ، وليحاسبوه الحساب العسير على هذا الجرم العظيم ! . .

والزفيف : هو الصوت الذي تحدثه النعامة بجناحيها ، حين تنطلق مسرعة من وجه خطر يتهددها ، فتزّف بجناحيها . .

وفى وصف القوم بهذا ، تشبيه لهم بالنعامة فى جبنها الذي يطير معه صوابها ، حين ترى ، أو تتوهم أنها ترى ، خطرا ، فتنطلق إلى حيث ترمى بها أرجلها ، لا إلى حيث يدعوها عقلها ، إذ كانت ولا عقل لها ، ولا حيلة عندها ، حتى إذا دهمها الخطر ، دفنت رأسها فى الرمل ، وكأنها بذلك قد دخلت مأمنها ! ! وهكذا القوم فى تصريف أمورهم . . إنهم

نعام طائش لا عقل لهم ، ولا تدبير عندهم . .

قوله تعالى : « قَالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ ؟ » .

وقد كان لقاء القوم لإبراهيم ، لقاء عاصفا مزمجرا ، كثرت فيه الرميات بالوعيد والتهديد . . وقد ضرب القرآن الكريم هنا صفحا عن كل ما حدث ، إذ كان لهذه القصة حديث فى غير موضع منه . . واكتفى القرآن هنا بالإمساك بكلمة الفصل فى هذه القضية :

« أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ ؟ » .

فهذه هى القضية . . وهذا هو السؤال الذي يحسم الأمر فيها . .

(129/654)

---

قوله تعالى : « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ » . .

أي أن اللّه خلقكم وخلق الذي تعملون من أصنام وغيرها . .

كيف تعبدون ما تنحتون بأيديكم ؟ أليس هذا الذي تنحتونه هو من مخلوقات اللّه ؟ .

إن هذه الأصنام التي تخلقونها بأيديكم هى من مادة خلقها اللّه قبل أن تخلقوها . . فكيف تعبدون ما تخلقون ؟ أيعبد الخالق ما خلق ؟ هذا وضع مقلوب ! .

هذا ، وقد كثر الخلاف فى تأويل هذه الآية بين المعتزلة والجبرية ، وأهل السنة ، على اعتبار

أن « ما » هنا مصدرية ، وعلى هذا يكون المعنى أن اللّه خلقهم ، وخلق أعمالهم . .

وقد ترتب على هذا أن قال الجبرية . إن اللّه خالق أفعال العباد ، واللّه سبحانه لا يخلق القبيح ، وعلى هذا فالأفعال كلّها حسنة ، ليس فيها قبيح . .

وتعددت فى هذا مذاهبهم ، واختلفت مقولاتهم . .

وقد أنكر المعتزلة هذا التأويل للآية ، واعتبروا « ما » موصولة لا مصدرية ، وقالوا إن العبد خالق أفعاله ، الحسن منها والقبيح . . ففى الأفعال الحسن والقبيح ، ومن ينكر هذا فإنما يكابر فى بدهيات الأمور . .

وقال « الأشعري » . من أهل السنة ، وممثل رأيهم هنا : إن العبد مكتسب أفعاله ، واللّه خالقها ! ! . .

وهذه قضية استنفدت جهد العلماء . . وليس هنا مجال عرضها ، وقد



---

عرضنا جانبا من هذه القضية فى مبحث خاص من هذا التفسير تحت عنوان : « مشيئة اللّه ومشيئة الإنسان » . كما عرضنا هذه القضية بالتفصيل فى كتابنا . « القضاء والقدر » . .

وبقي أن نقول إن « ما » فى هذه الآية موصولة لا مصدرية ، لأنها لو كانت مصدرية لكان قول إبراهيم لقومه : « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » . لكان قوله ذلك حجة عليه لا له . .

قوله تعالى : « قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ » . .

هذا هو الحكم الذي انتهى إليه رأى القوم فى إبراهيم ، وهو أن يموت حرقا بالنار ، جزاء له على ما فعل بآلهتهم ، فليس لمن يفعل هذا إلا أن يلقى هذا العذاب الأليم . . إن إبراهيم كان يحذّرهم نار الآخرة التي يعذب بها اللّه سبحانه الذين يعبدون هذه الأصنام . .

وها هى ذى الأصنام تعذّب بالنار من يعبد غيرها ! ! أليست آلهة ؟ وأليس للإله أن يعذّب بالنار من يكفر به ، ويتعدّى حدوده ؟ . .

قوله تعالى : « فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ » . .

أي أرادوا أن يكيدوا لإبراهيم ، وأن يأخذوه بهذا العذاب ، فنجى اللّه إبراهيم من النار . كما نجى نوحا من الطوفان . وجعلهم هم الأسفلين ، كما جعل قوم نوح فى قرار الطوفان ، وجعل نوحا فوق الطوفان بسفينته . .

قوله تعالى : « وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ » .

لقد نجّى اللّه إبراهيم من النار ، وأغرق قومه فى لجج الكفر والضلال ، فتركهم إبراهيم يتخبطون فى هذا البحر اللجّى من الضلال ، وقال : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ » أي إنى متجه إلى ربى ، معتزل إياكم ، متخذ دارا غير داركم ، وموطنا غير موطنكم . . ولا أدرى إلى أين سأذهب . . ولكنى موقن أن اللّه سيهدينى إلى خير دار ، وأطيب مقام ، هذا هو ظنى بربي الذي أعبده وأسلم أمرى له . .

(132/654)

---

« رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » وهنا يجد إبراهيم نفسه وحده ، بعيدا عن الأهل والوطن . . وقد خلا قلبه من الاشتغال بأمر قومه ، فالتفت إلى نفسه ، ووجد أن لا ولد له ، يؤنسه فى وحدته ، ويشد ظهره فى غربته ، فسأل ربه أن يرزقه ولدا صالحا ، تقربه عينه حين يراه مؤمنا بربه ، لا تختلف بينه وبينه السبل ، كما اختلفت من قبل بينه وبين أبيه ، هو .

« فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » واستجاب اللّه لإبراهيم دعاءه ، وجاءته البشرى من اللّه سبحانه بهذا الولد الذي طلبه ، وأنه « غلام حليم » . . رزين العقل ، راجح الرأى ، يستدل بعقله على مواقع الحق فى كل أمر يعرض . . وحسب المرء ـ كمالا ، وصلاحا ـ أن يكون معه

عقل سليم ، وإدراك صحيح . . والحلم ضد الجهل . .

قال الشاعر .

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنّا إذا ما نجهل

والجهل من واردات العقل السقيم ، والإدراك القاصر .

هذا ، ولم يرد فى القرآن الكريم أن وصف اللّه أحدا بالحلم غير إبراهيم ، وهذا الولد الذي بشر به ، وهو إسماعيل عليه السلام . . فقال تعالى : «إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ» (75 : هود) وهذا يعنى أن هذا الغلام ، هو على صورة أبيه إبراهيم ، فى كمال عقله ، وسلامة إدراكه .

«فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى ؟ قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ»



---

قيل إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين تلقى هذه البشرى من ربه ، رأى أن يكون شكره للّه ، على هذا الإحسان ، وهذا اللطف ، بالمبادرة بالاستجابة لما طلب ـ رأى أن يكون شكره للّه أن يقدم هذا الولد قربانا للّه . . وكانت تلك عادة أهل هذا الزمن ، فى المبالغة فى

التقرب إلى اللّه . .

فلما رزق إبراهيم إسماعيل ، وهو على نية التقرب به إلى ربه ، متى بلغ مبلغ الرجال ـ رأى فى منامه وهو على تلك النية التي لم يحدد لها يوما معينا ـ رأى فى منامه أن يذبح هذا الابن ، وكان قد بلغ معه السعى ، أي صار قادرا على أن يعمل مع أبيه ، وأن يسعى له فى بعض حاجاته . . فعرف إبراهيم من هذه الرؤيا أنها تذكير من اللّه سبحانه بالوفاء بما نذر ، وأن يوم الوفاء قد جاء . . فكان هذا الحديث الذي جرى بين الأب وابنه . .

« يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ . . فَانْظُرْ ما ذا تَرى ؟ » إن الأمر أمر اللّه . . وإن لك فى هذا الأمر مثل الذي لى . . فإن رأيت أن تطيع أمر اللّه أطعت أنا أمر اللّه فيك ، فما ذبحك بيدي بأقل ابتلاء لى من ابتلائك ! فهل أنت مطيع لأمر اللّه ؟ إن الأمر إليك فى هذا . . « فَانْظُرْ ما ذا تَرى ! » ؟

وماذا يرى الولد ـ وهو صورة من أبيه ـ إلا الامتثال لأمر اللّه ، والطاعة المطلقة لحكمه فيه . . ؟

« قالَ : يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ . سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » إنه جواب المؤمن باللّه ، إيمانا لا يرى معه لنفسه حقّا إلى جانب ما للّه فيه من حق . . إنه كلّه ملك للّه ، وللمالك أن يتصرف كما يشاء فيما ملك . .

قيل : إن قول إسماعيل حين قرن مشيئة للّه بما سيكون عليه من صبر مضاف إلى صبر الصابرين. قد كان سببا فى أن وفّاه اللّه جزاء الصابرين كاملا ، فنجاه من هذا البلاء ، وفداه بالذبح العظيم ، على حين أن موسى عليه السلام ، إذ قرن مشيئة اللّه بما وعد به العبد الصالح من الصبر ، وخص بهذا الصبر نفسه فقال :

« سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً » . لم يعط الصبر الذي ينال به ما طلب من صاحبه ، من علم ، بل تفرقت بينهما سبل بعد ثلاث مراحل على هذا الطريق الذي سلكاه معا . .

قوله تعالى : « فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » أسلما : أي استسلما لأمر اللّه ، ورضيا حكمه فيهما .

تلّه للجبين : أي طرحه على التلّ : والتلّ : المكان المرتفع ، كهضبة أو نحوها . . والجبين . الجبهة . . والمعنى : أنه لما أن امتثل الولد ما دعاه إليه أبوه ، وأسلما أمرهما إلى اللّه ، وأسلم وجه ابنه للتلّ ، أي وضع وجهه عليه ، حتى لا يرى بعينيه عملية ذبحه ، ناداه ربّه : يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا . لما حدث كلّ هذا ، قبلنا نذره ، وتقبلنا قربانه ، وجزيناه الجزاء الأوفى . . « إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » . أي فمثل هذا الجزاء العظيم نجزى أهل الإحسان . .

فجواب « لمّا » فى قوله تعالى : « فَلَمَّا أَسْلَما » محذوف ، دلّ عليه قوله تعالى « إِنَّا كَذلِكَ

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » . .

وعلى هذا يكون قوله تعالى : فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا » واقعا فى حيّز « لمّا » وهذا الذي ذهبنا إليه يخالف الرأى الذي عليه المفسرون ، وهو أن جواب « لمّا » واقع تقديرا بعد « أسلما » . . ويكون قوله تعالى : « وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ »

(135/654)

---

كلام مستأنف ، وما بعده معطوف عليه . . أو أن الجواب هو قوله تعالى : « وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا » وأن « الواو » زائدة ! ! قوله تعالى : « إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ » هو تعقيب على هذا الحدث العظيم ، وعلى هذا الامتحان الذي امتحن اللّه به عبدين من عباده المؤمنين . .

وفى هذا التعقيب تنويه من اللّه سبحانه وتعالى بهذين النبيين الكريمين ، وبوثاقة إيمانهما ، وأنهما كانا أهلا لهذا الامتحان العظيم . .

قوله تعالى : « وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » الفداء : هو افتداء شىء بشىء ، وإحلاله محلّه فى مقام البذل ، والإحسان . .

وفى هذا يقول النابغة الذبياني

مهلا فداء لك الأقوام كلهم وما أثّمر من مال ومن ولد

والذبح: ما يذبح من الحيوان ..

ومن الجزاء الحسن الذي جازى اللّه به إبراهيم، أنه سبحانه تقبل قربانه إلى اللّه بولده، دون أن يصاب هذا الولد بسوء .. ثم ضاعف هذا الإحسان بعد أن تولى سبحانه فداء هذا الولد بهذا الذبح العظيم الذي قدمه لإبراهيم .. فإبراهيم أراد أن يقدم قربانا للّه، فقدم اللّه سبحانه له قربانا من فضله وإحسانه. وهذا ما يشير إليه وصف الذبح بأنه عظيم .. لأنه مقدّم من عند اللّه الذي تقدم إليه القربات! ! فما أعظم هذا الإحسان، وما أكرم هذا العطاء، الذي لا يستقلّ بحمده الوجود كله!

(136/654)

---

وليس الشأن فى هذا الذّبح، أكان كبشا نزل من الجنة، أو أخذ من الأرض .. وإنما الشأن فى أنه كان رمزا لرضا اللّه، وتبادله الإحسان مع خليله إبراهيم.

قوله تعالى: «وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ».

ومن إحسان اللّه تعالى على خليله إبراهيم، أن جعل له ذكرا باقيا بعده إلى يوم الدين، وجعل فى ذريته النبوة والكتاب ..

قوله تعالى : « سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ » . .

هو سلام من اللّه عليه ، وسلام من المؤمنين باللّه ، على من سلّم للّه عليه . .

وهذا من الذكر الحسن ، الباقي على الزمن . . فعلى لسان كل مؤمن ، ثناء وسلام على إبراهيم إلى يوم الدين . .

قوله تعالى : « كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » .

أي بمثل هذا الجزاء الحسن ، وهو الذكر المتجدد بالثناء ، نجزى المحسنين من عبادنا ، فنبقى لهم فى الناس ذكرا طيبا ، ونجعل فيهم الأسوة الحسنة لكل من يريد الإحسان . .

قوله تعالى : « إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ » . .

هو تعليل لهذا الإحسان العظيم الذي أفاضه سبحانه وتعالى على خليله ،



---

وأن الإيمان باللّه ، هو الذي سلك به هذا المسلك ، ورفعه إلى هذا المقام . .

وأن من أراد أن يكون فى عباد اللّه المحسنين ، فليكن أولا من عباد اللّه المؤمنين . . فإنه لا إحسان إلا على أساس متين من الإيمان . .

قوله تعالى : « وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » . .

أي ومن الجزاء الحسن كذلك لإبراهيم أن بشره اللّه سبحانه بولد آخر إلى جانب هذا الولد ، الذي أراد ذبحه وتقديمه قربانا للّه . .

قوله تعالى : « وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ » . .

أي وجعلنا البركة مشتملة عليه وعلى إسحق ، وذلك بتكثير نسلهما ، وجعل النبوة والكتاب فى ذريتهما . .

وفى قوله تعالى : « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ » إشارة إلى أن هذه البركة - لا تنال ذريتهما جميعا . . بل ينالها من أراد اللّه سبحانه وتعالى به الخير والإحسان من ذريتهما . . فمن ذريتهما سيكون المؤمن المحسن ، ومن ذريتهما سيكون الكافر الظالم . .

وهذا ما يشير إليه وصف الظلم بأنه مبين . . إذ أنه لا ظلم أعظم من الكفر والشرك باللّه ، كما يقول سبحانه :

« إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » « 13 : لقمان » .

وقد يسأل سائل : لما ذا لم تكن هذه البركة عامة شاملة فى ذرية هذين النبيين المباركين ، إلى يوم الدين ؟ . .

والجواب : أن ذلك - لو كان - لرفع التكليف عن كل من ولد

لهذين النبيين ، وعمن ولد لذريتهما ، وذرية ذريتهما . . إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها . .

وهذا ما لا يدخل على حكمة اللّه ، فيما قضى به فى عباده من ابتلاء .

ليميز اللّه الخبيث من الطيب .

وهكذا خرج إبراهيم من هذا الابتلاء بهذا الفيض الغدق من فضل اللّه وإحسانه . .

فأولا : حفظ اللّه سبحانه له ابنه ، وعافاه من الذبح . . : « يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا » . .

وثانيا : قدم اللّه سبحانه له قربانا . . : « وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » . .

وثالثا : أبقى اللّه سبحانه له ذكرا حسنا ، فى المؤمنين إلى يوم الدين :

« وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ » . .

ورابعا : جعل اللّه سبحانه الدعاء له بالصلاة والسلام ، قربانا يتقرب به المؤمنون إلى اللّه :

« سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ » .

وخامسا : وهب اللّه سبحانه وتعالى له ولدا آخر إلى هذا الولد الذي لم يكن له غيره : « وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » .

وسادسا : بارك اللّه سبحانه على إبراهيم ، وبارك على إسحق تكريما لأبيه وإحسانا إليه

. .

[من الذبيح ؟ إسماعيل أم إسحاق ؟ ]

وهنا أمر نحب أن نقف عنده ، وهو : من الذبيح ؟ إسماعيل . . أم إسحق ؟ وهو أمر ما كان يجوز أن نثير حوله جدلا ، إذ كان ـ فى

(139/654)

---

رأينا ـ أوضح من أن يجادل فيه ، وهو أن الذبيح ـ على يقين ـ هو إسماعيل عليه السلام .

ولكن أصابع اليهود قد لعبت فى هذا النسج المحكم ، ونسجت حوله خيوطا من الكذب والتضليل ، كان لها تأثير فى تفكير بعض المسلمين ، الذين لهم مقامهم فى المسلمين ، ومكانتهم فى الإسلام ، حتى لقد وقف بعضهم موقف الشكّ والتوقف . . وحتى لقد تجاوز بعضهم هذا ، فرجّح القول بأن الذبيح هو « إسحاق » لا « إسماعيل » ! ! .

ونحبّ أن ننبّه هنا إلى أننا لا نفاضل بين هذين النبيين الكريمين . .

فكلاهما ، فى مقامه العظيم عند اللّه ، وفى مكانه المكين من قلوب المسلمين جميعا . .

فالمسلمون جميعا يختمون كل صلاة بهذا الدعاء : « اللهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما

باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم » . . وإسماعيل وإسحاق ـ عليهما السلام ـ هما رأس آل إبراهيم ، وفرعا شجرتها المباركة .

وإنما الذي يدعونا إلى هذا ، هو حمل الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر هذا الحديث ، على غير ما ينطلق به مدلول ألفاظها ، حتى تستجيب للقول الذي دسه اليهود على المسلمين ، بأن إسحق هو الذبيح . . وهذا ـ فى رأينا ـ عدوان على القرآن الكريم ، يبلغ حد التبديل ، وتحريف الكلم عن مواضعه ! وقبل أن ننظر فى آيات اللّه التي تحدث بهذا الحديث ، يحسن أن نكشف عن وجه « اليهود » فى هذا المقام ، وعن المدخل الذي دخلوا على المسلمين منه . .

وقبل أن نواجه اليهود بهذه الفرية التي افتروها ، يحسن كذلك أن نذكر ما لليهود من جرأة على الكتاب الذي فى أيديهم ، وعلى العبث به ، وإلقاء أهوائهم وضلالاتهم عليه ، دون تحرج أو تأثم . . وفى هذا يقول اللّه سبحانه



---

وتعالى فيهم : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » (79 : البقرة) ويقول سبحانه فيهم أيضا : « قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً

لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً » (الأنعام : 91) فاليهود ـ كما وصفهم القرآن ـ قد بدلوا كثيرا وحرفوا كثيرا فى التوراة ، ولم يحترموا كلمة اللّه ، ولم يقفوا عند منطوقها أو مفهومها . . وقد كادوا للإسلام بهذا كثيرا ، ورفعوا من التوراة كل ما كان فيها من دلائل وإشارات على بعثة النبي العربي ، كما رفعوا منها كثيرا من الأحكام التي جاء الإسلام يدينهم بها كما جاءت فى شريعتهم . . ولم يقفوا عند هذا فى الكيد للإسلام . . بل راحوا يدسون على المسلمين أحاديث ينسبونها إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ، ويقيمون لها سندا ينتظم فى سلسلته عددا من الصحابة والتابعين ، وتابعي التابعين ، وخاصة من كثرت روايات الحديث عنهم كأبى هريرة وابن عباس ـ رضى اللّه عنهما ـ وغيرهما .

وأكثر من هذا ، فإن بعضا من اليهود دخل الإسلام ، لا عن عقيدة ، ولكن ليكيد له . . وقد كشف بعضهم عن ظاهر ، انخدع به المسلمون ، بما رأوا فيهم من مظاهر الاستقامة ، والزهد ، والغيرة على الدين ، حتى اطمأنوا إليهم ، وقبلوا كل ما يأتى من جهتهم . .

وحسبنا أن نذكر هنا بولس « الرسول » الذي كان من أشد اليهود عداوة للمسيح ـ عليه السلام ـ وملاحقة له بالأذى ، هو وأتباعه . . ثم رأى أن يكيد للمسيحية كيدا أبلغ من هذا ، فدخل فى دين المسيحية ، ثم ما لبث أن أخذ مكان القيادة فيها ، وأصبح الداعية الأول

بعد المسيح . . وبهذا أمكنه أن يحدث ما أحدث فى المسيحية من تثليث ، لم يكن أحد من أتباع المسيح وحوارييه

(141/654)

---

يعرف شيئا عنه . . حتى أن الأناجيل الأربعة المعتمدة الآن ـ على رغم ما حدث فيها من تحريف ـ لم تجىء فيها إشارة واحدة إلى ألوهية المسيح ، وإلى جعله أحد الأقانيم الثلاثة : الأب والابن وروح القدس . . « 1 »

نقول هذا لنقيم منه شاهدا على أن هذا النص الذي جاء فى التوراة عن أن إسحق هو الذبيح ـ هذا النص هو من مفتريات اليهود على اللّه ، ومن تبديلهم لكلمات اللّه . . ومثل كل مجرم ، فى أنه لا بد أن يترك على جريمته أثرا ينمّ عنه ، وشاهدا يشهد عليه ، مهما اجتهد فى أخذ الحذر والحيطة ، ومهما بلغ من مكر وخبث ودهاء ، فقد ترك اليهود على هذا النص الذي حرفوه ، ما يشير بأكثر من إصبع ، وينطق بأكثر من فم ، بأنهم كاذبون مفترون !

تقول التوراة التي فى أيدى اليهود (فى الإصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين) : « وحدث بعد هذه الأمور أن اللّه امتحن إبراهيم . فقال له :

« يا إبراهيم ، فقال هأنذا . . فقال : خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق ، واذهب إلى

أرض المريّا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال التي أقول لك . . »

والتلفيق واضح فى هذا النص ، لا يحتاج الكشف عن زيفه إلى اجتهاد ، إذ يكاد يكون الحكم على زيفه نصّا منطوقا . . وإنه لا اجتهاد مع النص . .

فإذا كان إسحق هو الابن الوحيد لإبراهيم ، فلا داعى لأن يحدّده اللّه له بالاسم ، فيقول له : ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق . . وكان يكفى أن يقال له :

ابنك ، أو وحيدك ، أو إسحق . .

ومن جهة أخرى ، فإن التوراة تذكر أنه قد ولد لإبراهيم ابن من زوجه هاجر ، اسمه إسماعيل ، وأنه ولد قبل إسحق بأربعة عشر عاما . . فكيف

---

(1) وقد عرضنا لهذه القضية فى دراسة مفصلة فى كتابنا (المسيح فى القرآن والتوراة والإنجيل) .



---

يكون إسحق الابن الوحيد لإبراهيم ؟ وهل إسماعيل ليس ابنا لإبراهيم حتى يكون إسحق هو الابن الوحيد له ؟ ولو قالت التوراة هذا لما كان هناك تضارب فى أقوالها . .

ولكن التوراة تقول عن إسماعيل إنه ابن إبراهيم . .

تقول التوراة: «فولدت هاجر لأبرام (إبراهيم) ابنا، ودعا أبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل» (الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين).

وإذا كنا نعذر اليهود فى هذا التقوّل على اللّه، إذ كان ذلك طبيعة فيهم وشأنا غالبا عليهم، وإذ كانوا إنما يبغون بهذا مصلحة خاصة لهم، وكيدا للإسلام، وتلبيسا على المسلمين.. وإذا كنا نعذر العلماء والدارسين من غير المسلمين، أن يأخذوا بما فى التوراة، مما يخالف القرآن الكريم، وأن يرجحوا نصوصها على نصوص القرآن.. فإننا لا نجد وجها للعذر فيما كان من بعض المسلمين. وفيهم العلماء الأعلام. من التوقف فى نصوص القرآن، إزاء هذا النصّ الذي جاءت به التوراة، أو الأخذ به، وإقامة تأويل الآيات القرآنية عليه.. إن ذلك. كما قلنا. يكاد يكون تبديلا لآيات اللّه، وتحريفا للكلم عن مواضعه..

ومن عجب أن نجد عالما فقيها مفسّرا كالإمام ابن جرير الطبري، يرجّح القول بأن إسحق هو الذبيح.. ومن عجب أيضا أن نجد عالما جليلا، كابن عياض، يذهب إلى هذا المذهب ويقول به، فى كتابه: «الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى».. ومن عجب. ولا عجب. أن نرى رجلا كالجاحظ يجعل هذه المقولة من المسلّمات عنده، فيتحدث فى كتابه البيان والتبيين، عن إسحق، ويضيف إليه تلك الصفة، وهى أنه الذبيح..

وأكثر من هذا، فإن هناك أحاديث كثيرة تنسب إلى أصحاب رسول اللّه كابن عباس، وابن مسعود وأبى هريرة وغيرهم، وفيها أن إسحق هو الذبيح..

وفى تفسير ابن كثير مقولات كثيرة فى هذا المقام ، تضاف إلى صحابة رسول الّله ، لتقع من النفوس موقع القبول والتسليم . . وقد فضحها ابن كثير رضى الّله عنه ، وكشف عن المصدر الذي جاءت منه . . يقول ابن كثير :

« وهذه الأقوال ـ والّله أعلم ـ كلها مأخوذة عن « كعب الأحبار » فإنه لما أسلم فى الدولة العمريّة ، جعل يحدث عمر رضى الّله عنه ، عن كتبه قديما ، فربما استمع له عمر ، فترخص الناس فى استماع ما عنده ، ونقلوا ما عنده عنه ، غثها وسمينها ، وليس لهذه الأمة ـ والّله أعلم ـ حاجة إلى حرف واحد مما عنده » .

ولا نجد حجة أبلغ ولا أقوى من تلك الحجج الدامغة التي قدمها الإمام ابن تيمية ـ نضر الّله وجهه ـ فى دفع تلك الفرية ، وفضح هذه الدسيسة التي دسها اليهود على هذه الحادثة . . ولا يستمدّ ابن تيمية حججه من نصوص الكتاب الكريم وحده ، إذ أن الذين لا يدينون بالإسلام ، لا يأخذون أنفسهم بنصوص كتابه ، ولهذا يعمد ابن تيمية إلى الواقع التأريخي لإبراهيم وذريته ، وللظروف التي عاش فيها مع زوجيه ـ سارة وهاجر ـ ومع ولديه ـ إسماعيل وإسحق . .

ويقيم على ذلك شواهد من التوراة نفسها ، ثم يعمد إلى هذا النصّ الذي تصرح فيه التوراة بأن إسحق هو الذبيح فيكشف عن زيفه وباطله . .

يقول ابن تيمية رحمه اللّه .

« وهذا القول ـ أي القول بأن إسحق هو الذبيح ـ متلقّى من أهل الكتاب (يعنى اليهود) مع أنه باطل بنصّ كتابهم : فإن فيه : « إن اللّه أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ، بكره » ولا يشكّ أهل الكتاب مع المسلمين أن « إسماعيل » هو بكر أولاده .



---

« والذي غرّ أصحاب هذا القول ـ أي القول بان الذبيح هو إسحق ـ أن فى التوراة التي بأيديهم : « ادع ابنك إسحاق » . . وهذه زيادة من تحريفهم وكذبهم ، لأنها تناقض قوله : « ادع ابنك ووحيدك » .

« ولكن اليهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف ، وأحبّوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ، ويختاروه لأنفسهم دون العرب ، وأبى اللّه أن يجعل هذا إلّا لأهله . .

ثم يمضى ابن تيمية فيقول :

« وكيف يسوغ أن يقال : إن الذبيح إسحق ، واللّه تعالى ، قد بشّر أم إسحق به ، وبابنه

يعقوب . . فقال تعالى عن الملائكة ، إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى : « لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ » (هود : 70 . 71) فمحال أن يبشرها اللّه بأن يكون لها ولد ، ثم يأمر بذبحه ؟

. . ولا ريب أن يعقوب عليه السلام ـ داخل فى البشارة ، فتتناول البشارة إسحق ، ويعقوب فى لفظ واحد ، وهذا ظاهر الكلام وسياقه . . » ؟

يريد ابن تيمية أن يقول هنا ، إن البشرى التي تلقتها سارة فى مواجهة إبراهيم ، كانت بأن يولد لها ولد ، هو إسحق ، وأن يولد لإسحق ولد هو يعقوب . . وهذا يقطع بأن إسحق لن يموت حتى يولد له يعقوب . . وهذا يقطع أيضا بألا يكون إسحق هو القربان الذي يتقرب به إبراهيم إلى ربّه . .

إذ لا بد ـ بحكم هذه البشرى ـ أن يعيش حتى يبلغ مبلغ الرجال ، ويتزوج ، ويولد له . . فى حين أن الذي يذبح ـ عادة ـ يكون غلاما حدثا . . وهذا ما كان فى شأن الولد الذي قدمه إبراهيم للذبح ، كما يقول اللّه تعالى : « فَلَمَّا

بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ »

. . وهذا يكون فى سن لا تتجاوز العاشرة . .

ثم يقول ابن تيمية :

«ويقال أيضا : إن اللّه سبحانه لمّا ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح فى سورة الصافات قال :

« فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ، وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ . . » ثم قال تعالى : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » . . فهذه بشارة من اللّه تعالى ، له ، شكرا على صبره على ما أمر به . . وهذا ظاهر جدا فى أن المبشر به غير الأول ، بل هو كالنصّ فيه . .

« فإن قيل : فالبشارة الثانية وقعت على نبوته . . لمّا صبر الأب على ما أمر به وأسلم الولد لأمر ربه ، جازاه اللّه على ذلك بأن أعطاه النبوّة . قيل : البشارة وقعت على المجموع ، على ذاته ووجوده ، وأن يكون نبيا ، ولهذا نصب « نبيا » على الحال المقدر ، أي مقدرا نبوّته ، فلا يمكن إخراج البشارة من أن تقع على الأصل ، ثم تخصّ بالحال الجارية مجرى الفضيلة . . هذا محال من الكلام . . بل إذا وقعت البشارة على نبوته ، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى . . » .

ثم يمضى ابن تيمية فيقول :

« وأيضا فإن اللّه سبحانه وتعالى ، سمّى الذبيح حليما . . يشير إلى قوله تعالى : « فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ » لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح ، طاعة لربه . . ولما ذكر إسحق سماه « عليما » . . فقال تعالى : « وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ » (28 : الذاريات) .

(146/654)

---

« وأيضا . . فإنهما . . أي إبراهيم وسارة . . بشرا به (يعنى إسحق) على الكبر ، واليأس من الولد وهذا بخلاف إسماعيل ، فإنه ولد قبل ذلك (كما تصرح بذلك التوراة) . .

هذا بعض ما ساقه ابن تيمية من أدلة على أن إسماعيل هو الذبيح . . وإذا كان لنا أن نضيف إلى هذا شيئا ، وهو مستغن بذاته عن كل إضافة . .

فإنا نقول :

أولا : إن اللّه سبحانه ذكر عن إسماعيل قوله : « وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ ، وَكانَ رَسُولًا نَبِيًّا » (54 : مريم) .

وصدق الوعد ، هو صفة كاشفة لما كان من إمضاء إسماعيل ما وعد به أباه فى قوله : « يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ . . سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » وقد وجده كما وعد ، لم

تختلج فيه خالجة تردّد ، أو رجوع عن هذا الوعد .

بل مضى به إلى غابتة صابرا ، مستسلما لأمر اللّه ، منقادا ليد أبيه ، حتى أضجعه مضجع الذّبح ، وبدأ يجرى السكّين على رقبته ! وقد تكرر فى القرآن وصف إسماعيل بالصبر ، وجمعه مع الكرام الصابرين من رسل اللّه ، فقال تعالى : « وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ » (82 - 85 : الأنبياء) هذا ، على حين لم يجر القرآن ذكرا خاصا لإسحق ، وإنما كان دائما فى سباق الحديث عن ذرّيّة أبيه من الأنبياء . .

فاختصاص إسماعيل بهذا الذكر المنفرد ، ووصفه بتلك الصفة التي هى من



---

ألزم الصفات لمن يدخل فى هذا الامتحان ، ويخرج منه سليما معافى - يقطع بأنه الذبيح .

وثانيا : إسماعيل - عليه السلام - كان بكر إبراهيم ، يشهد بذلك التاريخ ، وتحدث به التوراة . . والعادة التي كانت جارية فى التضحية بالأبناء ، وتقديمهم قربانا للّه - هى أن يكون الولد البكر ، هو القربان الذي يتقرب به إلى اللّه . . ولهذا أضاف اليهود بأيديهم الآثمة وصف «

البكر » إلى إسحق مع أنه لم يكن بكرا ، وذلك ليسوّدوا وجه الباطل بهذه الفعلة البلهاء ، التي كشفت عن زيفهم ، إذ ما كان لهم أن يقولوا : إن إسحق هو الذبيح ، حتى يكون بكر أبيه ، وتلك هى عادتهم التي جروا عليها فى التضحية بالأبناء ، كما تحدث بذلك التوراة فى مواضع كثيرة منها . . حيث كان الولد البكر هو المتخير للتضحية ، والمنذور للقربان ، كما كان الولد البكر ، هو الوارث لكل ما كان لأبيه . .

وثالثا : أن إسماعيل ، كان دعوة مستجابة من اللّه سبحانه لأبيه إبراهيم ، إذ قال : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » فكان أن بشره اللّه سبحانه بقوله « فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ » .

أما إسحق ، فقد كان بشرى غير منتظرة ، بشر اللّه بها امرأة إبراهيم ، على يأس من أن يكون لها ولد ، إذ يقول اللّه تعالى : « وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ قالَتْ يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً » (72.71 : هود) .

وهذا يعنى أنه لو أراد إبراهيم أن يقدم ابنا من أبنائه قربانا للّه ، لكان الحقّ يقتضيه أن يقدم الولد الذي طلبه ، واستجاب اللّه له فيه ، لا أن يقدم

الابن الذي وهب الله إياه امرأته . . إن ذلك مما يدخل الضيم على هذه الهبة العظيمة من الله ، الواهب المنان .

ولا يعترض على هذا ، بأن القرآن الكريم قد ذكر أن الله سبحانه بشر إبراهيم بإسحاق فى قوله تعالى : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » . . فإنه إذ كانت البشرى لامرأته بالولد ، فإنها فى الوقت نفسه بشرى له . . وخصّت هى بالبشرى ، إذ كانت ولا ولد لها ، على حين كان لإبراهيم ولد من امرأته « هاجر » وهو إسماعيل . . انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 12 صـ 994.1020 ﴾

(149/654)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) ﴾

﴿ أَسْلَمَا ﴾ استسلما .

يقال : سلَّم واستسلم وأسلم بمعنى : انقاد وخضع ، وحذف المتعلِّق لظهوره من السياق ، أي أسلما لأمر الله فاستسلام إبراهيم بالتهيُّؤ لذبح ابنه ، واستسلام الغلام بطاعة أبيه فيما بلغه عن ربه .

و﴿ تلّه ﴾ : صرعه على الأرض ، وهو فعل مشتق من اسم التلّ وهو الصبرة من التراب كالكُدْية ، وأما قوله في حديث الشُّرْب "فتلّه في يده" أي القَدح ، فذلك على تشبيه شدة التمكين كأنه ألقاه في يده .

واللام في ﴿ لِلجَبِينِ ﴾ بمعنى ( على ) كقوله : ﴿ يخرون للأذقان سجداً ﴾ [ الإسراء : 107 ] ، وقوله تعالى : ﴿ دعانا لجنبه ﴾ [ يونس : 12 ] ، ومعناها أن مدخولها هو أسفل جزء من صاحبه .

والجبين : أحد جانبي الجبهة ، وللجبهة جبينان ، وليس الجبين هو الجبهة ولهذا خَطَّأُوا المتنبي في قوله:

وَخَلِّ زِيّاً لمن يُحقّقه . . .

ما كُل دَامِمٍ جبينُه عَابِدْ

وتبع المتنبيَ إطلاقُ العامة وهو خطأ ، وقد نبه على ذلك ابن قتيبة في "أدب الكتاب" ولم يتعقبه ابن السيِّد البطليوسي في "الاقتضاب" ولكن الحريري لم يعدّه في "أوهام الخواصّ" فلعله أن يكون غفل عنه ، وذكر مرتضَى في "تاج العروس" عن شيخه تصحيح إطلاق الجبين على الجبهة مجازاً بعلاقة المجاورة ، وأنشد قول زهير:

يَقيني بالجبين ومنكبيه . . .

وأدْفعه بمُطَّرد الكعوب

وزعم أن شارح ديوان زهير ذكر ذلك .

وهذا لا يصح استعماله إلا عند قيام القرينة لأن المجاز إذا لم يكثر لا يستحق أن يعد في معاني الكلمة على أنا لا نسلم أن زهيراً أراد من الجبين الجبهة .

ولم يذكر هذا في الأساس .

والمعنى : أنه ألقاه على الأرض على جانب بحيث يباشر جبينه الأرض من شدة الاتصال .

ومناداة الله إبراهيم بطريق الوحي بإرسال الملك ، أسندت المناداة إلى الله تعالى لأنه الآمر بها .



---

وتصديق الرؤيا : تحقيقها في الخارج بأن يعمل صورة العمل الذي رآه يقال : رؤيا صادقة ، إذا حصل بَعدها في الواقع ما يماثل صورةَ ما رآه الرائي قال الله تعالى : ﴿ لقد صدق اللَّه رسوله الرؤيا بالحق ﴾ [ الفتح : 27 ] .

وفي حديث عائشة : "أول ما بُدِىءَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤياً إلا جاءت مثل فَلَق الصبح" .

وبضد ذلك يقال : كذبتْ الرؤيا ، إذا حصل خلاف ما رأى .

وفي الحديث : " إذا اقترب الزمان لم تكد تَكذب رؤيا المؤمن " ، فمعنى ﴿ قد صدَّقْتَ الرؤيا ﴾ قد فعلتَ مثل صورة ما رأيت في النوم أنك تفعله .

وهذا ثناء من الله تعالى على إبراهيم بمبادرته لامتثال الأمر ولم يتأخر ولا سأل من الله نسخ ذلك .

والمراد : أنه صدق ما رآه إلى حدِّ إمرار السكين على رقبة ابنه ، فلما ناداه جبريل بأن لا يذبحه كان ذلك الخطابُ نسخاً لما في الرؤيا من إيقاع الذبح ، وذلك جاء من قِبل الله لا من تقصير إبراهيم ، فإبراهيم صدَّق الرؤيا إلى أن نهاه الله عن إكمال مِثالها ، فأُطلق على تصديقه أكثرَها أنه صدَّقها ، وجُعِل ذبح الكبش تأويلاً لذبح الولد الواقع في الرؤيا .

وجملة ﴿ إنَّا كذلك نَجزي المحسنين ﴾ تعليل لجملة ﴿ وناديناهُ ﴾ لأن نداء الله إياه ترفيع لشأنه فكان ذلك النداء جزاء على إحسانه .

وهذه الجملة يجوز أن تكون من خطاب الله تعالى إبراهيمَ ، ويجوز أن تكون معترضة بين جُمل خطاب إبراهيم ، والإشارة في قوله : ﴿ كذلك ﴾ إلى المصدر المأخوذ من فعل ﴿ صَدَّقتَ ﴾ من المصدر وهو التصديق مثل عَود الضمير على المصدر المأخوذ من ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [ المائدة : 8 ] ، أي إنا نجزي المحسنين كذلك التصديق ، أي مثل عظمة ذلك التصديق نجزي جزاءً عظيماً للمحسنين ، أي الكاملين في الإِحسان ، أي وأنت منهم .

وِلما يتضمنه لفظ الجزاء من معنى المكافأة ومماثلة المجزي عليه عُظم شأن الجزاء بتشبيهه بمشبه مشار إليه بإشارة البعيد المفيد بُعداً اعتبارياً وهو الرفعة وعُظم القدر في الشرف ، فالتقدير : إنا نجزي المحسنين جزاء كذلك الإِحسان الذي أحسنتَ به بتصديقك الرؤيا ، مكافأة على مقدار الإِحسان فإنه بذل أعَزّ الأشياء عليه في طاعة ربّه فبذل الله إليه من أحسن الخيرات التي بيده تعالى ، فالمشبه والمشبه به معقولان إذ ليس واحد منهما بمشاهد ولكنهما متخيَّلان بما يتسع له التخيّل المعهود عند المحسنين مما يقتضيه اعتقادهم في وعْد الصادق من جزاءِ القادر العظيم ، قال تعالى : { هل جزاء الإحسان إلا الإحسان } [ الرحمن : 60 ] .

وِلمَا أفاد اسم الإِشارة من عظمة الجزاء أُكّد الخبر بـ { إنَّ لدفع توهم المبالغة ، أي هو فوق ما تعْهده في العظمة وما تُقدره العقول .

وفهم من ذكر المحسنين أن الجزاء إحسان بمثل الإِحسان فصار المعنى : إنا كذلك الإِحسان العظيم الذي أحسنته نجزي المحسنين ، فهذا وعد بمراتب عظيمة من الفضل الرباني ، وتضمن وعد ابنه بإحسان مثله من جهة نوط الجزاء بالإِحسان ، وقد كان إحسان الابن

عظيماً ببذل نفسه .

وقد أكد ذلك بمضمون جملة إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ أي هذا التكليف الذي كلّفناك هو الاختبار البيّن ، أي الظاهر دلالة على مرتبة عظيمة من امتثال أمر الله .

واستعمل لفظ البلاء مجازاً في لازمه وهو الشهادة بمرتبةِ مَن لو اختُبر بمثل ذلك التكليف لعُلمت مرتبته في الطاعة والصبر وقوة اليقين .

وجملة ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ في محل العلة لجملة ﴿ إنّا كذلك نجزي المحسنين ﴾ على نحو ما تقدم في موقع جملة ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ [ الصافات : 81 ] في قصة نوح .

(152/654)

---

وجواب ﴿ فلمَّا أسلما ﴾ محذوف دل عليه قوله : ﴿ وناديناهُ ، ﴾ وإنما جيء به في صورة العطف إيثاراً لما في ذلك من معنى القصة على أن يكون جواباً لأن الدلالة على الجواب تحصل بعطف بعض القصة دون العكس ، وحذفُ الجواب في مثل هذا كثير في القرآن وهو من أساليبه ومثله قوله تعالى : ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابات الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ، وجاءوا أباهم عشاء يبكون

﴾ [يوسف : 15 - 16] .

وجملة ﴿ وفديناهُ ﴾ يظهر أنها من الكلام الذي خاطب الله به إبراهيم .

والمعنى : وقد فدينا ابنَك بذبح عظيم ولولا هذا التقدير تكون حكاية نداء الله إبراهيم غير مشتملة على المقصود من النداء وهو إبطال الأمر بذبح الغلام .

والفِدَى والفداء : إعطاء شيء بدلاً عن حق للمعطَى ، ويطلق على الشيء المفدَى به من إطلاق المصدر على المفعول .

وأسند الفداء إلى الله لأنه الآذِن به ، فهو مجاز عقلي ، فإن الله أوحى إلى إبراهيم أن يذبح الكبش فداء عن ذبح ابنه وإبراهيم هو الفادي بإذن الله ، وابن إبراهيم مُفْدىً .

والذِبح بكسر الذال : المذبوح ووزن فِعل بكسر الفاء وسكون عين الكلمة يكثر أن يكون بمعنى المفعول مما اشتق منه مثل : الحِب والطِحن والعِدل .

ووصفه بـ ﴿ عَظِيمٍ ﴾ بمعنى شرف قدر هذا الذِبح ، وهو أن الله فدَى به ابن رسولٍ وأبقى به من سيكون رسولاً فِعظمه بعظم أثره ، ولأنه سخره الله لإبراهيم في ذلك الوقت وذلك المكان .

وقد أشارت هذه الآيات إلى قصة الذبيح ولم يسمه القرآن لعله لئلا يثير خلافاً بين المسلمين وأهل الكتاب في تعيين الذبيح مِن ولدَيْ إبراهيم ، وكان المقصد تألف أهل الكتاب لإقامة الحجة عليهم في الاعتراف برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقِ القرآن ، ولم يكن ثَمة مقصد مهمّ يتعلق بتعيين الذبيح ولا في تخطئة أهل الكتاب في تعيينه ، وأمارة ذلك أن القرآن سمّى إسماعيل في مواضع غيرِ قصة الذبح وسمَّى إسحاق في مواضع ، ومنها بشارة أمه على لسان الملائكة الذين أرسلوا إلى قوم لُوط ، وذكر اسمَيْ إسماعيل وإسحاق أنهما وُهبا له على الكِبر ولم يسمّ أحداً في قصة الذبح قصداً للإبهام مع عدم فوات المقصود من الفضل لأن المقصود من القصة التنويه بشأن إبراهيم فأي ولديه كان الذبيح كان في ابتلائه بذبحه وعزمه عليه وما ظهر في ذلك من المعجزة تنويهٌ عظيم بشأن إبراهيم وقال الله تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ [ العنكبوت : 46 ] وقال النبي صلى الله عليه وسلم " لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم " روى الحاكم في "المستدرك" عن معاوية بن أبي سفيان أن أحد الأعراب قال للنبيء صلى الله عليه وسلم يا ابن الذبيحين فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعني أنه من ولد إسماعيل وهو الذبيح وأن أباه عبدَ الله بن عَبد المطلب كان أبوه عبد المطلب نذر : لئن رزقه الله بعشرة بنين أن يذبح العاشر للكعبة ، فلما وُلد عبد الله وهو العاشر عزَم عبد المطلب على الوفاء بنذره ، فكلّمه كبراء أهل البطاح أن يعْدِلَه بعشرة من الإبل وأن يستقسم بالأزلام عليه وعلى الإبل فإن خرج سَهم

الإِبل نحرها ، ففعل فخرج سهم عبد الله ، فقالوا : أرضِ الآلهة ، أي الآلهة التي في الكعبة يومئذٍ ، فزاد عشرة من الإِبل واستقسم فخرج سهم عبد الله ، فلم يزالوا يقولون : أرْضِ الآلهة ويزيد عبد المطلب عشرة من الإِبل ويعيد الاستقسام ويخرج سهم عبد الله إلى أن



---

بلغ مائة من الإِبل واستقسم عليهما فخرج سَهم الإِبل فقالوا رَضِيتْ الآلهة فذبحها فداءً عنه .

وكانت منقبة لعبد المطلب ولابنه أبي النبي صلى الله عليه وسلم تشبه منقبة جدّه إبراهيم وإن كانت جرت على أحوال الجاهلية فإنها يستخلص منها غيرُ ما حفّ بها من الأعراض الباطلة ، وكان الزمان زمان فترة لا شريعة فيه ولم يَرد في السنة الصحيحة ما يخالف هذا .

إلا أنه شاع من أخبار أهل الكتاب أن الذبيح هو إسحاق بن إبراهيم بناء على ما جاء في "سفر التكوين" في "الإِصحاح" الثاني والعشرين وعلى ما كان يقصّه اليهود عليهم ، ولم يكن فيما علموه من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ما يخالفه ولا كانوا يسألونه .

والتأمّل في هذه الآية يقوّي الظن بأن الذبيح إسماعيل ، فإنه ظاهر قوي في أن المأمور بذبحه هو الغلام الحليم في قوله : ﴿ فبشّرناهُ بغلامٍ حليمٍ ﴾ [ الصافات : 101 ] وأنه هو الذي

سأل إبراهيمُ ربه أن يهب له فساقت الآية قصة الابتلاء بذبح هذا الغلام الحليم الموهوب لإبراهيم ، ثم أعقبت قصته بقوله تعالى : ﴿ وبشرناهُ بإسحاق نبيًّا من الصالِحِين ﴾ [ الصافات : 112 ] ، وهذا قريب من دلالة النص على أن إسحاق هو غير الغلام الحليم الذي مضى الكلام على قصته لأن الظاهر أن قوله : ﴿ وبشرناه ﴾ [ الصافات : 112 ] بشارة ثانية وأن ذكر اسم إسحاق يدل على أنه غير الغلام الحليم الذي أجريت عليه الضمائر المتقدمة .

فهذا دليل أول .

الدليل الثاني : أن الله لما ابتلى إبراهيم بذبح ولده كان الظاهر أن الابتلاء وقع حين لم يكن لإبراهيم ابنٌ غيره لأن ذلك أكمل في الابتلاء كما تقدم .

(155/654)

---

الدليل الثالث : أن الله تعالى ذكر : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ [ الصافات : 101 ] عقِبَ ما ذكر من قول إبراهيم : ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ [ الصافات : 100 ] ، فدل على أن هذا الغلام الحليم الذي أمر بذبحه هو المبشَّر به استجابةً لدعوته ، وقد ظهر أن المقصود من الدعوة أن لا يكون عقيماً يرثه عبيدُ بيته كما جاء في "سفر التكوين" وتقدم

آنفاً .

الدليل الرابع : أن إبراهيم بنَى بيتاً لله بمكة قبل أن يبني بيتاً آخر بنحو أربعين سنة كما في حديث أبي ذرّ عن النبي صلى الله عليه وسلم ومن شأن بيوت العبادة في ذلك الزمان أن تقرّب فيها القرابين فقربان أعز شيء على إبراهيم هو المناسب لكونه قرباناً لأشرف هيكل .

وقد بقيت في العرب سنة الهدايا في الحج كل عام وما تلك إلا تذكرة لأول عام أُمر فيه إبراهيم بذبح ولده وأنه الولد الذي بمكة .

الدليل الخامس : أن أعرابياً قال للنبيء صلى الله عليه وسلم يا بن الذبيحين ، فعلم مراده وتبسَّم ، وليس في آباء النبي صلى الله عليه وسلم ذبيح غير عبد الله وإسماعيل .

الدليل السادس : ما وقع في "سفر التكوين" في الإِصحاح الثاني والعشرين أن الله امتحن إبراهيم فقال له : "خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هنالك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك" إلى آخر القصة .

ولم يكن إسحاق ابناً وحيداً لإِبراهيم فإن إسماعيل وُلد قبله بثلاث عشرة سنة .

ولم يزل إبراهيم وإسماعيل متواصلين وقد ذكر في الإِصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين عند ذكر موت إبراهيم عليه السلام "ودفَنه إسحاق وإسماعيل ابناه" ، فإقحام اسم إسحاق بعد قوله : ابنَك وحيدَك ، من زيادة كاتب التوراة .

الدليل السابع : قال صاحب "الكشاف" : ويدل عليه أن قرني الكبش كانا منوطين في الكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت في حصار ابن الزبير ا .

ه .

(156/654)

---

وقال القرطبي عن ابن عباس : والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام وأن رأس الكبش لمعلق بقرنيه من ميزاب الكعبة وقد يبس .

قلت : وفي صحة كون ذلك الرأس رأس كبش الفداء من زمن إبراهيم نظر .

الدليل الثامن : أنه وردت روايات في حكمة تشريع الرمي في الجمرات من عهد الحنيفية أن الشيطان تعرض لإبراهيم ليصدّه عن المضيّ في ذبح ولده وذلك من مناسك الحجّ لأهل مكة ولم تكن لليهود سُنَّة ذبح معين .

وذكر القرطبي عن ابن عباس : أن الشيطان عرض لإبراهيم عند الجمرات ثلاث مرات فرجمه في كل مرة بحصيات حتى ذهب من عند الجمرة الأخرى .

وعنه : أن موضع معالجة الذبح كان عند الجمار وقيل عند الصخرة التي في أصل جبل ثبير بمنى .

الدليل التاسع : أن القرآن صريح في أن الله لمّا بشر إبراهيم بإسحاق قرن تلك البشارة بأنه يولد لإِسحاق يعقوب ، قال تعالى : ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ [ هود : 71 ] وكان ذلك بمحضر إبراهيم فلو ابتلاه الله بذبح إسحاق لكان الابتلاء صورياً لأنه واثق بأن إسحاق يعيش حتى يولد له يعقوب لأن الله لا يخلف الميعاد .

ولمّا بشره بإسماعيل لم يَعِدْه بأنه سيُولد له وما ذلك إلا توطئة لابتلائه بذبحه فقد كان إبراهيم يدعو لحياة ابنه إسماعيل .

فقد جاء في "سفر التكوين" الإِصحاح السابع عشر "وقال إبراهيم لله : ليت إسماعيل يعيش أمامك فقال الله : بل سارة تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده" .

ويظهر أن هذا وقع بعد الابتلاء بذبحه .

الدليل العاشر : أنه لو كان المراد بالغلام الحليم إسحاق لكان قوله تعالى بعد هذا : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيًّا من الصالِحينَ ﴾ [ الصافات : 112 ] تكريراً لأن فعل : بشرناه بفلان ، غالب في معنى التبشير بالوجود .

واختلف علماء السلف في تعيين الذبيح فقال جماعة من الصحابة والتابعين : هو إسماعيل ومِمن قاله أبو هريرة وأبو الطفيل عامر بن واثلة وعبد الله بن عُمر وابن عباس ومعاوية بن أبي سفيان .

وقاله من التابعين سعيد بن المسيب والشعبي ومجاهد وعلقمة والكلبي والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القُرظي وأحمد بن حنبل .

وقال جماعة : هو إسحاق ونقل عن ابن مسعود والعباس بن عبد المطلب وجابر بن عبد الله وعمر وعلي من الصحابة ، وقاله جمع من التابعين منهم : عطاء وعكرمة والزهري والسّدِّي .

وفي "جامع العتبية" أنه قول مالك بن أنس .

فإن قلت : فعلامَ جنحتَ إليه واستَدللت عليه من اختيارك أن يكون لابتلاء بذبح إسماعيل دون إسحاق ، فكيف تتأول ما وقع في "سفر التكوين" ؟

قلت : أرى أن ما في "سفر التكوين" نُقِل مشتّتاً غير مرتبة فيه أزمان الحوادث بضبط يعين الزمن بين الذبح وبين أخبار إبراهيم ، فلما نقَل النقلةُ التوراة بعد ذهاب أصلها عقب أسر بني إسرائيل في بلاد أشور زمن بختنصر ، سجلت قضية الذبيح في جملة أحوال إبراهيم عليه السلام وأدمج فيها ما اعتقده بنو إسرائيل في غربتهم من ظنهم الذبيح إسحاق .

ويدل لذلك قول الإِصحاح الثاني والعشرين "وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن

إبراهيم فقال خذ ابنك وحيدك" الخ؛ فهل المراد من قولها : بعد هذه الأمور ، بعد جميع الأمور المتقدمة أو بعد بعض ما تقدم .

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108)

القول في ﴿ وتركنا عليه في الآخرينَ ﴾ نظير الكلام المتقدم في ذكر نوح عليه السلام في هذه السورة وإعادته هنا تأكيد لما سبق لزيادة التنويه بإبراهيم عليه السلام .

ويَرِد أن يقال : لماذا لم تؤكد جملة ﴿ كذلك نَجزي المحسنين ﴾ بـ ( إنَّ ) هنا وأكدت مع ذكر نوح وفيما تقدم من ذكر إبراهيم .

*(158/654)*

---

وأشار في "الكشاف" أنه لما تقدم في هذه القصة قوله : ﴿ إنَّا كذلك نجزي المحسنين ﴾ [ الصافات : 80 ] وكان إبراهيم هو المجزيّ اكُتفي بتأكيد نظيره عن تأكيده ، أي لأنه بالتأكيد الأول حصل الاهتمام فلم يبق داعٍ لإعادته .

واقتصر على تأكيد معنى الجملة تأكيداً لفظياً لأنه تقرير للعناية بجزائه على إحسانه .

ولم يذكر هنا ﴿ في العالمين ﴾ [ الصافات : 79 ] لأن إبراهيم لا يعرفه جميع الأمم من البشر بخلاف نوح عليه السلام كما تقدم في قصته .

وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112)

هذه بشارة أخرى لإبراهيم ومكرمة له ، وهي غير البشارة بالغلام الحليم ، فإسحاق غير الغلام الحليم .

وهذه البشارة هي التي ذكرت في القرآن في قوله تعالى : ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ [ هود : 71 ] .

وتسمية المبشَّر به إسحاق تحتمل أن الله عيّن له اسماً يسمّيه به وهو مقتضى ما في الإصحاح السابع عشر من " سفر التكوين " "سارة امرأتك تلد ابناً وتدعو اسمه إسحاق" .

وتحتمل أن المراد : بشرناه بولدٍ الذي سمي إسحاق ، وهو على الاحتمالين إشارة إلى أن الغلام المبشر به في الآية قبل هذه ليس هو الذي اسمه إسحاق فتعين أنه الذي سُمي إسماعيل .

ومعنى البشارة به البشارة بولادته له لأنّ البشارة لا تتعلق بالذوات بل تتعلق بالمعاني .

وانتصب ﴿ نبيئاً ﴾ على الحال من ﴿ إسحاق ﴾ ، فيجوز أن يكون حكاية للبشارة فيكون الحال حالاً مقدّراً لأن اتصاف إسحاق بالنبوءة بعد زمن البشارة بمدة طويلة بل هو لم يكن موجوداً ، فالمعنى : وبشّرناه بولادة ولد اسمه إسحاق مقدراً حالُه أنه نبيء ، وعدم وجود صاحب الحال في وقت الوصف بالحال لا ينافي اتصافه بالحال على تقدير وجوده لأن وجود صاحب الحال غير شرط في وصفه بالحال بل الشرط مقارنة تعلق الفعل به مع اعتبار معنى الحال لأن غايته أنه من استعمال اسم الفاعل في زمان الاستقبال بالقرينة ولا تكون الحال المقدرة إلا كذلك ، وطول زمان الاستقبال لا يتحدد ، ومنه ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ويأتينا فرداً ﴾ في سورة [ مريم : 80 ] .

واعلم أن معنى الحال المقدرة أنها مقدّر حصولها غير حاصلة الآن والمقدِّر هو الناطق بها ، وهي وصف لصاحبها في المستقبل وقيد لعاملها كيفما كان ، فلا تحتفل بما أطال به في "الكشاف" ولا بمخالفة البيضاوي له ولا بما تفرع على ذلك من المباحثات .

وإن كان وضعاً معترضاً في أثناء القصة كان تنويهاً بإسحاق وكان حالاً حاصلة .

وقوله : ﴿ مِن الصالِحين ﴾ حال ثانية ، وذكرها للتنويه بشأن الصلاح فإن الأنبياء معدودون في زمرة أهله وإلا فإن كل نبيء لا بدّ أن يكون صالحاً ، والنبوءة أعظم أحوال الصلاح لما معها من العظمة .

وبارك جعله ذا بركة والبركة زيادة الخير في مختلف وجوهه ، وقد تقدم تفسيرها عند قوله

تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً ﴾ في سورة [ آل عمران : 96 ] .

وقوله : ﴿ وبركات عليك ﴾ في سورة [ هود : 48 ] .

و﴿ على ﴾ للاستعلاء المجازي ، أي تمكُّن البركةِ من الإحاطة بهما .

(160/654)

---

ولما ذكر ما أعطاهما نقل الكلام إلى ذريتهما فقال : ﴿ ومن ذُريتهما مُحسنٌ ﴾ ، أي عامل بالعمل الحسن ، ﴿ وظالِمٌ لنفسهِ ﴾ أي مشرك غير مستقيم للإشارة إلى أن ذريتهما ليس جميعها كحالهما بل هم مختلفون ؛ فمن ذرية إبراهيم أنبياء وصالحون ومؤمنون ومن ذرية إسحاق مثلهم ، ومن ذرية إبراهيم من حادوا عن سنن أبيهم مثل مشركي العرب ، ومن ذرية إسحاق كذلك مثل من كفر من اليهود بالمسيح وبمحمد صلّى الله عليهما ، ونظيره قوله تعالى:

﴿ قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ في سورة [ البقرة : 124 ] .

وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيّب لا يجري أمرهما على العِرق والعنصر فقد يلد البَرُّ الفاجرَ والفاجر البَرّ ، وعلى أن فساد الأعقاب لا يُعدّ غضاضة على الآباء ، وأن مناط الفضل هو خصال الذات وما اكتسب المرء من الصالحات ، وأما كرامة الآباء فتكملة

للكمال وباعث على الاتّسام بفضائل الخِلال، فكان في هذه التكملة إبطال غرور المشركين بأنهم من ذرية إبراهيم، وإنها مزية لكن لا يعادلها الدخول في الإِسلام وأنهم الأوْلى بالمسجد الحرام.

قال أبو طالب في خطبة خديجة للنبيء صلى الله عليه وسلم "الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وجعلنا رجال حرمه وسَدنة بيته" فكان ذلك قبل الإِسلام وقال الله تعالى لهم بعد الإِسلام: ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن باللَّه واليوم الآخر وجاهد في سبيل اللَّه لا يستوون عند اللَّه ﴾ [التوبة: 19].

وقال تعالى: ﴿ وهم يصدّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ [الأنفال: 34] وقال: ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا ﴾ [آل عمران: 68].

*(161/654)*

---

وقد ضرب الله هذه القصة مثلاً لحال النبي صلى الله عليه وسلم في ثباته على إبطال الشرك وفيما لقي من المشركين وإيماءً إلى أنه يهاجر من أرض الشرك وأن الله يهديه في هجرته ويهَب له أمّة عظيمة كما وهب إبراهيم أتباعاً، فقال: ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ [النحل:

120 ].

وفي قوله تعالى : ﴿ ومن ذريتهما محسنٌ وظالمٌ لنفسه مبينٌ ﴾ مَثَل لحال النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه من أهل مكة ولحال المشركين من أهل مكة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(162/654)

---

فصل فى منزلة الغرق

قال ابن القيم :

فصل قال شيخ الإسلام . باب الغرق

قال الله تعالى ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ هذا اسم يشار به في هذا الباب إلى من توسط المقام وجاوز حد التفرق وجه استدلاله بإشارة الآية أن إبراهيم لما بلغ ما بلغ هو وولده في المبادرة إلى الامتثال والعزم عل إيقاع الذبح المأمور به ألقاه الوالد على جبينه في الحال وأخذ الشفرة وأهوى إلى حلقه أعرض في تلك الحال عن نفسه وولده وفنى بأمر الله عنهما فتوسط بحر جمع السر والقلب والهم على الله وجاوز حد التفرقة المانعة من امتثال هذا الأمر قوله ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ أي استسلما وانقادا لأمر الله فلم يبق هناك منازعة لا من

الوالد ولا من الولد بل استسلام صرف وتسليم محض قوله ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أي صرعه على جبينه وهو جانب الجبهة الذي يلي الأرض عند النوم وتلك هي هيئة ما يراد ذبحه قوله توسط المقام لا يريد به مقاما معينا ولذلك أبهمه ولم يقيده والمقام عندهم منزل من منازل السالكين وهو يختلف باختلاف مراتبه وله بداية وتوسط ونهاية فالغرق المشار إليه أن يصير في وسط المقام فإن قيل الغرق أخص بنهاية المقام من توسطه لأنه استغراق فيه بحيث يستغرق قلبه وهمه فكيف جعله الشيخ توسطا فيه قلت لما كانت همة الطالب في هذه الحال مجموعة على المقصود وهو معرض عما سواه قد فارق مقام التفرقة وجاوز حدها إلى مقام الجمع فابتدأ في المقام وأول كل مقام يشبه آخر الذي قبله فلما توسط فيه استغرق قلبه وهمه وإرادته كما يغرق من توسط اللجة فيها قبل وصوله إلى آخرها قوله وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى استغراق العلم في عين الحال.



---

وهذا رجل قد ظفر بالاستقامة وتحقق في الإشارة فاستحق صحة النسبة هذه الدرجة التي بدأ بها هي أول درجاته لأن الرجل قد يكون عالما بالشيء ولا يكون متصفا بالتخلق به واستعماله فالعلم شيء والحال شيء آخر فعلم العشق والصحة والشكر والعافية غير

حصولها والاتصاف بها فإذا غلب عليه حال تلك المعلومات صار علمه بها كالمغفول عنه وليس بمغفول عنه بل صار الحكم للحال فإن العبد يعرف الخوف من حيث العلم ولكن إذا اتصف بالخوف وباشر الخوف قلبه غلب عليه حال الخوف والانزعاج واستغرق علمه في حاله فلم يذكر علمه لغلبة حاله عليه ومن هذه حاله فقد ظفر بالاستقامة لأن العلوم إذا أثمرت الأحوال كانت عنها الاستقامة في الأعمال ووقوعها على وجه الصواب وتحقق صاحبها في الإشارة إلى ما وجده من الأحوال ولم تكن إشارته عن تخمين وظن وحسبان واستحق اسم النسبة في صحة العبودية إلى الرحمن عز وجل لقوله ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ وقوله ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ الآيات وقوله ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ وقوله ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ والمقصود أن هذا قد انتقل من أحكام العمل وحده إلى أحكام العمل بالحال المصاحب للعلم فهو عامل بالمواجيد الحالية المصحوبة بالعلوم النبوية فإن انفراد العلم عن الحال تعطيل وبطالة وانفراد الحال عن العلم كفر وإلحاد والأكمل أن لا يغيب عن شهود العلم بالحال وإن استغرقه الحال عن شهود العلم مع قيامه بأحكامه لم يضره قوله وهذا رجل قد ظفر بالاستقامة أي هو على محجة الطريق القاصد إلى الله الموصل إليه والظفر هو حصول الإنسان على مطلوبه .

قوله وتحقق في الإشارة أي إشارته إشارة تحقيق ليست كإشارة صاحب البرق الذي يلوح ثم يذهب قوله فاستحق صحة النسبة لأنه لما استقام وصح حاله بعمله وأثمر علمه حاله صحت نسبة العبودية له فإنه لا نسبة بين العبد ولرب إلا نسبة العبودية .

فصل قال الدرجة الثانية استغراق الإشارة في الكشف وهذا رجل ينطق عن .

موجوده ويسير مع مشهوده ولا يحس برعونة رسمه إنما كانت هذه الدرجة أرفع مما قبلها لأن صاحب الدرجة الأولى غايته أن يشير إلى ما تحققه وإن فارقه وصاحب هذه الدرجة قد فنى عن الإشارة لغلبة توالي نور الكشف عليه فاستغراق الإشارة في الكشف هو ارتفاع حكمها فيه فإن الإشارة عندهم نداء على رأس العبد وبوح بمعنى العلة وقد ارتفعت العلل عن صاحب هذه الدرجة فاستغرقت إشارته في كشفه فلم يبق له إشارة في الكشف وإنما ترتفع الإشارة لاستغراق الكشف لها إلا أن صاحب هذه الدرجة فيه بقية من رعونة رسمه فلذلك قال ولا يحس برعونة رسمه ورعونة الرسم هي التفاته إلى إنيته وقوله وهذا رجل ينطق عن موجوده أي لا يستعير ما يذكره من الذوق والوجد من غيره ويكون لسانه ناطقا به على حال غيره وموجوده فهو ينطق عن أمر هو متصف به لا وصاف له قوله ويسير مع مشهوده هو بالسين المهملة أي يسير إلى الله عز وجل عن شهود وكشف لا مع حجاب وغفلة فهو سائر إلى الله بالله مع الله قوله ولا يحس برعونة رسمه الرسم عندهم هو ذات

العبد التي تفنى عند الشهود وليس المراد بفنائها عدمها من الوجود العيني بل عدمها من الوجود الذهني العلمي هذا مرادهم بقولهم فنى من لم يكن وبقي من لم يزل . ر



---

وقد يريدون به معنى آخر وهو اضمحلال الوجود المحدث الحاصل بين عدمين وتلاشيه في الوجود الذي لم يزل ولا يزال وللملحد ههنا مجال يجول فيه ويقول إن الوجود المحدث لم تكن له حقيقة وإن الوجود القديم الدائم وحده هو الثابت لا وجود لغيره لا في ذهن ولا في خارج وإنما هو وجود فائض على الدوام على ماهيات معدومة فتكتسى بعين وجوده بحسب استعداداتها والمقصود شرح كلام الشيخ والمراد برعونة الرسم ههنا بقية تبقى من صاحب الشهود لا يدركها لضعفها وقلتها واشتغاله بنور الكشف عن ظلمتها فهو لا يحس بها .

فصل قال الدرجة الثالثة استغراق الشواهد في الجمع وهذا رجل شملته .

أنوار الأولية ففتح عينه في مطالعة الأزلية فتخلص من الهمم الدنية إنما كان هذا الاستغراق عنده أكمل مما قبله لأن الأول استغراق كاشف في كشف وهو متضمن لتفرقة وهذا استغراق عن شهود كشفه في الجمع فتمكن هذا في حال جمع همته مع الحق حتى غاب عن

إدراك شهوده وذكر رسومه لما توالى عليه من الأنوار التي خصه الحق بها في الأزل وهي أنوار كشف اسمه الأول ففتح عين بصيرته في مطالعة الاختصاصات الأزلية فتخلص بذلك من الهمم الدنية المنقسمة بين تغيير مقسوم أو تفويت مضمون أو تعجيل مؤخر أو تأخير سابق ونحو ذلك وقد يراد بالهمم الدنية تعلقها بما سوى الحق سبحانه وما كان له وعلى هذا فاستغراق شواهده في جمع الحكم وشموله وقد يراد به معنى آخر وهو استغراق شواهد الأسماء والصفات في الذات الجامعة لها فإن الذات جامعة لأسمائها وصفاتها فإذا استغرق العبد في حضرة الجمع غابت الشواهد في تلك الحضرة.

(166/654)

---

وأكمل من ذلك أن يشهد كثرة في وحدة ووحدة في كثرة بمعنى أن يشهد كثرة الأسماء والصفات في الذات الواحدة ووحدة الذات مع كثرة أسمائها وصفاتها وقوله ففتح عينه في مطالعة الأزلية نظر بالله لا بنفسه واستمد من فضله وتوفيقه لا من معرفته وتحقيقه فشاهد سبق الله سبحانه وتعالى لكل شيء وأوليته قبل كل شيء فتخلص من همم المخلوقين المتعلقة بالأدنى وصارت له همة عالية متعلقة بربه الأعلى تسرحي رياض الأنس به ومعرفته ثم تأوي إلى مقاماتها تحت عرشه ساجدة له خاضعة لعظمته متذللة لعزته لا

تبغي عنه حولا ولا تروم به بدلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 3 صـ 206 . 210 ﴾

(167/654)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) ﴾

قيل في التفاسير إنه كان يمرُّ بالسكين على حَلْقِه والسكين لا يُقطَع ، فتعجَّبَ إبراهيمُ ، فنودي : يا إبراهيم ، كان المقصودُ من هذا استسلامكما .

ويقال إن الله سَتَرَ عليهما عِلْمَ ما أُريد منهما في حال البلاء ، وإنما كَشَفَ عنهما بعد مُضِيّ وقت المحنة لئلا يَبْطُلَ معنى الابتلاَءَ . . . وهكذا يكون الأمر عند البلاء ؛ تَنْسَدُّ الوجوهُ في الحال ؛ وكذلك كانت حالة النبيّ صلى الله عليه وسلم . في حال حديث الإفك ، وكذلك حالة أيوب عليه السلام ؛ وإنما يتبيَّنُ الأمرُ بعد ظهور آخر المحنة وزوالها ، وإلاَّ لم تكن حينئذٍ محنة [ إلاَّ أنه يكون في حال البلاء إسبال يُولَى مع مخامرة المحنة ] ولكن مع استعجام الحال واستبهامه ، إذ لو كشف الأمر على صاحبه لم يكن حينئذٍ بلاءٌ ؛ قال تعالى :

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107)

قيل كان فداء الذبيح يُرَبَّى في الجنة قبله بأربعين خريفاً .

والناس في " البلاء " على أقسام : فبلاءٌ مستعصب وذلك صفة العوام ، وبلاء مستعذب وذلك صفة مَنْ يستعذبون بلاياهم ، كأنهم لا ييأسون حتى إذا قُتِلُوا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ ﴾ .

وكُلُّ هذا بعد البلاء ؛ قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [ الشرح : 6 ] . انتهى

انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 239 . 240 ﴾

*(168/654)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والخمسون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/655)

---

الجزء الخامس والخمسون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 114 ﴾ من سورة الصافات

وحتى الآية ﴿ 170 ﴾ من نفس السورة

(4/655)

---

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (116) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (118) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (119) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (120) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر هؤلاء السادة الذين لهم من رتبة التجرد والنزاهة ما تقدم بيانه ، وختمهم بأخوين ما اجتمعا قط ، وكان من أعظم المقاصد بذكرهم المنة على من اتصف بمثل صفاتهم بالقرب والنصرة تسلية وترجية للنبي . صلى الله عليه وسلم . ولمن اتبعه من المؤمنين ممن قارب – من شدة البلاء والقهر – اليأس من النصر ، أتبعهم بأمثالهم في التجرد وابتدأهما بأخوين افترقا حين ولادة الثاني على حالة لا يمكن الاجتماع معها عادة ، ثم اجتمعا في الباطن مع الافتراق في الظاهر ثم افترقا على حالة يبعد الاجتماع معها عادة ثم اجتمعا اجتماعاً لم يفترقا منه إلا بالموت وبدأهما بأول من تجرد منهما من حين ولادته إلى أوان هجرته ، ثم من حين رجعته إلى أن جرد آله – وهم بعض ذرية إبراهيم عليه السلام – وأنقذهم من علائق الكفرة ، ثم تجرد معهم هو وأخوه عن المدن والقرى وأكثر علائق البشر

، ملازمين البراري والفلوات حيث يكثر ظهور الكلمة مع إرسال الله إليهما بمعادن الحكمة إلى أن ماتا عليهما الصلاة والسلام والتحية والإكرام ، فقال مؤكداً تنبيهاً لمن يعد نصر المؤمنين محالاً ، عاطفاً على ما تقديره : فلقد أنشأنا منهما من الأمم ما يعجز الوصف ويفوت الحصر ، ومننا على كثير منهم بالإحسان من ولد إسماعيل عليه السلام إلى أن غير دينه عمرو بن لحي ، ومن ولد إسحاق يعقوب والأسباط عليهم السلام ومن شاء الله من أولادهم : ﴿ ولقد مننا ﴾ أي أنعمنا إنعاماً مقطوعاً به بما لنا من العظمة ، على أول من أظهر لسان الصدق لإبراهيم عليه السلام وذريته اظهاراً تاماً .

وبدأهما بأعرقهما - كما تقدم - في التجرد وأحقها بالتقدم فقال : ﴿ على موسى ﴾ أحد أعيان المتجردين ، ومن له القدم الراسخ في ذلك ﴿ وهارون ﴾ أي عين من تجرد مع أخيه ووافقه أتم موافقة ، ووازره أعظم موازرة ، بما أتيا به من النبوة والكتاب وغير ذلك من أنواع الخطاب .



---

ولما كان جل المقصود - كما مضى - مقام التجرد ، والإعلام بنصر المستضعفين من المؤمنين ، قال : ﴿ ونجيناهما وقومهما ﴾ أي بني إسرائيل وقد كانوا مرت لهم دهور في ذل

لا يقاربه ذل المؤمنين من أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أول أمرهم ﴿ من الكرب العظيم ﴾ أي الاستبعاد ، وما يتبعه من عظائم الأنكاد ، وكان ذلك بهلاك القبط الذين استمروا على الضلال ، وهم أضعاف أضعاف بني إسرائيل ، إلى أن أهلكناهم فلم يفلت منهم إنسان ، فصح لبني إسرائيل حينئذ التجرد وزال عنهم ذل التجبر والتمرد .

ولما بين نعمة النجاة من الأسر ، أتبعها نعمة الالتذاذ بالنصر ، فقال : ﴿ ونصرناهم ﴾ أي موسى وهارون عليهما السلام وقومهما على كل من نازعهم في ذلك الزمان من فرعون وغيره ﴿ فكانوا هم ﴾ أي خاصة ﴿ الغالبين ﴾ أي على كل من يسومهم سوء العذاب ، وهو فرعون وآله وعلى جميع من ناووه أو ناواهم ، فاحذروا يا معشر قريش والعرب من مثل ذلك ، ولقد كان ما حذرهم منه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أعظم ما يمكن أن يكون إلا نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما كان نبي الرحمة لين الله قلوبهم حتى ردهم إلى ما اغتبطوا به من متابعته ، فصاروا به ملوك الدنيا والآخرة .

ولما كانت فائدة النصرة التمكن من إقامة الدين قال : ﴿ وآتيناهما ﴾ أي بعظمتنا بعد إهلاك عدوهم ﴿ الكتاب المستبين ﴾ أي الجامع البين الذي هو لشدة بيانه طالب لأن يكون بيناً وهو كذلك فإنه ليس شيء من الكتب مثل التوراة في سهولة مأخذها ، وجمع هارون عليه السلام معه في الضمير لأنه مثله في تقبل الكتاب والعمل بجميع ما فيه والثبات على ما يدعو إليه وإن كان نزوله خاصاً بموسى عليه السلام : ﴿ وهديناهما الصراط ﴾

أي الطريق الواضح في الإيصال إلى المقصود ﴿ المستقيم ﴾ أي الذي هو لعظيم تقومه كأنه طالب لأن يكون قويماً ، فهو في غاية المحافظة على القوم فلا يزيغ أصلاً ، ولذلك هو شرائع الدين القيم .

(6/655)

---

ولما كان الذكر الجميل عند ذوي الهمم العالية والعزائم الوافية هو الشرف قال : ﴿ وتركنا عليهما ﴾ أي ما تعرفون من الثناء الحسن ﴿ في الآخرين ﴾ أي كل من يجيء بعدهما إلى يوم الدين .

ولما ظهر بهذا أن لهما من الشرف والسؤدد أمراً عظيماً كانت نتيجته : ﴿ سلام ﴾ أي عظيم ﴿ على موسى ﴾ صاحب الشريعة العريق في الاتصاف بمقصود السورة ﴿ وهارون ﴾ وزيره وأخيه .

ولما كان نصر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمن معه من الضعفاء على قريش وسائر العرب عند قريش في غاية البعد ، وكان التقدير : فعلنا معهما ذلك لإحسانهما ، علله بما يقطع قلوب قريش في مظهر التأكيد فقال : ﴿ إنا كذلك ﴾ أي مثل هذا الجزاء ﴿ نجزي ﴾ أي دائماً في كل عصر ﴿ المحسنين ﴾ أي العريقين في هذا الوصف ؛ ثم علل إحسانهما وبينه

وأكده ترغيباً في مضمونه ، وتكذيباً لمن يقول : إن المؤمنين لا ينصرون ، بقوله : ﴿ إنهما من عبادنا ﴾ أي الذين محضوا العبودية والخضوع لنا ﴿ المؤمنين ﴾ أي الثابتين في وصف الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 335.336 ﴾

(7/655)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) ﴾

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة ، واعلم أن وجوه الأنعام وإن كانت كثيرة إلا أنها محصورة في نوعين إيصال المنافع إليه ودفع المضار عنه والله تعالى ذكر القسمين ههنا ، فقوله : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا على موسى وهارون ﴾ إشارة إلى إيصال المنافع إليهما ، وقوله : ﴿ ونجيناهما وَقَوْمَهُمَا مِنَ الكرب العظيم ﴾ إشارة إلى دفع المضار عنهما .

أما القسم الأول : وهو إيصال المنافع ، فلا شك أن المنافع على قسمين : منافع الدنيا ومنافع الدين ، أما منافع الدنيا فالوجود والحياة والعقل والتربية والصحة وتحصيل صفات الكمال

في ذات كل واحد منهما ، وأما منافع الدين فالعلم والطاعة ، وأعلى هذه الدرجات النبوة الرفيعة المقرونة بالمعجزات الباهرة القاهرة ، ولما ذكر الله تعالى هذه التفاصيل في سائر السور ، لا جرم اكتفى ههنا بهذا الرمز .

وأما القسم الثاني : وهو دفع الضرر فهو المراد من قوله : ﴿ ونجيناهما وَقَوْمَهُمَا مِنَ الكرب العظيم ﴾ وفيه قولان : قيل إنه الغرق ، أغرق الله فرعون وقومه ، ونجى الله بني إسرائيل ، وقيل المراد أنه تعالى نجاهم من إيذاء فرعون حيث كان يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه منّ على موسى وهارون ، فصل أقسام تلك المنة .

*(8/655)*

---

والهاء في قوله : ﴿ ونصرناهم ﴾ أي نصرنا موسى وهارون وقومهما : ﴿ فَكَانُواْ هُمُ الغالبين ﴾ في كل الأحوال بظهور الحجة وفي آخر الأمر بالدولة والرفعة وثانيهما : قوله تعالى : ﴿ وءاتيناهما الكتاب المستبين ﴾ والمراد منه التوراة ، وهو الكتاب المشتمل على جميع العلوم التي يحتاج إليها في مصالح الدين والدنيا ، كما قال : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التوراة فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [ المائدة : 44 ] ، وثالثها : قوله تعالى : ﴿ وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ أي

دللناهما على طريق الحق عقلاً وسمعاً ، وأمددناهما بالتوفيق والعصمة ، وتشبيه الدلائل الحقة بالطريق المستقيم واضح ورابعها : قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى الأخرين ﴾ وفيه قولان الأول : أن المراد ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى الأخرين ﴾ وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم قولهم : ﴿ سلام على موسى وهارون ﴾ والثاني : أن المراد ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى الأخرين ﴾ وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الثناء الحسن والذكر الجميل ، وعلى هذا التقدير فقوله بعد ذلك : ﴿ سلام على موسى وهارون ﴾ هو كلام الله تعالى ، ولما ذكر تعالى هذه الأقسام الأربعة من أبواب التعظيم والتفضيل قال : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ وقد سبق تفسيره ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهمَا مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ والمقصود التنبيه ، على أن الفضيلة الحاصلة بسبب الإيمان أشرف وأعلى وأكمل من كل الفضائل ، ولولا ذلك لما حسن ختم فضائل موسى وهارون بكونهما من المؤمنين ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 139 . 140 ﴾

(9/655)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا على موسى وَهَارُونَ ﴾

لما ذكر إنجاء إسحاق من الذبح ، وما منّ به عليه بعد النبوّة ، ذكر ما منّ به أيضاً على موسى وهارون من ذلك .

وقوله : ﴿ مِنَ الكرب العظيم ﴾ قيل : من الرق الذي لحق بني إسرائيل .

وقيل من الغرق الذي لحق فرعون .

﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ﴾ قال الفراء : الضمير لموسى وهارون وحدهما ؛ وهذا على أن الاثنين جمع ؛ دليله قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا ﴾ ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا ﴾ .

وقيل : الضمير لموسى وهارون وقومهما وهذا هو الصواب ؛ لأن قبله "وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا" .

و﴿ الكتاب المستبين ﴾ التوراة ؛ يقال استبان كذا أي صار بيِّناً ؛ واستبانه فلان مثل تبيّن الشيء بنفسه وتبيّنه فلانٌ .

و﴿ الصراط المستقيم ﴾ الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه وهو دين الإسلام .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخرين ﴾ يريد الثناء الجميل .

﴿ سَلاَمٌ على موسى وَهَارُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا على موسى وهارون ﴾

أي أنعمنا عليهما بالنبوَّة وغيرِها من النِّعم الدِّينيةِ والدُّنيويةِ ﴿ ونجيناهما وَقَوْمَهُمَا ﴾ وهم بنُو إسرائيلَ ﴿ مِنَ الكرب العظيم ﴾ هو مَلَكةُ آلِ فرعونَ وتسلطهم عليهم بألوان الغَشَمِ والعذاب كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أنجيناكم مِّنْ ءالِ فِرْعَوْنَ ﴾ وقيل هو الغَرَقُ وهو بعيد لأنَّه لم يكن عليهم كَرباً ومشقةً .

﴿ ونصرناهم ﴾ أي إيَّاهما وقومَهما على عدوِّهم ﴿ فَكَانُواْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ هُمُ الغالبين ﴾ عليهم غلبةً لا غايةَ وراءها بعد أنْ كان قومُهما في أسرِهم وقَسْرِهم مقهورين تحت أيديهم العادية يسومُونهم سوء العذاب . وهذه التَّنجيةُ وإن كانتْ بحسب الوجودِ مقارنةً لما ذُكر من النَّصرِ والغَلَبة لكنَّها لما كانتْ بحسب المفهومِ عبارة عن التَّخليصِ من المكروهِ بُدىء بها ثمَّ بالنَّصر الذي يتحقَّقُ مدلُوله بمحضِ تنجيةِ المنصورِ من عدوِّه من غير تغليبِه عليه ثم بالغلبةِ لتوفيةِ مقامِ الامتنانِ حقَّه بإظهار أنَّ كلَّ مرتبةٍ من هذه المراتبِ الثَّلاثِ نعمةٌ جليلةٌ على حيالها .

﴿ وءاتيناهما ﴾ بعد ذلك ﴿ الكتاب المستبين ﴾ أي البليغَ في البيان والتَّفصيلِ وهو التَّوراةُ ﴿ وهديناهما ﴾ بذلك ﴿ الصراط المستقيم ﴾ الموصِّلَ إلى الحقِّ والصَّوابِ بما

فيه من تفاصيلِ الشّرائعِ وتفاريعِ الأحكامِ ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى الاخرين سلام على موسى وهارون ﴾ أي أبقينا فيما بين الأممِ الآخرين هذا الذّكرَ الجميلَ والثّناءَ الجزيلَ ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ الجزاءِ الكاملِ ﴿ نَجْزِى المحسنين ﴾ الذين هُما من جُملتهم لا جزاء قاصراً عنه ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ سبق بيانُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(11/655)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) ﴾

أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية .

﴿ ونجيناهما وَقَوْمَهُمَا مِنَ الكرب العظيم ﴾ هذا وما بعده من قبيل عطف الخاص على العام ، والكرب العظيم تغلب فرعون ومن معه من القبط ، وقيل الغرق وليس بذاك .

﴿ ونصرناهم ﴾ الضمير لهما مع القوم وقيل لهما فقط وجيء به ضمير جمع لتعظيمهما ﴿ فَكَانُواْ هُمُ الغالبون ﴾ بسبب ذلك على فرعون وقومه ؛ و﴿ هُمْ ﴾ يجوز أن يكون فصلاً أو توكيداً أو بدلاً ، والتنجية وإن كانت بحسب الوجود مقارنة لما ذكر من النصر

لكنها لما كانت بحسب المفهوم عبارة عن التلخيص عن المكروه بدأ بها ثم بالنصر الذي يتحقق مدلوله بمحض تنجية المنصور من عدوه من غير تغلب عليه ثم بالغلبة لتوفية مقام الامتنان حقه بإظهار أن كل مرتبة من هذه المراتب الثلاث نعمة جليلة على حيالها .

﴿ وءاتيناهما ﴾ بعد ذلك ﴿ الكتاب المستبين ﴾ أي البليغ في البيان والتفصيل كما يشعر به زيادة البنية وهو التوراة .

﴿ وهديناهما ﴾ بذلك ﴿ الصراط المستقيم ﴾ الموصل إلى الحق والصواب بما فيه من تفاصيل الشرائع وتفاريع الأحكام .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (119) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (120) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122) ﴾ .

الكلام فيه نظير ما سبق في نظيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(12/655)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) ﴾

عطف على قوله : ﴿ ولقد نادانا نوحٌ ﴾ [ الصافات : 75 ] ، والمناسبة هي ما ذكر

هنالك .

وذكر هنا ما كان منة على موسى وهارون وهو النبوءة فإنها أعظم درجة يُرفَع إليها الإِنسان ، ولذلك اكتفي عن تعيين الممنون به لحمل الفعل على أكمل معناه .

وجعلت منة من الله عليهما لأن موسى لم يسأل النبوءة إذ ليست النبوءة بمكتسبة وكانت منّة على هارون أيضاً لأنه إنما سأل له موسى ذلك ولم يسأله هارون ، فهي منة عليه وإرضاء لموسى ، والمنة عليهما من قبيل إيصال المنافع فَإن الله أرسل موسى لإِنقاذ بني إسرائيل من استعباد القبط لإِبراهيم وإسرائيل .

وفي اختلاف مبادىء القصص الثلاث إشارة إلى أن الله يغضب لأوليائه ؛ إما باستجابة دعوة ، وإما لجزاء على سلامة طوية وقلب سليم ، وإما لرحمة منه ومنّة على عباده المستضعفين .

وإنجاء موسى وهارون وقومهما كرامة أخرى لهما ولقومهما بسببهما ، وهذه نعمة إزالة الضر ، فحصل لموسى وهارون نوعا الإِنعام وهما : إعطاء المنافع ، ودفع المضار .

و﴿ الكرب العظيم ﴾ : هو ما كانوا فيه من المذلة تحت سلطة الفراعنة ومن اتّباع فرعون إياهم في خروجهم حين تراءى الجمعان فقال أصحاب موسى ﴿ إنّا لمدركون ﴾ [ الشعراء : 61 ] فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه البحر فضربه فانفلق واجتاز منه بنو إسرائيل ، ثم مد البحرُ أمواجه على فرعون وجنده ، على أن الكرب العظيم أطلق على

الغرق في قصة نوح السابقة وفي سورة الأنبياء على الأمم التي مرّوا ببلادها من العمالقة والأموريين فكان بنو إسرائيل منتصرين في كل موقعة قاتلوا فيها عن أمر موسى وما انهزموا إلا حين أقدموا على قتال العمالقة والكنعانيين في سهول وادي ( شكول ) لأن موسى نهاهم عن قتالهم هنالك كما هو مسطور في تاريخهم .

(13/655)

---

و ﴿ هم ﴾ من قوله : ﴿ فكانوا هُمُ الغالِبينَ ﴾ ضمير فصل وهو يفيد قصراً ، أي هم الغالبين لغيرهم وغيرهم لم يغلبوهم ، أي لم يغلبوا ولو مرة واحدة فإن المنتصر قد ينتصر بعد أن يُغلب في مواقع .

وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117)

﴿ الكِتابَ المُسْتَبِينَ ﴾ : هو التوراة ، والمستبين القوي الوضوح ، فالسين والتاء للمبالغة يقال : استبان الشيء إذا ظهر ظهوراً شديداً .

وتعدية فعل الإيتاء إلى ضمير موسى وهارون مع أن الذي أوتي التوراة هو موسى كما قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ [ المؤمنون : 49 ] من حيث إن هارون كان معاضداً لموسى في رسالته فكان له حظ من إيتاء التوراة كما قال الله في الآية الأخرى ﴿

ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء ﴾ [ الأنبياء : 48 ] وهذا من استعمال الإيتاء في معنييه الحقيقي والمجازي.

و﴿ الصِّراطَ الْمُستقيمَ ﴾ : الدين الحق كما تقدم في سورة الفاتحة، وقد كانت شريعة التوراة يوم أوتيها موسى عليه السلام هي الصراط المستقيم فلمّا نسخت بالقرآن صار القرآن هو الصراط المستقيم للأبد وتعطل صراط التوراة.

ويجوز أن يراد بـ ﴿ الصراط المستقيم ﴾ أصول الديانة التي لا تختلف فيها الشرائع وهي التوحيد وكليات الشرائع التي أشار إليها قوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً إلى قوله : وموسى وعيسى ﴾ [ الشورى : 13 ].

(14/655)

---

والقول في تفسير ﴿ وتركنا عليهما في الآخرينَ ﴾ إلى آخر الآيات الأربع كالقول في نظائره عند ذكر نوح في هذه السورة، إلا أن احتمال أن تكون جملة ﴿ سلامٌ على موسى وهارون ﴾ مفعولاً لفعل ﴿ تركنا عليهما ﴾ على إرادة حكاية اللفظ هنا أضعف منه فيما تقدم إذ ليس يطرد أن يكون تسليم الآخرين على موسى وهارون معاً لأن الذي ذكر موسى يقول : السلام على موسى والذي يجري على لسانه ذكر هارون يقول : السلام على هارون ولا

يجمع اسميهما في السلام إلا الذي يجري على لسانه ذكرهما معاً كما يقول المحدث عن جابر : رضي الله عنه ، ويقول عن عبد الله بن حرام رضي الله عنه فإذا قال : عن جابر بن عبد الله ، قال : رضي الله عنهما .

وفي ذكر قصة موسى وهارون عبرة مثَل كامل للنبيء صلى الله عليه وسلم في رسالته وإنزال القرآن عليه وهدايته وانتشار دينه وسلطانه بعد خروجه من ديار المشركين . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(15/655)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) ﴾

مَنّ عليهما بالنبوة ، وبالنجاة من فرعون وقومه ، وبنصرته عليهم .

وَآَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117)

يعني التوراة .

وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (118)

بالتبري عن الحوْل والقوة ، وشهود عين التوحيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 240 ﴾

(16/655)

---

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (124) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (125) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (126) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (127) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (128) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (129) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (130) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (132) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان إلياس أعظم المتجردين من أتباعهما المجددين لما درس من أحكام التوراة ، وكان ترك أحكامها مع ما وصفت به من البيان وما دعت إليه من الاستقامة في غاية من الضلال تكاد أن لا يصدق مثلها أشار إلى الزيغ عنه بياناً لأن القلوب بيده سبحانه فقال مؤكداً :

﴿ وإن إلياس ﴾ أي الذي كان أحد بني إسرائيل عند جميع المفسرين إلا ابن مسعود

وعكرمة ، وهو من سبط لاوي ، ومن أولاد هارون عليه السلام ، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : هو عم اليسع عليهم السلام ، وأرسلناه إلى من كان منهم في أرض بعلبك ونواحيها ، فلما لم يرجعوا إليه نزعنا عنه الشهوات الإنسانية وخلقناه بالأوصاف الملكية ، ولا يبعد أن يكون الداعي إلى تسميته بهذا الاسم ما سبق في علم الله أنه ييأس ممن يدعوهم إلى الله فيكون ممن يأتي يوم القيامة وما معه إلا الواحد أو الاثنان كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما رواه الشيخان : البخاري في الرقاق والطب ، ومسلم في الإيمان عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : " عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه رهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي ليس معه أحد " ، فجعل سبحانه اسمه مناسباً لأمره في قومه بيأسه منهم حين فر إلى الجبال من شرهم ، ويأسهم من القدرة على قتله ، فإنهم اجتهدوا في ذلك حتى أعياهم ، وأدل دليل على هذا المعنى قراءة ابن عامر بخلاف عنه بوصل الهمزة في الدرج وفتحها في الابتداء ، وإن قال العلماء كما حكاه السمين في إعرابه : إن ذلك من تلاعب العرب بالأسماء العجمية ، قطعوا همزته تارة ووصلوها أخرى ، يعني فخاطبهم سبحانه بما ألفوه من لسانهم ﴿ لمن المرسلين ﴾ أي إلى من بدل أمر التوارة ونابذ ما دعت إليه ﴿ إذ قال لقومه ﴾ منكراً عليهم ما من حقه الإنكار بقوله : ﴿ ألا تتقون ﴾ أي يوجد منكم تقوى وخوف ، فإن ما أنتم عليه يقتضي شراً طويلاً ، وعذاباً وبيلاً ، وما أنتم عليه من السكون والدعة يقتضي أنه لا خوف عندكم أصلاً ، وذلك

غاية الجهل والاغترار بمن تعلمون أنه لا خالق لكم ولا رازق غيره .

ولما كان هذا الإنكار سبباً للإصغاء ، كرره مفصحاً بسببه فقال : ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ أي إلهاً ورباً ، وهم صنم كان لهم في مدينة بعلبك كان من ذهب طوله عشرين ذراعاً وله أربعة أوجه ، فكان الشيطان يدخل في جوفه ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسدنة يحفظونها ، وهم أربعمائة ويعلمونها الناس ، ويحتمل أن يكون علماً على الصنم المذكور فيكون المفعول الثاني منوياً ، وحذف ليفهم الدعاء الذي لا دعاة يشبهه وهو الدعاء بالإلهية ، ومن قرأ شاذاً " بعلاء " بوزن " حمراء " فهو إشارة إلى كثرة حث امرأة الملك على عبادة بعل وقتل إلياس عليه السلام ، وطاعة زوجها لها في ذلك - كما حكاه البغوي ، فاستحق التأنيث لذلك ، فأنث لكثرة ملابستها له ، والجنسية علة الصنم .

ولما كان دعاؤهم إياه للعبادة بينه بقوله : ﴿ وتذرون ﴾ ومادة " وذر " تدور على ما يكره ، فالمعنى : وتتركون ترك المهمل الذي من شأنه أن يزهد فيه ، ولو قيل : وتدعون - تهافتاً على الجناس لم يفد هذا وانقلب المراد .

ولما كان الداعي لا يدعو إلا بكشف ضر أو إلباس نفع ، فكان لا يجوز أن يدعو إلا من يقدر

على إعدام ما يشاء وإيجاد ما يريد ، قال منبهاً لهم على غلطهم في الفعل والترك :

﴿ أحسن الخالقين ﴾ أي وهو من لا يحتاج في الإيجاد والإعدام إلى أسباب فلا تعبدونه .

ولما كان الإنسان يعلم يقيناً أنه لم يرب نفسه إلا بالإنشاء من العدم ولا بما بعده ، وكان الإحسان أعظم عاطف للإنسان ، قال مبيناً لمن أراد مذكراً لهم بإحسانه إليهم وإلى من يحامون عنهم ، ويوادون من كان يوادهم بالتربية بعد الإنشاء من العدم الذي هو أعظم تربية مفخماً للأمر ومعظماً بالإبدال في قراءة الجماعة بالرفع : ﴿ الله ﴾ فذكر بالاسم الأعظم الجامع لجميع الصفات تنبيهاً على أنه الأول المطلق الذي لم يكن شيء إلا به ﴿ ربكم ﴾ أي المحسن إليكم وحده .

*(18/655)*

---

ولما كانوا ربما أسندوا إيجادهم إلى من قبلهم غباوة منهم أو عناداً قال : ﴿ ورب آبائكم الأولين ﴾ أي الذين هم أول لكم ، فشمل ذلك آباءهم الأقربين ، ومن قبلهم إلى آدم عليه السلام .

ولما كان من أعظم المقاصد - كما مضى - التسلية والترجية ، سبب عن دعائه قوله :

﴿ فكذبوه ﴾ ولما كانت الترجية مستبعدة ، سبب عن التكذيب قوله مؤكداً لأجل

تكذيبهم : ﴿ فإنهم لمحضرون ﴾ أي مقهورون على إقحامنا إياهم فيما نريد من العذاب الأدنى والأكبر ، وذكرهم بالسوء واللعن على مر الآباد وإن كرهوا ﴿ إلا عباد الله ﴾ أي الذين علموا ما لهم من مجامع العظمة فعملوا بما علموا فلم يدعوا غيره فإنهم لم يكذبوا ؛ ثم وصفهم بما أشار إليه من الوصف بالعبودية والإضافة إلى الاسم الأعظم فقال :

﴿ المخلصين ﴾ أي لعبادته فلم يشركوا به شيئاً جلياً ولا خفياً ، فإنهم ناجون من العذاب .

ولما جاهد في الله تعالى وقام بما يجب عليه من حسن الثناء ، جازاه سبحانه فقال : عاطفاً على " فإنهم لمحضرون " ﴿ وتركنا عليه ﴾ أي من الثناء الجميل وجميع ما يسره : ﴿ في الآخرين ﴾ أي كل من كان بعده إلى يوم الدين .

(19/655)

---

ولما كان السلام اسماً جامعاً لكل خير لأنه إظهار الشرف والإقبال على المسلم عليه بكل ما يريد ، أنتج ذلك قوله : ﴿ سلام ﴾ ولما كان في اسمه على حسب تخفيف العرب له لغات إحداهما توافق الفواصل ، فكان لا فرق في تأدية المعنى بين الإتيان بما اتفق منها ، وكان ما كثرت حروفه منها أضخم وأجل وأفخم ، وكان السياق بعد كثير من مناقبه لنهاية المدحة

، كان الأحسن التعبير بما هو أكثر حروفاً وهو موافق للفواصل ليفيد ذلك تمكينه في الفضائل ولتحقق أنه اسم أعجمي لا عربي مشتق من الياس وإن أوهمت ذلك قراءة ابن عامر بوصل همزته فقال : ﴿ على آل ياسين ﴾ ومن قرأ آل يس فيجوز أن يكون المراد في قراءته ما أريد من القراءة الأخرى لأن أهل اللغة قالوا : أن الآل هو الشخص نفسه ، ويس إما لغة في إلياس أو اختصرت اللغة الثانية التي هي إلياسين فحذف منها الهمزة المكسورة مع اللام ، ويجوز أن يكون المراد بآله أتباعه ، ويكون ذلك أضخم في حقه لما تقدم مما يدعو إليه السياق ، ويجوز أن يقصد بهذه القراءة جميع الأنبياء المذكورين في هذه السورة الذين هو أحدهم ، أي على الأنبياء المذكورين عقب سورة يس دلالة على ما دعت إليه معانيها من الوحدانية والرسالة والبعث وإذلال العاصي وإعزاز الطائع المجرد لنفسه في حب مولاه عن جميع العوائق ، القاطع للطيران إليه أقوى العلائق ، وخص بهذا هذه القصة لأنها ختام القصص المسلم فيها على أهلها .

(20/655)

---

ولما أظهر سبحانه شرف إلياس عليه السلام أو الأنبياء الذين هو أحدهم ، علله مؤكداً له تنبيهاً على أنه لا بد من إعلاء النبي - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه على كل من يناويهم وإن

كذبت بذلك قريش فقال : ﴿ إنا كذلك ﴾ أي مثل هذا الجزاء العظيم ﴿ نجزي المحسنين ﴾ أي الذين هو من أعيانهم ؛ ثم علل الحكم بإحسانه مؤكداً لما مضى في مثله بقوله : ﴿ إنه من عبادنا ﴾ أي الجديرين بالإضافة إلينا ﴿ المؤمنين ﴾ ويستفاد من التأكيد أيضاً التنبيه على رسوخ قدمه في الإيمان وأنه بحيث تشتد الرغبة ويقوى النشاط في الإخبار به على ذلك الوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 336. 339 ﴾

*(21/655)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) ﴾

اعلم أن هذه القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ ابن عامر : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ ﴾ بغير همزة على وصل الألف والباقون بالهمزة وقطع الألف ، قال أبو بكر بن مهران : من ذكر عند الوصل الألف فقد أخطأ ، وكان أهل الشام ينكرونه ولا يعرفونه ، قال الواحدي وله وجهان أحدهما : أنه حذف الهمزة من إلياس حذفاً ، كما

حذفها ابن كثير من قوله : ﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الكبر ﴾ [ المدثر : 35 ] وكقول الشاعر :

ويلمها في هواء الجو طالبة . . والآخر أنه جعل الهمزة التي تصحب اللام للتعريف كقوله :

﴿ واليسع ﴾ .

المسألة الثانية :

في إلياس قولان : يروى عن ابن مسعود أنه قرأ وإن إدريس ، وقال إن إلياس هو إدريس ، وهذا قول عكرمة ، وأما أكثر المفسرين فهم متفقون على أنه نبي من أنبياء بني إسرائيل وهو إلياس بن ياسين ، من ولد هارون أخي موسى عليهم السلام ، ثم قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ والتقدير اذكر يا محمد لقومك : ﴿ إِذْ قَالَ لقومه أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ أي ألا تخافون الله ، وقال الكلبي ألا تخافون عبادة غير الله .

واعلم أنه لما خوفهم أولاً على سبيل الإجمال ذكر ما هو السبب لذلك الخوف فقال :

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخالقين ﴾ وفيه أبحاث :

الأول : في ( بعل ) قولان أحدهما : أنه اسم علم لصنم كان لهم كمناة وهبل ، وقيل كان من ذهب ، وكان طوله عشرين ذراعاً وله أربعة أوجه ، وفتنوا به وعظموه ، حتى عينوا له أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء ، وكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وهم أهل بعلبك من بلاد الشأم ، وبه سميت مدينتهم بعلبك .

واعلم أن قولهم بعل اسم لصنم من أصنامهم لا بأس به ، وأما قولهم إن الشيطان كان يدخل في جوف بعلبك ويتكلم بشريعة الضلالة .

(22/655)

---

فهذا مشكل لأنا إن جوزنا هذا كان ذلك قادحاً في كثير من المعجزات ، لأنه نقل في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم كلام الذئب معه وكلام الجمل معه وحنين الجذع ، ولو جوزنا أن يدخل الشيطان في جوف جسم ويتكلم .

فحينئذٍ يكون هذا الاحتمال قائماً في الذئب والجمل والجذع ، وذلك يقدح في كون هذه الأشياء معجزات القول الثاني : أن البعل هو الرب بلغة اليمن ، يقال من بعل هذه الدار ، أي من ربها ، وسمي الزوج بعلاً لهذا المعنى ، قال تعالى : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ [ البقرة : 228 ] وقال تعالى : ﴿ وهذا بَعْلِى شَيْخاً ﴾ [ هود : 72 ] فعلى هذا التقدير المعنى ، أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله .

البحث الثاني : المعتزلة احتجوا بهذه الآية على كون العبد خالقاً لأفعال نفسه ، فقالوا : لو لم يكن غير الله خالقاً لما جاز وصف الله بأنه أحسن الخالقين ، والكلام فيه قد تقدم في قوله تعالى :

﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [ المؤمنون : 14 ] .

البحث الثالث : كان الملقب بالرشيد الكاتب يقول لو قيل : أتدعون بعلاً وتدعون أحسن الخالقين .

أوهم أنه أحسن ، لأنه كان قد تحصل فيه رعاية معنى التحسين وجوابه : أن فصاحة القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكاليف ، بل لأجل قوة المعاني وجزالة الألفاظ .

واعلم أنه لما عابهم على عبادة غير الله صرح بالتوحيد ونفى الشركاء ، فقال : ﴿ اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءابَائِكُمُ الأولين ﴾ وفيه مباحث .

البحث الأول : أنا ذكرنا في هذا الكتاب أن حدوث الأشخاص البشرية كيف يدل على وجود الصانع المختار ، وكيف يدل على وحدته وبراءته عن الأضداد والأنداد ، فلا فائدة في الإعادة .

(23/655)

---

البحث الثاني : قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءابَائِكُمُ ﴾ كلها بالنصب على البدل من قوله : ﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ والباقون بالرفع على الاستئناف ، والأول اختيار أبي حاتم وأبي عبيد ، ونقل صاحب "الكشاف" أن حمزة إذا وصل

نصب ، وإذا وقف رفع ، ولما حكى الله عنه أنه قرر مع قومه التوحيد قال : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي لمحضرون النار غداً ، وقد ذكرنا الكلام فيه عند قوله : ﴿ لَكُنتُ مِنَ المحضرين ﴾ [ الصافات : 57 ] ثم قال تعالى : ﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ وذلك لأن قومه ما كذبوه بكليتهم ، بل كان فيهم من قبل ذلك التوحيد فلهذا قال تعالى : ﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ يعني الذين أتوا بالتوحيد الخالص فإنهم لا يحضرون ثم قال :

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الأخرين * سلام على إِلْ يَاسِينَ ﴾ قرأ نافع وابن عامر ويعقوب ( آل ياسين ) على إضافة لفظ آل إلى لفظ ياسين والباقون بكسر الألف وجزم اللام موصولة بياسين ، أما القراءة الأولى ففيها وجوه الأول : وهو الأقرب أنا ذكرنا أنه إلياس بن ياسين فكان إلياس آل ياسين الثاني : ( آل ياسين ) آل محمد صلى الله عليه وسلم والثالث : أن ياسين اسم القرآن ، كأنه قيل سلام الله على من آمن بكتاب الله الذي هو ياسين ، والوجه هو الأول لأنه أليق بسياق الكلام ، وأما القراءة الثانية ففيها وجوه الأول : قال الزجاج يقال ميكال وميكائيل وميكالين ، فكذا ههنا إلياس وإلياسين والثاني : قال الفراء هو جمع وأراد به إلياس وأتباعه من المؤمنين ، كقولهم المهلبون والسعدون قال :

أنا ابن سعد أكرم السعدينا . . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ وقد سبق تفسيره ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 142.140 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ المرسلين ﴾

قال المفسرون : إلياس نبيّ من بني إسرائيل .

وروي عن ابن مسعود قال : إسرائيل هو يعقوب وإلياس هو إدريس .

وقرأ "وَإِنَّ إِدْرِيسَ" وقاله عكرمة .

وقال : هو في مصحف عبد اللّه "وَإِنَّ إدريسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ" وانفرد بهذا القول .

وقال ابن عباس : هو عمّ اليسع .

وقال ابن إسحاق وغيره : كان القَيِّم بأمر بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوقنا ثم حِزقيل ، ثم لما قبض اللّه حِزقيل النبي عظمت الأحداث في بني إسرائيل ، ونسوا عهد اللّه وعبدوا الأوثان من دونه ، فبعث اللّه إليهم إلياس نبيًّا وتبعه اليسع وآمن به ، فلما عتا عليه بنو إسرائيل دعا ربه أن يريحه منهم فقيل له : اخرج يوم كذا وكذا إلى موضع كذا وكذا فما استقبلك من شيء فاركبه ولا تَهَبْه .

فخرج ومعه اليسع فقال : يا إلياس ما تأمرني .

فقذف إليه بكسائه من الجوّ الأعلى ، فكان ذلك علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل ، وكان ذلك آخر العهد به .

وقطع اللّه على إلياس لذة المطعم والمشرب .

وكساه الريش وألبسه النور ، فطار مع الملائكة ، فكان إنسيًّا مَلَكيا سماويًّا أرضيًّا .

قال ابن قتيبة : وذلك أن اللّه تعالى قال لإلياس : "سلني أعطك" .

قال : ترفعني إليك وتؤخر عني مذاقة الموت .

فصار يطير مع الملائكة .

وقال بعضهم : كان قد مرض وأحس الموت فبكى ، فأوحى اللّه إليه : لِمَ تبك ؟ حرصاً على الدنيا ، أو جزعاً من الموت ، أو خوفاً من النار ؟ قال : لا ، ولا شيء من هذا وعِزَّتك ، إنما جزعي كيف يحمدك الحامدون بعدي ولا أحمَدك ! ويذكرك الذاكرون بعدي ولا أذكرك ! ويصوم الصائمون بعدي ولا أصوم ! ويصلّي المصلون ولا أصلي فقيل له : "يا إلياس وعزتي لأؤخرنك إلى وقت لا يذكرني فيه ذاكر" .

يعني يوم القيامة .

وقال عبد العزيز بن أبي روّاد : إنّ إلياس والخضر عليهما السلام يصومان شهر رمضان في كل عام ببيت المقدس يوافيان الموسم في كل عام .

وذكر ابن أبي الدنيا ؛ إنهما يقولان عند افتراقهما عن الموسم : ما شاء الّله ما شاء الّله ، لا يسوق الخير إلا الّله ، ما شاء الّله ما شاء الّله ، لا يصرف السوء إلاّ الّله ؛ ما شاء الّله ما شاء الّله ، ما يكون من نعمة فمن الّله ؛ ما شاء الّله ما شاء الّله ؛ توكلت على الّله حسبنا الّله ونعم الوكيل ، وقد مضى في "الكهف" .

وذكر من طريق مكحول " عن أنس قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بفَجِّ الناقة عند الحجر ، إذا نحن بصوت يقول : اللهم اجعلني من أمة محمد المرحومة ، المغفور لها ، المتوب عليها ، المستجاب لها .

فقال رسول الّله صلى الله عليه وسلم : "يا أنس ، انظر ما هذا الصوت" .

فدخلت الجبل ، فإذا أنا برجل أبيض اللحية والرأس ، عليه ثياب بيض ، طوله أكثر من ثلثمائة ذراع ، فلما نظر إليّ قال : أنت رسول النبي ؟ قلت نعم ؛ قال : ارجع إليه فأقرئه مني السلام وقل له : هذا أخوك إلياس يريد لقاءك .

فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وأنا معه ، حتى إذا كنا قريباً منه ، تقدّم النبي صلى الله عليه وسلم وتأخرت ، فتحدّثا طويلاً ، فنزل عليهما شيء من السماء شبه السّفرة فدعواني فأكلت معهما ، فإذا فيها كمأة ورمّان وكرفس ، فلما أكلت قمت فتنحيت ،

وجاءت سحابة فاحتملته فإذا أنا أنظر إلى بياض ثيابه فيها تهوي به؛ فقلت للنبي صلى الله عليه وسلم: بأبي أنت وأمي! هذا الطعام الذي أكلنا أمن السماء نزل عليه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "سألته عنه فقال يأتيني به جبريل في كل أربعين يوماً أكلة، وفي كل حول شربة من ماء زمزم، وربما رأيته على الجب يملأ بالدلو فيشرب وربما سقاني" "

.

قال الثعلبى: اختلف الناس في قوله عز وجل هاهنا "بَعْلاً" فقالت طائفة: البعل هاهنا الصنم.

(26/655)

---

وقالت طائفة: البعل هاهنا مَلَك.

وقال ابن إسحاق: امرأة كانوا يعبدونها.

والأوّل أكثر.

وروى الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: "أَتَدْعُونَ بَعْلاً" قال: صنماً.

وروى عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس: "أَتَدْعُونَ بَعْلاً" قال: ربًّا.

النحاس: والقولان صحيحان؛ أي أتدعون صنماً عملتموه ربًّا.

يقال : هذا بعل الدار أي ربّها .

فالمعنى أتدعون ربًّا اختلقتموه ، و "أَتَدْعُونَ" بمعنى أتُسمُّون .

حكى ذلك سيبويه .

وقال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي : البعل الربّ بلغة اليمن .

وسمع ابن عباس رجلاً من أهل اليمن يسوم ناقة بمنًى فقال : مَن بعلُ هذه ؟ .

أي مَن ربّها ؛ ومنه سمي الزوج بعلاً .

قال أبو دؤاد :

ورأيتُ بَعْلَكِ في الوغَى . . .

مُتقلِّداً سيفاً ورُمْحا

مقاتل : صنم كسره إلياس وهرب منهم .

وقيل : كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعاً ، وله أربعة أوجه ، فُتِنوا به وعظّموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياءه ، فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلال ، والسَّدَنة يحفظونها ويعلّمونها الناس ، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام .

وبه سُميت مدينتهم بعلبك كما ذكرنا .

﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخالقين ﴾ أي أحسن من يقال له خالق .

وقيل : المعنى أحسن الصانعين ؛ لأن الناس يصنعون ولا يخلقون .

﴿ الله ربّكُمْ ورَبَّ آبَائِكُمُ الأولين ﴾ بالنصب في الأسماء الثلاثة قرأ الربيع بن خيثم والحسن وابن أبي إسحاق وابن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي .

وإليها يذهب أبو عبيد وأبو حاتم .

وحكى أبو عبيد أنها على النعت .

النحاس : وهو غلط وإنما هو على البدل ولا يجوز النعت هاهنا ؛ لأنه ليس بتحلية .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر وشيبة ونافع بالرفع .

قال أبو حاتم : بمعنى هو اللّه ربكم .

قال النحاس : وأولى مما قال أنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف .

(27/655)

---

ورأيت علي بن سليمان يذهب إلى أن الرفع أولى وأحسن ؛ لأن قبله رأس آية فالاستئناف أولى .

ابن الأنباري : من نصب أو رفع لم يقف على "أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ" على جهة التمام ؛ لأن اللّه عز وجل مترجم عن "أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ" من الوجهين جميعاً .

قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أخبر عن قوم إلياس أنهم كذبوه .

﴿ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي في العذاب .

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللهِ المخلصين ﴾ أي من قومه فإنهم نجوا من العذاب .

وقرىء "الْمُخْلِصِينَ" بكسر اللام وقد تقدّم .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين ﴾ تقدّم .

﴿ سَلاَمٌ على آلِ يَاسِينَ ﴾ قراءة الأعرج وشيبة ونافع .

وقرأ عكرمة وأبو عمرو وابن كثير وحمزة والكسائي : "سَلامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ" .

وقرأ الحسن : "سَلامٌ عَلَى الياسين" بوصل الألف كأنها ياسين دخلت عليها الألف واللام التي للتعريف .

والمراد إلياس عليه السلام ، وعليه وقع التسليم ولكنه اسم أعجمي .

والعرب تضطرب في هذه الأسماء الأعجمية ويكثر تغييرهم لها .

قال ابن جنّي : العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعباً ؛ فياسين وإلياس والياسِين شيء واحد .

الزمخشريّ : وكان حمزة إذا وصل نصب وإذا وقف رفع .

وقرىء : "على إلياسين" و "إِدْرِيسينَ وإِدْرَسينَ وَإِدْرَاسِينَ" على أنها لغات في إلياس وإدريس .

ولعل لزيادة الياء والنون في السريانية معنى .

النحاس : ومن قرأ : ﴿ سَلَامٌ على آلِ يَاسِينَ ﴾ [ الصافات : 130 ] فكأنه والله أعلم جعل اسمه إلياس وياسين ثم سلم على آله ؛ أي أهل دينه ومن كان على مذهبه ، وعلِم أنه إذا سلم على آله من أجله فهو داخل في السلام ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " اللهم صلّ على آل أبي أوفى " وقال الله تعالى : ﴿ أدخلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ﴾ [ غافر : 46 ] .

ومن قرأ "إِلياسِين" فللعلماء فيه غير قول .

فروى هارون عن ابن أبي إسحاق قال : إلياسين مثل إبراهيم يذهب إلى أنه اسم له .

(28/655)

---

وأبو عبيدة يذهب إلى أنه جُمع جمعَ التسليم على أنه وأهل بيته سلّم عليهم ؛ وأنشد :

قَدْنِيَ من نَصْرِ الْخُبَيْبِينَ قَدِي . . .

يقال : قدني وقَدِي لغتان بمعنى حَسْب .

وإنما يريد أبا خُبَيْب عبد الله بن الزبير فجمعه على أن من كان على مذهبه داخل معه .

وغير أبي عبيدة يرويه : الخُبَيْبَيْن على التثنية ، يريد عبد الله ومُصْعَبا .

ورأيت عليّ بن سليمان يشرحه بأكثر من هذا ؛ ( قال ) فإن العرب تسمي قوم الرجل باسم

الرجل الجليل منهم ، فيقولون : المهالِبة على أنهم سموا كل رجل منهم بالمهلَّب .

قال : فعلى هذا "سَلامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ" سمّى كل رجل منهم بإلياس .

وقد ذكر سيبويه في كتابه شيئاً من هذا ، إلا أنه ذكر أن العرب تفعل هذا على جهة النسبة ؛

فيقولون : الأشعرون يريدون به النسب .

المهدوي : ومن قرأ "إلياسِين" فهو جمع يدخل فيه إلياس فهو جمع إلياسيّ فحذفت ياء

النسبة ؛ كما حذفت ياء النسبة في جمع المكسَّر في نحو المهالبة في جمع مهلبيّ ، كذلك

حذفت في المسلَّم فقيل المهلّبون .

وقد حكى سيبويه : الأشعرون والنميرون يريدون الأشعريين والنميريين .

السهيليّ : وهذا لا يصح بل هي لغة في إلياس ، ولو أراد ما قالوه لأدخل الألف واللام كما

تدخل في المهالبة والأشعريين ؛ فكان يقول : "سَلامٌ على الإلياسِين" لأن العَلَم إذا جمع ينكر

حتى يعرّف بالألف واللام ؛ لا تقول : سلام على زيدين ، بل على الزيدين بالألف واللام .

فإلياس عليه السلام فيه ثلاث لغات .

النحاس : واحتج أبو عبيد في قراءته "سَلامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ" وأنه اسمه كما أن اسمه إلياس ؛

لأنه ليس في السورة سلام على "آل" لغيره من الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، فكما سُمِّي

الأنبياء كذا سُمِّي هو .

وهذا الاحتجاج أصله لأبي عمرو وهو غير لازم ؛ لأنا بينا قول أهل اللغة أنه إذا سلم على آله من أجله فهو سلام عليه .

(29/655)

---

والقول بأن اسمه "إلياسين" يحتاج إلى دليل ورواية ؛ فقد وقع في الأمر إشكال .

قال الماوردي : وقرأ الحسن "سَلامٌ عَلَى يَاسِينَ" بإسقاط الألف واللام وفيه وجهان :

أحدهما أنهم آل محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس .

الثاني أنهم آل ياسين ؛ فعلى هذا في دخول الزيادة في ياسين وجهان : أحدهما أنها زيدت لتساوي الآي ، كما قال في موضع : ﴿ طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ وفي موضع آخر "طورِ سِينِينَ" فعلى هذا يكون السلام على أهله دونه ، وتكون الإضافة إليه تشريفاً له .

الثاني أنها دخلت للجمع فيكون داخلاً في جملتهم فيكون السلام عليه وعليهم .

قال السهيلي : قال بعض المتكلمين في معاني القرآن : آل ياسين آل محمد عليه السلام ، ونزع إلى قول من قال في تفسير "ياس" يا محمد .

وهذا القول يبطل من وجوه كثيرة : أحدها أن سياقة الكلام في قصة إلياسين يلزم أن تكون كما هي في قصة إبراهيم ونوح وموسى وهارون وأن التسليم راجع عليهم ، ولا معنى

للخروج عن مقصود الكلام لقول قيل في تلك الآية الأخرى مع ضعف ذلك القول أيضاً ؛ فإن "ياس" و "حاما" و "الاما" ونحو ذلك القول فيها واحد ، إنما هي حروف مقطَّعة ، إما مأخوذة من أسماء اللّه تعالى كما قال ابن عباس ، وإما من صفات القرآن ، وإما كما قال الشعبي : للّه في كل كتاب سرّ ، وسرّه في القرآن فواتح القرآن .

وأيضاً فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لي خمسة أسماء " ولم يذكر فيها "ياس" .

وأيضاً فإن "ياس" جاءت التلاوة فيها بالسكون والوقف ، ولو كان اسما للنبي صلى الله عليه وسلم لقال : "يسِنُ" بالضم ؛ كما قال تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصديق ﴾ [ يوسف : 46 ] وإذا بطل هذا القول لما ذكرناه ؛ ف"إلياسين" هو إلياس المذكور وعليه وقع التسليم .

وقال أبو عمرو بن العلاء : هو مثل إدريس وإدراسين ، كذلك هو في مصحف ابن مسعود .

(30/655)

---

"وَإِنَّ إِدْرِيس لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ" ثم قال : سَلامٌ عَلَى إِدراسِين" ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(31/655)

وقال الآلوسي :

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) ﴾

قال الطبري : هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخي موسى عليهما السلام فهو إسرائيلي من سبط هارون ، وحكى القتيبي أنه من سبط يوشع ، وحكى الطبرسي أنه ابن عم اليسع وأنه بعث بعد حزقي ، وفي العجائب للكرماني أنه ذو الكفل ، وعن وهب أنه عمر كما عمر الخضر ويبقى إلى فناء الدنيا .

وأخرج ابن عساكر عن الحسن أنه موكل بالفيافي والخضر بالبحار والجزائر وإنهما يجتمعان بالموسم في كل عام ، وحديث اجتماعه مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأسفار وأكله معه من مائدة نزلت عليهما عليهما الصلاة والسلام من السماء هي خبز وحوت وكرفس وصلاتهما العصر معا رواه الحاكم عن أنس وقال : هذا حديث صحيح الإسناد وكل ذلك من التعمير وما بعده لا يعول عليه .

وحديث الحاكم ضعفه البيهقي ، وقال الذهبي .

موضوع قبح الله تعالى من وضعه ثم قال : وما كنت أحسب ولا أجوز أن الجهل يبلغ بالحاكم إلى أن يصحح هذا ، وأخرج عبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وابن عساكر: عن ابن مسعود أن إلياس هو إدريس، ونقل عنه أنه قرأ ﴿ وَأَنْ إِدْرِيسَ لَمِنَ المرسلين ﴾ والمستفيض عنه أنه قرأ كالجمهور نعم قرأ ابن وثاب.

والأعمش.

والمنهال بن عمرو.

والحكم لن عتيبة الكوفي كذلك.

(32/655)

---

وقرىء ﴿ إدراس ﴾ وهو لغة في إدريس كإبراهام في إبراهيم، وإذا فسر إلياس بإدريس على أن أحد اللفظين اسم والآخر لقب فإ كان المراد بهما من سمعت نسبه فلا بأس به وإن كان المراد بهما إدريس المشهور الذي رفعه الله تعالى مكاناً علياً وهو على ما قيل أخنوخ بن يزد بن مهلاييل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم وكان على ما ذكره المؤرخون قبل نوح، وفي المستدرك عن ابن عباس أن بينه وبين نوح ألف سنة، وعن وهب أنه جد نوح أشكل الأمر في قوله تعالى ﴿ وتلك حجتُنَا ءاتيناها إبراهيم على قَوْمِهِ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ووَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرّيَّتِهِ

دَاوُودَ وسليمان وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وموسى وهارون وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين وَزَكَرِيَّا ويحيى وعيسى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصالحين وإسماعيل واليسع وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العالمين ﴾ [ الأنعام : 83-86 ] لأن ضمير ﴿ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ إما أن يكون لإبراهيم لأن الكلام فيه وإما أن يكون لنوح لأنه أقرب ولأن يونس ولوطاً ليسا من ذرية إبراهيم ، وعلى التقديرين لا يتسنى نظم إلياس المراد به الذي هو قبل نوح على ما مسعت في عداد الذرية ، ويرد على القول بالاتحاد مطلقاً أنه خلاف الظاهر فلا تغفل .

وقرأ عكرمة .

والحسن بخلاف عنهما .

والأعرج .

وأبو رجاء .

وابن عامر .

وابن محيصن ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ ﴾ بوصل الهمزة فاحتمل أن يكون قد وصل همزة القطع واحتمل أن يكون اسمه يأساً ودخلت عليه أل كما قيل في اليسع ، وفي حرف أبي ومصحفه و﴿ إن ﴾ إيليس بهمزة مكسورة بعدها ياء أيضاً ساكنة آخر الحروف بعدها لام مكسورة بعدها ياء أيضاً ساكنة وسين مهملة مفتوحة .

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (124)

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ وهم على المشهور في الياس سبط من بني إسرائيل أسكنهم يوشع لما فتح الشام المدينة المعروفة اليوم ببعلبك وزعم بعضهم أنها كانت تسمى بكة وقيل بك بلا هاء ثم سميت بما عرف على طريق التركيب المزجي ، و﴿ إِذْ ﴾ عند جمع مفعول اذكر محذوفاً أي اذكر وقت قوله لقومه ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ عذاب اللهتعالى ونقمته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أي أتعبدونه أو تطلبون حاجكم منه ، وهو اسم صنم لهم كما قال الضحاك .

والحسن وابن زيد ، وفي بعض نسخ القاموس أنه لقوم يونس ، ولا مانع من أن يكون لهما أو ذلك تحريف ، قيل وكان من ذهب طوله عشرون ذراعاً وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياءه فكان الشيطان يدخل في جوفه ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس ، وقيل هو اسم امرأة أتتهم بضلالة فاتبعوها واستؤنس له بقراءة بعضهم ، ﴿ بعلاء ﴾ بالمد على وزن حمراء ، وظاهر

صرفه أنه عربي على القولين فلا تغفل .

وقال عكرمة .

(34/655)

---

وقتادة ، البعل الرب بلغة اليمن : وفي رواية أخرى عن قتادة بلغة أزد شنوءة ، واستام ابن عباس ناقة رجل من حمير فقال : له أنت صاحبها ؟ قال : بعلها فقال ابن عباس أتدعون بعلا : أتدعون ربما من أنت ؟ قال : من حمير ، والمراد عليها أتدعون بعض البعول أي الأرباب والمراد بها الأصنام أو المعبودات الباطلة فالتنكير للتبعيض فيرجع لما قيل قبله ﴿ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخالقين ﴾ أي وتتركون عبادته تعالى أو طلب جميع حاجكم منه عز وجل على أن الكلام على حذف مضاف ؛ وقيل إن المراد بتركهم إياه سبحانه تركهم عبادته عز وجل والمراد بالخالق من يطلق عليه ذلك ، وله بهذا الاعتبار أفراد وان اختلفت جهة الاطلاق فيها فلا اشكال في إضافة افعل إلى ما بعده ، وهاهنا سؤال مشهور وهو ما وجه العدول عن تدعون بفتح التاء والدال مضارع ودع بمعنى ترك إلى ﴿ تذرون ﴾ مع مناسبته ومجانسته لتدعون قبله دون تذرون وأجيب عن ذلك بأجوبة .

الأول أن في ذلك نوع تكلف والجناس المتكلف غير ممدوح عند البلغاء ولا يمدح عندهم ما

لم يجيء عفوا بطريق الاقتضاء ولذا ذموا متكلفه فقيل فيه

: طبع المجنس فيه نوع قيادة . . .

أو ما ترى تأليفه للأحرف

قاله الخفاجي ، وفي كون هذا البيت في خصوص المتكلف نظر وبعد فيه ما فيه ، الثاني أن في تدعون إلباساً على من يقرأ من المصحف دون حفظ من العوام بأن يقرأه كتدعون الأول ويظن أن المراد إنكار بين دعاء بعل ودعاء احسن الخالقين ، وليس بالوجه إذ ليس من سنة الكتاب ترك ما يلبس على العوام كما لا يخفى على الخواص .

والصحابة أيضاً لم يراعوهم وإلا لما كتبوا المصحف غير منقوط ولا ذا شكل كما هو المعروف اليوم ، وفي بقاء الرسم العثماني معتبراً إلى انقضاء الصحابة ما يؤيد ما قلنا ، والثالث أن التجنيس تحسين وإنما يستعمل في مقام الرضا والإحسان لا في مقام الغضب والتهويل ، وفيه أنه وقع فيما نفاه قال تعالى :

(35/655)

---

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [ الروم : 55 ] وقال سبحانه : ﴿ يكاد سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالابصار يُقَلّبُ الله الليل والنهار إِنَّ فِى ذلك لَعِبْرَةً لاوْلِى

الأبصار ﴾ [ النور : 43 ، 44 ] وفيهما الجناس التام ولا يخفى حال المقام ، الرابع ما نقل عن الإمام فإنه سئل عن سبب ترك تدعون إلى ﴿ تذرون ﴾ فقال : ترك لأنهم اتخذوا الأصنام آلهة وتركوا الله تعالى بعدما علموا أن الله سبحانه ربهم ورب ابائهم الأولين استكبارًا فلذلك قيل : ﴿ بَعْلاً وَتَذَرُونَ ﴾ ولم يقل وتدعون ، وفيه القول بأن دع أمر بالترك قبل العلم وذر أمر بالترك بعده ولا تساعده اللغة والاشتقاق ، الخامس أن لانكار كل من فعلى دعاء بعل وترك احسن الخالقين علة غير علة إنكار الآخر فترك التجنيس رمزًا إلى شدة المغايرة بين الفعلين ، السادس أنه لما لم يكن مجانسة بين المفعولين بوجه من الوجوه ترك التجنيس في الفعلين المتعلقين بهما وإن كانت المجانسة المنفية بين المفعولين شيئًا والمجانسة التي نحن بصددها بين الفعلين شيئًا آخر ، وكلا الجوابين كما ترى ، السابع أن يدع إنما استعملته العرب في الترك الذي لا يذم مرتكبه لأنه من الدعة بمعنى الراحة ويذر بخلافه لأنه يتضمن إهانة وعدم اعتداد لأنه من الوذر قطعة اللحم الحقيرة التي لا يعتد بها .

واعترض بأن المتبادر من قوله بخلافه أن يذر إنما استعملته العرب في الترك الذي يذم مرتكبه فيرد عليه قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [ الأنعام : 112 ، 137 ] وقوله سبحانه : ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الربا ﴾ [ البقرة : 278 ] إلى غير ذلك وفيه تأمل .

الثامن أن يدع أخص من يذر لأنه بمعنى ترك الشيء مع اعتناء به بشهادة الاشتقاق نحو الإيداع فإنه ترك الوديعة مع الاعتناء بحالها ولهذا يختار لها من هو مؤتمن عليها ونحوه موادعة الأحباب وأما يذر فمعناه الترك مطلقاً أو مع الأعراض والرفض الكلي ، قال الراغب : يقال فلان يذر الشيء أي يقذفه لقلة الاعتداد به ومنه الوذر وهو ما سمعت آنفاً ، ولا شك أن السياق إنما يناسب هذا دون الأول إذ المراد تبشيع حالهم في الاعراض عن ربهم وهو قريب من سابقه لكنه سالم عن بعض ما فيه ، التاسع أن في تدعون بفتح التاء والدال ثقلاً ما لا يخفى على ذي الذوق السليم والطبع المستقيم ﴿ وَتَذَرُونَ ﴾ سالم عنه فلذا اختير عليه فتأمل والله تعالى أعلم ، وقد أشار سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ أحسن الخالقين ﴾ إلى المقتضى للإنكار المعنى بالهمز وصرح به للاعتناء بشأنه في قوله تعالى : ﴿ الله رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءابَائِكُمُ الاولين ﴾ بالنصب على البدلية من ﴿ أحسن الخالقين ﴾ [ الصافات : 125 ] ، قال أبو حيان : ويجوز كون ذاك عطف بيان إن قلنا إن إضافة أفعل التفضيل محضة ، وقرأ غير واحد من السبعة بالرفع على أن الاسم الجليل مبتدأ و ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ خبره أو هو خبر مبتدأ محذوف وربكم عطف بيان أو بدل منه ، وروي عن حمزة أنه إذا وصل نصب وإذا وقف رفع ، والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم الأولين لتأكيد إنكار تركهم إياه تعالى والأشعار ببطلان آراء آبائهم أيضاً .

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فيما تضمنه كلامه من إيجاب الله تعالى التوحيد وتحريمه سبحانه الإشراك وتعذيبه تعالى عليه ، وجوز أن يكون تكذيبهم راجعاً إلى ما تضمنه قوله ﴿ الله ربكم ﴾ [ الصافات : 126 ] ﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي في العذاب وإنما اطلقه اكتفاء بالقرينة أو لأن الاحضار المطلق مخصوص بالشر في العرف العام أو حيث استعمل في القرآن لاشعاره بالجبر .

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (128)

(37/655)

---

استثناء متصل من الواو في كذبوه فيدل على أن من قومه مخلصين لم يكذبوه ، ومنع كونه استثناء متصلاً من ضيمر ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ لأنه للمكذبين فإذا استثنى منه اقتضى أنهم كذبوه ولم يحضروا وفساده ظاهر ، وقيل : لأنه إذا لم يستثن من ضمير كذبوا كانوا كلهم مكذبين فليس فيهم مخلص فضلاً عن مخلصين ومآله ما ذكر ، لكن اعترضه ابن كمال بأنه لا فساد فيه لأن استثناءهم من القوم المحضرين لعدم تكذيبهم على ما دل عليه التوصيف بالمخلصين لا من المكذبين فمآل المعنى واحد .

ورد بأن ضمير محضرين للقوم كضمير كذبوا ، وقال الخفاجي : لا يهفى أن اختصاص

الاحضار بالعذاب كما صرح به غير واحد يعين كون ضمير محضرين للمكذبين لا لمطلق القوم فإن لم يسلمه فهو أمر آخر ، وفي البحر ولا يناسب أن يكون استثناء منقطعاً إذ يصير المعنى لكن عباد الله المخلصين من غير قومه لا يحضرون في العذاب وفيه بحث .

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (129) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (130) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (132)

الكلام فيه كما في نظيره بيد أنه يقال ههنا إن ال ياسين لغة في الياس وكثيراً ما يتصرفون في الأسماء الغير العربية .

وفي الكشاف لعل لزيادة الياء والنون معنى في اللغة السريانية ، ومن هذا الباب سيناء وسينين ، واختار هذه اللغة هنا رعاية للفواصل ، وقيل : هو جمع إلياس على طريق التغليب بإطلاقه على قومه وأتباعه كالمهلبين للمهلب وقومه .

(38/655)

---

وضعف بما ذكر النحاة من أن العلم إذا جمع أو ثنى وجب تعريفه باللام جبراً لما فاته من العلمية ، ولا فرق فيه بين ما فيه تغليب وبين غيره كما صرح به ابن الحاجب في "شرح المفصل" ، لكن هذا غير متفق عليه ، قال ابن يعيش في "شرح المفصل" : يجوز استعماله

نكرة بعد التثنية والجمع نحو زيدان كريمان وزيدون كريمون ؛ وهو مختار الشيخ عبد القاهر وقد أشبعوا الكلام على ذلك في مفصلات كتب النحو ، ثم أن هذا البحث إنما يتأتى مع من لم يجعل لام الياس للتعريف أما من جعها له فلا يتأتى البحث معه ، وقيل : هو جمع الياسي بياء النسبة فخفف لاجتماع اليا آتفي الجر والنصب كما قيل اعجمين في أعجميين وأشعرين في أشعريين ، والمراد بالياسين قوم الياس المخلصون فإنهم الأحقاء بأن ينسبوا إليه ، وضعف بقلة ذلك والباسه بالياس إذا جمع وإن قيل : حذف لام الياس مزيل للإلباس ، وأيضاً هو غير مناسب للسياق والسباق إذ لم يذكر آل أحد من الأنبياء .

وقرأ نافع .

وابن عامر .

ويعقوب .

وزيد بن علي ﴿ إِلْيَاسِينَ ﴾ بالإضافة ، وكتب في المصحف العثماني منفصلاً ففيه نوع تأييد لهذه القراءة ، وخرجت عن أن ياسين اسم أبي الياس ويحمل الآل على الياس وفي الكناية عنه تفخيم له كما في آل إبراهيم عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، وجوز أن يكون الآل مقحماً على أن ياسين هو الياس نفسه .

وقيل : ياسين فيها اسم لمحمد صلى الله عليه وسلم فآل ياسين آله عليه الصلاة والسلام ، أخرج ابن أبي حاتم .

والطبراني .

وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في ﴿ سلام على إِلْيَاسِينَ ﴾ نحن آل محمد آل ياسين ، وهو ظاهر في جعل ياسين اسماً له صلى الله عليه وسلم ، وقيل : هو اسم للسورة المعروفة ، وقيل : اسم للقرآن فآل ياسين هذه الأمة المحمدية أو خواصها .

وقيل : اسم لغير القررن من الكتب ، ولا يخفى عليك أن السياق والسباق يا بيان أكثر هذه الأقوال .

وقرأ أبو رجاء .



---

والحسن ﴿ على ﴾ بوصل الهمزة وتخريجها يعلم مما مر .

وقرى ابن مسعود ومن قرأ معه فيما سبق ادريس ﴿ سلام على ﴾ وعن قتادة ﴿ وَأَنْ إِدْرِيسَ ﴾ وقرأ ﴿ على ﴾ وقرأ أبي ﴿ على ﴾ كما قرأ ﴿ وَأَنْ وَإِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) ﴾

أتبع الكلام على رسل ثلاثة أصحاب الشرائع : نوح وإبراهيم وموسى بالخبر عن ثلاثة أنبياء وما لقوه من قومهم وذلك كله شواهد لتسلية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقوارع من الموعظة لكفار قريش .

وابتدىء ذكر هؤلاء الثلاثة بجملة ﴿ وإنَّ إلياس لَمِنَ المُرسلينَ ﴾ لأنهم سواء في مرتبة الدعوة إلى دين الله ، وفي أنهم لا شرائع لهم .

وتأكيد إرسالهم بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر لأنه قد يغفل عنه إذ لم تكن لهؤلاء الثلاثة شريعة خاصة .

و﴿ إلياس ﴾ هو ( إيلياء ) من أنبياء بني إسرائيل التابعين لشريعة التوراة ، وأطلق عليه وصف الرسول لأنه أمر من جانب الله تعالى بتبليغ ملوك إسرائيل أن الله غضب عليهم من أجل عبادة الأصنام ، فإطلاق وصف الرسول عليه مثل إطلاقه على الرسل إلى أهل أنطاكية المذكورين في سورة يس .

و﴿ إذ ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿ المرسلين ﴾ ، أي أنه من حين ذلك القول كان مبلغاً رسالة عن الله تعالى إلى قومه .

وقد تقدم ذكر إلياس في سورة الأنعام ، والمراد بقومه : بنو إسرائيل وكانوا قد عبدوا بَعْلاً معبودَ الكنعانيين بسبب مصاهرة بعض ملوك يهوذا للكنعانيين ولذلك قام إلياس داعياً قومه إلى نبذ عبادة بَعْل الصنم وإفرادِ الله بالعبادة .

وقوله : ﴿ ألاَ ﴾ كلمتان : همزة الاستفهام للإنكار ، و ﴿ لا ﴾ النافية ، إنكار لعدم تقواهم ، وحذف مفعول ﴿ تَتَّقُونَ ﴾ لدلالة ما بعده عليه .

و( بَعْل ) اسم صنم الكنعانيين وهو أعظم أصنامهم لأن كلمة بعل في لغتهم تدل على معنى الذكورة .

ثم دلت على معنى السيادة فلفظ البعل يطلق على الذكر ، وهو عندهم رمز على الشمس ويقابله كلمة ( تانيت ) بمثناتين ، أي الأنثى وكانت لهم صنمة تسمى عند الفينيقيين بقرطاجنة ( تانيت ) وهي عندهم رمز القمر وعند فينيقيي أرض فينيقية الوطن الأصلي للكنعانيين تسمى هذه الصَّنَمَة ( العشتاروث ) .



---

وقد أطلق على بعل في زمن موسى عليه السلام اسم "مُولك" أيضاً ، وقد مثلوه بصورة إنسان له رأس عجل وله قرنان وعليه إكليل وهو جالس على كرسي مادّاً يديه كمن يتناول

شيئاً وكانت صورته من نحاس وداخلها مجوف وقد وضعوها على قاعدة من بناء كالتنور فكانوا يوقدون النار في ذلك التنور حتى يحمى النحاس ويأتون بالقرابين فيضعونها على ذراعيه فتحترق بالحرارة فيحسبون لجهلهم الصنم تقبلها وأَكَلَهَا من يديه ، وكانوا يقربون له أطفالاً من أطفال ملوكهم وعظماء ملتهم ، وقد عبده بنو إسرائيل غير مرة تبعاً للكنعانيين ، والعمونيين ، والمؤوبيين وكان لبَعل من السدنة في بلاد السامرة ، أو مدينة صرفة أربُعمائة وخمسون سادناً .

وتوجد صورة بعل في دار الآثار بقصر اللُّوفر في باريس منقوشة على وجه حجارة صوروه بصورة إنسان على رأسه خوذة بها قرنان وبيده مقرعة .

ولعلها صورته عند بعض الأمم التي عبدته ولا توجد له صورة في آثار قرطاجنة الفينيقية بتونس .

وجيء في قوله : ﴿ وتَذرونَ أحسن الخالِقِينَ ﴾ بذكر صفة الله دون اسمه العَلَم تعريضاً بتسفيه عقول الذين عبدوا بَعلاً بأنهم تركوا عبادة الرب المتصف بأحسن الصفات وأكملها وعبدوا صنماً ذاته وخش فكأنه قال : أَتَدْعون صنماً بشعاً جمع عنصري الضعف وهما المخلوقية وقبح الصورة وتتركون من له صفة الخالقية والصفات الحسنى .

وقرأ الجمهور ﴿ إليَاسَ ﴾ بهمزة قطع في أوله على اعتبار الألف واللام من جملة الاسم العلم فلم يحذفوا الهمزة إذا وصلوا ﴿ إنّ ﴾ بها .

وقرأه ابن عامر بهمزة وصل فحذفها في الوصل مع ﴿ إنَّ ﴾ على اعتبار الألف واللام حرفا لِلَمح الأصل.

وأن أصل الاسم ياس مراعاة لقوله: ﴿ سَلامٌ على آلْ يَاسِينَ ﴾.

وللعرب في النطق بالأسماء الأعجمية تصرفات كثيرة لأنه ليس من لغتهم فهم يتصرفون في النطق به على ما يناسب أبنيَة كلامهم.

(42/655)

---

وجملة ﴿ الله ربُّكم وربُّ ءابَآئِكُمُ الأوَّلِينَ ﴾ قرأ الأكثر برفع اسم الجلالة وما عطف عليه فهو مبتدأ والجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً والخبر مستعمل في التنبيه على الخطأ بأن عبدوا ﴿ بعلاً ﴾.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف بنصب اسم الجلالة على عطف البيان ل ﴿ أحْسنَ الخالِقِينَ ﴾، والمقصود من البيان زيادة التصريح لأن المقام مقام إيضاح لأصل الديانة، وعلى كلتا القراءتين فالكلام مسوق لتذكيرهم بأن من أصول دينهم أنهم لا ربّ لهم إلا الله، وهذا أول أصول الدين فإنه ربّ آبائهم فإن آباءهم لم يعبدوا غير الله من عهد إبراهيم عليه السلام وهو الأب الأول من حيث تميزت أمتهم عن غيرهم، أو هو

يعقوب قال تعالى: ﴿ وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيّ إن اللَّه اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [البقرة: 132]، واحتراز بـ ﴿ الْأَوَّلِينَ ﴾ عن آبائهم الذين كانوا في زمان ملوكهم بعد سليمان.

وجمع هذا الخبر تحريضاً على إبطال عبادة "بعل" لأن في الطبع محبة الاقتداء بالسلف في الخير.

وقد جمع إلياس من معه من أتباعه وجعل مكيدة لسدنة (بعل) فقتلهم عن آخرهم انتصاراً للدّين وانتقاماً لمن قتلتهم (إيزابل) زوجة (آخاب).

وفي "مفاتيح الغيب": "كان الملقب بالرشيد الكاتب يقول: لو قيل: أتدعُون بعلاً وتدَعون أحسن الخالقين، أوْهَم أنه أحسن"، أي أوهم كلام الرشيد أنه لو كانت كلمة (تدعون) عوضاً عن ﴿ تذرون ﴾.

وأجاب الفخر بأن فصاحة القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكاليف بل لأجْل قوة المعاني وجزالة الألفاظ اهـ.

وهو جواب غير مقنع إذ لا سبيل إلى إنكار حسن موقع المحسنات البديعية بعد استكمال مقتضيات البلاغة.

قال السّكّاكي: "وأصل الحسن في جميع ذلك (أي ما ذكر من المحسنات البديعية) أن تكون الألفاظ توابع للمعاني لا أن تكون المعاني لها توابع، أعني أن لا تكون متكلفة".

فإذا سلمنا أن ( تذرون ) و ( تدعون ) مترادفان لم يكن سبيل إلى إبطال أن إيثار ( تدعون ) أنسب .

فالوجه إما أن يجاب بما قاله سعد الله محشي البيضاوي بأن الجناس من المحسنات فإنما يناسب كلاماً صادراً في مقام الرضى لا في مقام الغضب والتهويل .

يعني أن كلام إلياس المحكيَّ هنا محكي عن مقام الغضب والتهويل فلا تناسبه اللطائف اللفظية ( يعني بالنظر إلى حال المخاطَبين به لأن كلامه محكي في العربية بما يناسب مصدره في لغة قائله وذلك من دقائق الترجمة ) ، وهو جواب دقيق ، وإن كابر فيه الخفاجي بكلام لا يليق ، وإن تأمّلته جزمت باختلاله .

وقد أجيب بما يقتضي منع الترادف بين فعلي ﴿ تذرون ﴾ و "تدعون" بأن فعل ( يدع ) أخص : إما لأنه يدل على ترك شيء مع الاعتناء بعدم تركه كما قال سعد الله ، وإما لأن فعل يدع يدل على ترك شيء قبل العلم ، وفعل ( يذر ) يدل على ترك شيء بعد العلم به كما حكاه سعد الله عن بعض الأيمة عازياً إياه للفخر .

وعندي : أن منع الترادف هو الوجه لكن لا كما قال سعد الله ولا كما نُقل عن الفخر بل لأن

فعل ( يدع ) قليل الاستعمال في كلام العرب ولذلك لم يقع في القرآن إلا في قراءة شاذّة لا سند لها خلافاً لفعل ( يذر ) .

ولا شك أن سبب ذلك أن فعل ( يذر ) يدل على ترك مع إعراض عن المتروك بخلاف ( يدع ) فإنه يقتضي تركاً مؤقتاً وأشار إلى الفرق بينهما كلام الراغب فيهما .

وهنالك عدة أجوبة أخرى ، هي بالإِعراض عنها أَحْرَى .

(44/655)

---

ومعنى ﴿ فكذَّبُوهُ ﴾ أنهم لم يطيعوه تملّقاً لملوكهم الذين أجابوا رغبة نسائهم المشركات لإِقامة هياكل للأصنام فإن ( إيزابل ) ابنة ملك الصيد ونيين زوجة ( أخاب ) ملك إسرائيل لما بلغها ما صنع إلياس بسدنة بَعْل ثأراً لمن قتلته ( إيزابل ) من صالحي إسرائيل أرسلت إلى إلياس تتوعده بالقتل فخرج إلى موضع اسمه ( بئر سبع ) ثم ساح في الأرض وسأل الله أن يقبضه إليه فأمره بأن يعهد إلى صاحبه ( اليسع ) بالنبوءة مِن بعده ، ثم قبضه الله إليه فلم يعرف أَحد مكانه .

وفي كتاب "إيلياء" من كتب اليهود أن الله رفعه إلى السماء في مركبة يجرها فرسان ، وأن ( اليسع ) شاهده صاعداً فيها ولذلك كان بعض السلف يقول : إن إلياس هو إدريس الذي

قال الله فيه : ﴿ إنه كان صديقاً نبيئاً ورفعناه مكاناً عليّاً ﴾ [ مريم : 56 – 57 ] ،
وقيل كان عبد الله بن مسعود يقرأ : ﴿ إن إدريس لمن المرسلين ﴾ عوض ﴿ وإنَّ إلياس ﴾ ويقرأ ( سلام على إدراسين ) على أنه لغة في إدريس .

ولا يقتضي ما في كتب اليهود من رفعه أن يكون هو إدريس لأن الرفع إذا صحّ قد يتكرر وقد رفع عيسى عليه السلام .

ومعنى ﴿ فإنَّهمُ لَمُحضرونَ ﴾ أن الله يُحضرهم للعقاب ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ﴾ في هذه السورة [ الصافات : 57 ] .

واستثني من ذلك عبادُ الله المخلَصون وهم الذين اتبعوا إلياس وأعانوه على قتل سدنة ( بعل ) .

وتقدم القول فيه عند قوله تعالى : ﴿ إلاَّ عِبَادَ اللهِ المُخلصين ﴾ فيما سبق من هذه السورة [ 74 ] .

وكذلك قوله : ﴿ وتركنا عليهِ في الآخرينَ سلامٌ على آل ياسينَ ﴾ إلى آخر الآية تقدم نظيره .

وقوله : ﴿ آلْ ياسينَ ﴾ قيل أريد به إلياس خاصة وعبر عنه بـ ﴿ ياسين ﴾ لأنه يُدعَى به .

قال في "الكشاف" : ولعل لزيادة الألف والنون في لغتهم معنى ويكون ذكر ﴿ آل ﴾ إقحاماً كقوله : ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ [ غافر : 46 ] على أحد التفسيرين فيه ، وفي قوله : ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ﴾ [ النساء : 54 ] .

وقيل : إن ياسين هو أبو إلياس .

فالمراد : سلام على إلياس وذويه من آل أبيه .

وقرأ نافع وابن عامر ﴿ ءال يَاسِينَ بهمزة بعدهَا ألف على أنهما كلمتان آل و ( ياسين ) .

وقرأه الباقون بهمزة مكسورة دون ألف بعدها وبإسكان اللام على أنها كلمة واحدة هي اسم إلياس وهي مرسومة في المصاحف كلها على قطعتين آل ياسينَ ﴾ ولا منافاة بينها وبين القراءتين لأن آل قد ترسم مفصولة عن مدخولها .

والأظهر أن المراد بـ ﴿ آلْ ياسينَ ﴾ أنصاره الذين اتّبعوه وأعانوه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم "آل محمد كلّ تَقي" وهؤلاء هم أهل ( جبل الكرمل ) الذين استنجدهم إلياس على سدنة بعل فأطاعوه وأنجدوه وذبحوا سدنة بعل كما هو موصوف بإسهاب في الإِصحاح الثامن عشر من سفر الملوك الأول .

فيكون المعنى : سلام على ياسين وآله ، لأنه إذا حصلت لهم الكرامة لأنهم آلُهُ فهو بالكرامة أولى .

وفي قصة إلياس إنباء بأن الرسول عليه أداء الرسالة ولا يلزم من ذلك أن يشاهد عقاب المكذِّبين ولا هلاكَهم للرد على المشركين الذين قالوا : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [ يونس : 48 ] قال تعالى : ﴿ قل ربِّ إمَّا تُرِيَنّي ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ﴾ [ المؤمنون : 93 - 95 ] ، وقال تعالى : ﴿ فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴾ [ غافر : 77 ] وفي الآية الأخرى ﴿ وإلينا يرجعون ﴾ [ مريم : 40 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

*(46/655)*

---

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ سلام على آل ياسين ﴾

فهذه فيها قراءتان إحداهما إلياسين بوزن إسماعيل وفيه وجهان

أحدهما أنه اسم ثان للنبي إلياس وإلياسين كميكال وميكائيل والوجه الثاني أنه جمع وفيه وجهان أحدهما أنه جمع إلياس وأصله إلياسيين بيائين كعبرانيين ثم خففت أحدى اليائين

فقيل إلياسين والمراد أتباعه كما حكى سيبويه الأشعرون ومثله الأعجمون

والثاني أنه جمع إلياس محذوف الياء

والقراءة الثانية سلام على آل ياسين وفيه أوجه أحدها أن ياسين اسم لأبيه فأضيف إليه الآل كما يقال آل إبراهيم والثاني أن آل ياسين هو إلياس نفسه فيكون آل مضافة إلى يس والمراد بالآل يس نفسه كما ذكر الأولون والثالث انه على حذف ياء النسب فيقال يس واصله ياسيين كما تقدم وآلهم أتباعهم على دينهم

والرابع أن يس هو القرآن وآله هم أهل القرآن

والخامس أنه النبي وآله أقاربه وأتباعه كما سيأتي

(47/655)

---

وهذه الأقوال كلها ضعيفة والذي حمل قائلها عليها استشكالهم إضافة آل إلى يس واسمه إلياس وإلياسين ورأوها في المصحف مفصولة وقد قرأها بعض القراء آل ياسين فقال طائفة منهم له أسماء يس وإلياسين وإلياس وقالت طائفة يس اسم لغيره ثم اختلفوا فقال الكلبي يس محمد سلم الله على آله وقالت طائفة هو القرآن وهذا كله تعسف ظاهر لا حاجة إليه والصواب والله أعلم في ذلك أن أصل الكلمة آل ياسين كآل إبراهيم فحذفت

الألف واللام من أوله لاجتماع الأمثال ودلالة الاسم على موضع المحذوف وهذا كثير في كلامهم إذا اجتمعت الأمثال كرهوا النطق بها كلها فحذفوا منها ما لا إلباس في حذفه وإن كانوا لا يحذفونه في موضع لا تجتمع فيه الأمثال ولهذا لا يحذفون النون من إني وأني وكأني ولكني ولا يحذفونها من ليتني ولما كانت اللام في لعل شبيهة بالنون حذفوا النون معها ولا سيما عادة العرب في استعمالها للاسم الأعجمي وتغييرها له فيقولون مرة إلياسين ومرة إلياس ومرة ياسين وربما قالوا ياس ويكون على إحدى القراءتين قد وقع على المسلم عليه وعلى القراءة الأخرى على آله

وعلى هذا ففصل النزاع بين أصحاب القولين في الآل أن الآل إن أفرد دخل فيه المضاف إليه كقوله تعالى أدخلوا آل فرعون أشد العذاب غافر 46 ولا ريب في دخوله في آله هنا وقوله تعالى ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين الأعراف 130 ونظائره

وقول النبي اللهم صل على آل أبي أوفى ولا ريب في دخول أبي أوفى نفسه في ذلك وقوله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم هذه أكثر روايات البخاري وإبراهيم هنا داخل في آله ولعل هذا مراد من قال آل الرجل نفسه

وأما إن ذكر الرجل ثم ذكر آله لم يدخل فيهم ففرق بين المجرد والمقرون فإذا قلت أعط لزيد وآل زيد لم يكن زيد هنا داخلا في آله وإذا قلت أعطه لآل زيد تناول زيدا وآله وهذا له نظائر كثيرة قد ذكرناها في غير هذا الموضع وهي أن اللفظ تختلف دلالته بالتجريد والاقتران كالفقير والمسكين هما صنفان إذا قرن بينهما وصنف واحد إذا أفرد كل منهما ولهذا كانا في الزكاة صنفين وفي الكفارات صنف واحد وكالإيمان والإسلام والبر والتقوى والفحشاء والمنكر والفسوق والعصيان ونظائر ذلك كثيرة ولا سيما في القرآن. انتهى انتهى. اهـ ﴾

جلاء الأفهام صـ 162.164 ﴾

*(49/655)*

---

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى:

( بصيرة فى البعل )

وهو الزَّوج.

والجمع بِعَال، وبُعُول.

والمرأَة بَعْل، وبَعْلة.

وبَعَل يَبْعَل بُعُولة : صار بعلاً .

وكذا اسْتَبْعَل .

والبِعال .

والتباعُل .

والمباعلة : الجماع ، وملاعبة الرّجل المرأَة .

وباعلت : اتخذتْ بعلاً ، وتبعّلتْ : أَطاعت بعلها ، أَو تزيّنتْ له .

وذكر فى القرآن البَعْل على وجهين :

الأَوّل : اسم صنم لقول إِلياس عليه السّلام : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً ﴾ .

الثانى : بمعنى الأَزواج : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ ﴿ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً ﴾ وله نظائر .

ولمّا تُصوّر من الرّجل استعلاء على المرأَة ، وأَن بسببه صار سائسَها ، والقائم عليها ، شُبّه كلّ مستعل على غيره به ، فسمّى به .

فسمَّى قوم معبودهم الذى يتقرَّبون به إِلى الله تعالى "بعلا" لاعتقادهم ذلك فيه .

وقيل للأَرضِ المستعلية على غيرها : بَعْل ، ولفَحْل النخل : بعل .

تشبيها بالبعل من الرّجال ، وكذا سمّوا ما عَظُم من النخل حتى شرب بعروقه بعلاً ، لاستعلائه واسغنائه عن السّاقى ، ولمّا كانت وَطْأَة العالى على المستولَى عليه مستثقلة فى

التّفس قيل : أَصبح فلان بَعْلاً على أَهله أَى ثقيلاً ، لعلوّه عليهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 260 ﴾

(50/655)

---

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (138) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أتم ما أراد سبحانه من أمور المحسنين من ذرية إبراهيم عليه السلام المرسلين إلى ذريته في التسلية ، والترجية وقدمهم لأن المنة عليهم منه عليه ، والإنسان بابنه أسر منه بقريبه ، وهم الذين أظهر الله بهم وما ترك عليه ، من لسان الصدق في الآخرين .

أتبعهم قصة ابن أخيه مع أهل بلاد الأردن من غير قومهم ، فقال مؤكداً للتنبيه على نصر المؤمنين وإن كانوا في القلة والذلة على حال لا يظن انجباره وتكذيباً لليهود المكذبين برسالته أو الشاكين فيها : ﴿ وإن لوطاً ﴾ أي الذي جرد نفسه من مألوفها من بلاده وعشائره

بالهجرة مع عمه إبراهيم عليهما السلام ﴿ لمن المرسلين ﴾ ولما كان جل المقصود تبشير المؤمنين وتحذير الكافرين ، وكان مخالفه كثيراً ، وكان هو غريباً بينهم ، قال في مظهر العظمة : ﴿ إذ نجيناه ﴾ أي على ما لمخالفيه من الكثرة والقوة ، ولم يذكرهم لأنهم أكثر الناس انغماساً في العلائق البشرية والقاذورات البهيمية التي لا تناسب مراد هذه السورة المنبني على الصفات الملكية ﴿ وأهله أجمعين ﴾ ولما كان الكفر قاطعاً للسبب القريب كما أن الإيمان واصلاً للسبب البعيد قال : ﴿ إلا عجوزاً ﴾ أي وهي امرأته فإن كفرها قطعها عن الدخول في حكم أهله فجردوا عنها ، كائنة ﴿ في الغابرين ﴾ أي الباقين في غبرة العذاب ومساءة الانقلاب .

ولما ذكر نجاته وابتدأ بها اهتماماً بالترجية قال مخوفاً معبراً بأداة البعد إفادة مع الترتيب لعظيم رتبة ما دخلت عليه : ﴿ ثم دمرنا ﴾ أي أهلكنا بما لنا من العظمة ﴿ الآخرين ﴾ أي فجردنا الأرض من قاذوراتهم ونزهنا البلاد المقدسة منهم ومن أرجاس فعلاتهم ، فلم نبق منهم أحداً ولا احتجنا في إهلاكهم إلى استئذان أحد .

ولما كان المقصود من مثل هذا تحذير المخالفين ، وكان تجار قريش يرون البقعة التي كانت فيها أماكن قوم لوط ، وهي البحيرة المعروفة ، ولا يعتبرون بهم ، عدّوا منكرين للمرور عليهم فأبرز لهم الكلام في سياق التأكيد فقيل : ﴿ وإنكم ﴾ أي فعلنا بهم هذا والحال أنكم يا معشر قريش ﴿ لتمرون عليهم ﴾ أي مواضع ديارهم في تجاراتكم إلى الشام

﴿ مصبحين ﴾ أي داخلين في الصباح الوقت الذي قلبنا مدائنهم عليهم فيه ، ونص عليه للتذكير بحالهم فيه .

(51/655)

---

ولما كان لليل منظر في الهول غير منظر النهار قال : ﴿ وبالليل ﴾ ولما كان أمرهم كافياً للعاقل في التقوى ، أنكر عليهم تماديهم فيما كان سبب أخذهم من تكذيب الناصح فقال : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي يكون لكم عقول فتعتبروا بحالهم ، فتخافوا مثل مآلهم ، فتصدقوا رسولكم فإنكم أجدر منهم بالأخذ لأنه منكم وأنتم تعرفون من شرف أصله وكريم قوله وفعله ما لا يعرفه أولئك من رسولهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 339 . 340 ﴾

(52/655)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) ﴾

هذا هو القصة الخامسة ، وإنه تعالى إنما ذكر هذه القصة ليعتبر بها مشركو العرب ، فإن الذين كفروا من قومه هلكوا والذين آمنوا نجوا ، وقد تقدم شرح هذه القصة ، وقد نبههم بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وبالليل ﴾ وذلك لأن القوم كانوا يسافرون إلى الشام والمسافر في أكثر الأمر إنما يمشي في الليل وفي أول النهار ، فلهذا السبب عين تعالى هذين الوقتين .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ يعني أليس فيكم عقول تعتبرون بها ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 142 ﴾

*(53/655)*

---

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا على موسى وَهَارُونَ ﴾

والمنة ، على موسى وهارون هي في النبوءة وسائر ما جرى معها من مكانتها عند الله تعالى و﴿ الكرب العظيم ﴾ هو تعبد القبط لهم ، ثم جيش فرعون لما قالت بنو إسرائيل ﴿ إنا لمدركون ﴾ [ الشعراء : 61 ] ثم البحر بعد ذلك ، والضمير في ﴿ نصرناهم ﴾ عائد

على الجماعة المتقدم ذكرها وهم ﴿ موسى وهارون وقومهما ﴾ ، وقال قوم : أراد موسى وهارون ولكن أخرج ضميرهما مخرج الجميع تفخيماً ، وهذا مما تفعله العرب تكني عمن تعظم بكناية الجمع ، و﴿ الكتاب المستبين ﴾ هو التوراة .

وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (118)

*(54/655)*

---

﴿ الصراط المستقيم ﴾ يريد به في هذه الآية طريق الشرع والنبوءة المؤدي إلى الله تعالى وقد تقدم القول في مثل قوله ﴿ وتركنا عليهما ﴾ ، و﴿ إلياس ﴾ نبي من أنبياء الله تعالى ، قال قتادة وابن مسعود : هو إدريس عليه السلام ، وقالت فرقة : هو من ولد هارون عليه السلام ، قال الطبري هو إلياس بن نسي بن فنحاص بن ألعيزار بن هارون ، وقرأ الجمهور من القراء " وإن إلياس " بهمزة مكسورة ، وهو اسم ، وقرأ ابن عامر وابن محيصن وعكرمة والحسن والأعرج " وإن الياس " بغير همز بصلة الألف ، وذلك يتجه على أحد وجهين : إما أن يكون حذف الهمزة كما حذفها ابن كثير من قوله تعالى ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ [ المدثر : 35 ] أراد " لإحدى " فنزل المنفصل منزلة المتصل ، كما قد ينزل في كثير من الأمور ، والآخر أن يجعلها الألف التي تصحب اللام للتعريف كاليسع ، وفي مصحف أبي بن كعب

" وإن اِيلِيَس " بألف مكسورة الهمزة وياء ساكنة قبل اللام المكسورة وياء ساكنة بعدها وسين مفتوحة ، وكذلك في قوله " سلام على إيليس " ، وقرأ نافع وابن عامر على " آل ياسين " وقرأ الباقون " سلام على إلياسين " بألف مكسورة ولام ساكنة ، قرأ الحسن وأبو رجاء " على الياسين " موصولة فوجه الأولى أنها فيما يزعمون مفصولة في المصحف فدل ذلك على أنها بمعنى أهل و " ياسين " اسم أيضاً ل ﴿ إلياس ﴾ وقيل هو اسم لمحمد صلى الله عليه وسلم ووجه الثانية أنه جمع إلياسي كما قالوا أعجمي أعجميون ، قال أبو علي : والتقدير إلياسين فحذف كما حذف من أعجميين ، ونحوه من الأشعرين والنمرين والمهلبين ، وحكى أبو عمرو أن منادياً نادى يوم الكلاب ، هلك اليزيديون ، ويروي قول الشاعر : " قدني من نصر الخبيبين قدي " بكسر الباء الثانية نسبة إلى أبي خبيب ، ويقال سمي كل واحد من آل ياسين إلياس كما قالوا شابت مفارقه فسمي كل جزء من المفرق مفرقاً ، ومنه قولهم " جمل ذو عثانين " ، وعلى هذا أنشد ابن جني : [ الرجز ]

(55/655)

---

مرت بنا أول من أموس . . . تميس فينا مشية العروس

فسمى كل جزء من الأمس أمس ثم جمع ، وقال أبو عبيدة لم يسلم على آل أحد من الأنبياء

المذكورين قبل فلذلك ترجح قراءة من قرأ " إلياسين " إذ هو اسم واحد له ، وقرأ ابن مسعود والأعمش " وإن إدريس لمن المرسلين " و" سلام على إدريس " وروى هذه القراءة قطرب وغيره وإن إدراسين وإدراس لغة في إدريس كإبراهيم وإبراهام ، وقوله ﴿ أتدعون ﴾ معناه أتعبدون ، والبعل الرب بلغة اليمن قاله عكرمة وقتادة ، وسمع ابن عباس رجلاً ينشد ضالة فقال له رجل آخر : أنا بعلها ، فقال ابن عباس الله أكبر أتدعون بعلاً ، وقال الضحاك وابن زيد والحسن ﴿ بعلاً ﴾ اسم صنم كان لهم وله يقال بعلبك وإليه نسب الناس ، وذكر ابن إسحاق عن فرقة أن ﴿ بعلاً ﴾ اسم امرأة كانت أتتهم بضلالة ، وقوله ﴿ أحسن الخالقين ﴾ من حيث قيل للإنسان على التجوز إنه يخلق وجب أن يكون تعالى ﴿ أحسن الخالقين ﴾ إذ خلقه اختراع وإيجاد من عدم وخلق الإنسان مجاز كما قال الشاعر : [ الكامل أقذ ] .

ولأنت تفري ما خلقت . . . وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (126)

قرأ حمزة والكسائي وعاصم " الله " بالنصب " ربَّكم وربَّ آبائكم " كل ذلك بالنصب على البدل من قوله ﴿ أحسن الخالقين ﴾ [ المؤمنين : 14 ، الصافات : 125 ] ، وقرأ الباقون وعاصم أيضاً " ربُّكم وربُّ آبائكم " كل ذلك بالرفع على القطع والاستئناف ، والضمير في ﴿ كذبوه ﴾ عائد على قوم إلياس ، و ﴿ محضرون ﴾ معناه مجمعون لعذاب الله وقد تقدم تفسير مثل ما بقي من الآية وتقدم القول أيضاً في قوله ﴿ سلام على آل ياسين ﴾ ، و " لوط " عليه السلام هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام وقيل ابن أخته وقد تقدم تفسير قصته بكاملها ، وامرأته هي العجوز المهلكة ، وكانت كافرة فإما كانت متسترة منه عليه السلام ، وإما كانت معلنة وكان نكاح الوثنيات والإقامة عليهن جائزاً ، و " الغابرون " الباقون ، غبر بمعنى بقي ومعناه هنا بقيت في الهلاك ، ثم خاطب تعالى قريشاً أو هو على معنى قل لهم يا محمد ﴿ وإنكم لتمرون عليهم ﴾ في الصباح وفي الليل فواجب أن يقع اعتباركم ونظركم ثم وبخهم تعالى بقوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ المرسلين * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزاً فِي الغابرين ﴾

تقدم قصة لوط.

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخرين ﴾ أي بالعقوبة.

﴿ وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴾ خاطب العرب : أي تمرون على منازلهم وآثارهم "مُصْبِحِينَ" وقت الصباح ﴿ وبالليل ﴾ تمرون عليهم أيضاً.

وتم الكلام.

ثم قال : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أي تعتبرون وتتدبرون. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

*(58/655)*

---

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) ﴾

﴿ الكرب العيظم ﴾ : تعبد القبط لهم ، ثم خوفهم من جيش فرعون ، ثم البحر بعد ذلك

، والضمير في ﴿ ونصرناهم ﴾ عائد على موسى وهارون وقومهما ؛ وقيل : عائد على موسى وهارون فقط ، تعظيماً لهما بكناية الجماعة .

و﴿ هم ﴾ : يجوز أن يكون فصلاً وتوكيداً أو بدلاً .

و﴿ الكتاب المستبين ﴾ : التوراة ، كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ و﴿ الصراط المستقيم ﴾ : هو الإسلام وشرع الله .

و﴿ إلياس ﴾ ، قال ابن مسعود وقتادة : هو إدريس عليه السلام .

ونقلوا عن ابن مسعود ، وابن وثاب ، والأعمش ، والمنهال بن عمر ، والحكم بن عتيبة الكوفي أنهم قرأوا : وإن إدريس لمن المرسلين ، وهو محمولة عندي على تفسيره ، لأن المستفيض عن ابن مسعود أنه قرأ : ﴿ وإن إلياس ﴾ ، وأيضاً تفسيره إلياس بأنه إدريس لعله لا يصح عنه ، لأن إدريس في التاريخ المنقول كان قبل نوح .

وفي سورة الأنعام ذكر إلياس ، وأنه ذرية إبراهيم ، أو من ذرية نوح على ما يحتمله قوله تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ﴾ ﴿ ومن ذريته داود ﴾ وذكر في جملة هذه الذرية إلياس ، وقيل : إلياس من أولاد هارون .

قال الطبري : هو إلياس بن ياسين ابن فنحاص بن العيزار بن هارون .

وقرأ الجمهور : ﴿ وإن إلياس ﴾ ، بهمزة قطع مكسورة .

وقرأ عكرمة ، والحسن : بخلاف عنهما ؛ والأعرج ، وأبو رجاء ، وابن عامر ، وابن

محيصن : بوصل الألف ، فاحتمل أن يكون وصل همزة القطع ، واحتمل أن يكون اسمه ياسا ، ودخلت عليه أل ، كما دخلت على أليسع .

وفي حرف أبيّ ومصحفه : وإن إيليس ، بهمزة مكسورة ، بعدها ياء ساكنة ، بعدها لام مكسورة ، بعدها ياء ساكنة وسين مفتوحة .

وقرىء : وإن أدراس ، لغة في إدريس ، كأبراهام في إبراهيم .

﴿ أتدون بعلاً ﴾ : أي أتعبدون بعلاً ، وهو علم لصنم لهم ، قاله الضحاك والحسن وابن زيد .

(59/655)

---

قيل : وكان من ذهب ، طوله عشرون ذراعاً ، وله أربعة أوجه ، فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء ، وكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس ، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام ، وبه سميت مدينتهم بعلبك .

وقال عكرمة ، وقتادة : البعل : الرب بلغة اليمن .

وسمع ابن عباس رجلاً ينشد ضالة ، فقال له رجل : أنا بعلها ، فقال ابن عباس : الله أكبر ،

أتدعون بعلاً ؟ ويقال : من بعل هذه الدار ، أي ربها ؟ والمعنى على هذا : أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله ؟ وقالت فرقة : إن بعلاً اسم امرأة أتتهم بضلالة فاتبعوها .

وقرىء : أتدعون بعلاء ، بالمد على وزن حمراء ، ويؤنس هذه القراءة قول من قال : إنه اسم امرأة .

وقرأ الكوفيون ، وزيد بن عليّ : ﴿ الله ربّكم وربّ آبائكم ﴾ ، بالنصب في الثلاثة بدلاً من ﴿ أحسن ﴾ ، أو عطف بيان إن قلنا إن إضافة التفضيل محضة ؛ وباقي السبعة بالرفع ، أي هو الله ؛ أو يكون استئنافاً مبتدأ وربكم خبره .

وروي عن حمزة أنه إذا وصل نصب ، وإذا قطع رفع .

﴿ فكذبوه ﴾ : أي كذبه قومه ، إما في قوله : ﴿ الله ربكم ﴾ هذه النسب ، أو فكذبوه فيما جاء به من عند الله من الأمر بالتوحيد وترك الصنم والايمان بما جاءت به الرسل .

ومحضرون : مجموعون للعذاب .

﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ : استثناء يدل على أن من قومه مخلصين لم يكذبوه ، فهو استثناء متصل من ضمير ﴿ فكذبوه ﴾ ، ولا يجوز أن يكون استثناء من ﴿ فإنهم لمحضرون ﴾ ، لأنهم كانوا يكونون مندرجين فيمن كذب ، ويكونون ﴿ عباد الله المخلصين ﴾ ، وذلك لا يمكن ولا يناسب أن يكون استثناء منقطعاً ، إذ يصير المعنى : لكن عباد الله المخلصين من غير قومه لا يحضرون للعذاب ، ولا مسيس لهؤلاء الممسوسين بالآية التي فيها

قصة إلياس هذه .

وقرأ زيد بن عليّ ، ونافع ، وابن عامر : على آل ياسين .

وزعموا أن آل مفصولة في المصحف ، وياسين اسم لإلياس .

(60/655)

---

وقيل : اسم لأبي إلياس ، لأنه إلياس بن ياسين ، وآل ياسين هو ابنه إلياس .

وقيل : ياسين هو اسم محمد ( صلى الله عليه وسلم ) .

وقرأ باقي السبعة : { على الياسين } ، بهمزة مكسورة ، أي الياسين ، جمع المنسوبين إلى الياس معه ، فسلم عليهم .

وهذا يدل على أن من قومه من كان اتبعه على الدين ، وكل واحد ممن نسب إليه كأنه إلياس ، فلما جمعت ، خففت ياء النسبة بحذف إحداهما كراهة التضعيف ، فالتقى ساكنان : الياء فيه وحرف العلة الذي للجمع ، فحذفت لالتقائهما ، كما قالوا : الأشعرون والأعجمون والخبيبون والمهلبون .

وحكى أبو عمرو أن منادياً نادى يوم الكلاب : ههلك اليزيديون .

وقال الزمخشري : لو كانا جمعاً ، لعرف بالألف واللام .

وقرأ أبو رجاء ، والحسن : على الياسين ، بوصل الألف على أنه جمع يراد به إلياس وقومه المؤمنون ، وحذفت ياء النسب ، كما قالوا : الأشعرون ، والألف واللام دخلت على الجمع ، واسمه على هذا ياس .

وقرأ ابن مسعود ، ومن ذكر معه أنه قرأ إدريس : سلام على إدراسين .

وعن قتادة : وإن إدريس .

وقرأ : على إدريس .

وقرأ ابن عليّ : إبليس ، كقراءته وإن إبليس لمن المرسلين .

﴿ إلا عجوزاً ﴾ : هي امرأة لوط ، وكانت كافرة ، إما مستترة بالكفر ، وإما معلنة به .

وكان نكاح الوثنيات عندهم جائزاً .

﴿ مصبحين ﴾ : أي داخلين في الأصباح.

والخطاب في ﴿ وإنكم ﴾ لقريش ، وكانت متاجرهم إلى الشأم على مدائن قوم لوط.

﴿ أفلا تعقلون ﴾ ، فتعتبرون بما جرى على من كذب الرسل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ المرسلين ﴾

هو إلياسُ بنُ ياسينَ من سبطِ هارون أخي مُوسى عليهم السلام بُعث بعده وقيل إدريسُ لأَنَّه قُرِىء مكانه إدريسَ وإدراسَ وقُرِىء إبليسَ وقُرِىء إلياسَ بحذفِ الهمزة ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ أي عذابَ الله تعالى . ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً ﴾ أتعبدونَه وتطلبون الخيرَ منه وهو اسمُ صنمٍ كان لأهل بكّ من الشّامِ وهو البلد المعروفُ اليوم ببَعْلَبَكّ قيل كان من ذهبٍ طوله عشرون ذراعاً وله أربعةُ أوجهٍ فتُنوا به وعظَّموه حتى أخدمُوه أربعمائة سادنٍ وجعلوهم أنبياءَ فكان الشّيطانُ يدخل جوفَه ويتكلّم بشريعة الضَّلالةِ ، والسَّدنةُ يحفظونَها ويُعلّمونها النّاسَ . وقيل البَعْلُ الرَّبُّ بلغة اليمنِ أي أتعبدون بعضَ البُعولِ . ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخالقين ﴾ أي وتتركون عبادته وقد أُشير إلى المقتضى للإنكارِ المعنيّ بالهمزة ثم صرّح به بقوله تعالى :

(62/655)

---

﴿ الله رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءابَائِكُمُ الاولين ﴾ بالنّصب على البدليةِ من أحسنَ الخالقينَ . وقُرِىء بالرّفعِ على الابتداءِ . والتّعرُّضُ لذكرِ ربوبيّتهِ تعالى لآبائهم لتأكيدِ إنكارِ تركهم عبادته تعالى

والإشعارِ ببُطلانِ آراءِ آبائهم أيضاً ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ ﴾ بسبب تكذيبهم ذلك ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي العذابَ. والإطلاقُ للاكتفاء بالقرائنِ على أنَّ الإحضارَ المطلقَ مخصوص بالشَّرِّ عُرفاً ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللهِ المخلصين ﴾ استثناء من ضمير مُحضرون ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الاخرين سلام على إِلْ يَاسِين ﴾ هو لغةٌ في الياسَ كسيناءَ في سينينَ وقيل هو جمعٌ له أُريد به هو وأتباعُه كالمهلَّبين والخُبَيبين. وفيه أنَّ العَلَمَ إذا جُمع يجبُ تعريفُه كالمثالين. وقُرئ بإضافةِ آلِ إلى ياسينَ لأَنَّهما في المصحفِ مفصولانِ فيكونُ ياسينَ أبا إلياس ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ مرَّ تفسيرُه ﴿ وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ المرسلين إِذْ نجيناه ﴾ أي اذكر وقتَ تنجيتِنا إيَّاه ﴿ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزاً فِى الغابرين ﴾ أي الباقين في العذابِ أو الماضين الهالكين.

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الاخرين ﴾ فإنَّ في ذلك شواهدَ على جليةِ أمرِه وكونِه من جُملةِ المُرسلين.

﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ يا أهلَ مكَّةَ ﴿ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ ﴾ على منازلِهم في متاجرِكم إلى الشَّأمِ وتشاهدون آثارَ هلاكهم فإنَّ سدومَ في طريقِ الشَّأمِ ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ داخلين في الصَّباحِ ﴿ وبالليل ﴾ أي ومساءً أهم نهاراً وليلاً، ولعلَّها وقعت بقربِ منزلٍ يمرُّ بها المرتحلُ عنه صباحاً والقاصدُ له مساءً ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتَّى تعتبرُوا به وتخافوا أنْ يُصيبكم مثلُ ما أصابهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) ﴾

سبق بيانه في الشعراء .

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137)

﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ ﴾ على منازلهم في متاجركم إلى الشام فإن سذوم في طريقه ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ داخلين في الصباح.

وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (138)

﴿ وَبِاللَّيْلِ ﴾ قيل أي ومساء بأن يراد بالليل أوله لأنه زمان السير ولوقوعه مقابل الصباح ، وقيل : أي نهاراً وليلاً وهو تأويل قبل الحاجة ولذا اختير الأول ، ووجه التخصيص عليه بأنه لعل سدوم وقعت قريب منزل يمر بها المرتحل عنه صباحاً والقاصد مساء ، وقال بعض الأجلة : لو أبقى على ظاهره لأن ديار العرب لحرها يسافر فيها في الليل إلى الصباح خلا عن التكلف في توجيه المقابلة ﴿ ﴾ قيل أي ومساء بأن يراد بالليل أوله لأنه زمان

السير ولوقوعه مقابل الصباح ، وقيل : أي نهاراً وليلاً وهو تأويل قبل الحاجة ولذا اختير الأول ، ووجه التخصيص عليه بأنه لعل سدوم وقعت قريب منزل يمر بها المرتحل عنه صباحاً والقاصد مساء ، وقال بعض الأجلة : لو أبقى على ظاهره لأن ديار العرب لحرها يسافر فيها في الليل إلى الصباح خلا عن التكلف في توجيه المقابلة ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فإن منشأ ذلك مخالفتهم رسولهم ومخالفة الرسول قدر مشترك بينكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(64/655)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) ﴾

هذا ثاني الأنبياء الذين جمعهم التنظير في هذه الآية ، ولوط كان رسولاً للقُرى التي كان ساكناً في إحداها فهو رسول لا شريعة له سوى أنه جاء ينهى الأقوام الذين كانوا نازلاً بينهم عن الفاحشة وتلك لم يسبق النهي عنها في شريعة إبراهيم .

و﴿ إذ ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿ المُرسلين ﴾ .

والمعنى : أنه في حين إنجاء الله إياه وإهلاك الله قومَه كان قائماً بالرسالة عن الله تعالى ناطقاً بما أمره الله ، وإنما خصّ حين إنجائه بجعله ظرفاً للكون من المرسلين لأن ذلك الوقت ظرف للأحوال الدالة على رسالته إذ هي مماثلة لأحوال الرسل من قبل ومن بعد .

وتقدمت قصة لوط في سورة الأنعام وفي سورة الأعراف .

والعجوز : امرأة لوط ، وتقدم خبرها وتقدم نظيرها في سورة الشعراء .

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (137)

الخطاب لقريش الذين سيقت هذه القصص لعظتهم .

والمرور : مجاوزة السائر بسيره شيئاً يتركه ، والمراد هنا : مرورهم في السفر ، وكان أهل مكة إذا سافروا في تجارتهم إلى الشام يمرّون ببلاد فلسطين فيمرون بأرض لوط على شاطىء البحر الميّت المسمّى بُحيرة لوط .

وتعدية المرور بحرف ( على ) يعيّن أن الضمير المجرور بتقدير مضاف إلى : على أرضهم ، كما قال تعالى : ﴿ أو كالذي مر على قرية ﴾ [ البقرة : 259 ] .

يقال : مر عليه ومرّ به ، وتعديته بحرف ( على ) تفيد تمكّن المرور أشدّ من تعديته بالباء ، وكانوا يمرّون بديار لوط بجانبها لأن قُراهم غمرها البحر الميت وآثارها باقية تحت الماء .

والمُصبح : الداخل في وقت الصباح ، أي تمرّون على منازلهم في الصباح تارة وفي الليل تارة

بحسب تقدير السير في أول النهار وآخره ، لأن رحلة قريش إلى الشام تكون في زمن الصيف ويكون السيرُ بُكرة وعشيّاً وسُرىً ؛ والباء في ﴿ وباللَّيلِ ﴾ للظرفية .

(65/655)

---

والخبر الذي في قوله : ﴿ وإنكم لتمُرُّون عليهم ﴾ مستعمل في الإِيقاظ والاعتبار لا في حقيقة الإِخبار ، وتأكيدُه بحرف التوكيد وباللام تأكيد للمعنى الذي استعمل فيه ، وذلك مثل قوله : ﴿ وإنها لبسبيل مقيم في سورة الحجر ﴾ ( 76 ) .

وفرع على ذلك بالفاء استفهام إنكاري من عدم فطْنتهم لدلالة تلك الآثار على ما حلّ بهم من سخط الله وعلى سبب ذلك وهو تكذيب رسول الله لوط .

وقد أشرنا إلى وجه تخصيص قصة لوط مع القصص الخمس في أول الكلام على قصة نوح وتزيد على تلك القصص بأن فيها مشاهدة آثار قومه الذين كذبوا وأصرّوا على الكفر .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(66/655)

---

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (148) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أكمل سبحانه ما أراد من أمور من كان على أيديهم هلاك في الدنيا أو في الآخرة ، ختم بمن آل أمر قومه إلى سلامة وإيمان ونعمة وإحسان تغليباً للترجية على التأسية والتعزية فقال مؤكداً لأن ما يأتي من ذكر الاباق وبما أوهم شيئاً في أمره : ﴿ وإن يونس ﴾ أي أحد أنبياء بني إسرائيل وهو يونس بن متى عليه السلام ، حكى البغوي في قصة إلياس عليه السلام أنه لما أرسله الله تعالى إلى سبطه من بني إسرائيل الذين كانوا في مدينة بعلبك ، فكذبوه وأراد ملكهم قتله فاختفى في تلك الجبال ، اشتاق إلى الناس فنزل فمكث عند امرأة من بني إسرائيل وهي أم يونس بن متى عليه السلام ، وكان يونس إذ ذاك رضيعاً ثم رجع إلى الجبال فمات يونس عليه السلام ، فأتت أمه إلى تلك الجبال ، فما زالت تطوف حتى ظفرت بإلياس عليه السلام ، فسألته أن يدعو لابنها فيحييه الله ، فقال لها : إني لم أومر بهذا ، وإنما

أنا عبد مأمور ، فجزعت فزاد جزعها وتضرعها إليه ، فرق لها ورحمها وسار معها فوصل إلى بيتها بعد أربعة عشر يوماً من حين مات ، وهو مسجى في ناحية البيت ، فدعا الله فأحياه لها ، وعاد إلياس عليه السلام إلى جبله ﴿ لمن المرسلين ﴾ .

ولما كان من أعظم المقاصد التسلية على استكبارهم عن كلمة التوحيد وقولهم : أنه شاعر مجنون ، ذكر من أمر يونس عيله السلام ما يعرف منه صعوبة أمر الرسالة وشدة خطبها وثقل أمرها وشدة عنايته سبحانه بالرسل عليهم السلام وأنه ما اختارهم إلا عن علم فهو لا يقولهم وإن اجتهدوا في دفع الرسالة ليزدادوا ثباتاً لأعبائها وقوة في القيام بشأنها فقال : ﴿ إذ أبق ﴾ أي هرب حين أرسل من سيده الذي تشرفه الله بالرسالة ضعفاً عن حملها لأن الاباق الهرب من السيد إلى حيث يظن أنه يخفى عليه ﴿ إلى الفلك ﴾ أي البيت الذي يسافر فيه على ظهر البحر .



---

ولما كان فعله على صورة فعل المشاحن وكان قصده الإيغال في البعد والإسراع في النقلة قال : ﴿ المشحون ﴾ أي الموقر ملأ ، فلا سعة فيه لشيء آخر يكون فيه ، فليس لأهله حاجة في الإقامة لحظة واحدة لانتظار شيء من الأشياء فحين وضع رجله فيه ساروا ،

فاضطرب عليهم الأمر وعظم الزلزال حتى أشرف مركبهم على الغرق على هيئة عرفوا بها أن ذلك لعبد أبق من سيده ، فإن عند أهل البحر أن السفينة لا يستقيم سيرها وفيها آبق - نقله الكرماني وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما ، فسبب لهم ذلك المساهمة أي المقارعة كما هو رسمهم في مثل ذلك الأمر فاستهموا فساهم ، أي قارع يونس عليه السلام معهم ؛ قال البغوي : والمساهمة إلقاء السهام على جهة القرعة .

ولما آل وقوع القرعة عليه إلى رميه من السفينة من محل علو إلى أسفل ، عبر عن ذلك بما يدل على الزلق الذي يكون من علو إلى سفل فقال مسبباً عن المساهمة : ﴿ فكان من المدحضين ﴾ أي الموقعين في الدحض ، وهو الزلق ، فنزل عن مكان الظفر بأن وقعت القرعة فرموه في البحر ﴿ فالتقمه ﴾ أي ابتلعه كما تبتلع اللقمة ﴿ الحوت ﴾ أي المعروف من جهة أنه لا حوت أكبر منه ، فكأنه لا حوت غيره ﴿ وهو ﴾ أي والحال أن يونس عليه السلام ﴿ مليم ﴾ أي داخل في الملامة .

*(68/655)*

---

ولما وقع ما وقع فتجرد عن نفسه وغيرها تجرداً لم يكن لأحد مثل مجموعه لا جرم ، زاد في التجرد بالفناء في مقام الوحدانية فلازم التنزيه حتى أنجاه الله تعالى ، وإلى ذلك الإشارة

بقوله تعالى : ﴿ فلولا أنه كان ﴾ أي خلقاً وخلقاً ﴿ من المسبحين ﴾ أي العريقين في هذا المقام ، وهو ما يصح إطلاق التسبيح في اللغة عليه من التنزيه بالقلب واللسان والأركان بالصلاة وغيرها لأن خلقه مطابق لما هيىء له من خلقه ، فهو لازم لذلك في وقت الرخاء والدعة والخفض والسعة ، فكيف به في حال الشدة ، وحمله ابن عباس .رضى الله عنهما . على الصلاة ﴿ للبث في بطنه ﴾ أي حيّاً أو بأن يكون غذاء له فتختلط أجزاؤه باجزائه ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أي هو والحوت وغيرهما من الخلائق ، وعبر بالجمع لإفادة عموم البعث ، ولو أفرد لم يفد بعث الحيوانات العجم ، ولو ثنى لظن أن ذلك له وللحوت خاصة لمعنى يخصها فلا يفيد بعث غيرهما ، وقيل : للبث حيّاً في بطنه ، وفي الآية إشارة إلى حديث " تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة " وحث على الذكر وتعظيم لشأنه .

ولما كان التقدير : ولكنه لما كان ذكاراً لله في حال الرخاء ذكرناه في حال الشدة ، فأنجيناه من بطنه ، وأخرجناه منه سالماً ، وكان ذلك أمراً باهراً للعقل ، أبرزه في مظهر العظمة فقال : ﴿ فنبذناه ﴾ أي ألقيناه من بطن الحوت إلقاء لم يكن لأحد غيره .

وكان ذلك علينا يسيراً ﴿ بالعراء ﴾ أي المكان القفر الواسع الخالي عن ساتر عن نبت أو غيره ، وذلك بساحل الموصل ، وقال أبو حيان : قذفه في نصيبين من ناحية الموصل : ﴿ وهو سقيم ﴾ أي عليل جداً مما ناله من جوف الحوت بحيث أنه كان كالطفل ساعة يولد وهو إذ ذاك محمود غير مذموم بنعمة الله التي تداركته ، فكان مجتبى ومن الصالحين

﴿ وأنبتنا ﴾ أي بعظمتنا في ذلك المكان لا مقتضى للنبات مطلقاً فيه فضلاً عما لا ينبت إلا بالماء الكثير.



---

ولما كان سقمه متناهياً بالغاً إلى حد يجل عن الوصف، نبه عليه بأداة الاستعلاء فقال:

﴿ عليه ﴾ أي ورفعناها حال إنباتنا إياها فوقه لتظله كما يظل البيت الإنسان.

ولما كان الدباء عن النجم، وكان قد أعظمها سبحانه لأجله، عبر عنها بما له ساق فقال:

﴿ شجرة ﴾ ولما كانت هذه العبارة مفهمة لأنها مما له ساق، نص على خرق العادة بقوله:

﴿ من يقطين ﴾ أي من الأشجار التي تلزم الأرض وتقطن فيها وتصلح لأن يأوي إليها ويقطن عندها حتى يصلح حاله، فإنه تعالى عظمها وأخرجها عن عادة أمثالها حتى صارت عليه كالعريش، واليقطين: كل ما يمتد وينبسط على وجه الأرض ولا يبقى على الشتاء ولا يقوم على ساق كالبطيخ والقثاء، والمراد به هنا - كما قاله ابن عباس.رضى الله عنهما.شجرة القرع لعظم ورقها وبرد ظلها ونعومة ملمسها وأن الذباب لا يقربها، قال أبو حيان: وماء ورقه إذا رش به مكان لا يقربه ذباب أصلاً، وقال غيره: فيه ملاءمة لجسد الإنسان حتى لو ذهبت عظمة من رأسه فوضع مكانها قطعة من جلد القرع نبت عليها

اللحم وسد مسده ، وهو من قطن بالمكان - إذا أقام به إقامة زائل لا ثابت .

ولما كان النظر إلى الترجية أعظم ، ختم بها إشارة إلى أنه لا يميته . صلى الله عليه وسلم . حتى يقر عينه بأمته كثرة طواعية ونعمة فقال : ﴿ وأرسلناه ﴾ أي بعظمتنا التي لا يقوم لها شيء .

ولما لم يتعلق الغرض بتعيين المرسل إليهم ، وهل هم الذين أبق عنهم أولاً ؟ قال : ﴿ إلى مائة ألف ﴾ والجمهور على أنهم الذين أرسل إليهم أولاً - قال أبو حيان .

(70/655)

---

ولما كان العدد الكثير لا يمكن ناظره الوقوع فيه على حقيقة عدده ، بل يصير - وإن أثبت الناس نظراً - يقول : هم كذا يزيدون قليلاً أو ينقصونه ، وتارة يجزم بأنهم لا ينقصون عن كذا ، وأما الزيادة فممكنة ، وتارة يغلب على ظنه الزيادة ، وهو المراد هنا ، قال : ﴿ أو يزيدون ﴾ لأن الترجية في كثرة الأتباع أقر للعين وأسر للقلب ، وإفهاماً لأن الزيادة واقعة ، وهؤلاء المرسل إليهم هم أهل نينوى وهم من غير قومه ، فإن حدود أرض بني إسرائيل الفرات ، ونينوى من شرقي الفرات بعيدة عنه جداً .

ولما تسبب عن إتيانه إليهم انشراح صدره بعد ما كان حصل له من الضيق الذي أوجب له

ما تقدم قال : ﴿ فآمنوا ﴾ أي تجريداً لأنفسهم من الحظوظ النفسانية ولحوقاً بالصفات الملكية .

ولما كان إيمانهم سبب رفع العذاب الذي كان أوجبه لهم كفرهم قال : ﴿ فمتعناهم ﴾ أي ونحن على ما نحن عليه من العظمة لم ينقص ذلك من عظمتنا شيئاً ولا زاد فيها ﴿ إلى حين ﴾ أي إلى انقضاء آجالهم التي ضربناها لهم في الأزل .

(71/655)

---

ذكر قصة يونس عليه السلام من سفر الأنبياء قال مترجمه : نبدأ بمعونة الله وقوته بكتب نبوة يونان بن متى النبي : كانت كلمة الرب على يونان بن متى ، يقول له : قم فانطلق إلى نينوى المدينة العظيمة وناد فيها بأن شراركم قد صعدت قدامي ، وقام يونان ليفر إلى ترسيس من قدام الرب ، وهبط إلى يافا ووجد سفينة تريد تدخل إلى ترسيس فأعطى الملاح أجرة ونزلها ليدخل معهم إلى ترسيس هارباً من قدام الرب ، والرب طرح ريحاً عظيمة في البحر ، فكان في البحر موج عظيم ، والسفينة كانت تتمايل لتنكسر وفرق الملاحون وجأر كل إنسان إلى إلهه ، وطرحوا متاع السفينة في البحر ليخففوا عنهم ، بحق هبط يونان إلى أسفل السفينة ونام فدنا منه سيد الملاحين وقال له : لماذا أنت نائم ؟ قم فادع إلهك لعل الله

يخلصنا ولا نهلك ، وقال الرجل لصاحبه : تعالوا نقترع ونعلم هذا الشر من قبل من جاء علينا ؟ فاقترعوا فجاءت القرعة على يونان ، فقالوا له : أخبرنا ما هذا الشر ؟ وماذا هو عملك ، ومن أين أنت ، ومن أيّ شعب أنت ، وأيتها أرضك ؟ فقال لهم يونان : أنا عبراني ولله رب السماء أخشى الذي خلق البر والبحر ، ففرق أولئك القوم فرقاً شديداً ، فقالوا له : ماذا صنعت ؟ لأن أولئك الناس علموا أنه من قدام إلهه هرب ، فلما أخبرهم قالوا : ما نصنع بك حتى يسكن عنا البحر لأن البحر هو ذا منطلق يزخر علينا ؟ قال لهم يونان : خذوني فاطرحوني في البحر فيسكن عنكم البحر لأني أعلم أن هذا الموج العظيم من أجلي هاج عليكم ، فجهد أولئك الناس أن يرجعوا إلى الساحل ، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، لأن البحر كان ذاهباً يزخر عليهم ، ودعوا إلى الرب وقالوا : أيها الرب لا يحسب علينا دم زكي ، ولا نهلك بنفس هذا الرجل من أجل أنك أنت الرب ، وكل ما شئت تصنع ، فأخذوا يونان وطرحوه في البحر ، فاستقر البحر من أمواجه ، وفرق أولئك الناس من قدام الرب فرقاً شديداً ، وذبحوا ذبائح للرب ونذروا له النذور ، وهيأ

الرب سمكة عظيمة فابتلعت يونان ، وكان يونان في أمعاء السمكة ثلاثة أيام وثلاث ليالي وقال : دعوت الرب في حزني فأجابني ، ومن بطن الجحيم تضرعت إليه ، وسمع صوتي وطرحني في الغوط في قلب البحر ، والأنهار أحاطت بي ، وكل أمواجك واهياجك عليّ جازت ، أنا بحق قلت : إني قد تباعدت من قدام عينيك ، من الآن أترى أعود فأنظر إلى هيكلك المقدس ، وقد أحاطت بي المياه حتى نفسي والأهوال أحاطت بي ، وفي أسفل البحر احتبس رأسي ، وإلى أسفل الجبال هبطت ، والأرض أطبقت أغلاقها في وجهي إلى الدهر ، إذا اغتمت نفسي للرب ذكرت ودخلت صلاتي قدامك إلى هيكلك المقدس ، فكل الذين يحفظون الأنساك البطالة رحمتهم فتركوا ، أنا بحق بصوت الشكر أقرب لك وأذبح ، والذي نذرته أوفيه للرب ! فأمر الرب السمكة فقذفت يونان في اليبس ، وأتى الكلام الرب إليه المرة الثانية ، وقال له : قم يا يونان فانطلق إلى نينوى المدينة العظمية وناد فيها بالنداء الذي أقوله لك ، فقام يونان وانطلق إلى نينوى مثل كلمة الرب ، ونينوى كانت مدينة عظيمة للرب مسيرة ثلاثة أيام ، وتبدّأ يونان أن يدخل إلى نينوى مسيرة يوم واحد ونادى وقلال : من الآن وإلى أربعين يوماً نينوى تنقلب ، فآمن أهل نينوى لله وفرضوا الصوم ولبسوا المسوح من عظمائهم حتى صغائرهم ، وانتهت الكلمة إلى ملك نينوى فقام عن كرسيه ونزع تاجه ، واكتسى مسح شعر ، وجلس على الرماد ، ونادى في نينوى وقال الملك وأشرافه : وكل الناس والغدائر والثيران والغنم فلا يذوقون شيئاً من الطعام ولا

يرعون ، وماء فلا يشربون ، ولكن فليلبس الناس والغدائر ويدعوا الله بالتضرع ، ويرجع كل إنسان عن طريقة السوء ، وعن الاختطاف الذي في يده ، وقالوا : من ذا الذي يعلم أن الله يقبل منا ويترحم علينا ويرد عنا غضبه ورجزه لكيلا نهلك ، ونظر الله إلى أعمالهم أنهم قد تابوا عن طرقهم السوء فرد عنهم غضب رجزه ولم يبدهم ، وحزن يونان حزناً شديداً ، وتكره من ذلك



---

جداً ، وصلى قدام الرب وقال : أيها الرب ! ألم تكن هذه كلمتي ، وأنا بعد في بلادي ولذلك سبقت وفررت إلى ترسيس ، قد عرفت بحق أنك الرحمن الإله الرؤوف ، طويل صبرك وكثيرة نعمتك ، وترد السوء الآن يا رب ! انزع نفسي مني لأن الموت أنفع لي من الحياة ، فقال له : جداً حزنت يا يونان ، وخرج يونان من المدينة واتخذ له ثمة مظلة وجلس تحتها في الظل لينظر ما الذي يعرض للمدينة ، وأمر الله الرب أصل القرع ، ونبت وارتفع على رأس يونان ، فكان ظل على رأسه فتفرج من شدته وفرح فرحاً كثيراً يونان بأصل القرع .

وفي اليوم الآخر أمر الله الرب دودة في مطلع الصبح فضربت أصل القرع وقرضته ، فلما طلعت الشمس أمر الله ريح السموم فيبست أصل القرع ، وحميت الشمس في رأس يونان ،

واغتم وسال الموت لنفسه وقال : إنك يا رب تقدر تنزع نفسي مني ، لأني لم أكن أخبر من إياي ، وقال الرب ليونان : جداً حزنت على أصل القرع ، فقال يونان : جدّاً أحزن حتى الموت ، قال له الرب : أنت أشفقت على أصل القرع الذي لم تعن به ولم تربه ، الذي في ليلة نبت ، وفي ليلة يبس ، فكيف لا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس الذين لا يدرون ما بين يمينهم من شمالهم وكثرة من الغدائر – انتهى .

ولعل أصل القرع المذكور هنا كان نبت عليه حين خرج من بطن الحوت ، فلما اتفق له ما ذكر هنا رجع إليه وقد زاد عظمه فبنى تحته عريشاً وجلس تحته ، فكان منه ما كان ، فلا يكون حينئذ ما هنا مخالفاً لما ذكر أهل الأخبار في هذه القصة – والله الموفق . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 6 صـ 340. 345﴾

*(74/655)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) ﴾

واعلم أن هذا هو القصة السادسة وهو آخر القصص المذكورة في هذه السورة ، وإنما

صارت هذه القصة خاتمة للقصص ، لأجل أنه لما لم يصبر على أذى قومه وأبق إلى الفلك وقع في تلك الشدائد فيصير هذا سبباً لتصبر النبي صلى الله عليه وسلم على أذى قومه .

أما قوله : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرسلين * إِذْ أَبَقَ إِلَى الفلك المشحون ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" قريء يونس بضم النون وكسرها .

المسألة الثانية :

دلت هذه الآية على أن هذه الواقعة إنما وقعت ليونس عليه السلام بعد أن صار رسولاً ، لأن قوله : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرسلين * إِذْ أَبَقَ إِلَى الفلك ﴾ معناه أنه كان من المرسلين حينما أبق إلى الفلك ، ويمكن أن يقال : إنه جاء في كثير من الروايات أنه أرسله ملك زمانه إلى أولئك القوم ليدعوهم إلى الله ، ثم أبق والتقمه الحوت فعند ذلك أرسله الله تعالى ، والحاصل أن قوله : ﴿ لَمِنَ المرسلين ﴾ لا يدل على أنه كان في ذلك الوقت مرسلاً من عند الله تعالى ، ويمكن أن يجاب بأنه سبحانه وتعالى ذكر هذا الوصف في معرض تعظيمه ، ولن يفيد هذه الفائدة إلا إذا كان المراد من قوله : ﴿ لَمِنَ المرسلين ﴾ أنه من المرسلين عند الله تعالى .

المسألة الثالثة :

أبق من إباق العبد وهو هربه من سيده ، ثم اختلف المفسرون فقال بعضهم : إنه أبق من الله

تعالى ، وهذا بعيد لأن ذلك لا يقال إلا فيمن يتعمد مخالفة ربه ، وذلك لا يجوز على الأنبياء واختلفوا فيما لأجله صار مخطئاً ، فقيل : لأنه أمر بالخروج إلى بني إسرائيل فلم يقبل ذلك التكليف وخرج مغاضباً لربه ، وهذا بعيد سواء أمره الله تعالى بذلك بوحي أو بلسان نبي آخر ، وقيل : إن ذنبه أنه ترك دعاء قومه ، ولم يصبر عليهم .

(75/655)

---

وهذا أيضاً بعيد لأن الله تعالى لما أمره بهذا العمل فلا يجوز أن يتركه ، والأقرب فيه وجهان الأول : أن ذنبه كان لأن الله تعالى وعده إنزال الإهلاك بقومه الذين كذبوه فظن أنه نازل لا محالة ، فلأجل هذا الظن لم يصبر على دعائهم ، فكان الواجب عليه أن يستمر على الدعاء لجواز أن لا يهلكهم الله بالعذاب وإن أنزله ، وهذا هو الأقرب لأنه إقدام على أمر ظهرت أماراته فلا يكون تعمداً للمعصية ، وإن كان الأولى في مثل هذا الباب أن لا يعمل فيه بالظن ثم انكشف ليونس من بعد أنه أخطأ في ذلك الظن ، لأجل أنه ظهر الإيمان منهم فمعنى قوله : { إِذْ أَبَقَ إِلَى الفلك } ما ذكرناه الوجه الثاني : أن يونس كان وعد قومه بالعذاب فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور عنهم فقصد البحر وركب السفينة ، فذلك هو قوله : { إِذْ أَبَقَ إِلَى الفلك } وتمام الكلام في مشكلات هذه الآية ذكرناه في قوله تعالى :

﴿ وَذَا النونِ إِذ ذَّهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [ الأنبياء : 87 ] وقوله : ﴿ إِلَى الفلك المشحون ﴾ مفسر في سورة يونس والسفينة إذا كان فيها الحمل الكثير والناس يقال إنها مشحونة ، ثم قال تعالى : ﴿ فساهم ﴾ المساهمة هي المقارعة ، يقال : أسهم القوم إذا اقترعوا ، قال المبرد : وإنما أخذ من السهام التي تجال للقرعة ﴿ فَكَانَ مِنَ المدحضين ﴾ أي : المغلوبين يقال : أدحض الله حجته فدحضت أي : أزالها فزالت وأصل الكلمة من الدحض الذي هو الزلق ، يقال : دحضت رجل البعير إذا زلقت ، وذكر ابن عباس في قصة يونس عليه السلام أنه كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً وبقي سبطان ونصف ، وكان الله تعالى أوحى إلى بني إسرائيل إذا أسركم عدوكم أو أصابتكم مصيبة فادعوني أستجب لكم ، فلما نسوا ذلك وأسروا أوحى الله تعالى بعد حين إلى نبي من أنبيائهم أن اذهب إلى ملك هؤلاء الأقوام وقل له حتى يبعث إلى بني إسرائيل نبياً ، فاختار يونس عليه السلام لقوته وأمانته ، قال يونس : الله أمرك بهذا قال : لا ولكن أمرت أن أبعث قوياً أميناً وأنت كذلك ، فقال يونس : وفي بني إسرائيل من هو أقوى مني فلم لا تبعثه ، فألح الملك عليه فغضب يونس منه وخرج حتى أتى بحر الروم ووجد سفينة

مشحونة فحملوه فيها ، فلما دخلت لجة البحر أشرفت على الغرق ، فقال الملاحون : إن فيكم عاصياً وإلا لم يحصل في السفينة ما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر ، وقال التجار : قد جربنا مثل هذا فإذا رأيناه نقترع ، فمن خرج سهمه نغرقه ، فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل فخرج سهم يونس ، فقال التجار : نحن أولى بالمعصية من نبي الله ، ثم عادوا ثانياً وثالثاً يقترعون فيخرج سهم يونس ، فقال : يا هؤلاء أنا العاصي وتلفف في كساء ورمى بنفسه فابتلعته السمكة فأوحى الله تعالى إلى الحوت : " ا تكسر منه عظماً ولا تقطع له وصلاً " ثم إن السمكة أخرجته إلى نيل مصر

(77/655)

---

ثم إلى بحر فارس ثم إلى بحر البطائح ثم دجلة فصعدت به ورمته بأرض نصيبين بالعراء ، وهو كالفرخ المنتوف لا شعر ولا لحم ، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين ، فكان يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى تشدد ، ثم إن الأرض أكلتها فخرت من أصلها فحزن يونس لذلك حزناً شديداً ، فقال : يا رب كنت أستظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وأمص من ثمرها وقد سقطت ، فقيل له يا يونس تحزن على شجرة أنبتت في ساعة واقتلعت في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم ! انطلق إليهم ، والله أعلم بحقيقة الواقعة .

ثم قال تعالى : ﴿ فالتقمه الحوت وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ يقال : التقمه والتهمه والكل بمعنى واحد ،

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ يقال : ألام إذا أتى بما يلام عليه ، فالمليم المستحق للوم الآتي بما يلام عليه .

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ وفي تفسير كونه من المسبحين قولان الأول : أن المراد منه ما حكى الله تعالى عنه في آية أخرى أنه كان يقول في تلك الظلمات ﴿ لاَّ إله إلاَّ أَنتَ سبحانك إِنّى كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [ الأنبياء : 87 ] الثاني : أنه لولا أنه كان قبل أن التقمه الحوت من المسبحين يعني المصلين وكان في أكثر الأوقات مواظباً على ذكر الله وطاعته للبث في بطن ذلك الحوت ، وكان بطنه قبراً له إلى يوم البعث ، قال بعضهم : اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة ، فإن يونس عليه السلام كان عبداً صالحاً ذاكراً لله تعالى ، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ وإن فرعون كان عبداً طاغياً ناسياً ، فلما أدركه الغرق قال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل ﴾ [ يونس : 90 ] قال الله تعالى : ﴿ ءالئَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ [ يونس : 91 ] واختلفوا في أنه كم لبث في بطن الحوت ، ولفظ القرآن لا يدل عليه .

قال الحسن : لم يلبث إلا قليلاً وأخرج من بطنه بعد الوقت الذي التقمه ، وعن مقاتل بن حيان ثلاثة أيام وعن عطاء سبعة أيام وعن الضحاك عشرين يوماً وقيل شهراً ولا أدري بأي دليل عينوا هذه المقادير ، وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سبح يونس في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة ، فقال : ذاك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر ، فقالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال : نعم ، فشفعوا له فأمر الحوت فقذفه في الساحل " فذاك هو قوله : ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ وفيه مباحث :

الأول : العراء المكان الخالي قال أبو عبيدة إنما قيل له العراء لأنه لا شجر فيه ولا شيء يغطيه .

الثاني : أنه تعالى قال : ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ فأضاف ذلك النبذ إلى نفسه ، والنبذ إنما حصل بفعل الحوت ، وهذا يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى .

ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ قيل المراد أنه بلي لحمه وصار ضعيفاً كالطفل المولود كالفرخ الممعط الذي ليس عليه ريش ، وقال مجاهد سقيم أي سليب .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ ظاهر اللفظ يدل على أن الحوت لما نبذه في العراء فالله تعالى أنبت عليه شجرة من يقطين وذلك المعجز له ، قال المبرد والزجاج كل شجر لا يقوم على ساق وإنما يمتد على وجه الأرض فهو يقطين ، نحو الدباء والحنظل والبطيخ ، قال : الزجاج أحسب اشتقاقها من قطن بالمكان إذا أقام به وهذا الشجر ورقه كله على وجه الأرض فلذلك قيل له اليقطين ، روى الفراء أنه قيل عند ابن عباس هو ورق القرع ، فقال : ومن جعل القرع من بين الشجر يقطيناً كل ورقة اتسعت وسترت فهي يقطين ، قال الواحدي رحمه الله والآية تقتضي شيئين لم يذكرهما المفسرون أحدهما : أن هذا اليقطين لم يكن قبل فأنبته الله لأجله والآخر : أن اليقطين كان معروشاً ليحصل له ظل ، لأنه لو كان منبسطاً على الأرض لم يمكن أن يستظل به .

ثم قال تعالى : ﴿ وأرسلناه إلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ وفيه مباحث :

الأول : يحتمل أن يكون المراد وأرسلناه قبل أن يلتقمه الحوت وعلى هذا الإرسال وإن ذكر بعد الالتقام ، فالمراد به التقديم والواو معناها الجمع ، ويحتمل أن يكون المراد به الإرسال بعد اللالتقام ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت ، وعلى هذا التقدير يجوز أن يكون أرسل إلى قوم آخرين سوى القوم الأول ، ويجوز أن يكون أرسل إلى الأولين ثانياً بشريعة فآمنوا بها .

(80/655)

البحث الثاني : ظاهر قوله : ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ يوجب الشك وذلك على الله تعالى محال ونظيره قوله تعالى : ﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ [ المرسلات : 6 ] وقوله تعالى : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [ طه : 44 ] وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ [ طه : 113 ] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [ النحل : 77 ] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [ النحل : 77 ] وقوله تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى ﴾ [ النجم : 9 ] وأجابوا عنه من وجوه كثيرة والأصح منها وجه واحد وهو أن يكون المعنى أو يزيدون في تقديركم بمعنى أنهم إذا رآهم الرائي قال هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة ، وهذا هو الجواب عن كل ما يشبه هذا .

ثم قال تعالى : ﴿ فَئَامَنُواْ فمتعناهم إلى حِينٍ ﴾ والمعنى أن أولئك الأقوام لما آمنوا أزال الله الخوف عنهم وآمنهم من العذاب ومتعهم الله إلى حين ، أي إلى الوقت الذي جعله الله أجلاً لكل واحد منهم . انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 142 . 145 ﴾

(81/655)

وقال ابن العربى :

قَوْله تعَالَى : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِل :

الْمَسْأَلَة الْأُولَى يُونُس عَلَيْهِ السَّلَام رَسُول رَبّ الْعَالَمِينَ ، وَهُوَ يُونُس بْن مَتَّى قَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُس بْن مَتَّى ﴾ .

وَنَسَبُهُ إِلَى أَبِيهِ ، أَخْبَرَنِي غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابنَا عَنْ إِمَام الْحَرَمَيْنِ أَبِي الْمَعَالِي عَبْد الْمَلِك بْن عَبْد اللَّه بْن يُوسُف الْجُوَيْنِيّ أَنَّهُ سُئِلَ : هَلْ الْبَارِي تَعَالَى فِي جِهَةٍ ؟ فَقَالَ : لَا ، هُوَ يَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ .

قِيلَ لَهُ : مَا الدَّلِيل عَلَيْهِ ؟ قَالَ : الدَّلِيل عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بْن مَتَّى ﴾ .

فَقِيلَ لَهُ : مَا وَجْهُ الدَّلِيل مِنْ هَذَا الْخَبَرِ ؟ قَالَ : لَا أَقُولُهُ حَتَّى يَأْخُذ ضَيْفِي هَذَا أَلْف دِينَارٍ يَقْضِي بِهَا دَيْنَهُ .

فَقَامَ رَجُلَانِ فَقَالَا : هِيَ عَلَيْنَا .

فَقَالَ : لَا يَتْبَعُ بِهَا اثْنَيْنِ ، لِأَنَّهُ يَشُقّ عَلَيْهِ .

فَقَالَ وَاحِدٌ : هِيَ عَلَيَّ .

فَقَالَ : إِنَّ يُونُس بْنَ مَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ فِي الْبَحْرِ ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ ، وَصَارَ فِي قَعْرِ الْبَحْرِ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ، وَنَادَى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَلَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَقْرَبَ مِنَ اللَّهِ مِنْ يُونُسَ حِينَ جَلَسَ عَلَى الرَّفْرَفِ الْأَخْضَرِ ، وَارْتَقَى بِهِ ، وَصَعِدَ حَتَّى انْتَهَى بِهِ إِلَى مَوْضِعٍ يَسْمَعُ مِنْهُ صَرِيرُ الْأَقْلَامِ ، وَنَاجَاهُ رَبُّهُ بِمَا نَاجَاهُ ، وَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى بِأَقْرَبَ مِنَ اللَّهِ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فِي بَطْنِ الْحُوتِ وَظُلْمَةِ الْبَحْرِ .

قَصَدْتُ قَبْرَهُ مِرَارًا لَا أُحْصِيهَا بِقَرْيَةِ جُلْجُونَ فِي مَسِيرِي مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى إِلَى قَبْرِ الْخَلِيلِ ، وَبِتُّ بِهِ ، وَتَقَرَّبْتُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمَحَبَّتِهِ ، وَدَرَسْنَا كَثِيرًا مِنَ الْعِلْمِ عِنْدَهُ ، وَاللَّهُ يَنْفَعُنَا بِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ نِينَوَى مِنْ قُرَى الْمَوْصِلِ عَلَى دِجْلَةَ وَمَنْ دَانَاهُمْ ، فَكَذَّبُوهُ عَلَى عَادَةِ الْأُمَمِ مَعَ الرُّسُلِ ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَى يُونُسَ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّ الْعَذَابَ يَأْتِي قَوْمَكَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمَئِذٍ جَاءَهُ جِبْرِيلُ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّهُمْ قَدْ حَضَرَهُمُ الْعَذَابُ .

قَالَ لَهُ يُونُسُ : أَلْتَمِسُ دَابَّةً .

قَالَ : الْأَمْرُ أَعْجَلُ مِنْ ذَلِكَ .

قَالَ: فَأَلْتَمِسُ حِذَاءً.

قَالَ: الْأَمْرُ أَعْجَلُ مِنْ ذَلِكَ.

*(83/655)*

---

قَالَ: فَغَضِبَ يُونُسُ وَخَرَجَ، وَكَانَتِ الْعَلَامَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ فِي نُزُولِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ خُرُوجَهُ عَنْهُمْ.

فَلَمَّا فَقَدُوهُ خَرَجُوا بِالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ وَالشَّاةِ وَالسَّخْلَةِ، وَالنَّاقَةِ وَالْهُبَعِ وَالْفَحْلِ، وَكُلِّ شَيْءٍ عِنْدَهُمْ، وَعَزَلُوا الْوَالِدَةَ عَنْ وَلَدِهَا وَالْمَرْأَةَ عَنْ خَلِيلِهَا، وَتَابُوا إِلَى اللَّهِ، وَصَاحُوا حَتَّى سُمِعَ لَهُمْ عَجِيجٌ، فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَيْهِ، ثُمَّ صَرَفَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَغَضِبَ يُونُسُ، وَرَكِبَ الْبَحْرَ فِي سَفِينَةٍ، حَتَّى إِذَا كَانُوا حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ رَكَدَتِ السَّفِينَةُ، وَقِيلَ: هَاجَ الْبَحْرُ بِأَمْوَاجِهِ، وَقِيلَ: عَرَضَ لَهُمْ حُوتٌ حَبَسَ جَرْيَتَهَا، فَقَالُوا: إِنَّ فِينَا مَشْئُومًا أَوْ مُذْنِبًا، فَلْنَقْتَرِعْ عَلَيْهِ؛ فَاقْتَرَعُوا فَطَارَ السَّهْمُ عَلَى يُونُسَ، فَقَالُوا: عَلَى مِثْلِ هَذَا يَقَعُ السَّهْمُ، قَدْ أَخْطَأْنَا فَأَعِيدُوهَا، فَأَعَادُوا الْقُرْعَةَ فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ، فَقَالُوا مِثْلَهُ، وَأَعَادُوهَا، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ يُونُسُ رَمَى بِنَفْسِهِ فِي الْبَحْرِ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّا لَمْ نَجْعَلْ

يُونُسَ لَكَ رِزْقًا ، وَإِنَّمَا جَعَلْنَا بَطْنَكَ لَهُ سِجْنًا ، فَنَادَى ﴿ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّي كُنْت مِنْ الظَّالِمِينَ ﴾ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ ، وَأَمَرَ الْحُوتَ فَرَمَاهُ عَلَى السَّاحِلِ قَدْ ذَهَبَ شَعْرُهُ ، فَأَنْبَتَ اللَّهُ عَلَيْهِ

(84/655)

---

شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ، فَلَمَّا ارْتَفَعَتْ الشَّمْسُ تَحَاتَّ وَرَقُهَا ، فَبَكَى ؛ فَأَوْحَى اللَّهُ إلَيْهِ أَتَبْكِي عَلَى شَجَرَةٍ أَنْبَتُّهَا فِي يَوْمٍ وَأَهْلَكْتهَا فِي يَوْمٍ ، وَلَا تَبْكِي عَلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ آمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إلَى حِينٍ . .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ ﴾ نَصٌّ عَلَى الْقُرْعَةِ .

وَكَانَتْ فِي شَرِيعَةِ مَنْ قَبْلَنَا جَائِزَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ عَلَى الْعُمُومِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ مَوَارِدُ أَخْبَارِهَا فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، وَجَاءَتْ الْقُرْعَةُ فِي شَرْعِنَا عَلَى الْخُصُوصِ عَلَى مَا أَشَرْنَا إلَيْهِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ؛ فَإِنَّ الْقَوْمَ اقْتَرَعُوا عَلَى مَرْيَمَ أَيُّهُمْ يَكْفُلُهَا ، وَجَرَتْ سِهَامُهُمْ عَلَيْهَا وَالْقَوْلُ فِي جِرْيَةِ الْمَاءِ بِهَا ، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي شَرْعِنَا ، وَإِنَّمَا تَجْرِي الْكَفَالَةُ عَلَى مَرَاتِبِ الْقَرَابَةِ ، وَقَدْ وَرَدَتْ الْقُرْعَةُ فِي الشَّرْعِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ : الْأَوَّلُ ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ ﴾ .

الثَّانِي : ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُفِعَ إلَيْهِ أَنَّ رَجُلًا أَعْتَقَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ سِتَّةَ أَعْبُدٍ لَا مَالَ لَهُ غَيْرُهُمْ ، فَأَقْرَعَ بَيْنَهُمْ ، فَأَعْتَقَ اثْنَيْنِ وَأَرَقَّ أَرْبَعَةً ﴾ .

(85/655)

---

الثَّالِثُ : ﴿ أَنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إلَيْهِ فِي مَوَارِيثَ دَرَسَتْ ، فَقَالَ : اذْهَبَا وَتَوَخَّيَا الْحَقَّ وَاسْتَهِمَا ، وَلْيُحْلِلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا صَاحِبَهُ ﴾ فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ مَوَاطِنَ ، وَهِيَ الْقَسْمُ فِي النِّكَاحِ ، وَالْعِتْقُ ، وَالْقِسْمَةُ ، وَجَرَيَانُ الْقُرْعَةِ فِيهَا لِرَفْعِ الْإِشْكَالِ وَحَسْمِ دَاءِ التَّشَهِّي .

وَاخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا فِي الْقُرْعَةِ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ عِنْدَ الْغَزْوِ عَلَى قَوْلَيْنِ ؛ الصَّحِيحُ مِنْهُمَا الِاقْتِرَاعُ ، وَبِهِ قَالَ أَكْثَرُ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ السَّفَرَ بِجَمِيعِهِنَّ لَا يُمْكِنُ ، وَاخْتِيَارُ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ إيثَارٌ ، فَلَمْ يَبْقَ إلَّا الْقُرْعَةُ .

وَكَذَلِكَ مَسْأَلَةُ الْأَعْبُدِ السِّتَّةِ فَإِنَّ كُلَّ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ ثُلُثٌ ، وَهُوَ الْقَدْرُ الَّذِي يَجُوزُ لَهُ فِيهِ الْعِتْقُ فِي مَرَضِ الْمَوْتِ ، وَتَعْيِينُهُمَا بِالتَّشَهِّي لَا يَجُوزُ شَرْعًا ، فَلَمْ يَبْقَ إلَّا الْقُرْعَةُ .

وَكَذَلِكَ التَّشَاجُرُ إذَا وَقَعَ فِي أَعْيَانِ الْمَوَارِيثِ لَمْ يُمَيِّزْ الْحَقَّ إلَّا الْقُرْعَةُ ، فَصَارَتْ أَصْلًا فِي تَعْيِينِ الْمُسْتَحِقِّ إذَا أَشْكَلَ .

وَالْحَقُّ عِنْدِي أَنْ تَجْرِيَ فِي كُلِّ مُشْكِلٍ ، فَذَلِكَ أَبْيَنُ لَهَا ، وَأَقْوَى لِفَصْلِ الْحُكْمِ فِيهَا ، وَأَجْلَى لِرَفْعِ الْإِشْكَالِ عَنْهَا ؛ وَلِذَلِكَ قُلْنَا : إنَّ الْقُرْعَةَ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ فِي الطَّلَاقِ كَالْقُرْعَةِ بَيْنَ الْإِمَاءِ فِي الْعِتْقِ ؛ وَتَفْصِيلُ الِاقْتِرَاعِ فِي بَابِ الْقِسْمَةِ مَذْكُورٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ .

(86/655)

---

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ الِاقْتِرَاعُ عَلَى إلْقَاءِ الْآدَمِيِّ فِي الْبَحْرِ لَا يَجُوزُ ، فَكَيْفَ الْمُسْلِمُ ؟ وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي يُونُسَ وَفِي زَمَانِهِ مُقَدِّمَةً لِتَحْقِيقِ بُرْهَانِهِ وَزِيَادَةً فِي إيمَانِهِ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لِمَنْ كَانَ عَاصِيًا أَنْ يُقْتَلَ وَلَا يُرْمَى بِهِ فِي النَّارِ وَالْبَحْرِ ؛ وَإِنَّمَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْحُدُودُ وَالتَّعْزِيرُ عَلَى مِقْدَارِ جِنَايَتِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : إنَّمَا رُمِيَ فِي الْبَحْرِ ، لِأَنَّ السَّفِينَةَ وَقَفَتْ وَأَشْرَفَتْ عَلَى الْهَلَاكِ ، فَقَالُوا : هَذَا مِنْ حَادِثٍ فِينَا فَانْظُرُوا مَنْ بَيْنَكُمْ فَلَمْ يَتَعَيَّنْ ، فَسَلَّطُوا عَلَيْهِ مِسْبَارَ الْإِشْكَالِ وَهِيَ الْقُرْعَةُ ، فَلَمَّا خَرَجُوا بِالْقُرْعَةِ إلَيْهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى عَلِمَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ رَمْيِهِمْ لَهُ ، فَرَمَى هُوَ بِنَفْسِهِ ، وَأَيْقَنَ أَنَّهُ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّهِ وَرَجَا حُسْنَ الْعَاقِبَةِ ، وَلِهَذَا ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْبَحْرَ إذَا هَالَ عَلَى الْقَوْمِ فَاضْطُرُّوا إلَى تَخْفِيفِ السَّفِينَةِ أَنَّ الْقُرْعَةَ تُضْرَبُ عَلَيْهِمْ ، فَيُطْرَحُ بَعْضُهُمْ تَخْفِيفًا .

وَهَذَا فَاسِدٌ ، فَإِنَّهَا لَا تَخِفُّ بِرَمْيِ بَعْضِ الرِّجَالِ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ فِي الْأَمْوَالِ ، وَإِنَّمَا يَصْبِرُونَ

عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مُسْتَوْفًى عِنْدَ ذِكْرِ الْمَسَائِلِ الْفَرْعِيَّةِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(87/655)

---

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) ﴾

(88/655)

---

وهذا ﴿ يونس ﴾ بن متى صلى الله عليه وسلم ، وهو من بني إسرائيل ، وروي أنه نبىء ابن ثمانية وعشرين سنة فتفسخ تحت أعباء النبوءة كما يتفسخ الربع تحت الحمل ، وقد تقدم شرح قصته ولكن نذكر منها ما تفهم به هذه الألفاظ ، فروي أن الله بعثه إلى قومه فدعاهم مرة فخالفوه فوعدهم بالعذاب ، وأعلمه الله تعالى بيومه فحدده يونس لهم ، ثم إن قومه لما رأوا مخايل العذاب قبل أن يباشرهم تابوا وآمنوا فتاب الله عليهم وصرف العذاب عنهم ، وكان في هذا تجربة ليونس فلحقت يونس غضبة ، ويروى أنه كان في سيرتهم أن

يقتلوا الكذاب إذا لم تقم له بينة ، فخافهم يونس وغضب مع ذلك ف ﴿ أبق إلى الفلك ﴾ أي أراد الهروب ودخل في البحر وعبر عن هروبه بالإباق ، من حيث هو عبد الله فر عن غير إذن مولاه ، فهذه حقيقة الإباق ، و ﴿ الفلك ﴾ في هذا الموضع واحد ، و ﴿ المشحون ﴾ الموقر ، وهنا قصص محذوف إيجازاً واختصاراً ، وروي عن عبد الله بن مسعود أنه لما حصل في السفينة وأبعدت في البحر ركدت ولم تجر ، والسفن تجري يميناً وشمالاً فقال أهلها إن فينا لصاحب ذنب وبه يحبسنا الله تعالى فقالوا لنقترع ، فأخذوا لكل أحد سهماً وقالوا اللهم ليطف سهم المذنب ، ولتغرق سهام الغير فطفا سهم يونس ، ففعلوا نحو هذا ثلاث مرات في كل مرة تقع القرعة عليه ، فأزمعوا معه على أن يطرحوه في البحر فجاء إلى ركن من أركان السفينة ليقع منه فإذا بدابة من دواب البحر ترقبه وترصد له فرجع إلى الركن الآخر فوجدها كذلك حتى استدار أركان السفينة ليقع منه بالمركب وهي لا تفارقه فعلم أن ذلك عن دالله فترامى إليها فالتقمته ، وروي أنما التقمته بعد أن وقع في الماء ، وروي أن الله أوحى إلى الحوت أني لم أجعل يونس لك رزقاً وإنما جعلت بطنك له حرزاً وسجناً فهذا معنى ﴿ فساهم ﴾ أي قارع وكذلك فسر ابن عباس والسدي ، و" المدحض " الزاهق المغلوب في محاضة أو مساهمة أو مسابقة ومنه الحجة الداحضة ، و" المليم " الذي

أتى ما يلام عليه ، ألام الرجل دخل في اللوم ، وبذلك فسر مجاهد وابن زيد ومنه قول الشاعر : [ الطويل ]

وكم من مليم لم يصب بملامة . . . ومتبع بالذنب ليس له ذنب

ومنه قول لبيد بن ربيعة : [ الكامل ]

سفهاً عذلْتَ ولمت غير مليم . . . وهداك قبل اليوم غير حكيم

ثم استنقذه الله من بطن الحوت بعد مدة واختلف الناس فيها ، فقالت فرقة بعد ساعة من النهار ، وقالت فرقة بعد سبع ساعات ، وقال مقاتل بن حيان بعد ثلاثة أيام ، وقال عطاء بن أبي رباح بعد سبعة أيام ، وقالت فرقة بعد أربعة عشر يوماً ، وقال أبو مالك والسدي بعد أربعين يوماً ، وهو قول ابن جريج أنه بلغه وجعل تعالى علة استنقاذه مع القدر السابق تسبيحه ، واختلف الناس في ذلك فقال ابن جريج هو قوله في بطن الحوت سبحان الله ، وقالت فرقة بل التسبيح وصلاة التطوع ، واختلفت هذه الفرقة ، فقال قتادة وابن عباس وأبو العالية صلاته في وقت الرخاء نفعته في وقت الشدة ، وقال هذا جماعة من العلماء ، وقال الضحاك بن قيس على منبره اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة إن يونس كان عبداً لله ذاكراً فلما أصابته الشدة نفعه ذلك ، قال الله عز وجل : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ ، وإن فرعون كان طاغياً باغياً فلما أدركه الغرق

قال آمنت فلم ينفعه ذلك ، فاذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة .

وقال قتادة في الحكمة : إن العمل يرفع صاحبه إذ عثر فإذا صرع وجد متكئاً ، وقال الحسن بن أبي الحسن : كانت سبحته صلاة في بطن الحوت ، وروي أنه كان يرفع لحم الحوت بيديه ويقول يا رب لأبنين لك مسجداً حيث لم يبنه أحد قبلي ويصلي ، وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أن يونس حين نادى في الظلمات ، ارتفع نداؤه إلى العرش فقالت الملائكة : يا رب هذا صوت ضعيف من موضع غربة ، فقال الله هو عبدي يونس فأجاب الله دعوته .

(90/655)

---

قال القاضي أبو محمد : وذكر الحديث وقال ابن جبير الإشارة بقوله ﴿ من المسبحين ﴾ إلى قوله ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87 ] .

قال القاضي أبو محمد : وكثر الناس في هذا القصص بما اختصرناه لعدم الصحة ، وروي أن الحوت مشى به في البحار كلها حتى قذفه في نصيبين من ناحية الموصل فنبذه الله في عراء من الأرض ، و" العراء " الفيفاء التي لا شجر فيها ولا معلم ومنه قول الشاعر :

رفعت رجلاً لا أخاف عثارها . . . ونبذت بالبلد العراء ثيابي

وقال السدي وابن عباس في تفسير قوله ﴿ وهو سقيم ﴾ ، إنه كان كالطفل المنفوش بضعة لحم ، وقال بعضهم كان كاللحم النيء إلا أنه لم ينقص من خلقه شيء فأنعشه الله في ظل " اليقطينة " بلبن أروية كانت تغاديه وتراوحه ، وقيل بل كان يتغذى من اليقطينة ، ويجد منها ألوان الطعام ، وأنواع شهواته واختلف الناس في " اليقطينة " فقالت فرقة هي شجرة لا نعرفها سماها الله باليقطينة وهي لفظة مأخوذة من قطن إذا أقام بالمكان ، وقال سعيد بن جبير وابن عباس والحسن ومقاتل اليقطين كل ما لا يقوم على ساق من عود كالبقول والقرع والحنظل ، والبطيخ ونحوه مما يموت من عامه ، وروي نحوه عن مجاهد ، وقال ابن عباس وأبو هريرة وعمرو بن ميمون " اليقطين " القرع خاصة .

قال القاضي أبو محمد : وعلى هذين القولين فإما أن يكون قوله ﴿ شجرة ﴾ تجوزاً وإما أن يكون أنبتها عليه ذات ساق خرقاً للعادة ، لأن الشجرة في كلام العرب إنما يقال لما كان على ساق من عود ، وحكى بعض الناس أنها كانت قرعة وهي تجمع خصالاً برد الظل والملمس وعظم الورق وأن الذباب لا يقربها ، وحكى النقاش أن ماء ورق القرعة إذا رش بمكان لم يقربه ذباب ، ومشهور اللغة أن " اليقطين " القرع وقد قال أمية بن أبي الصلت في قصة يونس : [ الطويل ]

فأنبت يقطيناً عليه برحمة . . . من الله لولا الله ألفي ضاحيا

فنبت يونس عليه السلام وصح وحسن جسمه لأن ورق القرع أنفع شيء لمن تسلخ جلده كيونس صلى الله عليه وسلم ، وروي أنه كان يوماً نائماً فأيبس الله تلك اليقطينة ، وقيل بعث عليها الأرضة فقطعت عروقها فانتبه يونس لحر الشمس فعز عليه شأنها وجزع له ، فأوحى الله تعالى إليه : يا يونس أجزعت ليبس اليقطينة ولم تجزع لإهلاك مائة ألف أو يزيدون تابوا فتيب عليهم .

وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147)

قال الجمهور إن هذه الرسالة ﴿ إلى مائة ألف ﴾ في رسالته الأولى التي أبق بعدها ، ذكرها الله في آخر القصص تنبيهاً على رسالته ، ويدل على ذلك قوله ﴿ فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ ، وتمتيع تلك الأمة هو الذي أغضب يونس حتى أبق ، وقال قتادة وابن عباس أيضاً هذه الرسالة أخرى بعد أن نبذ بالعراء وهي إلى أهل نينوى من ناحية الموصل ، وقرأ جعفر بن محمد ، " ويزيدون " بالواو ، وقرأ الجمهور " أو يزيدون " ، فقال ابن عباس " أو " بمعنى " بل " ، وكانوا مائة ألف وثلاثين ألفاً ، وقال أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم " كانوا مائة وعشرين ألفاً " ، وقال ابن جبير : كانوا مائة وسبعين ألفاً ، وروي عن ابن عباس أنه قرأ " إلى مائة ألف بل يزيدون " ، وقالت فرقة ﴿ أو ﴾ هنا بمعنى الواو ، وقالت فرقة هي للإبهام على المخاطب ، كما تقول ما عليك أنت أنا أعطي فلاناً ديناراً أو ألف دينار ،

ونحو هذا قوله تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ [ آل عمران : 128 ] .

(92/655)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا المعنى قليل التمكن في قوله ﴿ أو يزيدون ﴾ ، وقال المبرد وكثير من البصريين : المعنى على نظر البشر وحزرهم ، أي من رآهم قال : هم مائة ألف أو يزيدون ، وروي في قوله تعالى : ﴿ فآمنوا فمتعناهم ﴾ فمتعهم ﴿ إلى حين ﴾ أنهم خرجوا بالأطفال أولاد البهائم وفرقوا بينها وبين الأمهات وناحوا وضجوا وأخلصوا فرفع الله عنهم ، والتمتيع هنا هو بالحياة و" الحين " آجالهم السابقة في الأزل ، قاله قتادة والسدي ، وقرأ ابن أبي عبلة " حتى حين " ، وفي قوله تعالى : ﴿ فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ مثال القريش أي أن آمنوا كما جرى لهؤلاء ، ومن هنا حسن انتقال القول والمحاورة إليهم بقوله ، ﴿ فاستفتهم ﴾ ، فإنما يعود ضميرهم على ما في المعنى من ذكرهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(93/655)

وقال القرطبى :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) ﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرسلين ﴾ يونس هو ذو النون ، وهو ابن متّى ، وهو ابن العجوز التي نزل عليها إلياس ، فاستخفى عندها من قومه ستة أشهر ويونس صبيّ يرضع ، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتؤانسه ، ولا تدّخر عنه كرامة تقدر عليها .

ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت فلحق بالجبال ، ومات ابن المرأة يونس ، فخرجت في إثر إلياس تطوف وراءه في الجبال حتى وجدته ، فسألته أن يدعو الله لها لعلّه يُحيي لها ولدها ؛ فجاء إلياس إلى الصبي بعد أربعة عشر يوماً من موته ، فتوضأ وصلّى ودعا الله فأحيا الله يونس ابن متى بدعوة إلياس عليه السلام .

وأرسل الله يونس إلى أهل نِينَوَى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام ثم تابوا ، حسبما تقدّم بيانه في سورة "يونس" ومضى في "الأنبياء" قصة يونس في خروجه مغاضباً .

واختلف في رسالته هل كانت قبل التقام الحوت إياه أو بعده .

قال الطبري عن شهر بن حَوْشَب : إن جبريل عليه السلام أتى يونس فقال : انطلق إلى أهل نِينَوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم .

قال : ألتمس دابة .

قال : الأمر أعجل من ذلك .

قال : ألتمس حذاء .

قال : الأمر أعجل من ذلك .

قال : فغضب فانطلق إلى السفينة فركب ، فلما ركب السفينة احتبست السفينة لا تتقدّم ولا تتأخر .

قال : فتساهموا ، قال : فسُهِم ، فجاء الحوت يبصبص بذنبه ؛ فنودي الحوت : أيا حوت ! إنا لم نجعل لك يونس رزقاً ؛ إنما جعلناك له حرزاً ومسجداً .

قال : فالتقمه الحوت من ذلك المكان حتى مَرَّ به إلى الأُبلّة ، ثم انطلق به حتى مرّ به على دجلة ، ثم انطلق حتى ألقاه في نِينوى .

حدّثنا الحرث قال حدثنا الحسن قال حدثنا أبو هلال قال حدثنا شهر بن حَوْشَب عن ابن عباس قال : إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت ؛ واستدل هؤلاء بأن الرسول لا يخرج مغاضباً لربه ، فكان ما جرى منه قبل النبوّة .

وقال آخرون : كان ذلك منه بعد دعائه من أرسل (إليهم) إلى ما أمره الله بدعائهم إليه، وتبليغه إياهم رسالة ربه، ولكنه وعدهم نزول ما كان حذرهم من بأس الله في وقت وقّته لهم ففارقهم إذ لم يتوبوا ولم يراجعوا طاعة الله، فلما أظل القومَ العذابُ وغشيهم كما قال الله تعالى في تنزيله تابوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم، وبلغ يونس سلامتهم وارتفاع العذاب الذي كان وعدهموه فغضب من ذلك وقال : وعدتهم وعدا فكذب وعدي.

فذهب مغاضباً ربه وكره الرجوع إليهم، وقد جرّبوا عليه الكذب؛ رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس.

وقد مضى هذا في "الأنبياء" وهو الصحيح على ما يأتي عند قوله تعالى

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات : 147].

ولم ينصرف يونس؛ لأنه اسم أعجمي ولو كان عربياً لانصرف وإن كانت في أوّله الياء؛ لأنه ليس في الأفعال يُفْعُل كما أنك إذا سمَّيت بيُعْفُر صرفته؛ وإن سمّيت بِيَعْفُر لم تصرفه.

الثانية قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ قال المبرد : أصل أبق تباعد؛ ومنه غلام آبق.

وقال غيره : إنما قيل ليونس أبق؛ لأنه خرج بغير أمر الله عز وجل مستتراً من الناس.

﴿ إِلَى الفلك المشحون ﴾ أي المملوءة.

"والفلك" يذكر ويؤنث ويكون واحداً وجمعا وقد تقدم.

قال الترمذي الحكيم : سماه آبقاً لأنه أبق عن العبودية، وإنما العبودية ترك الهوى وبذل

النفس عند أمور اللّه ؛ فلما لم يبذل النفس عندما اشتدّت عليه العَزمة من المَلَك حسبما تقدّم بيانه في "الأنبياء" وآثر هواه لزمه اسم الآبق ، وكانت عزمة الملك في أمر اللّه لا في نفسه ، وبحظّ حقّ اللّه لا بحظ نفسه ؛ فتحرى يونس فلم يصب الصواب الذي عند الله فسماه آبقا ومُليما .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ قال المبرد : فقارع ، قال : وأصله من السهام التي تُجَال .

﴿ فَكَانَ مِنَ المدحضين ﴾ قال : من المغلوبين .

(95/655)

---

قال الفراء : دَحَضَتْ حجتُه وأدحضها اللّه .

وأصله من الزلق ؛ قال الشاعر :

قَتَلْنا الْمُدْحضِينَ بكلِّ فجٍّ فقد قرّتْ بقتِلهِمُ العيونُ . . .

أي المغلوبين .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ فالتقمه الحوت وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي أتى بما يلام عليه .

فأما الملوم فهو الذي يلام ، استحق ذلك أو لم يستحق .

وقيل : المليم المعيب .

يقال : لام الرجل إذا عمل شيئاً فصار معيباً بذلك العمل .

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين ﴾ قال الكسائي : لم تكسر "أن" لدخول اللام ؛ لأن اللام ليست لها .

النحاس : والأمر كما قال ؛ إنما اللام في جواب لولا .

"فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ" أي من المصلّين ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي عقوبة له ؛ أي يكون بطن الحوت قبرا له إلى يوم القيامة .

واختلف كم أقام في بطن الحوت .

فقال السديّ والكلبيّ ومقاتل بن سليمان : أربعين يوماً .

الضحاك : عشرين يوماً .

عطاء : سبعة أيام .

مقاتل بن حيان : ثلاثة أيام .

وقيل : ساعة واحدة .

واللّه أعلم .

الخامسة روى الطبري من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما أراد اللّه تعالى ذكره حبس يونس في بطن الحوت أوحى اللّه إلى الحوت أن خذه ولا تخدش

لحماً ولا تكسر عظماً فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه من البحر ؛ فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسًّا فقال في نفسه ما هذا ؟ فأوحى اللّه تبارك وتعالى إليه وهو في بطن الحوت : إن هذا تسبيح دوابّ البحر" قال : "فسبح وهو في بطن الحوت" قال : "فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة" قال : "ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر .

قالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال نعم .

فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت بقذفه في الساحل كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ "

(96/655)

---

وكان سقمه الذي وصفه به اللّه تعالى ذكره : أنه ألقاه الحوت على الساحل كالصبيّ المنفوس قد نشر اللحم والعظم .

وقد روي : أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح ، ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر ، فلفظه سالماً لم يتغير منه شيء فأسلموا ؛ ذكره الزمخشريّ في تفسيره .

وقال ابن العربي : أخبرني غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد اللّه بن يوسف الجويني : أنه سئل عن الباري في جهة ؟ فقال : لا ، هو يتعالى عن

ذلك .

قيل له : ما الدليل عليه ؟ قال : الدليل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تفضلوني على يونس بن متّى " فقيل له : ما وجه الدليل في هذا الخبر ؟ فقال : لا أقوله حتى يأخذ ضيفي هذا ألف دينار يقضي بها دَيْناً .

فقام رجلان فقالا : هي علينا .

فقال : لا يتبع بها اثنين ؛ لأنه يشق عليه .

فقال واحد : هي عليّ .

فقال : إن يونس بن متّى رمى بنفسه في البحر فالتقمه الحوت ، فصار في قعر البحر في ظلمات ثلاث ، ونادى ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [ الأنبياء : 87 ] كما أخبر اللّه عنه ، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم حين جلس على الرفرف الأخضر وارتقى به صعداً ، حتى انتهى به إلى موضع يسمع فيه صَرِيف الأقلام ، وناجاه ربه بما ناجاه به ، وأوحى إليه ما أوحى بأقرب إلى اللّه تعالى من يونس في بطن الحوت في ظلمة البحر .

السادسة ذكر الطبري : أن يونس عليه السلام لما ركب في السفينة أصاب أهلها عاصف من الريح ، فقالوا : هذه بخطيئة أحدكم .

فقال يونس وعرف أنه هو صاحب الذنب : هذه خطيئتي فألقوني في البحر ، وأنهم أبوا

عليه حتى أفاضوا بسهامهم .

"فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ" فقال لهم : قد أخبرتكم أن هذا الأمر بذنبي .

*(97/655)*

---

وأنهم أبوْا عليه حتى أفاضوا بسهامهم الثانية فكان من المدحضين ، وأنهم أبوا أن يلقوه في البحر حتى أعادوا سهامهم الثالثة فكان من المدحضين .

فلما رأى ذلك ألقى نفسه في البحر ، وذلك تحت الليل فابتلعه الحوت ، وروي أنه لما ركب في السفينة تَقنَّع ورقد فساروا غير بعيد إذ جاءتهم ريح كادت السفينة أن تغرق ، فاجتمع أهل السفينة فدعَوْا فقالوا : أيقظوا الرجل النائم يدعو معنا ؛ فدعا اللّه معهم فرفع اللّه عنهم تلك الريح .

ثم انطلق يونس إلى مكانه فرقد ، فجاءت ريح كادت السفينة أن تغرق ، فأيقظوه ودعوا اللّه فارتفعت الريح .

قال : فبينما هم كذلك إذا رفع حوت عظيم رأسه إليهم أراد أن يبتلع السفينة ، فقال لهم يونس : يا قوم ! هذا من أجلي ! فلو طرحتموني في البحر لسرتم ولذهب الريح عنكم والرَّوْع .

قالوا : لا نطرحك حتى نتساهم ، فمن وقعت عليه رميناه في البحر .

قال : فتساهموا فوقع على يونس ؛ فقال لهم : يا قوم اطرحوني ! فمن أجلي أوتيتم ؛ فقالوا : لا نفعل حتى نتساهم مرة أخرى .

ففعلوا فوقع على يونس .

فقال لهم : يا قوم اطرحوني ! فمن أجلي أوتيتم ؛ فذلك قول اللّه عز وجل : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ المدحضين ﴾ أي وقع السهم عليه ؛ فانطلقوا به إلى صدر السفينة ليلقوه في البحر ، فإذا الحوت فاتح فاه ، ثم جاءوا به إلى جانب السفينة ، فإذا بالحوت ، ثم رجعوا به إلى الجانب الآخر ، فإذا بالحوت فاتح فاه ؛ فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فالتقمه الحوت ؛ فأوحى اللّه تعالى إلى الحوت : إني لم أجعله لك رزقاً ولكن جعلت بطنك له وعاء .

فمكث في بطن الحوت أربعين ليلة فنادى في الظلمات ﴿ لَّآ إِلَهَ إِلآَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين فاستجبنا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ [ المؤمنون : 88 ]

وقد تقدم ويأتي .

ففي هذا من الفقه أن القُرْعة كانت معمولاً بها في شرع مَن قبلنا ، وجاءت في شرعنا على ما تقدم في "آل عمران" قال ابن العربي : وقد وردت القرعة في الشرع في ثلاثة مواطن :

الأول كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه .

الثاني : أن النبي صلى الله عليه وسلم رفع إليه أن رجلاً أعتق ستة أعبد لا مال له غيرهم ، فأقرع بينهم ؛ فاعتق اثنين وأرقّ أربعة .

الثالث : " أن رجلين اختصما إليه في مواريث قد درست فقال : "اذهبا وتوخّا الحق واستهما وليحلل كل واحد منكما صاحبه" " فهذه ثلاثة مواطن ، وهي القَسْم في النكاح ، والعِتق ، والقسمة ، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال وحسم داء التشهي .

واختلف علماؤنا في القرعة بين الزوجات في الغزو على قولين ؛ الصحيح منهما الإقراع ، ؛ وبه قال فقهاء الأمصار .

وذلك أن السفر بجميعهن لا يمكن ، واختيار واحدة منهن إيثار فلم يبق إلا القرعة .

وكذلك في مسألة الأعبد الستة ؛ فإن كل اثنين منهما ثلث ، وهو القدر الذي يجوز له فيه العتق في مرض الموت ، وتعيينهما بالتشهي لا يجوز شرعاً ؛ فلم يبق إلا القرعة .

وكذلك التشاجر إذا وقع في أعيان المواريث لم يميز الحق إلا القُرْعة ، فصارت أصلاً في تعيين المستحق إذا أشكل .

قال : والحق عندي أن تجري في كل مشكل ، فذلك أبين لها ، وأقوى لفصل الحكم فيها ، وأجلى لرفع الإشكال عنها ؛ ولذلك قلنا : إن القرعة بين الزوجات في الطلاق كالقرعة بين الإماء في العتق .

السابعة الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر لا يجوز .

وإنما كان ذلك في يونس وزمانه مقدّمة لتحقيق برهانه ، وزيادة في إيمانه ، فإنه لا يجوز لمن كان عاصياً أن يُقتل ولا يرمى به في النار أو البحر ، وإنما تجرى عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته .

(99/655)

---

وقد ظنّ بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم فاضطروا إلى تخفيف السفينة أن القرعة تضرب عليهم ، فيطرح بعضهم تخفيفاً ؛ وهذا فاسد ؛ فإنها لا تخفّ برمي بعض الرجال وإنما ذلك في الأموال ، ولكنهم يصبرون على قضاء اللّه عز وجل .

الثامنة أخبر اللّه عز وجل أن يونس كان من المسبّحين ، وأن تسبيحه كان سبب نجاته ؛ ولذلك قيل : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عَثَر .

قال ابن عباس : "مِنَ الْمُسَبِّحِينَ" من المصلّين .

قال قتادة : كان يصلّي قبل ذلك لحفظ اللّه عز وجل له فنجّاه .

وقال الربيع بن أنس : لولا أنه كان له قبل ذلك عمل صالح ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ قال : ومكتوب في الحكمة إن العمل الصالح يرفع به إذا عثر .

وقال مقاتل : "مِنَ الْمُسَبِّحِينَ" من المصلّين المطيعين قبل المعصية .

وقال وهب : من العابدين .

وقال الحسن : ما كان له صلاة في بطن الحوت ؛ ولكنه قدّم عملاً صالحاً في حال الرخاء فذكره اللّه به في حال البلاء ، وإن العمل الصالح ليرفع صاحبه ، وإذا عَثَر وجد مُتّكَأً .

قلت : ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : " من استطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل " فيجتهد العبد ، ويحرص على خَصْلة من صالح عمله ، يخلص فيها بينه وبين ربه ، ويدّخرها ليوم فاقته وفقره ، ويخبؤها بجهده ، ويسترها عن خلقه ، يصل إليه نفعها أحوج لما كان إليه .

وقد خرّج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " بينما ثلاثة نفر في رواية ممن كان قبلكم يتماشَوْن أخذهم المطر فأَووْا إلى غار في جبل فانحطت على فم الغار صخرة من الجبل فانطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض انظروا أعمالاً عملتموها صالحة للّه فادعوا اللّه بها لعله يَفْرُجها عنكم " الحديث بكماله وهو مشهور ، شهرته أغنت عن تمامه .

وقال سعيد بن جبير: لما قال في بطن الحوت: ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ قذفه الحوت.

وقيل: ﴿ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ من المصلّين في بطن الحوت.

قلت: والأظهر أنه تسبيح اللسان الموافق للجنان، وعليه يدلّ حديث أبي هريرة المذكور قبل الذي ذكره الطبري.

قال: فسبح في بطن الحوت.

قال: فسمعت الملائكة تسبيحه؛ فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة.

وتكون "كان" على هذا القول زائدة؛ أي فلولا أنه من المسبحين.

وفي كتاب أبي داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "دعاء ذي النون في بطن الحوت "لا إله إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ" لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له" وقد مضى هذا في سورة "الأنبياء" فيونس عليه السلام كان قبل مصلّياً مسبِّحاً، وفي بطن الحوت كذلك.

وفي الخبر: فنودي الحوت: إنا لم نجعل يونس لك رزقاً؛ إنما جعلناك له حِرْزاً ومسجداً.

وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ فَنَبَذۡنَٰهُ بِالۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴾ روي أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل .

وقال ابن قُسَيْط عن أبي هريرة : طرح يونس بالعراء وأنبت الله عليه يقْطِينة ؛ فقلنا : يا أبا هريرة وما اليقطينة ؟ قال : شجرة الدُّبَّاء ؛ هيأ الله له أَرْوِيَةً وحشية تأكل من خَشَاش الأرض أو هَشَاش الأرض فَتَفْشِجَ عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت .

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خرج به يعني الحوت حتى لَفَظَه في ساحل البحر ، فطرحه مثل الصبيّ المنفوس لم ينقص من خلقه شيء .

وقيل : إن يونس لما ألقاه الحوت على ساحل البحر أنبت الله عليه شجرة من يقطين ، وهي فيما ذكر شجرة القرع تتقطر عليه من اللبن حتى رجعت إليه قوّته .



---

ثم رجع ذات يوم إلى الشجرة فوجدها يبست ، فحزن وبكى عليها فعوتب ؛ فقيل له : أحزنت على شجرة وبكيت عليها ، ولم تحزن على مائة ألف وزيادة من بني إسرائيل ، من أولاد إبراهيم خليلي ، أسرى في أيدي العدو ، وأردت إهلاكهم جميعاً .

وقيل : هي شجرة التين .

وقيل : شجرة الموز تغطى بورقها ، واستظل بأغصانها ، وأفطر على ثمارها .

والأكثر على أنها شجرة اليقطين على ما يأتي .

ثم إن الله تبارك وتعالى اجتباه فجعله من الصالحين .

ثم أمره أن يأتي قومه ويخبرهم أن الله تعالى قد تاب عليهم ، فعمد إليهم حتى لقي راعياً فسأله عن قوم يونس وعن حالهم وكيف هم ، فأخبره أنهم بخير ، وأنهم على رجاء أن يرجع إليهم رسولهم .

فقال له : فأخبرهم أني قد لقيت يونس .

فقال : لا أستطيع إلا بشاهد .

فسمى له عنزاً من غنمه فقال : هذه تشهد لك أنك لقيت يونس .

قال : وماذا ؟ قال : وهذه البقعة التي أنت فيها تشهد لك أنك لقيت يونس .

قال : وماذا ؟ قال : وهذه الشجرة تشهد لك أنك لقيت يونس .

وأنه رجع الراعي إلى قومه فأخبرهم أنه لقي يونس فكذبوه وهموا به شراً فقال : لا تعجلوا عليّ حتى أصبح ، فلما أصبح غدا بهم إلى البقعة التي لقي فيها يونس ، فاستنطقها فأخبرتهم أنه لقي يونس ؛ واستنطق الشاة والشجرة فأخبرتاهم أنه لقي يونس ، ثم إن يونس أتاهم بعد ذلك .

ذكر هذا الخبر وما قبله الطبري رحمه الله.

"فَنَبَذْنَاهُ" طرحناه، وقيل: تركناه.

"بِالْعَرَاءِ" بالصحراء؛ قاله ابن الأعرابي.

الأخفش: بالفضاء.

أبو عبيدة: الواسع من الأرض.

الفراء: العراء المكان الخالي.

قال: وقال أبو عبيدة: العراء وجه الأرض؛ وأنشد لرجل من خزاعة:

ورفعتُ رِجْلاً لا أخافُ عثارها . . .

ونَبَذْتُ بالبلَدِ العَراءِ ثيابي

وحكى الأخفش في قوله: "وَهُوَ سَقِيمٌ" جمع سقيم (سقمى و) سقامى وسقام.

وقال في هذه السورة: ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بالعراء ﴾ وقال في "نون والقلم":

(102/655)

---

﴿ لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بالعرآء وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ [القلم: 49] والجواب: أن الله عز وجل خبَّر ها هنا أنه نبذه بالعراء وهو غير مذموم ولولا رحمة الله عز وجل لنبذ

بالعراء وهو مذموم؛ قاله النحاس.

وقوله: ﴿ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ [الصافات: 146] يعني "عَلَيْهِ" أي عنده ؛ كقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ ﴾ [الشعراء: 14] أي عندي.

وقيل: "عَلَيْه" بمعنى له.

"شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ" اليقطين: شجر الدُّبَّاء: وقيل غيرها؛ ذكره ابن الأعرابي.

وفي الخبر: "الدباء والبطيخ من الجنة" وقد ذكرناه في كتاب التذكرة.

وقال المبرّد: يقال لكل شجرة ليس لها ساق يفترش ورقها على الأرض يقطينة نحو الدباء والبطيخ والحنظل، فإن كان لها ساق يقلها فهي شجرة فقط، وإن كانت قائمة أي بعروق تفترش فهي نجمة وجمعها نجم.

قال اللّه تعالى: ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن: 6] وروي نحوه عن ابن عباس والحسن ومقاتل.

قالوا: كل نبت يمتدّ ويبسط على الأرض ولا يبقى على استواء وليس له ساق نحو القثاء والبطيخ والقرع والحنظل فهو يقطين.

وقال سعيد بن جبير: هو كل شيء ينبت ثم يموت من عامه فيدخل في هذا الموز.

قلت: وهو مما له ساق.

الجوهري: واليقطين ما لا ساق له كشجر القرع ونحوه.

الزجاج: اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان إذا أقام به فهو يفعيل.

وقيل: هو اسم أعجمي.

وقيل: إنما خص اليقطين بالذكر؛ لأنه لا ينزل عليه ذباب.

وقيل: ما كان ثَمَّ يقطين فأنبته الله في الحال.

القشيري: وفي الآية ما يدل على أنه كان مفروشاً ليكون له ظل.

(103/655)

---

الثعلبي: كانت تظله فرأى خضرتها فأعجبته، فيبست فجعل يتحزن عليها؛ فقيل له: يا يونس أنت الذي لم تَخلق ولم تَسقِ ولم تُنبت تحزن على شجيرة، فأنا الذي خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون تريد مني أن أستأصلهم في ساعة واحدة، وقد تابوا وتبت عليهم! فإين رحمتي يا يونس أنا أرحم الراحمين.

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "أنه كان يأكل الثريد باللحم والقرع وكان يحب القرع ويقول: "إنها شجرة أخي يونس"" وقال أنس: "قُدِّم للنبيّ صلى الله عليه وسلم مَرَق فيه دُبّاء وقَدِيد فجعل يتبع الدُّبّاء حوالي القَصْعة.

قال أنس: فلم أزل أحبّ الدبّاء من يومئذ" أخرجه الأئمة.

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قد تقدّم عن ابن عباس أن رسالة يونس عليه السلام إنما كانت بعد ما نبذه الحوت .

وليس له طريق إلا عن شَهْر بن حَوْشَب .

النحاس : وأجود منه إسناداً وأصح ما حدّثناه عن عليّ بن الحسين قال : حدّثنا الحسن بن محمد قال حدّثنا عمرو بن العَنْقَزيّ قال حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون قال حدّثنا عبد اللّه بن مسعود في بيت المال عن يونس النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : إن يونس وعد قومه العذاب وأخبرهم أن يأتيهم إلى ثلاثة أيام ، ففرّقوا بين كل والدة وولدها ، وخرجوا فجأروا إلى اللّه عز وجل واستغفروا ، فكفّ اللّه عز وجل عنهم العذاب ، وغدا يونس عليه السلام ينتظر العذاب فلم ير شيئاً وكان من كَذَب ولم تكن له بينة قتل فخرج يونس مغاضباً فأتى قوماً في سفينة فحملوه وعرفوه ، فلما دخل السفينة ركدت السفينة والسفن تسير يميناً وشمالاً ؛ فقالوا : ما لسفينتكم ؟ فقالوا : لا ندري .

فقال يونس عليه السلام : إن فيها عبداً آبقاً من ربه جل وعز وإنها لن تسير حتى تلقوه .

قالوا أما أنت يا نبيّ اللّه فإنا لا نلقيك .

قال : فاقترعوا فمن قُرِع فليقع ، فاقترعوا فقرعهم يونس فأبوا أن يدعوه ، قال : فاقترعوا ثلاثاً فمن قُرِع فليقع .

فاقترعوا فقرعهم يونس ثلاث مرات أو قال ثلاثاً فوقع .

وقد وكل اللّه به جل وعز حوتاً فابتلعه وهو يهوي به إلى قرار الأرض ، فسمع يونس عليه السلام تسبيح الحصى ﴿ فنادى فِي الظلمات أَن لاَّ إِله إِلاَّ أَنت سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ قال : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت .

قال : ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بالعراء وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ قال : كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش .

قال : وأنبت اللّه عليه شجرة من يقطين فنبتت ، فكان يستظل بها ويصيب منها ، فيبست فبكى عليها ؛ فأوحى اللّه جل وعز إليه : أتبكي على شجرة يبست ، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم ! قال : وخرج رسول اللّه يونس فإذا هو بغلام يرعى ؛ قال : يا غلام من أنت ؟ قال : من قوم يونس .

قال : فإذا جئت إليهم فأخبرهم أنك قد لقيت يونس .

قال : إن كنت يونس فقد علمت أنه من كذب قُتِل إذا لم تكن بينة فمن يشهد لي ؟ قال : هذه الشجرة وهذه البقعة .

قال : فمرهما ؛ فقال لهما يونس : إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له .

قالتا نعم .

قال : فرجع الغلام إلى قومه وكان في منعة وكان له إخوة ، فأتى الملك فقال : إني قد لقيت يونس وهو يقرأ عليك السلام .

قال : فأمر به أن يُقتل ؛ فقالوا : إن له بيّنة فأرسلوا معه .

فأتى الشجرة والبقعة فقال لهما : نشدتكما بالله جل وعز أتشهدان أني لقيت يونس ؟

قالتا : نعم ! قال : فرجع القوم مذعورين يقولون له : شهدت له الشجرة والأرض ! فأتوا الملك فأخبروه بما رأوا .

قال عبد الله : فتناول الملك يد الغلام فأجلسه في مجلسه ، وقال : أنت أحق بهذا المكان مني .

قال عبد الله : فأقام لهم ذلك الغلام أمرهم أربعين سنة .

(105/655)

---

قال أبو جعفر النحاس : فقد تبين في هذا الحديث أن يونس كان قد أرسل قبل أن يلتقمه الحوت بهذا الإسناد الذي لا يؤخذ بالقياس .

وفيه أيضاً من الفائدة أن قوم يونس آمنوا وندموا قبل أن يروا العذاب ؛ لأن فيه أنه أخبرهم أنه يأتيهم العذاب إلى ثلاثة أيام ، ففرقوا بين كل والدة وولدها ، وضجُّوا ضجة واحدة إلى الله

عز وجل.

وهذا هو الصحيح في الباب، وأنه لم يكن حكم الله عز وجل فيهم كحكمه في غيرهم في قوله عز وجل: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ [غافر: 85] وقوله عز وجل: ﴿ وَلَيْسَتِ التوبة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت ﴾ [النساء: 18] الآية.

وقال بعض العلماء: إنهم رأوا مخائل العذاب فتابوا.

وهذا لا يمنع، وقد تقدّم ما للعلماء في هذا في سورة "يونس" فلينظر هناك.

قوله تعالى: "أَوْ يَزِيدُونَ" قد مضى في "البقرة" محامل "أو" في قوله تعالى: ﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: 74].

وقال الفراء: "أو" بمعنى بل.

وقال غيره: إنها بمعنى الواو، ومنه قول الشاعر:

فلما اشتد أمرُ الحرب فينا . . .

تأمّلنا رِياحاً أو رِزاماً

أي ورزاما.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل: 77]

وقرأ جعفر بن محمد "إِلَى مِاَئةِ أَلْفٍ ويزِيدون" بغير همز؛ ف"يزِيدون" في موضع رفع بأنه

خبر مبتدأ محذوف أي وهم يزيدون .

النحاس : ولا يصح هذان القولان عند البصريين ، وأنكروا كون "أو" بمعنى بل وبمعنى الواو ؛ لأن بل للإضراب عن الأوّل والإيجاب لما بعده ، وتعالى اللّه عز وجل عن ذلك ، أو خروج من شيء إلى شيء وليس هذا موضع ذلك ؛ والواو معناه خلاف معنى "أو" فلو كان أحدهما بمعنى الآخر لبطلت المعاني ؛ ولو جاز ذلك لكان وأرسلناه إلى أكثر من مائتي ألف أخصر .

(106/655)

---

وقال المبرد : المعنى وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لقلتم هم مائة ألف أو أكثر ، وإنما خوطب العباد على ما يعرفون .

وقيل : هو كما تقول : جاءني زيد أو عمرو وأنت تعرف من جاءك منهما إلا أنك أبهمت على المخاطب .

وقال الأخفش والزجاج : أي أو يزيدون في تقديركم .

قال ابن عباس : زادوا على مائة ألف عشرين ألفاً .

ورواه أبي بن كعب مرفوعاً .

وعن ابن عباس أيضاً : ثلاثين ألفاً .

الحسن والربيع : بضعاً وثلاثين ألفاً .

وقال مقاتل بن حيان : سبعين ألفاً .

﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ أي إلى منتهى آجالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(107/655)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرسلين ﴾

(108/655)

---

وقرىء بكسر النّونِ ﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ أي هربَ وأصله الهربُ من السَّيدِ لكن لمَّا كان هربُه من قومه بغير إذنِ ربِّه حسُن إطلاقه عليه ﴿ إِلَى الفلك المشحون ﴾ أي المملوءِ ﴿ فساهم ﴾ فقارعَ أهلَه ﴿ فَكَانَ مِنَ المدحضين ﴾ فصار من المغلوبينَ بالقُرعةِ وأصله المزلق عن

مقام الظفر . روي أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لمَّا وعدَ قومَه بالعذابِ خرجَ من بينهم قبل أنْ يأمرَه الله تعالى به فركبَ السَّفينة فوقفتْ فقال فيها عبدٌ آبقٌ فاقترعُوا فخرجت القُرعةُ عليه فقال : أنا الآبقُ ورمَى بنفسه في الماءِ ﴿ فالتقمه الحوت ﴾ فابتلعه من اللُّقمةِ ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ داخلٌ في المَلامةِ أو آتٍ بما يُلام عليه أو مليمٌ نفسَه . وقُرِىء مَليم بالفتح مبنيًّا من لِيم كمَشيب في مشُوب ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين ﴾ الذَّاكرينَ الله كثيراً بالتَّسبيحِ مدَّةَ عمره أو في بطنِ الحوت وهو قوله : ﴿ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سبحانك إِنّى كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ وقيل من المصلِّين فإنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان كثيرَ الصَّلاةِ في الرَّخاءِ ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ حيًّا وقيل ميِّتاً وفيه حثٌّ على إكثارِ الذِّكرِ وتعظيمٌ لشأنِه ومن أقبل عليه في السَّراءِ أُخذ بيدِه عند الضرَّاء ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ بأن حملنا الحوتَ على لفظه بالمكان الخالي عمَّا يُغطِّيه من شجرٍ أو نبتٍ . رُوي أنَّ الحوتَ سار مع السَّفينةِ رافعاً رأسه يتنفسُ فيه يونسُ عليه السلام ويسبِّحُ ولم يفارقْهم حتَّى انتهَوا إلى البرِّ فلفظَه سالماً لم يتغيَّرْ منه شيءٌ فأسلمُوا . ورُوي أنَّ الحوتَ قذفه بساحل قريةٍ من المَوصلِ . واختُلف في مقدارِ لبثه فقيل أربعون يوماً وقيل عشرون وقيل سبعةٌ وقيل ثلاثةٌ وقيل لم يلبثْ إلا قليلاً ثم أُخرج من بطنِه بعيد الوقتِ الذي التُقمَ فيه . روى عطاءٌ أنَّه حين ابتلعه أوحى اللَّهُ تعالى إلى

الحوتِ إنّي جعلتُ بطنك له سجناً ولم أجعله لك طعاماً . ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ ممّا ناله قيل صار بدنه كبدنِ الطّفلِ حين يُولد .

﴿ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي فوقه مظلّة عليه ﴿ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ وهو كل ما ينبسط على الأرضِ ولا يقوم على ساقٍ كشجر البطّيخ والقِثّاءِ والحنظلِ وهو يَفْعيلٌ من قَطَنَ بالمكان إذا أقام به والأكثرون على أنّه الدُّبّاءُ غطّته بأوراقِها عن الذُّبابِ فإنّه لا يقعُ عليه ويدلُّ عليه أنَّه قيل لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم إنّك تحبُّ القرعَ قال : " أجلْ هي شجرةُ أخي يونس " وقيل هي التّينُ وقيل الموزُ تغطّى بورقِهِ واستظلّ بأغصانِهِ وأفطر على ثماره وقيل كان يستظُلُّ بالشّجرةِ وكانت وعلةٌ تختلفُ إليه فيشربُ من لبنها .

(110/655)

﴿ وأرسلناه إلى مِائَةِ أَلْفٍ ﴾ هم قومُه الذين هرب منهم وهم أهل نَيْنَوى . والمرادُ به إرسالهُ السَّابقُ أخبر أولاً بأنّه من المرسلين على الاطلاقِ ثم أخبرَ بأنَّه قد أُرسل إلى أمةٍ جمّةٍ وكأنَّ توسيطَ تذكيرِ وقت هربِهِ إلى الفُلكِ وما بعده بينهما لتذكيرِ سببِهِ وهو ما جرى بينه عليه الصّلاةُ والسّلامُ وبين قومِه من إنذارِه إيّاهم عذابَ الله تعالى وتعيينِه لوقت حلوله

وتعلِّلِهم وتعليقِهم لإيمانِهم بظهور أماراته كما مرَّ تفصيلُه في سُورة يونسَ ليعلم أنَّ إيمانَهم الذي سيحكى بعد لم يكُن عقيبَ الإرسالِ كما هو المتبادرُ من ترتيبِ الإيمانِ عليه بالفاء بعد اللَّتيا والَّتي وقيل : هو إرسالٌ آخرُ إليهم وقيل : إلى غيرِهم وليس بظاهرٍ ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ أي في مَرأى النَّاظرِ فإنَّه إذا نظر إليهم قال إنَّهم مائةُ ألفٍ أو يزيدون ، والمرادُ هو الموصفُ بالكثرة . وقُرىء بالواو ﴿ فَئَامِنُواْ ﴾ أي بعد ما شاهدُوا علائمَ حلولِ العذابِ إيماناً خالصاً ﴿ فمتعناهم ﴾ أي بالحيارةِ الدُّنيا ﴿ إلى حِينٍ ﴾ قدَّره الله سبحانه لهم . قيل لعلَّ عدمَ ختمِ هذه القصَّةِ وقصَّةِ لوطٍ بما خُتم به سائرُ القصصِ للتَّفرقةِ بينهما وبين أربابِ الشَّرائعِ وأُولي العزمِ من الرُّسلِ أو اكتفاءً بالتَّسليمِ الشَّاملِ لكلِّ الرُّسلِ المذكورينَ في آخرِ السُّورةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

*(111/655)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرسلين ﴾

يروى على ما في البحر أنه عليه السلام نبىء وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، وحكى في البحر أنه كان في زمن ملوك الطوائف من الفرس وهو ابن متى بفتح الميم وتشديد التاء الفوقية

مقصور ، وهل هذا اسم أمه أو أبيه فيه خلاف فقيل اسم امه وهو المذكور في تفسير عبد الرزاق ، وقيل : اسم أبيه وهذا كما قال ابن حجر أصح ، وبعض أهل الكتاب يسميه يونان ابن ماثي ، وبعضهم يسميه يونه ابن امتياي ؛ ولم نقف في شيء من الأخبار على اتصال نسبه ، وفي اسمه عند العرب ست لغات تثليث النون مع الواو والياء والهمزة ، والقراءة المشهورة بضم النون مع الواو .

وقرأ أبو طلحة بن مصرف بكسر النون قيل أراد أن يجعله عربياً مشتقاً من أنس وهو كما ترى .

إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140)

﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ هرب ، وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير اذن ربه كما هو الأنسب بحال الأنبياء عليهم السلام حسن اطلاقه عليه فهو إما استعارة أو مجاز مرسل من استعمال المقيد في المطلق ، والأول أبلغ ، وقال بعض الكمل : الاباق الفرار من السيد بحيث لا يهتدي إليه طالب أي بهذا القصد ، وكان عليه السلام هرب من قومه بغير اذن ربه سبحانه إلى حيث طلبوه فلم يجده فاستعير الاباق لهربه باعتبار هذا القيد لا باعتبار القيد الأول ، وفيه بعد تسليم اعتبار هذا القيد على ما ذكره بعض أهل اللغة أنه لا مانع من اعتبار ذلك القيد فلا اعتبار بنفي اعتباره ﴿ إِلَى الفلك المشحون ﴾ المملوء .

﴿ فساهم ﴾ فقارع عليه السلام من في الفلك واستدل به من قال بمشروعية القرعة ﴿

فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ فصار من المغلوبين بالقرعة ، وأصله المزلق اسم مفعول عن مقام الظفر .

(112/655)

---

يروى أنه وعد قومه العذاب وأخبرهم أنه يأتيهم إلى ثلاثة أيام فلما كان اليوم الثالث خرج يونس قبل أن يأذن الله تعالى له ففقده قومه فخرجوا بالكبير والصغير والدواب وفرقوا بين كل والدة وولدها فشارف نزول العذاب بهم فعجوا إلى الله تعالى وأنابوا واستقالوا فأقالهم الله تعالى وصرف عنهم العذاب فلما لم ير يونس نزول العذاب استحى أن يرجع إليهم وقال : لا أرجع إليهم كذاباً أبداً ومضى على وجهه فأتى سفينة فركبها فلما وصلت اللجة وقفت فلم تسر فقال صاحبها .

ما يمنعها أن تيسر إلا أن فيكم رجلاً مشؤوناً فاقترعوا ليلقوا من وقعت عليه القرعة في الماء فوقعت على يونس ثم أعادوا فوقعت عليه ثم أعادوا فوقعت عليه فلما رأى ذلك رمى بنفسه في الماء .

﴿ فالتقمه الحوت ﴾ أي ابتلعه من اللقمة ، وفي خبر أخرجه أحمد .

وغيره عن ابن مسعود أنه أتى قوماً في سفينة فحملوه وعرفوه فلما دخلها ركدت والسفن

تسير يميناً وسمالاً فقال : ما بال سفينتكم ؟ قالوا : ما ندري قال : ولكني أدري إن فيها عبداً آبق من ربه وإنها والله لا تسير حتى تلقوه قالوا : أما أنت والله يا نبي الله فلا نلقيك فقال لهم : اقترعوا فمن قرع فليلق فاقترعوا ثلاث مرات وفي كل مرة تقع القرعة عليه فرمى بنفسه فكان ما قص الله تعالى .

وكيفية اقتراعهم على ما في البحر عن ابن مسعود أنهم أخذوا لكل سهماً على أن من طفا سهمه فهو ومن غرق سهمه فليس إياه فطفا سهم يونس .



---

وروي أنه لما وقف على شفير السفينة ليرمي بنفسه رأى حوتاً واسمه على ما أخرج ابن أبي حاتم وجماعة عن قتادة نجم قد رفع رأسه من الما رقدر ثلاثة أذرع يرقبه ويترصده فذهب إلى ركن آخر فاستقبله الحوت فانتقل إلى آخر فوجده وهكذا حتى استدار بالسفينة فلما رأى ذلك عرف أنه أمر من الله تعالى فطرح نفسه فأخذه أن يصل إلى الماء ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي داخل في الملامة على أن بناء افعل للدخول في الشيء نحو أحرم إذا دخل الحرم أو آت بما يلام عليه على أن الهمزة فيه للصيرورة نحو أغد البعير أي صار ذا غدة فهو هنا لما أتى بما يستحق اللوم عليه صار ذا لوم أو مليم نفسه على أن الهمزة فيه للتعدية نحو

أقدمته والمفعول محذوف ، وما روي عن ابن عباس .

ومجاهد من تفسيره بالمسيء والمذنب فبيان لحاصل المعنى وحسنات الأبرار سيئات المقربين .

وقرئ ﴿ مُلِيمٌ ﴾ بفتح أوله اسم مفعول وقياسه ملوم لأنه واوي يقال لمته ألومه لوماً لكنه جيء به على ليم كما قالوا مشيب ومدعى في مشوب ومدعو بناء على شيب ودعى وذلك أنه لما قلبت الواو ياء في المجهول جعل كالأصل فحمل الوصف عليه .

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ أي من الذاكرين الله تعالى كثيراً بالتسبيح كما قيل ، وفي كلام قتادة ما يشعر باعتبار الكثرة ، واستفادتها على ما قال الخفاجي من جعله من المسبحين دون أن يقال مسبحاً فإنه يشعر بأنه عريق فيهم منسوب إليهم معدود في عدادهم ومثله يستلزم الكثرة ، وقيل : من التفعيل .

ورد بأن معنى سبح لم يعتبر فيه ذلك إذ هو قال سبحان الله ، وقد يقال : هي من إرادة الثبوت من ﴿ المسبحين ﴾ فإنه يشعر بأن التسبيح ديدن لهم ، والمراد بالتسبيح ههنا حقيقته وهو القول المذكور أو ما في معنها وروي ذلك عن ابن جبير .

وهذا الكون عند بعض قبل التقام الحوت إياه أيام الرخاء ، واستظهر أبو حيان أنه في بطن الحوت وأن التسبيح ما ذكره الله تعالى في قوله سبحانه : ﴿ فنادى فِى الظلمات أَن لآَّ إله إِلآَّ أَنت َسبحانك إِنّى كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [ الأنبياء : 87 ] وحمله بعضهم على الذكر مطلقاً وبعض آخر على العبادة كذلك ، وجماعة منهم ابن عباس على الصلاة بل روي عنه أنه قال : كل ما في القرآن من التسبيح فهو بمعنى الصلاة ، وأنت تعلم أنه إن كان اللفظ فيما ذكر حقيقة شرعية ولم يكن للتسبيح حقيقة أخرى شرعية أيضاً لم يحتج إلى قرينة ، وإن كان مجازاً أو كان للتسبيح حقيقة شرعية أخرى احتيج إلى قرينة فإن وجدت فذاك وإلا فالأمر غير خفي عليك ، وكما اختلف في زمان التسبيح بالمعنى السابق اختلف في زمانه بالمعاني الأخر .

أخرج أحمد في الزهد .

وغيره عن ابن جبير في قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين ﴾ قال : من المصلين قبل أن يدخل بطن الحوت ، وأخرج أحمد وغيره أيضاً عن الحسن في الآية قال : ما كان إلا صلاة أحدثها في بطن الحوت فذكر ذلك لقتادة فقال : لا إنما كان يعمل في الرخاء ، وروي عن الحسن غير ما ذكر ، فقد أخرج عنه ابن أبي حاتم .

والبيهقي في شعب الإيمان .

والحاكم أنه قال في الآية : كان يكثر الصلاة في الرخاء فلما حصل في بطن الحوت ظن أنه

الموت فحرك رجليه فإذا هي تتحرك فسجد وقال : يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يسجد فيه أحد .

(115/655)

---

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك بن قيس قال : اذكروا الله تعالى في الرخاء يذكركم في الشدة فإن يونس عليه السلام كان عبداً صالحاً ذاكراً لله تعالى فلما وقع بطن الحوت قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين ﴾ الخ وإن فرعون كان عبداً طاغياً ناسياً لذكر الله تعالى فلما أدركه الغرق قال : ﴿ آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ [ يونس : 90 ] فقيل له ﴿ ءالئن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ [ يونس : 91 ]

والأولى حمل زمان كونه من المسبحين على ما يعم زمان الرخاء وزمان كونه في بطن الحوت فإن لاتصافه بذلك في كلا الزمانين مدخلاً في خروجه من بطن الحوت المفهوم من قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين ﴾ .

﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ كما يشعر به ما في حديث أخرجه عبد الرزاق .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم.

وابن مردويه عن أنس مرفوعاً من أنه عليه السلام لما التقمه الحوت وهوى به حتى انتهى إلى ما انتهى من الأرض سمع تسبيح الأرض فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فأقبلت الدعوة نحو العرش فقالت الملائكة: يا ربنا انا نسمع صوتاً ضعيفاً من بلاد غربة قال سبحانه: وما تدرون كم؟ قالوا: لا يا ربنا قال: ذاك عبدي يونس قالوا: الذي كنا لا نزال نرفع له عملاً متقبلاً ودعوة مجابة؟ قال: نعم قالوا: يا ربنا ألا ترحم ما كان يصنع في الرخاء وتنجيه عند البلاء؟ قال: بلى فأمر عز وجل الحوت فلفظه.

واستظهر أبو حيان أن المراد بقوله سبحانه: ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ ﴾ الخ لبقي في بطنه حياً إلى يوم البعث وبه أقول.

وتعقب بأنه ينافيه ما ورد من أنه لا يبقى عند النفخة الأولى ذو روح من البشر والحيوان في البر والبحر.

(116/655)

---

وأجيب بعد تسليم ورود ذلك أو ما يدل عليه بأنه مبالغة في طول المدة مع أنه في حيز لو فلا يرد رأساً أو المراد بوقت البعث ما يشتمل زمان النفخة لأنه من مقدماته فكأنه منه، وعن

قتادة لكان بطن الحوت قبراً له ، وظاهره أنه أريد للبث ميتاً في بطنه إلى يوم البعث ، ولا مانع من بقاء بنية الحوت كبنيته من غير تسلط البلاء إلى ذلك اليوم ، وضمير ﴿ يُبْعَثُونَ ﴾ لغير مذكور وهو ظاهر .

﴿ فنبذناه ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه فالإسناد مجازي ، والنبذ على ما في "القاموس" طرحك الشيء أماماً أو وراء أو هو عام .

وقال الراغب : النبذ إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به ، والمراد به هنا الطرح والرمي والقيد الذي ذكره الراغب لا أرغب فيه فإنه عليه السلام وإن أبق وخرج من غير إذن مولاه واعتراه من تأديبه تعالى ما اعتراه فالرب عز وجل بأنبيائه رحيم وله سبحانه في كل شأن اعتداد بهم عظيم فهو عليه السلام معتد به في حال الإلقاء وإن كان ذلك ﴿ بالعراء ﴾ أي بالمكان الخالي عما يغطيه من شجر أو نبت ، يروى أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس ويونس يسبح حتى انتهوا إلى البر فلفظه .

ورد بأنه يأباه قوله تعالى ﴿ فنادى فِى الظلمات ﴾ [ الأنبياء : 87 ] وأجيب بأنه بمجرد رفع رأسه للتنفس لا يخرج منها ، ثم إن هذا لئلا يختنق يونس أو تنحصر نفسه بحكم العادة لا ليمتنع دخول الماء جوف الحوت حتى يقال السمك لا يحتاج لذلك ، ومع هذا نحن لا نجزم بصحة الخبر فقد روى أيضاً أنه طاف به البحار كلها ثم نبذه على شط دجلة قريب نينوى بكسر النون الأولى وضم الثانية كما في "الكشف" من أرض الموصل ، والالتقام كان في

دجلة أيضاً على ما صرح به البعض وخالف فيه أهل الكتاب ، وسيأتي إن شاء الله تعالى نقل كلامهم لك في هذه القصة لتقف على ما فيه .

والظاهر أن الحوت من حيتان دجلة أيضاً وقد شاهدنا فيها حيتاناً عظيمة جداً ، وقيل كان من حيتان النيل .

*(117/655)*

---

أخرج ابن أبي شيبة عن وهب أنه جلس هو وطاوس ونحوهما من أهل ذلك الزمان فذكروا أي أمر الله تعالى أسرع ؟ فقال بعضهم : قول الله تعالى ﴿ كَلَمْحِ البصر ﴾ [ النحل : 77 ] وقال بعضهم : السرير حين أتى به سليمان ، وقال وهب : أسرع أمر الله تعالى أن يونس على حافة السفينة إذ أوحى الله سبحانه إلى نون في نيل مصر فما خر من حافتها إلا في جوفه ، ولا شبهة في ان قدرة الله عز وجل أعظم من ذلك لكن الشبهة في صحة الخبر وكأني بك تقول لا شبهة في عدم صحته .

واختلف في مدة لبثه فأخرج عبد الله بن أحمد في "زوائد الزهد" .

وغيره عن الشعبي .

قال : التقمه الحوت ضحى ولفظه عشية وكأنه أراد حين أظلم الليل ، وأخرج عبد بن

حميد .

وغيره عن قتادة قال : إنه لبث في جوفه ثلاثاً ، وفي كتب أهل الكتاب ثلاثة أيام وثلاث ليال ، وعن عطاء وابن جبير سبعة أيام ، وعن الضحاك عشرين يوماً ، وعن ابن عباس .

وابن جرير .

وأبي مالك .

والسدي .

ومقاتل بن سليمان .

والكلبي .

وعكرمة أربعين يوماً ، وفي "البحر" ما يدل على أنه لم يصح خبر في مدة لبثه عليه السلام في بطن الحوت ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ مما ناله ، قال ابن عباس .

والسدي : إنه عاد بدنه كبدن الصبي حين يولد ، وعن ابن جبير أنه عليه السلام ألقى ولا شعر له ولا جلد ولا ظفر ، ولعل ذلك يستدعي بحكم العادة أن لمدة لبثه في بطن الحوت طولاً ما .

﴿ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ أي أنبتناها مطلة عليه مظلة له كالخيمة فعليه حال من ﴿ شَجَرَةً ﴾ قدمت عليها لأنها نكرة ، واليقطين يفعيل من قطن بالمكان إذا قام به ، وزاد الطبرسي إقامة زائل لا إقامة راسخ ، والمراد به على ما جاء عن الحسن السبط .

وابن عباس في رواية.

وابن مسعود .

وأبي هريرة.

وعمرو بن ميمون.

وقتادة.

وعكرمة.

وابن جبير.

(118/655)

---

ومجاهد في إحدى الروايتين عنهما الدباء وهو القرع المعروف ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه ، وأنبتها الله تعالى مطلة عليه لأنها تجمع خصالاً برد الظل والملمس وعظم الورق وأن الذباب لا يقع عليها على ما قيل ، وكان عليه السلام لرقة جلده بمكثه في بطن الحوت يؤذيه الذباب ومماسة ما فيه خشونة ويؤلمه حر الشمس ويستطيب بارد الظل فلطف الله تعالى به بذلك ، وذكر أن ورق القرع أنفع شيء لمن ينسلخ جلده ؛ واشتهر أن الشجر ما كان على ساق من عود فيشكل تفسير الشجرة هنا بالدباء .

وأجاب أبو حيان بأنه يحتمل أن الله تعالى أنبتها على ساق لتظله خرقاً للعادة ، وقال الكرماني : العامة تخصص الشجر بما له ساق ، وعند العرب كل شيء له أرومة تبقى فهو شجر وغيره نجم ، ويشهد له قول أفصح الفصحاء صلى الله عليه وسلم شجرة الثوم انتهى .

وقال بعض الأجلة : لك أن تقول أصل معناه ما له أرومة لكنه غلب في عرف أهل اللغة على ما له ساق وأغصان فإذا أطلق يتبادر منه المعنى الثاني وإذا قيد كما هنا .

وفي الحديث يرد على أصله وهو الظاهر ، ثم ذكر أن ما قاله أبو حيان تمحل في محل لا مجال للرأي فيه .

وأخرج عبد بن حميد .

وابن جرير عن ابن جبير أنه قال : كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين والذي يكون على وجه الأرض من البطيخ والقثاء ، وفي رواية أخرى عنه أنه سئل عن اليقطين أهو القرع ؟ قال : لا ولكنها شجرة سماها الله تعالى اليقطين أظلته .

وفي رواية عن ابن عباس أنه كل شيء ينبت ثم يموت من عامه ، وفي أخرى كل شيء يذهب على وجه الأرض .

وقيل : شجرة اليقطين هي شجرة الموز تغطي بورقها واستظل بأغصانها وأفطر على ثمارها ، وقيل شجرة التين والأصح ما تقدم .

وروى عن قتادة أنه عليه السلام كان يأكل من ذلك القرع ، وجاء في رواية عن أبي هريرة أنه قال : طرح بالعراء فأنبت الله تعالى عليه يقطينة فقيل له : ما اليقطينة ؟ قال : شجرة الدباء هيأ الله تعالى له أروية وحشية تأكل من حشاش الأرض فتفسح عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبتت ، وقيل : إنه كان يستظل بالشجرة وتختلف إليه الأروية فيشرب من لبنها ، وفي بعض الآثار أنها نبتت وأظلته في يومها .

أخرج أحمد في الزهد .

وغيره عن وهب أنه لما خرج من البحر نام نومة فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين وهي الدباء فأظلته وبلغت في يومها فرآها قد أظلته ورأى خضرتها فأعجبته ثم نام نومة فاستيقظ فإذا هي قد يبست فجعل يحزن عليها فقيل له : أنت الذي لم تخلق ولم تسق ولم تنبت تحزن عليها وأنا الذي خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون ثم رحمتهم فشق عليك وهؤلاء هم أهل نينوى المعنيون بقوله تعالى :

﴿ وأرسلناه إلى مِائَةِ أَلفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ والإرسال على ما أخرج غير واحد عن مجاهد .

والحسن .

وقتادة هو الإرسال الأول الذي كان قبل أن يلتقمه الحوت فالعطف على قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ ﴾ [ الصافات : 139 ] الخ على سبيل البيان لدلالته على ابتداء الحال وانتهائه وعلى ما هو المقصود من الإرسال من الايمان ، واعترض بينهما بقصته اعتناء بها لغرابتها .

وأورد عليه أنه يأبى عن حمله على الإرسال الأول الفاء في قوله تعالى :

﴿ فَئَامَنُواْ ﴾ فإن أولئك لم يؤمنوا عقيب إرساله الأول بل بعدما فارقهم .

وأجيب بأنه تعقيب عرفي نحو تزوج فولد له .

وقيل : الأقرب أن الفاء للتفصيل أو السببية ، وقيل هو إرسال ثان إليهم بعد أن أصابه فالعطف على ما عنده .

وأورد عليه أن المروي أنهم بعد مفارقته لهم رأوا العذاب أو خافوه فآمنوا فقوله تعالى : ﴿ فَئَامَنُواْ ﴾ في النظم الجليل هنا يأبى عن حمله على إرسال ثان .



---

وأجيب بأنه يجوز أن يكون الايمان المقرون بحرف التعقيب إيماناً مخصوصاً أو أن آمنوا بتأويل أخلصوا الايمان وجددوه لأن الأول كان إيمان باس ، وقيل هو إرسال إلى غيرهم ،

وقيل : إن الأولين بعد أن آمنوا سألوه أن يرجع إليهم فأبى لأن النبي إذا هاجر عن قومه لم يرجع إليهم مقيماً فيهم وقال لهم : إن الله تعالى باعث إليكم نبياً .

وفي خبر طويل أخرجه أحمد في الزهد .



---

وجماعة عن ابن مسعود أنه عليه السلام بعد أن نبذ بالعراء وأنبت الله تعالى عليه الشجرة وحسن حاله خرج فإذا هو بغلام يرعى غنماً فقال : ممن أنت يا غلام ؟ قال : من قوم يونس قال : فإذا رجعت إليهم فاقرئهم السلام وأخبرهم أنك لقيت يونس فقال له الغلام : إن تكن يونس فقد تعلم أنه من كذب ولم يكن له بينة قتل فمن يشهد لي ؟ قال : تشهد لك هذه الشجرة وهذه البقعة فقال الغلام ليونس : مرهما فقال لهما يونس : إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له قالتا : نعم فرجع الغلام إلى قومه وكان له إخوة فكان في منعة فأتى الملك فقال : إني لقيت يونس وهو يقرأ عليكم السلام فأمر به الملك أن يقتل فقال : إن لي بينة فأرسل معه فانتهوا إلى الشجرة والبقعة فقال لهما الغلام نشدتكما بالله هل أشهدكما يونس قالتا : نعم فرجع القوم مذعورين يقولون : تشهد لك الشجرة والأرض فاتوا الملك فحدثوه بما رأوا فتناول الملك يد الغلام فاجلسه في مجلسه وقال : أنت أحق بهذا المكان منى وأقام لهم

أمرهم ذلك الغلام أربعين سنة ، وهذا دال بظاهره أنه عليه السلام لم يرجع بعد أن أصابه ما أصابه إليهم فإن صح يراد بالإرسال هنا إما الإرسال الأول الذي تضمنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [ الصافات : 139 ] وإما إرسال آخر إلى غير أولئك القوم ، والمعروف عند أهل الكتاب أنه عليه السلام لم يرسل إلا إلى أهل نينوى ، وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً تفصيل قصته عندهم ؛ و﴿ أَوْ ﴾ على ما نقل عن ابن عباس بمعنى بل ، وقيل : بمعنى الواو وبها قرأ جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما ، وقيل : للإبهام على المخاطب ، وقال المبرد .

(122/655)

---

وكثير من البصريين : للشك نظراً إلى الناظر من البشر على معنى من رآهم شك في عددهم وقال مائة ألف أو يزيدون والمقصود بيان كثرتهم أو أن الزيادة ليست كثيرة كثرة مفرطة كما يقال هم ألف وزيادة ، وقال ابن كمال : المراد يزيدون باعتبار آخر وذلك أن المكلفين بالفعل منهم كانوا مائة ألف وإذا ضم إليهم المراهقون الذين بصدد التكليف كانوا أكثر ؛ ومن ههنا ظهر وجه التعبير بصيغة التجدد دون الثبات .

وتعقب بأنه مع أن المناسب له الواو تكلف ركيك ، وأقرب منه أن الزيادة بحسب الإرسال

الثاني ويناسبه صيغة التجدد وإن كانت للفاصلة ، وهو معطوف على جملة ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ بتقديرهم يزيدون على ﴿ مِائَةِ ﴾ بتقدير أشخاص يزيدون أو تجريده للمصدرية فإنه ضعيف ، والزيادة على ما روى عن ابن عباس ثلاثون ألفاً ، وفي أخرى عنه بضعة وثلاثون ألفاً ، وفي أخرى بضعة وأربعون ألفاً ، وعن نوف .

وابن جبير سبعون ألفاً ، وأخرى الترمذي .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن أبي بن كعب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى : ﴿ وأرسلناه إلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قال : يزيدون عشرين ألفاً ، وإذا صح هذا الخبر بطل ما سواه .

﴿ فمتعناهم ﴾ بالحياة ﴿ إلى حِينٍ ﴾ إلى آجالهم المسماة في الأزل قاله قتادة .

والسدي ، وزعم بعضهم أن تمتيعهم بالحياة إلى زمان المهدي وهم إذا ظهر من أنصاره فهم اليوم أحياء في الجبال والقفار لا يراهم كل أحد كالمهدي عند الإمامية والخضر عند بعض العلماء والصوفية ، وربما يكشف لبعض الناس فيرى أحداً منهم وهو كذب مفتري ، ولعل

عدم ختم هذه القصة والقصة التي قبلها بنحو ما ختم به سائر القصص من قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الاخرين سلام ﴾ [ الصافات : 78 ، 79 ] الخ تفرقة بين شأن لوط .

(123/655)

---

ويونس عليهما السلام وشأن أصحاب الشرائع الكبر وأولى العزم من المرسلين مع الاكتفاء فيهما بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكور في آخر السورة ولتأخرهما في الذكر قرباً منه والله تعالى أعلم .

والمذكور في شأن يونس عليه السلام في كتب أهل الكتاب أن الله عز وجل أمره بالذهاب إلى دعوة أهل نينوى وكانت إذ ذاك عظيمة جداً لا تقطع إلا في نحو ثلاثة أيام وكانوا قد عظم شرهم وكثر فسادهم فاستعظم الأمر وهرب إلى ترسيس فجاء يافا فوجد سفينة يريد أهلها الذهاب بها إلى ترسيس فاستأجر وأعطى الأجرة وركب السفينة فهاجت ريح عظيمة وكثرت الأمواج وأشرفت السفينة على الغرق ففزع الملاحون ورموا في البحر بعض الأمتعة لتخف السفينة وعند ذلك نزل يونس إلى بطن السفينة ونام حتى علا نفسه فتقدم إليه الرئيس فقال له : ما بالك نائماً ؟ قم وادع إلهك لعله يخلصنا مما نحن فيه ولا يهلكنا ، وقال بعضهم : تعالوا نتقارع لنعرف من أصابنا هذا الشر بسببه فتقارعوا فوقعت القرعة

على يونس فقالوا له : أخبرنا ماذا عملت ومن أين أتيت وإلى أين تمضي ومن أي كورة أنت ومن أي شعب أنت ؟ فقال لهم : أنا عبد البر إله السماء خالق البر والبحر وأخبرهم خبره فخافوا خوفاً عظيماً .



---

وقالوا له : لم صنعت ما صنعت يلومونه على ذلك ثم قالوا له : ما نصنع الآن بك ليسكن البحر عنا ؟ فقال : ألقوني في البحر يسكن فإنه من أجلي صار هذا الموج العظيم فجهد الرجال أن يردوها إلى البر فلم يستطيعوا فأخذوا يونس وألقوه في البحر لنجاة جميع من في السفينة فسكن البحر وأمر الله تعالى حوتاً عظيماً فابتلعه فبقي في بطنه ثلاثة أيام وثلاث ليال وصلى في بطنه إلى ربه واستغاث به ، فأمر سبحانه الحوت فألقاه إلى اليبس ثم قال عز وجل له : قم وامض إلى نينوى وناد في أهلها كما أمرتك من قبل فمضى عليه السلام ونادى وقال : تخسف نينوى بعد ثلاثة أيام فآمنت رجال نينوى بالله تعالى ونادوا بالصيام ولبسوا المسوح جميعاً ووصل الخبر إلى الملك فقام عن كرسيه ونزع حلته ولبس مسحاً وجلس على الرماد ونودي أن لا يذق أحد من الناس والبهائم طعاماً ولا شراباً وجأروا إلى الله تعالى ورجعوا عن الشر والظلم فرحمهم الله تعالى فلم ينزل بهم العذاب فحزن يونس وقال

: إلهي من هذا هربت فإني علمت أنك الرحيم الرؤوف الصبور التواب يا رب خذ نفسي فالموت خير لي من الحياة فقال : يا يونس حزنت من هذا جداً ؟ فقال : نعم يا رب وخرج يونس وجلس مقابل المدينة وصنع له هناك مظلة وجلس تحتها إلى أن يرى ما يكون في المدينة فأمر الله تعالى يقطيناً فصعد على رأسه ليكون ظلاً له من كربه فرح باليقطين فرحاً عظيماً وأمر الله تعالى دودة فضربت اليقطين فجف ثم هبت ريح سموم وأشرقت الشمس على رأس يونس عليه السلام فعظم الأمر عليه واستطيب الموت فقال له الرب : يا يونس أحزنت جداً على اليقطين ؟ فقال : نعم يا رب حزنت جداً فقال سبحانه : حزنت عليه وأنت لم تتعب فيه ولم تربه بل صار من ليلته وهلك من ليلته فأنا لا أشفق على نينوى المدينة العظيمة التي فيها سكان أكثر من اثني عشر ربوة من الناس قوم لا يعلمون يمينهم ولا شمالهم وبهائمهم كثيرة انتهى ، وفيه من المخالف للحق ما فيه ؛ ولتطلع على حاله نقلته لك وكم لأهل الكتاب من باطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) ﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر إنجاء الذبيح من الذبح ، وما منّ عليه بعد ذلك من النبوّة ذكر ما منّ به على موسى ، وهارون ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا على موسى وهارون ﴾ يعني : بالنبوّة ، وغيرها من النعم العظيمة التي أنعم الله بها عليهما ﴿ ونجيناهما وَقَوْمَهُمَا مِنَ الكرب العظيم ﴾ المراد بقومهما هم : المؤمنون من بني إسرائيل ، والمراد بالكرب العظيم هو : ما كانوا فيه من استعباد فرعون إياهم ، وما كان يصيبهم من جهته من البلاء ، وقيل : هو الغرق الذي أهلك فرعون ، وقومه ، والأوّل أولى ﴿ ونصرناهم ﴾ جاء بضمير الجماعة . قال الفراء : الضمير لموسى ، وهارون ، وقومهما ، لأن قبله ، ﴿ نجيناهما ، وقومهما ﴾ والمراد بالنصر : التأييد لهم على عدوّهم ﴿ فَكَانُواْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ هُمُ الغالبين ﴾ على عدوّهم بعد أن كانوا تحت أسرهم ، وقهرهم ، وقيل : الضمير في ﴿ نصرناهم ﴾ عائد على الاثنين موسى ، وهارون تعظيماً لهما ، والأوّل أولى ﴿ وءاتيناهما الكتاب المستبين ﴾ المراد بالكتاب : التوراة ، والمستبين : البين الظاهر ، يقال : استبان كذا . أي : صار بيناً ﴿ وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ أي : القيم لا اعوجاج فيه ، وهو دين الإسلام ، فإنه الطريق الموصلة إلى المطلوب ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى الآخرين * سلام على موسى وهارون ﴾ أي : أبقينا عليهما في الأمم المتأخرة الثناء الجميل ، وقد قدّمنا الكلام

في السلام ، وفي وجه إعرابه بالرفع ، وكذلك تقدّم تفسير ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ في هذه السورة .

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال المفسرون : هو نبيّ من أنبياء بني إسرائيل ، وقصته مشهورة مع قومه ، قيل : وهو إلياس بن ياس من سبط هارون أخي موسى .

(126/655)

---

قال ابن إسحاق ، وغيره : كان إلياس هو القيم بأمر بني إسرائيل بعد يوشع ، وقيل : هو إدريس ، والأوّل أولى .

قرأ الجمهور ﴿ إلياس ﴾ بهمزة مكسورة مقطوعة ، وقرأ ابن ذكوان بوصلها ، ورويت هذه القراءة عن ابن عامر ، وقرأ ابن مسعود ، والأعمش ، ويحيى بن وثاب " وإن إدريس لمن المرسلين " ، وقرأ أبيّ " وإن إبليس " بهمزة مكسورة ، ثم تحتية ساكنة ، ثم لام مكسورة ، ثم تحتية ساكنة ، ثم سين مهملة مفتوحة ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ هو ظرف لقوله ﴿ من المرسلين ﴾ ، أو متعلق بمحذوف ، أي : اذكر يا محمد إذ قال ، والمعنى : ألا تتقون عذاب الله ؟ ثم أنكر عليهم بقوله : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ هو : اسم لصنم كانوا يعبدونه ، أي : أتعبدون صنماً ، وتطلبون الخير منه .

قال ثعلب : اختلف الناس في قوله سبحانه : ﴿ بَعْلًا ﴾ فقالت طائفة : البعل هنا الصنم ، وقالت طائفة : البعل هنا ملك ، وقال ابن إسحاق : امرأة كانوا يعبدونها .

قال الواحدي : والمفسرون يقولون : رباً ، وهو بلغة اليمن ، يقولون للسيد ، والربّ : البعل .

قال النحاس : القولان صحيحان ، أي : أتدعون صنماً عملتوه رباً ؟ ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخالقين ﴾ أي : وتتركون عبادة أحسن من يقال له خالق ، وانتصاب الاسم الشريف في قوله : ﴿ اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءابَائِكُمُ الأولين ﴾ على أنه بدل من ﴿ أحسن ﴾ ، هذا على قراءة حمزة ، والكسائي ، والربيع بن خثيم ، وابن أبي إسحاق ، ويحيى بن وثاب ، والأعمش ، فإنهم قرؤوا بنصب الثلاثة الأسماء .

وقيل : النصب على المدح ، وقيل : على عطف البيان ، وحكى أبو عبيد : أن النصب على النعت .

قال النحاس : وهو غلط ، وإنما هو بدل ، ولا يجوز النعت .

لأنه ليس بتحلية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وأبو حاتم .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وأبو جعفر ، وشيبة ، ونافع بالرفع .

قال أبو حاتم : بمعنى : هو الله ربكم .

قال النحاس : وأولى ما قيل : إنه مبتدأ ، وخبر بغير إضمار ، ولا حذف .

وحكي عن الأخفش : أن الرفع أولى وأحسن .

قال ابن الأنباري : من رفع ، أو نصب لم يقف على ﴿ أحسن الخالقين ﴾ على جهة التمام ؛ لأن الله مترجم عن أحسن الخالقين على الوجهين جميعاً ، والمعنى أنه خالقكم ، وخالق من قبلكم ، فهو الذي تحقّ له العبادة .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي : فإنهم بسبب تكذيبه لمحضرون في العذاب ، وقد تقدّم أن الإحضار المطلق ، مخصوص بالشرّ ﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ أي : من كان مؤمناً به من قومه ، قرئ بكسر اللام ، وفتحها كما تقدّم ، والمعنى على قراءة الكسر : أنهم أخلصوا لله ؛ وعلى قراءة الفتح : أن الله استخلصهم من عباده .

وقد تقدّم تفسير ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخرين سلام على إِلْيَاسِينَ ﴾ قرأ نافع ، وابن عامر ، والأعرج ، وشيبة على ﴿ آل ياسين ﴾ بإضافة آل بمعنى : آل ياسين ، وقرأ الباقون بكسر الهمزة ، وسكون اللام موصولة بياسين إلا الحسن ، فإنه قرأ " الياسين " بإدخال آلة التعريف على ياسين .

قيل : المراد على هذه القراءات كلها إلياس ، وعليه وقع التسليم ، ولكنه اسم أعجمي ، والعرب تضطرب في هذه الأسماء الأعجمية ، ويكثر تغييرهم لها .

قال ابن جني : العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعباً ؛ فياسين ، وإلياس ، وإلياسين شيء واحد .

قال الأخفش : العرب تسمي قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم ، فيقولون : المهالبة ، على أنهم سموا كل رجل منهم بالمهلب .

قال : فعلى هذا إنه سمي كل رجل منهم بالياسين .

قال الفراء : يذهب بالياسين إلى أن يجعله جمعاً ، فيجعل أصحابه داخلين معه في اسمه .

قال أبو عليّ الفارسي : تقديره : الياسيين ، إلا أن الياءين للنسبة حذفتا كما حذفتا في الأشعرين ، والأعجمين .



---

ورجح الفرّاء ، وأبو عبيدة قراءة الجمهور قالا : لأنه لم يقل في شيء من السور على آل فلان ، إنما جاء بالاسم كذلك الياسين ؛ لأنه إنما هو بمعنى : إلياس ، أو بمعنى : إلياس ، وأتباعه .

وقال الكلبي : المراد بآل ياسين : آل محمد .

قال الواحدي : وهذا بعيد ؛ لأن ما بعده من الكلام ، وما قبله لا يدلّ عليه ، وقد تقدّم تفسير ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ مستوفى .

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قد تقدّم ذكر قصة لوط مستوفاة ﴿ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ الظرف متعلق بمحذوف هو اذكر، ولا يصح تعلقه بالمرسلين، لأنه لم يرسل وقت تنجيته ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ قد تقدم أن الغابر يكون بمعنى: الماضي، ويكون بمعنى: الباقي، فالمعنى: إلا عجوزاً في الباقين في العذاب، أو الماضين الذين قد هلكوا ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أي: أهلكناهم بالعقوبة، والمعنى: أن في نجاته، وأهله جميعاً إلا العجوز، وتدمير الباقين من قومه الذين لم يؤمنوا به دلالة بينة على ثبوت كونه من المرسلين ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾ خاطب بهذا العرب، أو أهل مكة على الخصوص، أي: تمرون على منازلهم التي فيها آثار العذاب وقت الصباح ﴿ وبالليل ﴾ ، والمعنى: تمرون على منازلهم في ذهابكم إلى الشام، ورجوعكم منه نهاراً، وليلاً ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ما تشاهدونه في ديارهم من آثار عقوبة الله النازلة بهم، فإن في ذلك عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتدبرين ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ يونس هو: ذو النون، وهو: ابن متى.

قال المفسرون : وكان يونس قد وعد قومه العذاب ، فلما تأخر عنهم العذاب خرج عنهم ، وقصد البحر ، وركب السفينة ، فكان بذهابه إلى البحر كالفار من مولاه ، فوصف بالإباق ، وهو معنى قوله : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الفلك المشحون ﴾ وأصل الإباق : الهرب من السيد ، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه وصف به .

وقال المبرد : تأويل أبق بباعد ، أي : ذهب إليه ، ومن ذلك قولهم : عبد آبق .

وقد اختلف أهل العلم هل كانت رسالته قبل التقام الحوت إياه ، أو بعده ؟ ومعنى المشحون : المملوء ﴿ فساهم فَكَانَ مِنَ المدحضين ﴾ المساهمة أصلها : المغالبة ، وهي : الاقتراع ، وهو : أن يخرج السهم على من غلب .

قال المبرد : أي : فقارع .

قال : وأصله من السهام التي تجال ، ومعنى ﴿ فَكَانَ مِنَ المدحضين ﴾ : فصار من المغلوبين .

قال : يقال : دحضت حجته ، وأدحضها الله ، وأصله من الزلق عن مقام الظفر ، ومنه قول الشاعر :

قتلنا المدحضين بكل فج . . . فقد قرت بقتلهم العيون

أي : المغلوبين ﴿ فالتقمه الحوت وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ يقال : لقمت اللقمة ، والتقمتها : إذا ابتلعتها ، أي : فابتلعه الحوت ، ومعنى ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ : وهو مستحق للوم ، يقال : رجل مليم :

إذا أتى بما يلام عليه ، وأما الملوم ، فهو : الذي يلام سواء أتى بما يستحق أن يلام عليه أم لا ،

وقيل : المليم : المعيب ، يقال : ألام الرجل : إذا عمل شيئاً صار به معيباً .

ومعنى هذه المساهمة : أن يونس لما ركب السفينة احتبست .

فقال الملاحون : ها هنا عبد أبق من سيده ، وهذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لا تجري ، فاقترعوا ، فوقعت القرعة على يونس ، فقال : أنا الآبق ، وزج نفسه في الماء .

(130/655)

---

قال سعيد بن جبير : لما استهموا جاء حوت إلى السفينة فاغراً فاه ينتظر أمر ربه حتى إذا ألقى نفسه في الماء أخذه الحوت ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ أي : الذاكرين لله ، أو المصلين له ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي : لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم البعث .

وقيل : للبث في بطنه حياً .

واختلف المفسرون : كم أقام في بطن الحوت ؟ فقال السدي ، والكلبي ، ومقاتل بن سليمان : أربعين يوماً .

وقال الضحاك : عشرين يوماً .

وقال عطاء : سبعة أيام .

وقال مقاتل بن حيان : ثلاثة أيام ، وقيل : ساعة واحدة .

وفي هذه الآية ترغيب في ذكر الله ، وتنشيط للذاكرين له .

﴿ فنبذناه بالعراء وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ النبذ : الطرح ، والعراء .

قال ابن الأعرابي : هو : الصحراء ، وقال الأخفش : الفضاء ، وقال أبو عبيدة : الواسع من الأرض ، وقال الفراء : المكان الخالي .

وروي عن أبي عبيدة أيضاً أنه قال : هو وجه الأرض ، وأنشد لرجل من خزاعة :

ورفعت رجلاً لا أخاف عثارها . . . ونبذت بالبلد العراء ثيابي

والمعنى : أن الله طرحه من بطن الحوت في الصحراء الواسعة التي لا نبات فيها ، وهو عند إلقائه سقيم لما ناله في بطن الحوت من الضرر ، قيل : صار بدنه كبدن الطفل حين يولد .

وقد استشكل بعض المفسرين الجمع بين ما وقع هنا من قوله : ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ ، وقوله في موضع آخر : ﴿ لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مّن رَّبّهِ لَنُبِذَ بالعراء وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ [ القلم : 49 ] فإن هذه الآية تدل على أنه لم ينبذ بالعراء .

وأجاب النحاس ، وغيره بأن الله سبحانه أخبر ها هنا : أنه نبذ بالعراء ، وهو غير مذموم ، ولولا رحمته عزّ وجلّ لنبذ بالعراء ، وهو مذموم .

﴿ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مّن يَقْطِينٍ ﴾ أي : شجرة فوقه تظلل عليه ، وقيل : معنى ﴿ عليه

﴾ : عنده .

وقيل : معنى عليه : له .

واليقطين : هي شجرة الدباء .

(131/655)

---

وقال المبرد : اليقطين يقال : لكل شجرة ليس لها ساق ، بل تمتد على وجه الأرض نحو الدباء ، والبطيخ ، والحنظل ، فإن كان لها ساق يقلها ، فيقال لها : شجرة فقط ، وهذا قول الحسن ، ومقاتل ، وغيرهما .

وقال سعيد بن جبير : هو كل شيء ينبت ، ثم يموت من عامه .

قال الجوهري : اليقطين : ما لا ساق له من شجر كشجر القرع ، ونحوه .

قال الزجاج : اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان ، أي : أقام به ، فهو يفعيل ، وقيل : هو اسم أعجمي .

قال المفسرون : كان يستظل بظلها من الشمس ، وقيض الله له أروية من الوحش تروح عليه بكرة ، وعشية ، فكان يشرب من لبنها حتى اشتد لحمه ، ونبت شعره ، ثم أرسله الله بعد ذلك .

وهو معنى قوله : ﴿ وأرسلناه إلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ هم قومه الذين هرب منهم إلى البحر ، وجرى له ما جرى بعد هربه ، كما قصه الله علينا في هذه السورة ، وهم : أهل نينوى .

قال قتادة : أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل .

وقد مر الكلام على قصته في سورة يونس مستوفى ، و "أو" في ﴿ أو يزيدون ﴾ قيل : هي بمعنى : الواو ، والمعنى : ويزيدون .

وقال الفراء : أو ها هنا بمعنى : بل ، وهو قول مقاتل ، والكلبي .

وقال المبرد ، والزجاج ، والأخفش : أو هنا على أصله ، والمعنى : أو يزيدون في تقديركم إذا رآهم الرائي قال : هؤلاء مائة ألف ، أو يزيدون ، فالشك إنما دخل على حكاية قول المخلوقين .

قال مقاتل ، والكلبي : كانوا يزيدون عشرين ألفاً .

وقال الحسن : بضعاً وثلاثين ألفاً .

وقال سعيد بن جبير : سبعين ألفاً .

وقرأ جعفر بن محمد ، "ويزيدون" بدون ألف الشك .

وقد وقع الخلاف بين المفسرين : هل هذا الإرسال المذكور هو الذي كان قبل التقام الحوت له ، وتكون الواو في : ﴿ وأرسلناه ﴾ لمجرد الجمع بين ما وقع له مع الحوت ، وبين إرساله إلى قومه ، من غير اعتبار تقديم ما تقدم في السياق ، وتأخير ما تأخر ، أو هو إرسال له بعد ما وقع له مع الحوت ما وقع على قولين ؟ وقد قدمنا الإشارة إلى الاختلاف بين أهل العلم هل كان قد أرسل قبل أن يهرب من قومه إلى البحر ، أو لم يرسل إلا بعد ذلك ؟ والراجح : أنه كان رسولاً قبل أن يذهب إلى البحر كما يدل عليه ما قدمنا في سورة يونس ، وبقي مستمراً على الرسالة ، وهذا الإرسال المذكور هنا هو بعد تقدم نبوته ، ورسالته .

﴿ فَئَامَنُواْ فمتعناهم إلى حِينٍ ﴾ أي : وقع منهم الإيمان بعد ما شاهدوا أعلام نبوته ، فمتعهم الله في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم ، ومنتهى أعمارهم .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن عساكر عن ابن مسعود قال : إلياس هو : إدريس .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير عن قتادة مثله .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال صلى الله عليه وسلم: "الخضر هو: إلياس"

وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، وضعفه عن أنس قال: "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فنزل منزلاً، فإذا رجل في الوادي يقول: اللّهم اجعلني من أمة محمد صلى الله عليه وسلم المرحومة المغفور المثاب لها، فأشرفت على الوادي، فإذا طوله ثمانون ذراعاً وأكثر، فقال: من أنت؟ فقلت: أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أين هو؟ فقلت: هو ذا يسمع كلامك، قال: فأته، وأقرئه مني السلام، وقل له: أخوك إلياس يقرئك السلام، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبرته، فجاء حتى عانقه، وقعدا يتحدّثان، فقال له: يا رسول الله إني إنما آكل في كلّ سنة يوماً، وهذا يوم فطري، فآكل أنا وأنت، فنزلت عليهما المائدة من السماء خبز، وحوت، وكرفس، فأكلا، وأطعماني، وصليا العصر، ثم ودّعه، ثم رأيته مرّ على السحاب نحو السماء".

قال الذهبي متعقباً لتصحيح الحاكم له: بل موضوع قبح الله من وضعه.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ قال: صنماً.

وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عنه في قوله: ﴿ سلام على إِلْيَاسِينَ ﴾ قال: نحن آل محمد آل ياسين.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: بعث الله يونس إلى أهل قريته،

فردّوا عليه ما جاءهم به ، فامتنعوا منه ، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليهم إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا ، وكذا .

(134/655)

---

فأخرج من بين أظهرهم ، فأعلم قومه الذي وعد الله من عذابه إياهم ، فقالوا : ارمقوه ، فإن خرج من بين أظهركم ، فهو والله كائن ما وعدكم ، فلما كانت الليلة التي وعدوا بالعذاب في صبيحتها أدلج ، فرآه القوم ، فحذروا ، فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم ، وفرّقوا بين كلّ دابة ، وولدها ، ثم عجوا إلى الله ، وأنابوا ، واستقالوا ، فأقالهم الله ، وانتظر يونس الخبر عن القرية ، وأهلها حتى مرّ به مارّ ، فقال : ما فعل أهل القرية ؟ قال : إن نبيهم لما خرج من بين أظهرهم عرفوا أنه قد صدقهم ما وعدهم من العذاب ، فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض ، ثم فرقوا بين كلّ ذات ولد وولدها ، ثم عجوا إلى الله ، وتابوا إليه ، فتقبل منهم ، وأخرّ عنهم العذاب ، فقال يونس عند ذلك : لا أرجع إليهم كذاباً أبداً ، ومضى على وجهه ، وقد قدّمنا الكلام على قصته ، وما روي فيها في سورة يونس ، فلا نكرره .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي عن ابن عباس في قوله : ﴿ فساهم ﴾ قال : اقترع ﴿ فَكَانَ مِنَ المدحضين ﴾ قال : المقروعين .

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ قال: مسيء.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين ﴾ قال: من المصلين.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ قال: ألقيناه بالساحل.

وأخرج هؤلاء عنه أيضاً ﴿ شَجَرَةً مّن يَقْطِينٍ ﴾ قال: القرع.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير عنه أيضاً قال: اليقطين: كلّ شيء يذهب على وجه الأرض.

(135/655)

---

وأخرج أحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت، ثم تلا: ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ إلى قوله: ﴿ وأرسلناه إلى مِاْئَةِ أَلْفٍ ﴾ وقد تقدّم عنه ما يدلّ على أن رسالته كانت من قبل ذلك، وليس في الآية: ما يدلّ على ما ذكره كما قدّمنا.

وأخرج الترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبيّ بن كعب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله : ﴿ وأرسلناه إلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قال : يزيدون عشرين ألفاً .

قال الترمذي : غريب .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : يزيدون ثلاثين ألفاً .

وروي عنه أنهم يزيدون بضعة وثلاثين ألفاً .

وروي عنه : أنهم يزيدون بضعة وأربعين ألفاً ، ولا يتعلق بالخلاف في هذا كثير فائدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

*(136/655)*

---

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) ﴾

تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية ، وتفسيره في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَنُوحاً إِذْ نادى مِن قَبْلُ فاستجبنا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ [ الأنبياء : 76 ] .

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86)

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية بكثرة في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ واذكر فِي الكتاب إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يا أبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ﴾ [ مريم : 4142 ] الآية .

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99)

اعلم أولاً أن العلماء اختلفوا في هذه الغلام الذي أمر إبراهيم في المنام بذبحه ، ومعلوم أن رؤيا الأنبياء وحي ، ثم لما باشر عمل ذبحه امتثالاً للأمر ، فداه الله بذبح عظيم ، هل هو إسماعيل أو إسحاق ؟ وقد وعدنا في سورة الحجر ، بأنا نوضح ذلك بالقرآن في سورة الصافات ، وهذا وقت إنجاز الوعد .

اعلم وفقني الله وإياك . أن القرآن العظيم قد دل في موضعين ، على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق أحدهما في الصافات ، والثاني في هود .

*(137/655)*

---

أما دلالة آيات الصافات على ذلك فهي واضحة جداً من سياق الآيات ، وإيضاح ذلك أنه تعالى قال عن نبيه إبراهيم : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ

الصالحين فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعي قَالَ يا بني إني أرى فِي المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ فانظر مَاذَا ترى قَالَ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ ستجدني إن شَآءَ الله مِنَ الصابرين فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَن يا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين سَلَامٌ على إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ [ الصافات : 99110 ] قال بعد ذلك عاطفاً على البشارة الأولى : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين ﴾ [ الصافات : 112 ] فدل ذلك على أن البشارة الأولى شيء غير المبشر به في الثانية لأنه لا يجوز حمل كتاب الله على أن معناه : فبشرناه بإسحاق ، ثم بعد انتهاء قصة ذبحه يقول أيضاً : وبشرناه بإسحاق ، فهو تكرار لا فائدة فيه ينزّه عنه كلام الله ، وهو واضح في أن الغلام المبشّر به أولاً الذي فُدي بالذبح العظيم ، هو إسماعيل ، وأن البشارة بإسحاق نص الله عليها مستقلة بعد ذلك .

وقد أوضحنا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [ النحل : 97 ] الآية . أن المقرر في الأصول أن النص من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إذا احتمل التأسيس والتأكيد معاً ، وجب حمله على التأسيس ولا يجوز حمله على التأكيد إلا لدليل يجب الرجوع إليه .

ومعلوم في اللغة العربي ، أن العطف يقتضي المغايرة ، فآية الصافات هذه دليل واضح للمنصف على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق ، ويستأنس لهذا بأن المواضع التي ذكر فيها إسحاق يقيناً عبر عنه في كلها بالعلم لا الحلم ، وهذا الغلام الذبيح وصفة بالحلم لا العلم .

وأما الموضع الثاني الدال على ذلك ذكرنا أنه في سورة هود فهو قوله تعالى : ﴿ وامرأته قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [ هود : 71 ] لأن رسل الله من الملائكة بشرتها بإسحاق ، وأن إسحاق يلد يعقوب ، فكيف يعقل أن يؤمر إبراهيم بذبحه ، وهو صغير ، وهو عنده علم يقين بأنه يعيش حتى يلد يعقوب .

فهذه الآية أيضاً دليل واضح على ما ذكرنا ، فلا ينبغي للمنصف الخلاف في ذلك بعد دلالة هذه الأدلة القرآنية على ذلك . والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

اعلم أن قصة الذبيح هذه تؤيد أحد القولين المشهورين ، عند أهل الأصول في حكمه التكليف ، هل هي للامتثال فقط ، أو هي مترددة بين الامتثال والابتلاء ، لأنه بين في هذه الآية الكريمة أن حكمه تكليفه لإبراهيم بذبحه ولده ليست هي امتثاله ذلك بالفعل ، لأنه لم يرد ذبحه كوناً وقدراً وإنما حكمه تكليفه بذلك مجرد الابتلاء والاختبار ، هل يصمم على امتثال ذلك أو لا ، كما صرح بذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ

عَظِيمٍ ﴾ [ الصافات : 106107 ] فتبين بهذا أن التحقيق أن حكمه التكليف مترددة بين الامتثال والابتلاء . وإلى الخلاف المذكور أشار في مراقي السعود بقوله :

للامتثال كلف الرقيب . . . فموجب تمكنا مصيب

أو بينه والابتلاء ترددا . . . شرط تمكن عليه انفقدا

(139/655)

---

وقد أشار بقوله : فموجب تمكنا مصيب . وقوله : شرط تمكن عليه انفقدا ، إلى أن شرط التمكن من الفعل في التكليف ، مبني على الخلاف المذكور ، فمن قال : إن الحكمة في التكليف هي الامتثال فقد اشترط في التكليف التمكن من الفعل ، لأنه لا امتثال إلا مع التمكن من الفعل ، ومن قال إن الحكمة مترددة بين الامتثال والابتلاء ، لم يشترط التمكن من الفعل ، لأن الحكمة الابتلاء تتحقق مع عدم التمكن من الفعل كما لا يخفى ، ومن الفروع المبنية على هذا الخلاف أن تعلم المرأة بالعادة المطردة أنها تحيض ، بعد الظهر غداً من نهار رمضان ، ثم حصل لها الحيض بالفعل ، فتصبح مفطرة قبل إتيان الحيض ، فعلى أن حكمة التكليف الامتثال فقط ، فلا كفارة عليها ، ولها أن تفطر ، لأنها عالمة بأنها لا تتمكن من الامتثال ، وعلى أن الحكمة تارة تكون الامتثال وتارة تكون الابتلاء ، فإنها يجب عليها

تبييت الصوم ، ولا يجوز لها الإفطار إلا بعد مجيء الحيض بالفعل ، وإن أفطرت قبله كفَّرت . وكذلك من أفطر لحمى تصيبه غداً ، وقد علم ذلك بالعادة فهو أيضاً ينبني على الخلاف المذكور .

وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113)

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [ البقرة : 124 ] .

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114)

ذكر جل وعلا منته عليهما في غير هذا الموضع ، كقوله في طه : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى ﴾ [ طه : 3637 ] لأن من سؤاله الذي أوتيته إجابة دعوته في رسالة أخيه هارون معهن ومعلوم أن الرسالة من أعظم المنن .

وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115)

قوله: ﴿ وَقَوْمَهُمَا ﴾ يعني بني إسرائيل.

والمعنى: أنه نجى موسى وهارون وقومهما من الكرب العظيم، وهو ما كان يسومهم فرعون وقومه من العذاب، كذبح الذكور من أبنائهم وإهانة الإناث، وكيفية إنجائه لهم مبينة في انفلاق البحر لهم، حتى خاضوه سالمين، وإغراق فرعون وقومه وهم ينظرون.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [ البقرة: 50 ]. وقدمنا تفسير الكرب العظيم في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى في قصة نوح ﴿ فاستجبنا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ [ الأنبياء: 76 ].

وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (116)

بين جلّ وعلا أنه نصر موسى وهارون وقومهما على فرعون، وجنوده، فكانوا هم الغالبين: أي وفرعون وجنوده هم المغلوبون، وذلك بأن الله أهلكهم جميعاً بالغرق، وأنجى موسى وهارون وقومهما من ذلك الهلاك، وفي ذلك نصر عظيم لهم عليهم وقد بيّن جل وعلا ذلك في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ [ القصص: 35 ] إلى غير ذلك من الآيات.

وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117)

الكتاب هو التوراة كما ذكره في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لبني إِسْرَائِيلَ ﴾ [ السجدة : 23 ] وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب تَمَاماً عَلَى الذي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [ الأنعام : 154 ] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى الكتاب لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [ المؤمنون : 49 ] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى وَهَارُونَ الفرقان وَضِيَآءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [ الأنبياء : 48 ] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا بعض الكلام على ذلك في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب والفرقان ﴾ [ البقرة : 53 ] الآية .

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (138)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [ الحجر : 76 ] وفي سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذلك كَتَبْنَا على بني إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأرض فَكَأَنَّمَا قَتَلَ الناس

جَمِيعاً ﴾ [المائدة: 32] وغير ذلك من المواضع.

فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144)

تسبيح يونس هذا، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام المذكور في الصافات، جاء موضحاً في الأنبياء في قوله تعالى: ﴿ وَذَا النون إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فنادى فِي الظلمات أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين فاستجبنا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ [الأنبياء: 8788].

(142/655)

---

فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (148)

ما ذكره في هذه الآية الكريمة من إيمان قوم يونس وأن الله متعهم إلى حين، ذكره أيضاً في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ ﴾ [يونس: 98]. انتهى انتهى.

اهـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(143/655)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) ﴾

يونس هو ابن متّى ، واسمه بالعبرانية ( يُونا ن بن آمتّاي ) ، وهو من أهل فلسطين ، وهو من أنبياء بني إسرائيل أرسله الله إلى أهل ( نينوَى ) وكانت نينَوى مدينة عظيمة من بلاد الأشوريين وكان بها أسرى بني إسرائيل الذين بأيدي الأشوريين وكانوا زهاء مائة ألف بقُوا بعد ( دانيال ) .

وكان يونس في أول القرن الثامن قبل المسيح ، وقد تقدم ذكره وذكر قومه في الأنعام وسورة يونس .

و ﴿ إذ ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿ المُرسلينَ ﴾ ، وإنما وُقتت رسالته بالزمن الذي أَبَق فيه إلى الفُلك لأن فَعلته تلك كانت عندما أمره الله بالذهاب إلى نينَوى لِإبلاغ بني إسرائيل أن الله غضب عليهم لأنهم انحرفوا عن شريعتهم .

فحينما أوحى الله إليه بذلك عَظم عليه هذا الأمر فخرج من بلده وقصد مرسى ( يافا ) ليذهب إلى مدينة ( ترشيش ) وهي طرطوسِية على شاطىء بلاد الشام فهال البحر حتى اضطر أهل السفينة إلى تخفيف عدد ركابها فاستهموا على من يطرحونه من سفينتهم في البحر فكان يونس ممن خرج سهم إلقائه في البحر فالْتَقَمه حوت عظيم وجرت قصته

المذكورة في سورة الأنبياء ، فلما كان هروبه من كلفة الرسالة مقارناً لإرساله وُقّت بكونه من المرسلين .

و ﴿ أَبَقَ ﴾ مصْدره إِباق بكسر الهمزة وتخفيف الباء وهو فرار العبد مِن مالكه .

وفعله كضرب وسمع .

والمراد هنا : أن يونس هرب من البلد الذي أوحي إليه فيه قاصداً بلداً آخر تخلصاً من إبلاغ رسالة الله إلى أهل ( نِينْوَى ) ولعله خاف بأْسَهم واتّهم صبرَ نفسه على أذاهم المتوَّقَعَ لأنهم كانوا من بني إسرائيل في حماية الأشوريين .

فِفعل ﴿ أَبَق ﴾ هنا استعارة تمثيلية ، شبّهت حالة خروجه من البلد الذي كلّفه ربه فيه بالرسالة تباعداً من كلفة ربه بإباق العبد من سيده الذي كلّفه عملاً .

و ﴿ الفُلْك المشحون ﴾ : المملوء بالراكبين ، وتقدم معناه في قصة نوح .

وساهم : قَارع .

(144/655)

---

وأصله مشتق من اسم السَّهم لأنهم كانوا يقترعون بالسهام وهي أعواد النبال وتُسمّى الأزلام .

وتفريع ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ يؤذن بجمل محذوفة تقديرها : فهال البحر وخاف الراكبون الغرق فساهم .

وهذا نظير التفريع في قوله تعالى : ﴿ أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ﴾ [ الشعراء : 63 ] والمذكور في كتاب "يونان" من كتب اليهود : أن بعضهم قال لبعض : هلمّ نُلْقِ قرعة لنعرف مَن هو سبب هذه البلية فألقَوا قرعة فوقعت على يونس .

وعن ابن عباس ووهب بن منبه أن القرعة خرجت ثلاث مرات على يونس .

وسُنة الاقتراع في أسفار البحر كانت متَّبعة عند الأقدمين إذا ثقُلت السفينة بوفرة الراكبين أو كثرة المتاع .

وفيها قصة الحيلة التي ذكرها الصفدي في "شرح الطغرائية" : أن بعض الأصحاب يدعي أن مركباً فيه مسلمون وكفار أشرف على الغرق وأرادوا أن يرموا بعضهم إلى البحر ليخفّ المركب فينجو بعضهم ويسلم المركب فقالوا : نقترع فمن وقعت القرعة عليه ألقيناه .

فنظر رئيس المركب إليهم وهم جالسون على هذه الصورة فقال : ليس هذا حكماً مرضياً وإنما نَعدّ الجماعة فمن كان تاسعاً ألقيناه فارتضَوْا بذلك فلم يزل يعدهم ويلقي التاسع فالتاسع إلى أن ألقى الكفار وسلم المسلمون وهذه صورة ذلك ( وصوّر دائرة فيها علامات حمر وعلامات سود ، فالحمر للمسلمين ومنهم ابتداءُ العَدّ وهو إلى جهة الشِمال ) قال :

ولقد ذكرتها لنور الدين علي بن إسماعيل الصفدي فأعجبته وقال : كيف أصنع بحفظ

هذا الترتيب فقلت له : الضابط في هذا البيت تجعل حروفه المعجمة للكفار والمهملة للمسلمين وهو :

اللَّه يقضي بكل يسر

ويرزق الضيف حين كانا ا .

. . . ه

وكانت القرعة طريقاً من طرق القضاء عند التباس الحق أو عند استواء عدد في استحقاق شيء .

(145/655)

---

وقد تقدم في سورة آل عمران ( 44 ) عند قوله : ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴾ وهي طريقة إقناعية كان البشر يصيرون إليها لفصل التنازع يزعمون أنها دالة على إرادة الله تعالى عند الأمم المتدينة ، أو إرادة الأصنام عند الأمم التي تعبد الأصنام تمييزَ صاحب الحق عند التنازع .

ولعلها من مخترعات الكهنة وسَدنة الأصنام .

فلما شاعت في البشر أقرتها الشرائع لما فيها من قطع الخصام والقتال ، ولكن الشرائع الحقّ

لما أقرتها اقتصدت في استعمالها بحيث لا يُصار إليها إلا عند التساوي في الحقّ وفقدانِ المرجِّح، الذي هو مؤثر في نوع ما يختلفون فيه، فهي من بقايا الأوهام.

وقد اقتصرت الشريعة الإِسلامية في اعتبارها على أقل ما تعتبر فيه.

مثل تعيين أحد الأقسام المتساوية لأحد المتقاسِمين إذ تشاحوا في أحدها، قال ابن رشد في المقدمات ﴿ : "والقرعة إنما جعلت تطييباً لأنفس المتقاسمين وأصلها قائم في كتاب الله لقوله تعالى في قصة يونس : ﴿ فساهم فكان من المدحضين.

وعندي : أن ليس في الآية دليل على مشروعية القرعة في الفصل بين المتساويين لأنها لم تحك شرعاً صحيحاً كان قبل الإِسلام إذ لا يعرف دين أهل السفينة الذين أجرَوْا الاستهام على يونس، على أن ما أُجري الاستهام عليه قد أجمع المسلمون على أنه لا يجري في مثله استهام.

فلو صح أن ذلك كان شرعاً لمن قبلنا فقد نسخه إجماع علماء أمتنا.

قال ابن العربي : الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر لا يجوز فكيف المسلم فإنه لا يجوز فيمن كان عاصياً أن يقتل ولا أن يرمَى به في النار والبحر.

وإنما تجري عليه الحدود والتعزيرُ على مقدار جنايته.

وظَنّ بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم فاضطروا إلى تخفيف السفينة أن القرعة

تضرب عليهم فيطرح بعضهم تخفيفاً ، وهذا فاسد فلا تُخفَّف برَمْي بعض الرجال وإنما ذلك في الأموال وإنما يصبِرون على قضاء الله .

(146/655)

---

وكانت في شريعة من قبلنا القرعة جائزة في كل شيء على العموم .

وجاءت القرعة في شرعنا على الخصوص في ثلاثة مواطن :

الأول : ﴿ كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه .

الثاني : أن النبي صلى الله عليه وسلم رُفع إليه أن رجلاً أعتق في مَرض موته ستة أعبد لا مال له غيرهم فأقرع بين اثنين وهما معادل الثلث وأرقّ أربعة .

الثالث : أن رجلين اختصما إليه في مواريث درست ، فقال : اذهبا وتوخيا الحق واستَهِما وليُحَلل كل واحد منكما صاحبَه .

واختلف علماؤنا في القرعة بين الزوجات عند الغزو على قولين : الصحيح منهما الاقتراعُ ، وبه قال أكثر فقهاء الأمصار ، وذلك لأن السفر بجميعهن لا يمكن واختيار واحدة منهن إيثار فلم يبق إلا القرعة .

قال القرافي في "الفرق" (240) : متى تعينت المصلحة أو الحق في جهة لا يجوز الاقتراع لأن في القرعة ضياع الحق ومتى تساوت الحقوق أو المصالح فهذا موضع القرعة دفعاً للضغائن فهي مشروعة بين الخُلَفاء إذا استوت فيهم الأهلية للولاية والأيمةِ والمؤذنين إذ استووا والتقدم للصف الأول عند الازدحام وتغسيل الأموات عند تزاحم الأولياء وتساويهم وبين الحاضنات والزوجات في السفر والقسمة والخصوم عند الحكام في عتق العبيد إذا أوصى بعتقهم في المرض ولم يحملهم الثلث .

وقاله الشافعي وابن حنبل .

وقال أبو حنيفة : لا تجوز القرعة (بينهم) .

ويعتق من كل واحِد ثلثُه ويستسعَى في قيمته ووافق في قيمة الأرض .

قال : والحق عندي أنها تجري في كل مشكل ا ه .

قلت : وفي "الصحيح" "عن أم العلاء الأنصارية أنه لما اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين وقع في سهمهم عثمانُ بن مظعُون" الحديث .

وقال الجصاص : (احتج بهذه الآية بعض الأغمار في إيجاب القرعة في العبيد يعتقهم المريض .

وذلك إغفال منه لأن يونس ساهم في طرحه في البحر وذلك لا يجوز عند أحد من الفقهاء كما لا تجوز القرعة في قتل من خرجت عليه وفي أخذ ماله فدلّ على أنه خاص فيه ) .

وقال في سورة آل عمران : "ومن الناس من يحتج بإلقاء الأقلام في كفالة مريم" على جواز القرعة في العبيد يعتقهم الرجل في مَرضه ثم يموت ولا مال له غيرهم وليس هذا ( أي إلقاء الأقلام ) من عتق العبيد في شيء لأن الرضى بكفالة الواحِد منهم مَريمَ جائزٌ في مثله ولا يجوز التراضي على استرقاق من حصلت له الحرية ، وقد كان عتق الميّت نافذاً في الجميع فلا يجوز نقله بالقرعة عن أحد منهم إلى غيره كما لا يجوز التراضي على نقل الحرية عمن وقعت عليه .

والإِدحاض : جعل المرء داحضاً ، أي زالقاً غير ثابتِ الرِجلين وهو هنا استعارة للخسران والمغلوبية .

والالتقام : البلْع .

والحوت الذي التقمه : حوتٌ عظيم يبتلع الأشياء ولا يعضّ بأسنانه ويقال : إنه الحوت الذي يسمّى ( بَالَيْن ) بالافرنجية .

والمُليم : اسم فاعل من ألام ، إذا فعل ما يلومه عليه الناس لأنه جعلهم لائمين فهو ألامَهم على نفسه .

وكان غرقه في البحر المسمّى بحر الروم وهو الذي نسميه البحر الأبيضَ المتوسط ، ولم يكن بنهرِ دجلة كما غلط فيه بعض المفسرين .

و﴿ كان من المسبحين ﴾ بقوله : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين كما في سورة الأنبياء ﴾ ( 87 ) ، فأنجاه الله بسبب تسبيحه وتوبته فقذفه الحوت من بطنه إلى البر بعد أن مكث في جوف الحوت ثلاث ليال ، وقيل : يوماً وليلة ، وقيل : بضع ساعات .

ومعنى قوله : ﴿ إلى يوم يُبعثون ﴾ التأبيد بأن يميت الله الحوت حين ابتلاعه ويبقيهما في قعر البحر ، أو بأن يختطف الحوت في حجر في البحر أو نحوه فلا يطفوَ على الماء حتى يبعث يونس يوم القيامة من قعر البحر .

فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146)



---

الفاء فصيحة لأنها تفصح عن كلام مقدر دل عليه قوله : ﴿ فلولا أنه كان من المُسبحين للبثَ في بطنِه ﴾ [ الصافات : 143 ـ 144 ] .

فالتقدير : يسبح ربه في بطن الحوت أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجاب الله له ونجاه كما في سورة الأنبياء .

والمعنى : فلفظه الحوت وقاءه ، وحَمِلهُ الموج إلى الشاطىء .

والنبذ : الإِلقاء وأسند نَبذه إلى الله لأن الله هو الذي سخر الحوت لقذفه من بطنه إلى شاطىء لا شجَر فيه .

والعراء : الأرض التي لا شجر فيها ولا ما يغطيها .

وكان يونس قد خرج من بطن الحوت سقيماً لأن أمعاء الحوت أضرّت بجلده بحركتها حوله فإنه كان قد نزع ثيابه عندما أريد رميه في البحر ليخف للسباحة ، ولعل الله أصاب الحوت بشبه الإِغماء فتعطلت حركة هضمه تعطلاً مّا فبقي كالخَدر لئلا تضر أمعاؤه لحم يونس .

وأنبت الله شجرة من يقطين لتظلله وتستره .

واليقطين : الدُبَّاء وهي كثيرة الورق تتسلق أغصانها في الشيء المرتفع ، فالظاهر أن أغصان اليقطينة تسلقت على جسد يونس فكسته وأظلته .

واختير له اليقطين ليُمكن له أن يقتات من غِلته فيصلح جسده لطفاً من ربه به بعد أن أجرى له حادثاً لتأديبه ، شأن الرب مع عبيده أن يُعْقِب الشدة باليسر .

وهذا حدث لم يعهد مثيله من الرسل ولأجله قال النبي صلى الله عليه وسلم " ما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونُس بن متّى " ، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسَه إذ لا يحتمل أن يكون أراد أحداً آخر إذ لا يخطر بالبال أن يقوله أحد غير الأنبياء .

والمعنى نفي الأخيريّة في وصف النبوءة ، أي لا يظنَنّ أحد أن فعلة يونس تسلب عنه النبوءة .

(149/655)

---

فذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم " لا تفضّلوا بين الأنبياء " ، أي في أصل النبوءة لا في درجاتها فقد قال الله تعالى : ﴿ تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات ﴾ [ البقرة : 253 ] وقال : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيئين على بعض ﴾ [ الإسراء : 55 ] .

واعلم أن الغرض من ذكر يونس هنا تسلية النبي صلى الله عليه وسلم فيما يلقاه من ثقل الرسالة بأن ذلك قد أثقل الرسل من قبله فظهرت مرتبة النبي صلى الله عليه وسلم في صبره على ذلك وعدم تذمّره ولإعلام جميع الناس بأنه مأمور من الله تعالى بمداومة الدعوة للدين لأن المشركين كانوا يلومونه على إلحاحِه عليهم ودعوته إياهم في مختلف الأزمان والأحوال ويقولون : لا تَغْشَنَا في مجالسنا فمن جاءك فمنّا فاسمعه ، كما قال عبد الله بن أُبيّ قال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته ﴾ [ المائدة : 67 ] فلذكر قصة يونس أثر من موعظة التحذير من الوقوع فيما وقع فيه يونس من غضب

ربه ألاَ ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ﴾ [ القلم : 48 - 49 ]

وليعلم الناس أن الله إذا اصطفى أحداً للرسالة لا يرخص له في الفتور عنها ولا ينسخ أمره بذلك لأن الله أعلم حيث يجعل رسالاته .

وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (148)

ظاهر ترتيب ذكر الإِرسال بعد الإِنجاء من الحوت أنه إعادة لإِرساله .

وهذا هو مقتضى ما في كتاب يونس من كتب اليهود إذ وقع في الإِصحاح الثالث : ثم صار قول الرب إلى يونس ثانية : قم اذهب إلى نينوى وناد لها المناداة التي أنا مكلمك بها .

والمرسل إليهم : اليهود القاطنون في نينوَى في أسر الأشوريين كما تقدم .

(150/655)

---

والظاهر أن الرسول إذا بعث إلى قوم مختلطين بغيرهم أن تعم رسالته جميع الخليط لأن في تمييز البعض بالدعوة تقريراً لكفر غيرهم .

ولهذا لما بعث الله موسى عليه السلام لتخليص بني إسرائيل دعا فرعون وقومه إلى نبذ عبادة الأصنام ، فيحتمل أن المقدرين بمائة ألف هم اليهود وأن المعطوفين بقوله : ﴿ أَوْ

يَزِيدُونَ ﴾ هم بقية سكان ( نينوَى ) .

وذكر في كتاب يونس أن دعوة يونس لمّا بلغت ملكَ نينوَى قام عن كرسيه وخلع رداءه ولبس مِسحاً وأمر أهل مدينته بالتوبة والإيمان الخ .

ولم يذكر أن يونس دعا غير أهل نينوَى من بلاد أشور مع سعتها .

وروى الترمذي عن أُبيّ بن كعب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى : ﴿ وأرسلناهُ إلى مائة ألفٍ أو يَزِيدونَ ﴾ قال : "عشرون ألفاً" .

قال الترمذي : حديث غريب .

فحرف ﴿ أو ﴾ في قوله : ﴿ أوْ يزيدونَ ﴾ بمعنى ( بل ) على قول الكوفيين واختيار الفراء وأبي علي الفارسي وابن جنّي وابن بَرْهان .

واستشهدوا بقول جرير :

ماذا ترى في عيال قد برِمْت بهم . . .

لم أُحصِ عدتهم إلا بعدّاد

كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية . . .

لولا رجاؤك قد قتّلتُ أولادي

والبصريون لا يجيزون ذلك إلا بشرطين أن يتقدمها نفي أو نهي وأن يعاد العامل ، وتأولوا هذه الآية بأن ﴿ أو ﴾ للتخيير ، والمعنى إذا رآهم الرائي تخير بين أن يقول : هم مائة ألف ،

أو يقول : يزيدون .

ويرجحه أن المعطوف بـ ﴿ أو ﴾ غير مفرد بل هو كلام مبيّن ناسب أن يكون الحرف للإضراب .

والفاء في ﴿ فَآمَنُوا ﴾ للتعقيب العرفي لأن يونس لما أرسل إليهم ودعاهم امتنعوا في أول الأمر فأخبرهم بوعيد بهلاكهم بعد أربعين يوماً ثم خافوا فآمنوا كما أشار إليه قوله تعالى :

﴿ فلولا كانت قرية ءامنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما ءامنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ [ يونس : 98 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(151/655)

---

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ ،

هذه الآية الكريمة فيها التصريح بنبذ يونس بالعراء عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وقد جاءت آية أخرى يتوهم منها خلاف ذلك وهي قوله: ﴿ لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ

بِالْعَرَاءِ ﴾ الآية .

والجواب: أن الامتناع المدلول عليه بحرف الامتناع الذي هو لولا منصب على الجملة الحالية لا على جواب لولا .

وتقرير المعنى: لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء في حال كونه مذموما لكنه تداركته نعمة ربه فنبذ بالعراء غير مذموم فهذه الحال عمدة لا فضلة ، أو أن المراد بالفضلة ما ليس ركنا في الإسناد وإن توقفت صحة المعنى عليه ونظيرها قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴾ وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ﴾ الآية لأن النفي فيهما منصب على الحال لا على ما قبلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 250 ﴾

(152/655)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ولقد نادانا

نوح فلنعم المجيبون ﴾ قال : أجابه الله تعالى .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى في بيتي ، فمر بهذه الآية ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ﴾ قال : " صدقت ربنا ، أنت أقرب من دعي ، وأقرب من يعطي ، فنعم المدعي ، ونعم المعطي ، ونعم المسؤول ، ونعم المولى ، وأنت ربنا ، ونعم النصير " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ قال : من غرق الطوفان .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ قال : فالناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ قال : أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ يقول : لم يبق إلا ذرية نوح عليه السلام ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ يقول : يذكر بخير .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ قال : سام ، وحام ، ويافث .

وأخرج ابن سعد وأحمد والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن سمرة رضي الله عنه ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم " .

(153/655)

---

وأخرج البزار وابن أبي حاتم والخطيب في تالي التلخيص عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ولد نوح ثلاثة : سام ، وحام ، ويافث . فولد سام العرب ، وفارس ، والروم ، والخير فيهم . وولد يافث يأجوج ومأجوج ، والترك ، والصقالبة ، ولا خير فيهم . وأما ولد حام القبط ، والبربر ، والسودان " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ قال : " ولد نوح ثلاثة : فسام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم " .

وأخرج الحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه . أن نوحاً عليه السلام اغتسل ، فرأى ابنه ينظر إليه فقال : تنظر إلي وأنا أغتسل ؟ حار الله لونك . فاسود فهو أبو السودان .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وتركنا عليه في

الآخرين ﴾ قال : لسان صدق للأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ قال : هو السلام كما قال ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن الحسن رضي الله عنه ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ قال : الثناء الحسن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وإن من شيعته ﴾ قال : من أهل ذريته .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ قال : من شيعة نوح إبراهيم . على منهاجه وسننه ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ قال : ليس فيه شك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ قال : على دينه ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ من الشرك ﴿ أئفكا آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العالمين ﴾ إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في قوله ﴿ فنظر نظرة في النجوم ﴾ قال : رأى نجماً طالعاً فقال ﴿ إني سقيم ﴾ قال كايد يني في النجوم قال : كلمة من كلام العرب ، يقول الله عز دينه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فنظر نظرة في النجوم ﴾ قال : كلمة من كلام العرب ، يقول إذا تفكر ؛ نظر في النجوم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ فنظر نظرة في النجوم ﴾ قال : في السماء ﴿ فقال إني سقيم ﴾ قال : مطعون .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إني سقيم ﴾ قال : مريض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان رضي الله عنه في قوله ﴿ إني سقيم ﴾ قال : مطعون .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ إني سقيم ﴾ قال : مطعون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان رضي الله عنه في قوله ﴿ إني سقيم ﴾ قال : طعين ، وكانوا يفرون من المطعون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال : أرسل إليه ملكهم فقال : إن غدا عيدنا فاخرج قال : فنظر إلى نجم فقال : إن ذا النجم لم يطلع قط إلا طلع بسقم لي ﴿

فتولوا عنه مدبرين ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ قال : فنكصوا عنه منطلقين ﴿ فراغ ﴾ قال : فمال ﴿ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ﴾ يستنطقهم منطلقين ﴿ ما لكم لا تنطقون ، فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ أي فاقبل عليهم فكسرهم ﴿ فأقبلوا إليه يزفون ﴾ قال : يسعون ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ﴾ من الأصنام ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ قال : خلقكم وخلق ما تعملون بأيديكم ﴿ فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ قال : فما ناظرهم الله بعد ذلك حتى أهلكهم ﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي ﴾ قال : ذاهب بعمله ، وقلبه ، ونيته .

(155/655)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال : خرج قوم إبراهيم عليه السلام إلى عيد لهم ، وأرادوا إبراهيم عليه السلام على الخروج ، فاضطجع على ظهره و ﴿ قال : إني سقيم ﴾ لا أستطيع الخروج ، وجعل ينظر إلى السماء ، فلما خرجوا أقبل على آلهتهم فكسرها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿

فأقبلوا إليه يزفون ﴾ قال : يجرون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ فأقبلوا إليه يزفون ﴾ قال : ينسلون . والزفيف النسلان .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ يزفون ﴾ قال : يسعون .

وأخرج البخاري في خلق أفعال العباد والحاكم والبيهقي في الأسماء والصفات عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله صانع كل صانع وصنعته . وتلا عند ذلك ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ " .

وأخرج ابن جرير عن السدي قال ﴿ قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم ﴾ قال : فحبسوه في بيت ، وجمعوا له حطباً حتى إن كانت المرأة لتمرض فتقول : لئن عافاني الله لأجمعن حطباً لإبراهيم ، فلما جمعوا له ، وأكثروا من الحطب حتى إن كانت الطير لتمر بها ، فتحترق من شدة وهجها ، فعمدوا إليه فرفعوه على رأس البنيان ، فرفع إبراهيم عليه السلام رأسه إلى السماء فقالت السماء ، والأرض ، والجبال ، والملائكة ، إبراهيم يحرق فيك فقال : أنا أعلم به ، وإن دعاكم فاغيثوه ، وقال إبراهيم عليه السلام حين رفع رأسه إلى السماء : اللهم أنت الواحد في السماء ، وأنا الواحد في الأرض ، ليس في الأرض ولد يعبدك غيري ، حسبي الله ونعم الوكيل فناداها ﴿ يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ [

الأنبياء : 69 ] .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ قال : حين هاجر .

(156/655)

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ قال : ولداً صالحاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ قال : بولادة إسحق عليه السلام .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ، مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ قال : بشر بإسحاق قال : ولم يثن الله بالحلم على أحد إلا على إبراهيم ، وإسحاق عليهما السلام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي رضي الله عنه في قوله ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ قال : هو إسماعيل عليه السلام قال : وبشره الله بنبوة إسحاق بعد ذلك .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر من طريق الزهري عن القاسم رضي الله عنه في قوله ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما هو إسحاق عليه السلام، وكان ذلك بمنى. وقال كعب رضي الله عنه: هو إسحاق عليه السلام، وكان ذلك ببيت المقدس.

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن محمد بن كعب رضي الله عنه في قوله ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ قال: إسماعيل عليه السلام.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ قال: هو إسحاق عليه السلام.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عبيد بن عمير رضي الله عنه في قوله ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ قال: هو إسحاق عليه السلام.

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ بلغ معه السعي ﴾ قال: العمل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ قال: أدرك معه العمل.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ قال : لما مشى مع أبيه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ قال : لما مشى ، فأسر في نفسه حزناً في قراءة عبد الله ﴿ قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ قال : لما شب حتى أدرك سعيه ، سعى إبراهيم في العمل ﴿ فلما أسلما ﴾ قال : سلما ما أمرا به ﴿ وتله للجبين ﴾ قال : وضع وجهي للأرض . ففعل ، فلما أدخل يده ليذبحه ﴿ نودي أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ فأمسك يده ورفع رأسه ، فرأى الكبش ينحط إليه حتى وقع عليه ، فذبحه .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أراد إبراهيم عليه السلام أن يذبح إسحاق قال لأبيه : إذا ذبحتني فاعتزل لا أضطرب ، فينتضح عليك دمي فشده ، فلما أخذ الشفرة وأراد أن يذبحه ، نودي من خلفه ﴿ أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا

﴾ .

وأخرج أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن جبريل ذهب بإبراهيم إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات فساخ ، ثم أتى به الجمرة القصوى ، فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع فساخ ، فلما أراد إبراهيم أن يذبح إسحاق عليهما السلام قال لأبيه : يا أبت أوثقني لا أضطرب ، فينتضح عليك دمي إذا ذبحتني فشده ، فلما أخذ الشفرة فأراد أن يذبحه ، نودي من خلفه ﴿ أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ " .

(158/655)

---

وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه من طريق مجاهد رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ قال : من شيعة نوح على منهاجه وسننه ﴿ بلغ معه السعي ﴾ شب حتى بلغ سعيه سعي إبراهيم في العمل ﴿ فلما أسلما ﴾ سلما ما أمرا به ﴿ وتله ﴾ وضع وجهه للأرض فقال : لا تذبحني وأنت تنظر ، عسى أن ترحمني فلا تجهز علي ، وإن أجزع فانكص فامتنع منك ، ولكن أربط يدي إلى رقبتي ، ثم ضع وجهي إلى الأرض ، فلما أدخل يده ليذبحه فلم تصل المدية حتى نودي ﴿ أن يا

إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ فأمسك يده فذلك قوله ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ بكبش ﴿ عظيم ﴾ متقبل.

وزعم ابن عباس رضي الله عنهما أن الذبيح إسماعيل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا الأنبياء وحي ".

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري وابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبيد بن عمير رضي الله عنه قال: رؤيا الأنبياء وحي. ثم تلا هذه الآية ﴿ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه قال: رؤيا الأنبياء عليهم السلام حق. إذا رأوا شيئاً فعلوه.

وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أمر إبراهيم عليه السلام بالمناسك عرض له الشيطان عند المسعى، فسابقه، فسبقه إبراهيم عليه السلام، ثم ذهب به جبريل عليه السلام إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى، فرماه بسبع حصيات ﴿ وتله للجبين ﴾ وعلى إسماعيل عليه السلام قميص أبيض فقال: يا أبت ليس لي ثوب تكفني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفني فيه

، فعالجه ليخلعه ، فنودي من خلفه ﴿ أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ فالتفت فإذا كبش أبيض ، أعين ، أقرن ، فذبحه .

(159/655)

---

وأخرج ابن جرير والحاكم من طريق عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه قال : المفدى إسماعيل ، وزعمت اليهود أنه إسحاق . وكذبت اليهود .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه من طريق الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الذبيح إسماعيل عليه السلام .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق مجاهد ويوسف بن ماهك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الذبيح إسماعيل عليه السلام .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير من طريق يوسف بن مهران وأبي الطفيل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الذبيح إسماعيل عليه السلام .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير قالا : الذي أراد إبراهيم عليه السلام ، ذبحه إسماعيل عليه السلام .

وأخرج ابن جرير عن الشعبي ومجاهد والحسن ويوسف بن مهران ومحمد بن كعب القرظي

، مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ قال : إسماعيل ذبح عنه إبراهيم الكبش .

وأخرج ابن جرير والآمدي في مغازيه والخلعي في فوائده والحاكم وابن مردويه بسند ضعيف عن عبد الله بن سعيد الصنابحي قال : حضرنا مجلس معاوية بن أبي سفيان ، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق أيهما الذبيح ؟ فقال معاوية : سقطتم على الخبير كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه أعرابي فقال : يا رسول الله خلفت الكلأ يابساً ، والماء عابساً ، هلك العيال ، وضاع المال ، فعد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين .



---

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليه فقال القوم : من الذبيحان يا أمير المؤمنين ؟ قال : إن عبد المطلب لما حفر زمزم ، نذر لله إن سهل حفرها أن ينحر بعض ولده ، فلما فرغ أسهم بينهم وكانوا عشرة ، فخرج السهم على عبد الله ، فأراد ذبحه ، فمنعه أخواله من بني مخزوم وقالوا : ارضِ ربك وافْدِ ابنك . ففداه بمائة ناقة فهو الذبيح ، وإسماعيل الثاني .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والحاكم عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه قال : إن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل ، وانا لنجد ذلك في كتاب الله ، وذلك إن الله يقول حين فرغ من قصة المذبوح ﴿ وبشرناه بإسحاق ﴾ وقال ﴿ فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ [ هود : 71 ] بابن ، وابن ابن ، فلم يكن يأمر بذبح إسحاق وله فيه موعود بما وعده ، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل .

وأخرج الحاكم بسند فيه الواقدي عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال سألت خوات بن جبير رضي الله عنه عن ذبيح الله قال : إسماعيل عليه السلام لما بلغ سبع سنين رأى إبراهيم عليه السلام في النوم في منزله بالشام أن يذبحه ، فركب إليه على البراق حتى جاءه ، فوجده عند أمه ، فأخذ بيديه ، ومضى به لما أمر به ، وجاء الشيطان في صورة رجل يعرفه ، فذبح طرفي حلقه ، فإذا هو نحر في نحاس ، فشحذ الشفرة مرتين أو ثلاثاً بالحجر ولا تحز قال إبراهيم : إن هذا الأمر من الله ، فرفع رأسه ، فإذا هو بوعل واقف بين يديه فقال إبراهيم : قم يا بني قد نزل فداؤك ، فذبحه هناك بمنى .

وأخرج الحاكم بسندٍ فيه الواقدي من طريق عطاء بن يسار رضي الله عنه عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : الذبيح إسماعيل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد والحسن رضي الله عنهما قال : الذبيح إسماعيل .

وأخرج عبد بن حميد من طريق الفرزدق الشاعر قال : رأيت أبا هريرة رضي الله عنه يخطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : إن الذي أمر بذبحه إسماعيل .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير عن محمد بن كعب رضي الله عنه ، أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أرسل إلى رجل كان يهودياً ، فاسلم وحسن إسلامه ، وكان من علمائهم فسأله : أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وإن اليهود لتعلم بذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب .

وأخرج البزار وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" قال نبي الله داود : يا رب أسمع الناس يقولون رب إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، فاجعلني رابعاً قال : إن إبراهيم ألقي في النار فصبر من أجلي ، وإن إسحاق جاد لي بنفسه ، وإن يعقوب غاب عنه يوسف ، وتلك بلية لم تَنَلكَ " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في شعب الإِيمان عن عبيد بن عمير رضي الله عنه قال : قال موسى عليه السلام : يا رب يقولون يا رب إبراهيم وإسحاق

، ويعقوب ، لأي شيء يقولون ذلك ؟ قال : لأن إبراهيم لم يعدل بي شيئاً إلا اختارني عليه ، وإن إسحاق جاد لي بنفسه فهو على ما سواه أجود ، وأما يعقوب فما ابتليت ببلاء إلا ازداد بي حسن الظن .

وأخرج الديلمي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن داود سأل ربه مسألة فقال : اجعلني مثل إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، فأوحى الله إليه أني : ابتليت إبراهيم بالنار فصبر ، وابتليت إسحاق بالذبح فصبر ، وابتليت يعقوب فصبر " .

وأخرج الدارقطني في الأفراد والديلمي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الذبيح إسحاق " .

وأخرج ابن مردويه عن بهار وكانت له صحبة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إسحاق ذبيح " .



---

وأخرج عبد بن حميد والطبراني عن أبي الأحوص قال : فاخر أسماء بن خارجة عند ابن مسعود فقال : أنا ابن الأشياخ الكرام فقال ابن مسعود رضي الله عنه : ذاك يوسف بن

يعقوب بن إسحاق ، ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : " سئل النبي صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس ؟ قال " يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله " " .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله خيرني بين أن يغفر لنصف أمتي ، أو شفاعتي ، فاخترت شفاعتي ، ورجوت أن تكون أعم لأمتي ، ولولا الذي سبقني إليه العبد الصالح لعجلت دعوتي ، إن الله لما فرج عن إسحاق كرب الذبح قيل له : يا ابا إسحاق سل تعطه قال : أما والله لا تعجلها قبل نزغات الشيطان ، اللهم من مات لا يشرك بك شيئاً قد أحسن ، فاغفر له " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن كعب رضي الله عنه . أنه قال لأبي هريرة : ألا أخبرك عن إسحاق ؟ قال : بلى . قال : رأى إبراهيم أن يذبح إسحاق ، قال الشيطان : والله لئن لم أفتن عند هذه آل إبراهيم لا أفتن أحداً منهم أبداً ، فتمثل الشيطان رجلاً يعرفونه ، فاقبل حتى خرج إبراهيم بإسحاق ليذبحه دخل على سارة ، فقال : أين أصبح إبراهيم غادياً بإسحاق ؟ قالت : لبعض حاجته قال : لا والله قالت : فَلِمَ غدا ؟ قال : ليذبحه

قالت : لم يكن ليذبح ابنه ! قال : بلى والله قالت سارة : فلم يذبحه ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك قالت : قد أحسن أن يطيع ربه إن كان أمره بذلك .



---

فخرج الشيطان ، فأدرك إسحاق وهو يمشي على أثر أبيه قال : أين أصبح أبوك غادياً ؟ قال : لبعض حاجته قال : لا والله بل غدا بك ليذبحك قال : ما كان أبي ليذبحني ، قال : بلى قال : لِمَ ؟ قال : زعم أن الله أمره بذلك قال إسحق : فوالله لئن أمره ليطيعنه .

فتركه الشيطان وأسرع إلى إبراهيم ، فقال أين أصبحت غادياً بابنك ؟ قال : لبعض حاجتي قال : لا والله ما غدوت به إلا لتذبحه . قال : ولِمَ أذبحه ؟ قال : زعمت أن الله أمرك بذلك فقال : والله لئن كان الله أمرني لأفعلن . قال فتركه ويئس أن يطاع ، فلما أخذ إبراهيم إسحاق ليذبحه ، وسلم إسحاق عافاه الله ، وفداه بذبح عظيم . فقال : قم أي بني فإن الله قد عافاك ، فأوحى الله إلى إسحاق : أني قد أعطيتك دعوة استجيب لك فيها قال : فإني أدعوك أن تستجيب لي . أيما عبد لقيك من الأوّلين والآخرين لا يشرك بك شيئاً ، فادخله الجنة .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر عن علي رضي الله عنه قال : الذبيح

إسحاق .

وأخرج عبد الرزاق والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : الذبيح إسحاق .

وأخرج عبد بن حميد والبخاري في تاريخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن العباس بن عبد المطلب قال : الذبيح إسحاق .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : الذبيح إسحاق .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : لما رأى إبراهيم عليه السلام في المنام ذبح إسحاق ، سار به من منزله إلى المنحر بمنى مسيرة شهر في غداة واحدة ، فلما صرف عنه الذبح ، وأمر بذبح الكبش ، ذبحه ثم راح به ، وراحا إلى منزله في عشية واحدة مسيرة شهر طويت له الأودية والجبال .

وأخرج الحاكم بسند فيه الواقدي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أن يذبح إسحاق .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مسروق رضي الله عنه قال: الذبيح إسحاق.

وأخرج ابن عساكر عن نوح بن حبيب قال: سمعت الشافعي يقول كلاماً ما سمعت قط أحسن منه، سمعته يقول: قال خليل الله إبراهيم لولده في وقت ما قص عليه ما رأى ماذا ترى؟ أي ماذا تشير به، ليستخرج بهذه اللفظة منه ذكر التفويض، والصبر، والتسليم، والانقياد لأمر الله، لا لمواراته لدفع أمر الله تعالى، ﴿ يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ قال الشافعي رضي الله عنه: والتفويض هو الصبر، والتسليم هو الصبر، والانقياد هو ملاك الصبر، فجمع له الذبيح جميع ما ابتغاه بهذه اللفظة اليسيرة.

وأخرج الخطيب في تالي التلخيص عن فضيل بن عياض قال: أضجعه ووضع الشفرة، فاقلب جبريل الشفرة، فقال: يا أبت شدني فإني أخاف أن ينتضح عليك من دمي، ثم قال: يا أبت حلني فإني أخاف أن تشهد عليَّ الملائكة أني جزعت من أمر الله تعالى...



---

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال: أتى إبراهيم في النوم فقيل له: أوف بنذرك الذي نذرت. إن الله رزقك غلاماً من سارة أن تذبحه. فقال: يا إسحاق انطلق فقرب قرباناً إلى الله، فأخذ سكيناً وحبلاً ثم انطلق به، حتى إذا ذهب به بين

الجبال قال الغلام : يا أبت أين قربانك ؟ ﴿ قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ قال له إسحاق : يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب ، واكفف عني ثيابك حتى لا ينضح عليها من دمي شيء ، فتراه سارة فتحزن ، وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون للموت عليَّ فإذا أتيت سارة ، فاقرأ عليها السلام مني . فأقبل عليه إبراهيم يقبله وهو يبكي ، وإسحاق يبكي ، ثم إنه جر السكين على حلقه ، فلم تنحر ، وضرب الله على حلق إسحاق صفيحة من نحاس ، فلما رأى ذلك ضرب به على جبينه ، وحز من قفاه . وذلك قول الله ﴿ فلما أسلما ﴾ يقول : سلما لله الأمر ﴿ وتله للجبين ﴾ فنودي يا إبراهيم ﴿ قد صدقت الرؤيا ﴾ بإسحاق ، فالتفت فإذا هو بكبش ، فأخذه وحل عن ابنه ، وأكب عليه يقبله ، وجعل يقول : اليوم يا بني وهبت لي .



---

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : إن الله لما أمر إبراهيم بذبح ابنه قال له : يا بني خذ الشفرة فقال الشيطان : هذا أوان أصيب حاجتي من آل إبراهيم ، فلقي إبراهيم متشبهاً بصديق له ، فقال له : يا إبراهيم أين تعمد ؟ قال : لحاجة قال : والله ما تذهب إلا لتذبح

ابنك من أجل رؤيا رأيتها ، والرؤيا تخطىء وتصيب ، وليس في رؤيا رأيتها ما تذهب إسحاق ، فلما رأى أنه لم يستفد من إبراهيم شيئاً ؛ لقي إسحاق ، فقال : أين تعمد يا إسحاق ؟ قال : لحاجة إبراهيم قال : إن إبراهيم إنما يذهب بك ليذبحك فقال إسحاق : وما شأنه يذبحني ، وهل رأيت أحداً يذبح ابنه ؟ قال : يذبحك لله قال : فإن يذبحني لله أصبر والله لذلك أهل ، فلما رأى أنه لم يستفد من إسحاق شيئاً جاء إلى سارة فقال : أين يذهب إسحاق ؟ قالت : ذهب مع إبراهيم لحاجته فقال : إنما ذهب به ليذبحه فقالت : وهل رأيت أحداً يذبح ابنه ؟ قال : يذبحه لله قالت : فإن ذبحه لله ، فإن إبراهيم وإسحاق لله ، والله لذلك أهل ، فلما رأى أنه لم يستفد منهما شيئاً أتى الجمرة ، فانتفخ حتى سد الوادي ، ومع إبراهيم الملك فقال الملك : ارم يا إبراهيم ، فرمى بسبع حصيات ، يكبر في أثر كل حصاة ، فأفرج له عن الطريق ، ثم انطلق حتى أتى الجمرة الثانية ، فانتفخ حتى سد الوادي فقال له الملك : ارم يا إبراهيم ، فرمى بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة ، فافرج له عن الطريق ، ثم انطلق حتى أتى الجمرة الثالثة ، فانتفخ حتى سد الوادي عليه فقال له الملك : ارم يا إبراهيم فرمى بسبع حصيات ، يكبر في أثر كل حصاة ، فأفرج له عن الطريق حتى أتى المنحر .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إنما سميت تروية ، وعرفة ، لأن إبراهيم عليه السلام أتاه الوحي في منامه : أن يذبح ابنه ، فرأى في نفسه أمن الله هذا ، أم من الشيطان ؟ فاصبح صائماً ، فلما كان ليلة عرفة أتاه الوحي ، فعرف أنه الحق من ربه ، فسميت عرفة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فلما أسلما ﴾ قال : أسلم هذا نفسه لله ، وأسلم هذا ابنه لله ﴿ وتله ﴾ أي كبه لفيه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح رضي الله عنه في قوله ﴿ فلما أسلما ﴾ قال : اتفقا على أمر واحد ﴿ وتله للجبين ﴾ قال : أكبه للجبين .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وتله للجبين ﴾ قال : أكبه على وجهه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وتله للجبين ﴾ قال : صرعه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه قال : لما أراد إبراهيم أن يذبح ابنه قال : يا أبتاه خذ بناصيتي ، واجلس بين كتفي حتى لا أؤذيك إذا مسني حر السكين ،

ففعل ، فانقلبت السكين قال : ما لك يا أبتاه ؟ قال : انقلبت السكين قال : فاطعن بها طعناً قال : فتثنت قال : ما لك يا أبتاه ؟ قال : تثنت ، فعرف الصدق ، ففداه الله بذبح عظيم ، وهو إسحاق .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وتله للجبين ﴾ قال : ساجداً .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح رضي الله عنه قال : لما أن وضع السكين على حلقه ، انقلبت صارت نحاساً .

(168/655)

---

وأخرج عبد بن حميد عن عثمان بن حاضر قال : لما أراد إبراهيم أن يذبح ابنه إسحاق ترك أمه سارة في مسجد الخيف ، وذهب بإسحاق معه ، فلما بلغ حيث أراد أن يذبحه قال إبراهيم لمن كان معه : استأخروا مني ، وأخذ بيد ابنه إسحاق ، فعزله فقال : يا بني ﴿ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ قال له إسحاق : يا أبتِ ربي أمرك قال إبراهيم : نعم يا إسحاق . قال إسحاق : ﴿ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما ﴾ لأمر الله ﴿ وتله ﴾ قال إسحاق لأبيه : يا أبتِ أوثقني لأطيش

بك نودي ﴿ يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ وهبط عليه الكبش من ثبير ، وقد قيل : إنه ارتعى في الجنة أربعين سنة ، فلما كشف عن إسحاق دعا ربه ، ورغب إليه ، وحمده ، وأوحى إليه : أن أدع فإن دعاءك مستجاب ، فقال : اللهم من خرج من الدنيا لا يشرك بك شيئاً فادخله الجنة . قال ابن خاضر : إن إبراهيم كان قال لربه : يا رب أي ولدي أذبح ؟ فأوحى الرب إليه : أحبهما إليك .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه : أن داود قال : يا رب إن الناس يقولون رب إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، فاجعلني لهم رابعاً . فأوحى الله إليه : أن تلك بلية لم تصل إليك بعد . إن إبراهيم لم يعدل بي شيئاً إلا اختارني ، ووفى بجميع ما أمرته . وإن إسحاق جاد لي بنفسه . وإن يعقوب أخذت خاصته ، غيبته عنه طول الدهر ، فلم ييأس من روحي .



---

وأخرج سعد بن منصور وابن المنذر عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال : خرج إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام ، فتمثل له الشيطان في صورة رجل ، فقال له : أين تذهب ؟ فقال إبراهيم : عليه السلام ما لك ولذلك . . . ! اذهب في

حاجتي قال : فإنك تزعم أنك تذهب بابنك فتذبحه قال : والله إن كان الله أمرني بذلك أني لحقيق أن أطيع ربي ، ثم ذهب إلى ابنه وهو وراءه يمشي ، فقال له : أين تذهب ؟ قال : اذهب مع أبي فقال : إن أباك يزعم أن الله أمره بذبحك ، فقال له مثل ما قال إبراهيم ، ثم انطلق إبراهيم عليه السلام ، حتى إذا كانوا على جبل قال لابنه ﴿ يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ ويا أبت أوثقني رباطاً ، لا ينتضح عليك من دمي ، فقام إليه إبراهيم بالشفرة ، فبرك عليه ، فجعل ما بين ليته إلى منحره نحاساً لا تحيك فيه الشفرة ، ثم إن إبراهيم التفت وراء ، فإذا هو بالكبش فقال له : أي بني قم فإن الله فداك ، فذبح إبراهيم الكبش ، وترك ابنه ، ثم إن إبراهيم عليه السلام قال : يا بني إن الله قد أعطاك بصبرك اليوم ، فسل ما شئت تعطى قال : فإني أسأل الله أن لا يلقاه له عبد مؤمن به ، يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إلا غفر له وأدخله الجنة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن علي رضي الله عنه في قوله ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ قال : كبش أبيض ، أعين ، أقرن ، قد ربط بسمرة في أصل ثبير .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ قال : كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً .

وأخرج البخاري في تاريخه عن علي بن أبي طالب قال : هبط الكبش الذي فدى ابن إبراهيم من هذه الخيبة ، على يسار الجمرة الوسطى .

(170/655)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الصخرة التي بمنى بأصل ثبير ، هي التي ذبح عليها إبراهيم عليه السلام فدى ابنه إسحاق ، هبط عليه من ثبير كبش أعين ، أقرن ، له ثغاء ، وهو الكبش الذي قربه ابن آدم ، فتقبل منه ، وكان مخزوناً في الجنة حتى فدى به إسحاق عليه السلام .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والبيهقي في سننه عن امرأة من بني سليم قالت : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة ، فسألت عثمان لما دعاه النبي صلى الله عليه وسلم قال : " قال إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت الكعبة ، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلين " .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : فدى الله إسماعيل عليه السلام بكبشين ، أَمْلَحَيْنِ ، أَقْرَنَيْنِ ، أَعْيَنَيْنِ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾

قال : بكبش متقبل .

وأخرج البغوي عن عطاء بن السائب رضي الله عنه قال : كنت قاعداً بالمنحر مع رجل من قريش ، فحدثني القرشي قال : حدثني أبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : "إن الكبش الذي نزل على إبراهيم في هذا المكان " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ قال : خرج عليه كبش من الجنة ، وقد رعاها قبل ذلك أربعين خريفاً ، فأرسل إبراهيم عليه السلام ابنه ، واتبع الكبش ، فأخرجه إلى الجمرة الأولى ، فرماه بسبع حصيات ، فأفلته عنده ، فجاء الجمرة الوسطى ، فأخرجه عندها ، فرماه بسبع حصيات ، ثم أفلته عند الجمرة الكبرى ، فرماه بسبع حصيات ، فأخرجه عندها ، ثم أخذه ، فأتى به المنحر من منى ، فذبحه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : كان اسم كبش إبراهيم ؛ جرير .



---

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال له رجل : نذرت لأنحرن نفسي فقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ لقد

كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ [ الأحزاب : 21 ] ثم تلا ﴿ وفديناه بذبحٍ عظيم ﴾ فأمره بكبش ، فذبحه .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : من نذر أن يذبح نفسه فليذبح كبشاً ، ثم تلا ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ .

وأخرج الديلمي عن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه " لما فدى الله إسحاق من الذبح ، أتاه جبريل عليه السلام ، فقال : يا إسحاق إنه لم يصبر أحد من الأولين والآخرين ، يشهد أن لا إله إلا الله فاغفر له . سبقني أخي إسحاق عليه السلام إلى الدعوة " .

وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113)

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾ قال : إنما بشر به نبياً حين فداه الله من الذبح ، ولم تكن البشارة بالنبوة حين مولده .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وبشرناه بإسحاق ﴾ قال : بشرى نبوة . بشر به مرتين ، حين ولد . وحين نبىء .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة قال : قلت لابن المسيب ﴿

وفديناه بذبحٍ عظيم ﴾ هو إسحاق؟ قال معاذ الله . . ! ولكنه إسماعيل عليه السلام، فثوب بصبره إسحاق.

(172/655)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً ﴾ قال: بشر به بعد ذلك نبياً. بعدما كان هذا من أمره، لما جاد لله بنفسه ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ أي مؤمن، وكافر. وفي قوله ﴿ ولقد مننا على موسى وهارون، ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ﴾ أي من آل فرعون ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين ﴾ قال: التوراة ﴿ وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ قال: الإسلام ﴿ وتركنا عليهما في الآخرين ﴾ قال: أبقى الله عليهما الثناء الحسن في الآخرين.

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123)

أخرج ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وإن إلياس لمن المرسلين . . . ﴾ الآيات. قال: إنما سمي بعلبك لعبادتهم البعل، وكان موضعهم البدء، فسمي بعلبك.

وأخرج ابن عساكر عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ وإن إلياس ﴾ قال : إن الله تعالى بعث إلياس إلى بعلبك ، وكانوا قوماً يعبدون الأصنام ، وكانت ملوك بني إسرائيل متفرقة على العامة ، كل ملك على ناحية يأكلها ، وكان الملك الذي كان إلياس معه يقوم له أمره ويقتدي برأيه ، وهو على هدي من بين أصحابه ، حتى وقع إليهم قوم من عبدة الأصنام فقالوا له : ما يدعوك إلا إلى الضلالة والباطل ، وجعلوا يقولون له : أعبد هذه الأوثان التي تعبد الملوك ، وهم على ما نحن عليه ؛ يأكلون ، ويشربون ، وهم في ملكهم يتقلبون ، وما تنقص دنياهم من ربهم الذي تزعم أنه باطل ، وما لنا عليهم من فضل .

(173/655)

---

فاسترجع إلياس ، فقام شعر رأسه وجلده ، فخرج عليه إلياس . قال الحسن رضي الله عنه : وإن الذي زين لذلك الملك امرأته ، وكانت قبله تحت ملك جبار ، وكان من الكنعانيين في طول ، وجسم ، وحسن ، فمات زوجها ، فاتخذت تمثالاً على صورة بعلها من الذهب ، وجعلت له حدقتين من ياقوتتين ، وتوجته بتاج مكلل بالدر والجوهر ، ثم أقعدته على سرير ، تدخل عليه فتدخنه ، وتطيبه ، وتسجد له ، ثم تخرج عنه ، فتزوجت بعد ذلك هذا الملك الذي كان إلياس معه ، وكانت فاجرة ، قد قهرت زوجها ،

ووضعت البعل في ذلك البيت ، وجعلت سبعين سادنا ، فعبدوا البعل ، فدعاهم إلياس إلى الله ، فلم يزدهم ذلك إلا بعداً .

فقال إلياس : اللهم إن بني إسرائيل قد أبوا إلا الكفر بك ، وعبادة غيرك ، فغير ما بهم من نعمتك ، فأوحى الله إليه : إني قد جعلت أرزاقهم بيدك . فقال : اللهم أمسك عنهم القطر ثلاث سنين ، فأمسك الله عنهم القطر ، وأرسل إلى الملك فتاه اليسع ، فقال : قل له إن إلياس يقول لك أنك اخترت عبادة البعل على عبادة الله ، واتبعت هوى امرأتك ، فاستعد للعذاب والبلاء ، فانطلق اليسع ، فبلغ رسالته للملك ، فعصمه الله تعالى من شر الملك ، وأمسك الله عنهم القطر ، حتى هلكت الماشية ، والدواب ، وجهد الناس جهداً شديداً .

وخرج إلياس إلى ذروة جبل ، فكان الله يأتيه برزقه ، وفجر له عيناً معيناً لشرابه وطهوره ، حتى أصاب الناس الجهد ، فأرسل الملك إلى السبعين ، فقال لهم : سلوا البعل أن يفرج ما بنا ، فأخرجوا أصنامهم ، فقربوا لها الذبائح ، وعطفوا عليها ، وجعلوا يدعون حتى طال ذلك بهم ، فقال لهم الملك : إن إله إلياس كان أسرع إجابة من هؤلاء ، فبعثوا في طلب إلياس ، فأتى فقال : أتحبون أن يفرج عنكم ؟ قالوا : نعم .

قال : فاخرجوا أوثانكم ، فدعا إلياس عليه السلام ربه أن يفرج عنهم ، فارتفعت سحابة مثل الترس . وهم ينظرون ، ثم أرسل الله عليهم المطر ، فأغاثهم ، فتابوا ورجعوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر عن ابن مسعود قال ﴿ إلياس ﴾ هو إدريس .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه قال : كان يقال أن ﴿ إلياس ﴾ هو إدريس عليه السلام .

وأخرج ابن عساكر عن كعب رضي الله عنه قال : أربعة أنبياء اليوم أحياء . اثنان في الدنيا . إلياس ، والخضر . واثنان في السماء : عيسى ، وإدريس .

وأخرج ابن عساكر عن ابن شوذب رضي الله عنه قال : الخضر عليه السلام من وفد فارس ، وإلياس عليه السلام من بني إسرائيل ، يلتقيان كل عام بالموسم .

وأخرج ابن عساكر عن وهب رضي الله عنه قال : دعا إلياس عليه السلام ربه أن يريحه من قومه ، فقيل له : انظر يوم كذا وكذا . . . فإذا هو بشيء قد أقبل على صورة فرس ، فإذا رأيت دابة لونها مثل لون النار فاركبها ، فجعل يتوقع ذلك اليوم ، فإذا هو بشيء قد أقبل على صورة فرس ، لونه كلون النار ، حتى وقف بين يديه ، فوثب عليه ، فانطلق به ، فكان آخر العهد به ، فكساه الله الريش ، وكساه النور ، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب ،

فصار في الملائكة عليهم السلام .

وأخرج ابن عساكر عن الحسن رضي الله عنه قال : إلياس عليه السلام موكل بالفيافي .
والخضر عليه السلام بالجبال ، وقد أعطيا الخلد في الدنيا إلى الصيحة الأولى ، وإنهما
يجتمعان كل عام بالموسم .

وأخرج الحاكم عن كعب رضي الله عنه قال : كان إلياس عليه السلام صاحب جبال وبرية
، يخلو فيها يعبد ربه عز وجل ، وكان ضخم الرأس ، خميص البطن ، دقيق الساقين ، في
صدره شامة حمراء ، وإنما رفعه الله تعالى إلى أرض الشام ، لم يصعد به إلى السماء ، وهو
الذي سماه الله ذا النون .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : " الخضر هو إلياس " .



---

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل وضعفه عن أنس رضي الله عنه قال : " كنا
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فنزلنا منزلاً ، فإذا رجل في الوادي يقول : اللهم
اجعلني من أمة محمد المرحومة ، المغفورة ، المثاب لها ، فاشرفت على الوادي ، فإذا طوله

ثلثمائة ذراع وأكثر . فقال : من أنت ؟ قلت : أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أين هو ؟ قلت : هو ذا يسمع كلامك قال : فأته وأقرئه مني السلام ، وقل له أخوك إلياس يقرئك السلام . فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته ، فجاء حتى عانقه ، وقعدا يتحدثان فقال له : يا رسول الله إني آكل في كل سنة يوماً ، وهذا يوم فطري ، فكل أنت وأنا ، فنزلت عليهما مائدة من السماء ، وخبز ، وحوت ، وكرفس ، فأكلا وأطعماني ، وصليا العصر ، ثم ودعني وودعه ، ثم رأيته مر على السحاب نحو السماء قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإِسناد ، وقال الذهبي : بل هو ، موضوع ، قبح الله من وضعه . قال : وما كنت أحسب ، ولا أجوِز ، أن الجهل يبلغ بالحاكم أن يصحح هذا " .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ قال : صنماً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ قال : رباً .

وأخرج ابن أبي حاتم وإبراهيم الحربي في غريب الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ أنه أبصر رجلاً يسوق بقرة ، فقال : من بعل هذه ؟ فدعاه فقال : ممن أنت ؟ قال : من أهل اليمن . فقال : هي لغة ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ أي رباً .

وأخرج ابن الأنباري عن مجاهد رضي الله عنه ؛ استام بناقة رجل من حمير فقال له : أنت

صاحبها ؟ قال : أنا بعلها ، فقال ابن عباس ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ أتدعون رباً . ممن أنت ؟

قال : من حمير .

(176/655)

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه قال : مر رجل يقول : من يعرف البقرة ؟ فقال رجل : أنا بعلها فقال له ابن عباس رضي الله عنهما : تزعم أنك زوج البقرة ؟ قال الرجل : أما سمعت قول الله ﴿ أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين ﴾ قال : تدعون بعلاً ، وأنا ربكم فقال له ابن عباس رضي الله عنهما : صدقت .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ قال : رباً بلغة ازدة شنوأة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم رضي الله عنه في قوله ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ قال : صنماً لهم ، كانوا يعبدونه في بعلبك ، وهي وراء دمشق ، فكان بها البعل الذي يعبدونه .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ قال : ربا باليمانية يقول الرجل للرجل : من بعل الثوب ؟ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قيس بن سعد قال : سأل رجل ابن

عباس رضي الله عنه عن قوله ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ فسكت عنه ابن عباس رضي الله عنهما ، ثم سأله ، فسكت عنه ، فسمع رجلاً ينشد ضالة ، فسمع آخر يقول : أنا بعلها . فقال ابن عباس : أين السائل ؟ اسمع . ما يقول السائل . أنا بعلها . أنا ربها ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ أتدعون ربا .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ سلام على إل ياسين ﴾ قال : هو إلياس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك أنه قرأ " سلام على ادراسين " وقال : هو مثل إلياس مثل عيسى ، والمسيح ، ومحمد ، وأحمد ، وإسرائيل ، ويعقوب .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ سلام على إل ياسين ﴾ قال : نحن آل محمد ﴿ إل ياسين ﴾ .

وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133)

أخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ إلا عجوزاً في الغابرين ﴾ يقول : إلا امرأته تخلفت ، فمسخت حجراً ، وكانت تسمى هيشفع .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ إلا عجوزاً في الغابرين ﴾ قال : الهالكين ﴿ وإنكم لتمرون عليهم ﴾ قال : في أسفاركم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل ﴾ قال : نعم . صباحاً ومساء ، من أخذ من المدينة إلى الشام أخذ على سدوم قرية قوم لوط .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل ﴾ قال ﴿ تمرون عليهم مصبحين ﴾ قال : على قرية قوم لوط ﴿ أفلا تعقلون ﴾ قال : أفلا تتفكرون أن يصيبكم ما أصابهم .

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139)

(178/655)

---

أخرج عبد الرزاق وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر عن طاوس في قوله ﴿ وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون ﴾ قال : قيل ليونس عليه السلام إن قومك يأتيهم العذاب يوم كذا وكذا . . فلما كان يومئذ ، خرج يونس عليه السلام ، ففقده قومه ، فخرجوا بالصغير ، والكبير ، والدواب ، وكل شيء . ثم عزلوا الوالدة عن ولدها ، والشاة

عن ولدها ، والناقة والبقرة عن ولدها ، فسمعت لهم عجيجاً ، فأتاهم العذاب حتى نظروا إليه ، ثم صرف عنهم . فلما لم يصبهم العذاب ، ذهب يونس عليه السلام مغاضباً ، فركب في البحر في سفينة مع أناس ، حتى إذا كانوا حيث شاء الله تعالى ، ركدت السفينة ، فلم تسر فقال صاحب السفينة : ما يمنعنا أن نسير إلا أن فيكم رجلاً مشؤوماً قال : فاقترعوا ليلقوا أحدهم ، فخرجت القرعة على يونس ، فقالوا : ما كنا لنفعل بك هذا . ثم اقترعوا أيضاً ، فخرجت القرعة عليه ثلاثاً ، فرمى بنفسه ، فالتقمه الحوت قال طاوس : بلغني أنه لما نبذه الحوت بالعراء وهو سقيم ، نبتت عليه شجرة من يقطين واليقطين الدباء ، فمكث حتى إذا رجعت إليه نفسه يبست الشجرة ، فبكى يونس عليه السلام حزناً عليها ، فأوحى الله إليه : أتبكي على هلاك شجرة ولا تبكي على هلاك مائة ألف ؟ .

*(179/655)*

---

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل قريته ، فردوا عليه ما جاءهم به ، فامتنعوا منه ، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليه : إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا وكذا . . فأخرج من بين أظهرهم ، فاعلم قومه الذي وعد الله من عذابه إياهم ، فقالوا : ارمقوه فإن هو خرج من بين أظهركم فهو الله كائن ما وعدكم .

فلما كانت الليلة التي وعدوا العذاب في صبيحتها ، أدلج فرآه القوم ، فحذروا فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم ، وفرقوا بين كل دابة وولدها . ثم عجوا إلى الله ، وأنابوا واستقالوا ، فأقالهم وانتظر يونس عليه الخبر عن القرية وأهلها . حتى مر مار فقال : ما فعل أهل القرية ؟ قال : فعلوا أن نبيهم لما خرج من بين أظهرهم عرفوا أنه قد صدقهم ما وعدهم من العذاب ، فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض ، ثم فرقوا بين كل ذات ولد وولدها ، ثم عجوا إلى الله ، وتابوا إليه فقبل منهم ، وأخر عنهم العذاب . فقال يونس عليه السلام عند ذلك : لا أرجع إليهم كذابا أبداً ، ومضى على وجهه .

(180/655)

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن الحارث قال : لما خرج يونس عليه السلام مغاضباً أتى السفينة ، فركبها فامتنعت أن تجري فقال أصحاب السفينة : ما هذا إلا لحدث أحدثتموه ! فقال بعضهم لبعض : تعالوا حتى نقترع ، فمن وقعت عليه القرعة فالقوه في الماء ، فاقترعوا ، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام ، ثم عادوا فوقعت القرعة عليه في الثالثة ، فلما رأى يونس ذلك قال : هو أنا ، فخرج فطرح نفسه في الماء ، فإذا حوت قد رفع رأسه من الماء قدر ثلاثة أذرع ، فذهب ليطرح نفسه ، فاستقبله الحوت ، فإذا هوى إليه

ليأخذه ، فتحول إلى الجانب الآخر ، فإذا الحوت قد استقبله ، فلما رأى يونس عليه السلام ذلك عرف أنه أمر من الله ، فطرح نفسه ، فأخذه الحوت قبل أن يمر على الماء ، فأوحى الله إلى الحوت أن لا تهضم له عظماً ، ولا تأكل له لحماً حتى آمر بأمري بكذا وكذا وكذا .

. . حتى ألزقه بالطين ، فسمع تسبيح الأرض ، فذلك حين نادى .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما ألقى يونس عليه سلام نفسه في البحر التقمه الحوت ، هوى به حتى انتهى إلى مفجر من الأرض أو كلمة تشبهها ، فسمع تسبيح الأرض ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ [ الأنبياء : 87 ] فأقبلت الدعوة تحوم العرش ، فقالت الملائكة : يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً من بلاد غربة قال : وتدرون ما ذاكم ؟ قالوا : لا يا ربنا قال : ذاك عبدي يونس قالوا : الذي كنا لا نزال نرفع له عملاً متقبلاً ، ودعوة مجابة ، قال : نعم . قالوا : يا ربنا ألا ترحم ما كان يصنع في الرخاء ، وتنجيه عند البلاء . قال : بلى فأمر الحوت فحفظه " .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن لفظه حين لفظه في أصل يقطينة وهي الدباء ، فلفظه وهو كهيئة الصبي ، وكان يستظل بظلها ، وهيأ الله له أرواة من الوحش ، فكانت تروح عليه بكرة وعشية ، فتفشخ رجليها ، فيشرب من لبنها حتى نبت لحمه .

وأخرج ابن إسحاق والبزار وابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما أراد الله حبس يونس عليه السلام في بطن الحوت ، أوحى الله إلى الحوت أن خذه ، ولا تخدش له لحماً ، ولا تكسر له عظماً ، فأخذه ثم أهوى به إلى مسكنه في البحر ، فلما انتهى به إلى أسفل البحر ، سمع يونس حساً فقال في نفسه : ما هذا . . . ! فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت : إن هذا تسبيح دواب الأرض ، فسبح وهو في بطن الحوت ، فقالوا : ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غربة قال : ذاك عبدي يونس ، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر قالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم عمل صالح ؟ قال : نعم . فشفعوا له عند ذلك ، فأمره ، فقذفه في الساحل كما قال الله ﴿ وهو سقيم ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن يونس عليه السلام كان وعد قومه العذاب ، وأخبرهم أنه يأتيهم إلى ثلاثة أيام ، ففرقوا بين كل والدة وولدها ، ثم خرجوا ، فجأروا إلى الله ، واستغفروه ، فكف الله عنهم العذاب ، وغدا يونس عليه السلام ينتظر العذاب ، فلم ير شيئاً ، وكان من كذب ولم يكن له بينة قتل . فانطلق مغاضباً ، حتى أتى قوماً في سفينة ، فحملوه وعرفوه ، فلما دخل السفينة ركدت ، والسفن تسير يميناً وشمالاً فقال : ما بال سفينتكم ؟ ! قالوا : ما ندري ! قال : ولكني أدري أن فيها عبداً أبق من ربه ، وأنها والله لا تسير حتى تلقوه ، قالوا : أما أنت والله يا نبي الله فلا نلقيك . فقال لهم يونس عليه السلام : اقترعوا فمن قرع . فليقع ، فاقترعوا فقرعهم يونس عليه السلام ثلاث مرات ، فوقع وقد وكل به الحوت ، فلما وقع ابتلعه ، فأهوى به إلى قرار الأرض ، فسمع يونس عليه السلام تسبيح الحصى ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ [ الأنبياء : 87 ] قال : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل ، قال ﴿ فنبذ بالعراء وهو سقيم ﴾ قال كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش ، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين ، فكان يستظل بها ويصيب منها ، فيبست فبكى عليها حين يبست ، فأوحى الله إليه : أتبكي على شجرة أن يبست ، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم ؟ فخرج فإذا هو بغلام يرعى غنماً فقال : ممن أنت يا غلام ؟ قال :

من قوم يونس قال : فإذا رجعت إليهم ، فاقرئهم السلام وأخبرهم إنك لقيت يونس ، فقال له الغلام : إن تكن يونس فقد تعلم أنه من كذب ولم يكن له بينة قتل ، فمن يشهد لي قال : تشهد لك هذه الشجرة ، وهذه البقعة . فقال الغلام ليونس : مرهما فقال لهما يونس عليه السلام : إذا جاء كما هذا الغلام فاشهدا له . قالتا : نعم .

(183/655)

---

فرجع الغلام إلى قومه ، وكان له إخوة ، فكان في منعة ، فأتى الملك فقال : إني لقيت يونس وهو يقرأ عليكم السلام ، فأمر به الملك أن يقتل فقال : إن له بينة ، فأرسل معه ، فانتهوا إلى الشجرة والبقعة فقال لهما الغلام : نشدتكما بالله هل أشهدكما يونس ؟ قالتا : نعم . فرجع القوم مذعورين يقولون : تشهد لك الشجرة والأرض ! فأتوا الملك ، فحدثوه بما رأوا ، فتناول الملك يد الغلام ، فأجلسه في مجلسه ، وقال : أنت أحق بهذا المكان مني ، وأقام لهم أمرهم ذلك الغلام أربعين سنة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : إن يونس بن متى كان عبداً صالحا ، وكان في خلقه ضيق ، فلما حملت عليه أثقال النبوّة .

ولها أثقال لا يحملها إلا قليل . تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل ، فقذفها من يده ، وخرج

هارباً منها . يقول الله لنبيه ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ [ الأحقاف : 35 ] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾ قال : من المسهومين قال : اقترع فكان من المدحضين قال : من المسهومين .

وأخرج أحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾ قال : احتبست السفينة ، فعلم القوم أنها احتبست من حدث أحدثوه ، فتساهموا فقرع يونس عليه السلام ، فرمى بنفسه ، ﴿ فالتقمه الحوت وهو مليم ﴾ أي مسيء فيما صنع ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ قال : كان كثير الصلاة في الرخاء فنجا ، وكان يقال في الحكمة . إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر ، وإذا ما صرع وجد متكأ ﴿ للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ يقول : لصارت له قبر إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن وهب بن منبه رضي الله عنه أنه جلس هو وطاوس ونحوهم من أهل ذلك الزمان، فذكروا أي أمر الله أسرع؟ فقال بعضهم: قول الله تعالى ﴿ كلمح البصر ﴾ [ النحل: 77 ] وقال بعضهم: السرير حين أتى به سليمان. فقال ابن منبه: أسرع أمر الله أن يونس على حافة السفينة، إذ أوحى الله تعالى إلى نون في نيل مصر، فما خرَّ من حافتها إلا في جوفه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال ( التقمه حوت ) يقال له نجم، فجرى به في بحر الروم، ثم النيل، ثم فارس، ثم في دجلة.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وهو مليم ﴾ مسيء.

وأخرج ابن الأنباري والطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله ﴿ وهو مليم ﴾ قال: المليم المسيء والمذنب قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت أمية بن أبي الصلت وهو يقول:

بريء من الآفات ليس لها ... بأهل ولكن المسيء هو المليم

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وهو مليم ﴾ قال: مذنب.

وأخرج أحمد في الزهد عن الربيع بن أنس رضي الله عنه في قوله ﴿ فلولا أنه كان من

المسبحين ﴾ قال : لولا أنه حلاله عمل صالح ﴿ للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ قال : وفي الحكمة . إن العمل الصالح يرفع صاحبه .

وأخرج أحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ قال : من المصلين قبل أن يدخل بطن الحوت .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن جرير عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ قال : ما كان إلا صلاة أحدثها في بطن الحوت . فذكر ذلك لقتادة رضي الله عنه فقال : لا . إنما كان يعمل في الرخاء .

(185/655)

---

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ قال : من المصلين .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ قال : العابدين الله قبل ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن أبي الحسن رضي الله عنه ﴿ فلولا أنه كان

من المسبحين ﴾ قال : لولا أنه كان له سلف من عبادة وتسبيح ، تداركه الله به حين أصابه ما أصابه ، نعمه في بطن الحوت أربعين من بين يوم وليلة ، ثم أخرجه وتاب عليه .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ قال : نعلم والله أن التضرع في الرخاء استعداد لنزول البلاء ، ويجد صاحبه متكأً إذا نزل به ، وإن سالف السيئة تلحق صاحبها وإن قدمت .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك رضي الله عنه قال : اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة ، فإن يونس عليه السلام كان عبداً صالحاً ذاكراً لله ، فلما وقع في بطن الحوت قال الله ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ وإن فرعون كان عبداً طاغياً ، ناسياً لذكر الله ، فلما أدركه الغرق قال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ [ يونس : 90 ] فقيل له ﴿ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ [ يونس : 90 ] .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ قال : كان يكثر الصلاة في الرخاء ، فلما حصل في بطن الحوت ، ظن أنه الموت ، فحرك رجليه ، فإذا هي تتحرك ، فسجد وقال : يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يسجد فيه أحد .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن الشعبي قال : التقمه الحوت ضحى ، ولفظه عشية ، ما بات في بطنه .

*(186/655)*

---

وأخرج الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مكث يونس عليه السلام في بطن الحوت أربعين يوماً .

وأخرج عبد الرزاق وابن مردويه عن ابن جريج قال : بقي يونس في بطن الحوت أربعين يوماً .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي مالك رضي الله عنه قال : لبث يونس عليه السلام في بطن الحوت أربعين يوماً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : لبث يونس في بطن الحوت سبعة أيام ، فطاف به البحار كلها ، ثم نبذه على شاطىء دجلة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال ﴿ التقمه الحوت ﴾ يقال له نجم ، وإنه لبث ثلاثاً في جوفه ، وفي قوله ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ قال : كان كثير الصلاة في الرخاء ، فنجا ﴿ للبث في بطنه ﴾ قال : لصار له

بطن الحوت قبراً ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ قال : إلى يوم القيامة . وفي قوله ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ قال : شط دجلة . ونينوى على شط دجلة ، مكث في بطنه أربعين يوماً يتردّد به في دجلة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ قال : ألقيناه بالساحل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن شهر بن حوشب رضي الله عنه قال : انطلق يونس عليه السلام مغضباً ، فركب مع قوم في سفينة ، فوقفت السفينة لم تسر ، فساهمهم ، فتدلى في البحر ، فجاء الحوت يبصبص بذنبه ، فنودي الحوت أنا لم نجعل يونس لك رزقاً ، إنما جعلناك له حرزاً ومسجداً .

(187/655)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه قال : لما ذهب مغاضباً ، فكان في بطن الحوت قال من بطن الحوت : إلهي من البيوت أخرجتني ، ومن رؤوس الجبال أنزلتني ، وفي البلاد سيرتني ، وفي البحر قذفتني ، وفي بطن الحوت سجنتني ، فما تعرف مني عملاً صالحاً تروح به عني . قالت الملائكة عليهم السلام : ربنا صوت معروف من مكان

غربة ! فقال لهم الرب : ذاك عبدي يونس قال الله ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ وكان في بطن الحوت أربعين يوماً ، فنبذه الله ﴿ بالعراء وهو سقيم ﴾ وأنبت ﴿ عليه شجرة من يقطين ﴾ قال : اليقطين الدباء ، فاستظل بظلها ، وأكل من قرعها ، وشرب من أصلها ما شاء الله . ثم إن الله تعالى أيبسها ، وذهب ما كان فيها ، فحزن يونس عليه السلام ، فأوحى الله إليه : حزنت على شجرة أنبتها ثم أيبستها ، ولم تحزن على قومك حين جاءهم العذاب ، فصرف عنهم ، ثم ذهبت مغاضباً .

(188/655)

---

وأخرج أحمد في الزهد وعبد بن حميد وأبو الشيخ عن حميد بن هلال قال : كان يونس عليه السلام يدعو قومه ، فيأبون عليه ، فإذا خلا دعا الله لهم بالخير ، وقد بعثوا عليه عيناً ، فلما أعيوه ، دعا الله عليهم ، فأتاهم عينهم فقال : ما كنتم صانعين فاصنعوا ، فقد أتاكم العذاب ، فقد دعا عليكم ، فانطلق ولا يشك أنه سيأتيهم العذاب ، فخرجوا قد ولهوا البهائم عن أولادها ، فخرجوا تائبين فرحمهم الله تعالى ، وجاء يونس عليه السلام ينظر بأي شيء أهلكها ، فإذا الأرض مسودة منهم بدون عذاب ، وذاك حين ذهب مغاضباً ، فركب مع قوم في سفينة ، فجعلت السفينة لا تنفذ ، ولا ترجع فقال بعضهم لبعض ، ماذا إلا

لذنب بعضكم ؟ فاقترعوا أيكم نلقيه في الماء ونخلي وجهنا ، فاقترعوا ، فبقي سهم يونس عليه السلام في الشمال فقالوا : لا نفتدي من أصحابنا بنبي الله فقال يونس عليه السلام : ما يراد غيري ، فاقذفوني ولا تنكسوني ، ولكن صبوني على رجلي صباً ، ففعلوا وجاء الحوت شاحباً فاه ، فالتقمه فاتبعه حوت أكبر من ذلك ليلتقمهما ، فسبقه فكان يونس في بطن الحوت حتى رق العظم ، وذهب اللحم والبشر والشعر ، وكان سقيماً فدعا بما دعا به ، فنبذ بالعراء وهو سقيم ، فأنبت الله ﴿ عليه شجرة من يقطين ﴾ فكان فيها غذاه حتى اشتد العظم ، ونبت اللحم والشعر والبشر ، فعاد كما كان ، فبعث الله عليها ريحاً ، فيبست فبكى عليها ، فأوحى الله إليه يا يونس أتبكي على شجرة جعل الله لك فيها غذاء ، ولا تبكي على قومك أن يهلكوا ؟

(189/655)

---

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : لما بعث الله يونس عليه السلام إلى قومه يدعوهم إلى الله وعبادته ، وأن يتركوا ما هم فيه ، أتاهم فدعاهم ، فأبوا عليه ، فرجع إلى ربه فقال : رب إن قومي قد أبوا عليَّ وكذبوني قال : فارجع إليهم فإن هم آمنوا وصدقوا ، وإلا فاخبرهم أن العذاب مصبحهم غدوة ، فأتاهم فدعاهم ، فأبوا عليه

قال : فإن العذاب مصبحكم غدوة ، ثم تولى عنهم فقال القوم بعضهم لبعض ، والله ما جربنا عليه من كذب منذ كان فينا ، فانظروا صاحبكم ، فإن بات فيكم الليلة ، ولم يخرج من قريتكم ، ولم يبت فيها ، فاعلموا أن العذاب مصبحكم ، حتى إذا كان في جوف الليل ، أخذ مخلاة فجعل فيها طعيماً له ، ثم خرج فلما رأوه فرقوا بين كل والدة وولدها ، من بهيمة أو إنسان ، ثم عجوا إلى الله مؤمنين ومصدقين بيونس عليه السلام ، وبما جاء به ، فلما رأى الله ذلك منهم بعد ما كان قد غشيهم العذاب كما يغشى القبر بالثوب كشفه عنهم ، ومكث ينظر ما أصابهم من العذاب ، فلما أصبح رأى القوم يخرجون لم يصبهم شيء من العذاب قال : لا والله لا آتيهم وقد جربوا عليّ كذبة ، فخرج فذهب مغاضباً لربه ، فوجد قوماً يركبون في سفينة ، فركب معهم ، فلما جنحت بهم السفينة ، تكفت ووقفت فقال القوم : إن فيكم لرجلاً عظيم الذنب ، فاستهموا لا تغرقوا جميعاً ، فاستهم القوم فسهمهم يونس عليه السلام قال القوم : لا نلقي فيه نبي الله ، اختلطت سهامكم ، فأعيدوها فاسهموا ، فسهمهم يونس فلما رأى يونس عليه السلام ذلك قال للقوم : فالقوني لا تغرقوا جميعاً ، فألقوه فوكل الله تعالى به حوتاً ، فالتقمه لا يكسر له عظماً ، ولا يأكل له لحماً ، فهبط به الحوت ، إلى أسفل البحر ، فلما جنه الليل ، نادى في ظلمات ثلاث : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، وظلمة البحر

﴿ أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ [ الأنبياء : 87 ] فأوحى الله إلى الحوت : أن ألقيه في البر ، فارتفع الحوت ، فألقاه في البر لا شعر له ، ولا جلد ، ولا ظفر ، فلما طلعت عليه الشمس أذاه حرها ، فدعا الله فأنبتت ﴿ عليه شجرة من يقطين ﴾ وهي الدباء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : لما ألقي يونس عليه السلام في بطن الحوت ، طاف في البحور كلها سبعة أيام ، ثم انتهى به إلى شط دجلة ، فقذفه على شط دجلة ، فأنبت الله ﴿ عليه شجرة من يقطين ﴾ قال من نبات البرية ، فأرسله ﴿ إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ قال : يزيدون بسبعين ألفاً ، وقد كان أظلهم العذاب ، ففرقوا بين كل ذات رحم ورحمها من الناس والبهائم ، ثم عجوا إلى الله ، فصرف عنهم العذاب ، ومطرت السماء دماً .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد في الزهد وعبد بن حميد عن وهب قال : أمر الحوت أن لا يضره ، ولا يكلمه . قال الله ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ قال : من العابدين قبل ذلك ، فذكر بعبادته ، فلما خرج من البحر نام نومة ، فأنبت الله ﴿ عليه شجرة من يقطين ﴾ وهي الدباء فأظلته ، فبلغت في يومها ، فرآها قد أظلته ، ورأى خضرتها فأعجبته ، ثم نام نومة فاستيقظ ، فإذا هي قد يبست ، فجعل يحزن عليها ، فقيل أنت الذي لم تخلق ، ولم

تسق ، ولم تنبت ، تحزن عليها . وأنا الذي خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون ، ثم رحمتهم ، فشق عليك .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن قسيط أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول : طرح بالعراء ، فأنبت الله عليه يقطينة ، فقلنا يا أبا هريرة : ما اليقطينة ؟ قال : شجرة الدباء . هيأ الله تعالى له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض ، فتفشخ عليه ، فترويه من لبنها كل عشية وبكرة . حتى نبت وقال ابن أبي الصلت قبل الإِسلام في ذلك بيتاً من شعر :

فأنبت يقطيناً عليه برحمة . . . من الله لولا الله ألفى ضاحيا

(191/655)

---

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ قال : القرع .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ شجرة من يقطين ﴾ قال : القرع .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه قال : كنا نحدث أنها الدباء هذا القرع ، الذي رأيتم أنبتها الله عليه يأكل منها .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ شجرة من يقطين ﴾ قال: القرع.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة وسعيد بن جبير في قوله ﴿ شجرة من يقطين ﴾ قالا: هي الدباء.

وأخرج الديلمي عن الحسن بن علي رفعه "كلوا اليقطين، فلو علم الله عز وجل شجرة أخف منها لأنبتها على يونس عليه السلام، وإذا اتخذ أحدكم مرقا فليكثر فيه من الدباء، فإنه يزيد في الدماغ، وفي العقل".

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه قال: أنبت الله شجرة من يقطين، وكان لا يتناول منها ورقة فيأخذها إلا أروته لبناً. أو قال: يشرب منها ما شاء حتى نبت.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ قال: غير ذات أصل من الدباء، أو غيره من شجرة ليس لها ساق.

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ قال: كل شيء نبت، ثم يموت من عامه.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما بال البطيخ من القرع، هو كل شيء يذهب على وجه الأرض.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال:

كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين ، والذي يكون على وجه الأرض من البطيخ والقثاء .

(192/655)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه سئل عن اليقطين أهو القرع؟ قال : لا . ولكنها شجرة سماها الله اليقطين ، أظلته .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه قي قوله ﴿ وأرسلناه ﴾ قبل أن يلتقمه الحوت .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن وقتادة في قوله ﴿ وأرسلناه ﴾ قالا بعثه الله تعالى قبل أن يصيبه ما أصابه ، أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل .

وأخرج أحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إنما كانت رسالة يونس عليه السلام بعدما نبذه الحوت ، ثم تلا ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ إلى قوله ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف ﴾ .

وأخرج الترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أُبيّ بن كعب رضي

الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ قال : يزيدون عشرين ألفاً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ أو يزيدون ﴾ قال : يزيدون ثلاثين ألفاً .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ أو يزيدون ﴾ قال : يزيدون بضعة وثلاثين ألفاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ قال : كانوا مائة ألف ، وبضعة وأربعين ألفاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ مائة ألف أو يزيدون ﴾ قال : يزيدون بسبعين ألفاً .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن نوف في قوله ﴿ مائة ألف أو يزيدون ﴾ قال : كانت زيادتهم سبعين .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ قال : الموت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) ﴾

" إلياس " : قيل هو إدريس ، وقيل غيره ، وكان بالشام ، واسمُ صَنَمِهم " بَعْل " ، ومدينتهم بعلبك . . نذر قومَه فكذبوه ، ووَعظَهم فما صدّقُوه ، فأهلَكَ قومَه .

وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133)

مضت قصتهُ وكيف نجَّى أَهلَه إلا امرأته التي شاركَتْهم في عصيانهم ، فحقّ العذاب عليها مثلما عليهم .

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139)

فكان في أول أمره يطلب الاستعفاء من النبوة ، ولكن لم يُعْفَ ، ثم استقبله ما استقبله ، فلم يلبث حتى رأى نَفْسَه في بطن الحوت في الظلمة .

فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142)

أي بما يُلاَمُ عليه ، والحقُّ – سبحانه – مُنَزَّهٌ عن الحيفِ في حُكْمِه ؛ إذ الخَلْقُ خَلْقُه ، ثم اللَّهُ رَاعَى حقّ تَعَبُّدِه ، وحفِظَ ذِمامَ ما سَلَفَ له أداء حقّه فقال : –

فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144)

فإن كَرَمَ العَهْدِ فينا من الإيمان ، وهو مِنَّا من جملة الإحسان ، " فالمؤمن قد أخذ من اللَّهِ خُلُقاً حسناً " - بذلك ورد الخبر .

فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145)

" سقيم " : في ضعفٍ من الحالِ لِمَا أثَّر مِنْ كَوْنِه قضى وقتاً في بطن الحوت .

وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146)



---

لِتُظِلَّه ، فإنه كان في الصحراء وشعاعُ الشمس كان يَضُرُّه ، وقيَّضَ له اللَّهُ ظبيةً ذات وَلَدٍ كانت تجيء فيرضع من لبنها ، فكأنّ الحقَّ أعاده إلى حال الطفولية . ثم إنه رَحِمه ، ورجع إلى قومه ، فأكرموه وآمنوا به ، وكان اللَّهُ قد كَشَفَ عنهم العذاب ، لأنهم حينما خَرَجَ يونسُ من بينهم ندموا وتَضرَّعوا إلى الله لمَّا رَأَوْا أوائلَ العذاب قد أظَلَّتْهم ، فَكَشَفَ الله عنهم العذاب ، وآمنوا بالله ، وكانوا يقولون : لو رأينا يونسَ لَوَقَّرْناه ، وعظَّمْناه ، فرجع يونسُ إليهم بعد نجاته من بطن الحوت ، فاستقبله قومُه ، وأدخلوه بَلَدَهم مُكرّماً .

ويقال : الذَّنبُ والجُرْمُ كانا من قومه ، فهم قد تُوعِدُوا بالعذاب . وأمَّا يونس فلم يكن قد أذنب ولا أَلَمَّ بمحظور ، وخرج من بينهم ، وكَشَفَ اللَّهُ العذابَ عنهم ، وسَلِمُوا . .

واستقبل يونس ما استقبله بل أنه قاسى اللتيا والتي بعد نجاته ؛ ويا عجباً من سِرّ تقديره !

فقد جاء في القصة أن الله سبحانه – أوحى إلى يونس بعد نجاته أنْ قُل لفلانٍ الفَخَّار حتى يَكْسِرَ الجِرارَ التي عملها في هذه السنه كلَّها ! فقال يونس : يا رب ، إنه قَطَعَ مدةً في إنجاز ذلك ، فكيف آمُرُه بأن يَكْسِرَها كلَّها ؟

فقال له : يا يونس ، يَرِقُّ قلبُكَ لِخزّافٍ يُتْلِفُ عَمَلَ سَنةٍ . . . وتريدني أن أُهلِكَ مائةَ ألفٍ من عبادي ؟ ! يا يونس ، إنك لم تخلقهم ، ولو خَلَقْتَهم لرَحِمْتَهم . (1) انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 240.242 ﴾

---

(1) تتجلى براعة القشيري في التقاط نماذج من القصص تخدم فكرته العامة بخصوص تأميل العصاة ، وإفساح باب التوبة أمامهم . . . على عكس بعض الباحثين الذين لا يهمهم إلا التخويف والتبشيع ، والتهويل والإقناط .

(195/655)

---

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3) ﴾

والصافات والزاجرات والتاليات . . طوائف من الملائكة ذكرها هنا بأعمالها التي يعلمها . والتي يجوز أن تكون هي الصافات قوائمها في الصلاة ، أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله . والزاجرات لمن يستحق الزجر من العصاة في أثناء قبض أرواحهم مثلاً أو عند الحشر والسوق إلى جهنم أو في أية حالة وفي أي موضع . والتاليات للذكر . . القرآن أو غيره من كتب الله أو المسبحات بذكر الله .

يقسم الله سبحانه بهذه الطوائف من الملائكة على وحدانيته : ﴿ إن إلهكم لواحد ﴾ . . ومناسبة هذا القسم كما أسلفنا هو تلك الأسطورة التي كانت شائعة في جاهلية العرب من نسبة الملائكة إلى الله ، واتخاذهم آلهة بما أنهم بزعمهم بنات الله !

ثم يعرف الله عباده بنفسه في صفته المناسبة للوحدانية :

﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق ﴾ . .

وهذه السماوات والأرض قائمة حيال العباد ؛ تحدثهم عن الخالق البارئ المدبر لهذا الملكوت الهائل ؛ الذي لا يدعي أحد أنه يملك خلقه وتدبيره ؛ ولا يملك أحد أن يهرب من الاعتراف لخالقه بالقدرة المطلقة والربوبية الحقة . ﴿ وما بينهما ﴾ . . من هواء وسحاب ، وضوء ، ونور ، ومخلوقات دقيقة يعرف البشر شيئاً منها الحين بعد الحين ، ويخفى عليهم منها أكثر مما يكشف لهم !

والسماوات والأرض وما بينهما من الضخامة والعظمة والدقة والتنوع والجمال والتناسق

بحيث لا يملك الإنسان نفسه أمامها حين يستيقظ قلبه من التأثر العميق ، والروعة البالغة ، والتفكر الطويل . وما يمر الإنسان بهذا الخلق العظيم من غير ما تأثر ولا تدبر إلا حين يموت قلبه ، فيفقد التأثر والاستجابة لإيقاعات هذا الكون الحافل بالعجائب .

﴿ ورب المشارق ﴾ . .

(196/655)

---

ولكل نجم مشرق ، ولكل كوكب مشرق ، فهي مشارق كثيرة في كل جانب من جوانب السماوات الفسيحة . . وللتعبير دلالة أخرى دقيقة في التعبير عن الواقع في هذه الأرض التي نعيش عليها كذلك . فالأرض في دورتها أمام الشمس تتوالى المشارق على بقاعها المختلفة كما تتوالى المغارب فكلما جاء قطاع منها أمام الشمس كان هناك مشرق على هذا القطاع ، وكان هناك مغرب على القطاع المقابل له في الكرة الأرضية . حتى إذا تحركت الأرض كان هناك مشرق آخر على القطاع التالي ومغرب آخر على القطاع المقابل له وهكذا . . وهي حقيقة ما كان يعرفها الناس في زمان نزول القرآن الكريم ؛ ولكن خبرهم بها الله في ذلك الزمان القديم !

وهذا النظام الدقيق في توالي المشارق على هذه الأرض . وهذا البهاء الرائع الذي يغمر

الكون في مطالع المشارق . . كلاهما جدير بأن يوقع في القلب البشري من التأثرات الموحية ، ما يهتف به إلى تدبر صنعة الصانع المبدع ، وإلى الإيمان بوحدانية الخالق المدبر ، بما يبدو من آثار الصنعة الموحدة التي لا اختلاف في طابعها الدقيق الجميل .

تلك هي مناسبة ذكر هذه الصفة من صفات الله الواحد في هذا المقام . وسنرى أن ذكر السماء وذكر المشارق له مناسبة أخرى فيما يلي هذه الآيات من السورة . عند الحديث عن الكواكب والشهب والشياطين والرجوم . .

﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ؛ دحوراً ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ .

بعد ما مس في مطلع السورة شطر الأسطورة الخاص بالملائكة ، عاد يمس هنا شطرها الثاني وهو الخاص بالشياطين . وكانوا يزعمون أن بين الله وبين الجنة نسباً . وبعضهم كانوا يعبدون الشياطين على هذا الأساس . وعلى أساس أن الشياطين يعرفون الغيب لاتصالهم بالملأ الأعلى . .

وبعد ذكر السماوات والأرض وما بينهما وذكر المشارق . . إما مشارق النجوم والكواكب . وإما المشارق المتوالية على قطاعات الأرض . وإما هذه وتلك وأنوارها وأضوائها . . يجيء ذكر الكواكب :

﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ . .

ونظرة إلى السماء كافية لرؤية هذه الزينة ؛ ولإدراك أن الجمال عنصر مقصود في بناء الكون ؛ وأن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق ؛ وأن الجمال فيه فطرة عميقة لا عرض سطحي ؛ وأن تصميمه قائم على جمال التكوين كما هو قائم على كمال الوظيفة سواء بسواء . فكل شيء فيه بقدر ، وكل شيء فيه يؤدي وظيفته بدقة ؛ وهو في مجموعه جميل .

والسماء . وتناثر الكواكب فيها ، أجمل مشهد تقع عليه العين . ولا تمل طول النظر إليه . وكل نجمة توصوص بضوئها وكل كوكب يوصوص بنوره ؛ وكأنه عين محبة تخالسك النظر ؛ فإذا أنت حدقت فيها أغمضت وتوارت ؛ وإذا أنت التفت عنها أبرقت ولمعت ! وتتبع مواقعها وتغير منازلها ليلة بعد ليلة وآناً بعد آن متعة نفسية لا تملها النفس أبداً !

ثم تقرر الآية التالية أن لهذه الكواكب وظيفة أخرى ، وأن منها شهباً ترجم بها الشياطين كي لا تدنو من الملأ الأعلى :

﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب

دحوراً ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ . .

فمن الكواكب رجوم تحفظ السماء من كل شيطان عات متمرد وتذوده عن الاستماع إلى ما يدور في الملأ الأعلى ؛ فإذا حاول التسمع تلقفته الرجوم من كل جانب ، فتدحره دحراً ، وله في الآخرة عذاب موصول لا ينقطع . ولقد يخطف الشيطان المارد خطفة سريعة مما يدور في الملأ الأعلى ، فيتبعه شهاب يلاحقه في هبوطه فيصيبه ويحرقه حرقاً .

ونحن لا نعرف كيف يتسمع الشيطان المارد ؛ ولا كيف يخطف الخطفة ؛ ولا كيف يرجم بالشهاب الثاقب . لأن هذه كلها غيبيات تعجز طبيعتنا البشرية عن تصور كيفياتها ؛ ومجالنا فيها هو تصديق ما جاء من عند الله فيها .

(198/655)

---

وهل نعلم عن شئ في هذا الكون إلا القشور ؟ !

والمهم أن هذه الشياطين التي تمنع من الوصول إلى الملأ الأعلى ، ومن التسمع لما يدور فيه هي التي يدعي المدعون أن بينها وبين الله نسباً ، ولو كان شيء من هذا صحيحاً لتغير وجه المعاملة . ولما كان مصير الأنسباء والأصهار بزعمهم هو المطاردة والرجم والحرق أبداً !

وبعد ذكر الملائكة . وذكر السماوات والأرض وما بينهما . وذكر الكواكب التي تزين السماء الدنيا . وذكر الشياطين المردة والقذائف التي تلاحقها . . يكلف الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسألهم أهم أشد خلقاً أم هذه الخلائق ؟ وإذا كانت هذه الخلائق أشد وأقوى ففيم يدهشون لقضية البعث ويسخرون منها ، ويستبعدون وقوعها ، وهي لا تقاس إلى خلق تلك الخلائق الكبرى :

﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا ؟ إنا خلقناهم من طين لازب . بل عجبت ويسخرون . وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون : وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين . أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ ﴾ .

فاستفتهم واسألهم إذا كانت الملائكة والسماوات والأرض وما بينهما والشياطين والكواكب والشهب كلها من خلق الله . فهل خلقهم هم أشد وأصعب من خلق هذه الأكوان والخلائق ؟

ولا ينتظر منهم جواباً ، فالأمر ظاهر ؛ إنما هو سؤال الاستنكار والتعجيب من حالهم العجيب . وغفلتهم عما حولهم ، والسخرية من تقديرهم للأمور . ومن ثم يعرض عليهم مادة خلقهم الأولى . وهي طين رخو لزج من بعض هذه الأرض ، التي هي إحدى تلك الخلائق :

﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ . .

فهم قطعاً ليسوا أشد خلقاً من تلك الخلائق ! وموقفهم إذن عجيب . وهم يسخرون من آيات الله ، ومن وعده لهم بالبعث والحياة . وسخريتهم هذه تثير العجب في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم وهم في موقفهم سادرون :

﴿ بل عجبت ويسخرون . وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون ﴾ . .

(199/655)

---

وحق لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعجب من أمرهم . فإن المؤمن الذي يرى الله في قلبه كما يراه محمد صلى الله عليه وسلم ويرى آيات الله واضحة هذا الوضوح ، كثيرة هذه الكثرة ، يعجب لا شك ويدهش كيف يمكن أن تعمى عنها القلوب ؟ وكيف يمكن أن تقف منها هذا الموقف العجيب !

وبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجب منهم هذا العجب ، إذا هم يسخرون من القضية الواضحة التي يعرضها عليهم ، سواء في وحدانية الله ، أو في شأن البعث والنشور . وإذا هم مطموسون لا تتفتح قلوبهم للتذكير . وإذا هم يتلقون آيات الله بالسخرية الشديدة ، والتعجيب ممن يريهم إياها ، واستدعاء أسباب السخرية وطلبها طلباً كما يوحي لفظ ﴿ يستسخرون ﴾ !

ومن ذلك وصفهم القرآن بأنه سحر ، وعجبهم مما يعدهم به من البعث :

﴿ وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين .

أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ ﴾ . .

لقد غفلوا عن آثار قدرة الله فيما حولهم ، وفي ذات أنفسهم . غفلوا عن آثار هذه القدرة في خلق السماوات والأرض وما بينهما ؛ وفي خلق الكواكب والشهب ؛ وفي خلق الملائكة والشياطين ؛ وفي خلقهم هم أنفسهم من طين لازب . . غفلوا عن آثار القدرة في هذا كله ووقفوا يستبعدون على هذه القدرة أن تعيدهم إذا ماتوا وصاروا تراباً وعظاماً ، هم وآباءهم الأولين ! وما في هذا البعث والإعادة من غريب على تلك القدرة ولا بعيد ؛ لمن يتأمل هذا الواقع ويتدبره أقل تدبر ؛ في ضوء هذه المشاهدات التي تحيط بهم في الآفاق وفي أنفسهم .

وإذ كانوا لا يتدبرون هذه المشاهدات في هوادة ويسر ، وفي طمأنينة وهدوء . فهو يوقظهم إذن بشدة وعنف ، على مشهدهم في الآخرة مبعوثين . ويصور لهم ذلك المشهد وهم فيه يضطربون :

﴿ قل : نعم وأنتم داخرون ﴾ . .

نعم ستبعثون أنتم وآباؤكم الأولون . ستبعثون وأنتم داخرون ، ذلولون ، مستسلمون . غير مستعصين ولا متأبين . . نعم . . ثم يدخل في استعراض ذلك كيف يكون . وإذا هم أمام مشهد من المشاهد المطولة المتعددة الجوانب . المتنوعة الأساليب . المزدحمة بالمناظر الحية والحركات المتتابعة . يلتقي فيها الوصف بالحوار . فتسير على نسق الحكاية فترة ، ثم تنتقل إلى نسق الحوار أخرى . ويتخلل عرض الأحداث والحركات تعليقات وتعقيبات عليها . وبذلك يستكمل المشهد كل سمات الحياة :

﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ﴾ . .

هكذا في ومضة خاطفة بمقدار ما تنبعث صيحة واحدة . تسمى ﴿ زجرة ﴾ للدلالة على لون من الشدة فيها ، والعنف في توجيهها ، والاستعلاء في مصدرها . . ﴿ فإذا هم ينظرون ﴾ . . فجأة وبلا تمهيد أو تحضير . وإذا هم يصيحون مبهوتين :

﴿ وقالوا : يا ويلنا . هذا يوم الدين ﴾ . .

وبينما هم في بهتتهم وبغتتهم إذا صوت يحمل إليهم التقريع من حيث لا يتوقعون :

﴿ هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ﴾ . . !

وهكذا ينتقل السياق من الخبر إلى الخطاب موجهاً لمن كانوا يكذبون بيوم الدين . وإن هي إلا تقريعة واحدة حاسمة : ثم يوجه الأمر إلى الموكلين بالتنفيذ :

﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فأهدوهم إلى صراط الجحيم . وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ .

احشروا الذين ظلموا ومن هم على شاكلتهم من المذنبين ، فهم أزواج متشاكلون . . وفي الأمر على ما فيه من لهجة جازمة تهكم واضح في قوله : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ . . فما أعجبها من هداية خير منها الضلال . وإنها لهي الرد المكافئ لما كان منهم من ضلال عن الهدى القويم . وإذ لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم ، فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم !

وها هم أولاء قد هدوا .

هدوا إلى صراط الجحيم . ووقفوا على استعداد للسؤال . وها هو ذا الخطاب يوجه إليهم بالتقريع في صورة سؤال بريء !

﴿ ما لكم لا تناصرون ؟ ﴾ !



---

ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً ، وأنتم هنا جميعاً ؟ وكلكم في حاجة إلى الناصر المعين ؟ ! ومعكم آلهتكم التي كنتم تعبدون !

ولا جواب بطبيعة الحال ولا كلام! إنما يرد التعليق والتعقيب:

﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ ..

عابدين. ومعبودين!!!

ثم يعود السياق مرة أخرى إلى الحكاية، ويعرض مشهدهم يجادل بعضهم بعضاً:

﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا: إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ ..

أي كنتم توسوسون لنا عن يميننا كما هو المعتاد في حالة الوسوسة بالأسرار غالباً فأنتم مسؤولون عما نحن فيه. وعندئذ ينبري المتهمون لتسفيه هذا الاتهام، وإلقاء التبعة على موجهيه:

﴿ قالوا: بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ ..

فلم تكن وسوستنا هي التي أغوتكم بعد إيمان، وأضلتكم بعد هدى..

﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ ..

نرغمكم به على قبول ما نراه، ونضطركم إليه اضطراراً لا ترغبون فيه.

﴿ بل كنتم قوماً طاغين ﴾ ..

متجاوزين للحق، ظالمين لا تقفون عند حد.

﴿ فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ﴾ ..

فاستحققنا نحن وأنتم العذاب، وحق علينا الوعيد بأن نذوق العذاب.

وقد انزلقتم معنا بسبب استعدادكم للغواية، وما فعلنا بكم إلا أنكم اتبعتمونا في غوايتنا:

﴿ فأغويناكم إنا كنا غاوين ﴾ ..

وهنا يرد تعليق آخر، وكأنه حكم يعلن على رؤوس الأشهاد، يحمل أسبابه، ويعرض ما كان منهم في الدنيا مما حقق قول الله عليهم في الآخرة:

﴿ فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون. إنا كذلك نفعل بالمجرمين. إنهم كانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون؛ ويقولون: أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ﴾.

ثم يكمل التعليق متوجهاً فيه بالتأنيب والتقبيح لقائلي هذا الكلام المرذول:

﴿ بلى جاء بالحق وصدق المرسلين. إنكم لذائقو العذاب الأليم. وما تجزون إلا ما كنتم تعملون. إلا عباد الله المخلصين ﴾ ..

(202/655)

---

وعلى ذكر عباد الله المخلصين الذين استثناهم من تذوق العذاب الأليم يعرض صفحة هؤلاء العباد المخلصين في يوم الدين. ويعود العرض متبعاً نسق الإخبار المصور للنعيم الذي يتقلبون في أعطافه في مقابل ذلك العذاب الأليم للمكذبين:

﴿ أولئك لهم رزق معلوم. فواكه وهم مكرمون. في جنات النعيم. على سرر متقابلين.

يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون .

وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهن بيض مكنون . . . ﴾ .

وهو نعيم مضاعف يجمع كل مظاهر النعيم . نعيم تستمتع به النفس ويستمتع به الحس .

وتجد فيه كل نفس ما تشتهيه من ألوان النعيم .

فهم أولاً عباد الله المخلصون . وفي هذه الإشارة أعلى مراتب التكريم . وهم ثانياً ﴿ مكرمون ﴾ في الملأ الأعلى . وياله من تكريم ! ثم إن لهم ﴿ فواكه ﴾ وهم على ﴿ سرر متقابلين ﴾ .

وهم يخدمون فلا يتكلفون شيئاً من الجهد في دار الراحة والرضوان والنعيم : ﴿ يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾ . .

وتلك أجمل أوصاف الشراب ، التي تحقق لذة الشراب ، وتنفي عقابيله . فلا خمار يصدع الرؤوس ، ولا منع ولا انقطاع يذهب بلذة المتاع ! ﴿ وعندهم قاصرات الطرف عين ﴾ حور حييات لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن حياء وعفة ، مع أنهن ﴿ عين ﴾ واسعات جميلات العيون ! وهن كذلك مصونات مع رقة ولطف ونعومة : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ . . لا تبتذله الأيدي ولا العيون !

ثم يمضي في الحكاية المصورة ؛ فإذا عباد الله المخلصون هؤلاء بعد ما يسرت لهم كل ألوان المتاع ينعمون بسمر هادئ ، يتذاكرون فيه الماضي والحاضر وذلك في مقابل التخاصم

والتلاحي الذي يقع بين المجرمين في أول المشهد وإذا أحدهم يستعيد ماضيه ، ويقص على إخوانه طرفاً مما وقع له :

﴿ قال قائل منهم : إني كان لي قرين . يقول : أإنك لمن المصدقين . أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون ؟ ﴾ . .

(203/655)

---

لقد كان صاحبه وقرينه ذاك يكذب باليوم الآخر ، ويسائله في دهشة : أهو من المصدقين بأنهم مبعوثون فمحاسبون بعد إذ هم تراب وعظام ؟ !

وبينما هو ماض في قصته يعرضها في سمره مع إخوانه ، يخطر له أن يتفقد صاحبه وقرينه ذاك ليعرف مصيره . وهو يعرف بطبيعة الحال أنه قد صار إلى الجحيم . فيتطلع ويدعو إخوانه إلى التطلع معه :

قال : ﴿ هل أنتم مطلعون ؟ فاطلع فرآه في سواء الجحيم ﴾ . .

عندئذ يتوجه إلى قرينه الذي وجده في وسط الجحيم . يتوجه إليه ليقول له : يا هذا . لقد كدت توردني موارد الردى بوسوستك . لولا أن الله قد أنعم علي ، فعصمني من الاستماع إليك :

﴿ قال : تالله إن كدت لتردين . ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ﴾ . .

أي لكنت من الذين يساقون إلى الموقف وهم كارهون .

وتثير رؤيته لقرينه في سواء الجحيم شعوره بجزالة النعمة التي نالها هو وإخوانه من عباد الله المخلصين . فيحب أن يؤكدها ويستعرضها ، ويطمئن إلى دوامها ، تلذذاً بها وزيادة في المتاع بها فيقول :

﴿ أفما نحن بميتين إلا موتتنا الاولى ؟ وما نحن بمعذبين ؟ إن هذا لهو الفوز العظيم ﴾ . .

وهنا يرد تعليق يوقظ القلوب ويوجهها إلى العمل والتسابق لمثل هذا المصير :

﴿ لمثل هذا ﴾ النعيم الذي لا يدركه فوت ، ولا يخشى عليه من نفاذ ، ولا يعقبه موت ، ولا يتهدده العذاب . لمثل هذا فليعمل العاملون . . فهذا هو الذي يستحق الاحتفال . وما عداه مما ينفق فيه الناس أعمارهم على الأرض زهيد زهيد حين يقاس إلى هذا الخلود .

ولكي يتضح الفارق الهائل بين هذا النعيم الخالد الآمن الدائم الراضي ؛ والمصير الآخر الذي ينتظر الفريق الآخر . فإن السياق يستطرد إلى ما ينتظر هذا الفريق بعد موقف الحشر والحساب الذي ورد في مطلع المشهد الفريد :

﴿ أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم ! إنا جعلناها فتنة للظالمين .

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (69) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (70)

في هذا الدرس يعود السياق من الجولة الأولى في ساحة الآخرة، وفي مجالي النعيم ودارات العذاب، يعود ليستأنف جولة أخرى في تاريخ البشر مع آثار الذاهبين الأولين، يعرض فيها قصة الهدى والضلال منذ فجر البشرية الأولى؛ فإذا هي قصة مكرورة معادة؛ وإذا القوم الذين يواجهون الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة بالكفر والضلال بقية من أولئك المكذبين الضالين. ويكشف لهؤلاء عما جرى لمن كان قبلهم، ويلمس قلوبهم بهذه الصفحات المطوية في بطون التاريخ. ويطمئن المؤمنين برعاية الله التي لم تتخل في الماضي عن المؤمنين.

وفي هذا السياق يستعرض طرفاً من قصص نوح، وإبراهيم، وإسماعيل وإسحاق، وموسى وهارون، وإلياس، ولوط، ويونس.. ويقف وقفة أطول أمام قصة إبراهيم وإسماعيل. يعرض فيها عظمة الإيمان والتضحية والطاعة، وطبيعة الإسلام الحقيقية كما هي في نفسي إبراهيم وإسماعيل، في حلقة لا تعرض في غير هذه السورة، ولا ترد إلا في هذا السياق.. وهذا القصص هو قوام هذا الدرس الأصيل..

﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين، فهم على آثارهم يهرعون. ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين. ولقد أرسلنا فيهم منذرين. فانظر كيف كان عاقبة المنذرين. إلا عباد الله المخلصين ﴾..

إنهم عريقون في الضلالة ، وهم في الوقت ذاته مقلدون لا يفكرون ولا يتدبرون ؛ بل يطيرون معجلين يقفون خطى آبائهم الضالين غير ناظرين ولا متعقلين :

﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون ﴾ . .

وهم وآباؤهم صورة من صور الضلال التي يمثلها أكثر الأولين :

﴿ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ﴾ .

وكان ضلالهم بعد الإنذار والتحذير :

﴿ ولقد أرسلنا فيهم منذرين ﴾ . .

ولكن كيف كانت العاقبة ؟ كيف كانت عاقبة المكذبين ؟ وكيف كانت عاقبة عباد الله المخلصين ؟ إنها معروضة في سلسلة القصص . وهذا الإعلان في مقدمتها للتنبيه :

﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ، إلا عباد الله المخلصين ﴾ . .

(205/655)

---

ويبدأ بقصة نوح في إشارة سريعة تبين العاقبة ، وتقرر عناية الله بعباده المخلصين :

﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون : ونجيناه وأهله من الكرب العظيم . وجعلنا ذريته هم الباقين . وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على نوح في العاليمن . إنا كذلك نجزي المحسنين .

إنه من عبادنا المؤمنين . ثم أغرقنا الآخرين ﴾ .

وتتضمن هذه الإشارة توجه نوح بالنداء إلى ربه ، وإجابة دعوته إجابة كاملة وافية . إجابتها من خير مجيب . لله سبحانه . ﴿ فلنعم المجيبون ﴾ . . وتتضمن نجاته هو وأهله من الكرب العظيم . كرب الطوفان الذي لم ينج منه إلا من أراد له الله النجاة وقدر له الحياة . . وتتضمن قدر الله بأن يجعل من ذرية نوح عماراً لهذه الأرض وخلفاء . وأن يبقى ذكره في الأجيال الآتية إلى آخر الزمان : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ . . وتعلن في الخافقين سلام الله على نوح .

جزاء إحسانه : ﴿ سلام على نوح في العالمين . إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ . . وأي جزاء بعد سلام الله . والذكر الباقي مدى الحياة ! أما مظهر الإحسان وسبب الجزاء فهو الإيمان : ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ . . وهذه هي عاقبة المؤمنين . فأما غير المؤمنين من قوم نوح فقد كتب الله عليهم الهلاك والفناء : ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ . . ومضت سنة الله منذ فجر البشرية البعيد . وفق ذلك الإجمال في مقدمة القصص : ﴿ ولقد أرسلنا فيهم منذِرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين . إلا عباد الله المخلصين ﴾ . .

ثم تجيء قصة إبراهيم . تجيء في حلقتين رئيسيتين : حلقة دعوته لقومه ، وتحطيم الأصنام ، وهمهم به ليقتلوه ، وحماية الله له وخذلان شانئيه وهي حلقة تكررت من قبل في سور القرآن وحلقة جديدة لا تعرض في غير هذه السورة . وهي الخاصة بحادث الرؤيا والذبح

والفداء ، مفصلة المراحل والخطوات والمواقف ، في أسلوبها الأخاذ وأدائها الرهيب ! ممثلة أعلى صور الطاعة والتضحية والفداء والتسليم في عالم العقيدة في تاريخ البشرية الطويل .

(206/655)

---

﴿ وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه : ماذا تعبدون ؟ أإفكا آلهة دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟ ﴾ . .

هذا هو افتتاح القصة ، والمشهد الأول فيها . . نقلة من نوح إلى إبراهيم . وبينهما صلة من العقيدة والدعوة والطريق . فهو من شيعة نوح على تباعد الزمان بين الرسولين والرسالتين ؛ ولكنه المنهج الإلهي الواحد ، الذي يلتقيان عنده ويرتبطان به ويشتركان فيه .

ويبرز من صفة إبراهيم سلامة القلب وصحة العقيدة وخلوص الضمير :

﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ . .

وهي صورة الاستسلام الخالص . تتمثل في مجيئه لربه . وصورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة تتمثل في سلامة قلبه . والتعبير بالسلامة تعبير موح مصور لمدلوله ، وهو في الوقت ذاته بسيط قريب المعنى واضح المفهوم . ومع أنه يتضمن صفات كثيرة من البراءة والنقاوة ، والإخلاص والاستقامة . . إلا أنه يبدو بسيطاً غير معقد ، ويؤدي معناه بأوسع

مما تؤديه هذه الصفات كلها مجتمعات ! وتلك إحدى بدائع التعبير القرآني الفريد .

وبهذا القلب السليم ، استنكر ما عليه قومه واستبشعه . استنكار الحس السليم لكل ما تنبو عنه الفطرة الصادقة من تصور ومن سلوك :

﴿ إذ قال لأبيه وقومه : ماذا تعبدون ؟ أإفكا آلهة دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟ ﴾ . . وهو يراهم يعبدون أصناما ً وأوثانا ً . فيهتف بهم هتاف الفطرة السليمة في استنكار شديد . ﴿ ماذا تعبدون ؟ ﴾ ماذا ؟ فإن ما تعبدون ليس من شأنه أن يعبد ، ولا أن يكون له عابدون ! وما يعبده الإنسان في شبهة من حق . إنما هو الإفك المحض . والافتراء الذي لا شبهة فيه . فهل أنتم تقصدون إلى الإفك قصدا ً وإلى الافتراء عمدا ً : ﴿ أإفكا آلهة دون الله تريدون ؟ ﴾ وما هو تصوركم لله ؟ وهل يهبط وينحرف إلى هذا المستوى الذي تنكره الفطرة لأول وهلة : ﴿ فما ظنكم برب العالمين ؟ ﴾ .



---

. وهي كلمة يبدو فيها استنكار الفطرة السليمة البريئة ، وهي تطلع على الأمر البين الذي يصدم الحس والعقل والضمير .

ويسقط السياق هنا ردهم عليه ، وحوارهم معه ؛ ويمضي مباشرة في المشهد التالي إلى

عزيمته التي قررها في نفسه تجاه هذا الإفك المكشوف :

﴿ فنظر نظرة في النجوم . فقال : إني سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال : ألا تأكلون ؟ مالكم لا تنطقون ؟ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ . .

ويروى أنه كان للقوم عيد ربما كان هو عيد النيروز يخرجون فيه إلى الحدائق والخلوات ، بعد أن يضعوا الثمار بين يدي آلهتهم لتباركها . ثم يعودون بعد الفسحة والمرح فيأخذون طعامهم المبارك ! وأن إبراهيم عليه السلام بعد أن يئس من استجابتهم له ؛ وأيقن بانحراف فطرتهم الانحراف الذي لا صلاح له ، اعتزم أمراً . وانتظر هذا اليوم الذي يبعدون فيه عن المعابد والأصنام لينفذ ما اعتزم . وكان الضيق بما هم فيه من انحراف قد بلغ أقصاه وأتعب قلبه وقواه ، فلما دعي إلى مغادرة المعبد ، قلب نظره إلى السماء ، وقال : ﴿ إني سقيم ﴾ . . لا طاقة لي بالخروج إلى المتنزهات والخلوات . فإنما يخرج إليها طلاب اللذة والمتاع ، أخلياء القلوب من الهم والضيق وقلب إبراهيم لم يكن في راحة ونفسه لم تكن في استرواح . قال ذلك معبراً عن ضيقه وتعبه . وأفصح عنه ليتركوه وشأنه . ولم يكن هذا كذباً منه . إنما كان له أصل في واقع حياته في ذلك اليوم . وإن الضيق ليمرض ويسقم ذويه !

وكان القوم معجلين ليذهبوا مع عاداتهم وتقاليدهم ومراسم حياتهم في ذلك العيد ؛ فلم يتلبثوا ليفحصوا عن أمره ، بل تولوا عنه مدبرين ، مشغولين بما هم فيه . وكانت هذه هي الفرصة التي يريد .

لقد أسرع إلى آلهتهم المدعاة. وأمامها أطايب الطعام وبواكير الثمار. فقال في تهكم: ﴿ ألا تأكلون؟ ﴾.. ولم تجبه الأصنام بطبيعة الحال. فاستطرد في تهكمه وعليه طابع الغيظ والسخرية: ﴿ ما لكم لا تنطقون؟ ﴾.. وهي حالة نفسية معهودة. أن يوجه الإنسان كلامه إلى ما يعلم حقيقته، ويستيقن أنه لا يسمع ولا ينطق! إنما هو الضيق بما وراء الآلهة المزعومة من القوم وتصورهم السخيف!.. ولم تجبه الآلهة مرة أخرى!! وهنا أفرغ شحنة الغيظ المكتوم حركة لا قولاً: ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾.. وشفى نفسه من السقم والهم والضيق..!

وينتهي هذا المشهد فيليه مشهد جديد. وقد عاد القوم فاطلعوا على جذاذ الآلهة! ويختصر السياق ما يفصله في سورة أخرى من سؤالهم عمن صنع بآلهتهم هذا الصنع، واستدلالهم في النهاية على الفاعل الجريء. يختصر هذا ليقفهم وجهاً لوجه أمام إبراهيم!

﴿ فأقبلوا إليه يزفون ﴾..

لقد تسامعوا بالخبر، وعرفوا من الفاعل، فأقبلوا إليه يسرعون الخطى ويحدثون حوله زفيفاً.. وهم جمع كثير غاضب هائج، وهو فرد واحد. ولكنه فرد مؤمن. فرد يعرف

طريقه . فرد واضح التصور لإلهه .

عقيدته معروفة له محدودة . يدركها في نفسه ، ويراها في الكون من حوله . فهو أقوى من هذه الكثرة الهائجة المائجة ، المدخولة العقيدة ، المضطربة التصور . ومن ثم يجبههم بالحق الفطري البسيط لا يبالي كثرتهم وهياجهم وزفيفهم !

﴿ قال : أتعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون ؟ ﴾ . .

إنه منطق الفطرة يصرخ في وجههم : ﴿ أتعبدون ما تنحتون ؟ ﴾ . . والمعبود الحق ينبغي أن يكون هو الصانع لا المصنوع : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ . فهو الصانع الوحيد الذي يستحق أن يكون المعبود .

ومع وضوح هذا المنطق وبساطته ، إلا أن القوم في غفلتهم وفي اندفاعهم لم يستمعوا له ومتى استمع الباطل إلى صوت الحق البسيط ؟ واندفع أصحاب الأمر والنهي فيهم يزاولون طغيانهم في صورته الغليظة :



---

﴿ قالوا : ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم ﴾ . .

إنه منطق الحديد والنار الذي لا يعرف الطغاة منطقاً سواه ؛ عندما تعوزهم الحجة

وينقصهم الدليل . وحينما تحرجهم كلمة الحق الخالصة ذات السلطان المبين .

ويختصر السياق هنا ما حدث بعد قولتهم تلك ، ليعرض العاقبة التي تحقق وعد الله لعباده المخلصين ووعيده لأعدائهم المكذبين :

﴿ فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسْفلين ﴾ . .

وأين يذهب كيد العباد إذا كان الله يريد ؟ وماذا يملك أولئك الضعاف المهازيل من الطغاة والمتجبرين وأصحاب السلطان وأعوانهم من الكبراء إذا كانت رعاية الله تحوط عباده المخلصين ؟ . .

ثم تجيء الحلقة الثانية من قصة إبراهيم . . لقد انتهى أمره مع أبيه وقومه . لقد أرادوا به الهلاك في النار التي أسموها الجحيم . وأراد الله أن يكونوا هم الأسفلين ؛ ونجاه من كيدهم أجمعين .

عندئذ استدبر إبراهيم مرحلة من حياته ليستقبل مرحلة ؛ وطوى صفحة لينشر صفحة :

﴿ وقال : إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ . .

هكذا . . إني ذاهب إلى ربي . . إنها الهجرة . وهي هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية . هجرة يترك وراءه فيها كل شيء من ماضي حياته . يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه وكل ما يربطه بهذه الأرض ، وبهؤلاء الناس . ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل

شاغل . ويهاجر إلى ربه متخففاً من كل شيء ، طارحاً وراءه كل شيء ، مسلماً نفسه لربه لا يستبقي منها شيئاً . موقن أن ربه سيهديه ، وسيرعى خطاه ، وينقلها في الطريق المستقيم .

إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال ، ومن وضع إلى وضع ، ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لا يزحمها في النفس شيء . إنه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين .

*(210/655)*

---

وكان إبراهيم حتى هذه اللحظة وحيداً لا عقب له ؛ وهو يترك وراءه أواصر الأهل والقربى ، والصحبة والمعرفة . وكل مألوف له في ماضي حياته ، وكل ما يشده إلى الأرض التي نشأ فيها ، والتي انحسم ما بينه وبين أهلها الذين ألقوه في الجحيم ! فاتجه إلى ربه الذي أعلن أنه ذاهب إليه . اتجه إليه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح :

﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ .

.

واستجاب الله دعاء عبده الصالح المتجرد ، الذي ترك وراءه كل شيء ، وجاء إليه بقلب

سليم . .

﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ . .

هو إسماعيل كما يرجح سياق السيرة والسورة وسنرى آثار حلمه الذي وصفه ربه به وهو غلام . ولنا أن نتصور فرحة إبراهيم الوحيد المفرد المهاجر المقطوع من أهله وقرابته . لنا أن نتصور فرحته بهذا الغلام ، الذي يصفه ربه بأنه حليم .

والآن آن أن نطلع على الموقف العظيم الكريم الفريد في حياة إبراهيم . بل في حياة البشر أجمعين . وآن أن نقف من سياق القصة في القرآن أمام المثل الموحي الذي يعرضه الله للأمة المسلمة من حياة أبيها إبراهيم . .

﴿ فلما بلغ معه السعي . قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ماذا ترى . قال : يا أبت افعل ما تؤمر : ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ . .

يا لله ! ويا لروعة الإيمان والطاعة والتسليم . .



---

هذا إبراهيم الشيخ . المقطوع من الأهل والقرابة . المهاجر من الأرض والوطن . ها هو ذا يرزق في كبرته وهرمه بغلام . طالما تطلع إليه . فلما جاءه جاء غلاماً ممتازاً يشهد له ربه بأنه

حليم . وها هو ذا ما يكاد يأنس به ، وصباه يتفتح ، ويبلغ معه السعي ، ويرافقه في الحياة . . ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد ، حتى يرى في منامه أنه يذبحه . ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية . فماذا ؟ إنه لا يتردد ، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة ، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم . . نعم إنها إشارة . مجرد إشارة . وليست وحياً صريحاً ، ولا أمراً مباشراً . ولكنها إشارة من ربه . . وهذا يكفي . . هذا يكفي ليلبي ويستجيب . ودون أن يعترض . ودون أن يسأل ربه . . لماذا يا ربي أذبح ابني الوحيد ؟ ! ولكنه لا يلبي في انزعاج ، ولا يستسلم في جزع ، ولا يطيع في اضطراب . . كلا إنما هو القبول والرضى والطمأنينة والهدوء . يبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب :

﴿ قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك . فانظر ماذا ترى ﴾ .

فهي كلمات المالك لأعصابه ، المطمئن للأمر الذي يواجهه ، الواثق بأنه يؤدي واجبه . وهي في الوقت ذاته كلمات المؤمن ، الذي لا يهوله الأمر فيؤديه ، في اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهي ، ويستريح من ثقله على أعصابه !

والأمر شاق ما في ذلك شك فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد إلى معركة . ولا يطلب إليه أن يكلفه أمراً تنتهي به حياته . . إنما يطلب إليه أن يتولى هو بيده . يتولى ماذا ؟ يتولى ذبحه . . وهو مع هذا يتلقى الأمر هذا التلقي ، ويعرض على ابنه هذا العرض ؛ ويطلب إليه

أن يتروى في أمره، وأن يرى فيه رأيه!

إنه لا يأخذ ابنه على غرة لينفذ إشارة ربه.

(212/655)

---

وينتهي. إنما يعرض الأمر عليه كالذي يعرض المألوف من الأمر. فالأمر في حسه هكذا. ربه يريد. فليكن ما يريد. على العين والرأس. وابنه ينبغي أن يعرف. وأن يأخذ الأمر طاعة وإسلاماً، لا قهراً واضطراراً. لينال هو الآخر أجر الطاعة، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم!

إنه يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التي ذاقها؛ وأن ينال الخير الذي يراه هو أبقى من الحياة وأقنى..

فماذا يكون من أمر الغلام، الذي يعرض عليه الذبح، تصديقاً لرؤيا رآها أبوه؟

إنه يرتقي إلى الأفق الذي ارتقى إليه من قبل أبوه:

﴿ قال: يا أبت افعل ما تؤمر. ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾..

إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب. ولكن في رضى كذلك وفي يقين..

﴿ يا أبت ﴾.. في مودة وقربى. فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده. بل

لا يفقده أدبه ومودته .

﴿ افعل ما تؤمر ﴾ . . فهو يحس ما أحسه من قبل قلب أبيه . يحس أن الرؤيا إشارة .

وأن الإشارة أمر . وأنها تكفي لكي يلبي وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب .

ثم هو الأدب مع الله ، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال ؛ والاستعانة بربه على

ضعفه ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية ، ومساعدته على الطاعة :

﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ . .

ولم يأخذها بطولة . ولم يأخذها شجاعة . ولم يأخذها اندفاعاً إلى الخطر دون مبالاة . ولم يظهر لشخصه ظلاً ولا حجماً ولا وزناً . . إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه ، وأصبره على ما يراد به : ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ . .

يا للأدب مع الله ! ويا لروعة الإيمان . ويا لنبل الطاعة . ويا لعظمة التسليم !

ويخطو المشهد خطوة أخرى وراء الحوار والكلام . . يخطو إلى التنفيذ :

﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ . .

ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة . وعظمة الإيمان . وطمأنينة الرضى وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان . . إن الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استعداداً . وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعاً . وقد وصل الأمر إلى أن يكون عياناً .

لقد أسلما . . فهذا هو الإسلام . هذا هو الإسلام في حقيقته . ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم . . وتنفيذ . . وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم .

إنها ليست الشجاعة والجراءة . وليس الاندفاع والحماسة . لقد يندفع المجاهد في الميدان ، يقتل ويقتل . ولقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنه قد لا يعود . ولكن هذا كله شيء والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر . . ليس هنا دم فائر ، ولا حماسة دافعة ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص ! إنما هو الاستسلام الواعي المتعقل القاصد المريد ، العارف بما يفعل ، المطمئن لما يكون .

لا بل هنا الرضى الهادئ المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل !

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا . كانا قد أسلما . كانا قد حققا الأمر والتكليف . ولم يكن باقياً إلا أن يذبح إسماعيل ، ويسيل دمه ، وتزهق روحه . . وهذا أمر لا يعني شيئاً في ميزان الله ، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما . .

كان الابتلاء قد تم . والامتحان قد وقع . ونتائجه قد ظهرت . وغاياته قد تحققت . ولم يعد إلا الألم البدني . وإلا الدم المسفوح . والجسد الذبيح . والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء . ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء . ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا ، وقد حققوا التكليف ، وقد جازوا الامتحان بنجاح.

وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما . فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقا :

﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا . إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ﴾ . .

(214/655)

---

قد صدقت الرؤيا وحققتها فعلاً . فالله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى في النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه ، ولو كان هو الابن فلذة الكبد . ولو كانت هي النفس والحياة . وأنت يا إبراهيم قد فعلت . جدت بكل شيء . وبأعز شيء . وجدت به في رضى وفي هدوء وفي طمأنينة وفي يقين . فلم يبق إلا اللحم والدم . وهذا ينوب عنه ذبح . أي ذبح من دم ولحم ! ويفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدت . يفديها بذبح عظيم . قيل : إنه كبش وجده إبراهيم مهيأ بفعل ربه وإرادته ليذبحه بدلاً من

إسماعيل!

وقيل له: ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ . . نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء. ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء. ونجزيهم بإقدارهم وإصبارهم على الأداء. ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء!

ومضت بذلك سنة النحر في الأضحى، ذكرى لهذا الحادث العظيم الذي يرتفع منارة لحقيقة الإيمان. وجمال الطاعة. وعظمة التسليم. والذي ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم، الذي تتبع ملته، والذي ترث نسبه وعقيدته. ولتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم بها أو تقوم عليها، ولتعرف أنها الاستسلام لقدر الله في طاعة راضية واثقة ملبية لا تسأل ربها لماذا؟ ولا تتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه. ولا تستبقي لنفسها في نفسها شيئاً، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه إلا كما يطلب هو إليها أن تقدم!

ثم لتعرف أن ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء؛ ولا أن يؤذيها بالبلاء، إنما يريد أن تأتيه طائعة ملبية وافية مؤدية. مستسلمة لا تقدم بين يديه، ولا تتألى عليه، فإذا عرف منها الصدق في هذا أعفاها من التضحيات والآلام.

واحتسبها لها وفاء وأداء. وقبل منها وفدّاها. وأكرمها كما أكرم أباها . .

﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ . .

فهو مذكور على توالي الأجيال والقرون . وهو أمة . وهو أبو الأنبياء . وهو أبو هذه الأمة المسلمة . وهي وارثة ملته . وقد كتب الله لها وعليها قيادة البشرية على ملة إبراهيم . فجعلها الله له عقباً ونسباً إلى يوم الدين .

﴿ سلام على إبراهيم ﴾ . .

سلام عليه من ربه . سلام يسجل في كتابه الباقي . ويرقم في طوايا الوجود الكبير .

﴿ كذلك نجزي المحسنين ﴾ . .

كذلك نجزيهم بالبلاء . . والوفاء . والذكر . والسلام . والتكريم .

﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ . .

وهذا جزاء الإيمان . وتلك حقيقته فيما كشف عنه البلاء المبين .

ثم يتجلى عليه ربه بفضله مرة أخرى ونعمته فيهب له إسحاق في شيخوخته . ويباركه ويبارك إسحاق . ويجعل إسحاق نبياً من الصالحين :

﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ﴾ . .

وتتلاحق من بعدهما ذريتهما . ولكن وراثة هذه الذرية لهما ليست وراثة الدم والنسب

إنما هي وراثة الملة والمنهج : فمن اتبع فهو محسن . ومن انحرف فهو ظالم لا ينفعه نسب قريب أو بعيد :

﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ . .

ومن ذريتهما موسى وهارون :

﴿ ولقد مننا على موسى وهارون . ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم . ونصرناهم فكانوا هم الغالبين . وآتيناهما الكتاب المستبين . وهديناهما الصراط المستقيم . وتركنا عليهما في الآخرين . سلام على موسى وهارون . إنا كذلك نجزي المحسنين . إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ . .

*(216/655)*

---

وهذه اللمحة من قصة موسى وهارون تعنى بإبراز منة الله عليهما باختيارهما واصطفائهما . وبنجاتهما وقومهما ﴿ من الكرب العظيم ﴾ الذي تفصله القصة في السور الأخرى . وبالنصر والغلبة على جلاديهم من فرعون وملئه . وبإعطائهما الكتاب الواضح المستبين . وهدايتهما إلى الصراط المستقيم . صراط الله الذي يهدي إليه المؤمنين . وبإبقاء ذكرهما في الأجيال الآتية والقرون الأخيرة . وتنتهي هذه اللمحة بالسلام

من الله على موسى وهارون . والتعقيب المتكرر في السورة نوع الجزاء الذي يلقاه المحسنون ، وقيمة الإيمان الذي يكرم من أجله المؤمنون . .

وتعقب تلك اللمحة لمحة مثلها عن إلياس ، والأرجح أنه النبي المعروف في العهد القديم باسم إيلياء . وقد أرسل إلى قوم في سورية كانوا يعبدون صنماً يسمونه بعلاً . وما تزال آثار مدينة بعلبك تدل على آثار هذه العبادة .

﴿ وإن إلياس لمن المرسلين . إذ قال لقومه ألا تتقون ؟ أتدعون بعلاً وتذورن أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين ؟ فكذبوه فإنهم لمحضرون . إلا عباد الله المخلصين . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إلياسين . إنا كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ . .

ولقد دعا إلياس قومه إلى التوحيد ، مستنكراً عبادتهم لبعل ، وتركهم ﴿ أحسن الخالقين ربهم ورب آبائهم الأولين ﴾ . كما استنكر إبراهيم عبادة أبيه وقومه للأصنام . وكما استنكر كل رسول عبادة قومه الوثنيين .

وكانت العاقبة هي التكذيب . والله سبحانه يقسم ويؤكد أنهم سيحضرون مكرهين ليلقوا جزاء المكذبين .

إلا من آمن منهم واستخلصه الله من عباده فيهم .

وتختم اللمحة القصيرة عن إلياس تلك الخاتمة المكررة المقصودة في السورة ، لتكريم رسل الله بالسلام عليهم من قبله . ولبيان جزاء المحسنين . وقيمة إيمان المؤمنين .

(217/655)

---

وسيرة إلياس ترد هنا لأول مرة في مثل تلك اللمحة القصيرة . ونقف لنلم بالناحية الفنية في الآية : ﴿ سلام على إلياسين ﴾ فقد روعيت الفاصلة وإيقاعها الموسيقي في إرجاع اسم إلياس بصيغة ﴿ إلياسين ﴾ على طريقة القرآن في ملاحظة تناسق الإيقاع في التعبير .

ثم تأتي لمحة عن قصة لوط . التي ترد في المواضع الأخرى تالية لقصة إبراهيم :

﴿ وإن لوطاً لمن المرسلين . إذ نجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزاً في الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ؟ ﴾ . .

وهي أشبه باللمحة التي جاءت عن قصة نوح . فهي تشير إلى رسالة لوط ونجاته مع أهله إلا امرأته . وتدمير المكذبين الضالين . وتنتهي بلمسة لقلوب العرب الذين يمرون على دار قوم لوط في الصباح والمساء ولا تستيقظ قلوبهم ولا تستمع لحديث الديار الخاوية . ولا تخاف عاقبة كعاقبتها الحزينة !

وتختم هذه اللمحات بلمحة عن يونس صاحب الحوت :

﴿ وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مُليم . فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ . .

*(218/655)*

---

ولا يذكر القرآن أين كان قوم يونس . ولكن المفهوم أنهم كانوا في بقعة قريبة من البحر . وتذكر الروايات أن يونس ضاق صدراً بتكذيب قومه . فأنذرهم بعذاب قريب . وغادرهم مغضباً آبقاً . فقاده الغضب إلى شاطئ البحر حيث ركب سفينة مشحونة . وفي وسط اللجة ناوأتها الرياح والأمواج . وكان هذا إيذاناً عند القوم بأن من بين الركاب راكباً مغضوباً عليه لأنه ارتكب خطيئة . وأنه لا بد أن يلقى في الماء لتنجو السفينة من الغرق . فاقترعوا على من يلقونه من السفينة . فخرج سهم يونس وكان معروفاً عندهم بالصلاح . ولكن سهمه خرج بشكل أكيد فألقوه في البحر . أو ألقى هو نفسه . فالتقمه الحوت وهو ﴿ مِليم ﴾ أي مستحق للوم ، لأنه تخلى عن المهمة التي أرسله الله بها ، وترك قومه مغاضباً قبل أن يأذن الله له . وعندما أحس بالضيق في بطن الحوت سبح الله واستغفره وذكر أنه كان من

الظالمين . وقال : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فسمع الله دعاءه واستجاب له . فلفظه الحوت . ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ . وقد خرج من بطن الحوت سقيماً عارياً على الشاطئ . ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ . وهو القرع . يظلله بورقه العريض ويمنع عنه الذباب الذي يقال إنه لا يقرب هذه الشجرة .

(219/655)

---

وكان هذا من تدبير اللّه ولطفه . فلما استكمل عافيته رده اللّه إلى قومه الذين تركهم مغاضبا . وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب بعد خروجه ، فآمنوا ، واستغفروا ، وطلبوا العفو من اللّه فسمع لهم ولم ينزل بهم عذاب المكذبين : «فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ» وكانوا مائة ألف يزيدون ولا ينقصون . وقد آمنوا أجمعين .

وهذه اللمحة بسياقها هنا تبين عاقبة الذين آمنوا ، بجانب ما تبينه القصص السابقة من عاقبة الذين لا يؤمنون .

فيختار قوم محمد - صلّى اللّه عليه وسلّم - إحدى العاقبتين كما يشاءون ! وكذلك ينتهي هذا الشوط من السورة بعد تلك الجولة الواسعة على مدار التاريخ من لدن نوح ، مع

المنذرين :

المؤمنين منهم وغير المؤمنين . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 2982 .

2999 ﴾

(220/655)

---

قوله تعالى ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (150) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (153) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (155) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (156) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (157) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الذي سبق ادعاؤه أمرين أحدهما أن هؤلاء المنذرين يسارعون في اقتفاء آثار آبائهم في الضلال ، والثاني أن أكثر الأولين ضلوا ، وسيقت دليلاً شهودياً على الثاني هذه القصص الست التي ما اهتدى من أهلها أمة بكمالها إلا قوم يونس عليه السلام ، كان ذلك سبباً للأمر بإقامة الدليل على ضلال هؤلاء تبعاً لآبائهم بأمر ليس في بيان الضلال أوضح

منه ، فقال متهكماً بهم مخصصاً الأمر به - صلى الله عليه وسلم - إشارة إلى عظم هذه النتيجة وأنه لا يفهمها حق فهمها سواه - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ فاستفتهم ﴾ أي فاطلب من هؤلاء الذين يعرضون عن دعوتك إلى أباطيلهم أن يجيبوك فتوة منهم وكرماً : بأي دليل وبأي حجة حكموا بما يقولونه تبعاً لآبائهم في الملائكة الذين تقدم في فاطر أنهم رسل الله ، وفي يس أنهم في غاية الشدة بحيث إن عذاب الأمة الكثيرة يكفي فيه واحد منهم ، وبحيث إن صيحة واحده من أحدهم يميت الأحياء كلهم ، وصيحة أخرى يحي الأموات كلهم ، هذا إلى ما أفادته هذه السورة لهم من الصف والزجر والتلاوة حين ابتدأت بالإقسام بهم لأن لمقصودها نظراً عظيماً إلى أحوالهم في تجرديهم وتقديسهم ، ويلزم من هذا الاستفتاء تنزيههم وتنزيه الذي خلقهم وذلك مقصود السورة ، ولفت الكلام عن مظهر العظمة إلى ما هو دليل عليها فإن الرسول دال على قدر من أرسله فقال : ﴿ ألربك ﴾ أي خاصة وهو الملك الأعلى الذي رباك وأحسن إليك بهدايتك والهداية بك وغير ذلك من أمرك حتى كنت أكمل الخلق وأعلاهم في كل أمر يكون به الكمال والقرب من الله فاصطفاك لرسالته ، ففي إفراد الضمير إشارة إلى أنه لا يختار إلا الأكمل الأشرف الأفضل .

ولما كان المراد تبكيتهم بكونهم جعلوا الأخس لله ، وكانت الإناث أضعف من الذكور ، ولكنها قد تطلق الأنوثة على غير الحيوان ، وكانت الإناث في بعض الأجناس كالأسحار أشرف ، عدل عن التعبير بالإناث وعبر بما ينص على المراد فقال : ﴿ البنات ﴾ أي دون البنين ، وهم – مع أنهم مربون مقهورون – يأنفون منهم غاية الأنفة ﴿ ولهم ﴾ أي دونه ﴿ البنون ﴾ مع أن الرب الذي خصوه بأدنى القبيلين تارة يخلق الذكر من تراب ويربيه أحسن تربية ، وأخرى من غيره أو يخرجه من بطن حوت أو غمرات نار أو غير ذلك ، فبأي وسيلة ادعوا له ولداً والولد لا يكون إلا بالتدريج في أطوار الخلق من النطفة إلى ما فوقها ، ولا يرضى بذلك إلا عاجز فكيف بادعاء أدنى الصنفين من الولد ، سبحان ربك رب العزة .

(222/655)

---

ولما كان دعواهم لأنوثة الملائكة متضمنة لادعاء العلم باختصاصه عند دعوى الولدية بأدنى القبيلتين أو ادعاء العلم بأنه خلقهم إناثاً بمشاهدة منهم أو كتاب منه إليهم ، وأما العقل فإنه لا مدخل له في ذلك ، قال معلماً بأنهم أهل لأن يبكتوا ويستهزأ بهم لأنه لا علم عندهم بإحدى الطريقين ، ولا يقدرون أن يدعوا ذلك لئلا يفتضحوا فضيحة لا تنجبر أصلاً ،

عائداً إلى التصريح بمظهر العظمة التي إن لم يقتض اختيار الأكمل لم يقتض الاختصاص بالأدون لأنها منافية بكل اعتبار للدناءة ﴿ الملائكة ﴾ أي الذين حكموا عليهم بالأنوثة، وهم من أعظم رسلنا وأجل خواصنا ولم يروا منهم أحداً ولا سبيل لهم إلى العلم بأحوالهم باعترافهم بذلك، ولما تعين أن المراد بالأنوثة الخساسة، وكان في بعض الإناث قوة الذكور، عبر بالأنوثة إلزاماً لهم في حكمهم ذلك بخساستين فقال: ﴿ إناثاً وهم ﴾ أي والحال أن هؤلاء الذين ينسبون إلى الله ما لا يليق به ﴿ شاهدون ﴾ أي ثابت لهم شهود ذلك لا يغيبون عنه، فإنا كل يوم نجدد منهم من شئنا، قال الرازي: وكل واحد من الملائكة نوع برأسه، أما الآدميون فكلهم نوع واحد، وهو ناقص في ابتداء الفطرة، مستكمل، وله درجات في الترقي إلى أن يبلغ مقام المشاهدة، وهو أن تتجلى له حلية الحق الأول من ذاته وصفاته وترتيب أفعاله علماً لا ينفصل عنه ولا يغيب فيترقى في إدراكه عن المحسوسات والخيالات، ويترقى فعله عن أن يكون لمقتضى الغضب أو الشهوة، وبهذا يقرب من الله تعالى - انتهى.

ولما اشتد تشوف السامع إلى أن يعلم حقيقة قولهم الذي تسبب عنها هذا الاستفتاء أعلم سبحانه بذلك في قوله مؤكداً إشارة إلى أنه قول لا يكاد أن لا يقر أحد أنه قاله، معجباً منهم فيه منادياً عليهم بما أبان من فضيحتهم بما قدم من استفتائهم: ﴿ إلا أنهم من إفكهم ﴾ أي من أجل أن صرفهم الأمور عن وجوها عادتهم ﴿ ليقولون ﴾ أي قولاً هم مستمرون عليه وإن كانوا لا يقدرون على إبرازه في مقام المناظرة، وعدل عن مظهر العظمة إلى إسم الجلالة العلم على الذات الجامعة لجميع الصفات إشارة إلى أن كل صفة من صفاته ونعت من نعوته يأبى الولدية فقال: ﴿ ولد الله ﴾ أي وجد له - وهو المحيط بصفات الكمال - ولد وهم على صفة الأنوثة أي أتى بالولد، فولد فعل ماض والجلالة فاعل، وقرىء شاذاً برفع " ولد " على أنه خبر مبتدأ محذوف، وجر الجلالة بالإضافة، والولد فعل بمعنى مفعول كالقبض، فلذلك يخبر به عن المفرد وغيره والمؤنث وغيره.

ولما أتى سبحانه بالاسم الأعظم إشارة إلى عظيم تعاليه عن ذلك، صرح به في قوله دالاً على الثبوت مؤكداً لأجل دعواهم أنهم صادقون: ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ ودل على كذبهم أيضاً بإنكاره موبخاً لهم في أسلوب الخطاب زيادة في الإغضاب في قوله: ﴿ اصطفى ﴾ بهمزة الاستفهام الإنكاري، ومن أسقطها فهي عنده مقدرة مرادة، أي أخبروني هل اختار هذا السيد الذي أنتم مقرون بتمام علمه وشمول قدرته وعلو سؤدده ما تسترذلونه.

ولما كان التعبير بالبنت أكره إليهم من التعبير بالأنثى ، والتعبير بالابن أحب إليهم من التعبير بالذكور وأنص على المراد لأن الذكر مشترك بين معان ، قال : ﴿ البنات ﴾ اللاتي تستنكفون أنتم من لحوقهن بكم ، وتستحيون من نسبتهن إليكم ، حتى أن بعضكم ليصل في إبعادهن إلى الوأد ﴿ على البنين ﴾ فكان حينئذ نظره لنفسه دون نظر أقلكم فضلاً عن أجلكم ، ولذلك عظم حسناً وتناهى بلاغة قوله : ﴿ ما ﴾ أي يا معاشر العرب المدعين لصحة العقول وسداد الأنظار والفهوم ! أيّ شيء ﴿ لكم ﴾ من الخير في هذا المقال ؟ ثم زاد في التقريع عليه بقوله معجباً منهم : ﴿ كيف تحكمون ﴾ أي في كل سألناكم عنه بمثل هذه الأحكام التي لا تصدر عمن له أدنى مسكة من عقله ، وعبر بالحكم لاشتهاره فيما يبت فيأبى النقض ، فكان التعبير به أعظم في تقريعهم حيث أطلقوه على ما لا أوهى منه .

ولما كان هذا شديد المنافاة للعقول ، عظيم البعد عن الطباع ، حسن جداً قوله أيضاً مبكتاً : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي أدنى تذكر بما أشارت إليه قراءة من خفف بما جمعت من التخفيف والحذف ، فإن الأمر في غاية الظهور لما في عقولكم وطباعكم من أنكم لا ترضون لأنفسكم أخس المنازل ، فكيف يختاره لنفسه ربكم الذي بيده كل شيء ؟ وإنه لا يكون الولد مطلقاً إلا ممن له جنس ، فيكون محتاجاً إلى جنسه ، والمحتاج لا يكون إلهاً بوجه ، وأشارت قراءة الجماعة بالتشديد والإدغام إلى أن الأمر يحتاج إلى مزيد تذكر بما أشار إليه

التشديد مع دقة بما أشار إليه الإدغام لأجل حل شبهة من يرى أفعال من يحيي الموءودة فيظن أن ذلك رغبة منهم في الإناث ، وليس ذلك إلا رغبة في دفع فساد القتل ورحمة للضعيف ، ولم يقرأ بالفك إشارة إلى أن الأمر غني عن الدرجة العليا في التأمل .

(225/655)

---

ولما قررهم على شهود ذلك بما تضمن إبطاله عقلاً ، فلم يبق من طرق الأدلة إلا السمع ، عادل به قوله : ﴿ أم لكم ﴾ أي على ادعاء ذلك ﴿ سلطان ﴾ أي دليل سمعي بجبر سماوي قاهر ، وأشار إلى أنه لا يتكلم في أحوال الملوك إلا بأمر واضح بقوله : ﴿ مبين ﴾ . ولما كان المراد بهذا - ولا بد - البرهان السمعي ، بينه بما سبب عنه من قوله : ﴿ فأتوا بكتابكم ﴾ أي الذي أتاكم بذلك السلطان من الملك في أنه اختار لنفسه ذلك ، ودل على كذبهم تلويحاً بعد أن أتى به تصريحاً وهو أنكى ما يكون بالإتيان بأداة الشك في قوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ وهذه الآيات صادرة عن سخط عظيم وإنكار فظيع ، والأساليب التي وردت عليها ناطقة بتسفيه أحلام المدعي لذلك وبجهل نفوسهم ، واستركاك عقولهم ، مع استهزاء وتهكم وتعجيب من أن يخطر مثل ذلك على بال فضلاً عن أن يتخذ معتقداً ، ويتظاهر به مذهباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 346 . 349 ﴾

(226/655)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(227/655)

---

اعلم أنه تعالى لما ذكر أقاصيص الأنبياء عليهم السلام عاد إلى شرح مذاهب المشركين وبيان قبحها وسخافتها ، ومن جملة أقوالهم الباطلة أنهم أثبتوا الأولاد لله سبحانه وتعالى ، ثم زعموا أنها من جنس الإناث لا من جنس الذكور فقال : ﴿ فاستفتهم أَلِرَبّكَ البنات وَلَهُمُ البنون ﴾ وهذا معطوف على قوله في أول السورة : ﴿ فاستفتهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً مِن خَلَقْنَا ﴾ [ الصافات : 11 ] وذلك لأنه تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم باستفتاء

قريش عن وجه إنكار البعث أولاً ثم ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض إلى أن أمره بأن يستفتيهم في أنهم لم أثبتوا لله سبحانه البنات ولأنفسهم البنين ، ونقل الواحدي عن المفسرين أنهم قالوا : إن قريشاً وأجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح قالوا : الملائكة بنات الله ، واعلم أن هذا الكلام يشتمل على أمرين أحدهما : إثبات البنات لله وذلك باطل لأن العرب كانوا يستنكفون من البنت ، والشيء الذي يستنكف المخلوق منه كيف يمكن إثباته للخالق والثاني : إثبات أن الملائكة إناث ، وهذا أيضاً باطل لأن طريق العلم إما الحس وإما الخبر وإما النظر ، أما الحس : فمفقود ههنا لأنهم ما شهدوا كيفية تخليق الله الملائكة وهو المراد من قوله : ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الملائكة إناثا وَهُمْ شاهدون ﴾ وأما الخبر : فمنقود أيضاً لأن الخبر إنما يفيد العلم إذا علم كونه صدقاً قطعاً وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون أفاكون ، لم يدل على صدقهم لا دلالة ولا أمارة ، وهو المراد من قوله : ﴿ أَلاَ إِنَّهُم مّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ الله وَإِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ وأما النظر : فمفقود وبيانه من وجهين الأول : أن دليل العقل من إسناد الأخس إلى الأفضل ، فإن كان حكم العقل معتبراً في هذا الباب كان قولكم باطلاً والوجه الثاني : أن نترك الاستدلال على فساد مذهبهم ، بل نطالبهم بإثبات الدليل الدال على صحة مذهبهم فإذا لم يجدوا ذلك

الدليل فضده يظهر أنه لم يوجد ما يدل على صحة قولهم وهذا هو المراد من قوله : ﴿ أَمْ لَكُمْ سلطان مُّبِينٌ * فَأْتُوا بكتابكم إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ فثبت بما ذكرنا أن القول الذي ذهبوا إليه لم يدل على صحته ، لا الحس ولا الخبر ولا النظر ، فكان المصير إليه باطلاً قطعاً ، واعلم أنه تعالى لما طالبهم بما يدل على صحة مذهبهم دل ذلك على أن التقليد باطل ، وأن الدين لا يصح إلا بالدليل .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ أَصْطَفَى البنات على البنين ﴾ قراءة العامة بفتح الهمزة وقطعها من ﴿ اصطفى ﴾ ثم بحذف ألف الوصل وهو استفهام توبيخ وتقريع ، كقوله تعالى : ﴿ أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ [ الزخرف : 16 ] وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُ البنات وَلَكُمُ البنون ﴾ [ الطور : 39 ] وقوله تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى ﴾ [ النجم : 21 ] وكما أن هذه المواضع كلها استفهام فكذلك في هذه الآية ، وقرأ نافع في بعض الروايات : ﴿ لكاذبون * اصطفى ﴾ موصولة بغير استفهام ، وإذا ابتدأ كسر الهمزة على وجه الخبر والتقدير اصطفى البنات في زعمهم كقوله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [ الدخان : 49 ] في زعمه واعتقاده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 145 . 146 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فاستفتهم أَلِرَبِّكَ البنات وَلَهُمُ البنون ﴾

لما ذكر أخبار الماضين تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم احتج على كفار قريش في قولهم : إن الملائكة بنات الله ؛ فقال : "فَٱسْتَفْتِهِمْ" .

وهو معطوف على مثله في أول السورة وإن تباعدت بينهم المسافة ؛ أي فسل يا محمد أهل مكة "أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ" .

وذلك أن جُهَينة وخزاعة وبني مُلَيْح وبني سلمة وعبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله .

وهذا سؤال توبيخ .

﴿ أَمْ خَلَقْنَا الملائكة إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ أي حاضرون لخلقنا إياهم إناثاً ؛ وهذا كما قال الله عز وجل : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ [ الزخرف : 19 ] ثم قال : ﴿ أَلاَ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾ وهو أسوأ الكذب ﴿ لَيَقُولُونَ وَلَدَ الله وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في قولهم إن لله ولداً وهو الذي لا يلد ولا يولد .

و"إنّ" بعد "أَلاَ" مكسورة ؛ لأنها مبتدأة .

وحكى سيبويه أنها تكون بعد أَمَا مفتوحة أو مكسورة ؛ فالفتح على أن تكون أَمَا بمعنى حقًّا ، والكسر على أن تكون أَمَا بمعنى أَلاَ .

النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول يجوز فتحها بعد أَلاَ تشبيهاً بأَمَا ، وأمّا في الآية فلا يجوز إلا كسرها ؛ لأن بعدها الرفع .

وتمام الكلام "لَكَاذِبُونَ" .

ثم يبتدىء ﴿ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ على معنى التقريع والتوبيخ كأنه قال : ويْحكم "أَصْطَفَى الْبَنَاتِ" أي أختار النباتِ وترك البنين .

وقراءة العامة "أَصْطَفَى" بقطع الألف ؛ لأنها ألف استفهام دخلت على ألف الوصل ، فحذفت ألف الوصل وبقيت ألف الاستفهام مفتوحة مقطوعة على حالها مثل : ﴿ أَطَّلَعَ الغيب ﴾ على ما تقدم .

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وحمزة "اصطفى" بوصل الألف على الخبر بغير استفهام .

وإذا ابتدأ كسر الهمزة .

وزعم أبو حاتم أنه لا وجه لها ؛ لأن بعدها ﴿ مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ فالكلام جارٍ على التوبيخ من جهتين : إحداهما أن يكون تبييناً وتفسيراً لما قالوه من الكذب ويكون "مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ" منقطعاً مما قبله .

والجهة الثانية أنه قد حكى النحويون منهم الفراء أن التوبيخ يكون باستفهام وبغير استفهام كما قال جل وعز : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدنيا ﴾ [ الأحقاف : 20 ] .

وقيل : هو على إضمار القول ؛ أي ويقولون "اصطفى الْبَنَاتِ" .

أو يكون بدلاً من قوله : "وَلَدَ اللَّهُ" لأن ولادة البنات واتخاذهن اصطفاء لهنّ ، فأبدل مثال الماضي من مثال الماضي فلا يوقف على هذا على "لَكَاذِبُونَ" .

﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ في أنه لا يجوز أن يكون له ولد .

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ حجة وبرهان .

﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ ﴾ أي بحججكم ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في قولكم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) ﴾

العراء : الأرض الفيحاء لا شجر فيها ولا يعلم ، قال الشاعر :

رفعت رجلاً لا أخاف عثارها . . .

ونبذت بالمين العراء ثيابي

اليقطين : يفعيل كاليفصيد ، من قطن : أقام بالمكان ، وهو بالمكان ، وهو ما كان من الشجر لا يقوم على ساق من عود ، كشجر البطيخ والحنظل والقثاء .

الساحة : الفناء ، وجمعها سوح ، قال الشاعر :

فكان سيان أن لا يسرحوا نعما . . .

أو يسرحوه بها واغبرت السوح

﴿ وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك المشحون ، فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ، فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ، وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ، فآمنوا فمتعناهم إلى حين ، فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وإنهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكّرون ، أم لكم سلطان مبين ،

فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴾ .

يونس بن متى من بني إسرائيل .

وروي أنه نبىء وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، بعثه الله إلى قومه ، فدعاهم للإيمان فخالفوه ،

فوعدهم بالعذاب ، فأعلمهم الله بيومه ، فحدده يونس لهم .

ثم إن قومه لما رأوا مخايل العذاب قبل أن يباشرهم تابوا وآمنوا ، فتاب الله عليهم وصرف

العذاب عنهم .

وتقدم شرح قصته ، وأعدنا طرف منها ليفيد ما بين الذكرين .

قيل : ولحق يونس غضب ، فأبق إلى ركوب السفينة فراراً من قومه ، وعبر عن الهروب

بالإباق ، إذ هو عبد الله ، خرج فاراً من غير إذن من الله .

وروي عن ابن مسعود أنه لما أبعدت السفينة في البحر ، ويونس فيها ، ركدت .

فقال أهلها : إن فيها لمن يحبس الله السفينة بسببه ، فلنقترع .



---

فأخذوا لكل سهماً ، على أن من طفا سهمه فهو ، ومن غرق سهمه فليس إياه ، فطفا سهم

يونس .

فعلوا ذلك ثلاثاً ، تقع القرعة عليه ، فأجمعوا على أن يطرحوه .

فجاء إلى ركن منها ليقع منها ، فإذا بدابة من دواب البحر ترقبه وترصد له .

فانتقل إلى الركن الآخر ، فوجدها حتى استدار بالمركب وهي لا تفارقه ، فعلم أن ذلك من عند الله ، فترامى إليها فالتقمته .

ففي قصة يونس عليه السلام هنا جمل محذوفة مقدرة قبل ذكر فراره إلى الفلك ، كما في قصته في سورة الأنبياء في قوله : ﴿ إذ ذهب مغاضباً ﴾ هو ما بعد هذا ، وقوله : ﴿ فنادى في الظلمات ﴾ جمل محذوفة أيضاً .

وبمجموع القصص يتبين ما حذف في كل قصة منها .

﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾ : من المغلوبين ، وحقيقته من المزلقين عن مقام الظفر في الاستهام .

وقرىء : ﴿ وهو مليم ﴾ ، بفتح الميم ، وقياسه ملوم ، لأنه من لمته ألومه لوماً ، فهو من ذوات الواو ، ولكنه جيء به على أليم ، كما قالوا : مشيب ومدعى في مشوب ، ومدعو بناء على شيب ودعى .

﴿ من المسبحين ﴾ : من الذاكرين الله تعالى بالتسبيح والتقديس .

والظاهر أنه يريد ما ذكر في قوله في سورة الأنبياء : ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ وقال ابن جبير : هو قوله سبحان الله .

وقالت فرقة : تسبيحه صلاة التطوع ؛ فقال ابن عباس ، وقتادة ، وأبو العالية : صلاته في وقت الرخاء تنفعه في وقت الشدة .

وقال الضحاك بن قيس على منبره : اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة ، إن يونس كان عبداً ذاكراً ، فلما أصابته الشدة نفعه ذلك .

قال الله عز وجل : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ .

وقال الحسن : تسبيحه : صلاته في بطن الحوت .

وروي أنه كان يرفع لحم الحوت بيديه يقول : لأبنين لك مسجداً حيث لم يبنه أحد قبلي .



---

وروي أن الحوت سافر مع السفينة رافعاً رأسه ليتنفس ويونس يسبح ، ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر ، فلفظه سالماً لم يتغير منه شيء ، فأسلموا .

والظاهر أن قوله للبث في بطنه إلى يوم البعث ، وعن قتادة : لكان بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة .

وذكر في مدة لبثه في بطن الحوت أقوالاً متكاذبة ، ضربنا عن ذكرها صفحاً .

﴿ وهو سقيم ﴾ : روي أنه عاد بدنه كبدن الصبي حين يولد ، قاله ابن عباس والسدي .

وقال ابن عباس ، وأبو هريرة ، وعمرو بن ميمون : اليقطين : القرع خاصة ، قيل : وهي التي أنبتها الله عليه ، وتجمع خصالاً ، برد الظل ، ونعومة الملمس ، وعظم الورق ، والذباب لا يقربها .

قيل : وماء ورقه إذا رش به مكان لم يقربه ذباب ، وقال أمية بن أبي الصلت :

فأنبت يقطيناً عليه برحمة . . .

من الله لولا الله ألفى ضياعيا

وفيما روي : إنك لتحب القرع ، قال : أجل ، هي شجرة أخي يونس .

وقيل : هي شجرة الموز ، تغطى بورقها ، واستظل بأغصانها ، وأفطر على ثمارها .

ومعنى ﴿ أنبتنا عليه شجرة ﴾ ، في كلام العرب : ما كان على ساق من عود ، فيحتمل أن يكون الله أنبتها ذات ساق يستظل بها وبورقها ، خرقاً للعادة ، فنبت وصح وحسن وجهه ، لأن ورق القرع أنفع شيء لمن ينسلخ جلده .

﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ ، قال الجمهور : رسالته هذه هي الأولى التي أبق بعدها ، ذكرها آخر القصص تنبيهاً على رسالته ، ويدل عليه : ﴿ فآمنوا فمتعناهم ﴾ ، وتمتيع تلك الأمة هو الذي أغضب يونس عليه السلام حتى أبق .

وقال ابن عباس ، وقتادة : هي رسالة أخرى بعد أن نبذه بالعراء ، وهي إلى أهل نينوى من ناحية الموصل .

وقال الزمخشري : المراد به ما سبق من إرساله إلى قومه ، وهم أهل نينوى .

وقيل : هو إرسال ثان بعد ما جري إليه إلى الأولين ، أو إلى غيرهم .



---

وقيل : أسلموا فسألوه أن يرجع إليهم فأبى ، لأن النبي إذا هاجر عن قومه لم يرجع إليهم مقيماً فيهم ، فقال لهم : إن الله باعث إليكم نبياً .

وقرأ الجمهور : ﴿ أو ﴾ ، قال ابن عباس بمعنى بل .

وقيل : بمعنى الواو وبالواو ، وقرأ جعفر بن محمد .

وقيل : للإبهام على المخاطب .

وقال المبرد وكثير من البصريين : المعنى على نظر البشر ، وحزرهم أن من وراءهم قال : هم مائة ألف أو يزيدون ، وهذا القول لم يذكر الزمخشري غيره .

قال : أو يزيدون في مرأى الناظر ، إذا رآها الرائي قال : هي مائة ألف أو أكثر .

والغرض الوصف بالكثرة ، والزيادة ثلاثون ألفاً ، قاله ابن عباس ؛ أو سبعون ألفاً ، قاله ابن جبير ؛ أو عشرون ألفاً ، رواه أبي عن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) ، وإذا صح بطل ما سواه .

﴿ فآمنوا ﴾ : روي أنهم خرجوا بالأطفال والأولاد والبهائم ، وفرقوا بينها وبين الأمهات ، وناحوا وضجوا وأخلصوا ، فرفع الله عنهم .

والتمتع هنا هو بالحياة ، والحين آجالهم السابقة في الأزل ، قاله قتادة والسدي .

والضمير في ﴿ فاستفتهم ﴾ ، قال الزمخشري : معطوف على مثله في أول السورة ، وإن تباعدت بينهما المسافة .

أمر رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً ، ثم ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض ، ثم أمر باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى . انتهى .

ويبعد ما قاله من العطف .

وإذا كانوا عدوا الفصل بجملة مثل قولك : كل لحماً واضرب زيداً وخبزاً ، من أقبح التركيب ، فكيف بجمل كثيرة وقصص متباينة ؟ فالقول بالعطف لا يجوز ، والاستفتاء هنا سؤال على جهة التوبيخ والتقريع على قولهم البهتان على الله ، حيث جعلوا لله الإناث في قولهم : الملائكة بنات الله ، مع كراهتهم لهن ، ووأدهم إياهن ، واستنكافهم من ذكرهن .

وارتكبوا ثلاثة أنواع من الكفر : التجسيم ، لأن الولادة مختصة بالأجسام ؛ وتفضيل أنفسهم ، حيث نسبوا أرفع الجنسين لهم وغيره لله تعالى ؛ واستهانتهم بمن هو مكرم عند الله ، حيث أنثوهم ، وهم الملائكة .

بدأ أولاً بتوبيخهم على تفضيل أنفسهم بقوله : ﴿ ألربك البنات ﴾ ، وعدل عن قوله : ﴿ ألربكم ﴾ ، لما في ترك الإضافة إليهم من تحسينهم وشرف نبيه بالإضافة إليه .

وثنى بأن نسبة الأنوثة إلى الملائكة يقتضي المشاهدة ، فأنكر عليهم بقوله : ﴿ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ﴾ : أي خلقناهم وهم لا يشهدون شيئاً من حالهم ، كما قال في الأخرى : ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ وكما قال ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ ثم أخبر عنهم ثالثاً بأعظم الكفر ، وهو ادعاؤهم أنه تعالى قد ولد ، فبلغ إفكهم إلى نسبة الولد .

ولما كان هذا فاحشاً قال : ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ .

واحتمل أن تخص هذه الجملة بقولهم ولد الله ، ويكون تأكيد لقوله : ﴿ من إفكهم ﴾ ، واحتمل أن يعم هذا القول .

فإن قلت : لم قال : ﴿ وهم شاهدون ﴾ ، فخص علمهم بالمشاهدة ؟ قلت : ما هو إلا استهزاء وتجهيل كقوله : ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ وذلك أنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة ، لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم ولا بإخبار صادق ، لا بطريق استدلال ولا

نظر .

ويجوز أن يكون المعنى أنهم يقولون ذلك ، كالقائل قولاً عن ثلج صدر وطمأنينة نفس لإفراط جهلهم ، كأنهم قد شاهدوا خلقه .

وقرأ : ﴿ ولد الله ﴾ : أي الملائكة ولده ، والولد فعل بمعنى مفعول يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

تقول : هذه ولدي ، وهؤلاء ولدي . انتهى .

وقرأ الجمهور : ﴿ أصطفى ﴾ ، بهمزة الاستفهام ، على طريقة الإنكار والاستبعاد .

وقرأ نافع في رواية إسماعيل وابن جماز وجماعة ، وإسماعيل عن أبي جعفر وشيبة : بوصل الألف ، وهو من كلام الكفار .



---

حكى الله تعالى شنيع قولهم ، وهو أنهم ما كفاهم أن قالوا ولد الله ، حتى جعلوا ذلك الولد بنات الله ، والله تعالى اختارهم على البنين .

وقال الزمخشري : بدلاً عن قولهم ولد الله ، وقد قرأ بها حمزة والأعمش ، وهذه القراءة ، وإن كان هذا محملها ، فهي ضعيفة ؛ والذي أضعفها أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من

جانبيها ، وذلك قوله : ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ ، ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ .

فمن جعلها للإثبات فقد أوقعها دخيلة بين سببين ، وليست دخيلة بين نسيبين ، بل لها مناسبة ظاهرة مع قولهم ولد الله .

وأما قوله : ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ ، فهي جملة اعتراض بين مقالتي الكفر ، جاءت للتشديد والتأكيد في كون مقالتهم تلك هي من إفكهم .

﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ : تقريع وتوبيخ واستفهام عن البرهان والحجة .

وقرأ طلحة بن مصرف : تذكرون ، بسكون الذال وضم الكاف .

﴿ أم لكم سلطان ﴾ : أي حجة نزلت عليكم من السماء ، وخبر بأن الملائكة بنات الله .

﴿ فأتوا بكتابكم ﴾ ، الذي أنزل عليكم بذلك ، كقوله : ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾ فهو يتكلم بما كانوا به يشركون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

*(237/655)*

---

وقال أبو السعود :

﴿ فاستفتهم ﴾

أمر الله عزَّ وجلَّ في صدر السُّورة الكريمةِ رسولَه صلى الله عليه وسلم بتبكيتِ قُريشٍ

وإبطالِ مذهبِهم في إنكارِ البعثِ بطريقِ الاستفتاءِ وساقَ البراهينَ القاطعةَ النّاطقةَ بتحقُّقِهِ لا محالةَ وبيّنَ وقوعَه وما سيلقَونه عند ذلك من فُنونِ العذابِ واستثنى منهم عبادَه المُخلَصين وفصّلَ ما لهم من النّعيمِ المقيمِ ثم ذكرَ أنَّه قد ضلَّ من قبلهم أكثرُ الأوّلينَ وأنَّه تعالى أرسلَ إليهم منذرينَ على وجهِ الإجمالِ ثم أوردَ قصصَ كلِّ واحدٍ منهم على وجهِ التَّفصيلِ مبيِّناً في كل قصَّةٍ منها أنَّهم من عبادِه تعالى واصفاً لهم تارةً بالإخلاصِ وأُخرى بالإيمانِ ثم أمره عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ههنا بتبكيتِهم بطريقِ الاستفتاءِ عن وجهِ أمرٍ منكرٍ خارجٍ عن العقولِ بالكلّيةِ وهي القسمةُ الباطلةُ اللازمةُ لما كانُوا عليه من الاعتقادِ الزّائغِ حيثُ كانُوا يقولون كبعضِ أجناسِ العربِ جُهينةَ وبني سلمةَ وخُزاعةَ وبني مَليحٍ ، الملائكةُ بناتُ اللهِ والفاء لترتيبِ الأمرِ على ما سبقَ من كونِ أولئك الرُّسلِ الذين هم أعلامُ الخَلْقِ عليهم الصلاة والسلام عبادَه تعالى فإنَّ ذلك ممَّا يؤكّدُ التَّبكيتَ ويُظهر بُطلانَ مذهبهم الفاسد ثم تبكيتُهم بما يتضمَّنُه كفرهم المذكورُ من الاستهانةِ بالملائكةِ بجعلهم إناثاً ثم أبطلَ أصلَ كفرهم المنطوي على هذينِ الكفرينِ وهو نسبةُ الوِلدِ إليه سبحانَه وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ولم ينظمه في سلكِ التَّبكيتِ لمشاركتهم النَّصارى في ذلك أي فاستخبرْهم ﴿ أَلِرَبِّكَ البنات ﴾ اللاتي هن أوضعُ الجنسينِ ﴿ وَلَهُمُ البنون ﴾ الذين هم أرفعُهما فإنَّ ذلك ممّا لا يقولُ به من له أدنى شيءٍ من العقلِ .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الملائكة إناثا ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من التَّبكيت بالاستفتاءِ السَّابقِ إلى التَّبكيتِ بهذا كما أُشير إليه أي بل أخلقنا الملائكةَ الذين هم من أشرفِ الخلائقِ وأبعدِهم من صفات الأجسامِ ورذائل الطَّبائعِ إناثاً والأُنوثةُ من أخسِّ صفاتِ الحيوان.

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ شاهدون ﴾ استهزاءً بهم وتجهيلٌ لهم كقولِه تعالى : ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السموات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ فإنَّ أمثالَ هذه الأمورِ لا تُعلم إلا بالمشاهدةِ إذ لا سبيلَ إلى معرفتِها بطريقِ العقلِ وانتفاء النَّقلِ ممَّا لا ريب فيه فلا بُدَّ أنْ يكون القائل بأنوثتهم شاهداً عند خلقِهم والجملةُ إمَّا حال من فاعلِ خلقنا أي بل أخلقناهُم إناثاً والحالُ أنهم حاضرون حينئذٍ أو عطفٌ على خلقنا أي بل أهم شاهدون وقوله تعالى :

(239/655)

﴿ أَلاَ إِنَّهُم مّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ الله ﴾ استئنافٌ من جهته غيرُ داخلٍ تحت الأمرِ بالاستفتاء مسوقٌ لإبطالِ أصل مذهبِهم الفاسدِ ببيانِ أنَّ مبناهُ ليس إلاَّ الإفكُ الصَّريحُ والافتراءُ القبيحُ من غير أنْ يكونَ لهم دليلٌ أو شبهةٌ قطعاً ﴿ وَإِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ في قولِهم

ذلك كَذِباً بيّناً لا ريبَ فيه . وقُرِىء ولدُ اللهِ على أنه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ أي الملائكةُ ولدُه تعالَى عن ذلك عُلوّاً كبيراً فإنّ الولدَ فعل بمعنى مفعولٍ يستوِي فيه الواحدُ والجمعُ والمذكَّرُ والمؤنَّثُ ﴿ أَصْطَفَى البنات على البنين ﴾ إثباتٌ لإفكِهم وتقريرٌ لكذبهم فيما قالوا ببيان استلزامه لأمرٍ بيّنِ الاستحالة هو اصطفاؤه تعالى البنات على البنينَ ، والاصطفاءُ أخذُ صفوةِ الشّيءِ لنفسِه ، وقُرِىء بكسرِ الهمزة على حذفِ حرفِ الاستفهامِ ثقةً بدلالةِ القَرائنِ عليهِ وجعله بدلاً من ولدَ الله ضعيفٌ وتقديرُ القولِ أي لكاذبونَ في قولِهم اصطفَى الخ تعسُّفٌ بعيدٌ .

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ بهذا الحكمِ الذي يَقضي ببطلانِه بديهةُ العقلِ ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ بحذفِ إحدى التّاءينِ من تتذكّرون ، وقُرِىء تذكُرون من ذكَرَ ، والفاءُ للعطفِ على مقدّرٍ أي ألاَ تلاحِظُون ذلك فلا تتذكّرون بطلانَهُ فإنّه مركوزٌ في عقلِ كلِّ ذكيَ وغبيَ .

(240/655)

---

﴿ أَمْ لَكُمْ سلطان مُّبِينٌ ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من توبيخِهم وتبكيتِهم بما ذُكر إلي تبكيتِهم بتكليفِهم ما لا يدخل تُحتَ الوجودِ أصلاً أي بل ألكُم حجّةٌ واضحةٌ نزلتْ عليكم من

السَّماءِ بأنَّ الملائكةَ بناتُه تعالى ضرورةَ أنَّ الحكمَ بذلك لا بُدَّ له من سندٍ حسيَ أو عقلي وحيثُ انتفى كلاهُما فلا بُدَّ من سندٍ نقليَ ﴿ فَأْتُواْ بكتابكم ﴾ النَّاطقِ بصَّحةِ دَعْواكم ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ فيها وفي هذه الآياتِ من الإنباءِ عن السُّخطِ العظيمِ والإنكارِ الفظيعِ لأقاويلهم والاستبعادِ الشَّديدِ لأباطيلِهم وتسفيه أحلامِهم وتركيكِ عقولِهم وأفهامِهم مع استهزاءٍ بهم وتعجيبٍ من جهلِهم مَا لا يَخْفى عَلَى من تأمَّل فيها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(241/655)

---

وقال الآلوسى :

﴿ فاستفتهم أَلِرَبّكَ البنات وَلَهُمُ البنون ﴾

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في صدور السورة الكريمة بتبكيت قريش وإبطال مذهبهم في إنكار البعث بطريق الاستفتاء وساق البراهين الناطقة بتحققه لا محالة وبين وقوعه وما يلقونه عند ذلك من فنون العذاب واستثنى منهم عباده المخلصين وفصل سبحانه ما لهم من النعيم المقيم ، ثم ذكر سبحانه أنه قد ضل من قبلهم أكثر الأولين وأنه تعالى أرسل إليهم منذرين على وجه الإجمال ، ثم أورد قصص بعض الأنبياء عليهم السلام

بنوع تفصيل متضمناً كل منها ما يدل على فضلهم وعبوديتهم له عز وجل ، ثم أمره صلى الله عليه وسلم ههنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن وجه ما تنكره العقول بالكلية وهي القسمة الباطلة اللازمة لما كانوا عليه من الاعتقاد الزائغ حيث كانوا يقولون كبعض أجناس العرب

جهينة .

وسليم .

وخزاعة .

(242/655)

---

وبني مليح : الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ، ثم بتبكيتهم بما يتضمنه كفرهم المذكور من الاستهانة بالملائكة عليهم السلام بجعلهم إناثاً ، ثم أبطل سبحانه أصل كفرهم المنطوي على هذين الكفرين وهو نسبة الولد إليه سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، ولم ينظمه سبحانه في سلك التبكيت لمشاركتهم اليهود القائلين عزيز ابن الله والنصارى المعتقدين عيسى ابن الله تعالى الله عن ذلك ، والفاء قيل لترتيب الأمر على ما يعلم مما سبق من كون أولئك الرسل إعلام الخلق عليهم السلام عباده تعالى فإن ذلك مما يؤكد التبكيت ويظهر بطلان مذهبهم الفاسد فكأنه قيل : إذا كان رسل ربك من علمت حالهم

فاستخبر هؤلاء الكفرة عن وجه كون البنات وهن أوضع الجنسين له تعالى بزعمهم والبنين الذين هم أرفعهما لهم فإنهم لا يستطيعون أن يثبتوا له وجهاً لأنه في غاية البطلان لا يقوله من له أدنى شيء من العقل، وقال بعض الأجلة: الكلام متصل بقوله تعالى في أول السورة ﴿ فاستفتهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ [ الصافات : 11 ] على أن الفاء هنا للعطف على ذاك، والتعقيب لأنه أمر بهما من غير تراخ، وهي هناك جزائية في جواب شرط مقدر، وبهذا القول أقول.

وأورد عليه أبو حيان أن فيه الفصل الطويل وقد استقبح النحاة الفصل بجملة نحو أكلت لحماً واضرب زيداً وخبزاً فما ظنك بالفصل بجمل بل بما يقرب من سورة.

وأجيب بأن ما ذكر في عطف المفردات وأما الجمل فلاستقلالها يغتفر لها ذلك، والكلام هنا لما تعانقت معانيه وارتبطت مبانيه وأخذ بعضها بحجز بعض حتى كأن الجميع كلمة واحدة لم يعد البعد بعداً كما قيل

.

وليس يضير البعد بين جسومنا . . .

إذا كان ما بين القلوب قريباً

ووجه ترتب المعطوف على ما قبل كوجه ترتب المعطوف عليه فإن كونه تعالى رب السموات والأرض وتلك الخلائق العظيمة كما دل على وحدته تعالى وقدرته عز وجل دال على تنزهه سبحانه عن الولد ، ألا ترى إلى قوله جل شأنه :

﴿ بَدِيعُ السموات والأرض أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ [ الأنعام : 101 ] والمناسبة بين الرد على منكري البعث والرد على مثبتي الولد ظاهرة ، وقد اتحد في الجملتين السائل والمسؤول والأمر ؛ وجوز بعضهم كون ضمير ﴿ استفتهم ﴾ للمذكورين من الرسل عليهم السلام والباقي لقريش ، والمراد الاستفتاء ممن يعلم أخبارهم ممن يوثق بهم ومن كتبهم وصحفهم أي ما منهم أحد إلا وينزه الله تعالى عن أمثال ذلك حتى يونس عليه السلام في بطن الحوت ، ولعمري أن الرجل قد بلغ الغاية من التكلف من غير احتياج إليه ، ولعله لو استغنى عن ارتكاب التجوز بالتزام كون الاستفتاء من المرسلين المذكورين حيث يجتمع رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم اجتماعاً روحانياً كما يدعيه لنفسه الشيخ محيي الدين قدس سره مع غير واحد من الأنبياء عليهم السلام ويدعي أن الأمر بالسؤال المستدعي للاجتماع أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن ءالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [ الزخرف : 45 ] على هذا النمط لكان الأمر أهون وإن كان ذلك منزعاً صوفياً .

وأضيف الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام دون ضميرهم تشريفاً لنبيه صلى الله عليه وسلم وإشارة إلى أنهم في قولهم بالبنات له عز وجل كالنافين لربوبيته سبحانه لهم

﴿ أَمْ خَلَقْنَا المَلائكة إناثا ﴾ إضراب وانتقال من التبكيت بالاستفتاء السابق إلى التبكيت بهذا أي بل أخلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق وأقواهم وأعظمهم تقدساً عن النقائص الطبيعية إناثاً والأنوثة من أخس صفات الحيوان.

(244/655)

---

وقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ شاهدون ﴾ استهزاء بهم وتجهيل لهم كقوله تعالى: ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ [الزخرف: 19] فإن أمثال هذه الأمور لا تعلم إلا بالمشاهدة إذ لا سبيل إلى معرفتها بطريق العقل وانتفاء النقل مما لا ريب فيه فلا بد أن يكون القائل بأنوثتهم شاهداً عند خلقهم، والجملة إما حال من فاعل ﴿ خَلَقْنَا ﴾ أي بل أخلقناهم إناثاً والحال أنهم حاضرون حينئذ أو عطف على ﴿ خَلَقْنَا ﴾ أي بل أهم شاهدون.

﴿ أَلاَ إِنَّهُم مّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ الله ﴾ استئناف من جهته تعالى غير داخل تحت الاستفتاء مسوق لإبطال أصل مذهبهم الفاسد ببيان أن مبناه ليس إلا الإفك الصريح والافتراء القبيح من غير أن يكون لهم دليل أو شبهة ﴿ وَإِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ فيما يدينون به

مطلقاً في هذا القول ، وفيه تأكيد لقوله تعالى : ﴿ مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾ وقرء ﴿ وَلَدَ اللهُ ﴾ بالإضافة ورفع ولد على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ليقولون الملائكة ولد الله والولد فعل بمعنى مفعول يقع على المذكر والمؤنث والواحد والجمع ولذا وقع هنا خبراً عن الملائكة المقدر .

﴿ أَصْطَفَى البنات على البنين ﴾ بهمزة مفتوحة هي حرف استفهام حذفت بعدها همزة الوصول والاستفهام للإنكار والمراد إثبات إفكهم وتقرير كذبهم ، والإصطفاء أخذ صفوة الشيء لنفسه .

وقرأ نافع في رواية إسمعيل .

وابن جماز .

وجماعة .

وإسماعيل عن أبي جعفر .

وشيبة ﴿ اصطفى ﴾ بكسر الهمزة وهي همزة الوصل وتكسر إذا ابتدىء بها وخرجت على حذف أداة الاستفهام لدلالة أم بعد وإن كانت منقطعة غير معادلة لها لكثرة استعمالها معها ، وجوز إبقاء الكلام على الإخبار إما على إضمار القول أي لكاذبون في قولهم اصطفى الخ أو يقولون اصطفى الخ على ما قيل : أو على الإبدال من قولهم

ولد الله أو الملائكة ولد الله وليس دخيلاً بين نسيبين ، والأولى التخريج على حذف الأداة وحسم البحث فتأمل .

(245/655)

---

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ بهذا الحكم الذي تقضي ببطلانه بداهة العقول والالتفات لزيادة التوبيخ .

﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ بحذف أحد التاءين من تتذكرون .

وقرأ طلحة بن مصرف تذكرون بسكون الذال وضم الكاف من ذكر .

والفاء للعطف على مقدر أي تلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه فإنه مركوز في عقل كل ذكي وغبي .

﴿ أَمْ لَكُمْ سلطان مُّبِينٌ ﴾ إضراب وانتقال من توبيخهم وتبكيتهم بما ذكر بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجود أصلاً أي بل ألكم حجة واضحة نزلت من السماء بأن الملائكة بناته تعالى ضرورة أن الحكم بذلك لا بد له من سند حسي أو عقلي وحيث انتفى كلاهما فلا بد من سند نقلي .

﴿ فَأْتُواْ بكتابكم ﴾ الناطق بصحة دعواكم ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ فيها ، والأمر

للتعجيز، وإضافة الكتاب إليهم للتهكم، وفي الآيات من الأنباء عن السخط العظيم والإنكار الفظيع لأقاويلهم والاستبعاد الشديد لأباطيلهم وتسفيه أحلامهم وتركيك عقولهم وأفهامهم مع استهزاء بهم وتعجيب من جهلهم ما لا يخفى على من تأمل فيها . انتهى .

اهـ ﴿روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(246/655)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) ﴾

تفريع على ما تقدم من الإنكار على المشركين وإبطال دعاويهم، وضرب الأمثال لهم بنظرائهم من الأمم فرع عليه أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بإبطال ما نسبه المشركون إلى الله من الولد .

فضمير الغيبة من قوله : ﴿ فاستفتهم ﴾ عائد على غير مذكور يُعلَم من المقام .

مثل نظيره السابق في قوله : ﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقاً أمن خلقنا ﴾ [الصافات : 11 ].

والمراد : التهكم عليهم بصورة الاستفتاء إذ يقولون : ولد الله، على أنهم قسموا قسمة

ضِيزَى حيث جعلوا لله البنات وهم يرغبون في الأبناء الذكور ويكرهون الإِناث ، فجعلوا لله ما يكرهون .

وقد جاءوا في مقالهم هذا بثلاثة أنواع من الكفر :

أحدها : أنهم أثبتوا التجسيم لله لأن الولادة من أحوال الأجسام .

الثاني : إيثار أنفسهم بالأفضل وجعلهم لله الأقل .

قال تعالى : ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمان مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ [ الزخرف : 17 ] .

الثالث : أنهم جعلوا للملائكة المقربين وصف الأنوثة وهم يتعيرون بأبي الإِناث ، ولذلك كرر الله تعالى هذه الأنواع من كفرهم في كتابة غير مرة .

فجملة ﴿ أَلِرَبِّكَ البَنَاتُ ﴾ بيان لجملة ﴿ فاستفتهم ﴾ .

وضمير ﴿ لربك ﴾ مخاطب به النبي صلى الله عليه وسلم وهو حكاية للاستفتاء بالمعنى لأنه إذا استفتاهم يقول : ألربكم البنات ، وكذلك ضمير ﴿ ولهم ﴾ محكي بالمعنى لأنه إنما يقول لهم : ولكم البنون .

وهذا التصرف يقع في حكاية القول ونحوه مما فيه معنى القول مثل الاستفتاء .

أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (150)

﴿ أمْ ﴾ منقطعة بمعنى ( بل ) وهي لا يفارقها معنى الاستفهام ، فالكلام بعدها مقدّر بهمزة الاستفهام ، أي بل أخلقنا الملائكة إناثاً .

(247/655)

---

وضمير ﴿ خَلَقنا ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم وهو إذا استفتاهم يقول لهم : أم خلق الملائكة ، كما تقدم ، والاستفهام إنكاري وتعجيبي من جرأتهم وقولهم بلا علم .

وجملة ﴿ وهُم شاهِدُونَ ﴾ في موضع الحال وهي قيد للإنكار ، أي كانوا حاضرين حين خلقنا الملائكة فشهدوا أنوثة الملائكة لأن هذا لا يثبت لأمثالهم إلا بالمشاهدة إذ لا قبل لهم بعلم ذلك إلا المشاهدة .

وبَقي أن يكون ذلك بالخبر القاطع فذلك ما سينفيه بقوله : ﴿ أم لكم سلطان مبين ﴾ [ الصافات : 156 ] ، وذلك لأن أنوثة الملائكة ليست من المستحيل ولكنه قول بلا دليل .

وضمير : ﴿ وهُم شاهِدونَ ﴾ محكي بالمعنى في الاستفتاء .

والأصل : وأنتم شاهدون ، كما تقدم آنفاً .

أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152)

ارتقاء في تجهيلهم بأنهم يقولون المستحيل فضلاً على القول بلا دليل فلذلك سماه إفكاً .

والجملة معترضة بين جُمل الاستفتاء .

و﴿ ألاَ ﴾ حرف تنبيه للاهتمام بالخبر .

والإفك : الكذب أي قولهم هذا بعض من أكذوباتهم .

ولذلك أعقبه بعطف ﴿ وإنهم لكاذِبُونَ ﴾ مؤكداً بـ ( إن ) واللام ، أي شأنهم الكذب في هذا وفي غيره من باطلهم ، فليست الجملة تأكيداً لقوله : ﴿ مِن إفكِهِم ﴾ كيف وهي معطوفة .

أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (153)

عود إلى الاستفتاء ، ولذلك لم تعطف لأن بينها وبين ما قبلها كمال الاتصال ، فالمعنى : وقل لهم : اصطفى البنات .

قرأ الجمهور : ﴿ أَصْطَفَى ﴾ بهمزة قطع مفتوحة على أنها همزة الاستفهام وأما همزة الوصل التي في الفعل فمحذوفة لأجل الوصل .

وقرأه أبو جعفر بهمزة وصل على أن همزة الاستفهام محذوفة .

والكلام ارتقاء في التجهيل ، أي لو سلمنا أن الله اتخذ ولداً فلماذا اصطفى البنات دون الذكور ، أي اختار لذاته البنات دون البنين والبنون أفضل عندكم ؟

وجملة ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ بَدَل اشتمال من جملة ﴿ أصْطفى البنات على البنين ﴾ فإن إنكار اصطفاء البنات يقتضي عدم الدليل في حكمهم ذلك ، فأبدل ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ من إنكار ادعائهم اصطفاء الله البنات لنفسه .

وقوله : ﴿ مَا لَكُم ﴾ : ﴿ ما ﴾ استفهام عن ذات وهي مبتدأ و ﴿ لكم ﴾ خبر .

والمعنى : أي شيء حصل لكم ؟ وهذا إبهام فلذلك كانت كلمة "ما لك" ونحوها في الاستفهام يجب أن يُتلى بجملةِ حالٍ تُبيّن الفعل المستفهم عنه نحو : ﴿ ما لكم لا تنطقون ﴾ [ الصافات : 92 ] ونحو ﴿ ما لك لا تأمننا على يوسف ﴾ [ يوسف : 11 ] وقد بُينتْ هنا بما تضمنته جملة استفهام ﴿ كيف تحكمون ﴾ فإن ﴿ كيف ﴾ اسم استفهام عن الحال وهي في موضع الحال من ضمير ﴿ تحكمون ﴾ قدمت لأجل صدارة الاستفهام .

وجملة ﴿ تحكُمُونَ ﴾ حال من ضمير ﴿ لكم ﴾ في قوله تعالى : ﴿ ما لكم ﴾ فحصل استفهامان : أحدهما عن الشيء الذي حصل لهم فحكموا هذا الحكم .

وثانيهما عن الحالة التي اتصفوا بها لما حكي هذا الحكم الباطل .

وهذا إيجاز حذف إذ التقدير : ما لكم تحكمون هذا الحكم ، كيف تحكمونه .

وحذف متعلق ﴿ تحكمون ﴾ لما دل عليه الاستفهامان من كون ما حكموا به مُنكراً يحق

العَجَب منه فكلا الاستفهامين إنكار وتعجيب.

وفرّع عليه الاستفهام الإِنكاري عن عدم تذكرهم، أي استعمال ذُكرهم بضم الذال وهو العقل أي فمنكر عدم تفهمكم فيما يصدر من حكمكم.

و﴿ أمْ لكم سلطانٌ مبينٌ ﴾ إضراب انتقالي ف ﴿ أم ﴾ منقطعة بمعنى (بل) التي معناها الإضراب الصالح للإِضراب الإِبطالي والإِضراب الانتقالي.

والسلطان: الحجة.

والمُبين: الموضح للحق.

والاستفهام الذي تقتضيه ﴿ أم ﴾ بعدها إنكاري أيضاً.

فالمعنى: ما لكم سلطان مبين، أي على ما قلتم: إن الملائكة بنات الله.

(249/655)

---

وتفرع على إنكار أن تكون لهم حجة بما قالوا أن خوطبوا بالإِتيان بكتاب من عند الله على ذلك إن كانوا صادقين فيما زعموا، أي فإن لم تأتوا بكتاب على ذلك فأنتم غير صادقين.

والأمر في قوله: ﴿ فَأْتُوا ﴾ أمر تعجيز مثل قوله: ﴿ وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ [البقرة: 23].

وإضافة الكتاب إليهم على معنى المفعولية ، أي كتاب مرسل إليكم .

ومجادلتهم بهذه الجمل المتفننة رتبت على قانون المناظرة ؛ فابتدأهم بما يشبه الاستفسار عن دعويين : دعوى أن الملائكة بنات الله ، ودعوى أن الملائكة إناث بقوله:

﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثاً ﴾ [ الصافات : 149 - 150 ].

ثم لما كان تفسيرهم لذلك معلوماً من متكرر أقوالهم نزّلوا منزلة المجيب بأن الملائكة بنات الله وأن الملائكة إناث .

وإنما أريد من استفسارهم صورة الاستفسار مضايقة لهم ولينتقل من مقام الاستفسار إلى مقام المطالبة بالدليل على دعواهم ، فذلك الانتقال ابتداء مِن قوله : ﴿ وهم شاهِدونَ ﴾ [ الصافات : 150 ] وهو اسم فاعل من شهد إذا حضر ورأى ، ثم قوله : ﴿ أم لكم سلطانٌ مبين فأتوا بكِتابكم إن كنتم صادِقينَ ﴾ فردده بين أن يكونوا قد استندوا إلى دليل المشاهدة أو إلى دليل غيره وهو هنا متعين لأن يكون خبراً مقطوعاً بصدقه ولا سبيل إلى ذلك إلاّ من عند الله تعالى ، لأن مثل هذه الدعوى لا سبيل إلى إثباتها غير ذلك ، فدليل المشاهدة منتف بالضرورة ، ودليل العقل والنظر منتف أيضاً إذ لا دليل من العقل يدل على أن الملائكة إناث ولا على أنهم ذكور .

فلما علم أن دليل العقل غير مفروض هنا انحصر الكلام معهم في دليل السمع وهو الخبر الصادق لأن أسباب العلم للخلق منحصرة في هذه الأدلة الثلاثة : أشير إلى دليل الحس بقوله : ﴿ وهُم شاهِدونَ ﴾ ، وإلى دليلي العقل والسمع بقوله : ﴿ أم لكم سلطانٌ مبين ﴾ ، ثم فرع عليه قوله : ﴿ فأتوا بكتابِكم إن كنتم صادقين ﴾ وهو دليل السمع .

فأسقط بهذا التفريع احتمال دليل العقل لأن انتفاءه مقطوع إذ لا طريق إليه وانحصر دليل السمع في أنه من عند الله كما علمت إذ لا يعلم ما في غيب الله غيرُه .

ثم خوطبوا بأمر التعجيز بأن يأتوا بكتاب أي بكتاب جاءهم من عند الله .

وإنما عيّن لهم ذلك لأنهم يعتقدون استحالة مجيء رسول من عند الله واستحالة أن يكلم الله أحداً من خلقه ، فانحصر الدليل المفروض من جانب السمع أن يكون إخباراً من الله في أن ينزَّل عليهم كتاب من السماء لأنهم كانوا يجوّزون ذلك لقولهم : ﴿ ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ [ الإسراء : 93 ] ، ولن يستطيعوا أن يأتوا بكتاب .

فذكر لفظ "كتابكم" إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال : فأتوا به ، أي السلطان المبين فإنه لا يحتمل إلا أن يكون كتاباً من عند الله .

وإضافة كتاب إلى ضميرهم من إضافة ما فيه معنى المصدر إلى معنى المفعول على طريقة الحذف والإِيصال ، والتقدير : بكتاب إليكم ، لأن ما فيه مادة الكتابة لا يتعدّى إلى المكتوب

إليه بنفسه بل بواسطة حرف الجر وهو ( إلى ) .

فلا جرم قد اتضح إفحامهم بهذه المجادلة الجارية على القوانين العقلية ولذلك صاروا كالمعترفين بأن لا دليل لهم على ما زعموه فانتقل السائل المستفتي من مقام الاعتراض في المناظرة إلى انقلابه مستدلاً باستنتاج من إفحامهم وذلك هو قوله : ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد اللَّه وإنهم لكاذبون ﴾

[ الصافات : 151 - 152 ] الواقعِ معترضاً بين الترديد في الدليل .

(251/655)

---

وأما قوله : ﴿ أصطفى البنات على البنين ﴾ فذلك بمنزلة التسليم في أثناء المناظرة كما علمت عند الكلام عليه ، وهذا يسمى المعارضة .

وإنما أُقحم في أثناء الاستدلال عليهم ولم يجعل مع حكاية دعواهم ليكون آخرُ الجدل معهم هو الدليلَ الذي يجرف جميع ما بنوه وهو قوله : ﴿ أم لكم سلطانٌ مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادِقين ﴾ .

فهذا من بديع النسيج الجامع بين أسلوب المناظرة وأسلوب الموعظة وأسلوب التعليم .

وقرأ الجمهور ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ بتشديد الذال على أن أصله تتذكرون فأدغمت إحدى

التاءين في الذال بعد قلبها ذالاً لقرب مخرجيهما .

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بتخفيف الذال على أن إحدى التاءين حذفت تخفيفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 ص ﴾

(252/655)

---

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى الاصطفاء )

وقد ورد فى التنزيل لثمانية :

الأَوّل : لآدم عليه السّلام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءَادَمَ ﴾ .

الثانى : للخليل إِبراهيم : ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ .

الثالث : للكليم موسى : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي ﴾ .

الرّابع : لجبريل عليه السّلام : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً ﴾ .

الخامس : لِمَرْيَمَ بنة عِمران : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ ﴾ .

السّادس لجملة الأَنبياءِ عليهم الصّلاة والسلام : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ

الأَخْيَارِ ﴾ .

السّابع لأَخيار أُمّة محمّد صلّى الله عليه وسلَّم : ﴿ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ .

الثّامن : لسيّد المرسلين صلّى الله عليه وسلّم : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ .

والاصطفاءُ لغة : تناول صَفْو الشيءِ ؛ كما أَنّ الاختيار : تناول خَيره والاجتباءُ تناول جِبايته أَى جُمْلَته .

واصطفاءُ الله بعض عباده قد يكون بإِيجاده صافيا عن الشّوْب الموجود فى غيره .

وقد يكون باعتباره وحكمه ، وإِن لم يتعرّ ذلك من الأَوّل .

واصطفيت كذا على كذا أَى اخترته .

قال تعالى : ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ .

والصّفِىّ والصّفِيّة : ما يصطفيه الرئيس من الغنيمة لنفسه .

قال :

*لك المِرباع منها والصّفايا * وحكْمُك والنّشيطة والفضُول* . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 177. 178 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (159) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (160) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (161) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (162) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (163) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (164) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (166) وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (167) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (168) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (169) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تم إظهار ضلالهم ، بكتهم في أسلوب آخر معرضاً عن خطابهم تخويفاً من إحلال عذابهم فقال : ﴿ وجعلوا ﴾ أي بعض العرب منابذين لما مضى بيانه من الأدلة ﴿ بينه وبين الجنة ﴾ أي الجن الذين هم شر الطوائف ، وأنثهم إشارة إلى تحقيرهم عن هذا الأمر الذي أهلوهم له ﴿ نسباً ﴾ بأن قالوا : إنه - جلت سبحات وجهه وعظم تعالى جده - تزوج بنات سروات الجن ، فأولد منهم الملائكة ، ومن المعلوم أن أحداً لا يتزوج إلا من يجانسه ، فأبعدوا غاية البعد لأنه لا مجانس له .

ولما كان النسيب يكرم ولا يهان قال مؤنثاً لضميرهم زيادة في تحقيرهم : ﴿ ولقد علمت

الجنة ﴾ أي مطلقاً السروات منهم والأسافل ﴿ إنهم ﴾ أي الجن كلهم ﴿ لمحضرون ﴾ أي إليه بالبعث كرهاً ليعاملوا بالعدل مع بقية الخلائق يوم فصل القضاء ، والتجلي في مظاهر العز والعظمة والكبرياء ، فهم أقل من أن يدعى لهم ذلك .

(254/655)

---

ولما ذكر اليوم الأعظم الذي يظهر فيه لكل أحد معاقد الصفات ، وتتلاشى عند تلك المظاهر أعيان الكائنات ، وتنمحي لدى تلك النعوت آثار الفانيات ، وكان ذكره على وجه مبين بُعد الجن عن المناسبة ، كان مجزأً للتنزيه وموضعاً بعد تلك الضلالات للتقديس نتيجة لذلك فقال مصرحاً باسم التسبيح الجامع لجميع أنواعه ، والجلالة إشارة إلى عظم المقام :

﴿ سبحان الله ﴾ أي تنزه الذي له جميع العظمة تنزهاً يفوت الحصر ﴿ عما يصفون ﴾ أي عما يصفه به جميع الخلائق الذين يجمعهم الإحضار ذلك اليوم ، أو الكفار الذين ادعوا له الولد وجعلوا الملائكة من الولد ﴿ إلا عباد الله ﴾ أي الذين يصلحون للإضافة إلى الاسم الأعظم من حيث إطلاقه على الذات الأعظم ولذلك أظهر ولم يضمر ، لأن الضمير يعود على عين الماضي ، فربما أوهم تقييده بما ذكر في الأول فيفهم تقييد تشريفهم بالتسبيح ، ﴿ المخلصين ﴾ من جميع الخلائق أو من العرب وهم من أسلم منهم بعد نزول هذه السورة

فإنهم لا يصفونه إلا بما أذن لهم فيه ولأجل أن هذه السورة سورة المتجردين عن علائق العوائق عن السير إليه ، كرر وصف الإخلاص فيها كثيراً .

ولما نزه نفسه المقدس سبحانه عن كل نقص ، دل على ذلك بأنهم وجميع ما يعبدونه من دونه لا يقدرون على شيء لم يقدره ، فقال مسبباً عن التنزيه مؤكداً تكذيباً لمن يظن أن غير الله يملك شيئاً مواجهاً لهم بالخطاب لأنه أنكى وأجدر بالإغضاب : ﴿ فإنكم وما تعبدون ﴾ أي من الأصنام وغيرها من كل من زعمتموه إلهاً .

(255/655)

---

وابتدأ الخبر عن " أن " فصدره بالنافي فقال : ﴿ ما ﴾ وغلب المخاطبين المعبر عنهم بكاف الخطاب على من عطف عليهم وهم معبوادتهم تنبيهاً على أنهم عدم كما حقرهم بالتعبير عنهم بما دون " من " فقال مخاطباً : ﴿ أنتم عليه ﴾ أي على الله خاصة ﴿ بفاتنين ﴾ أي بمغيرين أحداً من الناس بالإضلال ﴿ إلا من هو ﴾ أي في حكمه وتقديره ﴿ صال الجحيم ﴾ أي معذب بعذابه لحكمه عليه بالشقاوة فعلم أنكم لا تقدرون أن تغيروا عليه إلا من غيره هو فبحكمه ضل لا بكم ، نعوذ بك منك ، لا مهرب منك إلا إليك ، والمراد بتقديم الجار أن غيره قد يقدر على أن يفسد عليه من لا يريد فساده ويعجز عن رد

المفسد ، فالتعبير بأداة الاستعلاء تهكم بهم بمعنى أنه ليس في أيديكم من الإضلال إلا هذا الذي جعله لكم من التسبب ، فإن كان عندكم غلبة فسموه بها ، وتوحيد الضمير على لفظ " من " في الموضعين للإشارة إلى أن الميت على الشرك بعد بعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من العرب قليل ، وقرئ شاذاً " صالوا " دفعاً لظن أنه واحد .

(256/655)

---

ولما كان من المعلوم أن هذا الاستفتاء من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقع امتثالاً للأمر المصدر به ، وبطل بهذه الجملة قدرتهم وقدرة معبوداتهم التي يدعون لها بعض القدرة ، قال مؤكداً لذلك ومبطلاً لقدرة المخلصين أيضاً عطفاً على ﴿ فإنكم وما تعبدون ﴾ : ﴿ وما منا ﴾ أي نحن وأنتم ومعبوادتكم وغير ذلك ، أحد ﴿ إلا له مقام معلوم ﴾ قد قدره الله تعالى في الأزل ، ثم أعلم الملائكة بما أراد منه فلا يقدر أحد من الخلق على أن يتجاوز ما أقامه فيه سبحانه نوع مجاوزة ، فلكل من الملائكة مقام معروف لا يتعداه ، والأولياء لهم مقام مستور بينهم وبين الله لا يطلع عليه أحد ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام لهم مقام مشهور مؤيد بالمعجزات الظاهرة ، لأنهم للخلق قدوة ، فأمرهم على الشهرة ، وأمر الأولياء على السترة – قاله القشيري ، وغير المذكورين من أهل السعادة لهم مقام في الشقاوة معلوم

عند الله تعالى وعند من أطلعه عليه من عباده .

ولما سلب عن الكل كل شيء من القدرة إلا ما وهبهم ، وكان الكفار يدعون أنهم يعبدون الله تعالى وينزهونه وأن الإشراك لا يقدح في ذلك ، بين أن المخلصين خصوا دونهم بمواقف الصفاء ، ومقامات الصدق والوفاء ، لأن طاعتهم أبطلها إشراكهم ، فقال مؤكداً ومخصصاً : ﴿ وإنا ﴾ أي يا معشر المخلصين ﴿ لنحن ﴾ أي دونكم ﴿ الصافون ﴾ أي أنفسنا في الصلاة والجهاد وأجنحتنا في الهواء فيما أرسلنا به وغير ذلك لاجتماع قلوبنا على الطاعة ﴿ وإنا لنحن المسبحون ﴾ أي المنزهون له سبحانه عن كل نقص مما ادعيتموه من البنات ويجوز أن يكون المعنى : لنا هذا الفعل ، وهو الصف والتسبيح ، ولا ينوي له مفعول البتة .

(257/655)

---

ولما بين ضلالهم وهداه.صلى الله عليه وسلم.وهدى من اتبعه – بما أشار إليه بصفة الربوبية التي أضافها إليه في قوله " أربك " أعلم بأنهم زادوا على عيب الضلال في نفسه عيب الإخلاف للوعد والنقض لما أكدوه من العهد ، فقال مؤكداً إشارة إلى أنه لا يكاد يصدق أن عاقلاً يؤكد على نفسه في أمر ثم يخلفه جواباً لمن يقول : هل نزهوه كما نزهه المخلصون : ﴿ وإن ﴾ أي فعلوا ذلك من الضلال بالشبه التي افتضحت بما كشفناه من

ستورها ولم ينزهوا كما نزه المخلصون والحال أنهم ﴿ كانوا ﴾ قبل هذا ﴿ ليقولون ﴾ أي قولاً لا يزالون يجددونه مع ما فيه من التأكيد ﴿ لو أن عندنا ذكراً ﴾ أي على أيّ حال كان من أحواله من كتاب أو غيره ﴿ من الأولين ﴾ أي من الرسل الماضين ﴿ لكنا عباد الله ﴾ أي بحيث أنا نصير أهلاً للإضافة إلى المحيط بصفات الكمال ﴿ المخلصين ﴾ أي في العبادة له بلا شائبة من شرك أصلاً .

ولما كان هذا الذكر – الذي أتاهم مع كونه أعظم ذكر أتى مصدقاً لكتب الأولين وكان الرسول الآتي به أعظم الرسل ، فكان لذلك هو عين ما عقدوا عليه مع زيادة الشرف – سبباً لكفرهم قال : ﴿ فكفروا به ﴾ أي فتسبب عما عاهدوا عليه أنهم كفروا بذلك الذكر مع زيادته في الشرف على ما طلبوا بالإعجاز وغيره فتسبب عن ذلك تهديدهم ممن أخلفوا وعده ، ونقضوا مع التأكيد عهده ، فقال : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أي بوعيد ليس هو من جنس كلامهم ، بل هو مما لا خلف فيه بوجه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 351.349 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾

واختلفوا في المراد بالجنة على وجوه الأول : قال مقاتل : أثبتوا نسباً بين الله تعالى وبين الملائكة حين زعموا أنهم بنات الله ، وعلى هذا القول فالجنة هم الملائكة سموا جناً لاجتنانهم عن الأبصار أو لأنهم خزّان الجنة ، وأقول هذا القول عندي مشكل ، لأنه تعالى أبطل قولهم الملائكة بنات الله ، ثم عطف عليه قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ والعطف يقتضي كون المعطوف مغايراً للمعطوف عليه ، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غير ما تقدم الثاني : قال : مجاهد قالت كفار قريش الملائكة بنات الله ، فقال لهم أبو بكر الصديق : فمن أمهاتهم ؟ قالوا : سروات الجن ، وهذا أيضاً عندي بعيد لأن المصاهرة لا تسمى نسباً والثالث : روينا في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَاء الجن ﴾ [ الأنعام : 100 ] أن قوماً من الزنادقة يقولون : الله وإبليس أخوان فالله الخير الكريم وإبليس هو الأخ الشرير الخسيس ، فقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ المراد منه هذا المذهب ، وعندي أن هذا القول أقرب الأقاويل .

وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان واهرمن (1)

ثم قال تعالى: ﴿وَقَدْ عَلِمَتِ الجنة إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي قد علمت الجنة أن الذين قالوا: هذا القول محضرون النار ويعذبون وقيل المراد ولقد علمت الجنة أنهم سيحضرون في العذاب، فعلى القول الأول: الضمير عائد إلى قائل هذا القول، وعلى القول الثاني عائد إلى الجنة أنفسهم، ثم إنه تعالى نزه نفسه عما قالوا من الكذب فقال: ﴿سبحان الله عَمَّا يَصِفُونَ * إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين﴾ وفي هذا الاستثناء وجوه، قيل: استثناء من المحضرين، يعني: أنهم ناجون، وقيل هو استثناء من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً﴾ وقيل: هو استثناء منقطع من المحضرين، ومعناه ولكن المخلصين برآء من أن يصفوه بذلك، والمخلص بكسر اللام من أخلص العبادة والاعتقاد لله وبفتحها من أخلصه الله بلطفه، والله أعلم.

---

(1) يزدان وأهرمن أي الشر والخير أو النور والظلمة وهذا المذهب المعروف بمذهب المانوية نسبة إلى «ماني» أول من قال به. وهو مذهب باطل لما فيه من الإشراك بالله.

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (161)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد مذهب الكفار أتبعه بما نبه به على أن هؤلاء الكفار لا يقدرون على حمل أحد على الضلال إلا إذا كان قد سبق حكم الله في حقه بالعذاب والوقوع في النار ، وذكر صاحب "الكشاف" في قوله : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتم عَلَيْهِ بفاتنين ﴾ قولين الأول : الضمير في ﴿ عَلَيْهِ ﴾ لله عز وجل معناه فإنكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعاً بفاتنين على الله إلا أصحاب النار الذين سبق في علم الله كونهم من أهل النار ، فإن قيل كيف يفتنونهم على الله ؟ قلنا يفتنونهم عليه بإغوائهم من قولك فتن فلان على فلان امرأته كما تقول أفسدها عليه والوجه الثاني : أن تكون الواو في قوله : ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ بمعنى مع كما في قولهم كل رجل وضيعته ، فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته ، فكذلك جاز أن يسكت على قوله : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ لأن قوله : ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ ساد مسد الخبر ، لأن معناه فإنكم مع ما تعبدون ، والمعنى فإنكم مع آلهتكم أي فإنكم قرناؤهم وأصحابهم لا تتركون عبادتها ، ثم قال تعالى : ﴿ مَا أَنتم عَلَيْهِ ﴾ أي على ما تعبدون ﴿ بفاتنين ﴾ بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال ﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم ﴾ مثلكم .

وقرأ الحسن ﴿ صَالِ الجحيم ﴾ بضم اللام ووجهه أن يكون جمعاً وسقوط واوه لالتقاء الساكنين ، فإنه قيل كيف يستقيم الجمع مع قوله : ﴿ مَنْ هُوَ ﴾ قلنا ﴿ مِنْ ﴾ موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه .

المسألة الثانية :

(261/655)

---

احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه لا تأثير لإغواء الشيطان ووسوسته ، وإنما المؤثر قضاء الله تعالى وتقديره ، لأن قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بفاتنين ﴾ تصريح بأنه لا تأثير لقولهم ولا تأثير لأحوال معبوديهم في وقوع الفتنة والضلال ، وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم ﴾ يعني إلا من كان كذلك في حكم الله وتقديره ، وذلك تصريح بأن المقتضي لوقوع هذه الحوادث حكم الله تعالى ، وكان عمر بن عبد العزيز يحتج بهذه الآية في إثبات هذا المطلوب ، قال الجبائي : المراد أن الذين عبدوا الملائكة يزعمون أنهم بنات الله لا يكفرون أحداً إلا من ثبت في معلوم الله أنه سيكفر ، فدل هذا على أن من ضل بدعاء الشيطان لم يكن ليؤمن بالله لو منع الله الشيطان من دعائه وإلا كان يمنع الشيطان ، فصح بهذا أن كل من يعصي لم يكن ليصلح عنه شيء من الأفعال والجواب : حاصل هذا

الكلام أنه لا تأثير لإغواء شياطين الإنس والجن .

وهذا لا نزاع فيه إلا أن وجه الاستدلال أنه تعالى بين أنه لا تأثير لكلامهم في وقوع الفتنة ، ثم استثنى منه ما في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ فوجب أن يكون المراد من وقوع الفتنة هو كونه محكوماً عليه بأنه صال الجحيم ، وذلك تصريح بأن حكم الله بالسعادة والشقاوة هو الذي يؤثر في حصول الشقاوة والسعادة .

واعلم أن أصحابنا قرروا هذه الحجة بالحديث المشهور وهو أنه حج آدم موسى ، قال القاضي هذا الحديث لم يقبله علماء التوحيد ، لأنه يوجب أن لا يلام أحد على شيء من الذنوب ، لأنه إن كان آدم لا يجوز لموسى أن يلومه على عمل كتبه الله عليه قبل أن يخلقه ، فكذلك كل مذنب .

(262/655)

---

فإن صحت هذه الحجة لآدم عليه السلام ، فلماذا قال موسى عليه السلام في الوكزة هذا من عمل الشيطان ، إنه عدو مضل مبين ؟ ولما قال فلن أكون ظهيراً للمجرمين ؟ ولماذا لام فرعون وجنوده على أمر كتبه الله عليهم ؟ ومن عجيب أمرهم أنهم يكفرون القدرية ، وهذا الحديث يوجب أن آدم كان قدرياً ، فلزمهم أن يكفروه ، وكيف يجوز مع قول آدم

وحواء عليهما السلام :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [ الأعراف : 23 ]

أن يحتج على موسى بأنه لا لوم عليه ، وقد كتب عليه ذلك قبل أن يخلقه ، هذا جملة كلام القاضي فيقال له هب أنك لا تقبل ذلك الخبر ، فهل ترد هذه الآية أم لا ، فإنا بينا أن صريح هذه الآية يدل على أنه لا تأثير للوساوس في هذا الباب ، فإن الكل يحصل بحكمة الله تعالى ، والذي يدل عليه وجوه الأول : أن الكافر إن ضل بسبب وسوسة الشيطان فضلال الشيطان إن كان بسبب شيطان آخر لزم تسلسل الشياطين وهو محال ، وإن انتهى إلى ضلال لم يحصل بسبب وسوسة متقدمة فهو المطلوب الثاني : أن كل أحد يريد أن يحصل لنفسه الاعتقاد الحق والدين الصدق ، فحصول ضده يدل على أن ذلك ليس منه الثالث : أن الأفعال موقوفة على الدواعي وحصول الدواعي بخلق الله ، فيكون الكل من الله تعالى الرابع : أنه تعالى لما اقتضت حكمته شيئاً ، وعلم وقوعه ، فلو لم يقع ذلك الشيء لزم انقلاب ذلك الحكم كذباً وانقلاب ذلك العلم جهلاً وهو محال ، وأما الآيات التي تمسك بها القاضي فهي معارضة بالآيات الدالة على أن الكل من الله والقرآن كالبحر المملوء من هذه الآيات فتبقى الدلائل العقلية التي ذكرناها سليمة ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ فالجمهور على أنهم الملائكة ، وصفوا أنفسهم بالمبالغة في العبودية ، فإنهم يصطفون للصلاة والتسبيح ، والغرض منه التنبيه على فساد قول من يقول إنهم أولاد الله وذلك لأن مبالغتهم في العبودية تدل على اعترافهم بالعبودية ، واعلم أن هذه الآية تدل على ثلاثة أنواع من صفات الملائكة فأولها قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ وهذا يدل على أن لكل واحد منهم مرتبة لا يتجاوزها ودرجة لا يتعدى عنها ، وتلك الدرجات إشارة إلى درجاتهم في التصرف في أجسام هذا العالم إلى درجاتهم في معرفة الله تعالى أما درجاتهم في التصرفات والأفعال فهي قوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافون ﴾ والمراد كونهم صافين في أداء الطاعات ومنازل الخدمة والعبودية ، وأما درجاتهم في المعارف فهي قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون ﴾ والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به .

واعلم أن قوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافون * وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون ﴾ يفيد الحصر ومعناه أنهم هم الصافون في مواقف العبودية لا غيرهم وأنهم هم المسبحون لا غيرهم ، وذلك يدل على أن طاعات البشر ومعارفهم بالنسبة إلى طاعات الملائكة وإلى معارفهم كالعدم ، حتى يصح هذا الحصر .

وبالجملة فهذه الألفاظ الثلاثة تدل على أسرار عجيبة من صفات الملائكة فكيف يجوز مع

هذا الحصر أن يقال البشر تقرب درجته من الملك فضلاً عن أن يقال هل هو أفضل منه أم لا .

وأما قوله : ﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ المخلصين ﴾ فالمعنى أن مشركي قريش وغيرهم كانوا يقولون : ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً ﴾ أي كتاباً من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة لله ، ولما كذبنا كما كذبوا .

(264/655)

---

ثم جاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار والكتاب المهيمن على كل الكتب ، وهو القرآن فكفروا به .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي فسوف يعلمون عاقبة هذا الكفر والتكذيب . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 146.149 ﴾

(265/655)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾

أكثر أهل التفسير أن الجِنّة هاهنا الملائكة .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : قالوا يعني كفار قريش الملائكة بنات اللّه ، جل وتعالى .

فقال أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه : فمن أمهاتهن .

قالوا : مخدّرات الجنّ .

وقال أهل الاشتقاق : قيل لهم جنّة لأنهم لا يُروَنَ .

وقال مجاهد : إنهم بطن من بطون الملائكة يقال لهم الجِنّة .

وروي عن ابن عباس .

وروى إسرائيل عن السدي عن أبي مالك قال : إنما قيل لهم جِنة لأنهم خُزان على الجِنان والملائكة كلهم جِنّة .

"نَسَباً" مصاهرة .

قال قتادة والكلبي ومقاتل : قالت اليهود لعنهم اللّه إنّ اللّه صاهر الجنّ فكانت الملائكة من بينهم .

وقال مجاهد والسدي ومقاتل أيضاً : القائل ذلك كنانة وخزاعة ؛ قالوا : إن اللّه خطب إلى سادات الجنّ فزوّجوه من سَرَوات بناتهم ، فالملائكة بنات اللّه من سَرَوات بنات الجنّ .

وقال الحسن : أشركوا الشيطان في عبادة الله فهو النسب الذي جعلوه .

قلت : قول الحسن في هذا أحسن ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [ الشعراء : 98 ] أي في العبادة .

وقال ابن عباس والضحاك والحسن أيضاً : هو قولهم إن اللّه تعالى وإبليس أخوان ؛ تعالى اللّه عن قولهم علواً كبيراً .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجنة ﴾ أي الملائكة ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعني قائل هذا القول ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ في النار ؛ قاله قتادة .

وقال مجاهد : للحساب .

الثعلبي : الأول أولى ؛ لأن الإحضار تكرر في هذه السورة ولم يرد اللّه به غير العذاب .

﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي تنزيهاً للّه عما يصفون .

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللهِ المخلصين ﴾ فإنهم ناجون من النار .

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (161) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (162) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (163)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ "ما" بمعنى الذي .

وقيل : بمعنى المصدر ، أي فإنكم وعبادتكم لهذه الأصنام .

وقيل : أي فإنكم مع ما تعبدون من دون اللّه ؛ يقال : جاء فلان وفلان .

وجاء فلان مع فلان .

﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على اللّه ﴿ بِفَاتِنِينَ ﴾ بمضّلين .

النحاس .

أهل التفسير مجمعون فيما علمت على أن المعنى : ما أنتم بمضّلين أحداً إلا من قدّر اللّه عز وجل عليه أن يضِل .

وقال الشاعر :

فردّ بنعمته كيدَهُ . . .

عليهِ وكان لنا فاتِنا

أي مضلاًّ .

الثانية في هذه الآية ردٌّ على القَدَرية .

قال عمرو بن ذرّ : قدمنا على عمر بن عبد العزيز فذُكِر عنده القَدَر ، فقال عمر : لو أراد اللّه ألاّ يُعْصى ما خلق إبليس وهو رأس الخطيئة ، وإن في ذلك لعلماً في كتاب اللّه جل وعزّ ، عرفه من عرَفَه ، وجهله من جهله ؛ ثم قرأ ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴾ [ الصافات : 161 ] إلا من كتب اللّه عز وجل عليه أن يصلَى الجحيم .

وقال : فصَلت هذه الآية بين الناس ، وفيها من المعاني أن الشياطين لا يَصِلون إلى إضلال أحد إلا من كتب اللّه عليه أنه لا يهتدي ، ولو علم اللّه جل وعز أنه يهتدي لحال بينه وبينهم ؛ وعلى هذا قوله : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [ الإسراء : 64 ] أي لست تَصِل منهم إلى شيء إلا إلى ما في علمي .

وقال لَبيد بن ربيعة في تثبيت القدَر فأحسن :

إنّ تَقْوى ربّنا خير نَفَلْ . . .

وبإذنِ اللّه ريْثي وعَجَلْ

أحمدُ اللّه فلا نِدّ لَهُ . . .

بيديهِ الخيرُ ما شاء فعَلْ

مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الخير اهتدى . . .

ناعِم البَالِ ومَنْ شاء أَضَلْ

قال الفراء : أهل الحجاز يقولون فتنت الرجل ، وأهل نجد يقولون أفتنته .

الثالثة روي عن الحسن أنه قرأ : "إِلاَّ مَنْ هُوَ صالُ الْجَحِيمِ" بضم اللام .

(267/655)

---

النحاس : وجماعة أهل التفسير يقولون إنه لحن ؛ لأنه لا يجوز هذا قاضُ المدينةِ .

ومن أحسن ما قيل فيه ما سمعت علي بن سليمان يقوله ؛ قال : هو محمول على المعنى ؛

لأن معنى .

"مَنْْ" جماعة ؛ فالتقدير صالون ، فحذفت النون للإضافة ، وحذفت الواو لالتقاء

الساكنين .

وقيل : أصله فاعل إلا أنه قُلب من صال إلى صايل وحذفت الياء وبقيت اللام مضمومة

فهو مثل "شَفَا جُرُفٍ هَارٍ" .

ووجه ثالث أن تحذف لام "صال" تخفيفاً وتجري الإعراب على عينه ، كما حذف من

قولهم : ما باليت به بالة .

وأصلها بالية من بالى كعافية من عافى ؛ ونظيره قراءة من قرأ ، "وَجنى الْجَنَّتَيْنِ دانٌ" "وَلَهُ

الْجَوَارُ الْمُنشَئَاتُ" أجرى الإعراب على العين .

والأصل في قراءة الجماعة صالُي بالياء فحذفها الكاتب من الخط لسقوطها في اللفظ .

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (164) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (166)

هذا من قول الملائكة تعظيماً للّه عز وجل ، وإنكاراً منهم عبادة من عبدهم .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافّون وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون ﴾ قال مقاتل : " هذه الثلاث الآيات نزلت ورسول اللّه صلى الله عليه وسلم عند سِدرة المنتهى ، فتأخر جبريل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أهنا تفارقني" فقال : ما أستطيع أن أتقدم عن مكاني " وأنزل اللّه تعالى حكاية عن قول الملائكة : "وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ" الآيات .

والتقدير عند الكوفيين : وما منا إلا من له مقام معلوم .

فحذف الموصول .

وتقديره عند البصريين : وما منا ملَكٌ إلا له مقام معلوم ؛ أي مكان معلوم في العبادة ؛ قاله ابن مسعود وابن جُبير .

وقال ابن عباس : ما في السموات موضع شبرٍ إلا وعليه ملَكٌ يصلّي ويُسّبح .

وقالت عائشة رضي اللّه عنها : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملَك ساجد أو قائم " وعن أبي ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطَّت السماءُ وحُقّ لها أن تَئِط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَك واضع جبهته ساجداً للّه واللّه لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذّذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى اللّه لوددت أني كنت شجرة تُعْضَد " خرجه أبو عيسى الترمذي وقال فيه حديث ( حسن ) غريب .

ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذرّ قال : لوددت أني كنت شجرة تُعْضَد .

ويروى عن أبي ذرّ موقوفاً .

وقال قتادة : كان يصلّي الرجال والنساء جميعاً حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ .

قال : فتقدّم الرجال وتأخر النساء .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصآفون ﴾ قال الكلبي : صفوفهم كصفوف أهل الدنيا في الأرض .

وفي صحيح مسلم " عن جابر بن سَمُرة قال : خرج علينا رسول صلى الله عليه وسلم ونحن في المسجد ؛ فقال : "ألا تَصُفّون كما تَصُفّ الملائكة عند ربها" فقلنا يا رسول اللّه كيف تصفّ الملائكة عند ربها ؟ قال : "يُتمون الصفوف الأُوَل ويتراصّون في الصفّ" "

وكان عمر يقول إذا قام للصلاة : أقيموا صفوفكم واستووا إنما يريد اللّه بكم هَدْي الملائكة عند ربها ويقرأ : "وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ" تأخر يا فلان تقدّم يا فلان ؛ ثم يتقدّم فيكبر .

وقد مضى في سورة "الحجر" بيانه .

وقال أبو مالك : كان الناس يصلّون متبدّدين فأنزل اللّه تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافّون ﴾ فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يصطفوا .

وقال الشعبي : جاء جبريل أو ملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ؛ إن الملائكة لتصلي وتسبح ما في السماء ملَك فارغ .

(269/655)

---

وقيل : أي لنحن الصافون أجنحتنا في الهواء وقوفاً ننتظر ما نؤمر به .

وقيل : أي نحن الصافون حول العرش .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون ﴾ أي المصلون ؛ قاله قتادة .

وقيل : أي المنزهون اللّه عما أضافه إليه المشركون .

والمراد أنهم يخبرون أنهم يعبدون اللّه بالتسبيح والصلاة وليسوا معبودين ولا بنات اللّه .

وقيل : "وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ" من قول الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين للمشركين

؛ أي لكل واحد منا ومنكم في الآخرة مقام معلوم وهو مقام الحساب .

وقيل : أي منَّا من له مقام الخوف ، ومنا من له مقام الرجاء ، ومنا من له مقام الإخلاص ، ومنَّا من له مقام الشكر .

إلى غيرها من المقامات .

قلت : والأظهر أن ذلك راجع إلى قول الملائكة "وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ" والله أعلم .

وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (167) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (168) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (169) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170)

عاد إلى الإخبار عن قول المشركين ، أي كانوا قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إذا عيروا بالجهل قالوا : ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الأولين ﴾ أي لو بُعِث إلينا نبيّ ببيان الشرائع لاتبعناه ، ولمّا خففت "إن" دخلت على الفعل ولزمتها اللام بين النفي والإيجاب .

والكوفيون يقولون : "إِنْ" بمعنى ما واللام بمعنى إلا .

وقيل : معنى "لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً" أي كتاباً من كتب الأنبياء ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ الله المخلصين ﴾ أي لو جاءنا ذكر كما جاء الأوّلين لأخلصنا العبادة لله .

﴿ فَكَفَرُواْ بِهِ ﴾ أي بالذكر .

والفراء يقدره على حذف ؛ أي فجاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالذكر فكفروا به .

وهذا تعجيب منهم ، أي فقد جاءهم نبيّ وأنزل عليهم كتاب فيه بيان ما يحتاجون إليه

فكفروا وما وفوا بما قالوا .

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ قال الزجاج : يعلمون مغبّة كفرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(270/655)

---

وقال أبو السعود :

وقولُه تعالَى : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾

(271/655)

---

التفاتٌ إلى الغَيبةِ للإيذانِ بانقطاعِهم عن الجوابِ وسقوطِهم عن درجةِ الخطابِ واقتضاءِ حالِهم أنْ يعرضَ عنهم وتُحكى جناياتُهم لآخرينَ والمرادُ بالجِنَّةِ الملائكةُ قالوا الجنسُ واحدٌ ولكنْ من خبُثَ من الجنِّ ومَرَدَ وكانَ شرَّاً كلّه فهو شيطانٌ ومن طهر منهم ونسكَ وكانَ خيراً كلّه فهو مَلَكٌ وإنَّما عبَّر عنهم بذلك الاسمِ وَضْعاً منهم وتقصيراً بهم مع عِظَمِ شأنِهم فيما بينَ الخلقِ أنْ يبلغُوا منزلةَ المناسبةِ التي أضافُوها إليهم فجعلهم هذا عبارةً عن قولهم

الملائكةُ بناتُ اللهِ وإنَّما أُعيد ذكرُه تمهيداً لما يعقبُه من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجنة إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي وبالله لقد علمتْ الجِنَّةُ التي عظَّموها بأنْ جعلُوا بينها وبينه تعالى نَسَباً وهم الملائكةُ أنَّ الكفرةَ لمحضرونَ النَّار معذَّبُون بها لكذبهم وافترائِهم في قولِهم ذلك ، والمرادُ به المبالغةُ في التَّكذيبِ ببيانِ أنَّ الذين يدَّعي هؤلاء لهم تلك النِّسبةَ ويعلمون أنَّهم أعلمُ منهم بحقيقةِ الحالِ يكذبونهم في ذلك ويحكُمون بأنَّهم معذَّبون لأجلِه حُكماً مؤكَّداً وقيل : إنَّ قوماً من الزَّنادقةِ يقولون : الله تعالى وإبليسُ أخوانِ فالله هو الخيِّرُ الكريمُ وإبليسُ هو الشرِّ اللَّئيمُ وهو المرادُ بقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ . قال الإمامُ الرَّازيُّ وهذا القولُ عندي أقربُ الأقاويلِ وهو مذهبُ المجوسِ القائلين بيزْدانَ واهْرمنْ منْ . وقال مجاهدٌ قالتْ قريشٌ : الملائكةُ بناتُ الله فقال أبو بكرٍ الصِّديقُ رضي الله عنه : فمنْ أمهاتهم تبكيتاً لهُم ؟ فقالوا سَرَواتُ الجنِّ وقيل : معنى جعلُوا بينه وبين الجِنَّةِ نَسَباً جعلُوا بينهما مناسبةً حيثُ أشركُوا به تعالى الجنَّ في استحقاقِ العبادةِ فعلى هذه الأقاويلِ يجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ في إنَّهم لمحضرون للجنَّة فالمعنى لقد

علمتِ الشّياطينُ أنَّ الله تعالى يحضرهم النّارَ ويُعذبهم بها ولو كانُوا مناسبينَ له تعالى أو شركاءَ في استحقاقِ العبادةِ لمَّا عذَّبهم والوجهُ هو الأوَّلُ فإنَّ قوله :

﴿ سبحان الله عمَّا يصِفُونَ ﴾ حكايةٌ لتنزيهِ الملائكةِ إيَّاهُ تعالى عمَّا وَصفه المشركونَ به بعد تكذيبِهم لهم في ذلكَ بتقديرِ قولٍ معطوفٍ على علمتْ . وقولُه تعالى : ﴿ إلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ شهادةٌ منهم ببراءةِ المخلصينَ مِن أنْ يَصفُوه تعالَى بذلكَ متضمّنة لتبرِئهم مِنْهُ بحكمِ اندراجِهم في زُمرةِ المُخلصين على أبلغِ وجهٍ وآكدِه على أنَّه استثناءٌ منقطعٌ من واوِ يصفُون كأنَّهُ قيل ولقد علمتِ الملائكةُ أنَّ المشركينَ لمعذبون لقولهم ذلك وقالوا سبحان الله عمَّا يصفونَه به لكنْ عبادُ الله الذين نحنُ من جُملتهم بُرآءُ من ذلكَ الوصفِ وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بفاتنين ﴾ تعليلٌ وتحقيقٌ لبراءةِ المخلصينَ ممَّا ذُكر ببيانِ عجزِهم عن إغوائِهم وإضلالِهم . والالتفاتُ إلى الخطابِ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بتحقيقِ مضمونِ الكلامِ وما تعبدون عبارةٌ عن الشّياطينِ الذين أغوَوهم وفيه إيذانٌ بتبرئهم عنهم وعن عبادَتِهم كقولِهم بل كانُوا يعبدون الجنَّ وما نافيةٌ وأنتم خطابٌ لهم ولمعبوديهم تغليباً ، وعلى متعلقة بفاتنينَ يقال فتنَ فلانٌ على فلانٍ امرأتَه أي أفسدَها عليه والمعنى فإنَّكم ومعبوديكم أيُّها المشركونَ لستُم بفاتنينَ عليه تعالى بإفسادِ عبادِه وإضلالِهم .

﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم ﴾ منهم أي داخلها لعلمه تعالى بأنَّه يصيرُ على الكفر بسوء اختيارِه ويصيرُ من أهل النَّارِ لا محالةَ وأما المخلصونَ منهم فأنتُم بمعزلٍ من إفسادِهم وإضلالِهم، فهم لا جرَمَ برُآء مُن أنْ يُفتنتوا بكم ويسلكُوا مسلككم في وصفِه تعالى بما وصفتُموه به. وقُرِئ صالُ بضمِّ اللَّامِ على أنَّه جمعٌ محمول على معَنْى من قد سقط واوه لالتقاءِ السَّاكنينِ وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ تبيينٌ لجليةِ أمرِهم وتَعيينٌ لحيِّزهم في موقفِ العُبوديةِ بعد ما ذُكر من تكذيبِ الكَفَرةِ فيما قالُوا وتنزيه الله تعالى عن ذلك وتبرئةُ المخلصين عنه وإظهارٌ لقصور شأنِهم وقماءتِهم أي وما منَّا أحدٌ إلا لهُ مقامٌ معلومٌ في العبادةِ والانتهاء إلى إمرِ الله تعالى مقصورٌ عليه لا يتجاوزهُ ولا يستطيعُ أنْ يزلَّ عنه خُضوعاً لعظمتِه وخُشوعاً لهيبتِه وتواضُعاً لجلالِه كما رُوي فمنهم راكعٌ لا يقيُم صُلبَه وساجدٌ لا يرفعُ رأسَه قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما (ما في السَّمواتِ موضعُ شبرٍ إلاَّ وعليه ملكٌ يصلِّي أو يسبِّح) ورُوي أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: "أطَّتِ السَّماءُ وحقَّ لها أنْ تئطَّ والذي نفسي بيدِه ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلاَّ وفيه ملَكٌ واضعٌ جبهتَه ساجدٌ لله تعالى". وقال السُّدِّيّ إلا له مقامٌ معلومٌ في القُربةِ والمشاهدةِ.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافون ﴾ في مواقفِ الطَّاعةِ ومواطن الخِدمة ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون ﴾ المقدِّسون لله سبحانه عن كلِّ ما لا يليقُ بجنابِ كبريائِه، وتحليةُ كلامِهم بفنونِ التَّأكيدِ

لإبراز أن صدورَه عنهم بكمالِ الرّغبةِ والنّشاطِ هذا هو الذي تقتضيهِ جزالةُ التّنزيلِ وقد ذُكر في تفسيرِ الآياتِ الكريمةِ وإعرابِها وجوهٌ أُخرُ فتأمّلْ واللهُ الموفِّقُ.

(274/655)

---

﴿ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴾ إنْ هي المخففةُ من الثقيلة، وضميرُ الشّأنِ محذوفٌ، واللاّمُ هي الفارقةُ أي إنّ الشّأنَ كانتْ قريشٌ تقولُ: ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مّنَ الاولين ﴾ أي كتاباً من كُتبِ الأوّلينَ من التّوارةِ والإنجيلِ. ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ الله المخلصين ﴾ أي لأخلصنا العبادةَ للهِ تعالى ولَما خالفنا كما خالفُوا وهذا كقولِهم: ﴿ لَئِنْ جاءهم نذيرٌ ليكونن أهدى من إحْدَى الأممِ ﴾ والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿ فَكَفَرُواْ بِهِ ﴾ فصيحةٌ كما في قولِه تعالى: ﴿ أَنِ اضرب بّعَصَاكَ البحر فانفلق ﴾ أي فجاءَهُم ذكرٌ وأيُّ ذكرٍ، سيّدُ الأذكارِ وكتابٌ مُهيمنٌ على سائرِ الكُتبِ والأسفارِ فكفرُوا به ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي عاقبةَ كُفرِهم وغائلتَه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(275/655)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾

التفات إلى الغيبة للإيذان بانقطاعهم عن الجواب وسقوطهم عن درجة الخطاب واقتضاء حالهم أن يعرض عنهم وتحكي لآخرين جناياتهم ، واستظهر أن المراد بالجنة الشياطين وأريد بالنسب المجعول المصاهرة .

أخرج آدم بن أبي أياس .

وعبد بن حميد .

وابن جرير .

وغيرهم عن مجاهد قال : قال كفار قريش الملائكة بنات الله تعالى فقال لهم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أي على سبيل التبكيت : فمن أمهاتهم ؟ فقالوا : بنات سروات الجن وروى هذا ابن أبي حاتم عن عطية ، أو أريد جعلوا بينه سبحانه وبينهم مناسبة حيث أشركوهم به تعالى في استحقاق العبادة وروى هذا عن الحسن ، وقيل إن قوماً من الزنادقة يقولون الله عز وجل وإبليس عليه اللعنة أخوان فالله تعالى هو الخير الكريم وإبليس هو الشرير اللئيم وهو المراد بقوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلُواْ ﴾ الخ وحكى هذا الطبرسي عن الكلبي ، وقال الإمام الرازي : وهذا القول عندي أقرب الأقاويل وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان وأهرمن ويعبرون عنهما بالنور والظلمة ، ويبعد هذا القول عندي أن

الظاهر أن ضمير ﴿ جَعَلُواْ ﴾ كالضمائر السابقة لقريش ولم يشتهر ذلك عنهم بل ولا عن قبيلة من قبائل العرب وليس المقام للرد على الكفرة مطلقاً .

وأخرج غير واحد عن مجاهد .

وعبد بن حميد عن عكرمة .

(276/655)

---

وابن أبي شيبة عن أبي صالح أن المراد بالجنة الملائكة ، وحكاه في "مجمع البيان" عن قتادة واختاره الجبائي ، والمراد بالجعل المذكور ما تضمنه قولهم الملائكة بنات الله ، وأعيد تمهيداً لما يعقبه ، وهو مبني على أن الجن والملك جنس واحد مخلوقون من عنصر واحد وهو النار لكن من كان من كثيفها الدخاني فهو شيطان وهو شرذ وتمرد ومن كان من صافي نورها فهو ملك وهو خير كله ، ووجه التسمية بالجن الاستتار عن عيوننا فالجن والجنة بمعنى مفعول من جنه إذا ستره ، ويكون على هذا تخصيص الجن بأحد نوعيه تخصيصاً طارئاً كتخصيص الدابة ، وعلى الأصل جاء ما هنا ، ونقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن نوعاً من الملائكة عليهم السلام يسمى الجن ومنهم إبليس ؛ وعبر عن الملائكة بالجنة حطا لهم مع عظم شأنهم في أنفسهم أن يبلغوا منزلة المناسبة التي أضافوها إليهم في قولهم

ذلك ، وقد يقال : إن الاستتار كالداعي لهم إلى ذلك الزعم الباطل بناء على توهمهم بأنه إنما يليق بالإناث فقالوا : لو لم يكونوا بناته سبحانه وتعالى لما سترهم عن العيون فلذا عبر عنهم بالجنة .

(277/655)

---

﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجنة إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي والله لقد علمت الشياطين أي جنسهم إن الله تعالى يحضرهم ولا بد النار ويعذبهم بها ولو كانوا مناسبين له تعالى شركاء في استحقاق العبادة أو التصرف لما عذبهم سبحانه فضمير ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ للجنة على ما عدا الوجه الأخير من الأجه السابقة وإما عليه فهو للكفرة أي والله لقد علمت الملائكة الذين جعلوا بينه تعالى وبينهم نسباً وقالوا هم بناته أن الكفرة لمحضرون النار معذبون بها لكذبهم وافترائهم في قولهم ذلك ، والمراد به المبالغة في التكذيب ببيان أن الذين يدعى لهم هؤلاء تلك النسبة ويعلمون أنهم أعلم منهم بحقيقة الحال يكذبونهم في ذلك ويحكمون بأنهم معذبون لأجله حكماً مؤكداً ، ويجوز على الأجه الأول عود الضمير على الكفرة أيضاً والمعنى على نحو ما ذكر ، وعلم الملائكة أن الكفرة معذبون ظاهر ، وعلم الشياطين بأنهم أنفسهم وكذا سائر الكفرة معذبون لما أن الله عز وجل توعد إبليس عليه اللعنة بما يدل على

ذلك .

﴿ سبحان الله عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ على جميع الأوجه السابقة تنزيه من جهته تعالى لنفسه عن الوصف الذي لا يليق به

﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ استثناء منقطع من المحضرين وما بينهما اعتراض أي ولكن المخلصون ناجون ، وجوز كونه استثناء متصلاً منه ويفسر ضمير ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ بما يعم وهو خلاف الظاهر وجوز كونه استثناء منقطعاً من ضمير ﴿ يَصِفُونَ ﴾ وكونه استثناء متصلاً منه وهو خلاف الظاهر أيضاً .

وجوز كونه استثناء من ضمير ﴿ جَعَلُواْ ﴾ على الانقطاع لا غير وما في البين اعتراض ، واختار الواحدي الوجه الأول .

*(278/655)*

---

قال الطيبي : ويحسن كل الحسن إذا فسر الجنة بالشياطين أي وضمير ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ بالكفرة ليرجع معناه إلى قوله تعالى حكاية عن اللعين : ﴿ لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ ص : 82 ، 83 ] أي أنهم لمحضرون النار ومعذبون حيث أطاعونا في إغوائنا إياهم لكن الذين أخلصوا الطاعة لله تعالى وطهروا قلوبهم من أرجاس الشرك

وأنجاس الكفر والرذائل ما عمل فيهم كيدنا فلا يحضرون ويكون ذلك مدحاً للمخلصين وتعريضاً بالمشركين وإرغاماً لأنوفهم ومزيداً لغيظهم أي أنهم بخلاف ما هم عليه من سفه الأحلام وجهل النفوس وركاكة العقول اه .

وفي بيان المعنى نوع قصور

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بفاتنين إلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم ﴾ عود إلى خطابهم ، والفاء في جواب شرط مقدر أي إذا علمتم هذا أو إذا كان المخلصون ناجين ﴿ فَإِنَّكُمْ ﴾ الخ ، والواو للعطف ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ معطوف على الضمير في ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ وضمير ﴿ عَلَيْهِ ﴾ لله عز وجل والجار متعلق بفاتنين وعدي بعلى لتضمنه معنى الاستيلاء وهو استعارة من قولهم فتن غلامه أو امرأته عليه إذا أفسده والباء زائدة وهو خبر ما ، والجملة خبر إن والاستثناء مفرغ من مفعول فاتنين المقدر و ﴿ أَنتُمْ ﴾ خطاب للكفرة ومعبوديهم على سبيل التغليب نحو أنت وزيد تخرجان أي ما أنتم ومعبودوكم مفسدين أحداً على الله عز وجل بإغوائكم إلا من سبق في علم الله تعالى أنه من أهل النار يصلاها ويدخلها لا محالة .

وجوز كون الواو هنا مثلها في قولهم كل رجل وضيعته فجملة ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ الخ مستقلة ليست خبراً لإن وضمير ﴿ عَلَيْهِ ﴾ لما بتقدير مضاف وهو متعلق بفاتنين أيضاً بتضمينه معنى البعث أو الحمل ولا تغليب في الخطاب كأنه قيل : إنكم وآلهتكم قرناء لا تبرحون تعبدونها ثم قيل ما أنتم على عبادة ما تعبدون بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال أحداً إلا من سبق في علمه تعالى أنه من أهل النار ، وظاهر صنيع بعضهم أن أمر التغليب في ﴿ أَنتُمْ ﴾ على هذا على حاله ، وأنت تعلم أن الظاهر الاتصال ، وجوز أن يراد معنى المعية وخبر إن جملة ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ الخ ويكون الكلام على أسلوب قول الوليد بن عقبة بن أبي معيط عامله الله تعالى بما هو أهلة يحض معاوية على حرب الأمير علي كرم الله تعالى وجهه

: فإنك والكتاب إلى علي . . .

كدابغة وقد حلم الأديم

قال في "الكشف" : ومعنى الآية أي عليه أنكم يا كفرة مع معبوديكم لا يتسهل لكم إلا أن تفتنوا من هو ضال مثلكم ، وهو بيان لخلاصة المعنى ، واستظهر أبو حيان العطف وكون الضمير للعبادة وتضمين فاتنين معنى الحمل وتغليب المخاطب على الغائب في ﴿ أَنتُمْ ﴾ وكون الجملة المنفية خبر إن .

وحكي عن بعضهم القول بأن على بمعنى الباء والضمير المجرور به لما تعبدون فتأمل .

وقرأ الحسن.

وابن أبي عبلة ﴿ صَالُوا الجحيم ﴾ بالواو على ما في كتاب الكامل للهذلي، وفي كتاب ابن خالويه عنهما ﴿ صَالِ ﴾ بالضم ولا واو.

وفي "اللوامح" و"الكشاف" عن الحسن ﴿ صَالُوا الجحيم ﴾ بضم اللام فعلى إثبات الواو هو جمع سلامة سقطت النون للإضافة، وفي الكلام مراعاة لفظ من أولاً ومعناها ثانياً كما هو قوله تعالى:

(280/655)

---

﴿ وَمِنَ النَاس مَن يَقُولُ ءامَنَّا بالله وباليوم الآخر وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [ البقرة : 8 ] وعلى عدم إثباتها فيه ثلاثة أوجه، الأول: أن يكون جمعاً حذفت النون منه للإضافة ثم واو الجمع لالتقاء الساكنين وأتبع الخط اللفظ.

الثاني: أن يكون مفرداً حذفت لامه وهي الياء تخفيفاً وجعلت كالمنسي وجرى الإعراب على عينه كما جرى على عين يد ودم وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَنَى الجنتين دَانٍ ﴾ [ الرحمن : 54 ] وقوله سبحانه: ﴿ وَلَهُ الجوار المنشآت ﴾ [ الرحمن : 24 ] بضم نون ﴿ الجنتين دَانٍ ﴾ وراء ﴿ الجوار ﴾ وقولهم ما باليت به بالة فإن أصل بالة بالية بوزن

عافية حذفت لامه فأجري الإعراب على عينه ولما لحقته الهاء انتقل إليها ، الثالث : أن يكون مفرداً أيضاً ويكون أصله صائل على القلب المكاني بتقديم اللام على العين ثم حذفت اللام المقدمة وهي الياء فبقي صال بوزن فاع وصار معرباً كباب ونظيره شاك الجاري إعرابه على الكاف في لغة

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ حكاية لاعتراف الملائكة بالعبودية للرد على من يزعم فيهم خلافها فهو من كلامه تعالى لكنه حكى بلفظهم وأصله وما منهم إلا الخ أي وما منا إلا له مقام معلوم في العبادة والانتهاء إلى أمر الله تعالى في تدبير العالم مقصور عليه لا يتجاوزه ولا يستطيع أن يزل عنه خضوعاً لعظمته تعالى وخشوعاً لهيبته سبحانه وتواضعاً لجلاله جل شأنه كما روي " فمنهم راكع لا يقيم صلبه وساجد لا يرفع رأسه " وقد أخرج الترمذي وحسنه .

وابن ماجه .

وابن مردويه عن أبي ذر قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون إن السماء أطت وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضعاً جبهته ساجداً لله " وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ .

ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم وذلك قول الملائكة وما منا إلا له مقام معلوم وإنا لنحن الصافون " وعن السدي ﴿ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ في القرب والمشاهدة ، وجعل بعضهم ذلك من كلام الجنة بمعنى الملائكة متصلاً بما قبله من كلامهم وهو من قوله تعالى : ﴿ سبحان الله عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ إلى ﴿ المسبحون ﴾ [ الصافات : 159 ، 166 ] فقال بعد أن فسر الجنة بالملائكة : إن ﴿ سبحان الله عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ حكاية لتنزيه الملائكة إياه تعالى عما وصفه المشركون به بعد تكذيبهم لهم في ذلك بتقدير قول معطوف على ﴿ عَلِمَتِ ﴾ [ الصافات : 158 ] و ﴿ إِلَّا عِبَادَ الله المخلصين ﴾ [ الصافات : 160 ] شهادة منهم ببراءة المخلصين من أن يصفوه تعالى بذلك متضمنة لتبرئتهم منه بحكم اندراجهم في زمرة المخلصين على أبلغ وجه وآكده على أنه استثناء منقطع من واو ﴿ يَصِفُونَ ﴾ كأنه قيل : ولقد علمت الملائكة أن المشركين لمعذبون لقولهم ذلك وقالوا سبحان الله عما يصفون لكن عباد الله الذين نحن من جملتهم برآء من ذلك الوصف ، و ﴿ فَإِنَّكُمْ ﴾ الخ تعليل وتحقيق لبراءة المخلصين عما ذكر ببيان عجزهم عن

إغوائهم وإضلالهم ، والالتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام وما تعبدون الشياطين الذين أغووهم وفيه إيذان بتبريهم عنهم وعن عبادتهم كقولهم : ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجن ﴾ [ سبأ : 41 ] وقولهم : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ ﴾ الخ تبيين لجلية أمرهم وتعيين لحيزهم في موقف العبودية بعد ما ذكر من تكذيب الكفرة فيما قالوا وتنزيه الله تعالى عن ذلك وتبرئة المخلصين عنه وإظهار لقصور شأنهم وجعل تفسير الجنة بالملائكة هو الوجه لاقتضاء ربط الآيات وتوجيهها بما ذكر إياه وفي التعليل شيء ، نعم إن هذه الآية تقوي قول من يقول :



---

المراد بالجنة فيما سبق الملائكة عليهم السلام تقوية ظاهرة جداً وإن الربط الذي ذكر في غاية الحسن ، وقيل : هو من قول الرسول عليه الصلاة والسلام أي وما من المسلمين إلا له مقام معلوم على قدر أعماله يوم القيامة وهو متصل بقوله :

﴿ فاستفتهم ﴾ [ الصافات : 149 ] كأنه قيل فاستفتهم وقال وما منا الخ على معنى بكتهم بذلك وانع عليهم كفرانهم وعدد ما أنت وأصحابك متصف به من أضدادها ، وإن شئت لم تقدر قل بعد علمك بأن المعنى ينساق إليه وهو بعيد فافهم والله تعالى أعلم .

و ﴿ مِنَّا ﴾ خبر مقدم والمبتدأ محذوف للاكتفاء بصفته وهي جملة له مقام أي ﴿ مَا مِنَّا ﴾ أحد إلا له مقام معلوم.

وحذف الموصوف بجملة أو شبهها إذا كان بعض ما قبله من مجرور بمن أوفى مطرد وهذا اختيار الزمخشري.

وقال أبو حيان ﴿ مِنَّا ﴾ صفة لمبتدأ محذوف والجملة المذكورة هي الخبر أي وما أحد كائن منا إلا له مقام معلوم.

(283/655)

---

وتعقب ما مر بأنه لا ينعقد كلام من ما منا أحد ، وقوله سبحانه : ﴿ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ هو محط الفائدة فيكون هو الخبر وإن تخيل أن إلا بمعنى غير وهي صفة لا يصح لأنه لا يجوز حذف موصوفها وفارقت غيراً إذا كانت صفة في ذلك لتمكن غير في الوصف وقلة تمكن إلا فيه ، وقال غيره : إن فيه أيضاً التفريغ في الصفات وهم منعوا ذلك ، ودفع بأنه ينعقد منه كلام مفيد مناسب للمقام إذ معناه ما منا أحد متصف بشيء من الصفات إلا أحد إلا أحد له مقام معلوم لا يتجاوزه والمقصود بالحصر المبالغة أو يقال إنه صفة بدل محذوف أي ما منا أحد إلا أحد له مقام معلوم كما قاله ابن مالك في نظيره ، وفيه أن فيه اعترافاً بأن

المقصود بالإفادة تلك الجملة وهو يستلزم أولوية كونها خبراً وما ذكر من احتمال كونه صفة لبدل محذوف فليس بشيء لأن فيه حذف المبدل والمبدل منه ولا نظير له ، وبالجملة ما ذكره أبو حيان أسلم من القيل والقال ، نعم قيل يجوز أن يقال : القصد هنا ليس إفادة مضمون الخبر بل الرد على الكفرة ولذا جعل الظرف خبراً وقدم فالمعنى ليس منا أحد يتجاوز مقام العبودية لغيرها بخلافكم أنتم فقد صدر منكم ما أخرجكم عن رتبة الطاعة ، وفيه نظر .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافون ﴾ أنفسنا أو أقدامنا في الصلاة ، وقال ناصر الدين : أي في أداء الطاعة ومنازل الخدمة ، وقيل : الصافون حول العرش ننتظر الأمر الإلهي ، وفي "البحر" داعين للمؤمنين ، وقيل : صافون أجنحتنا في الهواء منتظرين ما يؤمر .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن الوليد بن عبد الله بن مغيث قال : كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافون ﴾ وأخرج مسلم عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض مسجداً وجعلت لنا ترتبها طهوراً إذا لم نجد الماء " وأخرج هو أيضاً .

وأبو داود .

والنسائي .

وابن ماجه عن جابر بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم " وهذه الأخبار ونحوها ترجح التفسير الأول .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون ﴾ أي المنزهون الله تعالى عما لا يليق به سبحانه ويدخل فيه ما نسبه إليه تعالى الكفرة ، وقيل : أي القائلون سبحان الله .

وأخرج عبد بن حميد .

وغيره عن قتادة أنه قال : المسبحون أي المصلون ويقتضيه ما روي عن ابن عباس أن كل تسبيح في القرآن بمعنى الصلاة ، والظاهر ما تقدم ، ولعل الأول إشارة إلى مزيد أدبهم الظاهر مع ربهم عز وجل والثاني إشارة إلى كمال عرفانهم به سبحانه ، وقال ناصر الدين : لعل الأول إشارة إلى درجاتهم في الطاعة وهذا في المعارف ، وما في إن واللام وتوسيط الفصل من التأكيد والاختصاص لأنهم المواظبون على ذلك دائماً من غير فترة وخواص البشر لا تخلو من الاشتغال بالمعاش ، ولعل الكلام لا يخلو عن تعريض بالكفرة ، والظاهر أن الآيات الثلاث أعني قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا ﴾ [ الصافات : 164 ] إلى هنا نزلت كما نزلت أخواتها .

وعن هبة الله المفسر أنها نزلت لا في الأرض ولا في السماء وعد معها آيتين من آخر سورة البقرة وآية من الزخرف ﴿ وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ [ الزخرف : 45 ] الآية قال ابن العربي : ولعله أراد في الفضاء بين السماء والأرض .

وقال الجلال السيوطي : لم أقف على مستند لما ذكره إلا آخر البقرة فيمكن أن يستدل به بما أخرجه مسلم عن ابن مسعود لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى إلى سدرة المنتهى الحديث وفيه فأعطى الصلوات الخمس وأعطى خواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك من أمته بالله شيئاً المقحمات انتهى فلا تغفل .

﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴾ إن هي المخففة واللام هي الفارقة والضمير لكفار قريش كانوا يقولون قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم .

(285/655)

---

لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (168)

أي كتاباً من جنس الكتب التي نزلت عليهم ومثلها في كونه من عند الله تعالى :

﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ المخلصين ﴾ لأخلصنا العبادة له تعالى ولكنا أهدى منهم

والفاء في قوله تعالى :

فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170)

﴿ فَكَفَرُواْ بِهِ ﴾ فصيحة مثلها في قوله تعالى : ﴿ أَنِ اضرب بّعَصَاكَ البحر فانفلق ﴾ [ الشعراء : 63 ] أي فجاءهم ذكر وأي ذكر سيد الاذكار وكتاب مهيمن على سائر الكتب والأخبار فكفروا به ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي عاقبة كفرهم وما يحل بهم من الانتقام ، وقيل أريد بالذكر العلم أي لو أن عندنا علماً من الذين تقدموا وما فعل الله تعالى بهم بعد أن ماتوا هل أثابهم أم عذبهم لأخلصنا العبادة له تعالى فجاءهم ذلك في القرآن العظيم فكفروا به ، ولا يخفى بعده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(286/655)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾

عطف على جملة ﴿ ليقُولونَ ﴾ [ الصافات : 151 ] أي شفَّعوا قولهم : ﴿ ولَدَ الله ﴾ [ الصافات : 152 ] ، فجعلوا بين الله وبين الجنّ نسباً بتلك الولادة ، أي بينوا كيف حصلت تلك الولادة بأن جعلوها بين الله تعالى وبين الجنة نسباً .

و﴿ الجنّة ﴾ : الجماعة من الجن ، فتأنيث اللفظ بتأويل الجماعة مثل تأنيث رَجْلَة ،

الطائفة من الرجال ، ذلك لأن المشركين زعموا أن الملائكة بنات الله من سَروات الجن ، أي من فريقِ نساء من الجن من أشراف الجن ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جِنة ﴾ في سورة [ الأعراف : 184 ] .

والنسب : القرابة العَمودية أو الأُفقية أي من الأطراف والكلام على حذف مضاف ، أي ذوي نسب لله تعالى وهو نسب النبوءة لزعمهم أن الملائكة بنات الله تعالى ، أي جعلوا لله تعالى نسباً للجِنّة وللجنة نسباً لله .

وقوله : ﴿ بينه وبين الجِنَّة ﴾ يجوز أن يكون حالاً من ﴿ نَسَباً ﴾ أي كائناً بينه وبين الجنة ، أي أن نسبه تعالى ، أي نسله سبحانه ناشىء من بينه وبين الجن .

ويجوز أن يكون متعلقاً بـ ﴿ جعلوا ﴾ ، أي جعلوا في الاقتران بينه وبين الجن نسباً له ، أي جعلوا من ذلك نسباً يتولد له ، فقوله : ﴿ بينه وبين الجنة نسباً ﴾ هو كقولك : بين فلان وفلانة بنُون ، أي له منها ولها منه بنون ، وهذا المعنى هو مراد من فسره بأن جعلوا الجن أصهاراً لله تعالى ، فتفسيره النسب بالمصاهرة تفسير بالمعنى وليس المراد أن النسب يطلق على المصاهرة كما توهمه كثير ، لأن هذا الإِطلاق غير موجود في دواوين اللغة فلا تغترْ به .

ولعدم الغوص في معنى الآية ذهب من ذهب إلى أن المراد بالجنة الملائكة، أي جعلوا بين الله وبين الملائكة نسب الأبوّة والبنوّة، وهذا تفسير فاسد لأنه يصير قوله: ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ إعادةً لما تقدم من قوله: ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله ﴾ [ الصافات: 151 – 152 ] ومن قوله: ﴿ أم خلقنا الملائِكَة إناثا وهم شاهِدونَ ﴾ [ الصافات: 150 ].

ومن ذهب إلى أن المراد من ﴿ الجِنَّةِ ﴾ أصل الجِنّة وهو الشيطان وأن معنى الآية: أنهم جعلوا الله نسيباً للشيطان نسب الأخوة، تعالى الله عن ذلك.

على أنه إشارة إلى قول الثَّنَوية من المجوس بوجود إله للخير هو الله، وإله للشر هو الشيطان وهم من ملل مجوس فارس وسموا إله الخير (يَزْدَانَ) وإله الشر (أَهْرُمُنْ) وقالوا: كان إله الخير وحده فخطر له خاطر في نفسه من الشر فنشأ منه إله الشر هو (أهرمُن) وهو ما نعاه المعري عليهم بقوله:

قال أناسٌ باطلٌ زعمهم...

فراقبوا الله ولا تزعُمُنْ

فَكَّر (يزدانُ) على غِرة...

فصيغ من تفكيره (أهرمُن)

وهذا الدين كان معروفاً عند بعض العرب في الجاهلية من عرب العراق المجاورين لبلاد فارس والخاضعين لسلطانهم ولم يكن معروفاً بين أهل مكة المخاطبين بهذه الآيات ، ولأن الجِنّة لا يشمل الشياطين إذا أطلق فإن الشيطان كان من الجن إلا أنه تميز به صنف خاص منهم .

وجملة ﴿ ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ﴾ معترضة بين جملة ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ وبين جملة ﴿ سُبحانَ الله عمّا يصِفُونَ ﴾ [ الصافات : 159 ] و ﴿ جعلوا بينه ﴾ الخ . . .

حال والواو حالية ، وضمير ﴿ أنهم ﴾ عائد إلى المشركين أو إلى الجِنة ، والوجهان مرادان فإن الفريقين معاقبان .

(288/655)

---

والمحضَرون : المجلوبون للحضور ، والمراد : محضَرون للعقاب ، بقرينة مقام التوبيخ فإن التوبيخ يتبعه التهديد ، والغالب في فعل الإِحضار أن يراد به إحضار سوء قال تعالى : ﴿ ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ﴾ [ الصافات : 57 ] ولذلك حذف متعلِّق "محضرون" ، فأما الإِتيان بأحد لإِكرامه فيطلق عليه المجيء .

والمعنى : أن الجن تعلم كذب المشركين في ذلك كذباً فاحشاً يُجازَون عليه بالإِحضار للعذاب ، فجعل "محضرون" كناية عن كذبهم لأنهم لو كانوا صادقين ما عذبوا على قولهم ذلك .

وظاهره أن هذا العلم حاصل للجن فيما مضى ، ولعل ذلك حصل لهم من زمان تمكنهم من استراق السمع .

ويجوز أن يكون من استعمال الماضي في موضع المستقبل لتحقيق وقوعه مثل ﴿ أتى أمر الله ﴾ [ النحل : 1 ] ، أي ستعلم الجِنة ذلك يوم القيامة .

والمقصود : أنهم يتحققون ذلك ولا يستطيعون دفع العذاب عنهم فقد كانوا يعبدون الجن لاعتقاد وجاهتهم عند الله بالصهر الذي لهم .

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (159)

أتبعت حكاية قولهم الباطلِ والوعيدِ عليه باعتراض بين المستثنى منه والمستثنى يتضمن إنشاء تنزيه الله تعالى عما نسبوه إليه ، فهو إنشاء من جانب الله تعالى لتنزيهه ، وتلقينٌ للمؤمنين بأن يقتدوا بالله في ذلك التنزيه ، وتعجيب من فظيع ما نسبوه إليه .

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (160)

اعتراض بين جملة ﴿ سبحان الله عمَّا يصفون ﴾ [ الصافات : 159 ] وجملة ﴿ فإنكم وما تعبدون ﴾ [ الصافات : 161 ] الآية ، والاستثناء منقطع ، قيل نشأ عن قولهم : ﴿

إنهم لَمُحضرونَ ﴾ [ الصافات : 158 ] والمعنى لكن عباد الله المخلصين لا يُحضَرون ، وقيل نشأ عن قوله : ﴿ عمَّا يَصفونَ ﴾ [ الصافات : 159 ] أي لكن عباد الله المخلصين لا يَصفونه بذلك ، وقيل من ضمير ﴿ وجعلوا ﴾ [ الصافات : 158 ] أي لكن عباد الله المخلصين لا يجعلون ذلك .

(289/655)

---

وهو من معنى القول الثاني ، فالمراد بالعباد المخلصين المؤمنون .

والوجه عندي : أن يكون استثناءً منقطعاً نشأ عن قوله : ﴿ سبحانَ الله عمَّا يصفونَ ﴾ [ الصافات : 159 ] فهو مرتبط به لأن "ما يصفون" أفاد أنهم يصفون الله بأن الملائكة بناته كما دل عليه قوله : ﴿ ألربك البنات ﴾ [ الصافات : 149 ] .

والمعنى : لكن الملائكة عباد الله المخلصين ، فالمراد من ﴿ عباد الله المخلصين ﴾ الملائكة فهذه الآية في معنى قوله : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمان ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ [ الأنبياء : 26 ] .

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (161)

عُقب قولهم في الملائكة والجن بهذا لأن قولهم ذلك دعاهم إلى عبادة الجن وعبادة الأصنام

التي سوّلها لهم الشيطان وحرّضهم عليها الكهانُ خدَمَةُ الجنّ فعقب ذلك بتأييس المشركين من إدخال الفتنة على المؤمنين في إيمانهم بما يحاولون منهم من الرجوع إلى الشرك ، أو هي فاء فصيحة ، والتقدير : إذا علمتم أن عباد الله المخلصين منزّهون عن مثل قولكم ، فإنكم لا تفتنون إلا من هو صالي الجحيم .

فيجوز أن يكون هذا الكلام داخلاً في حيز الاستفتاء من قوله : ﴿ فاستفتهم أربك البنات ﴾ [ الصافات : 149 ] الآية .

ويجوز أن يكون تفريعاً على قوله : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ [ الصافات : 158 ] الآية .

والواو في قوله : ﴿ وما تعبُدُونَ ﴾ واو العطف أو واو المعية وما بعدها مفعول معه والخبر هو ﴿ ما أنتم عليه بفاتِنينَ ﴾ .

وضمير ﴿ أنتُمْ ﴾ خطاب للمشركين مثل ضمير "إنكم" .

والمعنى : أنكم مصطحبين بالجن الذين تعبدونهم لا تَفتنون أحداً .

ووجه ذكر المفعول معه أنهم كانوا يموهون للناس أن الجن تنفع وتضر وأن الأصنام كذلك وكانوا يخوّفون الناس من بأسها وانتقامها كما قالت امرأة الطفيل بن عَمرو الدوسي لما أسلم ودعاها إلى الإسلام "ألا تخشى على الصِبية من ذي الشّرى ؟ قال : لا" فأَسلمتْ وكانوا يزعمون أن من يسبّ الأصنام يصيبه البرص أو الجذام .

قال ابن إسحاق : لما قدم ضمام بن ثعلبة وافدُ بني سعد بنِ بكر على قومه من عند النبي صلى الله عليه وسلم قال في قوله : باسَت اللاتُ والعُزى .

فقالوا : يا ضمام اتق الجذام اتق الجنون .

ولا يستقيم أن تكون الواو عاطفة لأن الأصنام لا يسند إليها الإفتان .

وجوّز في "الكشاف" أن يكون قوله : ﴿ وما تعبدونَ ﴾ مفعولاً معه ساداً مسدّ خبر ( إن ) ، والمعنى : فإنكم مع ما تعبدون ، أي فإنكم قرناء لآلهتكم لا تبرحون تَعبدونها ، وهذا كما يقولون "كل رجل وضيعتَه" أي مع ضيعته ، أي مقارن لها .

و﴿ ما تعبدون ﴾ صادق على الجن لقوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ [ الأنعام : 100 ] لأن الجن تَصدر منهم فتنة الناس بالإشراك دون الأصنام إذ لا يتصور ذلك منها قال تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ﴾ [ الفرقان : 17 ] الآية .

وضمير ﴿ عَلَيْهِ ﴾ يجوز أن يكون عائداً إلى اسم الجلالة في قوله : ﴿ ليقولون ولَدَ الله ﴾ [ الصافات : 151 - 152 ] أو في قوله : ﴿ إلاَّ عباد الله ﴾ [ الصافات : 160 ] ،

ويجوز أن يعود إلى ﴿ ما تعبدون ﴾ بمراعاة إفراد اسم الموصول وهو ﴿ ما ﴾ .

وحذف مفعول فاتنين ﴾ لقصد العموم .

والتقدير : بفاتنين أحداً ، ومعياره صحة الاستثناء في قوله : ﴿ إلاَّ من هُو صَالِ الجحيم ﴾ فالاستثناء مفرغ والمستثنى مفعول ﴿ بفاتِنِينَ ﴾ .

وحرف ( على ) يتعلق ب"فاتنين" إمّا لتضمين "فاتنين" معنى مفسدين إن كان الضمير المجرور بها عائداً إلى اسم الجلالة كما يقال : فسد العبدُ على سيّده وخَلّق فلان المرأةَ على زوجها ، وتكون ( على ) للاستعلاء المجازي لأن تضمين مفسدين فيه معنى الغلبة .

(291/655)

---

وإما لتضمينه معنى حاملين ومسؤولين ويكون ( على ) بمعنى لام التعليل كقوله : ﴿ ولتكبروا اللَّه على ما هداكم ﴾ [ البقرة : 185 ] ويكون تقدير مضاف بين ( على ) ومجرورها تقديره : على عبادة ما تعبدون ، والمعنى : أنكم والشياطين لا يتبعكم أحد في دينكم إلا من عرض نفسه ليكون صاليَ الجحيم ، وهذا في معنى قوله تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاّ من اتّبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ [ الحجر : 42 - 43 ] .

( ورسم في المصحف ﴿ صَالِ الجحيمِ ﴾ بدون ياء بعد اللام اعتباراً بحالة الوصل فإن الياء لا ينطق بها فرسمه كاتبُ المصحف بمثل حالة النطق ، ولذلك ينبغي أن لا يوقف على ﴿ صَال .

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (164)

فيجوز أن يكون عطفاً على قوله : ﴿ إلاَّ عبادَ الله المخلصين ﴾ [ الصافات : 160 ] على أول الوجهين في المعنيّ بعباد الله المخلَصين فيكون عطفاً على معنى الاستثناء المنقطع لأن معناه أنهم ليسوا أولاد الله تعالى ، وعُطف عليه أنهم يتبرأون من ذلك فالواو عاطفة قولاً محذوفاً يدل عليه أن ما بعد الواو لا يصلح إلا أن يكون كلام قائل .

والتقدير : ويقولون ما منّا إلا له مقام معلوم وإنا لنحن الصّافون وإنّا لنحن المسبّحون ، وهذا الوجه أوفق بالصفات المذكورة من قوله : ﴿ إلاَّ له مقام معلوم ﴾ وقوله : ﴿ الصّافون المُسبّحُونَ ﴾ : الشائع وصف الملائكة بأمثالها في القرآن كما تقدم في أول السورة وصفهم بالصّافّات ، ووصفُهم بالتسبيح كثير كقوله : ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ [ الشورى : 5 ] ، وذكر مقاماتهم في قوله تعالى : ﴿ ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين ﴾ [ التكوير : 20 – 21 ] وقوله : ﴿ ولقد رءاه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ﴾ [ النجم : 13 – 14 ] .

وفي أحاديث كثيرة مثلاً حديث الإِسراء أن جبريل وجد في كل سماء ملكاً يستأذنه جبريل أن يدخل تلك السماء ويسأله المَلك : من أنت ؟ ومن معك ؟ وهل أُرسل إليه ؟ فإذا قال : نعم ، فَتح له .

وعن مقاتل أن قوله : ﴿ وما منّا إلا له مقامٌ معلوم ﴾ إلى ﴿ المُسبحونَ ﴾ نزل ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند سدرة المنتهى فتأخّر جبريلُ فقال له النبي : أهنا تفارقني فقال : لا أستطيع أن أتقدم عن مكاني وأنزل الله حكاية عن قول الملائكة ﴿ وما مِنّا إلا له مقامٌ معلومٌ ﴾ الآيتين .

ويجوز أن يكون هذا مما أُمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقوله للمشركين عطفاً على التفريع الذي في قوله : ﴿ فإنَّكم وما تعبدون ﴾ [ الصافات : 161 ] إلى آخره ويتصل الكلام بقوله : ﴿ فاستفتهم أربك البنات ﴾ [ الصافات : 149 ] إلى هنا .

والمعنى : ما أنتم بفاتنيننا فتنةَ جراءة على ربنا فنقول مثل قولكم : الملائكة بنات الله والجنُ أصهار الله فما منا إلاّ له مقام معلوم لا يتجاوزه وهو مقام المخلوقيّة لله والعبودية له .

والمنفي بـ ﴿ ما ﴾ محذوف دل عليه وصفه بقوله : ﴿ مِنَّا ﴾ .

والتقدير : وما أحد منا كما في قول سحيم بن وثيل :

أنا ابن جلا وطَلاع الثنايا

متى أضع العمامة تعرفوني . . .

التقدير : ابن رجل جلا .

والخبر هو قوله : ﴿ إِلَّا لَهُ مقامٌ معلومٌ ﴾ .

والتقدير : ما أحد منا إلا كائن له مقام معلوم .

والمقام : أصله مكان القيام .

ولما كان القيام يكون في الغالب لأجل العمل كثر إطلاق المقام على العمل الذي يقوم به المرء

كما حُكيَ في قول نوح : ﴿ إن كان كبر عليكم مقامي ﴾ [ يونس : 71 ] أي عملي .

والمعلوم : المعيّن المضبوط ، وأطلق عليه وصف ﴿ مَعْلُومٌ ﴾ لأن الشيء المعيّن المضبوط

لا يشتبه على المتبصر فيه فمن تأمّله عَلِمَه .

والمعنى : ما من أحد منا معشر المؤمنين إلا له صفة وعمل نحو خالقه لا يستزله عنه شيء

ولا تروج عليه فيه الوساوس فلا تطمعوا أن تزِلونا عن عبادة ربنا .

(293/655)

---

فالمقام هو صفة العبودية لله بقرينة وقوع هذه الجملة عقب قوله : ﴿ فإنَّكم وما تعبدون ما

أنتم عليه بفاتِنينَ ﴾ [ الصافات : 161 - 162 ] ، أي ما أنتم بفاتنين لنا فلا يلتبس

علينا فضل الملائكة فنرفعه إلى مقام البنوّة لله تعالى ولا نُشبّه اعتقادكم في تصرف الجن أن تبلغوا بهم مقام المصاهرة لله تعالى والمداناة لِجلاله كقوله: ﴿ وجعلوا للّه شركاء الجن وخلقهم ﴾ [الأنعام: 100].

فقوله: ﴿ وإنّا لنحنُ الصافُّونَ وإنا لنحن المُسبحون ﴾ أي وإنا معشر المسلمين، الصافون أي الواقفون لعبادة الله صفوفاً بالصلاة.

ووصف وقوفهم في الصلاة بالصف تشبهاً بنظام الملائكة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث مسلم: "جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة"، والمراد بالمسبحين المنزّهون لله تعالى عن أن يتخذ ولداً أو يكون خلق صهراً له أو صاحبة خلافاً لشرككم إذ عبادتكم مُكاء وتصدية وخلافاً لكفركم إذ تجعلون له صواحب وبنات وأصهاراً.

وحذف متعلق ﴿ الصَّافون... المسبحون ﴾ لدلالة قوله ﴿ ما أنتم عليه بفاتنينَ ﴾ [الصافات: 162] عليه، أي الصافّون لعبادته المسبّحون له، فإن الكلام في هذه الآيات كلها متعلق بشؤون الله تعالى.

وتعريف جزأي الجملة، وضميرُ الفصل من قوله: ﴿ لَنَحْنُ ﴾ يفيدان قصراً مؤكداً فهو قصر قلب، أي دون ما وصفتموه به من البنوّة لله.

وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (167)

انتقال من ذكر كفر المشركين بتعدد الإله وبإنكار البعث وما وصفوا به الرسول صلى الله عليه وسلم من السحر والجنون ثم بما نسبوا لله مما لا يليق بإلهيته وما تخلل ذلك من المواعظ والوعيد لهم والوعد للمؤمنين والعبرة بمصارع المكذبين السابقين وما لقيه رسل الله من أقوامهم.

(294/655)

---

فانتقال الكلام إلى ذكر ما كفر به المشركون من تكذيب القرآن الذي أنزله الله هدى لهم، فالمقصود من هذا هو قولُه: ﴿ فكَفَروا به ﴾ أي الذكرِ، وإنما قدم له في نظم الكلام ما فيه تسجيل عليهم تهافتهم في القول إذ كانوا قبل أن يأتيهم محمد صلى الله عليه وسلم بالكتاب المبين يودّون أن يشرفهم الله بكتاب لهم كما شرف الأولين ويرجُون لو كان ذلك أن يكونوا عباداً لله مخلصين له فلما جاءهم ما رغبوا فيه كفروا به وذلك أفظع الكفر لأنه كفر بما كانوا على بصيرة من أمره إذ كانوا يتمّونه لأنفسهم ويغبطون الأمم التي أنزل عليهم مثلُه فلم يكن كفرهم عن مباغتة ولا عن قلة تمكن من النظر.

وتأكيد الخبر بـ ﴿ إنْ ﴾ المخففة من الثقيلة وبلام الابتداء الفارقة بين المخففة والنافية للتسجيل عليهم بتحقيق وقوع ذلك منهم ليُسدّ عليهم باب الإنكار.

وإقحام فعل ﴿ كانُوا ﴾ للدلالة على أن خبر ( كان ) ثابت لهم في الماضي .

والتعبيرُ بالمضارع في "يقولون" لإِفادة أن ذلك تكرر منهم .

و﴿ لو ﴾ شرطية وسدّت ﴿ أنّ ﴾ وصلتها مسدّ فعل الشرط وهو كثير في الكلام .

والذكر : الكتاب المقروء ، سمي ذِكراً لأنه يذكر الناس بما يجب عليهم مُسمّى بالمصدر .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ في سورة [ الحجر : 6 ] .

و﴿ مِن الأوّلين ﴾ صفة ل ﴿ ذِكراً ، ﴾ والمراد ب ﴿ الأوّلين ﴾ الرسل السابقون ، و ﴿ من ﴾ ابتدائية ، أي ذكراً جائياً من الرسل الأولين ، أي مثل موسى وعيسى .

ومرادهم بهذا أن الرسل الأولين لم يكونوا مرسلين إليهم ولا بلغوا إليهم كتابهم ولو كانوا مرسلين إليهم لآمنوا بهم فكانوا عباد الله المخلصين ، فذكر في جواب ﴿ لو ﴾ ما هو أخص من الإِيمان ليفيد معنى الإِيمان بدلالة الفحوى .



---

وفي جملة ﴿ لكُنّا عِبَاد الله المخلصين ﴾ صيغة قصر من أجل كون المسند إليه معرفة بالإِضمار والمسند معرفة بالإِضافة ، أي لكنا عباد الله دون غيرنا ، ولما وصف المسند ب

﴿ المخلصين ﴾ وهو معرَّف بلام الجنس حصل قصر عباد الله الذين لهم صفة الإِخلاص في المسند إليه ، وهذا قصر ادعائي للمبالغة في ثبوت صفة الإِخلاص لهم حتى كانوا شبيهين بالمنفردين بالإِخلاص لعدم الاعتداد بإخلاص غيرهم في جانب إخلاصهم .

وهو يؤول إلى معنى تفضيل أنفسهم في الإِخلاص لله حينئذٍ ، كما صرح به في قوله تعالى : ﴿ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ﴾ [ الأنعام : 157 ] .

والفاء في قوله : ﴿ فكفروا به ﴾ للتعقيب على فعل ﴿ ليقُولُونَ ﴾ ، أي استمرّ قولهم حتى كان آخره أن جاءهم الكتاب فكفروا به ، أو للفصيحة ، والتقدير : فكان عندهم ذكر فكفروا به ، فالضمير عائد إلى الذكر وهو القرآن قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز ﴾ [ فصلت : 41 ] .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وأقسموا باللَّه جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونُنّ أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ﴾ [ فاطر : 42 ] .

( وبهذا كان للوعيد بقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَعلَمُون ﴾ موقعُه المصادفُ المِجزَّ من الكلام ، وهوْلُه بما ضمنه من الإِبهام .

و"سوف" أخت السين في إفادة مطلق الاستقبال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) ﴾

لمَّا قالوا في صفة الملائكة إنهم بناتُ الله بيَّنَ اللَّهُ قُبْحَ قَوْلِهم ، فقال : سَلْهُم من أين قالوا ؟ وبأي حُجَّةٍ حكموا بما زعموا ؟ وأي شُبْهَةٍ داخَلَتْهم . ثم إنهم كانوا يستنكفون من البنات ، ويُؤْثِرون البنين عليهن . . ومع كُفرهم وقبيح قولِهم وصفوا القديمَ - سبحانه - بما استنكفوا منه لأنْفُسهم .

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (161)

أي ما أنتم بفاتنين من الناس إلاَّ من أَغْوَيْتُه بحُكْمِي ، فبه ضَلُّوا لا بإضلالكم .

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (164)

الملائكة لهم مقام معلوم لا يَتخطَّوْنَ مقامَهم ، ولا يتعدَّوْن حدَّهم ، والأولياءُ لهم مقام مستورٌ بينهم وبين الله لا يُطْلِعُ عليه أحداً ، والأنبياءُ لهم مقام مشهورٌ مؤَيَّدٌ بالمعجزات الظاهرة ؛ لأنهم للخَلْقِ قدوة فأَمْرُهم على الشَّهْرِ ، وأَمْرُ الأولياءِ على السَّتْرِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 242 . 243 ﴾

(297/655)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والخمسون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/656)

الجزء السادس والخمسون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 171 ﴾ من سورة الصافات

وحتى الآية ﴿ 182 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/656)

---

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (174) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (175) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (177) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (178) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (179) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (182) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التقدير كما أرشد إليه سياق التهديد : فلقد سبقت كلمتنا على من خالف رسلنا بالخذلان المهين ، عطف عليه قوله : ﴿ ولقد سبقت ﴾ أي في الأزل ﴿ كلمتنا ﴾ أي على

ما لنا من العظمة ﴿ لعبادنا ﴾ أي الذين أخلصوا لنا العبادة في كل حركة وسكون ﴿ المرسلين ﴾ الذين زدناهم على شرف الإخلاص في العبودية شرف الرسالة .

ولما آذنت اللام بعلوهم ، أوضح ذلك ببيان ما سماه كلمة لانتظامه في معنى واحد بقوله : ﴿ إنهم ﴾ وزاد في تأكيده في نظير ما عند الكفرة على ما تدل أعمالهم أنه في غاية البعد فقال : ﴿ لهم ﴾ أي خاصة ﴿ المنصورون ﴾ أي الثابت نصرهم في الجدال والجلاد وإن وقع للكفار عليهم في الثاني ظهور ما .

(5/656)

---

ولما خص بذلك المرسلين ، عم فقال : ﴿ وإن جندنا ﴾ أي من المرسلين وأتباعهم ، ولما كان مدلول الجند في اللغة العسكر والأعوان والمدينة وصنفاً من الخلق على حدة ، قال جامعاً على المعنى دون اللفظ نصاً على المراد : ﴿ لهم ﴾ أي لا غيرهم ﴿ الغالبون ﴾ أي وإن رئي أنهم مغلوبون لأن العاقبة لهم إن لم يكن في هذه الدار فهو في دار القرار ، وقد جمع لهذا النبي الكريم فيهما ، وسمى هذا كله كلمة لانتظامه معنى واحداً ، ولا يضر انهزام في بعض المواطن من بعضهم ولا وهن قد يقع ، وكفى دليلاً على هذا سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- والخلفاء الثلاثة بعده -رضى الله عنه-م .

ولما ثبت لا محالة بهذا أنه -صلى الله عليه وسلم- هو المنصور لأنه من المرسلين ومن جند الله، بل هو أعلاهم، سبب عن ذلك قوله: ﴿فتولّ﴾ أي فكلف نفسك الإعراض ﴿عنهم﴾ أي عن ردهم عن الضلال قسراً ﴿حتى حين﴾ أي مبهم، وهو الوقت الذي عيناه لنصرك في الأزل ﴿وأبصرهم﴾ أي ببصرك وبصيرتك عند الحين الذي ضربناه لك وقبله: كيف نؤديهم أحوالهم وتقلباتهم كلما تقلبوا إلى سفول.

ولما كانوا قبل الإسلام عمياً صمًّا لأنهم لا يصدقون وعداً ولا وعيداً، ولا يفكرون في عاقبة، حذف المفعول من فعلهم فقال متوعداً محققاً بالتوسيف لا مبعداً: ﴿فسوف يبصرون﴾ أي يحصل لهم الإبصار الذي لا غلط فيه بالعين والقلب بعد ما هم فيه من العمى، وهذا الحين واضح في يوم بدر وما كان من أمثاله قبل الفتح، فإنهم كان لهم في تلك الأوقات نوع من القوة، فلذلك أثبتهم نوع إثبات في أبصرهم.

ولما كانت عادتهم الاستعجال بما يهددون به استهزاء، كلما ورد عليهم تهديد، سبب عن ذلك الإنكار عليهم على وجه تهديد آخر لهم فقال: ﴿أفبعذابنا﴾ أي على ما علم له من العظمة بإضافته إلينا ﴿يستعجلون﴾ أي يطلبون أن يعجل لهم فيأتيهم قبل أوانه الذي ضربناه له.

ولما علم من هذا أنه لا بشرى لهم يوم حلوله ، ولا قرار عند نزوله ، صرح بذلك في قوله : ﴿ فإذا ﴾ أي هددناهم وأنكرنا عليهم بسبب أنه إذا ﴿ نزل بساحتهم ﴾ أي غلب عليها لأن ذلك شأن النازل بالشيء من غير إذن صاحبه ولا يغلب عليها إلا وقد غلب على أهلها فبرك عليهم بروكاً لا يقدرون معه على البروز إلى تلك الساحة وهي الفناء الخالي عن الأبنية كأنه متحدث القوم وموضع راحتهم في أي وقت كان بروكه من ليل أو نهار ، ولكن لما كانت عادتهم الإغارة صباحاً ، قال على سبيل التمثيل مشيراً بالفاء إلى أنه السبب لا غيره ﴿ فساء صباح المنذرين ﴾ أي الذين هم أهل للتخويف من هؤلاء وغيرهم وهذا التهديد لا يصلح لأن ينطبق على يوم الفتح ولقد صار من لم يتأهل لغير الإنذار فيه في غاية السوء ، وهم الذين قتلهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ذلك اليوم ، ومنهم من تعلق بأستار الكعبة فلم يفده ذلك ، ولكنهم كانوا قليلاً ، والباقون إن كان ذلك الصباح على ما ساءهم منظره فلقد سرهم لعمر الله مخبره .

ولما كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبي الرحمة لا يستأصل قومه بعذاب ، قال دالاً على ذلك بتكرير الأمر تأكيداً للتسلية ، ووعد النصرة مع ما فيه من زيادة المعنى على الأول ، عاطفاً على " تولّ " الأولى : ﴿ وتول ﴾ أي كلف نفسك الصبر عليهم في ذلك اليوم الذي ينزل بهم العذاب الثاني والإعراض ﴿ عنهم حتى حين ﴾ وكذا فعل ـ صلى الله عليه

وسلم. فإنه حل بساحتهم يوم الفتح صباحاً ، فلم يقدروا على مدافعة .

ولما كابر بعضهم ودافع ، لم يكن بأسرع من أن ولوا وطلبوا السلامة بالدخول فيما جعله صلى الله عليه وسلم. علماً على التأمين ، وقال حماس بن قيس أخو بني بكر لما دخل بيته لامرأته : أغلقي عليّ الباب ، فعيرته بالهزيمة بعن أن كانت تنهاه عن منابذة المسلمين فلا ينتهي ويقول لها : لا بد ، أن أخدمك بعضهم :

إنك لو شهدت يوم الخندمه . . .

إذ فر صفوان وفر عكرمه



واستقبلتنا بالسيوف المسلمة . . .

يقطعن كل ساعد وجمجمه

ضرباً فلا يسمع إلا غمغمه . . .

لهم نهيت خلفنا وهمهمه . . .

لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه

ولما كان هذا منطبقاً على يوم الفتح ، وكان ذلك اليوم قد أحل الكفار محلاًّ صاروا به بحيث

لا اعتبار لهم قال : ﴿ وأبصر ﴾ مسقطاً ضميرهم ، أي أبصر ما تريد من شؤونك التي يهمك النظر فيها ، وأما هم فصاروا بحيث لا يبالي بهم ولا يفكر في أمرهم ولا يلتفت إليهم ، فإنا أبدلنا من عزتهم ذلاًّ ، ومن كثرتهم قلاًّ ، وجردنا تلك الأراضي من قاذورات الشرك ، وأحللنا بها طهارة التنزيه وأقداس التحميد ، وكذا كان ، فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لهم وهو على درج الكعبة وهم تحته كالغنم المجموعة في اليوم المطير بعد أن قال " " لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده " : ما تظنون أني فاعل بكم يا معاشر قريش ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وقال له صفوان بن أمية : اجعلني بالخيار شهرين ، قال : أنت بالخيار أربعة أشهر " ، ولم يكلف أحداً منهم الإسلام حتى أسلموا بعد ذلك طوعاً من عند آخرهم .

ولما حاصر الطائف فعسرت عليه انصرف عنها ، فما لبثوا أن أرسلوا إليه رسلهم وأسلموا فحسن إسلامهم ولم يرتد أحد منهم في الردة ، وهذا من معنى ﴿ فسوف يبصرون ﴾ .



---

ولما تقرر له سبحانه من العظمة ما ذكر ، فكان الأمر أمره والخلق خلقه ، ثبت تنزهه عن كل نقص واتصافه بكل كمال ، فلذلك كانت نتيجة ذلك الختم بمجامع التنزيه والتحميد

فقال : ﴿ سبحان ربك ﴾ أي المحسن إليك بإرسالك وإقامة الدليل الظاهر المحرر على صدقك بكل ما يكون من أحوال أعدائك من كلام أو سكوت ، وتأييدك بكل قوة وإلباسك كل هيبة ﴿ رب العزة ﴾ أي التي هو مختص بها بما أفهمته الإضافة وأفاد شاهد الوجود وحاكم العقل ، وقد علم بما ذكر في هذه السورة أنها تغلب كل شيء ولا يغلبها شيء ، وفي إضافة الرب إليه وإلى العزة إشارة إلى اختصاصه. صلى الله عليه وسلم. وكل من وافقه في أمره عن جميع الخلق بالعزة وإن رئي في ظاهر الأمر غير ذلك ﴿ عما يصفون ﴾ مما يقتضي النقائص لما ثبت من ضلالهم وبعدهم عن الحق .

ولما قدم السلام على من شاء تخصيصه في هذه السورة من رسله عمهم فقال عاطفاً على ﴿ سبحان ﴾ : ﴿ وسلام ﴾ أي تنزه له وسلامة وشرف وفخر وعلا ﴿ على المرسلين ﴾ أي الواصفين له بما هو له أهل ، الذين اصطفاهم ، الصافين صفّاً ، الزاجرين زجراً ، التالين ذكراً ، من البشر والملائكة المذكورين في هذه السورة وغيرهم لأجل ما حكم لهم من سبحانه في الأزل من العز والنصر ﴿ والحمد ﴾ أي الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ لله ﴾ أي الجامع لجميع الأسماء الحسنى التي دل عليها مجموع خلقه ، وإلى ذلك أشار بقوله : ﴿ رب العالمين ﴾ فهو حينئذ الواحد المعتال ، الذي تنزه عن الأكفاء والأمثال ، والنظراء والأشكال ، في كل شيء من الأقوال والأفعال ، والشؤون والأحوال ، ولقد ترافق

آخرها – كما ترى – وأولها ، وتعانق مفصلها وموصلها – والله الهادي إلى الصواب .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 355.351 ﴾

(9/656)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) ﴾

(10/656)

---

اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بقول تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي عاقبة كفرهم أردفه بما يقوي قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ فبين أن وعده بنصرته قد تقدم والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ [ المجادلة : 21 ] وأيضاً أن الخير مقضى بالذات والشر مقضى بالعرض ، وما بالذات أقوى مما بالعرض ، وأما النصرة

والغلبة فقد تكون بقوة الحجة ، وقد تكون بالدولة والاستيلاء ، وقد تكون بالدوام والثبات فالمؤمن وإن صار مغلوباً في بعض الأوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب ، ولا يلزم على هذه الآية أن يقال : فقد قتل بعض الأنبياء وقد هزم كثير من المؤمنين ثم قال تعالى لرسوله وقد أخبره بما تقدم ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حتى حِينٍ ﴾ والمراد تك مقاتلتهم والثقة بما وعدناهم إلى حين يتمتعون ، ثم تحل بهم الحسرة والندامة ، واختلف المفسرون فقيل المراد إلى يوم بدر ، وقيل إلى فتح مكة ، وقيل إلى يوم القيامة ، ثم قال : ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ والمعنى بأبصرهم وما يقضي عليهم من القتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة ، فسوف يبصرونك مع ما قدر لك من النصرة والتأييد في الدنيا والثواب العظيم في الآخرة ، والمراد من الأمر المشاهد بأبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة ، وأن كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك ، وقوله : ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ للتهديد والوعيد ، ثم قال : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلونَ ﴾ والمعنى أن الرسول عليه السلام كان يهددهم بالعذاب ، وما رأوا شيئاً فكانوا يستعجلون نزول ذلك العذاب على سبيل الاستهزاء ، فبين تعالى أن ذلك الاستعجال جهل ، لأن لكل شيء من أفعال الله تعالى وقتاً معيناً لا يتقدم ولا يتأخر ، فكأن طلب

حدوثه قبل مجيء ذلك الوقت جهلاً ، ثم قال تعالى : في صفة العذاب الذي يستعجلونه ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ أي هذا العذاب ﴿ فَسَاء صَبَاحُ المنذرين ﴾ وإنما وقع هذا التعبير عن هذه المعاني كأنهم كانوا يقدمون على العادة في وقت الصباح ، فجعل ذكر ذلك الوقت كناية عن ذلك العمل ، ثم أعاد تعالى قوله : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حتى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ فقيل المراد من هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا ، وفي هذه الكلمة أحوال القيامة ، وعلى هذا التقدير فالتكرير زائل ، وقيل إن المراد من التكرير المبالغة في التهديد والتهويل ، ثم إنه تعالى ختم السورة بخاتمة شريفة جامعة لكل المطالب العالية ، وذلك لأن أهم المهمات للعاقل معرفة أحوال ثلاثة فأولها معرفة إله العالم بقدر الطاقة البشرية ، وأقصى ما يمكن عرفانه من صفات الله تعالى ثلاثة أنواع أحدهما : تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بصفات الإلهية ، وهو لفظة سبحان وثانيها : وصفه بكل ما يليق بصفات الإلهية وهو قوله : ﴿ رَبِّ العزة ﴾ فإن الربوبية إشارة إلى التربية وهي دالة على كمال الحكمة ، والرحمة والعزة إشارة إلى كمال القدرة وثالثها : كونه منزهاً في الإلهية عن الشريك والنظير ، وقوله : ﴿ رب العزة ﴾ يدل على أنه القادر على جميع الحوادث ، لأن الألف واللام في قوله : ﴿ العزة ﴾ تفيد الاستغراق ، وإذا كان الكل ملكاً له وملكاً له ولم يبق لغيره شيء ، فثبت أن قوله : ﴿ سبحان رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ كلمة محتوية

على أقصى الدرجات وأكمل النهايات في معرفة إله العالم والمهم الثاني : من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف ينبغي أن يعامل نفسه ويعامل الخلق في هذه الحياة الدنيوية .

(12/656)

---

واعلم أن أكثر الخلق ناقصون ولا بد لهم من مكمل يكملهم ، ومرشد يرشدهم ، وهاد يهديهم ، وما ذلك إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكامل ، فنبه على هذا الحرف بقوله : ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ لأن هذا اللفظ يدل على أنهم في الكمال اللائق بالبشر فاقوا غيرهم ، ولا جرم يجب على كل من سواهم الاقتداء بهم والمهم الثالث : من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف يكون حاله بعد الموت .

واعلم أن معرفة هذه الحالة قبل الموت صعبة ، فالاعتماد فيها على حرف واحد ، وهو أنه إله العالم غني رحيم ، والغني الرحيم لا يعذب فنبه على هذا الحرف بقوله : ﴿ والحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ وذلك لأن استحقاق الحمد لا يحصل إلا بالإنعام العظيم ، فبين بهذا كونه منعماً ، وظاهر كونه غنياً عن العالمين ، ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم ، فكان هذا الحرف منبهاً على سلامة الحال بعد الموت ، فظهر بما ذكرنا أن

هذه الخاتمة كالصدفة المحتوية على درر أشرف من دراري الكواكب ، ونسأل الله سبحانه وتعالى حسن الخاتمة والعافية في الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 151.150 ﴾

(13/656)

---

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ فاستفتهم أَلِرَبِّكَ البنات وَلَهُمُ البنون ﴾

والاستفتاء السؤال ، وهو هنا بمعنى التقريع والتوبيخ ، على قولهم على الله البهتان وجعلهم البنات لله تعالى عن ذلك وأمره بتوقيفهم على جهة التوبيخ أيضاً هل شاهدوا أن الملائكة إناث فيصح لهم القول به ، ثم أخبر تعالى عن فرقة منهم بلغ بها الإفك والكذب إلى أن قالت ولد الله الملائكة لأنه نكح في سروات الجن وهذه فرقة من بني مدلج فيما روي ، وقرأ جمهور الناس " اصطفى " بالهمز وهو ألف الاستفهام وهذا على جهة التقرير والتوبيخ على نسبتهم إليه اختيار الأدنى عندهم ، وقرأ نافع في رواية إسماعيل عنه " اصطفى " بصلة الألف على الخبر كأنه يحكي شنيع قولهم ، ورواها إسماعيل عن أبي جعفر وشيبة ، ثم قرر ووبخ وعرض للتذكر والنظر واستفهم عن البرهان والحجة على جهة التقرير وضمهم

الاستظهار بكتاب أو أمر يظهر صدقهم ، وقرأ الجمهور " أفلا تذّكّرون " مشددة الذال والكاف ، وقرأ طلحة بن مصرف " تذْكُرون " بسكون الذال وضم الكاف خفيفة .

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158)

(14/656)

---

الضمير في قوله ﴿ وجعلوا ﴾ لفرقة من كفار قريش والعرب ، قال ابن عباس في كتاب الطبري إن بعضهم قال إن الله تعالى وإبليس أخوان ، وقال مجاهد : قال قوم لأبي بكر الصديق : إن الله تعالى نكح في سروات الجن ، وقال بعضهم إن الملائكة بناته ، ف ﴿ الجنة ﴾ على هذا القول الأخير يقع على الملائكة سميت بذلك لأنها مستجنة أي مستترة ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ﴾ من جعل الجنة الشياطين جعل العلامة في ﴿ علمت ﴾ لها ، والضمير في ﴿ إنهم ﴾ عائد عليهم أي جعلوا الشياطين بنسب من الله والشياطين تعلم ضد ذلك من أنها ستحضر أمر الله وثوابه وعقابه ، ومن جعل الجنة الملائكة جعل الضمير في ﴿ إنهم ﴾ للقائلين هذه المقالة أي علمت الملائكة أن هؤلاء الكفرة سيحضرون ثواب الله وعقابه وقد يتداخل هذان القولان ، ثم نزه تعالى نفسه

عما يصفه الناس ولا يليق به ، ومن هذا استثنى العباد المخلصين لأنهم يصفونه بصفاته العلى ، وقالت فرقة استثناهم من قوله ﴿ إنهم لمحضرون ﴾ .

(15/656)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا يصح على قول من رأى الجنة الملائكة ، وقوله تعالى : ﴿ فإنكم وما تعبدون ﴾ بمعنى قل لهم يا محمد إنكم وإصنامكم ما أنتم بمضلين أحداً بسببها ، وعليها الأمر سبق عليه القضاء وضمه القدر ، بأنه يصلى الجحيم في الآخرة ، وليس عليكم إضلال من هدى الله تعالى ، وقالت فرقة ﴿ عليه ﴾ ، بمعنى به ، و" الفاتن " المضل في هذا الموضع وكذلك فسر ابن عباس والحسن بن أبي الحسن ، وقال ابن الزبير على المنبر : إن الله هو الهادي والفاتن ، و﴿ من ﴾ في موضع نصب ﴿ بفاتنين ﴾ ، وقرأ الجمهور " صالِ الجحيم " بكسر اللام ، من صال حذفت الياء للإضافة ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " صالُ الجحيم " بضم اللام وللنحاة في معناه اضطراب ، أقواه أنه صالون حذفت النون للإضافة ، ثم حذفت الواو للالتقاء وخرج لفظ الجميع بعد لفظ الإفراد ، فهو كما قال ﴿ ومنهم من يستمعون ﴾ [ يونس : 42 ] لما كانت " من " و" هو " من الأسماء التي فيها إبهام ويكنى بها عن أفراد وجمع ثم حكى قول الملائكة ، ﴿ وما منا ﴾ وهذا

يؤيد أن الجنة أراد بها الملائكة كأنه قال ولقد علمت كذا أو أن قولها لكذا ، وتقدير الكلام ما منا ملك ، وروت عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم " إن السماء ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد أو واقف يصلي " ، وقال ابن مسعود " موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماه " ، وقرأ ابن مسعود " وإن كلنا لما له مقام معلوم " ، و﴿ الصافون ﴾ معناه الواقفون صفوفاً ، و﴿ المسبحون ﴾ يحتمل أن يريد به الصلاة ، يحتمل أن يريد به قول سبحان الله ، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان إذا أقيمت الصلاة صرف وجهه إلى الناس فيقول لهم : عدلوا صفوفكم وأقيموها فإن الله تعالى إنما يريد بكم هدي الملائكة ، فإنها تقول ﴿ وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون ﴾ ، ثم يرى تقويم الصفوف ، وعند ذلك ينصرف ويكبر ، قال الزهراوي : قيل إن المسلمين إنما اصطفوا منذ نزلت

(16/656)

---

هذه الآية ، ولا يصطف أحد من أهل الملل غير المسلمين ، ثم ذكر عز وجل مقالة بعض الكفار ، وقال قتادة والسدي والضحاك فإنهم قبل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قالوا لو كان لنا كتاب أو جاءنا رسول لكنا من أتقى عباد الله وأشدهم إخلاصاً فلما جاءهم

محمد كفروا فاستوجبوا أليم العقاب .

فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170)

(17/656)

---

قوله تعالى : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ ، وعيد محض لأنهم تمنوا أمراً فلما جاءهم الله تعالى به كفروا واستهواهم الحسد ، ثم أنس تعالى نبيه وأولياءه بأن القضاء قد سبق ، والكلمة قد حقت في الأزل بأن رسل الله تعالى إلى أرضه هم ﴿ المنصورون ﴾ على من ناوأهم المظفرون بإرادتهم المستوجبون الفلاح في الدارين ، وقرأ الضحاك "كلماتنا " بألف على الجمع ، وجند الله هم الغزاة لتكون كلمات الله هي العليا ، وقال علي بن أبي طالب : جند الله في السماء الملائكة ، وفي الأرض الغزاة وقوله تعالى ، ﴿ فتول عنهم حتى حين ﴾ وعد للنبي صلى الله عليه وسلم وأمر بالموادعة ، وهذا مما نسخته آية السيف ، واختلف الناس في المراد ب " الحين " ، هنا ، فقال السدي : الحين المقصود يوم بدر ورجحه الطبري ، وقال قتادة : الحين موتهم ، وقال ابن زيد : الحين المقصود يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ وأبصرهم فسوف يبصرون ﴾ وعد للنبي صلى الله عليه وسلم ووعيد لهم أي سوف يرون عقبى طريقتهم ، ثم قرر تعالى نبيه على جهة التوبيخ لهم على استعجالهم عذاب الله ، وقرأ

جمهور الناس " فإذا نَزَل بساحتهم " على بناء الفعل للفاعل أي نزل العذاب ، وقرأ ابن مسعود " نُزِل بساحتهم " على بنائه للمفعول ، والساحة الفناء ، والعرب تستعمل هذه اللفظة فيما يرد على الإنسان من خير أو شر ، وسوء الصباح أيضاً مستعمل في ورود الغارات والرزايا ، ونحو ذلك ومنه قول الصارخ : يا صباحاه ! كأنه يقول قد ساء لي الصباح فأغيثوني ، وقرأ ابن مسعود " فبئس صباح " ، ثم أعاد عز وجل أمر نبيه بالتولي تحقيقاً لتأنيسه وتهمماً به ، وأعاد وتوعدهم أيضاً لذلك ، ثم نزه نفسه تنزيهاً مطلقاً عن جميع ما يمكن أن يصفه به أهل الضلالات ، و﴿ العزة ﴾ في قوله ﴿ رب العزة ﴾ هي العزة المخلوقة الكائنة ، للأنبياء والمؤمنين وكذلك قال الفقهاء من أجل أنها مربوبة ، وقال محمد بن سحنون وغيره : من حلف بعزة الله فإن كان أراد صفته الذاتية

(18/656)

---

فهي يمين ، وإن كان أراد عزته التي خلقها بين عباده وهي التي في قوله ﴿ رب العزة ﴾ فليست بيمين ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " إذا سلمتم عليّ فسلموا على المرسلين ، فإنما أنا أحدهم " ، وباقي الآية بين ، وذكر أبو حاتم عن صالح بن ميناء قال : قرأت على عاصم بن أبي النجود فلما ختمت هذه السورة سكت فقال لي : إيه اقرأ ،

قلت قد ختمت ، فقال كذلك فعلت على أبي عبد الرحمن وقال لي كما قلت لك ، وقال لي كذلك قال لي علي بن أبي طالب وقال : " وقل آذنتكم باذانة المرسلين لتسألن عن النبإ العظيم " ، وفي مصحف عبد الله " عن هذا النبإ العظيم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(19/656)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين ﴾

قال الفراء : أي بالسعادة.

وقيل : أراد بالكلمة قوله عز وجل : ﴿ كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي ﴾ [ المجادلة : 21 ]

قال الحسن : لم يُقتَل من أصحاب الشرائع قط أحد .

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون ﴾ أي سبق الوعد بنصرهم بالحجة والغلبة .

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ على المعنى ولو كان على اللفظ لكان هو الغالب مثل ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأحزاب ﴾ [ ص : 11 ] .

وقال الشيباني : جاء هاهنا على الجمع من أجل أنه رأس آية .

قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم.

﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ قال قتادة: إلى الموت.

وقال الزجاج: إلى الوقت الذي أمهلوا إليه.

وقال ابن عباس: يعني القتل ببدر.

وقيل: يعني فتح مكة.

وقيل: الآية منسوخة بآية السيف.

﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ قال قتادة: سوف يبصرون حين لا ينفعهم الإبصار.

وعسى من الله للوجوب وعبّر بالإبصار عن تقريب الأمر؛ أي عن قريب يبصرون.

وقيل: المعنى فسوف يبصرون العذاب يوم القيامة.

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم متى هذا العذاب؛ أي لا تستعجلوه فإنه واقع بكم.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ أي العذاب.

قال الزجاج: وكان عذاب هؤلاء بالقتل.

ومعنى "بِسَاحَتِهِمْ" أي بدارهم؛ عن السّدي وغيره.

والساحة والسَّحْسَة في اللغة فِناء الدار الواسع.

الفرّاء: "نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ" ونزل بهم سواء.

﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ المنذرين ﴾ أي بئس صباح الذين أنذروا بالعذاب .

وفيه إضمار أي فساء الصباح صباحهم .

وخصّ الصباح بالذكر ؛ لأن العذاب كان يأتيهم فيه .

*(20/656)*

---

ومنه الحديث الذي رواه أنس رضي اللّه عنه قال : " لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم خَيْبر ، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المَساحى ، فقالوا : محمد والخِميس ، ورجعوا إلى حصنهم ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : "اللّه أكبر خَربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين" " وهو يبين معنى "فَإِذا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ" يريد النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حتى حِينٍ ﴾ كرر تأكيداً وكذا ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تأكيد أيضاً .

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (182)

فيه أربع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ ﴾ نزّه سبحانه نفسه عما أضاف إليه المشركون.

﴿ رَبِّ العزة ﴾ على البدل.

ويجوز النصب على المدح، والرفع بمعنى هو ربّ العزة.

﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي من الصاحبة والولد.

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى "سُبْحَانَ اللَّهِ" فقال : " هو تنزيه الله عن كل سوء " وقد مضى في "البقرة" مستوفى.

الثانية سئل محمد بن سُحْنون عن معنى "رَبِّ الْعِزَّة" لِم جاز ذلك والعزّة من صفات الذات ، ولا يقال ربّ القدرة ونحوها من صفات ذاته جل وعزّ؟ فقال : العزة تكون صفة ذات وصفة فعل، فصفة الذات نحو قوله ﴿ فَلِلَّهِ العزة جَمِيعاً ﴾ [ فاطر : 10 ] وصفة الفعل نحو قوله : "رَبِّ الْعِزَّة" والمعنى ربّ العزّة التي يتعازّ بها الخلق فيما بينهم فهي من خلق الله عز وجل.

قال : وقد جاء في التفسير إن العزة هاهنا يراد بها الملائكة.

قال : وقال بعض علمائنا : من حلف بعزة الله فإن أراد عزته التي هي صفته فحنِث فعليه الكفارة، وإن أراد التي جعلها الله بين عباده فلا كفارة عليه.

الماوردي: "رَبِّ الْعِزَّةِ" يحتمل وجهين: أحدهما مالك العزّة، والثاني ربّ كل شيء متعزِّز من مِلك أو متجبِّر.

قلت: وعلى الوجهين فلا كفَّارة إذا نواها الحالف.

الثالثة روي من حديث أبي سعيد الخدريّ "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول قبل أن يُسلِّم: "سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ" إلى آخر السورة"؛ ذكره الثعلبي.

قلت: قرأت على الشيخ الإمام المحدّث الحافظ أبي عليّ الحسن بن محمد بن محمد بن محمد بن عمروك البكريّ بالجزيرة قُبالة المنصورة من الديار المصرية، قال أخبرتنا الحرّة أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الشعري بنيسابور في المرة الأولى، أخبرنا أبو محمد إسماعيل ابن أبي بكر القارئ، قال حدّثنا أبو الحسن عبد القادر بن محمد الفارسيّ، قال حدّثنا أبو سهل بشر بن أحمد الإسفرايني، قال حدّثنا أبو سليمان داود بن الحسين البيهقي، قال حدَّثنا أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن عبد الرحمن التميمي النيسابوري، قال حدّثنا هُشَيم عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخُدريّ قال: سمعت رسول صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ على المرسلين والحمد للهِ ربِّ العالمين ﴾.

قال الماوردي: روى الشعبي قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: "من سره أن يكتال

بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلاَمٌ على المرسلين ﴾ "

ذكره الثعلبي من حديث عليّ رضي اللّه عنه مرفوعاً .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وَسَلاَمٌ على المرسلين ﴾ أي الذين بلّغوا عن اللّه تعالى التوحيد والرسالة .

(22/656)

---

وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا سلّمتم عليّ فسلّموا على المرسلين فإنما أنا رسول من المرسلين " وقيل : معنى "وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ" أي أَمْنٌ لهم من اللّه جل وعز يوم الفزع الأكبر .

﴿ والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ أي على إرسال المرسلين مبشرين ومنذرين .

وقيل : أي على جميع ما أنعم اللّه به على الخلق أجمعين .

وقيل : أي على هلاك المشركين ؛ دليله : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [ الأنعام : 45 ] .

قلت : والكل مراد والحمد يعم .

ومعنى "يَصِفُونَ" يكذبون، والتقدير عما يصفون من الكذب. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

*(23/656)*

---

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة:

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158) ﴾

الظاهر أن الجنة هم الشياطين، وعن الكفار في ذلك مقالات شنيعة.

منها أنه تعالى صاهر سروات الجن، فولد منهم الملائكة، وهم فرقة من بني مدلج، وشافه بذلك بعض الكفار أبا بكر الصديق.

﴿ ولقد علمت الجنة ﴾ : أي الشياطين، أنها محضرة أمر الله من ثواب وعقاب، قاله ابن عطية.

وقال الزمخشري: إذا فسرت الجنة بالشياطين، فيجوز أن يكون الضمير في ﴿ إنهم لمحضرون ﴾ لهم.

والمعنى أن الشياطين عالمون أن الله يحضرهم النار ويعذبهم، ولو كانوا مناسبين له، أو شركاء في وجوب الطاعة، لما عذبهم.

وقيل : الضمير في ﴿ وجعلوا ﴾ لفرقة من كفار قريش والعرب ، والجنة : الملائكة ، سموا بذلك لاجتنابهم وخفائهم .

وقال الزمخشري : وإنما ذكرهم بهذا الاسم وضعاً منهم وتصغيراً لهم ، وإن كانوا معظمين في أنفسهم أن يبلغوا منزلة المناسبة التي أضافوها إليهم ، وفيه إشارة إلى أن من صفته الاجتنان والاستتار ، وهو من صفات الأجرام ، لا يصح أن يناسب من لا يجوز عليه ذلك . انتهى .

﴿ ولقد علمت الجنة ﴾ : أي الملائكة ، ﴿ إنهم ﴾ : أي الكفرة المدعين نسبة بين الملائكة وبين الله تعالى ، محضرون النار ، يعذبون بما يقولون .

وأضيف ذلك إلى علم من نسبوا لذلك ، مبالغة في تكذيب الناسبين .

ثم نزه تعالى نفسه عن الوصف الذي لا يليق به ، ﴿ إلا عباد الله ﴾ ، فإنهم يصفونه بصفاته .

وأما من المحضرون ، أي إلا عباد الله ، فإنهم ناجون مدة العذاب ، وتكون جملة التنزيه اعتراضاً على كلا القولين ، فالاستثناء منقطع .

والظاهر أن الواو في ﴿ وما تعبدون ﴾ للعطف ، عطفت ما تعبدون على الضمير في إنكم ، وأن الضمير في عليه عائد على ما ، والمعنى : قل لهم يا محمد : وما تعبدون من الأصنام ما أنتم وهم ، وغلب الخطاب .

كما تقول : أنت وزيد تخرجان عليه ، أي على عبادة معبودكم .

﴿ بفاتنين ﴾ : أي بحاملين بالفتنة عبادة ، إلا من قدر الله في سابق علمه أنه من أهل النار .

والضمير في ﴿ عليه ﴾ عائد على ما على حذف مضاف ، كما قلنا ، أي على عبادته .

وضمن فاتنين معنى : حاملين بالفتنة ، ومن مفعولة بفاتنين ، فرغ له العامل إذ لم يكن بفاتنين مفعولاً .

وقيل : عليه بمعنى : أي ما أنتم بالذي تعبدون بفاتنين ، وبه متعلق بفاتنين ، المعنى : ما أنتم فاتنين بذلك الذي عبدتموه إلا من سبق عليه القدر أنه يدخل النار .

وجعل الزمخشري الضمير في عليه عائداً على الله ، قال فإن قلت : كيف يفتنونهم على الله ؟ قلت : يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهوائهم من قولك : فتن فلان على فلان امرأته ، كما تقول : أفسدها عليه وخيبها عليه .

ويجوز أن تكون الواو في ﴿ وما تعبدون ﴾ بمعنى مع مثلها في قولهم : كل رجل وضيعته .

فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته ، جاز أن يسكت على قوله : ﴿ فإنكم وما تعبدون ﴾ ، لأن قوله : ﴿ وما تعبدون ﴾ ساد مسد الخبر ، لأن معناه فإنكم مع ما تعبدون ، والمعنى : فإنكم مع آلهتكم ، أي فإنكم قرناؤهم وأصحابهم لا تبرحون

تعبدونهم .

ثم قال ﴿ ما أنتم عليه ﴾ : أي على ما تعبدون ، ﴿ بفاتنين ﴾ : بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال ، إلا من هو ضال منكم . انتهى .

وكون الواو في ﴿ وما تعبدون ﴾ واو مع غير متبادر إلى الذهن ، وقطع ﴿ ما أنتم عليه بفاتنين ﴾ عن إنكم وما تعبدون ليس بجيد ، لأن اتصافه به هو السابق إلى الفهم مع صحة المعنى ، فلا ينبغي العدول عنه .

وقرأ الحسن ، وابن أبي عبلة : صالوا الجحيم بالواو ، وهكذا في كتاب الكامل للهذلي .

وفي كتاب ابن خالويه عنهما : صال مكتوباً بغير واو ، وفي كتاب ابن عطية .

وقرأ الحسن : صالوا مكتوباً بالواو ؛ وفي كتاب اللوامح وكتاب الزمخشري عن الحسن : صال مكتوباً بغير واو .

فمن أثبت الواو فهو جمع سلامة سقطت النون للإضافة .

(25/656)

---

حمل أولاً على لفظ من فأفرد ، ثم ثانياً على معناها فجمع ، كقوله : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ حمل في يقول على لفظ من ، وفي وما هم على

المعنى ، واجتمع الحمل على اللفظ ، والمعنى في جملة واحدة ، وهي صلة للموصول ، كقوله : ﴿ إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ وقول الشاعر :

وأيقظ من كان منكم نياماً . . .

_@_ومن لم يثبت الواو احتمل أن يكون جمعاً ، وحذفت الواو خطأ ، كما حذفت في حالة الوصل لفظاً لأجل التقاء الساكنين .

واحتمل أن يكون صال مفرداً حذفت لامه تخفيفاً ، وجرى الإعراب في عينه ، كما حذف من قوله : ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾ ﴿ وله الجوار المنشآت ﴾ برفع النون والجوار ، وقالوا : ما باليت به بالة ، أي بالية من بالى ، كعافية من عافى ، فحذفت لام باليت وبالية .

وقالوا بالة وبال ، بحذف اللام فيهما .

وقال الزمخشري : وقد وجه نحواً من الوجهين السابقين وجعلهما أولاً وثالثاً فقال : والثاني أن يكون أصله صائل على القلب ، ثم يقال : صال في صائل ، كقولهم : شاك في شائك . انتهى .

﴿ وما منا ﴾ : أي أحد ، ﴿ إلا له مقام معلوم ﴾ : أي مقام في العبادة والانتهاء إلى أمر الله ، مقصور عليه لا يتجاوزه .

كما روي : فمنهم راكع لا يقيم ظهره ، وساجد لا يرفع رأسه ، وهذا قول الملائكة ، وهو يقوي قول من جعل الجنة هم الملائكة تبرؤا عن ما نسب إليهم الكفرة من كونهم بنات الله ،

وأخبروا عن حال عبوديتهم، وعلى أي حالة هم فيها .

وفي الحديث : " أن السماء ما فيها موضع إلا وفيه ملك ساجد أو واقف يصلي " ، وعن ابن مسعود : " موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماه " ، وحذف المبتدإ مع من جيد فصيح ، كما مر في قوله : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنون ﴾ أي وأن من أهل الكتاب أحد .

وقال العرب : منا ظعن ومنا أقام ، يريد : منا فريق ظعن ومنا فريق أقام .

(26/656)

---

وقال الزمخشري : وما منا أحد إلا له مقام معلوم ، حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه ، كقوله :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا . . .

بكفي كان من أرمي البشر

انتهى .

وليس هذا من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، لأن أحداً المحذوف مبتدأ .

وإلا له مقام معلوم خبره ، ولأنه لا ينعقد كلام من قوله : وما منا أحد ، فقوله : ﴿ إلا له مقام

معلوم ﴾ هو محط الفائدة .

وإن تخيل أن ﴿ إلا له مقام معلوم ﴾ في موضع الصفة ، فقد نصوا على أن إلا لا تكون صفة إذا حذف موصوفها ، وأنها فارقت غير إذا ؛ كانت صفة في ذلك ، ليتمكن غيره في الوصف وقلة تمكن إلا فيه ، وجعل ذلك كقوله : أنا ابن جلا ، أي ابن رجل جلا ؛ وبكفي كان ، أي رجل كان ، وهذا عند النحويين من أقبح الضرورات .

﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ : أي أقدامنا في الصلاة ، أو أجنحتنا في الهواء ، أو حول العرش داعين للمؤمنين .

وقال الزهراوي : قيل إن المسلمين إنما اصطفوا في الصلاة منذ نزلت هذه الآية ، ولا يصطف أحد من الملل غير المسلمين .

﴿ وإنا لنحن المسبحون ﴾ : أي المنزهون الله عن ما نسب إليه الكفرة ، أو المنزهون بلفظ التسبيح ، أو المصلون .

وينبغي أن يجعل قوله : ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ من كلام الملائكة ، فتطرد الجمل وتتساق لقائل واحد ، فكأنه قيل : ولقد علمت الملائكة أن ناسبي ذلك لمحضرون للعذاب ؛ وقالوا : سبحان الله ، فنزهوا عن ذلك واستثنوا من أخلص من عباد الله ؛ وقالوا للكفرة : فإنكم وآلهتكم إلى آخره .

وكيف نكون مناسبيه ، ونحن عبيد بين يديه ، لكل منا مقام من الطاعة ؟ إلى ما وصفوا به

أنفسهم من رتبة العبودية .

وقيل : ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ ، هو من قول رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، أي وما من المرسلين أحد إلا له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله ، من قول تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً .

ثم ذكر أعمالهم ، وأنهم المصطفون في الصلاة المنزهون الله عن ما يقول أهل الضلال .

(27/656)

---

والضمير في ﴿ ليقولون ﴾ لكفار قريش ، ﴿ لو أن عندنا ذكراً ﴾ : أي كتاباً من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل ، لأخلصنا العبادة لله ، ولم نكذب كما كذبوا .

﴿ فكفروا به ﴾ : أي فجاءهم الذكر الذي كانوا يتمنونه ، وهو أشرف الأذكار ، لأعجازه من بين الكتب .

﴿ فسوف يعلمون ﴾ عاقبة كفرهم ، وما يحل بهم من الانتقام .

وأكدوا قولهم بأن المخففة وباللام كونهم كانوا جادين في ذلك ، ثم ظهر منهم التكذيب والنفور البليغ ، كقوله : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ ﴿ ولقد سبقت كلمتنا ﴾ : قرأ الجمهور بالإفراد لما انتظمت في معنى واحد عبر عنها بالإفراد .

وقرأ الضحاك : بالجمع ، والمراد الموعد بعلوهم على عدوهم في مقامات الحجاج وملاحم القتال في الدنيا ، وعلوهم عليهم في الآخرة .

وقال الحسن : ما غلب نبي في الحرب ، ولا قتل فيها .

﴿ فتول عنهم حتى حين ﴾ : أي إلى مدّة يسيرة ، وهي مدّة الكف عن القتال .

وعن السدّي : إلى يوم بدر ، ورجحه الطبري .

وقال قتادة : إلى موتهم .

وقال ابن زيد : إلى يوم القيامة .

﴿ وأبصرهم ﴾ : أي انظر إلى عاقبة أمرهم ، فسوف يبصرونها وما يحل بهم من العذاب والأسر والقتل ، أو سوف يبصرونك وما يتم لك من الظفر بهم والنصر عليهم .

وأمره بإبصارهم إشارة إلى الحالة المنتظرة الكائنة لا محالة ، وأنها قريبة كأنها بين ناظريه بحيث هو يبصرها ، وفي ذلك تسلية وتنفيس عنه عليه السلام .

﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ : استفهام توبيخ .

﴿ فإذا نزل ﴾ هو ، أي العذاب ، مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذره ، فأنكروه بجيث أنذر بهجومه قومه وبعض صناعهم ، فلم يلتفتوا إلى إنذراه ، ولا أخذوا أهبته ، ولا دبروا أمرهم تدبير ينجيهم حتى أناخ بفنائهم ، فشن عليهم الغارة ، وقطع دابرهم .

وكانت عادة مغازيهم أن يغيروا صباحاً ، فسميت الغارة صباحاً ، وإن وقعت في وقت آخر .

(28/656)

---

وما فصحت هذه الآية ، ولا كانت له الروعة التي يحسن بها ، ويرونك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريقة التمثيل ، قاله الزمخشري .

وقرأ الجمهور : مبنياً للفاعل ؛ وابن مسعود : مبنياً للمفعول ؛ وساحتهم : هو القائم مقام الفاعل .

ونزل ساحة فلان ، يستعمل فيما ورد على الإنسان من خير أو شر ؛ وسوء الصباح : يستعمل في حلول الغارات والرزايات ؛ ومثل قول الصارخ : يا صباحاه ؛ وحكم ساء هنا حكم بئس .

وقرأ عبد الله : فبئس ، والمخصوص بالذم محذوف تقديره : فساء صباح المنذرين صباحهم .

{ وتول عنهم حتى حين } : كرر الأمر بالتولي ، تأنيساً له عليه الصلاة والسلام ، وتسلية وتأكيد لوقوع الميعاد ؛ ولم يقيد أمره بالإبصار ، كما قيده في الأول ، إما لاكتفائه به في الأول

فحذفه اختصاراً ، وإما لما في ترك التقييد من جولان الذهن فيما يتعلق به الإبصار منه من صنوف المساءات ، والإبصار منهم من صنوف المساءات .

وقيل : أريد بالأول عذاب الدنيا ، وبالآخرة عذاب الآخرة .

وختم تعالى هذه السورة بتنزيهه عن ما يصفه المشركون ، وأضاف الرب إلى نبيه تشريفاً له بإضافته وخطابه ، ثم إلى العزة ، وهي العزة المخلوقة الكائنة للأنبياء والمؤمنين ، وكذلك قال الفقهاء من جهة أنها مربوبة .

وقال محمد بن سحنون وغيره : من حلف بعزة الله تعالى إلى يريد عزته التي خلقت بين عباده ، وهي التي في قوله : ﴿ رب العزة ﴾ ، فليست بيمين .

وقال الزمخشري : أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها ، كأنه قيل : ذو العزة ، كما تقول : صاحب صدق لاختصاصه بالصدق . انتهى .

فعلى هذا تنعقد اليمين بعزة الله لأنها صفة من صفاته .

(29/656)

---

قال : ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربها ومالكها ، لقوله : ﴿ وتعزّ من تشاء ﴾ وعن علي ، كرم الله وجهه : "من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى

من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه : ﴿ سبحان ربك رب العزة ﴾ ، إلى آخر السورة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(30/656)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ للوعيدِ وتصديرُه بالقسمِ لغايةِ الاعتناءِ بتحقيقِ مضمونِه أي وبالله لقد سبقَ وعدُنا لهم بالنُّصرةِ والغَلَبةِ وهو قولُه تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون ﴾ .

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا ﴾ وهم أتباعُ المُرسلين ﴿ لَهُمُ الغالبون ﴾ على أعدائِهم في الدُّنيا والآخرةِ ولا يقدحُ في ذلك انهزامُهم في بعضِ المشاهدِ فإنَّ قاعدةَ أمرِهم وأساسَه الظَّفرُ والنُّصرةُ وإنْ وقعَ في تضاعيفِ ذلكَ شَوبٌ من الابتلاءِ والمحنةِ، والحكمُ للغالبِ. وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهُما : إنْ لم يُبصَرُوا في الدُّنيا نُصروا في الآخرةِ. وقُرىء على عبادِنا بتضمينِ سبقتْ معنى حُقّقتْ وتسميتُها كلمةً مع أنَّها كلماتٌ لانتظامِها في معنى واحدٍ. وقُرىء كلماتُنا.

(31/656)

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأَعرضْ عنهم واصبرْ ﴿ حتى حِينٍ ﴾ إلى مُدَّةٍ يسيرةٍ وهي مُدَّةُ الكفِّ عن القتالِ ، وقيل يومَ بدرٍ ، وقيل : يومَ الفتحِ . ﴿ وأبصارهم ﴾ على أسوأِ حالٍ وأفظعِ نكالٍ حلَّ بهم من القتلِ والأسرِ ، والمرادُ بالأمرِ بأبصارِهم الإيذانُ بغايةِ قُربه كأنَّه بين يديه . ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ما يقعَ حينئذٍ من الأمورِ ، وسوفَ للوعيدِ دُونَ التَّبعيدِ ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ رُوي أنَّه لمَّا نزل فسوف يُبصرون قالُوا متَى هذا فنزلَ ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ أي فإذا نزلَ العذابُ الموعودُ بفنائِهم كأنَّه جيشٌ قد هجمَهم فأناخَ بفنائِهم بغتةً فشنَّ عليهم الغارةَ وقطعَ دابرَهم بالمرَّةِ . وقيل : المرادُ نزولُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يومَ الفتحِ . وقُرِىء نزلَ بساحتهم على إسنادِه إلى الجارِّ والمجرور . وقُرِىء نُزِّلَ مبنَّياً للمفعولِ من التَّنزيلِ أي نُزِّلَ العذابُ ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ المنذرين ﴾ فبئسَ صباحُ المنذرين صباحُهم . واللاَّمُ للجنسِ . والصَّباحُ مستعارٌ من صباحِ الجيشِ المبيِّتِ لوقت نزولِ العذابِ ولمَّا كثُرتْ منهم الغارةُ في الصَّباحِ سمَّوها صباحاً ، وإن وقعت ليلاً . رُوي أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم : لمَّا أتى خيبرَ وكانُوا خارجينَ إلى مزارعِهم ومعهم المَساحي قالُوا : محمدٌ والخميسُ ورجعُوا إلى حصنِهم فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " اللهُ أكبرُ خربتْ خيبرُ إنَّا إذا نزلنا بساحةِ قومٍ فساءَ صباحُ المنذَرينِ " ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حتى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تسليةً لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إثرَ تسليةٍ وتأكيدٍ لوقوعِ الميعادِ غبَّ تأكيدٍ مع

ما في إطلاقِ الفعلينِ عن المفعولِ من الإيذانِ بأنَّ ما يُبصره عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينئذٍ من فنونِ المسارِ وما يُبصرونه من أنواعِ المضارِّ لا يحيطُ به الوصفُ والبيانُ.

(32/656)

---

وقيلَ: أُريد بالأوَّلِ عذابُ الدُّنيا، وبالثَّاني عذابُ الآخرة.

(33/656)

---

﴿ سبحانَ ربِّكَ ربِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ تنزيهٌ لله سبحانَه عن كلِّ ما يصفُه المشركونَ به ممَّا لا يليقُ بجنابِ كبريائِه وجبروتِه ممَّا ذُكر في السُّورةِ الكريمةِ وما لم يُذكر من الأمورِ التي من جُملتِها تركُ إنجازِ الموعودِ على موجبِ كلمتِه السَّابقةِ لا سيَّما في حقِّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم كما يُنبىء عنْه التَّعرضُ لعُنوانِ الرُّبوبيةِ المُعربةِ عن التَّربيةِ والتَّكميلِ والمالكيةِ الكُلِّيةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أوَّلاً وإلى العزَّةِ ثانياً كأنَّه قيلَ سبحانَ من هُو مربِّيكَ ومكمِّلكَ ومالكُ العزَّةِ والغَلَبةِ على الإطلاقِ عمَّا يصفُه المشركونَ به من الإشياءِ التي منها تركُ نصرتكَ عليهم كما يدلُّ عليه استعجالُهم بالعذابِ وقولُه تعالى: ﴿

وسلام على المرسلين ﴾ تشريفٌ لهم عليهم السَّلامُ بعد تنزيهِ تعالى عمَّا ذُكر وتنويهٌ بشأنِهم وإيذانٌ بأنَّهم سالمون عن كلِّ المكارهِ فائزون بجميع المآرب. وقولُه تعالى: ﴿ والحمد للَّهِ ربِّ العالمين ﴾ إشارةٌ إلى وصفِه عزَّ وجلَّ بصفاتِه الكريمةِ الثُّبوتيةِ بعد التَّنبيهِ على اتِّصافِه بجميع صفاتِه السَّلبيةِ، وإيذانٌ باستتباعِها للأفعالِ الجميلةِ التي من جُملتها إفاضتُه عليهم من فُنونِ الكراماتِ السَّنيةِ والكمالاتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ وإسباغه عليهم وعلى مَن تبعهم من صُنوف النَّعماءِ الظَّاهرةِ والباطنةِ المُوجبةِ لحمده تعالى وإشعارٌ بأنَّ وُعده عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ من النُّصرةِ والغَلَبةِ قد تحقَّقتْ، والمرادُ تنبيه المؤمنينَ على كيفيَّةِ تسبيحِه تعالى وتحميدِه والتَّسليم على رُسلِه الذينَ هُم وسائطُ بينهم وبينَهُ عزَّ وعَلاَ في فيضانِ الكَمالاتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ عليهم، ولعلَّ توسيطَ التَّسليمِ على المُرسلينَ بين تسبيحِهِ تعالى وتحميدِه لختمِ السُّورةِ الكريمةِ

(34/656)

---

بحمدِه تعالى معَ ما فيهِ من الإشعارِ بأنَّ توفيقَهُ تعالى للتَّسليمُ عليهم من جُملةِ نعمِه المُوجبةِ للحمدِ. عن عليَ رضيَ اللهُ عنه من "أحبَّ أنْ يُكتالَ بالمكيالِ الأَوْفى من الأجرِ يومَ القيامةِ فليكُن آخرُ كلامِه إذا قامَ من مجلسِه سبحانَ ربِّك ربِّ العِزَّةِ عمَّا يصفُون وسلامٌ

على المُرسلينَ والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 ص ﴾

(35/656)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين ﴾

استئناف مقرر للوعيد وتصديره بالقسم لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه أي وبالله لقد سبق وعدنا لهمب النصرة والغلبة وهو قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ فيكون تفسيراً أو بدلاً من ﴿ كَلِمَتُنَا ﴾ وجوز أن يكون مستأنفاً والوعد ما في محل آخر من قوله تعالى : ﴿ لاَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ [ المجادلة : 21 ] والأول أظهر ، والمراد بالجند اتباع المرسلين وأضافهم إليه تعالى تشريفاً لهم وتنويهاً بهم ، وقال بعض الأجلة : هو تعميم بعد تخصيص وفيه من التأكيد ما فيه ، والمراد عند السدي بالنصرة والغلبة ما كان بالحجة ، وقال الحسن : المراد النصرة والغلبة في الحرب فإنه لم يقتل نبي من الأنبياء في الحرب وإنما قتل من قتل منهم غيلة أو على وجه آخر في غير الحرب وإن مات نبي قبل النصرة أو قتل فقد أجرى الله تعالى أن ينصر قومه

من بعده فيكون في نصرة قومه نصرة له ، وقريب منه ما قيل إن القصرين باعتبار عاقبة الحال وملاحظة المآل ، وقال ناصر الدين : هما باعتبار الغالب والمقضي بالذات لأن الخير هو مراده تعالى بالذات وغيره مقضي بالتبع لحكمة وغرض آخر أو للاستحقاق بما صدر من العباد ، ولذا قيل بيده الخير ولم يذكر الشر مع أن الكل من عنده عز وجل ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في الآخرة ، وظاهر السياق يقتضي أن ذلك في الدنيا وأنه بطريق القهر والاستيلاء والنيل من الأعداء أما بقتلهم أو تشريدهم أو إجلائهم عن أوطانهم أو استئسارهم أو نحو ذلك ، والجملتان دالتان على الثبات والاستمرار فلا بد من أن يقال : إن استمرار ذلك عرفي ، وقيل : هو على ظاهره واستمرار الغلبة للجند مشروط بما تشعر به الإضافة فلا يغلب اتباع المرسلين في حرب إلا لاخلالهم بما تشعر به بميل ما إلى الدنيا أو ضعف التوكل عليه تعالى أو نحو ذلك ، ويكفي في نصرة المرسلين إعلاء كلمتهم وتعجيز الخلق عن معارضتهم وحفظهم من القتل في الحروب ومن الفرار فيها ولو عظمت هنالك الكروب فافهم ، ولا يخفى وجه التعبير بمنصورون مع المرسلين

وبالغالبون مع الجند فلا تغفل ، وسمى الله عز وجل وعده بذلك كلمة وهي كلمات لأنها لما اجتمعت وتضامنت وارتبطت غاية الارتباط صارت في حكم شيء واحد فيكون ذلك من باب الاستعارة ، والمشهور أن إطلاق الكلمة على الكلام مجاز مرسل من إطلاق الجزء على الكل ، وقال بعض العلماء : إنه حقيقة لغوية واختصاص الكلمة بالمفرد اصطلاح لأهل العربية فعليه لا يحتاج إلى التأويل ، وقرأ الضحاك ﴿ كلماتنا ﴾ بالجمع ، ويجوز أن يراد عليها وعودنا فتفطن ، وفي قراءة ابن مسعود ﴿ على ﴾ على تضمين ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ ﴾ معنى حقت .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عنهم واصبر ﴿ حتى حِينٍ ﴾ إلى وقت انتهاء مدة الكف عن القتال ، وعن السدي إلى يوم بدر ورجحه الطبري وقيل : إلى يوم الفتح وكان قبله مهادنة الحديبية ، وأخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أنه قال : إلى يوم موتهم وحكاه الطبرسي عن ابن عباس أيضاً ، وقال ابن زيد : إلى يوم القيامة ، وهو والذي قبله ظاهران في عدم اختصاص النصرة بما كان في الدنيا .

وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (175)

وهم حينئذٍ على أسوأ حال وأفظع نكال قد حل بهم ما حل من الأسر والقتل أو أبصر بلاءهم على أن الكلام على حذف مضاف ، والأمر بمشاهدة ذلك وهو غير واقع للدلالة على أنه لشدة قربه كأنه حاضر قدامه وبين يديه مشاهد خصوصاً إذا قيل إن الأمر للحال

أو الفور .

﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ما يكون لك من التأييد والنصر ، وقيل : المعنى أبصر ما يكون عليهم يوم القيامة من العذاب فسوف يبصرون ما يكون لك من مزيد الثواب ، وسوف للوعيد لا للتسويف والتبعيد الذي هو حقيقتها وقرب ما حل بهم مستلزم لقرب ما يكون له عليه الصلاة والسلام فهو قرينة على عدم إرادة التبعيد منه .

(37/656)

---

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ استفهام توبيخ أخرج جويبر عن ابن عباس قال قالوا يا محمد أرنا العذاب الذي تخوفنا به وعجلنه لنا فنزلت ، وروي أنه لما نزل ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ قالوا متى هذا ؟ فنزلت .

﴿ فَإِذَا نَزَلَ ﴾ أي العذاب الموعود ﴿ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ وهي العرصة الواسعة عند الدور والمكان الواسع مطلقاً وتجمع على سوح قال الشاعر

: فكان سيان أن لا يسرحوا نعما . . .

أو يسرحوه بها واغبرت السوح

وفي الضمير استعارة مكنية شبه العذاب بجيش يهجم على قوم وهم في ديارهم بغتة فيحل

بها والنزول تخييل.

وقرأ ابن مسعود ﴿ نَزَّل ﴾ بالتخفيف والبناء للمجهول وهو لازم فالجار والمجرور نائب الفاعل، وقرىء نزل بالتشديد والبناء للمجهول أيضاً وهو متعد فنائب الفاعل ضمير العذاب ﴿ فَسَاء صَبَاحُ المنذرين ﴾ أي فبئس صباح المنذرين صباحهم على أن ساء بمعنى بئس وبها قرأ عبد الله والمخصوص بالذم محذوف واللام في المنذرين للجنس لا للعهد لاشتراطهم الشيوع فيما بعد فعلي الذم والمدح ليكون التفسير بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال ولو كان ساء بمعنى قبح على أصله جاز اعتبار العهد من غير تقدير، والصباح مستعار لوقت نزول العذاب أي وقت كان من صباح الجيش المبيت للعدو وهو السائر إليه ليلاً ليهجم عليه وهو في غفلته صباحاً، وكثيراً ما يسمون الغارة صباحاً لما أنها في الأعم الأغلب تقع فيه، وهو مجاز مرسل أطلق فيه الزمان وأريد ما وقع فيه كما يقال أيام العرب لوقائعهم.

(38/656)

---

وجوز حمل الصباح هنا على ذلك، وفي "الكشاف" مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قوماً بعض نصاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا اهبتهم

ولا دبروا أمرهم تدبيراً ينجيهم حتى أناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم ، وكانت عادة مغاويرهم أصباحاً فسميت الغارة صباحاً وإن وقعت في وقت آخر ؛ وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي يحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريقة التمثيل انتهى ، وظاهره أن الكلام على الاستعارة التمثيلية وفضلها على غيرها أشهر من أن يذكر وأجل من أن ينكر ، وقيل : ضمير نزل للنبي صلى الله عليه وسلم ويراد حينئذٍ نزوله يوم الفتح لا يوم بدر لأنه ليس بساحتهم إلا على تأويل ولا بخيبر لقوله صلى الله عليه وسلم حين صبيحها : " الله أكبر خربت خيبر أنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين " لأن تلاوته عليه الصلاة والسلام ثمت لاستشهاده بها والكلام هنا مع المشركين ، ولا يخفى بعد رجوع الضمير إليه عليه الصلاة والسلام .

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حتى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم أثر تسلية وتأكيد لوقوع الميعاد غب تأكيد مع ما في إطلاق الفعلين عن المفعول من الإيذان ظاهراً بأن ما يبصره عليه الصلاة والسلام حينئذٍ من فنون المسار وما يبصرونه من فنون المضار لا يحيط به الوصف والبيان ، وجوز أن يراد بما تقدم عذاب الدنيا وبهذا عذاب الآخرة .

﴿ سبحان رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ تنزيه لله تعالى شأنه عن كل ما يصفه المشركون به مما لا يليق بجناب كبريائه وجبروته مما حكى عنهم في السورة الكريمة وما لم يحك من الأمور التي من جملتها ترك إنجاز الموعود على موجب كلمته تعالى السابقة لا سيما في حق الرسول صلى الله عليه وسلم كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية المعربة عن التربية والتكميل والمالكية الكلية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام أولاً وإلى العزة ثانياً كأنه قيل : سبحان من هو مربيك ومكملك ومالك العزة والغلبة على الإطلاق عما يصفه المشركون به من الأشياء التي منها ترك نصرتك عليهم كما يدل عليه استعجالهم بالعذاب ، ومعنى ملكه تعالى العزة على الإطلاق أنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو عز وجل مالكها ، وقال الزمخشري : أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه تعالى بها كأنه قيل ذو العزة كما تقول صاحب صدق لاختصاصه بالصدق ، ثم ذكر جواز إرادة المعنى الذي ذكرناه ، والفرق أن الإضافة على ما ذكرنا على أنه سبحانه المعز وعلى الآخر على أنه عز وجل العزيز بنفسه ، ولكل وجه من المبالغة خلا عنه الآخر

﴿ وسلام على المرسلين ﴾ تشريف للرسل كلهم بعد تنزيهه تعالى عما ذكر وتنويه بشأنهم وإيذان بأنهم سالمون عن كل المكاره فائزون بكل المآرب

﴿ والحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾

إشارة إلى وصفه تعالى بصفاته الكريمة الثبوتية بعد التنبيه على اتصافه عز وجل بجميع صفاته السلبية وإيذان باستتباعها للأفعال الحميدة التي من جملتها إفاضته تعالى على المرسلين من فنون الكرامات السنية والكمالات الدينية والدنيوية وإسباغه جل وعلا عليهم وعلى من تبعهم من صنوف النعماء الظاهرة والباطنة الموجبة لحمده تعالى وإشعار بأن ما وعده عليه السلام من النصرة والغلبة قد تحقق ، والمراد تنبيه المؤمنين على كيفية تسبيحه سبحانه وتحميده والتسليم على رسله عليهم السلام الذين هم وسائط بينه تعالى وبينهم في فيضان الكمالات مطلقاً عليهم .



وهو ظاهر في عدم كراهة إفراد السلام عليهم ، ولعل توسيط التسليم على المرسلين بين تسبيحه تعالى وتحميده لختم السورة الكريمة بحمده تعالى مع ما فيه من الإشعار بأن توفيقه تعالى للتسليم من جملة نعمه تعالى الموجبة للحمد كذا في إرشاد العقل السليم ، وقد يقال :

تقديم التنزيه لأهميته ذاتاً ومقاماً ، ولما كان التنزيه عما يصف المشركون وقد ذكر عز وجل إرشاد الرسل إياهم وتحذيرهم لهم من أن يصفوه سبحانه بما لا يليق به تعالى وضمن ذلك الإشارة إلى سوء حالهم وفظاعة منقلبهم أردف جل وعلا ذلك بالإشارة إلى حسن حال المرسلين الداعين إلى تنزيهه تعالى عما يصفه به المشركون ، وفيه من الاهتمام بأمر التنزيه ما فيه ، وأتى عز وجل بالحمد للإشارة إلى أنه سبحانه متصف بالصفات الثبوتية كما أنه سبحانه متصف بالصفات السلبية وهذا وإن استدعى إيقاع الحمد بعد التسبيح بلا فصل كما في قولهم سبحان الله والحمد لله وهو المذكور في الأخبار والمشهور في الأذكار إلا أن الفصل بينهما هنا بالسلام على المرسلين مما اقتضاه مقام ذكرهم فيما مر وجدد الالتفات إليهم تقديم التنزيه عما يصفه به من يرسلون إليه ، ولعل من يدقق النظر يرى أن السلام هنا أهم من الحمد نظراً للمقام وإن كان هو اهم منه ذاتاً والأهمية بالنظر للمقام أولى بالاعتبار عندهم ولذا تراهم يقدمون المفضول على الفاضل إذا اقتضى المقام الاعتناء به ، ولعله من تتمة جملة التسبيح وبهذا ينحل ما يقال من أن حمده تعالى أجل من السلام على الرسل عليهم السلام فكان ينبغي تقديمه عليه على ما هو المنهج المعروف في الكتب والخطب ، ولا يحتاج إلى ما قيل : إن المراد بالحمد هنا الشكر على النعم وهي الباعثة عليه ومن أجلها إرسال الرسل الذي هو وسيلة لخيري الدارين فقدم عليه لأن الباعث على الشيء يتقدم عليه في الوجود وإن كان هو متقدماً على الباعث في الرتبة فتدبر .

وهذه الآية من الجوامع والكوامل ووقوعها في موقعها هذا ينادي بلسان ذلق أنه كلام من له الكبرياء ومنه العزة جل جلاله وعم نواله .

وقد أخرج الخطيب عن أبي سعيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعد أن يسلم : سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

وأخرج الطبراني عن زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قال دبر كل صلاة " سبحان رب رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ثلاث مرات فقد اكتال بالمكيال الأوفى من الأجر " وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم سبحان ربك رب العزة " إلى آخر السورة ، وأخرجه البغوي من وجه آخر متصل عن علي كرم الله تعالى وجهه موقوفاً ، وجاء في ختم المجلس بالتسبيح غير هذا ولعله أصح منه ، فقد أخرج أبو داود عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات لا يتكلم بهن أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفر بهن عنه ولا يقولهن في مجلس خير وذكر إلا ختم له

بهن عليه كما يختم بخاتم على الصحيفة سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك" لكن المشهور اليوم بين الناس أنهم يقرؤون عند ختم مجلس القراءة أو الذكر أو نحوهما الآية المذكورة ﴿ سبحان ربّك ربّ العزة عمَّا يصِفُونَ وسلام على المرسلين والحمد للّهِ ربّ العالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

*(43/656)*

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) ﴾

لما كانت قريش ، وقبائل من العرب يزعمون : أن الملائكة بنات الله أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم باستفتائهم على طريقة التقريع ، والتوبيخ ، فقال : ﴿ فاستفتهم ﴾ يا محمد ، أي : استخبرهم ﴿ أَلِرَبِّكَ البنات وَلَهُمُ البنون ﴾ أي : كيف يجعلون لله ، على تقدير صدق ما زعموه من الكذب أدنى الجنسين ، وأوضعهما ، وهو : الإناث ، ولهم أعلاهما ، وأرفعهما ، وهم : الذكور ، وهل هذا إلا حيف في القسمة لضعف عقولهم ، وسوء إدراكهم ؟ ومثله قوله : ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ [ النجم : 21 ، 22 ] ثم زاد في توبيخهم ، وتقريعهم .

فقال : ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الملائكة إناثا وَهُمْ شاهدون ﴾ فأضرب عن الكلام الأوّل إلى ما هو أشدّ منه في التبكيت ، والتهكم بهم ، أي : كيف جعلوهم إناثاً ، وهم لم يحضروا عند خلقنا لهم ، وهذا كقوله : ﴿ وَجَعَلُواْ الملئكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ [ الزخرف : 19 ] فبيّن سبحانه : أن مثل ذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة ، ولم يشهدوا ، ولا دلّ دليل على قولهم من السمع ، ولا هو مما يدرك بالعقل حتى ينسبوا إدراكه إلى عقولهم .

ثم أخبر سبحانه عن كذبهم ، فقال : ﴿ أَلاَ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ الله وَإِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ فبيّن سبحانه أن قولهم هذا هو من الإفك ، والافتراء من دون دليل ، ولا شبهة دليل ، فإنه لم يلد ، ولم يولد .

قرأ الجمهور ﴿ ولد الله ﴾ فعلاً ماضياً مسنداً إلى الله .

وقرىء بإضافة ولد إلى الله على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : يقولون الملائكة ولد الله ، والولد بمعنى : مفعول يستوي فيه المفرد ، والمثنى ، والمجموع ، والمذكر ، والمؤنث .

ثم كرر سبحانه تقريعهم ، وتوبيخهم ، فقال : ﴿ أَصْطَفَى البنات على البنين ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنها للاستفهام الإنكاري ، وقد حذف معها همزة الوصل استغناء به عنها .

وقرأ نافع في رواية عنه ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والأعمش بهمزة وصل تثبت ابتداء ، وتسقط درجاً ، ويكون الاستفهام منوياً قاله الفراء .

وحذف حرفه للعلم به من المقام ، أو على أن اصطفى ، وما بعده بدل من الجملة المحكية بالقول .

وعلى تقدير عدم الاستفهام ، والبدل .

فقد حكى جماعة من المحققين منهم الفراء : أن التوبيخ يكون باستفهام ، وبغير استفهام كما في قوله : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طيبا تكم فِى حيا تكم الدنيا ﴾ [ الأحقاف : 20 ] ، وقيل : هو على إضمار القول ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ جملتان استفهاميتان ليس لأحدهما تعلق بالأخرى من حيث الإعراب : استفهمهم أوّلاً عما استقرّ لهم ، وثبت استفهام بإنكار ، وثانياً استفهام تعجب من هذا الحكم الذي حكموا به ، والمعنى : أيّ شيء ثبت لكم كيف تحكمون لله بالبنات ، وهم : القسم الذي تكرهونه ، ولكم بالبنين ، وهم : القسم الذي تحبونه ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : تتذكرون ، فحذفت إحدى التاءين ، والمعنى : ألا تعتبرون ، وتتفكرون ، فتتذكرون بطلان قولكم ﴿ أَمْ لَكُمْ سلطان مُّبِينٌ ﴾ أي : حجة

واضحة ظاهرة على هذا الذي تقولونه ، وهو إضراب عن توبيخ إلى توبيخ ، وانتقال من تقريع إلى تقريع .

﴿ فَأْتُواْ بكتابكم إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أي : فأتوا بحجتكم الواضحة على هذا إن كنتم صادقين فيما تقولونه ، أو فأتوا بالكتاب الذي ينطق لكم بالحجة ، ويشتمل عليها .

﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ قال أكثر المفسرين : إن المراد بالجنة هنا : الملائكة ، قيل لهم : جنة ، لأنهم لا يرون .

وقال مجاهد : هم بطن من بطون الملائكة يقال لهم : الجنة .

وقال أبو مالك : إنما قيل لهم ؛ الجنة ؛ لأنهم خزّان على الجنان .

والنسب الصهر .

(45/656)

---

قال قتادة ، والكلبي : قالوا : لعنهم الله : إن الله صاهر الجنّ ، فكانت الملائكة من أولادهم ؛ قالا : والقائل بهذه المقالة اليهود .

وقال مجاهد ، والسدّي ، ومقاتل : إن القائل بذلك كنانة ، وخزاعة قالوا : إن الله خطب إلى سادات الجن ، فزوّجوه من سروات بناتهم ، فالملائكة بنات الله من سروات بنات

الجن .

وقال الحسن : أشركوا الشيطان في عبادة الله ، فهو النسب الذي جعلوه .

ثم ردّ الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجنة إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي : علموا أن هؤلاء الكفار الذين قالوا هذا القول يحضرون النار ، ويعذبون فيها .

وقيل : علمت الجنة أنفسهم يحضرون للحساب .

والأوّل أولى ، لأن الإحضار إذا أطلق ، فالمراد العذاب .

وقيل : المعنى : ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون إلى الجنة .

ثم نزّه سبحانه نفسه ، فقال : ﴿ سبحان الله عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أو هو حكاية لتنزيه الملك لله عزّ وجلّ عما وصفه به المشركون ، والاستثناء في قوله : ﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ منقطع ، والتقدير : لكن عباد الله المخلصين بريئون عن أن يصفوا الله بشيء من ذلك .

وقد قرىء بفتح اللام ، وكسرها ، ومعناهما ما بيناه قريباً .

وقيل : هو استثناء من المحضرين ، أي : إنهم يحضرون النار إلا من أخلص ، فيكون متصلاً لا منقطعاً ، وعلى هذا تكون جملة التسبيح معترضة .

ثم خاطب الكفار على العموم ، أو كفار مكة على الخصوص ، فقال : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بفاتنين ﴾ أي : فإنكم ، وآلهتكم التي تعبدون من دون الله لستم بفاتنين على الله بإفساد عباده ، وإضلالهم ، وعلى متعلقة بفاتنين .

والواو في ﴿ وما تعبدون ﴾ إما للعطف على اسم إن، أو هو بمعنى : مع، وما موصولة، أو مصدرية، أي : فإنكم، والذي تعبدون، أو وعبادتكم، ومعنى : ﴿ فاتنين ﴾ : مضلين، يقال : فتنت الرجل، وأفتنته، ويقال : فتنه على الشيء، وبالشيء كما يقال : أضله على الشيء، وأضله به.

قال الفراء : أهل الحجاز يقولون : فتنته، وأهل نجد يقولون : أفتنته، ويقال : فتن فلان على فلان امرأته، أي : أفسدها عليه، فالفتنة هنا بمعنى : الإضلال، والإفساد.

قال مقاتل : يقول : ما أنتم بمضلين أحداً بآلهتكم إلا من قدَر الله له أن يصلى الجحيم، "وما" في ﴿ وَمَا أَنتُمْ ﴾ نافية و ﴿ أَنتُمْ ﴾ خطاب لهم، ولمن يعبدونه على التغليب.

قال الزجاج : أهل التفسير مجمعون فما علمت أن المعنى : ما أنتم بمضلين أحداً إلا من قدّر الله عزّ وجلّ عليه أن يضلّ، ومنه قول الشاعر :

فردّ بفتنته، كيده . . . عليه، وكان لنا فاتناً

أي : مضلاً ﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم ﴾ قرأ الجمهور ﴿ صال ﴾ بكسر اللام ؛ لأنه منقوص مضاف حذفت الياء لالتقاء الساكنين، وحمل على لفظ من، وأفرد كما أفرد

هو .

وقرأ الحسن ، وابن أبي عبلة بضم اللام مع واو بعدها ، وروي عنهما : أنهما قرآ بضم اللام بدون واو .

فأما مع الواو فعلى أنه جمع سلامة بالواو حملاً على معنى : من ، وحذفت نون الجمع للإضافة ، وأما بدون الواو ، فيحتمل أن يكون جمعاً ، وإنما حذفت الواو خطاً كما حذفت لفظاً ، ويحتمل أن يكون مفرداً ، وحقه على هذا كسر اللام .

قال النحاس : وجماعة أهل التفسير يقولون : إنه لحن ؛ لأنه لا يجوز هذا قاض المدينة ، والمعنى : أن الكفار وما يعبدونه لا يقدرون على إضلال أحد من عباد الله ، إلا من هو من أهل النار ، وهم المصرّون على الكفر ، وإنما يصرّ على الكفر من سبق القضاء عليه بالشقاوة ، وإنه ممن يصلى النار ، أي : يدخلها .



---

ثم قال الملائكة مخبرين للنبي صلى الله عليه وسلم كما حكاه الله سبحانه عنهم : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : وما منا أحد ، أو وما منا ملك إلا له مقام معلوم في عبادة الله .

وقيل : التقدير : وما منا إلا من له مقام معلوم ، رجح البصريون التقدير الأوّل ، ورجح الكوفيون الثاني .

قال الزجاج : هذا قول الملائكة ، وفيه مضمر .

المعنى : وما منا ملك إلا له مقام معلوم .

ثم قالوا : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافون ﴾ أي : في مواقف الطاعة .

قال قتادة : هم : الملائكة صفوا أقدامهم .

وقال الكلبي : صفوف الملائكة في السماء كصفوف أهل الدنيا في الأرض .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون ﴾ أي : المنزّهون لله المقدّسون له عما أضافه إليه المشركون .

وقيل : المصلون ، وقيل : المراد بقولهم ﴿ المسبحون ﴾ : مجموع التسبيح باللسان ، وبالصلاة ، والمقصود أن هذه الصفات هي : صفات الملائكة ، وليسوا كما وصفهم به الكفار من أنهم بنات الله ﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴾ هذا رجوع إلى الإخبار عن المشركين ، أي : كانوا قبل المبعث المحمدي إذا عيروا بالجهل قالوا : ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الأولين ﴾ أي : كتاباً من كتب الأوّلين كالتوراة ، والإنجيل ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ الله المخلصين ﴾ أي : لأخلصنا العبادة له ، ولم نكفر به ، و "إن" في قوله : ﴿ وَإِن كَانُواْ ﴾ هي : المخففة من الثقيلة ، وفيها ضمير شأن محذوف ، واللام هي : الفارقة بينها ، وبين النافية ، أي : وإن الشأن كان كفار العرب ليقولون إلخ ، والفاء في قوله : ﴿ فَكَفَرُواْ بِهِ ﴾ هي : الفصيحة

الدالة على محذوف مقدّر في الكلام .

قال الفراء : تقديره : فجاءهم محمد بالذكر ، فكفروا به ، وهذا على طريق التعجب منهم ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : عاقبة كفرهم ، ومغبته ، وفي هذا تهديد لهم شديد .

*(48/656)*

---

وجملة ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين ﴾ مستأنفة مقرّرة للوعيد ، والمراد بالكلمة : ما وعدهم الله به من النصر ، والظفر على الكفار .

قال مقاتل : عنى بالكلمة : قوله سبحانه : ﴿ كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ [ المجادلة : 21 ] وقال الفراء : سبقت كلمتنا بالسعادة لهم ، والأولى تفسير هذه الكلمة بما هو مذكور هنا ، فإنه قال : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ فهذه هي الكلمة المذكورة سابقاً ، وهذا تفسير لها ، والمراد بجند الله : حزبه ، وهم الرسل ، وأتباعهم .

قال الشيباني : جاء هنا على الجمع : يعني : قوله ﴿ لَهُمُ الغالبون ﴾ من أجل أنه رأس آية ، وهذا الوعد لهم بالنصر ، والغلبة لا ينافيه انهزامهم في بعض المواطن ، وغلبة الكفار لهم ، فإن الغالب في كل موطن هو : انتصارهم على الأعداء ، وغلبتهم لهم ، فخرج الكلام مخرج

الغالب، على أن العاقبة المحمودة لهم على كل حال، وفي كل موطن كما قال سبحانه: ﴿ والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: 83].

ثم أمر الله سبحانه رسوله بالإعراض عنهم، والإغماض عما يصدر منهم من الجهالات، والضلالات، فقال: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حتى حِينٍ ﴾ أي: أعرض عنهم إلى مدّة معلومة عند الله سبحانه، وهي: مدة الكف عن القتال.

قال السدّي، ومجاهد: حتى نأمرك بالقتال.

وقال قتادة: إلى الموت، وقيل: إلى يوم بدر، وقيل: إلى يوم فتح مكة، وقيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ أي: وأبصرهم إذا نزل بهم العذاب بالقتل، والأسر، فسوف يبصرون حين لا ينفعهم الإبصار، وعبر بالإبصار عن قرب الأمر، أي: فسوف يبصرون عن قريب.

وقيل: المعنى: فسوف يبصرون العذاب يوم القيامة.

(49/656)

---

ثم هددهم بقوله سبحانه: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم: متى هذا العذاب؟ ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ أي: إذا نزل عذاب الله لهم بفنائهم،

والساحة في اللغة : فناء الدار الواسع .

قال الفراء : نزل بساحتهم ، ونزل بهم سواء .

قال الزجاج : وكان عذاب هؤلاء بالقتل ، قيل : المراد به نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بساحتهم يوم فتح مكة .

قرأ الجمهور ﴿ نزل ﴾ مبنياً للفاعل .

وقرأ عبد الله بن مسعود على البناء للمفعول ، والجار والمجرور قائم مقام الفاعل ﴿ فَسَاء صَبَاحُ المنذرين ﴾ أي : بئس صباح الذين أنذروا بالعذاب ، والمخصوص بالذم محذوف ، أي : صباحهم .

وخصّ الصباح بالذكر ؛ لأن العذاب كان يأتيهم فيه .

ثم كرر سبحانه ما سبق تأكيداً للوعد بالعذاب ، فقال : ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حتى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ، وحذف مفعول أبصر ها هنا ، وذكره أوّلاً إما لدلالة الأوّل عليه ، فتركه هنا اختصاراً ، أو قصداً إلى التعميم للإيذان بأن ما يبصره من أنواع عذابهم لا يحيط به الوصف .

وقيل : هذه الجملة المراد بها : أحوال القيامة ، والجملة الأولى المراد بها : عذابهم في الدنيا ، وعلى هذا فلا يكون من باب التأكيد ، بل من باب التأسيس .

ثم نزّه سبحانه نفسه عن قبيح ما يصدر منهم ، فقال : ﴿ سبحان رَبّكَ رَبّ العزة عَمَّا

يَصِفُونَ ﴾ العزّة : الغلبة ، والقوة ، والمراد : تنزيهه عن كل ما يصفونه به مما لا يليق بجنابه الشريف ، وربّ العزّة بدل من ربك .

ثم ذكر ما يدلّ على تشريف رسله ، وتكريمهم ، فقال : ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ أي : الذين أرسلهم إلى عباده ، وبلغوا رسالاته ، وهو من السلام الذي هو : التحية .

(50/656)

---

وقيل : معناه : أمن لهم ، وسلامة من المكاره ﴿ والحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ إرشاد لعباده إلى حمده على إرسال رسله إليهم مبشرين ، ومنذرين ، وتعليم لهم كيف يصنعون عند إنعامه عليهم ، وما يثنون عليه به .

وقيل : إنه الحمد على هلاك المشركين ، ونصر الرسل عليهم ، والأولى أنه حمد الله سبحانه على كل ما أنعم به على خلقه أجمعين كما يفيده حذف المحمود عليه ، فإن حذفه مشعر بالتعميم كما تقرّر في علم المعاني ، والحمد هو : الثناء الجميل بقصد التعظيم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ قال : زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ قال : فإنكم يا معشر

المشركين، وما تعبدون يعني: الآلهة ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بفاتنين ﴾ قال: بمضلين ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم ﴾ يقول: إلا من سبق في علمي أنه سيصلى الجحيم.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية يقول: إنكم لا تضلون أنتم، ولا أضلّ منكم إلا من قضيت عليه أنه صال الجحيم.

وأخرج عبد بن حميد، وابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: لا تفتنون إلا من هو صال الجحيم.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ قال: الملائكة ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافون ﴾ قال: الملائكة ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون ﴾ قال: الملائكة.

(51/656)

---

وأخرج محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد، أو قائم، وذلك قول الملائكة: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافون ﴾ " وأخرج محمد بن نصر، وابن عساكر عن العلاء بن سعد

، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوماً لأصحابه : "أطت السماء ، وحق لها أن تئط ، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع ، أو ساجد "

، ثم قرأ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافون * وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال : إن من السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا ، وعليه جبهة ملك ، أو قدماه قائماً ، أو ساجداً ، ثم قرأ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافون * وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون ﴾ .

وأخرج الترمذي وحسنه ، وابن جرير ، وابن مردويه عن أبي ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، إن السماء أطت ، وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله" وقد ثبت في الصحيح ، وغيره : أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الصحابة أن يصفوا كما تصفّ الملائكة عند ربهم ، فقالوا : وكيف تصفّ الملائكة عند ربهم؟ قال : "يقيمون الصفوف المقدّمة ، ويتراصون في الصف" وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مّنَ الأولين ﴾ قال : لما جاء المشركين من أهل مكة ذكر الأوّلين ، وعلم الآخرين كفروا بالكتاب ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن أنس قال : صبح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر ، وقد خرجوا بالمساحي ، فلما نظروا إليه قالوا : محمد ، والخميس ، فقال : " الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين " الحديث .

وأخرج ابن سعد ، وابن مردويه من طريق سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا سلمتم على المرسلين ، فسلموا عليّ ، فإنما أنا بشر من المرسلين " وأخرج ابن مردويه من طريق أبي العوام ، عن قتادة ، عن أنس مرفوعاً نحوه بأطول منه .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأبو يعلى ، وابن مردويه ، عن أبي سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه كان إذا أراد أن يسلم من صلاته قال : " ﴿ سبحان ربّكَ ربّ العزة عمّا يَصِفُونَ * وسلام على المرسلين * والحمد للَّهِ ربّ العالمين ﴾ " .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال : كنا نعرف انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة بقوله : ﴿ سبحان ربّكَ ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج الخطيب نحوه من حديث أبي سعيد .

وأخرج الطبراني عن زيد بن أرقم ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قال

دبر كل صلاة : ﴿ سبحان ربّك ربّ العزة عمّا يصِفُونَ * وسلام على المرسلين * والحمد للّهِ ربّ العالمين ﴾ ثلاث مرات ، فقد اكتال بالمكيال الأوفى من الأجر " وأخرج حميد بن زنجويه في ترغيبه من طريق الأصبغ بن نباتة عن عليّ بن أبي طالب نحوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(53/656)

---

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى ﴿ فاستفتهم أَلِرَبّكَ البنات ولَهُمُ البنون ﴾ إلى قوله : ﴿ مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلهِ البنات سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [ النحل : 57 ] إلى قوله تعالى : ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [ النحل : 59 ] .

وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (167) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (168) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (169) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170)

قد قدمنا الكلام على ما في معناه من الآيات في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ ﴾ [الأنعام : 157] الآية .

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173)

هذه الاية الكريمة تدل على أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأتباعهم منصورون دائماً على الأعداء بالحجة والبيان ، ومن أمر منهم بالجهاد منصور أيضاً بالسيف والسنان ، والآيات الدالة على هذا كثيرة كقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي ﴾ [المجادلة : 21] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد ﴾ [غافر : 51] وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ [الروم : 47] وقوله تعالى : ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظالمين وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرض مِن بَعْدِهِمْ ﴾ [إبراهيم : 1314] .

(54/656)

---

وقد قدمنا إيضاح هذا بالآيات القرآنية في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ [آل عمران : 146] الآية . وسيأتي له إن شاء الله زيادة إيضاح في آخر سورة المجادلة .

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (177)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات ﴾ [ الرعد: 6 ]، وذكرنا بعض الكلام على ذلك في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ الآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [ يونس: 51 ] الاية، وفي غير ذلك من المواضع.

وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (182)

ختم هذه السورة الكريمة بالسلام على عباده المرسلين، ولا شك أنهم من عباده الذين اصطفى مع ثنائه على نفسه بقوله تعالى: ﴿ والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ معلماً خلقه أن يثنوا عليه بذلك، وما ذكره هنا من حمده هذا الحمد العظيم، والسلام على رسله الكرام، وذكره في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة النمل ﴿ قُلِ الحمد للَّهِ وَسَلاَمٌ على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾ [ النمل: 95 ] الآية. ويشبه ذلك قوله تعالى: ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهم وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [ يونس: 10 ]. انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(55/656)

وقال ابن عاشور:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) ﴾

تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم على ما تضمنه قوله: ﴿ فكفروا به ﴾ [الصافات: 170] وبيان لبعض الوعيد الذي في قوله: ﴿ فسوف يعلمون ﴾ [الصافات: 170] بمنزلة بدل البعض من الكل ولكنه غلب عليه جانب التسلية فعطف بالواو عطف القصة على القصة.

والكلمة مراد بها الكلامُ، عبر عن الكلام بكلمة إشارة إلى أنه منتظم في معنى واحد دال على المقصود دلالة سريعة فشبه بالكلمة الواحدة في سرعة الدلالة وإيجاز اللفظ كقوله تعالى: ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾ [المؤمنون: 100] وقول النبي صلى الله عليه وسلم "أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل" وبُينت الكلمة بجملة ﴿ إنَّهم لهم المنصُورُونَ ﴾، أي الكلام المتضمن وعدهم بأن ينصرهم الله على الذين كذبوهم وعادَوهم وهذه بشارة للنبيء صلى الله عليه وسلم عقب تسليته لأنه داخل في عموم المرسلين.

وعطف ﴿ وإنَّ جُندنا لهم الغالِبُونَ ﴾ بشارة للمؤمنين فإن المؤمنين جند الله، أي أنصاره لأنهم نصروا دينه وتلقوا كلامه، كما سموا حزب الله في قوله: ﴿ كتب اللَّه لأغلبن أنا ورسلي إن اللَّه قوي عزيز ﴾ [المجادلة: 21] إلى قوله: ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان

وأيدهم بروح منه ﴾ [ المجادلة : 22 ] إلى قوله : ﴿ أولئك حزب اللَّه ألا إن حزب اللَّه هم المفلحون ﴾ [ المجادلة : 22 ] .

وقوله : ﴿ لَهُمُ الغَالِبُونَ ﴾ يشمل علوّهم على عدوّهم في مقام الحجاج وملاحم القتال في الدنيا ، وعلوّهم عليهم في الآخرة كما قال تعالى : ﴿ والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ﴾ [ البقرة : 212 ] فهو من استعمال ﴿ الغَالِبُونَ ﴾ في حقيقته ومجازه .

*(56/656)*

---

ومعنى ﴿ المنصُورون ﴾ و ﴿ الغَالِبُونَ ﴾ في أكثر الأحوال وباعتبار العاقبة ، فلا ينافي أنهم يُغلبون نادراً ثم تكون لهم العاقبة ، أو المراد النصر والغلبة الموعود بهما قريباً وهما ما كان يوم بدر .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (174)

هذا مفرع على التسلية التي تضمنها قوله : ﴿ ولقد سبقَتْ كلِمتُنا ﴾ [ الصافات : 171 ] .

والتولي حقيقته : المفارقة كما تقدم في قصة إبراهيم ﴿ فتولَّوا عنه مُدبرين ﴾ [ الصافات : 90 ] ، واستعمل هنا مجازاً في عدم الاهتمام بما يقولونه وترك النكد من إعراضهم .

والحين: الوقت.

وأجمل هنا إيماء إلى تقليله، أي تقريبه، فالتنكير للتحقير المعنوي وهو التقليل.

ومعنى ﴿ أبصرهم ﴾ انظر إليهم، أي من الآن، وعدّي (أبصر) إلى ضميرهم الدال على ذواتهم، وليس المراد النظر إلى ذواتهم لكن إلى أحوالهم، أي تأمْل أحوالهم تركيف ننصرك عليهم، وهذا وعيد بما حلّ بهم يوم بدر.

وحذف ما يتعلق به الإِبصار من حال أو مفعول معه بتقدير: وأبصرهم مأسورين مقتولين، أو وأبصرهم وما يُقضى به عليهم من أسر وقتل لدلالة ما تقدم من قوله: ﴿ إِنَّهُم لهُمُ المنصُورون وإن جُندنا لهم الغالِبُونَ ﴾ [الصافات: 172، 173] عليه، إذ ليس المأمور به أيضاً ذواتهم، وهذا من دلالة الاقتضاء.

وصيغة الأمر في ﴿ وأَبصرهُم ﴾ مستعملة في الإِرشاد على حد قول:

إذا أعجبتك الدهر حال من امرىء

فدعه وواكل أمره والليالیا . . .

أي إذا شئت أن تتحقق قرارة حاله فانتظره.

وعبر عن ترتب نزول الوعيد بهم بفعل الإِبصار للدلالة على أن ما توعدوا به واقع لا محالة وأنه قريب حتى أن الموعود بالنصر يتشوف إلى حلوله فكان ذلك كناية عن تحققه وقربه لأن تحديق البصر لا يكون إلا إلى شيء أشرف على الحلول.

وتفريع ﴿ فسوف يبصرون ﴾ على ﴿ وأبصرهم ﴾ تفريع لإنذارهم بوعيد قريب على بشارة النبي بقربه فإن ذلك المبصر يَسرّ النبي صلى الله عليه وسلم ويحزن أعداءه ، ففي الكلام اكتفاء ، كأنه قيل : أبصرهم وما يَنزل بهم فسوف تُبصر ما وعدناك وليُبصروا ما ينزل بهم فسوف يبصرونه .

وحذف مفعول ﴿ يُبصرون ﴾ لدلالة ما دلت عليه دلالة الاقتضاء .

واعلم أن تفريع ﴿ فسوف يُبصرون ﴾ على ﴿ وأبصرهم ﴾ يمنع من إرادة أن يكون المعنى : وأبصرهم حين ينزل بهم العذاب بعد ذلك الحين كما لا يخفى .

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (176)

هذا تفريع على التأجيل المذكور في قوله : ﴿ حتى حينٍ ﴾ [ الصافات : 174 ] فإن ذلك ما أنذرهم بعذاب يحلّ بهم توُقع أنهم سيقولون على سبيل الاستهزاء أَرنا العذاب الذي تُخوفنا به وعجّله لنا .

وبعض المفسرين ذكر أنهم قالوه فلوحظ ذلك وفرع عليه استفهام تعجيبي من استعجالهم ما في تأخيره والنظرة به رأفة بهم واستبقاء لهم حيناً .

والفاء في قوله : ﴿ فإذَا نزل بساحتهم ﴾ فاء الفصيحة ، أي إن كانوا يستعجلون بالعذاب فإذا نزل بهم فبئس وقت نزوله .

وإسناد النزول إلى العذاب وجعله في ساحتهم استعارة تمثيلية مكنية ، شبهت هيئة حصول العذاب لهم بعد ما أُنذروا به فلم يعبأوا بهيئة نزول جيش عدوّ في ساحتهم بعد أن أنذرهم به النذير العريان فلم يأخذوا أُهبتهم حتى أناخ بهم .

وذكر الصباح لأنه من علائق الهيئة المشبه بها فإن شأن الغارة أن تكون في الصباح ولذلك كان نذير المجيء بغارة عدوّ ينادي : يا صباحاه نداء ندبة وتفجع .

ولذلك جعل جواب "إذا" قوله : ﴿ فَسَاءَ صباحُ المُنذَرِينَ ﴾ أي بئس الصباح صباحهم .

وفي وصفهم بـ ﴿ المُنْذَرِينَ ﴾ ترشيح للتمثيل وتورية في اللفظ لأن المشبهين منذرون من الله بالعذاب .

والذين يسوء صباحهم عند الغارة هم المهزومون فكأنه قيل : فإذا نزل بساحتهم كانوا مغلوبين .

وهذا التمثيل قابل لتفريق أجزائه في التشبيه بأن يشبه العذاب بالجيش ، وحلوله بهم بنزول الجيش بساحة قوم وما يلحقهم من ضر العذاب بضر الهزيمة ، ووقت نزول العذاب بهم بتصبيح العدوّ محلة قوم .

قال في "الكشاف" : "وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي تُحِس بها ويروقُك موردها على نفسك وطبعِك إلاّ لمجيئها على طريقة التمثيل" .

واعلم أن في اختيار هذا التمثيل البديع معنى بديعاً من الإِيماء إلى أن العذاب الذي وُعِدوه هو ما أصابهم يوم بدر من قَتل وأسر على طريقة التورية .

وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (178)

عطف على جملة ﴿ فإذا نزل بساحتهم ﴾ [ الصافات : 177 ] الآية لأن معنى المعطوف عليها الوعد بأن الله سينتقم منهم فعطف عليه أمره رسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا يهتمّ بعنادهم .

وهذه نظير التي سبقتها المفرعة بالفاء فلذلك يحصل منها تأكيد نظيرتها ، على أنه قد يكون هذا التولّي غيرَ الأول وإلى حينٍ آخرَ وإبصارٍ آخر ، فالظاهر أنه توَلَ عمن يبقى من المشركين بعد حلول العذاب الذي استُعجلوه ، فيحتمل أن يكون حيناً من أوقات الدنيا فهو إنذار بفتح مكة .

ويحتمل أن يكون إلى حين من أحيان الآخرة ، وإنما جعل ذلك غاية لتولي النبي صلى الله

عليه وسلم عنهم لأن توليه العذاب عنهم غاية لتولي النبي صلى الله عليه وسلم عنهم لأن توليه عنهم مستمر إلى يوم القيامة فإن مدة لحاق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى لما كانت متصلة بتوليه عنهم جعلت تلك المدة كأنها ظرف للتولي ينتهي بحين إحضارهم للعقاب، فيكون قوله: ﴿ حتى حِيْنَ ﴾ مراداً به الأبد.

وحذف مفعول ﴿ وأبصر ﴾ في هذه الآية لدلالة ما في نظيرها عليه.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180)

خطاب النبي صلى الله عليه وسلم تذييلاً لخطابه المبتدأ بقوله تعالى: ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ﴾ [الصافات: 149] الآية.

(59/656)

---

فإنه خلاصة جامعة لما حوته من تنزيه الله وتأييده رسله.

وهذه الآية فذلكة لما احتوت عليه السورة من الأغراض جمعت تنزيه الله والثناء على الرسل والملائكة وحمد الله على ما سبق ذكره من نعمة على المسلمين من هدى ونصر وفوز بالنعيم المقيم.

وهذه المقاصد الثلاثة هي أصول كمال النفوس في العاجل والآجل، لأن معرفة الله تعالى بما

يليق به تنقذ النفس من الوقوع في مهاوي الجهالة المفضية إلى الضلالة فسوءِ الحالة.

وإنما يتم ذلك بتنزيهه عما لا يليق به.

فأشار قوله: ﴿ سبحان ربِّكَ ﴾ الخ إلى تنزيهه، وأشار وصف ﴿ رَبِّ العِزَّة ﴾ إلى التوصيف بصفات الكمال، فإن العزة تجمع الصفاتِ النفسية وصفاتِ المعاني والمعنوية لأن الربوبية هي كمال الاستغناء عن الغير، ولما كانت النفوس وإن تفاوتت في مراتب الكمال لا تسلم من نقص أو حيرة كانت في حاجة إلى مرشدين يبلغونها مراتب الكمال بإرشاد الله تعالى وذلك بواسطة الرسل إلى الناس وبواسطة المبلغين من الملائكة إلى الرسل.

وكانت غاية ذلك هي بلوغ الكمال في الدنيا والفوز بالنعيم الدائم في الآخرة.

وتلك نعمة تستوجب على الناس حمد الله تعالى على ذلك لأن الحمد يقتضي اتصاف المحمود بالفضائل وإنعامَه بالفواضل وأعظمُها نعمة الهداية بواسطة الرسل فهم المبلغون إرشاد الله إلى الخلق.

و﴿ رَبّ ﴾ هنا بمعنى: مالك.

ومعنى كونه تعالى مالك العزة: أنه منفرد بالعزة الحقيقية وهي العزة التي لا يشوبها افتقار، فإضافة ﴿ رَبّ ﴾ إلى ﴿ العِزَّة ﴾ على معنى لام الاختصاص كما يقال: صاحب صِدق، لمن اختص بالصدق وكان عريقاً فيه.

وفي الانتقال من الآيات السابقة إلى التسبيح والتسليم إيذان بانتهاء السورة على طريقة براعة الختم مع كونها من جوامع الكلم.

والتعريف في ﴿ العِزَّة ﴾ كالتعريف في ﴿ الحمد ﴾ هو تعريف الجنس فيقتضي انفراده تعالى به لأن ما يثبت لغيره من ذلك الجنس كالعَدم كما تقدم في سورة الفاتحة.

(60/656)

---

وتنكير ﴿ سلام ﴾ للتعظيم.

ووصف ﴿ المُرْسَلِينَ ﴾ يشمل الأنبياء والملائكة فإن الملائكة مُرسلون فيما يقومون به من تنفيذ أمر الله.

روى القرطبي في "تفسيره" بسنده إلى يحيى بن يحيى التميمي النيسابُوري إلى أبي سعيد الخدْري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين يقول آخر صلاته أو حينَ ينصرف: ﴿ سبحان ربك رب العزة عمَّا يصفون وسلامٌ على المُرسلينَ ﴾.

ومن المروي عن علي بن أبي طالب "مَن أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخرَ مجلسه حينَ يريد أن يقوم ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ إلى

آخر السورة ، وفي بعض أسانيده أنه رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصح" .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(61/656)

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) (الصافات : 175) ثم قال : (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) (الصافات : 179) ، يسأل عن الضمير المفعول وثبوته أولا في قوله :

(وأبصرهم) وسقوطه ثانياً في قوله (وأبصر) ؟ وعن وجه التكرار ؟

والجواب عن ذلك : أن التكرار تأكيد وتشديد في الوعيد ، وتناسب ذلك بين مألوف في كلام العرب ، وأما سقوط الضمير في الثاني فيحرز عموماً لهم ولغيرهم في الوعيد لأن قوله :

(وأبصرهم) المراد به أمره ، عليه السلام ، بأن يترقب ما ينزل (بهم) ويحل بساحتهم من الانتقام ، وإعلامه صلى الله عليه وسلم ، في بكفايته إياهم كما قال تعالى : (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) (الحجر : 95) فكان كذلك ، وقال تعالى : (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) (القمر : 45) ، ففعل بهم ذلك يوم بدر ، فقدم (الله) سبحانه تأنيس نبيه ، عليه السلام ،

بإخباره إياه في هذا الوعيد (لهم) بأخذهم وقطع دابرهم ، ثم أردف هذا الوعيد بوعيد ثان فيه عموم يشملهم ولا يرجع عن تناول غيرهم ممن سلك مسلكهم ، ويشعر بحاله هو ، عليه السلام ، وحال من أذعنوا استجاب له فقال : (وأبصر) أي ترقب ما أفعل لك من تأييدك ونصرك وجزائك الأخراوي وجزاء من آمن بك بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وما أفعل بمن عاداك وعاندك ممن باشرك بتمرده وطغيانه أو بعد عنك ، من أخذهم وقطع دابرهم ووبيل جزائهم الأخراوي ، هذا مفهوم لا يرجع إطلاق قوله : (وأبصر) عن عطائه وتعميمه ، ذلك كله مما يعتضد من مواضع أخر ، وتأمل ما فعل سبحانه بكسرى حين مزق كتابه صلى الله عليه وسلم تمرداً وطغياناً وإن لم يباشره ، لما جاوز حد كفره إلى التمرد والطغيان مُزق هو وآله كل ممزق .

(62/656)

---

أما قوله : (وأبصرهم) فخاض التناول للمباشرين لمكان القيد بإعمال الفعل في ضميرهم ، فهو وإن تناول أخذهم في الدنيا وتمكين نبيه والمسلمين منهم ، ثم عقابهم الأخراوي ليبلغ بالتهديد والوعيد أقصى ما يحتلمه ، فإنه لا يتعداهم إلى غيرهم وأما قوله (وأبصر) بإطلاق الفعل عن التقييد فقابل غير ممتنع عن تناولهم ومن سواهم من كل من

خالفه ، عليه السلام ، وعاداه ، ومقتضى الوعيد لهم ومقصود بشارته له ، عليه السلام ، يحبذان أن إطلاق الأمرين وتعميم الطرفين من الوعيد والبشارة ، فقد وضح أنه لا تكرار في الحقيقة ، بل ورد ذلك كله على ما يلائم ويناسب ، وعبر عن ذلك كله بعبارة الإبصار إشعاراً بقربه ، فكأنه بمنزلة المعاين المدرك بالبصر لتعجيل الدنياوي منه وتحقيق وقوع الأخراوي وتقنه ، فكل هذا على أوضح مناسبة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 412. 413 ﴾

*(63/656)*

---

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فاستفتهم ﴾ قال : فسلهم يعني مشركي قريش ﴿ ألربك البنات ولهم البنون ﴾ قال : لأنهم قالوا : لله البنات ولهم البنون ، وقالوا : إن الملائكة أناث فقال ﴿ أم خلقنا الملائكة أناثاً وهم شاهدون ﴾ كذلك ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون ،

اصطفى البنات على البنين ﴾ فكيف يجعل لكم البنين، ولنفسه البنات ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ إن هذا الحكم جائر ﴿ أفلا تذكرون، أم لكم سلطان مبين ﴾ أي عذر مبين ﴿ فائتوا بكتابكم ﴾ أي بعذركم ﴿ إن كنتم صادقين، وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾

قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى أنه هو وإبليس أخوان.

وأخرج آدم بن أبي اياس وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ قال: قال كفار قريش الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكر الصديق: فمن أمهاتهم؟ فقالوا: بنات سروات الجن. فقال الله ﴿ ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ﴾ يقول: إنها ستحضر الحساب، قال: والجنة الملائكة.

وأخرج جويبر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أنزلت هذه الآية في ثلاثة أحياء من قريش: سليم، وخزاعة، وجهينة ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ قال: قالوا صاهر إلى كرام الجن الآية.

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ قال: قالوا الملائكة بنات الله.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية رضي الله عنه في قوله ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾

قال : قالوا صاهر إلى كرام الجن .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن أبي صالح رضي الله عنه قال ﴿ الجنة ﴾ الملائكة .

*(64/656)*

---

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي مالك رضي الله عنه قال : إنهم سموا الجن لأنهم كانوا على الجنان ، والملائكة كلهم أجنة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ﴾ قال : في النار ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ قال : عما يكذبون ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ قال : هذه ثنيا الله من الجن والإنس .

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (161) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (162) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (163)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فإنكم ﴾ يا معشر المشركين ﴿ وما تعبدون ﴾ يعني الآلهة ﴿ ما أنتم عليه بفاتنين ﴾ بمصلين ﴿ إلا من هو صال الجحيم ﴾ يقول : إلا من سبق في علمي أنه سيصلى الجحيم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم واللالكائي في السنة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم ﴾ يقول : لا تضلون أنتم ، ولا أضل منكم إلا من قضيت عليه أنه صال الجحيم .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ما أنتم عليه بفاتنين ﴾ قال : بمضلين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن رضي الله عنه ﴿ ما أنتم عليه بفاتنين ﴾ قال : بمضلين ﴿ إلا من هو صال الجحيم ﴾ إلا من قدر له أن يصلى الجحيم .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم التيمي وعمر بن عبد العزيز والضحاك ، مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه في الآية قال : لا يفتنون إلا من يصلى الجحيم ، ولا يفتنون المؤمن ، ولا يسلطون عليه .

وأخرج عبد بن حميد والبيهقي في الأسماء والصفات عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال : لو أراد الله أن لا يعصى ما خلق إبليس ، ثم قرأ ﴿ ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه في الآية قال : يا بني إبليس إنكم لن تقدروا أن تفتنوا أحداً من عبادي ، إلا من سيصلى الجحيم .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال : لا يفتنون ﴿ إلا من هو صال الجحيم ﴾ .

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (164) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (166)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ قال : الملائكة ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ قال الملائكة ﴿ وإنا لنحن المسبحون ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ، مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه في الآية قال : ذاك قول جبريل عليه السلام .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ قال : الملائكة . ما في السماء موضع إلا عليه ملك إما ساجد أو قائم حتى تقوم الساعة .

وأخرج محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن

مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم ، وذلك قول الملائكة عليهم السلام ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ﴾ " .

وأخرج محمد بن نصر وابن عساكر عن العلاء بن سعد رضي الله عنه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوماً لجلسائه : " اطت السماء ، وحق لها أن تئط ، ليس منها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد . ثم قرأ ﴿ وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون ﴾ " .

*(66/656)*

---

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في شعب الايمان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن من السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه ، قائماً أو ساجداً . ثم قرأ ﴿ وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون ﴾ قال : اطت السماء ، وما تلام أن تئط ، إن في السماء لسماء ما فيها موضع

شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن ماجة وابن مردويه عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون . إن السماء اطت ، وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله " .

وأخرج ابن مردويه عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " هل تسمعون ما أسمع ؟ قلنا يا رسول الله ما تسمع ؟ ! قال : اسمع اطيط السماء ، وما تلام أن تئط . ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك راكع أو ساجد " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال : كانوا يصلون الرجال والنساء جميعاً حتى نزلت ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ فتقدم الرجال ، وتأخر النساء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن مالك رضي الله عنه قال : كان الناس يصلون متبددين ، فأنزل الله ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ فأمرهم أن يصفوا .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه قال : حدثت أنهم كانوا لا يصفون حتى نزلت ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث رضي الله عنه قال : كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن الحسن رضي الله عنه قال : "كانت أول صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر . فأتاه جبريل عليه السلام فقال ﴿ وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون ﴾ فقام جبريل عليه السلام بين يديه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه ، ثم صف النساء من خلفه ، والنساء خلف الرجال ، فصلى بهم الظهر أربعاً حتى إذا كان عند العصر ، قام جبريل عليه السلام ففعل مثلها ، ثم جاءه حين غربت الشمس ، فصلى بهم ثلاثاً ، يقرأ في الركعتين الأولتين يجهر فيهما ، ولم يسمع في الثالثة . حتى إذا كان عند العشاء ، وغاب الشفق ، جاء جبريل عليه السلام فصلى بالناس أربع ركعات يجهر بالقراءة في ركعتين . حتى إذا أصبح ليلته ؛ أتاه فصلى ركعتين يجهر فيهما ويطوّل القراءة" .

وأخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة قال : "استووا . تقدم يا فلان ، تأخر يا فلان ، أقيموا صفوفكم يريد الله بكم هدي الملائكة . ثم يتلو ﴿ وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن جابر بن سمرة رضي الله

عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم . قال : يقيمون الصفوف المقدمة ، ويتراصون في الصف " .

وأخرج مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجداً ، وجعلت لنا تربتها طهوراً إذا لم نجد الماء " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اعتدلوا في صفوفكم ، وتراصوا ، فإني أراكم من ورائي . قال أنس رضي الله عنه : لقد رأيت أحدنا يلزق منكبه بمنكب صاحبه ، وقدمه بقدمه " .



---

وأخرج ابن أبي شيبة عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقوّم الصفوف كما تقوّم القداح ، فأبصر يوماً صدر رجل خارجاً من الصف فقال : " لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم " .

وأخرج أحمد وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أقيموا صفوفكم ، لا يتخللكم الشيطان كأولاد الحذف . قيل يا

رسول الله وما أولاد الحذف ؟ قال : ضأن سود يكون بأرض اليمن " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول : " استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أقيموا صفوفكم فإن من حسن الصلاة إقامة الصف " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا ، فبين لنا سنتنا ، وعلمنا صلاتنا فقال : " إذا صليتم فأقيموا صفوفكم " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا قمتم إلى الصلاة فاعدلوا صفوفكم ، وسدوا الفرج ، فإني أراكم من وراء ظهري " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سد فرجة في صف رفعه الله بها درجة ، وبنى له بيتاً في الجنة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سوّوا صفوفكم ، واحسنوا ركوعكم وسجودكم " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن علي رضي الله عنه قال : استووا تستوي قلوبكم ، وتَراصُّوا تُرْحَمُوا .

(69/656)

---

وأخرج محمد بن نصر عن أبي صالح رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ﴾ [ المزمل : 20 ] إلى قوله ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ [ المزمل : 20 ] قال جبريل عليه السلام : أشق ذلك عليكم ؟ قال : نعم . قال ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ قال : صفوف في السماء ﴿ وإنا لنحن المسبحون ﴾ أي المصلون هذا قول الملائكة يبينون مكانهم من العباد .

وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (167) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (168)

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لو أن عندنا ذكراً من الأولين . . ﴾ قال : لما جاء المشركين من أهل مكة ذكر الأولين ، وعلم الآخرين ، كفروا بالكتاب ﴿ فسوف يعلمون ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ وإن كانوا ليقولون . . ﴾ قال : قالت هذه الأمة ذلك قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم قول أهل الشرك من أهل مكة ، فلما جاءهم ذكر الأولين ، وعلم الآخرين ، كفروا به .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وإن كانوا ليقولون ﴾ قال : قالت هذه الأمة ذلك قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ كفروا به فسوف يعلمون ﴾ وفي قوله ﴿ ولقد سبقت كلمتنا . . ﴾ قال : كانت الأنبياء تقتل وهم منصورون ، والمؤمنون يقتلون وهم منصورون ، نصروا بالحجج في الدنيا والآخرة ، ولم يقتل نبي قط ، ولا قوم يدعون إلى الحق من المؤمنين ، فتذهب تلك الأمة والقرن ، حتى يبعث الله قرآناً ينتصر بهم منهم .

(70/656)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فتول عنهم حتى حين ﴾ قال : إلى الموت ﴿ وأبصرهم فسوف يبصرون ﴾ قال : ابصروا حين لم ينفعهم البصر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ فتول عنهم حتى حين ﴾ قال :

يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ فتول عنهم حتى حين ﴾ قال : يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ فتول عنهم حتى حين ﴾ قال : يوم بدر . وفي قوله ﴿ فإذا نزل بساحتهم ﴾ قال : بدارهم ﴿ فساء صباح المنذرين ﴾ قال : بئسما يصبحون .

وأخرج جويبر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالوا يا محمد أرنا العذاب الذي تخوّفنا به عجله لنا ، فنزلت ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : " صبح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر وقد خرجوا بالمساحي ، فلما نظروا إليه قالوا : محمد والخميس . فقال : الله أكبر خربت خيبر ، إنا أنزلنا بساحة قوم ﴿ فساء صباح المنذرين ﴾ فأصبنا حمراً خارجة من القرية ، فطبخناها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ إن الله ورسوله ينهاكم عن الحمر الأهلية ، فإنها رجس من عمل الشيطان " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وتول عنهم حتى حين ﴾ قال : قيل له أعرض عنهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم رضي الله عنه في قوله ﴿ وأبصر فسوف يبصرون ﴾ قال : يقول يوم القيامة ، ما صنعوا من أمر الله ، وكفرهم بالله ورسوله وكتابه ، قال ﴿ أبصر ﴾ وأبصرهم واحد .

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (182)

(71/656)

---

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ سبحان ربك رب العزة ﴾ قال : يسبح نفسه إذ كذب عليه ، وقيل عليه البهتان ﴿ عما يصفون ﴾ قال : عما يكذبون ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سلمتم عليَّ فسلموا على المرسلين ، فإنما أنا رسول من المرسلين " .

وأخرج ابن مردويه من طريق أبي العوام عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سلمتم علي ، فسلموا على المرسلين ، فإنما أنا رسول من المرسلين " قال أبو العوام رضي الله عنه : كان قتادة يذكر هذا الحديث إذا تلا هذه الآية ﴿

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ .

وأخرج ابن سعد وابن مردويه من طريق سعيد عن قتادة عن أنس عن أبي طلحة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا سلمتم على المرسلين فسلموا عليَّ ، فإنما أنا بشر من المرسلين " .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنا نعرف انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة بقوله ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى وابن مردويه عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنه كان إذا أراد أن يسلم من صلاته قال ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ " .

وأخرج الدارقطني في الافراد عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ هذه الآيات ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ﴾ .

وأخرج الخطيب عن أبي سعيد الخدري قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بعد أن يسلم ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ " .

(72/656)

---

وأخرج الطبراني عن زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قال دبر كل صلاة ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ﴾ ثلاث مرات ، فقد اكتال بالمكيال الأوفى من الأجر " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ " .

وأخرج البغوي في تفسيره من وجه آخر متصل عن علي موقوفاً .

وأخرج حميد بن زنجويه في ترغيبه من طريق الأصبغ بن نباتة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى فليقرأ هذه الآية ثلاث مرات ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(73/656)

---

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

: ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ إلى قَوْلِهِ :

﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : ظَاهِرُهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مَأْمُورًا بِذَبْحِهِ ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ إنَّمَا تَضَمَّنَ مُعَالَجَةَ الذَّبْحِ لَا ذَبْحًا يُوجِبُ الْمَوْتَ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ حَصَلَ عَلَى شَرِيطَةِ التَّخْلِيَةِ وَالتَّمْكِينِ مِنْهُ وَعَلَى أَنْ لَا يَفْدِيَهُ بِشَيْءٍ وَأَنَّهُ إنْ فَدَى مِنْهُ بِشَيْءٍ قَائِمًا مَقَامَهُ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ ظَاهِرَهُ قَدْ اقْتَضَى الْأَمْرَ قَوْلُهُ : ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ ظَاهِرُهُ قَدْ اقْتَضَى الْأَمْرَ بِالذَّبْحِ لَمَا قَالَ : ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ وَلَمْ يَكُنْ الذَّبْحُ فِدَاءً عَنْ ذَبْحٍ مُتَوَقَّعٍ .

وَرُوِيَ أَنَّ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ نَذَرَ إنْ رَزَقَهُ اللَّهُ وَلَدًا ذَكَرًا أَنْ يَجْعَلَهُ ذَبِيحًا لِلَّهِ ، فَأُمِرَ بِالْوَفَاءِ بِهِ .

وَرُوِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ابْتَدَأَ بِالْأَمْرِ بِالذَّبْحِ عَلَى نَحْوِ مَا قَدَّمْنَا وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ وَرَدَ بِذَبْحِ ابْنِهِ وَذَبَحَهُ فَوَصَلَ اللَّهُ أَوْدَاجَهُ قَبْلَ خُرُوجِ الرُّوحِ وَكَانَتْ الْفِدْيَةُ لِبَقَاءِ حَيَاتِهِ .

(74/656)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَعَلَى أَيِّ وَجْهٍ تَصَرَّفَ تَأْوِيلُ الْآيَةِ قَدْ تَضَمَّنَ الْأَمْرُ بِذَبْحِ الْوَلَدِ إيجَابَ شَاةٍ فِي الْعَاقِبَةِ ، فَلَمَّا صَارَ مُوجَبُ هَذَا اللَّفْظِ إيجَابَ شَاةٍ فِي الْمُتَعَقَّبِ فِي شَرِيعَةِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِاتِّبَاعِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إلَيْك أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ ﴾ وَجَبَ عَلَى مَنْ نَذَرَ ذَبْحَ وَلَدِهِ شَاةٌ وَقَدْ اخْتَلَفَ السَّلَفُ وَفُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ بَعْدَهُمْ فِي ذَلِكَ فَرَوَى عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الرَّجُلِ يَقُولُ : هُوَ

نَحَرَ ابْنَهُ ، قَالَ : "كَبْشٌ كَمَا فَدَى إبْرَاهِيمُ إسْحَاقَ" .

وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ الْحَكَمِ عَنْ عَلِيٍّ فِي رَجُلٍ نَذَرَ أَنْ يَنْحَرَ ابْنَهُ قَالَ : "يُهْدِي بَدَنَةً أَوْ دِيَتَهُ شَكَّ الرَّاوِي .

وَعَنْ مَسْرُوقٍ مِثْلُ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ .

وَرَوَى شُعْبَةُ عَنْ الْحَكَمِ عَنْ إبْرَاهِيمَ قَالَ : "يَحُجُّ وَيُهْدِي بَدَنَةً" .

وَرَوَى دَاوُد بْنُ أَبِي هِنْدٍ عَنْ عَامِرٍ فِي رَجُلٍ حَلَفَ أَنْ يَنْحَرَ ابْنَهُ قَالَ : " قَالَ بَعْضُهُمْ مِائَةٌ مِنْ الْإِبِلِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كَبْشٌ كَمَا فُدِيَ إسْحَاقُ" .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ : "عَلَيْهِ ذَبْحُ شَاةٍ" وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ : "لَا شَيْءَ عَلَيْهِ

" وقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : " لَوْ نذرَ ذَبْحَ عَبْدِهِ لَمْ يكُنْ عَلَيْهِ شَيْءٌ " وقَالَ مُحَمَّدٌ : " عَلَيْهِ ذَبْحُ شَاةٍ " .

(75/656)

---

وظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى قوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ فِي ذَبْحِ الْوَلَدِ ؛ لِأَنَّ هذَا اللَّفْظَ قَدْ صَارَ عِبَارَةً عَنْ إيجَابِ شَاةٍ فِي شَرِيعَةِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَوَجَبَ بَقَاءُ حُكْمِهِ مَا لَمْ يَثْبُتْ نَسْخُهُ .

وَذَهَبَ أَبُو يُوسُفَ إلَى حَدِيثِ أَبِي قِلَابَةَ عَنْ أَبِي الْمُهَلَّبِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ .

} وَرَوَى الْحَسَنُ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةٍ وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ } .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَا يَلْزَمُ الْقَائِلِينَ بِالْقَوْلِ الْأَوَّلِ وَذَلِكَ لِأَنَّ قَوْلَهُ : " عَلَيَّ ذَبْحُ وَلَدِي " لَمَّا صَارَ عِبَارَةً عَنْ إيجَابِ ذَبْحِ شَاةٍ صَارَ بِمَنْزِلَةِ مَا لَوْ قَالَ : " عَلَيَّ ذَبْحُ شَاةٍ " وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَعْصِيَةً ، وَإِنَّمَا لَمْ يُوجِبْ أَبُو حَنِيفَةَ عَلَى النَّاذِرِ ذَبْحَ عَبْدِهِ شَيْئًا ؛ لِأَنَّ هَذَا اللَّفْظَ ظَاهِرُهُ مَعْصِيَةٌ وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الشَّرْعِ عِبَارَةٌ عَنْ ذَبْحِ شَاةٍ فَكَانَ نَذْرَ مَعْصِيَةٍ .

وَقَدْ قَالُوا جَمِيعًا

فِيمَنْ قَالَ : لِلَّهِ عَلَيَّ أَنْ أَقْتُلَ وَلَدِي : إنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ هَذَا اللَّفْظَ ظَاهِرُهُ مَعْصِيَةٌ ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الشَّرْعِ عِبَارَةٌ عَنْ ذَبْحِ شَاةٍ وَقَدْ رَوَى يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ : كُنْت عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ فَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ : إنِّي نَذَرْت أَنْ أَنْحَرَ ابْنِي قَالَ : لَا تَنْحَرِي ابْنَك وَكَفِّرِي عَنْ يَمِينِك " فَقَالَ رَجُلٌ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ : إنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " مَهْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الظِّهَارِ مَا سَمِعْت وَأَوْجَبَ فِيهِ مَا ذَكَرَهُ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمُخَالِفٍ لِمَا قَدَّمْنَا مِنْ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي إيجَابِهِ كَبْشًا ؛ لِأَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مِنْ مَذْهَبِهِ إيجَابُهُمَا جَمِيعًا إذَا أَرَادَ بِالنَّذْرِ الْيَمِينَ ، كَمَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ فِيمَنْ قَالَ : " لِلَّهِ عَلَيَّ أَنْ أَصُومَ غَدًا " فَلَمْ يَفْعَلْ وَأَرَادَ الْيَمِينَ أَنَّ عَلَيْهِ كَفَّارَةَ الْيَمِينِ وَالْقَضَاءَ جَمِيعًا .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي الذَّبِيحِ مِنْ وَلَدَيْ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَكَعْبٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ أَنَّهُ إسْحَاقُ ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ

وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ أَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ .

وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَوْلَانِ جَمِيعًا .

(77/656)

---

وَمَنْ قَالَ : هُوَ إِسْمَاعِيلُ يَحْتَجُّ بِقَوْلِهِ عَقِيبَ ذِكْرِ الذَّبْحِ : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا ﴾ فَلَمَّا كَانَتْ الْبِشَارَةُ بَعْدَ الذَّبْحِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ وَاحْتَجَّ الْآخَرُونَ بِأَنَّهُ لَيْسَ بِبِشَارَةٍ بِوِلَادَتِهِ وَإِنَّمَا هِيَ بِشَارَةٌ بِنُبُوَّتِهِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا ﴾

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ ﴾ احْتَجَّ بِهِ بَعْضُ الْأَغْمَارِ فِي إيجَابِ الْقُرْعَةِ فِي الْعَبِيدِ يُعْتِقُهُمْ الْمَرِيضُ .

وَذَلِكَ إغْفَالٌ مِنْهُ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَاهَمَ فِي طَرْحِهِ فِي الْبَحْرِ ، وَذَلِكَ لَا يَجُوزُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ الْفُقَهَاءِ كَمَا لَا تَجُوزُ الْقُرْعَةُ فِي قَتْلِ مَنْ خَرَجَتْ عَلَيْهِ وَفِي أَخْذِ مَالِهِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ خَاصٌّ فِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ دُونَ غَيْرِهِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : بَلْ يَزِيدُونَ .

قِيلَ : إنَّ مَعْنَى " أَوْ " هَهُنَا الْإِبْهَامُ ، كَأَنَّهُ قَالَ : أَرْسَلْنَاهُ إلَى أَحَدِ الْعَدَدَيْنِ ، وَقِيلَ : هُوَ عَلَى

شَكِّ الْمُخَاطَبِينَ ؛ إذْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى لَا يُجَوِّزُ عَلَيْك الشَّكَّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(78/656)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ ﴾ :

الضميرُ فيه وجهان ، أظهرُهما : أنَّه يعودُ على نوحٍ أي : مِمَّن كان يُشايِعُه أي : يتابِعُه على دينِه والتصلُّبِ في أمر الله . والثاني : أنه يعودُ على محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم . والشِّيْعَةُ قد تُطْلَقُ على المتقدم كقوله :

3817 وما ليَ إلاَّ آلَ أحمدَ شِيْعَةٌ . . . وما لِيَ إلاَّ مَشْعَبَ الحقِّ مَشْعَبُ

فجعل آلَ أحمدَ - وهم متقدِّمون عليه وهو تابعٌ لهم - شِيعةً له قاله الفراء . والمعروفُ أن الشِّيْعَةَ تكونُ في المتأخِّر .

إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84)

قوله : ﴿ إِذْ جَآءَ ﴾ : في العاملِ فيه وجهان ، أحدهما : اذكُرْ مقدَّراً ، وهو المتعارَفُ .

والثاني : قال الزمخشري : " ما في الشِّيْعَةِ مِنْ معنى المشايَعَة يعني : وإنَّ مِمَّنْ شايَعَه على دِينه وتقواه حين جاء ربَّه " . قال الشيخ : " لا يجوز ؛ لأنَّ فيه الفَصْلَ بين العاملِ والمعمولِ بأجنبي وهو " لإِبراهيمَ " لأنه أجنبيٌّ مِنْ شِيْعته ، ومِنْ " إذ " . وزاد المنعَ أَنْ قَدَّره " مِمَّنْ شايَعَه حين جاء لإِبراهيم " [ لأنه قدَّر مِمَّنْ شايَعَه ، فجعل العاملَ قبلَه صلةً لموصول وفَصَلَ بينه وبين " إذ " بأجنبي وهو لإِبراهيم ] وأيضاً فلامُ الابتداءِ تمنعُ أَنْ يعملَ ما قبلَها فيما بعدها . لو قلت : " إن ضارباً لقادمٌ علينا زيداً " تقديره : إنَّ ضارباً زيداً لقادِمٌ علينا لم يَجُزْ " .

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85)

قوله : ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ : بدلٌ مِنْ " إذ " الأولى أو ظرفٌ ل " سليم " أي : سَلِمَ عليه في وقتِ قولِه كَيْتَ وكَيْتَ ، أو ظرفٌ ل " جاء " ذكره أبو البقاء ، وليس بواضحٍ . وتقدَّم نظيرُ ما بعده .

أَئِفْكًا آَلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86)

قوله : ﴿ أَإِفْكاً ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه مفعولٌ من أجله أي : أتُريدون آلهةً دونَ اللَّهِ إفكاً ، ف " آلهةً " مفعولٌ به و " دونَ " ظرفٌ ل " تُرِيْدون " ، وقُدِّمَتْ معمولاتُ الفعلِ اهتماماً بها ، وحَسَّنه كونُ العاملِ رأسَ فاصلةٍ ، وقَدَّمَ المفعولَ مِنْ أجله على المفعول به اهتماماً به لأنه مُكافِحٌ لهم بأنَّهم على إفْكٍ وباطِلٍ . وبهذا الوجهِ بدأ الزمخشري . الثاني : أَنْ يكونَ مفعولاً به ب " تُريدون " ، ويكون " آلهةً " بدلاً منه جعلها نفسَ الإِفكِ مبالغةً فأَبْدَلها منه وفَسَّره بها ، ولم يَذْكر ابنُ عَطية غيرَه . الثالث : أنَّه حالٌ مِنْ فاعل " تُرِيدون " أي : أتُريدون آلهةً آفِكين أو ذوي إفْك . وإليه نحا الزمخشري . قال الشيخ : " وجَعْلُ المصدرِ حالاً لا يَطَّرِدُ إلاَّ مع " أمَّا " نحو : أمَّا عِلْماً فعالِمٌ " .

فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91)

قوله : ﴿ فَرَاغَ ﴾ : أي : مال في خُفْيَةٍ . وأصلُه مِنْ رَوَغانِ الثعلب ، وهو تَرَدُّدُه وعَدَمُ ثبوتِه بمكانٍ .

فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (93)

و " ضَرْباً " مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحالِ أي : فراغ عليهم ضارباً أو مصدرٌ لفعلٍ ، ذلك الفعلُ / حالٌ تقديرُه : فراغ يَضْرِب ضَرْباً ، أو ضَمَّن " راغ " معنى يَضْرِبُ ، وهو بعيدٌ . و " باليمين " متعلِّقٌ ب " ضَرْباً " إن لم نجعَلْه مؤكِّداً وإلاَّ فبعامِله . واليمينُ : يجوز أن يُرادَ بها إحدى اليدين وهو الظاهرُ ، وأن يُرادَ بها القوةُ ، فالباءُ على هذا للحالِ أي : مُلْتبساً بالقوةِ ، وأَنْ يُراد بها الحَلْفُ وفاءً بقولِه : ﴿ وتاللهِ لأَكِيدَنَّ ﴾ [ الأنبياء : 57 ] . والباءُ على هذا للسببِ . وعَدَّى " راغ " الثاني ب " على " لَمَّا كان مع الضَرْبِ المُسْتَوْلي عليهم مِنْ فَوقِهم إلى أسفلِهم بخلافِ الأولِ فإنه مع توبيخٍ لهم ، وأتى بضميرِ العقلاءِ في قولِه " عليهم " جَرْياً على ظنِّ عَبَدَتها أنها كالعقلاءِ .

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94)

قوله : ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ : حالٌ مِنْ فاعلِ " أَقْبَلوا " ، و " إليه " يجوز تَعَلُّقُه بما قبلَه أو بما بعده . وقرأ حمزةُ " يُزِفُّون " بضم الياء مِنْ أَزَفَّ وله معنيان ، أحدهما : أنَّه مِنْ أَزَفَّ يُزِفُّ أي : دخل في الزَّفيفِ وهو الإِسراعُ ، أو زِفافِ العَروسِ وهو المَشْيُ على هيئتِه ؛ لأنَّ القومَ كانوا في طمأنينةٍ مِنْ أَمْرِهم ، كذا قيل هذا الثاني وليس بشيءٍ ؛ إذ المعنى : أنهم لَمَّا سمعوا بذلك بادروا مُسْرِعين ، فالهمزةُ على هذا ليسَتْ للتعديةِ . والثاني : أنه مِنْ أَزَفَّ بعيرَه أي : حَمَله على الزَّفيْفِ وهو الإِسراعُ أو على الزِّفافِ ، وقد تقدَّم ما فيه . وباقي السبعةِ بفتحِ الياءِ مِنْ زَفَّ الظليمُ يَزِفُّ أي : عَدا بسُرْعة . وأصلُ الزَّفيفِ للنَّعام .

وقرأ مجاهد وعبد الله بن يزيد والضحاك وابن أبي عبلة "يَزِفُون " مِنْ وزَف يَزِفُ أي : أَسْرَعَ . إلاَّ أنَّ الكسائيَّ والفراء قالا : لا نعرفُها بمعنى زَفَّ ، وقد عَرَفَها غيرُهما . قال مجاهد – وهو بعضُ مَنْ قرأ بها – : " الوزيف : النَّسَلان " .

وقُرِئ "يُزَفُّون " مبنيَّاً للمفعول و "يَزْفُوْن " كـ يَرْمُون مِنْ زَفاه بمعنى حَداه ، كأنَّ بعضَهم يَزْفو بعضاً لتسارُعِهم إليه . وبين قوله : " فأَقْبَلُوا " وقوله : " فراغ عليهم " جُمَلٌ محذوفةٌ يَدُلُّ عليها الفَحْوَى أي : فبلغهم الخبرُ فرَجَعوا مِنْ عيدِهم ، ونحو هذا .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96)

قوله : { وَمَا تَعْمَلُونَ } : في " ما " هذه أربعةُ أوجه ، أجودُها : أنها بمعنى الذي أي : وخَلَق الذي تَصْنَعونه ، فالعملُ هنا التصويرُ والنحتُ نحو : عَمِل الصائغُ السِّوارَ أي : صاغه . ويُرَجِّح كونَها بمعنى الذي تقدُّمُ ما قبلَها فإنَّها بمعنى الذي أي : أتعبُدُوْنَ الذي تَنْحِتُون ، واللَّهُ خلقكم وخَلَقَ ذلك الذي تَعْملونه بالنَّحْتِ .

والثاني : أنها مصدريةٌ أي : خَلَقكم وأعمالَكم . وجعلها الأشعريَّةُ دليلاً على خَلْق أفعال العباد لله تعالى ، وهو الحقُّ . إلاَّ أنَّ دليلَ ذلك مِنْ هنا غيرُ قويّ لما تقدَّم مِنْ ظهور كَوْنِها

بمعنى الذي . وقال مكي : " يجبُ أَنْ تكونَ " ما " والفعل مصدراً جيْءَ به لِيُفيدَ أنَّ اللَّهَ خالقُ الأشياءِ كلِّها " . وقال أيضاً : " وهذا أَلْيَقُ لقولِه تعالى : ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [ الفلق : 2 ] أجمع القراءُ على الإِضافةِ ، فدلَّ على أنه خالقُ الشَّرِّ . وقد فارق عمرو بن عبيد الناسَ فقرأ " مِنْ شرٍّ " بالتنوين لِيُثْبِتَ مع الله تعالى خالقاً " . وقد استقرضَ الزمخشري هذه المقالةَ هنا بكونِها مصدريةً ، وشنَّع على قائلِها .

(82/656)

---

والثالث : أنها استفهاميةٌ ، وهو استفهامُ توبيخٍ وتحقيرٍ لشأنِها أي : وأيَّ شيءٍ تَعْملون؟ والرابع : أنَّها نافيةٌ أي : إنَّ العملَ في الحقيقة ليس لكم فأنتم لا تعملون شيئاً . والجملةُ مِنْ قولِه : " واللهُ خَلَقكم " حالٌ ومعناها حينئذٍ : أتعبدون الأصنام على حالةٍ تُنافي ذلك ، وهي أنَّ اللَّهَ خالِقُكم وخالِقُهم جميعاً . ويجوزُ أَنْ تكونَ مستأنفةً .

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102)

قوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ﴾ : " معه " متعلِّقٌ بمحذوفٍ على سبيل البيان كأنَّ قائلاً قال : مع مَنْ بلغ السَّعْيَ؟ فقيل : مع أبيه . ولا يجوز تعلُّقُه ب " بَلَغَ " لأنَّه يَقْتضي بلوغَهما معاً حَدَّ

السَّعْيِ . ولا يجوز تعلُّقه بالسَّعْي ؛ لأنَّ صلةَ المصدرِ لا تتقدَّمُ عليه فتعيَّنَ ما تقدَّم . قال معناه الزمخشريُّ . ومَنْ يَتَّسِعُ في الظرفِ يُجَوِّزْ تَعَلُّقَه بالسَّعْي .

قوله : " ماذا ترى " يجوزُ أَنْ تكونَ " ماذا " مركبةً مغلَّباً فيها الاستفهامُ فتكونَ منصوبةً ب " تَرَى " ، وهي وما بعدها في محلِّ نصب ب " انْظُر " لأنها مُعَلِّقةٌ له ، وأنْ تكونَ " ما " استفهاميةً ، و " ذا " موصولةً ، فتكون مبتدأً وخبراً ، والجملة مُعَلِّقَةٌ أيضاً ، وأَنْ تكونَ " ماذا " بمعنى الذي فتكونَ معمولاً ل " انْظُرْ " . وقرأ الأخوان " تُري " بالضم والكسر . والمفعولان محذوفان ، أي : تُرِيني إياه مِنْ صبرك واحتمالك .

وباقي السبعة/ " تَرَى " بفتحتين مِن الرأي . وقرأ الأعمش والضحَّاك " تُرَى " بالضمِ والفتح بمعنى : ما يُخَيَّل إليك ويَسْنَحُ بخاطرك .

(83/656)

---

وقوله : " ما تُؤْمَرُ " يجوزُ أَنْ تكونَ " ما " بمعنى الذي ، والعائدُ مقدرٌ أي : تُؤْمَرُه ، والأصلُ : تُؤْمَرُ به ، ولكنَّ حَذْفَ الجارِّ مُطَّرِدٌ ، فلم يُحْذَفْ العائدُ إلاَّ وهو منصوبُ المحلِّ ، فليس حَذْفُه هنا كحذفِه في قولك : " جاء الذي مَرَرْتُ " . وأَنْ تكونَ مصدريةً . قال الزمخشري : " أو أَمْرَك ، على إضافةِ المصدرِ للمفعول وتسميةِ المأمورِ به أمراً " يعني بقولِه المفعول أي :

الذي لم يُسَمَّ فاعله ، إلاَّ أنَّ في تقدير المصدرِ بفعل مبنيّ للمفعولِ خلافاً مَشْهوراً .

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103)

قوله : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ : في جوابِها ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها - وهو الظاهرُ - أنَّه محذوفٌ ، أي : نادَتْه الملائكةُ ، أو ظهر صَبْرُهما أو أَجْزَلْنا لهما أَجْرَهما . وقدَّره بعضُهم : بعد الرؤيا أي : كان ما كان مِمَّا يَنْطِقُ به الحالُ والوصفُ مُمَّا لا يُدْرِكُ كُنْهُه . ونقل ابن عطية أنَّ التقديرَ : فلمَّا أَسْلَما أَسْلَما وتَلَّه ، قال : كقوله :

3818 فلمَّا أَجَزْنا ساحةَ الحَيِّ . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

أي : فلمَّا أَجَزْنا أَجَزْنا وانتحى ، ويُعْزَى هذا لسيبويه وشيخِه الخليلِ . وفيه نظرٌ : من حيثُ اتّحادُ الفعلَيْنِ الجارِيَيْنِ مَجْرى الشرط والجواب . إلاَّ أَنْ يُقال : جَعَلَ التغايرُ في الآية بالعطفِ على الفعل ، وفي البيت يعمل الثاني في " ساحة " وبالعطف عليه أيضاً . والظاهر أنَّ مثلَ هذا لا يكفي في التغاير .

الثاني : أنه " وتَلَّه للجبين " والواوُ زائدةٌ وهو قولُ الكوفيين والأخفشِ . والثالث : أنه " وناديناه " والواوُ زائدةٌ أيضاً .

وقرأ علي وعبد الله وابن عباس " سَلَّما " . وقُرِئ " اسْتَسْلَما " .

و " تَلَّه " أي: صَرَعَه وأسقطه على شِقِّه. وقيل: هو الرمي بقوةٍ، وأصله: مِنْ رَمَى به على التلِّ وهو المكانُ المرتفع، أو من التليل وهو العنقُ أي: رماه على عُنُقِه، ثم قيل لكل إسقاطٍ، وإن لم يكنْ على تلّ ولا على عُنُق. والمِتَلُّ: الرُّمْحُ الذي يُتَلُّ به. والجبينُ: ما اكْتَنَفَ الجبهةَ مِنْ هنا، ومِنْ هنا وشَذَّ جمعُه على أَجْبُن. وقياسُه في القِلَّةِ أَجْبِنَة كأَرْغِفَة، وفي الكثْرة: جُبُن وجُبْنان كرَغيف ورُغْفان ورُغُف.

وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112)

(85/656)

قوله: ﴿ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين ﴾: نصبٌ على الحالِ، وهي حال مقدرة. قال الشيخ: " إن كان الذَّبيحُ إسحاقَ فيظهر كونُها حالاً مقدرةً، وإنْ كان إسماعيلُ هو الذبيحَ، وكانت هذه البشارةُ بشارةً بولادة إسحاقَ، فقد جعَلَ الزمخشريُّ ذلك مَحَلَّ سؤالٍ قال: " فإنْ قلتَ: فرقٌ بين هذا وبين قولِه: ﴿ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ [ الزمر: 73 ]: وذلك أنَّ المَدْخولَ موجودٌ مع وجودِ الدخول، والخلودُ غيرُ موجودٍ معهما فقدَّرْت: مُقَدِّرين الخلودَ فكان مستقيماً، وليس كذلك المبشَّرُ به، فإنه معدومٌ وقتَ وجودِ البشارةِ، وعَدَمُ المبشَّرُ به

أوجَبَ عدمَ حالِه ؛ لأن الحالَ حِلْيَةٌ لا تقومُ إلَّا بالمُحَلَّى ، وهذا المبشَّرُ به الذي هو إسحاقُ حين وُجد لم تُوْجَدْ النبوَّةُ أيضاً بوجودِه بل تراخَتْ عنه مدةً طويلة ، فكيف يُجْعل "نبيّاً" حالاً مقدرةً ، والحالُ صفةٌ للفاعلِ والمفعولِ عند وجودِ الفعل منه أو به؟ فالخلودُ وإنْ لم يكنْ صفتَهم عند دخولِ الجنة فتقدَّرُها صفتَهم ؛ لأنَّ المعنى : مقدِّرين الخلودَ وليس كذلك النبوةُ ، فإنَّه لا سبيلَ إلى أَنْ تكونَ موجودةً أو مقدرةً وقتَ وجودِ البشارة بإسحاقَ لعدم إسحاق؟ قلت : هذا سؤالٌ دقيقُ المَسْلَكِ . والذي يَحِلُّ الإِشكالَ : أنه لا بُدَّ مِنْ تقديرِ مُضافٍ محذوف وذلك قولُه : وبَشَّرْناه بوجودِ إسحاقَ نبياً أي : بأَنْ يُوْجد مَقْدرةً نبوَّته ، فالعاملُ في الحال الوجودُ/ لا فعلُ البشارة وبذلك يَرْجِعُ نظيرَ قولِه تعالى : ﴿ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ [الزمر : 73] . انتهى . وهو كلامٌ حَسَنٌ .

(86/656)

---

قوله : "من الصالحين" يجوزُ أَنْ يكونَ صفةً لـ "نَبِيّاً" ، وأَنْ يكونَ حالاً من الضميرِ في "نبيّاً" فتكونَ حالاً متداخلةً . ويجوزُ أَنْ تكونَ حالاً ثانية . قال الزمخشري : "وُرُوْدُها على سبيلِ الثناءِ والتقريظ ؛ لأنَّ كلَّ نبيٍّ لا بُدَّ أَنْ يكونَ من الصالحين" .

وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (116)

قوله : ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ﴾ : الضميرُ عائدٌ على موسى وهارونَ وقومِهما . وقيل : عائدٌ على الاثنين بلفظِ الجمع تعظيماً كقولِه :

3819 فإنْ شِئْتِ حَرَّمْتُ النساءَ سِواكُمُ . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

﴿ يا أَيُّهَا النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ [ الطلاق : 1 ] .

قوله : " فكانوا هم " يجوز في " هم " أَنْ يكون تأكيداً ، وأن يكونَ بدلاً ، وأَنْ يكونَ فَصْلاً . وهو الأظهرُ .

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123)

قوله : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ ﴾ : العامَّةُ على همزةٍ مكسورةٍ ، همزةِ قطع . وابنُ ذكوان بوَصْلِها ، ولم يَنْقُلْها عنه الشيخُ بل نقلها عن جماعةٍ غيرِه . ووجهُ القراءتَيْن أنه اسمٌ أعجميٌّ تلاعَبَتْ به العربُ فقطعَتْ همزتَه تارةً ، ووَصَلَتْها أخرى وقالوا فيه : إلْياسين كجِبْرائين . وقيل : تحتمل قراءةُ الوصلِ أَنْ يكونَ اسمُه ياسين ثم دَخَلَتْ عليه أل المعرِّفةُ ، كما دَخَلَتْ على لَيَسَع وقد تقدَّم . وإلياس هذا قيل : هو ابنُ إلْياسين المذكورِ بعدُ ، مِنْ وَلَدِ هارونَ أخي موسى . وقيل : بل إلياس إدريسُ . ويَدُلُّ له قراءةُ عبد الله والأعمش وابن وثاب " وإنَّ إدْريس " . وقُرِئَ " إدْراس " كإبْراهيمَ . وإبراهام . وفي مصحف أُبَيّ وقراءتِه : قوله : " وإن إيْليسَ " بهمزة مكسورة ثم ياءٍ ساكنةٍ بنقطتين مِنْ تحتُ ثم لامٍ مكسورةٍ ، ثم ياءٍ بنقطتين

مِنْ تحتُ ساكنةً ، ثم سينٍ مفتوحةٍ .

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (124)

*(87/656)*

---

قوله : ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ : ظرفٌ لقوله " لمن المرسلين " .

أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (125)

قوله : ﴿ بَعْلاً ﴾ : القرَّاءُ على تنوينه منصوباً ، وهو الرَّبُّ بلغة اليمن . سمع ابنُ عباس رجلاً منهم يَنْشُدُ ضالةً فقال آخر : أنا بَعْلُها فقال : اللَّهُ أكبرُ ، وتلا الآيةَ . وقيل : هو عَلَمٌ لصنم بعينه ، وله قصةٌ في التفسير . وقيل : هو عَلَمٌ لامرأةٍ بعينها أَتَتْهم بضلال فاتَّبعوها ، كذا جاء في التفسير . وتأيَّد صاحبُ هذه المقالة بقراءةِ مَنْ قرأ " بَعْلاءَ " بزنة حَمْراء .

قوله : " وتَذَرُوْنَ " يجوزُ أَنْ يكونَ حالاً على إضمار مبتدأ ، وأَنْ يكونَ عطفاً على " تَدْعُون " فيكونَ داخلاً في حيِّز الإِنكار .

اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (126)

قوله : ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ﴾ : قرأ الأخَوان وحفص بنصْب الثلاثةِ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ : النصبِ على المدحِ أو البدلِ أو البيانِ إنْ قلنا : إنَّ إضافةَ أَفْعَلَ إضافةٌ مَحْضَةٌ . والباقون

بالرفع : إمَّا على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ أي : هو اللَّهُ ، أو على أنَّ الجلالةَ مبتدأٌ وما بعدَه الخبرُ .

رُوِيَ عن حمزةَ أنَّه كان إذا وَصَلَ نَصَبَ ، وإذا وَقَفَ رَفَع . وهو حسنٌ جداً ، وفيه جَمْعٌ بين الرِّوايَتَيْن .

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (128)

*(88/656)*

---

قوله : ﴿ إلاَّ عِبَادَ الله ﴾ : استثناءٌ متصلٌ مِنْ فاعلِ " فكذَّبوه " وفيه دلالةٌ على أنَّ في قومِه مَنْ لم يُكَذِّبْه ، فلذلك اسْتُثْنُوا . ولا يجوزُ أَنْ يكونوا مُسْتَثْنَيْن مِنْ ضمير " لَمُحْضَرون " لأنه يَلْزَمُ أَنْ يكونوا مَنْدَرجين فيمَنْ كَذَّب ، لكنهم لم يُحْضَروا لكونِهم عبادَ اللَّهِ المُخْلِصين . وهو بَيِّنُ الفسادِ . لا يُقال : هو مستثنى منه استثناءً منقطعاً ؛ لأنه يَصيرُ المعنى : لكنَّ عبادَ اللَّهِ المخلصين من غير هؤلاء لم يُحْضَروا . ولا حاجةَ إلى هذا بوجهٍ ، إذ به يَفْسُدُ نَظْمُ الكلامِ .

سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (130)

قوله : ﴿ على إِلْ يَاسِينَ ﴾ : قرأ نافعٌ وابن عامر ﴿ على آلِ يَاسِينَ ﴾ بإضافةِ " آل " بمعنى أهل إلى " ياسينَ " . والباقون بكسرِ الهمزةِ وسكونِ اللامِ موصولةً ب " ياسين " كأنه

جمعَ " إلياس " جمْعَ سلامةٍ . فأمَّا الأُوْلى : فإنَّه أراد بالآل إلياسَ وَلَدَ ياسين كما تقدَّم وأصحابَه . وقيل : المرادُ بياسين هذا إلياسُ المتقدمُ ، فيكونُ له اسمان . وآلُه : رَهْطُه وقومُه المؤمنون . وقيل : المرادُ بياسينَ محمدُ بن عبد الله صلَّى الله عليه وسلَّم .

وأمَّا القراءةُ الثانيةُ فقيل : هي جمعُ إلياس المتقدمِ . وجُمِعَ باعتبارِ أصحابِه كالمَهالبةِ والأَشاعثةِ في المُهَلَّبِ وبنيه ، والأشعثِ وقومِه ، وهو في الأصلِ جمعُ المنسوبين إلى إلياس ، والأصلُ إلياسيّ كأشعَريّ . ثم استُثْقِل تضعيفُهما فحُذِفَتْ إحدى ياءَي النسَبِ/ فلمَّا جُمِعَ سَلامةٍ التقى ساكنان : إحدى الياءَيْن وياءُ الجمعِ ، فحُذِفَتْ أولاهما لالتقاءِ السَّاكنين ، فصار إلياسين كما ترى . ومثلُه : الأَشْعَرُون والخُبَيْبُون . قال :

(89/656)

---

3820 قَدْنِيَ مِنْ نصْرِ الخُبَيْبَيْنَ قَدِيْ . . . وقد تقدَّم طَرَفٌ من هذا آخر الشعراء عند " الأَعْجَمِيْن " . إلاَّ أنَّ الزمخشريَّ قد ردَّ هذا : بأنَّه لو كان على ما ذُكِرَ لَوَجَب تعريفُه بأل فكان يُقال : على الإلياسين . قلت : لأنه متى جُمِعَ العَلَمُ جَمْعَ سَلامةٍ أو ثُنِّي لَزِمَتْه الألفُ واللامُ ؛ لأنه تَزُوْلُ عَلَميَّتُه فيقال : الزيدان ، الزيدون ، الزينبات ولا يُلْتَفَتُ إلى قولهم : جُمادَيان وعَمايَتان عَلَمَيْ شهرَيْن وجبلَيْن لندورِهما .

وقرأ الحسن وأبو رجاء "على إلياسينَ" بوصلِ الهمزةِ على أنه جَمْعُ إلياس وقومِه المنسوبين إليه بالطريق المذكورة . وهذه واضحةٌ لوجودِ أل المعرفةِ فيه كالزيدِيْن . وقرأ عبد الله "على إدْراسين "لأنَّه قرأ في الأول "وإنَّ إدْريس" . وقرأ أُبَيٌّ "على إيليسِيْنَ" لأنه قرأ في الأول "وإنَّ إيليسَ" كما حرَّرْتُه عنه . وهاتان تدُلاَّن على أن إلياسينَ جَمْعُ إلياس .

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137)

قوله : ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ : حالٌ . وهو من أَصْبح التامَّة بمعنى داخلين في الصباح . ومنه "إذا سَمِعْتَ بسُرى القَيْنِ فاعلَمْ أنه مُصْبِح " أي : مُقيم في الصباح . وقد تقدَّم ذلك في سورة الروم .

وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (138)

قوله : ﴿ وبالليل ﴾ : عطفٌ على الحالِ قبلها أي : ومُلْتبسِيْنَ بالليل .

إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140)

قوله : ﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ : ظرفٌ للمرسَلين ، أي : هو من المرسلين حتى في هذه الحالة . وأَبَق أي : هَرَبَ . يُقال : أَبَقَ العبدُ يَأْبِقُ إباقا فهو آبِقٌ ، والجمع أُبَّاق كضُرَّاب . وفيه لغةٌ ثانية : أَبِقَ بالكسر يَأْبَق بالفتح . ويَأْبِقُ الرجل يُشَبَّه به في الاستتار . وقولُ الشاعر :

3821 . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . قد أُحْكِمَتْ

حكَماتِ القِدِّ والأَبقا

قيل : هو القِنَّبُ .

فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141)

قوله : ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ : أي : فغالَبهم في المساهمة ، وهي الاقتراعُ . وأصلُه أَنْ يَخْرُجَ السَّهْمُ على مَنْ غلب .

فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142)

قوله : ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ : حالٌ . والمليمُ : الذي أتى بما يُلامُ عليه . قال :

3822 وكم مِنْ مُلِيْمٍ لم يُصَبْ بملامَةٍ . . . ومُتَّبَعٍ بالذَّنْبِ ليس له ذَنْبُ

يقال : ألامَ فلانٌ أي : فعَلَ ما يُلامُ عليه . وقُرِئَ " مَليم " بفتح الميم مِنْ لامَ يَلُوْمُ ، وهي شاذَّةٌ جداً إذ كان قياسها " مَلُوْم " لأنَّها مِنْ ذوات الواوِ كمَقُول ومَصُون . قيل : ولكنْ أُخِذَتْ من لِيْم على كذا مبنياً للمفعول . ومثلُه في ذلك : شُبْتُ الشيءَ فهو مَشِيْب ، ودُعِيَ فهو مَدْعِيّ ، والقياسُ : مَشُوْب ومَدْعُوّ ، لأنَّهما مِنْ يَشُوْبُ ويَدْعُو .

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144)

قوله : ﴿ فِي بَطْنِهِ ﴾ : الظاهرُ أنه متعلِّقٌ ب " لَبِثَ " وقيل : حالٌ أي : مستقراً .

فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145)

قوله: ﴿ بالعرآء ﴾ : أي: في العَراء نحو: زيد بمكة. والعَراءُ: الأرضُ الواسعةُ التي لا نباتَ بها ولا مَعْلَمَ، اشتقاقاً من العُري وهو عَدَمُ السُّتْرَة، سُمِّيَتِ الأرضُ الجَرْداء لعدم اسْتِتارها بشيء. والعُرا بالقصر: الناحيةُ. ومنه اعتراه أي: قَصَدَ عُراه. وأما الممدودُ فهو -كما تقدَّم- الأرضُ الفَيْحاء. قال:

3823 ورَفَعْتُ رِجْلاً لا أخافُ عِثارَها ... ونَبَذْتُ بالمَتْنِ العَراء ثيابي

وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146)

(91/656)

---

قوله: ﴿ مِّن يَقْطِينٍ ﴾ : هو يَفْعيل مِنْ قَطَنَ بالمكان إذا أقام فيه لا يَبْرَح. قيل: واليَقْطِيْنُ: كلُّ ما لم يكُنْ له ساقٌ مِنْ عُوْدٍ كالقِثَّاء والقَرْعِ والبِطّيخ. وفي قوله: "شجرةً" ما يَرُدُّ قولَ بعضِهم إن الشجرةَ في كلامهم ما كان لها ساقٌ مِنْ عَوْدٍ، بل الصحيحُ أنها أَعَمُّ. ولذلك بُيِّنَتْ بقوله: "مِنْ يَقْطِين". وأمَّا قولُه: ﴿ والنجم والشجر ﴾ [الرحمن: 6] فلا دليلَ فيه لأنه استعمالُ اللفظِ العامِّ في أحدِ مَدْلولاته. وقيل: بل أَنْبَتَ اللَّهُ اليَقْطِيْنَ الخاصَّ على ساقٍ معجزةً له فجاء على أصلِه/ ولو بَنَيْتَ من الوَعْد مثلَ: يَقْطِين لقلت: يَوْعِيْد لا يُقال:

تُحذف الواوُ لوقوعِها بين ياءٍ وكسرِ كـ "يَعِدُ" مضارعَ وَعَد؛ لأنَّ شَرْطَ تلك الياءِ أَنْ تكونَ للمضارعةِ. وهذه مِمَّا يَمْتَحِنُ بها أهلُ التصريفِ بعضُهم بعضاً.

وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147)

قوله: ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾: في "أو" هذه سبعةُ أُوجهٍ قد تقدَّمَتْ بتحقيقِها ودلائلها في أولِ البقرةِ عند قولِه ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ [الآية: 19] فعليكَ بالالتفاتِ إليهما ثَمَّةَ: فالشَّكُّ بالنسبةِ إلى المخاطبين، أي: إن الرائي يَشُكُّ عند رؤيتِهم، والإِبهامُ بالنسبةِ إلى أن الله تعالى أَبْهَمَ أمْرَهم، والإِباحةُ أي: إن الناظرَ إليهم يُباح له أن يَحْزِرَهم بهذا القَدْرِ، أو بهذا القَدْرِ، وكذلك التخييرُ أي: هو مُخَيَّرٌ بين أَنْ يَحْزِرَهم كذا أو كذا، والإِضرابُ ومعنى الواو واضحان.

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149)

*(92/656)*

---

قوله: ﴿ فاستفتهم ﴾: قال الزمخشريُّ: "معطوفٌ على مثلِه في أول السورة، وإنْ تباعَدَتْ". قال الشيخ: "وإذا كانوا قد عَدُّوا الفصلَ بجملةٍ نحو: "كُلْ لحماً واضربْ زيداً وخبزاً" من أقبحِ التركيبِ، فكيف بجملٍ كثيرةٍ وقِصَصٍ متباينةٍ؟" قلت: ولقائلٍ أن

يقول : إنَّ الفَصْلَ - وإنْ كَثُرَ بين الجملِ المتعاطفةِ - مغتفرٌ . وأمَّا المثالُ الذي ذكره فمِنْ قبيلِ المفرداتِ . ألا ترى كيف عطف " خبزاً " على لَحْماً ؟

أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (150)

قوله : ﴿ وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ : جملةٌ حاليةٌ من الملائكة . والرابطُ : الواوُ ، وهي هنا واجبةٌ لعدم رابطٍ غيرِها .

وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152)

والعامَّةُ على " وَلَدَ اللَّهُ " فعلاً ماضياً مسنداً للجلالةِ أي : أتى بالولد ، تعالى اللَّهُ عَمَّا يقولون عَلُوّاً كبيراً . وقُرِئَ " وَلَدُ اللهِ " بإضافة الولد إليه أي : يقولون : الملائكةُ وَلَدُه . فحُذِف المبتدأُ للعِلْمِ به ، وأُبْقِيَ خبرُه . والوَلَدُ : فَعَل بمعنى مَفْعُول كالقَبَض ؛ فلذلك يقع خبراً عن المفردِ والمثنى والمجموع تذكيراً وتأنيثاً . تقول : هذي وَلَدي ، وهم وَلَدي .

أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (153)

قوله : ﴿ أَصْطَفَى ﴾ : العامَّةُ على فتحِ الهمزة على أنها همزةُ استفهامٍ بمعنى الإِنكارِ والتقريع ، وقد حُذِفَ معها همزةُ الوَصْلِ استغناءً عنها .

وقرأ نافعٌ في روايةٍ وأبو جعفر وشيبةُ والأعمش بهمزةِ وَصْلٍ تَثْبُتُ ابتداءً وتَسْقُطُ دَرْجاً . وفيه وجهان ، أحدُهما : أنَّه على نيةِ الاستفهامِ ، وإنما حُذِفَ للعِلْمِ به . ومنه قولُ عُمَرَ بن

أبي ربيعة :

3824 ثم قالُوا : تُحِبُّها قلتُ بُهْراً . . . عددَ الرَّمْلِ والحَصَى والترابِ

(93/656)

---

أي : أتُحبها . والثاني : أن هذه الجملة بَدَلٌ من الجملة المحكيَّة بالقول ، وهي " وَلَدَ اللَّهُ " أي : يقولون كذا ، ويقولون : اصطفى هذا الجنسَ على هذا الجنس . قال الزمخشري : " وقد قرأ بها حمزةُ والأعمشُ . وهذه القراءة وإنْ كان هذا مَحْمَلَها فهي ضعيفةٌ . والذي أَضْعَفَها أنَّ الإِنكارَ قد اكتنف هذه الجملةَ مِنْ جانَبيْها ، وذلك قولُه : " وإنهم لَكاذبون " ، ﴿ مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ فمَنْ جعَلَها للإِثباتِ فقد أَوْقَعها دخِيلةً بين نَسِيبَيْن " . قال الشيخ : " وليسَتْ دخيلةً بين نَسِيْبَيْن ؛ لأنَّ لها مناسبَةً ظاهرةً مع قولِهم : " وَلَدَ اللَّهُ " . وأمَّا قولُه : " وإنهم لَكاذبون " فهي جملةُ اعتراضٍ بين مقالتَيْ الكفرة جاءَتْ للتنديدِ والتأكيدِ في كَوْنِ مقالتِهم تلك هي مِنْ إفْكِهم " .

ونَقَلَ أبو البقاء أنه قُرِئ " آصْطفى " بالمدّ . قال : " وهو بعيدٌ جداً " .

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154)

قوله : ﴿ مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ : جملتان استفهاميتان ليس لإِحداهما تَعَلُّقٌ بالأُخْرى

من حيث الإِعرابُ، استفهم أولاً عَمّا استقرَّ لهم وثَبَتَ، استفهامَ إنكار، وثانياً استفهامَ تعجيب مِنْ حُكْمِهم بهذا الحكم الجائرِ، وهو أنهم نَسَبوا أَخَسَّ الجنسَيْن وما يَتَطَّيرون منه، ويَتَوارى أحدُهم مِنْ قومِه عند بشارتِه به، إلى ربِّهم، وأحسنَ الجنسَيْنِ إليهم.

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (160)

(94/656)

---

قوله: ﴿ إلاَّ عِبادَ الله ﴾: مُسْتثنى منقطعٌ. والمستثنى منه: إمَّا فاعل "جَعَلُوا" أي: جعلوا بينه وبين الجنَّةِ نَسَباً إلاَّ عبادَ الله. الثاني: أنه فاعل "يَصِفُوْن" أي: لكن عباد/ الله يَصِفُونه بما يَليق به تعالى. الثالث: أنه ضمير "مُحْضَرون" أي: لكنَّ عبادَ الله ناجُوْن. وعلى هذا فتكون جملةُ التسبيحِ معترضةً. وظاهرُ كلامِ أبي البقاء أنه يجوزُ أَنْ يكونَ استثناءً متصلاً لأنه قال: "مستثنى مِنْ "جَعَلُوا" أو "مُحْضَرون". ويجوزُ أَنْ يكونَ منفصلاً" فظاهرُ هذه العبارةِ أنَّ الوجهين الأوَّلَين هو فيهما متصل لا منفصِلٌ. وليس ببعيدٍ كأنه قيل: وجَعَلَ الناسَ. ثم استثنى منهم هؤلاء وكلَّ مَنْ لم يجعل بين الله تعالى وبينَ الجنَّةِ نَسَباً فهو عند الله مُخْلَصٌ من الشِّرْك.

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (161)

قوله : ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنه معطوفٌ على اسم "إنَّ" . و "ما" نافيةٌ ، و "أنتم" اسمُها أو مبتدأٌ ، و "أنتم" فيه تغليبُ المخاطبِ على الغائبِ ؛ إذ الأصلُ : فإنكمُ ومعبودكم ما أنتم وهو ، فغُلِّب الخطابُ . و "عليه" متعلقٌ بقوله : "بفاتنين" . والضميرُ عائدٌ على "ما تعبدون" بتقديرِ حَذْفِ مضافٍ وضُمِّنَ فاتنين معنى حاملين بالفتنة والتقدير : فإنكم وآلهتكم ، ما أنتم وهم حامِلين على عبادته إلاَّ الذين سَبَقَ في عِلْمه أنَّه من أهل صَلْيِ الجحيم . فمَنْ مفعولٌ ب "فاتِنين" والاستثناءُ مفرغٌ . والثاني : أنه مفعولٌ معه ، وعلى هذا فيَحْسُنُ السكوتُ على "تعبدون" كما يَحْسُن في قولك : "إنَّ كلَّ رجلٍ وضَيْعَتَه" ، وحكى الكسائيُّ أن كلَّ ثوبٍ وثمنَه والمعنى : أنكم مع معبودِيكم مُقْتَرِنون . كما يُقَدَّر ذلك في "كلُ رجلٍ وضَيْعَتُه مقترنان" . وقولُه : ﴿ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴾ مستأنفٌ أي : ما أنتم على ما تعبدون بفاتنين ، أو بحاملين على الفتنة ، إلاَّ مَنْ هو صالٍ منكم . قالها الزمخشريُّ . إلاَّ أنَّ أبا البقاء ضَعَّفَ الثاني : وكذا الشيخُ تابعاً له في تضعيفِه بعدمِ تَبادُرِه إلى الفهم .

قلت : الظاهرُ أنه معطوفٌ ، واستئنافُ ﴿ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴾ غيرُ واضحٍ ، والحقُّ

أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ . وجوّزَ الزمخشريُّ أَنْ يعودَ الضميرُ في " عليه " على اللَّهِ تعالى قال : " فإنْ قلتَ : كيف يَفْتِنُونهم على الله ؟ قلت : يُفْسِدونهم عليه بإغوائهم ، مِنْ قولِك : فتن فلانٌ على فلانٍ امرأَتَه ، كما تقول : أَفْسَدَها عليه وخَيَّبها عليه " .

إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (163)

و " مَنْ هو " يجوزُ أَنْ تكونَ موصولةً أو موصوفةً .

(96/656)

---

وقرأ العامَّةُ " صالِ الجحيم " بكسرِ اللامِ ؛ لأنه منقوصٌ مضافٌ حُذِفَتْ لامُه لالتقاءِ الساكنين ، وحُمِلَ على لفظ " مَنْ " فأَفْرَدَ كما أَفْرد هو . وقرأ الحسنُ وابن أبي عبلة بضمِّ اللامِ مع واوٍ بعدَها ، فيما نقله الهذلي عنهما ، وابن عطية عن الحسن . وقرأ بضمِّها مع عَدَمِ واوٍ فيما نقل ابنُ خالويه عنهما وعن الحسن فقط ، فيما نقله الزمخشريُّ وأبو الفضل . فأمَّا مع الواو فإنَّه جَمْعُ سَلامةٍ بالواو والنون ، ويكون قد حُمِلَ على لفظ " مَنْ " أولاً فأفردَ في قوله " هو " ، وعلى معناها ثانياً فجُمِعَ في قوله : " صالُو " وحُذِفَتْ النونُ للإضافة . ومِمَّا حُمِلَ فيه على اللفظ والمعنى في جملةٍ واحدةٍ وهي صلةٌ للموصول قوله تعالى : { إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نصارى } [ البقرة : 111 ] فأفرد في " كان " وجُمِعَ في هوداً . ومثله

قولُه :

3825 . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . وأَيْقَظ مَنْ

كان مِنْكُمْ نياما

وأمَّا مع عَدَمِ الواو فيُحْتَمَلُ أَنْ يكونَ جمعاً أيضاً ، وإنما حُذِفَتْ الواوُ خطاً كما حُذِفَتْ لفظاً . وكثيراً ما يَفْعلون هذا : يُسْقِطون في الخطِّ ما يَسْقط في اللفظِ . ومنه "يَقُضُّ الحق" في قراءةِ مَنْ قرأ بالضاد المعجمة ، ورُسِمَ بغيرياءٍ ، وكذلك ﴿ واخشون ، اليوم ﴾ [ المائدة : 3 ] . ويُحْتمل أَنْ يكونَ مفرداً ، وحقُّه على هذا كسرُ اللامِ فقط لأنه عينُ منقوصٍ ، وعينُ المنقوصِ مكسورةٌ أبداً وحُذِفَتِ اللامُ وهي الياءُ لالتقاءِ الساكنين نحو : هذا قاضِ البلد .

(97/656)

---

وقد ذكروا فيه توجيهَيْن ، أحدهما : أنه مقلوبٌ ؛ إذا الأصلُ : صالي ثم صايل : قَدَّموا اللامَ إلى موضع العينِ ، فوقعَ الإِعرابُ على العين ، ثم حُذِفَتْ لامُ الكلمة بعد / القلب فصار اللفظ كما ترى ، ووزنُه على هذا فاعُ فيُقال على هذا : جاء صالٌ ، ورأيتُ صالاً ، ومررت بصالٍ ، فيصيرُ في اللفظِ كقولك : هذا بابٌ ورأيتُ باباً ، ومررتُ ببابٍ . ونظيرُه في مجردِ

القلبَ : شاكٍ ولاثٍ في شائك ولائث ، ولكنْ شائِك ولائِث قبل القلب صحيحان ، فصارا به معتلَّيْن منقوصَيْن بخلافِ " صال " فإنَّه قبلَ القلبِ معتلٌّ منقوصٌ فصار به صحيحاً .

والثاني : أنَّ اللامَ حُذِفَتْ استثقالاً مِنْ غيرِ قَلْبٍ . وهذا عندي أسهل مُمَّا قبلَه وقد رأَيْناهم يتناسَوْن اللامَ المحذوفةَ ، ويجعلون الإِعرابَ على العين . وقد قُرِئَ " وله الجوارُ " برفع الراءِ ، ﴿ وَجَنَى الجنتين دَانٌ ﴾ برفعِ النونِ تشبيهاً ب جناح وجانّ . وقالوا : ما بالَيْت به بالة والأصل بالِية كعافِيَة . وقد تقدَّم طَرَف مِنْ هذا عند قولِه تعالى : ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ ﴾ فيمَنْ قرأه برفع الشين .

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (164)

قوله : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنَّ " منَّا " صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ هو مبتدأٌ ، والخبرُ الجملة مِنْ قولِه : ﴿ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ تقديرُه : ما أحدٌ منا إلاَّ له مقامٌ ، وحَذْفُ المبتدأ مع " مِنْ " جيدٌ فصيحٌ . والثاني : أنَّ المبتدأ محذوفٌ أيضاً ، و ﴿ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ ﴾ صفتُه حُذِفَ موصوفُها ، والخبرُ على هذا هو الجارُّ المتقدم . والتقدير : وما منَّا أحدٌ إلاَّ له مقامٌ . قال الزمخشري : حَذَفَ الموصوفَ ، وأقامَ الصفةَ مُقامَه كقولِه :

3826 أنا ابنُ جَلا وطلاَّعُ الثَّنايا . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

[ وقوله ] :

3827 تَرْمي بكفَّيْ كان مِنْ أَرْمى البَشَرْ . . . وردَّه الشيخُ فقال : " ليس هذا مِنْ حَذْفِ الموصوفِ وإقامةِ الصفةِ مُقامَه ؛ لأنَّ المحذوفَ مبتدأٌ ، و ﴿ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ ﴾ خبرُه ؛ ولأنه لا ينعقِدُ كلامٌ مِنْ قولِه : " وما منَّا أحد " ، وقولِه : ﴿ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ ﴾ مَحَطُّ الفائدةِ ، وإنْ تُخُيِّل أن ﴿ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ في موضع الصفةِ فقد نَصُّوا على أنَّ " إلاَّ " لا تكونُ صفةً إذا حُذِف موصوفُها ، وأنها فارقَتْ " غير " إذا كانَتْ صفةً في ذلك لتمكّنِ " غير " في الوصف وعَدَمِ تمكُّنِ " إلاَّ " فيه ، وجعَل ذلك كقولِه : " أنا ابنُ جَلا " أي : أنا ابنُ رجلٍ جَلا ، و " بكفَّيْ كان " أي : رجل كان ، وقد عدَّه النَّحْويون مِنْ أقبحِ الضَّرائر [ حيث حَذَفَ الموصوفَ والصفةُ جملةٌ لم تتقدَّمْها " مِنْ " بخلافِ قولِه " مِنَّا ظَعَنَ ومنَّا أقام " يريدون : مِنَّا فريقٌ ظَعَن ، ومنَّا فريقٌ أقام ] وقد تقدَّم نحوٌ من هذا في النساء عند قوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾ [ النساء : 159 ] . وهذا الكلامُ وما بعده ظاهرُه أنه من كلامِ الملائكةِ . وقيل : مِنْ كلامِ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم . ومفعول " الصافُّون " و " المُسَبِّحون " يجوز أن يكونَ مُراداً أي : الصافُّون أقدامَنا أو أجنحتَنا ، والمسبِّحون اللَّهَ

تعالى وأنْ لا يُرادَ البتةَ أي : نحن مِنْ أهلِ هذا الفعلِ .

إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172)

(99/656)

---

قوله : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون ﴾ : تفسيرٌ للكلمة فيجوز أن لا يكونَ لها محلٌّ من الإِعراب ، ويجوز أَنْ تكونَ خبرَ مبتدأ مضمر أو منصوبةً بإضمارِ فعل أي : هي أنَّهم لهم المنصورون ، أو أعني بالكلمة هذا اللفظَ ، ويكون ذلك على سبيلِ الحكايةِ ؛ لأنَّك لو صَرَّحْتَ بالفعل قبلَها حاكياً للجملة بعده كان صحيحاً ، كأنَّك قلت : عَنَيْتُ هذا اللفظ كما تقول : " كتبتُ زيدٌ قائمٌ " و " إنَّ زيداً لَقائمٌ " . وقرأ الضحَّاك " كلماتنا " جمعاً .

فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (177)

قوله : ﴿ نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ : العامَّةُ على " نَزَلَ " مبنياً للفاعلِ ، وعبد الله ببنائه للمفعولِ ، والجارُّ قائمٌ مقامَ فاعِله . والسَّاحةُ : الفِناءُ الخالي مِن الأبنية ، وجَمْعُها سُوْحٌ فألفُها عن واوٍ ، فتُصَغَّرُ على سُوَيْحَة . قال الشاعر :

3828 فكان سِيَّانِ أنْ لا يَسْرَحُوا نَعَماً ... أو يَسْرَحُوه بها واغْبَرَّت السُّوُحُ

وبهذا يتبيَّنُ / ضَعْفُ قولِ الراغب : إنها مِنْ ذواتِ الياءِ ؛ حيث عَدَّها في مادة " سيح " ثم

قال : " السَّاحة : المكانُ الواسعُ . ومنه ساحةُ الدار . والسَّائحُ : الماءُ الجاري في الساحة . وساحَ فلانٌ في الأرضِ : مَرَّ مَرَّ السَّائح ، ورجل ٌسائحٌ وسَيَّاح " انتهى . ويُحتمل أَنْ يكونَ لها مادتان ، لكنْ كان ينبغي أن يذكرَ : ما هي الأشهرُ ، أو يذكرَهما معاً . وحُذِفَ مفعولُ " أَبصر " الثاني : إمَّا اختصاراً لدلالةِ الأولِ عليه ، وإمَّا اقتصاراً . والمخصوصُ بالذمِ محذوفٌ أي : صباحُهم .

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180)

(100/656)

---

قوله : ﴿ رَبِّ العزة ﴾ : أُضيف الربُّ إلى العزَّةِ لاختصاصه بها ، كأنه قيل : ذو العزَّة كما تقول : صاحبُ صِدْقٍ لاختصاصِه به . وقيل : المرادُ العزَّةُ المخلوقةُ الكائنةُ بين خَلْقِه . ويترتَّبُ على القولين مسألةُ اليمين . فعلى الأول ينعقدُ بها اليمينُ ؛ لأنها صفةٌ من صفاتِه تعالى بخلاف الثاني ، فإنه لا ينعقدُ بها اليمينُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 341.318 ﴾

(101/656)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) ﴾

أي سبقت كلمتنا لهم بالسعادة ، وتقدّمَ حُكْمنَا لهم بالولاية والرعاية ، فَهُم من قِبلِنَا منصورون .

إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172)

مَنْ نَصرَه لا يُغْلَبُ ، ومَنْ قَهرَه لا يغْلِب .

وجُنْدُه الذين نَصَبَهم لنشْرِ دينه ، وأقامهم لِنَصْرِ الحقِّ وتبيينه . مَنْ أَراد إذلالَهم فَعَلى أذقانه يخرُّ ، وفي حبل هلاكه ينجرُّ .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (174)

تولَّ عنهم – يا محمد – إلى أن تنقضيَ آجالُهم ، وتنتهيَ أحوالُهم ، وانتظِرْ انقضاءَ أيامِهم ، فإنه سينصرم حديثهم وشيكاً :

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (176)

وإنما قال ذلك فيما كانوا يتمنون قيام الساعة ، وكانوا يستعجلون ذلك لِفَرْطِ جهلهم ، ثم لقلة تصديقهم . فإذا نزل العذابُ بساحتهم ، وأناخ البلاءُ بعقوتهم فساء صباحهم . فتولَّ عنهم

فَعَنْ قريبٍ سيحصل ما منه يَحْذَرون .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ ﴾ : تقديساً له ، وسلامٌ على أَنبيائنا ، ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ : أي هو المحمود على ما ساءَ أم سَرَّ ، نَفَعَ أم ضَرَّ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 244.243 ﴾

*(102/656)*

---

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإبراهيم ﴾

قال مقاتل : يعني : إبراهيم من شيعة نوح عليه السلام وعلى ملته .

وقال الكلبي يعني : من شيعة محمد صلى الله عليه وسلم إبراهيم ، وعلى دينه ، ومنهاجه .

وذكر عن الفراء أنه قال : هذا جائز .

وإن كان إبراهيم قبله كما قال : ﴿ وَءايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرّيَّتَهُمْ فِى الفلك المشحون ﴾ [ يس : 41 ] .

يعني : آباءهم ذريته الذين هو منهم .

قوله عز وجل : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ يعني : إبراهيم دعا ربه بقلب سليم .

أي : خالص ويقال : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أي : مخلص سليم من الشرك ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ يعني : إيش الذي تعبدون .

ويقال : معناه لماذا تعبدون هذه الأوثان ؟ .

قوله عز وجل : ﴿ اللهِ ءَالِهَةً ﴾ يعني : أكذباً آلهة ﴿ دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ﴾ عبادتها ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين ﴾ إذا عبدتم غيره ، فما ظنّكم به إذ لقيتموه ؟ ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النجوم ﴾ قال مقاتل : يعني : في الكواكب .

ويقال : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النجوم ﴾ أي : في أمر النجوم .

ثم تفكر بالعين وبالقلب وذلك أنه رأى كوكباً قد طلع ﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ أي : سأسقم .

ويقال : مطعوناً .

وهو قول سعيد بن جبير ، والضحاك .

وقال القتبي : نظر في الحساب لأنه لو نظر إلى الكواكب لقال : نظر نظرة إلى النجوم .

وإنما يقال : نظر فيه إذا نظر في الحساب .

﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ أي : سأمرض غداً ، وكانوا يتطيرون من المريض .

فلما سمعوا ذلك منه هربوا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ قال الفقيه أبو

الليث رحمه الله حدّثنا الخليل بن أحمد .

قال : حدّثنا خزيمة .

قال : حدّثنا عيسى بن إبراهيم .

(103/656)

---

قال : حدّثنا ابن وهب عن جرير بن حازم ، عن أيوب السجستاني ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمَ قَطُّ إِلاَّ ثَلاثَ كَذِباتٍ ، ثِنْتَانِ فِي ذَاتِ الله قوله : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ قالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وابعث فِى المدآئن حاشرين ﴾ [ الأنبياء : 63 ] وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَّةَ ، ذلك أَنَّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَّةُ ، وَكَانَتْ أَحْسَنَ النِّسَاءِ فَقَالَ لَهَا : إِنَّ هذا الجَبَّارَ إِنْ عَلِمَ أَنَّكِ امْرَأَتِّي ، يَغْلِبنِي عَلَيْكِ .

فَإِنْ سَأَلَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي فِي الإِسْلامِ ، فَإِنِّي لا أَعْلَمُ فِي الأَرْضِ مُسْلِماً غَيْرِي وَغَيْرَكِ .

فَلَمَّا دَخَلَ الأَرْضَ ، رَآهَا بَعْضُ أَهْلِ الجَبَّارِ ، فَأَتَاهُ .

فَقَالَ لَهُ : لَقَدْ دَخَلَ الْيَوْمَ أَرْضَكَ امْرَأَةٌ لا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ إِلاَّ لَكَ ؟ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا .

فَأُتي بها .

فَقَامَ إبْرَاهِيمُ إلَى الصَّلاةِ ، فَلَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَيْه لم يَتَمالكْ أنْ بَسط يَدَهُ إلَيْها ، فَقُبضَتْ يَدُهُ قَبْضَةً شَدِيدَةً .

فَقَالَ لَهَا ادْعِي الله أنْ يُطْلِقَ يَدِي ، ولا أضُرُّكِ .

فَفَعَلَتْ .

فَعَادَ ، فَقُبضَتْ يَدُهُ أشَدَّ مِنَ القَبْضَةِ الأُولَى .

فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ ، فَفَعَلَتْ .

فَعَادَ ، فَقُبضَتْ أشَدَّ مِنَ القَبْضَتَيْنِ الأُولَيَيْن ، فَقَالَ لَهَا : ادْعِي الله أنْ يُطْلِقَ يَدِي ، ولَكِ عَلَيَّ ألاَّ أضُرُّكِ ، فَفَعَلَتْ ، فأُطْلِقَتْ يَدُهُ .

(104/656)

---

فَدَعَا الَّذِي جَاءَ بِهَا فَقَالَ لَهُ : إنَّكَ أتَيْتَنِي بشَيْطَانٍ ، وَلَمْ تأْتِنِي بإنْسَانٍ ، فَأَخْرِجْهَا مِنْ أرْضِي ، وأَعْطاها هَاجَرَ ، فأقْبَلَتْ تَمْشِي حَتَّى جَاءَتْ إلَى إبْرَاهِيمَ ، فَلَمَّا رَآهَا إبْرَاهِيمُ انْصَرَفَ مِنَ الصَّلاةِ ، فَقَالَ لَهَا : مَهْيَمْ يَعْنِي مَا الخَبَرُ ؟ فَقَالَتْ : خَيْراً كُفِيتُ الفَاجِرَ ، وأَخْدَمَنِي خَادِماً " .

فقال أبو هريرة : فتلك أمُّكم يا بني ماء السماء .

يعني : نسل العرب منها .

لأنه روي في الخبر أنها وهبت هاجر لإبراهيم ، فولد منها إسماعيل .

ويقال : ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ يعني : أعرضوا عنه ذاهبين إلى عيدهم .

قوله عز وجل : ﴿ فَرَاغَ إِلَى ءالِهَتِهِمْ ﴾ يعني : مال إلى أصنامهم .

ويقال : دخل بيوت الأصنام ، فرأى بين أيديهم طعاماً ﴿ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴾ فلم يجيبوه ،

فقال : ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً باليمين ﴾ يعني : أقبل يضربهم بيمينه .

ويقال : يضربهم باليمين التي حلف ، وهو قوله : ﴿ قَالَ أَفَرَءيْتُم مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ [

الأنبياء : 57 ] ويقال : ﴿ باليمين ﴾ .

يعني : يضربهم بالقوة .

واليمين كناية عنها ، لأن القوة في اليمين ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ يعني : يسرعون ﴿ قَالَ

﴾ إبراهيم ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ بأيديكم من الأصنام .

قرأ حمزة : يُزِفون بضم الياء .

وقرأ الباقون : بالنصب .

فمن قرأ بالنصب فأصله من زفيف النعام ، وهو ابتداء عدوه .

ومن قرأ بالضم أي : يصيروا إلى الزفيف ، ويدخلون في الزفيف ، وكلا القراءتين يرجع إلى

معنى واحد ، وهو الإسراع في المشي .

ثم قال عز وجل : ﴿ والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يعني : وما تنحتون به بأيديكم من الأصنام .

(105/656)

---

ومعناه : تتركون عبادة من خلقكم ، وخلق ما تعملون ، وتعبدون غيره ﴿ قَالُواْ ابنوا لَهُ بنيانا ﴾ يعني : أتوناً ﴿ فَأَلْقُوهُ فِى الجحيم ﴾ يعني : في النار العظيمة ﴿ فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً ﴾ يعني : أرادوا حرقه وقتله ﴿ فجعلناهم الاسفلين ﴾ يعني : الآخرين .

ويقال : الأذلين .

وعلاهم إبراهيم فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى أهلكهم الله عز وجل .

﴿ وَقَالَ إِنّي ذَاهِبٌ إلى رَبّي ﴾ يعني : إني مهاجر إلى طاعة ربي .

ويقال : من أرض ربي .

إلى أرض ربي .

وقال مقاتل : يعني : من بابل إلى بيت المقدس .

ويقال : من أرض حران إلى بيت المقدس ، ويقال : من أرض حران إلى بيت المقدس ، ﴿

سَيَهْدِينِ ﴾ يعني : يحفظني ويقال : إني مهاجر إلى ربي يعني : مقبل إلى طاعة ربي ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ أي سيرشدني ربي .

ويقال : سيعينني .

قوله عز وجل : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصالحين ﴾ يعني : يا رب أعطني ولداً صالحاً من المسلمين ﴿ فبشرناه بغلام حَلِيمٍ ﴾ يعني : حليم في صغره ، عليم في كبره .

قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعى ﴾ إلى الحج ، ويقال : إلى الجبل ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام لابنه ﴿ قَالَ يا بنى إِنّى أرى فِى المنام ﴾ قال مقاتل : هو إسحاق .

وقال الكلبي : هو إسماعيل .

وروى معمر عن الزهري قال في قوله : ﴿ فبشرناه بغلام حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعى ﴾ قال ابن عباس : هو إسماعيل .

وكان ذلك بمنًى .

وقال كعب : هو إسحاق .

وكان ذلك ببيت المقدس .

وقال مجاهد ، وابن عمر ، ومحمد بن كعب القرظي ؛ هو إسماعيل .

وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال : هو إسحاق .

وهكذا روي عن ابن عباس ، وهكذا قال وعكرمة ، وقتادة ، وأبو هريرة ، وعبد الله بن سلام رضي الله عنهم وهكذا قال أهل الكتابين كلهم ، والذي قال : هو إسماعيل احتج بالكتاب والخبر ، أما الكتاب فهو أنه لما ذكر قصة الذبح قال على أثر ذلك : ﴿ وبشرناه بإسحاق نَبِيّاً ﴾ وأما الخبر فما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْن " يعني : أباه عبد الله بن عبد المطلب ، وإسماعيل بن إبراهيم .

وأما الذي يقول : هو إسحاق يحتج بما روي في الخبر ، أنه ذكر نسبة يوسف ، فقال : كان يوسف أشرف نسباً .

يوسف صديق الله بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله قد اختلفوا فيه هذا الاختلاف ، والله أعلم بالصواب ، والظاهر عند العامة هو إسحاق .

فذلك قوله : ﴿ قَالَ يا بنى إِنّى أرى فِى المنام أَنّى أَذْبَحُكَ ﴾ فظاهر اللفظ أنه رأى في المنام أنه يذبحه ، ولكن معناه : ﴿ إِنّى أرى فِى المنام ﴾ أني قد أمرت بذبحك بدليل ما قال في سياق الآية : ﴿ قَالَ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ ﴾ وروي في الخبر : " أَنَّهُ رَأَى فِي المَنَامِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ : إِنَّ الله يَأْمُرُكَ أَنْ تَذْبَحَ وَلَدَكَ فَاسْتَيْقَظَ خَائِفاً ، وَقَالَ : أَعُوذُ بِالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . ثُمَّ رَأَى فِي المَنَامِ فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ مِثْلَ ذلك ، فَاسْتَيْقَظَ وَضَمَّ ابْنَهُ إلى نَفْسِهِ ، وَجَعَلَ يَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ ، فَانقادَ لأَمرِ الله تَعَالَى ، وَقَالَ لامْرَأَتِهِ سَارَّةَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَخْرُجَ إلى طَاعَةِ

رَبِّي ، فَابْعَثِي ابْنِي مَعِي ، فَجَهَّزَتْهُ ، وَبَعَثَتْهُ مَعَهُ "

قال كعب الأحبار : قال الشيطان : إن لم أفتن هؤلاء عند هذه لم أفتنهم أبداً .

فلما خرج إبراهيم بابنه ليذبحه ، فذهب الشيطان ، ودخل على سارة .

فقال : أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ فقالت : غدا به لبعض حاجته .



---

قال : إنه لم يغد به لحاجته ، ولكنه إنما ذهب به ليذبحه ، فقالت : ولم يذبحه ؟ قال : يزعم أن ربه أمره بذلك .

فقالت : قد أحسن أن يطيع ربه ، فخرج في أثرهما ، فقال للغلام : أين يذهب بك أبوك ؟ قال لبعض حاجته .

قال : فإنه لا يذهب بك لحاجته ، ولكنه إنما يذهب بك ليذبحك .

فقال : ولم يذبحني ؟ قال : يزعم أن ربه أمره بذلك .

قال : فوالله لئن كان الله أمره بذلك ، ليفعلن .

فتركه ولحق بإبراهيم ، فقال : أين غدوت بابنك ؟ قال : لحاجة .

قال : فإنك لم تغد به لحاجة ، وإنما غدوت به لتذبحه .

قال ولم أذبحه ؟ قال : تزعم أن الله تعالى أمرك بذلك .

قال : فوالله لئن كان الله أمرني بذلك لأفعلن .

فتركه ، وأيس من أن يطاع .

قوله عز وجل : ﴿ فانظر مَاذَا ترى قَالَ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ سَتَجِدُنِى إن شَاء الله مِنَ الصابرين فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وناديناه أن يا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين وفديناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ فأوحى الله تعالى إلى إسحاق أن ادعو ، فإن لك دعوة مستجابة .

فقال إسحاق : اللَّهم إني أدعوك أن تستجيب لي في أيما عبد من الأولين والآخرين لقيك لا يشرك بك شيئاً أن تدخله الجنة .

وقال مجاهد : إن إبراهيم عليه السلام لما أراد أن يذبح ابنه بالسكين ، قال ابنه : يا أبت خذ بناصيتي ، واجلس بين كتفي ، حتى لا أوذيك إذا أصابني حدّ السكين ، ولا تذبحني وأنت تنظر في وجهي ، عسى أن ترحمني ، واجعل وجهي إلى الأرض ، ففعل إبراهيم .

فلما أمرّ السكينة على حلقه ، انقلبت .

فقال : يا أبت ما لك ؟ قال : قد انقلبت السكين .

قال : فاطعن بها طعناً .

قال : فطعن ، فانثنت .

قال : فعرف الله عز وجل الصدق منه ، ففداه بذبح عظيم ، وقال : هو إسحاق .

وروى أسباط عن السدي قال : كان من شأن إسحاق حين أراد أبوه أن يذبحه .

*(108/656)*

---

أنه ركب مع أبيه في حاجة ، فأعجبه شبابه ، وحسن هيئته ، وكان إبراهيم حين بشر بإسحاق قبل أن يولد له ، قال : هو إذاً لله ذبيح .

فقيل لإبراهيم في منامه : قد نذرت لله نذراً فاوفيه ، فلما أصبح قال : ﴿ قَالَ يَا بنى إِنّى أرى فِى المنام أَنّى أَذْبَحُكَ ﴾ يقول : قد أمرت بذبحك ﴿ قَالَ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ ﴾ قال : فانطلق معي ، وأخبر أمك أنك تنطلق إلى أخوالك ، وأخذ إبراهيم معه حبلاً ، ومدية ، يعني : السكين .

فقال له : يا أبتاه حدها فإنه أهون للموت .

فانطلق به ، حتى أتى به جبلاً من جبال الشام .

فأضجعه في أصرة ، وربط يديه ورجليه ، فقال له إسحاق : يا أبتاه شدّ رباطي ، لكي لا أضطرب ، فيصيب الدم ثيابك ، فتراه سارة ، فتحزن ، فبكى إبراهيم بكاء شديداً .

وأخذ الشفرة ، فوضعها على حلقه ، وضرب الله تعالى على حلقه صفيحة نحاس ،

فجعل يحز ، فلا تصنع شيئًا .

فلما رأى إبراهيم ذلك ، قلّبه على وجهه ، فضرب الله تعالى على قفاه صفيحة نحاس ، وبكيا حتى ابتلت الأرض من دموعهما .

فجعل يحز ، فلا تقطع شيئاً فنودي : ﴿ أن يا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ ودونك هذا الكبش فهو فداه .

فالتفت فإذا هو بكبش أبيض ، أملح ، ينحط من الجبل ، وقد كان رعي في الجنة أربعين خريفاً ، فخلّى عن ابنه ، وأخذ الكبش فذبحه .

وقال وهب بن منبه : لما قال لإسحاق : ﴿ السعى قَالَ يا بنى إِنّى أرى فِى المنام أَنّى أَذْبَحُكَ فانظر مَاذَا ترى قَالَ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ ﴾ ثم قال : يا أبت إني أوصيك بثلاثة أشياء .

قال : وكان إسحاق في ذلك اليوم ابن سبع سنين .

أحدهما : أن تربط يدي لكيلا أضطرب فأؤذيك ، والثاني أن تجعل وجهي إلى الأرض لكيلا تنظر إلى وجهي فترحمني ، والثالث أن تذهب بقميصي إلى أمي ليكون القميص عندها تذكرة مني .

فذلك قوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعى قَالَ يا بنى إِنى أرى فِى المنام أَنِّى أَذْبَحُكَ فانظر مَاذَا ترى ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ مَاذَا ترى ﴾ بضم التاء .

يعني : ماذا ترى من صبرك .

ويقال : معناه ماذا تشير .

وقرأ الباقون : بالنصب ، وهو من الرأي .

يعني : ماذا ترى من صبرك .

ويقال : معناه ماذا تشير فيما أمر الله به .

ويقال : هو من المشورة والرأي قال أبو عبيد : بالنصب تقرأ لأن هذا في موضع المشورة والرأي ، والآخر يستعمل في رؤية العين ﴿ قَالَ يَا ءادَمُ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاء الله مِنَ الصابرين ﴾ على الذبح .

قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ يعني : اتفقا على أمر الله تعالى .

قال قتادة : أسلم هذا نفسه لله تعالى .

وأسلم هذا ابنه لله تعالى .

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ : ﴿ فَلَمَّا أسلاما وتله للجبين ﴾ يعني : رضيا ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ يعني : صرعه على جبينه .

أي : على وجهه .

وقال القتبي ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ يعني : جعل إحدى جبينيه على الأرض ، وهما جبينان ،

والجبهة بينهما ﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ وقال القتبي : الواو زيادة .

ومعناه : فلما أسلما وتله للجبين ناديناه وهذا كما قال امرىء القيس

فَلَمَّا أجَزْنَا سَاحَةَ الحَيِّ وانْتَحَى .

. . بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِي حِقافٍ عَقَنْقَلِ

يعني : انتحى ، والواو زيادة .

وقال بعضهم : في الآية مضمر .

ومعناه ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ سلما ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ وذكر عن الخليل بن أحمد أنه سئل عن

هذه الآية : فقال : ليس لنا في كتاب الله عز وجل متكلم .

فقيل له : فما مثله في العربية .

فقال : قول امرىء القيس : فلما أجزنا ، ساحة الحي أجزنا وانتحى بنا .

كذلك قوله : ﴿ أَسْلَمَا ﴾ سلما ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ .

﴿ وناديناه أَن يا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ يعني : أوفيت الوعد ، وائتمرت ما أمرت لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ كما فعلت يا إبراهيم .

قوله : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين ﴾ يعني : الاختبار البيّن .

ثم قال : ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني : بكبش عظيم .

والذبح بكسر الذال اسم لما يذبح ، وبالنصب مصدر .

وروي عن ابن عباس أنه قال : حدثني من رأى قرني الكبش ، معلقين في الكعبة ، وهو الكبش الذي ذبحه إبراهيم عن إسماعيل عليهما السلام .

ثم قال : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الاخرين ﴾ قال : الثناء الحسن ﴿ سلام على إبراهيم ﴾ يعني : سلام الله على إبراهيم .

ويقال : هذا موصول بالأول .

يعني : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الاخرين سلام على إبراهيم ﴾ يعني : أثنينا عليه السلام في الآخرين .

قوله : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ يعني : المصدقين ، المخلصين .

ثم قال عز وجل : ﴿ وبشرناه بإسحاق نَبِيّاً مّنَ الصالحين ﴾ يعني : بشرناه بنبوة إسحاق بعدما أمر بذبح إسحاق .

وقال ابن عباس : بشر بإسحاق بعدما أمر بذبح إسماعيل .

وكان إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة .

ثم قال عز وجل : ﴿ وباركنا عَلَيْهِ وعلى إسحاق ﴾ أي : على إبراهيم وعلى إسحاق ، وبركته النماء ، والزيادة في الأموال ، والأولاد ، فكان من صلبه ذرية لا تحصى ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ ﴾ مثل موسى ، وهارون ، وداود ، وسليمان ، وعيسى عليهم السلام ومؤمنو أهل الكتاب ﴿ وظالم لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ يعني : الذين كفروا بآيات الله عز وجل .

وروي عن ابن عباس أنه قال : قد رعي الكبش في الجنة أربعين خريفاً .

وقال بعضهم : هي الشاة التي تقرب بها هابيل ابن آدم عليهما السلام فتقبل منه قربانه ، ورفع إلى السماء حياً ، ثم جعل بدلاً عن ذبح إسماعيل أو إسحاق .

ويقال : هي الشاة التي خلقها الله تعالى لأجله .

(111/656)

---

وقال بعضهم : إنها وعلة من البر ، يعني : بقرة وحش من البر جبلية .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا على موسى وهارون ﴾ يعني : أنعمنا عليهما بالنبوة ﴿ ونجيناهما وَقَوْمَهُمَا مِنَ الكرب العظيم ﴾ يعني : من الغرق ﴿ ونصرناهم ﴾ يعني : موسى ، وقومه ، ﴿ فَكَانُواْ هُمُ الغالبون ﴾ بالحجة على فرعون ﴿ وءاتيناهما ﴾ يعني : موسى

وهارون ﴿ الكتاب المستبين ﴾ يعني : المبين الذي قد بيّن فيه الحلال والحرام ﴿ وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ يعني : ثبتناهما على دين الإسلام ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى الاخرين ﴾ يعني : الثناء الحسن في الباقين ﴿ سلام على موسى وهارون ﴾ يعني : السلامة منا ، والمغفرة عليهما ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ أي : نكافىء المحسنين ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ يعني : من المرسلين .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ المرسلين ﴾ يعني : نبي من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام وقال بعضهم : إنه إدريس .

وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ ﴿ وَأَنْ إِدْرِيسَ لَمِنَ المرسلين سلام على إِدْرِيسَ ﴾ .

وقال بعضهم : إلياس هو الخضر عليه السلام .

وقال بعضهم : إلياس غير الخضر .

وإلياس صاحب البراري .

والخضر صاحب الجزائر ، ويجتمعان في كل يوم عرفة بعرفات ويقال : هو من سبط يوشع بن نون ، بعثه الله تعالى إلى أهل بعلبك ، فكذبوه ، فأهلكهم الله تعالى بالقحط .

وقال الله عز وجل لإلياس : سلني أعطك .

قال : ترفعني إليك .

فرفعه الله تعالى إليه ، وجعله أرضياً ، سماوياً ، إنسياً ، ملكياً ، يطير مع الملائكة ، فذلك

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به الأمر .

يعني : اتقوا الله تعالى ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ ﴾ ربّاً .

روى عكرمة عن ابن عباس قال : البعل الصنم .

وقال مجاهد : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ ﴾ ربا .

(112/656)

---

وروى جبير عن الضحاك قال : مرّ رجل وهو يقول : من يعرف بعل البقرة .

فقال رجل أنا بعلها .

فقال له ابن عباس إنك زوج البقرة .

فقال الرجل : يا ابن عباس أما سمعت قول الله تعالى يقول : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ يعني : ربا

وأنا ربها ويقال : البعل كان اسم ذلك الصنم خاصة الذي كان لهم .

ويقال : كان صنماً من ذهب ، فقال لهم : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أي الصنم ﴿ وَتَذَرُونَ

أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ الذي خلقكم يعني : تتركون عبادة الله ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ قرأ حمزة .

والكسائي ، وعاصم ، في رواية حفص ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ ﴿ وَرَبَّ آبَائِكُمُ ﴾ كلها

بالنصب .

وقرأ الباقون كلها بالضم .

فمن قرأ : بالنصب .

يرده إلى قوله : ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخالقين الله ربَّكُمْ وربَّ ﴾ على صفة أحسن الخالقين .

ومن قرأ بالضم ، فهو على معنى الاستئناف .

فكأنه قال : هو الله ربكم ورب آبائكم الأولين .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ يعني : كذبوا إلياس ﴿ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ يعني : هم وآلهتهم لمحضرون النار ﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ فإنهم لا يحضرون النار ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الاخرين ﴾ يعني : الثناء الحسن ﴿ سلام على إِلْ يَاسِينَ ﴾ قرأ نافع ، وابن عامر ، ﴿ سلام على إِلْ يَاسِينَ ﴾ وقرأ الباقون : ﴿ إِلْيَاسِينَ ﴾ .

ومن قرأ ﴿ على إِلْ يَاسِينَ ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم ويقال : آل محمد .

فياسين اسم والال مضاف إليه ، وآل الرجل أتباعه .

وقيل : أهله .

ومن قرأ الياسين ، فله طريقان أحدهما أنه جمع الياس .

ومعناه : الياس ، وأمته من المؤمنين .

كما يقال : رأيت المهالبة .

يعني : بني المهلب .

والثاني أن يكون لقبان الياس والياسين مثل ميكال وميكائيل .

ثم قال : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ وقد ذكرناه .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ المرسلين ﴾ .

(113/656)

---

قوله : ﴿ إِذْ نجيناه وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزاً فِى الغابرين ثُمَّ دَمَّرْنَا الاخرين ﴾ وقد ذكرناه .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴾ يعني : إنكم يا أهل مكة لتمرون على قرياتهم ، إذا سافرتم بالليل والنهار ، فذلك قوله : ﴿ وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرسلين ﴾ يعني : من جملة المرسلين ﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ يعني : إذ فرّ .

ويقال : إذ هرب .

ويقال : خرج ﴿ إِلَى الفلك المشحون ﴾ يعني : المُوقد من الناس ، والدواب .

ويقال : المجهز الذي قد فرغ من جهازه ﴿ فساهم ﴾ يعني : اقترعوا وقد ذكرت قصته في سورة الأنبياء ﴿ فَكَانَ مِنَ المدحضين ﴾ يعني : من المقروعين والمدحض في اللغة هو

المغلوب في الحجة ، وأصله من دحض الرجل إذ ذلّ من مكانه .

قوله : ﴿ فالتقمه الحوت ﴾ يعني : ابتلعه الحوت ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ قال أهل اللغة : المليم

الذي استوجب اللوم ، سواء لأمره ، أو لا .

والملوم الذي يلام ، سواء استوجب اللوم أو لا .

ويقال : وهو ملوم يعني : يلوم نفسه ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين ﴾ قال مقاتل والكلبي :

لولا أنه كان من المصلين قبل ذلك .

ويقال : ﴿ لَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين ﴾ في بطن الحوت ﴿ لَلَبِثَ ﴾ أي : لمكث ﴿ فِى

بَطْنِهِ ﴾ ولكان بطنه قبره ﴿ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ يعني : إلى يوم القيامة .

قوله عز وجل : ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ يعني : نبذه الحوت على ساحل البحر .

ويقال : بالفضاء على ظاهر الأرض .

وقال أهل اللغة : العراء هو المكان الخاليّ من البناء ، والشجر ، والنبات .

فكأنه من عرى الشيء ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ يعني : مريض .

وذكر في الخبر أنه لم يبقَ له لحم ، ولا ظفر ، ولا شعر ، فألقاه على الأرض كهيئة الطفل لا قوة له

، وقد كان مكث في بطن الحوت أربعين يوماً .

ثم قال : ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مّن يَقْطِينٍ ﴾ قال مقاتل : يعني : من قرع .

وهكذا قال قتادة ، ومجاهد .

وقال أهل اللغة : كل شيء ينبت بسطاً ، فهو يقطين ، هكذا قال الكلبي .

وذكر في الخبر أن وعلة كانت تختلف إليه ، ويشرب من لبنها ، فكان تحت ظل اليقطين ، ويشرب من لبن الوعلة ، يعني : بقرة الوحش حتى تقوى ، ثم يبست تلك الشجرة ، فاغتم لذلك ، وحزن حزناً شديداً ، وبكى فأوحى الله تعالى إليه إنك قد اغتتمت بيبس هذه الشجرة ، فكيف لم تغتم بهلاك مائة ألف أو يزيدون ؟ فذلك قوله : ﴿ وأرسلناه إلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ يعني : كما أرسلناه قبل ذلك إلى قومه ، وهم مائة ألف .

يعني : أهل نينوى ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ .

يعني : بل يزيدون .

ويقال : يعني : ويزيدون وكانوا مائة وعشرين ألفاً ﴿ فَئَامِنُواْ ﴾ يعني : لما جاءهم العذاب ، أقروا وصدقوا ، فصرف الله عنهم العذاب ، فذلك قوله : ﴿ فمتعناهم إلى حِينٍ ﴾ يعني : أبقيناهم إلى منتهى آجالهم .

فخرج يونس عليه السلام ، فمر بجانب مدينة نينوى ، فرأى هناك غلاماً يرعى ، فقال : من أنت يا غلام ؟ فقال : من قوم يونس .

فقال : فإذا رجعت إليهم فأخبرهم بأنك قد رأيت يونس .

فقال الغلام : إنه من يحدث ، ولم تكن له بينة قتلوه .

فقال له يونس : تشهد لك هذه البقعة ، وهذه الشجرة .

فدخل ، وقال للملك : إني رأيت يونس عليه السلام يقرئك السلام ، فلم يصدقوه ، حتى خرجوا .

فشهدت له الشجرة ، والبقعة .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : فأخذ الملك بيد الغلام ، وقال : أنت أحق بالملك مني .

فأقام الغلام أميرهم أربعين سنة .

ثم قال عز وجل : ﴿ فاستفتهم ﴾ يعني : سل أهل مكة ﴿ أَلِرَبِّكَ البنات ﴾ قال مقاتل : وذلك أن جنساً من الملائكة ، يقال لهم : الجن منهم إبليس .

قال بعض الكفار : إن الله عز وجل اتخذتهم بناتاً لنفسه ، فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه : فمن أمهم ؟ فقالوا : سروات الجن .

فذلك قوله : ﴿ أَلِرَبِّكَ البنات وَلَهُمُ البنون ﴾ يعني : يختارون له البنات ، ولأنفسهم البنين .

ثم قال: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الملائكة إناثا وَهُمْ شاهدون ﴾ يعني: كانوا شاهدين حاضرين حين خلقهم بناتاً ﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾ يعني: من كذبهم ﴿ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ في قلوبهم.

ثم قال عز وجل: ﴿ أَصْطَفَى البنات على البنين ﴾ وذكر عن نافع أنه قرأ بإسقاط الألف في الوصل وهو قوله: ﴿ لكاذبون اصطفى ﴾ وبكسرها في الابتداء.

وجعلها ألف وصل، ولم يجعلها ألف قطع، ولا ألف استفهام.

ومعناها: أن الله عز وجل حكى عن كفار قريش أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، وأنهم من إفكهم ليقولون: ولد الله، وإنهم لكاذبون في قولهم: اصطفى البنات على البنين.

وقرأ الباقون: ﴿ لكاذبون اصطفى ﴾ بإثبات الألف على معنى الاستفهام.

فلفظه لفظ الاستفهام، والمراد به الزجر.

ثم قال عز وجل: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ يعني: كيف تقضون بالحق ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أنه لا يختار البنات على البنين ﴿ أَمْ لَكُمْ سلطان مُّبِينٌ ﴾ يعني: ألكم حجة.

ويقال: ألكم عذر بيّن في كتاب الله، أنزل الله إليكم بأن الملائكة بناته ﴿ فَأْتُوا بكتابكم ﴾ يعني: أي بعذركم وحجتكم ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في مقالتكم.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ يعني: وصفوا بين الرب، وبين الملائكة نسباً حين زعموا أنهم بناته.

ويقال: جعلوا بينه وبين إبليس قرابة.

وروى جبير عن الضحاك قال: قالت قريش: إن إبليس أخو الرحمن.

وقال عكرمة: ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ قالوا: الملائكة بنات الله، وجعلوهم من الجن.

وهكذا قال القتبي.

ثم قال: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجنة ﴾ قال مقاتل والكلبي: يعني: علمت الملائكة الذين قالوا إنهم البنات ﴿ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أن من قال: إنهم بناته لمحضرون في النار.

(116/656)

---

ويقال: لو علمت الملائكة أنهم لو قالوا بذلك، أدخلوا النار ثم قال عز وجل:

﴿ سبحان الله عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ يعني: تنزيهاً لله عما يصف الكفار.

ثم استثنى على معنى التقديم والتأخير، يعني: فقال إنهم لمحضرون ﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ يعني: الموحدين.

فإنهم لا يقولون ذلك.

ثم قال عز وجل: ﴿ فَإِنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بفاتنين ﴾ يعني:

ما أنتم عليه بمضلين أحداً بآلهتكم ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ يعني : إلا من قدر الله له أن يصلى الجحيم .

ويقال : إلا من كان في علم الله تعالى أنه يصلى الجحيم .

ويقال : إلا من قدرت عليه الضلالة ، وعلمت ذلك منه ، وأنتم لا تقدرون على الإضلال والهدى ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ يعني : قل يا جبريل لمحمد صلى الله عليه وسلم . وما منا معشر الملائكة إلا له مقام معلوم .

يعني : مصلى معروفاً في السماء ، يصلي فيه ويعبد الله تعالى فيه ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافون ﴾ يعني : صفوف الملائكة في السموات .

وروي عن مسروق ، عن ابن مسعود قال : إن في السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك ساجد .

وروي : أو قدماه .

وروي عن مجاهد عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلَّا وَفِيهِ جَبْهَةُ مَلَكٍ سَاجِدٍ " .

ويقال : إن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : لمزمل : 20 ]

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ في السموات ، يعبد الله عز وجل فيه ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون ﴾ يعني : المصلين ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِن ثُلُثَى الليل وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الذين مَعَكَ والله يُقَدِّرُ الليل والنهار عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرءان عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مرضى وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الأرض يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ الله وَءَاخَرُونَ يقاتلون فِى سَبِيلِ الله فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَءَاتُواْ الزكواة وَأَقْرِضُواْ الله قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ الله هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً واستغفروا الله إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[ المزمل : 20 ] ﴿ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ﴾ يعني : إن أهل مكة كانوا يقولون : لو أتانا بكتاب مثل اليهود والنصارى ، لكنا نؤمن ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الاولين ﴾ يعني : لو جاءنا رسول ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ الله المخلصين ﴾ يعني : الموحدين .

فلما جاءهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كفروا به .

ويقال : يعني : بالقرآن ﴿ فَكَفَرُواْ بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : يعرفون في الآخرة ، وهذا وعيد لهم .

ويقال في الدنيا .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ﴾ يعني : قد مضت كلمتنا بالنصرة لعبادنا ﴿ المرسلين ﴾ يعني : الأنبياء عليهم السلام وهو قوله عز وجل : ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [ المجادلة : 21 ] ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون ﴾ في الدنيا على أعدائهم ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ يعني : المؤمنون أهل ديننا .

ويقال : رسلنا لهم الغالبون في الدنيا بالغلبة ، والحجة في الآخرة ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ يعني : فأعرض عنهم إلى نزول العذاب ، وكان ذلك قبل أن يؤمر بالقتال ﴿ حتى حِينٍ ﴾ قال الكلبي : إلى فتح مكة .

ويقال : إلى أن تؤمر بالقتال ﴿ وأبصارهم ﴾ يعني : أعلمهم ذلك ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ يعني : يرون ماذا يفعل بهم إذا نزل بهم العذاب ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ يعني : أفبعذاب مثلي ﴿ يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ يعني : بقربهم وحضرتهم ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ المنذرين ﴾ يعني : بئس الصباح صباح من أنذر بالعذاب .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما نزل بقرب خيبر قال : " هَلَكَتْ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ " يعني : من أنذرتهم فلم يؤمنوا .

قوله عز وجل : ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حتى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ وتكرار الكلام للتأكيد ، والمبالغة في الحجة .

ثم نزّه نفسه عما قالت الكفار، فقال عز وجل: ﴿ سبحان ربّكَ ﴾ يا محمد ﴿ رَبّ العزة ﴾ والقدرة ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ يعني: عما يقولون وقرىء في الشاذ ﴿ رَبّ العزة ﴾ ويكون نصباً على المدح، وفي الشاذ قرىء (ربُّ العِزَّة) بالرفع على معنى هو رب العزة. وقراءة العامة: بالكسر على معنى النعت.

ثم قال عز وجل: ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ بتبليغ الرسالة.

(119/656)

---

ففي الآية دليل وتنبيه للمؤمنين بالتسليم على جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ثم قال: ﴿ والحمد للهِ رَبّ العالمين ﴾ على هلاك الكافرين الذين لم يوحدوا ربهم.

ويقال: حمد الرب نفسه ليكون دليلاً لعباده، ليحمدوه سبحانه وتعالى والحمد لله رب العالمين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 137.149 ﴾

(120/656)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : من أهل دينه ، قاله ابن عباس .

الثاني : على منهاجه وسنته ، قاله مجاهد .

وفي أصل الشيعة في اللغة قولان :

أحدهما : أنهم الأتباع ومنه قول الشاعر :

قال الخليط غداً تصدُّ عَنّا . . . أو شيعَه أفلا تشيعنا

قوله أو شيعه أي اليوم الي يتبع غداً ، قاله ابن بجر .

الثاني : وهو قول الأصمعي الشيعة الأعوان ، وهو مأخوذ من الشياع وهو الحطب الصغار الذي يوضع مع الكبار حتى يستوقد لأنه يعين على الوقود .

ثم فيه قولان :

أحدهما : إن من شيعة محمد لإبراهيم عليهما السلام ، قاله الكلبي والفراء .

الثاني : من شيعة نوح لإبراهيم ، قاله مجاهد ومقاتل .

وفي إبراهيم وجهان :

أحدهما : أنه اسم أعجمي وهو قول الأكثرين .

الثاني : مشتق من البرهمة وهي إدّامة النظر .

قوله عز وجل : ﴿ إذ جاء ربّه بقَلْب سليم ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : سليم من الشك ، قاله قتادة .

الثاني : سليم من الشرك ، قاله الحسن .

الثالث : مخلص ، قاله الضحاك .

الرابع : ألا يكون لعاناً ، قاله عروة بن الزبير .

ويحتمل مجيئه إلى ربه وجهين :

أحدهما : عند دعائه إلى توحيده وطاعته .

الثاني : عند إلقائه في النار .

قوله عز وجل : ﴿ فنظر نظرة في النجوم ﴾ فيها أربعة تأويلات :

أحدها : أنه رأى نجماً طالعاً ، فعلم بذلك أن له إلهاً خالقاً ، فكان هذا نظره في النجوم ، قاله سعيد بن المسيب .

الثاني : أنها كلمة من كلام العرب إذا تفكر الرجل في أمره قالوا قد نظر في النجوم ، قاله قتادة .

الثالث : أنه نظر فيما نجم من قولهم ، وهذا قول الحسن .

الرابع : أن علم النجوم كان من النبوة ، فلما حبس الله تعالى الشمس على يوشع بن نون أبطل ذلك ، فنظر إبراهيم فيها [ كان ] علماً نبوياً ، قاله ابن عائشة .

(121/656)

---

وحكى جويبر عن الضحاك أن علم النجوم كان باقياً إلى زمن عيسى ابن مريم عليه السلام حتى دخلوا عليه في موضع لا يطلع عليه فقالت لهم مريم من أين علمتم موضعه ؟ قالوا : من النجوم ، فدعا ربه عند ذلك فقال : اللهم فوهمهم في علمها فلا يعلم علم النجوم أحد ، فصار حكمها في الشرع محظوراً وعلمها في الناس مجهولاً . قال الكلبي وكانوا بقرية بين البصرة والكوفة يقال لها هرمزجرد وكانوا ينظرون في النجوم .

﴿ فقال إني سقيم ﴾ فيه سبعة تأويلات :

أحدها : أنه استدل بها على وقت حمى كانت تأتيه .

الثاني : سقيم بما في عنقي من الموت .

الثالث : سقيم بما أرى من قبح أفعالكم في عبادة غير الله .

الرابع : سقيم لشكه .

الخامس : لعلمه بأن له إلهاً خالقاً معبوداً ، قاله ابن بحر .

السادس : لعلة عرضت له .

السابع : أن ملكهم أرسل إليه أن غداً عيدنا فاخرج ، فنظر إلى نجم فقال : إن ذا النجم لم يطلع قط إلا طلع بسقمي ، فتولوا عنه مدبرين ، قاله عبد الرحمن بن زيد قال سعيد بن المسيب : كابد نبي الله عن دينه فقال إني سقيم . وقال سفيان : كانوا يفرون من المطعون فأراد أن يخلوا بآلهتهم فقال : إني سقيم أي طعين وهذه خطيئته التي قال اغفر لي خطيئتي يوم الدين وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لم يكذب إبراهيم غير ثلاث : ثنتين في ذات الله عز وجل قوله إني سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله في سارة هي أختي

" . ﴿ فراغ إلى ءَالِهَتِهِمْ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : ذهب إليهم ، قاله السدي .

الثاني : مال إليهم ، قاله قتادة .

الثالث : صال عليهم ، قاله الأخفش .

الرابع : أقبل عليهم ، قاله الكلبي وقطرب ، وهذا قريب من المعنيين المتقدمين .

﴿ فقال ألا تأكلون ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه قال ذلك استهزاء بهم ، قاله ابن زياد .

الثاني : أنه وجدهم حين خرجوا إلى عيدهم قد صنعوا لآلهتهم طعاماً لتبارك لهم فيه فلذلك قال للأصنام وإن كانت لا تعقل عنه الكلام احتجاجاً على جهل من عبدها .

وتنبيهاً على عجزها ، ولذلك قال :

﴿ ما لكم لا تنطقون ﴾ .

﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يده اليمنى . قاله الضحاك ، لأنها أقوى والضرب بها أشد .

الثاني : باليمين التي حلفها حين قال ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ حكاه ابن عيسى .

الثالث : يعني بالقوة ، وقوة النبوة أشد ، قاله ثعلب .

﴿ فأقبلوا إليه يزفون ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : يخرجون ، قاله ابن عباس .

الثاني : يسعون ، قاله الضحاك .

الثالث : يتسللون ، حكاه ابن عيسى .

الرابع : يرعدون غضباً ، حكاه يحيى بن سلام .

الخامس : يختالون وهو مشي الخيلاء ، وبه قال مجاهد ، ومنه أخذ زفاف العروس إلى زوجها ، وقال الفرزدق :

وجاء قريع الشول قَبل إفالها . . . يزفّ وجاءت خَلْفه وهي زفّف

قوله عز وجل : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الله خلقكم وخلق عملكم .

الثاني : خلقكم وخلق الأصنام التي عملتموها .

﴿ فأرادوا به كيداً ﴾ يعني إحراقه بالنار التي أوقدوها له .

﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : الأسفلين في نار جهنم ، قاله يحيى .

الثاني : الأسفلين في دحض الحجة ، قال قتادة : فما ناظروه بعد ذلك حتى أهلكوا .

الثالث : يعني المهلكين فإن الله تعالى عقب ذلك بهلاكهم .

الرابع : المقهورين لخلاص إبراهيم من كيدهم . قال كعب : فما انتفع بالنار يومئذٍ أحد من الناس وما أحرقت منه يومئذٍ إلا وثاقه .

وروت أم سبابة الأنصارية عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثها أن " إبراهيم لما ألقي في النار كانت الدواب كلها تطفىء عنه النار إلا الوزغة فإنها كانت تنفخ عليها " فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها .

﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ وفي زمان هذا القول منه قولان :

أحدهما : أنه قال عند إلقائه في النار ، وفيه على هذا القول تأويلان :

أحدهما : إني ذاهب إلى ما قضى به عليّ ربي .

الثاني : إني ميت كما يقال لمن مات قد ذهب إلى الله تعالى لأنه عليه السلام تصور أنه يموت بإلقائه في النار على المعهود من حالها في تلف ما يلقى فيها إلى أن قيل لها كوني برداً وسلاماً ، فحينئذٍ سلم إبراهيم منها .

وفي قوله : ﴿ سيهدين ﴾ على هذا القول تأويلان :

أحدهما : سيهدين إلى الخلاص من النار .

الثاني : إلى الجنة .

فاحتمل ما قاله إبراهيم من هذا وجهين :

أحدهما : أن بقوله لمن يلقيه في النار فيكون ذلك تخويفاً لهم .

الثاني : أن بقوله لمن شاهده من الناس الحضور فيكون ذلك منه إنذاراً لهم ، فهذا تأويل ذلك على قول من ذكر أنه قال قبل إلقائه في النار .

والقول الثاني : أنه قاله بعد خروجه من النار .

﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ وفي هذا القول ثلاثة تأويلات :

أحدها : إني منقطع إلى الله بعبادتي ، حكاه النقاش .

الثاني : ذاهب إليه بقلبي وديني وعملي ، قاله قتادة .

الثالث : مهاجر إليه بنفسي فهاجر من أرض العراق . قال مقاتل : هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارة .

وفي البلد الذي هاجر إليه قولان :

أحدهما : إلى أرض الشام .

الثاني : إلى أرض حران ، حكاه النسائي .

وفي قوله : سيهدين على هذا القول تأويلان :

أحدهما : سيهدين إلى قول : حسبي الله عليه توكلت ، قاله سليمان .

الثاني : إلى طريق الهجرة ، قاله يحيى .

واحتمل هذا القول منه وجهين :

أحدهما : أن يقوله لمن فارقه من قومه فيكون ذلك توبيخاً لهم .

الثاني : أن يقوله لمن هاجر معه من أهله فيكون ذلك منه ترغيباً .

قوله عز وجل : ﴿ فبشرناه بغُلام حليم ﴾ أي وقور . قال الحسن : ما سمعت الله يحل عباده شيئاً أجل من الحلم .

وفي قولان :

أحدهما : أنه إسحاق ، ولم يثن الله تعالى على أحد بالحلم إلا على إسحاق وإبراهيم قاله قتادة .



---

الثاني : إسماعيل وبشر بنبوة إسحاق بعد ذلك ، قاله عامر الشعبي . قال الكلبي وكان إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة .

قوله عز وجل : ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يمشي مع أبيه ، قاله قتادة .

الثاني : أدرك معه العمل ، قاله عكرمة .

الثالث : أنه سعي العمل الذي تقوم به الحجة ، قاله الحسن .

الرابع : أنه السعي في العبادة ، قاله ابن زيد .

قال ابن عباس : صام وصلى ، ألم تسمع الله يقول ﴿ وسعى لها سعيها ﴾ [الإسراء : 19 ] قال الفراء والكلبي ، وكان يومئذٍ ابن ثلاث عشرة سنة .

﴿ قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحُك ﴾ فروى سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

"رؤيا الأنبياء في المنام وحي

". ﴿ فانظُرْ ماذا تَرَى ﴾ لم يقل له ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله سبحانه ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه قاله إخباراً بما أمره الله تعالى به ليكون أطوع له .

الثاني : أنه قاله امتحاناً لصبره على أمر الله تعالى .

الثالث : أي ماذا تريني من صبرك أو جزعك ، قاله الفراء .

﴿ قال يا أبت افْعَلْ ما تؤمرُ ﴾ الآية. فيه وجهان :

أحدهما : على الذبح ، قاله مقاتل .

الثاني : على القضاء ، حكاه الكلبي ، فوجده في الامتحان صادق الطاعة سريع الإجابة قوي الدين .

قوله عز وجل : ﴿ فلما أسْلَما ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : اتفقا على أمر واحد ، قاله أبو صالح .

الثاني : سلما لله تعالى الأمر ، وهو قول السدي .

قال قتادة : سلم إسماعيل نفسه لله ، وسلم إبراهيم ابنه لله تعالى .

﴿ وتله للجبين ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه صرعه على جبينه ، قاله ابن عباس ، والجبين ما عن يمين الجبهة وشمالها ،

قال الشاعر :

وتله أبو حكم للجبين . . . فصار إلى أمّه الهاوية

الثاني : أنه أكبَّه لوجهه ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه وضع جبينه على تل ، قاله قطرب .

(125/656)

---

وحكى مجاهد عن إسحاق أنه قال : يا أبت اذبحني وأنا ساجد ، ولا تنظر إلى وجهي فعسى أن ترحمني فلا تذبحني .

﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ أي عملت ما رأيته في المنام ، وفي الذي رآه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الذي رآه أنه قعد منه مقعد الذابح ينتظر الأمر بإمضاء الذبح .

الثاني : أن الذي رآه أنه أمر بذبحه بشرط التمكين ولم يمكن منه لما روي أنه كان كلما اعتمد بالشفرة انقلبت وجعل على حلقه صفيحة من نحاس .

الثالث : أن الذي رآه أنه ذبحه وقد فعل ذلك وإنما وصل الله تعالى الأوداج بلا فصل .

﴿ إنا كذلك نجزِي المحسنين ﴾ بالعفو عن ذبح ابنه .

وفي الذبيح قولان مثل اختلافهم في الحليم الذي بشر به .

أحدهما : أنه إسحاق ، قاله علي رضي الله عنه وعبد الله بن مسعود وكعب الأحبار وقتادة والحسن . قال ابن جريج ذبح إبراهيم ابنه إسحاق وهو ابن سبع سنين وولدته سارة وهي بنت تسعين سنة .

وفي الموضع الذي أراد ذبحه فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : بمكة في المقام .

الثاني : في المنحر بمنى .

الثالث : بالشام ، قاله ابن جريج وهو من بيت المقدس على ميلين . ولما علمت سارة ما أراد بإسحاق بقيت يومين وماتت في اليوم .

القول الثاني : أنه إسماعيل ، قاله ابن عباس وعبد الله بن عمر ومحمد بن كعب وسعيد بن المسيب ، وأنه ذبحه بمنى عند الجمار التي رمى إبليس في كل جمرة بسبع حصيات حين عارضه في ذبحه حتى جمر بين يديه أي أسرع فسميت جماراً .

وحكى سعيد بن جبير أنه ذبحه على الصخرة التي بأصل ثبير بمنى :

قوله عز وجل : ﴿ إنَّ هذا لهو البلاءُ المبين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الاختبار العظيم ، قاله ابن قتيبة .

الثاني : النعمة البينة ، قاله الكلبي ومقاتل وقطرب وأنشد قول الحطيئة :

وإن بلاءهم ما قد علمتم . . . على الأيام إن نفع البلاءُ

قوله عز وجل : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

(126/656)

---

أحدها : أنه فدى بوعل أنزل عليه من ثبير ، قاله ابن عباس ، وحكى عنه سعيد ابن جبير أنه كبش رعي في الجنة أربعين خريفاً .

الثاني : أنه فدي بكبش من غنم الدنيا ، قاله الحسن .

الثالث : أنه فدي بكبش أنزل عليه من الجنة وهو الكبش الذي قربه هابيل بن آدم فقيل منه . قال ابن عباس حدثني من رأى قرني الكبش الذي ذبحه إبراهيم عليه السلام معلقين بالكعبة . والذبح بالكسر هو المذبوح ، والذبح بالفتح هو فعل الذبح .

وفي قوله : ﴿ عظيم ﴾ خمسة تأويلات :

أحدها : لأنه قد رعى في الجنة ، قاله ابن عباس .

الثاني : لأنه ذبح بحق ، قاله الحسن .

الثالث : لأنه عظيم الشخص .

الرابع : لأنه عظيم البركة .

الخامس : لأنه متقبل ، قاله مجاهد .

قوله عز وجل : ﴿ وتركنا عليه في الآخِرين ﴾ فيه قولان :

أحدهما : الثناء الحسن ، قاله قتادة .

الثاني : هو السلام على إبراهيم ، قاله عكرمة .

قوله عز وجل : ﴿ ولقد مننا على موسى وهارون ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بالنبوة ، قاله مقاتل .

الثاني : بالنجاة من فرعون ، قاله الكلبي .

﴿ ونجيناهما ﴾ الآية . فيه قولان :

أحدهما : من الغرق .

الثاني : من الرق .

قوله عز وجل : ﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه إدريس قاله ابن عباس وقتادة ، وهي قراءة ابن مسعود : وابن إدريس .

الثاني : أنه من ولد هارون ، قاله محمد بن إسحاق ، قال مقاتل : هو إلياس بن بحشر ، وقال الكلبي هو عم اليسع . وجوز قوم أن يكون هو إلياس بن مضر .

وقيل لما عظمت الأحداث في بني إسرائيل بعد حزقيل بعث الله إليهم إلياس عليه السلام نبياً ، وتبعه اليسع وآمن به ، فلما عتا عليه بنو إسرائيل دعا ربه أن يقبضه إليه ففعل وقطع

عنه لذة المطعم والمشرب وصار مع الملائكة إنيساً ملكياً ، أرضياً سماوياً ، والله أعلم .

قوله عز وجل : ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

(127/656)

---

أحدها : يعني ربّاً ، قاله عكرمة ومجاهد . قال مقاتل هي لغة أزد شنوءة ، وسمع ابن عباس رجلاً من أهل اليمن يسوم ناقة بمنى فقال : من بعل هذه أي ربها ، ومنه قول أبي دؤاد :

ورأيت بعلك في الوغى . . . متقلداً سيفاً ورمحا

الثاني : أنه صنم يقال له بعل كانوا يعبدونه وبه سميت بعلبك ، قاله الضحاك وابن زيد وقال مقاتل : كسره إلياس وذهب .

الثالث : أنه اسم امرأة كانوا يعبدونها ، قاله ابن شجرة .

﴿ وتذرون أَحْسَنَ الخالقين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من قيل له خالق .

الثاني : أحسن الصانعين لأن الناس يصنعون ولا يخلقون .

قوله عز وجل :

﴿ سلامٌ على إِلْ يَاسِينَ ﴾ قرأ نافع وابن عامر : سلامُ على آل ياسين بفتح الهمزة ومدها وكسر اللام ، وقرأ الباقون بكسر الهمزة وتسكين اللام ، وقرأ الحسن : سلام على ياسين بإسقاط الألف واللام ، وقرأ ابن مسعود : سلام على ادراسين ، لأنه قرأ وإن إدريس لمن المرسلين .

فمن قرأ الياس ففيه وجهان :

أحدهما : أنه جمع يدخل فيه جميع آل إلياس بمعنى أن كل واحد من أهله يسمى الياس .

الثاني : أنه إلياس فغير بالزيادة لأن العرب تغير الأسماء الأعجمية بالزيادة كما يقولون ميكال وميكاييل وميكائين . قال الشاعر :

يقول أهل السوق لما جينا . . . هذا وربِّ البيت إسرائينا

ومن قرأ آل ياسين ففي قراءته وجهان :

أحدهما : أنهم آل محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنهم آل إلياس .

فعلى هذا في دخول الزيادة في ياسين وجهان :

أحدهما : أنها زيدت لتساوي الآي ، كما قال في موضع طور سيناء ، وفي موضع آخر طور سينين ، فعلى هذا يكون السلام على أهله دونه وتكون الإضافة إليه تشريفاً له .

الثاني : أنها دخلت للجمع فيكون داخلاً في جملتهم ويكون السلام عليه وعليهم .

﴿ إلا عجوزاً في الغابرين ﴾ فيها أربعة أوجه :

أحدها : الهالكين ، قاله السّدي .

الثاني : في الباقين من الهالكين ، قاله ابن زيد .

الثالث : في عذاب الله تعالى ، قاله قتادة .



---

الرابع : في الماضين في العذاب ، حكاه مقاتل .

قوله عز وجل : ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ قال السدي : يونس بن متى نبي من أنبياء الله تعالى بعثه إلى قرية يقال لها نينوى على شاطىء دجلة : قال قتادة : وهي من أرض الموصل .

﴿ إذ أبق إلى الفُلك المشحون ﴾ والآبق الفارّ إلى حيث لا يعلم به ، قال الحسن : فر من قومه وكان فيما عهد إليهم أنهم إن لم يؤمنوا أتاهم العذاب ، وجعل علامة ذلك خروجاً من بين أظهرهم ، فلما خرج عنه جاءتهم ريح سوداء فخافوها فدعوا الله بأطفالهم وبهائمهم فأجابهم وصرف العذاب عنهم فخرج مكايداً لقومه مغاضباً لدين ربه حتى أتى البحر فركب سفينة وقد استوقرت حملاً ، فلما اشتطت بهم خافوا الغرق .

وفيما خافوا الغرق به قولان :

أحدهما : أمواج من ريح عصفت بهم قاله ابن عباس .

الثاني : من الحوت الذي عارضهم ، حكاه ابن عيسى ، فقالوا عند ذلك : فينا مذنب لا ننجو إلا بإلقائه ، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فألقوه ، وهو معنى قوله تعالى :

﴿ فساهَم ﴾ أي قارع بالسهام ، قاله ابن عباس والسدي .

﴿ فكان من المدحضين ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : من المقروعين ، قاله ابن عباس ومجاهد .

الثاني : من المغلوبين ، قاله سعيد بن جبير ، ومنه قول أبي قيس :

قتلنا المدحضين بكل فج . . . فقد قرت بقتلهم العيون

الثالث : أنه الباطل الحجة ، قاله السدي مأخوذ من دحض الحجة وهو بطلانها فلما ألقوه في البحر آمنوا .

قوله عز وجل : ﴿ فالتقمه الحوت وهُو مليم ﴾ قال ابن عباس : أوحى الله تعالى إلى سمكة يقال لها اللخم من البحر الأخضر أن شقي البحار حتى تأخذي يونس ، وليس يونس لك رزقاً ، ولكن جعلت بطنك له سجناً ، فلا تخدشي له جلداً ولا تكسري له عظماً ، فالتقمه الحوت حين ألقي .

وفي قوله : ﴿ وهو مليم ﴾ ثلاثة تأويلات :

أحدها : أي مسيء مذنب ، قاله ابن عباس .

الثاني : يلوم نفسه على ما صنع ، وهو معنى قول قتادة .

الثالث : يلام على ما صنع ، قاله الكلبي .

(129/656)

---

والفرق بين الملوم والمليم أن المليم اذا أتى بما يلام عليه ، والملوم إذا ليم عليه .

﴿ فلولا أنه كان مِن المسبحين ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : من القائلين لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، قاله الحسن .

الثاني : من المصلين قاله ابن عباس .

الثالث : من العابدين ، قاله وهب بن منبه .

الرابع : من التائبين ، قاله قطرب . وقيل تاب في الرخاء فنجاه الله من البلاء .

﴿ للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ قال قتادة : إلى يوم القيامة حتى يَصير الحوت له قبراً ،

وفي مدة لبثه في بطن الحوت أربعة أقاويل :

أحدها : بعض يوم ، قال الشعبي : التقمه ضحى ولفظه عشية .

الثاني : ثلاثة أيام ، قاله قتادة .

الثالث : سبعة أيام ، قاله جعفر .

الرابع : أربعون يوماً ، قاله أبو مالك ، وقيل إنه سار بيونس حتى مر به إلى الإيلة ثم عاد في دجلة إلى نينوى .

﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : بالساحل ، قاله ابن عباس .

الثاني : بالأرض ، قاله السدي ، قال الضحاك : هي أرض يقال لها بلد .

الثالث : موضع بأرض اليمن .

الرابع : الفضاء الذي لا يواريه نبت ولا شجر ، قال الشاعر :

ورفعت رِجْلاً لا أخاف عثارها . . . ونبذت بالبلد العراء ثيابي

﴿ وهو سقيم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : كهيئة الصبي ، قاله السدي .

الثاني : كهيئة الفرخ الذي ليس له ريش ، قاله ابن مسعود لأنه ضعف بعد القوة ، ورق جلده بعد الشدة .

قوله عز وجل : ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ فيها خمسة أقاويل :

أحدها : أنه القرع ، قاله ابن مسعود .

الثاني : أنه كل شجرة ليس فيها ساق يبقى من الشتاء إلى الصيف ، قاله سعيد بن جبير .

الثالث : أنها كل شجرة لها ورق عريض ، قاله ابن عباس .

الرابع : أنه كل ما ينبسط على وجه الأرض من البطيخ والقثاء ، رواه القاسم بن أبي أيوب .

(130/656)

---

الخامس : أنها شجرة سماها الله تعالى يقطيناً أظلته رواه هلال بن حيان . وهو تفعيل من قطن بالمكان أي أقام إقامة زائل لا إقامة راسخ كالنخل والزيتون ، فمكث يونس تحتها يصيب منها ويستظل بها حتى تراجعت نفسه إليه ، ثم يبست الشجرة فبكى حزناً عليها ، فأوحى الله تعالى إليه : أتبكي على هلاك شجرة ولا تبكي على هلاك مائة ألف أو يزيدون ؟ حكاه ابن مسعود .

وحكى سعيد بن جبير أنه لما تساقط ورق الشجر عنه أفضت إليه الشمس فشكاه فأوحى الله تعالى إليه : يا يونس جزعت من حر الشمس ولم تجزع لمائة ألف أو يزيدون تابوا إليّ فتبت عليهم .

قوله عز وجل : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألفٍ أو يزيدون ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنه أرسل إليهم بعدما نبذه الحوت ، قاله ابن عباس ، فكان أرسل إلى قوم بعد قوم .

الثاني : أنه أرسل إلى الأولين فآمنوا بشريعته ، وهو معنى قول ابن مسعود .

وفي قوله : ﴿ أو يزيدون ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه للإبهام كأنه قال أرسلناه إلى أحد العددين .

الثاني : أنه على شك المخاطبين .

الثالث : أن معناه : بل يزيدون ، قاله ابن عباس وعدد من أهل التأويل ، مثله قوله فكان قاب قوسين أو أدنى يعنى بل أدنى ، قال جرير :

أثعلبة الفوارس أو رياحاً . . . عدلت بهم طهية والخشابا

والمعنى أثعلبة بل رياحاً .

واختلف من قال بهذا في قدر زيادتهم على مائة ألف على خمسة أقاويل :

أحدها : يزيدون عشرين ألفاً ، رواه أُبي بن كعب مرفوعاً .

الثاني : يزيدون ثلاثين ألفاً ، قاله ابن عباس .

الثالث : يزيدون بضعة وثلاثين ألفاً ، قاله الحكم .

الرابع : بضعة وأربعين ألفاً رواه سفيان بن عبد الله البصري .

الخامس : سبعين ألفاً ، قاله سعيد بن جبير .

قوله عز وجل : ﴿ أم لكم سلطان مبين ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : عذر مبين ، قاله قتادة .

الثاني : حجة بينة ، قاله ابن قتيبة .

الثالث : كتاب بيّن ، قاله الكلبي .

قوله عز وجل : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجِنة نسباً ﴾ فيه أربعة أوجه :

(131/656)

---

أحدها : أنه إشراك الشيطان في عبادة الله تعالى فهو النسب الذي جعلوه ، قاله الحسن .

الثاني : هو قول يهود أصبهان أن الله تعالى صاهر الجن فكانت الملائكة من بينهم ، قاله قتادة .

الثالث : هو قول الزنادقة : إن الله تعالى وإبليس أخوان ، وأن النور والخير والحيوان النافع من خلق الله ، والظلمة والشر والحيوان الضار من خلق إبليس ، قاله الكلبي وعطية العوفي .

الرابع : هو قول المشركين ، إن الملائكة بنات الله فقال لهم أبو بكر : فمن أمهاتهم ؟ قالوا : بنات سروات الجن ، قاله مجاهد .

وفي تسمية الملائكة على هذا الوجه جنة ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم بطن من بطون الملائكة يقال لهم الجنة ، قاله مجاهد .

الثاني : لأنهم على الجنان ، قاله أبو صالح .

الثالث : لاستتارهم عن العيون كالجن المستخفين .

قوله عز وجل : ﴿ ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ﴾ وفي الجنة قولان :

أحدهما : أنهم الملائكة ، قاله السدي .

الثاني : أنهم الجن ، قاله مجاهد .

وفيما علموه قولان :

أحدهما : أنهم علموا أن قائل هذا القول محضرون ، قاله علي بن عيسى .

الثاني : علموا أنهم في أنفسهم محضرون ، وهو قول من زعم أن الجنة هم الجن .

وفي قوله محضرون تأويلان :

أحدهما : للحساب ، قال مجاهد .

الثاني : محضرون في النار ، قاله قتادة .

قوله عز وجل : ﴿ فإنكم وما تعبدون ﴾ يعني المشركين وما عبدوه من آلهتهم .

﴿ ما أنتم عليه بفاتنين ﴾ أي بمضلين ، قال الشاعر :

فرد بنعمته كيده . . . عليه وكان لها فاتناً

﴿ إلا من هو صالِ الجحيم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إلا من سبق في علم الله تعالى أنه يصلى الجحيم ، قاله ابن عباس .

قوله عز وجل ﴿ وما مِنّا إلا له مقامٌ معلوم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : ما منا ملك إلا له في السماء مقام معلوم ، قاله ابن مسعود وسعيد بن جبير .

الثاني : ما حكاه قتادة قال : كان يصلي الرجال والنساء جميعاً حتى نزلت ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ قال فتقدم الرجال وتأخر النساء .

(132/656)

---

ويحتمل إن لم يثبت هذا النقل .

ثالثاً : وما منا يوم القيامة إلا من له فيها مقام معلوم بين يدي الله عز وجل .

قوله عز وجل : ﴿ وإنا لنحن الصّافون ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنهم الملائكة يقفون صفوفاً في السماء ، قيل حول العرش ينتظرون ما يؤمرون به ، وقيل في الصلاة مصطفين . وحكى أبو نضرة أن عمر رضي الله كان إذا قام إلى الصلاة قال : يريد ، الله بكم هدى الملائكة ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ تأخر يا فلان ، ثم يتقدم فيكبر .

الثاني : ما حكاه أبو مالك قال كان الناس يصلون متبددين فأنزل الله عز وجل ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يصطفوا

. وقوله عز وجل : ﴿ وإنا لنحن المسبحون ﴾ فيه قولان :

أحدهما : المصلّون ، قاله قتادة .

الثاني : المنزِّهون الله عما أضافه إليه المشركون أي فكيف لا تعبدونه ونحن نعبده .

قوله عز وجل : ﴿ ولقد سبقت كلمتُنا لعبادنا المرسلين ﴾ فيه قولان :

أحدهما : سبقت بالحجج ، قاله السدي .

الثاني : أنهم سينصرون ، قال الحسن : لم يقتل من الرسل أصحاب الشرائع أحد قط .

﴿ إنهم لهم المنصرون ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بالحجج في الدنيا والعذاب في الآخرة ، قاله السدي والكلبي .

الثاني : بالظفر إما بالإيمان أو بالانتقام ، وهو معنى قول قتادة .

قوله عز وجل : ﴿ فتولَّ عنهم حتى حين ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : يوم بدر ، قاله السدي .

الثاني : فتح مكة ، حكاه النقاش .

الثالث : الموت ، قاله قتادة .

الرابع : يوم القيامة ، وهو قول زيد بن أسلم .

وفي نسخ هذه الآية قولان :

أحدهما : أنها منسوخة ، قاله قتادة .

الثاني : أنها ثابتة .

قوله عز وجل : ﴿ وأبصِر فسوف يبصرون ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أبصر ما ضيعوا من أمر الله فسوف يبصرون ما يحل بهم من عذاب الله وهو معنى قول ابن زيد .

الثاني : أبصرهم في وقت النصرة عليهم فسوف يبصرون ما يحل لهم ، حكاه ابن عيسى .

الثالث : أبصر حالهم بقلبك فسوف يبصرون ذلك في القيامة .



---

الرابع : أعلمهم الآن فسوف يعلمونه بالعيان وهو معنى قول ثعلب .

قوله عز وجل : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ روى الشعبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلامٌ على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾

" . قوله تعالى : ﴿ رب العزة ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : مالك العزة .

الثاني : رب كل شيء متعزز من مالك أو متجبر .

﴿ وسلامٌ على المرسلين ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : سلامه عليهم إكراماً لهم .

الثاني : قضاؤه بسلامتهم بعد إرسالهم فإنه ما أمر نبي بالقتال إلا حرس من القتل .

﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : على إرسال الأنبياء مبشرين ومنذرين .

الثاني : على جميع ما أنعم به على الخلق أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

(134/656)

---

وقال الثعلبى :

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ ﴾

أهل دينه وسنته ﴿ لإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ : مُخلص من الشرك والشك ، وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا الفربابي قال : حدّثنا محمد بن العلا قال : حدّثنا عصام بن علي عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال : يا بنيّ لا تكونوا لعّانين أو لم يروا إلى إبراهيم لم يلعن شيئاً قط فقال الله سبحانه : ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ؟ ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا ﴾ : مالذي ﴿ تَعْبُدُونَ * أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ * فَمَا

ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين ﴾ إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟ ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النجوم ﴾ ، قال ابن عباس : كان قومه يتعاطون علم النجوم فعاملهم حيث كانوا ؛ لئلاّ ينكروا عليه ؛ وذلك أنه كان لهم من الغد عيد ومجمع ، وكانوا يدخلون على أصنامهم ويقرّبون لهم القرابين ويصنعون بين أيديهم الطعام قبل خروجهم إلى عيدهم زعموا التبّرك عليه ، فإذا انصرفوا من عيدهم أكلوه . قال مقاتل : وكانت الأصنام اثنين وسبعين صنماً من خشب وحديد ورصاص وشبه وفضّة وذهب ، وكان كبيرهنّ من ذهب في عينيه ياقوتتان ، وقالوا لإبراهيم (عليه السلام) : لا تخرج غداً معنا إلى عيدنا . فنظر إلى النجوم ، ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، قال ابن عباس : مطعون ، وقال الحسن : مريض ، وقال الضحاك : سأسقم ؛ لقوله سبحانه ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] .

(135/656)

---

وقيل : سقيم بما في عنقي من الموت ، وقيل : سقيم بما أرى من أحوالكم القبيحة ، وقيل : سقيم بعلة عرضت له ، وإنّه إنما نظر في النجوم مستدلاً بها على وقت حمّى كانت تأتيه ، والصحيح أنه لم يكن سقيماً ؛ لما رُوي عن النبي (عليه السلام) أنه قال : "لقد كذب إبراهيم ثلاث كذبات ، ما منها واحدة إلاّ وهو بما حل وناصل بها عن دينه : قوله : ﴿ إِنِّي

سَقِيمٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ [ الأنبياء : 63 ] وقوله لسارة : هذه أُختي " .

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ إلى عيدهم ، فدخل إبراهيم إلى الأصنام فكسرها ووضع الفأس على عاتق الصنم الكبير ، وكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على أصنامهم قبل أن يرجعوا إلى منازلهم ، فدخلوا عليها فإذا هي مكسورة ، فذلك قوله سبحانه : ﴿ فَرَاغَ ﴾ : فمال ﴿ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ ﴾ إظهاراً لضعفهم وعجزهم : ﴿ أَلا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا باليمين ﴾ ؛ لأنها أقوى على العمل من الشمال ، وهذا قول الربيع بن أنس قال : يعني يده اليمنى ، وقيل : بالقسم الذي سبق منه ، وذلك قوله : ﴿ وتالله لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ [ الأنبياء : 57 ] وقال الفراء : بالقوة .

﴿ فأقبلوا إِلَيْهِ ﴾ : إلى إبراهيم ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ ، أي يُسرعون عن الحسن .

مجاهد : يزفون زفيف النعام وهو حال بين المشي والطيران . الضحاك : يسعون ، وقرأ يحيى والأعمش وحمزة ﴿ يُزِفُّونَ ﴾ بضم الياء ، وهما لغتان : فقال لهم إبراهيم على وجه الحِجاج : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ؟ وفي هذه الآية دليل على أنّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه وتعالى حيث قال : ﴿ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ على [ أنها ] مكتسبة للعباد حيث أثبت لهم عملاً ، فأبطل مذهب القدرية والجبرية بهذه الآية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الله خالق كلّ صانع وصنعته " .

﴿ قَالُواْ ابنوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الجحيم ﴾ : معظم النار . قال مقاتل : بنوا له حائطاً من الحجر طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وملؤوه من الحطب وأوقدوا فيه النار .

﴿ فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأسفلين ﴾ : المقهورين .

﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي ﴾ ، أي إلى مرضاة ربي ، وهو المكان الذي أُمر بالذهاب إليه . نظيره قوله : ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إلى ربي ﴾ [ العنكبوت : 26 ] ، وقيل : ذاهب إلى ربي بنفسي وعملي ﴿ سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين ﴾ مختصر . أي رب هب لي ولداً صالحاً من الصالحين .

﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعي ﴾ ذلك الغلام ، ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّى أرى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ ﴾ الآية ، واختلف السّلف من علماء المسلمين في الذي أُمر إبراهيم بذبحه من ابنيه بعد إجماع ( أهل الخاص ) على أنه كان إسحاق ، فقال قوم : الذبيح إسحاق ، وإليه ذهب من الصحابة عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود والعباس بن عبد المطلب ، ومن الباقين وأتباعهم كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة والقاسم بن أبي بزة وعطاء ومقاتل وعبد الرّحْمن بن سابط والزبيري والسدّي .

وهي رواية عكرمة وابن جبير عن ابن عباس . أخبرني الحسن بن محمد بن عبد الله قال :

حدّثنا طلحة بن محمّد ، وعبيد الله بن أحمد قالا : حدّثنا أبو بكر بن مجاهد قال : حدّثنا أحمد ابن حرب قال : حدّثنا سنيد بن داوُد قال : حدّثني حجاج عن ليث بن سعد عن صفوان بن عمرو عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : هو إسحاق .



---

وأخبرني الحسن قال : حدّثنا عبيد الله بن أحمد بن يعقوب قال : حدّثنا رضوان بن أحمد الصيدلاني قال : حدّثنا أحمد بن عبد الجبار العطاردي قال : حدّثنا أبو معاوية عن حجاج عن القاسم بن نافع عن أبي الطُفيل ، عن علي قال : " الذي أراد إبراهيم ( عليه السلام ) ذبحه إسحاق " .

وروى شبعة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص قال : افتخر رجل عند ابن مسعود فقال : أنا فلان ابن فلان ابن الأشياح الكرام . فقال عبد الله : ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله ( عليه السلام ) .

وأخبرنا الحسين محمد قال : حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان قال : حدّثنا يوسف بن عبد الله قال : حدّثنا موسى بن إسماعيل قال : حدّثنا المبارك عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب قال : الذي فداه الله بذبح عظيم إسحاق .

وأخبرنا الحسين قال : حدّثنا ابن حبيش قال : حدّثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي قال : حدّثنا أبو عبد الله محمد بن بكار قال : حدّثنا خالد بن عبد الله الواسطي عن داوُد ابن أبي هند عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : الذي أراد إبراهيم ذبحه إسحاق ( عليهما السلام ) .

وأخبرنا الحسن قال : أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان بن عبد الله قال : حدّثنا يوسف بن عبد الله قال : حدّثنا موسى بن إسماعيل قال : حدّثنا حمّاد قال : أخبرنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : الذي أراد إبراهيم ذبحه هو إسحاق .

*(138/656)*

---

وأخبرني الحسن قال : حدّثنا طلحة بن محمد وعبيد الله بن أحمد قالا : حدّثنا أبو بكر بن مجاهد قال : حدّثنا عباس الدوري قال : حدّثنا أبو سلمة يعني المنقري قال : حدّثنا محمد بن ثابت العبدي عن موسى مولى أبي بكر الصديق عن سعيد بن جبير قال : [ لمّا ] أُري إبراهيم ذبح إسحاق في المنام سار به مسيرة شهر في غداة واحدة حتى أتى به المنحر بمنى ، فلما صرف الله عنه الذبح وأمره أن يذبح الكبش فذبحه فسار به مسيرة شهر في روحة

واحدة ، طويت له الأودية والجبال .

وروى سفيان عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر عن أبيه قال : قال موسى : " يا رب يقولون : إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فبم قالوا ذلك ؟ " قال : " إن إبراهيم لم يعدل بي شيئاً قط إلاّ اختارني عليه ، وإن إسحاق جاد لي بالذبح وهو بغير ذلك أجود ، وإن يعقوب كلّما زدته بلاء زاد بي حسن ظنّ " .

وروى حمزة الزيات عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة قال : قال يوسف : للملك : " ترغب أن تأكل معي أو تنكف وأنا والله يوسف بن يعقوب نبيّ الله ابن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله ( عليهم السلام ) ؟ " .

وقال الآخرون : هو إسماعيل ، وإلى هذا القول ذهب عبد الله بن عمر وأبو الطُفيل عامر ابن واثلة وسعيد بن المسيب والشعبي والحسن البصري ويوسف بن مهران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي وهي رواية عطاء بن أبي رباح وأبي حمزة نصر بن عمران الضبعي ويوسف بن ماهك عن ابن عباس قال : المفدى إسماعيل ، وزعمت اليهود أنه إسحاق ، وكذبت اليهود .

وقد رُوي عن النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) كلا القولين ، ولو كان فيهما صحيح بالإجماع لم يعزه إلى غيره ، وأمّا الرواية التي رويت عنه صلّى الله عليه وسلم أنّ الذبيح إسحاق ما أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا طلحة بن محمد وعبيد الله بن أحمد ( قالا ) : حدّثنا ابن مجاهد قال : حدّثنا موسى بن إسحاق قال : حدّثنا عبد الله بن أبي شنبه قال : أخبرنا الأشيب قال : حدّثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن عن الأحنف بن قيس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الذي أراد إبراهيم أن يذبح إسحاق " .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا محمد بن علي بن لؤلؤ قال : أخبرنا الهيثم بن خلف قال : حدّثنا أحمد بن إبراهيم قال : حدّثنا حجاج عن ابن جريح قال : أخبرت عن صفوان بن سليم وزيد بن أسلم عن النبي ( عليه السلام ) أنه قال :

" إنّ إسحاق الذي أراد إبراهيم أن يذبحه " .

وأخبرنا أبو طاهر بن خزيمة في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة [ فأقرأنيه ] قال : أخبرنا جدي قال : حدّثنا علي بن حجر قال : حدّثنا عمر بن حفص عن أبان عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يشفع إسحاق بعدي فيقول : يا رب صدّقت نبيّك وجدتُ بنفسي للذبح فلا تُدخل النار من لم يشرك بك شيئاً " . قال : " فيقول تبارك وتعالى : وعزتي لا أُدخل النار من لا يُشرك بي شيئاً " .

وأخبرني ابن فنجويه قال: حدّثنا محمد بن أحمد بن نصرويه قال: حدّثنا أبو حفص عمر بن محمد بن عيسى الجوهري قال: حدّثنا عيسى بن مساور الجوهري قال: حدّثنا الوليد بن مسلم قال: حدّثنا عبد الرَّحْمن بن زيد بن أسلم عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ الله عزَّ وجل خيّرني بين أن يغفر لنصف أُمّتي أو شفاعتي فاخترت شفاعتي ورجوت أن تكون أعم لأُمتي، ولولا الذي سبقني إليه العبد الصالح لتعجّلت منها دعوتي؛ إنَّ الله سبحانه لما فرّج عن إسحاق كرب الذبح قيل: يا إسحاق سل تُعط. فقال: أما والذي نفسي بيده لأُتعجّلنها قبل نزغة الشيطان، اللهم من مات لا يُشرك بك شيئًا فاغفر له وأدخله الجنة".

وأما ما رُوي عنه صلّى الله عليه وسلم أنّ الذبيح إسماعيل فروى عمر بن عبد الرَّحْمن، عن عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان عن أبيه قال: حدّثني عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال: كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق، فقال: على الخبير سقطتم، كنت عند النبي صلّى الله عليه وسلم فجاء رجل فقال: يا رسول الله عُد عليّ مما أفاء الله عليك يا بن الذبيحين فضحك رسول الله صلّى الله

عليه وسلم ، فقيل له : يا أمير المؤمنين وما الذبيحان ؟ فقال : إنّ عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله عز وجل لئن سهل الله عز وجل له أمرها ليذبحنّ أحد ولده ، قال : فخرج السهم على عبد الله ، فمنعه أخواله وقالوا : افد ابنك بمئة من الإبل ففداه بمئة من الإبل والثاني إسماعيل (عليه السلام) .

(141/656)

---

فهذا ما ورد من الأخبار في هذا الباب ، فأما حجة القائلين بإنه إسحاق من القرآن فهو أنّ الله سبحانه أخبر عن خليله إبراهيم (عليه السلام) حين فارق قومه مهاجراً إلى الشام مع امرأته سارة وابن أخيه لوط وقال : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ إنه دعا فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين ﴾ وذلك أنه قبل أن يعرف هاجر ، وقبل أن تصير له أُم إسماعيل .

ثم اتبع ذلك الخبر عن إجابته ودعوته وتبشيره أتاه بغلام حليم ثم عن رؤيا إبراهيم أن يذبح ذلك الغلام الذي بشر به حين بلغ معه السعي وليس في (كتاب الله بشير لإبراهيم بولد ذكر) إلاّ بإسحاق .

واحتج من قال : إنه إسماعيل من القرآن بما روى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب

القرظي أنه كان يقول : إنّ الذي أمر الله سبحانه إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل ، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله سبحانه ، وذلك أن الله عز وجل يقول حين فرغ من قصة المذبوح :

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين ﴾ .

وقال عز من قائل : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [ هود : 71 ]

يقول : بابن وبابن ابن ، فلم يكن يأمره بذبح إسحاق وله فيه من الله سبحانه وتعالى الموعود . فلما لم يذكر الله تعالى إسحاق إلاّ بعد انقضاء قصّة الذبح ، ثم بشّره بولد إسحاق علمنا أنّ الذبيح إسماعيل .

(142/656)

---

قال القرظي : فذكرت ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، إذ كنت معه بالشام ، فقال لي عمر : إنّ هذا الشيء ما كنت أنظر فيه ، وإني لأراه كما قلت . ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام ، وكان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علماء اليهود ، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده فقال : أيُّ ابني إبراهيم أُمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل . ثم قال : والله يا أمير المؤمنين إنّ اليهود لتعلم ذلك ولكنهم ليحسدونكم معشر العرب على أن يكون أنّ أباكم الذي كان من أمر الله سبحانه وتعالى فيه والفضل الذي ذكره الله سبحانه

منه لصبره على ما أُمر به، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق؛ لأن إسحاق أبوهم.

واحتجوا أيضاً بأن قرني الكبش كانا منوطين بالكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت واحترق القرنان في أيام ابن الزبير والحجاج، قال الشعبي: رأيتُ قرني الكبش منوطين بالكعبة، وكان القرنان ميراثاً لولد إسماعيل عن أبيهم، فلم يزاحمهم على ذلك ولد إسحاق وهم الروم، وكانوا أكبر وأعز وأمنع من العرب: وهذا أدل دليل على أن الذبيح إسماعيل.

وقال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق كان أو إسماعيل؟ فقال لي: يا أصمع أين ذهب عنك عقلك؟ ومتى كان إسحاق عليه السلام بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه إبراهيم (عليهما السلام)، كما قال الله سبحانه ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ [البقرة: 127]، والمنحر بمكة لا شكّ فيه.

وسمعت أبا القاسم الحبيبي يقول: سمعت أبا بكر محمد بن المنذر الضرير يقول: سمعت أبا محمد الزنجاني المؤدّب يقول: سُئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فأنشد:

إنّ الذبيح هُديت إسماعيلُ . . . نطق الكتاب بذاك والتنزيلُ

شرفٌ به خصّ الإلهُ نبيَّنا . . . وأتى به التفسير والتأويلُ

إن كنت أمّته فلا تنكر له . . . شرفاً به قد خصّه التفضيلُ

(143/656)

وأما قصة الذبح فقال السدي بإسناده : لمّا فارق إبراهيم الخليل ( عليه السلام ) قومه مهاجراً إلى الشام هارباً بدينه ، كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ دعا الله سبحانه وتعالى أن يهب له ابناً صالحاً من سارة فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين ﴾ . فلما نزل به أضيافه من الملائكة المرسلين إلى المؤتفكة وبشّروه بغلام حليم ، قال إبراهيم لما بُشّر به : فهو إذن لله ذبيح . فلما وُلد الغلام وبلغ معه السّعي ، قيل : أوفِ بنذرك الذي نذرت . فكان هذا هو السبب في أمر الله تعالى رسوله إبراهيم بذبح ابنه ، فقال إبراهيم عند ذلك لإسحاق : " انطلق نقرّب قرباناً لله تعالى " ، وأخذ سكّينا وحبلاً ثم انطلق معه حتى إذا ذهب به بين الجبال قال له الغلام : يا أبتِ أين قربانك ؟ فقال ﴿ يا بني إني أرى فِي المنامِ أنّي أَذْبَحُكَ فانظر مَاذَا ترى قَالَ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ ستجدني إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصابرين ﴾ .

(144/656)

وقال محمد بن إسحاق بن يسار : كان إبراهيم إذا زار هاجر وإسماعيل حُمل على البراق فيغدو من الشام فيصلي بمكة ، ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام . حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعي وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته ، أُري في المنام أن يذبحه ، فلما أُمر بذلك قال لابنه : " يا بني خذ الحبل والمدية ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب " . فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ( ثبير ) ، أخبره بما أُمر ، كما ذكر الله تعالى ، قالوا : فقال له ابنه الذي أراد أن يذبحه : " يا أبتِ اشدد رباطي حتى لا أضطرب ، واكفف عنّي ثيابك حتى لا ينضح عليها من دمي شيء ، فينقص أجري وتراه أُمّي فتحزن ، واشحذ شفرتك ، وأسرع مرّ السكين على حلقي ليكون أهون للموت عليّ ، فإنّ الموت شديد ، وإذا أتيت أُمي فاقرأ عليها السلام مني ، وإن رأيت أن ترد قميصي على أُمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عنّي " . فقال له إبراهيم ( عليه السلام ) : " نعم العون أنت يا بُني على أمر الله " .

ففعل إبراهيم ما أوصاه به ابنه ، ثم أقبل عليه يقبّله ، وقد ربطه وهو يبكي والابن يبكي حتى استنقع الدموع تحت خده ، ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم تنحر السكين . قال السدي : ضرب الله صفحة من النحاس على حلقه . قالوا : فقال الابن عند ذلك : " يا أبتِ كبّني لوجهي على جبيني ، فإنّك إذا نظرت في وجهي رحمتني ، وأدركتك رقّة تحول بينك وبين أمر الله وأنا لا أنظر إلى الشفرة فأجزع " .

ففعل ذلك إبراهيم ، ووضع السكين على قفاه فانقلب السكين ، ونُودي : " يا إبراهيم مه ، قد صدّقت الرّؤيا ، هذه ذبيحتك فداءً لابنك فاذبحها دونه " ، فنظر إبراهيم فإذا هو بجبرائيل ومعه كبش أقرن أملح فكبّر جبرائيل فكبّر الكبش فكبّر إبراهيم فكبّر ابنه وأخذ إبراهيم الكبش وأتى به المنحر من منى فذبحه .



---

قال ابن عباس : فوالذي نفسي بيده ، لقد كان أوّل الإسلام ، وإنّ رأس الكبش لمعلّق بقرنيه في ميزاب الكعبة .

قال السدّي : فلما أخذ إبراهيم ( عليه السلام ) الكبش خلّى عن ابنه ، وأكبّ عليه وهو يقبّله ويقول : " يا بني وهبت لي " ، ثم رجع إلى سارة فأخبرها الخبر ، فجزعت سارة وقالت : يا إبراهيم ، أردت أن تذبح ابني ولا تعلمني ؟ .

وروى أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجاله قالوا : لما أُري إبراهيم ( عليه السلام ) ذبح ابنه قال الشيطان : والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم ، لا أفتن منهم أحداً أبداً . فتمثل لهم الشيطان رجلاً وأتى أُمّ الغلام فقال لها : هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت : ذهب به يحطبنا من هذا الشعب . قال : لا والله ما ذهب به إلاّ ليذبحه .

قالت : كلا هو أرحم به وأشدّ حبّاً له من ذلك . قال : إنه يزعم أنّ الله أمره بذلك . قالت : فإنْ كان ربه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه ، وسلّمْنا لأمر الله عز وجل .

فخرج الشيطان من عندها حتى أدرك الابن وهو يمشي على إثر أبيه فقال له : يا غلام هل تدري أين يذهب أبوك ؟ قال : "يحطب أهلنا من هذا الشعب" . قال : والله ما يُريد إلاّ أن يذبحك . قال : "ولِمَ" .

قال : زعم أنّ ربه أمره بذلك ، قال : "فليفعل ما أمره به ربه ، فسمعاً وطاعة" .

فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم ، فقال له : أين تُريد أيّها الشيخ ؟ قال : "أُريد هذا الشعب لحاجة لي فيه" . فقال : والله إني لأرى الشيطان قد جاءك في منامك ، فأمرك بذبح بُنيّك هذا . فعرفه إبراهيم فقال : "إليك عنّي يا عدوّ الله ، فوالله لأمضينّ لأمر الله" .



---

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس أنّ إبراهيم لما أُمر بذبح ابنه ، عرض له الشيطان بهذا المشعر فسابقه فسبقه إبراهيم ، ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى

ذهب ، ثم أدركه عند الجمرة الكُبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم مضى بأمر الله عز وجل في ذلك .

وقال أُمية بن أبي الصلت :

ولإبراهيم الموفي بالنذر . . . احتساباً وحامل الأحدال

بكره لم يكن ليصبر عنه . . . لو يراه في معشر أقتال

يا بني إني نذرتك لل . . . ه شحيطاً فاصبر فدىً لك حالي

واشدد الصفد لا أحيد عن السك . . . ين حيد الأسير ذي الأغلال

وله مدية تخايل في اللح . . . م هذام حنية كالهلال

بينما يخلع السرابيل عنه . . . فكّه ربُّه بكبش حلال

قال خذه ذا وأرسل ابنك إني . . . للذي قد فعلتما غير قالِ

ربما تجزع النفوس من الأم . . . ر له فرجة كحل العقالِ

فهذه قصة الذبح كما قال الله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعي ﴾ قال ابن عباس : يعني المشي مع أبيه إلى الحيل . قال الحسن ومقاتل بن حيان : يعني العقل الذي يقوم به الحجة ، وقال الضحاك : يعني الحركة ، وقال ابن زيد : ( هو السعي في ) العبادة .

﴿ يا بني إني أرى فِي المنام ﴾ : رأيت في المنام ﴿ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ لنذر عليّ فيك أُمرت بذلك ، وذلك أنّ إبراهيم ( عليه السلام ) رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له : إنّ الله يأمرك

بذبح ابنك هذا . فلما أصبح روّى في نفسه – أي فكّر – من الصباح إلى الرواح أمِن الله هذا الحكم أو من الشيطان ؟ فمن ثم سُمّي يوم التروية . فلما أمسى رأى في المنام ثانياً ما رآه من ذبح الولد ، فلما أصبح عرف أنّ ذلك الحكم من الله ، فمن ثم سمّيَ يوم عرفة .

(147/656)

---

وقال : مقاتل : رأى ذلك إبراهيم ثلاث ليال متتابعات ، وقال عطاء ومقاتل : أُمر إبراهيم أن يذبح ابنه ببيت المقدس فلما تيقّن ذلك أخبر ابنه فقال لابنه ﴿ فانظر مَاذَا ترى ﴾ ؟ قرأ العامة بفتح التاء ، وقرأ حمزة والكسائي ( تري ) بضم التاء وكسر الراء أي ماذا تشير ؟ وإنما جاز أن يؤامر ابنه في المضي لأمر الله ؛ لأنه أحبّ أن يعلم صبره على أمر الله وعزمه على طاعته فقال له ابنه : ﴿ يا أبت افعل مَا تؤمَرُ ستجدني إِن شَآءَ الله مِنَ الصابرين ﴾ .

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا ﴾ أي انقادا وخضعا لأمر الله سبحانه وتعالى ورضيا به ، وقرأ ابن مسعود ( فلما سلّما ) أي فوّضا ، وقرأ ابن عباس ( استسلما ) . قال قتادة : أسلم هذا ابنه وهذا نفسه ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أي صرعه وأضجعه وكبّه على وجهه للذّبح ﴿ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ ، قال أهل المعاني : ( الواو ) مقحمة صلة ، مجازه : ناديناه ، كقوله : ﴿

وأجمعوا أَن يَجْعَلوهُ فِي غيابت الجب وَأَوْحَيْنَآ ﴾ [ يوسف : 15 ] يعني : أوحينا ، وقوله : ﴿ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * واقترب الوعد ﴾ وقال امرؤ القيس :

فلما أجزنا ساحة الحيّ وانتحى . . . وقال الشاعر :

حتى إذا قملت بطونكمُ . . . ورأيتم أبناءكم شبّوا

وقلبتم ظهر المجن لنا . . . إنّ اللئيم العاجز الخب

أراد : قلبتم .

﴿ أَن يا إبراهيم * قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين * إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين ﴾ : الاختبار المظهر فيما يوجب النعمة أو النقمة ، ولذلك قيل للنعم : بلاء وللمحنة بلاء ؛ لأنها سُمّيت باسم سببها المؤدّى به إليها ، كما قيل لأسباب الموت : هذا الموت بعينه .

(148/656)

---

﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ ، والذِّبح : المهيأ لأن يُذبح ، والذَّبح - بالفتح - المصدر ، وقد اختلفوا في هذا الذَّبح وسبب تسميته عظيماً ؛ فأخبرنا أبو الحسن الفهندري قال : حدّثنا أبو العباس الأصم قال : حدّثنا إبراهيم بن مرزوق البصري قال : حدّثنا أبو عامر العقدي عن سفيان ابن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال :

الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو الذي قرّبه ابن آدم ، وقال سعيد بن جبير : حق له أن يكون عظيماً وقد رعى في الجنة أربعين خريفاً ، وقال مجاهد : سمّاه عظيماً لأنه متقبل ، وقال الحسين بن الفضيل : لأنه كان من عند الله ، وقال أبو بكر الورّاق : لأنه لم يكن عن نسل وإنما كان بالتكوين ، وقيل : لأنه فداء عبد عظيم ، وقال أهل المعاني : قيل له : عظيم ؛ لأنه يصغر مقدار غيره من الكباش بالإضافة إليه ، وأكثر المفسرين على أنه كان كبشاً من الغنم أعين أقرن أملح ، وروى عمر بن عبيد عن الحسن أنه كان يقول : ما فدى إسماعيل إلاّ تيس من الأروى ، وأهبط عليه من [ السماء ] ، وهي رواية أبي صالح عن ابن عباس قال : وكان وعلاً .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين * سَلاَمٌ على إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين ﴾ ، أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا طلحة وعبيد الله قالا : حدّثنا ابن مجاهد قال : حدّثني أحمد بن حرب قال : حدّثنا سبيك قال : حدّثنا وكيع عن سفيان عن داوُد عن عكرمة عن ابن عباس . ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾ : بشرى نبوّة بُشّر به مرتين حين ولد وحين نُبّئ ، ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي على إبراهيم في الأولاد ، ﴿ وعلى إِسْحَاقَ ﴾ حين أخرج أنبياء بني إسرائيل من صلبه .

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ ﴾ : مؤمن ﴿ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ : كافر ظاهر الكفر .

(149/656)

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا ﴾ : أنعمنا ﴿ على موسى وَهَارُونَ ﴾ بالنبوة.

﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا ﴾ : بني إسرائيل ﴿ مِنَ الكرب العظيم ﴾ ، يعني الغرق، حيث أغرقنا فرعون وقومه ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ﴾ يعني موسى وهارون وقومهما ﴿ فَكَانُواْ هُمُ الغالبين ﴾ على القبط، ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الكتاب المستبين ﴾ : المستنير ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصراط المستقيم * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخرين * سَلاَمٌ على موسى وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ .

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ المرسلين ﴾ ، أخبرنا أبو محمد بن أبي القاسم بن المؤهل قال: حدّثنا أبو العباس الأصم قال: حدّثنا بكار بن قتيبة قال: حدّثنا أبو داود الطيالسي قال: حدّثنا قيس بن أبي إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود قال: إلياس هو إدريس، وإسرائيل هو يعقوب، وإلى هذا ذهب عكرمة، وقال: هو في مصحف عبد الله: ﴿ وإن إدريس لمن المرسلين ﴾ وتفرّد عبد الله وعكرمة بهذا القول.

(150/656)

وقال الآخرون : هو نبي من أنبياء بني إسرائيل . قال ابن عباس : وهو ابن عمّ اليسع ، وقال ابن إسحاق : هو إلياس بن ياسين بن العيزار بن هارون بن عمران ، وقال أيضاً محمد بن إسحاق ابن ياسر والعلماء من أصحاب الأخبار : لمّا قبض الله سبحانه حزقيل النبي عظمت الأحداث في بني إسرائيل ، وظهر فيهم الفساد والشرك ، ونسوا عهد الله ، ونصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله ، فبعث الله إليهم إلياس ( عليه السلام ) : نبياً وإنما دانت الأنبياء من بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام يبعثون إليهم تجديد ما نسوا من التوراة ، وبنو إسرائيل يؤمئذ متفرّقون في أرض الشام وفيهم ملوك كثيرة وكان سبب ذلك أنّ يوشع بن نون لما فتح أرض الشام بعد موسى وملكها بوّأها بني إسرائيل وقسّمها بينهم ، فأحلّ سبطاً منهم بعلبك ونواحيها ، وهم سبط إلياس الذي كان منهم إلياس فبعثه الله إليهم نبيّاً ، وعليهم يؤمئذ ملك يقال له : [ أجب ] قد ضلّ أضل قومه ، وأجبرهم على عبادة الأصنام ، وكان يعبد هو وقومه صنماً يقال له : بعل ، وكان طوله عشرين ذراعاً ، وكانت له أربعة وجوه . قال : فجعل إلياس يدعوهم إلى الله سبحانه ، وهم في كلّ ذلك لا يسمعون منه شيئاً إلاّ ما كان من أمر الملك الذي كان ببعلبك ، فإنه آمن به وصدّقة وكان إلياس يقوم أمره ويسدده ويرشده وكان لأجب الملك هذا امرأة يُقال لها أزبيل ، وكان يستخلفها على رعيته إذا غاب عنهم في غزاة أو غيرها ، فكانت تبرز للناس كما يبرز زوجها وتركب كما يركب ، وتجلس في مجلس القضاء فتقضي بين الناس ، وكانت قتّالة للأنبياء .

قال : وكان لها كاتب رجل مؤمن حكيم يكتمها إيمانه ، وكان كاتبها قد خلّص من يدها ثلاثمئة نبي كانت تريد قتل كل واحد منهم إذا بعث سوى الذين قبلهم ممن يكثر عددهم ، وكانت في نفسها غير محصنة ، ولم يكن على وجه الأرض أفحش منها ، وهي مع ذلك قد تزوجت سبعة ملوك من بني إسرائيل وقتلتهم كلّهم بالاغتيال ، وكانت معمّرة حتى يُقال : إنها ولدت سبعين ولداً .

قال : وكان لأجب هذا جار من بني إسرائيل ، رجل صالح يُقال له ( مزدكي ) وكانت له جنينة يعيش منها ويقبل على عمارتها ويزينها ، وكانت الجنينة إلى جانب قصر الملك وامرأته ، وكانا يشرفان على تلك الجنينة يتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويقيلان فيها ، وكان أجب الملك مع ذلك يحسن جوار صاحبها مزدكي ويحسن إليه ، وامرأته أزبيل تحسده على ذلك لأجل تلك الجنينة ، وتحتال في أن تغصبها إياه لما تسمع الناس يكثرون ذكر الجنينة ويتعجبون من حسنها ، ويقولون : ما أحرى أن تكون هذه الجنينة لأهل هذا القصر ويتعجبون من الملك وامرأته كيف لم يغصباها صاحبها .

فلم تزل امرأة الملك تحتال على العبد الصالح مزدكي في أن تقتله وتأخذ جنينته والملك

ينها ها عن ذلك فلا تجد عليه سبيلاً .

ثم إنه اتفق خروج الملك إلى سفر بعيد ، وطالت غيبته ، فاغتنمت امرأته أزبيل ذلك للحيلة على مزدكي ، وهو غافل عمّا تريد به ، مقبل على عبادة ربه وإصلاح معيشته ، فجمعت أزبيل جمعاً من الناس وأمرتهم أن يشهدوا على مزدكي أنه سبّ زوجها أجب فأجابوها إلى ملتمسها من الشهادة عليه .

وكان من حكمهم في ذلك الزمان على من سبّ الملك القتل إذا قامت عليه البيّنة بذلك فأحضرت مزدكي ، وقالت له : بلغني أنّك شتمت الملك وعبته . فأنكر مزدكي ذلك ، فقالت المرأة : إنّ عليك شهوداً ، وأحضرت الشهود فشهدوا بحضرة الناس عليه بالزور ، فأمرت بقتل مزدكي فقتل وأخذت جنينته غصباً فغضب الله عليهم بقتل العبد الصالح .

(152/656)

---

فلما قدم الملك من سفره أخبرته الخبر ، فقال لها : ما أصبت ولا وفقتِ ولا أرانا نفلح بعده أبداً ، وإنا كنّا عن جنينته لأغنياء ، قد كنّا نتنزه فيها ، وقد جاورنا وتحرّم بنا مذ زمان طويل ، فأحسنا جواره وكففنا عنه الأذى ، لوجوب حقه علينا ، فختمت أمره بأسوأ الجوار ، وما حملكِ على اجترائكِ عليه إلاّ سفهك وسوء رأيك وقلّة تفكرك في العواقب .

فقالت : إنما غضبت لك وحكمت بحكمك . فقال لها : أوما يسعه حلمك ويحدوك عظيم خطرك على العفو عن رجل واحد فتحفظين له جواره ؟ قالت : قد كان ما كان .

فبعث الله تعالى إلياس ( عليه السلام ) إلى أُجب الملك وقومه وأمره أن يخبرهم أنّ الله سبحانه قد غضب لوليّه حين قتلوه بين أظهرهم ظلماً ، وآلى على نفسه أنهما إن لم يتوبا عن صنعهما ولم يردّا الجنينة على ورثة مزدكي أن يهلكهما يعني أجب وامرأته في جوف الجنينة أشرّ ما يكونان بسفك دميهما ثم يدعهما جيفتين ملقاتين فيها حتى تتعرى عظامهما من لحومهما ولا يمتّعان بها إلاّ قليلاً .

قال : فجاء إلياس وأخبره بما أوحى الله تعالى إليه في أمره وأمر امرأته والجنينة ، فلما سمع الملك ذلك اشتد غضبه عليه ثم قال له : يا إلياس والله ما أرى ما تدعو إليه إلاّ باطلاً ، والله ما أرى فلاناً وفلاناً ، سمى ملوكاً منهم قد عبدوا الأوثان - إلاّ على مثل ما نحن عليه يأكلون ويشربون ويتنعّمون مملكين ما ينقص من دنياهم ولا من أمرهم الذي تزعم أنه باطل ، وما نرى لكم علينا [ ولا ] عليهم من فضل .

قال : وهمّ الملك بتعذيب إلياس وقتله ، فلما سمع إلياس ذلك وأحسّ بالشر ، رفضه وخرج عنه ، فلحق بشواهق الجبال ، وعاد الملك إلى عبادة بعل . فارتقى إلياس أصعب جبل وأشمخه ، فدخل مغارة فيه ، فيقال : إنه قد بقي فيه سبع سنين شريداً طريداً خائفاً يأوي إلى الشعاب والكهوف يأكل من نبات الأرض وثمار الشجر ، وهم في طلبه قد وضعوا عليه العيون ، يتوقعون أخباره ويجتهدون في أخذه ، والله سبحانه وتعالى يستره ويدفع عنه .

فلما تمّ له سبع سنين أذن الله تعالى في إظهاره عليهم وشفاء غيظه منهم ، فأمرض الله سبحانه ابناً لأجب وكان أحبّ ولدِه إليه ، وأعزهم عليه ، وأشبههم به فأدنف حتى يئس منه ، فدعا صنمه بعلاً وكانوا قد فتنوا ببعل وعظموه ، حتى جعلوا له أربعمئة سادن فوكلوهم به وجعلوهم أُمناءه ، فكان الشيطان يدخل في جوف الصّنم فيتكلّم بأنواع الكلام ، والأربعمئة يصغون بآذانهم إلى ما يقول الشيطان ، ويوسوس إليهم الشيطان بشريعة من الضلال فيكتبونها للناس فيعملون بها ، ويسمونهم الأنبياء .

فلما اشتدّ مرض ابن الملك طلب إليهم الملك أن يتشفعوه إلى بعل ويطلبوا لابنه من قِبَلِه الشفاء والعافية فدعوه فلم يجبهم ، ومنع الله بقدرته الشيطان عن صنمهم فلم يمكنه الولوج في جوفه ولا الكلام ، وهم مجتهدون في التضرع إليه وهو لا يزداد إلاّ خمودا . فلما طال عليهم ذلك قالوا لأجب : إنّ في ناحية الشام آلهة أُخرى ، وهي في العظم مثل إلهِك ،

فابعث إليها الأنبياء ليشفعوا لك إليها ، فلعلّها أن تشفع لك إلى إلهك بعل ، فإنه غضبان عليك ، ولولا غضبه عليك لكان قد أجابك وشفى لك ابنك .

(154/656)

---

قال أجب : ومن أجل ماذا غضب عليّ ، وأنا أطيعه وأطلب رضاه منذ كنت ، لم أسخطه ساعة قط ؟ قالوا : من أجل أنك لم تقتل إلياس ، وفرطت فيه حتى نجا سليماً ، وهو كافرٌ بإلهك ، يعبد غيره ، فذلك الذي أغضبه عليك . قال أُجب : وكيف لي أن أقتل إلياس يومي هذا ، وأنا مشغول عن طلبه بوجع ابني ؟ فليس لإلياس مطلب ، ولا يعرف له موضع فيقصد ، فلو عوفي ابني تفرّغت لطلبه ، ولم يكن لي همّ ولا شغل غيره حتى آخذه فاقتله ، فأُريح إلهي منه وأُرضيه .

قال : ثم إنه بعث أنبياءه الأربعمئة ليشفعوا إلى الآلهة . التي بالشام ، ويسألوها أن تشفع إلى صنم الملك ليشفي ابنه . فانطلقوا حتى إذا كانوا بحيال الجبل الذي فيه إلياس ، أوحى الله سبحانه إلى إلياس أن يهبط من الجبل ويعارضهم ويستوقفهم ويكلمهم ، وقال له : " لا تخف فإني سأصرف عنك شرّهم ، وأُلقي الرّعب في قلوبهم " فنزل إلياس من الجبل ، فلما لقيهم استوقفهم ، فلما وقفوا ، قال لهم : " إنّ الله سبحانه أرسلني إليكم وإلى مَن وراءكم ،

فاسمعوا أيُّها القوم رسالة ربكم لتبلغوا صاحبكم ، فارجعوا إليه وقولوا له : إنّ الله يقول لك : ألست تعلم يا أجب أنّي أنا الله لا إله إلاّ أنا إله بني إسرائيل الذي خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم ، أفجهلك وقلة علمك حملك على أن تشرك بي ، وتطلب الشفاء لابنك من غيري ممن لا يملكون لأنفسهم شيئاً إلاّ ما شئت ؟ إنّي حلفت باسمي لأغيظنّك في ابنك ولأُميتنه في فوره هذا حتى تعلم أنّ أحداً لا يملك له شيئاً دوني " .

(155/656)

---

فلما قال لهم هذا رجعوا ، وقد مُلئوا منه رعباً ، فلما صاروا إلى الملك قالوا له ذلك وأخبروه بأن إلياس انحط عليهم وهو رجل نحيف طويل ، قد قشف وقحل وتمعط شعره وتقشر جلده ، عليه جبّة من شعر وعباءة قد خللها على صدره بخلال ، فاستوقفنا ، فلما صار معنا قذفت له في قلوبنا الهيبة والرعب ، وانقطعت ألسنتنا ، ونحن في هذا العدد الكبير وهو واحد ، فلم نقدر على أن نكلّمه ونراجعه ونملأ أعيننا منه ، حتى رجعنا إليك ، وقصّوا عليه كلام إلياس ، فقال أجب : لا ينتفع بالحياة ما كان إلياس حيّاً ، ما الذي منعكم أن تبطشوا به حين لقيتموه وتوثقوه وتأتوني به ، وأنتم تعلمون أنه طلبي وعدوّي ؟ فقالوا : قد أخبرناك ما الذي منعنا منه ومن كلامه والبطش به . قال أجب : ما يُطاق إذن

إلياس إلاّ بالمكر والخديعة .

فقيّض له خمسين رجلاً من قومه من ذوي القوة والبأس ، وعهد إليهم عهده وأمرهم بالاحتيال عليه والاعتناء به ، وأن يطمعوه في أنهم قد آمنوا به هم ومن وراءهم ليستنيم إليهم ويغترّ بهم فيمكنهم من نفسه ، فيأتوا به ملكهم . فانطلقوا حتى ارتقوا ذلك الجبل الذي فيه إلياس (عليه السلام) ، ثم تفرّقوا فيه وهم ينادونه بأعلى أصواتهم ، ويقولون : يا نبي الله ابرز لنا وأشرف بنفسك فإنا قد آمنا بك وصدقناك ، وملكنا أُجب وجميع قومنا ، وأنت آمن على نفسك ، وجميع بني إسرائيل يقرؤون عليك السلام ويقولون : قد بلّغتنا رسالة ربك وعرفنا ما قلت وآمنا بك ، وأجبناك إلى ما دعوتنا فهلّم إلينا ، فأنت نبينا ورسول ربنا ، فأقم بين أظهرنا واحكم فينا ، فإنا ننقاد لما أمرتنا وننتهي عما نهيتنا ، وليس يسعك أن تتخلف عنا مع إيماننا وطاعتنا ، فتداركنا وارجع إلينا ، وكلّ هذا كان منهم مماكرة وخديعة .



---

فلما سمع إلياس مقالتهم وقعت بقلبه ، وطمع في إيمانهم وخاف الله ، وأشفق من سخطه إن هو لم يظهر ولم يجبهم بعد الذي سمع منهم ، فلمّا أجمع على أن يبرز لهم ، رجع إلى نفسه فقال

: " لو أنّي دعوت الله سبحانه وتعالى وسألته أن يعلمني ما في أنفسهم ويطلعني على حقيقة أمرهم " ، وذلك أنّ الله سبحانه وفقه وألهمه التوقّف والدعاء والتحرز ، فقال : " اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فائذن لي في البروز إليهم ، وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمهم بنار تحرقهم " .

فما استتمّ قوله حتى حصبوا بالنار من فوقهم أجمعين .

قال : وبلغ أجب وقومه الخبر فلم يرتدع من همه بالسوء ، واحتال ثانياً في أمر إلياس ، وقيّض فئة أُخرى مثل عدد أُولئك ، أقوى منهم وأمكن من الحيلة والرأي فأقبلوا حتى توغلوا [ في ] تلك الجبال . متفرقين ، وجعلوا ينادون : يا نبي الله إنا نعوذ بالله وبك من غضب الله وسطواته ، إنا لسنا كالذين أتوك قبلنا ، إنّ أولئك فرقة نافقوا وخالفوا ، فصاروا إليك ليكيدوا بك من غير رأينا ولا علمنا ، وذلك أنهم حسدونا وحسدوك وخرجوا إليك سراً ، ولو علمنا بهم لقتلناهم ولكفيناك مؤونتهم ، والآن فقد كفاك ربك أمرهم وأهلكهم بسوء نياتهم وانتقم دونك منهم . فلما سمع إلياس مقالتهم دعا الله بدعوته الأُولى ، فأمطر عليهم النار فاحترقوا عن آخرهم .

وفي كل ذلك ابن الملك في البلاء الشديد من وجعه كما وعده الله سبحانه وتعالى على لسان نبيّه إلياس ، لا يُقضى عليه فيموت ولا يُخفف عنه من عذابه ، فلما سمع الملك بهلاك أصحابه ثانياً إزداد غضباً إلى غضب ، وأراد أن يخرج في طلب إلياس بنفسه إلاّ أنه شغله عن ذلك مرض ابنه ، فلم يمكنه ، فوجه نحو إلياس الكاتب المؤمن الذي هو كاتب امرأته ، رجاء أن يأنس به إلياس ، فينزل معه وأظهر للكاتب أنه لا يريد بإلياس سوءاً ، وإنما أظهر له ذلك لما اطّلع عليه من إيمانه ، وأنّ الملك مع اطلاعه على إيمانه كان مغضياً عنه فيه ؛ لما هو عليه من الأمانة والكفاءة والحكمة وسداد الرأي والبصر بالأُمور فلما وجّهه نحوه أرسل معه فئة من أصحابه ، وأوعز إليهم دون الكاتب أن يوثقوا إلياس ويأتوه به إن أراد التخلف عنهم ، وإن جاء مع الكاتب واثقاً به آنساً لمكانته لم يوحشوه ولم يروّعوه . ثم أظهر للكاتب الإنابة ، وقال له : إنه قد آن لي أن أتوب واتّعظ ، وقد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنا ، والبلاء الذي فيه ابني ، وقد عرفت أنّ ذلك بدعوة إلياس ، ولست آمن أن يدعو على جميع من بقي منا فنهلك بدعوته ، فانطلق لنا إليه وأخبره أنا قد تبنا وأنبنا ، وإنّه لا يصلحنا في توبتنا ، وما نُريد من رضا ربنا وخلع أصنامنا إلاّ أن يكون إلياس بين أظهرنا ، يأمرنا وينهانا ، ويخبرنا بما يُرضي ربنا .

قال : وأمر قومه فاعتزلوا الأصنام وقال له : أخبر إلياس أنّا قد خلعنا آلهتنا التي كنا نعبد وأرجأنا أمرها حتى ينزل إلياس إلينا فيكون هو الذي يحرقها ويهلكها ، وكان ذلك مكراً

من الملك . فانطلق الكاتب والفئة حتى علا الجبل الذي فيه إلياس ، ثم ناداه ، فعرف إلياس صوته ، فتاقت نفسه إليه وأنس به ، وكان مشتاقاً إلى لقائه .

(158/656)

---

قال : وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى إلياس أن انزل إلى أخيك الصالح ، فالقه وجدد العهد به . فنزل إليه وسلم عليه وصافحه وقال له : ما الخبر؟ فقال المؤمن : إنه بعثني إليك هذا الجبار الطاغية وقومه ، ثم قصّ عليه ما قالوا ، ثم قال له : إني لخائف إن رجعت إليه ولست معي أن يقتلني ، فمرني بما شئت أفعله وأنتهي إليه ، وإن شئت انقطعت إليك فكنت معك وتركته ، وإن شئت جاهدته معك ، وإن شئت ترسلني إليه بما تحبّ فأبلغه رسالتك ، وإن شئت دعوت ربك فجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً .

قال : فأوحى الله سبحانه إلى إلياس أنّ كلّ شيء جاءك منهم مكر وكذب ليظفروا بك ، وإنّ أجب إن أخبرته رسله أنّك قد لقيت هذا الرجل ولم يأتِ بك إليه اتهمه وعرف أنه قد داهن في أمرك فلم يأمن أن يقتله فانطلق معه ، فإنّ انطلاقك معه عذره وبراءته عند أجبّ ، وإنّي سأشغل عنكما أجب ، فأضاعف على ابنه البلاء حتى لا يكون له همّ غيره ثم أُميته على شرّ حال ، فإذا مات هو فارجع عنه ولا تقم .

قال : فانطلق معهم حتى قدموا على أجب فلما قدموا عليه شدّد الله الوجع على ابنه وأخذ الموت يكظمه فشغل الله بذلك أجب وأصحابه عن إلياس ، ورجع إلياس سالماً إلى مكانه . فلما مات ابن أُجب ، وفرغوا من أمره وقلّ جزعه ، انتبه لإلياس وسأل عنه الكاتب الذي جاء به ، فقال : ليس لي به علم وذلك أنه شغلني عنه موت ابنك والجزع عليه ولم أكن أحسبك إلاّ وقد استوثقت منه . فأضرب عنه أجب وتركه لما كان فيه من الجزع على ابنه .

فلما طال الأمر على إلياس ملّ المكث في الجبال والمقام بها واشتاق إلى العمران والناس ، نزل من الجبل وانطلق حتى نزل بامرأة من بني إسرائيل ، وهي أُمّ يونس بن متّى ذي النون ، فاستخفى عندها ستة أشهر ويونس بن متى يومئذ مولود يرضع ، وكانت أُمّ يونس تخدمه بنفسها وتواسيه بذات يدها ولا تدّخر عنه كرامة تقدر عليها .



---

قال : ثم إنّ إلياس سئم ضيق البيوت بعد تعوده فسحة الجبال دوحها فأحبّ اللّحوق بالجبال ، فخرج وعاد إلى مكانه ، فجزعت أُمّ يونس لفراقه [ وأوحشها ] فقده ثم لم تلبث إلاّ يسيراً حتى مات ابنها حين فطمته ، فعظمت مصيبتها فيه ، فخرجت في طلب إلياس

فلم تزل ترقى الجبال وتطوف فيها حتى عثرت عليه ووجدته فقالت له : إني قد فجعت بعدك بموت ابني فعظمت فيه مصيبتي واشتد لفقده بلائي وليس لي ولد غيره فارحمني وادع ربك جل جلاله ليُحيي لي ابني ويجبر مصيبتي ، وإني قد تركته مسجّى لم أدفنه ، وقد أخفيت مكانه . فقال لها إلياس : " ليس هذا مما أُمرت به ، وإنما أنا عبدٌ مأمور أعمل بما يأمرني ربي ، ولم يأمرني بهذا " فجزعت المرأة وتضرعت ، فأعطف الله سبحانه قلب إلياس لها ، فقال لها : " ومتى مات ابنك ؟ " قالت : منذ سبعة أيام .

فانطلق إلياس معها وسار سبعة أُخرى حتى انتهى إلى منزلها فوجد ابنها يونس بن متّي ميتاً منذ أربعة عشر يوماً ، فتوضأ وصلّى ودعا فأحيا الله يونس بن متّي بدعوة إلياس . فلما عاش وجلس ، وثب إلياس وانصرف وتركه وعاد إلى موضع ما كان فيه . فلما طال عصيان قومه ضاق بذلك إلياس ذرعاً وأجهده البلاء ، قال : فأوحى الله سبحانه إليه بعد سبع سنين وهو خائف مجهود : " يا إلياس ما هذا الحزن والجزع الذي أنت فيه ؟ ألست أميني على وحيي ، وحجّتي في أرضي ، وصفوتي من خلقي ؟ فسلني أُعطك فإني ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم " قال : " تميتني فتلحقني بآبائي فإني قد مللت بني إسرائيل وملّوني ، وأبغضتهم فيك وأبغضوني " . فأوحى الله سبحانه إليه : " يا إلياس ، ما هذا باليوم الذي أُعري منك الأرض وأهلها ، وإنما قوامها وصلاحها بك وأشباهك وإن كنتم قليلاً ، ولكن تسألني فأُعطيك " .

قال إلياس : " فإن لم تمتني يا إلهي فأعطني ثاري من بني إسرائيل " . قال الله سبحانه : " وأي شيء تريد أن أُعطيك يا إلياس ؟ "



---

قال : " تمكّني من خزائن السماء سبع سنين فلا تنشأ عليهم سحابة إلاّ بدعوتي ، ولا يمطر عليهم سبع سنين قطرة إلاّ بشفاعتي ، فإنهم لا يذلّهم إلاّ ذلك " . قال الله سبحانه وتعالى : " يا إلياس ، أنا أرحم بخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين " . قال : " فستّ سنين " . قال : " أنا أرحم بخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين " .

قال : " فخمس سنين " . قال : " أنا أرحم بخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين ، ولكنّي أُعطيك ثأرك ثلاث سنين ، أجعل خزائن المطر بيدك ، ولا تنشأ عليهم سحابة إلاّ بدعوتك ، ولا ينزل عليهم قطرة إلاّ بشفاعتك " . قال إلياس : " فبأي شيء أعيش ؟ "

قال : " أُسخرّ لك جنساً من الطير ينقل إليك طعامك وشرابك من الريف والأرض التي لم تقحط " .

قال إلياس : " قد رضيت " .

قال : فأمسك الله عنهم المطر حتى هلكت الماشية والدواب والهوام والشجر ، وجهد

الناس جُهداً شديداً ، وإلياس على حالته مستخف من قومه يوضع له الرزق حيثما كان ، وقد عرفه بذلك قومه ، فكانوا إذا وجدوا ريح الخبز في البيت قالوا : لقد دخل إلياس هذا المكان ، فطلبوه ولقي منهم أهل ذلك المنزل شيئًا .

قال ابن عباس : أصاب بني إسرائيل ثلاثَ سنين القحطُ ، فمرّ إلياس بعجوز ، فقال لها : هل عندك طعام ؟ فقالت : نعم ، شيء من دقيق وزيت قليل .

قال : فدعا بهما ودعا فيه بالبركة ومسّه حتى ملأ جرابها دقيقاً وملأ خوابيها زيتاً ، فلمّا رأى بنو إسرائيل ذلك عندها قالوا : من أين لك هذا ؟ قالت : مرّ بي رجل من حاله كذا وكذا فوصفته بصفته ، فعرفوه وقالوا : ذلك إلياس ، فطلبوه فوجدوه فهرب منهم .

ثم إنه آوى ليلة إلى بيت امرأة من بني إسرائيل لها ابن يقال له : اليسع بن أخطوب وكان به ضر ، فآوته وأخفت أمره ، فدعا له فعوفي من الضر الذي كان به ، واتّبع اليسع إلياس فآمن به وصدّقه ولزمه ، وكان يذهب به حيثما ذهب ، وكان إلياس قد أسنّ وكبر ، وكان اليسع غلاماً شاباً .

ثم إن الله سبحانه أوحى إلى إلياس : " إنك قد أهلكت كثيراً من الخلق ممن لم يعصِ سوى بني إسرائيل من البهائم والدواب والطير والهوام والشجر بحبس المطر من بني إسرائيل " .

فيزعمون والله أعلم أنّ إلياس قال : " يا ربّ دعني أكن أنا الذي أدعو لهم به ، وآتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء الذي أصابهم لعلّهم أن يرجعوا وينزعوا عمّا هم عليه من عبادة غيرك " . قيل له : " نعم " .

فجاء إلياس إلى بني إسرائيل فقال لهم : " إنكم قد هلكتم جوعاً وجهداً ، وهلكت البهائم والدواب والطير والهوام والشجر لخطاياكم ، وإنكم على باطل وغرور ، فإن كنتم تحبون أن تعلموا ذلك فاخرجوا بأصنامكم [ تلك ] فإن استجابت لكم فذلك كما تقولون ، وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل فنزعتم ، ودعوت الله ففرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء " .

قالوا : أنصفت .

فخرجوا بأوثانهم فدعوها فلم تستجب لهم ولم يفرّج عنهم ما كانوا فيه من البلاء ، ثم قالوا لإلياس ( عليه السلام ) : يا إلياس إنا قد هلكنا فادع الله لنا . فدعا لهم إلياس ومعه اليسع بالفرج عنهم مما هم فيه ، وأن يسقوا ، فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر ، وهم ينظرون ، فأقبلت نحوهم وطبقت الآفاق ، ثم أرسل الله تعالى عليهم المطر وأغاثهم وحييت بلادهم . فلما كشف الله عنهم الضر نقضوا العهد ، ولم ينزعوا عن كفرهم ، ولم يقلعوا عن ضلالتهم ، وأقاموا على حيث ما كانوا عليه ، فلما رأى إلياس ذلك دعا ربه عز

وجل أن يريحه منهم ، فقيل له فيما يزعمون انظر يوم كذا وكذا ، فاخرج فيه إلى موضع كذا ، فما جاءك من شيء فاركبه ولا تهبه .

(162/656)

---

فخرج إلياس ومعه اليسع بن أحطوب ، حتى إذا كان بالموضع الذي أمر ، أقبل فرس من نار حتى وقف بين يديه ، فوثب عليه إلياس ، فانطلق به الفرس ، فناداه اليسع : يا إلياس ، ما تأمرني ؟ فقذف إليه بكسائه من الجوّ الأعلى ، وكان ذلك علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل ، فكان ذلك آخر العهد به ، ورفع الله سبحانه إلياس من بين أظهرهم ، وقطّع عنه لذّة المطعم والمشرب ، وكساه الرّيش ، فكان إنسيّا ملكيًا ، أرضيًا سماويًا ، وسلّط الله تعالى على أجب الملك وقومه عدّوا لهم ، فقصدهم من حيث لم يشعروا بهم حتى رهقهم ، فقتل أجب ملكهم وأزبيل امرأته في بستان مزدكي ، فلم تزل جيفتاهما ملقاتين في تلك الجنينة حتى بليت لحومهما ورمت عظامهما .

ونبّأ الله سبحانه بفضله اليسع ، وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل وأوحى إليه وأيده بمثل ما أيدّ به عبده إلياس ، فآمنت به بنو إسرائيل ، فكانوا يعظّمونه وينتهون إلى أمره ، وحكم الله تعالى فيهم قائم إلى أن فارقهم اليسع .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا أبو بكر بن مالك القطيعي قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : حدّثنا الحسن بن عبد العزيز الجدوي عن ضمرة عن السدي بن يحيى عن عبد العزيز بن أبي رواد قال : إلياس والخضر عليهما السلام يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ، ويوافيان الموسم في كلّ عام .

(163/656)

---

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن ماجة قال : حدّثنا الحسن بن أيوب قال : حدّثنا عبد الله بن أبي زياد قال : حدّثنا يسار قال : حدّثنا بشر بن منصور قال : حدّثني سعيد بن أبي سعيد البصري قال : قال حدّثني العلاء البجلي عن زيد مولى عون الطفاوي عن رجل من أهل عسقلان كان يمشي بالأردن عند نصف النهار ، فرأى رجلاً فقال : يا عبد الله من أنت ؟ قال : فجعل لا يكلمني ، قلت : يا عبد الله من أنت ؟ قال : "أنا إلياس" قال : فوقعت عليَّ رعدة ، فقلت : ادع الله يرفع عني ما أجد حتى أفهم حديثك وأعقل عنك . قال : فدعا لي بثماني دعوات : "يا برّ يا رحيم يا حنان يا منان يا حي يا قيوم" ، ودعوتين بالسريانية لم أفهمها .

قال : ورفع الله عنّي ما كنت أجدُ ، فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين يدي ، قال :

فقلت له : يوحى إليك اليوم ؟ قال : " منذ بعث الله سبحانه محمداً رسولاً فإنه ليس يُوحي إليّ " قال : قلت له : كم الأنبياء اليوم أحياء ؟ قال : " أربعة ، اثنان في الأرض ، واثنان في السماء ، في السماء عيسى وإدريس ، وفي الأرض إلياس والخضر " . قلت : كم الأبدال ؟ قال : " ستون رجلاً ، خمسون منهم من لدن عريش مصر إلى شاطئ الفرات ، ورجل بالمصيصية ورجلان بعسقلان وسبعة في سائر البلدان ، كلّما أذهب الله بواحد ، جاء الله بآخر ، بهم يدفع عن الناس وبهم يمطرون " . قلت : فالخضر أين يكون ؟ قال : " في جزائر البحر " . قلت : فهل تلقاه ؟ قال : " نعم " . قلت : أين ؟ قال : " بالموسم " قلت : فما يكون من حديثكما ؟ قال : " يأخذ من شعري وآخذ من شعره " .

قال : وذاك حين كان بين مروان بن الحكم وبين أهل الشام القتال ، فقلت : فما تقول في مروان بن الحكم ؟ قال : " ما تصنع به ؟ رجل جبّار عات على الله سبحانه ، القاتل والمقتول والشاهد في النار " .



---

قال : قلت : فإني قد شهدت فلم أطعن برمح ولم أرمِ بسهم ولم أضرب بسيف ، وأنا أستغفر الله عز وجل من ذلك المقام أن أعود إلى مثله أبداً .

قال : " أحسنت ، هكذا فكن " .

قال : فأني وإياه قاعدان ، إذ وُضع بين يديه رغيفان أشد بياضاً من الثلج ، أكلت أنا وهو رغيفاً وبعض آخر ثم رفع فما رأيت أحداً وضعه ولا أحداً رفعه . قال : وله ناقة ترعى في وادي الأردن ، فرفع رأسه إليها فما دعاها حتى جاءت فبركت بين يديه فركبها ، قلت : أُريد أن أصحبك . قال : " إنك لا تقدر على صحبتي " . قلت : إني خلوٌ ، مالي زوجة ولا عيال . قال : " تزوج وإياك والنساء الأربع : إياك والناشز والمختلعة والملاعنة والمبارية ، وتزوّج ما بدا لك من النساء " . قال : قلت : إني أُحبّ لقاءك . قال : " إذا رأيتني فقد لقيتني " ، ثم قال : " إني أُريد أن أعتكف في بيت المقدس في شهر الله المبارك رمضان " .

قال : ثم حالت بيني وبينه شجرة ، فوالله ما أدري كيف ذهب ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ المرسلين * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ ﴾ أتعبدون ﴿ بَعْلاً ﴾ ؟ وهو اسم صنم لهم كانوا يعبدونها ، ولذلك سمّيت مدينتهم بعلبك ، وقال مجاهد وعكرمة والسدّي : البعل الرب بلغة أهل اليمن ، وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال ابن عباس : وسألت أعرابياً يقول : لآخر : من بعل هذه الناقة ؟ يعني صاحبها . قال الفراء : هي بلغة هذيل .

﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخالقين ﴾ ، فلا تعبدونه : ﴿ الله رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَآئِكُمُ الأولين ﴾ ،

قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب بنصب الهاء والبائين على البدل، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ورواية حفص عن عاصم، وقرأ الآخرون برفعها على الاستئناف.

(165/656)

---

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ في العذاب والنار ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللهِ المخلصين ﴾ من قومه فإنهم [ناجون من النار] ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين * سَلَامٌ على إِلْيَاسِينَ ﴾ قرأ ابن محيص وشيبة ﴿ سَلَامٌ على إِلْيَاسِينَ ﴾ موصولاً.

وقرأ ابن عامر ونافع ويعقوب (آل ياسين) بالمدّ. الباقون: ﴿ إِلْيَاسِينَ ﴾ بالقطع والقصر، فمن قرأ آل ياسين بالمد، فإنه أراد آل محمد عن بعضهم، وقيل: أراد إلياس، وهو أليق بسياق الآية، ومن قرأ إل ياسين فقد قيل: إنها لغة في إلياس مثل إسماعيل وإسماعين وميكائيل وميكائين، وقال الفراء: وهو جمع، أراد إلياس وأتباعه من المؤمنين كقولهم: الأشعرون والمكيون وقال الكسائي: العرب تثني وتجمع الواحد كقول الشاعر:

قدني من نصر الخبيبين قدي... وإنما هو أبو خبيب عبد الله بن الزبير.

وقال الآخر:

جزاني الزهدمان جزاء سوء... وإنما هو زهدم، وفي حرف عبد الله (وإن إدريس لمن

المرسلين ، وسلامٌ على ادراسين ) .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين * وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ المرسلين * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزاً فِي الغابرين * ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخرين * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، أي على آثارهم ومنازلهم ، ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ : وقت الصباح ، ﴿ وبالليل ﴾ أيضاً تمرّون ، وها هنا تمّ الكلام ، ثم قال ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ ، فتعتبروا ؟

(166/656)

---

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرسلين * إِذْ أَبَقَ ﴾ . هرب ﴿ إِلَى الفلك المشحون ﴾ ، قال ابن عباس ووهب : كان يونس ( عليه السلام ) قد وعد قومه العذاب فلما تأخر العذاب عنهم خرج كالمنشور منهم ، فقصد البحر وركب السفينة ، فاحتبست السفينة ، فقال الملاّحون : ها هنا عبد أبق من سيّده ، وهذا رسم السفينة إذا كان فيه آبق لا تجري . فاقترعوا ، فوقعت القرعة على يونس ، فقالوا : ألا نلقيه في الماء ؟ واقترعوا ثانياً وثالثاً فوقعت القرعة على يونس ، فقال : " أنا الآبق " وزجّ نفسه في الماء ، فذلك قوله سبحانه : ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ : فقارع ، والمساهمة : إلقاء السهام على جهة القرعة . ﴿ فَكَانَ مِنَ المدحضين ﴾ المقروعين المخلوعين المغلوبين .

﴿ فالتقمه ﴾ : فابتلعه والتقمة ﴿ الحوت ﴾ وأوحى الله سبحانه إليه أنّي جعلت بطنك سجناً ولم أجعله لك طعاماً ، ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ مذنب ، قد أتى بما يلام عليه .

﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين ﴾ المنزهّين الذاكرين لله سبحانه قبل ذلك في حال الرخاء ، وقال ابن عباس : من المصلين ، وقال مقاتل : من المصلحين المطيعين قبل المعصية ، وقال وهب : من العابدين ، وقال سعيد بن جبير : يعني قوله ﴿ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [ الأنبياء : 87 ] وقال الحسن : ما كانت له صلاة في بطن الحوت ولكنه قدم عملاً صالحاً ، ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ لصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة .

﴿ فَنَبَذْنَاهُ ﴾ : طرحناه ﴿ بالعرآء ﴾ قال الكلبي : يعني وجه الأرض . مقاتل بن حيان : يعني ظهر الأرض . مقاتل بن سليمان بالبراري من الأرض . الأخفش بالفِناء الفراء بالأرض الواسعة . السدّي : بالساحل ، وأصل العراء الأرض الخالية عن الشجر والنّبات ، ومنه قيل للمتجرد : عريان . قال الشاعر :

[ ترك الهام . . . بالعراء . . . صار للخير حاصر العبقا ]

﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ عليل كالفرخ الممغط ، واختلفوا في المدة التي لبث يونس ( عليه السلام ) في بطن الحوت ، فقال مقاتل بن حيان : ثلاثة أيام . عطاء : سبعة أيام ، ضحاك : عشرين يوماً . السدي والكلبي ومقاتل بن سليمان : أربعين يوماً .

﴿ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي له ، وقيل : عنده ، كقوله : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ ﴾ [ الشعراء : 14 ] أي عندي ﴿ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ قال ابن مسعود : يعني القرع .

ابن عباس والحسن ومقاتل هو كل نبت يمتد وينبسط على وجه الأرض ، ولا يبقى على الشتاء وليس له ساق نحو القثاء والبطيخ والقرع والحنظل . سعيد ابن جبير : هو كل شيء ينبت ثمّ يموت من عامه ، وقيل : هو يفعيل من ( قطن بالمكان ) إذا أقام به إقامة زائل لا إقامة ثابت ، وقال مقاتل بن حيان : وكان يستظل بالشجرة ، وكانت وعلة تختلف إليه فيشرب من لبنها ، ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ ﴾ يجوز أن يكون من حبسه في بطن الحوت ، تقدير الآية وقد أرسلناه ، ويجوز أن يكون بعده ، ويجوز أن يكون إلى قوم آخرين . ﴿ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قال ابن عباس : معناه ويزيدون ، قال الشاعر :

فلما اشتد أمر الحرب فينا . . . تأملنا رياحاً أو رزاماً

أي ورزاماً ، وقال مقاتل : بل يزيدون .

واختلفوا في مبلغ الزيادة على مائة ألف ؛ فقال ابن عباس ومقاتل : عشرون ألف . الحسن والربيع : بضع وثلاثون ألفاً ، ابن حيان : سبعون ألفاً ، ﴿ فَآمَنُواْ ﴾ عند معاينة العذاب ،

﴿ فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ انقضاء آجالهم .

﴿ فاستفتهم ﴾ : فسل يا محمد أهل مكة ﴿ أَلِرَبِّكَ البنات وَلَهُمُ البنون ﴾ ؛ وذلك أن جهينة وبني سلمة بن عبد الدار زعموا أنّ الملائكة بنات الله ، ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الملائكة إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ : حاضرون خلقنا إياهم ، نظيره قوله : ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ [ الزخرف : 19 ] .

(168/656)

---

﴿ أَلاَ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ الله وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى ﴾ . قرأ العامة بقطع الألف ؛ لأنه ألف استفهام دخلت على ألف الوصل فحذفت ألف الوصل وبقيت ألف الاستفهام مفتوحة على حالها مثل ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ [ ص : 75 ] و ﴿ أَسْتَغْفَرْتَ ﴾ [ المنافقون : 6 ] و ﴿ أَذْهَبْتُمْ ﴾ [ الأحقاف : 20 ] ونحوها .

وقرأ أبو جعفر ونافع في بعض الروايات ( الكاذبون اصطفى ) موصولة على الخبر والحكاية عن قول المشركين ، مجازه : ﴿ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ الله ﴾ ويقولون ﴿ أَصْطَفَى ﴾ ﴿ البنات على البنين ﴾ ثم رجع إلى الخطاب : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ : برهان بين على أنّ الله ولداً ﴿ فَأْتُواْ بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ

صَادِقِينَ* وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ : فجعلوا الملائكة بنات الله ، فسمّي الملائكة جنّاً لاختبائهم عن الأبصار ، هذا قول مجاهد وقتادة ، وقال ابن عباس : قالوا لحيّ : من الملائكة يقال لهم : الجنّ ومنهم إبليس بنات الله .

قال الكلبي : قالوا ( لعنهم الله ) : بل تزوّج من الجن فخرج منها الملائكة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وقال الحسن : أشركوا الشيطان في عبادة الله فهو النسب الذي جعلوه .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجنة إِنَّهُمْ ﴾ يعني قائلي هذا القول ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ في النار .

﴿ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ * إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ ؛ فإنهم من النار ناجون . ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ يعني الأصنام ﴿ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي مع ذلك ﴿ بِفَاتِنِينَ ﴾ : بمضلّين ﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم ﴾ أي إلاّ من هو في علم الله وإرادته سيدخل النار .

(169/656)

---

أخبرني ابن فنجويه قال حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا الفربابي قال : حدّثنا أبو بكر بن شنبه قال : حدّثنا عبد الله بن إدريس عن عمر بن ذر قال : قدمنا على عمر بن عبد العزيز فذكر عنده القدر ، فقال عمر بن عبد العزيز : لو أراد الله ألاّ يُعصى ما خلق إبليس وهو رأس الخطيئة ، وإن في ذلك لعلماً من كتاب الله ، وجهله من جهله وعرفه من عرفه ، ثم قرأ

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ ، وقد فصلت هذه الآية بين الناس .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا الفربابي قال : حدّثنا إسحاق بن موسى الأنصاري قال : حدّثنا أنس بن عياض قال : حدّثني أبو سهيل نافع بن مالك بن أبي عامر قال : قال لي عمر بن عبد العزيز ( من فيه إلى أُذني ) : ما تقول في الذين يقولون لا قدر ؟ قال : أرى أن يستتابوا ، فإن تابوا وإلّا ضربت أعناقهم .

قال عمر بن عبد العزيز : ذلك الرأي فيهم والله لو لم يكن إلّا هذه الآية الواحدة لكفى بها : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ .

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ ﴾ يعني إلّا من له ﴿ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ : مكان مخصوص في العبادة . قال ابن عباس : ما في السماوات موضع شبر إلّا وعليه ملك مصل أو مسبح ، وقال أبو بكر الوراق : ﴿ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ يعبد الله عليه ، كالخوف والرجا ، والمحبة والرضا ، وقال السدي : يعني في القربى والمشاهدة .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصآفون ﴾ في الصلاة ، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون * وَإِن كَانُواْ ﴾ وقد كادوا يعني أهل مكة ﴿ لَيَقُولُونَ ﴾ لام التأكيد : ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الأولين ﴾ : كتاباً مثل كتبهم ، ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ الله المخلصين * فَكَفَرُواْ بِهِ ﴾ فيه اختصار تقديره : فلما أتاهم ذلك الكتاب كفروا به . نظيره قوله : ﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الكتاب لَكُنَّآ أهدى مِنْهُمْ ﴾ [ الأنعام : 157 ] .

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وهذا وعيد لهم .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين ﴾ ، وهي قوله : ﴿ كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي ﴾ [ المجادلة : 21 ] .

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حتى حِينٍ ﴾ قال ابن عباس : يعني الموت ، وقال مجاهد : يعني يوم بدر ، وقيل : إلى يوم القيامة ، وقال مقاتل بن حيان : نسختها آية القتال .

﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ : أنظر إليهم إذا عدوا ، وقيل : أبصر حالهم بقليل ، وقيل : انتظرهم ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ما أنكروا : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ وذلك أنّ رسول الله ( عليه السلام ) لما أوعدهم العذاب ، قالوا : متى هذا الوعد ؟ فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

﴿ فَإِذَا نَزَلَ ﴾ العذاب ﴿ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ : بناحيتهم وفنائهم ﴿ فَسَآءَ ﴾ : فبئس ﴿ صَبَاحُ المنذرين ﴾ : الكافرين . أخبرنا أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله الزاهد قال : أخبرنا أبو العباس السراج قال : حدّثنا محمد بن رافع قال : أخبرنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمّر عن قتادة عن أنس في قوله : ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ المنذرين ﴾ قال : لما أتى النبي صلّى الله عليه خيبر فوجدهم حين خرجوا إلى زرعهم ومعهم مساحيهم ، فلما رأوه ومعه الجيش نكصوا ، فرجعوا إلى حصنهم ، فقال النبي عليه السلام : " الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين " .

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حتى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تأكيد للأُولى .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ ﴾ إلى آخر السورة أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عمر بن الخطاب قال : حدّثنا أبو مسلم : حدّثنا محمد بن إسماعيل بن محمد بن أُسد بن عبد الله الأصفهاني قال : حدّثنا أسيد بن عاصم قال : حدّثنا أبو سفيان بن صالح بن مهران قال : حدّثنا نعمان قال : حدّثنا أبو العوام عن قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه :

" إذا سلمتم عليّ فسلّموا على المرسلين ؛ فإنما أنا رسول من المرسلين " .

قال أبو العوام : كان قتادة يذكر هذا الحديث إذا تلا هذه الآية : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ ﴾ إلى

آخر السورة .

وأخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا موسى بن محمد قال : حدّثنا الحسن بن علوية قال : حدّثنا إسماعيل بن عيسى قال : حدّثنا المسيب قال : حدّثنا مطرف عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله صلّى الله عليه يقول قبل أن يسلّم : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلاَمٌ على المرسلين * والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ .

(172/656)

---

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان قال : حدّثنا إبراهيم بن سهلويه قال : حدّثنا علي بن محمد الطنافسي قال : حدّثنا وكيع عن ثابت بن أبي صفية عن الأصبغ بن نباتة عن علي رضي الله عنه قال : " من أحبّ أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليكن آخر كلامه من مجلسه ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلاَمٌ على المرسلين * والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ " .

[ أخبرنا ابن فنجويه ، أخبرنا الحسن المخلدي المقرئ عن أبي الحسن علي بن أحمد عن أبي [ عثمان ] البصري عن أبي خليفة [ الجمحي عن ] عبد المؤمن عن إبراهيم بن إسحاق [

عن عبد الصمد ] عن صالح بن مسافر قال : قرأت على عاصم بن أبي النجود سورة والصافات فلما أتيت على آخرها سكت ، فقال : لِم ؟ إقرأ . فقلت : قد ختمت ، قال إني فعلت كما فعلت على أبي عبد الرحمن السلمي ، فقال أبو عبد الرحمن : كذلك قال لي عليّ وقال لي : قل : آذنتكم بأذانة المرسلين و ( لتسئلن عن النبأ العظيم ) . انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 148.174 ﴾

(173/656)

---

وقال الزمخشري :

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) ﴾

مِنْ شِيعَتِهِ ممن شايعه على أصول الدين وإن اختلفت شرائعهما . أو شايعه على التصلب في دين اللّه ومصابرة المكذبين . ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق في أكثر الأشياء . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : من أهل دينه وعلى سنته ، وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان :

هود ، وصالح . وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة . فإن قلت : بم تعلق الظرف ؟

قلت : بما في الشيعة من معنى المشايعة ، يعنى : وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم . أو بمحذوف وهو : اذكر بِقَلْبٍ سَلِيمٍ من جميع آفات القلوب .

وقيل :

من الشرك ، ولا معنى للتخصيص لأنه مطلق ، فليس بعض الآفات أولى من بعض فيتناولها كلها .

فإن قلت : ما معنى المجيء بقلبه ربه ؟ قلت : معناه أنه أخلص للّه قلبه ، وعرف ذلك منه فضرب



---

المجيء مثلا لذلك أَإِفْكاً مفعول له ، تقديره : أتريدون آلهة من دون اللّه إفكا ، وإنما قدّم المفعول على الفعل للعناية ، وقدّم المفعول له على المفعول به ، لأنه كان الأهمّ عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم . ويجوز أن يكون إفكا مفعولا ، يعنى : أتريدون به إفكا .

ثم فسر الإفك بقوله آلِهَةً دُونَ اللَّهِ على أنها إفك في أنفسها . ويجوز أن يكون حالا ، بمعنى : أتريدون آلهة من دون اللّه آفكين فَما ظَنُّكُمْ بمن هو الحقيق بالعبادة ، لأنّ من كان ربا للعالمين

استحق عليهم أن يعبدوه ، حتى تركتم عبادته إلى عبادة الأصنام : والمعنى : أنه لا يقدّر في وهم ولا ظنّ ما يصدّ عن عبادته . أو فما ظنكم به أى شيء هو من الأشياء ، حتى جعلتم الأصنام له أندادا . أو فما ظنكم به ما ذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره؟

[سورة الصافات (37) : الآيات 88 إلى 90]

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90)

فِي النُّجُومِ في علم النجوم أو في كتابها أو في أحكامها ، وعن بعض الملوك أنه سئل عن مشتهاه فقال : حبيب أنظر إليه ، ومحتاج أنظر له ، وكتاب أنظر فيه . كان القوم نجامين ، فأوهمهم أنه استدل بأمارة في علم النجوم على أنه يسقم فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ إنى مشارف للسقم وهو الطاعون ، وكان أغلب الأسقام عليهم ، وكانوا يخافون العدوى ليتفرقوا عنه ، فهربوا منه إلى عيدهم وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد ، ففعل بالأصنام ما فعل . فإن قلت : كيف جاز له أن يكذب؟ قلت : قد جوّزه بعض الناس في المكيدة في الحرب والتقية ، وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين . والصحيح : أن الكذب حرام إلا إذا عرّض وورّى ، والذي قاله إبراهيم عليه السلام : معراض من الكلام ، ولقد نوى به أن من في عنقه الموت سقيم .

ومنه المثل : كفى بالسلامة داء . وقول لبيد :

فدعوت ربى بالسّلامة جاهدا ليصحّنى فإذا السّلامة داء «1»

وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس وقالوا: مات وهو صحيح، فقال أعرابى:

أصحيح من الموت في عنقه. وقيل: أراد: إنى سقيم النفس لكفركم.

---

(1) كانت قناتي لا تلين لغامز فألانها الإصباح والإمساء

فدعوت ربى بالسلامة جاهدا ليصحنى فإذا السلامة داء

للبيد بن ربيعة العامري، والقناة: الرمح، استعارها لاقامته أو قوته على طريق التصريح، واللبونة والغمز:

ترشيح. والغمزى: الحبى باليد ويجوز أن الاستعارة تمثيلية في المركب، يصف قوته زمن الشباب، ثم ضعف حال المشيب بتتابع الأزمان عليه، وأنه تطلب فسحة الأجل، فكانت سبب اضمحلاله.



---

[سورة الصافات (37): الآيات 91 إلى 93]

فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ (91) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (92) فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (93)

فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فذهب إليها في خفية، من روغة الثعلب، إلى آلهتهم: إلى أصنامهم التي هي في زعمهم آلهة، كقوله تعالى: أين شركائى؟ أَلا تَأْكُلُونَ ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ استهزاء بها وبانحطاطها عن حال عبدتها فَراغَ عَلَيْهِمْ فأقبل عليهم مستخفيا، كأنه قال: فضربهم ضَرْباً لأن راغ عليهم بمعنى ضربهم. أو فراغ عليهم يضربهم ضربا. أو فراغ عليهم ضربا بمعنى ضاربا. وقرئ: صفقا وسفقا، ومعناهما: الضرب. ومعنى ضربا بِالْيَمِينِ ضربا شديدا قويا، لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدّهما. وقيل: بالقوّة والمتانة: وقيل: بسبب الحلف، وهو قوله تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ.

[سورة الصافات (37): آية 94]

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94)

يَزِفُّونَ يسرعون، من زفيف النعام. ويزفون: من أزفّ، إذا دخل في الزفيف. أو من أزفه، إذا حمله على الزفيف، أى: يزفّ بعضهم بعضا. ويزفون، على البناء للمفعول، أى: يحملون على الزفيف. ويزفون، من وزف يزف إذا أسرع. ويزفون: من زفاه إذا حداه «1»، كأن بعضهم يزفوا بعضا لتسارعهم إليه، فإن قلت: بين هذا وبين قوله تعالى قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ، قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ كالتناقض حيث ذكر هاهنا أنهم أدبروا عنه خيفة العدوى، فلما أبصروه يكسرهم أقبلوا إليه متبادرين ليكفوه ويوقعوا به، وذكر ثم أنهم سألوا عن الكاسر، حتى قيل لهم: سمعنا

إبراهيم يذمهم ، فلعله هو الكاسر ، ففي أحدهما أنهم شاهدوه يكسرها ، وفي الآخر : أنهم استدلوا بذمه على أنه الكاسر . قلت :

فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون الذين أبصروه وزفوا إليه نفرا منهم دون جمهورهم وكبرائهم ، فلما رجع الجمهور والعلية «2» من عيدهم إلى بيت الأصنام ليأكلوا الطعام الذي وضعوه عندها لتبرك عليه ورأوها مكسورة اشمأزوا من ذلك ، وسألوا : من فعل هذا بها ؟ ثم لم ينم عليه أولئك النفر نميمة صريحة ، ولكن على سبيل التورية والتعريض بقولهم «سمعنا فتى يذكرهم» لبعض الصوارف . والثاني : أن يكسرها ويذهب ولا يشعر بذلك أحد ، ويكون إقبالهم إليه يزفون بعد رجوعهم من عيدهم وسؤالهم عن الكاسر . وقولهم : قالوا فأتوا به على أعين الناس .

---

(1) . قوله «إذا حداه» أى ساقه . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . قوله «والعلية» أى العظماء . (ع)

(176/656)

---

[سورة الصافات (37) : الآيات 95 إلى 96]

قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ (96)

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ يعنى خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام، كقوله بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ أى فطر الأصنام. فإن قلت: كيف يكون الشيء الواحد مخلوقا للّه معمولا لهم، حيث أوقع خلقه وعملهم عليها جميعا؟

قلت: هذا كما يقال: عمل النجار الباب «1» والكرسي، وعمل الصائغ السوار والخلخال، والمراد عمل أشكال هذه الأشياء وصورها دون جواهرها، والأصنام جواهر وأشكال، فخالق جواهرها الله، وعاملو أشكالها الذين يشكلونها بنحتهم وحذفهم بعض أجزائها، حتى يستوي التشكيل الذي يريدونه. فإن قلت: فما أنكرت «2» أن تكون ما مصدرية لا موصولة، ويكون المعنى:

واللّه خلقكم وعملكم، كما تقول المجبرة «3»؟ قلت: أقرب ما يبطل به هذا السؤال بعد بطلانه

---

(1). قال محمود: «يعنى خلقكم وما تعملون من الأصنام، كقوله بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ فان قلت: كيف يكون الشيء الواحد مخلوقا للّه تعالى معمولا لهم؟ وأجاب بأن هذا كما يقال: عمل النجار الباب... إلى أن قال:... وفي ذلك فك للنظم وتبتير كما لو جعلتها مصدرية» اه كلامه. قال أحمد: إذا جاء سيل اللّه ذهب سيل معقل، فنقول: يتعين حملها على المصدرية، وذلك أنهم لم يعبدوا هذه الأصنام من حيث كونها حجارة ليست مصورة، فلو كان كذلك لم يتعاونوا في تصويرها، ولا

اختصوا بعبادتهم حجرا دون حجر ، فدل أنهم إنما يعبدونها باعتبار أشكالها وصورها التي هي أثر عملهم ، ففي الحقيقة أنهم عبدوا عملهم ، وصلحت الحجة عليهم بأنهم مثله ، مع أن المعبود كسب العابد وعمله ، فقد ظهر أن الحجة قائمة عليهم على تقدير أن تكون ما مصدرية أوضح قيام وأبلغه ، فإذا أثبت ذلك فليتتبع كلامه بالابطال . أما قوله أنها موصولة ، وأن المراد بعملهم لها عمل أشكالها فمخالف للظاهر ، فانه مفتقر إلى حذف مضاف في موضع اليأس يكون تقديره : واللّه خلقكم وما تعملون شكله وصورته ، بخلاف توجيه أهل السنة فانه غير مفتقر إلى حذف البتة ، ثم إذا جعل المعبود نفس الجوهر ، فكيف يطابق توبيخهم ببيان أن المعبود من عمل العابد ، مع موافقته على أن جواهر الأصنام ليست من عملهم ؟ فما هو من عملهم وهو الشكل ليس معبودا لهم على هذا التأويل ، وما هو معبودهم وهو جوهر الصنم ليس من عملهم ، فلم يستقر له قرار في أن المعبود على تأويله من عمل العابد ، وعلى ما قررناه يتضح .

وأما قوله : إن المطابقة تنفك على تأويل أهل السنة بين ما ينحتون وما يعملون فغير صحيح ، فان لنا أن نحمل الأولى على أنها مصدرية وأنهم في الحقيقة إنما عبدوا نحتهم ، لأن هذه الأصنام وهي حجارة قبل النحت لم يكونوا يعبدونها ، فلما عملوا فيها النحت عبدوها ، ففي الحقيقة ما عبدوا سوى نحتهم الذي هو عملهم ، فالمطابقة إذا حاصلة ، والإلزام على هذا أبلغ وأمتن ، ولو كان كما قال لقامت لهم الحجة ، ولقالوا كما يقول الزمخشري مكافحين

لقوله وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ بأن يقولوا : لا ولا كرامة ، ولا يخلق اللّه ما نعمل نحن ، لأنا إنما عملنا التشكيل والتصوير وهذا لم يخلقه الله ، وكانوا يجدون الذريعة إلى اقتحام الحجة ، ويأبى اللّه إلا أن تكون لنا الحجة البالغة ولهم الأكاذب الفارغة ، فهذا إلزام بل إلجام لمن خالف السنة ، وغل بعنقه ، وعقر بكتفه ، وضرب على يده ، حتى يرجع إلى الحق آئبا ، ويعترف بخطئه تائبا .

(2) . قوله «فان قلت فما أنكرت» ؟ لعله : لم أنكرت . (ع) [ . . . . . ]

(3) . قوله «كما تقول المجبرة» يريد أهل السنة حيث ذهبوا إلى أنه لا خالق إلا اللّه ، فهو الخالق لعمل العبد والمعتزلة يقولون : إن العبد هو الخالق لعمل نفسه ، فجعلوا العبد شريكا للّه في الخالقية ، مع أنهم سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، قالوا : لو كان اللّه هو الخالق لفعل العبد لكان تعذيبه للعبد على المعاصي ظلما لا عدلا ، قال أهل السنة : يعذبه عليها كما يثيبه على الطاعة ، لما له فيهما من الكسب والاختيار ، فلا ظلم ، لكن المعتزلة لم ينظروا في التوحيد تمام النظر ، ولم يتبصروا في أدلته تمام التبصر . (ع)

بحجج العقل والكتاب : أن معنى الاية يأباه إباء جليا ، وينبو عنه نبوّا ظاهرا ، وذلك أن اللّه عز وجل قد احتج عليهم بأنّ العابد والمعبود جميعا خلق اللّه ، فكيف يعبد المخلوق المخلوق ، على أن العابد منهما هو الذي عمل صورة المعبود وشكله ، ولولاه لما قدر أن يصوّر نفسه ويشكلها ، ولو قلت : واللّه خلقكم وخلق عملكم ، ولم يكن محتجا عليهم «1» ولا كان لكلامك طباق. وشيء آخر : وهو أن قوله ما تَعْمَلُونَ ترجمة عن قوله ما تَنْحِتُونَ وما في ما تَنْحِتُونَ موصولة لا مقال فيها فلا يعدل بها عن أختها إلا متعسف متعصب لمذهبه ، من غير نظر في علم البيان ، ولا تبصر لنظم القرآن. فإن قلت : اجعلها موصولة حتى لا يلزمني ما ألزمت ، وأريد : وما تعملونه من أعمالكم. قلت : بل الإلزامان في عنقك لا يفكهما إلا الإذعان للحق ، وذلك أنك وإن جعلتها موصولة ، فإنك في إرادتك بها العمل غير محتج على المشركين ، كحالك وقد جعلتها مصدرية ، وأيضا فإنك قاطع بذلك الصلة بين ما تعملون وما تنحتون ، حيث تخالف بين المرادين بهما ، فتريد بما تنحتون : الأعيان التي هي الأصنام ، وبما تعملون : المعاني التي هي الأعمال ، وفي ذلك فك النظم وتبتيره ، كما إذا جعلتها مصدرية.

[سورة الصافات (37) : الآيات 97 إلى 98]

قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98)

الْجَحِيمِ النار الشديدة الوقود ، وقيل : كل نار على نار وجمر فوق جمر ، فهي جحيم.

والمعنى : أن اللّه تعالى غلبه عليهم في المقامين جميعا ، وأذلهم بين يديه : أرادوا أن يغلبوه بالحجة فلقنه اللّه وألهمه ما ألقمهم به الحجر ، وقهرهم فمالوا إلى المكر ، فأبطل اللّه مكرهم وجعلهم الأذلين الأسفلين لم يقدروا عليه.

[سورة الصافات (37) : الآيات 99 إلى 101]

وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (101)

أراد بذهابه إلى ربه : مهاجرته إلى حيث أمره بالمهاجرة إليه من أرض الشام ، كما قال :

---

(1) . قوله «لم يكن محتجا عليهم» يكفى في الاحتجاج أن اللّه هو الخالق لهم ولأعمالهم في الأصنام وغيرها ، والأصنام لا تخلق شيئا ، بل الانفراد بالخالقية أدل على الانفراد بالالهية. (ع)



---

إنى مهاجر إلى ربى. سَيَهْدِينِ سيرشدنى إلى ما فيه صلاحي في دينى ويعصمني ويوفقني ، كما قال موسى عليه السلام كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ كأن اللّه وعده وقال له : سأهديك ، فأجرى كلامه على سنن موعد ربه. أو بناء على عادة اللّه تعالى معه في هدايته

وإرشاده.

أو أظهر بذلك توكله وتفويضه أمره إلى اللّه. ولو قصد الرجاء والطمع لقال، كما قال موسى عليه السلام عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ. هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ هب لي بعض الصالحين، يريد الولد، لأنّ لفظ الهبة غلب في الولد وإن كان قد جاء في الأخ في قوله تعالى وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا قال عزّ وجل وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وقال على بن أبى طالب لابن عباس رضى اللّه عنهم - حين هنأه بولده علىّ أبى الأملاك -: شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب. ولذلك وقعت التسمية بهبة اللّه، وبموهوب، ووهب، وموهب. وقد انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ أوان الحلم، وأنه يكون حليما، وأى حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح، فقال: ستجدني إن شاء اللّه من الصابرين، ثم استسلم لذلك. وقيل: ما نعت اللّه الأنبياء عليهم السلام بأقل مما نعتهم بالحلم، وذلك لعزة وجوده. ولقد نعت اللّه به إبراهيم في قوله إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ، إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ لأنّ الحادثة شهدت بحلمهما جميعا.

[سورة الصافات (37) : آية 102]

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102)

فلما بلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه . فإن قلت : مَعَهُ بم يتعلق ؟ قلت : لا يخلو إما أن يتعلق ببلغ ، أو بالسعي ، أو بمحذوف ، فلا يصح تعلقه ببلغ لاقتضائه بلوغهما معا حدّ السعى ، ولا بالسعي لأنّ صلة المصدر لا تتقدم عليه ، فبقى أن يكون بيانا ، كأنه لما قال : فلما بلغ السعى أى الحدّ الذي يقدر فيه على السعى قيل : مع من ؟ فقال مع أبيه . والمعنى في اختصاص الأب أنه أرفق الناس به ، وأعطفهم عليه ، وغيره ربما عنف به في الاستسعاء فلا يحتمله ، لأنه لم تستحكم قوته ولم يصلب عوده ، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة .

والمراد : أنه على غضاضة سنه وتقلبه في حد الطفولة ، كان فيه من رصانة الحلم وفسحة الصدر ما جسره على احتمال تلك البلية العظيمة والإجابة بذلك الجواب الحكيم : أتى في المنام فقيل له : اذبح ابنك ، ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى في اليقظة ، فلهذا قال إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فذكر تأويل الرؤيا ، كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب في سفينة : رأيت في المنام أنى ناج من هذه المحنة ، وقيل : رأى ليلة التروية كأن قائلا يقول له : إنّ الله يأمرك بذبح

(179/656)

ابنك هذا ، فلما أصبح روّى في ذلك من الصباح إلى الرواح ، أمن اللّه هذا الحلم أو من الشيطان ؟

فمن ثم سمى يوم التروية ، فلما أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من اللّه ، فمن ثم سمى يوم عرفة ، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة ، فهم بنحره فسمى اليوم يوم النحر . وقيل : إنّ الملائكة حين بشرته بغلام حليم قال : هو إذن ذبيح اللّه . فلما ولد وبلغ حد السعى معه قيل له : أوف بنذرك فَانْظُرْ ما ذا تَرى من الرأى على وجه المشاورة . وقرئ : ما ذا ترى «1» ، أى : ما ذا تبصر من رأيك وتبديه . وما ذا ترى ، على البناء للمفعول ، أى : ما ذا تريك نفسك من الرأى افْعَلْ ما تُؤْمَرُ أى ما تؤمر به ، فحذف الجار كما حذف من قوله :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به «2»

أو أمرك على إضافة المصدر إلى المفعول ، وتسمية المأمور به أمرا . وقرئ : ما تؤمر به . فإن قلت : لم شاوره في أمر هو حتم من اللّه ؟ قلت : لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته ، ولكن ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء اللّه ، فيثبت قدمه ويصبره إن جزع ، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم ، وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها ، ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر اللّه قبل نزوله : ولأنّ المغافصة «3» بالذبح مما يستسمج ، وليكون سنة في المشاورة ، فقد قيل : لو شاور آدم الملائكة في أكله من الشجرة لما فرط منه ذلك .

فإن قلت : لم كان ذلك بالمنام دون اليقظة؟ قلت : كما أرى يوسف عليه السلام سجود أبويه وإخوته له في المنام من غير وحى إلى أبيه ، وكما وعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم دخول المسجد الحرام في المنام ، وما سوى ذلك من منامات الأنبياء ، وذلك لتقوية الدلالة على كونهم صادقين مصدوقين ، لأنّ الحال إما حال يقظة أو حال منام ، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق كان ذلك أقوى للدلالة من انفراد أحدهما .

[سورة الصافات (37) : الآيات 103 إلى 111]

فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107)

وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ (109) كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111)

---

(1) . قوله «وقرئ ما ذا ترى» لعله بضم التاء وكسر الراء ، من أراه يريه ، فليحرر . (ع)

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 590 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(3) . قوله «المغافصة» في الصحاح : غافصت الرجل ، أى : أخذته على غرة . (ع)

يقال : سلم لأمر اللّه ، وأسلم ، واستسلم بمعنى واحد . وقد قرئ بهنّ جميعا إذا تنقاد له ، وخضع ، وأصلها من قولك : سلم هذا لفلان إذا خلص له . ومعناه : سلم من أن ينازع فيه ، وقولهم : سلم لأمر اللّه ، وأسلم له منقولان منه ، وحقيقة معناهما : أخلص نفسه للّه وجعلها سالمة له خالصة ، وكذلك معنى : استسلم : استخلص نفسه للّه . وعن قتادة في أَسْلَما أسلم هذا ابنه وهذا نفسه وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ صرعه على شقه ، فوقع أحد جبينيه على الأرض تواضعا «1» على مباشرة الأمر بصبر وجلد ، ليرضيا الرحمن ويخزيا الشيطان . وروى أن ذلك كان عند الصخرة التي بمنى ، وعن الحسن : في الموضع المشرف على مسجد منى . وعن الضحاك : في المنحر الذي ينحر فيه اليوم . فإن قلت : أين جواب لما ؟ قلت : هو محذوف تقديره : فلما أسلما وتله للجبين وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما ، وحمدهما للّه وشكرهما على ما أنعم به عليهما ، من دفع البلاء العظيم بعد حلوله ، وما اكتسبا في تضاعيفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والأعواض ورضوان اللّه الذي ليس وراءه مطلوب ، وقوله إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ تعليل لتخويل ما خوّلهما من الفرج بعد

الشدّة، والظفر بالبغية بعد اليأس الْبَلاءُ الْمُبِينُ الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم. أو المحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها. الذبح: اسم ما يذبح. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما: هو الكبش الذي قرّبه هابيل فقبل منه، وكان يرعى في الجنة حتى فدى به إسماعيل. وعن الحسن: فدى بوعلى «2» أهبط عليه من ثبير. وعن ابن عباس: لو تمت تلك الذبيحة لكانت سنة وذبح الناس أبناءهم»

عَظِيمٍ ضخم الجثة سمين، وهي السنة في الأضاحى. وقوله عليه السلام «استشرفوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم» وقيل: لأنه وقع فداء عن ولد إبراهيم. وروى أنه هرب من إبراهيم عليه السلام عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتّى أخذه، فبقيت سنة في الرمي. وروى أنه رمى الشيطان حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده: وروى أنه لما ذبحه قال جبريل: اللّه أكبر اللّه أكبر، فقال الذبيح: لا إله إلا اللّه واللّه أكبر، فقال إبراهيم عليه السلام: اللّه أكبر وللّه الحمد «4»، فبقى سنة: وحكى في قصة الذبيح أنه حين أراد ذبحه وقال: يا بنى خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب، فلما توسط شعب ثبير أخبره بما أمر، فقال: اشدد رباطى لا أضطرب، واكفف عنى ثيابك

---

(1). قوله «تواضعا على مباشرة الأمر» أى توافقا. (ع)

(2). قوله «بوعل» في الصحاح: الوعل: الأروى اه، ويقال: التيس الجبلي. (ع)

(3) . لم أجده .

(4) . لم أجده .

(181/656)

---

لا ينتضح عليها شيء من دمى فينقص أجرى وتراه أمى فتحزن ، واشحذ شفرتك وأسرع إمرارها على حلقى حتى تجهز علىّ ، ليكون أهون فإنّ الموت شديد ، واقرأ على أمى سلامى ، وإن رأيت أن تردّ قميصي على أمى فافعل ، فإنه عسى أن يكون أسهل لها ، فقال إبراهيم عليه السلام : نعم العون أنت يا بنىّ على أمر اللّه ، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه ، وهما يبكيان ، ثم وضع السكين على حلقه فلم تعمل . لأنّ اللّه ضرب صفيحة من نحاس على حلقه ، فقال له : كبني على وجهى فإنك إذا نظرت وجهى رحمتني وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر اللّه ، ففعل ، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين ، ونودي : يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، فنظر فإذا جبريل عليه السلام معه كبش أقرن أملح ، فكبر جبريل والكبش ، وإبراهيم وابنه ، وأتى المنحر من منى فذبحه : وقيل : لما وصل موضع السجود منه إلى الأرض جاء الفرج . وقد استشهد أبو حنيفة رحمه اللّه بهذه الآية فيمن نذر ذبح ولده : أنه يلزمه ذبح شاة ، فإن قلت : من كان الذبيح من ولديه ؟ قلت : قد اختلف فيه ،

فعن ابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي وجماعة من التابعين : أنه إسماعيل .

والحجة فيه أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال «أنا ابن الذبيحين» وقال له أعرابى : يا ابن الذبيحين ، فتبسم ، فسئل عن ذلك فقال : إنّ عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر للّه : لئن سهل اللّه له أمرها ليذبحن أحد ولده ، فخرج السهم على عبد اللّه فمنعه أخواله وقالوا له أفد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل» «1» وعن محمد بن كعب القرظي قال : كان مجتهد بنى إسرائيل يقول إذا دعا : اللهم إله إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل ، فقال موسى عليه السلام : يا رب ، ما لمجتهد بنى إسرائيل إذا دعا قال : اللهم إله إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل ، وأنا بين أظهرهم فقد أسمعتنى كلامك واصطفيتني برسالتك ؟ قال : يا موسى ، لم يحبني أحد حب إبراهيم قط ، ولا خير بيني وبين شيء قط إلا اختارني .

وأمّا إسماعيل فإنه جاد بدم نفسه . وأمّا إسرائيل ، فإنه لم ييأس من روحي في شدّة نزلت به قط ، ويدل عليه أنّ اللّه تعالى لما أتم قصة الذبيح قال : وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا وعن محمد بن كعب أنه قال لعمر بن عبد العزيز :

هو إسماعيل ، فقال عمر : إنّ هذا شيء ما كنت أنظر فيه ، وإنى لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلى يهودى قد أسلم فسأله ، فقال : إن اليهود لتعلم أنه إسماعيل ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب ، ويدل عليه أن قرني الكبش كانا منوطين في الكعبة في أيدى بنى إسماعيل إلى أن احترق البيت . وعن الأصمعى قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا

أصمعى أين عزب عنك عقلك ، ومتى كان إسحاق بمكة ، وإنما كان إسماعيل بمكة ، وهو الذي بنى البيت مع أبيه ، والمنحر بمكة .

---

(1) . أخرجه الحاكم والثعلبي من رواية الصنابحى عن معاوية رضى اللّه عنه وفيه قصة .

*(182/656)*

---

ومما يدل عليه أنّ اللّه تعالى وصفه بالصبر دون أخيه إسحاق في قوله وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وهو صبره على الذبح ، ووصفه بصدق الوعد في قوله إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ لأنه وعد أباه الصبر من نفسه على الذبح فوفى به ، ولأن اللّه بشره بإسحاق وولده يعقوب في قوله فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ فلو كان الذبيح إسحاق لكان خلفا للموعد في يعقوب . وعن على بن أبى طالب وابن مسعود والعباس وعطاء وعكرمة وجماعة من التابعين : أنه إسحاق . والحجة فيه أن اللّه تعالى أخبر عن خليله إبراهيم حين هاجر إلى الشام بأنه استوهبه ولدا ، ثم أتبع ذلك البشارة بغلام حليم ، ثم ذكر رؤياه بذبح ذلك الغلام المبشر به . ويدل عليه كتاب يعقوب إلى يوسف : من يعقوب إسرائيل اللّه بن إسحاق ذبيح اللّه ابن ابراهيم خليل اللّه «1» . فإن قلت : قد أوحى إلى إبراهيم صلوات اللّه عليه في المنام بأن يذبح ولده ولم يذبح ، وقيل له : قد

صدقت الرؤيا ، وإنما كان يصدقها لو صح منه الذبح ، ولم يصح «2»

---

(1) . أخرجه الترمذي في النوادر في الحادي والعشرين بعد المائتين : حدثنا عمر بن أبى عمر حدثنا عصام بن المثنى الحمصي عن أبيه عن وهب بن منبه قال «كتب يعقوب كتابا فيه : بسم اللّه الرحمن الرحيم . من يعقوب نبى اللّه إلى آخره» وأخرج الدارقطني في غرائب مالك من رواية إسحاق بن وهب الطوسي عن ابن وهب عن مالك عن نافع عن ابن عمر رفعه «أوحى إلى ملك الموت أن ائت يعقوب فسلم عليه فذكر الحديث - وفيه فقال : اكتبوا بسم اللّه الرحمن الرحيم من يعقوب إسرائيل اللّه بن إسحاق ذبيح اللّه بن إبراهيم خليل اللّه إلى عزيز مصر أما بعد فانا أهل بيت فذكره مطولا . قال الدارقطني : هذا موضوع . وإسحاق كان يضع الحديث على ابن وهب . وقد تقدم في يوسف من وجه آخر .

(2) . قال محمود : «فان قلت قد أوحى إلى إبراهيم في المنام أن يذبح ولده ولم يذبح ، وقيل له : قد صدقت الرؤيا وإنما كان يصدقها لو صح منه الذبح ، ولم يصح . فأجاب بأنه قد بذل وسعه وفعل ما يفعله الذابح من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه ، ولكن اللّه سبحانه منع الشفرة أن تمضى فيه وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم ، ألا ترى أنه لا يسمى عاصيا ولا مفرطا بل يسمى مطيعا ومجتهدا ، كما لو مضت فيه الشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم ، وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل ولا قل أوان الفعل في

شيء ، كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام عليه . انتهى كلامه» قال أحمد : كل ما ذكر دندنة حول امتناع النسخ قبل التمكن من الفعل ، وتلك قاعدة المعتزلة . وأما أهل السنة فيثبتون جوازه ، لأن التكليف ثابت قبل التمكن من الفعل ، فجاز رفعه كالموت .

وأيضا فكل نسخ كذلك ، لأن القدرة على الفعل عندنا مقارنة لا متقدمة ، ثم يثبتون وقوعه بهذه الآية . ووجه الدليل منها أن إبراهيم عليه السلام أمر بالذبح بدليل افْعَلْ ما تُؤْمَرُ ونسخ قبل التمكن بدليل العدول إلى الفداء ، فمن ثم تحوم الزمخشري على أنه فعل غاية وسعه من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه ، وإنما امتنعت بأمر من اللّه تعالى ، وغرضه بذلك أحد أمرين : إما أن يكون الأمر إنما توجه عليه بمقدمات الذبح وقد حصلت لا بنفس الذبح ، أو توجه الأمر بنفس الذبح وتعاطيه ، ولكن لم يتمكن . وكلا الأمرين لا يخلصه .
أما قوله : أمر بمقدمات الذبح فباطل بقوله إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ وقوله افْعَلْ ما تُؤْمَرُ وأما قوله : لم يتمكن لأن الشفرة منعت بأمر من اللّه تعالى بعد تسليم الأمر بالذبح ، فحاصله أنه لم يتمكن من الذبح المأمور به ، فكان النسخ إذا قبل التمكن ، وهو عين ما أنكره المعتزلة ، ولما لم يكن في هذين الجوابين لهم خلاص : لجأ بعضهم إلى تسليم أنه أمر بالذبح ، ودعوى أنه ذبح ولكنه كان يلتحم ، وهو باطل لا ثبوت له . وسياق الآية يخل دعواه ويفل ثنياه .

قلت . قد بذل وسعه وفعل ما يفعل الذابح : من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه ، ولكن اللّه سبحانه جاء بما منع الشفرة أن تمضى فيه ، وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم عليه السلام ، ألا ترى أنه لا يسمى عاصيا ولا مفرطا ، بل يسمى مطيعا ومجتهدا ، كما لو مضت فيه الشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم ، وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل ، ولا قبل أوان الفعل في شيء ، كما يسبق إلى بعض الأوهام ، حتى يشتغل بالكلام فيه . فإن قلت : اللّه تعالى هو المفتدى منه : لأنه الآمر بالذبح ، فكيف يكون فاديا حتى قال وَفَدَيْناهُ؟ قلت : الفادي هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، واللّه عز وجل وهب له الكبش ليفدى به وإنما قال وَفَدَيْناهُ إسنادا للفداء إلى السبب الذي هو الممكن من الفداء بهبته . فإن قلت : فإذا كان ما أتى به إبراهيم من البطح وإمرار الشفرة في حكم الذبح . فما معنى الفداء ، والفداء إنما هو التخليص من الذبح ببدل ؟ قلت : قد علم بمنع اللّه أن حقيقة الذبح لم تحصل من فرى الأوداج وانهار الدم ، فوهب اللّه له الكبش ليقيم ذبحه مقام تلك الحقيقة حتى لا تحصل تلك الحقيقة في نفس إسماعيل ، ولكن في نفس الكبش بدلا منه . فإن قلت : فأى فائدة في تحصل تلك الحقيقة ، وقد استغنى عنها بقيام ما وجد من إبراهيم مقام الذبح من غير نقصان ؟ قلت : الفائدة في ذلك أن يوجد ما منع منه في بدله حتى يكمل منه الوفاء بالمنذور وإيجاد المأمور به من كل وجه . فإن قلت : لم قيل هاهنا

كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وفي غيرها من القصص : إنا كذلك؟ قلت : قد سبقه في هذه القصة : إنا كذلك ، فكأنما استخف بطرحه اكتفاء بذكره مرة عن ذكره ثانية .

[سورة الصافات (37) : الآيات 112 إلى 113]

وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113)

نَبِيًّا حال مقدرة ، كقوله تعالى فَادْخُلُوها خالِدِينَ. فإن قلت : فرق بين هذا وبين قوله فَادْخُلُوها خالِدِينَ وذلك أنّ المدخول موجود مع وجود الدخول ، والخلود غير موجود معهما ، فقدرت مقدرين الخلود فكان مستقيما ، وليس كذلك المبشر به ، فإنه معدوم وقت وجود البشارة ، وعدم المبشر به أوجب عدم حاله لا محالة ، لأنّ الحال حلية ، والحلية لا تقوم إلا بالمحلى ، وهذا المبشر به الذي هو إسحاق حين وجد لم توجد النبوّة أيضا بوجوده ، بل تراخت عنه مدّة متطاولة ، فكيف يجعل نبيا حالا مقدّرة ، والحال صفة الفاعل أو المفعول عند وجود الفعل منه أو به ، فالخلود وإن لم يكن صفتهم عند دخول الجنة ، فتقديرها «1» صفتهم ، لأنّ المعنى مقدّرين

---

(1) . قوله «فتقديرها صفتهم» لعله : فتقديره . (ع)

الخلود ، وليس كذلك النبوّة ، فإنه لا سبيل إلى أن تكون موجودة أو مقدّرة وقت وجود البشارة بإسحاق لعدم إسحاق . قلت : هذا سؤال دقيق السلك ضيق المسلك ، والذي يحل الإشكال :

أنه لا بد من تقدير مضاف محذوف ، وذلك قولك : وبشرناه بوجود إسحاق نبيا ، أى بأن يوجد مقدّرة نبوّته ، فالعامل في الحال الوجود لا فعل البشارة ، وبذلك يرجع ، نظير قوله تعالى فَادْخُلُوها خالِدِينَ . مِنَ الصَّالِحِينَ حال ثانية ، وورودها على سبيل الثناء والتقريظ ، لأنّ كل نبى لا بد أن يكون من الصالحين . وعن قتادة : بشره اللّه بنبوّة إسحاق بعد ما امتحنه بذبحه ، وهذا جواب من يقول الذبيح إسحاق لصاحبه عن تعلقه بقوله وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ قالوا : ولا يجوز أن يبشره اللّه بمولده ونبوّته معا ، لأن الامتحان بذبحه لا يصح مع علمه بأنه سيكون نبيا وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ وقرئ : وبركنا ، أى : أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا ، كقوله وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ وقيل : باركنا على إبراهيم في أولاده ، وعلى إسحاق بأن أخرجنا أنبياء بنى إسرائيل من صلبه . وقوله وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ نظيره : قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ؟ قالَ : لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجرى أمرهما على العرق والعنصر ، فقد يلد البر الفاجر ، والفاجر البر . وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر ، وعلى أن الظلم في أعقابهما لم يعد عليهما بعيب

ولا نقيصة، وأنّ المرء إنما يعاب بسوء فعله ويعاتب على ما اجترحت يداه، لا على ما وجد من أصله أو فرعه.

[سورة الصافات (37) : الآيات 114 إلى 122]

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ (114) وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115) وَنَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (116) وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (118)

وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ (119) سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ (120) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122)

مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ من الغرق. أو من سلطان فرعون وقومه وغشمهم «1» وَنَصَرْناهُمْ الضمير لهما ولقومهما في قوله وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما. الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ البليغ في بيانه وهو التوراة، كما قال إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ وقال: من جوز أن تكون التوراة

---

(1). قوله «وغشمهم» في الصحاح «الغشم»: الظلم. (ع) [.....]

عربية أن تشتق «1» من ورى الزند «فوعلة» منه ، على أنّ التاء مبدلة من واو الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ صراط أهل الإسلام ، وهي صراط الذين أنعم اللّه عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

[سورة الصافات (37) : الآيات 123 إلى 132]

وَإِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (124) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ (125) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (126) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (127)

إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (128) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (129) سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ (130) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (132)

قرئ إلياس ، بكسر الهمزة ، والياس : على لفظ الوصل : وقيل : هو إدريس النبي . وقرأ ابن مسعود : وإنّ إدريس ، في موضع إلياس . وقرئ : إدراس : وقيل : هو إلياس بن ياسين ، من ولد هرون أخى موسى أَتَدْعُونَ بَعْلًا أتعبدون بعلا ، وهو علم لصنم كان لهم كمناة وهبل .

وقيل : كان من ذهب ، وكان طوله عشرين ذراعا ، وله أربعة أوجه ، فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن ، وجعلوهم أنبياءه ، فكان الشيطان يدخل في جوف - بعل - ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس ، وهم أهل بعلبك من بلاد

الشام ، وبه سميت مدينتهم بعلبك . وقيل : البعل الرب ، بلغة اليمن ، يقال : من بعل هذه الدار ، أى : من ربها ؟

والمعنى : أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ قرئ بالرفع على الابتداء ، وبالنصب على البدل ، وكان حمزة إذا وصل نصب ، وإذا وقف رفع : وقرئ : على الياسين . وإدريسين . وادراسين . وإدرسين ، على أنها لغات في إلياس وإدريس . ولعل لزيادة الياء والنون في السريانية معنى . وقرئ : على الياسين بالوصل ، على أنه جمع يراد به إلياس وقومه ، كقولهم : الخبيبون والمهلبون . فإن قلت : فهلا حملت على هذا إلياسين على القطع وأخواته ؟ قلت : لو كان جمعا لعرف بالألف واللام . وأما من قرأ : على آل ياسين ، فعلى أنّ ياسين اسم أبى إلياس ، أضيف إليه الآل .

[سورة الصافات (37) : الآيات 133 إلى 138]

وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (138)

---

(1) . قوله «أن تشتق» لعله : يجوز أن تشتق . (ع)

مُصْبِحِينَ

داخلين في الصباح، يعنى: تمرون على منازلهم في متاجركم إلى الشام ليلا ونهارا، فما فيكم عقول تعتبرون بها.

[سورة الصافات (37) : الآيات 139 إلى 148]

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143)

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (148)

قرئ: يونس، بضم النون وكسرها. وسمى هربه من قومه بغير إذن ربه: إباقا على طريقة المجاز. والمساهمة: المقارعة. ويقال: استهم القوم، إذا اقترعوا. والمدحض: المغلوب المقروع.

وحقيقته: المزلق عن مقام الظفر والغلبة. روى أنه حين ركب في السفينة وقفت، فقالوا: هاهنا عبد أبق من سيده، وفيما يزعم البحارون أنّ السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر،

فاقترعوا ، فخرجت القرعة على يونس فقال : أنا الآبق ، وزجّ بنفسه في الماء فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ داخل في الملامة . يقال : ربّ لائم مليم ، أي يلوم غيره وهو أحق منه باللوم . وقرئ : مليم ، بفتح الميم ، من ليم فهو مليم ، كما جاء : مشيب في مشوب ، مبنيا على شيب . ونحوه : مدعى ، بناء على دعى مِنَ الْمُسَبِّحِينَ من الذاكرين اللّه كثيرا بالتسبيح والتقديس . وقيل : هو قوله في بطن الحوت لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ وقيل : من المصلين . وعن ابن عباس : كل تسبيح في القرآن فهو صلاة «1» .

وعن قتادة : كان كثير الصلاة في الرخاء . قال :

وكان يقال : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر ، وإذا صرع وجد متكأ . وهذا ترغيب من اللّه عز وجل في إكثار المؤمن من ذكره بما هو أهله ، وإقباله على عبادته ، وجمع همه لتقييد

---

(1) . أخرجه الطبري وابن مردويه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى اللّه عنهما - قوله ورواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة موقوفا

نعمته بالشكر في وقت المهلة والفسحة ، لينفعه ذلك عنده تعالى في المضايق والشدائد

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ الظاهر لبثه فيه حيا إلى يوم البعث . وعن قتادة : لكان بطن الحوت له قبرا

إلى يوم القيامة . وروى أنه حين ابتلعه أوحى اللّه إلى الحوت : إنى جعلت بطنك له سجنا ،

ولم أجعله لك طعاما . واختلف في مقدار لبثه ، فعن الكلبي : أربعون يوما ، وعن الضحاك

: عشرون يوما .

وعن عطاء سبعة . وعن بعضهم : ثلاثة . وعن الحسن : لم يلبث إلا قليلا ، ثم أخرج من

بطنه بعيد الوقت الذي التقم فيه . وروى أنّ الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس

فيه يونس ويسبح ، ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر ، فلفظه سالما لم يتغير منه شيء ،

فأسلموا : وروى أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل . والعراء : المكان الخالي لا

شجر فيه ولا شيء يغطيه وَهُوَ سَقِيمٌ اعتلّ مما حلّ به . وروى أنه عاد بدنه كبدن الصبى

حين يولد . واليقطين : كل ما ينسدح على وجه الأرض ولا يقوم على ساق كشجر البطيخ

والقثاء والحنظل ، وهو «يفعيل» من قطن بالمكان إذا أقام به . وقيل : هو الدباء . وفائدة

الدباء أن الذباب لا يجتمع عنده - وقيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إنك لتحب

القرع . قال «أجل هي شجرة أخى يونس» «1» وقيل : هي التين ، وقيل : شجرة الموز ،

تغطى بورقها ، واستظلّ بأغصانها ، وأفطر على ثمارها .

وقيل : كان يستظل بالشجرة وكانت وعلة «2» تختلف إليه ، فيشرب من لبنها . وروى

أنه مرّ زمان على الشجرة فيبست ، فبكى جزعا ، فأوحى اللّه إليه : بكيت على شجرة ولا تبكى على مائة ألف في يد الكافر ، فإن قلت : ما معنى وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً؟ قلت : أنبتناها فوقه مظلة له ، كما يطنب البيت على الإنسان وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ المراد به ما سبق من إرساله إلى قومه وهم أهل نينوى . وقيل : هو إرسال ثان بعد ما جرى عليه إلى الأولين . أو إلى غيرهم وقيل : أسلموا فسألوه أن يرجع إليهم فأبى ، لأن النبىّ إذا هاجر عن قومه لم يرجع إليهم مقيما فيهم ، وقال لهم : إن اللّه باعث إليكم نبيا أَوْ يَزِيدُونَ في مرأى الناظر أى . إذا رآها الرائي قال : هي مائة ألف أو أكثر ، والغرض : الوصف بالكثرة إِلى حِينٍ إلى أجل مسمى وقرئ : ويزيدون ، بالواو . وحتى حين .

[سورة الصافات (37) : الآيات 149 إلى 157]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ (150) أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (152) أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (153)

ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (155) أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ (156) فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (157)

---

(1) . لم أجده . وأخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود في قصة يونس قال عبد اللّه : قال

النبي صلى اللّه عليه وسلم . . . واليقطين القرع .

(2) . قوله «وكانت وعلة» يقال : هي شاة جبلية . (ع)

(188/656)

---

فَاسْتَفْتِهِمْ معطوف على مثله في أوّل السورة ، وإن تباعدت بينهما المسافة : أمر رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أوّلا ، ثم ساق الكلام موصولا بعضه ببعض ، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها ، حيث جعلوا للّه الإناث ولأنفسهم الذكور في قولهم : الملائكة بنات اللّه ، مع كراهتهم الشديدة لهنّ ، ووأدهم ، واستنكافهم من ذكرهنّ .

ولقد ارتكبوا في ذلك ثلاثة أنواع من الكفر ، أحدها : التجسيم ، لأن الولادة مختصة بالأجسام والثاني : تفضيل أنفسهم على ربهم حين جعلوا أوضع الجنسين له وأرفعهما لهم ، كما قال وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ، أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ والثالث : أنهم استهانوا بأكرم خلق اللّه عليه وأقربهم إليه ، حيث أنثوهم ولو قيل لأقلهم وأدناهم : فيك أنوثة . أو شكلك شكل النساء ، للبس لقائله جلد النمر ، ولانقلبت حماليقه «1» وذلك في أهاجيهم بين مكشوف ،

فكرّر اللّه سبحانه الأنواع كلها في كتا به مرّات ، ودل على فظاعتها في آيات : وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا . تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وقالوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ ، وَقالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ، أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ ، وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً ، وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ ، أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ، وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ ، أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ ، أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ ، وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً . أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ . فإن قلت .

لم قال وَهُمْ شاهِدُونَ فخصّ علم المشاهدة؟ قلت : ما هو إلا استهزاء بهم وتجهيل ، وكذلك قوله أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ونحوه قوله ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وذلك أنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة ، لم يعلموه بخلق اللّه علمه في قلوبهم ، ولا بإخبار صادق ، ولا بطريق استدلال ونظر .

ويجوز أن يكون المعنى : أنهم يقولون ذلك ، كالقائل قولا عن ثلج صدر وطمأنينة نفس لإفراط جهلهم ، كأنهم قد شاهدوا خلقهم . وقرئ : ولد اللّه ، أى الملائكة ولده . والولد

---

(1) . قوله «ولانقلبت حماليقه» في الصحاح «حملاق العين» : باطن أجفانها الذي يسوده الكحل اه . (ع)

«فعل» بمعنى مفعول، يقع على الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث. تقول: هذه ولدى، وهؤلاء ولدى. فإن قلت: أَصْطَفَى الْبَناتِ بفتح الهمزة: استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد، فكيف صحت قراءة أبى جعفر بكسر الهمزة على الإثبات؟ قلت: جعله من كلام الكفرة بدلا عن قولهم وَلَدَ اللَّهُ وقد قرأ بها حمزة والأعمش رضى اللّه عنهما.

وهذه القراءة - وإن كان هذا محملها - فهي ضعيفة، والذي أضعفها: أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها، وذلك قوله وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟ فمن جعلها للإثبات، فقد أوقعها دخيلة بين نسيبين. وقرئ تذكرون، من ذكر أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ أى حجة نزلت عليكم من السماء وخبر بأن الملائكة بنات اللّه فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ الذي أنزل عليكم في ذلك، كقوله تعالى أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ وهذه الآيات صادرة عن سخط عظيم، وإنكار فظيع، واستبعاد لأقاويلهم شديد، وما الأساليب التي وردت عليها إلا ناطقة بتسفيه أحلام قريش، وتجهيل نفوسها، واستركاك عقولها، مع استهزاء وتهكم وتعجيب، من أن يخطر مخطر مثل ذلك على بال ويحدّث به نفسا، فضلا أن يجعله معتقدا ويتظاهر به مذهبا.

[سورة الصافات (37) : الآيات 158 إلى 160]

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158) سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (159) إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (160)

وَجَعَلُوا بين اللّه وبين الجنة وأراد الملائكة نَسَباً وهو زعمهم أنهم بناته، والمعنى: وجعلوا بما قالوا نسبة بين اللّه وبينهم، وأثبتوا له بذلك جنسية جامعة له وللملائكة. فإن قلت:

لم سمى الملائكة جنة؟ قلت: قالوا الجنس واحد، ولكن من خبث من الجن ومرد وكان شرا كله فهو شيطان، ومن طهر منهم ونسك وكان خيرا كله فهو ملك، فذكرهم في هذا الموضع باسم جنسهم، وإنما ذكرهم بهذا الاسم وضعا منهم وتقصيرا بهم. وإن كانوا معظمين في أنفسهم أن يبلغوا منزلة المناسبة التي أضافوها إليهم. وفيه إشارة إلى أن من صفته الاجتنان والاستتار، وهو من صفات الأجرام لا يصلح أن يناسب من لا يجوز عليه ذلك. ومثاله: أن تسوّى بين الملك وبين بعض خواصه ومقرّبيه، فيقول لك: أتسوّي بيني وبين عبدى. وإذا ذكره في غير هذا المقام وقره وكناه. والضمير في إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ للكفرة. والمعنى: أنهم يقولون ما يقولون في الملائكة، وقد علم الملائكة أنهم في ذلك كاذبون مفترون، وأنهم محضرون النار معذبون بما يقولون، والمراد المبالغة في التكذيب. حيث أضيف إلى علم الذين ادّعوا لهم تلك النسبة.

وقيل : قالوا إنّ اللّه صاهر الجن فخرجت الملائكة . وقيل : قالوا . إنّ اللّه والشيطان أخوان .

(190/656)

---

وعن الحسن : أشركوا الجن في طاعة اللّه . ويجوز إذا فسر الجنة بالشياطين : أن يكون الضمير في إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ لهم ، والمعنى أن الشياطين عالمون بأنّ اللّه يحضرهم النار ويعذبهم ، ولو كانوا مناسبين له أو شركاء في وجوب الطاعة لما عذبهم إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ استثناء منقطع من المحضرين : معناه ولكن المخلصين ناجون . وسبحان اللّه : اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه . ويجوز أن يقع الاستثناء من الواو في يصفون ، أى : يصفه هؤلاء بذلك ، ولكن المخلصون برآء من أن يصفوه به .

[سورة الصافات (37) : الآيات 161 إلى 163]

فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ (161) ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ (162) إِلاَّ مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ (163)

والضمير في عَلَيْهِ للّه عز وجلّ ومعناه : فإنكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعا بفاتنين على اللّه إلا أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها . فإن

قلت : كيف يفتنونهم على اللّه ؟ قلت . يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهزائهم ، من قولك يفتن فلان على فلان امرأته ، كما تقول : أفسدها عليه وخببها عليه . ويجوز أن يكون الواو في وَما تَعْبُدُونَ بمعنى مع ، مثلها في قولهم : كل رجل وضيعته ، فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته ، وأنّ كل رجل وضيعته ، جاز أن يسكت على قوله فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ لأن قوله وَما تَعْبُدُونَ سادّ مسدّ الخبر ، لأن معناه : فإنكم مع ما تعبدون . والمعنى : فإنكم مع آلهتكم ، أى : فإنكم قرناؤهم وأصحابهم لا تبرحون تعبدونها ، ثم قال : ما أنتم عليه ، أى على ما تعبدون بِفاتِنِينَ بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال إِلَّا مَنْ هُوَ صال مثلكم . أو يكون في أسلوب قوله :

فإنّك والكتاب إلى علىّ كدا بغة وقد حلم الأديم «1»

وقرأ الحسن : صال الجحيم ، بضم اللام . وفيه ثلاثة أوجه ، أحدها : أن يكون جمعا وسقوط واوه لالتقاء الساكنين هي ولام التعريف «فإن قلت» كيف استقام الجمع مع قوله مَنْ هُوَ ؟ قلت من موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالحون على معناه كما حمل في مواضع من التنزيل

---

(1) . لعمرو بن العاص . وقيل للوليد بن عقبة بن أبى معيط ، يحرض معاوية على حرب على بن أبى طالب ، وحلم الجلد حلما ، كتعب تعبا : إذا فسد ودود وتنقب . وحلم بالضم ، حلما بالكسر : عفى مع القدرة . وحلم بالفتح ، حلما بالضم : رأى في منامه

شيئًا . يقول : فإنك وكتابك الواصل إلى على ترجو به استقامته ، كرجل كثير الدبغ للجلد ، أو كامرأة دابغة له والحال أنه قد فسد ولم ينفع فيه الدبغ . والمقصود : تشبيه حالة بأخرى . ويجوز أن الواو للمعية لا للعطف ، فالمعنى تشبيه معاوية بالدابغة .

(191/656)

---

على لفظ من ومعناه في آية واحدة . والثاني أن يكون أصله صائل على القلب ، ثم يقال صال في صائل ، كقولهم شاك في شائك . والثالث أن تحذف لام صال تخفيفا ويجرى الإعراب على عينه ، كما حذف من قولهم : ما باليت به بالة ، وأصلها بالية من بالي ، كعافية من عافى . ونظيره قراءة من قرأ :

وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ بإجراء الإعراب على العين .

[سورة الصافات (37) : الآيات 164 إلى 166]

وَما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ (164) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (166)

وَما مِنَّا أحد إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، كقوله :

أنا ابن جلا وطلّاع الثّنايا «1»

بكفّى كان من أرمى البشر «2»

مقام معلوم في العبادة، والانتهاء إلى أمر اللّه مقصور عليه لا يتجاوزه، كما روى: فمنهم راكع لا يقيم صلبه، وساجد لا يرفع رأسه لَنَحْنُ الصَّافُّونَ نصف أقدامنا في الصلاة، أو أجنحتنا في الهواء. منتظرين ما نؤمر. وقيل: نصف أجنحتنا حول العرش داعين للمؤمنين. وقيل: إنّ المسلمين إنما اصطفوا في الصلاة منذ نزلت هذه الآية. وليس يصطف أحد من أهل الملل في صلاتهم غير المسلمين الْمُسَبِّحُونَ المنزهون أو المصلون. والوجه أن يكون هذا وما قبله من قوله سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم في قوله وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ كأنه قيل: ولقد علم الملائكة وشهدوا أن المشركين مفترون عليهم في مناسبة رب العزة وقالوا: سبحان اللّه، فنزهوه عن ذلك، واستثنوا عباد اللّه المخلصين وبرؤهم منه، وقالوا للكفرة فإذا صحّ ذلك فإنكم وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على اللّه أحدا من خلقه وتضلوه، إلا من كان مثلكم ممن علم اللّه - لكفرهم، لا لتقديره وإرادته «3»، تعالى اللّه عما يقول الظالمون علوا كبيرا - أنهم من أهل النار، وكيف نكون مناسبين لرب العزة ويجمعنا وإياه جنسية واحدة؟ وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه، لكل منا مقام من الطاعة لا يستطيع أن يزل عنه ظفرا، خشوعا لعظمته

---

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 305 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 616 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(3) . قوله «لا لتقديره وإرادته تعالى» مبنى على مذهب المعتزلة أن الله لا يقدر الشر ولا يريده. وقال أهل السنة: إن كل كائن فهو بقضاء الله وقدره كما بين في علم التوحيد. (ع)

*(192/656)*

---

وتواضعا لجلاله، ونحن الصافون أقدامنا لعبادته وأجنحتنا، مذعنين خاضعين مسبحين ممجدين، وكما يجب على العباد «1» لربهم. وقيل: هو من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعنى: وما من المسلمين أحد إلا له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله، من قوله تعالى عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً ثم ذكر أعمالهم وأنهم هم الذين يصطفون في الصلاة يسبحون الله وينزهونه مما يضيف إليه من لا يعرفه مما لا يجوز عليه.

[سورة الصافات (37) : الآيات 167 إلى 170]

وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ (167) لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (168) لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (169) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170)

هم مشركو قريش كانوا يقولون لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً أى كتابا مِنَ كتب الْأَوَّلِينَ الذين نزل عليهم

التوراة والإنجيل، لأخلصنا العبادة للّه، ولما كذبنا كما كذبوا، ولما خالفنا كما خالفوا، فجاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار، والكتاب الذي هو معجز من بين الكتب، فكفروا به. ونحوه فَلَمّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلّا نُفُوراً فسوف يعلمون مغبة تكذيبهم وما يحل بهم من الانتقام. وإن: هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة. وفي ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكدين للقول جادّين فيه، فكم بين أوّل أمرهم وآخره.

[سورة الصافات (37): الآيات 171 إلى 173]

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (173)

الكلمة: قوله: إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ وإنما سماها كلمة وهي كلمات عدّة، لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة. وقرئ: كلماتنا: والمراد الموعد بعلوهم على عدوهم في مقاوم الحجاج وملاحم القتال في الدنيا، وعلوهم عليهم في الآخرة، كما قال وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ولا يلزم انهزامهم «2» في بعض المشاهد، وما جرى عليهم من القتل فإن الغلبة كانت لهم ولمن بعدهم في العاقبة، وكفى بمشاهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والخلفاء الراشدين مثلا يحتذى عليها وعبرا يعتبر بها. وعن الحسن رحمه اللّه: ما غلب نبىّ في حرب ولا قتل فيها، ولأن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه: الظفر والنصرة - وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء

والمحنة - والحكم للغالب. وعن ابن عباس رضى اللّه

---

(1) . قوله «وكما يجب على العباد لربهم» لعله كما يجب. كعبارة النسفي. (ع)

(2) . قوله «ولا يلزم انهزامهم» أى لا يرد نقضا للغلبة والنصر. (ع)

*(193/656)*

---

عنهما : إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في الآخرة. وفي قراءة ابن مسعود : على عبادنا ، على تضمين سبقت معنى حقت.

[سورة الصافات (37) : الآيات 174 إلى 175]

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (174) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (175)

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فأعرض عنهم وأغض «1» على أذاهم حَتَّى حِينٍ إلى مدة يسيرة وهي مدّة الكف عن القتال. وعن السدى : إلى يوم بدر. وقيل إلى الموت. وقيل : إلى يوم القيامة وَأَبْصِرْهُمْ وما يقضى عليهم من الأسر والقتل والعذاب في الآخرة ، فسوف يبصرونك وما يقضى لك من النصرة والتأييد والثواب في العاقبة. والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة : الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة ، وأنّ كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك.

وفي ذلك تسلية له وتنفيس عنه. وقوله فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ للوعيد كما سلف لا للتبعيد.

[سورة الصافات (37) : الآيات 176 إلى 179]

أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ (177) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (178) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (179)

مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قومه بعض نصاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره، ولا أخذوا أهبتهم، ولا دبروا أمرهم تدبيرا ينجيهم، حتى أناخ بفنائهم بغتة، فشنّ عليهم الغارة وقطع دابرهم، وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحا، فسميت الغارة صباحا وإن وقعت في وقت آخر، وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي تحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك، إلا لمجيئها على طريقة التمثيل، وقرأ ابن مسعود: فبئس صباح. وقرئ: نزل بساحتهم، على إسناده إلى الجار والمجرور كقولك: ذهب بزيد ونزل، على:

ونزل العذاب. والمعنى: فساء صباح المنذرين صباحهم، واللام في المنذرين مبهم في جنس من أنذروا، لأنّ ساء وبئس يقتضيان ذلك. وقيل: هو نزول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم الفتح بمكة.

وعن أنس رضى اللّه عنه: لما أتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خيبر - وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحي - قالوا: محمد والخميس، ورجعوا إلى حصنهم.

فقال عليه الصلاة والسلام:

«اللّه أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» «2» وإنما ثنى وَتَوَلَّ عَنْهُمْ ليكون تسلية على تسلية، وتأكيدا لوقوع الميعاد إلى تأكيد. وفيه فائدة زائدة وهي إطلاق الفعلين معا عن التقييد بالمفعول، وأنه يبصروهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من صنوف

---

(1). قوله «وأغض على أذاهم» في الصحاح «الاغضاء»: إدناء الجفون. (ع)

(2). متفق عليه



---

المسرة وأنواع المساءة. وقيل: أريد بأحدهما عذاب الدنيا، وبالآخر عذاب الآخرة.

[سورة الصافات (37): الآيات 180 إلى 182]

سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (182)

أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل: ذو العزة، كما تقول: صاحب صدق، لاختصاصه بالصدق. ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربها

ومالكها، كقوله تعالى تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ: اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في اللّه ونسبوا إليه مما هو منزه عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خوّلوه في العاقبة من النصرة عليهم، فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون، والتسليم على المرسلين وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ على ما قيض لهم من حسن العواقب، والغرض تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يخلوا به ولا يغفلوا عن مضمنات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد. وعن علىّ رضى اللّه عنه: «من أحبّ أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه:

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد للّه رب العالمين «1» عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من قرأ والصافات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل جنى وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبريء من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمنا بالمرسلين» «2». انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 48. 69﴾

---

(1). أخرجه عبد الرزاق والثعلبي من رواية الأصبغ بن نباتة عن على موقوفا. ورواه ابن أبى حاتم من رواية الشعبي عن النبي صلى اللّه عليه وسلم مرسلا. [.....]

(2). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من طرف عن أبى بن كعب رضى اللّه عنه.

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإِنَّ مِنْ شِيعته لإبراهيمَ ﴾

أي : من أهل دِينه ومِلَّته والهاء في " شِيعته " عائدة على نوح في قول الأكثرين ؛ وقال ابن السائب : تعود إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، واختاره الفراء .

فإن قيل : كيف يكون من شيعته ، وهو قبله ؟ .

فالجواب : أنه مِثل قوله ﴿ حَمَلْنا ذُرِّيَّتهم ﴾ [ يس : 41 ] فجعلها ذُرِّيَّتهم وقد سبقَتْهم ، وقد شرحنا هذا فيما مضى [ يس : 41 ] .

قوله تعالى : ﴿ إذ جاءَ ربَّه ﴾ أي : صدَّقَ اللهَ وآمَنَ به ﴿ بقَلْبٍ سَليمٍ ﴾ من الشِّرك وكلِّ دَنَس ، وفيه أقوال ذكرناها في [ الشعراء : 89 ] .

قوله تعالى : ﴿ ماذا تعبُدونَ ﴾ ؟ هذا استفهام توبيخ ، كأنه وبَّخهم على عبادة غير الله .

﴿ أَإِفْكاً ﴾ ؟ ! أي : أتأفِكون إفْكاً وتعبُدون آلهةً سِوى الله ؟ ! ﴿ فما ظنُّكم بربِّ العالَمينَ ﴾ إذا لقِيتُموه وقد عَبَدتُم غيره ؟ ! .

كأنه قال: فما ظنُّكم أن يصنع بكم.

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجومِ ﴾ فيه قولان.

أحدهما: [أنه] نظر في عِلم النجوم، وكان القوم يُتعاطَوْن عِلْم النُّجوم، فعاملهم من حيث هم، وأراهم أنّي أَعلمُ من ذلك ما تعلَمونَ، لئلا يُنْكِروا عليه ذلك.

قال ابن المسيّب: رأى نجماً طالعاً، فقال: إنّي مريض غداً.

والثاني: أنه نظر إلى النجوم، لا في عِلْمها.

فإن قيل: فما كان مقصوده؟.

فالجواب: أنه كان لهم عيد، فأراد التخلُّف عنهم لِيَكِيدَ أصنامَهم، فاعْتَلَّ بهذا القول.

قوله تعالى: ﴿ إنّي سقيم ﴾ من معاريض الكلام.

ثم فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن معناه سأَسْقُمُ، قاله الضحاك.

قال ابن الأنباري: أَعْلَمَه اللهُ عز وجل أنَّه يَمْتَحِنُهُ بالسقم إذا طلع نجمٌ يعرفه، فلما رأى النَّجم، عَلِم أنه سيَسْقُم.

والثاني: إنّي سقيم القلب عليكم إذ تكهَّنتم بنجوم لا تضرُّ ولا تَنْفَع، ذكره ابن الأنباري.

والثالث : أنه سَقُمَ لِعِلَّةٍ عرضتْ له ، حكاه الماوردي .

وذكر السديّ أنه خرج معهم إلى يوم عيدهم فلمّا كان ببعض الطريق ، ألقى نفسه وقال : إني سقيم أشتكي رجلي ﴿ فتولَّوا عنه مُدْبِرِينَ ، فراغَ إلى آلهتهم ﴾ أي : مال إليها وكانوا قد جعلوا بين يديها طعاماً لتبارك فيه على زعمهم ( فقال ) إبراهيم استهزاءً بها ﴿ ألا تأكُلُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ ضَرْباً باليمين ﴾ في اليمين ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها اليد اليمنى ، قاله الضحاك .

والثاني : بالقُوَّة والقُدرة قاله السدي ، والفراء .

والثالث : باليمين التي سبقت منه وهي قوله ﴿ وتاللهِ لأَكِيدَنَّ أصنامَكم ﴾ [ الأنبياء : 57 ] ، حكاه الماوردي .

قال الزجاج : " ضَرْباً " مصدر ؛ والمعنى : فمال على الأصنام يضربها ضَرْباً باليمين ؛ وإنما قال : ﴿ عليهم ﴾ ، وهي أصنام ، لأنهم جعلوها بمنزلة ما يُميِّز .

﴿ فأَقْبَلُوا إليه يَزِفُّون ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي : ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ بفتح الياء وكسر الزاي وتشديد الفاء .

وقرأ حمزة ، والمفضَّل عن عاصم : ﴿ يُزِفُّونَ ﴾ برفع الياء وكسر الزاي وتشديد الفاء .

وقرأ ابن السّميفع، وأبو المتوكل، والضحاك: ﴿ يَزِفُونَ ﴾ بفتح الياء وكسر الزاي وتخفيف الفاء.

وقرأ ابن أبي عبلة، وأبو نهيك ﴿ يَزْفُونَ ﴾ بفتح الياء وسكون الزاي وتخفيف الفاء.

قال الزجاج: أَعربُ القراءات فتح الياء وتشديد الفاء، وأصله من زفيف النَّعام، وهو ابتداء عَدْوِ النّعام، يقال: زَفَّ النّعام يزِفُّ.

وأمّا ضم الياء، فمعناه: يصيرون إلى الزّفيف، وأنشدوا:

[ تَمَنّى حُصَيْنٌ أن يَسُودَ جذاعَه ] . . .

فأضحى حُصَيْنٌ قد أَذَلَّ وأَقْهَرَا

أي: صار إلى القَهْر.

وأمّا كَسْرُ الزّاي مع تخفيف الفاء، فهو من: وَزَفَ يَزِفُ، بمعنى أَسْرَعَ يُسْرِع، ولم يَعْرِفه الكسائي ولا الفراء، وعَرَفه غيرهما.

*(197/656)*

---

قال المفسِّرون: بلغهم ما صنع إبراهيم، فأسرعوا، فلمّا انتَهَوْا إليه، قال لهم محتجّاً عليهم: ﴿ أَتَعْبُدونَ ما تَنْحِتُونَ ﴾ بأيديكم ﴿ واللهُ خَلَقَكم وما تَعْمَلونَ ﴾ ؟! ، قال ابن جرير

: في ﴿ ما ﴾ وجهان .

أحدهما : أن تكون بمعنى المصدر ، فيكون المعنى : واللهُ خَلَقَكم [ وعَمَلَكم .

والثاني : أن تكون بمعنى "الذي" فيكون المعنى : واللهُ خَلَقَكم ] وخَلَقَ الذي تعملونه بأيديكم من الأصنام ؛ وفي هذه الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة [ لله ] .

فلمّا لَزِمَتْهم الحُجَّة ﴿ قالوا ابنوا له بُنْياناً ﴾ وقد شرحنا قصته في سورة [ الأنبياء : 52-74 ] وبيّنّا معنى الجحيم في [ البقرة : 119 ] والكَيْدُ الذي أرادوا به : إحراقُه .

ومعنى قوله : ﴿ فجعلْناهم الأَسفَلِينَ ﴾ أن إبراهيم علاهم بالحُجَّة حيث سلَّمه الله من كيدهم وحلَّ الهلاكُ بهم .

( وقال ) يعني إبراهيم ﴿ إنّي ذاهبٌ إلى ربّي ﴾ في هذا الذَّهاب قولان :

أحدهما : أنه ذاهب حقيقة ، وفي وقت قوله هذا قولان :

أحدهما : أنه حين أراد هِجرة قومه ؛ فالمعنى : إنّي ذاهب إلى حيث أمرني ربّي عز وجل ﴿ سيَهدينِ ﴾ إلى حيث أمرني ، وهو الشام ، قاله الأكثرون .

والثاني : حين أُلقي في النّار ، قاله سليمان بن صُرَد .

فعلى هذا في المعنى قولان :

أحدهما : ذاهب إلى الله بالموت ، سيَهدينِ إلى الجَنّة .

والثاني : [ ذاهب ] إلى ما قضى [ به ] ربي ، سيَهدين إلى الخَلاص من النّار .

والقول الثاني : إنّي ذاهب إلى ربّي بقلبي وعملي ونيّتي ، قاله قتادة .

فلما قَدِم الأرض المقدَّسة ، سأل ربَّه الولدَ فقال ﴿ ربِّ هَبْ لي من الصَّالِحِينَ ﴾ أي : ولداً صالحاً من الصَّالحين ، فاجتزأ بما ذكر عمّا ترك ، ومثله ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ [ يوسف : 20 ] فاستجاب له ، وهو قوله : ﴿ فبشَّرْناه بغُلامٍ حليمٍ ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : أنه إسحاق .

والثاني : أنه إسماعيل .

(198/656)

---

قال الزجاج : هذه البِشارة تَدُلُّ على أنه مبشَّر بابنٍ ذَكَر ، وأنه يبقى حتى ينتهيَ في السنّ ويوصَف بالحِلم .

قوله تعالى : ﴿ فلمّا بَلَغَ معه السَّعي ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المراد بالسعي هاهنا : العمل قاله ، ابن عباس .

والثاني : أنه المشي ، والمعنى : مشى مع أبيه ، قاله قتاده .

قال ابن قتيبة : بلغ أن يَنْصرفَ معه ويُعينَه .

قال ابن السائب : كان ابن ثلاث عشرة سنة .

والثالث: أن المراد بالسعي، العبادة، قاله ابن زيد؛ فعلى هذا، يكون قد بلغ.

قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ أكثر العلماء على أنه لم ير أنه ذبحه في المنام، وإنما المعنى أنه أُمِرَ في المنام بذبحه، ويدل عليه قوله ﴿ افعل ما تُؤْمَر ﴾.

وذهب بعضهم إلى أنه رأى أنه يعالج ذبحه، ولم يرَ إراقة الدَّم.

قال قتادة: ورؤيا الأنبياء حَقٌّ، إذا رأَوا شيئًا، فعلوه.

وذكر السدي عن أشياخه: أنه لمّا بشّر جبريلُ سارة بالولد، قال إبراهيم: هو إذاً لله ذبيح، فلمّا فَرَغ من بُنيان البيت، أُتي في المنام، فقيل له: أَوْفِ بنَذْرك.

واختلفوا في الذَّبيح على قولين:

أحدهما: [أنه] إسحاق، قاله عمر بن الخطاب، وعليّ بن أبي طالب، والعباس ابن عبد المطلب، وابن مسعود، وأبو موسى الأشعري، وأبو هريرة، وأنس، وكعب الأحبار، ووهب بن منبّه، [ومسروق]، وعبيد بن عُمير، والقاسم ابن أَبي بَزّة، ومقاتل بن سليمان، واختاره ابن جرير.

وهؤلاء يقولون: كانت هذه القصة بالشام.

وقيل: طويت له الأرضُ حتى حمله إلى المَنْحَر بمنىً في ساعة.

والثاني: أنه إسماعيل، قاله ابن عمر، وعبد الله بن سلام، والحسن البصري، وسعيد بن

المسيّب ، والشعبي ، ومجاهد ، ويوسف بن مهران ، وأبو صالح ، ومحمد بن كعب القرظي ، والربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن سابط .



---

واختلفت الرواية عن ابن عباس ، فروى عنه عكرمة أنه إسحاق ، وروى عنه عطاء ، ومجاهد ، والشعبي ، وأبو الجوزاء ، ويوسف بن مهران أنه إسماعيل ، وروى عنه سعيد بن جبير كالقولين .

وعن سعيد بن جبير ، وعكرمة ، والزهري ، وقتادة ، والسدي روايتان .

وكذلك عن أحمد رضي الله عنه روايتان .

ولكلِّ قومٍ حُجَّة ليس هذا موضعها ، وأصحابنا ينصُرون القول الأول .

الإِشارة إِلى قصة الذَّبح : ذكر أهل العِلْم بالسِّيَر والتفسير أن إِبراهيم لمَّا أراد ذبح ولده ، قال له : انطِلق فنُقرِّب قرباناً إِلى الله عز وجل ، فأخذ سِكِّيناً وحَبْلاً ، ثم انطلق ، حتى إِذا ذهبا بين الجبال ، قال له الغلام : يا أبتِ أين قُربانُك ؟ قال : يا بُنيِّ إِنِّي رأيتُ في المنام أني أذبحُك ، فقال له : اشْدُد رِباطي حتى لا أضطرب ، واكْفُف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليك من دمي فتراه أُمِّي فتحزن ، وأَسْرِعِ مَرَّ السِّكِّين على حَلْقِي ليكون أهون للموت عليَّ

، فإذا أتيتَ أُمي فاقرأ عليها السلام منِّي ؛ فأقبل عليه إبراهيم يقبّله ويبكي ويقول : نِعْمِ العونُ أنت يا بُنيَّ على أمر الله عز وجل ، ثم [ إنه ] أَمَرَّ السِّكّين على حَلْقه فلم يَحْكِ شيئاً .

وقال مجاهد : لمّا أَمَرَّها على حَلْقه انقلبتْ ، فقال : مالكَ؟ قال : انقلبتْ .

قال : اطْعَنْ بها طَعْناً .

وقال السدي : ضرب اللهُ على حَلْقِهِ صفيحة من نُحاس ؛ وهذا لا يُحتاج إِليه ، بل منعُها بالقُدرة أَبلَغ .

قالوا : فلمّا طَعَنَ بها ، نَبَتْ ، وعَلِم اللهُ منهما الصِّدق في التسليم ، فنودي : يا إبراهيمُ قد صَدَّقْتَ الرُّؤيا ، هذا فداءُ ابنك ؛ فنظر إبراهيم فإذا جبريل معه كبش أملح .

قوله تعالى : ﴿ فانْظُرْ ماذا تَرَى ﴾ لَمْ يَقُل له ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله عز وجل . ولكن أراد أن يَنْظُر ما عنده من الرَّأي .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : ﴿ ماذا تُرِي ﴾ بضم التاء وكسر الراء ؛ وفيها قولان :



أحدهما : ماذا تُريني من صبرك أو جزَعك ، قاله الفراء .

والثاني : ماذا تُبين ، قاله الزجاج .

وقال غيره : ماذا تُشير .

قوله تعالى : ﴿ افْعَلْ ما تُؤمَر ﴾ قال ابن عباس : افْعَلْ ما أُوحي إِليك من ذبحي ﴿ ستَجِدُني إِن شاءَ اللهُ مِنَ الصّابرِينَ ﴾ على البلاء .

قوله تعالى : ﴿ فلمّا أَسْلَما ﴾ أي : استسلمَا لأمر الله عز وجل فأطاعا ورضيا .

وقرأ عليّ ، وابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، والأعمش ، وابن أبي عبلة : ﴿ فلمّا سَلَّما ﴾ بتشديد اللام من غير همز قبل السين ؛ والمعنى : سَلَّما لأمر الله عز وجل .

وفي جواب قوله ﴿ فلمّا أَسلَما ﴾ قولان .

أحدهما : أن جوابه : ﴿ وناديناه ﴾ ، والواو زائدة ، قاله الفراء .

والثاني : أن الجواب محذوف لأن في الكلام دليلاً عليه ؛ والمعنى : فلمّا فعل ذلك سَعِدَ وأُجْزِلَ ثوابُه ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ وتَلَّهُ للجَبين ﴾ قال ابن قتيبة : أي صرَعه على جبينه فصار أحد جبينيه على الأرض ، وهما جبينان ، والجبهة بينهما ، وهي ما أصاب الأرضَ في السجود ، والناس لا يكادون يفرِّقون بين الجبين والجبهة ، فالجبهة مسجد الرجل الذي يصيبه نَدَبُ السُّجود ، والجبينان يكتنفانها من كل جانب جبين .

قوله تعالى : ﴿ وناديناه ﴾ قال المفسرون : نودي من الجبل ﴿ يا إِبراهيم قد صدَّقتَ

الرُّؤيا ﴾ وفيه قولان:

أحدهما: قد عَمِلْتَ ما أَمَرْتُ، وذلك أنه قصد الذَّبح بما أمكنه، وطاوعه الابن بالتمكين من الذَّبح، إلاّ أن الله عز وجل صرف ذلك كما شاء، فصار كأنه قد ذَبَح وإِن لم يتحقَّق الذَّبح.

والثاني: أنه رأى في المنام معالجة الذَّبح، ولم ير إراقة الدَّم، فلمّا فَعَلَ في اليقظة ما رأى في المنام، قيل له: "قد صدَّقْتَ الرُّؤيا".

وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وأبو عمران، والجحدري: ﴿ قد صَدَقْتَ الرُّؤيا ﴾ بتخفيف الدال، وهاهنا تم الكلام.



---

ثم قال تعالى ﴿ إنّا كذلك ﴾ أي: كما ذَكَرْنا من العفو من ذبح ولده ﴿ نَجْزِي المُحْسِنِينَ ﴾.

﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ البلاءُ المُبِينُ ﴾ في ذلك قولان:

أحدهما: النِّعمة البيِّنة، قاله ابن السائب، ومقاتل.

والثاني: الاختبار العظيم، قاله ابن زيد، وابن قتيبة.

فعلى الأول ، يكون قوله هذا إشارة إلى العفو عن الذّبح .

وعلى الثاني ، يكون إشارة إلى امتحانه بذبح ولده .

قوله تعالى : ﴿ وفَدَيْناه ﴾ يعني : الذَّبيح ﴿ بِذِبْحٍ ﴾ وهو بكسر الذال : اسم ما ذُبِحَ ، وبفتح الذال : مصدر ذَبَحْتُ ، قاله ابن قتيبة .

ومعنى الآية : خلَّصْناه من الذَّبح بأن جعلنا الذّبح فداءً له .

وفي هذا الذِّبح ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه كان كبشاً أقرن قد رعى في الجنة قبل ذلك أربعين عاماً ، قاله ابن عباس في رواية مجاهد ، وقال في رواية سعيد بن جبير : هو الكبش الذي قرّبه ابنُ آدم فتُقُبِّل منه ، كان في الجنة حتى فُدي به .

والثاني : أن إبراهيم فدى ابنه بكبشين أبيضين أعينين أقرنين ، رواه أبو الطفيل عن ابن عباس .

والثالث : [ أنه ] ما فُدي إلاّ بتيس من الأَرْوَى ، أهبط عليه من ثَبِير ، قاله الحسن .

وفي معنى ﴿ عظيم ﴾ أربعة أقوال :

أحدها : لأنه كان قد رعى في الجنة ، قاله ابن عباس ، وابن جبير .

والثاني : لأنه ذُبح على دِين إبراهيم وسُنَّته ، قاله الحسن .

والثالث : لأنه مُتَقَبَّلٌ ، قاله مجاهد .

وقال أبو سليمان الدمشقي : لمّا قرّبه ابنُ آدم ، رُفِع حيّاً ، فرعى في الجنة ، ثم جُعل فداء الذَّبيح ، فقُبِل مرتين .

والرابع : لأنه عظيم الشَّخص والبَركة ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ وتَرَكْنا عليه ﴾ قد فسرناه في هذه السورة [ الصافات : 78 ] .

قوله تعالى : ﴿ وبشَّرْناه بإسحاق ﴾ من قال : إن إسحاق الذَّبيحُ ، قال : بُشِّر إبراهيم بنبوَّة إسحاق ، وأُثيب إسحاق بصبره النبوّةَ ، وهذا قول ابن عباس في رواية عكرمة ، وبه قال قتادة ، والسدي .

(202/656)

---

ومن قال : الذَّبيح إسماعيل ، قال : بشَّر اللهُ إبراهيم بولد يكون نبيّاً بعد هذه القصة ، جزاءً لطاعته وصبره ، وهذا قول سعيد ابن المسيب .

قوله تعالى : ﴿ وبارَكْنا عليه وعلى إسحاق ﴾ يعني بكثرة ذُرِّيَّتهما ، وهم الأسباط كلُّهم ﴿ ومِنْ ذُرِّيَّتهما مُحْسِنٌ ﴾ أي : مطيع لله ﴿ وظالمٌ ﴾ وهو العاصي له .

وقيل : المُحْسِنُ : المؤمِن ، والظالم : الكافر .

قوله تعالى : ﴿ ولقد مَنَنّا على موسى وهارون ﴾ أي : أنعمنا عليهما بالنبوّة .

وفي ﴿ الكَرْبِ العظيم ﴾ قولان :

أحدهما : استعباد فرعون وبلاؤه ، وهو معنى قول قتادة .

والثاني : الغرق ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ ونَصَرْناهم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : [ أنه ] يرجع إلى موسى وهارون وقومهما .

والثاني : [ أنه ] يرجع إليهما فقط ، فجُمعا ، لأن العرب تذهب بالرئيس إلى الجمع ، لجنوده وأتباعه ، ذكرهما ابن جرير .

وما بعد هذا قد تقدم بيانه [ الأنبياء : 48 ] إلى قوله : ﴿ وإنَّ إلياس لَمِن المُرْسَلِينَ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه إدريس ، قاله ابن مسعود ، وقتادة ، وكذلك كان يقرأ ابن مسعود ، وأبو العالية ، وأبو عثمان النهدي : ﴿ وإن إدريس ﴾ مكان " إلياس " .

قوله تعالى : ﴿ إذ قال لقومه ألا تتَّقونَ ﴾ أي : ألا تخافون الله فتوحِّدونه وتعبدونه ؟ ! ﴿ أَتَدْعونَ بَعْلاً ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه بمعنى الرَّبّ ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة .

وقال الضحاك : كان ابن عباس قد أعياه هذا الحرف ، فبينا هو جالس ، إذ مَرَّ أعرابيّ قد

ضَلَّت ناقتُه وهو يقول : من وجد ناقة أنا بعلُها ؟ فتبعه الصّبيان يصيحون به : يا زوج النّاقة ، يا زوجِ النّاقة ، فدعاه ابن عباس فقال : ويحك ، ما عنيتَ ببعلها ؟ قال : أنا ربُّها .

فقال ابن عباس : صدق الله ﴿ أَتَدْعون بَعْلاً ﴾ : ربّاً .

وقال قتادة : هذه لغة يمانية .

(203/656)

---

والثاني : أنه اسم صنم كان لهم ، قاله الضحاك ، وابن زيد .

وحكى ابن جرير : أنه به سُمِّيت "بعلبكّ" .

والثالث : أنها امرأة كانوا يعبدونها ، حكاه محمد بن إِسحاق .

قوله تعالى : ﴿ اللهَ ربَّكم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ اللهُ ربُّكم ﴾ بالرفع .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وخلف ، ويعقوب : ﴿ الله ﴾ بالنصب .

قوله تعالى : ﴿ فكذَّبوه فإنَّهم لمُحضَرونَ ﴾ النارَ ، ﴿ إلاّ عبادَ الله المُخْلَصِينَ ﴾ الذين لم يكذِّبوه ، فإنهم لا يُحْضَرونَ النّار .

الإشارة إلى القصة :

ذكر أهل العلم بالتفسير والسِّيَر أنه لما كَثُرت الأحداث بعد قبض حزقيل النبيّ عليه السلام ، وعُبِدت الأوثانُ ، بَعَثَ اللهُ تعالى إليهم إلياس .

قال ابن إسحاق : وهو إلياس بن تشبي بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران ، فجعل يدعوهم فلا يسمعون منه ، فدعا عليهم بحبس المطر ، فجُهدوا جَهداً شديداً ،

واستخفى إلياس خوفاً منهم على نفسه ، ثم إنه قال لهم يوماً : إنكم قد هَلَكْتُم جَهْداً ، وهَلَكَت البهائمُ والشجر بخطاياكم ، فاخرُجوا بأصنامكم وادْعُوها ، فإن استجابت لكم ، فالأمر كما تقولون ، وإن لم تفعل ، عَلِمتم أنكم على باطل فنزَعْتُم عنه ، ودعوتُ اللهَ ففرَّج عنكم ، فقالوا : أنصفتَ ، فخرجوا بأصنامهم وأوثانهم ، فدعَوْا فلم يُستجب لهم ، فعرفوا ضلالهم ، فقالوا : ادْعُ اللهَ لنا .

فدعا لهم ، فأرسل المطر وعاشت بلادهم ، فلم يَنْزِعوا عمّا كانوا عليه ، فدعا إلياس ربّه أن يَقْبِضه إليه ويُريحه منهم ، فقيل له : اخْرُج يومَ كذا إلى مكان كذا ، فما جاءك من شيء فاركبْه ولا تَهَبْهُ ، فخرج ، فأقبل فَرَسٌ من نار ، فوثب عليه ، فانطلق به ، وكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذّة المَطْعم والمَشْرَب ، فطار في الملائكة ، فكان إنسيّاً مَلَكيّاً ، أرضيّاً سماويّاً .

قوله تعالى : ﴿ سلامٌ على إِلياسينَ ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ إِلياسينَ ﴾ موصولة مكسورة الألف ساكنة اللام ، فجعلوها كلمة واحدة ؛ وقرأ الحسن مثلهم ، إلاّ أنه فتح الهمزة .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعبد الوارث ، ويعقوب إلاّ زيداً : ﴿ إِلْ ياسينَ ﴾ مقطوعة ، فجعلوها كلمتين .

وفي قراءة الوصل قولان :

أحدهما : أنه جَمْعٌ لهذا النبيّ وأُمّته المؤمنين به ، وكذلك يُجمع ما يُنْسَب إِلى الشيء بلفظ الشيء ، فتقول : رأيت المهالبة ، تريد : بني المهلَّب ، والمسامعة ، تريد بني مسمع .

والثاني : أنه اسم النبيّ وحده ، وهو اسم عبرانيٌّ ، والعجمي من الأسماء قد يُفْعَل به هكذا ، [ كما ] تقول : ميكال وميكائيل ، ذكر القولين الفراء والزجاج .

فأمّا قراءة من قرأ ﴿ إِلْ ياسينَ ﴾ مفصولة ، ففيها قولان :

أحدهما : أنهم آل هذا النبي المذكور ، وهو يدخل فيهم ، كقوله عليه السلام " اللهم صَلِّ على آل أَبي أَوفى " فهو داخل فيهم ، لأنه هو المراد بالدعاء .

والثاني : أنهم آل محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله الكلبي .

وكان عبد الله بن مسعود يقرأ : ﴿ سلامٌ على إِدْراسينَ ﴾ وقد بيَّنّا مذهبه في أن إلياس

هو إدريس.

فإن قيل: كيف قال: "إدراسين"، وإنما الواحد إدريس، والمجموع إِدريسيُّ لا إِدراسٌ ولا إِدراسيّ؟

فالجواب: أنه يجوز أن يكون لغة، كإبراهيم وإبراهام، و مثله:

قَدْنِيَ مِنْ الخُبَيْبَيْنِ قَدِي . . .

وقرأ أُبيٌّ بن كعب، وأبو نهيك: ﴿ سلام على ياسين ﴾ بحذف الهمزة واللام.

(205/656)

---

قوله تعالى: ﴿ إذ نجّيناه ﴾ ﴿ إذ ﴾ هاهنا لا يتعلق بما قبله، لأنه لم يُرْسَل إذ نُجِّيَ، ولكنه يتعلق بمحذوف، تقديره: واذكُر يا محمد إِذ نجَّيناه، وقد تقدم تفسير ما بعد هذا [ الشعراء: 171 ] إِلى قوله: ﴿ وإِنكم لَتَمُرّونَ عليهم مُصْبِحِينَ ﴾ هذا خطاب لأهل مكة، كانوا إِذا ذهبوا إِلى الشام وجاؤوا، مَرُّوا على قرى قوم لوط صباحاً ومساءً، ﴿ أفلا تعقلون ﴾ فتعتبرون.

قوله تعالى: ﴿ إذ أَبَقَ ﴾ قال المبرّد: تأويل "أبَقَ" تباعد؛ وقال أبو عبيدة: فَزِعَ؛ وقال الزجّاج: هرب؛ وقال بعض أهل المعاني: خرج ولم يؤذَن له، فكان بذلك كالهارب من

مولاه.

قال الزجاج: والفُلْك: السفينة، والمشحون المملوء، وساهم بمعنى [قارع]، ﴿ من المُدْحَضِينَ ﴾ أي: المغلوبِين؛ قال ابن قتيبة: يقال: أَدْحَضَ اللهُ حُجَّتَهُ، فَدَحَضَتْ، أي: أزالها [فزالت]، وأصل الدَّحْض: الزَّلَق.

الإِشارة إِلى قصته:

قد شرحنا بعض قصته في آخر (يونس) وفي [الأنبياء: 86] على قدر ما تحتمله الآيات، ونحن نذكر هاهنا ما تحتمله.

قال عبد الله بن مسعود: لمّا وعد يونس قومَه بالعذاب بعد ثلاث، جأَروا إِلى الله عز وجل واستغفروا، فكفّ عنهم العذاب، فانطلق مغاضباً حتى انتهى إِلى قوم في سفينة فعرفوه فحملوه، فلمّا رَكِبَ السفينةَ وَقَفَتْ، فقال: ما لسفينتكم؟ قالوا: لا ندري، قال: لكنِّي أدري، فيها عبد آبق من ربّه، وإِنها والله لا تسير حتى تُلْقُوه، فقالوا: أمّا أنت يا نبيَّ الله فوالله لا نُلْقِيك، قال: فاقترعوا، فمن قرع فَلْيَقَع، فاقترَعوا، فقرع يونس، فأبَوا أن يُمَكّنوه من الوُقوع، فعادوا إِلى القُرعة حتى قرع يونس ثلاث مرات.

وقال طاووس: إِن صاحب السفينة هو الذي قال: إِنَّما يمنعُها أن تسير أنّ فيكم رجلاً مشؤوما، فاقترِعوا لنَلقيَ أحدنا، فاقترعوا، فقرع يونس ثلاث مرات.

قال المفسرون : وكّل الله به حوتاً ، فلمّا ألقى نفسه في الماء التقمه ، وأمر أن لا يضرُّه ولا يَكْلِمَه ، وسارت السفينة حينئذ .

ومعنى التقمه : ابتعله .

﴿ وهو مُلِيمٌ ﴾ قال ابن قتيبة : أي : مُذْنِبٌ ، يقال : ألامَ الرجلُ : إذا أتى ذنْباً يُلامُ عليه ،

قال الشاعر :

[ تَعُدُّ مَعَاذِراً لا عُذْرَ فيها ] . . .

ومَنْ يَخْذُلْ أَخَاهُ فَقَدْ ألاَمَا

قوله تعالى : ﴿ فلولا أنّه كان مِنَ المُسَبِّحِينَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : مِنَ المُصَلِّين ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير .

والثاني : من العابدِين ، قاله مجاهد ، ووهب بن منبه .

والثالث : قول ﴿ لا إِله إلاّ أنت سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمينَ ﴾ [ الأنبياء : 87 ] ، قاله الحسن .

وروى عمران القطّان عن الحسن قال : والله ما كانت إلاّ صلاة أَحدَثَها في بطن الحوت ؛ فعلى هذا القول ، يكون تسبيحُه في بطن الحوت .

وجمهور العلماء على أنه أراد : لولا ما تقدّم له قبل التقام الحوت إيّاه من التسبيح ، ﴿ لَلَبِثَ

فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ قال قتادة : لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة ، ولكنه كان كثير الصلاة في الرّخاء ، فنجاه الله تعالى بذلك .

وفي قَدْر مكثه في بطن الحوت خمسة أقوال :

أحدها : أربعون يوماً ، قاله أنس بن مالك ، وكعب ، وأبو مالك ، وابن جريج ، والسدي .

والثاني : سبعة أيام ، قاله سعيد بن جبير ، وعطاء .

والثالث : ثلاثة أيام ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والرابع : عشرون يوماً ، قاله الضحاك .

والخامس : بعض يوم ، التقمة ضُحىً ، ونبذه قبل غروب الشمس ، قاله الشعبي .

قوله تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَاهُ ﴾ قال ابن قتيبة : أي : أَلْقَيْناه ﴿ بالعراء ﴾ وهي الأرضُ التي لا يُتَوارَى فيها بشجر ولا غيره ، وكأنَّه مِنْ عَرِيَ الشَّيءُ .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أي : مريض ؛ قال ابن مسعود : كهيأة الفرخ الممعوط الذي ليس له ريش .

وقال سعيد بن جبير: أوحى الله تعالى إلى الحوت أن أَلْقِهِ في البَرّ، فألقاه لا شَعْر عليه ولا جِلْد ولا ظُفر.

قوله تعالى: ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ قال ابن عباس: هو القرع، وقد قال أميَّة بن أبي الصلت قبل الإسلام:

فأَنْبَتَ يَقْطِيناً عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ . . .

مِنَ اللهِ لَوْلا اللهُ أُلْفِيَ ضَاحِيا

قال الزجاج: كل شجرة لا تنبت على ساق وإنما تمتدُّ على وجه الأرض نحو القرع والبطيخ والحنظل، فهي يقطين، واشتقاقه من: قَطَنَ بالمكان: إذا أقام، فهذا الشجر ورقه كلُّه على وجه الأرض، فلذلك قيل له: يقطين.

قال ابن مسعود: كان يستظلُّ بها ويصيب منها فيبست فبكى عليها، فأوحى الله إليه: أتبكي على شجرة أن يبست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تُهلكهم؟!

قال يزيد بن عبد الله بن قُسَيْط: قيَّض [الله] له أروية من الوحش تروح عليه بُكرة وعشيّاً فيشرب من لبنها حتى نبت لحمه.

فإن قيل: ما الفائدة في إنبات شجرة اليقطين عليه دون غيرها؟

فالجواب: أنه خرج كالفرخ على ما وصفنا، وجلده قد ذاب، فأدنى شيء يمرُّ به يؤذيه، وفي ورق اليقطين خاصِيَّةٌ، وهو أنه إذا تُرك على شيء، لم يَقربه ذباب، فأنبته الله عليه

ليغطيَه ورقُها ويمنع الذبابَ ريحه أن يسقط عليه فيؤذيَه .

قوله تعالى : ﴿ وأرسلْناه إِلى مائةِ ألفٍ ﴾ اختلفوا ، هل كانت رسالته قبل التقام الحوت إيّاه ، أم بعد ذلك ؟ على قولين :

أحدهما : أنها كانت بعد نبذ الحوت إيّاه ، على ما ذكرنا في [ يونس : 98 ] ، وهو مروي عن ابن عباس .

والثاني : أنها كانت قبل التقام الحوت له ، وهو قول الأكثرين ، منهم الحسن ، ومجاهد ، وهو الأصح .

والمعنى : وكنّا أرسلناه إِلى مائة ألف ، فلمّا خرج من بطن الحوت ، أُمِر أن يرجع إِلى قومه الذين أُرسِل إِليهم .

وفي قوله : ﴿ أو ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها بمعنى " بل " قاله ابن عباس ، والفراء .

(208/656)

---

والثاني : أنها بمعنى الواو ، قاله ابن قتيبة .

وقد قرأ أبيّ بن كعب ، ومعاذ القارىء ، وأبو المتوكل ، وأبو عمران الجوني : ﴿ ويزيدون

﴾ من غير ألف .

والثالث : أنها على أصلها ، والمعنى : أو يزيدون في تقديركم ، إذا رآهم الرائي قال : هؤلاء مائة ألف أو يزيدون .

وفي زيادتهم أربعة أقوال :

أحدها : أنهم كانوا مائة ألف يزيدون عشرين ألفاً ، رواه أبيّ بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أنهم كانوا مائة ألف وثلاثين ألفا .

والثالث : مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً ، رويا عن ابن عباس .

والرابع : أنهم كانوا يزيدون سبعين ألفا ، قاله سعيد بن جبير ونوف .

قوله تعالى : ﴿ فآمَنوا ﴾ في وقت إيمانهم قولان :

أحدهما : عند معاينة العذاب .

والثاني : حين أُرسل إليهم يونس ﴿ فمتَّعْناهم إلى حين ﴾ إلى منتهى آجالهم .

قوله تعالى : ﴿ فاستفتهم ﴾ أي : سل أهل مكة سؤال توبيخ وتقرير ، لأنهم زعموا أن الملائكة بنات الله ﴿ وهم شاهدون ﴾ أي : حاضرون .

﴿ ألا إنَّهم من إفْكهم ﴾ أي : كذبهم ﴿ لَيَقولون ، ولد اللهُ ﴾ حين زعموا أن الملائكة بناته .

قوله تعالى: ﴿ أَصطفى البناتِ ﴾ قال الفراء: هذا استفهام فيه توبيخ لهم، وقد تُطرح ألف الاستفهام من التوبيخ، ومثله: ﴿ أذهبتم طيِّبا تكم ﴾ [الأحقاف: 20]، ﴿ وأَذْهبتم ﴾ يُستفهم بها ولا يُستفهم، ومعناهما واحد.

وقرأ أبو هريرة، وابن المسيِّب، والزهري، وابن جماز عن نافع، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿ وإِنهم لكاذبون اصْطفى ﴾ بالوصل غير مهموز ولا ممدود؛ قال أبو علي: وهو على [وجه] الخبر، كأنه قال: اصْطفى البناتِ على البنين، كما يقولون، كقوله: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أنتَ العزيزُ الكريمُ ﴾ [الدخان: 49].

قوله تعالى: ﴿ مالكم كيف تحكُمون ﴾ لله بالبنات ولأنفُسكم بالبنين؟! ﴿ أم لكم سُلطانٌ مُبينٌ ﴾ أي: حُجَّة [بيِّنة] على ما تقولون، ﴿ فائتوا بكتابكم ﴾ الذي فيه حُجَّتكم.

(209/656)

---

﴿ وجَعَلوا بينه وبين الجِنَّة نَسَباً ﴾ فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنهم قالوا: هو وإِبليس أخَوان، رواه العوفي عن ابن عباس؛ قال الماوردي: وهو قول الزنادقة والذين يقولون: الخيرِ مِنَ الله، والشَّرُّ من إِبليس.

والثاني : أن كفار قريش قالوا : الملائكة بنات الله ، والجِنَة صِنف من الملائكة .

يقال لهم : الجِنَّة ، قاله مجاهد .

والثالث : أن اليهود قالت : إن الله تعالى تزوّج إلى الجن فخرجت من بينهم الملائكة ، قاله قتادة ، وابن السائب .

فخرج في معنى الجِنَّة قولان :

أحدهما : أنهم الملائكة .

والثاني : الجن .

فعلى الأول ، يكون معنى قوله : ﴿ ولقد عَلِمَتِ الجِنَّةُ ﴾ أي : عَلِمَت الملائكةُ ﴿ إنَهم ﴾ أي : إن هؤلاء المشركين ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ النّار .

وعلى الثاني : [ ﴿ ولقد عَلِمت الجِنَّةُ ] إنهم ﴾ أي : إن الجن أنفسها "لَمُحْضَرونَ" الحساب .

قوله تعالى : ﴿ إلاّ عِبادَ الله المُخْلَصِين ﴾ يعني : الموحِّدين .

وفيما استُثنوا منه قولان :

أحدهما : أنهم استُثنوا من حضور النار ، قاله مقاتل .

والثاني : ممّا يصف أولئك ، وهو معنى قول ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ فإنَّكم ﴾ يعني المشركين ﴿ وما تعبُدونَ ﴾ من دون الله ، ﴿ ما أنتم

عليه ﴾ أي : على ما تعبُدونَ ﴿ بِفاتنينَ ﴾ أي : بمُضِلّينَ أحداً ، ﴿ إلاّ مَنْ هو صَالِ الجحيمِ ﴾ أي : مَنْ سبق له في عِلْم الله أنه يدخل النار .

ثم أَخبر عن الملائكة بقوله : ﴿ وما مِنّا ﴾ والمعنى : ما مِنّا مَلَك ﴿ إلاّ له مَقامٌ معلومٌ ﴾ أي : مكان في السموات مخصوص يعبُد اللهَ فيه ﴿ وإِنّا لَنحْنُ الصّافّونَ ﴾ قال قتادة : صفوف في السماء .

وقال السدي : هو الصلاة .

وقال ابن السائب : صفوفهم في السماء كصفوف أهل الدنيا في الأرض .

قوله تعالى : ﴿ وإِنّا لَنَحْنُ المُسَبِّحونَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : المُصَلّون .

والثاني : المنزِّهون لله عز وجل عن السُّوءِ .

(210/656)

---

وكان عمر بن الخطاب إذا أُقيمت الصلاة أقبل على الناس بوجهه وقال : يا أيها الناس استوُوا ، فإنما يريد الله بكم هَدْيَ الملائكة ، ﴿ وإِنّا لَنَحْنُ الصّافّون ، وإِنّا لَنَحْنُ المُسَبِّحون ﴾ .

ثم عاد إلى الإخبار عن المشركين، فقال: ﴿ وإنْ كانوا لَيَقُولونَ ﴾ اللام في "لَيَقُولونَ" لام توكيد؛ والمعنى: وقد كان كفار قريش يقولون قبل بعثة النبيّ صلى الله عليه وسلم، ﴿ لو أنّ عندنا ذِكْراً ﴾ أي: كتاباً ﴿ من الأَوّلِينَ ﴾ أي: مثل كتب الأولين، وهم اليهود والنصارى، ﴿ لَكُنّا عِبادَ اللهِ المُخْلَصِينَ ﴾ أي: لأَخلصْنا العبادة لله عز وجل.

﴿ فكَفَروا به ﴾ فيه اختصار، تقديره: فلمّا آتاهم ما طلبوا، كفروا به، ﴿ فسوف يَعْلَمونَ ﴾ عاقبة كفرهم، وهذا تهديد لهم.

﴿ ولقد سَبَقَتْ كَلِمَتُنا ﴾ أي: تقدّمَ وَعْدُنا للمرسَلِين بنصرهم، والكلمة قوله ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنا ورُسُلِي ﴾ [المجادلة: 21]، ﴿ إنّهم لَهُمُ المصُورون ﴾ بالحُجَّة، ﴿ وإنّ جُندنا ﴾ يعني حزبنا المؤمنين ﴿ لَهُمُ الغالِبونَ ﴾ بالحُجّة أيضاً والظَّفَر.

﴿ فَتَوَلَّ عنهم ﴾ أي: أعرِض عن كفار مكة ﴿ حتى حينٍ ﴾ أي: حتى تنقضيَ مُدَّةُ إمهالهم.

وقال مجاهد: حتى نأمرك بالقتال؛ فعلى هذا الآية مُحْكَمة.

وقال في رواية: حتى الموت؛ وكذلك قال قتادة.

وقال ابن زيد: حتى القيامة؛ فعلى هذا، يتطرّق نسخُها.

وقال مقاتل بن حيّان: نسختها آيةُ القتال.

قوله تعالى: ﴿ وأَبْصِرهُمْ ﴾ أي: انظر إليهم إذا نزل العذاب.

قال مقاتل بن سليمان : هو العذاب ببدر ؛ وقيل : أَبْصِر حالَهم بقلبك ﴿ فسوف يُبْصِرونَ ﴾ ما أنْكروا ، وكانوا يستعجلون بالعذاب تكذيباً به ، فقيل : ﴿ أَفَبِعذابنا يستعْجِلونَ ﴾ .

﴿ فإذا نَزَلَ ﴾ يعني العذاب .



---

وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران ، والجحدري ، وابن يعمر : ﴿ فإذا نُزِّل ﴾ برفع النون وكسر الزاي وتشديدها ﴿ بِساحتهم ﴾ أي : بِفنائهم وناحيتهم ، والساحة فِناء الدّار .

قال الفراء : العرب تكتفي بالساحة والعَقْوة من القوم ، فيقولون : نزل بك العذاب وبساحتك .

قال الزجاج : فكان عذابُ هؤلاء القتل ﴿ فَساءَ صباحُ المُنْذَرِينَ ﴾ أي : بِئْسَ صباح الذين أُنْذروا العذاب .

ثم كرَّر ما تقدم توكيداً لوعده بالعذاب ، فقال : ﴿ وتَوَلَّ عنهم . . . ﴾ الآيتين .

ثم نزَّه نفسَهُ عن قولهم بقوله تعالى : ﴿ سُبْحانَ رَبِّكَ ربِّ العِزَّة ﴾ قال مقاتل : يعني : عِزَّة

مَنْ يتعزّز من ملوك الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي : من اتِّخاذ النساء والأولاد .

﴿ وسَلاَمٌ على المُرْسَلِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تسليمُه عليهم إكراماً لهم .

والثاني : إِخباره بسلامتهم .

﴿ والحَمْدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ ﴾ على هلاك المُشْرِكِينَ ونُصرة الأنبياء والمرسَلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 95.66 ﴾

(212/656)

---

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وإن من شيعته ﴾

أي من شيعة نوح ﴿ لإبراهيم ﴾ يعني أنه على دينه وملته ومنهاجه وسنته ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ أي مخلص من الشرك والشك وقيل من الغل والغش والحقد والحسد يحب للناس ما يحب لنفسه ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ﴾ استفهام توبيخ ﴿ أئفكاً آلهة دون الله تريدون ﴾ أي أتأفكون إفكاً وهو أسوأ الكذب وتعبدون آلهة سوى

الله تعالى : ﴿ فما ظنكم برب العالمين ﴾ يعني إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره أنه يصنع بكم ﴿ فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم ﴾ قال ابن عباس كان قومه يتعاطون علم النجوم فعاملهم من حيث كانوا يتعاطون ويتعاملون به لئلا ينكروا عليه وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة ، وكان لهم من الغد عيد ومجمع فكانوا يدخلون على أصنامهم ويقربون لهم القرابين ويضعون بين أيديهم الطعام قبل خروجهم إلى عيدهم وزعموا التبرك عليه فإذا انصرفوا من عيدهم أكلوه فقالوا لإبراهيم ألا تخرج معنا إلى عيدنا فنظر في النجوم فقال إني سقيم قال ابن عباس أي مطعون وكانوا يفرون من المطعون فرارا عظيماً وقيل مريض وقيل معناه متساقم وهو من معاريض الكلام وقد تقدم الجواب عنه في سورة الأنبياء وقيل إنه خرج معهم إلى عيدهم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال إني سقيم أشتكي رجلي ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ أي إلى عيدهم فدخل إبراهيم على الأصنام فكسرها وهو قوله تعالى : ﴿ فراغ ﴾ أي مال ﴿ إلى آلهتهم ﴾ ميلة في خفية ﴿ فقال ﴾ أي للأصنام استهزاء بها ﴿ ألا تأكلون ﴾ يعني الطعام الذي بين أيديكم .

﴿ ما لكم لا تنطقون فراغ ﴾ أي مال ﴿ عليهم ضرباً باليمين ﴾ أي ضربهم بيده اليمنى لأنها أقوى من الشمال في العمل .

وقيل بالقوة والقدرة عليهم وقيل أراد باليمين القسم وهو قوله تعالى ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ ﴿ فأقبلوا إليه ﴾ يعني إلى إبراهيم ﴿ يزفون ﴾ أي يسرعون وذلك أنهم أخبروا بصنع إبراهيم بآلهتهم فأسرعوا إليه ليأخذوه ﴿ قال ﴾ لهم إبراهيم على وجه الحجاج ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ أي بأيديكم من الأصنام ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ أي وعملكم .

وقيل وخلق الذي تعملونه بأيديكم من الأصنام وفي الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ﴿ قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم ﴾ قيل إنهم بنوا له حائطاً من الحجر طوله في السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وملؤوه من الحطب وأوقدوا عليه النار وطرحوه فيها وهو قوله تعالى : ﴿ فأرادوا به كيداً ﴾ أي شراً وهو أن يحرقوه ﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ يعني المقهورين حيث سلم الله إبراهيم ورد كيدهم ﴿ وقال ﴾ يعني إبراهيم ﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ أي مهاجر إلى ربي وأهجر دار الكفر قاله بعد خروجه من النار ﴿ سيهدين ﴾ أي إلى حيث أمرني بالمصير إليه وهو أرض الشام فلما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد .

﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ يعني هب لي ولداً صالحاً ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ قيل غلام في صغره حليم في كبره وفيه بشارة أنه ابن وأنه يعيش وينتهي في السن حتى يوصف

بالحلم.

قوله تعالى: ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ قال ابن عباس يعني المشي معه إلى الجبل وعنه أنه لما شبَّ حتى بلغ سعيه سعى مع إبراهيم والمعنى بلغ أن يتصرف معه ويعينه في عمله وقيل السعي العمل لله تعالى وهو العبادة قيل كان ابن ثلاث عشرة سنة وقيل سبع سنين ﴿ قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ﴾ قيل إنه لم ير في منامه أنه ذبحه وإنما أمر بذبحه.



---

وقيل بل رأى أنه يعالج ذبحه ولم ير إراقة دمه ورؤيا الأنبياء حق إذا رأوا شيئاً فعلوه واختلف العلماء من المسلمين في هذا الغلام الذي أمر إبراهيم بذبحه على قولين مع اتفاق أهل الكتابين على أنه إسحاق قال قوم هو إسحاق وإليه ذهب من الصحابة عمر وعلي وابن مسعود والعباس ومن التابعين ومن بعدهم كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي واختلفت الروايات عن ابن عباس فروى عنه أنه إسحاق وروي أنه إسماعيل ومن ذهب إلى أنه إسحاق قال كانت هذه القصة بالشأم وروي عن سعيد بن جبير قال رأى إبراهيم ذبح إسحاق في المنام وهو بالشأم فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة حتى أتى به المنحر من منى فلما أمره الله بذبح الكبش ذبحه

وسار به مسيرة شهر في روحة واحدة طويت له الأودية والجبال والقول الثاني أنه إسماعيل وإليه ذهب عبد الله بن سلام والحسن وسعيد بن المسيب والشعبي ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي ورواية عطاء بن أبي رباح ويوسف بن ماهك عن ابن عباس قال المفدي إسماعيل وكلا القولين يروى عن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) واحتج من ذهب إلى أن الذبيح إسحاق بقوله تعالى : ﴿ فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي ﴾ أمر بذبح من بشر به وليس في القرآن أنه بشر بولد سوى إسحاق كما قال تعالى في سورة هود : ﴿ فبشرناه بإسحاق ﴾ وقوله ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾ بعد قصة الذبح يدل على أنه تعالى إنما بشره بالنبوة لما تحمل من الشدائد في قصة الذبح فثبت بما ذكرناه أن أول الآية وآخرها يدل على أن إسحاق هو الذبيح ومما ذكر أيضاً في كتاب يعقوب إلى ولده يوسف لما كان بمصر من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله .

واحتج من ذهب إلى أن الذبيح هو إسماعيل بأن الله تعالى ذكر البشارة بإسحاق بعد الفراغ من قصة الذبيح فقال تعالى :

﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾ فدل على أن المذبوح غيره وأيضاً فإن الله تعالى قال في سورة هود ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ فكيف يأمره بذبح إسحاق وقد وعده بنافلة وهو يعقوب بعده ووصف إسماعيل بالصبر دون إسحاق في قوله ﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ﴾ وهو صبره على الذبح ووصفه بصدق الوعد بقوله : ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى له بذلك وقال القرطبي سأل عمر بن عبد العزيز رجلاً من علماء اليهود وكان أسلم وحسن إسلامه أي ابني إبراهيم أمره الله تعالى بذبحه فقال إسماعيل ثم قال يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ولكن يحسدونكم يا معشر العرب على أن يكون أباكم هو الذي أمر الله تعالى بذبحه ويدعون أنه إسحاق أبوهم ومن الدليل أيضاً أن قرني الكبش كانا معلقين على الكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت في زمن ابن الزبير .

قال الشعبي رأيت قرني الكبش منوطين بالكعبة .

وقال ابن عباس : والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة وقد وحش يعني يبس وقال الأصمعي سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق كان أو إسماعيل ؟ فقال يا أصمعي أين ذهب عقلك متى كان إسحاق بمكة إنما كان إسماعيل وهو الذي بنى البيت مع أبيه والله تعالى أعلم .

( ذكر الإشارة إلى قصة الذبح )

قال العلماء بالسير وأخبار الماضين لما دعا إبراهيم ربه فقال : رب هب لي من الصالحين وبشر به قال هو إذاً لله ذبيح فلما ولد وبلغ معه السعي قيل له أوفِ بنذرك .

هذا هو السبب في أمر الله تعالى إياه بالذبح فقال لإسحاق انطلق نقرب لله قرباناً فأخذ سكيناً وحبلاً وانطلق معه حتى ذهب بين الجبال فقال الغلام يا أبت أين قربانك فقال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر .

(216/656)

---

وقال محمد بن إسحاق كان إبراهيم عليه السلام إذا زار هاجر وإسماعيل حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعي وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يؤمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته أمر في المنام بذبحه وذلك أنه رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح تروى في نفسه أي فكر من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان ؟ فمن ثم سمي ذلك اليوم يوم التروية فلما أمسى رأى في المنام ثانياً فلما أصبح عرف أن ذلك من الله تعالى فسمي ذلك اليوم يوم عرفة .

وقيل رأى ذلك ثلاث ليال متتابعات فلما عزم على نحره سمي ذلك اليوم يوم النحر فلما تيقن

ذلك أخبر به ابنه فقال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ﴿ فانظر ماذا ترى ﴾ أي في الرأي على وجه المشاورة.

فإن قلت: لم شاوره في أمر قد علم أنه حتم من الله تعالى وما الحكمة في ذلك.

قلت لم يشاوره ليرجع إلى رأيه وإنما شاوره ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله تعالى وليعلم صبره على أمر الله وعزيمته على طاعته ويثبت قدمه ويصبره إن جزع ويراجع نفسه ويوطنها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى قبل نزوله.

فإن قلت لم كان ذلك في المنام دون اليقظة وما الحكمة في ذلك؟ قلت إن هذا الأمر كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح.



---

فورد في المنام كالتوطئة له ثم تأكد حال النوم بأحوال اليقظة فإذا تظاهرت الحالتان كان أقوى في الدلالة ورؤيا الأنبياء وحي وحق ﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ﴾ يعني قال الغلام لأبيه افعل ما أمرت به قال ابن إسحاق وغيره لما أمر إبراهيم بذلك قال لابنه يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق إلى هذا الشعب نحتطب فلما خلا إبراهيم بابنه في الشعب أخبره بما أمر

الله به فقال افعل ما تؤمر ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ إنما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك وأنه لا حول عن معصية الله تعالى إلا بعصمة الله تعالى ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله ﴿ فلما أسلما ﴾ يعني انقادا وخضعا لأمر الله وذلك أن إبراهيم أسلم ابنه وأسلم الابن نفسه ﴿ وتله للجبين ﴾ يعني صرعه على الأرض قال ابن عباس أضجعه على جبينه على الأرض فلما فعل ذلك قال له ابنه يا أبت أشدد رباطي كيلاً أضطرب واكفف عن ثيابك حتى لا ينتضح عليها شيء من دمي فينقص أجري وتراه أمي فتحزن واستحد شفرتك وأسرع مرَّ السكين على حلقي ليكون أهون عليّ فإن الموت شديد ، وإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني فقال إبراهيم عليه السلام : نعم العون أنت يا بني على أمر الله ففعل إبراهيم ما أمره به ابنه ثم أقبل عليه يقبله وهو يبكي وقد ربطه والابن يبكي ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم تحك شيئاً .

ثم إنه حدها مرتين أو ثلاثاً بالحجر كل ذلك لا يستطيع أن يقطع شيئاً .

قيل ضرب الله تعالى صفيحة من نحاس على حلقه والأول أبلغ في القدرة وهو منع الحديد عن اللحم قالوا فقال الابن عند ذلك : يا أبت كبني لوجهي فإنك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله تعالى وأنا لا أنظر إلى الشفرة فأجزع منها ففعل إبراهيم ذلك ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا .

﴿ وناديناه ﴾ أي فنودي من الجبل ﴿ أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ أي حصل المقصود من تلك الرؤيا حيث ظهر منه كمال الطاعة والانقياد لأمر الله تعالى وكذلك الولد .

فإن قلت كيف قيل قد صدقت الرؤيا وكان قد رأى الذبح ولم يذبح وإنما كان تصديقها لو حصل منه الذبح .

قلت جعله مصدقاً لأنه بذل وسعه ومجهوده وأتى بما أمكنه وفعل ما يفعله الذابح فقد حصل المطلوب وهو إسلامهما لأمر الله تعالى وانقيادهما لذلك فلذلك قال له قد صدقت الرؤيا ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ يعني جزاه الله بإحسانه في طاعته العفو عن ذبح ولده والمعنى إنا كما عفونا عن ذبح ولده كذلك نجزي المحسنين في طاعتنا ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ أي الاختبار الظاهر حيث اختبره بذبح ولده .

﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ قيل نظر إبراهيم فإذا هو بجبريل ومعه كبش أملح أقرن فقال هذا فداء ابنك فاذبحه دونه فكبر إبراهيم وكبر جبريل وكبر الكبش فأخذه إبراهيم وأتى به المنحر من منى فذبحه قال أكثر المفسرين كان هذا الذبح كبشاً رعى في الجنة أربعين خريفاً وقال ابن عباس الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو الذي قربه ابن آدم قيل حق له أن

يكون عظيماً وقد تقبل مرتين وقيل سمي عظيماً لأنه من عند الله تعالى .

وقيل لعظمه في الثواب وقيل لعظمه وسمنه وقال الحسن ما فدى إسماعيل إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ أي تركنا له ثناء حسناً فيمن بعده ﴿ سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ قوله تعالى : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾ أي بوجود إسحاق وهذا على قول من يقول إن الذبيح هو إسماعيل ومعناه أنه بشر بإسحاق بعد هذه القصة جزاءً لطاعته وصبره ومن جعل الذبيح هو إسحاق قال معنى الآية وبشرناه بنبوة إسحاق .



---

وكذا روى عن ابن عباس قال بشر به مرتين حين ولد وحين نبىء ﴿ وباركنا عليه ﴾ يعني على إبراهيم في أولاده ﴿ وعلى إسحاق ﴾ أي يكون أكثر الأنبياء من نسله ﴿ ومن ذريتهما محسن ﴾ أي مؤمن ﴿ وظالم لنفسه ﴾ أي كافر ﴿ مبين ﴾ أي ظاهر الكفر وفيه تنبيه على أنه لا يلزم من كثرة فضائل الأب فضيلة الابن .

قوله : ﴿ ولقد مننا على موسى وهارون ﴾ أي أنعمنا عليهما بالنبوة والرسالة ﴿ ونجيناهما وقومهما ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ من الكرب العظيم ﴾ يعني الذي كانوا فيه من

استبعاد فرعون إياهم وقيل هو إنجاؤهم من الغرق ﴿ ونصرناهم ﴾ يعني موسى وهارون وقومهما ﴿ فكانوا هم الغالبين ﴾ أي على القبط .

﴿ وآتيناهما الكتاب ﴾ يعني التوراة ﴿ المستبين ﴾ المستنير ﴿ وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ أي دللناهما على طريق الجنة ﴿ وتركنا عليهما في الآخرين ﴾ أي الثناء الحسن ﴿ سلام على موسى وهارون إنا كذلك نجزي المحسنين إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ قوله : ﴿ وإن الياس لمن المرسلين ﴾ روي عن ابن مسعود أنه قال إلياس هو إدريس وكذلك هو في مصحفه وقال أكثر المفسرين هو نبي من أنبياء بني إسرائيل قال ابن عباس هو ابن عم اليسع وقال محمد بن إسحاق هو الياس بن بشر بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران .

( ذكر الإشارة إلى القصة )



---

قال محمد بن إسحاق وعلماء السير والأخبار لما قبض الله حزقيل النبي عظمت الأحداث في بني إسرائيل وظهر فيهم الفساد والشرك ونصبوا الأصنام وعبدوها من دون الله ، فبعث الله إليهم إلياس نبياً وكان الأنبياء يبعثون من بعد موسى في بني إسرائيل بتجديد ما نسوا من

أحكام التوراة وكان يوشع لما فتح الشام قسمها على بني إسرائيل وإن سبطاً منهم حصل في قسمته بعلبك ونواحيها وهم الذين بعث إليهم إلياس وعليهم يومئذ ملك اسمه آجب وكان قد أضل قومه وجبرهم على عبادة الأصنام وكان له صنم من ذهب طوله عشرون ذراعاً وله أربعة وجوه اسمه بعل وكانوا قد فتنوا به وعظموه وجعلوا له أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها عنه ويبلغونها الناس وهم أهل بعلبك وكان إلياس يدعوهم إلى عبادة الله وهم لا يسمعون له ولا يؤمنون به إلا ما كان من أمر الملك فإنه آمن به وصدقه فكان إلياس يقوم بأمره ويسدده ويرشده وكان للملك امرأة جبارة وكان يستخلفها على ملكه إذا غاب فغصبت من رجل مؤمن جنينة كان يتعيش منها فأخذتها وقتلته فبعث الله سبحانه وتعالى إلياس إلى الملك وزوجته وأمره أن يخبرهما أن الله قد غضب لوليه حين قتل ظلماً وآلى على نفسه أنهما إن لم يتوبا عن صنيعهما ويرد الجنينة على ورثة المقتول أهلكهما في جوف الجنينة ثم يدعهما جيفتين ملقاتين فيها ولا يتمتعان فيها إلا قليلاً فجاء إلياس فأخبر الملك بما أوحى الله إليه في أمره وأمر امرأته والجنينة فلما سمع الملك ذلك غضب واشتد غضبه عليه وقال يا إلياس والله ما أرى ما تدعونا إليه إلا باطلاً وهمَّ بتعذيب إلياس وقتله فلما أحس إلياس بالشر رفضه وخرج عنه هارباً ورجع الملك إلى عبادة بعل ولحق إلياس بشواهق الجبال فكان

يأوي إلى الشعاب والكهوف فبقي سبع سنين على ذلك خائفاً مستخفياً يأكل من نبات الأرض وثمار الشجر وهم في طلبه وقد وضعوا عليه العيون والله يستره

(221/656)

---

منهم : فلما طال الأمر على إلياس وسكنى الكهوف في الجبال وطال عصيان قومه ضاق بذلك ذرعاً فأوحى الله تعالى إليه بعد سبع سنين وهو خائف مجهود يا إلياس ما هذا الحزن والجزع الذي أنت فيه ألست أميني على وحيي وحجتي في أرضي وصفوتي من خلقي سلني أعطك فإني ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم قال يا رب تميتني وتلحقني بآبائي فإني قد مللت بني إسرائيل وملوني فأوحى الله تعالى إليه يا إلياس ما هذا باليوم الذي أعرى منك الأرض وأهلها وإنما صلاحها وقوامها بك وبأشباهك وإن كنتم قليلاً ولكن سلني أعطك فقال إلياس إن لم تمتني فأعطني ثأري من بني إسرائيل قال الله وأي شيء تريد أن أعطيك قال تملكني خزائن السماء سبع سنين فلا تسير عليهم سحابة إلا بدعوتي ولا تمطر عليهم قطرة إلا بشفاعتي فإنه لا يذلهم إلا ذلك قال الله يا إلياس أنا أرحم بخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين قال فست سنين قال أنا أرحم بخلقي من ذلك قال فخمس سنين قال أنا أرحم بخلقي ولكن أعطيك ثأرك ثلاث سنين أجعل خزائن المطر بيدك قال إلياس فبأي شيء

أعيش يا رب قال أسخر لك جيشاً من الطير ينقل لك طعامك وشرابك من الريف والأرض التي لم تقحط قال إلياس قد رضيت فأمسك الله عنهم المطر حتى هلكت الماشية والهوام والشجر وجهد الناس جهداً شديداً وإلياس على حاله مستخفياً من قومه يوضع له لرزق حيث كان وقد عرف قومه ذلك .

*(222/656)*

---

قال ابن عباس أصاب بني إسرائيل ثلاث سنين القحط فمر إلياس بعجوز فقال لها أعندك طعام قالت نعم شيء من دقيق وزيت قليل قال فدعا به ودعا فيه بالبركة ومسه حتى ملأ جرابها دقيقاً وملأ خوابيها زيتاً فلما رأوا ذلك عندها قالوا من أين لك هذا قالت مر بي رجل من حاله كذا وكذا فوصفته بصفته فعرفوه وقالوا ذلك إلياس فطلبوه فوجدوه فهرب منهم ثم إنه آوى إلى بيت امرأة من بني إسرائيل ولها ابن يقال له اليسع بن أخطوب بن ضر فآوته وأخفت أمره فدعا لابنها فعوفي من الضر الذي كان به واتبع اليسع إلياس وآمن به وصدقه ولزمه وذهب معه حيثما ذهب .

وكان إلياس قد كبر وأسن واليسع غلام شاب ثم إن الله تعالى أوحى إلى إلياس إنك قد أهلكت كثيراً من الخلق ممن لم يعص من البهائم والدواب والطير والهوام بحبس المطر

فيزعمون أن إلياس قال : يا رب دعني أكن أنا الذي أدعو لهم بالفرج مما هم فيه من البلاء لعلهم يرجعون عما هم فيه ينزعون عن عبادة غيرك فقيل له نعم .

﴿ إذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلاً ﴾ يعني أتعبدون بعلاً وهو صنم كان لهم يعبدونه ولذلك سميت مدينتهم بعلبك قيل البعل الرب بلغة أهل اليمن ﴿ وتذرون ﴾ أي وتتركون عبادة ﴿ أحسن الخالقين ﴾ فلا تعبدونه ﴿ الله ربكم ورب آبائكم الأولين فكذبوه فإنهم لمحضرون ﴾ أي في النار ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أي من قومه الذين آمنوا به فإنهم نجوا من العذاب .

(223/656)

---

﴿ وتركنا عليه في الآخرين سلام على إل ياسين ﴾ قرىء آل ياسين بالقطع قيل أراد آل محمد ( صلى الله عليه وسلم ) وقيل آل القرآن لأن ياسين من أسماء القرآن وفيه بعد وقرىء الياسين بالوصل ومعناه إلياس وأتباعه من المؤمنين ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ قوله تعالى : ﴿ وإن لوطاً لمن المرسلين إذ نجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين ﴾ أي الباقين في العذاب ﴿ ثم دمرنا ﴾ أي أهلكنا ﴿ الآخرين وإنكم ﴾ أي أهل مكة ﴿ لتمرون عليهم ﴾ أي على آثارهم ومنازلهم ﴿ مصبحين ﴾

أي في وقت الصباح ﴿ وبالليل ﴾ أي وبالليل في أسفاركم ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي فتعتبرون بهم .

قوله : ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ أي من جملة رسل الله تعالى ﴿ إذ أبق ﴾ أي هرب ﴿ إلى الفلك المشحون ﴾ أي المملوء قال ابن عباس ووهب كان يونس وعد قومه العذاب فتأخر عنهم فخرج كالمستور منهم فقصد البحر فركب السفينة فاحتبست السفينة فقال الملاحون ها هنا عبد آبق من سيده فاقترعوا فوقعت على يونس فاقترعوا ثلاثاً وهي تقع على يونس فقال أنا الآبق وزجَّ نفسه في الماء .



---

وقيل إنه لما وصل إلى البحر كانت معه امرأته وابنان له فجاء مركب فأراد أن يركب معهم فقدم امرأته ليركب بعدها فحال الموج بينه وبين المركب وذهب المركب وجاءت موجة أخرى فأخذت ابنه الأكبر وجاء ذئب فأخذ الابن الأصغر فبقي فريداً فجاء مركب فركبه وقعد ناحية من القوم فلما مرت السفينة في البحر ركدت فقال الملاحون إن فيكم عاصياً وإلا لم يحصل وقوف السفينة فيما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر فاقترعوا فمن خرج سهمه نغرقه فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل فاقترعوا فخرج سهم يونس فذلك قوله

تعالى : ﴿ فساهم ﴾ أي فقارع ﴿ فكان من المدحضين ﴾ يعني من المقرعين المغلوبين في سورة يونس والأنبياء ﴿ فالتقمه الحوت ﴾ أي ابتلعه ﴿ وهو مليم ﴾ أي آت بما يلام عليه ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ أي من الذاكرين الله قبل ذلك وكان كثير الذكر وقال ابن عباس من المصلحين وقيل من العابدين .

قال الحسن ما كانت له صلاة في بطن الحوت ولكنه قدم عملاً صالحاً فشكر الله تعالى له طاعته القديمة قال بعضهم اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة فإن يونس كان عبداً صالحاً ذاكراً لله تعالى فلما وقع في الشدة في بطن الحوت شكر الله تعالى له ذلك فقال ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ .

﴿ للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ وقيل لولا أنه كان يسبح في بطن الحوت بقوله ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ للبث في بطنه إلى يوم يبعثون أي لصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة .

قوله : ﴿ فنبذناه ﴾ أي طرحناه إنما أضاف النبذ إلى نفسه وإن كان الحوت هو النابذ لأن أفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى : ﴿ بالعراء ﴾ أي بالأرض الخالية عن الشجر والنبات .

وقيل بالساحل ﴿ وهو سقيم ﴾ أي عليل كالفرخ الممعط وقيل كان قد بلي لحمه ورق عظمه ولم تبق له قوة قيل إنه لبث في بطن الحوت ثلاثة أيام وقيل سبعة وقيل عشرين يوماً وقيل أربعين وقيل التقمه ضحى ولفظه عشية ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ يعني القرع قيل إن كان نبت يمتد وينبسط على وجه الأض كالقرع والقثاء والبطيخ ونحوه فهو يقطين قيل أنبتها الله تعالى له ولم تكن قبل ذلك وكانت معروشة ليحصل له الظل وفي شجر القرع فائدة وهي أن الذباب لا يجتمع عندها فكان يونس يستظل بتلك الشجرة ولو كانت منبسطة على الأرض لم يكن أن يستظل بها قيل وكانت وعلة تختلف إليه فيشرب من لبنها بكرة وعشية حتى اشتد لحمه ونبت شعره وقوي فنام نومة ثم استيقظ وقد يبست الشجرة وأصابه حر الشمس فحزن حزناً شديداً وجعل يبكي فأرسل الله تعالى إليه جبريل وقال أتحزن على شجرة ولا تحزن على مائة ألف من أمتك قد أسلموا وتابوا ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف ﴾ قيل أرسله إلى أهل نينوى من أرض الموصل قبل أن يصيبه ما أصابه والمعنى وكنا أرسلناه إلى مائة ألف فلما خرج من بطن الحوت أمر أن يرجع إليهم ثانياً وقيل كان إرساله إليهم بعد خروجه من بطن الحوت وقيل يجوز أن يكون إرساله إلى قوم آخرين غير القوم الأولين ﴿ أو يزيدون ﴾ قال ابن عباس معناه ويزيدون وقيل معناه بل يزيدون وقيل أو على أصلها والمعنى أو يزيدون في تقدير الرائي إذا رآهم قال هؤلاء مائة

ألف أو يزيدون على ذلك فالشك على تقدير المخلوقين والأصح هو قول ابن عباس الأول .

وأما الزيادة فقال ابن عباس كانوا عشرين ألفاً ويعضده ما روي عن أبي بن كعب قال " سألت رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) عن قوله تعالى ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ قال يزيدون عشرين ألفاً " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وقيل يزيدون بضعاً وثلاثين ألفاً وقيل سبعين ألفاً .

(226/656)

---

﴿ فآمنوا ﴾ يعني الذين أرسل إليهم يونس بعد معاينة العذاب ﴿ فمتعناهم إلى حين ﴾ أي إلى انقضاء آجالهم .

قوله : ﴿ فاستفتهم ﴾ أي فسل يا محمد أهل مكة وهو سؤال توبيخ ﴿ ألربك البنات ولهم البنون ﴾ وذلك أن جهينة وبني سلمة بن عبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله .

والمعنى جعلوا لله البنات ولهم البنين وذلك باطل لأن العرب كانوا يستنكفون من البنات والشيء الذي يستنكف منه المخلوق كيف ينسب للخالق ﴿ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ﴾ أي حاضرون خلقنا إياهم ﴿ ألا إنهم من إفكهم ﴾ أي من كذبهم ﴿ ليقولون ولد الله ﴾ أي في زعمهم ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ أي فيما زعموا ﴿ أصطفى

البنات ﴾ أي في زعمكم ﴿ على البنين ﴾ وهو استفهام توبيخ وتقريع ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ أي بالبنات لله ولكم بالبنين ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي أفلا تتعظون ﴿ أم لكم سلطان مبين ﴾ أي برهان بين على أن لله ولداً ﴿ فأتوا بكتابكم ﴾ يعني الذي لكم فيه حجة ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي في قولكم ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ قيل أراد بالجنة الملائكة سموا جنة لاجتنانهم عن الأبصار .

قال ابن عباس هم حي من الملائكة يقال لهم الجن ومنهم إبليس قالوا هم بنات الله فقال لهم أبو بكر الصديق فمن أمهاتهم قالوا سروات الجن .

وقيل معنى النسب أنهم أشركوا في عبادة الله تعالى .

وقيل هو قول الزنادقة الخير من الله والشر من الشيطان ﴿ ولقد علمت الجنة إنهم ﴾ يعني قائلي هذا القول ﴿ لمحضرون ﴾ أي في النار ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ نزه الله تعالى نفسه عما يقولون ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ هذا استثناء من المحضرين والمعنى أنهم لا يحضرون .

﴿ فإنكم ﴾ يعني يا أهل مكة ﴿ وما تعبدون ﴾ أي من الأصنام ﴿ ما أنتم عليه ﴾ أي على ما تعبدون ﴿ بفاتنين ﴾ أي بمضلين أحداً ﴿ إلا من هو صال الجحيم ﴾ أي إلا من سبق له في علم الله تعالى الشقاوة وأنه سيدخل النار .

قوله تعالى إخباراً عن حال الملائكة ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ يعني أن جبريل قال للنبي (صلى الله عليه وسلم) وما منا معشر الملائكة ملك إلا له مقام معلوم يعبد ربه فيه.

وقال ابن عباس ما في السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلي أو يسبح.

وروى أبو ذر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال "أطت السماء وحق لها أن تئط والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجداً" أخرجه الترمذي.

وهو طرف من حديث قيل الأطيط أصوات الأقتاب وقيل أصوات الإبل وحنينها ومعنى الحديث ما في السماء من الملائكة قد أثقلها حتى أطت وهذا مثل مؤذن بكثرة الملائكة وإن لم يكن ثم أطيط وقيل معنى إلا له مقام معلوم أي في القرب والمشاهدة وقيل يعبد الله على مقامات مختلفة كالخوف والرجاء والمحبة والرضا ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ يعني الملائكة صفوا أقدامهم في عبادة الله تعالى كصفوف الناس في الصلاة في الأرض ﴿ وإنا لنحن المسبحون ﴾ أي المصلون لله تعالى وقيل المنزهون لله تعالى عن كل سوء يخبر جبريل النبي (صلى الله عليه وسلم) أنهم يعبدون الله بالصلاة والتسبيح وأنهم ليسوا بمعبودين كما زعمت الكفار قوله: ﴿ وإن كانوا ليقولون ﴾ يعني كفار مكة قبل بعثة النبي (صلى الله عليه وسلم) ﴿ لو أن عندنا ذكراً من الأولين ﴾ يعني كتاباً مثل كتاب الأولين ﴿ لكنا

عباد الله المخلصين ﴾ أي لأخلصنا العبادة لله ﴿ فكفروا به ﴾ أي فلما أتاهم الكتاب كفروا به ﴿ فسوف يعلمون ﴾ فيه تهديد لهم قوله : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ يعني تقدم وعدنا لعبادنا المرسلين بنصرهم.



---

﴿ إنهم لهم المنصورون ﴾ أي بالحجة البالغة ﴿ وإن جندنا ﴾ أي حزبنا المؤمنين ﴿ لهم الغالبون ﴾ أي لهم النصرة في العاقبة ﴿ فتول ﴾ أي أعرض ﴿ عنهم حتى حين ﴾ قال ابن عباس يعني الموت وقيل إلى يوم بدر وقيل حتى آمرك بالقتال وهذه الآية منسوخة بآية القتال وقيل إلى أن يأتيهم العذاب ﴿ وأبصرهم ﴾ أي إذا نزل بهم العذاب ﴿ فسوف يبصرون ﴾ أي ذلك فعند ذلك قالوا متى هذا العذاب قال الله : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون فإذا نزل ﴾ يعني العذاب ﴿ بساحتهم ﴾ أي بحضرتهم وقيل بفنائهم ﴿ فساء صباح المنذرين ﴾ أي فبئس صباح الكافرين الذين أنذروا العذاب ( ق ) عن أنس " أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) غزا خيبر فلما دخل القرية قال الله أكبر خربت خيبر إنا إذا أنزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين قالها ثلاث مرات " ثم كرر ذكر ما تقدم تأكيداً لوعيد العذاب فقال تعالى : ﴿ وتولى عنهم حتى حين ﴾ وقيل المراد من الآية الأولى ذكر

أحوالهم في الدنيا وهذه ذكر أحوالهم في الآخرة فعلى هذا القول يزول التكرار ﴿ وأبصر ﴾ أي العذاب إذا نزل بهم ﴿ فسوف يبصرون ﴾ ثم نزه نفسه فقال تعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة ﴾ أي الغلبة والقدرة وفيه إشارة إلى كمال القدرة وأنه القادر على جميع الحوادث ﴿ عما يصفون ﴾ أي عن اتخاذ الشركاء والأولاد ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ أي الذين بلغوا عن الله التوحيد والشرائع لأن أعلى مراتب البشر أن يكون كاملاً في نفسه مكملاً لغيره وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلا جرم يجب على كل أحد الاقتداء بهم والاهتداء بهداهم ﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ أي على هلاك الأعداء ونصرة الأنبياء وقيل الغرض من ذلك تعليم المؤمنين أن يقولوه ولا يخلوا به ولا يغفلوا عنه لما روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال " من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله

رب العالمين " والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 40.24 ﴾

وقال ابن جزى :

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾

الشيعة الصنف المتفق ، فمعنى من شيعته : من على دينه في التوحيد ، والضمير يعود على نوح وقيل : على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والأول أظهر ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ ﴾ عبارة عن إخلاصه وإقباله على الله تعالى ، بكليته وقيل : المراد المجيء بالجسد ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أي سليم من الشرك ، والشك وجميع العيوب .

﴿ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ الإفك الباطل وإعرابه هنا مفعول من أجله ، وآلهة مفعول به وقيل : أئفكا مفعول به ، وآلهة بدل منه وقيل : أئفكا مصدر في موضع الحال ، تقديره : آفكين أي كاذبين والأول أحسن .

﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ المعنى أي شيء تظنون برب العالمين أن يعاقبكم به ، وقد عبدتم غيره ؟ أو أي شيء تظنون أنه هو حتى عبدتم غيره كما تقول ما ظنك بفلان ؟ إذا قصدت تعظيمه ، فالمقصد على المعنى الأول تهديد وعلى الثاني تعظيم لله وتوبيخ لهم .

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النجوم * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ روي أن قومه كان لهم عيد يخرجون إليه فدعوه إلى الخروج معهم، فحينئذ قال: إن سقيم ليمتنع عن الخروج معهم، فيكسر أصنامهم إذا خرجوا ليعدهم وفي تأويل ذلك ثلاثة أقوال: الأول أنها كانت تأخذه الحمى في وقت معلوم، فنظر في النجوم ليرى وقت الحمى، واعتذر عن الخروج لأنه سقيم من الحمى، والثاني أن قومه كانوا منجمين وكان هو يعلم أحكام النجوم فأوهمهم أنه استدل بالنظر في علم النجوم أنه يسقم، فاعتذر بما يخاف من السقم عن الخروج معهم والثالث أن معنى نظر في النجوم أنه نظر وفكر فيما يكون من أمره معهم فقال: إني سقيم والنجوم على هذا ما ينجم من حاله معهم، وليست بنجوم السماء، وهذا بعيد وقوله: إني سقيم على حسب هذه الأقوال يحتمل أن يكون حقاً لا كذب فيه، ولا تجوّز أصلاً، ويعارض هذا ما ورد " عن النبي صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات، أحدها: قوله إن سقيم " ويحتمل أن يكون كذبا صراحاً، وجاز له ذلك لهذا الاحتمال، لأنه فعل ذلك من أجل الله إذ قصد كسر الأصنام، ويحتمل أن يكون من المعارضين، فإن أراد أنه سقيم فيما يستقبل، لأن كل إنسان لا بدّ له أن يمرض، أو أراد أنه سقيم النفس من كفرهم وتكذيبهم له، وهذان التأويلان أولى، لأن نفي الكذب بالجملة معارض للحديث، والكذب الصراح لا يجوز على الأنبياء، عند أهل التحقيق، أما المعاريض فهي جائزة.

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أي تركوه إعراضاً عنه وخرجوا إلى عيدهم ، وقيل : إنه أراد بالسقم الطاعون وهو داء يُعدي ، فخافوا منه وتباعدوا عنه مخافة العدوى ﴿ فَرَاغَ ﴾ أي مال ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ إنما قال ذلك على وجه الاستهزاء بالذين يعبدون تلك الأصنام ﴿ ضَرْباً باليمين ﴾ أي بيمين يديه وقيل بالقوة وقيل : الحلف ، وهو قوله : تالله لأكيدن أصنامكم ، والأول أظهر وأليق بالضرب ، وضرباً مصدر في موضع الحال ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ أي يسرعون .

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أي تنجرون والنحت النجارة إشارة إلى صنعهم من الحجارة والخشب ﴿ واللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ذهب قوم إلى ما مصدرية والمعنى : الله خلقكم وأعمالكم ، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أفعال العباد ، وقيل : إنها موصولة بمعنى الذي والمعنى : الله خلقكم وخلق أصنامكم التي تعملونها ، وهذا أليق بسياق الكلام ، وأقوى في قصد الاحتجاج على الذين عبدوا الأصنام ، وقيل : إنها نافية ، وقيل : إنها استفهامية ، وكلاهما باطل .

﴿ قَالُوا ابنوا لَهُ بُنْيَاناً ﴾ قيل : البنيان في موضع النار ، وقيل : بل كان للمنجنيق ، الذي رمى عنه ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً ﴾ يعني حرقه بالنار ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الأسفلين ﴾ أي المغلوبين .

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ قيل : إنه قال هذا بعد خروجه من النار ، وأراد أنه ذاهب إلى ربه بالموت ، لأنه ظن أن النار تحرقه ، وسيهدين على القول الأول يعني إلى صلاح الدين والدنيا ، وعلى القول الثاني إلى الجنة ، وقالت المتصوفة : معناه إني ذاهب إلى ربي بقلبي ، أي مقبل على الله بكليتي تاركاً سواه .



---

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين ﴾ يعني ولداً من الصالحين ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ أي عاقل واختلف الناس في هذا الغلام المبشر به في هذا الموضع وهو الذبيح ، هل هو إسماعيل أو إسحاق ؟ فقال ابن عباس وابن عمر وجماعة من التابعين هو إسماعيل : وحجتهم من ثلاثة أوجه الأول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أنا ابن الذابحين يعني إسماعيل عليه السلام ، ووالده عبد الله ، حين نذر والده عبد المطلب أن ينحر [ أحد أولاده وأصابت القرعة عبد الله ] إن يسر الله له أمر زمزم ، ففداه بمائة من الإبل والثاني أن الله تعالى قال بعد تمام قصة الذبيح ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾ فدل ذلك على أن الذبيح غيره والثالث أنه روي أنه إبراهيم جرت له قصة الذبح بمكة ، وإنما كان معه بمكة إسماعيل . وذهب عليّ بن أبي طالب وابن مسعود وجماعة من التابعين إلى أن الذبيح إسحاق

وحجتهم من وجهين الأول أن البشارة المعروفة لإبراهيم بالوادي إنما كانت بإسحاق لقوله : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾ ومن وراء إسحاق يعقوب ، والثاني أنه روي أن يعقوب كان يكتب من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله .



---

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعي ﴾ يريد بالسعي هنا العمل والعبادة ، وقيل : المشي وكان حينئذ ابن ثلاثة عشرة سنة ﴿ قَالَ يا بني إني أرى فِي المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ يحتمل أن يكون رأى في المنام الذبح وهو الفعل ، أو أمر في المنام أن يذبحه ، والأول أظهر في اللفظ هنا ، والثاني أظهر في قوله : ﴿ افعل مَا تُؤمَرُ ﴾ ورؤيا الأنبياء حق ، فوجب عليه الامتثال على الوجهين ﴿ فانظر مَاذَا ترى ﴾ إن قيل : لم شاوره في أمر هو حتم من الله ؟ فالجواب : أنه لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ، ولكن ليعلم ما عنده فيثبت قلبه ويوطن نفسه على الصبر ، فأجابه بأحسن جواب ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ أي إستسلما وانقيادا لأمر الله ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أي صرعه بالأرض على جبينه وللإنسان جبينان حول الجبهة ، وجواب لما محذوف عند البصريين تقديره ، فلما أسلما كان ما كان من الأمر العظيم ، وقال الكوفيون : جوابها تله والواو زائدة ، وقال بعضهم : جوابها : ناديناه والواو زائدة ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ يحتمل

أنه يريد بقلبك أي كانت عندك رؤيا صادقة فعملت بحسبها ، ويحتمل أن يريد بعملك أي وفيت حقها من العمل ، فإن قيل : إنه أمر بالذبح ولم يذبح ، فكيف قيل له : صدقت الرؤيا ؟ فالجواب أنه قد بذل جهده إذ قد عزم على الذبح ولو لم يَفْدِه الله لذبحه ، ولكن الله هو الذي منعه من ذبحه لما فداه ، فامتناع ذبح الولد إنما كان من الله وبأمر الله ، وقد مضى إبراهيم ما عليه ﴿ البلاء المبين ﴾ الذي يظهر به طاعة الله أو المحنة البينة الصعوبة .

(234/656)

---

﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ الذبح اسم لما يذبح ، وأراد به هنا الكبش الذي فدى به ، وروي أنه من كباش الجنة ، وقيل : إنه الكبش الذي قرب به ولد آدم ، ووصفه بعظيم لذلك ، أو لأنه من عند الله أو لأنه متقبل ، وروي في القصص أن الذبيح قال لإبراهيم : أشدد رباطي لئلا أضطرب ، واصرف بصرك عني لئلا ترحمني ، وأنه أمر الشفرة على حلقه فلم تقطع ، فحينئذ جاء الكبش من عند الله ، وقد أكثر الناس في قصص هذه الآية وتركناه لعدم صحته ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ إن قيل : لم قال هنا في قصة إبراهيم كذلك دون قوله إنا ، وقال في غيرها إنا ، فالجواب أنه قد تقدم في قصة إبراهيم نفسها ، إنا كذلك فأغنى عن تكرار أنا .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا على موسى وَهَارُونَ ﴾ يعني بالنبوة وغير ذلك ﴿ مِنَ الكرب العظيم ﴾ يعني الغرق أو تعذيب فرعون إذلاله لهم ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ﴾ الضمير يعود على موسى وهارون وقومهما وقيل : على موسى وهارون خاصة ، وعاملهما معاملة الجماعة للتعظيم ، وهذا ضعيف ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الكتاب المستبين ﴾ يعني : التوراة ومعنى ﴿ المستبين ﴾ البين ، وفي هذه الآية وما بعدها نوع من أدوات البيان وهو الترصيع .

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ المرسلين ﴾ إلياس من ذرية هارون وقيل إنه أدريس ، وقد أخطأ من قال : إنه إلياس المذكور في أجداد النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً ﴾ البعل في اللغة الرب بلغة أهل اليمن ، وقيل : بعل اسم صنم يقال له بعلبك .

﴿ سَلاَمٌ على إِلْ يَاسِينَ ﴾ آل هنا على هذه القراءة بمعنى أهل ياسين اسم لإلياس ، وقيل : لأبيه وقيل : لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقرئ إلياسين ، وبكسر الهمزة ووصل اللام ساكنة على هذا جمع إلياس ، أو منسوب لإلياس حذفت منه الياء كما حذفت من أعجمين ، وقيل سمى كل واحد من آل ياسين إلياس ثم جمعهم وقيل هو لغة في إلياس .

﴿ عَجُوزاً فِي الغابرين ﴾ قد ذكر .

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرسلين ﴾ قد ذكرنا قصته في يونس و [ الأنبياء : 87 ] ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الفلك المشحون ﴾ أي هرب إلى السفينة والفلك هنا واحد والمشحون المملوء ، وسبب هروبه غضبه على قومه حين لم يؤمنوا ، وقيل : إنه أخبرهم أن العذاب يأتيهم في يوم معين حسبما أعلمه الله ، فلما رأى قومه مخايل العذاب آمنوا ، فرفع الله عنهم العذاب فخاف أن ينسبوه إلى الكذب فهرب ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ المدحضين ﴾ معنى ساهم ضارب القرعة والمدحض المغلوب في القرعة والمحاجة ، وسبب مقارعته أنه لما ركب السفينة ، وقفت ولم تجر ، فقالوا : إنما وقفت من حدث أحدثه أحدنا ، فنقترع لنرى على من تخرج القرعة فنطرحه فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فطرحوه في البحر ﴿ فالتقمه الحوت وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي فعل ما يلام عليه ، وذلك خروجه بغير أن يأمره الله بالخروج ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين ﴾ تسبحه هو قوله ﴿ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [ الأنبياء : 87 ] ، حسبما حكى الله عنه في الأنبياء وقيل : هو قوله سبحانه الله وقيل : هو الصلاة ، واختلف على هذا على يعني صلاته في بطن الحوت أو قبل ذلك ، واختلف في مدة بقائه في بطن الحوت فقيل : ساعة وقيل : ثلاثة أيام وقيل : سعبة أيام وقيل : أربعون يوماً ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بالعرآء ﴾ العراء الأرض الفضاء التي لا شجر فيها ، ولا ظل ، وقيل يعني الساحل ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ روي أنه كان كالطفل المولود بضعة لحم .

(236/656)

---

﴿ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ أي أنبتناها فوقه لتظله وتقيه حر الشمس ، واليقطين ، القرع وإنما خصه الله به لأنه يجمع برد الظل ولين اللمس وكبر الورق ، وأن الذباب لا يقربه ، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب ، وقيل : اليقطين كل شجرة لا ساق لها كالبقول والقرع والبطيخ ، والأول أشهر ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ ﴾ يعني رسالته الأولى التي أبق بعدها وقيل : هذه رسالة ثانية بعد خروجه من بطن الحوت والأول أشهر ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قيل : أو هنا بمعنى بل ، وقرأ ابن عباس ، بل يزيدون ، وقيل هي بمعنى الواو وقيل : هي للابهام وقيل : المعنى أن البشر إذا نظر إليهم يتردد فيقول : هم مائة ألف أو يزيدون واختلف في عددهم فقيل : مائة وعشرون ألفاً وقيل : مائة وثلاثون ألفاً وقيل : مائة وأربعون ألفاً وقيل : ومائة وسبعون ألفاً ﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ روي أنهم خرجوا بالأطفال وأولاد البهائم ، وفرقوا بينهم وبين الأمهات ، وناحوا وتضرعوا إلى الله وأخلصوا فرفع الله العذاب عنهم إلى حين : يعني لانقضاء آجالهم وقد ذكر الناس في قصة يونس أشياء كثيرة أسقطناها لضعف صحتها .

(237/656)

﴿ فاستفتهم أَلِرَبِّكَ البنات ولَهُمُ البنون ﴾ قال الزمخشري : إن هذا معطوف على قوله ﴿ فاستفتهم ﴾ الذي في أول السورة وإن تباعد ما بينهما ، والضمير المفعول لقريش وسائر الكفار أي أسألهم على وجه التقرير والتوبيخ عما زعموا من أن الملائكة بنات الله ، فجعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور ، وتلك قسمة ضيزى ، ثم قررهم على ما زعموا من أن الملائكة إناث وردّ عليهم بقوله : ﴿ وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ ، ويحتمل أن يكون بمعنى الشهادة ، أو بمعنى الحضور أي أنهم لم يحضروا ذلك ولم يعلموه ، ثم أخبر عن كذبهم في قولهم : ﴿ وَلَدَ الله ﴾ ، ثم قررهم على ما زعموا من أن الله اصطفى لنفسه البنات ؛ وذلك كله ردّ عليهم وتوبيخ لهم ، تعالى الله عن أقوالهم علواً كبيراً ﴿ أَصْطَفَى ﴾ دخلت همزة التقرير والتوبيخ على ألف الوصل فحذفت ألف الوصل ( مالكم ) هذا استفهام معناه التوبيخ ، وهي في موضع رفع بالابتداء والمجرور بعدها خبرها ، فينبغي الوقف على قوله ﴿ أَمْ لَكُمْ ﴾ ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أي برهان بيّن ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ ﴾ تعجيز لهم لأنهم ليس لهم كتاب يحتجون به ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ الضمير في جعلوا لكفار العرب ، وفي معنى الآية قولان : أحدهما أن الجنّة هنا الملائكة وسميت بهذا الاسم لأنه مشتق من الاجتنان وهو الاستتار ، والملائكة مستورين عن أعين بني آدم كالجن ، والنسب الذين جعلوه بينهم وبين الله قولهم : إنهم بنات الله ، والقول الثاني أن الجن هنا الشياطين ، وفي

النسب الذي جعلوه بينه وبينهم أن بعض الكفار قالوا : إن الله والشياطين أخوان ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .



---

﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجنة إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ من قال : إن الجن الملائكة فالضمير في قوله ﴿ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ يعود على الكفار أي قد علمت الملائكة أن الكفار محضرون في العذاب ومن قال : إن الجن الشياطين فالضمير يعود عليهم أي قد علمت الشياطين أنهم محضرون في العذاب .

﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ استثناء منقطع من المحضرين أو من الفاعل في يصفون والمعنى : لكن عباد الله المخلصين لا يحضرون في العذاب ، أو لكن عباد الله المخلصين يصفونه بما هو أهله .

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم ﴾ هذا خطاب للكفار والمراد بما ﴿ تَعْبُدُونَ ﴾ الأصنام وغيرها وما تعبدون عطف على الضمير في إنكم ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع ومعنى ﴿ فَاتِنِينَ ﴾ مضلين والضمير في عليه يعود على ما تعبدون وعلى سببية معناها التعليل و ﴿ مَنْ هُوَ ﴾ مفعول بفاتنين والمعنى :

إنكم أيها الكفار وكل ما تعبدونه لا تضلون أحداً إلا من قضى الله أن يصلى الجحيم ، أي لا تقدرون على إغواء الناس إلا بقضاء الله وقال الزمخشري : الضمير في عليه يعود على الله تعالى .

﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ هذا حكاية كلام الملائكة عليهم السلام ، تقديره : ما منك مالك إلا وله مقام معلوم ، وحذف الموصوف لفهم الكلام ، والمقام المعلوم : يحتمل أن يراد به المكان الذي يقومون فيه ، لأن منهم من هو في السماء الدنيا ، وفي الثانية ، وفي السموات ، وحيث شاء الله ، ويحتمل أن يراد به المنزلة من العبادة والتقريب والتشريف .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصاآفون ﴾ أي الواقفون في العبادة صفوفاً ، ولذلك أمر المسلمون بتسوية الصفوف في صلاتهم ليقتدوا بالملائكة ، وليس أحد من أهل الملل يصلون صفوفاً إلا المسلمون .

(239/656)

---

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون ﴾ قيل : معناه القائلون سبحان الله ، وفي هذا الكلام الذي قالته الملائكة رد على من قال : إنهم بنات الله وشركاء له ، لأنهم اعترفوا على أنفسهم بالعبودية والطاعة لله والتنزيه له ، ويدل هذا الكلام أيضاً على أن المراد بالجن قبل هذا الملائكة ،

وقيل : إنه هذا كله من كلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكلام المسلمين ، والأول أشهر .

﴿ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴾ الضمير لكفار قريش وسائر العرب ، والمعنى أنهم كانوا قبل بعث محمد صلى الله عليه وسلم يقولون : أو أرسل الله إلينا رسولاً وأنزل علينا كتاباً لكنا عباد الله المخلصين .

﴿ فَكَفَرُواْ بِهِ ﴾ الضمير للذكر ، أو لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن المعنى يقتضي ذلك وإن لم يتقدم له ذكر ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ تهديد ووعيد لهم على كفرهم .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون ﴾ المعنى سبق القضاء بأن المرسلين منصورون على أعدائهم .

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ هذا النصر والغلبة بظهور الحجة والبرهان ، وبهزيمة الأعداء في القتال ، وبالسعادة في الآخرة .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حتى حِينٍ ﴾ أي أعرض عنهم ، وذلك موادعة منسوخة بالسيف ، والحين هنا يراد به يوم بدر ، وقيل : حضور آجالهم ، وقيل : يوم القيامة .

﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ هذا وعد النبي صلى الله عليه وسلم ووعيد لهم ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ إشارة إلى قولهم ﴿ متى هَذَا الوعد ﴾ ؟ ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء ﴾ [ الأنفال : 32 ] وشبه ذلك ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ الساحة : الفِناء حول الدار ، والعرب تستعمل هذه اللفظة فيما يرد على الإنسان من محظور وسوء ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ المنذرين ﴾ الصباح مستعمل في ورود الغارات والرزايا ، ومقصد الآية التهديد بعذاب يحل بهم بعد أن أنذروا ، فلم ينفعهم الإنذار ، وذلك تمثيل أنذرهم ناصح بأن جيشاً يحل بهم فلم يقبلوا نصحه ، حتى جاءهم الجيش وأهلكهم .

﴿ وَأَبْصِرْ ﴾ كرر الأمر بالتولي عنهم والوعد والوعيد على وجه التأكيد ، وقيل : أراد بالوعيد الأول عذاب الدنيا ، والثاني عذاب الآخرة ، فإن قيل : لم قال أولاً أبصرهم ، وقال هنا : أبصر ، فحذف الضمير المفعول ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما أنه اكتفى بذكره أولاً عن ذكره ثانياً فحذفه اقتصاراً ، والآخر أنه حذف ليفيد العموم فيمن تقدم وغيرهم كأنه قال : أبصر جميع الكفار بخلاف الأول ، فإنه من قريش خاصة .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ نزه الله تعالى نفسه عما وصفه به الكفار مما لا يليق به ، فإنه حكى عنهم في هذه السورة أقوالاً كثيرة شنيعة ، والعزة إن أراد بها عزة الله : فمعنى رب العزة ، ذو العزة وأضافها إليه لاختصاصه بها ، وإن أراد بها عزة الأنبياء والمؤمنين : فمعنى رب العزة مالكها وخالقها ، ومن هذا قال محمد بن سحنون : من حلف بعزة الله ، فإن أراد صفة الله فهي يمين ، وإن أراد العزة التي أعطى عباده فليست بيمين ، ثم ختم هذه السورة بالسلام على المرسلين ﴿ والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ فأما السلام على المرسلين فيحتمل أن يريد التحية أو سلامتهم من أعدائهم ، ويكون ذلك تكميلاً لقوله : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون ﴾ [ الصافات : 182 ] ، وأما الحمد لله ، فيحتمل أن يريد به الحمد لله على ما ذكر في هذه السورة من تنزيه الله ونصرة الأنبياء وغير ذلك ، ويحتمل أن يريد الحمد لله على الإطلاق . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 3 صـ 172. 178﴾

(242/656)

---

وقال النسفى :

﴿ وَإِنَّ من شِيعَتِهِ لإبراهِيمَ ﴾

أي من شيعة نوح أي ممن شايعه على أصول الدين أو شايعه على التصلب في دين الله

ومصابرة المكذبين ، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة وما كان بينهما إلا نبيان هود وصالح .

﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ ﴾ "إذ" تعلق بما في الشيعة من معنى المشايعة يعني وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ من الشرك أو من آفات القلوب لإبراهيم ، أو بمحذوف وهو "اذكر" .

ومعنى المجيء بقلبه ربه أنه أخلص لله قلبه وعلم الله ذلك منه فضرب المجيء مثلاً لذلك ﴿ إِذْ ﴾ بدل من الأولى ﴿ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكاً ءالِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ﴾ ﴿ أئفكاً ﴾ مفعول له تقديره أتريدون آلهة من دون الله إفكاً ؟ وإنما قدم المفعول به على الفعل للعناية ، وقدم المفعول له على المفعول به لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم .

ويجوز أن يكون ﴿ إِفْكاً ﴾ مفعولاً به أي أتريدون إفكاً ؟ ثم فسر الإفك بقوله ﴿ آلِهَةً دُونَ اللهِ ﴾ على أنها إفك في نفسها ، أو حالاً أي أتريدون آلهة من دون الله آفكين ؟ ﴿ فَمَا ظَنُّكُم ﴾ أيّ شيء ظنكم ﴿ بِرَبِّ العالمين ﴾ وأنتم تعبدون غيره ؟ و "ما" رفع بالابتداء والخبر ﴿ ظنكم ﴾ أو فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره وعلمتم أنه المنعم على الحقيقة فكان حقيقاً بالعبادة ؟ ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النجوم ﴾ أي نظر في النجوم رامياً ببصره إلى السماء متفكراً في نفسه كيف يحتال ، أو أراهم أنه ينظر

في النجوم لاعتقادهم علم النجوم فأوهمهم أنه استدل بأمارة على أنه يسقم ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أي مشارف للسقم وهو الطاعون وكان أغلب الإسقام عليهم وكانوا يخافون العدوى ليتفرقوا عنه فهربوا منه إلى عيدهم وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد ، ففعل بالأصنام ما فعل .



---

وقالوا : علم النجوم كان حقاً ثم نسخ الاشتغال بمعرفته .

والكذب حرام إلا إذا عرّض ، والذي قاله إبراهيم عليه السلام معراض من الكلام أي سأسقم ، أو من الموت في عنقه سقيم ومنه المثل "كفى بالسلامة داء" .

ومات رجل فجاءة فقالوا : مات وهو صحيح .

فقال أعرابي : أصحيح مَن الموت في عنقه ، أو أراد إني سقيم النفس لكفركم كما يقال أنا مريض القلب من كذا ﴿ فَتَوَلَّوْا ﴾ فأعرضوا ﴿ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أي مولين الأدبار .

﴿ فَرَاغَ إِلَى ءَالِهَتِهِمْ ﴾ فمال إليهم سراً ﴿ فَقَالَ ﴾ استهزاء ﴿ أَلاَ تَأْكُلُونَ ﴾ وكان عندها طعام ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ ﴾ والجمع بالواو والنون لما أنه خاطبها خطاب من يعقل ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً ﴾ فأقبل عليهم مستخفياً كأنه قال فضربهم ضرباً لأن راغ عليهم

بمعنى ضربهم أو فراغ عليهم يضربهم ضرباً أي ضارباً ﴿ باليمين ﴾ أي ضرباً شديداً بالقوة لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما أو بالقوة والمتانة ، أو بسبب الحلف الذي سبق منه وهو قوله

﴿ تاالله لأَكِيدَنَّ أصنامكم ﴾ [ الأنبياء : 57 ] ﴿ فَأَقْبَلُواْ إِلَيْهِ ﴾ إلى إبراهيم ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ يسرعون من الزفيف وهو الإسراع .

(244/656)

---

﴿ يُزِفون ﴾ حمزة من أزفّ إذا دخل في الزفيف إزفافاً فكأنه قد رآه بعضهم يكسرها وبعضهم لم يره فأقبل من رآه مسرعاً نحوه ثم جاء من لم يره يكسرها فكأنه قد رآه ﴿ مَن فَعَلَ هذا بِئَالِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظالمين ﴾ ، فأجابوه على سبيل التعريض بقولهم ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبراهيم ﴾ [ الأنبياء : 60 ] ثم قالوا بأجمعهم نحن نعبدها وأنت تكسرها فأجابهم بقوله ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ بأيديكم ﴿ والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وخلق ما تعملونه من الأصنام أو "ما" مصدرية أي وخلق أعمالكم وهو دليلنا في خلق الأفعال أي الله خالقكم وخالق أعمالكم فلم تعبدون غيره ؟ ﴿ قَالُواْ ابنوا لَهُ ﴾ أي لأجله ﴿ بنيانا ﴾ من الحجر طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً ﴿ فَأَلْقُوهُ فِى الجحيم

﴿ في النار الشديدة .

وقيل : كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم ﴿ فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً ﴾ بإلقائه في النار ﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ المقهورين عند الإلقاء فخرج من النار ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى ﴾ إلى موضع أمرني بالذهاب إليه ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ سيرشدني إلى ما فيه صلاحي في ديني ويعصمني ويوفقني .

﴿ سيهديني ﴾ فيهما : يعقوب .

﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصالحين ﴾ بعض الصالحين يريد الولد لأن لفظ الهبة غلب في الولد ﴿ فبشرناه بغلام حَلِيمٍ ﴾ انطوت البشارة على ثلاث : على أن الولد غلام ذكر ، وأنه يبلغ أوان الحلم لأن الصبي لا يوصف بالحلم ، وأنه يكون حليماً وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال : ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ الله مِنَ الصابرين ﴾ ثم استسلم لذلك .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعى ﴾ بلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه .

و ﴿ مَعَهُ ﴾ لا يتعلق ب ﴿ بَلَغَ ﴾ لاقتضائه بلوغهما معاً حد السعي ، ولا ب ﴿ السعى ﴾ لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه ، فبقي أن يكون بياناً كأنه لما قال : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ السعى ﴾ أي الحد الذي يقدر فيه على السعي قيل : مع من ؟ قال : مع أبيه وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة ﴿ قَالَ يا بنى ﴾ حفص والباقون بكسر الياء ﴿ إِنّى أرى فِى المنام أَنّى أَذْبَحُكَ ﴾ وبفتح الياء فيهما : حجازي وأبو عمرو .

قيل له في المنام : اذبح ابنك ورؤيا الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة .

وإنما لم يقل رأيت لأنه رأى مرة بعد مرة فقد قيل : رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له : إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا .

فلما أصبح روّى في ذلك من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان فمن ثَمَّ سمي يوم الترويه .

فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله فمن ثَمَّ سُمي يوم عرفة .

ثم رأى مثل ذلك في الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى اليوم يوم النحر ﴿ فانظر مَاذَا ترى ﴾ من الرأي على وجه المشاورة لا من رؤية العين ، ولم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته ولكن ليعلم أيجزع أم يصبر .

﴿ تُرِى ﴾ علي وحمزة أي ماذا تصبر من رأيك وتبديه ﴿ قَالَ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ ﴾ أي ما تؤمر به وقرىء به ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَآءَ الله مِنَ الصابرين ﴾ على الذبح .

رُوي أن الذبيح قال لأبيه : يا أبت خذ بناصيتي واجلس بين كتفي حتى لا أوذيك إذا أصابتني الشفرة ، ولا تذبحني وأنت تنظر في وجهي عسى أن ترحمني ، واجعل وجهي إلى الأرض .

ويُروى اذبحني وأنا ساجد واقرأ على أمي السلام ، وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسهل لها .

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ انقادا لأمر الله وخضعا .

وعن قتادة : أسلم هذا ابنه وهذا نفسه ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ صرعه على جبينه ووضع السكين على حلقه فلم يعمل ، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا .

(246/656)

---

رُوي أن ذلك المكان عند الصخرة التي بمنى .

وجواب "لما" محذوف تقديره فلما أسلما وتله للجبين ﴿ وناديناه أَن يا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ أي حققت ما أمرناك به في المنام من تسليم الولد للذبح كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما وحمدهما لله وشكرهما على ما أنعم

به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله ، أو الجواب قبلنا منه و ﴿ ناديناه ﴾ معطوف عليه ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ تعليل لتخويل ما خولهما من الفرج بعد الشدة ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ البلاؤا المبين ﴾ الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم أو المحنة البينة .

﴿ وفديناه بِذِبْحٍ ﴾ هو ما يذبح .

وعن ابن عباس : هو الكبش الذي قربه هابيل فقبل منه وكان يرعى في الجنة حتى فدي به إسماعيل .

وعنه : لو تمت تلك الذبيحة لصارت سنة وذبح الناس أبناءهم ﴿ عظِيمٍ ﴾ ضخم الجثة سمين وهي السنة في الأضاحي .

ورُوي أنه هرب من إبراهيم عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فبقيت سنة في الرمي .

وروي أنه لما ذبحه قال جبريل : الله أكبر الله أكبر .

فقال الذبيح : لا إله إلا الله والله أكبر .

فقال إبراهيم : الله أكبر ولله الحمد ، فبقي سنة وقد استشهد أبو حنيفة رضي الله عنه بهذه الآية فيمن نذر ذبح ولده أنه يلزمه ذبح شاة .

والأظهر أن الذبيح إسماعيل وهو قول أبي بكر وابن عباس وابن عمر وجماعة من التابعين

رضي الله عنهم لقوله عليه السلام " أنا ابن الذبيحين " فأحدهما جده إسماعيل والآخر أبوه عبد الله .

وذلك أن عبد المطلب نذر إن بلغ بنوه عشرة أن يذبح آخر ولده تقرباً ، وكان عبد الله آخراً ففداه بمائة من الإبل ، ولأن قرني الكبش كانا منوطين في الكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت في زمن الحجاج وابن الزبير .

(247/656)

---

وعن الأصمعي أنه قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصمعي أين عزب عنك عقلك ومتى كان اسحق بمكة وإنما كان إسماعيل بمكة ، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة .

وعن علي وابن مسعود والعباس وجماعة من التابعين رضي الله عنهم أنه إسحق ويدل عليه كتاب يعقوب إلى يوسف عليهما السلام : من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله .

وإنما قيل ﴿ وفديناه ﴾ وإن كان الفادي إبراهيم عليه السلام والله تعالى هو المفدى منه لأنه الآمر بالذبح ، لأنه تعالى وهب له الكبش ليفتدي به .

وههنا إشكال وهو أنه لا يخلو إما أن يكون ما أتى به إبراهيم عليه السلام من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه في حكم الذبح أم لا ، فإن كان في حكم الذبح فما معنى الفداء والفداء هو التخليص من الذبح ببدل ؟ وإن لم يكن فما معنى قوله ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ وإنما كان يصدقها لو صح منه الذبح أصلاً أو بدلاً ولم يصح ؟ والجواب أنه عليه السلام قد بذل وسعه وفعل ما يفعل الذابح ، ولكن الله تعالى جاء بما منع الشفرة أن تمضي فيه وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم ، ووهب الله له الكبش ليقيم ذبحه مقام تلك الحقيقة في نفس إسماعيل بدلاً منه وليس هذا بنسخ منه للحكم كما قال البعض ، بل ذلك الحكم كان ثابتاً إلا أن المحل الذي أضيف إليه لم يحله الحكم على طريق الفداء دون النسخ ، وكان ذلك ابتلاء ليستقر حكم الأمر عند المخاطب في آخر الحال ، على أن المبتغي منه في حق الولد أن يصير قرباناً بنسبة الحكم إليه مكرماً بالفداء الحاصل لمعرة الذبح مبتلى بالصبر والمجاهدة إلى حال المكاشفة ، وإنما النسخ بعد استقرار المراد بالأمر لا قبله وقد سمي فداء في الكتاب لا نسخاً .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخرين ﴾ ولا وقف عليه لأن ﴿ سلام على إبراهيم ﴾ مفعول ﴿ وَتَرَكْنَا ﴾ .

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ ولم يقل "إنا كذلك" هنا كما في غيره لأنه قد سبق في هذه القصة فاستخف بطرحه اكتفاء بذكره مرة عن ذكره ثانية ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين وبشرناه بإسحاق نَبِيّاً ﴾ حال مقدرة من ﴿ إسحاق ﴾ ولا بد من تقدير مضاف محذوف أي وبشرناه بوجود إسحق نبياً أي بأن يوجد مقدرة نبوّته فالعامل في الحال الوجود لا البشارة ﴿ مِّنَ الصالحين ﴾ حال ثانية وورودها على سبيل الثناء لأن كل نبي لا بد وأن يكون من الصالحين ﴿ وباركنا عَلَيْهِ وعلى إسحاق ﴾ أي أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا .

وقيل : باركنا على إبراهيم في أولاده ، وعلى إسحق بأن أخرجنا من صلبه ألف نبي ، أولهم يعقوب وآخرهم عيسى عليهم السلام ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ ﴾ مؤمن ﴿ وظالم لِّنَفْسِهِ ﴾ كافر ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر أو محسن إلى الناس وظالم على نفسه بتعديه عن حدود الشرع ، وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر ، فقد يلد البر الفاجر والفاجر البر وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر ، وعلى أن الظلم في أعقابهما لم يعد عليهما بعيب ولا نقيصة ، وأن المرء إنما يعاب بسوء فعله ويعاقب على ما اجترحت يداه لا على ما وجد من أصله وفرعه .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا ﴾ أنعمنا ﴿ على موسى وهارون ﴾ بالنبوة ﴿ ونجيناهما وَقَوْمَهُمَا ﴾

بني إسرائيل ﴿ مِنَ الكرب العظيم ﴾ من الغرق أو من سلطان فرعون وقومه وغشمهم ﴿ ونصرناهم ﴾ أي موسى وهرون وقومهما ﴿ فَكَانُواْ هُمُ الغالبين ﴾ على فرعون وقومه ﴿ وءاتيناهما الكتاب المستبين ﴾ البليغ في بيانه وهو التوراة ﴿ وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ صراط أهل الإسلام وهي صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

(249/656)

---

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى الآخرين سلام على موسى وهارون إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ المرسلين ﴾ هو إلياس بن ياسين من ولد هرون أخي موسى .

وقيل : هو إدريس النبي عليه السلام .

وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ وَإِنْ إِدْرِيسَ ﴾ في موضع "إلياس" .

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ ألا تخافون الله ﴿ أَتَدْعُونَ ﴾ أتعبدون ﴿ بَعْلاً ﴾ هو علم لصنم كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعاً وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء ، وكان موضعه يقال له بك فركب وصار بعلبك

وهو من بلاد الشأم .

وقيل : في إلياس والخضر إنهما حيان ، وقيل إلياس وكل بالفيافي كما وكل الخضر بالبحار ، والحسن يقول : قد هلك إلياس والخضر ولا تقول كما يقول الناس إنهما حيان ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخالقين ﴾ وتتركون عبادة الله الذي هو أحسن المقدرين ﴿ اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ الأولين ﴾ بنصب الكل : عراقي غير أبي بكر وأبي عمرو على البدل من ﴿ أحسن ﴾ ، وغيرهم بالرفع على الابتداء .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ في النار ﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ من قومه ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخرين سلام على إِلْ يَاسِينَ ﴾ أي إلياس وقومه المؤمنين كقولهم الخبيبون يعني أبا خبيب عبد الله بن الزبير وقومه .



---

﴿ آلْ يَاسِينَ ﴾ شامي ونافع لأن ياسين اسم أبي إلياس فأضيف إليه الآل ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ المرسلين إِذْ نجيناه وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزاً فِى الغابرين ﴾ في الباقين ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ﴾ أهلكنا ﴿ الآخرين وَإِنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴾ داخلين في الصباح ﴿ وباليل ﴾ والوقف عليه مطلق

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يعني تمرون على منازلهم في متاجركم إلى الشأم ليلاً ونهاراً فما فيكم عقول تعتبرون بها .

وإنما لم يختم قصة لوط ويونس بالسلام كما ختم قصة من قبلهما ، لأن الله تعالى قد سلم على جميع المرسلين في آخر السورة فاكتفي بذلك عن ذكر كل واحد منفرداً بالسلام .

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ ﴾ الإباق : الهرب إلى حيث لا يهتدي إليه الطلب ، فسمى هربه من قومه بغير إذن ربه إباقاً مجازاً ﴿ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ المملوء .

وكان يونس عليه السلام وعد قومه العذاب ، فلما تأخر العذاب عنهم خرج كالمستور منهم فقصد البحر وركب السفينة فوقفت فقالوا : ههنا عبد آبق من سيده .

وفيما يزعم البحارون أن السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فقال : أنا الآبق ، وزج بنفسه في الماء فذلك قوله ﴿ فساهم ﴾ فقارعهم مرة أو ثلاثاً بالسهام .

والمساهمة : إلقاء السهام على جهة القرعة ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ المغلوبين بالقرعة ﴿ فالتقمه الحوت ﴾ فابتلعه ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ داخل في الملامة .

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح .

أو من القائلين ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أو من المصلين قبل

ذلك .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : كل تسبيح في القرآن فهو صلاة .

(251/656)

---

ويقال : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ الظاهر لبثه حياً إلى يوم البعث .

وعن قتادة : لكان بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة .

وقد لبث في بطنه ثلاثة أيام أو سبعة أو أربعين يوماً .

وعن الشعبي : التقمه ضحوة ولفظه عشية ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ فألقيناه بالمكان الخالي الذي لا شجر فيه ولا نبات ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ عليل مما ناله من التقام الحوت .

ورُوي أنه عاد بدنه كبدن الصبي حين يولد ﴿ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً ﴾ أي أنبتناها فوقه مظلة له كما يطنّب البيت على الإنسان ﴿ مِّن يَقْطِينٍ ﴾ الجمهور على أنه القرع ، وفائدته أن الذباب لا يجتمع عنده وأنه أسرع الأشجار نباتاً وامتداداً وارتفاعاً .

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنك لتحب القرع قال : "أجل هي شجرة أخي يونس" ﴿ وأرسلناه إلى مِاْئَةِ أَلْفٍ ﴾ المراد به القوم الذين بعث إليهم قبل الالتقام فتكون

"قد" مضمرة ﴿ أَوْيَزِيدُونَ ﴾ في مرأى الناظر أي إذا رآها الرائي قال: هي مائة ألف أو أكثر.

وقال الزجاج: قال غير واحد: معناه بل يزيدون.

قال ذلك الفراء وأبو عبيدة ونقل عن ابن عباس كذلك ﴿ فَئَامَنُواْ ﴾ به وبما أرسل به ﴿ فمتعناهم إلى حِينٍ ﴾ إلى منتهى آجالهم.

﴿ فاستفتهم أَلِرَبِّكَ البنات وَلَهُمُ البنون ﴾ معطوف على مثله في أول السورة أي على ﴿ فاستفتهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ وإن تباعدت بينهما المسافة.

(252/656)

---

أمر رسول الله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً، ثم ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها حيث جعلوا لله تعالى الإناث ولأنفسهم الذكور في قولهم الملائكة بنات الله مع كراهتهم الشديدة لهن ووأدهم واستنكافهم من ذكرهن ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الملائكة إناثا وَهُمْ شاهدون ﴾ حاضرون تخصيص علمهم بالمشاهدة استهزاء بهم وتجهيل لهم لأنهم كما لم يعلموا ذلك مشاهدة لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم ولا بإخبار صادق ولا بطريق استدلال ونظر، أو معناه

أنهم يقولون ذلك عن طمأنينة نفس لإفراط جهلهم كأنهم شاهدوا خلقهم ﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في قولهم .

﴿ أَصْطَفَى البنات على البنين ﴾ بفتح الهمزة للاستفهام ، وهو استفهام توبيخ .

وحذفت همزة الوصل استغناء عنها بهمزة الاستفهام ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ هذا الحكم الفاسد .

(253/656)

---

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ بالتخفيف : حمزة وعلي وحفص ﴿ أَمْ لَكُمْ سلطان مُّبِينٌ ﴾ حجة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بنات الله ﴿ فَأْتُوا بكتابكم ﴾ الذي أنزل عليكم ﴿ إن كُنتُمْ صادقين ﴾ في دعواكم ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ ﴾ بين الله ﴿ وَبَيْنَ الجنة ﴾ الملائكة لاستتارهم ﴿ نَسَبًا ﴾ وهو زعمهم أنهم بناته أو قالوا إن الله تزوج من الجن فولدت له الملائكة ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجنة إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ ولقد علمت الملائكة إن الذين قالوا هذا القول لمحضرون في النار ﴿ سبحان الله عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ نزه نفسه عن الولد والصاحبة ﴿ إِلَّا عِبَادَ الله المخلصين ﴾ استثناء منقطع من المحضرين معناه ولكن المخلصين ناجون من النار و ﴿ سبحان الله ﴾ اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه ، ويجوز أن يقع

الاستثناء من واو ﴿ يَصِفُونَ ﴾ أي يصفه هؤلاء بذلك ولكن المخلصون براء من أن يصفوه به ﴿ فَإِنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ ومعبوديكم ﴿ مَآ أَنتُمْ ﴾ وهم جميعاً ﴿ عَلَيْهِ ﴾ على الله ﴿ بفاتنين ﴾ بمضلين ﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم ﴾ بكسر اللام أي لستم تضلون أحداً إلا أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم بسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها .

يقال : فتن فلان على فلان امرأته كما تقول أفسدها عليه .

وقال الحسن : فإنكم أيها القائلون بهذا القول والذي تعبدونه من الأصنام ، ما أنتم على عبادة الأوثان بمضلين أحداً إلا من قدر عليه أن يصلى الجحيم أي يدخل النار .

وقيل : ما أنتم بمضلين إلا من أوجبت عليه الضلال في السابقة .

و"ما" في ﴿ مَا أَنتُمْ ﴾ نافية و "من" في موضع النصب ب ﴿ فاتنين ﴾ وقرأ الحسن ﴿ هُوَ صَالُ الجحيم ﴾ بضم اللام ، ووجهه أن يكون جمعاً فحذفت النون للإضافة وحذفت الواو لالتقاء الساكنين هي واللام في الجحيم ومن موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه .

﴿ وَمَا مِنَّا ﴾ أحد ﴿ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ في العبادة لا يتجاوزه فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصآفون ﴾ نصف أقدامنا في الصلاة أو نصف حول العرش داعين للمؤمنين ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون ﴾ المنزهون أو المصلون.

والوجه أن يكون هذا وما قبله من قوله ﴿ سبحان الله عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم في قوله ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجنة ﴾ كأنه قيل: ولقد علم الملائكة وشهدوا أن المشركين مفترون عليهم في مناسبة رب العزة وقالوا سبحان الله، فنزهوه عن ذلك واستثنوا عباد الله المخلصين وبرؤوهم منه وقالوا للكفرة: فإذا صح ذلك فإنكم وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على الله أحداً من خلقه وتضلوه إلا من كان من أهل النار، وكيف نكون مناسبين لرب العزة وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه لكل منا مقام معلوم من الطاعة لا يستطيع أن يزل عنه ظفراً خشوعاً لعظمته، ونحن الصافون أقدامنا لعبادته مسبحين ممجدين كما يجب على العباد لربهم؟ وقيل: هو من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني وما من المسلمين أحد إلا له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله من قوله تعالى: ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: 79] ثم ذكر أعمالهم وأنهم الذين يصطفون في الصلاة ويسبحون الله وينزهونه عما لا يجوز عليه.

﴿ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴾ أي مشركو قريش قبل مبعثه عليه السلام ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الأولين ﴾ أي كتاباً من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ الله

المخلصين ﴾ لأخلصنا العبادة لله ولما كذبنا كما كذبوا ولما خالفنا كما خالفوا ، فجاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار والكتاب الذي هو معجز من بين الكتب ﴿ فَكَفَرُواْ بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ مغبة تكذيبهم وما يحل بهم من الانتقام .

(255/656)

---

و "إن" مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة وفي ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكدين للقول جادين فيه فكم بين أول أمرهم وآخره ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين ﴾ الكلمة قوله ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ وإنما سماها كلمة وهي كلمات لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة ، والمراد الموعد بعلوهم على عدوهم في مقام الحجاج وملاحم القتال في الدنيا وعلوهم عليهم في الآخرة .

وعن الحسن : ما غلب نبي في حرب .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في العقبى .

والحاصل أن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه الظفر والنصرة وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة والعبرة للغالب .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عنهم ﴿ حتى حِينٍ ﴾ إلى مدة يسيرة وهي المدة التي أمهلوا

فيها أو إلى يوم بدر أو إلى فتح مكة ﴿ وَأَبصِرْهُمْ ﴾ أي أبصر ما ينالهم يومئذ ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ذلك وهو للوعيد لا للتبعيد ، أو انظر إليهم إذا عذبوا فسوف يبصرون ما أنكروا ، أو أعلمهم فسوف يعلمون .

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ قبل حينه ﴿ فَإِذَا نَزَلَ ﴾ العذاب ﴿ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ بفنائهم ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ المنذرين ﴾ صباحهم .

واللام في ﴿ المنذرين ﴾ مبهم في جنس من أنذروا ، لأن "ساء" و"بئس" يقتضيان ذلك .

وقيل : هو نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح بمكة .



---

مثّل العذاب النازل بهم بعدما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قومه بعض نصّاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره حتى أناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة ، وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحاً فسميت الغارة صباحاً وإن وقعت في وقت آخر ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حتى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ وإنما ثنى ليكون تسلية على تسلية وتأكيداً لوقوع الميعاد إلى تأكيد ، وفيه فائدة زائدة وهي إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول وأنه يبصروهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من صنوف المسرة وأنواع المساءة .

وقيل : أريد بأحدهما عذاب الدنيا وبالآخرة عذاب الآخرة .

﴿ سبحان ربِّكَ ربِّ العزة ﴾ أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل ذو العزة كما تقول صاحب صدق لاختصاصه بالصدق ، ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد إلا وهو ربها ومالكها كقوله ، ﴿ تعز مَن تَشَاء ﴾ [آل عمران : 26 ] ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ من الولد والصاحبة والشريك ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ عم الرسل بالسلام بعدما خص البعض في السورة لأن في تخصيص كل بالذكر تطويلاً ﴿ والحمد للَّهِ ربِّ العالمين ﴾ على هلاك الأعداء ونصرة الأنبياء .

اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله ونسبوه إليه مما هو منزه عنه وما عاناه المرسلون من جهتهم وما خولوه في العاقبة من النصرة عليهم ، فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون والتسليم على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين على ما قيض لهم من حسن العواقب .

والمراد تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يخلّوا به ولا يغفلوا عن مضمنات كتاب الكريم ومودعات قرآنه المجيد .

وعن علي رضي الله عنه : من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه ﴿ سبحان ربِّكَ ربِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ وسلام على المرسلين والحمد للَّهِ ربِّ العالمين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفي حـ 4 صـ 23.32 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ ﴾

ممن شايعه في الإيمان وأصول الشريعة . ﴿ لإبراهيم ﴾ ولا يبعد اتفاق شرعهما في الفروع أو غالباً ، وكان بينهما ألفان وستمائة وأربعون سنة ، وكان بينهما نبيان هود وصالح عليهما الصلاة والسلام .

﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ ﴾ متعلق بما في الشيعة من معنى المشايعة أو بمحذوف هو اذكر . ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ من آفات القلوب أو من العلائق خالص لله أو مخلص له ، وقيل حزين من السليم بمعنى اللديغ . ومعنى المجيء به ربه : إخلاصه له كأنه جاء به متحفاً إياه .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ بدل من الأولى أو ظرف ل ﴿ جَاء ﴾ أو ﴿ سَلِيم ﴾ .

﴿ أَئِفْكاً ءَالِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ﴾ أي تريدون آلهة دون الله إفكاً مقدم المفعول للعناية ثم المفعول له لأن الأهم أن يقرر أنهم على الباطل ومبنى أمرهم على الافك ، ويجوز أن يكون ﴿ إِفْكاً ﴾ مفعولاً به و ﴿ ءَالِهَةً ﴾ بدل منه على أنها إفك في نفسها للمبالغة ، أو المراد

بها عبادتها بحذف المضاف أو حالاً بمعنى إفكين .

﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين ﴾ بمن هو حقيق بالعبادة لكونه ربا للعالمين حتى تركتم عبادته ، أو أشركتم به غيره أو أمنتم من عذابه ، والمعنى إنكار ما يوجب ظناً فضلاً عن قطع يصد عن عبادته ، أو يجوز الإِشراك به أو يقتضي الأمن من عقابه على طريقة الإِلزام وهو كالحجة على ما قبله .

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النجوم ﴾ فرأى مواقعها واتصالاتها ، أو في علمها أو في كتابها ، ولا منع منه مع أن قصده إيهامهم وذلك حين سألوه أن يعبد معهم .

(258/656)

---

﴿ فَقَالَ إِنّي سَقِيمٌ ﴾ أراهم أنه استدل بها لأنهم كانوا منجمين على أنه مشارف للسقم لئلا يخرجوه إلى معبدهم ، فإنه كان أغلب أسقامهم الطاعون وكانوا يخافون العدوى ، أو أراد إني سقيم القلب لكفركم ، أو خارج المزاج عن الاعتدال خروجاً قل من يخلو منه أو بصدد الموت ومنه المثل : كفى بالسلامة داء ، وقول لبيد

:

فَدَعَوْتُ رَبّي بِالسَّلاَمَةِ جَاهِدا . . . لِيُصحّني فَإِذَا السَّلاَمَةُ دَاءُ

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ هاربين مخافة العدوى.

﴿ فَرَاغَ إِلَى ءَالِهَتِهِمْ ﴾ فذهب إليها في خفية من روغة الثعلب وأصله الميل بحيلة. ﴿ فَقَالَ ﴾ أي للأصنام استهزاء. ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ يعني الطعام الذي كان عندهم.

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ بجوابي.

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾ فمال عليهم مستخفياً، والتعدية بعلى للاستعلاء وإن الميل لمكروه.

﴿ ضَرْبًا باليمين ﴾ مصدر "لراغ عليهم" لأنه في معنى ضربهم، أو لمضمر تقديره فراغ عليهم يضربهم وتقييده باليمين للدلالة على قوته فإن قوة الآلة تستدعي قوة الفعل، وقيل ﴿ باليمين ﴾ بسبب الحلف وهو قوله:

﴿ تالله لأكِيدَنَّ أصنامكم ﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ ﴾ إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد ما رجعوا فرأوا أصنامهم مكسرة وبحثوا عن كاسرها فظنوا أنه هو كما شرحه في قوله: ﴿ مَن فَعَلَ هذا بِئَالِهَتِنَا ﴾ الآية. ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ يسرعون من زفيف النعام. وقرى حمزة على بناء المفعول من أزفه أي يحملون على الزفيف. وقرىء ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ أي يزف بعضهم بعضاً، و﴿ يَزِفُونَ ﴾ من وزف يزف إذا أسرع و﴿ يَزْفُونَ ﴾ من زفاه إذا حداه كأن بعضهم يزفو بعضاً لتسارعهم إليه ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ ما تنحتونه من الأصنام.

﴿ واللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي وما تعملونه فإن جوهرها بخلقه وشكلها وإن كان بفعلهم، ولذلك جعل من أعمالهم فبإقداره إياهم عليه وخلقه ما يتوقف عليه فعلهم من الدواعي والعدد، أو عملكم بمعنى معمولكم ليطابق ما تنحتون، أو إنه بمعنى الحدث فإن فعلهم إذا كان بخلق الله تعالى فيهم كان مفعولهم المتوقف على فعلهم أولى بذلك، وبهذا المعنى تمسك أصحابنا على خلق الأعمال ولهم أن يرجحوه على الأولين لما فيها من حذف أو مجاز.

﴿ قَالُواْ ابنوا لَهُ بنيانا فَأَلْقُوهُ فِى الجحيم ﴾ في النار الشديدة من الجحمة وهي شدة التأجج، واللام بدل الإضافة أي جحيم ذلك البنيان.

﴿ فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً ﴾ فإنه لما قهرهم بالحجة قصدوا تعذيبه بذلك لئلا يظهر للعامة عجزهم. ﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ الأذلين بإبطال كيدهم وجعله برهاناً نيراً على علو شأنه، حيث جعل النار عليه برداً وسلاماً.

﴿ وَقَالَ إِنّي ذَاهِبٌ إلى رَبّي ﴾ إلى حيث أمرني ربي وهو الشام، أو حيث أتجرد فيه لعبادته. ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ إلى ما فيه صلاح ديني أو إلى مقصدي، وإنما بت القول لسبق وعده أو لفرط توكله، أو البناء على عادته معه ولم يكن كذلك حال موسى عليه الصلاة والسلام حين ﴿ قَالَ عسى رَبّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السبيل ﴾ فلذلك ذكر بصيغة التوقع.

﴿ رَبّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين ﴾ بعض الصالحين يعينني على الدعوة والطاعة ويؤنسني في الغربة، يعني الولد لأن لفظ الهبة غالبة فيه ولقوله:

﴿ فبشرناه بغلام حَلِيمٍ ﴾ بشره بالولد وبأنه ذكر يبلغ أوان الحلم، فإن الصبي لا يوصف بالحلم ويكون حليماً وأي حلم مثل حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح وهو مراهق فقال ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاء الله مِنَ الصابرين ﴾ وقيل ما نعت الله نبياً بالحلم لعزة وجوده غير إبراهيم وابنه عليهما الصلاة والسلام، وحالهما المذكورة بعد تشهد عليه.



---

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعي ﴾ أي فلما جدّ وبلغ أن يسعى معه في أعماله، و﴿ مَعَهُ ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه ﴿ السعي ﴾ لا به لأن صلة المصدر لا تتقدمه ولا يبلغ فإن بلوغهما لم يكن معاً كأنه لمَّا قال: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ السعي ﴾ فقيل مع من فقيل ﴿ مَعَهُ ﴾، وتخصيصه لأن الأب أكمل في الرفق والاستصلاح له فلا يستسعيه قبل أوانه، أو لأنه استوهبه لذلك وكان له يومئذ ثلاث عشرة سنة. ﴿ قَالَ يَا بَنَيَّ ﴾ وقرأ حفص بفتح الياء. ﴿ إِنّى أرى فِى المنام أَنّى أَذْبَحُكَ ﴾ يحتمل أنه رأى ذلك وأنه رأى ما هو تعبيره، وقيل إنه رأى ليلة التروية أن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك، فلما أصبح روى أنه من

الله أو من الشيطان ، فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله ، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره وقال له ذلك ، ولهذا سميت الأيام الثلاثة بالتروية وعرفة والنحر ، والأظهر أن المخاطب إسمعيل عليه السلام لأنه الذي وهب له أثره الهجرة ولأن البشارة بإسحاق بعد معطوفة على البشارة بهذا الغلام ، ولقوله عليه الصلاة والسلام

(261/656)

---

" أنا ابن الذبيحين " فأحدهما جده إسمعيل والآخر أبوه عبد الله ، فإن جده عبد المطلب نذر أن يذبح ولداً إن سهل الله له حفر زمزم أو بلغ بنوه عشرة ، فلما سهل أقرع فخرج السهم على عبد الله ففداه بمائة من الإبل ، ولذلك سنت الدية مائة ولأن ذلك كان بمكة وكان قرنا الكبش معلقين بالكعبة حتى احترقا معها في أيام ابن الزبير ، ولم يكن إسحاق ثمة ولأن البشارة بإسحاق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه فلا يناسبها الأمر بذبحه مراهقاً ، وما روي " أنه عليه الصلاة والسلام سئل أي النسب أشرف فقال : يوسف صديق الله بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله " فالصحيح أنه قال : فقال : " يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " والزوائد من الراوي . وما روي أن يعقوب كتب إلى يوسف مثل ذلك لم يثبت . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بفتح الياء فيهما . ﴿ فانظر

مَاذَا ترى ﴾ من الرأي ، وإنما شاوره فيه وهو حتم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله فيثبت قدمه إن جزع ، ويأمن عليه إن سلم وليوطن نفسه عليه فيهون ويكتسب المثوبة بالانقياد له قبل نزوله ، وقرأ حمزة والكسائي "مَاذَا ترى" بضم التاء وكسر الراء خالصة ، والباقون بفتحها وأبو عمرو يميل فتحة الراء وورش بين بين والباقون بإخلاص فتحها . ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ ﴾ وقرأ ابن عامر بفتح التاء . ﴿ افعل مَا تُؤمَرُ ﴾ أي ما تؤمر به فحذفا دفعة ، أو على الترتيب كما عرفت أو أمرك على إرادة المأمور به والإِضافة إلى المأمور ، أو لعله فهم من كلامه أنه رأى أنه يذبحه مأموراً به ، أو علم أن رؤيا الأنبياء حق وأن مثل ذلك لا يقدمون عليه إلا بأمر ، ولعل الأمر في المنام دون اليقظة لتكون مبادرتهما إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد والإخلاص ، وإنما ذكر بلفظ المضارع لتكرر الرؤيا . ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصابرين ﴾ على الذبح أو على قضاء الله ، وقرأ نافع بفتح الياء .

(262/656)

---

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ استسلما لأمر الله أو سلما الذبيح نفسه وإبراهيم ابنه ، وقد قرىء بهما وأصلها سلم هذا لفلان إذا خلص له فإنه سلم من أن ينازع فيه . ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ صرعه على شقه فوقع جبينه على الأرض وهو أحد جانبي الجبهة . وقيل كبه على وجهه

بإشارته لئلا يرى فيه تغيراً يرق له فلا يذبحه ، وكان ذلك عند الصخرة بمنى أو في الموضع المشرف على مسجده ، أو المنحر الذي ينحر فيه اليوم .

﴿ وناديناه أَن يا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ بالعزم والإتيان بالمقدمات . وقد روي أنه أمر السكين بقوته على حلقه مراراً فلم تقطع ، وجواب "لما" محذوف تقديره كان ما كان مما ينطلق به الحال ولا يحيط به المقال ، من استبشارهما وشكرهما لله تعالى على ما أنعم عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق بما لم يوفق غيرهما لمثله ، وإظهار فضلهما به على العالمين مع إحراز الثواب العظيم إلى غير ذلك . ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ تعليل لإفراج تلك الشدة عنهما بإحسانهما ، واحتج به من جوز النسخ قبل وقوعه فإنه عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بالذبح لقوله ﴿ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ ﴾ ولم يحصل .

﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين ﴾ الابتلاء البين الذي يتميز فيه المخلص من غيره ، أو المحنة البينة الصعوبة فإنه لا أصعب منها .

﴿ وفديناه بِذِبْحٍ ﴾ بما يذبح بدله فيتم به الفعل . ﴿ عظِيمٍ ﴾ عظيم الجثة سمين ، أو عظيم القدر لأنه يفدي به الله نبياً ابن نبي وأي نبي من نسله سيد المرسلين . قيل كان كبشاً من الجنة . وقيل وعلاً أهبط عليه من ثبير . وروي أنه هرب منه عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فصارت سنة ، والفادي على الحقيقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

وإنما قال وفديناه لأن الله المعطي له والآمر به على التجوز في الفداء أو الإسناد ، واستدل به الحنفية على أن من نذر ذبح ولده لزمه ذبح شاة وليس فيه ما يدل عليه .



---

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين سلام على إبراهيم ﴾ سبق بيانه في قصة نوح عليه السلام .

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ لعله طرح عنه أنا اكتفاء بذكره مرة في هذه القصة .

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين وبشرناه بإسحاق نَبِيّاً مّنَ الصالحين ﴾ مقضياً نبوته مقدراً كونه من الصالحين وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة ، فإن وجود ذي الحال غير شرط بل الشرط مقارنة تعلق الفعل به لاعتبار المعنى بالحال ، فلا حاجة إلى تقدير مضاف يجعل عاملاً فيهما مثلاً و ﴿ بشرناه ﴾ بوجود إسحق أي بأن يوجد إسحق نبياً من الصالحين ، ومع ذلك لا يصير نظير قوله :

﴿ فادخلوها خالدين ﴾ فإن الداخلين مقدرون خلودهم وقت الدخول وإسحق لم يكن مقدراً نبوة نفسه وصلاحها حينما يوجد ، ومن فسر الذبيح بإسحق جعل المقصود من البشارة نبوته ، وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه وإيماء بأنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الإطلاق .

﴿ وباركنا عَلَيْهِ ﴾ على إبراهيم في أولاده. ﴿ وعلى إسحاق ﴾ بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل وغيرهم كأيوب وشعيب، أو أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا، وقرىء "وبركنا". ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ ﴾ في عمله أو إلى نفسه بالإيمان والطاعة. ﴿ وظالم لِّنَفْسِهِ ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر ظلمه، وفي ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال وأن الظلم في أعقابها لا يعود عليهما بنقيصه وعيب.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا على موسى وهارون ﴾ أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية.

﴿ ونجيناهما وَقَوْمَهُمَا مِنَ الكرب العظيم ﴾ من تغلب فرعون أو الغرق.

﴿ ونصرناهم ﴾ ثم الضمير لهما مع القوم. ﴿ فَكَانُواْ هُمُ الغالبين ﴾ على فرعون وقومه.

﴿ وءاتيناهما الكتاب المستبين ﴾ البليغ في بيانه وهو التوراة.

﴿ وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ الطريق الموصل إلى الحق والصواب .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى الآخرين سلام على موسى وهارون إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ .

﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ سبق مثل ذلك .

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ المرسلين ﴾ هو إلياس بن ياسين سبط هرون أخي موسى بعث بعده . وقيل إدريس لأنه قرئ إدريس وإدراس مكانه وفي حرف أبي رضي الله عنه . وقيل إبليس وقرأ ابن ذكوان مع خلاف عنه بحذف همزة إلياس .

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ عذاب الله .

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً ﴾ أتعبدونه أو أتطلبون الخير منه ، وهو اسم صنم كان لأهل بَكّ من الشام وهو البلد الذي يقال له الآن بعلبك وقيل البعل الرب بلغة اليمن ، والمعنى أتدعون بعض البعول . ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخالقين ﴾ وتتركون عبادته ، وقد أشار فيه إلى المقتضي للإنكار المعني بالهمزة ثم صرح به بقوله :

﴿ الله رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَائِكُمُ الأولين ﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص بالنصب على البدل .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي في العذاب ، وإنما أطلقه اكتفاء منه بالقرينة ، أو لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفاً .

﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ مستثنى من الواو لا من المحضرين لفساد المعنى .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين ﴾ .

﴿ سلام على إِلْ يَاسِينَ ﴾ لغة في إلياس كسيناه وسينين ، وقيل جمع له مراد به هو وأتباعه كالمهلبين ، لكن فيه أن العلم إذا جمع يجب تعريفه باللام أو للمنسوب إليه بحذف ياء النسب كالأعجمين وهو قليل ملبس ، وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب على إضافة ﴿ ءالَ ﴾ إلى ﴿ يَاسِينَ ﴾ لأنهما في المصحف مفصولان فيكون ﴿ يَاسِينَ ﴾ أبا ﴿ إِلْيَاسَ ﴾ ، وقيل محمد عليه الصلاة والسلام أو القرآن أو غيره من كتب الله والكل لا يناسب نظم سائر القصص ولا قوله :

(265/656)

---

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ إذ الظاهر أن الضمير لإلياس .

﴿ وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ المرسلين إِذْ نجيناه وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزاً فِى الغابرين ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخرين ﴾ سبق بيانه .

﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة . ﴿ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِم ﴾ على منازلهم في متاجركم إلى الشام فإن سدوم في طريقه . ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ داخلين في الصباح .

﴿ وبالليل ﴾ أي ومساء أو نهاراً وليلاً ، ولعلها وقعت قريب منزل يمر بها المرتحل عنه

صباحاً والقاصد لها مساء . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أفليس فيكم عقل تعتبرون به .

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرسلين ﴾ وقرىء بكسر النون .

﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ هرب ، وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه حسن إطلاقه عليه . ﴿ إِلَى الفلك المشحون ﴾ المملوء .

﴿ فساهم ﴾ فقارع أهله . ﴿ فَكَانَ مِنَ المدحضين ﴾ فصار من المغلوبين بالقرعة ، وأصله المزلق عن مقام الظفر . روي أنه لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل أن يأمره الله ، فركب السفينة فوقفت فقالوا : ها هنا عبد آبق فاقترعوا فخرجت القرعة عليه ، فقال أنا الآبق ورمى بنفسه في الماء .

﴿ فالتقمه الحوت ﴾ فابتلعه من اللقمة . ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ داخل في الملامة ، أو آت بما يلام عليها أو مليم نفسه ، وقرىء بالفتح مبنياً من ليم كمشيب في مشوب .

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين ﴾ الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح مدة عمره ، أو في بطن الحوت وهو قوله ﴿ لَّا إله إِلَّا أَنتَ سبحانك إِنِّى كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ وقيل من المصلين .

﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ حياً وقيل ميتاً ، وفيه حث على إكثار الذكر وتعظيم لشأنه ، ومن أقبل عليه في السراء أخذ بيده عند الضراء .

﴿ فنبذناه ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه . ﴿ بالعراء ﴾ بالمكان الخالي غما يغطيه من شجر أو نبت . روي أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح حتى انتهوا إلى البر فلفظه ، واختلف في مدة لبثه فقيل بعض يوم وقيل ثلاثة أيام وقيل سبعة ، وقيل عشرون وقيل أربعون . ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ مما ناله قيل صار بدنه كبدن الطفل حين يولد .

﴿ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي فوقه مظلة عليه . ﴿ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ من شجر ينبسط على وجه الأرض ولا يقوم على ساقه ، يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به ، والأكثر على أنها كانت الدباء غطته بأوراقها عن الذباب فإنه لا يقع عليه ، ويدل عليه أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لتحب القرع ، قال : " أجل هي شجرة أخي يونس " وقيل التين وقيل الموز تغطى بورقه واستظل بأغصانه وأفطر على ثماره .

﴿ وأرسلناه إلى مِائَةِ أَلْفٍ ﴾ هم قومه الذين هرب عنهم وهم أهل نينوى ، والمراد به ما سبق من إرساله أو إرسال ثان إليهم أو إلى غيرهم . ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ في مرأى الناظر أي إذا نظر إليهم ، قال هم مائة ألف أو يزيدون والمراد الوصف بالكثرة وقرىء بالواو .

﴿ فَـَٔامَنُواْ ﴾ فصدقوه أو فجددوا الإيمان به بمحضره . ﴿ فمتعناهم إلى حِينٍ ﴾ إلى أجلهم المسمى ، ولعله إنما لم يختم قصته وقصة لوط بما ختم به سائر القصص تفرقة بينهما

وبين أرباب الشرائع الكبر وأولى العزم من الرسل ، أو اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة .

(267/656)

---

﴿ فاستفتهم أَلِرَبِّكَ البنات وَلَهُمُ البنون ﴾ معطوف على مثله ، في أول السورة أمر رسوله أولاً باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعث ، وساق الكلام في تقريره جاراً لما يلائمه من القصص موصولاً بعضها ببعض ، ثم أمر باستفتائهم عن وجه القسمة حيث جعلوا لله البنات ولأنفسهم البنين في قولهم : الملائكة بنات الله ، وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالات أخر ، التجسيم وتجويز الفناء على الله تعالى ، فإن الولادة مخصوصة بالأجسام الكائنة الفاسدة ، وتفضيل أنفسهم عليه حيث جعلوا أوضع الجنسين له وأرفعهما لهم ، واستهانتهم بالملائكة حيث أنثوهم ولذلك كرر الله تعالى إنكار ذلك وإبطاله في كتابه مراراً ، وجعله مما ﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً ﴾ والإنكار ها هنا مقصور على الأخيرين لاختصاص هذه الطائفة بهما ، أو لأن فسادهما مما تدركه العامة بمقتضى طباعهم حيث جعل المعادل للاستفهام عن التقسيم .

﴿ أَمْ خَلَقْنَا الملائكة إناثا وَهُمْ شاهدون ﴾ وإنما خص علم المشاهدة لأن أمثال ذلك لا

تعلم إلا بها ، فإن الأنوثة ليست من لوازم ذاتهم لتمكن معرفته بالعقل الصرف مع ما فيه من الاستهزاء ، والإشعار بأنهم لفرط جهلهم يبتون به كأنهم قد شاهدوا خلقهم .

﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ ﴾ لعدم ما يقتضيه وقيام ما ينفيه . ﴿ وَإِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ فيما يتدينون به ، وقرىء "وَلَدَ اللهِ" أي الملائكة ولده ، فعل بمعنى مفعول يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

﴿ أَصْطَفَى البنات على البنين ﴾ استفهام إنكار واستبعاد ، والاصطفاء أخذ صفوة الشيء ، وعن نافع كسر الهمزة على حذف حرف الاستفهام لدلالة أم بعدها عليها أو على الإثبات بإضمار القول أي : لكاذبون في قولهم اصطفى ، أو إبداله من ﴿ وَلَدَ اللهُ ﴾ .

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ بما لا يرتضيه عقل .

*(268/656)*

---

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أنه منزه عن ذلك .

﴿ أَمْ لَكُمْ سلطان مُّبِينٌ ﴾ حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته .

﴿ فَأْتُواْ بكتابكم ﴾ الذي أنزل عليكم . ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في دعواكم .

﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ يعني الملائكة ذكرهم باسم جنسهم وضعاً منهم أن

يبلغوا هذه المرتبة، وقيل قالوا إن الله تعالى صاهر الجن فخرجت الملائكة، وقيل قالوا الله والشياطين إخوان. ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجنة إِنَّهُمْ ﴾ إن الكفرة أو الإنس والجن إن فسرت بغير الملائكة ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ في العذاب.

﴿ سبحان الله عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ من الولد والنسب.

﴿ إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ﴾ استثناء من المحضرين منقطع، أو متصل إن فسر الضمير بما يعمهم وما بينهما اعتراض أو من ﴿ يَصِفُونَ ﴾.

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ عود إلى خطابهم.

﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ على الله. ﴿ بفاتنين ﴾ مفسدين الناس بالإغواء.

﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم ﴾ إلا من سبق في علمه أنه من أهل النار ويصلاها لا محالة، ﴿ وَأَنتُمْ ﴾ ضمير لهم ولآلهتهم غلب فيه المخاطب على الغائب، ويجوز أن يكون ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ لما فيه من معنى المقارنة ساداً مسد الخبر أي إنكم وآلهتكم قرناء لا تزالون تعبدونها، ما أنتم على ما تعبدونه بفاتنين بباعثين على طريق الفتنة إلا ضالاً مستوجباً للنار مثلكم، وقرىء ﴿ صَالُ ﴾ بالضم على أنه جمع محمول على معنى من ساقط واوه لالتقاء الساكنين، أو تخفيف صائل على القلب كشاك في شائك، أو المحذوف منه كالمنسي كما في قولهم: ما باليت به بالة، فإن أصلها بالية كعافية.

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ حكاية اعتراف الملائكة بالعبودية للرد على عبدتهم والمعنى : وما منا أحد إلا له مقام معلوم في المعرفة والعبادة والانتهاء إلى أمر الله في تدبير العالم ، ويحتمل أن يكون هذا وما قبله من قوله ﴿ سبحان الله ﴾ من كلامهم ليتصل بقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجنة ﴾ كأنه قال ولقد علمت الملائكة أن المشركين معذبون بذلك وقالوا ﴿ سبحان الله ﴾ تنزيهاً له عنه ، ثم استثنوا ﴿ المخلصين ﴾ تبرئة لهم منه ، ثم خاطبوا المشركين بأن الافتتان بذلك للشقاوة المقدرة ، ثم اعترفوا بالعبودية وتفاوت مراتبهم فيه لا يتجاوزونها فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافون ﴾ في أداء الطاعة ومنازل الخدمة .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون ﴾ المنزهون الله عما لا يليق به ، ولعل الأول إشارة إلى درجاتهم في الطاعة وهذا في المعارف ، وما في إن واللام وتوسيط الفصل من التأكيد والاختصاص لأنهم المواظبون على ذلك دائماً من غير فترة دون غيرهم . وقيل هو من كلام النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين والمعنى : وما منا إلا له مقام معلوم في الجنة أو بين يدي الله يوم القيامة ، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافون ﴾ له في الصلاة والمنزهون له عن السوء .

﴿ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴾ أي مشركوا قريش .

﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الأولين ﴾ كتاباً من الكتب التي نزلت عليهم .

﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ المخلصين ﴾ لأخلصنا العبادة له ولم نخالف مثلهم .

﴿ فَكَفَرُوا بِهِ ﴾ أي لما جاءهم الذكر الذي هو أشرف الأذكار والمهيمن عليها . ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة كفرهم .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين ﴾ أي وعدنا لهم النصر والغلبة وهو قوله : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون ﴾ .

(270/656)

---

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ وهو باعتبار الغالب والمقضي بالذات ، وإنما سماه كلمة وهي كلمات لانتظامهم في معنى واحد .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عنهم . ﴿ حتى حِينٍ ﴾ هو الموعد لنصرك عليهم وهو يوم بدر ، وقيل يوم الفتح .

﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ على ما ينالهم حينئذ والمراد بالأمر الدلالة على أن ذلك كائن قريب كأنه قدامه . ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ما قضينا لك من التأييد والنصرة والثواب في الآخرة ، و"سوف" للوعيد لا للتبعيد .

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ روي أنه لما نزل ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ قالوا متى هذا

فنزلت .

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ فإذا نزل العذاب بفنائهم ، شبهه بجيش هجمهم فأناخ بفنائهم بغتة ، وقيل الرسول وقرىء "نُزِّلَ" على إسناده إلى الجار والمجرور و"نَزَلَ" أي العذاب . ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ المنذرين ﴾ فبئس صباح المنذرين صباحهم ، واللام للجنس وال ﴿ صَبَاحُ ﴾ مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب ، ولما كثر فيهم الهجوم والغارة في الصباح سموا الغارة صباحاً وإن وقعت في وقت آخر .

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حتى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تأكيد إلى تأكيد وإطلاق بعد تقييد للاشعار بأنه يبصر وأنهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من أصناف المسرة وأنواع المساءة ، أو الأول لعذاب الدنيا والثاني لعذاب الآخرة .

﴿ سبحان رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ عما قاله المشركون فيه على ما حكي في السورة ، وإضافة الرب إلى العزة لاختصاصها به إذ لا عزة إلا له أو لمن أعزه ، وقد أدرج فيه جملة صفاته السلبية والثبوتية مع الإشعار بالتوحيد .

﴿ وسلام على المرسلين ﴾ تعميم للرسل بالتسليم بعد تخصيص بعضهم .

﴿ والحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ على ما أفاض عليهم وعلى من اتبعهم من النعم وحسن العاقبة ولذلك أخره عن التسليم ، والمراد تعليم المؤمنين كيف يحمدونه ويسلمون على رسله . وعن علي رضي الله عنه : من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه من مجلسه : سبحان ربك إلى آخر السورة .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ والصافات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل جني وشيطان ، وتباعدت عنه مردة الجن والشياطين ، وبرىء من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمناً بالمرسلين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 17.33 ﴾

(272/656)

---

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) ﴾

التفسير : الضمير في ﴿ شيعته ﴾ يعود إلى نوح والمراد أن إبراهيم ممن شايع نوحاً على أصول الدين أو على التصلب في الدين . وقال الكلبي : واختاره الفراء إنه يعود إلى محمد أي هو على منهاجه ودينه وإن كان إبراهيم سابقاً والأوّل لتقدّم ذكر نوح . ولما روي عن ابن

عباس معناه من أهل دينه وعلى سنته وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان : هود وصالح ، وبين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة . ومعنى ﴿ جاء ربه ﴾ أقبل بقلبه على الله وأخلص العمل له . والقلب السليم قد مرّ في " الشعراء " . ثم ذكر من جملة آثار سلامة قلبه أن دعا أباه وقومه إلى التوحيد . ومعنى ﴿ ماذا تعبدون ﴾ أي شيء تعبدونه كقوله في " الشعراء " ﴿ وما تعبدون ﴾ [ الآية : 70 ] سألهم عن جنس معبوديهم ثم وبخهم على ذلك بقوله ﴿ أئفكاً ﴾ هو مفعول له قدم للعناية كما قدم المفعول به على الفعل لذلك فإنه كان الأهم عنده أن يكافحهم ويعنفهم على شركهم وأنهم على إفك وباطل . ويجوز أن يكون ﴿ إفكاً ﴾ حالاً معنى أو مفعولاً به ﴿ آلهة ﴾ بدل منه على أنها إفك في أنفسها . ﴿ فما ظنكم برب العالمين ﴾ حتى جعلتم الجمادات أنداداً له أو حسبتم أنه يهمل أمركم ولا يعاقبكم ، وفيه أنه لا يقدر في وهم ولا ظن ما يصدر عن عبادته . وفي قوله ﴿ إني سقيم ﴾ قولان : الأوّل أنه صدر منه كذباً لمصلحة رأى فيه ، ولما جاء في الحديث " لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات " : قوله : ﴿ إني سقيم ﴾ وقوله ﴿ بل فعلهم كبيرهم ﴾ وقوله لسارة إنها أختي " وقد سبق تقرير ذلك في الأنبياء . والثاني وهو الأقوى أنه كلام صادق لأن الكذب قبيح وإن اشتمل على مصلحة . وأما الحديث فنسبه الراوي إلى الكذب أولى من نسبة نبي الله إلى ذلك .

وفي التوجيه وجوه : الأوّل إن النظر في النجوم يريد به النظر في علم النجوم وأحكامها وكتبها وذلك ليس بحرام ولا سيما في ذلك الشرع فليس فيه إلا اعتقاد أنه تعالى خص كل واحد من الكواكب بقوّة وخاصية يظهر بها منه أثر مخصوص ، والإنسان لا ينفك في أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة له ، إما في بدنه أو في قلبه ، فلعل به سقماً كالحمى الثابتة ، أو أراد سيسقم لأمارة نجومية ، أو أراد به الموت الذي يلحقه لا محالة ولا داء أعي منه . الثاني : أن المراد بالنجوم ما جاء في قوله ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ﴾ إلى آخر الآية . أي نظر فيها ليعرف أحوالها وأنها قديمة أو محدثة . وقوله ﴿ إني سقيم ﴾ أي سقيم القلب غير عارف بربي وكان ذلك قبل البلوغ ، أو سقيم النفس لكفركم . الثالث : إن النجوم النبات أي فنظر فيها متحرياً منها ما فيه شفاء لسقمهم وهمهم أن به ذلك وكان به . وقال الأزهري عن أحمد بن يحيى : النجوم جمع نجم وهو كل ما تفرق ومنه نجوم الكتابة أي نظر في متفرقات كلامهم وأحوالهم حتى يستخرج منه حيلة فلم يجد عذراً أحسن من قوله ﴿ إني سقيم ﴾ قال المفسرون : كان الطاعون أغلب الأسقام عليهم فظنوا أن به ذلك فتركوه في بيت الأصنام مخافة العدوى وهربوا إلى عيدهم وذلك قوله سبحانه ﴿ فتولوا عنه مدبرين فراغ إلى آلهتهم ﴾ ذهب إليها في خفية حتى لا يرى فكأنه رجع إليها مراوغاً قومه من روغان الثعلب . وقيل : راغ بقوله ﴿ إني سقيم ﴾ حتى خلا بها وسماها آلهة على

زعمهم . وقوله ﴿ الا تأكلون ما لكم لا تنطقون ﴾ استهزاء بها وكان عندها طعام زعموا أنها تأكل منه . وقيل : وضع الطعام ليبارك فيه . وروى أن سدنتها كانوا يأكلون ما يوضع عندها من الطعام وينطقون عند الضعفة عن لسانها يوهمون أنها تأكل وتنطق . وإنما جاء في هذه السورة ﴿ فقال ألا تأكلون ﴾ بالفاء وفي " الذاريات " ﴿ قال ألا تأكلون ﴾ بغير الفاء لأنه قصد من أول الأمر تقريع من زعم أنها تأكل وتشرب ، وفي



---

الذاريات " يستأنف تقديره : قربه إليهم فلم يأكلوها فلما رآهم لا يأكلون فقال ألا تأكلون .

﴿ فراغ عليهم ﴾ عداه بعلى لأن الميل الأول كان على سبيل الرفق استهزاء ، وهذا كان بطريق العنف والقهر وهذا كما يقال في المحبوب : مال إليه . وفي المكروه : مال عليه . وقوله ﴿ ضرباً ﴾ مصدر راغ من غير لفظه أو لفعل محذوف أو حال أي بضرب ضرباً أو ضارباً . ومعنى ﴿ باليمين ﴾ اي باليد اليمنى لأنها أقوى على الأعمال أو بالقوّة مجازاً ، أو بسبب الحلف وهو قوله ﴿ تالله لأكيدن أصنامكم ﴾ ﴿ فأقبلوا إليه ﴾ أي إلى إبراهيم ﴿ يزفون ﴾ يمشون على سرعة . وزفيف النعامة ابتداء عدوها . ومن قرأ بضم

الياء فإما لازم من أزف إذا صار إلى حال الزفيف ، أو متعدٍ والمفعول محذوف أي يزفون دوابهم أو بعضهم بعضاً وقد مر نظيره في التوبة في قوله



---

﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ [ التوبة : 47 ] قال بعض الطاعنين ، قوله ﴿ فاقبلوا إليه ﴾ دل على أنهم عرفوا كاسر أصنامهم . وقوله في " الأنبياء " ﴿ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ [ الآية : 62 ] دل على أنهم لم يعرفوا الكاسر فبينهما تناقض . وأجيب بأن هؤلاء غير أولئك فالذين عرفوه ذهبوا إليه مسرعين ، والذين لم يعرفوه بعد استخبروا عنه . على أن قوله ﴿ فأقبوا إليه ﴾ لا دلالة له على أنهم عرفوا أن الكاسر هو إبراهيم فلعلهم أقبلوا إليه لأجل السؤال عن الكاسر . وحين عاتبوه على فعله أراد أن يبين لهم فساد طريقتهم ف ﴿ قال أتبعدون ما تنحتون ﴾ وذلك أن الناحت لم يحدث فيه إلا صورة معينة فيكون معناه أن الشيء الذي لم يكن معبوداً لي صار بسبب تصرفي فيه معبوداً لي وفساد هذا معلوم بالبديهة ، احتج جمهور الأشاعرة بقوله ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ على أن العبد ليس خالق أعماله لأن المعنى خلقكم وأعمالكم . وزيف بأن " ما " موصولة لتناسب قرينتها في قوله ﴿ ما تنحتون ﴾ وليتوجه التوبيخ ولكيلا يلزم التناقض فإن

النحت عملهم . والصحيح أن الآية كقوله ﴿ بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن ﴾ [ الأنبياء : 56 ] أي فطر الأصنام : ثم إن إبراهيم لما ألقمهم الحجر بهذا القول وألزمهم عدلوا إلى طريقة الإيذاء و ﴿ قالوا ابنوا له بنياناً ﴾ قال ابن عباس : بنوا حائطاً من حجارة طوله في السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون . وتقدير الآية : ابنوا له بنياناً واملؤه ناراً وألقوه فيها . والجحيم النار العظيمة . ومعنى الفاء في قوله ﴿ فارادوا ﴾ كقوله ﴿ أهلكناها فجاءها بأسنا ﴾ [ الأعراف : 4 ] كأنه قيل : فبنوا البنيان وملؤه ناراً وألقوه فنجيناه منها . وقد صح أنهم أرادوا به كيداً ﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ الأذلين وأما في الأنبياء فلم يقصد هذا الترتيب فاقتصر على الواو العاطفة . وإنما اختصت هذه السورة بقوله ﴿ الأسفلين ﴾ لأنه ذكر أنهم بنوا بنياناً عالياً فكان ذكر السفل في

(276/656)

---

طباقه أنسب . ثم ذكر بقية قصة إبراهيم وقوله ﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ كقوله في " العنكبوت " ﴿ إني مهاجر إلى ربي ﴾ [ الآية : 26 ] وإنما حكم بقوله ﴿ سيهدين ﴾ ربي إلى ما فيه صلاحي في الدارين اعتماداً على فضل الله أو عرف ذلك بالوحي . وحين هاجر إلى الرض المقدسة أراد الولد فقال ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ والله تعالى يبن

استجابته بقوله ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ وصف الغلام بالعلم في سورة الحجر وبالحلم ههنا . فذهب العلماء إلى أنه أراد بغلام عليم في صغره حليم في كبره ، فإن الصبي لا يوصف بالحلم ومن هنا انطوت البشارة على معان ثلاثة : أحدها أن الولد ذكر ، والثاني أنه يبلغ أوان الحلم ، والثالث أنه يكون حليماً ، وأيّ حلم أعظم من استمساكه حين عرض أبوه عليه الذبح فقال ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ وفيه أن ولده قائم مقامه في الشرف والفضيلة فوصفه بالحلوم كما وصف به إبراهيم في قوله

﴿ إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب ﴾ [ هود : 75 ] . وقيل : العليم إسحق لقوله ﴿ فأقبلت امرأته في صرة ﴾ [ الذاريات : 29 ] والحليم إسماعيل . ثم حكى حديث ذبحه قائلاً ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ أي قوي على أن يمشي مع أبيه في حوائجه . والظرف بيان كأنه قال أوّلاً ﴿ فلما بلغ السعي ﴾ فقيل : مع من ؟ فأجيب مع أبيه . ولا يجوز تعلقه بالسعي لأن صلة المصدر لا تتقدّم عليه ولا بقوله ﴿ بلغ ﴾ لأنهما لم يبلغا معاً حد السعي - والمعنى في اختصاص الأب إخراج الكلام مخرج الأغلب . وقال جار الله : السبب فيه أن الأب أرفق الناس به وأعطفهم عليه وغيره ربما عنف به في الاستسعاء فلا يحتمله لأنه لم تستحكم قوته . يروى أنه كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة وقيل أراد السعي في المنافع وفي طاعة الله .

اعلم أن الناس اختلفوا في الذبيح ، فعن أبي بكر الصديق وابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب وسعيد بن المسيب وعكرمة ومجاهد والضحاك أنه إسماعيل لقوله صلى الله عليه وسلم " أنا ابن الذبيحين " فأحدهما جده إسماعيل والآخر أبوه عبد الله . وذلك أن عبد المطلب نذر إن بلغ بنوه عشرة أن يذبح واحداً منهم تقرباً ، فلما كملوا عشرة أتى بهم البيت وضرب عليهم بالقداح فخرج قدح عبد اتلله فمنعه أخواله ففداه بعشرة من الإبل ، ثم ضرب عليه وعلى الإبل فخرج قدحه ففداه بعشرة أخرى ، وضرب مرة أخرى فخرج قدحه وهكذا يزيد عشرة عشرة إلى أن تمت مائة فخرج القدح على الجزر فنحرها وسن الدية مائة . وفي رواية أن أعرابياً قال للنبي صلى الله عليه وسلم " يا ابن الذبيحين " . فتبسم فسأل عن ذلك فقال : إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر الله لئن سهل الله له أمرها ليذبحن أحد ولده . فخرج السهم على عبد الله فمنعوه ففداه بمائة من الإبل . حجة أخرى : نقل عن الأصمعي أنه قال : سألت ابا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصمعي أين عقلك ؟ ومتى كان إسحق بمكة وإنما كان إسماعيل وهو الذي بنى البيت مع أبيه وسن النحر بمكة . وحجة أخرى : وصف إسماعيل بالصبر في قوله ﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ﴾ [ الأنبياء : 85 ] وهو صبره على الذبح في قوله ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ ووصفه بصدق الوعد ﴿ إنه كان صادق

الوعد ﴾ [ مريم : 54 ] وذلك أنه وعد أباه الصبر على قضاء الله أو على الذبح فوفى به . أخرى : ﴿ ومن وراء إسحق يعقوب ﴾ [ هود : 71 ] فيمن قرأ بالنصب لأنه إذا بشر بالولد من صلبه علم أنه لم يؤمر بذبحه .

(278/656)

---

أخرى : أجمعوا على أن إسماعيل مقدم في الوجود على إسحق فهو المراد بقوله ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ ثم إنه ذكر عقيبة قصة الذبح . وايضاً قوله ﴿ وبشرناه بإسحق ﴾ يجب أن يكون غير قوله ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ وإلا لزم التكرار . حجة أخرى : ان قرني الكبش كانا ميراثاً لولد إسماعيل عن أبيهم وكانا معلقين بالكعبة إلى أن احترق البيت في أيام ابن الزبير والحجاج . وعن علي وابن مسعود وكعب الأحبار وإليه ذهب أهل الكتاب أن الذبيح إسحق لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل اي النسب أشرف ؟ فقال : يوسف صديق الله ابن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله . وأجابوا عن قوله : ﴿ وبشرناه بإسحاق ﴾ أنه بشر بغلام أوّلاً ثم بنبوته ثانياً . وايضاً صرح بالمبشر به في قوله ﴿ فبشرناه بإسحق ﴾ [ هود : 71 ] وفي قوله ﴿ وبشرناه بإسحق ﴾ فيحمل عليه المبهم في قوله ﴿ فبشرناه بغلام ﴾ وأيضاً لا

نسلم أن البشارة بيعقوب كانت متصلة ببشارة إسحق اعتباراً بقراءة من قرأ ﴿ يعقوب ﴾ [ هود : 71 ] بالرفع . وأيضاً أنهم أجمعوا على أن المراد من قوله ﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ هو مهاجرته إلى الشام ثم قال ﴿ فبشرناه بغلام ﴾ فوجب أن يكون الغلام الحليم قد حصل له في الشام وذلك الغلام لم يكن إلا إسحق ، لأن إسماعيل قد نشأ بمكة . وكان الزجاج يقول : الله أعلم أيهما الذبيح . ويتفرع على اختلاف المفسرين في الذبيح اختلافهم في موضع الذبح ، فالذين قالوا إن الذبيح إسماعيل ذهبوا إلى أن الذبح كان بمنى وهذا أقوى ، والذين قالوا إنه إسحق قالوا ن الذبح كان بالشام وخصه بعضهم ببيت المقدس . إذا عرفت هذا الاختلاف فقوله ﴿ يا بني إني أرى في المنام ﴾ إنما قال بلفظ المستقبل لأنه كان يرى في منامه ثلاث ليال أو لأن رؤيا الأنبياء وحي ثانٍ فذكر تأويل الرؤيا كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب سفينة : رايت في المنام أني ناجٍ من هذه المحنة فكأنه قال : إني أرى في المنام ما



---

يوجب أني أذبحك . ويحتمل أن يكون حكاية ما رآه . قال بعض المفسرين : رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له : إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا فأصبح يروّي في ذلك أمن الله أو من

الشيطان فسمي يوم التروية . فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله فسمي عرفة ، ثم رأى مثله في الثالثة فهمّ بنحره فسمي يوم النحر . وقال بعضهم : حين بشره الملائكة بغلام حليم قال هو إذن ذبيح الله ، فلما ولد وبلغ حد السعي مع أبيه قيل له : أوف بنذرك فانظر ماذا ترى هو من الرأي . ومن قرأه من الإراءة فالمعنى ماذا تبصر من رأيك وتدبيرك . وإنما شاوره في حتم من الله ليثبته إن جزع ويفرح بصبره إن ثبت ولئلا يقع الذبح معافصة من غير إعلام به وبسببه ، وليكون سنة في المشاورة فقد قيل : لو شاور آدم الملائكة في الأكل من الشجرة لما فرط منه ذلك ﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ﴾ أي به فحذف الجار كقوله :

أمرتك الخير .

(280/656)

---

اي أمرتك بالخير أو أمرك على تسمية المأمور به بالمصدر ثم إضافته إلى المفعول : ﴿ فلما اسلما ﴾ أي انقادا وخضعا لأمر الله . قال قتادة : اسلم هذا ابنه وهذا نفسه . ﴿ وتله ﴾ أي صرعه . واللام في ﴿ للجبين ﴾ كهي في قوله ﴿ ويخرون للأذقان ﴾ [ الإسراء : 109 ] والجبين أحد جانبي الجبهة . وقيل : كبه لوجهه لأن الولد قال له اذبحني وأنا ساجد . يروى أنه حين أراد ذبحه قال : يا بنيّ خذ الحبل والمدية ننطلق إلى الشعب

ونختطب ، فلما توسطا الشعب أخبره بما أمر فقال له : اشدد به رباطي لئلا اضطرب واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمي فينقص أجري وتراه أمي فتحزن ، واشحذ شفرتك واسرع إمرارها على حلقي ليكون أهون فإن الموت شديد ، واقرأ على أمي سلامي ، وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون اسهل . فقال إبراهيم : نعم العون أنت يا بنيّ على أمر الله . ثم اقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان فقال له : كبني على وجهي ولا تنظر إليّ حتى لا تدركك رقة تحول بينك وبين أمر الله . قال جار الله : تقدير الكلام فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا كان ما كان مما ينطق به العيان ولا يحيط به البيان من استبشارهما بما أنعم الله عليهما من دفع البلاء وبما اكتسبا في تضاعيف ذلك من الثواب والثناء ، وقد اشير إلى جميع ذلك بقوله ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا ﴾ الأمر الذي قد وقع ﴿ لهو البلاء المبين ﴾ الذي يتميز فيه المخلص عن المدعى والمكروه الذي لا أصعب على النفس منه . يروى أنه لما وصل موضع السجود منه الأرض جاء الفرج . وقيل : إنه وضع السكين على قفاه فانقلب السكين وونودي يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا . فنظر فإذا جبرائيل عليه السلام معه كبش أقرن أملح فكبر جبرائيل والكبش وإبراهيم وابنه وأتى المنحر من منى فذبحه وذلك قوله سبحانه ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ والفداء جعل الشيء مكان غيره لدفع الضرر عنه ، . والذبح اسم لما

يذبح كالطحن لما يطحن . وقوله ﴿ عظيم ﴾ أي سمين ضخم الجثة بالقياس إلى أمثاله وهي السنة في الأضاحي . قال صلى الله عليه وسلم " استشرفوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم " والاستشراف جعلها شريفة وكريمة . وعن سعيد بن جبير : حق له أن يكون عظيماً وقد رعى في الجنة أربعين خريفاً . وفي قول ابن عباس : إنه الكبش الذي قربه هابيل فقبل منه وكان يرعى في الجنة إلى أن فدى به غسماعيل .

وقيل : سمي عظيماً لعظم قدره حيث قبله الله تعالى فداء عن ولد خليله . وقيل : وصفه بالعظم لبقاء أثره إلى يوم القيامة فإنه ما من سنة إلا ويذبح بسبب ذلك من الأنعام ما لا يحصيه إلا الله . وعن الحسن : أنه وعل أهبط عليه من ثبير . وقال السدّي : نودي إبراهيم فالتفت فإذا هو بكبش أملح ينحط من الجبل فقام عند إبراهيم عليه السلام فذبحه وخلى ابنه .

استدل بعض الأصوليين من أهل السنة بالآية على جواز نسخ الحكم قبل حضور وقته . وقالت المعتزلة . وكثير من فقهاء الشافعية والحنفية بعدم الجواز لاستلزامه البداء أو الجهل ، وزعموا أنه تعالى أمر إبراهيم في المنام بمقدمات الذبح كاضجاع ابنه ووضع السكين على حلقه ، والعزم الصحيح على الإتيان بذلك الفعل أوان ورود الأمر . سلمنا أنه أمر بنفس الذبح لكن لم يجوز أنه قطع الحلقوم إلا أنه كان يلتئم جزءاً فجزءاً فلهذا قيل له ﴿ قد صدّقت الرؤيا ﴾ . والفداء فضل من الله في حقه وتعظيم له بدلاً من عدم وقوع الذبح في الظاهر ولهذا قال ﴿ وفديناه ﴾ . بإسناد الفداء إلى ذاته تعالى . والحق أن نسخ الحكم قبل وقته لا يدل على البداء والعبث كما أنه بعد الوقت لا يدل على ذلك فقد يكون غرض الآمر أن يعلم أن المأمور هل يعزم على الفعل ويوطن نفسه على الانقياد والطاعة أم لا . وتصديق الرؤيا يكفي فيه الإتيان بمثل هيئة الذبح ، فمن الرؤيا ما يكون تأويلها بالشبيه كرؤيا يوسف ، والفداء زيادة تشريف وتكريم ووضع سنة مؤكدة . وروي أن الكبش هرب من إبراهيم عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فبقيت سنة في الرمي . وروي أنه لما ذبحه قال جبرائيل : الله أكبر الله أكبر . فقال الولد الذبيح : لا إله إلا الله والله أكبر . فقال إبراهيم : الله أكبر ولله الحمد . فبقي سنة . قوله ﴿ وتركنا ﴾ إلى قوله ﴿ المؤمنين ﴾ قد مر نظيره في قصة نوح إلا أنه لم يقل ههنا ﴿ في العالمين ﴾ اكتفاء بما علم في قصة نوح . ولم يقل ههنا ﴿ إنا كذلك ﴾ بل اقتصر على ﴿ كذلك ﴾ لأنه سبق ذكر

التأكيد في هذه القصة فلم يحتج إلى إعادته على أنه قد بقي من القصة شيء فناسب الاختصار في الاعتراض. قوله ﴿ وبشرناه بإسحق ﴾ من جعل الذبيح إسماعيل قال: وبشرناه بإسحق بعد إسماعيل. ومن جعل الذبيح إسحق قال بشر بنبوّته وقد كان بشر بمولده. قوله ﴿ نبياً من الصالحين ﴾ كل منهما حال مقدرة من الفاعل أي بشرناه به مقدراً



---

وعالماً وحاكماً بأنه نبي صالح. وقد أطنب صاحب الكشاف في هذا المقام حيث بنى الكلام على أنه حال مقدرة من إسحق. وهو عندي تطويل بلا طائل فليتأمل. ﴿ وباركنا عليه ﴾ قيل: أي على الغلام المبشر به.



---

قيل: على إبراهيم: ﴿ وعلى إسحق ﴾ اي أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا. ومن جملة ذلك ما روي أنه أخرج من صلب غسحق ألفي نبي أوّلهم يعقوب وآخرهم عيسى وهم المشار إليهم بقوله ﴿ ومن ذريتهما محسن ﴾ ويعلم من قوله ﴿ وظالم لنفسه ﴾ أن

البر قد يلد الفاجر ولا عار على الأب ، وأن الشرف بالحسب لا بالنسب . وأما قصة موسى فلا خفاء بها . والكرب العظيم تسلط فرعون وجفاؤه على قومه . وقيل : الغرق . والضمير في ﴿ نصرناهم ﴾ لها ولقومهما . والمستبين البليغ في بيانه وهو التوراة بان وأبان واستبان بمعنى إلا أن الثالث أبلغ . والصراط المستقيم دين الله الذي اشترك في أصوله جميع الرسل . وأما إلياس فالجمهور على أنه نبي من بني غسرائيل بعث بعد موسى وكان من ولد هارون . وقيل : هو إدريس النبي وقد مر ذكره في سورة مريم . و " إذ " ظرف 3 لمحذوف أي اذكر يا محمد لقومك ﴿ إذ قال لقومه ألا تتقون ﴾ الله . قال الكلبي . أي ألا تخافون عبادة غير الله . وحين خوّفهم مجملاً ذكر سببه فقال ﴿ أتدعون ﴾ أي أتعبدون ﴿ بعلاً ﴾ وهم اسم صنم من ذهب كان ببعلبك من بلاد الشام طوله عشرون ذراعاً وله اربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياءه ، فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس . قال الإمام فخر الدين الرازي رضي الله عنه : لو جوّزنا دخول الشيطان في جوف الصنم وتكلمه فيه لكان قادحاً في كثير من المعجزات كحنين الجذع وكلام الجمل . قلت : هذا الوهم زائل بعد ثبوت النبوّة بمعجزات أخر . وقيل : البعل الرب بلغة اليمن . والمعنى أتبعدون بعض البعول وتتركون عبادة أحسن الخالقين . ثم بين أجزاء تكذيبهم أنهم محضرون في العذاب غداً . وباقي القصة ظاهر إلا قوله ﴿ إلياسين ﴾ فمن قرأ بالإضافة

فعلى أن إدريس بن ياسين أي سلام على أهل ياسين . وقيل : آل ياسين آل محمد صلى الله عليه وسلم . وقل : يس اسم القرآن فكأنه قيل : سلام



---

على من آمن بكتاب الله . والوجه الأوّل هو أنسب الأقوال . ومن قرأ على صورة الجمع فقد قال الفراء : اراد به إلياس وأتباعه من المؤمنين كقولهم المهلبون والأشعرون بتخفيف ياء النسبة . وقيل : إنه لغة في إلياس . قال الزجاج : يقال ميكائيل وميكائين فكذا ههنا .

حكى الثعلبي وغيره أن إلياس نبي من سبط هارون بعثه الله إلى بني إسرائيل وكان فيهم ملك يقال له " أحب " وله امرأة يقال لها " إزبيل " وكانت تبرز للناس كما يبرز زوجها وتجلس للحكم كما يجلس ، فأتاهما إلياس ودعاهما إلى الله تعالى فأبيا عليه وهما بقتله فاختفى منهما سبع سنين ، وكان اليسع خليفته وآل أمره إلى أن أوحي إليه أن اخرج إلى موضع كذا فما جاءك فاركبه ولا تخف .



---

فجاء فرس من نار فوثب عليه وناداه خليفته اليسع بن أخطوب ما تأمرني ؟ فرمى إلياس إليه بكسائه من الجوّ وكان ذلك عليه علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل . ورفع الله إلياس من بين أظهرهم وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وكساه الريش فكان إنسياً ملكياً ارضياً سماوياً . وقيل : إلياس موكل بالفيافي كما وكل الخضر بالبحار ، وهما آخر من يموت من بني آدم . وكان الحسن يقول : قد هلك إليا والخضر ولا نقول كما يقول الناس . وقصة لوط مذكورة مراراً . ومعنى ﴿ مصبحين وبالليل ﴾ أن مشركي العرب كانوا مسافرين إلى الشأم فلعل أكثر مرورهم بتلك الديار كان في هذين الوقتين لأمر عارض كحر أو غيره .

وقصة يونس أيضاً مما سبق ذكرها ، وفيها مزيد تسلية وتثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم قال بعضهم : إنه أرسله ملك زمانه إلى أولئك القوم ليدعوهم إلى الله تعالى . فالإباق وهو هرب العبد من سيده لا يوجب العصيان ، والأظهر أن قوله ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ مذكور في معرض التعظيم على قياس أوائل سائر القصص ، ولن يفيد هذه الفائدة إلا إذا كان الإرسال من الله تعالى . وأما الجواب عن إباقة فقد مر في قوله ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً ﴾ [ الأنبياء : 87 ] قوله ﴿ المشحون ﴾ كالعلة لقوله ﴿ فساهم ﴾ والسماهمة المقارعة . يقال : أسهم القوم إذا اقترعوا . قال المبرد : هي من السهام التي تجال للقرعة ، والمدحض المغلوب في الحجة وغيرها وحقيقته الذي أزلق عن مقام الظفر والغلبة . يروى أنه حين غضب على قومه خرج من بينهم حتى بحر الروم ووجد سفينة

مشحونة فحملوه فيها ، فلما وصلت إلى لجة البحر أشرفت على الغرق فقال الملاحون : إن فيكم عاصياً وإلا لم يحصل في السفينة ما رناه من غير ريح ولا سبب ظاهر . وقد يزعم أهل البحر أن السفينة إذا كان فيها آبق لا تجري فاقترعوا فخرج من بينهم يونس . فقال التجار : نحن أولى بالمعصية من نبي الله . ثم عادوا ثانياً وثالثاً فخرج سهمه فقال : يا هؤلاء أنا العاصي

(287/656)

---

ورمى نفسه إلى الماء . ﴿ فالتقمه الحوت ﴾ أي ابتلعه كاللقمة ﴿ وهو مليم ﴾ داخل في الملامة ومنه المثل : رب لائم مليم . أي يلوم غيره وهو أحق منه باللوم ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ قيل : أي من المصلين . قيل : أي من المصلين . عن قتادة : كان كثير الصلاة في الرخاء . وقيل : من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح والتقديس كما قيل : اذكر الله في الخلوات يذكرك في الفلوات . والأظهر أن المراد منه ما حكى الله تعالى في آية أخرى أنه كان يقول في تلك الظلمات ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ [ الأنبياء : 87 ] .

والضمير في ﴿ يبعثون ﴾ للخلائق بالقرينة وقوله ﴿ للبث ﴾ في أقوال : أحدها : يبقى هو والحوت إلى يوم البعث .

(288/656)

---

والثاني يموت الحوت ويبقى هو في بطنه . والثالث يموتان ثم يحشر يونس من بطنه . واختلفوا في مدّة لبثه في بطن الحوت ، فعن الحسن أنه لم يلبث إلا قليلاً . وقيل : ثلاثة ايام . وعن عطاء : سبعة . وعن الضحاك : عشرون . وقال الكلبي : أربعون . روي أن الحوت سار مع السفينة رافعاً راسه يتنفس فيه يونس ويسبح ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر فلفظه بالعراء وهو المكان الخالي لا شجر فيه ولا شيء يغطيه . عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " سبح يونس في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا ربنا إنا لنسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة . فقال : نعم ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر فقالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح . قال : نعم فشفعوا له فأمر الحوت فقذفه في الساحل " وحكي في بعض التفاسير وإن لم يطابقه رأي أصحاب المسالك كل المطابقة أن الحوت أخرجه إلى نيل مصر ثم إلى بحر فارس ثم إلى البطائح ثم دجلة فلفظه بأرض نصيبين لم تنله آفة إلا أن بدنه عاد كبدن الصبي حين يولد ،

فأنبت الله عليه شجرة من يقطين وذلك كالمعجزة له . قال المبرد والزجاج : هو " يفعيل " من قطن بالمكان إذا أقام به فيشمل كل شجرة لا تقوم على ساق كالدباء والبطيخ إلا أن المفسرين خصصوه بالدباء قالوا : لأن الذباب لا يجتمع عنده وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لتحب القرع . قال : أجل هي شجرة أخي يونس . قال الواحدي : في الآية دلالة أوّلاً على أن اليقطين لم يكن من قبل فأنبته الله لأجله . والآخر أن اليقطين كان قائماً بحيث يحصل له ظل . قلت : الثاني مسلم إلا أن الأول ممنوع إن أراد به النوع وإن أراد به الشخص فمسلم . وقيل : هي التين . وقيل : هي شجرة الموز تغطى بورقها واستظل بأغصانها واغتذى من ثمارها . وروي أنه كان يستظل بالشجرة وكانت وعلة تأتيه فيشرب من لبنها . وروي أنه مر زمان على الشجرة فيبست فبكى جزعاً فأوحى



---

إليه : بكيت على شجرة ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون فرجع إلى قومه . وقد سبق في سورة يونس باقي التفسير و " أو " في قوله ﴿ أو يزيدون ﴾ ليست للشك وإنما المراد وصفهم بالكثرة في مأرى الناظر أي إذا رآها الرائي قال هي مائة ألف أو أكثر . ومن هذا التأويل يتضح وجه العطف من حيث المعنى كأنه قيل : وأرسلناه إلى جم غفير مقول فيهم

إنهم مائة ألف أو يزيدون . وقيل : التقدير وأرسلناه إلى مائة ألف وارسلناه إلى قوم تزيدون في الإيهام . وكم الزائد ؟ قيل : ثلاثون ألفاً . عن ابن عباس . وقيل : بضعة وثلاثون .



---

وقيل : بضعة وأربعون . وقيل : سبعون . وجاء مرفوعاً عشرون الفاً . ويحتمل أن يراد أو يزيدون في مرور الزمان لأنه يبقى فيهم مدة كما قال ﴿ فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ هو انقضاء آجالهم . وقيل : القيامة وقد مر . ثم عطف قوله ﴿ فاستفتهم ﴾ على مثله في أول السورة . والوجه فيه أنه أمر رسوله باستفتاء قريش عن سبب إنكار البعث ، ثم ساق الكلام متصلاً بعضه ببعض على ما عرفت في أثناء التفسير ، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى حين أضافوا البنات إلى الله تعالى قائلين الملائكة بنات الله مع كراهتهم التامة لهن ورغبتهم الوافرة في البنين . وحين استفتاهم على سبيل التوبيخ شرع في تزييف معتقدهم بقسمة عقلية وذلك أن سند الدعوى إما أن يكون حساً أو خبراً أو نظراً . أما الحس فمفقود لأنهم ما شاهدوا كيفية تخليق الله الملائكة وهو المراد من قوله ﴿ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ﴾ وأما الخبر فكذلك لأن الخبر إنما يفيد العلم إذا علم أنه صدق قطعاً وهؤلاء كذابون أفاكون وأشار إليه بقوله ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله

وإنهم لكاذبون ﴾ وأما النظر فمفقود أياضً وبيانه من وجهين : الأول أن دليل العقل يقتضي فساده لأنه تعالى أكمل الموجودات والأكمل لا يليق به اصطفاء الأخس لأجل نفسه وذلك قوله ﴿ اصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون ﴾ من قرا اصطفى بفتح الهمزة فلأنه استفهام بطريق الإنكار وقد حذفت همزة الوصل للتخفيف ، ومن قرأ بكسرها على الإخبار جعله من جملة كلام الكفرة . الثاني : عدم الدليل على صحة مذهبهم وهو قوله ﴿ أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴾ نظيره ما مر في قوله ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴾ [ الروم : 35 ] وقوله ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ للمفسرين فيه قولان : أحدهما أنهم الطائفة الأولى والمعنى أنهم جعلوا بين الله وبين الملائكة نسبة بسبب قولهم إنهم بناته فإن الولادة

(291/656)

---

تقتضي الجنسية والمناسبة ، وفيه توبيخ لهم على أن من صفته الاحتنان والاستتار كيف يصلح أن يكون مناسباً لا يجوز عليه صفات الإجرام ، وعلى هذا فالضمير في قوله ﴿ إنهم لمحضرون ﴾ للكفرة . والمعنى أنهم يقولون ما يقولون في الملائكة وقد علمت الملائكة أنهم في ذلك كاذبون وأنهم محضرون النار معذبون بما يقولون . وثانيهما أنهم طائفة من الزنادقة

قائلون بيزدان واهر من كما مر في " الأنعام " في قوله ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ [ الآية : 100 ] وعلى هذا فالضمير إما للكفار كما مر ، وإما للشياطين . روى عكرمة أنهم قالوا : سروات الجن بنات الرحمن . وقال الكلبي : زعموا أن الله سبحانه تزوّج إلى الجن فخرج منها الملائكة . والتاء في الجنة للتأنيث كحق وحقة .

قال جار الله : الاستثناء في قوله ﴿ إلا عباد الله ﴾ منقطع معناه إنهم لمحضرون ولكن المخلصين ناجون وما بينهما اعتراض دال على التنزيه .



---

وجوّز أن يكون الاستثناء من الضمير في ﴿ يصفون ﴾ اي يصفه هؤلاء بذلك ، ولكن أهل الإخلاص مبرؤن من وصفه بما لا ينبغي . وحين بين المذاهب الفاسدة بقضها بيّن أن أهل الشرك ومعبوديهم ليس لهم أن يفتنوا على الله أي يحملوا غيرهم على سلوك سبيل الفتنة والضلال إلا من سبق في علم الله بأنه من أهل النار . وقالت المعتزلة : إلا من سبق في علمه أنهم بسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها . وجوز جار الله أن تكون الواو في ﴿ وما تعبدون ﴾ بمعنى " مع " وجاز السكوت على ﴿ تعبدون ﴾ كما في قولهم "كل رجل وضيعته " . ثم قال ﴿ ما أنتم عليه ﴾ أي على ما تعبدون ﴿ بفاتنين إلا من هو صال ﴾

مثلكم . وقال : والوجه في نظم هذه الآيات أن يكون قوله ﴿ سبحان الله ﴾ إلى قوله ﴿ المسبحون ﴾ من كلام الملائكة والمعنى : ولقد علمت الملائكة وشهدوا أن المشركين مفترون عليهم في مناسبة رب العزة وقالوا : سبحان الله ، فنزهوه عن ذلك واستثنوا عباده المخلصين . وقالوا للكفرة : فإذا صح ذلك فإنكم وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على الله أحداً من خلقه إلا من كان مثلكم ممن علم الله عز وجل لكفرهم أنهم أهل النار . وكيف نكون مناسبين لرب العزة وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه لكل منا مقام من الطاعة لا يستطيع أن يتجاوزه ونحن الصافون كما مر في أول السروة ونحن المسبحون وقال في التفسير الكبير : هاتان الجملتان تدلان على الحصر ، وفيه إشارة إلى أن طاعة البشر كالعدم بالنسبة إلا طاعة الملك فكيف يجوز أن يقال : البشر تقرب درجتهم من درجة الملك فضلاً عن دعوى الأفضلية ؟ قلت : لا شك أن هذا التركيب يفيد الحصر إلا أنه لم يفرق بين قصر الأول على الثاني كما في الآية وبين عكسه ، والذي يفيد مدعاه هو العكس لا الأصل فافهم . وقيل : هذه الآيات من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أي وما من المسلمين أحد إلا له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله . ثم ذكر أعمالهم وأنهم الذين يصطفون في الصلاة

ويسبحون الله وينزهونه . ثم حكى أن مشركي قريش ﴿ كانوا يقولون لو أن عندنا ذكراً ﴾ أي كتاباً من جملة كتب الأوّلين اي نظيرها في بيان الشرائع والتكاليف لأخلصنا العبادة لله . وإن مخففة واللام فارقة ﴿ فكفروا به ﴾ الفاء للربط أي فجاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار فكفروا به ﴿ فسوف يعلمون ﴾ وخامة عاقبة التكذيب . وقيل : أرادوا لو علمنا حال آبائنا وما آل إليه أمرهم وكان ذلك كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم لآمنا به وأخلصنا لكنا على شك من حديثه . ثم بين أن رسل الله وجنده منصورون غالبون عاجلاً وآجلاً ، والأول أكثريّ والثاني تحقيق يقيني .

(294/656)

ثم أمر نبيه بالصفح والإغماض إلى أوان النصرة والغلبة قائلاً ﴿ فتوّل عنهم ﴾ أي أعرض عن أذاهم إلى حين الأمر بالقتال أو إلى يوم بدر . عن السدي : أو إلى الموت والقيامة . ﴿ وأبصرهم ﴾ وما يقضى عليهم من السر والقتل في الدنيا والعذاب في الآخرة فسوف يبصرونك وما يؤل غليه أمرك من النصر والثواب في الدارين . وفي هذا الأمر تنفيس عن النبي صلى الله عليه وسلم وتسلية له كأن الحالة الموعودة قدام عينيه قرباً وتحققاً . و ﴿

سوف ﴾ في الموضعين للوعيد لا للتبعيد وكأنهم فهموا التسويف فاستعجلوا العذاب فوبخوا عليه. وكان من عادة العرب أن يغيروا صباحاً فسميت الغارة صباحاً وإن وقعت في وقت آخر، وشبه نزول العذاب بساحتهم بعدما أنذروه بجيش أنذر بعض النصحاء بهجومه قومه فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم حتى أناخ بفنائهم بغتة فشنّ الغارة عليهم. وقيل: نزل في فتح مكة. وعن أنس: لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحي قالوا: محمد والخميس. ورجعوا إلى حصنهم فقال صلى الله عليه وسلم: الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين أي صباحهم، فحذف المخصوص بالذم. واللام في ﴿ المنذرين ﴾ للجنس. وإنما ثنى وتول عنهم ليكون تسلية على تسلية. والأول لعذاب الدنيا والثاني للآخرة، وأطلق الفعل الثاني ايضاً اكتفاء بالأول وليفيد فائدة زائدة وهي أنه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيط به الوصف من صنوف المسرة وفنون المساءة. واعلم أن السورة اشتملت على ما قاله المشركون في الله وعلى ما عانى المرسلون من جهتهم وعلى ما يؤل إليه عاقبة الرسل وحزب الله من موجبات الحمد فلا جرم ختمها بكلمات جامعة لتلك المعاني. ومعنى ﴿ رب العزة ﴾ كقوله ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ [آل عمران: 26] والمراد ذي العزة لأنها صفته لا مربوبه. عن ابن عباس أنه سمع رجلاً يقول: اللهم رب القرآن فأنكر عليه وقال: القرآن ليس

بمربوب ولكن كلام الله. والظاهر أن قوله ﴿ عما يصفون ﴾ يتعلق ﴿ بسبحان ﴾ كما في قوله ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ وقل: متعلق بالعزة أي امتنع عما يصفونه به وقد مر شيء من تحقيق هذه الحالة في آخر يس. قال بعضهم: إنما لم يقل في آخر قصتي لوط ويونس سلام عليهما اكتفاء بقوله في الخاتمة ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ عن علي رضي الله عنه: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلس ﴿ سبحان ربك رب العزة ﴾ إلى آخر السورة. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 5 صـ 567.579﴾



وقال الخطيب الشربينى:

القصة الثانية: قصة إبراهيم عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ وإن من شيعته ﴾ أي: ممن شايعه في الإيمان وأصول الشريعة ﴿ لإبراهيم ﴾ ولا يبعد

اتفاق شرعهما في الفروع أو غالباً ، وقال الكلبي : الضمير يعود على محمد صلى الله عليه وسلم أي : وإن من شيعة محمد صلى الله عليه وسلم لإبراهيم عليه الصلاة السلام والشيعة قد تطلق على المتقدم كقول القائل:

*وما لي إلا آل أحمد شيعة ** وما لي إلا مذهب الحق مذهب"*

فجعل آل أحمد وهم متقدمون عليه وهو تابع لهم شيعة له قاله الفراء ، والمعروف أن الشيعة تكون في المتأخر قالوا : كان بين نوح وإبراهيم نبيان هود وصالح ، وروى الزمخشري : أنه كان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة وفي العامل في قوله تعالى:

﴿ إذ جاء ربه ﴾ وجهان أحدهما : اذكر مقدراً وهو المعروف ، والثاني : قال الزمخشري : ما في معنى الشيعة من معنى المشايعة يعني : وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه ورد هذا أبو حيان قال : لأن فيه الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي وهو لإبراهيم ؛ لأنه أجنبي من شيعته ومن إذ ، واختلف في قوله عز وجل ﴿ بقلب سليم ﴾ فقال مقاتل والكلبي : المعنى أنه سليم من الشرك ؛ لأنه أنكر على قومه الشرك ، وقال الأصوليون : معناه أنه عاش ومات على طهارة القلب من كل معصية وقوله تعالى:

﴿ إذا قال لأبيه وقومه ﴾ بدل من إذ الأولى أو ظرف لسليم أو لجاء وقوله تعالى لهم :

﴿ ماذا ﴾ أي : ما الذي ﴿ تعبدون ﴾ استفهام توبيخ تهجين لتلك الطريقة تقبيحها وفي قوله:

﴿ أئفكا آلهة دون الله تريدون ﴾ أوجه من الإعراب أحدها : أنه مفعول من أجله أي : أتريدون آلهة دون الله إفكاً فآلهة مفعول به ودون ظرف لتريدون وقدمت معمولات الفعل اهتماماً بها وحسنه كون العامل رأس فاصلة ، وقدم المفعول من أجله على المفعول به اهتماماً به ؛ لأنه مكافح لهم بأنهم على إفك وباطل وبهذا الوجه بدأ الزمخشري ، الثاني : أن يكون مفعولاً به بتريدون ويكون آلهة بدلاً منه جعلها نفس الإفك مبالغة فأبدلها منه وفسره بها واقتصر على هذا ابن عطية ، الثالث : أنه حال من فاعل تريدون أي : أتريدون آلهة آفكين أو ذوي إفك ، وإليه نحا الزمخشري ، واعترضه أبو حيان بأن جعل المصدر حالاً لا يطرد إلا مع نحو أما علماً فعالم ، والإفك أسوأ الكذب .

﴿ فما ظنكم ﴾ أي : أتظنون ﴿ برب العالمين ﴾ أنه جوز جعل هذه الجمادات مشاركة له في العبودية أو تظنون برب العالمين أنه من جنس هذه الأجسام حتى جعلتموها مساوية له في العبودية فنبههم بذلك على أنه ليس كمثله شيء ، أو فما ظنكم برب العالمين إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره أنه يترككم بلا عذاب لا ، وكانوا نجامين فخرجوا إلى عيد لهم وتركوا طعامهم عند أصنامهم زعموا التبرك عليه فإذا رجعوا أكلوه وقالوا للسيد إبراهيم عليه

الصلاة والسلام : اخرج.

﴿ فنظر نظرة في النجوم ﴾ إيهاماً لهم أنه يعتمد عليها فيتبعوه .

﴿ فقال إني سقيم ﴾ أي : عليل وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة وأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خالياً في بيت الأصنام فيقدر على كسرها .

فإن قيل : النظر في علم النجوم غير جائز فكيف قدم إبراهيم عليه السلام عليه وأيضاً لم يكن سقيماً فكيف أخبرهم بخلاف حاله ؟



---

أجيب عن ذلك : بأنا لا نسلم أن النظر في علم النجوم والاستدلال بها حرام ؛ لأن من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بطبع وخاصة لأجلها يظهر منه أثر مخصوص فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل وأما الكذب فغير لازم ؛ لأن قوله ﴿ إني سقيم ﴾ على سبيل التعريض بمعنى أن الإنسان لا ينفك في أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة إما في بدنه وإما في قلبه وكل ذلك سقم ، وعلى تقدير تسليم ذلك أجيب بأوجه: أحدها : أن نظره في النجوم أو في أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه الحمى في بعض ساعات الليل والنهار ، فنظر ليعرف هل هي تلك الساعة فقال ﴿ إني سقيم ﴾ فجعله عذراً في

تخلفه عن العيد الذي لهم فكان صادقاً فيما قال ؛ لأن السقم كان يأتيه في ذلك الوقت .

ثانيها أنهم كانوا أصحاب النجوم أي : يعلمونها ويقضون بها على أمورهم ، فلذلك نظر إبراهيم في النجوم أي : في علم النجوم كما تقول : نظر فلان في الفقه أي : في علم الفقه فأراد إبراهيم أن يوهمهم أنه نظر في علمهم وعرف منه ما يعرفونه حتى إذا قال لهم ﴿ إني سقيم ﴾ سكنوا إلى قوله ، وأما قوله ﴿ إني سقيم ﴾ فمعناه سأسقم كقوله تعالى ﴿ إنك ميت ﴾ (الزمر : )

أي : ستموت .

ثالثها : أن نظره في النجوم هو قوله تعالى ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ﴾ إلخ الآيات (الأنعام : )

فكان نظره ليتعرف هذه الكواكب هل هي قديمة أو حادثة وقوله ﴿ إني سقيم ﴾ أي : سقيم القلب غير عارف بربي وكان ذلك قبل بلوغه .

رابعها : قال ابن زيد : كان له نجم مخصوص وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض إبراهيم فلهذا الاستقراء لما رآه في تلك الحالة المخصوصة قال ﴿ إني سقيم ﴾ أي : هذا السقم واقع لا محالة .

خامسها : أن قوله ﴿ إني سقيم ﴾ أي : مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع العظيم

على الكفر والشرك كقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فلعلك باخع نفسك ﴾ (الكهف : )

(299/656)

---

سادسها : قال الرازي : قال بعضهم : ذلك القول من إبراهيم عليه السلام كذبة وأوردوا فيه حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات" قلت : ولبعضهم هذا الحديث لا ينبغي أن ينقل ؛ إذ فيه نسبة الكذب إلى إبراهيم عليه السلام فقال ذلك الرجل : فكيف نحكم بكذب الراوي العدل ؟ فقلت له : لما وقع التعارض بين نسبة الكذب إلى الراوي وبين نسبة الكذب إلى الخليل كان من المعلوم بالضرورة أن نسبة الكذب إلى الراوي أولى ، ثم نقول : لم لا يجوز أن يكون المراد بقوله ﴿ فنظر نظرة في النجوم ﴾ أي : نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم فإن الأشياء التي تحدث قطعة قطعة يقال : إنها منجمة أي : مفرقة ومنه نجوم المكاتب والمعنى : أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها حتى يستخرج منها حيلة يقدر بها على إقامة عذر لنفسه في التخلف عنهم فلم يجد عذراً أحسن من قوله : ﴿ إني سقيم ﴾ والمراد : أنه لا بد من أن يصير سقيماً كما تقول لمن رأيته يتجهز للسفر إنك مسافر .

ولما قال: ﴿إني سقيم﴾ تولوا عنه كما قال تعالى:

﴿فتولوا عنه﴾ أي: إلى عيدهم ﴿مدبرين﴾ أي: هاربين مخافة العدوى وتركوه وعذروه في عدم الخروج إلى عيدهم.

﴿فراغ﴾ أي: مال في خفية وأصله من روغان الثعلب وهو تردده وعدم ثبوته بمكان ولا يقال: راغ حتى يكون صاحبه مخفياً لذهابه ومجيئه ﴿إلى آلهتهم﴾ وعندها الطعام ﴿فقال﴾ استهزاء بها ﴿ألا تأكلون﴾ أي: الطعام الذي كان بين أيديهم فلم ينطقوا فقال استهزاء بها أيضاً:

﴿ما لكم لا تنطقون﴾ فلم تجب.



---

﴿فراغ عليهم﴾ أي: مال عليهم مستخفياً وقوله تعالى ﴿ضرباً﴾ مصدر واقع موقع الحال أي: فراغ عليهم ضارباً أو مصدر لفعل، وذلك الفعل حال تقديره فراغ يضرب ضرباً وقوله تعالى: ﴿باليمن﴾ متعلق بضرباً إن لم نجعله مؤكداً وإلا فبعامله، واليمين يجوز أن يراد بها إحدى اليدين وهو الظاهر، وأن يراد بها القوة واقتصر عليه الجلال المحلي فالباء على هذا للحال أي: متلبساً بالقوة وأن يراد بها الحلف وفاء بقوله ﴿وتالله لأكيدن

أصنامكم﴾ (الأنبياء : )

والباء على هذا للسبب وعدى راغ الثاني بعلى لما كان مع الضرب المستولي من فوقهم إلى أسفلهم بخلاف الأول فإنه مع توبيخ لهم، وأتى بضمير العقلاء في قوله تعالى : ﴿عليهم ضرباً﴾ على ظن عبدتها أنها كالعقلاء ثم إنه عليه السلام كسرها فبلغ قومه من ورائه ذلك.

﴿فأقبلوا إليه﴾ أي : إلى إبراهيم بعد ما رجعوا فرأوا أصنامهم مكسرة ﴿يزفون﴾ أي : يسرعون المشي، وقرأ حمزة بضم الياء على البناء للمفعول من أزفه أي : يحملون على الزفيف، والباقون بفتحها من زف يزف فقالوا : نحن نعبدها وأنت تكسرها .

﴿قال﴾ لهم توبيخاً ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ أي : من الحجارة وغيرها أصناماً .

﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ أي : نحتكم ومنحوتكم فاعبدوه وحده .

تنبيه : دلت هذه الآية على مذهب الأشعرية وهو أن فعل العبد مخلوق لله عز وجل وهو الحق وذلك ؛ لأن النحويين اتفقوا على أن لفظ ما مع ما بعده في تقدير المصدر فقوله تعالى ﴿وما تعملون﴾ معناه وعملكم وعلى هذا فيصير معنى الآية : والله خلقكم وخلق عملكم .

ولما أورد عليهم الحجة القوية ولم يقدروا على الجواب عدلوا إلى طريقة الإيذاء لئلا يظهر للعامة عجزهم بأن:

﴿ قالوا ابنوا له بنياناً ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : بنوا حائطاً من الحجر طوله في السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وملؤوه ناراً فطرحوه فيها وذلك هو قوله تعالى ﴿ فألقوه في الجحيم ﴾ وهي النار العظيمة قال الزجاج : كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم . m

﴿ فأرادوا به كيداً ﴾ أي : شراً بإلقائه في النار لتهلكه ﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ أي : المقهورين الأذلين بإبطال كيدهم وجعلنا ذلك برهاناً نيراً على علو شأنه حيث جعلنا النار عليه برداً وسلاماً وخرج منها سالماً .

﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي ﴾ أي : إلى حيث أمرني ربي ونظيره قوله تعالى ﴿ وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ (العنكبوت : )

أي : مهاجر إليه من دار الكفر ﴿ سيهدين ﴾ أي : إلى ما فيه صلاح ديني أو إلى مقصدي وهو الشام ، وإنما بتّ القول لسبق وعده ولفرط توكله أو للبناء على عادته تعالى معه ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث قال ﴿ عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ (القصص : )

فلذلك ذكر بصيغة التوقع .

ولما وصل إلى الأرض المقدسة قال:

﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ أي : هب لي ولداً صالحاً يعينني على الدعوة والطاعة ويؤنسني في الغربة ؛ لأن لفظ هب غلب في الولد وإن كان قد جاء في الأخ في قوله تعالى ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً ﴾ (مريم : )

قال الله تعالى:

﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ أي : ذي حلم كثير في كبره غلام في صغره ، ففيه بشارة بأنه ابن وأنه يعيش وينتهي إلى سن يوصف بالحلم وأي حلم أعظم من أنه عرض عليه أبوه الذبح وهو مراهق فقال : ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ (الصافات : )

وقيل : ما وصف الله تعالى نبياً بالحلم لعزة وجوده غير إبراهيم وابنه اسماعيل عليهما الصلاة والسلام وحالتهما المذكورة تشهد عليه .



---

﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ أي : أن يسعى معه قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة : بلغ معه السعي إي المشي معه إلى الجبل وقال مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما : ما

شب حتى بلغ سعيه بسعي إبراهيم والمعنى : بلغ أن يتصرف معه وأن يعينه في عمله ، وقال الكلبي : يعني العمل لله تعالى وكان له يومئذ ثلاث عشرة سنة ، وقيل : سبع سنين .

تنبيه : معه متعلق بمحذوف على سبيل البيان كأن قائلاً قال : مع من بلغ السعي ؟ فقيل : مع أبيه ولا يجوز تعلقه ببلغ ؛ لأنه يقتضي بلوغهما معاً حد السعي ولا يجوز تعلقه بالسعي ؛ لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه .

وقوله تعالى ﴿ قال يا بني إني أرى ﴾ أي : رأيت ﴿ في المنام أني أذبحك ﴾ يحتمل أنه رأى ذلك وأنه رأى ما هو تعبيره ، وقيل : إنه رأى في ليلة التروية في منامه كأن قائلاً يقول له : إن الله تعالى يأمرك بذبح ابنك ، فلما أصبح تروى في ذلك من الصباح إلى الرواح أمن الله أم من الشيطان ؟ فمن ثم سمي يوم التروية فلما أمسى رأى أيضاً مثل ذلك فعرف أنه من الله تعالى فسمي يوم عرفة ثم رأي مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره فسمي يوم النحر ، وهذا قول أكثر المفسرين ، وهو يدل على أنه رأى في المنام ما يوجب أن يذبح ابنه في اليقظة وعلى هذا فتقدير اللفظ : أرى في المنام ما يوجب أني أذبحك .

تنبيه : اختلف في الذبيح فقيل : هو اسحق عليه السلام وبه قال : عمر وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم وغيرهم ، وقيل : إسماعيل وبه قال ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب رضي الله عنهم وغيرهم وهو الأظهر كما قاله البيضاوي ؛ لأنه الذي وهب له أثر الهجرة ولأن البشارة بإسحق بعد معطوفة على البشارة بهذا الغلام ولقوله صلى الله عليه وسلم "أنا ابن الذبيحين" . وقال له أعرابي : يا ابن الذبيحين فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم فسئل عن ذلك فقال : إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر إن سهل الله أمرها ليذبحن أحد ولده فخرج السهم على عبد الله ، فمنعه أخواله وقالوا له : افد ابنك بمائة من الإبل ولذلك سنت الإبل مائة والذبيح الثاني إسماعيل ، ونقل الأصمعي أنه قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصمعي أين عقلك ومتى كان إسحاق بمكة ؟ وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة .

وقد وصف الله تعالى إسماعيل عليه السلام بالصبر دون إسحاق عليه السلام في قوله تعالى

﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ﴾ (الأنبياء : )

وهو صبره على الذبح ووصفه أيضاً بصدق الوعد فقال : ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾

(مريم : )

لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فقال ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾

(الصافات : )

وقال تعالى : ﴿ فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ﴾ (هود : )

فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له؟ هذا يناقض البشارة المتقدمة.

(304/656)

---

وقال الإمام أحمد بن حنبل : الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه السلام وعليه جمهور العلماء من الخلف والسلف قال ابن عباس : وزعمت اليهود أنه اسحق عليه السلام وكذبت اليهود وما روي أنه صلى الله عليه وسلم "سئل أي النسب أشرف؟ فقال : يوسف صديق الله بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله" فالصحيح أنه قال : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم والزوائد من الراوي ، وما روي أن يعقوب كتب إلى يوسف مثل ذلك لم يثبت وقال محمد بن إسحاق : كان إبراهيم عليه السلام إذا زار هاجر وإسماعيل حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام حتى بلغ إسماعيل معه السعي أمر في المنام أن يذبحه قال مقاتل : رأى ذلك إبراهيم عليه السلام ثلاث ليال متتابعات فلما تيقن ذلك قال لابنه ﴿ فانظر ماذا ترى ﴾ من الرأي : فشاوره ليأنس بالذبح وينقاد للأمر به قال ابن اسحق

وغيره ولما أمر إبراهيم بذلك قال لابنه : يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق إلى هذا الشعب نحتطب فلما خلا إبراهيم بابنه في الشعب شعب ثبير أخبره بما أمر . ﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ﴾ أي : ما أمرت به ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ أي : على ذلك ، وقرأ ﴿ يا بني ﴾ حفص بفتح الياء ، والباقون بالكسر ، وقرأ ﴿ إني أرى ﴾ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء ، والباقون بالسكون ، وقرأ ﴿ ماذا ترى ﴾ حمزة والكسائي بضم التاء وكسر الراء ، والباقون بفتحهما والحكمة في مشاورته في هذا الأمر ليظهر له صبره في طاعة الله تعالى فيكون فيه قرة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ في الحكمة إلى هذا الحد العظيم والصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة والثناء الحسن في الدنيا .



---

وقرأ يا أبت ابن عامر في الوصل بفتح التاء ، وكسرها الباقون والتاء عوض عن ياء الإضافة ، ووقف عليها بالهاء ابن كثير وابن عامر ، ووقف الباقون بالتاء والرسم بالتاء وفتح ياء ستجدني في الوصل نافع ، وسكنها الباقون .

﴿ فلما أسلما ﴾ أي : انقادا وخضعا لأمر الله ، وقال قتادة : أسلم إبراهيم ابنه وأسلم

الابن نفسه ﴿ وتله للجبين ﴾ أي : صرعه على شقه فوقع جبينه على الأرض وهو أحد جانبي الجبهة ، والجبهة بين الجبينين وشذ جمعه على أجبن ، وقياسه في القلة أجبنة كأرغفة وفي الكثرة جبن وجبنان كرغيف ورغف ورغفان ، وقيل : إنه لما أراد ذبحه قال : يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب فينقص أجري ، واكفف عني ثيابي حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء وتراه أمي فتحزن حزناً طويلاً ، واشحذ شفرتك وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون علي فإن الموت شديد ، وإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني ، وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني فقال له إبراهيم : نعم العون أنت يا بني على أمر الله تعالى ففعل إبراهيم ما أمر به ابنه ، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهو يبكي والابن يبكي ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم تحل شيئاً ثم أنه شحذها مرتين أو ثلاثاً بالحجر كل ذلك لا يستطيع أن يقطع شيئاً ، قال السدي : ضرب الله تعالى صفيحة من نحاس على حلقه قال : فقال الإبن عند ذلك يا أبت كبني على وجهي لجبيني فإنك إذا نظرت في وجهي رحمتني وأدركتك رحمة تحول بينك وبين أمر الله وأنا لا أنظر الشفرة فأجزع ، ففعل ذلك إبراهيم ووضع السكين على قفاه فانقلبت السكين .

﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ أي : بالعزم والإتيان بالمقدمات ما أمكنك .

تنبيه : في جواب لما ثلاثة أوجه أظهرها : أنه محذوف ، أي : نادته الملائكة عليهم السلام أو

ظهر صبرهما أو أجزلنا لهما أجرهما ، وقدره بعضهم بعد الرؤيا كان ما كان مما ينطق به الحال والوصف مما لا يدرك كنهه .



---

ونقل ابن عطية أن التقدير : فلما أسلما سلما وتله للجبين ويعزى هذا لسيبويه وشيخه الخليل .

الثاني : أنه وتله للجبين والواو زائدة ، وهو قول الكوفيين والأخفش ، الثالث : أنه وناديناه والواو زائدة أيضاً واقتصر على هذا الجلال المحلي ، وروى أبو هريرة عن كعب الأحبار : أن إبراهيم عليه السلام لما رأى ذبح ولده قال الشيطان : لئن لم أفتن آل إبراهيم عند هذا لم أفتن أحداً منهم أبداً فتمثل الشيطان في صورة رجل وأتى أم الغلام وقال : هل تدرين أين يذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت : ذهب به يحتطبان من هذا الشعب قال : والله ما ذهب به إلا ليذبحه ، قالت : كلا هو أرحم به وأشد حباً له من ذلك ، قال : إنه يزعم أن الله أمره بذلك ، قالت : فإن كان ربه أمره بذلك فقد أحسن إن يطيع ربه ، فخرج من عندها الشيطان ، ثم أدرك الابن وهو يمشي على إثر أبيه فقال له : يا غلام هل تدري أين يذهب بك أبوك ؟ قال : نحتطب لأهلنا من هذا الشعب قال : والله ما يريد إلا أن يذبحك ، قال : ولم ؟ قال : زعم أن

ربه أمره ، قال : فليفعل ما أمره به ربه فسمع وطاعة ، فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم فقال له : أين تريد أيها الشيخ ؟ قال : أريد هذا الشعب لحاجة لي فيه ، قال : والله إني لأرى الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ولدك هذا ، فعرفه إبراهيم فقال : إليك عني يا عدو الله فوالله لأمضين لأمر ربي فرجع إبليس بغيظه لم يصب من إبراهيم وآله شيئاً كما أراد الله عز وجل .

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس رضي الله عنه : أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أمر بذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا المشعر فسابقه فسبقه إبراهيم ثم ذهب إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى فنودي من الجبل أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا .



---

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿ قد صدقت الرؤيا ﴾ وكان قد رأى الذبح ولم يذبح ؟

أجيب : بأنه جعله مصدقاً لأنه قد أتى بما أمكنه والمطلوب استسلامهما لأمر الله تعالى

وقد فعل ، ا وقيل : كان قد رأى في النوم معالجة الذبح ولم ير إراقة الدم وقد فعل في اليقظة ما رآه في النوم ، ولذلك قال : ﴿ قد صدقت الرؤيا ﴾ قال المحققون : السبب في هذا التكليف كمال طاعة إبراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذه التكاليف الشاقة الشديدة وظهر منه كمال الطاعة والانقياد لا جرم قال الله تعالى : ﴿ قد صدقت الرؤيا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ ابتداء إخبار من الله تعالى ، والمعنى : إنا كما عفونا عن ذبح ولدك كذلك نجزي من أحسن في طاعتنا ، قال مقاتل : جزاء الله تعالى بإحسانه في طاعته العفو عن ذبح ابنه .

﴿ إن هذا ﴾ أي : الذبح المأمور به ﴿ لهو البلاء المبين ﴾ أي : الاختبار الظاهر الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم ، والمحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها وقال مقاتل : البلاء ههنا النعمة وهو أن فدى ابنه بالكبش كما قال تعالى:

﴿ وفديناه ﴾ أي : المأمور بذبحه وهو إسماعيل وهو الأظهر ، وقيل : إسحق ﴿ بذبح عظيم ﴾ أي : عظيم الجثة سمين أو عظيم القدر ؛ لأن الله تعالى فدى به نبياً ابن نبي وأي نبي من نسله سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام ، وهو كبش أتى به جبريل عليه السلام من الجنة وهو الذي قربه هابيل ، فقال لإبراهيم : هذا فدا ولدك فاذبحه دونه ، فكبر إبراهيم وكبر ولده ، وكبر جبريل وكبر الكبش وأخذ إبراهيم الكبش ، وأتى به المنحر من منى فذبحه ، قال البغوي : قال أكثر المفسرين : كان ذلك الذبح كبشاً رعى في الجنة أربعين

خريفاً ، وقيل : كان وعلاً أهبط عليه من ثبير ، وروي أنه هرب منه عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فصارت سنة .

تنبيه : الذبح مصدر ويطلق على ما يذبح وهو المراد في هذه الآية .

(308/656)

---

﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ ثناء حسناً ، وقوله تعالى : ﴿ سلام ﴾ أي : منا ﴿ على إبراهيم ﴾ سبق بيانه في قصة نوح عليهما السلام .

﴿ كذلك ﴾ أي : كما جزيناك ﴿ نجزي المحسنين ﴾ لأنفسهم ، وقوله تعالى:

﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ تعليل لإحسانه بالإيمان إظهاراً لجلالة قدره وأصالة أمره وقوله تعالى:

﴿ وبشرناه بإسحق ﴾ فيه دليل على أن الذبيح غيره ، وقد مرت الإشارة إلى ذلك ، وقوله تعالى ﴿ نبياً ﴾ حال مقدرة أي : يوجد مقدراً نبوته ، وقوله تعالى : ﴿ من الصالحين ﴾ يجوز أن يكون صفة لنبياً وأن يكون حالاً من الضمير في نبياً فتكون حالاً متداخلة ، ويجوز أن تكون حالاً ثانية ومن فسر الذبيح بإسحق عليه السلام جعل المقصود من البشارة نبوته ، وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه وإيماء بأنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال

والتكميل.

﴿ وباركنا عليه ﴾ أي: على إبراهيم عليه السلام بتكثير ذريته ﴿ وعلى إسحق ﴾ بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل وغيرهم كأيوب وشعيب عليهم السلام فجميع الأنبياء بعده من صلبه إلا نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم فإنه من ذرية إسماعيل عليه السلام وفيه إشارة إلى أنه مفرد علم فهو صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿ ومن ذريتهما محسن ﴾ أي: مؤمن طائع ﴿ وظالم ﴾ أي: كافر وفاسق ﴿ لنفسه مبين ﴾ أي: ظاهر ظلمه، وفي ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال وأن الظلم في أعقابهما لا يعود عليهما بنقيصة وعيب ولا غير ذلك والله أعلم.

القصة الثالثة: قصة موسى وهارون عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ ولقد مننا على موسى وهرون ﴾ أي: أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية.

﴿ ونجيناهما وقومهما ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿ من الكرب ﴾ أي: الغم ﴿ العظيم ﴾ أي: الذي كانوا فيه من استعباد فرعون إياهم، وقيل: من الغرق، والضمير في قوله تعالى:

﴿ ونصرناهم ﴾ يعود على موسى وهارون وقومهما ، وقيل : على الإثنين بلفظ الجمع تعظيماً كقوله تعالى ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ (الطلاق : )

وقول الشاعر:

فإن شئت حرمت النساء سواكم .

﴿ فكانوا هم الغالبين ﴾ أي : على فرعون وقومه في كل الأحوال ، أما في أول الأمر فبظهور الحجة ، وأما في آخر الأمر فبالدولة والرفعة .

تنبيه : يجوز في هم أن يكون تأكيداً ، وأن يكون بدلاً ، وأن يكون فصلاً وهو الأظهر .

﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين ﴾ أي : المستنير البليغ البيان المشتمل على جميع العلوم المحتاج إليها في مصالح الدين والدنيا وهو التوراة كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ (المائدة : )

﴿ وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ أي : دللناهما على الطريق الموصل إلى الحق والصواب عقلاً وسمعاً .

﴿ وتركنا ﴾ أي : أبقينا ﴿ عليهما ﴾ ثناء حسناً ﴿ في الآخرين ﴾ ﴿ سلام ﴾ أي : منا ﴿ على موسى وهارون ﴾ ﴿ إنا كذلك ﴾ أي : كما جزيناهما ﴿ نجزي المحسنين ﴾

وقوله تعالى:

﴿ إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ تعليل لإحسانهما بالإيمان وإظهار لجلالة قدره وأصالة

أمره .

القصة الرابعة قصة الياس عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ وإن الياس لمن المرسلين ﴾ روي عن ابن مسعود أنه قال : الياس هو إدريس ، وهو قول عكرمة وقال أكثر المفسرين : إنه نبي من أنبياء بني إسرائيل ، قال ابن عباس : وهو ابن عم اليسع عليهما السلام ، وقال محمد بن إسحاق : هو إلياس بن بشير بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران عليهما السلام .

(310/656)

---

تنبيه : أذكر فيه شيئاً من قصته عليه السلام قال علماء السير والأخبار : لما قبض الله تعالى حزقيل النبي عليه السلام عظمت الأحداث في بني إسرائيل وظهر فيهم الفساد والشرك ونصبوا الأصنام وعبدوها من دون الله عز وجل ، فبعث الله تعالى إليهم إلياس نبياً وكانت الأنبياء من بني إسرائيل يبعثون بعد موسى عليه السلام بتجديد ما نسوا من أحكام التوراة ، وبنو إسرائيل كانوا متفرقين في أرض الشام وكان سبب ذلك أن يوشع بن نون عليه السلام لما فتح الشام قسمها على بني إسرائيل وأحل سبطاً منها ببعلبك ونواحيها وهم السبط الذين كان منهم الياس ، فبعثه الله تعالى إليهم نبياً وعليهم يومئذ ملك اسمه

لاجب وكان أضل قومه وجبرهم على عبادة الأصنام ، وكان لهم صنم طوله عشرون ذراعاً وله أربعة وجوه وكان يسمى : ببعل وكانوا قد فتنوا به وعظموه وجعلوا له أربعمائة سادن أي : خادم ، وكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها عنه ويبلغونها الناس وهم أهل بعلبك ، وكان الياس يدعوهم إلى عبادة الله وهم لا يسمعون له ولا يؤمنون به إلا ما كان من أمر الملك فإنه آمن به وصدقه ، فكان إلياس يقوم بأمره ويسدده ويرشده وكان للملك امرأة تسمى : بإزميل جبارة وكان يستخلفها على ملكه إذا غاب عنهم في غزاة أو غيرها ، وكانت تبرز للناس فتقضي بينهم وكانت قتالة للأنبياء ، ويقال : إنها هي التي قتلت يحيى بن زكريا عليهما السلام ، وكان له كاتب رجل مؤمن حليم يكتم إيمانه وكان قد خلص من يدها ثلثمائة نبي كانت تريد قتلهم إذا بعث كل واحد منهم سوى الذين قتلتهم وكانت في نفسها غير محصنة ، وكانت قد تزوجت سبعة من ملوك بني إسرائيل وقتلتهم كلهم بالاغتيال وكانت معمرة يقال : إنها ولدت سبعين ولداً ، وكان لاجب هذا جار رجل صالح يقال له : مزدكي ، وكان له جنينة يعيش منها وكانت الجنينة إلى جانب قصر الملك وامرأته ، وكانا يشرفان عليها يتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويقيلان

فيها ،

(312/656)

وكان الملك يحسن جوار صاحبها مزدكي ويحسن إليه ، وامرأته إزميل تحسده لأجل تلك الجنينة وتحتال أن تغصبها منه لما تسمع الناس يكثرون ذكرها ويتعجبون من حسنها وتحتال أن تقتله ، والملك ينهاها عن ذلك فلا تجد عليه سبيلاً ، ثم أنه اتفق خروج الملك إلى مكان بعيد وطالت غيبته فاغتنمت امرأته إزميل ذلك فجمعت جمعاً من الناس وأمرتهم أنهم يشهدون على مزدكي أنه سب زوجها لاجب فأجابوها إليه وكان في حكمهم في ذلك الزمان القتل على من سب الملك إذا قامت عليه البينة ، فأحضرت مزدكي وقالت له : بلغني أنك شتمت الملك فأنكر فأحضرت الشهود فشهدوا عليه بالزور فأمرت بقتله وأخذت جنينته ، فلما قدم الملك من سفره أخبرته الخبر فقال لها : ما أصبت ولا أبداً نفلح بعده فقد جاورنا منذ زمان فأحسنا جواره وكففنا عنه الأذى لوجوب حقه علينا فختمت أمره بأسوء الجوار قالت : إنما غضبت لك وحكمت بحكمك فقال لها : أوما كان يسعه حلمك فتحفظين جواره ؟ قالت : قد كان ما كان فبعث الله إلياس إلى لاجب الملك

، وأمره الله أن يخبرهم أن الله تعالى قد غضب عليهم لوليه حين قتلوه ظلماً وآلى على نفسه

أنهما إن لم يتوبا عن صنيعهما ويردا الجنينة على ورثة مزدكي أن يهلكهما ، يعني : لاجب

وامرأته في جوف الجنينة ، ثم يضعهما جثتين ملقيين فيها حتى تتفرق عظامهما من لحومهما

ولا يتمتعان بها إلا قليلاً ، فجاء إلياس فأخبر الملك بما أوحى الله في أمره وأمر امرأته

والجنينة ، فلما سمع الملك ذلك اشتد غضبه عليه ، وقال : يا إلياس والله ما أرى ما تدعونا

إليه إلا باطلاً ، وهم بتعذيبه وقتله ، فلما أحس إلياس بالشر رفضه وخرج عنه هارباً ،

ورجع الملك إلى عبادة بعل وارتقى إلياس إلى أصعب جبل وأشمخه فدخل مغارة فيه ،

ويقال : أنه بقي سبع سنين شريداً خائفاً يأوي الشعوب والكهوف ، يأكل من نبات الأرض

وثمار الشجر وهم في طلبه قد وضعوا العيون عليه والله تعالى يستره منهم ، فلما طال الأمر

على إلياس وطال عصيان

(313/656)

---

قومه وضاق

بذلك ذرعاً أوحى الله تعالى إليه بعد سبع سنين : يا إلياس ما هذا الخوف الذي أنت فيه

ألست أميني على وحيي وحجتي في أرضي وصفوتي من خلقي ؟ فسلني أعطك فإني ذو

الرحمة الواسعة والفضل العظيم ، قال : تميتني فتلحقني بآبائي فإني قد مللت بني إسرائيل وملوني ، فأوحى الله تعالى إليه : يا الياس ما هذا اليوم الذي أعرى منك الأرض وأهلها ؟ وإنما قوامهما وصلاحهما بك وأشباهك وإن كنتم قليلاً ولكن سلني فأعطك ، قال إلياس : إن لم تمتني فاعطني ثأري من بني إسرائيل ، قال الله تعالى : وأي : شيء تريد أن أعطيك ؟ قال : تمكنني من خزائن السماء سبع سنين فلا تنشئ سحابة عليهم إلا بدعوتي ولا تمطر عليهم سبع سنين قطرة إلا بشفاعتي فإنهم لا يذكرهم إلا ذلك ، قال الله تعالى : يا إلياس أنا أرحم بخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين ، قال : ست سنين ، قال : أنا أرحم بخلقي من ذلك ، قال : فخمس سنين ، قال : أنا أرحم بخلقي من ذلك ، ولكن أعطيك ثأرك ثلاث سنين أجعل خزائن المطر بيدك ، قال : فبأي شيء أعيش ؟ قال : أسخر لك جنساً من الطير ينقل إليك طعامك وشرابك من الريف ومن الأرض التي لم تقحط ، قال إلياس : قد رضيت ، فأمسك الله تعالى عنهم المطر حتى هلكت الماشية والهوام والشجر وجهد الناس جهداً عظيماً ، وإلياس على حالته مستخف من قومه يوضع له الرزق حيثما كان وقد عرف ذلك قومه .ا

قال ابن عباس : أصاب بني إسرائيل ثلاث سنين القحط فمر إلياس بعجوز فقال لها : هل عندكم طعام ؟ قالت : نعم شيء من دقيق وزيت قليل فدعا بهما ودعا فيه بالبركة حتى ملأ خوابيها دقيقاً وخوابيها زيتاً ، فلما رأوا ذلك عندها ، قالوا لها : من أين لك هذا ؟ قالت : مر بي رجل من حاله كذا وكذا ثم وصفته بصفته فعرفوه وقالوا : ذلك إلياس ، فطلبوه فوجدوه فهرب منهم ثم أنه أوى إلى بيت امرأة من بني إسرائيل لها ابن يقال له : اليسع بن أخطوب به مرض فآوته وأخفت أمره فدعا له فعوفي من الضر الذي كان به ، واتبع إلياس وآمن به وصدقه ولزمه وكان يذهب حيثما ذهب ، وكان إلياس قد كبر سنه واليسع غلام شاب ثم إن الله تعالى أوحى إلى إلياس أنك قد أهلكت كثيراً من الخلق ممن لم يعص من البهائم والطير والهوام بحبس المطر ، فقال إلياس : يا رب دعني أنا الذي أكون أدعو لهم وآتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء لعلهم أن يرجعوا عما هم عليه من عبادة غيرك ، فقيل له : نعم ، فجاء إلياس إلى بني إسرائيل فقال : إنكم قد هلكتم جوعاً وجهداً وقد هلكت البهائم والهوام والشجر بخطاياكم وإنكم على باطل ، فإن كنتم تحبون أن تعلموا ذلك فاخرجوا بأصنامكم فإن استجابت لكم فذلك كما تقولون ، وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل فنزعتم ودعوتم الله سبحانه وتعالى ، ففرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء قالوا : أنصفت فخرجوا بأوثانهم فدعوها فلم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء ثم قالوا لإلياس : إنا قد هلكنا فادع الله لنا فدعا لهم إلياس ومعه اليسع بالفرج ، فخرجت سحابة مثل الترس على

ظهر البحر وهم ينظرون فأقبلت نحوهم وطبقت الآفاق ثم أرسل الله تعالى عليهم المطر فأغاثهم وحييت بلادهم ، فلما كشف الله تعالى عنهم المطر لم ينزعوا عن كفرهم وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه ، فلما رأى ذلك إلياس دعا ربه أن يريحه منهم ، فقيل له : انظر يوم كذا وكذا فاخرج فيه إلى موضع كذا فما جاءك من شيء فاركبه ولا تهبه ، فخرج



---

إلياس ومعه

اليسع حتى إذا كانا بالموضع الذي أمر به أقبل فرس من نار ، وقيل : لونه كلون النار حتى وقف بين يديه فوثب عليه إلياس وانطلق به الفرس وناداه اليسع : يا إلياس ما تأمرني ؟ فقذف إليه بكسائه من الجو الأعلى فكان ذلك علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل ، وكان ذلك آخر عهده به ورفع الله تعالى إلياس من بين أظهرهم وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وكساه الريش ، فكان إنسياً ملكياً أرضياً سماوياً ، وسلط الله تعالى على لاجب الملك وقومه عدواً لهم فقصدهم من حيث لم يشعروا به حتى أرهقهم فقتل لاجب وامرأته إزميل في بستان مزدكي فلم تزل جيفتاهما ملقاتين في تلك الجنينة حتى بليت لحومهما ورمت عظامهما ، ونبأ الله تعالى اليسع وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل فأوحى الله

تعالى إليه وأيده ، فآمنت به بنو إسرائيل وكانوا يعظمونه ، وحكم الله تعالى فيهم قائم إلى أن فارقهم اليسع .

روى السري بن يحيى عن عبد العزيز بن أبي رواد قال : الياس والخضر يصومان رمضان ببيت المقدس ويوافيان موسم الحج في كل عام ، وقيل : إن الياس موكل بالفيافي والخضر موكل بالبحار فذلك قوله تعالى ﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ﴾ .

﴿ إذ ﴾ أي : اذكر يا أفضل الخلق إذ ﴿ قال لقومه ألا تتقون ﴾ أي : ألا تخافون الله .

ولما خوفهم على سبيل الإجمال ذكر ما هو السبب لذلك التخويف بقوله تعالى:

﴿ أتدعون بعلاً ﴾ اسم لصنم لهم من ذهب وبه سميت البلد أيضاً مضافاً إلى بك أي : أتعبدونه أو تطلبون الخير منه ، وقيل : البعل الرب بلغة اليمن سمع ابن عباس رجلاً منهم ينشد ضالة فقال آخر : أنا بعلها فقال : الله أكبر وتلا الآية ، ويقال : من بعل هذه الدار أي : من ربها ، وسمي الزوج بعلاً لهذا المعنى قال الله تعالى ﴿ وبعولتهن أحق بردهن ﴾ (البقرة ( :

وقالت امرأة إبراهيم ﴿ وهذا بعلي شيخاً ﴾ والمعنى : أتدعون بعض البعول ﴿ وتذرون ﴾ أي : وتتركون ﴿ أحسن الخالقين ﴾ فلا تعبدونه ، وقرأ ابن ذكوان بهمزة الوصل من إلياس في الوصل فإن ابتدأ بها ابتدأ بفتحها ، والباقون بهمزة مكسورة وصلاً وابتداء وقوله تعالى:

﴿ الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ قرأه حفص وحمزة والكسائي بنصب الهاء من الاسم الكريم ونصب الباء الموحدة من ربكم ورب وذلك إما على المدح أو البدل أو البيان إن قلنا إن إضافة أفعل إضافة محضة ، والباقون بالرفع في الثلاثة وذلك إما على خبر مبتدأ مضمر أي : هو الله وعلى أن الجلالة مبتدأ وما بعده الخبر .

أي : في العذاب وإنما أطلقه اكتفاء بالقرينة أو لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفاً وقوله تعالى:

[إلا عباد الله المخلصين] أي : المؤمنين مستثنى من فاعل فكذبوه ، وفيه دلالة على أن في قومه من لم يكذبه ، فلذلك استثنوا ولا يجوز أن يكونوا مستثنين من ضمير لمحضرون لفساد المعنى ؛ لأنه يلزم أن يكونوا مندرجين فيمن كذب لكنهم لم يحضروا لكونهم عباد الله المخلصين وهو بين الفساد لا يقال : هو مستثنى منه استثناء منقطعاً ؛ لأنه يصير المعنى : لكن عباد الله المخلصين من غير هؤلاء لم يحضروا ، ولا حاجة إلى هذا إذ به يفسد نظم الكلام وتقدم الكلام على قراءة المخلصين في أول السورة .

﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ ثناء حسناً .

﴿ سلام ﴾ أي : منا ، وقوله تعالى : ﴿ على إل ياسين ﴾ قرأه نافع وابن عامر بفتح الهمزة ممدودة وكسر اللام وقطعها عن الياء كما رسمت أي : أهله والمراد به إلياس ، والباقون بكسر الهمزة وسكون اللام وهي مقطوعة عن الياء قيل : هو إلياس المتقدم ، وقيل : هو ومن آمن معه فجمعوا معه تغليباً كقولهم للمهلب وقومه : المهلبون ، وقيل : هو محمد صلى الله عليه وسلم أو القرآن أو غيره من كتب الله تعالى ، قال البيضاوي : والكل لا يناسب نظم سائر القصص ولا قوله تعالى:

﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي : كما جزيناه .



---

﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ إذ الظاهر أن الضمير لإلياس .

القصة الخامسة قصة لوط عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ وإن لوطاً لمن المرسلين ﴾ ﴿ إذ ﴾ أي : واذكر إذ ﴿ نجيناه وأهله أجمعين ﴾ ﴿ إلا عجوزاً في الغابرين ﴾ أي : الباقين في العذاب .

﴿ ثم دمرنا ﴾ أي : أهلكنا ﴿ الآخرين ﴾ أي : كفار قومه .

﴿ وإنكم ﴾ يا أهل مكة ﴿ لتمرون عليهم مصبحين ﴾ أي : على منازلهم في متاجركم إلى الشام فإن سدوم في طريقه ، وقوله تعالى : ﴿ وبالليل ﴾ عطف على الحال قبلها أي : ملتبسين بالليل والمعنى : أن أولئك القوم كانوا يسافرون إلى الشام ، والمسافر في أكثر الأمر إنما يمشي في أول الليل وفي أول النهار فلهذا السبب عبر الله تعالى عن هذين الوقتين ثم قال تعالى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي : أليس فيكم عقل يا أهل مكة فتنظروا ما حل بهم فتعتبروا ؟

القصة السادسة : وهي آخر القصص ، قصة يونس عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ وقوله تعالى:

﴿ إذ أبق ﴾ ظرف للمرسلين أي : هو من المرسلين حتى في هذه الحالة وأبق أي : هرب وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه حسن إطلاقه عليه .

﴿ إلى الفلك المشحون ﴾ أي : السفينة المملوءة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما ووهب : كان يونس وعد قومه العذاب فتأخر عنهم فخرج كالمنشوز منهم فقصد البحر فركب السفينة ، فقال الملاحون : ههنا عبد آبق من سيده فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس ، فقال يونس : أنا الآبق فزج نفسه في البحر .

وروي في القصة : أنه لما وصل إلى البحر كانت معه امرأته وابنان له فجاء مركب وأراد أن يركب معهم فقدم امرأته ليركب بعدها فحال الموج بينه وبين المركب ومر المركب ، ثم جاءت موجة أخرى فأخذت ابنه الأكبر ، وجاء ذئب فأخذ ابنه الأصغر فبقي فريداً ، فجاءت مركب أخرى فركبها وقعد ناحية من القوم ، فلما جرت السفينة في البحر ركدت فقال الملاحون : إن فيكم عاصياً وإلا لم يحصل وقوف السفينة كما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر فأقرعوا فمن خرجت القرعة على سهمه نغرقه فإن تغريق واحد خير من غرق الكل فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فذلك قوله تعالى:

﴿ فساهم ﴾ أي : قارع أهل السفينة ﴿ فكان من المدحضين ﴾ أي : المغلوبين بالقرعة فألقوه في البحر .

﴿ فالتقمه ﴾ ابتلعه ﴿ الحوت وهو مليم ﴾ أي : آت بما يلام عليه من ذهابه إلى البحر وركوبه السفينة بلا إذن من ربه وقيل : مليم نفسه .

﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ أي : الذاكرين قبل ذلك وكان عليه السلام كثير الذكر ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : من المصلين ، وقال وهب : من العابدين ، وقال الحسن : ما كان له صلاة في بطن الحوت ولكنه قدم عملاً صالحاً ، قال الضحاك : شكر الله تعالى له طاعته القديمة ، اذكر الله في الرخاء يذكرك في الشدة ، فإن يونس كان عبداً صالحاً ذاكراً لله تعالى فلما وقع في الشدة في بطن الحوت شكر الله تعالى له ذلك ، وقال سعيد بن جبير :

يعني قوله : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ (الأنبياء : )

﴿ للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ أي : صار بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة وهو حي أو ميت وفي ذلك حث على إكثار الذكر وتعظيم لشأنه ومن أقبل عليه في السراء أخذ بيده في الضراء .

(319/656)

---

﴿ فنبذناه ﴾ أي : ألقيناه من بطن الحوت فأضاف النبذ إلى نفسه سبحانه مع أن النبذ إنما حصل بفعل الحوت فهو يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى ﴿ بالعراء ﴾ أي : بوجه الأرض ، وقال السدي : بالساحل والعراء الأرض الخالية من الشجر والنبات ، روي أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح الله تعالى حتى انتهى إلى الأرض فلفظه .

تنبيه : اختلفوا في مدة لبثه في بطن الحوت فقال الحسن : لم يلبث إلا قليلاً ثم أخرج من بطن الحوت ، وقال بعضهم : التقمه بكرة ولفظه عشية ، وقال مقاتل بن حبان : ثلاثة أيام ، وقال عطاء : سبعة أيام ، وقال الضحاك : عشرين يوماً ، وقيل : شهراً ، وقيل : أربعين يوماً ، قال الرازي : ولا أدري بأي دليل عينوا هذه المقادير ؟ وروى أبو بردة عن النبي صلى الله عليه

وسلم أنه قال : سبح يونس في بطن الحوت فسمع الملائكة تسبيحه فقالوا : ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة فقال تعالى : ذاك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر ، قالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه كل يوم وليلة عمل صالح ، قال : نعم فشفعوا له فأمر الحوت فقذفه بالساحل .

وروي أن يونس عليه السلام لما ابتلعه الحوت ابتلع الحوت حوت آخر أكبر منه فلما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات فحرك جوارحه فتحركت فإذا هو حي فخر لله تعالى ساجداً وقال : يا رب اتخذت لي مسجداً لم يعبدك أحد في مثله ﴿ وهو سقيم ﴾ أي : عليل كالفرخ الممعوط .

﴿ وأنبتنا عليه ﴾ أي : له وقيل : عنده ﴿ شجرة من يقطين ﴾ قال المبرد والزجاج : اليقطين كل ما لم يكن له ساق من عود كالقثاء والقرع والبطيخ والحنظل وهو قول الحسن ومقاتل ، قال البغوي : المراد هنا القرع على قول جميع المفسرين ، وروى الفراء أنه قيل عند ابن عباس : هو ورق القرع فقال : ومن جعل القرع من بين الشجر يقطيناً كل ورقة انشقت وشربت فهو يقطين .

فإن قيل: الشجر ما له ساق واليقطين مما لا ساق له كما قال تعالى: ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ (الرحمن: )

أجيب: بأن الله تعالى جعل لها ساقاً على خلاف العادة في القرع معجزة له عليه السلام. ولو كان منبسطاً على الأرض لم يمكن أن يستظل به قال مقاتل بن حبان: كان يونس عليه السلام يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف إليه فيشرب من لبنها بكرة وعشياً حتى اشتد لحمه ونبت شعره.

وروي أن يونس عليه السلام كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً وبقي سبطان ونصف، وكان قد أوحى الله تعالى إلى بني إسرائيل إذا أسركم عدوكم أو أصابتكم مصيبة فادعوني أستجب لكم، فلما نسوا ذلك وأسروا أوحى الله تعالى بعد حين إلى نبي من أنبيائهم أن اذهب إلى ملك هؤلاء الأقوام وقل له: يبعث إلى بني إسرائيل نبياً، فاختار من بني إسرائيل يونس عليه السلام لقوته وأمانته فقال يونس: الله أمرك بهذا؟ قال: لا ولكن أمرت أن أبعث قوياً أميناً وأنت كذلك، فقال يونس: في بني إسرائيل من هو أقوى مني فلم لم تبعثه؟ فألح الملك عليه فغضب يونس منه وخرج حتى أتى بحر الروم فوجد سفينة مشحونة فحملوه فيها فلما أشرف على لجة البحر أشرفوا على الغرق فقال الملاحون: إن فيكم عاصياً وإلا لم يحصل في السفينة ما نراه فقال التجار: قد جربنا مثل هذا فإذا رأيناه نقترع فمن خرجت عليه نغرقه في البحر فلأن يغرق واحد خير

من غرق الكل ، فخرج من بينهم يونس فقال : يا هؤلاء أنا العاصي وتلفف في كسائه ورمى بنفسه فالتقمه الحوت ، وأوحى الله تعالى إلى الحوت لا تكسر منه عظماً ولا تقطع منه وصلاً ، ثم إن الحوت خرج إلى نيل مصر ثم إلى بحر فارس ثم إلى البطائح ثم إلى دجلة وصعد به ورماه في أرض نصيبين بالعراء وهو كالفرخ المنتوف لا شعر ولا لحم ، فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين فكان يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد ، ثم إن الأرضة أكلتها ، فحزن يونس لذلك حزناً شديداً ، فقال:



---

يا رب كنت أستظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وأمص من ثمرها وقد سقطت فقال : يا يونس تحزن على شجرة أنبتت في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم فانطلق إليهم ، فانطلق إليهم وذلك قوله تعالى:

﴿ وأرسلناه ﴾ أي : بعد ذلك كقبله إلى قومه بنينوى من أرض الموصل ﴿ إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ قال ابن عباس : إن أو بمعنى الواو ، وقال مقاتل والكلبي : بمعنى بل ، وقال الزجاج : على الأصل بالنسبة للمخاطبين ، واختلفوا في مبلغ الزيادة فقال ابن عباس ومقاتل : كانوا عشرين ألفاً ، ورواه أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال

الحسن : بضعاً وثلاثين ألفاً ، وقال سعيد بن جبير : تسعين ألفاً .

فإن قيل : الشجر ما له ساق واليقطين مما لا ساق له كما قال تعالى : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ (الرحمن : )

. أجيب : بأن الله تعالى جعل لها ساقاً على خلاف العادة في القرع معجزة له عليه السلام ولو كان منبسطاً على الأرض لم يمكن أن يستظل به قال مقاتل بن حبان : كان يونس عليه السلام يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف إليه فيشرب من لبنها بكرة وعشياً حتى اشتد لحمه ونبت شعره .



---

وروي أن يونس عليه السلام كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً وبقي سبطان ونصف ، وكان قد أوحى الله تعالى إلى بني إسرائيل إذا أسركم عدوكم أو أصابتكم مصيبة فادعوني أستجب لكم ، فلما نسوا ذلك وأسروا أوحى الله تعالى بعد حين إلى نبي من أنبيائهم أن اذهب إلى ملك هؤلاء الأقوام وقل له : يبعث إلى بني إسرائيل نبياً ، فاختار من بني إسرائيل يونس عليه السلام لقوته وأمانته فقال يونس : الله أمرك بهذا ؟ قال : لا ولكن أمرت أن أبعث قوياً أميناً وأنت كذلك ، فقال يونس : في بني

إسرائيل من هو أقوى مني فلم لم تبعثه ؟ فألح الملك عليه فغضب يونس منه وخرج حتى أتى بحر الروم فوجد سفينة مشحونة فحملوه فيها فلما أشرف على لجة البحر أشرفوا على الغرق فقال الملاحون : إن فيكم عاصياً وإلا لم يحصل في السفينة ما نراه فقال التجار : قد جربنا مثل هذا فإذا رأيناه نقترع فمن خرجت عليه نغرقه في البحر فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل ، فخرج من بينهم يونس فقال : يا هؤلاء أنا العاصي وتلفف في كسائه ورمى بنفسه فالتقمه الحوت ، وأوحى الله تعالى إلى الحوت لا تكسر منه عظماً ولا تقطع منه وصلاً ، ثم إن الحوت خرج إلى نيل مصر ثم إلى بحر فارس ثم إلى البطائح ثم إلى دجلة وصعد به ورماه في أرض نصيبين بالعراء وهو كالفرخ المنتوف لا شعر ولا لحم ، فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين فكان يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد ، ثم إن الأرضة أكلتها ، فحزن يونس لذلك حزناً شديداً ، فقال : يا رب كنت أستظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وأمص من ثمرها وقد سقطت فقال : يا يونس تحزن على شجرة أنبتت في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم فانطلق إليهم ، فانطلق إليهم وذلك قوله تعالى:

﴿ وأرسلناه ﴾ أي : بعد ذلك كقبله إلى قومه بنينوى من أرض الموصل ﴿ إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ قال ابن عباس : إن أو بمعنى الواو ، وقال مقاتل والكلبي : بمعنى بل ، وقال الزجاج : على الأصل بالنسبة للمخاطبين ، واختلفوا في مبلغ الزيادة فقال ابن عباس ومقاتل : كانوا عشرين ألفاً ، ورواه أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الحسن : بضعاً وثلاثين ألفاً ، وقال سعيد بن جبير : تسعين ألفاً .

﴿ فآمنوا ﴾ أي : الذين أرسل إليهم عند معاينة العذاب الموعودين به ﴿ فمتعناهم ﴾ أي : أبقيناهم بما لهم ﴿ إلى حين ﴾ أي : إلى انقضاء آجالهم .

تنبيه : قال البيضاوي : ولعله إنما لم يختم قصته وقصة لوط عليهما السلام بما ختم به سائر القصص تفرقة بينهما وبين أرباب الشعائر الكثيرة وأولي العزم من الرسل واكتفاء بالسلام الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة وقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فاستفتهم ﴾ أي : استخبر كفار مكة توبيخاً لهم ﴿ ألربك البنات ولهم البنون ﴾ قال الزمخشري : معطوف على مثله في أول السورة ، قال أبو حيان : وإذا كانوا قد عدوا الفصل بجملة نحو : كل لحماً واضرب زيداً وخبزاً من أقبح التراكيب فكيف بجمل كثيرة وقصص متباينة ؟ فأجيب عنه : بأن الفصل وإن كثر بين الجمل المتعاطفة مغتفر وأما المثال الذي ذكره فمن قبيل المفردات .

ألا ترى كيف عطف خبزاً على لحماً ؟ وأيضاً الفاصل ليس بأجنبي ، كما أشار إليه البيضاوي بقوله : أمر رسوله أولاً باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعث وساق الكلام في تقريره جاراً لما يلائمه من القصص موصولاً بعضها ببعض ، ثم أمره صلى الله عليه وسلم باستفتائهم عن وجه القسمة ، حيث جعلوا لله البنات ولأنفسهم البنين في قولهم : الملائكة بنات الله وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالات أخر من التجسيم وتجويز البنات على الله تعالى ، فإن الولادة مخصوصة بالأجسام المتكونة الفاسدة وتفضيل أنفسهم الخسيسة عليه سبحانه حيث جعلوا أوضع الجنسين له وأرفعهما لهم واستهانتهم بالملائكة حيث أنثوهم ولذلك كرر الله تعالى إنكاره ذلك وإبطاله في كتابه العزيز مراراً وجعله مما تكاد السموات ينفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، والإنكار ههنا مقصور على الأخيرين لاختصاص هذه الطائفة بهما .

ونقل الواحدي عن المفسرين أنهم قالوا : إن قريشاً وأجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح قالوا : الملائكة بنات الله ، وهذا الكلام يشتمل على أمرين أحدهما : إثبات البنات لله تعالى وذلك باطل ؛ لأن العرب كانوا يستنكفون من البنات والشيء الذي يستنكف منه المخلوق كيف يمكن إثباته للخالق ؟ والثاني : إثبات أن الملائكة إناث وهذا

أيضاً باطل ؛ لأن طريق العلم إما الحس وإما الخبر وإما النظر ، أما الحس فمفقود ؛ لأنهم لم يشاهدوا كيف خلق الله تعالى الملائكة ، وهو المراد من قوله تعالى:

(325/656)

---

﴿ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ﴾ وإنما خص علم المشاهدة ؛ لأن أمثال ذلك لا يعلم إلا به ، فإن الأنوثة ليست من لوازم ذاتهم لتمكن معرفته بالعقل الصرف مع ما فيه من الاستهزاء والإشعار بأنهم لفرط جهلهم يثبتونه كأنهم قد شاهدوا خلقهم . وأما الخبر فمفقود أيضاً ؛ لأن الخبر إنما يفيد العلم إذا علم كونه صدقاً قطعاً وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون أفاكون لم يدل على صدقهم دليل ، وهذا هو المراد من قوله تعالى:

﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون ﴾ أي : فيما زعموا وقوله تعالى:

﴿ أصطفى البنات على البنين ﴾ استفهام إنكار واستبعاد ، والاصطفاء أخذ صفوة الشيء .

فائدة : همزة أصطفى همزة قطع مفتوحة مقطوعة وصلاً وابتداء .

هذا الحكم الفاسد ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي : أنه تعالى منزه عن ذلك ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بتخفيف الذال ، والباقون بالتشديد .

وأما النظر فمفقود من وجهين ؛ الأول : أن دليل العقل يقتضي فساد هذا المذهب ؛ لأنه تعالى أكمل الموجودات ، والأكمل له اصطفاء الأبناء على البنات يعني : أن إسناد الأفضل إلى الأفضل أقرب إلى العقل من إسناد الأخس إلى الأفضل ، فإن كان حكم العقل معتبراً في هذا الباب كان قولهم باطلاً ، الثاني : أن نترك الاستدلال على فساد مذهبهم بل نطالبهم بإثبات الدليل الدال على صحة مذهبهم وإذا لم يجدوا دليلاً ظهر بطلان مذهبهم وهذا هو المراد بقوله تعالى:

﴿ أم لكم سلطان مبين ﴾ أي : حجة واضحة أن لله ولداً .

﴿ فأتوا بكتابكم ﴾ أي : التوراة فأروني ذلك فيه ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي : في قولكم هذا .



---

﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ قال مجاهد وقتادة : أراد بالجنة الملائكة عليهم السلام سموا جناً لاجتنانهم عن الأبصار ، وقال ابن عباس : حي من الملائكة يقال لهم : الجن منهم إبليس لعنه الله ، وقيل : هم خزان الجنة ، قال الرازي : وهذا القول عندي مشكل ؛ لأنه تعالى أبطل قولهم : الملائكة بنات الله ، ثم عطف عليه قوله تعالى : ﴿ وجعلوا ﴾ إلخ

والعطف يقتضي المغايرة ، فوجب أن يكون المراد من الآية غير ما تقدم ، وقال مجاهد : قال كفار قريش : الملائكة بنات الله ، فقال لهم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه منكراً عليهم : فمن أمهاتهم ؟ قالوا : سروات الجن ، وهذا أيضاً بعيد ؛ لأن المصاهرة لا تسمى نسباً ، قال الرازي : وقد روينا في تفسير قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ (الأنعام : )

أن قوماً من الزنادقة يقولون : إن الله تعالى وإبليس أخوان فالله تعالى هو الحر الكريم وإبليس هو الأخ الشرير ، فالمراد من ذلك هو هذا المذهب وهو مذهب المجوس ، قال : وهذا القول عندي هو أقرب الأقاويل في الرد عليه بهذه الآية ﴿ ولقد علمت الجنة أنهم ﴾ أي : أهل هذا القول ﴿ لمحضرون ﴾ أي : إلى النار ومعذبون ، وقيل : المراد ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون العذاب ، فعلى الأول الضمير عائد إلى القائل ، وعلى الثاني عائد إلى نفس الجنة .

ثم إنه تعالى نزه نفسه عما قالوه من الكذب فقال تعالى:

﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ بأن لله تعالى ولداً ونسباً وقوله تعالى:

﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أي : المؤمنين استثناء منقطع أي : لكن عباد الله المخلصين ينزهون الله تعالى عما يصف هؤلاء . الثالث : أنه ضمير محضرون أي : لكن عباد الله تعالى ناجون وعلى هذا فتكون جملة التسبيح معترضة وظاهر كلام أبي البقاء أنه يجوز أن يكون استثناء متصلاً ؛ لأنه قال : مستثنى من جعلوا أو محضرون ، ويجوز أن يكون منفصلاً ، فظاهر هذه العبارة أن الوجهين الأولين هو فيهما متصل لا منفصل وليس ببعيد كأنه قيل : وجعل الناس ، ثم استثنى منهم هؤلاء وكل من لم يجعل بين الله وبين الجنة نسباً فهو عند الله مخلص من الشرك ، وقوله تعالى:

﴿ فإنكم ﴾ أي : يا أهل مكة ﴿ وما تعبدون ﴾ أي : من الأصنام عود إلى خطابهم ؛ لأنه لما ذكر الدلائل الدالة على فساد مذاهب الكفار أتبعه بما ينبه به على أن هؤلاء الكفار لا يقدرون على إضلال أحد إلا إذا كان قد سبق حكم الله تعالى في حقه بالعذاب والوقوع في النار ، كما قال تعالى:

﴿ ما أنتم عليه ﴾ أي : على معبودكم ، وعليه متعلق بقوله : ﴿ بفاتنين ﴾ أي : بمضلين أحداً من الناس .

﴿ إلا من هو صال الجحيم ﴾ أي : إلا من سبق له في علم الله تعالى الشقاوة .

تنبيه : احتج أهل السنة بهذه الآية على أنه لا تأثير لإيحاء الشيطان ووسوسته وإنما المؤثر

هو الله حيث قضاه وقدره ، ثم إن جبريل عليه السلام أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة ليسوا بمعبودين كما زعمت الكفار بقوله:



---

﴿ وما منا ﴾ أي : معشر الملائكة ملك ﴿ إلا له مقام معلوم ﴾ في السموات يعبد الله تعالى فيه لا يتجاوزه ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ما في السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلي ويسبح ، وروى أبو ذر رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أطت السماء وحق لها أن تئط والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجداً" قيل : الأطيط أصوات الأقتاب وقيل : أصوات الإبل وحسها ، ومعنى الحديث : ما في السماء من الملائكة قد أثقلها حتى أطت ، وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة عليهم السلام وإن لم يكن ثم أطيط ، وقال السدي : إلا له مقام معلوم في القرب والمشاهدة .

﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ أي : أقدامنا في الصلاة ، وقال الكلبي : صفوف الملائكة في السماء كصفوف الناس في الأرض .

﴿ وإنا لنحن المسبحون ﴾ أي : المنزهون الله تعالى عما لا يليق به ، وقيل : هذا حكاية

كلام النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، والمعنى : وما منا إلا له مقام معلوم في الجنة أو بين يدي الله تعالى في القيامة وإنا لنحن الصافون في الصلاة والمنزهون له تعالى عن السوء ، ثم إنه تعالى أعاد الكلام إلى الإخبار عن المشركين فقال:

﴿ وإن كانوا ﴾ أي : كفار مكة ، وإن مخففة من الثقيلة ﴿ ليقولون لو أن عندنا ذكراً ﴾ أي : كتاباً ﴿ من الأولين ﴾ أي : من كتب الأمم الماضين .

﴿ لكنا عباد الله المخلصين ﴾ أي : لأخلصنا العبادة له وما كذبنا ثم جاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار والمهيمن عليها وهو القرآن العظيم .

﴿ فكفروا به فسوف يعلمون ﴾ عاقبة هذا الكفر وهذا تهديد عظيم ، ولما هددهم بذلك أردفه بما يقوي قلب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:

﴿ ولقد سبقت كلمتنا ﴾ أي : بالنصر ﴿ لعبادنا المرسلين ﴾ وهي قوله تعالى ﴿ لأغلبن أنا ورسلي ﴾ (المجادلة : )

أو هي قوله تعالى:

﴿ إنهم لهم المنصورون ﴾ .

﴿ وإن جندنا ﴾ أي : المؤمنين ﴿ لهم الغالبون ﴾ أي : الكفار ، والنصرة والغلبة قد تكون بالحجة وقد تكون بالدولة والاستيلاء ، وقد تكون بالدوام والثبات ، فالمؤمن وإن صار مغلوباً في بعض الأوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب في الآخرة ، فالحكم في ذلك للأغلب في الدنيا فلا ينافي ذلك قتل بعض الأنبياء عليهم السلام وهزم كثير من المؤمنين ، وإنما سمى ذلك كلمة وهي كلمات لانتظامها في معنى واحد .

﴿ فتول عنهم ﴾ أي : أعرض عن كفار مكة ، واختلف في قوله تعالى : ﴿ حتى حين ﴾ فقال ابن عباس : يعني الموت ، وقال مجاهد : يوم بدر ، وقال السدي : حتى يأمرك الله تعالى بالقتال ، وقيل : إلى أن يأتيهم عذاب الله ، وقيل : إلى فتح مكة ، وقال مقاتل بن حبان : نسختها آية القتال .

﴿ وأبصرهم ﴾ أي : إذا نزل بهم العذاب من القتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة ، ﴿ فسوف يبصرون ﴾ أي : ما قضيناه لك من التأييد والنصرة والثواب في الآخرة وسوف للوعيد لا للتبعيد .

ولما قيل لهم ذلك قالوا استهزاء : متى نزول العذاب ؟ فقال تعالى تهديداً لهم:

﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ أي : إن ذلك الاستعجال جهل ؛ لأن لكل شيء من أفعال الله تعالى وقتاً معيناً لا يتقدم ولا يتأخر .

﴿ فإذا نزل ﴾ أي : العذاب ﴿ بساحتهم ﴾ قال مقاتل : بحضرتهم ، وقيل : بفنائهم ، قال

الفراء : العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم فشبه العذاب بجيش هجم فأناخ بفنائهم بغتة ﴿ فساء ﴾ أي : فبئس صباحاً ﴿ صباح المنذرين ﴾ أي : الكافرين الذين أنذروا بالعذاب ، وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه : "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج إلى خيبر أتاها ليلاً وكان إذا جاء قوماً بليل لم يغر حتى يصبح ، فلما أصبح خرجت يهود بمساحيها ومكاتلها ، فلما رأوه قالوا : محمد والله محمد والخميس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين قالها ثلاث مرات" وقوله تعالى:



---

﴿ وتول عنهم حتى حين ﴾ ﴿ وأبصر فسوف يبصرون ﴾ فيه وجهان أحدهما : أن في هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا وفي هذه الكلمة أحوال يوم القيامة على هذا فالتكرار زائل ، والثاني : أنها مكررة للمبالغة في التهديد والتهويل .

فإن قيل : ما الحكمة في قوله أولاً : ﴿ وأبصرهم ﴾ وههنا قال : ﴿ وأبصر ﴾ بغير ضمير ؟

أجيب : بأنه حذف مفعول أبصر الثاني إما اختصاراً لدلالة الأول عليه وإما اقتصاراً تفنناً

في البلاغة ، ثم إنه تعالى ختم السورة بتنزيه نفسه عن كل ما لا يليق بصفات الإلهية فقال تعالى:

﴿ سبحان ربك رب العزة ﴾ أي : الغلبة والقوة وفي قوله تعالى : ﴿ رب ﴾ إشارة إلى كمال الحكمة والرحمة ، وفي قوله تعالى ﴿ العزة ﴾ إشارة إلى كمال القدرة وأنه القادر على جميع الحوادث ؛ لأن الألف واللام في قوله تعالى : ﴿ العزة ﴾ تفيد الاستغراق وإذا كان الكل ملكاً له سبحانه لم يبق لغيره شيء فثبت أن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ أي : أن له ولداً كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات وقوله تعالى:

﴿ وسلام على المرسلين ﴾ أي : المبلغين من الله تعالى التوحيد والشرائع تعميم للرسل بعد تخصيص بعضهم .

(331/656)

---

﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ أي : على هلاك الأعداء ونصرة الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام وعلى ما أفاض عليهم ومن اتبعهم من النعمة وحسن العاقبة ، ولذلك أخره عن التسليم والغرض من ذلك تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يغفلوا عنه لما روى البغوي عن

علي رضي الله عنه أنه قال : من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه من مجلسه : سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين إلخ. وأما ما رواه البيضاوي عن النبي صلى الله عليه وسلم "أن من قرأ والصافات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل جني وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمناً بالمرسلين" فموضوع. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 161. 186 ﴾

*(332/656)*

---

وقال القاسمي :

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾

أي : ممن شايعه ، وتابعه في الإيمان ، والدعوة القوية إلى التوحيد .

﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أي : أقبل إلى توحيده بقلب خالص من الشوائب ، باق على الفطرة ، سُلَيم عن النقائص والآفات ، محافظ على عهد التوحيد الفطريّ ، منكر على من غيّر وبدّل .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي : من دون الله .

﴿ أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ أي : أتريدون بطريق الكذب ، آلهة دون الله ؟

﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : بمن هو الحقيق بالعبادة ، لكونه ربّاً للعالمين ، حتى تركتم عبادته وأشركتم به غيره ، والمعنى : لا يقدّر في وهم ولا ظن ما يصد عن عبادته ؛ لأن استحقاقه للعبادة أظهر من أن يختلج عرق شبهة فيه ، فأنكر ظنهم الكائن في بيان استحقاقه للعبادة ، وهو الذي حملهم على عبادة غيره . أو المعنى : فما ظنكم به ؟ ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم ، وقد عبدتم غيره ؟ وعلى كلٍّ ، فالاستفهام إنكاري . والمراد من إنكار الظن إنكار ما يقتضيه .

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴾ أي : ليريهم على أنه يستدل بها على شيء لأنهم كانوا منجّمين .

﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أي : مريض لا يمكنني الخروج معكم إلى معيّدكم [ كذا ] . ترخص عليه السلام بذلك ؛ ليتخلص من شهود زورهم ، ومنكراتهم ، وأفانين شركهم ، مما تجوزه المصلحة ، أو عنى أنه سقيم القلب ، تشبيهاً لغمه وحزنه بالمرض ، على طريق التشبيه ، أو أراد أنه مستعد للموت استعداد المريض ، فهو استعارة ، أو مجاز مرسل .

قال الزمخشري : والذي قاله إبراهيم عليه السلام ، معراض من الكلام ، ولقد نوى به أن [ في المطبوع : ان ] من في عنقه الموت ، سقيم . ومنه المثل : كفى بالسلامة داء . وقول لَبِيد :

فَدَعَوْتُ رَبِّيْ بِالسَّلَامَةِ جَاهِداً لِيُصِحَّنِيْ ، فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءُ

ومات رجل فجأة ، فالتفّ عليه الناس ، وقالوا : مات وهو صحيح . فقال أعرابيٌّ : أصحيحٌ مَن الموت في عنقه ؟ انتهى .

وقال السيوطي في " الإكليل " : في الآية استعمال المعاريض والمجاز للمصلحة .

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أي : إلى معبدهم .

﴿ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ ﴾ أي : ذهب إليها في خفية : ﴿ فَقَالَ ﴾ أي : للأصنام استهزاء : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ أي : بإيجاب ولا سلب : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : هجم عليهم : ﴿ ضَرْباً بِالْيَمِينِ ﴾ أي : التي هي أقوى الباطشتين ، فكسرها : ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ ﴾ أي : إلى إبراهيم بعد ما رجعوا : ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ أي : يسرعون لمعاتبته على ما صدر منه ، فأخذ عليه السلام يبرهن لهم على فساد عبادتهم : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أي : من الأصنام : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : وما تعملونه من الأصنام المنوعة الأشكال ، المختلفة المقادير ، ولما قامت عليهم الحجة ، عدلوا إلى أخذه باليد والقهر .

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ ﴾ أي : لإحراقه : ﴿ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ أي : الأذلين بإبطال كيدهم ، جعل النار عليه برداً وسلاماً .



---

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أي : مهاجر إلى بلد أعبد فيه ربي ، وأعصم فيه ديني . قال الرازي : فيه دليل على أن الموضع الذي تكثر فيه الأعداء ، تجب مهاجرته ؛ وذلك لأن إبراهيم عليه السلام ، مع ما خصه تعالى به من أعظم أنواع النصرة ، لما أحسّ من قومه العداوة الشديدة ، هاجر ، فلأن يجب على غيره ، بالأولى . وقوله : ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ أي : إلى ما فيه صلاح ديني ، أو إلى مقصدي . وإنما بتّ القول لسبق وعده تعالى ؛ إذ تكفل بهدايته ، أو لأن من كان مع الله كان الله معه < احفظ الله يحفظك > .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي : ولداً صالحاً يعينني على الدعوة والطاعة : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ أي : متسع الصدر حسن الصبر ، والإغضاء في كل أمر ، والحلم رأس الصلاح ، وأصل الفضائل .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أي : السن الذي يقدر فيه على السعي والعلم : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ أي : إني أمرت في المنام بذبحك – ورؤيا

الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة – فانظر هل تصبر على إمضائي أمر الرؤيا والعمل بظاهرها ؟ : ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أي : يأمرك الله به ، فإن كان ذاك أمراً من لدنه فأمضه .

(335/656)

---

قال القاضي : ولعله فهم من كلامه أنه رأى أنه يذبحه مأموراً به ، أو علم أن رؤيا الأنبياء حق ، وأن مثل ذلك لا يقدمون عليه إلا بأمر ، ثم قال : ولعل الأمر في المنام دون اليقظة ، لتكون مبادرتهما إلى الامتثال ، أدل على كمال الانقياد والإخلاص . انتهى .

قال الرازي : الحكمة في مشاورة الابن في هذا الباب ، أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره في طاعة الله ، فتكون فيه قرة عين لإبراهيم ، حيث يراه قد بلغ في الحِلم إلى هذا الحد العظيم ، وفي الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية ، ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة ، والثناء الحسن في الدنيا . وقوله : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أي : على الذبح ، أو على قضاء الله .

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ أي : استسلما وانقادا لأمره تعالى بدون إبطاء ، واستلّ إبراهيم السكين،

﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أي : صرعه على شقه ، فوقع جبينُه على الأرض ، وهو أحد جانبي الجبهة . وتله أصل معناه : رماه على التّل ، وهو التراب المجتمع . ك : تربه . ثم عم لكل صرع .

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ أي : لا تذبحه وقد قمت بمصداقها في بذل الوسع من الأخذ بإمضاء ما تشير إليه ، وكمال الطاعة في هذا الشاقّ ، وأوتيت



---

أجر الامتثال ، والصبر ، والثبات . وفي جواب لما ثلاثة أوجه ، أظهرها أنه محذوف ؛ أي : نادته الملائكة ، أو ظهر صبرهما ، أو أجزلنا لهما أجرهما ، الثاني في أنه : ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ بزيادة الواو وهو رأي الكوفيين والأخفش ، الثالث أنه : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ والواو زائدة أيضاً ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : باللطف ، والعناية ، والنداء ، والوحي ، والفرج بعد الشدة .

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ أي : الاختيار البين الذي يتميز فيه المخلص من غيره ، إشارة إلى أن هذا الأمر كان ابتلاءً وامتحاناً لإبراهيم في صدق الخلة لله ، وتضحية أعز عزيز لديه ، وأحب محبوب عنده ، لأمر ربه تعالى .

﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : رزقناه ما يذبح بدلاً عنه وفداء له ، منّة وتطولاً . وقد روي أنه عليه السلام لما نودي ، حانت منه التفاتة إلى ما حوله ، فأبصر كبشاً قد انتشب قرناه في شجرة ، فتم به المرئي في المنام المقصود به القربان لله .

(337/656)

---

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي : مثل ما تركنا على نوح . كما تقدم بيانه وإعرابه : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي : على إبراهيم : ﴿ وَعَلَى إِسْحَقَ ﴾ أي : بتكثير الذرية وتسلسل النبوة فيهم ، وجعلهم ملوكاً ، وإيتائهم ما لم يؤت أحد : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ ﴾ أي : في عمله : ﴿ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ أي : بالكفر والمعاصي : ﴿ مُبِينٌ ﴾ أي : ظاهر الظلم .

تنبيهات :

الأول – يروي المفسرون ههنا في قصة الذبح روايات منكرة لم يصح سندها ولا متنها ، بل ولم تحسن ، فهي معضلة تنتهي إلى السدي وكعب . والسدي حاله معلوم في ضعف مروياته ، وكذلك كعب .

قال ابن كثير رحمه الله : لما أسلم كعب الأحبار في الدولة العمرية ، جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديماً ، فربما استمع له عمر ، فترخص الناس في استماع ما عنده عنه ، غثها وسمينها ، وليس لهذه الأمة حاجة إلى حرف واحد مما عنده . انتهى .

ولقد صدق رحمه الله ، ولذا نرى التزيد على أصل ما قص في التنزيل من الضروري له ، إلا إذا صح سنده ، أو اطمأن القلب به . وقد وِلع الخطباء في دواوينهم برواية هذه القصة في خطبة الأضحى من طرقها الواهية عند المحدثين ، ويرونها ضربة لازب على ضعف سندها ، وكون متنها منكراً أيضاً أو موضوعاً ، ولما صنفتُ مجموعة الخطب حذفت هذه الرواية من خطبة الأضحى ككل مروي ضعيف في فضائل الشهور والأوقات ، واقتصرتُ على جياد الأخبار والآثار ، وذلك من فضل الله علينا فلا نحصي ثناء عليه [ في المطبوع : عيهى ] .



---

وأمثل ما روي في هذا النبأ من الآثار ما أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً ، قال : لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمناسك ، عرض له الشيطان عند السعي ، فسابقه فسبقه إبراهيم عليه الصلاة السلام إلى جمرة العقبة ، فعرض له

الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ، ثم تلّه للجبين ، وعلى إسماعيل عليه السلام قميص أبيض ، فقال له : يا أبت ! إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفنني فيه ، فعالجه ليخلصه ، فنودي من خلفه : أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا . فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أَعْيَن .

قال ابن عباس : لقد رأيتُنا نتتبع ذلك الضرب من الكباش .

الثاني – قال السيوطي في " الإكليل " : في هذه الآية أن رؤيا الأنبياء وحي ، وجواز نسخ الفعل قبل التمكن ، وتقديم المشيئة في كل قول ، واستدل بعضهم بهذه القصة على أن من نذر ذبح ولده ، لزمه ذبح شاة . ثم قال السيوطي : فسر الذبح العظيم في الأحاديث والآثار بكبش ، فاستدل به المالكية على أن الغنم في التضحية أفضل من الإبل . انتهى .

الثالث – استدل بالآية على أنه تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه – كما ذكره الرازي – وذلك في باب الابتلاء ؛ أي : ابتلاء المأمور في إخلاصه وصدقه ، فيما يشق على النفس تحمله .

الرابع – يذكر كثيرٌ الخلافَ في الذبيح ، قال الإمام ابن القيم في " زاد المعاد " : وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً ، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : هذا القول إنما هو متلقى من أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم ؛ فإن فيه إن الله

أمر إبراهيم أن يذبح ابنه – بكره ، وفي لفظ : وحيده – ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده .



---

والذي غرّ أصحابَ [ في المطبوع : وأصحاب ] هذا القول إن في التوراة التي بأيديهم : اذبح ابنك إسحاق . قال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم ؛ لأنها [ في المطبوع : لأنهم ] تناقض قوله : بكرك ، وحيدك . ولكن يهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف ، وأحبوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ، ويختارونه دون العرب . ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله . وكيف يسوغ أن يقال إن الذبيح إسحاق ، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب ، فقال تعالى عن الملائكة أنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [ هود : 70 – 71 ] ، فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها [ في المطبوع : له ] ولد ثم يأمر بذبحه . ولا ريب أن يعقوب داخل في البشارة ، فتناوُل البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد [ في المطبوع : الواحد ] . وهذا ظاهر الكلام وسياقه .

فإن قيل ، لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان يعقوب مجروراً عطفاً على إسحاق ، فكانت القراءة : ﴿ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبِ ﴾ أي : ويعقوب من وراء إسحاق . قيل لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشراً به ؛ لأن البشارة قول مخصوص ، وهي أول خبر سارّ صادق . وقوله : ﴿ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ جملة متضمنة بهذه القيود ، فيكون بشارة بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية . أو لما كانت البشارة قولاً ، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول . كأن المعنى : وقلنا لها من وراء إسحاق يعقوب . والقائل إذا قال : بشرت فلاناً بقدوم أخيه ، وثقله في أثره ، لم يعقل منه إلا بشارة بالأمرين جميعاً . هذا مما لا يستريب ذو فهمٍ فيه البتة . ثم يضعف الجر أمر آخر ، وهو ضعف قولك : مررت بزيد ومن بعده عَمْرو ؛ لأن العاطف يقوم حرف الجر ، فلا يفصل بينه وبين المجرور ، كما لا يفصل بين حروف الجار والمجرور ، ويدل عليه أنه سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه في هذه السورة ، قال : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ الصافات : 103 - 111 ] ، ثم قال : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [ الصافات :

112 ] ، فهذا بشارة من الله له ، شكراً على صبره على ما أمر به . وهذا ظاهر جداً في أن المبشر به غير الأول . بل هو كالنص فيه .

(341/656)

---

فإن قيل : فالبشارة الثانية وقعت على نبوته ، أي : لما صبر الأب على ما أمر به ، وأسلم الولد لأمر الله ، جازاه الله على ذلك ، بأن أعطاه النبوة . قيل : البشارة وقعت على المجموع ، على ذاته ووجوده وأن يكون نبياً ؛ ولهذا ينصب : ﴿ نَبِيّاً ﴾ على الحال المقدر أي : مقدراً نبوته ، فلا يمكن إخراج البشارة أن يقع على الأصل ، ثم يخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلة . هذا محال من الكلام . بل إذا وقع البشارة على نبوته ، فوقوعها على وجوه أولى وأحرى ، وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر ، كما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار ، تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه ، وإقامة لذكر الله .

ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة ، دون إسحاق وأمه ، ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل ، وكان النحر بمكة ، من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً ، ولو كان الذبح

بالشام ، كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم ، لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة ، وأيضاً فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليماً ؛ لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه ، ولما ذكر إسحاق سماه عليماً ، فقال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ [ الذرايات : 24 - 25 ] إلى أن قال : ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [ الذرايات : 28 ] ، وهذا إسحاق بلا ريب ، لأنه من امرأته وهي المبشرة به ، وأما إسماعيل فمن السرية .

(342/656)

---

وأيضاً فإنهما بشّرا به على الكبر واليأس من الولد . وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك ، وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده . وإبراهيم لما سأل ربه الولد ووهبه له ، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته ، والله تعالى قد اتخذه خليلاً . والخلة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة ، وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها . فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد ، جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل ، فأمره الجليل بذبح المحبوب . فلما أقدم على ذبحه ، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد ، خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة ، فلم يبق في الذبح مصلحة ؛ إذ كانت

المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس فيه ، فقد حصل المقصود ، فنسخ الأمر ، وفُدي الذبيح ، وصدق الخليل الرؤيا ، وحصل مراد الرب .

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار [ في المطبوع : الاختيار ] ، إنما حصل عند أول مولود ، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول ، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ، ما يقتضي الأمر بذبحه . وهذا في غاية الظهور . وأيضاً فإن سارة امرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة ، فإنها كانت جارية ، فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة . فأمر الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها في أرض مكة ، ليبرّد عن سارة حرارة الغيرة . وهذا من رحمته ورأفته . فكيف يأمره سبحانه بعد هذا ، أن يذبح ابنها ، ويدع ابن الجارية بحاله هذا مع رحمة الله لها ، وإبعاد الضرر عنها وخيرته لها ، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية ؟



---

بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية ، فحينئذ يرق قلب الست على ولدها . وتتبدل قسوة الغيرة رحمة ، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها ، وأن الله لا يضيع بيتاً ، هذه وابنها منهم ، ويرى عباده جبره بعد الكسر ، ولطفه بعد الشدة ، وأن عاقبة صبر

هاجر وابنها على البعد ، والوحدة ، والغربة ، والتسليم ، إلى ذبح الولد ، آلت إلى ما آلت عليه ، من جعل آثارهما وموطئ أقدامهما مناسك لعبادة المؤمنين ، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة . وهذا سنته تعالى فيمن يريد رفعته من خلقه ، أن يمن عليه بعد استضعافه وذله وانكساره . قال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [ القصص : 5 ] ، ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [ الحديد : 21 ] ، انتهى .

*(344/656)*

---

وقال السيوطي في " الإكليل " : واستدل بقوله تعالى بعد : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾ [ الصافات : 112 ] ، من قال إن الذبيح إسماعيل ، وهو الذي رجحه جماعة ، واحتجوا له بأدلة : منها وصفه بالحلم وذكر البشارة بإسحاق بعده ، والبشارة بيعقوب من وراء إسحاق ، وغير ذلك ، وهي أمور ظنية لا قطعية ، ثم قال : وتأملت القرآن فوجدت فيه ما يقتضي القطع أو يقترب منه – ولم أر من سبقني إلى استنباطه – وهو أن البشارة وقعت مرتين ، مرة في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ [

الصافات : 99 – 102 ] ، فهذه الآية قاطعة في أن هذا المبشر به هو الذبيح . ومرة في قوله : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [ هود : 71 ] الآية . فقد صرح فيها أن المبشر به إسحاق ، ولم يكن بسؤال من إبراهيم . بل قالت امرأته إنها عجوز ، وإنه شيخ ، وكان ذلك في الشام لما جاءت الملائكة إليه بسبب قوم لوط وهو في آخر أمره . أما البشارة الأولى لما انتقل من العراق إلى الشام ، حين كان سنه لا يستغرب فيه الولد ، ولذلك سأله . فعلمنا بذلك أنهما بشارتان في وقتين ، بغلامين : أحدهما بغير سؤال ، وهو إسحاق صريحاً . والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره . فقطعنا بأنه إسماعيل وهو الذبيح . انتهى .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ أي : بالنبوة والرسالة ، والاصطفاء على عالمي زمانهما .

*(345/656)*

---

﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو قهر فرعون لهم ، بذبح الأولاد ، ونهاية الاستعباد .

﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ أي : مع ضعفهم ، وقوة فرعون وقومه .

﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴾ أي : البليغ في بيانه للأحكام والتشريعات ، والآداب .

﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي : في باب الاعتقاد والمعاملات الموصل رعايته والسلوك عليه ، إلى السعادة .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهو من أنبياء بني إسرائيل من بعد زمن سليمان ، أرسله الله لما انتشرت الوثنية في الإسرائيليين ، وساعد على انتشارها بينهم ملوكهم ، وبنوا لها المذابح وعبدوها من دون الله تعالى ، ونبذوا أحكام التوراة ظهرياً .

فقام إلياس عليه السلام يوبخهم على ضلالهم ويدعوهم إلى التوحيد ، ويسمى في التوراة : إيليا ، وله نبأ فيها كبير .

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي : عذاب الله ، ونقمته .



---

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أي : تعبدونه أو تطلبون الخير منه ؟ وهو صنم من أصنام الفينيقيين ، أقاموا له ولغيره من الأوثان معابد ومذابح وكهنة ، يعظمون من شأنهم ، ويقيمون لهم المآدب والأعياد الحافلة ، ويقدمون لحم ضحايا بشرية : ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ أي :

تتركون عبادته . قال القاضي : وقد أشار فيه إلى المقتضي للإنكار ، المعني بالهمزة . ثم صرح به بقوله :

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً ﴾ أي : تعبدونه أو تطلبون الخير منه ؟ وهو صنم من أصنام الفينيقيين ، أقاموا له ولغيره من الأوثان معابد ومذابح وكهنة ، يعظمون من شأنهم ، ويقيمون لهم المآدب والأعياد الحافلة ، ويقدمون لخم ضحايا بشرية : ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ أي :

تتركون عبادته . قال القاضي : وقد أشار فيه إلى المقتضي للإنكار ، المعني بالهمزة . ثم صرح به بقوله :

﴿ وَاللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي : في العذاب .



---

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي : الذين آمنوا به واتبعوه : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴾ بكسر الهمزة وسكون اللام موصولة بـ : ياسين . وقرئ آل ياسين بإضافة آل – بمعنى أهل – إليه . وكله من التصرف في العلم الأصلي ، الذي هو إيليا على قاعدة العرب في الأعلام العجمية ، إذا أرادت أن تلفظها في الاستعمال ، وتخففها على الألسنة .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي : للدعاء إلى الله ، والنهي عن الفواحش : ﴿ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : من عذاب قومه المنذرين .

﴿ إِلَّا عَجُوزاً ﴾ وهي امرأته ، فإنها وإن خرجت عن مكان عذابهم ، كانت : ﴿ فِي الْغَابِرِينَ ﴾ أي : في حكم الباقين في العذاب ، لكونها على دين قومها .

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ﴾ أي : أهلكنا : ﴿ الْآخَرِينَ ﴾ بجعل قريتهم عاليها سافلها ، وإمطار حجارة من سجيل عليهم .

*(348/656)*

---

﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ أي : يا أهل مكة : ﴿ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ ﴾ أي : فترون دائماً علامات مؤاخذتهم : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي : إلى أهل نينوى للتوحيد ، والزجر عن ارتكاب المآثم .

﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ أي : بغير إذن عن قومه المرسل إليهم : ﴿ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أي : السفينة المملوءة ، ليركب منها إلى بلد آخر . روي أنه نزل من يافا ، وركب الفلك إلى ترسيس ، فهبت رياح شديدة كادت تغرقهم ، فاقترعوا ليعلموا بسبب من أصابهم هذا

البلاء ، فوقعت على يونس ، فألقوه في البحر . وهو معنى قوله تعالى :

﴿ فَسَاهَمَ ﴾ أي : قارع : ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ أي : المغلوبين بالقرعة . وأصله الزلق عن الظفر .

﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ ﴾ أي : ابتلعه : ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي : آت بما يلام عليه من السفر بغير أمر ربه .

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ أي : الذاكرين الله بالتسبيح ، والإنابة ، والتوبة ، في بطن الحوت .

﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي : لكان بطنه قبراً له إلى يوم القيامة ؛ أي : لكن رحمناه بتسبيحه .

*(349/656)*

---

﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ ﴾ أي : حملنا الحوت على طرحه باليبس من الشط : ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أي : مما ناله من هذا المحبس الذي يأخذ بالخناق .

﴿ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ أي : لتقيه من الذباب والشمس .

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ ﴾ أي : بعد ذلك ، بأن أمرناه ثانية بالذهاب : ﴿ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ

﴿ وهم قومه المرسل إليهم ، الذين أبق عن الذهاب إليهم أولاً ، و " أو " للإضراب , أو بمعنى الواو للشك بالنسبة إلى مرأى الناظر ؛ أي : إذا رآها الرائي قال : هي مائة ألف أو أكثر . والغرض الوصف بالكثرة .

﴿ فَآمَنُوا ﴾ أي : فسار إليهم ودعاهم إلى الله ، وأنذرهم عذابه إن يرجعوا عن الكفر ، والغي ، والضلال ، والفساد ، والإفساد . فأشفقوا من إنذاره واستكانوا لدعوته وآمنوا معه : ﴿ فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ أي : حين انقضاء آجالهم بالعيش الهني ، والمقام الأمين ، ببركة الإيمان والعمل الصالح ، وإنما لم يختم قصته وقصة لوط بما ختم به سائر القصص من قوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ ﴾ الخ اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة .

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ أي : قريشا المنذرين بأنباء الرسل وقومهم : ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ أي سلهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها . جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور ، في قولهم : الملائكة بنات الله . مع كراهتهم الشديدة لهن ، وأودهم واستنكافهم من ذكرهن .

﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ أي : حاضرون ، حتى فاهوا بتلك العظيمة .

﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ ﴾ أي : صدر منه الولد ، مع أن الولادة من خواص الأجسام القابلة للفساد : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : في مقالتهم .

﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ ﴾ أي : اختار الإناث : ﴿ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ أي : الذكور .

﴿ مَا لَكُمْ ﴾ أي : أي : شيء عرض لعقولكم : ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ بنسبة الناقص إلى المقام الأعلى ، وتخيرّكم الكامل .

لطيفة :

قال الزمخشري : قال قلت : ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ ﴾ بفتح الهمزة ، استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد ، فكيف صحت قراءة أبي جعفر بكسر الهمزة على الإثبات ؟ قلت : جعله من كلام الكفرة ، بدلاً عن قولهم : ﴿ وَلَدَ اللَّهُ ﴾ وقد قرأ بها حمزة والأعمش رضي الله عنهما . وهذه القراءة ، وإن كان هذا محملها ، فهي ضعيفة . والذي أضعفها أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها . وذلك قوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ و : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ فمن جعلها للإثبات ، فقد أوقعها دخيلة بين نسيبين . انتهى .

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : أنه منزه عن ذلك .

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : حجة واضحة وبرهان قاطع ، ثم لا يجوز أن يكون ذلك عقلياً ، لاستحالته عند الفعل ، فغايته أن يكون مأثوراً عن أسفار مقدسة .

﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ ﴾ أي : المسطور فيه ذلك عن وحي سماوي : ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي : في دعواكم . وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ [ الروم : 35 ] ، وفيه إشعار بأن المدار في الدعوى على البرهان البين ، وأنها بدونه لا يقام لها وزن .

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ أي : قرباً منه . قال مجاهد : قال المشركون : الملائكة بنات الله تعالى . فقال أبو بكر رضي الله عنه : فمن أمهاتهن ؟ قالوا : بنات سروات الجن . وكذا قال قتادة وابن زيد ، ثم أشار إلى أن لا نسبة تقتضي النسب بوجه ما ، عدا عن استحالة ذلك عقلاً ، بقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ ﴾ أي : المنسوب إليهم هذا النسب

﴿ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي : في النار يوم القيامة . لكون الجنة كالجن ، علماً في الأغلب للفرقة الفاسقة عن أمر ربها من عالم الشياطين ، أي : فالمنسوب إليهم يتبرؤون من هذه النسبة ، لما يعلمون من أنفسهم أنهم من أهل السعير ، لا من عالم الأرواح الطاهرة ، فما بال هؤلاء المشركين يهرفون بما لا يعرفون ؟ وفسر بعضهم الجنة ، بالملائكة المحدّث عنها قبلُ . والضمير في إنهم ، للكفرة . ولعل ما ذكرناه أولى ، لخلوّه عن تشتيت الضمائر ، ولموافقته للأغلب من استعمال الجن والجنة . وذلك فيما عدا الملائكة . وقلنا الأغلب لما سمع من إطلاق الجن في الملائكة . قال الأعشى يذكر سليمان عليه السلام :

وَسَخَّرَ مِنْ جِنِّ الْمَلَائِكِ تِسْعَةً قِيَاماً لَدَيْهِ يَعْمَلُونَ مَحَارِبَا

وقال الراغب : الجن يقال على وجهين : أحدهما للروحانيين المستترة عن الحواس كلها ، بإزاء الإنس . فعلى هذا تدخل فيه الملائكة . وقيل : بل الجن بعض الروحانيين ، وذلك أن الروحانيين ثلاثة : أخيار وهم الملائكة . وأشرار وهم الشياطين . وأوساط فيهم أخيار وأشرار ، وهم الجن ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ [ الجن : 1 ] إلى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ [ الجن : 14 ] . انتهى .

ورد إطلاق الجن على الملائكة العلامة الفاسي في " شرحه على القاموس " فقال : تفسير الجن بالملائكة مردود ؛ إذ خلق الملائكة من نور لا من نار كالجن . والملائكة معصومون ، ولا يتناسلون ولا يتّصفون بذكورة وأنوثة ، بخلاف الجن ؛ ولهذا قال الجماهير : الاستثناء في

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ [ البقرة : 34 ] ، منقطع أو متصل . لكونه كان مغموراً فيهم ، متخلقاً بأخلاقهم . انتهى .

*(353/656)*

---

وهو يؤيد ما ذهبنا إليه ، وبيت الأعشى لا يصلح حجة ، لفساد مصداقه ؛ لأن سليمان لم تسخر الملائكة لتشيد له المباني ، وليس ذلك من عملهم عليهم السلام ، وقد مر الكلام على ذلك في تفسير سورة سبأ .

﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي : من الولد والنسب . وقوله :

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء من المحضرين ، الذين هم الجنة ، متصل على القول الأول ، أي : المؤمنين منهم ، ومنقطع على الثاني ، أو استثناء منقطع من واو يصفون . هذا وبقي وجه في الآية لم يذكروه ، وهو أن يراد بالنسب المناسبة ، والمشاكلة في العبادة ، ويراد بالجنة الملائكة ، ويكون المراد من الآية الإخبار عمن عبد الملائكة من العرب وجعلوهم نداً ومثلاً له تعالى ، وحكاية لضلال آخر لهم ، غير ضلال دعواهم ، أنهم بنات الله سبحانه ، من عبادتهم له ، مع أنهم عليهم السلام يعلمون أن هؤلاء الضالين محضرون في العذاب .

والآية في هذا كآية : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ

قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [ سبأ : 40 – 41 ] ، وكان السياق من هنا إلى آخر ، كالسياق في طليعة السورة ، كله في تقرير عبودية الملائكة له تعالى ، وكونها من مخلوقاته الصافّة لعبادته ، فأنى تستحق الربوبية ؟ والله أعلم . وقوله :

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ عود إلى خطابهم .



---

﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴾ أي : مفسدين أحداً بالإغواء .

﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ أي : ضال مثلكم ، مستوجب للنار ، قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : فإنكم أيها المشركون بالله : ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ من الآلهة والأوثان : ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴾ أي : ما أنتم على ما تعبدون من دون الله بمضلين أحداً ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ أي : من سبق في علمي أنه صال الجحيم . وقد قيل : إن معنى عليه به . انتهى .

ثم بين تعالى اعتراف الملائكة بالعبودية ، للرد على عبدتهم ، بقوله حاكياً عنهم :

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أي : في العبودية وتسخيره فيما يريده تعالى منه . لا يتعدى

فيه طوره ، ولا يجاوز منه قدره .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ أي : في أداء الطاعة ، ومنازل الخدمة التي نؤمر بها .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ أي : المنزهون الله عما يصفه به الملحدون ، أو المصلون له خشوعاً لعظمته ، وتواضعاً لجلاله .

﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴾ أي : مشركو قريش .

﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنْ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : كتاباً من الكتب التي نزلت عليهم .

(355/656)

---

﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي : لأخلصنا العبادة له ، فجاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار ، والكتاب الذي هو أهدى الكتب والمعجز من بينها .

﴿ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : عاقبة كفرهم . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً ﴾ [ فاطر : 42 ] . وقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ

عَنْهَا ﴾ [ الأنعام : 156 – 157 ] .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي : وعدنا لهم الأزلي ، وهو :

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا ﴾ أي : الرسل ومن آمن معهم : ﴿ لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

أي : الظاهرون على أعدائهم ، والمالكون لنواصيهم كقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا

وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [ المجادلة : 21 ] .

(356/656)

---

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي : أعرض عنهم إعراض الصفوح الحليم عمن ينال منه . كقوله تعالى :

﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ [ الأحزاب : 48 ] ، وقوله : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [ الحجر

: 85 ] ، ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ أي : إلى استقرار النصر لك .

﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ أي : بصرهم وعرفهم عاقبة البغي والكفر ، وما نزل بمن أُنذر قبلهم ، أو

أوضح لهم الدلائل والحجج في مجاهدتك إياهم بالقرآن والوحي ، فإن لم يبصروا الآن ﴿

فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ أي : ما قضينا لك من التأييد والنصرة .

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي : قبل حلول أجله ، وإنه لآت ، لأنه يوم الفتح الموعود به .

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ أي : بقربهم وفنائهم : ﴿ فَسَاء صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أي :

فبئس الصباح صباح من أنذرتهم بالرسل فلم يؤمنوا ؛ لأنه يوم هلاكهم ودمارهم . قال الزمخشري : مثل العذاب النازل بهم ، بعد ما أنذروا فأنكروه ، بجيش أنذر بهجومه بعضُ نصاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ، ولا أخذوا أهبتهم ، ولا دبروا أمرهم تدبيراً ينجيهم ، حتى أناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة ، وقطع دابرهم . وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحاً . فسميت الغارة صباحاً ، وإن وقعت في وقت آخر . وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي تحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك ، إلا لمجيئها على طريقة التمثيل . انتهى . أي : فهي استعارة تمثيلية ، أو في الضمير استعارة مكنية ، والنزول تخييلية .

(357/656)

---

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ قال الزمخشري : إنما ثنى ذلك ليكون تسلية على تسلية ، وتأكيداً لوقوع الميعاد إلى تأكيد . وفيه فائدة زائدة ، وهي إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول ، وإنه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيط به من الذكر من صنوف المسرة ، وأنواع المساءة . وقيل : أريد بأحدهما عذاب الدنيا ، وبالآخر عذاب الآخرة .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴾ أي : المنعة ، والقدرة ، والغلبة : ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي : من الشريك ، والولد ، ونحوهما .

﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي : سلام ، وأمان ، وتحية على المرسلين المبلغين رسالات ربهم .

﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : على نعمه ، التي أجلّها إرسال الرسل لإظهار أسمائه الحسنى وشرائعه العليا ، وإصلاح الأولى والأخرى .

فوائد في خواتم هذه السورة :

الأولى – روى ابن جرير عن الوليد بن عبد الله قال : كانوا لا يصفّون في الصلاة حتى نزلت : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ فصفوا . وقال أبو نضرة : كان عمر رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ، ثم قال : أقيموا صفوفكم ، استقيموا قياماً ، يريد الله بكم هدى الملائكة . ثم يقول : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ تأخّر يا فلان ، تقدم يا فلان ، ثم يتقدم فيكبر . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : < فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجداً ، وتربتها لنا طهوراً > .

الثانية – روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : صبّح رسول الله صلّى الله عليه وسلم خيبر . فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش ، رجعوا وهم يقولون : محمد والله ! محمد والخميس . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : < الله أكبر خربت خيبر : إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين > . دلّ تمثله صلّى الله عليه وسلم بالآية على شمولها لعذاب الدنيا ، أولاً وبالذات .

الثالثة – قال ابن كثير : لما كان التسبيح يتضمن التنزيه ، والتبرئة من النقص ، بدلالة المطابقة ، ويستلزم إثبات الكمال ، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال المطلق مطابقة ، ويستلزم التنزيه من النقص – قرن بينهما في هذا الموضع ، وفي مواضع كثيرة من القرآن ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ ﴾ الآيات .

الرابعة – روى ابن [ أبي ] حاتم عن الشعبي مرسلاً : < من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليقل آخر مجلسه ، حين يريد أن يقوم : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ ﴾ – الآيات – > .

وروي أيضاً عن علي موقوفاً .

وأخرج الطبراني عن زيد بن أرقم مرفوعاً : < من قال دبر كل صلاة : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ ﴾ الآيات ، ثلاث مرات ، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر > .

وقد بين الرازي أن خاتمة هذه السورة الشريفة جامعة لكل المطالب العالية . فارجع إليه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 96.120 ﴾

*(359/656)*

---

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) ﴾

على ضوء ذلك القصص الذي سبق به الشوط الثاني في السورة ، وما اشتمل عليه من حقيقة الصلة بين الله وعباده ، ومن أخذه المكذبين بهذه الحقيقة ، الذين يعبدون غير الله أو يشركون معه بعض خلقه . وعلى ضوء تلك الحقيقة ذاتها كما تضمنها الدرس الأول في السورة . . يوجه في هذا الشوط الأخير من السورة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يناقش معهم تلك الأسطورة التي يزعمون فيها أن الملائكة بنات الله . والأسطورة الأخرى التي يزعمون فيها أن بينه سبحانه وبين الجنة نسباً . وأن يواجههم بما كانوا يقولونه قبل أن تأتيهم هذه الرسالة من تمنيهم أن يرسل الله فيهم رسولاً . ومن أنهم على استعداد للهدى لو جاءهم رسول . وكيف كفروا عندما جاءهم الرسول . . وتختم السورة بتسجيل وعد الله لرسله أنهم هم الغالبون ، وبتنزيه الله سبحانه عما يصفون . والتوجه بالحمد لله رب

العالمين . .

﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ؟ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ؟ ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله . وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ ما لكم كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون ؟ أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴾ . .

إنه يحاصر أسطورتهم في كل مساربها ؛ ويحاجهم بمنطقهم ومنطق بيئتهم التي يعيشون فيها . وهم كانوا يؤثرون البنين على البنات ؛ ويعدون ولادة الأنثى محنة ، ويعدون الأنثى مخلوقاً أقل رتبة من الذكر . ثم هم الذين يدعون أن الملائكة إناث . وأنهم بنات الله !

فهو هنا يستطرد معهم وفق منطقهم ، ويأخذهم به ليروا مدى تهافت الأسطورة وسخفها حتى بمقاييسهم الشائعة :

﴿ فاستفتهم . . ألربك البنات ولهم البنون ﴾ ؟



---

أإذا كان الإناث أقل رتبة كما يدعون ؛ جعلوا لربهم البنات واستأثروا هم بالبنين ؟ ! أو اختار الله البنات وترك لهم البنين ؟ ! إن هذا أو ذاك لا يستقيم ! فاسألهم عن هذا الزعم المتهافت السقيم .

واستفتهم كذلك عن منشأ الأسطورة كلها . من أين جاءهم علم أن الملائكة إناث ؟ وهل هم شهدوا خلقهم فعرفوا جنسهم ؟

﴿ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ؟ ﴾ .

ويستعرض نص مقولتهم المفتراة الكاذبة على الله :

﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله . وإنهم لكاذبون ﴾ . .

وهم كاذبون حتى بحكم عرفهم الشائع ومنطقهم الجاري في اصطفاء البنين على البنات . فكيف اصطفى الله البنات على البنين ؟

﴿ أصطفى البنات على البنين ﴾ !

ويعجب من حكمهم الذي ينسون فيه منطقهم الجاري :

﴿ ما لكم ؟ كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون ؟ ﴾ .

ومن أين تستمدون السند والدليل على الحكم المزعوم ؟

﴿ أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴾ . .

والأسطورة الأخرى . أسطورة الصلة بينه سبحانه وبين الجنة :

﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً . ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ﴾ . .

وكانوا يزعمون أن الملائكة هم بنات الله بزعمهم ولدتهم له الجنة ! وذلك هو النسب والقرابة ! والجن تعلم أنها خلق من خلق الله .

وأنها محضرة يوم القيامة بإذن الله . وما هكذا تكون معاملة النسب والصهر !

وهنا ينزه ذاته سبحانه عن هذا الإفك المتهافت :

﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ . .

ويستثنى من الجن الذين يحضرون للعذاب مكرهين تلك الطائفة المؤمنة . وقد كان في الجن مؤمنون . .

﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ . .

ثم يتوجه الخطاب إلى المشركين وما يعبدون من آلهة مزعومة ، وما هم عليه من عقائد منحرفة . يتوجه الخطاب إليهم ، من الملائكة كما يبدو من التعبير :

﴿ فإنكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه بفاتنين ، إلا من هو صال الجحيم . وما منا إلا له مقام معلوم . وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون ﴾ .



---

أي إنكم وما تعبدون لا تفتنون على الله ولا تضلون من عباده إلا من هو محسوب من أهل الجحيم ، الذين قدر عليهم أن يصلوها . وما أنتم بقادرين على فتنة قلب مؤمن الفطرة محسوب من الطائعين . فللجحيم وقود من نوع معروف ، طبيعته تؤهله أن يستجيب للفتنة

؛ ويستمع للفاتنين .

ويرد الملائكة على الأسطورة ، بأن لكل منهم مقامه الذي لا يتعداه . فهم عباد من خلق الله . لهم وظائف في طاعة الله . فهم يصفون للصلاة ، ويسبحون بحمد الله . ويقف كل منهم على درجة لا يتجاوز حده . والله هو الله .

ثم يعود للحديث عن المشركين الذين يطلقون هذه الأساطير ؛ فيعرض عهودهم ووعودهم ، يوم كانوا يحسدون أهل الكتاب على أنهم أهل كتاب ؛ ويقولون لو كان عندنا ذكر من الأولين من إبراهيم أو من جاء بعده لكنا على درجة من الإيمان يستخلصنا الله من أجلها ويصطفينا :

﴿ وإن كانوا ليقولون : لو أن عندنا ذكراً من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين ﴾ . .

حتى إذا جاءهم ذكر هو أعظم ما جاء إلى هذه الأرض تنكروا لما كانوا يقولون :

﴿ فكفروا به . فسوف يعلمون ﴾ . .

فالتهديد الخفي في قوله : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ هو اللائق بالكفر بعد التمني والوعود !

وبمناسبة التهديد يقرر وعد الله لرسله بالنصر والغلبة :

﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ . .

والوعد واقع وكلمة الله قائمة . ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض ؛ وقام بناء الإيمان ، على الرغم من جميع العوائق ، وعلى الرغم من تكذيب المكذبين ، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين . ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار . وذهبت سطوتهم ودولتهم ؛ وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل . تسيطر على قلوب الناس وعقولهم ، وتكيف تصوراتهم وأفهامهم . وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض . وكل المحاولات التي بذلت لمحو العقائد الإلهية التي جاء بها الرسل ، وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل . باءت بالفشل حتى في الأرض التي نبعت منها .

وحقت كلمة الله لعباده المرسلين . إنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون .

هذه بصفة عامة . وهي ظاهرة ملحوظة . في جميع بقاع الأرض . في جميع العصور .

وهي كذلك متحققة في كل دعوة لله ، يخلص فيها الجند ، ويتجرد لها الدعاة . إنها غالبة منصورة مهما وضعت في سبيلها العوائق ، وقامت في طريقها العراقيل . ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار ، وقوى الدعاية والافتراء ، وقوى الحرب والمقاومة ، وهي إن هي إلا معارك تختلف نتائجها . ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرسله . والذي لا يخلف ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه . الوعد بالنصر والغلبة والتمكين .

هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية . سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة ؛ وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان ؛ وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء . . ولكنها مرهونة بتقدير الله ، يحققها حين يشاء . ولقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة . ولكنها لا تخلف أبداً ولا تتخلف وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة ، ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين !

*(363/656)*

---

ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله . ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى . فيكون ما يريده الله . ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون . . ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم عير قريش وأراد الله أن تفوتهم القافلة الرابحة الهينة ؛ وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة . وكان ما أراده الله هو الخير لهم وللإسلام . وكان هو النصر الذي أراده الله لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام .

ولقد يهزم جنود الله في معركة من المعارك ، وتدور عليهم الدائرة ، ويقسو عليهم الابتلاء ؛

لأن الله يعدهم للنصر في معركة أكبر . ولأن الله يهيء الظروف من حولهم ليؤتي النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع ، وفي خط أطول ، وفي أثر أدوم .

لقد سبقت كلمة الله ، ومضت إرادته بوعده ، وثبتت سنته لا تتخلف ولا تحيد :

﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ .

وعند إعلان هذا الوعد القاطع ، وهذه الكلمة السابقة ، يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتولى عنهم ، ويدعهم لوعد الله وكلمته ، ويترقب ليبصرهم وقد حقت عليهم الكلمة ، ويدعهم ليبصروا ويروا رأى العين كيف تكون :

﴿ فتول عنهم حتى حين . وأبصرهم فسوف يبصرون . أفبعذابنا يستعجلون ؟ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين . وتول عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون ﴾ . .

فتول عنهم ، وأعرض ولا تحفلهم ؛ ودعهم لليوم الذي تراهم فيه ويرون هم ما ينتهي إليه وعد الله فيك وفيهم .

*(364/656)*

---

وإذا كانوا يستعجلون بعذابنا , فيا ويلهم يوم ينزل بهم . فإنه إذا نزل بساحة قوم صبحهم بما يسوء , وقد قدم له النذير .

وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (178) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (179) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (181)

ويكرر الأمر بالإعراض عنهم والإهمال لشأنهم والتهديد الملفوف في ذلك الأمر المخيف: (وتول عنهم حتى حين) . . كما يكرر الإشارة إلى هول ما سيكون: (وأبصر فسوف يبصرون) . . ويدعه مجملاً يوحي بالهول المرهوب . .

الدرس الرابع: 180 - 182 تنزيه الله وحمده

ويختم السورة بتنزيه الله سبحانه واختصاصه بالعزة . وبالسلام من الله على رسله . وبإعلان الحمد لله الواحد . . رب العالمين بلا شريك . .

(سبحان ربك - رب العزة - عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين) . .

وهو الختام المناسب لموضوعات السورة . الملخص للقضايا التي عالجتها السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3000. 3003﴾

(365/656)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات ما قالوا : ﴿ والصافات صَفًّا ﴾ [ الصافات : 1 ] هي الأرواح الكاملة المكملة من الصف الأول وهو صف الأنبياء عليهم السلام والصف الثاني وهو صف الأصفياء ﴿ فالزجرات زَجْراً ﴾ [ الصافات : 2 ] عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح والهمم القدسية ﴿ فالتاليات ذِكْراً ﴾ [ الصافات : 3 ] آيات الله تعالى وشرائعه عز وجل ، وقيل الصافات جماعة الملائكة المهيمين والزاجرات جماعة الملائكة الزاجرين للأجرام العلوية والأجسام السفلية بالتدبير والتاليات جماعة الملائكة التالية آيات الله تعالى وجلايا قدسه على أنبيائه وأوليائه ، وتنزل الملائكة على الأولياء مما قال به الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم وقد نطق بأصل التنزل عليهم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [ فصلت : 30 ] وقد يطلقون على بعض الأولياء أنبياء الأولياء .

قال الشعراوي في رسالة الفتح في تأويل ما صدر عن الكمل من الشطح: أنبياء الأولياء هم كل ولي أقامه الحق تعالى في تجل من مظهر تجلياته وأقام له محمد صلى الله عليه وسلم ومظهر جبريل عليه السلام فاسمعه ذلك المظهر الروحاني خطاب الأحكام المشروعة لمظهر محمد صلى الله عليه وسلم حتى إذا فرغ من خطابه وفزع عن قلب هذا الولي عقل صاحب هذا المشهد جميع ما تضمنه ذلك الخطاب من الأحكام المشروعة الظاهرة في هذه الأمة المحمدية فيأخذها هذا الولي كما أخذها المظهر المحمدي فيرد إلى حسه وقد وعى ما خاطب الروح به مظهر محمد صلى الله عليه وسلم وعلم صحته علم يقين بل عين يقين فمثل هذا يعمل بما شاء من الأحاديث لا التفات له إلى تصحيح غيره أو تضعيفه فقد يكون ما قال بعض المحدثين بأنه صحيح لم يقله النبي عليه الصلاة والسلام وقد يكون ما قالوا فيه إنه ضعيف سمعه هذا الولي من الروح الأمين يلقيه على حقيقة محمد صلى الله عليه وسلم كما سمع بعض الصحابة حديث جبريل في بيان الإسلام والإيمان والإحسان فهؤلاء هم أنبياء الأولياء ولا ينفردون قط بشريعة ولا يكون لهم خطاب بها إلا بتعريف أن هذا هو شرع محمد عليه الصلاة والسلام أو يشاهدن المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم في حضرة التمثل الخارج عن ذاتهم والداخل المعبر عنه بالمبشرات في حق النائم غير أن الولي يشترك مع النبي في إدراك ما تدركه العامة في النوم في حال اليقظة فهؤلاء في هذه الأمة كالأنبياء في بني إسرائيل على مرتبة تعبد هارون بشريعة موسى مع كونه نبياً وهم الذين

يحفظون الشريعة الصحيحة التي لا شك فيها على أنفسهم وعلى هذه الأمة فهم أعلم الناس بالشرع غير أن غالب علماء الشريعة لا يسلمون لهم ذلك وهم لا يلزمهم إقامة الدليل على صدقهم لأنهم ليسوا مشرعين فهم حفاظ الحال النبوي والعلم اللدني والسر الإلهي وغيرهم حفاظ الأحكام الظاهرة ، وقد بسطنا الكلام على ذلك في الميزان اه ، وقال بعيد هذا في



رسالته المذكورة : اعلم أن بعض العلماء أنكروا نزول الملك على قلب غير النبي صلى الله عليه وسلم لعدم ذوقه له ، والحق أنه ينزل ولكن بشريعة نبيه صلى الله عليه وسلم فالخلاف إنما ينبغي أن يكون فيما ينزل به الملك لا في نزول الملك وإذا نزل على غير نبي لا يظهر له حال الكلام أبداً إنما يسمع كلامه ولا يرى شخصه أو يرى شخصه من غير كلام فلا يجمع بين الكلام والرؤية إلا نبي والسلام اه ، وقد تقدم لك طرف من الكلام في رؤية الملك فتذكر .

﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ [ الصافات : 4 ] إخبار بذلك ليعلموه ولا يتخذوا من دونه تعالى آلهة من الدنيا والهوى والشيطان ، ومعنى كونه عز وجل واحداً تفرده في الذات والصفات والأفعال وعدم شركة أحد معهس بحانه في شيء من اوشياء ، وطبقوا أكثر الآيات بعد على ما في الأنفس ، وقيل في قوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ ﴾ [ الصافات : 24 ] فيه

إشارة إلى أن للسالك في كل مقام وقفة تناسب ذلك المقام وهو مسؤول عن أداء حقوق ذلك المقام فإن خرج عن عهدة جوابه أذن له بالعبور وإلا بقي موقوفاً رهيناً بأحواله إلى أن يؤدي حقوقه ، وكذا طبقوا ما جاء من قصص المرسلين بعد على ما في الأنفس ، وقيل في قوله تعالى :

(368/656)

---

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [ الصافات : 164 ] يشير إلى أن الملك لا يتعدى مقامه إلى ما فوقه ولا يهبط عنه إلى ما دونه وهذا بخلاف نوع الإنسان فإن من أفراده من سار إلى مقام قاب قوسين بل طار إلى منزل أو أدنى وجر هناك مطارف ﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ [ النجم : 10 ] ومنها من هوى إلى أسفل سافلين وانحط إلى قعر سجين ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذى ءاتيناه ءاياتنا فانسلخ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشيطان فَكَانَ مِنَ الغاوين ﴾ [ الأعراف : 175 ] وقد ذكروا أن الإنسان قد يترقى حتى يصل إلى مقام الملك فيعبره إلى مقام قرب النوافل ومقام قرب الفرائض وقد يهبط إلى درك البهيمية فما دونها ﴿ أُوْلَئِكَ كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [ الأعراف : 179 ] نسأل الله تعالى أن يرقينا إلى مقام يرضاه ويرزقنا رضاه يوم لقاه وأن يجعلنا من جنده الغالبين وعباده المخلصين بحرمة سيد المرسلين

صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(369/656)

---

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة:

سورة الصّافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (4)

الإعراب:

(الواو) واو القسم للجرّ، والجارّ والمجرور متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (صفّا) مفعول مطلق عامله الصافّات (الفاء) عاطفة في الموضعين (زجرا) مفعول مطلق عامله الزاجرات (ذكرا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مرادفه " 1 "، (اللام) لام القسم عوض من المزحلقة.

جملة: " (أقسم) بالصافّات.. " لا محلّ لها ابتدائيّة.

وجملة: " إنّ إلهكم لواحد... " لا محلّ لها جواب القسم.

الصرف :

(الصافّات) ، جمع الصّافّة مؤنّث الصاف ، اسم فاعل من فعل صفّ باب نصر وزنه فاعل جاءت عينه ولامه من حرف واحد ،

---

(1) أو هو مفعول به إذا كان الذكر هو القرآن .



---

جمعة المذكّر صافّون ، صافّين . . وجمع المؤنّث صوافّ زنة فواعل " 1 " (الزاجرات) ، جمع الزاجرة مؤنث الزاجر اسم فاعل من الثلاثي زجر باب نصر ، وزنه فاعل ، جمعه المذكّر الزاجرون ، الزاجرين . . والمؤنّث زواجر .

(زجرا) ، مصدر سماعيّ لفعل زجر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(التاليات) ، جمع التالية مؤنّث التالي ، اسم فاعل من الثلاثيّ تلا باب نصر ، وزنه فاعل ، وفيه إعلال بالقلب أصله التالو بكسر اللام ، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، جمعه المذكّر التالون ، التالين وفيهما إعلال بالحذف لالتقاء الساكنين ، أصله التاليون ، التاليين ، استثقلت الضمّة والكسرة على الياء فنقلتا إلى الحرفين قبلهما ، فلمّا التقى ساكنان حذفت الياء لام الكلمة ، وزنه فاعون ، فاعين .

[سورة الصافات (37) : آية 5]

رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ (5)

الإعراب :

(ربّ) بدل من واحد مرفوع " 2 " ، (الواو) عاطفة (ما) موصول في محلّ جرّ معطوف على السموات (بينهما) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (الواو) عاطفة (ربّ) معطوف على ربّ الأول مرفوع مثله .

[سورة الصافات (37) : الآيات 6 إلى 10]

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (6) وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ (7) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ (8) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (9) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (10)

---

(1) انظر الآية (36) من سورة الحجّ .

(2) أو هو خبر ثان للحرف المشبّه بالفعل ، أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، والجملة استئنافيّة .

الإعراب :

(إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (بزينة) متعلّق بـ (زيّنا) ، (الكواكب) بدل من زينة - أو عطف بيان عليه - مجرور .

جملة : " إنّا زيّنا . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " زيّنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(7) (حفظا) مفعول مطلق لفعل محذوف (من كلّ) متعلّق بالفعل المحذوف . .

وجملة : " (حفظناها) حفظا " في محلّ رفع معطوفة على جملة زيّنا . .

(8) (لا) نافية (إلى الملأ) متعلّق بـ (يسّمّعون) بتضمينه معنى يصغون (الواو) عاطفة ، و(الواو) في (يقذفون) نائب الفاعل (من كلّ) متعلّق بـ (يقذفون) .

وجملة : " لا يسّمّعون . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " يقذفون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يسّمّعون .

(9) (دحورا) ، مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مرادفه " 2 " ، (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ عذاب . .

وجملة : " لهم عذاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا

---

(1) لا يصحّ أن تكون الجملة نعتا لـ (كلّ شيطان) إذ يوصف بكونه غير مستمع أو غير

سامع وهو فاسد ، كما لا يصحّ أن تكون حالا ، وقد أجازهما العكبريّ .

(2) أو مفعول لأجله ، أو مصدر في موضع الحال .

(372/656)

---

يسّمّعون .

(10) (إلّا) للاستثناء (من) موصول في محلّ رفع بدل من فاعل يسّمّعون " 1 " ، (الخطفة) مفعول مطلق منصوب (الفاء) عاطفة .

وجملة : " خطف " . . لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " أتبعه شهاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خطف . . . .

الصرف :

(7) مارد : اسم فاعل من الثلاثيّ مرد باب كرم ، وزنه فاعل وهو بمعنى العاتي .

(9) دحورا : مصدر دحر باب فتح ، وزنه فعول بضمّتين .

(10) الخطفة : مصدر مرّة من الثلاثيّ خطف باب فرح ، وزنه فعلة بفتح فسكون .

(ثاقب) ، اسم فاعل من الثلاثيّ ثقب ، وزنه فاعل .

الفوائد

قوله تعالى إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ . وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ . لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى . وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ قال ابن هشام ، بصدد إعراب جملة (لا يسّمعون) : الذي يتبادر إلى الذهن أنها صفة (لكل شيطان) ، أو حال منه ، وكلاهما باطل ، إذ لا معنى للحفظ من شيطان لا يسمع ، وإنما هي للاستئناف النحوي ، ولا يكون استئنافا بيانيا لفساد المعنى ، وقيل : يحتمل أن الأصل " لئلا يسمعوا " ثم حذفت اللام كما في قولك " جئتك أن تكرمني " ثم حذفت " أن " فارتفع الفعل كما في قول طرفة :

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فيمن رفع أحضر وقد استضعف الزمخشري الجمع بين الحذفين (أي حذف اللام وأن) فإن قلت أجعلها حالا مقدرة ، أي وحفظا من كل شيطان مارد مقدرا عدم سماعه ، أي بعد الحفظ ، قلت : الذي يقدر وجود معنى الحال هو صاحبها ،

---

(1) أو في محلّ نصب على الاستثناء . [. . . . .]



---

كالمرور به في قولك " مررت به معه صقر صائدا به غدا " أي مقدرا حال المرور به أن يصيد به غدا ، والشياطين لا يقدرون عدم السماع ولا يريدونه .

وبعد أن أورد الإمام النسفي كلام ابن هشام قال:

وفي هذا الكلام تعسف يجب صون القرآن عن مثله، فإن كل واحد من الحرفين (أي: اللام وأن) غير مردود على انفراده، ولكن اجتماعهما منكر. ثم ذكر الفرق بين قولنا: سمعت فلانا يتحدث، وسمعت إليه يتحدث، أو سمعت حديثه، وسمعت إلى حديثه، فقال: إن المتعدي بنفسه يفيد الإدراك، والمتعدي بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك.

[سورة الصافات (37): آية 11]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (11)

الإعراب:

(الفاء) استئنافيّة (الهمزة) للاستفهام (خلقا) تمييز منصوب (أم) حرف عطف (من) موصول في محلّ رفع معطوف على الضمير هم (إنّا) حرف مشبه بالفعل واسمه (من طين) متعلّق بـ (خلقناهم)..

جملة: "استفتهم..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أهم أشدّ..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "خلقنا..." لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "إنّا خلقناهم.." لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "خلقناهم.." في محلّ رفع خبر إنّ.

الصرف :

(استفتهم) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء ، مضارعه يستفتي ، وزنه استفعهم .

46

(لازب) ، اسم فاعل من الثلاثيّ لزب بمعنى لازق باليد ، وزنه فاعل .

[سورة الصافات (37) : الآيات 12 إلى 17]

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12) وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (13) وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (14) وَقالُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (15) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16)

أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17)

الإعراب :

*(374/656)*

---

(بل) للإضراب الانتقاليّ (الواو) حاليّة قبل يسخرون . .

جملة : " عجبت . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يسخرون . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم . . والجملة الاسميّة

حال.

(13 - 14) (الواو) عاطفة في المواضع الستّة، و(الواو) في (ذكّروا) نائب الفاعل (لا) نافية..

وجملة: "ذكّروا..." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "لا يذكرون.." لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "رأوا..." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "يستسخرون" لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

(15) (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر (سحر) خبر المبتدأ هذا.

وجملة: "قالوا..." لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط.

وجملة: "إن هذا إلّا سحر..." في محلّ نصب مقول القول.

(16) (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ في الموضعين (ترابا) خبر كنّا منصوب (إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (اللام) المزحلقة للتوكيد.

وجملة: "متنا..." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "كنّا ترابا" في محلّ جرّ معطوفة على جملة متنا.

وجملة: "إنّا لمبعوثون" لا محلّ لها تفسير للجواب المقدّر "1".

(17) (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ، وخبر المبتدأ (آباؤنا) محذوف تقديره مبعوثون

...

وجملة: "آباؤنا ... (مبعوثون) " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّا لمبعوثون.

[سورة الصافات (37) : آية 18]

قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ (18)

الإعراب:

(نعم) حرف جواب (الواو) عاطفة - أو حاليّة - جملة: " قل ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " أنتم داخرون ... " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول المقدّرة أي نعم تبعثون وأنتم داخرون " 2 " .

[سورة الصافات (37) : آية 19]

فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (19)

الإعراب:

---

(1) هذه الجملة لا يصحّ أن تكون جواب الشرط حتّى لا يتعلّق الظرف بخبر إنّ، إذ لا يعمل ما بعد (إنّ) في ما قبلها فيقدّر المتعلّق تقديرا أي: أإذا متنا ... نبعث، فالجملة المذكورة تفسير لهذا المقدّر.

(2) أو هي حال من فاعل تبعثون المقدّر.

(الفاء) تعليليّة (إنّما) كافّة ومكفوفة (هي) ضمير يعود على مفهوم البعثة أو الساعة أو صرخة الآخرة الظاهرة في السياق، وهو مبتدأ خبره زجرة (الفاء) عاطفة (إذا) فجائيّة . . .

جملة: "إنّما هي زجرة . . . " لا محلّ لها استئناف تعليليّ لنهي مقدّر أي: لا تستصعبوا ذلك فإنّما هي . . .

وجملة: "هم ينظرون" لا محلّ لها معطوفة على جملة هي زجرة.

وجملة: "ينظرون" في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم).

الصرف:

(زجرة)، مصدر مرّة لفعل زجر الثلاثيّ باب نصر، وزنه فعلة بفتح الفاء.

[سورة الصافات (37): الآيات 20 إلى 21]

وَقالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (20) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (يا) أداة تنبيه (ويلنا) مفعول مطلق لفعل محذوف غير مستعمل . . .

جملة: " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هي زجرة " 1 " .

وجملة: " يا ويلنا . . " في محلّ نصب مقول القول - أو اعتراضيّة - وجملة: " هذا يوم الدين . . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي: قالت الملائكة: هذا يوم الدين " 2 " .

(21) (الذي) موصول في محلّ رفع نعت ليوم الفصل (به) متعلّق بـ (تكذّبون) . .

وجملة: " هذا يوم الفصل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 3 " .

وجملة: " كنتم به تكذّبون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة: " تكذّبون " في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف:

(الفصل) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ فصل باب ضرب ،

---

(1) في الآية السابقة (19) .

(2) أو مقول قولهم هم بعد الاعتراض يا ويلنا .

(3) سواء أكان من كلام الكافرين بعضهم لبعض أم من كلام الملائكة .

وزنه فعل بفتح فسكون.

[سورة الصافات (37) : الآيات 22 إلى 24]

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ (23) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (24)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (أزواجهم) معطوف على اسم الموصول منصوب " 1 "، (ما) اسم موصول في محلّ نصب معطوف على الموصول الذين، والعائد محذوف.

جملة: " احشروا... " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر من الباري تعالى إلى الملائكة.

وجملة: " ظلموا... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "كانوا.... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "يعبدون " في محلّ نصب خبر كانوا.

(23) (من دون) متعلّق بحال من العائد المقدّر أي: يعبدونه من دون اللّه (الفاء) عاطفة - أو رابطة لجواب شرط مقدّر (إلى صراط) متعلّق بـ (اهدوهم).

وجملة: " اهدوهم... " في محلّ نصب معطوفة على جملة احشروا " 2 ".

وجملة: " قفوهم.. " في محلّ نصب معطوفة على جملة اهدوهم " 3 ".

---

(1) أو مفعول معه منصوب.. وابن هشام ينفي ورود واو المعيّة في التنزيل البتّة.

(2) أو هي في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن تمّ حسابهم فاهدوهم..

وجملة الشرط والجواب اعتراضيّة بين المتعاطفين.

(3) أو معطوفة على جملة احشروا..



---

وجملة: " إنّهم مسئولون " لا محلّ لها استئناف تعليليّ.

الصرف:

(قفوهم)، فيه إعلال بالحذف، هو معتلّ مثال حذفت فاؤه في الأمر لأن عينه مكسورة في المضارع، وزنه علوهم..

[سورة الصافات (37): آية 25]

ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (25)

الإعراب:

(ما) اسم استفهام مبتدأ (لكم) متعلّق بخبر المبتدأ (لا) نافية (تناصرون) مضارع حذفت منه إحدى التاءين.

(378/656)

---

جملة: " ما لكم... " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي يقال لهم ذلك توبيخا.

وجملة: " لا تناصرون " في محلّ نصب حال.

[سورة الصافات (37) : آية 26]

بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (26)

الإعراب:

(بل) للإضراب الانتقاليّ (اليوم) متعلّق بالخبر (مستسلمون).

جملة: " هم اليوم مستسلمون " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(مستسلمون) ، جمع مستسلم اسم فاعل من السداسيّ استسلم، وزنه مستفعل بضمّ الميم وكسر العين.

[سورة الصافات (37) : آية 27]

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (27)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (على بعض) متعلّق بـ (أقبل)...

جملة: "أقبل بعضهم..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يتساءلون" في محلّ نصب حال من فاعل أقبل.

[سورة الصافات (37) : آية 28]

قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (28)

الإعراب:

(عن اليمين) متعلّق بحال من الفاعل في (تأتوننا) مقسمين..

جملة: "قالوا..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "إنّكم كنتم..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "كنتم تأتوننا.." في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "تأتوننا..." في محلّ نصب خبر كنتم.

الصرف:

(اليمين) ، اسم للحلف أو للجارحة المعروفة، وزنه فعيل.

[سورة الصافات (37) : الآيات 29 إلى 32]

قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29) وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (30)

فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (31) فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (32)

الإعراب:

(بل) للإضراب الإبطاليّ ...

جملة: " قالوا ... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " لم تكونوا مؤمنين ... " لا محلّ لها استئنافيّة .. ومقول القول مقدّر أي ما أضللناكم بل لم تكونوا مؤمنين ...

(379/656)

---

(30) (الواو) عاطفة (ما) نافية (لنا) متعلّق بخبر كان (عليكم) متعلّق بحال من سلطان (بل) مثل الأول ...

وجملة: " ما كان لنا ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة لم تكونوا " 1 " .

وجملة: "كنتم قوما ... " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

(31 - 32) (الفاء) عاطفة فيها معنى السبب (علينا) متعلّق ب (حقّ) ، (إنّا)

(1) أو في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول المقدّرة.

(380/656)

حرف مشبّه بالفعل واسمه (اللام) للتوكيد.

وجملة: "حقّ علينا قول... " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة الأخيرة.

وجملة: "إنّا لذائقون" في محلّ نصب مقول القول " 1 ".

وجملة: "أغويناكم... " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "إنّا كنّا... " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "كنّا غاوين" في محلّ رفع خبر إنّ.

الصرف:

(طاغين)، جمع طاغ، اسم فاعل من الثلاثيّ طغى، وزنه فاع، فيه إعلال بالحذف لأنه اسم منقوص حذفت لامه - وهي الياء - لالتقائها ساكنة مع سكون التنوين، ومثله طاغين زنة فاعين.

الفوائد

- فتح همزة إن وكسرها:

1 - تفتح همزة إن وكسرها :

1 - تفتح همزة (إن) إذا صح أن تؤول مع اسمها وخبرها بمصدر ، كقوله تعالى قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ والتقدير : استماع نفر من الجن ، وقولنا يعجبني أنك مخلص والتقدير : إخلاصك .

2 - أما إذا لم يصح أن تؤول مع اسمها وخبرها بمصدر ، فإنها تكسر ، ومواضع كسرها في الحالات التالية :

---

(1) في الآية التفات من الخطاب إلى التكلم والأصل : إنكم لذائقون . . أو هي من كلام المضلين تعليل لما سبق فلا محل لها .



---

1 - في ابتداء الكلام : كقوله تعالى إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ، أو في بداية جملة مستأنفة ، كقوله تعالى فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ

2 - بعد القول : كما في الآية التي نحن بصددها ، وهي قوله تعالى قَالُوا : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ، وقوله تعالى قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ .

3 - بعد القسم : كقوله تعالى وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ

يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ 4 - إذا وقعت في صدر جملة الصلة كقوله تعالى ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ وقولنا (هذا الذي إنه محسن للمساكين) .

5 - إذا تصل بخبرها اللام فإنها تكسر بعد أن كان من حقها الفتح مثل :

(علمت أنك صادق) تصبح (علمت إنك لصادق) .

[سورة الصافات (37) : الآيات 33 إلى 36]

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (33) إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34) إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (36)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (يومئذ) ظرف منصوب متعلّق بالخبر (مشتركون) ، (في العذاب) متعلّق بـ (مشتركون) .

جملة : " إنّهم . . . مشتركون " لا محلّ لها استئنافيّة .

(34) - (إنّا) حرف مشبّهة بالفعل واسمه (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نفعل (بالمجرمين) متعلّق بـ (نفعل) .

وجملة: "إنّا . . . نفعل" لا محلّ لها اعتراضيّة - أو تعليليّة - (35) - (لهم) متعلّق بـ (قيل)، (إلّا) أداة استثناء (الله) لفظ الجلالة بدل من الضمير المستكنّ في الخبر المقدّر.

وجملة: "إنّهم كانوا . . يستكبرون" لا محلّ لها تعليل لما سبق.

وجملة: "كانوا . . ." في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "قيل لهم . . ." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "لا إله إلّا الله . . ." في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي: قولوا لا إله . .

وجملة القول المقدّرة في محلّ رفع نائب

الفاعل "1".

وجملة: "يستكبرون" في محلّ نصب خبر كانوا "2".

(36) - (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (إنّا) مثل الأول (اللام) المزحلقة للتوكيد (لشاعر) متعلّق بـ (تاركو).

وجملة: "يقولون . . ." معطوفة على جملة يستكبرون.

وجملة: "أ إنا لتاركو" . . في محلّ نصب مقول القول.

الصرف:

(مشتركون)، جمع مشترك، اسم فاعل من الخماسيّ اشترك، وزنه مفتعل بضمّ الميم وكسر العين.

[سورة الصافات (37) : آية 37]

بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37)

الإعراب:

(بل) للإضراب الإبطاليّ (بالحقّ) متعلّق بحال من فاعل جاء...

وجملة: "جاء..." لا محلّ لها استئنافيّة " 3 ".

وجملة: "صدّق..." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

[سورة الصافات (37) : الآيات 38 إلى 40]

إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ (38) وَما تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40)

الإعراب:

(اللام) المزحلقة للتوكيد.

---

(1) لأنها مقول القول في الفعل المبني للمعلوم..

(2) هذا إذا كان الظرف (إذا) مجردا من الشرط، وما بين الفعل وخبره اعتراض...

وإذا ضمّن الظرف معنى الشرط فجملة يستكبرون جوابه لا محلّ لها، والشرط وفعله وجوابه خبر كانوا.

(3) هي في الحقيقة استئناف في حيّز قول مقدّر أي، قال تعالى: "ليس بشاعر بل جاء بالحقّ".

(383/656)

---

جملة: "إنّكم لذائقو... "لا محلّ لها استئنافيّة" 1".

(39) - (الواو) عاطفة (ما) نافية، و(الواو) في (تجزون) نائب الفاعل (إلّا) أداة حصر (ما) حرف مصدريّ" 2".

والمصدر المؤوّل (ما كنتم...) في محلّ نصب مفعول به عامله تجزون" 3".

وجملة: "ما تجزون... "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "كنتم تعملون" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

وجملة: "تعملون" في محلّ نصب خبر كنتم.

(40) (إلّا) أداة استثناء (عباد) منصوب على الاستثناء المنقطع من ضمير الفاعل في (تعملون)...

البلاغة

الالتفات: في قوله تعالى "إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ".

فقد التفت من الغيبة إلى الخطاب ، لإظهار كمال الغضب عليهم ، بمشافهتهم بهذا الوعيد ، وعدم الاكتراث بهم . وهو اللائق بالمستكبرين .

[سورة الصافات (37) : الآيات 41 إلى 49]

أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41) فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (42) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43) عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (44) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45)

بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46) لا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (47) وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49)

---

(1) وهي في حيّز القول المقدّر السابق في الآية (37) . [. . . . .]

(2) أو اسم موصول مفعول به ، والعائد محذوف .

(3) أو في محل حرف جرّ بحرف جرّ محذوف هو الباء متعلّق ب (تجزون) .



---

الإعراب :

(لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر رزق . .

جملة : " أولئك لهم رزق . . . " لا محلّ لها استئنافيّة بيانيّة .

وجملة: " لهم رزق . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك).

(42 – 44) – (فواكه) بدل من رزق مرفوع " 1 "، (الواو) حاليّة (في جنّات) متعلّق بـ (مكرمون) " 2 "، (على سرر) متعلّق بـ (مكرمون) " 3 "، (متقابلين) حال منصوبة من الضمير في (مكرمون) . . .

وجملة: " هم مكرمون . . " في محلّ نصب حال من الضمير في (لهم) " 4 ".

(45) (عليهم) نائب الفاعل لفعل يطاف (بكأس) متعلّق بـ (يطاف)، (من معين) متعلّق بنعت لكأس.

وجملة: " يطاف عليهم . . . " في محلّ رفع خبر آخر للمبتدأ (أولئك) " 5 ".

(46 – 47) (بيضاء) نعت ثان لكأس مجرور وعلامة الجرّ الفتحة ممنوع من الصرف (لذّة) نعت ثالث مجرور (للشاربين) متعلّق بلذّة (لا) نافية (فيها) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ غول (الواو) عاطفة (لا) الثانية زائدة لتأكيد النفي، والزيادة واجبة (عنها) متعلّق بـ (ينزفون)، و(عن) للسببيّة . . .

وجملة: " لا فيها غول . . . " في محلّ جرّ نعت لكأس . .

وجملة: " هم عنها ينزفون . . . " في محلّ جر معطوفة على جملة لا فيها غول.

---

(1) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو، والجملة نعت.

(2) أو حال من الضمير في (مكرمون)، ويجوز أن يكون خبرا ثانيا للمبتدأ أولئك.

(3) أو متعلّق بمتقابلين .

(4) يجوز أن تكون في محلّ رفع معطوفة على جملة لهم رزق .

(5) يجوز أن تكون استئنافيّة فلا محلّ لها .

الجدول ج 23 ، ص : 57

وجملة : "ينزفون" في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(48 - 49) (الواو) عاطفة (عندهم) ظرف منصوب متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ قاصرات (عين) نعت لقاصرات مرفوع .

وجملة : "عند هم قاصرات . . . " معطوفة على جملة يطاف عليهم .

وجملة : "كأنهنّ بيض . . . " في محلّ رفع نعت ثان لقاصرات .

الصرف :

(45) كأس : اسم للإناء يشرب به وهو مؤنّث ، وزنه فعل بفتح فسكون ، والجمع كؤوس - بضمّ الكاف - وأكؤس - بفتح الهمزة الأولى - وكاسات وكئاس بكسر الكاف - .

(46) (لذّة) ، مؤنث لذّ زنة فعل بفتح فسكون ، صفة مشبّهة من الماضي لذّ باب فتح . . أو هو مصدر الفعل السابق ، وإذا كان المصدر يحافظ على التذكير غالبا لذّة اسم بمعنى نقيض الألم ، والجمع لذّات .

(47) ، غول : مصدر سماعيّ للثلاثيّ غاله يغوله بمعنى أهلكه ، أو غالته الخمر أي ذهبت بعقله أو بصحة بدنه ، وقد يكون اسما بمعنى الصداع أو السكر أو المشقّة . . . وزنه فعل بفتح فسكون .

(ينزفون) ، فعل يستعمل دائما بالبناء للمجهول وله معنى المعلوم بمعنى ذهب عقله أو سكر ، شأنه شأن يهرع ويغمى عليه ويجنّ . . . إلخ ، ماضيه نزف بضمّ فكسر .

(48) قاصرات : جمع قاصرة مؤنث قاصر ، اسم فاعل من الثلاثيّ قصر باب نصر : عن الشي ء إذا كفّ عنه أي قاصرات طرفهنّ عن غير أزواجهنّ . . . أو على الشي ء أي لم يطمح إلى سواه ولم يتجاوز به غيره .

(عين) ، جمع عيناء صفة مشبّهة من عين يعين باب فرح أي عظم سواد عينه في سعة ، وزنه فعلاء ، ووزن عين فعل بضمّ فسكون وكسرت فاؤه لمناسبة الياء تخفيفا ، والمذكّر أعين زنة أفعل .

(49) ، بيض : اسم جنس لما تعطيه الإناث من الحيوانات وغيرها الواحدة بيضة ، وزنه فعلة بفتح فسكون ووزن بيض فعل بفتح الفاء .

(مكنون) ، اسم مفعول من (كنّ) الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

التشبيه المرسل : في قوله تعالى "كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ" .

والمراد تشبيههن بالبيض الذي كنّه الريش في العش ، فلم تمسه الأيدي ، ولم يصبه الغبار ، بقليل صفرة مع لمعان كما في الدر ، والأكثرون على تخصيصه ببيض النعام في الأداحي ، لكونه أحسن منظرا من سائر البيض ، وأبعد عن مس الأيدي ووصول ما يغير لونه إليه ، والعرب تشبه النساء بالبيض ، ويقولون لهن بيضات الخدور ، ومنه قول امرئ القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

[سورة الصافات (37) : آية 50]

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (50)

---

(1) انظر الآية (27) من هذه السورة مفردات وجملا .



---

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (أقبل . . . يتساءلون) مرّ إعراب هذه الآية " 1 " .

[سورة الصافات (37) : الآيات 51 إلى 53]

قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً

وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (53)

الإعراب :

(منهم) متعلّق بنعت لقائل (لي) متعلّق بخبر كان . .

جملة : " قال قائل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " إنّي كان لي قرين " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كان لي قرين " في محلّ رفع خبر إنّ .

(52) فاعل (يقول) ضمير يعود على القرين (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (اللام) المزحلقة

للتوكيد (من المصدّقين) متعلّق بخبر إنّ .

وجملة : " يقول . . . " في محلّ رفع نعت لقرين .

وجملة : " أ إنّك لمن المصدّقين " في محلّ نصب مقول القول .

(53) (أ إذا متنا . . لمدينون) مرّ إعراب نظيرها " 1 " . .

[سورة الصافات (37) : آية 54]

قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54)

الإعراب :

فاعل (قال) ضمير يعود على القائل المتقدّم (هل) حرف استفهام .

جملة: " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " أنتم مطّلعون " في محلّ نصب مقول القول.

الصرف:

(مطّلعون)، جمع مطّلع، اسم فاعل من الخماسيّ اطّلع، وزنه مفتعل بضمّ الميم وكسر العين . . وفي اللفظ إبدال، أصله مطتلع أخذا من اطتلع . . جاءت التاء بعد الطاء قلبت طاء وأدغمت مع الطاء الأولى . .

[سورة الصافات (37) : آية 55]

فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ (55)

الإعراب:

(الفاء) عاطفة في الموضعين (في سواء) متعلّق ب (رآه).

جملة: " اطّلع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال " 2 ".

وجملة: " رآه . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اطّلع.

---

(1) انظر الآية (16) من هذه السورة مفردات وجملا.

(2) في الآية السابقة (54).

[سورة الصافات (37) : الآيات 56 إلى 59]

قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57) أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59)

الإعراب:

(التاء) تاء القسم للجرّ (اللّه) لفظ الجلالة مجرور ب (التاء) متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (إن) مخفّفة من الثقيلة واجبة الإهمال (اللام) هي الفارقة زائدة و(النون) في (تردين) للوقاية، و(الياء) المحذوفة للتخفيف مفعول به.

جملة: " قال... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " القسم وجوابه... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " كدت لتردين " لا محلّ لها جواب القسم.

وجملة: " تردين.. " في محلّ نصب خبر كدت.

(57) (الواو) عاطفة (لولا) حرف شرط غير جازم (نعمة) مبتدأ مرفوع، والخبر محذوف وجوبا (اللام) واقعة في جواب لولا (من المحضرين) متعلّق بخبر كنت..

وجملة: " لولا نعمة ربّي... " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم.

وجملة: " كنت من المحضرين " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

(58) (الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (ميّتين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما .

وجملة : " ما نحن بميّتين . . . " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول لقول مقدّر أي قال أهل الجنّة : " أ نحن مخلّدون فما نحن بميّتين . . . "

(59) (إلّا) أداة استثناء (موتتنا) منصوب على الاستثناء المنقطع " 1 " ، (الواو) عاطفة (ما نحن بمعذّبين) مثل ما نحن بميّتين .

وجملة : " ما نحن بمعذّبين . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة ما نحن بميّتين .

الصرف :

---

(1) قيل إنّ (إلّا) للحصر و(موتتنا) مفعول مطلق عامله الصفة المشبّهة (ميّتين) .

*(388/656)*

---

(كدت) ، فيه إعلال بالحذف لأنه أجوف اتّصل به ضمير الرفع ، فلمّا بني على السكون والتقى ساكنان الألف والدال حذفت الألف ، وزنه فلت بكسر الفاء بابه فرح حيث نقلت حركة العين المحذوفة إلى الفاء ، أصله كود يكود مثل خوف يخوف .

(موتتنا) ، مصدر مرّة من مات على وزن فعلة بفتح الفاء .

[سورة الصافات (37) : الآيات 60 إلى 61]

إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ (61)

الإعراب:

(اللام) المزحلقة للتوكيد (لمثل) متعلّق ب (يعمل) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اللام) لام الأمر وحرّك الفعل (يعمل) بالكسر لالتقاء الساكنين..

جملة: "إنّ هذا لهو الفوز..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "هو الفوز..." في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "ليعمل العاملون..." في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي من أراد الفوز في الآخرة فليعمل له مثل ذلك في الدنيا.

[سورة الصافات (37) : الآيات 62 إلى 68]

أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (63) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (65) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (66)

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68)

الإعراب:

(نزلا) تمييز منصوب (أم) حرف عطف معادل لهمزة الاستفهام (شجرة) معطوف على

المبتدأ (ذلك) .

جملة : " ذلك خير . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(63) - (للظالمين) متعلّق بنعت لفتنة - أو بفتنة - وجملة : " إنّا جعلناها . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " جعلناها . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(389/656)

---

(64 - 65) - (في أصل) متعلّق بـ (تخرج) ، بتضمينه معنى تنبت .

وجملة : " إنّها شجرة . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر .

وجملة : " تخرج . . . " في محلّ رفع نعت لشجرة .

وجملة : " طلعها كأنّه رؤوس . . . " في محلّ رفع نعت ثان لشجرة .

وجملة : "كأنّه رؤوس . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ طلعها .

(66) (الفاء) استئنافيّة (اللام) المزحلقة للتوكيد (منها) متعلّق بـ (آكلون) ، والثاني متعلّق بـ (مالئون) المعطوف على (آكلون) بـ (الفاء) ، (البطون) مفعول به لاسم الفاعل مالئون .

وجملة : " إنّهم لآكلون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(67) (لهم) متعلّق بخبر مقدّم (عليها) متعلّق بحال من حميم " 1 " ، (اللام) للتوكيد (شوبا) اسم إنّ منصوب (من حميم) متعلّق بنعت لـ (شوبا) . .

وجملة : " إن لهم . . لشوبا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّهم لآكلون .

(68) - (اللام) المزحلقة للتوكيد (إلى الجحيم) متعلّق بخبر إنّ .

وجملة : " إنّ مرجعهم لإلى الجحيم " لا محلّ لها معطوفة على جملة : إنّ لهم . . لشوبا .

الصرف :

(62) الزقّوم : اسم لثمر شجرة خبيثة مرّة كريهة الطعم ، ويقال هي شجرة تكون بأرض تهامة من أخبث الشجر ، وزنه فعّول بفتح وضمّ العين المشدّدة .

(64) أصل : اسم لأسفل الشيء أو ما يقابل الفرع ، أو هو المصدر ، وزنه فعل بفتح فسكون . . من الثلاثيّ من باب كرم .

(66) مالئون : جمع مالئ ، اسم فاعل من الثلاثيّ ملأ ، وزنه فاعل .

(67) شوبا : مصدر سماعيّ لفعل شابه يشوبه أي خالطه ، وقد يقصد به اسم المفعول أي المشوب ، وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

1 - الاستعارة : في قوله تعالى " طَلْعُها " .

الطلع للنخلة ، وأستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها : إما استعارة لفظية ، أو

معنوية .

2 – التشبيه التخييلي : في قوله تعالى " طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ " .

---

(1) نعت تقدّم على المنعوت أي : إنّ لهم لشوبا من حميم مصبوب على ما يأكلون من شجرة الزّقوم .



---

شبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهية وقبح المنظر ، لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس ، لاعتقادهم أنه شر محض لا يخالطه خير ، فيقولون في القبيح الصورة : كأنه وجه شيطان ، كأنه رأس شيطان . وإذا صوّره المصورون : جاؤوا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله ، كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه ، فشبهوا به الصورة الحسنة . قال اللّه تعالى " ما هذا بَشَراً إنْ هذا إلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ " .

3 – سر العطف بـ " ثم " : في قوله تعالى " ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ " سر لطيف المأخذ ، دقيق المسلك ، فإن في معنى التراخي وجهين : أحدهما ، أنهم يملئون البطون من شجر الزقوم ، وهو حارّ يحرق بطونهم ويعطشهم ، فلا يسقون إلا بعد مليّ تعذيبا بذلك العطش ، ثم يسقون ما هو أحرّ وهو الشراب المشوب بالحميم . والثاني : أنه ذكر الطعام

بتلك الكراهة والبشاعة، ثم ذكر الشراب بما هو أكره وأبشع، فجاء بثم للدلالة على تراخي حال الشراب عن حال الطعام ومباينة صفته لصفته في الزيادة عليه.

[سورة الصافات (37) : الآيات 69 إلى 70]

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ (69) فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (70)

الإعراب:

(ألفوا) ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين.. و(الواو) فاعل (ضالّين) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الياء.

جملة: "إنّهم ألفوا..." لا محلّ لها استئناف تعليليّ.

وجملة: "ألفوا..." في محلّ رفع خبر إنّ.

(70) - (الفاء) عاطفة (على آثارهم) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ هم.. و(الواو) في (يهرعون) فاعل "1".

وجملة: "هم على آثارهم" لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّهم ألفوا.

وجملة: "يهرعون.." في محلّ رفع خبر ثان "2".

الصرف:

(ألفوا)، فيه إعلال بالحذف لالتقاء الساكنين لام الكلمة و(واو) الجماعة، وفتح ما قبل الواو دلالة على الألف المحذوفة، وزنه أفعوا - بفتح العين -.

[سورة الصافات (37): الآيات 71 إلى 74]

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (71) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (72) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (74)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قبلهم) ظرف منصوب متعلّق لا متعلّق بـ (ضلّ) "3"...

جملة: "ضلّ... أكثر" لا محلّ لها جواب القسم المقدّر...

وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة.

(72) (فيهم) متعلّق بـ (أرسلنا) بتضمينه معنى بعثنا..

وجملة: "أرسلنا..." لا محلّ لها جواب القسم المقدّر... وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها معطوفة على جملة القسم المقدّرة الأولى.

(73) - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب خبر كان

..

---

(1) يلاحظ أنّ هذا الفعل لا يستعمل إلّا بصيغة المفعول في اللغة، فلزم أن يكون الضمير فيه فاعلا لا نائب فاعل.

(2) أو في محل نصب حال من ضمير الاستقرار. [......]

(3) أو متعلّق بمحذوف حال من أكثر.



---

وجملة: "انظر..." جواب شرط مقدّر أي: إن عاقبنا المنذرين.

فانظر...

وجملة: "كان عاقبة..." في محلّ نصب مفعول لفعل النظر المعلّق بالاستفهام (74) -

(إلّا) للاستثناء (عباد) منصوب على الاستثناء المنقطع...

[سورة الصافات (37): الآيات 75 إلى 82]

وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (77) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ (79) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (82)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (الفاء) عاطفة (اللام) لام القسم للقسم المقدّر السابق (نعم) ماض جامد لإنشاء المدح (المجيبون) فاعل مرفوع . . . والمخصوص بالمدح محذوف تقديره نحن .

جملة : " نادانا نوح . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر .

وجملة : " نعم المجيبون . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم " 1 " .

(76) - (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة التالية (أهله) معطوف على الضمير الغائب في (نجّيناه) ، (من الكرب) متعلّق بـ (نجّيناه) . .

وجملة : " نجّيناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

---

(1) أو جواب قسم مقدّر آخر .

الجدول ج 23 ، ص : 67

(77) - (هم) ضمير فصل (الباقين) مفعول به ثان عامله جعلنا .

وجملة : " جعلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نجّيناه .

(78) - (عليه) متعلّق بمحذوف هو مفعول تركنا أي تركنا ثناء عليه . .

(في الآخرين) متعلّق بـ (تركنا) .

وجملة : " تركنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نجّيناه .

(79) - (سلام) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (على نوح) متعلّق بخبر المبتدأ سلام (في العالمين) متعلّق بالاستقرار الذي هو خبر .

وجملة : " سلام على نوح " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة " 2 " .

(80) - (إنّا) حرف مشبه بالفعل واسمه (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نجزي . . .

وجملة : " إنّا . . . نجزي . . . " لا محلّ لها تعليل لما سبق .

وجملة : " نجزي . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(81) - (من عبادنا) متعلّق بمحذوف خبر إنّ . .

---

(1) جاز الابتداء بالنكرة لأنه دالّ على دعاء .

(2) أو هي تفسير لقوله تركنا . . . أو تفسير للمفعول المقدّر أي تركنا شيئًا هو هذا الكلام . . . ويجوز أن تكون مقول القول لقول مقدّر أي قلنا سلام . . .



---

وجملة : " إنّه من عبادنا . . . " لا محلّ لها تعليل آخر .

(82) - (ثمّ) حرف عطف . . .

وجملة: "أغرقنا .... "لا محلّ لها معطوفة على جملة نجّيناه - أو جعلنا.

الصرف:

(75) المجيبون: جمع المجيب، اسم فاعل من الرباعيّ أجاب، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين، وفيه إعلال بالقلب،

أصله مجوب - بكسر الواو، فهو واويّ العين، ثمّ سكّنت الواو ونقلت حركتها إلى الجيم، ثمّ قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها فأصبح (مجيب) "1".

[سورة الصافات (37): الآيات 83 إلى 86]

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (83) إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (85) أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (من شيعته) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (اللام) للتوكيد (إبراهيم) اسم إنّ منصوب.

جملة: "إنّ من شيعته لإبراهيم" لا محلّ لها استئنافيّة.

(84) (إذ) ظرف للزمن الماضي متعلّق بمحذوف دلّ عليه لفظ شيعته أي شايعه إذ جاء ربّه (بقلب) متعلّق بحال من الفاعل.

وجملة: "جاء ..." في محلّ جرّ مضاف إليه.

(85) - (إذ) ظرف بدل من الأول (لأبيه) متعلّق بـ (قال) ، (ماذا) اسم استفهام في محلّ نصب مفعول به عامله تعبدون " 2 " .

وجملة : " قال . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تعبدون . . " في محلّ نصب مقول القول .

(86) (الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (إفكا) مفعول به مقدّم منصوب " 3 " ، (آلهة) بدل من (إفكا) بحذف مضاف أي عبادة آلهة (دون) ظرف

---

(1) وانظر الآية (61) من سورة هود .

(2) أو (ما) استفهام مبتدأ خبره اسم الموصول (ذا) ، والجملة من المبتدأ والخبر في محلّ نصب مقول القول ، وجملة تعبدون صلة والعائد محذوف .

(3) قيل هو مفعول لأجله عامله تريدون ، والمفعول به هو آلهة .



---

منصوب متعلّق بنعت لآلهة " 1 " .

وجملة : " تريدون " في محلّ نصب بدل من جملة تعبدون .

[سورة الصافات (37) : آية 87]

فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (87)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (ما) اسم استفهام مبتدأ خبره (ظنّكم) (بربّ) متعلّق بالمصدر ظنّكم .

والجملة . . . في محلّ نصب معطوفة على جملة " تعبدون " " 2 " .

[سورة الصافات (37) : الآيات 88 إلى 94]

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90) فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ (91) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (92)

فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (93) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (نظرة) مفعول مطلق منصوب (في النجوم) متعلّق بـ (نظر) بتضمين الفعل معنى تفكّر .

جملة : " نظر . . . " لا محلّ لها معطوفة على مستأنف مقدّر أي : قال قومه اخرج معنا فنظر . . . .

(89) (الفاء) عاطفة في المواضع الستة الآتية وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نظر .

وجملة : " إنّي سقيم . . " في محلّ نصب مقول القول .

(90) - (تولّوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين
.. و(الواو) فاعل (عنه) متعلّق بـ (تولّوا) ، (مدبرين) حال

---

(1) أو متعلّق بـ (تريدون) .

(2) في الآية (85) من هذه السورة .

(395/656)

---

مؤكّدة للفعل منصوبة ، وعلامة النصب الياء .

وجملة : " تولّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال .

(91) - (إلى آلهتهم) متعلّق بـ (راغ) ، (ألا) أداة عرض . . .

وجملة : " راغ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تولّوا .

وجملة : " قال . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة راغ .

وجملة : " ألا تأكلون " في محلّ نصب مقول القول .

(92) - (ما) اسم استفهام مبتدأ (لكم) متعلّق بخبر المبتدأ (ما) (لا) نافية .

وجملة : " ما لكم . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " لا تأكلون " في محلّ نصب حال من ضمير الخطاب في (لكم) .

(93) (عليهم) متعلّق بـ (راغ) وفي الضرب معنى الاستعلاء (ضربا) مفعول مطلق لفعل محذوف "1"، (باليمين) متعلّق بالمصدر (ضربا) "2".

وجملة: "راغ (الثانية"... لا محلّ لها معطوفة على جملة قال.

(94) (إليه) متعلّق بـ (أقبلوا) - أو بـ (يزفّون) - وجملة: "أقبلوا..." لا محلّ لها معطوفة على مقدّر أي: فكسرها فبلّغ قومه من رآه فأقبلوا...

وجملة: "يزفّون...." في محلّ نصب حال من فاعل أقبلوا.

الصرف:

(راغ)، فيه إعلال بالقلب أصله روغ تحركت الواو بعد فتح قلبت ألفا وزنه فعل بفتحتين بمعنى مال إليه سرا.

---

(1) وجملة الفعل المقدّر حال من فاعل راغ.. أو هي مصدر في موضع الحال.

(2) هذا إذا كان (ضربا) نائبا عن فعله، وإلّا فيتعلّق الجار بالفعل المقدّر.. وقد تكون الباء للملابسة إذا كان اليمين بمعنى القوّة، فالجارّ متعلّق بحال من فاعل راغ.

الجدول ج 23، ص: 71

(نظرة)، مصدر مرة من الثلاثي، نظر وزنه فعلة بفتح فسكون.

(سقيم)، صفة مشبهة من الثلاثي سقم باب فرح، وزنه فعيل.

فن الرمز والإيماء والتعريض : في قوله تعالى " فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ " .



---

وهذا الفن هو : أن يريد المتكلم إخفاء أمر ما في كلامه ، فيرمز في ضمنه رمزا ، إما تعمية للمخاطب ، وتبرئة لنفسه ، وتنصلا من التبعة ، وإما ليهتدي بواسطته إلى طريق استخراج ما أخفاه في كلامه والذي قاله إبراهيم عليه السلام ، معراض من الكلام ، ولقد نوى به أن من في عنقه الموت سقيم . ومنه المثل : كفى بالسلامة داء .

الفوائد

- قصة النجوم :

ما العلاقة بين نظر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النجوم وقوله (إِنِّي سَقِيمٌ) ؟

قال المفسرون ، وهو قول ابن عباس : كان قوم إبراهيم يتعاطون علم النجوم ، فعاملهم من حيث كانوا يتعاطون ويتعاملون به ، لئلا ينكروا عليه ، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ، ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة . وكان لهم من الغد عيد ومجمع ، فكانوا يدخلون على أصنامهم ، ويقربون لهم القرابين ، ويضعون بين أيديهم الطعام قبل خروجهم إلى

عيدهم ، وزعموا التبرك عليه ، فإذا انصرفوا من عيدهم أكلوه ، فقالوا لإبراهيم : ألا تخرج معنا ، فنظر في النجوم فقال إني سقيم ، وفي غيبتهم قام بتحطيم الأصنام .

[سورة الصافات (37) : الآيات 95 إلى 96]

قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ (96)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ الإنكاريّ (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به والعائد محذوف .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعبدون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تنحتون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(96) - (الواو) حاليّة - أو عاطفة - والثانية عاطفة (ما) اسم موصول في محل نصب معطوف على ضمير الخطاب في (خلقكم) ، والعائد محذوف .

وجملة : " اللّه خلقكم . . " في محلّ نصب حال " 1 " .

وجملة : " خلقكم . . . " في محل رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

[سورة الصافات (37) : الآيات 97 إلى 98]

قالوا ابْنُوا لَهُ بُنْيانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98)

الإعراب:

(له) متعلّق بـ (ابنوا)، (الفاء) عاطفة (في الجحيم) متعلّق بـ (ألقوه).

جملة: "قالوا ... " لا محلّ لها استئنافيّة بيانيّة.

وجملة: "ابنوا ... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "ألقوه ... " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول.

(98) (الفاء) عاطفة (به) متعلّق بمحذوف حال من (كيدا)، (الفاء) عاطفة

(الأسفلين) مفعول به ثان منصوب.

وجملة: "أرادوا ... " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة " 2 ".

وجملة: "جعلناهم ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة أرادوا ...

---

(1) أو معطوفة على جملة مقول القول.

(2) أو استئنافيّة.

[سورة الصافات (37) : الآيات 99 إلى 113]

وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ماذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103)

وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108)

*(398/656)*

---

سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ (109) كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (إلى ربّي) متعلّق بذاهب (السين) حرف استقبال، و(النون) في

(سيهدين) للوقاية، و(الياء) المحذوفة لمناسبة فواصل الآي مفعول به.

وجملة: "قال . . . "لا محلّ لها معطوفة على مقدّر مستأنف أي:

خرج من النار سالما وقال . . .

وجملة: "إنّي ذاهب . . . "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "سيهدين "لا محلّ لها اعتراضيّة" 1 ".

---

(1) أو استئناف بيانيّ. [. . . . .]

(399/656)

---

(100 - 101) - (ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف، و(الياء) المحذوفة مضاف إليه (لي) متعلّق بـ (هب)، (من الصالحين) متعلّق بنعت لمفعول مقدّر أي ابنا من الصالحين (الفاء) عاطفة (بغلام) متعلّق بـ (بشّرناه) . . .

وجملة النداء وجوابه . . في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي قائلا . . .

وجملة: "هب . . . "لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " هب . . . " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " بشّرناه . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة القول المقدّر.

(400/656)

---

(102) - (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب قال (معه) ظرف منصوب متعلّق بحال من فاعل بلغ " 1 "، وهو ضمير يعود على غلام (بنيّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة، و(الياء) الثانية مضاف إليه (في المنام) متعلّق بـ (أرى)، (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (ماذا) اسم استفهام في محلّ نصب مفعول به عاملة ترى: " 2 " (أبت) منادى مضاف منصوب . . و(التاء) عوض من (ياء) الإضافة المحذوفة (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به، والعائد محذوف أي تؤمره، ونائب الفاعل لفعل (تؤمر) ضمير مستتر تقديره أنت، (السين) للاستقبال، و(النون) في (ستجدني) للوقاية (شاء) فعل ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (من الصابرين) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله ستجدني . .

---

(1) لا يجوز أن يتعلّق بـ (بلغ) لأن بلوغ السعي ليس متزامنا بين الأب والابن، ويجوز تعليقه

بالسعي على الرغم من تقدّم المعمول على المصدر إذ يجوز في الظرف ما لا يجوز في غيره.

(2) أو (ما) مبتدأ و(ذا) خبر،



---

وجملة: "بلغ... "في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "قال... "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة النداء: "يا بنيّ... "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "إنّي أرى... "لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "أرى في المنام... "في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "أذبحك... "في محلّ رفع خبر أنّ.

والمصدر المؤوّل (أنّي أذبحك) في محلّ نصب مفعول به عامله أرى.

وجملة: "انظر... "لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر في حيّز القول أي: تنبّه فانظر...

وجملة: "ترى... "في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام.

وجملة: "قال... "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة النداء وجوابه . . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " افعل . . . " لا محلّ لها جواب النداء .



وجملة : " تؤمر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول .

وجملة : " ستجدني . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " شاء اللّه . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

(103) - (الفاء) عاطفة (لمّا) مثل الأول (للجبين) متعلّق بـ (تلّه) بتضمينه معنى دفعه .

وجملة : " أسلما . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجواب الشرط محذوف تقديره ظهر صبرهما ، أو أجزلنا لهما الأجر " 1 " .

---

(1) بعضهم يجعل الجواب جملة : ناديناه على زيادة الواو .

وجملة: " تلّه . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أسلما .

(104) - (الواو) عاطفة (أن) حرف تفسير (إبراهيم) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب . . .

وجملة: " ناديناه . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أسلما .

وجملة النداء : " يا إبراهيم " لا محلّ لها تفسيريّة .

(105) - (قد) حرف تحقيق (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نجزي . . .

وجملة: " صدقت . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة: " إنّا . . نجزي . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز النداء " 1 " .

وجملة: " نجزي . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(106) (اللام) المزحلقة للتوكيد (هو) ضمير منفصل مبتدأ " 2 " خبره (البلاء) . .

وجملة: " إنّ هذا لهو البلاء . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز النداء " 3 " .

وجملة: " هو البلاء . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(107 - 111) - (الواو) عاطفة (بذبح) متعلّق بـ (فديناه) ، (تركنا . . الآخرين) مرّ إعرابها " 4 " ، (سلام . . المؤمنين) " 5 " .

وجملة: " فديناه . . . " معطوفة على جملة جواب الشرط مذكورة أو مقدّرة .

---

(1، 3) أو هي استئنافيّة منقطعة.

(2) أو هو ضمير فصل، و(البلاء) خبر إنّ.

(4) في الآية (78) من هذه السورة.

(5) انظر إعراب الآيات (79، 80، 81) من هذه السورة مفردات وجملا.



---

وجملة: " تركنا ... " معطوفة على جملة فديناه.

(112) - (الواو) عاطفة (بإسحاق) متعلّق بـ (بشّرناه)، (نبيّا) حال مقدّرة منصوبة (من الصالحين) متعلّق بنعت لـ (نبيّا) " 1 ".

وجملة: " بشّرناه ... " لا معطوفة على جملة فديناه.

(113) - (الواو) عاطفة (عليه) متعلّق بـ (باركنا)، وكذلك (على إسحاق)، (الواو) استئنافيّة (من ذرّيّتهما) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ محسن (ظالم) معطوف على محسن بـ (الواو) مرفوع مثله (لنفسه) متعلّق بظالم " 2 ".

وجملة: " من ذرّيّتهما محسن ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(99) ذاهب : اسم فاعل من الثلاثيّ ذهب باب فتح ، وزنه فاعل .

(102) السعي : اسم لمكان يجري فيه السعي سميّ باسم المصدر للثلاثيّ سعى وزنه فعل بفتح فسكون .

(103) الجبين : اسم لمكان يجري فيه السعي سميّ باسم المصدر للثلاثيّ سعى وزنه فعل بفتح فسكون .

(103) الجبين : اسم للقسم المعروف من طرفي الرأس فهما جبينان بينهما الجبهة ، وزنه فعيل بفتح الفاء .

(107) ذبح : اسم ما يذبح بمعنى المذبوح ، وزنه فعل بكسر الفاء وسكون العين .

البلاغة

الإيجاز : في قوله تعالى " فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ " .

وهذا إيجاز قصر ، فقد انطوت هذه البشارة الموجزة على ثلاث : على أن الولد غلام ذكر ، وأنه يبلغ أوان الحلم ، وأنه يكون حليما .

---

(1) أو حال من الضمير في (نبيّا) ، أو حال من إسحاق .

(2) يجوز أن تكون اللام زائدة للتقوية ، و(نفسه) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به لاسم الفاعل ظالم .

الفوائد

من هو الذبيح ؟

أفادت الآية أن رؤيا الأنبياء حق ، وقد اختلف العلماء أيّ ولدي إبراهيم هو الذبيح . فقال طائفة منهم هو " إسحاق " وإلى ذلك ذهب عمر وعلي وابن مسعود والعباس وكعب الأحبار وسعيد بن جبير وغيرهم رضي اللّه عنهم . واختلفت الروايات عن ابن عباس على قولين : أحدهما إسماعيل وثانيهما إسحاق ، ومن قال بأنه إسحاق قال : كانت هذه القصة بالشام . وروي عن سعيد بن جبير قال : رأى إبراهيم ذبح إسحاق في المنام ، وهو بالشام ، فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة ، حتى أتى به المنحر من منى ، فلما أمره اللّه بذبح الكبش ذبحه ، وسار به مسيرة شهر في روحة واحدة ، طويت له الأودية والجبال . والقول الثاني : أنه إسماعيل ، وإليه ذهب عبد اللّه بن سلام والحسن وسعيد بن المسيب والشعبي ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي ورواية عطاء بن أبي رباح ويوسف بن ماهك عن ابن عباس قال المفدي إسماعيل وكلا القولين يروى عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلم) .

واحتج من ذهب إلى أن الذبح إسحاق بقوله تعالى فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فلما بلغ معه السعي أمر بذبح من بشر به ، وليس في القرآن أنه بشر بولد سوى إسحاق ، وكانت البشارة بعد قصة الذبح ، فدل ذلك على أن الذبيح هو المبشّر به ، واحتج من ذهب إلى أن الذبيح هو إسماعيل بأن اللّه تعالى ذكر البشارة بإسحق بعد الفراغ من قصة الذبيح ، فقال تعالى وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ فدل على أن المذبوح غيره ، وأيضا فإن اللّه تعالى قال في سورة هود فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ فكيف يأمره بذبح إسحاق وقد وعده بولد له هو يعقوب ، ووصف إسماعيل بالصبر دون إسحاق في قوله :

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وهو صبره على الذبح ، ووصفه بصدق الوعد في قوله إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وعد أباه بالصبر على الذبح فوفى بوعده ، وسأل عمر بن عبد العزيز يهوديا أسلم وحسن إسلامه : أي ولدي إبراهيم أمره اللّه تعالى بذبحه ، فقال : إسماعيل . وقال الأصمعي سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصمعي ، متى كان إسحاق بمكة ؟ إنما كان

إسماعيل ، وهو الذي بنى البيت مع أبيه . واللّه تعالى أعلم .

[سورة الصافات (37) : الآيات 114 إلى 122]

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ (114) وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115)
وَنَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (116) وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْناهُمَا
الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (118)

وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ (119) سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ (120) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122)

الإعراب:

(407/656)

---

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (على موسى) متعلّق بـ (مننّا) .

جملة: "مننّا.. " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر.

(115) - (الواو) عاطفة في الموضعين (قومهما) معطوف على ضمير المفعول في (نجّيناهما) بـ (الواو) منصوب (من الكرب) متعلّق بـ (نجيناهما) .

وجملة: "نجيناهما ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة مننا.

(116) - (الواو) عاطفة وكذلك (الفاء) ، (هم) ضمير فصل (الغالبين) خبر كانوا منصوب ، وعلامة النصب الياء .

وجملة : " نصرناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مننا . .

وجملة : "كانوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نصرناهم . .

(117 - 118) - (الواو) عاطفة (الكتاب) مفعول به ثان منصوب (الصراط) مفعول به ثان عامله هديناهما - أو منصوب على نزع الخافض

وجملة : " آتيناهما . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : " هديناهما . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

(119 - 122) (وتركنا . . . المؤمنين) آيات سبق إعراب نظائرها مفردات وجملا " 1 " .

الصرف :

(117) المستبين : اسم فاعل من السداسيّ استبان ، وزنه مستفعل بضمّ الميم وكسر العين . . وفيه إعلال بالتسكين ، أصله مستبين - بسكون الباء وكسر الياء - استثقلت الكسرة على الياء فسكّنت ونقلت الحركة إلى الباء .

[سورة الصافات (37) : الآيات 123 إلى 132]

وَإِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (124) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ

أَحْسَنَ الْخالِقِينَ (125) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (126) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (127)

إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (128) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (129) سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ (130) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (132)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) المزحلقة للتوكيد (من المرسلين) متعلّق بخبر إنّ.

وجملة: "إنّ إلياس لمن المرسلين" لا محلّ لها استئنافيّة.

(124) (إذ) ظرف للزمن الماضي متعلّق بالمرسلين "2"، (لقومه) متعلّق بـ (قال)،

(ألا) أداة عرض لا عمل لها.

---

(1) في الآيات (78، 79، 80، 81) من هذه السورة.

(2) أو مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر.



---

وجملة: "قال..." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "ألا تتّقون..." في محلّ نصب مقول القول.

(125) (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الواو) عاطفة.

وجملة: " تدعون ... " في محلّ نصب بدل من جملة تتّقون.

وجملة: " تذرون .. " في محلّ نصب معطوفة على جملة تدعون.

(126 - 128) (اللّه) لفظ الجلالة بدل من أحسن منصوب - أو عطف بيان عليه - (ربّكم) نعت للفظ الجلالة - أو بدل منه - منصوب (الفاء) عاطفة والثانية رابطة لجواب شرط مقدّر (اللام) المزحلقة للتوكيد. (إلّا) للاستثناء (عباد) مستثنى بإلّا منصوب.

وجملة: "كذّبوه ... " في محلّ جرّ معطوفة على جملة قال ...

وجملة: " إنّهم لمحضرون .. " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن جاء حسابهم فإنّهم ...

(129 - 132) (وتركنا ... من عبادنا المؤمنين) مرّ إعراب نظائرها " 1 " مفردات وجملا.

الصرف:

(123) إلياس: اسم علم لنبيّ من أنبياء بني إسرائيل، وقيل هو إدريس، وقال ابن عبّاس هو ابن عمّ اليسع، وقيل هو ابن أخي هارون، وهو علم أعجميّ لا يعرف وزنه.

(125) بعلا: اسم بمعنى إله، وزنه فعل بفتح فسكون.

---

(1) في الآيات: (78، 79، 80، 81)، من هذه السورة.

(130) إلياسين : قيل هو اسم آخر لإلياس فهو مفرد ، وقيل جمع مذكّر سالم لكلّ من آمن مع إلياس على طريقة التغليب كما يقال المهالبة والأشاعرة نسبة إلى المهلّب والأشعريّ ، وهو في الأصل جمع إلياسيّ – نسبة إلى إلياس – ثمّ استثقلت الشدّة على الياء فحذفت إحدى الياءين ،

فلمّا جمع جمع مذكّر سالما التقى ساكنان إحدى الياءين وياء الجمع ، فحذفت أولاهما لالتقاء الساكنين فصار إلياسين . . والقول بإفراده أصحّ .

الفوائد

– قصة إلياس عليه الصلاة والسلام :

قال قتادة ومحمد بن إسحاق : إلياس هو إدريس ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم ، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن عبد اللّه ابن مسعود – رضي اللّه عنه – قال : إلياس هو إدريس . وكذا قال الضحاك .

وقال وهب بن منبه : هو إلياس بن (ياسين) بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران ، بعثه اللّه في بني إسرائيل بعد حزقيل عليهما الصلاة والسلام . وكانوا قد عبدوا صنما يقال

له " بعل " فدعاهم إلى اللّه ، ونهاهم عن عبادة ما سواه . وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد ، واستمروا على ضلالتهم ، ولم يؤمن به منهم أحد ، فدعا اللّه عليهم ، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين ، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم ، ووعدوه بالإيمان به إن هم أصابهم المطر . فدعا اللّه لهم ، فجاءهم الغيث ، فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر ، فسأل اللّه أن يقبضه إليه ، وكان قد نشأ على يديه اليسع بن أخطوب – عليه الصلاة والسلام – فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا ، فهما جاءه فليركبه ولا يخفه ، فجاءته فرس من نار فركب ، وألبسه اللّه النور وكساه الريش ، وكان يطير مع الملائكة ملكا إنسيا سماويا أرضيا ، هكذا حكاه وهب عن أهل الكتاب . واللّه أعلم بصحته .

]

سورة الصافات (37) : الآيات 133 إلى 138]



---

وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (138)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لمن المرسلين) مزحلقة وخبر إنّ .

جملة : " إنّ لوطا لمن المرسلين " لا محلّ لها استئنافيّة .

(135 - 136) (إذ) ظرف للزمن الماضي متعلّق بالمرسلين " 1 " ، في محلّ نصب

(الواو) عاطفة (أهله) معطوف على ضمير الغائب في (نجيناه) منصوب (أجمعين) توكيد

معنوي لضمير لوط وأهله (إلّا) للاستثناء (عجوزا) مستثنى بإلّا منصوب (في الغابرين)

نعت لـ (عجوزا) .

وجملة : " نجّيناه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " دمّرنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة نجّيناه .

(137) - (الواو) عاطفة (اللام) المزحلقة للتوكيد (عليهم) متعلّق بـ (تمرّون) ،

(مصبحين) حال منصوبة من فاعل تمرّون .

وجملة : " إنّكم لتمرّون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ لوطا لمن المرسلين .

وجملة : " تمرّون . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(138) (الواو) عاطفة (بالليل) متعلّق بحال معطوفة على الحال السابقة (الهمزة)

للاستفهام التوبيخيّ (الفاء) عاطفة (لا) نافية .

وجملة : " لا تعقلون . . . " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر أي :

أتغفلون عن ذلك فلا تعقلون . .

الفوائد

- الضمير :

ينقسم الضمير إلى ثلاثة أنواع :

1 - الضمير المنفصل : وهو الذي يأتي مستقلا ، غير متصل بشيء وهو نوعان :

آ - ضمائر الرفع : أنا - نحن - أنت - أنت - أنتما - أنتم - أنتن - هو - هي - هما - هم - هن .

---

(1) أو هو اسم ظرفيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر .



---

ب - ضمائر النصب : إيّاي - إيّانا - إيّاك . . إلخ .

2 - الضمير المستتر : وهو الذي لا يظهر في الكلام ، وإنما يقدر تقديرا ، وهو :

للغائب : هو - هي . للمتكلم : أنا - نحن . للمخاطب : أنت .

أما بقية الضمائر مثل : أنتما - هما - هم فلا تأتي مستترة ، وإنما يستتر الضمائر التي

ذكرناها فقط . يستتر الضمير جوازا مع الغائب : هو - هي . ويستتر وجوبا مع المتكلم

والمخاطب : أنا – نحن – أنت .

3 – الضمير المتصل ، وهو الضمير الذي يتصل بكلمة ، ولا يأتي مستقلا . وقد يتصل بالاسم مثل (كتابك) ، أو بالفعل مثل (جاؤوا) أو بالحرف مثل (عليه) . وينقسم إلى ثلاثة أنواع :

آ – ضمائر تختص بالرفع وهي : ألف الاثنين – واو الجماعة – ياء الخطاب – التاء المتحركة – نون النسوة .

وهذه الضمائر لا تتصل إلا بالفعل فإن كان الفعل تاما (غير ناقص) فهي في محل رفع فاعل ، كما في الآية التي نحن بصددها قوله تعالى أَفَلَا تَعْقِلُونَ

فواو الجماعة ضمير متصل في محل رفع فاعل . أما إن اتصلت بفعل ناقص (كان وأخواتها) فهي في محل رفع اسمها .

ب – ضمائر تختص بالنصب والجر ، وهي : هاء الغائب ، وياء المتكلم ، وكاف الخطاب . وتشترك باتصالها بالفعل أو الاسم أو الحرف أو بالحروف المشبهة بالفعل (إن وأخواتها) ، فإن اتصلت بالفعل ، فهي في محل نصب مفعول به ، مثل (أكرمتك) ، وإن اتصلت بالحرف المشبه بالفعل ، فهي في محل نصب اسمها ، وإن اتصلت بالاسم فهي في محل جر بالإضافة ، وإن اتصلت بالحرف (أي حرف جر) فهي في محل جر بحرف الجر .

ج – وضمير يختص بالرفع أو النصب أو الجر ، وهو (نا) ، فيأتي أحيانا في محل رفع مثل

(سمعنا وأطعنا) ، وأحيانا في محل جر مثل (ربنا) ، وأحيانا في محل نصب مثل (لا تؤاخذنا) .

الجدول ج 23 ، ص : 85

ملاحظة : إذا اتصلت ياء المتكلم بأحد حرفي الجر : (من) و(عن) أو بالفعل ، أتي بنون الوقاية فاصلا بين الياء وبين ما قبلها ، مثل : منّي - عنّى - أكرمني - يكرمني - أكرمني . .

]

*(412/656)*

---

سورة الصافات (37) : الآيات 139 إلى 148]

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143)

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (148)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لمن المرسلين) مثل السابقة " 1 " .

جملة : " إنّ يونس لمن المرسلين " لا محلّ لها استئنافيّة .

(140) (إذ أبق) مثل إذ نجّيناه " 2 " ، (إلى الفلك) متعلّق بـ (أبق) .

وجملة : " أبق . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

(141) (الفاء) عاطفة في الموضعين (من المدحضين) متعلّق بخبر كان .

وجملة : " ساهم . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أبق .

وجملة : " كان من المدحضين . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ساهم .

(142) (الفاء) عاطفة و(الواو) حالية .

---

(1) في الآية (133) [. . . . . .]

(2) في الآية (134) من هذه السورة .

*(413/656)*

---

وجملة : " التقمه الحوت . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة كان . . .

وجملة: "هو مليم" في محلّ نصب حال.

(143) (الفاء) استئنافيّة - أو عاطفة - (لولا) حرف شرط غير جازم (من المسبّحين) متعلّق بخبر كان.

والمصدر المؤوّل (أنّه كان من المسبّحين) في محلّ رفع مبتدأ خبره محذوف تقديره موجود.

وجملة: "لولا (تسبيحه) موجود" لا محلّ لها استئنافيّة - أو معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "كان من المسبّحين" في محلّ رفع خبر أنّ.

(414/656)

---

(144) (اللام) واقعة في جواب لولا (في بطنه) متعلّق بـ (لبث) "1"، (إلى يوم) متعلّق بـ (لبث)، و(الواو) في (يبعثون) نائب الفاعل.

وجملة: "لبث..." لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "يبعثون" في محلّ جرّ مضاف إليه.

(145) (الفاء) استئنافيّة (بالعراء) متعلّق بـ (نبذناه) و(الباء) للظرفيّة (الواو) حالية ..

وجملة: "نبذناه..." لا محلّ لها استئنافيّة في معرض قصّة يونس.

وجملة: " هو سقيم " في محلّ نصب حال.

(146) (الواو) عاطفة (عليه) متعلّق بـ (أنبتنا) بتضمينه معنى ظلّلنا (من يقطين) متعلّق بنعت لشجرة.

وجملة: " أنبتنا ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة نبذناه.

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من فاعل لبث.

(415/656)

---

(147) (الواو) عاطفة (إلى مائة) متعلّق بـ (أرسلناه)، (أو) للإضراب " 1 " ..

وجملة: " أرسلناه ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة نبذناه ..

وجملة: " يزيدون .. " لا محلّ لها استئنافيّة.

(148) (الفاء) عاطفة في الموضعين (إلى حين) متعلّق بـ (متّعناهم).

وجملة: " آمنوا ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة أرسلناه.

وجملة: " متّعناهم ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا.

الصرف:

(141) المدحضين: جمع المدحض، اسم مفعول من أدحض المبنيّ للمجهول، وزنه مفعل

بضمّ الميم وفتح العين .

(142) مليم : اسم فاعل من الرباعيّ ألام فلان إذا أتى بما يلام عليه ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين ، وفيه إعلال بالقلب وإعلال بالتسكين ، أصله ملوم بضمّ فسكون فكسر ، استثقلت الكسرة على الواو فسكّنت - إعلال بالتسكين - ونقلت حركتها إلى اللام قبلها ، ثمّ قلبت الواو ياء لانكسار ما قبل الواو فأصبح مليم .

(143) المسبّحين : جمع المسبّح اسم فاعل من الرباعي سبّح وزنه مفعّل بضم الميم وكسر العين المشددة . .

---

(1) اختلف المفسّرون كثيرا في معنى (أو) ، فقيل هو للإضراب ، وقيل للإبهام ، وقيل لمطلق الجمع ، وقيل للتخيير وقيل للإباحة .



---

(145) العراء : اسم لوجه الأرض ، جامد ، والهمزة فيه منقلبة عن ياء أصله العراي لأنه من عري يعرى باب فرح ، فلمّا تطرّفت الياء بعد ألف ساكنة ، قلبت همزة .

(146) يقطين : اسم جامد لنبات القرع وزنه يفعيل بفتح الياء مأخوذ من قطن بالمكان إذا قام فيه لا يبرح .

- يونس صلى اللّه عليه وسلم والفلك :

قال ابن عباس ووهب : كان يونس - عليه الصلاة والسلام - وعد قومه العذاب ، فتأخر العذاب عنهم ، فخرج كالمستور منهم ، فقصد البحر ، فركب السفينة ، فاحتبست السفينة ، فقال الملّاحون : هاهنا عبد آبق من سيّده . فاقترعوا فوقعت على يونس ثلاث مرات ، فقال : أنا الآبق ، وزج نفسه في الماء . هذا ما قاله ابن عباس . ثمّ التقمه الحوت ، وكان يسبح اللّه عز وجلّ ويذكره كثيرا . وقال ابن عباس : كان من المصلين . قال بعضهم : اذكروا اللّه في الرخاء يذكركم في الشدة . واختلفت الأقوال في مدة لبثه في بطن الحوت ، فقيل : ثلاثة ، وقيل : سبعة ، وقيل : عشرين ، وقيل : أربعين ، وبعد أن لفظه الحوت أنبت اللّه عليه شجرة من يقطين (يعني القرع) ، وتختص هذه الشجرة بعدم اقتراب الذباب منها ، ثم أرسله اللّه إلى مائة ألف أو يزيدون ، أي بل يزيدون . وورد في الحديث أنهم يزيدون (عشرين ألفا) فآمنوا به .

روي عن أبي بن كعب - رضي اللّه عنه - قال : سألت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلم) عن قوله تعالى وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ قال : يزيدون عشرين ألفا . أخرجه الترمذي .

وقال: حديث حسن.

- (أو):

(417/656)

---

تضاربت أقوال النحاة حول معنى (أو) في قوله تعالى: وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ.

وقد ذكر ابن هشام في المغنى هذا الخلاف، وأورد هذه الآراء. قال الفراء: المعنى (بل يزيدون) هكذا جاء في التفسير مع صحته في العربية، وقال بعض الكوفيين: بمعنى الواو، وللبصريين فيها أقوال: قيل: للإبهام، وقيل:

للتخيير، أي إذا رآهم الرائي تخير بين أن يقول: هم مائة ألف أو هم أكثر، نقله ابن الشجري عن سيبويه، وفي ثبوته عنه نظر، ولا يصح التخيير بين شيئين، الواقع أحدهما، وقيل: هي للشك مصروفا إلى الرائي، ذكره ابن جني، وأورد الإمام النسفي في التفسير قوله: (أو يزيدون) في مرأى الناظر، أي إذا رآهم الرائي قال:

هم مائة ألف أو أكثر. وقال الزجاج: قال غير واحد: معناه بل يزيدون. قال ذلك الفراء وأبو عبيدة، ونقل عن ابن عباس كذلك، وهذا القول هو أظهر. هذه الأقوال والله أعلم.

[سورة الصافات (37): الآيات 149 إلى 157]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ (150) أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (152) أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (153)

ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (155) أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ (156) فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (157)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة ، وضمير الغائب في (استفتهم) يعود على كفّار مكّة (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ ، (لربّك) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ البنات (الواو) للاستفهام الإنكاريّ ، لربّك متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ البنات (الواو) عاطفة (لهم البنون) مثل لربك البنات .

جملة : " استفتهم . . " لا محلّ لها استئنافيّة .



وجملة : " ألربّك البنات . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لهم البنون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف البيانيّ .

(150) (أم) عاطفة معادلة للهمزة " 1 " ، (إناثا) حال منصوب من الملائكة ، (الواو)

حالية .

وجملة : " خلقنا . . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف البيانيّ .

وجملة : " هم شاهدون " في محلّ نصب حال .

(151) (ألا) أداة تنبيه (من إفكهم) متعلّق بـ (يقولون) ومن سببيّة (اللام) المزحلقة للتوكيد . . .

وجملة : " إنّهم . . . ليقولون " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة ، والجملة بعدها استئنافيّة .



---

(152) (الواو) حالية (اللام) المزحلقة للتوكيد .

وجملة : " ولد اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول " 1 " .

وجملة : " إنّهم لكاذبون " في محلّ نصب حال .

(153) (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (على البنين) متعلّق بـ (اصطفى) .

وجملة : " اصطفى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(154) (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (لكم) متعلّق بمحذوف خبر ما (كيف)

اسم استفهام في محلّ نصب حال عامله (تحكمون) .

وجملة : " ما لكم . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تحكمون . . . " لا محلّ لها بدل من جملة ما لكم .

(155) (الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الفاء) عاطفة (لا) نافية .

وجملة : " تذكّرون " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

أغفلتم فلا تذكّرون .

(156) (أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة (لكم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (سلطان) .

وجملة : " لكم سلطان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(157) (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بكتابكم) متعلّق بـ (ائتوا) ، (كنتم) فعل ماض

ناقص في محلّ جزم فعل الشرط .

وجملة : " ائتوا . . . " في محل جزم جواب شرط مقدّر أي : إن كنتم صادقين فأتوا " 2 " .

وجملة : " إن كنتم صادقين . . . " لا محلّ لها تفسير للشرط

---

(1) لم يقولوا هذا الكلام صراحة ، وإنّما هو لازم لقولهم الملائكة بنات اللّه .

(2) أو إن كان لكم حجّة فأتوا . . .

المقدّر . . . " 1 " .

الصرف :

(أصطفى) ، حذفت همزة الوصل لدخول همزة الاستفهام على الفعل ، والطاء مبدلة من تاء الافتعال .

(تذكّرون) ، حذفت إحدى التاءين تخفيفا ، وأصله تتذكّرون .

الفوائد

- دخول همزة الاستفهام على همزة الوصل :

1 - إذا دخلت همزة الاستفهام على همزة وصل (مكسورة) فإننا نحذف همزة الوصل ، كقوله تعالى في الآية التي نحن بصددها أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ وقولك (أسمك خالد ) (أستغفرت اللّه) .

2 - أما إن دخلت على همزة وصل مفتوحة ، فتدغم الهمزتان وتصبحان ألفا ممدودة مثل آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ

[سورة الصافات (37) : الآيات 158 إلى 160]

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158) سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (159) إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (160)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة – أو عاطفة – (بينه) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (بين) ظرف معطوف على الأول ومتعلّق بما تعلّق به (الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (اللام) المزحلقة . . والضمير في (إنهم، محضرون) يعود على المشركين .

وجملة : " جعلوا . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة – أو معطوفة على استئناف سابق .

وجملة : " علمت الجنّة . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجملة

(1) وجواب الشرط محذوف تقديره فأتوا بكتابكم . . .

(421/656)

---

القسم المقدّرة معطوفة على جملة جعلوا . . .

وجملة : " إنّهم لمحضرون . . " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي علمت المعلّق بـ (إنّ) ، وقد كسرت الهمزة لمجيء اللام بالخبر .

(159) (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف (ما) حرف مصدريّ " 1 " .

المصدر المؤوّل (ما يصفون) في محلّ جرّ متعلّق بالفعل المحذوف .

وجملة: "(نسبّح) سبحان.. "لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة.

وجملة: "يصفون "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ.

(160) (إلّا) للاستثناء (عباد) مستثنى بإلّا من فاعل جعلوا أو من الضمير في محضرون "2".

الصرف:

(الجنّة)، هم الملائكة هنا، وسمّوا بذلك لاستتارهم عن الأنظار، وزنه فعلة بكسر الفاء وسكون العين.

[سورة الصافات (37): الآيات 161 إلى 163]

فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ (161) ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ (162) إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ (163)

الإعراب:

(الفاء) استئنافيّة و(الواو) عاطفة (ما) اسم موصول في محلّ نصب معطوف على ضمير الخطاب في (إنّكم).

وجملة: "إنّكم... ما أنتم... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "تعبدون... "لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ، والعائد محذوف.

(2) وهو استثناء متّصل، ويجوز أن يكون منفصلا إذا كان المستثنى منه ضمير (يصفون).

الجدول ج 23، ص: 93

(162) (ما) نافية عاملة عمل ليس (عليه) متعلّق بفاتنين (فاتنين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما، ومفعول فاتنين محذوف أي أحدا.

وجملة: "ما أنتم عليه بفاتنين" في محلّ رفع خبر إنّ.

(163) (إلّا) للاستثناء (من) اسم موصول في محلّ نصب على الاستثناء من المفعول المقدّر "1"، (صال) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضّمة المقدّرة على الياء المحذوفة للتخفيف مراعاة لقراءة الوصل...

وجملة: "هو صال الجحيم" لا محلّ لها صلة الموصول (من).

الصرف:

(فاتنين)، جمع فاتن، اسم فاعل من فتن الثلاثيّ وزنه فاعل.

(صال)، اسم فاعل من صلي يصلى باب فرح، جاء في الآية على وزن فاع بحذف اللام على الرغم من كونه مضافا.

[سورة الصافات (37): الآيات 164 إلى 166]

وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ (164) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ

(166)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية مهملة (منّا) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ المقدّر أحد (إلّا) للحصر (له) خبر مقدم للمبتدأ (مقام)، والضمير في (منّا) يعود إلى الملائكة "2".

جملة: "ما منا (أحد)..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "له مقام..." في محلّ نصب حال من المبتدأ المقدّر أحد (165 - 166) -

(الواو) عاطفة (إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (اللام) المزحلقة للتوكيد.

---

(1) يجوز أن يكون الاستثناء مفرّغا و(من) مفعول به لاسم الفاعل فاتنين.

(2) وقيل يعود على النبيّ والمؤمنين.



---

وجملة: "إنّا لنحن..." لا محلّ لها معطوفة على جملة ما منّا...

وجملة: "نحن الصافّون" في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "إنّا لنحن (الثانية)" لا محلّ لها معطوفة على إنا لنحن..

(الأولى).

وجملة: "نحن المسبّحون" في محلّ رفع خبر إنّ (الثانية).

الفوائد

- ضمير الفصل:

ورد في هذه الآية قوله تعالى وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ فالضمير (نحن) يسمى ضمير الفصل، أو العماد، لأنه يقوي معنى الجملة ويؤكدها، ومثله قوله تعالى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالًا وَوَلَداً.

زعم البصريون أنه لا محل له، وإنما هو لمجرد التوكيد فقط، ثم قال أكثرهم:

(423/656)

---

إنه حرف، فلا إشكال، وقال الخليل: اسم، ونظيره على هذا القول أسماء الأفعال فيمن يراها غير معمولة لشيء، و(أك) الموصولة، وقال الكوفيون: له محل، ثم قال الكسائي: محله بحسب ما بعده، وقال الفراء: بحسب ما قبله، فمحله بين المبتدأ والخبر رفع، وبين معمولي ظن نصب، وبين معمولي كان رفع عند الفراء ونصب عند الكسائي، وبين معمولي إن بالعكس. وسيأتي بحث مفصل عن هذا الضمير فيه شفاء لما في الصدور.

[سورة الصافات (37): الآيات 167 إلى 170]

وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (167) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (168) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (169) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إن) مخفّفة من الثقيلة واجبة الإهمال (اللام) هي الفارقة . . والضمير في (يقولون) يعود على كفار قريش .

جملة : "كانوا ليقولون" لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "يقولون" في محلّ نصب خبر كانوا .

(168) (لو) حرف شرط غير جازم (عندنا) ظرف منصوب متعلّق بخبر مقدّم (من الأولين) نعت لـ (ذكرا) بحذف مضاف أي من كتب الأولين .

وجملة : "(ثبت) ذكر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

والمصدر المؤوّل (أنّ عندنا ذكرا . . .) في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت أي ثبت وجود الذكر .

(169) - (اللام) واقعة في جواب لو . . .

وجملة : "كنّا عباد . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

(170) (الفاء) عاطفة والثانية رابطة لجواب شرط مقدّر (سوف) حرف استقبال .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

فجاءهم فكفروا . . .

وجملة : " سوف يعلمون " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن جاء وقت حسابهم فسوف يعلمون عاقبة كفرهم .

[سورة الصافات (37) : الآيات 171 إلى 179]

(424/656)

---

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (173) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (174) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (175) أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ (177) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (178) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (179)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (لعبادنا) متعلّق بحال من كلمتنا أي مقولة لعبادنا .

جملة : " سبقت كلمتنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . .

وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

(172 - 173) (اللام) هي المزحلقة للتوكيد في الموضعين.

وجملة: "إنّهم لهم المنصورون" لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تفسير للكلمة - وجملة: "هم المنصورون" في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "إنّ جندنا لهم الغالبون" لا محلّ لها معطوفة على البيانيّة.

وجملة: "هم الغالبون" في محلّ رفع خبر إنّ (الثانية).

(174) (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (عنهم) متعلّق بـ (تولّ)، (حتّى حين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تولّ).

وجملة: "تولّ عنهم..." في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن كان النصر لجندنا فتولّ عنهم...

(175) (الواو) عاطفة (الفاء) رابطة (سوف) حرف استقبال.

وجملة: "أبصرهم..." معطوفة على جملة تولّ.

وجملة: "سوف يبصرون" في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن تفعل فسوف يبصرون.

(176) (الهمزة) للاستفهام التهديديّ (الفاء) استئنافيّة (بعذابنا) متعلّق بـ (يستعجلون) بتضمينه معنى يستهزئون "1".

وجملة: "يستعجلون" لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) أو متعلّق بمحذوف تقديره يستهزئون، وجملة يستعجلون حال من الفاعل.

(177) (الفاء) عاطفة (بساحتهم) متعلّق بـ (نزل) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ساء) فعل ماض لإنشاء الذمّ (صباح) فاعل مرفوع ، والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره صباحهم.

وجملة : " نزل . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة : " ساء صباح . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

(178 - 179) (الواو) عاطفة (تولّ . . . يبصرون) مرّ إعرابهما آنفا مفردات " 1 " وجملا.

الصرف :

(ساحتهم) ، اسم للميدان أو الفسحة الأرضية وزنه فعلة بفتح فسكون.

البلاغة

1 - الاستعارة المكنية : في قوله تعالى " فإذا نزل بساحتهم " .

في الضمير استعارة مكنية. شبه العذاب بجيش يهجم على قوم وهم في ديارهم بغتة فيحل بها ، والنزول تخييل.

2 - المجاز المرسل : في قوله تعالى "فساء صباح المنذرين" .

كثيرا ما يسمعون الغارة صباحا لما أنها في الأعم الأغلب تقع فيه ، وهو مجاز مرسل ، أطلق فيه الزمان ، وأريد ما وقع فيه ، كما يقال : أيام العرب لوقائعهم .

الفوائد

- حتّى الجارّة :

لحتى وجوه عديدة . ومن أوجهها أنها تأتي حرفا جارا بمنزلة إلى في المعنى والعمل ، كما ورد في الآية التي نحن بصددها فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ولكنها تخالفها في ثلاثة أمور :

1 - إن لمجرورها شرطين :

آ - أن يكون ظاهرا لا مضمرا .

ب - أن يكون مجرورها شيئا آخر ، نحو (أكلت السمكة حتى رأسها) ، أو ملاقيا لآخر جزء نحو (سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) .

2 - إذا لم يكن معها قرينة تقتضي دخول ما بعدها ، كما في قوله :

---

(1) في الآية (174 - 175) السابقة .

ألقى الصحيفة كي يخفف رحله والزاد حتى نعله ألقاها

أو عدم دخوله كما في قوله :

سقى الحيا الأرض حتى أمكن غريت لهم فلا زال عنها الخير مجدودا

فقوله (لا زال عنها ) هو القرينة المانعة من دخول ما بعد حتى في حكم ما قبلها ، ويحكم في مثل ذلك لما بعد إلى بعدم الدخول .

3 - إن كلّا منهما قد ينفرد بمحل لا يصلح للآخر .

فمما انفردت به " إلى " أنه يجوز "كتبت إلى زيد وأنا لي عمرو " أي هو غايتي ، كما جاء في الحديث " أنا بك وإليك " ، وسرت من البصرة إلى الكوفة ، ولا يجوز حتى زيد ، وحتى عمرو ، وحتى الكوفة . وعدم جواز (حتى الكوفة) لضعف حتى في الغاية ، فلم يقابلوا بها ابتداء الغاية .

ومما انفردت به حتى أنه يجوز وقوع المضارع المنصوب بعدها ، كقوله تعالى وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ وأن الفعل في تأويل مصدر مجرور بحتى . خلافا للكوفيين الذين يجعلون نصب الفعل بحتى ، لأن حتى تختص بالأسماء فلا تعمل في الأفعال .

[سورة الصافات (37) : الآيات 180 إلى 182]

سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

رَبِّ الْعالَمِينَ (182)

الإعراب:

(سبحان ربّك) مثل سبحان اللّه " 1 "، (ربّ) بدل من ربّك مجرور (عمّا يصفون) مرّ إعرابها " 2 ".

جملة: " (نسبّح) سبحان ربّك " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يصفون.. " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي - أو الاسميّ -

---

(1، 2) في الآية (159) من السورة. [.....]

*(427/656)*

---

(181) (الواو) عاطفة (سلام) مبتدأ مرفوع " 1 "، (على المرسلين) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ سلام.

وجملة: " سلام على المرسلين " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

(182) (الواو) عاطفة (للّه) متعلّق بخبر المبتدأ الحمد (ربّ) نعت للفظ الجلالة مجرور مثله.

وجملة: " الحمد للّه... " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة. انتهى انتهى. اهـ

﴿ الجدول جـ 23 صـ 99.41 ﴾

---

(1) بدئ بالنكرة لأن اللفظ دالّ على عموم، فهو مدح أو دعاء .

(428/656)

---

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(37) سورة الصّافات

مكيّة وآياتها ثنتان وثمانون ومائة

[سورة الصافات (37) : الآيات 1 إلى 10]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِراتِ زَجْراً (2) فَالتَّالِياتِ ذِكْراً (3) إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ (4)
رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ (5) إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ
الْكَواكِبِ (6) وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ (7) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ
كُلِّ جانِبٍ (8) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (9) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ
ثاقِبٌ (10)

اللغة :

(دُحُوراً) : مصدر دحره أي طرده وأبعده وهو من باب خضع .

وللدال مع الحاء فاء وعينا للفعل معنى القذف والطرد والدفع فمن ذلك دح الشيء في الأرض أي دسه فيها ودح الطعام بطنه ملأه حتى يسترسل إلى أسفل ودح الرجل : دعّه في قفاه والعامة تستعمله بهذا المعنى فيقولون : دحّه على ظهره فهي من العامي الفصيح . ودحرج الشيء فتدحرج : أي قلبه وأداره على نفسه متتابعا في حدور فانقلب .

ودحس بين القوم أفسد بينهم ودحس الشيء ملأه ودحس برجله فحص ويقال ما بي من داحس وهو تشعث الإصبع وسقوط الظفر وما تسميه العامة ورم حار في طرف الإصبع فهي عربية فصيحة قال مزرّد :

تشاخت إبهاماك إن كنت كاذبا ولا برئا من داحس وكناع

وخرج الحجاج في بعض الليلي فسمع صوتا هائلا فقال : إن كان هذا صاحب عائر أو قادح أو داحس فلا تحدث شيئا وإلا فأخرج لسانه من قفاه أي صاحب رمد أو وجع ضرس ، ويقال للرجل والدابة إذا أصابهما الجرح فارتكضا للموت : تركته يفحص ويدحص الأرض برجله . ودحضت رجله زلقت دحضا ودحوضا وأدحض فلان قدمه ومزلقة مدحاض وهذه مدحضة القدم ودحض الحجة أبطلها .

ودحقه يدحقه من باب فتح دحقا : طرده وأبعده ودحقت الرحم بساء الفحل رمت به فلم تقبله ودحقت الحامل بولدها أجهضته وولد دحيق وقيل : دحقت به : ولدته وأصابها دحاق وهو أن تخرج رحمها بعد الولادة وهي دحوق وداحق وأدحقه اللّه باعده من الخير وهو دحيق تقول : أسحقه اللّه وأدحقه وهو سحيق دحيق . ودحل : توارى في دحل وهو حفرة غامضة ضيقة الأعلى واسعة الأسفل تقول : طلبوا بالذحول فتواروا في الدحول ودحل البئر : حفر في جوانبها ونصب الصائد الدواحيل وهي مصائد للحمر الواحد داحول وبئر دحول

ذات تلحف وهو تكسر جوانبها مما أكلها من الماء فما يستعمله العامة منها محرف ولم يرد في اللغة بهذا المعنى إلا على مجاز بعيد وتسميتهم أخيرا المدحلة بالمعنى الشائع فيه تسامح ولكننا نتسامح به أيضا .

ودحمه دحما دفعه دفعا شديدا فاستعمال العامة لها بهذا المعنى لا غبار عليه . ودحمس الليل أظلم أو ألقى بظلامه على كل شيء .

ودحمل به دحرجه على الأرض . ودحا اللّه الأرض : افترشها وبسطها ودحا المطر الحصى عن وجه الأرض أي دفعها وبابه نصر وفتح يقال دحا يدحو ودحى يدحى وليس معنى البسط أنها ليست كالكرة ولكنها ممدودة متسعة كما يأخذ الخباز الفرزدقة

فيدحوها . قال ابن الرومي :

ما أنسى لا أنسى خبازا مررت به يدحو الرّقاقة مثل اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر

إلا بمقدار ما تنداح دائرة في لجة الماء يرمي فيه بالحجر

وهذا من أعاجيب لغتنا العربية الشريفة .

(واصِبٌ) : دائم وفي المختار وصب الشيء يصب بالكسر وصوبا دام ومنه قوله تعالى " وله الدين واصبا " وقوله تعالى " ولهم عذاب واصب " .

(فَأَتْبَعَهُ) : في المختار : تبعه من باب طرب إذا مشى خلفه أو مرّ به فمضى معه وكذا اتبعه وهو افتعل وأتبعه على أفعل وقال الأخفش :



---

تبعه وأتبعه بمعنى مثل ردفه وأردفه ومنه قوله تعالى " فأتبعه شهاب ثاقب " .

(ثاقِبٌ) : أي يثقبه أو يحرقه ونقل القرطبي في تفسير الثاقب قولين : قيل بمعنى المضيء وقيل بمعنى المستوقد من قوله : اثقب زندك أي استوقد نارك وقال البيضاوي : ثاقب مضيء كأنه يثقب الجو بضوئه " ولهذه المادة عجائب في التنويع والتصرف ففي الأساس واللسان :

" ثقب الشيء بالمثقب وثقب القداح عينه ليخرج الماء النازل وثقب اللآل الدر ، ودر مثقب وعنده در عذارى : لم يثقبن وثقبن البراقع لعيونهن قال المثقب العبدي :

أرين محاسنا وكنن أخرى وثقبن الوصاوص للعيون

وبه سمي المثقب . وكوكب ثاقب ودريء : شديد الإضاءة والتلألؤ كأنه يثقب الظلمة فينفذ فيها ويدرؤها ورجل ثقيب وامرأة ثقيبة مشبهان للهب النار في شدة حمرتهما وفيهما ثقابة وحسب ثاقب :

شهير ، ورجل ثاقب الرأي إذا كان جزلا نظارا ، وأتتني عنك عين ثاقبة أي خبر يقين وثقب الطائر إذا حلق كأنه يثقب السكاك وثقب الشيب في اللحية أخذ في نواحيها .

الاعراب :

(وَالصَّافَّاتِ صَفًّا) الواو حرف قسم وجر والصافات مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم ،

والصافات اسم فاعل من صف قيل هم الملائكة المصطفون في السماء يسبحون لهم مراتب يقومون عليها صفوفا كما يصطف المصلون وقيل هم المجاهدون وقيل هم المصلون وقيل هي الطير الصافات أجنحتها كقوله والطير صافات ، وفي الصافات ضمير مستتر هو الفاعل والمفعول به محذوف أي نفوسها أو أجنحتها وصفا مفعول مطلق مؤكد .

(فَالزَّاجِراتِ زَجْراً) الفاء حرف عطف ، قال الزمخشري : " فإن قلت ما حكم الفاء إذا

جاءت عاطفة في الصفات ؟ قلت : إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود كقوله :

يا لهف زيابة للحارث الصا بح فالغانم فالآيب



---

كأنه قيل الذي أصبح فغنم فآب ، وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك خذ الأفضل فالأكمل واعمل الأحسن فالأجمل ، وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك كقوله : رحم اللّه المحلقين فالمقصرين ، فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة في الصفات ، وسيأتي تعقيب مفيد على هذا التقرير في باب البلاغة .

والزاجرات عطف على الصافات والمراد بها قيل نفوس العلماء لأنها تزجر العصاة بالنصائح والمواعظ أو الملائكة تزجر السحاب أي تسوقه وزجرا مصدر مؤكد أيضا .

(فَالتَّالِياتِ ذِكْراً) قيل أراد نفوس العلماء لأنها تتلو آيات اللّه وتدرس شرائعه وقيل نفوس قواد الغزاة في سبيل اللّه التي تصف الصفوف وتزجر الخيل وتتلو الذكر مع ذلك لا تشغلها عنه تلك الشواغل وذكرا مفعول مطلق لأنها في معنى التاليات ويجوز أن تكون مفعولا به للتاليات ، وسيأتي معنى القسم بهذه الأشياء في باب الفوائد .

(إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ) الجملة لا محل لها لأنها جواب القسم وإن واسمها واللام المزحلقة وواحد

خبرها . (رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ) رب السموات بدل من واحد أو خبر ثان أو خبر لمبتدأ محذوف وما عطف على السموات والظرف متعلق بمحذوف صلة الموصول ورب المشارق عطف على رب السموات وسيأتي سر إعادة الرب وعدم ذكر المغارب في باب البلاغة .

*(432/656)*

---

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ) كلام مستأنف مسوق لتقرير لطائف صنعه وبديع خلقه . وان واسمها وجملة زينا خبرها وزينا فعل ماض ونا فاعل والسماء مفعول به والدنيا صفة أي القريبة منكم والتي تتراءى لأعينكم وهي الجديرة بالتدبر والاعتبار وبزينة جار ومجرور متعلقان بزينا والكواكب عطف بيان أو بدل لزينة وهناك قراءات أخرى وأعاريب طريفة سنوردها في باب الفوائد . (وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ) الواو عاطفة وحفظا في نصبه أوجه أرقاها من جهة المعنى ما نحا إليه الزمخشري قال : " وحفظا مما حمل على المعنى لأن المعنى إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظا من الشيطان كما قال تعالى :

"

ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين " ويجوز أن يقدر الفعل المعلل

كأنه قيل وحفظا من كل شيطان زيناها بالكواكب وقيل وحفظناها حفظا " وهذا الوجه الثاني أسهل من حيث الاعراب وقال الشهاب الحلبي المعروف بالسمين : " وحفظا إما منصوب على المصدر بإضمار فعل أي حفظناها حفظا وإما على المفعول من أجله على زيادة الواو والعامل فيه زينا أو على أن يكون العامل مقدرا أي لحفظها زيناها أو على الحمل على المعنى المتقدم أي إنا خلقنا السماء الدنيا زينة وحفظا " واقتصر أبو البقاء على المفعولية المطلقة ومن كل

شيطان متعلقان بحفظا إن لم يكن مصدرا مؤكدا وبالمحذوف إن جعل مصدرا مؤكدا ويجوز أن يكون صفة لحفظا .

)



---

لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ) في إعراب هذه الجملة كلام كثير ونقاش طويل نرجئه إلى باب الفوائد . ولا نافية ويسمعون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل وإلى الملأ الأعلى متعلقان بيسمعون وسيأتي سر هذا التعدي في باب الفوائد ، والأعلى صفة للملأ ويقذفون الواو عاطفة ويقذفون فعل مضارع مبني للمجهول

والواو نائب فاعل ومن كل جانب متعلقان بيقذفون أي من أي جهة صعدوا ليسترقوا السمع . (دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ) دحورا مفعول من أجله أي يقذفون للدحور أو مدحورين على الحال أو مفعول مطلق وينوب عن المصدر مرادفه والقذف والطرد متقاربان والواو عاطفة ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وواصب نعت لعذاب . (إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ) إلا أداة حصر واستثناء لأن الكلام تام منفي ومن في محل رفع بدل من الواو على الأول أو في محل نصب على الاستثناء على الثاني ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا فيتعين النصب على الاستثناء والخطفة مفعول مطلق فهو مصدر معرف بأل الجنسية أو العهدية ، فأتبعه الفاء عاطفة وأتبعه فعل ومفعول به مقدم وشهاب فاعل مؤخر وثاقب نعت لشهاب .

البلاغة :

التقديم والتأخير :

أثبتنا في باب الإعراب تقرير الزمخشري عن الفاء العاطفة

للصفات وقد انتهى الزمخشري من تقريره إلى القول ، فعلى هذا إن وحدت الموصوف كانت للدلالة على ترتيب الصفات في التفاضل وإن ثلثته فهي للدلالة على ترتيب الموصوفات فيه ، ومعنى توحيدها أن تعتقد أن صنفا مما ذكر في التفاسير المذكورة جامع للصفات الثلاث ، على أن الأول هو الأفضل أو على العكس ، ومعنى تثليثها أن تجعل كل صفة لطائفة ويكون التفاضل بين الطوائف إما أن الأول هو الأفضل أو على العكس . ووجهة الزمخشري قوية وتقريره ممتع مفيد ولكنه لم يبين وجه كل واحد منهما وخلاصة ما يقال فيه أن للعرب في التقديم مذهبان أولهما :

1- الاعتناء بالأهم فهم يقدمون ما هو أولى بالعناية وأجدر بأن يقرع السمع .

2- الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، ومنه قوله :

بهاليل منهم جعفر وابن أمه علي ومنهم أحمد المتخير

ولا يقال إن هذا إنما ساغ لأن الواو لا تقتضي رتبة فإن هذا غايته أنه عذر وما ذكرناه بيان لما فيه من مقتضى البديع والبلاغة .

كلمة عامة في التقديم والتأخير :

هذا وقد عقد عبد القاهر فصلا مطولا في كتابه دلائل الإعجاز عن التقديم والتأخير يرجع إليه القارئ إن شاء ، ونلخص هنا ما قاله علماء المعاني في صدد التقديم والتأخير فمن المعلوم أنه لا يمكن النطق بأجزاء الكلام دفعة واحدة بل لا بد من تقديم بعض الأجزاء

وتأخير البعض وليس شيء منها في نفسه أولى بالتقدم من الآخر

لاشتراك جميع الألفاظ من حيث هي ألفاظ في درجة الاعتبار فلا بد لتقديم هذا على ذاك

من داع يوجبه وهذه الدواعي كثيرة فمنها :

1- التشويق إلى المتأخر إذا كان المتأخر مشعرا بغرابة كقول أبي العلاء :

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

2- تعجيل المسرة أو المساءة نحو العفو عنك صدر به الأمر أو القصاص حكم به

القاضي .

3- كون المتقدم محط الإنكار والتعجب نحو : أبعد طول التجربة تنخدع ؟



---

4- النص على عموم السلب أو سلب العموم فالأول يكون بتقديم أداة العموم على أداة

النفي نحو : كل ذلك لم يقع أي لم يقع هذا ولا ذاك والثاني يكون بتقديم أداة النفي على أداة

العموم نحو :

لم يكن كل ذلك أي لم يقع المجموع فيحتمل ثبوت البعض ويحتمل نفي كل فرد .

5- التخصيص نحو : ما أنا قلت ، وإياك نعبد .

6- ومما يرى عبد القاهر تقديم الاسم فيه كاللازم (مثل) و(غير) في نحو قوله :

مثلك يثني المزن عن صوبه ويسترد الدمع عن غربه

وقول أبي تمام :

وغيري يأكل المعروف سحتا وتشحب عنده بيض الأيادي

وفي التعبير الأول لا يقصد بمثل إلى إنسان سوى الذي أضيف إليه ولكنهم يعنون أن كلّ من كان مثله في الحال والصفة كان من مقتضى القياس ، وموجب العرف والعادة أن يفعل ما ذكر وأن لا يفعل وكذلك في التعبير الثاني لا يراد بغير أن يومىء إلى إنسان فيخبر عنه بأنه يفعل بل لم يرد إلا أن يقول : لست ممن يأكل المعروف سحتا .

الفوائد :

1- الواو في هذا التركيب :

مذهب سيبويه والخليل في مثل " والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى " ان الواو الثانية وما بعدها عواطف وغير الخليل وسيبويه يذهب إلى أنها حروف قسم ، فوقوع الفاء في " والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا " موقع الواو والمعنى واحد إلا أن ما تزيده الفاء من ترتيبها دليل واضح على أن الواو الواقعة في مثل هذا السياق للعطف لا للقسم .

2- معنى القسم :

اختلف الناس في المقسم به والراجح هو أن المقسم به هذه الأشياء لظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل وأما النهي عن الحلف بغير اللّه فهو نهي للمخلوق عن ذلك ، والقول الثاني أن المقسم به هو رب هذه الأشياء لنهيه صلى اللّه عليه وسلم عن الحلف بغير اللّه تعالى



---

فلا بد من إضمار كلمة " رب " وتقدير الكلام ورب الصافات صفا إلخ وعلى كل حال ففي هذا القسم تنويه بهذه الأشياء وتعظيم لها وسيرد المزيد من هذا الحديث .

3- في إعراب " بزينة الكواكب " :

قال الشهاب الحلبي المعروف بالسمين : " قوله بزينة الكواكب " قرأ أبو بكر بتنوين زينة ونصب الكواكب وفيه وجهان أحدهما أن تكون الزينة مصدرا وفاعله محذوف تقديره بأن زين اللّه الكواكب في كونها مضيئة حسنة في أنفسها ، والثاني أن الزينة اسم لما يزان به كالليقة لما تلاق به الدواة فتكون الكواكب على هذا منصوبة بإضمار أعني أو تكون بدلا من سماء الدنيا بدل اشتمال أي كواكبها أو من محل بزينة ، وحمزة وحفص كذلك إلا أنهما خفضا الكواكب على أن يراد بزينة ما يزان به والكواكب بدل أو بيان للزينة والباقون

بإضافة زينة إلى الكواكب وهي تحتمل ثلاثة أوجه أحدها أن تكون إضافة أعم إلى أخص فتكون للبيان نحو ثوب خز والثاني أنها مصدر مضاف لفاعله أي بأن زينت الكواكب السماء بضوئها والثالث أنه مضاف لمفعوله أي بأن زينها الله بأن جعلها مشرقة مضيئة في نفسها .

4- إعراب جملة لا يسمعون :

أفاض المعربون والمفسرون والنحاة في إعراب هذه الجملة ، ونورد هنا مختارات من أقوال المشهورين منهم ونبدأ بالزمخشري :

" فإن قلت لا يسمعون كيف اتصل بما قبله ؟ قلت : لا يخلو من أن يتصل بما قبله على أن يكون صفة لكل شيطان أو استئنافا فلا



---

تصح الصفة لأن الحفظ من شياطين لا يسمعون ولا يتسمعون لا معنى له وكذلك الاستئناف لأن سائلا لو سأل : لم تحفظ من الشياطين فأجيب بأنهم لا يسمعون لم يستقم فبقي أن يكون كلاما منقطعا مبتدأ اقتصاصا لما عليه حال المسترقة للسمع وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة أو يتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب مدحورون عن

ذلك ، إلا أن من أمهل حتى خطف خطفة واسترق استراقة فعندها تعاجله الهلكة باتباع الشهاب الثاقب " ومضى الزمخشري في تقريره قائلا : " فإن قلت : هل يصح قول من زعم أن أصله لئلا يسمعوا فحذف اللام كما حذفت في قولك جئتك أن تكرمني فبقي أن لا يسمعوا فحذفت أن وأهدر عملها كما في قول طرفة :

ألا أيها ذا الزاجري أحضر الوغى وأن اشهد اللذات هل أنت مخلدي

قلت : كل واحد من هذين الحذفين غير مردود على انفراده فأما اجتماعهما فمنكر من المنكرات على أن صون القرآن عن مثل هذا التعسف واجب " .

وتعقبه ابن المنير صاحب الانتصاف فقال : " كلا الوجهين مستقيم والجواب عن إشكاله الوارد على الوجه الأول أن عدم سماع الشيطان سببه الحفظ منه فحال الشيطان حال كونه محفوظا منه هي حاله حال كونه لا يسمع وإحدى الحالين لازمة للأخرى فلا مانع أن يجتمع الحفظ منه وكونه موصوفا بعدم السماع في حالة واحدة لا على أن عدم السماع ثابت قبل الحفظ بل معه وقسمه . ونظير هذه الآية قوله تعالى : وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، فقوله مسخرات

حال مما تقدمه العامل فيه الفعل الذي هو سخر ومعناه مستقيم لأن تسخيرها يستلزم كونها مسخرة فالحال التي سخرت فيها هي الحال التي كانت فيها مسخرة لا على معنى تسخيرها مع كونها مسخرة قبل ذلك ، وما أشار إليه الزمخشري في هذه الآية قريب من هذا التفسير إلا أنه ذكر معه تأويلا آخر كالمستشكل لهذا الوجه فجعل مسخرات جمع مسخر مصدر كممزّق وجعل المعنى وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر أنواعا من التسخير وفيما ذكرناه كفاية ومن هذا النمط : ثم أرسلنا رسلنا ، وهم ما كانوا رسلا إلا بالإرسال وهؤلاء ما كانوا لا يسمعون إلا بالحفظ وأما الجواب على إشكاله الثاني فورود حذفين في مثل قوله تعالى : يبين اللّه لكم أن تضلوا ، وأصله لئلا تضلوا فحذف اللام ولا جميعا من محليهما " .

وقال الشهاب الحلبي المعروف بالسمين : " وهذه الجملة منقطعة عما قبلها في الإعراب ولا يجوز فيها أن تكون صفة لشيطان على المعنى إذ يصير التقدير من كل شيطان ما رد غير سامع أو مستمع وهو فاسد ولا يجوز أيضا أن يكون جوابا لسؤال سائل لم تحفظ من الشيطان إذ يفسد معنى ذلك وقال بعضهم : أصل الكلام لئلا يسمعوا فحذفت اللام وإن وارتفع الفعل وفيه تعسف ، وقد وهم أبو البقاء فجوز أن تكون صفة وأن تكون حالا وأن تكون مستأنفة فالأولان ظاهرا الفساد والثالث إن عني به الاستئناف البياني فهو فاسد أيضا وإن أراد الانقطاع على ما قدمته فهو صحيح .

أما عبارة أبي البقاء التي شجبها السمين فهي : " قوله تعالى :

لا يسمعون جمع على معنى كل وموضع الجملة جر على الصفة أو نصب على الحال أو مستأنف وعدّاه بإلى حملا على معنى يصفون " .

(439/656)

---

أما ابن هشام فقد عقد في المغني تنبيها خاصا حول هذه الجملة فقال : من الاستئناف ما قد يخفى وله أمثلة كثيرة أحدها لا يسمعون من قوله تعالى : وحفظا من كل شيطان ما رد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ، فإن الذي يتبادر إلى الذهن أنه صفة لكل شيطان أو حال منه وكل منهما باطل إذ لا معنى للحفظ من شيطان لا يسمع وإنما هي للاستئناف النحوي ولا يكون استئنافا بيانيا لفساد المعنى أيضا ، وقبل يحتمل أن الأصل لئلا يسمعوا ثم حذفت اللام كما في جئتك أن تكرمني ثم حذفت أن فارتفع الفعل كما في قوله :

ألا أيها ذا الزاجري احضر الوغى . . . . . .

فحين رفع أحضر ، واستضعف الزمخشري الجمع بين الحذفين ، فإن قلت اجعلها حالا مقدرة أي وحفظا من كل شيطان مارد مقدرا عدم سماعه بعد الحفظ قلت الذي يقدر وجود معنى الحال هو صاحبها كالمرور به في قولك مررت برجل معه صقر صائدا به غدا أي مقيدا حال المرور به أن يصيد غدا ، والشياطين لا يقدرون عدم السماع ولا يريدونه .

ملاحظة هامة :

الاستئناف قسمان : بياني ونحوي : أما البياني فهو ما كان جوابا لسؤال مقدر نحو قوله تعالى : " هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا : سلاما قال سلام قوم منكرون " فإن جملة القول الثانية جواب لسؤال مقدر تقديره فماذا قال لهم ولهذا فصلت عن الأولى فلم تعطف عليها ، وأما النحاة فقالوا : هي المقتطعة عما قبلها سواء كانت جوابا عن سؤال أم لا ، فالاستئناف عندهم أعم .



---

هذا وقد ردّ الدماميني على ابن هشام فقال : إذا كانت للاستئناف النحوي فيكون قد أخبر عن الشياطين المتحفظ منهم بعدم السماع وحينئذ يعود الإشكال بأنه كيف يتحفظ من شيطان لم يسمع في نفس الأمر ، إذ المتحفظ منه من يسمع ، فإن قلت : إن المراد لا يسمعون بعد الحفظ قلنا قدر ذلك في الصفة ويكون المعنى لا غبار عليه فما بالك قدرته في الاستئناف النحوي دون الصفة مع أن المعنى على كل حال ظاهر فهذا تحكم . وأجاب الشمني بأنه إخبار عن حال الشياطين لا يوصف كونه محفوظا منهم وفيه أنه لا يصح الإخبار عنهم بعدم السماع مع قطع النظر عن الحفظ لأنهم يحفظون في نفس الأمر وما إلى

عدم السماع إلا من الحفظ وإلا لما كان للحفظ معنى .

والذي حدانا إلى إيراد هذه الأقوال ما فيها من رياضة ذهنية ولعل ابن المنير كفانا مئونة الرد على هذه الأقوال فارجع إليه وتمعن فيه فإنه قد أصاب المحز .

فرق دقيق :

قال الزمخشري : " فإن قلت أي فرق بين سمعت فلانا يتحدث وسمعت إليه يتحدث ، وسمعت حديثه والى حديثه ؟ قلت : المعدى بنفسه يفيد الإدراك والمعدى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك " .

[سورة الصافات (37) : الآيات 11 إلى 19]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (11) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12) وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (13) وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (14) وَقالُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (15)

أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16) أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ (18) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (19)

اللغة :

)

(فَاسْتَفْتِهِمْ) : فاستخبرهم يقال استفتى استفتاء العالم في مسألة : سأله أن يفتيه فيها

والفتوى والفتوى والفتيا اسم من أفتى العالم إذا بيّن الحكم والجمع الفتاوي والفتاوى .

(لازِبٍ) : لازم لاصق يقال لزب يلزب لزوبا من باب دخل :

اشتد وثبت ولزب به : لصق ولزب يلزب لزبا من باب تعب ولزب يلزب لزبا ولزوبا من باب

كرم الطين : لزق وصلب ولزب الشيء :

دخل بعضه في بعض واللازم اسم فاعل الثابت يقال صار الأمر ضربة لازب أي صار لازما

ثابتا وطين لازب يلزق باليد لاشتداده وفي المختار :

" تقول : صار الشيء لازبا أي ثابتا وهو أفصح من لازما " .

وقال النابغة :

ولا تحسبون الخير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب

(داخِرُونَ) : صاغرون يقال دخر يدخر من باب فتح ودخر يدخر من باب تعب دخرا

ودخورا أي ذل وصغر .

الاعراب :

(

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا ) الفاء الفصيحة أي أن شئت أن تبكتهم وترد عليهم في أمر اثبات المعاد فاستفتهم لأن الفرق بيّن والبون بعيد بين المعاد وهو الأجزاء الأصلية كما سيأتي ولك أن تجعلها الفاء العاطفة المعقبة أي استفتهم عقب عدّ هذه الأشياء المذكورة آنفا . واستفتهم فعل أمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر وجوبا تقديره أنت والهاء مفعول به والهمزة للاستفهام وهم مبتدأ وأشد خبر وخلقا تمييز وأم حرف عطف وهي هنا متصلة عطفت من على هم وجملة خلقنا صلة الموصول . (إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ) إن واسمها وجملة خلقناهم خبر وخلقناهم فعل وفاعل ومفعول ومن طين جار ومجرور متعلقان بخلقناهم ولازب نعت لطين ، وناهيك بهذا دليلا على ضعفهم وهو أن أمرهم وضآلة شأنهم وأن من كان بهذه المثابة لا يتأتى له أن يتكبر ويتطاول . (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ) بل حرف إضراب وعطف والمعطوف عليه مقدر دل عليه الاستفهام أي هم لا يقرون ، وعجبت فعل وفاعل والخطاب للنبي والمتعلق محذوف أي من قدرة اللّه على هذه الخلائق العظيمة . وفي قراءة بضم التاء وإسناد العجب إلى اللّه تعالى محال لأن العجب روعة تعتري الإنسان عند استعظامه الشيء وذلك على اللّه تعالى

محال ولكن الكلام جرى على طريق تخيل العجب وافتراضه على طريق المشاكلة وقد تقدمت لها أمثلة.

والواو حالية وجملة يسخرون خبر لمبتدأ محذوف أي وهم يسخرون والجملة نصب على الحال.

(وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة ذكروا في محل جر بإضافة الظرف إليها

(443/656)

---

و ذكروا بالبناء للمجهول والتشديد والواو نائب فاعل ولا نافية وجملة لا يذكرون لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم أي وديدنهم عدم الاتعاظ بشيء مهما يكن جديرا بالاعتبار. (وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ) عطف على ما تقدم والمراد بالآية المعجزة التي تدعو إلى الإذعان ولكن هؤلاء لا تؤثر فيهم المعاجز ومعنى الاستسخار دعوة بعضهم لبعض بالسخرية أو أن زيادة السين والتاء لمجرد المبالغة في السخر. (وَقالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) الواو عاطفة وقالوا فعل وفاعل وإن نافية وهذا مبتدأ وإلا أداة حصر وسحر خبر هذا ومبين نعت أي ظاهر للعيان والجملة مقول القول. (أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا

لَمَبْعُوثُونَ) الجملة مقول قول محذوف أيضا أي وقالوا منكرين للبعث ، والهمزة للاستفهام الإنكاري وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة متنا في محل جر بإضافة الظرف إليها وكنا فعل ماض ناقص ونا اسمها وترابا خبرها وعظاما عطف على ترابا والهمزة للاستفهام الإنكاري أيضا وان واسمها واللام المزحلقة ومبعوثون خبرها .

(أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ) الهمزة للاستفهام والواو حرف عطف وآباؤنا معطوف على محل إن واسمها أو على الضمير في مبعوثون وإنما جاز العطف مع أن ما بعد همزة الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله أن الهمزة الثانية مؤكدة للأولى فهي في النية مقدمة فصحّ عمل ما قبلها فيما بعدها ، ولك أن تعرب آباؤنا مبتدأ محذوف الخبر والتقدير أو آباؤنا يبعثون أيضا وقرىء أو بسكون الواو فهي حرف عطف وليس هناك همزة استفهام وفيما يلي تقرير السمين عن هذه الآية :



---

"

قوله أو آباؤنا قرأ ابن عامر بسكون الواو على أنها أو العاطفة المقتضية للشك والباقون بفتحها على أنها همزة استفهام دخلت على واو العطف وهذا الخلاف جار أيضا في

الواقعة وقد تقدم مثل هذا في الأعراف في قوله : " أو أمن أهل القرى " فمن فتح الواو أجاز في أو آبائنا وجهين أحدهما أن يكون معطوفا على محل ان واسمها والثاني أن يكون معطوفا على الضمير المستتر في لمبعوثون واستغنى بالفصل بهمزة الاستفهام ومن سكنها تعين فيه الأول دون الثاني على قول الجمهور لعدم الفاصل " . (قُلْ : نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ) فعل أمر وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت ونعم حرف جواب والواو للحال وأنتم مبتدأ وداخرون خبر والجملة نصب على الحال والعامل فيها نعم بالنظر لمعناها أي نعم تبعثون وأنتم داخرون .

(فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ) الفاء الفصيحة لأنها واقعة في جواب شرط مقدر تقديره إذا كان ذلك فإنما ، وإنما كافة ومكفوفة وهي مبتدأ وزجرة خبر وواحدة صفة وهي ضمير مبهم لأنه لا يرجع إلى شيء وإنما يوضحه خبره ، وأجازوا أن تعود هي على البعثة المدلول عليها بسياق الكلام لما كانت بعثتهم ناشئة عن الزجرة جعلت إياها مجازا . والزجرة الصيحة المخيفة قال :

زجر أبي عروة السباع إذا أشفقن أن يختلطن بالغنم

يريد تصويته بها . والفاء عاطفة وإذا فجائية وهم مبتدأ وجملة ينظرون خبر ومفعوله محذوف أي ينظرون ما يفعل بهم أو هي بمعنى ينظرون .

[سورة الصافات (37) : الآيات 20 إلى 26]

وَقالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (20) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ (23) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (24)



---

ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (25) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (26)

الإعراب:

(وَقالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ) الواو استئنافية وقالوا فعل وفاعل ويا حرف تنبيه أو المنادى محذوف وويلنا مصدر لا فعل له من لفظه أو منادى وجملة النداء مقول قولهم وجملة هذا يوم الدين يحتمل أن تكون من تتمة مقولهم ويحتمل أن يتم الوقف على ويلنا والجملة مستأنفة فتكون من قول الملائكة لهم وهذا مبتدأ ويوم الدين خبره. (هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) هذا مبتدأ ويوم الفصل خبر ويحتمل أن تكون الجملة من تتمة مقولهم ويكون قوله تكذبون التفاتا من التكلم إلى الخطاب والذي صفة ليوم وكنتم كان واسمها وبه متعلقان بتكذبون وجملة تكذبون خبر كنتم.

(احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ) خطاب من الله تعالى للملائكة أو

خطاب بعضهم لبعض . واحشروا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والذين مفعول به وجملة ظلموا صلة واسم الموصول عبارة عن المشركين ومفعول ظلموا محذوف تقديره أنفسهم وأزواجهم عطف على الموصول أو مفعول معه وما عطف أيضا أو مفعول معه وكان واسمها وجملة يعبدون خبرها .

(مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ) من دون اللّه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال والفاء عاطفة واهدوهم فعل أمر وفاعل ومفعول به والى صراط الجحيم متعلقان باهدوهم . (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ) وقفوهم عطف على ما تقدم أي واحبسوهم عند الصراط وإن واسمها ومسؤولون خبرها والجملة تعليل للأمر .

)

(446/656)

---

ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ) الجملة مقول قول محذوف أي ويقال توبيخا لهم . وما اسم استفهام مبتدأ ولكم خبر وجملة لا تناصرون حالية ولا نافية وتناصرون فعل مضارع حذفت إحدى تاءيه والأصل لا تتناصرون أي لا ينصر بعضكم بعضا . (بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ) بل حرف إضراب وعطف وهم مبتدأ واليوم ظرف متعلق بمستسلمون ومستسلمون خبر

هم أي قد أسلم بعضهم بعضا وخذله عن عجز .

الفوائد :

يجوز في المضارع المبدوء بتاءين زائدتين الإدغام والفكّ ونورد هنا مناقشة بين علماء العربية نورد خلاصتها لفائدتها وطرافتها فقد ذكر ابن مالك في شرح الكافية وتبعه ابنه في شرح الخلاصة انك إذا أدغمت التاء الأولى في الثانية اجتلبت همزة الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالتاء المسكنة للادغام فتقول في تتجلى اتجلى ورد ابن هشام في أوضح المسالك وتبعه الشيخ خالد الأزهري عليهما بقولهما : " وفيه نظر فإنه لم يخلق اللّه أحدا من الفصحاء فيما نعلم أدخل همزة وصل في أول الفعل المضارع وإنما ادغام هذا النوع في الوصل دون الابتداء قال الحوفي : فإن وقف ابتدئ بالإظهار ، ولا يجوز إدخال ألف الوصل عليه لأن ألف الوصل لا تدخل على الفعل المضارع ،

وذكر الناظم –أي ابن مالك– في بعض كتبه هذه المسألة على الصواب فقال : يجوز ادغام تاء المضارعة في تاء أخرى بعد مد أو حركة نحو ولا تيمموا وتكاد تميز " .

ورد عليهما بعض العلماء فقال : في هذا النقد نظر لأن ابن مالك وابنه من أجلّ علماء العربية وقد ذكرا أنه يجوز الإدغام في الابتداء وتجتلب همزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن ولا يخلو حالهما من أمرين إما أن يكون استندا فيه إلى فهم ذلك من لغة العرب أو استنباط ذلك منها لعدم ما يناقضه وينافيه وعلى كل لا يحسن الرد عليهما بمجرد عدم العلم بأن اللّه لم يخلق همزة وصل في أول الفعل المضارع لأنهما مثبتان والراد عليهما ناف والمثبت مقدم على النافي ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ولا تظن بهما أنهما أقدما على ما ذهبا إليه بمجرد التشهي من غير استناد إلى شيء يعتمدان عليه ويستندان إليه لأن سوء الظن بالأئمة غير لائق كيف وقد نقل الثقات أن ابن مالك قال : طالعت الصحاح فلم أستفد منه إلا ثلاث مسائل ولا يضرهما عدم ذكرهما المستند في ذلك صريحا وإن ذكراه تلويحا ، قال ابن المصنف : ومنهم من يدغم ويسكن أوله ويدخل عليه همزة وصل فيقول اتجلى لأنهما ثقتان مؤتمنان وقد ذكر صاحب القاموس في فصل الجيم من باب النون لما تكلم على جيان : " ومنها إماما العربية ابن مالك وأبو حيان " .

[سورة الصافات (37) : الآيات 27 إلى 34]

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (27) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (28) قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29) وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (30) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (31)

فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (32) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (33) إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34)

الاعراب:

)

(448/656)

---

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ) الواو استئنافية وأقبل فعل ماض وبعضهم فاعل وعلى بعض متعلقان بأقبل وجملة يتساءلون حالية أي يتلاومون وينحي بعضهم باللائمة على بعض. (قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ) قالوا فعل وفاعل وان واسمها وجملة كنتم خبرها وكان واسمها وجملة تأتوننا خبرها وتأتوننا فعل مضارع وفاعل ومفعول به وعن اليمين حال من فاعل تأتونا واليمين إما أن يراد بها الجارحة تعبيرا بها عن القوة وأما الحلف لأن المتعاقدين بالحلف يؤكدون حلفهم بأن يتصافحوا باليمين ويتماسحوا بها. وهناك أقوال كثيرة ضربنا عنها صفحا ويرجع إليها في المطولات وخلاصة المعنى إنكم غررتم بنا وأضللتمونا. (قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) وهذا أحد أجوبة المتبوعين الخمسة وأولها وهو إضراب ابطالي لما ادعاه التابعون أي انكم لم تتصفوا بالإيمان في وقت من الأوقات. وقالوا

فعل وفاعل وبل إضراب ابطالي ولم حرف نفي وقلب وجزم وتكونوا فعل مضارع مجزوم بلم والواو اسمها ومؤمنين خبرها .

(وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ) وهذا هو الجواب الثاني وهو مبني على افتراض أنهم أضلوهم فهم لم يجبروهم عليه . وما نافية وكان فعل ماض ناقص ولنا خبرها المقدم وعليكم حال ومن حرف جر زائد وسلطان مجرور لفظا اسم كان محلا . (بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ) بل إضراب ابطالي أيضا وكنتم كان واسمها وقوما خبرها وطاغين نعت لقوما وهو الجواب الثالث . (فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ) وهذا هو الجواب الرابع والفاء حرف عطف وحق فعل ماض وعلينا جار ومجرور متعلقان بحق وقول ربنا فاعل وان واسمها واللام المزحلقة وذائقون خبرها والجملة الاسمية تعليل لما تقدم ومفعول ذائقون محذوف أي العذاب والفاعل مستتر تقديره نحن .

)



---

فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ) الفاء عاطفة وأغويناكم فعل وفاعل ومفعول به وهذا هو الجواب الخامس وان واسمها وجملة كنا خبرها وكان واسمها وغاوين خبرها . (فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي

الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ) الفاء الفصيحة أي إن شئت أن تعرف مصائر الأتباع والرؤساء المتبوعين، وان واسمها ويومئذ ظرف متعلق بمحذوف حال وإذ ظرف أضيف إلى مثله والتنوين عوض عن جملة أي يوم إذ يتساءلون ويتلاومون ويتخاصمون، وفي العذاب متعلقان بمشتركون ومشتركون خبر انهم.

(إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ) إن واسمها وكذلك نعت لمصدر محذوف مقدم على فعله وجملة نفعل خبر إنا وبالمجرمين متعلقان بنفعل.

[سورة الصافات (37) : الآيات 35 إلى 49]

إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (36) بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37) إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ (38) وَما تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39)

إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40) أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41) فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (42) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43) عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (44)

يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46) لا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (47) وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49)

اللغة:

(بِكَأْسٍ): يقال للزجاجة فيها الخمر كأس وتسمى الخمر نفسها كأسا، قال الأعشى:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

لكي يعلم الناس أني امرؤ أتيت المعيشة من بابها

*(450/656)*

---

والكأس تطلق على الزجاجة فيها الخمر وعلى الخمر مجازا مشهور وهي مؤنثة بدليل ضميرها وصفتها وتجمع على كئوس وأكؤس وكاسات وكئاس ، يقول الأعشى : ورب كأس شربتها مع لذة أو لأجل لذة فضرتني فشربت كأسا أخرى تداويت من الأولى بها ليعلم الناس أني مجرب للأمور ، وكنى عن ذلك بقوله : " أتيت المعيشة من بابها " وشبه المعيشة مع أسبابها المناسبة لها بدار لها باب على

طريق الاستعارة المكنية واثبات الباب تخييل ومن هذا المعنى أخذ أبو نواس قوله المشهور :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

ويروى عن الأخفش : "كل كأس في القرآن فهي الخمر " وقال أبو حيان : " الكأس ما كان من الزجاج فيه خمر أو نحوه من الأنبذة ولا يسمى كأسا إلا وفيه خمر وإلا فقدح وقد تسمى الخمر كأسا تسمية للشيء باسم محله " .

)

مَعِينٍ) : قال أبو حيان : " اسم فاعل من معن بضم العين كشريف من شرف " أي من شراب معين أو نهر معين ظاهر للعيون أو خارج من العيون وهو صفة للماء من عان الماء إذا نبع وصف به خمر الجنة لأنها تجري كالماء وسنتبسط في هذه الكلمة لأنها تستعمل اليوم كثيرا لشكل هندسي فنقول : جاء في معاجم اللغة في مادة معن ما يلي : معن يمعن من باب فتح الماء ومعن يمعن من باب ظرف معنا ومعونا : جرى جريا سهلا فهو معين ومعن الفرس : تباعد في عدوه ومعن المطر الأرض تتابع عليها فأرواها ومعن يمعن من باب شرب معنا المكان أو النبت : روي من الماء والمعين الماء الجاري ويقال ماء معين أي جار وفي مادة عين " الماء المعين : الظاهر الذي تراه العين جاريا على وجه الأرض وعين معيونة لها مادة غزيرة من الماء " أما الشكل الهندسي فالأرجح إنه المعين بضم الميم وتشديد الياء المكسورة فهو اسم فاعل من عين المضعفة الياء وهو في الهندسة شكل مسطح متساوي الأضلاع الأربعة المستقيمة المحيطة به غير قائم الزوايا .



---

(غَوْلٌ) : ما يغتال العقول يقال غاله يغوله غولا إذا أفسده ، ومنه الغول الذي في تكاذيب العرب وفي أمثالهم " الغضب غول الحلم " ، وغالته الخمر : شربها فذهبت بعقله أو بصحة

بدنه والغول مصدر والصداع والسكر وبعد المفازة والمشقة وما انهبط من الأرض والتراب الكثير .

(يُنْزَفُونَ) : بالبناء للمجهول من نزف الشارب إذا ذهب عقله ويقال للسكران نزيف ومنزوف ويقال للمطعون نزف فمات إذا خرج دمه كله ونزحت الركية حتى نزفتها وفي أمثالهم " أجبن من المنزوف ضرطا " .

وقصة هذا المثل : ان رجلين خرجا في فلاة فلاحت لهما شجرة فقال أحدهما : أرى قوما قد رصدونا فقال الآخر : إنما هي عشرة فظنه يقول عشرة فجعل يقول وما غناء اثنين عن عشرة ويضرط حتى مات ويروى من وجه آخر أن نسوة لم يكن لهن رجل فزوجت إحداهن رجلا كان ينام الصبحة فإذا أتينه بصبوح ونبهنه قال : لو نبهتنني لعاديه فلما رأين ذلك قلن إن صاحبنا لشجاع تعالين حتى نجربه فأتينه فأيقظنه فقال كعادته فقلن هذه نواصي الخيل فجعل يقول الخيل الخيل ويضرط حتى مات وفيه أقوال أخرى ضربنا عنها صفحا .

وفي الصحاح : " نزفت ماء البئر إذا نزحته كله ونزفت هي يتعدى ولا يتعدى ونزفت أيضا على ما لم يسم فاعله " .

(قاصِراتُ الطَّرْفِ) : حابسات الأعين على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ويجوز أن يكون من باب الصفة المشبهة أي قاصرات

أطرافهن كمنطلق اللسان وأن يكون من باب اسم الفاعل على أصله وسيأتي الفرق بينهما في الاعراب .

(عِينٌ) : نجل العيون جمع عيناء والنجل جمع نجلاء وهي التي اتسع شقها سعة غير مفرطة .

الاعراب :

*(452/656)*

---

(إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ) إن واسمها وجملة كانوا خبرها وكان واسمها وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة قيل في محل جر بالإضافة ولهم متعلقان بقيل ونائب الفاعل مستتر تقديره هو وجملة لا إله إلا الله مقول قول محذوف أي قولوا لا إله إلا اللّه وقد تقدم إعراب كلمة التوحيد مفصلا وجملة يستكبرون خبر كانوا وجواب إذا محذوف دل عليه ما قبله .

(وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ) ويقولون عطف على يستكبرون والهمزة للاستفهام الانكاري وان واسمها واللام المزحلقة وتاركو خبر إن ولشاعر متعلقان بتاركوا أي لأجل شاعر ومجنون صفة .

)

(بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ) إضراب ابطالي وجاء فعل وفاعل مستتر وبالحق متعلقان بجاء وصدق المرسلين عطف على جاء بالحق.

(إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ) إن واسمها وسيأتي سر هذا الالتفات في باب البلاغة واللام المزحلقة وذائقو العذاب خبر ان والأليم صفة.

(وَما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الواو عاطفة وما نافية وتجزون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وإلا أداة

حصر وما مفعول به ثان وهو على حذف مضاف أي جزاء ما وجملة كنتم تعملون صلة ما وجملة تعملون خبر كنتم.



---

(إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) إلا أداة استثناء بمعنى لكن لأن الاستثناء منقطع وعباد اللّه مستثنى من الواو في تجزون والمخلصين صفة لعباد اللّه. (أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ) كلام مستأنف لتقرير ما أعد لعباد اللّه المخلصين وأولئك مبتدأ ولهم خبر مقدم ورزق مبتدأ مؤخر ومعلوم صفة لرزق ونائب الفاعل مستتر تقديره وقته أو معلوم ما يتميز به من خصائص منها الديمومة ومحض اللذة وطيب الطعم، وحسن الرداء والمنظر وجملة لهم

رزق معلوم خبر أولئك. (فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ) فواكه بدل أو عطف بيان للرزق بدل كل من كل وسيأتي المزيد من مزايا هذا البدل في باب البلاغة والواو عاطفة أو حالية وهم مبتدأ ومكرمون خبر. (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) متعلقان بمكرمون أو هو خبر ثان أو هما متعلقان بمحذوف في محل نصب على الحال. (عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) على سرر متعلقان بمتقابلين ومتقابلين حال أو كلاهما حال وفي الكلام تصوير لمجالس الشراب سيأتي المزيد منه في باب البلاغة.

(

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ) الجملة صفة لمكرمون أو حال من الضمير في متقابلين أو جملة مستأنفة وعليهم متعلقان بيطاف وبكأس ناب مناب المفعول المطلق وقد تقدم بحث ذلك مفصلا ومن معين لصفة لكأس. قال الضحاك كل كأس في القرآن فهي الخمر.

(بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ) وبيضاء صفة ثانية لكأس ولذة صفة ثالثة لكأس وصفت بالمصدر مبالغة أو على حذف المضاف أي ذات لذة أو

هي تأنيث اللذ يقال لذ الشيء فهو لذ ولذيذ كقولك رجل طب أي طبيب، قال:

لذّ كطعم الصرخدي تركته بأرض العدا من خشية الحدثان

فاللذ وصف واللذة مؤنثة وهي اسم للكيفية القائمة بالنفس واسم للشيء اللذيذ

والصرخد موضع بالشام ينسب إليه الشراب والحد ثان مصدر كالحدث إلا أنه يدل على التجدد والتكرر يقول :

(454/656)

---

ورب شيء لذيذ يعني النوم طعمه كطعم الشراب تركته بأرض الأعداء خوف نزول المكاره بي . (لا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ) الجملة صفة رابعة لكأس ولا نافية وفيها خبر مقدم وغول مبتدأ مؤخر ولا عطف وهم مبتدأ وعنها متعلقان بينزفون وجملة ينزفون خبر هم وهو مبني للمجهول . (وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ) الواو عاطفة والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وقاصرات الطرف مبتدأ مؤخر والطرف مضاف إليه مرفوع المحل على أن قاصرات صفة مشبهة أو منصوب المحل على أن قاصرات اسم فاعل وعين صفة لقاصرات الطرف (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ) صفة ثانية لقاصرات وإذا اعتبرت قاصرات صفة كانت صفة ثالثة وكأن واسمها وبيض خبرها ومكنون صفة وسيأتي بحث هذا التشبيه في باب البلاغة .

البلاغة :

1- الالتفات :

في قوله " إنكم لذائقو العذاب الأليم " فقد التفت من الغيبة إلى الخطاب لمجابهتهم بالغضب وانه بلغ أقصى آماده وحدوده .

2- الإيجاز :

وفي قوله : " فواكه " وإبداله من رزق إيجاز قصر دل على أنهم قد بلغوا غاية ما يتمناه المتمني ويغتبط به المغتبط ، فالفواكه مساوية للرزق فهي تشبه الخبز واللحم لأن أكلهم لا لإقامة الصحة وحفظها وإنما هو للتلذذ والتفكه فأجسامهم هناك محكمة لا يعتورها وهن ولا يتطرق إليها ضعف أو فتور .

وهناك إيجاز آخر بقوله معلوم فقد نابت هذه الكلمة عن الأوقات والمدد واندرجت فيها العشايا والأصائل والبكر ، كما نابت عن الطعوم المتفاوتة والروائح المتباينة التي تختلف في المظهر وتتفق في طيبها وتفاوح أرجها المسكر .

3- التجسيد :

والصورة الفنية الرائعة تبدو في قوله " على سرر متقابلين " وليس أشهى للشاربين في أويقات الصبوح أو الغبوق وفي البكر والأماسي من أن يتقابلوا فالتقابل أتم للسرور وأدعى إلى الحبور وسيأتي أيضا تبادلهم للأحاديث والمتع .

4- الإيجاز أيضا :

وفي وصف الخمر إيجاز بليغ وهو قوله " لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون " فقد جمعت هاتان الكلمتان جميع عيوب خمر أهل الناس التي حرمت بسببها من مغص أو صداع أو خمار أو عربدة أو لغو أو تأثيم أو غير ذلك .

5- التشبيه المرسل :

وفي قوله "كأنهن بيض مكنون " تشبيه مرسل والمراد بالبيض هنا بيض النعام ، والمكنون من كننته أي جعلته في كن والعرب تشبه المرأة به في لونه وهو بياض مشرب بعض صفرة وهو الذي نطلق عليه اليوم اللون الكافوري . وأول من شبه المرأة بالبيضة امرؤ القيس بقوله :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

والنساء يشبهن بالبيض من ثلاثة أوجه أحدها بالصحة والسلامة عن الطمث ومنه قول الفرزدق :

خرجن إلي لم يطمثن قبلي وهن أصح من بيض النعام

والثاني في الصيانة والستر لأن الطائر يصون بيضه ويحصنه ، والثالث في صفاء اللون ونقائه لأن البيض يكون صافي اللون نقيه إذا كان تحت الطائر . هذا وهو من التشبيهات التي رغب المحدثون عنها اليوم وإن كانت بديعة في ذاتها لأن البيئة لم تعد تستسيغ تلك التشبيهات .

التشبيه بين البيئات المختلفة :

ولإيضاح الفرق بين البيئات نقول كان العرب يستحسنون تشبيه الأصابع والبنان بدودة تكون في الرمل وتسمى جماعتها بنات النقا فمن ذلك قول امرئ القيس :

وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسحل

فقد شبه البنانة بالأسروعة أي دودة الرمل . وقال ذو الرمة :

خزاعيب أمثال كأن بنانها بنات النقا تخفي مرارا وتظهر

فهي كأحسن البنان لينا وبياضا وطولا واستواء ودقة وحمرة رأس كأنه ظفر قد تخضب .

إلا أن النفس ما لبثت أن اجتوت هذا التشبيه فعدل أبو نواس عنه بقوله :

تعاطيكها كف كأن بنانها إذا اعترضتها العين صف مداري

وابن الرومي أيضا بقوله :

سقى اللّه قصرا بالرصافة شاقني بأعلاه قصريّ الدلالي رصافي



---

أشار بقضبان هي الدر قمعت يواقيت حمرا فاستباح عفافي

أو قول عبد اللّه بن المعتز :

أشرن على خوف بأغصان فضة مقومة أثمارهن عقيق

وهكذا يختلف التشبيه باختلاف البيئات . وسيأتي المزيد من هذا البحث الهام وحسبنا الآن ما قدمناه .

[سورة الصافات (37) : الآيات 50 إلى 61]

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (50) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (53) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54)

فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ (55) قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57) أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59)

إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ (61)

الإعراب :

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ)

الفاء عاطفة والجملة معطوفة على يطاف عليهم والمعنى يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشرب ، قال :

وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام

فيقبل بعضهم على بعض والبيت للفرزدق يقول ما بقيت لذة من اللذات إلا لذة أحاديث

الكرام أو ما بقيت شهوة من الشهوات اللذيذة إلا أحاديث الكرام على الخمر وأتى بحرف الاستعلاء لأن الشراب يكون بين أيديهم والحديث من أفواههم فوقه . وأقبل بعضهم فعل



---

و فاعل وعلى بعض جار ومجرور متعلقان بأقبل وجملة يتساءلون حالية والتعبير بصيغة الماضي للتأكيد والدلالة على تحقق الوقوع وتلك عادة اللّه في أخباره . (قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ) قال قائل فعل وفاعل ومنهم صفة لقائل أي من أهل الجنة وإن واسمها وجملة كان خبرها وجملة إن واسمها وخبرها مقول القول ولي خبر كان مقدم وقرين اسمها مؤخر أي كان لي في الدار العاجلة صاحب . (يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ) جملة يقول صفة لقرين والهمزة للاستفهام الانكاري وإن واسمها واللام المزحلقة ومن المصدقين خبر إن والجملة مقول القول .

)

أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة متنا في محل جر بإضافة الظرف إليها وكنا فعل ماض ناقص ونا اسمها وترابا خبرها وعظاما عطف على ترابا والهمزة للاستفهام وإن واسمها واللام

المزحلقة ومدينون خبر إن أي مجزيون ومحاسبون . (قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ) قال فعل ماض ناقص والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على ذلك القائل من أهل الجنة أي قال لإخوانه وهل حرف استفهام وأنتم مبتدأ ومطلعون خبره والاستفهام معناه الأمر أي تعالوا تنطلع من كوى الجنان لنطّلع على حال أهل النار . (فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ) الفاء عاطفة واطلع فعل ماض وفاعله ضمير مستتر تقديره هو يعود على ذلك القائل ، فرآه فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به أي رأى قرينه وفي سواء الجحيم متعلقان برآه أي في وسطها ولك أن تعلق الجار والمجرور بمحذوف حال ولعله أولى أي مرتطما في وسط جهنم .

(قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ) قال فعل ماض وفاعل مستتر وتاللّه التاء حرف قسم وجر وهو مع مجروره متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم



---

وإن مخففة من الثقيلة ولك أن تعملها فيكون اسمها محذوفا أي انك وجملة كدت خبرها ويجوز أن تهملها فتكون جملة كدت جواب القسم لا محل لها وقد سبق أن قلنا أن إن إذا خففت فالأكثر أن تدخل على كاد كما تدخل على كان ونحوه واللام هي الفارقة بينها وبين النافية ، وتردين فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت والنون للوقاية والياء

مفعول به وحذفت الياء تبعا لسنة المصحف .

(

وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) الواو عاطفة ولولا حرف امتناع لوجود ونعمة مبتدأ وربي مضاف إليه وخبر المبتدأ محذوف وجوبا والتقدير موجودة واللام واقعة في جواب لولا وكان واسمها ومن المحضرين خبرها أي من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأمثالك . (أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ) الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة على محذوف تقديره أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين وما نافية حجازية ونحن اسمها والباء حرف جر زائد وميتين مجرور بالباء لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما . (إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) إلا أداة حصر والاستثناء مفرغ وموتتنا مفعول مطلق وقيل هو استثناء منقطع فينصب على الاستثناء والأولى صفة أي الموتة التي في الدنيا والواو حرف عطف وما نافية حجازية ونحن اسمها وبمعذبين الباء حرف جر زائد ومعذبين مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما . (إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) إن واسمها واللام المزحلقة وهو مبتدأ أو ضمير فصل والفوز خبر هو والجملة خبر إن ، أو خبر إن والعظيم صفة للفوز .

(لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ) يحتمل أن يكون من كلامه ترغيبا للمكلفين في عمل الطاعات ويحتمل أن يكون من كلام بعضهم لبعض

وقيل يبعد الاحتمال الثاني قوله فليعمل العاملون فإن العمل والترغيب فيه إنما يكون في الدنيا . وعلى كل حال فالجار والمجرور متعلقان بيعمل وهذا مضاف إليه والفاء الفصيحة أي إن تبين حقيقة حال أهل الجنة فليعمل ، واللام لام الأمر ويعمل فعل مضارع مجزوم بلام الأمر والعاملون فاعل .

[سورة الصافات (37) : الآيات 62 إلى 74]

أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (63) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (65) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (66)

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ (69) فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (70) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (71) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (72) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (74)

اللغة :

(نُزُلًا) : النزل بضمتين أو بضم النون وسكون الزاي : المنزل وما هيء للضيف والجمع أنزال والنزل أيضا بضمتين : الطعام ذو

البركة والمنزل والقوم النازلون وريع ما يزرع ونماؤه والعطاء والفضل وقد استعير للحاصل من الشيء وحاصل الرزق المعلوم اللذة والسرور وحاصل شجرة الزقوم الألم .

(الزَّقُّومِ) : قال في القاموس : " الزقم اللقم والتزقّم التلقم وأزقمه فازدقمه : أبلعه فابتلعه والزقوم كتنور : الزبد بالتمر وشجرة بجهنم ونبات بالبادية له زهر ياسميني الشكل وطعام أهل النار " وقال في الأساس : " تقول : من أنكر أن يقوم أطعمه اللّه الزقوم ، ويقال : إن أهل إفريقية يسمون الزبد بالتمر : زقوما وهو من قولهم :

(460/656)

---

أنه ليزقم اللقم ، ويتزقمها ويزدقمها : يبتلعها وبات يتزقّم اللبن إذا أفرط في شربه " . وفي الخازن : والزقوم ثمر شجرة خبيثة مرة كريهة الطعم يكره أهل النار على تناولها فهم يتزقمونه على أشد كراهية وقيل هي شجرة تكون بأرض تهامة من أخبث الشجر . وسيأتي المزيد من الحديث عن شجرة الزقوم في باب البلاغة .

)

طَلْعُها ) : الطلع حقيقة اسم لثمر النخيل في أول بروزه ، فإطلاقه على ثمر هذه الشجرة مجاز بالاستعارة كما سيأتي في باب البلاغة ، والطلع من النخل شيء يخرج كأنه نعلان مطبقان

والحمل بينهما منضود وما يبدو من ثمرته في أول ظهورها .

(شوبا) : بفتح الشين وهو مصدر على أصله وقيل يراد به اسم المفعول ويدل له قراءة بعضهم لشوبا بالضم ، قال الزجاج :

المفتوح مصدر والمضموم اسم بمعنى المشوب كالنقض بمعنى المنقوض والفعل منه شابه يشوبه من باب قال إذا خلطه فهو الخلط .

(حَمِيمٍ) : ماء حار وهو المقصود هنا ويطلق على الماء البارد فهو من الأضداد .

الاعراب :



---

(أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) الجملة مقول قول محذوف يعود إلى ذكر الرزق المعلوم أي قل لهم يا محمد على سبيل الإنكار والتوبيخ والتهكم أذلك خير نزلا ، فالهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي وذلك مبتدأ وخير خبر ونزلا تمييز لخير وأم حرف عطف وشجرة الزقوم عطف على ذلك وقال الزمخشري : " وانتصاب نزلا على التمييز ، ولك أن تجعله حالا كما تقول : أثمر النخلة خير بلحا أم رطبا " . (إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ) إن واسمها وجملة جعلنا خبر وجعلناها فعل وفاعل ومفعول به أول وفتنة للظالمين مفعول به ثان

وللظالمين صفة لفتنة أي ابتلاء وتعذيبا ومحنة لهم لأنهم قالوا النار تحرق الشجر فكيف تنبته . (إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ) إن واسمها وشجرة خبرها وجملة تخرج صفة لشجرة وفي أصل الجحيم متعلقان بتخرج . (طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ) طلعها مبتدأ وجملة التشبيه خبر وكأن واسمها ورؤوس الشياطين خبر كأن .

)

فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ) الفاء عطف وان واسمها واللام المزحلقة وآكلون خبر إن ومنها متعلقان بآكلون فمالئون الفاء عاطفة للترتيب مع التعقيب ومالئون معطوف على آكلون ومنها متعلقان بمالئون والبطون مفعول مالئون لشدة جوعهم .

(ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وان حرف مشبه بالفعل ولهم خبرها المقدم وعليها متعلقان بمحذوف حال واللام المزحلقة وشوبا اسمها المؤخر ومن حميم صفة لشوبا . (ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وان واسمها واللام المزحلقة والى الجحيم خبرها . (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ)

الجملة تعليل لما سبق من ابتلائهم بأفانين العذاب ، وان واسمها وجملة ألفوا خبرها وآباءهم مفعول ألفوا الأول وضالين مفعول ألفوا الثاني . (فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ) الفاء تعليلية وهم مبتدأ وعلى آثارهم متعلقان بيهرعون وجملة يهرعون خبرهم والاهراع السير الشديد بحثّ وانزعاج . وفي المصباح هرع وأهرع بالبناء للمفعول فيهما إذا أعجل . (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ) اللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وضل فعل ماض مبني على الفتح وقبلهم ظرف متعلق بمحذوف حال وأكثر الأولين فاعل .

(

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ) الواو عاطفة واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وأرسلنا فعل وفاعل وفيهم جار ومجرور متعلقان بأرسلنا ومنذرين مفعول به . (فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ) الفاء الفصيحة وانظر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر كان المقدم وعاقبة اسمها المؤخر والمنذرين بفتح الذال مفعول به . (إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) إلا أداة استثناء بمعنى لكن لأن الاستثناء منقطع وعباد الله مستثنى والمخلصين صفة .

البلاغة :

حفلت هذه الآيات بضروب من البلاغة سنبسط القول فيها وسننقل لك خلاصات وافية لما أورده أساطين البلاغة في صددها فأول ما فيها من فنون :

1- التشبيه برؤوس الشياطين :

وهو تشبيه طلع شجرة الزقوم برؤوس الشياطين وهو تشبيه خيالي وقد سبق ذكره فيما قدمناه من أقسام التشبيه ، ونورد لك هنا خلاصة ما قاله ابن رشيق فيه :



---

" واعلم أن التشبيه على ضربين : تشبيه حسن وتشبيه قبيح فالتشبيه الحسن هو الذي يخرج الأغمض إلى الأوضح فيفيد بيانا والتشبيه القبيح ما كان خلاف ذلك " قال الرماني : " وشرح ذلك ما تقع عليه الحاسة أوضح مما لا تقع عليه الحاسة ، والمشاهد أوضح من الغائب فالأول في العقل أوضح من الثاني ، والثالث أوضح من الرابع وما يدركه الإنسان من نفسه أوضح مما يعرفه من غيره ، والقريب أوضح من البعيد في الجملة ، وما قد ألف أوضح مما لم يؤلف " ثم انتقل ابن رشيق إلى التشبيه الوارد في الآية فقال :

" قال الله عز وجل : " طلعها كأنه رؤوس الشياطين " فقال قوم إن شجرة الزقوم وهي أيضا الأستن لها صورة منكرة وثمرة قبيحة يقال لها رؤوس الشياطين " والأستن كما يقول الجد :

"

الأستن والأستان بفتح الهمزة وسكون السين فيهما ، أصول الشجر يغشو في منابته فإذا نظر إليه الناظر شبهه بشخوص الناس " إلى أن يقول : " والأجود الأعرف انه شبه بما لا يشك انه منكر وقبيح لما جعل اللّه عز وجل في قلوب الإنس من بشاعة صور الجن " .

فصل رائع للجاحظ :

وكم كنا نتمنى أن يكون كتاب " نظم القرآن " موجود بين أيدينا لنطلع على الفصل الرائع الذي كتبه الجاحظ بصدد هذا التشبيه ولكن الكتاب فقد مع ما فقد من آثارنا العربية فلا بد لنا من أن ننقل شذرات منه وردت في كتبه الأخرى ، فقد جاء في كتاب الحيوان ما نصه : " وليس ان الناس رأوا شيطانا قط على صورة ولكن لما كان

اللّه تعالى قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجه وكراهيته وقد أجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك رجع بالإيحاش والتنفير وبالإخافة والتقريع إلى ما قد جعله اللّه في طباع الأولين والآخرين وعند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن " .

و تعرض الجاحظ لهذا التشبيه مرة أخرى فقال : " فزعم ناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير وقالوا : ما عنى إلا رؤوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم فقال أهل الطعن والخلاف : لس يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه ولا وصفت لنا صورته في كتاب ناطق أو خبر صادق ، ومخرج الكلام يدل على أن التخويف بتلك الصورة والتفزيع منها ، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره فكيف يكون الشأن كذلك والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه أو صوّره لهم واصف صدوق اللسان بليغ في الوصف ونحن لم نعافيها ولا صوّرها لنا صادق ، وعلى أن أكثر الناس من هذه الأمم التي لم تعايش أهل الكتابين وحملة القرآن من المسلمين ، ولم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك ، ولا يقفون عليه ، ولا يفزعون منه فكيف يكون ذلك وعيدا عاما ؟ قلنا : وإن كنا نحن لم نر شيطانا قط ولا صور رؤوسها لنا صادق بيده ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين أحدهما أن يقولوا : لهو أقبح من الشيطان ، والوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطانا على جهة التطيّر له كما تسمى الفرس الكريمة شوهاء ، والمرأة الجميلة صمّاء وقرناء وخنساء وجرباء وأشباه ذلك على جهة التطيّر له ، ففي إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح " .

لقد فصل الجاحظ في المقال وجوه التشبيه وتصرف الأسلوب القرآني في المشبه به ووجه الشبه ينتزعه من غير مدرك بالحس اعتمادا على ثبوته في الإدراك عن طريق العادة والعرف وتناقل الناس له ، وقد أجاز الجاحظ مثل هذا التشبيه وبين وجهته وناقش آراء غيره في التشبيه في ضرورة الاعتماد على الحس البصري لتصوير المعنى في الذهن ، ومنذ ذلك العهد أو قبله بقليل اهتم الناس بهذين النوعين من التشبيه وتابعوهما في القرآن وفي البيان عامة ودارت بحوث البلاغة حول هذه النقطة وتفرعت من هذين النوعين أنواع أخرى ، وهكذا كان لهذه الآية ومثلها أثر في تنبيه الناس إلى التشبيه ، فبحثه فيها أبو عبيدة وجدّد الجاحظ البحث وتوسّع فيه وظلت الآية على رأس الشواهد في التشبيه المعنوي في كتب النقد والبلاغة بعدهما .

ورفض الجاحظ تفسير اللغويين الحسي ، وهو يتفق ووجهة نظر أهل الظاهر في التفسير ويعارض وجهة أهل النظر من المتكلمين والمعتزلة أيضا وقد فسر أولئك رؤوس الشياطين برؤوس نبات ينبت باليمن أو شجر كريه المنظر أو حيات قبيحة الشكل وكلها مدلولات مادية لكلمة شيطان قد يكون لها أصل من الواقع وقد تكون من ابتكار هؤلاء ، وهي على

الحالين لا تبلغ في أثرها في النفس مبلغ صورة الشيطان التي تثب إلى الخيال وتجمع كل سمات الفزع والقبح وإن تكن غير واضحة وضوح النبات والشجر والحيات وهذا الغموض يضفي عليها مزيدا من التخويف .

(466/656)

---

لهذا كان تفسير الجاحظ أكثر إدراكا لمرمى التعبير القرآني في النفوس وهو إدراك له قيمته من الوجهة النقدية ذلك هو أثر الأدب في النفس وهي لفتات جاءت عابرة في كتب الأقدمين وأولاها النقد الحديث عنايته ، وهو يذكر أمثلة من التشبيه بالحيوان في القرآن وذلك لغلبة صفة ما في كل نوع منها أراد السياق إبرازها فيضرب اللّه مثلا بالعنكبوت في وهن البيت وضعفه والحمار في الجهل والغفلة وفي قلة المعرفة وغلظ الطبيعة والقرد في القبح والتشويه ونذاله النفس .

ولعل هذه الآية أو قل هذا التشبيه هو الذي حدا بأبي عبيدة إلى تأليف كتابه " مجاز القرآن " الذي لم نطلع عليه ولكن ذكره ابن النديم صاحب " الفهرس " والخطيب صاحب " تاريخ بغداد " وابن الأنباري في " نزهة الألباء " وياقوت في " إرشاد الأريب " وابن خلكان في " الوفيات " والسيوطي في " بغية الوعاة " ويذكر ياقوت أن أبا عبيدة ألف كتاب " المجاز " عام

ثمانية وثمانين ومائة من هجرة النبي صلى اللّه عليه وسلم يذكر على لسان أبي عبيدة :

" أرسل إليّ الفضل بن الربيع في الخروج إليه سنة ثمان وثمانين ومائة فقدمت إلى بغداد واستأذنت عليه فأذن لي وهو في مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه وفي صدره فرش عالية لا يرتقى إليها إلا على كرسي ثم دخل علي رجل في زي الكتاب له هيئة فأجلسه إلى جانبي وقال له : أتعرف هذا قال : لا ، قال هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة ، أقدمناه لنستفيد من علمه فدعا له الرجل وقرّظه لفعله هذا وقال : إني كنت مشتاقا إليك وقد سألت عن مسألة أفتأذن لي أن أعرفك إياها ؟ فقلت :

هات ، قال : قال اللّه عز وجل : " طلعها كأنه رؤوس الشياطين " وانما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله وهذا مما لم يعرف ، فقلت : إنما

كلم اللّه تعالى العرب على قدر كلامهم أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال



---

و هم لم يروا الغول قط ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به . فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل وعزمت في ذلك اليوم أن أضع كتابا في القرآن في مثل هذا وأشباهه وما

يحتاج إليه من علمه فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته " المجاز " .

وعبارة السمين بهذا الصدد : " قوله : كأنه رؤوس الشياطين ، فيه وجهان أحدهما أنه حقيقة وأن رأس الشياطين شجر بعينه بناحية تسمى الاستن وهو شجر مرّ منكر الصورة سمته العرب بذلك تشبيها برؤوس الشياطين في القبح ثم صار أصلا يشبه به وقيل الشياطين : صنف من الحيات ، وقيل : هو شجر يقال له الصرم فعلى هذا قد خوطب العرب بما تعرفه وهذه الشجرة موجودة فالكلام حقيقي والثاني أنه من باب التمثيل والتخيل وذلك أن كل ما يستنكر ويستقبح في الطباع والصورة يشبه بما يتخيله الوهم وإن لم يره ، والشياطين وإن كانوا موجودين لكنهم غير مرئيين للعرب إلا أنه خاطبهم بما ألفوه من الاستعارات " .

أما الزمخشري فقد جمع بين الأقوال كلها ولكنه قدم ما هو أولى فقال بأسلوبه الممتع : " والطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجر الزقوم من حملها إما استعارة لفظية أو معنوية وشبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير فيقولون في

القبيح الصورة كأنه وجه شيطان ، كأنه رأس شيطان وإذا صوره المصورون جاءوا بصورته على أقبح ما يقدروا هوله كما أنهم اعتقدوا في الملك انه خير محض لا شرّ فيه فشبهوا به الصورة الحسنة قال اللّه تعالى : " ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم " وهذا تشبيه تخييلي ، وقيل الشيطان حية عرفاء لها صورة قبيحة المنظر هائلة جدا ، وقيل إن شجرا يقال له الأستن خشنا مرا منتنا منكر الصورة يسمى ثمره رؤوس الشياطين وما سمت العرب هذا الثمر برؤوس الشياطين إلا قصدا إلى أحد التشبيهين ولكنه بعد التسمية بذلك رجع أصلا ثالثا يشبه به .

2- سر العطف ب " ثم " :

وفي قوله " ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم " سر لطيف المأخذ ، دقيق المسلك ، قلّ من يتفطن إليه ، فإن في معنى التراخي وجهين :

أحدهما : انهم يملئون البطون من شجر الزقوم وهو حارّ يحرق بطونهم ويزيد في عطشهم وغلتهم فلا يسقون إلا بعد ملي تعذيبا بذلك العطش ثم يسقون ما هو أحر من العطش وهو الشراب المشوب بالحميم ، والوجه الثاني أنه ذكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة ثم ذكر الشراب بما هو أوغل في الكراهة وأبعد في البشاعة فجاء بثم للدلالة على تراخي حال الشراب عن حال الطعام ومباينة صفته لصفته في الزيادة عليه ومعنى الثاني انه يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم في الجحيم وهي الدركات التي اسكنوها إلى شجرة الزقوم فيأكلون

إلى أن يملئوا بطونهم ويسقون بعد ذلك ثم يرجعون إلى دركاتهم، ومعنى التراخي في ذلك واضح المفهوم.

[سورة الصافات (37) : الآيات 75 إلى 82]

وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (77) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ (79)

*(469/656)*

---

إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (82)

الإعراب:

(وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) كلام مستأنف مسوق للشروع في تفصيل ما أجمل فيما سبق. واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق ونادانا نوح فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر، والفاء عاطفة واللام جواب قسم محذوف وجواب كل من القسين محذوف، لدلالة السياق عليه والتقدير والله لقد نادانا نوح لما يئس من إيمان قومه بعد أن استنزف ألف سنة إلا خمسين عاما بين أظهرهم فلم يزدادوا إلا عتوا واستكبارا ونفورا فأجبناه أحسن إجابة فو الله لنعم المجيبون نحن. ونعم فعل ماض جامد لإنشاء المدح والمجيبون

فاعل نعم والمخصوص بالمدح محذوف تقديره نحن وهذه هي الأولى من قصص ست

ستأتي تباعا .

(وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) الواو عاطفة ونجيناه فعل وفاعل ومفعول به وأهله عطف على الهاء أو مفعول معه ومن الكرب جار ومجرور متعلقان بنجيناه العظيم نعت للكرب . (وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ) وجعلنا عطف على نجيناه وذريته مفعول به وهم ضمير



---

فصل لا محل له والباقين مفعول جعلنا الثاني . (وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ) الواو عاطفة وتركنا فعل وفاعل وعليه صفة للمفعول المحذوف أي ثناء كائنا عليه وفي الآخرين في موضع نصب مفعول به ثان لتركنا وقيل في إعراب هذه الآية غير ذلك . (سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ) سلام مبتدأ وسوغ الابتداء به ما فيه من معنى الدعاء وعلى نوح خبر متعلق بمحذوف صفة لسلام أو متعلق بما تعلق به الأول وجملة سلام على نوح في العالمين مفسرة لتركنا . وقال السمين : " قوله سلام على نوح مبتدأ وخبر وفيه أوجه : أحدها أنه مفسر لتركنا أي تركنا عليه شيئا وهو هذا الكلام وقيل ثم قول مقدر أي فقلنا سلام وقيل ضمن

تركنا معنى قلنا وقيل سلط تركنا على ما بعده ، قال الزمخشري :

وتركنا عليه في الآخرين هذه الكلمة وهي سلام على نوح في العالمين يعني يسلمون عليه تسليما ويدعون له وهو من الكلام المحكي كقولك سورة أنزلناها وهذا الذي قاله قول الكوفيين جعلوا الجملة في محل نصب مفعولا بتركنا لا انه ضمن معنى القول بل هو على معناه بخلاف الوجه قبله وهو أيضا من أقوالهم " .

(إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) إن واسمها وكذلك نعت لمصدر محذوف وجملة نجزي خبر إنا وفاعل نجزي مستتر تقديره نحن والمحسنين مفعول به لنجزي والجملة تعليل لمجازاة نوح بتلك التكرمة السامية وهي خلود ذكره وتسليم العالمين عليه أبد الدهر . (إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) تعليل للإحسان بالإيمان تنويها بشأن الإيمان وتشريفا له وحثا على الازدياد منه . وان واسمها ومن عبادنا خبرها والمؤمنين نعت لعبادنا . (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ) عطف على نجيناه وأهله فالترتيب حقيقي لأن نجاتهم حصلت قبل غرق الباقين ولكن بينهما تراخيا .

[سورة الصافات (37) : الآيات 83 إلى 113]

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا ذَا
تَعْبُدُونَ (85) أَإِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (87)
فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90) فَرَاغَ إِلَى
آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (92)
فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (93) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95)
وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97)
فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ
هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا
بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَا ذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ
شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102)
فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ
(107)
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
(110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112)
وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113)

اللغة :

(شِيعَتِهِ) : في المختار : " الشيعة أتباع الرجل وأنصاره " وفي المصباح : " الشيعة : الأتباع والأنصار وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة ثم صارت الشيعة اسما لجماعة مخصوصة والجمع شيع سدرة وسدر والأشياع جمع الجمع " وفي الأساس : " شيّعته يوم رحيله وشايعتك على كذا : تابعتك عليه وتشايعوا على الأمر وهم شيعته وشيعه وأشياعه وهذا الغلام شيع أخيه : ولد بعده ، وآتيك غدا أو شيعه قال :

قال الخليط : غدا تصدّعنا أو شيعه أفلا تشيّعنا

وأقمت عنده شهرا أو شيع شهر وكان معه مائة رجل أو شيع ذلك ونزلوا موضع كذا أو شيعه ، وشاع الحديث والسر وأشاعه صاحبه ورجل مشياع مذياع وقطرت قطرة من اللبن في الماء فتشيع فيه : تفرق ، وأشاعت الناقة بولها وأشاعت به وجاءت الخيل شوائع : متفرقة ، وتشايعت الإبل وله صهم في الدار شائع ومشاع وشيّع بالإبل وشايع بها : صاح بها ومنه قيل لنفاخ الراعي : الشياع وشايع

بهم الدليل فأبصروا الهدى : نادى بهم . ومن المجاز شيعنا شهر رمضان بصوم الستة

وشيّعت النار بالحطب وأعطني شياعا كما تقول : شبابا لما تشيّع به وتشبّ ، وشيّع هذا بهذا : قوه به ، قال الراعي :

إليك يقطع أجواز الفلاة بنا نصّ تشيعه الصّهب المراسيل

ورجل مشيّع القلب : للشجاع ، وقد شيّع قلبه بما يركب كلّ هول وشاع في رأسه الشيب وشاعكم اللّه تعالى بالسلام وشاعكم السلام قال :

ألا يا نخلة في ذات عرق برود الظل شاعكم السلام "

لمحة عن الشيعة :



---

وقول صاحب المصباح : " اسم لجماعة مخصوصة " يقصد الشيعة أقدم الفرق الإسلامية وقد ظهروا بمذهبهم السياسي في آخر عصر عثمان ونما وترعرع في عهد علي وقوام هذا المذهب أن الإمامة ليست من مصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبي إغفالها وتفويضها إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويجب أن يكون معصوما عن الكبائر والصغائر وان علي بن أبي طالب كان هو الخليفة المختار من النبي وانه أفضل الصحابة . ولها فرق كثيرة يرجع إليها في

الملل والنحل للشهرستاني والفصل في الملل والنحل لابن حزم.

(فَرَاغَ) : مال في خفية وأصله من روغان الثعلب وهو تردده وعدم ثبوته، وفي المختار : " راغ الثعلب من باب قال وروغانا بفتحتين والاسم منه الرواغ بالفتح وأراغ وارتاغ أي طلب وأراد، وراغ إلى كذا مال إليه سرا وحاد، وقوله تعالى : " فراغ عليهم ضربا باليمين أي أقبل وقال الفراء : مال عليهم. وفلان يراوغ في الأمر مراوغة " .

(يَزِفُّونَ) : يسرعون في المشي من زفيف النعام ويزفون من أزفّ إذا دخل في الزفيف أو من أزفّه إذا حمله على الزفيف أي يزف بعضهم بعضا، وفي الأساس : " زف العروس إلى زوجها وهذه ليلة الزّفاف، وزف الظليم وزفزف وزفت الريح وزفزفت زفيفا وزفزفة وهي سرعة الهبوب والطيران مع صوت، وريح زفزف، وزفزفته الريح حرّكته وبات مزفزفا، وأنشدني سلامة بن عياش الينبعي بمكة يوم الصّدر :

فبتّ مزفزفا قد أنشبتني رسيسة ورد بينهم أحاحا

لعلمي أن صرف البين يضحي ينيل العين قرّتها لماحا

ومن المجاز : زفوا إليه : أسرعوا ويقال للطائش الحلم : قد زفّ رأله، وجئته زفة أو زفتين مرة أو مرتين وهي المرة من الزفيف كما أن المرة من المرور " .

)

(وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ) : صرعه على شقه فوقع أحد جنبيه على الأرض تواضعا على مباشرة الأمر بصبر وجلد وفي المصباح : " والجبين ناحية الجبهة من محاذاة النزعة إلى الصدغ وهما جبينان عن يمين الجبهة

وشمالها قاله الأزهري وابن فارس وغيرهما فتكون الجبهة بين جبينين وجمعه جبن بضمتين مثل بريد وبرد وأجبنة مثل أسلحة " وفي القاموس : " تله تلا من باب قتل فهو متلول وتليل صرعه أو ألقاه على عنقه وخده " .

(الْجَحِيمِ) : النار الشديدة الوقود وقيل كل نار على نار وجمر فوق جمر فهي جحيم ، وفي القاموس : " الجحيم النار الشديدة التأجج وكل نار بعضها فوق بعض كالجحمة وتضم ، وكل نار عظيمة في مهواة والمكان الشديد الحر كالجاحم ، وجحمها كمنعها أوقدها فجحمت ككرمت جحوما وكفرح جحما وجحيما اضطرب والجاحم الجمر الشديد الاشتعال " .

الاعراب :

(وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ) الواو عاطفة عطفت القصة الثانية على القصة الأولى ولك أن تجعلها استئنافية فتكون الجملة مستأنفة مسوقة للشروع في قصة إبراهيم بعد قصة نوح .

وان حرف مشبه بالفعل ومن شيعته خبرها المقدم واللام المزحلقة وإبراهيم اسمها المؤخر .

(إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) لك أن تعلق الظرف بفعل محذوف تقديره اذكر ولك أن تعلقه بما في الشيعة من معنى الاشتقاق فهو معمول له لما فيه من معنى المتابعة، وجملة جاء في محل جر بإضافة الظرف إليها والفاعل مستتر تقديره هو يعود على إبراهيم وربه مفعول به وبقلب متعلقان بجاء وسليم صفة. (إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ) الظرف الثاني بدل من الظرف الأول وأجاز أبو البقاء أن يكون ظرفا



---

لسليم أو لجاء وجملة قال في محل جر بالإضافة والفاعل ضمير مستتر تقديره هو ولأبيه متعلقان بقال وماذا تقدم اعرابها كثيرا فما مبتدأ وذا اسم موصول خبر أو هي بكاملها اسم استفهام في محل نصب مفعول مقدم لتعبدون وجملة تعبدون لا محل لها على الأول وجملة ماذا مقول القول على الثاني.

(أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي وإفكا في نصبه أوجه أحدها أنه مفعول من أجله أي أتريدون آلهة دون اللّه إفكا فآلهة مفعول به ودون اللّه ظرف متعلق بتريدون وقدمت معمولات الفعل اهتماما به لأنه مكافح لهم بأنهم على إفك وباطل وبهذا الوجه بدأ الزمخشري والجلال والثاني أنه مفعول به بتريدون ويكون آلهة بدلا منه

جعلها نفس الإفك مبالغة فأبدلها منه وفسره بها والثالث انه حال من فاعل تريدون أي أتريدون آلهة آفكين أو ذوي إفك . (فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) الفاء عاطفة وما اسم استفهام للانكار والتوبيخ أي ليس لكم سبب ولا عذر يحملكم على الظن وهو في محل رفع مبتدأ وظنكم خبره وبرب العالمين متعلقان بظنكم وفي البيضاوي : " والمعنى إنكار ما يوجب ظنا فضلا عن قطع يصدّ عن عبادته أو يجوز الإشراك به أو يقتضي الأمن من عقابه على طريقة الإلزام وهي كالحجة على ما قبله " .

(فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ) الفاء عاطفة ونظر فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو ونظرة مفعول مطلق وفي النجوم متعلق بنظر ، قيل الكلام على حذف مضاف أي في علم النجوم ولم يقل إلى النجوم مع أن النظر إنما يتعدى بإلى لأن " في " تأتي بمعنى " إلى " لقوله تعالى " فردوا أيديهم في أفواههم " أي إليها وقيل إن نظر ضمن معنى فكر



---

وهو يتعدى بفي . (فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ) الفاء عاطفة وقال فعل ماض وفاعل مستتر وإني إن واسمها وسقيم خبرها وإن وما في حيزها في محل نصب مقول القول وسيأتي الكلام في تجويز الكذب على إبراهيم .

(فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ) الفاء عاطفة وتولوا فعل ماض وفاعل وعنه متعلقان بتولوا ومدبرين حال من الواو في تولوا . (فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ) الفاء عاطفة وراغ فعل ماض وفاعل والى آلهتهم متعلقان براغ فقال عطف على راغ والهمزة للاستفهام ولا نافية وتأكلون فعل مضارع مرفوع وفاعل وجملة الاستفهام مقول القول .

(ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ) ما اسم استفهام مبتدأ ولكم خبر وجملة لا تنطقون في محل نصب على الحال وجملة مالكم مقول قول محذوف والتقدير فلم ينطقوا فقال مالكم لا تنطقون . (فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ) الفاء عاطفة على محذوف تقديره فلم يجيبوا فراغ وعليهم جار ومجرور متعلقان براغ وضربا مصدر واقع موقع الحال أي فراغ عليهم ضاربا أو مصدر لفعل مقدر أي يضرب ضربا والجملة في محل نصب على الحال وباليمين متعلقان بضربا أو بعامله .

(فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ) الفاء عاطفة وأقبلوا فعل ماض والواو فاعل وإليه متعلقان بأقبلوا وجملة يزفون في محل نصب على الحال من فاعل أقبلوا ويجوز تعلق إليه به . (قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ) قال فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو والهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي وتعبدون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وما مفعول به وجملة تنحتون صلة والعائد محذوف ، ويجوز أن تكون ما مصدرية أي نحتكم ، ويجوز أن تكون نكرة موصوفة أي منحوتكم ، وقيل استفهامية للتوبيخ أي وأي شيء تعملون . (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ)

الواو حالية والّله مبتدأ وجملة خلقكم خبر والكاف مفعول به والواو عاطفة وما يجوز أن تكون موصولة أو مصدرية وقيل هي استفهامية للتوبيخ أي وأي شيء تعملون وقيل هي نافية أي أن العمل في الحقيقة ليس لكم فأنتم لا تعملون شيئا ، وسيأتي مزيد بحث في هذا التركيب الذي شجر فيه الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة ، وجملة والّله خلقكم حال ومعناها أتعبدون الأصنام على حالة تنافي ذلك وهي أن الّله خالقكم وخالقهم جميعا ويجوز أن تكون الواو استئنافية والجملة مستأنفة .

(قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ) قالوا فعل وفاعل وابنوا فعل أمر والواو فاعل والجملة مقول القول وله متعلقان بابنوا وبنيانا مفعول به ، فألقوه عطف على ابنوا وهو فعل أمر والواو فاعل والهاء مفعول به وفي الجحيم متعلقان بألقوه .

(فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ) الفاء عاطفة وأرادوا فعل ماض وفاعل وبه متعلقان بأرادوا وكيدا مفعول به ، فجعلناهم عطف على فأرادوا وهو فعل وفاعل ومفعول به أول والأسفلين مفعول به ثان لجعلناهم . (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ) الواو عاطفة على محذوف تقديره فخرج من النار سالما وقال ، وان واسمها وذاهب خبرها والى ربي

متعلقان بذاهب والسين حرف استقبال ويهدين فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء والنون للوقاية وياء الضمير المحذوفة لرعاية الفواصل مفعول به أي سيهديني وسيأتي معنى ذهابه إلى ربه في باب الفوائد . (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) رب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وقد تقدمه له نظائر وهب فعل دعاء وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت ولي متعلقان بهب ومن الصالحين صفة لمفعول به محذوف أي ولدا من الصالحين . (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)

(478/656)

---

الفاء عاطفة على محذوف تقديره فاستجبنا له ، وبشرناه فعل ماض وفاعل ومفعول به وبغلام متعلقان ببشرناه وحليم صفة وفي الكلام إيجاز سيأتي في باب البلاغة .

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ) الفاء استئنافية ولما حينية أو رابطة وبلغ فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو والظرف متعلق بمحذوف حال وعبارة الزمخشري : "فإن قلت بم يتعلق معه ؟ قلت : لا يخلو إما أن يتعلق ببلغ أو بالسعي أو بمحذوف فلا يصح تعلقه ببلغ لاقتضائه بلوغهما معا حد السعي ولا بالسعي . لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه فبقي أن يكون بيانا كأنه لما قال فلما بلغ السعي أي الحد الذي يقدر فيه على السعي قيل مع من فقال مع أبيه

والمعنى في اختصاص الأب انه أرفق الناس به وأعطفهم عليه وغيره ربما عنف به في الاستسعاء فلا يحتمله لأنه لم تستحكم قوته ولم يصلب عوده" . (قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى) جملة قال لا محل لها لأنها جواب لما ويا حرف نداء وبني منادى مضاف لياء المتكلم وان واسمها وجملة أرى خبرها وفي المنام متعلقان بأرى وإن واسمها وجملة أذبحك خبرها وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي رأى الحلمية ، فانظر الفاء الفصيحة وانظر فعل أمر وفاعله مستتر وجوبا تقديره أنت وماذا ترى يجوز أن تكون ماذا مركبة استفهامية فتكون منصوبة بتري وما بعدها في محل نصب بانظر لأنها معلقة له ويجوز أن تكون ما استفهامية وذا موصولة فتكون ماذا مبتدأ وخبرا والجملة معلقة أيضا وأن تكون ماذا بمعنى الذي فتكون معمولا لأنظر وترى فعل مضارع من الرأي لا من رؤية العين ولا المتعدية إلى مفعولين بل كقولك هو يرى رأي الخوار .



---

(قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) يا حرف نداء وأبت منادى مضاف إلى ياء المتكلم المعوض عنها بالتاء وقد تقدم القول فيها وافيا مرارا والتاء في محل جر لأن المعوض عنه كذلك وافعل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وما اسم موصول

مفعول افعل وجملة تؤمر صلة والعائد محذوف تقديره ما تؤمر به فحذف الجار كما حذف في قولك أمرتك الخير فافعل ما أمرت به ويجوز أن تكون ما مصدرية أي أمرك على إضافة المصدر للمفعول والسين حرف استقبال وتجدني فعل مضارع مرفوع والنون للوقاية والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت والياء مفعول به ومن الصابرين في موضع المفعول الثاني . (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ) الفاء عاطفة ولما حينية أو رابطة وأسلما فعل ماض والألف فاعل أي استسلما وخضعا وانقادا لأمر الله ، وتله الواو عاطفة وتله فعل ماض وفاعل مستتر تقديره هو أي إبراهيم والهاء مفعول به وللجبين متعلقان بمحذوف حال وجواب لما محذوف تقديره ظهر صبرهما أو أجزلنا لهما أجرهما أو كان ما كان مما تنطق به الحال . وقال الكوفيون والأخفش الجواب وتله للجبين بزيادة الواو وقيل وناديناه بزيادة الواو أيضا والأول أرجح . (وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ) الواو عاطفة وناديناه فعل وفاعل ومفعول به وأن مفسرة لأن النداء فيه معنى القول دون حروفه ويا حرف نداء وإبراهيم منادى مفرد علم مبني على الضم .

(قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) قد حرف تحقيق وصدقت فعل وفاعل والرؤيا مفعول به وإن واسمها وكذلك نعت لمصدر محذوف مقدم على عامله وجملة نجزي المحسنين خبر إن وجملة

إنا تعليل لما منّ عليهما من الفرج بعد الشدة والرجاء بعد اليأس .

)

(480/656)

---

إنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ) إن واسمها واللام المزحلقة وهو مبتدأ أو ضمير فصل والبلاء خبر هو أو خبر إن والمبين نعت للبلاء .

(وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) الواو عاطفة وفديناه فعل وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة على ناديناه وبذبح جار ومجرور متعلقان بفديناه والذبح اسم ما يذبح كبشا كان أم وعلا وعظيم صفة لذبح .

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ) تقدم إعراب نظير هذه الآية ومفعول تركنا محذوف وفي الآخرين صفة لهذا المحذوف أي ثناء حسنا . (سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ) سلام مبتدأ وعلى إبراهيم خبر وساغ الابتداء بالنكرة لما فيها من معنى الدعاء وجملة سلام على إبراهيم مقول قول محذوف أي يقال له هذا في الآخرين .

(كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) كذلك نعت لمصدر محذوف ونجزي المحسنين فعل مضارع وفاعل ومفعول به . (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) إن واسمها ومن عبادنا خبر والمؤمنين صفة

والجملة تعليلية لا محل لها .

(وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) الواو حرف عطف وبشرناه فعل وفاعل ومفعول به وبإسحاق متعلقان ببشرناه ونبيا حال من إسحق ومن الصالحين صفة لنبيا أو حال ثانية ، وورودها على سبيل الثناء والتقريظ لأن كل نبي لا بد أن يكون صالحا . (وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ) وباركنا عطف على ما تقدم وعليه متعلقان بباركنا وعلى إسحق عطف على عليه (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ) من ذريتهما خبر مقدم ومحسن مبتدأ مؤخر وظالم عطف على محسن ولنفسه متعلقان بظالم ومبين صفة لظالم .

البلاغة :

انطوت هذه الآية على فنون شتى نورد أهمها فيما يلي :



---

1 - في قوله " فقال إني سقيم " فن الرمز والإيماء وهو أن يريد المتكلم إخفاء أمر ما في كلامه فيرمز في ضمنه رمزا إما تعمية للمخاطب وتبرئة لنفسه وتنصلا من التبعة وإما ليهتدي بواسطته إلى طريق استخراج ما أخفاه في كلامه وقد كان قوم إبراهيم نجّامين فأوهمهم أنه استدل بأمارة في علم التنجيم على انه يسقم فقال : إني سقيم أي مشارف للسقم وهو

الطاعون وكان أغلب الأسقام عليهم وكانوا يخافون العدوى فقال ذلك ليوجسوا خوفا ويتفرقوا عنه فهربوا منه إلى عيدهم وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد ففعل بالأصنام ما فعل ، وقد يوهم ظاهر الكلام أنه ارتكب بذلك جريرة الكذب والأنبياء معصومون عنه والصحيح أن الكذب حرام إلا إذا عرض عنه وورّى ، ولقد نوى ابراهيم أن من في عنقه الموت سقيم ومنه المثل : "كفى بالسلامة داء " وقال لبيد :

كانت قناتي لا تلين لغامز فألا منها الإصباح والإمساء

فدعوت ربي بالسلامة جاهدا ليصحني فإذا السلامة داء

يصف لبيد قوته زمن الشباب ثم ضعف حال المشيب بتتابع الأزمان عليه وانه طلب فسحة الأجل فكانت سبب اضمحلاله . والقناة الرمح استعارها لإقامته أو قوته على طريق الاستعارة التصريحية والليونة ، والغمز ترشيح للاستعارة والغمز الجس باليد ، ومات رجل فالتف عليه الناس وقالوا مات وهو صحيح فقال أعرابي أصحيح من الموت في عنقه وقيل أراد بقوله إني سقيم النفس لكفركم ، على أن بعض الناس قد جوزه في المكيدة في الحرب والتقية وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين وسيأتي المزيد من هذه القصة الفريدة في باب الفوائد .

2- الإيجاز :

في قوله " فبشرناه بغلام حليم " إيجاز قصر وقد تقدم تعريفه ، فقد انطوت هذه البشارة الموجزة على ثلاث : أن الولد ذكر ، وأنه يبلغ أوان الحلم ، وانه يكون حليما ، وأي حلم أدل على ذلك من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فلم يضطرب ولم يتخاذل ولم يعترض على مشيئة أبيه بل قال : " ستجدني إن شاء اللّه من الصابرين " ثم استسلم لذلك ولم يكن ليدور له في خلد أن اللّه سيفديه وسيهيئ له كبش الفداء .

الفوائد :

1- من هو الذبيح ؟

اختلف المفسرون في المأمور بذبحه فعن ابن عباس وابن عمر وجماعة من التابعين انه إسماعيل وحجتهم فيه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : " أنا ابن الذبيحين " وقال له أعرابي يا ابن الذبيحين فتبسم فسئل عن ذلك فقال : إن عبد المطلب لمّا حفر بئر زمزم نذر اللّه لئن سهل اللّه له أمرها ليذبحنّ أحد ولده فخرج السهم على عبد اللّه فمنعه أخواله وقالوا له : أفدينك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل

والثاني إسماعيل ، واحتجوا أيضا بأن اللّه وصفه بالصبر دون إسحق في قوله تعالى : " وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كلّ من الصابرين " وهو صبره على الذبح ، وعن علي بن أبي طالب وابن مسعود والعباس وعطاء وعكرمة وغيرهم أنه إسحق وعليه أهل الكتابين اليهود والنصارى ، والحجة فيه أن اللّه تعالى أخبر خليله ابراهيم حين هاجر إلى الشام بأنه استوهبه ولدا ثم أتبع ذلك البشارة بغلام حليم ثم ذكر رؤياه بذبح ذلك الغلام المبشر به ويدل عليه كتاب يعقوب إلى يوسف الذي جاء فيه : " من يعقوب إسرائيل اللّه بن إسحق ذبيح اللّه بن إبراهيم خليل اللّه " وقال الزجاج : " اللّه أعلم أيهما الذبيحين " وهذا مذهب ثالث وهو الوقف عن الجزم بأحد القولين وتفويض علم ذلك إلى اللّه تعالى ولعل هذا أولى فإن هذه المسأله ليست من العقائد التي كلفنا بمعرفتها فهيي مما ينفع علمه ولا يضر جهله واللّه أعلم . هذا وللمفسرين والمؤرخين كلام طويل في قصة الذبح يرجع إليها في المطولات .

2- مناقشة بين أهل السنة والمعتزلة :

وهناك مناقشة يجدر بنا تلخيصها بين أهل السنة والمعتزلة لطرافتها ولعلاقتها الوثيقة بالإعراب فقد تساءل الزمخشري حول قوله تعالى : " واللّه خلقكم وما تعملون " فقال : " كيف يكون الشيء الواحد للّه تعالى معمولا لهم ، وأجاب بأن هذا كما يقال عمل النجار الباب فالمراد عمل شكله لا جوهره وكذلك الأصنام جواهرها مخلوقة لله تعالى وأشكالها

وصورها معمولة لهم فإن قلت : ما منعك أن تكون ما مصدرية لا موصولة ويكون المعنى واللّه خلقكم وعملكم كما يقول المجبرة " وأجاب : بأن " أقرب ما يبطل به هذا السؤال بعد



---

بطلانه بالحجج العقلية أن معنى الآية يأباه فإن اللّه تعالى احتج عليهم بأنه خلق العابد والمعبود فكيف يعبد المخلوق المخلوق على أن العابد فيهما هو الذي عمل صورة المعبود " قال : ولو قلت واللّه خلقكم وعملكم لم يكن للكلام طباق وشيء آخر وهو أن قوله وما تعملون شرحه في قوله أتعبدون ما تنحتون ولا يقال في أن ما هذه موصولة فالتفرقة بينهما تعسف وتعصب " قال : " فإن قلت اجعلها موصولة ومعناها وما تعملونه من أعمالكم وحينئذ توافق الأولى في أنها موصولة فلا يلزمني التفرقة بينهما " وأجاب " بل الإلزامان في عنقك لا يفكهما إلا الإذعان للحق وذلك أنك وان جعلتها موصولة فهي واقعة عندك على المصدر الذي هو جوهر الضم وفي ذلك فكّ للنظم وتبتير كما لو جعلتها مصدرية " .

وتعقبه ابن المنير فقال : " يتعين حملها على المصدرية وذلك انهم لم يعبدوا هذه الأصنام من حيث كونها حجارة ليست مصورة فلو كان كذلك لم يتعاونوا في تصويرها ولا اختصوا بعبادتهم حجرا دون حجر فدل أنهم إنما يعبدونها باعتبار أشكالها وصورها التي هي أثر

عملهم ففي الحقيقة انهم عبدوا عملهم وصلحت الحجة عليهم بأنهم مثله مع أن المعبود كسب العابد وعمله فقد ظهر أن الحجة قائمة عليهم على تقدير أن تكون ما مصدرية أوضح قيام وأبلغه فإذا ثبت ذلك فليتتبع كلامه بالإبطال أما قوله : إنها موصولة وان المراد بعملهم لها عمل أشكالها فمخالف للظاهر فإنه مفتقر إلى حذف مضاف في موضع اليأس يكون تقديره : واللّه خلقكم وما تعملون شكله وصورته بخلاف توجيه أهل السنة فإنه غير مفتقر إلى حذف البتة ثم إذا جعل المعبود نفس الجوهر فكيف يطابق توبيخهم ببيان أن المعبود من عمل العابد مع موافقته على



---

أن جواهر الأصنام ليست من عملهم فما هو من عملهم وهو الشكل ليس معبودا لهم على هذا التأويل وما هو معبودهم وهو جوهر الصنم ليس من عملهم فلم يستقر له قرار في أن المعبود على تأويله من عمل العابد وعلى ما قررناه يتضح ، واما قوله ان المطابقة تنفكّ على تأويل أهل السنة بين ما ينحتون وما يعملون فغير صحيح فإن لنا أن نحمل الأولى على المصدرية وانهم في الحقيقة انما عبدوا نحتهم لأن هذه الأصنام وهي حجارة قبل النحت لم يكونوا يعبدونها فلما عملوا فيها النحت عبدوها ففي الحقيقة ما عبدوا سوى نحتهم الذي

هو عملهم فالمطابقة إذن حاصلة والإلزام على هذا أبلغ وأمتن ولو كان كما قال لقامت لهم الحجة ولقالوا كما يقول الزمخشري مكافحين لقوله واللّه خلقكم وما تعملون : لا ولا كرامة ولا يخلق اللّه ما نعمل نحن لأنا علمنا التشكيل والتصوير وهذا لم يخلقه اللّه ، وكانوا يجدون الذريعة إلى اقتحام الحجة " .

3- معنى الذهاب إلى ربه :

اختلف في معنى قوله " إني ذاهب إلى ربي سيهدين " والأكثرون على أن هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة أي إني مهاجر من بلد قومي ومولدي إلى حيث أتمكن من عبادة ربي فإنه سيهديني سواء السبيل وفي سين الاستقبال إيذان بأن الفعل واقع لا محالة .

[سورة الصافات (37) : الآيات 114 إلى 122]

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ (114) وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115) وَنَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (116) وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (118)

وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ (119) سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ (120) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122)

الاعراب :

(

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسى وَهارُونَ) كلام مستأنف مسوق للشروع في القصة الثالثة ولك أن تجعل الواو عاطفة على ما سبق ، واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق ومننا فعل وفاعل وعلى موسى وهارون متعلقان بمننا أي أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المزايا الدينية والدنيوية . (وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) الواو عاطفة ونجيناهما عطف على مننا وهو فعل وفاعل ومفعول به والميم والألف حرفان دالان على التثنية وقومهما مفعول معه أو معطوف على الضمير في نجيناهما ومن الكرب متعلقان بنجيناهما والعظيم صفة للكرب والمراد به استعباد فرعون إياهم وسومه إياهم سوء العذاب .

(وَنَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ) عطف على ما تقدم وجمع الضمير لأنه عائد على موسى وهارون وقومهما ، فكانوا الفاء عاطفة وكان واسمها وهم ضمير فصل لا محل له والغالبين خبر كانوا ، وأجاز بعضهم أن يكون هم تأكيدا للواو أو بدلا منها . (وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ) عطف على ما تقدم أيضا والكتاب مفعول به ثان والمستبين نعت للكتاب والمراد به التوراة وما اشتملت عليه من تشريعات وأحكام .

(وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ) عطف على ما تقدم والصراط مفعول به ثان أو منصوب

بنزع الخافض كما تقدم والمستقيم نعت للصراط .

(وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ) تقدم إعرابها أكثر من مرة .

(سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ) سلام مبتدأ وعلى موسى وهارون خبره (إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) ان واسمها وكذلك نعت لمصدر محذوف وجملة نجزي المحسنين خبر إنا وقد تقدمت لها نظائر . (إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) إن واسمها ومن عبادنا خبر والمؤمنين نعت .

الفوائد :

حقيقة القول في موسى :



الصحيح أن موسى علم أعجمي غير مشتق وقول بعضهم انه مشتق من أوسيت الشجر أي أخذت ما عليه من الورق ضعيف ورد ابن السراج هذا كله وقال : من اشتق شيئا من لغة العجم من لغة العرب كان بمنزلة من ادعى أن الطير ولد الحوت ، ومع كون موسى أعجميا اختلف في وزنه فقال سيبويه وزنه مفعل وهو قول أبي عمرو ، وقال الكسائي : وزنه فعلى واحتج لسيبويه بأن زيادة الميم أولا أكثر من زيادة الألف آخرا ورد الفارسي على الكسائي بصرفه في النكرة ولو كانت فعلى لكانت ألفه للتأنيث ولا يصرف نكرة أيضا

ومن جوز فعلل في الأبنية كما صار إليه الأخفش يجوز عنده كون ألفه للإلحاق فيصرف في النكرة وتقول في جمعه بالواو والنون موسون وموسين بفتح السين عند البصريين والكوفيين إن كان وزنه مفعلا وتقول على طريقة الكسائي موسون بضم السين قبل الواو وموسين بكسر السين قبل الياء ، هذا كله في موسى اسم لواحد من بني آدم وأما الموسى التي يحلق بها الشعر فعربية ثم قيل إنها مشتقة من أسوت الشيء إذا أصلحته ، والأصل مؤسى بالهمزة فأبدلت الهمزة واوا وقيل من أوسيت حلقت وهذا أشهر ولا أصل

لواوه على هذا في الهمزة والمشهور تأنيثها وقيل هو مذكر ووزنها على الباعث فعلى فيمتنع الصرف سواء سميت بها أو لم تسم إلا إذا اثبت فعللا فيصرف في النكرة والله أعلم .

[سورة الصافات (37) : الآيات 123 إلى 132]

وَإِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (124) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ (125) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (126) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (127)

إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (128) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (129) سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ (130) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (132)

اللغة :

(بَعْلًا) : بعل اسم صنم لهم من ذهب وبه سمي البلد أيضا مضافا إلى بك اسم البلد في الأصل ثم لما عبد فيها هذا الصنم المسمى ببعل سميت بعلبك وفي تاج العروس : " قال الأزهري : هما اسمان جعلا اسما وأحدا لمدينة بالشام والنسبة إليها بعلي أو بكي على ما ذكر في عبد شمس " وعبارة الزمخشري : " أتدعون بعلا وهو علم لصنم كان لهم كمناة وهبل وقيل كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعا وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياءه فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وهم أهل بعلبك من بلاد الشام وبه سميت مدينتهم بعلبك وقيل البعل الرب بلغة اليمن يقال : من بعل هذه الدار أي من ربها ؟ " وسيأتي المزيد من هذه القصة في باب الفوائد .

(تَدْعُونَ) : تنادون .

(تَذَرُونَ) : تتركون وسمعنا عمن له نصاب في العربية أن كلمتي ذر ودع أمران في معنى الترك إلا أن دع أمر للمخاطب بترك الشيء قبل العلم به وذر أمر له بتركه بعد ما علمه ، وروي أن بعض الأئمة سأل الإمام الرازي عن قوله تعالى : " أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين " لم

لم يقل وتدعون أحسن الخالقين وهذا أقرب من الفصاحة للمجانسة بينهما فقال الإمام لأنهم اتخذوا الأصنام آلهة وتركوا اللّه بعد ما علموا أن اللّه ربهم ورب آبائهم الأولين استكبارا فلذلك قيل لهم : وتذرون ولم يقل وتدعون ، هذا وقد أمات العرب ماضي دع وذر ومصدرهما ولكن روي في الحديث : " لتنتهين أقوام من ودعهم الجمعات " أي عن تركهم الجمعات . وقال في القاموس :

(489/656)

---

و دعه أي اتركه أصله ودع كوضع وقد أميت ماضيه وإنما يقال في ماضيه تركه وجاء في الشعر ودعه وهو مودوع وقرئ شاذا :

" ما ودعك ربك وهي قراءته صلى اللّه عليه وسلم " وقال الجوهري :

ولا يقال وادع وينافيه وروده في الشعر والقراءة به إلا أن يحمل قولهم وقد أميت ماضيه على قلة الاستعمال فهو شاذ استعمالا صحيح قياسا .

(إِلْ ياسِينَ) : قال الزمخشري : " قرىء على الياسين وادريسين وادارسين وادريسين على أنها لغات في الياس وإدريس ولعل لزيادة الياء والنون في السريانية معنى " وقيل المراد بياسين هذا الياس المتقدم فعلى هذا هو مفرد

مجرور بالفتحة لأنه غير منصرف للعلمية والعجمة وقيل هو ومن آمن معه فجمعوا معه تغليبا كقولهم للمهلب المهلبون فعلى هذا هو مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم.

الاعراب:

(وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) عطف أو استئناف لذكر القصة الرابعة، وان واسمها والياس علم أعجمي وستأتي ترجمته في باب الفوائد واللام المزحلقة والمرسلين خبر. (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ) إذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر، واختار بعضهم تعليقه بالمرسلين وجملة قال في محل جر بإضافة الظرف إليها ولقومه جار ومجرور متعلقان بقال والهمزة للاستفهام ولا نافية وتتقون فعل مضارع مرفوع وفاعل والجملة مقول القول.

(أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) الهمزة للاستفهام الانكاري وتدعون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وبعلا مفعول به والواو عاطفة وتذرون عطف على تدعون ويجوز أن تكون حالية والجملة في محل نصب على الحال وأحسن الخالقين مفعول به.

)

اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) لفظ الجلالة بدل من أحسن الخالقين فهو منصوب وربكم بدل من اللّه ورب آبائكم الأولين عطف فالكلمات الثلاث منصوبة وقرئ بالرفع على أنها أخبار لمبتدأ محذوف أي هو أو اللّه مبتدأ وربكم خبره ورب آبائكم الأولين عطف على ربكم .

(فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ) الفاء عاطفة وكذبوه فعل وفاعل ومفعول به والفاء في فإنهم الفصيحة وان واسمها واللام المزحلقة ومحضرون خبر إن . (إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) إلا أداة استثناء وعباد اللّه استثناء متصل من فاعل فكذبوه والمخلصين نعت لعباد اللّه . (وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ) تقدم إعرابها قريبا فجدد به عهدا . (سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ) تقدم إعرابها . (إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) تقدم اعرابها أيضا .

الفوائد :

(491/656)

---

في قصة الياس النبي طرافة ومتعة وتصوير فني ليكون وسيلة للتأثير الوجداني فهي تخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية لأن القصة في القرآن ليست عملا فنيا مستقلا

في موضوعه وطريقة أدائه وعرضه وسرد حوادثه ، وقبل أن نبدأ بتلخيص القصة كما روتها السير نبدأ بذكر لمحة عن الياس النبي فقد ذكر أهل التفسير أنه نبي من أنبياء بني إسرائيل قال محمد بن اسحق : " هو الياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران والله أعلم " وجاء في المنجد للآداب والعلوم انه إيليا النبي من أنبياء بني إسرائيل حارب العبادات الوثنية التي أدخلتها في إسرائيل ايزابيل زوجة آحاب فنفي إلى صرفت حيث رد إلى الحياة ابن امرأة أرملة وبإذن الله أهطل المطر على الأرض بعد انقطاعه عنها ثلاث سنوات قرب جبل الكرمل وخذل كهنة بعل وعشروت وأمر بقتلهم فلحقته ايزابل بوابل غضبها فهرب إلى صحراء سيناء ثم عاد فتنبأ لآحاب بانتقام الله عليه لأنه اغتال نابوت وأخذ كرمه رفع إلى السماء على مركبة نارية خلفه بالنبوة تلميذه اليشع .

وفيما يلي ما ذكره محمد بن اسحق وعلماء السير والأخبار ملخصا :



لما قبض الله حزقيل النبي عظمت الأحداث في بني إسرائيل وظهر فيهم الفساد ونصبوا الأصنام فبعث الله إليهم الياس نبيا وكان يوشع لما فتح الشام قسمها على بني إسرائيل وان سبطا منهم حصل في قسمته بعلبك ونواحيها وعليهم ملك يومئذ اسمه ارحب وكان قد

أضل قومه وكان له صنم من ذهب اسمه بعل فغضب الملك على الياس وهمّ بتعذيبه وقتله فلما أحس الياس بالشر خرج هاربا ولاذ بشواهق الجبال وصعيد المغاور وظل سبع سنين هائما يفترش الأرض ويتوسد الحجارة ويأكل من نبات الأرض وثمار الشجر وكانوا قد وضعوا عليه العيون فلما طال عليه الأمر وضاق ذرعا دعا ربه فقيل انظر يوم كذا وكذا فاخرج إلى موضع كذا فما جاءك من شيء فاركبه فخرج الياس ومعه اليسع حتى إذا كان بالموضع الذي أمر به إذ أقبل فرس من نار فوثب عليه فانطلق به الفرس فناداه يا الياس ما تأمرني؟ فقذف إليه الياس بكسائه من الجو فكان ذلك علامة استخلافه إلى آخر تلك القصة البديعة التي تصور الجهاد في سبيل العقيدة والثبات على المبدأ.

[سورة الصافات (37) : الآيات 133 إلى 138]

وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (138)

الإعراب:

(وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) وهذه هي القصة الخامسة، والواو استئنافية أو عاطفة وإن واسمها واللام المزحلقة ومن المرسلين خبرها.

(إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ) الظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر وجملة نجيناه من الفعل

والفاعل والمفعول في محل جر بإضافة الظرف إليها وأهله مفعول معه أو عطف على الهاء وأجمعين تأكيد .

)

(493/656)

---

إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ) إلا أداة استثناء وعجوزا مستثنى وفي الغابرين صفة . (ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ)

ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ودمرنا الآخرين فعل ماض وفاعل ومفعول به وهم كفار قومه .

(وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ)

الواو عاطفة أو حالية وان واسمها واللام المزحلقة وتمرون فعل مضارع وفاعل وعليهم متعلقان بتمرون ومصبحين حال وهي تامة . (وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)

الواو عاطفة وبالليل عطف على مصبحين فهو حال أخرى والحال هنا محمول على المكان والباء للملابسة والهمزة داخلة على مقدر عطف عليه قوله فلا تعقلون والتقدير تشاهدون ذلك فلا تعقلون أي تعتبرون به .

[سورة الصافات (37) : الآيات 139 إلى 156]

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143)

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (148)

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ (150) أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (152) أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (153)

ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (155) أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ (156)

اللغة:

(أَبَقَ)

:

هرب من قومه بغير إذن ربه وهو للعبد خاصة إذ يهرب من سيده ولكن أطلق على يونس على طريق الاستعارة التصريحية التبعية أو على طريق المجاز المرسل والعلاقة هي استعمال المقيد في المطلق وفي المصباح: "أبق العبد أبقا من بابي تعب وقتل في لغة والأكثر من باب ضرب إذا هرب من سيده من غير خوف ولا كد والإباق بالكسر اسم منه فهو آبق والجمع أبّاق مثل كافر وكفار" .

(الْمُدْحَضِينَ)

: المغلوبين بالقرعة ، وساهم أي قارع وغالب أهل السفينة بالقرعة ، وستأتي قصة يونس مختصرة في باب الفوائد .

(مُلِيمٌ) : داخل في الملامة يقال: ألام فلان إذا فعل ما يلام عليه وفي المصباح: "لامه لوما من باب قال: عذله فهو ملوم على النقص والفاعل لائم والجمع لوم مثل راكع وركع وألامه بالألف لغة فهو ملام والفاعل مليم والاسم الملامة والجمع ملاوم واللائمة مثل الملامة وألام الرجل إذا فعل ما يستحق عليه اللوم وتلوّم تلوما: تمكث .

(العراء) : المكان الخالي لا شجر فيه ولا شيء يغطيه وهو مشتق من العري وهو عدم السترة شبهت الأرض الجرداء بذلك لعدم استتارها بشيء العرا بالقصر الناحية ومنه اعتراه أي قصد عراه وعبارة القاموس: "العراء الفضاء لا يستتر فيه بشيء وجمعه إعراء

وأعرى سار فيه وأقام" .

(يَقْطِينٍ) : قال في القاموس : "ما لا ساق له من النبات ونحوه وبهاء : القرعة الرطبة"

وعبارة الزمخشري : "واليقطين كل ما ينسدح على وجه الأرض ولا يقوم على ساق

كشجرة البطيخ والقثاء والحنظل وهو يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به وقيل هو الدباء "

وانما خص القرع لأنه يجمع بين برد الظل ولين الملمس وكبر الورق وان الذباب لا يقربه .

الاعراب :

(وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)



---

استئناف أو عطف مسوق لسرد القصة السادسة وهي قصة يونس عليه السلام وسأتي

خلاصة وافية عنها في باب الفوائد ، وان واسمها واللام المزحلقة ومن المرسلين خبر إن .

(إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)

إذ ظرف للمرسلين أي هو من المرسلين حتى في هذه الحالة وجملة أبق في محل جر باضافة

الظرف إليها والى الفلك جار ومجرور متعلقان بأبق والمشحون نعت .

(فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ)

الفاء عاطفة وساهم فعل ماض وفاعله ضمير مستتر تقديره هو فكان عطف على فساهم واسمها مستتر تقديره هو ومن المدحضين خبر كان . (فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ) الفاء عاطفة على محذوف يدرك من سياق الكلام أي فألقوه في البحر فالتقمه الحوت ، وقيل فألقى نفسه في الماء . والتقمه فعل ومفعول به مقدم والحوت مبتدأ مؤخر والواو للحال وهو مبتدأ ومليم خبر والجملة في محل نصب على الحال والمعنى أنه أتى ما يستحق عليه اللوم .

(فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) الفاء عاطفة ولولا حرف امتناع لوجود وان وما في حيزها مبتدأ خبره محذوف وجوبا وأن واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو ومن المسبحين خبرها .

(



---

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) اللام واقعة في جواب لولا ولبث فعل ماض وفاعله ضمير مستتر تقديره هو وفي بطنه متعلقان بلبث أو بمحذوف حال أي مستقر والى يوم متعلقان بلبث وجملة يبعثون مضاف إليها الظرف ويبعثون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب

فاعل . (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ) الفاء عاطفة على محذوف أي أمرنا الحوت بنبذه فنبذناه ، ونبذناه فعل وفاعل ومفعول به وبالعراء متعلقان بنبذناه والواو حالية وهو مبتدأ وسقيم خبر أي معتل مما حلّ به . (وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ) وأنبتنا عطف على فنبذناه وعليه متعلقان بأنبتنا وشجرة مفعول به ومن يقطين نعت لشجرة . (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) الواو حرف عطف وأرسلنا فعل وفاعل ومفعول به والى مائة ألف متعلقان بأرسلناه وأو حرف عطف ويزيدون فعل مضارع مرفوع وسيأتي القول مفصلا في " أو " في باب الفوائد . (فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) الفاء عاطفة وآمنوا فعل ماض مبني على الضم والواو فاعل والفاء عاطفة ومتعناهم فعل وفاعل ومفعول به والى حين متعلقان بمتعناهم .

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ) الفاء حرف عطف عطفت هذه الجملة على قوله فاستفتهم وان بعد المدى قال البيضاوي :

" فاستفتهم : معطوف على مثله في أول السورة فأمر أولا باستفتائهم

عن وجه انكار البعث وساق الكلام في تقديره جارا لما يلائمه من القصص موصولا بعضها ببعض ثم أمر باستفتائهم عن وجه القسمة حيث جعلوا للّه البنات ولأنفسهم البنين في قولهم الملائكة بنات اللّه " وقد تقدم أن الفاء الأولى هي الفصيحة لأنها واقعة في جواب شرط مقدر وقد ثار نقاش حول هذا العطف البعيد سنفصل فيه القول في باب الفوائد .

واستفتهم فعل أمر وفاعل مستتر تقديره أنت والهاء مفعول به والهمزة للاستفهام الإنكاري وسيأتي معناه في باب البلاغة ولربك خبر مقدم والبنات مبتدأ مؤخر والواو حرف عطف ولهم خبر مقدم والبنون مبتدأ مؤخر . (أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ) أم حرف عطف معادلة للهمزة كأن المستفهم يدعي ثبوت أحد الأمرين ويطلب تعيينه منهم قائلا : أي هذين الأمرين تدعونه . وخلقنا فعل وفاعل والملائكة مفعول به وإناثا حال والواو للحال وهم مبتدأ وشاهدون خبر والجملة نصب على الحال .

(أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ) كلام مستأنف مسوق لإبطال مذهبهم الفاسد ببيان انه افك صريح لا دليل يدعمه وألا أداة تنبيه وان واسمها ومن إفكهم متعلقان بيقولون واللام المزحلقة وجملة يقولون خبر إنهم . (وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ) ولد اللّه فعل وفاعل والجملة مقول قولهم والواو للحال وان واسمها واللام المزحلقة وكاذبون خبرها . (أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ) الهمزة المفتوحة للاستفهام الانكاري استغنى بها عن همزة الوصل في التوصل للنطق بالساكن ، واصطفى فعل ماض والفاعل مستتر تقديره هو يعود على اللّه والبنات

مفعول به وعلى البنين متعلقان باصطفى بعد تضمينه معنى أفضل . (ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) ما اسم استفهام ولكم خبر أي ما ثبت



---

واستقر لكم على جهة الإنكار والجملة مستأنفة وكيف اسم استفهام في محل نصب على الحال أو المفعولية المطلقة وتحكمون فعل مضارع وفاعل والجملة مستأنفة أيضا فليس لإحدى الجملتين تعلق بالأخرى .

(أَفَلا تَذَكَّرُونَ) الهمزة للاستفهام الانكاري أيضا والفاء عاطفة على محذوف مفهوم من السياق أي أعميتم عن الحقائق وضللتم عن الشواهد ، ولا نافية وتذكرون فعل مضارع مرفوع وفاعل وأصله تتذكرون ومفعول تذكرون محذوف تقديره أنه منزه عن الولد .

(أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ) أم حرف عطف بمعنى بل فهو للاضراب الانتقالي ولكم خبر مقدم وسلطان مبتدأ مؤخر ومبين نعت لسلطان .

البلاغة :

في هذه الآيات يبدو الأسلوب المكي واضح الدلالة ، ظاهر المفهوم ، مرهف العاطفة فقد تكرر فيه الاستفهام الانكاري ، ناعيا عليهم جهلهم المفرط في الغباء ، القائم على ثلاث

جهالات : أولاها التجسيم لأن الولادة من خصائص الأجسام وثانيتها تفضيل أنفسهم على ربهم حيث جعلوا أوضع الجنسين في اصطلاحهم ومفهومهم له وأرفعهما لهم وتلك جهالة ما بعدها جهالة وثالثتها أنهم استهانوا بأكرم خلق اللّه وأقربهم إليه حيث أنثوهم وقد كانوا يتعايرون بوصف الأنوثة ويعتبرونه من دلائل المهانة وسمات الخسة .

الفوائد :

1- اختلف في "أو" هذه اختلافا كثيرا فقال الفراء : معناها بل يزيدون فتكون عنده للإضراب ويكون الإخبار الأول بحسب ما يظهر

للناس إذا رأوهم والثاني إضراب لما في الواقع ونفس الأمر فالمعنى أرسلناه إلى جماعة يحزرهم الناس مائة الف وهم أزيد من ذلك وفيه نكتة جليلة وهي الانتقال من الأدنى إلى الأعلى لما له من الوقع في النفس ولفت النظر إليه بخلاف ما إذا أخبر بالأعلى من أول الأمر ، وقال بعض الكوفيين هي بمعنى الواو ، أما البصريون فلهم فيها أقوال :

1- قيل هي للإبهام .

2- وقيل هي للتخيير أي إذا رآهم الرائي تخير بين أن يقول هم مائة ألف أو يقول هم أكثر ،

قال ابن هشام : نقل ابن الشجري هذا القول عن سيبويه وفي ثبوته عنه نظر ولا يصح التخيير بين شيئين الواقع أحدهما .

3- وقيل هي للشك مصروفا إلى الرائي .

4- وقيل إنها للإباحة أي لك أن تحزرهم وتقدر عددهم كيف تشاء .

5- وقيل هي للشك بمعنى أن أصدق الحادسين يشك في عددهم .

وأحسن ما قرأناه قول الزمخشري : في مرآى الناظر أي إذا رآها الرائي قال هي مائة ألف أو أكثر والغرض الوصف بالكثرة .

2- العطف البعيد :

قوله " فاستفتهم " الآية معطوف على ما قبله وهو قوله " فاستفتهم أهم أشد خلقا " وقد منع النحاة الفصل بجملة فما بالك بجمل بل بسورة ،

ولكن ما استقبحه النحاة وارد في عطف المفردات وأما الجمل فلاستقلالها يغتفر فيها وهذا الكلام لتلاحمه وتعانقه صار بمثابة الجملة الواحدة فانتفى عنه البعد .

3- خلاصة قصة يونس :

غاضب ذو النون قومه لما لم ينزل بساحتهم العذاب الذي وعدهم به فذهب مغاضبا وكان من حقه أن لا يذهب فقد كان ضيق العطن قليل الذرع ولما ركب السفينة وقفت في لج

البحر فقال ملاحوها هنا عبد أبق من سيده تظهره القرعة وكان من عادتهم أن السفينة إذا

كان منها آبق أو مذنب لم تسر وكان ذلك بدجلة لأنه أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل

فلما ساهم أي قارع أهل السفينة كان من المغلوبين بالقرعة فألقوه في البحر فابتلعه الحوت إلى

آخر تلك القصة البديعة.

[سورة الصافات (37) : الآيات 157 إلى 164]

فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (157) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158) سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (159) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (160) فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ (161)



---

ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ (162) إِلاَّ مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ (163) وَما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ (164)

اللغة:

(الْجِنَّةِ) : بكسر الجيم الملائكة سموا بذلك لاجتنانهم عن الأبصار وفي الأساس: "جنة: ستره فاجتنّ واستجن بجنة: استتر

بها واجتن الولد في البطن وأجنّته الحامل ، وحبذا مجن ابن أبي ربيعة " .

الاعراب :

(فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ)

الفاء الفصيحة وأتوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وبكتابكم متعلقان به وإن شرطية وكنتم فعل ماض ناقص والتاء اسمها وصادقين خبرها وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله . (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً) الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق للانحاء عليهم باللائمة واستركاك عقولهم ، بأن من نسبوهم إلى اللّه تعالى يعلمون مصائرهم المحزنة . وجعلوا فعل وفاعل والظرف متعلق بمحذوف مفعول به ثان لجعلوا وبين الجنة عطف ونسبا مفعول جعلوا الأول فهي حكاية يجب أن تذيع وتشيع لتكون شاهد على حقيقة خبالهم . (وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ) الواو حالية واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وعلمت الجنة فعل وفاعل وإن واسمها واللام المزحلقة ومحضرون خبرها وإن وما في حيزها سدت مسد مفعولي علمت وإنما كسرت همزتها لدخول اللام في خبرها والضمير في انهم لمحضرون للكفرة والمعنى انهم يقولون ما يقولون في الملائكة والحال أن الملائكة عالمون انهم في ذلك القول الهراء كاذبون .

(سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) سبحان اللّه مفعول مطلق لفعل محذوف وعما متعلقان

بسبحان وجملة يصفون صلة والعائد محذوف والجملة معترضة وهي مسوقة لحكاية تنزيه الملائكة اللّه سبحانه عما

(501/656)

---

وصفه به المشركون . {إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} إلا أداة استثناء وعباد اللّه المخلصين استثناء منقطع من المحضرين كأنهم ليسوا منهم والمستثنى منه إما فاعل جعلوا وإما فاعل يصفون وإما ضمير محضرون أي لكن عباد اللّه المخلصين ناجون ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا واختاره أبو البقاء وليس ببعيد . {فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ ، ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ} الفاء تعليلية وان واسمها والواو واو المعية وما موصول مفعول معه وقد سدت مسد خبر إن أي انكم وآلهتكم قرناء لا تزالون تعبدونها على حد قولك كل رجل وصنيعته أي مقترنان ، وسيأتي تفصيل هذه القاعدة في باب الفوائد . وما نافية حجازية وأنتم اسمها وعليه متعلقان بفاتنين والباء حرف جر زائد وفاتنين خبر ما ويجوز أن تكون ما معطوفة على اسم ان وجملة ما أنتم خبر إن والمعنى على هذا انكم ومعبودكم ما أنتم ولا هو فغلب المخاطب ، يقال فتن فلان على فلان امرأته أي أفسدها عليه ورجح الزمخشري والبيضاوي هذا الوجه .

(إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ) إلا أداة حصر ومن مفعول فاتنين والاستثناء مفرغ ويجوز أن تقدر مفعولا لفاتنين أي أحد فتكون إلا أداة استثناء ومن مستثنى من المفعول المحذوف وهو مبتدأ وصال خبر مرفوع بالضمة المقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين والجحيم مضاف إليه وقد أفرد حملا على لفظ من كما أفرد هو والجملة صلة الموصول . (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ) الواو استئنافية وما نافية ومنا خبر مقدم والمبتدأ محذوف أقيمت صفته مقامه والتقدير

وما منا أحد إلا له مقام معلوم كقوله :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

(502/656)

---

أي أنا ابن رجل جلا الأمور . ويجوز أن تكون منا صفة لمحذوف هو المبتدأ والخبر جملة إلا له مقام معلوم وإلا أداة حصر وله خبر مقدم ومقام مبتدأ مؤخر ومعلوم صفة وعبارة القرطبي : " وأنزل اللّه تعالى حكاية عن قول الملائكة : وما منا إلا له مقام معلوم والتقدير عند الكوفيين وما منا إلا من له مقام معلوم فحذف الموصول وهو من وتقديره عند البصريين ، وما منا ملك إلا له مقام معلوم أي مكان معلوم في العبادة " .

الفوائد :

يجب حذف الخبر إذا كان المبتدأ معطوفا عليه اسم بواو هي نص في المعية نحو كل رجل وضيعته أي حرفته سميت بذلك لأن صاحبها يضيع فيها وكل صانع وما صنع فكل مبتدأ وصانع مضاف إليه وما صنع معطوف على المبتدأ والخبر محذوف وجوبا أي مقترنان وإنما حذف لدلالة الواو وما بعدها على المصاحبة والاقتران ، أما إذا لم يكن هناك نص على المعية فيجوز حذفه ويجوز ذكره ومن الثاني قول الفرزدق :

تمنوا لي الموت الذي يشعب الفتى وكل امرئ والموت يلتقيان

فآثر ذكر الخبر وهو جملة يلتقيان . ويشعب : يفرق .

[سورة الصافات (37) : الآيات 165 إلى 173]

وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (166) وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ (167) لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (168) لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (169)

فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (173)

الإعراب :

)

وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ) الواو عاطفة وان واسمها واللام المزحلقة ونحن مبتدأ أو ضمير فصل

والصافون خبر نحن والجملة الاسمية خبر إنا أو الصافون خبر انا أي نقف صفا واحدا في الصلاة أو في ساحة الجهاد ومفعول الصافون محذوف أي نصفّ أقدامنا .

(503/656)

---

(وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ) عطف على الآية السابقة . (وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ) الواو عاطفة وإن مخففة من الثقيلة مهملة ، أو اسمها ضمير الشأن وجملة كانوا خبرها إن أعملت ، وكان واسمها واللام الفارقة وجملة يقولون خبر كان وجملة لو وما في حيزها مقول قولهم ولو شرطية وان وما في حيزها فاعل لفعل محذوف أي ثبت وان حرف مشبه بالفعل والظرف متعلق بمحذوف خبر أن المقدم وذكرا اسمها المؤخر ومن الأولين نعت لذكرا . (لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) اللام واقعة في جواب لو وكان واسمها وعباد اللّه خبرها والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم والمخلصين نعت لعباد اللّه . (فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) الفاء الفصيحة وكفروا فعل ماض وفاعل والفاء عاطفة وسوف حرف استقبال ويعلمون فعل مضارع مرفوع وفاعل .

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ) كلام مستأنف مسوق لتقرير الوعيد وتصويره بالقسم لتأكيده والعناية به واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وسبقت كلمتنا

فعل وفاعل ولعبادنا متعلقان بسبقت والمرسلين نعت لعبادنا . (إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ) إن واسمها واللام المزحلقة وهم مبتدأ أو ضمير فصل والمنصورون خبر هم والجملة خبر إنهم أو خبر إنهم وضمير الفصل لا محل له . إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغالِبُونَ)

عطف على نظيرتها الآنفة الذكر .

الفوائد :

عودة إلى ضمير الفصل :



---

تقدم في هذا الكتاب بحث ضمير الفصل ونضيف هنا إلى ما تقدم ان تسمينه ضميرا مجاز لمشابهة صورته ، وقد اتفق جمهور البصريين على انه ملغى لا محل له لكنهم اختلفوا مع ذلك في كونه اسما أو حرفا فقال جمهورهم هو اسم ألغي كما ألغيت أسماء الأفعال وأل الموصولة ، وقال بعضهم هو حرف وذلك لا ستنكارهم خلو الاسم عن الإعراب لفظا ومحلا ولأن الغرض به دفع التباس الخبر الذي بعده بالوصف وهذا هو معنى الحرف يعني إفادة المعنى في غيره فلذا صار حرفا وانخلع عنه لباس الاسمية نظير كاف الخطاب فإنه لما تجرد عن معنى الاسمية ودخل في معنى الحرف وهو إفادته في غيره

وقيل له محل من الإعراب وهو مذهب الكوفيين ويقولون هو توكيد لما قبله فإن ضمير الرفع قد يؤكد به المنصوب والمجرور نحو ضربتك أنت ومررت بك أنت.

[سورة الصافات (37) : الآيات 174 إلى 182]

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (174) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (175) أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ (177) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (178)

وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (179) سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (182)

اللغة:

(505/656)

---

(بِساحَتِهِمْ) : بفنائهم، قال الفراء: العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم، وأصل الساحة الفناء الخالي من الأبنية وجمعها سوح فألفها منقلبة عن واو فتصغر سويحة والجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها. وقال الراغب: إنها من ذوات الياء حيث عدها في مادة سيح ثم قال الراغب: "الساحة المكان الواسع ومنه ساحة الدار والسائح الماء الجاري في

الساحة وساح فلان في الأرض مر مر السائح ورجل سائح وسياح " وعلى هذا يكون لها

مادتان ولكن كلام الراغب فيه قصور . وفي الأساس ذكرها في مادة سوح ونص عبارته : "

عمر

اللّه تعالى بك ساحتك ، وتقول احمرّ اللّوح ، واغبرّت السوح إذا وقع الجدب وقال أبو ذؤيب

:

وكان سيان أن لا يسرحوا نعما أو يسرحوه بها واغبرت السوح

ولم يذكر في الأساس الساحة في مادة سيح فهما مادتان . وفي القاموس أورد الساحة من

بنات الواو فقال : " الساحة الناحية وفضاء بين دور الحي والجمع ساح وسوح وساحات "

ولم يذكرها في مادة ساح يسيح سيحا وسيحانا إلخ .

الاعراب :

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ) الفاء الفصيحة أي إن تبينت حقيقة أمرهم فتول عنهم وتول فعل

أمر مبني على حذف حرف العلة أي أعرض عنهم والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت

وعنهم متعلقان بتول وحتى حرف غاية وجر وحين مجرور بحتى والجار والمجرور متعلقان

بتول .

(وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) الواو عاطفة وأبصرهم فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به أي

إذا نزل بساحتهم العذاب والفاء رابطة لجواب الطلب وسوف حرف استقبال ويبصرون

فعل مضارع وفاعل والمفعول به محذوف أي ما يحيق بهم جزاء كفرهم . (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) الهمزة للاستفهام ومعنى الاستفهام هنا التهديد والوعيد والفاء عاطفة على محذوف يقدر بحسب المقام وبعذابنا متعلقان بيستعجلون ويستعجلون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل .

(506/656)

---

(فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ) الفاء عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط ونزل فعل ماض وفاعله ضمير مستتر تقديره هو أي العذاب وبساحتهم متعلقان بنزل والفاء رابطة لجواب إذا وساء فعل جامد لإنشاء الذم وصباح المنذرين فاعل والمخصوص بالذم محذوف تقديره صباحهم وقيل إن ضمير ساء يعود على المخصوص وان التمييز محذوف وان المذكور مخصوص لا فاعل وسيأتي المزيد من هذا البحث .

(وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ) عطف على ما تقدم وقد سبق اعراب هذه الآية المكررة .

(وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) تقدم اعرابها وحذف مفعول أبصر اختصارا لدلالة الأول عليه . (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) سبحان ربك مفعول مطلق لفعل محذوف ورب العزة بدل وعما متعلقان بسبحان وجملة يصفون صلة ما . (وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ)

سلام مبتدأ ساغ الابتداء به لما فيه من معنى الدعاء وعلى المرسلين خبر. (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ) الحمد مبتدأ ولله خبر ورب العالمين بدل أو صفة.

البلاغة:

في قوله "فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين" استعارة تمثيلية فقد شبه العذاب النازل بهم بعد ما أنذروا به فلم يبالوا الانذار، وأصموا آذانهم عنه بجيش أنذر بهجومه قومه بعض نصاحهم فلم يكترثوا لإنذاره ولم يتخذوا الأهبة والاحتياط وما عسى أن ينجيهم من هول الكارثة ويمكنهم من تفادي ويلاتها الطارئة وإنما

خصص الصباح لأنه كان من عادة مساعيرهم وكماتهم الإغارة فسميت الغارة صباحا لأنها تقع فيه عادة ولهذا استفصح العرب هذه الآية.

الفوائد:



---

كل فعل ثلاثي متصرف تام مثبت قابل للتفاوت مبني للمعلوم وليس الوصف منه على وزن أفعل فعلاء صالح للتعجب منه فإنه يجوز استعماله على فعل بضم العين إما بالأصالة كظرف وشرف أو بالتحويل بأن يكون في الأصل مفتوح العين كضرب وقتل أو مكسورها

كعلم وفهم بضم العين فيهن وإنما حولت لتلحق بأفعال الغرائز ولتصير قاصرة وجامدة ثم يجري حينئذ مجرى نعم وبئس في إفادة المدح والذم وفي حكم الفاعل وحكم المخصوص تقول في المدح فهم الرجل زيد وفهم رجلا زيد وفي الذم خبث الرجل عمرو وخبث رجلا عمرو ومن أمثلته ساء فإنه في الأصل سوأ بالفتح من السوء ضد السرور من ساءه الأمر يسوءه إذا أحزنه فهو متعد متصرّف فحول إلى فعل بالضم فصار قاصرا ثم ضمن معنى بئس فصار جامدا قاصرا محكوما لفاعله بما يحكم لفاعل بئس تقول ساء الرجل زيد وفي التنزيل " وساءت مرتفقا " ومما يحتمل الفاعلية والتميز " ساء ما يحكمون " وقد تقدم بحثه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 8 صـ 238. 325﴾

(508/656)

---

# AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman
Bin Mohammed
AL-QAMMASH

33